(٣٩) سورة الزمر مكية
وآياتها خمس وسبعون

بسم الله الرحمن الرحيم

تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿٢﴾ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾ لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ سُبْحَٰنَهُۥ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٤﴾

باسم الله الرحمن الرحيم

﴿ تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم ، إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق فاعبد الله مخلصاً له الدين ، ألا لله الدين الخالص والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى إن الله يحكم بينهم فيما هم فيه يختلفون ، إن الله لا يهدى من هو كاذب كفار ، لو أراد الله أن يتخذ ولداً لاصطفى مما يخلق ما يشاء سبحانه هو الله الواحد القهار ﴾ .

اعلم أن فى الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ كر الفراء والزجاج : فى رفع (تنزيل) وجهين (أحدهما) أن يكون قوله (تنزيل) مبتدأ وقوله (من الله العزيز الحكيم) خبر (والثانى) أن يكون التقدير هذا تنزيل الكتاب ، فيضمر المبتدأ كقوله (سورة أنزلناها) أى هذه سورة ، قال بعضهم الوجه الأول لوجوه (الأول) أن الإضمار خلاف الأصل ، فلا يصار إليه إلا لضرورة ، ولا ضرورة هنا (الثانى) أنا إذا قلنا (تنزيل الكتاب من الله) جملة تامة من المبتدأ والخبر أفاد فائدة شريفة ، وهي أن تنزيل

الكتاب يكون من الله ، لا من غيره وهذا الحصر معنى معتبر ، أما إذا أضمرنا المبتدأ لم تحصل هذه الفائدة (الثالث) أنا إذا أضمرنا المبتدأ صار التقدير هذا تنزيل الكتاب من الله ، وحينئذ يلزمنا مجاز آخر ، لأن هذا إشارة إلى السورة ، والسورة ليست نفس التنزيل ، بل السورة منزلة ، فحينئذ يحتاج إلى أن نقول المراد من المصدر المفعول وهو مجاز تحملناه لا لضرورة .

﴿ المسألة الثانية ﴾ القائلون بخلق القرآن احتجوا بأن قالوا إنه تعالى وصف القرآن بكونه تنزيلا ومنزلا ، وهذا الوصف لا يليق إلا بالمحدث المخلوق (والجواب) أنا نحمل هذه اللفظة على الصيغ والحروف .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ الآيات الكثيرة تدل على وصف القرآن بكونه تنزيلا وآيات أخر تدل على كونه منزلا .

أما (الأول) فقوله تعالى (وإنه لتنزيل رب العالمين) ، وقال (تنزيل من حكيم حميد) وقال (حم تنزيل من الرحمن الرحيم) .

وأما (الثاني) فقوله (إنا نحن نزلنا الذكر) ، وقال (وبالحق أنزلناه وبالحق نزل) وأنت تعلم أن كونه منزلا أقرب إلى الحقيقة من كونه تنزيلا ، فكونه منزلا مجاز أيضاً لأنه إن كان المراد من القرآن الصفة القائمة بذات الله فهو لا يقبل الإنفصال والنزول ، وإن كان المراد منه الحروف والأصوات فهي أعراض لا تقبل الانتقال والنزول ، بل المراد من النزول نزول الملك الذي بلغها إلى الرسول ﷺ .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قالت المعتزلة العزيز هو القادر الذي لا يغلب فهذا اللفظ يدل على كونه تعالى قادراً على مالا نهاية له والحكيم هو الذي يفعل لداعية الحكمة لا لداعية الشهوة ، وهذا إنما يتم إذا ثبت أنه تعالى عالم بجميع المعلومات ، وأنه غني عن جميع الحاجات إذا ثبت هذا فنقول كونه تعالى (عزيزاً حكيما) يدل على هذه الصفات الثلاثة ، العلم بجميع المعلومات ، والقدرة على كل الممكنات ، والإستغناء عن كل الحاجات ، فمن كان كذلك امتنع أن يفعل القبيح وأن يحكم بالقبيح ، وإذا كان كذلك فكل مايفعله يكون حكمة وصواباً . إذا ثبت هذا فنقول الإنتفاع بالقرآن يتوقف على أصلين : (أحدهما) أن يعلم أن القرآن كلام الله ، والدليل عليه أنه ثبت بالمعجز كون الرسول صادقاً ، وثبت بالتواتر أنه كان يقول القرآن كلام الله فيحصل من مجموع هاتين المقدمتين أن القرآن كلام الله (والأصل الثاني) أن الله أراد بهذه الألفاظ المعاني التي هي موضوعة لها ، أم بحسب اللغة أو بحسب القرينة العرفية أو الشرعية لأنه لو لم يرد بها ذلك لكان تلبيساً ، وذلك لا يليق بالحكيم فثبت بما ذكرنا أن الانتفاع بالقرآن لايحصل إلا بعد تسليم هذين الأصلين ، وثبت أنه لاسبيل إلى إثبات هذين الأصلين إلا بإثبات كونه تعالى حكيما ، وثبت أن لاسبيل

إلى إثبات كونه حكيما إلا بالبناء على كونه تعالى عزيزاً ، فلهذا السبب قال (تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم .

أما قوله تعالى (إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق) ففيه سؤالان :

﴿ السؤال الأول ﴾ لفظ التنزيل يشعر بأنه تعالى أنزله عليه نجماً نجماً على سبيل التدريج ولفظ الإنزال يشعر بأنه تعالى أنزله عليه دفعة واحدة فكيف الجمع بينهما (والجواب) إن صح الفرق بين التنزيل وبين الإنزال من الوجه الذى ذكرتم فطريق الجمع أن يقال المعنى إنا حكمنا حكما كلياً جزماً بأن يوصل إليك هذا الكتاب ، وهذا هو الإنزال ، ثم أوصلناه نجماً نجماً إليك على وفق المصالح وهذا هو التنزيل .

﴿ السؤال الثانى ﴾ ما المراد من قوله (إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق)؟(والجواب) فيه وجهان (الأول) المراد (أنزلنا الكتاب اليك) ملتبساً بالحق والصدق والصواب على معنى كل ما أودعناه فيه من إثبات التوحيد والنبوة والمعاد ، وأنواع التكاليف فهو حق وصدق يجب العمل به والمصير إليه (الثانى) أن يكون المراد (إنا أنزلنا إليك الكتاب) بناء على دليل حق دل على أن الكتاب نازل من عند الله ، وذلك الدليل هو أن الفصحاء عجزوا عن معارضته ، ولو لم يكن معجزاً لما عجزوا عن معارضته .

ثم قال ﴿ فاعبد الله مخلصاً له الدين ﴾ وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ أنه تعالى لما بين فى قوله (إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق) أن هذا الكتاب مشتمل على الحق والصدق والصواب أردف هنا بعض ما فيه من الحق والصدق وهو أن يشتغل الإنسان بعبادة الله تعالى على سبيل الإخلاص ويتبرأ عن عبادة غير الله تعالى بالكلية ، فأما اشتغاله بعبادة الله تعالى على سبيل الإخلاص فهو المراد من قوله تعالى (فاعبد الله مخلصاً) ، وأما براءته من عبادة غير الله تعالى فهو المراد بقوله (ألا لله الدين الخالص) لأن قوله (ألا لله) يفيد الحصر ، ومعنى الحصر أن يثبت الحكم فى المذكور وينتفى عن غير المذكور ، واعلم أن العبادة مع الإخلاص لا تعرف حقيقة إلا إذا عرفنا أن العبادة ماهى وأن الإخلاص ماهو وأن الوجوه المنافية للاخلاص ما هى فهذه أمور ثلاثة لابد من البحث عنها :

أما العبادة : فهى فعل أو قول أو ترك فعل أو ترك قول ويؤتى به لمجرد اعتقاد أن الآمر به عظيم يجب قبوله .

وأما الإخلاص : فهو أن يكون الداعى له إلى الإتيان بذلك الفعل أو الترك مجرد هذا الانقياد والإمتثال ، فان حصل منه داع آخر فإما أن يكون جانب الداعى الى الطاعة راجحاً على الجانب الآخر أو معادلا له أو مرجوحا . وأجمعوا على أن المعادل والمرجوح ساقط ، وأما إذا كان الداعى الى طاعة الله راجحاً على الجانب الآخر فقد اختلفوا فى أنه هل يفيد أم لا ، وقد ذكرنا هذه المسألة مراراً ولفظ القرآن يدل على وجوب الإتيان به على سبيل الخلوص ، لأن قوله (فاعبد الله مخلصاً)

صريح فى أنه يجب الإتيان بالعباة على سبيل الخلوص وتأكد هذا بقوله تعالى (وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين) وأما بيان الوجوه المنافية للاخلاص فهى الوجوه الداعية للشريك وهى أقسام : (أحدها) أن يكون للرياء والسمعة فيه مدخل (وثانيها) أن يكون مقصوده من الإتيان بالطاعة الفوز بالجنة والخلاص من النار (وثالثها) أن يأتى بها ويعتقد أن لها تأثيراً فى إيجاب الثواب أو دفع العقاب (ورابعها) وهو أن يخلص تلك الطاعات عن الكبائر حتى تصير مقبولة ، وهذا القول إنما يعتبر على قول المعتزلة .

﴿ المسألة الثانية ﴾ من الناس من قال (فاعبد الله مخلصاً له الدين) المراد منه شهادة أن لا إله إلا الله ، واحتجوا بما روى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال « لا إله إلا الله حصنى ومن دخل حصنى أمن من عذابى » وهذا قول من يقول : لا تضر المعصية مع الإيمان كما لا تنفع الطاعة مع الكفر ، وأما الأكثرون فقالوا الآية متناولة لكل ما كلف الله به من الأوامر والنواهى ، وهذا هو الأولى لأن قوله (فاعبد الله) عام ، وروى أن امرأة الفرزدق لما قرب وفاتها أوصت أن يصلى الحسن البصرى عليها ، فلما صلى عليها ودفنت ، قال للفرزدق يا أبا فراس ما الذى أعددت لهذا الأمر؟ قال شهادة أن لا إله إلا الله . فقال الحسن رضى الله عنه هذا العمود فأين الطنب ؟ فبين بهذا أن عمود الخيمة لا ينتفع به إلا مع الطنب حتى يمكن الانتفاع بالخيمة ، قال القاضى فأما ما يروى أنه صلى الله عليه وسلم قال لمعاذ وأبى الدرداء « وإن زنى وإن سرق على رغم أنف أبى الدرداء » فإن صح فإنه يجب أن يحمل عليه بشرط التوبة وإلا لم يجز قبول هذا الخبر لأنه مخالف للقرآن ، ولأنه يوجب أن لا يكون الإنسان مزجوراً عن الزنا والسرقة ، وأن لا يكون متعدياً بفعلهما لأنه مع شدة شهوته للقبيح يعلم أنه لا يضره مع تمسكه بالشهادتين فكأن ذلك إغراء بالقبيح والكل ينافى حكمة الله تعالى ولا يلزم أن يقال ذلك فالقول بأنه يزول ضرره بالتوبة يوجب أيضاً الإغراء بالقبيح ، لأنا نقول إن من اعتقد أن ضرره يزول بالتوبة فقد اعتقد أن فعل القبيح مضرة إلا أنه يزيل ذلك الضرر بفعل التوبة بخلاف قول من يقول إن فعل القبيح لا يضر مع التمسك بالشهادتين . هذا تمام كلام القاضى . فيقال له : أما قولك إن القول بالمغفرة مخالف للقرآن فليس كذلك بل القرآن يدل عليه قال تعالى (إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) وقال (وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم) أى حال ظلمهم كما يقال رأيت الأمير على أكله وشربه أى حال كونه آكلا وشارباً . وقال (ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً) ، وأما قوله إن ذلك يوجب الإغراء بالقبيح ، فيقال له إن كان الأمر كذلك وجب أن يقبح غفرانه عقلا ، وهذا مذهب البغداديين من المعتزلة ، وأنت لا تقول به ، لأن مذهب البصريين أن عذاب المذنب جائز عقلا ، وأيضاً فيلزم عليه أن لا يحصل الغفران بالتوبة ، لأنه إذا علم أنه إذا أذنب ثم تاب غفر الله له لم يتزجر وأما

الفرق الذى ذكره القاضى فبعيد ، لأنه إذا عزم على أن يتوب عنه فى الحال علم أنه لا يضره ذلك الذنب البتة . ثم نقول مذهبنا أنا نقطع بحصول العفو عن الكبائر فى الجملة ، فأما فى حق كل واحد من الناس فذلك مشكوك فيه لأنه تعالى قال (ويغفر مادون ذلك لمن يشاء) فقطع بحصول المغفرة فى الجملة ، إلا أنه سبحانه وتعالى لم يقطع بحصول هذا الغفران فى حق كل أحد بل فى حق من شاء وإذا كان كذلك كان الخوف حاصلا فلا يكون الإغراء حاصلا والله أعلم .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قال صاحب الكشاف قرىء الدين بالرفع ، ثم قال وحق من رفعه أن يقرأ مخلصاً بفتح اللام لقوله تعالى (وأخلصوا دينهم لله) حتى يطابق قوله (ألا لله الدين الخالص) والخالص والمخلص واحد إلا أنه وصف الدين بصفة صاحبه على الإسناد المجازى كقولهم شعر شاعر ، واعلم أنه تعالى لما بين أن رأس العبادات ورئيسها الإخلاص فى التوحيد أردفه بذم طريقة المشركين فقال (والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى) وتقدير الكلام والذين اتخذوا من دونه أولياء يقولون ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ، وعلى هذا التقدير فخبر الذين محذوف وهو قوله يقولون ، واعلم أن الضمير فى قوله (ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى) عائد على الأشياء التى عبدت من دون الله ، وهى قسمان العقلاء وغير العقلاء ، أما العقلاء فهو أن قوماً عبدوا المسيح وعزيراً والملائكة ، وكثير من الناس يعبدون الشمس والقمر والنجوم ويعتقدون فيها أنها أحياء عاقلة ناطقة ، وأما الأشياء التى عبدت مع أنها ليست موصوفة بالحياة والعقل فهى الأصنام ، إذا عرفت هذا فنقول الكلام الذى ذكره الكفار لائق بالعقلاء ، أما بغير العقلاء فلا يليق ، وبيانه من وجهين (الأول) أن الضمير فى قوله (ما نعبدهم) ضمير للعقلاء فلا يليق بالأصنام (الثانى) أنه لا يبعد أن يعتقد أولئك الكفار فى المسيح والعزير والملائكة أن يشفعوا لهم عند الله ، أما يبعد من العاقل أن يعتقد فى الأصنام والجمادات أنها تقربه إلى الله ، وعلى هذا التقدير فمرادهم أن عبادتهم لها تقربهم إلى الله ، ويمكن أن يقال إن العاقل لا يعبد الصنم من حيث إنه خشب أو حجر ، وإنما يعبدونه لاعتقادهم أنها تماثيل الكواكب أو تماثيل الأرواح السماوية ، أو تماثيل الأنبياء والصالحين الذين مضوا ، ويكون مقصودهم من عبادتها توجيه تلك العبادات إلى تلك الأشياء التى جعلوا هذه التماثيل صوراً لها .

وحاصل الكلام لعباد الأصنام أن قالوا إن الإله الأعظم أجل من أن يعبده البشر لكن اللائق بالبشر أن يشتغلوا بعبادة الأكابر من عباد الله مثل الكواكب ومثل الأرواح السماوية ، ثم إنها تشتغل بعبادة الإله الأكبر ، فهذا هو المراد من قولهم (ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى) .

واعلم أن الله تعالى لما حكى مذاهبهم أجاب عنها من وجوه : (الأول) أنه اقتصر فى الجواب على مجرد التهديد فقال (إن الله يحكم بينهم فيما هم فيه يختلفون) واعلم أن الرجل المبطل إذا ذكر مذهباً باطلا وكان مصراً عليه ، فالطريق فى علاجه أن يحتال بحيلة توجب زوال ذلك الإصرار عن

قلبه ، فإذا زال الإصرار عن قلبه فبعد ذلك يسمعه الدليل الدال على بطلانه ، فيكون هذا الطريق أفضى إلى المقصود . والأطباء يقولون لابد من تقديم المنضج على سقى المسهل فان بتناول المنضج تصير المواد الفاسدة رخوة قابلة للزوال ، فاذا سقيته المسهل بعد ذلك حصل النقاء التام ، فكذلك ههنا سماع التهديد والتخويف أولا يجرى مجرى سقى المنضج أولا ، وإسماع الدليل ثانياً يجرى مجرى سقى المسهل ثانياً . فهذا هو الفائدة فى تقديم هذا التهديد .

ثم قال تعالى (إن الله لايهدى من هو كاذب كفار) والمراد أن من أصر على الكذب والكفر بقى محروماً عن الهداية ، والمراد بهذا الكذب وصفهم لهذه الاصنام بأنها آلهة مستحقة للعبادة مع علمهم بأنها جمادات خسيسة وهم نحتوها وتصرفوا فيها ، والعلم الضرورى حاصل بأن وصف هذه الأشياء بالإلهية كذب محض ، وأما الكفر فيحتمل أن يكون المراد منه الكفر الراجع إلى الإعتقاد ، والأمر ههنا كذلك فإن وصفهم لها بالإلهية كذب ، واعتقادهم فيها بالإلهية جهل وكفر . ويحتمل أن يكون المراد كفران النعمة ، والسبب فيه أن العبادة نهاية التعظيم ونهاية التعظيم لا تليق إلا بمن يصدر عنه غاية الإنعام ، وذلك المنعم هو الله سبحانه وتعالى وهذه الأوثان لا مدخل لها فى ذلك الإنعام فالإشتغال بعبادة هذه الأوثان يوجب كفران نعمة المنعم الحق .

ثم قال تعالى (لو أراد الله أن يتخذ ولداً لاصطفى مما يخلق مايشاء سبحانه هو الله الواحد القهار) والمراد من هذا الكلام إقامة الدلائل القاهرة على كونه منزهاً عن الولد وبيانه من وجوه (الأول) أنه لو اتخذ ولداً لما رضى إلا بأكمل الأولاد وهو الإبن فكيف نسبتم إليه البنت (الثانى) أنه سبحانه واحد حقيقى والواحد الحقيقى يمتنع أن يكون له ولد ، أما أنه واحد حقيقى فلأنه لو كان مركباً لاحتاج إلى كل واحد من أجزائه وجزؤه غيره ، فكان يحتاج إلى غيره والمحتاج إلى الغير ممكن لذاته ، والممكن لذاته لا يكون واجب الوجود لذاته ، وأما أن الواحد لا يكون له ولد فلوجوه (الأول) أن الولد عبارة عن جزء من أجزاء الشيء ينفصل عنه ، ثم يحصل له صورة مساوية لصورة الوالد . وهذا إنما يعقل فى الشيء الذى ينفصل منه جزء والفرد المطلق لا يقال ذلك فيه (الثانى) شرط الولد أن يكون مماثلا فى تمام الماهية للوالد فتكون حقيقة ذلك الشيء حقيقة نوعية محمولة على شخصين ، وذلك محال لأن تعيين كل واحد منهما إن كان من لوازم تلك الماهية لزم أن لا يحصل من تلك الماهية إلا الشخص الواحد ، وإن لم يكن ذلك التعيين من لوازم تلك الماهية كان ذلك التعيين معلولا بسبب منفصل ، فلا يكون إلهاً واجب الوجود لذاته . فثبت أن كونه إلهاً واجب الوجود لذاته يوجب كونه واحداً فى حقيقته ، وكونه واحداً فى حقيقته يمنع من ثبوت الولد له ، فثبت أن كونه واحداً يمنع من ثبوت الولد (الثالث) أن الولد لا يحصل إلا من الزوج والزوجة والزوجان لابد وأن يكونا من جنس واحد ، فلو كان له ولد لما كان واحداً بل كانت زوجته من جنسه ، وأما أن كونه قهاراً يمنع من ثبوت الولد له ، فلأن المحتاج إلى الولد هو الذى يموت فيحتاج

خَلَقَ السَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٥﴾ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٦﴾ إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٧﴾

إلى ولد يقوم مقامه ، فالمحتاج إلى الولد هو الذى يكون مقهوراً بالموت ، أما الذى يكون قاهراً ولا يقهره غيره كان الولد فى حقه محالا ، فثبت أن قوله (هو الله الواحد القهار) ألفاظ مشتملة على دلائل قاطعة فى نفى الولد عن الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ خلق السموات والأرض بالحق يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل ، وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى ألا هو العزيز الغفار ، خلقكم من نفس واحدة ثم جعل منها زوجها ، وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج ، يخلقكم فى بطون أمهاتكم خلقاً من بعد خلق فى ظلمات ثلاث ، ذلكم الله ربكم له الملك لا إله إلا هو فأنى تصرفون ، إن تكفروا فإن الله غنى عنكم ولا يرضى لعباده الكفر وإن تشكروا يرضه لكم ، ولا تزر وازرة وزر أخرى ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم تعملون ، إنه عليم بذات الصدور ﴾

اعلم أن الآية المتقدمة دلت على أنه تعالى بين كونه منزهاً عن الولد بكونه إلهاً واحداً وقهاراً غالباً أى كامل القدرة ، فلما بنى تلك المسألة على هذه الأصول ذكر عقيبها ما يدل على كمال القدرة وعلى كمال الاستغناء ، وأيضاً فانه تعالى طعن فى إلهية الأصنام فذكر عقيبها الصفات التى باعتبارها تحصل الإلهية ، واعلم أنا بينا فى مواضع من هذا الكتاب أن الدلائل التى ذكرها الله تعالى فى

إثبات إلهيته ، إما أن تكون فلكية أو عنصرية ، أما الفلكية فأقسام (أحدها) خلق السموات والأرض ، وهذا المعنى يدل على وجود الإله القادر من وجوه كثيرة شرحناها فى تفسير قوله تعالى (الحمد لله الذى خلق السموات والأرض) و (الثانى) اختلاف أحوال الليل والنهار وهو المراد ههنا من قوله (يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل) وذلك لأن النور والظلمة عسكران مهيبان عظيمان . وفى كل يوم يغلب هذا ذاك تارة ، وذاك هذا أخرى . وذلك يدل على أن كل واحد منهما مغلوب مقهور ، ولا بد من غالب قاهر لهما يكونان تحت تدبيره وقهره وهو الله سبحانه و تعالى ، والمراد من هذا التكوير أنه يزيد فى كل واحد منهما بقدر ما ينقص عن الآخر ، والمراد من تكوير الليل والنهار ماورد فى الحديث « نعوذ بالله من الحور بعد الكور » أى من الإدبار بعد الإقبال ، واعلم أنه سبحانه و تعالى عبر عن هذا المعنى بقوله (يكور الليل على النهار) وبقوله (يغشى الليل النهار) وبقوله (يولج الليل فى النهار) وبقوله (وهو الذى جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر) و (الثالث) اعتبار أحوال الكواكب لاسيما الشمس والقمر ، فان الشمس سلطان النهار والقمر سلطان الليل ، وأكثر مصالح هذا العالم مربوطة بهما وقوله (كل يجرى لأجل مسمى) الأجل المسمى يوم القيامة ، لايزالان يجريان إلى هذا اليوم فاذا كان يوم القيامة ذهبا ، ونظيره قوله تعالى (وجمع الشمس والقمر) والمراد من هذا التسخير أن هذه الأفلاك تدور كدوران المنجنون على حد واحد إلى يوم القيامة وعنده تطوى السماء كطى السجل للكتب .

ولما ذكر الله هذه الأنواع الثلاثة من الدلائل الفلكية قال (ألا هو العزيز الغفار) والمعنى أن خلق هذه الأجرام العظيمة وإن دل على كونه عزيزاً أى كامل القدرة إلا أنه غفار عظيم الرحمة والفضل والإحسان ، فانه لما كان الإخبار عن كونه عظيم القدرة يوجب الخوف والرهبة فكونه غفاراً يوجب كثرة الرحمة ، وكثرة الرحمة توجب الرجاء والرغبة ، ثم إنه تعالى أتبع ذكر الدلائل الفلكية بذكر الدلائل المأخوذة من هذا العالم الأسفل ، فبدأ بذكر الإنسان فقال (خلقكم من نفس واحدة ثم جعل منها زوجها) ودلالة تكون الإنسان على الإله المختار قد سبق بيانها مراراً كثيرة ، فان قيل كيف جاز أن يقول (خلقكم من نفس واحدة ثم جعل منها زوجها) والزوج مخلوق قبل خلقهم ؟ أجابوا عنه من وجوه (الأول) أن كلمة ثم كما تجىء لبيان كون إحدى الواقعتين متأخرة عن الثانية . فكذلك تجىء لبيان تأخر أحد الكلامين عن الآخر ، كقول القائل بلغنى ماصنعت اليوم ، ثم ماصنعت أمس كان أعجب ، ويقول أيضاً قد أعطيتك اليوم شيئاً ، ثم الذى أعطيتك أمس أكثر (الثانى) أن يكون التقدير خلقكم من نفس خلقت وحدها ثم جعل منها زوجها (الثالث) أخرج الله تعالى ذرية آدم من ظهره كالذر ثم خلق بعد ذلك حواء .

واعلم أنه تعالى لما ذكر الاستدلال بخلقة الإنسان على وجود الصانع ذكر عقيبه الاستدلال

بوجود الحيوان عليه فقال (وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج) وهى الإبل والبقر والضأن والمعز وقد بينا كيفية دلالة هذه الحيوانات على وجود الصانع فى قوله (والأنعام خلقها لكم فيها دفء) وفى تفسير قوله تعالى (وأنزل لكم) وجوه : (الأول) أن قضاء الله وتقديره وحكمه موصوف بالنزول من السماء لأجل أنه كتب فى اللوح المحفوظ كل كائن يكون (الثانى) أن شيئاً من الحيوان لا يعيش إلا بالنبات والنبات لا يقوم إلا بالماء والتراب ، والماء ينزل من السماء فصار التقدير كأنه أنزلها (الثالث) أنه تعالى خلقها فى الجنة ثم أنزلها إلى الأرض وقوله (ثمانية أزواج) أي ذكر وأنثى من الإبل والبقر والضأن والمعز ، والزوج اسم لكل واحد معه آخر ، فاذا انفرد فهو فرد منه قال تعالى (فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى) .

ثم قال تعالى (يخلقكم فى بطون أمهاتكم خلقاً من بعد خلق) وفيه إبحاث :

﴿ الأول ﴾ قرأ حمزة بكسر الألف والميم ، والكسائى بكسر الهمزة وفتح الميم ، والباقون أمهاتكم بضم الألف وفتح الميم .

﴿ الثانى ﴾ أنه تعالى لما ذكر تخليق الناس من شخص واحد وهو آدم عليه السلام أردفه بتخليق الأنعام ، وإنما خصها بالذكر لأنها أشرف الحيوانات بعد الإنسان ، ثم ذكر عقيب ذكرهما حالة مشتركة بين الإنسان وبين الأنعام وهى كونها مخلوقة فى بطون أمهاتهم وقوله (خلقاً من بعد خلق) المراد منه ما ذكره الله تعالى فى قوله (ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين ، ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العظام لحماً ثم أنشأناه خلقاً آخر ، فتبارك الله أحسن الخالقين) وقوله (فى ظلمات ثلاث) قيل الظلمات الثلاث البطن والرحم والمشيمة وقيل الصلب والرحم والبطن ووجه الاستدلال بهذه الحالات قد ذكرناه فى قوله (هو الذى يصوركم فى الأرحام كيف يشاء) .

واعلم أنه تعالى لما شرح هذه الدلائل ووصفها قال (ذلكم الله ربكم) أى ذلكم الشيء الذى عرفتم عجائب أفعاله هو الله ربكم ، وفى هذه الآية دلالة على كونه سبحانه وتعالى منزهاً عن الأجزاء والأعضاء وعلى كونه منزهاً عن الجسمية والمكانية ، وذلك أنه تعالى عندما أراد أن يعرف عباده ذاته المخصوصة لم يذكر إلا كونه فاعلا لهذه الأشياء ، ولو كان جسما مركباً من الأعضاء لكان تعريفه بتلك الأجزاء والأعضاء تعريفاً للشيء بأجزاء حقيقته ، وأما تعريفه بأحواله وأفعاله وآثاره فذلك تعريف له بأمور خارجة عن ذاته . والتعريف الأول أكمل من الثانى ، ولو كان ذلك القسم ممكناً لكان الاكتفاء بهذا القسم الثانى تقصيراً ونقصاً وذلك غير جائز ، فعلمنا أن الاكتفاء بهذا القسم إنما حسن لأن القسم الأول محال ممتنع الوجود ، وذلك يدل على كونه سبحانه وتعالى متعالياً عن الجسمية والأعضاء والأجزاء .

ثم قال تعالى (له الملك) وهذا يفيد الحصر أى له الملك لا لغيره ، ولما ثبت أنه لا ملك

إلا له وجب القول بأنه لا إله إلا هو لأنه لو ثبت إله آخر ، فذلك الإله إما أن يكون له الملك أو لا يكون له الملك ، فان كان له الملك فحينئذ يكون كل واحد منهما مالكا قادراً ويجرى بينهما التمانع كما ثبت فى قوله (لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا) وذلك محال ، وإن لم يكن للثانى شىء من القدرة والملك فيكون ناقصاً ولا يصلح للالهية ، فثبت أنه لما دل الدليل على أنه لا ملك إلا الله ، وجب أن يقال لا إله للعالمين ولا معبود للخلق أجمعين إلا الله الأحد الحق الصمد ، ثم اعلم أنه سبحانه لما بين بهذه الدلائل كمال قدرة الله سبحانه وحكمته ورحمته ، رتب عليه تزييف طريقة المشركين والضالين من وجوه : (الأول) قوله (فأنى تصرفون) يحتج به أصحابنا ويحتج به المعتزلة . أما أصحابنا فوجه الاستدلال لهم بهذه الآية : أنها صريحة فى أنهم لم ينصرفوا بأنفسهم عن هذه البيانات بل صرفها عنهم غيرهم ، وما ذاك الغير إلا الله ، وأيضاً فدليل العقل يقوى ذلك لأن كل واحد يريد لنفسه تحصيل الحق والصواب ، فلما لم يحصل ذلك وإنما حصل الجهل والضلال علمنا أنه من غيره لا منه ، وأما المعتزلة فوجه الاستدلال لهم : أن قوله (فأنى تصرفون) تعجب من هذا الانصراف ، ولو كان الفاعل لذلك الصرف هو الله تعالى لم يبق لهذا التعجب معنى .

ثم قال تعالى (إن تكفروا فإن الله غنى عنكم) والمعنى أن الله تعالى ما كلف المكلفين ليجر إلى نفسه منفعة أو ليدفع عن نفسه مضرة ، وذلك لأنه تعالى غنى على الاطلاق ، ويمتنع فى حقه جر المنفعة ودفع المضرة ، وإنما قلنا إنه غنى لوجوه : (الأول) أنه واجب الوجود لذاته وواجب الوجود فى جميع صفاته ، ومن كان كذلك كان غنياً على الإطلاق (الثانى) أنه لو كان محتاجاً لكانت تلك الحاجة إما قديمة وإما حادثة . والأول باطل وإلا لزم أن يخلق فى الأزل ما كان محتاجاً إليه وذلك محال ، لأن الخلق والأزل متناقض . والثانى باطل لأن الحاجة نقصان والحكيم لا يدعوه الداعى إلى تحصيل النقصان لنفسه (الثالث) هب أنه يبقى الشك فى أنه هل تصح الشهوة والنفرة والحاجة عليه أم لا ؟ أما من المعلوم بالضرورة أن الإله القادر على خلق السموات والأرض والشمس والقمر والنجوم والعرش والكرسى والعناصر الأربعة ، والمواليد الثلاثة يمتنع أن ينتفع بصلاة زيد وصيام عمرو ، وأن يضر بعدم صلاة هذا وعدم صيام ذاك ، فثبت بما ذكرنا أن جميع العالمين لو كفروا وأصروا على الجهل فإن الله غنى عنهم .

ثم قال تعالى بعده (ولا يرضى لعباده الكفر) يعنى أنه وإن كان لا ينفعه إيمان ولا يضره كفران إلا أنه لا يرضى بالكفر ، واحتج الجبائى بهذه الآية من وجهين : (الأول) أن المجبرة يقولون إن الله تعالى خلق كفر العباد وإنه من جهة ما خلقه حق وصواب ، قال ولو كان الأمر كذلك لكان قد رضى الكفر من الوجه الذى خلقه ، وذلك ضد الآية (الثانى) لو كان الكفر بقضاء الله تعالى لوجب علينا أن نرضى به لأن الرضا بقضاء الله تعالى واجب ، وحيث اجتمعت الأمة على أن الرضا بالكفر كفر ثبت أنه ليس بقضاء الله وليس أيضا برضاء الله تعالى ، وأجاب

الأصحاب عن هذا الاستدلال من وجوه (الأول) أن عادة القرآن جارية بتخصيص لفظ العباد بالمؤمنين . قال الله تعالى (وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً) وقال (عيناً يشرب بها عباد الله) وقال (إن عبادي ليس لك عليهم سلطان) فعلى هذا التقدير قوله (ولا يرضى لعباده الكفر) ولا يرضى للمؤمنين الكفر ، وذلك لا يضرنا (الثاني) أنا نقول الكفر بإرادة الله تعالى ولا نقول إنه يرضا الله لأن الرضا عبارة عن المدح عليه والثناء بفعله ، قال الله تعالى (لقد رضي الله عن المؤمنين) أي يمدحهم ويثني عليهم (الثالث) كان الشيخ الوالد ضياء الدين عمر رحمه الله يقول : الرضا عبارة عن ترك اللوم والاعتراض ، وليس عبارة عن الإرادة ، والدليل عليه قول ابن دريد :

رضيت قسراً وعلى القسر رضا من كان ذا سخط على صرف القضا

أثبت الرضا مع القسر وذلك يدل على ما قلناه و(الرابع) هب أن الرضا هو الإرادة إلا أن قوله (ولا يرضى لعباده الكفر) عام ، فتخصيصه بالآيات الدالة على أنه تعالى يريد الكفر من الكافر كقوله تعالى (وما تشاءون إلا أن يشاء الله) والله أعلم .

ثم قال تعالى (وإن تشكروا يرضه لكم) والمراد أنه لما بين أنه لا يرضى الكفر بين أنه يرضى الشكر ، وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ اختلف القراء في هاء (يرضه) على ثلاثة أوجه (أحدها) قرأ نافع وأبو عمرو وابن عامر وعاصم وحمزة بضم الهاء مختلسة غير متبعة (وثانيها) قرأ أبو عمرو وحمزة في بعض الروايات يرضه ساكنة الهاء للتخفيف (وثالثها) قرأ نافع في بعض الروايات وابن كثير وابن عامر والكسائي مضمومة الهاء مشبعة ، قال الواحدي رحمه الله من القراء من أشبع الهاء حتى ألحق بها واواً ، لأن ما قبل الهاء متحرك فصار بمنزلة ضربه وله ، فكما أن هذا مشبع عند الجميع كذلك يرضه ، ومنهم من حرك الهاء ولم يلحق الواو ، لأن الأصل يرضاه والألف المحذوفة للجزم ليس يلزم حذفها فكانت كالباقية ، ومع بقاء الألف لا يجوز إثبات الواو فكذا ههنا .

﴿ المسألة الثانية ﴾ الشكر حالة مركبة من قول واعتقاد وعمل (أما القول) فهو الإقرار بحصول النعمة (وأما الاعتقاد) فهو اعتقاد صدور النعمة من ذلك المنعم .

ثم قال تعالى (ولا تزر وازرة وزر أخرى) قال الجبائي هذا يدل على أنه تعالى لا يعذب أحداً على فعل غيره ، فلو فعل الله كفرهم لما جاز أن يعذبهم عليه ، وأيضاً لا يجوز أن يعذب الأولاد بذنوب الآباء ، بخلاف ما يقول القوم . واحتج أيضاً من أنكر وجوب ضرب الدية على العاقلة بهذه الآية .

ثم قال تعالى (ثم إلى ربكم مرجعكم) واعلم أنا ذكرنا كثيراً أن أهم المطالب للانسان أن يعرف خالقه بقدر الإمكان ، وأن يعرف ما يضره وما ينفعه في هذه الحياة الدنيوية ، وأن يعرف أحواله بعد الموت ، ففي هذه الآية ذكر الدلائل الكثيرة من العالم الأعلى والعالم الأسفل على كمال

وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ﴿٨﴾ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾

قدرة الصانع وعلمه وحكمته، ثم أتبعه بأن أمره بالشكر ونهاه عن الكفر ثم بين أحواله بعد الموت بقوله (ثم إلى ربكم مرجعكم) وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ المشبهة تمسكوا بلفظ إلى على أن إله العالم فى جهة وقد أجبنا عنه مراراً .

﴿ المسألة الثانية ﴾ زعم القوم أن هذه الأرواح كانت قبل الأجساد وتمسكوا بلفظ الرجوع الموجود فى هذه الآية وفى سائر الآيات .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ دلت هذه الآية على إثبات البعث والقيامة .

ثم قال (فينبئكم بما كنتم تعملون) وهذا تهديد للعاصى وبشارة للمطيع ، وقوله تعالى (إنه عليم بذات الصدور) كالعلة لما سبق ، يعنى أنه يمكنه أن ينبئكم بأعمالكم ، لأنه عالم بجميع المعلومات ، فيعلم ما فى قلوبكم من الدواعى والصوارف . وقال ﷺ « إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أقوالكم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم » .

قوله تعالى : ﴿ وإذا مس الإنسان ضر دعا ربه منيباً إليه ، ثم إذا خوله نعمة منه نسى ما كان يدعو إليه من قبل ، وجعل لله أنداداً ليضل عن سبيله ، قل تمتع بكفرك قليلا إنك من أصحاب النار ، أمن هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه ، قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولوا الألباب ﴾

اعلم أن الله تعالى لما بين فساد القول بالشرك وبين أن الله تعالى هو الذى يجب أن يعبد ، بين فى هذه الآية أن طريقة هؤلاء الكفار الذين يعبدون الأصنام متناقضة وذلك لأنهم إذا مسهم نوع من أنواع الضر لم يرجعوا فى طلب دفعه إلا إلى الله ، وإذا زال ذلك الضر عنهم رجعوا إلى عبادة الأصنام ومعلوم أنهم إنما رجعوا إلى الله تعالى عند حصول الضر ، لأنه هو القادر على إيصال الخير ودفع الضر ، وإذا عرفوا أن الأمر كذلك فى بعض الأحوال كان الواجب عليهم أن يعترفوا

به فى كل الأحوال فثبت أن طريقتهم فى هذا الباب متناقضة .

أما قوله تعالى (وإذا مس الإنسان) فقيل المراد بالإنسان أقوام معينون مثل عتبة بن ربيعة وغيره ، وقيل المراد به الكافر الذى تقدم ذكره ، لأن الكلام يخرج على معهود تقدم .

وأما قوله (ضر) فيدخل فيه جميع المكاره سواء كان فى جسمه أو فى ماله أو أهله وولده ، لأن اللفظ مطلق فلا معنى للتقييد (ودعا ربه) أى استجار بربه وناداه ولم يؤمل فى كشف الضر سواه ، فلذلك قال (منيباً إليه) أى راجعاً إليه وحده فى إزالة ذلك الضر لأن الإنابة هى الرجوع (ثم إذا خوله نعمة منه) أى أعطاه ، قال صاحب الكشاف :وفى حقيقته وجهان (أحدهما) جعله خائل مال من قولهم هو خائل مال وخال مال ، إذا كان متعهداً له حسن القيام به ومنه ماروى عن رسول الله ﷺ «أنه كان يتخول أصحابه بالموعظة» (والثانى) جعله يخول من خال يخول إذا اختال وافتخر ، وفى المعنى قالت العرب :

إن الغنى طويل الذيل مياس

ثم قال تعالى (نسى ما كان يدعو إليه من قبل) أى نسى ربه الذى كان يتضرع إليه ويبتهل إليه ، وما بمعنى من كقوله تعالى (وما خلق الذكر والأنثى) وقوله تعالى (ولا أنتم عابدون ما أعبد) وقوله تعالى (فانكحوا ما طاب لكم من النساء) وقيل نسى الضر الذى كان يدعو الله إلى كشفه والمراد من قوله نسى أى ترك دعاءه كأنه لم يفزع إلى ربه ، ولو أراد به النسيان الحقيقى لما ذمه عليه ، ويحتمل أن يكون المراد أنه نسى أن لا يفزع ، وأن لا إله سواه فعاد إلى اتخاذ الشركاء مع الله .

قوله تعالى : ﴿ وجعل لله أنداداً ليضل عن سبيله ﴾ وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو ليضل بفتح الياء والباقون ليضل بضم الياء على معنى ليضل غيره .

﴿ المسألة الثانية ﴾ المراد أنه تعالى يعجب العقلاء من مناقضتهم عند هاتين الحالتين ، فعند الضر يعتقدون أنه لا مفزع إلى ما سواه وعند النعمة يعودون إلى اتخاذ آلهة معه . ومعلوم أنه تعالى إذا كان إنما يفزع إليه فى حال الضر لأجل أنه هو القادر على الخير والشر ، وهذا المعنى باق فى حال الراحة والفراغ كان فى تقرير حالهم فى هذين الوقتين مايوجب المناقضة وقلة العقل .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ معنى قوله (ليضل عن سبيله) أنه لا يقتصر فى ذلك على أن يضل نفسه بل يدعو غيره إما بفعله أو قوله إلى أن يشاركه فى ذلك ، فيزداد إثماً على إثمه ، واللام فى قوله (ليضل) لام العاقبة كقوله (فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزناً) ولما ذكر الله تعالى عنهم هذا الفعل المتناقض هددهم فقال (قل تمتع بكفرك قليلا) وليس المراد منه الأمر بل

الزجر ، وأن يعرفه قلة تمتعه فى الدنيا ، ثم يكون مصيره إلى النار .

ولما شرح الله تعالى صفات المشركين والضالين ، ثم تمسكهم بغير الله تعالى أردفه بشرح أحوال المحققين الذين لا رجوع لهم إلا إلى الله ولا اعتماد لهم إلا على فضل الله ، فقال (أمن هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً) وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قرأ نافع وابن كثير وحمزة (أمن) مخففة الميم والباقون بالتشديد ، أما التخفيف ففيه وجهان (الاول) أن الألف ألف الاستفهام داخلة على من ، والجواب محذوف على تقدير كمن ليس كذلك ، وقيل كالذى جعل لله أنداداً فاكتفى بما سبق ذكره (والثانى) أن يكون ألف نداء كأنه قيل يامن هو قانت من أهل الجنة ، وأما التشديد فقال الفراء الأصل أم من فأدغمت الميم فى الميم وعلى هذا القول هى أم التى فى قولك أزيد أفضل أم عمرو .

﴿ المسألة الثانية ﴾ القانت القائم بما يجب عليه من الطاعة ، ومنه قوله صلى الله عليه وسلم «أفضل الصلاة صلاة القنوت» وهو القيام فيها . ومنه القنوت فى الصبح لأنه يدعو قائماً . عن ابن عمر رضى الله عنه أنه قال لا أعلم القنوت إلا قراءة القرآن وطول القيام وتلا (أمن هو قانت) وعن ابن عباس القنوت طاعة الله ، لقوله (كل له قانتون) أى مطيعون ، وعن قتادة (آناء الليل) ساعات الليل أوله ووسطه وآخره ، وفى هذه اللفظة تنبيه على فضل قيام الليل وأنه أرجح من قيام النهار ، ويؤكده وجوه (الأول) أن عبادة الليل أستر عن العيون فتكون أبعد عن الرياء (الثانى) أن الظلمة تمنع من الإبصار ونوم الخلق يمنع من السماع ، فاذا صار القلب فارغا عن الاشتغال بالأحوال الخارجية عاد إلى المطلوب الأصلى ، وهو معرفة الله وخدمته (الثالث) أن الليل وقت النوم فتركه يكون أشق فيكون الثواب أكثر (الرابع) قوله تعالى (إن ناشئة الليل هى أشد وطئاً وأقوم قيلا) وقوله (ساجداً) حال ، وقرىء ساجد وقائم على أنه خبر بعد خبر والواو للجمع بين الصفتين .

واعلم أن هذه الآية دالة على أسرار عجيبة ، فأولها أنه بدأ فيها بذكر العمل وختم فيها بذكر العلم ، أما العمل فكونه قانتاً ساجداً قائماً ، وأما العلم فقوله (هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون) وهذا يدل على أن كمال الإنسان محصور فى هذين المقصودين ، فالعمل هو البداية والعلم والمكاشفة هو النهاية .

﴿ الفائدة الثانية ﴾ أنه تعالى نبه على أن الانتفاع بالعمل إنما يحصل إذا كان الإنسان مواظباً عليه ، فان القنوت عبارة عن كون الرجل قائماً بما يجب عليه من الطاعات ، وذلك يدل على أن العمل إنما يفيد إذا واظب عليه الإنسان ، وقوله (ساجداً وقائماً) إشارة إلى أصناف الأعمال وقوله (يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه) إشارة إلى أن الإنسان عند المواظبة ينكشف له فى الأول مقام القهر وهو قوله (يحذر الآخرة) ثم بعده مقام الرحمة وهو قوله (ويرجو رحمة ربه) ثم يحصل أنواع المكاشفات وهو المراد بقوله (هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون)

قُلْ يَـٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّـٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ

﴿ الفائدة الثالثة ﴾ أنه قال فى مقام الخوف (يحذر الآخرة) . فما أضاف الحذر إلى نفسه ، وفى مقام الرجاء أضافه إلى نفسه ، وهذا يدل على أن جانب الرجاء أكمل وأليق بحضرة الله تعالى .

﴿ **المسألة الثالثة** ﴾ قيل المراد من قوله (أمن هو قانت آناء الليل) عثمان لأنه كان يحيي الليل فى ركعة واحدة ويقرأ القرآن فى ركعة واحدة . والصحيح أن المراد منه كل من كان موصوفاً بهذه الصفة فيدخل فيه عثمان وغيره لأن الآية غير مقتصرة عليه .

﴿ **المسألة الرابعة** ﴾ لاشبهة فى أن فى الكلام حذفاً ، والتقدير أمن هو قانت كغيره ، وإنما حسن هذا الحذف لدلالة الكلام عليه ، لأنه تعالى ذكر قبل هذه الآية الكافر وذكر بعدها (قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لايعلمون) وتقدير الآية قل هل يستوى الذين يعلمون وهم الذين صفتهم أنهم يقنتون آناء الليل سجداً وقياماً ، والذين لايعلمون وهم الذين وصفهم عند البلاء والخوف يوحدون وعند الراحة والفراغة يشركون ، فإذا قدرنا هذا التقدير ظهر المراد وإنما وصف الله الكفار بأنهم لايعلمون ، لأنهم وإن آتاهم الله آلة العلم إلا أنهم أعرضوا عن تحصيل العلم ، فلهذا السبب جعلهم كأنهم ليسوا أولى الألباب من حيث إنهم لم ينتفعوا بعقولهم وقلوبهم .

وأما قوله تعالى (قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لايعلمون) فهو تنبيه عظيم على فضيلة العلم ، وقد بالغنا فى تقرير هذا المعنى فى تفسير قوله تعالى (وعلم آدم الأسماء كلها) قال صاحب الكشاف أراد بالذين يعلمون الذين سبق ذكرهم وهم القانتون ، وبالذين لايعلمون الذين لايأتون بهذا العمل كأنه جعل القانتين هم العلماء ، وهو تنبيه على أن من يعمل فهو غير عالم ، ثم قال وفيه ازدراء عظيم بالذين يقتنون العلوم ثم لايقنتون ، ويفتنون فيها ثم يفتنون بالدنيا فهم عندالله جهلة .

ثم قال تعالى (إنما يتذكر أولوا الألباب) يعنى هذا التفاوت العظيم الحاصل بين العلماء والجهال لايعرفه أيضاً إلا أولوا الألباب ، قيل لبعض العلماء : إنكم تقولون العلم أفضل من المال ثم نرى العلماء يجتمعون عند أبواب الملوك ، ولا نرى الملوك مجتمعين عند أبواب العلماء ، فأجاب العالم بأن هذا أيضاً يدل على فضيلة العلم لأن العلماء علموا مافى المال من المنافع فطلبوه ، والجهال لم يعرفوا ما فى العلم من المنافع فلا جرم تركوه .

قوله تعالى : ﴿ قل ياعبادى الذين آمنوا اتقوا ربكم للذين أحسنوا فى هذه الدنيا حسنة وأرض الله واسعة ، إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب ، قل إنى أمرت أن أعبد الله مخلصاً

ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرۡتُ لِأَنۡ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿١٢﴾ قُلۡ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ﴿١٣﴾ قُلِ ٱللَّهَ أَعۡبُدُ مُخۡلِصٗا لَّهُۥ دِينِي ﴿١٤﴾ فَٱعۡبُدُواْ مَا شِئۡتُم مِّن دُونِهِۦۗ قُلۡ إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ ﴿١٥﴾ لَهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ ظُلَلٞ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحۡتِهِمۡ ظُلَلٞۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥۚ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴿١٦﴾

له الدين ، وأمرت لأن أكون أول المسلمين ، قل إنى أخاف إن عصيت ربى عذاب يوم عظيم ، قل الله أعبد مخلصاً له دينى ، فاعبدوا ما شئتم من دونه ، قل إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ، ألا ذلك هو الخسران المبين ، لهم من فوقهم ظلل من النار و من تحتهم ظلل ، ذلك يخوف الله به عباده ياعبادى فاتقون ﴾ .

اعلم أنه تعالى لما بين نفى المساواة بين من يعلم وبين من لا يعلم ، أتبعه بأن أمر رسوله بأن يخاطب المؤمنين بأنواع من الكلام :

﴿ النوع الأول ﴾ قوله (قل ياعبادى الذين آمنوا اتقوا ربكم) والمراد أن الله تعالى أمر المؤمنين بأن يضموا إلى الإيمان التقوى ، وهذا من أول الدلائل على أن الإيمان يبقى مع المعصية ، قال القاضى أمرهم بالتقوى لكيلا يحبطوا إيمانهم . لأن عند الاتقاء من الكبائر يسلم لهم الثواب وبالإقدام عليها يحبط ، فيقال له هذا بأن يدل على ضد قولك أولى ، لأنه لما أمر المؤمنين بالتقوى دل ذلك على أنه يبقى مؤمناً مع عدم التقوى ، وذلك يدل على أن الفسق لا يزيل الإيمان .

واعلم أنه تعالى لما أمر المؤمنين بالاتقاء بين لهم ما فى هذا الاتقاء من الفوائد ، فقال تعالى (للذين أحسنوا فى هذه الدنيا حسنة) فقوله (فى هذه الدنيا) يحتمل أن يكون صلة لقوله (أحسنوا) أو لحسنة . فعلى التقدير الأول معناه للذين أحسنوا فى هذه الدنيا لهم حسنة فى الآخرة ، وهى دخول الجنة ، والتنكير فى قوله (حسنة) للتعظيم يعنى حسنة لا يصل العقل إلى كنه كمالها . وأما على (التقدير الثانى) فمعناه الذين أحسنوا فلهم فى هذه الدنيا حسنة ، والقائلون بهذا القول قالوا هذه الحسنة هى الصحة والعافية ، وأقول الأولى أن تحمل على الثلاثة المذكورة فى قوله ﷺ «ثلاثة ليس لها نهاية : الأمن والصحة والكفاية» ومن الناس من قال القول الأول أولى ويدل عليه وجوه (الأول) أن التنكير فى قوله (حسنة) يدل على النهاية والجلالة والرفعة ، وذلك لا يليق

بأحوال الدنيا ، فإنها خسيسة ومنقطعة ، وإنما يليق بأحوال الآخرة ، فإنها شريفة وآمنه من الانقضاء والانقراض (والثانى) أن ثواب المحسن بالتوحيد والأعمال الصالحة إنما يحصل فى الآخرة قال تعالى (اليوم تجزى كل نفس بما كسبت) وأيضاً فنعمة الدنيا من الصحة والأمن والكفاية حاصلة للكفار ، وأيضاً لحصولها للكافر أكثر وأتم من حصولها للمؤمن . كما قال ﷺ « الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر » وقال تعالى (لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفاً من فضة ومعارج عليها يظهرون) . (الثالث) أن قوله (للذين أحسنوا فى هذه الدنيا حسنة) يفيد الحصر ، بمعنى أنه يفيد أن حسنة هذه الدنيا لا تحصل إلا للذين أحسنوا ، وهذا باطل . أما لو حملنا هذه الحسنة على حسنة الآخرة صح هذا الحصر ، فكأن حمله على حسنة الآخرة أولى ، ثم قال الله تعالى (وأرض الله واسعة) وفيه قولان (الأول) المراد أنه لا عذر البتة للمقصرين فى الإحسان ، حتى إنهم إن اعتلوا بأوطانهم وبلادهم ، وأنهم لا يتمكنون فيها من التوفر على الإحسان وصرف الهمم إليه ، قل لهم فإن أرض الله واسعة وبلاده كثيرة ، فتحولوا من هذه البلاد إلى بلاد تقدرون فيها على الاشتغال بالطاعات والعبادات ، واقتدوا بالأنبياء والصالحين فى مهاجرتهم إلى غير بلادهم ، ليزدادوا إحساناً إلى إحسانهم ، وطاعة إلى طاعتهم ، والمقصود منه الترغيب فى الهجرة من مكة إلى المدينة والصبر على مفارقة الوطن ، ونظيره قوله تعالى (قالوا فيم كنتم ، قالوا كنا مستضعفين فى الأرض ، قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها) و(القول الثانى) قال أبو مسلم : لا يمتنع أن يكون المراد من الأرض أرض الجنة ، وذلك لأنه تعالى أمر المؤمنين بالتقوى وهى خشية الله ، ثم بين أن من اتقى فله فى الآخرة الحسنة ، وهى الخلود فى الجنة ، ثم بين أن أرض الله ، أى جنته واسعة ، لقوله تعالى (نتبوأ من الجنة حيث نشاء) وقوله تعالى(وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين) والقول الأول عندى أولى ، لأن قوله(إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب) لا يليق إلا بالأول ، وفى هذه الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ أما تحقيق الكلام فى ماهية الصبر ، فقد ذكرناه فى سورة البقرة ، والمراد ههنا بالصابرين الذين صبروا على مفارقة أوطانهم وعشائرهم ، وعلى تجرع الغصص واحتمال البلايا فى طاعة الله تعالى .

﴿ المسألة الثانية ﴾ تسمية المنافع التى وعد الله بها على الصبر بالأجر توهم أن العمل على الثواب ، لأن الأجر هو المستحق ، إلا أنه قامت الدلائل القاهرة على أن العمل ليس عليه الثواب ، فوجب حمل لفظ الأجر على كونه أجراً بحسب الوعد ، لا بحسب الاستحقاق .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ أنه تعالى وصف ذلك الأجر بأنه بغير حساب ، وفيه وجوه (الأول) قال الجبائى : المعنى أنهم يعطون ما يستحقون ويزدادون تفضلا فهو بغير حساب ، ولو لم يعطوا إلا المستحق لكان ذلك حساباً ، قال القاضى هذا ليس بصحيح ، لأن الله تعالى وصف الأجر

بأنه بغير حساب ، ولو لم يعطوا إلا الأجر المستحق ، والأجر غير التفضل (الثاني) أن الثواب له صفات ثلاثة (أحدها) أنها تكون دائمة الأجر لهم . وقوله (بغير حساب) معناه بغير نهاية ، لأن كل شيء دخل تحت الحساب فهو متناه ، فما لا نهاية له كان خارجاً عن الحساب (وثانيها) أنها تكون منافع كاملة فى أنفسها ، وعقل المطيع ما كان يصل إلى كنه ذلك الثواب ، قال ﷺ « إن فى الجنة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر » وكل ما يشاهدونه من أنواع الثواب وجدوه أزيد مما تصوروه وتوقعوه ، وما لا يتوقعه الإنسان ، فقد يقال إنه ليس فى حسابه ، فقوله (بغير حساب) محمول على هذا المعنى (والوجه الثالث) فى التأويل أن ثواب أهل البلاء لا يقدر بالميزان والمكيال ، روى صاحب الكشاف عن النبي ﷺ أنه قال « ينصب الله الموازين يوم القيامة ، فيؤتى بأهل الصلاة فيوفون أجورهم بالموازين ، ويؤتى بأهل الصدقة فيوفون أجورهم بالموازين ، ويؤتى بأهل البلاء فلا ينصب لهم ميزان ولا ينشر لهم ديوان ، ويصب عليهم الأجر صباً » قال الله تعالى (إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب) حتى يتمنى أهل العافية فى الدنيا أن أجسادهم تقرض بالمقاريض لما به أهل البلاء من الفضل .

﴿ النوع الثانى ﴾ من البيانات أمر الله رسوله أن يذكرها قوله تعالى (قل إنى أمرت أن أعبد الله مخلصاً له الدين) قال مقاتل : إن كفار قريش قالوا للنبي ﷺ ما يحملك على هذا الدين الذى أتيتنا به ؟ ألا تنظر إلى ملة أبيك وجدك وسادات قومك يعبدون اللات والعزى ! فأنزل الله ، قل يا محمد إنى أمرت أن أعبد الله مخلصاً له الدين ، وأقول إن التكليف نوعان (أحدهما) الأمر بالاحتراز عما لا ينبغى (والثانى) الأمر بتحصيل ما ينبغى ، والمرتبة الأولى مقدمة على المرتبة الثانية بحسب الرتبة الواجبة اللازمة ، إذا ثبت هذا فنقول إنه تعالى قدم الأمر بإزالة ما لا ينبغى فقال (اتقوا ربكم) لأن التقوى هى الاحتراز عما لا ينبغى ثم ذكر عقيبه الأمر بتحصيل ما ينبغى فقال (إنى أمرت أن أعبد الله مخلصاً له الدين) وهذا يشتمل على قيدين : (أحدهما) الأمر بعبادة الله (الثانى) كون تلك العبادة خالصة عن شوائب الشرك الجلى وشوائب الشرك الخفى ، وإنما خص الله تعالى الرسول بهذا الأمر لينبه على أن غيره بذلك أحق فهو كالترغيب للغير ، وقوله تعالى (وأمرت لأن أكون أول المسلمين) لا شبهة فى أن المراد إنى أول من تمسك بالعبادات التى أرسلت بها ، وفى هذه الآية فائدتان :

﴿ الفائدة الأولى ﴾ كأنه يقول إنى لست من الملوك الجبابرة الذين يأمرون الناس بأشياء وهم لا يفعلون ذلك ، بل كل ما أمرتكم به فأنا أول الناس شروعاً فيه وأكثرهم مداومة عليه .

﴿ الفائدة الثانية ﴾ أنه قال (إنى أمرت أن أعبد الله) والعبادة لها ركنان عمل القلب وعمل الجوارح ، وعمل القلب أشرف من عمل الجوارح ، فقدم ذكر الجزء الأشرف وهو قوله (مخلصاً له الدين) ثم ذكر عقيبه الأدون وهو عمل الجوارح وهو الإسلام ، فإن النبي صلى الله عليه وسلم

فسر الإسلام فى خبر جبريل عليه السلام بالأعمال الظاهرة ، وهو المراد بقوله فى هذه الآية (وأمرت لأن أكون أول المسلمين) وليس لقائل أن يقول ما الفائدة فى تكرير لفظ (أمرت) لأنا نقول ذكر لفظ (أمرت) أولا فى عمل القلب وثانياً فى عمل الجوارح ولا يكون هذا تكريراً .

﴿ الفائدة الثالثة ﴾ فى قوله (وأمرت لأن أكون أول المسلمين) التنبيه على كونه رسولا من عند الله واجب الطاعة ، لأن أول المسلمين فى شرائع الله لا يمكن أن يكون إلا رسول الله ، لأن أول من يعرف تلك الشرائع والتكاليف هو الرسول المبلغ ، ولما بين الله تعالى أمره بالإخلاص بالقلب وبالأعمال المخصوصة ، وكان الأمر يحتمل الوجوب ويحتمل الندب بين أن ذلك الأمر للوجوب فقال (قل إنى أخاف إن عصيت ربى عذاب يوم عظيم) وفيه فوائد :

﴿ الفائدة الأولى ﴾ أن الله أمر محمداً صلى الله عليه وسلم أن يجرى هذا الكلام على نفسه ، والمقصود منه المبالغة فى زجر الغير عن المعاصى ، لأنه مع جلالة قدره وشرف نبوته إذا وجب أن يكون خائفاً حذراً عن المعاصى فغيره بذلك أولى .

﴿ الفائدة الثانية ﴾ دلت الآية على أن المرتب على المعصية ليس حصول العقاب بل الخوف من العقاب ، وهذا يطابق قولنا إن الله تعالى قد يعفو عن المذنب والكبيرة ، فيكون اللازم عند حصول المعصية هو الخوف من العقاب لانفس حصول العقاب .

﴿ الفائدة الثالثة ﴾ دلت هذه الآية على أن ظاهر الأمر للوجوب ، وذلك لأنه قال فى أول الآية (إنى أمرت أن أعبد الله) ثم قال بعده (قل إنى أخاف إن عصيت ربى عذاب يوم عظيم) فيكون معنى هذا العصيان ترك الأمر الذى تقدم ذكره ، وذلك يقتضى أن يكون تارك الأمر عاصياً ، والعاصى يترتب عليه الخوف من العقاب ، ولامعنى للوجوب إلا ذلك .

﴿ النوع الثالث ﴾ من الأشياء التى أمر الله رسوله أن يذكرها قوله (قل الله أعبد مخلصاً له دينى) فان قيل ما معنى التكرير فى قوله (قل إنى أمرت أن أعبد الله مخلصاً له الدين) وقوله (قل الله أعبد مخلصاً له دينى) ؟ قلنا هذا ليس بتكرير لأن الأول إخبار بأنه مأمور من جهة الله بالإتيان بالعبادة ، والثانى إخبار بأنه أمر بأن لا يعبد أحداً غير الله ، وذلك لأن قوله (أمرت أن أعبد الله) لا يفيد الحصر وقوله تعالى (قل الله أعبد) يفيد الحصر يعنى الله أعبد ولا أعبد أحداً سواه ، والدليل عليه أنه لما قال بعد (قل الله أعبد) قال بعده (فاعبدوا ما شئتم من دونه) ولا شبهة فى أن قوله (فاعبدوا ماشئتم من دونه) ليس أمراً بل المراد منه الزجر ، كأنه يقول لما بلغ البيان فى وجوب رعاية التوحيد إلى الغاية القصوى فبعد ذلك أنتم أعرف بأنفسكم ، ثم بين تعالى كمال الزجر بقوله (قل إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم) لوقوعها فى هلاك لا يعقل هلاك أعظم منه ، وخسروا أهليهم أيضاً لأنهم إن كانوا من أهل النار فقد خسروهم كما خسروا أنفسهم . وإن كانوا من أهل الجنة . فقد ذهبوا عنهم ذهاباً لارجوع بعده البتة . وقال ابن عباس : إن لكل رجل

منزلا وأهلا وخدماً فى الجنة . فان أطاع أعطى ذلك ، وإن كان من أهل النار حرم ذلك فخسر نفسه وأهله ومنزله وورثه غيره من المسلمين ، والخاسر المغبون ، ولما شرح الله خسرانهم وصف ذلك الخسران بغاية الفظاعة فقال (ألا ذلك هو الخسران المبين) كان التكرير لأجل التأكيد (الثانى) أنه تعالى ذكر فى أول هذه الكلمة حرف ألا وهو للتنبيه ، وذكر التنبيه فى هذا الموضع يدل على التعظيم كأنه قيل إنه بلغ فى العظمة إلى حيث لا تصل عقولكم إليها فتنبهوا لها (الثالث) أن كلمة (هو) فى قوله (هو الخسران المبين) تفيد الحصر كأنه قيل كل خسران فإنه يصير فى مقابلته كلا خسران (الرابع) وصفه بكونه (مبيناً) يدل على التهويل ، وأقول قد بينا أن لفظ الآية يدل على كونه (خسراناً مبيناً) فلنبين بحسب المباحث العقلية كونه خسراناً مبيناً ، وأقول نفتقر إلى بيان أمرين إلى أن يكون خسراناً ثم كونه مبيناً (أما الأول) فتقريره أنه تعالى أعطى هذه الحياة وأعطى العقل ، وأعطى المكنة وكل ذلك رأس المال ، أما هذه الحياة فالمقصود منها أن يكتسب فيها الحياة الطيبة فى الآخرة .

وأما العقل فإنه عبارة عن العلوم البديهية وهذه العلوم هى رأس المال والنظر ، والفكر لا معنى له إلا ترتيب علوم ليتوصل بذلك الترتيب إلى تحصيل علوم كسبية . فتلك العلوم البديهية المسماة بالعقل رأس المال وتركيبها على الوجوه المخصوصة يشبه تصرف التاجر فى رأس المال وتركيبها على الوجوه بالبيع والشراء ، وحصول العلم بالنتيجة يشبه حصول الربح ، وأيضاً حصول القدرة على الأعمال يشبه رأس المال ، واستعمال تلك القوة فى تحصيل أعمال البر والخير يشبه تصرف التاجر فى رأس المال ، وحصول أعمال الخير والبر يشبه الربح ، إذا ثبت هذا فنقول : إن من أعطاه الله الحياة والعقل والتمكن ، ثم إنه لم يستفد منها لا معرفة الحق ولا عمل الخير البتة كان محروماً عن الربح بالكلية ، وإذا مات فقد ضاع رأس المال بالكلية فكان ذلك خسراناً ، فهذا بيان كونه خسراناً (وأما الثانى) وهو بيان كون ذلك الخسران مبيناً فهو أن من لم يربح الزيادة ولكنه مع ذلك سلم من الآفات والمضار . فهذا كما لم يحصل له مزيد نفع لم يحصل له أيضاً مزيد ضرر ، أما هؤلاء الكفار فقد استعملوا عقولهم التى هى رأس مالهم فى استخراج وجوه الشبهات وتقوية الجهالات والضلالات ، واستعملوا قواهم وقدرهم فى أفعال الشر والباطل والفساد ، فهم قد جمعوا بين أمور فى غاية الرداءة (أولها) أنهم أتعبوا أبدانهم وعقولهم طلباً فى تلك العقائد الباطلة والأعمال الفاسدة (وثانيها) أنهم عند الموت يضيع عنهم رأس المال من غير فائدة (وثالثها) أن تلك المتاعب الشديدة التى كانت موجودة فى الدنيا فى نصرة تلك الضلالات تصير أسباباً للعقوبة الشديدة والبلاء العظيم بعد الموت ، وعند الوقوف على هذه المعانى يظهر أنه لا يعقل خسران أقوى من خسرانهم ، ولا حرمان أعظم من حرمانهم ، ونعوذ بالله منه .

ولما شرح الله تعالى أحوال حرمانهم عن الربح وبين كيفية خسرانهم ، بين أنهم لم يقتصروا على الحرمان والخسران ، بل ضموا إليه استحقاق العذاب العظيم والعقاب الشديد . فقال (لهم من

وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ

فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل) والمراد إحاطة النار بهم من جميع الجوانب، ونظيره فى الأحوال النفسانية إحاطة الجهل والحرمان والحرص وسائر الأخلاق الذميمة بالإنسان ، فان قيل الظلل ماعلى الإنسان فكيف سمى ماتحته بالظلل؟ والجواب من وجوه (الأول) أنه من باب إطلاق اسم أحد الضدين على الآخر كقوله (وجزاء سيئة سيئة مثلها) ، (الثانى) أن الذى يكون تحته يكون ظلة لإنسان آخر تحته لأن النار دركات كما أن الجنة درجات (والثالث) أن الظلة التحتانية إذا كانت مشابهة للظلة الفوقانية فى الحرارة والإحراق والإيذاء، أطلق اسم أحدهما على الآخر لأجل المماثلة والمشابهة . قال الحسن هم بين طبقتين من النار لايدرون مافوقهم أكثر مما تحتهم ، ونظير هذه الآية قوله تعالى (يوم يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم) وقوله تعالى (لهم من جهنم مهاد ، ومن فوقهم غواش) .

ثم قال تعالى (ذلك يخوف الله به عباده) أى ذلك الذى تقدم ذكره من وصف العذاب فقوله (ذلك) مبتدأ وقوله (يخوف الله به عباده) خبر . وفى قوله (يخوف الله به عباده) قولان (الأول) التقدير ذلك العذاب المعد للكفار هو الذى يخوف الله به عباده أى المؤمنين، لأنا بينا أن لفظ العباد فى القرآن مختص بأهل الإيمان وإنما كان تخويفاً للمؤمنين لأجل أنهم إذا سمعوا أن حال الكفار ماتقدم خافوا فأخلصوا فى التوحيد والطاعة (الوجه الثانى) أن هذا الكلام فى تقدير جواب عن سؤال ، لأنه يقال إنه تعالى غنى عن العالمين منزه عن الشهوة والانتقام وداعية الإيذاء ، فكيف يليق به أن يعذب هؤلاء المساكين إلى هذا الحد العظيم ، وأجيب عنه بأن المقصود منه تخويف الكفار والضلال عن الكفر والضلال ، فاذا كان التكليف لا يتم إلا بالتخويف والتخويف لايكمل الانتفاع به إلا بإدخال ذلك الشيء فى الوجود وجب إدخال ذلك النوع من العذاب فى الوجود تحصيلا لذلك المطلوب الذى هو التكليف ، والوجه الأول عندى أقرب ، والدليل عليه أنه قال بعده (يا عباد فاتقون) وقوله (يا عباد) الأظهر منه أن المراد منه المؤمنون فكأنه قيل المقصود من شرح عذاب الكفار للمؤمنين تخويف المؤمنين فياأيها المؤمنون بالغوا فى الخوف والحذر والتقوى .

قوله تعالى : ﴿ والذين اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها وأنابوا إلى الله لهم البشرى فبشر عباد ، الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الألباب ، أفمن

أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴿١٨﴾ أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ ﴿١٩﴾ لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِنْ فَوْقِهَا غُرَفٌ مَبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ ﴿٢٠﴾

حق عليه كلمة العذاب أفأنت تنقذ من فى النار ، لكن الذين اتقوا ربهم لهم غرف مبنية تجرى من تحتها الأنهار وعد الله لا يخلف الله الميعاد ﴾ .

اعلم أن الله تعالى لما ذكر وعيد عبدة الأصنام والأوثان ذكر وعد من اجتنب عبادتها واحترز عن الشرك ، ليكون الوعد مقروناً بالوعيد أبداً فيحصل كمال الترغيب والترهيب ، وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قال صاحب الكشاف : الطاغوت فعلوت من الطغيان كالملكوت والرحموت إلا أن فيها قلباً بتقديم اللام على العين ، وفى هذا اللفظ أنواع من المبالغة (أحدها) التسمية بالمصدر كأن عين ذلك الشيء الطغيان (وثانيها) أن البناء بناء المبالغة فإن الرحموت الرحمة الواسعة والملكوت الملك المبسوط (وثالثها) ماذكرنا من تقديم اللام على العين ومثل هذا إنما يصار إليه عند المبالغة .

﴿ المسألة الثانية ﴾ اختلفوا فى أن المراد من الطاغوت ههنا الشيطان أم الأوثان ، فقيل إنه الشيطان فان قيل إنهم ماعبدوا الشيطان وإنما عبدوا الصنم ، قلنا الداعى إلى عبادة الصنم لما كان هو الشيطان كان الإقدام على عبادة الصنم عبادة للشيطان ، وقيل المراد بالطاغوت الصنم وسميت طواغيت على سبيل المجاز لأنه لافعل لها ، والطغاة هم الذين يعبدونها إلا أنه لما حصل الطغيان عند مشاهدتها والقرب منها ، وصفت بهذه الصفة إطلاقاً لإسم المسبب على السبب بحسب الظاهر ، وقيل كل مايعبد ويطاع من دون الله فهو طاغوت ، ويقال فى التواريخ إن الأصل فى عبادة الأصنام ، أن القوم كانوا مشبهة اعتقدوا فى الإله أنه نور عظيم ، وفى الملائكة أنها أنوار مختلفة فى الصغر والكبر ، فوضعوا تماثيل وصوراً على وفق تلك الخيالات فكانوا يعبدون تلك التماثيل على اعتقاد أنهم يعبدون الله والملائكة ، وأقول حاصل الكلام فى قوله (والذين اجتنبوا الطاغوت) أى أعرضوا عن عبوديه كل ماسوى الله . قوله تعالى (وأنابوا إلى الله) أى رجعوا بالكلية إلى الله . ورأيت فى السفر الخامس من التوراة ، أن الله تعالى قال لموسى : ياموسى أجب إلهك بكل قلبك . وأقول مادام يبقى فى القلب التفات إلى غير الله فهو ما أجاب إلهه بكل قلبه ، وإنما تحصل الإجابة بكل القلب إذا أعرض القلب عن كل ما سوى الله من باب الطاعات فكيف يعرض عنها مع

أنه بالحس يشاهد الأسباب المفضية إلى المسببات فى هذا العالم ، قلنا ليس المراد من إعراض القلب عنها أن يقضى عليها بالعدم فان ذلك دخول فى السفسطة وهو باطل ، بل المراد أن يعرف أن واجب الوجود لذاته واحد ، وأن كل ما سواه فإنه ممكن الوجود لذاته وكل ما كان ممكناً لذاته فانه لايوجد إلا بتكوين الواجب وإيجاده ، ثم إنه سبحانه وتعالى جعل تكوينه للأشياء على قسمين منها ما يكون بغير واسطة وهى عالم السموات والروحانيات ، ومنها ما يكون بواسطة وهو عالم العناصر والعالم الأسفل ، فإذا عرفت الأشياء على هذا الوجه عرفت أن الكل لله ومن الله وبالله ، وأنه لا مدبر إلا هو ولا مؤثر غيره . وحينئذ ينقطع نظره عن هذه الممكنات ويبقى مشغول القلب بالمؤثر الأول والموجد الأول ، فإنه إن كان قد وضع الأسباب الروحانية والجسمانية بحيث يتأدى إلى هذا المطلوب ، فهذا الشىء يحصل وإن كان قد وضع بحيث لا يفضى إلى حصول هذا الشىء لم يحصل ، وبهذا الطريق ينقطع نظره عن الكل ولا يبقى فى قلبه التفات إلى شىء إلا إلى الموجود الأول ، وقد اتفق أنى كنت أنصح بعض الصبيان فى حفظ العرض والمال فعارضنى وقال لايجوز الاعتماد على الجد والجهد بل يجب الاعتماد على قضاء الله وقدره . فقلت هذه كلمة حق سمعتها ولكنك ماعرفت معناها ، وذلك لأنه لاشبهة أن الكل من الله تعالى إلاأنه سبحانه دبر الأشياء على قسمين منها ما جعل حدوثه وحصوله معلقاً بأسباب معلومة ومنها مايحدثه من غير واسطة هذه الأسباب .

﴿ أما القسم الأول ﴾ فهو حوادث هذا العالم الأسفل .

﴿ وأما القسم الثانى ﴾ فهو حوادث هذا العالم الأعلى ، وإذا ثبت هذا فنقول من طلب حوادث هذا العالم الأسفل لا من الأسباب التى عينها الله تعالى كان هذا الشخص منازعاً لله فى حكمته مخالفاً فى تدبيره ، فإن الله تعالى حكم بحدوث هذه الأشياء بناء على تلك الأسباب المعينة المعلومة وأنت تريد تحصيلها لا من تلك الأسباب ، فهذا هو الكلام فى تحقيق الإعراض عن غير الله والإقبال بالكلية على الله تعالى فقوله تعالى (والذين اجتنبوا الطاغوت) إشارة إلى الإعراض عن غير الله وقوله تعالى (وأنابوا إلى الله) إشارة إلى الإقبال بالكلية على عبادة الله ، ثم إنه تعالى وعد هؤلاء بأشياء (أحدها) قوله تعالى (لهم البشرى) واعلم أن هذه الكلمة تتعلق بجهات (أحدها) أن هذه البشارة متى تحصل ؟ فنقول إنها تحصل عند القرب من الموت وعند الوضع فى القبر وعند الوقوف فى عرصة القيامة وعند ما يصير فريق فى الجنة وفريق فى السعير وعند ما يدخل المؤمنون الجنة ، ففى كل موقف من هذه المواقف تحصل البشارة بنوع من الخير والروح والراحة والريحان (وثانيها) أن هذه البشارة فبماذا تحصل ؟ فنقول إن هذه البشارة تحصل بزوال المكروهات وبحصول المرادات ، أما زوال المكروهات فقوله تعالى (أن لا تخافوا ولا تحزنوا) والخوف إنما يكون من المستقبل والحزن إنما يكون بسبب الأحوال الماضية فقوله (أن

لا تخافوا) يعني لا تخافوا فيما تستقبلونه من أحوال القيامة ولا تحزنوا بسبب ما فاتكم من خيرات الدنيا ، ولما أزال الله عنهم هذه المكروهات بشرهم بحصول الخيرات والسعادات فقال (وأبشروا بالجنة) وقال أيضاً فى آية أخرى (يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم بشراكم اليوم جنات تجرى من تحتها الأنهار) وقال أيضاً (وفيها ماتشتهيه الأنفس وتلذ الأعين وأنتم فيها خالدون) (والثالث) أن المبشر من هو ؟ فنقول يحتمل أن يكون هم الملائكة ، إما عند الموت فقوله (الذين تتوفاهم الملائكة طيبين يقولون سلام عليكم) وإما بعد دخول الجنة فقوله (الملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار) ويحتمل أن يكون هو الله سبحانه كما قال (تحيتهم يوم يلقونه سلام) .

واعلم أن قوله (لهم البشرى) فيه أنواع من التأكيدات (أحدها) أنه يفيد الحصر فقوله (لهم البشرى) أى لهم لا لغيرهم ، وهذا يفيد أنه لا بشارة لأحد إلا إذا اجتنب عبادة غير الله تعالى وأقبل بالكلية على الله تعالى (وثانيها) أن الألف واللام فى لفظ البشرى مفيد الماهية فيفيد أن هذه الماهية بتمامها لهؤلاء ، ولم يبق منها نصيب لغيرهم (وثالثها) أن لافرق بين الإخبار وبين البشارة فالبشارة هو الخبر الأول بحصول الخيرات . إذا عرفت هذا فنقول كل ما سمعوه فى الدنيا من أنواع الثواب والخير إذا سمعوه عند الموت أو فى القبر فذاك لايكون إلا إخباراً ، فثبت أن هذه البشارة لا تتحقق إلا إذا حصل الإخبار بحصول أنواع أخر من السعادات فوق ما عرفوها وسمعوها فى الدنيا نسأل الله تعالى الفوز بها ، قال تعالى (فلا تعلم نفس ماأخفى لهم من قرة أعين) (ورابعها) أن المخبر بقوله (لهم البشرى) هو الله تعالى وهو أعظم العظماء وأكمل الموجودات والشرط المعتبر فى حصول هذه البشارة شرط عظيم وهو الإجتناب عما سوى الله تعالى والإقبال بالكليـــة على الله والسلطان العظيم إذا ذكر شرطاً عظيما . ثم قال لمن أتى بذلك الشرط العظيم أبشر فهذه البشارة الصادرة من السلطان العظيم المرتبة على حصول ذلك الشرط العظيم تدل على أن الذى وقعت البشارة به قد بلغ فى الكمال والرفعة إلى حيث لا يصل إلى شرحها العقول والأفكار ، فثبت أن قوله (لهم البشرى) يدل على نهاية الكمال والسعادة من هذه الوجوه والله أعلم .

(واعلم أنه تعالى) لما قال (لهم البشرى) وكان هذا كالمجمل أردفه بكلام يجرى مجرى التفسير والشرح له فقال تعالى (فبشر عباد الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه) وأراد بعباده الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، الذين اجتنبوا وأنابوا لاغيرهم وهذا يدل على أن رأس السعادات ومركز الخيرات ومعدن الكرامات هو الإعراض عن غير الله تعالى ، والإقبال بالكلية على طاعة الله ، والمقصود من هذا اللفظ التنبيه على أن الذين اجتنبوا الطاغوت وأنابوا ، هم الموصوفون بأنهم هم الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه . فوضع الظاهر موضع المضمر تنبيهاً

على هذا الحرف ، ومنهم من قال إنه تعالى لما بين أن الذين اجتنبوا وأنابوا لهم البشرى وكان ذلك درجة عالية لا يصل إليها إلا الأولون ، وقصر السعادة عليهم يقتضي الحرمان للأكثرين ، وذلك لا يليق بالرحمة التامة ، لا جرم جعل الحكم أعم فقال كل من اختار الأحسن فى كل باب كان فى زمرة السعداء . واعلم أن هذه الآية تدل على فوائد :

﴿ الفائدة الاولى ﴾ وجوب النظر والاستدلال ، وذلك لأنه تعالى بين أن الهداية والفلاح مرتبطان بما إذا سمع الإنسان أشياء كثيرة ، فإنه يختار منها ما هو الأحسن الأصوب ، ومن المعلوم أن تمييز الأحسن الأصوب عما سواه لا يحصل بالسماع ، لأن السماع صار قدراً مشتركا بين الكل ، لأن قوله (الذين يستمعون القول) يدل على أن السماع قدر مشترك فيه ، فثبت أن تمييز الأحسن عما سواه لا يتأتى بالسماع وإنما يتأتى بحجة العقل ، وهذا يدل على أن الموجب لاستحقاق المدح والثناء متابعة حجة العقل وبناء الأمر على النظر والاستدلال .

﴿ الفائدة الثانية ﴾ أن الطريق إلى تصحيح المذاهب والأديان قسمان (أحدهما) إقامة الحجة والبينة على صحته على سبيل التحصيل ، وذلك أمر لا يمكن تحصيله إلا بالخوض فى كل واحد من المسائل على التفصيل (والثانى) أنا قبل البحث عن الدلائل وتقريرها والشبهات وتزييفها نعرض تلك المذاهب وأضدادها على عقولنا ، فكل ما حكم أول العقل بأنه أفضل وأكمل كان أولى بالقبول . مثاله أن صريح العقل شاهد بأن الإقرار بأن إله العالم حى عالم قادر حليم حكيم رحيم ، أولى من إنكار ذلك ، فكان ذلك المذهب أولى ، والإقرار بأن الله تعالى لا يجرى فى ملكه وسلطانه إلا ما كان على وفق مشيئته أولى من القول بأن أكثر ما يجرى فى سلطان الله على خلاف إرادته ، وأيضاً الإقرار بأن الله فرد أحد صمد منزه عن التركيب والأعضاء أولى من القول بكونه متبعضاً مؤلفاً ، وأيضاً القول باستغنائه عن الزمان والمكان أولى من القول باحتياجه اليهما ، وأيضاً القول بأن الله رحيم كريم قد يعفو عن العقاب أولى من القول بأنه لا يعفو عنه البتة ، وكل هذه الأبواب تدخل تحت قوله (الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه) فهذا ما يتعلق باختيار الأحسن فى أبواب الاعتقادات .

وأما ما يتعلق بأبواب التكاليف فهو على قسمين : منها ما يكون من أبواب العبادات ، ومنها ما يكون من أبواب المعاملات ، فأما العبادات فمثل قولنا الصلاة التى يذكر فى تحريمها الله أكبر وتكون النية فيها مقارنة للتكبير ، ويقرأ فيها سورة الفاتحة ، ويؤتى فيها بالطمأنينة فى المواقف الخمسة ، ويقرأ فيها التشهد ، ويخرج منها بقوله السلام عليكم ، فلا شك أنها أحسن من الصلاة التى لا يراعى فيها شىء من هذه الأحوال ، وتوجب على العاقل أن يختار هذه الصلاة ، وأن يترك ما سواها ، وكذلك القول فى جميع أبواب العبادات . وأما المعاملات فكذلك مثل أنه تعالى شرع القصاص والدية والعفو ، ولكنه ندب إلى العفو فقال (وأن تعفوا أقرب للتقوى) وعن ابن عباس

أن المراد منه الرجل يجلس مع القوم ويسمع الحديث فيه محاسن ومساوىء ، فيحدث بأحسن ما سمع ويترك ما سواه .

واعلم أنه تعالى حكم على الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه بأن قال (أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الألباب) وفى ذلك دقيقة عجيبة ، وهى أن حصول الهداية فى العقل والروح أمر حادث ، ولا بد له من فاعل وقابل . أما الفاعل فهو الله سبحانه وهو المراد من قوله (أولئك الذين هداهم الله) وأما القابل فإليه الإشارة بقوله (وأولئك هم أولوا الألباب) فإن الإنسان ما لم يكن عاقلا كامل الفهم امتنع حصول هذه المعارف الحقية فى قلبه . وإنما قلنا إن الفاعل لهذه الهداية هو الله ، وذلك لأن جوهر النفس مع ما فيها من نور العقل قابل للاعتقاد الحق والاعتقاد الباطل ، وإذا كان الشىء قابلا للضدين كانت نسبة ذلك القابل إليهما على السوية ، ومتى كان الأمر كذلك امتنع كون ذلك القابل سبباً لرجحان أحد الطرفين ، ألا ترى أن الجسم لما كان قابلا للحركة والسكون على السوية ، امتنع أن تصير ذات الجسم سبباً لرجحان أحد الطرفين على الآخر، فإن قالوا لا نقول إن ذات النفس والعقل يوجب هذا الرجحان ، بل نقول إنه يريد تحصيل أحد الطرفين ، فتصير تلك الإرادة سبباً لذلك الرجحان ، فنقول هذا باطل ، لأن ذات النفس كما أنها قابلة لهذه الإرادة ، فكذلك ذات العقل قابلة لإرادة مضادة لتلك الإرادة ، فيمتنع كون جوهر النفس سبباً لتلك الإرادة . فثبت أن حصول الهداية لابد لها من فاعل ومن قابل (أما الفاعل) فيمتنع أن يكون هو النفس ، بل الفاعل هو الله تعالى (وأما القابل) فهو جوهر النفس ، فلهذا السبب قال (أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الألباب) ثم قال (أفمن حق عليه كلمة العذاب أفأنت تنقذ من فى النار) وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ فى لفظ الآية سؤال وهو أنه يقال إنه قال (أفمن حق عليه كلمة العذاب) ولا يصح فى الكلام العربى أن يدخل حرف الاستفهام على الإسم وعلى الخبر معاً . فلا يقال أزيد أتقتله ، بل ههنا شىء آخر ، وهو أنه كما دخل حرف الاستفهام على الشرط وعلى الجزاء ، فكذلك دخل حرف الفاء عليهما معاً وهو قوله (أفمن حق) ، (أفأنت تنقذ) ولأجل هذا السؤال اختلف النحويون وذكروا فيه وجوها (الأول) قال الكسائى : الآية جملتان والتقدير أفمن حق عليه كلمة العذاب . أفأنت تحميه ، أفأنت تنقذ من فى النار (الثانى) قال صاحب الكشاف : أصل الكلام أفمن حق عليه كلمة العذاب أفأنت تنقذه ، وهى جملة شرطية دخل عليها همزة الإنكار والفاء فاء الجزاء ، ثم دخلت الفاء التى فى أولها للعطف على محذوف يدل عليه الخطاب والتقدير أأنت مالك أمرهم ، فمن حق عليه كلمة العذاب أفأنت تنقذه ، والهمزة الثانية هى الأولى كررت لتوكيد معنى الإنكار والاستبعاد ، ووضع من فى النار موضع الضمير ، والآية على هذا جملة واحدة (الثالث) لا يبعد أن يقال إن حرف الاستفهام إنما ورد ههنا لإفادة معنى الإنكار ، ولما كان استنكاره هذا

المعنى كاملا تاماً . لاجرم ذكر هذا الحرف فى الشرط وأعاده فى الجزاء تنبيهاً على المبالغة التامة فى ذلك الإنكار .

﴿ المسألة الثانية ﴾ احتج الأصحاب بهذه الآية فى مسألة الهدى والضلال ، وذلك لأنه تعالى قال (أفمن حق عليه كلمة العذاب) فإذا حقت كلمة العذاب عليه امتنع منه فعل الإيمان والطاعة ، وإلا لزم انقلاب خبر الله الصدق كذباً ، وانقلاب علمه جهلا وهو محال (والوجه الثانى) فى الاستدلال بالآية أنه تعالى حكم بأن حقية كلمة العذاب توجب الإستنكار التام من صدور الإيمان والطاعة عنه . ولو كان ذلك ممكناً ولم تكن حقية كلمة العذاب مانعة منه لم يبق لهذا الاستنكار والاستبعاد معنى .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ احتج القاضى بهذه الآية على أن النبى ﷺ لا يشفع لأهل الكبائر ، قال لأنه حق عليهم العذاب فتلك الشفاعة تكون جارية مجرى إنقاذهم من النار ، وأن الله تعالى حكم عليهم بالإنكار والإستبعاد ، فيقال له لا نسلم أن أهل الكبائر قد حق عليهم العذاب وكيف يحق العذاب عليهم مع أن الله تعالى قال (إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) ومع قوله (إن الله يغفر الذنوب جميعاً) والله أعلم .

﴿ النوع الثانى ﴾ من الأشياء التى وعدها الله هؤلاء الذين اجتنبوا وأنابوا قوله تعالى (لكن الذين اتقوا ربهم لهم غرف من فوقها غرف مبنية) وهذا كالمقابل لما ذكر فى وصف الكفار (لهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل) فإن قيل مامعنى قوله (مبنية) ؟ قلنا لأن المنزل إذا بنى على منزل آخر تحته كان الفوقانى أضعف بناء من التحتانى فقوله (مبنية) معناه أنه وإن كان فوق غيره لكنه فى القوة والشدة مساو للمنزل الأسفل ، والحاصل أن المنزل الفوقانى والتحتانى حصل فى كل واحد منهما فضيلة ومنقصة ، أما الفوقانى ففضيلته العلو والارتفاع ونقصانه الرخاوة والسخافة ، وأما التحتانى فبالضد منه ، أما منازل الجنة فإنها تكون مستجمعة لكل الفضائل وهى عالية مرتفعة وتكون فى غاية القوة والشدة . وقال حكماء الإسلام هذه الغرف المبنية بعضها فوق البعض ، مثاله من الأحوال النفسانية العلوم الكسبية فإن بعضها يكون مبنياً على البعض والنتائج الآخرة التى هى عبارة عن معرفة ذات الله وصفاته تكون فى غاية القوة بل تكون فى القوة والشدة كالعلوم الأصلية البديهية .

ثم قال (تجرى من تحتها الأنهار) وذلك معلوم ، ثم ختم الكلام فقال (وعد الله لايخلف الله الميعاد) فقوله (وعد الله) مصدر مؤكد لأن قوله (لهم غرف) فى معنى وعدهم الله ذلك وفى الآية دقيقة شريفة ، وهى أنه تعالى فى كثير من آيات الوعد صرح بأن هذا وعد الله وأنه لايخلف وعده ولم يذكر فى آيات الوعيد البتة مثل هذا التأكيد والتقوية ، وذلك يدل على أن جانب الوعد أرجح من جانب الوعيد بخلاف مايقوله المعتزلة ، فإن قالوا أليس أنه قال فى جانب الوعيد (مايبدل

أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَـٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَـٰمًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ (٢١)

القول لدى وما أنا بظلام للعبيد) قلنا قوله مايبدل القول لدى ليس تصريحاً بجانب الوعيد بل هو كلام عام يتناول القسمين أعنى الوعد والوعيد ، فثبت أن الترجيح الذى ذكرناه حق والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فسلكه ينابيع فى الأرض ثم يخرج به زرعا مختلفاً ألوانه ثم يهيج فتراه مصفراً ثم يجعله حطاماً إن فى ذلك لذكرى لأولى الألباب ﴾

اعلم أنه تعالى لما وصف الآخرة بصفات توجب الرغبة العظيمة لأولى الألباب فيها وصف الدنيا بصفة توجب اشتداد النفرة عنها ، وذلك أنه تعالى بين أنه أنزل من السماء ماء وهو المطر وقيل كل ما كان فى الأرض فهو من السماء ، ثم إنه تعالى ينزله إلى بعض المواضع ثم يقسمه فيسلكه ينابيع فى الأرض ، أى فيدخله وينظمه ينابيع فى الأرض عيوناً ، ومسالك ومجارى كالعروق فى الأجسام ، ثم يخرج به زرعاً مختلفا ألوانه من خضرة وحمرة وصفرة وبياض وغير ذلك ، أو مختلفاً أصنافه من بر وشعير وسمسم ثم يهيج ، وذلك لأنه إذا تم جفافه جازله أن ينفصل عن منابته ، وإن لم تتفرق أجزاؤه ، فتلك الأجزاء كأنها هاجت لأن تتفرق ثم يصير حطاماً يابساً (إن فى ذلك لذكرى) يعنى أن من شاهد هذه الأحوال فى النبات علم أن أحوال الحيوان والإنسان كذلك وأنه وإن طال عمره فلابد له من الانتهاء إلى أن يصير مصفر اللون منحطم الأعضاء والأجزاء ، ثم تكون عاقبته الموت . فإذا كانت مشاهدة هذه الأحوال فى النبات تذكره حصول مثل هذه الأحوال فى نفسه وفى حياته ، فحينئذ تعظم نفرته فى الدنيا وطيباتها . والحاصل أنه تعالى فى الآيات المتقدمة ذكر مايقوى الرغبة فى الآخرة ، وذكر فى هذه الآية مايقوى النفرة عن الدنيا ، فشرح صفات القيامة يقوى الرغبة فى طاعة الله ، وشرح صفات الدنيا يقوى النفرة عن الدنيا ، وإنما قدم الترغيب فى الآخرة على التنفير عن الدنيا ، لأن الترغيب فى الآخرة مقصود بالذات ، والتنفير عن الدنيا مقصود بالعرض ، والمقصود بالذات مقدم على المقصود بالعرض ، فهذا تمام الكلام فى تفسير الآية ، بقى ههنا ما يتعلق بالبحث عن الألفاظ ، قال الواحدى : والينابيع جمع ينبوع وهو يفعول من نبع ينبع يقال نبع الماء ينبع وينبع وينبع ثلاث لغات ذكرها الكسائى والفراء ، وقوله (ينابيع) نصب بحذف الخافض لأن التقدير فسلكه فى ينابيع ثم يهيج أى يخضر ، والحطام مايجف ويتفتت ويكسر من النبت .

أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم
مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا
مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ
إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾
أَفَمَن يَتَّقِى بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ
تَكْسِبُونَ ﴿٢٤﴾ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ
﴿٢٥﴾ فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْىَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا۟
يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ
يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾

قوله تعالى : ﴿ أفمن شرح الله صدره للاسلام فهو على نور من ربه فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله أولئك فى ضلال مبين ، الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثانى تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ذلك هدى الله يهدى به من يشاء ومن يضلل الله فما له من هاد ، أفمن يتقى بوجهه سوء العذاب يوم القيامة وقيل للظالمين ذوقوا ما كنتم تكسبون ، كذب الذين من قبلهم فأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون ، فأذاقهم الله الخزى فى الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون ، ولقد ضربنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل لعلهم يتذكرون ، قرآناً عربياً غير ذى عوج لعلهم يتقون ﴾ وفيه مسائل :

﴿ **المسألة الأولى** ﴾ اعلم أنه تعالى لما بالغ فى تقرير البيانات الدالة على وجوب الإقبال على طاعة الله تعالى ووجوب الإعراض عن الدنيا بين بعد ذلك أن الانتفاع بهذه البيانات لا يكمل إلا إذا شرح الله الصدور ونور القلوب فقال (أفمن شرح الله صدره للاسلام فهو على نور من ربه) واعلم أنا بالغنا فى سورة الأنعام فى تفسير قوله (فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام)

فى تفسير شرح الصدر وفى تفسير الهداية ، ولا بأس بإعادة كلام قليل ههنا ، فنقول إنه تعالى خلق جواهر النفوس مختلفة بالماهية فبعضها خيرة نورانية شريفة مائلة إلى الإلهيات عظيمة الرغبة فى الاتصال بالروحانيات ، وبعضها نذلة كدرة خسيسة مائلة إلى الجسمانيات وفى هذا التفاوت أمر حاصل فى جواهر النفوس البشرية ، والاستقراء يدل على أن الأمر كذلك ، إذا عرفت هذا فنقول المراد بشرح الصدر هو ذلك الاستعداد الشديد الموجود فى فطرة النفس ، وإذا كان ذلك الاستعداد الشديد حاصلا كفى خروج تلك الحالة من القوة إلى الفعل بأدنى سبب ، مثل الكبريت الذى يشتعل بأدنى نار ، أما إذا كانت النفس بعيدة عن قبول هذه الجلايا القدسية والأحوال الروحانية ، بل كانت مستغرقة فى طلب الجسمانيات قليلة التأثر عن الأحوال المناسبة للالهيات فكانت قاسية كدرة ظلمانية ، وكلما كان إيراد الدلائل اليقينية والبراهين الباهرة عليها أكثر كانت قسوتها وظلمتها أقل . إذا عرفت هذه القاعدة فنقول . أما شرح الصدر فهو ما ذكرناه ، وأما النور فهو عبارة عن الهداية والمعرفة ، ومالم يحصل شرح الصدر أولا لم يحصل النور ثانياً ، وإذا كان الحاصل هو القوة النفسانية لم يحصل الانتفاع البتة بسماع الدلائل ، وربما صار سماع الدلائل سبباً لزيادة القسوة ولشدة النفرة فهذه أصول يقينية يجب أن تكون معلومة عند الإنسان حتى يمكنه الوقوف على معانى هذه الآيات ، أما استدلال أصحابنا فى مسألة الجبر والقدر وكلام الخصوم عليه فقد تقدم هناك والله أعلم .

﴿ المسألة الثانية ﴾ من محذوف الخبر كما فى قوله (أمن هو قانت) والتقدير : أفمن شرح الله صدره للاسلام فاهتدى كمن طبع على قلبه فلم يهتد لقسوته ، والجواب متروك لأن الكلام المذكور دل عليه وهو قوله تعالى (فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله) .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قوله (فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله) فيه سؤال ، وهو أن ذكر الله سبب لحصول النور والهداية وزيادة الإطمئنان كما قال (ألا بذكر الله تطمئن القلوب) فكيف جعله فى هذه الآية سبباً لحصول قسوة القلب ، والجواب أن نقول إن النفس إذا كانت خبيثة الجوهر كدرة العنصر بعيدة عن مناسبة الروحانيات شديدة الميل إلى الطبائع البهيمية والأخلاق الذميمة ، فان سماعها لذكر الله يزيدها قسوة وكدورة ، وتقرير هذا الكلام بالأمثلة فإن الفاعل الواحد تختلف أفعاله بحسب اختلاف القوابل كنور الشمس يسود وجه القصار ويبيض ثوبه ، وحرارة الشمس تلين الشمع وتعقد الملح ، وقد نرى إنساناً واحداً يذكر كلاماً واحداً فى مجلس واحد فيستطيبه واحد ويستكرهه غيره ، وما ذاك إلا ما ذكرناه من اختلاف جواهر النفوس ، ومن اختلاف أحوال تلك النفوس ، ولما نزل قوله تعالى (ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين) وكان قد حضر هناك عمر بن الخطاب وإنسان آخر فلما انتهى رسول الله ﷺ إلى قوله تعالى (ثم أنشأناه خلقاً آخر) قال كل واحد منهم (فتبارك الله أحسن الخالقين) فقال رسول الله ﷺ

« اكتب فهكذا أنزلت » فازداد عمر إيماناً على إيمان وازداد ذلك الإنسان كفراً على كفر . إذا عرفت هذا لم يبعد أيضاً أن يكون ذكر الله يوجب النور والهداية والاطمئنان فى النفوس الطاهرة الروحانية ، ويوجب القسوة والبعد عن الحق فى النفوس الخبيثة الشيطانية ، إذا عرفت هذا فنقول إن رأس الأدوية التى تفيد الصحة الروحانية ورئيسها هو ذكر الله تعالى ، فاذا اتفق لبعض النفوس أن صار ذكر الله تعالى سبباً لازدياد مرضها كان مرض تلك النفس مرضاً لا يرجى زواله ولا يتوقع علاجه وكانت فى نهاية الشر والرداءة ، فلهذا المعنى قال تعالى (فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله أولئك فى ضلال مبين) وهذا كلام كامل محقق . ولما بين تعالى ذلك أردفه بما يدل على أن القرآن سبب لحصول النور والشفاء والهداية وزيادة الاطمئنان ، والمقصود منه بيان أن القرآن لما كان موصوفاً بهذه الصفات ، ثم إنه فى حق ذلك الإنسان صار سبباً لمزيد القسوة دل ذلك على أن جوهر تلك النفس قد بلغ فى الرداءة والخساسة إلى أقصى الغايات . فنقول إنه تعالى وصف القرآن بأنواع من صفات الكمال .

﴿ الصفة الأولى ﴾ قوله تعالى (الله نزل أحسن الحديث) وفيه مسائل :

﴿ **المسألة الأولى** ﴾ القائلون بحدوث القرآن احتجوا بهذه الآية من وجوه : (الأول) أنه تعالى وصفه بكونه حديثاً فى هذه الآيات وفى آيات أخرى منها قوله تعالى (فليأتوا بحديث مثله) ومنها قوله تعالى (أفبهذا الحديث أنتم مدهنون) والحديث لابد وأن يكون حادثاً ، قالوا بل الحديث أقوى فى الدلالة على الحدوث من الحادث لأنه يصح أن يقال هذا حديث وليس بعتيق ، وهذا عتيق وليس بحادث ، فثبت أن الحديث هو الذى يكون قريب العهد بالحديث . وسمى الحديث حديثاً لأنه مؤلف من الحروف والكلمات ، وتلك الحروف والكلمات تحدث حالا فحالا وساعة فساعة . فهذا تمام تقرير هذا الوجه .

أما (الوجه الثانى) فى بيان استدلال القوم أن قالوا : إنه تعالى وصفه بأنه نزله والمنزل يكون فى محل تصرف الغير . وما يكون كذلك فهو محدث وحادث .

وأما (الوجه الثالث) فى بيان استدلال القوم أن قالوا : إن قوله أحسن الحديث يقتضى أن يكون هو من جنس سائر الأحاديث كما أن قوله زيد أفضل الإخوة يقتضى أن يكون زيد مشاركا لأولئك الأقوام فى صفة الأخوة ويكون من جنسهم ، فثبت أن القرآن من جنس سائر الأحاديث . ولما كان سائر الأحاديث حادثة وجب أيضاً أن يكون القرآن حادثا .

أما (الوجه الرابع) فى الاستدلال أن قالوا : إنه تعالى وصفه بكونه كتاباً والكتاب مشتق من الكتبة وهى الاجتماع ، وهذا يدل على أنه مجموع جامع ومحل تصرف متصرف . وذلك يدل على كونه محدثاً (والجواب) أن نقول نحمل هذا الدليل على الكلام المؤلف من الحروف والأصوات والألفاظ والعبارات ، وذلك الكلام عندنا محدث مخلوق والله أعلم .

﴿ المسألة الثانية ﴾ كون القرآن أحسن الحديث ، إما أن يكون أحسن الحديث بحسب لفظه أو بحسب معناه .

﴿ القسم الأول ﴾ أن يكون أحسن الحديث بحسب لفظه وذلك من وجهين : (الأول) أن يكون ذلك الحسن لأجل الفصاحة والجزالة (الثانى) أن يكون بحسب النظم فى الأسلوب ، وذلك لأن القرآن ليس من جنس الشعر ، ولا من جنس الخطب . ولا من جنس الرسائل ، بل هو نوع يخالف الكل ، مع أن كل ذى طبع سليم يستطيبه ويستلذه .

﴿ القسم الثانى ﴾ أن يكون كونه أحسن الحديث لأجل المعنى ، وفيه وجوه : (الأول) أنه كتاب منزه عن التناقض ، كما قال تعالى (ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً) ومثل هذا الكتاب إذا خلا عن التناقض كان ذلك من المعجزات (الوجه الثانى) اشتماله على الغيوب الكثيرة فى الماضى والمستقبل (الوجه الثالث) أن العلوم الموجودة فيه كثيرة جداً .

وضبط هذه العلوم أن نقول : العلوم النافعة هى ما ذكره الله فى كتابه فى قوله (والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ، لانفرق بين أحد من رسله ، وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير) فهذا أحسن ضبط يمكن ذكره للعلوم النافعة .

﴿ أما القسم الأول ﴾ وهو الإيمان بالله ، فاعلم أنه يشتمل على خمسة أقسام : معرفة الذات والصفات والأفعال والأحكام والأسماء . أما معرفة الذات فهى أن يعلم وجود الله وقدمه وبقاءه . وأما معرفة الصفات فهى نوعان :

﴿ أحدهما ﴾ ما يجب تنزيهه عنه ، وهو كونه جوهراً ومركباً من الأعضاء والأجزاء وكونه مختصاً بحيز وجهة ، ويجب أن يعلم أن الألفاظ الدالة على التنزيه أربعة : ليس ولم وما ولا ، وهذه الأربعة المذكورة ، مذكورة فى كتاب الله تعالى لبيان التنزيه .

أما كلمة ليس ، فقوله (ليس كمثله شىء) وأما كلمة لم ، فقوله (لم يلد ، ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد) وأما كلمة ما ، فقوله (وما كان ربك نسياً) ، (ما كان لله أن يتخذ من ولد) وأما كلمة لا ، فقوله تعالى (لاتأخذه سنة ولا نوم) ، (وهو يطعم ولا يطعم) ، (وهو يجير ولا يجار عليه) ، وقوله فى سبعة وثلاثين موضعاً من القرآن (لا إله إلا الله) .

﴿ وأما النوع الثانى ﴾ وهى الصفات التى يجب كونه موصوفاً بها من القرآن (فأولها) العلم بالله ، والعلم بكونه محدثاً خالقاً ، قال تعالى (الحمد لله الذى خلق السموات والأرض) (وثانيها) العلم بكونه قادراً ، قال تعالى فى أول سورة القيامة (بلى قادرين على أن نسوى بنانه) وقال فى آخر هذه السورة (أليس ذلك بقادر على أن يحيى الموتى) (وثالثها) العلم بكونه تعالى عالماً ، قال تعالى (هو الله الذى لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة) (ورابعها) العلم بكونه عالماً بكل المعلومات ، قال تعالى (وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو) وقوله تعالى (الله يعلم ما تحمل كل أنثى) (وخامسها) العلم

بكونه حياً . قال تعالى (هو الحي لا إله إلا هو فادعوه مخلصين له الدين) (وسادسها) العلم بكونه مريداً ، قال الله تعالى (فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام) (وسابعها) كونه سميعاً بصيراً ، قال تعالى (وهو السميع البصير) وقال تعالى (إننى معكما أسمع وأرى) (وثامنها) كونه متكلما ، قال تعالى (ولو أن ما فى الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله) (وتاسعها) كونه أمراً ، قال تعالى (لله الأمر من قبل ومن بعد) (وعاشرها) كونه رحماناً رحيما مالكا ، قال تعالى (الرحمن الرحيم ، مالك يوم الدين) فهذا مايتعلق بمعرفة الصفات التى يجب اتصافه بها .

﴿ وأما القسم الثالث ﴾ وهو الأفعال ، فاعلم أن الأفعال إما أرواح وإما أجسام . أما الأرواح فلا سبيل للوقوف عليها إلا للقليل ، كما قال تعالى (وما يعلم جنود ربك إلا هو) وأما الأجسام ، فهى إما العالم الأعلى وإما العالم الأسفل . أما العالم الأعلى فالبحث فيه من وجوه (أحدها) البحث عن أحوال السموات . و (ثانيها) البحث عن أحوال الشمس والقمر كما قال تعالى (إن ربكم الله الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرش يغشى الليل النهار يطلبه حثيثاً والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره) و(ثالثها) البحث عن أحوال الأضواء ، قال الله تعالى (الله نور السموات والأرض) وقال تعالى (هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نوراً)و(رابعها) البحث عن أحوال الظلال ، قال الله تعالى (ألم تر إلى ربك كيف مد الظل ولو شاء لجعله ساكناً) و(خامسها) اختلاف الليل والنهار ، قال الله تعالى (يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل) و (سادسها) منافع الكواكب ، قال تعالى (وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر) و (سابعها) صفات الجنة ، قال تعالى (وجنة عرضها كعرض السماء والأرض) و(ثامنها) صفات النار ، قال تعالى (لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم) و(تاسعها) صفة العرش ، قال تعالى (الذين يحملون العرش ومن حوله) و(عاشرها) صفة الكرسى ، قال تعالى (وسع كرسيه السموات والأرض) و(حادى عشرها) صفة اللوح والقلم . أما اللوح ، فقوله تعالى (بل هو قرآن مجيد . فى لوح محفوظ) وأما القلم ، فقوله تعالى (ن والقلم ومايسطرون) .

وأما شرح أحوال العالم الأسفل (فأولها) الأرض . وقد وصفها بصفات كثيرة (إحداها) كونه مهداً ، قال تعالى (الذى جعل لكم الأرض مهداً) و(ثانيها) كونه مهاداً ، قال تعالى (ألم نجعل الأرض مهاداً) و(ثالثها) كونه كفاتاً ، قال تعالى (كفاتاً . أحياء وأمواتا) و (رابعها) الذلول . قال تعالى (هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا) و (خامسها) كونه بساطاً . قال تعالى (والله جعل لكم الأرض بساطاً لتسلكوا منها سبلا فجاجا) والكلام فيه طويل و(ثانيها) البحر قال تعالى (وهو الذى سخر لكم البحر لتأكلوا منه لحماً طرياً) و (ثالثها) الهواء والرياح . قال تعالى

(وهو الذى يرسل الرياح بشراً بين يدى رحمته) وقال تعالى (وأرسلنا الرياح لواقح) و(رابعها) الآثار العلوية كالرعد والبرق ، قال تعالى (ويسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته) وقال تعالى (فترى الودق يخرج من خلاله) ومن هذا الباب ذكر الصواعق والأمطار وتراكم السحاب و(خامسها) أحوال الأشجار والثمار وأنواعها وأصنافها ، و(سادسها) أحوال الحيوانات ، قال تعالى (وبث فيها من كل دابة) وقال (والأنعام خلقها لكم) و (سابعها) عجائب تكوين الإنسان فى أول الخلقة ، قال (ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين) و (ثامنها) العجائب فى سمعه وبصره ولسانه وعقله وفهمه و (تاسعها) تواريخ الأنبياء والملوك وأحوال الناس من أول خلق العالم إلى آخر قيام القيامة ، و(عاشرها) ذكر أحوال الناس عند الموت وبعد الموت ، وكيفية البعث والقيامة ، وشرح أحوال السعداء والأشقياء ، فقد أشرنا إلى عشرة أنواع من العلوم فى عالم السموات ، وإلى عشرة أخرى فى عالم العناصر ، والقرآن مشتمل على شرح هذه الأنواع من العلوم العالية الرفيعة .

﴿ وأما القسم الرابع ﴾ وهو شرح أحكام الله تعالى وتكاليفه . فنقول هذه التكاليف إما أن تحصل فى أعمال القلوب أو فى أعمال الجوارح .

﴿أما القسم الأول ﴾ فهو المسمى بعلم الأخلاق وبيان تمييز الأخلاق الفاضلة والأخلاق الفاسدة والقرآن يشتمل على كل مالا بد منه فى هذا الباب . قال الله تعالى (إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى) ، وقال (خذ العفو وامر بالعرف وأعرض عن الجاهلين) .

(وأما الثانى) فهو التكاليف الحاصلة فى أعمال الجوارح وهو المسمى بعلم الفقه والقرآن مشتمل على جملة أصول هذا العلم على أكمل الوجوه .

﴿ وأما القسم الخامس ﴾ وهو معرفة أسماء الله تعالى فهو مذكور فى قوله تعالى (ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها) فهذا كله يتعلق بمعرفة الله .

﴿ وأما القسم الثانى ﴾ من الأصول المعتبرة فى الإيمان الإقرار بالملائكة كما قال تعالى (والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته) والقرآن يشتمل على شرح صفاتهم تارة على سبيل الإجمال وأخرى على طريق التفصيل ، أما بالإجمال فقوله (وملائكته) وأما بالتفصيل فمنها مايدل على كونهم رسل الله قال تعالى (جاعل الملائكة رسلا) ومنها أنها مدبرات لهذا العالم . قال تعالى (فالمقسمات أمرا فالمدبرات أمرا) وقال تعالى (والصافات صفاً) ومنها حملة العرش قال (ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية) ومنها الحافون حول العرش قال (وترى الملائكة حافين من حول العرش) ومنها خزنة النار قال تعالى (عليها ملائكة غلاظ شداد) ومنها الكرام الكاتبون قال (وإن عليكم لحافظين كراماً كاتبين) ومنها المعقبات قال تعالى (له معقبات من بين يديه ومن خلفه) وقد يتصل بأحوال الملائكة أحوال الجن والشياطين

﴿ وأما القسم الثالث ﴾ من الأصول المعتبرة فى الإيمان معرفة الكتب والقرآن يشتمل على شرح أحوال كتاب آدم عليه السلام قال تعالى (فتلقى آدم من ربه كلمات) ومنها أحوال صحف إبراهيم عليه السلام قال تعالى (وإذ ابتلى ابراهيم ربه بكلمات فأتمهن) ومنها أحوال التوراة والإنجيل والزبور .

﴿ وأما القسم الرابع ﴾ من الأصول المعتبرة فى الإيمان معرفة الرسل والله تعالى قد شرح أحوال البعض وأبهم أحوال الباقين قال (منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك)

﴿ القسم الخامس ﴾ مايتعلق بأحوال المكلفين وهى على نوعين (الأول) أن يقروا بوجوب هذه التكاليف عليهم وهو المراد من قوله (وقالوا سمعنا وأطعنا) ، (الثانى) أن يعترفوا بصدور التقصير عنهم فى تلك الأعمال ثم طلبوا المغفرة وهو المراد من قوله (غفرانك ربنا) ثم لما كانت مقادير رؤية التقصير فى مواقف العبودية بحسب المكاشفات فى مطالعة عزة الربوبية أكثر ، كانت المكاشفات فى تقصير العبودية أكثر وكان قوله (غفرانك ربنا) أكثر .

﴿ القسم السادس ﴾ معرفة المعاد والبعث والقيامة وهو المراد من قوله (وإليك المصير) وهذا هو الاشارة إلى معرفة المطالب المهمة فى طلب الدين ، والقرآن بحر لانهاية له فى تقرير هذه المطالب وتعريفها وشرحها ولا ترى فى مشارق الأرض ومغاربها كتابا يشتمل على جملة هذه العلوم كما يشتمل القرآن عليها . ومن تأمل فى هذا التفسير علم أنا لم نذكر من بحار فضائل القرآن إلا قطرة ، ولما كان الأمر على هذه الجملة ، لاجرم مدح الله عزوجل القرآن فقال تعالى (الله نزل أحسن الحديث) والله أعلم

﴿ الصفة الثانية ﴾ من صفات القرآن قوله تعالى (كتاباً متشابهاً) أما الكتاب فقدفسرناه فى قوله تعالى (ذلك الكتاب لاريب فيه) وأما كونه متشابهاً فاعلم أن هذه الآية تدل على أن القرآن كله متشابه . وقوله (هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات) يدل على كون البعض متشابهاً دون البعض . وأما كونه كله متشابهاً كما فى هذه الآية ، فقال ابن عباس معناه أنه يشبه بعضه بعضاً ، وأقول هذا التشابه يحصل فى أمور (أحدها) أن الكاتب البليغ إذا كتب كتاباً طويلا ، فانه يكون بعض كلماته فصيحاً ، ويكون البعض غير فصيح ، والقرآن يخالف ذلك فإنه فصيح كامل الفصاحة بجميع أجزائه (وثانيها) أن الفصيح إذا كتب كتاباً فى واقعة بألفاظ فصيحة فلو كتب كتاباً آخر فى غير تلك الواقعة كان الغالب أن كلامه فى الكتاب الثانى غير كلامه فى الكتاب الأول ، والله تعالى حكى قصة موسى عليه السلام فى مواضع كثيرة من القرآن وكلها متساوية متشابهة فى الفصاحة (وثالثها) أن كل مافيه من الآيات والبيانات فانه يقوى بعضها بعضاً ويؤكد بعضها بعضاً (ورابعها) أن هذه الأنواع الكثيرة من العلوم التى عددناها متشابهة متشاركة فى أن المقصود منها بأسرها الدعوة إلى

الدين وتقرير عظمة الله . ولذلك فانك لاترى قصة من القصص إلا ويكون محصلها المقصود الذى ذكرناه . فهذا هو المراد من كونه متشابهاً ، والله الهادى .

﴿ الصفة الثالثة ﴾ من صفات القرآن كونه (مثانى) وقد بالغنا فى تفسير هذه اللفظة عند قوله تعالى (ولقد آتيناك سبعاً من المثانى) وبالجملة فأكثر الأشياء المذكورة وقعت زوجين زوجين مثل : الأمر والنهى ، والعام والخاص ، والمجمل والمفصل ، وأحوال السموات والأرض ، والجنة والنار ، والظلمة والضوء ، واللوح والقلم ، والملائكة والشياطين ، والعرش والكرسى ، والوعد والوعيد ، والرجاء والخوف ، والمقصود منه بيان أن كل ما سوى الحق زوج ويدل على أن كل شىء مبتلى بضده ونقيضه وأن الفرد الأحد الحق هو الله سبحانه .

﴿ الصفة الرابعة ﴾ من صفات القرآن قوله (تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله) وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ معنى (تقشعر جلودهم) تأخذهم قشعريرة وهى تغير يحدث فى جلد الإنسان عند الوجل والخوف ، قال المفسرون : والمعنى أنهم عند سماع آيات الرحمة والإحسان يحصل لهم الفرح فتلين قلوبهم إلى ذكر الله ، وأقول إن المحققين من العارفين قالوا : السائرون فى مبدإ جلال الله إن نظروا إلى عالم الجلال طاشوا ، وإن لاح لهم أثر من عالم الجمال عاشوا ، ويجب علينا أن نذكر فى هذا الباب مزيد شرح وتقرير ، فنقول الإنسان إذا تأمل فى الدلائل الدالة على أنه يجب تنزيه الله عن التحيز والجهة ، فهنا يقشعر جلده ، لأن إثبات موجود لا داخل العالم ولا خارج ولا متصل بالعالم ولا منفصل عن العالم ، مما يصعب تصوره فههنا تقشعر الجلود ، أما إذا تأمل فى الدلائل الدالة على أنه يجب أن يكون فرداً أحداً ، وثبت أن كل متحيز فهو منقسم فههنا يلين جلده وقلبه إلى ذكر الله . وأيضاً إذا أراد أن يحيط عقله بمعنى الأزل فيتقدم فى ذهنه بمقدار ألف ألف سنة ثم يتقدم أيضاً بحسب كل لحظة من لحظات تلك المدة ألف ألف سنة ، ولا يزال يحتال ويتقدم ويتخيل فى الذهن ، فاذا بالغ وتوغل وظن أنه استحضر معنى الأزل قال العقل هذا ليس بشىء ، لأن كل ما استحضرته فى فهومتناه والأزل هو الوجود المتقدم على هذه المدة المتناهية ، فههنا يتحير العقل ويقشعر الجلد ، وأما إذا ترك هذا الإعتبار وقال ههنا موجود والموجود إما واجب وإما ممكن ، فإن كان واجباً فهو دائماً منزه عن الأول والآخر وإن كان ممكناً فهو محتاج إلى الواجب فيكون أزلياً أبدياً ، فإذا اعتبر العقل فهم معنى الأزلية فههنا يلين جلده وقلبه إلى ذكر الله ، فثبت أن المقامين المذكورين فى الآية لا يجب قصرهما على سماع آية العذاب وآية الرحمة ، بل ذاك أول تلك المراتب وبعده مراتب لا حد لها ولا حصر فى حصول تلك الحالتين المذكورتين .

﴿ المسألة الثانية ﴾ روى الواحدى فى البسيط عن قتادة أنه قال : القرآن دل على أن أولياء

الله موصوفون بأنهم عند المكاشفات والمشاهدات ، تارة تقشعر جلودهم وأخرى تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله . وليس فيه أن عقولهم تزول وأن أعضاءهم تضطرب ، فدل هذا على أن تلك الأحوال لو حصلت لكانت من الشيطان ، وأقول ههنا بحث آخر وهو أن الشيخ أبا حامد الغزالي أورد مسألة في كتاب إحياء علوم الدين ، وهي أنا نرى كثيراً من الناس يظهر عليه الوجد الشديد التام عند سماع الأبيات المشتملة على شرح الوصل والهجر ، وعند سماع الآيات لا يظهر عليه شيء من هذه الأحوال ، ثم إنه سلم هذا المعنى وذكر العذر فيه من وجوه كثيرة . وأنا أقول : إني خلقت محروماً عن هذا المعنى . فإني كلما تأملت في أسرار القرآن اقشعر جلدي وقف على شعري وحصلت في قلبي دهشة وروعة ، وكلما سمعت تلك الأشعار غلب الهزل على وما وجدت البتة في نفسي منها أثراً . وأظن أن المنهج القويم والصراط المستقيم هو هذا ، وبيانه من وجوه (الأول) أن تلك الأشعار كلمات مشتملة على وصل وهجر وبغض وحب تليق بالخلق ، وإثباته في حق الله تعالى كفر ، وأما الإنتقال من تلك الأحوال إلى معان لائقة بجلال الله فلا يصل إليها إلا العلماء الراسخون في العلم ، وأما المعاني التي يشتمل عليها القرآن فهي أحوال لائقة بجلال الله ، فمن وقف عليها عظم الوله في قلبه ، فإن من كان عنده نور الإيمان وجب أن يعظم اضطرابه عند سماع قوله (وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو) إلى آخر الآية (والثاني) وهو أني سمعت بعض المشايخ قال كما أن الكلام له أثر فكذلك صدور ذلك الكلام من القائل المعين له أثر ، لأن قوة نفس القائل تعين على نفاذ الكلام في الروح ، والقائل في القرآن هنا هو الله بواسطة جبريل بتبليغ الرسول المعصوم ، والقائل هناك شاعر كذاب مملوء من الشهوة وداعية الفجور (والثالث) أن مدار القرآن على الدعوة إلى الحق قال تعالى (وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم ، صراط الله الذي له ما في السموات وما في الأرض) وأما الشعر فمداره على الباطل قال تعالى (والشعراء يتبعهم الغاوون ، ألم تر أنهم في كل واد يهيمون ، وأنهم يقولون مالا يفعلون) فهذه الوجوه الثلاثة فروق ظاهرة ، وأما ما يتعلق بالوجدان من النفس فإن كل أحد إنما يخبر عما يجده من نفسه والذي وجدته من النفس والعقل ماذكرته والله أعلم .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ في بيان ما بقي من المشكلات في هذه الآية ونذكرها في معرض السؤال والجواب .

﴿ السؤال الأول ﴾ كيف تركيب لفظ القشعريرة (الجواب) قال صاحب الكشاف تركيبه من حروف التقشع وهو الأديم اليابس مضموماً إليها حرف رابع وهو الراء ليكون رباعياً ودالا على معنى زائد يقـــال : اقشعر جلده من الخوف وقف شعره ، وذلك مثل في شدة الخوف .

﴿ السؤال الثاني ﴾ كيف قال (تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله) وما الوجه في تعديه

بحرف إلى ؟ (والجواب) التقدير تلين جلودهم وقلوبهم حال وصولها إلى حضرة الله وهو لا يحس بالإدراك .

﴿ السؤال الثالث ﴾ لم قال إلى ذكر الله ولم يقل إلى ذكر رحمة الله ؟ (والجواب) أن من أحب الله لأجل رحمته فهو ما أحب الله ، وإنما أحب شيئاً غيره ، وأما من أحب الله لا لشيء سواه فهذا هو المحب المحق وهو الدرجة العالية ، فلهذا السبب لم يقل ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر رحمة الله بل قال إلى ذكر الله ، وقد بين الله تعالى هذا المعنى فى قوله تعالى (فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام) وفى قوله (ألا بذكر الله تطمئن القلوب) وأيضاً قال لأمة موسى (يا بنى إسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم) وقال أيضاً لأمة محمد صلى الله عليه وسلم (فاذكرونى أذكركم) .

﴿ السؤال الرابع ﴾ لم قال فى جانب الخوف قشعريرة الجلود فقط ، وفى جانب الرجاء لين الجلود والقلوب معاً ؟ (والجواب) لأن المكاشفة فى مقام الرجاء أكمل منها فى مقام الخوف ، لأن الخير مطلوب بالذات والشر مطلوب بالعرض ومحل المكاشفات هو القلوب والأرواح والله أعلم

ثم إنه تعالى لما وصف القرآن بهذه الصفات قال (ذلك هدى الله يهدى به من يشاء ومن يضلل الله فما له من هاد) فقوله (ذلك) إشارة إلى الكتاب وهو هدى الله يهدى به من يشاء من عباده وهو الذى شرح صدره أولا لقبول هذه الهداية (ومن يضلل الله) أى من جعل قلبه قاسياً مظلماً بليد الفهم منافياً لقبول هذه الهداية (فما له من هاد) واستدلال أصحابنا بهذه الآية وسؤالات المعتزلة وجوابات أصحابنا عين ما تقدم فى قوله (فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام) .

أما قوله تعالى (أفمن يتقى بوجهه سوء العذاب يوم القيامة) فاعلم أنه تعالى حكم على القاسية قلوبهم بحكم فى الدنيا وبحكم فى الآخرة ، أما حكمهم فى الدنيا فهو الضلال التام كما قال (ومن يضلل الله فما له من هاد) وأما حكمهم فى الآخرة فهو العذاب الشديد وهو المراد من قوله (أفمن يتقى بوجهه سوء العذاب يوم القيامة) وتقريره أن أشرف الأعضاء هو الوجه لأنه محل الحسن والصباحة ، وهو أيضاً صومعة الحواس ، وإنما يتميز بعض الناس عن بعض بسبب الوجه ، وأثر السعادة والشقاوة لا يظهر إلا فى الوجه قال تعالى (وجوه يومئذ مسفرة ، ضاحكة مستبشرة ، ووجوه يومئذ عليها غبرة ، ترهقها قترة ، أولئك هم الكفرة الفجرة) ويقال لمقدم القوم يا وجه العرب ، ويقال للطريق الدال على كنه حال الشىء وجه كذا هو كذا ، فثبت بما ذكرنا أن أشرف الأعضاء هو الوجه ، فإذا وقع الإنسان فى نوع من أنواع العذاب فانه يجعل يده وقاية لوجهه وفداء له . وإذا عرفت هذا فنقول : إذا كان القادر على الاتقاء يجعل كل ما سوى الوجه فداء للوجه لا جرم حسن جعل الاتقاء بالوجه كناية عن العجز عن الاتقاء ، ونظيره قول النابغة :

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم بهن فلول من قراع الكتائب

أى لاعيب فيهم إلا هذا وهو ليس بعيب فلا عيب فيهم إذن بوجه من الوجوه ، فكذا ههنا لايقدرون على الاتقاء بوجه من الوجوه إلا بالوجه وهذا ليس باتقاء ، فلا قدرة لهم على الاتقاء البتة ، ويقال أيضاً إن الذى يلقى فى النار يلقى مغلولة يداه إلى عنقه ولا يتهيأ له أن يتقى النار إلا بوجهه ، إذا عرفت هذا فنقول : جوابه محذوف وتقديره أفمن يتقى بوجهه سوء العذاب يوم القيامة كمن هو آمن من العذاب لحذف الخبر كما حذف فى نظائره . وسوء العذاب شدته .

ثم قال تعالى (وقيل للظالمين ذوقوا ما كنتم تكسبون) ولما بين الله تعالى كيفية عذاب القاسية قلوبهم فى الآخرة بين أيضاً كيفية وقوعهم فى العذاب فى الدنيا فقال (كذب الذين من قبلهم فأتاهم العذاب من حيث لايشعرون) وهذا تنبيه على حال هؤلاء لأن الفاء فى قوله (فأتاهم العذاب) تدل على أنهم إنما أتاهم العذاب بسبب التكذيب ، فاذا كان التكذيب حاصلا ههنا لزم حصول العذاب استدلالا بالعلة على المعلول ، وقوله (من حيث لايشعرون) أى من الجهة التى لايحسبون ولايخطر ببالهم أن الشر يأتيهم منها ، بينما هم آمنون إذ أتاهم العذاب من الجهة التى توقعوا الأمن منها ، ولما بين أنه أتاهم العذاب فى الدنيا بين أيضاً أنه أتاهم الخزى وهو الذل والصغار والهوان ، والفائدة فى ذكر هذا القيد أن العذاب التام هو أن يحصل فيه الألم مقروناً بالهوان والذل .

ثم قال (ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون) يعنى أن أولئك وإن نزل عليهم العذاب والخزى كما تقدم ذكره ، فالعذاب المدخر لهم فى يوم القيامة أكبر وأعظم من ذلك الذى وقع . والمقصود من كل ذلك التخويف والترهيب ، فلما ذكر الله تعالى هذه الفوائد المتكاثرة والنفائس المتوافرة فى هذه المطالب ، بين تعالى أنه بلغت هذه البيانات إلى حد الكمال والتمام فقال (ولقد ضربنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل لعلهم يتذكرون) والمقصود ظاهر ، وقالت المعتزلة دلت الآية على أن أفعال الله وأحكامه معللة ، ودلت أيضاً على أنه يريد الإيمان والمعرفة من الكل لأن قوله (ولقد ضربنا للناس) مشعر بالتعليل ، وقوله فى آخر الآية (لعلهم يتذكرون) مشعر بالتعليل أيضاً ، ومشعر بأن المقصود من ضرب هذه الأمثال إرادة حصول التذكر والعلم ، ولما كانت هذه البيانات النافعة والبينات الباهرة موجودة فى القرآن ، لاجرم وصف القرآن بالمدح والثناء ، فقال (قرآناً عربياً غير ذى عوج لعلهم يتقون) وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ احتج القائلون بحدوث القرآن بهذه الآية من وجوه (الأول) أن قوله (ولقد ضربنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل لعلهم يتذكرون) يدل على أنه تعالى إنما ذكر هذه الأمثال ليحصل لهم التذكر ، والشىء الذى يؤتى به لغرض آخر يكون محدثاً ، فان القديم هو الذى يكون موجوداً فى الأزل ، وهذا يمتنع أن يقال إنه إنما أتى به لغرض كذا وكذا ،

ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ
مَثَلًا ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ
إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ
وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾

(والثانى) أنه وصفه بكونه عربياً وإنما كان عربياً لأن هذه الألفاظ إنما صارت دالة على هذه المعانى بوضع العرب وباصطلاحهم ، وما كان حصوله بسبب أوضاع العرب واصطلاحاتهم كان مخلوقا محدثاً (الثالث) أنه وصفه بكونه قرآناً والقرآن عبارة عن القراءة والقراءة مصدر والمصدر هو المفعول المطلق فكان فعلا ومفعولا (والجواب) أنا نحمل كل هذه الوجوه على الحروف والأصوات وهى حادثة ومحدثة ،

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال الزجاج قوله (عربيا) منصوب على الحال والمعنى ضربنا للناس فى هذا القرآن فى حال عربيته وبيانه ويجوز أن ينتصب على المدح .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ أنه تعالى وصفه بصفات ثلاثة (أولها) كونه قرآناً ، والمراد كونه متلواً فى المحاريب إلى قيام القيامة ، كما قال (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) ، (وثانيها) كونه عربياً والمراد أنه أعجز الفصحاء والبلغاء عن معارضته كما قال (قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً) (وثالثها) كونه (غير ذى عوج) والمراد براءته عن التناقض ، كما قال (ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيراً) وأما قوله (لعلهم يتقون) فالمعتزلة يتمسكون به فى تعليل أحكام الله تعالى .

(وفيه بحث آخر) وهو أنه تعالى قال فى الآية الأولى (لعلهم يتذكرون) وقال فى هذه الآية (لعلهم يتقون) والسبب فيه أن التذكر متقدم على الاتقاء ، لأنه إذا تذكره وعرفه ووقف على فحواه وأحاط بمعناه ، حصل الاتقاء والاحتراز والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ ضرب الله مثلا رجلا فيه شركاء متشاكسون ورجلا سلماً لرجل ، هل يستويان مثلا ؟ الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون ، إنك ميت وإنهم ميتون ، ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون ، فمن أظلم ممن كذب على الله وكذب بالصدق إذ جاءه أليس فى جهنم مثوى للكافرين ﴾

اعلم أنه تعالى لما بالغ فى شرح وعيد الكفار أردفه بذكر مثل مايدل على فساد مذهبهم وقبح طريقتهم فقال (ضرب الله مثلا) وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ المتشاكسون المختلفون العسرون يقال شكس يشكس شكوساً وشكساً إذا عسر ، وهو رجل شكس ، أى عسر وتشاكس إذا تعاسر ، قال الليث : التشاكس التنازع والاختلاف ، ويقال الليل والنهار متشاكسان ، أى أنهما متضادان إذا جاء أحدهما ذهب الآخر ، وقوله فيه صلة شركاء كما تقول اشتركوا فيه .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو سالما بالألف وكسر اللام يقال سلم فهو سالم والباقون سلماً بفتح السين واللام بغير الألف ، ويقال أيضاً بفتح السين وكسرها مع سكون العين أما من قرأ سالما فهو اسم الفاعل تقدير مسلم فهو سالم ، وأما سائر القراءات فهى مصادر سلم والمعنى ذا سلامة ، وقوله (لرجل) أى ذا خلوص له من الشركة من قولهم : سلمت له الضيعة ، وقرىء بالرفع على الابتداء أى وهناك رجل سالم لرجل .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ تقدير الكلام : اضرب لقومك مثلا وقل لهم مايقولون فى رجل من المماليك قد اشترك فيه شركاء بينهم اختلاف وتنازع ، كل واحد منهم يدعى أنه عبده فهم يتجاذبونه فى حوائجهم وهو متحير فى أمره ، فكلما أرضى أحدهم غضب الباقون ، وإذا احتاج فى مهم إليهم فكل واحد منهم يرده إلى الآخر ، فهو يبقى متحيراً لا يعرف أيهم أولى بأن يطلب رضاه ، وأيهم يعينه فى حاجاته ، فهو بهذا السبب فى عذاب دائم وتعب مقيم ، ورجل آخر له مخدوم واحد يخدمه على سبيل الإخلاص ، وذلك المخدوم يعينه على مهماته ، فأى هذين العبدين أحسن حالا وأحمد شأناً ، والمراد تمثيل حال من يثبت آلهة شتى ، فإن أولئك الآلهة تكون متنازعة متغالبة ، كما قال تعالى (لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا) وقال (ولعلا بعضهم على بعض) فيبقى ذلك المشرك متحيراً ضالا ، لا يدرى أى هؤلاء الآلهة يعبد وعلى ربوبية أيهم يعتمد ، وممن يطلب رزقه ، وممن يلتمس رفقه ، فهمه شعاع ، وقلبه أوزاع . أما من لم يثبت إلا إلهاً واحداً فهو قائم بما كلفه عارف بما أرضاه وما أسخطه . فكان حال هذا أقرب إلى الصلاح من حال الأول ، وهذا مثل ضرب فى غاية الحسن فى تقبيح الشرك وتحسين التوحيد ، فإن قيل : هذا المثال لا ينطبق على عبادة الأصنام لأنها جمادات ، فليس بينها منازعة ولا مشاكسة ، قلنا إن عبدة الأصنام مختلفون منهم من يقول هذه الأصنام تماثيل الكواكب السبعة ، فهم فى الحقيقة إنما يعبدون الكواكب السبعة ، ثم إن القوم يثبتون بين هذه الكواكب منازعة ومشاكسة ، ألا ترى أنهم يقولون زحل هو النحس الأعظم ، والمشترى هو السعد الأعظم ، ومنهم من يقول هذه الأصنام تماثيل الارواح الفلكية ، والقائلون بهذا القول زعموا أن كل نوع من أنواع حوادث هذا العالم يتعلق بروح من الأرواح السماوية ، وحينئذ يحصل بين تلك الأرواح منازعة ومشاكسة ، وحينئذ يكون المثل مطابقاً ، ومنهم من يقول هذه الأصنام تماثيل الأشخاص من العلماء والزهاد الذين مضوا ، فهم يعبدون هذه التماثيل لتصير أولئك الأشخاص من العلماء والزهاد شفعاء لهم عند الله ، والقائلون

وَٱلَّذِي جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾ لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ

بهذا القول تزعم كل طائفة منهم أن الحق هو ذلك الرجل الذى هو على دينه ، وأن من سواه مبطل، وعلى هذا التقدير أيضاً ينطبق المثال ، فثبت أن هذا المثال مطابق للمقصود .

أما قوله تعالى (هل يستويان مثلا) فالتقدير هل يستويان صفة ، فقوله (مثلا) نصب على التمييز ، والمعنى هل تستوى صفتاهما وحالتاهما ، وإنما اقتصر فى التمييز على الواحد لبيان الجنس وقرىء مثلين ، ثم قال (الحمد لله) والمعنى أنه لما بطل القول بإثبات الشركاء والأنداد ، وثبت أنه لا إله إلا هو الواحد الأحد الحق ، ثبت أن الحمد له لا لغيره ، ثم قال بعده (بل أكثرهم لا يعلمون)أى لا يعلمون أن الحمد له لا لغيره ، وأن المستحق للعبادة هو الله لا غيره ، وقيل المراد أنه لما سبقت هذه الدلائل الظاهرة والبينات الباهرة ، قال الحمد لله على حصول هذه البيانات وظهور هذه البينات ، وإن كان أكثر الخلق لم يعرفوها ولم يقفوا عليها ، ولما تمم الله هذه البيانات قال (إنك ميت وإنهم ميتون) والمراد أن هؤلاء الأقوام وإن لم يلتفتوا إلى هذه الدلائل القاهرة بسبب استيلاء الحرص والحسد عليهم فى الدنيا ، فلا تبال يا محمد بهذا فإنك ستموت وهم أيضاً سيموتون ، ثم تحشرون يوم القيامة وتختصمون عند الله تعالى ، والعادل الحق يحكم بينكم فيوصل إلى كل واحد ما هو حقه ، وحينئذ يتميز المحق من المبطل ، والصديق من الزنديق ، فهذا هو المقصود من الآية ، وقوله تعالى (إنك ميت وإنهم ميتون) أى إنك وإياهم ، وإن كنتم أحياء فإنك وإياهم فى أعداد الموتى ، لأن كل ما هو آت آت ، ثم بين تعالى نوعاً آخر من قبائح أفعالهم، وهو أنهم يكذبون ويضمون إليه أنهم يكذبون القائل الحق . أما أنهم يكذبون ، فهو أنهم أثبتوا لله ولداً وشركاء . وأما أنهم مصرون على تكذيب الصادقين ، فلأنهم يكذبون محمداً ﷺ بعد قيام الدلالة القاطعة على كونه صادقاً فى ادعاء النبوة ، ثم أردفه بالوعيد فقال (أليس فى جهنم مثوى للكافرين) ومن الناس من تمسك بهذه الآية فى تكفير المخالف من أهل القبلة ، وذلك لأن المخالف فى المسائل القطعية كلها يكون كاذباً فى قوله ، ويكون مكذباً للمذهب الذى هو الحق، فوجب دخوله تحت هذا الوعيد .

قوله تعالى : ﴿ والذى جاء بالصدق وصدق به أولئك هم المتقون ، لهم ما يشاءون عند ربهم ذلك جزاء المحسنين ، ليكفر الله عنهم أسوأ الذى عملوا ويجزيهم أجرهم بأحسن الذى كانوا

وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ ﴿٣٧﴾

يعملون ، أليس الله بكاف عبده ، ويخوفونك بالذين من دونه ، ومن يضلل الله فما له من هاد ، ومن يهد الله فما له من مضل أليس الله بعزيز ذى انتقام ﴾

اعلم أنه تعالى لما ذكر وعيد الكاذبين والمكذبين للصادقين ذكر عقيبه وعد الصادقين ووعد المصدقين ، ليكون الوعد مقروناً بالوعيد ، وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قوله (والذى جاء بالصدق وصدق به) تقديره : والذى جاء بالصدق والذى صدق به ، وفيه قولان (الأول) أن المراد شخص واحد فالذى جاء بالصدق محمد ، والذى صدق به هو أبو بكر ، وهذا القول مروى عن علي بن أبي طالب عليه السلام وجماعة من المفسرين رضى الله عنهم (والثانى) أن المراد منه كل من جاء بالصدق ، فالذى جاء بالصدق الأنبياء ، والذى صدق به الأتباع ، واحتج القائلون بهذا القول بأن الذى جاء بالصدق جماعة وإلا لم يجز أن يقال (أولئك هم المتقون) .

﴿ المسألة الثانية ﴾ أن الرسالة لا تتم إلا بأركان أربعة : المرسل والمرسل والرسالة والمرسل إليه ، والمقصود من الإرسال إقدام المرسل إليه على القبول والتصديق ، فأول شخص أتى بالتصديق هو الذى يتم به الإرسال ، وسمعت بعض القاصين من الذى يروى عن النبي ﷺ أنه قال « دعوا أبا بكر فإنه من تتمة النبوة » .

واعلم أنا سواء قلنا المراد بالذى صدق به شخص معين ، أو قلنا المراد منه كل من كان موصوفاً بهذه الصفة ، فإن أبا بكر داخل فيه» .

(أما على التقدير الأول) فدخول أبي بكر فيه ظاهر ، وذلك لأن هذا يتناول أسبق الناس إلى التصديق ، وأجمعوا على أن الأسبق الأفضل إما أبو بكر وإما على ، وحمل هذا اللفظ على أبي بكر أولى ، لأن علياً عليه السلام كان وقت البعثة صغيراً ، فكان كالولد الصغير الذى يكون فى البيت ، ومعلوم أن إقدامه على التصديق لا يفيد مزيد قوة وشوكة . أما أبو بكر فإنه كان رجلا كبيراً فى السن كبيراً فى المنصب ، فإقدامه على التصديق يفيد مزيد قوة وشوكة فى الإسلام ، فكان حمل هذا اللفظ إلى أبي بكر أولى .

(وأما على التقدير الثانى) فهو أن يكون المراد كل من كان موصوفاً بهذه الصفة ، وعلى هذا التقدير يكون أبو بكر داخلا فيه .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قال صاحب الكشاف قرىء وصدق بالتخفيف أى صدق به الناس ، ولم

يكذبهم يعنى أداه إليهم كما نزل عليه من غير تحريف ، وقيل صار صادقاً به أى بسببه ، لأن القرآن معجزة ، والمعجزة تصديق من الحكيم الذى لا يفعل القبيح فيصير المدعى للرسالة صادقاً بسبب تلك المعجزة وقرىء وصدق

واعلم أنه تعالى أثبت للذى جاء بالصدق وصدق به أحكاماً كثيرة .

﴿ فالحكم الأول ﴾ قوله (أولئك هم المتقون) وتقريره أن التوحيد والشرك ضدان ، وكلما كان أحد الضدين أشرف وأكمل كان الضد الثانى أخس وأرذل ، ولما كان التوحيد أشرف الأسماء كان الشرك أخس الأشياء ، والآتى بأحد الضدين يكون تاركا للضد الثانى ، فالآتى بالتوحيد الذى هو أفضل الأشياء يكون تاركا للشرك الذى هو أخس الأشياء وأرذلها ، فلهذا المعنى وصف المصدقين بكونهم متقين .

﴿ الحكم الثانى ﴾ للمصدقين قوله تعالى (لهم ما يشاءون عند ربهم ذلك جزاء المحسنين) ، وهذا الوعد يدخل فيه كل مايرغب المكلف فيه ، فان قيل لاشك أن الكمال محبوب لذاته مرغوب فيه لذاته ، وأهل الجنة لاشك أنهم عقلاء فإذا شاهدوا الدرجات العالية التى هى للأنبياء وأكابر الأولياء عرفوا أنها خيرات عالية ودرجات كاملة ، والعلم بالشىء من حيث إنه كمال ، وخير يوجب الميل إليه والرغبة فيه ، وإذا كان كذلك فهم يشاءون حصول تلك الدرجات لأنفسهم فوجب حصولها لهم بحكم هذه الآية ، وأيضاً فان لم يحصل لهم ذلك المراد كانوا فى الغصة ووحشة القلب ، وأجيب عنه بأن الله تعالى يزيل الحقد والحسد عن قلوب أهل الآخرة ، وذلك يقتضى أن أحوالهم فى الآخرة بخلاف أحوالهم فى الدنيا ، ومن الناس من تمسك بهذه الآية فى أن المؤمنين يرون الله تعالى يوم القيامة ، قالوا إن الذين يعتقدون أنهم يرون الله تعالى لاشك أنهم داخلون تحت قوله تعالى (وصدق به) لأنهم صدقوا الأنبياء عليهم السلام ، ثم إن ذلك الشخص يريد رؤية الله تعالى فوجب أن يحصل له ذلك لقوله تعالى (لهم ما يشاءون عند ربهم) فان قالوا لا نسلم أن أهل الجنة يشاءون ذلك ، قلنا هذا باطل لأن الرؤية أعظم وجوه التجلى وزوال الحجاب ، ولا شك أنها حالة مطلوبة لكل أحد نظراً إلى هذا الاعتبار ، بل لو ثبت بالدليل كون هذا المطلوب ممتنع الوجود لعينه فإنه يترك طلبه ، لا لأجل عدم المقتضى للطلب ، بل لقيام المانع وهو كونه ممتنعاً فى نفسه ، فثبت أن هذه الشبهة قائمة والنص يقتضى حصول كل ما أرادوه وشاءوه فوجب حصولها .

واعلم أن قوله (عند ربهم) لا يفيد العندية بمعنى الجهة والمكان بل بمعنى الصمدية والإخلاص كما فى قوله تعالى (عند مليك مقتدر) واعلم أن المعتزلة تمسكوا بقوله (وذلك جزاء المحسنين) على أن هذا الأجر مستحق لهم على إحسانهم فى العبادة .

﴿ الحكم الثالث ﴾ قوله تعالى (ليكفر الله عنهم أسوأ الذى عملوا ويجزيهم أجرهم بأحسن الذى كانوا يعملون) فقوله (لهم مايشاءون عند ربهم) يدل على حصول الثواب على أكمل الوجوه

وقوله (ليكفر الله عنهم) يدل على سقوط العقاب عنهم على أكمل الوجوه ، فقيل المراد أنهم إذا صدقوا الأنبياء عليهم فيما أوتوا فان الله يكفر عنهم أسوأ أعمالهم وهو الكفر السابق على ذلك الإيمان ، ويوصل إليهم أحسن أنواع الثواب ، وقال مقاتل يجزيهم بالمحاسن من أعمالهم ولا يجزيهم بالمساوى ، واعلم أن مقاتلا كان شيخ المرجئة وهم الذين يقولون لا يضر شيء من المعاصى مع الإيمان ، كما لا ينفع شيء من الطاعات مع الكفر ، واحتج بهذه الآية فقال إنها تدل على أن من صدق الأنبياء والرسل فانه تعالى يكفر عنهم أسوأ الذى عملوا ، ولا يجوز حمل هذا الأسوإ على الكفر السابق ، لأن الظاهر من الآية يدل على أن التكفير إنما حصل فى حال ما وصفهم الله بالتقوى وهو التقوى من الشرك ، وإذا كان كذلك وجب أن يكون المراد منه الكبائر التى يأتى بها بعد الإيمان ، فتكون هذه الآية تنصيصاً على أنه تعالى يكفر عنهم بعد إيمانهم أسوأ ما يأتون به وذلك هو الكبائر .

﴿ الحكم الرابع ﴾ أنه جرت العادة أن المبطلين يخوفون المحقين بالتخويفات الكثيرة ، فحسم الله مادة هذه الشبهة بقوله تعالى (أليس الله بكاف عبده) وذكره بلفظ الاستفهام والمراد تقرير ذلك فى النفوس والأمر كذلك ، لأنه ثبت أنه عالم بجميع المعلومات قادر على كل الممكنات غنى عن كل الحاجات فهو تعالى عالم حاجات العباد وقادر على دفعها وإبدالها بالخيرات والراحات ، وهو ليس بخيلا ولا محتاجاً حتى يمنعه بخله وحاجته عن إعطاء ذلك المراد ، وإذا ثبت هذا كان الظاهر أنه سبحانه يدفع الآفات ويزيل البليات ويوصل إليه كل المرادات ، فلهذا قال (أليس الله بكاف عبده) ولما ذكر الله المقدمة رتب عليها النتيجة المطلوبة فقال (ويخوفونك بالذين من دونه) يعنى لما ثبت أن الله كاف عبده كان التخويف بغير الله عبثاً وباطلا ، قرأ أكثر القراء عبده بلفظ الواحد وهو اختيار أبى عبيدة لأنه قال له (ويخوفونك) روى أن قريشاً قالت للنبى ﷺ إنا نخاف أن تخبلك آلهتنا ، فأنزل الله تعالى هذه الآية ، وقرأ جماعة (عباده) بلفظ الجميع قيل المراد بالعباد الأنبياء فإن نوحاً كفاه الغرق ، وإبراهيم النار ، ويونس بالإنجاء مما وقع له ، فهو تعالى كافيك يا محمد كما كفى هؤلاء الرسل قبلك ، وقيل أمم الأنبياء قصدوهم بالسوء لقوله تعالى (وهمت كل أمة برسولهم) وكفاهم الله شر من عاداهم .

واعلم أنه تعالى لما أطنب فى شرح الوعيد والوعد والترهيب والترغيب ختم الكلام بخاتمة هى الفصل الحق فقال (ومن يضلل الله فما له من هاد ، ومن يهد الله فما له من مضل) يعنى هذا الفصل لا ينفع والبينات إلا إذا خص الله العبد بالهداية والتوفيق وقوله (أليس الله بعزيز ذى انتقام) تهديد للكفار .

واعلم أن أصحابنا يتمسكون فى مسألة خلق الأعمال وإرادة الكائنات بقوله (ومن يضلل الله فما له من هاد ، ومن يهد الله فماله من مضل) والمباحث فيه من الجانبين معلومة والمعتزلة يتمسكون

وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٤٠﴾

على صحة مذهبهم فى هاتين المسألتين بقوله (أليس الله بعزيز ذى انتقام) ولو كان الخالق للكفر فيهم هو الله لكان الانتقام والتهديد غير لائق به .

قوله تعالى : ﴿ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله ، قل أفرأيتم ماتدعون من دون الله إن أرادنى الله بضر هل هن كاشفات ضره ، أو أرادنى برحمة هل هن ممسكات رحمته . قل حسبى الله عليه يتوكل المتوكلون ، قل ياقوم اعملوا على مكانتكم إنى عامل فسوف تعلمون ، من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم﴾ .

اعلم أنه تعالى لما أطنب فى وعيد المشركين وفى وعد الموحدين ، عاد إلى إقامة الدليل على تزييف طريقة عبدة الأصنام ، وبنى هذا التزييف على أصلين :

﴿ الأصل الأول ﴾ هو أن هؤلاء المشركين مقرون بوجود الإله القادر العالم الحكيم الرحيم وهو المراد بقوله (ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله) واعلم أن من الناس من قال إن العلم بوجود الإله القادر الحكيم الرحيم متفق عليه بين جمهور الخلائق لا نزاع بينهم فيه ، وفطرة العقل شاهدة بصحة هذا العلم فإن من تأمل فى عجائب أحوال السموات والأرض وفى عجائب أحوال النبات والحيوان خاصة وفى عجائب بدن الإنسان وما فيه من أنواع الحكم الغريبة والمصالح العجيبة ، علم أنه لابد من الاعتراف بالإله القادر الحكيم الرحيم .

(والأصل الثانى) أن هذه الأصنام لاقدرة لها على الخير والشر وهو المراد من قوله (قل أفرأيتم ماتدعون من دون الله إن أرادنى الله بضر هل هن كاشفات ضره أو أرادنى برحمة هل هن ممسكات رحمته) فثبت أنه لا بد من الإقرار بوجود الإله القادر الحكيم الرحيم ، وثبت أن هذه الأصنام لاقدرة لها على الخير والشر ، وإذا كان الأمر كذلك كانت عبادة الله كافية ، وكان الاعتماد عليه كافياً وهو المراد من قوله (قل حسبى الله عليه يتوكل المتوكلون) فإذا ثبت هذا الأصل لم يلتفت العاقل

إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٤١﴾ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ ۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا ۖ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾

إلى تخويف المشركين فكان المقصود من هذه الآية هو التنبيه على الجواب عما ذكره الله تعالى قبل هذه الآية وهو قوله تعالى (ويخوفونك بالذين من دونه) وقرئ (كاشفات ضره ، وممسكات رحمته) بالتنوين على الأصل وبالإضافة للتخفيف ، فإن قيل كيف قوله (كاشفات) و (ممسكات) على التأنيث بعد قوله (ويخوفونك بالذين من دونه) ؟ قلنا المقصود التنبيه على كمال ضعفها فإن الأنوثة مظنة الضعف ولأنهم كانوا يصفونها بالتأنيث ويقولون اللات والعزى ومناة ، ولما أورد الله عليهم هذه الحجة التي لا دفع لها قال بعده على وجه التهديد (قل ياقوم اعملوا على مكانتكم) أي أنتم تعتقدون في أنفسكم أنكم في نهاية القوة والشدة فاجتهدوا في أنواع مكركم وكيدكم ، فإني عامل أيضاً في تقرير ديني (فسوف تعلمون) أن العذاب والخزي يصيبني أو يصيبكم والمقصود منه التخويف .

قوله تعالى : ﴿ إنا أنزلنا عليك الكتاب للناس بالحق فمن اهتدى فلنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها وما أنت عليهم بوكيل ، الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون ، أم اتخذوا من دون الله شفعاء قل أو لوكانوا لا يملكون شيئاً ولا يعقلون ، قل لله الشفاعة جميعاً له ملك السموات والأرض ثم إليه ترجعون ﴾ في الآية مسائل :

﴿ **المسألة الأولى** ﴾ اعلم أن النبي ﷺ كان يعظم عليه إصرارهم على الكفر كما قال (فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا) وقال (لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين) وقال تعالى (فلا تذهب نفسك عليهم حسرات) فلما أطنب الله تعالى في هذه الآية في فساد مذاهب المشركين تارة بالدلائل والبينات وتارة بضرب الأمثال وتارة بذكر الوعد والوعيد أردفه بكلام يزيل

ذلك الخوف العظيم عن قلب الرسول ﷺ فقال (إنا أنزلنا عليك الكتاب) الكامل الشريف لنفع الناس ولاهتدائهم به وجعلنا إنزاله مقروناً بالحق وهو المعجز الذى يدل على أنه من عند الله فمن اهتدى فنفعه يعود إليه ، ومن ضل فضير ضلاله يعود إليه (وما أنت عليهم بوكيل) والمعنى أنك لست مأموراً بأن تحملهم على الإيمان على سبيل القهر بل القبول وعدمه مفوض إليهم ، وذلك لتسلية الرسول فى إصرارهم على الكفر ، ثم بين تعالى أن الهداية والضلال لا يحصلان إلا من الله تعالى ، وذلك لأن الهداية تشبه الحياة واليقظة والضلال يشبه الموت والنوم ، وكما أن الحياة واليقظة وكذلك الموت والنوم لا يحصلان إلا بتخليق الله عز وجل وإيجاده فكذلك الهداية والضلال لا يحصلان إلا من الله تعالى ، ومن عرف هذه الدقيقة فقد عرف سر الله تعالى فى القدر ، ومن عرف سر الله فى القدر هانت عليه المصائب ، فيصير التنبيه على هذه الدقيقة سبباً لزوال ذلك الحزن عن قلب الرسول صلى الله عليه وسلم فهذا وجه النظم فى الآية ، وقيل نظم الآية أنه تعالى ذكر حجة أخرى فى إثبات أنه الإله العالم ليدل على أنه بالعبادة أحق من هذه الأصنام .

﴿ المسألة الثانية ﴾ المقصود من الآية أنه تعالى يتوفى الأنفس عند الموت وعند النوم إلا أنه يمسك الأنفس التى قضى عليها الموت ويرسل الأخرى وهى النائمة إلى أجل مسمى أى إلى وقت ضربه لموتها فقوله تعالى (الله يتوفى الأنفس حين موتها) يعنى أنه تعالى يتوفي الأنفس التى يتوفاها عند الموت يمسكها ولا يردها إلى البدن وقوله (ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى) يعنى أن النفس التى يتوفاها عند النوم يردها إلى البدن عند اليقظة وتبقى هذه الحالة إلى أجل مسمى ، وذلك الأجل هو وقت الموت فهذا تفسير لفظ الآية وهى مطابقة للحقيقة ، ولكن لابد فيه من مزيد بيان ، فنقول النفس الإنسانية عبارة عن جوهر مشرق روحانى إذا تعلق بالبدن حصل ضوؤه فى جميع الأعضاء وهو الحياة ، فنقول إنه فى وقت الموت ينقطع تعلقه عن ظاهر هذا البدن وعن باطنه وذلك هو الموت . وأما فى وقت النوم فإنه ينقطع ضوؤه عن ظاهر البدن من بعض الوجوه ولا ينقطع ضوؤه عن باطن البدن ، فثبت أن الموت والنوم من جنس واحد إلا أن الموت انقطاع تام كامل والنوم انقطاع ناقص من بعض الوجوه ، وإذا ثبت هذا ظهر أن القادر العالم الحكيم دبر تعلق جوهر النفس بالبدن على ثلاثة أوجه (أحدها) أن يقع ضوء النفس على جميع أجزاء البدن ظاهره وباطنه وذلك اليقظة (وثانيها) أن يرتفع ضوء النفس عن ظاهر البدن من بعض الوجوه دون باطنه وذلك هو النوم (وثالثها) أن يرتفع ضوء النفس عن البدن بالكلية وهو الموت فثبت أن الموت والنوم يشتركان فى كون كل واحد منهما توفياً للنفس ، ثم يمتاز أحدهما عن الآخر بخواص معينة فى صفات معينة ، ومثل هذا التدبير العجيب لايمكن صدوره إلا عن القادر العليم الحكيم ، وهو المراد من قوله (إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون) ويحتمل أن يكون المراد بهذا أن الدليل يدل على أن الواجب على العاقل أن يعبد إلهاً موصوفاً بهذه القدرة وبهذه الحكمة

وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾ قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِى مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾

وأن لايعبد الأوثان التى هى جمادات لا شعور لها ولا إدراك ، واعلم أن الكفار أوردوا على هذا الكلام سؤالا ، فقالوا نحن لانعبد هذه الأصنام لاعتقاد أنها آلهة تضر وتنفع وإنما نعبدها لأجل أنها تماثيل لأشخاص كانوا عند الله من المقربين ، فنحن نعبدها لأجل أن يصير أولئك الأكابر شفعاء لنا عند الله فأجاب الله تعالى بأن قال (أم اتخذوا من دون الله شفعاء ، قل أولو كانوا لايملكون شيئاً ولا يعقلون) وتقرير الجواب أن هؤلاء الكفار إما أن يطمعوا بتلك الشفاعة من هذه الأصنام أو من أولئك العلماء والزهاد الذين جعلت هذه الأصنام تماثيل لها (والأول) باطل لأن هذه الجمادات وهى الأصنام لا تملك شيئاً ولا تعقل شيئا فكيف يعقل صدور الشفاعة عنها (والثانى) باطل لأن فى يوم القيامة لايملك أحد شيئاً ولا يقدر أحد على الشفاعة إلا بإذن الله ، فيكون الشفيع فى الحقيقة هو الله الذى يأذن فى تلك الشفاعة ، فكان الاشتغال بعبادته أولى من الاشتغال بعبادة غيره وهذا هو المراد من قوله تعالى (قل لله الشفاعة جميعاً) ثم بين أنه لاملك لأحد غير الله بقوله (له ملك السموات والأرض ثم إليه ترجعون) ومنهم من تمسك فى نفى الشفاعة مطلقاً بقوله تعالى (قل لله الشفاعه جميعاً) وهذا ضعيف لأنا نسلم أنه سبحانه مالم يأذن فى الشفاعة لم يقدر أحد على الشفاعة ، فان قيل قوله (الله يتوفى الأنفس حين موتها) فيه سؤال لأن هذا يدل على أن المتوفى هو الله فقط ، وتأكد هذا بقوله (الذى خلق الموت والحياة) وبقوله (ربى الذى يحيى ويميت) وبقوله (كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم) ثم إن الله تعالى قال فى آية أخرى (قل يتوفاكم ملك الموت) وقال فى آية ثالثة (حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا) وجوابه أن المتوفى فى الحقيقة هو الله ، إلا أنه تعالى فوض فى عالم الأسباب كل نوع من أنواع الأعمال إلى ملك من الملائكة ، ففوض قبض الأرواح إلى ملك الموت وهو رئيس وتحته أتباع وخدم فأضيف التوفى فى هذه الآية إلى الله تعالى بالإضافة الحقيقية ، وفى الآية الثانية إلى ملك الموت لأنه هو الرئيس فى هذا العمل وإلى سائر الملائكة لأنهم هم الأتباع لملك الموت والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة وإذا ذكر الذين من دونه إذا هم يستبشرون ، قل اللهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم

وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤٨﴾

بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون ، ولو أن للذين ظلموا ما فى الأرض جميعاً ومثله معه لافتدوا به من سوء العذاب يوم القيامة وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون ، وبدا لهم سيئات ما كسبوا وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون ﴾ .

اعلم أن هذا نوع آخر من الأعمال القبيحة للمشركين . وهو أنك إذا ذكرت الله وحده تقول لا إله إلا الله وحده لاشريك له ، ظهرت آثار النفرة من وجوههم وقلوبهم ، وإذا ذكرت الأصنام والأوثان ظهرت آثار الفرح والبشارة فى قلوبهم وصدورهم ، وذلك يدل على الجهل والحماقة ، لأن ذكر الله رأس السعادات وعنوان الخيرات ، وأما ذكر الأصنام التى هى الجمادات الخسيسة ، فهو رأس الجهالات والحماقات ، فنفرتهم عن ذكر الله وحده واستبشارهم بذكر هذه الأصنام من أقوى الدلائل على الجهل الغليظ والحمق الشديد ، قال صاحب الكشاف وقد يقابل الاستبشار والاشمئزاز إذ كل واحد منهما غاية فى بابه لأن الاستبشار أن يمتلىء قلبه سروراً حتى يظهر أثر ذلك السرور فى بشرة وجهه ويتهلل ، والاشمئزاز أن يعظم غمه وغيظه فينقبض الروح إلى داخل القلب فيبقى فى أديم الوجه أثر الغبرة والظلمة الأرضية ، ولما حكى عنهم هذا الأمر العجيب الذى تشهد فطرة العقل بفساده أردفه بأمرين (أحدهما) أنه ذكر الدعاء العظيم ، فوصفه أولا بالقدرة التامة وهى قوله (قل اللهم فاطر السموات والأرض) وثانياً بالعلم الكامل وهو قوله تعالى عالم الغيب والشهادة ، وإنما قدم ذكر القدرة على ذكر العلم لأن العلم بكونه تعالى قادراً متقدم على العلم بكونه عالماً ، ولما ذكر هذا الدعاء قال (أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون) يعنى أن نفرتهم عن التوحيد وفرحهم عند سماع الشرك أمر معلوم الفساد ببديهة العقل ، ومع ذلك ، القوم قد أصروا عليه ، فلا يقدر أحد على إزالتهم عن هذا الاعتقاد الفاسد والمذهب الباطل إلا أنت . عن أبى سلمة قال : سألت عائشة بم كان يفتتح رسول الله ﷺ صلاته بالليل ؟ قالت « كان يقول اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون ، اهدنى لما اختلف فيه من الحق بإذنك وإنك لتهدى من تشاء إلى صراط مستقيم » .

واعلم أنه تعالى لما حكى عنهم ذلك المذهب الباطل ذكر فى وعيدهم أشياء (أولها) أن هؤلاء

فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾ قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٥٠﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ هَٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥١﴾ أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾

الكفار لو ملكوا كل مافى الأرض من الأموال وملكوا مثله معه لجعلوا الكل فدية لأنفسهم من ذلك العذاب الشديد (وثانيها) قوله تعالى (وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون) أى ظهرت لهم أنواع من العقاب لم تكن فى حسابهم ، وكما أنه ﷺ قال فى صفة الثواب فى الجنة «فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر» فكذلك فى العقاب حصل مثله وهو قوله (وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون) و(ثالثها) قوله تعالى (وبدا لهم سيئات ما كسبوا) ومعناه ظهرت لهم آثار تلك السيئات التى اكتسبوها أى ظهرت لهم أنواع من العقاب آثار تلك السيئات التى اكتسبوها . ثم قال (وحاق بهم) من كل الجوانب جزاء ما كانوا يستهزئون به ، فنبه تعالى بهذه الوجوه على عظم عقابهم .

قوله تعالى : ﴿ فاذا مس الانسان ضر دعانا ، ثم إذا خولناه نعمة منا قال إنما أوتيته على علم بل هى فتنة ولكن أكثرهم لا يعلمون ، قد قالها الذين من قبلهم فما أغنى عنهم ماكانوا يكسبون ، فأصابهم سيئات ما كسبوا ، والذين ظلموا من هؤلاء سيصيبهم سيئات ما كسبوا وماهم بمعجزين ، أو لم يعلموا أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون ﴾ .

اعلم أن هذا حكاية طريقة أخرى من طرائقهم الفاسدة ، وذلك لأنهم عند الوقوع فى الضر الذى هو الفقر والمرض يفزعون إلى الله تعالى ، ويرون أن دفع ذلك لا يكون إلا منه ، ثم إنه تعالى إذا خولهم النعمة ، وهى إما السعة فى المال أو العافية فى النفس ، زعم أنه إنما حصل ذلك بكسبه وبسبب جهده وجده ، فإن كان مالا قال إنما حصل بكسبى ، وإن كان صحة قال إنما حصل ذلك بسبب العلاج الفلانى ، وهذا تناقض عظيم ، لأنه كان فى حال العجز والحاجة أضاف الكل

إلى الله ، وفى حال السلامة والصحة قطعه عن الله ، وأسنده إلى كسب نفسه ، وهذا تناقض قبيح ، فبين تعالى قبح طريقتهم فيما هم عليه عند الشدة والرخاء بلفظة وجيزة فصيحة ، فقال (بل هى فتنة) يعنى النعمة التى خولها هذا الكافر فتنة ، لأن عند حصولها يجب الشكر ، وعند فواتها يجب الصبر ، ومن هذا حاله يوصف بأنه فتنة من حيث يختبر عنده حال من أوتى النعمة ، كما يقال فتنت الذهب بالنار ، إذا عرضته على النار لتعرف خلاصته .

ثم قال تعالى (ولكن أكثرهم لا يعلمون) والمعنى ما قدمنا أن هذا التخويل إنما كان لأجل الاختبار . وبقى فى الآية أبحاث نذكرها فى معرض السؤال والجواب .

﴿ السؤال الأول ﴾ ما السبب فى عطف هذه الآية بالفاء ههنا ، وعطف مثلها فى أول السورة بالواو ؟ (والجواب) أنه تعالى حكى عنهم قبل هذه الآية أنهم يشمئزون من سماع التوحيد ويستبشرون بسماع ذكر الشركاء ، ثم ذكر بفاء التعقيب أنهم إذا وقعوا فى الضر والبلاء والتجأوا إلى الله تعالى وحده ، كان الفعل الأول مناقضاً للفعل الثانى ، فذكر فاء التعقيب ليدل على أنهم واقعون فى المناقضة الصريحة فى الحال ، وأنه ليس بين الأول والثانى فاصل مع أن كل واحد منهما مناقض للثانى ، فهذا هو الفائدة فى ذكر فاء التعقيب ههنا . فأما الآية الأولى فليس المقصود منها بيان وقوعهم فى التناقض فى الحال ، فلا جرم ذكر الله بحرف الواو لا بحرف الفاء .

﴿ السؤال الثانى ﴾ ما معنى التخويل ؟ (الجواب) التخويل هو التفضل ، يعنى نحن نتفضل عليه وهو يظن أنه إنما وجده بالاستحقاق .

﴿ السؤال الثالث ﴾ ما المراد من قوله (إنما أوتيته على علم) ؟ (الجواب) يحتمل أن يكون المراد ، إنما أوتيته على علم الله بكونى مستحقاً لذلك ، ويحتمل أن يكون المراد ، إنما أوتيته على علمى بكونى مستحقاً له . ويحتمل أن يكون المراد ، إنما أوتيته على علم لأجل ذلك العلم قدرت على اكتسابه مثل أن يكون مريضاً فيعالج نفسه ، فيقول إنما وجدت الصحة لعلمى بكيفية العلاج ، وإنما وجدت المال لعلمى بكيفية الكسب .

﴿ السؤال الرابع ﴾ النعمة مؤنثة ، والضمير فى قوله (أوتيته) عائد على النعمة ، فضمير التذكير كيف عاد إلى المؤنث ، بل قال بعده (بل هى فتنة) فجعل الضمير مؤنثاً فما السبب فيه ؟ (والجواب) أن التقدير حتى إذا خولناه شيئاً من النعمة ، فلفظ النعمة مؤنث ومعناها مذكر ، فلا جرم جاز الأمران .

قوله تعالى : ﴿ قد قالها الذين من قبلهم فما أغنى عنهم ﴾ الضمير فى قالها راجع إلى قوله (إنما أوتيته على علم عندى) لأنها كلمة أو جملة من المقول (والذين من قبلهم) هم قارون وقومه حيث قال (إنما أوتيته على علم) عندى وقومه راضون به فكأنهم قالوها ، ويجوز أيضاً أن يكون فى الأمم الخالية قائلون مثلها .

ثم قال تعالى (فما أغنى عنهم ماكانوا يكسبون) أى ما أغنى عنهم ذلك الاعتقاد الباطل والقول الفاسد الذى اكتسبوه من عذاب الله شيئاً بل أصابهم سيئات ما كسبوا ، ولما بين فى فى أولئك المتقدمين أنهم أصابهم سيئات ما كسبوا أى عذاب عقائدهم الباطلة وأقوالهم الفاسدة قال (وماهم بمعجزين) أى لا يعجزوننى فى الدنيا والآخرة .

ثم قال تعالى (أو لم يعلموا أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر) يعنى : أو لم يعلموا أن الله تعالى هو الذى يبسط الرزق لمن يشاء تارة ، ويقبض تارة أخرى ، وقوله (ويقدر) أى ويقتر ويضيق ، والدليل عليه أنا نرى الناس مختلفين فى سعة الرزق وضيقه ، ولابد له من سبب ، وذلك السبب ليس هوعقل الرجل وجهله ، لأنا نرى العاقل القادر فى أشد الضيق . ونرى الجاهل المريض الضعيف فى أعظم السعة ، وليس ذلك أيضاً لأجل الطبائع والأنجم والأفلاك لأن فى الساعة التى ولد فيها ذلك الملك الكبير والسلطان القاهر ، قد ولد فيه أيضاً عالم من الناس وعالم من الحيوانات غيرالإنسان ، ويولد أيضاً فى تلك الساعة عالم من النبات ، فلماشاهدنا حدوث هذه الأشياء الكثيرة فى تلك الساعة الواحدة مع كونها مختلفة فى السعادة والشقاوة ، علمنا أنه ليس المؤثر فى السعادة والشقاوة هو الطالع ، ولما بطلت هذه الأقسام ، علمنا أن المؤثر فيه هو الله سبحانه ، وصح بهذا البرهان العقلى القاطع على صحة قوله تعالى (أو لم يعلموا أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر) . قال الشاعر :

فلا السعد يقضى به المشترى ولا النحس يقضى علينا زحل
ولكنه حكم رب السما . وقاضى القضاة تعالى وجل

تم بعونه تعالى الجزء السادس والعشرون من التفسير الكبير للأمام الفخر الرازى رحمه الله تعالى ويتلوه الجزء السابع والعشرون وأوله تفسيرقوله تعالى :

﴿ قل ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ﴾

بسم الله الرحمن الرحيم

قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٩﴾

قوله تعالى : ﴿ قل ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم ، وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لا تنصرون ، واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم من قبل أن يأتيكم العذاب بغتة وأنتم لا تشعرون ، أن تقول نفس يا حسرتى على ما فرطت فى جنب الله وإن كنت لمن الساخرين ، أو تقول لو أن الله هدانى لكنت من المتقين ، أو تقول حين ترى العذاب لو أن لى كرة فأكون من المحسنين ، بلى قد جاءتك آياتى فكذبت بها واستكبرت وكنت من الكافرين ﴾

اعلم أنه تعالى لما أطنب فى الوعيد أردفه بشرح كمال رحمته وفضله وإحسانه فى حق العبيد وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ احتج أصحابنا بهذه الآية على أنه تعالى يعفو عن الكبائر ، فقالوا : إنا بينا فى هذا الكتاب أن عرف القرآن جار بتخصيص اسم العباد بالمؤمنين[1] قال تعالى (وعباد الرحمن

(١) الصواب أن يقال « بتخصيص اسم العباد بالمؤمنين إذا أضيف إلى الله تعالى ، كما فى الآية والآيتين اللتين استشهد بها ، وإلا فان هذا يعارضه قول الله تعالى (ياحسرة على العباد ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون) فالذين يستهزئون برسل الله ليسوا بمؤمنين والذين يتحسر عليهم لم يذكروا فى معرض التعظيم وإنما ذكروا فى الذم والاهانة كما هو صريح الآية ولوصح ذلك لم يحتج إلى نعت العباد ووصفهم بصفات تقتضى المدح أو القدح ، فلفظ العباد يشمل المؤمن والكافر ، ولذا خصصه بالصفة .

الذين يمشون على الأرض هوناً) وقال (عيناً يشرب بها عباد الله) ولأن لفظ العباد مذكور فى معرض التعظيم ، فوجب أن لا يقع إلا على المؤمنين ، إذا ثبت هذا ظهر أن قوله (يا عبادى) مختص بالمؤمنين ، ولأن المؤمن هو الذى يعترف بكونه عبد الله ، أما المشركون فإنهم يسمون أنفسهم بعبد اللات والعزى وعبد المسيح . فثبت أن قوله (ياعبادى) لا يليق إلا بالمؤمنين ، إذا ثبت هذا فنقول إنه تعالى قال (الذين أسرفوا على أنفسهم) وهذا عام فى حق جميع المسرفين .

ثم قال تعالى (إن الله يغفر الذنوب جميعاً) وهذا يقتضى كونه غافراً لجميع الذنوب الصادرة عن المؤمنين ، وذلك هو المقصود فان قيل هذه الآية لا يمكن إجراؤها على ظاهرها ، وإلا لزم القطع بكون الذنوب مغفورة قطعاً ، وأنتم لا تقولون به ، فما هو مدلول هذه الآية لاتقولون به ، والذى تقولون به لا تدل عليه هذه الآية ، فسقط الاستدلال ، وأيضاً إنه تعالى قال عقيب هذه الآية (وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لا تنصرون) إلى قوله (بغتة وأنتم لا تشعرون) ولو كان المراد من أول الآية أنه تعالى غفر جميع الذنوب قطعاً لما أمر عقيبه بالتوبة ، ولما خوفهم بنزول العذاب عليهم من حيث لا يشعرون ، وأيضاً قال (أن تقول نفس ياحسرتا على مافرطت فى جنب الله) ولو كانت الذنوب كلها مغفورة ، فأى حاجة به إلى أن يقول (يا حسرتا على مافرطت فى جنب الله) ؟ وأيضاً فلو كان المراد مايدل عليه ظاهر لفظ الآية لكان ذلك إغراء بالمعاصى وإطلاقاً فى الإقدام عليها ، وذلك لايليق بحكمة الله ، وإذا ثبت هذا وجب أن يحمل على أن يقال المراد منه التنبيه على أنه لايجوز أن يظن العاصى أنه لاخلاص له من العذاب البتة ، فان من اعتقد ذلك فهو قانط من رحمة الله ، إذ لاأحد من العصاة المذنبين إلا ومتى تاب زال عقابه وصار من أهل المغفرة والرحمة ، فمعنى قوله (إن الله يغفر الذنوب جميعاً) أى بالتوبة والإنابة (والجواب) قوله الآية تقتضى كون كل الذنوب مغفورة قطعاً وأنتم لا تقولون به ، قلنا بل نحن نقول به ونذهب إليه ، وذلك لأن صيغة يغفر صيغة المضارع ، وهى للاستقبال ، وعندنا أن الله تعالى يخرج من النار من قال لا إله إلا الله محمد رسول الله ، وعلى هذا التقدير فصاحب الكبيرة مغفور له قطعاً ، إما قبل الدخول فى نار جهنم ، وإما بعد الدخول فيها ، فثبت أن مايدل عليه ظاهر الآية فهو عين مذهبنا .

أما قوله لو صارت الذنوب بأسرها مغفورة لما أمر بالتوبة ، فالجواب أن عندنا التوبة واجبة وخوف العقاب قائم ، فإنا لانقطع بازالة العقاب بالكلية ، بل نقول لعله يعفو مطلقاً ، ولعله يعذب بالنار مدة ثم يعفو بعد ذلك ، وبهذا الحرف يخرج الجواب عن بقية الأسئلة والله أعلم .

﴿ المسألة الثانية ﴾ اعلم أن هذه الآية تدل على الرحمة من وجوه : (الأول) أنه سمى

المذنب بالعبد والعبودية مفسرة بالحاجة والذلة والمسكنة ، واللائق بالرحيم الكريم إفاضة الخير والرحمة على المسكين المحتاج (الثانى) أنه تعالى أضافهم إلى نفسه بياء الإضافة فقال (ياعبادى الذين أسرفوا) وشرف الإضافة إليه يفيد الأمن من العذاب (الثالث) أنه تعالى قال (أسرفوا على أنفسهم) ومعناه أن ضرر تلك الذنوب ماعاد إليه بل هو عائد اليهم ، فيكفيهم من تلك الذنوب عود مضارها إليهم ، ولا حاجه إلى إلحاق ضرر آخر بهم (الرابع) أنه قال (لا تقنطوا من رحمة الله) نهاهم عن القنوط فيكون هذا أمراً بالرجاء والكريم إذا أمر بالرجاء فلايليق به إلا الكرم (الخامس) أنه تعالى قال أولا (ياعبادى) وكان الأليق أن يقول لاتقنطوا من رحمتى لكنه ترك هذا اللفظ وقال (لاتقنطوا من رحمة الله) لأن قولنا الله أعظم أسماء الله وأجلها ، فالرحمة المضافة إليه يجب أن تكون أعظم أنواع الرحمة والفضل (السادس) أنه لما قال (لا تقنطوا من رحمة الله) كان الواجب أن يقول إنه يغفر الذنوب جميعاً . ولكنه لم يقل ذلك ، بل أعاد اسم الله وقرن به لفظة إن المفيدة لأعظم وجوه التأكيد ، وكل ذلك يدل على المبالغة فى الوعد بالرحمن (السابع) أنه لو قال (يغفر الذنوب) لكان المقصود حاصلا لكنه أردفه باللفظ الدال على التأكيد فقال جميعاً وهذا أيضاً من المؤكدات (الثامن) أنه وصف نفسه بكونه غفوراً ، ولفظ الغفور يفيد المبالغة (التاسع) أنه وصف نفسه بكونه رحيما والرحمة تفيد فائدة على المغفرة فكان قوله (إنه هو الغفور) إشارة إلى إزالة موجبات العقاب ، وقوله (الرحيم) إشارة إلى تحصيل موجبات الرحمة والثواب (العاشر) أن قوله (إنه هو الغفور الرحيم) يفيد الحصر ، ومعناه أنه لا غفور ولا رحيم إلا هو ، وذلك يفيد الكمال فى وصفه سبحانه بالغفران والرحمة ، فهذه الوجوه العشرة مجموعة فى هذه الآية ، وهى بأسرها دالة على كمال الرحمة والغفران ، ونسأل الله تعالى الفوز بها والنجاة من العقاب بفضله ورحمته .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ ذكروا فى سبب النزول وجوها ، قيل أنها نزلت فى أهل مكة فانهم قالوا يزعم محمد أن من عبد الأوثان وقتل النفس لم يغفر له ، وقد عبدنا وقتلنا فكيف نسلم ؟ وقيل نزلت فى وحشى قاتل حمزة لما أراد أن يسلم وخاف أن لاتقبل توبته ، فلما نزلت الآية أسلم ، فقيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم هذه له خاصة أم للمسلمين عامة ؟ فقال بل للمسلمين عامة وقيل نزلت فى أناس أصابوا ذنوباً عظاماً فى الجاهلية ، فلما جاء الإسلام أشفقوا لا يقبل الله توبتهم ، وقيل نزلت فى عياش ابن أبى ربيعة والوليد بن الوليد ونفر من المسلمين أسلموا ثم فتنوا فافتتنوا وكان المسلمون يقولون فيهم لايقبل الله منهم توبتهم فنزلت هذه الآيات فكتبها عمر ، وبعث بها إليهم فأسلموا وهاجروا ، واعلم أن العبرة بعموم اللفظ لابخصوص السبب فنزول هذه الآيات فى هذه الوقائع لايمنع من عمومها .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قرأ نافع وابن كثير وابن عامر وعاصم (ياعبادى) بفتح الياء والباقون

وعاصم فى بعض الروايات بغير فتح وكلهم يقفون عليه باثبات الياء لأنها ثابتة في المصحف ، إلا فى بعض رواية أبى بكر عن عاصم أنه يقف بغير ياء ، وقرأ أبو عمرو والكسائى تقنطوا بكسر النون والباقون بفتحها وهما لغتان ، قال صاحب الكشاف ، وفى قراءة ابن عباس ، وبن مسعود (يغفر الذنوب جميعاً لمن يشاء) .

ثم قال تعالى (وأنيبوا إلى ربكم) قال صاحب الكشاف أى وتوبوا إليه وأسلموا له أى وأخلصوا له العمل ، وإنما ذكر الإنابة على أثر المغفرة لئلا يطمع طامع فى حصولها بغير توبة وللدلالة على أنها شرط فيها لازم لاتحصل بدونه ، وأقول هذا الكلام ضعيف جداً لأن عندنا التوبة عن المعاصى واجبة فلم يلزم من ورود الأمر بها طعن فى الوعد بالمغفرة ، فان قالوا لو كان الوعد بالمغفرة حاصلا قطعاً لما احتيج إلى التوبة ، لأن التوبة إنما تراد لإسقاط العقاب ، فاذا سقط العقاب بعفو الله عنه فلا حاجة إلى التوبة . فنقول هذا ضعيف لأن مذهبنا أنه تعالى وإن كان يغفر الذنوب قطعاً ويعفو عنها قطعاً إلا أن هذا العفو والغفران يقع على وجهين تارة يقع ابتداء وتارة يعذب مدة فى النار ثم يخرجه من النار ويعفو عنه ، ففائدة التوبة إزالة هذا العقاب ، فثبت أن الذى قاله صاحب الكشاف ضعيف ولا فائدة فيه .

ثم قال (واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم) واعلم أنه تعالى لما وعد بالمغفرة أمر بعد هذا الوعد بأشياء (فالأول) أمر بالإنابة وهو قوله تعالى (وأنيبوا إلى ربكم) و (الثانى) أمر بمتابعة الأحسن ، وفى المراد بهذا الأحسن وجوه (الأول) أنه القرآن ومعناه واتبعوا القرآن والدليل عليه قوله تعالى (الله نزل أحسن الحديث كتاباً) (الثانى) قال الحسن معناه ، والتزموا طاعة الله واجتنبوا معصية الله ، فإن الذى أنزل على ثلاثة أوجه ، ذكر القبيح ليجتنب عنه ، والأدون لئلا يرغب فيه ، والأحسن ليتقوى به ويتبع (الثالث) المراد بالأحسن الناسخ دون المنسوخ لأن الناسخ أحسن من المنسوخ ، لقوله تعالى (ماننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها) ولأن الله تعالى لما نسخ حكما وأثبت حكما آخر كان اعتمادنا على المنسوخ .

ثم قال (من قبل أن يأتيكم العذاب بغتة وأنتم لا تشعرون) والمراد منه التهديد والتخويف والمعنى أنه يفجأ العذاب وأنتم غافلون عنه ، واعلم أنه تعالى لما خوفهم بالعذاب بين تعالى أن بتقدير نزول العذاب عليهم ماذا يقولون فحكى الله تعالى عنهم ثلاثة أنواع من الكلمات (فالأول) قوله تعالى (أن تقول نفس ياحسرتا على مافرطت فى جنب الله وإن كنت لمن الساخرين) وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قوله (أن تقول) مفعول له أى كراهة أن تقول (ياحسرتا على ما فرطت فى جنب الله) وأما تنكير لفظ النفس ففيه وجهان (الأول) يجوز أن تراد نفس ممتازة عن سائر النفوس لأجل اختصاصها بمزيد إضرار بما لاينبغى رغبتها فى المعاصى (والثانى) يجوز أن

يراد به الكثرة ، وذلك لأنه ثبت فى علم أصول الفقه أن الحكم المذكور عقيب وصف يناسبه يفيد الظن بأن ذلك الحكم معلل بذلك الوصف ، فقوله (ياحسرتا) يدل على غاية الأسف ونهاية الحزن وأنه مذكور عقيب قوله تعالى (على مافرطت فى جنب الله) والتفريط فى طاعة الله تعالى يناسب شدة الحسرة وهذا يقتضى حصول تلك الحسرة عند حصول هذا التفريط ، وذلك يفيد العموم بهذا الطريق .

﴿ المسألة الثانية ﴾ القائلون بإثبات الأعضاء لله تعالى استدلوا على إثبات الجنب بهذه الآية ، واعلم أن دلائلنا على نفى الأعضاء قد كثرت ، فلا فائدة فى الإعادة ، ونقول بتقدير أن يكون المراد من هذا الجنب عضواً مخصوصاً لله تعالى ، فإنه يمتنع وقوع التفريط فيه ، فثبت أنه لابد من المصير إلى التأويل وللمفسرين فيه عبارات ، قال ابن عباس يريد ضيعت من ثواب الله ، وقال مقاتل ضيعت من ذكر الله ، وقال مجاهد فى أمر الله ، وقال الحسن فى طاعة الله ، وقال سعيد بن جبير فى حق الله . واعلم أن الإكثار من هذه العبارات لايفيد شرح الصدور وشفاء الغليل ، فنقول : الجنب سمى جنباً لأنه جانب من جوانب ذلك الشىء والشىء الذى يكون من لوازم الشىء وتوابعه يكون كأنه جند من جنوده وجانب من جوانبه فلما حصلت هذه المشابهة بين الجنب الذى هو العضو وبين ما يكون لازماً للشىء وتابعاً له ، لاجرم حسن إطلاق لفظ الجنب على الحق والأمر والطاعة قال الشاعر :

أما تتقين الله جنب وامق　　له كبد حرا عليك تقطع

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قال صاحب الكشاف قرىء (ياحسرتى) على الأصل و (يا حسرتاى) على الجمع بين العوض والمعوض عنه .

أما قوله تعالى (وإن كنت لمن الساخرين) أى أنه ماكان مكتفياً بذلك التقصير بل كان من المستهزئين بالدين ، قال قتادة لم يكفه أن ضيع طاعة الله حتى سخر من أهلها ، ومحل وإن كنت نصب على الحال كأنه قال (فرطت فى جنب الله) وأنا ساخر أى فرطت فى حال سخريتى .

﴿ النوع الثانى ﴾ من الكلمات التى حكاها الله تعالى عن أهل العذاب أنهم يذكرونه بعد نزول العذاب عليهم قوله (أو تقول لو أن الله هدانى لكنت من المتقين) .

﴿ النوع الثالث ﴾ قوله (أو تقول حين ترى العذاب لو أن لى كرة فأكون من المحسنين) وحاصل الكلام أن هذا المقصر أتى بثلاثة أشياء (أولها) الحسرة على التفريط فى الطاعة (وثانيها) التعلل بفقد الهداية (وثالثها) بتمنى الرجعة ، ثم أجاب الله تعالى عن كلامهم بأن قال التعلل بفقد الهداية باطل ، لأن الهداية كانت حاضرة والأعذار زائلة ، وهو المراد بقوله (بلى قد جاءتك آياتى فكذبت بها واستكبرت وكنت من الكافرين) وههنا مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قال الزجاج بلى جواب النفى وليس فى الكلام لفظ النفى إلا أنه حصل

فيه معنى النفى ، لأن معنى قوله (لو أن الله هدانى) أنه ما هدانى ، فلا جرم حسن ذكر لفظة (بلى) بعده .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال الواحدى رحمه الله : القراءة المشهورة وافقة على التذكير فى قوله (بلى قد جاءتك آياتى فكذبت بها واستكبرت وكنت من الكافرين) لأن النفس تقع على الذكر والأنثى فخوطب المذكر ، وروى الربيع بن أنس عن أم سلمة أن النبى صلى الله علية وسلم كان يقرأ على التأنيث ، قال أبو عبيد لو صح هذا عن النبى صلى الله عليه وسلم لكان حجة لايجوز لأحد تركها ولكنه ليس بمسند ، لأن الربيع لم يدرك أم سلمة ، وأما وجه التأنيث فهو أنه ذكر النفس ، ولفظ النفس ورد فى القرآن فى أكثر الأمر على التأنيث بقوله (سولت لى نفسى ، وإن النفس لأمارة بالسوء ، ويا أيتها النفس المطمئنة) .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قال القاضى هذه الآيات داله على صحة القول بالقدر من وجوه (الأول) أنه لا يقال : فلان أسرف على نفسه على وجه الذم إلا لما يكون من قبله ، وذلك يدل على أن أفعال العباد تحصل من قبلهم لا من قبل الله تعالى ، (وثانيها) أن طلب الغفران والرجاء فى ذلك أو اليأس لا يحسن إلا إذا كان الفعل فعل العبد ، (وثالثها) إضافة الإنابة والإسلام إليه من قبل أن يأتيه العذاب وذلك لا يكون إلا مع تمكنه من محاولتهما قبل نزول العذاب ، ومذهبهم أن الكافر لم يتمكن قط من ذلك (ورابعها) قوله تعالى (واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم) وذلك لا يتم إلا بما هو المختار للاتباع (وخامسها) ذمه لهم على أنهم لا يشعرون بما يوجب العذاب وذلك لا يصح إلا مع التمكن من الفعل ، (وسادسها) قولهم (يا حسرتى على ما فرطت فى جنب الله) ولا يتحسر المرء على أمر سبق منه إلا وكان يصح منه أن يفعله ، (وسابعها) قوله تعالى (على مافرطت فى جنب الله) ومن لا يقدر على الإيمان كما يقول القوم ولا يكون الإيمان من فعله لا يكون مفرطاً ، (وثامنها) ذمه لهم بأنهم من الساخرين ، وذلك لا يتم إلا أن تكون السخرية فعلهم وكان يصح منهم أن لا يفعلوه ، (وتاسعها) قوله (لو أن الله هدانى) أى مكننى (لكنت من المتقين) وعلى هذا قولهم إذا لم يقدر على التقوى فكيف يصح ذلك منه ، (وعاشرها) قوله (لو أن لى كرة فأكون من المحسنين) وعلى قولهم لو رده الله أبداً كرة بعد كرة ، وليس فيه إلا قدرة الكفر لم يصح أن يكون محسناً ، (والحادى عشر) قوله تعالى موبخاً لهم (بلى قد جاءتك آياتى فكذبت بها واستكبرت وكنت من الكافرين) فبين تعالى أن الحجة عليهم لله لا أن الحجة لهم على الله ، ولو أن الأمر كما قالوا لكان لهم أن يقولوا : قد جاءتنا الآيات ولكنك خلقت فينا التكذيب بها ولم تقدرنا على التصديق بها . (والثانى عشر) أنه تعالى وصفهم بالتكذيب والاستكبار والكفر على وجه الذم ولو لم تكن هذه الأشياء أفعالا لهم لما صح الكلام ، (والجواب) عنه أن هذه الوجوه معارضة ، بما أن القرآن مملوء من أن الله تعالى يضل ويمنع ويصدر منه اللين

وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾ وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦١﴾

والقسوة والاستدراج ، ولما كان هذا التفسير مملوءاً منه لم يكن إلى الإعادة حاجة .

قوله تعالى : ﴿ ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة أليس فى جهنم مثوى للمتكبرين . وينجى الله الذين اتقو بمفازتهم لا يمسهم السوء ولاهم يحزنون ﴾ .

اعلم أن هذا نوع آخر من تقرير الوعيد والوعد ، أما الوعيد فقوله تعالى (ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة) وفيه بحثان : (أحدهما) أن هـذا التكذيب كيف هو ؟ والثانى أن هذا السواد كيف هو ؟

﴿ البحث الأول ﴾ عن حقيقة هذا التكذيب ، فنقول : المشهور أن الكذب هو الإخبار عن الشيء على خلاف ماهو عليه ، ومنهم من قال هـذا القدر لا يكون كذباً بل الشرط فى كونه كذباً أن يقصد الإتيان بخبر يخالف المخبرعنه ، إذا عرفت هذا الأصل فنذكر أقوال الناس فىهذه الآية :

قال الكعبى : ويرد الجبر بأن هذه الآية وردت عقيب قوله (لوأن الله هدانى) يعنى أنه ماهدانى بل أضلنى ، فلما حكى الله عن الكفار ثم ذكر عقيبه (ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة) وجب أن يكون هذا عائداً إلى ذلك الكلام المتقدم ، ثم روى عن الحسن عن النبى صلى‌الله عليه‌وسلم أنه قال « ما بال أقوام يصلون ويقرأون القرآن ، يزعمون أن الله كتب الذنوب على العباد ، وهم كذبة على الله ، والله مسود وجوههم » واعلم أن أصحابنا قالوا آخر الآية يدل على فساد هذا التأويل لأنه تعالى قال فى آخر الآية (أليس فى جهنم مثوى للمتكبرين) وهـذا يدل على أن أولئك الذين صارت وجوههم مسودة أقوام متكبرون ، والتكبر لا يليق بمن يقول أنا لا أقدر على الخلق والإعادة والإيجاد ، وإنما القادر عليه هو الله سبحانه وتعالى ، أما الذين يقولون إن الله يريد شيئاً وأنا أريد بضده ، فيحصل مرادى ولا يحصل مراد الله ، فالتكبر بهـذا القائل أليق ، فثبت أن هذا التأويل الذى ذكروه فاسد ، ومن الناس من قال إن هذا الوعيد مختص باليهود والنصارى ، ومنهم من قال إنه مختص بمشركى العرب ، قال القاضى يجب حمل الآية على الكل من المشبهة والمجبرة وكذلك كل من وصف الله بما لا يليق به نفياً وإثباتاً ، فأضاف إليه ما يجب تنزيهه عنه أو نزهه عما يجب أن يضاف إليه . فالكل منهم داخلون تحت هذه الآية ، لأنهم كلهم كذبوا على الله ، فتخصيص الآية بالمجبرة والمشبهة أو اليهود والنصارى لا يجوز ، واعلم أنا لو أجرينا هذه الآية على عمومها كما ذكره القاضى

لزمه تكفير الأمة ، لأنك لا ترى فرقة من فرق الأمة إلا وقد حصل بينهم اختلاف شديد فى صفات الله تعالى ، ألا ترى أنه حصل الاختلاف بين أبى هاشم وأهل السنة فى مسائل كثيرة من صفات الله تعالى ، ويلزم على قانون قول القاضى تكفير أحدهما ، فثبت أنه يجب أن يحمل الكذب المذكور فى الآية على ما إذا قصد الإخبار عن الشىء مع أنه يعلم أنه كاذب فيما يقول ، ومثال هذا كفار قريش فإنهم كانوا يصفون تلك الأصنام بالإلهية مع أنهم كانوا يعلمون بالضرورة أنها جمادات ، وكانوا يقولون إن الله تعالى حرم البحيرة والسائبة والوصيلة والحام ، مع أنهم كانوا ينكرون القول بأن الله حرم كذا وأباح كذا ، وكان قائله عالماً بأنه كذب وإذا كان كذلك فإلحاق مثل هذا الوعيد بهذا الجاهل الكذاب الضال المضل [يكون] مناسباً ، أما من لم يقصد إلا الحق والصدق لكنه أخطأ يبعد إلحاق هذا الوعيد به .

﴿ البحث الثانى ﴾ الكلام فى كيفية السواد الحاصل فى وجوههم ، والأقرب أنه سواد مخالف لسائر أنواع السواد ، وهو سواد يدل على الجهل بالله والكذب على الله ، وأقول إن الجهل ظلمة ، والظلمة تتخيل كأنها سواد فسواد قلوبهم أوجب سواد وجوههم ، وتحت هذا الكلام أسرار عميقة من مباحث أحوال القيامة . فلما ذكر الله هذا الوعيد أردفه بالوعد فقال (وينجى الله الذين اتقوا بمفازتهم) الآية ، قال القاضى المراد به من اتقى كل الكبائر إذ لا يوصف بالاتقاء المطلق إلا من كان هذا حاله ، فيقال له : أمرك عجيب جداً فإنك قلت لما تقدم قوله تعالى (لو أن الله هدانى لكنت من المتقين) وجب أن يحمل قوله (ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة) على الذين قالوا (لو أن الله هدانى) فعلى هذا القانون لما تقدم قوله (ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة) .

ثم قال تعالى بعده (وينجى الله الذين اتقوا بمفازتهم) وجب أن يكون المراد هم الذين اتقوا ذلك الكذب ، فهذا يقتضى أن كل من لم يتصف بذلك الكذب أنه يدخل تحت ذلك الوعد المذكور بقوله (وينجى الله الذين اتقوا بمفازتهم) وأن يكون قولك (الذين اتقو) المراد منه من اتقى كل الكبائر فاسداً ، فثبت أن التعصب يحمل الرجل العاقل على الكلمات المتناقضة ، بل الحق أن تقول المتقى هو الآتى بالاتقاء . والآتى بالاتقاء فى صورة واحدة آت بمسمى الاتقاء ، وبهذا الحرف قلنا الأمر المطلق لا يفيد التكرار ، ثم ذلك الاتقاء غير مذكور بعينه فى هذه اللفظة فوجب حمله على الاتقاء عن الشىء الذى سبق ذكره وهذا هو الكذب على الله تعالى ، فثبت أن ظاهر الآية يقتضى أن من اتقى عن تلك الصفة وجب دخوله تحت هذا الوعد الكريم .

ثم قال تعالى (بمفازتهم) وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قرأ حمزة والكسائى وأبو بكر عن عاصم بمفازاتهم على الجمع ، والباقون بمفازتهم على التوحيد ، وحكى الواحدى عن الفراء أنه قال : كلاهما صواب ، إذ يقال فى الكلام

اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ
وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٦٣﴾ قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ
أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ
عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٦٦﴾

قد تبين أمر القوم وأمور القوم ، قال أبو على الفارسى : الإفراد للمصدر ووجه الجمع أن المصادر قد تجمع إذا اختلفت أجناسها ، كقوله تعالى (وتظنون بالله الظنونا) ولا شك أن لكل متق نوعا آخر من المفازة .

﴿ المسألة الثانية ﴾ المفازة مفعلة من الفوز وهو السعادة ، فكأن المعنى أن النجاة فى القيامة حصلت بسبب فوزهم فى الدنيا بالطاعات والخيرات ، فعبر عن الفوز بأوقاتها ومواضعها .

ثم قال (لا يمسهم السوء ولاهم يحزنون) والمراد أنه كالتفسير لتلك النجاة ، كأنه قيل كيف ينجيهم ؟ فقيل (لا يمسهم السوء ولاهم يحزنون) وهذه كلمة جامعة لأنه اذا علم أنه لا يمسه السوء كان فارغ البال بحسب الحال عما وقع فى قلبه بسبب فوات الماضى ، فحينئذ يظهر أنه سلم عن كل الآفات ، ونسأل الله الفوز بهذه الدرجات بمنه وكرمه .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ دلت الآية على أن المؤمنين لا ينالهم الخوف والرعب فى القيامة ، وتأكد هذا بقوله (لا يحزنهم الفزع الأكبر) .

قوله تعالى : ﴿ الله خالق كل شىء وهو على كل شىء وكيل ، له مقاليد السموات والأرض والذين كفروا بآيات الله أولئك هم الخاسرون ، قل أفغير الله تأمرونى أعبد أيها الجاهلون ، ولقد أوحى إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين ، بل الله فاعبد وكن من الشاكرين ﴾ .

واعلم أنه لما أطال الكلام فى شرح الوعد والوعيد عاد إلى دلائل الإلهية والتوحيد ، وفى الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قد ذكرنا فى سورة الأنعام أن أصحابنا تمسكوا بقوله تعالى (الله خالق كل شىء) على أن أعمال العباد مخلوقة لله تعالى ، وأطنبنا هناك فى الأسئلة والأجوبة ، فلا فائدة ههنا

فى الإعادة ، إلا أن الكعبى ذكر ههنا كلمات فنذكرها ونجيب عنها ، فقال إن الله تعالى مدح نفسه بقوله (الله خالق كل شىء) وليس من المدح أن يخلق الكفر والقبائح فلا يصح أن يحتج المخالف به ، وأيضاً فلم يكن فى صدر هذه الأمة خلاف فى أعمال العباد ، بل كان الخلاف بينهم وبين المجوس والزنادقة فى خلق الأمراض والسباع والهوام ، فأراد الله تعالى أن يبين أنها جمع من خلقه ، وأيضاً لفظه (كل) قد لاتوجب العموم لقوله تعالى (وأوتيت من كل شىء) (تدمر كل شىء) وأيضاً لو كانت أعمال العباد من خلق الله لما ضافها إليهم بقوله (كفاراً حسداً من عند أنفسهم) ولما صح قوله (ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله) ولما صح قوله (وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا) فهذا جملة ما ذكره الكعبى فى تفسيره ، وقال الجبائى : الله خالق كل شىء سوى أفعال خلقه التى صح فيها الأمر والنهى واستحقوا بها الثواب والعقاب ، ولو كانت أفعالهم خلقاً لله تعالى ماجاز ذلك فيه كما لا يجوز مثله فى ألوانهم وصورهم ، وقال أبو مسلم : الخلق هو التقدير لا الإيجاد ، فإذا أخبر الله عن عباده أنهم يفعلون الفعل الفلانى فقد قدر ذلك الفعل ، فيصح أن يقال إنه تعالى خلقه وإن لم يكن موجداً له .

واعلم أن الجواب عن هذه الوجوه قد ذكرناه بالاستقصاء فى سورة الأنعام ، فمن أراد الوقوف عليه فليطالع هذا الموضع من هذا الكتاب ، والله أعلم .

أما قوله تعالى (وهو على كل شىء وكيل) فالمعنى أن الأشياء كلها موكولة إليه فهو القائم بحفظها وتدبيرها من غير منازع ولا مشارك ، وهذا أيضاً يدل على أن فعل العبد مخلوق لله تعالى ، لأن فعل العبد لو وقع بتخليق العبد لكان ذلك الفعل غير موكول إلى الله تعالى ، فلم يكن الله تعالى وكيلا عليه ، وذلك ينافى عموم الآية .

ثم قال تعالى (له مقاليد السموات والأرض) والمعنى أنه سبحانه مالك أمرها وحافظها وهو من باب الكناية ، لأن حافظ الخزائن ومدبر أمرها هو الذى بيده مقاليدها ، ومنه قولهم : فلان ألقيت مقاليد الملك إليه وهى المفاتيح ، قال صاحب الكشاف : ولا واحد لها من لفظها ، وقيل مقليد ومقاليد ، وقيل مقلاد ومقاليد مثل مفتاح ومفاتيح ، وقيل إقليد وأقاليد ، قال صاحب الكشاف : والكلمة أصلها فارسية ، إلا أن القوم لما عربوها صارت عربية .

واعلم أن الكلام فى تفسير قوله (له مقاليد السموات والأرض) قريب من الكلام فى قوله تعالى (وعنده مفاتح الغيب) وقد سبق الاستقصاء هناك ، قيل سأل عثمان رسول الله ﷺ عن تفسير قوله (له مقاليد السموات والأرض) فقال « ياعثمان ما سألنى عنها أحد قبلك ، تفسيرها لا إله إلا الله والله أكبر ، سبحان الله وبحمده ، أستغفر الله ولا حول ولا قوة إلا بالله ، هو الأول والآخر والظاهر والباطن بيده الخير ، يحيى ويميت وهو على كل شىء قدير » هكذا نقله صاحب الكشاف .

قوله تعالى : ﴿والذين كفر بآيات الله أئك هم الخاسرون﴾ وفيه مسألتان :

﴿ المسألة الأولى ﴾ صريح الآية يقتضى أنه لاخاسر إلا كافر ، وهذا يدل على أن كل من لم يكن كافراً فإنه لابد وأن يحصل له حظ من رحمة الله .

﴿ المسألة الثانية ﴾ أورد صاحب الكشاف سؤالا ، وهو أنه بم اتصل قوله (والذين كفروا) ؟ وأجاب عنه بأنه اتصل بقوله تعالى (وينجى الله الذين اتقوا) أى ينجى الله المتقين بمفازتهم (والذين كفروا بآيات الله أولئك هم الخاسرون) واعترض ما بينهما أنه خالق للأشياء كلها ، وإن (له مقاليد السموات والأرض) وأقول هذا عندى ضعيف من وجهين (الأول) أن وقوع الفاصل الكبير بين المعطوف والمعطوف عليه بعيد (الثانى) أن قوله (وينجى الله الذين اتقوا بمفازتهم) جملة فعلية ، وقوله (والذين كفروا بآيات الله هم الخاسرون) جملة إسمية ، وعطف الجملة الأسمية على الجملة الفعلية لايجوز ، بل الأقرب عندى أن يقال إنه لما وصف الله تعالى نفسه بالصفات الإلهية والجلالية ، وهو كونه خالقاً للأشياء كلها ، وكونه مالكا لمقاليد السموات والأرض بأسرها ، قال بعده : (والذين كفروا) بهذه الآيات الظاهرة الباهرة (أولئك هم الخاسرون) .

ثم قال تعالى (قل أفغير الله تأمرونى أعبد أيها الجاهلون) وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قرأ ابن عامر تأمرونني بنونين ساكنة الياء وكذلك هى فى مصاحف الشام ، قال الواحدى وهو الأصل ، وقرأ ابن كثير تأمرونى بنون مشددة على إسكان الأولى وإدغامها فى الثانية ، وقرأ نافع تأمرونى بنون واحدة خفيفة ، على حذف إحدى النونين والباقون بنون واحدة مكسورة مشددة .

﴿ المسألة الثانية ﴾ (أفغير الله) منصوب بأعبد وتأمرونى اعتراض ، ومعناه : أفغير الله أعبد بأمركم ؟ وذلك حين قال له المشركون أسلم ببعض آلهتنا ونؤمن بإلهك ، وأقول نظير هذه الآية ، قوله تعالى (قل أغير الله أتخذ ولياً فاطر السموات والأرض) وقد ذكرنا فى تلك الآية وجه الحكمة فى تقديم الفعل .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ إنما وصفهم بالجهل لأنه تقدم وصف الإله بكونه خالقاً للأشياء وبكون مالكا لمقاليد السموات والأرض ، وظاهر كون هذه الأصنام جمادات أنها لاتضر ولا تنفع ، ومن أعرض عن عبادة الإله الموصوف بتلك الصفات الشريفة المقدسة ، واشتغل بعبادة هذه الأجسام الخسيسة ، فقد بلغ فى الجهل مبلغاً لامزيد عليه ، فلهذا السبب قال (أيها الجاهلون) ولا شك أن وصفهم بهذا الأمر لائق بهذا الموضع .

قوله تعالى : ﴿ولقد أوحى إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ، ولتكونن من الخاسرين﴾ اعلم إن الكلام التام مع الدلائل القوية ، والجواب عن الشبهات فى مسألة الإحباط قد ذكرناه فى سورة البقرة فلا نعيده ، قال صاحب الكشاف قرىء (ليحبطن عملك) على

وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ

البناء للمفعول وقرىء بالياء والنون أى : ليحبطن الله أو الشرك وفى الآية سؤالات :

﴿ السؤال الأول ﴾ كيف أوحى إليه وإلى من قبله حال شركه على التعيين ؟ و (الجواب) تقدير الآية : أوحى إليك لئن أشركت ليحبطن عملك ، وإلى الذين من قبلك مثله أو أوحى إليك وإلى كل واحد منهم لئن أشركت ، كما تقول كسانا حلة أى كل واحد منا .

﴿ السؤال الثانى ﴾ ما الفرق بين اللامين ؟ (الجواب) الأولى موطئة للقسم المحذوف والثانية لام الجواب .

﴿ السؤال الثالث ﴾ كيف صح هذا الكلام مع علم الله تعالى أن رسله لايشركون ولاتحبط أعمالهم ؟ و (الجواب) أن قوله (لئن أشركت ليحبطن عملك) قضية شرطية والقضية الشرطية لايلزم من صدقها صدق جزأيها ألا ترى أن قولك لوكانت الخمسة زوجاً لكانت منقسمة بمتساويين قضية صادقة مع أن كل واحد من جزأيها غير صادق ، قال الله تعالى (لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا) ولم يلزم من هذا صدق القول بأن فيهما آلهة وبأنهما قد فسدتا .

﴿ السؤال الرابع ﴾ ما معنى قوله (ولتكونن من الخاسرين) ؟ و (الجواب) كما أن طاعات الأنبياء والرسل أفضل من طاعات غيرهم ، فكذلك القبائح التى تصدر عنهم فإنها بتقدير الصدور تكون أقبح لقوله تعالى (إذاً لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات) فكان المعنى ضعف الشرك الحاصل منه ، وبتقدير حصوله منه يكون تأثيره فى جانب غضب الله أقوى وأعظم .

واعلم أنه تعالى لما قدم هذه المقدمات ذكر ماهو المقصود فقال (بل الله فاعبد وكن من الشاكرين) ، والمقصود منه ما أمروه به من الإسلام ببعض آلهتهم ، كأنه قال إنكم تأمروننى بأن لاأعبد إلا غير الله لأن قوله (قل أفغير الله تأمرونى أعبد) يفيد أنهم عينوا عليه عبادة غير الله ، فقال الله إنهم بئسما قالوا ولكن أنت على الضد مما قالوا ، فلا تعبد إلا الله ، وذلك لأن قوله (بل الله فاعبد) يفيد الحصر . ثم قال (وكن من الشاكرين) على ماهداك إلى أنه لايجوز إلا عبادة الإله القادر عن الإطلاق العليم الحكيم ، وعلى ماأرشدك إلى أنه يجب الإعراض عن عبادة كل ماسوى الله .

قوله تعالى : ﴿ وما قدروا الله حق قدرة والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون ، ونفخ فى الصور فصعق من فى السموات ومن فى الأرض

مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخۡرَىٰ فَإِذَا هُمۡ قِيَامٞ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾ وَأَشۡرَقَتِ ٱلۡأَرۡضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلۡكِتَٰبُ وَجِاْيٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡحَقِّ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴿٦٩﴾ وَوُفِّيَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِمَا يَفۡعَلُونَ ﴿٧٠﴾

إلا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون ، وأشرقت الأرض بنور ربها ووضع الكتاب وجيء بالنبيين والشهداء وقضى بينهم بالحق وهم لا يظلمون ، ووفيت كل نفس ما عملت وهو أعلم بما يفعلون ﴾ .

واعلم أنه تعالى لما حكى عن المشركين أنهم أمروا الرسول بعبادة الأصنام . ثم إنه تعالى أقام الدلائل على فساد قولهم وأمر الرسول بأن يعبد الله ولا يعبد شيئاً آخر سواه ، بين أنهم لو عرفوا الله حق معرفته لما جعلوا هذه الأشياء الخسيسة مشاركة له المعبودية ، فقال (وما قدروا الله حق قدره) وفى الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ احتج بعض الناس بهذه الآية على أن الخلق لايعرفون حقيقة الله ، قالوا لأن قوله (وما قدروا الله حق قدره) يفيد هذا المعنى إلا أنا ذكرنا أن هذا صفة حال الكفار فلا يلزم من وصف الكفار بأنهم ماقدروا الله حق قدره وصف المؤمنين بذلك ، فسقط هذا الكلام .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قوله (وما قدروا الله حق قدره) أى ما عظموه حق تعظيمه ، وهذه الآية مذكورة فى سور ثلاث ، فى سورة الأنعام ، وفى سورة الحج ، وفى هذه السورة .

واعلم أنه تعالى لما بين أنهم ماعظموه تعظيما لائقاً به أردفه بما يدل على كمال عظمته ونهاية جلالته ، فقال (والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه) قال القفال (وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة) كقول القائل وما قدرتنى حق قدرى وأنا الذى فعلت كذا وكذا ، أى لما عرفت أن حالى وصفتى هذا الذى ذكرت ، فوجب أن لاتحطنى عن قدرى ومنزلتى ، ونظيره قوله تعالى (كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم) أى كيف تكفرون بمن هذا وصفه وحال ملكه فكذا ههنا ، والمعنى (وما قدروا الله حق قدره) إذ زعموا أن له شركاء وأنه لايقدر على إحياء الموتى مع أن الأرض والسموات فى قبضته وقدرته ، قال صاحب الكشاف الغرض من هذا الكلام إذا أخذته كما هو بجملته ومجموعه تصوير عظمته

والتوقيف على كنه جلاله من غير ذهاب بالقبضة ولا باليمين إلى جهة حقيقة أو مجاز ، وكذلك ماروى أن يهودياً جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا أبا القاسم إن الله يمسك السموات يوم القيامة على إصبع والأرضين على إصبع والجبال على إصبع والشجر على إصبع والثرى على أصبع وسائر الخلق على أصبع ثم يهزهن فيقول أنا الملك ! فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم تعجباً مما قال ، قال صاحب الكشاف وإنما ضحك أفصح العرب لأنه لم يفهم منه إلا مايفهمه علماء البيان من غير تصور إمساك ولا إصبع ولا هز ولا شيء من ذلك ، ولكن فهمه وقع أول كل شيء وآخره على الزبدة والخلاصة ، التي هي الدلالة على القدرة الباهرة ، وأن الأفعال العظام التي تتحير فيها الأوهام ولا تكتنهها الأذهان هينة عليه . قال ولا نرى باباً فى علم البيان أدق ولا ألطف من هذا الباب ، فيقال له هل تسلم أن الأصل فى الكلام حمله على الحقيقه ، وأنه إنما يعدل عن الحقيقة إلى المجاز عند قيام الدلالة على أن حمله على حقيقته ممتنع ، فحينئذ يجب حمله على المجاز ، فإن أنكر هذا الأصل فحينئذ يخرج القرآن بالكلية عن أن يكون حجة ، فان لكل أحد أن يقول المقصود من الآية الفلانية كذا وكذا فأنا أحمل الآية على ذلك المقصود ، ولا ألتفت إلى الظواهر ، مثاله من تمسك بالآيات الواردة فى ثواب أهل الجنة وعقاب أهل النار ، قال المقصود بيان سعادات المطيعين وشقاوة المذنبين ، وأنا أحمل هذه الآيات على هذا المقصود ولا أثبت الأكل والشرب ولا سائر الأحوال الجسمانية ، ومن تمسك بالآيات الواردة فى إثبات وجوب الصلاة فقال المقصود منه إيجاب تنوير القلب بذكر الله ، فأنا أكتفى بهذا القدر ولا أوجب هذه الأعمال المخصوصة ، وإذا عرفت الكلام فى هذين المثالين فقس عليه سائر المسائل الأصولية والفروعية ، وحينئذ يخرج القرآن عن أن يكون حجة فى المسائل الأصولية والفروعية ، وذلك باطل قطعاً ، وأما إن سلم أن الأصل فى علم القرآن أن يعتقد أن الأصل فى الكلام حمله على حقيقته ، فان قام دليل منفصل على أنه يتعذر حمله على حقيقته ، فحينئذ يتعين صرفه إلى مجازه ، فإن حصلت هناك مجازات لم يتعين صرفه إلى مجاز معين إلا إذا كان الدليل يوجب ذلك التعيين . فنقول ههنا لفظ القبضة ولفظ اليمين حقيقة فى الجارحة المخصوصة ، ولا يمكنك أن تصرف ظاهر الكلام عن هذا المعنى إلا إذا أقمت الدلالة على أن حمل هذه الألفاظ على ظواهرها ممتنع فحينئذ يجب حملها على المجازات ، ثم تبين بالدليل أن المعنى الفلانى يصح جعله مجازاً عن تلك الحقيقة ، ثم تبين بالدليل أن هذا المجاز أولى من غيره ، وإذا ثبتت هذه المقدمات وترتيبها على هذا الوجه فهذا هو الطريق الصحيح الذى عليه تعويل أهل التحقيق فأنت ما أتيت فى هذا الباب بطريقة جديدة وكلام غريب ، بل هو عين ماذكره أهل التحقيق ، فثبت أن الفرح الذى أظهره من أنه اهتدى إلى الطريق الذى لم يعرفه غيره طريق فاسد ، دال على قلة وقوفه على المعانى ، ولنرجع إلى الطريق الحقيقى فنقول لاشك أن لفظ القبضة واليمين مشعر بهذه الأعضاء والجوارح ، إلا أن الدلائل العقلية قامت على امتناع ثبوت الأعضاء والجوارح

لله تعالى ، فوجب حمل هذه الأعضاء على وجوه المجاز ، فنقول إنه يقال فلان فى قبضة فلان إذا كان تحت تدبيره وتسخيره . قال تعالى (إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم) والمراد منه كونه مملوكا له ، ويقال هذه الدار فى يد فلان ، وفلان صاحب اليد ، والمراد من الكل القدرة ، والفقهاء يقولون فى الشروط وقبض فلان كذا وصار فى قبضته ، ولا يريدون إلا خلوص ملكه ، وإذا ثبت تعذر حمل هذه الألفاظ على حقائقها وجب حملها على مجازاتها صوناً لهذه النصوص عن التعطيل ، فهذا هو الكلام الحقيقى فى هذا الباب ، ولنا كتاب مفرد فى إثبات تنزيه الله تعالى عن الجسمية والمكان ، سميناه بتأسيس التقديس ، من أراد الإطناب فى هذا الباب فليرجع إليه .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ فى تفسير ألفاظ الآية قوله (والأرض) المراد منه الأرضون السبع ، ويدل عليه وجوه (الأول) قوله (جميعاً) فان هذا التأكيد لا يحسن إدخاله إلا على الجمع ونظيره قوله (كل الطعام) وقوله تعالى (أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء) وقوله تعالى (والنخل باسقات) وقوله تعالى (إن الإنسان لفى خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات) فإن هذه الألفاظ الملحة باللفظ المفرد تدل على أن المراد منه الجمع فكذا ههنا (والثانى) أنه قال بعده (والسموات مطويات) فوجب أن يكون المراد بالأرض الأرضون (الثالث) أن الموضع موضع تعظيم وتفخيم فهذا مقتضى المبالغة ، وأما القبضة فهى المرة الواحدة من القبض ، قال تعالى (فقبضت قبضة من أثر الرسول) والقبضة بالضم المقدار المقبوض بالكف ، ويقال أيضاً أعطنى قبضة من كذا ، يريد معنى القبضة تسمية بالمصدر ، والمعنى والأرضون جميعاً قبضته أى ذوات قبضته يقبضهن قبضة واحد من قبضاته ، يعنى أن الأرضين مع ما لها من العظمة والبسطة لا يبلغن إلا قبضة واحدة من قبضاته ، أما إذا أريد معنى القبضة ، فظاهر لأن المعنى أن الأرضين بجملتها مقدار ما يقبضه بكف واحدة فإن قيل ما وجه قراءة من قرأ قبضته بالنصب ، قلنا جعل القبضة ظرفاً[1] وقوله (مطويات) من الطى الذى هو ضد النشر كما قال تعالى (يوم نطوى السماء كطى السجل) وعادة طاوى السجل أن يطويه بيمينه ، ثم قال صاحب الكشاف : وقيل قبضته ملكه ويمينه قدرته ، وقيل مطويات بيمينه أى مفنيات بقسمه لانه أقسم أن يقبضها ، ولما ذكر هذه الوجوه عاد إلى القول الأول بأنها وجوه ركيكة ، وأن حمل هذا الكلام على محض التمثيل أولى ، وبالغ فى تقرير هذا الكلام فأطنب ، وأقول إن حال هذا الرجل فى إقدامه على تحسين طريقته ، وتقبيح طريقة القدماء عجيب جداً ، فإنه إن كان مذهبه أنه يجوز ترك الظاهر اللفظ ، والمصير إلى المجاز من غير دليل فهذا طعن فى القرآن وإخراج له عن أن يكون حجة فى شىء ، وإن كان مذهبه أن الأصل فى الكلام الحقيقة ، وأنه لا يجوز العدول عنه إلا لدليل منفصل ، فهذا هو الطريقة التى أطبق عليها جمهور المتقدمين ، فأين الكلام الذى يزعم أنه علمه ؟ وأين العلم الذى لم يعرفه غيره ؟ مع أنه وقع فى التأويلات

(١) يريد أنه منصوب نزع على الخافض والتقدير « فى قبضته » .

العسر والكلمات الركيكة ، فإن قالوا المراد أنه لما دل الدليل على أنه ليس المراد من لفظ القبضة واليمين هذه الأعضاء ، وجب علينا أن نكتفي بهذا القدر ولا نشتغل بتعيين المراد ، بل نفوض علمه إلى الله تعالى ، فنقول هذا هو طريق الموحدين الذين يقولون إنا نعلم ليس مراد الله من هذه الألفاظ هذه الأعضاء ، فأما تعيين المراد ، فإنا نفوض ذلك العلم إلى الله تعالى ، وهذا هو طريقة السلف المعرضين عن التأويلات ، فثبت أن هذه التأويلات التي أتى بها هذا الرجل ليس تحتها شيء من الفائدة أصلا ، والله أعلم .

واعلم أنه تعالى لما بين عظمته من الوجه الذي تقدم قال (سبحانه وتعالى عما يشركون) يعني أن هذا القادر القاهر العظيم الذي حارت العقول والألباب في وصف عظمته تنزه وتقدس عن أن تجعل الأصنام شركاء له في المعبودية ، فإن قيل السؤال على هذا الكلام من وجوه (الأول) أن العرش أعظم من السموات السبع والأرضين السبع ، ثم إنه قال في صفة العرش (ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية) وإذا وصف الملائكة بكونهم حاملين العرش العظيم ، فكيف يجوز تقدير عظمة الله بكونه حاملا للسموات والأرض ؟

﴿ السؤال الثاني ﴾ أن قوله (والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه) شرح حالة لا تحصل إلا في يوم القيامة ، والقوم ما شاهدوا ذلك ، فإن كان هذا الخطاب مع المصدقين للأنبياء فهم يكونون معترفين بأنه لا يجوز القول بجعل الأصنام شركاء لله تعالى ، فلا فائدة في إيراد هذه الحجة عليهم ، وإن كان هذا الخطاب مع المكذبين بالنبوة وهم ينكرون قوله (والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة) فكيف يمكن الاستدلال به على إبطال القول بالشرك ؟ .

﴿ السؤال الثالث ﴾ حاصل القول في القبضة واليمين هو القدرة الكاملة الوافية بحفظ هذه الأجسام العظيمة ، وكما أن حفظها وإمساكها يوم القيامة ليس إلا بقدرة الله فكذلك الان ، فما الفائدة في تخصيص هذه الأحوال بيوم القيامة ؟ .

﴿ الجواب عن الأول ﴾ أن مراتب التعظيم كثيرة فأولها تقرير عظمة الله بكونه قادراً على حفظ هذه الأجسام العظيمة ، ثم بعد تقرير عظمته بكونه قادراً على إمساك أولئك الملائكة الذين يحملون العرش .

﴿ الجواب عن الثاني ﴾ أن المقصود أن الحق سبحانه هو المتولى لإبقاء السموات والأرضين على وجوه العمارة في هذا الوقت ، وهو المتولى لتخريبها وإفنائها في يوم القيامة فذلك يدل على حصول قدرة تامة على الإيجاد والإعدام ، وتنبيه أيضاً على كونه غنياً على الإطلاق ، فإنه يدل على أنه إذا حاول تخريب الأرض فكأنه يقبض قبضة صغيرة ويريد افناءها ، وذلك يدل على كمال الاستغناء .

﴿ الجواب عن الثالث ﴾ أنه إنما خصص تلك بيوم القيامة ليدل على أنه كما ظهر كمال قدرته في الإيجاد عند عمارة الدنيا ، فكذلك ظهر كمال قدرته عند خراب الدنيا والله أعلم .

واعلم أنه تعالى لما قدر كمال عظمته بما سبق ذكره أردفه بذكر طريقة أخرى تدل أيضاً على كمال قدرته وعظمته ، وذلك شرح مقدمات يوم القيامة لأن نفخ الصور يكون قبل ذلك اليوم ، فقال (ونفخ فى الصور فصعق من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله ، ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون) واختلفوا فى الصعقة ، منهم من قال إنها غير الموت بدليل قوله تعالى فى موسى عليه السلام (وخر موسى صعقاً) مع أنه لم يمت ، فهذا هو النفخ الذى يورث الفزع الشديد ، وعلى هذا التقدير فالمراد من نفخ الصعقة ومن نفخ الفزع واحد ، وهو المذكور فى سورة النمل فى قوله (ويوم ينفخ فى الصور ففزع من فى السموات ومن فى الأرض) وعلى هذا القول فنفخ الصور ليس إلا مرتين .

(والقول الثانى) أن الصعقة عبارة عن الموت والقائلون بهذا القول قالوا إنهم يموتون من الفزع وشدة الصوت ، وعلى هذا التقدير فالنفخة تحصل ثلاث مرات (أولها) نفخة الفزع وهى المذكورة فى سورة النمل (والثانية) نفخة الصعق (والثالثة) نفخة القيام وهما مذكورتان فى هذه السورة .

وأما قوله (إلا من شاء الله) ففيه وجوه (الأول) قال ابن عباس رضى الله عنهما : عند نفخة الصعق يموت من فى السموات ومن فى الأرض إلا جبريل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت ثم يميت الله ميكائيل وإسرافيل ويبقى جبريل وملك الموت ثم يميت جبريل .

(والقول الثانى) أنهم هم الشهداء لقوله تعالى (بل أحياء عند ربهم يرزقون) وعن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال «هم الشهداء متقلدون أسيافهم حول العرش» .

(القول الثالث) قال جابر هذا المستثنى هو موسى عليه السلام لأنه صعق مرة فلا يصعق ثانياً .

(القول الرابع) أنهم الحور العين وسكان العرش والكرسى .

(والقول الخامس) قال قتادة الله أعلم بأنهم من هم ، وليس فى القرآن والأخبار ما يدل على أنهم من هم .

قوله تعالى : ﴿ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون﴾ وفيه أبحاث :

﴿الأول﴾ لفظ القرآن دل على أن هذه النفخة متأخرة عن النفخة الأولى ، لأن لفظ (ثم) يفيد التراخى ، قال الحسن رحمه الله القرآن دل على أن هذه النفخة الأولى ، وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم «أن بينهما أربعين» ولا أدرى أربعون يوماً أو شهراً أو أربعون سنة أو أربعون ألف سنة .

﴿الثانى﴾ قوله (أخرى) تقدير الكلام ونفخ فى الصور نفخة واحدة ثم نفخ فيه نفخة أخرى ، وإنما حسن الحذف لدلالة أخرى عليها ولكونها معلومة .

﴿الثالث﴾ قوله (فإذا هم قيام) يعنى قيامهم من القبور يحصل عقيب هذه النفخة الأخيرة

فى الحال من غير تراخ لأن الفاء فى قوله (فإذاهم) تدل على التعقيب .

﴿ الرابع ﴾ قوله (ينظرون) وفيه وجهان (الأول) ينظرون يقلبون أبصارهم فى الجهات نظر المبهوت إذا فاجأه خطب عظيم (والثانى) ينظرون ماذا يفعل بهم ، ويجوز أن يكون القيام بمعنى الوقوف والخمود فى مكان لأجل استيلاء الحيرة والدهشة عليهم .

ولما بين الله تعالى هاتين النفختين قال (وأشرقت الأرض بنور ربها) وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ هذه الأرض المذكورة ليست هى هذه الأرض التى يقعد عليها الآن بدليل قوله تعالى (يوم تبدل الأرض غير الأرض) وبدليل قوله تعالى (وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة) بل هى أرض أخرى يخلقها الله تعالى لمحفل يوم القيامة .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قالت المجسمة : إن الله تعالى نور محض ، فإذا حضر الله فى تلك الأرض لأجل القضاء بين عباده أشرقت تلك الأرض بنور الله ، وأكدوا هذا بقوله تعالى (الله نور السموات والأرض) .

واعلم أن الجواب عن هذه الشبهة من وجوه (الأول) أنا بينا فى تفسير قوله تعالى (الله نور السموات والأرض) أنه لا يجوز أن يكون الله سبحانه وتعالى نوراً بمعنى كونه من جنس هذه الأنوار المشاهدة ، وبينا أنه لما تعذر حمل الكلام على الحقيقة وجب حمل لفظ النور ههنا على العدل ، فنحتاج ههنا إلى بيان أن لفظ النور قد يستعمل فى هذا المعنى ، ثم إلى بيان أن المراد من لفظ النور ههنا ليس إلا هذا المعنى ، أما بيان الاستعمال فهو أن الناس يقولون للملك العادل أشرقت الآفاق بعدلك ، وأضاءت الدنيا بقسطك ، كما يقولون أظلمت البلاد بجورك ، وقال ﷺ « الظلم ظلمات يوم القيامة » وأما بيان أن المراد من النور ههنا العدل فقط أنه قال (وجىء بالنبيين والشهداء) ومعلوم أن المجىء بالشهداء ليس إلا لإظهار العدل ، وأيضاً قال فى آخر الآية (وهم لا يظلمون) فدل هذا على أن المراد من ذلك النور إزالة ذلك الظلم ، فكأنه تعالى فتح هذه الآية بإثبات العدل وختمها بنفى الظلم (والوجه الثانى) فى الجواب عن الشبهة المذكورة أن قوله تعالى (وأشرقت الأرض بنور ربها) يدل على أنه يحصل هناك نور مضاف إلى الله تعالى ، ولا يلزم كون ذلك صفة ذات الله تعالى ، لأنه يكفى فى صدق الإضافة أدنى سبب ، فلما كان ذلك النور من خلق الله وشرفه بأن أضافه إلى نفسه كان ذلك النور نور الله ، كقوله : بيت الله ، وناقة الله وهذا الجواب أقوى من الأول ، لأن فى هذا الجواب لا يحتاج إلى ترك الحقيقة والذهاب إلى المجاز . (والوجه الثالث) أنه قد يقال فلان رب هذه الأرض ورب هذه الدار ورب هذه الجارية ، ولا يبعد أن يكون رب هذه الأرض ملكا من الملوك ، وعلى هذا التقدير فلا يمتنع كونه نوراً .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ أنه تعالى ذكر فى هذه الآية من أحوال ذلك اليوم أشياء : (أولها) قوله (وأشرقت الأرض بنور ربها) وقد سبق الكلام فيه (وثانيها) قوله (ووضع الكتاب)

وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧١﴾ قِيلَ ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾

وفى المراد بالكتاب وجوه (الاول) أنه اللوح المحفوظ الذى يحصل فيه شرح أحوال عالم الدنيا إلى وقت قيام القيامة (الثانى) المراد كتب الأعمال كما قال تعالى فى سورة سبحان (وكل إنسان ألزمناه طائره فى عنقه ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً) وقال أيضاً فى آية أخرى (مالهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها) (وثالثها) قوله (وجىء بالنبيين) والمراد أن يكونوا شهداء على الناس ، قال تعالى (فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً) وقال تعالى (يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم) (ورابعها) قوله (والشهداء) والمراد ما قاله فى (وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس) أو أراد بالشهداء المؤمنين ، وقال مقاتل : يعنى الحفظة ، ويدل عليه قوله تعالى (وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد) وقيل أراد بالشهداء المستشهدين فى سبيل الله ، ولما بين الله تعالى أنه يحضر فى محفل القيامة جميع مايحتاج إليه فى فصل الحكومات وقطع الخصومات ، بين تعالى أنه يوصل إلى كل أحد حقه ، وعبر تعالى عن هذا المعنى بأربع عبارات (أولها) قوله تعالى (وقضى بينهم بالحق) (وثانيها) قوله (وهم لا يظلمون) (وثالثها) قوله (ووفيت كل نفس ما عملت) أى وفيت كل نفس جزاء ما عملت ، (ورابعها) قوله (وهو أعلم بما يفعلون) يعنى أنه تعالى إذا لم يكن عالماً بكيفيات أحوالهم فلعله لا يقضى بالحق لأجل عدم العلم ، أما إذا كان عالماً بمقادير أفعالهم وبكيفياتها امتنع دخول الخطأ فى ذلك الحكم ، فثبت أنه تعالى عبر عن هذا المقصود بهذه العبارات المختلفة ، والمقصود المبالغة فى تقرير أن كل مكلف فإنه يصل إلى حقه .

قوله تعالى :﴿ وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمراً حتى إذا جاءوها فتحت أبوابها وقال لهم خزنتها ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا بلى ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين ، قيل ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين ﴾ .

اعلم أنه تعالى لما شرح أحوال أهل القيامة على سبيل الإجمال فقال (ووفيت كل نفس ما عملت) بين بعده كيفية أحوال أهل العقاب ، ثم كيفية أحوال أهل الثواب وختم السورة .

وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ فَنِعْمَ أَجْرُ

أما شرح أحوال أهل العقاب فهو المذكور فى هذه الآية ، وهو قوله (وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمراً) قال ابن زيدان : سوق الذين كفروا إلى جهنم يكون بالعنف والدفع ، والدليل عليه قوله تعالى (يوم يدعون إلى نار جهنم دعاً) أى يدفعون دفعاً ، نظيره قوله تعالى (فذلك الذى يدع اليتيم) أى يدفعه ، ويدل عليه قوله تعالى (ونسوق المجرمين إلى جهنم ورداً) .

وأما الزمر ، فهى الأفواج المتفرقة بعض فى إثر بعض ، فبين الله تعالى أنهم يساقون إلى جهنم فإذا جاءوها فتحت أبوابها ، وهذا يدل على أن أبواب جهنم إنما تفتح عند وصول أولئك إليها ، فإذا دخلوا جهنم قال لهم خزنة جهنم (ألم يأتكم رسل منكم) أى من جنسكم (يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا) فإن قيل فلم أضيف اليوم إليهم ؟ قلنا أراد لقاء وقتكم هذا وهو وقت دخولهم النار ، لا يوم القيامة ، واستعمال لفظ اليوم والأيام فى أوقات الشدة مستفيض ، فعند هذا تقول الكفار : بلى قد أتونا وتلوا علينا (ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين) وفى هذه الآية مسألتان :

﴿ المسألة الأولى ﴾ تقدير الكلام أنه حقت علينا كلمة العذاب ، ومن حقت عليه كلمة العذاب فكيف يمكنه الخلاص من العذاب ، وهذا صريح فى أن السعيد لا ينقلب شقياً ، والشقى لا ينقلب سعيداً ، وكلمات المعتزلة فى دفع هذا الكلام معلومة ، وأجوبتنا عنها أيضاً معلومة .

﴿ المسألة الثانية ﴾ دلت الآية على أنه لا وجوب قبل مجىء الشرع ، لأن الملائكة بينوا أنه مابقى لهم علة ولا عذر بعد مجىء الأنبياء عليهم السلام ، ولو لم يكن مجىء الأنبياء شرطاً فى استحقاق العذاب لما بقى فى هذا الكلام فائدة ، ثم إن الملائكة إذا سمعوا منهم هذا الكلام قالوا لهم (ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين) قالت المعتزلة : لو كان دخولهم النار لأجل أنه حقت عليهم كلمة العذاب لم يبق لقول الملائكة (فبئس مثوى المتكبرين) فائدة ، بل هذا الكلام إنما يبقى مفيداً إذا قلنا إنهم إنما دخلوا النار لأنهم تكبروا على الأنبياء ولم يقبلوا قولهم ، ولم يلتفتوا إلى دلائلهم ، وذلك يدل على صحة قولنا ، والله أعلم بالصواب .

قوله تعالى : ﴿ وسيق الذين اتقو ربهم إلى الجنة زمراً حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين ، وقالوا الحمد لله الذى صدقنا وعده وأورثنا الأرض

ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾ وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ

وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٥﴾

نتبوأ من الجنة حيث نشاء فنعم أجر العاملين ، وترى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم وقضى بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين ﴾ .

اعلم أنه تعالى لما شرح أحوال أهل العقاب فى الآية المتقدمة ، شرح أحوال أهل الثواب فى هذه الآية ، فقال (وسيق الذين اتقو ربهم إلى الجنة زمراً) فإن قيل السوق فى أهل النار للعذاب معقول ، لأنهم لما أمروا بالذهاب إلى موضع العذاب والشقاوة لابد وأن يساقوا إليه ، وأما أهل الثواب فإذا أمروا بالذهاب إلى موضع الكرامة والراحة والسعادة ، فأى حاجة فيه إلى السوق ؟

والجواب من وجوه (الأول) أن المحبة والصداقة باقية بين المتقين يوم القيامة كما قال تعالى : (الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين) فإذا قيل لواحد منهم إذهب إلى الجنة فيقول : لا أدخلها حتى يدخلها أحبائى وأصدقائى فيتأخرون لهذا السبب ، فحينئذ يحتاجون إلى أن يساقوا إلى الجنة (والثانى) أن الذين اتقوا ربهم قد عبدوا الله تعالى لا للجنة ولا للنار ، فتصير شدة استغراقهم فى مشاهدة مواقف الجلال والجمال مانعة لهم عن الرغبة فى الجنة ، فلا جرم يحتاجون إلى أن يساقو إلى الجنة (والثالث) أن النبى صلى الله عليه وسلم قال « أكثر أهل الجنة البله وعليون للأبرار » فلهذا السبب يساقون إلى الجنة (والرابع) أن أهل الجنة وأهل النار يساقون إلا أن المراد بسوق أهل النار طردهم إليها بالهوان والعنف كما يفعل بالأسير إذ سيق إلى الحبس والقيد ، والمراد بسوق أهل الجنة سوق مراكبهم لأنه لا يذهب بهم إلا راكبين ، والمراد بذلك السوق إسراعهم إلى دار الكرامة والرضوان كما يفعل بمن يشرف ويكرم من الوافدين على الملوك ، فشتان ما بين السوقين .

ثم قال تعالى (حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها) الآية ، واعلم أن جملة هذا الكلام شرط واحد مركب من قيود : (القيد الأول) هو مجيئهم إلى الجنة (والقيد الثانى) قوله تعالى (وفتحت أبوابها) فإن قيل قال أهل النار فتحت أبوابها بغير الواو ، وقال ههنا بالواو فما الفرق ؟ قلنا الفرق أن أبواب جهنم لا تفتح إلا عند دخول أهلها فيها ، فأما أبواب الجنة ففتحها يكون متقدماً على وصولهم إليها بدليل قوله (جنات عدن مفتحة لهم الأبواب) فلذلك جيء بالواو كأنه قيل : حتى إذا جاءوها وقد فتحت أبوابها . (القيد الثالث) قوله (وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين) فبين تعالى أن خزنة الجنة يذكرون لأهل الثواب هذه الكلمات الثلاث (فأولها) قولهم (سلام عليكم) وهذا يدل على أنهم يبشرونهم بالسلامة من كل الآفات

(وثانيها) قولهم (طبتم) والمعنى طبتم من دنس المعاصى وطهرتم من خبث الخطايا (وثالثها) قولهم (فادخلوها خالدين) والفاء فى قوله (فادخلوها) يدل على كون ذلك الدخول معللا بالطيب والطهارة ، قالت المعتزلة هذا يدل على أن أحداً لا يدخلها إلا إذا كان طاهراً عن كل المعاصى ، قلنا هذا ضعيف لأنه تعالى يبدل سيئاتهم حسنات ، وحينئذ يصيرون طيبين طاهرين بفضل الله تعالى ، فإن قيل فهذا الذى تقدم ذكره هو الشرط فأين الجواب ؟ قلنا فيه وجهان (الأول) أن الجواب محذوف والمقصود من الحذف أن يدل على أنه بلغ فى الكمال إلى حيث لا يمكن ذكره (الثانى) أن الجواب هو قوله تعالى (وقال لهم خزنتها سلام عليكم) والواو محذوف ، والصحيح هو الأول ، ثم أخبر الله تعالى بأن الملائكة إذا خاطبوا المتقين بهذه الكلمات ، قال المتقون عند ذلك (الحمد لله الذى صدقنا وعده) فى قوله (أن لا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون ، وأورثنا الأرض) والمراد بالأرض أرض الجنة ، وإنما عبر عنه بالإرث لوجوه (الأول) أن الجنة كانت فى أول الأمر لآدم عليه السلام ، لأنه تعالى قال (فكلا منها رغداً حيث شئتما) فلما عادت الجنة إلى أولاد آدم كان ذلك سبباً لتسميتها بالإرث (الثانى) أن هذا اللفظ مأخوذ من قول القائل : هذا أورث كذا وهذا العمل أورث كذا فلما كانت طاعتهم قد أفادتهم الجنة ، لا جرم قالوا (وأورثنا الأرض) والمعنى أن الله تعالى أورثنا الجنة بأن وفقنا للاتيان بأعمال أورثت الجنة (الثالث) أن الوارث يتصرف فيما يرثه كما يشاء من غير منازع ولا مدافع فكذلك المؤمنون المتقون يتصرفون فى الجنة كيف شاءوا وأرادوا ، والمشابهة علة حسن المجاز فإن قيل مامعنى قوله (حيث نشاء) وهل يتبوأ أحدهم مكان غيره ؟ قلنا يكون لكل أحد جنة لا يحتاج معها إلى جنة غيره ، قال حكماء الاسلام : الجنات نوعان ، الجنات الجسمانية والجنات الروحانية فالجنات الجسمانية لاتحتمل المشاركة فيها ، أما الروحانيات فحصولها لواحد لايمنع من حصولها للآخرين ، ولما بين الله تعالى صفة أهل الجنة قال (فنعم أجر العاملين) قال مقاتل ليس هذا من كلام أهل الجنة ، بل من كلام الله تعالى لأنه لما حكى ماجرى بين الملائكة وبين المتقين من صفة ثواب أهل الجنة قال بعده (فنعم أجر العاملين) ولما قال تعالى (وترى الملائكة حافين من حول العرش) ذكر عقيبه ثواب الملائكة فقال كما أن دار ثواب المتقين المؤمنين هى الجنة ، فكذلك دار ثواب الملائكة جوانب العرش وأطرافه ، فلهذا قال (وترى الملائكة حافين من حول العرش) أى محدقين بالعرش . قال الليث : يقال حف القوم بسيدهم يحفون حفاً إذا طافوا به .

إذا عرفت هذا ، فنقول بين تعالى أن دار ثوابهم هوجوانب العرش وأطرافه ثم قال (يسبحون بحمد ربهم) وهذا مشعر بأن ثوابهم هوعين ذلك التحميد والتسبيح ، وحينئذ رجع حاصل الكلام إلى أن أعظم درجات الثواب استغراق قلوب العباد فى درجات التنزيه ومنازل التقديس .

ثم قال (وقضى بينهم بالحق) والمعنى أنهم على درجات مختلفة ومراتب متفاوتة ، فلكل واحد

منهم فى درجات المعرفة والطاعة حد محدود لا يتجاوزه ولا يتعداه ، وهو المراد من قوله (وقضى بينهم بالحق ، وقيل الحمد لله رب العالمين) أى الملائكة لما قضى بينهم بالحق قالوا (الحمد لله رب العالمين) على قضائه بيننا بالحق ، وههنا دقيقة أعلى مما سبق وهى أنه سبحانه لما قضى بينهم بالحق ، فهم ماحمدوه لأجل ذلك القضاء ، بل حمدوه بصفته الواجبة وهى كونه رباً للعالمين ، فإن من حمد المنعم لأجل أن إنعامه وصل إليه فهو فى الحقيقة ما حمد المنعم وإنما حمد الإنعام ، وأما من حمد المنعم لا لأنه وصل إليه النعمة فهناك قد وصل إلى لجة بحر التوحيد ، هذا إذا قلنا أن قوله (وترى الملائكة حافين من حول العرش) شرح أحوال الملائكة فى الثواب ، أما إذا قلنا أنه من بقية شرح ثواب المؤمنين ، فتقريره أن يقال إن المتقين لما قالوا (الحمد لله الذى صدقنا وعده وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء) فقد ظهر منهم أنهم فى الجنة اشتغلوا بحمد الله وبذكره بالمدح والثناء ، فبين تعالى أنه كما أن حرفة المتقين فى الجنة الاشتغال بهذا التحميد والتمجيد . فكذلك حرفة الملائكة الذين هم حافون حول العرش الاشتغال بالتحميد والتسبيح ، ثم إن جوانب العرش ملاصقة لجوانب الجنة ، وحينئذ يظهر منه أن المؤمنين المتقين . وأن الملائكة المقربين يصيرون متوافقين على الاستغراق فى تحميد الله وتسبيحه ، فكان ذلك سبباً لمزيد التذاذهم بذلك التسبيح والتحميد .

ثم قال (وقضى بينهم بالحق) أى بين البشر ، ثم قال (وقيل الحمد لله رب العالمين) والمعنى أنهم يقدمون التسبيح ، والمراد منه تنزيه الله عن كل مالا يليق بالإلهية .

وأما قوله تعالى (وقيل الحمد لله رب العالمين) فالمراد وصفه بصفات الإلهية ، فالتسبيح عبارة عن الاعتراف بتنزيهه عن كل مالا يليق به وهو صفات الجلال ، وقوله (وقيل الحمد لله رب العالمين) عبارة عن الإقرار بكونه موصوفاً بصفات الإلهية وهى صفات الإكرام ، ومجموعهما هو المذكور فى قوله (تبارك اسم ربك ذى الجلال والإكرام) وهو الذى كانت الملائكة يذكرونه قبل خلق العالم وهو قولهم (ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك) وفى قوله (وقيل الحمد لله رب العالمين) دقيقة أخرى وهى أنه لم يبين أن ذلك القائل من هو ، والمقصود من هذا الإبهام التنبيه ، على أن خاتمة كلام العقلاء فى الثناء على حضرة الجلال والكبرياء ليس إلا أن يقولوا (الحمد لله رب العالمين) وتأكد هذا بقوله تعالى فى صفة أهل الجنة (وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين) .

قال المصنف رحمه الله تعالى : ثم تفسير هذه السورة فى ليلة الثلاثاء آخر ذى القعدة من سنة ثلاث وستمائة . يقول مصنف هذا الكتاب الملائكة المقربون عجزوا عن إحصاء ثنائك ، فمن أنا ، والأنبياء المرسلون اعترفوا بالعجز والقصور ، فمن أنا ، وليس معى إلا أن أقول أنت أنت وأنا أنا ، فمنك الرحمة والفضل والجود والإحسان ، ومنى العجز والذلة والخيبة والخسران ، يارحمن ياديان ياحنان يامنان أفض على سجال الرحمة والغفران برحمتك ياأرحم الراحمين ، وصلى الله على سيدنا محمد النبي الأمى وعلى آله وأصحابه وأزواجه أمهات المؤمنين ، وسلم تسليما كثيراً .

سورة الزُّمَر

ويقال: سورة الغرف. قال وهب بن مُنبِّه: مَن أحبَّ أن يعرفَ قضاءَ الله عز وجل في خَلْقه فَلْيقرَأ سورة الغرف[(١)]. وهي مكيةٌ في قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر بن زيد. وقال ابن عباس: إلا آيتين نزلتا بالمدينة؛ إحداهما: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ﴾ [الآية:٢٣] والأُخرى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ الآية [٥٣]. وقال آخرون: إلا سبعَ آيات؛ من قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ إلى آخر سبع آيات نزلت في وحشيٍّ وأصحابه على ما يأتي[(٢)].

روى الترمذي عن عائشة قالت: كان رسولُ الله ﷺ لا ينام حتى يقرأ «الزمر» وبني إسرائيل[(٣)]. وهي خمسٌ وسبعون آية[(٤)]. وقيل: اثنتان وسبعون آية[(٥)].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝١ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝٢ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ ۝٣ لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ۝٤﴾

قوله تعالى: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ رفع بالابتداء وخبره ﴿مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾.

---

(١) معاني القرآن للنحاس ٦/ ١٤٧.

(٢) النكت والعيون ٥/ ١١٣، وينظر زاد المسير ٧/ ١٦٠.

(٣) سنن الترمذي (٣٤٠٥).

(٤) تفسير البغوي ٤/ ٧١.

(٥) ذكره السيوطي في الإتقان ١/ ٢١٤.

ويجوز أن يكون مرفوعاً بمعنى: هذا تنزيلُ، قاله الفراء[١]. وأجاز الكسائي والفراء أيضاً «تَنْزِيلَ» بالنصب على أنه مفعول به[٢]. قال الكسائي: أي: اتَّبِعوا واقرؤوا «تنزِيلَ الكتاب». وقال الفراء: هو على الإغراء، مثل قوله: ﴿كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡۚ﴾ [النساء: ٢٤] أي: الزموا[٣]. والكتاب القرآن سُمِّي بذلك لأنه مكتوب.

قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ﴾ أي: هذا تنزيلُ الكتاب من الله، وقد أنزلناه بالحقّ؛ أي: بالصِّدق، وليس بباطل وهَزْل.

﴿فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا﴾ فيه مسألتان:

الأولى: «مُخْلِصاً» نصب على الحال، أي: مُوحِّداً لا تُشرك به شيئاً ﴿لَّهُ ٱلدِّينَۚ﴾ أي: الطاعة. وقيل: العبادة[٤]. وهو مفعول به.

﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُۚ﴾ أي: الذي لا يَشوبه شيء. وفي حديث الحسن عن أبي هريرة أن رجلاً قال: يا رسولَ الله، إني أَتصدَّق بالشيء، وأصنع الشيء أُريد به وجهَ الله وثَناءَ الناس. فقال رسولُ الله ﷺ: «والذي نفسُ محمد بيده، لا يقبلُ اللهُ شيئاً شُورك فيه» ثم تلا رسولُ الله ﷺ ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُۚ﴾[٥].

وقد مضى هذا المعنى في «البقرة» و«النساء» و«الكهف» مستوفىً[٦].

الثانية: قال ابن العربي[٧]: هذه الآيةُ دليلٌ على وجوب النية الخالصة[٨] في كل عمل، وأعظمُه الوضوء الذي هو شَطْر الإيمان، خلافاً لأبي حنيفة والوليد بن مسلم

---

(١) في معاني القرآن ٢/ ٤١٤ .

(٢) قرأ بها عيسى بن عمر وإبراهيم بن أبي عبلة، كما في القراءات الشاذة ص١٣١ .

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٣ .

(٤) النكت والعيون ٥/ ١١٤ .

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٤ ، والحديث لم نقف عليه.

(٦) ٤/ ٣٢٣ - ٣٢٤ و٦/ ٢٩٧ وما بعدها و١٣/ ٣٩٨ وما بعدها.

(٧) في أحكام القرآن ٤/ ١٦٤٤ .

(٨) قوله: الخالصة، ليس في (م) ولا في أحكام القرآن.

عن مالك اللَّذَيْن يقولان: إن الوضوء يكفي من غير نية، وما كان ليكون من الإيمان شطراً، ولا لِيُخرِجَ الخطايا من بين الأظافر والشعر بغير نية.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾ يعني الأصنام، والخبر محذوف. أي: قالوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾[1] قال قتادة: كانوا إذا قيل لهم: مَن ربُّكم وخالقُكم؟ ومَن خلق السماوات والأرض، وأنزل من السماء ماءً؟ قالوا: الله، فيقال لهم: ما معنى عبادتكم الأصنامَ؟ قالوا: ليُقرِّبونا إلى الله زُلفى، ويشفعوا لنا عنده[2].

قال الكلبي: جواب هذا الكلام في «الأحقاف»: ﴿فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةًۖ﴾ [الآية:٢٨] والزُّلفى القُربة؛ أي: لِيقرِّبونا إليه تقريباً، فوضع «زُلْفَى» في موضع المصدر[3].

وفي قراءة ابن مسعود وابن عباس ومجاهد: «والذين اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءَ قالوا ما نَعبُدُهم إلَّا لِيقرِّبونا إلى الله زُلْفَى» وفي حرف أُبَيّ: «والذين اتَّخَذُوا مِنْ دُونه أَوْلِياءَ ما نَعْبُدُكُمْ إلَّا لِتُقَرِّبُونا إلى اللهِ زُلْفَى» ذكره النحاس[4]. قال: والحكاية في هذا بيِّنة.

﴿إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ أي: بين أهل الأديان يومَ القيامة فيُجازي كلاً بما يستحقّ[5]. ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ﴾ أي: مَنْ سبق له القضاء بالكُفر لم يهتدِ؛ أي: للدِّين الذي ارتضاه، وهو دين الإسلام؛ كما قال الله تعالى: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَٰمَ دِينًاۚ﴾ [المائدة:٣] وفي هذا ردٌّ على القدرية وغيرهم على ما تقدَّم.

قوله تعالى: ﴿لَّوْ أَرَادَ اللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُۚ﴾ أي: لو أراد

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٤، والمحرر الوجيز ٤/ ٥١٨ .

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٧١ .

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٤ .

(٤) في معاني القرآن ٦/ ١٥٠ - ١٥١ ، وذكرالقراءتين ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٥١٨ .

(٥) زاد المسير ٧/ ١٦٢ .

أن يُسمِّيَ أحداً من خَلْقه بهذا ما جعله عزَّ وجلَّ إليهم. ﴿سُبۡحَٰنَهُۥۖ﴾ أي: تنزيهاً له عن[1] الولد ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ﴾.

قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيۡلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيۡلِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمًّىۗ أَلَا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفَّٰرُ ۝٥ خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ ثُمَّ جَعَلَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزۡوَٰجٖۚ يَخۡلُقُكُمۡ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ خَلۡقٗا مِّنۢ بَعۡدِ خَلۡقٖ فِي ظُلُمَٰتٖ ثَلَٰثٖۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ لَهُ ٱلۡمُلۡكُۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُصۡرَفُونَ ۝٦﴾

قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۖ﴾ أي: هو القادرُ على الكمال، المُستغني عن الصاحبة والولد، ومَن كان هكذا فحقُّه أن يُفرَدَ بالعبادة، لا أنه يُشرَكُ به. ونبَّه بهذا على أن له أن يَتعبَّد العباد بما شاء، وقد فعل.

قوله تعالى: ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيۡلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيۡلِۖ﴾ قال الضحاك: أي: يُلقي هذا على هذا وهذا على هذا. وهذا على معنى التكوير في اللغة[2]، وهو طرح الشيء بعضه على بعض؛ يقال: كوَّر المَتاع، أي: ألقى بعضَه على بعض؛ ومنه كَوْر العِمامة[3].

وقد رُوي عن ابن عباس [غير] هذا في معنى الآية. قال: ما نقصَ من الليل دخلَ في النهار، وما نقصَ من النهار دخلَ في الليل[4]. وهو معنى قوله تعالى: ﴿يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ﴾ [الحج: ٦١].

وقيل: تكوير الليل على النهار: تَغْشيته إيَّاه حتى يُذهِبَ ضوءَه، ويُغشي النهار

---

(١) في النسخ الخطية وإعراب القرآن للنحاس (والكلام منه) ٤/ ٤ : من، والمثبت من (م).

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٤ .

(٣) زاد المسير ٧/ ١٦٣ .

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٤ ، وما بين حاصرتين منه.

على الليل فَيُذهب ظُلمته، وهذا قول قتادة[١]. وهو معنى قوله تعالى: ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا﴾ [الأعراف: ٥٤].

﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ أي: بالطُّلوع والغُروب لمنافع العباد. ﴿كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي: في فَلَكه إلى أن تنصرمَ الدنيا، وهو يومُ القيامة حتى[٢] تنفطر السماء وتنتثر الكواكب. وقيل: الأجلُ المسمى هو الوقتُ الذي ينتهي فيه سَيْرُ الشمس والقمر إلى المنازل المرتبة لِغُروبها وطُلوعها.

قال الكلبي: يسيران إلى أقصى منازلهما، ثم يرجعان إلى أدنى منازلهما لا يُجاوزانه. وقد تقدَّم بيانُ هذا في سورة «يس»[٣]. ﴿أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ﴾ «ألا» تنبيه، أي: تنبَّهوا، فإني أنا «العزيزُ» الغالب «الغفَّارُ» الساتر لذنوب خلقه برحمته.

قوله تعالى: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ يعني آدمَ عليه السلام ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ يعني: لِيحصل التناسلُ، وقد مضى هذا في «الأعراف»[٤] وغيرها.

﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ أخبر عن الأزواج بالنُّزول، لأنها تكوَّنت بالنبات، والنبات بالماء المُنزَل. وهذا يُسمَّى التدريج[٥]؛ ومثله قوله تعالى: ﴿قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا﴾ الآية [الأعراف: ٢٦]. وقيل: أنزل: أنشأ وجعل. وقال سعيد بن جُبير: خَلَق. وقيل: إنَّ الله تعالى خَلَق هذه الأنعامَ في الجنة، ثم أنزلها إلى الأرض[٦]؛ كما قيل في قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ فإنَّ آدمَ لما هبطَ إلى الأرض أُنزل معه الحديد. وقيل: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ أي: أعطاكم. وقيل: جعل الخلق

---

(١) النكت والعيون ٥/ ١١٥، وأخرجه الطبري ٢٠/ ١٦٠ بنحوه.

(٢) كذا في النسخ: حتى، وفي هامش (ز): لعلّه حين. قلنا: هو أوجه.

(٣) ١٧/ ٤٥٠ وما بعدها، وسلف قول الكلبي ١٧/ ٤٤٤.

(٤) ٩/ ٤٠٨.

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٥٢٠.

(٦) النكت والعيون ٥/ ١١٥.

إنزالاً؛ لأن الخَلْق إنما يكون بأمر ينزل من السماء. فالمعنى: خلقَ لكم كذا بأمره النازل[١].

قال قتادة: من الإبل اثنين، ومن البقر اثنين، ومن الضَّأن اثنين، ومن المَعْز اثنين، كل واحد زوج[٢]. وقد تقدّم هذا[٣].

﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ﴾ قال قتادة والسّدّي: نُطفةً، ثم علقةً، ثم مُضْغةً، ثم عظماً، ثم لحماً. ابن زيد: ﴿خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ﴾: خلقاً في بطون أُمهاتِكم من بعد خَلْقكم في ظهر آدم. وقيل: في ظهر الأب، ثم خلقاً في بطن الأمّ، ثم خلقاً بعد الوضع. ذكره الماوردي[٤].

﴿فِي ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ﴾ ظُلمة البطن وظُلمة الرحم وظُلمة المَشِيمَة. قاله ابن عباس وعكرمة ومجاهد وقتادة والضحاك[٥]. وقال ابن جُبير: ظُلمة المَشيمَة وظُلمة الرَّحِم وظُلمة الليل[٦]. والقول الأول أصح. وقيل: ظلمة صُلْب الرجل وظُلمة بطن المرأة وظُلمة الرَّحِم. وهذا مذهب أبي عُبيدة[٧]. أي: لا تمنعه الظُّلمة كما تمنع المخلوقين[٨]. ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ﴾ أي: الذي خلق هذه الأشياء ﴿رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾، ﴿فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ أي: كيف تنقلبون وتنصرفون عن عبادته إلى عبادة غيره[٩].

وقرأ حمزة: «إِمِّهَاتِكُمْ» بكسر الهمزة والميم. والكسائي بكسر الهمزة وفتح الميم. الباقون بضم الهمزة وفتح الميم[١٠].

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٥٢٠ بنحوه.

(٢) أخرجه الطبري ٢٠/ ١٦٣.

(٣) ٩/ ٧٦.

(٤) النكت والعيون ٥/ ١١٥، وأقوال قتادة والسدي وابن زيد أخرجها الطبري ٢٠/ ١٦٤ - ١٦٥.

(٥) أخرجه الطبري ٢٠/ ١٦٥ - ١٦٦.

(٦) النكت والعيون ٥/ ١١٦ دون نسبة.

(٧) مجاز القرآن ٢/ ١٨٨، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في معاني القرآن ٦/ ١٥٤.

(٨) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٤.

(٩) تفسير الطبري ٢٠/ ١٦٧.

(١٠) قراءة حمزة والكسائي في الوصل. السبعة ص٢٢٧ - ٢٨٨، والتيسير ص٩٤.

قوله تعالى: ﴿إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ۝٧﴾

قوله تعالى: ﴿إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ﴾ شرط وجوابه. ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾ أي: أن يكفروا، أي: لا يُحبُّ ذلك منهم. وقال ابن عباس والسّدي: معناه: لا يرضى لعباده المؤمنين الكُفر، وهم الذين قال الله فيهم: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ [الحجر:٤٢]، وكقوله: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ﴾ [الإنسان:٦] أي: المؤمنون[١]. وهذا على قول مَن لا يُفرق بين الرِّضا والإرادة.

وقيل: لا يرضى الكُفْرَ وإن أراده؛ فالله تعالى يُريد الكفر من الكافر وبإرادته كَفر، ولايرضاه[٢] ولا يُحِبُّه، فهو يريد كون ما لا يرضاه، وقد أراد الله عز وجل خَلْقَ إبليس وهو لا يرضاه، فالإرادة غير الرِّضا. وهذا مذهبُ أهل السنة[٣].

قوله تعالى: ﴿وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ أي: يرضى الشُّكر لكم؛ لأنّ «تَشْكُرُوا» يدلُّ عليه. وقد مضَى القولُ في الشُّكر في«البقرة»[٤] وغيرها. ويَرضى بمعنى يُثيب ويُثني، فالرِّضا على هذا إما ثوابُه فيكون صفةَ فعل ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم:٧]، وإما ثناؤه، فهو صفةُ ذات.

و«يَرْضَهْ» بالإسكان في الهاء قرأ أبو جعفر[٥] وأبو عمرو وشيبة وهُبيرة عن عاصم. وأشبع الضَّمَّة ابنُ ذكوان وابنُ كثير وابنُ محيصن والكسائي وورش عن

(١) تفسير البغوي ٤/ ٧٢ ، وأخرجه بنحوه عنهما الطبري ٢٠/ ١٦٨ .

(٢) في (م): كفر لا يرضاه.

(٣) ذكر هذه المسألة الرازي في تفسيره ٢٦/ ٢٤٦ -٢٤٧ .

(٤) ٢/ ١٠٤ وما بعدها.

(٥) قراءة أبي جعفر في رواية ابن جمّاز.

نافع[١]. واختلس الباقون.

﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ تقدَّم في غير موضع[٢].

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ ﴿٨﴾ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ﴾ يعني الكافر ﴿ضُرٌّ﴾ أي: شدّة من الفقر والبلاء ﴿دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ﴾ أي: راجعاً إليه، مُخْبِتاً مطيعاً له، مُستغيثاً به في إزالة تلك الشِّدَّة عنه.

﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ﴾ أي: أعطاه وملّكه. يقال: خوّلك الله الشيء، أي: ملّكك إياه؛ وكان أبو عمرو بن العلاء ينشد:

هُنَالِكَ إن يُسْتَخْوَلُوا المالَ يُخْوِلوا ... وإن يُسْأَلُوا يُعْطُوا وإن يَيْسِروا يُغْلُوا[٣]

وخَوَلُ الرجل: حَشَمُه، الواحد خائل[٤]. قال أبو النّجم:

أَعْطَى فلم يَبْخَلْ ولم يُبَخَّلِ ... كُوم الذُّرى مِن خَوَلِ المُخَوِّلِ[٥]

(١) المشهور عن ورش أنه قرأ بضم الهاء من غير صلة. السبعة ص٥٦٠، والتيسير ص١٨٩، والنشر ١/٣٠٧ - ٣٠٨.

(٢) ٩/١٤٥ و١٣/٤٢.

(٣) معاني القرآن للنحاس ٦/١٥٥، والبيت لزهير، ويروى: هنالك إن يُسْتَخْبَلُوا يُخْبِلوا.. وقد سلف بهذه الرواية ١/٤٤٨. وقوله: إن يَيْسِروا يُغلوا، أي: إذا قامروا بالميسر يأخذون سمان الجزر فيقامرون عليها، ولا ينحرون إلا غالية. قاله الشنتمري في شرح ديوان زهير ص٢٢.

(٤) الصحاح (خول).

(٥) ديوان أبي النجم ص١٧٥.

﴿نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُوٓاْ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ﴾ أي: نسي ربَّه الذي كان يدعوه من قبل في كَشْف الضُّر عنه. فـ «ما» على هذا الوجه لله عز وجل، وهي بمعنى الذي. وقيل: بمعنى مَنْ، كقوله تعالى: ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾ [الكافرون: ٣] والمعنى واحد. وقيل: نسي الدعاءَ الذي كان يتضرع به إلى الله عز وجل. أي: ترك كونَ الدعاء منه إلى الله، فـ «ما» والفعل على هذا القول مصدر[١]. ﴿وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا﴾ أي: أوثاناً وأصناماً. وقال السّدي: يعني: أنداداً من الرجال يعتمدون عليهم في جميع أمورهم[٢]. ﴿لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ أي: ليقتديَ به الجُهَّال.

﴿قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا﴾ أي: قُلْ لهذا الإنسان: «تَمَتَّع» وهو أمرُ تهديد، فمتاع الدنيا قليل. ﴿إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾ أي: مصيرك إلى النار.

قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ﴾ بيَّن تعالى أن المؤمن ليس كالكافر الذي مضَى ذِكْره. وقرأ الحسن وأبو عمرو وعاصم والكسائي: «أَمَّنْ» بالتشديد. وقرأ نافع وابن كثير ويحيى بن وثّاب والأعمش وحمزة: «أَمَنْ هو» بالتخفيف على معنى النداء[٣]؛ كأنه قال: يا من هو قانت. قال الفراء[٤]: الألف بمنزلة يا، تقول: يا زيدُ أَقبِلْ، وأَزَيدُ أَقبِلْ. وحُكِيَ ذلك عن سيبويه وجميع النحويين؛ كما قال أوسُ بن حَجَر:

أَبَني لُبَيْنَى لستُمُ بِيَدٍ ... إلَّا يداً ليست لها عَضُدُ[٥]

وقال آخر هو ذو الرُّمّة:

أداراً بِحُزْوَى هِجْتِ لِلعينِ عَبْرةً ... فماءُ الهوى يَرْفضُّ أو يَتَرَقْرَقُ[٦]

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٥٢٢ بنحوه.

(٢) أخرجه الطبري ٢٠/ ١٧٣ بنحوه.

(٣) السبعة ص٥٦١، والتيسير ص١٨٩.

(٤) في معاني القرآن ٢/ ٤١٦.

(٥) ديوان أوس بن حَجَر ص٢١.

(٦) ديوان ذي الرُّمة ١/ ٤٥٦. قال شارحه أبو نصر: ماء الهوى، أراد الدمع الذي يدمعه من الهوى، يرفضّ: يسيل متفرقاً.

فالتقدير على هذا ﴿قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾ يا مَنْ هو قانتٌ، إنَّك من أصحاب الجنة؛ كما يقال في الكلام: فلانٌ لا يُصلِّي ولا يصوم، فيا من يُصلِّي ويَصوم أبْشِرْ؛ فحذف لدلالة الكلام عليه.

وقيل: إنَّ الألفَ في «أَمَنْ» ألفُ استفهام، أي: «أَمَنْ هو قَانتٌ آناءَ الليل» أفضلُ؟ أمْ مَنْ جعل لله أنداداً؟ والتقدير: الذي هو قانتٌ خيرٌ.

ومَنْ شدَّد «أمَّنْ» فالمعنى: العاصون المتقدِّم ذِكْرهم خيرٌ «أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ»؟، فالجملة التي عادلت أمْ محذوفة، والأصل: أمْ مَنْ، فأدغمت في الميم. النحاس[1]: وأم بمعنى بل، ومَن بمعنى الذي؛ والتقدير: بل[2] الذي هو قانتٌ أفضلُ ممن ذُكِرَ.

وفي قانت أربعةُ أوجه: أحدها: أنه المُطيع؛ قاله ابن مسعود. الثاني: أنه الخاشعُ في صلاته؛ قاله ابن شهاب. الثالث: أنه القائم في صلاته؛ قاله يحيى بن سلّام. الرابع: بأنه الداعي لربه[3]. وقول ابن مسعود يجمع ذلك. وقد رُوي عن النبي ﷺ أنه قال: «كلُّ قنوتٍ في القرآن فهو طاعةٌ لله عزّ وجلّ»[4]. ورُوي عن جابر عن النبي ﷺ أنه سُئل: أيُّ الصلاة أفضل؟ فقال: «طولُ القنوت»[5] وتأوَّله جماعةٌ من أهل العلم على أنه طُول القيام.

وروى عُبيد الله[6] عن نافع عن ابن عمر سُئل عن القنوت فقال: ما أعرفُ القنوت إلا طولَ القيام، وقراءة القرآن. وقال مجاهد: من القنوت طولُ الركوع وغضُّ البصر، وكان العلماء إذا وقفوا في الصلاة غضُّوا أبصارَهم، وخضعوا ولم يلتفتوا في

---

(١) إعراب القرآن ٣/ ٥ - ٦ وما قبله منه بنحوه، وينظر الحجة للفارسي ٦/ ٩٢ - ٩٣.

(٢) في النسخ: أم، والمثبت من البحر المحيط ٧/ ٤١٩.

(٣) النكت والعيون ٥/ ١١٧.

(٤) أخرجه الطبراني في الأوسط (١٨٢٩) وفي إسناده رِشْدين بن سعد، وهو ضعيف، كما في التقريب وسلف ١٦/ ٤١٦.

(٥) أخرجه مسلم (٧٥٦)، وسلف ٢/ ٣٣٤.

(٦) في (د) و(م) وإعراب القرآن للنحاس ٤/ ٦ (والكلام منه): عبد الله، والمثبت موافق لمصادر التخريج، وهو عبيد الله بن عمر العمري، والأثر أخرجه ابن أبي شيبة ٢/ ٣٠٦، والطبري ٢٠/ ١٧٦.

صلاتهم، ولم يعبثوا ولم يذكروا شيئاً من أمر الدنيا إلا ناسين.

قال النحاس[١]: أصلُ هذا أن القنوت الطاعة، فكلُّ ما قيل فيه فهو طاعة لله عز وجل، فهذه الأشياء كلُّها داخلةٌ في الطاعة وما هو أكثر منها كما قال نافع: قال لي ابن عمر: قُمْ فصلِّ، فقمتُ أُصلِّي وكان عليَّ ثوبٌ خَلَقٌ، فدعاني فقال لي: أرأيتَ لو وجَّهتك في حاجة، أكنتَ تمضي هكذا؟ فقلت: كنت أتزيَّن، قال: فاللهُ أحقُّ أن تتزيَّن له[٢].

واختلف في تعيين القانت هاهنا، فذكر يحيى بن سلام أنه رسولُ الله ﷺ. وقال ابن عباس في رواية الضحاك عنه: هو أبو بكر وعمر رضي الله عنهما. وقال ابن عمر: هو عثمانُ ﷺ. وقال مقاتل: إنه عمَّار بن ياسر. الكلبي: صُهَيب وأبو ذرّ وابن مسعود. وعن الكلبي أيضاً أنه مرسلٌ فيمن كان على هذه الحال[٣].

﴿ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ﴾ قال الحسن: ساعاته؛ أوله وأوسطه وآخره. وعن ابن عباس: ﴿ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ﴾ جوف الليل[٤]. قال ابن عباس: مَن أحبَّ أن يُهوِّن الله عليه الوقوفَ يومَ القيامة، فَلْيَرَهُ اللهُ في ظُلمة الليل ساجداً وقائماً يحذر الآخرة، ويرجو رحمةَ ربِّه[٥]. وقيل: ما بين المغرب والعشاء[٦]. وقول الحسن عامّ.

﴿يَحۡذَرُ ٱلۡأٓخِرَةَ﴾ قال سعيد بن جُبير: أي: عذاب الآخرة[٧].

﴿وَيَرۡجُواْ رَحۡمَةَ رَبِّهِۦۗ﴾ أي: نعيم الجنة. ورُوي عن الحسن أنه سُئل عن رجل يتمادى

(١) في إعراب القرآن ٤/ ٦ ، وما قبله منه.

(٢) أخرجه بنحوه عبد الرزاق في المصنف (١٣٩٠) و(١٣٩١).

(٣) النكت والعيون ٥/ ١١٧ ، وينظر تفسير البغوي ٤/ ٧٣ ، وزاد المسير ٧/ ١٦٦ - ١٦٧ .

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٦ .

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٥٢٣ .

(٦) النكت والعيون ٥/ ١١٧ .

(٧) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٦ .

في المعاصي ويرجو فقال: هذا مَتَمَنٍّ[١].

ولا يقف على قوله: «رَحْمَةَ رَبِّهِ» مَن خفَّف «أَمَنْ هُوَ قَانِتٌ» على معنى النداء؛ لأن قوله: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ متصلٌ إلا أن يُقدَّر في الكلام حذفٌ، وهو أيسر[٢]، على ما تقدَّم بيانُه. قال الزجاج[٣]: أي: كما لا يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون كذلك لا يستوي المُطيع والعاصي.

وقال غيره: الذين يعلمون هم الذين ينتفعون بعلمهم ويعملون به، فأما من لم ينتفع بعلمه ولم يعمل به فهو بمنزلة مَن لم يعلم.

﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ أي: أصحاب العقول من المؤمنين.

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي: قل: يا محمد لعبادي المؤمنين: ﴿اتَّقُوا رَبَّكُمْ﴾ أي: اتقوا معاصِيَه، والتاء مُبدَلة من واو، وقد تقدم[٤]. وقال ابن عباس: يريد جعفر بن أبي طالب والذين خرجوا معه إلى الحبشة[٥]. ثم قال: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾ يعني بالحسنة الأُولى الطاعة، وبالثانية الثواب في الجنة. وقيل: المعنى: للذين أحسنوا في الدنيا حسنة في الدنيا، يكون ذلك زيادةً على ثواب الآخرة، والحسنة الزائدة في الدنيا الصحةُ والعافية والظَّفَر والغَنيمة[٦]. قال القُشَيري: والأول أصحُّ؛ لأن الكافر قد ينال[٧] نِعَمَ الدنيا.

---

(١) الكشاف ٣/ ٣٩٠ .

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٥٢٢ - ٥٢٣ .

(٣) في معاني القرآن ٤/ ٣٤٧ ، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٤/ ٧ ، وما بعده منه.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٧ ، وتقدم ١/ ٢٤٨ وما بعدها.

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٥٢٣ دون نسبة.

(٦) النكت والعيون ٥/ ١١٨ بنحوه.

(٧) في (م): نال.

قلت: وينالها معه المؤمن ويُزاد الجنةَ إذا شكر تلك النِّعم. وقد تكون الحسنة في الدنيا الثناءَ الحسن، وفي الآخرة الجزاء.

﴿وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ﴾ فهاجِروا فيها ولا تُقيموا مع من يعمل بالمعاصي. وقد مضى القولُ في هذا مستوفى في «النساء»[(١)]. وقيل: المراد أرضُ الجنة؛ رغَّبهم في سَعَتها وسَعَةِ نعيمها[(٢)]؛ كما قال: ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ [آل عمران: ١٣٣] والجنة قد تُسمَّى أرضاً؛ قال الله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ﴾ [الزمر: ٧٤] والأول أظهرُ، فهو أمر بالهجرة. أي: ارحلوا من مكةَ إلى حيث تَأْمَنوا[(٣)].

الماوردي[(٤)]: ويَحتمِلُ أن يُريدَ بسعة الأرض سَعَةَ الرِّزق؛ لأنه يرزقُهم من الأرض فيكون معناه: ورِزْقُ الله واسعٌ، وهو أشبهُ؛ لأنه أخرج سعتها مُخْرَجَ الامتنان.

قلت: فتكون الآيةُ دليلاً على الانتقال من الأرض الغالية إلى الأرض الراخية؛ كما قال سفيان الثوري: كن في موضعٍ تملأ فيه جِرابك خبزاً بدرهم.

﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أي: بغير تقدير. وقيل: يُزاد على الثواب؛ لأنه لو أُعطيَ بقدر ما عَمِلَ لكان بحساب. وقيل: «بغير حسابٍ» أي: بغير متابعة ولا مُطالبة كما تقع المطالبة بنعيم الدنيا[(٥)].

و«الصَّابِرُونَ» هنا الصائمون؛ دليله قولُه عليه الصلاة والسلام مُخبراً عن الله عزَّ وجلَّ: «الصومُ لي وأنا أَجزي به»[(٦)]. قال أهل العلم: كلُّ أجرٍ يُكال كيلاً ويُوزَن

(١) ٧/ ٦٥ وما بعدها.

(٢) النكت والعيون ٥/ ١١٨ .

(٣) تفسير الرازي ٢٦/ ٢٥٣ بنحوه.

(٤) النكت والعيون ٥/ ١١٨ .

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٧ .

(٦) قطعة من حديث أبي هريرة ﷺ أخرجه البخاري (١٨٩٤)، ومسلم (١١٥١)، وسلف ٢/ ٦٧ .

وزناً إلا الصبر(١)، فإنه يُحْثَى حَثْواً ويُغرَف غَرْفاً؛ وحُكي عن علي ﷺ.

وقال مالك بن أنس في قوله: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ قال: هو الصبرُ على فجائع الدنيا وأحزانها. ولا شكَّ أن كل مَن سلَّم فيما أصابه، وترك ما نُهي عنه، فلا مقدارَ لأجره(٢).

وقال قتادة: لا والله، ما هناك مِكيال ولا ميزان؛ حدثني أنس أن رسولَ الله ﷺ قال: «تُنصَبُ الموازين، فَيُؤتَى بأهل الصَّدَقة فيُوفَّون أُجورَهم بالموازين، وكذلك الصلاة والحج، ويُؤتَى بأهل البلاء فلا يُنصب لهم ميزان ولا يُنشر لهم ديوان، ويُصَبُّ عليهم الأجر بغير حساب، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ حتى يتمنى أهلُ العافية في الدنيا أن أجسادهم تُقرَض بالمقاريض مما يذهبُ به أهل البلاء من الفضل»(٣).

وعن الحسن بن علي(٤) رضي الله عنهما قال: سمعتُ جدي رسول الله ﷺ يقول: «أَدِّ الفرائضَ تكن من أعبدِ الناس، وعليك بالقُنوع تكن من أغنى الناس، يا بُنيّ، إن في الجنة شجرةً يقال لها: شجرة البلوى، يُؤتَى بأهل البلاء فلا يُنصب لهم ميزان، ولا يُنشر لهم ديوان، يُصبُّ عليهم الأجر صبّاً، ثم تلا النبيُّ ﷺ ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾»(٥).

ولفظ صابر يُمدح به، وإنما هو لمن صَبَر عن المعاصي، وإذا أردتَ أنه صبر على

(١) في النسخ: الصوم، والمثبت موافق لمعنى ما في المصادر. ينظر النكت والعيون ٥/ ١١٩، وتفسير البغوي ٤/ ٧٤.

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٦٤٤ - ١٦٤٥.

(٣) قول قتادة أخرجه الطبري ٢٠/ ١٧٩، وحديث أنس ﷺ أخرجه ابن مردويه كما في الدر المنثور ٥/ ٣٢٣.

(٤) في (د) و(ز) و(ف) و(م): الحسين بن علي، والمثبت من (ظ)، وهو الموافق لمصادر الحديث.

(٥) أخرجه الطبراني في الكبير (٢٧٦٠) دون قوله: «. . إن في الجنة شجرة. .» إلى آخره، قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٣/ ٣٥: وفيه سعد بن طريف، وهو ضعيف جداً. قلنا: قال عنه الحافظ ابن حجر في التقريب: متروك، ورماه ابن حبان بالوضع. وقوله منه: «أدِّ الفرائض تكن من أعبد الناس، وعليك بالقنوع تكن من أغنى الناس» أخرجه الدارقطني في العلل ٥/ ٨٤ من حديث ابن مسعود ﷺ، وقال الدارقطني: رفعه وهم، والصحيح من قول ابن مسعود ﷺ.

المصيبة قلت: صابر على كذا؛ قاله النحاس[١]. وقد مضى في «البقرة» مستوفى[٢].

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾ قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى ﴿١٤﴾ فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٥﴾ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ ۚ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴿١٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ تقدَّم أولَ السورة ﴿وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ من هذه الأُمة، وكذلك كان؛ فإنه كان أولَ من خالفَ دينَ آبائه، وخلع الأصنام وحطَّمها، وأسلم لله وآمنَ به، ودعا إليه ﷺ.

واللام في قوله: «لِأَنْ أَكُونَ» صلة زائدة؛ قاله الجُرجاني وغيره. وقيل: لام أَجْل. وفي الكلام حذف، أي: أُمرت بالعبادة «لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ المسلمين».

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ يريد عذابَ يوم القيامة. وقاله حين دعاه قومُه إلى دين آبائه؛ قاله أكثرُ أهل التفسير[٣].

وقال أبو حمزة الثُّمالي وابن المسيَّب: هذه الآية منسوخةٌ بقوله تعالى: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢] فكانت هذه الآيةُ من قبل أن يُغفر ذنبُ النبي ﷺ.

قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ﴾ «اللهَ» نصب بـ «أَعْبُدُ»[٤] ﴿مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى﴾ طاعتي وعبادتي. ﴿فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ﴾ أمرُ تهديد ووعيد وتوبيخ؛ كقوله تعالى: ﴿ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ﴾ [فصلت: ٤٠]. وقيل: منسوخة بآية السيف[٥].

---

(١) في إعراب القرآن ٤/ ٧.

(٢) ٢/ ٤٦٣ وما بعدها.

(٣) تفسير البغوي ٤/ ٧٤.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٧.

(٥) زاد المسير ٧/ ١٦٩، قال ابن الجوزي: وهذا باطل، لأنه لو كان أمراً، كان منسوخاً، فأما أن يكون بمعنى الوعيد فلا وجه لنسخه.

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ قال ميمون بن مِهْران عن ابن عباس: ليس من أحد إلا وقد خلق اللهُ له زوجةً في الجنة، فإذا دخل النارَ خسِرَ نَفْسَه وأهلَه[١]. وفي رواية عن ابن عباس: فمن عَمِلَ بطاعة الله كان له ذلك المنزل والأهل إلا ما كان له قبلَ ذلك[٢]، وهو قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠].

قوله تعالى: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ سمَّى ما تحتهم ظُللاً؛ لأنها تُظِلُّ مَن تحتهم، وهذه الآية نظيرُ قوله تعالى: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾[٣] [الأعراف: ٤١]، وقوله: ﴿يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٥٥].

﴿ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ﴾ قال ابن عباس: أولياءه. ﴿يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ﴾ أي: يا أوليائي فخافون. وقيل: هو عامٌّ في المؤمن والكافر. وقيل: خاصٌّ بالكفار.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿١٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا﴾ قال الأخفش[٤]: الطاغوت جمع، ويجوز أن تكون واحدةً مؤنثة. وقد تقدم[٥]. أي: تباعدوا من الطاغوت، وكانوا منها على جانب فلم يعبدوها. قال مجاهد وابن زيد: هو الشيطان. وقال الضحاك والسدي: هو الأوثان. وقيل: إنه الكاهن. وقيل: إنه اسمٌ أعجمي مثل:

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٨.

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٧٤.

(٣) المصدر السابق.

(٤) في معاني القرآن ٢/ ٦٧١، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٤/ ٨.

(٥) ٦/ ٤٦١.

طالوت وجالوت وهاروت، ماروت. وقيل: إنه اسم عربي مشتق من الطُّغيان[١]، و«أن»في موضع نصب بدلاً من الطاغوت، تقديره: والذين اجتنبوا عبادةَ الطاغوت. ﴿وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي: رَجَعوا إلى عبادته وطاعته. ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ﴾ في الحياة الدنيا بالجنة في العُقبى.

رُوي أنها نزلت في عثمان وعبد الرحمن بن عوف وسعد وسعيد وطلحة والزبير ﷺ؛ سألوا أبا بكر ﷺ فأخبرهم بإيمانه فآمنوا. وقيل: نزلت في زيد بن عمرو ابن نُفيل وأبي ذرّ وغيرهما ممن وحّد الله تعالى قبل مبعث النبي ﷺ[٢].

وقوله: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ . ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ﴾ قال ابن عباس: هو الرجلُ يسمع الحسن والقبيح فيتحدث بالحسن وينكفُّ عن القبيح فلا يتحدَّث به[٣]. وقيل: يستمعون القرآنَ وغيره فيتَّبعون القرآن[٤]. وقيل: يستمعون القرآن وأقوالَ الرسول فيتَّبعون أحسنه، أي: محكمه فيعملون به. وقيل: يستمعون عَزْماً وترخيصاً فيأخذون بالعزم دون الترخيص. وقيل: يستمعون العقوبةَ الواجبةَ لهم والعفوَ فيأخذون بالعفو[٥].

وقيل: إنَّ أحسنَ القول على من جعل الآية فيمن وحَّد الله قبلَ الإسلام «لا إله إلا الله».

وقال عبد الرحمن بن زيد: نزلت في زيد بن عمرو بن نُفيل وأبي ذرّ الغفاري وسلمان الفارسي، اجتنَبوا الطاغوتَ أن يعبدوها في جاهليتهم، واتَّبعوا أحسنَ ما صار من القول إليهم[٦].

---

(١) هذه الأقوال في النكت والعيون ٥/ ١٢٠ ، وزاد المسير ٧/ ١٧٠ ، وقول مجاهد وابن زيد أخرجه الطبري ٢٠/ ١٨٣ .

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٧٥ ، وزاد المسير ٧/ ١٧٠ .

(٣) النكت والعيون ٥/ ١٢١ بنحوه.

(٤) معاني القرآن للنحاس ٦/ ١٦٣ .

(٥) المصدر السابق.

(٦) النكت والعيون ٥/ ١٢١ ، وأخرجه الطبري ٢٠/ ١٨٥ .

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُۖ﴾ لما يرضاه. ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أي: الذين انتفعوا بعقولهم.

قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي ٱلنَّارِ ١٩﴾

قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي ٱلنَّارِ﴾ كان النبي ﷺ يَحرِصُ على إيمان قوم وقد سبقت لهم من الله الشَّقاوة، فنزلت هذه الآية. قال ابن عباس: يُريد أبا لهب وولده ومَن تخلَّف من عشيرة النبي ﷺ عن الإيمان[1]. وكرَّر الاستفهام في قوله: «أَفَأَنْتَ» تأكيداً لِطُول الكلام، وكذا قال سيبويه في قوله تعالى: ﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ﴾ [المؤمنون: ٣٥] على ما تقدَّم. والمعنى: ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ﴾ أفأنت تُنقذه. والكلام شرط وجوابه. وجيء بالاستفهام؛ ليدلَّ على التوقيف والتقرير. وقال الفراء[2]: المعنى: أفأنتَ تُنقذ من حقَّت عليه كلمةُ العذاب. والمعنى واحد. وقيل: إنَّ في الكلام حذفاً، والتقدير: أفمن حقَّ عليه كلمة العذاب ينجو منه، وما بعده مُستأنَف.

وقال: «أفمن حَقَّ عليه» وقال في موضع آخر: ﴿حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ﴾ [يونس: ٣٣] لأن الفعلَ إذا تقدَّم ووقع بينه وبين الموصوف به حائلٌ جاز التذكير والتأنيث، على أن التأنيثَ هنا ليس بحقيقي، بل الكلمة في معنى الكلام والقول؛ أي: أفمن حقَّ عليه قول العذاب.

قوله تعالى: ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُۖ وَعْدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ ٢٠﴾

قوله تعالى: ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ﴾ لما بيَّن أن للكفار ظُللاً من النار مِن فوقهم

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ٧٥ بنحوه.

(٢) في معاني القرآن ٢/ ٤١٨، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في معاني القرآن ٦/ ١٦٣ - ١٦٤، وما قبله وما بعده فيه بنحوه.

ومن تحتهم بيَّن أن للمتقين غُرَفاً فوقَها غرف؛ لأن الجنةَ درجاتٌ يعلو بعضُها بعضاً و«لَكِن» ليس للاستدراك؛ لأنه لم يأت نفي، كقوله: ما رأيتُ زيداً لكن عَمراً، بل هو لترك قصةٍ إلى قصة مُخالفةٍ للأُولى، كقولك: جاءني زيدٌ لكن عمرو لم يأتِ.

﴿غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ﴾ قال ابن عباس: مِن زَبَرجد وياقوت ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ﴾ أي: هي جامعةٌ لأسباب النُّزهة.

﴿وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ نصب على المصدر؛ لأن معنى «لهم غُرَفٌ»: وَعَدَهم الله ذلك وعداً. ويجوز الرفع بمعنى: ذلك وَعْدُ الله[1]. ﴿لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ﴾ أي: ما وعدَ الفريقين.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَـٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَـٰمًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿٢١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ أي: إنه لا يُخلف الميعاد في إحياء الخَلْق، والتمييز بين المؤمن والكافر، وهو قادرٌ على ذلك كما أنه قادرٌ على إنزال الماء من السماء.

«أنزلَ مِنَ السَّماءِ» أي: من السَّحاب «ماءً» أي: المطر ﴿فَسَلَكَهُۥ﴾ أي: فأدخله في الأرض وأسكنه فيها؛ كما قال: ﴿فَأَسْكَنَّـٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [المؤمنون:١٨]. ﴿يَنَـٰبِيعَ﴾ جمع يَنْبُوع وهو يَفْعُول من نَبَع يَنْبُع ويَنْبَع ويَنْبِعُ، بالرفع والنصب والخفض ـ النحاس[2]: وحكى لنا ابنُ كَيْسان في قول الشاعر:

يَـنْـبَـاعُ مِـنْ ذِفْـرَى غَـضُـوبٍ جَـسْـرَةٍ[3]

(١) إعراب القرآن للنحاس ٤/٨.

(٢) في إعراب القرآن ٤/٨، وما قبله منه.

(٣) قائله عنترة، وهو من معلقته. الديوان ص٢٢. وعجزه: زيَّافة مثل الفنيق المُكْدَم. والذِّفْرى من القفا: الموضع الذي يعرق من الإبل خلفَ الأذن، والغضوب: الناقة العبوس، والجَسْرة: الماضية في سيرها، والزيَّافة: مبالغة زائف؛ إذا تبختر في مشيه، والفنيق: الفحل. والمُكْدَم: الذي لا يُؤذى ولا يُركَب لكرامته على أهله. خزانة الأدب ١/ ١٢٤ - ١٢٥.

أنَّ معناه: يَنْبَع، فأشبع الفتحةَ فصارتْ ألفاً ـ نُبوعاً: خرج. واليَنْبوع عينُ الماء والجمع الينابيع[١]. وقد مضى في «سبحان»[٢].

«ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ» أي: بذلك الماء الخارج من ينابيع الأرض ﴿زَرْعًا﴾ هو للجنس، أي: زروعاً شتى لها ألوانٌ مختلفة، حُمرة وصُفرة وزُرقة وخُضرة ونوراً. قال الشعبي والضحاك: كلُّ ماء في الأرض فمن السماء نزل، إنما ينزل من السماء إلى الصخرة، ثم تقسم منها العيون والرَّكايا. ﴿ثُمَّ يَهِيجُ﴾ أي: ييبس. ﴿فَتَرَىٰهُ﴾ أي: بعد خُضرته ﴿مُصْفَرًّا﴾[٣].

قال المبرد: قال الأصمعي: يقال: هاجت الأرض تهيجُ إذا أدبر نَبْتُها وولَّى. قال: وكذلك هاج النبتُ. قال: وكذلك قال غير الأصمعي[٤].

وقال الجوهري[٥]: هاج النبتُ هِياجاً، أي: يَبِسَ. وأرضٌ هائجة يَبِسَ بَقْلُها أو اصفرَّ، وأهاجت الريحُ النَّبْتَ: أيبسَتْه، وأهيجنا الأرضَ، أي: وجدْناها هائجةَ النبات، وهاج هائجه، أي: ثار غضبه، وهدأ هائجه، أي: سكنت فَوْرته.

﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا﴾ أي: فُتاتاً مُكَسَّراً، من: تحطَّم العودُ، إذا تَفتَّتَ من اليبس[٦]. والمعنى: أن مَن قَدَر على هذا قَدَر على الإعادة. وقيل: هو مَثَلٌ ضربه الله للقرآن ولصدور مَن في الأرض، أي: أنزل من السماء قرآناً فسلكه في قلوب المؤمنين ﴿ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ﴾ أي: ديناً مُختلفاً بعضُه أفضلُ من بعض، فأما المؤمن فيزداد إيماناً ويقيناً، وأما الذي في قلبه مرضٌ فإنه يهيج كما يهيج الزرع. وقيل: هو مثلٌ ضربه الله للدنيا؛ أي: كما يتغير النبت الأخضر فيصفرّ كذلك الدنيا بعد بَهْجتها. ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾.

---

(١) الصحاح (نبع).
(٢) ١٣/ ١٧٤.
(٣) تفسير البغوي ٤/ ٧٦ بنحوه، وقول الشعبي أخرجه الطبري ٢٠/ ١٨٨.
(٤) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٨ - ٩.
(٥) في الصحاح (هيج).
(٦) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٩.

قوله تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ شرحَ: فتح ووسَّع. قال ابن عباس: وسَّع صدره للإسلام حتى ثبتَ فيه. وقال السدي: وسَّع صَدْره بالإسلام للفرح به والطُّمأنينة إليه؛ فعلى هذا لا يجوز أن يكون هذا الشرح إلا بعد الإسلام؛ وعلى الوجه الأول يجوز أن يكون الشَّرح قبلَ الإسلام[١].

﴿فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ أي: على هُدىً من ربّه كمن طبع على قلبه وأقساه. ودلَّ على هذا المحذوف قوله: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم﴾[٢]. قال المبرد: يقال: قسا القلبُ، إذا صَلُب، وكذلك عتا وعسا مقاربة لها. وقلبٌ قاسٍ، أي: صُلْب لا يرقّ ولا يَلين[٣]. والمراد بمن شرح الله صَدْرَه هاهنا فيما ذكر المفسرون عليٌّ وحمزةُ رضي الله عنهما[٤]. وحكى النقَّاش أنه عمرُ بن الخطاب ﷺ. وقال مقاتل: عمار بن ياسر. وعنه أيضاً والكلبي: رسولُ الله ﷺ[٥].

والآية عامةٌ فيمن شرح اللهُ صَدْره بِخَلْق الإيمان فيه.

وروى [عمرو بن] مُرَّة [عن أبي عبيدة][٦] عن ابن مسعود قال: قلنا: يا رسولَ الله، قوله تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ كيف انشرح صدره؟ قال: «إذا دخلَ النورُ القلبَ انشرح وانفتح»قلنا: يا رسولَ الله، وما علامةُ ذلك؟. قال: «الإنابةُ إلى دار الخُلود، والتجافي عن دار الغُرور، والاستعداد للموت

---

(١) النكت والعيون ٥/ ١٢١ ، ونسب القول الأول لابن عباس رضي الله عنهما والسدي، ولم ينسب الثاني.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٥٢٧ .

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٩ .

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٥٢٧ .

(٥) النكت والعيون ٥/ ١٢٢ .

(٦) ما بين حاصرتين من مصادر التخريج، وينظر التعليق التالي.

قبلَ نُزوله»[١]، وخرجه الترمذي الحكيم في «نوادر الأصول» من حديث ابن عمر: أن رجلاً قال: يا رسول الله، أي: المؤمنين أكيسُ؟ قال: «أكثرُهم للموت ذِكْراً، وأحسنُهم له استعداداً، وإذا دخل النورُ في القلب انفسح واستوسع» قالوا: فما آيةُ ذلك يا نبيَّ الله؟ قال: «الإنابةُ إلى دار الخُلود، والتجافي عن دار الغرور، والاستعدادُ للموت»[٢] فذكر ﷺ خِصالاً ثلاثة، ولا شكَّ أن من كانت فيه هذه الخِصال فهو الكامل الإيمان، فإنَّ الإنابةَ إنما هي أعمال البر؛ لأن دارَ الخُلود إنما وضعت جزاءً لأعمال البر، ألا ترى كيف ذكره الله في مواضعَ في تنزيله، ثم قال بعقب ذلك: ﴿جَزَآءً بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة:١٧] فالجنةُ جزاء الأعمال؛ فإذا انكمش العبدُ في أعمال البر فهو إنابتُه إلى دار الخلود، وإذا خَمَد حِرْصه عن الدنيا، ولَها عن طلبها، وأَقبل على ما يُغنيه منها فاكتفى به وقَنِعَ، فقد تجافى عن دار الغرور. وإذا أَحكم أموره بالتقوى فكان ناظراً في كل أمر، واقفاً متأدِّباً مُتثبِّتاً حَذِراً يتورَّع عما يُريبه إلى ما لا يُريبه، فقد استعدَّ للموت. فهذه علامتُهم في الظاهر. وإنما صار هكذا لرؤية الموت، ورؤية صرف الآخرة عن الدنيا، ورؤية الدنيا أنها دارُ الغرور، وإنما صارت له هذه الرؤيةُ بالنور الذي وَلَج القلب[٣].

وقوله: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِۚ﴾ قيل: المراد أبو لهب وولده، ومعنى: «مِنْ ذِكْرِ اللهِ» أن قلوبهم تزداد قسوةً من سماع ذِكْره. وقيل: إن «مِن» بمعنى عن والمعنى: قَسَتْ عن قَبول ذِكْر الله. وهذا اختيار الطبري[٤].

(١) وهو حديث ضعيف جداً، قال الدارقطني في العلل٥/ ١٨٩ : يرويه عمرو بن مرة، واختلف عنه... وذكر عدة طرق له ثم قال: وكلها وهم، والصواب: عن عمرو بن مرة عن أبي جعفر عبد الله بن المسور مرسلاً عن النبي ﷺ، كذلك قاله الثوري، وعبد الله بن المسور هذا متروك. اهـ قلنا: وأبو عبيدة لم يسمع من أبيه ابن مسعود ﷺ، وقد سلف الحديث ٩/ ٢٣ ، ينظر ما ذكرناه ثمة.

(٢) نوادر الأصول ص١٢٥ - ١٢٦ . وأخرجه مختصراً ابن ماجه (٤٢٥٩) وفي إسناده نافع بن عبد الله عن فروة بن قيس، وهما مجهولان كما في التقريب.

(٣) نوادر الأصول ص١٢٧ .

(٤) تفسير الطبري ٢٠/ ١٩٠ ، وينظر زاد المسير ٧/ ١٧٤ .

وعن أبي سعيد الخُدري أن رسولَ الله ﷺ قال: «قال الله تعالى: اطلُبوا الحوائج من السُّمَحاء، فإني جعلتُ فيهم رحمتي، ولا تطلبوها من القاسية قُلوبهم، فإني جعلتُ فيهم سَخَطي»[(١)].

وقال مالك بن دينار: ما ضُرِب عبدٌ بعقوبة أعظمَ من قسوة قلب، وما غَضِبَ اللهُ على قوم إلا نَزَعَ الرحمةَ من قلوبهم[(٢)].

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾﴾

فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ﴾ يعني القرآن لما قال: ﴿فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ﴾ بيَّن أن أحسنَ ما يُسمع ما أنزله الله، وهو القرآن. قال سعدُ بن أبي وقَّاص: قال أصحابُ رسول الله ﷺ: لو حدَّثتنا، فأنزل الله عز وجل: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ﴾ فقالوا: لو قصصتَ علينا فنزل: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾ [يوسف: ٣] فقالوا: لو ذكَّرتنا فنزل: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ الآية[(٣)] [الحديد: ١٦].

وعن ابن مسعود ﷺ أن أصحابَ رسول الله ﷺ مَلُّوا مَلَّة فقالوا له: حدِّثنا، فنزلتْ[(٤)].

---

(١) أخرجه ابن حبان في المجروحين ٢/ ٢٨٦ ، بلفظ: «إن الله يقول: اطلبوا الفضل من الرُّحَماء من عبادي تعيشوا في أكنافهم، ولا تطلبوها من القاسية قلوبهم...». وفي إسناده محمد بن مروان السدي كان ممن يروي الموضوعات عن الأثبات، لا يحل كتابة حديثه إلا على جهة الاعتبار، قاله ابن حبان، وينظر لسان الميزان ٣/ ٤٤٦ - ٤٤٧ .

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٥٢٧ ، وتفسير البغوي ٤/ ٧٦ .

(٣) ذكره البغوي في تفسيره ٢/ ٤٠٨ ، وسلف ١١/ ٢٤٠ دون قولهم: لو ذكّرتنا...

(٤) المحرر الوجيز ٣/ ٢١٨ - ٢١٩ .

والحديث ما يُحدِّثُ به المُحدِّث. وسُمِّي القرآن حديثاً؛ لأن رسولَ الله ﷺ كان يُحدِّث به أصحابَه وقومَه، وهو كقوله: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٥] وقوله: ﴿أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ﴾ [النجم: ٥٩] وقوله: ﴿إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف: ٦]. وقوله: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٨٧] وقوله: ﴿فَذَرْنِى وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾ [القلم: ٤٤].

قال القشيري: وتوهَّم قومٌ أن الحديثَ من الحُدوث، فليدلَّ على أن كلامه مُحدَث، وهو وهم؛ لأنه لا يُريد لفظَ الحديث على ما في قوله: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ﴾ [الأنبياء: ٢] وقد قالوا: إنَّ الحُدوث يرجع إلى التلاوة لا إلى المَتْلوّ، وهو كالذِّكر مع المذكور، إذا ذكرنا أسماءَ الربّ تعالى.

﴿كِتَٰبًا﴾ نصب على البدل من «أَحْسَنَ الحَدِيثِ» ويَحتمل أن يكون حالاً منه. ﴿مُّتَشَٰبِهًا﴾ يُشبه بعضُه بعضاً في الحُسن والحِكمة ويُصدِّق بعضُه بعضاً[1]، ليس فيه تناقضٌ ولا اختلاف. وقال قتادة: يُشبه بعضه بعضاً في الآي والحروف. وقيل: يُشبه كُتبَ الله المُنزلة على أنبيائه؛ لما يتضمَّنه من أمر ونهي وترغيب وترهيب وإنْ كان أعمَّ وأعجزَ[2]. ثم وصفه فقال: ﴿مَّثَانِىَ﴾ تُثنى فيه القصص والمواعظ والأحكام، وثُني للتلاوة فلا يُمَلّ.

﴿تَقْشَعِرُّ﴾ تضطرب وتتحرك بالخوف مما فيه من الوعيد. ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ أي: عند آية الرحمة. وقيل: إلى العمل بكتاب الله والتصديق به. وقيل: «إلى ذِكْرِ اللهِ» يعني الإسلام.

الثانية: عن أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهما قالت: كان أصحابُ النبي ﷺ إذا قرئ عليهم القرآن كما نَعَتَهم الله؛ تدمع أعينُهم وتقشعرُّ جلودهم. قيل لها: فإن أناساً اليوم إذا قرئ عليهم القرآن خرَّ أحدُهم مَغْشِياً عليه. فقالت: أعوذُ بالله

---

(١) تفسير الطبري ٢٠/ ١٩١.

(٢) النكت والعيون ٥/ ١٢٢، وقول قتادة أخرجه الطبري ٢٠/ ١٩١.

من الشيطان الرجيم.

وقال سعيد بن عبد الرحمن الجُمحي: مرَّ ابنُ عمر برجل من أهل القرآن ساقط فقال: ما بال هذا؟ قالوا: إنه إذا قُرئ عليه القرآن وسَمِعَ ذِكْر الله سقط. فقال ابن عمر: إنا لَنخشى الله وما نسقط. ثم قال: إن الشيطانَ يدخلُ في جوف أحدِهم؛ ما كان هذا صنيعَ أصحاب محمد ﷺ[١].

وقال عمر بن عبد العزيز: ذُكر عند ابن سيرين الذين يُصرعون إذا قُرئ عليهم القرآن، فقال: بيننا وبينهم أن يقعد أحدُهم على ظهر بيت باسطاً رجليه، ثم يُقرأ عليه القرآن من أوله إلى آخره فإنْ رمى بنفسه فهو صادق[٢].

وقال أبو عِمران الجوني: وعظ موسى عليه السلام بني إسرائيل ذاتَ يوم فشقّ رجلٌ قميصه، فأوحى الله إلى موسى: قل لصاحب القميص: لا يشقَّ قميصَه، فإني لا أُحِبُّ المُبذرين؛ يشرح لي عن قلبه[٣].

الثالثة: قال زيد بن أسلم: قرأ أُبيّ بن كعب عند النبي ﷺ ومعه أصحابه[٤] فرقّوا، فقال النبيُّ ﷺ: «اغتنموا الدُّعاء عند الرِّقة، فإنها رحمةٌ»[٥]. وعن العباس أن رسول الله صلى عليه وسلم قال: «إذا اقشعرَّ جلدُ المؤمن من مَخافةِ الله تحاتَّتْ عنه خطاياه كما يَتحاتُّ عن الشجرة البالية ورقُها»[٦].

وعن ابن عباس أن رسولَ الله ﷺ قال: «ما اقشعرَّ جلدُ عبدٍ من خَشيةِ الله إلا حرَّمه اللهُ على النار»[٧]. وعن شهر بن حَوْشَب عن أُمِّ الدرداء قالت: إنما الوجل في

(١) أخرج الخبرين البغوي في تفسيره ٤/ ٧٧، وذكرهما ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٥٢٨.
(٢) المصدران السابقان دون ذكر عمر بن عبد العزيز ﷺ، ولم نقف عليه من قوله.
(٣) أخرجه أبو نعيم في الحلية ٢/ ٣١٤ - ٣١٥.
(٤) قوله: ومعه أصحابه، من (م).
(٥) أخرجه الشهاب في مسنده (٦٩٢) وهو مرسل، فإن زيداً لم يدرك أُبيّاً ﷺ.
(٦) أخرجه البزار في مسنده (١٣٢٢).
(٧) لم نقف عليه.

قلب الرجل كاحتراق السَّعفة، أما تَجِدُ إلا قُشَعْريرة؟ قلت: بلى؛ قالت: فادعُ اللهَ، فإن الدعاء عند ذلك مُستجاب[١]. وعن ثابت البُنَاني قال: قال فلان: إني لأعلمُ متى يُستجاب لي. قالوا: ومن أين تعلم ذلك؟ قال: إذا اقشعرَّ جلدي، ووَجِلَ قلبي، وفاضتْ عيناي، فذلك حين يُستجاب لي[٢].

يقال: اقشعرّ جلدُ الرجل اقشعراراً فهو مُقْشَعِرّ، والجمع قشاعر، فَتُحذَف الميم، لأنها زائدة؛ يقال: أخذَتْه قُشَعْريرة[٣]. قال امرؤ القيس:

فَبِتُّ أكابِدُ ليلَ التِّمَا م والقلبُ مِن خشيةٍ مُقْشَعِرّ[٤]

وقيل: إن القرآنَ لما كان في غاية الجَزالة والبلاغة، فكانوا إذا رَأَوْا عَجْزَهم عن معارضته، اقشعرَّت الجلودُ منه إعظاماً له، وتَعجُّباً من حُسن ترصيفه[٥] وتَهَيُّباً لِمَا فيه؛ وهو كقوله تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [الحشر: ٢١] فالتصدُّع قريبٌ من الاقشعرار، والخُشوع قريبٌ من قوله: ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ ومعنى لين القلب رِقَّته وطمأنينته وسُكونه.

﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ﴾ أي: القرآن هُدَى الله. وقيل: أي: الذي وهبه اللهُ لهؤلاء من خَشية عقابه ورجاء ثوابه هُدَى الله[٦].

﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ أي: مَن خَذَله فلا مُرشِدَ له. وهو يردُّ على القَدَرية وغيرهم. وقد مضى معنى هذا كلِّه مستوفىً في غير موضع، والحمد لله.

ووقف ابن كثير وابن مُحيصن على قوله: «هادٍ» في الموضعين بالياء، الباقون بغير ياء[٧].

---

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (١١٣٨).

(٢) أخرجه البيهقي في الشعب (١١٣٩)، وذكره الحكيم في نوادر الأصول ص١١٤ .

(٣) الصحاح (قشعر).

(٤) ديوان امرئ القيس ص١٥٨ . قال شارحه: ليل التِّمام: أطول ليل في الشتاء.

(٥) في (م): ترصيعه.

(٦) المحرر الوجيز ٤/٥٢٨ ، وزاد المسير ٧/١٧٨ بمعناه.

(٧) السبعة ص٣٦٠ ، والتيسير ص١٣٣ .

قوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٢٤﴾ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٥﴾ فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْىَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ قال عطاء وابن زيد: يُرْمَى به مكتوفاً في النار، فأوّل شيء تَمَسُّ منه النار وجهه. وقال مجاهد: يُجَرُّ على وجهه في النار. وقال مقاتل: هو أن الكافر يُرمى به في النار مغلولةً يداه إلى عنقه، وفي عنقه صخرة عظيمة كالجبل العظيم من الكبريت، فتشتعل النار في الحجر وهو مُعلّق عنقه، فحرُّها ووَهجها على وجهه؛ لا يُطيق دَفْعها عن وجهه من أجل الأغلال(١).

والخبر محذوف. قال الأخفش(٢): أي: ﴿أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ أفضلُ أَمْ من سَعِدَ، مثل: ﴿أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [فصلت: ٤٠].

﴿وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: وتقول الخَزنة للكافرين: ﴿ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ أي: جزاءَ كَسْبِكُم من المعاصي. ومثله: ﴿هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ [التوبة: ٣٥].

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ . فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْىَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ تقدّم معناه(٣). وقال المبرد: يقال لكلِّ ما نال الجارحة من شيء: قد ذاقته، أي: وصل إليها كما تَصِلُ الحلاوة والمرارة إلى الذائق لهما. قال: والخِزي المكروه(٤)، والخَزاية من الاستحياء(٥).

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ٧٧.

(٢) في معاني القرآن ٢/ ٦٧٠، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٤/ ٩.

(٣) ٢/ ٣٢٤.

(٤) في (م): من المكروه.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٩ - ١٠.

﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ﴾ أي: مما أصابهم في الدنيا ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ أي: من كل مثل يحتاجون إليه؛ مثل قوله تعالى: ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام:٣٨] وقيل: أي: ما ذكرنا[١] من إهلاك الأمم السالفة مَثَلٌ لهؤلاء ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ يتَّعظون.

﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ نصب على الحال. قال الأخفش[٢]: لأن قوله جلّ وعزّ: «في هذا القرآن» معرفة. وقال علي بن سليمان: «عَرَبِيّاً» نصب على الحال، و«قُرْآناً» توطئة للحال كما تقول: مررتُ بزيد رجلاً صالحاً، فقولك: صالحاً هو المنصوبُ على الحال. وقال الزجاج[٣]: «عَرَبِيّاً» منصوب على الحال و«قُرْآناً» توكيد.

﴿غَيْرَ ذِي عِوَجٍ﴾ النحاس[٤]: أحسنُ ما قيل فيه قول الضحاك: قال: غير مختلف. وهو قول ابن عباس، ذكره الثعلبي[٥]. وعن ابن عباس أيضاً: غير مخلوق، ذكره المهدوي[٦] وقاله السدي فيما ذكره الثعلبي. وقال عثمان بن عفان: غير مُتضاد. وقال مجاهد: غير ذي لَبْس. وقال بكر بن عبد الله المُزَني: غير ذي لَحْن[٧]. وقيل: غير ذي شكٍّ. قاله السُّدي فيما ذكره الماوردي[٨]. قال:

---

(١) في (م): ما ذكرناه.

(٢) في معاني القرآن ٢/ ٦٧١ ، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٤/ ١٠ وما بعده منه.

(٣) في معاني القرآن ٤/ ٣٥٢ .

(٤) في إعراب القرآن ٤/ ١٠ ، وما قبله منه.

(٥) وذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٥٢٩ ، والبغوي في تفسيره ٤/ ٧٨ .

(٦) وذكره ابن الجوزي في زاد المسير ٧/ ١٧٩ .

(٧) المحرر الوجيز ٤/ ٥٢٩ .

(٨) في النكت والعيون ٥/ ١٢٤ .

وقد أتاكَ يقينٌ غيرُ ذي عِوَجٍ مِنَ الإلهِ وقولٌ غيرُ مكذوبِ[(١)]

﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ الكُفرَ والكذب.

قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًاۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ﴾ قال الكسائي: نصب «رَجُلاً» لأنه ترجمةٌ للمَثَل وتفسيرٌ له[(٢)]، وإن شئتَ نصبته بنزع الخافض، مجازه: ضرب الله مثلاً برجل ﴿فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ﴾[(٣)].

قال الفرّاء[(٤)]: أي: مختلفون. وقال المبرّد: أي: متعاسرون، من: شَكِسَ يَشْكَسُ شَكَساً، فهو شَكِسٌ، مثل: عَسِرَ يَعْسَرُ عَسَراً، فهو عَسِرٌ، يقال: رجل شَكِسٌ وشَرِسٌ وضَرِسٌ وضَبِسٌ. ويقال: رجل ضَبِسٌ وضَبِيسٌ، أي: شَرِسٌ عَسِر شَكِسٌ؛ قاله الجوهري[(٥)].

الزمخشري[(٦)]: والتشاكسُ والتشاخسُ الاختلافُ. يقال: تشاكسَتْ أحوالُه وتشاخسَتْ أسنانُه.

ويقال: شاكسني فلان، أي: ما كسني وشاحّني في حقّي. قال الجوهري[(٧)]: رجل شَكْس ـ بالتسكين ـ أي: صَعْب الخُلُق. قال الراجز:

شَكْسٌ عَبُوسٌ عَنْبَسٌ عَذَوَّرُ

---

(١) ذكره الزمخشري في الكشاف ٣/ ٣٩٦ .

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٧٨ .

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٥٢٩ .

(٤) معاني القرآن ٢/ ٤١٩ ، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٤/ ١٠ وما بعده منه.

(٥) في الصحاح (ضبس).

(٦) في الكشاف ٣/ ٣٩٧ .

(٧) في الصحاح (شكس).

وقوم شُكْسٌ، مثال: رَجلٌ صَدْق، وقوم صُدْق. وقد شَكِس ـ بالكسر ـ شَكَاسةً. وحكى الفراء[(١)]: رجل شَكِسٌ. وهو القياس، وهذا مَثَلُ مَنْ عَبَدَ آلهةً كثيرة.

﴿وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ﴾ أي: خالصاً لِسيِّد واحد، وهو مَثَلُ مَنْ يعبد اللهَ وحدَه. ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ هذا الذي يخدُم جماعةَ شُركاءَ، أخلاقُهم مختلفة، ونيَّاتهم مُتباينة، لا يلقاه رجلٌ إلا جرَّه واستخدمه؛ فهو يَلقى منهم العَناء والنَّصَب والتعب العظيم، وهو مع ذلك كلِّه لا يُرضي واحداً منهم بخدمته لِكَثْرة الحقوق في رقبته، والذي يخدُم واحداً لا يُنازعه فيه أحد، إذا أطاعه وحدَه عَرَفَ ذلك له؛ وإن أخطأ صَفَحَ عن خطئه، فأيهما أقلُّ تعباً أو على هُدى مستقيم[(٢)].

وقراءة أهل الكوفة وأهل المدينة: «وَرَجُلاً سَلَماً» وقرأ ابن عباس ومجاهد والحسن وعاصم الجَحْدَري وأبو عمرو وابن كثير ويعقوب: «وَرَجُلاً سَالِماً»[(٣)] واختاره أبو عُبيد لِصحة التفسير فيه. قال: لأن السالمَ الخالصُ ضدُّ المُشتَرك، والسَّلم ضِدّ الحرب، ولا موضعَ للحربِ هنا.

النحاس[(٤)]: وهذا الاحتجاجُ لا يلزم، لأن الحرفَ إذا كان له مَعنيان لم يُحمل إلا على أولاهما، فهذا وإن كان السَّلمُ ضدَّ الحرب فله موضعٌ آخر؛ كما يقال: لك في هذا المنزل شُركاء فصار سَلَماً لك. ويلزمه أيضاً في سالم ما ألزم غيره؛ لأنه يقال: شيء سالم، أي: لا عاهةَ به. والقراءتان حسنتان قرأ بهما الأئمة.

واختار أبو حاتم قراءةَ أهل المدينة «سَلَماً» قال: وهذا الذي لا تنازع فيه. وقرأ سعيد بن جُبير وعكرمة وأبو العالية ونصر: «سِلْماً» بكسر السين وسكون اللام[(٥)].

---

(١) نقله المصنف عنه بواسطة الجوهري في الصحاح (شكس).

(٢) الكلام بنحوه في النكت والعيون ٥/ ١٢٤ ، والكشاف ٣/ ٣٩٦ - ٣٩٧ ، وزاد المسير ٧/ ١٧٩-١٨٠ .

(٣) السبعة ص ٥٦٢ ، والتيسير ص١٨٩ ، والنشر ٢/ ٣٦٢ .

(٤) في إعراب القرآن ٤/ ١٠ - ١١ ، وما قبله منه.

(٥) ذكرها ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٥٣٠ عن سعيد بن جبير.

وسِلْماً وسَلَماً مصدران، والتقدير: ورجلاً ذا سلم فحذف المضاف. و«مَثَلاً» صفةً، على التمييز، والمعنى: هل تستوي صِفتاهما وحالاهما. وإنما اقتصر في التمييز على الواحد لِبيان الجنس[١]. ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ الحقَّ فيتبعونه.

قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ وقرأ ابن مُحيصن وابن أبي عَبْلة وعيسى بن عمر وابن أبي إسحاق: «إنَّكَ مَائِتٌ وإنَّهُمْ مَائِتُونَ» وهي قراءةٌ حسنةٌ، وبها قرأ عبدالله ابن الزُّبير[٢]. النحاس[٣]: ومثل هذه الألف تُحذف في الشواد[٤]، و«مائت» في المستقبل كثيرٌ في كلام العرب؛ ومثلُه: ما كان مريضاً وإنه لمارض من هذا الطعام.

وقال الحسن والفراء والكسائي: الميّت بالتشديد: من لم يَمُتْ وسيموت، والمَيْت بالتخفيف: مَنْ فارقته الروح؛ فلذلك لم تُخفف هنا[٥]. قال قتادة: نُعِيتْ إلى النبي ﷺ نَفْسُه، ونُعِيَتْ إليكم أنفسُكم[٦]. وقال ثابت البُناني: نَعَى رجلٌ إلى صِلة ابن أَشْيَم أخاً له فوافقه يأكل، فقال: ادْنُ فَكُلْ، فقد نُعِيَ إليَّ أخي منذ حين؛ قال: وكيف وأنا أوّل من أتاك بالخبر. قال: إن الله تعالى نعاه إليّ فقال: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾[٧].

وهو خطابٌ للنبي ﷺ أخبره بموته وموتهم؛ فاحتمل خمسةَ أوجه: أحدها أن

(١) الكشاف ٣/ ٣٩٧ .

(٢) القراءات الشاذة ص١٣١ .

(٣) إعراب القرآن ٤/ ١١ ، وما قبله منه.

(٤) في (د) و(ز) و(م): الشواذ، والمثبت من (ظ) وإعراب القرآن.

(٥) ذكر قول الفراء والكسائي البغوي في تفسيره ٤/ ٧٨ .

(٦) ذكره العيني في عمدة القاري ١٨/ ٦٠ .

(٧) أخرجه أبو نعيم في الحلية ٢/ ٢٣٨ . وصلة بن أَشْيَم: أبو الصهباء، العدوي، البصري، زوج العالمة معاذة العدوية، مات سنة (٦٢هـ). السير ٣/ ٤٩٧ .

يكون ذلك تحذيراً من الآخرة. الثاني: أن يُذكِّره حثّاً على العمل. الثالث: أن يُذكِّره توطئة للموت. الرابع: لئلا يختلفوا في موته كما اختلفت الأُمَمُ في غيره، حتى إن عمرَ ﷺ لما أنكر موتَه احتجَّ أبو بكر ﷺ بهذه الآية فأمسك. الخامس: لِيُعْلمه أن الله تعالى قد سوَّى فيه بين خلقه مع تفاضلهم في غيره؛ لِتكثر فيه السَّلوة وتقلَّ فيه الحَسْرة[١].

﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ يعني تخاصم الكافر والمؤمن والظالم والمظلوم؛ قاله ابن عباس[٢] وغيره. وفي خبر فيه طول: إن الخصومةَ تبلغ يومَ القيامة إلى أن يُحاجَّ الروحُ الجسد[٣].

وقال الزبير: لما نزلت هذه الآية قلنا: يا رسول الله، أيُكَرَّر علينا ما كان بيننا في الدنيا مع خواصِّ الذنوب؟ قال: «نعم، لَيُكرَّرنَّ عليكم حتى يؤدَّى إلى كل ذي حقٍّ حقَّه» فقال الزبير: والله إن الأمر لشديد[٤].

وقال ابن عمر: لقد عِشنا بُرهةً من دهرنا ونحن نرى هذه الآية نزلت فينا وفي أهل الكتابَيْن ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ فقلنا: وكيف نختصمُ ونبينا واحد وديننا واحد، حتى رأيتُ بعضنا يضربُ وجوهَ بعض بالسيف؛ فعرفتُ أنها فينا نزلت[٥].

وقال أبو سعيد الخُدري: كنا نقول: ربنا واحد، وديننا واحد، ونبيُّنا واحد فما هذه الخصومة. فلما كان يوم صِفِّين وشدَّ بعضنا على بعض بالسيوف قلنا: نعم هو هذا.

---

(١) النكت والعيون ٥/ ١٢٥، وخبر إنكار عمر ﷺ موتَ النبي ﷺ عند البخاري (١٢٤١) وسلف ٥/ ٣٤٢.

(٢) أخرجه الطبري ٢٠/ ٢٠١ بنحوه.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٥٣٠.

(٤) أخرجه أحمد (١٤٣٤) بهذا اللفظ، وأخرجه الترمذي (٣٢٣٦) بنحوه مختصراً.

(٥) ذكره بهذا اللفظ البغوي في تفسيره ٤/ ٧٨، وأخرجه بنحوه النسائي في الكبرى (١١٣٨٣)، والطبري ٢٠/ ٢٠٢، وقوله: حتى رأيت بعضنا يضرب وجوه بعض بالسيف. يعني فتنة مقتل عثمان ﷺ.

وقال إبراهيم النَّخَعي: لما نزلت هذه الآية جعل أصحابُ رسول الله ﷺ يقولون: ما خصومتنا بيننا؟ فلما قُتل عثمان ﷺ قالوا: هذه خصومتنا بيننا(١).

وقيل: تخاصُمهم هو تحاكُمهم إلى الله تعالى، فيستوفي من حسنات الظالم بقدر مَظْلِمته، ويردُّها في حسنات مَن وَجبتْ له.

وهذا عامٌّ في جميع المظالم، كما في حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «أتدرون من المُفْلس؟» قالوا: المُفْلس فينا مَن لا درهمَ له ولا مَتاع. قال: «إنَّ المفلسَ من أمّتي مَن يأتي يومَ القيامة بصلاةٍ وصيامٍ وزكاةٍ، ويأتي قد شَتَم هذا، وقذفَ هذا، وأكلَ مالَ هذا، وسفكَ دم هذا، وضرب هذا، فيعطَى هذا من حسناته وهذا من حسناته، فإنْ فَنِيتْ حسناتُه قبل أن يُقْضَى(٢) ما عليه، أُخِذَ من خطاياهم فَطُرِحت عليه، ثم طُرِحَ في النار» خرجه مسلم(٣). وقد مضى هذا المعنى مجوَّداً في «آل عمران».

وفي البخاري عن أبي هريرة أن رسولَ الله ﷺ قال: «من كانت له مَظْلِمةٌ لأحد(٤) من عِرْضه أو شيء فَلْيتحلله منه اليومَ قبل ألا يكونَ دينارٌ ولا دِرهم، إن كان له عملٌ صالح أُخِذَ منه بقدر مَظْلِمته وإن لم تكن له حسناتٌ أُخِذَ من سيئات صاحبه فحمل عليه»(٥) وفي الحديث المسند: أوّلُ ما تقع الخُصومات في الدنيا(٦). وقد ذكرنا هذا الباب كلَّه في «التذكرة» مستوفى(٧).

---

(١) ذكر هذا الخبر والذي قبله البغوي في تفسيره ٤/ ٧٨ . وقول إبراهيم النخعي أخرجه الطبري ٢٠/ ٢٠٢ .

(٢) في النسخ: قبل انقضاء، والمثبت من (م) وهو الموافق لصحيح مسلم، والحديث منه كما سيأتي.

(٣) الحديث (٢٥٨١)، وسلف ٥/ ٤١٤ .

(٤) في النسخ: من كانت له عنده لأخيه مظلمة. والمثبت من (م) وهو الموافق لصحيح البخاري.

(٥) صحيح البخاري (٢٤٤٩) وسلف ٢/ ٧٦ .

(٦) أخرجه ابن المبارك في الزهد (برواية نعيم بن حماد) (٣٨٨) من قول ابن مسعود ﷺ مطولاً بلفظ: إن الله يجمع الناس في صعيد واحد... ثم يكون أول ما يبدؤون من الخصومات في الدنيا، فيؤتى بالقاتل والمقتول...

(٧) ص٢٦٧ .

قوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾ لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ﴾ أي: لا أحدَ أظلمُ ﴿مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ﴾ فزعم أنَّ له ولداً وشريكاً ﴿وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ﴾ يعني القرآن، ﴿أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ﴾ استفهامُ تقرير ﴿مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: مقامٌ للجاحدين[1]، وهو مشتقٌّ من: ثَوَى بالمكان، إذا أقام به يَثْوِي ثَوَاء وثُوِيّاً، مثل: مَضَى مَضَاء ومُضِيّاً[2]، ولو كان من أَثْوَى لكان مُثْوًى. وهذا يدلّ على أن ثَوَى هي اللغةُ الفصيحة. وحكى أبو عُبيدة[3]: أثوى، وأنشد قول الأعشى:

أَثْـوَى وقَـصَّـر لَـيْـلَـةً لِـيُـزَوَّدا ومَضَى وأَخْلَفَ مِنْ قُتَيْلَةَ مَوْعِدا[4]

والأصمعيُّ لا يعرف إلا ثَوَى، ويروي البيت: أَثَوَى، على الاستفهام. وأَثْوَيتُ غيري يتعدَّى ولا يتعدَّى[5].

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ﴾ في موضع رفع بالابتداء، وخبره ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾[6]، واختلف في الذي جاء بِالصدقِ وصَدَّقَ بِهِ؛ فقال عليٌّ ﷺ: «الذي جاءَ بالصِّدْق» النبيُّ ﷺ، «وَصدَّقَ بِهِ» أبو بكر ﷺ[7]. وقال مجاهد: النبيُّ عليه الصلاة والسلام وعليّ ﷺ[8]. السّدي: الذي جاء بالصِّدق جبريلُ ﷺ، والذي صدَّق به

(١) تفسير البغوي ٤/ ٧٩ .
(٢) الصحاح (ثوي).
(٣) في النسخ: أبو عبيد، والمثبت من إعراب القرآن للنحاس ٤/ ١١ ، والكلام منه. وينظر مجاز القرآن لأبي عبيدة ٢/ ١٠٧ .
(٤) ديوان الأعشى ص٢٧٧ .
(٥) الصحاح (ثوي).
(٦) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٢ .
(٧) أخرجه الطبري ٢٠/ ٢٠٤ .
(٨) المحرر الوجيز ٤/ ٥٣١ .

محمدٌ ﷺ(١). وقال ابن زيد ومقاتل وقتادة: «الذي جاءَ بِالصِّدْق» النبيُّ ﷺ «وَصَدَّقَ به» المؤمنون. واستدلوا على ذلك بقوله: «أولئك هم المُتَّقُونَ»(٢)، كما قال: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢].

وقال النَّخَعي ومجاهد: «الذي جاءَ بالصِّدْقِ وصَدَّقَ به» المؤمنون الذين يجيئون بالقرآن يومَ القيامة فيقولون: هذا الذي أعطيتمُونا قد اتَّبعنا ما فيه(٣)؛ فيكون «الذي» على هذا بمعنى جمع، كما تكون مَنْ بمعنى جمع، وقيل: بل حُذفت منه النون لِطُول الاسم. وتأوَّله الشعبي على أنه واحد، وقال: «الذي جاءَ بِالصِّدْقِ» محمد ﷺ، وصدَّق به محمد ﷺ(٤)، فيكون على هذا خبره جماعة؛ كما يقال لمن يُعظَّم: هو فعلوا، وزيد فعلوا كذا وكذا.

وقيل: إن ذلك عامٌّ في كل مَن دعا إلى توحيد الله عز وجل؛ قاله ابن عباس وغيره، واختاره الطبري(٥).

وفي قراءة ابن مسعود: «والذي جَاؤُوا بِالصِّدْقِ وَصَدَّقُوا بِهِ»(٦) وهذه قراءة على التفسير. وفي قراءة أبي صالح الكوفي: «والذي جاءَ بِالصِّدْق وصَدَقَ به» مُخَفَّفاً على معنى: وصَدَقَ بمجيئه به، أي: صَدَقَ في طاعة الله عز وجل(٧)، وقد مضى في «البقرة» الكلامُ في «الَّذِي» وأنه يكون واحداً ويكون جمعاً(٨).

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ٧٩.

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٧٩، وقول قتادة وابن زيد أخرجه الطبري ٢٠/ ٢٠٥.

(٣) أخرجه الطبري ٢٠/ ٢٠٦ عن مجاهد.

(٤) قوله وصدَّق به محمد ﷺ، ليس في (د) و(ز) و(م)، والكلام من إعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٢ وعبارته: الذي جاء بالصدق محمد ﷺ، وصدَّق به أبو بكر الصديق ﷺ والصحابة. والمثبت من (ظ) ونسخة من إعراب القرآن للنحاس أشار إليها محققه، وهو الصواب.

(٥) في تفسير الطبري ٢٠/ ٢٠٦، وأخرج قول ابن عباس ﷺ ٢٠/ ٤٠٢.

(٦) القراءات الشاذة ص١٣٢، والمحرر الوجيز ٤/ ٥٣١، والدر المصون ٩/ ٤٢٧، ووقع في القراءات الشاذة: جاء، بدل: جاؤوا.

(٧) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٢، وقراءة أبي صالح في المحتسب ٢/ ٢٣٧.

(٨) ١/ ٣٢٠ - ٣٢١.

﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْۚ﴾ أي: من النعيم في الجنة، كما يقال: لك إكرامٌ عندي؛ أي: يَنالك: مني ذلك. ﴿ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ الثَّناء في الدنيا والثوابُ في الآخرة.

قوله تعالى: ﴿لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾ أي: صَدَّقوا «لِيُكفِّرَ اللهُ عنهم» ﴿أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟﴾ أي: يُكرمهم ولا يُؤاخذهم بما عملوا قبلَ الإسلام ﴿وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم﴾ أي: يُثيبهم على الطاعات في الدنيا ﴿بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ وهي الجنة.

قوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ ﴿٣٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ﴾ حُذفت الياء من «كاف» لِسُكونها وسكون التنوين بعدها؛ وكان الأصل ألا تُحذف في الوقف لِزوال التنوين، إلا أنها حُذفت لِيُعْلَمَ أنها كذلك في الوصل. ومن العرب من يُثبتها في الوقف على الأصل فيقول: كافي[(١)].

وقراءة العامة: «عَبْدَهُ» بالتوحيد؛ يعني محمداً ﷺ يَكفيه اللهُ وعيدَ المشركين وكَيْدَهم. وقرأ حمزة والكسائي: «عِبَادَهُ»[(٢)] وهم الأنبياء، أو الأنبياء والمؤمنون بهم. واختار أبو عُبيد قراءة الجماعة لقوله عقيبه: ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ﴾[(٣)]. ويَحتمِلُ أن يكون العبدُ لفظ الجنس؛ كقوله عزَّ من قائل: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾ [العصر: ٢] وعلى هذا تكون القراءةُ الأولى راجعةً إلى الثانية.

والكفاية [من][(٤)] شر الأصنام، فإنهم كانوا يُخوِّفون المؤمنين بالأصنام، حتى قال إبراهيم عليه السلام. ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم

(١) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٢ .
(٢) السبعة ص٥٦٢ ، والتيسير ص١٨٨ .
(٣) تفسير الرازي ٢٦/ ٢٨١ .
(٤) ما بين حاصرتين زيادة ليست في النسخ.

﴿بِٱللَّهِ﴾ [الأنعام: ٨١]. وقال الجُرجاني: إنَّ الله كافٍ عبدَه المؤمن وعبدَه الكافر، هذا بالثواب وهذا بالعقاب.

قوله تعالى: ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ وذلك أنهم خوَّفوا النبيَّ ﷺ مَضرَّةَ الأوثان، فقالوا: أتسبُّ آلهتَنا؟ لئن لم تَكُفَّ عن ذِكْرها لَتَخْبِلَنَّكَ أو تُصيبنَّك بسوء[1].

وقال قتادة: مشى خالدُ بن الوليد إلى العُزَّى ليكسرَها بالفأس، فقال له سادِنها: أُحَذِّرُكَها يا خالد، فإن لها شدّةً لا يقوم لها شيء، فَعَمَدَ خالد إلى العُزَّى فهشم أنفها حتى كسرها بالفأس[2]. وتخويفُهم لخالد تخويفٌ للنبيِّ ﷺ؛ لأنه الذي وجَّه خالداً. ويدخل في الآية تخويفُهم النبيّ ﷺ بكَثْرة جَمْعهم وقُوَّتهم؛ كما قال: ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ﴾ [القمر: ٤٤].

﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ تقدَّم. ﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ﴾ أي: ممن عاداه أو عادى رُسُلَه.

قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٤١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم﴾ أي: ولئن سألتَهم يا محمد ﴿مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ بيّنَ أنهم مع عبادتهم الأوثان مُقِرُّون بأنَّ الخالقَ هو الله، وإذا

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٥٣٢ بنحوه.

(٢) أخرجه الطبري ٢٠/ ٢١٠.

كان الله هو الخالقَ فكيف يُخوِّفونَك بآلهتهم التي هي مخلوقةٌ لله تعالى، وأنت رسولُ اللهِ الذي خلقها وخلقَ السماواتِ والأرضَ؟!.

﴿قُلْ أَفَرَءَيْتُم﴾ أي: قل لهم يا محمد بعد اعترافهم بهذا: «أَفرأَيْتُمْ» ﴿إِنْ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ﴾ بشدة وبلاء ﴿هَلْ هُنَّ كَـٰشِفَـٰتُ ضُرِّهِۦٓ﴾ يعني هذه الأصنام ﴿أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ﴾ نعمة ورَخاء ﴿هَلْ هُنَّ مُمْسِكَـٰتُ رَحْمَتِهِۦ﴾ قال مقاتل: فسألهم النبيُّ ﷺ فسكتوا[١]. وقال غيره: قالوا: لا تَدْفَعُ شيئاً قدَّره الله، ولكنها تشفع، فنزلت: ﴿قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ﴾ وترك الجواب لدلالة الكلام عليه؛ يعني فسيقولون: لا، فـ «قُلْ» أنت: «حَسْبِيَ اللهُ» أي: عليه توكَّلتُ، أي: اعتمدتُ و﴿عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ يعتمد المعتمدون[٢]. وقد تقدّم الكلام في التوكل[٣].

وقرأ نافع وابن كثير والكوفيون ما عدا عاصماً: «كَاشفَاتُ ضُرِّه» بغير تنوين[٤]. وقرأ أبو عمرو وشيبة ـ وهي المعروفة من قراءة الحسن ـ وعاصم[٥]: «هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتٌ ضُرَّهُ»، «مُمْسِكَاتٌ رَحْمَتَهُ» بالتنوين على الأصل[٦]، وهو اختيار أبي عُبيد وأبي حاتم؛ لأنه اسم فاعل في معنى الاستقبال، وإذا كان كذلك كان التنوين أجودَ. قال الشاعر:

الضاربون عُمَيْراً عن بيوتهم ... بالليل يوم عُمَير ظالمٌ عادي[٧]

ولو كان ماضياً لم يَجُزْ فيه التنوين، وحذفُ التنوين على التخفيف[٨]، فإذا

(١) ذكره البغوي في تفسيره ٤/ ٨٠ .

(٢) الكلام السالف في تفسير الطبري ٢٠/ ٢١١-٢١٢ بنحوه.

(٣) ٥/ ٢٩١ و٣٨٥ .

(٤) السبعة ص٥٦٢ ، والتيسير ص١٩٠ ، وقراءة عاصم المشهورة عنه بغير تنوين، وقرأ بها ابن عامر أيضاً.

(٥) هذه رواية الكسائي عن أبي بكر عن عاصم، كما في السبعة ص٥٦٢ ، وهو غير المشهورة عنه.

(٦) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٣ .

(٧) قائله القطامي، وهو في ديوانه ص٨٨ ، وفي الحُلل للبطليوسي ص١١٩ .

(٨) في (ف) و(م): التحقيق، والمثبت موافق لإعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٣ ، والكلام منه.

حذفت التنوين لم يَبْقَ بين الاسمين حاجزٌ، فخفضت الثاني بالإضافة. وحذفُ التنوين كثيرٌ في كلام العرب موجودٌ حسن؛ قال الله تعالى: ﴿هَدْيًا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ﴾ [المائدة:٩٥] وقال: ﴿إِنَّا مُرْسِلُوا۟ ٱلنَّاقَةِ﴾ [القمر:٢٧] قال سيبويه: ومثل ذلك ﴿غَيْرَ مُحِلِّى ٱلصَّيْدِ﴾ [المائدة:١] وأنشد سيبويه[(١)]:

هل أَنْتَ باعِثُ دِينارٍ لحاجتِنا أو عَبْدَ رَبٍّ أَخا عَوْنِ بنِ مِخْراقِ[(٢)]

وقال النابغة:

احْكُمْ كَحُكْمِ فتاةِ الحَيِّ إذْ نَظَرَتْ إِلى حَمَام شِراعٍ وارِدِ الثَّمَدِ[(٣)]

معناه: واردٍ الثَّمَدَ، فحذف التنوين؛ مثل «كَاشِفَاتُ ضُرِّه»[(٤)].

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ﴾ أي: على مكانتي، أي: على جهتي التي تمكَّنتْ عندي[(٥)] ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾.

وقرأ أبو بكر: «مَكَانَاتِكُمْ» وقد مضى في «الأنعام»[(٦)]. ﴿مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ أي: يُهينه ويُذِلُّه، أي: في الدنيا، وذلك بالجوع والسيف. ﴿وَيَحِلُّ عَلَيْهِ﴾ أي: في الآخرة ﴿عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ تقدَّم الكلامُ في هذه الآيةِ مستوفىً في غير موضع[(٧)].

---

(١) في الكتاب ١/ ١٧١ .

(٢) قال البغدادي في الخزانة ٨/ ٢١٩ : والبيت من أبيات سيبويه الخمسين التي لم يعرف قائلها، وقال ابن خلف: وقيل: هو لجابر بن رألان السِّنْبسي، وسِنبس: أبو حي من طيئ، ونسبه غير خَدمة سيبويه إلى جرير، وإلى تأبط شرًّا، وإلى أنه مصنوع. ا.هـ .

(٣) ديوان النابغة ص٣٤ .

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٣-١٤ .

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٤ .

(٦) ٩/ ٣٥ ، وقراءة أبي بكر في السبعة ص٢٦٩ ، والتيسير ص١٠٧ .

(٧) ١١/ ٦٠ .

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾﴾

فيه أربع مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ أي: يَقْبِضها عند فَناء آجالها ﴿وَٱلَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا﴾ اختلف فيه. فقيل: يَقْبِضها عن التصرف مع بقاء أرواحها في أجسادها. ﴿فَيُمْسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ وهي النائمة، فيطلقها بالتصرف إلى أجل موتها؛ قاله ابن عيسى[١]. وقال الفراء[٢]: المعنى: ويَقْبِض التي لم تَمُتْ في منامها عند انقضاء أَجَلها. قال: وقد يكون تَوَفِّيها نَوْمَها؛ فيكون التقدير على هذا: والتي لم تمتْ وفاتُها نومُها.

وقال ابن عباس وغيره من المفسرين: إن أرواحَ الأحياء والأموات تلتقي في المنام فتتعارف ما شاء الله منها، فإذا أراد جميعُها الرُّجوعَ إلى الأجساد أَمْسك الله أرواحَ الأموات عنده، وأرسل أرواحَ الأحياء إلى أجسادها.

وقال سعيد بن جُبير: إن الله يقبض أرواحَ الأموات إذا ماتوا وأرواحَ الأحياء إذا ناموا، فتتعارف ما شاء الله أن تتعارف ﴿فَيُمْسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ فيُعيدها[٣].

قال علي ﷺ: فما رأته نَفْسُ النائم وهي في السماء قبل إرسالها إلى جسدها فهي الرؤيا الصادقة، وما رأته بعد إرسالها وقبل استقرارها في جسدها تلقيها الشياطين، وتُخيِّل إليها الأباطيل فهي الرؤيا الكاذبة[٤]. وقال ابن زيد: النوم وفاةٌ والموتُ

(١) النكت والعيون ٥/ ١٢٨ .

(٢) في معاني القرآن ٢/ ٤٢٠ .

(٣) في (م): أي: يعيدها.

(٤) النكت والعيون ٥/ ١٢٨ - ١٢٩ ، وقول سعيد بن جبير أخرجه الطبري ٢٠/ ٢١٥ .

وفاة[١]. وعن النبي ﷺ قال: «كما تنامون فكذلك تموتون، وكما توقظون فكذلك تُبعثون»[٢]. وقال عمر: النوم أخو الموت. ورُوي مرفوعاً من حديث جابر بن عبد الله قيل: يا رسولَ الله، أينام أهلُ الجنة؟ قال: «لا، النومُ أخو الموت، والجنةُ لا موتَ فيها» خرجه الدارقطني[٣]. وقال ابن عباس: في ابن آدم نفسٌ وروح بينهما مثلُ شعاع الشمس، فالنفسُ التي بها العقل والتمييز، والروحُ التي بها النَّفَسُ والتحريك، فإذا نام العبدُ قبضَ اللهُ نَفْسَه ولم يقبضْ رُوحَه[٤]. وهذا قولُ ابن الأنباري والزجاج[٥].

قال القشيري أبو نصر: وفي هذا بُعْدٌ، إذ المفهوم من الآية أنّ النَّفْسَ المقبوضة في الحالين شيء واحد؛ ولهذا قال: ﴿فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ فإذاً يَقبِضُ اللهُ الروحَ في حالين، في حالة النوم وحالة الموت، فما قبضَه في حال النوم فمعناه أنه يَغْمُرُه بما يَحْبِسُه عن التصرف، فكأنه شيء مقبوض، وما قبضَه في حال الموت فهو يُمسكه ولا يُرسله إلى يوم القيامة.

وقوله: ﴿وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ أي: يُزيل الحابسَ عنه فيعود كما كان. فَتَوفِّي الأنفس في حال النوم بإزالة الحِسّ وخَلْق الغَفْلة والآفة في مَحَلّ الإدراك. وتوفِّيها في حالة الموت بخلق الموت وإزالةِ الحِسّ بالكُلِّية.

﴿فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ﴾ بألا يَخلُقَ فيها الإدراكَ، كيف وقد خلقَ فيها الموت؟ ﴿وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ بأنْ يُعيدَ إليها الإحساسَ.

الثانية: وقد اختلف الناسُ من هذه الآية في النفس والروح؛ هل هما شيءٌ واحد أو شيئان على ما ذكرنا. والأظهر أنهما شيءٌ واحد، وهو الذي تدلُّ عليه

(١) أخرجه الطبري ٢٠/ ٢١٦.

(٢) لم نقف عليه.

(٣) لم نقف عليه عند الدارقطني، وسلف ٥/ ١٥٣.

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٥٣٤ بنحوه.

(٥) في معاني القرآن ٤/ ٣٥٦.

الآثار الصحاح على ما نذكره في هذا الباب، من ذلك حديث أُمِّ سلمة قالت: دخل رسولُ الله ﷺ على أبي سلمة وقد شقَّ بصرُه فأغمضه، ثم قال: «إنَّ الرُّوحَ إذا قُبِض تَبِعه البصرُ» وحديث أبي هريرة قال: قال رسولُ الله ﷺ: «ألم تروا الإنسانَ إذا مات شَخَصَ بَصرُه» قال: «فذلك حين يَتْبع بَصَرُه نَفْسَه» خرجهما مسلم[(١)].

وعنه عن النبي ﷺ قال: «تحضرُ الملائكةُ فإذا كان الرجلُ صالحاً قالوا: اخرجي أيتها النَّفْسُ الطَّيِّبة كانت في الجسدِ الطَّيِّب، اخرجي حميدةً، وأبشري برَوْح ورَيْحان وربٍّ راضٍ غيرِ غَضْبان، فلا يزالُ يقال لها ذلك حتى تخرجَ، ثم يُعرج بها إلى السماء» وذكر الحديث، وإسناده صحيح، خرجه ابن ماجه[(٢)]؛ وقد ذكرناه في «التذكرة»[(٣)].

وفي «صحيح مسلم» عن أبي هريرة قال: «إذا خَرَجَتْ روحُ المؤمن تلقَّاها مَلَكان يَصْعَدان بها». وذكر الحديث[(٤)].

وقال بلال في حديث الوادي: أخذ بنَفْسي يا رسول الله الذي أَخَذَ بنفسك[(٥)]. وقال رسولُ الله ﷺ مقابلاً له في حديث زيد بن أسلم في حديث الوادي: «يا أيها الناس، إن الله قبضَ أرواحَنا، ولو شاء ردَّها إلينا في حينٍ غيرِ هذا»[(٦)].

الثالثة: والصحيح فيه أنه جسمٌ لطيفٌ مُشابِكٌ للأجسام المحسوسة، يُجذَب ويُخْرج وفي أكفانه يُلَف ويُدرَج، وبه إلى السماء يُعرَج، لا يموت ولا يفنى، وهو مما له أوّل وليس له آخر، وهو بعينين ويدين، وأنه ذو ريح طيبة وخبيثة؛ كما في حديث

---

(١) برقم (٩٢٠) و(٩٢١)، والحديث الأول أخرجه أحمد (٢٦٥٤٣).

(٢) الحديث (٤٢٦٢)، وهو في مسند أحمد (٨٧٦٩).

(٣) ص٥٠.

(٤) صحيح مسلم (٢٨٧٢).

(٥) أخرجه مسلم (٦٨٠) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٦) أخرجه مالك ١/ ١٤ بهذا اللفظ، وأخرجه بنحوه أحمد (٢٢٦١١)، والبخاري (٥٩٥) من حديث أبي قتادة ﷺ.

أبي هريرة. وهذه صفةُ الأجسام لا صفة الأعراض؛ وقد ذكرنا الأخبارَ بهذا كلّه في كتاب «التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة»(١). وقال تعالى: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ﴾ [الواقعة: ٨٣] يعني النَّفْس إلى خروجها من الجسد؛ وهذه صفةُ الجسم. والله أعلم.

الرابعة: خرج البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة أن رسولَ الله ﷺ قال: «إذا أوى أحدُكم إلى فِراشه فَلْيأخُذْ داخِلةَ إزاره فلينفُضْ بها فِراشَه وَلْيُسَمِّ اللهَ، فإنه لا يعلم ما خَلَفَهُ بعده(٢) على فراشه، فإذا أرادَ أن يضطجعَ فَلْيضطجِعْ على شِقِّه الأيمن، وليقل: سبحانك ربي، بك(٣) وضعتُ جنبي وبك أرفعه، إن أمسكتَ نَفْسي فاغفِرْ لها». وقال البخاري وابن ماجه والترمذي: «فارحمها» بدل«فاغفر لها»، «وإنْ أَرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين» زاد الترمذي «وإذا استيقظ فليقل: الحمد لله الذي عافاني في جسدي وردَّ عليَّ روحي، وأَذِنَ لي بذِكْره»(٤).

وخرج البخاري عن حُذَيْفة قال: كان رسولُ الله ﷺ إذا أخذ مَضْجعه من الليل وضعَ يدَه تحت خدِّه؛ ثم يقول: «اللهم باسمك أموتُ وأحيا» وإذا استيقظ قال «الحمدُ لله الذي أحيانا بعدما أماتَنا وإليه النُّشور»(٥).

قوله تعالى: ﴿فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ﴾ هذه قراءة العامة على أنه مسمَّى الفاعل «الموْتَ» نصباً؛ أي: قضى الله عليها، وهو اختيار أبي حاتم وأبي عُبيد؛ لقوله في أول الآية: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ﴾ فهو يقضي عليها.

---

(١) ص٥٧ وما بعدها.

(٢) في النسخ: بعد، والمثبت من صحيح مسلم.

(٣) قوله: بك، ليس في (د) و(ز) و(م)، وفي (ف): لك وأثبتناه من المصادر.

(٤) صحيح البخاري (٦٣٢٠)، وصحيح مسلم(٢٧١٤)، وسنن ابن ماجه (٣٨٧٤) وسنن الترمذي (٣٤٠١). وهو في مسند أحمد (٧٨١١)، وقوله: بداخلة إزاره: أي: بالطرف الذي يلي الجسد. قاله السندي في حاشية مسند أحمد.

(٥) صحيح البخاري (٦٣١٤)، وهو في مسند أحمد (٢٣٢٨٦).

وقرأ الأعمش ويحيى بن وثَّاب وحمزة والكسائي: «قُضِيَ عليها الموتُ» على ما لم يُسَمَّ فاعله[١]. النحاس[٢]: والمعنى واحدٌ غير أن القراءةَ الأُولى أبينُ وأشبهُ بنسق الكلام؛ لأنهم قد أجمعوا على «وَيُرْسِلُ» ولم يقرؤوا: «ويُرسَل».

وفي الآية تنبيهٌ على عظيم قُدرته وانفراده بالألوهية، وأنه يفعل ما يشاء، ويُحيِي ويُميت، لا يقدر على ذلك سواه.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ﴾ يعني في قبض الله نَفْسَ الميت والنائم، وإرساله نَفْسَ النائم وحَبْسه نَفْسَ الميت ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

وقال الأصمعي: سمعتُ معتمراً يقول: روحُ الإنسان مثلُ كُبَّة الغَزْل، فترسل الروح، فتمضي ثم تمضي، ثم تُطوى فتجيء فتدخل، فمعنى الآية أنه يُرسَل من الروح شيء في حال النوم ومعظمُها في البدن متصلٌ بما يخرج منها اتصالاً خفيّاً، فإذا استيقظ المرءُ جذب معظمَ روحه ما انبسط منها فعاد. وقيل غير هذا؛ وفي التنزيل: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ [الإسراء:٨٥] أي: لا يعلم حقيقته إلا الله. وقد تقدّم في «سبحان».

قوله تعالى: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا لَّهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾ وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ﴾ أي: بل اتَّخذوا، يعني: الأصنام، وفي الكلام ما يتضمَّن لم؛ أي: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ لم يتفكَّروا، ولكنهم اتَّخذوا آلهتهم شُفعاء.

---

(١) قراءة حمزة والكسائي في السبعة ص٥٦٢، والتيسير ص١٩٠.

(٢) في إعراب القرآن ٤/ ١٤، وما قبله منه.

﴿قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا﴾ أي: قُلْ لهم يا محمد: أَتتخذونهم شُفعاءَ وإن كانوا لا يَملِكون شيئاً من الشفاعة ﴿وَلَا يَعْقِلُونَ﴾ لأنها جمادات[١]. وهذا استفهامُ إنكار.

﴿قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا﴾ نصٌّ في أن الشفاعةَ لله وحدَه كما قال: ﴿مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٤] فلا شافعَ إلا من شفاعته ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨].

«جَميعاً» نصب على الحال. فإن قيل: «جَميعاً» إنما يكون للاثنين فصاعداً والشفاعة واحدة. فالجواب أن الشفاعة مصدر والمصدر يؤدَّى عن الاثنين والجميع[٢] ﴿لَّهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ﴾ نصب على المصدر عند الخليل وسيبويه، وعلى الحال عند يونس. ﴿اشْمَأَزَّتْ﴾ قال المبرد: انقبضت[٣]. وهو قول ابن عباس ومجاهد[٤]. وقال قتادة: نفرتْ واستكبرتْ وكَفرتْ وتعصَّتْ[٥]. وقال المُؤَرِّج: أنكرت. وأصلُ الاشمئزاز النُّفور والازورار. قال عمرو بن كُلْثوم:

إذا عَضَّ الثِّقافُ بِها اشْمَأَزَّتْ وَوَلَّتْهُمْ عَشَوْزَنَةً زَبُونا[٦]

وقال أبو زيد: اشمأَزَّ الرجلُ: ذُعِرَ من الفَزَع، وهو المذعور[٧]. وكان المشركون إذا قيل لهم: لا إله إلا الله نفروا وكفروا[٨]، ﴿وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ﴾ يعني

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ٨١ بنحوه.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٤ .

(٣) المصدر السابق.

(٤) ذكره البغوي في تفسيره ٤/ ٨ .

(٥) أخرجه الطبري ٢٠/ ٢١٦ بنحوه.

(٦) معلقة عمرو بن كلثوم (بشرح ابن كيسان) ص٨٥ . قال الشارح: الثِّقاف: الخشبة التي تُقوَّم بها الرماح، والعَشَوْزنة: الناقة السيئة الخلق التي تزبن من يحتلبها، أي: تدفعه بيدها ورجلها.

(٧) الصحاح (شمز).

(٨) تهذيب اللغة ١١/ ٣٠٦ .

الأوثان حين ألقى الشيطان في أُمنية النبي ﷺ عند قراءته سورة «والنجم»: تلك الغَرانيقُ العُلَى وإن شفاعتَهم تُرْتَجَى. قاله جماعةُ المفسرين[١]. ﴿إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ أي: يظهر في وجوههم البِشر والسُّرور.

قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِى مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ نصب لأنه نداء مضاف، وكذا ﴿عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ﴾ ولا يجوز عند سيبويه أن يكون نعتاً[٢].

﴿أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِى مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ وفي «صحيح» مسلم: عن أبي سلمة بن عبد الرحمن بن عوف قال: سألت عائشةَ رضي الله عنها: بأي شيء كان النبيُّ ﷺ يستفتح صلاتَه إذا قام من الليل؟ قالت: كان إذا قام من الليل افتتح صلاتَه: «اللهم ربَّ جبريلَ وميكائيلَ وإسرافيلَ ﴿فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِى مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ اهدني لما اختُلف فيه من الحقّ بإذنك، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم»[٣].

ولمَّا بلغ الربيع بن خُثيم[٤] قَتْلَ الحسين بن علي ﷺ قرأ: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٥٣٤ ، وتفسير البغوي ٤/ ٨١ بنحوه، وقصة الغرانيق باطلة موضوعة، وسلفت ١٤/ ٤٢٧ ، ينظر الكلام عليها ثمة.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٥ .

(٣) صحيح مسلم (٧٧٠)، وأخرجه أحمد (٢٥٢٢٥).

(٤) في (د) و(ظ) و(ف) و(م): خيثم، والمثبت من (ز) وكتب الرجال.

ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾[١].

وقال سعيد بن جُبير: إني لأعرفُ آيةً ما قرأها أحدٌ قطُّ فسألَ اللهَ شيئاً إلاَّ أعطاه إيَّاه؛ قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾[٢].

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ أي: كذَّبوا وأَشركوا ﴿مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْاْ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ﴾ أي: من سوء عذاب ذلك اليوم. وقد مضى هذا في سورة «آل عمران» و«الرعد»[٣].

﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُواْ يَحْتَسِبُونَ﴾ من أجلِّ ما رُوي فيه ما رواه منصور عن مجاهد قال: عَمِلوا أعمالاً توهَّموا أنها حسناتٌ فإذا هي سيئات. وقاله السدي. وقيل: عملوا أعمالاً توهَّموا أنهم يتوبون منها قبلَ الموت، فأدركهم الموتُ قبل أن يتوبوا، وقد كانوا ظنُّوا أنهم ينجون بالتوبة. ويجوز أن يكونوا توهَّموا أنه يُغفر لهم من غير توبة فـ ﴿بَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُواْ يَحْتَسِبُونَ﴾ من دخول النار[٤].

وقال سفيان الثوري في هذه الآية: ويلٌ لأهل الرِّياء، ويلٌ لأهل الرِّياء، هذه آيتُهم وقصَّتُهم. وقال عكرمة بن عمار[٥]: جَزِعَ محمدُ بن المنكدر عند موته جزعاً شديداً، فقيل له: ما هذا الجزع؟ قال: أخاف آيةً من كتاب الله ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية ٢/ ١١١.

(٢) النكت والعيون ٥/ ١٣٠.

(٣) ٥/ ١٩٨ وما بعدها و١٢/ ٥٣.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٥ دون قوله: وقاله السدي، وذكره عن السدي البغوي في تفسيره ٤/ ٨٢.

(٥) أبو عمار العجلي، البصري، الحافظ، من حملة الحجة وأوعية الصدق، مات سنة (١٥٩هـ). السير ٧/ ١٣٤. وقوله هذا في المحرر الوجيز ٤/ ٥٣٥، وقول سفيان الذي قبله فيه وفي الكشاف ٣/ ٤٠١.

لَمۡ يَكُونُواْ يَحۡتَسِبُونَ﴾ فأنا أخشى أن يَبدوَ لي ما لم أكن أحتسب.

﴿وَبَدَا لَهُمۡ﴾ أي: ظهر لهم ﴿سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ﴾ أي: عقابُ ما كسبوا من الكُفر والمعاصي. ﴿وَحَاقَ بِهِم﴾ أي: أحاط بهم ونزل ﴿مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ضُرّٞ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلۡنَٰهُ نِعۡمَةٗ مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمِۭۚ بَلۡ هِيَ فِتۡنَةٞ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٤٩﴾ قَدۡ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴿٥٠﴾ فَأَصَابَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْۚ وَٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡ هَٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ وَمَا هُم بِمُعۡجِزِينَ ﴿٥١﴾ أَوَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿٥٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ضُرّٞ دَعَانَا﴾ قيل: إنها نزلت في أبي[(١)] حُذَيفة بن المغيرة.

﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلۡنَٰهُ نِعۡمَةٗ مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمِۭۚ﴾ قال قتادة: «على عِلْم»[(٢)] عندي بوجوه المكاسب، وعنه أيضاً «على عِلْم» على خير عندي. وقيل: «على عِلْم» أي: على علم من الله بفضلي. وقال الحسن: «على عِلْم» أي: بعلم علَّمني اللهُ إيَّاه[(٣)]. وقيل: المعنى أنه قال: قد علمتُ أني إذا أُوتيت هذا في الدنيا أن لي عند الله منزلةً؛ فقال الله: ﴿بَلۡ هِيَ فِتۡنَةٞ﴾ أي: بل النِّعم التي أُوتيتَها فتنةٌ تُختبر بها[(٤)].

قال الفراء[(٥)]: أنَّثَ «هي» لِتأنيث الفتنة، ولو كان: بل هو فتنة لجاز. النحاس: التقدير: بل أُعطِيتَهُ فتنةً.

---

(١) لفظة: أبي، ليست في (م). والكلام من النكت والعيون ٥/ ١٣٠ .

(٢) قوله قال: قتادة: «على علم» من (م).

(٣) الأقوال السالفة في المحرر الوجيز ٤/ ٥٣٦ ، والنكت والعيون ٥/ ١٣٠ .

(٤) معاني القرآن للنحاس٦/ ١٨٢ - ١٨٣ .

(٥) في معاني القرآن ٢/ ٤٢٠ ، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٤/ ١٥ .

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: لا يعلمون أن إعطاءهم المالَ اختبار.

قوله تعالى: ﴿قَدْ قَالَهَا﴾ أنَّثَ على تأنيث الكلمة[1] ﴿الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ يعني الكفار قبلَهم، كقارون وغيره حيث قال: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِيٓ﴾ [القصص: ٧٨]. ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ «ما» للجحد، أي: لم تُغن عنهم أموالُهم ولا أولادُهم من عذاب الله شيئاً[2]. وقيل: أي: فما الذي أغنى أموالهم؟ ف«ما» استفهام.

﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾ أي: جزاء سيئات أعمالهم. وقد يُسمَّى جزاء السيئة سيئةً. ﴿وَالَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أي: أشركوا ﴿مِنْ هَٰؤُلَاءِ﴾ الأمة ﴿سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾ أي: بالجوع والسيف. ﴿وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ﴾ أي: فائتين الله ولا سابقيه. وقد تقدّم[3].

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ خصَّ المؤمن بالذِّكر؛ لأنه هو الذي يتدبَّر الآياتِ وينتفع بها. ويعلم أن سَعةَ الرِّزق قد يكون مكراً واستدراجاً، وتقتيره رِفعةً وإعظاماً.

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ بَلَىٰ قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٥٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ﴾ وإنْ

(١) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٥.

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٨٢ بنحوه.

(٣) ٩/ ٣٥ و١١/ ٨.

شئتَ حذفتَ الياء؛ لأن النداء موضع حذف. النحاس[١]: ومن أجلّ ما رُوي فيه ما رواه محمد بن إسحاق عن نافع عن ابن عمر عن عمر قال: لما اجتمعنا على الهجرة، اتَّعَدْتُ أنا وهشام بن العاصي بن وائل السَّهْمي وعَيَّاش بن أبي ربيعة بن عُتْبة[٢]، فقلنا: الموعد أَضاةَ[٣] بني غفار، وقلنا: من تأخَّر منا فقد حُبِس فَلْيمضِ صاحبُه، فأصبحتُ أنا وعيَّاش بن عُتبة، وحُبس عنا هشام، وإذا به قد فُتن فافتتن، فكنا نقول بالمدينة: هؤلاء قد عَرَفوا الله عز وجل وآمنوا برسوله ﷺ، ثم افتتنوا لبلاءٍ لحقهم لا نرى لهم توبة، وكانوا هم أيضاً يقولون هذا في أنفسهم، فأنزل الله عزّ وجلّ في كتابه: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾.

قال عمر: فكتبتها بيدي ثم بعثتُها إلى هشام. قال هشام: فلما قدمَتْ عليَّ خرجت بها إلى ذي طُوًى، فقلت: اللهم فَهِّمْنيها، فَعَرَفْتُ أنها نزلت فينا، فرجَعْتُ فجلست على بعيري، فلحقتُ برسول الله ﷺ[٤].

وعن سعيد بن جُبير عن ابن عباس قال: كان قومٌ من المشركين قَتلوا فأكثروا، وزنوا فأكثروا، فقالوا للنبيِّ ﷺ، أو بعثوا إليه: إنَّ ما تدعو إليه لحسن، لو تُخبرنا[٥] أن لنا توبةً؟ فأنزل الله عز وجل هذه الآية: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾[٦]

---

(١) إعراب القرآن ٤/ ١٦ ، وما قبله منه.

(٢) كذا في النسخ: عيَّاش بن أبي ربيعة بن عتبة، وفي إعراب القرآن للنحاس: عيَّاش بن عتبة، والذي في المصادر: عياش بن أبي ربيعة بن المغيرة بن عبد الله القرشي المخزومي. الإصابة ٧/ ١٨٤ ، والقصة فيها في ترجمة هشام بن العاص ١٠/ ٢٤٦ وصحَّح الحافظ ابن حجر إسنادها.

(٣) الأضاة: الغدير. اللسان (أضي).

(٤) السيرة النبوية ١/ ٤٧٥ - ٤٧٦ ، ومن طريق ابن إسحاق أخرجه الواحدي في أسباب النزول ص٣٩٠-٣٩١ .

(٥) في (د) و(ز) و(م): أو تخبرنا، والمثبت من (ظ)، وهو الموافق للمصادر.

(٦) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٦ .

ذكره البخاري بمعناه[١]. وقد مضى في آخر «الفرقان»[٢].

وعن ابن عباس أيضاً نزلت في أهل مكة قالوا: يزعم محمدٌ أن مَن عَبَدَ الأوثانَ وقتلَ النَّفس التي حرَّم الله لم يُغفر له، وكيف نُهاجر ونُسْلم وقد عَبَدنا مع الله إلهاً آخرَ، وقتلنا النَّفْس التي حرَّم الله؟! فأنزل الله هذه الآية[٣].

وقيل: إنها نزلتْ في قوم من المسلمين أسرفوا على أنفسهم في العبادة، وخافوا ألّا يتقبلَ منهم لذنوب سبقتْ لهم في الجاهلية.

وقال ابن عباس أيضاً وعطاء: نزلت في وحشيّ قاتل حمزةَ؛ لأنه ظنَّ أن الله لا يقبل إسلامَه. وروى ابن جُريج عن عطاء عن ابن عباس قال: أتَى وَحْشيٌّ إلى النبيّ ﷺ؛ فقال: يا محمد، أتيتُك مُستجيراً فأجِرْني حتى أسمعَ كلامَ الله. فقال رسولُ الله ﷺ: «قد كنتُ أُحِبُّ أن أراك على غير جوار، فأما إذ أتيتني مُستجيراً فأنت في جواري حتى تسمعَ كلامَ الله» قال: فإني أشركتُ بالله وقتلتُ النفس التي حرم الله وزنيتُ، هل يقبلُ الله مني توبة؟ فصمتَ رسول الله ﷺ حتى نزلت: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾ [الفرقان: ٦٨] إلى آخر الآية، فتلاها عليه؛ فقال: أرى شرطاً فلعلي لا أعمل صالحاً، أنا في جوارك حتى أسمعَ كلام الله. فنزلت: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨] فدعا به فتلاها عليه؛ قال: فلعلي ممن لا يشاء، أنا في جوارك حتى أسمع كلامَ الله. فنزلت: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾ فقال: نعم، الآن لا أرى شرطاً. فأسلم[٤].

---

(١) الحديث (٤٨١٠)، والسائل هو وحشي بن حرب قاتل حمزة رضي الله عنهما فيما ذكره الحافظ ابن حجر في الفتح ٨/ ٥٥٠.

(٢) ١٥/ ٤٧٩.

(٣) أخرجه الطبري ٢٠/ ٢٢٤، وذكره الواحدي في أسباب النزول ص٣٨٩.

(٤) أخرجه البيهقي في الشعب (٧١٤٠)، والواحدي في أسباب النزول ص٣٤٩ - ٣٥٠.

وروى حماد بن سلمة عن ثابت عن شَهْر بن حَوْشَب عن أسماء أنها سمعت النبيَّ ﷺ يقرأ: «قُلْ يا عبادِيَ الذين أَسْرَفُوا على أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحمةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جمِيعاً ولا يُبالي، إنَّه هو الغَفُورُ الرحيمُ»[١]. وفي مصحف ابن مسعود: «إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جميعاً لِمَنْ يشاءُ»[٢].

قال أبو جعفر النحاس[٣]: وهاتان القراءتان على التفسير، أي: يغفر الله لمن يشاء. وقد عرَّف الله عز وجل من شاء أن يغفر له، وهو التائب أو من عمل صغيرةً ولم تكن له كبيرة، ودلّ على أنه يريد التائب ما بعده «وَأَنِيبُوا إِلى رَبِّكُمْ» فالتائب مغفور له ذنوبُه جميعاً، يدل على ذلك ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ﴾ [طه: ٨٢] فهذا لا إشكالَ فيه.

وقال عليّ بن أبي طالب: ما في القرآن آيةٌ أوسعَ من هذه الآية ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾[٤] وقد مضى هذا في «سبحان»[٥].

وقال عبد الله بن عمر: وهذه أرجى آية في القرآن، فردَّ عليهم ابن عباس وقال: أرجى آية في القرآن قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾[٦] وقد مضى في «الرعد» [الآية: ٦].

وقُرئ: «لا تَقْنِطُوا» بكسر النون وفتحها[٧]. وقد مضى في «الحجر» بيانه[٨].

قوله تعالى: ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ أي: ارجعوا إليه بالطاعة. لمَّا بيَّن أن من تاب

---

(١) أخرجه الدوري في قراءات النبي ﷺ (٦٠)، والترمذي (٣٢٣٧) وقال: هذا حديث حسن غريب، لا نعرفه إلا من حديث ثابت عن شهر بن حوشب. وأسماء: هي بنت يزيد أم سلمة الأنصارية رضي الله عنها.

(٢) ذكره ابن خالويه في القراءات الشاذة ص١٣٢ .

(٣) في إعراب القرآن ٤/ ١٦ .

(٤) النكت والعيون ٥/ ١٣١ .

(٥) ١٠/ ٣٢٢ - ٣٢٣ .

(٦) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٦ .

(٧) قرأ بكسر النون أبو عمرو والكسائي، والباقون بفتحها. السبعة ص٣٦٧ ، والتيسير ص١٣٦ .

(٨) ١٢/ ٢٢٣ - ٢٢٤ .

من الشِّرك يغفر له أمر بالتوبة والرجوع إليه، والإنابةُ الرجوع إلى الله بالإخلاص. ﴿وَأَسْلِمُوا لَهُ﴾ أي: اخضعوا له وأطيعوا ﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ﴾ في الدنيا ﴿ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ أي: لا تُمنعون من عذابه. ورُوي من حديث جابر أن رسولَ الله ﷺ قال: «مِن السعادة أن يُطيل اللهُ عُمُرَ المرء في طاعة الله[١] ويرزقه الإنابةَ، وإنَّ من الشَّقاوة أن يعملَ المرءُ ويُعجب بعمله»[٢].

قوله تعالى: ﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ «أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ» هو القرآن، وكلُّه حسنٌ، والمعنى ما قال الحسن: التزموا طاعتَه، واجتنبوا معصيتَه. وقال السدّي: الأحسنُ ما أمر الله به في كتابه[٣].

وقال ابن زيد: يعني المُحكمات، وكِلُوا عِلْمَ المُتشابه إلى عالمه. وقيل: أنزل الله كُتباً: التوراة والإنجيل والزبور، ثم أنزل القرآن، وأمر باتّباعه، فهو الأحسن، وهو المُعجِز. وقيل: هذا أحسنُ، لأنه ناسخٌ قاض على جميع الكتب، وجميع الكتب منسوخة. وقيل: يعني العفو؛ لأن الله تعالى خيَّر نبيَّه عليه الصلاة والسلام بين العفو والقِصاص. وقيل: ما علَّم الله النبيَّ عليه الصلاة والسلام وليس بقرآن فهو حسن، وما أوحى إليه من القرآن فهو الأحسن. وقيل: أحسن ما أنزل إليكم من أخبار الأمم الماضية.

قوله تعالى: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَى﴾ «أَنْ» في موضع نصب، أي: كراهةَ «أَنْ تقولَ» وعند الكوفيين: لئلا تقول[٤]، وعند البصريين حَذَرَ «أَنْ تقولَ». وقيل: أي:

---

(١) في (م): الطاعة.

(٢) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (١٠٥٨٩)، وفي إسناده كثير بن زيد الأسلمي. ضعَّفه أكثرهم. كما في الميزان ٣/ ٤٠٤ .

(٣) تفسير البغوي ٤/ ٨٥ .

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٧ .

من قبل «أَنْ تقولَ نَفْسٌ» لأنه قال قبل هذا: ﴿مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ﴾[١].

الزمخشري[٢]: فإنْ قلتَ: لم نُكِّرتْ؟ قلت: لأن المُرادَ بها بعضُ الأنفس، وهي نفسُ الكافر. ويجوز أن يُريد نفساً متميزة من الأنفس، إمّا بلجاج في الكفر شديد، أو بعقاب عظيم. ويجوز أن يُراد التكثير كما قال الأعشى:

وربَّ بَقيعٍ لو هَتَفْتُ بِجَوِّهِ أتاني كَرِيمٌ يَنْفُضُ الرأسَ مُغْضَبا[٣]

وهو يريد أفواجاً من الكرام ينصرونه، لا كريماً واحداً، ونظيره: رُبَّ بلدٍ قطعتُ، وربَّ بطلٍ قارعتُ، ولا يقصد إلا التكثير[٤].

«يا حَسْرَتا» والأصل «يا حَسْرَتي» فأُبدل من الياء ألف؛ لأنها أخفُّ وأمكن في الاستغاثة بمد الصوت[٥]، وربما ألحقوا بها الهاء؛ أنشد الفراء:

يا مَرْحَباهِ بحمار ناجِيَهْ إذا أَتى قَرَّبْتُه لِلسَّانِيَهْ[٦]

وربما ألحقوا بها الياء بعد الألف؛ لتدلَّ على الإضافة. وكذلك قرأها أبو جعفر: «يا حَسْرتايَ»[٧]. والحَسْرة الندامة.

﴿عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ قال الحسن: في طاعة الله[٨]. وقال الضحاك: أي: في ذكر الله عزّ وجلّ. قال: يعني القرآن والعمل به[٩]. وقال أبو عُبيدة: «في جَنْب

---

(١) زاد المسير ٧/ ١٩٢ بنحوه.

(٢) الكشاف ٣/ ٤٠٤ .

(٣) ديوان الأعشى ص١٦٥ .

(٤) الكشاف ٣/ ٤٠٤ .

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٧ بنحوه.

(٦) معاني القرآن للفراء ٢/ ٤٢٢ ، وفيه: ناهيه، بدل ناجيه. والرجز في الخزانة ٢/ ٣٨٧ . وفيها: السانية: الدلو العظيمة وأداتها.

(٧) النشر ٢/ ٣٦٢ .

(٨) ذكره البغوي في تفسيره ٤/ ٨٥ .

(٩) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٧ .

الله» أي: في ثواب الله[1]. وقال الفراء: الجَنْب القُرب والجوار؛ يقال: فلان يعيشُ في جَنْبِ فلان، أي: في جِواره؛ ومنه ﴿وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ﴾ [النساء:٣٦] أي: على ما فرَّطْتُ في طلب جِواره وقُربه، وهو الجنة[2]. وقال الزجاج[3]: أي: على ما فرَّطتُ في الطريق الذي هو طريق الله الذي دعاني إليه.

والعرب تُسمِّي السببَ والطريق إلى الشيء جَنْباً؛ تقول: تجرعتُ في جَنْبك غصصاً؛ أي: لأجلك وسببك ولأجل مَرْضاتك. وقيل: «في جَنْبِ اللهِ» أي: في الجانب الذي يؤدِّي إلى رضا الله عزّ وجلّ وثوابه، والعرب تُسمِّي الجانبَ جَنْباً[4]، قال الشاعر:

قُسِمَ مَجْهُوداً لِذاكَ القَلْبُ　　　النَّاسُ جَنْبٌ والأميرُ جَنْبُ[5]

يعني: الناس من جانب والأمير من جانب. وقال ابن عرفةَ: أي: تركتُ من أمر الله؛ يقال: ما فعلت ذلك في جَنْب حاجتي؛ قال كُثَيِّر:

ألا تَتَّقِينَ اللهَ في جَنْبِ عاشِقٍ　　　لهُ كَبِدٌ حرَّى عليكِ تَقَطَّعُ[6]

وكذا قال مجاهد؛ أي: ضيعت من أمر الله[7]. ويُروى عن النبي ﷺ أنه قال: «ما جلسَ رجلٌ مَجْلِساً، ولا مَشَى ممشى، ولا اضطجع مُضطجعاً لم يذكُرِ اللهَ عزَّ وجلَّ فيه إلا كان عليه تِرَةً يومَ القيامة» أي: حسرةً؛ خرجه أبو داود بمعناه[8]. وقال إبراهيم التيمي: من الحَسَرات يومَ القيامة أن يرى الرجلُ مالَه الذي آتاه اللهُ في الدنيا يومَ

---

(١) في مجاز القرآن، ٢/ ١٩٠ لأبي عبيدة: «في جنب الله» وفي ذات الله واحد.

(٢) ذكره عن الفراء ابن الجوزي في زاد المسير ٧/ ١٩٢ .

(٣) في معاني القرآن ٤/ ٣٥٩ .

(٤) تفسير البغوي ٤/ ٨٥ .

(٥) لم نقف على قائل هذا الرجز، وأورد البيت الثاني الأخفش في معاني القرآن ١/ ٤٤٦ .

(٦) ديوان كُثَيِّر ص١٧٧ ، وفيه: حبّ، بدل: جنب، وتصدّع، بدل: تقطّع.

(٧) المحرر الوجيز ٤/ ٥٣٨ بنحوه.

(٨) سنن أبي داود (٤٨٥٦) من حديث أبي هريرة ﷺ، وأخرجه أحمد (٩٥٨٣) بنحوه، واللفظ الذي أورده المصنف في إعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٧ .

القيامة في ميزان غيره قد وَرِثه وعَمِلَ فيه بالحق، كان له أجرُه وعلى الآخر وِزْرُه، ومن الحَسَرات أن يرى الرجلُ عبدَه الذي خوَّله الله إياه في الدنيا أقربَ منزلةً من الله عزّ وجلّ، أو يرى رجلاً يعرفه أعمى في الدنيا قد أبصر يومَ القيامة وعَمِيَ هو[١].

﴿وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّٰخِرِينَ﴾ أي: وما كنت إلا من المُستهزئين بالقرآن وبالرسول في الدنيا بأولياء الله، قال قتادة: لم يَكْفِهِ أن ضيَّع طاعةَ الله حتى سَخِرَ من أهلها[٢].

ومحلّ «إن كنت» النصب على الحال؛ كأنه قال: فرَّطْتُ وأنا ساخر؛ أي: فرَّطت في حال سُخريتي[٣]. وقيل: وما كنت إلا في سُخرية ولعب وباطل؛ أي: ما كان سعيي إلا في عبادة غيرِ الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿أَوْ تَقُولَ﴾ هذه النَّفس ﴿لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَىٰنِى﴾ أي: أرشدني إلى دينه ﴿لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ أي: الشِّركَ والمعاصي. وهذا القولُ: لو أن الله هداني لاهتديت، قولُ صِدْق. وهو قريبٌ من احتجاج المشركين فيما أخبر الربُّ جلّ وعزّ عنهم في قوله: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا﴾ [الأنعام:١٤٨] فهي كلمةُ حقٍّ أُريد بها باطل؛ كما قال عليٌّ ﷺ لمَّا قال قائلٌ من الخوارج: لا حكم إلا لله[٤].

﴿أَوْ تَقُولَ﴾ يعني هذه النَّفس ﴿حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً﴾ أي: رَجْعة. ﴿فَأَكُونَ﴾ نصب على جواب التمني، وإن شئت كان معطوفاً على «كَرَّةً» لأن معناه: أنْ أكرَّ؛ كما قال الشاعر:

لَـلُـبْـسُ عَـبَـاءَةٍ وتَـقَـرَّ عَـيْـنِـي أَحَـبُّ إلـيَّ مِـنْ لُـبْـسِ الـشُّـفُـوفِ[٥]

وأنشد الفراء:

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٧ .

(٢) أخرجه الطبري ٢٠/ ٢٣٤ .

(٣) الكشاف ٣/ ٤٠٤ .

(٤) أخرجه مسلم (١٠٦٦): (١٥٧).

(٥) قائلته ميسون بنت بحدل الكلبية، وسلف الشطر الأول ٨/ ٥٠ ، ينظر تخريجه ثمة، والكلام من إعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٨ .

فما لكَ مِنها غيرُ ذِكْرى وخَشْيَةٍ وتسألَ عن رُكْبَانِها أين يَمَّمُوا[١]

فنصب وتسألَ على موضع الذِّكرى؛ لأن معنى الكلام: فمالكَ منها إلا أن تذكرَ. ومنه: لَلُبْسُ عباءة وتَقَرَّ؛ أي: لأنْ أَلْبَسَ عباءةً وتقرَّ.

وقال أبو صالح: كان رجلٌ عالم في بني إسرائيل وجد رقعة: إنَّ العبدَ لَيعملُ الزمانَ الطويل بطاعة الله، فيختمُ له عملَه بعمل أهل النار فيدخل النار، وإن الرجلَ لَيعمل الزمنَ الطويل بمعصية الله، ثم يختمُ له عمله بعمل رجل من أهل الجنة فيدخل الجنة؛ فقال: ولأي شيء أُتعِبُ نفسي، فترك عملَه وأخذ في الفسوق والمعصية، وقال له إبليس: لك عمرٌ طويل، فتمتَّعْ في الدنيا ثم تتوب، فأخذ في الفسوق وأنفق مالَه في الفجور، فأتاه ملكُ الموت في ألذِّ ما كان، فقال: يا حسرتا على ما فرَّطتُ في جَنْب الله؛ ذهب عمري في طاعة الشيطان، فندم حين لا ينفعه النَّدم؛ فأنزل الله خبره في القرآن[٢].

وقال قتادة: هؤلاء أصناف؛ صِنْفٌ منهم قال: ﴿يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾، وصنفٌ منهم قال: ﴿لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ وقال آخر: ﴿لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[٣]. فقال الله تعالى ردّاً لِكلامهم: ﴿بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى﴾.

قال الزجاج[٤]: «بلى» جوابُ النفي، وليس في الكلام لفظُ النفي، ولكن معنى «لو أنَّ الله هَدَانِي» ما هداني، وكأن هذا القائلَ قال: ما هُدِيت؛ فقيل: بلى، قد بُيِّن لك طريق الهُدى، فكنت بحيث لو أردتَ أن تُؤمِنَ أمكنك أن تُؤمن.

«آيَاتِي» أي: القرآن. وقيل: عنى بالآياتِ المُعجزاتِ؛ أي: وَضَحَ الدليل فأنكرتَه وكذَّبته ﴿وَٱسْتَكْبَرْتَ﴾ أي: تكبَّرت عن الإيمان ﴿وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

وقال: ﴿وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ﴾ وهو خِطاب الذَّكَر؛ لأن النَّفس تقع على الذَّكَر

(١) معاني القرآن للفراء ٢/ ٤٢٣، وفيه: وحسبة، بدل: وخشية. ولم نهتد إلى قائله.
(٢) ذكر القصة بنحوها ومختصرة الزمخشري في الكشاف ٣/ ٤٠٤ ولم ينسبها.
(٣) أخرجه الطبري ٢٠/ ٢٣٦.
(٤) في معاني القرآن ٤/ ٣٥٩ - ٣٦٠.

والأُنثى. يقال: ثلاثة أنفس. وقال المبرّد: تقول العرب: نفسٌ واحدٌ، أي: إنسان واحد.

وروى الربيع بن أنس عن أُمِّ سَلَمة عن النبي ﷺ قرأ: «قد جاءَتْكِ آياتي فَكَذَّبْتِ بهَا واستَكْبَرْتِ وكنت من الكافرين»[١].

وقرأ الأعمش: «بلى قد جاءَتْهُ آيَاتي»[٢] وهذا يدلُّ على التذكير. والربيع بن أنس لم يَلْحَقْ أُمَّ سَلَمَةَ إلا أن القراءةَ جائزة؛ لأن النَّفس تقع للمذكَّر والمؤنث. وقد أنكر هذه القرءاةَ بعضُهم وقال: يجب إذا كسر التاء أن تقول: وكنتِ من الكوافر أو من الكافرات.

قال النحاس[٣]: وهذا لا يلزم؛ ألا ترى أن قبلَه «أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ» ثم قال: ﴿وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ﴾ ولم يقل: من السواخر، ولا من الساخرات. والتقدير في العربية على كسر التاء: «واستَكْبَرْتِ وكنتِ» من الجمع[٤] الساخرين، أو من الناسِ الساخرين، أو من القوم الساخرين.

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾ وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦١﴾ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾ لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٣﴾ قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾ أي: مما حاط بهم من غضب الله ونقمته. وقال الأخفش[٥]: «تَرَى» غير عامل في قوله:

---

(١) أخرجها الدوري في قراءات النبي ﷺ (٩٩)، وذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص١٣١، والكلام من معاني القرآن للنحاس ٦/ ١٨٧ - ١٨٨.

(٢) ذكرها ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٥٣٨.

(٣) في معاني القرآن للنحاس ٦/ ١٨٧ - ١٨٨، وما قبله منه.

(٤) في النسخ: الجميع، والمثبت من (م).

(٥) في معاني القرآن ٢/ ٦٧٢.

«وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ» إنما هو ابتداءٌ وخبر.

الزمخشري[١]: جملة في موضع الحال إنْ كان «تَرَى» من رؤية البصر، ومفعولٌ ثانٍ إنْ كان من رؤية القلب.

﴿أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ وبيَّن رسولُ الله ﷺ معنى الكِبْر فقال عليه الصلاة والسلام: «سَفَهُ الحقِّ وغَمْصُ الناس» أي: احتقارهم. وقد مضى في «البقرة»[٢] وغيرها.

وفي حديث عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ «يُحشَرُ المُتكبِّرون يومَ القيامة كالذَّرِّ يلحقهم الصَّغار حتى يُؤتى بهم إلى سجن جهنم»[٣].

قوله تعالى: ﴿وَيُنَجِّى اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ وقُرئ: «ويُنْجي»[٤] أي: من الشِّرك والمعاصي. ﴿بِمَفَازَتِهِمْ﴾ على التوحيد قراءة العامة؛ لأنها مصدر. وقرأ الكوفيون: «بمَفَازَاتهِمْ»[٥]، وهو جائز كما تقول: بسعاداتهم.

وعن النبي ﷺ تفسير هذه الآية من حديث أبي هريرة، قال: «يَحشُر اللهُ مع كلِّ امرئ عملَه، فيكون عملُ المؤمن معه في أحسن صورة وأطيبِ ريح، فكلما كان رُعْبٌ أو خَوْفٌ قال له: لا تُرَعْ، فما أنت بالمُراد به، ولا أنت بالمَعْنيِّ به، فإذا كَثُرَ ذلك عليه قال: فما أحسنك، فمن أنت؟! فيقول: أما تَعرفني، أنا عَمَلُكَ الصالح حملتَني على ثِقَلي، فوالله لأحملنَّكَ ولأدفعنَّ عنك، فهي التي قال الله: ﴿وَيُنَجِّى اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾»[٦].

---

(١) الكشاف ٣/٤٠٦ .

(٢) ١/٤٤١ ، والحديث أخرجه أحمد (٦٥٨٣) مطولاً من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، ومسلم (٩١) من حديث ابن مسعود ﷺ بلفظ: «.. الكِبْر بَطَرُ الحقّ وغَمْطُ الناس».

(٣) أخرجه أحمد (٦٦٧٧)، والترمذي (٢٤٩٢)، وقال: هذا حديث حسن صحيح. والكلام السالف من إعراب القرآن للنحاس ٤/١٩ .

(٤) قرأ بها يعقوب في رواية روح. النشر ٢/٢٥٩ .

(٥) قرأ أبو بكر وحمزة والكسائي: «بمفازاتهم» بالألف على الجمع، والباقون بغير ألف على التوحيد. السبعة ص٥٦٢ ، والتيسير ص١٩٠ .

(٦) لم نقف عليه بهذا اللفظ، ونقله المصنف من إعراب القرآن للنحاس ٤/١٩ .

﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ أي: حافظ وقائم به. وقد تقدَّم.

قوله تعالى: ﴿لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۗ﴾ واحدُها مِقْليد. وقيل: مِقْلاد، وأكثر ما يُستعمل فيه إقليد. والمَقاليد المفاتيح؛ عن ابن عباس وغيره. وقال السُّدي: خزائن السماوات والأرض[١]. وقال غيره: خزائن السماوات المطر، وخزائن الأرض النبات[٢]. وفيه لغةٌ أخرى: أقاليد، وعليها يكون واحدُها إقليد[٣].

قال الجوهري[٤]: والإقليد المِفْتاح، والمِقْلَد مِفْتاحٌ كالمِنْجل، ربما يُقلد به الكلأ كما يُقلد القَتُّ إذا جعل حِبالاً؛ أي: يُفتل، والجمع المَقاليد. وأقلدَ البحرُ على خلقٍ كثير، أي: غرَّقهم، كأنه أُغلقَ عليهم.

وخرَّج البيهقي عن ابن عمر أن عثمانَ بن عفان ﷺ سأل رسولَ الله ﷺ عن تفسير قوله تعالى: ﴿لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۗ﴾ فقال رسولُ الله ﷺ: «ما سألني عنها أحدٌ؛ لا إله إلا الله، والله أكبر، وسبحان الله وبحمده، أستغفر الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، هو الأوّل والآخر والظاهر والباطن، يُحيي ويُميت؛ بيده الخير وهو على كل شيء قدير»[٥]. ذكره الثعلبي في «تفسيره»، وزاد: «مَنْ قالها إذا أصبح أو أمسى عشرَ مرات أعطاه الله ستَّ خِصال: أولها: يُحرَس من إبليس، والثانية: يحضره اثنا عشر ألف ملك، والثالثة: يُعطى قنطاراً من الأجر، والرابعة: تُرفع له درجة، والخامسة: يُزوِّجه الله من الحور العين، والسادسة: يكون له من الأجر كمن قرأ القرآنَ والتوراةَ والإنجيل والزَّبور، وله أيضاً من الأجر كمن حجَّ واعتمر فَقُبلت

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٥٣٩، وينظر إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٠، وقولا ابن عباس رضي الله عنهما والسدي أخرجهما الطبري ٢٠/ ٢٤٢.

(٢) زاد المسير ٧/ ١٩٤.

(٣) تفسير الطبري ٢٠/ ٢٤٢.

(٤) في الصحاح (قلد).

(٥) الأسماء والصفات للبيهقي (١٩)، وينظر التعليق التالي.

حجَّته وعُمرته، فإنْ مات من ليلته مات شهيداً»[١].

وروى الحارث[٢] عن عليٍّ قال: سألتُ رسولَ الله ﷺ عن تفسير المقاليد فقال: «يا عليّ، لقد سألتَ عن عظيم، المقاليد: هو أن تقول عشراً إذا أصبحت وعشراً إذا أمسيت: لا إله إلا الله، والله أكبر، وسبحان الله، والحمد لله، وأستغفر الله، ولا قوّة إلا بالله الأوّلِ والآخرِ والظاهرِ والباطنِ، له الملك وله الحمد، بيده الخيرُ وهو على كلِّ شيء قدير» من قالها عشراً إذا أصبح وعشراً إذا أمسى أعطاه الله خِصالاً ستّاً: أولها يَحْرُسه من الشيطان وجنودِه، فلا يكون لهم عليه سلطان، والثانية: يُعطى قِنطاراً في الجنة هو أثقلُ في ميزانه من جبل أحد، والثالثة: تُرفع له درجة لا ينالها إلا الأبرار، والرابعة: يُزوِّجه الله من الحور العين، والخامسة: يشهده اثنا عشرَ ألف مَلَك يكتبونها له في رَقٍّ منشور ويشهدون له بها يومَ القيامة، والسادسة: يكون له من الأجر كأنما قرأ التوراة والإنجيل والزبور والفرقان، وكمن حجَّ واعتمر فَقَبِلَ اللهُ حِجَّته وعُمرتَه، وإنْ مات من يومه أو ليلته أو شهره طُبِعَ بطابَع الشهداء.

وقيل: المقاليد الطاعة يقال: ألقى إلى فلان بالمقاليد، أي: أطاعه فيما يأمره؛ فمعنى الآية: له طاعةُ من في السماوات والأرض.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ أي: بالقرآن والحُجَج والدلالات. ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ تقدم.

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ﴾ وذلك حين دعوا النبيَّ ﷺ إلى ما هم عليه من عبادة الأصنام، وقالوا: هو دينُ آبائك.

---

(١) أخرجه بتمامه ابن الجوزي في الموضوعات ١/٩٦ - ٩٧ ، وقال: وهذا الحديث من الموضوعات النادرة التي لا تليق بمنصب رسول الله ﷺ، لأنه مُنزَّه عن الكلام الركيك والمعنى البعيد. قال الذهبي في الميزان ٤/ ٨٤ - ٨٥ بعد أن أورد الحديث: هذا موضوع فيما أرى، وقال الحافظ ابن كثير في تفسيره ٧/ ١١٢ : غريب، فيه نكارة شديدة، وفي صحته نظر.

(٢) هو الحارث بن عبد الله الهمداني الأعور، كذّبه الشعبي وابن المديني، وكان ابن سيرين يرى أن عامَّة ما يرويه عن علي ﷺ باطل. ميزان الاعتدال ١/ ٤٣٦ .

و«غير» نصب بـ «أَعْبُدُ» على تقدير: أَعبدُ غيرَ اللهِ فيما تأمرونني. ويجوز أن ينتصب بـ «تَأْمُرُونِّي» على حَذْف حرف الجرّ؛ التقدير: أتأمرونِّي بغير الله أن أعبُدَه، لأنّ أن مُقَّدرة، وأنْ والفعل مصدر، وهي بدل من غير؛ التقدير: أتأمرونّي بعبادة غير الله[١].

وقرأ نافع: «تَأْمُرُونيَ» بنون واحدة مخففَّة وفتح الياء. وقرأ ابن عامر: «تَأْمُرُونَنِي» بنونين مُخفَّفتين على الأصل. الباقون بنون واحدة مُشدَّدة على الإدغام[٢]، واختاره أبو عُبيد وأبو حاتم؛ لأنها وقعت في مصحف عثمان بنون واحدة. وقرأ نافع على حذف النون الثانية، وإنما كانت المحذوفة الثانية؛ لأن التكرير والتثقيل يقع بها، وأيضاً حذفُ الأُولى لا يجوز؛ لأنها دلالةُ الرفع. وقد مضى في «الأنعام» بيانُه عند قوله تعالى: «أَتُحَاجُّونِّي»[٣].

«أَعْبُدُ» أي: أن أعبدَ، فلما حذف «أن» رفع؛ قاله الكسائي[٤]. ومنه قول الشاعر:

أَلَا أَيُّهَذا الزاجِرِي أَحْضُرُ الوَغَى[٥]

والدليل على صحة هذا الوجه قراءة من قرأ: «أَعْبُدَ» بالنصب.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ﴾ قيل: إنَّ في الكلام تقديماً وتأخيراً؛ والتقدير: لقد أُوحي إليك لئن أشركتَ، وأُوحي إلى الذين من قبلك

---

(١) مشكل إعراب القرآن ٢/ ٦٣٢ .
(٢) السبعة ص٥٦٣ ، والتيسير ص١٩٠ .
(٣) ٨/ ٤٤٣ .
(٤) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٠ .
(٥) قائله طرفة، وسلف بتمامه ١٤/ ١٨ .

كذلك. وقيل: هو على بابه[١]؛ قال مقاتل: أي: أُوحي إليك وإلى الأنبياء قبلك بالتوحيد، والتوحيد محذوف. ثم قال: «لَئِنْ أَشْرَكْتَ» يا محمد ﴿لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ وهو خِطابٌ للنبي ﷺ خاصَّةً. وقيل: الخِطاب له والمُراد أُمته؛ إذْ قد عَلِمَ اللهُ أنه لا يُشرك، ولا يقع منه إشراك. والإحباطُ الإبطالُ والفساد. قال القُشيري: فمن ارتدَّ لم تنفعه طاعاته السابقة، ولكن إحباط الرِّدة العملَ مشروطٌ بالوفاة على الكُفر؛ ولهذا قال: ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ﴾ [البقرة:٢١٧] فالمُطلق ها هنا محمولٌ على المُقيّد؛ ولهذا قلنا: مَن حَجَّ ثم ارتدَّ؛ ثم عاد إلى الإسلام لا يجب عليه إعادةُ الحجِّ.

قلت: هذا مذهب الشافعي. وعند مالك تجب عليه الإعادة، وقد مضى في «البقرة» بيانُ هذا مستوفى[٢].

قوله تعالى: ﴿بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ﴾ النحاس[٣]: في كتابي عن أبي إسحاق[٤] لفظ اسم الله عز وجل منصوب بـ «اعبُدْ» قال: ولا اختلاف في هذا بين البصريين والكوفيين.

قال النحاس: وقال الفراء[٥] يكون منصوباً بإضمار فعل. وحكاه المهدوي عن الكسائي. فأما الفاء، فقال الزجاج: إنها للمجازاة. وقال الأخفش: هي زائدة.

وقال ابن عباس: «فاعْبُدْ» أي: فوحِّد. وقال غيره: «بَلِ اللهَ» فأَطِعْ ﴿وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ لنعمه بخلاف المشركين[٦].

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٥٤٠ بنحوه.

(٢) ٣/ ٤٣٠ .

(٣) إعراب القرآن ٤/ ٢١ .

(٤) هو الزجاج، وقوله في معاني القرآن ٤/ ٣٦١ .

(٥) في معاني القرآن ٢/ ٤٢٤ .

(٦) تفسير أبي الليث ٣/ ١٥٦ بنحوه.

قوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾ قال المبرد: ما عظَّموه حقَّ عَظَمته من قولك: فلانٌ عظيم القدر. قال النحاس[١]: والمعنى على هذا: وما عظَّموه حقَّ عَظَمته إذ[٢] عبدوا معه غيره، وهو خالقُ الأشياء ومالكها. ثم أخبر عن قُدرته وعَظَمته، فقال: ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾.

ثم نزّه نفسَه عن أن يكون ذلك بجارحة فقال: ﴿سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾. وفي الترمذي عن عبد الله قال: جاء يهودي إلى النبي ﷺ، فقال: يا محمد، إنَّ الله يُمسك السماوات على إصبع [والأرَضين على إصبع، والجبال على إصبع] والخلائق على إصبع، ثم يقول: أنا الملك. فضحك النبي ﷺ حتى بدَتْ نواجِذُه، ثم قال: «ومَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ». قال: هذا حديثٌ حسنٌ صحيح[٣].

وفي البخاري ومسلم: عن أبي هريرة قال: قال رسولُ الله ﷺ: «يَقْبِضُ اللهُ الأرضَ يومَ القيامة ويطوي السماءَ بيمينه، ثم يقول: أنا المَلِكُ، أين مُلوكَ الأرض»[٤]. وفي الترمذي: عن عائشة أنها سألت رسولَ الله ﷺ عن قوله: ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ قالت: قلت: فأين الناسُ يومئذ يا رسول الله؟ قال: «على جِسْر جهنم» في رواية «على الصِّراطِ يا عائشة» قال:

(١) في إعراب القرآن ٤/ ٢١ - ٢٢، وما قبله منه.

(٢) في (م): إذا، والمثبت موافق لإعراب القرآن للنحاس.

(٣) سنن الترمذي (٣٢٣٨)، وأخرجه أحمد (٤٠٨٧)، والبخاري (٧٤١٤)، وما بين حاصرتين من المصادر.

(٤) صحيح البخاري (٦٥١٩)، وصحيح مسلم (٢٧٨٧)، وأخرجه أحمد (٨٨٦٣).

حديثٌ حسنٌ صحيحٌ[١].

وقوله: ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ﴾، و«يَقْبِضُ اللهُ الأرضَ» عبارة عن قُدرته وإحاطته بجميع مخلوقاته[٢]؛ يقال: ما فلان إلا في قبضتي بمعنى: ما فلان إلا في قُدرتي، والناس يقولون: الأشياء في قبضته، يريدون في مُلكه وقُدرته. وقد يكون معنى القَبْض والطَّي إفناءَ الشيء وإذهابَه فقوله جلّ وعزّ: ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ﴾ يَحتَمِلُ أن يكون المرادُ به: والأرض جميعاً ذاهبةٌ فانيةٌ يومَ القيامة. والمراد بالأرض الأَرَضون السَّبع؛ يشهد لذلك شاهدان: قوله: «والأَرْضُ جميعاً»، ولأن الموضعَ موضعُ تفخيم، فهو مُقتضٍ للمبالغة. وقوله: ﴿وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ ليس يريد به طيّاً بعلاج وانتصاب، وإنما المرادُ بذلك الفَناء والذَّهاب؛ يقال: قد انطوى عنَّا ما كنا فيه وجاءنا غيره. وانطوى عنَّا دهرٌ بمعنى المُضِيّ والذهاب. واليمين في كلام العرب قد تكون بمعنى القُدرة والمُلك؛ ومنه قوله تعالى: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ [الروم:٢٨] يريد به الملك؛ وقال ﴿لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ﴾ [الحاقة:٤٥] أي: بالقوّة والقُدرة، أي: لأخذنا قوتَه وقُدرتَه. قال الفرّاء[٣] والمبرد: اليمين القوّة والقدرة. وأنشدا:

إذا ما رَايَةٌ رُفِعَتْ لِمَجْدٍ ... تَلَقَّاها عَرابةُ بِاليَمِينِ[٤]

قال آخر:

ولمّا رَأَيْتُ الشَّمْسَ أَشْرَق نورُها ... تَناولتُ مِنها حاجتي بِيَمينِ

قتلتُ شُنَيْفاً ثم فارانَ بَعده ... وكان على الآيات غيرَ أمينِ

وإنما خصَّ يوم القيامة بالذِّكر وإن كانت قُدرته شاملةً لكل شيء أيضاً؛ لأن

(١) سنن الترمذي (٣٢٤١) و(٣٢٤٢)، وأخرجه أحمد (٢٤٨٥٦) و(٢٤٠٦٩).

(٢) الصواب إثبات صفة القبضة لله عز وجل من غير تشبيه ولا تأويل ولا تمثيل.

(٣) نقله المصنف عنه بواسطة البيهقي في الأسماء والصفات ٢/ ١٥٩ - ١٦٠ ، والكلام السالف منه.

(٤) قائله الشماخ بن ضرار، وسلف ٦/ ٣٨ .

الدعاوى تنقطع ذلك اليوم، كما قال: ﴿وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ [الانفطار:١٩] وقال: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ حسب ما تقدَّم في «الفاتحة»[١] ولذلك قال في الحديث: «ثم يقول: أنا الملكُ، أين ملوكُ الأرض» وقد زدنا هذا الباب في «التذكرة» بياناً[٢]، وتكلَّمنا على ذكر الشِّمال في حديث ابن عمر قوله: «ثم يطوي الأرضَ بشماله»[٣].

قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ بيَّن ما يكون بعد قبض الأرض وطيِّ السماء، وهو النفخ في الصور، وإنما هما نفختان؛ يموت الخَلْق في الأُولى منهما ويحيون في الثانية، وقد مضَى الكلامُ في هذا في «النمل» و«الأنعام» أيضاً[٤]. والذي ينفخ في الصور هو إسرافيلُ عليه السلام. وقد قيل: إنه يكون معه جبريلُ؛ لحديث أبي سعيد الخُدري قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إنَّ صاحِبَي الصور بأيديهما ـ أو في أيديهما ـ قرنان يُلاحظان النَّظر متى يُؤْمران» خرجه ابن ماجه في «السنن»[٥].

وفي كتاب أبي داود: عن أبي سعيد الخدري قال: ذكر رسولُ الله ﷺ صاحبَ الصُّور، وقال: «عن يمينه جبرائيلُ وعن يساره ميكائيلُ»[٦].

واختلف في المُستثنى مَنْ هم. فقيل: هم الشهداء مُتقلِّدين أسيافَهم حولَ العرش. روي مرفوعاً من حديث أبي هريرة فيما ذكر القشيري[٧]، ومن حديث عبد الله بن عمر فيما ذكر الثعلبي.

---

(١) ١/ ٢١٥ وما بعدها.

(٢) ص١٩٠.

(٣) أخرجه مسلم (٢٧٨٨) وفيه: الأرضين، بدل: الأرض.

(٤) ١٣/ ٢٣٩ وما بعدها، ٨/ ٤٣٠ وما بعدها.

(٥) الحديث (٤٢٧٣)، وفي إسناده الحجاج بن أرطاة وعطية العوفي، وكلاهما ضعيف. تهذيب التهذيب ١/ ٣٥٦ و٣/ ١١٤.

(٦) سنن أبي داود (٣٩٩٩)، وأخرجه أحمد (١١٠٦٩)، وفي إسناده عطية العوفي، وهو ضعيف كما ذكرنا في التعليق السابق.

(٧) وأخرجه البيهقي في البعث والنشور (٦٧).

وقيل: جبريل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت عليهم السلام. ورُوي من حديث أنس أن النبي ﷺ تلا ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ فقالوا: يا نبيَّ الله، مَنْ هم الذين استثنى الله تعالى؟ قال: «هم جبريلُ وميكائيل وإسرافيلُ ومَلَك الموت، فيقول الله تعالى لمَلَك الموت: يا مَلَكَ الموت، مَن بقي من خَلْقي، وهو أعلمُ فيقول: يا رب، بقي جبريلُ وميكائيل وإسرافيل وعبدُك الضعيف مَلَكُ الموت، فيقول الله تعالى: خُذْ نَفْسَ إسرافيلَ وميكائيلَ، فَيَخِرَّان ميتين كالطَّوْدين العظيمين، فيقول: مُتْ يا مَلَك الموت، فيموت، فيقول الله تعالى لجبريل: يا جبريل، مَن بقي، فيقول: تباركتَ وتعاليتَ يا ذا الجلال والإكرام، وجهُك الباقي الدائم وجبريلُ الميتُ الفاني، فيقول الله تعالى: يا جبريل، لا بدَّ من موتك فيقع ساجداً يخفقُ بجناحيه يقول: سبحانك ربي، تباركتَ وتعاليتَ يا ذا الجلال والإكرام» فقال النبي ﷺ: «إنَّ فَضْلَ خَلْقه على خَلْق ميكائيل كالطَّود العظيم على الظَّرِب من الظِّراب» ذكره الثعلبي[١]. وذكره النحاس أيضاً من حديث محمد بن إسحاق، عن يزيد الرَّقاشي، عن أنس بن مالك، عن النبيِّ ﷺ في قوله جلّ وعزّ: ﴿فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ قال: «جبريلُ وميكائيلُ وحَمَلَةُ العرش ومَلَك الموت وإسرافيل»[٢].

وفي هذا الخبر[٣] أنَّ آخرَهم موتاً جبريل عليه وعليهم السلام، وحديث أبي هريرة في الشهداء أصحُّ على ما تقدَّم في «النمل»[٤].

وقال الضحاك: هو رضوان والحور ومالك والزَّبانية. وقيل: عقاربُ أهل النار وحيَّاتُها.

---

(١) أخرجه البيهقي في البعث والنشور (٦٨) وسنده ضعيف فيما قاله الحافظ ابن حجر في الفتح ١١/ ٣٧١ . والظَّرِب: الجبل الصغير. القاموس (ظرب).

(٢) معاني القرآن للنحاس ٦/ ١٩٣ - ١٩٤ ، وأخرجه الطبري ٢٠/ ٢٥٤ من طريق محمد بن إسحاق به ويزيد الرَّقاشي ضعيف كما في تهذيب التهذيب ٤/ ٤٠٣ .

(٣) في (م): الحديث.

(٤) ١٣/ ٢٤١ .

وقال الحسن: هو اللهُ الواحد القهَّار وما يدعُ أحداً من أهل السماء والأرض إلا أذاقَه الموت(١). وقال قتادة: اللهُ أعلمُ بِثُنْياه(٢).

وقيل: الاستثناء في قوله: «إِلَّا مَنْ شاءَ اللهُ» يرجع إلى مَنْ مات قبلَ النفخةِ الأولى؛ أي: فيموت مَن في السماوات والأرض إلا من سبق موتُه؛ لأنهم كانوا قد ماتوا.

وفي «الصحيحين» وابن ماجه ـ واللفظ له ـ عن أبي هريرة قال: قال رجلٌ من اليهود بسوق المدينة: والذي اصطفى موسى على البَشر؛ فرفع رجلٌ من الأنصار يدَه فَلَطمه؛ قال: تقولُ هذا وفينا رسولُ الله ﷺ. فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فقال: «قال الله عز وجل: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ فأكون أوّلَ من رفع رأسَه، فإذا أنا بموسى آخذٌ بقائمةٍ من قوائم العرش، فلا أدري أرَفَعَ رأسَه قبلي أو كان ممن استثنى اللهُ؟ ومن قال: أنا خيرٌ من يونس بن متّى فقد كذب»(٣) وخرَّجه الترمذي أيضاً وقال فيه: حديثٌ حسنٌ صحيح(٤).

قال القشيري: ومَن حمل الاستثناءَ على موسى والشهداء فهؤلاءِ قد ماتوا غير أنهم أحياءٌ عند الله. فيجوز أن تكون الصَّعقة بزوال العقل دون زوال الحياة، ويجوز أن تكونَ بالموت، ولا يبعدُ أن يكونَ الموتُ والحياة، فكلٌّ ذلك مما يُجوِّزه العقلُ، والأمر في وقوعه موقوفٌ على خبر صدق.

قلت: جاء في بعض طرق أبي هريرة أنه عليه الصلاة والسلام قال: «لا تُخيِّروني

(١) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٥/ ١٣٦ مختصراً.

(٢) أخرجه الطبري ٢٠/ ٢٥٨.

(٣) صحيح البخاري (٣٤١٤) و(٣٤١٥)، وصحيح مسلم (٢٣٧٣)، وسنن ابن ماجه (٤٢٧٤)، وأخرجه أحمد (٩٨٢١).

(٤) سنن الترمذي (٣٢٤٥).

على موسى، فإنَّ الناسَ يَصْعَقون، فأكونُ أوّلَ من يُفيق، فإذا موسى باطِشٌ بجانب العرش، فلا أدري أكان فيمن صَعِقَ فأفاق قبلي أَمْ كان ممن استثنى الله؟» خرجه مسلم[١]. ونحوه عن أبي سعيد الخدري[٢]؛ والإفاقةُ إنما تكون عن غشيةٍ وزوالِ عقل، لا عن موت بردِّ الحياة. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ أي: فإذا الأمواتُ من أهل الأرض والسماء أحياء بُعثوا من قبورهم، وأُعيدت إليهم أبدانهم وأرواحهم، فقاموا ينظرون ماذا يُؤمرون. وقيل: قيامٌ على أرجلهم ينظرون إلى البعث الذي وُعدوا به. وقيل: هذا النظر بمعنى الانتظار؛ أي: ينتظرون ما يفعل بهم.

وأجاز الكسائي قياماً بالنصب؛ كما تقول: خرجتُ فإذا زيدٌ جالساً[٣].

قوله تعالى: ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّۦنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٧٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ إشراقُها إضاءتها؛ يقال: أَشرقت الشمسُ إذا أضاءتْ، وشَرَقت إذا طَلَعتْ. ومعنى: «بِنُورِ رَبِّها» بعدل ربِّها؛ قاله الحسن[٤] وغيره. وقال الضحاك: بحكم ربِّها؛ والمعنى واحد؛ أي: أنارتْ وأضاءتْ بعدل الله وقضائه بالحق بين عباده. والظُّلم ظُلُماتٌ والعَدْل نور.

وقيل: إن الله يخلقُ نوراً يومَ القيامة يُلبسه وجهَ الأرض فَتُشرق الأرضُ به.

وقال ابن عباس: النور المذكور ها هنا ليس من نور الشمس والقمر، بل هو نورٌ

---

(١) الحديث (٢٣٧٣): (١٦٠)، وهو في صحيح البخاري (٢٤١١).

(٢) أخرجه البخاري (٦٩١٧)، ومسلم (٢٣٧٤).

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٢ .

(٤) النكت والعيون ٥/١٣٦ .

يخلقه اللهُ فيضيء به الأرض. وروي أن الأرضَ يومئذ من فضة تُشرق بنور الله تعالى حين يأتي لفصل القضاء. والمعنى: أنها أشرقتْ بنورٍ خَلَقه الله تعالى، فأضاف النورَ إليه على حدِّ إضافة المُلك إلى المالك. وقيل: إنه اليومُ الذي يقضي فيه بين خلقه؛ لأنه نهارٌ لا ليلَ معه.

وقرأ ابن عباس وعُبيد بن عُمير: «وأُشْرِقَتِ الأَرْضُ» على ما لم يُسَمَّ فاعله[١]، وهي قراءة على التفسير.

وقد ضلَّ قومٌ ها هنا فتوهَّموا أن الله عزّ وجلّ من جنس النور والضِّياء المحسوس، وهو مُتعالٍ عن مُشابهة[٢] المحسوسات، بل هو مُنوِّر السماوات والأرض، فمنه كلُّ نور خلقاً وإنشاء.

وقال أبو جعفر النحاس[٣]: وقوله عز وجل ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ يُبيِّن هذا الحديث المرفوع من طرق كثيرة صحاح: «تنظرون إلى الله عزّ وجلّ لا تُضامون في رؤيته»[٤] وهو يُروى على أربعة أوجه: لا تُضامُون، ولا تضارُون، ولا تضامُّون، ولا تضارُّون؛ فمعنى «لاتُضامُون» لا يلحقكم ضَيْم كما يلحقكم في الدنيا في النظر إلى الملوك. و«لا تُضارُون» لا يلحقكم ضَيْر. و«لا تَضامُّون» لا ينضم بعضكم إلى بعض ليسأله أن يُريه. و«لا تضارُّون» لا يُخالف بعضُكم بعضاً؛ يقال: ضارَّه مُضارَّة وضِراراً، أي: خالفه.

---

(١) القراءات الشاذة ص١٣٢، والمحتسب ٢/ ٢٣٩.

(٢) في النسخ الخطية: مباينة. وهو خطأ.

(٣) في معاني القرآن ٦/ ١٩٥ - ١٩٦.

(٤) أخرجه البخاري (٥٥٤)، ومسلم (٦٣٣) من حديث جرير بن عبد الله ﷺ بلفظ: «إنكم سترون ربكم كما ترون القمر، لا تُضامون في رؤيته...» وسلف ٤/ ١٨٠. وأخرجه البخاري (٤٥٨١)، ومسلم (١٨٣) من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ مطولاً وفيهما: «.. ما تُضارّون في رؤية الله تبارك وتعالى يوم القيامة إلا كما تُضارّون في رؤية أحدهما..» يعني الشمس والقمر، وهو في مسند أحمد (١٩١٩٠) و(١١١٢١) ينظر أحاديث الباب ثمة.

قوله تعالى: ﴿وَوُضِعَ ٱلۡكِتَٰبُ﴾ قال ابن عباس: يريد اللَّوح المحفوظ[1]. وقال قتادة: يُريد الكتب[2] والصُّحف التي فيها أعمال بني آدم، فآخذٌ بيمينه وآخذٌ بشماله[3]. ﴿وَجِاْيٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ أي: جيء بهم فيسألهم عما أجابتهم به أُممهم.

﴿وَٱلشُّهَدَآءِ﴾ الذين شَهِدوا على الأُمم من أُمة محمد ﷺ[4]؛ كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [البقرة:١٤٣]. وقيل: المرادُ بالشهداء الذين استشهدوا في سبيل الله، فيشهدون يومَ القيامة لمن ذبَّ عن دين الله؛ قاله السُّدي. وقال ابن زيد: هم الحَفَظة الذين يشهدون على الناس بأعمالهم، قال الله تعالى: ﴿وَجَآءَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ مَّعَهَا سَآئِقٞ وَشَهِيدٞ﴾ [ق:٢١] فالسائق يسوقُها إلى الحساب والشهيدُ يشهد عليها، وهو المَلَكُ المُوكَّل بالإنسان، على ما يأتي بيانُه في «ق».

﴿وَقُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡحَقِّ﴾ أي: بالصِّدق والعَدْل. ﴿وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾ قال سعيد بن جُبير: لا ينقص من حسناتهم ولا يُزاد على سيئاتهم[5]. ﴿وَوُفِّيَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ﴾ من خير أو شرٍّ. ﴿وَهُوَ أَعۡلَمُ بِمَا يَفۡعَلُونَ﴾ في الدنيا، ولا حاجةَ به عزَّ وجلَّ إلى كتابٍ ولا شاهد، ومع ذلك فتشهد الكُتب والشهود إلزاماً لِلحُجَّة.

قوله تعالى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَتۡلُونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ رَبِّكُمۡ وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنۡ حَقَّتۡ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ۝٧١ قِيلَ ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ ۝٧٢﴾

قوله تعالى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًاۖ﴾ هذا بيانُ توفية كلِّ نفس

(١) ذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٥٤٢ دون نسبة، وقال: وهذا شاذ، وليس فيه معنى التوعّد، وهو مقصد الآية.

(٢) في (م): الكتاب.

(٣) النكت والعيون ٥/ ١٣٦، وزاد المسير ٧/ ١٩٨ بنحوه.

(٤) تفسير البغوي ٤/ ٨٨ وزاد المسير ٧/ ١٩٨.

(٥) النكت والعيون ٥/ ١٣٧.

عملها، فيساقُ الكافر إلى النار والمؤمن إلى الجنة. والزُّمَر: الجماعاتُ، واحدتها زُمْرة، كظُلْمة وغُرْفة. وقال الأخفش وأبو عبيدة[١]: «زُمَراً» جماعاتٍ متفرقةً بعضها إثر بعض. قال الشاعر:

وتَــرى الــنَّــاسَ إلــى مَــنْــزِلِــهِ   زُمَــراً[٢] تَــنْــتَــابُــه بَــعْــدَ زُمَــر

وقال آخر:

حــتّــى احْــزَأَلَّــتْ زُمَــرٌ بــعــد زُمَــرْ[٣]

وقيل: دفعاً وزجراً بصوت كصوت المزمار[٤].

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾ جواب إذا، وهي سبعةُ أبواب. وقد مضى في «الحجر»[٥].

﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ﴾ واحدهم خازن، نحو سَدَنة وسادِن، يقولون لهم تقريعاً وتوبيخاً: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ﴾ أي: الكُتب المُنزلة على الأنبياء، ﴿وَيُنذِرُونَكُمْ﴾ أي: يُخوِّفونكم ﴿لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾ أي: قد جاءتنا، وهذا اعترافٌ منهم بقيام الحُجَّة عليهم، ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ وهي قوله تعالى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [السجدة: ١٣].

﴿قِيلَ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ﴾ أي: يقال لهم: ادخلوا جهنم. وقد مضى الكلامُ في

---

(١) مجاز القرآن ٢/ ١٩١، وقول الأخفش ذكره البغوي في تفسيره ٤/ ٨٨.

(٢) في النسخ الخطية: زمرة، والمثبت من (م). والبيت لم نقف عليه.

(٣) ذكره الزمخشري في الكشاف ٣/ ٤١٠، والسمين الحلبي في الدر المصون ٩/ ٤٤٦، وقوله: احزألَّت، جاء في اللسان (حزل): احزألَّت الإبل، إذا اجتمعت ثم ارتفعت عن متن من الأرض في ذهابها.

(٤) النكت والعيون ٥/ ١٣٧.

(٥) ١٢/ ٢١٧ وما بعدها.

أبوابها. قال وهب: تستقبلُهم الزَّبانية بمقامعَ من نار، فيدفعونهم بمقامعهم، فإنه ليقع في الدَّفعة الواحدة إلى النار بعدد ربيعةَ ومُضر. ﴿فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ تقدَّم بيانه[1].

قوله تعالى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَـٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾ وَتَرَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٧٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا﴾ يعني من الشهداء والزُّهَّاد والعلماء والقُرَّاء وغيرهم، ممن اتَّقى الله تعالى وعَمِلَ بطاعته. وقال في حقِّ الفريقين: «وَسِيق» بلفظ واحد، فسوقُ أهل النار طَرْدُهم إليها بالخِزْي والهَوان، كما يُفعل بالأسارى والخارجين على السلطان إذا سِيقوا إلى حَبْس أو قتل، وسَوْقُ أهل الجِنان سوقُ مراكبهم إلى دار الكرامة والرِّضوان؛ لأنه لا يُذهب بهم إلا راكبين كما يُفعل بمن يشرف ويكرم من الوافدين على بعض الملوك، فشتان ما بين السَّوقين.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾ قيل: الواو ها هنا للعطف عطف على جملة، والجواب محذوف. قال المبرد: أي: سعدوا وفُتحت، وحذفُ الجواب بليغٌ في كلام العرب. وأنشد:

فلو أنَّها نَفْسٌ تَموتُ جَميعةً ... ولكنَّها نَفْسٌ تَساقَطُ أنْفُسا[2]

فحذف جواب لو، والتقدير: لكان أروح.

وقال الزجاج[3]: «حتى إذا جاءُوها» دخلوها، وهو قريبٌ من الأول. وقيل:

---

(١) ١٢/ ٣١٧.

(٢) قائله امرؤ القيس، وسلف ١٢/ ٧١، والكلام من إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٢ - ٢٣.

(٣) في معاني القرآن ٤/ ٣٦٤.

الواو زائدة. قاله الكوفيون، وهو خطأ عند البصريين[١].

وقد قيل: إن زيادةَ الواو دليلٌ على أن الأبوابَ فُتحت لهم قبلَ أن يأتوا، لكرامتهم على الله تعالى، والتقدير: حتى إذا جاءوها وأبوابُها مفتحة، بدليل قوله: ﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ﴾ وحذف الواو في قصة أهل النار؛ لأنهم وقفوا على النار وفُتحت بعد وقوفهم إذلالاً وترويعاً لهم. ذكره المهدوي، وحكى معناه النحاس قبلَه. قال النحاس[٢]: فأما الحِكمة في إثبات الواو في الثاني وحَذْفِها من الأول، فقد تكلَّم فيه بعضُ أهل العلم بقول لا أعلمُ أنه سبقه إليه أحد، وهو أنه لما قال الله عزّ وجلّ في أهل النار ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾ دلَّ بهذا على أنها كانت مغلقةً، ولما قال في أهل الجنة: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾ دلَّ بهذا على أنها كانت مُفتحةً قبل أن يجيئوها؛ والله أعلم.

وقيل: إنها واو الثمانية. وذلك من عادة قريش أنهم يَعُدُّون من الواحد فيقولون: خمسة، ستة، سبعة، وثمانية، فإذا بلغوا السبعة قالوا: وثمانية. قاله أبو بكر بن عياش[٣].

قال الله تعالى: ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ﴾ [الحاقة: ٧] وقال: ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ﴾ [التوبة: ١١٢] ثم قال في الثامن: ﴿وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ وقال: ﴿وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ﴾ [الكهف: ٢٢] وقال ﴿ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا﴾ [التحريم: ٥] وقد مضى القول في هذا في «براءة» مستوفى، وفي «الكهف» أيضاً[٤].

قلت: وقد استدلَّ بهذا مَن قال: إن أبوابَ الجنة ثمانية؛ وذكروا حديثَ عمر بن الخطاب، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «ما منكم مِن أحدٍ يتوضأ فَيُبْلِغُ ـ أو فَيُسْبِغ ـ

(١) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٢ .

(٢) في إعراب القرآن ٤/ ٢٣ .

(٣) ذكره ابن الجوزي في زاد المسير ٧/ ٢٠٠ ، ونسبه للثعلبي.

(٤) ١٠/ ٣٩٧ و١٣/ ٢٤٦ .

الوضوء، ثم قال: أشهدُ أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبدُه ورسوله إلا فُتحت له أبوابُ الجنة الثمانية يدخلُ من أيِّها شاء» خرَّجه مسلم وغيره[١]. وقد خرج الترمذي حديثَ عمر هذا وقال فيه: «فُتِحَ له من أبواب الجنة ثمانيةُ أبواب يومَ القيامة»[٢] بزيادة «مِن»، وهو يدلُّ على أن أبوابَ الجنة أكثرُ من ثمانية. وقد ذكرنا ذلك في كتاب «التذكرة»[٣] وانتهى عددُها إلى ثلاثةَ عشرَ باباً، وذكرنا هناك عِظَم أبوابها وسَعتها حَسَبَ ما ورد في الحديث من ذلك، فمن أراده وَقَفَ عليه هناك.

﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ﴾ قيل: الواو مُلغاة تقديره: حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها «قال لهم خزَنَتُها»[٤].

﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ﴾ أي: في الدنيا. قال مجاهد: بطاعة الله. وقيل: بالعمل الصالح. حكاه النقاش، والمعنى واحد[٥]. وقال مقاتل: إذا قطعوا جسرَ جهنم حُبِسوا على قنطرة بين الجنة والنار، فَيُقَصّ لبعضهم من بعض مظالمُ كانت بينهم في الدنيا، حتى إذا هُذِّبوا وطُيِّبوا قال لهم رضوان وأصحابه: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾، بمعنى التحية ﴿طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾[٦].

قلت: خرج البخاري حديثَ القنطرة هذا في «جامعه» من حديث أبي سعيد الخُدري قال: قال رسولُ الله ﷺ: «يَخْلُص المؤمنون من النار فَيُحبَسون على قنطرة بين الجنة والنار، فَيُقَصُّ لبعضهم من بعض مظالمُ كانت بينهم في الدنيا، حتى إذا هُذِّبوا ونُقُّوا أُذِنَ لهم في دخول الجنة، فو الذي نفس محمد بيده، لأَحدهم أهدى

(١) صحيح مسلم (٢٣٤)، وأخرجه أحمد (١٧٣١٤).

(٢) سنن الترمذي (٥٥) والمثبت في مطبوعه مثل رواية مسلم السالفة، وذكر محققو سنن الترمذي أنه في أكثر النسخ: ثمانية أبواب من الجنة.

(٣) ص٤٥٥ وما بعدها.

(٤) تفسير البغوي ٤/ ٨٩ .

(٥) النكت والعيون ٥/ ١٣٨ .

(٦) ذكره البغوي في تفسيره ٤/ ٨٩ بنحوه ونسبه لقتادة.

بمنزله في الجنة منه بمنزله كان في الدنيا»[١].

وحكى النقَّاش: إنَّ على باب الجنة شجرةً ينبع من ساقها عينان، يشرب المؤمنون من أحداهما فتطهر أجوافُهم، وذلك قوله تعالى: ﴿وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ [الإنسان: ٢١] ثم يغتسلون من الأخرى فتطيبُ أبشارهم، فعندها يقول لهم خزنتُها: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ وهذا يُروى معناه عن عليٍّ ﷺ[٢].

﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ﴾ أي: إذا دخلوا الجنة قالوا هذا، ﴿وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ﴾ أي: أرض الجنة. قيل: إنهم وَرِثوا الأرضَ التي كانت تكون لأهل النار لو كانوا مؤمنين؛ قاله أبو العالية وأبو صالح وقتادة والسُّدي وأكثرُ المفسرين وقيل: إنها أرضُ الدنيا على التقديم والتأخير[٣].

قوله تعالى: ﴿فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾ قيل: هو من قولهم، أي: نعم الثوابُ هذا. وقيل: هو مِن قول الله تعالى؛ أي: نعم ثواب المُحسنين هذا الذي أعطيتُهم[٤].

قوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ﴾ يا محمد ﴿حَآفِّينَ﴾ أي: مُحدِقين ﴿مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ﴾ في ذلك اليوم ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ مُتلذِّذين بذلك لا مُتعبدين به؛ أي: يُصلّون حولَ العرش شُكراً لربهم. والحافُّون أُخِذَ من حافَّات الشيء ونواحيه. قال الأخفش: واحدُهم حافٌّ. وقال الفرَّاء: لا واحدَ له إذْ لا يقع لهم الاسم إلا مجتمعين[٥].

ودخلت «مِن» على «حَوْل» لأنه ظرف، والفعل يتعدَّى إلى الظرف بحرف وبغير

---

(١) صحيح البخاري (٦٥٣٥)، وأخرجه أحمد (١١٠٩٥).

(٢) أخرجه الطبري ٢٠/ ٢٦٦ - ٢٦٧ عن علي ﷺ، وذكره الماوردي في النكت والعيون ٥/ ١٣٨ عن مقاتل.

(٣) النكت والعيون ٥/ ٢٨٧ ، وينظر إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٣ .

(٤) ذكره الرازي في تفسيره ٢٧/ ٢٣ عن مقاتل.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٣ .

حرف. وقال الأخفش[١]: «مِنْ» زائدة، أي: حافّين حولَ العرش. وهو كقولك: ما جاءني من أحد، فمن توكيد.

الثعلبي: والعرب تُدخل الباء أحياناً في التسبيح وتحذفها أحياناً، فيقولون: سبِّح بحمدِ ربِّك، وسبِّح حمداً لله؛ قال الله تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ [الأعلى: ١] وقال: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الواقعة: ٧٤]. ﴿وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ﴾ بين أهل الجنة والنار. وقيل: قُضي بين النبيين الذين جيء بهم مع الشهداء وبين أُممهم بالحقّ والعَدْل[٢].

﴿وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ﴾ أي: يقول المؤمنون: الحمدُ لله على ما أثابنا من نعمه وإحسانه ونَصَرنا على مَن ظَلَمنا.

وقال قتادة في هذه الآية: افتتح اللهُ أولَ الخَلْق بالحمد لله، فقال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ [الأنعام: ١] وختم بالحمد، فقال: ﴿وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ﴾[٣]. فلزم الاقتداء به، والأخذ في ابتداء كلِّ أمر بحمده وخاتمته بحمده.

وقيل: إن قول: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ من قول الملائكة، فعلى هذا يكون حَمْدُهم لله تعالى على عَدْله وقضائه[٤]. ورُوِيَ من حديث ابن عمر أن رسول الله ﷺ قرأ على المنبر آخر سورة «الزمر» فتحرَّك المِنبر مرَّتين[٥].

تم تفسير سورة «الزمر».

---

(١) في معاني القرآن ٢/ ٦٧٣.

(٢) تفسير الطبري ٢٠/ ٢٧٢.

(٣) أخرجه الطبري ٢٠/ ٢٧٣.

(٤) النكت والعيون ٥/ ١٣٩.

(٥) أخرجه أحمد (٥٤١٤)، ومسلم (٢٧٨٨) بنحوه، وأورده بلفظ المصنف الذهبي في الميزان ٢/ ٣٧٨ وفي إسناده عبّاد بن ميسرة، ضعَّفه أحمد ويحيى فيما قاله الذهبي.

تفسير سورة الزمر

وهى مكية .

قال النسائى: حدثنا محمد بن النضر بن مساور، حدثنا حماد، عن مروان أبى لبابة[(١)]، عن عائشة رضى الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ يصوم حتى نقول: ما يريد أن يفطر. ويفطر حتى نقول: ما يريد أن يصوم. وكان يقرأ فى كل ليلة بنى إسرائيل والزمر[(٢)].

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ① إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ ② أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ③ لَّوْ أَرَادَ اللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لاَّصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ④ ﴾ .

يخبر تعالى أن تنزيل هذا الكتاب ـ وهو القرآن العظيم ـ من عنده، تبارك وتعالى، فهو الحق الذى لا مرية فيه ولا شك، كما قال تعالى: **﴿ وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ . نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ . عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ . بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾** [الشعراء: ١٩٢ـ ١٩٥]. وقال: **﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ . لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾** [فصلت: ٤١، ٤٢]. وقال هاهنا: **﴿تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ ﴾** أى: المنيع الجناب، **﴿الْحَكِيمِ﴾** أى: فى أقواله وأفعاله، وشرعه، وقدره.

﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ﴾ أى: فاعبد الله وحده لا شريك له، وادع الخلق إلى ذلك، وأعلمهم أنه لا تصلح العبادة إلا له [وحده][(٣)]، وأنه[(٤)] ليس له شريك ولا عديل ولا نديد؛ ولهذا قال: **﴿أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾** أى: لا يقبل من العمل إلا ما أخلص فيه العامل لله وحده، لا شريك له.

وقال قتادة فى قوله: **﴿أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾**: شهادة أن لا إله إلا الله.

ثم أخبر تعالى عن عبّاد الأصنام من المشركين أنهم يقولون: **﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾** أى: إنما يحملهم على عبادتهم لهم أنهم عمدوا إلى أصنام اتخذوها على صور الملائكة المقربين فى زعمهم، فعبدوا[(٥)] تلك الصور تنزيلا لذلك منزلة عبادتهم الملائكة؛ ليشفعوا لهم عند الله فى

---

(١) فى ت: «روى النسائى بإسناده عن عائشة» .

(٢) النسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٤٤٤).

(٣) زيادة من ت، أ. (٤) فى ت: «فإنه» . (٥) فى أ: «فعدوا».

نصرهم ورزقهم، وما ينوبهم من أمر[١] الدنيا، فأما المعاد فكانوا جاحدين له كافرين به.

قال قتادة، والسدى، ومالك عن زيد بن أسلم، وابن زيد: **﴿إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾** أى: ليشفعوا لنا، ويقربونا عنده منزلة.

ولهذا كانوا يقولون فى تلبيتهم إذا حجوا فى جاهليتهم: «لبيك لا شريك لك[٢]، إلا شريكا هو لك، تملكه وما ملك». وهذه الشبهة هى التى اعتمدها المشركون فى قديم الدهر وحديثه، وجاءتهم الرسل، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، بردها والنهى عنها، والدعوة إلى إفراد العبادة لله وحده لا شريك له، وأن هذا شيء اخترعه المشركون من عند أنفسهم، لم يأذن الله فيه ولا رضى به، بل أبغضه ونهى عنه: **﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾** [النحل: ٣٦]. **﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾** [الأنبياء: ٢٥].

وأخبر أن الملائكة التى فى السموات من المقربين وغيرهم، كلهم عبيد خاضعون لله، لا يشفعون عنده إلا بإذنه لمن ارتضى، وليسوا عنده كالأمراء عند ملوكهم، يشفعون عندهم بغير إذنهم فيما أحبه الملوك وأبوه، **﴿ فَلا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الأَمْثَالَ﴾** [النحل: ٧٤]، تعالى الله عن ذلك.

وقوله: **﴿إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾** أى: يوم القيامة، **﴿فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾** أى: سيفصل بين الخلائق يوم معادهم، ويجزى كل عامل بعمله، **﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ[٣] لِلْمَلائِكَةِ أَهَؤُلاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ . قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾** [سبأ: ٤٠، ٤١].

وقوله: **﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾** أى: لا يرشد إلى الهداية من قصده[٤] الكذب والافتراء على الله، وقلبه كفار يجحد بآياته [وحججه][٥] وبراهينه.

ثم بين تعالى أنه لا ولد له كما يزعمه جهلة المشركين فى الملائكة، والمعاندون[٦] من اليهود والنصارى فى العزير وعيسى، فقال: **﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لاَّصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾** أى: لكان الأمر على خلاف ما يزعمون[٧]. وهذا شرط لا يلزم وقوعه ولا جوازه، بل هو محال، وإنما قصد تجهيلهم[٨] فيما ادعوه وزعموه، كما قال: **﴿ لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لاَّتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّا إِن كُنَّا فَاعِلِينَ ﴾** [الأنبياء: ١٧]، **﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾** [الزخرف: ٨١]، كل هذا من باب الشرط، ويجوز تعليق الشرط على المستحيل لقصد المتكلم.

وقوله: **﴿سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾** أى: تعالى وتنزه وتقدس عن أن يكون له ولد، فإنه الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذى كل شيء عبد لديه، فقير إليه، وهو الغنى عما سواه، الذى قد قهر الأشياء فدانت له وذلت وخضعت.

---

(١) فى س، أ: «أمور». (٢) فى أ: « لك لبيك». (٣) فى أ: «نقول».
(٤) فى أ: «قصد». (٥) زيادة من أ. (٦) فى أ: «المعاندين».
(٧) فى س: «تزعمون». (٨) فى أ: «بجهلهم».

﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُّسَمًّى أَلا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ (٥) خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّن بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلاثٍ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ (٦)﴾.

يخبر تعالى أنه الخالق لما فى السموات والأرض، وما بين ذلك من الأشياء، وأنه مالك الملك المتصرف فيه، يقلب ليله ونهاره، ﴿يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ﴾ أى: سخرهما يجريان[(١)] متعاقبين لا يقران[(٢)]، كل منهما يطلب الآخر طلبا حثيثا، كقوله: ﴿يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا﴾ [الأعراف: ٥٤] هذا معنى ما روى عن ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، والسدى، وغيرهم.

وقوله: ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أى: إلى مدة معلومة عند الله ثم تنقضى يوم القيامة. ﴿أَلا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ﴾ أى: مع عزته وعظمته وكبريائه هو غفار لمن عصاه ثم تاب وأناب إليه.

وقوله: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ أى: خلقكم مع اختلاف أجناسكم وأصنافكم وألسنتكم وألوانكم من نفس واحدة، وهو آدم، عليه السلام، ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾، وهى حواء، عليهما السلام، كقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ [النساء: ١].

وقوله: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾ أى: وخلق لكم من ظهور الأنعام ثمانية أزواج، وهى المذكورة فى سورة الأنعام: ﴿ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ﴾ [الأنعام: ١٤٣]، ﴿وَمِنَ الإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ﴾ [الأنعام: ١٤٤].

وقوله: ﴿يَخْلُقُكُمْ[(٣)] فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّن بَعْدِ خَلْقٍ﴾ أى: قدركم[(٤)] فى بطون أمهاتكم ﴿خَلْقًا مِّن بَعْدِ خَلْقٍ﴾أى: يكون أحدكم أولا نطفة، ثم يكون علقة، ثم يكون مضغة، ثم يخلق فيكون لحما وعظما وعصبا وعروقا، وينفخ فيه الروح فيصير خلقا آخر، ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤].

وقوله: ﴿فِي ظُلُمَاتٍ ثَلاثٍ﴾ يعنى: ظلمة الرحم، وظلمة المشيمة[(٥)] ـ التى هى كالغشاوة والوقاية على الولد ـ وظلمة البطن. كذا قال ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، وأبو مالك، والضحاك، وقتادة، والسدى، وابن[(٦)] زيد [وغيرهم][(٧)].

وقوله: ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ أى: هذا الذى خلق السموات والأرض وما بينهما وخلقكم وخلق آباءكم[(٨)]، هو الرب له الملك والتصرف[(٩)] فى جميع ذلك، ﴿لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾ أى: الذى لا تنبغى

---

(١) فى س: «تجريان».
(٢) فى أ: «لا يفتران».
(٣) فى ت، س: «يذرأكم».
(٤) فى ت، س: «يخلقكم»، وفى أ: «يذرأكم».
(٥) فى ت، س: «الشيمة».
(٦) فى ت، س: «وأبو».
(٧) زيادة من ت.
(٨) فى أ: «آباءكم وإياكم».
(٩) فى أ: «والتصريف».

العبادة إلا له وحده، ﴿فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ أي: فكيف تعبدون معه غيره؟ أين يُذْهَبُ بعقولكم؟!

﴿ إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ⑦ وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلاً إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ ⑧ ﴾.

يقول تعالى مخبرا عن نفسه تعالى: أنه[1] الغنى عما سواه من المخلوقات، كما قال موسى: ﴿إِن تَكْفُرُوا أَنتُمْ وَمَن فِي الأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٨].

وفى صحيح مسلم: «يا عبادى، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم، كانوا على أفجر قلب رجل منكم، ما نقص ذلك من ملكى شيئا»[2].

وقوله ﴿وَلا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾ أي: لا يحبه ولا يأمر به، ﴿وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ أي: يحبه منكم ويزدكم[3] من فضله.

﴿وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ أي: لا تحمل نفس عن نفس شيئا، بل كل مطالب بأمر نفسه، ﴿ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ أي: فلا تخفى عليه خافية.

وقوله: ﴿ وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ﴾ أي: عند الحاجة يضرع ويستغيث بالله وحده لا شريك له، كما قال تعالى: ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الإِنسَانُ كَفُورًا ﴾ [الإسراء: ٦٧]. ولهذا قال: ﴿ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ﴾ أي: فى حال الرفاهية ينسى ذلك الدعاء والتضرع، كما قال تعالى: ﴿ وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُ﴾ [يونس: ١٢].

﴿ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِ ﴾ أي: فى حال العافية يشرك بالله، ويجعل له[4] أندادا. ﴿ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلاً إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ أي: قل لمن هذه حاله وطريقته ومسلكه: تمتع بكفرك قليلا. وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد، كقوله: ﴿ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾ [إبراهيم: ٣٠]، وقوله: ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلاً ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [لقمان: ٢٤].

﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الأَلْبَابِ ⑨ ﴾.

---

(١) فى ت، أ: «بأنه».

(٢) صحيح مسلم برقم (٢٥٧٧) من حديث أبى ذر رضى الله عنه.

(٣) فى أ: «ويزيدكم». (٤) فى ت: «لله».

يقول تعالى: أمن هذه صفته كمن أشرك بالله وجعل له[١] أندادا؟ لا يستوون عند الله، كما قال تعالى: ﴿ لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ [آل عمران: ١١٣]، وقال هاهنا: ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا﴾ أى: فى حال سجوده وفى حال قيامه؛ ولهذا استدل بهذه الآية من ذهب إلى أن القنوت هو الخشوع فى الصلاة، ليس هو القيام وحده، كما ذهب إليه آخرون.

قال الثورى، عن فراس، عن الشعبى، عن مسروق، عن ابن مسعود أنه قال: القانت: المطيع لله ولرسوله.

وقال ابن عباس، والحسن، والسدى، وابن زيد: ﴿ آنَاءَ اللَّيْلِ﴾: جوف الليل.

وقال الثورى، عن منصور: بلغنا أن ذلك بين المغرب والعشاء.

وقال الحسن، وقتادة: ﴿ آنَاءَ اللَّيْلِ﴾: أوله وأوسطه وآخره.

وقوله: ﴿يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾ أى: فى حال عبادته خائف راج[٢]، ولابد فى العبادة من هذا وهذا، وأن يكون الخوف فى مدة الحياة هو الغالب؛ ولهذا قال: ﴿يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾، فإذا كان عند الاحتضار فليكن الرجاء هو الغالب عليه، كما قال[٣] الإمام عبد بن حميد فى مسنده.

حدثنا يحيى بن عبد الحميد، حدثنا جعفر بن سليمان، حدثنا ثابت، عن أنس قال: دخل رسول الله ﷺ على رجل وهو فى الموت، فقال له: «كيف تجدك[٤]؟» قال: أرجو وأخاف. فقال رسول الله ﷺ: «لا يجتمعان فى قلب عبد فى مثل هذا الموطن إلا أعطاه الله عز وجل الذى يرجو، وأمنه الذى يخافه».

ورواه الترمذى والنسائى فى «اليوم والليلة»، وابن ماجه، من حديث سيَّار بن حاتم، عن جعفر بن سليمان، به[٥]. وقال الترمذى: «غريب. وقد رواه بعضهم عن ثابت، عن أنس، عن النبى ﷺ مرسلا».

وقال[٦] ابن أبى حاتم، حدثنا عمر بن شبَّة[٧]، عن عبيدة النميرى، حدثنا أبو خلَف عبد الله بن عيسى الخزَّاز، حدثنا[٨] يحيى البكَّاء، أنه سمع ابن عمر قرأ: ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ ﴾؛ قال ابن عمر: ذاك عثمان بن عفان، رضى الله عنه.

وإنما قال ابن عمر ذلك؛ لكثرة صلاة أمير المؤمنين عثمان بالليل وقراءته، حتى إنه ربما قرأ القرآن فى ركعة، كما روى ذلك أبو عبيدة عنه، رضى الله عنه[٩]، وقال الشاعر[١٠].

---

(١) فى أ: «لله». (٢) فى ت: «خائفا راجيا». (٣) فى ت: «روى»

(٤) فى أ: «تحذر».

(٥) المنتخب لعبد بن حميد برقم (١٣٦٨) وسنن الترمذى برقم (٩٨٣) وسنن ابن ماجه برقم (٤٢٦١) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١٠٩٠١).

(٦) فى ت: «روى». (٧) فى أ: «شيبة». (٨) فى ت: «عن».

(٩) فى ت: «عنهما».

(١٠) هو حسان بن ثابت الأنصارى، والبيت فى ديوانه (ص ٢٤٨).

ضَحُّوا بأشْمَطَ عُنوانُ السُّجُودِ بِهِ يُقَطِّع الليلَ تَسْبيحا وقُرآنا

وقال[1] الإمام أحمد: كتب إلى الربيع بن نافع: حدثنا الهيثم بن حميد، عن زيد بن واقد، عن سليمان بن موسى، عن كثير بن مرة[2]، عن تميم الدارى قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ بمائة آية فى ليلة، كتب له قنوت ليلة».

وكذا رواه النسائى فى «اليوم والليلة» عن إبراهيم بن يعقوب، عن عبد الله بن يوسف والربيع بن نافع، كلاهما عن الهيثم بن حميد، به[3].

وقوله: ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾ أى: هل يستوى هذا والذى قبله ممن جعل لله أندادا ليضل عن سبيله؟! ﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُو الأَلْبَابِ﴾ أى: إنما يعلم الفرق بين هذا وهذا من له لب وهو العقل.

﴿ قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ (١٠) قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ (١١) وَأُمِرْتُ لأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ (١٢) ﴾.

يقول تعالى آمرا عباده المؤمنين بالاستمرار على طاعته وتقواه ﴿ قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ ﴾ أى: لمن أحسن العمل فى هذه الدنيا حسنة فى دنياهم وأخراهم.

وقوله: ﴿ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ﴾: قال مجاهد: فهاجروا فيها، وجاهدوا، واعتزلوا الأوثان.

وقال شريك، عن منصور، عن عطاء فى قوله: ﴿ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ﴾ قال: إذا دعيتم إلى المعصية فاهربوا، ثم قرأ: ﴿ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا﴾ [النساء: ٩٧] .

وقوله: ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾، قال الأوزاعى: ليس يوزن لهم ولا يكال[4]، إنما يغرف لهم غرفا.

وقال ابن جريج: بلغنى أنه لا يحسب عليهم ثواب عملهم قط، ولكن يزادون[5] على ذلك.

وقال السدى: ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾: يعنى فى الجنة.

وقوله: ﴿ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ﴾ أى: إنما أمرت بإخلاص العبادة لله وحده لا شريك له، ﴿ وَأُمِرْتُ لأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ﴾، قال السدى: يعنى من أمته ﷺ.

﴿ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٣) قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُ دِينِي (١٤) فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلا

---

(١) فى ت: «روى». (٢) فى ت: «بإسناده».
(٣) المسند (٤/١٠٣) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١٠٥٥٣) .
(٤) فى ت، أ: «يكال لهم». (٥) فى ت: «يزدادون».

ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ (١٥) لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ (١٦) ﴾.

يقول تعالى: قل يا محمد وأنت رسول الله: ﴿ **إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ** ﴾، وهو يوم القيامة. وهذا شَرْط، ومعناه التعريض بغيره بطريق الأولى والأحرى، ﴿ **قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُ دِينِي . فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِ** ﴾، وهذا أيضا تهديد وتَبَرٍّ[1] منهم، ﴿ **قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ** ﴾ أى: إنما الخاسرون كل الخسران[2] ﴿ **الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ** ﴾ أى: تفارقوا فلا التقاء لهم أبدا، سواء ذهب أهلوهم إلى الجنة وقد ذهبوا هم إلى النار، أو أن الجميع أسكنوا النار، ولكن لا اجتماع لهم ولا سرور، ﴿ **ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ** ﴾ أى: هذا هو الخسار البين الظاهر الواضح.

ثم وصف حالهم فى النار فقال: ﴿ **لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ** ﴾، كما قال: ﴿ **لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ** ﴾ [الأعراف: ٤١]، وقال: ﴿ **يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ** ﴾ [العنكبوت: ٥٥].

وقوله: ﴿ **ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ** ﴾ أى: إنما يَقص خبر هذا الكائن لا محالة ليخوف به عباده، لينزجروا عن المحارم والمآثم.

وقوله: ﴿ **يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ** ﴾ أى: اخشوا بأسى وسطوتى، وعذابى ونقمتى.

﴿ **وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادِ (١٧) الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُوْلَئِكَ هُمْ أُوْلُوا الأَلْبَابِ (١٨)** ﴾

قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، عن أبيه: ﴿ **وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا** ﴾ نزلت فى زيد بن عمرو بن نُفَيل، وأبى ذر، وسلمان الفارسى.

والصحيح أنها شاملةٌ لهم ولغيرهم، ممن اجتنب عبادة الأوثان، وأناب إلى عبادة الرحمن. فهؤلاء هم الذين لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة.

ثم قال: ﴿ **فَبَشِّرْ عِبَادِ . الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ** ﴾ أى: يفهمونه ويعملون بما فيه، كقوله تعالى لموسى حين آتاه التوراة: ﴿ **فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا** ﴾ [الأعراف: ١٤٥].

﴿ **أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ** ﴾ أى: المتصفون بهذه الصفة هم الذين هداهم الله فى الدنيا والآخرة[3]، أى: ذوو العقول الصحيحة، والفطَر المستقيمة.

﴿ **أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي النَّارِ (١٩) لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَعْدَ اللَّهِ لا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ (٢٠)** ﴾.

---

(١) فى أ: «وتبرى». (٢) فى ت، س: «الخاسرون». (٣) فى س: «والأخرى».

يقول تعالى: أفمن كتب الله أنه شَقِى تَقْدرُ تُنْقذُه مما هو فيه من الضلال والهلاك؟ أى: لا يهديه أحد من بعد الله ؛ لأنه من يضلل الله فلا هادى له، ومن يهده فلا مضل له.

ثم أخبر عن عباده السعداء أنهم لهم غرف فى الجنة، وهى القصور الشاهقة، ﴿مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ﴾ ،أى: طباق فوق طباق، مَبْنيات محكمات مزخرفات عاليات.

قال عبد الله ابن الإمام أحمد: حدثنا عباد بن يعقوب الأسدى، حدثنا محمد بن فضيل، عن عبد الرحمن بن إسحاق، عن النعمان بن سعد، عن على، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن فى الجنة لغرفاً يُرَى بطونها من ظهورها، وظهورها من بطونها». فقال أعرابى: لمن هى يا رسول الله؟ قال: «لمن أطاب الكلام، وأطعم الطعام، وصلى لله بالليل والناس نيام».

ورواه الترمذى من حديث عبد الرحمن بن إسحاق(١)، وقال: «حسن غريب، وقد تكلم بعض أهل العلم فيه من قبَل حفظه».

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا مَعْمَر، عن يحيى بن أبى كثير، عن ابن مُعانق ـ أو: أبى مُعَانق ـ عن أبى مالك الأشعرى قال: قال رسول الله ﷺ: «إن فى الجنة لغرفة(٢) يرى ظاهرها من باطنها، وباطنها من ظاهرها، أعدها الله لمن أطعم الطعام، وألان الكلام، وتابع الصيام، وصلى والناس نيام».

تفرد به أحمد من حديث عبد الله بن مُعَانق الأشعرى، عن أبى مالك، به(٣).

وقال(٤) الإمام أحمد: حدثنا قتيبة بن سعيد، حدثنا يعقوب بن عبد الرحمن، عن أبى حازم(٥)، عن سهل بن سعد أن رسول الله ﷺ قال: «إن أهل الجنة ليتراءون الغرفة فى الجنة كما تراءون الكوكب فى السماء». قال: فحدثتُ بذلك النعمان بن أبى عياش، فقال: سمعت أبا سعيد الخدرى يقول: «كما تراءون الكوكب الدرى(٦) فى الأفق الشرقى أو الغربى».

أخرجاه فى الصحيحين، من حديث أبى حازم(٧)، وأخرجاه أيضاً فى الصحيحين من حديث مالك، عن صفوان بن سليم، عن عطاء بن يَسَار، عن أبى سعيد، عن النبى ﷺ(٨).

وقال الإمام أحمد: حدثنا فَزارة، أخبرنى فُلَيح، عن هلال بن على، عن عطاء بن يسار، عن أبى هريرة، رضى الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «إن أهل الجنة ليتراءون فى الجنة أهل الغرف، كما تراءون الكوكب الدرى الغارب فى الأفق الطالع، فى تفاضل أهل الدرجات». فقالوا: يا رسول الله، أولئك النبيون؟ فقال: «بلى، والذى نفسى بيده، وأقوام آمنوا بالله وصدقوا الرسل».

---

(١) زوائد عبد الله على المسند (١/ ١٥٥) وسنن الترمذى برقم (١٩٨٤).

(٢) فى س، أ: «غرفة».

(٣) المسند (٥/ ٣٤٣).

(٤) فى ت: «وروى». (٥) فى ت: «بإسناده».

(٦) فى س، أ: «الذى».

(٧) المسند (٥/ ٣٤٠) وصحيح البخارى برقم (٦٥٥٥) وصحيح مسلم برقم (٢٨٣٠).

(٨) صحيح البخارى برقم (٦٥٥٦) وصحيح مسلم برقم (٢٨٣١).

ورواه الترمذي عن سُويد[١]، عن ابن المبارك، عن فُلَيح، به[٢]، وقال: حسن صحيح.

وقال[٣] الإمام أحمد: حدثنا أبو النضر وأبو كامل[٤] قالا: حدثنا زهير، حدثنا سعد الطائي، حدثنا أبو المدلّه ـ مولى أم المؤمنين ـ أنه سمع أبا هريرة يقول: قلنا: يا رسول الله، إنا إذا رأيناك رقت قلوبنا، وكنا من أهل الآخرة، فإذا فارقناك أعجبتنا الدنيا وشَممْنَا النساء والأولاد. قال: «لو أنكم تكونون على كل حال على الحال التى أنتم عليها عندى، لصافحتكم الملائكة بأكفهم، ولزارتكم فى بيوتكم. ولو لم تُذنبوا لجاء الله بقوم يذنبون كى يغفر لهم» قلنا: يا رسول الله، حَدّثنا عن الجنة، ما بناؤها؟ قال: «لَبِنَةٌ ذهب ولَبِنَةٌ فضّة، وملاطها المسك الأذْفَر، وحَصْباؤها اللؤلؤ والياقوت، وترابها الزعفران، من يدخلها ينعم ولا يَبْأس، ويخلد ولا يموت، لا تبلى ثيابه، ولا يفنى شبابه. ثلاثة لا تُرَدّ دعوتُهم: الإمام العادل، والصائم حتى يفطر، ودعوة المظلوم تُحمَل على الغَمام، وتفتح لها أبواب السموات، ويقول الرب: وعزتى لأنصرنك ولو بعد حين»[٥].

وروى الترمذي، وابنُ ماجه بعضَه، من حديث سعد[٦] أبى مجاهد الطائى ـ وكان ثقة ـ عن أبى المُدلّه ـ وكان ثقة ـ به[٧].

وقوله: ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾ أى: تسلك[٨] الأنهار بين خلال ذلك، كما يشاؤوا[٩] وأين أرادوا، ﴿وَعْدَ اللَّهِ﴾ أى: هذا الذى ذكرناه وَعْدٌ وعَدَه الله عباده المؤمنين ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَىٰ لأُولِي الأَلْبَابِ (٢١) أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ أُوْلَٰئِكَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ (٢٢)﴾.

يخبر تعالى: أن أصل الماء فى الأرض من السماء كما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾ [الفرقان: ٤٨]، فإذا أنزل الماء من السماء كَمَن فى الأرض، ثم يصرفه تعالى فى أجزاء الأرض كما يشاء، ويُنبعهُ عيوناً ما بين صغار وكبار، بحسب الحاجة إليها؛ ولهذا قال: ﴿فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الأَرْضِ﴾.

قال[١٠] ابن أبى حاتم ـ رحمه الله ـ: حدثنا على بن الحسين، حدثنا عمرو بن على، حدثنا أبوقتيبة عتبة بن يقظان، عن عكرمة[١١]، عن ابن عباس فى قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الأَرْضِ﴾، قال: ليس فى الأرض ماء إلا نزل من السماء، ولكن عروق فى الأرض

---

(١) فى أ: «يزيد».
(٢) المسند (٢/ ٣٣٩) وسنن الترمذى برقم (٢٥٥٦).
(٣) فى ت: «وروى». (٤) فى أ: «وأبو عامر».
(٥) المسند (٢/ ٣٠٤).
(٦) فى أ: «سعيد».
(٧) سنن الترمذى برقم (٣٥٩٨) وسنن ابن ماجه برقم (١٧٥٢) قال الترمذى: «هذا حديث حسن»، ثم أشار إلى رواية أحمد المطولة.
(٨) فى ت: «تلك». (٩) فى أ: «يشاؤون». (١٠) فى ت: «روى». (١١) فى ت: «بسنده».

تغيره، فذلك قوله تعالى: ﴿ فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الأَرْضِ﴾، فمن سره أن يعود الملح عذاب فليصعده.

وكذا قال سعيد بن جبير، وعامر الشعبى: أن كل ماء فى الأرض فأصله من السماء.

وقال سعيد بن جبير: أصله من الثلج، يعنى: أن الثلج يتراكم على الجبال، فيسكن فى قرارها، فتنبع العيون من أسافلها.

وقوله: ﴿ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ﴾ أى: ثم يخرج بالماء النازل من السماء والنابع من الأرض زرعا ﴿ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ﴾ أى: أشكاله وطعومه وروائحه ومنافعه، ﴿ثُمَّ يَهِيجُ ﴾ أى: بعد نضارته وشبابه يكتهل[(١)] ﴿ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ﴾، قد خالطه اليُبْس، ﴿ ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا﴾ أى: ثم يعود يابسا يتحطم، ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَىٰ لأُولِي الأَلْبَابِ﴾ أى: الذين يتذكرون بهذا فيعتبرون إلى أن الدنيا هكذا، تكون خَضِرةً نضرةً حسناء، ثم تعود عَجُوزا شوهاء، والشاب يعود شيخا هَرِما كبيرا ضعيفا [قد خالطه اليبس][(٢)]، وبعد ذلك كله الموت. فالسعيد من كان حاله بعده إلى خير، وكثيراً ما يضرب الله تعالى مثل الحياة الدنيا بما ينزل الله من السماء من ماء، وينبت به زروعا وثمارا، ثم يكون بعد ذلك حُطاما، كما قال تعالى: ﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾ [الكهف: ٤٥].

وقوله: ﴿ أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ﴾ أى: هل يستوى هذا ومن هو قاسى القلب بعيد من الحق؟! كقوله تعالى: ﴿ أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢]؛ ولهذا قال: ﴿ فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ﴾ أى: فلا تلين عند ذكره[(٣)]، ولا تخشع ولا تعى ولا تفهم، ﴿ أُوْلَئِكَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾.

﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٢٣) ﴾.

هذا مَدْحٌ من الله ـ عز وجل ـ لكتابه القرآن العظيم المنزل على رسوله الكريم، قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ﴾ قال مجاهد: يعنى القرآن كله متشابه مثانى.

وقال قتادة: الآية تشبه الآية، والحرف يشبه الحرف.

وقال الضحاك: ﴿ مَّثَانِيَ﴾: ترديد القول ليفهموا عن ربهم عز وجل.

وقال عكرمة، والحسن: ثنَّى الله فيه القضاء ـ زاد الحسن: تكون السورة فيها آية، وفى السورة الأخرى آية تشبهها.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿مَّثَانِيَ﴾: مُرَدَّد، رُدِّد موسى فى القرآن، وصالح وهود

(١) فى ت، أ: «يتكهل». (٢) زيادة من ت، أ. (٣) فى ت، أ: «ذكر الله».

والأنبياء، عليهم السلام، فى أمكنة كثيرة.

وقال سعيد بن جبير، عن ابن عباس: ﴿مَّثَانِيَ﴾ قال: القرآن يشبه بعضه بعضا، ويُرَدُّ[1] بعضه على بعض.

وقال بعض العلماء: ويُرْوى عن سفيان بن عيينة معنى قوله: ﴿مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ﴾: أنّ سياقات القرآن تارةً تكونُ فى معنى واحد، فهذا من المتشابه، وتارةً تكونُ بذكر الشيء وضده، كذكر المؤمنين ثم الكافرين، وكصفة الجنة ثم صفة النار، وما أشبه هذا، فهذا من المثانى، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ . وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾ [الانفطار: ١٣، ١٤]، وكقوله: ﴿ كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ﴾ [المطففين: ٧]، إلى أن قال: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ﴾ [المطففين: ١٨] ، ﴿هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ﴾[ص: ٤٩]. إلى أن قال: ﴿ هَذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ﴾ [ص: ٥٥]، ونحو هذا من السياقات، فهذا كله من[2] المثانى، أى: فى معنيين اثنين، وأما إذا كان السياق كله فى معنى واحد يشبه بعضه بعضا، فهو المتشابه وليس هذا من المتشابه المذكور فى قوله: ﴿مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾ [آل عمران: ٧]، ذلك معنى آخر.

وقوله: ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ أى: هذه صفة الأبرار، عند سماع كلام الجبار، المهيمن العزيز الغفار، لما يفهمون منه من الوعد والوعيد. والتخويف والتهديد، تقشعر منه جلودهم من الخشية والخوف، ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ لما يرجون ويُؤمِّلون من رحمته[3] ولطفه، فهم مخالفون لغيرهم من الكفار[4] من وجوه:

أحدها: أن سماع هؤلاء هو تلاوة الآيات، وسماع أولئك نَغَمات لأبيات، من أصوات القَيْنات.

الثانى: أنهم إذا تليت عليهم آيات الرحمن خروا سجدا وبُكيا، بأدب وخشية، ورجاء ومحبة، وفهم وعلم، كما قال: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ . الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ . أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الأنفال: ٢ ـ ٤] وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ [الفرقان: ٧٣] أى: لم يكونوا عند سماعها متشاغلين لاهين عنها، بل مصغين إليها، فاهمين بصيرين بمعانيها؛ فلهذا إنما يعملون بها، ويسجدون عندها عن بصيرة لا عن جهل ومتابعة لغيرهم [أى يرون غيرهم قد سجد فيسجدون تبعا له][5].

الثالث: أنهم يلزمون الأدب عند سماعها، كما كان الصحابة، رضى الله عنهم، عند سماعهم كلام الله من تلاوة رسول الله ﷺ تقشعر جلودهم، ثم تلين مع قلوبهم إلى ذكر الله. لم يكونوا يتصارخُون ولا يتكلّفون ما ليس فيهم، بل عندهم من الثبات والسكون والأدب والخشية ما لا يلحقهم أحد فى ذلك؛ ولهذا فازوا بالقِدح المُعَلّى فى الدنيا والآخرة.

قال عبد الرزاق: حدثنا مَعْمَر قال: تلا قتادة، رحمه الله: ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ

(١) فى أ: «يردد». (٢) فى أ: «فى». (٣) فى ت: «من رحمة الله».
(٤) فى ت، س، أ: «الفجار». (٥) زيادة من أ.

﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ قال: هذا نعت أولياء الله، نعتهم الله بأن تقشعر جلودهم، وتبكى أعينهم، وتطمئن قلوبهم إلى ذكر الله، ولم ينعتهم بذهاب عقولهم والغشيان عليهم، إنما هذا فى أهل البدع، وهذا من الشيطان.

وقال السُّدِّى: **﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾** أى: إلى وعد الله.

وقوله: **﴿ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾** أى: هذه صفة من هداه الله، ومن كان على خلاف ذلك فهو ممن أضله الله، **﴿وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾** [الرعد: ٣٣].

﴿أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ (٢٤) كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ (٢٥) فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٢٦)﴾.

يقول تعالى: **﴿أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾**، ويُقَرَّعُ فيقال له ولأمثاله من الظالمين: **﴿ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾**، كمن يأتى آمنا يوم القيامة؟! كما قال تعالى: **﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾** [الملك: ٢٢]، وقال: **﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ﴾** [القمر: ٤٨]، وقال [تعالى][١]: **﴿أَفَمَن يُلْقَىٰ فِي النَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾** [فصلت: ٤٠]، واكتفى فى هذه الآية بأحد القسمين عن الآخر، كقول الشاعر[٢]:

فَمَا أَدْرى إذَا يَمَّمْتُ أرْضاً ... أريدُ الخيرَ: أيّهما يَلينى؟

يعنى: الخير أو الشر.

وقوله: **﴿كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾** يعنى: القرون الماضية المكذبة للرسل، أهلكهم الله بذنوبهم، وما كان لهم من الله من واق.

وقوله: **﴿فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾** أى: بما أنزل بهم من العذاب والنكال وتشفى[٣] المؤمنين بهم، فليحذر المخاطبون من ذلك، فإنهم قد كذبوا أشرف الرسل، وخاتم الأنبياء، والذى أعده الله لهم فى الآخرة من العذاب الشديد أعظمُ مما أصابهم فى الدنيا؛ ولهذا قال: **﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾**.

﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٧) قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (٢٨) ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٢٩) إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ (٣٠) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ (٣١)﴾ .

---

(١) زيادة من ت.

(٢) البيت فى تفسير الطبرى (٢٢/٩٨).

(٣) فى س، أ: «يشفى».

يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ أى: بينا للناس فيه بضرب الأمثال، ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ ، فإن المثل يُقرّب المعنى إلى الأذهان، كما قال تعالى: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلاً مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ [الروم: ٢٨] أى: تعلمونه من أنفسكم، وقال: ﴿ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤٣].

وقوله: ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ﴾ أى: هو قرآن بلسان عربى مبين، لا اعوجاج فيه ولا انحراف ولا لبس، بل هو بيان ووضوح وبرهان، وإنما جعله الله [عز وجل][(١)] كذلك، وأنزله بذلك، ﴿لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أى: يحذرون ما فيه من الوعيد، ويعملون بما[(٢)] فيه من الوعد[(٣)].

ثم قال: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ﴾ أى: يتنازعون فى ذلك العبد المشترك بينهم، ﴿وَرَجُلاً سَلَمًا لِّرَجُلٍ﴾ أى: خالصا لرجل، لا يملكه أحد غيره، ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً﴾ أى: لا يستوى هذا وهذا. كذلك لا يستوى المشرك الذى يعبد آلهة مع الله، والمؤمن المخلص الذى لا يعبد إلا الله وحده لا شريك له. فأين هذا من هذا؟

قال ابن عباس، ومجاهد، وغير واحد: هذه الآية ضربت مثلا للمشرك والمخلص، ولما كان هذا المثلُ ظاهرا بَيِّنا جليا، قال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ أى: على إقامة الحجة عليهم، ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ أى: فلهذا يشركون بالله.

وقوله: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾: هذه الآية من الآيات التى استشهد بها الصديق [رضى الله عنه][(٤)] عند موت الرسول[(٥)] ﷺ، حتى تحقق الناس موته، مع قوله: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤].

ومعنى هذه الآية: ستنقلون من هذه الدار لا محالة، وستجتمعون عند الله فى الدار الآخرة، وتختصمون فيما أنتم فيه فى الدنيا من التوحيد والشرك بين يدى الله عز وجل، فيفصل بينكم، ويفتح بالحق وهو الفتاح العليم، فينجى المؤمنين المخلصين الموحدين، ويعذب الكافرين الجاحدين المشركين المكذبين.

ثم إن هذه الآية ـ وإن كان سياقها فى المؤمنين والكافرين، وذِكْر الخصومة بينهم فى الدار الآخرة ـ فإنها شاملة لكل متنازعين فى الدنيا، فإنه تعاد عليهم الخصومة فى الدار الآخرة.

قال[(٦)] ابن أبى حاتم، رحمه الله: حدثنا محمد بن عبد الله بن يزيد المقرئ، حدثنا سفيان، عن محمد بن عمرو، عن ابن حاطب ـ يعنى يحيى بن عبد الرحمن ـ عن ابن الزبير، عن الزبير قال: لما نزلت: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ قال الزبير: يا رسول الله، أتكرر علينا الخصومة؟ قال: «نعم». قال: إن الأمر إذاً لشديد.

وكذا رواه الإمام أحمد عن سفيان، وعنده زيادة: ولما نزلت: ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾

(١) زيادة من أ. (٢) فى ت، أ: «لما». (٣) فى ت، أ: «الوعيد».
(٤) زيادة من ت. (٥) فى ت: «رسول الله». (٦) فى ت: «روى».

[التكاثر: ٨] قال الزبير: أى رسول الله، أى نعيم نسأل عنه؟ وإنما ـ يعنى: هما[١] الأسودان: التمر والماء ـ قال: «أما إن ذلك سيكون».

وقد روى هذه الزيادة الترمذى وابن ماجه، من حديث سفيان، به[٢]. وقال الترمذى: حسن.

وقال الإمام أحمد أيضا: حدثنا ابن نمير، حدثنا محمد ـ يعنى ابن عمرو ـ عن يحيى بن عبد الرحمن بن حاطب، عن عبد الله بن الزبير، عن الزبير بن العوام[٣] قال: لما نزلت هذه السورة على رسول الله ﷺ: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ . ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ قال الزبير: أى رسول الله، أيكرر علينا ما كان بيننا فى الدنيا مع خواص الذنوب؟ قال: «نعم، ليكررن عليكم، حتى يُؤدَّى إلى كل ذى حق حقه». قال الزبير: والله إن الأمر لشديد.

ورواه الترمذى من حديث محمد بن عمرو، به[٤] وقال: حسن صحيح.

وقال[٥] الإمام أحمد: حدثنا قتيبة بن سعيد، حدثنا ابن لَهِيعة، عن أبى عُشَّانة، عن عقبة بن عامر قال: قال رسول الله ﷺ: «أول الخصمين يوم القيامة جاران». تفرد به أحمد[٦].

وقال الإمام أحمد: حدثنا حسن بن موسى، حدثنا ابن لهيعة، حدثنا دراج، عن أبى الهيثم[٧]، عن أبى سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «والذى نفسى بيده، إنه ليختصم[٨]، حتى الشاتان فيما انتطحتا» تفرد به أحمد[٩].

وفى المسند عن أبى ذر، رضى الله عنه [أنه][١٠] قال: رأى رسول الله ﷺ شاتين ينتطحان، فقال: «أتدرى فيم ينتطحان يا أبا ذر؟» قلت: لا. قال: «لكن الله يدرى وسيحكم بينهما»[١١].

وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا سهل بن بحر، حدثنا حيان بن أغلب، حدثنا أبى، حدثنا ثابت عن أنس[١٢] [رضى الله عنه][١٣]، قال: قال رسول الله ﷺ: «يجاء بالإمام الخائن[١٤] يوم القيامة، فتخاصمه الرعية فيفلجون عليه، فيقال له: سد ركنا من أركان جهنم».

ثم قال: الأغلب بن تميم ليس بالحافظ[١٥].

---

(١) فى أ: «بهما».

(٢) المسند (١/ ١٦٤) وسنن الترمذى برقم (٣٣٥٦) وسنن ابن ماجه برقم (٤١٥٩).

(٣) فى م: «العوام رضى الله عنه».

(٤) المسند (١/ ١٦٧) وسنن الترمذى برقم (٣٢٣٦).

(٥) فى ت: «وروى».

(٦) المسند (٤/ ١٥١) ورواه الطبرانى فى المعجم الكبير (١٧/ ٣٠٣) من طريق ابن وهب عن عمرو بن الحارث عن أبى عشانة به.

(٧) فى ت: «وروى أيضا». (٨) فى أ: «يختصم».

(٩) المسند (٣/ ٢٩) ودراج أبو السمح عن أبى الهيثم ضعيف.

(١٠) زيادة من ت.

(١١) المسند (٥/ ١٦٢).

(١٢) فى ت: «وروى الحافظ أبو بكر البزار بسنده عن أنس». (١٣) زيادة من أ. (١٤) فى أ: «الجائر».

(١٥) مسند البزار برقم (١٦٤٤) «كشف الأستار» ولفظه: «يجاء بالإمام الجائر يوم القيامة فيخاصمه الرعية، فيفلحوا عليه.» ثم ذكر بقية الحديث كما هو هنا.

وقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس، رضى الله عنهما[١]: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾، يقول: يخاصم الصادق الكاذب، والمظلوم الظالم، والمهدى الضال، والضعيف المستكبر[٢].

وقد روى ابن منده فى كتاب «الروح»، عن ابن عباس أنه قال: يختصم الناس يوم القيامة، حتى تختصم الروح مع الجسد، فتقول الروح للجسد: أنت فعلت. ويقول الجسد للروح: أنت أمرت، وأنت سولت. فيبعث الله ملكا يفصل بينهما، فيقول [لهما][٣]: إن مثلكما كمثل رجل مقعد بصير وآخر ضرير، دخلا بستانا، فقال المقعد للضرير: إنى أرى هاهنا ثمارا، ولكن لا أصل إليها. فقال له الضرير: اركبنى فتناولها، فركبه فتناولها، فأيهما المعتدى؟ فيقولان: كلاهما. فيقول لهما الملك. فإنكما قد حكمتما على أنفسكما. يعنى: أن الجسد للروح كالمطية، وهو راكبه.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا جعفر بن أحمد بن عَوْسَجة، حدثنا ضرار، حدثنا أبو سلمة الخزاعى منصور بن سلمة، حدثنا القمى ـ يعنى يعقوب بن عبد الله ـ عن جعفر بن المغيرة، عن سعيد ابن جبير، عن ابن عمر[٤] [رضى الله عنهما][٥] قال: نزلت هذه الآية، وما نعلم فى أى شىء نزلت: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ [قال][٦]: قلنا: من نخاصم؟ ليس بيننا وبين أهل الكتاب خصومة، فمن نخاصم؟ حتى وقعت الفتنة، فقال ابن عمر: هذا الذى وعدنا ربنا ـ عز وجل ـ نختصم فيه.

ورواه النسائى عن محمد بن عامر، عن منصور بن سلمة، به[٧].

وقال أبو العالية [فى قوله][٨]: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ قال: يعنى أهل القبلة.

وقال ابن زيد: يعنى أهل الإسلام وأهل الكفر.

وقد قدمنا أن الصحيح العموم، والله أعلم.

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ (٣٢) وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (٣٣) لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ (٣٤) لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ (٣٥)﴾.

يقول تعالى مخاطبا للمشركين الذين افتروا على الله، وجعلوا معه آلهة أخرى، وادعوا أن الملائكة بنات الله، وجعلوا لله ولدا ـ تعالى الله عن قولهم علوا كبيرا ـ ومع هذا كذبوا بالحق إذ جاءهم على ألسنة رسل الله، صلوات الله [وسلامه][٩] عليهم أجمعين، ولهذا قال: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ﴾ أى: لا أحد أظلم من هذا؛ لأنه جمع بين طرفى الباطل،

---

(١) فى ت: «عنه». (٢) فى أ: «المتكبر». (٣) زيادة من أ.
(٤) فى ت: «وروى ابن أبى حاتم بسنده إلى ابن عمر». (٥) زيادة من أ. (٦) زيادة من أ.
(٧) النسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٤٤٧).
(٨) زيادة من ت، أ. (٩) زيادة من أ.

كذب على الله، وكَذَّب رسول الله، قالوا الباطل وردوا الحق؛ ولهذا قال متوعدا لهم: ﴿ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ﴾ وهم الجاحدون المكذبون.

ثم قال: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ﴾ قال مجاهد، وقتادة، والربيع بن أنس، وابن[١] زيد: ﴿الَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ ﴾: هو الرسول.

وقال السدى: هو جبريل عليه السلام، ﴿ وَصَدَّقَ بِهِ﴾ يعنى: محمدا ﷺ.

وقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: ﴿ وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ﴾ قال: من جاء بلا إله إلا الله، ﴿وَصَدَّقَ بِهِ﴾ يعنى: رسول الله ﷺ.

وقرأ الربيع بن أنس: «الذين جاؤوا [٢]بالصدق» يعنى: الأنبياء، «وصدقوا به» يعنى: الأتباع.

وقال ليث بن أبى سليم، عن مجاهد: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ﴾ قال: أصحاب القرآن المؤمنون يجيؤون يوم القيامة، فيقولون: هذا ما أعطيتمونا، فعملنا فيه بما أمرتمونا.

وهذا القول عن مجاهد يشمل كل المؤمنين؛ فإن المؤمن يقول الحق ويعمل به، والرسول ﷺ أولى الناس بالدخول فى هذه الآية على هذا التفسير، فإنه جاء بالصدق[٣]، وصدق المرسلين، وآمن بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون، كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ﴾ هو رسول الله ﷺ، ﴿وَصَدَّقَ بِهِ﴾: المسلمون[٤].

﴿أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ قال ابن عباس: اتقوا الشرك.

﴿لَهُم مَّا يَشَاؤُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ يعنى: فى الجنة، مهما طلبوا وجدوا، ﴿ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ . لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾. كما قال فى الآية الأخرى: ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ [الأحقاف: ١٦].

﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٣٦) وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّضِلٍّ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انتِقَامٍ (٣٧) وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ (٣٨) قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣٩) مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ (٤٠) ﴾ .

---

(١) فى أ: «وأبو». (٢) فى أ: «والذى جاء».
(٣) فى أ: «جاء بالحق». (٤) فى ت، س، أ: «قال المسلمون».

يقول تعالى: ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ ﴾ ـ وقرأ بعضهم: «عباده» ـ يعنى أنه تعالى يكفى من عبده وتوكل عليه.

وقال[١] ابن أبى حاتم هاهنا: حدثنا أبو عبيد الله[٢] ابن أخى ابن وهب، حدثنا عمى، حدثنا أبوهانئ، عن أبى على عمرو بن مالك الجنبى[٣]، عن فضالة بن عبيد الأنصارى؛ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «أفلح من هدى إلى الإسلام، وكان عيشه كفافا، وقَنَعَ به».

ورواه الترمذى والنسائى، من حديث حيوة بن شريح، عن أبى هانئ الخولانى، به[٤]. وقال الترمذى: صحيح.

﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ﴾ يعنى: المشركين يخوفون الرسول ويتوعدونه بأصنامهم وآلهتهم التى يدعونها[٥] من دونه؛ جهلا منهم وضلالا؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ . وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّضِلٍّ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انتِقَامٍ﴾ أى: منيع الجناب لا يضام، من استند إلى جنابه ولجأ إلى بابه، فإنه العزيز الذى لا أعز منه، ولا أشد انتقاما منه، ممن كفر به وأشرك وعاند رسوله ﷺ.

وقوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ يعنى: [أن][٦] المشركين كانوا يعترفون بأن الله هو الخالق للأشياء كلها، ومع هذا يعبدون معه غيره، مما[٧] لا يملك لهم ضرا ولا نفعا؛ ولهذا قال: ﴿قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ﴾ أى: لا تستطيع شيئا من الأمر[٨].

وذكر ابن أبى حاتم هاهنا حديث قيس بن الحجاج، عن حنش الصنعانى، عن[٩] ابن عباس مرفوعا: «احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، تعرف إلى الله فى الرخاء يعرفك فى الشدة، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن يضروك بشىء لم يكتبه الله عليك لم يضروك، ولو اجتمعوا على أن ينفعوك بشىء لم يكتبه الله لك لم ينفعوك، جفت الصحف، ورفعت الأقلام، واعمل لله بالشكر فى اليقين، واعلم أن الصبر على ما تكره خيرا كثيرا، وأن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسرا»[١٠].

﴿ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ﴾ أى: الله كافىّ، عليه توكلت وعليه يتوكل المتوكلون، كما قال هود، عليه السلام، حين قال له قومه: ﴿إِن نَّقُولُ إِلاَّ اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ . مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لا تُنظِرُونِ . إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَابَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [هود: ٥٤ ـ ٥٦].

---

(١) فى ت: «وروى». (٢) فى أ: «عبد الله». (٣) فى أ: «الحسينى».
(٤) ورواه الحاكم فى المستدرك (٤/ ١٢٢) والطبرانى فى المعجم الكبير (١٨/ ٣٠٦) من طريق عبد الله بن وهب عن أبى هانئ به.
(٥) فى أ: «يدعون بها». (٦) زيادة من ت، أ. (٧) فى ت، س، أ: «ممن».
(٨) فى ت: «الأمور». (٩) فى ت: «حديثا بسنده إلى».
(١٠) رواه أحمد فى مسنده (١/ ٢٩٣) والترمذى فى السنن برقم (٢٥١٦) من طريق الليث بن سعد عن قيس بن الحجاج به، قال الترمذى: «حديث حسن صحيح».

قال ابن أبى حاتم: حدثنا أحمد بن عصام الأنصارى، حدثنا عبد الله بن بكر[١] السهمى، حدثنا محمد بن حاتم، عن أبى المقدام ـ مولى آل عثمان ـ عن محمد بن كعب القرظى، حدثنا ابن عباس[٢] [رضى الله عنهما][٣] ـ رفع الحديث إلى رسول الله ﷺ قال: «من أحب أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله، ومن أحب أن يكون أغنى الناس فليكن بما فى يد الله أوثق [منه][٤] بما فى يديه، ومن أحب أن يكون أكرم الناس، فليتق الله»[٥].

وقوله: ﴿قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ أى: على طريقتكم، وهذا تهديد ووعيد. ﴿إِنِّي عَامِلٌ﴾ أى: على طريقتى ومنهجى، ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ أى: ستعلمون غب ذلك ووباله ﴿مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ أى: فى الدنيا، ﴿وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ أى: دائم مستمر، لا محيد له عنه. وذلك يوم القيامة.

﴿إِنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ (٤١) اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٤٢)﴾.

يقول تعالى مخاطبا رسوله محمدا ﷺ: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ يعنى: القرآن ﴿لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ﴾ أى: لجميع الخلق من الإنس والجن لتنذرهم به، ﴿فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِ﴾ أى: فإنما يعود نفع ذلك إلى نفسه، ﴿وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ أى: إنما يرجع وبال ذلك على نفسه، ﴿وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ أى: بموكل أن يهتدوا، ﴿إِنَّمَا أَنتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [هود: ١٢]، ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾[الرعد: ٤٠].

ثم قال تعالى مخبرا عن نفسه الكريمة بأنه المتصرف فى الوجود بما يشاء، وأنه يتوفى الأنفس الوفاة الكبرى، بما يرسل من الحفظة الذين يقبضونها من الأبدان، والوفاة الصغرى عند المنام، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ. وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ [الأنعام: ٦٠، ٦١]. فذكر الوفاتين: الصغرى ثم الكبرى. وفى هذه الآية ذكر الكبرى ثم الصغرى؛ ولهذا قال: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾، فيه دلالة على أنها تجتمع فى الملأ الأعلى، كما ورد بذلك الحديث المرفوع الذى رواه ابن منده وغيره. وفى صحيحى البخارى ومسلم من حديث عبيد الله[٦] بن عمر، عن سعيد بن أبى سعيد، عن أبيه، عن أبى هريرة، رضى الله عنه،

---

(١) فى أ: «بكير».
(٢) فى ت: «وروى ابن أبى حاتم بإسناده إلى ابن عباس».
(٣) زيادة من ت.
(٤) زيادة من ت، س، أ.
(٥) ورواه أبو نعيم فى الحلية (٣/٢١٨) من طرق عن أبى المقدام به، ورواه ابن عدى فى الكامل (٥/٢٤١) من طريق شيبان عن عيسى ابن ميمون عن محمد بن كعب القرظى به.
(٦) فى أ: «عبد الله».

الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أوى أحدكم إلى فراشه فلْينْفُضْه بداخلة إزاره، فإنه لا يدرى ما خلفه عليه، ثم ليقل: باسمك ربى وضعت جنبى، وبك أرفعه، إن أمسكت نفسى فارحمها، وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين»[١].

وقال بعض السلف [رحمهم الله][٢]: يقبض أرواح الأموات إذا ماتوا، وأرواح الأحياء إذا ناموا، فتتعارف ما شاء الله تعالى أن تتعارف، ﴿فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ﴾ التى قد ماتت، ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى.

قال السدى: إلى بقية أجلها. وقال ابن عباس: يمسك أنفس الأموات، ويرسل أنفس الأحياء، ولا يغلط. ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ (٤٣) قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا لَّهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٤٤) وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (٤٥)﴾.

يقول تعالى ذاما للمشركين فى اتخاذهم شفعاء من دون الله، وهم الأصنام والأنداد، التى اتخذوها من تلقاء أنفسهم بلا دليل ولا برهان حداهم على ذلك، وهى لا تملك شيئا من الأمر، بل وليس لها عقل تعقل به، ولا سمع تسمع به، ولا بصر تبصر به، بل هى جمادات أسوأ حالا من الحيوان بكثير[٣].

ثم قال: قل: أى يا محمد لهؤلاء الزاعمين أن ما اتخذوه[٤] شفعاء لهم عند الله، أخبرهم أن الشفاعة لا تنفع عند الله إلا لمن ارتضاه وأذن له، فمرجعها كلها إليه، ﴿مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

﴿لَّهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أى: هو المتصرف فى جميع ذلك، ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أى: يوم القيامة ،فيحكم بينكم بعدله، ويجزى كلا بعمله.

ثم قال تعالى ذاما للمشركين أيضا: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ﴾ أى: إذا قيل: لا إله إلا الله ﴿اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ قال مجاهد: ﴿اشْمَأَزَّتْ﴾: انقبضت.

وقال السدى: نفرت. وقال قتادة: كفرت واستكبرت. وقال مالك، عن زيد بن أسلم: استكبرت. كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الصافات: ٣٥]، أى: عن المتابعة والانقياد لها. فقلوبهم[٥] لا تقبل الخير، ومن لم يقبل الخير يقبل الشر؛ ولهذا قال: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ﴾ أى: من الأصنام والأنداد، قاله مجاهد، ﴿إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ أى: يفرحون ويسرون.

---

(١) صحيح البخارى برقم (٦٣٢٠) وصحيح مسلم برقم (٢٧١٤).

(٢) زيادة من ت.

(٣) فى س: «بكبير».

(٤) فى ت: «ما اتخذوا».

(٥) فى ت: «بقلوبهم».

﴿ قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٤٦) وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لافْتَدَوْا بِهِ مِن سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ (٤٧) وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٤٨) ﴾.

يقول تعالى بعد ما ذكر عن المشركين ما ذكر، من المذمة لهم فى حبهم الشرك، ونفرتهم عن التوحيد، ﴿قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ أى: ادع أنت الله وحده لا شريك له، الذى خلق السموات والأرض وفطرها، أى: جعلها على غير مثال سبق، ﴿عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ أى: السر والعلانية، ﴿أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ أى: فى دنياهم[١]، ستفصل بينهم يوم معادهم ونشورهم، وقيامهم من قبورهم.

وقال[٢] مسلم فى صحيحه: حدثنا عبد بن حميد، حدثنا عمر بن يونس، حدثنا عكرمة بن عمار، حدثنا يحيى بن أبى كثير، حدثنى أبو سلمة[٣] بن عبد الرحمن قال: سألت عائشة [رضى الله عنها][٤]: بأى شىء كان رسول الله ﷺ يفتتح صلاته إذا قام من الليل؟ قالت: كان إذا قام من الليل افتتح صلاته: «اللهم، رب جبريل وميكائيل وإسرافيل، فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدنى لما اختلف فيه من الحق بإذنك، إنك تهدى من يشاء إلى صراط مستقيم»[٥].

وقال[٦] الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا حماد بن سلمة، وأخبرنا سهيل بن أبى صالح وعبد الله ابن عثمان بن خُثَيم، عن عون بن عبد الله بن عتبة بن مسعود، عن عبد الله بن مسعود[٧] أن رسول الله ﷺ قال: «من قال: اللهم فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، إنى أعهد إليك فى هذه الدنيا[٨] أنى أشهد أن لا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك، وأن محمدا عبدك ورسولك، فإنك إن تكلنى إلى نفسى تقربنى من الشر وتباعدنى من الخير، وإنى لا أثق إلا برحمتك، فاجعل لى عندك عهدا تُوَفِّينيه يوم القيامة، إنك لا تخلف الميعاد، إلا قال الله، عز وجل، لملائكته يوم القيامة: إن عبدى قد عهد إلى عهدا فأوفوه إياه، فيدخله الله الجنة».

قال سهيل: فأخبرت القاسم بن عبد الرحمن أن عونا أخبر بكذا وكذا؟ فقال: ما فى أهلنا جارية إلا وهى تقول هذا فى خدرها. انفرد به الإمام أحمد[٩].

وقال[١٠] الإمام أحمد: حدثنا حسن، حدثنا ابن لَهِيعة، حدثنى حُيَىّ[١١] بن عبد الله؛ أن

---

(١) فى أ: «دينا لهم».
(٢) فى ت: «روى».
(٣) فى ت: «عن أبى سلمة».
(٤) زيادة من ت.
(٥) صحيح مسلم برقم (٧٧٠).
(٦) فى ت: «وروى».
(٧) فى ت، أ: «مسعود رضى الله عنه».
(٨) فى أ: «فى الحياة الدنيا».
(٩) المسند (١/ ٤١٢) قال الهيثمى فى المجمع (١٠/ ١٧٤): «رجاله رجال الصحيح».
(١٠) فى ت: «وروى».
(١١) فى ت: «يحيى».

أبا عبد الرحمن حدثه قال: أخرج لنا عبد الله بن عمرو قرطاسا وقال: كان رسول الله ﷺ يعلمنا يقول: «اللهم فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت رب كل شيء، وإله كل شيء، أشهد أن لا إله إلا أنت، وحدك لا شريك لك، وأن محمدا عبدك ورسولك، والملائكة يشهدون، أعوذ بك من الشيطان وشركه، وأعوذ بك أن أقترف على نفسى إثما، أو أجره إلى[١] مسلم».

قال أبو عبد الرحمن: كان رسول الله ﷺ يعلمه[٢] عبد الله بن عمرو أن يقول ذلك حين يريد أن ينام. تفرد به أحمد أيضا[٣].

وقال[٤] [الإمام][٥] أحمد أيضا: حدثنا خلف بن الوليد، حدثنا ابن عياش[٦]، عن محمد بن زياد الألهانى، عن أبى راشد الحُبْرَانى قال: أتيت عبد الله بن عمرو فقلت له: حدثنا ما سمعت من رسول الله ﷺ. فألقى بين يَدَى صحيفة فقال: هذا ما كتب لى رسول الله ﷺ، فنظرت فيها فإذا فيها أن أبا بكر الصديق[٧] قال: يا رسول الله، علمنى، ما أقول إذا أصبحت وإذا أمسيت. فقال له رسول الله ﷺ: «يا أبا بكر، قل: اللهم فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، لا إله إلا أنت، رب كل شيء ومليكه، أعوذ بك من شر نفسى، وشر الشيطان وشركه، أو[٨] أقترف على نفسى سوءا، أو أجره إلى مسلم».

ورواه الترمذى، عن الحسن بن عرفة، عن إسماعيل بن عياش[٩]، به[١٠]، وقال: حسن غريب من هذا الوجه .

وقال الإمام أحمد: حدثنا هاشم، حدثنا شيبان، عن ليث، عن مجاهد قال: قال أبو بكر الصديق: أمرنى رسول الله ﷺ أن أقول إذا أصبحت وإذا أمسيت، وإذا أخذت مضجعى من الليل: «اللهم فاطر السموات والأرض» إلى آخره[١١].

وقوله: ﴿ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ وهم المشركون، ﴿ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ ﴾ أى: ولو أن جميع ملك الأرض وضعفه معه ﴿ لَافْتَدَوْا بِهِ مِن سُوءِ الْعَذَابِ ﴾ أى: الذى أوجبه الله لهم يوم القيامة، ومع هذا لا يُتقبل منهم الفداء ولو كان ملء الأرض ذهبا، كما قال فى الآية الأخرى: ﴿ وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ ﴾ أى: وظهر لهم من الله من العذاب والنكال بهم ما لم يكن فى بالهم ولا فى حسابهم، ﴿ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا ﴾ أى: وظهر لهم جزاء ما اكتسبوا فى الدار الدنيا من المحارم والمآثم، ﴿ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ أى: وأحاط بهم من العذاب والنكال ما كانوا يستهزئون به فى الدار الدنيا.

﴿ فَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ بَلْ هِيَ

(١) فى أ: «على».
(٢) فى ت، س: «يعلم».
(٣) المسند (٢/ ١٧١).
(٤) فى ت: «وروى».
(٥) زيادة من أ.
(٦) فى ت: «عباس».
(٧) فى ت: «الصديق رضى الله عنه».
(٨) فى ت، أ: «أن».
(٩) فى أ: «عباس».
(١٠) المسند (٢/ ١٩٦) وسنن الترمذى برقم (٣٥٢٩).
(١١) المسند (١/ ١٤).

فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٤٩) قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٥٠) فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ (٥١) أَوَ لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٥٢)﴾.

يقول تعالى مخبرا عن[1] الإنسان أنه فى حال الضراء يَضْرَع إلى الله، عز وجل، وينيب إليه ويدعوه، وإذا[2] خوله منه نعمة بغى وطغى، وقال: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ أى: لما يعلم الله من استحقاقى له، ولولا أنى عند الله تعالى خصيص لما خوَّلنى هذا!

قال قتادة: ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي﴾: على خير عندى.

قال الله عز وجل: ﴿بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ﴾ أى: ليس الأمر كما زعموا، بل [إنما][3] أنعمنا عليه بهذه النعمة لنختبره فيما أنعمنا عليه، أيطيع أم يعصى؟ مع علمنا المتقدم بذلك، فهى فتنة أى: اختبار، ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾، فلهذا يقولون ما يقولون، ويَدَّعون ما يَدَّعون.

﴿قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أى: قد قال هذه المقالة وزعم هذا الزعم وادعى هذه الدعوى، كثير ممن سلف من الأمم، ﴿فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ أى: فما صح قولهم ولا منعهم جمعهم وما كانوا يكسبون، ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلاءِ﴾ أى: من المخاطبين[4] ﴿سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾ أى: كما أصاب أولئك، ﴿وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ﴾ كما قال تعالى مخبرا عن قارون أنه قال له قومه: ﴿لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ . وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ . قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾[القصص: ٧٦ ـ ٧٨]، وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [سبأ: ٣٥].

وقوله: ﴿أَوَ لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ أى: يوسعه على قوم ويضيقه على آخرين، ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أى: لعبرا وحججا.

﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٥٣) وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لا تُنصَرُونَ (٥٤) وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لا تَشْعُرُونَ (٥٥) أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ (٥٦) أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٥٧) أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ

(١) فى ت: «عن حال». (٢) فى ت: «فإذا».
(٣) زيادة من ت، أ. (٤) فى ت: «المخلطين».

لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٥٨) بَلَىٰ قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ (٥٩) ﴾.

هذه الآية الكريمة دعوة لجميع العصاة من الكفرة وغيرهم إلى التوبة والإنابة، وإخبار بأن الله يغفر الذنوب جميعا لمن تاب منها ورجع عنها، وإن كانت مهما كانت، وإن كثرت وكانت مثل زبد البحر. ولا يصح حمل هذه [الآية](١) على غير توبة(٢)؛ لأن الشرك لا يغفر لمن لم يتب منه.

وقال البخاري: حدثنا إبراهيم بن موسى، أخبرنا هشام بن يوسف؛ أن ابن جريج أخبرهم: قال يعلى: إن سعيد بن جبير أخبره عن ابن عباس(٣) [رضى الله عنهما](٤)؛ أن ناسا من أهل الشرك كانوا قد قتلوا فأكثروا، وزنوا فأكثروا. فأتوا محمدا ﷺ فقالوا: إن الذى تقول وتدعو إليه لحسن لو تخبرنا أن لما عملنا كفارة. فنزل: ﴿ **وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ** ﴾ [الفرقان: ٦٨]، ونزل [قوله](٥): ﴿ **قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ** ﴾.

وهكذا رواه مسلم وأبو داود والنسائى، من حديث ابن جريج، عن يعلى بن مسلم المكى، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، به(٦).

والمراد من الآية الأولى قوله: ﴿ **إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا** ﴾ الآية [الفرقان: ٧٠].

وقال(٧) الإمام أحمد: حدثنا حسن، حدثنا ابن لهيعة، حدثنا أبو قبيل قال: سمعت أبا عبدالرحمن المرى(٨) يقول: سمعت(٩) ثوبان ـ مولى رسول الله ﷺ ـ يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما أحب أن لى الدنيا وما فيها بهذه الآية: ﴿ **يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ** ﴾ إلى آخر الآية، فقال رجل: يا رسول الله، فمن أشرك؟ فسكت النبى(١٠) ﷺ، ثم قال: «ألا ومن أشرك» ثلاث مرات. تفرد به الإمام أحمد(١١).

وقال الإمام أحمد أيضا: حدثنا سريج(١٢) بن النعمان، حدثنا روح بن قيس، عن أشعث بن جابر الحدانى، عن مكحول، عن(١٣) عمرو بن عَبَسة(١٤) قال: جاء رجل إلى النبى ﷺ، شيخ كبير يدعم على عصا له، فقال: يا رسول الله إن لى غدرات وفجرات، فهل يغفر لى؟ فقال: «ألست تشهد أن لا إله إلا الله؟» قال: بلى، وأشهد أنك رسول الله. فقال: «قد غفر لك غدراتك وفجراتك». تفرد به أحمد(١٥).

---

(١) زيادة من أ. (٢) فى ت: «التوبة».
(٣) فى ت: «روى البخارى بسنده عن ابن عباس». (٤) زيادة من أ. (٥) زيادة من ت، س.
(٦) صحيح البخارى برقم (٤٨١٠) وصحيح مسلم برقم (١٢٢) وسنن أبى داود برقم (٧٢٧٤) وسنن النسائى (٧/ ٨٦).
(٧) فى ت: «وروى». (٨) فى أ: «السرى».
(٩) فى ت: «سمعت عن». (١٠) فى ت: «رسول الله».
(١١) المسند (٥/ ٢٧٥).
(١٢) فى أ: «شريح». (١٣) فى ت: «وعن». (١٤) فى ت، أ: «عنبسة».
(١٥) المسند (٤/ ٣٨٥).

وقال الإمام أحمد: حدثنا يزيد بن هارون، حدثنا حماد بن سلمة، عن ثابت، عن شهر بن حوشب[(١)]، عن أسماء بنت يزيد [(٢)] قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقرأ: ﴿ **إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ** ﴾ [هود: ٤٦]، وسمعته يقول: «﴿ **يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا** ﴾ ولا يبالي ﴿ **إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ** ﴾».

ورواه أبو داود والترمذي، من حديث ثابت، به[(٣)].

فهذه الأحاديث كلها دالة على أن المراد: أنه يغفر جميع ذلك مع التوبة، ولا يقنطن[(٤)] عبد من رحمة الله، وإن عظمت ذنوبه وكثرت؛ فإن باب التوبة والرحمة واسع، قال الله تعالى: ﴿ **أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ** ﴾ [التوبة: ١٠٤]، وقال تعالى: ﴿ **وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا** ﴾ [النساء: ١١٠]، وقال تعالى في حق المنافقين: ﴿ **إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا . إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا** ﴾ [النساء: ١٤٥، ١٤٦]، وقال: ﴿ **لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلاَّ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ** ﴾ [المائدة: ٧٣]، ثم قال: ﴿ **أَفَلا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾ [المائدة: ٧٤]، وقال: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا** ﴾ [البروج: ١٠] .

قال الحسن البصري: انظر[(٥)] إلى هذا الكرم والجود، قتلوا أولياءه وهو يدعوهم إلى التوبة والمغفرة!

والآيات في هذا كثيرة جدا.

وفي الصحيحين عن أبي سعيد، عن رسول الله ﷺ، حديث الذي[(٦)] قتل تسعا[(٧)] وتسعين نفسا، ثم ندم وسأل عابدا من عُبَّاد بني إسرائيل: هل له من توبة؟ فقال: لا. فقتله وأكمل[(٨)] به مائة. ثم سأل عالما من علمائهم: هل له من توبة؟ فقال: ومن يحول بينك وبين التوبة؟ ثم أمره بالذهاب إلى قرية يعبد الله فيها، فقصدها فأتاه الموت في أثناء الطريق، فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب، فأمر الله أن يقيسوا ما بين الأرضين، فإلى أيهما كان أقرب فهو منها. فوجدوه أقرب إلى الأرض التي هاجر إليها بشبر، فقبضته ملائكة الرحمة. وذكر أنه نأى بصدره عند الموت، وأن الله أمر البلدة الخيرة أن تقترب، وأمر تلك البلدة أن تتباعد[(٩)] [(١٠)].

هذا معنى الحديث، وقد كتبناه في موضع آخر بلفظه.

---

(١) في ت: «وروى أيضا».
(٢) في أ: «يزيد رضي الله عنها».
(٣) المسند (٦/ ٤٥٤) وسنن أبي داود برقم (٣٩٨٢) وسنن الترمذي برقم (٣٢٣٧)
(٤) في ت: «ولا يقنط».
(٥) في ت: «انظروا».
(٦) في ت: «أن رجلا».
(٧) في أ: «تسعة».
(٨) في ت: «فأكمل».
(٩) في أ: «تبتعد».
(١٠) رواه البخاري في صحيحه برقم (٣٤٧٠) ومسلم في صحيحه برقم (٢٧٦٦).

وقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس، رضى الله عنهما[١]، [فى][٢] قوله: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ إلى آخر الآية، قال: قد دعا الله إلى مغفرته من زعم أن المسيح هو الله، ومن زعم أن المسيح هو ابن الله، ومن زعم أن عزيرا[٣] ابن الله، ومن زعم أن الله فقير، ومن زعم أن يد الله مغلولة، ومن زعم أن الله ثالث ثلاثة، يقول الله تعالى لهؤلاء: ﴿أَفَلا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة: ٧٤] ثم دعا إلى توبته من هو أعظم قولا من هؤلاء، من قال: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤]، وقال: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾ [القصص: ٣٨]. قال ابن عباس [رضى الله عنهما][٤]: من آيس عباد الله[٥] من التوبة بعد هذا فقد جحد كتاب الله، ولكن لا يقدر العبد أن يتوب حتى يتوب الله عليه.

وروى الطبرانى من طريق الشعبى، عن شُتَير بن شكَل أنه قال: سمعت ابن مسعود يقول: إن أعظم آية فى كتاب الله: ﴿اللَّهُ لا إِلَٰهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وإن أجمع آية فى القرآن بخير وشر: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ﴾ [النحل: ٩٠]، وإن أكثر آية فى القرآن فرجا فى سورة الغرف: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ﴾، وإن أشد آية فى كتاب الله تصريفا[٦]: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا . وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢، ٣]. فقال له مسروق: صدقت.

وقال الأعمش، عن أبى سعيد، عن أبى الكنود قال: مر عبد الله ـ يعنى ابن مسعود ـ على قاص، وهو يذكر الناس، فقال: يا مذكر، لم تُقَنِّط[٧] الناس؟ ثم قرأ: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ﴾. رواه ابن أبى حاتم.

ذكر أحاديث فيها نفى القنوط:

قال[٨] الإمام أحمد: حدثنا سريج بن النعمان، حدثنا أبو عبيدة عبد المؤمن بن عبيد الله[٩]، حدثنى أخشن السدوسى قال: دخلت على أنس بن مالك[١٠] فقال[١١]: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «والذى نفسى بيده، لو أخطأتم حتى تملأ خطاياكم ما بين السماء والأرض، ثم استغفرتم الله لغفر لكم، والذى نفس محمد بيده، لو لم تخطئوا[١٢] لجاء الله بقوم يخطئون، ثم يستغفرون الله فيغفر لهم». تفرد به [الإمام][١٣] أحمد[١٤].

وقال الإمام أحمد: حدثنا إسحاق بن عيسى[١٥]، حدثنى ليث، حدثنى محمد بن قيس ـ قاص عمر بن عبد العزيز ـ عن أبى صِرْمة، عن أبى أيوب الأنصارى، رضى الله عنه، أنه قال حين حضرته الوفاة: قد كنت كتمت منكم شيئا سمعته من رسول الله ﷺ، يقول: «لولا أنكم تذنبون، لخلق الله

---

(١) فى س: «عنه». (٢) زيادة من أ. (٣) فى ت: «العزير».
(٤) زيادة من ت. (٥) فى أ: «العباد». (٦) فى ت، س: «تفويضا».
(٧) فى س: «يقنط». (٨) فى ت: «روى». (٩) فى أ: «عبيد الله السدوسى».
(١٠) فى ت: «عن ابن مالك»، وفى أ: «أنس بن مالك رضى الله عنه». (١١) فى ت: «قال».
(١٢) فى ت: «تخطئون». (١٣) زيادة من أ.
(١٤) المسند (٣/٢٣٨).
(١٥) فى أ: «إسحاق بن أبى عيسى».

قوما يذنبون فيغفر لهم».

هكذا[١] رواه الإمام أحمد، وأخرجه مسلم فى صحيحه، والترمذى جميعا، عن قتيبة، عن الليث بن سعد، به[٢]. ورواه مسلم من وجه آخر به، عن محمد بن كعب القرظى، عن أبى صرمة ـ وهو الأنصارى صحابى ـ عن أبى أيوب، به[٣].

وقال الإمام أحمد: حدثنا أحمد بن عبد الملك الحرانى، حدثنا يحيى بن عمرو بن مالك النُّكرى قال: سمعت أبى يحدث عن أبى الجوزاء، عن ابن عباس[٤] قال: قال رسول الله ﷺ: «كفارة الذنب[٥] الندامة»، وقال رسول الله ﷺ: «لو لم تذنبوا لجاء الله بقوم يذنبون، فيغفر لهم» تفرد به أحمد[٦].

وقال عبد الله ابن الإمام أحمد: حدثنى عبد الأعلى بن حماد النَّرسى، حدثنا داود بن عبد الرحمن، حدثنا أبو عبد الله مسلمة الرازى، عن أبى عمرو البجلى، عن عبد الملك بن سفيان الثقفى، عن أبى جعفر محمد بن على، عن محمد بن الحنفية، عن أبيه، على بن أبى طالب، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله يحب العبد المفتن التواب». لم يخرجوه من هذا الوجه[٧].

وقال[٨] ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا حماد، أخبرنا ثابت وحميد، عن عبد الله بن عبيد بن عمير قال: إن إبليس ـ عليه لعائن الله ـ قال: يارب، إنك أخرجتنى من الجنة من أجل آدم، وإنى لا أستطيعه إلا بسلطانك. قال: فأنت مسلط. قال: يارب، زدنى. قال: لا يولد له ولد إلا ولد لك مثله. قال: يارب، زدنى. قال: أجعل صدورهم مساكن لكم، وتجرون منهم مجرى الدم. قال: يارب، زدنى. قال: أجلب عليهم بخيلك ورجلك، وشاركهم فى الأموال والأولاد، وعدهم وما يعدهم الشيطان إلا غرورا. فقال آدم [عليه السلام][٩]: يارب، قد سلطته على، وإنى لا أمتنع [منه][١٠] إلا بك. قال: لا يولد لك ولد إلا وكلت به من يحفظه من قرناء السوء. قال: يارب، زدنى. قال: الحسنة عشر أو أزيد، والسيئة واحدة أو أمحوها. قال: يارب، زدني. قال: باب التوبة مفتوح ما كان الروح في الجسد. قال: يارب، زدني. قال: ﴿**يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ**﴾.

وقال محمد بن إسحاق: قال نافع: عن عبد الله بن عمير، عن عمر، رضى الله عنه، فى حديثه قال: وكنا نقول ما الله بقابل ممن افتتن صرفا ولا عدلا ولا توبة، عرفوا الله ثم رجعوا إلى الكفر لبلاء أصابهم. قال: وكانوا يقولون ذلك لأنفسهم. قال: فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة، أنزل الله فيهم وفي قولنا وقولهم لأنفسهم: ﴿**يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ . وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لا تُنصَرُونَ**.

(١) فى س: «كذا».
(٢) المسند (٥/ ٤١٤) وصحيح مسلم برقم (٢٧٤٨) وسنن الترمذى برقم (٣٥٣٩).
(٣) صحيح مسلم برقم (٢٧٤٨).
(٤) فى أ: «ابن عباس رضى الله عنهما». (٥) فى أ: «الذنوب».
(٦) المسند (١/ ٢٨٩).
(٧) زوائد عبد الله على المسند (١/ ٨٠).
(٨) فى ت: «وروى». (٩) زيادة من ت، س، أ. (١٠) زيادة من ت، س، أ.

﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لا تَشْعُرُونَ﴾. قال عمر، رضى الله عنه: فكتبتها بيدى فى صحيفة، وبعثت بها إلى هشام بن العاص قال: فقال هشام: لما أتتنى جعلت أقرؤها بذى طُوًى أُصَعِّد بها فيه وأصوت ولا أفهمها، حتى قلت: اللهم أفهمنيها. قال: فألقى الله فى قلبى أنها إنما أنزلت فينا، وفيما كنا نقول فى أنفسنا، ويقال فينا. قال: فرجعت إلى بعيرى فجلست عليه، فلحقت برسول الله ﷺ بالمدينة.

ثم استحث [سبحانه][1] وتعالى عباده إلى المسارعة إلى التوبة، فقال: **﴿وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ﴾** أى: ارجعوا إلى الله واستسلموا له، **﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لا تُنصَرُونَ﴾** أى: بادروا بالتوبة والعمل الصالح قبل حلول النقمة، **﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم﴾**، وهو القرآن العظيم، **﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لا تَشْعُرُونَ﴾** أى: من حيث لا تعلمون ولا تشعرون.

ثم قال: **﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ﴾** أى: يوم القيامة يتحسر المجرم المفرط فى التوبة والإنابة، ويود لو كان من المحسنين المخلصين المطيعين لله عز وجل.

وقوله: **﴿وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ﴾** أى: إنما كان عملى فى الدنيا عمل ساخر مستهزئ غير موقن مصدق.

﴿أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ . أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ أى: تود أن لو [2] أعيدت إلى الدار فتحسن[3] العمل.

قال على بن أبى طلحة: عن ابن عباس: أخبر الله سبحانه[4]، ما العباد قائلون قبل أن يقولوه، وعملهم قبل أن يعملوه[5]. وقال: **﴿وَلا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾**[فاطر: ١٤]، **﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ . أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ . أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾** فأخبر الله تعالى: أن لو رُدوا لما قدروا على الهدى، وقال تعالى: **﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾** [الأنعام:٢٨] .

وقد قال[6] الإمام أحمد: حدثنا أسود، حدثنا أبو بكر، عن الأعمش، عن أبى صالح، عن أبى هريرة، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «كل أهل النار يرى مقعده من الجنة فيقول: لو أن الله هدانى؟! فتكون عليه حسرة». قال: «وكل أهل الجنة يرى مقعده من النار فيقول: لولا أن الله هدانى!» قال: «فيكون له الشكر».

ورواه النسائى من حديث أبى بكر بن عياش، به[7].

---

(١) زيادة من ت، وفى أ: «الله».
(٢) فى ت: «أن لو أن».
(٣) فى أ: «لتحسن».
(٤) فى أ: «أخبرنا الله تعالى».
(٥) فى ت، س: «وعلمهم قبل أن يعلموه».
(٦) فى ت: «روى».
(٧) المسند (٢/ ٥١٢).

ولما تمنى أهل الجرائم العَودَ إلى الدنيا، وتحسروا على تصديق آيات الله واتباع رسله، قال [الله سبحانه وتعالى](١): ﴿ بَلَى(٢) قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ أى: قد جاءتك أيها العبد النادم على ما كان منه (٣) آياتى فى الدار الدنيا، وقامت حججى عليك، فكذبت بها واستكبرت عن اتباعها، وكنت من الكافرين بها، الجاحدين لها.

﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ (٦٠) وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦١) ﴾.

يخبر تعالى عن يوم القيامة أنه تسود فيه وجوه، وتبيض فيه وجوه، تسود وجوه أهل الفرقة والاختلاف، وتبيض وجوه أهل السنة والجماعة، قال تعالى هاهنا: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ﴾ أى: فى دعواهم له شريكا وولداً ﴿وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾ أى: بكذبهم وافترائهم.

وقوله: ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ أى: أليست جهنم كافية لها(٤) سجنا وموئلا، لهم فيها [دار](٥) الخزى والهوان، بسبب تكبرهم وتجبرهم وإبائهم عن الانقياد للحق.

قال ابن أبى حاتم: حدثنا أبو عبيد الله ابن أخى ابن وهب، حدثنا عمى، حدثنا عيسى بن أبى عيسى الخياط، عن عمرو بن شعيب(٦)، عن أبيه، عن جده أن رسول الله ﷺ قال: «إن المتكبرين يحشرون يوم القيامة أشباه الذر فى صور الناس، يعلوهم كل شىء من الصغار، حتى يدخلوا سجنا من النار فى واد يقال له بولس، من نار الأنيار، ويسقون عصارة أهل النار، من طينة الخَبَال»(٧).

وقوله: ﴿وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ ﴾ أى: مما سبق لهم من السعادة والفوز عند الله، ﴿لا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ﴾ أى: يوم القيامة، ﴿وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ أى: ولا يحزنهم(٨) الفزع الأكبر، بل هم آمنون من كل فزَع، مزحزحون عن كل شر، مؤمَلون كل خير.

﴿ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (٦٢) لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٦٣) قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ (٦٤) وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٦٥) بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ (٦٦) ﴾.

يخبر تعالى أنه خالق(٩) الأشياء كلها، وربها ومليكها والمتصرف فيها، وكل تحت تدبيره وقهره وكلاءته.

---

(١) زيادة من ت، س، أ. (٢) فى ت: «قل» وهو خطأ. (٣) فى أ: «منه جاءتك».
(٤) فى ت، س: «لهم». (٥) زيادة من ت، س.
(٦) فى ت: «روى ابن أبى حاتم بإسناده عن عمرو بن شعيب».
(٧) ورواه أحمد فى مسنده (٢/١٧٨) والترمذى فى السنن برقم (٢٤٩٢) من طريق محمد بن عجلان عن عمرو بن شعيب بنحوه، قال الترمذى: «هذا حديث حسن صحيح».
(٨) فى ت: «أى لا يجزيهم». (٩) فى ت: «خلق».

وقوله: ﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾، قال مجاهد: المقاليد هى: المفاتيح بالفارسية. وكذا قال قتادة، وابن زيد، وسفيان بن عيينة.

وقال السدى: ﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ أى: خزائن السموات والأرض.

والمعنى على كلا القولين: أن أزمَّة الأمور بيده، له الملك وله الحمد، وهو على كل شىء قدير؛ ولهذا قال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ أى: حججه وبراهينه، ﴿أُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾.

وقد روى ابن أبى حاتم هاهنا حديثاً غريبا جداً ـ وفى صحته نظر ـ ولكن[1] نذكره كما ذكره، فإنه قال:

حدثنا يزيد[2] بن سنان البصرى بمصر، حدثنا يحيى بن حماد، حدثنا الأغلب بن تميم، عن مَخْلد بن هذيل العبدى، عن عبد الرحمن المدنى، عن عبد الله بن عمر، عن عثمان بن عفان، رضى الله عنه، أنه سأل رسول الله ﷺ عن تفسير: ﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾، فقال: «ما سألنى عنها أحد قبلك يا عثمان»، قال: «تفسيرها: لا إله إلا الله، والله أكبر، وسبحان الله وبحمده، أستغفر الله، ولا قوة إلا بالله، الأول والآخر، والظاهر والباطن، بيده الخير، يحيى ويميت، وهو على كل شىء قدير، من قالها يا عثمان إذا أصبح عشر مرار أعطى خصالا ستا: أما أولاهن: فيحرس من إبليس وجنوده، وأما الثانية: فيعطى قنطارا من الأجر، وأما الثالثة: فترفع[3] له درجة فى الجنة، وأما الرابعة: فيتزوج من الحور العين، وأما الخامسة: فيحضره[4] اثنا عشر ملكا، وأما السادسة: فيعطى من الأجر كمن قرأ القرآن والتوراة والإنجيل والزبور. وله مع هذا يا عثمان من الأجر كمن حج وتقبلت حجته، واعتمر فتقبلت عمرته، فإن مات من يومه طبع بطابع الشهداء».

ورواه أبو يعلى الموصلى من حديث يحيى بن حماد، به مثله[5]. وهو غريب، وفيه نكارة شديدة، والله أعلم.

وقوله: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ﴾: ذكروا فى سبب نزولها ما رواه ابن أبى حاتم وغيره، عن ابن عباس [رضى الله عنهما أنه قال][6]: إن المشركين بجهلهم دعوا رسول الله ﷺ إلى عبادة آلهتهم، ويعبدوا معه إلهه، فنزلت: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ. وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾.

وهذه كقوله: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٨٨].

وقوله: ﴿بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ﴾ أى: أخلص العبادة لله وحده، لا شريك له، أنت

---

(١) فى أ: «ولكن نحن». (٢) فى أ: «زيد».
(٣) فى ت: «فيرفع». (٤) فى س: «فتحضره».
(٥) ورواه ابن السنى فى عمل اليوم والليلة برقم (٧٣) من طريق أبى عن شجاع بن مخلد عن يحيى بن حماد به، وقال الهيثمى فى المجمع (١٠/ ١١٥): «رواه أبو يعلى فى الكبير، وفيه الأغلب بن تميم، وهو ضعيف».
(٦) زيادة من ت، س.

ومن معك، أنت ومن اتبعك وصدقك.

﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٧)﴾.

يقول تعالى: وما قدر المشركون الله حق قدره، حين عبدوا معه غيره، وهو العظيم الذى لا أعظم منه، القادر على كل شىء، المالك لكل شىء، وكل شىء تحت قهره وقدرته.

قال مجاهد: نزلت فى قريش. وقال السدى: ما عظموه حق عظمته.

وقال محمد بن كعب: لو قدروه حق قدره ما كذبوه.

وقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس [رضى الله عنهما](١): ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾: هم الكفار الذين لم يؤمنوا بقدرة الله [تعالى](٢) عليهم، فمن آمن أن الله على كل شىء قدير، فقد قدر الله حق قدره، ومن لم يؤمن بذلك فلم يقدر الله حق قدره.

وقد وردت(٣) أحاديث كثيرة متعلقة بهذه الآية الكريمة، والطريق فيها وفى أمثالها مذهب السلف، وهو إمرارها كما جاءت من غير تكييف ولا تحريف.

قال البخارى: قوله: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾، حدثنا آدم، حدثنا شيبان، عن منصور، عن إبراهيم، عن عبيدة، عن عبد الله بن مسعود(٤) قال: جاء حبر من الأحبار إلى رسول الله ﷺ فقال: يا محمد: إنا نجد أن الله عز وجل يجعل السموات على إصبع، والأرضين على إصبع، والشجر على إصبع، والماء(٥)، والثرى على إصبع، وسائر الخلائق على إصبع. فيقول: أنا الملك. فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه، تصديقا لقول الحبر، ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ الآية(٦).

و[قد](٧) رواه البخارى أيضا فى غير هذا الموضع من(٨) صحيحه، والإمام أحمد، ومسلم، والترمذى والنسائى فى التفسير من سننيهما، كلهم من حديث سليمان بن مهران الأعمش، عن إبراهيم عن عبيدة، عن [عبد الله](٩) ابن مسعود، رضى الله عنه، بنحوه(١٠).

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن إبراهيم عن علقمة، عن عبد الله، رضى الله عنه، قال: جاء رجل إلى النبى ﷺ من أهل الكتاب، فقال: يا أبا القاسم، أبلغك أن الله [تعالى](١١) يحمل الخلائق على إصبع، والسموات على إصبع، والأرضين على إصبع، والشجر على

(١، ٢) زيادة من أ. (٣) فى ت: «ورد».
(٤) فى ت، أ: «مسعود رضى الله عنه». (٥) فى ت، أ: «والماء على إصبع».
(٦) صحيح البخارى برقم (٤٨١١).
(٧) زيادة من أ. (٨) فى أ: «فى». (٩) زيادة من ت.
(١٠) صحيح البخارى برقم (٧٤١٤، ٧٤١٥، ٧٤٥١) والمسند (١/ ٤٢٩) وصحيح مسلم برقم (٢٧٨٦) وسنن الترمذى برقم (٣٢٣٨) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٤٥١).
(١١) زيادة من أ.

إصبع، والثرى على إصبع؟ قال: فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه. قال: وأنزل الله عز وجل: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ إلى آخر الآية.

وهكذا رواه البخارى، ومسلم، والنسائى ـ من طرق ـ عن الأعمش[(١)]، به[(٢)].

وقال الإمام أحمد: حدثنا حسين بن حسن الأشقر، حدثنا أبو كدينة، عن عطاء، عن أبى الضحى، عن ابن عباس [(٣)] قال: مر يهودى برسول الله ﷺ وهو جالس فقال: كيف تقول يا أبا القاسم: يوم يجعل الله السماء على ذه ـ وأشار بالسبابة ـ والأرض على ذه، والجبال على ذه، وسائر الخلق[(٤)] على ذه ـ كل ذلك يشير بإصبعه[(٥)] ـ قال: فأنزل الله عز وجل: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ الآية.

وكذا رواه الترمذى فى التفسير عن عبد الله بن عبد الرحمن الدارمى، عن محمد بن الصَّلْت أبى جعفر، عن أبى كدينة يحيى بن المهلب، عن عطاء بن السائب، عن أبى الضحى مسلم بن صبيح، به[(٦)]، وقال: حسن صحيح غريب، لا نعرفه إلا من هذا الوجه.

ثم قال البخارى: حدثنا سعيد بن غفير، حدثنا الليث، حدثنى عبد الرحمن بن خالد بن مسافر، عن ابن شهاب، عن أبى سلمة بن عبد الرحمن: أن أبا هريرة[(٧)]، رضى الله عنه، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يقبض الله الأرض، ويطوى السماء بيمينه، ثم يقول: أنا الملك، أين ملوك الأرض».

تفرد به من هذا الوجه[(٨)]، ورواه مسلم من وجه آخر[(٩)].

وقال[(١٠)] البخارى ـ فى موضع آخر ـ: حدثنا مُقَدَّم بن محمد، حدثنا عمى القاسم بن يحيى، عن عبيد الله، عن نافع، عن ابن عمر[(١١)]، عن رسول الله ﷺ قال: «إن الله يقبض يوم القيامة الأرضين على إصبع، وتكون السموات بيمينه، ثم يقول: أنا الملك».

تفرد به أيضا من هذا الوجه[(١٢)]، ورواه مسلم من وجه آخر[(١٣)]. وقد رواه[(١٤)] الإمام أحمد من طريق أخرى بلفظ آخر أبسط من هذا السياق وأطول، فقال:

حدثنا عفان، حدثنا حماد بن سلمة، أخبرنا إسحاق بن عبد الله بن أبى طلحة، عن عبيد الله بن مقسم، عن ابن عمر[(١٥)] أن رسول الله ﷺ قرأ هذه الآية ذات يوم على المنبر: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ورسول الله ﷺ يقول هكذا بيده، يحركها يقبل بها ويدبر: «يمجد الرب نفسه: أنا الجبار، أنا المتكبر، أنا

(١) فى ت: «من طريق الأعمش».
(٢) المسند (١/ ٣٧٨) وصحيح البخارى برقم (٧٤٥١) وصحيح مسلم برقم (٢٧٨٦) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٤٥٢).
(٣) فى ت: «عن ابن عباس رضى الله عنهما». (٤) فى أ: «الخلائق». (٥) فى ت: «بأصابعه».
(٦) المسند (١/ ٣٢٤) وسنن الترمذى برقم (٣٢٤٠).
(٧) فى ت: «وروى البخارى بإسناده أن أبا هريرة».
(٨) صحيح البخارى برقم (٤٨١٢).
(٩) صحيح مسلم برقم (٢٧٨٧) من طريق الزهرى عن سعيد بن المسيب عن أبى هريرة به.
(١٠) فى ت: «وروى». (١١) فى أ: «عن ابن عمر رضى الله عنهما».
(١٢) صحيح البخارى برقم (٧٤١٢).
(١٣) صحيح مسلم برقم (٢٧٨٨) من طريق سالم بن عبد الله عن عبد الله بن عمر به.
(١٤) فى ت: «وروى». (١٥) فى أ: «عن ابن عمر رضى الله عنهما».

الملك، أنا العزيز، أنا الكريم». فرجف برسول الله ﷺ المنبر حتى قلنا: لَيَخِرَّن به.

وقد رواه مسلم، والنسائى، وابن ماجه من حديث عبد العزيز بن أبى حازم ـ زاد مسلم: ويعقوب بن عبد الرحمن، كلاهما عن أبى حازم، عن عبيد الله بن مقسم، عن ابن[١] عمر، به، نحوه[٢].

ولفظ مسلم ـ عن عبيد الله بن مقسم[٣] فى هذا الحديث ـ: أنه نظر إلى عبد الله بن عمر كيف يحكى النبى ﷺ، قال: يأخذ الله سمواته وأرضيه بيده ويقول: أنا الملك، ويقبض أصابعه ويبسطها: أنا الملك، حتى نظرت إلى المنبر يتحرك من أسفل شىء منه، حتى إنى لأقول: أساقط هو برسول الله ﷺ؟

وقال البزار: حدثنا سليمان بن سيف[٤]، حدثنا أبو على الحنفى، حدثنا عباد المِنْقَرِى، حدثنى محمد بن المنكدر قال: حدثنا عبد الله بن عمر[رضى الله عنهما][٥]، أن رسول الله ﷺ قرأ هذه الآية على المنبر: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ حتى بلغ: ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾، فقال المنبر هكذا، فجاء وذهب ثلاث مرات[٦].

ورواه الإمام الحافظ أبو القاسم الطبرانى من حديث عبيد بن عمير، عن عبد الله بن عمرو، وقال: صحيح[٧].

وقال الطبرانى فى المعجم الكبير: حدثنا عبد الرحمن بن معاوية العُتْبى، حدثنا حيان بن نافع بن صخر بن جويرية، حدثنا سعيد بن سالم القداح، عن معمر بن الحسن، عن بكر بن خُنَيْس، عن أبى شيبة، عن عبد الملك بن عمير، عن جرير[٨] قال: قال رسول الله ﷺ لنفر من أصحابه: «إنى قارئ عليكم آيات من آخر سورة الزمر، فمن بكى منكم وجبت له الجنة»؟ فقرأها من عند قوله: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾، إلى آخر السورة، فمنا من بكى، ومنا من لم يبك، فقال الذين لم يبكوا: يا رسول الله، لقد جهدنا أن نبكى، فلم نبك؟ فقال: «إنى سأقرؤها عليكم، فمن لم يبك فليتباك». هذا حديث غريب جدا[٩].

وأغرب منه ما رواه فى المعجم الكبير أيضا: حدثنا هاشم بن مُرْثَد[١٠]، حدثنا محمد بن إسماعيل بن عياش، حدثنى أبى، حدثنى ضمضم بن زرعة، عن شريح بن عبيد، عن أبى مالك

(١) فى أ: «أبى».

(٢) المسند (٢/ ٧٢) وصحيح مسلم برقم (٢٧٨٨) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (٧٦٨٩) وسنن ابن ماجه برقم (٤٢٧٥).

(٣) فى ت: «عمر». (٤) فى أ: «يوسف». (٥) زيادة من أ.

(٦) ورواه أبو الشيخ فى العظمة برقم (١٢٨): حدثنا أبو بكر البرذعى عن سليمان بن سيف به، ورواه ابن عدى فى الكامل (٤/ ٣٤٢) والطبرانى فى المعجم الكبير (١٢/ ٣٥٢) من طريق عبادة بن ميسرة به، وفى إسناده عباد بن ميسرة المنقرى، وهو ضعيف، وعند ابن عدى: «فتحرك المنبر مرتين».

(٧) لم أجده فى المطبوع من مسند عبد الله بن عمرو رضى الله عنه.

(٨) فى ت: «وروى الطبرانى فى المعجم الكبير بإسناده عن جرير».

(٩) المعجم الكبير (٢/ ٣٤٨) وقال الهيثمى فى المجمع (٧/ ١٠١): «فيه بكر بن خنيس وهو متروك».

(١٠) فى هـ، ت، أ: «زيد» والتصويب من المعجم.

الأشعرى [(١)] قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى يقول: ثلاث خلال غَيَّبْتُهُنَّ عن عبادى، لو رآهن رجل ما عمل سوءاً أبدا: لو كشفت غطائى فرآنى حتى نستيقن ويعلم كيف أفعل بخلقى إذا أتيتهم، وقبضت السموات بيدى، ثم قبضت الأرض [(٢)] والأرضين، ثم قلت: أنا الملك، من ذا الذى له الملك دونى؟ ثم أريتهم [(٣)] الجنة وما أعددت لهم فيها من كل خير، فيستيقنوها. وأريهم النار وما أعددت لهم فيها من كل شر فيستيقنوها، ولكن عمدا غيبت ذلك عنهم لأعلم كيف يعملون، وقد بينته لهم» [(٤)].

وهذا إسناد متقارب، وهى نسخة تروى بها أحاديث جمة، والله أعلم.

﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَن شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ (٦٨) وَأَشْرَقَتِ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ (٦٩) وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ (٧٠) ﴾.

يقول تعالى مخبرا عن هول يوم القيامة، وما يكون فيه من الآيات العظيمة والزلازل الهائلة، فقوله: **﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَن شَاءَ اللَّهُ﴾**، هذه النفخة هى الثانية، وهى نفخة الصعق، وهى التى يموت [(٥)] بها الأحياء من أهل السموات والأرض، إلا من شاء الله كما هو [(٦)] مصرح [(٧)] به مفسرا فى حديث الصور المشهور. ثم يقبض أرواح الباقين حتى يكون آخر من يموت ملك الموت، وينفرد الحى القيوم الذى كان أولا، وهو الباقى آخرا بالديمومة [(٨)] والبقاء، ويقول: **﴿ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾** [غافر:١٦] ثلاث مرات. ثم يجيب نفسه بنفسه فيقول: **﴿ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾** أى: الذى هو واحد وقد قهر كل شىء، وحكم بالفناء على كل شىء. ثم يحيى أول من يحيى إسرافيل، ويأمره أن ينفخ فى الصور أخرى، وهى النفخة الثالثة نفخة البعث، قال تعالى: **﴿ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾** أى: أحياء بعد ما كانوا عظاما ورفاتا، صاروا أحياء ينظرون إلى أهوال يوم القيامة، كما قال تعالى: **﴿ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ . فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ﴾** [النازعات: ١٣، ١٤]، وقال تعالى: **﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً﴾** [الإسراء: ٥٢]، وقال تعالى: **﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الأَرْضِ إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴾** [الروم: ٢٥].

قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن النعمان بن سالم قال: سمعت

---

(١) فى أ: «الأشعرى رضى الله عنه».

(٢) فى هـ: «قبضت الأرضين»، وفى س، ت، أ: «قبضت الأرض ثم الأرضين» والمثبت من المعجم.

(٣) فى س: «أريهم».

(٤) المعجم الكبير (٣/ ٢٩٤)، وفى إسناده: محمد بن إسماعيل بن عياش، ضعيف ولم يسمع من أبيه.

(٥) فى س: «تموت». (٦) فى أ: «جاء».

(٧) فى ت، س: «مصرحا». (٨) فى أ: «بالديمومية».

يعقوب بن عاصم بن عروة بن مسعود قال: سمعت رجلا قال لعبد الله بن عمرو [(١)]: إنك تقول: الساعة تقوم إلى كذا وكذا؟ قال: لقد هممت ألا أحدثكم شيئا، إنما قلت: سترون بعد قليل أمرا عظيما. ثم قال عبد الله بن عمرو: قال رسول الله ﷺ: «يخرج الدجال فى أمتى، فيمكث فيهم أربعين ـ لا أدرى أربعين يوما أو أربعين عاما أو أربعين شهرا أو أربعين ليلة ـ فيبعث الله [(٢)] عيسى ابن مريم [(٣)]، كأنه عروة بن مسعود الثقفى، فيظهر فيهلكه الله[(٤)]. ثم يلبث الناس بعده سنين سبعا ليس بين اثنين عداوة، ثم يرسل الله ريحا باردة من قبل الشام، فلا يبقى أحد فى قلبه مثقال ذرة من إيمان إلا قبضته، حتى لو أن[(٥)] أحدهم كان فى كبد جبل لدخلت عليه». قال: سمعتها من رسول الله ﷺ: «ويبقى شرار الناس فى خفة الطير، وأحلام السباع، لا يعرفون معروفا، ولا ينكرون منكرا». قال: «فيتمثل لهم الشيطان فيقول: ألا تستجيبون؟ فيأمرهم بالأوثان فيعبدونها، وهم فى ذلك دارة أرزاقهم، حسن عيشهم. ثم ينفخ فى الصور فلا يسمعه أحد إلا أصغى له، وأول من يسمعه رجل يلوط حوضه، فيصعق، ثم لا يبقى أحد إلا صعق. ثم يرسل الله ـ أو: ينزل الله مطرا كأنه الطل ـ أو الظل، شك نعمان ـ فتنبت منه أجساد الناس. ثم ينفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون، ثم يقال: يأيها الناس، هلموا إلى ربكم: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْؤُولُونَ﴾ [الصافات: ٢٤]، قال: «ثم يقال: أخرجوا بعث النار». قال: «فيقال: كم؟ فيقال: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين[(٦)]. فيومئذ تبعث الولدان شيبا، ويومئذ يكشف عن ساق».

انفرد بإخراجه مسلم فى صحيحه[(٧)].

وقال البخارى: حدثنا عمر بن حفص بن غياث، حدثنا أبى، حدثنا الأعمش قال: سمعت أبا صالح قال: سمعت أبا هريرة [رضى الله عنه][(٨)] عن النبى ﷺ قال: «بين النفختين أربعون»[(٩)]. قالوا: يا أبا هريرة، أربعون يوما؟ قال: أبيت، قالوا: أربعون سنة؟ قال: أبيت، قالوا: أربعون شهرا؟ قال: أبيت، ويبلى كل شيء من الإنسان إلا عَجْبُ ذنبه، فيه يركب الخلق[(١٠)].

وقال أبو يعلى: حدثنا يحيى بن معين، حدثنا أبو اليمان، حدثنا إسماعيل بن عياش، عن عمر ابن محمد، عن زيد بن أسلم، عن أبيه، عن أبى هريرة [رضى الله عنه][(١١)]، عن النبى ﷺ قال: «سألت جبريل، عليه السلام، عن هذه الآية: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَن شَاءَ اللَّهُ﴾: من الذين لم يشأ الله أن يصعقهم؟ قال: هم الشهداء، مقلدون أسيافهم حول عرشه، تتلقاهم ملائكة يوم القيامة إلى المحشر بنجائب من ياقوت نمارها ألين من الحرير، مَدُّ[(١٢)] خطاها مد أبصار الرجال، يسيرون فى الجنة يقولون عند طول النزهة: انطلقوا بنا إلى ربنا، عز وجل، لننظر كيف يقضى بين خلقه، يضحك إليهم إلهى، وإذا ضحك إلى عبد فى موطن فلا حساب عليه».

---

(١) فى أ: «عمرو رضى الله عنهما». (٢) فى أ: «الله تعالى». (٣) فى أ: «ابن مريم عليه السلام».
(٤) فى أ: «فيهلكه الله على يده».
(٥) فى ت، س، أ: «حتى أن لو كان». (٦) فى س: «وتسعون».
(٧) المسند (٢/ ١٦٦) وصحيح مسلم برقم (٢٩٤٠). (٨) زيادة من أ. (٩) فى ت: «أربعين».
(١٠) صحيح البخارى برقم (٤٨١٤). (١١) زيادة من ت، أ. (١٢) فى أ: «قدر».

رجاله كلهم ثقات إلا شيخ إسماعيل بن عياش، فإنه غير معروف، والله أعلم[١].

وقوله: ﴿ وَأَشْرَقَتِ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ أى: أضاءت يوم القيامة إذا تجلى الحق، تبارك وتعالى، للخلائق لفصل القضاء، ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ﴾ قال قتادة: كتاب الأعمال، ﴿وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ﴾ قال ابن عباس: يشهدون على الأمم بأنهم بلغوهم رسالات[٢] الله إليهم، ﴿وَالشُّهَدَاءِ﴾ أى: الشهداء من الملائكة الحفظة على أعمال العباد من خير وشر، ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ ﴾ أى: بالعدل، ﴿وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾ . قال الله [تعالى][٣]: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧]، وقال [الله][٤] تعالى: ﴿وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٠]، ولهذا قال: ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ﴾ أى: من خير أو شر، ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾.

﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ (٧١) قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ (٧٢) ﴾ .

يخبر تعالى عن حال الأشقياء الكفار كيف يساقون إلى النار؟ وإنما يساقون سوقا عنيفا بزجر وتهديد ووعيد، كما قال تعالى: ﴿ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا﴾ [الطور: ١٣] أى: يدفعون إليها دفعا. هذا وهم عطاش ظماء، كما قال فى الآية الأخرى: ﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَٰنِ وَفْدًا . وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾ [مريم: ٨٥، ٨٦]. وهم فى تلك الحال صُمٌّ وبكم وعمى، منهم من يمشى على وجهه، ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَّأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا ﴾ [الإسراء: ٩٧].

وقوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾ أى: بمجرد وصولهم إليها فتحت لهم أبوابها سريعا، لتعجل لهم العقوبة، ثم يقول لهم خزنتها من الزبانية ـ الذين هم غلاظ الأخلاق، شداد القوى، على وجه التقريع والتوبيخ والتنكيل ـ: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ أى: من جنسكم تتمكنون من مخاطبتهم والأخذ عنهم، ﴿ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ﴾ أى: يقيمون عليكم الحجج والبراهين[٥] على صحة ما دعوكم إليه، ﴿وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ أى: ويحذرونكم من شر هذا اليوم؟ فيقول الكفار لهم: ﴿بَلَىٰ﴾ أى: قد جاؤونا وأنذرونا، وأقاموا علينا الحجج والبراهين، ﴿وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ

(١) ورواه الحاكم فى المستدرك (٢/٢٥٣) من طريق أبى أسامة عن عمر بن محمد عن زيد بن أسلم بنحوه، وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه» ووافقه الذهبى.
(٢) فى س، أ: «رسالة».
(٣) زيادة من ت، س، أ.
(٤) زيادة من أ.
(٥) فى س، أ: «والبرهان».

عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ أي: ولكن كذبناهم وخالفناهم، لما سبق إلينا(١) من الشقْوة التي كنا نستحقها حيث عَدَلْنا عن الحق إلى الباطل، كما قال تعالى مخبرا عنهم في الآية الأخرى: **﴿ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ . قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ . وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾**[الملك: ٨ ـ ١٠] أي: رجعوا على أنفسهم بالملامة والندامة **﴿فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾** [الملك: ١١] أي: بعدا لهم وخسارا.

وقوله هاهنا: **﴿قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا﴾** أي: كل من رآهم وعلم حالهم يشهد(٢) عليهم بأنهم مستحقون للعذاب؛ ولهذا لم يسند هذا القول(٣) إلى قائل معين، بل أطلقه ليدل على أن الكون شاهد عليهم بأنهم مستحقون ما هم فيه بما حكم العدل الخبير عليهم به؛ ولهذا قال جل وعلا: **﴿قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا﴾** أي: ماكثين فيها لا خروج لكم منها، ولا زوال لكم عنها، **﴿فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴾** أي: فبئس المصير وبئس المقيل لكم، بسبب تكبركم في الدنيا، وإبائكم عن اتباع الحق، فهو الذي صيركم إلى ما أنتم فيه، فبئس الحال وبئس المآل.

﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ (٧٣) وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ (٧٤) ﴾ .

وهذا إخبار عن حال السعداء المؤمنين حين يساقون على النجائب وفدا إلى الجنة **﴿ زُمَرًا ﴾** أي: جماعة بعد جماعة: المقربون، ثم الأبرار، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم كل طائفة مع من يناسبهم: الأنبياء مع الأنبياء، والصديقون مع أشكالهم، والشهداء مع أضرابهم، والعلماء مع أقرانهم، وكل صنف مع صنف، كل زمرة تناسب بعضها بعضا.

﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا﴾ أي: وصلوا إلى أبواب الجنة بعد مجاوزة الصراط، حبسوا على قنطرة بين الجنة والنار، فاقتص لهم مظالم كانت بينهم في الدنيا، حتى إذا هُذِّبوا ونُقُّوا أذن لهم في دخول الجنة، وقد ورد في حديث الصور أن المؤمنين إذا انتهوا إلى أبواب الجنة تشاوروا فيمن يستأذن لهم بالدخول، فيقصدون آدم، ثم نوحا، ثم إبراهيم، ثم موسى، ثم عيسى، ثم محمدا، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، كما فعلوا في العرصات(٤) عند استشفاعهم إلى الله، عز وجل، أن يأتي لفصل القضاء، ليظهر شرف محمد ﷺ على سائر البشر في المواطن كلها.

وقد ثبت في صحيح مسلم عن أنس، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا أول شفيع في الجنة» وفي لفظ لمسلم: «وأنا أول من يقرع باب الجنة»(٥).

وقال الإمام أحمد: حدثنا هاشم، حدثنا سليمان، عن ثابت، عن أنس بن مالك، رضي الله

---

(١) في س، أ: «لنا».
(٢) في أ: «شهد».
(٣) في أ: «هذا الذي قاله».
(٤) في ت، أ: «الصرخات».
(٥) صحيح مسلم برقم (١٩٦).

عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «آتي باب الجنة يوم القيامة فأستفتح، فيقول الخازن: من أنت؟ فأقول: محمد. قال: يقول: بك أُمِرْتُ ألا أفتح لأحد قبلك».

ورواه مسلم عن عمرو[١] الناقد وزهير بن حرب، كلاهما عن أبى النضر هاشم بن القاسم، عن سليمان ـ وهو ابن المغيرة القيسى ـ عن ثابت، عن أنس، به[٢].

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا مَعْمَر عن همام بن منبه، عن أبى هريرة[٣] قال: قال رسول الله ﷺ: «أول زمرة تلج[٤] الجنة صورهم على صورة القمر ليلة البدر، ولا يبصقون فيها، ولا يمتخطون فيها، ولا يتغوطون فيها. آنيتهم وأمشاطهم الذهب والفضة، ومجامرهم الألوة[٥]، ورشحهم المسك، ولكل واحد منهم زوجتان، يرى مخ ساقهما من وراء اللحم، من الحسن. لا اختلاف بينهم ولا تباغض، قلوبهم على قلب واحد[٦]، يسبحون الله بكرة وعشيا».

رواه البخارى عن محمد بن مقاتل، عن ابن المبارك. ورواه مسلم عن محمد بن رافع، عن عبدالرزاق، كلاهما عن معمر بإسناده نحوه[٧]. وكذا رواه أبو الزناد، عن الأعرج، عن أبى هريرة [رضى الله عنه][٨]، عن رسول الله ﷺ[٩].

وقال الحافظ أبو يعلى: حدثنا أبو خَيْثَمة، حدثنا جرير، عن عمارة بن القعقاع، عن أبى زُرْعَة، عن أبى هريرة [رضى الله عنه][١٠] قال: قال رسول الله ﷺ: «أول زُمْرَة يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البدر، والذين يلونهم على ضوء أشدِّ كوكب دُرِّى فى السماء إضاءة، لا يبولون ولا يتغوطون ولا يتْفلون ولا يمتخطون، أمشاطهم الذهب، ورشحهم المسك، ومجامرهم الألوة، وأزواجهم الحور العين، أخلاقهم على خلق رجل واحد، على صورة أبيهم آدم، ستون ذراعا فى السماء»[١١].

وأخرجاه أيضا من حديث جرير[١٢].

وقال الزهرى، عن سعيد، عن أبى هريرة، رضى الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «يدخل الجنة من أمتى زُمْرَة، هم سبعون ألفا، تضىء وجوههم إضاءة القمر ليلة البدر». فقام عُكَّاشة بن محْصَن فقال: يا رسول الله، ادع الله أن يجعلنى منهم: فقال: «اللهم اجعله منهم». ثم قام رجل من الأنصار فقال: يا رسول الله، ادع الله أن يجعلنى منهم. فقال ﷺ: «سبقك بها عُكَّاشة».

أخرجاه[١٣][١٤]. وقد روى هذا الحديث ـ فى السبعين ألفا يدخلون الجنة بغير حساب ـ البخارى ومسلم، عن ابن عباس، وجابر بن عبد الله، وعمران بن حصين، وابن مسعود، ورفاعة بن عرابة

(١) فى أ: «عمرو بن محمد الناقد».
(٢) المسند (٢/ ٣١٦) وصحيح مسلم برقم (١٩٧).
(٣) فى أ: «أبى هريرة رضى الله عنه».
(٤) فى ت: «يدخلون».
(٥) فى س، أ: «ومجامرهم من الألوة».
(٦) فى أ: «قلب رجل واحد».
(٧) المسند (٢/ ٣١٦) وصحيح البخارى برقم (٣٢٢٥) وصحيح مسلم برقم (٢٨٣٤).
(٨) زيادة من أ.
(٩) أخرجه البخارى فى صحيحه برقم (٣٢٤٦).
(١٠) زيادة من أ.
(١١) مسند أبى يعلى (١٠/ ٤٧٠).
(١٢) صحيح البخارى برقم (٣٣٢٧) وصحيح مسلم برقم (٢٨٣٤).
(١٣) فى ت: «أخرجه البخارى ومسلم».
(١٤) صحيح البخارى برقم (٦٥٤٢) وصحيح مسلم برقم (٢١٥).

الجهنى، وأم قيس بنت محصن.

ولهما عن أبى حازم، عن سهل بن سعد، أن رسول الله ﷺ قال: «ليدخلن الجنة من أمتى سبعون ألفا ـ أو: سبعمائة ألف ـ آخذٌ بعضهم ببعض، حتى يدخل أولهم وآخرهم الجنة، وجوههم على صورة القمر ليلة البدر»[١].

وقال[٢] أبو بكر بن أبى شيبة: حدثنا إسماعيل بن عياش، عن محمد بن زياد قال: سمعت أبا أمامة[٣] الباهلى يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: وعدني ربى، عز وجل، أن يدخل الجنة من أمتي سبعون ألفا، مع كل ألف سبعون ألفا، ولا حساب عليهم ولا عذاب، وثلاث حَثَيَات من حثيات ربى عز وجل»[٤].

وكذا رواه الوليد بن مسلم، عن صفوان بن عمرو، عن سليم بن عامر، [و][٥] أبى اليمان عامر ابن عبد الله بن لُحَىّ[٦] عن أبى أمامة [رضى الله عنه][٧][٨].

ورواه الطبرانىَ، عن عتبة بن عَبْدٍ السُّلمى: «ثم يشفع كل ألف فى سبعين ألفا»[٩].

وروى مثله عن ثوبان، وأبى سعيد الأنمارى. وله شواهد من وجوه كثيرة.

وقوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾: لم يذكر الجواب هاهنا، وتقديره: حتى إذا جاؤوها، وكانت هذه الأمور من فتح الأبواب لهم إكراما وتعظيما، وتلقتهم الملائكة الخزنة بالبشارة والسلام والثناء، لا كما تلقى الزبانية الكفرة بالتثريب[١٠] والتأنيب، فتقديره: إذا كان هذا سَعِدوا وطابوا، وسُرُّوا وفرحوا، بقدر كل ما يكون لهم فيه نعيم. وإذا حذف الجواب هاهنا ذهب الذهنَ كل مذهب فى الرجاء والأمل.

ومن زعم أن «الواو» فى قوله: ﴿وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾ واو الثمانية، واستدل به على أن أبواب الجنة ثمانية، فقد أبعد النّجْعَة، وأغرق فى النَزْع. وإنما يستفاد كون أبواب الجنة ثمانية من الأحاديث الصحيحة.

قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن الزهرى، عن حميد بن عبد الرحمن[١١]، عن أبى هريرة[١٢] قال: قال رسول الله ﷺ: «من أنفق زوجين من ماله فى سبيل الله، دعى من أبواب الجنة، وللجنة أبواب[١٣]، فمن كان من أهل الصلاة دُعِى من باب الصلاة، ومن كان من أهل الصدقة دعى من باب الصدقة، ومن كان من أهل الجهاد دعى من باب الجهاد، ومن كان من أهل الصيام دعى من باب الريان» فقال أبو بكر، رضى الله تعالى عنه: يا رسول الله، ما

(١) صحيح البخارى برقم (٦٥٥٤) وصحيح مسلم برقم (٢١٩).
(٢) فى ت: «وروى». (٣) فى ت: «عن أبى أمامة».
(٤) المصنف (١١/ ٤٧١) ورواه الترمذى فى السنن برقم (٢٤٣٧) من طريق إسماعيل بن عياش به، وقال: «هذا حديث حسن غريب».
(٥) زيادة من أ. (٦) فى أ: «يحيى». (٧) زيادة من أ.
(٨) رواه الطبرانى فى المعجم الكبير (٨/ ١٨٧)
(٩) المعجم الكبير (١٧/ ١٢٦، ١٢٧).
(١٠) فى أ: «بالذم». (١١) فى ت: «فروى البخارى ومسلم». (١٢) فى أ: «أبى هريرة رضى الله عنه».
(١٣) فى أ: «أبواب ثمانية».

على أحد من ضرورة دُعى، من أيها[١] دعى، فهل يدعى منها كلها أحد يا رسول الله؟ قال: «نعم، وأرجو أن تكون منهم».

ورواه البخارى ومسلم، من حديث الزهرى، بنحوه[٢].

وفيهما من حديث أبى حازم سلمة بن دينار[٣]، عن سهل بن سعد أن رسول الله ﷺ قال: «إن فى الجنة ثمانية أبواب، باب منها يسمى الريان، لا يدخله إلا الصائمون»[٤].

وفى صحيح مسلم، عن عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «ما منكم من أحد يتوضأ فيبلغ ـ أو: فيسبغ الوضوء ـ ثم يقول: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدا عبده ورسوله، إلا فتحت له أبواب الجنة الثمانية، يدخل من أيها شاء»[٥].

وقال[٦] الحسن بن عرفة: حدثنا إسماعيل بن عياش، عن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبى حُسَين، عن شَهْر بن حَوْشَب، عن معاذ، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «مفتاح الجنة: لا إله إلا الله»[٧].

ذكر سعة أبواب الجنة ـ نسأل الله العظيم من فضله أن يجعلنا من أهلها ـ:

فى الصحيحين من حديث أبى زُرْعَة، عن أبى هريرة [رضى الله عنه][٨] فى حديث الشفاعة الطويل: «فيقول الله[٩]: يا محمد، أدخل من لا حساب عليه[١٠] من أمتك من الباب الأيمن، وهم شركاء الناس فى الأبواب الأخر. والذى نفس محمد بيده، إن ما بين المصراعين من مصاريع الجنة ـ ما بين عضادتى الباب ـ لكما بين مكة وهجر ـ أو: هجر ومكة». وفى رواية: «مكة وبصرى»[١١].

وفى صحيح مسلم، عن عتبة بن غزوان أنه خطبهم خطبة فقال فيها: «ولقد ذكر لنا أن ما بين مصراعين من مصاريع الجنة، مسيرة أربعين سنة، وليأتين عليه يوم وهو كظيظ من الزحام»[١٢].

وفى المسند عن حكيم بن معاوية، عن أبيه، عن رسول الله ﷺ، مثله[١٣].

وقال عبد بن حميد: حدثنا الحسن بن موسى، حدثنا ابن لهيعة، حدثنا دَرَّاج، عن أبى الهيثم، عن أبى سعيد، عن رسول الله ﷺ قال: «إن ما بين مصراعين فى الجنة مسيرة أربعين سنة»[١٤].

وقوله: ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ﴾ أى: طابت أعمالكم وأقوالكم، وطاب سعيكم فطاب جزاؤكم، كما أمر رسول الله ﷺ أن ينادى بين المسلمين فى بعض الغزوات: «إن الجنة لا يدخلها إلا نفس مسلمة» وفى رواية: «مؤمنة»[١٥].

---

(١) فى أ: «أيتهما».
(٢) المسند (٢/ ٢٦٨) وصحيح البخارى برقم (٣٦٦٦) وصحيح مسلم برقم (١٠٢٧).
(٣) فى ت: «وفى الصحيحين».
(٤) صحيح البخارى برقم (١٨٩٦) وصحيح مسلم برقم (١١٥٢).
(٥) صحيح مسلم برقم (٢٣٤). (٦) فى ت: «وروى».
(٧) ورواه أحمد فى مسنده (٥/ ٢٤٢) من طريق إسماعيل بن عياش به، وشهر بن حوشب فيه كلام ولم يسمع من معاذ.
(٨) زيادة من أ. (٩) فى أ: «قال الله عز وجل». (١٠) فى أ: «لا حساب عليه ولا ملامة».
(١١) صحيح البخارى برقم (٤٧١٢) وصحيح مسلم برقم (١٩٤).
(١٢) صحيح مسلم برقم (٢٩٦٧).
(١٣) المسند (٥/ ٣).
(١٤) المنتخب برقم (٩٢٤) ودراج عن أبى الهيثم ضعيف. (١٥) رواه النسائى فى السنن (٥/ ٢٣٤) من حديث أبى هريرة.

وقوله: ﴿فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ أى: ماكثين فيها أبدا، لا يبغون عنها حولا.

﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ﴾ أى: يقول المؤمنون إذا عاينوا فى الجنة ذلك الثواب الوافر، والعطاء العظيم، والنعيم المقيم، والملك الكبير، يقولون عند ذلك: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ﴾ أى: الذى كان وعدنا على ألسنة رسله الكرام، كما دعوا فى الدنيا: ﴿رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ [آل عمران: ١٩٤]، ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ﴾ [الأعراف: ٤٣]، ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ. الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ لا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ [فاطر: ٣٤، ٣٥].

وقولهم: ﴿وَأَوْرَثَنَا الأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ قال أبو العالية، وأبو صالح، وقتادة، والسدى، وابن زيد[١]: أى أرض الجنة.

وهذه الآية كقوله: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥]، ولهذا قالوا: ﴿نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ﴾ أى: أين[٢] شئنا حللنا، فنعم الأجر أجرنا على عملنا.

وفى الصحيحين من حديث الزهرى، عن أنس فى قصة المعراج قال النبى ﷺ: «أدخلت الجنة، فإذا فيها جنابذ اللؤلؤ، وإذا ترابها المسك»[٣].

وقال عبد بن حميد: حدثنا روح بن عبادة، حدثنا حماد بن سلمة، حدثنا الجريرى، عن أبى نضرة، عن أبى سعيد [رضى الله عنه][٤] أن رسول الله ﷺ سأل ابن صائد عن تربة الجنة؟ فقال: دَرْمكة بيضاءُ مِسْك خالص: فقال رسول الله ﷺ: «صدق».

وكذا رواه مسلم، من حديث أبى مسلمة[٥]، عن أبى نضرة، عن أبى سعيد، به[٦].

ورواه مسلم [أيضا][٧] عن أبى بكر بن أبى شيبة، عن أبى أسامة، عن الجُرَيْرِى، عن أبى نضرة، عن أبى سعيد؛ أن ابن صائد[٨] سأل رسول الله ﷺ عن تربة الجنة، فقال: «دَرْمَكة بيضاء، مسك خالص»[٩].

وقول ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا أبو غسان مالك بن إسماعيل، حدثنا إسرائيل، عن أبى إسحاق، عن عاصم بن ضمرة[١٠]، عن على بن أبى طالب، رضى الله عنه، فى قوله تعالى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا﴾، قال: سيقوا حتى انتهوا إلى باب من أبواب الجنة، فوجدوا عندها شجرة يخرج من تحت ساقها عينان، فعمدوا إلى إحداهما فتطهروا منها، فجرت عليهم نضرة

(١) فى ت: «وأبو صالح وغيرهما». (٢) فى أ: «حيث».
(٣) انظر: الحديث بطوله عند تفسير الآية الأولى من سورة الإسراء.
(٤) زيادة من أ. (٥) فى س: «سلمة».
(٦) المنتخب برقم (٨٧٤) وصحيح مسلم برقم (٢٩٢٨).
(٧) زيادة من أ. (٨) فى س: «صياد».
(٩) صحيح مسلم برقم (٢٩٢٨).
(١٠) فى ت: «وروى ابن أبى حاتم بسنده عن على»، وفى أ: «حمزة».

النعيم، فلم تُغَير أبشارهم بعدها أبدا، ولم تُشْعَث أشعارهم أبدا بعدها، كأنما دهنوا بالدهان، ثم عمدوا إلى الأخرى كأنما أمروا بها، فشربوا منها، فأذهبت ما كان فى بطونهم من أذى أو قذى، وتلقتهم الملائكة على أبواب[١] الجنة: ﴿ **سَلامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ**﴾. ويلقى كل غلمان صاحبهم يُطِيفُون به، فعل[٢] الولدان بالحميم جاء من الغيبة: أَبْشِر، قد أعد الله لك من الكرامة كذا وكذا، قد أعد الله لك من الكرامة كذا وكذا. وقال: وينطلق غلام من غلمانه إلى أزواجه من الحور العين، فيقول: هذا فلان ـ باسمه فى الدنيا ـ فيقلن: أنت رأيتَه؟ فيقول: نعم. فيستخففهن الفرح حتى تخرج إلى أَسْكُفَّة[٣] الباب. قال: فيجيء فإذا هو بنمارق مصفوفة، وأكواب موضوعة، وزرابى مبثوبة. قال: ثم ينظر إلى تأسيس بنيانه[٤]، فإذا هو قد أسس على جندل اللؤلؤ، بين أحمر وأخضر وأصفر [وأبيض][٥]، ومن كل لون. ثم يرفع طرفه إلى سقفه، فلولا أن الله قدره له، لألَمَّ أن يذهب ببصره، إنه لمثل البرق. ثم ينظر إلى أزواجه من الحور العين، ثم يتكيء على أريكة من أرائكه، ثم يقول: ﴿**الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ** ﴾ [الأعراف: ٤٣] الآية[٦].

ثم قال: حدثنا أبى، حدثنا أبو غسان مالك بن إسماعيل النَّهْدِى، حدثنا مسلمة[٧] بن جعفر البَجَلِى قال: سمعت أبا معاذ البصرى يقول: إن عليا، رضى الله عنه، كان ذات يوم عند رسول الله ﷺ، فقال النبى[٨] ﷺ: «والذى نفسى بيده، إنهم إذا خرجوا من قبورهم يُسْتَقبلون ـ أو: يُؤْتون ـ بنوق لها أجنحة، وعليها رحال الذهب، شراك نعالهم نور يتلألأ، كل خطوة منها مد البصر، فينتهون إلى شجرة ينبع من أصلها عينان، فيشربون من إحداهما فيُغْسَل ما فى بطونهم من دنس، ويغتسلون من الأخرى، فلا تشعث أبشارهم ولا أشعارهم بعدها أبدا، وتجرى عليهم نضرة النعيم، فينتهون ـ أو: فيأتون ـ باب الجنة، فإذا حلقة من ياقوتة حمراء على صفائح الذهب، فيضربون بالحلقة على الصفيحة[٩]، فيسمع [١٠]لها طنين يا على، فيبلغ كل حوراء أن زوجها قد أقبل، فتبعث قَيِّمها فيفتح له، فإذا رآه خَرّ له ـ قال مسلمة: أراه قال: ساجداً [١١]ـ فيقول: ارفع رأسك، فإنما أنا قَيمك، وُكِّلْتُ بأمرك. فيتبعه ويقفو أثره، فتستخف الحوراء العجلة، فتخرج من خيام الدر والياقوت حتى تعتنقه، ثم تقول: أنت حبى، وأنا حبك، وأنا الخالدة التى لا أموت، وأنا الناعمة التى لا أبأس، وأنا الراضية التى لا أسخط، وأنا المقيمة التى لا أظعن». فيدخل بيتاً من أسّه إلى سقفه مائة ألف ذراع، بناؤه على جندل اللؤلؤ، طرائق أصفر وأخضر وأحمر، ليس فيها [١٢]طريقة تشاكل صاحبتها، فى البيت سبعون سريرا، على كل سرير سبعون حَشْيَة، على كل حشية سبعون زوجة، على كل زوجة سبعون حلة، يرى مُخّ ساقها من باطن الحُلَل، يقضى جماعها فى مقدار ليلة من لياليكم هذه. الأنهار

---

(١) فى أ: «باب». (٢) فى أ: «مثل». (٣) فى س: «أسفكة».

(٤) فى أ: «بنائه». (٥) زيادة من ت، س، أ.

(٦) ورواه الطبرى فى تفسيره (٢٤/ ٣٥) وابن المبارك فى الزهد برقم (١٤٥٠) والضياء المقدسى فى المختارة برقم (٥٤١) من طرق عن أبى إسحاق بنحوه.

(٧) فى ت، أ: «سلمة». (٨) فى ت: «رسول الله». (٩) فى س: «الصفحة».

(١٠) فى أ: «فلو سمع». (١١) فى ت: «خر له ساجد» وهو خطأ، والصواب: «ساجدا».

(١٢) فى ت، س: «منها».

من تحتهم تَطّرد، أنهار من ماء غير آسن ـ قال: صاف، لا كدر فيه ـ وأنهار من لبن لم يتغير طعمه ـ قال: لم يخرج من ضروع الماشية ـ وأنهار من خمر لذة للشاربين ـ قال: لم تعصرها الرجال بأقدامهم ـ وأنهار من عسل مصفى ـ قال: لم يخرج من بطون النحل. يستجني الثمار، فإن شاء قائما، وإن شاء قاعدا، وإن شاء متكئا ـ ثم تلا: ﴿**وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلاً**﴾ [الإنسان: ١٤] ـ فيشتهى الطعام فيأتيه طير أبيض ـ قال: وربما قال: أخضر. قال: ـ فترفع أجنحتها، فيأكل من جنوبها، أى الألوان شاء، ثم يطير فيذهب[١]، فيدخل الملك فيقول: سلام عليكم، تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون. ولو أن شعرة من شعر[٢] الحوراء وقعت لأهل الأرض، لأضاءت الشمس معها سواداً فى نور».

هذا حديث غريب، وكأنه مرسل، والله أعلم.

﴿**وَتَرَى الْمَلائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٧٥)**﴾ .

لما ذكر تعالى حكمه فى أهل الجنة والنار، وأنه نَزّل كُلا فى المحل الذى يليق به ويصلح له، وهو العادل فى ذلك الذى لا يجور ـ أخبر عن ملائكته أنهم محدقون من حول عرشه المجيد، يسبحون بحمد ربهم، ويمجدونه[٣] ويعظمونه ويقدسونه وينزهونه عن النقائص والجور، وقد فصل القضية، وقضى الأمر، وحكم بالعدل؛ ولهذا قال: ﴿**وَقُضِيَ بَيْنَهُم**﴾ أى: بين الخلائق ﴿**بِالْحَقِّ**﴾.

ثم قال: ﴿**وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾ أى: ونطق الكون أجمعه[٤] ـ ناطقه وبهيمه ـ لله رب العالمين، بالحمد فى حكمه وعدله؛ ولهذا لم يسند القول إلى قائل بل أطلقه، فدل على أن جميع المخلوقات شَهِدَت له بالحمد.

قال قتادة: افتتح الخلق بالحمد فى قوله: ﴿**الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ**﴾ [الأنعام: ١]، واختتم بالحمد فى قوله: ﴿**وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾.

آخر تفسير سورة الزمر ولله الحمد[٥] [أولاً وآخرًا ظاهرًا وباطنًا][٦]

---

(١) فى س: «ثم تطير فتذهب». (٢) فى ت: «شعور». (٣) فى أ: «ويحمدونه».
(٤) فى ت، س: «جميعه». (٥) فى أ: «والله أعلم». (٦) زيادة من س.

٣٩ ــ سورة الزمر

(مكية وآياتها خمس وسبعون آية)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١﴾ ٣٩ الزمر

إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ ﴿٢﴾ ٣٩ الزمر

أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾ ٣٩ الزمر

﴿ سورة الزمر مكية إلا قوله قل ياعبادى الآية وآياتها خمس وسبعون آية ﴾

١ (بسم الله الرحمن الرحيم) (تنزيل الكتاب) خبر لمبتدأ محذوف هو اسم إشارة أشير به إلى السورة تنزيلا لها منزلة الحاضر المشار إليه لكونها على شرف الذكر والحضور كما مر مراراً وقد قيل هو ضمير عائد
• إلى الذكر فى قوله تعالى إن هو إلا ذكر للعالمين وقوله تعالى (من الله العزيز الحكيم) صلة للتنزيل أو خبر ثان أو حال من التنزيل عاملها معنى الإشارة أو من الكتاب الذى هو مفعول معنى عاملها المضاف وقيل هو خبر لتنزيل الكتاب والوجه الأول أوفى بمقتضى المقام الذى هو بيان أن السورة أو القرآن تنزيل الكتاب من الله تعالى لا بيان أن تنزيل الكتاب منه تعالى لا من غيره كما يفيده الوجه الأخير وقرىء تنزيل الكتاب بالنصب على إضمار فعل نحو اقرأ أو الزم والتعرض لوصفى العزة والحكمة للإيذان بظهور أثريهما فى الكتاب بجريان أحكامه ونفاذ أوامره ونواهيه من غير مدافع ولا ممانع وبابتناء جميع مافيه على أساس الحكم
٢ الباهرة وقوله تعالى (إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق) شروع فى بيان شأن المنزل إليه وما يجب عليه أثر بيان شأن المنزل وكونه من عند الله تعالى والمراد بالكتاب هو القرآن وإظهاره على تقدير كونه هو المراد بالأول أيضاً لتعظيمه ومزيد الاعتناء بشأنه والباء إما متعلقة بالإنزال أى بسبب الحق وإثباته وإظهاره أو بداعية الحق واقتضائه للإنزال وإما بمحذوف هو حال من نون العظمة أو من الكتاب أى أنزلناه إليك محقين فى ذلك أو أنزلناه ملتبساً بالحق والصواب أى كل مافيه حق لا ريب فيه موجب للعمل به حتما
• والفاء فى قوله تعالى (فاعبد الله مخلصاً له الدين) لترتيب الأمر بالعبادة على إنزال الكتاب إليه عليه الصلاة والسلام بالحق أى فاعبده تعالى ممحضاً له الدين من شوائب الشرك والرياء حسبما بين فى تضاعيف ما أنزل إليك وقرىء برفع الدين على أنه مبتدأ خبره الظرف المقدم عليه لتأكيد الاختصاص المستفاد
٣ من اللام والجملة استئناف وقع تعليلا للأمر بإخلاص العبادة وقوله تعالى (ألا لله الدين الخالص)

لَوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ سُبْحَـٰنَهُۥ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٤﴾ ٣٩ الزمر

استئناف مقرر لما قبله من الأمر بإخلاص الدين له تعالى ووجوب الامتثال به وعلى القراءة الأخيرة مؤكد لاختصاص الدين به تعالى أى ألا هو الذى يجب أن يخص بإخلاص الطاعة له لأنه المتفرد بصفات الألوهية التى من جملتها الاطلاع على السرائر والضمائر وقوله تعالى (والذين اتخذوا من دونه أولياء) * تحقيق لحقية ماذكر من إخلاص الدين الذى هو عبارة عن التوحيد ببيان بطلان الشرك الذى هو عبارة عن ترك إخلاصه والموصول عبارة عن المشركين ومحله الرفع على الابتداء خبره ماسيأتى من الجملة المصدرة بإن والأولياء عن الملائكة وعيسى عليهم السلام والأصنام وقوله تعالى (مانعبدهم إلا ليقربونا إلى الله * زلفى) حال بتقدير القول من واو اتخذوا مبينة لكيفية إشراكهم وعدم خلوص دينهم والاستثناء مفرغ من أعم العلل وزلفى مصدر مؤكد على غير لفظ المصدر ملاق له فى المعنى أى والذين لم يخلصوا العبادة لله تعالى بل شابوها بعبادة غيره قائلين مانعبدهم لشىء من الأشياء إلا ليقربونا إلى الله تعالى تقريباً (إن الله * يحكم بينهم) أى وبين خصمائهم الذين هم المخلصون للدين وقد حذف لدلالة الحال عليه كما فى قوله تعالى لا نفرق بين أحد من رسله على أحد الوجهين أى بين أحد منهم وبين غيره وعليه قول النابغة [فما كان بين الخير لو جاء سالماً ، أبو حجر إلا ليال قلائل] أى بين الخير وبينى وقيل ضمير بينهم للفريقين جميعاً (فيما هم فيه يختلفون) من الدين الذى اختلفوا فيه بالتوحيد والإشراك وادعى كل فريق منهم صحة ما انتحله وحكمه تعالى فى ذلك إدخال الموحدين الجنة والمشركين النار فالضمير للفريقين هذا هو الذى يستدعيه مساق النظم الكريم وأما تجويز أن يكون الموصول عبارة عن المعبودين على حذف العائد إليه وإضمار المشركين من غير ذكر تعويلا على دلالة المساق عليهم ويكون التقدير والذين اتخذهم المشركون أولياء قائلين مانعبدهم إلا ليقربونا إلى الله إن الله يحكم بينهم أى بين العبدة والمعبودين فيما هم فيه يختلفون حيث يرجو العبدة شفاعتهم وهم يلعنونهم فبعد الإغضاء عما فيه من التعسفات بمعزل من السداد كيف لا وليس فيما ذكر من طلب الشفاعة واللعن مادة يختلف فيها الفريقان اختلافا محوجا إلى الحكم والفصل وإنما ذاك مابين فريق الموحدين والمشركين فى الدنيا من الاختلاف فى الدين الباقى إلى يوم القيامة وقرىء قالوا مانعبدهم فهو بدل من الصلة لا خبر للموصول كما قيل إذ ليس فى الإخبار بذلك مزيد مزية وقرىء مانعبدكم إلا لتقربونا حكاية لما خاطبوا به آلهتهم وقرىء نعبدهم إتباعا للباء (إن الله لا يهدى) أى لا يوفق للاهتداء * إلى الحق الذى هو طريق النجاة عن المكروه والفوز بالمطلوب (من هو كاذب كفار) أى راسخ فى * الكذب مبالغ فى الكفر كما يعرب عنه قراءة كذاب وكذوب فإنهما فاقدان للبصيرة غير قابلين للاهتداء لتغييرهما الفطرة الأصلية بالتمرن فى الضلالة والتمادى فى الغى والجملة تعليل لما ذكر من حكمه تعالى (لو أراد ٤ الله أن يتخذ ولداً) الخ استئناف مسوق لتحقيق الحق وإبطال القول بأن الملائكة بنات الله وعيسى ابنه تعالى عن ذلك علواً كبيراً ببيان استحالة اتخاذ الولد فى حقه تعالى على الإطلاق ليندرج فيه استحالة

خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٥﴾ ٣٩ الزمر

ماقيل اندراجا أولياً أى لو أراد الله أن يتخذ ولداً (لاصطفى) أى لاتخذ (مما يخلق) أى من جملة مايخلقه أو من جنس مايخلقه (مايشاء) أن يتخذه إذلا موجود سواه إلا وهو مخلوق له تعالى لامتناع تعدد الواجب ووجوب استناد جميع ماعداه إليه ومن البين أن اتخاذ الولد منوط بالمماثلة بين المتخذ والمتخذ وأن المخلوق لا يماثل خالقه حتى يمكن اتخاذه ولداً فما فرضناه اتخاذ ولد لم يكن اتخاذ ولد بل اصطفاء عبد وإليه أشير حيث وضع الاصطفاء موضع الاتخاذ الذى تقتضيه الشرطية تنبيها على استحالة مقدمها لاستلزام فرض وقوعه بل فرض إرادة وقوعه انتفاءه أى لو أراد الله تعالى أن يتخذ ولداً لفعل شيئاً ليس هو من اتخاذ الولد فى شىء أصلا بل إنما هو اصطفاء عبد ولا ريب فى أن ما يستلزم فرض وقوعه انتفاءه فهو ممتنع قطعاً فكأنه قيل لو أراد الله أن يتخذ ولداً لامتنع ولم يصح لكن لا على أن الامتناع منوط بتحقق الإرادة بل على أنه متحقق عند عدمها بطريق الأولوية على منوال لو لم يخف الله لم يعصه وقوله تعالى (سبحانه) تقرير لما ذكر من استحالة اتخاذ الولد فى حقه تعالى وتأكيد له ببيان تنزهه تعالى عنه أى تنزه بالذات عن ذلك تنزهه الخاص به على أن السبحان مصدر من سبح إذا بعد أو أسبحه تسبيحاً لائقاً به على أنه علم للتسبيح مقول على ألسنة العباد أو سبحوه تسبيحاً حقيقاً بشأنه وقوله تعالى (هو الله الواحد القهار) استئناف مبين لتنزهه تعالى بحسب الصفات إثر بيان تنزهه تعالى عنه بحسب الذات فإن صفة الألوهية المستتبعة لسائر صفات الكمال النافية لسمات النقصان والوحدة الذاتية الموجبة لامتناع المماثلة والمشاركة بينه تعالى وبين غيره على الإطلاق مما يقضى بتنزهه تعالى عما قالوا قضاء متقنا وكذا وصف القهارية لما أن اتخاذ الولد شأن من يكون تحت ملكوت الغير عرضة للفناء ليقوم ولده مقامه عند فنائه ومن هو مستحيل الفناء قهار لكل الكائنات كيف يتصور أن يتخذ من الأشياء الفانية مايقوم مقامه وقوله تعالى (خلق السموات والأرض بالحق) تفصيل لبعض أفعاله تعالى الدالة على تفرده بما ذكر من الصفات الجليلة أى خلقهما وما بينهما من الموجودات ملتبسة بالحق والصواب مشتملة على الحكم والمصالح وقوله تعالى (يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل) بيان لكيفية تصرفه تعالى فيهما بعد بيان خلقهما فإن حدوث الليل والنهار فى الأرض منوط بتحريك السموات أى يغشى كل واحد منهما الآخر كأنه يلفه عليه لف اللباس على اللابس أو يغيبه به كما يغيب الملفوف باللفافة أو يجعله كارا عليه كروراً متتابعاً تتابع أكوار العمامة وصيغة المضارع للدلالة على التجدد (وسخر الشمس والقمر) جعلهما منقادين لأمره تعالى وقوله تعالى (كل يجرى لأجل مسمى) بيان لكيفية تسخيرهما أى كل منهما يجرى لمنتهى دورته أو منقطع حركته وقد مر تفصيله غير مرة (ألا هو العزيز) الغالب القادر على كل شىء من الأشياء التى من جملتها عقاب العصاة (الغفار) المبالغ فى المغفرة ولذلك لا يعاجل بالعقوبة وسلب مافى هذه الصنائع البديعة من آثار الرحمة وتصدير

خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّن بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٦﴾ ٣٩ الزمر

٦ الجملة بحرف التنبيه لإظهار كمال الاعتناء بمضمونها (خلقكم من نفس واحدة) بيان لبعض آخر من أفعاله الدالة على ماذكر وترك عطفه على خلق السموات للإيذان باستقلاله فى الدلالة ولتعلقه بالعالم السفلى والبداءة بخلق الإنسان لعراقته فى الدلالة لما فيه من تعاجيب آثار القدرة وأسرار الحكمة وأصالته فى المعرفة فإن الإنسان بحال نفسه أعرف والمراد بالنفس نفس آدم عليه السلام وقوله (ثم جعل منها زوجها) عطف على محذوف هو صفة لنفس أى من نفس خلقها ثم جعل منها زوجها أو على معنى واحدة أى من نفس وحدت ثم جعل منها زوجها فشفعها أو على خلقكم لتفاوت مابينهما فى الدلالة فإنهما وإن كانتا آيتين دالتين على ماذكر لكن الأولى لاستمرارها صارت معتادة وأما الثانية فحيث لم تكن معتادة خارجة عن قياس الأولى كما يشعر به التعبير عنها بالجعل دون الخلق كانت أدخل فى كونها آية وأجلب للتعجب من السامع فعطفت على الأولى بثم دلالة على مباينتها لها فضلا ومزية وتراخيها عنها فيما يرجع إلى زيادة كونها آية فهو من التراخى فى الحال والمنزلة وقيل أخرج ذرية آدم من ظهره كالذر ثم خلق منه حواء ففيه ثلاث آيات مترتبة خلق آدم عليه والسلام بلا أب وأم وخلق حواء من قصيراه ثم تشعيب الخلق الفائت للحصر منهما وقوله تعالى (وأنزل لكم) بيان لبعض آخر من أفعاله الدالة على ماذكر أى قضى أو قسم لكم فإن قضاياه وقسمه توصف بالنزول من السماء حيث تكتب فى اللوح المحفوظ أوأحدث لكم بأسباب نازلة من السماء كالأمطار وأشعة الكواكب (من الأنعام ثمانية أزواج) ذكراً وأنثى هى الإبل والبقر والضأن والمعز وقيل خلقها فى الجنة ثم أنزلها وتقديم الظرفين على المفعول الصريح لما مر مراراً من الاعتناء بما قدم والتشويق إلى ما أخر فإن كون الإنزال لمنافعهم وكونه من الجهة العالية من الأمور المهمة المشوقة إلى ما أنزل لامحالة وقوله تعالى (يخلقكم فى بطون أمهاتكم) استئناف مسوق لبيان كيفية خلقهم وأطواره المختلفة الدالة على القدرة الباهرة وصيغة المضارع الدلالة على التدرج والتجدد وقوله تعالى (خلقاً من بعد خلق) مصدر مؤكد أى يخلقكم فيها خلقاً كائناً من بعد خلق أى خلقاً مدرجا حيوانا سوياً من بعد عظام مكسوة لحماً من بعد عظام عارية من بعد مضغ مخلقة من بعد مضغ غير مخلقة من بعد علقة من بعد نطفة (فى ظلمات ثلاث) متعلق بيخلقكم وهى ظلمة البطن وظلمة الرحم وظلمة المشيمة أو ظلمة الصلب والبطن والرحم (ذلكم) إشارة إليه تعالى باعتبار أفعاله المذكورة وما فيه من معنى البعد للإيذان ببعد منزلته تعالى فى العظمة والكبرياء ومحله الرفع على الابتداء أى ذلكم العظيم الشأن الذى عددت أفعاله (الله) وقوله تعالى (ربكم) خبر آخر أى مربيكم فيما ذكر من الأطوار وفيما بعدها ومالكم المستحق لتخصيص العبادة به (له الملك) على الإطلاق فى الدنيا والآخرة ليس لغيره شركة فى ذلك بوجه

إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا
تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ
الصُّدُورِ ﴿٧﴾ ٣٩ الزمر

وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو
إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ
أَصْحَابِ النَّارِ ﴿٨﴾ ٣٩ الزمر

من الوجوه والجملة خبر آخر وكذا قوله تعالى (لا إله إلا هو) والفاء فى قوله تعالى (فأنى تصرفون)
لترتيب مابعدها على ماذكر من شئونه تعالى أى فكيف تصرفون عن عبادته تعالى مع وفور موجباتها
٧ ودواعيها وانتفاء الصارف عنها بالكلية إلى عبادة غيره من غير داع إليها مع كثرة الصوارف عنها (إن
تكفروا) به تعالى بعد مشاهدة ماذكر من فنون نعمائه ومعرفة شئونه العظيمة الموجبة للإيمان والشكر
(فإن الله غنى عنكم) أى فاعلموا أنه تعالى غنى عن إيمانكم وشكركم غير متأثر من انتفائهما (ولا يرضى
لعباده الكفر) أى عدم رضاه بكفر عباده لأجل منفعتهم ودفع مضرتهم رحمة عليهم لا لتضرره تعالى به
(وإن تشكروا يرضه لكم) أى يرض الشكر لأجلكم ومنفعتكم لأنه سبب لفوزكم بسعادة الدارين لا لانتفاعه
تعالى به وإنما قيل لعباده لا لكم لتعميم الحكم وتعليله بكونهم عباده تعالى وقرىء بإسكان الهاء (ولا تزر وازرة
وزر أخرى) بيان لعدم سراية كفر الكافر إلى غيره أصلا أى لا تحمل نفس حاملة للوزر حمل نفس
أخرى (ثم إلى ربكم مرجعكم) بالبعث بعد الموت (فينبئكم) عند ذلك (بما كنتم تعملون) أى كنتم تعملونه
فى الدنيا من أعمال الكفر والإيمان أى يجازيكم بذلك ثواباً وعقاباً (إنه عليم بذات الصدور) أى بمضمرات
٨ القلوب فكيف بالأعمال الظاهرة وهو تعليل للتنبئة (وإذا مس الإنسان ضر) من مرض وغيره (دعا
ربه منيباً إليه) راجعاً إليه مما كان يدعوه فى حالة الرخاء لعلمه بأنه بمعزل من القدرة على كشف ضره
وهذا وصف للجنس بحال بعض أفراده كقوله تعالى إن الإنسان لظلوم كفار (ثم إذا خوله نعمة منه) أى
أعطاه نعمة عظيمة من جنابه تعالى من التخول وهو التعهد أى جعله خائل مال من قولهم فلان خائل مال
إذا كان متعهداً له حسن القيام به أو من الخول وهو الافتخار أى جعله يخول أى يختال ويفتخر (نسى
ما كان يدعو إليه) أى نسى الضر الذى كان يدعو الله تعالى فيما سبق إلى كشفه (من قبل) أى من قبل
التخويل أو نسى ربه الذى كان يدعوه ويتضرع إليه إما بناء على أن ما بمعنى من كما فى قوله تعالى وما خلق
الذكر والأنثى وقوله تعالى ولا أنتم عابدون ما أعبد وإما إيذاناً بأن نسيانه بلغ إلى حيث لا يعرف
مدعوه ماهو فضلا عن أن يعرفه من هو كما مر فى قوله تعالى عما أرضعت (وجعل لله أنداداً) شركاء فى
العبادة (ليضل) الناس بذلك (عن سبيله) الذى هو التوحيد وقرىء ليضل بفتح الياء أى يزداد ضلالا
أو يثبت عليه وإلا فأصل الضلال غير متأخر عن الجعل المذكور واللام لام العاقبة كما فى قوله تعالى

أَمَّنْ هُوَ قَـٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْأَخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَايَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿٩﴾ ٣٩ الزمر

فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزناً خلا أن هذا أقرب إلى الحقيقة لأن الجاعل ههنا قاصد بجعله المذكور حقيقة الإضلال والضلال وإن لم يعرف لجهله أنهما إضلال وضلال وأما آل فرعون فهم غير قاصدين بالتقاطهم العداوة أصلاً (قل) تهديداً لذلك الضال المضل وبياناً لحاله ومآله (تمتع بكفرك قليلا) أى تمتعاً قليلا أو زماناً قليلا (إنك من أصحاب النار) أى من ملازميها والمعذبين فيها على الدوام وهو تعليل لقلة التمتع وفيه من الإقناط من النجاة مالا يخفى كأنه قيل إذ قد أبيت قبول ما أمرت به من
الإيمان والطاعة فمن حقك أن تؤمر بتركه لتذوق عقوبته (أم من هو قانت آناء الليل) الخ من تمام الكلام ٩
المأمور به وأم إما متصلة قد حذف معادلها ثقة بدلالة مساق الكلام عليه كأنه قيل له تأكيداً للتهديد وتهكما به أأنت أحسن حالا ومآلا أم من هو قائم بمواجب الطاعات ودائم على أداء وظائف العبادات فى ساعات الليل حالتى السراء والضراء لا عند مساس الضر فقط كدأبك حال كونه (ساجداً وقائماً) أى جامعاً بين الوصفين المحمودين وتقديم السجود على القيام لكونه أدخل فى معنى العبادة وقرىء كلاهما بالرفع على أنه خبر بعد خبر (يحذر الآخرة) حال أخرى على الترادف أو التداخل أو استئناف وقع جواباً عما نشأ من حكاية حاله من القنوت والسجود والقيام كأنه قيل ماباله يفعل ذلك فقيل يحذر عذاب الآخرة (ويرجو رحمة ربه) فينجو بذلك مما يحذره ويفوز بما يرجوه كما ينبىء عنه التعرض لعنوان الربوبية المنبئة عن التبليغ إلى الكمال مع الإضافة إلى ضمير الراجى لا أنه يحذر ضر الدنيا ويرجو خيرها فقط وإما منقطعة وما فيها من الإضراب للانتقال من التهديد إلى التبكيت بتكليف الجواب الملجىء إلى الاعتراف بما بينهما من التباين البين كأنه قيل بل أم من هو قانت الخ أفضل أم من هو كافر مثلك كما هو المعنى على قراءة التخفيف (قل) بياناً للحق وتنبيهاً على شرف العلم والعمل (هل يستوى الذين يعلمون) حقائق الأحوال فيعملون بموجب علمهم كالقانت المذكور (والذين لا يعلمون) أى ماذكر أو شيئاً فيعملون بمقتضى جهلهم وضلالهم كدأبك والاستفهام للتنبيه على أن كون الأولين فى أعلى معارج الخير وكون الآخرين فى أقصى مدارج الشر من الظهور بحيث لا يكاد يخفى على أحد من منصف ومكابر وقيل هو وارد على سبيل التشبيه أى كما لا يستوى العالمون والجاهلون لا يستوى القانتون والعاصون وقوله تعالى (إنما يتذكر أولو الألباب) كلام مستقل غير داخل فى الكلام المأمور به وارد من جهته تعالى بعد الأمر بما ذكر من القوارع الزاجرة عن الكفر والمعاصى لبيان عدم تأثيرها فى قلوب الكفرة لاختلال عقولهم كما فى قول من قال [عوجوا لخيوا لنعمى دمنة الدار * ماذا تحيون من نوى وأحجار] أى إنما يتعظ بهذه البيانات الواضحة أصحاب العقول الخالصة عن شوائب الخلل وهؤلاء بمعزل من ذلك وقرىء إنما يذكر بالإدغام .

قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾ ٣٩ الزمر

قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾ ٣٩ الزمر

وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾ ٣٩ الزمر

١٠ (قل ياعباد الذين آمنوا اتقوا ربكم) أمر رسول الله ﷺ بتذكير المؤمنين وحملهم على التقوى والطاعة إثر تخصيص التذكر بأولى الألباب إيذاناً بأنهم هم كما سيصرح به أى قل لهم قولى هذا بعينه وفيه تشريف لهم بإضافتهم إلى ضمير الجلالة ومزيد اعتناء بشأن المأمور به فإن نقل عين أمر الله أدخل فى إيجاب الامتثال به وقوله تعالى (للذين أحسنوا) تعليل للأمر أو لوجوب الامتثال به وإيراد الإحسان فى حيز الصلة دون التقوى للإيذان بأنه من باب الإحسان وأنهما متلازمان وكذا الصبر كما مر فى قوله تعالى إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون وفى قوله تعالى إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين وقوله تعالى (فى هذه الدنيا) متعلق بأحسنوا أى عملوا الأعمال الحسنة فى هذه الدنيا على وجه الإخلاص وهو الذى عبر عنه رسول الله ﷺ حين سئل عن الإحسان بقوله ﷺ أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك (حسنة) أى حسنة عظيمة لا يكتنه كنهها وهى الجنة وقيل هو متعلق بحسنة على أنه بيان لمكانها أو حال من ضميرها فى الظرف فالمراد بها حينئذ الصحة والعافية (وأرض الله واسعة) فمن تعسر عليه التوفر على التقوى والإحسان فى وطنه فليهاجر إلى حيث يتمكن فيه من ذلك كما هو سنة الأنبياء والصالحين فإنه لا عذر له فى التفريط أصلا وقوله تعالى (إنما يوفى الصابرون) الخ ترغيب فى التقوى المأمور بها وإيثار الصابرين على المتقين للإيذان بأنهم حائزون لفضيلة الصبر كحيازتهم لفضيلة الإحسان لما أشير إليه من استلزام التقوى لهما مع ما فيه من زيادة حث على المصابرة والمجاهدة فى تحمل مشاق المهاجرة ومتاعبها أى إنما يوفى الذين صبروا على دينهم وحافظوا على حدوده ولم يفرطوا فى مراعاة حقوقه لما اعتراهم فى ذلك من فنون الآلام والبلايا التى من جملتها مهاجرة الأهل ومفارقة الأوطان (أجرهم) بمقابلة ما كابدوا من الصبر (بغير حساب) أى بحيث لا يحصى ولا يحصر عن ابن عباس رضى الله عنهما لا يهتدى إليه حساب الحساب ولا يعرف وفى الحديث أنه تنصب الموازين يوم القيامة لأهل الصلاة والصدقة والحج فيؤتون بها أجورهم ولا تنصب لأهل البلاء بل يصب عليهم الأجر صبا حتى يتمنى أهل العافية فى الدنيا أن أجسادهم تقرض بالمقاريض مما يذهب به أهل البلاء من الفضل

١١ (قل إنى أمرت أن أعبد الله مخلصاً له الدين) أى من كل ماينافيه من الشرك والرياء وغير ذلك أمر رسول الله ﷺ ببيان ما أمر به نفسه من الإخلاص فى عبادة الله الذى هو عبارة عما أمر به المؤمنون من التقوى مبالغة فى حثهم على الإتيان بما كلفوه وتمهيداً لما يعقبه مما خوطب به المشركون

١٢ (وأمرت لأن أكون أول المسلمين) أى وأمرت بذلك لأجل أن أكون مقدمهم

قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾ ٣٩ الزمر

قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى ﴿١٤﴾ ٣٩ الزمر

فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٥﴾ ٣٩ الزمر

لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ ۚ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴿١٦﴾ ٣٩ الزمر

فى الدنيا والآخرة لأن إحراز قصب السبق فى الدين بالإخلاص فيه والعطف لمغايرة الثانى الأول بتقيده بالعلة والإشعار بأن العبادة المذكورة كما تقتضى الأمر بها لذاتها تقتضيه لما يلزمها من السبق فى الدين ويجوز أن تجعل اللام مزيدة كما فى أردت لأن أقوم بدليل قوله تعالى أمرت أن أكون أول من أسلم فالمعنى وأمرت أن أكون أول من أسلم من أهل زمانى أو من قومى أو أكون أول من دعا غيره إلى مادعا إليه نفسه

١٣ (قل إنى أخاف إن عصيت ربى) بترك الإخلاص والميل إلى ما أنتم عليه من الشرك

١٤ (عذاب يوم عظيم) هو يوم القيامة وصف بالعظمة لعظمة مافيه من الدواهى والأهوال (قل الله أعبد) لا غيره لا استقلالا ولا اشتراكا (مخلصاً له دينى) من كل شوب أمر ﷺ أولا ببيان كونه مأموراً بعبادة الله تعالى وإخلاص الدين له ثم بالإخبار بخوفه من العذاب على تقدير العصيان ثم بالإخبار بامتثاله بالأمر على أبلغ وجه وآكده إظهاراً لتصلبه فى الدين وحسما لأطماعهم الفارغة وتمهيداً لتهديدهم بقوله

١٥ تعالى (فاعبدوا ماشئتم) أن تعبدوه (من دونه) تعالى وفيه من الدلالة على شدة الغضب عليهم مالا يخفى كأنهم لما لم ينتهوا عما نهوا عنه أمروا به كى يحل بهم العقاب (قل إن الخاسرين) أى الكاملين فى الخسران الذى هو عبارة عن إضاعة مايهمه وإتلاف مالا بد منه (الذين خسروا أنفسهم وأهليهم) باختيارهم الكفر لهما أى أضاعوهما وأتلفوهما (يوم القيامة) حين يدخلون النار حيث عرضوهما للعذاب السرمدى • وأوقعوهما فى هلكة لا هلكة وراءها وقيل خسروا أهليهم لأنهم إن كانوا من أهل النار فقد خسروهم كما خسروا أنفسهم وإن كانوا من أهل الجنة فقد ذهبوا عنهم ذهاباً لا إياب بعده وفيه أن المحذور ذهاب مالو آب لانتفع به الخاسر وذلك غير متصور فى الشق الأخير وقيل خسروهم لأنهم لم يدخلوا مدخل الذين لهم فى أهل الجنة وخسروا أهليهم الذين كانوا يتمتعون بهم لو آمنوا وأياً ماكان فليس المراد مجرد تعريف الكاملين فى الخسران بما ذكر بل بيان أنهم هم إما بجعل الموصول عبارة عنهم أو عما هم مندرجون فيه اندراجا أولياً وما فى قوله تعالى (ألا ذلك هو الخسران المبين) من استئناف الجملة وتصديرها بحرف • التنبيه والإشارة بذلك إلى بعد منزلة المشار إليه فى الشر وتوسيط ضمير الفصل وتعريف الخسران ووصفه

١٦ بالمبين من الدلالة على كمال هوله وفظاعته وأنه لا خسران وراءه ما لا يخفى وقوله تعالى (لهم من فوقهم

وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٣٩ الزمر

الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿١٨﴾ ٣٩ الزمر

أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي النَّارِ ﴿١٩﴾ ٣٩ الزمر

ظلل من النار) الخ نوع بيان لخسرانهم بعد تهويله بطريق الإبهام على أن لهم خبر لظلل ومن فوقهم متعلق
بمحذوف قيل هو حال من ظلل والأظهر أنه حال من الضمير فى الظرف المقدم ومن النار صفة لظلل
أى لهم كائنة من فوقهم ظلل كثيرة متراكبة بعضها فوق بعض كائنة من النار (ومن تحتهم) أيضاً (ظلل)
أى أطباق كثيرة بعضها تحت بعض ظلل لآخرين بل لهم أيضاً عند ترديهم فى دركاتها (ذلك) العذاب
الفظيع هو الذى (يخوف الله به عباده) ويحذرهم إياه بآيات الوعيد ليجتنبوا مايوقعهم فيه (ياعباد فاتقون)
ولا تتعرضوا لما يوجب سخطى وهذه عظة من الله تعالى بالغة منطوية على غاية اللطف والمرحمة وقرىء
١٧ يا عبادى (والذين اجتنبوا الطاغوت) أى البالغ أقصى غاية الطغيان فعلوت منه بتقديم اللام على العين
بنى للمبالغة فى المصدر كالرحموت والعظموت ثم وصف به للمبالغة فى النعت والمراد به هو الشيطان (أن
يعبدوها) بدل اشتمال منه فإن عبادة غير الله تعالى عبادة للشيطان إذ هو الآمر بها والمزين لها (وأنابوا
إلى الله) وأقبلوا إليه معرضين عما سواه إقبالا كلياً (لهم البشرى) بالثواب على ألسنة الرسل أو الملائكة
١٨ عند حضور الموت وحين يحشرون وبعد ذلك (فبشر عباد) (الذين يستمعون القول فيتبعون
أحسنه) هم الموصوفون بالاجتناب والإنابة بأعيانهم لكن وضع موضع ضميرهم الظاهر تشريفاً لهم
بالإضافة ودلالة على أن مدار اتصافهم بالوصفين الجليلين كونهم نقاداً فى الدين يميزون الحق من الباطل
ويؤثرون الأفضل فالأفضل (أولئك) إشارة إليهم باعتبار اتصافهم بما ذكر من النعوت الجليلة ومافيه
من معنى البعد للإيذان بعلو رتبتهم وبعد منزلتهم فى الفضل ومحله الرفع على الابتداء خبره مابعده من
الموصول أى أولئك المنعوتون بالمحاسن الجميلة (الذين هداهم الله) للدين الحق (وأولئك هم أولو الألباب)
أى هم أصحاب العقول السليمة عن معارضة الوهم ومنازعة الهوى المستحقون للهداية لا غيرهم وفيه دلالة
١٩ على أن الهداية تحصل بفعل الله تعالى وقبول النفس لها (أفمن حق عليه كلمة العذاب أفأنت تنقذ من
فى النار) بيان لأحوال أضداد المذكورين على طريقة الإجمال وتسجيل عليهم بحرمان الهداية وهم
عبدة الطاغوت ومتبعو خطواتها كما يلوح به التعبير عنهم بمن حق عليه كلمة العذاب فإن المراد بها
قوله تعالى لإبليس لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين وقوله تعالى لمن تبعك منهم لأملأن
جهنم منكم أجمعين وأصل الكلام أمن حق عليه كلمة العذاب فأنت تنقذه على أنها شرطية دخل عليها الهمزة
لإنكار مضمونها ثم الفاء لعطفها على جملة مستتبعة لها مقدرة بعد الهمزة ليتعلق الإنكار والنفى بمضمونيهما

لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٢٠﴾ ٣٩ الزمر

أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢١﴾ ٣٩ الزمر

معاً أى أأنت مالك أمر الناس فمن حق عليه كلمة العذاب فأنت تنقذه ثم كررت الهمزة فى الجزاء لتأكيد الإنكار وتذكيره لما طال الكلام ثم وضع موضع الضمير من فى النار لمزيد تشديد الإنكار والاستبعاد والتنبيه على أن المحكوم عليه بالعذاب بمنزلة الواقع فى النار وأن اجتهاده ﷺ فى دعائهم إلى الإيمان سعى فى إنقاذهم من النار ويجوز أن يكون الجزاء محذوفا وقوله تعالى أفأنت الخ جملة مستقلة مسوقة لتقرير مضمون الجملة السابقة وتعيين ماحذف منها وتشديد الإنكار بتنزيل من استحق العذاب منزلة من دخل النار وتصوير الاجتهاد فى دعائه إلى الإيمان بصورة الإنقاذ من النار كأنه قيل أولا أفمن حق عليه العذاب فأنت تخلصه منه ثم شدد النكير فقيل أفأنت تنقذ من فى النار وفيه تلويح بأنه تعالى هو الذى يقدر على الإنقاذ لا غيره وحيث كان المراد بمن فى النار الذين قيل فى حقهم لهم من فوقهم ظلل من
٢٠ النار ومن تحتهم ظلل استدرك منهم بقوله تعالى (لكن الذين اتقوا ربهم لهم غرف من فوقها غرف) وهم الذين خوطبوا بقوله تعالى ياعباد فاتقون ووصفوا بما عدد من الصفات الفاضلة وهم المخاطبون أيضاً فيما سبق بقوله تعالى ياعبادى الذين آمنوا اتقوا ربكم الآية وبين أن لهم درجات عالية فى جنات النعيم بمقابلة ما للكفرة من دركات سافلة فى الجحيم أى لهم علالى بعضها فوق بعض (مبنية) بناء المنازل المبنية المؤسسة على الأرض فى الرصانة والإحكام (تجرى من تحتها) من تحت تلك الغرف (الأنهار) من غير تفاوت بين العلو والسفل (وعد الله) مصدر مؤكد لقوله تعالى لهم غرف الخ فإنه وعد وأى وعد
٢١ (لا يخلف الله الميعاد) لاستحالته عليه سبحانه (ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء) استئناف وارد إما لتمثيل الحياة الدنيا فى سرعة الزوال وقرب الاضمحلال بما ذكر من أحوال الزرع ترغيباً عن زخارفها وزينتها وتحذيراً من الاغترار بزهرتها كما فى نظائر قوله تعالى إنما مثل الحياة الدنيا الآية أو للاستشهاد على تحقق الموعود من الأنهار الجارية من تحت الغرف بما يشاهد من إنزال الماء من السماء وما يترتب عليه من آثار قدرته تعالى وأحكام حكمته ورحمته والمراد بالماء المطر وقيل كل ماء فى الأرض فهو من السماء ينزل منها إلى الصخرة ثم يقسمه الله تعالى بين البقاع (فسلكه) فأدخله ونظمه (ينابيع فى الأرض) أى عيوناً ٭
ومجارى كالعروق فى الأجساد وقيل مياهاً نابعة فيها فإن الينبوع يطلق على المنبع والنابع فنصبها على الحال وعلى الأول بنزع الجار أى فى ينابيع (ثم يخرج به زرعا مختلفاً ألوانه) أصنافه من بر وشعير وغيرهما أو ٭
كيفياته من الألوان والطعوم وغيرهما وكلمة ثم للتراخى فى الرتبة أو الزمان وصيغة المضارع لاستحضار

أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾ ٣٩ الزمر

الصورة (ثم يهيج) أى يتم جفافه ويشرف على أن يثور من منابته (فتراه مصفراً) من بعد خضرته ونضرته وقرىء مصفاراً (ثم يجعله حطاما) فتاتاً متكسرة كأن لم يغن بالأمس ولكون هذه الحالة من الآثار القوية علقت بجعل الله تعالى كالإخراج (إن فى ذلك) إشارة إلى ماذكر تفصيلا وما فيه من معنى البعد للإيذان ببعد منزلته فى الغرابة والدلالة على ماقصد بيانه (لذكرى) لتذكيراً عظيما (لأولى الألباب) لأصحاب العقول الخالصة عن شوائب الخلل وتنبيهاً لهم على حقيقة الحال يتذكرون بذلك أن حال الحياة الدنيا فى سرعة التقضى والانصرام كما يشاهدونه من حال الحطام كل عام فلا يغترون ببهجتها ولا يفتتنون بفتنتها أو يجزمون بأن من قدر على إنزال الماء من السماء وإجرائه فى ينابيع الأرض قادر على إجراء الأنهار من تحت الغرف هذا وأما ما قيل إن فى ذلك لتذكيراً وتنبيهاً على أنه لابد من صانع حكيم وأنه كائن عن تقدير وتدبير لاعن تعطيل وإهمال فبمعزل من تفسير الآية الكريمة وإنما يليق ذلك بما لو ذكر ماذكر من الآثار الجليلة والأفعال الجميلة من غير إسناد لها إلى مؤثر ما لحيث ذكرت مسندة إلى الله عز وجل تعين أن يكون متعلق التذكير والتنبيه شئونه تعالى أو شئون آثاره حسبما بين لاوجوده تعالى وقوله

٢٢ تعالى (أفمن شرح الله صدره للإسلام) الخ استئناف جار مجرى التعليل لما قبله من تخصيص الذكرى بأولى الألباب وشرح الصدر للإسلام عبارة عن تكميل الاستعداد له فإنه محل للقلب الذى هو منبع للروح التى تتعلق بها النفس القابلة للإسلام فانشراحه مستدع لاتساع القلب واستضاءته بنوره فإنه روى أنه ﷺ قال إذا دخل النور القلب انشرح وانفسح فقيل فما علامة ذلك قال ﷺ الإنابة إلى دار الخلود والتجافى عن دار الغرور والتأهب للموت قبل نزوله والكلام فى الهمزة والفاء كالذى مر فى قوله تعالى أفمن حق عليه كلمة العذاب وخبر من محذوف لدلالة مابعده عليه والتقدير أكل الناس سواء فمن شرح الله صدره أى خلقه متسع الصدر مستعداً للإسلام فبقى على الفطرة الأصلية ولم يتغير بالعوارض المكتسبة القادحة فيها (فهو) بموجب ذلك مستقر (على نور) عظيم (من ربه) وهو اللطف الإلهى الفائض عليه عند مشاهدة الآيات التكوينية والتنزيلية والتوفيق للاهتداء بها إلى الحق كمن قسا قلبه وحرج صدره بسبب تبديل فطرة الله بسوء اختياره واستولى عليه ظلمات الغى والضلالة فأعرض عن تلك الآيات بالكلية حتى لا يتذكر بها ولا يغتنمها (فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله) أى من أجل ذكره الذى حقه أن تنشرح له الصدور وتطمئن به القلوب أى إذا ذكر الله تعالى عندهم أو آياته اشمأزوا من أجله وازدادت قلوبهم قساوة كقوله تعالى فزادتهم رجساً وقرىء عن ذكر الله أى عن قبوله (أولئك) البعداء الموصوفون بما ذكر من قساوة القلوب (فى ضلال) بعد عن الحق (مبين) ظاهر كونه ضلالا لكل أحد قيل نزلت الآية فى حمزة وعلى رضى الله عنهما وأبى لهب وولده وقيل فى عمار بن

ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾ ٣٩ الزمر

٢٣ ياسر رضى الله عنه وأبى جهل وذويه (الله نزل أحسن الحديث) هو القرآن الكريم روى أن أصحاب
رسول الله ﷺ ملوا ملة فقالوا له ﷺ حدثنا حديثاً وعن ابن مسعود وابن عباس رضى الله عنهم قالوا
لو حدثتنا فنزلت والمعنى أن فيه مندوحة عن سائر الأحاديث وفى إيقاع الاسم الجليل مبتدأ وبناء نزل
عليه من تفخيم أحسن الحديث ورفع محله والاستشهاد على حسنه وتأكيد استناده إليه تعالى وأنه من
عنده لا يمكن صدوره عن غيره والتنبيه على أنه وحى معجز مالا يخفى (كتاباً) بدل من أحسن الحديث *
أو حال منه سواء اكتسب من المضاف إليه تعريفاً أو لا فإن مساغ مجىء الحال من النكرة المضافة اتفاق
ووقوعه حالا مع كونه اسماً لا صفة إما لاتصافه بقوله تعالى (متشابهاً) أو لكونه فى قوة مكتوباً ومعنى *
كونه متشابهاً تشابه معانيه فى الصحة والإحكام والابتناء على الحق والصدق واستتباع منافع الخلق فى
المعاد والمعاش وتناسب ألفاظه فى الفصاحة وتجاوب نظمه فى الإعجاز (مثانى) صفة أخرى لكتاباً أو *
حال أخرى منه وهو جمع مثنى بمعنى مردد ومكرر لما ثنى من قصصه وأنبائه وأحكامه وأوامره ونواهيه
ووعده ووعيده ومواعظه وقيل لأنه يثنى فى التلاوة وقيل هو جمع مثنى مفعل من التثنية بمعنى التكرير
والإعادة كما فى قوله تعالى فارجع البصر كرتين أى كرة بعد كرة ووقوعه صفة لكتاباً باعتبار تفاصيله كما
يقال القرآن سور وآيات ويجوز أن ينتصب على التمييز من متشابهاً كما يقال رأيت رجلا حسناً شمائل أى
شمائله والمعنى متشابهة مثانيه (تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم) قيل صفة لكتاباً أو حال منه لتخصصه *
بالصفة والإظهر أنه استئناف مسوق لبيان آثاره الظاهرة فى سامعيه بعد بيان أوصافه فى نفسه ولتقرير
كونه أحسن الحديث والاقشعرار التقبض يقال اقشعر الجلد إذا تقبض تقبضاً شديداً وتركيبه من القشع
وهو الأديم اليابس قد ضم إليه الراء ليكون رباعياً ودالا على معنى زائد يقال اقشعر جلده وقف شعره
إذا عرض له خوف شديد من منكر هائل دهمه بغتة والمراد إما بيان إفراط خشيتهم بطريق التمثيل
والتصوير أو بيان حصول تلك الحالة وعروضها لهم بطريق التحقيق والمعنى أنهم إذا سمعوا القرآن
وقوارع آيات وعيده أصابتهم هيبة وخشية تقشعر منها جلودهم وإذا ذكروا رحمة الله تعالى تبدلت خشيتهم
رجاء ورهبتهم رغبة وذلك قوله تعالى (ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله) أى ساكنة مطمئنة إلى *
ذكر رحمته تعالى وإنما لم يصرح بها إيذاناً بأنها أول مايخطر بالبال عند ذكره تعالى (ذلك) أى الكتاب
الذى شرح أحواله (هدى الله يهدى به من يشاء) أن يهديه بصرف مقدوره إلى الاهتداء بتأمله فيما فى
تضاعيفه من شواهد الحقية ودلائل كونه من عند الله تعالى (ومن يضلل الله) أى يخلق فيه الضلالة *
بصرف قدرته إلى مباديها وإعراضه عما يرشده إلى الحق بالكلية وعدم تأثره بوعيده ووعده أصلا أو

أَفَمَن يَتَّقِى بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٢٤﴾ ٣٩ الزمر

كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٥﴾ ٣٩ الزمر

فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْىَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ ٣٩ الزمر

وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ ٣٩ الزمر

قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾ ٣٩ الزمر

ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ
بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾ ٣٩ الزمر

* ومن يخذل (فماله من هاد) يخلصه من ورطة الضلال وقيل ذلك الذى ذكر من الخشية والرجاء أثر هداه
تعالى يهدى بذلك الأثر من يشاء من عباده ومن يضلل أى ومن لم يؤثر فيه لطفه لقسوة قلبه وإصراره
٢٤ على فجوره فماله من هاد من مؤثر فيه بشىء قط (أفمن يتقى بوجهه) الخ استئناف جار مجرى التعليل لما قبله
من تباين حالى المهتدى والضال والكلام فى الهمزة والفاء وحذف الخبر كالذى مر فى نظيريه والتقدير
* أكل الناس سواء فمن شأنه أنه يقى نفسه بوجهه الذى هو أشرف أعضائه (سوء العذاب) أى العذاب
السىء الشديد (يوم القيامة) لكون يده التى بها كان يتقى المكاره والمخاوف مغلولة إلى عنقه كمن هو آمن
* لا يعتريه مكروه ولا يحتاج إلى الاتقاء بوجه من الوجوه وقيل نزلت فى أبى جهل (وقيل للظالمين) عطف
على يتقى أى ويقال لهم من جهة خزنة النار وصيغة الماضى للدلالة على التحقق والتقرر وقيل هو حال من
ضمير يتقى بإضمار قد ووضع المظهر فى مقام المضمر للتسجيل عليهم بالظلم والإشعار بعلة الأمر فى قوله
تعالى (ذوقوا ما كنتم تكسبون) أى وبال ما كنتم تكسبونه فى الدنيا على الدوام من الكفر والمعاصى
٢٥ (كذب الذين من قبلهم) استئناف مسوق لبيان ما أصاب بعض الكفرة من العذاب الدنيوى إثر بيان
ما يصيب الكل من العذاب الأخروى أى كذب الذين من قبلهم من الأمم السالفة (فأتاهم العذاب) المقدر
لكل أمة منهم (من حيث لا يشعرون) من الجهة التى لا يحتسبون ولا يخطر ببالهم إتيان الشر منها
٢٦ (فأذاقهم الله الخزى) أى الذل والصغار (فى الحياة الدنيا) كالمسخ والخسف والقتل والسبى والإجلاء
ونحو ذلك من فنون النكال (ولعذاب الآخرة) المعد لهم (أكبر) لشدته وسرمديته (لو كانوا يعلمون)
٢٧ أى لو كان من شأنهم أن يعلموا شيئاً لعلموا ذلك واعتبروا به (ولقد ضربنا للناس فى هذا القرآن من كل
٢٨ مثل) يحتاج إليه الناظر فى أمور دينه (لعلهم يتذكرون) كى يتذكروا به ويتعظوا (قرآناً عربياً) حال
مؤكدة من هذا على أن مدار التأكيد هو الوصف كقولك جاءنى زيد رجلا صالحاً أو مدح له (غير ذى
عوج) لا اختلاف فيه بوجه من الوجوه فهو أبلغ من المستقيم وأخص بالمعانى وقيل المراد بالعوج الشك
٢٩ (لعلهم يتقون) علة أخرى مترتبة على الأولى (ضرب الله مثلا رجلا فيه إيراد شركاء متشاكسون)

إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ٣٩ الزمر

ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾ ٣٩ الزمر

لمثل من الأمثال القرآنية بعد بيان أن الحكمة فى ضربها هو التذكر والاتعاظ بها وتحصيل التقوى والمراد بضرب المثل ههنا تطبيق حالة عجيبة بأخرى مثلها وجعلها مثلها كما مر فى سورة يس ومثلا مفعول ثان لضرب ورجلا مفعوله الأول أخر عن الثانى للتشويق إليه وليتصل به ماهو من تتمته التى هى العمدة فى التمثيل وفيه ليس بصلة لشركاء كما قيل بل هو خبر له وبيان أنه فى الأصل كذلك مما لا حاجة إليه والجملة فى حيز النصب على أنه وصف لرجلا أو الوصف هو الجار والمجرور وشركاء مرتفع به على الفاعلية لاعتماده على الموصوف فالمعنى جعل الله تعالى مثلا للمشرك حسبما يقود إليه مذهبه من ادعاء كل معبوديه عبوديته عبداً يتشارك فيه جماعة يتجاذبونه ويتعاورونه فى مهماتهم المتباينة فى تحيره وتوزع قلبه (ورجلا) أى وجعل للموحد مثلا رجلا (سلماً) أى خالصاً (لرجل) فرد ليس لغيره عليه سبيل أصلا وقرىء سلماً بفتح السين وكسرها مع سكون اللام والكل مصادر من سلم له كذا أى خلص نعت بها مبالغة أو حذف منها ذو وقرىء سالماً وسالم أى وهناك رجل سالم وتخصيص الرجل لأنه أفطن لما يجرى عليه من الضر والنفع (هل يستويان مثلا) إنكار واستبعاد لاستوائهما ونفى له على أبلغ وجه وآكده وإيذان بأن ذلك من الجلاء والظهور بحيث لايقدر أحد أن يتفوه باستوائهما أو يتلعثم فى الحكم بتباينهما ضرورة أن أحدهما فى أعلى عليين والآخر فى أسفل سافلين وهو السر فى إبهام الفاضل والمفضول وانتصاب مثلا على التمييز أى هل يستوى حالاهما وصفتاهما والاقتصار فى التمييز على الواحد لبيان الجنس وقرىء مثلين كقوله تعالى أكثر أموالا وأولاداً للإشعار باختلاف النوع أو لأن المراد هل يستويان فى الوصفين على أن الضمير للمثلين لأن التقدير مثل رجل فيه الخ ومثل رجل الخ وقوله تعالى (الحمد لله) تقرير لما قبله من نفى الاستواء بطريق الاعتراض وتنبيه الموحدين على أن مالهم من المزية بتوفيق الله تعالى وأنها نعمة جليلة موجبة عليهم أن يداموا على حمده وعبادته أو على أن بيانه تعالى بضرب المثل أن لهم المثل الأعلى وللمشركين مثل السوء صنع جميل ولطف تام منه عزوجل مستوجب لحمده وعبادته وقوله تعالى (بل أكثرهم لايعلمون) إضراب وانتقال من بيان عدم الاستواء على الوجه المذكور إلى بيان أن أكثر الناس وهم المشركون لايعلمون ذلك مع كمال ظهوره فيبقون فى ورطة الشرك والضلال

٣٠ وقوله تعالى (إنك ميت وإنهم ميتون) تمهيد لما يعقبه من الاختصام يوم القيامة وقرىء مائت وما ئتون

٣١ وقيل كانوا يتربصون برسول الله ﷺ موته أى إنكم جميعاً بصدد الموت (ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم) أى مالك أموركم (تختصمون) فتحتج أنت عليهم بأنك بلغتهم ما أرسلت به من الأحكام والمواعظ التى من جملتها مافى تضاعيف هذه الآيات واجتهدت فى الدعوة إلى الحق حق الاجتهاد وهم قد لجوا فى المكابرة والعناد وقيل المراد به الاختصام العام الجارى فى الدنيا بين الأنام والأول هو الأظهر الأنسب بقوله

فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾ ٣٩ الزمر

وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ ٣٩ الزمر

لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾ ٣٩ الزمر

لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾ ٣٩ الزمر

٣٢ تعالى (فمن أظلم ممن كذب على الله) فإنه إلى آخره مسوق لبيان حال كل من طرفى الاختصام الجارى
فى شأن الكفر والإيمان لا غير أى أظلم من كل ظالم من افترى على الله سبحانه وتعالى بأن أضاف إليه
الشريك والولد (وكذب بالصدق) أى بالأمر الذى هو عين الحق ونفس الصدق وهو ما جاء به النبى ﷺ
* (إذ جاءه) أى فى أول مجيئه من غير تدبر فيه ولا تأمل (أليس فى جهنم مثوى للكافرين) أى لهؤلاء
الذين افتروا على الله سبحانه وسارعوا إلى التكذيب بالصدق من أول الأمر والجمع باعتبار معنى من
كما أن الإفراد فى الضمائر السابقة باعتبار لفظها أو لجنس الكفرة وهم داخلون فى الحكم دخولا أوليا
٣٣ (والذى جاء بالصدق وصدق به) الموصول عبارة عن رسول الله ﷺ ومن تبعه كما أن المراد فى قوله
تعالى ولقد آتينا موسى الكتاب لعلهم يهتدون هو عليه الصلاة والسلام وقومه وقيل عن الجنس المتناول
الرسل والمؤمنين بهم ويؤيده قراءة ابن مسعود رضى الله عنه والذين جاءوا بالصدق وصدقوا به وقيل
* هو صفة لموصوف محذوف هو الفوج أو الفريق (أولئك) الموصوفون بما ذكر من المجىء بالصدق
والتصديق به (هم المتقون) المنعوتون بالتقوى التى هى أجل الرغائب وقرىء وصدق به بالتخفيف أى صدق
به الناس فأداه إليهم كما نزل عليه من غير تغيير وقيل وصار صادقا به أى بسببه لأن ما جاء به من القرآن
٣٤ معجزة دالة على صدقه ﷺ وقرىء صدق به على البناء للمفعول (لهم ما يشاءون عند ربهم) بيان لما لهم فى
الآخرة من حسن المآب بعد بيان ما لهم فى الدنيا من محاسن الأعمال أى لهم كل ما يشاءون من جلب
المنافع ودفع المضار فى الآخرة لا فى الجنة فقط لما أن بعض ما يشاءونه من تكفير السيئات والأمن
من الفزع الأكبر وسائر أهوال القيامة إنما يقع قبل دخول الجنة (ذلك) الذى ذكر من حصول كل
ما يشاءونه (جزاء المحسنين) أى الذين أحسنوا أعمالهم وقد مر تفسير الإحسان غير مرة وقوله تعالى
٣٥ (ليكفر الله عنهم أسوأ الذى عملوا) الخ متعلق بقوله تعالى لهم ما يشاءون لكن لا باعتبار منطوقه
ضرورة أن التكفير المذكور لا يتصور كونه غاية لثبوت ما يشاءون لهم فى الآخرة كيف لا وهو
بعض ما سيثبت لهم فيها بل باعتبار فحواه فإنه حيث لم يكن إخباراً بما ثبت لهم فيما مضى بل بما
سيثبت لهم فيما سيأتى كان فى معنى الوعد به كما مر فى قوله تعالى وعد الله فإنه مصدر مؤكد لما قبله من
قوله تعالى لهم غرف من فوقها غرف فإنه فى معنى وعدهم الله غرفا فانتصب به وعد الله كأنه قيل

أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ ٣٩ الزمر

وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ ﴿٣٧﴾ ٣٩ الزمر

وعدهم الله جميع مايشاءونه من زوال المضار وحصول المسار ليكفر عنهم بموجب ذلك الوعد أسوأ الذى
عملوا دفعاً لمضارهم (ويجزيهم أجرهم بأحسن الذى كانوا يعملون) إعطاء لمنافعهم وإظهار الاسم الجليل *
فى موقع الإضمار لإبراز كمال الاعتناء بمضمون الكلام وإضافة الأسوأ والأحسن إلى ما بعدهما ليست
من قبيل إضافة المفضل إلى المفضل عليه بل من إضافة الشيء إلى بعضه للقصد إلى التحقيق والتوضيح من
غير اعتبار تفضيله عليه وإنما المعتبر فيهما مطلق الفضل والزيادة لا على المضاف إليه المعين بخصوصه كما فى
قولهم الناقص والأشج أعدلا بنى مروان خلا أن الزيادة المعتبرة فيهما ليست بطريق الحقيقة بل هى فى
الأول بالنظر إلى مايليق بحالهم من استعظام سيئاتهم وإن قلت واستصغار حسناتهم وإن جلت والثانى
بالنظر إلى لطف أكرم الأكرمين من استكثار الحسنة اليسيرة ومقابلتها بالمثوبات الكثيرة وحمل الزيادة
على الحقيقة وإن أمكن فى الأول بناء على أن تخصيص الأسوأ بالذكر لبيان تكفير مادونه بطريق
الأولوية ضرورة استلزام تكفير الأسوأ لتكفير السيء لكن لما لم يكن ذلك فى الأحسن كان الأحسن
نظمهما فى سلك واحد من الاعتبار والجمع بين صيغتى الماضى والمستقبل فى صلة الموصول الثانى دون الأول
٣٦ للإيذان باستمرارهم على الأعمال الصالحة بخلاف السيئة (أليس الله بكاف عبده) إنكار ونفى لعدم كفايته
تعالى على أبلغ وجه وآكده كأن الكفاية من التحقق والظهور بحيث لا يقدر أحد على أن يتفوه بعدمها أو
يتلعثم فى الجواب بوجودها والمراد بالعبد إما رسول الله ﷺ أو الجنس المنتظم له عليه السلام انتظاماً أولياً
ويؤيده قراءة من قرأ عباده وفسر بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام وكذا قراءة من قرأ بكافى عباده على
الإضافة ويكافى عباده صيغة المغالبة إما من الكفاية لإفادة المبالغة فيها وإما من المكافأة بمعنى المجازاة
وهذه تسلية لرسول الله ﷺ عما قالت له قريش إنا نخاف أن تخبلك آلهتنا ويصيبك مضرتها لعيبك إياها
وفى رواية قالوا لتكفن عن شتم آلهتنا أو ليصيبنك منهم خبل أو جنون كما قال قوم هود إن نقول إلا
اعتراك بعض آلهتنا بسوء وذلك قوله تعالى (ويخوفونك بالذين من دونه) أى الأوثان التى اتخذوها آلهة *
من دونه تعالى والجملة استئناف وقيل حال (ومن يضلل الله) حتى غفل عن كفايته تعالى وعصمته له ﷺ
٣٧ وخوفه بما لا ينفع ولا يضر أصلا (فما له من هاد) يهديه إلى خير ما (ومن يهد الله فما له من مضل)
يصرفه عن مقصده أو يصيبه بسوء يخل بسلوكه إذ لا راد لفعله ولا معارض لإرادته كما ينطق به
قوله تعالى (أليس الله بعزيز) غالب لا يغالب منيع لا يمانع ولا ينازع (ذى انتقام) ينتقم من أعدائه *
لأوليائه وإظهار الاسم الجليل فى موقع الإضمار لتحقيق مضمون الكلام وتربية المهابة .

وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾ ٣٩ الزمر

قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ ٣٩ الزمر

مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٤٠﴾ ٣٩ الزمر

إِنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٤١﴾ ٣٩ الزمر

اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ ٣٩ الزمر

---

٣٨ (ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله) لوضوح الدليل وسنوح السبيل (قل) تبكيتاً
لهم (أفرأيتم ماتدعون من دون الله إن أرادنى الله بضر هل هن كاشفات ضره) أى بعد ماتحققتم أن خالق
العالم العلوى والسفلى هو الله عز وجل فأخبرونى أن آلهتكم إن أرادنى الله بضر هل يكشفن عنى ذلك
* الضر (أو أرادنى برحمة) أى أو أرادنى بنفع (هل هن ممسكات رحمته) فيمنعنها عنى وقرىء كاشفات
ضره وممسكات رحمته بالتنوين فيهما ونصب ضره ورحمته وتعليق إرادة الضر والرحمة بنفسه عليه
الصلاة والسلام للرد فى نحورهم حيث كانوا خوفوه معرة الأوثان ولما فيه من الإيذان بإمحاض النصيحة
* (قل حسبى الله) أى فى جميع أمورى من إصابة الخير ودفع الشر روى أنه ﷺ لما سألهم سكتوا فنزل
٣٩ ذلك (عليه يتوكل المتوكلون) لاعلى غيره أصلا لعلمهم بأن كل ماسواه تحت ملكوته تعالى (قل ياقوم
اعملوا على مكانتكم) على حالتكم التى أنتم عليها من العداوة التى تمكنتم فيها فإن المكانة تستعار من العين
* للمعنى كما تستعار هنا وحيث للزمان مع كونهما للمكان وقرىء على مكاناتكم (إنى عامل) أى على
مكانتى فحذف للاختصار والمبالغة فى الوعيد والإشعار بأن حاله لاتزال تزداد قوة بنصر الله عز وجل
٤٠ وتأييده ولذلك توعدهم بكونه منصوراً عليهم فى الدارين بقوله تعالى (فسوف تعلمون) (من يأتيه
عذاب يخزيه) فإن خزى أعدائه دليل غلبته عليه الصلاة والسلام وقد عذبهم الله تعالى وأخزاهم يوم
٤١ بدر (ويحل عليهم عذاب مقيم) أى دائم هو عذاب النار (إنا أنزلنا عليك الكتاب للناس) لأجلهم
فإنه مناط مصالحهم فى المعاش والمعاد (بالحق) حال من فاعل أنزلنا أو من مفعوله (فمن اهتدى) بأن
عمل بما فيه (فلنفسه) أى إنما نفع به نفسه (ومن ضل) بأن لم يعمل بموجبه (فإنما يضل عليها) لما
أن وبال ضلاله مقصور عليها (وما أنت عليهم بوكيل) لتجبرهم على الهدى وما وظيفتك إلا البلاغ
٤٢ وقد بلغت أى بلاغ (الله يتوفى الأنفس حين موتها والتى لم تمت فى منامها) أى يقبضها من الأبدان

أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُواْ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ ٣٩ الزمر

قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَـٰعَةُ جَمِيعًا لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾ ٣٩ الزمر

وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾ ٣٩ الزمر

بأن يقطع تعلقها عنها وتصرفها فيها إما ظاهراً وباطناً كما عند الموت أو ظاهراً فقط كما عند النوم (فيمسك التى قضى عليها الموت) ولا يردها إلى البدن وقرىء قضى على البناء للمفعول ورفع الموت (ويرسل الأخرى) أى النائمة إلى بدنها عند التيقظ (إلى أجل مسمى) هو الوقت المضروب لموته وهو غاية لجنس الإرسال الواقع بعد الإمساك لا لفرد منه فإن ذلك مما لا امتداد فيه ولا كمية وما روى عن ابن عباس رضى الله عنهما إن فى ابن آدم نفساً وروحا بينهما مثل شعاع الشمس فالنفس هى التى بها العقل والتمييز والروح هى التى بها النفس والتحرك فتتوفيان عند الموت وتتوفى النفس وحدها عند النوم قريب مما ذكر (إن فى ذلك) أى فيما ذكر من التوفى على الوجهين والإمساك فى أحدهما والإرسال فى الآخر (لآيات) عجيبة دالة على كمال قدرته تعالى وحكمته وشمول رحمته (لقوم يتفكرون) فى كيفية تعلقها بالأبدان وتوفيها عنها تارة بالكلية كما عند الموت وإمساكها باقية لا تفنى بفنائها وما يعتريها من السعادة

٤٣ والشقاوة وأخرى عن ظواهرها فقط كما عند النوم وإرسالها حيناً بعد حين إلى انقضاء آجالها (أم اتخذوا) أى بل اتخذ قريش (من دون الله) من دون إذنه تعالى (شفعاء) تشفع لهم عنده تعالى (قل أولو كانوا لا يملكون شيئاً ولا يعقلون) الهمزة لإنكار الواقع واستقباحه والتوبيخ عليه أى قل أتتخذونهم شفعاء ولو كانوا لا يملكون شيئاً من الأشياء ولا يعقلونه فضلا عن أن يملكوا الشفاعة عند الله تعالى أو هى لإنكار الوقوع ونفيه على أن المراد بيان أن ما فعلوا ليس من اتخاذ الشفعاء فى شىء لأنه فرع كون الأوثان شفعاء وذلك أظهر المحالات فالمقدر حينئذ غير ما قدر أولا وعلى أى تقدير كان فالواو للعطف على شرطية قد حذفت لدلالة المذكورة عليها أى أيشفعون لو كانوا يملكون شيئاً ولو كانوا لا يملكون الخ

٤٤ وجواب لو محذوف لدلالة المذكور عليه وقد مر تحقيقه مراراً (قل) بعد تبكيتهم وتجهيلهم بما ذكر تحقيقاً للحق (لله الشفاعة جميعاً) أى هو مالكها لا يستطيع أحد شفاعة ما إلا أن يكون المشفوع له مرتضى والشفيع مأذوناً له وكلاهما مفقود ههنا وقوله تعالى (له ملك السموات والأرض) تقرير له وتأكيد أى له ملكهما وما فيهما من المخلوقات لا يملك أحد أن يتكلم فى أمر من أموره بدون إذنه ورضاه (ثم إليه ترجعون) يوم

٤٥ القيامة لا إلى أحد سواه لا استقلالا ولا اشتراكا فيفعل يومئذ ما يريد (وإذا ذكر الله وحده) دون آلهتهم (اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة) أى انقبضت ونفرت كما فى قوله تعالى وإذا ذكرت ربك فى القرآن وحده ولوا على أدبارهم نفوراً (وإذا ذكر الذين من دونه) فرادى أو مع ذكر الله تعالى (إذا هم يستبشرون) لفرط افتتانهم بها ونسيانهم حق الله تعالى ولقد بولغ فى بيان حاليهم القبيحتين حيث

قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِى مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾ ٣٩ الزمر

وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾ ٣٩ الزمر

وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤٨﴾ ٣٩ الزمر

فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ ۚ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾ ٣٩ الزمر

بين الغاية فيهما فإن الاستبشار هو أن يمتلىء القلب سروراً حتى ينبسط له بشرة الوجه والاشمئزاز أن يمتلىء غيظاً وغماً ينقبض منه أديم الوجه والعامل فى إذا الأولى اشمأزت وفى الثانية ماهو العامل فى إذا
٤٦ المفاجأة تقديره وقت ذكر الذين من دونه فاجأوا وقت الاستبشار (قل اللهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة) أى التجىء إليه تعالى بالدعاء لما تحيرت فى أمر الدعوة وضجرت من شدة شكيمتهم
* فى المكابرة والعناد فإنه القادر على الأشياء بجملتها والعالم بالأحوال برمتها (أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون) أى حكماً يسلمه كل مكابر معاند ويخضع له كل عات مارد وهو العذاب الدنيوى أو الأخروى
٤٧ وقوله تعالى (ولو أن للذين ظلموا مافى الأرض جميعاً) الخ كلام مستأنف مسوق لبيان آثار الحكم الذى استدعاه النبى ﷺ وغاية شدته وفظاعتـه أى لو أن لهم جميع مافى الدنيا من الأموال والذخائر (ومثله معه لافتدوا به من سوء العذاب يوم القيامة) أى لجعلوا كل ذلك فدية لأنفسهم من العذاب
* الشديد وهيهات ولات حين مناص وهذا كما ترى وعيد شديد وإقناط لهم من الخلاص (وبدا لهم من الله مالم يكونوا يحتسبون) أى ظهر لهم من فنون العقوبات مالم يكن فى حسابهم وهـذه غاية من
٤٨ الوعيد لا غاية وراءها ونظيره فى الوعد قوله تعالى فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين (وبدا لهم سيئات ما كسبوا) سيئات أعمالهم أو كسبهم حين تعرض عليهم صحائفهم (وحاق بهم ما كانوا به يستهزءون)
٤٩ أى أحاط بهم جزاؤه (فإذا مس الإنسان ضر دعانا) إخبار عن الجنس بما يفعله غالب أفراده والفاء لترتيب مابعـدها من المناقضة والتعكيس على مامر من حالتيهم القبيحتين ومابينهما اعتراض مؤكد للإنكار عليهم أى إنهم يشمئزون عن ذكر الله تعالى وحده ويستبشرون بذكر الآلهة فإذا مسهم ضر
* دعوا من اشمأزوا عن ذكره دون من استبشروا بذكره (ثم إذا خولناه نعمة منا) أعطيناه إياها تفضلا فإن التخويل مختص به لا يطلق على ما أعطى جزاء (قال إنما أوتيته على علم) أى على علم منى بوجوه كسبه أو أنى أعطاه لما لى من الاستحقاق أو على علم من الله تعالى بى وباستحقاقى والهاء لما إن جعلت موصولة وإلا فلنعمة والتذكير لما أن المراد شىء من النعمة (بل هى فتنة) أى محنة وابتلاء له أيشكر

قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٥٠﴾ ٣٩ الزمر

فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ ۚ وَٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ هَٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥١﴾ ٣٩ الزمر

أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ ٣٩ الزمر

قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ ٣٩ الزمر

أم يكفر وهو رد لما قاله وتغيير السبك للمبالغة فيه والإيذان بأن ذلك ليس من باب الإيتاء المنبىء عن الكرامة وإنما هو أمر مباين له بالكلية وتأنيث الضمير باعتبار لفظ النعمة أو باعتبار الخبر وقرىء بالتذكير (ولكن أكثرهم لا يعلمون) أن الأمر كذلك وفيه دلالة على أن المراد بالإنسان هو الجنس

(قد قالها الذين من قبلهم) الهاء لقوله إنما أوتيته على علم لأنها كلمة أو جملة وقرىء بالتذكير والموصول ٥٠
عبارة عن قارون وقومه حيث قال إنما أوتيته على علم عندي وهم راضون به (فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون)
من متاع الدنيا ويجمعون منه (فأصابهم سيئات ما كسبوا) جزاء سيئات أعمالهم أو أجزية ما كسبوا ٥١
وتسميتها سيئات لأنها فى مقابلة سيئاتهم وجزاء سيئة سيئة مثلها (والذين ظلموا من هؤلاء) المشركين ومن للبيان أو للتبعيض أى أفرطوا فى الظلم والعتو (سيصيبهم سيئات ما كسبوا) من الكفر والمعاصى كما أصاب أولئك والسين للتأكيد وقد أصابهم أى إصابة حيث قحطوا سبع سنين وقتل صناديدهم يوم
بدر (وما هم بمعجزين) أى فائتين (أو لم يعلموا) أى أقالوا ذلك ولم يعلموا أو أغفلوا ولم يعلموا (أن الله ٥٢
يبسط الرزق لمن يشاء) أن يبسطه له (ويقدر) لمن يشاء أن يقدره له من غير أن يكون لأحد مدخل ما فى ذلك حيث حبس عنهم الرزق سبعاً ثم بسطه لهم سبعاً (إن فى ذلك) الذى ذكر (لآيات) دالة على أن
الحوادث كافة من الله عز وجل (لقوم يؤمنون) إذ هم المستدلون بها على مدلولاتها (قل يا عبادى الذين ٥٣
أسرفوا على أنفسهم) أى أفرطوا فى الجناية عليها بالإسراف فى المعاصى وإضافة العباد تخصصه بالمؤمنين على ما هو عرف القرآن الكريم (لا تقنطوا من رحمة الله) أى لا تيأسوا من مغفرته أولا ولا تفضله * ثانياً (إن الله يغفر الذنوب جميعاً) عفوا لمن يشاء ولو بعد حين بتعذيب فى الجملة وبغيره حسبما يشاء وتقييده بالتوبة خلاف الظاهر كيف لا وقوله تعالى إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ظاهر فى الإطلاق فيما عدا الشرك ومما يدل عليه التعليل بقوله تعالى (إنه هو الغفور الرحيم) على * المبالغة وإفادة الحصر والوعد بالرحمة بعد المغفرة وتقديم ما يستدعى عموم المغفرة مما فى عبادى من الدلالة على الذلة والاختصاص المقتضيين للترحم وتخصيص ضرر الإسراف بأنفسهم والنهى عن القنوط مطلقاً عن الرحمة فضلا عن المغفرة وإطلاقها وتعليله بأن الله يغفر الذنوب ووضع الاسم الجليل موضع

وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ ٣٩ الزمر

وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ ٣٩ الزمر

أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾ ٣٩ الزمر

أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ ٣٩ الزمر

أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ ٣٩ الزمر

بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٩﴾ ٣٩ الزمر

الضمير لدلالته على أنه المستغفى والمنعم على الإطلاق والتأكيد بالجميع وماروى من أسباب النزول الدالة
على ورود الآية فيمن تاب لا يقتضى اختصاص الحكم بهم ووجوب حمل المطلق على المقيد فى كلام واحد
مثل أكرم الفضلاء أكرم الكاملين غير مسلم فكيف فيما هو بمنزلة كلام واحد ولا يخل بذلك الأمر
٥٤ بالتوبة والإخلاص فى قوله تعالى (وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لا تنصرون)
إذ ليس المدعى أن الآية تدل على حصول المغفرة لكل أحد من غير توبة وسبق تعذيب لتغنى عن
٥٥ الأمر بهما وتنافى الوعيد بالعذاب (واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم) أى القرآن أو المأمور به
دون المنهى عنه أو العزائم دون الرخص أو الناسخ دون المنسوخ ولعله ما هو أنجى وأسلم كالإنابة
والمواظبة على الطاعة (من قبل أن يأتيكم العذاب بغتة وأنتم لا تشعرون) بمجيئه لتتداركوا وتتأهبوا
٥٦ له (أن تقول نفس) أى كراهة أن تقول والتنكير للتكثير كما فى قوله تعالى علمت نفس ما أحضرت
فإنه مسلك ربما يسلك عند إرادة التكثير والتعميم وقدمر تحقيقه فى مطالع سورة الحجر (ياحسرتا)
بالألف بدلا من ياء الإضافة وقرىء ياحسرتاه بهاء السكت وقفاً وقرىء ياحسرتاى بالجمع بين العوضين
وقرىء ياحسرتى على الأصل أى احضرى فهذا أوان حضورك (على مافرطت) أى على تفريطى
وتقصيرى (فى جنب الله) أى جانبه وفى حقه وطاعته وعليه قول من قال [أما تتقين الله فى جنب
وامق ء له كبد حرى وعين ترقرق] وهو كناية فيها مبالغة وقيل فى ذات الله على تقدير مضاف كالطاعة
وقيل فى قربه من قوله تعالى والصاحب بالجنب وقرىء فى ذكر الله (وإن كنت لمن الساخرين) أى
٥٧ المستهزئين بدين الله تعالى وأهله ومحل الجملة النصب على الحال أى فرطت وأنا ساخر (أو تقول لو أن
٥٨ الله هدانى) بالإرشاد إلى الحق (لكنت من المتقين) الشرك والمعاصى (أو تقول حين ترى العذاب
لو أن لى كرة) رجعة إلى الدنيا (فأكون من المحسنين) فى العقيدة والعمل وأو الدلالة على أنها لا تخلو
٥٩ عن هذه الأقوال تحسراً وتحيراً وتعللا بما لا طائل تحته وقوله تعالى (بلى قد جاءتك آياتى فكذبت بها
واستكبرت وكنت من الكافرين) رد من الله تعالى عليه لما تضمنه قوله لو أن الله هدانى من معنى النفى

وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾ ٣٩ الزمر
وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦١﴾ ٣٩ الزمر
اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾ ٣٩ الزمر
لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٦٣﴾ ٣٩ الزمر

وفضله عنه لما أن تقديمه يفرق القرائن وتأخير المردود يخل بالترتيب الوجودى لأنه يتحسر بالتفريط
ثم يتعلل بفقد الهداية ثم يتمنى الرجعة وهو لا يمنع تأثير قدرة الله تعالى فى فعل العبد ولا مافيه من إسناد
٦٠ الفعل إليه كما عرفت وتذكير الخطاب باعتبار المعنى وقرىء بالتأنيث (ويوم القيامة ترى الذين كذبوا
على الله) بأن وصفوه بما لا يليق بشأنه كاتخاذ الولد (وجوههم مسودة) بما ينالهم من الشدة أو بما يتخيل
عليها من ظلمة الجهل والجملة حال قد اكتفى فيها بالضمير عن الواو على أن الرؤية بصرية أو مفعول ثان
لها على أنها عرفانية (أليس فى جهنم مثوى) أى مقام (للمتكبرين) عن الإيمان والطاعة وهو تقرير لما
٦١ قبله من رؤيتهم كذلك (وينجى الله الذين اتقوا) الشرك والمعاصى أى من جهنم وقرىء ينجى من الإنجاء
(بمفازتهم) مصدر ميمى إما من فاز بالمطلوب أى ظفر به والباء متعلقة بمحذوف هو حال من الموصول
مفيدة لمقارنة تنجيتهم من العذاب لنيل الثواب أى ينجيهم الله تعالى من مثوى المتكبرين ملتبسين بفوزهم
بمطلوبهم الذى هو الجنة وقوله تعالى (لا يمسهم السوء ولا هم يحزنون) إما حال أخرى من الموصول أو
من ضمير مفازتهم مفيدة لكون نجاتهم أو فوزهم بالجنة غير مسبوقة بمساس العذاب والحزن وإما من
فاز منه أى نجا منه والباء للملابسة وقوله تعالى لا يمسهم إلى آخره تفسير وبيان لمفازتهم أى ينجيهم الله
تعالى ملتبسين بنجاتهم الخاصة بهم أى بنفى السوء والحزن عنهم أو للسببية إما على حذف المضاف أى
ينجيهم بسبب مفازتهم التى هى تقواهم كما يشعر به إيراده فى حيز الصلة وإما على إطلاق المفازة على سببها
٦٢ الذى هو التقوى وليس المراد نفى دوام المساس والحزن بل دوام نفيهما كما مر مراراً (الله خالق كل شىء)
من خير وشر وإيمان وكفر لكن لا بالجبر بل بمباشرة الكاسب لأسبابها (وهو على كل شىء وكيل) يتولى
٦٣ التصرف فيه كيفما يشاء (له مقاليد السموات والأرض) لا يملك أمرها ولا يتمكن من التصرف فيها غيره
وهو عبارة عن قدرته تعالى وحفظه لها وفيها مزيد دلالة على الاستقلال والاستبداد لأن الخزائن
لا يدخلها ولا يتصرف فيها إلا من بيده مفاتيحها وهو جميع مقليد أو مقلاد من قلدته إذا ألزمته وقيل
جمع أقليد معرب كليد على الشذوذ كالمذاكير وعن عثمان رضى الله عنه أنه سأل النبى ﷺ عن المقاليد
فقال ﷺ تفسيرها لا إله إلا الله والله أكبر وسبحان الله وبحمده وأستغفر الله ولا حول ولا قوة إلا
بالله العلى العظيم هو الأول والآخر والظاهر والباطن بيده الخير يحيى ويميت وهو على كل شىء قدير والمعنى
على هذا أن لله هذه الكلمات يوحد بها ويمجد وهى مفاتيح خير السموات والأرض من تكلم بها أصابه
(والذين كفروا بآيات الله أولئك هم الخاسرون) متصل بما قبله والمعنى أن الله تعالى خالق لجميع الأشياء

قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾ ٣٩ الزمر

وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ ٣٩ الزمر

بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾ ٣٩ الزمر

وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾ ٣٩ الزمر

ومتصرف فيها كيفما يشاء بالإحياء والإماتة بيده مقاليد العالم العلوى والسفلى والذين كفروا بآياته التكوينية المنصوبة فى الآفاق والأنفس والتنزيلية التى من جملتها هاتيك الآيات الناطقة بذلك هم الخاسرون
٦٤ خسراناً لاخسار وراءه هذا وقيل هو متصل بقوله تعالى وينجى الله وما بينهما اعتراض فتدبر (قل أفغير الله تأمرونى أعبد أيها الجاهلون) أى أبعد مشاهدة هذه الآيات غير الله أعبد وتأمرونى اعتراض للدلالة على أنهم أمروه به عقيب ذلك وقالوا استلم بعض آلهتنا نؤمن بإلهك لفرط غباوتهم ويجوز أن ينتصب غير بما يدل عليه تأمرونى أعبد لأنه بمعنى تعبدوننى وتقولون لى اعبدعلى أن أصله تأمرونى أن أعبد لحذف أن ورفع مابعدها كما فى قوله [ألا أيهذا الزاجرى أحضر الوغى * وأن أشهد اللذات هل أنت مخلدى] ويؤيده قراءة أعبد بالنصب وقرىء تأمروننى بإظهار النونين على الأصل وبحذف الثانية
٦٥ (ولقد أوحى إليك وإلى الذين من قبلك) أى من الرسل عليهم السلام (لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين) كلام وارد على طريقة الفرض لتهييج الرسل وإقناط الكفرة والإيذان بغاية شناعة الإشراك وقبحه وكونه بحيث ينهى عنه من لا يكاد يمكن أن يباشره فكيف بمن عداه وإفراد الخطاب باعتبار كل واحد واللام الأولى موطئة للقسم والأخريان للجواب وإطلاق الإحباط يحتمل أن يكون من خصائصهم عندالإشراك لأن الإشراك منهم أشد وأقبح وأن يكون مقيداً بالموت كما صرح به فى قوله تعالى ، ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم وعطف الخسران عليه من
٦٦ عطف المسبب على السبب (بل الله فاعبد) رد لما أمروه به ولولا دلالة التقديم على القصر لم يكن كذلك
٦٧ (وكن من الشاكرين) إنعامه عليك وفيه إشارة إلى ما يوجب الاختصاص ويقتضيه (وما قدروا الله حق قدره) ماقدروا عظمته تعالى فى أنفسهم حق عظمته حيث جعلوا له شريكا ووصفوه بما لا يليق
* بشئونه الجليلة وقرىء بالتشديد (والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه) تنبيه على غاية عظمته وكمال قدرته وحقارة الأفعال العظام التى تتحير فيها الأوهام بالنسبة إلى قدرته تعالى ودلالة على أن تخريب العالم أهون شىء عليه على طريقة التمثيل والتخييل من غير اعتبار القبضة واليمين حقيقة ولا مجازاً كقولهم شابت لمة الليل والقبضة المرة من القبض أطلقت بمعنى القبضة وهى المقدار

وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخۡرَىٰ فَإِذَا هُمۡ قِيَامٞ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾ ٣٩ الزمر

وَأَشۡرَقَتِ ٱلۡأَرۡضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلۡكِتَٰبُ وَجِاْيٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡحَقِّ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴿٦٩﴾ ٣٩ الزمر

وَوُفِّيَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِمَا يَفۡعَلُونَ ﴿٧٠﴾ ٣٩ الزمر

وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَتۡلُونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ رَبِّكُمۡ وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنۡ حَقَّتۡ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٧١﴾ ٣٩ الزمر

المقبوض بالكف تسمية بالمصدر أو بتقدير ذات قبضة وقرىء بالنصب على الظرف تشبيهاً للموقت
بالمبهم وتأكيد الأرض بالجميع لأن المراد بها الأرضون السبع أو جميع أبعاضها البادية والغائرة وقرىء
مطويات على أنها حال والسموات معطوفة على الأرض منظومة فى حكمها (سبحانه وتعالى عما يشركون)
ما أبعد وما أعلى من هذه قدرته وعظمته عن إشراكهم أو عما يشركونه من الشركاء. (ونفخ فى الصور) ٦٨
هى النفخة الأولى (فصعق من فى السموات ومن فى الأرض) أى خروا أمواتاً أو مغشياً عليهم (إلا من
شاء الله) قيل هم جبريل وميكائيل وإسرافيل فإنهم لا يموتون بعد وقيل حملة العرش (ثم نفخ فيه أخرى)
نفخة أخرى هى النفخة الثانية وأخرى يحتمل النصب والرفع (فإذا هم قيام) قائمون من قبورهم أو متوقفون
وقرىء بالنصب على أن الخبر (ينظرون) وهو حال من ضميره والمعنى يقلبون أبصارهم فى الجوانب
كالمبهوتين أو ينتظرون ما يفعل بهم (وأشرقت الأرض بنور ربها) بما أقام فيها من العدل استعير له النور ٦٩
لأنه يزين البقاع ويظهر الحقوق كما يسمى الظلم ظلمة وفى الحديث الظلم ظلمات يوم القيامة ولذلك أضيف
الاسم الجليل إلى ضمير الأرض أو بنور خلقه فيها بلا توسط أجسام مضيئة ولذلك أضيف إلى الاسم
الجليل (ووضع الكتاب) الحساب والجزاء من وضع المحاسب كتاب المحاسبة بين يديه أو صحائف
الأعمال فى أيدى العمال واكتفى باسم الجنس عن الجمع وقيل اللوح المحفوظ يقابل به الصحائف (وجىء
بالنبيين والشهداء) للأمم وعليهم من الملائكة والمؤمنين وقيل المستشهدون (وقضى بينهم) بين العباد
(بالحق وهم لا يظلمون) بنقص ثواب أو زيادة عقاب على ماجرى به الوعد (ووفيت كل نفس ماعملت) ٧٠
أى جزاءه (وهو أعلم بما يفعلون) فلا يفوته شىء من أفعالهم وقوله تعالى (وسيق الذين كفروا إلى جهنم ٧١
زمراً) الخ تفصيل للتوفية وبيان لكيفيتها أى سيقوا إليها بالعنف والإهانة أفواجا متفرقة بعضها فى إثر
بعض مترتبة حسب ترتب طبقاتهم فى الضلالة والشرارة والزمر جمع زمرة واشتقاقها من الزمر وهو

قِيلَ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾ ٣٩ الزمر

وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا
سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾ ٣٩ الزمر

وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ ۖ فَنِعْمَ أَجْرُ
ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾ ٣٩ الزمر

وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ
لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٥﴾ ٣٩ الزمر

---

* الصوت إذ الجماعة لاتخلو عنه (حتى إذا جاءوها فتحت أبوابها) ليدخلوها وحتى هى التى تحكى بعدها
الجملة وقرىء بالتشديد (وقال لهم خزنتها) تقريعاً وتوبيخاً (ألم يأتكم رسل منكم) من جنسكم وقرىء
* نذر منكم (يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا) أى وقتكم هذا وهو وقت دخولهم النار
وفيه دليل على أنه لا تكليف قبل الشرع من حيث إنهم عللوا توبيخهم بإتيان الرسل وتبليغ الكتب
* (قالوا بلى) قد أتونا وأنذرونا (ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين) حيث قال الله تعالى لإبليس
لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين وقد كنا ممن اتبعه وكذبنا الرسل وقلنا مانزل الله من شىء إن
٧٢ أنتم إلا تكذبون (قيل ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها) أى مقدراً خلودكم فيها وإبهام القائل لتهويل
المقول (فبئس مثوى المتكبرين) اللام للجنس والمخصوص بالذم محذوف ثقة بذكره آنفاً أى فبئس
مثواهم جهنم ولا يقدح مافيه من الإشعار بأن كون مثواهم جهنم لتكبرهم عن الحق فى أن دخولهم النار
لسبق كلمة العذاب عليهم فإنها إنما حقت عليهم بناء على تكبرهم وكفرهم وقد مر تحقيقه فى سورة الم
٧٣ السجدة (وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة) مساق إعزاز وتشريف للإسراع بهم إلى دار الكرامة
وقيل سيق مراكبهم إذ لايذهب بهم إلا راكبين (زمراً) متفاوتين حسب تفاوت مراتبهم فى الفضل
وعلو الطبقة (حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها) وقرىء بالتشديد وجواب إذا محذوف للإيذان بأن لهم
حينئذ من فنون الكرامات مالايحدق به نطاق العبارات كأنه قيل حتى إذا جاءوها وقد فتحت أبوابها
(وقال لهم خزنتها سلام عليكم) من جميع المكاره والآلام (طبتم) طهرتم من دنس المعاصى أوطبتم نفساً بما
٧٤ أتيح لكم من النعيم (فادخلوها خالدين) كان ما كان مما يقصر عنه البيان (وقالوا الحمد لله الذى صدقنا وعده)
بالبعث والثواب (وأورثنا الأرض) يريدون المكان الذى استقروا فيه على الاستعارة وإيراثها تمليكها
مخلفة عليهم من أعمالهم أو تمكينهم من التصرف فيها تمكين الوارث فيما يرثه (نتبوأ من الجنة حيث
نشاء) أى نتبوأ كل واحد منا فى أى مكان أراده من جنته الواسعة على أن فيها مقامات معنوية لا يتمانع
٧٥ واردوها (فنعم أجر العاملين) الجنة (وترى الملائكة حافين) محدقين (من حول العرش) أى حوله

سورة الزمر

ترتيبها ٣٩ — آياتها ٧٥

وتسمى سورة الغرف كما في الإتقان والكشاف لقوله تعالى: ﴿لهم غرف من فوقها غرف﴾ [الزمر: ٢٠] أخرج ابن الضريس وابن مردويه والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس أنها أنزلت بمكة ولم يستثن، وأخرج النحاس عنه أنه قال: نزلت سورة الزمر بمكة سوى ثلاث آيات نزلت بالمدينة في وحشي قاتل حمزة ﴿قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم﴾ [الزمر: ٥٣] إلى ثلاث آيات، وزاد بعضهم ﴿قل يا عبادِ الذين آمنوا اتقوا ربكم﴾ [الزمر: ١٠] الآية ذكره السخاوي في جمال القراء وحكاه أبو حيان عن مقاتل، وزاد بعض ﴿الله نزل أحسن الحديث﴾ [الزمر: ٢٣] حكاه ابن الجوزي، والمذكور في البحر عن ابن عباس استثناء ﴿الله نزل أحسن الحديث﴾ وقوله تعالى: ﴿قل يا عبادِ الذين أسرفوا﴾ الخ، وعن بعضهم إلا سبع آيات من قوله سبحانه ﴿قل يا عبادِ الذين أسرفوا﴾ إلى آخر السبع وأيها خمس وسبعون في الكوفي وثلاث في الشامي واثنتان في الباقي وتفصيل الاختلاف في مجمع البيان وغيره، ووجه اتصال أولها بأخر صاد انه قال سبحانه هناك: ﴿إن هو إلا ذكر للعالمين﴾ [ص: ٨٧] وقال جل شأنه هنا ﴿تنزيل الكتاب من الله﴾ [الزمر: ١] وفي ذلك كمال الالتئام بحيث لو اسقطت البسملة لم يتنافر الكلام ثم إنه تعالى ذكر آخر ﴿ص﴾ قصة خلق آدم وذكر في صدر هذه قصة خلق زوجه منه وخلق الناس كلهم منه وذكر خلقهم في بطون أمهاتهم خلقاً من بعد خلق ثم ذكر أنهم ميتون ثم ذكر سبحانه القيامة والحساب والجنة والنار وختم بقوله سبحانه: ﴿وقضي بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين﴾ [الزمر: ٧٥] فذكر جل شأنه أحوال الخلق من المبدأ إلى آخر المعاد متصلاً بخلق آدم عليه السلام المذكور في السورة قبلها وبين السورتين أوجه أخر من الربط تظهر بالتأمل فتأمل.

بسم الله الرحمن الرحيم

تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ
ٱلدِّينَ ﴿٢﴾ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ
زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾ لَّوْ
أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٤﴾ خَلَقَ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ
وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٥﴾ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ

مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزۡوَٰجٖۚ يَخۡلُقُكُمۡ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ خَلۡقٗا مِّنۢ بَعۡدِ خَلۡقٖ فِي
ظُلُمَٰتٖ ثَلَٰثٖۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ لَهُ ٱلۡمُلۡكُۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُصۡرَفُونَ ﴿٦﴾ إِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ
عَنكُمۡۖ وَلَا يَرۡضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلۡكُفۡرَۖ وَإِن تَشۡكُرُواْ يَرۡضَهُ لَكُمۡۗ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۗ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم
مَّرۡجِعُكُمۡ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٧﴾

﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ﴾ قال الفراء والزجاج: هو مبتدأ وقوله تعالى:

﴿مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ خبره أو خبر مبتدأ محذوف أي هذا المذكور تنزيل، و ﴿من الله﴾ متعلق بتنزيل والوجه الأول أوجه كما في الكشف، والكتاب القرآن كله وكأن الجملة عليه تعليل لكونه ذكراً للعالمين أو لقوله تعالى: ﴿لتعلمن نبأه بعد حين﴾ [ص: ٨٨] والظاهر أن المراد بالكتاب على الوجه الثاني السورة لكونها على شرف الذكر فهي أقرب لاعتبار الحضور الذي يقتضيه اسم الإشارة فيها، و ﴿تنزيل﴾ بمعنى منزل أو قصد به المبالغة، وقدر أبو حيان المبتدأ هو عائداً على الذكر في ﴿إن هو إلا ذكر﴾ وجعل الجملة مستأنفة استئنافاً بيانياً كأنه قيل هذا الذكر ما هو فقيل هو تنزيل الكتاب والكتاب عليه القرآن وفي ﴿تنزيل﴾ الاحتمالان، وجوز على احتمال كونه خبر مبتدأ محذوف كون ﴿من الله﴾ خبراً ثانياً وكونه خبر مبتدأ محذوف أيضاً أي هذا أو هو تنزيل الكتاب هذا أو هو من الله وكونه حالاً من ﴿الكتاب﴾ وجاز الحال من المضاف إليه لأن المضاف مما يعمل عمل الفعل وكونه حالاً من الضمير المستتر في ﴿تنزيل﴾ على تقدير كونه بمعنى منزل وكونه حالاً من ﴿تنزيل﴾ نفسه والعامل فيه معنى الإشارة. وتعقب بأن معاني الأفعال لا تعمل إذا كان ما هي فيه محذوفاً ولذلك ردوا على المبرد قوله في بيت الفرزدق: وإذ ما مثلهم بشر أن مثلهم منصوب على الحالية وعامله الظرف المقدر أي ما في الوجود بشر مماثلاً لهم بأن الظرف عامل معنوي لا يعمل محذوفاً، وقرأ ابن أبي عبلة وزيد بن علي وعيسى «تنزيلَ» بالنصب على اضمار فعل نحو اقرأ والزم. والتعرض لوصفي العزة والحكمة للإيذان بظهور أثريهما في الكتاب بجريان أحكامه ونفاذ أوامره ونواهيه من غير مدافع ولا ممانع وبابتناء جميع ما فيه على أساس الحكم الباهرة، وقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ بيان لكونه نازلاً بالحق وتوطئة لما يذكر بعد. وفي إرشاد العقل السليم أنه شروع في بيان المنزل إليه وما يجب عليه أثر بيان شأن المنزل وكونه من عند الله تعالى، وأياً ما كان لا يتكرر مع ما تقدم، نعم كان الظاهر على تقدير كون المراد بالكتاب هناك القرآن الإتيان بضميره هاهنا إلا أنه أظهر قصداً إلى تعظيمه ومزيد الاعتناء بشأنه.

وقال ابن عطية: الذي يظهر لي أن الكتاب الأول عام لجميع ما تنزل من عند الله تعالى والكتاب الثاني خاص بالقرآن فكأنه أخبر أخباراً مجرداً أن الكتب الهادية الشارعة تنزيلها من الله عزَّ وجلّ وجعله توطئة لقوله سبحانه: ﴿إنا أنزلنا إليك الكتاب﴾ اهـ وهو كما ترى، والباء متعلقة بالإنزال وهي للسببية أي أنزلناه بسبب الحق أي إثباته وإظهاره أو بمحذوف وقع حالاً من المفعول وهي للملابسة أي أنزلناه ملتبساً بالحق والصواب، والمراد أن كل ما فيه موجب للعمل والقبول حتماً، وجوز كون المحذوف حالاً من الفاعل أي أنزلناه ملتبسين بالحق أي محقين في ذلك، والفاء في قوله تعالى: ﴿فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ﴾ لترتيب الأمر بالعبادة على إنزال الكتاب إليه عليه الصلاة والسلام بالحق أي فاعبده تعالى ممحضاً له الدين من شوائب الشرك والرياء حسبما بين في تضاعيف ما أنزل إليك، والعدول إلى

الاسم الجليل مما ملاءمة هذا الأمر أتم ملاءمة. وقرأ ابن أبي عبلة «الدين» بالرفع كما رواه الثقاة فلا عبرة بإنكار الزجاج، وخرج ذلك الفراء على أنه مبتدأ خبره الظرف المقدم للاختصاص أو لتأكيده. واعترض بأنه يتكرر مع قوله تعالى: ﴿أَلاَ لله الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ وأجيب بأن الجملة الأولى استئناف وقع تعليلاً للأمر بإخلاص العبادة وهذه الجملة تأكيد لاختصاص الدين به تعالى أي ألا هو سبحانه الذي يجب أن يخص بإخلاص الدين له تعالى لأن المتفرد بصفات الألوهية التي من جملتها الاطلاع على السرائر والضمائر، وهي على قراءة الجمهور استئناف مقرر لما قبله من الأمر بإخلاص الدين له عزَّ وجلّ ووجوب الامتثال به، وفي الإتيان بألا واسمية الجملة وإظهار الجلالة والدين ووصفه بالخالص والتقديم المفيد للاختصاص مع اللام الموضوعة له عند بعض ما لا يخفى من الدلالة على الاعتناء بالدين الذي هو أساس كل خير، قيل ومن هنا يعلم أنه لا بأس بجعل الجملة تأكيداً للجملة قبلها على القراءة الأخيرة وإليه ذهب صاحب التقريب وقال: بتغاير دلالتي الجملتين إجمالاً وتفصيلاً. ورد بذلك زعم إباء هذه الجملة صحة تخريج الفراء.

والحق أنه تخريج لا يعول عليه، ففي الكشف لما كان قوله تعالى: ﴿لله الدين الخالص﴾ بمنزلة التعليل لقوله سبحانه: ﴿فاعبد الله مخلصاً﴾ كان الأصل أن يقال فتنة الدين الخالص ثم ترك إلى ﴿ألا لله الدين الخالص﴾ مبالغة لما عرفت من أنه أقوى الوصلين ثم صدر بحرف التنبيه زيادة على زيادة وتحقيقاً بأن غير الخالص كالعدم فلو قدر الاستئناف التعليلي أولاً من دون الوصف المطلوب الذي هو الأصل في العلة ومن دون حرف التنبيه للفائدة المذكورة كان كلاماً متنافراً ويلزم زيادة التنافر من وصف الدين بالخلوص ثانياً لدلالته على العي في الأول إذ ليس فيه ما يرشد إلى هذا الوصف حتى يجعل من باب الإجمال والتفصيل؛ وأما جعله تأكيداً فلا وجه له للوصف المذكور ولأن حرف التنبيه لا يحسن موقعها حينئذ فإنها يؤتى بها في ابتداء الاستئناف المضاد لقصد التأكيد اهـ.

ونص العلامة الثاني أيضاً على أن كون الجملة الثانية تأكيداً للأولى فاسد عند من له معرفة بأساليب الكلام وصياغات المعاني ففيها ما ينبو عنه مقام التأكيد ولا يكاد يقترن به المؤكد لكن في قول صاحب الكشف: ليس في الأول ما يرشد إلى وصف الخلوص حتى يجعل من باب الإجمال والتفصيل بحثاً إذ لقائل أن يقول: إن ﴿له الدين﴾ على معنى الدين الكامل ومن المعلوم أن كمال الدين بكونه خالصاً فيكون في الأول ما يرشد إلى هذا الوصف نعم وهن ذلك التخريج على حاله قبل هذا البحث أم لم يقبل.

وقال أبو حيان: الدين مرفوع على أنه فاعل بمخلصاً الواقع حالاً والراجع لذي الحال محذوف على رأي البصريين أي الدين منك أو تكون أل عوضاً من الضمير أي دينك وعليه يكون وصف الدين بالإخلاص وهو وصف صاحبه من باب الإسناد المجازي كقولهم شعر شاعر، وفي الآية دلالة على شرف الإخلاص بالعبادة وكم من آية تدل على ذلك.

وأخرج ابن مردويه عن يزيد الرقاشي أن رجلاً قال: يا رسول الله إنا نعطي أموالنا التماس الأجر والذكر فهل لنا من أجر؟ فقال رسول الله ﷺ: لا قال: يا رسول الله إنا نعطي التماس الذكر فهل لنا أجر؟ فقال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى لا يقبل إلا من أخلص له» ثم تلا رسول الله عليه الصلاة والسلام هذه الآية ﴿ألا لله الدين الخالص﴾ ويؤيد هذا أن المراد بالدين في الآية الطاعة لا كما روي عن قتادة من أنه شهادة أن لا إله إلا الله وعن الحسن من أنه الإسلام، وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ الخ تحقيق لحقية التوحيد ببطلان الشرك ليعلم منه حقية الإخلاص وبطلان تركه وفيه من ترغيب المخلصين وترهيب غيرهم ما لا يخفى، والموصول عبارة عن المشركين من

قريش وغيرهم كما روي عن مجاهد، وأخرج جويبر عن ابن عباس أن الآية نزلت في ثلاثة أحياء عامر وكنانة وبني سلمة كانوا يعبدون الأوثان ويقولون: الملائكة بنات الله فالموصول إما عبارة عنهم أو عبارة عما يعمهم وأضرابهم من عبدة غير الله سبحانه وهو الظاهر فيكون الأولياء عبارة عن كل معبود باطل كالملائكة وعيسى عليهم السلام والأصنام، ومحل الموصول رفع على الابتداء خبره الجملة الآتية المصدرة بأن، وقوله تعالى: ﴿**مَا نَعْبُدُهُمْ إلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى الله زُلْفَى**﴾ حال بتقدير القول من واو ﴿**اتخذوا**﴾ مبينة لكيفية اشراكهم وعدم خلوص دينهم أي اتخذوا قائلين ذلك، وجوز أن يكون القول المقدر قالوا ويكون[1] بدلاً من ﴿**اتخذوا**﴾ وأن يكون المقدر ذلك ويكون هو الخبر للموصول والجملة الآتية استئناف بياني كأنه قيل بعد حكاية ما ذكر: فماذا يفعل الله تعالى بهم؟ فقيل إن الله يحكم بينهم الخ، والوجه الأول هو المنساق إلى الذهن، نعم قرأ عبد الله وابن عباس ومجاهد وابن جبير قالوا: ﴿**ما نعبدهم**﴾ الآية لكن لا يتعين فيه البدلية أو الخبرية، وقد اعترض البدلية صاحب الكشف بأن المقام ليس مقام الإبدال إذ ليس فيه إعادة الحكم لكون الأول غير واف بالغرض اعتناء بشأنه لا سيما وحذف البدل ضعيف بل ينافي في الغرض من الإتيان به، والاستثناء مفرغ من أعم العلل و ﴿**زلفى**﴾ مصدر مؤكد على غير لفظ المصدر أي والذين لم يخلصوا العبادة لله تعالى بل شابوها بعبادة غيره سبحانه قائلين ما نعبدهم لشيء من الأشياء إلا ليقربونا إلى الله تعالى تقريباً.

وقرىء «نُعْبُدُهُمْ» بضم النون اتباعاً لحركة الباء ﴿**إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ**﴾ أي وبين خصمائهم الذين هم المخلصون للدين وقد حذف لدلالة الحال عليه كما في قوله تعالى: ﴿لا نفرق بين أحد من رسله﴾ [البقرة: ٢٨٥] على أحد الوجهين أي بين أحد منهم وبين غيره، وعليه قول النابغة:

فما كان بين الخير لو جاء سالماً ... أبو حجر إلا ليال قلائل

أي بين الخير وبيني، وقيل الضمير للفريقين المتخذين والمتخذين وكذا الكلام في ضميري الجمع في قوله تعالى: ﴿**فِيمَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ**﴾ والمعنى على الأول أنه تعالى يفصل الخصومة بين المشركين والمخلصين فيما اختلفوا فيه من التوحيد والإشراك وادعى كل صحة ما اتصف به بإدخال المخلصين الموحدين الجنة وإدخال المشركين النار أو يميزهم سبحانه تمييزاً يعلم منه حال ما تنازعوا فيه بذلك، والمعنى على الثاني أنه تعالى يحكم بين العابدين والمعبودين فيما يختلفون حيث يرجو العابدون شفاعتهم وهم يتبرؤون منهم ويلعنونهم قالاً أو حالاً بإدخال من له أهلية دخول الجنة من المعبودين الجنة وإدخال العابدين ومن ليس له أهلية دخول الجنة ممن عبد كالأصنام النار، وإدخال الأصنام النار ليس لتعذيبها بل لتعذيب عبدتها بها، وسيأتي قريباً إن شاء الله تعالى ما يضعفه.

وأجاز الزمخشري كون الموصول السابق عبارة عن المعبودين على حذف العائد إليه وإضمار المشركين من غير ذكر تعويلاً على دلالة السياق عليهم ويكون التقدير والذين اتخذهم المشركون أولياء قائلين ما نعبدهم إلا ليقربونا عند الله زلفى إن الله يحكم بينهم وبين عبدتهم فيما الفريقان فيه يختلفون حيث يرجو العبدة شفاعتهم وهم يلعنوهم بإدخال ما هو منهم أهل للجنة الجنة وإدخال العبدة مع أصنامهم النار. وتعقب بأنه بعد الإغضاء عما فيه من التعسفات بمعزل من السداد كيف لا وليس فما ذكر من طلب الشفاعة واللعن مادة يختلف فيها الفريقان اختلافاً محوجاً إلى الحكم والفصل فإنما ذاك ما بين فريقي الموحدين والمشركين في الدنيا من الاختلاف في الدين الباقي إلى يوم القيامة فتدبر ولا تغفل.

---

(١) قوله «بدلاً» من اتخذوا قال في البحر: كأنه بدل اشتمال اه مؤلف.

وقرىء «ما نعبدكم إلا لتقربونا» حكاية لما خاطبوا به آلهتهم ﴿إِنَّ اللهَ لا يَهْدِي﴾ أي لا يوفق للاهتداء الذي هو طريق النجاة عن المكروه والفوز بالمطلوب ﴿مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾ في حد ذاته وموجب سيء استعداده لأنه غير قابل للاهتداء والله عزَّ وجلّ لا يفيض على القوابل إلا حسب القابليات كما يشير إليه قوله سبحانه: ﴿ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى﴾ [طه: ٥٠] وقوله تعالى: ﴿قل كلٌّ يعمل على شاكلته﴾ [الإسراء: ٨٤] وقوله عزَّ وجلّ: ﴿وما ظلمناهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾ [النحل: ١١٨] وهذا هو الذي حتم عليه جل شأنه لسيء استعداده بالموافاة على الضلال قاله بعض الأجلة، وقال الطبرسي: لا يهدي إلى الجنة أي يوم القيامة من هو كاذب كفار في الدنيا.

وقال ابن عطية: المراد لا يهدي الكاذب الكافر في حال كذبه وكفره وهذا ليس بشيء أصلاً، والمراد ممن هو كاذب كفار قيل من يعم أولئك المحدث عنهم وغيرهم، وقيل: أولئك المحدث عنهم وكذبهم في دعواهم استحقاق غير الله تعالى للعبادة أو قولهم في بعض من اتخذوهم أولياء من دون الله إنهم بنات الله سبحانه أو أن المتخذ ابن الله تعالى عن ذلك علواً كبيراً، فمن هو كاذب من الظاهر الذي أقيم مقام المضمر على معنى أن الله تعالى لا يهديهم أي المتخذين تسجيلاً عليهم بالكذب والكفر وجعل تمهيداً والكفر وجعل تمهيد لما بعده، وقال بعضهم: الجملة تعليل للحكم.

وقرأ أنس بن مالك والجحدري والحسن والأعرج وابن يعمر «كذاب كفار» وقرأ زيد بن علي «كذوب كفور» وحملوا الكاذب هنا على الراسخ في الكذب لهاتين القراءتين وكذا حملوا الكفر على كفر النعم دون الكفر في الاعتقاد لقراءة زيد، وذكر الإمام فيه احتمالين.

﴿لَو أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخذَ وَلَداً لاَصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ استئناف مسوق لتحقيق الحق وإبطال القول بأن الملائكة بنات الله وعيسى ابنه تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ببيان استحالة اتخاذ الولد في حقه سبحانه على الإطلاق ليندرج فيه استحالة ما قيل اندراجاً أولياً، وحاصل المعنى لو أراد الله سبحانه اتخاذ الولد لامتنعت تلك الإرادة لتعلقها بالممتنع أعني الاتخاذ لكن لا يجوز للباري إرادة ممتنعة لأنها ترجح بعض الممكنات على بعض.

وأصل الكلام لو اتخذ الولد لامتنع لاستلزامه ما ينافي الألوهية فعدل إلى لو أراد الاتخاذ لامتنع أن يريده ليكون أبلغ وأبلغ ثم حذف هذا الجواب وجيء بدله لاصطفى تنبيهاً على أن الممكن هذا لا الأول وإنه لو كان هذا من اتخاذ اتخاذ الولد في شيء لجاز الولد عليه سبحانه وتعالى شأنه عن ذلك فقد تحقق التلازم وحق نفي اللازم وإثبات الملزوم دون صعوبة؛ ويجوز أن يكون المراد لو أراد الله أن يتخذ لامتنع ولم يصح لكن على إرادة نفي الصحة على كل تقدير من تقديري الإرادة وعدمها من باب ـ لو لم يخف الله لم يعصه ـ فلا ينفي الثاني إذ ذاك ولا يحتاج إلى بيان الملازمة وإذا امتنع ذلك فالممكن الاصطفاء وقد اصطفى سبحانه من مخلوقاته من شاء كالملائكة وعيسى وذهب عليكم أن الاصطفاء ليس باتخاذ، والجواب على هذا الوجه أيضاً محذوف أقيم مقامه ما يفيد زيادة مبالغة، وإنما لم يجعل لاصطفى هو الجواب عليه لصيرورة المعنى حينئذ لو أراد اتخاذ الولد لاصطفى ولو لم يرد لاصطفى من طريق الأولى وحينئذ يكون إثبات الاصطفاء هو المطلوب من الإيراد كما أن التمدح بنفي العصيان في مثال الباب هو المطلوب وليس الكلام فيه، وعلى الوجهين هو من أسلوب:

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم ... بهن فلول من قراع الكتائب

وجوز أن يكون المعنى في الآية لو أراد الله تعالى أن يتخذ ولداً لجعل المخلوق ولداً إذ لا موجود سواه إلا وهو

مخلوق له تعالى والتالي محال للمباينة التامة بين المخلوق والخالق والولدية تأبى تلك المباينة فالمقدم مثله ويكون قوله تعالى: ﴿**لاصطفى مما يخلق ما يشاء**﴾ على معنى لاتخذه ابناً على سبيل الكناية وما تقدم أولى لما فيه من المبالغة التي نبهت عليها، وقوله تعالى: ﴿**سُبْحَانَهُ**﴾ تقرير لما ذكر من استحالة اتخاذ الولد في حقه تعالى وتأكيد له ببيان تنزهه سبحانه عنه أي تنزهه الخاص به تعالى على أن سبحانه مصدر من سبح إذا بعد أو أسبحه تسبيحاً لائقاً به لأنه علم التسبيح مقول على ألسنة العباد أو سبحوه تسبيحاً لائقاً بشأنه جل شأنه، وقوله تعالى:

﴿**هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ**﴾ استئناف مقرر لتنزهه عن ذلك أيضاً فإن اتخاذ الولد يقتضي تبعضاً وانفصال شيء من شيء وكذا يقتضي المماثلة بين الولد والوالد والوحدة الذاتية الحقيقية التي هي في أعلى مراتب الوحدة الواجبة له تعالى بالبراهين القطعية العقلية تأبى التبعض والانفصال إباء ظاهراً لأنهما من خواص الكم وقد اعتبر في مفهوم الوحدة الذاتية سلبه فتأبى الاتخاذ المذكور وكذا تأبى المماثلة سواء فسرت بما ذهب إليه قدماء المعتزلة كالجبائي وابنه أبي هاشم وهي المشاركة في أخص صفات الذات كمشاركة زيد لعمرو في الناطقية أم فسرت بما ذهب إليه المحققون من الماتريدية وهي المشاركة في جميع الصفات الذاتية كمشاركته له في الحيوانية والناطقية أم فسرت بما نسب إلى الأشعري وهو التساوي بين الشيئين من كل وجه، ولعل مراده نحو ما مر عن الماتريدي وإلا فمع التساوي من كل وجه ينتفي التعدد فينتفي التماثل بناء على ما قرروا من أن الوحدة الذاتية كما تقتضي نفي الأبعاض المقدارية تقتضي نفي الكثرة العقلية وأن التماثل يقتضي التعدد وهو يقتضي ثبوت الأجزاء المذكورة كذا قيل، وفيه بحث طويل وكلام غير قليل وسنذكر بعضاً منه إن شاء الله تعالى في تفسير سورة الإخلاص فالأولى أن يقتصر على منافاة الوحدة الذاتية للتبعض والانفصال لاستلزامهما التركب الخارجي والحكماء والمتكلمون مجمعون على استحالته في حقه تعالى ودليلها أظهر من أن يذكر، وكذا وصف القهارية يأبى اتخاذ الولد وقرر ذلك على أوجه، فقيل وجه إبائها ذلك أن القهارية تقتضي الغنى الذاتي الذي هو أعلى مراتب الغنى وهو يقتضي التجرد عن المادة وتولد الولد عن الشيء يقتضيها، وقيل إن القهارية تقتضي كمال الغنى وهو يقتضي كمال التجرد الذي هو البساطة من كل الوجوه فلا يكون هناك جنس وفصل ومادة وصورة واعراض وأبعاض إلى غير ذلك مما يخل بالبساطة الكاملة الحقيقية واتخاذ الولد لما فيه من الانفصال والمثلية مخل بتلك البساطة فيخل بالغنى فيخل بالقهارية، وقد أشار سبحانه إلى أن الغنى ينافي أن يكون له سبحانه ولد بقوله تعالى: ﴿وقالوا اتخذ الرحمن ولداً هو الغني﴾ [يونس: ٦٨] وقيل: إن اتخاذ الولد يقتضي انفصال شيء عنه تعالى وذلك يقتضي أن يكون متأثراً مقهوراً لا مؤثراً قهاراً تعالى عن ذلك علواً كبيراً، فحيث كان جل وعلا قهاراً كما هو مقتضى الألوهية استحال أن يكون له عزَّ وجلّ ولد، وقيل: إن القهارية منافية للزوال لأن القهار لو قبله كان مقهوراً إذ المزيل قاهر له ولذا قيل سبحان من قهر العباد بالموت.

والولد من أعظم فوائده عندهم قيامه مقام الأب بعد زواله فإذا لم يكن الزوال لم يكن حاجة إلى الولد وهذا مع كونه إلزامياً لا يخلو عن بحث كما لا يخفى.

والزمخشري جعل قوله تعالى: ﴿**سبحانه هو الله**﴾ الخ متصلاً بقوله عزَّ وجلّ ﴿**والذين اتخذوا من دونه أولياء**﴾ الخ على أنه مقرر نفي أن يكون له تعالى ولي ونفى أن يكون له ولد، ولعل بيان ذلك لا يخفى فتدبر.

وقوله سبحانه: ﴿**خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ**﴾ إثبات لما ذكر أولاً من الوحدة والقهر، وفيه أيضاً ما ستعلمه إن شاء الله تعالى أي خلق هذا العالم المشاهد ملتبساً بالحق والصواب مشتملاً على الحكم والمصالح.

وقوله تعالى: ﴿**يُكَوِّرُ اللَّيلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيلِ**﴾ بيان لكيفية تصرفه فيما ذكر بعد بيان

الخلق فإن حدوث الليل والنهار منوط بتحريك أجرام سماوية، والتكوير في الأصل هو اللف واللّي من كار العمامة على رأسه وكورها، والمراد على ما روي عن قتادة يغشى أحدهما الآخر، وهو على ما قيل معنى يذهب أحدهما ويغشى مكانه الآخر أي يلبسه مكانه فيصير أسود مظلماً بعد ما كان أبيض منيراً وبالعكس فالمغشى حقيقة المكان، ويجوز أن يكون المغشى الليل والنهار على الاستعارة ويكون المكان ظرفاً، والمقصود أنه لما كان أحدهما غاشياً للآخر أشبه اللباس الملفوف على لابسه في ستره إياه واشتماله عليه وتغطيه به.

وتحقيقه أن أحدهما لما كان محيطاً على جميع ما أحاط به الآخر من غير أن يكون ثم شيء زائد غير الظهور والخفاء جعل إحاطته على محاط الآخر إحاطة عليه مجاز ملابسته وعبر عنها بالغشيان والتكوير للشبه المذكور.

وجوز أن يكون المراد أن كل واحد من الليل والنهار يغيب الآخر إذا طرأ عليه فشبه في تغييبه إياه بشيء ظاهر لف عليه ما غيبه عن مطامح الأبصار ورجح الأول بأن فيه مع اعتبار الستر اعتبار اللي وإحاطة الأطراف ثم إن هذا لظهوره تشبيه مبذول وأن يكون المراد أن هذا يكر على هذا كروراً متتابعاً فشبه ذلك بتتابع أكوار العمامة بعضها على أثر بعض قيل وهو الأرجح لأنه اعتبر فيه ما اعتبر مع الأول مع النظر إلى المطرد فيه لفظ الكور فإنه لف بعد لف وهو أيضاً كذلك إلا أن أكوار العمامة متظاهرة وفيما نحن فيه متعاورة وهذا مما لا بأس به فإن كل لية تسمى كوراً حقيقة.

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس أن المعنى يحمل أحدهما على الآخر، وفسر هذا الحمل بالضم والزيادة أي يزيد الليل على النهار ويضمه إليه بأن يجعل بعض أجزاء الليل نهاراً فيطول النهار ويقصر الليل ويزيد النهار على الليل ويضمه إليه بأن يجعل سبحانه بعض أجزاء النهار ليلاً فيطول الليل ويقصر النهار.

وإلى هذا ذهب الراغب وهو معنى واضح والآية عليه كقوله تعالى: ﴿يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل﴾ [الحج: ٦١، لقمان: ٢٩، فاطر: ١٣، الحديد: ٦] في قوله، وذكر بعض الفضلاء أنها على المعنى الأول فيها شيء من قوله تعالى: ﴿جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر﴾ [الفرقان: ٦٢] وعلى المعنى الثاني فيها شيء من قوله تعالى: ﴿والليل إذا يغشى والنهار إذا تجلى﴾ [الليل: ١، ٢] وعلى الثالث شيء من قوله سبحانه: ﴿يغشى الليل النهار يطلبه حثيثاً﴾ [الأعراف: ٥٤] وأنها يحتمل أن يكون فيها الاستعارة التبعية والمكنية والتخييلية والتمثيلية والتمثيل أولى بالاعتبار؛ وأياً ما كان فصيغة المضارع للدلالة على التجدد.

﴿**وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ**﴾ جعلهما منقادين لأمره عزَّ وجلّ ﴿**كُلٌّ يَجْرِي لأَجَل مُسَمًّى**﴾ بيان لكيفية تسخيرهما أي كل منهما يجري لمنتهى دورته أو منقطع حركته، وقد مر تمام الكلام عليه، وفيه دليل على أن الشمس متحركة، وزعم بعض الكفرة أنها ساكنة وأنها مركز العالم وسمعت في هذه الآيام أنه ظهر في الإفرنج منذ سنتين تقريباً من يزعم أنها تتحرك على مركز آخر كما تتحرك الأرض عليها نفسها بزعمهم وزعم بعض المتقدمين، ولهم في الهيئة كلام غير هذا وفيه الغث والسمين إلا أن نفيهم السماوات الناطقة بها الشرائع بالكلية من العجب العجاب وأنظارهم السخيفة تفضي بهم إلى ما هو أعجب من ذلك عند ذوي العقول السليمة نسأل الله تعالى السلامة والتوفيق، ولي عزم على تأليف كتاب أبين فيه إن شاء الله تعالى ما هو الأقرب إلى الحق من الهيئتين القديمة والجديدة متحركاً على محور الإنصاف ساكتاً عن سلوك مسالك الاعتساف والله تعالى الموفق لذلك.

﴿**أَلا هُوَ الْعَزِيزُ**﴾ القادر على عقاب المصرين ﴿**الْغَفَّارُ**﴾ لذنوب التائبين أو الغالب الذي يقدر أن يعاجلهم بالعقوبة وهو سبحانه يحمل عليهم ويؤخرهم إلى أجل مسمى فيكون قد سمي الحلم عنهم وقد ترك تعجيل العقوبة بالمغفرة التي هي ترك العقاب على طريق الاستعارة للمناسبة بينهما في الترك.

وجوز كون ذلك من باب المجاز المرسل، والأول أبلغ وأحسن، وهذان الوجهان في ﴿**العزيز الغفار**﴾ قد ذكرهما الزمخشري، وظن بعضهم أن الداعي للأول ورعاية مذهب الاعتزال حيث خص فيه المغفرة بذنوب التائبين فتركه وقال: العزيز القادر على كل ممكن الغالب على كل شيء الغفار حيث لم يعاجل بالعقوبة وسلب ما في هذه الصنائع من الرحمة وعموم المنفعة وما علينا أن نفسر كما فسر ونقول بأن مغفرته تعالى لا تخص التائبين بل قد يغفر جل شأنه لغيرهم إلا أن التقييد ليلائم ما تقدم أتم ملاءمة، ففي الكشف أن الوجه الأول من ذينك الوجهين المذكورين يناسب قوله تعالى: ﴿**خلق السماوات والأرض بالحق**﴾ من وجهين أحدهما ما فيه من الدلالة على كمال القدرة وكمال الرحمة المقتضي لعقاب المصرّ وغفران ذنوب التائب، وثانيهما أن قوله تعالى: ﴿**خلق السماوات**﴾ الخ مسوق لأمرين إثبات الوحدة والقهر المذكورين فيما قبل نفياً للولد بل حسبما للشرك من أصله والتسلق إلى ما مهد أولاً من العبادة والإخلاص لئلا يزول عن الخاطر فقيل ﴿**بالحق**﴾ كما قيل هنالك ﴿إنا أنزلنا إليك الكتاب الحق﴾ [النساء: ١٠٥، المائدة: ٤٨، الزمر: ٢] وادمج فيه أن إنزال الكتاب كما يدل على استحقاقه تعالى للعبادة فكذلك خلق السماوات والأرض بالحق والحكمة التي منها الجزاء على ما سلف فالتذييل بالا هو العزيز الغفار للترغيب في طلب المغفرة بالعبادة والإخلاص والتحذير عن خلاف ذلك سواء خالف أصل الدين كالكفر أو خالف الإخلاص فيه كسائر المعاصي في غاية الملاءمة، وإنما أفرد مخالفة الدين بالذكر صريحاً في قوله تعالى: «والذين اتخذوا» الخ تحذيراً من حالهم لأنها هاتكة لعصمة النجاة فكانت أحق بالتحذير، ورمز إلى هذا الثاني بالتذييل المذكور تكميلاً للمعنى المراد ومدار هذه السورة الكريمة على الأمر بالعبادة والإخلاص والتحذير من الكفر والمعاصي، والوجه الثاني من ذينك الوجهين يناسب حديث الشرك والتذييل به لتوكيد تفظيع ما نسبوا إليه، ولما ذكر تنزيل الكتاب وعقب بالأوصاف المقتضية للعبادة والإخلاص ذيله بقوله سبحانه: «ألا لله الدين الخالص» على ما تحقق وجهه وقد نقلناه نحن عنه فيما مر، ثم لما ذكر بعده عظيم ما نسبوا إليه سبحانه: من الشرك والأولاد وما دل على تنزهه تعالى بالألوهية ناسب أن يذيله بقوله تعالى: «ألا هو العزيز الغفار» للتوكيد المذكور، وقد آثر هذا العلامة الطيبي ويعلم مما ذكرنا وجه رجحان الأول اهـ، والوجه الثاني من وجهي المناسبة على الوجه الأول أولى الوجهين، والآية على ما ذكره البعض يجوز ارتباطها بما عندها من الخلق والتكوير والتسخير، وقوله تعالى: ﴿**خَلَقَكُمْ منْ نَفْس وَاحدَة**﴾ الخ دليل آخر على الوحدة والقهر.

وترك عطفه على ﴿**خلق السماوات**﴾ للإيذان باستقلاله في الدلالة ولتعلقه بالعالم السفلي، والبداءة بخلق الإنسان لأنه أقرب وأعجب بالنسبة إلى غيره باعتبار ما فيه من العقل وقبول الأمانة الإلهية وغير ذلك حتى قيل:

وتزعم أنك جرم صغير ... وفيك انطوى العالم الأكبر

والمراد بالنفس آدم عليه السلام، وقوله تعالى: ﴿**ثُمَّ جَعلَ منهَا زَوْجَهَا**﴾ أي حواء فإنها خلقت من قصيري ضلعه عليه السلام اليسرى وهي أسفل الأضلاع على معنى أنها خلقت من بعضها أو خلقت منها كلها وخلق الله تعالى لآدم مكانها عطف على محذوف هو صفة ثانية لنفس أي من نفس واحدة خلقها ثم جعل منها زوجها، أو على ﴿**واحدة**﴾ لأنه في الأصل اسم مشتق فيجوز عطف الفعل عليه كقوله تعالى: «فالق الإصباح وجعل الليل سكناً» ويعتبر ماضياً لأن اسم الفاعل قد يكون للمضي إذا لم يعمل أي من نفس وحدت من جعل منها زوجها ورجح بسلامته من التقدير الذي هو خلاف الأصل أو على ﴿**خلقكم**﴾ لتفاوت ما بينهما في الدلالة فإنهما وإن كانتا آيتين دالتين على ما مر من الصفات الجليلة لكن خلق حواء من الضلع أعظم وأجلب للتعجب ولذا عبر بالجعل دون الخلق فثم للتراخي الرتبي، ويجوز فيه كون الثاني أعلى مرتبة من الأول وعكسه، وقيل: إنه تعالى أخرج ذرية آدم عليه السلام من

ظهره كالذر ثم خلق منه حواء فالمراد بخلقهم منه إخراجهم من ظهره كالذر فالعطف على ﴿خلقكم﴾ وثم على ظاهرها، وهذا لا يقبل إلا إذا صح مرفوعاً أو في حكمه، وقد تضمنت الآية ثلاث آيات خلق آدم عليه السلام بلا أب وأم وخلق حواء من قصيراه وخلق ذريته التي لا يحصي عددها إلا الله عزَّ وجلّ، وقوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾ استدلال بنوع آخر من العالم السفلي، والإنزال مجاز عن القضاء والقسمة فإنه تعالى إذا قضى وقسم أثبت ذلك في اللوح المحفوظ ونزلت به الملائكة الموكلة بإظهاره، ووصفه بالنزول مع أنه معنى شائع متعارف كالحقيقة والعلاقة بين الإنزال والقضاء الظهور بعد الخفاء ففي الكلام استعارة تبعية، وجوز أن يكون فيه مجاز مرسل، ويجوز أن يكون التجوز في نسبة الإنزال إلى الأنعام والمنزل حقيقة أسباب حياتها كالأمطار ووجه ذلك الملابسة بينهما، وقيل يراد بالأزواج أسباب تعيشها أو يجعل الإنزال مجازاً عن إحداث ذلك بأسباب سماوية وهو كما ترى، وقيل الكلام على ظاهره والله تعالى خلق الأنعام في الجنة ثم أنزلها منها ولا أرى لهذا الخبر صحة، والأنعام الإبل والبقر والضأن والمعز وكانت ثمانية أزواج لأن كلاً منها ذكر وأنثى، وتقديم الظرفين على المفعول الصريح لما مر مراراً من الاعتناء بما قدم والتشويق إلى ما أخر، وقوله تعالى: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ﴾ بيان لكيفية خلق من ذكر من الاناسي والانعام إظهاراً لما فيه من عجائب القدرة، وفيه تغليبان تغليب أولي العقل على غيرهم وتغليب الخطاب على الغيبة كذا قيل، والأظهر أن الخطاب خاص وصيغة المضارع للدلالة على التدرج والتجدد، وقوله تعالى: ﴿خَلْقاً مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ﴾ مصدر مؤكد أن تعلق من بعد بالفعل وإلا فغير مؤكد أي يخلقكم فيها خلقاً مدرجاً حيواناً سوياً من بعد عظام مكسوة لحماً من بعد عظام عارية من بعد مضغ غير مخلقة من بعد علقة من بعد نطفة فقوله سبحانه: «خلقاً من بعد خلق» لمجرد التكرير كما يقال مرة بعد مرة لا أنه مخصوص بخلقين. وقرأ عيسى وطلحة «يخلقكم» بإدغام القاف في الكاف ﴿فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ﴾ ظلمة البطن والرحم والمشيمة، وقيل ظلمة الصلب والبطن والرحم، والجار والمجرور متعلق بيخلقكم، وجوز الشهاب تعلقه بخلقاً بناء على أنه غير مؤكد وكونه بدلاً من قوله تعالى: ﴿في بطون أمهاتكم﴾ ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ إشارة إليه تعالى باعتبار أفعاله المذكورة على وجه يدل على بعد منزلته تعالى في العظمة والكبرياء، واسم الإشارة مبتدأ والاسم الجليل خبره و ﴿ربكم﴾ خبر بعد خبر أو الاسم الجليل نعت أو بدل وهو الخبر أي ذلكم العظيم الشأن الذي عددت أفعاله الله مربيكم فيما ذكر من الأطوار وفيما بعدها ومالككم المستحق لتخصيص العبادة به سبحانه ﴿لَهُ الْمُلْكُ﴾ على الإطلاق في الدنيا والآخرة ليس لغيره تعالى شركة ما في ذلك بوجه من الوجوه والجملة خبر آخر، وقوله تعالى: ﴿لا إله إلاَّ هُوَ﴾ جملة متفرعة على ما قبلها ولم يصرح معها بالفاء التفريعية اعتماداً على فهم السامع. وفي إرشاد العقل السليم أنه خبر آخر، والفاء في قوله تعالى: ﴿فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾ لترتيب ما بعدها على ما ذكر من شؤونه عزَّ وجلّ أي فكيف تصرفون عن عبادته تعالى مع وفور موجباتها ودواعيها وانتفاء الصارف عنها بالكلية إلى عبادة غيره سبحانه من غير داع إليها مع كثرة الصوارف عنها.

﴿إِنْ تَكْفُرُوا﴾ به تعالى مع مشاهدة ما ذكر من موجبات الإيمان والشكر ﴿فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ﴾ أي فأخبركم أنه عزَّ وجلّ غني عن إيمانكم وشكركم غير متأثر من انتفائهما ﴿وَلا يَرْضَى لعباده الْكُفْرَ﴾ لما فيه من الضرر عليهم ﴿وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ﴾ أي الشكر ﴿لَكُمْ﴾ لما فيه من نفعكم، ومن قال بالحسن والقبح العقليين قال: عدم الرضا بالكفر لقبحه العقلي والرضا بالشكر لحسنه العقلي، والرضا إما بمعنى المحبة أو بمعنى الإرادة مع ترك الاعتراض ويقابله السخط كما في شرح المسايرة فعباده على ظاهره من العموم، ومنهم من فسره بالإرادة من غير قيد ويقابله الكره وهؤلاء يقولونه قد يرضى بالكفر أي يريده لبعض الناس كالكفرة ونقله السخاوي عن النووي في كتابه الأصول والضوابط. وابن

الهمام عن الأشعري. وإمام الحرمين كذا قاله الخفاجي في حواشيه على تفسير البيضاوي. والذي رأيته في الضوابط وهي نسخة صغيرة جداً ما نصه مسألة مذهب أهل الحق الإيمان بالقدر وإثباته وأن جميع الكائنات خيرها وشرها بقضاء الله تعالى وقدره وهو مريد لها كلها ويكره المعاصي مع أنه سبحانه مريد لها لحكمة يعلمها جل وعلا، وهل يقال إنه تعالى يرضى المعاصي ويحبها فيه مذهبان لأصحابنا المتكلمين حكاهما إمام الحرمين وغيره، قال إمام الحرمين في الإرشاد: مما اختلف فيه أهل الحق إطلاق المحبة والرضاء، فقال بعض أصحابنا لا يطلق القول بأن الله تعالى يحب المعاصي ويرضاها لقوله تعالى: ﴿**ولا يرضى لعباده الكفر**﴾ ومن حقق من أئمتنا لم يلتفت إلى تهويل المعتزلة بل قال الله تعالى يريد الكفر ويحبه ويرضاه والإرادة والمحبة والرضا بمعنى واحد قال: والمراد بعباده في الآية الموفقون للإيمان وأضيفوا إلى الله تعالى تشريفاً لهم كل في قوله تعالى: ﴿يشرب بها عباد الله﴾ [الإنسان: ٦] أي خواصهم لا كلهم اهـ فلا تغفل عن الفرق بينه وبين ما ذكره الخفاجي، وحكي تخصيص العباد في البحر عن ابن عباس.

وقيل يجوز مع ذلك حمل العباد على العموم ويكون المعنى ولا يرضى لجميع عباده الكفر بل يرضاه ويريده لبعضه نظير قوله تعالى: ﴿لا تدركه الأبصار﴾ [الأنعام: ١٠٣] على قول، ولعلامة الأعصار صاحب الكشف تحقيق نفيس في هذا المقام لم أره لغيره من العلماء الأعلام وهو أن الرضا يقابل السخط وقد يستعمل بعن والباء ويعدى بنفسه فإذا قلت: رضيت عن فلان فإنما يدخل على العين لا المعنى ولكن باعتبار صدور معنى منه يوجب الرضا وفي مقابلة سخطت عليه وبينهما فرقان أنك إذا قلت: رضيت عن فلان بإحسانه لم يتعين الباء للسببية بل جاز أن يكون صلة مثله في رضيت بقضاء الله تعالى وإذا قلت: سخطت عليه بإساءته تعين السببية فكان الأصل هاهنا ذكر الصلة لكنه كثر الحذف في الاستعمال بخلافه ثمت إذ لا حذف، وإذا قيل: رضيت به فهذا يجب دخوله على المعنى إلا إذا دخل على الذات تمهيداً للمعنى ليكون أبلغ تقول: رضيت بقضاء الله تعالى ورضيت بالله عزَّ وجلّ رباً وقاضياً، وقريب منه سمعت حديث فلان وسمعته يتحدث وإذا عدي بنفسه جاز دخوله على الذات كقولك: رضيت زيداً وإن كان باعتبار المعنى تنبيهاً على أن كله مرضي بتلك الخصلة وفيه مبالغة وجاز دخوله على المعنى كقولك: رضيت إمارة فلان، والأول أكثر استعمالاً وهو على نحو قولهم: حمدت زيداً وحمدت علمه، وأما إذا استعمل باللام تعدى بنفسه كقولك رضيت لك هذا فمعناه ما سيجيء إن شاء الله تعالى قريباً، وإذا تمهد هذا لاح لك أن الرضا في الأصل متعلقة المعنى وقد يكون الذات باعتبار تعلقه بالمعنى أو باعتبار التمهيد فهذه ثلاثة أقسام حققت بأمثلتها وأنه في الحقيقة حالة نفسانية تعقب حصول ملائم مع ابتهاج به واكتفاء فهو غير الإرادة بالضرورة لأنها تسبق الفعل وهذا يعقبه، وهذا المعنى في غير المستعمل باللام من الوضوح بمكان لا يخفى على ذي عينين، وأما فيه فإنما اشتبه الأمر لأنك إذا قلت: رضيت لك التجارة فالراضي بالتجارة هو مخاطبك وإنما أنت بينت له أن التجارة مما يحق أن يرضى به وليس المعنى رضيت بتجارتك بل المعنى استحمادك التجارة له فالملاءمة هاهنا بين الواقع عليه الفعل والداخل عليه اللام ثم إنه قد يرضى بما ترضاه له إذا عرف وجه الملاءمة وقد لا يرضى، وفيه تجوز إما لجعل الرضا مجازاً على الاستحماد لأن كل مرضي محمود أو لأنك جعلت كونه مرضياً له بمنزلة كونه مرضياً لك فاعلم أن الرضا في حق الله تعالى شأنه محال لأنه سبحانه لا يحدث له صفة عقيب أمر البتة فهو مجاز كما أن الغضب كذلك إما من أسماء الصفات إذا فسر بإرادة أن يثيبهم إثابة من رضي عمن تحت يده وإما من أسماء الأفعال إذا أريد الاستحماد وأن مثل قوله تعالى: ﴿رضي الله عنهم ورضوا عنه﴾ [المائدة: ١١٩] إما من باب المشاكلة وإما من باب المجاز المذكور، وأن مثل قوله سبحانه: ﴿رضيت لكم الإسلام ديناً﴾ [المائدة: ٣] متعين أن يكون من ذلك الباب بالنسبة إلى من يصح اتصافه بالرضا حقيقة

أيضاً فإذن قوله تعالى: ﴿**ولا يرضى لعباده الكفر**﴾ كلام وارد على نهجه من غير تأويل دال على أنه جل شأنه لا يستحمد الكفر لعباده كما يستحمد الإسلام لهم ويرتضيه، وأما أنه لا يريد الكفر أن يوجد فليس من هذا الباب في شيء ولا هو من مقتضيات هذا التركيب وأن الخروج إلى تخصيص العباد من ضيق العطن وأن قول المحققين رضي الله تعالى عنهم: إن الطاعات برضى الله تعالى والمعاصي ليست كذلك ليس لهذه الآية بل لأن الرضا بالمعنى الأصلي يستحيل عليه تعالى وقد أخبر أنه رضي عن المؤمنين بسبب طاعتهم في مواضع عديدة من كتابه الكريم.

والزمخشري عامله الله تعالى بعدله فسر الرضا في نحوه بالاختيار وهو لا ينفك عن الإرادة، وأنت تعلم سقوطه مما حقق هذا ثم إنا نقول: لما أرشد سبحانه إلى الحق وهدد على الباطل إكمالاً للرحمة على عباده كلهم الفريقين بقوله تعالى: ﴿**إن تكفروا**﴾ إلى قوله سبحانه: ﴿**يرضه لكم**﴾ تنبيهاً على الغنى الذاتي وأنه سبحانه تعالى أن يكون أمره بالخير لانتفاعه به ونهيه عن الشر لتضرره منه، ثم في العدول عن مقتضى الظاهر من الخطاب إلى قوله تعالى: ﴿**ولا يرضى لعباده الكفر**﴾ ما ينبه على أن عبوديتهم وربوبيته جل شأنه يقتضي أن لا يرضى لهم ذلك، وفيه أنهم إذا اتصفوا بالكفر فكأنهم قد خرجوا عن رتبة عبوديته تعالى وبقوا في الذل الدائم ثم قيل ﴿**يرضه لكم**﴾ للتنبيه على مزيد الاختصاص فهذا هو النظم السري الذي يحار دون إدراك لطائفة من لطائفة الفكر البشري والله أعلم اهـ. وهو كلام رصين وبالقبول قمين إلا أنه ربما يقال إنه: لا يتمشى على مذهب السلف حيث إنهم لا يؤولون الرضا في حقه تعالى وكونه عبارة عن حالة نفسانية إلى آخر ما ذكر في تفسيره إنما هو فينا وحيث أن ذاته تعالى مباينة لسائر الذوات فصفاته سبحانه كذلك فحقيقة الرضا في حقه تعالى مباينة لحقيقته فينا وأين التراب من رب الأرباب، وقد تقدم الكلام في هذا المقام على وجه يروي الأوام ويبرىء السقام فنقول عدم التأويل لا يضر فيما نحن بصدده فالرضا أن أول أو لم يؤول غير الإرادة لحديث السبق والتأخر السابق، وممن صرح بذلك ابن عطية قال: تأمل الإرادة فإن حقيقتها إنما هي فيما لم يقع بعد والرضا حقيقته إنما هي فيما وقع واعتبر هذا في آيات القرآن تجده وإن كانت العرب قد تستعمل في أشعارها على جهة التجوز هذا بدل هذا.

وقد ذهب إلى المغايرة بينهما بما ذكر هنا ابن المنير أيضاً إلا أنه أول الرضا وذكر أنه لا يتأتى حمله في الآية على الإرادة وشنع على الزمخشري في ذلك جزاء ما تكلم على بعض أهل السنة المخالفين للمعتزلة في زعمهم اتحاد الرضا والإرادة وأنه تعالى قد يريد ما لا يفعله العبد وقد يفعل العبد ما لا يريده عزّ وجلّ فقال: هب أن المصر على هذا المعتقد على قلبه رين أو في ميزان عقله غين أليس يدعي أو يدعى له أنه الخريت في معابر العبارات فكيف هام عن جادة الإجادة في بهماء وأعار منادي الحذاقة أذناً صماء اللهم إلا أن يكون الهوى إذا تمكن أرى الباطل حقاً وغطى على مكشوف العبارة فسحقاً سحقاً أليس مقتضى العربية فضلاً عن القوانين العقلية أن المشروط مرتب على الشرط فلا يتصور وجود المشروط قبل الشرط عقلاً ولا مضيه واستقبال الشرط لغة ونقلاً واستقر باتفاق الفريقين أهل السنة وأهل البدعة أن إرادة الله تعالى لشكر العباد مثلاً مقدمة على وجود الشكر منهم فحينئذ كيف ينساغ حمل الرضا على الإرادة وقد جعل في الآية مشروطاً وجزاء وجعل وقوع الشكر شرطاً ومجزياً واللازم من ذلك عقلاً تقدم المراد وهو الشكر على الإرادة وهي الرضا ولغة تقدم المشروط على الشرط فإذا ثبت بطلان حمل الرضا على الإرادة عقلاً ونقلاً تعين المحمل الصحيح له، وهو المجازاة على الشكر بما عهد أن يجازي به المرضي عنه من الثواب والكرامة فيكون معنى الآية والله تعالى أعلم وأن تشكروا يجازكم على شكركم جزاء المرضي عنه، ولا شك أن المجازاة مستقبلة بالنسبة إلى الشكر فجرى الشرط والجزاء على مقتضاها لغة وانتظم ذلك بمقتضى الأدلة العقلية على بطلان تقدم المراد على الإرادة

عقلاً، ومثل هذا يقال في قوله تعالى: ﴿ولا يرضى لعباده الكفر﴾ أي لا يجازى الكافر مجازاة المرضي عنه بل مجازاة المغضوب عليه من النكار والعقوبة انتهى.

لا يقال: حيث كان قوله تعالى: ﴿فإن الله غني عنكم﴾ جزاء باعتبار الأخبار كما أشير إليه فيما سلف فليكن قوله تعالى: ﴿يرضه لكم﴾ جزاء بذلك الاعتبار فحينئذ لا يلزم أن يكون نفس الرضا مؤخراً لأنا نقول: مثل هذا الاعتبار شائع في الجملة الاسمية المتحقق مضمونها قبل الشرط نحو ﴿وإن يمسسك بخير فهو على كل شيء قدير﴾ [الأنعام: ١٧] وفي الفعل الماضي إذا وقع جزاء نحو ﴿إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل﴾ [يوسف: ٧٧] وأما في الفعل المضارع فليس كذلك والذوق السليم يأبى هذا الاعتبار فيه ومع هذا أي حاجة تدعو إلى ذلك هنا ولا أراها إلا نصرة الباطل والعياذ بالله تعالى، ثم إنه يعلم من مجموع ما قدمنا حقية ما قالوا من أنه لا تلازم بين الإرادة والرضا كما أن الرضا ليس عبارة عن حقيقة الإرادة لكن ابن تيمية وتلميذه ابن القيم قسما الإرادة إلى قسمين تكوينية وشرعية، وذكرا أن المعاصي كالكفر وغيره واقعة بإرادة الله تعالى التكوينية دون إرادته سبحانه الشرعية وعلى هذا فالرضا لا ينفك عن الإرادة الشرعية فكل مراد لله تعالى بالإرادة الشرعية مرضي له سبحانه وهذا التقسيم لا أتعقله إلا أن تكون الإرادة الشرعية هي الإرادة التي يرتضي المراد بها فتدبر هذا، وقرأ ابن كثير ونافع في رواية وأبو عمرو والكسائي «يَرْضَهُ» باشباع ضمة الهاء، والقاعدة في اشباع الهاء وعدمه أنها إن سكن ما قبلها لم تشبع نحو عليه وإليه وإن تحرك أشبعت نحو به وغلامه وهاهنا قبلها ساكن تقديراً وهو الألف المحذوفة للجازم فإن جعلت موجودة حكماً لم تشبع كما في قراءة ابن عامر وحفص وإن قطع النظر عنها اشبعت كما في قراءة من سمعت وهذا هو الفصيح وقد تشبع وتختلس في غير ذلك وقد يحسن اشباعها مع فقد الشرط لنكتة، وقرأ أبو بكر «يَرْضَهْ» بسكون الهاء ولم يرضه أبو حاتم وقال: هو غلط لا يجوز، وفيه أنه لغة لبني كلاب وبني عقيل اجراء للوصل مجرى الوقف.

﴿وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ بيان لعدم سراية كفر الكافر إلى غيره، وقد تقدم الكلام في هذه الجملة وكذا في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ فتذكر.

۞ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ
وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ﴿٨﴾ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ
ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا
يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾ قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ
وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾
وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾ قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ
دِينِى ﴿١٤﴾ فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ
ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٥﴾ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ ۚ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴿١٦﴾

﴿وَإِذَا مَسَّ الإِنْسَانَ ضُرٌّ﴾ من مرض وغيره من المكاره ﴿دَعَا رَبَّهُ مُنِيباً إِلَيهِ﴾ راجعاً ممن كان يدعوه في حالة الرخاء من دون الله عزَّ وجلّ لعلمه بأنه بمعزل من القدرة على كشف ضره وهذا وصف للجنس بحال بعض أفراده

كقوله تعالى: ﴿إن الإنسان لظلوم كفار﴾ [إبراهيم: ٣٤]، واستظهر أبو حيان أن المراد بالإنسان جنس الكافر، وقيل: هو معين كعتبة بن ربيعة ﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ﴾ أي أعطاه نعمة عظيمة من جنابه من الخول بفتحتين وهو تعهد الشيء أي الرجوع إليه مرة بعد أخرى وأطلق على العطاء لما أن المعطي الكريم يتعهد من هو ربيب احسانه ونشو امتنانه بتكرير العطاء عليه مرة بعد أخرى، وقال بعضهم: معنى ﴿خوله﴾ في الأصل أعطاه خولاً بفتحتين أي عبيداً وخدماً أو أعطاه ما يحتاج إلى تعهده والقيام عليه ثم عمم لمطلق العطاء، وجوز الزمخشري كونه من خال يخول خولاً بسكون الواو إذا افتخر، واعترض بأنه صرح في الصحاح أن خال بمعنى افتخر يائي والخيلاء بمعنى التكبر يدل عليه دلالة بينة، وأيضاً خول متعد إلى مفعولين وأخذه منه لا يقتضي أن يتعدى للمفعول الثاني.

وأجيب عن الأول بأن الزمخشري من أئمة النقل وقد ثبت عنده وأصله من الخال الذي هو العلامة، وقد نقل فيه الواو والياء ثم قيل لسيما الجمل والخير خال من ذلك وأخذ منه الخيال وأما الاختيال بمعنى التكبر فهو مأخوذ من الخيال لأنه خال نفسه فوق قدره أو جعل لنفسه خال الخير كما يقال: أعجب الرجل فقد وضح أن الاشتقاق يناسبهما ولا ينكر ثبوت الياء بدليل الخيلاء لكن لا مانع من ثبوت الياء أيضاً وليس الاختيال مأخوذاً من الخيلاء بل الخيلاء هو الاسم منه فلا يصلح مانعاً لكن يصلح مثبتاً للياء، وعن الثاني بأنه ليس المراد أن خول مضعف خال بمعنى افتخر حتى يشكل تعديته للمفعول الثاني بل أنه موضوع في اللغة لمعنى أعطى وما ذكر بيان لمأخذ اشتقاقه وأصل معناه الملاحظ في وضعه له ومثله كثير فأصل خوله جعله مفتخراً بما أنعم عليه ثم قطع النظر عنه وصار بمعنى أعطاه مطلقاً ﴿نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيه﴾ أي نسي الضر الذي كان يدعو الله تعالى إلى إزالته وكشفه ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ التخويل فما واقعة على الضر ودعا من الدعوة وهو يتعدى بإلى يقال دعا المؤذن الناس إلى الصلاة ودعا فلان الناس إلى مأدبته والدعوة مجاز عن الدعاء، والمعنى على اعتبار المضاف كما أشير إليه، ويجوز أن يراد بما معنى من للدلالة على الوصفية والتفخيم واقعاً عليه تعالى كما في قوله تعالى: ﴿وما خلق الذكر والأنثى﴾ [الليل: ٣] وقوله سبحانه: ﴿ولا أنتم عابدون ما أعبد﴾ [الكافرون: ٥] والدعاء على ظاهره وتعديته بإلى لتضمينه معنى الإنابة أو التضرع والابتهال، والمعنى نسي ربه الذي كان يدعو منيباً أو متضرعاً إليه وهو وجه لا بأس به، وما قيل من أنه تكلف إذ لا يقال دعا إليه بمعنى دعاه ولا حاجة إلى جعل ما بمعنى من مردود لحسن موقع التضمين واستعمال ما في مقام التفخيم. وفي الإرشاد أن في ذلك الجعل إيذاناً بأن نسيانه بلغ إلى حيث لا يعرف مدعوه ما هو فضلاً من أن يعرفه من هو، وقيل: ما مصدرية أي نسي كونه يدعو، وقيل: هي نافية وتم الكلام عند قوله تعالى: ﴿نسي﴾ أي نسي ما كان فيه من الضر ثم نفي أن يكون دعاء هذا الكافر خالصاً لله تعالى من قبل أي من قبل الضر ولا يخفى ما فيه ﴿وَجَعَلَ لله أَنْدَاداً﴾ شركاء في العبادة، والظاهر من استعمالاتهم إطلاق الأنداد على الشركاء مطلقاً، وفي البحر أنداداً أي أمثالاً يضاد بعضها بعضاً ويعارض، قال قتادة: أي الرجال يطيعهم في المعصية، وقال غيره أوثاناً ﴿لِيُضِلَّ﴾ الناس بذلك ﴿عَنْ سَبِيلِه﴾ عزَّ وجلّ الذي هو التوحيد.

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وعيسى «ليَضِلّ» بفتح الياء أي ليزداد ضلالاً أو ليثبت عليه وإلا فاصل الضلال غير متأخر عن الجعل المذكور، واللام لام العاقبة كما في قوله تعالى: ﴿فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزناً﴾ [القصص: ٨] بيد أن هذا أقرب إلى الحقيقة لأن الجاعل هاهنا قاصد بجعله المذكور حقيقة الإضلال والضلال وأن لم يعرف بجهله أنهما اضلال وضلال وأما آل فرعون فهم غير قاصدين بالتقاطهم العداوة أصلاً.

﴿قُلْ﴾ تهديداً لذلك الجاعل وبياناً لحاله ومآله ﴿تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلاً﴾ أي تمتعاً قليلاً أو زماناً قليلاً ﴿إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ أي ملازميها والمعذبين فيها على الدوام، وهو تعليل لقلة التمتع وفيه من الاقناط من النجاة وذم الكفر

ما لا يخفى كأنه قيل: إذ قد أبيت ما أمرت به من الإيمان والطاعة فمن حقك أن تؤمر بتركه لتذوق عقوبته ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيلِ﴾ الخ من تمام الكلام المأمور به في قول، وأم إما متصلة قد حذف معادلها ثقة بدلالة مساق الكلام عليه كأنه قيل له تأكيداً للتهديد وتهكماً به أأنت أحسن حالاً ومآلاً أم من هو قائم بمواجب الطاعات ودائم على وظائف العبادات في ساعات الليل التي فيها العبادة أقرب إلى القبول وأبعد عن الرياء حالتي السراء والضراء لا عند مساس الضر فقط كدأبك حال كونه ﴿سَاجداً وَقَائماً﴾ وإلى كون المحذوف المعادل الأول ذهب الأخفش ووافقه غير واحد ولا بأس به عند ظهور المعنى لكن قال أبو حيان: إن مثل ذلك يحتاج إلى سماع من العرب، ونصب ﴿ساجداً وقائماً﴾ على الحالية كما أشير إليه أي جامعاً بين الوصفين المحمودين وصاحب الحال الضمير المستتر في ﴿قانت﴾.

وجوز كون الحال من ضمير ﴿يحذر﴾ الآتي قدم عليه ولا داعي لذلك. وقرأ الضحاك «ساجدٌ وقائمٌ» برفع كل على أنه خبر بعد خبر، وجوز أبو حيان كونه نعتاً لقانت وليس بذاك، والواو كما أشير إليه للجمع بين الصفتين، وترك العطف على ﴿قانت﴾ قيل لأن القنوت مطلق العبادة فلم يكن مغايراً للسجود والقيام فلم يعطفا عليه بخلاف السجود والقيام فإنهما وصفان متغايران فلذا عطف أحدهما على الآخر، وتقديم السجود على القيام لكونه أدخل في معنى العبادة، وذهب المعظم إلى أنه أفضل من القيام لحديث «أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد» وقوله تعالى: ﴿يَحْذَرُ الآخرَةَ﴾ حال أخرى على التداخل أو الترادف أو استئناف وقع جواباً عما نشأ من حكاية حاله كأنه قيل ما باله يفعل ذلك؟ فقيل: يحذر الآخرة أي عذاب الآخرة كما قرأ به ابن جبير.

﴿وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّه﴾ فينجو بذلك مما يحذره ويفوز بما يرجوه كما ينبىء عنه التعرض لعنوان الربوبية المنبئة عن التبليغ إلى الكمال مع الإضافة إلى ضمير الراجي لا أنه يحذر ضر الدنيا ويرجو خيرها فقط، وأما منقطعة وما فيها من الاضراب للانتقال من التبكيت بتكليف الجواب الملجىء إلى الاعتراف بما بينهما من التباين البين كأنه قيل: بل أمن هو قانت الخ، وقدر الزمخشري كغيره مثلك أيها الكافر. وقال النحاس: بمعنى بل ومن بمعنى الذي والتقدير بل الذي هو قانت الخ أفضل مما قبله، وتعقبه في البحر بأنه لا فضل لمن قبله حتى يجعل هذا أفضل بل يقدر الخبر من أصحاب الجنة لدلالة مقابلة أعني ﴿إنك أصحاب النار﴾ عليه ولا يبعد أن يقدر أفضل منك ويكون ذلك من باب التهكم.

وقرأ ابن كثير ونافع وحمزة والأعمش وعيسى وشيبة والحسن في رواية «أَمَنْ» بتخفيف الميم وضعفها الأخفش وأبو حاتم ولا التفات إلى ذلك، وخرجت على إدخال همزة الاستفهام التقرير على من والمقابل محذوف أي الذي هو قانت الخ خير أم أنت أيها الكافر، ومثله في حذف المعادلة قوله:

دعـانـي إلـيـهـا الـقـلـب إنـي لأمـره ... سـمـيـع فـمـا أدري أرشـدٌ طـلابـهـا

فإنه أراد أم غي، وقال الفراء: الهمزة للنداء كأنه قيل يا من هو قانت وجعل قوله تعالى: ﴿قل﴾ خطاباً له، وضعف هذا القول أبو علي الفارسي وهو كذلك، وقوله تعالى: ﴿قُلْ﴾ على معنى قل له أيضاً بياناً للحق وتصريحاً به وتنبيهاً على شرف العلم والعمل ﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ﴾ فيعملون بمقتضى علمهم ويقنتون الليل سجداً وركعاً يحذرون الآخرة ويرجون رحمة ربهم ﴿وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾ فيعملون بمقتضى جهلهم وضلالهم كدأبك أيها الكافر الجاعل لله تعالى أنداداً، والاستفهام للتنبيه على أن كون الأولين في أعلى معارج الخير وكون الآخرين في أقصى مدارج الشر من الظهور بحيث لا يكاد يخفى على أحد من منصف ومكابر، ويعلم مما ذكرنا أن المراد بالذين يعلمون العاملون من علماء الديانة وصرح بإرادة ذلك بعض الأجلة على تقديري الاتصال والانقطاع وأن الكلام تصريح بنفي

المساواة بين القانت وغيره المضمنة من حرفي الاستفهام أعني الهمزة وأم على الاتصال أو من التشبيه على الانقطاع وعلى قراءة التخفيف أيضاً قال: وإنما عدل إلى هذه العبارة دلالة على أن ذلك مقتضى العلم وأن العلم الذي لا يترتب عليه العمل ليس بعلم عند الله تعالى سواء جعل من باب إقامة الظاهر مقام المضمر للإشعار المذكور أو استئناف سؤال تبكيتي توضيحاً للأول من حيث التصريح ومن حيث إنهم وصفوا بوصف آخر يقتضي اتصافهم بتلك الأوصاف ومباينتهم لطبقة من لا يتصف. وهذا أبلغ وأظهر لفظاً لقوله تعالى: ﴿قل﴾ وجوز أن يكون الكلام وارداً على سبيل التشبيه فيكون مقرراً لنفي المساواة لا تصريحاً بمقتضى الأول أي كما لا استواء بين العالم وغيره عندكم من غير ريبة فكذلك ينبغي أن لا يكون لكم ارتياب في نفي المساواة بين القانت المذكور وغيره، وكونه للتصريح بنفي المساواة وحمل الذين يعلمون على العاملين من علماء الديانة على ما سمعت مما لا ينبغي أن يختار غيره لتكثير الفائدة، وأما من ارتاب في ذلك الواضح فلا يبعد منه الارتياب في هذا الواضح أيضاً بجوابه أن الاستنكاف عن الجهل مركوز في الطباع بخلاف الأول، ويشعر كلام كثير أن قوله تعالى: ﴿أم من هو﴾ الخ غير داخل في حيز القول والمعنى عليه كما في الأول بتغيير يسير لا يخفى، وعن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما أنه تلا ﴿أم من هو قانت﴾ الآية فقال: نزلت في عثمان بن عفان، وأخرج ابن سعد في طبقاته وابن مردويه وابن عساكر عن ابن عباس أنها نزلت في عمار بن ياسر، وأخرج جويبر عنه أنها نزلت في عمار وابن مسعود وسالم مولى أبي حذيفة، وعن عكرمة الاقتصار على عمار، وعن مقاتل المراد بمن هو قانت عمار وصهيب وابن مسعود وأبو ذر، وفي رواية الضحاك عن ابن عباس وأبو بكر وعمر، وقال يحيى بن سلام: رسول الله ﷺ، والظاهر أن المراد المتصف بذلك من غير تعيين ولا يمنع من ذلك نزولها فيمن علمت وفيها دلالة على فضل الخوف والرجاء، وقد أخرج الترمذي والنسائي وابن ماجة عن أنس قال: دخل رسول الله ﷺ على رجل وهو في الموت فقال: كيف تجدك؟ قال: أرجو وأخاف فقال عليه الصلاة والسلام: لا يجتمعان في قلب عبد في مثل هذا الموطن إلا أعطاه الذي يرجو وآمنه الذي يخاف، وفيها رد على من ذم العبادة خوفاً من النار ورجاء الجنة وهو الإمام الرازي كما قال الجلال السيوطي، نعم العبادة لذلك ليس إلا مذمومة بل قال بعضهم بكفر من قال: لولا الجنة والنار ما عبدت الله تعالى على معنى نفي الاستحقاق الذاتي، وفيها دلالة أيضاً على فضل صلاة الليل وأنها أفضل من صلاة النهار، ودل قوله تعالى: ﴿هل يستوي﴾ الخ على فضل العلم ورفعة قدره وكون الجهل بالعكس. واستدل به بعضهم على أن الجاهل لا يكافىء العالمة كما أنه لا يكافىء بنت العالم، وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الأَلْبَابِ﴾ كلام مستقل غير داخل عند الكافة في الكلام المأمور وارد من جهته تعالى بعد الأمر بما تضمن القوارع الزاجرة عن الكفر والمعاصي لبيان عدم تأثيرها في قلوب الكفرة لاختلال عقولهم كما في قوله:

عوجوا فحيوا لنعمى دمنة الدار ... ماذا تحيون من نؤي وأحجار

وهو أيضاً كالتوطئة لأفراد المؤمنين بعد بالخطاب والإعراض عن غيرهم أي إنما يتعظ بهذه البيانات الواضحة أصحاب العقول الخالصة عن شوائب الخلل وأما هؤلاء فبمعزل عن ذلك. وقرىء «يذَّكر» بالإدغام.

﴿قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ﴾ أمر رسول الله ﷺ أن يذكر المؤمنين ويحملهم على التقوى والطاعة إثر تخصيص التذكر بأولي الألباب وفيه إيذان بأنهم هم أي قل لهم قولي هذا بعينه وفيه تشريف لهم بإضافتهم إلى ضمير الجلالة ومزيد اعتناء بشأن المأمور به فإن نقل عين أمر الله تعالى أدخل في إيجاب الامتثال به، وقوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا﴾ إلى آخره تعليل للأمر أو لوجوب الامتثال به، والجار والمجرور متعلق بمحذوف هو خبر مقدم وقوله سبحانه: ﴿فِي هَذِهِ الدُّنْيَا﴾ متعلق بأحسنوا واسم الإشارة للإحضار، وقوله تبارك وتعالى: ﴿حَسَنَةٌ﴾ مبتدأ

وتنوينه للتفخيم أي للمحسنين في الدنيا حسنة في الآخرة أي حسنة والمراد بها الجنة، وقوله عزَّ وجلّ: ﴿**وَأَرْضُ اللهِ وَاسِعَةٌ**﴾ جملة معترضة إزاحة لما عسى أن يتوهم من التعلل في التفريط بعدم التمكن في الوطن من رعاية الأوامر والنواهي على ما هي عليه، وقوله تعالى: ﴿**إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ**﴾ من تتمة الاعتراض فكأنه قيل: اتقوا ربكم فإن للمحسنين في هذه الدنيا الجنة في الأخرى ولا عذر للمفرطين في الإحسان بعدم التمكن في الأوطان فإن أرض الله تعالى واسعة وبلاده كثيرة فليتحولوا إن لم يتمكنوا عنها وليهاجروا إلى ربهم لنيل الرضوان فإن لهم في جنب ذلك ما يتقاصر عنه الجنة ويستلذ له كل محنة وكأنه لما أزاح سبحانه علتهم بأن في أرض الله تعالى سعة وقع في خلدهم هل نكون نحن ومن يتمكن من الإحسان في بلدته فارغ البال رافع الحال سواء بسواء فأجيبوا إنما يوفى الصابرون الذين صبروا على الهجرة ومفارقة المحاب والاقتداء بالأنبياء والصالحين أجرهم بغير حساب، وأصله إنما توفون أجوركم بغير حساب على الخطاب وعدل عنه إلى المنزل تنبيهاً على أن المقتضي لذلك صبرهم فيفيد أنكم توفون أجوركم بصبركم كما وفي أجر من قبلكم بصبرهم وهو محمول على العموم شامل للصبر على كل بلاء غير مخصوص بالصبر على المهاجرة لكنه إنما جيء به في الآية لذلك وليشمل الصابرين على ألم المهاجرة شمولاً أولياً، والجار والمجرور في موضع الحال إما من الأجر أي إنما يوفون أجرهم كائناً بغير حساب وذلك بأن يغرف لهم غرفاً ويصب عليهم صباً، وأما من الصابرين أي إنما يوفون ذلك كائنين بغير حساب عليه، والمراد على الوجهين المبالغة في الكثرة وهو المراد بقول ابن عباس لا يهتدي إليه حساب الحساب ولا يعرف، وجوز جعل الحال من الصابرين على من لا يحاسبون أصلاً، والمتبادر ما يفيد المبالغة في كثرة الأجر، ومعنى القصر ما يوفي الصابرون أجرهم إلا بغير حساب جعل الجار والمجرور حالاً من المنصوب أو المرفوع لأن القصر في الجزء الأخير، وفيه من الاعتناء بأمر الأجر ما فيه، وأما اختصاصه بالصابرين دون غيرهم فمن ترتب الحكم على المشتق، وهذا ونقل عن السدي أن قوله تعالى: ﴿**في هذه الدنيا**﴾ متعلق بحسنة من حيث المعنى فقيل: هو حينئذ حال من ﴿**حسنة**﴾ ورد بأنها مبتدأ ولا يجوز الحال منه على الصحيح، فإن قيل: يلتزم جعلها فاعل الظرف قيل: لا يتسنى إلا على مذهب الأخفش وهو ضعيف.

وقيل حال من الضمير المستتر في الخبر الراجع إلى ﴿**حسنة**﴾ وقال الزمخشري: هو بيان لحسنة والتقدير هي في الدنيا، والمراد بها الصحة والعافية أي للمحسنين صحة وعافية في الدنيا، قال في الكشف: وإنما آثر كونه بياناً مع جواز كونه حالاً عن الضمير الراجع إلى ﴿**حسنة**﴾ في الخبر لأن المعنى على البيان لا على التقييد بالحال وذلك لأن المعنى على هذا الوجه أن للمحسنين جزاء يسيراً في الدنيا هو الصحة والعافية وإنما توفية أجورهم في الآخرة ولو قيد بالحال لم يلائم على ما لا يخفى، وحق قوله تعالى: ﴿**وأرض الله واسعة**﴾ على هذا أن يكون اعتراضاً ازاحة لما قد يختلج في بعض النفوس من خلاف ذلك الجزاء بواسطة اختلاف الهواء والتربة وغير ذلك مما يؤدي إلى آفات في البدن فقيل وأرض الله تعالى واسعة فلا يعدم أحد محلاً يناسب حاله فليتحول عنه إليه إن لم يلائمه ثم يكون فيه تنبيه على أن من جعل الأرض ذات الطول والعرض قطعاً متجاورات تكميلاً لانتعاشهم وارتياشهم يجب أن تقابل نعمه بالشكر ليعدوا من المحسنين ثم قيل: ﴿**إنما يوفى الصابرون**﴾ أي توفية الأجر لهؤلاء المحسنين إنما يكون في الآخرة والذي نالوه في الدنيا عاجل حظهم وأما الأجر الموفى بغير حساب فذلك للصابرين، ومن سلبناه تلك العاجلة تمحيصاً له وتقريباً وفي ذلك تسلية لأهل البلاء وتنشيط للعباد على مكابدة العبادات وتحريض على ملازمة الطاعات ثم قال: وهذا أيضاً وجه حسن دقيق والرجحان للأول من وجوه:

أحدها أن الاعتراض لإزاحة العلة في التفريط أظهر لأنه المقصود من السياق على ما يظهر من قوله تعالى: ﴿**اتقوا ربكم**﴾. الثاني أنه المطابق لما ورد في التنزيل من نحو ﴿ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها﴾ [النساء:

٩٧] ﴿إن أرضي واسعة فإياي فاعبدون﴾ [العنكبوت: ٥٦]. الثالث أن تعلق الظرف بالمذكور المتقدم هو الوجه ما لم يصرف صارف.

الرابع أنه على ذلك التقدير ليس بمطرد ولا أكثري فإن الحسنة بذلك المعنى في شأن المخالفين أتم والقول بأنها استدراج في شأنهم لا حسنة ليس بالظاهر فقد قال سبحانه: ﴿**فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه**﴾ انتهى، ولعمري إن ما رجحه بالترجيح حقيق وما استحسنه واستدقه ليس بالحسن ولا الدقيق، والذي نقله الطبرسي عن السدي تفسير الحسنة في الدنيا بالثناء الحسن والذكر الجميل والصحة والسلامة، وفسرها بعضهم بولاية الله تعالى وعليه فليس للمخالفين منها نصيب، وفي الآية أقوال أخر فعن عطاء أرض الله تعالى المدينة قال أبو حيان: فعلى هذا يكون ﴿**أحسنوا**﴾ هاجروا و ﴿**حسنة**﴾ راحة من الأعداء، وقال قوم: أرض الله تعالى الجنة، وتعقبه ابن عطية بأنه تحكم لا دليل عليه.

وقال أبو مسلم: لا يمتنع ذلك لأنه تعالى أمر المؤمنين بالتقوى ثم بين سبحانه أنه من اتقى له في الآخرة الحسنة وهي الخلود في الجنة ثم بين جل شأنه أن أرض الله واسعة لقوله تعالى: ﴿وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء﴾ [الزمر: ٧٤] وقوله تعالى: ﴿وجنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين﴾ [آل عمران: ١٣٣] والرجحان لما سمعت أولاً، واختير فيه شمول الحسنة لحسنات الدنيا والآخرة، والمراد بالإحسان الإتيان بالأعمال الحسنة القلبية والقالبية، قال النبي ﷺ في تفسيره في حديث جبريل عليه السلام «أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك» والآية على ما في بعض الآثار نزلت في جعفر بن أبي طالب وأصحابه حين عزموا على الهجرة إلى أرض الحبشة وفيها من الدلالة على فضل الصابرين ما فيها ﴿**قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ**﴾ أي من كل ما يخل به من الشرك والرياء وغير ذلك؛ أمر عليه الصلاة والسلام ببيان ما أمر به نفسه من الإخلاص في عبادة الله عزَّ وجلّ الذي هو عبارة عما أمر به المؤمنون من التقوى مبالغة في حثهم على الإتيان بما كلفوه وتمهيداً لما يعقبه مما خوطب به المشركون.

وعدم التصريح بالآمر لتعين أنه الله عزَّ وجلّ، وقيل: للإشارة إلى أن هذا الأمر مما ينبغي امتثاله سواء صدر منه تعالى أم صدر من غيره سبحانه ﴿**وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ**﴾ أي وأمرت بذلك لأجل أن أكون مقدم المسلمين في الدنيا والآخرة لأن إحراز قصب السبق في الدين بالإخلاص فيه وإخلاصه عليه الصلاة والسلام أتم من اخلاص كل مخلص فالمراد بالأولية الأولية في الشرف والرتبة، والعطف لمغايرة الثاني الأول بتقييده بالعلة والإشعار بأن العبادة المذكورة كما تقتضي الأمر بها لذاتها تقتضيه لما يلزمها من السبق في الدين، وإلى حذف متعلق الأمر وكون اللام تعليلية ذهب البصريون في هذه الآية ونحوها؛ وذهب غيرهم إلى أنها زائدة، واستدل له بتركها في قوله تعالى: ﴿وأمرت أن أكون من المسلمين﴾ [يونس: ٧٢] ﴿وأمرت أن أكون من المؤمنين﴾ [يونس: ١٠٤] ﴿وأمرت أن أكون أول من أسلم﴾ [الأنعام: ١٤] وكل ذلك محتمل لتقدير اللام فلا تغفل؛ ولا تزاد إلا مع أن لفظاً أو تقديراً دون الاسم الصريح وذلك لأن الأصل في المفعول به أن يكون اسماً صريحاً فكأنها زيدت عوضاً من ترك الأصل إلى ما يقوم مقامه كما يعوض السين في اسطاع عوضاً من ترك الأصل الذي هو أطوع، وهذه الزيادة وإن كانت شاذة قياساً إلا أنها لما كثرت استعمالاً جاز استعمالها في القرآن والكلام الفصيح، ومثل هذا يقال في زيادتها مع فعل الإرادة نحو أردت لأن أفعل. وجعل الزمخشري وجه زيادتها معه أنها لما كان فيها معنى الإرادة زيدت تأكيداً لها وجعل وجهاً في زيادتها مع فعل الأمر أيضاً لا سيما والطلب والإرادة عندهم من باب واحدة، وفي المعنى أوجه أن

أكون أول من أسلم في زماني ومن قومي أي إسلاماً على وفق الأمر، وأن أكون أول الذين دعوتهم إلى الإسلام إسلاماً، وأن أكون أول من دعا نفسه إلى ما دعا إليه غيره لأكون مقتدى بي قولي وفعلي جميعاً ولا تكون صفتي صفة الملوك الذين يأمرون بما لا يفعلون، وأن أفعل ما أستحق به الأولية والشرف من أعمال السابقين دلالة على السبب وهي الأعمال التي يستحق بها الشرف بالمسبب وهو الأولية والشرف المذكور في النظم الجليل ذكر ذلك الزمخشري. وفي الكشف المختار من الأوجه الأربعة الوجه الثاني فإنه المكرر الشائع في القرآن الكريم وفيه سائر المعاني الآخر من موافقة القول الفعل ولزوم أولية الشرف من أولية التأسيس مع أنه ليس فيه أنه أمر بأن يكون أشرف وأسبق فافهم ﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي﴾ بترك الإخلاص والميل إلى ما أنتم عليه من الشرك، وجوز العموم أي أخاف إن عصيته بشيء من المعاصي ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ هو يوم القيامة، ووصفه بالعظمة لعظمة ما فيه من الدواهي والأهوال، وهو مجاز في الظرف أو الإسناد وهو أبلغ ولذا عدل عن توصيف العذاب بذاك والمقصود من قول ذلك لهم تهديدهم والتعريض لهم بأنه عليه الصلاة والسلام مع عظمته لو عصى الله تعالى ما أمن من العذاب فكيف بهم ﴿قُلِ اللهَ أَعْبُدُ﴾ لا غيره سبحانه لا استقلالاً ولا اشتراكاً ﴿مُخْلِصاً لَهُ دِينِي﴾ حال من فاعل ﴿أعبد﴾ فقيل مؤكدة لما أن تقديم المفعول قد أفاد الحصر وهو يدل على اخلاصه عن الشرك الظاهر والخفي، وقيل: مؤسسة وفسر اخلاص الدين له تعالى بعبادته سبحانه لذاته من غير طلب شيء كقول رابعة: سبحانك ما عبدتك خوفاً من عقابك ولا رجاء ثوابك أو يفسر بتجريده عن الشرك بقسميه وأن يكون معه ما يشينه من غير ذلك كما أشير إليه آنفاً، والفرق بين هذا وقوله سبحانه: ﴿قل إني أمرت﴾ الخ أن ذاك أمر ببيان كونه عليه الصلاة والسلام مأموراً بعبادته تعالى مخلصاً له الدين وهذا أمر بالإخبار بامتثاله بالأمر على أبلغ وجه وآكده إظهاراً لتصلبه ﷺ في الدين وحسماً لأطماعهم الفارغة حيث أن كفار قريش دعوه ﷺ إلى دينهم فنزلت لذلك وتمهيداً لتهديدهم بقوله عزَّ وجلّ:

﴿فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ﴾ أن تعبدوه ﴿مِنْ دُونِهِ﴾ عزَّ وجلّ، وفيه من الدلالة على شدة الغضب عليهم ما لا يخفى كأنهم لما لم ينتهوا عما نهوا عنه أمروا به كي يحل بهم العقاب ﴿قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ﴾ أي الكاملين في الخسران وهو إضاعة ما بهم واتلاف ما لا بد منه لجمعهم أعاظم أنواع الخسران ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ﴾ باختيارهم الكفر لهما فالمراد بالأهل أتباعهم الذين أضلوهم أي أضاعوا أنفسهم وأضاعوا أهليهم وأتلفوهما ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ حين يدخلون النار حيث عرضوهما للعذاب السرمدي وأوقعوهما في هلكة ما وراءها هلكة؛ ولو أبقى يوم القيامة على ظاهره لأن يتبين فيه أمرهم ويتحقق مبدأ خسرانهم صح على ما قيل، وقيل: المراد بالأهل الاتباع مطلقاً وخسرانهم إياهم لأنهم إن كانوا من أهل النار فقد خسروا هم كما خسروا أنفسهم وإن كانوا من أهل الجنة فقد ذهبوا عنهم ذهاباً لا إياب بعده، وتعقب بأن المحذور ذهاب من لو آب لانتفع به الخاسر وذلك غير متصور في الشق الأخير، وقيل: المراد بالأهل ما أعده الله تعالى لمن يدخل الجنة من الخاصة أي وخسروا أهليهم الذين كانوا يكونون لهم في الجنة لو آمنوا، أخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد عن قتادة قال: ليس أحد إلا قد أعد الله تعالى له أهلاً في الجنة أن أطاعه، وأخرج نحوه عن مجاهد، وروي أيضاً عن ميمون بن مهران وكلهم ذكروا ذلك في الآية، وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس أنه قال فيها أيضاً: خسروا أهليهم من أهل الجنة كانوا أعدوا لهم لو عملوا بطاعة الله تعالى فغبنوهم، وهو الذي يقتضيه كلام الحسن فقد روي عنه أنه فسر الأهل بالحور العين، ولا يخفى أن حمل الآية على ذلك لا يخلو عن بعد.

وأياً ما كان فليس المراد مجرد تعريف الكاملين في الخسران بما ذكر بل بيان أنهم المخاطبون بما تقدم إما بجعل الموصول عبارة عنهم أو بجعله عبارة عما هم مندرجون فيه اندراجاً أولياً، وما في قوله تعالى: ﴿أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ من استئناف الجملة، وتصديرها بحرف التنبيه والإشارة بذلك إلى بعد منزلة المشار إليه في الشر

وأنه لعظمه بمنزلة المحسوس وتوسيط ضمير الفصل وتعريف الخسران والإتيان به على فعلان الأبلغ من فعل ووصفه بالمبين من الدلالة على كمال هو له وفظاعته وأنه لا نوع من الخسر وراءه ما لا يخفى.

وقوله تعالى: ﴿**لَهُمْ من فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ منَ النَّار**﴾ إلى آخره نوع بيان لخسرانهم بعد تهويله بطريق الإبهام على أن ﴿**لهم**﴾ خبر لظلل و ﴿**من**﴾ فوقهم متعلق بمحذوف حال من ضميرها في الظرف المقدم لا منها نفسها لضعف الحال من المبتدأ، وجعلها فاعل الظرف حينئذ اتباع لنظر الأخفش وهو ضعيف، و ﴿**من النار**﴾ صفة لظلل.

والكلام جار مجرى التهكم بهم ولذا قيل لهم وعبر عما علاهم من النار بالظلل أي لهم كائنة من فوقهم ظلل كثيرة متراكمة بعضها فوق بعض كائنة من النار ﴿**وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ**﴾ كائنة من النار أيضاً، والمراد أطباق كثيرة منها وتسميتها ظللاً من باب المشاكلة. وقيل هي ظلل لمن تحتهم في طبقة أخرى من طبقات النار ولا يطرد في أهل الطبقة الأخيرة من هؤلاء الخاسرين إلا أن يقال: إنها للشياطين ونحوهم مما لا ذكر لهم هنا، وقيل: إن ما تحتهم يلتهب ويتصاعد منه شيء حتى يكون ظلة فسمي ظلة باعتبار ما آل إليه أخيراً وليس بذاك، والمراد أن النار محيطة بهم ﴿**ذلكَ**﴾ العذاب الفظيع ﴿**يُخَوِّفُ اللَّهُ به عبَادَهُ**﴾ يذكره سبحانه لهم بآيات الوعيد ليخافوا فيجتنبوا ما يوقعهم فيه، وخص بعضهم العباد بالمؤمنين لأنهم المنتفعون بالتخويف وعمم آخرون.

وكذا في قوله سبحانه: ﴿**يَا عباد فَاتَّقُون**﴾ ولا تتعرضوا لما يوجب سخطي، ويختلف المراد بالأمر على الوجهين كما لا يخفى، وهذه عظة من الله جل جلاله وعم نواله منطوية على غاية اللطف والرحمة. وقرىء «يا عبادي» بالياء.

وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّـٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿١٨﴾ أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى ٱلنَّارِ ﴿١٩﴾ لَـٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٢٠﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَـٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَـٰمًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿٢١﴾ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَـٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَـٰبًا مُّتَشَـٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾

﴿**والذين اجتنبوا الطَّاغوت**﴾ الخ قال ابن زيد: نزلت في ثلاثة نفر كانوا في الجاهلية يقولون لا إله إلا الله زيد ابن عمرو بن نفيل وسلمان وأبي ذر، وقال ابن إسحاق: أشير بها إلى عبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص وسعيد بن زيد والزبير وذلك أنه لما أسلم أبو بكر سمعوا ذلك فجاؤوه وقالوا: أسلمت قال نعم وذكرهم بالله تعالى فآمنوا بأجمعهم فنزلت فيهم وهي محكمة في الناس إلى يوم القيامة، والطاغوت فعلوت من الطغيان كما قالوا لا فاعول كما قيل بتقديم اللام على العين نحو صاعقة وصاقعة، ويدل على ذلك الاشتقاق وأن طوغ وطيغ مهملان.

وأصله طغيوت أو طغووت من الياء أو الواو لأن طغى يطغى ويطغو كلاهما ثابتان في العربية نقله الجوهري، ونقل أن الطغيان والطغوان بمعنى وكذا الراغب، وجمعه على الطواغيت يدل على أن الجمع بني على الواو، وقولهم: من الطغيان لا يريدون به خصوص الياء بل أرادوا المعنى وهو على ما في الصحاح الكاهن والشيطان وكل رأس في الضلال، وقال الراغب: هو عبارة عن كل متعد وكل معبود من دون الله تعالى وسمي به الساحر والكاهن والمارد من الجن والصارف عن الخير ويستعمل في الواحد والجمع.

وقال الزمخشري في هذه السورة: لا يطلق على غير الشيطان، وذكر أن فيه مبالغات من حيث البناء فإن صيغة فعلوت للمبالغة ولذا قالوا الرحموت الرحمة الواسعة، ومن حيث التسمية بالمصدر، ومن حيث القلب فإنه للاختصاص كما في الجاه، وقد أطلقه في النساء على كعب بن الأشرف وقال سمي طاغوتاً لافراطه في الطغيان وعداوة رسول الله ﷺ أو على التشبيه بالشيطان فلعله أراد لا يطلق على غير الشيطان على الحقيقة، وكأنه جعل كعباً على الأول من الوجهين من شياطين الإنس، وفي الكشف كأنه لما رآه مصدراً في الأصل منقولاً إلى العين كثير الاستعمال في الشيطان حكم بأنه حقيقة فيه بعد النقل مجاز في الباقي لظهور العلاقة إما استعارة وإما نظر إلى تناسب المعنى، والذي يغلب على الظن أن الطاغوت في الأصل مصدر نقل إلى البالغ الغاية في الطغيان وتجاوز الحد، واستعماله في فرد من هذا المفهوم العام شيطاناً كان أو غيره يكون حقيقة ويكون مجازاً على ما قرروا في استعمال العام في فرد من أفراده كاستعمال الإنسان في زيد، وشيوعه في الشيطان ليس إلا لكونه رأس الطاغين، وفسره هنا بالشيطان مجاهد، ويجوز تفسيرها بالشياطين جمعاً على ما سمعت عن الراغب ويؤيده قراءة الحسن «اجتنبوا الطواغيت» ﴿**أَنْ يَعْبُدُوهَا**﴾ بدل اشتمال من الطاغوت وعبادة غير الله تعالى عبادة للشيطان إذ هو الآمر بها والمزين لها، وإذا فسر الطاغوت بالأصنام فالأمر ظاهر ﴿**وأنابوا إلى الله**﴾ وأقبلوا إليه سبحانه معرضين عما سواه إقبالاً كلياً ﴿**لهم البشرى**﴾ بالثواب من الله تعالى على ألسنة الرسل عليهم السلام أو الملائكة عند حضور الموت وحين يحشرون وبعد ذلك.

﴿**فبشر عباد الذين يسمعون القول فيتبعون أحسنه**﴾ مدح لهم بأنهم نقاد في الدين يميزون بين الحسن والأحسن والفاضل والأفضل فإذا اعترضهم أمران واجب وندب اختاروا الواجب وكذلك المباح والندب.

وقيل يستمعون أوامر الله تعالى فيتبعون أحسنها نحو القصاص والعفو والانتصار والإغضاء والإبداء والإخفاء لقوله تعالى: ﴿وأن تعفوا أقرب للتقوى﴾ [البقرة: ٢٣٧] ﴿وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم﴾ [البقرة: ٢٧١] والفرق بين الوجهين أن هذا أخص لأنه مخصوص بأوامر فيها تخيير بين راجح وأرجح كالعفو والقصاص مثلاً كأنه قيل يتبعون أحسن القولين الواردين في معين وفي الأول يتبعون الأحسن من القولين مطلقاً كالإيجاب بالنسبة إلى الندب مثلاً.

وعن الزجاج يستمعون القرآن وغيره فيتبعون القرآن. وقيل يستمعون القول ممن كان فيتبعون أولاه بالقبول وأرشده إلى الحق ويلزم من وصفهم بذلك أنهم يميزون القبيح من الحسن ويجتنبون القبيح، وأريد بهؤلاء العباد الذين اجتنبوا وأنابوا لا غيرهم لئلا ينفك النظم فإن قوله تعالى: ﴿**فبشر**﴾ مرتب على قوله سبحانه ﴿**لهم البشرى**﴾ ووضع الظاهر موضع الضمير ليشرفهم تعالى بالإضافة إليه ولتكرير بيان الاستحقاق وليدل على أنهم نقادون حرصاً على إيثار الطاعة ومزيد القرب عند الله تعالى وفيه تحقيق للإنابة وتتميم حسن، وقيل الوقف على «عبادي» فيكون الذين مبتدأ خبره جملة قوله تعالى: ﴿**أولئك الَّذينَ هَداهُمُ الله**﴾ أي لدينه، والكلام استئناف بإعادة صفة من استؤنف عنه الحديث؛ وما تقدم أرجح لما سلف من الفوائد من إقامة الظاهر مقام المضمر والتتميم فإن ذلك دون الوصف لا يتم،

ولأن محرك السؤال المجاب بالجملة بعد قوله تعالى: ﴿يتبعون أحسنه﴾ أقوى وذلك الأصل في حسن الاستئناف ﴿وأولئك هم أولو الألباب﴾ أي هم أصحاب العقول السليمة عن معارضة الوهم ومنازعة الهوى المستحقون للهداية لا غيرهم، وفي الآية دلالة على حط قدر التقليد المحض ولذا قيل:

شمّر وكن في أمور الدين مجتهداً ... ولا تكن مثل عير قيد فانقادا

واستدل بها على أن الهداية تحصل بفعل الله تعالى وقبول النفس لها كما ذهب إليه الأشاعرة، وقوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيه كَلِمَةُ الْعَذَاب أَفَأَنْتَ تُنْقذُ مَنْ في النَّار﴾ بيان لأضداد المذكورين على طريقة الإجمال وتسجيل عليهم بحرمان الهداية وهم عبدة الطاغوت ومتبعو خطواتها كما يلوح به التعبير عنهم بمن حق عليه كلمة العذاب فإن المراد بتلك الكلمة قوله تعالى: ﴿لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين﴾ [ص: ٨٥] والآية على ما قيل نزلت في أبي جهل وأضرابه، والهمزة للإنكار والفاء للعطف على مقدر ومن شرطية على ما ذهب إليه الحوفي وغيره وجواب الشرط ﴿فأنت تنقذ﴾ الخ والهمزة قبله لاستطالة الكلام على نحو قوله:

لقد علم الحزب اليمانون أنني ... إذا قلت أما بعد أني خطيبها

لأن دخول الهمزة في الجواب أو الشرط كاف تقول: أإن أكرمك تكرمه كما تقول إن أكرمك أتكرمه ولا تكررها فيهما إلا للتأكيد لأن الجملتين أعني الشرط والجزاء بعد دخول الأداة مفردان والاستفهام إنما يتوجه على مضامين الجمل إذا كان المطلوب تصديقاً والإنكار المفاد بالهمزة متعلق بمضمون المعطوف والمعطوف عليه إلا أن المقصود في المعطوف إنكار الجزاء والتقدير أأنت مالك أمر الناس قادر على التصرف فيه فمن حق عليه كلمة العذاب فأنت تنقذه على معنى لست أنت مالك أمر الناس ولا أنت تقدر على الإنقاذ بل المالك والقادر على الإنقاذ هو الله عزَّ وجلّ، وعدل عن فأنت تنقذه إلى ما في النظم الكريم لمزيد تشديد الإنكار والاستبعاد مع ما فيه من الإشارة إلى أنه نزل استحقاقهم للعذاب وهم في الدنيا المشعر به الشرط منزلة دخولهم النار وأنه مثل حاله عليه الصلاة والسلام في المبالغة في تحصيل هدايتهم والاجتهاد في دعائهم إلى الإيمان بحال من يريد أن ينقذ من في النار منها. وفي الحواشي الخفاجية نقلاً عن السعد أن في هذه الآية استعارة لا يعرفها إلا فرسان البيان وهي الاستعارة التمثيلية المكنية لأنه نزل ما يدل عليه قوله تعالى: ﴿أفمن﴾ الخ من استحقاقهم العذاب وهم في الدنيا منزلة دخولهم النار في الآخرة حتى يترتب عليه تنزيلاً بذله عليه الصلاة والسلام جهده في دعائهم إلى الإيمان منزلة إنقاذهم من النار الذي هو من ملائمات دخول النار ثم قال: وقد عرفت من مذهبه أن قرينة المكنية قد تكون تحقيقية كما في نقض العهد انتهى فتأمل.

وقيل: إن النار مجاز عن الضلال من باب إطلاق اسم المسبب على السبب والإنقاذ بدل الهداية من ترشيح المجاز أو مجاز عن الدعاء للإيمان والطاعة وليس بذاك، وجوز أن يكون الجزاء محذوفاً وجملة ﴿فأنت تنقذ﴾ الخ مستأنفة مقررة للجملة الأولى والتقدير أفمن حق عليه كلمة العذاب فأنت تخلصه أفأنت تنقذ من في النار.

ولا فرق بين الوجهين في أن الفاء في الأولى للعطف على محذوف ولا في كون المعنى على تنزيل استحقاق العذاب وهم في الدنيا منزلة دخولهم النار وتمثيل حاله عليه الصلاة والسلام في المبالغة في تحصيل هدايتهم بحال من يريد أن ينقذ من في النار منها، نعم الكلام على الأول جملة وعلى الثاني جملتان، واستظهر أبو حيان أن ﴿من﴾ موصولة مبتدأ والخبر محذوف، وحكي أن منهم من يقدره يتأسف عليه ومنهم من يقدره يتخلص منه ومنهم من يقدره فأنت تخلصه، ولا يخفى أن التقدير الأخير أولى، وذكر أن النحاة على أن الفاء في مثل هذا التركيب للعطف

وموضعها قبل الهمزة لكن قدمت الهمزة لأن لها صدر الكلام وقال: إن القول بأن كلاً منهما في مكانه قول انفرد به الزمخشري فيما علمنا وفي المغني ترجيح القول بأن الهمزة مقدمة من تأخير وعليه يقدر المعطوف عليه ما أنت مالك أمرهم أو ما أخبر الله تعالى به واقع لا محالة أو كل كافر مستحق للعذاب أو نحو ذلك مما يناسب المعنى المراد.

﴿لكن الَّذينَ اتَّقوا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ منْ فَوقهَا غُرَفٌ﴾ استدراك بين ما يشبه النقيضين والضدين وهما المؤمنين والكافرون وأحوالهما، والمراد بالذين اتقوا الموصوفون بما عدد من الصفات الفاضلة، والغرف جمع غرفة وهي العلية أي لهم علالي كثيرة جليلة بعضها فوق بعض ﴿مَبنيَّةٌ﴾ قيل: هو كالتمهيد لقوله تعالى: ﴿تَجْري منْ تَحْتهَا﴾ أي من تحت تلك الغرف الفوقانيات والتحتانيات ﴿الأَنْهَارُ﴾ أي مبنية بناءً يتأتى معه جري الأنهار من تحتها وذلك على خلاف علالي الدنيا فيفيد الوصف بذلك أنها سويت تسوية البناء على الأرض وجعلت سطحاً واحداً يتأتى معه جري الأنهار عليه على أن مياه الجنة لما كانت منحدرة من بطنان العرش على ما في الحديث فهي أعلى من الغرف فلا عجب من جري الماء عليها فوقاً وتحتاً لكن لا بد من وضع يتأتى معه الجري فالوصف المذكور لإفادة ذلك.

وقال بعض الأجلة: الظاهر أن هذا الوصف تحقيق للحقيقة وبيان أن الغرف ليست كالظلل حيث أريد بها المعنى المجازي على الاستعارة التهكمية، وقال بعض فضلاء إخواننا المعاصرين: فائدة التوصيف بما ذكر الإشارة إلى رفعة شأن الغرف حيث آذن أن الله تعالى بانيها وماذا عسى يقال في بناء بناه الله جل وعلا.

وأقول والله تعالى أعلم: وصفت الغرف بذلك للإشارة إلى أنها مهيأة معدة لهم قد فرغ من أمرها كما هو ظاهر الوصف لا أنها تبنى يوم القيامة لهم، وفي ذلك من تعظيم شأن المتقين ما فيه، وفي الآية على هذا رد على المعتزلة وكأن الزمخشري لذلك لم يحم حول هذا الوجه واقتصر على ما حكيناه أولاً مع أن ما قلناه أقرب منه فليحفظ.

﴿وَعْدَ الله﴾ مصدر مؤكد لمضمون الجملة قبله فإنه وعد أي وعد ﴿لاَ يُخْلفُ الله الْميعَادَ﴾ لما في خلفه من النقص المستحيل عليه عزَّ وجلّ ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ الله أَنْزَلَ منَ السَّمَاء مَاءً﴾ استئناف وارد إما لتمثيل الحياة الدنيا في سرعة الزوال وقرب الاضمحلال بما ذكر من أحوال الزرع تحذيراً من الاغترار بزهرتها أو للاستشهاد على تحقق الموعود من الأنهار الجارية من تحت الغرف بما يشاهد من إنزال الماء من السماء وما يترتب عليه من آثار قدرته سبحانه وأحكام حكمته ورحمته، والمراد بالماء المطر وبالسماء جهة العلو، وقيل: الأجرام العلوية وكون إنزال المطر منها باعتبار أنه بأسباب ناشئة منها فإن تصاعد الأبخرة وتكون الغيوم بسبب جذب الشمس واختلاف أوضاعها ونحو ذلك من الأسباب التي يعلمها الله تعالى، وأما كون إنزال المطر نفسه من جرم السماء المعروفة نفسها فكثير ما يرتفع سحاب ويمطر مطراً غزيراً وهناك من هو على ذروة جبل لا سحاب عنده ولا مطر والتزام أن المطر في ذلك نازل من جرم السماء أيضاً على السحاب لكن لا يشاهده من هو مشرف على السحاب وواقف فوق الجبل لا يخفى حاله، وقيل: المراد بالماء كل ماء في الأرض، والمراد بالإنزال المذكور الإنزال في مبدأ الخليقة وذلك أنه عزَّ وجلّ لما خلق الأرض خلقها خالية من الماء فأنزل من بحر تحت العرش ماء ﴿فَسَلَكَهُ﴾ فأدخله ﴿يَنَابيعَ في الأَرْض﴾ أي في ينابيع أي عيون ومجاري كائنة في الأرض كالعروق في الأجساد فعلى الأول يقتضي ظاهر الآية أن ماء العيون والقنوات من ماء المطر وعلى الثاني ليس منه، وشاع عن الفلاسفة أن ماء العيون وما يجري مجراها من الأبخرة قالوا: إن البخار إذا احتبس في الأرض يميل إلى جهة وتبرد بها فتنقلب مياه مختلطة بأجزاء بخارية فإذا كثر بحيث لا تسعه الأرض أوجب إنشقاقها فانفجر منها العيون، ورده أبو البركات البغدادي فقال في المعتبر: السبب في العيون وما يجري مجراها هو ما يسيل من الثلوج ومياه الأمطار لأنا نجدها تزيد بزيادتها وتنقص بنقصانها وأن استحالة الأهوية والأبخرة

المنحصرة في الأرض لا مدخل لها في ذلك فإن باطن الأرض في الصيف أشد برداً منه في الشتاء فلو كان سبب هذه استحالتها لوجب أن تكون العيون والقنوات ومياه الآبار في الصيف أزيد وفي الشتاء أنقص مع أن الأمر بخلاف ذلك على ما دلت عليه التجربة، وقال الميبدي: الحق أن السبب الذي ذكره صاحب المعتبر معتبر لا محالة إلا أنه غير مانع من اعتبار السبب الذي ذكر يعني ما شاع، واحتجاجه في المنع إنما يدل على أنه لا يجوز أن يكون ذلك هو السبب التام لا على أنه لا يجوز أن يكون ذلك سبباً في الجملة اهـ.

وفي شرح المواقف اختلفوا في أن المياه متولدة من أجزاء مائية متفرقة في عمق الأرض إذا اجتمعت أو من الهواء البخاري الذي ينقلب ماء. وهذا الثاني وإن كان ممكناً إلا أن الأول أولى لأن مياه العيون والقنوات والآبار تزيد بزيادة الثلوج والأمطار، والأولى عندي أن يحمل الماء في الآية على المطر ونحوه من الثلج، والآية تدل على أن ذلك الماء يسلكه الله تعالى في ينابيع في الأرض ولا تدل على أن ما في الينابيع ليس إلا ذلك الماء فيجوز أن يكون بعض ما فيها هو الماء المنزل من السماء والبعض الآخر حادثاً من الهواء البخاري بانقلابه ماء بأسباب يعلمها الله عزَّ وجلّ، وحمل الإنزال على الإنزال في مبدأ الخليقة على ما سمعت مع كونه مما لم أقف على خبر صحيح يقتضيه خلاف الظاهر في الآية جداً لأن الخطاب في ﴿أَلم تر﴾ عام ولا يتأتى العموم في رؤية ذلك، وكأنه يتعين عليه جعل الخطاب خاصاً بسيد المخاطبين ﷺ والمراد ألم تعلم ذلك بالوحي ومع ذلك لا يخفى حال حمل الآية على ما ذكر، وقريب مما قيل ما حكاه الزمخشري في الآية عن بعض من أن كل ماء في الأرض فهو من السماء ينزل منها إلى الصخرة ثم يقسمه الله تعالى بين البقاع، هذا لكن يعكر على ما اخترناه ظاهر ماأخرجه ابن أبي حاتم عن ابن عباس أنه قال في الآية: ليس في الأرض ماء إلا ما أنزل الله تعالى من السماء ولكن عروق في الأرض تغيره فمن سره أن يعود الملح عذباً فليصعد. وأخرج نحوه عن سعيد بن جبير والشعبي، فإن صح هذا الخبر وقلنا إنه في حكم المرفوع فما علينا إذا قلنا بظاهره فالعقل لا يأباه والله تعالى على كل شيء قدير، هذا وجوز أن تكون الينابيع جمع ينبوع بمعنى النابع فإنه كما يطلق على المنبع يطلق على ما ذكر وحينئذ تكون منصوبة على الحال، والمعنى فسلكه مياها نابعة في الأرض، ولا يخلو من الكدر لأنه لو قصد هذا كان الظاهر أن يقال من الأرض وعلى ما هو المشهور يكون ﴿ينابيع﴾ منصوباً بنزع الخافض كما أشرنا إليه. واحتمال كونه منصوباً على المصدرية في إطلاقية بأن يكون الأصل فسلكه سلوكاً في ينابيع أي مجاري فحذف المصدر وأقيم ما هو في موضع الصفة مقامه أو يكون الأصل فسلكه سلوك ينابيع أي مياه نابعة فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه بعيد كما لا يخفى.

﴿ثُمَّ يُخْرِجُ به﴾ أي بواسطته مراعاة للحكمة لا لتوقف الإخراج عليه في نفس الأمر، وقالت الأشاعرة: أي يخرج عنده بلا مدخلية له بوجه من الوجوه سوى المقارنة ﴿زَرْعاً مُخْتلفاً أَلْوَانُهُ﴾ أي أنواعه وأصنافه من بر وشعير وغيرهما أو كيفياته المدركة بالبصر من خضرة وحمرة وغيرهما أو كيفياته مطلقاً من الألوان والطعوم وغيرهما على ما قيل، وشمل الزرع المقتات وغيره، وثم للتراخي في الرتبة أو الزمان، وصيغة المضارع لاستحضاره الصورة ﴿ثُمَّ يَهِيجُ﴾ ييبس، وظاهر كلام أهل اللغة أن هذا معنى حقيقي للهيجان، ويفهم من كلام بعض المفسرين أن يهيج بمعنى يثوب واستعماله بمعنى ييبس من مجاز المشارفة لأن الزرع إذا يبس وتم جفافه يشرف على أن يثور ويذهب من منابته ﴿فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً﴾ من بعد خضرته ونضارته. وقرىء «مصفاراً» ﴿ثُمَّ يَجعَلُهُ حُطَاماً﴾ فتاتاً متكسراً كأن لم يغن بالأمس، ولكون هذه الحالة من الآثار القوية علقت بجعل الله تعالى كالإخراج. وقرأ أبو بشر «ثم يَجعَلَهُ» بالنصب قال صاحب الكامل وهو ضعيف ولم يبين وجه النصب، وكأنه إضمار أن كما في قوله:

إني وقتلي سليكاً ثم أعقله

ولا يخفى وجه ضعفه هنا ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما ذكر تفصيلاً، وما فيه من معنى البعد للإيذان ببعد منزلته في الغرابة والدلالة على ما قصد بيانه ﴿لَذِكْرَىٰ﴾ لتذكيراً عظيماً ﴿لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ لأصحاب العقول الخالصة عن شوائب الخلل وتنبيهاً لهم على حقيقة الحال يتذكرون بذلك حال الحياة الدنيا وسرعة تقضيها فلا يغترون ببهجتها ولا يفتنون بفتنتها أو يجزمون بأن من قدر على إنزال الماء من السماء والتصرف به على أتم وجه قادر على إجراء الأنهار من تحت تلك الغرف، وكأن الأول أولى ليكون ما تقدم ترغيباً في الآخرة وهذا تنفيراً عن الدنيا، وقيل المعنى إن في ذلك لتذكيراً وتنبيهاً على أنه لا بد لذلك من صانع حكيم وأنه كائن على تقدير وتدبير لا عن تعطيل وإهمال وهو بمعزل عما يقتضيه السياق على أن الأنسب بإرادة ذلك ذكر الآثار غير مسندة إليه عزَّ وجلّ فحيث ذكرت مسندة إليه سبحانه فالظاهر أن يكون متعلق التذكير والتنبيه شؤونه تعالى أو شؤون آثاره حسبما أشير إليه لا وجوده جل وعلا.

وقوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾ الخ استئناف جار مجرى التعليل لما قبله من تخصيص الذكرى بأولي الألباب، والشرح في الأصل البسط والمد للحم ونحوه ويكنى به عن التوسيع، وتجوز به هنا عن خلق النفس الناطقة مستعدة استعداداً تاماً للقبول بجامع عدم التأبي عن القبول وسهولة الحصول وذلك بعد التجوز في الصدر، وإرادة النفس الناطقة منه من حيث إنه محل للقلب وفي تجويفه بخار لطيف يتكون من صفوة الأغذية وبه تتعلق النفس أولاً وبواسطته تتعلق بسائر البدن تعلق التدبير والتصريف، وتلك النفس هي التي تتصف بالإسلام والإيمان، وجعل بعض الأجلة شرح الله صدره استعارة تمثيلية، والهمزة للإنكار داخلة على محذوف على أحد القولين المارين آنفاً، والفاء للعطف على ذلك المحذوف، وخبر من محذوف لدلالة ما بعده عليه والتقدير أكل الناس سواء فمن شرح الله تعالى صدره وخلقه مستعداً للإسلام فبقي على الفطرة الأصلية ولم تتغير بالعوارض المكتسبة القادحة فيها ﴿فَهُوَ﴾ بموجب ذلك مستقر ﴿عَلَىٰ نُورٍ﴾ عظيم ﴿مِنْ رَبِّهِ﴾ وهو اللطف الإلهي المشرق عليه من بروج الرحمة عند مشاهدة الآيات التكوينية والتنزيلية والتوفيق للاهتداء بها إلى الحق كمن قسا قلبه وحرج صدره بتبديل فطرة الله تعالى بسوء اختياره واستولى عليه ظلمات الغي والضلال فأعرض عن تلك الآيات بالكلية حتى لا يتذكر بها ولا يغتنمها، وعدل عن فعنده أو فله نور إلى ما في النظم الجليل للدلالة على استمرار ذلك واستقراره في النور وهو مستعار للطف والتوفيق للاهتداء، وقد يقال: هو أمر إلهي غير اللطف والتوفيق يدرك به الحق؛ وجاء برواية الثعلبي في تفسيره والحاكم في مستدركه والبيهقي في شعب الإيمان وابن مردويه عن ابن مسعود أنه قال: تلا رسول الله ﷺ هذه الآية ﴿أفمن شرح الله صدره﴾ الخ فقلنا: يا رسول الله كيف انشراح الصدر؟ قال: إذا دخل النور القلب انشرح وانفسح قلنا: فما علامة ذلك يا رسول الله؟ فقال: الإنابة إلى دار الخلود والتجافي عن دار الغرور والتأهب للموت قبل نزوله. واستشكل ذلك بأن ظاهر الآية ترتب دخول النور على الانشراح، لأنه الاستعداد لقبوله وما في الحديث الشريف عكسه والظاهر أن السؤال عما في الآية وأن الجواب بيان لكيفيته. وأجيب بأن الاهتداء له مراتب بعضها مقدم وبعضها مؤخر وانشراح الصدر بحسب الفطرة والخلق وبحسب ما يطرأ عليه بعد فيض الألطاف عليه وبينهما تلازم، والمراد بانشراح الصدر في الحديث ما يكون بعد التمكن فيه، وفي الآية ما تقدم وقس عليه النور، والجواب من قبيل الأسلوب الحكيم فتأمل.

﴿فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ أي من أجل ذكره سبحانه الذي حقه أن تلين منه القلوب أي إذا ذكر الله تعالى عندهم أو آياته عزَّ وجلّ اشمأزوا من ذلك وزادت قلوبهم قساوة. وقرىء «عن ذكر الله» والمتواترة أبلغ لأن

القاسي من أجل الشيء أشد تأبياً من قبوله من القاسي عنه بسبب آخر، وللمبالغة في وصف أولئك بالقبول وهؤلاء بالامتناع ذكر شرح الصدر لأن توسعته وجعله محلاً للإسلام دون القلب الذي فيه يدل على شدته وافراط كثرته التي فاضت حتى ملأت الصدر فضلاً عن القلب، وإسناده إلى الله تعالى الظاهر في أنه على أتم الوجوه لأنه فعل قادر حكيم وقابله بالقساوة مع أن مقتضى المقابلة أن يعبر بالضيق لأن القساوة كما في الصخرة الصماء تقتضي عدم قبول شيء بخلاف الضيق فإنه مشعر بقبول شيء قليل، وعدل عن التعبير بما يفيد مجعولية القساوة له تعالى وخلقه إياها للإشارة إلى غاية لزومها لهم حتى كأنها لو لم تجعل لتحققت فيهم بمقتضى ذواتهم، وأما إسنادها إلى القلوب دون الصدور فللتنصيص على فساد هذا العضو الذي إذا فسد فسد الجسد كله، واعتبر الجمع في هؤلاء الكفرة والإفراد في أولئك المؤمنين حيث قال سبحانه: ﴿أفمن شرح الله صدره﴾ دون أفمن شرح الله صدورهم للإشارة إلى أن المؤمنين وأن تعددوا كرجل واحد ولا كذلك الكفار.

﴿أُولَئِكَ﴾ البعداء المتصفون بما ذكر من قساوة القلوب ﴿فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ ظاهر كونه ضلالاً لكل أحد.

والآية نزلت في علي وحمزة رضي الله تعالى عنهما وأبي لهب وابنه فعلي كرم الله تعالى وجهه وحمزة رضي الله تعالى عنه ممن شرح الله تعالى صدره للإسلام وأبو لهب وابنه من القاسية قلوبهم ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ﴾ هو القرآن الكريم، وكونه حديثاً بمعنى كونه كلاماً محدثاً به لا بمعنى كونه مقابلاً للقديم، ومن قال بالتلازم من الأشاعرة القائلين بحدوث الكلام اللفظي جعل الأوصاف الدالة على الحدوث لذلك الكلام، وجوز أن يكون إطلاق الحديث هنا على القرآن من باب المشاكلة. عن ابن عباس أن قوماً من الصحابة قالوا: يا رسول الله حدثنا بأحاديث حسان وبأخبار الدهر فنزلت، وعن ابن مسعود أن الصحابة ملوا ملة فقالوا عليه الصلاة والسلام حدثنا فنزلت أي إرشاداً لهم إلى ما يزيل مللهم وهو تلاوة القرآن واستماعه منه ﷺ غضاً طرياً. وفي إيقاع اسم الله تعالى مبتدأ وبناء ﴿نزل﴾ عليه تفخيم لأحسن الحديث واستشهاد على أحسنيته وتأكيد لاستناده إلى الله عزَّ وجلّ وأن مثله لا يمكن أن يتكلم به غيره سبحانه، أما التفخيم فلأنه من باب الخليفة عند فلان، وأما الاستشهاد على أحسنيته فلكونه ممن لا يتصور أكمل منه بل لا كمال لشيء ما في جنبه بوجه، وأما توكيد الاستناد إليه تعالى فمن التقوى، وأما أن مثله لا يمكن أن يتكلم به غيره سبحانه فلمكان التناسب لأن أكمل الحديث إنما يكون من أكمل متكلم ضرورة، ومذهب الزمخشري أن مثل هذا التركيب يفيد الحصر وأنه لا تنافي بينه وبين التقوى جمعاً فافهم.

﴿كتاباً﴾ بدل من ﴿أحسن الحديث﴾ أو حال منه كما قال الزمخشري، وليس مبنياً على القول بأن إضافة أفعل التفضيل تفيده تعريفاً كما ظن أبو حيان فإن مطلق الإضافة كافية في صحة الحالية كما لا يخفى على من له أدنى إلمام بالعربية، ووقوعه حالاً مع كونه اسماً لا صفة إما لوصفه بقوله تعالى: ﴿مُتشَابهاً﴾ أو لكونه في قوة مكتوباً.

والمراد بكونه متشابهاً هنا تشابه معانيه في الصحة والأحكام والابتناء على الحق والصدق واستتباع منافع الخلق في المعاد والمعاش وتناسب ألفاظه في الفصاحة وتجاوب نظمه في الإعجاز، وما أشبه هذا بقول العرب في الوجه الكامل حسناً وجه متناصف كأن بعضه أنصف بعضاً في القسط من الجمال، وقوله تعالى: ﴿مَثَانِيَ﴾ صفة أخرى لكتاباً أو حال أخرى منه، وهو جمع مُثَنًّى بضم الميم وفتح النون المشدد على خلاف القياس إذ قياسه مثنيات بمعنى مردد ومكرر لما كرر وثني من أحكامه ومواعظه وقصصه، وقيل: لأنه يثنى في التلاوة.

وجوز أن يكون جمع مثنى بالفتح مخففاً من التثنية بمعنى التكرير والإعادة كما كان قوله تعالى: ﴿ثم أرجع البصر كرتين﴾ [الملك: ٤] بمعنى كرة بعد كرة وكذلك لبيك وسعديك، والمراد أنه جمع لمعنى التكرير والإعادة كما ثنى ما ذكر لذلك لكن استعمال المثنى في هذا المعنى أكثر لأنه أول مراتب التكرار، ويحتمل أن يراد أن مثنى

بمعنى التكرير والإعادة كما أن صريح المثنى كذلك في نحو كرتين ثم جمع للمبالغة، وقيل: جمع مثنية لاشتمال آياته على الثناء على الله تعالى أو لأنها تثنى ببلاغتها وإعجازها على المتكلم بها، ولا يخفى أن رعاية المناسبة مع ﴿**متشابهاً**﴾ تجعل ذلك مرجوحاً وأنه حسن إذا حمل على الثناء باعتبار الإعجاز، وفي الكشف الأقيس بحسب اللفظ أن ﴿**مثاني**﴾ اشتقت من الثناء أو الثني جمع مثنى مفعل منهما إما بمعنى المصدر جمع لما صير صفة أو بمعنى المكان في الأصل نقل إلى الوصف مبالغة نحو أرض مأسدة لأن محل الثناء يقع على سبيل المجاز على الثاني والمثنى عليه وكذلك محل الثني انتهى، ووقوعه صفة لكتاب باعتبار تفاصيله وتفاصيل الشيء هي جملته لا غير ألا تراك تقول: القرآن أسباع وأخماس وسور وآيات فكذلك تقول: هو أحكام ومواعظ وأقاصيص مثاني ونظيره قولك الإنسان عروق وعظام وأعصاب إلا أنك تركت الموصوف إلى الصفة والأصل كتاباً متشابهاً فصولاً مثاني، ويجوز أن يكون تمييزاً محولاً عن الفاعل والأصل متشابهاً مثانية فحول ونكر لأن الأكثر فيه التنكير وهذا كقولك: رأيت رجلاً حسناً شمائل، وقرأ هشام وأبو بشر «مُثَانِيْ» بسكون الياء فاحتمل أن يكون خبر مبتدأ محذوف وإن يكون منصوباً وسكن الياء على لغة من يسكنها في كل الأحوال لانكسار ما قبلها استثقالاً للحركة عليها، وقوله تعالى: ﴿**تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ**﴾ قيل صفة لكتاباً أو حال منه لتخصصه بالصفة، وقال بعض: الأظهر أنه استئناف مسوق لبيان آثاره الظاهرة في سامعيه بعد بيان أوصافه في نفسه ولتقرير كونه أحسن الحديث.

والاقشعرار التقبض يقال اقشعر الجلد إذا تقبض تقبضاً شديداً وتركيبه من القشع وهو الأديم اليابس قد ضم إليه الراء ليكون رباعياً ودالاً على معنى زائد يقال: اقشعر جلده وقف شعره إذا عرض له خوف شديد من أمر هائل دهمه بغتة، والمراد تصوير خوفهم بذكر لوازمه المحسوسة ويطلق عليه التمثيل وإن كان من باب الكناية.

وقيل: هو تصوير للخوف بذكر آثاره وتشبيه حالة بحالة فيكون تمثيلاً حقيقة، والأول أحسن لأن تشبيه القصة بالقصة على سبيل الاستعارة هاهنا لا يخلو عن تكلف، واستظهر كون المراد بيان حصول تلك الحالة وعروضها لهم بطريق التحقيق، والمعنى أنهم إذا سمعوا القرآن وقوارع آيات وعيده أصابتهم رهبة وخشية تقشعر منها جلودهم وإذا ذكروا رحمة الله تعالى عند سماع آيات وعده تعالى وألطافه تبدلت خشيتهم رجاء ورهبتهم رغبة وذلك قوله تعالى: ﴿**ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللهِ**﴾ أي ساكنة مطمئنة إلى ذكر رحمته تعالى، وإنما لم يصرح بالرحمة إيذاناً بأنها أول ما يخطر بالبال عند ذكره تعالى لأصالتها كما يرشد إليه خبر: سبقت رحمتي غضبي، وذكر القلوب لتقدم الخشية التي هي من عوارضها ولعله إنما لم تذكر هناك على طرز ذكرها هنا لأنها لا توصف بالاقشعرار وتوصف باللين، وليس في الآية أكثر من نعت أوليائه باقشعرار الجلود من القرآن ثم سكونهم إلى رحمته عزَّ وجلّ، وليس فيها نعتهم بالصعق والتواجد والصفق كما يفعله بعض الناس، أخرج سعيد بن منصور وابن المنذر وابن مردويه وابن أبي حاتم وابن عساكر عن عبد الله بن عروة بن الزبير قال: قلت لجدتي أسماء كيف كان يصنع أصحاب رسول الله ﷺ إذا قرؤوا القرآن؟ قالت: كانوا كما نعتهم الله تعالى تدمع أعينهم وتقشعر جلودهم قلت: فإن ناساً هاهنا إذا سمعوا ذلك تأخذهم غشية قالت: أعوذ بالله تعالى من الشيطان، وأخرج الزبير بن بكار في الموفقيات عن عامر عن عبد الله بن الزبير قال: جئت أمي فقلت وجدت قوماً ما رأيت خيراً منهم قط يذكرون الله تعالى فيرعد أحدهم حتى يغشى عليه من خشية الله تعالى فقالت: لا تقعد معهم ثم قالت: رأيت رسول الله ﷺ يتلو القرآن ورأيت أبا بكر وعمر يتلوان القرآن فلا يصيبهم هذا أَفتراهم أخشى من أبي بكر وعمر، وقال ابن عمر وقد رأى ساقطاً من سماع القرآن فقال إنا لنخشى الله تعالى وما نسقط: هؤلاء يدخل الشيطان في جوف أحدهم، وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة أنه قال في الآية هذا نعت أولياء الله تعالى قال: تقشعر جلودهم وتبكي أعينهم وتطمئن قلوبهم إلى ذكر الله تعالى ولم ينعتهم الله

سبحانه بذهاب عقولهم والغشيان عليهم إنما هذا في أهل البدع وإنما هو من الشيطان، وأخرج ابن أبي شيبة عن ابن جبير: قال الصعقة من الشيطان، وقال ابن سيرين: بيننا وبين هؤلاء الذين يصرعون عند قراءة أن يجعل أحدهم على حائط باسطاً رجليه ثم يقرأ عليهم القرآن كله فإن رمى بنفسه فهو صادق، فهذه أخبار ناعية على بعض المتصوفة صعقهم وتواجدهم وضرب رؤوسهم الأرض عند سماع القرآن ويقول مشايخهم: إن ذلك لضعف القلوب عن تحمل الوارد وليس فاعلو ذلك في الكمال كالصحابة أهل الصدر الأول في قوة التحمل فما هو إلا دليل النقص بدليل أن السالك إذا كمل رسخ وقوي قلبه ولم يصدر منه شيء من ذلك ويقولون: ليس في الآية أكثر من إثبات الاقشعرار واللين وليس فيها نفي أن يعتريهم حال آخر بل في الآية إشعار بأن المذكور حال الراسخين الكاملين حيث قال سبحانه: ﴿**الذين يخشون ربهم**﴾ فعبر بالموصول ومقتضى معلومية الصلة أن لهم رسوخاً في الخشية حتى يعلموا بها فلا يلزم من كون حالهم ما ذكر ليس إلا على فرض دلالتها على الحصر كون حال غيرهم كذلك ثم إنه متى كان الأمر ضرورياً كالعطاس لا اعتراض على من يتصف به، وفي كلام ابن سيرين ما يؤيد ذلك، وهذا غاية ما يقال في هذا المجال ونحن نسأل الله تعالى أن يتفضل علينا بما تفضل به على أصحاب نبيه ﷺ ﴿**ذَلِكَ هُدَى اللهِ**﴾ الإشارة إلى الكتاب الذي شرح أحواله ﴿**يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ**﴾ أي من يشاء الله تعالى هدايته بأن يوفقه سبحانه للتأمل فيما في تضاعيفه من شواهد الحقية ودلائل كونه من عنده عزّ وجلّ، وجوز أن يكون ضمير ﴿**يشاء**﴾ لمن والمعنى يهدي به الله تعالى من يشاء هداية الله تعالى وليس بذاك.

﴿**وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ**﴾ أي يخلق سبحانه فيه الضلال لإعراضه عما يرشده إلى الحق بسوء استعداده ﴿**فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ**﴾ يخلصه من ورطة الضلال، وقيل: الإشارة بذلك إلى المذكور من الاقشعرار واللين والمعنى ذلك الذي ذكر من الخشية والرجاء أثر هداه تعالى يهدي بذلك الأثر من يشاء من عباده ومن يضلله أي ومن لم يؤثر فيه لقسوة قلبه واصراره على فجوره فما له من هاد أي من مؤثر فيه بشيء قط وهو كما ترى.

أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٢٤﴾ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٥﴾ فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْىَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾

﴿**أَفَمَنْ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**﴾ استئناف جار مجرى التعليل لما قبله من تباين حال المهتدي والضال، والكلام في الهمزة والفاء والخبر كالذي مر في نظائره، ويقال هنا على أحد القولين: التقدير أكلّ الناس سواء فمن شأنه أن يتقي بوجهه الذي هو أشرف أعضائه يوم القيامة العذاب السيء الشديد لكون يده التي بها كان يتقي المكاره مغلولة إلى عنقه كمن هو آمن لا يعتريه مكروه ولا يحتاج إلى الاتقاء بوجه من الوجوه فالوجه على حقيقته وقد يحمل على ذلك من غير حاجة إلى حديث كون اليد مغلولة تصويراً لكمال اتقائه وجده فيه وهو أبلغ، وفي هذا المضمار يجري قول الشاعر:

يلقى السيوف بوجهه وبنحره ... ويقيم هامته مقام المغفر

وجوز أن يكون الوجه بمعنى الجملة والمبالغة عليه دون المبالغة فيما قبله. وقيل الاتقاء بالوجه كناية عن عدم ما يتقى به الاتقاء بالوجه لا وجه له لأنه مما لا يتقى به، ولا يخلو عن خدش، وإضافة سوء إلى العذاب من إضافة الصفة إلى الموصوف و ﴿يوم القيامة﴾ معمول يتقي كما أشرنا إلى ذلك. وجوز أن يكون من تتمة سوء العذاب، والمعنى أفمن يتقي عذاب يوم القيامة كالمصر على كفره، وهو وجه حسن والوجه حينئذ كما في الوجه السابق إما الجملة مبالغة في تقواه وإما على الحقيقة تصويراً لكمال تقواه وجده فيها وهو أبلغ. والمتبادر إلى الذهن المعنى السابق، والآية قيل نزلت في أبي جهل ﴿وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ﴾ عطف على يتقي أي ويقال لهم من جهة خزنة النار، وصيغة الماضي للدلالة على التحقق والتقرر؛ وقيل الواو للحال والجملة حال من ضمير ﴿يتقي﴾ بإضمار قد أو بدونه، ووضع المظهر موضع المضمر للتسجيل عليهم بالظلم والإشعار بعلة الأمر في قوله تعالى: ﴿ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ أي وبال ما كنتم تكسبون في الدنيا على الدوام من الكفر والمعاصي.

﴿كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ استئناف مسوق لبيان ما أصاب بعض الكفرة من العذاب الدنيوي إثر بيان ما يصيب الكل من العذاب الأخروي أي كذب الذين من قبلهم من الأمم السالفة ﴿فَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ﴾ المقدر لكل أمة منهم ﴿مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ﴾ من الجهة التي لا يحتسبون ولا يخطر ببالهم إتيانه منها لأن ذلك أشد على النفس ﴿فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ﴾ أي الذل والصغار ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ كالمسخ والخسف والقتل والسبي والإجلاء وغير ذلك من فنون النكال، والفاء تفسيرية مثلها في قوله تعالى: ﴿فاستجبنا له فنجيناه﴾ [الأنبياء: ٧٦] ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ﴾ المعد لهم ﴿أَكْبَرُ﴾ لشدته وسرمديته ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ أي لو كانوا من شأنهم أن يعلموا شيئاً لعلموا ذلك واعتبروا به ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ﴾ العظيم الشأن ﴿مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾ يحتاج إليه الناظر أمور دينه ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ أي كي يتذكروا ويتعظوا أو مرجواً تذكرهم واتعاظهم، والرجاء بالنسبة إلى غيره تعالى والتعليل أظهر ﴿قُرْآناً عَرَبِيّاً﴾ حال من هذا والاعتماد فيها على الصفة أعني عربياً وإلا فقرآناً جامداً لا يصلح للحالية وهو أيضاً عين ذي الحال فلا يظهر حاله فالحال في الحقيقة ﴿عربياً﴾ وقرآناً للتمهيد ونظيره جاء زيد رجلاً صالحاً، قيل وذلك بمنزلة عربياً محققاً.

وجوز أن يكون منصوباً بمقدر تقديره أعني أو أخص أو أمدح ونحوه، وأن يكون مفعول ﴿يتذكرون﴾ وهو كما ترى ﴿غَيْرَ ذِي عِوَجٍ﴾ لا اختلال فيه بوجه من الوجوه وهو أبلغ من مستقيم لأن عوجاً نكرة وقعت في سياق النفي لما في غير من معناه، والاستقامة يجوز أن تكون من وجه دون وجه ونفي مصاحبة العوج عنه يقتضي نفي اتصافه به بالطريق الأولى فهو أبلغ من غير معوج، والعوج بالكسر يقال فيما يدرك بفكر وبصيرة والعوج بالفتح يقال فيما يدرك بالحس، وعبر بالأول ليدل على أنه بلغ إلى حد لا يدرك العقل فيه عوجاً فضلاً عن الحس، وتمام الكلام مر في الكهف. وقيل المراد بالعوج الشك واللبس، وروي ذلك عن مجاهد وأنشدوا قول الشاعر:

وقد أتاك يقين غير ذي عوج ... من الإله وقول غير مكذوب

ولا استدلال به على أن العوج بمعنى الشك لأن عوج اليقين هو الشك لا محالة، والقول في وجه الاستدلال أن الشاعر فهم هذا المعنى من الآية لأنه اقتباس وإذا فهمه الفصيح مع صحة التجوز كان محملاً تعسف ظاهر لأنه لم يتبين أنه اقتبسه منها ولو سلم يكون محتملاً لما يحتمله العوج في النظم الذي لا عوج فيه، وقد يقال: مراد من قال أي

لا لبس فيه ولا شك نفي بعض أنواع الاختلال، وعلى ذلك ما روي عن عثمان بن عفان من أنه قال: أي غير مضطرب ولا متناقض وما قيل أي غير ذي لحن. وأخرج الديلمي في مسند الفردوس عن أنس عن النبي ﷺ أنه قال: غير ذي عوج غير مخلوق ولعله إن صح الخبر تفسير باللازم فتأمل. ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ علة أخرى مترتبة على الأولى.

﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَجُلاً فيه شُرَكَاءُ مُتشَاكسُونَ﴾ إيراد لمثل من الأمثال القرآنية بعد بيان أن الحكمة في ضربها هو التذكر والاتعاظ بها وتحصيل التقوى، والمراد بضرب المثل هاهنا تطبيق حالة عجيبة بأخرى مثلها وجعلها مثلها، و ﴿مثلاً﴾ مفعول ثان لضرب و ﴿رجلاً﴾ مفعوله الأول أخر عن الثاني للتشويق إليه وليتصل به ما هو من تتمته التي هي العمدة في التمثيل أو ﴿مثلاً﴾ مفعول ضرب و ﴿رجلاً﴾ الخ بدل منه بدل كل من كل.

وقال الكسائي: انتصب ﴿رجلاً﴾ على إسقاط الخافض أي مثلاً في رجل وقيل غير ذلك وقد تقدم الكلام في نظيره.

و ﴿فيه﴾ خبر مقدم و ﴿شركاء﴾ مبتدأ و ﴿متشاكسون﴾ صفته والنكرة وإن وصفت يحسن تقديم خبرها. والجملة صفة ﴿رجلاً﴾ والرابط الهاء أو الجار والمجرور في موضع الصفة له و ﴿شركاء﴾ مرتفع به على الفاعلية لاعتماده على الموصوف، وقيل ﴿فيه﴾ صلة شركاء وهو مبتدأ خبره متشاكسون، وفيه أنه ليس لتقديمه نكتة ظاهرة.

والمعنى ضرب الله تعالى مثلاً للمشرك حسبما يقود إليه مذهبه من ادعاء كل من معبوديه عبوديته عبداً يتشارك فيه جماعة متشاجرون لشكاسة أخلاقهم وسوء طبائعهم يتجاذبونه ويتعاورونه في مهماتهم المتباينة في تحيره وتوزع قلبه ﴿وَرَجُلاً﴾ أي وضرب للموحد مثلاً رجلاً ﴿سَلَماً﴾ أي خالصاً ﴿لرَجُل﴾ فرد ليس لغيره سبيل إليه أصلاً فهو في راحة عن التحير وتوزع القلب وضرب الرجل مثلاً لأنه أفطن لما شقي به أو سعد فإن الصبي والمرأة قد يغفلان عن ذلك.

وقرأ عبد الله وابن عباس وعكرمة ومجاهد وقتادة والزهري والحسن بخلاف عنه والجحدري وابن كثير وأبو عمرو «سالماً» اسم فاعل من سلم أي خالصاً له من الشركة. وقرأ ابن جبير «سِلْماً» بكسر السين وسكون اللام، وقرىء «سَلْماً» بفتح فسكون وهما مصدران وصف بهما مبالغة في الخلوص من الشركة.

وقرىء «ورجلٌ سالمٌ» برفعهما أي وهناك رجل سالم، وجوز أن لا يقدر شيء ويكون رجل مبتدأ وسالم خبره لأنه موضع تفصيل إذ قد تقدم ما يدل عليه فيكون كقول امرىء القيس:

إذا ما بكى من خلفها انحرفت له ... بشق وشق عندنا لم يحول

وقوله تعالى: ﴿هَل يَسْتَوِيَان مَثَلاً﴾ انكار واستبعاد لاستوائهما ونفي له على أبلغ وجه وآكده وإيذان بأن ذلك من الجلاء والظهور بحيث لا يقدر أحد أن يتفوه باستوائهما أو يتلعثم في الحكم بتباينهما ضرورة أن أحدهما في لوم وعناء والآخر في راحة بال ورضاء، وقيل ضرورة أن أحدهما في أعلى عليين والآخر في أسفل سافلين، وأياً ما كان فالسر في إبهام الفاضل والمفضول الإشارة إلى كمال الظهور عند من له أدنى شعور.

وانتصاب ﴿مثلاً﴾ على التمييز المحول عن الفاعل إذ التقدير هل يستوي مثلهما وحالهما، والاقتصار في التمييز على الواحد لبيان الجنس والاقتصار عليه أولاً في قوله تعالى: ﴿ضرب الله مثلاً﴾ وقرىء «مثلين» أي هل يستوي مثلاهما وحالاهما، وثني مع أن المقصود من التمييز حاصل بالإفراد من غير لبس لقصد الإشعار بمعنى زائد وهو اختلاف النوع، وجوز أن يكون ضمير يستويان للمثلين لأن التقدير فيما سبق مثل رجل ومثل رجل أي هل يستوي المثلان مثلين وهو على نحو كفى بهما رجلين وهو من باب ـ لله تعالى دره فارساً ـ ويرجع ذلك إلى هل يستويان

رجلين فيما ضرب من المثال ولما كان المثل بمعنى الصفة العجيبة التي هي كالمثل كان المعنى هل يستويان فيما يرجع إلى الوصفية، وقوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لله﴾ تقرير لما قبله من نفي الاستواء بطريق الاعتراض وتنبيه للموحدين على أن ما لهم من المزية بتوفيق الله تعالى وأنها نعمة جليلة تقتضي الدوام على حمده تعالى وعبادته أو على أن بيانه تعالى بضرب المثل أن لهم المثل الأعلى وللمشركين مثل السوء صنع جميل ولطف تام منه عزَّ وجلّ مستوجب لحمده تعالى وعبادته، وقوله تعالى: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ اضراب وانتقال من بيان عدم الاستواء على الوجه المذكور إلى بيان أن أكثر الناس وهم المشركون لا يعلمون ذلك مع كمال ظهوره أو ليسوا من ذوي العلم فلا يعلمون ذلك فيبقون في ورطة الشرك والضلال، وقيل المراد أنهم لا يعلمون أن الكل منه تعالى وأن المحامد إنما هي له عزَّ وجلّ فيشركون به غيره سبحانه فالكلام من تتمة ﴿الحمد لله﴾ ولا اعتراض، ولا يخفى أن بناء الكلام على الاعتراض كما سمعت أولى، وقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ تمهيد لما يعقبه من الاختصام يوم القيامة. وفي البحر أنه لما لم يلتفتوا إلى الحق ولم ينتفعوا بضرب المثل أخبر سبحانه بأن مصير الجميع بالموت إلى الله تعالى وأنهم يختصمون يوم القيامة بين يديه وهو عزَّ وجلّ الحكم العدل فيتميز هناك المحق والمبطل.

وقال بعض الأجلة: إنه لما ذكرت من أول السورة إلى هنا البراهين القاطعة لعرق الشركة المسجلة لفرط جهل المشركين وعدم رجوعهم مع جهده ﷺ في ردهم إلى الحق وحرصه على هدايتهم اتجه السؤال منه عليه الصلاة والسلام بعد ما قاساه منهم بأن يقول ما حالي وحالهم؟ فأجيب بأنك ميت وأنهم ميتون الآية.

وقرأ ابن الزبير وابن أبي إسحاق وابن محيصن وعيسى واليماني وابن أبي غوث وابن أبي عبلة «إنك مائت وإنهم مائتون» والفرق بين ميت ومائت أن الأول صفة مشبهة وهي تدل على الثبوت ففيها إشعار بأن حياتهم عين الموت وأن الموت طوق في العنق لازم والثاني اسم فاعل وهو يدل على الحدوث فلا يفيد هنا مع القرينة أكثر من أنهم سيحدث لهم الموت، وضمير الخطاب على ما سمعت للرسول ﷺ قال أبو حيان: ويدخل معه عليه الصلاة والسلام مؤمنو أمته، وضمير الجمع الغائب للكفار وتأكيد الجملة في ﴿إنهم ميتون﴾ للإشعار بأنهم في غفلة عظيمة كأنهم ينكرون الموت وتأكيد الأولى دفعاً لاستبعاد موته عليه الصلاة والسلام، وقيل للمشاكلة، وقيل إن الموت مما تكرهه النفوس وتكره سماع خبره طبعاً فكان مظنة أن لا يلتفت إلى الإخبار به أو أن ينكر وقوعه ولو مكابرة فأكد الحكم بوقوعه لذلك ولا يضر في ذلك عدم الكراهة في بعض لخصوصية فيه كسيد العالمين ﷺ ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ﴾ على تغليب المخاطب على الغيب.

﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ﴾ أي مالك أموركم ﴿تَخْتَصِمُونَ﴾ فتحتج أنت عليهم بأنك بلغتهم ما أرسلت به من الأحكام والمواعظ التي من جملتها ما في تضاعيف هذه الآيات واجتهدت في دعوتهم إلى الحق حق الاجتهاد وهم قد لجوا في المكابرة والعناد ويعتذرون بالأباطيل مثل ﴿أطعنا سادتنا﴾ [الأحزاب: ٦٧] و ﴿وجدنا آباءنا﴾ [الأنبياء: ٥٣، الشعراء: ٧٤] و ﴿غلبت شقوتنا﴾ [المؤمنون: ١٠٦] والجمع بين ﴿يوم القيامة﴾ ﴿عند ربكم﴾ لزيادة التهويل ببيان أن اختصامهم ذلك في يوم عظيم عند مالك لأمورهم نافذ حكمه فيهم ولو اكتفى بالأول لاحتمل وقوع الاختصام فيما بينهم بدون مرافعة وبمرافعة لكن ليست لدى مالك لأمورهم، والاكتفاء بالثاني على تسليم فهم كون ذلك يوم القيامة معه بدون احتمال لا يقوم مقام ذكرهما لما في التصريح بما هو كالعلم من التهويل ما فيه، وقال جمع: المراد بذلك الاختصام العام فيما جرى في الدنيا بين الأنام لا خصوص الاختصام بينه عليه الصلاة والسلام وبين الكفرة الطغام، وفي الآثار ما يأبى الخصوص المذكور.

أخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن عساكر عن إبراهيم النخعي قال: نزلت هذه الآية ﴿**إنك ميت**﴾ الخ فقالوا: وما خصومتنا ونحن إخوان فلما قتل عثمان بن عفان قالوا هذه خصومة ما بيننا وأخرج سعيد بن منصور عن أبي سعيد الخدري قال: لما نزلت ﴿**ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون**﴾ كنا نقول: ربنا واحد ودِيننا واحد فلما كان يوم صفين وشد بعضنا على بعض بالسيوف قلنا: نعم هو هذا.

وأخرج عبد بن حميد والنسائي وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: لقد لبثنا برهة من دهرنا ونحن نرى أن هذه الآية نزلت فينا وفي أهل الكتابين من قبل ﴿**إنك ميت وإنهم ميتون**﴾ ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون قلنا: كيف نختصم ونبينا واحد وكتابنا واحد حتى رأيت بعضنا يضرب وجوه بعض بالسيف فعرفت أنها نزلت فينا، وفي رواية أخرى عنه بلفظ نزلت علينا الآية ﴿**ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون**﴾ وما ندري فيم نزلت قلنا: ليس بيننا خصومة فما التخاصم حتى وقعت الفتنة فقلت: هذا الذي وعدنا ربنا أن نختصم فيه.

وأخرج أحمد وعبد الرزاق وعبد بن حميد والترمذي وصححه. وابن أبي حاتم والحاكم وصححه وابن مردويه وأبو نعيم في الحلية، والبيهقي في البعث والنشور عن الزبير بن العوام رضي الله تعالى عنه قال: لما نزلت ﴿**إنك ميت وإنهم ميتون ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون**﴾ قلت: يا رسول الله أينكر علينا ما يكون بيننا في الدنيا مع خواص الذنوب قال: نعم ينكر ذلك عليكم حتى يؤدى إلى كل ذي حق حقه قال الزبير: فوالله إن الأمر لَشديد.

وزعم الزمخشري أن الوجه الذي يدل عليه كلام الله تعالى هو ما ذكر أولاً واستشهد بقوله تعالى: ﴿**فمن أظلم**﴾ الخ وبقوله سبحانه: ﴿**والذي جاء بالصدق**﴾ الخ لدلالتهما على أنهما اللذان تكون الخصومة بينهما، وكذلك ما سبق من قوله تعالى: ﴿**ضرب الله مثلاً رجلاً**﴾ الخ. وتعقب ذلك في الكشف فقال: أقول قد نقل عن جلة الصحابة والتابعين رضي الله تعالى عنهم ما يدل على أنهم فهموا الوجه الثاني أي العموم بل ظاهر قول النخعي قالت الصحابة: ما خصومتنا ونحن إخوان يدل على أنه قول الكل فالوجه إيثار ذلك.

وتحقيقه أن قوله تعالى: ﴿**ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن**﴾ كلام مع الأمة كلهم موحدهم ومشركهم وكذلك قوله تعالى ضرب الله مثلاً رجلاً ورجلاً بل أكثرهم دون بل هم كالنص على ذلك فإذا قيل: إنك ميت وجب أن يكون على نحو ﴿يا أيها النبي إذا طلقتم﴾ [الطلاق: ١] أي إنكم أيها النبي والمؤمنون وأبهم ليعم القبيلين ولا يتنافر النظم فقد روعي من مفتتح السورة إلى هذا المقام التقابل بين الفريقين لا بينه عليه الصلاة والسلام وحده وبين الكفار ثم إذا قيل: ﴿**ثم إنكم**﴾ على التغليب يكون تغليباً للمخاطبين على جميع الناس فهذا من حيث اللفظ والمساق الظاهر ثم إذا كان الموت أمراً عمه والناس جميعاً كان المعنى عليه أيضاً، وأما حديث الاختصام والطباق الذي ذكره فليس بشيء لأنه لعمومه يشمله شمولاً أولياً كما حقق هذا المعنى مراراً. والتعقيب بقوله تعالى: ﴿**فمن أظلم**﴾ التنبيه على أنه مصب الغرض وأن المقصود التسلق إلى تلك الخصومة، ولا أنكر أن قوله تعالى: ﴿**عند ربكم**﴾ يدل على أن الاختصام يوم القيامة ولكن أنكر أن يختص باختصام النبي ﷺ وحده والمشركين بل يتناوله أولاً وكذلك اختصام المؤمنين والمشركين واختصام المؤمنين بعضهم مع بعض كاختصام عثمان رضي الله تعالى عنه يوم القيامة وقاتليه، وهذا ما ذهب إليه هؤلاء وهم هم رضي الله تعالى عنهم انتهى، وكأنه عنى بقوله ولا أنكر الخ رد ما يقال إن ﴿**عند ربكم**﴾ يدل على أن الاختصام يوم القيامة، وقد صرح في النظم الجليل بذلك فيكون تأكيداً مشعراً بالاهتمام بأمر ذلك الاختصام فليس هو إلا اختصام حبيبه ﷺ مع أعدائه الطغام، ووجه الرد أنه ان سلم أن فائدة

الجمع ما ذكر فلا نسلم استدعاء ذلك لاعتبار الخصوص بل يكفي للاهتمام دخول اختصام الحبيب مع أعدائه عليه الصلاة والسلام فتأمله، ثم أنت تعلم أنه لو لم يكن في هذا المقام سوى الحديث الصحيح المرفوع لكفى في كون المراد عموم الاختصام فالحق القول بعمومه وهو أنواع شتى، فقد أخرج ابن جرير عن ابن عباس أنه قال في الآية: يخاصم الصادق الكاذب والمظلوم الظالم والمهتدي الضال والضعيف المستكبر، وأخرج الطبراني وابن مردويه بسند لا بأس به عن أبي أيوب رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أول من يختصم يوم القيامة الرجل وامرأته والله ما يتكلم لسانها ولكن يداها ورجلاها يشهدان عليها بما كان لزوجها وتشهد يداه ورجلاه بما كان لها ثم يدعي الرجل وخادمه بمثل ذلك ثم يدعي أهل الأسواق وما يوجد ثم دانق ولا قراريط ولكن حسنات هذا تدفع إلى هذا الذي ظلمه وسيئات هذا الذي ظلمه توضع عليه ثم يؤتى بالجبارين في مقامع من حديد فيقال أوردوهم إلى النار فوالله ما أدري يدخلونها أو كما قال الله ﴿وإن منكم إلا واردها﴾ وأخرج البزار عن أنس قال: «قال رسول الله ﷺ يجاء بالأمير الجائر فتخاصمه الرعية» وأخرج أحمد والطبراني بسند حسن عن عقبة بن عامر قال: «قال رسول الله ﷺ أوّل خصمين يوم القيامة جاران» ولعل الأولية إضافية لحديث أبي أيوب السابق.

وجاء عن ابن عباس اختصام الروح مع الجسد أيضاً بل أخرج أحمد بسند حسن عن أبي هريرة قال: «قال رسول الله ﷺ ليختصمن يوم القيامة كل شيء حتى الشاتان فيما انتطحا».

«تم الجزء الثالث والعشرون ويليه إن شاء الله تعالى الجزء الرابع والعشرون وأوله ﴿**فمن أظلم**﴾»

الجزء الرابع والعشرون

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى
لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ
رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾ لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ
ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ
وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى
ٱنتِقَامٍ ﴿٣٧﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن
دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ
رَحْمَتِهِۦ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ
إِنِّى عَٰمِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٤٠﴾
إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا
وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٤١﴾ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ
ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ
﴿٤٢﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ
ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ
ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى الله﴾ بأن أضاف إليه سبحانه وتعالى الشريك أو الولد **﴿وَكَذَّبَ بالصِّدْق﴾** أي بالأمر الذي هو عين الحق ونفس الصدق وهو ما جاء به النبي ﷺ **﴿إِذْ جَاءَهُ﴾** أي في أول مجيئه من غير تدبر فيه ولا تأمل ـ فإذ ـ فجائية كما صرح به الزمخشري لكن اشترط فيها في المغني أن تقع بعد بينا أو بينما ونقله عن

سيبويه فلعله أغلبي، وقد يقال: هذا المعنى يقتضيه السياق من غير توقف على كون إذ فجائية، ثم المراد أن هذا الكاذب المكذب أظلم من كل ظالم ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ﴾ أي لهؤلاء الذين افتروا على الله سبحانه وتعالى وسارعوا إلى التكذيب بالصدق، ووضع الظاهر موضع الضمير للتسجيل عليهم بالكفر، والجمع باعتبار معنى ﴿من﴾ كما أن الإفراد في الضمائر السابقة باعتبار لفظها أو لجنس الكفرة فيشمل أهل الكتاب ويدخل هؤلاء في الحكم دخولاً أولياً، وأياً ما كان فالمعنى على كفاية جهنم مجازاة لهم كأنه قيل: أليست جهنم كافية للكافرين مثوى كقوله تعالى: ﴿حسبهم جهنم يصلونها﴾ [المجادلة: ٨] أي هي تكفي عقوبة لكفرهم وتكذيبهم، والكفاية مفهومة من السياق كما تقول لمن سألك شيئاً: ألم أنعم عليك تريد كفاك سابق إنعامي عليك، واستدل بالآية على تكفير أهل البدع لأنهم مكذبون بما علم صدقه.

وتعقب بأن «من كذب» مخصوص بمن كذب الأنبياء شفاهاً في وقت تبليغهم لا مطلقاً لقوله تعالى: ﴿إذ جاءه﴾ ولو سلم إطلاقه فهم لكونهم يتأولون ليسوا مكذبين وما نفوه وكذبوه ليس معلوماً صدقه بالضرورة إذ لو علم من الدين ضرورة كان جاحده كافراً كمنكر فرضية الصلاة ونحوها.

وقال الخفاجي: الأظهر أن المراد تكذيب الأنبياء عليهم السلام بعد ظهور المعجزات في أن ما جاؤوا به من عند تعالى لا مطلق التكذيب، وكأني بك تختار أن المتأول غير مكذب لكن لا عذر في تأويل ينفي ما علم من الدين ضرورة ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ﴾ الموصول عبارة عن رسول الله ﷺ كما أخرجه ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابن عباس، وفسر الصدق بلا إله إلا الله، والمؤمنون داخلون بدلالة السياق وحكم التبعية دخول الجند في قولك: نزل الأمير موضع كذا، وليس هذا من الجمع بين الحقيقة والمجاز في شيء لأن الثاني لم يقصد من حاق اللفظ، ولا يضر في ذلك أن المجيء بالصدق ليس وصفًا للمؤمنين الأتباع كما لا يخفى، والموصول على هذا مفرد لفظاً ومعنى، والجمع في قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ باعتبار دخول الأتباع تبعاً، ومراتب التقوى متفاوتة ولرسول الله ﷺ أعلاها، وجوز أن يكون الموصول صفة لمحذوف أي الفوج الذي أو الفريق الذي الخ فيكون مفرد اللفظ مجموع المعنى فقيل: الكلام حينئذ على التوزيع لأن المجيء بالصدق على الحقيقة له عليه الصلاة والسلام والتصديق بما جاء به وأن عمه وأتباعه ﷺ لكنه فيهم أظهر فليحمل عليه للتقابل، وفي الكشف الأوجه أن لا يحمل على التوزيع غاية ما في الباب أن أحد الوصفين في أحد الموصوفين أظهر، وعليه يحمل كلام الزمخشري الموهم للتوزيع، وحمل بعضهم الموصول على الجنس فإن تعريفه كتعريف ذي اللام يكون للجنس والعهد، والمراد حينئذ به الرسل والمؤمنون.

وأيد إرادة ما ذكر بقراءة ابن مسعود ﴿والذين جاؤوا بالصدق وصدقوا به﴾ وزعم بعضهم أنه أريد والذين فخذفت النون كما في قوله:

إن الذي حانت بفلج دماؤهم ... هم القوم كل القوم يا أم مالك

وتعقبه أبو حيان بأنه ليس بصحيح لوجوب جمع الضمير في الصلة حينئذ كما في البيت ألا ترى أنه إذا حذفت النون من اللذان كان الضمير مثنى كقوله:

ابني كليب إنّ عميَّ اللذا ... قتلا الملوك وفككا الاغلالا

وقال علية وأبو العالية والكلبي. وجماعة ﴿الذي جاء بالصدق﴾ هو الرسول ﷺ والذي صدق به هو أبو بكر رضي الله تعالى عنه. وأخرج ذلك ابن جرير والباوردي في معرفة الصحابة وابن عساكر من طريق أسيد بن صفوان وله

صحبة عن علي كرم الله تعالى وجهه، وقال أبو الأسود ومجاهد في رواية وجماعة من أهل البيت وغيرهم: الذي صدق به هو علي كرم الله تعالى وجهه وأخرجه ابن مردويه عن أبي هريرة مرفوعاً إلى رسول الله ﷺ. وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن السدي أنه قال: ﴿**الذي جاء بالصدق**﴾ جبريل عليه السلام ﴿**وصدق به**﴾ هو النبي ﷺ، قيل: وعلى الأقوال الثلاثة يقتضي اضمار الذي وهو غير جائز على الأصح عند النحاة من أنه لا يجوز حذف الموصول وإبقاء صلته مطلقاً أي سواء عطف على موصول آخر أم لا.

ويضعفه أيضاً الإخبار عنه بالجمع. وأجيب بأنه لا ضرورة إلى الإضمار ويراد بالذي الرسول ﷺ والصديق أو علي كرم الله تعالى وجههما معاً على أن الصلة للتوزيع، أو يراد بالذي جبريل عليه السلام والرسول ﷺ معاً كذلك، وضمير الجمع قد يرجع إلى الاثنين وقد أريدا بالذي، ولا يخفى ما ذلك من التكلف والله تعالى أعلم بحال الإخبار، ولعل ذكر أبي بكر مثلاً على تقدير الصحة من باب الاقتصار على بعض أفراد العام لنكتة وهي في أبي بكر رضي الله تعالى عنه كونه أول من آمن وصدق من الرجال، وفي علي كرم الله تعالى وجهه كونه أول من آمن وصدق من الصبيان، ويقال نحو ذلك على تقدير صحة خبر السدي ولا يكاد يصح لقوله تعالى: فيما بعد ﴿**ليكفر**﴾ الخ، وبما ذكر يجمع بين الأخبار إن صحت ولا يعتبر في شيء منها الحصر فتدبر. وقرأ أبو صالح وعكرمة بن سليمان «وصَدَق بِهِ» مخففاً أي وصدق به الناس ولم يكذبهم به يعني. أداه إليهم كما نزل عليه من غير تحريف فالمفعول محذوف لأن الكلام في القائم به الصادق وفي الحديث الصدق، والكلام على العموم دون خصوصه عليه الصلاة والسلام فإن جملة القرآن حفظه الصحابة عنه عليه الصلاة والسلام وأدوه كما أنزل، وقيل: المعنى وصار صادقاً به أي بسببه لأن القرآن معجز والمعجز يدل على صدق النبي عليه الصلاة والسلام، وعلى هذا فالوصف خاص، وقد تجوز في ذلك باستعمال (صدق) بمعنى صار صادقاً به ولا كناية فيه كما قيل، وقال أو صالح: أي وعمل به وهو كما ترى. وقرىء «وصُدِّقَ بِهِ» مبنياً للمفعول مشدداً ﴿**لَهُم مَّا يَشَاؤُونَ عِندَ رَبِّهِمْ**﴾ بيان لما لأولئك الموصوفين بالمجيء بالصدق. والتصديق به في الآخرة من حسن المآب بعد بيان ما لهم في الدنيا من حسن الأعمال أي لهم كل ما يشاؤونه من جلب المنافع ودفع المضار في الآخرة لا في الجنة فقط لما أن بعض ما يشاؤونه من تكفير السيئات والأمن من الفزع الأكبر وسائر أهوال القيامة إنما يقع قبل دخول الجنة ﴿**ذَٰلِكَ**﴾ الذي ذكر من حصول كل ما يشاؤونه ﴿**جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ**﴾ أي الذين أحسنوا أعمالهم، والمراد بهم أولئك المحدث عنهم لكن أقيم الظاهر مقام الضمير تنبيهاً على العلة لحصول الجزاء، وقيل: المراد ما يعمهم وغيرهم ويدخلون دخولاً أولياً، وقوله تعالى: ﴿**لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا**﴾ الخ متعلق بمحذوف أي ليكفر الله عنهم ويجزيهم خصهم سبحانه بما خص أو بما قبله باعتبار فحواه على ما قيل أي وعدهم الله جميع ما يشاؤونه من زوال المضار وحصول المسار ليكفر عنهم بموجب ذلك الوعد أسوأ الذي عملوا الخ، وليس ببعيد معنى عن الأول، وجوز أن يكون متعلقاً بقوله سبحانه: ﴿**وذلك جزاء المحسنين**﴾ أي بما يدل عليه من الثبوت أو بالمحسنين كما قال أبو حيان فكأنه قيل: وذلك جزاء الذين أحسنوا أعمالهم ليكفر الله تعالى عنهم أسوأ الذي عملوه ﴿**وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ**﴾ ويعطيهم ثوابهم ﴿**بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾ وتقديم التكفير على إعطاء الثواب لأن درء المضار أهم من جلب المسار.

وأقيم الاسم الجليل مقام الضمير الراجع إلى ﴿**ربهم**﴾ لإبراز كمال الاعتناء بمضمون الكلام، وإضافة ﴿**أسوأ**﴾ و ﴿**أحسن**﴾ إلى ما بعدهما من إضافة افعل التفضيل إلى غير المفضل عليه للبيان والتوضيح كما في الأشج أعدل بني مروان ويوسف أحسن أخوته، والتفضيل على ما قال الزمخشري للدلالة على أن الزلة المكفرة عندهم هي الأسوأ

لاستعظامهم المعصية مطلقاً لشدة خوفهم، والحسن الذي يعملونه عند الله تعالى هو الأحسن لحسن اخلاصهم فيه.

وذلك على ما قرر في الكشف لأن التفضيل هنا من باب الزيادة المطلقة من غير نظر إلى مفضل عليه نظراً إلى وصوله إلى أقصى الغاية الكمالية، ثم لما كانوا متقين كاملي التقى لم يكن في عملهم أسوأ إلا فرضاً وتقديراً.

وقوله سبحانه: ﴿**بأحسن الذي كانوا يعملون**﴾ دون أحسن الذي كانوا يعملون يدل على أن حسنهم عند الله تعالى من الأحسن لدلالته على أن جميع أجرهم يجري على ذلك الوجه فلو لم يعملوا إلا الأحسن كان التفضيل بحسب الأمر نفسه ولو كان في العمل الأحسن والحسن وكان الجزاء بالأحسن بأن ينظر إلى أحسِن الأعمال فيجري الباقي في الجزاء على قياسه دل على أن الحسن عند المجازي كالأحسن، فصح على التقديرين أن حسنهم عند الله تعالى هو الأحسن، ويعلم من هذا أن لا اعتزال فيما ذكره الزمخشري كما توهمه أبو حيان، وأما قوله في الاعتراض عليه: إنه قد استعمل (أسوأ) في التفضيل على معتقدهم و ﴿**أحسن**﴾ في التفضيل على ما هو عند الله عزَّ وجلّ وذلك توزيع في أفعل التفضيل وهو خلاف الظاهر. فقد يسلم إذا لم يكن في الكلام ما يؤذن بالمغايرة فحيث كان فيه ها هنا ذلك على ما قرر لا يسلم أن التوزيع خلاف الظاهر، وقيل: إن ﴿**أسوأ**﴾ على ما هو الشائع في أفعل التفضيل، وليس المراد أن لهم عملاً سيئاً وعملاً أسوأ والمكفر هو الأسوأ فإنهم المتقون الذين وإن كانت لهم سيئات لا تكون سيئاتهم من الكبائر العظيمة، ولا يناسب التعرض لها في مقام مدحهم بل الكلام كناية عن تكفير جميع سيئاتهم بطريق برهاني، فإن الأسوأ إذا كفر كان غيره أولى بالتكفير لا أن ذلك صدر منهم، ولا نسلم وجوب تحقق المعنى الحقيقي في الكناية وهو كما ترى، وقال غير واحد: أفعل على ما هو الشائع والأسوأ الكفر السابق على التقوى والإحسان، والمراد تكفير جميع ما سلف منهم قبل الإيمان من المعاصي بطريق برهاني.

وعلى هذا لا يتسنى تفسير ﴿**وصدق به**﴾ بعلي كرم الله تعالى وجهه إذ لم يسبق له كفر أصلي ولا يكاد يعبر عن الكفر التبعي بأسوأ العمل، وقيل: افعل ليس للتفضيل أصلاً فأسوأ بمعنى السيىء صغيراً كان أو كبيراً كما هو وجه أيضاً في الأشج أعدل بني مروان، وأيد بقراءة ابن مقسم وحامد بن يحيى عن ابن كثير رواية عن البزي عنه «أسواء» بوزن أفعال جمع سوء؛ وأحسن عند أكثر أهل هذه الأقوال على بابه على معنى أنه تعالى ينظر إلى أحسن طاعاتهم فيجزي سبحانه الباقي في الجزاء على قياسه لطفاً وكرماً، وزعم الطبرسي أن الأحسن الواجب والمندوب والحسن المباح والجزاء إنما هو على الأولين دون المباح، وقيل: المراد يجزيهم بأحسن من عملهم وهو الجنة، وفيه ما فيه، والجمع بين صيغتي الماضي والمستقبل في صلة الموصول الثاني دون الأول للإيذان باستمرارهم على الأعمال الصالحة بخلاف السيئة.

﴿**أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ**﴾ إنكار ونفي لعدم كفايته تعالى على أبلغ وجه كأن الكفاية من التحقق والظهور بحيث لا يقدر أحد على أن يتفوه بعدمها أو يتلعثم في الجواب بوجودها، والمراد ـ بعبده ـ إما رسول الله ﷺ على ما روي عن السدي وأيد بقوله تعالى: ﴿**وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ**﴾ أي الأوثان التي اتخذوها آلهة؛ فإن الخطاب سواء كانت الجملة استئنافاً أو حالاً له ﷺ: وقد روي أن قريشاً قالت له عليه الصلاة والسلام: إنا نخاف أن تخبلك آلهتنا وتصيبك معرتها لعيبك إياها فنزلت، وفي رواية قالوا: لتكفن عن شتم آلهتنا أو ليصيبنك منها خبل فنزلت، أو الجنس المنتظم له عليه الصلاة والسلام انتظاماً أولياً، وأيد بقراءة أبي جعفر ومجاهد وابن وثاب وطلحة والأعمش وحمزة والكسائي «عباده» بالجمع وفسر بالأنبياء عليهم السلام والمؤمنين، وعلى الأول يراد أيضاً الاتباع كما سمعت في قوله تعالى: ﴿**والذي جاء بالصدق وصدق به**﴾، ﴿**ويخوفونك**﴾ شامل لهم أيضاً على ما سلف والتئام الكلام بقوله

تعالى: ﴿فمن أظلم﴾ إلى هذا المقام لدلالته على أنه تعالى يكفي نبيه ﷺ مهم دينه ودنياه ويكفي أتباعه المؤمنين أيضاً المهمين وفيه أنه سبحانه يكفيهم شر الكافرين من وجهين من طريق المقابلة ومن أنه داخل في كفاية مهمي الرسول عليه الصلاة والسلام واتباعه، وهذا ما تقتضيه البلاغة القرآنية ويلائم ما بني عليه السورة الكريمة من ذكر الفريقين وأحوالهما توكيداً لما أمر به أولاً من العبادة والإخلاص وقرىء «بكافي عباده» بالإضافة و «يكافي عباده» مضارع كافي ونصب «عبادَه» فاحتمل أن يكون مفاعلة من الكفاية كقولك: يجاري في يجري وهو أبلغ من كفى لبنائه على لفظ المبالغة وهو الظاهر لكثرة تردد هذا المعنى في القرآن نحو ﴿فسيكفيكهم الله﴾ [البقرة: ١٣٧] ويحتمل أن يكون مهموزاً من المكافأة وهي المجازاة، ووجه الارتباط أنه تعالى لما ذكر حال من كذب على الله وكذب بالصدق وجزاءه وحال مقابله أعني الذي جاء بالصدق وصدق به وجزاءه وعرض بقوله سبحانه: ﴿ذلك جزاء المحسنين﴾ بأن ما سلف جزاء الكافرين المسيئين لما هو معروف من فائدة البناء على اسم الإشارة ثم عقبه تعالى بقوله عزَّ وجلّ: ﴿ليكفر﴾ الخ على معنى ليكفر عنهم ويجزيهم خصهم بما خص فنبه على المقابل أيضاً من ضرورة الاختصاص والتعليل، وفيه أيضاً ما يدل على حكم المقابل على اعتبار المتعلق غير ما ذكر كما يظهر بأدنى التفات أردف بقوله تعالى: ﴿أليس الله بكاف عبده﴾ وحيث إن مطمح النظر من العباد السيد الحبيب ﷺ كان المعنى الله تعالى يجازي عبده ونبيه عليه الصلاة والسلام هذا الجزاء المذكور وفيه أنه الذي يجزيه البتة ويلائمه قوله تعالى: ﴿ويخوفونك﴾ فإنه لما كان في مقابلة ذم آلهتهم كما سمعت في سبب النزول كان تحذيراً من جزاء الآلهة فلا مغمز بعدم الملاءمة. نعم لا ننكر أن معنى الكفاية أبلغ كما هو مقتضى القراءة المشهورة فاعلم ذاك والله تعالى يتولى هداك.

﴿وَمَن يُضْلل اللَّهُ﴾ حتى غفل عن كفايته تعالى عبده وخوف بما لا ينفع ولا يضر أصلاً ﴿فَمَا لَهُ مِنْ هَاد﴾ يهديه إلى خير ما ﴿وَمَنْ يَهْد اللَّهُ﴾ فيجعل كونه تعالى كافياً نصب عينه عاملاً بمقتضاه ﴿فَمَا لَهُ مِنْ مُضلّ﴾ يصرفه عن مقصده أو يصيبه بسوء يخل بسلوكه إذ لا راد لفعله ولا معارض لإرادته عزَّ وجلّ كما ينطق به قوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بعَزيز﴾ غالب لا يغالب منيع لا يمانع ولا ينازع ﴿ذي انْتقَام﴾ ينتقم من أعدائه لأوليائه، وإظهار الاسم الجليل في موضع الإضمار لتحقيق مضمون الكلام وتربية المهابة.

﴿ولَئَن سَأَلْتَهُمْ منْ خَلَقَ السَّمَاوَات والأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ لظهور الدليل ووضوح السبيل فقد تقرر في العقول وجوب انتهاء الممكنات إلى واجب الوجود، والاسم الجليل فاعل لفعل محذوف أي خلقهن الله ﴿قُلْ﴾ تبكيتاً لهم ﴿أَفَرأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ منْ دُون الله إنْ أَرَادَنـيَ اللَّهُ بضُرّ هَلْ هُنَّ كَاشفَاتُ ضُرِّه﴾ أي إذا كان خالق العالم العلوي والسفلي هو الله عزَّ وجلّ كما أقررتم فأخبروني أن آلهتكم إن أرادني الله سبحانه بضر هل هن يكشفن عني ذلك الضر، فالفاء واقعة في جواب شرط مقدر؛ وقال بعضهم: التقدير إذا لم يكن خالق سواه تعالى فهل يمكن غيره كشف ما أراد من الضر، وجوز أن تكون عاطفة على مقدر أي أتفكرتم بعد ما أقررتم فرأيتم ما تدعون الخ ﴿أَوْ أَرَادَنـي برَحْمَة﴾ أي أو إن أرادني بنفع ﴿هَلْ هُنَّ مُمْسكَاتُ رَحْمَته﴾ فيمنعها سبحانه عني. وقرأ الأعرج وشيبة وعمرو بن عبيد وعيسى بخلاف عنه. وأبو عمرو وأبو بكر «كاشفاتٌ» و «ممسكاتٌ» بالتنوين فيهما ونصب ما بعدهما وتعليق إرادة الضر والرحمة بنفسه النفيسة عليه الصلاة والسلام للرد في نحورهم حيث كانوا خوفوه معرة الأوثان ولما فيه من الإيذان بإمحاض النصيحة، وقدم الضر لأن دفعه أهم، وقيل: «كاشفات» و «ممسكات» على ما يصفونها به من الأنوثة تنبيهاً على كمال ضعفها ﴿قُلْ حَسْبيَ اللَّهُ﴾ كافي جل شأنه في جميع أموري من إصابة الخير ودفع الشر. روي عن مقاتل أنه ﷺ لما سألهم سكتوا فنزل ذلك.

﴿عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ﴾ لا على غيره في كل شيء ﴿الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ لعلمهم أن كل ما سواه تحت ملكوته تعالى.

﴿قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ﴾ على حالتكم التي أنتم عليها من العداوة التي تمكنتهم فيها فإن المكانة نقلت من المكان المحسوس إلى الحالة التي عليها الشخص واستعيرت لها استعارة محسوس لمعقول، وهذا كما ستعار حيث وهنا للزمان بجامع الشمول والإحاطة، وجوز أن يكون المعنى اعملوا على حسب تمكنكم واستطاعتكم.

وروي عن عاصم «مكاناتكم» بالجمع والأمر للتهديد، وقوله تعالى: ﴿إِنِّي عَامِلٌ﴾ وعيد لهم وإطلاقه لزيادة الوعيد لأنه لو قيل: على مكانتي لتراءى أنه عليه الصلاة والسلام على حالة واحدة لا تتغير ولا تزداد فلما أطلق أشعر بأن له ﷺ كل زمان مكانة أخرى وأنه لا يزال يزداد قوة بنصر الله تعالى وتأييده ويؤيد ذلك قوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ فإنه دال على أنه ﷺ منصور عليهم في الدنيا والآخرة بدليل قوله تعالى: ﴿مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾ فإن الأول إشارة إلى العذاب الدنيوي وقد نالهم يوم بدر والثاني إشارة إلى العذاب الأخروي فإن العذاب المقيم عذاب النار فلو قيل إني عامل على مكانتي وكان إذ ذاك غير غالب بل الأمر بالعكس لم يلائم المقصود، و ﴿من﴾ تحتمل الاستفهامية والموصولية وجملة ﴿يخزيه﴾ صفة ﴿عذاب﴾ والمراد بمقيم دائم وفي الكلام مجاز في الظرف أو الإسناد وأصله مقيم فيه صاحبه ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ﴾ لأجلهم فإنه مناط مصالحهم في المعاش والمعاد ﴿بِالْحَقِّ﴾ حال من مفعول ﴿أنزلنا﴾ أو من فاعله أي أنزلنا الكتاب ملتبساً أو ملتبسين بالحق ﴿فَمَنِ اهْتَدَى﴾ بأن عمل بما فيه ﴿فلنفسه﴾ إذ نفع به نفسه ﴿وَمَنْ ضَلَّ﴾ بأن لم يعمل بموجبه ﴿فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ لما أن وبال ضلاله مقصور عليها ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ لتجبرهم على الهدى وما وظيفتك إلا البلاغ وقد بلغت أي بلاغ.

﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ﴾ أي يقبضها عن الأبدان بأن يقطع تعلقها تعلق التصرف فيها عنها ﴿حِينَ مَوْتِهَا﴾ أي في وقت موتها ﴿وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ﴾ أي ويتوفى الأنفس التي لم تمت ﴿فِي مَنَامِهَا﴾ متعلق ـ بيتوفى ـ أي يتوفاها في وقت نومها على أن مناماً اسم زمان، وجوز فيه كونه مصدراً ميمياً بأن يقطع سبحانه تعلقها بالأبدان تعلق التصرف فيها عنها أيضاً فتوفي الأنفس حين الموت وتوفيها في وقت النوم بمعنى قبضها عن الأبدان وقطع تعلقها بها تعلق التصرف إلا أن توفيها حين الموت قطع لتعلقها بها تعلق التصرف ظاهراً أو باطناً وتوفيها في وقت النوم قطع لذلك ظاهراً فقط، وكأن التوفي الذي يكون عند الموت لكونه شيئاً واحداً في أول زمان الموت وبعد مضي أيام منه قيل: ﴿حين موتها﴾ والتوفي الذي يكون في وقت النوم لكونه يتفاوت في أول وقت النوم وبعدمضي زمان منه قوة وضعفاً قيل: ﴿في منامها﴾ أي في وقت نومها كذا قيل فتدبره ولمسلك الذهن السليم اتساع، وإسناد الموت والنوم إلى الأنفس قيل: مجاز عقلي لأنهما حالا أبدانها لا حالاها، وزعم الطبرسي أن الكلام على حذف مضاف أعني الأبدان، وجعل الزمخشري الأنفس عبارة عن الجملة دون ما يقابل الأبدان، وحمل توفيها على إماتتها وسلب صحة أجزائها بالكلية فلا تبقى حية حساسة دراكة حتى كأن ذاتها قد سلبت، وحيث لم يتحقق هذا المعنى في التوفي حين النوم لأنه ليس إلا سلب كمال الصحة وما يترتب عليه من الحركات الاختيارية وغيرها قال في قوله تعالى: ﴿والتي لم تمت في منامها﴾ أي يتوفاها حين تنام تشبيهاً للنائمين بالموتى، ومنه قوله تعالى: ﴿وهو الذي يتوفاكم بالليل﴾ [الأنعام: ٦٠] حيث لا تميزون ولا تتصرفون كما أن الموتى كذلك، وما يتخايل فيه من الجمع بين الحقيقة والمجاز يدفع بالتأمل؛ وتقديم الاسم الجليل وبناء ﴿يتوفى﴾ عليه للحصر أو للتقوى أو لهما، واعتبار الحصر أوفق بالمقام من اعتبار التقوى وحده أي الله يتوفى الأنفس حقيقة لا غيره عزَّ وجلّ ﴿فَيُمْسِكُ الَّتِي﴾ أي الأنفس التي ﴿قَضَى﴾ في الأزل ﴿عَلَيْهَا

الْمَوْتَ ﴾ ولا يردها إلى أبدانها بل يبقيها على ما كانت عليه وينضم إلى ذلك قطع تعلق التصرف باطناً، وعبر عن ذلك بالإمساك ليناسب التوفي.

وقرأ حمزة والكسائي وعيسى وطلحة والأعمش وابن وثاب «قُضِيَ» على البناء للمفعول ورفع «المَوْتُ» ﴿وَيُرْسِلُ الأخْرَى ﴾ أي الأنفس الأخرى وهي النائمة إلى أبدانها فتكون كما كانت حال اليقظة متعلقة بها تعلق التصرف ظاهراً وباطناً، وعبر بالإرسال رعاية للتقابل ﴿إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ﴾ هو الوقت المضروب للموت حقيقة وهو غاية لجنس الإرسال الواقع بعد الإمساك لا لفرد منه فإنه آني لا امتداد له فلا يغيا، واعتبر بعضهم كون الغاية للجنس لئلا يرد لزوم أن لا يقع نوم بعد اليقظة الأولى أصلاً وهو حسن، وقيل: ﴿يرسل ﴾ مضمن معنى الحفظ والمراد يرسل الأخرى حافظاً إياها عن الموت الحقيقي إلى أجل مسمى، وروي عن ابن عباس أن في ابن آدم نفساً وروحاً بينهما مثل شعاع الشمس فالنفس هي التي بها العقل والتمييز والروح هي التي بها النفس والتحرك فيتوفيان عند الموت وتتوفى النفس وحدها عند النوم، وهو قول بالفرق بين النفس والروح، ونسبه بعضهم إلى الأكثرين ويعبر عن النفس بالنفس الناطقة وبالروح الأمرية وبالروح الإلهية، وعن الروح بالروح الحيوانية وكذا بالنفس الحيوانية، والثانية كالعرش للأولى، قال بعض الحكماء المتألهين إن القلب الصنوبري فيه بخار لطيف هو عرش للروح الحيوانية وحافظ لها وآلة يتوقف عليها آثارها، والروح الحيوانية عرش ومرآة للروح الإلهية التي هي النفس الناطقة وواسطة بينها وبين البدن بها يصل حكم تدبير النفس إليه، وإلى عدم التغاير ذهب جماعة، وهو قول ابن جبير واحد قولين لابن عباس، وما روي عنه أولاً في الآية يوافق ما ذكرناه من حيث إنّ النفس عليه ليست بمعنى الجملة كما قال الزمخشري وادعى أن الصحيح ما ذكره دون هذا المروي بدليل موتها ومنامها، والضمير للأنفس وما أريد منها غير متصف بالموت والنوم وإنما الجملة هي التي تتصف بهما.

وقال في الكشف ولأن الفرق بين النفسين رأي يدفعه البرهان، وإيقاع الاستيفاء أيضاً لا بد له من تأويل أيضاً فلا ينبغي أن يعدل عن المشهور الملائم يعني حمل التوفي على الأمانة فإن أصله أخذ الشيء من المستوفى منه وافياً كملاً وسلبه منه بالكلية ثم نقل عن ذلك إلى الإماتة لما أنه موجود فيها حتى صارت المتبادرة إلى الفهم منه، وفيه دغدغة، والذي يشهد له كثير من الآثار الصحيحة أن المتوفى في الأنفس التي تقابل الأبدان دون الجملة.

أخرج الشيخان في صحيحيهما عن أبي هريرة قال: «قال رسول الله ﷺ إذا أوى أحدكم إلى فراشه فلينفضه بداخلة إزاره فإنه لا يدري ما خلفه عليه ثم ليقل اللهم باسمك ربي وضعت جنبي وباسمك أرفعه إن أمسكت نفسي فارحمها وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به الصالحين من عبادك» وأخرج أحمد البخاري وأبو داود والنسائي وابن أبي شيبة عن أبي قتادة أن النبي ﷺ قال لهم ليلة الوادي: «إن الله تعالى قبض أرواحكم حين شاء وردها عليكم حين شاء» وأخرج ابن مردويه عن أنس بن مالك قال: «كنت مع النبي ﷺ في سفر فقال: من يكلؤنا الليلة؟ فقلت: أنا فنام ونام الناس ونمت فلم نستيقظ إلا بحرّ الشمس فقال رسول الله عليه الصلاة والسلام: أيها الناس إن هذه الأرواح عارية في أجساد العباد فيقبضها الله إذا شاء ويرسلها إذا شاء».

وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن سليم بن عامر أن عمر بن الخطاب قال: العجب من رؤيا الرجل أنه يبيت فيرى الشيء لم يخطر له على بال فتكون رؤياه كأخذ باليد ويرى الرجل الرؤيا فلا تكون رؤياه شيئاً فقال علي كرم تعالى وجهه: أفلا أخبرك بذلك يا أمير المؤمنين؟ يقول الله تعالى: **﴿الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى ﴾** فالله تعالى يتوفى الأنفس كلها فما

رأت وهي عنده سبحانه في السماء. فهي الرؤيا الصادقة وما رأت إذا أرسلت إلى أجسادها فهي الكاذبة لأنها إذا أرسلت إلى أجسادها تلقتها الشياطين في الهواء فكذبتها وأخبرتها بالأباطيل فكذبت فيها فعجب عمر من قوله رضي الله تعالى عنهما؛ وظاهر هذا الأثر أن النفس النائمة المقبوضة تكون في السماء حتى ترسل، ومثل ذلك مما يجب تأويله على القول بتجرد النفس ولا يجب على القول الآخر. نعم لعلك تختاره وكأنك تقول: إن النفس شريفة علوية هبطت من المحل الأرفع وأرسلت من حمى ممنع وشغلت بتدبير منزلها في نهارها وليلها ولم تزل تنتظر فرصة العود إلى ذياك الحمى والمحل الرفيع الأسمى وعند النوم تنتهز تلك الفرصة وتهون عليها في الجملة هاتيك الغصة فيحصل لها نوع توجه إلى عالم النور ومعلم السرور الخالي من الشرور بحيث تستعد استعداداً ما لقبول بعض آثاره والاستضاءة بشيء من أنواره وجعلها كذلك هو قبضها وبه لعمري بسطها وقبضها، فمتى رأت وهي راجعة في تلك الحال مستفيضة من ذلك العالم الموصوف بالكمال رؤيا كانت صادقة ومتى رأت وهي القهقرى إلى ما ابتليت به من تدبير منزل تحوم فيه شياطين الأوهام وتزدحم فيه أي ازدحام كانت رؤياها كاذبة ثم إنها في كلا الحالين متفاوتة الإفراد فيما يكون من الاستعداد، والوقوف على حقيقة الحال لا يتم إلا بالكشف دون القيل والقال ﴿**إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ**﴾ الإشارة إلى ما ذكر من التوفي والإمساك والإرسال، والإفراد لتأويله بالمذكور أو نحوه، وصيغة البعيد باعتبار مبدئه أو تقضي ذكره أو بعد منزلته، والتنوين في ﴿**آيات**﴾ للتكثير والتعظيم أي أن فيما ذكر الآيات كثيرة عظيمة دالة على كمال قدرته تعالى وحكمته وشمول رحمته سبحانه لقوم يتفكرون في كيفية تعلق الأنفس بالأبدان وتوفيها عنها تارة بالكلية عند الموت وإمساكها باقية لا تفنى بفنائها إلى أن يعيد الله تعالى الخلق وما يعتريها من السعادة والشقاوة وأخرى عن ظواهرها فقط كما عند النوم وإرسالها حيناً بعد حين إلى انقضاء آجالها.

﴿**أَمِ اتَّخَذُوا**﴾ أي بل اتخذ قريش ـ فأم ـ منقطعة والاستفهام المقدر لإنكار اتخاذهم ﴿**مِنْ دُونِ اللهِ شُفَعَاءَ**﴾ تشفع لهم عند الله تعالى في رفع العذاب، وقيل: في أمورهم الدنيوية والأخروية، وجوز كونها متصلة بتقدير معادل كما ذكره ابن الشيخ في حواشي البيضاوي وهو تكلف لا حاجة إليه، ومعنى ﴿**من دون الله**﴾ من دون رضاه أو إذنه لأنه سبحانه لا يشفع عنده إلا من إذن له ممن أرضاه ومثل هذه الجمادات الخسيسة ليست مرضية ولا مأذونة ولو لم يلاحظ هذا اقتضى أن الله تعالى شفيع ولا يطلق ذلك عليه سبحانه أو التقدير أم اتخذوا آلهة سواه تعالى لتشفع لهم وهو يؤول لما ذكر ﴿**قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئاً وَلَا يَعْقِلُونَ**﴾ أي أيشفعون حال تقدير عدم ملكهم شيئاً من الأشياء وعدم عقلهم إياه، وحاصله أيشفعون وهم جمادات لا تقدر ولا تعلم فالهمزة داخلة على محذوف والواو للحال والجملة حال من فاعل الفعل المحذوف. وذهب بعضهم إلى أنها للعطف على شرطية قد حذفت لدلالة ﴿**لو كانوا لا يملكون**﴾ الخ عليها أي أيشفعون لو كانوا يملكون شيئاً ويعقلون ولو كانوا لا يملكون شيئاً ولا يعقلون، والمعنى على الحالية أيضاً كأنه قيل: أيشفعون على كل حال، وقال بعض المحققين من النحاة: إنها اعتراضية ويعني بالجملة الاعتراضية ما يتوسط بين أجزاء الكلام متعلقاً به معنى مستأنفاً لفظاً على طريق الالتفات كقوله:

فأنت طلاق والطلاق ألية

وقوله:

ترى كل من فيها وحاشاك فانيا

وقد تجيء بعد تمام الكلام كقوله ﷺ: «أنا سيد ولد آدم ولا فخر» وفي احتياج أداة الشرط في مثل هذا التركيب إلى الجواب خلاف وعلى القول بالاحتياج هو محذوف لدلالة ما قبل عليه وتحقيق الأقوال في كتب العربية.

وجوز أن يكون مدخول الهمزة المحذوف هنا الاتخاذ أي قل لهم اتتخذونهم شفعاء ولو كانوا لا يملكون شيئاً من الأشياء فضلاً عن أن يملكوا الشفاعة عند الله تعالى ولا يعقلون ﴿قُلْ لله الشَّفَاعَةُ جَميعاً﴾ لعله كما قال الإمام رد لما يجيبون به وهو أن الشفعاء ليست الأصنام أنفسها بل أشخاص مقربون هي تماثيلهم، والمعنى أنه تعالى مالك الشفاعة كلها لا يستطيع أحد شفاعة ما إلا أن يكون المشفوع مرتضى والشفيع مأذوناً له وكلاهما مفقودان هاهنا، وقد يستدل بهذه الآية على وجود الشفاعة في الجملة يوم القيامة لأن الملك أن الاختصاص الذي هو مفاد اللام هنا يقتضي الوجود فالاستدلال بها على نفي الشفاعة مطلقاً في غاية الضعف.

وقوله تعالى: ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَات وَالأَرْض﴾ استئناف تعليلي لكون الشفاعة جميعاً له عزَّ وجلّ كأنه قيل: له ذلك لأنه جل وعلا مالك الملك كله فلا يتصرف أحد بشيء منه بدون إذنه ورضاه فالسماوات والأرض كناية عن كل ما سواه سبحانه، وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إلَيْه تُرْجَعُونَ﴾ عطف على قوله تعالى: ﴿له ملك﴾ الخ وكأنه تنصيص على مالكية الآخرة التي فيها معظم نفع الشفاعة وإيماء إلى انقطاع الملك الصوري عما سواه عزَّ وجلّ.

وجوز أن يكون عطفاً على قوله تعالى: ﴿لله الشفاعة﴾ وجعله في البحر تهديداً لهم كأنه قيل: ثم إليه ترجعون فتعلمون أنهم لا يشفعون لكم ويخيب سعيكم في عبادتهم، وتقديم ﴿إليه﴾ للفاصلة وللدلالة على الحصر إذ المعنى إليه تعالى لا إلى أحد غيره سبحانه لا استقلالاً ولا اشتراكاً ترجعون ﴿وَإذَا ذُكرَ اللَّهُ وَحْدَهُ﴾ أي مفرداً بالذكر ولم تذكر معه آلهتهم، وقيل: أي إذا قيل لا إله إلا الله ﴿اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذينَ لا يُؤْمنُونَ بالآخرَة﴾ أي انقبضت ونفرت كما في قوله تعالى: ﴿وإذا ذكرت ربك في القرآن وحده وَلَّوْا على أدبارهم نفوراً﴾ [الإسراء: ٧٦] ﴿وَإذَا ذُكرَ الَّذينَ منْ دُونه﴾ فرادى أو مع ذكر الله عزَّ وجلّ ﴿إذَا هُمْ يَسْتَبْشرُونَ﴾ لفرط افتتانهم بهم ونسيانهم حق الله تعالى، وقد بولغ في بيان حالهم القبيحة حيث بين الغاية فيهما فإن الاستبشار أن يمتلىء القلب سروراً حتى ينبسط له بشرة الوجه، والاشمئزاز أن يمتلىء غيظاً وغماً ينقبض عنه أديم الوجه كما يشاهد في وجه العابس المحزون، و ﴿إذا﴾ الأولى شرطية محلها النصب على الظرفية وعاملها الجواب عند الأكثرين وهو ﴿اشمأزت﴾ أو الفعل الذي يليها وهو ﴿ذكر﴾ عند أبي حيان وجماعة، وليست مضافة إلى الجملة التي تليها عندهم، وكذا ﴿إذا﴾ الثانية فالعامل فيها إما ﴿ذكر﴾ بعدها وإما ﴿يستبشرون﴾ و ﴿إذا﴾ الثالثة فجائية رابطة لجملة الجزاء بجملة الشرط كالفاء، فعلى القول بحرفيتها لا يعمل فيها شيء وعلى القول باسميتها وأنها ظرف زمان أو مكان عاملها هنا خبر المبتدأ بعدها، وقال الزمخشري: عاملها فعل مقدر مشتق من لفظ المفاجأة تقديره فاجاؤوا وقت الاستبشار فهي مفعول به، وجوز أن تكون فاعلاً على معنى فاجأهم وقت الاستبشار، وهذا الفعل المقدر هو جواب إذا الثانية فتتعلق به بناء على قول الأكثرين من أن العامل في إذا جوابها، ولا يلزم تعلق ظرفين بعامل واحد لأن الثاني منهما ليس منصوباً على الظرفية.

نعم قيل على الزمخشري: إنه لا سلف له فيما ذهب إليه، وأنت تعلم أن الرجل في العربية لا يقلد غيره، ومن العجيب قول الحوفي إن ﴿إذا﴾ الثالثة ظرفية جيء بها تكراراً لإذا قبلها وتوكيداً وقد حذف شرطها والتقدير إذا كان ذلك هم يستبشرون، ولا ينبغي أن يلتفت إليه أصلاً، والآية في شأن المشركين مطلقاً. وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس أنه فسر ﴿الذين لا يؤمنون بالآخرة﴾ بأبي جهل بن هشام والوليد بن عقبة وصفوان وأُبيّ بن خلف، وفسر ﴿الذين من دونه﴾ باللات والعزى وكأن ذلك تنصيص على بعض أفراد العام. وأخرج ابن المنذر وغيره عن مجاهد أن الآية حكت ما كان من المشركين يوم قرأ النبي ﷺ ﴿والنجم﴾ [النجم: ١] عند باب الكعبة: وهذا أيضاً لا ينافي العموم كما لا يخفى، وقد رأينا كثيراً من الناس على نحو هذه الصفة التي وصف الله تعالى بها المشركين يهشون

لذكر أموات يستغيثون بهم ويطلبون منهم ويطربون من سماع حكايات كاذبة عنهم توافق هواهم واعتقادهم فيهم ويعظمون من يحكي لهم ذلك وينقبضون من ذكر الله تعالى وحده ونسبة الاستقلال بالتصرف إليه عزّ وجلّ وسرد ما يدل على مزيد عظمته وجلاله وينفرون ممن يفعل ذلك كل النفرة وينسبونه إلى ما يكره، وقد قلت يوماً لرجل يستغيث في شدة ببعض الأموات وينادي يا فلان أغثني فقلت له: قل يا الله فقد قال سبحانه: ﴿وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان﴾ [البقرة: ١٨٦] فغضب وبلغني أنه قال: فلان منكر على الأولياء، وسمعت عن بعضهم أنه قال: الولي أسرع إجابة من الله عزّ وجلّ وهذا من الكفر بمكان نسأل الله تعالى أن يعصمنا من الزيغ والطغيان.

قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِى مَا كَانُوا۟ فِيهِ
يَخْتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ
ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا
كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤٨﴾ فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ ۚ
بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾ قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ
﴿٥٠﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ ۚ وَٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ هَٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَمَا هُم
بِمُعْجِزِينَ ﴿٥١﴾ أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ
﴿٥٢﴾ ۞ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ
هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ
﴿٥٤﴾ وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا
تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ
تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً
فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ
﴿٥٩﴾ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ
﴿٦٠﴾ وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦١﴾ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ
شَىْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾ لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ
هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٣﴾ قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن
قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾ وَمَا

قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾

﴿قُلِ اللَّهُمَّ فاطِرَ السَّماوَاتِ وَالأرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ والشَّهَادَةِ أنتَ تَحْكُمُ بيْنَ عِبادِكَ فيمَا كَانُوا فيه يَخْتلفُونَ﴾ أمر بالدعاء والالتجاء إلى الله تعالى لما قاساه في أمر دعوتهم وناله من شدة شكيمتهم في المكابرة والعناد فإنه تعالى القادر على الأشياء بجملتها والعالم بالأحوال برمتها، والمقصود من الأمر بذلك بيان حالهم ووعيدهم وتسلية حبيبه الأكرم ﷺ وأن جده وسعيه معلوم مشكور عنده عزَّ وجلّ وتعليم العباد الالتجاء إلى الله تعالى والدعاء بأسمائه العظمى، ولله تعالى در الربيع بن خيثم فإنه لما سئل عن قتل الحسين رضي الله تعالى عنه تأوه وتلا هذه الآية، فإذا ذكر لك شيء مما جرى بين الصحابة قل: **﴿اللهم فاطر السماوات﴾** الخ فإنه من الآداب التي ينبغي أن تحفظ، وتقديم المسند إليه في **﴿أنت تحكم﴾** للحصر أي أنت تحكم وحدك بين العباد فيما استمر اختلافهم فيه حكماً يسلمه كل مكابر معاند ويخضع له كل عاتٍ مارد وهو العذاب الدنيوي أو الأخروي، والمقصود من الحكم بين العباد الحكم بينه عليه الصلاة والسلام وبين هؤلاء الكفرة.

﴿وَلَوْ أنَّ للَّذينَ ظَلَمُوا ما فـي الأرض جَميعاً﴾ الخ قيل مستأنف مسوق لبيان آثار الحكم الذي استدعاه النبي ﷺ وغاية شدته وفظاعته أي لو أن لهم جميع ما في الدنيا من الأموال والذخائر **﴿وَمثْلَهُ مَعَهُ لافْتَدَوْا به من سُوء الْعَذَاب يَوْمَ القيَامَة﴾** أي لجعلوا كل ذلك فدية لأنفسهم من العذاب السيء الشديد وقيل الجملة معطوفة على مقدر والتقدير فأنا أحكم بينهم وأعذبهم ولو علموا ذلك ما فعلوا ما فعلوا، والأول أظهر، وليس المراد إثبات الشرطية بل التمثيل لحالهم بحال من يحاول التخلص والفداء مما هو فيه بما ذكر فلا يتقبل منه، وحاصله أن العذاب لازم لا يخلصون منه ولو فرض هذا المحال ففيه من الوعيد والإقناط ما لا يخفى.

وقوله تعالى: **﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ الله مَا لَـمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾** أي ظهر لهم من فنون العقوبات ما لم يكن في حسابهم زيادة مبالغة في الوعيد، ونظير ذلك في الوعد قوله تعالى: **﴿فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين﴾** [السجدة: ١٧] والجملة قيل: الظاهر أنها حال من فاعل **﴿افتدوا﴾**.

﴿وبَدَا لَهُمْ﴾ حين تعرض عليهم صحائفهم **﴿سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾** أي الذي كسبوه وعملوه على أن **﴿ما﴾** موصولة أو كسبهم وعملهم على أنها مصدرية، وإضافة **﴿سيئات﴾** على معنى من أو اللام **﴿وَحَاقَ﴾** أي أحاط **﴿بهِمْ مَا كَانُوا بهِ يَسْتَهْزئونَ﴾** أي جزاء ذلك على أن الكلام على تقدير المضاف أو على أن هناك مجازاً بذكر السبب وإرادة مسببه، و **﴿ما﴾** محتملة للموصولية والمصدرية أيضاً **﴿فَإذَا مَسَّ الإنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا﴾** إخبار عن الجنس بما يغلب فيه، وقيل: المراد بالإنسان حذيفة بن المغيرة، وقيل: الكفرة **﴿ثُمَّ إذَا خَوَّلْنَاهُ نعْمَةً منَّا﴾** أي أعطيناه إياها تفضلاً فإن التخويل على ما قيل مختص به لا يطلق على ما أعطي جزاء **﴿قَالَ إنَّمَا أُوتيتُهُ عَلَى علْم﴾** أي على علم مني بوجوه كسبه أو بأني سأعطاه لما لي من الاستحقاق أو على علم من الله تعالى بي وباستيجابي، وإنما للحصر أي ما أوتيته لشيء من الأشياء إلا لأجل علم، والهاء للنعمة، والتذكير لتأويلها بشيء من النعم، والقرينة على ذلك التنكير، وقيل: لأنها بمعنى الإنعام، وقيل: لأن المراد بها المال، وقيل: لأنها تشتمل على مذكر ومؤنث فغلب المذكر، وجوز أن يكون لما في **﴿إنما﴾** على أنها موصولة أي إن الذي أوتيته كائن على علم ويبعد موصوليتها كتابتها متصلة

في المصاحف ﴿بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ﴾ رد لقوله ذلك، والضمير للنعمة باعتبار لفظها كما أن الأول لها باعتبار معناها، واعتبار اللفظ بعد اعتبار المعنى جائز وإن كان الأكثر العكس، وجوز أن يكون التأنيث باعتبار الخبر، وقيل: هو ضمير الإتيانة وقرىء بالتذكير فهو للنعمة أيضاً كالذي مر أو للإتيان أي ليس الأمر كما يقول بل ما أوتيه امتحان له أيشكر أم يكفر، وأخبر عنه بالفتنة مع أنه آلة لها لقصد المبالغة، ونحو هذا يقال على تقدير عود الضمير للإتيانة أو الإتيان ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ إن الأمر كذلك وهذا ظاهر في أن المراد بالإنسان الجنس إذ لو أريد العهد لقيل لكنه لا يعلم أو لكنهم لا يعلمون وإرادة العهد هناك وإرجاع الضمير للمطلق هنا على أنه استخدام نظير عندي درهم ونصفه تكلف.

والفاء للعطف وما بعدها عاطف على قوله تعالى: ﴿وإذا ذكر الله وحده﴾ الخ وهي لترتيبه عليه والغرض منه التهكم والتحميق، وفيه ذمهم بالمناقضة والتعكيس حيث إنهم يشمئزون عن ذكر الله تعالى وحده ويستبشرون بذكر الآلهة فإذا مسهم ضر دعوا من اشمأزوا من ذكره دون من استبشروا بذكره، وهذا كما تقول: فلان يسيء إلى فلان فإذا احتاج سأله فأحسن إليه، ففي الفاء استعارة تبعية تهكمية، وقيل: يجوز أن تكون للسببية داخلة على السبب لأن ذكر المسبب يقتضي ذكر سببه لأن ظهور ما لم يكونوا يحتسبون الخ مسبب عما بعد الفاء إلا أنه يتكرر مع قوله تعالى الآتي: ﴿والذين ظلموا منهم﴾ إلى آخره إن لم يتغايرا بكون أحدهما في الدنيا والآخرة في الأخرى، وإلى ما قدمنا ذهب الزمخشري، والجمل الواقعة في البين عليه أعني قوله سبحانه: ﴿قل اللهم ـــ إلى - يستهزئون﴾ اعتراض مؤكد للإنكار عليهم، وزعم أبو حيان أن في ذلك تكلفاً واعتراضاً بأكثر من جملتين وأبو علي الفارسي لا يجيز الاعتراض بجملتين فكيف يجيزه بالأكثر، وأنا أقول: لا بأس بذلك لا سيما وقد تضمن معنى دقيقاً لطيفا، والفارسي محجوج بما ورد في كلام العرب من ذلك ﴿قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ ضمير ﴿قالها﴾ لقوله تعالى: ﴿إنما أوتيته على علم﴾ [القصص: ٧٨] لأنها كلمة أو جملة. وقرىء بالتذكير أي القول أو الكلام المذكور، والذين من قبلهم قارون وقومه فإنه قال ورضوا به فالإسناد من باب إسناد ما للبعض إلى الكل وهو مجاز عقلي.

وجوز أن يكون التجوز في الظرف فقالها الذين من قبلهم بمعنى شاعت فيهم، والشائع الأول، والمراد قالوا مثل هذه المقالة أو قالوها بعينها ولاتحاد صورة اللفظ تعد شيئاً واحداً في العرف ﴿فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ من متاع الدنيا ويجمعونه منه.

﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾ أي أصابهم جزاء سيئات كسبهم أو الذي كسبوه على أن الكلام بتقدير مضاف أو أنه تجوز بالسيئات عما تسبب عنها وقد يقال لجزاء السيئة سيئة مشاكلة نحو قوله تعالى: ﴿وجزاء سيئة سيئة مثلها﴾ فيكون ما هنا من المشاكلة التقديرية، وإذا كان المعنى على جعل جزاء جميع ما كسبوا سيئاً دل الكلام على أن جميع ما كسبوا سيء إذ لو كان فيه حسن جوزي عليه جزاء حسناً، وفيه من ذمهم ما فيه.

﴿وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلاءِ﴾ المشركين، و ﴿من﴾ للبيان فإنهم كلهم كانوا ظالمين إذا الشرك ظلم عظيم أو للتبعيض فالمراد بالذين ظلموا من أصر على الظلم حتى تصيبهم قارعة وهم بعض منهم ﴿سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾ كما أصاب الذين من قبلهم، والمراد به العذاب الدنيوي وقد قحطوا سبع سنين، وقتل ببدر صناديدهم وقيل العذاب الأخروي، وقيل: الأعم، ورجح الأول بأنه الأوفق للسياق، وأشير بقوله تعالى: ﴿وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ أي بفائتين على ما قيل إلى العذاب الأخروي.

﴿أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ أن يبسطه له ﴿وَيَقْدِرُ﴾ لمن يشاء أن يقدر له من غير أن

يكون لأحد ما مدخل في ذلك حيث حبس عنهم الرزق سبعاً ثم بسطه لهم سبعاً ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ الذي ذكر ﴿لَآيَاتٍ﴾ دالة على أن الحوادث كافة من الله تعالى شأنه والأسباب في الحقيقة ملغاة ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ إذ هم المستدلون بها على مدلولاتها ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ﴾ أي أفرطوا في المعاصي جائين عليها، وأصل الإسراف الإفراط في صرف المال ثم استعمل فيما ذكر مجازاً بمرتبتين على ما قيل، وقال الراغب: هو تجاوز الحد في كل فعل يفعله الإنسان وإن كان ذلك في الإنفاق أشهر وهذا ظاهر في أنه حقيقة فيما ذكرنا وهو حسن.

وضمن معنى الجناية ليصح تعديه بعلى والمضمن لا يلزم فيه أن يكون معناه حقيقياً، وقيل: هو مضمن معنى الحمل، وحمل غير واحد الإضافة في ﴿عِبَادِيَ﴾ على العهد أو على التشريف، وذهبوا إلى أن المراد بالعباد المؤمنون وقد غلب استعماله فيهم مضافاً إليه عزَّ وجلّ في القرآن العظيم فكأنه قيل: أيها المؤمنون المذنبون ﴿لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ﴾ أي لا تيأسوا من مغفرته سبحانه وتفضله عزَّ وجلّ على أن المغفرة مدرجة في الرحمة أو أن الرحمة مستلزمة لها لأنه لا يتصور الرحمة لمن لم يغفر له، وتعليل النهي بقوله تعالى:

﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً﴾ يقتضي دخولها في المعلل، والتذييل بقوله سبحانه: ﴿إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ كالصريح في ذلك، وجوز أن يكون في الكلام صنعة الاحتباك كأنه قيل: لا تقنطوا من رحمة الله ومغفرته إن الله يغفر الذنوب جميعاً ويرحم، وفيه بُعد، وقالوا: المراد بمغفرة الذنوب التجافي عنها وعدم المؤاخذة بها في الظاهر والباطن وهو المراد بسترها، وقيل: المراد بها محوها من الصحائف بالكلية مع التجافي عنها وأن الظاهر إطلاق الحكم وتقييده بالتوبة خلاف الظاهر كيف لا وقوله تعالى: ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾ [النساء: ٤٨] ظاهر في الإطلاق فيما عدا الشرك، ويشهد للإطلاق أيضاً أمور، الأول نداؤهم بعنوان العبودية فإنها تقتضي المذلة وهي أنسب بحال العاصي إذا لم يتب واقتضاؤها للترحم ظاهر. الثاني الاختصار الذي تشعر به الإضافة إلى ضميره تعالى فإن السيد من شأنه أن يرحم عبده ويشفق عليه. الثالث تخصيص ضرر الإسراف المشعرة به «على» بأنفسهم فكأنه قيل: ضرر الذنوب عائد عليهم لا علي فيكفي ذلك من غير ضرر آخر كما في المثل أحسن إلى من أساء كفى المسيء إساءته، فالعبد إذا أساء ووقف بين يدي سيده ذليلاً خائفاً عالماً بسخط سيده عليه ناظراً لإكرام غيره ممن أطاع لحقه ضرر إذ استحقاق العقاب عقاب عند ذوي الألباب.

الرابع النهي عن القنوط مطلقاً عن الرحمة فضلاً عن المغفرة وإطلاقها. الخامس إضافة الرحمة إلى الاسم الجليل المحتوي على جميع معاني الأسماء على طريق الالتفات فإن ذلك ظاهر في سعتها وهو ظاهر في شمولها التائب وغيره. السادس التعليل بقوله تعالى ﴿إن الله﴾ الخ فإن التعليل يحسن مع الاستبعاد وترك القنوط من الرحمة مع عدم التوبة أكثر استبعاداً من تركه مع التوبة. السابع وضع الاسم الجليل فيه موضع الضمير لإشعاره بأن المغفرة من مقتضيات ذاته لا لشيء آخر من توبة أو غيرها. الثامن تعريف الذنوب فإنه في مقام التمدح ظاهر في الاستغراق فتشمل الذنب الذي يعقبه التوبة والذي لا تعقبه. التاسع التأكيد بالجميع. العاشر التعليل ـ بأنه هو ـ الخ. الحادي عشر التعبير بالغفور فإنه صيغة مبالغة وهي إن كانت باعتبار الكم شملت المغفرة جميع الذنوب أو باعتبار الكيف شملت الكبائر بدون توبة. الثاني عشر حذف معمول ﴿الغفور﴾ فإن حذف المعمول يفيد العموم. الثالث عشر إفادة الجملة الحصر فإن من المعلوم أن الغفران قد يوصف به غيره تعالى فالمحصور فيه سبحانه إنما هو الكامل العظيم وهو ما يكون بلا توبة الرابع عشر المبالغة في ذلك الحصر.

الخامس عشر الوعد بالرحمة بعد المغفرة فإنه مشعر بأن العبد غير مستحق للمغفرة لولا رحمته وهو ظاهر فيما

إذا لم يتب. السادس عشر التعبير بصيغة المبالغة فيها. السابع عشر إطلاقها، ومنع المعتزلة مغفرة الكبائر والعفو عنها من غير توبة وقالوا: إنها وردت في غير موضع من القرآن الكريم مقيدة بالتوبة فإطلاقها هنا يحمل على التقييد لاتحاد الواقعة وعدم احتمال النسخ، وكون القرآن في حكم كلام واحد، وأيدوا ذلك بقوله تعالى: ﴿**وَأَنيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لا تُنْصَرُونَ**﴾ فإنه عطف على ألا تقنطوا والتعليل معترض، وبعد تسليم حديث حمل الإطلاق على التقييد يكون عطفاً لتتميم الإيضاح كأنه قيل: لاتقنطوا من رحمة الله تعالى فتظنوا أنه لا يقبل توبتكم وأنيبوا إليه تعالى وأخلصوا له عزَّ وجلّ.

وأجاب بعض الجماعة بمنع وجوب حمل الإطلاق على التقييد في كلام واحد نحو أكرم الفضلاء أكرم الكاملين فضلاً عن كلام لا يسلم كونه في حكم كلام واحد وحينئذٍ لا يكون المعطوف شرطاً للمعطوف عليه إذ ليس من تتمته، وقيل: إن الأمر بالتوبة والإخلاص لا يخل بالإطلاق إذ ليس المدعي أن الآية تدل على حصول المغفرة لكل أحد من غير توبة وسبق تعذيب لتغني عن الأمر بهما وتنافي الوعيد بالعذاب.

وقال بعض أجلة المدققين: إن قوله تعالى: ﴿**يا عبادي الذين أسرفوا**﴾ خطاب للكافرين والعاصين وإن كان المقصود الأولى الكفار لمكان القرب وسبب النزول، فقد أخرج ابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس أنه قال: إن أهل مكة قالوا: يزعم محمد ﷺ أنه من عبد الأوثان ودعا مع الله تعالى إلهاً آخر وقتل النفس التي حرم الله لم يغفر له فكيف تهاجر وتسلم وقد عبدنا الآلهة وقتلنا النفس ونحن أهل شرك فأنزل الله تعالى ﴿**قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم**﴾ الخ.

وأخرج ابن جرير عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: نزلت هذه الآيات في عياش بن أبي ربيعة والوليد بن الوليد ونفر من المسلمين كانوا أسلموا ثم فتنوا وعذبوا فافتتنوا فكنا نقول: لا يقبل الله تعالى من هؤلاء صرفاً ولا عدلاً أبداً أقوام أسلموا ثم تركوا دينهم بعذاب عذبوه فنزلت هؤلاء الآيات وكان عمر رضي الله تعالى عنه كاتباً فكتبها بيده ثم كتب بها إلى عياش وإلى الوليد وإلى أولئك النفر فأسلموا وهاجروا.

وأخرج ابن جرير عن عطاء بن يسار قال: نزلت هذه الآيات الثلاث ﴿**قل يا عبادي — إلى - وأنتم لا تشعرون**﴾ بالمدينة في وحشي وأصحابه ونحلل قوله تعالى: ﴿**إن الله يغفر الذنوب جميعاً**﴾ بين المعطوفين تعليلاً للجزء الأول قبل الوصول إلى الثاني للدلالة على سعة رحمته تعالى وأن مثله حقيق بأن يرجى وإن عظم الذنب لا سيما وقد عقب بقوله تعالى: ﴿**إنه هو**﴾ الآية الدال على انحصار الغفران والرحمة على الوجه الأبلغ فالوجه أن يجري على عمومه ليناسب عموم الصدر ولا يقيد بالتوبة لئلا ينافي غرض التخلل مع أنه جمع محلى باللام، وقد أكد بما صار نصاً في الاستغراق، ولا يغني المعتزلي أن القرآن العظيم كالكلام الواحد وأنه سليم من التناقض بل يضره، وكذلك ما ذكر من أسباب النزول انتهى، وقد تضمن الإشارة إلى بعض مؤكدات الإطلاق التي حكيناها آنفاً والذي يترجح فى نظري ما اختاره من عموم الخطاب في ﴿**يا عبادي**﴾ للعاصين والكافرين، وأمر الإضافة سهل، وإن قوله تعالى: ﴿**إن الله يغفر الذنوب جميعاً**﴾ مقيد بلمن يشاء بقرينة التصريح به في قراءة عبدالله هنا، وكون الأمور كلها معلقة بالمشيئة ولا نسلم أن متعلق المشيئة التائب وحده، وكونها تابعة للحكمة على تقدير صحته لا ينفع إذ دون إثبات كون المغفرة لغير التائب منافية للحكمة خرط القتاد. نعم لا تتعلق بالمشرك ما لم يؤمن لقوله تعالى: ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به﴾ [النساء: ٤٨] فمغفرة الشرك مشروطة بالإيمان داخل فيمن يشاء لكن بالشرط المعروف، واعتبار الشرط فيه لا يضر في عدم اعتبار شرط التوبة في العاصي بما دونه.

ويشهد لذلك ما أخرجه الإمام أحمد في مسنده. وابن جرير وابن أبي حاتم. وابن مردويه. والبيهقي في شعب الإيمان عن ثوبان قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما أحب أن لي الدنيا وما فيها بهذه الآية يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم إلى آخر الآية فقال رجل: يا رسول الله ومن أشرك؟ فسكت النبي ﷺ ساعة ثم قال: إلا ومن أشرك ثلاث مرات» لا يقال المغفرة لمن أشرك بشرط الإسلام أمر واضح فلا يجوز أن تخفى على السائل وعليه عليه الصلاة والسلام حتى يسكت لانتظار الوحي أو الاجتهاد لأنا نقول: السؤال للاستبعاد من حيث العادة والسكوت لتعليم سلوك طريق التأني والتدبر وإن كان الأمر واضحاً.

وقيل: الظاهر أنه لانتظار الإذن أو الاجتهاد في التصريح بعموم المغفرة فإنهم ربما اتكلوا على ذلك فيخشى التفريط في العمل وهو لا ينافي التعليم فإنه عليه الصلاة والسلام إنما يعلمهم التدبر بعد أن يتدبر هو في نفسه ﷺ. وزعم أن الحديث دال على اشتراط التوبة ليس بشيء، ويؤيد إطلاق المغفرة عن قيد التوبة ما أخرجه الإمام أحمد وعبد ابن حميد وأبو داود والترمذي وحسنه وابن المنذر وابن الأنباري في المصاحف والحاكم وابن مردويه عن أسماء بنت يزيد قالت: «سمعت رسول الله ﷺ يقرأ يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً ولا يبالي إنه هو الغفور الرحيم» فإنه ليس للا يبالي كثير حسن إن كانت المغفرة مشروطة بالتوبة كما لا يخفى، وكذا ما أخرجه ابن جرير عن ابن سيرين قال: قال علي كرم الله تعالى وجهه أي آية أوسع؟ فجعلوا يذكرون آيات من القرآن ﴿من يعمل سوءاً أو يظلم نفسه﴾ [النساء: ١١٠] الآية ونحوها فقال علي كرم الله تعالى وجهه: ما في القرآن أوسع آية من ﴿**يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم**﴾ الآية.

والمؤكدات السابقة أعني السبعة عشر لا يخلو بعضها عن بحث، والظاهر أن مغفرة ذنب لا تجامع العذاب عليه أصلاً، وذهب بعضهم إلى أنها تجامعه إذا كان أنقص من الذنب لا إذا كان بمقداره فمن عذب بمقدار ذنبه في النار، وأخرج منها لا يقال إنه غفر له إذ السيئات إنما تجزى بأمثالها، وقيل: تجامعه مطلقاً وكون السيئات لا تجزى إلا بأمثالها بلطفه تعالى أيضاً فهو نوع من عفوه عزّ وجلّ وفيه ما فيه فتأمل، وأصل الإنابة الرجوع.

ومعنى ﴿**وأنيبوا إلى ربكم**﴾ الخ أي ارجعوا إليه سبحانه بالإعراض عن معاصيه والندم عليها، وقيل: بالانقطاع إليه تعالى بالعبادة وذكر الرب كالتنبيه على العلة، وقال القشيري: الإنابة الرجوع بالكلية، والفرق بين الإنابة والتوبة أن التائب يرجع من خوف العقوبة والمنيب يرجع استحياء لكرمه تعالى، والإسلام له سبحانه الإخلاص في طاعاته عزّ وجلّ، وذكر أن الإخلاص بعد الإنابة أن يعلم العبد أن نجاته بفضل الله تعالى لا بإنابته فبفضله سبحانه وصل إلى إنابته لا بإنابته وصل إلى فضله جل فضله. وعن ابن عباس من حديث أخرجه ابن جرير وابن المنذر عنه «من آيس العباد من التوبة فقد جحد كتاب الله تعالى ولكن لا يقدر العبد أن يتوب حتى يتوب الله تعالى عليه» ﴿**وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُم مِّنْ رَّبِّكُمْ**﴾ الظاهر أنه خطاب للعباد المخاطبين فيما تقدم سواء أريد بهم المؤمنون أو ما يعمهم والكافرين، والمراد بما أنزل القرآن وهو كما أنزل إلى المؤمنين أنزل إلى الكافرين ضرورة أنه أنزل عليه ﷺ لدعوة الناس كافة، والمراد بأحسنه ما تضمن الإرشاد إلى خير الدارين دون القصص ونحوها أو المأمور به أو العزائم أو الناسخ، وأفعل على الأول والثالث على ظاهره وعلى الثاني والرابع فيه احتمالان؛ وقيل: لعل الأحسن ما هو أنجى وأسلم كالإنابة والمواظبة على الطاعة وأفعل فيه على ظاهره أيضاً، وجوز أن يكون الخطاب للجنس، والمراد بما أنزل الكتب السماوية وبأحسنه القرآن، وفيه ارتكاب خلاف الظاهر، وفي ذكر الرب ترغيب في الاتباع ﴿**مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً**﴾

أي فجأة ﴿وَأَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ﴾ لا تعلمون أصلاً بمجيئة فتتداركون ما يدفعه ﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ﴾ في موضع المفعول له بتقدير مضاف، وقدره الزمخشري كراهة وهو منصوب بفعل محذوف يدل عليه ما قبل أي أنذركم وأمركم بأحسن ما أنزل إليكم كراهة أن تقول، ومن لا يشترط للنصب اتحاد الفاعل يجوز كون الناصب ﴿أنيبوا﴾ أو ﴿اتبعوا﴾ وأياً ما كان فهذه الكراهة مقابل الرضا دون الإرادة فلا اعتزال في تقديرها، وهو أولى من تقدير مخافة كما فعل الحوفي حيث قال: أي أنذرناكم مخافة أن تقول، وابن عطية جعل العامل ﴿أنيبوا﴾ ولم يقدر شيئاً من الكراهة والمخافة حيث قال: أي أنيبوا من أجل أن تقول، وذهب بعض النحاة إلى أن التقدير لئلا تقول؛ وتنكير ﴿نفس﴾ للتكثير بقرينة المقام كما في قول الأعشى:

ورب بـقـيـع لـو هـتـفـت بـجـوه ... أتـانـي كـريم ينـفـض الرأس مـغـضـبـا

فإنه أراد أفواجاً من الكرام ينصرونه لا كريماً واحداً، وجوز أن يكون للتبعيض لأن القائل بعض الأنفس واستظهره أبو حيان، قيل: ويكفي ذلك في الوعيد لأن كل نفس يحتمل أن تكون تلك، وجوز أيضاً أن يكون للتعظيم أي نفس متميزة من الأنفس اما بلجاج في الكفر شديد أو بعذاب عظيم، وليس بذاك ﴿يَا حَسْرَتَى﴾ بالألف بدل ياء الإضافة، والمعنى كما قال سيبويه يا حسرتي احضري فهذا وقتك. وقرأ ابن كثير في الوقف «يا حسرتاه» بهاء السكت. وقرأ أبو جعفر «يا حسرتي» بياء الإضافة، وعنه «يا حسرتاي» بالألف والياء التحتية مفتوحة أو ساكنة جمعاً بين العوض والمعوض كذا قيل، ولا يخفى أن مثل هذا غير جائز اللهم إلا شاذاً استعمالاً وقياساً، فالأوجه أن يكون ثنى الحسرة مبالغة على نحو لبيك وسعديك وأقام بين ظهريهم وظهرانيهم على لغة بلحارث بن كعب من إبقاء المثنى على الألف في الأحوال كلها، واختار ذلك صاحب الكشف، وجوز أبو الفضل الرازي أيضاً في كتابه اللوامح أن تكون التثنية على ظاهرها على تلك اللغة؛ والمراد حسرة فوت الجنة وحسرة دخول النار، واعتبار التكثير أولى لكثرة حسراتهم يوم القيامة ﴿عَلَى مَا فَرَّطْتُ﴾ أي بسبب تفريطي ـ فعلى ـ تعليلية و ﴿ما﴾ مصدرية كما في قوله تعالى: ﴿ولتكبروا الله على ما هداكم﴾ [البقرة: ١٨٥] والتفريط التقصير ﴿فِي جَنْبِ الله﴾ أي جانبه، قال الراغب: أصل الجنب الجارحة ثم يستعار للناحية والجهة التي تليها كعادتهم في استعارة سائر الجوارح لذلك نحو اليمين والشمال، والمراد هنا الجهة مجازاً، والكلام على حذف مضاف أي في جنب طاعة الله أو في حقه تعالى أي ما يحق له سبحانه ويلزم وهو طاعته عزَّ وجلّ؛ وعلى ذلك قول سابق البربري من شعراء الحماسة:

أما تـتـقـين الله فـي جـنـب عـاشـق ... لـه كـبـد حـرى عـلـيـك تـقـطـع

والتفريط في جهة الطاعة كناية عن التفريط في الطاعة نفسها لأن من ضيع جهة ضيع ما فيها بطريق الأولى الأبلغ لكونه بطريق برهاني، ونظير ذلك قول زياد الأعجم:

إن الـسـمـاحـة والـمـروءة والـنـدى ... فـي قبـة ضربـت عـلى ابن الـحـشـرج

ولا مانع من أن يكون للطاعة وكذا حق الله تعالى بمعنى طاعته سبحانه جهة بالتبعية للمطيع كمكان السماحة وما معها في البيت، ومما ذكرنا يعلم أنه لا مانع من الكناية كما توهم، وقال الإمام: سمي الجنب جنباً لأنه جانب من جوانب الشيء، والشيء الذي يكون من لوازم الشيء وتوابعه يكون كأنه جند من جنوده وجانب من جوانبه فلما حصلت المشابهة بين الجنب الذي هو العضو وبين ما يكون لازماً للشيء وتابعاً له لا جرم حسن إطلاق لفظ الجنب على الحق والأمر والطاعة انتهى. وجعلوا في الكلام عليه استعارة تصريحية وليس هناك مضاف مقدر، وليس بذاك. وقول ابن عباس: يريد على ما ضيعت من ثواب الله، ومقاتل: على ما ضيعت من ذكر الله؛ ومجاهد والسدي: على ما

فرطت في أمر الله، والحسن: في طاعة الله، وسعيد بن جبير: في حق الله بيان لحاصل المعنى، وقيل: الجنب مجاز عن الذات كالجانب أو المجلس يستعمل مجازاً لربه، فيكون المعنى على ما فرطت في ذات الله. وضعف بأن الجنب لا يليق إطلاقه عليه تعالى ولو مجازاً، وركاكته ظاهرة أيضاً، وقيل: هو مجاز عن القرب أي على ما فرطت في قرب الله. وضعف بأنه محتاج إلى تجوز آخر، ويرجع الأمر في الآخرة إلى طاعة الله تعالى ونحوها. وبالجملة لا يمكن إبقاء الكلام على حقيقته لتنزهه عزَّ وجلّ من الجنب بالمعنى الحقيقي.

ولم أقف على عد أحد من السلف إياه من الصفات السمعية، ولا أعول على ما في المواقف، وعلى فرض العد كلامهم فيها شهير وكلهم مجمعون على التنزيه وسبحان من ليس كمثله شيء وهو السميع البصير، وفي حرف عبد الله وحفصة «في ذكر الله» ﴿وَإِنْ كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ﴾ أي المستهزئين بدين الله تعالى وأهله، و ﴿إن﴾ هي المخففة من الثقيلة واللام هي الفارقة والجملة في محل النصب على الحال عند الزمخشري أي فرطت في حال سخريتي.

وقال في البحر: ويظهر أنها استئناف إخبار عن نفسه بما كان عليه في الدنيا لا حال، والمقصود من ذلك الإخبار التحسر والتحزن ﴿أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ أي من الشرك والمعاصي.

وفسر غير واحد الهداية هنا بالإرشاد والدلالة الموصولة بناء على أنه الأنسب بالشرطية والمطابق للرد بقوله سبحانه: ﴿بلى﴾ الخ، وفسرها أبو حيان بخلق الاهتداء. وأياً ما كان فالظاهر أن هذه المقالة في الآخرة.

﴿أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً﴾ أي رجوعاً إلى الحياة الدنيا ﴿فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ في العقيدة والعمل، و ﴿لو﴾ للتمني ﴿فأكون﴾ منصوب في جوابها، وجوز في البحر أن يكون منتصباً بالعطف على ﴿كرة﴾ إذ هو مصدر فيكون مثل قوله:

فما لك عنها غير ذكرى وحسرة ... وتسأل عن ركبانها أين يمموا

وقول الآخر:

ولبس عباءة وتقر عيني ... أحب لي من لبس الشفوف

ثم قال: والفرق بينهما أن الفاء إذا كانت في جواب التمني كانت أن واجبة الاضمار وكان الكون مترتبا على حصول المتمني لا متمنى، وإذا كانت للعطف على ﴿كرة﴾ جاز إظهار أن وإضمارها وكان الكون متمنى.

وقوله تعالى: ﴿بَلَى قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ جواب من الله عزَّ وجلّ لما تضمنه قول القائل ﴿لو أن الله هداني﴾ من نفي أن يكون الله تعالى هداه ورد عليه، ولا يشترط في الجواب ببلى تقدم النفي صريحاً وقد وقع في موقعه اللائق به لأنه لو قدم على القرينة الأخيرة أعني ﴿أو تقول حين ترى العذاب﴾ الخ وأوقع بعده غير مفصول بينهما بها لم يحسن لتبتير النظم الجليل. فإن القرائن الثلاثة متناسبة متناسقة متلاصقة، والتناسب بينهن أتم من التناسب بين القرينة الثانية وجوابها، ولو أخرت القرينة الثانية وجعلت الثالثة ثانية لم يحسن أيضاً لأن رعاية الترتيب المعنوي وهي أهم تفوت إذ ذاك، وذلك لأن التحسر على التفريط عند تطاير الصحف على ما يدل عليه مواضع من القرآن العظيم، والتعلل بعدم الهداية إنما يكون بعد مشاهدة حال المتقين واغتباطهم، ولأنه للتسلي عن بعض التحسر أو من باب تمسك الغريق فهو لاحق وتمنى الرجوع بعد ذوق النار، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿إذ وقفوا على الناس فقالوا يا ليتنا نرد ولا نكذب﴾ [الأنعام: ٢٧] وكذلك لو حمل الوقوف على الحبس على شفيرها أو مشاهدتها، وكل بعد مشاهدة حال المتقين وما لقوا من خفة الحساب والتكريم في الموقف، ولأن اللجأ إلى التمني بعد تحقق أن لا جدوى للتعليل.

وقال الطيبي: إن النفس عند رؤية أهوال يوم القيامة يرى الناس مجزيين بأعمالهم فيتحسر على تفويت الأعمال عليها ثم قد يتعلل بأن التقصير لم يكن مني فإذا نظر وعلم أن التقصير كان منه تمنى الرجوع، ثم الظاهر من السياق أن النفوس جمعت بين الأقوال الثلاثة ـ فاو ـ لمنع الخلو، وجيء بها تنبيهاً على أن كل واحد يكفي صارفاً عن إيثار الكفر وداعياً إلى الإنابة واتباع أحسن ما أنزل وتذكير الخطاب في ﴿**جاءتك**﴾ الخ على المعنى لأن المراد بالنفس الشخص وإن كان لفظها مؤنثاً سماعياً.

وقرأ ابن يعمر والجحدري وأبو حيوة والزعفراني وابن مقسم ومسعود بن صالح والشافعي عن ابن كثير ومحمد ابن عيسى في اختياره. والعبسي «جاءتك» الخ بكسر الكاف والتاء، وهي قراءة أبي بكر الصديق وابنته عائشة رضي الله تعالى عنهما، وروتها أم سلمة عن النبي ﷺ.

وقرأ الحسن والأعمش والأعرج «جاءتك» بالهمز من غير مد بوزن فعتك، وهو على ما قال أبو حيان: مقلوب من جاءتك قدمت لام الكلمة وأخرت العين فسقطت الألف واستدل المعتزلة بالآية على أن العبد خالق لأفعاله. وأجاب الأشاعرة بأن إسناد الأفعال إلى العبد باعتبار قدرته الكاسبة. وحقق الكوراني أنه باعتبار قدرته المؤثرة بإذن الله عزَّ وجلّ لا كما ذهب إليه المعتزلة من أنه باعتبار قدرته المؤثرة أذن الله تعالى أم لم يأذن.

﴿**وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ**﴾ بما ينالهم من الشدة التي تغير ألوانهم حقيقة، ولا مانع من أن يجعل سواد الوجوه حقيقة علامة لهم غير مترتب على ما ينالهم، وجوز أن يكون ذلك من باب المجاز لا أنها تكون مسودة حقيقة بأن يقال: إنهم لما يلحقهم من الكآبة ويظهر عليهم من آثار الجهل بالله عزَّ وجلّ يتوهم فيهم ذلك. والظاهر أن الرؤية بصرية والخطاب إما لسيد المخاطبين عليه الصلاة والسلام، وإما لكل من تتأتى منه الرؤية، وجملة ﴿**وجوههم مسودة**﴾ في موضع الحال على ما استظهره أبو حيان، وكون المقصود رؤية سواد وجوههم لا ينافي الحالية كما توهم لأن القيد مصب الفائدة، ولا بأس بترك الواو والاكتفاء بالضمير فيها لا سيما وفي ذكرها هاهنا اجتماع واوين وهو مستثقل. وزعم الفراء شذوذ ذلك، ومن سلمه جعل الجملة هنا بدلاً من ﴿**الذين**﴾ كما ذهب إليه الزجاج، وهم جوزوا إبدال الجملة من المفرد، أو مستأنفة كالبيان لما أشعرت به الجملة قبلها وأدركه الذوق السليم منها من سوء حالهم، أو جعل الرؤية علمية والجملة في موضع الثاني، وأيد بأنه قرىء «وُجُوْهُهُمْ مُسْوَدَّةً» بنصبهما على أن ﴿**وجوههم**﴾ مفعول ثان و ﴿**مسودة**﴾ حال منه. وأنت تعلم أن اعتبار الرؤية بصرية أبلغ في تفضيحهم وتشعير فظاعة حالهم لا سيما مع عموم الخطاب، والنصب في القراءة الشاذة يجوز أن يكون على الإبدال، والمراد بالذين ظلموا أولئك القائلون المتحسرون فهو من باب إقامة الظاهر مقام المضمر، وينطبق على ذلك أشد الانطباق قوله تعالى: ﴿**أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى**﴾ أي مقام ﴿**لِلْمُتَكَبِّرِينَ**﴾ الذين جاءتهم آيات الله فكذبوا بها واستكبروا عن قبولها والانقياد لها، وهو تقرير لرؤيتهم كذلك، وينطبق عليه أيضاً قوله الآتي: ﴿**وينجي**﴾ الخ.

وكذبهم على الله تعالى لوصفهم له سبحانه بأن له شريكاً ونحو ذلك تعالى عما يصفون علواً كبيراً، وقيل: لوصفهم له تعالى بما لا يليق في الدنيا وقولهم في الأخرى: ﴿**لو أن الله هداني**﴾ المتضمن دعوى أن الله سبحانه لم يهدهم ولم يرشدهم، وقيل: هم أهل الكتابين، وعن الحسن أنهم القدرية القائلون إن شئنا فعلنا وإن لم يشأ الله تعالى وإن شئنا لم نفعل وإن شاء الله سبحانه؛ وقيل: المراد كل من كذب على الله تعالى ووصفه بما لا يليق به سبحانه نفياً وإثباتاً فأضاف إليه ما يجب تنزيهه تعالى عنه أو نزهه سبحانه عما يجب أن يضاف إليه، وحكي ذلك عن القاضي وظاهره يقتضي تكفير كثير من أهل القبلة، وفيه ما فيه، والأوفق لنظم الآية الكريمة ما قدمنا، ولا يبعد أن يكون حكم كل من كذب على الله تعالى عالماً بأنه كذب عليه سبحانه أو غير عالم لكنه مستند إلى شبهة واهية كذلك؛ وكلام

الحسن إن صح لا أظنه إلا من باب التمثيل، وتعريض الزمخشري بأهل الحق بما عرض خارج عن دائرة العدل فما ذهبوا إليه ليس من الكذب على الله تعالى في شيء، والكذب فيه وفي أصحابه ظاهر جداً. وقرأ أبي «أجوههم» بإبدال الواو همزة ﴿وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ ما اتصف به أولئك المتكبرون من جهنم. وقرىء «يُنْجِي» بالتخفيف من الإنجاء ﴿بِمَفَازَتِهِمْ﴾ اسم مصدر كالفلاح على ما في الكشف أو مصدر ميمي على ما في غيره من فاز بكذا إذا أفلح به وظفر بمراده منه، وقال الراغب: هي مصدر فاز أو اسم الفوز ويراد بها الظفر بالبغية على أتم وجه كالفلاح وبه فسرها السدي، والباء للملابسة متعلقة بمحذوف هو حال من الموصول مفيدة لمقارنة تنجيتهم من العذاب لنيل الثواب أي ينجيهم الله تعالى من جهنم مثوى المتكبرين لتقواهم مما اتصف المتكبرون به ملتبسين بفلاحهم وظفرهم بالبغية وهي الجنة، ومآله ينجيهم من النار ويدخلهم الجنة، وكون الجنة بغية المتقي كائناً من كان مما لا شبهة فيه. نعم هي بغية لبعض المتقين من حيث إنها محل رؤية محبوبهم التي هي غاية مطلوبهم ولك أن تعمم البغية، وقوله تعالى: ﴿لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ في موضع الحال أيضاً إما من الموصول أو من ضمير ﴿مفازتهم﴾ مفيدة لكونهم مع التنجية أو الفوز منفياً عنهم على الدوام مساس جنس السوء والحزن، والظاهر أن هذه الحال مقدرة، وقيل: إنها مقارنة مفيدة لكون تنجيتهم أو مفازتهم بالجنة غير مسبوقة بمساس العذاب والحزن، ولا يخفى أنه لا يتسنى بالنسبة إلى جميع المتقين إذ منهم من يمسه العذاب ويحزن لا محالة، وعد وجود ذلك لقلته وانقطاعه كلا وجود تكلف بعيد، وجوز أن يراد بالمفازة الفلاح ويجعل قوله تعالى: ﴿لا يمسهم﴾ الخ استئنافاً لبيانها كأنه قيل: ما مفازتهم؟ فقيل: لا يمسهم الخ.

والباء حينئذ على ما في الكشف سببية متعلقة بينجي أي ينجيهم بنفي السوء والحزن عنهم. وتعقب بأن في جعل عدم الحزن وعدم السوء سبب النجاة تكلفاً فهما من النجاة، والظاهر أنه لو جعلت الباء على هذا الوجه أيضاً للملابسة لا يرد ذلك، وجوز كون المفازة اسم مكان أي محل الفوز، وفسرت بالمنجاة مكان النجاة، وصح ذلك لأن النجاة فوز وفلاح، وجعلت الباء عليه للسببية وهناك مضاف محذوف بقرينة باء السببية وإن المنجاة لا تصلح سبباً أي ينجيهم بسبب منجاتهم وهو الإيمان، وهو كالتصريح بما اقتضاه تعليق الفعل بالموصول السابق، وفسره الزمخشري بالأعمال الصالحة، وقواه بما حكاه عن ابن عباس ليتم مذهبه؛ أو لا مضاف بل هناك مجاز بتلك القرينة من إطلاق اسم المسبب على السبب، والجملة بعد على الاحتمالين في هذا الوجه حال ولا يخفى أن المفازة بمعنى المنجاة مكان النجاة هي الجنة والإيمان أو العمل الصالح ليس سبباً لها نفسها وإنما هو سبب دخولها فلا بد من اعتباره فلا تغفل، وجوز أن تكون المفازة مصدراً ميمياً من فاز منه أي نجا منه يقال: طوبى لمن فاز بالثواب وفاز من العقاب أي ظفر به ونجا، والباء إما للملابسة والجملة بيان للمفازة أي ينجيهم الله تعالى ملتبسين بنجاتهم الخاصة لهم أي بنفي السوء والحزن عنهم، ولا يخفى ركاكة هذا المعنى، وإما للسببية إما على حذف المضاف أو التجوز نظير ما مر آنفاً، ولا يحتاج هنا إلى اعتبار الدخول كما لا يخفى، والجملة في موضع الحال أيضاً.

وجوز على بعض الأوجه تعلق ﴿بمفازتهم﴾ بما بعده ولا يخفى أنه خلاف الظاهر وبالجملة الاحتمالات العقلية في الآية كثيرة لأن المفازة إما اسم مصدر أومصدر ميمي أو اسم مكان من فاز به ظفر أو من فاز منه نجا والباء إما للملابسة أو للسببية أو للاستعانة، وهي إما متعلقة بما قبلها أو بما بعدها وهذه ستة وثلاثون احتمالاً وإذا ضممت إليها احتمال حذف المضاف في بمفازتهم بمعنى منجاتهم أو نجاتهم واحتمال التجوز فيه كذلك وكذا احتمال كون جملة ﴿لا يمسهم﴾ الخ حالاً من الموصول واحتمال كونها حالاً من ضمير ـ مفازتهم ـ واحتمال كون الحال مقدرة وكونها مقارنة زادت كثيراً، ولا يخفى أن فيها المقبول ودونه بل فيها ما لا يتسنى أصلاً فأمعن النظر ولا تجمد. وقرأ السلمي

والحسن والأعرج والأعمش وحمزة والكسائي وأبو بكر «بمفازاتهم» جمعاً لتكون على طبق المضاف إليه في الدلالة على التعدد صريحاً ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ من خير وشر وإيمان وكفر لكن لا بالجبر بل بمباشرة المتصف بهما لأسبابهما فالآية رادة على المعتزلة رداً ظاهر ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ يتولى التصرف فيه كيفما يشاء حسبما تقتضيه الحكمة، وكأن ذكر ذلك للدلالة على أنه سبحانه الغني المطلق وأن المنافع والمضار راجعة إلى العباد، ولك أن تقول: المعنى أنه تعالى حفيظ على كل شيء كما قيل نحو ذلك في قوله تعالى: ﴿وما أنت عليهم بوكيل﴾ [الأنعام: ١٠٧، الزمر: ٤١، الشورى: ٦] وحاصله أنه تعالى يتولى حفظ كل شيء بعد خلقه فيكون إشارة إلى احتياج الأشياء إليه تعالى في بقائها كما أنها محتاجة إليه عزَّ وجلّ في وجودها.

﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ أي مفاتيحها كما قال ابن عباس والحسن وقتادة وغيرهم فقيل هو جمع لا واحد له من لفظه، وقيل: جمع مقليد وقيل: جمع مقلاد من التقليد بمعنى الإلزام ومنه تقليد القضاء وهو إلزامه النظر في أموره، وكذا القلادة للزومها للعنق، وجعل اسماً للآلة المعروفة للإلزام بمعنى الحفظ وهو على جميع هذه الأقوال عربي والأشهر الأظهر كونه معرباً فهو جمع اقليد معرب إكليد وهو جمع شاذ لأن جمع أفعيل على مفاعيل مخالف للقياس وجاء أقاليد على القياس ويقال: في اكليد كليد بلا همزة، وذكر الشهاب أنه بلغة الروم اقليدس وكليد واكليد منه، والمشهور أن كليد فارسي ولم يشتهر في الفارسية إكليد بالهمز، وله مقاليد كذا قيل: مجاز عن كونه مالك أمره ومتصرفاً فيه بعلاقة اللزوم، ويكنى به عن معنى القدرة والحفظ، وجوز كون المعنى الأول كنائياً لكن قد اشتهر فنزل منزلة المدلول الحقيقي فكني به عن المعنى الآخر فيكون هناك كناية على كناية وقد يقتصر على المعنى الأول في الإرادة وعليه قيل هنا المعنى لا يملك أمر السماوات والأرض ولا يتمكن من التصرف فيها غيره عزَّ وجلّ. والبيضاوي بعد ذكر ذلك قال: هو كناية عن قدرته تعالى وحفظه لها وفيه مزيد دلالة على الاستقلال والاستبداد لمكان اللام والتقديم، وقال الراغب: مقاليد السماوات والأرض ما يحيط بها، وقيل: خزائنها، وقيل: مفاتيحها، والإشارة بكلها إلى المعنى واحد وهو قدرته تعالى عليها وحفظه لها انتهى.

وجوز أن يكون المعنى لا يملك التصرف في خزائن السماوات والأرض أي ما أودع فيها واستعدت له من المنافع غيره تعالى، ولا يخفى أن هذه الجملة إن كانت في موضع التعليل لقوله سبحانه: ﴿وهو على كل شيء وكيل﴾ على المعنى الأول فالأظهر الاقتصار في معناها على أنه لا يملك أمر السماوات والأرض أي العالم بأسره غيره تعالى فكأنه قيل: هو تعالى يتولى التصرف في كل شيء لأنه لا يملك أمره سواه عزَّ وجلّ، وإن كانت تعليلاً له على المعنى الثاني فالأظهر الاقتصار في معناها على أنه لا قدرة عليها لأحد غيره جل شأنه فكأنه قيل: هو تعالى يتولى حفظ كل شيء لأنه لا قدرة لأحد عليه غيره تعالى، وجوز أن تكون عطف بيان للجملة قبلها وأن تكون صفة ﴿وكيل﴾ وأن تكون خبراً بعد خبر فأمعن النظر في ذلك وتدبر. وأخرج أبو يعلى ويوسف القاضي في سننه، وأبو الحسن القطان في المطولات، وابن السني في عمل اليوم والليلة، وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه قال: «سألت رسول الله ﷺ عن قول الله تعالى: له مقاليد السماوات والأرض فقال: لا إله إلا الله والله أكبر سبحان الله والحمد لله استغفر الله الذي لا إله إلا هو الأول والآخر والظاهر والباطن يحيي ويميت وهو حي لا يموت بيده الخير وهو على كل شيء قدير» الحديث.

وفي رواية ابن مردويه عن ابن عباس أن عثمان جاء إلى النبي ﷺ فقال له: أخبرني عن مقاليد السماوات والأرض فقال: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم الأول والآخر

والظاهر والباطن بيده الخير يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير يا عثمان من قالها إذا أصبح عشر مرات وإذا أمسى أعطاه الله ست خصال. أما أولهن فيحرس من إبليس وجنوده. وأما الثانية فيعطى قنطاراً من الأجر وأما الثالثة فيتزوج من الحور العين. وأما الرابعة فيغفر له ذنوبه. وأما الخامسة فيكون مع إبراهيم عليه السلام. وأما السادسة فيحضره اثنا عشر ملكاً عند موته يبشرونه بالجنة ويزفونه من قبره إلى الموقف فإن أصابه شيء من أهاويل يوم القيامة قالوا له لا تخف إنك من الآمنين ثم يحاسبه الله حساباً يسيراً ثم يؤمر به إلى الجنة فيزفونه إلى الجنة من موقفه كما تزف العروس حتى يدخلوه الجنة بإذن الله تعالى والناس في شدة الحساب. وفي رواية العقيلي والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابن عمر أن عثمان سأل النبي ﷺ عن تفسير (له مقاليد السماوات والأرض) فقال عليه الصلاة والسلام: ما سألني عنها أحد تفسيرها لا إله إلا الله والله أكبر وسبحان الله وبحمده واستغفر الله ولا حول ولا قوة إلا بالله هو الأول والآخر والظاهر والباطن بيده الخير يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير. وفي رواية الحارث بن أبي أسامة. وابن مردويه عن أبي هريرة أنه عليه الصلاة والسلام قال: «وهي سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله» وبالجملة اختلفت الروايات في الجواب، وقيل في حديث ابن عمر رضي الله تعالى عنهما: إنه ضعيف في سنده من لا تصلح روايته، وابن الجوزي قال: إنه موضوع ولم يسلم له وحال الأخبار الأخر الله تعالى أعلم به والظن الضعف.

والمعنى عليها أن لله تعالى هذه الكلمات يوحد بها سبحانه ويمجد وهي مفاتيح خير السماوات والأرض من تكلم بها من المؤمنين أصابه، فوجه إطلاق المقاليد عليها أنها موصلة إلى الخير كما توصل المفاتيح إلى ما في الخزائن، وقد ذكر ﷺ شيئاً من الخير في حديث ابن عباس وعد في الحديث قبله عشر خصال لمن قالها كل يوم مائة مرة وهو بتمامه في الدر المنثور.

﴿**وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ**﴾ معطوف على قوله تعالى: ﴿**الله خالق كل شيء**﴾ الخ أي إنه عز شأنه متصف بهذه الصفات الجليلة الشأن والذين كفروا وجحدوا ذلك أولئك هم الكاملون في الخسران، وقيل: على قوله تعالى: ﴿**له مقاليد السماوات والأرض**﴾ ولا يظهر ذلك على بعض الأوجه السابقة فيه.

وقيل: على مقدر تقديره فالذين اتقوا أو فالذين آمنوا بآيات الله هم الفائزون والذين كفروا الخ، وفيه تكلف.

وجوز أن يكون معطوفاً على قوله تعالى: ﴿**وينجي الله**﴾ الخ فيكون التقدير وينجي الله المتقين والذين كفروا بآيات الله أولئك هم الخاسرون وما بينهما اعتراض للدلالة على أنه تعالى مهيمن على العباد مطّلع على أفعالهم مجاز عليها، وفيه تأكيد لثواب المؤمنين وفلاحهم وعقاب الكفرة وخسرانهم ولم يقل ويهلك الذين كفروا بخسرانهم كما قال سبحانه: ﴿**وينجي**﴾ الخ للإشعار بأن العمدة في فوز المؤمنين فضله تعالى فلذا جعل نجاتهم مسندة له تعالى حادثة له يوم القيامة غير ثابتة قبل ذلك بالاستحقاق والأعمال بخلاف هلاك الكفرة فإنهم قدموه لأنفسهم بما اتصفوا به من الكفر والضلال ولم يسند له تعالى ولم يعبر عنه بالمضارع أيضاً، وفي ذلك تصريح بالوعد وتعريض بالوعيد حيث قيل: ﴿**الخاسرون**﴾ ولم يقل الهالكون أو المعذبون أو نحوه وهو قضية الكرم. وعطف الجملة الاسمية على الفعلية مما لا شبهة في جوازه عند النحويين، ومما ذكرنا يعلم رد قول الإمام الرازي: إن هذا الوجه ضعيف من وجهين: الأول وقوع الفصل الكثير بين المعطوف والمعطوف عليه. الثاني وقوع الاختلاف بينهما في الفعلية والاسمية وهو لا يجوز، والإمام أبو حيان منع كون الفاصل كثيراً.

وقال في الوجه الثاني: إنه كلام من لم يتأمل كلام العرب ولا نظر في أبواب الاشتغال. نعم قال في الكشف

يؤيد الاتصال بما يليه دون قوله تعالى: ﴿وينجي﴾ أن قوله سبحانه: ﴿وينجي الله﴾ متصل بقوله تعالى: ﴿ويوم القيامة ترى الذين كذبوا﴾ فلو قيل بعده: ﴿والذين كفروا بآيات الله أولئك هم الخاسرون﴾ لم يحسن لأن الأحسن على هذا المساق أن يقدم على قوله تعالى: ﴿وينجي الله﴾ على ما لا يخفى ولأنه كالتخلص إلى ما بعده من حديث الأمر بالعبادة والإخلاص إذ ذاك، وهو كلام حسن، ثم الحصر الذي يقتضيه تعريف الطرفين وضمير الفصل باعتبار الكمال كما أشرنا إليه لا باعتبار مطلق الخسران فانه لا يختص بهم؛ وجوز أن يكون قصر قلب فإنهم يزعمون المؤمنين خاسرين.

﴿قُلْ أَفَغَيْرَ الله تَأْمروني أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهلون﴾ أي أبعد الآيات المقتضية لعبادته تعالى وحده غير الله أعبد، فغير مفعول مقدم لأعبد و ﴿تأمروني﴾ اعتراض للدلالة على أنهم أمروه به عقيب ذلك وقالوا له ﷺ: استلم بعض آلهتنا ونؤمن بإلهك لفرط غباوتهم ولذا نودوا بعنوان الجهل، وجوز أن يكون ﴿أعبد﴾ في موضع المفعول ـ لتأمروني ـ على أن الأصل تأمروني أن أعبد فحذفت أن وارتفع الفعل كما قيل في قوله:

ألا أيهذا الزاجري احضر الوغى

ويؤيد قراءة من قرأ «أَعْبُدَ» بالنصب، و «غيرَ» منصوب بما دل عليه ﴿تأمروني أعبد﴾ أي تعبدونني غير الله أي أتصيرونني عابداً غيره تعالى، ولا يصح نصبه بأعبد لأن الصلة لا تعمل فيما قبلها والمقدر كالموجود، وقال بعضهم: هو منصوب به وأن بعد الحذف يبطل حكمها المانع عن العمل، وقرأ ابن كثير ﴿ تَأْمُرُونِّي ﴾ بالإدغام وفتح الياء.

وقرأ ابن عامر «تأمرونني» بإظهار النونين على الأصل، ونافع «تَأْمُرُونِيَ» بنون واحدة مكسورة وفتح الياء، وفي تعيين المحذوف من النونين خلاف فقيل: الثانية لأنها التي حصل بها التكرار، وقيل: الأولى لأنها حرف إعراب عرضة للتغيير ﴿ولَقَدْ أُوحيَ إلَيْكَ وَإلَى الَّذينَ منْ قَبْلكَ﴾ أي من الرسل عليهم السلام ﴿لَئنْ أَشْرَكْتَ﴾ أي بالله تعالى شيئاً ما ﴿لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ منَ الْخَاسرينَ﴾ الظاهر أن جملة ﴿لئن﴾ الخ نائب فاعل ﴿أوحى﴾ لكن قيل في الكلام حذف والأصل أوحى إليك لئن أشركت ليحبطن عملك الخ، وإلى الذين من قبلك مثل ذلك، وقيل: لا حذف، وإفراد الخطاب باعتبار كل واحد منه ﷺ والمرسلين الموحى إليهم فإنه أوحى لكل ﴿لئن أشركت﴾ الخ بالإفراد، وذهب البصريون إلى أن الجمل لا تكون فاعلة فلا تقوم مقام الفاعل، ففي البحر أن ﴿إليك﴾ حينئذ نائب الفاعل، والمعنى كما قال مقاتل أوحى إليك وإلى الذين من قبلك بالتوحيد، وقوله تعالى: ﴿لئن أشركت﴾ الخ استئناف خوطب به النبي ﷺ خاصة وهو كما ترى، وأياً ما كان فهو كلام على سبيل الفرض لتهييج المخاطب المعصوم وإقناط الكفرة والإيذان بغاية شناعة الإشراك وقبحه وكونه بحيث ينهى عنه من لا يكاد يباشره فكيف بمن عداه، فالاستدلال بالآية على جواز صدور الكبائر من الأنبياء عليهم السلام كما في المواقف ليس بشيء، فاحتمال الوقوع فرضاً كاف في الشرطية لكن ينبغي أن يعلم أن استحالة الوقوع شرعية، ولا ما ﴿لقدْ﴾ و ﴿لئن﴾. موطئتان للقسم واللامان بعد للجواب، وفي عدم تقييد الإحباط بالاستمرار على الإشراك إلى الموت دليل للحنفية الذاهبين إلى أن الردة تحبط الأعمال التي قبلها مطلقاً. نعم قالوا: لا يقضي منها بعد الرجوع إلى الإسلام إلا الحج، ومذهب الشافعي أن الردة لا تحبط العمل السابق عليها ما لم يستمر المرتد على الكفر إلى الموت، وترك التقييد هنا اعتماداً على التصريح به في قوله تعالى: ﴿ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾ [البقرة: ٢١٧] ويكون ذلك من حمل المطلق على المقيد.

وأجاب بعض الحنفية بأن في الآية المذكورة توزيعاً ﴿فأولئك حبطت أعمالهم﴾ ناظر إلى الارتداد عن الدين

﴿وأولئك أصحاب النار﴾ الخ ناظر إلى الموت على الكفر فلا مقيد ليحمل المطلق عليه، ومن هذا الخلاف نشأ الخلاف في الصحابي إذا ارتد ثم عاد إلى الإسلام بعد وفاته ﷺ أو قبلها ولم يره هل يقال له: صحابي أم لا، فمن ذهب إلى الإطلاق قال لا ومن ذهب إلى التقييد قال: نعم، وقيل: يجوز أن يكون الإحباط مطلقاً من خصائص النبي عليه الصلاة والسلام إذ شركه وحاشاه أقبح، وفيه ضعف لأن الغرض تحذير أمته وتصوير فظاعة الكفر فتقدير أمر يختص به لا يتعدى من النبي إلى الأمة لا اتجاه له مع أنه لا مستند له من نقل أو عقل، والمراد بالخسران على مذهب الحنفية ما لزم من حبط العمل فكان الظاهر ـ فتكون ـ إلا أنه عدل إلى ما في النظم الجليل للإشعار بأن كلاً من الإحباط والخسران يستقل في الزجر عن الإشراك، وقيل: الخلود في النار فيلزم التقييد بالموت كما هو عند الشافعي عليه الرحمة.

وقرىء «ليحبطن» من أحبط «عَمَلَكَ» بالنصب أي ليحبطن الله تعالى أو الإشراك عملك، وقرىء بالنون ونصب «عملك» أيضاً ﴿بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ﴾ رد لما أمروه به من استلام بعض آلهتهم، والفاء جزائية في جواب شرط مقدر كأنه قيل: إن كنت عابداً أو عاقلاً فاعبد الله فحذف الشرط وجعل تقديم المفعول عوضاً عنه، وإلى هذا ذهب الزمخشري وسلفه في كونها جزائية الزجاج، وأنكر أبو حيان كون التقديم عوضاً عن الشرط، ومذهب الفراء والكسائي أن الفاء زائدة بين المؤكد والمؤكد والاسم الجليل منصوب بفعل محذوف والتقدير الله أعبد فاعبده وقدر مؤخراً ليفيد الحصر.

وفي الانتصاف مقتضى كلام سيبويه أن الأصل تنبه فاعبد الله فحذفوا الفعل الأول اختصاراً واستنكروا الابتداء بالفاء ومن شأنها التوسط بين المعطوف والمعطوف عليه فقدموا المفعول فصارت الفاء متوسطة لفظاً ودالة على المحذوف وانضاف إليها فائدة الحصر لإشعار التقديم بالاختصاص، واعتبار الاختصاص قيل: مما لا بد منه لأنه لم يكن الكلام رداً عليهم فيما أمروه به لولاه فإنهم لم يطلبوا منه عليه الصلاة والسلام ترك عبادة الله سبحانه بل استلام آلهتهم والشرك به عزَّ وجلّ اللهم إلا أن يقال: عبادة الله سبحانه مع الشرك كلا عبادة، والله جل وعلا أغنى الشركاء فمن أشرك في عمله أحداً معه عزَّ وجلّ فعمله لمن أشرك كما يدل عليه كثير من الأخبار، وقرأ عيسى «بل اللَّهُ» بالرفع ﴿وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ﴾ إنعامه تعالى عليك الذي يضيق عنه نطاق الحصر، وفيه إشارة إلى موجب الاختصاص ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ أي ما عظموه جل جلاله حق عظمته إذ عبدوا غيره تعالى وطلبوا من نبيه ﷺ عبادة غيره سبحانه قاله الحسن. والسدي، وقال المبرد: أصله من قولهم: فلان عظيم القدر يريدون بذلك جلالته، وأصل القدر اختصاص الشيء بعظم أو صغر أو مساواة، وقال الراغب: أي ما عرفوا كنهه عزَّ وجلّ. وتعقب بأن معرفة كنهه تعالى أي حقيقته سبحانه لا يخص هؤلاء لتعذر الوقوف على الحقيقة، ومن هنا:

العجز عن درك الإدراك إدراك ... والبحث عن كنه ذات الله إشراك

ولا يخفى أن المسألة خلافية، وما ذكر على تقدير التسليم يمكن دفعه بالعناية. نعم أولى منه ما قيل: أي ما عرفوه كما يليق به سبحانه حيث جعلوا له سبحانه شريكاً، وظاهر كلام بعضهم أن الكلام على تقدير مضاف أي ما قدروا في أنفسهم وما تصوروا عظمة الله حق التصور فلم يعظموه كما هو حقه عزَّ وجلّ حيث وصفوه بما لا يليق بشؤونه الجليلة من الشركة ونحوها، وأياً ما كان فهو متعلق بما قبله من حيث إنّ فيه تجهيلهم في الإشراك ودعائهم رسوله ﷺ إليه، وقيل: المعنى ما وصفوا الله تعالى حق صفته إذ جحدوا البعث ووصفوه سبحانه بأنه خالق الخلق عبثاً وأنه سبحانه عاجز عن الإعادة والبعث وهو خلاف الظاهر، وعليه يكون للتمهيد لأمر النفخ في الصور، وضمير الجمع

على جميع ما ذكر لكفار قريش كما روي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما، وقيل: الضمير لليهود تكلموا في صفات الله تعالى وجلاله فألحدوا وجسموا وجاؤوا بكل تخليط فنزلت.

وقرأ الأعمش حق «قَدَرَهُ» بفتح الدال، وقرأ الحسن وعيسى وأبو نوفل وأبو حيوة ﴿وَمَا قَدَّرُوا﴾ بتشديد الدال «حَقّ قَدَرَهُ» بفتح الدال ﴿وَالأَرْضُ جميعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينه﴾ الجملة في موضع الحال من الاسم الجليل و ﴿جميعاً﴾ حال من المبتدأ عند من يجوزه أو من مقدر كأثبتها جميعاً كما قيل، وهو جار مجرى الحال المؤكدة في أن العامل منتزع من مضمون الجملة، وفي التقريب هو حال من الضمير في ﴿قبضته﴾ لأنه بمعنى مقبوضة وكان الظاهر أن يؤخر عنه وإنما قدم عليه ليعلم أول الأمر أن الخبر الذي يرد لا يقع عن أرض واحدة أو بعض دون بعض ولكن عن الأرضين كلها أو عن جميع أبعاضها. وجاز هذا التقديم لأن المصدر لم يعمل من حيث كونه مصدراً بل لكونه بمعنى اسم المفعول، وقال الحوفي: العامل في الحال ما دل عليه قبضته لا هي، وهو كما ترى، و ﴿يوم القيامة﴾ معمول ﴿قبضته﴾ وهي في الأصل المرة الواحدة من القبض وتطلق على المقدار المقبوض كالقُبضة بضم القاف وجعلت صفة مشبهة حينئذ، وجوز كل من إرادة المقبوضة والمعنى المصدري هنا، والكلام على الثاني على تقدير مضاف أي ذوات قبضته أي يقبضهن سبحانه قبضة واحدة، وقرأ الحسن «قَبْضَتَهُ» بالنصب على أنه ظرف مختص مشبه بالمبهم ولذا لم يصرح بفي معه وهو مذهب الكوفيين، والبصريون يقولون: إن النصب في مثل خطأ غير جائز وأنه لا بد من التصريح بفي.

وقرأ عيسى والجحدري «مطويات» بالنصب على أن «السماوات» عطف على «الأرض» مشاركة لها في الحكم أي والسماوات قبضته، و «مطويات» حال من «السماوات» عند من يجوز مجيء الحال من مثل ذلك أو من ضميرها المستتر في (قبضته) على أنها بمعنى مقبوضته أو من ضميرها محذوفاً أي أثبتها مطويات، و ﴿بيمينه﴾ متعلق بمطويات أو على أن ﴿السماوات﴾ مبتدأ و ﴿بيمينه﴾ الخبر و «مطويات» حال أيضاً إما من المبتدأ أو من الضمير المحذوف أو من الضمير المستتر في الخبر بناء على مذهب الأخفش من جواز تقديم الحال في مثل ذلك.

والكلام عند كثير من الخلف تمثيل لحال عظمته تعالى ونفاذ قدرته عزَّ وجلّ وحقارة الأفعال العظام التي تتحير فيها الأوهام بالإضافة إليها بحال من يكون له قبضة فيها الأرض جميعاً ويمين بها يطوي السماوات أو بحال من يكون قبضة فيها الأرض والسماوات ويمين بها يطوي السماوات من غير ذهاب القبضة ولا باليمين إلى جهة حقيقة أو مجاز بالنسبة إلى المجرى عليه وهو الله عزَّ شأنه، وقال بعضهم: المراد التنبيه على مزيد جلالته عزَّ وجلّ وعظمته سبحانه بإفادة أن الأرض جميعاً تحت ملكه تعالى يوم القيامة فلا يتصرف فيها غيره تعالى شأنه بالكلية كما قال سبحانه: ﴿الملك يومئذ لله﴾ [الحج: ٥٦] والسماوات مطويات طي السجل للكتب بقدرته التي لا يتعاصاها شيء.

وفيه رمز إلى أن ما يشركونه معه عزَّ وجلّ أرضياً كان أم سماوياً مقهور تحت سلطانه جل شأنه وعز سلطانه فالقبضة مجاز عن الملك أو التصرف كما يقال: بلد كذا في قبضة فلان، واليمين مجاز عن القدرة التامة، وقيل: القبضة مجاز عما ذكر ونحوه والمراد باليمين القسم أي والسماوات مفنيات بسبب قسمه تعالى لأنه عزَّ وجلّ أقسم أن يفنيها، وهو مما يهزأ منه لا مما يهتز استحساناً له، والسلف يقولون أيضاً: إن الكلام تنبيه على مزيد جلالته تعالى وعظمته سبحانه ورمز إلى أن آلهتهم أرضية أم سماوية مقهورة تحت سلطانه عزَّ وجلّ إلا أنهم لا يقولون: إن القبضة مجاز عن الملك أو التصرف ولا اليمين مجاز عن القدرة بل ينزهون الله تعالى عن الأعضاء والجوارح ويؤمنون بما نسبه إلى ذاته بالمعنى الذي أراده سبحانه وكذا يفعلون في الأخبار الواردة في هذا المقام.

فقد أخرج البخاري ومسلم والترمذي. والنسائي وغيرهم عن ابن مسعود قال: جاء حبر من الأحبار إلى رسول الله ﷺ فقال: يا محمد إنا نجد الله يحمل السماوات يوم القيامة على أصبع والأرضين على أصبع والشجر على أصبع والماء والثرى على أصبع وسائر الخلق على أصبع فيقول: أنا الملك فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه تصديقاً لقول الحبر ثم قرأ رسول الله عليه الصلاة والسلام ﴿**وما قدروا الله حق قدره**﴾ الآية، والمتأولون يتأولون الأصابع على الاقتدار وعدم الكلفة كما في قول القائل: أقتل زيداً بأصبعي، ويبعد ذلك ظاهر ما أخرجه الإمام أحمد والترمذي وصححه والبيهقي وغيرهم عن ابن عباد قال: مر يهودي على رسول الله ﷺ وهو جالس قال: كيف تقول يا أبا القاسم إذا وضع الله السماوات على ذه وأشار بالسبابة والأرضين على ذه والجبال على ذه وسائر الخلق على ذه؟ كل ذلك يشير بأصابعه فأنزل الله تعالى ﴿**وما قدروا الله حق قدره**﴾ وجعل بعض المتأولين الإشارة إعانة على التمثيل والتخييل. وزعم بعضهم أن الآية نزلت رداً لليهودي حيث شبه وذهب إلى التجسيم وإن ضحكه عليه الصلاة والسلام المحكي في الخبر السابق كان للرد أيضاً وأن «تصديقاً له» في الخبر من كلام الراوي على ما فهم، ولا يخفى أن ذلك خلاف الظاهر جداً، وجعلوا أيضاً من باب الإعانة على التمثيل وتخييل العظمة فعله عليه الصلاة والسلام حين قرأ هذه الآية، فقد أخرج الشيخان والنسائي وابن ماجة وجماعة عن ابن عمر «أن رسول الله ﷺ قرأ هذه الآية ذات يوم على المنبر ﴿**وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسماوات مطويات بيمينه**﴾ ورسول الله ﷺ يقول هكذا بيده ويحركها يقبل بها ويدبر يمجد الرب نفسه أنا الجبار أنا المتكبر أنا الملك أنا العزيز أنا الكريم فرجف برسول الله ﷺ المنبر حتى قلنا ليخرّن به» وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن مقسم أنه نظر إلى ابن عمر كيف يحكي رسول الله ﷺ قال: يأخذ الله تعالى سماواته وأرضيه بيديه ويقول: أنا الله ويقبض أصابعه ويبسطها أنا الملك».

وفي شرح الصحيح للإمام النووي نقلاً عن المازري أن قبض النبي ﷺ أصابعه وبسطها تمثيل لقبض هذه المخلوقات وجمعها بعد بسطها وحكاية للمبسوط المقبوض وهو السماوات والأرضون لا إشارة إلى القبض والبسط الذي هو صفة للقابض والباسط سبحانه وتعالى ولا تمثيل لصفة الله تعالى السمعية المسماة باليد التي ليست بجارحة انتهى، ثم إنّ ظاهر بعض الأخبار يقتضي أن قبض الأرض بعد طي السماوات وأنه بيد أخرى. أخرج مسلم عن ابن عمر قال: «قال رسول الله ﷺ: يطوي الله تعالى السماوات يوم القيامة ثم يأخذهن بيده اليمنى ثم يقول: أنا الملك أين الجبارون أين المتكبرون ثم يطوي الأرضين بشماله ثم يقول: أين الجبارون أين المتكبرون؟» وفي الشرح نقلاً عن المازري أيضاً أن إطلاق اليدين لله تعالى متأول على القدرة، وكني عن ذلك باليدين لأن أفعالنا تقع باليدين فخوطبنا بما نفهمه ليكون أوضح وأؤكد في النفوس، وذكر اليمين والشمال حتى يتم التأول لأنا نتناول باليمين ما نكرمه وبالشمال ما دونه ولأن اليمين في حقنا تقوى لما لا تقوى له الشمال، ومعلوم أن السماوات أعظم من الأرض فأضافها إلى اليمين وأضاف الأرضين إلى الشمال ليظهر التقريب في الاستعارة وإن كان الله سبحانه وتعالى لا يوصف بأن شيئاً أخف عليه من شيء ولا أثقل من شيء انتهى. والصوفية يقولون بالتجلي الصوري مع بقاء الإطلاق والتنزيه المدلول عليه بليس كمثله شيء، والأمر عليه سهل جداً. ثم إنّ التصرف في الأرض والسماوات يكون والناس على الصراط كما جاء في خبر رواه مسلم عن عائشة مرفوعاً، وروي أيضاً عن أبي سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ قال: «تكون الأرض يوم القيامة خبزة واحدة يكفؤها الجبار بيده كما يكفأ أحدكم خبزته في السفر نزلاً لأهل الجنة» والكلام في هذا الخبر كالكلام في نظائره، وإياك من التشبيه والتجسيم، وكذا من نسبة ذلك إلى السلف ولا تك كالمعتزلة في التحامل عليهم والوقيعة فيهم، ويكفي دليلاً على جهل المعتزلة بربهم زعمهم أنه عزَّ وجلّ فوض العباد فهم يفعلون ما لا يشاء

ويشاء ما لا يفعلون ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي أبعد من هذه قدرته وعظمته عن إشراكهم أو عما يشركونه من الشركاء ـ فسبحان ـ للتعجب وتتعلق به ﴿عن﴾ بالتأويل بما ذكر و ﴿ما﴾ تحتمل المصدرية والموصولية ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ المشهور أن النافخ فيه ملك واحد وأنه إسرافيل عليه السلام بل حكى القرطبي الإجماع عليه. وفي حديث أخرجه ابن ماجة والبزار وابن مردويه عن أبي سعيد الخدري مرفوعاً أن النافخ اثنان، ويدل عليه أيضاً أخبار أخر، منها ما أخرجه أحمد. والحاكم عن ابن عمر أن النبي ﷺ قال: «النافخان في السماء الثانية رأس أحدهما بالمشرق ورجلاه بالمغرب ينتظران متى يؤمران أن ينفخا في الصور فينفخا» وفي بعض الآثار ما يدل على أنه واحد وأنه شاخص ببصره أي إسرافيل عليه السلام ما طرف منذ خلقه الله تعالى ينتظر حتى يشير إليه فينفخ في الصور. والصور قرن عظيم فيه ثقب بعدد كل روح مخلوقة ونفس منفوسة. وأخرج أبو الشيخ عن وهب أنه من لؤلؤة بيضاء في صفاء الزجاجة به ثقب دقيقة بعدد الأرواح وفي وسطه كوة كاستدارة السماء والأرض ونحن نؤمن به ونفوض كيفيته إلى علام الغيوب جل شأنه. وأنكر بعضهم ذلك وقال: هو جمع صورة كما في قراءة قتادة وزيد بن علي «في الصُّوَر» بفتح الواو وقد مر الكلام في ذلك، والتعبير بالماضي لتحقق الوقوع، وبني الفعل للمفعول لعدم تعلق الغرض بالفاعل بل الغرض إفادة هذا الفعل من أي فاعل كان فكأنه قيل: ووقع النفخ في الصور ﴿فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ﴾ أي ماتوا بسبب ذلك، ويحتمل أنهم يغشى عليهم أولاً ثم يموتون، ففي الأساس صعق الرجل إذا غشي عليه من هدة أو صوت شديد يسمعه وصعق إذا مات. وفي صحيح مسلم من حديث طويل فيه ذكر الدجال «ثم ينفخ في الصور فلا يسمعه أحد إلا أصغى ليتاً ورفع ليتاً فأول من يسمعه رجل يلوط حوض إبله فيصعق ويصعق الناس» وقرىء «فَصُعِقَ» بضم الصاد ﴿إِلاَّ مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ قال السدي: جبريل وإسرافيل وميكائيل وملك الموت عليهم السلام، وقيل: هم وحملة العرش فإنهم يموتون بعد، وفي ترتيب موتهم اضطراب مذكور في الدر المنثور، وقيل: رضوان والحور ومالك والزبانية وروي ذلك عن الضحاك، وقيل: من مات قبل ذلك أي يموت من في السماوات والأرض إلا من سبق موته لأنهم كانوا قد ماتوا؛ قال في البحر: وهذا نظير ﴿لا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى﴾ [الدخان: ٥٦] ومن الغريب ما حكي فيه أن المستثنى هو الله عزَّ وجلّ، ولا يخفى عليك حاله متصلاً كان الاستثناء أم منقطعاً، وقيل: هو موسى عليه السلام وسيأتي الكلام إن شاء الله تعالى في تحقيق ذلك، وقيل غير ذلك.

ويراد بالسماوات على أكثر الأقوال جهة العلو وإلا لم يتصل الاستثناء فإن حملة العرش مثلاً ليسوا في السماوات بالمعنى المعروف، وقيل: إنه لم يرد في التعيين خبر صحيح ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ﴾ أي في الصور وهو ظاهر في أنه ليس بجمع وإلا لقيل فيها ﴿أُخْرَى﴾ أي نفخة أخرى، وهو يدل على أن المراد بالأول ونفخ في الصور نفخة واحدة كما صرح به في مواضع لأن العطف يقتضي المغايرة فلو أريد المطلق الشامل للأخرى لم يكن لذكرها هاهنا وجه، و﴿أخرى﴾ تحتمل النصب على أنها صفة مصدر مقدر أي نفخة أخرى، والرفع على أنها صفة لنائب الفاعل، وعلى الأول كان النائب عنه الظرف. وصح في صحيحي البخاري ومسلم أن الله تعالى ينزل بين النفختين ماء من السماء. جاء في بعض الروايات أنه كالطل بالمهملة وفي بعضها كمني الرجال فتلبث منه أجساد الناس وإن بين النفختين أربعين وهذا عن أبي هريرة مرفوعاً ولم يبين فيه ما هذه الأربعون.

وفي حديث أخرجه أبو داود أنها أربعون عاماً، وأخرج عبد بن حميد عن عبد الله بن العاص(١) قال: ينفخ في

(١) قوله عبد الله بن العاص هكذا في خط المؤلف وفي الدر المنثور «عبد الله بن العاصي» ولعله عبد الله بن عمرو بن العاص.

الصور النفخة الأولى من باب إيلياء الشرقي أو قال الغربي والنفخة الثانية من باب آخر ﴿فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ﴾ قائمون من قبورهم ﴿يَنْظُرُونَ﴾ أي ينتظرون ما يؤمرون أو ينتظرون ماذا يفعل بهم، وقيل: يقلبون أبصارهم في الجهات نظر المبهوت إذا فاجأه خطب عظيم. وتعقب بأن قولهم عند قيامهم ﴿من بعثنا من مرقدنا﴾ يأباه ظاهراً نوع إباء.

وجوز أن يكون قيام من القيام مقابل الحركة أي فإذا هم متوقفون جامدون في أمكنتهم لتحيرهم. واعترض بأن قوله تعالى: ﴿ونفخ في الصور فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون﴾ [يس: ٥١] ظاهر في خلافه لأن النسل الإسراع في المشي، وكذا قوله تعالى: ﴿يخرجون من الأجداث سراعاً كأنهم إلى نصب يوفضون﴾ [المعارج: ٤٣] وقرأ زيد بن علي «قياماً» بالنصب على أن جملة ﴿ينظرون﴾ خبرهم «وقياماً» حال من ضمير ﴿ينظرون﴾ قدم للفاصلة، أو من المبتدأ عند من يجوز ذلك. وفي البحر النصب على الحال وخبر المبتدأ الظرف الذي هو ﴿إذا﴾ الفجائية وهي حال لا بد منها إذ هي محط الفائدة إلا أن يقدر الخبر محذوفاً أي فإذا هم مبعوثون أو موجودون قياماً، وإذا نصب «قياماً» على الحال فالعامل فيها ذلك الخبر المحذوف إن قلنا به وإلا فالعامل هو العامل في الظرف فإن كان ﴿إذا﴾ ظرف مكان على ما يقتضيه ظاهر كلام سيبويه فتقديره فبالحضرة هم قياماً، وإن كان ظرف زمان كما ذهب إليه الرياشي فتقديره ففي ذلك الزمان الذي نفخ فيه هم أي وجودهم، واحتيج إلى تقديره هذا المضاف لأن ظرف الزمان لا يكون خبراً عن الجثة، وإن كانت ﴿إذا﴾ حرفاً كما زعم الكوفيون فلا بد من تقدير الخبر إلا أن اعتقدنا أن ﴿ينظرون﴾ هو الخبر ويكون عاملاً في الحال انتهى. ولعمري إنّ مذهب الكوفيين أقل تكلفاً، هذا وهاهنا إشكال بناء على أنهم فسروا نفخة الصعق بالنفخة الأولى التي يموت بها من بقي على وجه الأرض. فانه قد أخرج البخاري ومسلم والترمذي وابن ماجه والإمام أحمد وغيرهم عن أبي هريرة قال: «قال رجل من اليهود بسوق المدينة: والذي اصطفى موسى على البشر فرفع رجل من الأنصار يده فلطمه قال: أتقول هذا وفينا رسول الله ﷺ؟ فذكرت ذلك لرسول الله عليه الصلاة والسلام فقال: قال الله تعالى: **﴿ونفخ في الصور فصعق من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون﴾** فأكون أول من يرفع رأسه فإذا أنا بموسى آخذ بقائمة من قوائم العرش فلا أدري أرفع رأسه قبلي أو كان ممن استثنى الله تعالى» وهو يأبى تفسير النفخة بذلك ضرورة أن موسى عليه السلام قد مات قبل تلك النفخة بألوف سنين، واحتمال أنه عليه السلام لم يمت كما قيل في الخضر وإلياس مما لا ينبغي أن يتفوه به حي، ويدل كما قال بعض الأجلة: على أنها نفخة البعث.

وقال القاضي عياض: يحتمل أن تكون هذه صعقة فزع بعد النشر حين تنشق السماوات فتتوافق الآيات والأحاديث وتكون النفخات ثلاثاً وهو اختيار ابن العربي. ورده القرطبي بأن أخذ موسى عليه السلام بقائمة العرش إنما هو عند نفخة البعث وادعى أن الصحيح أن ليس إلا نفختان لا ثلاث ولا أربع كما قيل.

ثم قال: والذي يزيح الإشكال ما قال بعض مشايخنا: إن الموت ليس بعدم محض بالنسبة للأنبياء عليهم السلام والشهداء فإنهم موجودون أحياء وإن لم نرهم فإذا نفخت نفخة الصعق صعق كل من في السماء والأرض وصعقة غير الأنبياء موت وصعقتهم غشي فإذا كانت نفخة البعث عاش من مات وأفاق من غشى عليه، ولذا وقع في الصحيحين فأكون أول من يفيق انتهى، ولا يخفى أنه يحتاج إلى القول بجواز استعمال المشترك في معنييه معاً أو إلى ارتكاب عموم المجاز أو التزام إرادة غشي عليهم وأن موت من يموت بعد الغشي مفاد من أمر آخر فتدبر.

وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَـٰبُ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٧٠﴾ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ

زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧١﴾ قِيلَ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ ۖ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾ وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٥﴾

﴿**وَأَشْرَقَت الأَرْضُ**﴾ أي أرض المحشر وهي الأرض المبدلة من الأرض المعروفة. وفي الصحيح يحشر الناس على أرض بيضاء عفراء كقرصة النقي ليس فيها علم لأحد وهي أوسع بكثير من الأرض المعروفة. وفي بعض الروايات أنها يومئذ من فضة ولا يصح، أي أضاءت ﴿**بِنُورِ رَبِّهَا**﴾ هو على ما روي عن ابن عباس نور يخلقه الله تعالى بلا واسطة أجسام مضيئة كشمس وقمر، واختاره الإمام وجعل الإضافة من باب ﴿ناقة الله﴾ [الأعراف: ٧٣، هود: ٦٤، الشمس: ١٣] وعن محيي السنة تفسيره بتجلي الرب لفصل القضاء، وعن الحسن والسدي تفسيره بالعدل وهو من باب الاستعارة وقد استعير لذلك وللقرآن والبرهان في مواضع من التنزيل أي وأشرقت الأرض بما يقيمه فيها من الحق والعدل ويبسطه سبحانه من القسط في الحساب ووزن الحسنات والسيئات، واختار هذا الزمخشري وصحح أولاً تلك الاستعارة بتكررها في القرآن العظيم، وحققها ثانياً بقوله: وينادي على ذلك إضافته إلى اسمه تعالى لأنه عزَّ وجلّ هو الحق العدل إشارة إلى الصارف إلى التأويل، وعينها ثالثها بإضافة اسمه تعالى الرب إلى الأرض لأن العدل هو الذي يتزين به الأرض لا البرهان مثلاً، ورابعاً بما عطف على إشراق الأرض من وضع الكتاب والمجيء بالنبيين والشهداء والقضاء بالحق لأنه كله تفصيل العدل بالحقيقة، وأيدها خامساً بالعرف العام فإن الناس يقولون للملك العادل: أشرقت الآفاق بعدلك وأضاءت الدنيا بقسطك، وسادساً بقوله ﷺ: «الظلم ظلمات يوم القيامة» فإنه يقتضي أن يكون العدل نوراً فيه، وسابعاً بأن فتح الآية وختمها بنفي الظلم يدل عليه ليكون من باب رد العجز على الصدر على طريقة الطرد والعكس. ورجح ما اختاره الإمام بأن الأصل الحقيقة ولا صارف لأن الإضافة تصح بأدنى ملابسة، وأيد ما حكي عن محيي السنة ببعض الأحاديث.

وتعقب ذلك صاحب الكشف فقال: إن إضافة الملابسة مجاز[1] والترجيح لما اختاره جار الله لما ذكر من الفوائد ولأنه الشائع في استعمال القرآن، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿الله نور السماوات والأرض﴾ [النور: ٣٥] وأما تجلي الرب سبحانه فسواء حمل على تجلي الجلال أو تجلي الجمال لا يقتضي إشراق الأرض بنور إلا بأحد المعنيين أعني العدل أو عرضاً يخلقه الله تعالى عند التجلي في الأرض فلو توهم من تجليه تعالى أنه ينعكس نور منه على الأرض لاستحال إلا بالتفسير المذكور فليس قولاً ثالثاً لينصر ويؤيد بالحديث الذي لا يدل على أنه تفسير الآية

---

(١) هو اختيار لأحد قولين في المسألة اهـ منه.

المشتمل على حديث الرؤية وإلقاء ستره تعالى على العبد يذكر ما فعل به وما جنى انتهى، ولعل الأوفق بما يشعر به كثير من الأخبار أن قوله سبحانه: ﴿وأشرقت الأرض بنور ربها﴾ إشارة إلى تجليه عزَّ وجلّ لفصل القضاء وقد يعبر عنه بالإتيان، وقد صرح به في قوله تعالى: ﴿يأتيهم الله في ظلل من الغمام والملائكة﴾ [البقرة: ٢١٠] ولم يتأول ذلك السلف بل أثبتوه له سبحانه كالنزول على الوجه الذي أثبته عزَّ وجلّ لنفسه.

ولا يبعد أن يكون هذا النور هو النور الوارد في الحديث الصحيح «إن الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام يخفض القسط ويرفعه يرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار وعمل النهار قبل عمل الليل حجابه النور» ويقال فيه كالحجاب نحو ما قال السلف في سائر المتشابهات أو هو نور آخر يظهر عند ذلك التجلي، ولا أقول: هو نور منعكس من الذات المقدس انعكاس نور الشمس مثلاً من الشمس بل الأمر فوق ما تنتهي إليه العقول، وأنى وهيهات وكيف ومتى يتصور إلى حقيقة ذلك الوصول، ويومىء إلى أن ذلك التجلي مقرون بالعدل التعبير بعنوان الربوبية مضافاً إلى ضمير الأرض والله تعالى أعلم بمراده. وقرأ ابن عباس وعبيد بن عمير وأبو الجوزاء ﴿أُشْرِقَت﴾ بالبناء للمفعول؛ قال الزمخشري: من شرقت بالضوء تشرق إذا امتلأت به واغتصت وأشرقها الله تعالى كما تقول: ملأ الأرض عدلاً وطبقها عدلاً، وقال ابن عطية: هذا إنما يترتب من فعل يتعدى فهذا على أن يقال: أشرق البيت وأشرقه السراج فيكون الفعل مجاوزاً وغير مجاوز، وقال صاحب اللوامح وجب أن يكون الإشراق على هذه القراءة منقولاً من شرقت الشمس إذا طلعت فيصير متعدياً والمعنى أذهبت ظلمة الأرض، ولا يجوز أن يكون من أشرقت إذا أضاءت فإن ذلك لازم وهذا قد يتعدى إلى المفعول ﴿وَوُضِعَ الكِتَابُ﴾ قال السدي الحساب، فالكتاب مجاز عن الحساب ووضعه ترشيح له، والمراد به الشروع فيه ويجوز جعل الكلام تمثيلاً.

وقال بعضهم: صحائف الأعمال وضعت بأيدي العمال فالتعريف للجنس أو الاستغراق، وقيل: اللوح المحفوظ وضع ليقابل به الصحائف فالتعريف للعهد، وروي هذا القول عن ابن عباس، واستبعده أبو حيان وقال: لعله لا يصح عن ابن عباس ﴿وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ﴾ قيل ليسألوا هل بلغوا أممهم؟ وقيل: ليحضروا حسابهم ﴿وَالشُّهَدَاءِ﴾ قال عطاء ومقاتل وابن زيد: الحفظة، وكأنهم أرادوا أنهم يشهدون على كل من الأمم أنهم بلغوا أو يشهدون على كل بعمله كما قال سبحانه: ﴿وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد﴾ [ق: ٢١] وفي بعض الآثار أنه يؤتى باللوح المحفوظ وهو يرتعد فيقال له: هل بلغت إسرافيل؟ فيقول: نعم يا رب بلغته فيؤتى بإسرافيل وهو يرتعد فيقال له: هل بلغك اللوح؟ فيقول: نعم يا رب فعند ذلك يسكن روع اللوح ثم يقال لإسرافيل فأنت هل بلغت جبرائيل؟ فيقول: نعم يا رب فيؤتى بجبرائيل وهو يرتعد فيقال له: هل بلغك إسرافيل؟ فيقول: نعم يا رب فعند ذلك يسكن روع إسرافيل ثم يقال لجبرائيل: فأنت هل بلغت؟ فيقول: نعم يا رب فيؤتى بالمرسلين وهم يرتعدون فيقال لهم: هل بلغكم جبرائيل؟ فيقولون: نعم فيسكن عند ذلك روع جبرائيل ثم يقال لهم: فأنتم هل بلغتم؟ فيقولون: نعم فيقال للأمم: هل بلغكم الرسل؟ فيقول كَفَرتُهم: ما جاءنا من بشير ولا نذير فيعظم على الرسل الحال ويشتد البلبال فيقال لهم: من يشهد لكم؟ فيقولون: النبي الأمي وأمته فيؤتى بالأمة المحمدية فيشهدون لهم أنهم بلغوا فيقال لهم: من أين علمتم ذلك؟ فيقولون: من كتاب أنزله الله تعالى علينا ذكر سبحانه فيه أن الرسل بلغوا أممهم ويزكيهم النبي عليه الصلاة والسلام وذلك قوله تعالى: ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً﴾ [البقرة: ١٤٣] ومن هنا قيل: المراد بالشهداء في الآية أمة نبينا ﷺ، وقال الجبائي وأبو مسلم هم عدول الآخرة يشهدون للأمم وعليهم، وقيل: جميع الشهداء من الملائكة وأمة محمد عليه الصلاة والسلام والجوارح والمكان، وأياً ما كان فالشهداء جمع

شاهد، وقال قتادة والسدي: المراد بهم المستشهدون في سبيل الله تعالى فهو جمع شهيد وليس بذاك ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ أي بين العباد المفهوم من السياق ﴿بِالْحَقِّ﴾ بالعدل ﴿وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾ بنقص ثواب أو زيادة عقاب على ما جرى به الوعد بناء على أن الظلم حقيقة لا يتصور في حقه تعالى فإن الأمر كله له عزَّ وجلّ.

﴿وَوُفِّيَتْ كلُّ نَفْس مَّا عَمِلَتْ﴾ أي أعطيت جزاء ذلك كاملاً ﴿وَهُو أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُون﴾ فلا يفوته سبحانه شيء من أعمالهم، وقوله تعالى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَمَ زُمَراً﴾ الخ تفصيل للتوفية وبيان لكيفيتها، والفاء ليس بلازم، والسوق يقتضي الحث على المسير بعنف وازعاج وهو الغالب ويشعر بالإهانة وهو المراد هنا أي سيقوا إليها بالعنف والإهانة أفواجاً متفرقة بعضها في أثر بعض مترتبة حسب ترتب طبقاتهم في الضلالة والشرارة، والزمر جمع زمرة قال الراغب: هي الجماعة القليلة: ومنه قيل شاة زمرة قليلة الشعر ورجل زمر قليل المروءة، ومنه اشتق الزمر، والزمارة كناية عن الفاجرة، وقال بعضهم: اشتقاق الزمرة من الزمر وهو الصوت إذ الجماعة لا تخلو عنه ﴿حَتَّى إِذَا جَاؤُوها فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾ ليدخلوها وكانت قبل مجيئهم غير مفتوحة فهي كسائر أبواب السجون لا تزال مغلقة حتى يأتي أصحاب الجرائم الذين يسجنون فيها فتفتح ليدخلوها فإذا دخلوها أغلقت عليهم، و ﴿حتى﴾ هي التي تحكى بعدها الجملة، والكلام على إذا الواقعة بعدها قد مر في الأنعام. وقرأ غير واحد «فُتحتُ» بالتشديد ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا﴾ على سبيل التقريع والتوبيخ ﴿أَلَمْ يأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ﴾ أي من جنسكم تفهمون ما ينبؤونكم به ويسهل عليكم مراجعتهم.

وقرأ ابن هرمز «تأتكم» بتاء التأنيث، وقرىء «نذر منكم» ﴿يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيات رَبكُمْ﴾ المنزلة لمصلحتكم ﴿وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ أي وقتكم هذا وهو وقت دخولكم النار لأن المنذر به في الحقيقة العذاب ووقته، وجوز أن يراد به يوم القيامة والآخرة لاشتماله على هذا الوقت أو على ما يختص بهم من عذابه وأهواله، ولا ينافيه كونه في ذاته غير مختص بهم؛ والإضافة لامية تفيد الاختصاص لأنه يكفي للاختصاص ما ذكر، نعم الأول أظهر فيه. واستدل بالآية على أنه لا تكليف قبل الشرع لأنهم وبخوهم بكفرهم بعد تبليغ الرسل للشرائع وانذارهم ولو كان قبح الكفر معلوماً بالعقل دون الشرع لقيل. ألم تعلموا بما أودع الله تعالى فيكم من العقل قبح كفركم، ولا وجه لتفسير الرسل بالعقول لإباء الأفعال المستندة إليها عن ذلك، نعم هو دليل إقناعي لأنه إنما يتم على اعتبار المفهوم وعموم الذين كفروا وكلاهما محل نزاع، وقيل في وجه الاستدلال: إن الخطاب للداخلين عموماً يقتضي أنهم جميعاً أنذرهم الرسل ولو تحقق تكليف قبل الشرع لم يكن الأمر كذلك. وتعقب بأن للخصم أن لا يسلم العموم، ولمن قال بوجوب الإيمان عقلاً أن يقول: إنما وبخوهم بالكفر بعد التبليغ لأنه أبعد عن الاعتذار وأحق بالتوبيخ والإنكار ﴿قَالُوا بَلَىٰ﴾ قد أتانا رسل منا تلوا علينا آيات ربنا وأنذرونا لقاء يومنا هذا ﴿وَلَكِنْ حَقَّتْ﴾ أي وجبت ﴿كَلِمَةُ الْعَذَاب﴾ أي كلمة الله تعالى المقتضية له ﴿عَلَى الكَافِرِين﴾ والمراد بها الحكم عليهم بالشقاوة وأنهم من أهل النار لسوء اختيارهم أو قوله تعالى لإبليس: ﴿لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين﴾ [ص: ٨٥] ووضعوا الكافرين موضع ضميرهم للإيماء إلى علية الكفر، والكلام اعتراف لا اعتذار ﴿قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالدِينَ فِيهَا﴾ أي مقدراً خلودكم فيها، والقائل يحتمل أن يكون الخزنة وترك ذكرهم للعلم به مما قبل، ويحتمل أن يكون غيرهم ولم يذكر لأن المقصود ذكر هذا المقول المهول من غير نظر إلى قائله؛ وقال بعض الأجلة: أبهم القائم لتهويل المقول.

﴿فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ أل فيه سواء كانت حرف تعريف أم اسم موصول للجنس وفاء بحق فاعل باب نعم وبئس والمخصوص بالذم محذوف ثقة بذكره آنفاً أي فبئس مثواهم جهنم والتعبير بالمثوى لمكان ﴿خالدين﴾ وفي

التعبير بالمتكبرين إيماء إلى أن دخولهم النار لتكبرهم عن قبول الحق والانقياد للرسل المنذرين عليهم الصلاة والسلام وهو في معنى التعليل بالكفر، ولا ينافي تعليل ذلك بسبق كلمة العذاب عليهم لأن حكمه تعالى وقضاءه سبحانه عليهم بدخول النار ليس إلا بسبب تكبرهم وكفرهم لسوء اختيارهم المعلوم له سبحانه في الأزل، وكذا قوله عزَّ وجلّ لأملأن فهناك سببان قريب وبعيد والتعليل بأحدهما لا ينافي التعليل بآخر فتذكر وتدبر.

﴿**وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمراً**﴾ جماعات مرتبة حسب ترتب طبقاتهم في الفضل، وفي صحيح مسلم وغيره عن أبي هريرة قال: «قال رسول الله ﷺ أول زمرة تدخل الجنة من أمتي على صورة القمر ليلة البدر ثم الذين يلونهم على أشد نجم في السماء إضاءة ثم هم بعد ذلك منازل» والمراد بالسوق هنا الحث على المسير للإسراع إلى الإكرام بخلافه فيما تقدم فإنه لإهانة الكفرة وتعجيلهم إلى العقاب والآلام واختير للمشاكلة، وقوله سبحانه: ﴿**إلى الجنة**﴾ يدفع إيهام الإهانة مع أنه قد يقال: إنهم لما أحبوا لقاء الله تعالى أحب الله تعالى لقاءهم فلذا حثوا على دخول دار كرامته جل شأنه قاله بعض الأجلة، واختار الزمخشري أن المراد هنا بسوقهم سوق مراكبهم لأنه لا يذهب بهم إلا راكبين، وهذا السوق والحث أيضاً للإسراع بهم إلى دار الكرامة.

وتعقب بأنه لا قرينة على إرادة ذلك وكون جميع المتقين لا يذهب بهم إلا راكبين يحتاج إلى دليل، والاستدلال بقوله تعالى: ﴿يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفداً﴾ [مريم: ٨٥] لا يتم إلا على القول بأن الوفد لا يكونون إلا ركباناً وأن الركوب يستمر لهم إلى أن يدخلوا الجنة، وفي الكشف أنه تفسير ظاهر يؤيده الأحاديث الكثيرة ويناسب المقام لأن السوقين بعد فصل القضاء واللطف الخالص في شأن البعض والقهر الخالص في شأن البعض ولا ينافي مقام عظمة مالك الملوك على ما توهم انتهى، وأقول: إن حمل الذين اتقوا على المخلصين فالقول بركوبهم قول قوي وإن حمل على المحترز عن الشرك خاصة ليشمل المخلصين فالقول بذلك قول ضعيف إذ منهم من لا يدخل الجنة إلا بعد أن يدخل النار ويعذب فيها، وظاهر كثير من الأخبار أن من هذا الصنف من يذهب إلى الجنة مشياً.

ففي صحيح مسلم عن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال: «آخر من يدخل الجنة رجل فهو يمشي مرة ويكبو أخرى وتسفعه النار مرة فإذا ما جاوزها التفت إليها فقال تبارك الذي نجاني منك لقد أعطاني الله تعالى شيئاً ما أعطاه أحداً من الأولين والآخرين فترفع له شجرة فيقول: أي رب أدنني من هذه الشجرة فلأستظل بظلها فأشرب من مائها فيقول الله تعالى: يا ابن آدم لعلي أن أعطيتكها سألتني غيرها فيقول: لا يارب ويعاهده أن لا يسأله غيرها وربه يعذره لأنه يرى ما لا صبر له عليه فيدنيه» الحديث، وقال بعض العارفين: إن المتقين يساقون إلى الجنة لأنهم قد رأوا الله تعالى في المحشر فلرغبتهم في رؤيته عزَّ وجلّ ثانياً لا يحبون فراق ذلك الموطن الذي رأوه فيه ولشدة حبهم وشغفهم لا يكاد يخطر لهم أنهم سيرونه سبحانه إذا دخلوا الجنة، والمحبة إذا عظمت فعلت بصاحبها أعظم من ذلك وأعظم فكأنها غلبتهم حتى خيلت إليهم أن ذلك الموطن هو الموطن الذي يرى فيه عزَّ وجلّ وهو محل تجليه على محبيه جل جلاله وعظم نواله فأحجموا عن المسير ووقفوا منتظرين رؤية اللطيف الخبير وغدا لسان حال كل منهم يقول:

وقف الهوى بي حيث أنت فليس لي ... متأخر عنه ولا متقدم

ويدل على رؤيتهم إياه عزَّ وجلّ هناك ما في صحيح مسلم عن أبي هريرة قال: «إن أناساً قالوا لرسول الله ﷺ: يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة؟ فقال رسول الله ﷺ: هل تضارون في القمر ليلة البدر؟ قالوا: لا يا رسول الله قال: هل تضارون في الشمس ليس دونها سحاب؟ قالوا: لا قال: فإنكم ترونه كذلك يجمع الله الناس يوم القيامة فيقول: من كان يعبد شيئاً فليتبعه فيتبع من يعبد الشمس الشمس ويتبع من يعبد القمر القمر ويتبع من يعبد الطواغيت

الطواغيت وتبقى هذه الأمة فيها منافقوها فيأتيهم الله تبارك وتعالى في صورة غير الصورة التي يعرفون فيقول: أنا ربكم فيقولون نعوذ بالله منك هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا فإذا جاء ربنا عرفناه فيأتيهم الله في صورته التي يعرفون فيقول: أنا رَبكم فيقولون: أنت ربنا فيتبعونه ويضرب الصراط بين ظهراني جهنم فأكون أنا وأمتي أول من يجيز ولا يتكلم يومئذ إلا الرسل ودعوى الرسل يومئذ اللهم سلم سلم» الحديث، ومع هذا فسوقهم ليس كسوق الذين كفروا كما لا يخفى.

وقيل: السائق للكفرة ملائكة الغضب والسائق للمتقين شوقهم إلى مولاهم فهو سبحانه لهم غاية الإرب، وليست الجنة عندهم هي المقصودة بالذات ولا مجرد الحلول بها أقصى اللذات وإنما هي وسيلة للقاء محبوبهم الذي هو نهاية مطلوبهم ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاؤُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾ وقرىء بالتشديد، والواو وللحال والجملة حالية بتقدير قد على المشهور أي جاؤوها وقد فتحت لهم أبوابها كقوله تعالى: ﴿جنات عدن مفتحة لهم الأبواب﴾ [ص: ٥٠] ويشعر ذلك بتقدم الفتح كأن خزنة الجنات فتحوا أبوابها ووقفوا منتظرين لهم، وهذا كما تفتح الخدم باب المنزل للمدعو للضيافة قبل قدومه وتقف منتظرة له، وفي ذلك من الاحترام والإكرام ما فيه، والظاهر أن قوله تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا﴾ الخ عطف على ﴿فتحت أبوابها﴾ وجواب ﴿إذا﴾ محذوف مقدر بعد ﴿خالدين﴾ للإيذان بأن لهم حينئذ من فنون الكرامات ما لا يحيط به نطاق العبارات كأنه قيل: إذا جاؤوها مفتحة لهم أبوابها وقال لهم خزنتُها ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ أي من جميع المكاره والآلام وهو يحتمل الإخبار والإنشاء.

﴿طِبْتُمْ﴾ أي من دنس المعاصي، وقيل: طبتم نفساً بما أتيح لكم من النعيم المقيم، والأول مروي عن مجاهد وهو الأظهر، والجملة في موضع التعليل ﴿فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ أي مقدرين الخلود كان ما كان مما يقصر عنه البيان أو فازوا بما لا يعد ولا يحصى من التكريم والتعظيم، وقدره المبرد سعدوا بعد ﴿خالدين﴾ أيضاً، ومنهم من قدره قبل ﴿وفتحت﴾ أي حتى إذا جاؤوها جاؤوها وقد فتحت وليس بشيء، ومنهم من قدره نحو ما قلنا قبل ﴿وقال﴾ وجعل جملة «قال» الخ معطوفة عليه، وما تقدم أقوى معنى وأظهر.

وقال الكوفيون: واو ﴿وفتحت﴾ زائدة والجواب جملة ﴿فتحت﴾ وقيل: الجواب ﴿قال لهم خزنتها﴾ والواو زائدة، والمعول عليه ما ذكرنا أولاً وبه يعلم وجه اختلاف الجملتين أعني قوله تعالى في أهل النار: ﴿حتى إذا جاؤوها فتحت أبوابها﴾ وقوله جل شأنه في أهل الجنة: ﴿حتى إذا جاؤوها وفتحت أبوابها﴾ حيث جيء بواو في الجملة الثانية وحذف الجواب ولم يفعل كذلك في الجملة الأولى، فما قيل: إن الواو في الثانية واو الثمانية لأن المفتح ثمانية أبواب ولما كانت أبواب النار سبعة لا ثمانية لم يؤت بها وجه ضعيف لا يعول عليه.

واستدل المعتزلة بقوله: ﴿طبتم فادخلوها﴾ حيث رتب فيه الأمر بالدخول على الطيب والطهارة من دنس المعاصي على أن أحداً لا يدخل الجنة إلا وهو طيب طاهر من المعاصي إما لأنه لم يفعل شيئاً منها أو لأنه تاب عما فعل توبة مقبولة في الدنيا. ورد بأنه وإن دل على أن أحداً لا يدخلها إلا وهو طيب لكن قد يحصل ذلك بالتوبة المقبولة وقد يكون بالعفو عنه أو الشفاعة له أو بعد تمحيصه بالعذاب فلا متمسك فيها للمعتزلة.

وقيل: المراد بالذين اتقوا المحترزون عن الشرك خاصة فطبتم على معنى طبتم عن دنس الشرك ولا خلاف في أن دخول الجنة مسبب عن الطيب والطهارة عنه. وتعقب بأن ذاك خلاف الظاهر لأن التقوى في العرف الغالب تقع على أخص من ذلك لا سيما في معرض الإطلاق والمدح بما عقبه من قوله تعالى: ﴿فنعم أجر العاملين﴾ فتدبر ﴿وَقَالُوا﴾ عطف على ﴿قال﴾ أو على الجواب المقدر بعد ﴿خالدين﴾ أو على مقدر غيره أي فدخلوها وقالوا: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ﴾ بالبعث والثواب ﴿وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ﴾ يريدون المكان الذي استقروا فيه فإن كانت

أرض الآخرة التي يمشي عليها تسمى أرضاً حقيقة فذاك وإلا فإطلاقهم الأرض على ذلك من باب الاستعارة تشبيهاً له بأرض الدنيا، والظاهر الأول، وحكي عن قتادة وابن زيد والسدي أن المراد أرض الدنيا وليس بشيء، وإيراثها تمليكها مخلفة عليهم من أعمالهم أو تمكينهم من التصرف فيها تمكين الوارث فيما يرثه بناء على أنه لا ملك في الآخرة لغيره عزَّ وجلّ وإنما هو إباحة التصرف والتمكين مما هو ملكه جل شأنه، وقيل: ورثوها من أهل النار فإن لكل منهم مكاناً في الجنة كتب له بشرط الإيمان.

﴿نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ﴾ أي يتبوأ كل منا في أي مكان أراده من جنته الواسعة لا أن كلاً منهم يتبوأ في أي مكان من مطلق الجنة أو من جنات غيره المعينة لذلك الغير، فلا يقال: إنه يلزم جواز تبوء الجميع في مكان واحد وحدة حقيقة وهو محال أو أن يأخذ أحدهم جنة غيره وهو غير مراد، وقيل: الكلام على ظاهره ولكل منهم أن يتبوأ في أي مكان شاء من مطلق الجنة ومن جنات غيره إلا أنه لا يشاء غير مكانه لسلامة نفسه وعصمة الله تعالى له عن تلك المشيئة، وقال الإمام: قالت حكماء الإسلام: إن لكلٍّ جنتين جسمانية وروحانية ومقامات الثانية لا تمانع فيها فيجوز أن يكون في مقام واحد منها ما لا يتناهى من أربابها، وهذه الجملة حالية فالمعنى أورثنا مقامات الجنة حالة كوننا نسرح في منازل الأرواح كما نشاء.

وقد قال بعض متألهي الحكماء: الدار الضيقة تسع ألف ألف من الأرواح والصور المثالية التي هي أبدان المتجردين عن الأبدان العنصرية لعدم تمانعها كما قيل:

سم الخياط مع الأحباب ميدان

وفسر المقام الروحاني بما تدركه الروح من المعارف الإلهية وتشاهده من رضوان الله تعالى وعنايته القدسية مما لا عين رأت ولا أذن سمعت.

وتعقب بأن هذا إن عد من بطون القرآن العظيم فلا كلام وإلا فحمل الجنة على مثل ذلك مما لا تعرفه العرب ولا ينبغي أن يفسر به، على أنه ربما يقال: يرد عليه أنه يقتضي أن لكل أحد أن يصل إلى مقام روحاني من مقاماتها مع أن منها ما يخص الأنبياء المكرمين والملائكة المقربين، والظاهر أنه لا يصل إلى مقاماتهم كل أحد من العارفين فافهم ولا تغفل ﴿فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ من كلام الداخلين عند الأكثر والمخصوص بالمدح محذوف أي هذا الأجر أو الجنة، ولعل التعبير ـ بأجر العاملين ـ دون أجرنا للتعريض بأهل النار أنهم غير عاملين، وقال مقاتل: هو من كلام الله تعالى ﴿وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ﴾ أي محدقين من الحفاف بمعنى الجانب جمع حاف كما قال الأخفش، وقال الفراء: لا يفرد فقيل: أراد أن المفرد لا يكون حافاً إذ الإحداق والإحاطة لا يتصور بفرد وإنما يتحقق بالجمع، وقيل: أراد أنه لم يرد استعمال مفرده. وأورد على الأول أن الإحاطة بالشيء بمعنى محاذاة جميع جوانبه فتتصور في الواحد بدورانه حول الشيء فإنه حينئذ يحاذي جميع جوانبه تدريجاً فيكون الحفوف بمعنى الدوران حوله أو يراد بكونه حافاً أنه جزء من الحاف وله مدخل في الحفوف، ولو صح ما ذكر لم يصح أن يقال: طائف أو محدق أو محيط أو نحوه مما يدل على الإحاطة. وأورد على الثاني أنا لم نجد ورود جمع سالم لم يرد استعمال مفرده فبعد ورود حافين الظاهر ورود حاف كما لا يخفى، والخطاب لسيد المخاطبين ﷺ، وجوز أن يكون لكل من تصح منه الرؤية كأنه قيل: وترى أيها الرائي الملائكة حافين ﴿مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ﴾ أي حول العرش على أن ﴿مِن﴾ مزيدة على رأي الأخفش وهو الأظهر، وقيل: هي للابتداء ـ فحول العرش ـ مبتدأ الحفوف وكأن الحفوف حينئذ للخلق، وفي بعض الآثار ما هو ناطق بذلك، وفيها ما يدل على أن العرش يوم فصل القضاء يكون في الأرض حيث يشاء الله تعالى والأرض يومئذ غير هذه الأرض،

على أن أحوال يوم القيامة وشؤون الله تعالى وراء عقولنا وسبحان من لا يعجزه شيء، والظاهر أن الرؤية بصرية ـ فحافين ـ حال أولى وقوله تعالى: ﴿**يسبحون بحمد ربهم**﴾ حال ثانية، ويجوز أن يكون حالاً من ضمير ﴿**حافين**﴾ المستتر، وجوز كون الرؤية علمية ـ فحافين ـ مفعول ثاني وجملة ﴿**يسبحون**﴾ حال من ﴿**الملائكة**﴾ أو من ضميرهم في ﴿**حافين**﴾ والباء في ﴿**بحمده**﴾ للملابسة والجار والمجرور في موضع الحال أي ينزهونه تعالى عما لا يليق به ملتبسين بحمده، وحاصله يذكرون الله تعالى بوصفي جلاله وإكرامه تبارك وتعالى، وهذا الذكر إما من باب التلذذ فإن ذكر المحبوب من أعظم لذائذ المحب كما قيل:

أجد الملامة في هواك لذيذة ... حباً لذكرك فليلمني اللوَّم

أو من باب الامتثال ويدعي أنهم مكلفون، ولا يسلم أنهم خارجون عن خطة التكليف أو يخرجون عنها يوم القيامة، نعم لا يرون ذلك كلفة وإن أمروا به. وفي حديث طويل جداً أخرجه عبد بن حميد وعلي بن سعيد في كتاب الطاعة والعصيان. وأبو يعلى وأبو الحسن القطان في المطولات. وأبو الشيخ في العظمة. والبيهقي في البعث والنشور عن أبي هريرة «فبينما نحن وقوف ـ أي في المحشر ـ إذ سمعنا حساً من السماء شديداً فينزل أهل سماء الدنيا بمثلي من في الأرض من الجن والإنس حتى إذا دنوا من الأرض أشرقت الأرض بنورهم وأخذوا مصافهم ثم تنزل أهل السماء الثالثة بمثلي من نزل من الملائكة ومثلي من فيها من الجن والإنس حتى إذا دنوا من الأرض أشرقت الأرض بنورهم وأخذوا مصافهم ثم ينزلون على قدر ذلك من التضعيف إلى السماوات السبع ثم ينزل الجبار في ظلل من الغمام والملائكة تحمل عرشه يومئذ ثمانية وهم اليوم أربعة أقدامهم على تخوم الأرض السفلى والأرضون والسماوات إلى حجزهم والعرش على مناكبهم لهم زجل بالتسبيح فيقولون: سبحان ذي العزة والجبروت سبحان ذي الملك والملكوت سبحان الحي الذي لا يموت سبحان الذي يميت الخلائق ولا يموت سبوح قدوس رب الملائكة والروح سبحان ربنا الأعلى الذي يميت الخلائق ولا يموت فيضع عرشه حيث يشاء من الأرض ثم يهتف سبحانه بصوته فيقول عزَّ وجلّ: «يا معشر الجن والإنس إني قد أنصتُّ لكم منذ يوم خلقتكم إلى يومكم هذا أسمع قولكم وأبصر أعمالكم فانصتوا إلي فإنما هي أعمالكم وصحفكم تقرأ عليكم فمن وجد خيراً فليحمد الله تعالى ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه» الحديث.

﴿**وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِ**﴾ أي بين العباد كلهم بإدخال بعضهم الجنة وبعضهم النار فإن القضاء المعروف يكون بينهم، ولوضوح ذلك لا يضر كون الضمير لغير الملائكة مع أن ضمير ﴿**يسبحون**﴾ لهم إذ التفكيك لا يمتنع مطلقاً كما توهم، وقيل: ضمير ﴿**بينهم**﴾ للملائكة واستظهره أبو حيان، وثوابهم وإن كانوا كلهم معصومين يكون على حسب تفاضل أعمالهم فيختلف تفاضل مراتبهم فإقامة كل في منزلته حسب عمله هو القضاء بينهم بالحق.

﴿**وقيل الحمد لله رب العالمين**﴾ أي على ما قضى بيننا بالحق، والقائل قيل: هم المؤمنون المقضي لهم لا ما يعمهم والمقضي عليهم، وحمدهم الأول على إنجاز وعده سبحانه وإيراثهم الأرض يتبوؤون من الجنة ما شاؤوا، وحمدهم هذا على القضاء بالحق بينهم فلا تكرار.

وقال الطيبي: إن الأول للتفصلة بين الفريقين بحسب الوعد والوعيد والسخط والرضوان، والثاني للتفرقة بينهما بحسب الأبدان ففريق في الجنة وفريق في السعير والأول أحسن، وقيل: هم الملائكة يحمدونه تعالى على قضائه سبحانه بينهم بالحق وإنزال كل منهم منزلته، وعليه ليس في الحمدين شائبة تكرار لتغاير الحامدين.

وقيل: ﴿**قيل**﴾ دون قالوا لتعينهم وتعظيمهم، وجوز كون القائل جميع العباد منعمهم ومعذبهم؛ وكأنه أريد أن

الحمد من عموم الخلق المقضي بينهم هنا إشارة إلى التمام وفصل الخصام كما يقوله المنصرفون من مجلس حكومة ونحوها، فيحمده المؤمنون لظهور حقهم وغيرهم لعدله واستراحتهم من انتظار الفصل، ففي بعض الآثار أنه يطول الوقوف في المحشر على العباد حتى إن أحدهم ليقول: رب أرحني ولو إلى النار، وقيل: إنهم يحمدونه إظهاراً للرضا والتسليم.

وقال ابن عطية: هذا الحمد ختم للأمر يقال عند انتهاء فصل القضاء أي إن هذا الحاكم العدل ينبغي أن يحمد عند نفوذ حكمه وإكمال قضائه، ومن هذه الآية جعلت ﴿**الحمد لله رب العالمين**﴾ خاتمة المجالس في العلم، هذا والحمد لله رب العالمين وصلاته وسلامه على رسوله محمد خاتم النبيين وعلى آل وصحبه أجمعين.

«ومن باب الإشارة في بعض الآيات» ﴿**فاعبد الله مخلصاً له الدين**﴾ أي اعبده تعالى بنفسك وقلبك وروحك مخلصاً، وإخلاص العبادة بالنفس التباعد عن الانتقاص، وإخلاص العبادة بالقلب العمى عن رؤية الأشخاص، وإخلاص العبادة بالروح نفي طلب الاختصاص. وذكر أن المخلص من خلص بالجود عن حبس الوجود ﴿**إن الله لا يهدي من هو كاذب كفار**﴾ فيه إشارة إلى تهديد من يدعي رتبة من الولاية ليس بصادق فيها وعقوبته حرمان تلك الرتبة ﴿**يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل**﴾ فيه إشارة إلى أحوال السائرين إلى الله سبحانه من القبض والبسط والصحو والسكر والجمع والفرق والستر والتجلي وغير ذلك ﴿**في ظلمات ثلاث**﴾ قيل: يشير إلى ظلمة الإمكان وظلمة الهيولى وظلمة الصورة ﴿**أمن هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً**﴾ يشير إلى القيام بآداب العبودية ظاهراً وباطناً من غير فتور ولا تقصير ﴿**يحذر الآخرة**﴾ ونعيمها كما يحذر الدنيا وزينتها ﴿**ويرجو رحمة ربه**﴾ رضاه سبحانه عنه وقربه عزَّ وجلّ ﴿**قل هل يستوي الذين يعلمون**﴾ قدر معبودهم جل شأنه فيطلبونه ﴿**والذين لا يعلمون**﴾ ذلك فيطلبون ما سواه ﴿**إنما يتذكر**﴾ حقيقة الأمر ﴿**أولو الألباب**﴾ وهم الذين انسلخوا من جلد وجودهم وصفوا عن شوائب أنانيتهم ﴿**قل يا عبادي الذين آمنوا**﴾ بي شوقاً إلى ﴿**اتقوا ربكم**﴾ فلا تطلبوا غيره سبحانه ﴿**للذين أحسنوا**﴾ في طلب في هذه الدنيا بأن لم يطلبوا مني غيري ﴿**حسنة**﴾ عظيمة وهي حسنة وجداني ﴿**وأرض الله واسعة**﴾ وهي حضرة جلاله وجماله فإنها لا نهاية لها فليسر فيها ليرى ما يرى ولا يظن بما فتح عليه انتهاء السير وانقطاع الفيض ﴿**إنما يوفى الصابرون**﴾ على صدق الطلب ﴿**أجرهم**﴾ من التجليات بغير حساب إذ لا نهاية لتجلياته تعالى و ﴿كل يوم هو في شأن﴾ [الرحمن: ٢٩] ﴿**قل إني أخاف إن عصيت ربي**﴾ بطلب ما سواه ﴿**عذاب يوم عظيم**﴾ وهو عذاب القطيعة والحرمان ﴿**قل الله أعبد مخلصاً له ديني**﴾ فلا أطلب دنيا ولا أخرى كما قيل:

وكل له سؤل ودين ومذهب ... ولي أنتم سؤل وديني هواكم

﴿**قل إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم**﴾ أي الذين تبين خسران أنفسهم بإفساد استعدادها للوصول والوصال ﴿**وأهليهم**﴾ من القلوب والأسرار والأرواح بالإعراض عن طلب المولى ﴿**يوم القيامة**﴾ الذي تتبين فيه الحقائق ﴿**ذلك هو الخسران المبين**﴾ الذي لا خفاء فيه لفوات رأس المال وعدم إمكان التلافي، وقال بعض الأجلة: إن للإنسان قوتين يستكمل بإحداهما علماً وبالأخرى عملاً، والآلة الواسطة في القسم الأول هي العلوم المسماة بالمقدمات وترتيبها على الوجه المؤدي إلى النتائج التي هي بمنزلة الربح يشبه تصرف التاجر في رأس المال بالبيع والشراء، والآلة في القسم العملي هو القوى البدنية وغيرها من الأسباب الخارجية المعينة عليها، واستعمال تلك القوى في وجوه أعمال البر التي هي بمنزلة الربح يشبه التجارة، فكل من أعطاه الله تعالى العقل والصحة والتمكين ثم إنه

لم يستفد منها معرفة الحق ولا عمل الخير فإذا مات ربحه وضاع رأس ماله ووقع في عذاب الجهل وألم البعد عن عالمه والقرب مما يضاده أبد الآباد، فلا خسران فوق هذا ولا حرمان أبين منه، وقد أشار سبحانه إلى هذا بقوله تعالى: ﴿**لهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل**﴾ وهذا على الأول إشارة إلى إحاطة نار الحسرة بهم ﴿**لكن الذين اتقوا ربهم لهم غرف من فوقها غرف مبنية تجري من تحتها الأنهار**﴾ قيل الغرف المبنية بعضها فوق بعض إشارة إلى العلوم المكتسبة المبنية على النظريات وأنها تكون في المتانة واليقين كالعلوم الغريزية البديهية ﴿**ألم تر أن الله أنزل من السماء**﴾ من سماء حضرته سبحانه أو من سماء القلب ﴿**ماء**﴾ ماء المعارف والعلوم ﴿**فسلكه ينابيع**﴾ مدارك وقوى ﴿**في الأرض**﴾ أرض البشرية ﴿**ثم يخرج به زرعاً**﴾ من الأعمال البدنية والأقوال اللسانية ﴿**ثم يهيج فتراه مصفراً ثم يجعله حطاماً**﴾ إشارة إلى أفعال المرائين وأقوالهم ترى مخضرة وفق الشرع ثم تصفر من آفة الرياء ثم تكون حطاماً لا حاصل لها إلا الحسرة ﴿**أفمن شرح الله صدره للإسلام**﴾ للانقياد إليه سبحانه ﴿**فهو على نور من ربه**﴾ يستضيء به في طلبه سبحانه، ومن علامات هذا النور محو ظلمات الصفات الذميمة النفسانية والتحلية بالأخلاق الكريمة القدسية.

﴿**الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم**﴾ إذا قرعت صفات الجلال أبواب قلوبهم ﴿**ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله**﴾ بالشوق والطلب ﴿**ضرب الله مثلاً رجلاً فيه شركاء متشاكسون**﴾ يتجاذبونه وهم شغل الدنيا وشغل العيال وغير ذلك من الأشغال ﴿**ورجلاً سلما لرجل**﴾ إشارة إلى المؤمن الخالص الذي لم يشغله شيء عن مولاه عزَّ شأنه ﴿**فمن أظلم ممن كذب على الله**﴾ يشير إلى حال الكاذبين في دعوى الولاية ﴿**وكذب بالصدق إذ جاءه**﴾ يشير إلى حال أقوام نبذوا الشريعة وراء ظهورهم وقالوا: هي قشر والعياذ بالله تعالى ﴿**ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة**﴾ قيل: هو سواد قلوبهم ينعكس على وجوههم ﴿**وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمراً**﴾ قيل المتقون قد عبدوا الله تعالى لله جل شأنه لا للجنة فتصير شدة استغراقهم في مشاهدة مطالع الجمال والجلال مانعة لهم عن الرغبة في الجنة فلا جرم يفتقرون إلى السوق، وقيل: كل خصلة ذميمة أو شريفة في الإنسان فإنها تجره من غير اختيار شاء أم أبى إلى ما يضاهي حاله فذاك معنى السوق في الفريقين، وقيل: القوم أهل وفاء فهم يقولون: لا ندخل الجنة حتى يدخلها أحبابنا فلذا يساقون إليها ولكن لا كسوق الكفرة ﴿**وترى الملائكة حافين من حول العرش**﴾ إشارة إلى أنه ﷺ في مقعد صدق عند مليك مقتدر بناء على أن العرش لا يتحول ﴿**يسبحون بحمد ربهم**﴾ إشارة إلى نعيمهم ﴿**وقضى بينهم بالحق**﴾ أعطى كل ما يستحقه ﴿**وقيل الحمد لله رب العالمين**﴾ على انقضاء الأمر وفصل القضاء بالعدل الذي لا شبهة فيه ولا امتراء، هذا والحمد لله تعالى على أفضاله والصلاة والسلام على رسوله محمد وآله.

(٤٠) سُورَةُ غَافِرٍ مَكِّيَّةٌ
وَآيَاتُهَا خَمْسٌ وَثَمَانُونَ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٢﴾ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ
ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٣﴾ مَا يُجَٰدِلُ
فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿٤﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ
قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَٰدَلُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ
لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٥﴾ وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ
رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٦﴾

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ حم ، تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم ، غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذى الطول لا إله إلا هو إليه المصير ، ما يجادل فى آيات الله إلا الذين كفروا فلا يغررك تقلبهم فى البلاد ، كذبت قبلهم قوم نوح والأحزاب من بعدهم ، وهمت كل أمة برسولهم ليأخذوه وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق فأخذتهم فكيف كان عقاب ، وكذلك حقت كلمة ربك على الذين كفروا أنهم أصحاب النار ﴾ .

اعلم أن فى الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قرأ عاصم فى رواية أبى بكر وحمزة والكسائى حم بكسر الحاء ، والباقون بفتح الحاء ، ونافع فى بعض الروايات ، وابن عامر بين الفتح والكسر وهو أن لا يفتحها فتحاً شديداً ، قال صاحب الكشاف : قرىء بفتح الميم وتسكينها ، ووجه الفتح التحريك لالتقاء الساكنين وإيثار أخف الحركات نحو : أين وكيف ، أو النصب بإضمار اقرأ ، ومنع الصرف إما

للتأنيث والتعريف ، من حيث إنها اسم للسورة وللتعريف ، وإنها على زنة أعجمى نحو قابيل وهابيل ، وأما السكون فلأنا بينا أن الأسماء المجردة تذكر موقوفة الأواخر .

﴿ المسألة الثانية ﴾ الكلام المستقصى فى هذه الفواتح مذكور فى أول سورة البقرة ، والأقرب ههنا أن يقال حم اسم للسورة ، فقوله (حم) مبتدأ ، وقوله (تنزيل الكتاب من الله) خبر والتقدير أن هذه السورة المسماة بحم تنزيل الكتاب ، فقوله (تنزيل) مصدر ، لكن المراد منه المنزل .

وأما قوله (من الله) فاعلم إنه لما ذكر أن (حم ، تنزيل الكتاب) وجب بيان أن المنزل من هو ؟ فقال (من الله) ثم بين أن الله تعالى موصوف بصفات الجلال وسمات العظمة ليصير ذلك حاملا على التشمير عن ساق الجد عند الاستماع وزجره عن التهاون والتوانى فيه ، فبين أن المنزل هو (الله العزيز العليم) .

واعلم أن الناس اختلفوا فى أن العلم بالله ماهو ؟ فقال جمع عظيم ، أنه العلم بكونه قادراً وبعده العالم بكونه عالماً ، إذا عرفت هذا فنقول (العزيز) له تفسيران (أحدهما) الغالب فيكون معناه القادر الذى لا يساويه أحد فى القدرة (والثانى) الذى لا مثل له ، ولا يجوز أن يكون المراد بالعزيز هنا القادر ، لأن قوله تعالى (الله) يدل على كونه قادراً ، فوجب حمل (العزيز) على المعنى الثانى وهو الذى لا يوجد له مثل ، وما كان كذلك وجب أن لا يكون جسما ، والذى لا يكون جسما يكون منزها عن الشهوة والنفرة ، والذى يكون كذلك يكون منزها عن الحاجة . وأما (العليم) فهو مبالغة فى العلم ، والمبالغة التامة إنما تتحقق عند كونه تعالى عالماً بكل المعلومات ، فقوله (من الله العزيز العليم) يرجع معناه إلى أن هذا الكتاب تنزيل من القادر المطلق ، الغنى المطلق ، العالم المطلق ، ومن كان كذلك كان عالماً بوجوه المصالح والمفاسد ، وكان عالماً بكونه غنياً عن جر المصالح ودفع المفاسد ، ومن كان كذلك كان رحيما جواداً ، وكانت أفعاله حكمة وصواباً منزهة عن القبيح والباطل ، فكأنه سبحانه إنما ذكر عقيب قوله (تنزيل) هذه الأسماء الثلاثة لكونها دالة على أن أفعاله سبحانه حكمة وصواب ، ومتى كان الأمر كذلك لزم أن يكون هذا التنزيل حقاً وصواباً . وقيل الفائدة فى ذكر (العزيز العليم) أمران (أحدهما) أنه بقدرته وعلمه أنزل القرآن على هذا الحد الذى يتضمن المصالح والإعجاز ، ولولا كونه عزيزاً عليما لما صح ذلك (والثانى) أنه تكفل بحفظه وبعموم التكليف فيه وظهوره إلى حين انقطاع التكليف ، وذلك لا يتم إلا بكونه عزيزاً لا يغلب وبكونه عليما لا يخفى عليه شىء ، ثم وصف نفسه بما يجمع الوعد والوعيد والترهيب والترغيب ، فقال (غافر الذنب ، وقابل التوب شديد العقاب ، ذى الطول لا إله إلا هو إليه المصير) فهذه ستة أنواع من الصفات :

﴿ الصفة الأولى ﴾ قوله (غافر الذنب) قال الجبائى : معناه أنه غافر الذنب إذا استحق غفرانه إما بتوبة أو طاعة أعظم منه ، ومراده منه أن فاعل المعصية إما أن يقال إنه كان قد أتى قبل ذلك بطاعة

كان ثوابها أعظم من عقاب هذه المعصيه أو ما كان الأمر كذلك فإن كان الأول كانت هذه المعصية صغيرة فيحبط عقابها ، وإن كان الثانى كانت هذه المعصية كبيرة فلا يزول عقابها إلا بالتوبة ، ومذهب أصحابنا أن الله تعالى قد يعفو عن الكبيرة بعد التوبة ، وهذه الآية تدل على ذلك وبيانه من وجوه (الأول) أن غفران الكبيرة بعد التوبة وغفران الصغيرة من الأمور الواجبة على العبد ، وجميع الأنبياء والأولياء والصالحين من أوساط الناس مشتركون فى فعل الواجبات ، فلو حملنا كونه تعالى غافر الذنب على هذا المعنى لم يبق بينه وبين أقل الناس من زمرة المطيعين فرق فى المعنى الموجب لهذا المدح وذلك باطل ، فثبت أنه يجب أن يكون المراد منه كونه غافر الكبائر قبل التوبة وهو المطلوب (الثانى) أن الغفران عبارة عن الستر ومعنى الستر إنما يعقل فى الشيء الذى يكون باقياً موجوداً فيستر ، والصغيرة تحبط بسبب كثرة ثواب فاعلها ، فمعنى الغفر فيها غير معقول ، ولا يمكن حمل قوله غافر الذنب على الكبيرة بعد التوبة ، لأن معنى كونه قابلا للتوب ليس إلا ذلك ، فلو كان المراد بكونه غافر الذنب هذا المعنى لزم التكرار وإنه باطل . فثبت أن كونه غافر الذنب يفيد كونه غافراً للذنوب الكبائر قبل التوبة (الثالث) أن قوله (غافر الذنب) مذكور فى معرض المدح العظيم ، فوجب حمله على ما يفيد أعظم أنواع المدح ، وذلك هو كونه غافراً للكبائر قبل التوبة ، وهو المطلوب .

﴿ الصفة الثانية ﴾ قوله تعالى ﴿ قابل التوب ﴾ وفيه بحثان :

﴿ الأول ﴾ فى لفظ التوب قولان : الأول أنه مصدر وهو قول أبى عبيدة ، والثانى أنه جماعة التوبة وهو قول الأخفش ، قال المبرد يجوز أن يكون مصدراً يقال تاب يتوب توباً وتوبة مثل قال يقول قولا وقولة ، ويجوز أن يكون جمعاً لتوبة فيكون توبة وتوب مثل ثمرة وثمر إلا أن المصدر أقرب لأن على هذا التقدير يكون تأويله أنه يقبل هذا الفعل .

﴿ الثانى ﴾ مذهب أصحابنا أن قبول التوبة من المذنب يقع على سبيل التفضل ، وليس بواجب على الله ، وقالت المعتزلة إنه واجب على الله واحتج أصحابنا بأنه تعالى ذكر كونه قابلا للتوب على سبيل المدح والثناء ، ولو كان ذلك من الواجبات لم يبق فيه من معنى المدح إلا القليل ، وهو القدر الذى يحصل لجميع الصالحين عند أداء الواجبات والاحتراز عن المحظورات .

﴿ الصفة الثالثة ﴾ قوله ﴿ شديد العقاب ﴾ وفيه مباحث :

﴿ البحث الأول ﴾ فى هذه الآية سؤال وهو أن قوله (شديد العقاب) يصلح أن يكون نعتاً للنكرة ولا يصلح أن يكون نعتاً للمعرفة تقول مررت برجل شديد البطش ، ولا تقول مررت بعبد الله شديد البطش ، وقوله الله اسم علم فيكون معرفة فكيف يجوز وصفه بكونه شديد العقاب مع أنه لا تصلح إلا أن يجعل وصفاً للنكرة ؟ قالوا وهذا بخلاف قولنا غافر الذنب وقابل التوب لأنه ليس المراد منهما حدوث هذين الفعلين وأنه يغفر الذنب ويقبل التوبة الآن أو غداً ، وإنما أريد

ثبوت ذلك ودوامه ، فكان حكمهما حكم إله الخلق ورب العرش ، وأما (شديد العقاب) فمشكل لأنه فى تقدير شديد عقابه فيكون نكرة فلا يصح جعله صفة للمعرفة ، وهذا تقرير السؤال وأجيب عنه بوجوه (الأول) أن هذه الصفة وإن كانت نكرة إلا أنها لما ذكرت مع سائر الصفات التى هى معارف حسن ذكرها كما فى قوله (وهو الغفور الودود ، ذو العرش المجيد ، فعال لما يريد) (والثانى) قال الزجاج إن خفض شديد العقاب على البدل ، لأن جعل النكرة بدلا من المعرفة وبالعكس أمر جائز ، واعترضوا عليه بأن جعله وحده بدلا من الصفات فيه نبوة ظاهرة (الثالث) أنه لانزاع فى أن قوله (غافر الذنب وقابل التوب) يحسن جعلهما صفة ، وإنما كان كذلك لأنهما مفيدان معنى الدوام والاستمرار ، فكذلك قوله (شديد العقاب) يفيد معنى الدوام والاستمرار ، لأن صفات الله تعالى منزهة عن الحدوث والتجدد ، فكونه (شديد العقاب) معناه كونه بحيث يشتد عقابه ، وهذا المعنى حاصل أبداً ، وغير موصوف بأنه حصل بعد أن لم يكن كذلك ، فهذا ما قيل فى هذا الباب .

﴿ البحث الثانى ﴾ هذه الآية مشعرة بترجيح جانب الرحمة والفضل ، لأنه تعالى لما أراد أن يصف نفسه بأنه شديد العقاب ذكر قبله أمرين كل واحد منهما يقتضى زوال العقاب ، وهو كونه غافر الذنب وقابل التوب وذكر بعده مايدل على حصول الرحمة العظيمة ، وهو قوله ذى الطول ، فكونه شديد العقاب لما كان مسبوقا بتينك الصفتين وملحوقاً بهذه الصفة ، دل ذلك على أن جانب الرحمة والكرم أرجح .

﴿ البحث الثالث ﴾ لقائل أن يقول ذكر الواو فى قوله (غافر الذنب وقابل التوب) ولم يذكرها فى قوله (شديد العقاب) فما الفرق ؟ قلنا إنه لو لم يذكر الواو فى قوله (غافر الذنب وقابل التوب) لاحتمل أن يقع فى خاطر إنسان أنه لا معنى لكونه غافر الذنب إلا كونه قابل التوب ، أما لما ذكر الواو زال هذا الاحتمال ، لأن عطف الشىء على نفسه محال ، أما كونه شديد العقاب فمعلوم أنه مغاير لكونه (غافر الذنب وقابل التوب) فاستغنى به عن ذكر الواو .

﴿ الصفة الرابعة ﴾ قوله (ذى الطول) أى ذى التفضل يقال طال علينا طولا أى تفضل علينا تفضلا ، ومن كلامهم طل على بفضلك ، ومنه قوله تعالى (أولوا الطول منهم) ومضى تفسيره عند قوله (ومن لم يستطع منكم طولا) واعلم أنه لم وصف نفسه بكونه (شديد العقاب) لابد وأن يكون المراد بكونه تعالى آتياً بالعقاب الشديد الذى لا يقبح منه إتيانه به ، بل لا يجوز وصفه تعالى بكونه آتياً لفعل القبيح ، وإذا ثبت هذا فنقول : ذكر بعده كونه ذا الطول وهو كونه ذا الفضل ، فيجب أن يكون معناه كونه ذا الفضل بسبب أن يترك العقاب الذى له أن يفعله لأنه ذكر كونه ذا الطول ولم يبين أنه ذو الطول فيماذا فوجب صرفه إلى كونه ذا الطول فى الأمر الذى سبق ذكره ، وهو فعل العقاب الحسن دفعاً للاجمال ، وهذا يدل على أنه تعالى قد يترك العقاب الذى

يحسن منه تعالى فعله ، وذلك يدل على أن العفو عن أصحاب الكبائر جائز وهو المطلوب .

﴿الصفة الخامسة﴾ التوحيد المطلق وهو قوله (لا إله إلا هو) والمعنى أنه وصف نفسه بصفات الرحمة والفضل ، ولو كان معه إله آخر يشاركه ويساويه فى صفة الرحمة والفضل لما كانت الحاجة إلى عبوديته شديدة ، أما إذا كان واحداً وليس له شريك ولا شبيه كانت الحاجة إلى الإقرار بعبوديته شديدة ، فكان الترغيب والترهيب الكاملان يحصلان بسبب هذا التوحيد .

﴿ الصفة السادسة ﴾ قوله (إليه المصير) وهذه الصفة أيضاً مما يقوى الرغبة فى الإقرار بعبوديته ، لأنه بتقدير أن يكون موصوفاً بصفات الفضل والكرم وكان واحداً لاشريك له ، إلا أن القول بالحشر والنشر إن كان باطلا لم يكن الخوف الشديد حاصلا من عصيانه ، أما لما كان القول بالحشر والقيامة حاصلا كان الخوف أشد والحذر أكمل ، فلهذا السبب ذكر الله تعالى هذه الصفات ، واحتج أهل التشبيه بلفظة إلى ، وقالوا إنها تفيد انتهاء الغاية ، والجواب عنه مذكور فى مواضع كثيرة من هذا الكتاب .

واعلم أنه تعالى لما قرر أن القرآن كتاب أنزله ليهتدى به فى الدين ذكر أحوال من يجادل لغرض إبطاله وإخفاء أمره فقال (ما يجادل فى آيات الله إلا الذين كفروا) وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ أن الجدال نوعان جدال فى تقرير الحق وجدال فى تقرير الباطل ، أما الجدال فى تقرير الحق فهو حرفة الأنبياء عليهم السلام قال تعالى لمحمد ﷺ (وجادلهم بالتى هى أحسن) وقال حكاية عن الكفار أنهم قالوا لنوح عليه السلام (يانوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا) وأما الجدال فى تقرير الباطل فهو مذموم وهو المراد بهذه الآية حيث قال (ما يجادل فى آيات الله إلا الذين كفروا) وقال (ماضربوه لك إلا جدلا بل هم قوم خصمون) وقال (وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق) وقال صلى الله عليه وسلم « إن جدالا فى القرآن كفر » فقوله إن جدالا على لفظ التنكير يدل على التمييز بين جدال وجدال ، واعلم أن لفظ الجدال فى الشىء مشعر بالجدال الباطل ولفظ الجدال عن الشىء مشعر بالجدال لأجل تقريره والذب عنه ، قال صلى الله عليه وسلم « إن جدالا فى القرآن كفر » وقال « لاتماروا فى القرآن فإن المراء فيه كفر » .

﴿ المسألة الثانية ﴾ الجدال فى آيات الله هو أن يقال مرة إنه سحر ومرة إنه شعر ومرة إنه قول الكهنة ومرة أساطير الأولين ومرة إنما يعلمه بشر ، وأشباه هذا مما كانوا يقولونه من الشبهات الباطلة فذكر تعالى أنه لايفعل هذا إلا الذين كفروا وأعرضوا عن الحق .

قوله تعالى : ﴿ فلا يغررك تقلبهم فى البلاد ﴾ أى لا ينبغى أن تغتر بأنى أمهلهم وأتركهم سالمين فى أبدانهم وأموالهم يتقلبون فى البلاد أى يتصرفون للتجارات وطلب المعاش ، فإنى وإن أمهلتهم فإنى سآخذهم وأنتقم منهم كما فعلت بأشكالهم من الأمم الماضية ، وكانت قريش كذلك

ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟

يتقلبون فى بلاد الشام واليمن ولهم الأموال الكثيرة يتجرون فيها ويربحون ، ثم كشف عن هذا المعنى فقال (كذبت قبلهم قوم نوح والأحزاب من بعدهم) فذكر من أولئك المكذبين قوم نوح (والأحزاب من بعدهم) أى الأمم المستمرة على الكفر كقوم عاد وثمود وغيرهم ، كما قال فى سورة ص (كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وفرعون ذو الأوتاد ، وثمود وقوم لوط وأصحاب الأيكة أولئك الأحزاب) وقوله (وهمت كل أمة برسولهم ليأخذوه) أي وعزمت كل أمة من هؤلاء الأحزاب أن يأخذوا رسولهم ليقتلوه ويعذبوه ويحبسوه (وجادلوا بالباطل) أى هؤلاء جادلوا رسلهم بالباطل أى بإيراد الشبهات (ليدحضوا به الحق) أى أن يزيلوا بسبب إيراد تلك الشبهات الحق والصدق (فأخذتهم فكيف كان عقاب) أى فأنزلت بهم من الهلاك ما هموا بإنزاله بالرسل ، وأرادوا أن يأخذوهم فأخذتهم أنا ، فكيف كان عقابى إياهم ، أليس كان مهلكا مستأصلا مهيباً فى الذكر والسماع ، فأنا أفعل بقومك كما فعلت بهؤلاء إن أصروا على الكفر والجدال فى آيات الله ، ثم كشف عن هذا المعنى فقال : (وكذلك حقت كلمة ربك على الذين كفروا أنهم أصحاب النار) أى ومثل الذى حق على أولئك الأمم السالفة من العقاب حقت كلمتى أيضاً على هؤلاء الذين كفروا من قومك فهم على شرف نزول العقاب بهم قال صاحب الكشاف : (إنهم أصحاب النار) فى محل الرفع بدل من قوله (كلمة ربك) أى مثل ذلك الوجوب وجب على الكفرة كونهم من أصحاب النار ، ومعناه كما وجب إهلاكهم فى الدنيا بالعذاب المستأصل ، كذلك وجب إهلاكهم بعذاب النار فى الآخرة ، أو فى محل النصب بحذف لام التعليل وإيصال الفعل ، واحتج أصحابنا بهذه الآية على أن قضاء الله بالسعادة والشقاوة لازم لا يمكن تغييره ، فقالوا إنه تعالى أخبر أنه حقت كلمة العذاب عليهم وذلك يدل على أنهم لا قدرة لهم على الإيمان ، لأنهم لو تمكنوا منه لتمكنوا من إبطالى هذه الكلمة الحقة ، ولتمكنوا من إبطال علم الله وحكمته ، ضرورة أن المتمكن من الشيء يجب كونه متمكناً من كل ماهو من لوازمه ، ولأنهم لو آمنوا لوجب عليهم أن يؤمنوا بهذه الآية فحينئذ كانوا قد آمنوا بأنهم لا يؤمنون أبداً ، وذلك تكليف مالا يطاق ، وقرأ نافع وابن عامر (حقت كلمات ربك) على الجمع والباقون على الواحد .

قوله تعالى : ﴿ الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلماً فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم

وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٩﴾

ربنا وأدخلهم جنات عدن التى وعدتهم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم إنك أنت العزيز الحكيم ، وقهم السيئات ومن تق السيئات يومئذ فقد رحمته وذلك هو الفوز العظيم ﴾ .

اعلم أنه تعالى لما بين أن الكفار يبالغون فى إظهار العداوة مع المؤمنين ، بين أن أشرف طبقات المخلوقات هم الملائكة الذين هم حملة العرش والحافون حول العرش يبالغون فى إظهار المحبة والنصرة للمؤمنين ، كأنه تعالى يقول إن كان هؤلاء الأراذل يبالغون فى العداوة فلا تبال بهم ولا تلتفت إليهم ولا تقم لهم وزناً ، فان حملة العرش معك والحافون من حول العرش معك ينصرونك وفى الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ أنه تعالى حكى عن نوعين من فرق الملائكة هذه الحكاية :

(القسم الأول) الذين يحملون العرش ، وقد حكى تعالى أن الذين يحملون العرش يوم القيامة ثمانية ، فيمكن أن يقال الذين يحملون فى هذا الوقت هم أولئك الثمانية الذين يحملونه يوم القيامة ، ولا شك أن حملة العرش أشراف الملائكة وأكارمهم ، روى صاحب الكشاف أن حملة العرش أرجلهم فى الأرض السفلى ورءوسهم قد خرقت العرش وهم خشوع لايرفعون طرفهم ، وعن النبى ﷺ «لاتتفكروا فى عظم ربكم ولكن تفكروا فيما خلق الله تعالى من الملائكة فإن خلقاً من الملائكة يقال له إسرافيل زاوية من زوايا العرش على كاهله ، وقدماه فى الأرض السفلى ، وقد مرق رأسه من سبع سموات وإنه ليتضاءل من عظمة الله حتى يصير كأنه الوضع» قيل إنه طائر صغير ، وروى أن الله تعالى أمر جميع الملائكة أن يغدو ويروحوا بالسلام على حملة العرش تفضيلا لهم على سائر الملائكة ، وقيل خلق الله العرش من جوهرة خضراء ، وبين القائمتين من قوائمه خفقان الطير المسرع ثمانين ألف عام ، وقيل حول العرش سبعون ألف صف من الملائكة يطوفون به مهللين مكبرين ومن ورائهم سبعون ألف صف قيام قد وضعوا أيديهم على عواتقهم رافعين أصواتهم بالتهليل والتكبير ومن ورائهم مائة ألف صف قد وضعوا الأيمان على الشمائل ، ما منهم أحد إلا ويسبح بما لا يسبح به الآخر ، هذه الآثار نقلتها من الكشاف .

وأما (القسم الثانى) من الملائكة الذين ذكرهم الله تعالى فى هذه الآية فقوله تعالى (ومن حوله) والأظهر أن المراد منهم ماذكره فى قوله (وترى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم) وأقول العقل يدل على أن حملة العرش ، والحافين حول العرش يجب أن يكونوا أفضل الملائكة ، وذلك لأن نسبة الأرواح إلى الأرواح كنسبة الأجساد إلى الأجساد ، فلما كان العرش أشرف الموجوات الجسمانية كانت الأرواح المتعلقة بتدبير العرش يجب أن تكون أفضل من الأرواح المدبرة للأجساد ، وأيضاً يشبه أن يكون هناك أرواح حاملة لجسم العرش ثم يتولد عن تلك الأرواح القاهرة المستعلية لجسم العرش أرواح أخر من جنسها ، وهى متعلقة بأطراف العرش وإليهم الإشارة بقوله (وترى الملائكة حافين من حول العرش) وبالجملة فقد ظهر بالبراهين اليقينية ، وبالمكاشفات الصادقة أنه لا نسبة لعالم الأجساد ، إلى عالم الأرواح فكل ما شاهدته بعين البصر فى اختلاف مراتب عالم الأجساد ، فيجب أن تشاهده بعين بصيرتك فى اختلاف مراتب عالم الأرواح .

﴿ المسألة الثانية ﴾ دلت هذه الآية على أنه سبحانه منزه عن أن يكون فى العرش ، وذلك لأنه تعالى قال فى هذه الآية (الذين يحملون العرش) وقال فى آية أخرى (ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانيه) ولا شك أن حامل العرش يكون حاملا لكل من فى العرش ، فلو كان إله العالم فى فى العرش لكان هؤلاء الملائكة حاملين لإله العالم فحينئذ يكونون حافظين لإله العالم والحافظ القادر أولى بالإلهية والمحمول المحفوظ أولى بالعبودية ، فحينئذ ينقلب الإله عبداً والعبد إلهاً ، وذلك فاسد ، فدل هذا على أن إله العرش والأجسام متعال عن العرش والأجسام .

واعلم أنه تعالى حكى عن حملة العرش ، وعن الحافين بالعرش ثلاثة أشياء :

﴿ النوع الأول ﴾ قوله (يسبحون بحمد ربهم) ونظيره قوله حكاية عن الملائكة (ونحن نسبح بحمدك) وقوله تعالى (وترى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم) فالتسبيح عبارة عن تنزيه الله تعالى عما لاينبغى ، والتحميد الاعتراف بأنه هو المنعم على الإطلاق ، فالتسبيح إشارة إلى الجلال والتحميد إشارة إلى الإكرام ، فقوله (يسبحون بحمد ربهم) قريب من قوله (تبارك اسم ربك ذى الجلال والإكرام) .

﴿ النوع الثانى ﴾ مما حكى الله عن هؤلاء الملائكة هو قوله تعالى (ويؤمنون به) فان قيل فأى فائدة فى قوله (ويؤمنون به) فإن الاشتغال بالتسبيح والتحميد لايمكن إلا وقد سبق الإيمان بالله ؟ قلنا الفائدة فيه ماذكره صاحب الكشاف ، وقد أحسن فيه جداً فقال إن المقصود منه التنبيه على أن الله تعالى لو كان حاضراً بالعرش لكان حملة العرش والحافون حول العرش يشاهدونه ويعاينونه ، ولما كان إيمانهم بوجود الله موجباً للمدح والثناء لأن الإقرار بوجود شيء حاضر مشاهد معاين لايوجب المدح والثناء ، ألا ترى أن الإقرار بوجود الشمس وكونها مضيئة لايوجب

المدح والثناء ، فلما ذكر الله تعالى إيمانهم بالله على سبيل الثناء والمدح والتعظيم ، علم أنهم آمنوا به بدليل أنهم ما شاهدوه حاضراً جالساً هناك ، ورحم الله صاحب الكشاف فلو لم يحصل فى كتابه إلا هذه النكتة لكفاه فخراً وشرفاً .

﴿ النوع الثالث ﴾ مما حكى الله عن هؤلاء الملائكة قوله تعالى (ويستغفرون للذين آمنوا) اعلم أنه ثبت أن كمال السعادة مربوط بأمرين : التعظيم لأمر الله ، والشفقة على خلق الله ، ويجب أن يكون التعظيم لأمر الله مقدماً على الشفقة على خلق الله. فقوله (يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به) مشعر بالتعظيم لأمر الله وقوله ﴿ويستغفرون للذين آمنوا﴾ مشعر بالشفقة على خلق الله .

ثم فى الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ احتج كثير من العلماء بهذه الآية فى إثبات أن الملك أفضل من البشر ، قالوا لأن هذه الآية تدل على أن الملائكة لما فرغوا من ذكر الله بالثناء والتقديس اشتغلوا بالاستغفار لغيرهم وهم المؤمنون ، وهذا يدل على أنهم مستغنون عن الاستغفار لأنفسهم إذ لو كانوا محتاجين إليه لقدموا الاستغفار لأنفسهم على الاستغفار لغيرهم بدليل قوله ﷺ « ابدأ بنفسك » وأيضاً قال تعالى لمحمد ﷺ (فاعلم أنه لا إله إلا الله واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات) فأمر محمداً أن يذكر أولا الاستغفار لنفسه ، ثم بعده يذكر الاستغفار لغيره ، وحكى عن نوح عليه السلام أنه قال (رب اغفر لى ولوالدى ولمن دخل بيتى مؤمناً وللمؤمنين والمؤمنات) وهذا يدل على أن كل من كان محتاجاً إلى الاستغفار فانه يقدم الاستغفار لنفسه على الاستغفار لغيره ، فالملائكة لو كانوا محتاجين إلى الاستغفار لكان اشتغالهم بالاستغفار لأنفسهم مقدماً على اشتغالهم بالاستغفار لغيرهم ، ولما لم يذكر الله تعالى عنهم استغفارهم لأنفسهم علمنا أن ذلك إنما كان لأنهم ما كانوا محتاجين إلى الاستغفار ، وأما الأنبياء عليهم السلام فقد كانوا محتاجين إلى استغفار بدليل قوله تعالى لمحمد عليه السلام (واستغفر لذنبك) وإذا ثبت هذا فقد ظهر أن الملك أفضل من البشر والله أعلم .

﴿ المسألة الثانية ﴾ احتج الكعبى بهذه الآية على أن تأثير الشفاعة فى حصول زيادة الثواب للمؤمنين لا فى إسقاط العقاب عن المذنبين ، قال وذلك لأن الملائكة قالوا (فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك) قال وليس المراد فاغفر للذين تابوا من الكفر سواء كان مصراً على الفسق أو لم يكن كذلك ، لأن من هذا حاله لا يوصف بكونه متبعاً سبيل ربه ولا يطلق ذلك فيه ، وأيضاً إن الملائكة يقولون (وأدخلهم جنات عدن التى وعدتهم) وهذا لا يليق بالفاسقين ، لأن خصومنا لا يقطعون على أن الله تعالى وعدهم الجنة وإنما يجوزون ذلك ، فثبت أن شفاعة الملائكة لا يتناول إلا أهل الطاعة ، فوجب أن تكون شفاعة الأنبياء كذلك ، ضرورة أنه لا قائل بالفرق (والجواب) أن نقول هذه الآية تدل على حصول الشفاعة من الملائكة للمذنبين ، فنبين هذا ثم نجيب عما ذكره الكعبى ، أما بيان دلالة هذه الآية على ماقلناه فمن وجوه (الأول) قوله (ويستغفرون الذين

آمنوا) والاستغفار طلب المغفرة ، والمغفرة لاتذكر إلا فى إسقاط العقاب . أما طلب النفع الزائد فإنه لا يسمى استغفاراً (الثانى) قوله تعالى (ويستغفرون للذين آمنوا) وهـــذا يدل على أنهم يستغفرون لـكل أهل الإيمان ، فإذا دللنا على أن صاحب الكبيرة مؤمن وجب دخوله تحت هذه الشفاعة (الثالث) قوله تعالى (فاغفر الذين تابوا) طلب المغفرة للذين تابوا ، ولا يجوز أن يكون المراد إسقاط عقوبة الكبيرة بعد التوبة ، لأن ذلك واجب على الله عند الخصم ، وما كان فعله واجباً كان طلبه بالدعاء قبيحاً ، ولا يجوز أيضاً أن يكون المراد إسقاط عقوبة الصغائر ، لأن ذلك أيضاً واجب فلا يحسن طلبه بالدعاء ، ولا يجوز أن يكون المراد طلب زيادة منفعة على الثواب ، لأن ذلك لا يسمى مغفرة ، فثبت أنه لا يمكن حمل قوله (فاغفر للذين تابوا) إلا على إسقاط عقاب الكبيرة قبل التوبة ، وإذا ثبت هذا فى حق الملائكة فـكذلك فى حق الأنبياء لانعقاد الإجماع على أنه لافرق ، أما الذى يتمسك به الكعبى وهوأنهم طلبوا المغفرة للذين تابوا ، فنقول يجب أن يكون المراد منه الذين تابوا عن الكفر واتبعوا سبيل الإيمان ، وقوله إن التائب عن الكفر المصر على الفسق لا يسمى تائباً ولا متبعاً سبيل الله ، قلنا لا نسلم قوله ، بل يقال إنه تائب عن الكفر وتابع سبيل الله فى الدين والشريعة ، وإذا ثبت أنه تائب عن الكفر ثبت أنه تائب ، ألا ترى أنه يكفى فى صدق وصفه بكونه ضارباً وضاحكا صدور الضرب والضحك عنه مرة واحدة ، ولا يتوقف ذلك على صدور كل أنواع الضرب والضحك عنه فكذا ههنا .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قال أهل التحقيق : إن هذه الشفاعة الصادرة عن الملائكة فى حق البشر تجرى مجرى اعتذار عن ذلة سبقت ، وذلك لأنهم قالوا فى أول تخليق البشر (أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء) فلما سبق منهم هذا الكلام تداركوا فى آخر الأمر بأن قالوا (فاغفر الذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم) وهذا كالتنبيه على أن من آذى غيره ، فالأولى أن يجبر ذلك الإيذاء بإيصال نفع عليه .

واعلم أنه تعالى لما حكى عن الملائكة أنهم يستغفرون للذين تابوا ، بين كيفية ذلك الاستغفار ، فحكى عنهم أنهم ﴿ قالوا ربنا وسعت كل شىء رحمة وعلماً ﴾ وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ أن الدعاء فى أكثر الأمر مذكور بلفظ (ربنا) ويدل عليه أن الملائكة عند الدعاء قالوا (ربنا) بدليل هذه الآية ، وقال آدم عليه السلام (ربنا ظلمنا أنفسنا) وقال نوح عليه السلام (رب إنى أعوذ بك أن أسألك ماليس لى به علم) وقال أيضاً (رب إنى دعوت قومى ليلا ونهاراً) وقال أيضاً (رب اغفر لى ولوالدى) وقال عن إبراهيم عليه السلام (رب أرنى كيف تحيى الموتى) وقال (رب اغفر لى ولوالدى وللمؤمنين يوم يقوم الحساب) وقال (ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك) وقال عن يوسف (رب قد آتيتنى من الملك) وقال عن موسى عليه السلام (رب أرنى أنظر إليك) وقال فى قصة الوكز (رب إنى ظلمت نفسى فاغفرلى

فغفر له إنه هو الغفور الرحيم ، قال رب بما أنعمت على فلن أكون ظهيراً للمجرمين) وحكى تعالى عن داود أنه (استغفر ربه وخر راكعاً وأناب) وعن سليمان أنه قال (رب هب لى ملكا) وعن ذكريا أنه (نادى ربه نداء خفياً) وعن عيسى عليه السلام أنه قال (ربنا أنزل علينا مائدة من السماء) وعن محمد ﷺ أن الله تعالى قال له (وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين) وحكى عن المؤمنين أنهم قالوا (ربنا ماخلقت هذا باطلا) وأعادوا هذه اللفظة خمس مرات ، وحكى أيضاً عنهم أنهم قالوا (غفرانك ربنا وإليك المصير) إلى آخر السورة .

فثبت بما ذكرنا أن من أرضى الدعاء أن ينادى العبد ربه بقوله (يارب) وتمام الإشكال فيه أن يقال لفظ الله أعظم من لفظ الرب ، فلم صار لفظ الرب مختصاً بوقت الدعاء ؟ ، (والجواب) كأن العبد يقول : كنت فى كتم العدم المحض والنفى الصرف ، فأخرجتنى إلى الوجود ، وربيتنى فاجعل تربيتك لى شفيعاً إليك فى أن لا تخلينى طرفة عين عن تربيتك وإحسانك وفضلك .

﴿ المسألة الثانية ﴾ السنة فى الدعاء ، يبدأ فيه بالثناء على الله تعالى ، ثم يذكر الدعاء عقيبه ، والدليل عليه هذه الآية ، فإن الملائكة لما عزموا على الدعاء والاستغفار للمؤمنين بدأوا بالثناء فقالوا (ربنا وسعت كل شىء رحمة وعلماً) وأيضاً أن الخليل عليه السلام لما أراد أن يذكر الدعاء ذكر الثناء أولا فقال (الذى خلقنى فهو يهدين ، والذى هو يطعمنى ويسقين ، وإذا مرضت فهو يشفين ، والذى يميتنى ثم يحيين ، والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين) فكل هذا ثناء على الله تعالى ، ثم بعده ذكر الدعاء فقال (رب هب لى حكما وألحقنى بالصالحين) .

واعلم أن العقل يدل أيضاً على رعاية هذا الترتيب ، وذلك ذكر الله بالثناء والتعظيم بالنسبة إلى جوهر الروح كالإكسير الأعظم بالنسبة إلى النحاس ، فكما أن ذرة من الإكسير إذا وقعت على عالم من النحاس انقلب الكل ذهباً إبريزاً فكذلك إذا وقعت ذرة من إكسير معرفة جلال الله تعالى على جوهر الروح النطقية ، انقلب من نحوسة النحاسة إلى صفاء القدس وبقاء عالم الطهارة ، فثبت أن عند إشراق نور معرفة الله تعالى فى جواهر الروح ، يصير الروح أقوى صفاء وأكمل إشراقاً ، ومتى صار كذلك كانت قوته أقوى وتأثيره أكمل ، فكان حصول الشىء المطلوب بالدعاء أقرب وأكمل ، وهذا هو السبب فى تقديم الثناء على الله على الدعاء .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ اعلم أن الملائكة وصفوا الله تعالى بثلاثة أنواع من الصفات : الربوبية والرحمة والعلم ، أما الربوبية فهى إشارة إلى الإيجاد والإبداع ، وفيه لطيفة أخرى وهى أن قولهم

(ربنا) إشارة إلى التربية ، والتربية عبارة عن إبقاء الشيء على أكمل أحواله وأحسن صفاته ، وهذا يدل على أن هذه الممكنات ، كما أنها محتاجة حال حدوثها إلى إحداث الحق سبحانه وتعالى وإيجاده ، فكذلك إنها محتاجة حال بقائها إلى إبقاء الله ، وأما الرحمة فهي إشارة إلى أن جانب الخير والرحمة والإحسان راجح على جانب الضر ، وأنه تعالى إنما خلق الخلق للرحمة والخير ، لا للاضرار والشر ، فإن قيل قوله (ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلماً) فيه سؤال ، لأن العلم وسع كل شيء . أما الرحمة فما وصلت إلى كل شيء ، لأن المضرور حال وقوعه في الضرر لا يكون ذلك الضرر رحمة ، وهذا السؤال أيضاً مذكور في قوله (ورحمتي وسعت كل شيء) قلنا كل وجود فقد نال من رحمة الله تعالى نصيباً وذلك لأن الموجود إما واجب وإما ممكن ، أما الواجب فليس إلا الله سبحانه وتعالى ، وأما الممكن فوجوده من الله تعالى وبإيجاده ، وذلك رحمة ، فثبت أنه لا موجود غير الله إلا وقد وصل إليه نصيب ونصاب من رحمة الله ، فلهذا قال (ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلماً) وفي الآية دقيقة أخرى ، وهي أن الملائكة قدموا ذكر الرحمة على ذكر العلم فقالوا (ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلماً) وذلك لأن مطلوبهم إيصال الرحمة وأن يتجاوز عما عليه منهم من أنواع الذنوب ، فالمطلوب بالذات هو الرحمة ، والمطلوب بالعرض أن يتجاوز عما علمه منهم ، والمطلوب بالذات مقدم على المطلوب بالعرض ، ألا ترى أنه لما كان إبقاء الصحة مطلوباً بالذات وإزالة المرض مطلوباً بالعرض لا جرم لما ذكروا حد الطب قدموا فيه حفظ الصحة على إزالة المرض ، فقالوا الطب علم يتعرف منه أحوال بدن الإنسان من جهة ما يصلح ويزول عن الصحة لتحفظ الصحة حاصلة وتسترد زائلة ، فكذا ههنا المطلوب بالذات هو الرحمة ، وأما التجاوز عما علمه منهم من أنواع الذنوب فهو مطلوب بالعرض ، لأجل أن حصول الرحمة على سبيل الكمال لا يحصل إلا بالتجاوز عن الذنوب ، فلهذا السبب وقع ذكر الرحمة سابقاً على ذكر العلم .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ دلت هذه الآية على أن المقصود بالقصة الأولى في الخلق والتكوين إنما هو الرحمة والفضل والجود والكرم ، ودلت الدلائل اليقينية على أن كل ما دخل في الوجود من أنواع الخير والشر والسعادة والشقاوة فبقضاء الله وقدره ، والجمع بين هذين الأصلين في غاية الصعوبة ، فعند هذا قالت الحكماء : الخير مراد مراضي ، والشر مراد مكروه ، والخير مقضي به بالذات ، والشر مقضي به بالعرض ، وفيه غور عظيم .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ قوله ﴿ وسعت كل شيء رحمة وعلماً ﴾ يدل على كونه سبحانه عالماً بجميع المعلومات التي لا نهاية لها من الكليات والجزئيات ، وأيضاً فلولا ذلك لم يكن في الدعاء والتضرع فائدة لأنه إذا جاز أن يخرج عن علمه بعض الأشياء ، فعلى هذا التقدير لا يعرف هذا الداعي أن الله سبحانه يعلمه ويعلم دعاءه وعلى هذا التقدير لا يبقى في الدعاء فائدة البتة .

واعلم أنه تعالى لما حكى عنهم كيفية ثنائهم على الله تعالى حكى عنهم كيفية دعائهم ، وهو أنهم قالوا (فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم) واعلم أن الملائكة طلبوا بالدعاء

من الله تعالى أشياء كثيرة للمؤمنين ، فالمطلوب الأول الغفران وقد سبق تفسيره فى قوله (فاغفر الذين تابوا واتبعوا سبيلك) فإن قيل لا معنى للغفران إلا إسقاط العذاب ، وعلى هذا التقدير فلا فرق بين قوله : فاغفر لهم ، وبين قوله (وقهم عذاب الجحيم) قلنا دلالة لفظ المغفرة على إسقاط عذاب الجحيم دلالة حاصلة على الرمز والإشارة ، فلما ذكروا هذا الدعاء على سبيل الرمز والإشارة أردفوه بذكره على سبيل التصريح لأجل التأكيد والمبالغة ، واعلم أنهم لما طلبوا من الله إزالة العذاب عنهم أردفوه بأن طلبوا من الله إيصال الثواب إليهم فقالوا (ربنا وأدخلهم جنات عدن التى وعدتهم) فإن قيل أنتم زعمتم أن هذه الشفاعة إنما حصلت للمذنبين وهذه الآية تبطل ذلك لأنه تعالى ما وعد المذنبين بأن يدخلهم فى جنات عدن ، قلنا لانسلم أنه ما وعدهم بذلك ، لأنا بينا أن الدلائل الكثيرة فى القرآن دلت على أنه تعالى لا يخلد أهل لا إله إلا الله محمد رسول الله فى النار ، وإذا أخرجهم من النار وجب أن يدخلهم الجنة فكان هذا وعداً من الله تعالى لهم بأن يدخلهم فى جنات عدن ، إما من غير دخول النار وإما بعد أن يدخلهم النار . قال تعالى (ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم) يعنى وأدخل معهم فى الجنة هؤلاء الطوائف الثلاث ، وهم الصالحون من الآباء والأزواج والذريات ، وذلك لأن الرجل إذا حضر معه فى موضع عيشه وسروره أهله وعشيرته كان ابتهاجه أكمل ، قال الفراء والزجاج (من صلح) نصب من مكانين فإن شئت رددته على الضمير فى قوله (وأدخلهم) وإن شئت فى (وعدتهم) والمراد من قوله (ومن صلح) أهل الإيمان ، ثم قالوا (إنك أنت العزيز الحكيم) وإنما ذكروا فى دعائهم هذين الوصفين لأنه لولم يكن عزيزاً بل كان بحيث يغلب ويمنع لما صح وقوع المطلوب منه ، ولو لم يكن حكيما لما حصل هذا المطلوب على وفق الحكمة والمصلحة ، ثم قالوا بعد ذلك (وقهم السيئات) قال بعضهم المراد وقهم عذاب السيئات ، فإن قيل فعلى هذا التقدير لا فرق بين قوله (وقهم السيئات) وبين ما تقدم من قوله (وقهم عذاب الجحيم) وحينئذ يلزم التكرار الخالى عن الفائدة وإنه لا يجوز ، قلنا بل التفاوت حاصل من وجهين (الأول) أن يكون قوله (وقهم عذاب الجحيم) دعاء مذكور للأصول وقوله (وقهم السيئات) دعاء مذكوراً للفروع (الثانى) أن يكون قوله (وقهم عذاب الجحيم) مقصوراً على إزالة الجحيم وقوله (وقهم السيئات) يتناول عذاب الجحيم وعذاب موقف القيامة وعذاب الحساب والسؤال .

﴿ والقول الثانى ﴾ فى تفسير قوله (وقهم السيئات) هو أن الملائكة طلبوا إزالة عذاب النار بقولهم (وقهم عذاب الجحيم) وطلبوا إيصال ثواب الجنة إليهم بقولهم (وأدخلهم جنات عدن) ثم طلبوا بعد ذلك أن يصونهم الله تعالى فى الدنيا عن العقائد الفاسدة ، والأعمال الفاسدة ، وهو المراد بقولهم (وقهم السيئات) ثم قالوا (ومن تق السيئات يومئذ فقد رحمته) يعنى ومن تق السيئات فى الدنيا فقد رحمته فى يوم القيامة ، ثم قالوا (وذلك هو الفوز العظيم) حيث وجدو بأعمال منقطعة نعيما لا ينقطع ، وبأعمال حقيرة ملكا لا تصل العقول إلى كنه جلالته .

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ ﴿١٠﴾ قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴿١١﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُواْ ۚ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِيِّ ٱلْكَبِيرِ ﴿١٢﴾

قوله تعالى : ﴿ إن الذين كفروا ينادون لمقت الله أكبر من مقتكم أنفسكم إذ تدعون إلى الإيمان فتكفرون ، قالوا ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين فاعترفنا بذنوبنا فهل إلى خروج من سبيل ، ذلكم بأنه إذا دعي الله وحده كفرتم وإن يشرك به تؤمنوا فالحكم لله العلى الكبير ﴾ .

اعلم أنه تعالى لما عاد إلى شرح أحوال الكافرين المجادلين فى آيات الله وهم الذين ذكرهم الله فى قوله (ما يجادل فى آيات الله إلا الذين كفروا) بين أنهم فى القيامة يعترفون بذنوبهم واستحقاقهم العذاب الذى ينزل بهم ويسألون الرجوع إلى الدنيا ليتلافوا ما فرط منهم فقال (إن الذين كفروا ينادون لمقت الله أكبر من مقتكم) وفى الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ فى الآية حذف وفيها أيضاً تقديم وتأخير ، أما الحذف فتقديره لمقت الله إياكم ، وأما التقديم والتأخير فهو أن التقدير أن يقال لمقت الله لكم حال ما تدعون إلى الإيمان فتكفرون أكبر من مقتكم أنفسكم وفى تفسير مقتهم أنفسهم وجوه (الأول) أنهم إذا شاهدوا القيامة والجنة والنار مقتوا أنفسهم على إصرارهم على التكذيب بهذه الأشياء فى الدنيا (الثانى) أن الأتباع يشتد مقتهم للرؤساء الذين دعوهم إلى الكفر فى الدنيا ، والرؤساء أيضاً يشتد مقتهم للأتباع فعبر عن مقت بعضهم بعضاً بأنهم مقتوا أنفسهم ، كما أنه تعالى قال (فاقتلوا أنفسكم) والمراد قتل بعضهم بعضاً (الثالث) قال محمد بن كعب إذا خطبهم إبليس وهم فى النار بقوله (وما كان لى عليكم من سلطان — إلى قوله — ولوموا أنفسكم) ففى هذه الحالة مقتوا أنفسهم ، واعلم أنه لا نزاع أن مقتهم أنفسهم إنما يحصل فى يوم القيامة ، أما مقت الله لهم ففيه وجهان (الأول) أنه حاصل فى الآخرة ، والمعنى لمقت الله لكم فى هذا الوقت أشد من مقتكم أنفسكم فى هذا الوقت (والثانى) وعليه الأكثرون أن التقدير لمقت الله لكم فى الدنيا إذ تدعون إلى الإيمان فتكفرون ، أكبر من مقتكم أنفسكم الآن ففى تفسير الألفاظ المذكورة فى الآية أوجه (الأول) أن الذين ينادونهم ويذكرون لهم هذا الكلام هم خزنة جهنم (الثانى) المقت أشد البغض وذلك فى حق الله تعالى محال ، فالمراد منه أبلغ الإنكار والزجر (الثالث) قال الفراء (ينادون لمقت الله) معناه إنهم ينادون إن مقت الله

أكبر يقال ناديت إن زيداً قائم وإن زيداً لقائم (الرابع) قوله (إذ تدعون إلى الإيمان) فيه حذف والتقدير لمقت الله لكم إذ تدعون إلى الإيمان فتأتون بالكفر أكبر من مقتكم الآن أنفسكم .

ثم أنه تعالى بين أن الكفار إذا خاطبوا بهذا الخطاب (قالوا ربنا أمتنا اثنتين) إلى آخر الآية ، والمعنى أنهم لما عرفوا أن الذى كانوا عليه فى الدنيا كان فاسداً باطلا تمنوا الرجوع إلى الدنيا لكى يشتغلوا عند الرجوع إليها بالأعمال الصالحة ، وفى الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ احتج أكثر العلماء بهذه الآية فى إثبات عذاب القبر ، وتقرير الدليل أنهم أثبتوا لأنفسهم موتتين حيث قالوا (ربنا أمتنا اثنتين) فأحد الموتتين مشاهد فى الدنيا فلا بد من إثبات حياة أخرى فى القبر حتى يصير الموت الذى يحصل عقيبها موتاً ثانياً ، وذلك يدل على حصول حياة فى القبر ، فان قيل قال كثير من المفسرين الموتة الأولى إشارة إلى الحالة الحاصلة عند كون الإنسان نطفة وعلقة والموتة الثانية إشارة إلى ماحصل فى الدنيا ، فلم لايجوز أن يكون الأمر كذلك ، والذى يدل على أن الأمر ماذكرناه قوله تعالى (كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحيا كم ثم يميتكم) والمراد من قوله (وكنتم أمواتاً) الحالة الحاصلة عند كونه نطفة وعلقة وتحقيق الكلام أن الإماتة تستعمل بمعنيين (أحدهما) إيجاد الشىء ميتاً (والثانى) تصيير الشىء ميتاً بعد أن كان حياً كقولك وسع الخياط ثوبى ، يحتمل أنه خاطه واسعاً ويحتمل أنه صيره واسعاً بعد أن كان ضيقاً ، فلم لايجوز فى هذه الآية أن يكون المراد بالإماتة خلقها ميتة ، ولا يكون المراد تصييرها ميتة بعد أن كانت حية .

﴿ السؤال الثانى ﴾ أن هذا كلام الكفار فلا يكون حجة .

﴿ السؤال الثالث ﴾ أن هذه الآية تدل على المنع من حصول الحياة فى القبر ، وبيانه أنه لو كان الأمر كذلك لكان قد حصلت الحياة ثلاث مرات أولها فى الدنيا ، وثانيها فى القبر ، وثالثها فى القيامة ، والمذكور فى الآية ليس إلا حياتين فقط ، فتكون إحداهما الحياة فى الدنيا والحياة الثانية فى القيامة والموت الحاصل بينهما هو الموت المشاهد فى الدنيا .

﴿ السؤال الرابع ﴾ أنه إن دلت هذه الآية على حصول الحياة فى القبر فههنا مايدل على عدمه وذلك بالمنقول والمعقول ، أما المنقول فمن وجوه (الأول) قوله تعالى (أمن هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه) فلم يذكر فى هذه الآية إلا الحذر عن الآخرة ، ولو حصلت الحياة فى القبر لكان الحذر عنها حاصلا ، ولو كان الأمر كذلك لذكره ، ولما لم يذكره علمنا أنه غير حاصل (الثانى) أنه تعالى حكى فى سورة الصافات عن المؤمنين المحقين أنهم يقولون بعد دخولهم فى الجنة (أفما نحن بميتين إلا موتتنا الأولى) ولا شك أن كلام أهل الجنة حق وصدق ولو حصلت لهم حياة فى القبر لكانو قد ماتوا موتتين ، وذلك على خلاف قوله (أفما نحن بميتين

إلا موتتنا الأولى) قالوا والاستدلال بهذه الآية أقوى من الاستدلال بالآية التى ذكرتموها ، لأن الآية التى تمسكنا بها حكاية قول المؤمنين الذين دخلوا الجنة والآية التى تمسكتم بها حكاية قول الكافرين الذين دخلوا النار .

وأما المعقول فمن وجوه (الأول) وهو أن الذى افترسته السباع وأكلته لوأعيد حياً لكان إما أن يعاد حياً بمجموعة أو بأحاد أجزائه ، والأول باطل لأن الحس يدل على أنه لم يحصل له مجموع ، والثانى باطل لأنه لما أكلته السباع ، فلو جعلت تلك الاجزاء أحياء لحصلت أحياء فى معدة السباع وفى أمعائها ، وذلك فى غاية الاستبعاد (الثانى) أن الذى مات لو تركناه ظاهراً بحيث يراه كل واحد فإنهم يرونه باقياً على موته ، فلو جوزنا مع هذه الحالة أنه يقال إنه صار حياً لكان هذا تشكيكا فى المحسوسات ، وإنه دخول فى السفسطة (والجواب) قوله لم لا يجوز أن تكون الموتة الأولى هى الموتة التى كانت حاصلة حال ماكان نطفة وعلقة ؟ فنقول هذا لايجوز ، وبيانه أن المذكور فى الآية أن الله أماتهم ولفظ الإماتة مشروط بسبق حصول الحياة إذ لوكان الموت حاصل قبل هذه الحالة امتنع كون هذا إماتة ، وإلا لزم تحصيل الحاصل وهو محال وهذا بخلاف قوله (كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً) لأن المذكور فى هذه الآية أنهم كانوا أمواتا وليس فيها أن الله أماتهم بخلاف الآية التى نحن فى تفسيرها ، لأنها تدل على أن الله تعالى أماتهم مرتين ، وقد بينا أن لفظ الإماتة لا يصدق إلا عند سبق الحياة فظهر الفرق .

أما قوله إن هذا كلام الكفار فلا يكون حجة ، قلنا لما ذكروا ذلك لم يكذبهم الله تعالى إذ لو كانوا كاذبين لأظهر الله تكذيبهم ، ألا ترى أنهم لما كذبوا فى قولهم (والله ربنا ما كنا مشركين) كذبهم الله فى ذلك فقال (انظر كيف كذبوا) وأما قوله ظاهر الآية يمنع من إثبات حياة فى القبر إذ لو حصلت هذه الحياة لكان عدد الحياة ثلاث مرات لامرتين ، فنقول (الجواب) عنه من وجوه : (الأول) هو أن مقصودهم تعديل أوقات البلاء والمحنة وهى أربعة الموتة الأولى ، والحياة فى القبر ، والموتة الثانية ، والحياة فى القيامة ، فهذه الأربعة أوقات البلاء والمحنة ، فأما الحياة فى الدنيا فليست من أقسام أوقات البلاء والمحنة فلهذا السبب لم يذكروها (الثانى) لعلهم ذكروا الحياتين ، وهى الحياة فى الدنيا ، والحياة فى القيامة ، أما الحياة فى القبر فأهملوا ذكرها لقلة وجودها وقصر مدتها (الثالث) لعلهم لما صاروا أحياء فى القبور لم يموتوا بل بقوا أحياء ، إما فى السعادة ، وإما فى الشقاوة ، واتصل بها حياة القيامة فكانوا من جملة من أرادهم الله بالاستثناء فى قوله (فصعق من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله) (الرابع) لو لم نثبت الحياة فى القبر لزم أن لايحصل الموت إلا مرة واحدة فكان إثبات الموت مرتين كذباً وهو على خلاف لفظ القرآن ، أما لو أثبتنا الحياء فى القبر لزمنا إثبات الحياء ثلاث مرات والمذكور فى القرآن مرتين ، أما المرة الثالثة فليس فى اللفظ مايدل على ثبوتها أو عدمها ، فثبت أن نفى حياة القبر يقتضى ترك مادل اللفظ عليه ، فأما إثبات حياة القبر فانه يقتضى إثبات شىء زائد

هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾

على مادل عليه اللفظ مع أن اللفظ لا إشعار فيه بثبوته ولا بعدمه فكان هذا أولى ، وأماماذكروه فى المعارضة الأولى فنقول قوله يحذر الآخرة تدخل فيه الحياة الآخرة سواء كانت فى القبر أو فى القيامة ، وأما المعارضة الثانية فجوابها أنا نرجح قولنا بالأحاديث الصحيحة الواردة فى عذاب القبر .

وأما الوجهان العقليان فمدفوعان ، لأنا إذا قلنا إن الإنسان ليس عبارة عن هذا الهيكل بل هو عبارة عن جسم نورانى سار فى هذا البدن كانت الإشكالات التى ذكرتموها غير واردة فى هذا الباب والله أعلم .

﴿ المسألة الثانية ﴾ اعلم أنا لما أثبتنا حياة القبر فيكون الحاصل فى حق بعضهم أربعة أنواع من الحياة وثلاثة أنواع من الموت ، والدليل عليه قوله تعالى فى سورة البقرة (ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم) فهؤلاء أربعة مراتب فى الحياة ، حياتان فى الدنيا ، وحياة فى القبر ، وحياة رابعة فى القيامة .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قوله (اثنتين) نعت لمصدر محذوف والتقدير إماتتين اثنتين ، ثم حكى الله عنهم أنهم قالوا (فاعترفنا بذنوبنا) فان قيل الفاء فى قوله (فاعترفنا) تقتضى أن تكون الإماتة مرتين والإحياء مرتين سبباً لهذا الاعتراف فبينوا هذه السببية ، قلنا لأنهم كانوا منكرين للبعث فلما شاهدوا الإحياء بعد الإماتة مرتين لم يبق لهم عذر فى الإقرار بالبعث ، فلاجرم وقع هذا الإقرار كالمسبب عن ذلك الإحياء وتلك الإماتة ، ثم قال (فهل إلى خروج من سبيل) ؟ أى هل إلى نوع من الخروج سريع أو بطىء من سبيل ، أم اليأس وقع فلا خروج ، ولا سبيل إليه ؟ وهذا كلام من غلب عليه اليأس والقنوط ، واعلم أن الجواب الصريح عنه أن يقال لا أو نعم . وهو تعالى لم يفعل ذلك بل ذكر كلاماً يدل على أنه لا سبيل لهم إلى الخروج فقال (ذلكم بأنه إذا دعى الله وحده كفرتم وإن يشرك به تؤمنوا) أى ذلكم الذى أنتم فيه ، وهو أن لا سبيل لكم إلى خروج قط ، إنما وقع بسبب كفركم بتوحيد الله تعالى ، وإيمانكم بالإشراك به (فالحكم لله) حيث حكم عليكم بالعذاب السرمدى ، وقوله (العلى الكبير) دلالة على الكبرياء والعظمة ، وعلى أن عقابه لا يكون إلا كذلك ، والمشبهة استدلوا بقوله تعالى (العلى) على العلو الأعلى فى الجهة ، وبقوله (الكبير) على كبر الجثة والذات ، وكل ذلك باطل ، لأنا دللنا على أن الجسمية والمكان محالان فى حق الله تعالى ، فوجب أن يكون المراد من (العلى الكبير) العلو والكبرياء بحسب القدرة والإلهية .

قوله تعالى : ﴿ هو الذى يريكم آياته وينزل لكم من السماء رزقا وما يتذكر إلا من ينيب ، فادعوا

فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿١٤﴾ رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ
ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ ﴿١٥﴾ يَوْمَ
هُم بَارِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿١٦﴾
الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٧﴾

الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون ﴾ .

اعلم أنه تعالى لما ذكر ما يوجب التهديد الشديد فى حق المشركين أردفه بذكر ما يدل على كمال قدرته وحكمته ، ليصير ذلك دليلا على أنه لا يجوز جعل هذه الأحجار المنحوتة والخشب المصورة شركاء لله تعالى فى المعبودية ، فقال : (هو الذى يريكم آياته) واعلم أن أهم المهمات رعاية مصالح الأديان ، ومصالح الأبدان ، فهو سبحانه وتعالى راعى مصالح أديان العباد بإظهار البينات والآيات ، وراعى مصالح أبدانهم بإنزال الرزق من السماء ، فموقع الآيات من الأديان كموقع الأرزاق من الأبدان . فالآيات لحياة الأديان ، والأرزاق لحياة الأبدان ، وعند حصولهما يحصل الإنعام على أقوى الاعتبارات وأكمل الجهات .

ثم قال (وما يتذكر إلا من ينيب) والمعنى أن الوقوف على دلائل توحيد الله تعالى كالأمر المركوز فى العقل ، إلا أن القول بالشرك والاشتغال بعبادة غير الله يصير كالمانع من تجلى تلك الأنوار ، فإذا أعرض العبد عنها وأناب إلى الله تعالى زال الغطاء والوطاء فظهر الفوز التام ، ولما قرر هذا المعنى صرح بالمطلوب وهو الإعراض عن غير الله والإقبال بالكلية على الله تعالى فقال (فادعوا الله مخلصين له الدين) من الشرك ، ومن الإلتفات إلى غير الله (ولو كره الكافرون) قرأ ابن كثير ينزل خفيفة والباقون بالتشديد .

قوله تعالى : ﴿ رفيع الدرجات ذو العرش يلقى الروح من أمره على من يشاء من عباده لينذر يوم التلاق ، يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شىء ، لمن الملك اليوم ؟ لله الواحد القهار ، اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم ، إن الله سريع الحساب ﴾ .

اعلم أنه تعالى لما ذكر من صفات كبريائه وإكرامه كونه مظهراً الآيات منزلا للأرزاق ، ذكر فى هذه الآية ثلاثة أخرى من صفات الجلال والعظمة وهو قوله (رفيع الدرجات ذو العرش

يلقى الروح) قال صاحب الكشاف ثلاثة أخبار لقوله هو مرتبة على قوله (الذى يريكم) أو أخبار مبتدأ محذوف ، وهى مختلفة تعريفاً وتنكيراً ، قرىء (رفيع الدرجات) بالنصب على المدح ، وأقول لابد من تفسير هذه الصفات الثلاثة :

﴿ فالصفة الاولى ﴾ قوله (رفيع الدجات) واعلم أن الرفيع يحتمل أن يكون المراد منه الرافع وأن يكون المراد منه المرتفع ، أما إذا حملناه على الاول ففيه وجوه (الوجه الاول) أنه تعالى يرفع درجات الأنبياء والأولياء فى الجنة (والثانى) رافع درجات الخلق فى العلوم والأخلاق الفاضلة ، فهو سبحانه عين لكل أحد من الملائكة درجة معينة ، كما قال (وما منا إلا له مقام معلوم) وعين لكل واحد من العلماء درجة معينة فقال (يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات) وعين لكل جسم درجة معينة ، فجعل بعضها سفلية عنصرية ، وبعضها فلكية كوكبية ، وبعضها من جواهر العرش والكرسى ، فجعل لبعضها درجة أعلى من درجة الثانى ، وأيضاً جعل لكل واحد مرتبة معينة فى الخلق والرزق والأجل ، فقال (وهو الذى جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات) وجعل لكل أحد من السعداء والأشقياء فى الدنيا درجة معينة من موجبات السعادة وموجبات الشقاوة ، وفى الآخرة آثار لظهور تلك السعادة والشقاء ، فإذا حملنا الرفيع على الرفع كان معناه ماذكرناه ، وأما إذا حملناه على المرتفع فهو سبحانه أرفع الموجودات فى جميع صفات الكمال والجلال ، أما فى الأصل الوجود فهو أرفع الموجوات ، لأنه واجب الوجود لذاته وما سواه ممكن ومحتاج إليه ، وأما فى دوام الوجود فهو أرفع الموجودات ، لأنه واجب الوجود لذاته وهو الأزلى والأبدى والسرمدى ، الذى هو أول لكل ماسواه ، وليس له أول وآخر لكل ماسواه ، وليس له آخر ، أما فى العلم : فلأنه هو العالم بجميع الذوات والصفات والكليات والجزئيات ، كما قال (وعنده مفاتح الغيب لايعلمها إلا هو) وأما فى القدرة : فهو أعلى القادرين وأرفعهم ، لأنه فى وجوده وجميع كمالات وجوده غنى عن كل ما سواه ، وكل ما سواه فإنه محتاج فى وجوده وفى جميع كمالات وجوده إليه ، وأما فى الوحدانية : فهو الواحد الذى يمتنع أن يحصل له ضد وند وشريك ونظير ، وأقول : الحق سبحانه له صفتان (أحدهما) استغناؤه فى وجوده وفى جميع صفات وجوده عن كل ما سواه (والثانى) افتقار كل ما سواه إليه فى وجوده وفى صفات وجوده ، فالرفيع إن فسرناه بالمرتفع ، كان معناه أنه أرفع الموجودات وأعلاها فى جميع صفات الجلال والإكرام ، وإن فسرناه بالرافع ، كان معناه أن كل درجة وفضيلة ورحمة ومنقبة حصلت لشىء سواه ، فإنما حصلت بإيجاده وتكوينه وفضله ورحمته .

﴿ الصفة الثانية ﴾ قوله (ذو العرش) ومعناه أنه مالك العرش ومدبره وخالقه ، واحتج بعض الأغمار من المشابهة بقوله (رفيع الدرجات ذو العرش) وحملوه على أن المراد بالدرجات ، السموات ، وبقوله (ذو العرش) أنه موجود فى العرش فوق سبع سموات ، وقد أعظموا الفرية

على الله تعالى ، فإنا بينا بالدلائل القاهرة العقلية أن كونه تعالى جسما وفى جهة محال ، وأيضاً فظاهر اللفظ لايدل على ما قالوه ، لأن قوله (ذو العرش) لا يفيد إلا إضافته إلى العرش ويكفى فيه إضافته إليه بكونه مالكا له ومخرجاً له من العدم إلى الوجود ، فأى ضرورة تدعونا إلى الذهاب إلى القول الباطل والمذهب الفاسد ، والفائدة فى تخصيص العرش بالذكر هو أنه أعظم الأجسام ، والمقصود بيان كمال إلهيته ونفاذ قدرته ، فكل ما كان محل التصرف والتدبير أعظم ، كانت دلالته على كمال القدرة أقوى .

﴿ الصفة الثالثة ﴾ قوله (يلقى الروح من أمره على من يشاء من عباده) وفيه مباحث :

﴿ البحث الأول ﴾ اختلفوا فى المراد بهذا الروح ، والصحيح أن المراد هو الوحى ، وقد أطنبنا فى بيان أنه لم سمى الوحى بالروح فى أول سورة النحل فى تفسير قوله (ينزل الملائكة بالروح من أمره) وقال أيضاً (أو من كان ميتاً فأحييناه) وحاصل الكلام فيه : أن حياة الأرواح بالمعارف الإلهية والجلايا القدسية ، فإذا كان الوحى سبباً لحصول هذه الأرواح سمى بالروح ، فإن الروح سبب لحصول الحياة ، والوحى سبب لحصول هذه الحياة الروحانية .

واعلم أن هذه الآية مشتملة على أسرار عجيبة من علوم المكاشفات ، وذلك لأن كمال كبرياء الله تعالى لاتصل إليه العقول والأفهام ، فالطريق الكامل فى تعريفه بقدر الطاقة البشرية أن يذكر ذلك الكلام على الوجه الكلى العقلى ، ثم يذكر عقيبه شىء من المحسوسات المؤكدة لذلك المعنى العقلى ليصير الحصر بهذا الطريق معاضداً للعقل ، فههنا أيضاً كذلك ، فقوله (رفيع الدرجات) إما أن يكون بمعنى كونه رافعاً الدرجات ، وهو إشارة إلى تأثير قدرة الله تعالى فى إيجاد الممكنات على اختلاف درجاتها وتباين منازلها وصفاتها ، أو إلى كونه تعالى مرتفعاً فى صفات الجلال ونعوت العزة عن كل الموجودات ، فهذا الكلام عقلى برهانى ، ثم إنه سبحانه بين هذا الكلام الكلى بمزيد تقرير ، وذلك لأن ماسوى الله تعالى إما جسمانيات وإما روحانيات ، فبين فى هذه الآية أن كلا القسمين مسخر تحت تسخير الحق سبحانه وتعالى ، أما الجسمانيات فأعظمها العرش ، فقوله (ذو العرش) يدل على استيلائه على كلية عالم الأجسام ، ولما كان العرش من جنس المحسوسات كان هذا المحسوس مؤكداً لذلك المعقول ، أعنى قوله (رفيع الدرجات) وأما الروحانيات فكلها مسخرة للحق سبحانه ، وإليه الإشارة بقوله (يلقى الروح من أمره) .

واعلم أن أشرف الأحوال الظاهرة فى روحانيات هذا العالم ظهور آثار الوحى ، والوحى إنما يتم بأركان أربعة (فأولها) المرسل وهو الله سبحانه وتعالى ، فلهذا أضاف إلقاء الوحى إلى نفسه فقال (يلقى الروح) (والركن الثانى) الإرسال والوحى وهو الذى سماه بالروح (والركن الثالث) أن وصول الوحى من الله تعالى إلى الأنبياء لا يمكن أن يكون إلا بواسطة الملائكة ، وهو المشار إليه فى هذه الآية بقوله (من أمره) فالركن الروحانى يسمى أمراً ، قال تعالى

(وأوحى فى كل سماء أمرها) وقال (ألا له الخلق والأمر) (والركن الرابع) الأنبياء الذين يلقى الله الوحى إليهم وهو المشار إليه بقوله (على من يشاء من عباده) (والركن الخامس) تعيين الغرض والمقصود الأصلى من إلقاء هذا الوحى إليهم ، وذلك هو أن الأنبياء عليهم السلام يصرفون الخلق من عالم الدنيا إلى عالم الآخرة ، ويحملونهم على الإعراض عن هذه الجسمانيات والإقبال على الروحانيات ، وإليه الإشارة بقوله (لينذر يوم التلاق يوم هم بارزون) فهذا ترتيب عجيب يدل على هذه الإشارات العالية من علوم المكاشفات الإلهية .

وبقى ههنا أن نبين أنه ما السبب فى تسمية يوم القيامة بيوم التلاق ؟ وكم الصفات التى ذكرها الله تعالى فى هذه السورة ليوم التلاق ؟

أما السبب فى تسمية يوم القيامة بيوم التلاق ففيه وجوه :

(الأول) أن الأرواح كانت متباينة عن الأجساد فإذا جاء يوم القيامة صارت الأرواح ملاقية للأجساد فكان ذلك اليوم يوم التلاق (الثانى) أن الخلائق يتلاقون فيه فيقف بعضهم على حال البعض (الثالث) أن أهل السماء ينزلون على أهل الأرض فيلتقى فيه أهل السماء وأهل الأرض قال تعالى (ويوم تشقق السماء بالغمام ونزل الملائكة تنزيلا) (الرابع) أن كل أحد يصل إلى جزاء عمله فى ذلك اليوم فكان ذلك من باب التلاق وهو مأخوذ من قولهم فلان لقى عمله (الخامس) يمكن أن يكون ذلك مأخوذاً من قوله (فمن كان يرجو لقاء ربه) ومن قوله (تحيتهم يوم يلقونه سلام) (السادس) يوم يلتقى فيه العابدون والمعبودون (السابع) يوم يلتقى فيه آدم عليه السلام وآخر ولده (الثامن) قال ميمون بن مهران يوم يلتقى فيه الظالم والمظلوم فربما ظلم الرجل رجلا وانفصل عنه ولو أراد أن يجده لم يقدر عليه ولم يعرفه فنى يوم القيامة يحضران ويلقى بعضهم بعضاً ، قرأ ابن كثير التلاقى والتنادى بإثبات الياء فى الوصل والوقف ، وهادى وواقى بالياء فى الوقف وبالتنوين فى الوصل .

وأما بيان أن الله تعالى كم عدد من الصفات ووصف بها يوم القيامة فى هذه الآية ، فنقول :

﴿ الصفة الأولى ﴾ كونه يوم التلاق وقد ذكرنا تفسيره .

﴿ الصفة الثانية ﴾ قوله (يوم هم بارزون) وفى تفسير هذا البروز وجوه (الأول) أنهم برزوا عن بواطن القبور (الثانى) بارزون أى ظاهرون لا يسترهم شىء من جبل أو أكمة أو بناء ، لأن الأرض بارزة قاع صفصف ، وليس عليهم أيضاً ثياب إنما هم عراة مكشوفون كما جاء فى الحديث « يحشرون عراة حفاة غرلا » (الثالث) أن يجعل كونهم بارزين كناية عن ظهور أعمالهم وانكشاف أسرارهم كما قال تعالى (يوم تبلى السرائر) (الرابع) أن هذه النفوس الناطقة البشرية كأنها فى الدنيا انغمست فى ظلمات أعمال الأبدان فإذا جاء يوم القيامة أعرضت عن الاشتغال بتدبير الجسمانيات وتوجهت بالكلية إلى عالم القيامة ومجمع الروحانيات ، فكأنها برزت بعد أن كانت كامنة فى الجسمانيات مستترة بها .

﴿ الصفة الثالثة ﴾ قوله (لايخفى على الله منهم شىء) والمراد يوم لايخفى على الله منهم شىء ، والمقصود منه الوعيد فإنه تعالى بين أنهم إذا برزوا من قبورهم واجتمعوا وتلاقوا فإن الله تعالى يعلم ما فعله كل واحد منهم فيجازى كلا بحسبه إن خيراً فخير وإن شراً فشر ، فهم وإن لم يعلموا تفصيل ما فعلوه ، فالله تعالى عالم بذلك ونظيره قوله (يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية) وقال (يوم تبلى السرائر) وقال (إذا بعثر ما فى القبور وحصل ما فى الصدور) وقال (يومئذ تحدث أخبارها) فإن قيل الله تعالى لايخفى عليه منهم شىء فى جميع الأيام ، فما معنى تقييد هذا المعنى بذلك اليوم ؟ قلنا إنهم كانوا يتوهمون فى الدنيا إذا استتروا بالحيطان والحجب أن الله لايراهم وتخفى عليه أعمالهم ، فهم فى ذلك اليوم صائرون من البروز والإنكشاف إلى حال لا يتوهمون فيها مثل ما يتوهمونه فى الدنيا ، قال تعالى (ولكن ظننتم أن الله لايعلم كثيراً مما تعملون) وقال (يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله) وهو معنى قوله (وبرزوا لله الواحد القهار) .

﴿ الصفة الرابعة ﴾ قوله تعالى ﴿ لمن الملك اليوم لله الواحد القهار ﴾ والتقدير يوم ينادى فيه لمن الملك اليوم ؟ وهذا النداء فى أى الأوقات يحصل فيه قولان :

﴿ الأول ﴾ قال المفسرون إذا هلك كل من فى السموات ومن فى الأرض فيقول الرب تعالى (لمن الملك اليوم) ؟ يعنى يوم القيامة فلايجيبه أحد فهو تعالى يجيب نفسه فيقول (لله الواحد القهار) قال أهل الأصول هذا القول ضعيف وبيانه من وجوه (الأول) أنه تعالى بين أن هذا النداء إنما يحصل يوم التلاق ويوم البروز ويوم تجزى كل نفس بما كسبت ، والناس فى ذلك الوقت أحياء ، فبطل قولهم إن الله تعالى إنما ينادى بهذا النداء حين هلك كل من فى السموات والأرض (والثانى) أن الكلام لا بد فيه من فائدة لأن الكلام إما أن يذكر حال حضور الغير ، أو حال مالايحضر الغير ، والأول باطل ههنا لأن القوم قالوا إنه تعالى إنما يذكر هذا الكلام عند فناء الكل ، والثانى أيضاً باطل لأن الرجل إنما يحسن تكلمه حال كونه وحده إما لأنه يحفظ به شيئاً كالذى يكرر على الدرس وذلك على الله محال ، أو لأجل أنه يحصل سرور بما يقوله وذلك أيضاً على الله محال ، أو لأجل أن يعبد الله بذلك الذكر وذلك أيضاً على الله محال ، فثبت أن قول من يقول إن الله تعالى يذكر هذا النداء حال هلاك جميع المخلوقات باطل لا أصل له .

﴿ والقول الثانى ﴾ أن فى يوم التلاق إذا حضر الأولون والآخرون وبرزوا لله نادى مناد (لمن الملك اليوم) فيقول كل الحاضرين فى محفل القيامة (لله الواحد القهار) فالمؤمنون يقولونه تلذذاً بهذا الكلام ، حيث نالوا بهذا الذكر المنزلة الرفيعة ، والكفار يقولونه على الصغار والذلة على وجه التحسر والندامة على أن فاتهم هذا الذكر فى الدنيا ، وقال القائلون بهذا القول إن صح القول الأول عن ابن عباس وغيره لم يمتنع أن يكون المراد أن هذا النداء يذكر بعد فناء البشر إلا أنه حضر هناك ملائكة يسمعون ذلك النداء ، وأقول أيضاً على هذا القول لايبعد أن يكون السائل

والمجيب هو الله تعالى ، ولا يبعد أيضاً أن يكون السائل جمعاً من الملائكة والمجيب جمعاً آخرين ، الكل ممكن وليس على التعيين دليل ، فان قيل وما الفائدة فى تخصيص هذا اليوم بهذا النداء ؟

فنقول الناس كانوا مغرورين فى الدنيا بالأسباب الظاهرة ، وكان الشيخ الإمام الوالد عمر رضى الله عنه يقول : لولا الأسباب لما ارتاب مرتاب ، وفى يوم القيامة زالت الأسباب ، وانعزلت الأرباب ، ولم يبق البتة غير حكم مسبب الأسباب ، فلهذا اختص النداء بيوم القيامة ، واعلم وإنه وإن كان ظاهر اللفظ يدل على اختصاص ذلك النداء بذلك اليوم إلا أن قوله (لله الواحد القهار) يفيد أن هذا النداء حاصل من جهة المعنى أبداً ، وذلك لأن قولنا : الله اسم لواجب الوجود لذاته ، وواجب الوجود لذاته واحد وكل ماسواه ممكن لذاته ، والممكن لذاته لايوجد إلا بإيجاد الواجب لذاته ، ومعنى الإيجاد هو ترجيح جانب الوجود على جانب العدم ، وذلك الترجيح هو قهر للجانب المرجوح فثبت أن الإله القهار واحد أبداً ، ونداء لمن الملك اليوم إنما ظهر من كونه واحداً قهاراً ، فإذا كان كونه قهاراً باقياً من الأزل إلى الأبد لا جرم كان نداء (لمن الملك اليوم) باقياً فى جانب المعنى من الأزل إلى الأبد .

﴿ الصفة الخامسة ﴾ من صفات ذلك اليوم قوله (اليوم تجزى كل نفس بما كسبت) .

واعلم أنه سبحانه لما شرح صفات القهر فى ذلك اليوم أردفه ببيان صفات العدل والفضل فى ذلك اليوم فقال﴿اليوم تجزى كل نفس بما كسبت﴾وفيه مسألتان :

﴿ المسألة الأولى ﴾ هذا الكلام اشتمل على أمور ثلاثة (أولها) إثبات الكسب للانسان (والثانى) أن كسبه يوجب الجزاء (والثالث) أن ذلك الجزاء إنما يستوفى فى ذلك اليوم فهذه الكلمة على اختصارها مشتملة على هذه الأصول الثلاثة فى هذا الكتاب ، وهى أصول عظيمة الموقع فى الدين ، وقد سبق تقرير هذه الأصول مراراً ، ولا بأس بذكر بعض النكت فى تقرير هذه الأصول (أما الأول) فهو إثبات الكسب للانسان وهو عبارة عن كون أعضائه سليمة صالحة للفعل والترك فما دام يبقى على هذا الاستواء امتنع صدور الفعل والترك عنه ، فإذا انضاف إليه الداعى إلى الفعل أو الداعى إلى الترك وجب صدور ذلك الفعل أو الترك عنه . (وأما الثانى) وهو بيان ترتب الجزاء عليه ، فاعلم أن الأفعال على قسمين منها مايكون الداعى إليه طلب الخيرات الجسمانية الحاصلة فى عالم الدنيا ، ومنها ما يكون الداعى إليه طلب الخيرات الروحانية التى لا يظهر كمالها إلا فى عالم الآخرة وقد ثبت بالتجربة أن كثرة الأفعال سبب لحصول الملكات الراسخة ، فمن غلب عليه القسم الأول استحكمت رحمته رغبته فى الدنيا وفى الجسمانيات ، فعند الموت يحصل الفراق بينه وبين مطلوبه على أعظم الوجوه ويعظم عليه البلاء ، ومن غلب عليه القسم الثانى فعند الموت يفارق المبغوض ويتصل بالمحبوب فتعظم الآلاء والنعماء ، فهذا هو معنى الكسب ، ومعنى كون ذلك الكسب موجباً للجزاء ، فظهر بهذا أن كمال الجزاء لا يحصل إلا فى يوم القيامة ، فهذا قانون كلى عقلى ، والشريعة

وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْـَٔازِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَـٰظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ

الحقة أتت بما يقوى هذا القانون الكلى فى تفاصيل الأعمال والأقوال والله أعلم .

﴿ المسألة الثانية ﴾ هذه الآية أصل عظيم فى أصول الفقه ، وذلك لأنا نقول لو كان شيء من أنواع الضرر مشروعاً لكان إما أن يكون مشروعاً لكونه جزاء على شيء من الجنايات أولا لكونه جزاء والقسمان باطلان ، فبطل القول بكونه مشروعا ، أما بيان أنه لا يجوز أن يكون مشروعاً ليكون جزاء على شيء من الأعمال فلأن هذا النص يقتضى تأخير الأجزية إلى يوم القيامة ، فإثباته فى الدنيا يكون على خلاف هذا النص ، وأما بيان أنه لا يجوز أن يكون مشروعاً للجزاء لقوله تعالى (يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر) ولقوله تعالى (وما جعل عليكم فى الدين من حرج) ولقوله صلى الله عليه وسلم « لا ضرر ولا ضرار فى الإسلام » عدلنا عن هذه العمومات فيما إذا كانت المضار أجزية ، وفيما ورد نص فى الإذن فيه كذبح الحيوانات ، فوجب أن يبقى على أصل الحرمة فيما عداه ، فثبت بما ذكرنا أن الأصل فى المضار والآلام التحريم ، فإن وجدنا نصاً خاصاً يدل على الشرعية قضينا به تقديماً للخاص على العام ، وإلا فهو باق على أصل التحريم ، وهذا أصل كلى منتفع به فى الشريعة والله أعلم .

﴿ الصفة السادسة ﴾ من صفات ذلك اليوم قوله (لا ظلم اليوم) والمقصود أنه لما قال (اليوم تجزى كل نفس بما كسبت) أردفه بما يدل على أنه لا يقع فى ذلك اليوم نوع من أنواع الظلم ، قال المحققون وقوع الظلم فى الجزاء يقع على أربعة أقسام (أحدها) أن يستحق الرجل ثواباً فيمنع منه (وثانيها) أن يعطى بعض حقه ولكنه لا يوصل إليه حقه بالتمام (وثالثها) أن يعذب من لا يستحق العذاب (ورابعها) أن يكون الرجل مستحقاً للعذاب فيعذب ويزاد على قدر حقه فقوله تعالى (لا ظلم اليوم) يفيد نفى هذه الأقسام الأربعة ، قال القاضى هذه الآية قوية فى إبطال قول المجبرة لأن على قولهم لا ظلم غالباً وشاهداً إلا من الله ، ولأنه تعالى إذا خلق فيه الكفر ثم عذبه عليه فهذا هو عين الظلم والجواب عنه معلوم .

ثم قال تعالى (إن الله سريع الحساب) وذكر هذا الكلام فى هذا الموضع لائق جداً ، لأنه تعالى لما بين أنه لا ظلم بين أنه سريع الحساب . وذلك يدل على أنه يصل إليهم ما يستحقونه فى الحال والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع ، يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ، والله يقضى بالحق والذين يدعون من دونه

يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (٢٠) أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ (٢١) ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٢٢)

لا يقضون بشيء إن الله هو السميع البصير ، أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم كانوا هم أشد منهم قوة وآثاراً في الأرض فأخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق ، ذلك بأنهم كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فكفروا فأخذهم الله إنه قوى شديد العقاب ﴾ .

اعلم أن المقصود من هذه الآية وصف يوم القيامة بأنواع أخرى من الصفات الهائلة المهيبة ، وفي الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ ذكروا في تفسير يوم الآزفة وجوهاً (الأول) أن يوم الآزفة هو يوم القيامة ، والآزفة فاعلة من أزف الأمر إذا دنا وحضر لقوله في صفة يوم القيامة (أزفت الآزفة ليس لها من دون الله كاشفة) وقال شاعر :

أزف الترحل غير أن ركابنا لما تزل برحالنا وكأن قد

والمقصود منه التنبيه على أن يوم القيامة قريب ونظيره قوله تعالى (اقتربت الساعة) قال الزجاج إنما قيل لها آزفة لأنها قريبة وإن استبعد الناس مداها ، وما هو كائن فهو قريب .

واعلم أن الآزفة نعت لمحذوف مؤنث على تقدير يوم القيامة الآزفة أو يوم المجازاة الآزفة قال القفال : وأسماء القيامة تجرى على التأنيث كالطامة والحاقة ونحوها كأنها يرجع معناها إلى الداهية (والقول الثاني) أن المراد بيوم الآزفة وقت الآزفة وهي مسارعتهم إلى دخول النار ، فإن عند ذلك ترتفع قلوبهم عن مقارها من شدة الخوف (والقول الثالث) قال أبو مسلم يوم الآزفة يوم المنية وحضور الأجل ، والذي يدل عليه أنه تعالى وصف يوم القيامة بأنه يوم التلاق ، و (يوم هم بارزون) ثم قال بعده (وأنذرهم يوم الآزفة) فوجب أن يكون هذا اليوم غير ذلك اليوم ، وأيضاً هذه الصفة مخصوصة في سائر الآيات بيوم الموت قال تعالى (فلولا إذا

بلغت الحلقوم وأنتم حينئذ تنظرون) وقال (كلا إذا بلغت التراقى) وأيضاً فوصف يوم الموت بالقرب أولى من وصف يوم القيامة بالقرب ، وأيضاً الصفات المذكورة بعد قوله الآزفة لائقة بيوم حضور الموت لأن الرجل عند معاينة ملائكة العذاب يعظم خوفه ، فكأن قلوبهم تبلغ حناجرهم من شدة الخوف ، ويبقوا كاظمين ساكتين عن ذكر ما فى قلوبهم من شدة الخوف ولا يكون لهم حميم ولا شفيع يدفع ما بهم من أنواع الخوف والقلق .

﴿ المسألة الثانية ﴾ اختلفوا فى أن المراد من قوله (إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين) كناية عن شدة الخوف أو هو محمول على ظاهره ، قيل المراد وصف ذلك اليوم بشدة الخوف والفزع ونظيره قوله تعالى (وبلغت القلوب الحناجر ، وتظنون بالله الظنونا) وقال (فلولا إذا بلغت الحلقوم وأنتم حينئذ تنظرون) وقيل بل هو محمول على ظاهره ، قال الحسن : القلوب انتزعت من الصدور بسبب شدة الخوف (وبلغت القلوب الحناجر) فلا تخرج فيموتوا ولا ترجع إلى مواضعها فيتنفسوا ويتروحوا ولكنها مقبوضة كالسجال كما قال (فلما رأوه زلفة سيئت وجوه الذين كفروا) وقوله (كاظمين) أى مكروبين والكاظم الساكت حال امتلائه غماً وغيظاً فان قيل بم انتصب (كاظمين) قلنا هو حال أصحاب القلوب على المعنى لأن المراد إذ قلوبهم لدى الحناجر حال (كاظمين) كونهم ويجوز أيضاً أن يكون حال عن القلوب ، وأن القلوب كاظمة على غم وكرب فيها مع بلوغها الحناجر ، وإنما جمع الكاظمة جمع السلامة لأنه وصفها بالكظم الذى هو من أفعال العقلاء كما قال (رأيتهم لى ساجدين) وقال (فظلت أعناقهم لها خاضعين) ويعضده قراءة من قرأ كاظمون وبالجملة فالمقصود من الآية تقرير أمرين : (أحدهما) الخوف الشديد وهو المراد من قوله (إذ القلوب لدى الحناجر) ، (والثانى) العجز عن الكلام وهو المراد من قوله (كاظمين) فان الملهوف إذا قدر على الكلام حصلت له خفة وسكون ، أما إذ لم يقدر على الكلام وبث الشكوى عظم قلقه وقوى خوفه .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ احتج أكثر المعتزلة فى نفى الشفاعة عن المذنبين بقوله تعالى (ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع) قالوا نفى حصول شفيع لهم يطاع فوجب أن لا يحصل لهم هذا الشفيع أجاب أصحابنا عنه من وجوه : (الأول) أنه تعالى نفى أن يحصل لهم (شفيع يطاع) وهذا لا يدل على نفى الشفيع ، ألا ترى أنك إذا قلت ما عندى كتاب يباع فهذا يقتضى نفى كتاب يباع ولا يقتضى نفى الكتاب وقالت العرب :

ولا ترى الضب بها ينجحر

ولفظ الطاعة يقتضى حصول المرتبة فهذا يدل على أنه ليس لهم يوم القيامة شفيع يطيعه الله ، لأنه ليس فى الوجود أحد أعلى حالا من الله تعالى حتى يقال إن الله يطيعه (الوجه الثانى) فى الجواب أن المراد من الظالمين ، ههنا الكفار والدليل عليه أن هذه الآية وردت فى زجر الكفار

(الذين يجادلون فى آيات الله) فوجب أن يكون مختصاً بهم ، وعندنا أنه لاشفاعة فى حق الكفار (والثالث) أن لفظ الظالمين ، إما أن يفيد الاستغرق ، وإما أن لا يفيد فإن أفاد الاستغراق كان المراد من الظالمين مجموعهم وجملتهم ويدخل فى مجموع هذا الكلام الكفار ، وعندنا أنه ليس لهذا المجموع شفيع لأن بعض هذا المجموع هم الكفار ، وليس لهم شفيع فحينئذ لا يكون لهذا المجموع شفيع ، وإن لم يفد الاستغراق كان المراد من الظالمين بعض من كان موصوفاً بهذه الصفة ، وعندنا أن بعض الموصوفين بهذه الصفة ليس لهم شفيع وهم الكفار ، أجاب المستدلون عن السؤال الأول ، فقالوا يجب حمل كلام الله تعالى على محمل مفيد وكل أحد يعلم أنه ليس فى الوجود شىء يطيعه الله لأن المطيع أدون حالا من المطاع ، وليس فى الوجود شىء أعلى مرتبة من الله تعالى حتى يقال إن الله يطيعه وإذا كان هذا المعنى معلوماً بالضرورة كان حمل الآية عليه إخراجاً لها عن الفائدة فوجب حمل الطاعة على الإجابة والذى يدل على ورود لفظ الطاعة بمعنى الإجابة قول الشاعر :

رب من أنضجت غيظاً صدره قد تمنى لى موتاً لم يطع

﴿ أما السؤال الثانى ﴾ فقد أجابوا عنه بأن لفظ الظالمين صيغة جمع دخل عليها حرف التعريف فيفيد العموم ، أقصى ما فى الباب أن هذه الآية وردت لذم الكفار لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .

﴿ أما السؤال الثالث ﴾ فجوابه أن قوله (ماللظالمين من حميم) يفيد أن كل واحد من الظالمين محكوم عليه بأنه ليس له حميم ولا شفيع يطاع ، فهذا تمام كلام القوم فى تقرير ذلك الاستدلال .

أجاب أصحابنا عن السؤال الأول فقالوا إن القوم كانوا يقولون فى الأصنام إنها شفعاؤنا عند الله وكانوا يقولون إنها تشفع لنا عند الله من غير حاجة فيه إلى إذن الله ، ولهذا السبب رد الله تعالى عليهم ذلك بقوله (من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه) فهذا يدل على أن القوم اعتقدوا أنه يجب على الله إجابة الأصنام فى تلك الشفاعة ، وهذا نوع طاعة ، فالله تعالى نفى تلك الطاعة بقوله (ماللظالمين من حميم ولا شفيع يطاع) وأجابوا عن الكلام الثانى بأن قالوا الأصل فى حرف التعريف أن ينصرف إلى المعهود السابق ، فإذا دخل حرف التعريف على صيغة الجمع ، وكان هناك معهود سابق انصرف إليه ، وقد حصل فى هذه الآية معهود سابق وهم الكفار الذين يجادلون فى آيات الله ، فوجب أن ينصرف إليه وأجابوا عن الكلام الثالث بأن قالوا قوله (ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع) يحتمل عموم السلب ، ويحتمل سلب العموم ، أما الأول فعلى تقدير أن يكون المعنى أن كل واحد من الظالمين محكوم عليه بأنه ليس له حميم ولا شفيع ، وأما الثانى فعلى تقدير أن يكون المعنى أن مجموع الظالمين ليس لهم حميم ولا شفيع ، ولا يلزم من نفى الحكم عن المجموع نفيه عن كل واحد من آحاد ذلك المجموع والذى يؤكد ماذكرناه قوله تعالى (الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون) فقوله : إن الذين كفروا لا يؤمنون ، إن حملناه على أن كل

واحد منهم محكوم عليه بأنه لا يؤمن لزم وقوع الخلف فى كلام الله ، لأن كثيراً ممن كفر فقد آمن بعد ذلك ، أما لو حملناه على أن مجموع الذين كفروا لا يؤمنون سواء آمن بعضهم أولم يؤمن صدق وتخلص عن الخلف ، فلا جرم حملنا هذه الآية على سلب العموم ولم نحملها على عموم السلب فكذا قوله (ما للظالمين من حميم ولا شفيع) يجب حمله على سلب العموم لا على عموم السلب ، وحينئذ استدلال المعتزلة بهذه الآية فهذا غاية الكلام فى هذا الباب .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ فى بيان نظم الآية ، فنقول إنه تعالى ذكر فى هذه الآية جميع الأسباب الموجبة للخوف (فأولها) أنه سمى ذلك اليوم يوم الآزفة ، أى يوم القرب من عذابه لمن ابتلى بالذنب العظيم ، لأنه إذا قرب زمان عقوبته كان فى أقصى غايات الخوف ، حتى قيل إن تلك الغموم والهموم أعظم فى الإيحاش من عين تلك العقوبة (والثانى) قوله (إذ القلوب لدى الحناجر) والمعنى أنه بلغ ذلك الخوف إلى أن انقلع القلب من الصدر وارتفع إلى الحنجرة والتصق بها وصار مانعاً من دخول النفس (والثالث) قوله (كاظمين) والمعنى أنه لا يمكنهم أن ينطقوا وأن يشرحوا ما عندهم من الحزن والخوف ، وذلك يوجب مزيد القلق والاضطراب (والرابع) قوله (ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع) فبين أنه ليس لهم قريب ينفعهم ، ولا شفيع يطاع فيهم فتقبل شفاعته (والخامس) قوله (يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور) والمعنى أنه سبحانه عالم لا يعزب عن علمه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض ، والحاكم إذا بلغ فى العلم إلى هذا الحد كان خوف المذنب منه شديداً جداً ، قال صاحب الكشاف : الخائنة صفة النظرة أو مصدر بمعنى الخائنة ، كالعافية المعافاة ، والمراد استراق النظر إلى مالا يحل كما يفعل أهل الريب ، والمراد بقوله (وما تخفى الصدور) مضمرات القلوب ، والحاصل أن الأفعال قسمان : أفعال الجوارح وأفعال القلوب ، أما أفعال الجوارح ، فأخفاها خائنة الأعين والله أعلم بها ، فكيف الحال فى سائر الأعمال . وأما أفعال القلوب ، فهى معلومة لله تعالى لقوله (وما تخفى الصدور) فدل هذا على كونه تعالى عالماً بجميع أفعالهم (السادس) قوله تعالى (والله يقضى بالحق) وهذا أيضاً يوجب عظم الخوف ، لأن الحاكم إذا كان عالماً بجميع الأحوال ، وثبت منه أنه لا يقضى إلا بالحق فى كل مادق وجل ، كان خوف المذنب منه فى الغاية القصوى (السابع) أن الكفار إنما عولوا فى دفع العقاب عن أنفسهم على شفاعة هذه الأصنام ، وقد بين الله تعالى أنه لا فائدة فيها البتة ، فقال (والذين يدعون من دونه لا يقضون بشىء) (الثامن) قوله (إن الله هو السميع البصير) أى يسمع من الكفار ثناءهم على الأصنام ، ولا يسمع منهم ثناءهم على الله ويبصر خضوعهم وسجودهم لهم ، ولا يبصر خضوعهم وتواضعهم لله ، فهذه الأحوال الثمانية إذا اجتمعت فى حق المذنب الذى عظم ذنبه كان بالغاً فى التخويف إلى الحد الذى لا تعقل الزيادة عليه ، ثم إنه تعالى لما بالغ فى تخويف الكفار بعذاب الآخرة أردفه ببيان تخويفهم بأحوال الدنيا فقال (أولم

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا
سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا
مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي
أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ
﴿٢٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ
﴿٢٧﴾

يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم) والمعنى أن العاقل من اعتبر بغيره ، فإن الذين مضوا من الكفار كانوا أشد قوة من هؤلاء الحاضرين من الكفار ، وأقوى آثاراً فى الأرض منهم ، والمراد حصونهم وقصورهم وعساكرهم ، فلما كذبوا رسلهم أهلكهم الله بضروب الهلاك معجلا حتى إن هؤلاء الحاضرين من الكفار يشاهدون تلك الآثار ، فحذرهم الله تعالى من مثل ذلك بهذا القول ، وبين بقوله (وما كان لهم من الله من واق) أنه لما نزل العذاب بهم عند أخذه تعالى لهم لم يجدوا من يعينهم ويخلصهم ، ثم بين أن ذلك نزل بهم لأجل أنهم كفروا وكذبوا الرسل ، فحذر قوم الرسول من مثله ، وختم الكلام بـ(أنه قوى شديد العقاب) مبالغة فى التحذير والتخويف ، والله أعلم .

وقرأ ابن عامر وحده (كانوا هم أشد منكم) بالكاف ، والباقون بالهاء (أما وجه) قراءة ابن عامر فهو انصراف من الغيبة إلى الخطاب ، كقوله (إياك نعبد وإياك نستعين) بعد قوله (الحمد لله) والوجه فى حسن هذا الخطاب أنه فى شأن أهل مكة ، فجعل الخطاب على لفظ المخاطب الحاضر لحضورهم ، وهذه الآية فى المعنى كقوله (مكناهم فى الأرض مالم نمكن لكم) وأما قراءة الباقين على لفظ الغيبة فلأجل موافقة ما قبله من ألفاظ الغيبة .

قوله تعالى : ﴿ ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين ، إلى فرعون وهامان وقارون فقالوا ساحر كذاب ، فلما جاءهم بالحق من عندنا قالوا اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه واستحيوا نساءهم وما كيد الكافرين إلا فى ضلال ، وقال فرعون ذرونى أقتل موسى وليدع ربه إنى أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر فى الأرض الفساد ، وقال موسى إنى عذت بربى وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب ﴾ .

واعلم أنه تعالى لما سلى رسوله بذكر الكفار الذين كذبوا الأنبياء قبله و بمشاهدة آثارهم ، سلاه أيضاً بذكر موسى عليه السلام ، وأنه مع قوة معجزاته بعثه إلى فرعون وهامان وقارون فكذبوه وكابروه ، وقالوا هو ساحر كذاب .

واعلم أن موسى عليه السلام ، لما جاءهم بتلك المعجزات الباهرة و بالنبوة وهى المراد بقوله (فلما جاءهم بالحق من عندنا) حكى الله تعالى عنهم ماصدر عنهم من الجهالات (فالأول) أنهم وصفوه بكونه ساحراً كذاباً ، وهذا فى غاية البعد ، لأن تلك المعجزات كانت قد بلغت فى القوة والظهور إلى حيث يشهد كل ذى عقل سليم بأنه ليس من السحر البتة (الثانى) أنهم قالوا (اقتلوا أبناء الذين الذين آمنوا معه واستحيوا نساءهم) والصحيح أن هذا القتل غير القتل الذى وقع فى وقت ولادة موسى عليه السلام ، لأن فى ذلك الوقت أخبره المنجمون بولادة عدو له يظهر عليه ، فأمر بقتل الأولاد فى ذلك الوقت ، وأما فى هذا الوقت فموسى عليه السلام قد جاءه وأظهر المعجزات الظاهرة ، فعند هذا أمر بقتل أبناء الذين آمنوا معه لئلا ينشئوا على دين موسى فيقوى بهم ، وهذه العلة مختصة بالبنين دون البنات ، فلهذا السبب أمر بقتل الأبناء .

قوله تعالى : ﴿ وما كيد الكافرين إلا فى ضلال ﴾ ومعناه أن جميع ما يسعون فيه من مكايدة موسى ومكايدة من آمن معه يبطل ، لأن (ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها) (النوع الثالث) من قبائح أفعال أولئك الكفار مع موسى عليه السلام ما حكاه الله تعالى ، (وقال فرعون ذرونى أقتل موسى) وهذا الكلام كالدلالة على أنهم كانوا يمنعونه من قتله ، وفيه احتمالان .

(والاحتمال الأول) أنهم منعوه من قتله لوجوه (الأول) لعله كان فيهم من يعتقد بقلبه كون موسى صادقاً ، فيأتى بوجوه الحيل فى منع فرعون من قتله (الثانى) قال الحسن : إن أصحابه قالوا له لا تقتله فإنما هو ساحر ضعيف ولا يمكنه أن يغلب سحرتك ، وإن قتلته أدخلت الشبهة على الناس وقالوا إنه كان محقاً وعجزوا عن جوابه فقتلوه (الثالث) لعلهم كانوا يحتالون فى منعه من قتله ، لأجل أن يبقى فرعون مشغول القلب بموسى فلا يتفرغ لتأديب أولئك الأقوام ، فإن من شأن الأمراء أن يشغلوا قلب ملكهم بخصم خارجى حتى يصيروا آمنين من شر ذلك الملك .

(والاحتمال الثانى) أن أحداً مامنع فرعون من قتل موسى وأنه كان يريد أن يقتله إلا أنه كان خائفاً من أنه لو حاول قتله لظهرت معجزات قاهرة تمنعه عن قتله فيفتضح إلا أنه لوقاحته قال (ذرونى أقتل موسى) وغرضه منه أنه إنما امتنع عن قتله رعاية لقلوب أصحابه وغرضه منه إخفاء خوفه .

أما قوله (وليدع ربه) فإنما ذكره على سبيل الاستهزاء يعنى أنى أقتله فليقل لربه حتى يخلصه منى .
وأما قوله (إنى أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر فى الأرض الفساد) ففيه مسائل :
﴿ المسألة الأولى ﴾ فتح ابن كثير الياء من قوله (ذرونى) وفتح نافع وابن كثير وأبو عمرو

الياء من (إنى أخاف) وأيضاً قرأ نافع وابن عمرو (وأن يظهر) بالواو وبحذف أو ، يعنى أنه يجمع بين تبديل الدين وبين إظهار المفاسد ، والذين قرأوا بصيغة أو فمعناه أنه لابد من وقوع أحد الأمرين وقرىء يظهر بضم الياء وكسر الهاء والفساد بالنصب على التعدية ، وقرأ حمزة والكسائى وأبو بكر عن عاصم بلفظ أو يظهر بفتح الياء والهاء والفساد بالرفع ، أما وجه القراءة الأولى فهو أنه أسند الفعل إلى موسى فى قوله (يبدل) فكذلك فى يظهر ليكون الكلام على نسق واحد ، وأما وجه القراءة الثانية فهو أنه إذا بدل الدين فقد ظهر الفساد الحاصل بسبب ذلك التبديل .

﴿ المسألة الثانية ﴾ المقصود من هذا الكلام بيان السبب الموجب لقتله وهو أن وجوده يوجب إما فساد الدين أو فساد الدنيا ، أما فساد الدين فلأن القوم اعتقدوا أن الدين الصحيح هو الذى كانوا عليه ، فلما كان موسى ساعياً فى إفساده كان فى اعتقادهم أنه ساع فى إفساد الدين الحق وأما فساد الدنيا فهو أنه لا بد وأن يجتمع عليه قوم ويصير ذلك سبباً لوقوع الخصومات وإثارة الفتن ، ولما كان حب الناس لأديانهم فوق حبهم لأموالهم لا جرم بدأ فرعون بذكر الدين فقال : (إنى أخاف أن يبدل دينكم) ثم أتبعه بذكر فساد الدنيا فقال : (أو أن يظهر فى الأرض الفساد) .

واعلم أنه تعالى لما حكى عن فرعون هذا الكلام حكى بعده ما ذكره موسى عليه السلام فحكى عنه أنه قال (إنى عذت بربى وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب) وفيه مسألتان :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قرأ نافع وأبو بكر وحمزة والكسائى عذت بإدغام الذال فى التاء والباقون بالإظهار .

﴿ المسألة الثانية ﴾ المعنى أنه لم يأت فى دفع شره إلا بأن استعاذ بالله ، واعتمد على فضل الله لاجرم صانه الله عن كل بلية وأوصله إلى كل أمنية ، و علم أن هذه الكلمات التى ذكرها موسى عليه السلام تشتمل على فوائد :

﴿ الفائده الأولى ﴾ أن لفظة (إنى) تدل على التأكيد فهذا يدل على أن الطريق المؤكد المعتبر فى دفع الشرور والآفات عن النفس الاعتماد على الله والتوكل على عصمة الله تعالى .

﴿ الفائدة الثانية ﴾ أنه قال (إنى عذت بربى وربكم) فكما أن عند القراءة يقول المسلم : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، فالله تعالى يصون دينه وإخلاصه عن وساوس شياطين الجن ، فكذلك عند توجه الآفات والمخافات من شياطين الإنس إذا قال المسلم : أعوذ بالله فالله يصونه عن كل الآفات والمخافات .

﴿ الفائدة الثالثة ﴾ قوله (ربى وربكم) والمعنى كأن العبد يقول إن الله سبحانه هو الذى ربانى وإلى درجات الخير رقانى ، ومن الآفات وقانى ، وأعطانى نعماً لا حد لها ولا حصر ، فلما كان المولى ليس إلا الله وجب أن لا يرجع العاقل فى دفع كل الآفات إلا إلى حفظ الله تعالى .

وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَـٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَـٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾

﴿ الفائدة الرابعة ﴾ أن قوله (وربكم) فيه بعث لقوم موسى عليه السلام على أن يقتدوا به فى الاستعاذة بالله ، والمعنى فيه أن الأرواح الطاهرة القوية إذا تطابقت على همة واحدة قوى ذلك التأثير جداً ، وذلك هو السبب الأصلى فى أداء الصلوات فى الجماعات .

﴿ الفائدة الخامسة ﴾ أنه لم يذكر فرعون فى هـذا الدعاء ، لأنه كان قد سبق له حق تربية على موسى من بعض الوجوه ، فترك التعيين رعاية لذلك الحق .

﴿ الفائدة السادسة ﴾ أن فرعون وإن كان أظهر ذلك الفعل إلا أنه لا فائدة فى الدعاء على فرعون بعينه ، بل الأولى الاستعاذة بالله فى دفع كل من كان موصوفاً بتلك الصفة ، حتى يدخل فيه كل من كان عدواً سواء كان مظهراً لتلك العداوة أو كان مخفياً لها .

﴿ الفائدة السابعة ﴾ أن الموجب للاقدام على إيذاء الناس أمران (أحدهما) كون الإنسان متكبراً قاسى القلب (والثانى) كونه منكراً للبعث والقيامة ، وذلك لأن المتكبر القاسى قد يحمله طبعه على إيذاء الناس الا أنه إذا كان مقراً بالبعث والحساب صار خوفه من الحساب مانعاً له من الجرى على موجب تكبره ، فإذا لم يحصل عنده الإيمان بالبعث والقيامة كانت الطبيعة داعية له إلى الإيذاء والمانع وهو الخوف من السؤال والحساب زائلا ، وإذا كان الخوف من السؤال والحساب زائلا فلا جرم تحصل القسوة والإيذاء .

﴿ الفائدة الثامنة ﴾ أن فرعون لما قال (ذرونى أقتل موسى) قال على سبيل الاستهزاء (وليدع ربه) فقال موسى إن الذى ذكرته يا فرعون بطريق الاستهزاء هو الدين المبين والحق المنير ، وأنا أدعو ربى وأطلب منه أن يدفع شرك عنى ، وسترى أن ربى كيف يقهرك ، وكيف يسلطنى عليك

واعلم أن من أحاط عقله بهذه الفوائد علم أنه لاطريق أصلح ولا أصوب فى دفع كيد الأعداء وإبطال مكرهم إلا الاستعاذة بالله والرجوع إلى حفظ الله والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله ، وقد جاءكم بالبينات من ربكم وإن يك كاذباً فعليه كذبه وإن يك صادقاً يصبكم بعض الذى يعدكم إن الله لا يهدى من هو مسرف كذاب ﴾ .

اعلم أنه تعالى لما حكى عن موسى عليه السلام أنه ما زاد فى دفع مكر فرعون وشره على الاستعاذة بالله ، بين أنه تعالى قيض إنساناً أجنبياً غير موسى حتى ذب عنه على أحسن الوجوه وبالغ فى تسكين تلك الفتنة واجتهد فى إزالة ذلك الشر .

يقول مصنف هذا الكتاب رحمه الله ، ولقد جربت فى أحوال نفسى أنه كلما قصدنى شرير بشر ولم أتعرض له وأكتفى بتفويض ذلك الأمر إلى الله ، فانه سبحانه يقيض أقواماً لا أعرفهم البتة ، يبالغون فى دفع ذلك الشر ، وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ اختلفوا فى ذلك الرجل الذى كان من آل فرعون ، فقيل إنه كان ابن عم له ، وكان جارياً مجرى ولى العهد ومجرى صاحب الشرطة ، وقيل كان قبطياً من آل فرعون وما كان من أقاربه ، وقيل إنه كان من بنى إسرائيل ، والقول الأول أقرب لأن لفظ الآل يقع على القرابة والعشيرة قال تعالى (إلا آل لوط نجيناهم بسحر) وعن رسول الله ﷺ أنه قال «الصديقون ثلاثة : حبيب النجار مؤمن آل ياسين ، ومؤمن آل فرعون الذى قال (أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله) والثالث على بن أبى طالب وهو أفضلهم » وعن جعفر بن محمد أنه قال : كان أبو بكر خيراً من مؤمن آل فرعون لأنه كان يكتم إيمانه وقال أبو بكر جهاراً (أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله) فكان ذلك سراً وهذا كان جهاراً .

﴿ المسألة الثانية ﴾ لفظ من فى قوله (من آل فرعون) يجوز أن يكون متعلقاً بقوله (مؤمن) أى كان ذلك المؤمن شخصاً من آل فرعون ويجوز أن يكون متعلقاً بقوله (يكتم إيمانه) والتقدير رجل مؤمن يكتم إيمانه من آل فرعون ، وقيل إن هذا الاحتمال غير جائز لأنه يقال كتمت من فلان كذا ، إنما يقال كتمته كذا قال تعالى (ولا يكتمون الله حديثاً) .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ رجل مؤمن الأكثرون قرأوا بضم الجيم وقرىء رجل بكسر الجيم كما يقال عضد فى عضد .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قوله تعالى (أتقتلو رجلا أن يقول ربى الله) استفهام على سبيل الإنكار ، وقد ذكر فى هذا الكلام ما يدل على حسن ذلك الاستنكار ، وذلك لأنه ما زاد على أن قال (ربى الله) وجاء بالبينات وذلك لا يوجب القتل البتة وقوله (وقد جاءكم بالبينات من ربكم) يحتمل وجهين (الأول) أن قوله (ربى الله) إشارة إلى التوحيد ، وقوله (وقد جاءكم بالبينات) إشارة إلى الدلائل الدالة على التوحيد ، وهو قوله فى سورة طه (ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى) وقوله فى سورة الشعراء (رب السموات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين) إلى آخر الآيات ، ثم ذكر ذلك المؤمن حجة ثانية فى أن الإقدام على قتله غير جائز وهى حجة مذكورة على طريقة التقسيم ، فقال إن كان هذا الرجل كاذباً كان وبال كذبه عائداً عليه فاتركوه وإن كان صادقاً يصبكم بعض الذى يعدكم ، فثبت أن على كلا التقديرين كان الأولى إبقاؤه حياً .

فان قيل السؤال على هذا الدليل من وجهين (الأول) أن قوله (وإن يك كاذباً فعليه كذبه) معناه أن ضرر كذبه مقصور عليه ولا يتعداه ، وهذا الكلام فاسد لوجوه (أحدها) أنا لا نسلم أن بتقدير كونه كاذباً كان ضرر كذبه مقصوراً عليه ، لأنه يدعو الناس إلى ذلك الدين الباطل ، فيغتر به جماعة منهم ، ويقعون فى المذهب الباطل والاعتقاد الفاسد ، ثم يقع بينهم وبين غيرهم الخصومات الكثيرة فثبت أن بتقدير كونه كاذباً لم يمكن ضرر كذبه مقصوراً عليه ، بل كان متعدياً إلى الكل ، ولهذا السبب العلماء اجمعوا على أن الزنديق الذى يدعو الناس إلى زندقته يجب قتله (وثانيها) أنه إن كان الكلام حجة له ، فلا كذاب إلا ويمكنه أن يتمسك بهذه الطريقة ، فوجب تمكين جميع الزنادقة والمبطلين من تقرير أديانهم الباطلة (وثالثها) أن الكفار الذين أنكروا نبوة موسى عليه السلام وجب أن لا يجوز الإنكار عليهم ، لأنه يقال : إن كان ذلك المنكر كاذباً فى ذلك الإنكار فعليه كذبه ، وإن يك صادقاً انتفعتم بصدقه ، فثبت أن هذا الطريق يوجب تصويب ضده ، وما أفضى ثبوته إلى عدمه كان باطلا .

(السؤال الثانى) أنه كان من الواجب أن يقال وإن يك صادقاً يصبكم كل الذى يعدكم لأن الذى يصيب فى بعض مايعد دون البعض هم أصحاب الكهانة والنجوم ، أما الرسول الصادق الذى لا يتكلم إلا بالوحى فإنه يجب أن يكون صادقاً فى كل مايقول فكان قوله (يصبكم بعض الذى يعدكم) غير لائق بهذا المقام (والجواب) عن الأسئلة الثلاثة بحرف واحد وهو أن تقدير الكلام أن يقال إنه لا حاجة بكم فى دفع شره إلى قتله بل يكفيكم أن تمنعوه عن إظهار هذه المقالة ثم تتركوا قتله فإن كان كاذباً فحينئذ لا يعود ضرره إلا إليه ، وإن يك صادقاً انتفعتم به ، والحاصل أن المقصود من ذكر ذلك التقسيم بيان أنه لا حاجة إلى قتله بل يكفيكم أن تعرضوا عنه وأن تمنعوه عن إظهار دينه فبهذا الطريق [تكون] الأسئلة الثلاثة مدفوعة .

﴿ وأما السؤال الثانى ﴾ وهو قوله كان الأولى أن يقال يصبكم كل الذى يعدكم ، فالجواب عنه من وجوه (الأول) أن مدار هذا الاستدلال على إظهار الإنصاف وترك اللجاج لأن المقصود منه إن كان كاذباً كان ضرر كذبه مقصوراً عليه ، وإن كان صادقاً فلا أقل من أن يصل إليكم بعض مايعدكم ، وإن كان المقصود من هذا الكلام ما ذكر صح ، ونظيره قوله تعالى (وإنا أو إياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين) ، (والوجه الثانى) أنه عليه السلام كان يتوعدهم بعذاب الدنيا وبعذاب الآخرة ، فإذا وصل إليهم فى الدنيا عذاب الدنيا فقد أصابهم بعض الذى يعدهم به ، (الوجه الثالث) حكى عن أبى عبيدة أنه قال ورود لفظ البعض بمعنى الكل جائز ، واحتج بقول لبيد :

تراك أمكنة إذا لم أرضها ... أو يرتبط بعض النفوس حمامها

والجمهور على أن هذا القول خطأ ، قالوا وأراد لبيد ببعض النفوس نفسه والله أعلم .

يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا ۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾

ثم حكى الله تعالى عن هذا المؤمن حكاية ثالثة فى أنه لا يجوز إيذاء موسى عليه السلام فقال (إن الله لا يهدى من هو مسرف مرتاب) وتقرير هذا الدليل أن يقال : إن الله تعالى هدى موسى إلى الإتيان بهذه المعجزات الباهرة ، ومن هداه الله إلى الإتيان بالمعجزات لا يكون مسرفاً كذاباً فهذا يدل على أن موسى عليه السلام ليس من الكاذبين ، فكان قوله (إن الله لا يهدى من هو مسرف كذاب) إشارة إلى علو شأن موسى عليه السلام على طريق الرمز والتعريض ، ويحتمل أيضاً أن يكون المراد أن فرعون مسرف فى عزمه على قتل موسى ، كذاب فى إقدامه على ادعاء الإلهية ، والله لا يهدى من هذا شأنه وصفته ، بل يبطله ويهدم أمره .

قوله تعالى : ﴿ يا قوم لكم الملك اليوم ظاهرين فى الأرض فمن ينصرنا من بأس الله إن جاءنا ، قال فرعون ما أريكم إلا ما أرى وما أهديكم إلا سبيل الرشاد ، وقال الذى آمن يا قوم إنى أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب ، مثل دأب قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم وما الله يريد ظلماً للعباد ، ويا قوم إنى أخاف عليكم يوم التناد ، يوم تولون مدبرين مالكم من الله من عاصم ومن يضلل الله فما له من هاد ﴾ .

اعلم أن مؤمن آل فرعون لما أقام أنواع الدلائل على أنه لا يجوز الإقدام على قتل موسى ، خوفهم فى ذلك بعذاب الله فقال (يا قوم لكم الملك اليوم ظاهرين فى الأرض) يعنى قد علوتم الناس وقهرتموهم ، فلا تفسدوا أمركم على أنفسكم ولا تتعرضوا لبأس الله وعذابه ، فانه لا قبل لكم به ، وإنما قال (ينصرنا) و(جاءنا) لأنه كان يظهر من نفسه أنه منهم وأن الذى ينصحهم به هو مشارك لهم فيه ، ولما قال ذلك المؤمن هذا الكلام (قال فرعون ما أريكم إلا ما أرى) أى لا أشير إليكم

برأى سوى ماذكرته أنه يجب قتله حسما لمادة الفتنة (وما أهديكم) بهذا الرأى (إلا سبيل الرشاد) والصلاح ، ثم حكى تعالى أن ذلك المؤمن رد هذا الكلام على فرعون فقال (إنى أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب) .

واعلم أنه تعالى حكى عن ذلك المؤمن أنه كان يكتم إيمانه ، والذى يكتم كيف يمكنه أن يذكر هذه الكلمات مع فرعون ، ولهذا السبب حصل ههنا قولان (الأول) أن فرعون لما قال (ذرونى أقتل موسى) لم يصرح ذلك المؤمن بأنه على دين موسى ، بل أوهم أنه مع فرعون وعلى دينه ، إلا أنه زعم أن المصلحة تقتضى ترك قتل موسى ، لأنه لم يصدر عنه إلا الدعوة إلى الله والإتيان بالمعجزات القاهرة وهذا لايوجب القتل ، والإقدام على قتله يوجب الوقوع فى ألسنة الناس بأقبح الكلمات ، بل الأولى أن يؤخر قتله وأن يمنع من إظهار دينه ، لأن على هذا التقدير إن كان كاذباً كان وبال كذبه عائداً إليه ، وإن كان صادقاً حصل الانتفاع به من بعض الوجوه ، ثم أكد ذلك بقوله (إن الله لايهدى من هو مسرف كذب) يعنى أنه إن صدق فيما يدعيه من إثبات الإله القادر الحكيم فهو لايهدى المسرف الكذاب ، فأوهم فرعون أنه أراد بقوله (إن الله لايهدى من هو مسرف كذاب) أنه يريد موسى وهو إنما كان يقصد به فرعون ، لأن المسرف الكذاب هو فرعون (والقول الثانى) أن مؤمن آل فرعون كان يكتم إيمانه أولا ، فلما قال فرعون (ذرونى أقتل موسى) أزال الكتمان وأظهر كونه على دين موسى ، وشافه فرعون بالحق .

واعلم أنه تعالى حكى عن هذا المؤمن أنواعاً من الكلمات ذكرها لفرعون (فالأول) قوله (ياقوم إنى أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب) والتقدير مثل أيام الأحزاب ، إلا أنه لما أضاف اليوم إلى الأحزاب وفسرهم بقوم نوح وعاد وثمود ، فحينئذ ظهر أن كل حزب كان له يوم معين فى البلاء ، فاقتصر من الجمع على ذكر الواحد لعدم الالتباس ، ثم فسر قوله (إنى أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب) بقوله (مثل دأب قوم نوح وعاد وثمود) ودأب هؤلاء دونهم فى عملهم من الكفار والتكذيب وسائر المعاصى ، فيكون ذلك دائباً ودائماً لايفترون عنه ، ولا بد من حذف مضاف يريد مثل جزاء دأبهم ، والحاصل أنه خوفهم بهلاك معجل فى الدنيا ، ثم خوفهم أيضاً بهلاك الآخرة ، وهو قوله (ومن يضلل الله فما له من هاد) والمقصود منه التنبيه على عذاب الآخرة .

(والنوع الثانى) من كلمات ذلك المؤمن قوله تعالى (وما الله يريد ظلماً للعباد) يعنى أن تدمير أولئك الأحزاب كان عدلا ، لأنهم استوجبوه بسبب تكذيبهم للأنبياء ، فتلك الجملة قائمة ههنا ، فوجب حصول الحكم ههنا ، قالت المعتزلة : (وما الله يريد ظلماً للعباد) يدل على أنه لا يريد أن يظلم بعض العباد بعضاً ، ويدل على أنه لا يريد ظلم أحد من العباد ، فلو خلق الكفر فيهم ثم عذبهم على ذلك الكفر لكان ظالماً ، وإذا ثبت أنه لايريد الظلم البتة ثبت أنه غير خالق لأفعال العباد ، لأنه لو خلقها لأرادها ، وثبت أيضاً أنه قادر على الظلم ، إذ لو لم يقدر عليه لما حصل المدح بترك

وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ

الظلم ، وهذا الاستدلال قد ذكرناه مراراً فى هذا الكتاب مع الجواب ، فلا فائدة فى الإعادة .

(النوع الثالث) من كلمات هذا المؤمن قوله (ويا قوم إنى أخاف عليكم يوم التناد) وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ التنادى تفاعل من النداء ، يقال تنادى القوم ، أى نادى بعضهم بعضاً ، والأصل الياء وحذف الياء حسن فى الفواصل ، وذكرنا ذلك فى (يوم التلاق) وأجمع المفسرون على أن (يوم التناد) يوم القيامة ، وفى سبب تسمية ذلك اليوم بذلك الاسم وجوه (الأول) أن أهل النار ينادون أهل الجنة ، وأهل الجنة ينادون أهل النار ، كما ذكر الله عنهم فى سورة الأعراف (ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة) ، (ونادى أصحاب الجنة أصحاب النار) (الثانى) قال الزجاج : لا يبعد أن يكون السبب فيه قوله تعالى (يوم ندعون كل أناس بإمامهم) ، (الثالث) أنه ينادى بعض الظالمين بعضاً بالويل والثبور فيقولون (يا ويلنا) ، (الرابع) ينادون إلى المحشر ، أى يدعون (الخامس) ينادى المؤمن (هاؤم اقرأوا كتابيه) والكافر (ياليتنى لم أوت كتابيه) ، (السادس) ينادى باللعنة على الظالمين (السابع) يجاء بالموت على صورة كبش أملح ، ثم يذبح وينادى يا أهل القيامة لاموت ، فيزداد أهل الجنة فرحاً على فرحهم ، وأهل النار حزناً على حزنهم (الثامن) قال أبو على الفارسى : التنادى مشتق من التناد ، من قولهم ند فلان إذا هرب ، وهو قراءة ابن عباس وفسرها ، فقال يندون كما تند الإبل ، ويدل على صحة هذه القراءة قوله تعالى (يوم يفر المرء من أخيه) الآية . وقوله تعالى بعد هذه الآية (يوم تولون مدبرين) لأنهم إذا سمعوا زفير النار يندون هاربين ، فلا يأتون قطراً من الأقطار إلا وجدوا ملائكة صفوفاً ، فيرجعون إلى المكان الذى كانوا فيه .

﴿ المسألة الثانية ﴾ انتصب قوله (يوم التناد) لوجهين (أحدهما) الظرف للخوف ، كأنه خاف عليهم فى ذلك اليوم ، لما يلحقهم من العذاب إن لم يؤمنوا (والآخر) أن يكون التقدير (إنى أخاف عليكم - عذاب - يوم التناد) وإذا كان كذلك كان انتصاب يوم انتصاب المفعول به ، لا انتصاب الظرف ، لأن إعرابه إعراب المضاف المحذوف ، ثم قال (يوم تولون مدبرين) وهو بدل من قوله (يوم التناد) عن قتادة : منصرفين عن موقف يوم الحساب إلى النار ، وعن مجاهد : فارين عن النار غير معجزين ، ثم أكد التهديد فقال (ما لكم من الله من عاصم) ثم نبه على قوة ضلالتهم وشدة جهالتهم فقال (ومن يضلل الله فما له من هاد) .

قوله تعالى : ﴿ ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات فما زلتم فى شك مما جاءكم به حتى إذا

مُّرۡتَابٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡۖ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلۡبِ مُتَكَبِّرٖ جَبَّارٖ ﴿٣٥﴾

هلك قلتم لن يبعث الله من بعده رسولا كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب ، الذين يجادلون فى آيات الله بغير سلطان أتاهم كبر مقتاً عند الله وعند الذين آمنوا كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار ﴾ .

واعلم أن مؤمن آل فرعون لما قال (ومن يضلل الله فما له من هاد) ذكر لهذا مثلا ، وهو أن يوسف لما جاءهم بالبينات الباهرة فأصروا على الشك والشبهة ، ولم ينتفعوا بتلك الدلائل ، وهذا يدل على أن من أضله الله (فما له من هاد) وفى الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قيل إن يوسف هذا هو يوسف بن يعقوب عليهما السلام ، ونقل صاحب الكشاف أنه يوسف بن أفرايم بن يوسف بن يعقوب أقام فيهم نيفاً وعشرين سنة ، وقيل إن فرعون موسى هو فرعون يوسف بقى حياً إلى زمانه وقيل فرعون آخر ، والمقصود من الكل شىء واحد وهو أن يوسف جاء قومه بالبينات ، وفى المراد بها قولان (الأول) أن المراد بالبينات قوله (أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار) ، (والثانى) المراد بها المعجزات ، وهذا أولى ، ثم إنهم بقوا فى نبوته شاكين مرتابين ، ولم ينتفعوا البتة بتلك البينات ، فلما مات قالوا إنه (لن يبعث الله من بعده رسولا) وإنما حكموا بهذا الحكم على سبيل التشهى والتمنى من غير حجة ولا برهان ، بل إنما ذكروا ذلك ليكون ذلك أساساً لهم فى تكذيب الأنبياء الذين يأتون بعد ذلك وليس فى قولهم (لن يبعث الله من بعده رسولا) لأجل تصديق رسالة يوسف وكيف وقد شكوا فيها وكفروا بها وإنما هو تكذيب لرسالة من هو بعده مضموماً الى تكذيب رسالته ، ثم قال (كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب) أى مثل هذا الضلال يضل الله كل مسرف فى عصيانه مرتاب فى دينه ، قال الكعبى هذه الآية حجة لأهل القدر لأنه تعالى بين كفرهم ، ثم بين أنه تعالى إنما أضلهم لكونهم مسرفين مرتابين ، فثبت أن العبد ما لم يضل عن الدين ، فان الله تعالى لا يضله .

ثم بين تعالى مالأجله بقوا فى ذلك الشك والإسراف فقال (الذين يجادلون فى آيات الله بغير سلطان) أى بغير حجة ، بل إما بناء على التقليد المجرد ، وإما بناء على شبهات خسيسة (كبر مقتاً عند الله) والمقت هو أن يبلغ المرء فى القوم مبلغاً عظيما فيمقته الله ويبغضه ويظهر خزيه وتعسه .

وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ فى ذمه لهم بأنهم يجادلون بغير سلطان دلالة على أن الجدال بالحجة حسن وحق وفيه إبطال للتقليد .

وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال القاضي مقت الله إياهم يدل على أن فعلهم ليس بخلق الله لأن كونه فاعلا للفعل وماقتاً له محال .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ الآية تدل على أنه يجوز وصف الله تعالى بأنه قد يمقت بعض عباده إلا أن ذلك صفة واجبة التأويل فى حق الله كالغضب والحياء والتعجب والله أعلم . ثم بين أن هذا المقت كما حصل عند الله فكذلك قد حصل عند الذين آمنوا .

ثم قال ﴿ كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار ﴾ وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قرأ ابن عامر وأبو عمرو وقتيبة عن الكسائى (قلب) منوناً (متكبر) صفة للقلب والباقون بغير تنوين على إضافة القلب إلى المتكبر قال أبو عبيد الاختيار الإضافة لوجوه (الأول) أن عبد الله قرأ (على كل قلب متكبر) وهو شاهد لهذه القراءة (الثانى) أن وصف الإنسان بالتكبر والجبروت أولى من وصف القلب بهما ، وأما الذين قرأوا بالتنوين فقالوا إن الكبر قد أضيف إلى القلب فى قوله (إن فى صدورهم إلا كبر) وقال تعالى (فانه آثم قلبه) وإيضاً فيمكن أن يكون ذلك على حذف المضاف أى على كل ذى قلب متكبر ، وأيضاً قال قوم الإنسان الحقيقى هو القلب وهذا البحث طويل وقد ذكرناه فى تفسير قوله (نزل به الروح الأمين على قلبك) قالوا ومن أضاف ، فلا بد له من تقدير حذف ، والتقدير يطبع الله على قلب كل متكبر .

﴿ المسألة الثانية ﴾ الكلام فى الطبع والرين والقسوة والغشاوة قد سبق فى هذا الكتاب بالاستقصاء ، وأصحابنا يقولون قوله (كذلك يطبع الله) يدل على أن الكل من الله والمعتزلة يقولون إن قوله (كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار) يدل على أن هذا الطبع إنما حصل من الله لأنه كان فى نفسه متكبراً جباراً وعند هذا تصير الآية حجة لكل واحد من هذين الفريقين من وجه ، وعليه من وجه آخر ، والقول الذى يخرج عليه الوجهان ما ذهبنا إليه وهو أنه تعالى يخلق دواعى الكبر والرياسة فى القلب ، فتصير تلك الدواعى مانعة من حصول ما يدعون إلى الطاعة والانقياد لأمر الله ، فيكون القول بالقضاء والقدر حياً ويكون تعليل الصدعن الدين بكونه متجبراً متكبراً باقياً ، فثبت أن هذا المذهب الذى اخترناه فى القضاء والقدر هو الذى ينطبق لفظ القرآن من أوله إلى آخره عليه .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ لا بد من بيان الفرق بين المتكبر والجبار ، قال مقاتل (متكبر) عن قبول التوحيد (جبار) فى غير حق ، وأقول كمال السعادة فى أمرين التعظيم لأمر الله والشفقة على خلق الله فعلى قول مقاتل التكبر كالمضاد للتعظيم لأمر الله والجبروت كالمضاد للشفقة على خلق الله والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وقال فرعون ياهامان ابن لى صرحا لعلى أبلغ الأسباب ، أسباب السموات فأطلع

فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ ﴿٣٧﴾

إلى إله موسى وإنى لأظنه كاذباً وكذلك زين لفرعون سوء عمله وصد عن السبيل وما كيد فرعون إلا فى تباب ﴾ .

اعلم أنه تعالى لما وصف فرعون بكونه متكبراً جباراً بين أنه أبلغ فى البلادة والحماقة إلى أن قصد الصعود إلى السموات ، وفى الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ احتج الجمع الكثير من المشبهة بهذه الآية فى إثبات أن الله فى السموات وقرروا ذلك من وجوه: (الأول) أن فرعون كان من المنكرين لوجود الله ، وكل ما يذكره فى صفات الله تعالى فذلك إنما يذكره لأجل أنه سمع أن موسى يصف الله بذلك ، فهو أيضاً يذكره كما سمعه ، فلولا أنه سمع موسى يصف الله بأنه موجود فى السماء وإلا لما طلبه فى السماء . (الوجه الثانى) أنه قال وإنى لأظنه كاذباً ، ولم يبين أنه كاذب فيماذا ، والمذكور السابق متعين لصرف الكلام إليه فكأن التقدير فأطلع إلى الإله الذى يزعم موسى أنه موجود فى السماء ، ثم قال (وإنى لأظنه كاذباً) أى وإنى لأظن موسى كاذباً فى ادعائه أن الإله موجود فى السماء ، وذلك يدل على أن دين موسى هو أن الإله موجود فى السماء . (الوجه الثالث) العلم بأنه لو وجد إله لكان موجوداً فى السماء علم بديهى متقرر فى كل العقول ولذلك فان الصبيان إذا تضرعوا إلى الله رفعوا وجوههم وأيديهم إلى السماء ، وإن فرعون مع نهاية كفره لما طلب الإله فقد طلبه فى السماء ، وهذا يدل على أن العلم بأن الإله موجود فى السماء علم متقرر فى عقل الصديق والزنديق والملحد والموحد والعالم والجاهل .

فهذا جملة استدلالات المشبهة بهذه الآية ، (والجواب) أن هؤلاء الجهال يكفيهم فى كمال الخزى والضلال أن جعلوا قول فرعون اللعين حجة لهم على صحة دينهم ، وأما موسى عليه السلام فانه لم يزد فى تعريف إله العالم على ذكر صفة الخلاقية فقال فى سورة طه (ربنا الذى أعطى كل شيء خلقه ثم هدى) وقال فى سورة الشعراء (ربكم ورب آبائكم الأولين رب المشرق والمغرب وما بينهما) فظهر أن تعريف ذات الله بكونه فى السماء دين فرعون وتعريفه بالخلاقية والموجودية دين موسى ، فمن قال بالأول كان على دين فرعون ، ومن قال بالثانى كان على دين موسى ، ثم نقول لانسلم أن كل مايقوله فرعون فى صفات الله تعالى فذلك قد سمعه من موسى عليه السلام ، بل لعله كان على دين المشبهة فكان يعتقد أن الإله لو كان موجوداً لكان حاصلا فى السماء ، فهو إنما ذكر هذا الاعتقاد من قبل نفسه لا لأجل أنه قد سمعه من موسى عليه السلام .

وأما قوله (وإنى لأظنه كاذباً) فنقول لعله لما سمع موسى عليه السلام قال (رب السموات

والأرض) ظن أنه عنى به أنه رب السموات ، كما يقال للواحد منا إنه رب الدار بمعنى كونه ساكناً فيه ، فلما غلب على ظنه ذلك حكى عنه ، وهذا ليس بمستبعد ، فإن فرعون كان بلغ فى الجهل والحماقة إلى حيث لا يبعد نسبة هذا الخيال إليه ، فإن استبعد الخصم نسبة هذا الخيال إليه كان ذلك لائقاً بهم ، لأنهم لما كانوا على دين فرعون وجب عليهم تعظيمه . وأما قوله إن فطرة فرعون شهدت بأن الإله لو كان موجوداً لكان فى السماء ، قلنا نحن لا ننكر أن فطرة أكثر الناس تخيل إليهم صحة ذلك لاسيما من بلغ فى الحماقة إلى درجة فرعون فثبت أن هذا الكلام ساقط .

﴿ المسألة الثانية ﴾ اختلف الناس فى أن فرعون هل قصد بناء الصرح ليصعد منه إلى السماء أم لا ؟ أما الظاهريون من المفسرين فقد قطعوا بذلك ، وذكروا حكاية طويلة فى كيفية بناء ذلك الصرح ، والذى عندى أنه بعيد والدليل عليه أن يقال فرعون لا يخلو إما أن يقال إنه كان من المجانين أو كان من العقلاء ، فإن قلنا إنه كان من المجانين لم يجز من الله تعالى إرسال الرسول إليه ، لأن العقل شرط فى التكليف ، ولم يجز من الله أن يذكر حكاية كلام مجنون فى القرآن ، وأما إن قلنا إنه كان من العقلاء فنقول إن كل عاقل يعلم ببديهية عقله أنه يتعذر فى قدرة البشر وضع بناء يكون أرفع من الجبل العالى ، ويعلم أيضاً ببديهية عقله أنه لا يتفاوت فى البصر حال السماء بين أن ينظر إليه من أسفل الجبال وبين أن ينظر إليه من أعلى الجبال ، وإذا كان هذان العلمان بديهيين امتنع أن يقصد العاقل وضع بناء يصعد منه إلى السماء ، وإذا كان فساد هذا معلوماً بالضرورة امتنع إسناده إلى فرعون ، والذى عندى فى تفسير هذه الآية أن فرعون كان من الدهرية وغرضه من ذكر هذا الكلام إيراد شبهة فى نفى الصانع وتقريره أنه قال : إنا لا نرى شيئاً نحكم عليه بأنه إله العالم فلم يجز إثبات هذا الإله ، أما إنه لا نراه فلأنه لو كان موجوداً لكان فى السماء ونحن لا سبيل لنا إلى صعود السموات فكيف يمكننا أن نراه ، ثم إنه لأجل المبالغة فى بيان أنه لا يمكنه صعود السموات (قال ياهامان ابن لى صرحا لعلى أبلغ الأسباب) والمقصود أنه لما عرف كل أحد أن هذا الطريق ممتنع كان الوصول إلى معرفة وجود الله بطريق الحس ممتنعاً ، ونظيره قوله تعالى (فإن استطعت أن تبتغى نفقاً فى الأرض أو سلماً فى السماء فتأتيهم بآية) وليس المراد منه أن محمداً صلى الله عليه وسلم طلب نفقاً فى الأرض أو وضع سلماً إلى السماء ، بل المعنى أنه لما عرف أن هذا المعنى ممتنع فقد عرف أنه لا سبيل لك إلى تحصيل ذلك المقصود ، فكذا ههنا غرض فرعون من قوله (ياهامان ابن لى صرحا) يعنى أن الإطلاع على إله موسى لما كان لا سبيل إليه إلا بهذا الطريق وكان هذا الطريق ممتنعاً ، فحينئذ يظهر منه أنه لا سبيل إلى معرفة الإله الذى يثبته موسى فنقول هذا ماحصلته فى هذا الباب .

واعلم أن هذه الشبهة فاسدة لأن طرق العلم ثلاثة الحس والخبر والنظر ، ولا يلزم من انتفاء طريق واحد وهو الحس انتفاء المطلوب ، وذلك لأن موسى عليه السلام كان قد بين لفرعون

أن الطريق فى معرفة الله تعالى إنما هو الحجة والدليل كما قال (ربكم ورب آبائكم الأولين رب المشرق والمغرب) إلا أن فرعون لخبثه ومكره تغافل عن ذلك الدليل ، وألقى إلى الجهال أنه لما كان لا طريق إلى الإحساس بهذا الإله وجب نفيه ، فهذا ماعندى فى هذا الباب وبالله التوفيق والعصمة .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ ذهب قوم إلى أنه تعالى خلق جواهر الأفلاك وحركاتها بحيث تكون هى الأسباب لحدوث الحوادث فى هذا العالم الأسفل ، واحتجوا بقوله تعالى (لعلى أبلغ الأسباب أسباب السموات) ومعلوم أنها ليست أسباباً إلا لحوادث هذا العالم قالوا ويؤكد هذا بقوله تعالى فى سورة ص (فليرتقوا فى الأسباب) أما المفسرون فقد ذكروا فى تفسير قوله تعالى (لعلى أبلغ الأسباب أسباب السموات) أن المراد بأسباب السموات طرقها وأبوابها وما يؤدى إليها ، وكل ما أداك إلى شىء فهو سبب كالرشاد ونحوه .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قالت اليهود أطبق الباحثون عن تواريخ بنى إسرائيل وفرعون أن هامان ماكان موجوداً البتة فى زمان موسى وفرعون وإنما جاء بعدهما بزمان مديد ودهر داهر ، فالقول بأن هامان كان موجوداً فى زمان فرعون خطأ فى التاريخ ، وليس لقائل أن يقول إن وجود شخص يسمى بهامان بعد زمان فرعون لا يمنع من وجود شخص آخر يسمى بهذا الإسم فى زمانه ، قالوا لأن هذا الشخص المسمى بهامان الذى كان موجوداً فى زمان فرعون ماكان شخصاً خسيساً فى حضرة فرعون بل كان كالوزير له ، ومثل هذا الشخص لا يكون مجهول الوصف والحلية فلو كان موجوداً لعرف حاله ، وحيث أطبق الباحثون عن أحوال فرعون وموسى أن الشخص المسمى بهامان ماكان موجوداً فى زمان فرعون وإنما جاء بعده بأدوار علم أنه غلط وقع فى التواريخ ، قالوا ونظير هذا أنا نعرف فى دين الإسلام أن أبا حنيفة إنما جاء بعد محمد صلى الله عليه وسلم فلو أن قائلا ادعى أن أبا حنيفة كان موجوداً فى زمان محمد عليه السلام وزعم أنه شخص آخر سوى الأول وهو أيضاً يسمى بأبى حنيفة ، فإن أصحاب التواريخ يقطعون بخطئه فكذا ههنا (والجواب) أن تواريخ موسى وفرعون قد طال العهد بها واضطربت الأحوال والأدوار فلم يبق على كلام أهل التواريخ اعتماد فى هذا الباب ، فكان الأخذ بقول الله أولى بخلاف حال رسولنا مع أبى حنيفة فإن هذه التواريخ قريبة غير مضطربة بل هى مضبوطة فظهر الفرق بين البابين ، فهذا جملة مايتعلق بالمباحث المعنوية فى هذه الآية ، وبقى مايتعلق بالمباحث اللفظية .

قيل (الصرح) البناء الظاهر الذى لايخفى على الناظر وإن بعد ، اشتقوه من صرح الشىء إذا ظهر و (أسباب السموات) طرقها ، فإن قيل ما فائدة هذا التكرير . ولو قيل : لعلى أبلغ أسباب السموات ، كان كافياً ؟ أجاب صاحب الكشاف عنه فقال : إذا أبهم الشىء ثم أوضح كان تفخيما لشأنه ، فلما أراد تفخيم أسباب السموات أبهمها ثم أوضحها ، وقوله (فأطلع إلى إله موسى) قرأ حفص

وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ

عن عاصم (فأطلع) بفتح العين والباقون بالرفع ، قال المبرد : من رفع فقد عطفه على قوله (أبلغ) والتقدير (لعلى أبلغ الأسباب) ثم أطلع إلا أن حرف ثم أشد تراخياً من الفاء ، ومن نصب جعله جواباً ، والمعنى لعلى أبلغ الأسباب فمتى بلغتها أطلع والمعنى مختلف ، لأن الأول لعلى أطلع والثانى لعلى أبلغ وأنا ضامن أنى متى بلغت فلا بد وأن أطلع .

واعلم أنه تعالى لما حكى عن فرعون هذه القصة قال بعدها (وكذلك زين لفرعون سوء عمله وصد عن السبيل) وفيه مسائل

﴿ المسألة الأولى ﴾ قرأ عاصم وحمزة والكسائى (وصد) بضم الصاد . قال أبو عبيدة : وبه يقرأ ، لأن ما قبله فعل مبنى للمفعول به لجعل ما عطف عليه مثله ، والباقون (وصد) بفتح الصاد على أنه منع الناس عن الإيمان ، قالوا ومن صده قوله (لأقطعن أيديكم وأرجلكم) ويؤيد هذه القراءة قوله (الذين كفروا وصدو عن سبيل الله) وقوله (هم الذين كفروا وصدوكم عن المسجد الحرام) .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قوله تعالى (زين) لابد له من المزين ، فقالت المعتزلة : إنه الشيطان ، فقيل لهم إن كان المزين لفرعون هو الشيطان ، فالمزين للشيطان إن كان شيطاناً آخر لزم إثبات التسلسل فى الشياطين أو الدور وهو محال ، ولما بطل ذلك وجب انتهاء الأسباب والمسببات فى درجات الحاجات إلى واجب الوجود ، وأيضاً فقوله (زين) يدل على أن الشيء إن لم يكن فى اعتقاد الفاعل موصوفاً بأنه خير وزينة وحسن فإنه لا يقدم عليه ، إلا أن ذلك الاعتقاد إن كان صواباً فهو العلم ، وإن كان خطأ فهو الجهل ، ففاعل ذلك الجهل ليس هو ذلك الإنسان ، لأن العاقل لا يقصد تحصيل الجهل لنفسه ، ولأنه إنما يقصد تحصيل الجهل لنفسه إذا عرف كونه جهلا ، ومتى عرف كونه جهلا امتنع بقاؤه جاهلا ، فثبت أن فاعل ذلك الجهل ليس هو ذلك الإنسان ، ولا يجوز أن يكون فاعله هو الشيطان ، لأن البحث الأول بعينه عائد فيه ، فلم يبق إلا أن يكون فاعله هو الله تعالى والله أعلم . ويقوى ما قلناه أن صاحب الكشاف نقل أنه قرىء (وزين له سوء عمله) على البناء للفاعل والفعل لله عز وجل ، ويدل عليه قوله (إلى إله موسى) .

ثم قال تعالى (وما كيد فرعون إلا فى تباب) والتباب الهلاك والخسران ، ونظيره قوله تعالى (وما زادوهم غير تتبيب) وقوله تعالى (تبت يدا أبى لهب) والله أعلم ،

قوله تعالى : ﴿ وقال الذى آمن يا قوم اتبعون أهدكم سبيل الرشاد ، يا قوم إنما هذه الحياة

عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ
حِسَابٍ ﴿٤٠﴾ وَيَٰقَوْمِ مَا لِىٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِىٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِى
لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾
لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى
ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ
إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾

الدنيا متاع وإن الآخرة هي دار القرار ، من عمل سيئة فلا يجزى إلا مثلها ومن عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب ، وياقوم مالى أدعوكم إلى النجاة وتدعوننى إلى النار ، تدعوننى لأكفر بالله وأشرك به ما ليس لى به علم وأنا أدعوكم إلى العزيز الغفار ، لا جرم أنما تدعوننى إليه ليس له دعوة فى الدنيا ولا فى الآخرة وأن مردنا إلى الله وأن المسرفين هم أصحاب النار ، فستذكرون ما أقول لكم وأفوض أمرى إلى الله إن الله بصير بالعباد ﴾ .

إعلم أن هذا من بقية كلام الذى آمن من آل فرعون ، وقد كان يدعوهم إلى الإيمان بموسى والتمسك بطريقته . واعلم أنه نادى فى قومه ثلاث مرات : فى المرة الأولى دعاهم إلى قبول ذلك الدين على سبيل الإجمال ، وفى المرتين الباقيتين على سبيل التفصيل .

أما الإجمال فهو قوله (يا قوم اتبعونى أهدكم سبيل الرشاد) وليس المراد بقوله (اتبعون) طريقة التقليد ، لأنه قال بعده (أهدكم سبيل الرشاد) والهدى هو الدلالة ، ومن بين الأدلة للغير يوصف بأنه هداه ، وسبيل الرشاد هو سبيل الثواب والخير وما يؤدى إليه ، لأن الرشاد نقيض الغى ، وفيه تصريح بأن ما عليه فرعون وقومه هو سبيل الغى .

وأما التفصيل فهو أنه بين حقارة حال الدنيا وكمال حال الآخرة ، أما حقارة الدنيا فهى قوله (يا قوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع) والمعنى أنه يستمتع بهذه الحياة الدنيا فى أيام قليلة ، ثم تنقطع وتزول ، وأما الآخرة فهى دار القرار والبقاء والدوام ، وحاصل الكلام أن الآخرة باقية دائمة . والدنيا منقضية منقرضة ، والدائم خير من المنقضى ، وقال بعض العارفين : لو كانت الدنيا

ذهباً فانياً ، والآخرة خزفاً باقياً ، لكانت الآخرة خيراً من الدنيا ، فكيف والدنيا خزف فان ، والآخرة ذهب باق .

واعلم أن الآخرة كما أن النعيم فيها دائم فكذلك العذاب فيها دائم ، وإن الترغيب فى النعيم الدائم والترهيب عن العذاب الدائم من أقوى وجوه الترغيب والترهيب ، ثم بين كيف تحصل المجازاة فى الآخرة ، وأشار فيه إلى أن جانب الرحمة غالب على جانب العقاب فقال (من عمل سيئة فلا يجزى إلا مثلها) والمراد بالمثل مايقابلها فى الاستحقاق ، فإن قيل كيف يصح هذا الكلام ، مع أن كفر ساعة يوجب عقاب الأبد ؟ قلنا إن الكافر يعتقد فى كفره كونه طاعة وإيماناً فلهذا السبب يكون الكافر على عزم أن يبقى مصراً على ذلك الاعتقاد أبداً ، فلا جرم كان عقابه مؤبداً بخلاف الفاسق فإنه يعتقد فيه كونه خيانة ومعصية فيكون على عزم أن لا يبقى مصراً عليه ، فلا جرم قلنا أن عقاب الفاسق منقطع . أما الذى يقوله المعتزلة من أن عقابه مؤبد فهو باطل ، لأن مدة تلك المعصية منقطعة والعزم على الإتيان بها أيضاً ليس دائماً بل منقطعاً فمقابلته بعقاب دائم يكون على خلاف قوله (من عمل سيئة فلا يجزى إلا مثلها) ، واعلم أن هذه الآية أصل كبير فى علوم الشريعة فيما يتعلق بأحكام الجنايات فإنها تقتضى أن يكون المثل مشروعا ، وأن يكون الزائد على المثل غير مشروع ، ثم نقول ليس فى الآية بيان أن تلك المماثلة معتبرة فى أى الأمور فلو حملناه على رعاية المماثلة فى شيء معين ، مع أن ذلك المعين غير مذكور فى الآية صارت الآية مجملة ، ولو حملناه على رعاية المماثلة فى جميع الأمور صارت الآية عاماً مخصوصاً ، وقد ثبت فى أصول الفقه أن التعارض إذا وقع بين الإجمال وبين التخصيص كان دفع الإجمال أولى فوجب أن تحمل هذه الآية على رعاية المماثلة من كل الوجوه إلا فى مواضع التخصيص ، وإذا ثبت هذا فالأحكام الكثيرة فى باب الجنايات على النفوس ، وعلى الأعضاء ، وعلى الأموال يمكن تفريعها على هذه الآية .

ثم نقول إنه تعالى لما بين أن جزاء السيئة مقصور على المثل بين أن جزاء الحسنة غير مقصور على المثل بل هو خارج عن الحساب فقال (ومن عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب) واحتج أصحابنا بهذه الآية فقالوا قوله (ومن عمل صالحاً) نكرة فى معرض الشرط فى جانب الإثبات فجرى مجرى أن يقال من ذكر كلمة أومن خطا خطوة فله كذا فإنه يدخل فيه كل من أتى بتلك الكلمة أو بتلك الخطوة مرة واحدة ، فكذلك ههنا وجب أن يقال كل من عمل صالحاً واحداً من الصالحات فإنه يدخل الجنة ويرزق فيها بغير حساب ، والآتى بالإيمان والمواظب على التوحيد والتقديس مدة ثمانين سنة قد أتى بأعظم الصالحات وبأحسن الطاعات ، فوجب أن يدخل الجنة والخصم يقول أنه يبقى مخلداً فى النار أبد الآباد فكان ذلك على خلاف هذا النص الصريح . قالت المعتزلة إنه تعالى شرط فيه كونه مؤمناً وصاحب الكبيرة عندنا

ليس بمؤمن فلا يدخل فى هذا الوعد (والجواب) أنا بينا فى أول سورة البقرة فى تفسير قوله تعالى (الذين يؤمنون بالغيب) أن صاحب الكبيرة مؤمن فسقط هذا الكلام ، واختلفوا فى تفسير قوله (يرزقون فيها بغير حساب) فنهم من قال لما كان لا نهاية لذلك الثواب قيل بغير حساب ، وقال الآخرون لأنه تعالى يعطيهم ثواب أعمالهم ويضم إلى ذلك الثواب من أقسام التفضل مايخرج عن الحساب وقوله (بغير حساب) واقع فى مقابلة (إلا مثلها) يعنى أن جزاء السيئة له حساب وتقدير ، لئلا يزيد على الاستحقاق ، فأما جزاء العمل الصالح فبغير تقدير وحساب بل ماشئت من الزيادة على الحق والكثرة والسعة ، وأقول هذا يدل على أن جانب الرحمة والفضل راجح على جانب القهر والعقاب ، فإذا عارضنا عمومات الوعد بعمومات الوعيد ، وجب أن يكون الترجيح بجانب عمومات الوعد وذلك يهدم قواعد المعتزلة ، ثم استأنف ذلك المؤمن ونادى فى المرة الثالثة وقال (ياقوم مالى أدعوكم إلى النجاة وتدعوننى إلى النار) يعنى أنا أدعوكم إلى الإيمان الذى يوجب النجاة وتدعوننى إلى الكفر الذى يوجب النار ، فإن قيل لم كرر نداء قومه ، ولم جاء بالواو فى النداء الثالث دون الثانى ؟ قلنا أما تكرير النداء ففيه زيادة تنبيه لهم وإيقاظ من سنة الغفلة ، وإظهار أن له بهذا المهم مزيد اهتمام ، وعلى أولئك الأقوام فرط شفقة ، وأما المجىء بالواو العاطفة فلأن الثانى يقرب من أن يكون عين الأول ، لأن الثانى بيان للأول والبيان عين المبين ، وأما الثالث فلأنه كلام مباين للأول والثانى فحسن إيراد الواو العاطفة فيه ، ولما ذكر هذا المؤمن إنه يدعوهم إلى النجاة وهم يدعونه إلى النار ، فسر ذلك بأنهم يدعونه إلى الكفر بالله وإلى الشرك به ، أما الكفر بالله فلأن الأكثرين من قوم فرعون كانوا ينكرون وجود الإله ، ومنهم من كان يقر بوجود الله إلا أنه كان يثبت عبادة الأصنام وقوله تعالى (وأشرك به ماليس لى به علم) المراد بنفى العلم نفى المعلوم ، كأنه قال وإشرك به ماليس بإله وماليس بإله كيف يعقل جعله شريكا للاله ؟ ولما بين أنهم يدعونه إلى الكفر والشرك بين أنه يدعوهم إلى الإيمان بالعزيز الغفار فقوله (العزيز) إشارة إلى كونه كامل القدرة ، وفيه تنبيه على أن الإله هو الذى يكون كامل القدرة ، وأما فرعون فهو فى غاية العجز فكيف يكون إلهاً ، وأما الأصنام فإنها أحجار منحوتة فكيف يعقل القول بكونها آلهة وقوله (الغفار) إشارة إلى أنه لايجب أن يكونوا آيسين من رحمة الله بسبب إصرارهم على الكفر مدة مديدة ، فإن إله العالم وإن كان عزيزاً لا يغلب قادراً لا يغالب ، لكنه غفار يغفر كفر سبعين سنة بإيمان ساعة واحدة ، ثم قال ذلك المؤمن (لاجرم) والكلام فى تفسير لاجرم مر فى سورة هود فى قوله (لا جرم أنهم فى الآخرة هم الأخسرون) وقد أعاده صاحب الكشاف ههنا فقال (لاجرم) مساقه على مذهب البصريين أن يجعل (لا) رداً لما دعاه إليه قومه و (جرم) فعل بمعنى حق و (أنما) مع مافى حيزه فاعله أى حق ووجب بطلان دعوته أو بمعنى كسب من قوله تعالى (ولا يجرمنكم شنآن قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا) أى كسب ذلك الدعاء إليه بطلان دعوته بمعنى أنه ماحصل من ذلك إلا ظهور بطلان دعوته ، ويجوز أن يقال إن (لاجرم) نظيره لابد فعل

من الجرم وهو القطع كما أن بد فعل من التبديد وهو التفريق ، وكما أن معنى لابد أنك تفعل كذا أنه لا بد لك من فعله ، فكذلك (لاجرم أن لهم النار) أى لاقطع لذلك بمعنى أنهم أبداً يستحقون النار لا انقطاع لاستحقاقهم ، ولا قطع لبطلان دعوة الأصنام ، أى لا تزال باطلة لا ينقطع ذلك فينقلب حقاً ، وروى عن بعض العرب لاجرم أنه يفعل بضم الجيم وسكون الراء بزنة بد وفعل اخوان كرشد ورشد وكعدم وعدم هذا كله ألفاظ صاحب الكشاف .

ثم قال (أنما تدعوننى إليه ليس له دعوة فى الدنيا ولا فى الآخرة) والمراد أن الأوثان التى تدعوننى إلى عبادتها ليس لها دعوة فى الدنيا ولا فى الآخرة وفى تفسير هذه الدعوة احتمالان .

﴿ الأول ﴾ أن المعنى ماتدعوننى إلى عبادته ليس له دعوة إلى نفسه لأنها جمادات والجمادات لاتدعو أحداً إلى عبادة نفسها وقوله (فى الآخرة) يعنى أنه تعالى إذا قلبها حيواناً فى الآخرة فإنها تتبرأ من هؤلاء العابدين .

﴿ والاحتمال الثانى ﴾ أن يكون قوله (ليس له دعوة فى الدنيا ولا فى الآخرة) معناه ليس له استجابة دعوة فى الدنيا ولا فى الآخرة ، فسميت استجابة الدعوة بالدعوة إطلاقاً لاسم أحد المتضايفين على الآخر ، كقوله (وجزاء سيئة سيئة مثلها) ثم قال (وأن مردنا إلى الله) فبين أن هذه الأصنام لافائدة فيها البتة ، ومع ذلك فإن مردنا إلى الله العالم بكل المعلومات القادر على كل الممكنات الغنى عن كل الحاجات الذى لا يبدل القول لديه وما هو بظلام للعبيد ، فأى عاقل يجوز له عقله أن يشتغل بعبادة تلك الأشياء الباطلة وأن يعرض عن عبادة هذا الإله الذى لابد وأن يكون مرده إليه ؟ وقوله (وأن المسرفين هم أصحاب النار) قال قتادة يعنى المشركين وقال مجاهد السفاكين الدماء والصحيح أنهم أسرفوا فى معصية الله بالكمية والكيفية ، أما الكمية فالدوام وأما الكيفية فبالعود والإصرار ، ولما بالغ مؤمن آل فرعون فى هذه البيانات ختم كلامه بخاتمة لطيفة فقال (فستذكرون ما أقول لكم) وهذا كلام مبهم يوجب التخويف ويحتمل أن يكون المراد أن هذا الذكر يحصل فى الدنيا وهو وقت الموت ، وأن يكون فى القيامة وقت مشاهدة الأهوال وبالجملة فهو تحذير شديد ، ثم قال (وأفوض أمرى إلى الله) وهذا كلام من هدد بأمر يخافه فكأنهم خوفوه بالقتل وهو أيضاً خوفهم بقوله (فستذكرون ما أقول لكم) ثم عول فى دفع تخويفهم وكيدهم ومكرهم على فضل الله تعالى فقال (وأفوض أمرى إلى الله) وهو إنما تعلم هذه الطريقة من موسى عليه السلام ، فان فرعون لما خوفه بالقتل رجع موسى فى دفع ذلك الشر الى الله حيث قال (إنى عذت بربى وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب) فتح نافع وأبو عمرو الياء من (أمرى) والباقون بالإسكان .

ثم قال (إن الله بصير بالعباد) أى عالم بأحوالهم وبمقادير حاجاتهم ، وتمسك أصحابنا بقوله تعالى (وأفوض أمرى إلى الله) على أن الكل من الله ، وقالوا إن المعتزلة الذين قالوا إن الخير

فَوَقَاهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ ۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾ وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَـٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴿٤٨﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۚ قَالُوا۟ فَٱدْعُوا۟ ۗ وَمَا دُعَـٰٓؤُا۟ ٱلْكَـٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ ﴿٥٠﴾

والشر يحصل بقدرتهم قد فوضوا أمر أنفسهم إليهم وما فوضوها إلى الله ، والمعتزلة تمسكوا بهذه الآية فقالوا إن قوله (أفوض) اعتراف بكونه فاعلا مستقلا بالفعل ، والمباحث المذكورة فى قوله (أعوذ بالله) عائدة بتمامها فى هذا الموضع . وههنا آخر كلام مؤمن آل فرعون والله الهادى .

قوله تعالى : ﴿ فوقاه الله سيئات ما مكروا وحاق بآل فرعون سوء العذاب ، النار يعرضون عليها غدواً وعشياً ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب ، وإذ يتحاجون فى النار فيقول الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعاً فهل أنتم مغنون عنا نصيباً من النار ، قال الذين استكبروا إنا كل فيها إن الله قد حكم بين العباد ، وقال الذين فى النار لخزنة جهنم ادعوا ربكم يخفف عنا يوماً من العذاب ، قالوا أولم تك تأتيكم رسلكم بالبينات ؟ قالوا بلى . قالوا : فادعوا وما دعاء الكافرين إلا فى ضلال ﴾ .

اعلم أنه تعالى لما بين أن ذلك الرجل لم يقصر فى تقرير الدين الحق ، وفى الذب عنه فالله تعالى رد عنه كيد الكافرين وقصد القاصدين ، وقوله تعالى (فوقاه الله سيئات ما مكروا) يدل على أنه لما صرح بتقرير الحق فقدقصدوه بنوع من أنواع السوء ، قال مقاتل لما ذكر هذه الكلمات قصدوا قتله فهرب منهم إلى الجبل فطلبوه فلم يقدروا عليه ، وقيل المراد بقوله (فوقاه الله سيئات ما مكروا) أنهم قصدوا إدخاله فى الكفر وصرفه عن الإسلام (فوقاه الله) عن ذلك إلا أن الأول أولى لأن قوله بعد ذلك (وحاق بآل فرعون سوء العذاب) لا يليق إلا بالوجه الأول ، وقوله تعالى (وحاق

بآل فرعون) أى أحاط بهم (سوء العذاب) أى غرقوا فى البحر ، وقيل بل المراد منه النار المذكورة فى قوله (النار يعرضون عليها) قال الزجاج (النار) بدل من قوله (سوء العذاب) قال وجائز أيضاً أن تكون مرتفعة على إضمار تفسير (سوء العذاب) كأن قائلا قال : ماسوء العذاب ؟ فقيل (النار يعرضون عليها) .

قرأ حمزة (حاق) بكسر الحاء وكذلك فى كل القرآن والباقون بالفتح أما قوله (النار يعرضون عليها غدواً وعشياً) ففيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ احتج أصحابنا بهذه الآية على إثبات عذاب القبر قالوا الآية تقتضى عرض النار عليهم غدواً وعشياً ، وليس المراد منه يوم القيامة لأنه قال (ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب) ، وليس المراد منه أيضاً الدنيا لأن عرض النار عليهم غدواً وعشياً ما كان حاصلا فى الدنيا ، فثبت أن هذا العرض إنما حصل بعد الموت وقبل يوم القيامة ، وذلك يدل على إثبات عذاب القبر فى حق هؤلاء ، وإذا ثبت فى حقهم ثبت فى حق غيرهم لأنه لا قائل بالفرق ، فان قيل لم لا يجوز أن يكون المراد من عرض النار عليهم غدواً وعشياً عرض النصائح عليهم فى الدنيا ؟ لأن أهل الدين إذا ذكروا لهم الترغيب والترهيب وخوفوهم بعذاب الله فقد عرضوا عليهم النار ، ثم نقول فى الآية ما يمنع من حمله على عذاب القبر وبيانه من وجهين : (الأول) أن ذلك العذاب يجب أن يكون دائماً غير منقطع ، وقوله (يعرضون عليها غدواً وعشياً) يقتضى أن لا يحصل ذلك العذاب إلا فى هذين الوقتين ، فثبت أن هذا لا يمكن حمله على عذاب القبر (الثانى) أن الغدوة والعشية إنما يحصلان فى الدنيا ، أما فى القبر فلا وجود لهما ، فثبت بهذين الوجهين أنه لا يمكن حمل هذه الآية على عذاب القبر (والجواب) عن السؤال الأول أن فى الدنيا عرض عليهم كلمات تذكرهم أمر النار ، لا أنه يعرض عليهم نفس النار ، فعلى قولهم يصير معنى الآية الكلمات المذكرة لأمر النار كانت تعرض عليهم ، وذلك يفضى إلى ترك ظاهر اللفظ والعدول إلى المجاز ، أما قوله الآية تدل على حصول هذا العذاب فى هذين الوقتين وذلك لا يجوز ، قلنا لم لا يجوز أن يكتفى فى القبر بايصال العذاب إليه فى هذين الوقتين ، ثم عند قيام القيامة يلقى فى النار فيدوم عذابه بعد ذلك ، وأيضاً لا يمتنع أن يكون ذكر الغدوة والعشية كناية عن الدوام كقوله (ولهم رزقهم فيها بكرة وعشياً) أما قوله إنه ليس فى القبر والقيامة غدوة وعشية ، قلنا لم لا يجوز أن يقال إن عند حصول هذين الوقتين لأهل الدنيا يعرض عليهم العذاب ؟ والله أعلم .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قرأ نافع وحمزة والكسائى وحفص عن عاصم (أدخلوا آل فرعون) أى يقال لخزنة جهنم : أدخلوهم فى أشد العذاب ، والباقون ادخلوا على معنى أنه يقال لهؤلاء الكفار : ادخلوا أشد العذاب ، والقراءة الأولى اختيار أبى عبيدة ، واحتج عليها بقوله تعالى (يعرضون) فهذا يفعل بهم فكذلك (أدخلوا) وأما وجه القراءة الثانية فقوله (ادخلوا أبواب جهنم) ، وههنا آخر الكلام فى قصة مؤمن آل فرعون .

واعلم أن الكلام فى تلك القصة لما انجر إلى شرح أحوال النار ، لاجرم ذكر الله عقيبها قصة المناظرات التى تجرى بين الرؤساء والأتباع من أهل النار فقال (وإذ يتحاجون فى النار) والمعنى اذكر يا محمد لقومك (إذ يتحاجون) أى يحاجج بعضهم بعضاً ، ثم شرح خصومتهم وذلك أن الضعفاء يقولون للرؤساء (إنا كنا لكم تبعاً) فى الدنيا ، قال صاحب الكشاف تبعاً كخدم في جمع خادم أو ذوى تبع أى أتباع أو وصفا بالمصدر (فهل أنتم مغنون عنا نصيباً من النار) أى فهل تقدرون على أن تدفعوا أيها الرؤساء عنا نصيباً من العذاب ، واعلم أن أولئك الأتباع يعلمون أن أولئك الرؤساء لا قدرة لهم على ذلك التخفيف ، وإنما مقصودهم من هذا الكلام المبالغة فى تخجيل أولئك الرؤساء وإيلام قلوبهم ، لأنهم هم الذين سعوا فى إيقاع هؤلاء الأتباع فى أنواع الضلالات فعند هذا يقول الرؤساء (إنا كل فيها) يعنى أن كلنا واقعون فى هذا العذاب ، فلو قدرت على إزالة العذاب عنك لدفعته عن نفسى ، ثم يقولون (إن الله قد حكم بين العباد) يعنى يوصل إلى كل أحد مقدار حقه من النعيم أو من العذاب ، ثم عند هذا يحصل اليأس للأتباع من المتبوعين فيرجعون إلى خزنة جهنم ويقولون لهم (ادعوا ربكم يخفف عنا يوماً من العذاب) فإن قيل لم لم يقل : وقال الذين فى النار لخزنتها بل قال (وقال الذين فى النار لخزنة جهنم)؟ قلنا فيه وجهان (الأول) أن يكون المقصود من ذكر جهنم التهويل والتفظيع (والثانى) أن يكون جهنم اسما لموضع هو أبعد النار قعراً ، من قولهم بئر جهنام أى بعيدة القعر ، وفيها أعظم أقسام الكفار عقوبة وخزنة ذلك الموضع تكون أعظم خزنة جهنم عند الله درجة ، فإذ عرف الكفار أن الأمر كذلك استغاثوا بهم ، فأولئك الملائكة يقولون لهم (أو لم تك تأتيكم رسلكم بالبينات) والمقصود أن قبل إرسال الرسل كان للقوم أن يقولوا إنه (ما جاءنا من بشير ولا نذير) أما بعد مجىء الرسل فلم يبق عذر ولا علة كما قال تعالى (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا) وهذه الآية تدل على أن الواجب لا يتحقق إلا بعد مجىء الشرع ، ثم إن أولئك الملائكة يقولون للكفار ادعوا أنتم فإنا لا نجترىء على ذلك ولا نشفع إلا بشرطين (أحدهما) كون المشفوع له مؤمناً (والثانى) حصول الإذن فى الشفاعة ولم يوجد واحد من هذين الشرطين فإقدامنا على هذه الشفاعة ممتنع لكن ادعوا أنتم ، وليس قولهم فادعوا الرجاء المنفعة ، ولكن الدلالة على الخيبة ، فان الملك المقرب إذا لم يسمع دعاؤه فكيف يسمع دعاء الكفار ، ثم يصرحون لهم بأنه لا أثر لدعائهم فيقولون (وما دعاء الكافرين إلا فى ضلال) فإن قيل إن الحاجة على الله محال ، وإذا كان كذلك امتنع أن يقال : إنه تأذى من هؤلاء المجرمين بسبب جرمهم ، وإذا كان التأذى محالا عليه كانت شهوة الانتقام ممتنعة فى حقه ، إذا ثبت هذا فنقول إيصال هذه المضار العظيمة إلى أولئك الكفار إضرار لا منفعة فيه إلى الله تعالى ولا لأحد من العبيد ، فهو إضرار خال عن جميع الجهات المنتفعة فكيف يليق بالرحيم الكريم أن يبقى على ذلك الإيلام أبد الآباد ودهر الداهرين ،

إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَـٰدُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ الظَّـٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ الدَّارِ ﴿٥٢﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ الْكِتَـٰبَ ﴿٥٣﴾ هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُولِى الْأَلْبَـٰبِ ﴿٥٤﴾ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِىِّ وَالْإِبْكَـٰرِ ﴿٥٥﴾

من غير أن يرحم حاجتهم ومن غير أن يسمع دعاءهم ومن غير أن يلتفت إلى تضرعهم وانكسارهم ، ولو أن أقصى الناس قلباً فعل مثل هذا التعذيب ببعض عبيده لدعاه كرمه ورحمته إلى العفو عنه مع أن هذا السيد فى محل النفع والضرر والحاجة ، فأكرم الأكرمين كيف يليق به هذا الإضرار ؟ قلنا أفعال الله لا تعلل و (لا يسأل عما يفعل وهم يسألون) فلما جاء الحكم الحق به فى الكتاب الحق وجب الإقرار به والله أعلم بالصواب .

قوله تعالى : ﴿ إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الاشهاد ، يوم لاينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار ، ولقد آتينا موسى الهدى وأورثنا بنى إسرائيل الكتاب ، هدى وذكرى لأولى الألباب ، فاصبر إن وعد الله حق واستغفر لذنبك وسبح بحمد ربك بالعشى والإبكار ﴾ .

اعلم أن فى كيفية النظم وجوهاً (الأول) أنه تعالى لما ذكر وقاية الله موسى صلوات الله عليه وذلك المؤمن من مكر فرعون بين فى هذه الآية أنه ينصر رسله والذين آمنوا معه (الثانى) لمابين من قبل مايقع بين أهل النار من التخاصم وأنهم عند الفزع إلى خزنة جهنم يقولون (ألم تك تأتيكم رسلكم بالبينات) أتبع ذلك بذكر الرسل وأنه ينصرهم فى الدنيا والآخرة (والثالث) وهو الأقرب عندى أن الكلام فى أول السورة إنما وقع من قوله (ما يجادل فى آيات الله إلا الذين كفروا فلا يغررك تقلبهم فى البلاد) وامتد الكلام فى الرد على أولئك المجادلين وعلى أن المحقين أبداً كانوا مشغولين بدفع كيد المبطلين ، وكل ذلك إنما ذكره الله تعالى تسلية للرسول ﷺ وتصبيراً له على تحمل أذى قومه .

ولما بلغ الكلام فى تقرير المطلوب إلى الغاية القصوى وعد تعالى رسوله ﷺ بأن ينصره على أعدائه فى الحياة الدنيا وفى الآخرة فقال (إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا) الآية ، أما فى الدنيا فهو المراد بقوله (فى الحياة الدنيا) ، وأما فى الآخرة فهو المراد بقوله (ويوم يقوم الأشهاد)

فحاصل الكلام أنه تعالى وعد بأنه ينصر الأنبياء والرسل ، وينصر الذين ينصرونهم نصرة يظهر أثرها فى الدنيا وفى الآخرة .

واعلم أن نصرة الله المحقين تحصل بوجوه (أحدها) النصرة بالحجة ، وقد سمى الله الحجة سلطاناً فى غير موضع ، وهذه النصرة عامة للمحقين أجمع ، ونعم ماسمى الله هذه النصرة سلطاناً لأن السلطنة فى الدنيا قد تبطل ، وقد تتبدل بالفقر والذلة والحاجة والفتور ، أما السلطنة الحاصلة بالحجة فإنها تبقى أبد الآباد ويمتنع تطرق الخلل والفتور إليها (وثانيها) أنهم منصورون بالمدح والتعظيم ، فان الظلمة وإن قهروا شخصاً من المحقين إلا أنهم لايقدرون على إسقاط مدحه عن ألسنة الناس (وثالثها) أنهم منصورون بسبب أن بواطنهم مملوءة من أنوار الحجة وقوة اليقين ، فإنهم إنما ينظرون إلى الظلمة والجهال كما تنظر ملائكة السموات إلى أخس الأشياء (ورابعها) أن المبطلين وإن كان يتفق لهم أن يحصل لهم استيلاء على المحقين ، ففى الغالب أن ذلك لا يدوم بل يكشف للناس أن ذلك كان أمراً وقع على خلاف الواجب ونقيض الحق (وخامسها) أن المحق ان اتفق له أن وقع فى نوع من أنواع المحذور فذلك يكون سبباً لمزيد ثوابه وتعظيم درجاته (وسادسها) أن الظلمة والمبطلين كما يموتون تموت آثارهم ولا يبقى لهم فى الدنيا أثر ولا خبر . وأما المحقون فإن آثارهم باقية على وجه الدهر والناس بهم يقتدون فى أعمال البر والخير ولمنهم يتركون فهذا كله أنواع نصرة الله للمحقين فى الدنيا (وسابعها) أنه تعالى قد ينتقم للأنبياء والأولياء بعد موتهم ، كما نصر يحيى بن زكريا فإنه لما قتل قتل به سبعون ألفاً ، وأما نصرته تعالى إياهم فى الآخرة فذلك بإعلاء درجاتهم فى مراتب الثواب وكونهم مصاحبين لأنبياء الله ، كما قال (فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً) .

واعلم أن فى قوله (إنا لننصر رسلنا) إلى قوله (ويوم يقوم الأشهاد) دقيقة معتبرة وهى أن السلطان العظيم إذا خص بعض خواصه بالإكرام العظيم والتشريف الكامل عند حضور الجمع العظيم من أهل المشرق والمغرب كان ذلك ألذ وأبهج فقوله (إنا لننصر رسلنا - إلى - يوم يقوم الأشهاد) المقصود منه هذه الدقيقة ، واختلفوا فى المراد بالأشهاد ، والظاهر أن المراد كل من يشهد بأعمال العباد يوم القيامة من ملك ونبى ومؤمن ، أما الملائكة فهم الكرام الكاتبون يشهدون بما شاهدوا ، وأما الأنبياء فقال تعالى (فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً) وقال تعالى (وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً) قال المبرد يجوز أن يكون واحد الأشهاد شاهداً كأطيار وطائر وأصحاب وصاحب ، ويجوز أن يكون واحد الأشهاد شهيداً كأشراف وشريف وأيتام ويتيم .

ثم قال تعالى (يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار) قرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر لاتنفع بالتاء لتأنيث المعذرة والباقون بالياء كأنه أريد الاعتذار

واعلم أن المقصود أيضاً من هذا شرح تعظيم ثواب أهل الثواب ، وذلك لأنه تعالى بين أنه ينصرهم فى يوم يجتمع فيه الأولون والآخرون ، فحالهم فى علو الدرجات فى ذلك اليوم ماذكرناه وأما حال أعدائهم فهو أنه حصلت لهم أمور ثلاثة (أحدها) أنه لاينفعهم شىء من المعاذير البتة (وثانيها) أن (لهم اللعنة) وهذا يفيد الحصر يعنى اللعنة مقصورة عليهم وهى الإهانة والإذلال (وثالثها) سوء الدار وهو العقاب الشديد فهذا اليوم إذاكان الأعداء واقعين فى هذه المراتب الثلاثة من الوحشة والبلية ، ثم إنه خص الأنبياء والأولياء بأنواع التشريفات الواقعة فى الجمع الأعظم فهمنا يظهر أن سرور المؤمن كم يكون ، وأن غموم الكافرين إلى أين تبلغ . فإن قيل قوله (يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم) يدل على أنهم يذكرون الأعذار إلا أن تلك الأعذار لاتنفعهم فكيف الجمع بين هذا وبين قوله (ولا يؤذن لهم فيعتذرون) قلنا قوله (لا تنفع الظالمين معذرتهم) لايدل على أنهم ذكروا الأعذار ، بل ليس فيه إلا أنه ليس عندهم عذر مقبول نافع ، وهذا القدر لايدل على أنهم ذكروه أم لا . وأيضاً فيقال يوم القيامة يوم طويل فيعتذرون فى وقت ولا يعتذرون فى وقت آخر ، ولما بين الله تعالى أنه ينصر الأنبياء والمؤمنين فى الدنيا والآخرة ذكر نوعاً من أنواع تلك النصرة فى الدنيا فقال (ولقد آتينا موسى الهدى) ويجوز أن يكون المراد من الهدى ما آتاه الله من العلوم الكثيرة النافعة فى الدنيا والآخرة ، ويجوز أن يكون المراد تلك الدلائل القاهرة التى أوردها على فرعون واتباعه وكادهم بها ، ويجوز أن يكون المراد هو النبوة التى هى أعظم المناصب الإنسانية ، ويجوز أن يكون المراد إنزال التوراة عليه .

قوله تعالى : ﴿ وأورثنا بنى إسرائيل الكتاب هدى وذكرى لأولى الألباب ﴾ يجوز أن يكون المراد منه أنه تعالى لما أنزل التوراة على موسى بقى ذلك العلم فيهم وتوارثوه خلفاً عن سلف ، ويجوز أن يكون المراد سائر الكتاب التى أنزلها الله عليهم وهى كتب أنبياء بنى إسرائيل التوراة والزبور والإنجيل ، والفرق بين الهدى والذكرى أن الهدى ما يكون دليلا على الشىء وليس من شرطه أن يذكر شيئاً آخر كان معلوماً ثم صار منسياً ، وأما الذكرى فهى الذى يكون كذلك فكتب أنبياء الله مشتملة على هذين القسمين بعضها دلائل فى أنفسها ، وبعضها مذكرات لما ورد فى الكتب الإلهية المتقدمة . ولما بين أن الله تعالى ينصر رسله وينصر المؤمنين فى الدنيا والآخرة وضرب المثال فى ذلك بحال موسى وخاطب بعد ذلك محمداً ﷺ فقال (فاصبر إن وعد الله حق) فالله ناصرك كما نصرهم ومنجز وعده فى حقك كما كان كذلك فى حقهم ، ثم أمره بأن يقبل على طاعة الله النافعة فى الدنيا والآخرة فإن من كان لله كان الله له .

واعلم أن مجامع الطاعات محصورة فى قسمين التوبة عما لا ينبغى ، والاشتغال بما ينبغى ، والأول مقدم على الثانى بحسب الرتبة الذاتية فوجب أن يكون مقدماً عليه فى الذكر ، أما التوبة عما لا ينبغى فهو قوله (واستغفر لذنبك) والطاعنون فى عصمة الأنبياء عليهم السلام يتمسكون به

إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِۚ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ﴿٥٦﴾ لَخَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَكۡبَرُ مِنۡ خَلۡقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلۡمُسِيٓءُۚ قَلِيلٗا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأٓتِيَةٞ لَّا رَيۡبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٥٩﴾

ونحن نحمله على التوبة عن ترك الأولى والأفضل ، أو على ما كان قد صدر عنهم قبل النبوة ، وقيل أيضاً المقصود منه محض التعبد كما في قوله (ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك) فإن إيتاء ذلك الشيء واجب ثم إنه أمرنا بطلبه ، وكقوله (رب احكم بالحق) من أنا نعلم أنه لا يحكم إلا بالحق ، وقيل إضافة المصدر إلى الفاعل والمفعول فقوله (واستغفر لذنبك) من باب إضافة المصدر إلى المفعول أي واستغفر لذنب أمتك في حقك ، وأما الاشتغال بما ينبغي فهو قوله (وسبح بحمد ربك بالعشي والإبكار) والتسبيح عبارة عن تنزيه الله عن كل ما لا يليق به ، والعشي والإبكار ، قيل صلاة العصر وصلاة الفجر ، وقيل الإبكار ، عبارة عن أول النهار إلى النصف ، والعشي عبارة عن النصف إلى آخر النهار ، فيدخل فيه كل الأوقات ، وقيل المراد طرفا النهار ، كما قال (وأقم الصلاة طرفي النهار) وبالجملة فالمراد منه الأمر بالمواظبة على ذكر الله ، وأن لا يفتر اللسان عنه ، وأن لا يغفل القلب عنه ، حتى يصير الإنسان بهذا السبب داخلا في زمرة الملائكة ، كما قال في وصفهم (يسبحون الليل والنهار لا يفترون) والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ إن الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم إن في صدورهم إلا كبر ما هم ببالغيه فاستعذ بالله إنه هو السميع البصير ، لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ولكن أكثر الناس لا يعلمون ، وما يستوي الأعمى والبصير والذين آمنوا وعملوا الصالحات ولا المسيء قليلا ما تتذكرون ، إن الساعة لآتية لا ريب فيها ولكن أكثر الناس لا يؤمنون ﴾ .

اعلم أنا بينا أن الكلام في أول هذه السورة إنما ابتدىء رداً على الذين يجادلون في آيات الله ، واتصل البعض بالبعض وامتد على الترتيب الذي لخصناه ، والنسق الذي كشفنا عنه إلى هـــذا

الموضع ، ثم إنه تعالى نبه فى هذه الآية على الداعية التى تحمل أولئك الكفار على تلك المجادلة ، فقال (إن الذين يجادلون فى آيات الله بغير سلطان) إنما يحملهم على هذا الجدال الباطل كبر فى صدرهم . فذلك الكبر هو الذى يحملهم على هذا الجدال الباطل ، وذلك الكبر هو أنهم لو سلموا نبوتك لزمهم أن يكونوا تحت يدك وأمرك ونهيك ، لأن النبوة تحتها كل ملك ورياسة وفى صدورهم كبر لايرضون أن يكونوا فى خدمتك ، فهذا هو الذى يحملهم على هذه المجادلات الباطلة والمخاصمات الفاسدة .

ثم قال تعالى (ما هم ببالغيه) يعنى أنهم يريدون أن لايكونوا تحت يدك ولا يصلون إلى هذا المراد ، بل لابد وأن يصيروا تحت أمرك ونهيك ، ثم قال (فاستعذ بالله) أى فالتجىء إليه من كيد من يجادلك (إنه هو السميع) بما يقولون ، أو تقول (البصير) بما تعمل ويعملون ، فهو يجعلك نافذ الحكم عليهم ويصونك عن مكرهم وكيدهم .

واعلم أنه تعالى لما وصف جدالهم فى آيات الله بأنه بغير سلطان ولا حجة ذكر لهذا مثالا ، فقال لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ، والقادر على الأكبر قادر على الأصغر لا محالة ، وتقرير هذا الكلام أن الاستدلال بالشىء على غيره على ثلاثة أقسام (أحدها) أن يقال لما قدر على الأضعف وجب أن يقدر على الأقوى وهذا فاسد (وثانيها) أن يقال لما قدر على الشىء قدر على مثله ، فهذا استدلال حق لما ثبت فى العقول أن حكم الشىء حكم مثله (وثالثها) أن يقال لما قدر على الأقوى الأكمل فبأن يقدر على الأقل الأرذل كان أولى ، وهذا الاستدلال فى غاية الصحة والقوة ولا يرتاب فيه عاقل البتة ، ثم إن هؤلاء القوم يسلمون أن خالق السموات والأرض هو الله سبحانه وتعالى ، ويعلمون بالضرورة أن (خلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس) وكان من حقهم أن يقروا بأن القادر على خلق السموات والأرض يكون قادراً على إعادة الإنسان الذى خلقه أولا ، فهذا برهان جلى فى إفادة هذا المطلوب ، ثم إن هذا البرهان على قوته صار بحيث لايعرفه أكثر الناس ، والمراد منهم الذين ينكرون الحشر والنشر ، فظهر بهذا المثال أن هؤلاء الكفار يجادلون فى آيات الله بغير سلطان ولا حجة ، بل بمجرد الحسد والجهل والكبر والتعصب ، ولما بين الله تعالى أن الجدال المقرون بالكبر والحسد والجهل كيف يكون ، وأن الجدال المقرون بالحجة والبرهان كيف يكون ، نبه تعالى على الفرق بين البابين بذكر المثال فقال (وما يستوى الأعمى والبصير) يعنى وما يستوى المستدل والجاهل المقلد ، ثم قال (والذين آمنوا وعملوا الصالحات ولا المسىء) فالمراد بالأول التفاوت بين العالم والجاهل ، والمراد بالثانى التفاوت بين الآتى بالأعمال الصالحة وبين الآتى بالأعمال الفاسدة الباطلة ، ثم قال (قليلا ماتتذكرون) يعنى أنهم وإن كانوا يعلمون أن العلم خير من الجهل ، وأن العمل الصالح خير من العمل الفاسدة ، إلا أنه قليلا ماتتذكرون فى النوع المعين من الاعتقاد أنه علم أو جهل ، والنوع المعين من العمل أنه عمل

وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٦٢﴾ كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٦٣﴾

صالح أو فاسد ، فأن الحسد يعمي قلوبهم ، فيعتقدون فى الجهل والتقليد أنه محض المعرفة ، وفى الحسد والحقد والكبر أنه محض الطاعة ، فهذا هو المراد من قوله (قليلا ما تتذكرون) قرأ عاصم وحمزة والكسائى (تتذكرون) بالتاء على الخطاب ، أى قل لهم قليلا ما تتذكرون ، والباقون بالياء على الغيبة .

ولما قرر الدليل الدال على إمكان وجود يوم القيامة ، أردفه بأن أخبر عن وقوعها ودخولها فى الوجود فقال (إن الساعة لآتية لا ريب فيها ولكن أكثر الناس لا يؤمنون) والمراد بأكثر الناس الكفار الذين ينكرون البعث والقيامة .

قوله تعالى : ﴿ وقال ربكم ادعونى أستجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين ، الله الذى جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصراً إن الله لذوا فضل على الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون ، ذلكم الله ربكم خالق كل شىء لا إله إلا هو فأنى تؤفكون ، كذلك يؤفك الذين كانوا بآيات الله يجحدون ﴾ .

اعلم أنه تعالى لما بين أن القول بالقيامة حق وصدق ، وكان من المعلوم بالضرورة أن الإنسان لا ينتفع فى يوم القيامة إلا بطاعة الله تعالى ، لا جرم كان الاشتغال بالطاعة من أهم المهمات ، ولما كان أشرف أنواع الطاعات الدعاء والتضرع ، لاجرم أمر الله تعالى به فى هذه الآية فقال (وقال ربكم ادعونى أستجب لكم) واختلف الناس فى المراد بقوله (ادعونى) فقيل إنه الأمر بالدعاء ، وقيل إنه الأمر بالعبادة ، بدليل أنه قال بعده (إن الذين يستكبرون عن عبادتى) ولولا أن الأمر بالدعاء أمر بمطلق العبادة لما بقى لقوله (إن الذين يستكبرون عن عبادتى) معنى ، وأيضاً الدعاء بمعنى العبادة كثير فى القرآن كقوله (إن يدعون من دونه إلا إناثاً) وأجيب عنه بأن الدعاء هو اعتراف بالعبودية والذلة والمسكنة ، فكأنه قيل إن تارك الدعاء إنما تركه لأجل أن يستكبر عن اظهار العبودية (وأجيب) عن قوله إن الدعاء بمعنى العبادة كثير فى القرآن ، بأن ترك الظاهر لا يصار

إليه إلا بدليل منفصل ، فإن قيل كيف قال (ادعونى أستجب لكم) وقد يدعى كثيراً فلا يستجاب (أجاب) الكعبى عنه بأن قال : الدعاء إنما يصح على شرط ، ومن دعا كذلك استجيب له ، وذلك الشرط هو أن يكون المطلوب بالدعاء مصلحة وحكمة ، ثم سأل نفسه فقال : فما هو أصلح يفعله بلا دعاء ، فما الفائدة فى الدعاء ؟ (وأجاب) عنه من وجهين (الأول) أن فيه الفزع والانقطاع إلى الله (والثانى) لن هذا أيضاً وارد على الكل ، لأنه إن علم أنه يفعله فلا بد وأن يفعله ، فلا فائدة فى الدعاء ، وإن علم أنه لا يفعله فإنه البتة لايفعله ، فلا فائدة فى الدعاء ، وكل ما يقولونه ههنا فهو جوابنا ، هذا تمام ما ذكره ، وعندى فيه وجه آخر وهو أنه قال (ادعونى أستجب لكم) فكل من دعا الله وفى قلبه ذرة من الاعتماد على ماله وجاهه وأقاربه وأصدقائه وجده واجتهاده ، فهو فى الحقيقة ما دعا الله إلا باللسان ، أما بالقلب فإنه معول فى تحصيل ذلك المطلوب على غير الله ، فهذا الإنسان ما دعا ربه فى وقت ، أما إذا دعا فى وقت لا يبقى فى القلب التفات إلى غير الله ، فالظاهر أنه تحصل الاستجابة ، إذا عرفت هذا ففيه بشارة كاملة ، وهى أن انقطاع القلب بالكلية عما سوى الله لايحصل إلا عند القرب من الموت ، فان الإنسان قاطع فى ذلك الوقت بأنه لاينفعه شىء سوى فضل الله تعالى ، فعلى القانون الذى ذكرناه وجب أن يكون الدعاء فى ذلك الوقت مقبولا عند الله ، ونرجو من فضل الله وإحسانه أن يوفقنا الدعاء المقرون بالإخلاص والتضرع فى ذلك الوقت ، واعلم أن الكلام المستقصى فى الدعاء قد سبق ذكره فى سورة البقرة .

ثم قال تعالى (إن الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين) أى صاغرين وهذا إحسان عظيم من الله تعالى حيث ذكر الوعيد الشديد على ترك الدعاء ، فإن قيل روى عن رسول ﷺ أنه قال حكاية عن رب العزة أنه قال « من شغله ذكرى عن مسألتى أعطيته أفضل ما أعطى السائلين » فهذا الخبر يقتضى أن ترك الدعاء أفضل ، وهذه الآية تدل على أن ترك الدعاء يوجب الوعيد الشديد ، فكيف الجمع بينهما ؟ قلنا لاشك أن العقل إذا كان مستغرقاً فى الثناء كان ذلك أفضل من الدعاء ، لأن الدعاء طلب للحظ والاستغراق فى معرفة جلال الله أفضل من طلب الحظ ، أما إذا لم يحصل ذلك الاستغراق كان الاشتغال بالدعاء أولى ، لأن الدعاء يشتمل على معرفة عزة الربوبية وذلة العبودية ، ثم قال تعالى (الله الذى جعل لكم الليل لتسكنوا فيه) واعلم أن تعلقه بما قبله من وجهين (الأول) كأنه تعالى قال : إنى أنعمت عليك قبل طلبك لهذه النعم الجليلة العظيمة ، ومن أنعم قبل السؤال بهذه النعم العالية فكيف لا ينعم بالأشياء القليلة بعد السؤال (والثانى) أنه تعالى لما أمر بالدعاء ، فكأنه قيل الاشتغال بالدعاء لابد وأن يكون مسبوقاً بحصول المعرفة ، فما الدليل على وجود الإله القادر ، وقد ذكر الله تعالى هذه الدلائل العشرة على وجوده وقدرته وحكمته ، واعلم أنا بينا أن دلائل وجود الله وقدرته ، إما فلكية ، وما عنصرية ، أما الفلكيات فأقسام كثيرة (أحدها) تعاقب الليل والنهار ، و[لما] كان أكثر مصالح العالم مربوطاً بهما فذكرهما الله

تعالى فى هـذا المقام ، وبين أن الحكمة فى خلق الليـل حصول الراحـة بسبب النوم والسكون ، والحكمة فى خلق النهار ، إبصار الأشياء ليحصـل مكنة التصرف فيها على الوجـه الأنفع ، أما أن السكون فى وقت النوم سبب للراحة فبيانه من وجهين : (الأول) أن الحركات توجب الإعياء من حيث إن الحركة توجب السخونة والجفاف ، وذلك يوجب التألم (والثانى) أن الإحساس بالأشياء إنما يمكن بإيصال الأرواح الجسمانية إلى ظاهر الحس ، ثم إن تلك الأرواح تتحلل بسبب كثرة الحركات فتضعف الحواس والإحساسات ، وإذا نام الإنسان عادت الأرواح الحساسة فى باطن البدن وركزت وقويت وتخلصت عن الإعياء ، وأيضاً الليل بارد رطب فبرودته ورطوبته يتداركان ماحصل فى النهار من الحر والجفاف بسبب ماحدث من كثرة الحركات ، فهذه هى المنافع المعلومة من قوله تعالى (الله الذى جعل لكم الليل لتسكنوا فيه) وأما قوله (والنهار مبصراً) فاعلم أن الإنسان مدنى بالطبع ، ومعنـاه أنه ما لم يحصـــل مدينة تامة لم تنتظم مهمات الإنسان فى مأكوله ومشروبه وملبسه ومنكحه ، وتلك المهمات لاتحصل إلا بأعمال كثيرة ، وتلك الأعمال تصرفات فى أمور ، وهذه التصرفات لاتكمل إلا بالضوء والنور حتى يميز الإنسان بسبب ذلك النور بين ما يوافقه وبين مالا يوافقه ، فهذا هو الحكمة فى قوله (والنهار مبصراً) فإن قيل كان الواجب بحسب رعاية النظم أن يقال هو الذى جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار لتبصروا فيه ، أو لجعل لكم الليل ساكناً ولكنه لم يقل كذلك بل قال فى الليل لتسكنوا فيه ، وقال فى النهار مبصراً فما الفائدة فيه ؟ وأيضاً فما الحكمة فى تقديم ذكر الليل على ذكر النهار مع أن النهار أشرف من الليل ؟ قلنا : أما الجواب عن (الأول) فهو أن الليل والنوم فى الحقيقة طبعية عدمية فهو غير مقصود بالذات ، أما اليقظة فأمور وجودية ، وهى مقصودة بالذات ، وقد بين الشيخ عبد القاهر النحوى فى دلائل الإعجاز أن دلالة صيغة الإسم على التمام والكمال أقوى من دلالة صيغة الفعل عليهما ، فهذا هو السبب فى هذا الفرق والله أعلم ، وأما الجواب عن (الثانى) فهو أن الظلمة طبيعة عدمية والنور طبيعة وجودية والعدم فى المحدثات مقدم على الوجود ، ولهذا السبب قال فى أول سورة الأنعام (وجعل الظلمات والنور) .

واعلم أنه تعالى لما ذكر مافى الليل والنهار من المصالح والحكم البالغة قال (إن الله لذو فضل على الناس ولكن أكثر الناس لايشكرون) والمراد أن فضل الله على الخلق كثيراً جداً ولكنهم لايشكرونه ، واعلم أن ترك الشكر لوجوه : (أحدها) أن يعتقد الرجل أن هذه النعم ليست من الله تعالى مثل أن يعتقد أن هذه الأفلاك واجبة الوجود لذواتها وواجبة الدوران لذواتها ، فحينئذ هذا الرجل لايعتقد أن هذه النعم من الله (وثانيها) أن الرجل وإن اعتقد أن كل هذا العالم حصل بتخليق الله وتكوينه إلا أن هذه النعم العظيمة ، أعنى نعمة تعاقب الليل والنهار لما دامت واستمرت نسيها الإنسان ، فاذا ابتلى الإنسان بفقدان شىء منها عرف قدرها مثل أن يتفق لبعض الناس والعياذ بالله أن يحبسه بعض الظلمة فى آبار عميقة مظلمة مدة مديدة ، فحينئذ يعرف ذلك الإنسان قدر نعمة

ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ
وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾ هُوَ ٱلْحَىُّ
لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾ قُلْ إِنِّى
نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِىَ ٱلْبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّى وَأُمِرْتُ
أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٦﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ
عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًا وَمِنكُم مَّن

الهواء الصافى وقدر نعمة الضوء ، ورأيت بعض الملوك كان يعذب بعض خدمه بأن أمر أقواماً حتى يمنعونه عن الإستناد إلى الجدار وعن النوم فعظم وقع هذا التعذيب (وثالثها) أن الرجل وإن كان عارفاً بمواقع هذه النعم إلا أنه يكون حريصاً على الدنيا محباً للمال والجاه ، فاذا فاته المال الكثير والجاه العريض وقع فى كفران هذه النعم العظيمة ، ولما كان أكثر الخلق هالكين فى أحد هذه الأودية الثلاثة التى ذكرناها ، لاجرم قال تعالى (ولكن أكثر الناس لايشكرون) ونظيره قوله تعالى (وقليل من عبادى الشكور) وقول إبليس (ولا تجد أكثرهم شاكرين) ولما بين الله تعالى بتلك الدلائل المذكورة وجود الإله القادر الرحيم الحكيم قال (ذلكم الله ربكم خالق كل شيء لا إله إلا هو) قال صاحب الكشاف ذلكم المعلوم المميز بالأفعال الخاصة التى لا يشاركه فيها أحد (هو الله ربكم خالق كل شيء لا إله إلا هو) أخبار مترادفة أى هو الجامع لهذه الأوصاف من الإلهية والربوبية وخلق كل شيء وأنه لا ثانى له (فأنى تؤفكون) والمراد فأنى تصرفون ولم تعدلون عن هذه الدلائل وتكذبون بها ، ثم قال تعالى (كذلك يؤفك الذين كانوا بآيات الله يجحدون) يعنى أن كل من جحد بآيات الله ولم يتأملها ولم يكن فيه همة لطلب الحق وخوف العاقبة أفك كما أفكوا .

قوله تعالى : ﴿ الله الذى جعل لكم الأرض قراراً والسماء بناء وصوركم فأحسن صوركم ورزقكم من الطيبات ذلكم الله ربكم فتبارك الله رب العالمين ، هو الحى لا إله إلا هو فادعوه مخلصين له الدين الحمد لله رب العالمين ، قل إنى نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله لما جاءنى البينات من ربى وأمرت أن أسلم لرب العالمين ، هو الذى خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم من

يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوٓاْ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾

علقة ثم يخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم ثم لتكونوا شيوخاً ومنكم من يتوفى من قبل ولتبلغوا أجلا مسمى ولعلكم تعقلون ﴾ .

اعلم أنا بينا أن دلائل وجود الله وقدرته إما أن تكون من دلائل الآفاق أو من باب دلائل الأنفس ، أما دلائل الآفاق فالمراد كل ماهو غير الإنسان من كل هذا العالم وهى أقسام كثيرة ، والمذكور منها فى هذه الآية أقسام منها أحوال الليل والنهار وقد سبق ذكره (وثانيها) الأرض والسماء وهو المراد من قوله (الله الذى جعل لكم الأرض قراراً والسماء بناء) قال ابن عباس فى قوله (قراراً) أى منزلا فى حال الحياة وبعد الموت (والسماء بناء) كالقبة المضروبة على الأرض ، وقيل مسك الأرض بلا عمد حتى أمكن التصرف عليها (والسماء بناء) أى قائماً ثابتاً وإلا لوقعت علينا ، وأما دلائل الأنفس فالمراد منها دلالة أحوال بدن الإنسان ودلالة أحوال نفسه على وجود الصانع القادر الحكيم ، والمذكور منها فى هذه الآية قسمان (أحدهما) ما هو حاصل مشاهد حال كمال حاله (والثانى) ما كان حاصلا فى ابتداء خلقته وتكوينه .

﴿أما القسم الأول﴾ فأنواع كثيرة والمذكور منها فى هذه الآية أنواع ثلاثة (أولها) حدوث صورته وهو المراد من قوله (وصوركم) (وثانيها) حسن صورته وهو المراد من قوله (فأحسن صوركم) ، (وثالثها) أنه رزقه من الطيبات وهو المراد من قوله (ورزقكم من الطيبات) وقد أطنبنا فى تفسير هذه الأشياء فى هذا الكتاب مراراً لاسيما فى تفسير قوله تعالى (ولقد كرمنا بنى آدم) ولما ذكر الله تعالى هذه الدلائل الخمسة اثنين من دلائل الآفاق وثلاثة من دلائل الأنفس قال : (فذلكم الله ربكم فتبارك الله رب العالمين) وتفسير تبارك إما الدوام والثبات وإما كثرة الخيرات ، ثم قال (هو الحى لا إله إلا هو) وهذا يفيد الحصر وأن لا حى إلا هو ، فوجب أن يحمل ذلك على الحى الذى يمتنع أن يموت امتناعا ذاتياً وحينئذ لا حى إلا هو فكأنه أجرى الشىء الذى يجوز زواله مجرى المعدوم .

واعلم أن الحى عبارة عن الدراك الفعال والدراك إشارة إلى العلم التام ، والفعال إشارة إلى القدرة الكاملة ، ولما نبه على هاتين الصفتين من صفات الجلال نبه على الصفة الثالثة وهى : الوحدانية بقوله لا إله إلا هو ، ولما وصفه بهذه الصفات أمر العباد بشيئين (أحدهما) بالدعاء (والثانى) بالإخلاص فيه ، فقال (فادعوه مخلصين له الدين) ثم قال (الحمد لله رب العالمين) فيجوز أن يكون المراد قول (الحمد لله رب العالمين) ويجوز أن يكون المراد أنه لما كان موصوفاً بصفات الجلال والعزة استحق لذاته أن يقال له (الحمد لله رب العالمين) ولما بين صفات الجلال والعظمة قال (قل إنى نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله) فأورد ذلك على المشركين بألين

قول ليصرفهم عن عبادة الأوثان ، وبين أن وجه النهى فى ذلك ماجاءه من البينات ، وتلك البينات أن إله العالم قد ثبت كونه موصوفاً بصفات الجلال والعظمة على ماتقدم ذكره ، وصريح العقل يشهد بأن العبادة لاتليق إلا به ، وأن جعل الأحجار المنحوتة والخشب المصورة شركاء له فى المعبودية مستنكر فى بديهة العقل .

ولما بين أنه أمر بعبادة الله تعالى فقال (وأمرت أن أسلم لرب العالمين) وإنما ذكر هذه الأحكام فى حق نفسه لأنهم كانوا يعتقدون فيه أنه فى غاية العقل وكمال الجوهر ، ومن المعلوم بالضرورة أن كل أحد فإنه لا يريد لنفسه إلا الأفضل الأكمل ، فإذا ذكر أن مصلحته لا تتم إلا بالإعراض عن غير الله والإقبال بالكلية على طاعة الله ظهر به أن هذا الطريق أكمل من كل ماسواه ، ثم قال (هو الذى خلقكم من تراب) .

واعلم أنا قد ذكرنا أن الدلائل على قسمين دلائل الآفاق والأنفس ، أما دلائل الآفاق فكثيرة والمذكور منها فى هذه الآية أربعة : الليل والنهار والأرض والسماء ، وأما دلائل الأنفس فقد ذكرنا أنها على قسمين (أحدهما) الأحوال الحاضرة حال كمال الصحة وهى أقسام كثيرة ، والمذكور ههنا منها ثلاثة أنواع : الصورة وحسن الصورة ورزق الطيبات .

﴿ وأما القسم الثانى ﴾ وهو كيفية تكون هذا البدن من ابتداء كونه نطفة وجنيناً إلى آخر الشيخوخة والموت فهو المذكور فى هذه الآية فقال (هو الذى خلقكم من تراب ثم من نطفة) فقيل المراد آدم ، وعندى لاحاجة إليه لأن كل إنسان فهو مخلوق من المنى ومن دم الطمث ، والمنى مخلوق من الدم فالإنسان مخلوق من الدم والدم إنما يتولد من الأغذية والأغذية إما حيوانية وإما نباتية ، والحال فى تكون ذلك الحيوان كالحال فى تكون الإنسان ، فالأغذية بأسرها منتهية إلى النباتية والنبات إنما يكون من التراب والماء ، فثبت أن كل إنسان فهو متكون من التراب ، ثم إن ذلك التراب يصير نطفة ثم علقة بعد كونه علقة مراتب كثيرة إلى أن ينفصل من بطن الأم ، فالله تعالى ترك ذكرها ههنا لأجل أنه تعالى ذكرها فى سائر الآيات .

واعلم تعالى رتب عمر الإنسان على ثلاث مراتب (أولها) كونه طفلا ، وثانيها أن يبلغ أشده ، وثالثها الشيخوخة وهذا ترتيب صحيح مطابق للعقل ، وذلك لأن الإنسان فى أول عمره يكون فى التزايد والنشوء والنماء وهو المسمى بالطفولية (والمرتبة الثانية) أن يبلغ إلى كمال النشوء وإلى أشد السن من غير أن يكون قد حصل فيه نوع من أنواع الضعف ، وهذه المرتبة هى المراد من قوله (لتبلغوا أشدكم) (والمرتبة الثالثة) أن يتراجع ويظهر فيه أثر من آثار الضعف والنقص ، وهذه المرتبة هى المراد من قوله (ثم لتكونوا شيوخاً) وإذا عرفت هذا التقسيم عرفت أن مراتب العمر بحسب هذا التقسيم لاتزيد على هذه الثلاثة ، قال صاحب الكشاف : قوله (لتبلغوا أشدكم) متعلق بفعل محذوف تقديره ثم يبقيكم لتبلغوا .

هُوَ ٱلَّذِى يُحْيِۦ وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٦٨﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ ﴿٦٩﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِٱلْكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ

ثم قال (ومنكم من يتوفى من قبل) أى من قبل الشيخوخة أو من قبل هذه الأحوال إذا خرج سقطاً . ثم قال (ولتبلغوا أجلا مسمى) ومعناه يفعل ذلك لتبلغوا أجلا مسمى وهو وقت الموت وقيل يوم القيامة .

ثم قال (ولعلكم تعقلون) مافى هذه الأحوال العجيبة من أنواع العبر وأقسام الدلائل .

قوله تعالى ﴿ هو الذى يحي ويميت فإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون ﴾ .

اعلم أنه تعالى لما ذكر انتقال الإنسان من كونه تراباً إلى كونه نطفة ثم إلى كونه علقة ثم إلى كونه طفلا ثم إلى بلوغ الأشد ثم إلى الشيخوخة واستدل بهذه التغيرات على وجود الإله القادر قال بعده (وهو الذى يحي ويميت) يعنى كما أن الانتقال من صفة إلى صفة أخرى من الصفات التى تقدم ذكرها يدل على الإله القادر ، فكذلك الانتقال من الحياة إلى الموت وبالعكس يدل على الإله القادر وقوله (فإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون) فيه وجوه (الأول) معناه أنه لما نقل هذه الأجسام من بعض هذه الصفات إلى صفة أخرى لم تتعب فى ذلك التصرف ولم يحتج إلى آلة وأداة ، فعبر عن نفاذ قدرته فى الكائنات والمحدثات من غير معارض ولا مدافع بما إذا قال (كن فيكون) (الوجه الثانى) أنه عبر عن الإحياء والإماتة بقول (كن فيكون) فكأنه قيل الانتقال من كونه تراباً إلى كونه نطفة ، ثم إلى كونه علقة انتقالات تحصل على التدريج قليلا قليلا ، وأما صيرورة الحياة فهى إنما تحصل لتعليق جوهر الروح النطقية به ، وذلك يحدث دفعة واحدة ، فلهذا السبب وقع التعبير عنه بقوله (كن فيكون) (الوجه الثالث) أن من الناس من يقول إن تكون الإنسان إنما ينعقد من المنى والدم فى الرحم فى مدة معينة وبحسب انتقالاته من حالات إلى حالات ، فكأنه قيل إنه يمتنع أن يكون كل إنسان عن إنسان آخر ، لأن التسلسل محال ، ووقوع الحادث فى الأزل محال ، فلا بد من الاعتراف بإنسان هو أول الناس ، فحينئذ يكون حدوث ذلك الإنسان لا بواسطة المنى والدم ، بل بإيجاد الله تعالى ابتداء ، فعبر الله تعالى عن هذا المعنى بقوله (كن فيكون) .

قوله تعالى : ﴿ ألم تر إلى الذين يجادلون فى آيات الله أنى يصرفون ، الذين كذبوا بالكتاب وبما أرسلنا به رسلنا فسوف يعلمون ، إذ الأغلال فى أعناقهم والسلاسل يسحبون ، فى الحميم ثم فى

أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُو مِنْ قَبْلُ شَيْئًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ ﴿٧٤﴾ ذَلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾

النار يسجرون ، ثم قيل لهم أين ما كنتم تشركون ، من دون الله قالوا ضلوا عنا بل لم نكن ندعوا من قبل شيئاً كذلك يضل الله الكافرين ، ذلكم بما كنتم تفرحون فى الأرض بغير الحق وبما كنتم تمرحون ، ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين ﴾ .

اعلم أنه تعالى عاد إلى ذم الذين يجادلون فى آيات الله فقال : (ألم تر إلى الذين يجادلون فى آيات الله أنى يصرفون) وهذا ذم لهم على أن جادلوا فى آيات الله ودفعها والتكذيب بها ، فعجب تعالى منهم بقوله (أنى يصرفون) كما يقول الرجل لمن لا يبين : أنى يذهب بك تعجباً من غفلته ، ثم بين أنهم هم (الذين كذبوا بالكتاب) أى بالقرآن (وبما أرسلنا به رسلنا) من سائر الكتب ، فإن قيل سوف للاستقبال ، وإذ للماضى فقوله (فسوف يعلمون ، إذ الأغلال فى أعناقهم) مثل قولك : سوف أصوم أمس ، قلنا المراد من قوله (إذ) هو إذاً ، لأن الأمور المستقبلة لما كانت فى أخبار الله تعالى متيقنة مقطوعاً بها عبر عنها بلفظ ما كان ووجد ، والمعنى على الاستقبال ، هذا لفظ صاحب الكشاف :

ثم إنه تعالى وصف كيفية عقابهم فقال (إذ الأغلال فى أعناقهم والسلاسل يسحبون ، فى الحميم) والمعنى : أنه يكون فى أعناقهم الأغلال والسلاسل ، ثم يسحبون بتلك السلاسل فى الحميم ، أى فى الماء المسخن بنار جهنم (ثم فى النار يسجرون) والسجر فى اللغة الإيقاد فى التنور ، ومعناه أنهم فى النار فهى محيطة بهم ، ويقرب منه قوله تعالى (نار الله الموقدة التى تطلع على الأفئدة) (ثم قيل لهم أين ما كنتم تشركون من دون الله) فيقولون (ضلوا عنا) أى غابوا عن عيوننا فلا نراهم ولا نستشفع بهم ، ثم قالوا (بل لم نكن ندعوا من قبل شيئاً) أى تبين لهم أنهم لم يكونوا شيئاً ، وما كنا نعبد بعبادتهم شيئاً ، كما تقول حسبت أن فلاناً شىء ، فإذا هو ليس بشىء إذا جربته فلم تجد عنده خيراً ، ويجوز أيضاً أن يقال إنهم كذبوا وأنكروا أنهم عبدوا غير الله ، كما أخبر الله

فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٧٧﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ۗ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ قُضِىَ بِٱلْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٧٨﴾

تعالى عنهم فى سورة الانعام أنهم قالوا (والله ربنا ما كنا مشركين) ثم قال تعالى (كذلك يضل الله الكافرين) قال القاضى : معناه أنه يضلهم عن طريق الجنة ، إذ لا يجوز أن يقال يضلهم عن الحجة إذ قد هداهم فى الدنيا إليها ، وقال صاحب الكشاف (كذلك يضل الله الكافرين) مثل ضلال آلهتهم عنهم يضلهم عن آلهتهم ، حتى أنهم لو طلبوا الآلهة أو طلبتهم الآلهة لم يجد أحدهما الآخر ، ثم قال (ذلكم بما كنتم تفرحون فى الأرض) أى ذلكم الإضلال بسبب ما كان لكم من الفرح والمرح بغير الحق ، وهو الشرك وعبادة الأصنام (ادخلوا أبواب جهنم) السبعة المقسومة لكم ، قال الله تعالى (لها سبعة أبواب ، لكل باب منهم جزء مقسوم) ، (خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين) والمراد منه ما قال فى الآية المتقدمة فى صفة هؤلاء المجادلين (إن فى صدور إلا كبر) .

قوله تعالى : ﴿ فاصبر إن وعد الله حق فإما نرينك بعض الذى نعدهم أو نتوفينك فإلينا يرجعون . ولقد أرسلنا رسلا من قبلك منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك وما كان لرسول أن يأتى بآية إلا بإذن الله ، فإذا جاء أمر الله قضى بالحق وخسر هنالك المبطلون ﴾ .

اعلم أنه تعالى لما تكلم من أول السورة إلى هذا الموضع فى تزييف طريقة المجادلين فى آيات الله ، أمر فى هذه الآية رسوله بأن يصبر على إيذائهم وإيحاشهم بتلك المجادلات ، ثم قال (إن وعد الله حق) وعنى به ما وعد به الرسول من نصرته ، ومن إنزال العذاب على أعدائه ، ثم قال (فإما نرينك بعض الذى نعدهم) يعنى أولئك الكفار من أنواع العذاب ، مثل القتل يوم بدر ، فذلك هو المطلوب (أو نتوفينك) قبل إنزال العذاب عليهم (فإلينا يرجعون) يوم القيامة فننتقم منهم أشد الانتقام ، ونظيره قوله تعالى (فإما نذهبن بك فإنا منهم منتقمون ، أو نرينك الذى وعدناهم فإنا عليهم مقتدرون) .

ثم قال تعالى (ولقد أرسلنا رسلا من قبلك منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك) والمعنى أنه قال لمحمد صلى الله عليه وسلم : أنت كالرسل من قبلك ، وقد ذكرنا حال بعضهم لك ولم نذكر حال الباقين ، وليس فيهم أحد أعطاه الله آيات ومعجزات إلا وقد جادله قومه فيها وكذبوه فيها وجرى عليهم من الهم ما يقارب ما جرى عليك فصبروا ، وكانوا أبداً يقترحون على الأنبياء إظهار المعجزات الزائدة على قدر الحاجة على سبيل العناد والتعنت ، ثم إن الله تعالى لما علم أن الصلاح

ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَلِتَبْلُغُوا۟ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَأَىَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ ﴿٨١﴾

فى إظهار ماأظهره ، وإلالم يظهره ولم يكن ذلك قادحاً فى نبوتهم ، فكذلك الحال فى اقتراح قومك عليك المعجزات الزائدة لما لم يكن إظهارها صلاحاً ، لاجرم ماأظهرناها ، وهذا هو المراد من قوله (وماكان لرسول أن يأتى بآية إلا بإذن الله) ثم قال (فإذا جاء أمر الله قضى بالحق) وهذا وعيد ورد عقيب اقتراح الآيات (وأمر الله) القيامة (والمبطلون) هم المعاندون الذين يجادلون فى آيات الله ، ويقترحون المعجزات الزائدة على قدر الحاجة على سبيل التعنت .

قوله تعالى : ﴿ الله الذى جعل لكم الأنعام لتركبوا منها ومنها تأكلون ، ولكم فيها منافع ولتبلغوا عليها حاجة فى صدوركم وعليها وعلى الفلك تحملون ، ويريكم آياته فأى آيات الله تنكرون ﴾ .

اعلم أنه تعالى لما أطنب فى تقرير الوعيد عاد إلى ذكر مايدل على وجود الإله الحكيم الرحيم ، وإلى ذكر مايصلح أن يعد إنعاماً على العباد ، قال الزجاج الأنعام الإبل خاصة ، وقال القاضى هى الأزواج الثمانية ، وفى الآية سؤالات :

﴿ السؤال الأول ﴾ أنه لم أدخل لام الغرض على قوله (لتركبوا) وعلى قوله (لتبلغوا) ولم يدخل على البواقى فما السبب فيه ؟ (الجواب) قال صاحب الكشاف الركوب فى الحج والغزو إماأن يكون واجباًأو مندوباً ، فهذان القسمان أغراض دينية فلاجرم أدخل عليهماحرف التعليل ، وأما الأكل وإصابة المنافع فمن جنس المباحات ، فلاجرم ماأدخل عليها حرف التعليل ، نظيره قوله تعالى (والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة) فأدخل التعليل على الركوب ولم يدخله على الزينة .

﴿ السؤال الثانى ﴾ قوله تعالى (وعليها وعلى الفلك تحملون) معناه تحملون فى البر والبحر ؟ إذا عرفت هذا فنقول : لم لم يقل وفى الفلك كما قال قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين (والجواب) أن كلمة على للاستعلاء فالشىء الذى يوضع فى الفلك كما يصح أن يقال وضع فيه يصح أن يقال وضع عليه ، ولما صح الوجهان كانت لفظة على أولى حتى يتم المراد فى قوله (وعليها وعلى الفلك تحملون) ولما ذكر الله هذه الدلائل الكثيرة قال (ويريكم آياته فأى آيات الله تنكرون) يعنى أن هذه الآيات التى عددناها كلها ظاهرة باهرة ، فقوله (فأى آيات الله تنكرون) تنبيه على أنه ليس فى شىء من الدلائل التى تقدم ذكرها مايمكن إنكاره ، قال صاحب الكشاف قوله (فأى آيات الله)

أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴿٨٥﴾

جاء على اللغة المستفيضة ، وقولك : فأية آيات الله قليل لأن التفرقة بين المذكر والمؤنث فى الأسماء غير الصفات نحو حمار وحمارة غريب ، وهي فى أى أغرب لإبهامه والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ أفلم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أكثر منهم وأشد قوة وآثاراً فى الأرض فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون ، فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون ، فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين ، فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا سنة الله التى قد خلت فى عباده وخسر هنالك الكافرون ﴾ .

اعلم أنه تعالى راعى ترتيباً لطيفاً فى آخر هذه السورة ، وذلك أنه ذكر فصلا فى دلائل الإلهية وكمال القدرة والرحمة والحكمة ، ثم أردفه بفصل فى التهديد والوعيد وهذا الفصل الذى وقع عليه ختم هذه السورة هو الفصل المشتمل على الوعيد ، والمقصود أن هؤلاء الكفار الذين يجادلون فى آيات الله وحصل الكبر العظيم فى صدورهم بهذا ، والسبب فى ذلك كله طلب الرياسة والتقدم على الغير فى المال والجاه ، فمن ترك الانقياد للحق لأجل طلب هذه الأشياء فقد باع الآخرة بالدنيا ، فبين تعالى أن هذه الطريقة فاسدة ، لأن الدنيا فانية ذاهبة ، واحتج عليه بقوله تعالى (أفلم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم) يعنى لو ساروا فى أطراف الأرض لعرفوا أن عاقبة المتكبرين المتمردين ، ليست إلا الهلاك والبوار ، مع أنهم كانوا أكثر عدداً ومالا وجاهاً من هؤلاء المتأخرين ، فلما لم يستفيدوا من تلك المكنة العظيمة والدولة القاهرة إلا الخيبة والخسار ، والحسرة والبوار ، فكيف يكون حال هؤلاء الفقراء المساكين ، أما بيان أنهم كانوا أكثر من

هؤلاء عدداً فإنما يعرف فى الأخبار ، وأما أنهم كانوا أشد قوة وآثاراً فى الأرض ، فلأنه قد بقيت آثارهم بحصون عظيمة بعدهم ، مثل الأهرام الموجودة بمصر ، ومثل هذه البلاد العظيمة التى بناها الملوك المتقدمون ، ومثل ماحكى الله عنهم من أنهم كانوا ينحتون من الجبال بيوتاً .

ثم قال تعالى (فما أغنى عنهم ماكانوا يكسبون) ما فى قوله (فما أغنى عنهم) نافية أو مضمنة معنى الاستفهام ومحلها النصب ، وما فى قوله (ماكانوا يكسبون) موصولة أو مصدرية ومحلها الرفع يعنى أى شىء أغنى عنهم مكسوبهم أو كسبهم .

ثم بين تعالى أن أولئك الكفار لما جاءتهم رسلهم بالبينات والمعجزات فرحوا بما عندهم من العلم ، واعلم أن الضمير فى قوله (فرحوا) يحتمل أن يكون عائداً إلى الكفار ، وأن يكون عائداً إلى الرسل ، أما إذا قلنا إنه عائد إلى الكفار ، فذلك العلم الذى فرحوا به أى علم كان ؟ وفيه وجوه (الأول) أن يكون المراد الأشياء التى كانوا يسمونها بالعلم ، وهى الشبهات التى حكاها الله عنهم فى القرآن كقولهم (وما يهلكنا إلا الدهر) وقولهم (لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا) وقولهم (من يحيى العظام وهى رميم) ، (ولئن رددت إلى ربى لأجدن خيراً منها منقلباً) وكانوا يفرحون بذلك ويدفعون به علوم الأنبياء ، كما قال (كل حزب بما لديهم فرحون) ، (الثانى) يجوز أن يكون المراد علوم الفلاسفة ، فإنهم كانوا إذا سمعوا بوحى الله دفعوه وصغروا علم الأنبياء إلى علومهم ، وعن سقراط أنه سمع بمجىء بعض الأنبياء فقيل له لو هاجرت إليه فقال نحن قوم مهديون فلاحاجة بنا إلى من يهدينا (الثالث) يجوز أن يكون المراد علمهم بأمور الدنيا ومعرفتهم بتدبيرها ، كما قال تعالى (يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون ، ذلك مبلغهم من العلم) فلما جاءهم الرسل بعلوم الديانات وهى معرفة الله تعالى ومعرفة المعاد وتطهير النفس عن الرذائل لم يلتفتوا إليها واستهزؤا بها ، واعتقدوا أنه لا علم أنفع وأجلب للفوائدمن علمهم ، ففرحوا به . أما إذا قلنا الضمير عائد إلى الأنبياء ففيه وجهان (الأول) أن يجعل الفرح للرسل ، ومعناه أن الرسل لما رأوا من قومهم جهلا كاملا ، وإعراضاً عن الحق وعلموا سوء عاقبتهم وما يلحقهم من العقوبة على جهلهم وإعراضهم ، فرحوا بما أوتوا من العلم وشكروا الله عليه ، وحاق بالكافرين جزاء جهلهم واستهزائهم (الثانى) أن يكون المراد فرحوا بما عند الرسل من العلم فرح ضحك منه واستهزاء به ، كأنه قال استهزؤا بالبينات ، وبما جاؤا به من علم الوحى فرحين ، ويدل عليه قوله تعالى (وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون) .

قوله تعالى : ﴿ فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين ﴾ البأس شدة العذاب ومنه قوله تعالى (بعذاب بئيس) فإن قيل أى فرق بين قوله (فلم يك ينفعهم إيمانهم) وبين ما لوقيل فلم ينفعهم إيمانهم ؟ قلنا هومثل كان فى نحو قوله (ماكان لله أن يتخذ من ولد) والمعنى فلم يصح ولم يستقم أن ينفعهم إيمانهم ، فإن قيل اذكروا ضابطاً فى الوقت الذى لا ينفع الإتيان

بالإيمان فيه ، قلنا إنه الوقت الذى يعاين فيه نزول ملائكة الرحمة والعذاب ، لأن فى ذلك الوقت يصير المرء ملجأ إلى الإيمان فذلك الإيمان لا ينفع إنما ينفع مع القدرة على خلافه ، حتى يكون المرء مختاراً ، أما إذا عاينوا علامات الآخرة فلا .

ثم قال تعالى (سنة الله التى قد خلت فى عباده) والمعنى أن عدم قبول الإيمان حال اليأس سنة الله مطردة فى كل الأمم .

ثم قال (وخسر هنالك الكافرون) فقوله (هنالك) مستعار للزمان أى وخسروا وقت رؤية البأس ، والله الهادى للصواب .

تم تفسير هذه السورة يوم السبت الثانى من ذى الحجة من سنة ثلاث وستمائة من الهجرة فى بلدة هراة .

يا من لا يبلغ أدنى ما ستأثرت به من جلالك وعزتك أقصى نعوت الناعتين ، يا من تقاصرت عن الإحاطة بمبادىء أسرار كبريائه أفهام المتفكرين ، وأنظار المتأملين . لا تجعلنا بفضلك ورحمتك فى زمرة الخاسرين المبطلين . ولا تجعلنا يوم القيامة من المحرومين ، فإنك أكرم الأكرمين ، وأرحم الراحمين .

والحمد لله رب العالمين ، ، صلوات الله على سيدنا محمد النبى وآله وصحبه أجمعين .

تفسير سورة غافر

وهي سورة المؤمن، وتسمى سورة الطَّوْل

وهي مكيةٌ في قول الحسن وعطاء وعكرمة وجابر(١). وعن الحسن إلا قوله: «وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ» لأن الصلواتِ نزلت بالمدينة(٢). وقال ابن عباس وقتادة: إلا آيتين منها نزلتا بالمدينة، وهما ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ [الآية:٣٥] والتي بعدها(٣). وهي خمسٌ وثمانون آية. وقيل: ثنتان وثمانون آية(٤).

وفي «مسند» الدارمي قال: حدّثنا جعفر بن عون، عن مِسْعر، عن سعد بن إبراهيم قال: كنَّ الحواميم يُسمَّين العرائسَ(٥). ورُوي من حديث أنس أن رسولَ الله ﷺ قال: «الحواميمُ دِيباجُ القرآن»(٦). ورُوي عن ابن مسعود مثلُه. وقال الجوهري وأبو عُبيد(٧): وآل حم سورٌ في القرآن. قال ابن مسعود: آلُ حم دِيباج القرآن(٨). قال الفراء: إنما هو كقولك: آلُ فلان وآلُ فلان، كأنه نَسَبَ السورةَ كلَّها إلى حم؛ قال الكُمَيْت:

وَجَدْنا لكم في آلِ حَاميمَ آيةً ... تَأوَّلَها مِنَّا تَقيٌّ ومُعْزِبُ(٩)

---

(١) النكت والعيون ٥/ ١٤١ .

(٢) مجمع البيان ٢٤/ ١٧٨ .

(٣) النكت والعيون ٥/ ١٤١ ، وزاد المسير ٧/ ٢٠٤ . قال ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٥٤٥ : هذه السورة مكية بإجماع، وقد روي في بعض آياتها أنها مدنية، وهذا ضعيف، والأول أصح.

(٤) ذكرهما السيوطي في الإتقان ١/ ٢١٤ .

(٥) سنن الدارمي (٣٤٢٢).

(٦) أخرجه أبو الشيخ وأبو نعيم كما في الدر المنثور ٥/ ٣٤٤ .

(٧) في (د) و(م): أبو عبيدة.

(٨) أخرجه البيهقي في الشعب (٢٤٧١).

(٩) ديوان الكميت بن زيد ص١٨ ، وفيه وفي الصحاح (حمم) والخزانة ٤/٣١٨: ومعرب. قال البغدادي: يقول الشاعر: من تأوّل هذه الآية لم يسعه إلا التشيّع في آل النبي ﷺ وإبداء المودة لهم على تَقِيَّة كانت أو غير تقية. وقوله: تقيٌّ ومعرب، قال الجوهري [الصحاح (عرب)]: أعرب بحجته إذا أفصح بها ولم يتقِ أحداً.

قال أبو عُبيد[١]: هكذا رواها الأُموي بالزاي، وكان أبو عمرو يرويها بالراء. فأما قولُ العامة: الحواميم، فليس من كلام العرب.

وقال أبو عُبيدة: الحواميمُ سورٌ في القرآن على غير قياس؛ وأنشد:

وبالحواميم التي قد سُبِّعَتْ[٢]

قال: والأولى أن تُجمع بذوات حم[٣].

ورُوي أن النبي ﷺ قال: «لكلِّ شيء ثمرةٌ، وإن ثمرةَ القرآن ذواتُ حم، هنَّ روضاتٌ حِسان مُخصبات مُتجاورات، فمن أحبَّ أن يرتعَ في رياض الجنة فَلْيقرأ الحواميم»[٤]. وقال النبي ﷺ: «مَثَلُ الحواميم في القرآن كمثل الحِبَرَاتِ في الثياب» ذكرهما الثعلبي[٥].

وقال أبو عُبيد: وحدّثني حجَّاج بن محمد عن أبي مَعْشر، عن محمد بن قيس قال: رأى رجلٌ سبعَ جوارٍ حِسان مُزيَّنات في النوم، فقال: لمن أنتنَّ بارك الله فيكنَّ؟ فقلن: نحن لمن قرأنا، نحن الحواميم[٦].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ۝٢ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ۝٣ مَا يُجَٰدِلُ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى ٱلْبِلَٰدِ ۝٤﴾

قوله تعالى: ﴿حمٓ﴾ اختلف في معناه؛ فقال عكرمة: قال النبيُّ ﷺ: «حم» اسمٌ

(١) في (م): أبو عبيدة. والكلام في غريب الحديث لأبي عبيد ٤/ ٩٤ .

(٢) ذكره صاحب اللسان (حمم)، وقبله: وبالطواسين التي قد ثُلِّثتْ.

(٣) الصحاح (حمم).

(٤) أورده السيوطي في الدر المنثور ٥/ ٣٤٤ ، وعزاه لابن الضُّريس.

(٥) لم نقف عليه.

(٦) غريب الحديث ٤/ ٩٣ .

من أسماء الله تعالى، وهي مفاتيحُ خزائن ربِّك»[١] قال ابن عباس: «حم» اسمُ الله الأعظم. وعنه: «الر» و«حم» و«ن» حروفُ الرحمنُ مقطَّعة. وعنه أيضاً: اسمٌ من أسماء الله تعالى أَقسم به. وقال قتادة: إنه اسمٌ من أسماء القرآن. مجاهد: فواتحُ السُّور[٢].

وقال عطاء الخُراساني: الحاء افتتاحُ اسمه حَميدٌ وحنانٌ وحليمٌ وحكيمٌ، والميم افتتاحُ اسمه مَلِكٌ ومجيدٌ ومنَّانٌ ومُتكبِّرٌ ومصوِّرٌ[٣]؛ يدلُّ عليه ما روى أنسٌ أن أعرابيًّا سأل النبيَّ ﷺ: ما «حم» فإنَّا لا نعرفها في لساننا؟ فقال النبيُّ ﷺ: «بَدْءُ أسماء وفواتح سُوَره»[٤]. وقال الضحاك والكسائي: معناه: قُضِي ما هو كائن. كأنه أراد الإشارة إلى تهجِّي «حم»؛ لأنها تصير حُمَّ، بضم الحاء وتشديد الميم؛ أي: قُضِي ووَقَع[٥]. قال كعب بن مالك:

فلما تَلاقَينا ودارت بِنَا الرَّحى وليس لِأَمْر حمَّهُ الله مَدْفَعُ[٦]

وعنه أيضاً: إن المعنى: حُمَّ أمرُ الله، أي: قَرُبَ؛ كما قال الشاعر:

قد حُمَّ يومي فسُرَّ قومٌ قومٌ بهم غَفْلَةٌ ونَومٌ

ومنه سُمِّيت الحُمَّى؛ لأنها تُقرِّب من المَنِيَّة[٧].

والمعنى المراد: قَرُبَ نصرُه لأوليائه، وانتقامُه من أعدائه كيوم بدر. وقيل: حروف هجاء؛ قال الجَرْمي: ولهذا تُقرأ ساكنةَ الحروف، فخرجت مخرجَ التهجِّي،

---

(١) لم نقف عليه، وهو هكذا مرسل.

(٢) هذه الأقوال في تفسير الطبري ٢٠/ ٢٧٤-٢٧٥، والنكت والعيون ٥/ ١٤١، وتفسير البغوي ٤/ ٩٠.

(٣) أورده البغوي في تفسيره ٤/ ٩٠.

(٤) لم نقف عليه.

(٥) تفسير البغوي ٤/ ٩٠.

(٦) ديوان كعب بن مالك ص١٨٣.

(٧) النكت والعيون ٥/ ١٤١.

وإذا سَمَّيت سورةً بشيء من هذه الحروف أعربت؛ فتقول: قرأتُ «حمَ» فتنصب؛ قال الشاعر:

يُذَكِّرني حاميم والرُّمح شاجِرٌ فهلَّا تلا حاميمَ قَبْلَ التَّقدُّمِ[(١)]

وقرأ عيسى بن عمر الثقفي: «حمَ» بفتح الميم على معنى: اقرَأْ حم، أو لالتقاء الساكنين. وابن أبي إسحاق وأبو السَّمَّال بكسرها. والإمالة والكسر لالتقاء الساكنين[(٢)]، أو على وجه القسم. وقرأ أبو جعفر بقطع الحاء من الميم. الباقون بالوصل. وكذلك في ﴿حمٓ عٓسٓقٓ﴾ [الشورى: ١-٢]. وقرأ أبو عمرو وأبو بكر وحمزة والكسائي وخلف وابن ذكوان بالإمالة في الحاء. ورُوي عن أبي عمرو بين اللَّفظين، وهي قراءة نافع وأبي جعفر وشيبة. الباقون بالفتح مُشبعاً[(٣)].

قوله تعالى: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ ابتداء، والخبر ﴿مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾. ويجوز أن يكون «تَنْزِيلُ» خبراً لمبتدأ محذوف؛ أي: هذا «تَنْزِيلُ الْكِتَابِ»[(٤)]. ويجوز أن يكون «حم» مبتدأ و«تَنْزِيلُ» خبره، والمعنى: إن القرآنَ أنزله اللهُ، وليس منقولاً ولا مما يجوز أن يُكذَّب به.

قوله تعالى: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ﴾ قال الفراء[(٥)]: جعلها كالنعت للمعرفة، وهي نكرة. وقال الزجاج: هي خفضٌ على البدل[(٦)]. النحاس[(٧)]:

---

(١) قائله شريح بن أبي أوفى العبسي، أورده البخاري قبل الحديث (٤٨١٥)، والطبري ٢٠/ ٢٧٥، وقيل: البيت للأشتر النخعي، وقيل غير ذلك، كما في فتح الباري ٨/ ٥٥٤ .

(٢) قراءة عيسى بن عمر في إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٥ ، وقراءة أبي السمّال في المحرر الوجيز ٤/ ٥٤٦ .

(٣) السبعة ص٥٦٦ ، والتيسير ص١٩١ ، والنشر ٢/ ٧٠ .

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٥ .

(٥) في معاني القرآن ٣/ ٥ ، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٤/ ٢٦ .

(٦) معاني القرآن للزجاج ٤/ ٣٦٦ ، وفيه: «غافرِ الذنب وقابلِ التوب» على صفات الله، فأما خفض «شديدِ العقاب» فعلى البدل لأنه مما يوصف به النكرة.

(٧) إعراب القرآن ٤/ ٢٦ .

وتحقيقُ الكلام في هذا وتلخيصُه أن ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ﴾ يجوز أن يكونا معرفتين على أنهما لِمَا مضَى فيكونا نعتين، ويجوز أن يكونا للمستقبل والحال فيكونا نكرتين، ولا يجوز أن يكونا نعتين على هذا، ولكن يكون خَفْضُها على البدل، ويجوز النصب على الحال، فأما «شديدِ العقابِ» فهو نكرةٌ، ويكون خفضُه على البدل.

قال ابن عباس: «غَافِرِ الذَّنْبِ» لمن قال: «لا إله إلا الله» «وقَابِلِ التَّوْبِ» ممن قال: «لا إله إلا الله» «شَدِيدِ العقابِ» لمن لم يقل: «لا إله إلا الله»(١).

وقال ثابت البُنَاني: كنتُ إلى سرادق مُصْعَب بن الزبير في مكان لا تمرُّ فيه الدوابُّ، قال: فاستفتحت ﴿حمٓ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾ فمر عليَّ رجلٌ على دابة، فلما قلت: «غَافِرِ الذَّنْبِ» قال: قل: يا غافرَ الذنب، اغفِرْ لي ذنبي، فلما قلت: «قَابِلِ التوْبِ» قال: قل: يا قابلَ التوب، تقبَّل توبتي، فلما قلت: «شَدِيدِ العقابِ» قال: قلْ: يا شديدَ العقاب، اعفُ عني، فلما قلتُ: «ذِي الطَّوْلِ» قال: قل: يا ذا الطَّول، طُلْ عليّ بخير؛ فقمتُ إليه فَأُخِذَ ببصري، فالتفتُّ يميناً وشمالاً فلم أرَ شيئاً(٢).

وقال أهلُ الإشارة: «غَافِرِ الذَّنْبِ» فَضْلاً «وَقَابِلِ التَّوبِ» وعداً «شَديدِ العِقَابِ» عدلاً «لا إله إلا هو إليه المصيرُ» فرداً.

ورُوي عن عمر بن الخطاب ﷺ أنه افتقد رجلاً ذا بأس شديد من أهل الشام؛ فقيل له: تتابعَ في هذا الشَّراب؛ فقال عمر لكاتبه: اكتبْ: من عمرَ إلى فلان، سلامٌ عليك، وأنا أحمدُ اللهَ إليك الذي لا إله إلا هو ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ * حمٓ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِي ٱلطَّوۡلِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾ ثم ختمَ الكتابَ، وقال لرسوله: لا تدفعْه إليه حتى تَجِدَهُ صاحياً، ثم أمر مَن عنده بالدُّعاء له بالتوبة، فلما أتَتْه الصحيفةُ جعل يقرؤها ويقول:

(١) تفسير البغوي ٤/ ٩٠.

(٢) أخرجه أبو نعيم في الحلية ٢/ ٣٢٨ بنحوه.

قد وعدني الله أن يغفِرَ لي، وحذَّرني عِقابَه، فلم يبرحْ يُرَدِّدها حتى بكى، ثم نزع فأحسن النَّزع وحسنت توبته. فلما بلغ عمرَ أمرُه قال: هكذا فاصنعوا، إذا رأيتم أحدَكم قد زلَّ زلَّةً، فسدِّدوه وادعوا اللهَ له أن يتوبَ عليه، ولا تكونوا أعواناً للشياطين عليه[١].

و«التَّوْب» يجوز أن يكون مصدر تابَ يتوبُ تَوْباً، ويَحتمِلُ أن يكون جمعَ توبة، نحو دَوْمَة ودَوْم وعَزْمة وعَزْم؛ ومنه قوله:

فَيَخْبو ساعَةً ويَهُبُّ ساعا[٢]

ويجوز أن يكون التوبُ بمعنى التوبة. قال أبو العباس: والذي يسبق إلى قلبي أن يكون مصدراً؛ أي: يقبل هذا الفعل، كما تقول: قال قولاً، وإذا كان جمعاً فمعناه: يقبل التوبات. ﴿ذِى ٱلطَّوْلِ﴾ على البدل [لأنه نكرة] وعلى النعت، لأنه معرفة[٣].

وأصل الطول الإنعام والفضل يقال منه: اللهم طُلْ علينا، أي: أنعم وتفضَّل. قال ابن عباس: «ذِي الطَّوْلِ» ذي النعم. وقال مجاهد: ذي الغنى والسَّعة[٤]؛ ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا﴾ [النساء: ٢٥] أي: غِنًى وسَعَةً. وعن ابن عباس أيضاً: «ذِي الطَّوْلِ» ذي الغِنى عمن لا يقول: لا إله إلا الله[٥]. وقال عكرمة: ﴿ذِى ٱلطَّوْلِ﴾ ذي المَنّ[٦].

قال الجوهري[٧]: والطَّوْل بالفتح المنّ؛ يقال منه: طال عليه وتطوَّل عليه، إذا

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية ٤/ ٩٧ بنحوه.

(٢) قائله القطامي، وهو في ديوانه ص٣٤ ، وصدره: وكنا كالحريق أصاب غابا.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٦ ، وما بين حاصرتين منه.

(٤) النكت والعيون ٥/ ١٤٢ ، وقول مجاهد أخرجه الطبري ٢٠/ ٢٧٨ .

(٥) تفسير البغوي ٤/ ٩٠ .

(٦) النكت والعيون ٥/ ١٤٢ .

(٧) في الصحاح (طول).

امتنَّ عليه. وقال محمد بن كعب: «ذِي الطَّوْلِ» ذي التفضُّل؛ قال الماوردي(١): والفرق بين المَنِّ والتفضُّل أن المنَّ عفوٌ عن ذنب. والتفضل إحسانٌ غيرُ مُستَحَق. والطَّول مأخوذٌ من الطُّول، كأنه طال بإنعامه على غيره. وقيل: لأنه طالت مُدَّة إنعامه.

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي: المرجع.

قوله تعالى: ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ سجَّل سبحانه على المُجادِلين في آيات الله بالكُفر، والمراد الجِدالُ بالباطل؛ من الطَّعن فيها، والقَصْد إلى إدحاض الحقِّ، وإطفاءِ نور الله تعالى. وقد دلَّ على ذلك في قوله تعالى: ﴿وَجَٰدَلُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ﴾ [غافر: ٥].

فأما الجِدال فيها لإيضاح مُلتبَسها، وحلِّ مُشْكِلها، ومُقادحة أهل العلم في استنباط مَعانيها، وردِّ أهل الزَّيْغ بها وعنها، فأعظمُ جهاد في سبيل الله. وقد مضى هذا المعنى في «البقرة» عند قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِۦمَ فِى رَبِّهِۦٓ﴾ [الآية: ٢٥٨] مستوفى.

﴿فَلَا يَغْرُرْكَ﴾ وقُرئ: «فَلَا يَغُرَّكَ»(٢)، ﴿تَقَلُّبُهُمْ﴾ أي: تصرُّفهم ﴿فِى ٱلْبِلَٰدِ﴾ فإني وإن أمهلتُهم لا أُهمِلُهم، بل أُعاقبهم. قال ابن عباس: يُريد تجارتهم من مكة إلى الشام وإلى اليمن. وقيل: «لَا يَغْرُرْكَ» ما هم فيه من الخير والسَّعة في الرزق، فإنه متاعٌ قليلٌ في الدنيا. وقال الزجاج(٣): «لَا يَغْرُرْكَ» سلامتُهم بعد كُفرهم، فإن عاقبتَهم الهَلاك. وقال أبو العالية: آيتان ما أشدّهما على الذين يُجادلون في القرآن: قوله: ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾، وقوله: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾(٤) [البقرة: ١٧٦].

---

(١) في النكت والعيون ٥/ ١٤٢ ، وقول محمد بن كعب الذي قبله منه.

(٢) قرأ بها زيد بن علي وعبيد بن عمير، كما في البحر المحيط ٧/ ٤٤٩ .

(٣) في معاني القرآن ٤/ ٣٦٦ .

(٤) تفسير البغوي ٤/ ٩١ .

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَٰدَلُوا بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ۝٥ وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۝٦ ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَٱتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ۝٧ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٨ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۝٩﴾

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ على تأنيث الجماعة، أي: كذَّبتِ الرُّسُلَ[١]. ﴿وَٱلْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ أي: والأُمم الذين تحزَّبوا على أنبيائهم بالتكذيب، نحو عاد وثمود فَمن بعدَهم[٢].

﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ﴾ أي: ليحبسوه ويُعذِّبوه. وقال قتادة والسُّدِّي: لِيقتلوه[٣] والأَخْذُ يَرِد بمعنى الإهلاك؛ كقوله: ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ [الحج: ٤٤]. والعرب تُسمِّي الأسيرَ الأخيذ؛ لأنه مأسورٌ للقتل؛ وأنشد قطرب قول الشاعر:

فإمَّا تأخُذوني تَقْتُلوني ... فكَمْ مِنْ آخِذٍ يَهْوَى خُلودِي[٤]

وفي وقت أَخْذهم لرسولهم قولان: أحدهما: عند دعائه لهم. الثاني: عند نزول

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٦ .

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٩١ .

(٣) النكت والعيون ٥/ ١٤٣ .

(٤) جاء الشطر الثاني في النسخ الخطية: ومن أخذ فليس إلى خلودي، وضبط في (ز): أَخْذٍ، ووضع عليها «صح». والمثبت من (م)، وهو كذلك في الدر المصون ٩/ ٤٥٨ ، والبيت أورده الماوردي في النكت والعيون ٥/ ١٤٣ (والكلام منه) وعجز البيت فيه: ومن يأخذ فليس إلى خلودي.

العذاب بهم.

﴿وَجَٰدَلُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّ﴾ أي: لِيُزيلوا. ومنه: مكان دَحْض، أي: مَزْلَقة[(١)]، والباطل داحض؛ لأنه يَزْلَق ويَزِلّ فلا يستقر. قال يحيى بن سلّام: جادَلوا الأنبياء بالشِّرك لِيبطلوا به الإيمان[(٢)]. ﴿فَأَخَذۡتُهُمۡۖ﴾ أي: بالعذاب. ﴿فَكَيۡفَ كَانَ عِقَابِ﴾ أي: عاقبة الأمم المُكذِّبة. أي: أليس وجدوه حقًّا؟!.

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ حَقَّتۡ﴾ أي: وجبت ولَزِمتْ؛ مأخوذٌ من الحق لأنه اللازم[(٣)]. ﴿كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ هذه قراءةُ العامة على التوحيد. وقرأ نافع وابن عامر: «كَلِمَاتُ» جمعاً[(٤)].

﴿عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمۡ﴾ قال الأخفش[(٥)]: أي: لأنهم وبأنهم. قال الزجاج: ويجوز: إنهم بكسر الهمزة[(٦)]. ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ أي: المُعذَّبون بها، وتمَّ الكلام، ثم ابتدأ فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْۖ﴾ ويُروى: أن حَمَلَة العرش أرجلُهم في الأرض السُّفلى ورؤوسهم قد خَرقت العرش، وهم خشوعٌ لا يرفعون طَرْفهم، وهم أشرافُ الملائكة وأفضلُهم. ففي الحديث: «إن اللهَ تبارك وتعالى أمرَ جميعَ الملائكة أن يَغْدُوا ويروحوا بالسَّلام على حَمَلةِ العرش تفضيلاً لهم على سائر الملائكة»[(٧)].

ويقال: خلقَ اللهُ العرشَ من جوهرة خضراء، وبين القائمتين من قوائمه خَفَقان الطير المسرع ثمانين ألف عام. وقيل: حولَ العرش سبعون ألف صفٍّ من الملائكة

(١) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٦.

(٢) النكت والعيون ٥/ ١٤٤.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٦.

(٤) السبعة ص٥٦٧، والتيسير ص١٢٢.

(٥) في معاني القرآن ٢/ ٦٧٥، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٤/ ٢٦ وما بعده منه.

(٦) يعني في اللغة لا في التلاوة، والكلام في معاني القرآن للزجاج ٤/ ٣٦٧.

(٧) ذكره الزمخشري في الكشاف ٣/ ٤٥، ولم نقف عليه عند غيره.

يَطوفون به مُهَلِّلين مُكَبِّرين، ومِن ورائهم سبعون ألف صفٍّ قيام، قد وَضَعوا أيديَهم على عواتقهم، ورافعين أصواتهم بالتهليل والتكبير، ومِن ورائهم مئة ألف صفٍّ، قد وضعوا الأيمان على الشمائل، ما منهم أحد إلا وهو يُسبِّح بما لا يُسبِّح[١] به الآخر.

وقرأ ابن عباس: «العُرْش» بضم العين[٢]؛ ذَكَر جميعه الزمخشري رحمه الله.

وقيل: اتصل هذا بذكر الكفار؛ لأن المعنى ـ والله أعلم ـ: ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ﴾ يُنزِّهون الله عزَّ وجلَّ عما يقوله الكفار ﴿وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي: يسألون لهم المغفرة من الله تعالى[٣].

وأقاويلُ أهل التفسير على أن العرش هو السرير، وأنه جسم مُجَسَّم خلقه اللهُ عزّ وجلّ، وأمرَ ملائكةً بحمله، وتَعبَّدهم بتعظيمه والطَّوافِ به؛ كما خلق في الأرض بيتاً وأمر بني آدم بالطواف به واستقباله في الصلاة[٤].

وروى ابن طَهْمان، عن موسى بن عقبة، عن محمد بن المنكدر، عن جابر بن عبد الله الأنصاري، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «أُذِنَ لي أنْ أُحَدِّث عن مَلَكٍ من ملائكة الله من حَمَلة العرش ما بين شحمةِ أُذنه إلى عاتقه مسيرُ سبع مئة عام» ذكره البيهقي[٥]، وقد مضى في «البقرة» في آية الكرسي عِظَم العرش، وأنه أعظمُ المخلوقات[٦].

وروى ثور بن يزيد، عن خالد بن مَعْدان، عن كعب الأحبار أنه قال: لما خَلَقَ اللهُ تعالى العرشَ قال: لن يخلقَ اللهُ خلقاً أعظمَ مني؛ فاهتزَّ فطوَّقه الله بحية، للحية

(١) في النسخ الخطية: بما سبّح، والمثبت من (م)، وهو الموافق للكشاف ٣/ ٤١٥ ، والكلام منه كما سيذكر المصنف.

(٢) القراءات الشاذة ص١٣٢ .

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٦-٢٧ .

(٤) الأسماء والصفات ٢/ ٢٧٢ .

(٥) في الأسماء والصفات (٨٤٦).

(٦) ٤/ ٢٧٥ وما بعدها.

سبعون ألفِ جناح، في الجناح سبعون ألفِ ريشة، في كلِّ ريشة سبعون ألف وجه، في كلِّ وجه سبعون ألف فم، في كلِّ فم سبعون ألف لسان. يخرجُ من أفواهها في كلِّ يوم من التسبيح عَدَدَ قَطْر المطر، وعددَ ورق الشجر، وعددَ الحصى والثرى، وعددَ أيام الدنيا، وعددَ الملائكة أجمعين، فالتَوَت الحيةُ بالعرش، فالعرشُ إلى نصف الحية وهي ملتوية به[١].

وقال مجاهد: بين السماء السابعة وبين العرش سبعون ألف حجاب، حجاب نور وحجاب ظُلْمة، وحجاب نور وحجاب ظُلْمة[٢].

﴿رَبَّنَا﴾ أي: يقولون: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ أي: وَسِعَتْ رحمتُك وعِلْمُك كلَّ شيء، فلما نقل الفعل عن الرحمة والعلم نصب على التفسير[٣]. ﴿فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا﴾ أي: من الشِّرك والمعاصي ﴿وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ﴾ أي: دين الإسلام. ﴿وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ أي: اصرفه عنهم حتى لا يَصِلَ إليهم.

قال إبراهيم النخعي: كان أصحابُ عبد الله يقولون: الملائكةُ خيرٌ من ابن الكَوَّاء؛ هم يستغفرون لمن في الأرض وابن الكَوَّاء يشهد عليهم بالكفر[٤]، قال إبراهيم: وكانوا يقولون: لا يَحْجُبون الاستغفار عن أحد من أهل القبلة. وقال مُطَرِّف ابن عبد الله: وجدنا أنصحَ عباد الله لعباد الله الملائكة، ووجدنا أغشَّ عبادِ الله لعباد الله الشيطان، وتلا هذه الآية[٥].

وقال يحيى بن معاذ الرازي لأصحابه في هذه الآية: افهموها، فما في العالم جنةٌ أرجى منها؛ إنَّ مَلَكاً واحداً لو سأل الله أن يغفرَ لجميع المؤمنين لَغفرَ لهم، كيف

---

(١) هذا الخبر من الإسرائيليات التي يرويها كعب الأحبار عن كتب أهل الكتاب.

(٢) أخرجه البيهقي في الأسماء والصفات (٨٥٦).

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٧ ، وتفسير البغوي ٤/ ٩٣ بنحوه.

(٤) أخرجه أبو عبيد وابن المنذر كما في الدر المنثور ٦/ ٣ ، وعبد الله هو ابن مسعود ﷺ، وابن الكوَّاء رجل من الخوارج، كما في تفسير أبي الليث ٢/ ١٦٢ والخبر فيه.

(٥) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ١٧٨-١٧٩ .

وجميعُ الملائكة وَحَملةُ العرش يستغفرون للمؤمنين. وقال خلف بن هشام البزار القارئ: كنتُ أقرأُ على سليم بن عيسى فلما بلغتُ: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بكى، ثم قال: يا خلف، ما أكرمَ المؤمن على الله، نائماً على فراشه والملائكة يستغفرون له.

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾ يُروى أن عمر بن الخطاب قال لكعب الأحبار: ما جنات عدن. قال: قصورٌ من ذهب في الجنة يدخلُها النبيُّون والصِّدِّيقون والشهداء وأئمةُ العدل[1].

﴿ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ﴾ «التي» في محل نصب نعتاً للجنات .﴿وَمَن صَلَحَ﴾ «مَنْ» في محل نصب عطفاً على الهاء والميم في قوله: «وَأَدْخِلْهُم»[2]. «وَمَنْ صَلَحَ» بالإيمان.

﴿مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ﴾ وقد مضى في «الرعد» نظيرُ هذه الآية[3]. قال سعيد ابن جُبير: يدخلُ الرجلُ الجنة، فيقول: يا رب، أين أبي وجدِّي وأُمي؟ وأين ولدي وولدُ ولدي؟ وأين زوجاتي؟ فيقال: إنهم لم يعملوا كعملك؛ فيقول: يارب، كنتُ أعملُ لي ولهم؛ فيقال: أدخِلوهم الجنة. ثم تلا: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ﴾ إلى قوله: ﴿وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ﴾[4]. وَيقربُ من هذه الآية قوله: ﴿والَّذين آمَنُوا وأَتْبعناهم ذُرِّيَّاتِهم بإيمانٍ ألْحقْنا بهم ذُرِّيَّاتهم﴾[5] [الطور: ٢١].

قوله تعالى: ﴿وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ قال قتادة: أي: وَقِهم ما يسوءهم، وقيل: التقدير: وَقِهم عذابَ السيئات[6]، وهو أمرٌ من: وَقَاه الله يَقِيه وِقايةً؛ بالكسر؛ أي: حَفِظَه .﴿وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ﴾ أي: بدخول الجنة ﴿وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ أي: النجاة الكبيرة.

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ١٧٨ .

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٧ .

(٣) ١٢/ ٦٠ .

(٤) أخرجه الطبري ٢٠/ ٢٨٦ .

(٥) هذه قراءة أبي عمرو. السبعة ص٦١٢ ، والتيسير ص٢٠٣ .

(٦) المحرر الوجيز ٤/ ٥٤٨ بنحوه.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَـٰنِ فَتَكْفُرُونَ ۝١٠ قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ۝١١ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُواْ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ ۝١٢﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ قال الأخفش[1]: «لَمَقْتُ» هذه لام الابتداء وقعت بعد «يُنَادَوْنَ» لأن معناه: يقال لهم، والنداء قول. وقال غيره: المعنى: يقال لهم: «لَمَقْتُ اللهِ» إيَّاكم في الدنيا ﴿إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَـٰنِ فَتَكْفُرُونَ﴾ «أَكْبَرُ» من مقت بعضِكم بعضاً يومَ القيامة؛ لأن بعضَهم عادَى بعضاً وَمقَتَهُ يومَ القيامة، فأذعنوا عند ذلك، وخَضَعوا وطلبوا الخُروجَ من النار[2].

وقال الكلبي: يقول كلُّ إنسان من أهل النار لنفسه: مَقَتُّكِ يا نفس؛ فتقول الملائكة لهم وهم في النار: لَمقتُ الله إيَّاكم إذ أنتم في الدنيا وقد بُعِثَتْ[3] إليكم الرُّسل فلم تؤمنوا أشدُّ من مَقْتكم أَنْفُسَكم اليوم.

وقال الحسن: يُعْطَون كتابَهم، فإذا نظروا إلى سيئاتكم مقتوا أنفسَهم، فينادَوْن «لَمقْتُ الله» إيَّاكم في الدنيا ﴿إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَـٰنِ فَتَكْفُرُونَ﴾ ﴿أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ اليوم. وقال معناه مجاهد[4]. وقال قتادة: المعنى: «لَمَقْتُ اللهِ» لكم «إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الإيمانِ فَتَكْفُرُونَ» «أكبرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أنْفُسَكُمْ» إذ عاينتم النار[5]. فإن قيل: كيف يَصِحُّ أن يَمقُتوا أنْفُسَهم؟ ففيه وجهان: أحدهما: أنهم أحلوها بالذُّنوب محلَّ

(١) في معاني القرآن ٢/ ٦٧٥.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٧.

(٣) في (م): بعث.

(٤) معاني القرآن للنحاس ٦/ ٢٠٦-٢٠٧.

(٥) أخرج قول مجاهد بنحوه وقول قتادة الطبري ٢٠/ ٢٨٨.

الممقوت. الثاني: أنهم لما صاروا إلى حال زال عنهم الهوى وعلموا أن نفوسَهم هي التي أوْبقتهم(١) في المعاصي مَقَتُوها(٢).

وقال محمد بن كعب القُرَظي: إنَّ أهل النار لمَّا يَئِسوا مما عند الخَزَنةِ وقال لهم مالك: ﴿إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾ [الزخرف:٧٧] على ما يأتي. قال بعضُهم لبعض: يا هؤلاء، إنه قد نزل بكم من العذاب والبلاء ما قد ترون، فهلمَّ فلنصبر، فلعلَّ الصبر ينفعنا كما صبر أهلُ الطاعة على طاعة الله، فنفعهم الصبرُ إذ صبروا، فأجمعوا رأيَهم على الصبر، فصبروا، فطال صبرُهم، ثم جَزِعوا فنادَوْا ﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾ أي: من ملجأ؛ فقال إبليسُ عند ذلك: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ﴾ إلى قوله: ﴿مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ﴾ يقول: بمغنٍ عنكم شيئاً ﴿إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ﴾ [إبراهيم:٢٢] فلما سَمِعوا مَقَالته مَقَتُوا أنفُسَهم. قال: فنُودوا: ﴿لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ﴾ إلى قوله: ﴿فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ﴾ قال: فردَّ عليهم: ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ﴾ ذكره ابن المبارك(٣).

قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ﴾ اختلف أهلُ التأويل في معنى قولهم: ﴿أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ﴾ فقال ابن مسعود وابن عباس وقتادة والضحاك: كانوا أمواتاً في أصلاب آبائهم، ثم أحياهم، ثم أماتهم المَوْتةَ التي لابدَّ منها في الدنيا، ثم أحياهم للبعث والقيامة، فهاتان حياتان وموتتان، وهو قوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ [البقرة:٢٨].

---

(١) في (م): أبقتهم.

(٢) النكت والعيون ٥/ ١٤٥-١٤٦ .

(٣) وأخرجه الطبري ١٣/ ٦٢٧ و٦٣١ من طريق ابن المبارك.

وقال السدي: أُميتوا في الدنيا، ثم أَحياهم في قبورهم[١] للمسألة، ثم أُميتوا، ثم أُحيوا في الآخرة[٢]. وإنما صار إلى هذا؛ لأن لفظَ الميت لا ينطلق في العُرف على النطفة.

واستدلَّ العلماء من هذا في إثبات سؤال القبر، ولو كان الثوابُ والعقابُ للروح دون الجسد، فما معنى الإحياء والإماتة؟ والروحُ عند من يقصر أحكامَ الآخرة على الأرواح لا تموتُ ولا تتغير ولا تفسدُ، وهو حيٌّ لنفسه لا يتطرَّق إليه موتٌ ولا غشية ولا فَناء.

وقال ابن زيد في قوله: ﴿رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثۡنَتَيۡنِ﴾ الآية قال: خلقَهم في ظهر آدم، وأخرجهم[٣] وأحياهم، وأخذَ عليهم المِيثاق، ثم أماتَهم، ثم أحياهم في الدنيا، ثم أماتهم[٤]. وقد مضى هذا في «البقرة»[٥].

﴿فَٱعۡتَرَفۡنَا بِذُنُوبِنَا﴾ اعترفوا حيث لا ينفعهم الاعتراف ونَدِمُوا حين لا ينفع[٦] النَّدم.

﴿فَهَلۡ إِلَىٰ خُرُوجٖ مِّن سَبِيلٖ﴾ أي: هل نُرَدُّ إلى الدنيا لِنعملَ بطاعتك؛ نظيره: ﴿هَلۡ إِلَىٰ مَرَدّٖ مِّن سَبِيلٖ﴾ [الشورى: ٤٤]، وقوله: ﴿فَٱرۡجِعۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا﴾ [السجدة: ١٢] وقوله: ﴿يَٰلَيۡتَنَا نُرَدُّ﴾ الآية [الأنعام: ٢٧].

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُۥ كَفَرۡتُمۡ﴾ «ذلكم» في موضع رفع، أي: الأمر «ذَلكُم» أو «ذَلِكُم» العذاب الذي أنتم فيه بكفركم. وفي الكلام متروكٌ تقديره: فأُجيبوا بأن لا سبيلَ إلى الردّ. وذلك لأنكم «إذا دُعِيَ الله» أي: وُحِّدَ الله

(١) في (م): القبور.

(٢) أخرج الأقوال السالفة الطبري ٢٠/ ٢٩٠-٢٩٢.

(٣) في النسخ الخطية: واستخرجهم، والمثبت من (م).

(٤) ذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٥٤٩ بنحوه، وقال: هذا قول ضعيف، لأن الإحياء فيه ثلاث مرات.

(٥) ١/ ٣٧٤-٣٧٥.

(٦) في (م): حيث لا ينفعهم.

«وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ» وأنكرتم أن تكون الألوهية له خاصة، وإن أشركَ به مشركٌ صدَّقتموه وآمنتم بقوله[١].

قال الثعلبي: وسمعتُ بعضَ العلماء يقول: ﴿وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ﴾ بعد الردّ إلى الدنيا لو كان ﴿تُؤْمِنُوا۟﴾ تُصدِّقوا المُشرِكَ؛ نظيره: ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ﴾ [الأنعام: ٢٨] ﴿فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ﴾ عن أن يكون له صاحبة أو ولد.

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا ۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ فَٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿١٤﴾ رَفِيعُ ٱلدَّرَجَـٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ﴿١٥﴾ يَوْمَ هُم بَـٰرِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ ۚ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ﴾ أي: دلائلَ توحيده وقُدرته ﴿وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا﴾ جَمَعَ بين إظهارِ الآيات وإنزال الرِّزق؛ لأن بالآيات قِوامَ الأديان، وبالرِّزق قِوامَ الأبدان. وهذه الآياتُ هي السماوات والأرَضون وما فيهما وما بينهما من الشمس والقمر والنجوم والرياح والسحاب والبحار والأنهار والعيون والجبال والأشجار وآثار قوم هَلَكوا.

﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ﴾ أي: ما يَتَّعِظُ بهذه الآياتِ، فيوحِّد الله ﴿إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾ أي: يرجع إلى طاعة الله ﴿فَٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ﴾ أي: اعبدوه ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ أي: العبادة. وقيل: الطاعة[٢]. ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ عبادةَ الله، فلا تعبدوا أنتم غيرَه.

قوله تعالى: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَـٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ﴾ «ذُو العَرْش» على إضمار مبتدأ. قال

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٧، وتفسير البغوي ٤/ ٩٣.

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٩٤ بنحوه.

الأخفش[١]: ويجوز نصبُه على المدح.

ومعنى «رَفِيعُ الدَّرَجات» أي: رفيع الصِّفات. وقال ابن عباس والكلبي وسعيد بن جُبير: رَفَعَ[٢] السماواتِ السَّبع. وقال يحيى بن سلَّام: هو رفعه درجات[٣] أوليائه في الجنة. فـ«رَفِيعُ» على هذا بمعنى رافع؛ فَعِيل بمعنى فاعل. وهو على القول الأول من صفات الذات، ومعناه: الذي لا أرفع قدراً منه، وهو المُستَحِقُّ لدرجات المَدْحِ والثناء، وهي أصنافُها وأبوابها لا مُستَحِقَّ لها غيره؛ قاله الحَلِيمي[٤]. وقد ذكرناه في «الكتاب الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى»[٥] والحمد لله.

«ذُو العَرْشِ» أي: خالقه ومالِكُه، لا أنه مُحتاج إليه. وقيل: هو من قولهم: ثُلَّ عرشُ فلان، أي: زال مُلكه وعِزُّه[٦]، فهو سبحانه «ذُو العَرْش» بمعنى ثبوت مُلكه وسُلطانه، وقد بيَّناه في «الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى»[٧].

﴿يُلْقِي ٱلرُّوحَ﴾ أي: الوحي والنبوة ﴿عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ وسُمِّي ذلك روحاً لأن الناس يَحيون به؛ أي: يَحيَوْن من موت الكفر كما تحيا الأبدانُ بالأرواح[٨]. وقال ابن زيد: الرُّوح القرآن؛ قال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَاۚ﴾[٩] [الشورى: ٥٢]. وقيل: الروح جبريل؛ قال الله تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ . عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ [الشعراء: ١٩٣-١٩٤]، وقال: ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ﴾ [النحل: ١٠٢].

﴿مِنْ أَمْرِهِۦ﴾ أي: من قوله. وقيل: من قَضائه. وقيل: «مِنْ» بمعنى الباء، أي:

---

(١) في معاني القرآن ٢/ ٦٧٦، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٤/ ٢٨.

(٢) في النسخ: رفيع، والمثبت من النكت والعيون ٥/ ١٤٧. والكلام منه.

(٣) في (م): رفعة درجة.

(٤) في المنهاج في شعب الإيمان ١/ ١٩٠.

(٥) ص١٧٧.

(٦) الصحاح (عرش) بنحوه.

(٧) ص١٨٣.

(٨) تفسير البغوي ٤/ ٩٤.

(٩) أخرجه الطبري ٢٠/ ٢٩٥.

بأمره[١]. ﴿عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ وهم الأنبياءُ، يشاء هو أن يكونوا أنبياءَ، وليس لأحد فيهم مشيئة.

﴿لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ﴾ أي: إنما يبعث الرسول لإنذار يوم البعث. فقوله: «لِيُنْذِرَ» يرجع إلى الرسل[٢]. وقيل: أي: لينذر اللهُ ببعثه الرُّسلَ إلى الخلائق «يَوْمَ التَّلَاقِ». وقرأ ابن عباس والحسن وابن السَّمَيْفَع: «لِتُنْذِرَ» بالتاء خطاباً للنبي عليه الصلاة والسلام[٣].

«يَوْمَ التَّلَاقِ» قال ابن عباس وقتادة: يوم تلتقي أهلُ السماء وأهل الأرض. وقال قتادة أيضاً وأبو العالية ومقاتل: يلتقي فيه الخَلْق والخالق. وقيل: العابدون والمعبودون. وقيل: الظالم والمظلوم. وقيل: يَلْقى[٤] كل إنسان جزاءَ عمله. وقيل: يلتقي الأولون والآخرون على صعيدٍ واحد؛ رُوي معناه عن ابن عباس[٥]. وكلُّه صحيح المعنى.

﴿يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ﴾ يكون بدلاً من «يوم» الأول[٦]. وقيل: «هم» في موضع رفع بالابتداء، و«بَارِزُونَ» خبرُه، والجملة في موضع خفض بالإضافة؛ فلذلك حذف التنوين من «يومَ» وإنما يكون هذا عند سيبويه إذا كان الظرف بمعنى إذ؛ تقول: لقيتك يومَ زيدٌ أميرٌ. فإن كان بمعنى إذا لم يَجُزْ، نحو: أنا ألقاك يومَ زيدٌ أميرٌ[٧].

ومعنى «بَارِزُونَ» خارجون من قبورهم لا يسترهم شيء[٨]؛ لأن الأرضَ يومئذ

(١) زاد المسير ٧/ ٣١٠-٣١١ .

(٢) في (م): الرسول.

(٣) القراءات الشاذة ص١٣٢ ، وإعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٨ .

(٤) في النسخ الخطية: يلتقي، والمثبت من (م).

(٥) هذه الأقوال في النكت والعيون ٥/ ١٤٨ ، وتفسير البغوي ٤/ ٩٤ ، وزاد المسير ٧/ ٣١١ .

(٦) المحرر الوجيز ٤/ ٥٥١ .

(٧) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٨ .

(٨) تفسير البغوي ٥/ ٩٤ .

قاع صفصف، لا عوج فيها ولا أمْتًا على ما تقدَّم في «طه» بيانه[١].

﴿لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ﴾ قيل: إن هذا هو العامل في «يومَ هم بارِزُون»، أي: لا يخفى عليه شيء منهم ومن أعمالهم «يوم هم بارِزُونَ»[٢].

﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾ وذلك عند فَناء الخَلْق. وقال الحسن: هو السائل تعالى وهو المُجيبُ[٣]؛ لأنه يقول ذلك حين لا أحد يُجيبه، فَيُجيب نَفْسه سبحانه فيقول: ﴿لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾.

النحاس[٤]: وأصحُّ ما قيل فيه ما رواه أبو وائل عن ابن مسعود قال: يُحشَرُ الناسُ على أرض بيضاءَ مثل الفضة لم يُعْصَ اللهُ جلّ وعزّ عليها، فيؤمر منادٍ ينادي: «لِمَن المُلْكُ اليوم» فيقول العباد مؤمنهم وكافرهم: «للهِ الواحدِ القهَّارِ» فيقول المؤمنون هذا سروراً وتلذُّذاً، ويقول الكافرون غمًّا وانقياداً وخُضوعاً. فأما أن يكون هذا والخَلْق غير موجودين فبعيد؛ لأنه لا فائدةَ فيه، والقولُ صحيح عن ابن مسعود، وليس هو مما يُؤخذ بالقياس ولا بالتأويل.

قلت: والقولُ الأول ظاهرٌ جدًّا؛ لأن المقصودَ إظهارُ انفراده تعالى بالمُلك عند انقطاع دعاوى المُدَّعين وانتساب المُنتسبين؛ إذ قد ذهب كلُّ مَلِك ومُلْكه ومُتكبِّر ومُلكه، وانقطعت نسبهم ودعاويهم، ودلَّ على هذا قولُه الحقّ عند قَبْضِ الأرواح وطيّ السماء: «أنا الملِك، أين ملوكُ الأرض» كما تقدَّم في حديث أبي هريرة[٥]، وفي حديث ابن عمر: «ثم يطوي الأرض بشماله، ثم يقول: أنا الملك، أين الجبَّارون، أين المتكبِّرون»[٦]. وعنه: قوله سبحانه: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾ هو انقطاعُ زمن الدنيا وبعدَه يكون البعثُ والنَّشْر.

---

(١) ١٤/١٣٦ وما بعدها.

(٢) المحرر الوجيز ٤/٥٥١ بنحوه.

(٣) المصدر السابق.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٤/٢٨-٢٩ .

(٥) ١/٢١٨ و١٨/٣٠٨ ، وهو عند البخاري (٧٣٨٢)، ومسلم (٢٧٨٧).

(٦) أخرجه البخاري (٧٤١٢)، ومسلم (٢٧٨٨).

قال محمد بن كعب: قوله سبحانه: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾ بين النفختين حين فني الخلائق وبقي الخالق فلا يرى غير نفسه مالكاً ولا مملوكاً فيقول: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾ فلا يُجيبه أحد؛ لأن الخَلْقَ أمواتٌ فيجيب نفسَه فيقول: ﴿لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ لأنه بقي وحده وقهر خَلْقَه[1]. وقيل: إنه ينادي منادٍ فيقول: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾ فيجيبه أهل الجنة: ﴿لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ فالله أعلم. ذكره الزمخشري[2].

قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾ أي: يقال لهم إذا أقرُّوا بالملك يومئذ لله وحده: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾ من خيرٍ أو شرٍّ. ﴿لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ﴾ أي: لا يُنقَص أحدٌ شيئاً مما عَمِلَه، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ أي: لا يحتاجُ إلى تفكُّرٍ وعَقْدِ يدٍ كما يفعله الحُسَّاب؛ لأنه العالم الذي لا يَعزُبُ عن عِلْمه شيء، فلا يُؤخِّرُ جزاءَ أحدٍ للاشتغال بغيره؛ وكما يرزقهم في ساعة واحدة يُحاسبهم كذلك في ساعة واحدة. وقد مضى هذا المعنى في «البقرة»[3]. وفي الخبر: لا ينتصف النهار حتى يقيل أهلُ الجنة في الجنة وأهلُ النار في النار[4].

قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْءَازِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٢٠﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا۟ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٢١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَكَفَرُوا۟ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْءَازِفَةِ﴾ أي: يوم القيامة. سُمِّيت بذلك لأنها قريبة؛ إذْ

(١) النكت والعيون ٥/١٤٨ .

(٢) في الكشاف ٣/ ٤٢٠ .

(٣) ٣/٣٥٩ وما بعدها.

(٤) قاله ابن عباس وابن مسعود ﷺ كما سلف ١٥/ ٣٩٨ .

كل ما هو آتٍ قريب. وأَزِفَ فلانٌ، أي: قرب يأْزَفُ أزَفًا؛ قال النابغة:

أَزِف الـتَّـرحُّـلُ غـيـرَ أنَّ رِكـابَـنـا ... لَـمَّـا تَـزَلْ بِـرحـالِـنـا وَكَـأنْ قَـدِ[1]

أي: قَرُبَ. ونظيرُ هذه الآية: ﴿أَزِفَتِ ٱلْآزِفَةُ﴾ [النجم:٥٧] أي: قَرُبت الساعة. وكان بعضهم يتمثل ويقول:

أزِف الـرَّحـيـلُ ولـيـس لـي مِـن زَادِ ... غـيـر الـذُّنُـوب لِـشِـقْـوَتِـي ونَـكـادِي[2]

﴿إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ﴾ على الحال، وهو محمول على المعنى. قال الزجاج[3]: المعنى: إذ قلوبُ الناس «لَدَى الحناجِرِ» في حال كَظْمهم. وأجاز الفراء[4] أن يكون التقدير: «وأَنْذِرْهُمْ» كاظِمِينَ. وأجاز رفع «كَاظِمِينَ» على أنه خبرٌ للقلوب[5]. وقال: المعنى: إذ هم كاظمون. وقال الكسائي: يجوز رفع ﴿كَٰظِمِينَ﴾ على الابتداء.

وقد قيل: إن المراد بـ«يوم الآزِفَةِ» يوم حضور المنية؛ قاله قطرب، وكذا ﴿إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ﴾ عند حضور المَنِيَّة. والأوّل أظهر. وقال قتادة: وقعت في الحناجر من المَخافة، فهي لا تخرجُ ولا تعود في أمكنتها[6]، وهذا لا يكون إلا يوم القيامة كما قال: ﴿وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ﴾ [إبراهيم:٤٣].

وقيل: هذا إخبارٌ عن نهاية الجَزَع؛ كما قال: ﴿وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ﴾ [الأحزاب:١٠]. وأُضيف اليومُ على ﴿ٱلْآزِفَةِ﴾ على تقدير: يوم القيامةِ ﴿ٱلْآزِفَةِ﴾، أو يوم المجادلة ﴿ٱلْآزِفَةِ﴾. وعند الكوفيين هو من باب إضافة الشيء إلى نفسه، مثل:

---

(١) ديوان النابغة الذبياني ص٣٨، وفيه: أَفِدَ، بدل: أزف، وهو برواية المصنف في إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٨٣، وتفسير الرازي ٢٧/ ٤٩.

(٢) قائله ابن الجهم الحوفي المصري، كما في خريدة القصر للعماد الأصفهاني (شعراء مصر) ٢/ ٢٠٠.

(٣) في معاني القرآن ٤/ ٣٦٩، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٥/ ٢٩.

(٤) في معاني القرآن ٣/ ٦.

(٥) يعني في اللغة لا في التلاوة.

(٦) النكت والعيون ٥/ ١٤٩.

مسجد الجامع، وصلاة الأولى[١].

﴿مَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ﴾ أي: من قريب ينفع ﴿وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ فيشفع فيهم.

قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ﴾ قال المُؤَرِّجُ: فيه تقديمٌ وتأخير، أي: يعلم الأعينَ الخائنة. وقال ابن عباس: هو الرجل يكون جالساً مع القوم فتمرُّ المرأةُ فَيُسارقهم النظرَ إليها. وعنه: هو الرجل ينظر إلى المرأة، فإذا نظر إليه أصحابُه غَضَّ بصرَه، فإذا رأى منهم غَفْلةً تدسَّسَ بالنظر، فإذا نظر إليه أصحابُه غَضَّ بصره، وقد علم الله عزَّ وجلَّ منه أن بودِّه[٢] لو نظر إلى عورتها[٣].

وقال مجاهد: هي مسارقة نظر الأعين إلى ما نهى الله عنه. وقال قتادة: هي الهَمْزة بعينه وإغماضه فيما لا يحبُّ الله تعالى[٤].

وقال الضحاك: هو قول الإنسان: ما رأيتُ، وقد رأى، ورأيتُ، وما رأى. وقال السدي: إنها الرَّمْز بالعين. وقال سفيان: هي النظرة بعد النظرة[٥].

وقال الفراء[٦]: «خَائِنَةَ الأعْيُنِ» النظرة الثانية، «ومَا تُخْفِي الصُّدُورُ» النظرة الأولى. وقال ابن عباس: «ومَا تُخْفِي الصُّدُورُ» أي: هل يزني بها لو خلا بها أو لا. وقيل: «وما تُخْفي الصُّدورُ» تُكِنُّه وتُضْمِرُه[٧].

ولما جيء بعبد الله بن أبي سَرْح إلى رسول الله ﷺ، بعد ما اطمأنَّ أهلُ مكة وطلب له الأمانَ عثمانُ ﷺ، صَمَتَ رسولُ الله ﷺ طويلاً ثم قال: «نعم» فلما انصرف، قال رسولُ الله ﷺ لمن حوله: «ما صَمَتُّ إلا لِيقومَ إليه بعضُكم فيضربَ عُنُقَه» فقال رجلٌ من

(١) الكلام بنحوه في إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٤٧ .
(٢) في (م): أنه يودّ.
(٣) معاني القرآن للنحاس ٦/ ٢١٤ .
(٤) أخرجهما الطبري ٢٠/ ٣٠٤ .
(٥) النكت والعيون ٥/ ١٥٠ .
(٦) معاني القرآن ٣/ ٧ ، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٤/ ٢٩ .
(٧) النكت والعيون ٥/ ١٥٠ .

الأنصار: فهلّا أومأتَ إليَّ يا رسولَ الله؛ فقال: «إنَّ النبيَّ لا تكون له خائنةُ أعين»[(١)].

﴿وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ﴾ أي: يُجازي من غَضَّ بصرَه عن المحارم، ومَن نظر إليها، ومن عَزَمَ على مُواقعة الفواحش إذا قدر عليها[(٢)].

﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ﴾ يعني الأوثان ﴿لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ﴾ لأنها لا تعلم شيئاً ولا تقدر عليه ولا تملك[(٣)].

وقراءة العامة بالياء على الخبر على الظالمين، وهي اختيار أبي عُبيد وأبي حاتم. وقرأ نافع وشيبة وهشام: «تَدْعُونَ» بالتاء[(٤)]. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ «هو» زائدة فاصلة. ويجوز أن تكون في موضع رفع بالابتداء وما بعدها خبرٌ، والجملة خبر «إن»[(٥)].

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟﴾ في موضع جزم عطف على «يَسِيرُوا»، ويجوز أن يكونَ في موضع نصب على أنه جواب، والجزم والنصب في التثنية والجمع واحد. ﴿كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ﴾ اسم كان، والخبر في «كيف». و﴿وَاقٍ﴾ في موضع خَفْض معطوف على اللفظ. ويجوز أن يكون في موضع رَفْع على الموضع، فرفعُه وخَفْضُه واحد؛ لأن الياء تُحذف وتبقى الكسرة دالَّةً عليها[(٦)]. وقد مضى الكلام في معنى هذه الآية في غير موضع، فأغنى عن الإعادة.

---

(١) أخرجه أبو داود (٢٦٨٣)، والنسائي ٧/ ١٠٥-١٠٦ من حديث سعد بن أبي وقاص ﷺ، وعبد الله بن أبي سرح كان يكتب الوحي لرسول الله ﷺ، ثم ارتدّ ولحق بالمشركين، فأمر النبي ﷺ يوم فتح مكة بقتله... وأسلم أيام الفتح، وولاّه عثمان رضي الله عنهما مصر، وسلفت قصته ٨/ ٤٥٩ وما بعدها.

(٢) تفسير الطبري ٢٠/ ٣٠٣ بنحوه.

(٣) تفسير البغوي ٤/ ٩٥ .

(٤) السبعة ص٥٦٨ ، والتيسير ص١٩١ .

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٩ .

(٦) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٣٠ .

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ فَقَالُوا۟ سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ ٱقْتُلُوٓا۟ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُوا۟ نِسَآءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ وهي التسعُ الآياتُ المذكورة في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ وقد مضى تعيينها[(١)]. ﴿وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ أي: بِحُجَّة واضحةٍ بينة، وهو يُذكَّر ويُؤنَّث[(٢)]. وقيل: أراد بالسلطان التوراة.

﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ﴾ خصَّهم بالذِّكر لأن مدارَ التدبير في عداوة موسى كان عليهم[(٣)]؛ ففرعون الملك وهامان الوزير وقارون صاحب الأموال والكنوز فجمعه اللهُ معهما؛ لأن عمله في الكفر والتكذيب كأعمالهما.

﴿فَقَالُوا۟ سَٰحِرٌ كَذَّابٌ﴾ لما عَجزوا عن معارضته حملوا المُعجزات على السِّحر.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا﴾ وهي المُعجزة الظاهرة ﴿قَالُوا۟ ٱقْتُلُوٓا۟ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ﴾ قال قتادة: هذا قَتْلٌ غير القتل الأول؛ لأنَّ فرعون كان قد أمسك عن قتل الوِلدان وقت[(٤)] ولادة موسى، فلما بعثَ اللهُ موسى أعاد القتل على بني إسرائيل عقوبةً لهم، فيمتنع الإنسان من الإيمان؛ ولئلا يَكثُرَ جمعُهم فيعتضدوا بالذُّكور من أولادهم، فشغلهم اللهُ عن ذلك بما أنزل عليهم من أنواع العذاب،

---

(١) ١٨/ ١٨١ وما بعدها.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٣٠ .

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٥٥٤ ، بنحوه.

(٤) في (م): بعد.

كالضفادع والقُمَّل والدَّم والطُّوفان إلى أن خرجوا من مصر، فأغرقهم الله. وهذا معنى قوله تعالى: ﴿وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾ أي: في خُسران وهَلاك، وإن الناسَ لا يمتنعون من الإيمان وإن فعل بهم مثل هذا فكيده يذهب باطلاً[١].

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ﴾ «أَقْتُلْ» جزم؛ لأنه جوابُ الأمر. «وَلْيَدْعُ» جزم؛ لأنه أمر، و«ذَرُونِي» ليس بمجزوم وإن كان أمراً، ولكن لفظُه لفظُ المجزوم، وهو مَبنيّ. وقيل: هذا يدلُّ على أنه قيل لفرعون: إنا نخاف أن يدعوَ عليك فيجاب؛ فقال: «وَلْيَدْعُ رَبَّه»[٢] أي: لا يهولنَّكم ما يذكر من ربِّه، فإنه لا حقيقةَ له، وأنا ربُّكم الأعلى.

﴿إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ﴾ أي: عبادتَكم لي إلى عبادة ربِّه ﴿أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ﴾ إنْ لم يُبدلْ دينكم، فإنه يظهر في الأرض الفساد. أي: يقع بين الناس بسببه الخلاف.

وقراءة المدنيين وأبي عبد الرحمن السُّلَمي وابن عامر وأبي عمرو: «وَأنْ يُظْهرَ في الأرضِ الفَسادَ»، وقراءة الكوفيين: «أوْ أنْ يَظْهرَ» بفتح الياء «الفَسادُ» بالرفع[٣]، وكذلك هي في مصاحف الكوفيين: «أو» بألف، وإليه يذهب أبو عُبيد؛ قال: لأن فيه زيادَة حرف، وفيه فصل؛ ولأن «أو» تكون بمعنى الواو. النحاس[٤]: وهذا عند حُذَّاق النحويين لا يجوز أن تكون بمعنى الواو؛ لأن في ذلك بطلانَ المعاني، ولو جاز أن

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٣٠ بنحوه، وقول قتادة ذكره أيضاً البغوي في تفسيره ٤/ ٩٥ وابن الجوزي في زاد المسير ٧/ ٢١٥ بنحوه.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٣١ .

(٣) قرأ نافع أبو عمرو: «وأن يُظْهِرَ»، وقرأ ابن كثير وابن عامر: «وأنْ يَظْهرَ»، وقرأ عاصم في رواية شعبة وحمزة والكسائي: «أو أنْ يَظْهر»، وقرأ عاصم في رواية حفص: «أَوْ أنْ يُظْهِرَ». ومن قرأ: «يُظهِرَ» بضم الياء، قرأ: «الفسادَ» بالنصب، ومن قرأ: «يَظْهر» بفتح الياء، قرأ: «الفسادُ» بالضم. السبعة ص٥٦٩ ، والتيسير ص١٩١ .

(٤) إعراب القرآن ٤/ ٣١ ، وما قبله منه.

تكون بمعنى الواو لما احتيج إلى هذا ها هنا؛ لأن معنى الواو «إِنِّي أَخَافُ» الأمرين جميعاً، ومعنى «أو» لأحد الأمرين، أي: «إِنِّي أَخَافُ أن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ» فإن أعوزَه ذلك أظهرَ في الأرض الفساد.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم﴾ لما هدَّده فرعون بالقتل استعاذ موسى بالله ﴿مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ﴾ أي: مُتعظِّم عن الإيمان بالله، وصفتُه أنه ﴿لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾﴾

فيه أربع مسائل:

الأولى: قوله تعالى: «وَقَالَ رَجُلٌ مؤْمِنٌ» ذكر بعض المفسرين: أن اسم هذا الرجل حبيب[(١)]. وقيل: شمعان، بالشين المعجمة. قال السُّهيلي[(٢)]: وهو أصحُّ ما قيل فيه. وفي «تاريخ» الطبري رحمه الله: اسمه خير[(٣)]. وقيل: حزفيل؛ ذكره الثعلبي عن ابن عباس[(٤)] وأكثرِ العلماء. الزمخشري[(٥)]: واسمه سمعان أو حبيب. وقيل: خربيل أو حزبيل.

واختُلف هل كان إسرائيلياً أو قِبْطياً، فقال الحسن وغيره: كان قبطياً. ويقال: إنه

---

(١) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٥/ ١٥٢ وعزاه لابن إسحاق.

(٢) في التعريف والإعلام ص١٣١ و١٥١ . وعنه نقل المصنف قول الطبري التالي، وهو في تاريخه ١/ ٤٠٧ .

(٣) في (ظ): جبر، والمثبت موافق للتعريف والإعلام، وفي تاريخ الطبري: حبرك، وفي تفسير الطبري ٢٠/ ٣١١ : خبرك.

(٤) في كتب التفسير أن ابن عباس رضي الله عنهما قال: اسم الرجل: حزبيل.

(٥) الكشاف ٣/ ٤٢٤ .

كان ابنَ عم فرعون؛ قاله السدي. قال: وهو الذي نجا مع موسى عليه السلام؛ ولهذا قال: «مِنْ آلِ فِرعونَ» وهذا الرجُل هو المُرادُ بقوله تعالى: ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ﴾ الآية [القصص: ٢٠]. وهذا قول مقاتل. وقال ابن عباس: لم يكن من آل فرعون مؤمن غيره وغير امرأة فرعون وغير المؤمن الذي أنذر موسى فقال: ﴿إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ﴾[1].

وفي هذا تسليةٌ للنبي ﷺ، أي: لا تَعْجب من مُشركي قومك. وكان هذا الرجل له وَجاهة عند فرعون؛ فلهذا لم يتعرض له بسوء. وقيل: كان هذا الرجلُ من بني إسرائيل يَكتُم إيمانَه من آل فرعون؛ عن السُّدي أيضاً. ففي الكلام على هذا تقديم وتأخير، والتقدير: وقال رجلٌ مؤمنٌ يَكْتُم إيمانَه من آل فرعون[2].

فمن جعل الرجل قِبطيًّا فـ«من» عنده متعلقة بمحذوف صفة لرجل؛ التقدير: وقال رجلٌ مؤمن منسوبٌ من آل فرعون؛ أي: من أهله وأقاربه. ومن جعله إسرائيليًّا فـ«مِن» مُتعلِّقة بـ«يكتم». في موضع المفعول الثاني لـ«يكتم» القشيري: ومن جعله إسرائيليًّا ففيه بُعْدٌ؛ لأنه يقال: كَتَمه أمر كذا، ولا يقال: كَتَم منه. قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا﴾[3] [النساء: ٤٢] وأيضاً ما كان فرعون يحتمل من بني إسرائيل مثلَ هذا القول.

الثانية: قوله تعالى: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾ أي: لِأَنْ يقول، ومن أجل «أنْ يقولَ رَبِّيَ اللهُ» فـ «أنْ» في موضع نصب بنزع الخافض.

﴿وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ يعني الآيات التسع ﴿مِن رَّبِّكُمْ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ﴾ ولم يكن ذلك لشكٍّ منه في رسالته وصِدْقه، ولكن تَلطُّفًا في الاستكفاف

(١) هذه الأقوال في النكت والعيون ٥/ ١٥٢، وتفسير البغوي ٤/ ٩٦، وزاد المسير ٧/ ٢١٧.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٥٥٦، وتفسير البغوي ٤/ ٩٦ بنحوه.

(٣) الكلام بنحوه في تفسير الرازي ٢٧/ ٥٧.

واستنزالاً عن الأذى[١]. ولو كان و«إنْ يكن» بالنون جاز[٢]، ولكن حُذفت النون لِكَثْرةِ الاستعمال على قول سيبويه؛ ولأنها نونُ الإعراب على قول أبي العباس[٣].

﴿وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ﴾ أي: إن لم يُصبكم إلا بعض الذي يعدكم، به هَلَكْتُم. ومذهبُ أبي عُبيدة[٤] أن معنى ﴿بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ﴾ كل الذي يَعِدُكم وأنشد قولَ لبيد:

تَـرَّاكُ أَمِـكـنَـةٍ إذا لـم أرْضَـهـا أو يَرْتَبِطْ بعضَ النفوسِ حِمامُها[٥]

فبعض بمعنى كلّ[٦]؛ لأن البعضَ إذا أصابهم أصابهم الكلّ لا محالة؛ لدخوله في الوعيد، وهذا ترقيق الكلام في الوعظ. وذكر الماوردي[٧]: أن البعض قد يستعمل في موضع الكلّ تلطُّفاً في الخِطاب وتوسُّعاً في الكلام؛ كما قال الشاعر:

قد يُدْرِك المتأنِّي بعضَ حَاجتِهِ وقد يكون مع المُستعجِلِ الزَّلَلُ[٨]

وقيل أيضاً: قال ذلك لأنه حذَّرهم أنواعاً من العذاب كل نوع منها مُهلِكٌ؛ فكأنه حذَّرهم أن يُصيبهم بعضُ تلك الأنواع. وقيل: وعدَهم موسى بعذاب الدنيا أو بعذاب الآخرة إن كفروا؛ فالمعنى: يُصبكم أحدُ العذابين. وقيل: أي: يُصِبْكم هذا العذابُ الذي يقوله في الدنيا وهو بعضُ الوعد[٩]، ثم يترادف العذابُ في الآخرة أيضاً.

(١) في النكت والعيون ٥/ ١٥٣ .

(٢) يعني في اللغة لا في التلاوة.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٣١ .

(٤) مجاز القرآن ٢/ ٢٠٥ .

(٥) شرح ديوان لبيد ص٣١٣ ، وفيه: يعتلق، بدل: يرتبط.

(٦) قال النحاس في معاني القرآن ٦/ ٢١٦ : وهذا قول مرغوب عنه، لأن فيه بطلان المعاني. وقال الرازي في تفسيره ٢٧/ ٥٨ : والجمهور على أن هذا القول خطأ، قالوا: وأراد لبيد ببعض النفوس نفسه.

(٧) النكت والعيون ٥/ ١٥٣ .

(٨) قائله القطامي، وهو في ديوانه ص٢٥ .

(٩) في (م): الوعيد.

وقيل: وعدَهم العذابَ إن كفروا والثوابَ إنْ آمنوا، فإذا كفروا يُصيبهم بعضُ ما وُعِدوا.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ﴾ على نفسه ﴿كَذَّابٌ﴾ على ربِّه، إشارة إلى موسى، ويكون هذا من قول المؤمن. وقيل: «مُسْرِفٌ» في عناده، «كَذَّابٌ» في ادّعائه إشارة إلى فرعون، ويكون هذا من قول الله تعالى(١).

الثالثة: قوله تعالى: ﴿يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ﴾ قال القاضي أبو بكر بن العربي(٢): ظنَّ بعضُهم أن المُكلَّف إذا كتم إيمانَه ولم يتلفَّظ به بلسانه أنه لا يكون مؤمناً باعتقاده، وقد قال مالك: إن الرجلَ إذا نوى بقلبه طلاقَ زوجته أنه يلزمه، كما يكون مؤمناً بقلبه وكافراً بقلبه. فجعل مدارَ الإيمان على القلب وأنه كذلك، لكن ليس على الإطلاق، وقد بيَّناه في أصول الفقه؛ بما لُبابه أن المُكلَّف إذا نوى الكفر بقلبه كان كافراً وإن لم يتلفَّظ بلسانه، وأما إذا نوى الإيمانَ بقلبه فلا يكون مؤمناً بحال حتى يتلفظ بلسانه، ولا تمنعه التَّقِيَّةُ والخوف من أن يتلفَّظَ بلسانه فيما بينه وبين الله تعالى، إنما تمنعه التَّقِيَّةُ من أن يسمعه غيره، وليس من شرط الإيمان أن يسمعَه الغيرُ في صحته من التكليف، وإنما يُشترط سماعُ الغير له ليكفَّ عن نفسه وماله.

الرابعة: روى البخاري ومسلم عن عروةَ بن الزبير قال: قلتُ لعبد الله بن عمرو بن العاص: أَخبِرْني بأشدِّ ما صنعه المشركون برسول الله ﷺ؛ قال: بينا رسولُ الله ﷺ بِفِنَاء الكعبة، إذ أقبل عقبةُ بن أبي مُعَيط، فأخذ بِمَنْكِبِ رسول الله ﷺ، ولوى ثوبَه في عُنقه فخنقه به خَنْقًا شديداً، فأقبل أبو بكر فأخذ بِمَنْكِبِهِ ودفع عن رسول الله ﷺ، وقال: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ﴾ لفظ البخاري(٣).

خرجه الترمذي الحكيم في «نوادر الأصول» من حديث جعفر بن محمد، عن أبيه، عن علي ﷺ قال: اجتمعَتْ قريش بعد وفاة أبي طالب بثلاث، فأرادوا قَتْلَ

(١) النكت والعيون ٥/ ١٥٣ .

(٢) في أحكام القرآن ٤/ ١٦٤٧ .

(٣) الحديث (٤٨١٥)، ولم نقف عليه في صحيح مسلم، وأخرجه أحمد (٦٩٠٨).

رسول الله ﷺ، فأقبل هذا يجؤه وهذا يُتَلتله[١]، فاستغاث النبيُّ ﷺ يومئذ فلم يُغِثه أحدٌ إلا أبو بكر، وله ضفيرتان، فأقبل يَجَأُ ذا ويُتلتل ذا، ويقول بأعلى صوته: ويلكم «أتَقْتُلونَ رَجُلًا أن يقولَ رَبِّيَ الله» والله، إنه لرسول الله؛ فَقُطِعَتْ إحدى ضفيرتي أبي بكر يومئذ. فقال عليٌّ: والله، لَيوم أبي بكر خيرٌ من مؤمن آل فرعون؛ إنَّ ذلك رجلٌ كَتَمَ إيمانَه، فأثنى الله عليه في كتابه، وهذا أبو بكر أظهر إيمانَه وبذلَ مالَه ودمَه لله عزّ وجلّ[٢].

قلت: قول عليّ ﷺ: إن ذلك رجلٌ كَتَم إيمانه يُريد في أول أمره بخلاف الصدّيق، فإنه أظهر إيمانَه ولم يَكْتُمْه؛ وإلا فالقرآن مُصَرِّح بأن مؤمنَ آل فرعون أظهر إيمانه لمَّا أرادوا قَتْلَ موسى عليه السلام على ما يأتي بيانه[٣].

وفي «نوادر الأصول» أيضاً عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها قالوا لها: ما أشدُّ شيءٍ رأيتِ المشركين بلغوا من رسول الله ﷺ؟ فقالت: كان المشركون قعوداً في المسجد، ويتذاكرون رسولَ الله ﷺ ما يقول في آلهتهم، فبيناهم كذلك إذ دخل رسولُ الله ﷺ، فقاموا إليه بأجمعهم، وكانوا إذا سألوه عن شيء صدَقهم، فقالوا: ألستَ تقول كذا في آلهتنا، قال: «بلى» فَتَشبَّثوا فيه بأجمعهم فأتى الصَّريخ إلى أبي بكر فقال له: أدرِكْ صاحبَك. فخرج من عندنا وإن له غدائرَ، فدخل المسجد وهو يقول: ويلكم ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِالْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ﴾ فلهوا عن رسول الله ﷺ وأقبلوا على أبي بكر، فَرَجَعَ إلينا أبو بكر فجعل لا يمسُّ شيئاً من غدائره إلا جاء معه، وهو يقول: تباركتَ يا ذا الجلال والإكرام، إكرام إكرام[٤].

---

(١) قوله: يجؤه، أي: يضربه، والتَّلْتلة: التحريك، والإقلاق، والزعزعة. القاموس المحيط (وجأ) و(تلل).

(٢) نوادر الأصول ص٢٤٤، وأخرجه البزار في البحر الزخار (٧٦١) بنحوه مطولاً وقال: وهذا الحديث لا نعلمه يُروى عن علي إلا من هذا الوجه بهذا الإسناد.

(٣) في الآيات التالية.

(٤) نوادر الأصول ص٢٤٥، وأخرجه الحميدي في مسنده (٣٢٤).

قوله تعالى: ﴿يَٰقَوۡمِ لَكُمُ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَ ظَٰهِرِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأۡسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَاۚ قَالَ فِرۡعَوۡنُ مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُم مِّثۡلَ يَوۡمِ ٱلۡأَحۡزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثۡلَ دَأۡبِ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ يَوۡمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوۡمَ تُوَلُّونَ مُدۡبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖۗ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ ﴿٣٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يَٰقَوۡمِ لَكُمُ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَ﴾ هذا من قول مؤمن آل فرعون، وفي قوله «يا قَوْمِ» دليل على أنه قبطيّ، ولذلك أضافهم إلى نفسه فقال: «يَا قَوْمِ» ليكونوا أقربَ إلى قَبول وَعْظه «لكم المُلْكُ» فاشكروا الله على ذلك.

﴿ظَٰهِرِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: غالبين، وهو نصب على الحال[1]، أي: في حال ظُهوركم. والمراد بالأرض أرضُ مصر في قول السدي وغيره؛ كقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [يوسف: ٢١] أي: في أرض مصر.

﴿فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأۡسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَاۚ﴾ أي: من عذاب الله؛ تحذيراً لهم من نِقَمهِ إن كان موسى صادقاً، فذكَّر وحذَّر، فعلم فرعون ظُهور حُجَّته فقال: ﴿مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ﴾. قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ما أُشير عليكم إلا ما أرى لنفسي ﴿وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ في تكذيب موسى والإيمان بي[2].

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ﴾ زادهم في الوعظ ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُم مِّثۡلَ يَوۡمِ ٱلۡأَحۡزَابِ﴾ يعني أيام العذاب التي عُذِّب فيها المتحزِّبون على الأنبياء المذكورين فيما بعد.

قوله تعالى: ﴿وَيَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ يَوۡمَ ٱلتَّنَادِ﴾ زاد في الوعظ والتخويف وأفصحَ عن إيمانه، إما مستسلماً مُوَطِّنًا نفسَه على القتل، أو واثقاً بأنهم لا يَقصِدونه

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٣١.

(٢) النكت والعيون ٥/ ١٥٤.

بسوء، وقد وَقَاهُ الله شرَّهم بقوله الحق ﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟﴾. وقراءة العامة ﴿ٱلتَّنَادِ﴾ بتخفيف الدال وهو يوم القيامة؛ قال أمية بن أبي الصَّلت:

وبَثَّ الخَلْق فيها إذْ دَحاها فهم سُكَّانُها حتى التَّناد(١)

سُمِّي بذلك لمناداة الناس بعضَهم بعضاً؛ فينادي أصحابُ الأعراف رجالاً يعرفونهم بسيماهم، ويُنادي أصحابُ الجنة أصحابَ النار: ﴿أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا﴾ ويُنادي أصحابُ النار أصحابَ الجنة: ﴿أَنْ أَفِيضُوا۟ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ﴾ [الأعراف: ٥٠] ويُنادي المنادي أيضاً بالشِّقوة والسعادة: ألا إنَّ فلانَ بن فلان قد شقي شقاوةً لا يسعدُ بعدَها أبداً، ألا إن فلان بن فلان قد سَعِدَ سعادةً لا يشقى بعدَها أبداً. وهذا عند وزن الأعمال. وتُنادي الملائكةُ أصحابَ الجنة: ﴿أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ٤٣] ويُنادَى حين يذبح الموت: يا أهلَ الجنة، خلودٌ لا موت، ويا أهلَ النار، خلودٌ لا موت. ويُنادَى كلُّ قوم بإمامهم، إلى غير ذلك من النداء(٢).

وقرأ الحسن وابن السَّميفع ويعقوب وابن كثير ومجاهد: «التَّنَادي» بإثبات الياء في الوصل والوقف على الأصل(٣). وقرأ ابن عباس والضحاك وعكرمة: «يوم التَّنَادِّ» بتشديد الدال(٤). قال بعضُ أهل العربية: هذا لحنٌ؛ لأنه من نَدَّ يَنِدُّ، إذا مَرَّ على وجهه هارباً؛ كما قال الشاعر:

وبَرْكٍ هُجُودٍ قد أثارتْ مَخافتي نَواديَها أَسْعى بِعَضْبٍ مُجَرَّدِ(٥)

قال: فلا معنى لهذا في القيامة. قال أبو جعفر النحاس(٦): وهذا غلطٌ، والقراءة

---

(١) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٥/ ١٥٤.

(٢) الكلام بنحوه في النكت والعيون ٥/ ١٥٤-١٥٥، والمحرر الوجيز ٤/ ٥٥٨، وتفسير الرازي ٢٧/ ٦١.

(٣) قراءة ابن كثير في التيسير ص١٩٢، وقراءة يعقوب من العشرة في النشر ٢/ ٣٦٦.

(٤) القراءات الشاذة ص١٣٢، والمحتسب ٢/ ٢٤٣.

(٥) قائله طرفة بن العبد، وهو في ديوانه ص٣٧، وفيه: بواديها أمشي، بدل: نواديها أسعى. وقوله: بَرْك: أي: جماعة الإبل الباركة، وهجود: جمع هاجد، وهو النائم. والعَضْب: السيف القاطع. اللسان (برك) و(هجد) و(عضب).

(٦) في معاني القرآن ٦/ ٢٢٠، وما قبله منه.

بها حسنةٌ على معنى يوم التنافر.

قال الضحاك: ذلك إذا سَمِعوا زفيرَ جهنم نَدُّوا هرباً، فلا يأتون قِطْراً من أقطار الأرض إلا وجدوا صفوفاً من الملائكة، فيرجِعون إلى المكان الذي كانوا فيه[(١)]؛ فذلك قوله: «يَوْمَ التَّنَادِ»، وقوله: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ الآية [الرحمن: ٣٣]، وقوله: ﴿وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَآ﴾ [الحاقة: ١٧] ذكره ابن المبارك بمعناه؛ قال: وأخبرنا عبد الرحمن بن يزيد بن جابر قال: حدّثنا عبد الجبار بن عُبيد الله بن سلمان في قوله: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ * يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ﴾ ثم تستجيبُ لهم أعينُهم بالدَّمع فيبكون حتى يَنْفَدَ الدَّمع، ثم تستجيبُ لهم أعينُهم بالدَّم فيبكون حتى يَنْفَدَ الدم، ثم تستجيب لهم أعينُهم بالقَيْح. قال: يُرسَل عليهم من الله أمرٌ، فَيُوَلُّون مُدْبرين، ثم تستجيبُ لهم أعينهم بالقيح، فيبكون حتى يَنْفَدَ القيح، فتغورُ أعينُهم كالخَرْق في الطين.

وقيل: إن هذا يكون عند نَفْخِ إسرافيلَ عليه السلام في الصُّور نَفْخةَ الفَزَع[(٢)].

ذكره علي بن مَعْبد والطبري وغيرهما من حديث أبي هريرة، وفيه: «فتكون الأرضُ كالسفينة في البحر تَضْرِبها الأمواجُ، فيميدُ الناسُ على ظَهْرها وتَذْهَلُ المراضعُ، وتضعُ الحواملُ ما في بطونها، وتشيبُ الوِلدانُ، وتتطاير الشياطين هاربةً، فتلقاها الملائكةُ تضربُ وجوهَها، ويُوَلِّي الناس مُدبرين يُنادي بعضُهم بعضاً، وهي التي يقول الله تعالى: ﴿يَوْمَ ٱلتَّنَادِ * يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ الحديثَ بكماله[(٣)]. وقد ذكرناه في كتاب «التذكرة»[(٤)] وتكلّمنا عليه هناك.

---

(١) زاد المسير ٧/ ٢٢٠ .

(٢) الزهد لابن المبارك (زوائد نعيم) (٣٥٦).

(٣) تفسير الطبري ٢٠/ ٣١٧ . وهو حديث طويل أخرجه الطبراني في الأحاديث الطوال (٣٦) وأورده الحافظ ابن كثير في تفسيره ٣/ ٢٨٢-٢٨٧ بطوله، ثم قال: هذا حديث مشهور، وهو غريب جداً، ولبعضه شواهد في الأحاديث المتفرقة، وفي بعض ألفاظه نكارة.

(٤) ص١٧٣ و١٩٣ .

وروى عليّ[١] بن نصر عن أبي عمرو إسكانَ الدال من «التَّناد» في الوصل خاصة. وروى أبو معمر عن عبد الوارث[٢] زيادةَ الياء في الوصل خاصة، وهو مذهبُ ورش. والمشهور عن أبي عمرو حَذْفُها في الحالين. وكذلك قرأ سائرُ السبعة سوى ورش على ما ذكرنا عنه، وسوى ابن كثير على ما تقدَّم[٣].

وقيل: سُمِّي يومُ القيامة يومَ التَّناد؛ لأن الكافرَ ينادي فيه بالويل والثُّبور والحَسْرة. قاله ابن جريج[٤]. وقيل: فيه إضمارٌ، أي: إني أخافُ عليكم عذابَ يوم التناد؛ فالله أعلم.

﴿يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ﴾ على البدل من «يوم التَّناد»[٥].

﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ أي: مَن خَلَق اللهُ في قلبه الضَّلالَ فلا هاديَ له. وفي قائله قولان: أحدُهما: موسى. الثاني: مؤمن آل فرعون[٦]، وهو الأظهرُ. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ قيل: إنَّ هذا من قول موسى. وقيل: هو من تَمام وعظ مؤمن آل فرعون؛ ذَكَّرهم قديمَ عُتُوِّهم على الأنبياء؛

(١) في (م): عن علي.

(٢) كذا في النسخ: عن عبد الوارث، ولعله يريد: عبد الوارث عن أبي عمرو.

(٣) التيسير ص١٩٢.

(٤) النكت والعيون ٥/ ١٥٤.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٣٢.

(٦) النكت والعيون ٥/ ١٥٥.

وأراد: يوسفُ بن يعقوب جاءهم بالبينات: ﴿ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾[1] [يوسف:٣٩]. قال ابن جُريج: هو يوسفُ بن يعقوب بعثه الله تعالى رسولاً إلى القِبط بعد موت الملك من قَبْلِ موسى بالبينات؛ وهي الرؤيا[2]. وقال ابن عباس: هو يوسف بن إفرائيم بن يوسف بن يعقوب أقام فيهم نبيّاً عشرين سنة[3]. وحكى النقاش عن الضحاك: إن الله تعالى بعثَ إليهم رسولاً من الجن يقال له: يوسف[4].

وقال وهب بن منبِّه: إن فرعون موسى هو فرعون يوسف عُمِّر. وغيره يقول: هو آخر.

النحاس[5]: وليس في الآية ما يدلُّ على أنه هو؛ لأنه إذا أتى بالبينات نبيٌّ لمن معه ولمن بعده فقد جاءهم جميعاً بها، وعليهم أن يُصدِّقوه بها.

﴿فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ﴾ أي: أسلافُكم كانوا في شكٍّ، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا﴾ أي: مَن يدَّعي الرسالة ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ﴾ أي: مثل ذلك الضَّلال ﴿يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ﴾ مُشرِكٌ ﴿مُّرْتَابٌ﴾ شاكٌّ في وحدانية الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي: في حُجَجِهِ الظاهرة ﴿بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ﴾ أي: بغير حُجَّة وبرهان، و«الذين» في موضع نَصْب على البدل من «مَنْ»، وقال الزجاج[6]: أي: كذلك يُضِلُّ الله الذين يُجادلون في آيات الله فـ«الذين» نصب.

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ٩٧ .

(٢) النكت والعيون ٥/ ١٥٥ .

(٣) الكشاف ٣/ ٤٢٦ دون نسبة.

(٤) النكت والعيون ٥/ ١٥٥ . قال ابن الجوزي في زاد المسير ٧/ ٢٢١ هو يوسف بن يعقوب، ويقال: إنه ليس به، وليس بشيء.

(٥) إعراب القرآن ٤/ ٣٣ .

(٦) في معاني القرآن ٤/ ٣٧٤ ، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٤/ ٣٣ ، وما قبله منه.

قال: ويجوز أن يكون رَفْعًا على معنى: هم الذين، أو على الابتداء، والخبر ﴿كَبُرَ مَقْتًا﴾.

ثم قيل: هذا من كلام مؤمن آل فرعون. وقيل: ابتداء خطاب من الله تعالى. «مَقْتًا» على البيان، أي: «كَبُرَ» جِدالهم «مَقْتًا»؛ كقوله: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً﴾(١) [الكهف: ٥] ومَقْتُ الله تعالى ذَمُّه لهم ولَعْنُه إيَّاهم وإحلالُ العذاب بهم.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: كما طبعَ الله على قلوب هؤلاء المُجادلين، فكذلك ﴿يَطْبَعُ ٱللَّهُ﴾ أي: يَخْتِمُ ﴿عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ حتى لا يعقل الرَّشاد، ولا يقبلَ الحقَّ.

وقراءة العامة: ﴿عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ﴾ بإضافة قلب إلى المتكبر، واختاره أبو حاتم وأبو عُبيد.

وفي الكلام حذف، والمعنى: «كذلكَ يَطْبَعُ اللهُ على كُلِّ قَلْبِ» على كل «مُتَكبِّرٍ جَبَّارٍ» فحذف «كُلّ» الثانية لِتقدُّم ما يدلُّ عليها. وإذا لم يُقدَّر حذفُ «كلّ» لم يستقم المعنى؛ لأنه يصير معناه: أنه يطبعُ على جميع قلبه، وليس المعنى عليه. وإنما المعنى أنه يطبع على قلوب المتكبرين الجبارين قلباً قلباً. ومما يدلُّ على حذف «كُلّ» قول أبي دُؤَاد:

أكُلَّ امرِئٍ تَحْسَبِينَ امرأً ونارٍ تَوَقَّدُ بالليل نارا(٢)

يريد: وكلّ نارٍ. وفي قراءة ابن مسعود: «على قَلْبِ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ»(٣) فهذه قراءةٌ على التفسير والإضافة. وقرأ أبو عمرو وابن مُحيصن وابن ذكوان عن أهل الشام: «قلبٍ» مُنَوَّن(٤) على أن «متكبرٍ» نعت للقلب، فكَنَى بالقلب عن الجُملة؛ لأن القلب هو الذي يتكبَّر، وسائرُ الأعضاء تَبَعٌ له؛ ولهذا قال النبيُّ ﷺ: «إنَّ في الجسد مُضغةً إذا صَلَحَتْ

(١) إعراب القرآن ٤/ ٣٣ ، بنحوه.

(٢) البيت في الكتاب ١/ ٦٦ ، والحجة للفارسي ٦/ ١١٠-١١١ والكلام الذي قبله فيه بنحوه.

(٣) القراءات الشاذة ص١٣٢ .

(٤) السبعة ص٥٧٠ ، والتيسير ص١٩١ . وينظر الحجة للفارسي ٦/ ١٠٩-١١٠ .

صَلَحَ الجسدُ كلُّه، وإذا فَسدَت فسدَ الجسدُ كلُّه، ألا وهي القلب»[(١)] ويجوز أن يكون على حذف المضاف؛ أي: على كل ذي قلب مُتكبِّر؛ تجعلُ الصفةَ لصاحب القلب.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ﴿٣٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا﴾ لما قال مؤمنُ آل فرعون ما قال، وخاف فرعونُ أن يتمكَّن كلامُ هذا المؤمن في قلوب القوم، أَوْ هَمَ أنه يمتحن ما جاء به موسى من التوحيد، فإنْ بانَ له صوابُه لم يُخفِه عنهم، وإن لم يَصِحَّ ثَبَّتَهُمْ على دينهم؛ فأمر وزيره هامان ببناء الصَّرح. وقد مضى في «القصص» ذكره[(٢)].

﴿لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ . أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ «أسْبَابَ السَّمَواتِ» بدل من الأوَل. وأسبابُ السماء أبوابُها في قول قتادة والزهري والسُّدِّي والأخفش؛ وأنشد:

ومَنْ هابَ أسبابَ المنايا يَنَلْنَهُ ... ولو رامَ أسْبابَ السَّماءِ بِسُلَّمِ[(٣)]

وقال أبو صالح: أسباب السماوات طُرقها[(٤)]. وقيل: الأمور التي تستمسك بها السماوات. وكرَّر «أسباب» تفخيماً؛ لأن الشيء إذا أُبهم ثم أُوضح كان تفخيماً لشأنه[(٥)]. والله أعلم.

﴿فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾ فأنظُرَ إليه نظرَ مُشْرِفٍ عليه. تَوهَّم أنه جسمٌ تحويه الأماكن. وكان فرعون يدَّعي الأُلوهية، ويرى تحقيقها بالجلوس في مكان مُشرِف.

---

(١) أخرجه البخاري (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩) من حديث النعمان بن بَشير ﷺ، وسلف ١/ ٢٨٧ .

(٢) ١٣/ ٢٨٨ .

(٣) قائله زهير، وهو في شرح ديوانه ص٣٠ ، والبيت من معلقته، ينظر شرح المعلقات السبع للزوزني ص٨٧ .

(٤) النكت والعيون ٥/ ١٥٦ . والبيت وما قبله منه.

(٥) الكشاف ٣/ ٤٢٨ .

وقراءة العامة: «فَأَطَّلِعُ» بالرفع نسقاً على قوله: «أَبْلُغُ»، وقرأ الأعرج والسُّلَمي وعيسى وحفص: «فَأَطَّلِعَ» بالنصب[(١)]؛ قال أبو عُبيد[(٢)]: على جواب «لعل» بالفاء. النحاس: ومعنى النصب خلافُ معنى الرفع؛ لأن معنى النصب: متى بلغتُ الأسباب اطَّلعتُ. ومعنى الرفع لعلّي أبلغُ الأسبابَ، ثم لَعلّي أَطَّلِعُ بعد ذلك؛ إلا أن ثم أشدُّ تراخياً من الفاء.

﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًاۚ﴾ أي: وإني لأظن موسى كاذباً في ادِّعائه إلهاً دوني، وإنما أفعلُ ما أفعلُ لإزاحةِ العِلَّة. وهذا يوجب شكَّ فرعون في أمر الله. وقيل: إن الظن بمعنى اليقين، أي: وأنا أتيقَّن أنه كاذب، وإنما أقولُ ما أقولُه لإزالة الشُّبهة عمن لا يَتيقّن[(٣)] ما أتيقَّنه.

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾ أي: كما قال هذه المَقالة وارتابَ زَيَّن له الشيطانُ، أو زَيَّن الله سوءَ عمله، أي: الشرك والتكذيب.

﴿وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِۚ﴾ قراءة الكوفيين «وصُدَّ» على ما لم يُسمَّ فاعلُه[(٤)]، وهو اختيار أبي عُبيد وأبي حاتم. ويجوز على هذه القراءة «وَصِدَّ» بكسر الصاد، نُقلت كسرة الدال[(٥)] على الصاد؛ وهي قراءة يحيى بن وثَّاب[(٦)] وعلقمة. وقرأ ابن أبي إسحاق وعبد الرحمن بن أبي بَكْرة «وَصَدٌّ عَنِ السَّبِيلِ» بالرفع والتنوين[(٧)]. الباقون «وَصَدَّ» بفتح الصاد والدال. أي: صدَّ فرعونُ الناسَ عن السبيل.

---

(١) السبعة ص٥٧٠ ، والتيسر ص١٩٢ .

(٢) في (م): أبو عبيدة، والمثبت موافق لإعراب القرآن للنحاس ٤/ ٣٣ ، والكلام منه.

(٣) في (م): أتيقن.

(٤) السبعة ص٥٧١ ، والتيسير ص١٣٣ .

(٥) يعني الدال الأُولى من «صُدَّ». والكلام من إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٣٣ ، وينظر الدر المصون ٩/ ٤٨٣ .

(٦) ذكرها أبو حيان في البحر ٧/ ٤٦٦ .

(٧) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٣٣-٣٤ . وينظر المحرر الوجيز ٤/ ٥٦٠ .

﴿وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ﴾ أي: في خُسران وضلال، ومنه: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ﴾[١] [المسد: ١] وقوله: ﴿وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ﴾ [هود: ١٠١] وفي موضع ﴿غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾ [هود: ٦٣] فهدّ الله صرحه، وغرَّقه هو وقومه على ما تقدّم[٢].

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾ ۞ وَيَٰقَوْمِ مَا لِىٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِىٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِى لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ﴾ هذا من تمام ما قاله مؤمنُ آل فرعون؛ أي: اقتدوا بي في الدين، ﴿أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ أي: طريقَ الهُدى، وهو الجنة. وقيل: من قول موسى[٣].

وقرأ معاذ بن جبل: «الرَّشَّادِ» بتشديد الشين[٤]، وهو لحنٌ عند أكثر أهل العربية؛ لأنه إنما يقال: أرشد يُرشد، ولا يكون فَعَّال من أفعل، إنما يكون من الثلاثي، فإن أردتَ التكثيرَ من الرُّباعي قلت: مِفْعال. قال النحاس[٥]: يجوز أن يكون رَشَّاد بمعنى

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٥٦٠ .
(٢) ١٣/ ٢٨٨ وما بعدها.
(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٥٦٠ ، وزاد المسير ٧/ ٢٢٤ بنحوه.
(٤) القراءات الشاذة ص١٣٢ ، والمحتسب ٢/ ٢٤١ .
(٥) في معاني القرآن ٢/ ٢١٨-٢١٩ وما قبله منه.

يُرشد لا على أنه مشتقٌّ منه، ولكن كما يقال: لَأّال من اللؤلؤ. فهو بمعناه، وليس جارياً عليه، ويجوز أن يكون رشَّاد من رَشَدَ يَرشُدُ، أي: صاحب رشاد؛ كما قال:

كِلِينِي لِهَمٍّ يا أُمَيْمَةَ ناصِبِ[1]

الزمخشري[2]: وقُرئ: «الرَّشَّادِ» فعَّال من رَشِد[3] ـ بالكسر ـ كعَلَّام، أو من رَشَد بالفتح، كعبَّاد. وقيل: من أرشد كجبَّار من أجبر، وليس بذاك؛ لأن فعَّالاً من أفعل لم يجئ إلا في عدّة أحرف: نحو درَّاك وسأَّرٍ وقصَّار وجَبَّار. ولا يصحُّ القياس على هذا القليل. ويجوز أن يكون نسبته إلى الرشد، كعَوَّاج وبتّات[4] غير منظور فيه إلى فعل.

ووقع في المصحف «اتَّبِعُونِ» بغير ياء، وقرأها يعقوب وابن كثير بالإثبات في الوصل والوقف. وحَذَفَها أبو عمرو ونافع[5] في الوقف، وأثبتوها في الوصل، إلا وَرْشًا حذفها في الحالتين، وكذلك الباقون[6]؛ لأنها وقعت في المصحف بغير ياء، ومَن أثبتها فعلى الأصل.

قوله تعالى: ﴿يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ﴾ أي: يُتَمَتَّع بها قليلاً، ثم تنقطع وتَزول. ﴿وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ﴾ أي: الاستقرار والخُلود. ومُراده بالدار الآخرة الجنة والنار، لأنهما لا يَفنيان. بيَّن ذلك بقوله: ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً﴾ يعني: الشِّرك ﴿فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا﴾ وهو العذاب[7]. ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا﴾ قال ابن عباس:

(١) قائله النابغة الذبياني وهو في ديوانه ص٩، وعجزه: وليلٍ أُقاسيهِ بطيء الكواكبِ.

(٢) الكشاف ٣/ ٤٢٥.

(٣) في النسخ الخطية: أرشد، والمثبت من (م)، وهو الموافق للكشاف.

(٤) العوَّاج: بائع العاج. والبتَّات: بائع البتّ، وهو الطيلسان من خزّ ونحوه. القاموس المحيط (عوج) و(بتت).

(٥) يعني في رواية قالون.

(٦) السبعة ص٥٧٣، والتيسير ص١٨٢، والنشر ٢/ ٣٦٦.

(٧) تفسير الطبري ٢٠/ ٣٢٩-٣٣٠ بنحوه.

يعني لا إله إلا الله[١]. ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ مُصدِّق بقلبه لله وللأنبياء.

﴿فأُولئكَ يُدْخَلُونَ الجنَّةَ﴾ بضمِّ الياء على ما لم يُسَمَّ فاعلُه. وهي قراءةُ ابن كثير وابن مُحَيْصن وأبي عمرو ويعقوب وأبي بكر عن عاصم[٢]، يدلُّ عليه ﴿يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ الباقون: «يَدْخُلُونَ» بفتح الياء.

قوله تعالى: ﴿وَيَٰقَوْمِ مَا لِيٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ﴾ أي: إلى طريق الإيمان المُوصل إلى الجنان ﴿وَتَدْعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ بيَّن أن ما قال فرعون من قوله: ﴿وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ سبيل الغيّ عاقبته النار، وكانوا دَعَوْه إلى اتّباعه؛ ولهذا قال: ﴿تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌ﴾ وهو فرعون ﴿وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ﴾.

﴿لَا جَرَمَ﴾ تقدَّم الكلامُ فيه[٣]، ومعناه: حقًّا ﴿أَنَّمَا تَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ﴾ «ما» بمعنى الذي[٤] ﴿لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ﴾ قال الزجاج[٥]: ليس له استجابةُ دعوة تنفع؛ وقال غيره: ليس له دعوةٌ تُوجب له الألوهية ﴿فِي ٱلدُّنْيَا وَلَا فِي ٱلْآخِرَةِ﴾.

وقال الكلبي: ليس له شفاعةٌ في الدنيا ولا في الآخرة[٦]. وكان فرعون أولًا يدعو الناس إلى عبادة الأصنام، ثم دعاهم إلى عبادة البقر، فكانت تُعبَدُ ما كانت شابَّة، فإذا هَرمت أمر بِذَبْحها، ثم دعا بأُخرى لِتُعبد، ثم لما طال عليه الزمان قال: أنا ربُّكم الأعلى.

﴿وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ قال قتادة وابن سيرين: يعني المشركين.

---

(١) ذكره ابن الجوزي في زاد المسير ٧/ ٢٢٤ دون نسبة.

(٢) وهي قراءة أبي جعفر من العشرة. السبعة ص٥٧١ ، والتيسير ص٩٧ ، والنشر ٢/ ٢٥٢ .

(٣) ١١/ ٩٤ .

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٥٦١ .

(٥) في معاني القرآن ٤/ ٣٧٦ . ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٤/ ٣٤ ، وما بعده منه.

(٦) النكت والعيون ٥/ ١٥٨ .

وقال مجاهد والشعبي: هم السفهاءُ السفَّاكون للدِّماء بغير حقِّها[١]. وقال عكرمة: الجبَّارون والمُتكبِّرون. وقيل: هم الذين تعدَّوا حُدودَ الله. وهذا جامعٌ لما ذُكر.

و«أنَّ» في المواضع في موضع نصب بإسقاط حرف الجر. وعلى ما حكاه سيبويه عن الخليل من أن «لَا جَرَمَ» ردٌّ لكلام يجوز أن يكون موضعُ «أنَّ» رفعاً على تقدير: وجب أن ما تدعونني إليه، كأنه قال: وجب بُطلانُ ما تدعونني إليه، والمَردُّ إلى الله، وكون المسرفين هم أصحاب النار[٢].

قوله تعالى: ﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ﴾ تهديد ووعيد، و«ما» يجوز أن تكون بمعنى الذي، أي: الذي أقولُه لكم. ويجوز أن تكون مصدريةً، أي: فستذكرون قولي لكم إذا حلَّ بكم العذاب. ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي: أتوكَّل عليه وأُسلِّم أمري إليه. وقيل: هذا يدلُّ على أنهم أرادوا قَتْلَه. وقال مقاتل: هربَ هذا المؤمنُ إلى الجبل فلم يقدروا عليه. وقد قيل: القائل موسى[٣]. والأظهرُ أنه مؤمن آل فرعون، وهو قول ابن عباس.

قوله تعالى: ﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟﴾ أي: من إلحاق أنواعِ العذاب به، فطلبوه فما وجدوه؛ لأنه فَوَّضَ أمرَه إلى الله. قال قتادة: كان قبطيًّا فنجَّاه الله مع بني إسرائيل[٤]. فالهاء على هذا لمؤمن آل فرعون. وقيل: إنها لموسى على ما تقدَّم من الخِلاف.

---

(١) ذكر هذه الأقوال الماوردي في النكت والعيون ٥/ ١٥٨ دون ذكر ابن سيرين، وقول مجاهد أخرجه الطبري ٢٠/ ٣٣٤.

(٢) الكلام بنحوه في المحرر الوجيز ٤/ ٥٦١، وينظر ما سلف ١١/ ٩٤.

(٣) الكلام بنحوه في النكت والعيون ٥/ ١٥٩ دون ذكر مقاتل.

(٤) تفسير البغوي ٤/ ٩٩.

﴿وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ﴾ قال الكسائي: يقال: حاق يَحِيقُ حَيْقاً وحُيُوقاً؛ إذا نزل ولزم[١]. ثم بيَّن العذاب فقال: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا﴾ وفيه ستةُ أوجه: يكون رفعاً على البدل من «سُوءُ». ويجوز أن يكون بمعنى هو النار. ويجوز أن يكون مرفوعاً بالابتداء. وقال الفراء[٢]: يكون مرفوعاً بالعائد على معنى: النار عليها يُعرَضون، فهذه أربعةُ أوجه في الرفع، وأجاز الفراء النصب؛ لأن بعدها عائداً وقبلَها ما يتَّصل به، وأجاز الأخفشُ[٣] الخفضَ على البدل من «العَذَابِ». والجمهور على أن هذا العَرْضَ في البرزخ.

واحتجَّ بعضُ أهل العلم في تثبيت عذاب القبر بقوله: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ ما دامت الدنيا[٤]. كذلك قال مجاهد وعكرمة ومقاتل ومحمد بن كعب كلهم قال: هذه الآية تدلُّ على عذاب القبر في الدنيا، ألا تراه يقول عن عذاب الآخرة ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾.

وفي الحديث عن ابن مسعود: إن أرواحَ آل فرعون ومَن كان مِثْلَهم من الكفار تُعرَض على النار بالغَداة والعَشِيّ، فيقال: هذه دارُكم[٥]. وعنه أيضاً: إنّ أرواحَهم في أجواف طير سُود تغدو على جهنم وتروح كلَّ يوم مرتين، فذلك عَرضُها[٦].

وروى شعبة عن يعلى بن عطاء قال: سمعتُ ميمون بن مَيْسرة[٧] يقول: كان أبو هريرة إذا أصبح ينادي: أصبحنا والحمدُ لله، وعُرِضَ آلُ فرعون على النار. فإذا أمسى

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٣٤ .

(٢) في معاني القرآن ٣/ ٩ ، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٤/ ٣٤-٣٥ وما قبله منه.

(٣) في معاني القرآن ٢/ ٦٧٧ .

(٤) تفسير الرازي ٢٧/ ٧٣ بنحوه.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٣٥ ، وينظر التعليق التالي.

(٦) هذا الأثر والذي قبله واحد، أخرجه ابن أبي حاتم فيما ذكره ابن كثير في تفسيره ٧/ ١٤٨ .

(٧) غيَّرها محققوا (م) إلى مهران، وهو خطأ.

نادى: أمسينا والحمد لله، وعُرِض آلُ فرعون على النار؛ فلا يسمع أبا هريرة أحدٌ إلا تعوَّذ بالله من النار[(١)].

وفي حديث صخر بن جُوَيْرية عن نافع عن ابن عمر قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إن الكافر إذا مات عُرِضَ على النار بالغَداة والعَشِيّ، ثم تلا: ﴿ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۚ﴾ وإن المؤمنَ إذا مات عُرِضَ روحه على الجنة بالغَدَاة والعَشِيّ»[(٢)].

وخرَّج البخاري ومسلم عن ابن عمر أن رسولَ الله ﷺ قال: «إنَّ أحدَكم إذا مات عُرِضَ عليه مَقْعده بالغَداة والعشيّ، إنْ كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة، وإن كان من أهلِ النار فمن أهلِ النار فيقال: هذا مَقْعدُك حتى يبعثَك الله إليه يومَ القيامة»[(٣)].

قال الفراء[(٤)]: في الغَداة والعشِيّ بمقادير ذلك في الدنيا. وهو قول مجاهد. قال: «غُدُوًّا وَعَشِيًّا» قال: من أيام الدنيا[(٥)].

وقال حماد بن محمد الفزاريّ: قال رجلٌ للأوزاعي، رأينا طيوراً تخرجُ من البحر تأخذُ ناحية الغرب، بيضاً صِغاراً، فَوْجاً فَوْجاً لا يعلم عددَها إلا الله، فإذا كان العشاء رَجَعتْ مثلَها سوداً. قال: تلك الطيورُ في حواصلها أرواحُ آل فرعون، يُعرضون على النار غُدوًّا وعَشِيًّا، فترجع إلى أوكارها وقد احترقت رِياشُها وصارت سوداً، فينبتُ عليها من الليل رياشها بيضاً وتتناثر السود، ثم تغدو فَتُعرض على النار غُدوًّا وعشيًّا، ثم ترجع إلى وَكْرها، فذلك دَأْبها ما كانت في الدنيا، فإذا كان يومُ القيامة قال الله تعالى: ﴿أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ﴾ وهو الهاوية. قال

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٤٠٠).

(٢) ذكره بهذا الإسناد وهذا اللفظ النحاس في إعراب القرآن ٤/ ٣٥، وعنه نقله المصنف، ولم نقف عليه بهذا السياق عند غيره، وينظر الحديث التالي.

(٣) صحيح البخاري (١٣٧٩)، وصحيح مسلم (٢٨٦٦)، وأخرجه أحمد (٥٩٢٦).

(٤) في معاني القرآن ٣/ ٩، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٤/ ٣٥.

(٥) معاني القرآن للنحاس ٦/ ٢٢٩، وهو في تفسير مجاهد ٢/ ٥٦٦، وأخرجه الطبري ٢٠/ ٣٣٩ ولفظه: يعني: ما كانت الدنيا.

الأوزاعي: فبلغنا أنهم ألفا ألفٍ وستُّ مئة ألف[١].

و«غُدُوًّا» مصدر جُعل ظرفاً على السعة. وَ«عَشِيًّا» عطف عليه وتم الكلام. ثم تبتدئ ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ﴾ على أن تنصبَ يوماً بقوله: «أَدْخِلوا» ويجوز أن يكون منصوباً بـ«يُعْرَضُونَ» على معنى «يُعْرَضُونَ» على النار في الدنيا «ويومَ تَقُومُ الساعةُ» فلا يُوقف عليه[٢].

وقرأ نافع وأهل المدينة وحمزة والكسائي: «أَدْخِلُوا» بقطع الألف وكسر الخاء من أدخل[٣]، وهي اختيار أبي عُبيد؛ أي: يأمر الله الملائكةَ أن يُدخلوهم، ودليلُه «النَّار يُعْرَضُونَ عليها». الباقون: «ادخُلُوا» بوصل الألف وضمّ الخاء من دخل، أي: يقال لهم: «ادْخُلُوا» يا «آل فرعونَ أَشَدَّ العذابِ» وهو اختيار أبي حاتم. قال: في القراءة الأولى: «آل» مفعولٌ أول و«أَشَدَّ» مفعولٌ ثانٍ بحذف الجر، وفي القراءة الثانية منصوب؛ لأنه نداء مضاف[٤].

وآل فرعون: مَنْ كان على دينه وعلى مذهبه، وإذا كان من كان على دينه ومذهبه في أشدّ العذاب كان هو أقربَ إلى ذلك. وروى ابن مسعود عن النبي ﷺ: «إنَّ العبدَ يُولَدُ مؤمناً، ويحيا مؤمناً، ويموت مؤمناً؛ منهم يحيى بن زكريا عليهما السلام، وُلِدَ مؤمناً، وحيي مؤمناً، ومات مؤمناً، وإنَّ العبدَ يُولَدُ كافراً، ويحيا كافراً، ويموت كافراً؛ منهم فرعون، وُلِدَ كافراً، وحيي كافراً، ومات كافراً» ذكره النحاس[٥].

وجعل الفرَّاء في الآية تقديماً وتأخيراً مجازه: ﴿أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ فجعل العرضَ في الآخرة، وهو خِلافُ

---

(١) أخرجه الطبري ٢٠/ ٣٣٨ . وفيه: إنهم ست مئة ألف مقاتل.

(٢) الكلام بنحوه في إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٣٥ ، وينظر الدر المصون ٩/ ٤٨٥ .

(٣) وقرأ بها عاصم في رواية حفص، السبعة ص٥٧٢ ، والتيسير ص١٩٢ ، والنشر ٢/ ٣٦٥ .

(٤) الحجة للفارسي ٦/ ١١٣ بنحوه.

(٥) في إعراب القرآن ٤/ ٣٥ ، وما قبله منه. والحديث أخرجه ابن مردويه من حديث ابن عباس ﷺ كما في الدر المنثور ٦/ ٢٢٧ وليس فيه ذكر يحيى عليه السلام ولا فرعون.

ما ذهب إليه الجمهور من انتظام الكلام على سياقه على ما تقدَّم. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِي ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴿٤٨﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِي ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوٓاْ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُواْ بَلَىٰ قَالُواْ فَٱدْعُواْ وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ ﴿٥٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِي ٱلنَّارِ﴾ أي: يختصمون فيها ﴿فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ﴾ عن الانقياد لِلأَنْبِيَاءِ: ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾ فيما دعوتمونا إليه من الشِّرك في الدنيا ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ﴾ أي: مُتَحَمِّلون ﴿عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ أي: جزءاً من العذاب. والتَّبَعُ يكون واحداً، ويكون جمعاً في قول البصريين، واحدُه تابع. وقال أهلُ الكوفة: هو جمعٌ لا واحدَ له كالمصدر، فلذلك لم يُجمع، ولو جُمع لقيل: أتباع[1].

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ﴾ أي: في جهنم. قال الأخفش[2]: «كُلٌّ» مرفوعٌ بالابتداء. وأجاز الكسائي والفراء[3] «إنَّا كُلًّا فيها» بالنصب على النعت والتأكيد للمضمر في «إنَّا»، وكذلك قرأ ابن السَّمَيْفَع وعيسى بن عمر[4]. والكوفيون يُسمُّون التأكيد نعتًا. ومنع ذلك سيبويه؛ قال: لأن «كُلًّا» لا تُنعت ولا يُنعت بها. ولا يجوز البدلُ فيه؛ لأن المُخبر عن نفسه لا يُبدل منه غيره، وقال معناه المبرد، قال: لا

(١) تفسير البغوي ٤/ ١٠٠ ، وينظر إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٣٦ .

(٢) في معاني القرآن ١/ ٦٧٨ ، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٤/ ٣٦ ، وما بعده منه.

(٣) في معاني القرآن ٣/ ١٠ .

(٤) ذكرها أبو حيان في البحر ٧/ ٤٦٩ .

يجوز أن يُبدل من المُضمر هنا؛ لأنه مُخاطَب، ولا يُبدل من المُخاطَب ولا من المُخاطِب؛ لأنهما لا يُشكلان فَيُبدَل منهما؛ هذا نصُّ كلامه.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ﴾ أي: لا يُؤاخِذُ أحداً بذنب غيره؛ فكلٌّ منّا كافر[1].

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ﴾ من الأمم الكافرة. ومن العرب من يقول: اللذون على أنه جمعُ مُسلَّم مُعرب، ومن قال: «الذين» في الرفع بَنَاه كما كان في الواحد مَبْنيًّا. وقال الأخفش: ضُمَّت النون إلى الذي فأشبه خمسةَ عشرَ، فَبُنيَ على الفتح. ﴿لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ﴾ خزنة جمع خازن، ويقال: خُزَّان وخُزَّن. ﴿ٱدْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ﴾ «يُخَفِّفْ» جواب مجزوم، وإن كان بالفاء كان منصوباً، إلا أن الأكثرَ في كلام العرب في جواب الأمر وما أشبهه أن يكون بغير فاء، وعلى هذا جاء القرآن بأفصح اللُّغات كما قال:

قِفا نَبْكِ مِن ذِكْرى حَبِيبٍ ومَنْزِلِ[2]

قال محمد بن كعب القُرَظي: بلغني ـ أو ذُكِرَ لي ـ أن أهلَ النار استغاثوا بالخَزَنةِ؛ فقال الله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ﴾ فسألوا يوماً واحداً يُخفَّف عنهم فيه العذابُ فَرُدَّت عليهم ﴿أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ قَالُوا بَلَىٰ ۚ قَالُوا فَٱدْعُوا ۗ وَمَا دُعَٰٓؤُا ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾ الخبر بطوله[3].

وفي الحديث عن أبي الدرداء ـ خرجه الترمذي وغيره ـ قال: يُلقى على أهل النار الجوع حتى يَعْدِلَ ما هم فيه من العذاب، فيستغيثون منه فَيُغاثون بالضَّريع لا يُسمن ولا يُغني من جوع، فيأكلونه لا يُغني عنهم شيئاً، فيستغيثون فَيُغاثون بطعام ذي غُصَّة،

(١) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٣٦ بنحوه.
(٢) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٣٦-٣٧ ، والبيت لامرئ القيس، وهو من معلقته، وسلف ١٠/ ٣٦٤ .
(٣) ذكره البغوي في تفسيره ٣/ ٣٠ .

فَيغَصُّون به، فيذكرون أنهم كانوا في الدنيا يُجيزون الغَصَص بالماء، فيستغيثون بالشَّراب فَيُرفَعُ لهم الحميم بالكلاليب، فإذا دنا من وجوههم شواها، فإذا وقع في بطونهم قطَّع أمعاءهم وما في بطونهم، فيستغيثون بالملائكة يقولون: ﴿ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ﴾ فيُجيبونهم ﴿أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُواْ بَلَىٰ قَالُواْ فَٱدْعُواْ وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾[1] أي: خسار وتَبار.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٥٢﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ ﴿٥٣﴾ هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا﴾، ويجوز حذفُ الضَّمة لِثقلِها، فيقال: «رُسْلَنَا» والمراد موسى عليه السلام. ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ في موضع نصب عطف على الرُّسل[2]، والمراد المؤمن الذي وعظ. وقيل: هو عامٌّ في الرُّسل والمؤمنين. ونَصْرهم بإعلاء الحُجج وإفلاحها في قول أبي العالية. وقيل: بالانتقام من أعدائهم. قال السدي: ما قَتَل قومٌ قطُّ نبيًّا أو قوماً من دُعاة الحقِّ من المؤمنين إلا بعثَ اللهُ عزَّ وجلَّ من ينتقم لهم، فصاروا منصورين فيها وإن قُتِلوا[3].

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾ يعني: يومَ القيامة. قال زيد بن أسلم: «الأشْهادُ» أربعة: الملائكة والنبيون والمؤمنون والأجساد[4]. وقال مجاهد والسدي: «الأشْهادُ» الملائكة تشهد للأنبياء بالإبلاغ، وعلى الأمم بالتكذيب. وقال قتادة:

---

(١) نقله المصنف بهذا اللفظ من إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٣٧، وأخرجه الترمذي (٢٥٨٦) بنحوه وقال: إنما نعرف هذا الحديث..... عن أبي الدرداء قوله، وليس بمرفوع.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٣٧.

(٣) النكت والعيون ٥/ ١٦٠.

(٤) في النسخ الخطية: الأشهاد، والمثبت من (م).

الملائكةُ والأنبياء[(١)].

ثم قيل: «الأَشْهَادُ» جمع شهيد مثل شريف وأشراف[(٢)]. وقال الزجاج[(٣)]: «الأَشْهَادُ» جمع شاهد، مثل صاحب وأصحاب. النحاس[(٤)]: ليس باب فاعل أن يُجمع على أفعال، ولا يُقاس عليه، ولكن ما جاء منه مسموعاً أُدِّيَ كما سُمع، وكان على حذف الزائد. وأجاز الأخفش والفراء: «وَيَوْمَ تَقُومُ الأَشْهَادُ» بالتاء على تأنيث الجماعة[(٥)].

وفي الحديث عن أبي الدرداء ـ وبعض المُحدِّثين يقول عن النبي ﷺ ـ قال: «من ردَّ عن عِرْض أخيه المسلم كان حقًّا على الله عزَّ وجلَّ أن يَرُدَّ عنه نارَ جهنم، ثم تلا: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾»[(٦)]. وعنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: «مَن حمى مؤمناً مِن منافق يغتابُه بعثَ اللهُ عزّ وجلّ يومَ القيامة مَلَكاً يحميه من النار. ومَن ذَكَر مسلماً بشيء يَشِينه به وَقَفَهُ اللهُ عزّ وجلّ على جسرٍ من جهنم حتى يخرجَ مما قال»[(٧)].

﴿يَوْمَ﴾ بدل من «يوم» الأول[(٨)]. ﴿لَا يَنفَعُ ٱلظَّـٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ﴾ قرأ نافع والكوفيون: «يَنْفَعُ» بالياء. الباقون بالتاء[(٩)]. ﴿وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ «اللَّعنةُ»

(١) النكت والعيون ٥/ ١٦٠-١٦١ ، وقولا مجاهد وقتادة أخرجهما الطبري ٢٠/ ٣٤٦ .

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٥٦٤ .

(٣) في معاني القرآن ٤/ ٣٧٦ .

(٤) في إعراب القرآن ٤/ ٣٨ . وقول الزجاج الذي قبله عنه.

(٥) معاني القرآن للأخفش ٢/ ٦٧٩ ، ومعاني القرآن للفراء ٣/ ١٠ ، و«تقوم» بالتاء؛ قرأ بها ابن هرمز وإسماعيل، كما في البحر المحيط ٧/ ٤٧٠ .

(٦) أخرجه أحمد (٢٧٥٣٦) مرفوعاً، وأشار إلى الموقوف أبو نعيم في الحلية ٧/ ٢٥٧ - ٢٥٨ .

(٧) أخرجه أحمد (١٥٦٤٩)، وأبو داود (٤٨٨٣) من حديث معاذ بن أنس الجهني ﷺ، وفي إسناده إسماعيل بن يحيى المعافري، قال الذهبي في الميزان ١/ ٢٥٤ : فيه جهالة، وذكر هذا الحديث من غرائبه. وهذا الحديث والذي قبله نقلهما المصنف من إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٣٨ .

(٨) المحرر الوجيز ٤/ ٥٦٤ .

(٩) السبعة ص٥٧٣ ، والتيسير ص١٩٢ .

البُعد من رحمة الله، و«سُوءُ الدَّارِ» جهنم.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ﴾ هذا دخل في نُصرة الرُّسل في الدنيا والآخرة، أي: آتيناه التوراة والنبوة. وسُمِّيت التوراة هدًى بما فيها من الهُدى والنور؛ وفي التنزيل: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾ [المائدة: ٤٤].

﴿وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ يعني: التوراة جعلناها لهم ميراثاً. ﴿هُدًى﴾ بدل من «الكتاب»، ويجوز بمعنى هو هُدًى؛ يعني ذلك الكتاب. ﴿وَذِكْرَىٰ لِأُولِى ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾ أي: موعظة لأصحاب العقول.

قوله تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَـٰرِ ﴿٥٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَـٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَـٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۙ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَـٰلِغِيهِ ۚ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٥٦﴾ لَخَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ ۚ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَـَٔاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ أي: فاصبِرْ يا محمد على أذى المشركين. كما صبر مَن قبلك ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ بنصرك وإظهارك، كما نصرتُ موسى وبني إسرائيل. وقال الكلبي: نُسِخَ هذا بآية السيف(١).

﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ قيل: لذنب أُمَّتك، حُذف المُضاف وأُقيم المضاف إليه مُقامه. وقيل: لذنب نَفسِكَ على من يُجَوِّز الصغائر على الأنبياء(٢). ومَن قال: لا تجوز قال: هذا تعبُّد للنبي عليه الصلاة والسلام بالدعاء؛ كما قال تعالى: ﴿وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا﴾ [آل عمران: ١٩٤] والفائدة زيادةُ الدرجات، وأن يصيرَ الدعاءُ سنةً لمن

---

(١) ذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٥٦٤، والبغوي في تفسيره ٤/ ١٠١.

(٢) تفسير الرزاي ٢٧/ ٧٧-٧٨ بنحوه.

بعده[١]. وقيل: فاستغفر الله من ذنب صَدَرَ منك قبلَ النبوة.

﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾ يعني صلاة الفجر وصلاةَ العصر؛ قاله الحسن وقتادة. وقيل: هي صلاةٌ كانت بمكة قبل أن تُفرضَ الصلواتُ الخمس؛ ركعتان غُدْوة وركعتان عشيّة. عن الحسن أيضاً، ذكره الماوردي[٢]. فيكون هذا مما نُسخ والله أعلم.

وقوله: ﴿بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ بالشُّكر له والثناء عليه. وقيل: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ أي: استدم التسبيحَ في الصلاة وخارجاً منها لِتشتغلَ بذلك عن استعجال النصر.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ﴾ يُخاصِمون ﴿فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ﴾ أي: حُجَّة ﴿أَتَىٰهُمْ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ﴾ قال الزجاج[٣]: المعنى: ما في صدورهم إلا كِبْرٌ ما هم ببالغي إرادتهم فيه. قدَّره على الحذف. وقال غيره: المعنى: ما هم ببالغي الكِبْر، على غير حذف؛ لأن هؤلاء قومٌ رأَوْا أنهم إن اتَّبعوا النبيَّ ﷺ قلَّ ارتفاعهم، ونقصتْ أحوالُهم، وأنهم يرتفعون إذا لم يكونوا تَبَعاً، فأعْلم اللهُ عزَّ وجلَّ أنهم لا يَبلُغون الارتفاع الذي أملوه بالتكذيب[٤]. والمراد المشركون. وقيل: اليهود[٥]؛ فالآيةُ مدنيةٌ على هذا كما تقدَّم أولَ السورة.

والمعنى: إن تَعَظَّموا عن اتّباعِ محمد ﷺ، وقالوا: إن الدجَّال سيخرج عن قريب فيردّ المُلك إلينا، وتسير معه الأنهار، وهو آيةٌ من آيات الله، فنزلت الآية فيهم. قاله أبو العالية وغيره[٦]. وقد تقدَّم في «آل عمران» أنه يخرج ويطأُ البلادَ كلَّها إلا مكةَ

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ١٠١ .

(٢) في النكت والعيون ٥/ ١٦١ ، وفيه قول قتادة السالف، وقول الحسن الأول ذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٥٦٥ .

(٣) في معاني القرآن ٤/ ٣٧٧ ، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٤/ ٣٩ .

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٣٩ .

(٥) النكت والعيون ٥/ ١٦١ .

(٦) النكت والعيون ٥/ ١٦١ ، وتفسير البغوي ٤/ ١٠١ بنحوه.

والمدينة[١]. وقد ذكرنا خبره مستوفى في كتاب «التذكرة»[٢] وهو يهودي، واسمه صاف، ويُكْنَى أبا يوسف[٣].

وقيل: كل مَن كَفَرَ بالنبيِّ ﷺ. وهذا حسن؛ لأنه يَعُمُّ. وقال مجاهد: معناه: في صدورهم عظمةٌ ما هم ببالغيها، والمعنى واحد[٤]. وقيل: المراد بالكِبْر الأمرُ الكبير. أي: يطلبون النبوة أو أمراً كبيراً يَصِلُون به إليك من القتل ونحوه، ولا يبلغون ذلك. أو يتمنَّون موتَك قبل أن يتمَّ دينُك، ولا يبلغونه.

قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾ قيل: من فتنة الدجال على قول من قال: إن الآية نزلت في اليهود. وعلى القول الآخر من شرِّ الكفار. وقيل: من مثل ما ابتُلوا به من الكفر والكِبْر. ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ «هو» يكون فاصلاً، ويكون مبتدأ، وما بعده خبرُه، والجملة خبرُ إنَّ على ما تقدَّم.

قوله تعالى: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾ مبتدأ وخبره. قال أبو العالية: أي: أعظم من خَلْق الدجال حين عظَّمَتْه اليهود. وقال يحيى بن سلام: هو احتجاجٌ على مُنكري البعث؛ أي: هما أكبرُ من إعادة خَلْق الناس، فَلِمَ اعتقدوا عجزي عنها[٥]؟! ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ذلك.

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ﴾ أي: المؤمن والكافر والضالُّ والمهتدي. ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي: ولا يستوي العاملُ للصالحات

(١) ٥/١٣٦ وما بعدها.

(٢) ص٦٥٨ وما بعدها.

(٣) صاف هو اسم ابن صياد. قال الإمام النووي في شرحه على صحيح مسلم ١٨/٤٦ : قال العلماء: وقصته مُشكلة، وأمره مُشتبه في أنه هل هو المسيح الدجال المشهور أم غيره، ولا شك في أنه دجّال من الدجاجلة. اهـ. وحديث ابن صياد أخرجه أحمد (٦٣٦٣)، والبخاري (١٣٥٥)، ومسلم (٢٩٣١) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٤) تفسير مجاهد ٢/٥٦٦ ، وذكره الماوردي في النكت والعيون ٥/١٦١ .

(٥) النكت والعيون ٥/١٦٢ .

﴿وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ﴾ الذي يعمل السيئات. ﴿قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ﴾ قراءةُ العامة بياء على الخبر، واختاره أبو عُبيد وأبو حاتم؛ لأجل ما قبله من الخبر وما بعده. وقرأ الكوفيون بالتاء على الخطاب(١).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَآتِيَةٌ﴾ هذه لامُ التأكيد دخلت في خبر إنَّ، وسبيلُها أن تكون في أوّل الكلام؛ لأنها توكيدُ الجملة إلا أنها تُزَحلَق عن موضعها؛ كذا قال سيبويه. تقول: إنَّ عَمراً لخارجٌ؛ وإنما أُخِّرتْ عن موضعها لئلا يُجمع بينها وبين إنَّ؛ لأنهما يُؤدّيان عن معنى واحد، وكذا لا يُجمع بين إنَّ وأنَّ عند البصريين. وأجاز هشام: إنَّ أنَّ زيداً منطلقٌ حقّ؛ فإن حذفت حقًّا لم يَجُزْ عند أحدٍ من النحويين عَلِمتُه؛ قاله النحاس(٢).

﴿لَا رَيْبَ فِيهَا﴾ لا شكَّ ولا مِرْيَة. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي: لا يُصدِّقون بها، وعندها يبين فرق ما بين الطائع والعاصي.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٦٢﴾ كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾ هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ الآية؛ روى النُّعمان بن بَشِير

(١) السبعة ص٥٧٢، والتيسير ص١٩٢.

(٢) في إعراب القرآن ٤/ ٣٩-٤٠.

قال: سمعتُ النبيَّ ﷺ يقول: «الدُّعاءُ هو العبادة» ثم قرأ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ قال أبو عيسى: هذا حديثٌ حسنٌ صحيح[1]. فدلَّ هذا على أن الدعاءَ هو العبادة. وكذا قال أكثرُ المفسرين؛ وأن المعنى: وَحِّدوني واعبُدوني أتقبَّلْ عبادتكم وأغفِر لكم. وقيل: هو الذِّكر والدعاء والسؤال. قال أنس: قال النبيُّ ﷺ: «لِيسأَلْ أحدُكم ربَّه حاجتَه كلَّها حتى يسألَه شِسْعَ نَعْله إذا انقطع»[2]. ويقال: الدُّعاء: هو تَرْكُ الذُّنوب[3]. وحكى قتادة أن كعب الأحبار قال: أُعطِيَتْ هذه الأمةَ ثلاثاً لم تُعْطَهن أُمةٌ قبلَهم إلا نبيّ: كان إذا أُرسل نبيٌّ قيل له: أنت شاهدٌ على أمتك، وقال تعالى لهذه الأمة: ﴿لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [البقرة:١٤٣]. وكان يقال للنبيّ: ليس عليك في الدين من حرج، وقال لهذه الأمة: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍۚ﴾ [الحج:٧٨] وكان يقال للنبيّ: ادعُني أَستجِبْ لك، وقال لهذه الأمة: ﴿ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْۚ﴾[4].

قلت: مثل هذا لا يقال من جهة الرأي. وقد جاء مرفوعاً؛ رواه ليثٌ، عن شَهْر ابن حَوْشَب، عن عُبادة بن الصامت، قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «أُعطِيَتْ أمتي ثلاثاً لم تُعطَ إلا للأنبياء: كان اللهُ تعالى إذا بعثَ النبيَّ قال: ادعُني أستجِبْ لك، وقال لهذه الأمة: ﴿ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْۚ﴾. وكان اللهُ إذا بعثَ النبيَّ قال: ما جعلَ عليك في الدين من حرج، وقال لهذه الأمة: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍۚ﴾ [الحج:٧٨] وكان اللهُ إذا بعثَ النبيَّ جعله شهيداً على قومه، وجعل هذه الأمةَ شهداءَ

---

(١) سنن الترمذي (٣٣٧٢)، وأخرجه أحمد (١٨٣٥٢)، وسلف ٣/ ١٧٨ .

(٢) أخرجه الترمذي كما في تحفة الأشراف ١/ ١٠٧ ، وابن حبان (٨٦٦). وفي إسناده قَطَن بن نُسَير، قال الذهبي في الميزان ٣/ ٣٩١ : كان أبو حاتم يحمل عليه، وقال ابن عدي: كان يسرق الحديث... رواه القواريري عن جعفر فأرسله، فقيل للقواريري: إن شيخنا يوصله. فقال القواريري: باطل. يعني وَصْلَه. ا هـ.

(٣) ذكره الزمخشري في الكشاف ٣/ ٤٣٣ عن الثوري.

(٤) النكت والعيون ٥/ ١٦٢-١٦٣ .

على الناس» ذكره الترمذي الحكيم في «نوادر الأصول»[(١)].

وكان خالد الربعي يقول: عَجبتُ[(٢)] لهذه الأمة! قيل لها: ﴿ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ أمرهم بالدُّعاء ووَعَدَهم الاستجابة، وليس بينهما شرط. قال له قائل: مثل ماذا؟ قال: مثل قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [البقرة: ٢٥] فهاهنا شرطٌ، وقوله: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ﴾ [يونس: ٢] فليس فيه شرطُ العمل؛ ومثل قوله: ﴿فَٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [غافر: ١٤] فهاهنا شرط، وقوله تعالى: ﴿ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ ليس فيه شرط، وكانت الأمة تَفزَعُ إلى أنبيائها في حوائجها حتى تسأل الأنبياءُ لهم ذلك[(٣)].

وقد قيل: إن هذا من باب المُطلق والمُقيد على ما تقدَّم في «البقرة» بيانه[(٤)]. أي: «أسْتَجِبْ لكم» إنْ شئت؛ كقوله: ﴿فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ﴾. وقد تكون الاستجابةُ في غير عين المطلوب على حديث أبي سعيد الخدري على ما تقدَّم في «البقرة» بيانُه فتأمَّلْه هناك[(٥)].

وقرأ ابن كثير وابن مُحيصن ورُوَيس عن يعقوب، وعَباس[(٦)] عن أبي عمرو، وأبو بكر والمُفضَّل عن عاصم: «سيُدخَلون» بضمِّ الياء وفتح الخاء على ما لم يُسَمَّ فاعله[(٧)]. الباقون: ﴿يَدْخُلُونَ﴾ بفتح الياء وضمِّ الخاء. ومعنى ﴿دَاخِرِينَ﴾ صاغرين

(١) ص٣٩١، وليث بن أبي سُليم وشهر بن حوشب ضعيفان كما في تقريب التهذيب، وسلف الحديث ٢/ ٤٣٦.

(٢) في (م): عجيب.

(٣) نوادر الأصول ص٣٩١، وسلف ٣/ ١٧٨-١٧٩.

(٤) ٣/ ١٧٩.

(٥) ٣/ ١٨٠، وينظر متن الحديث وتخريجه ثمة.

(٦) في (م): عيّاش، وهو خطأ، وعباس: هو ابن الفضل بن عمرو الواقفي الأنصاري، قاضي الموصل، من أكابر أصحاب أبي عمرو في القراءة. غاية النهاية ٢/ ٣٥٣.

(٧) وقرأ بها أبو جعفر من العشرة كما في النشر ٢/ ٢٥٢، وينظر السبعة ص٥٧٢، والتيسير ص١٩٢.

أَذِلَّاء، وقد تقدَّم(١).

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ﴾ «جَعَلَ» هنا بمعنى خَلَقَ؛ والعربُ تُفرِّق بين جَعَلَ إذا كانت بمعنى خَلَقَ، وبين جعل إذا لم تكن بمعنى خَلَقَ؛ فإذا كانت بمعنى خَلَقَ فلا تُعدِّيها إلا إلى مفعول واحد، وإذا لم تكن بمعنى خلق عدَّتها إلى مفعولين؛ نحو قوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ [الزخرف: ٣](٢) وقد مضى هذا المعنى في غير موضع(٣).

﴿وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ أي: مُضيئاً، لِتُبصروا فيه حوائجَكم، وتتصرَّفوا في طلب معائشكم. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ فضلَه وإنعامَه عليهم.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ بيَّن الدلالةَ على وحدانيته وقُدرته. ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ أي: كيف تنقلبون وتنصرفون عن الإيمان بعد أن تبيَّنت لكم دلائِلُه كذلك؛ أي: كما صُرِفتم عن الحقّ مع قيام الدليل عليه ف ﴿كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ﴾ يُصْرَفُ عن الحقّ ﴿ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا﴾ زاد في تأكيد التعريف والدليل؛ أي: جعل لكم الأرضَ مستقرًّا لكم في حياتكم وبعد الموت. ﴿وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾ تقدَّم(٤). ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ أي: خَلَقَكم في أحسن صورة. وقرأ أبو رَزين والأشهبُ العُقَيلي: «صِوَرَكُمْ» بكسر الصاد(٥).

قال الجوهري(٦): والصِّوَر ـ بكسر الصاد ـ لغة في الصُّوَر، جمع صورة، ويُنشد

---

(١) ١٢/ ٣٣٤.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٤٠.

(٣) ٨/ ٣١٧.

(٤) ١/ ٣٤٤-٣٤٥.

(٥) القراءات الشاذة ص١٣٢، وإعراب القرآن للنحاس ٤/ ٤٠.

(٦) في الصحاح (صور).

هذا البيت على هذه اللغة يصفُ الجواري:

أشبَهْنَ مِن بَقَرِ الخَلْصَاءِ أعيُنَها وهُنَّ أحْسَنُ مِن صِيرانِها صِورا[١]

[والصِّيران جمع صِوار، وهو القطيع من البقر، والصِّوار أيضاً وِعاءُ المِسْك][٢] وقد جمعهما الشاعر بقوله:

إذا لَاحَ الصِّوارُ ذكَرتُ لَيْلَى وأذْكُرُها إذا نَفَحَ الصِّوَارُ[٣]

والصِّيارُ لغة فيه.

﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ تقدَّم. ﴿هُوَ ٱلۡحَيُّ﴾ أي: الباقي الذي لا يموت ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۗ﴾ أي: الطاعة والعبادة. ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ قال الفراء: هو خبرٌ، وفيه إضمارُ أمر، أي: ادعوه واحمَدُوه. وقد مضى هذا كلُّه مستوفى في «البقرة» وغيرها[٤]. وقال ابن عباس: من قال: لا إله إلَّا الله، فليقل: الحمدُ للهِ ربِّ العالمين[٥].

قوله تعالى: ﴿قُلۡ إِنِّي نُهِيتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِيَ ٱلۡبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّي وَأُمِرۡتُ أَنۡ أُسۡلِمَ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٦٦ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ يُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡ ثُمَّ لِتَكُونُواْ شُيُوخٗاۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبۡلُۖ وَلِتَبۡلُغُوٓاْ أَجَلٗا مُّسَمّٗى وَلَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ۝٦٧ هُوَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٦٨﴾

قوله تعالى: ﴿قُلۡ إِنِّي نُهِيتُ﴾ أي: قل يا محمد: نهاني الله الذي هو الحيُّ القيوم، ولا إلهَ غيره ﴿أَنۡ أَعۡبُدَ﴾ غيره. ﴿لَمَّا جَآءَنِيَ ٱلۡبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّي﴾ أي: دلائلُ توحيده ﴿وَأُمِرۡتُ أَنۡ أُسۡلِمَ﴾ أذِلَّ وأخضعَ ﴿لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ وكانوا دَعَوْه إلى دين آبائه،

---

(١) قائله أبو ثروان كما في إصلاح المنطق ص١٥٠ . والخَلْصاء: ماء بالبادية. اللسان (خلص).

(٢) ما بين حاصرتين من الصحاح.

(٣) قائله بشار بن برد، وهو في ديوانه ٢/ ٣٣١ .

(٤) ١/ ٢٠٢ في سورة الفاتحة.

(٥) تفسير البغوي ٤/ ١٠٤ ، وفيه قول الفراء، وقول ابن عباس رضي الله عنهما أخرجه الطبري ٢٠/ ٣٥٧ .

فَأُمِرَ أن يقولَ هذا.

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ أي: أطفالاً. وقد تقدَّم هذا[١]. ﴿ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ﴾ وهي حالة اجتماع القوّة وتمام العقل. وقد مضَى في «الأنعام» بيانه[٢].

﴿ثُمَّ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًا﴾ بضم الشين قراءةُ نافع وابن مُحيصن وحفص وهشام ويعقوب وأبو عمرو على الأصل؛ لأنه جمع فَعْل، نحو: قَلْب وقُلُوب، ورأس ورؤوس.

وقرأ الباقون بكسر الشين لمراعاة الياء[٣]، وكلاهما جمع كَثْرة، وفي العدد القليل أشياخ، والأصل أشْيُخ؛ مثل فَلْس وأَفْلُس، إلا أن الحركة في الياء ثقيلة[٤]. وقرئ: «شَيْخًا» على التوحيد[٥]؛ كقوله: «طِفْلًا» والمعنى: كلُّ واحد منكم. واقتصر على الواحد لأن الغرضَ بيانُ الجنس. وفي «الصحاح»[٦]: جمع الشّيخ شُيوخ وأشياخ وشِيَخة وشِيخان ومَشْيَخة ومَشَايخ ومَشْيُوخاء، والمرأة شَيخة. قال عَبيد:

كـأنَّـهـا شَـيْـخَـةٌ رَقُـوبُ[٧]

وقد شاخ الرجلُ يَشِيخ شَيَخًا ـ بالتحريك على أَصْله ـ وشَيْخوخةً، وأصلُ الياء متحركة فسكنت؛ لأنه ليس في الكلام فَعَلول. وشَيَّخ تَشْيِيخًا، أي: شاخ. [وشَيَّخْته] دعوته شيخًا للتبجيل. وتصغير الشيخ شُيَيْخ وشِيَيْخ أيضاً ـ بكسر الشين ـ ولا تقل: شُوَيخ[٨].

---

(١) ١٤/ ٣٢١ وما بعدها.

(٢) ٩/ ١١١ وما بعدها.

(٣) قرأ حمزة والكسائي وابن كثير، وأبو بكر وابن ذكوان بكسر الشين، والباقون بضمها. السبعة ص١٧٨ ، والتيسير ص١٩٢ ، والنشر ٢/ ٢٢٦ .

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٤١ .

(٥) ذكرها الزمخشري في الكشاف ٣/ ٤٣٦ .

(٦) الصحاح (شيخ).

(٧) ديوان عَبيد بن الأبرص ص٢٩ ، وصدره: باتَتْ على إرَم عذوباً.

(٨) الصحاح (شيخ) وما بين حاصرتين منه.

النحاس[١]: وإن اضطرَّ شاعرٌ جاز أن يقول: أشْيُخ، مثل: عَيْن وأعْيُن، إلا أنه حَسُنَ في عين؛ لأنها مؤنثة. والشيخُ مَن جاوز أربعين سنة. ﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ﴾ قال مجاهد: أي: مِن قبل أن يكون شيخاً، أو مِن قبل هذه الأحوال إذا خرج سَقْطاً. ﴿وَلِتَبْلُغُوٓا۟ أَجَلًا مُّسَمًّى﴾ قال مجاهد: الموتُ للكل. واللام لامُ العاقبة. ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ ذلك فتعلموا أن لا إلهَ غيره.

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ زاد في التنبيه، أي: هو الذي يقدرُ على الإحياء والإماتة. ﴿فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا﴾ أي: أراد فِعْلَه قال: ﴿لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾. ونصب «فيكون» ابن عامر على جواب الأمر[٢]. وقد مضَى في «البقرة» القول فيه[٣].

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ ﴿٦٩﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِٱلْكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُوا۟ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۚ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٧٧﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ۗ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ قُضِىَ بِٱلْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٧٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ﴾ قال ابن زيد: هم المشركون بدليل قوله: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِٱلْكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا﴾. وقال

---

(١) إعراب القرآن ٤/ ٤١ .

(٢) السبعة ص١٦٨ ، والتيسير ص٧٦ .

(٣) ١/ ٣٣٩ .

أكثرُ المفسرين: نزلت في القَدَرية[(١)]. قال ابن سيرين: إنْ لم تكن هذه الآيةُ نزلَتْ في القَدَريّة، فلا أدري فيمن نزلت. قال أبو قَبِيل: لا أحْسِبُ المُكَذِّبين بالقَدَر إلا الذين يُجادلون الذين آمنوا[(٢)]. وقال عقبة بن عامر: قال النبي ﷺ: «نزلَتْ هذه الآيةُ في القَدَرِيّة» ذكره المهدوي[(٣)].

قوله تعالى: ﴿إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ﴾ أي: عن قريب يعلمون بُطلانَ ما هم فيه إذا دخلوا النار وغُلَّت أيديهم إلى أعناقهم. قال التَّيمي: لو أن غُلًّا من أغلال جهنم وُضِع على جبل لوَهَصه حتى يبلغ الماء الأسود[(٤)]. ﴿وَٱلسَّلَٰسِلُ﴾ بالرفع قراءة العامة عطفاً على الأغلال.

قال أبو حاتم: ﴿يُسْحَبُونَ﴾ مستأنف على هذه القراءة. وقال غيره: هو في موضع نصب على الحال، والتقدير: ﴿إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ﴾ مسحوبين. وقرأ ابن عباس وأبو الجوزاء وعكرمة وابن مسعود: «والسَّلاسِلَ» بالنصب، «يَسْحَبُونَ» بفتح الياء، والتقدير في هذه القراءة: ويَسحبون السلاسلَ[(٥)]. قال ابن عباس: إذا كانوا يَجُرُّونها فهو أشدُّ عليهم[(٦)].

وحكي عن بعضهم: «والسلاسِلِ» بالجرّ[(٧)]، ووجهُه أنه محمولٌ على المعنى؛ لأن المعنى: أعناقهم في الأغلال والسلاسلِ؛ قاله الفرّاء[(٨)]. وقال الزجاج[(٩)]: ومن

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٥٦٨ .

(٢) أخرجهما الطبري ٢٠/ ٣٦١ . وأبو قَبيل: هو حيّ بن هانئ بن ناضر ـ بمعجمة ـ المعافري، المحدّث، يماني استوطن مصر. مات سنة (١٢٨هـ). السير ٥/ ٢١٤ .

(٣) لم نقف عليه.

(٤) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ١٨٣ . وقوله: وهصة: الوَهْص: الرمي العنيف. القاموس (وهص).

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٤٢ . وقراءة ابن عباس وابن مسعود ﷺ في القراءات الشاذة ص١٣٣ .

(٦) زاد المسير ٧/ ٢٣٦ .

(٧) ذكرها السمين الحلبي في الدر المصون ٩/ ٤٩٥ عن ابن عباس وجماعة.

(٨) في معاني القرآن ٣/ ١١ .

(٩) في معاني القرآن ٤/ ٣٧٨ .

قرأ: «والسلاسِلِ يُسحبون» بالخفض فالمعنى عنده: وفي «السلاسِلِ يُسْحَبُونَ».

قال ابن الأنباري(١): والخفضُ على هذا المعنى غير جائز؛ لأنك إذا قلت: زيد في الدار، لم يحسن أن تُضمر «في» فتقول: زيد الدارِ، ولكنَّ الخفضَ جائزٌ على معنى: إذ أعناقهم في الأغلال والسلاسل، فتخفض السلاسل على النَّسق على تأويل الأغلال؛ لأن الأغلالَ في تأويل الخفض؛ كما تقول: خاصمَ عبدُ الله زيداً العاقِلَيْن؛ فتنصب العاقِلَيْن، ويجوز رَفْعُهما؛ لأن أحدَهما إذا خاصمَ صاحبَه فقد خاصمَه صاحبُه؛ أنشد الفرّاء:

قد سَالَمَ الحياتِ مِنه القَدَما الأُفْعُوانَ والشُّجاعَ الشَّجْعَما(٢)

فنصب الأُفعوان على الإتباع للحيات [لأن الحيَّاتِ] إذا سالمت القدمَ فقد سالمتها القدمُ. فمن نَصَبَ السلاسل أو خَفَضَها لم يَقِفْ عليها(٣).

و«الحميم» المتناهي في الحر. وقيل: الصديد المَغْلي. ﴿ثُمَّ فِي ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ﴾ أي: يُطرحون فيها فيكونون وَقوداً لها؛ قاله مجاهد(٤). يقال: سَجَرتُ التنور، أي: أوقدته، وسَجَرته: ملأته؛ ومنه ﴿وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ﴾ [الطور:٦] أي: المملوء. فالمعنى على هذا: تُملأ بهم النار، وقال الشاعر يصف وَعْلاً:

إذا شَاءَ طَالَعَ مَسْجُورَةً تَرَى حولها النَّبْعَ والسَّاسَما(٥)

(١) في إيضاح الوقف والابتداء ٢/ ٨٧٣-٨٧٤ .

(٢) معاني القرآن للفراء ٣/ ١١ ، والرجز قيل: هو لمساور العبسي، وقيل: للعجّاج، وقيل: لأبي حيان الفقعسي، وقيل: للدُّبَيري، وقيل: لعبد بني عبس، وقوله: الأُفعوان ـ بالضم ـ: الذكر من الأفاعي، والشُّجاع: الذكر من الحيات، والشجعم: الجريء، وقيل: الطويل مع عِظَم جسم، والميم زائدة. خزانة الأدب ١١/ ٤١٧-٤١٨ .

(٣) إيضاح الوقف والابتداء ٢/ ٨٧٣-٨٧٤ ، وما بين حاصرتين منه.

(٤) معاني القرآن للنحاس ٦/ ٢٣٤ ، وتفسير البغوي ٤/ ١٠٥ .

(٥) في (ظ): السماسما، وفي (م): السَّمسما. والبيت للنمر بن تولب، وهو في معاني القرآن للنحاس ٦/ ٢٣٤ (وما قبله منه) وخزانة الأدب ١١/ ٩٩ . والنَّبع والسَّاسَم: شجر يُعمل منه القسي. القاموس (نبع) و(سسم).

أي: عيناً مملوءة. ﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ . مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ وهذا تقريعٌ وتوبيخ[١]. ﴿قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا﴾ أي: هلكوا وذهبوا عنا وتركونا في العذاب؛ مِنْ ضَلَّ الماءُ في اللبن، أي: خفي. وقيل: أي: صاروا بحيث لا نَجِدُهم.

﴿بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُوا۟ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا﴾ أي: شيئاً لا يُبصر ولا يسمع ولا يضرُّ ولا ينفع[٢]. وليس هذا إنكاراً لعبادة الأصنام، بل هو اعترافٌ بأن عبادتَهم الأصنامَ كانت باطلةً؛ قال الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ أي: كما فعل بهؤلاء من الإضلال يفعل بكل كافر.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُم﴾ أي: ذلكم العذابُ ﴿بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ﴾ بالمعاصي، يقال لهم ذلك توبيخاً. أي: إنما نالَكم هذا بما كنتم تُظهرون في الدنيا من السُّرور بالمعصية وكَثْرة المال والأتباع والصِّحة. وقيل: إن فرحَهم بها عندهم أنهم قالوا للرُّسل: نحن نعلمُ أنا لا نُبعث ولا نُعذَّب. وكذا قال مجاهد في قوله جلَّ وعزَّ: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾. ﴿وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ﴾ قال مجاهد وغيره: أي: تَبْطَرون وتَأشَرون[٣]. وقد مضَى في «سبحان» بيانُه[٤].

وقال الضحاك: الفرحُ السرورُ، والمَرَحُ العُدوان.، وروى خالد عن ثور عن معاذ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إنَّ اللهَ يُبغض البَذِخين الفرحين، ويحبُّ كلَّ قلبٍ حزين، ويُبغض أهلَ بيتٍ لَحِمين، ويُبغض كلَّ حِبْر سمين»[٥] فأما أهلُ بيت لَحِمين: فالذين يأكلون لحومَ الناس بالغِيبة. وأما الحِبْر السمين: فالمُتحبِّرُ بعلمه ولا يُخبر بعلمه الناس؛ يعنى المُستكثِرُ من عِلْمه ولا ينتفع به الناس. ذكره الماوردي. وقد قيل في

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٥٦٩ .

(٢) زاد المسير ٧/ ٢٣٧ بنحوه.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٤٣ .

(٤) ١٣/ ٨١ .

(٥) نقله المصنف بهذا اللفظ عن الماوردي في النكت والعيون ٥/ ١٦٥ ، وقوله منه: «إن الله يحب كل قلب حزين» أخرجه البيهقي في الشعب (٨٩٣) من طريق ضمرة بن حبيب عن أبي الدرداء مرفوعاً. وهذا إسناد منقطع، فإن ضمرة لم يلقَ أبا الدرداء ﷺ وقوله: «ويبغض أهل بيت لَحِمين، ويبغض كل حبر سمين» أخرجه أيضاً البيهقي في الشعب (٥٦٦٨) عن كعب قوله.

اللَّحِمِين: إنهم الذين يُكثرون أكل اللحم؛ ومنه قول عمر: اتقوا هذه المجازر فإنَّ لها ضراوةً كَضَراوة الخمر[1]؛ ذكره المهدوي. والأوّل قول سفيان الثوري[2]. ﴿ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ﴾ أي: يقال لهم ذلك اليوم، وقد قال الله تعالى: ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ﴾ [الحجر: ٤٤]. ﴿فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ تقدم جميعه[3].

قوله تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ هذا تسليةٌ للنبي عليه الصلاة والسلام؛ أي: إنا لَننتقم لك منهم إما في حياتك أو في الآخرة. ﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ﴾ في موضع جزم بالشرط، وما زائدة للتوكيد، وكذا النون، وزال الجزم وبُني الفعل على الفتح. ﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ عطف عليه ﴿فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ الجواب[4].

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ﴾ عزّاه أيضاً بما لَقِيَتِ الرُّسل من قبله. ﴿مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ﴾ أي: أنبأناك بأخبارهم وما لَقُوا من قومهم. ﴿وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ۗ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ﴾ أي: من قِبَلِ نفسه ﴿إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ أي: إذا جاء الوقتُ المُسمى لِعذابهم أهلكهم اللهُ، وإنما التأخيرُ لإسلام من عَلِمَ اللهُ إسلامَه منهم، ولمن في أصلابهم من المؤمنين. وقيل: أشار بهذا إلى القَتْل ببدر. ﴿قُضِىَ بِٱلْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ أي: الذين يتَّبعون الباطلَ والشِّرك.

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَلِتَبْلُغُوا۟ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَأَىَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ ﴿٨١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ﴾ قال أبو إسحاق الزجاج[5]: الأنعام

---

(١) أخرجه مالك في الموطأ ٢/ ٩٣٥ بلفظ: إياكم واللحمَ، فإن له ضراوةً كضراوة الخمر. وسلف ٩/ ٢٠٨ .
(٢) ذكره ابن الجوزي في غريب الحديث ٢/ ٣١٧ .
(٣) ١٢/ ٢١٤ وما بعدها.
(٤) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٤٣ .
(٥) في معاني القرآن ٤/ ٣٧٨ .

هاهنا الإبل. ﴿لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ فاحتجَّ من مَنَعَ من أكل الخيل وأباح أكل الجِمال بأنّ الله عزَّ وجلَّ قال في الأنعام: ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ وقال في الخيل: ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا﴾ [النحل:٨] ولم يذكر إباحةَ أكلها[١]. وقد مضَى هذا في «النحل» مستوفى[٢].

قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ﴾ في الوبر والصوف والشَّعر واللَّبن والزُّبْد والسمن والجبن وغير ذلك. ﴿وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ﴾ أي: تحمل الأثقالَ والأسفار. وقد مضى في «النحل» بيانُ هذا كلِّه فلا معنى لإعادته[٣]. ثم قال: ﴿وَعَلَيْهَا﴾ يعني الأنعام في البر ﴿وَعَلَى الْفُلْكِ﴾ في البحر ﴿تُحْمَلُونَ . وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ﴾ أي: آياتهِ الدالَّةَ على وحدانيته وقُدرته فيما ذكر. ﴿فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ﴾ نصب «أيًّا» بـ«تُنكرون» لأن الاستفهام له صدر الكلام فلا يعمل فيه ما قبله، ولو كان مع الفعل هاء لكان الاختيار في «أيّ» الرفع، ولو كان الاستفهام بألف أو هل وكان بعدهما اسم بعده فعل معه هاء لكان الاختيار النصب[٤]، أي: إذا كنتم لا تُنكرون أن هذه الأشياء من الله، فلم تُنكرون قُدرته على البعث والنَّشر؟

قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ حتى يُشاهدوا آثارَ الأُمم السالفة. ﴿كَانُوا

(١) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٤٣-٤٤ .

(٢) ١٢/ ٢٧٨ وما بعدها.

(٣) ١٢/ ٢٧٥ .

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٤٤ .

﴿أَكْثَرَ مِنْهُمْ﴾ عدداً ﴿وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ من الأبنية والأموال وما أدالوا به من الأولاد والأتباع؛ يقال: دلوت بفلان إليك، أي: استشفعت به إليك. وعلى هذا «ما» للجحد، أي: فلم يُغْنِ عنهم ذلك شيئاً. وقيل: «ما» للاستفهام، أي: أيّ شيء أغنى عنهم كسبهم حين هلكوا[١]. ولم ينصرف «أَكْثَرَ»؛ لأنه على وزن أفعل. وزعم الكوفيون أن كل مالا ينصرف فإنه يجوز أن ينصرف إلا أفعل من كذا، فإنه لا يجوز صرفه بوجه في شِعْرٍ[٢] ولا غيره إذا كانت معه من. قال أبو العباس: ولو كانت من المانعةَ من صرفه لَوجب ألا يقال: مررت بخير منك وشر من عمرو.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي: بالآيات الواضحات ﴿فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ﴾ في معناه ثلاثة أقوال؛ قال مجاهد: إن الكفار الذين فرحوا بما عندهم من العلم قالوا: نحن أعلم منهم، لن نُعذّب ولن نُبعث. وقيل: فرح الكفار بما عندهم من علم الدنيا نحو ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [الروم:٧]. وقيل: الذين فرحوا الرُّسلُ، لمَّا كذَّبهم قومُهم أعلمهم الله عزَّ وجلَّ أنه مُهلك الكافرين ومُنجيهم والمؤمنين، فـ «فرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ» بنجاة المؤمنين ﴿وَحَاقَ بِهِم﴾ أي: بالكفار ﴿مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ أي: عقاب استهزائهم بما جاء به الرسل صلوات الله عليهم[٣].

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾ أي: عاينوا العذاب. ﴿قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ﴾ أي: بالأوثان التي أشركناهم في العبادة ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ﴾ بالله عند مُعاينة العذاب وحين رَأَوُا البأس. ﴿سُنَّتَ اللَّهِ﴾ مصدر؛ لأن العرب تقول: سَنَّ يسن سنًّا وسُنةً؛ أي: سنّ الله عزَّ وجلَّ في الكفار أنه لا

---

(١) تفسير البغوي ٤/١٠٦.

(٢) في النسخ الخطية: معرفة، والمثبت من إعراب القرآن للنحاس ٤/٤٤، والكلام منه.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٤/٤٤-٤٥.

ينفعهم الإيمان إذا رأوا العذاب[١]. وقد مضى هذا مُبيَّناً في «النساء» و«يونس»[٢] وأن التوبة لا تُقبل بعد رؤية العذاب وحصول العلم الضروري. وقيل: أي: احذروا يا أهل مكة سنَّة الله في إهلاك الكَفَرة فـ «سنَّةَ الله» منصوب على التحذير والإغراء[٣].

﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ قال الزجاج[٤]: وقد كانوا خاسرين من قبل ذلك إلا أنه تبيَّن لهم[٥] الخُسران لما رأوا العذاب.

وقيل: فيه تقديم وتأخير؛ أي: ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا﴾ ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ كَسُنَّتنا في جميع الكافرين فـ «سنة» نصب بنزع الخافض، أي: كسنّة الله في الأُمم كلِّها. والله أعلم.

تم تفسير سورة «غافر» والحمد لله.

---

(١) المصدر السابق بنحوه.

(٢) ٦/١٥٢ و١١/٥٥ .

(٣) تفسير البغوي ٤/١٠٦ .

(٤) في معاني القرآن ٤/٣٧٨ ، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٤/٤٥ .

(٥) في النسخ: بيّن لنا، والمثبت من إعراب القرآن للنحاس، وفي معاني القرآن للزجاج: بيَّن لهم.

تفسير سورة غافر[١]

وهى مكية.

قد كره بعض السلف، منهم محمد بن سيرين أن يقال: «الحواميم»، وإنما يقال: «آل حم».

قال عبد الله بن مسعود: «آل حم» ديباج القرآن.

وقال ابن عباس: إن لكل شىء لباباً، ولُبَاب القرآن «آل حم» ـ أو قال: الحواميم.

قال مِسْعَر بن كِدَام: كان يقال لهن: «العرائس».

روى ذلك كله الإمام العَلَم[٢] أبو عُبيد القاسم بن سلام، رحمه الله، فى كتاب: «فضائل القرآن»[٣].

وقال حُميد بن زَنْجويه: حدثنا عبيد الله بن موسى، حدثنا إسرائيل، عن أبى إسحاق، عن أبى الأحوص عن عبيد الله[٤] قال: إن مثل القرآن كمثل رجل انطلق يرتاد لأهله منزلا، فمر بأثر غيث فبينا هو يسير فيه ويتعجب [منه][٥]، إذ هبط على روضات دَمِثات فقال: عجبت من الغيث الأول، فهذا أعجب وأعجب فقيل له: إن مثل الغيث الأول مثل عِظَم[٦] القرآن، وإن مثل هؤلاء الروضات الدمثات، مثل آل حم فى القرآن. أورده البغوى[٧].

وقال ابن لَهِيعة، عن يزيد بن أبى حبيب: أن الجرّاح بن أبى الجراح حدثه عن ابن عباس، قال: لكل شىء لباب، ولباب القرآن الحواميم[٨].

وقال ابن مسعود: إذا وَقعتُ فى «آل حم» فقد وقعتُ فى روضات أتأنّق فيهن[٩].

وقال أبو عبيد: حدثنا الأشجعى، حدثنا مسْعر ـ هو ابن كِدَام ـ عمن حدثه: أن رجلا رأى أبا الدرداء [رضى الله عنه][١٠] يبنى مسجداً، فقال له: ما هذا؟ فقال: أبنيه من أجل «آل حم»[١١].

وقد يكون هذا المسجد الذى بناه أبو الدرداء، هو المسجد المنسوب إليه داخل قلعة دمشق. وقد يكون صيانتها وحفظها ببركته وبركة ما وُضع له، فإن هذا الكلام يدل على النصر على الأعداء، كما قال رسول الله[١٢] ﷺ لأصحابه فى بعض الغزوات: «إن بَيّتم الليلة فقولوا: حم، لا ينصرون». وفى رواية: «لا تنصرون»[١٣].

وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا أحمد بن الحكم بن ظِبْيان بن خَلَف المازنى، ومحمد بن

---

(١) فى ت، س: «المؤمن». (٢) فى أ: «العالم».
(٣) فضائل القرآن (ص١٣٧، ١٣٨).
(٤) فى ت: «عبد الله». (٥) زيادة من ت، س، أ. (٦) فى أ: «عظيم».
(٧) معالم التنزيل للبغوى (٧/ ١٣٤).
(٨) رواه أبو عبيد فى فضائل القرآن (ص١٣٧) والبغوى فى تفسيره (٧/ ١٣٤).
(٩) رواه أبو عبيد فى فضائل القرآن (ص١٣٧). (١٠) زيادة من ت، أ.
(١١) فضائل القرآن لأبى عبيد (ص١٣٧).
(١٢) فى ت: «النبى».
(١٣) رواه الإمام أحمد فى مسنده (٤/ ٦٥) وأبو داود فى السنن برقم (٢٥٩٧) والترمذى فى السنن برقم (١٦٨٢) عن المهلب بن أبى صفرة عمن سمع النبى ﷺ.

الليث الهمدانى قالا: حدثنا موسى بن مسعود، حدثنا عبد الرحمن بن أبى بكر المليكى، عن زرارة ابن مصعب، عن أبى سلمة، عن أبى هُرَيرة، رضى الله عنه، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «من قرأ آية الكرسى وأول حم المؤمن، عُصِم ذلك اليوم من كل سوء».

ثم قال: لا نعلمه يُروى إلا بهذا الإسناد. ورواه الترمذى من حديث المليكى، وقال: تكلم فيه بعض أهل العلم من قبل حفظه[1].

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٢﴾ غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿٣﴾ ﴾.

أما الكلام على الحروف المقطعة، فقد تقدم فى أول «سورة البقرة» بما أغنى عن إعادته هاهنا.

وقد قيل: إن ﴿حم﴾ اسم من أسماء الله عز وجل، وأنشدوا فى ذلك[2].

يُذَكِّرُنى حاميمَ والرمحُ شَاجر فَهَلا تلا حَاميمَ قَبْل التَّقدُّمِ

وقد ورد[3] فى الحديث الذى رواه أبو داود والترمذى، من حديث الثورى، عن أبى إسحاق، عن المهلب بن أبى صُفْرة قال: حدثنى من سمع رسول الله ﷺ يقول: «إن بَيِّتم الليلة فقولوا: حم، لا ينصرون» وهذا إسناد صحيح[4].

واختار أبو عبيد أن يُروى: «فقولوا: حم، لا ينصروا» أى: إن قلتم ذلك لا ينصروا، جعله جزاء لقوله: فقولوا.

وقوله: ﴿ تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾ أى: تنزيل هذا الكتاب ـ وهو القرآن ـ من الله ذى العزة والعلم ،فلا يرام جنابه، ولا يخفى عليه الذر وإن تكاثف حجابه.

وقوله: ﴿ غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ ﴾ أى: يغفر ما سلف من الذنب، ويقبل التوبة فى المستقبل لمن تاب إليه وخَضَع لديه.

وقوله: ﴿ شَدِيدِ الْعِقَابِ ﴾ أى: لمن تمرد وطغى وآثر الحياة الدنيا، وعتا عن[5] أوامر الله، وبغى [وقد اجتمع في هذه الآية الرجاء والخوف][6]. وهذه كقوله تعالى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ . وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الأَلِيمُ ﴾ [الحجر: ٤٩، ٥٠]، يقرن هذين الوصفين كثيراً فى مواضع متعددة من القرآن؛ ليبقى العبد بين الرجاء والخوف.

وقوله: ﴿ذِي الطَّوْلِ ﴾ قال ابن عباس: يعنى: السعة والغنى. وكذا قال مجاهد، وقتادة.

وقال يزيد بن الأصم: ﴿ذِي الطَّوْلِ﴾: يعنى: الخير الكثير.

---

(١) سنن الترمذى برقم (٢٨٧٩).

(٢) البيت فى تفسير الطبرى (٢٤/٢٦) وفى صحيح البخارى (٨/٥٥٣) «فتح» منسوبا إلى شريح بن أوفى العبسى.

(٣) فى أ: «روى».

(٤) سنن أبى داود برقم (٢٥٩٧) وسنن الترمذى برقم (١٦٨٢).

(٥) فى أ: «على». (٦) زيادة من أ.

وقال عكرمة: ﴿ذِي الطَّوْلِ﴾: ذى المن.

وقال قتادة: [يعنى][(١)]: ذى النعم والفواضل.

والمعنى: أنه المتفضل على عباده، المتطول عليهم بما هو فيه من المنن والأنعام، التى لا يطيقون القيام بشكر واحدة منها، ﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا [إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ] [(٢)]﴾ [إبراهيم: ٣٤].

وقوله: ﴿ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾ أى: لا نظير له فى جميع صفاته، فلا إله غيره، ولا رب سواه ﴿ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ أى: إليه المرجع والمآب، فيجازى كل عامل بعمله، ﴿وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [الرعد: ٤١].

وقال أبو بكر بن عياش: سمعت أبا إسحاق السَّبِيعى يقول: جاء رجل إلى عمر بن الخطاب [رضى الله عنه][(٣)] فقال: يا أمير المؤمنين، إنى قَتَلْتُ، فهل لى من توبة؟ فقرأ عليه: ﴿حم. تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ. غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ﴾ وقال: اعمل ولا تيأس.

رواه ابن أبى حاتم ـ واللفظ له ـ وابن جرير[(٤)].

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا موسى بن مروان الرَّقِّى، حدثنا عمر ـ يعنى ابن أيوب ـ أخبرنا جعفر بن بَرْقان، عن يزيد بن الأصم[(٥)] قال: كان رجل من أهل الشام ذو بأس، وكان يفد إلى عمر بن الخطاب [رضى الله عنه][(٦)]، ففقده عمر فقال: ما فعل فلان بن فلان؟ فقالوا: يا أمير المؤمنين، يتابع فى هذا الشراب. قال: فدعا عمر كاتبه، فقال: اكتب: «من عمر بن الخطاب إلى فلان ابن فلان، سلام عليك، [أما بعد][(٧)]: فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو، غافر الذنب وقابل التوب، شديد العقاب، ذى الطول، لا إله إلا هو إليه المصير». ثم قال لأصحابه: ادعوا الله لأخيكم أن يُقْبِل بقلبه، وأن يتوب الله عليه[(٨)]. فلما بلغ الرجل كتابُ عمر جعل يقرؤه ويردده، ويقول: غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب، قد حذرنى عقوبته، ووعدنى أن يغفر لى.

ورواه الحافظ أبو نعيم من حديث جعفر بن برقان، وزاد: «فلم يزل يُرَدّدها على نفسه، ثم بكى، ثم نَزَع فأحسن النَّزع فلما بلغ عمر [رضى الله عنه][(٩)] خبرُه قال: هكذا فاصنعوا، إذا رأيتم أخاكم زل زلّة فسددوه ووفقوه، وادعوا الله له أن يتوب عليه، ولا تكونوا أعواناً للشيطان عليه[(١٠)].

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا عمر بن شبَّة[(١١)]، حدثنا حماد بن واقد ـ أبو عُمَر الصفار ـ، حدثنا ثابت البنانى، قال: كنت مع مصعب بن الزبير فى سواد الكوفة، فدخلت حائطاً أصلى ركعتين، فافتتحت: ﴿ حم ﴾ المؤمن، حتى بلغت: ﴿لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ فإذا رجل خلفى على بغلة شهباء عليه مُقَطَّعات يمنية، فقال: إذا قلت: ﴿غَافِرِ الذَّنبِ﴾ فقل: «يا غافر الذنب، اغفر لى ذنبى».

(١) زيادة من ت.
(٢) زيادة من ت، وفى الأصل: «الآية».
(٣) زيادة من ت، أ.
(٤) تفسير الطبرى (٢٤/٢٧).
(٥) فى ت: «وروى أيضا بإسناده عن يزيد بن الأصم».
(٦) زيادة من ت.
(٧) زيادة من أ.
(٨) فى س، أ: «أن يقبل بقلبه ويتوب عليه».
(٩) زيادة من أ.
(١٠) حلية الأولياء (٤/٩٧).
(١١) فى أ: «ابن أبى شيبة».

وإذا قلت: ﴿ وَقَابِلِ التَّوْبِ﴾، فقل: «يا قابل التوب، اقبل توبتى». وإذا قلت: ﴿ شَدِيدِ الْعِقَابِ﴾، فقل: «يا شديد العقاب، لا تعاقبنى». قال: فالتفت فلم أر أحداً، فخرجت إلى الباب فقلت: مرّ بكم رجل عليه مقطعات يمنية؟ قالوا: ما رأينا أحداً فكانوا يُرَون أنه إلياس.

ثم رواه من طريق أخرى، عن ثابت، بنحوه. وليس فيه ذكر إلياس.

﴿ مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلاَّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَلا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلادِ (٤) كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ (٥) وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ (٦) ﴾.

يقول تعالى: ما يدفع الحق ويجادل فيه بعد البيان وظهور البرهان ﴿ إِلاَّ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أى: الجاحدون لآيات الله وحججه وبراهينه، ﴿ فَلا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلادِ ﴾ أى: فى أموالهم ونعيمها وزهرتها، كما قال: ﴿ لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلادِ. مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ [آل عمران: ١٩٦، ١٩٧]، وقال تعالى: ﴿ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلاً ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [لقمان: ٢٤].

ثم قال تعالى مسلياً لنبيه(١) محمد ﷺ فى تكذيب من كذبه من قومه، بأن له أسوة من سلف من الأنبياء؛ فإنه قد كذبهم(٢) أممهم وخالفوهم، وما آمن بهم منهم إلا قليل(٣)، فقال: ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ ﴾، وهو أول رسول بَعَثه الله ينهى عن عبادة الأوثان، ﴿ وَالأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِم ﴾ أى: من كل أمة، ﴿ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوه ﴾ أى: حرصوا على قتله بكل ممكن، ومنهم من قتل رسوله(٤)، ﴿ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَق ﴾ أى: مَاحَلُوا بالشبهة(٥) ليردوا الحق الواضح الجلى.

وقد قال أبو القاسم الطبرانى: حدثنا على بن عبد العزيز، حدثنا عارم أبو النعمان، حدثنا مُعْتَمر ابن سليمان قال: سمعت أبى يحدث عن حَنَش، عن عكرمة، عن ابن عباس(٦)[رضى الله عنه](٧)، عن النبى ﷺ قال: «من أعان باطلا ليدحض بباطله حقاً، فقد برئت منه ذمة الله وذمة رسوله»(٨).

وقوله: ﴿ فَأَخَذْتُهُم ﴾ أى: أهلكتهم على ما صنعوا من هذه الآثام والذنوب العظام، ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ أى: فكيف بلغك عذابى لهم، ونكالى بهم؟ قد كان شديداً موجعاً مؤلماً.

قال قتادة: كان والله شديداً.

(١) فى ت: «لرسوله». (٢) فى س، أ: «كذبتهم». (٣) فى ت، س: «القليل».
(٤) فى ت، س، أ: «رسولهم». (٥) فى ت، أ: «ما جاؤوا به من الشبهة».
(٦) فى ت: «وقد روى الطبرانى بإسناده». (٧) زيادة من أ .
(٨) المعجم الكبير (١١/ ٢١٥) ورواه الحاكم فى المستدرك (٤/ ١٠٠) من طريق على بن عبد العزيز به موقوفا وقال: «صحيح الإسناد»، وتعقبه الذهبى بقوله: «فيه حنش الرحبى وهو ضعيف».

وقوله: ﴿وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ أى: كما حقت كلمةُ العذاب على الذين كفروا من الأمم السالفة، كذلك حقت على المكذبين من هؤلاء الذين كذبوك وخالفوك يا محمد بطريق الأولى والأحرى؛ لأن من كذّبك (١) فلا وثوق له بتصديق غيرك.

﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (٧) رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٨) وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَن تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٩)﴾.

يخبر تعالى عن الملائكة المقربين من حَمَلة العرش الأربعة، ومن حوله من الكروبيين، بأنهم يسبحون بحمد ربهم، أى: يقرنون بين التسبيح الدال على نفى النقائص، والتحميد المقتضى لإثبات صفات المدح، ﴿وَيُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ أى: خاشعون له أذلاء بين يديه، وأنهم ﴿يَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ أى: من أهل الأرض ممن آمن بالغيب، فقيض الله سبحانه ملائكته المقربين أن يَدْعُوا للمؤمنين بظهر الغيب، ولما كان هذا من سجايا الملائكة، عليهم الصلاة والسلام، كانوا يُؤَمِّنون على دعاء المؤمن لأخيه بظهر الغيب، كما ثبت فى صحيح مسلم: «إذا دعا المسلم لأخيه بظهر الغيب قال الملك: آمين، ولك بمثله»(٢).

وقد قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الله بن محمد ـ هو ابن أبى شيبة ـ حدثنا عبدة بن سليمان، عن محمد بن إسحاق، عن يعقوب بن عتبة، عن عكرمة عن ابن عباس(٣) [رضى الله عنه](٤)؛ أن رسول الله ﷺ صَدّق أمية فى شىء من شعره، فقال:

رَجُلٌ وثَور تَحْتَ رِجْلِ يَمينه ... وَالنَّسْرُ للأُخْرَى، ولَيْثٌ مُرْصَدُ

فقال رسول الله ﷺ: «صدق». فقال:

وَالشمس تَطلعُ كل آخر لَيْـلةٍ ... حَمْراءُ يُصْبحُ لَونُها يَتَوَرّدُ

تَأبَى فَما تَطلُع لَنَا فى رِسْلها ... إلا معَذّبَة وَإلا تُجْلَـــدَ

فقال النبى ﷺ: «صدق»(٥).

وهذا إسناد جيد: وهو يقتضى أن حملة العرش اليوم أربعة، فإذا كان يوم القيامة كانوا ثمانية،

(١) فى س: «كذب بك».

(٢) صحيح مسلم برقم (٢٧٣٢) من حديث أبى الدرداء رضى الله عنه.

(٣) فى ت: «وقد روى الإمام أحمد بإسناده عن ابن عباس».

(٤) زيادة من ت، أ.

(٥) المسند (١/ ٢٥٦) وقال الهيثمى فى المجمع (٨/ ١٢٧): «رجاله ثقات إلا أن ابن إسحاق مدلس».

كما قال تعالى: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٧].

وهنا سؤال، وهو أن يقال: ما الجمع بين المفهوم من هذه الآية، ودلالة هذا الحديث؟ وبين الحديث الذى رواه أبو داود:

حدثنا محمد بن الصباح البزار؛ حدثنا الوليد بن أبى ثور، عن سماك، عن عبد الله بن عَمِيرة[١]، عن الأحنف بن قيس، عن العباس بن عبد المطلب، قال: كنت بالبطحاء فى عصابة فيهم رسول الله ﷺ فمرت بهم سحابة، فنظر إليها فقال: «ما تسمون هذه؟» قالوا: السحاب. قال: «والمزن؟» قالوا: والمزن. قال: «والعَنَان؟» قالوا: والعنان ـ قال أبو داود: ولم أتقن العنان جيداً ـ قال: «هل تدرون بُعْدَ ما بين السماء والأرض؟» قالوا: لا ندرى. قال: «بُعد ما بينهما إما واحدة، أو اثنتان، أو ثلاث[٢] وسبعون سنة، ثم السماء فوقها كذلك» حتى عَدّ سبع سموات «ثم فوق السماء السابعة بحر[٣]، بين[٤] أسفله وأعلاه مثل بين سماء إلى سماء، ثم فوق ذلك ثمانية أوْعَال، بين أظلافهن ورُكبهن مثل ما بين سماء إلى سماء، ثم على ظهورهن العرش بين أسفله وأعلاه مثل ما بين سماء إلى سماء، ثم الله، عز وجل، فوق ذلك» ثم رواه أبو داود والترمذى وابن ماجه، من حديث سماك بن حرب، به[٥]. وقال الترمذى: حسن غريب.

وهذا يقتضى أن حملة العرش ثمانية، كما قال شَهْر بن حَوْشَب: حملة العرش ثمانية، أربعة يقولون: «سبحانك اللهم وبحمدك، لك الحمد على حلمك بعد علمك». وأربعة يقولون: «سبحانك اللهم وبحمدك، لك الحمد على عفوك بعد قدرتك».

ولهذا يقولون إذا استغفروا [٦] للذين آمنوا: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ أى: إن رحمتك تَسَع ذنوبهم وخطاياهم، وعلمك محيط بجميع أعمالهم [وأقوالهم][٧] وحركاتهم وسكناتهم، ﴿فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ﴾ أى: فاصفح عن المسيئين[٨] إذا تابوا وأنابوا وأقلعوا عما كانوا فيه، واتبعوا ما أمرتهم به، من فعل الخيرات وترك المنكرات، ﴿وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ أى: وزحزحهم عن عذاب الجحيم، وهو العذاب الموجع الأليم[٩]. ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ﴾ أى: اجمع بينهم وبينهم، لتقر بذلك أعينهم بالاجتماع فى منازل متجاورة، كما قال [تعالى][١٠]: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَأَتْبَعْنَاهُمْ ذُرِّيَّاتِهِم[١١] بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ﴾ [الطور: ٢١] أى: ساوينا بين الكل فى المنزلة، لتقر أعينهم، وما نقصنا العالى حتى يساوى الدانى، بل رفعنا الناقص فى العمل[١٢]، فساويناه بكثير العمل، تفضلا منا ومنة.

---

(١) فى ت: «عمرة». (٢) فى ت، س: «أو اثنين أو ثلاثة».
(٣) فى ت: «ثم فوق السماء بحرا»، وفى س: «ثم فوق السابعة بحر». (٤) فى أ: «بحر ما بين».
(٥) سنن أبى داود برقم (٤٧٢٣ ـ ٤٧٢٥) وسنن الترمذى برقم (٣٣٢٠) وسنن ابن ماجه برقم (١٩٣).
(٦) فى ت: «استغفروا للمؤمنين». (٧) زيادة من أ. (٨) فى أ: «المسلمين».
(٩) فى ت: «المؤلم». (١٠) زيادة من ت، س، أ. (١١) فى س: «واتبعتهم ذريتهم».
(١٢) فى ت، أ: «رفعنا ناقص العمل».

قال سعيد بن جبير: إن المؤمن إذا دخل الجنة سأل عن أبيه وابنه وأخيه، وأين هم؟ فيقال: إنهم لم يبلغوا طبقتك[١] فى العمل. فيقول: إنى إنما عملت لى ولهم. فَيُلحقُونَ به فى الدرجة، ثم تلا سعيد بن جبير هذه الآية: ﴿ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدتَّهُم وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

قال مُطرِّف بن عبد الله بن الشِّخِّير: أنصحُ عبادِ الله للمؤمنين الملائكةُ، ثم تلا هذه الآية: ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدتَّهُم﴾ ، وأغشُّ عباد الله للمؤمنين الشياطينُ.

وقوله: ﴿ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ أى: الذى لا يمانع ولا يغالب، وما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، الحكيم فى أقوالك وأفعالك، من شرعك وقدرك[٢].

﴿ وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ﴾ أى: فعلها أو وَبالها ممن وقعت منه، ﴿وَمَن تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ﴾ أى: يوم القيامة، ﴿فَقَدْ رَحِمْتَهُ﴾ أى: لطفت به ونجيته من العقوبة، ﴿وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾.

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ (١٠) قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ (١١) ذَلِكُم بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ (١٢) هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلاَّ مَن يُنِيبُ (١٣) فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (١٤) ﴾ .

يقول تعالى مخبرا عن الكفار: أنهم يُنَادَون يوم القيامة وهم فى غَمَرات النيران يتلظون، وذلك عندما[٣] باشروا من عذاب الله ما لا قِبَل لأحد به، فمقتوا عند ذلك أنفسهم وأبغضوها غاية البغض، بسبب ما أسلفوا[٤] من الأعمال السيئة، التى كانت سبب دخولهم إلى النار، فأخبرتهم الملائكة عند ذلك إخبارا عاليا، نادوهم [به][٥] نداء بأن مقت الله لهم فى الدنيا حين كان يُعرض عليهم الإيمان، فيكفرون، أشد من مقتكم أيها المعذبون أنفسكم اليوم فى هذه الحالة.

قال قتادة فى قوله: ﴿لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ﴾ يقول: لمقتُ الله أهل الضلالة حين عُرِض عليهم الإيمان فى الدنيا، فتركوه وأبوا أن يقبلوه، أكبر مما مقتوا أنفسهم حين عاينوا عذاب الله يوم القيامة[٦].

وهكذا قال الحسن البصرى، ومجاهد، والسدى، وذَرُّ بن عبد الله[٧] الهَمْدانى، وعبد الرحمن ابن زيد بن أسلم، وابن جرير الطبرى، رحمهم الله.

(١) فى ت: «رقبتك».
(٢) فى أ: «وقدرتك».
(٣) فى أ: «بعدما».
(٤) فى ت، س: «أسلفوه».
(٥) زيادة من ت، أ.
(٦) فى أ: «عذاب الله فى يوم القيامة».
(٧) فى س: «عبيد الله».

وقوله: ﴿قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ﴾ قال الثورى، عن أبى[1] إسحاق، عن أبى الأحوص، عن ابن مسعود [رضى الله عنه][2] :هذه الآية كقوله تعالى: ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [البقرة: ٢٨] وكذا قال ابن عباس، والضحاك، وقتادة، وأبو مالك .وهذا هو الصواب الذى لا شك فيه ولا مرية.

وقال السدّى: أميتوا فى الدنيا ثم أحيوا فى قبورهم فخوطبوا، ثم أميتوا ثم أحيوا يوم القيامة.

وقال ابن زيد: أحيوا حين أخذ عليهم الميثاق من صلب آدم، ثم خلقهم فى الأرحام ثم أماتهم [ثم أحياهم][3] يوم القيامة.

وهذان القولان ـ من السدى، وابن زيد ـ ضعيفان؛ لأنه يلزمهما على ما قالا ثلاث إحياءات وإماتات. والصحيح قول ابن مسعود وابن عباس ومن تابعهما. والمقصود من هذا كله: أن الكفار يسألون الرجعة وهم وقوف بين يدى الله، عز وجل، فى عرصات القيامة، كما قال: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴾ [السجدة: ١٢]، فلا يجابون. ثم إذا رأوا النار وعاينوها ووقفوا عليها، ونظروا إلى ما فيها من العذاب والنَّكال، سألوا الرجعة أشد مما سألوا أول مرة، فلا يجابون، قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ .بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ [الأنعام: ٢٧، ٢٨] فإذا دخلوا النار وذاقوا مَسَّها وحَسيسها ومقامعها وأغلالها، كان سؤالهم للرجعة أشد وأعظم، ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَ لَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴾ [فاطر: ٣٧]، ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ . قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلا تُكَلِّمُونِ ﴾، [المؤمنون: ١٠٧، ١٠٨]، وفى هذه الآية الكريمة تلطفوا فى السؤال، وقدموا بين يدى كلامهم مُقدّمة، وهى قولهم: ﴿رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ﴾ أى: قدرتك عظيمة، فإنك أحييتنا بعد ما كنا أمواتا، ثم أمتنا ثم أحييتنا، فأنت قادر على ما تشاء، وقد اعترفنا بذنوبنا، وإننا كنا ظالمين لأنفسنا فى الدار الدنيا، ﴿فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ﴾ أى: فهل أنت مجيبنا إلى أن تعيدنا إلى الدار الدنيا؟ فإنك قادر على ذلك؛ لنعمل غير الذى كنا نعمل، فإن عدنا إلى ما كنا فيه فإنا ظالمون. فأُجيبُوا ألا سبيل إلى عودكم ومرجعكم إلى الدار الدنيا. ثم علل المنع من ذلك بأن سجاياكم لا تقبل الحق ولا تقتضيه بل تَجْحَده وتنفيه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا ﴾، أى: أنتم هكذا تكونون، وإن رددتم إلى الدنيا، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ [الأنعام: ٢٨].

وقوله: ﴿فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ﴾ أى: هو الحاكم فى خلقه، العادل الذى لا يجور، فيهدى من

---

(١) فى أ: «ابن». (٢) زيادة من أ. (٣) زيادة من ت، س، أ.

من يشاء، ويضل من يشاء، ويرحم من يشاء، ويعذب من يشاء، لا إله إلا هو.

وقوله: ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ﴾ أى: يظهر قدرته لخلقه[١] بما يشاهدونه فى خلقه العلوى والسفلى من الآيات العظيمة الدالة على كمال خالقها ومبدعها ومنشئها، ﴿وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ رِزْقًا﴾، وهو المطر الذى يخرج به من الزروع والثمار ما هو مشاهد بالحس، من اختلاف ألوانه وطعومه، وروائحه وأشكاله وألوانه، وهو ماء واحد، فبالقدرة العظيمة فاوت بين هذه الأشياء، ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ﴾ أى: يعتبر ويتفكر فى هذه الأشياء ويستدل بها على عظمة خالقها ﴿إِلاَّ مَن يُنِيبُ﴾ أى: من هو بصير منيب إلى الله، عز وجل.

وقوله: ﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ أى: فأخلصوا لله وحده العبادة والدعاء، وخالفوا المشركين فى مسلكهم ومذهبهم.

قال[٢] الإمام أحمد: حدثنا عبد الله بن نمير، حدثنا هشام ـ يعنى بن عروة بن الزبير ـ عن أبى الزبير محمد بن مسلم بن مدرس المكى قال: كان عبد الله بن الزبير يقول فى دبر كل صلاة حين يسلم[٣]: «لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شىء قدير، لا حول ولا قوة إلا بالله، لا إله إلا الله، ولا نعبد إلا إياه، له النعمة وله الفضل، وله الثناء الحسن، لا إله إلا الله، مخلصين له الدين ولو كره الكافرون» قال: وكان رسول الله ﷺ يُهَلِّل بهن[٤] دبر كل صلاة[٥].

ورواه مسلم وأبو داود والنسائى، من طرق، عن هشام بن عروة، وحجاج بن أبى عثمان، وموسى بن عقبة، ثلاثتهم عن أبى الزبير، عن عبد الله بن الزبير قال: كان رسول الله ﷺ يقول فى دبر الصلاة: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له[٦]» وذكر تمامه[٧].

وقد ثبت فى الصحيح عن ابن الزبير؛ أن رسول الله ﷺ كان يقول عقب الصلوات المكتوبات: «لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شىء قدير. لا حول ولا قوة إلا بالله، لا إله إلا الله ولا نعبد إلا إياه، له النعمة وله الفضل، وله الثناء الحسن، لا إله إلا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون»[٨].

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا الربيع، حدثنا الخَصِيب بن ناصح، حدثنا صالح ـ يعنى المِرِّى ـ عن هشام بن حسان، عن ابن سيرين، عن أبى هريرة، رضى الله عنه، عن النبى ﷺ قال: «ادعوا الله

---

(١) فى أ: «بخلقه». (٢) فى ت: «روى». (٣) فى أ: «عقب الصلوات المكتوبات».
(٤) فى ت: «بهن فى دبر».
(٥) المسند (٤/٤).
(٦) فى ت: «لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير».
(٧) صحيح مسلم برقم (٥٩٤).
(٨) صحيح مسلم برقم (٥٩٤) وسنن أبى داود برقم (١٥٠٦) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١٢٦٢)

وأنتم موقنون بالإجابة، واعلموا أن الله لا يستجيب دعاءً من قلب غافل لاه»[١].

﴿رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلاقِ (١٥) يَوْمَ هُم بَارِزُونَ لا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (١٦) الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (١٧)﴾.

يقول تعالى [مخبرا][٢] عن عظمته وكبريائه، وارتفاع عرشه العظيم العالى على جميع مخلوقاته كالسقف لها، كما قال تعالى: **﴿مِنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ. تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ . [فَاصْبِرْ]﴾**[٣] [المعارج: ٣، ٤]، وسيأتى بيان أن هذه مسافة ما بين العرش إلى الأرض السابعة، فى قول جماعة من السلف والخلف، وهو الأرجح إن شاء الله [تعالى][٤]. وقد ذكر غير واحد أن العرش من ياقوتة حمراء، اتساع ما بين قطريه مسيرة خمسين ألف سنة. وارتفاعه عن الأرض السابعة مسيرة خمسين ألف سنة. وقد تقدم فى حديث «الأوعال» ما يدل على ارتفاعه عن[٥] السموات السبع بشىء عظيم.

وقوله: **﴿يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾**، كقوله تعالى: **﴿يُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنذِرُوا أَنَّهُ لا إِلَٰهَ إِلاَّ أَنَا [فَاتَّقُونِ]﴾**[٦] [النحل: ٢]، وكقوله: **﴿وَإِنَّهُ**[٧] **لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ .نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ . عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ [بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ]﴾**[٨] [الشعراء: ١٩٢ ـ ١٩٤]؛ ولهذا قال: **﴿لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلاقِ﴾** قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: **﴿يَوْمَ التَّلاقِ﴾**: اسم من أسماء يوم القيامة، حذر منه عباده.

وقال ابن جُرَيْج: قال ابن عباس: يلتقى فيه آدم وآخر ولده.

وقال ابن زيد: يلتقى فيه العباد.

وقال قتادة، والسدى، وبلال بن سعد، وسفيان بن عيينة[٩]: يلتقى فيه أهل السماء وأهل الأرض.

وقال قتادة أيضا: يلتقى فيه أهل السماء وأهل الأرض، والخالق والخلق.

وقال مَيْمون بن مِهْران: يلتقى [فيه][١٠] الظالم والمظلوم.

---

(١) ورواه الترمذى فى السنن برقم (٣٤٧٩) عن معاوية بن صالح، ورواه الحاكم فى المستدرك (١/ ٤٩٣) عن عفان بن مسلم وموسى ابن إسماعيل، ورواه الطبرانى فى كتاب الدعاء برقم (٦٢) عن مخلد بن خداش، كلهم من طريق صالح المرى به. قال الطبرانى فى المعجم الأوسط: «لم يرو هذا الحديث عن هشام بن حسان إلا صالح المرى»، ومداره على صالح المرى وهو متروك.

(٢) زيادة من ت، س، أ. (٣) زيادة من ت. (٤) زيادة من ت.

(٥) فى ت، س: «من». (٦) فى س: «فاعبدوه» وهو خطأ، والصواب ما أثبتناه.

(٧) فى ت: «إنه» وهو خطأ، والصواب ما أثبتناه. (٨) زيادة من ت.

(٩) فى ت: «قتادة وغيره». (١٠) زيادة من أ.

وقد يقال: إن يوم القيامة[١] هو يشمل هذا كله، ويشمل أن كل عامل سيلقى ما عمل من خير وشر . كما قاله آخرون.

وقوله: ﴿يَوْمَ هُم بَارِزُونَ﴾ أي: ظاهرون بادون كلهم، لا شيء يكنهم ولا يظلهم ولا يسترهم. ولهذا قال: ﴿يَوْمَ هُم بَارِزُونَ لا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ﴾: أي: الجميع في علمه على السواء.

وقوله: ﴿لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ قد تقدم في حديث ابن عمر: أنه تعالى[٢] يطوى السموات والأرض بيده، ثم يقول: أنا الملك، أنا الجبار، أنا المتكبر، أين ملوك الأرض؟ أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟[٣].

وفى حديث الصور: أنه تعالى إذا قبض أرواح جميع خلقه، فلم يبق سواه، وحده لا شريك له، حينئذ يقول: لمن الملك اليوم؟ ثلاث مرات، ثم يجيب نفسه قائلاً: ﴿لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ أي: الذى هو وحده قد قَهَر كل شيء وغلبه[٤].

وقد قال[٥] ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن غالب الدقاق، حدثنا عبيد بن عبيدة، حدثنا معتمر، عن أبيه، حدثنا أبو نَضْرة، عن ابن عباس [رضى الله عنهما][٦] قال: ينادى مناد بين يدى الساعة: يأيها الناس، أتتكم الساعة. فيسمعها الأحياء والأموات، قال: وينزل الله [عز وجل][٧] إلى سماء الدنيا ويقول: ﴿لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾.

وقوله: ﴿الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾: يخبر تعالى عن عدله فى حكمه بين خلقه، أنه لا يظلم مثقال ذرة من خير ولا من شر، بل يجزى بالحسنة عشر أمثالها، وبالسيئة واحدة؛ ولهذا قال: ﴿لا ظُلْمَ الْيَوْمَ﴾ كما ثبت فى صحيح مسلم[٨]، عن أبى ذر، عن رسول الله ﷺ ـ فيما يحكى عن ربه عز وجل ـ أنه قال: «يا عبادى، إنى حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا ـ إلى أن قال ـ: يا عبادى، إنما هى أعمالكم أحصيها عليكم[٩] ثم أوفيكم إياها، فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه»[١٠].

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ أي: يحاسب الخلائق كلهم، كما يحاسب نفساً واحدة، كما قال: ﴿مَا خَلْقُكُمْ وَلا بَعْثُكُمْ إِلاَّ كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [لقمان: ٢٨]، وقال [تعالى][١١]: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلاَّ وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ [القمر: ٥٠].

﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلا شَفِيعٍ يُطَاعُ (١٨) يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ (١٩) وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (٢٠) ﴾.

(١) فى ت، س: «التلاق». (٢) فى ت: «أن الله».
(٣) سورة الزمر، الآية ٦٧.
(٤) انظر حديث الصور بتمامه عند تفسير الآية: ٧٣ من سورة الانعام.
(٥) فى ت: «وروى ابن أبى حاتم». (٦) زيادة من أ. (٧) زيادة من ت، أ.
(٨) فى ت: «البخارى»وهو خطأ . (٩) فى ت، س: «لكم».
(١٠) صحيح مسلم برقم (٢٥٧٧).
(١١) زيادة من س .

يوم الآزفة هو: اسم من أسماء يوم القيامة، سميت بذلك لاقترابها، كما قال تعالى: ﴿ **أَزِفَتِ الآزِفَةُ . لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ** ﴾ [النجم: ٥٧، ٥٨] وقال: ﴿**اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ**﴾ [القمر: ١]، وقال: ﴿**اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ**﴾ [الأنبياء: ١] وقال: ﴿**أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ**﴾ [النحل: ١] وقال: ﴿**فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هَذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تَدَّعُونَ**﴾ [الملك: ٢٧].

وقوله: ﴿**إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ**﴾ [أى ساكتين][(١)] ،قال قتادة: وقفت القلوب فى الحناجر من الخوف، فلا تخرج ولا تعود إلى أماكنها وكذا قال عكرمة، والسدى، وغير واحد.

ومعنى ﴿**كَاظِمِينَ**﴾ أى: ساكتين، لا يتكلم أحد إلا بإذنه ﴿ **يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلائِكَةُ صَفًّا لاَّ يَتَكَلَّمُونَ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا** ﴾ [النبأ: ٣٨].

وقال ابن جُرَيْج[(٢)]: ﴿**كَاظِمِينَ**﴾ أى: باكين.

وقوله: ﴿ **مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلا شَفِيعٍ يُطَاعُ**﴾ أى: ليس للذين ظلموا أنفسهم بالشرك بالله من قريب منهم ينفعهم، ولا شفيع يشفع فيهم، بل قد تقطعت بهم الأسباب من كل خير.

وقوله: ﴿**يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ**﴾ يخبر تعالى عن علمه التام المحيط بجميع الأشياء، جليلها وحقيرها، صغيرها وكبيرها، دقيقها ولطيفها، ليحذر الناس علمه فيهم، فيستحيوا من الله حَقّ الحياء، ويَتَّقُوهُ حق تقواه، ويراقبوه مراقبة من يعلم أنه يراه، فإنه تعالى يعلم العين الخائنة وإن أبدت أمانة، ويعلم ما تنطوى عليه خبايا الصدور من الضمائر والسرائر.

قال ابن عباس فى قوله: ﴿**يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ**﴾: وهو الرجل يدخل على أهل البيت بيتهم، وفيهم المرأة الحسناء، أو تمر به وبهم المرأة الحسناء، فإذا غفلوا لحظ إليها، فإذا فطنوا غَضّ، فإذا غفلوا لحظ، فإذا فطنوا غض [بصره عنها][(٣)] وقد اطلع الله من قلبه أنه وَدّ لو اطلع على فرجها. رواه ابن أبى حاتم.

وقال الضحاك: ﴿**خَائِنَةَ الأَعْيُنِ**﴾: هو الغمز، وقول الرجل: رأيت، ولم ير؛ أو: لم أر، وقد رأى.

وقال ابن عباس: يعلم [الله][(٤)] تعالى من العين فى نظرها، هل تريد الخيانة أم لا؟ وكذا قال مجاهد، وقتادة.

وقال ابن عباس فى قوله: ﴿**وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ**﴾: يعلم إذا أنت قدرت عليها هل تزنى بها أم لا؟

وقال السدى: ﴿**وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ**﴾ أى: من الوسوسة.

---

(١) زيادة من ت . (٢) فى ت: «جرير».
(٣) زيادة من س، أ. (٤) زيادة من س.

وقوله: ﴿وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ﴾ أي: يحكم بالعدل.

وقال الأعمش: عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس [رضى الله عنهما][1] في قوله: ﴿وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ﴾: قادر على أن يجزى بالحسنة الحسنة، وبالسيئة السيئة ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾.

وهذا الذى فسر به ابن عباس فى هذه الآية كقوله تعالى: ﴿لِيَجْزِيَ[2] الَّذِينَ أَسَاؤُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ [النجم: ٣١].

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ﴾ أى: من الأصنام والأوثان والأنداد، ﴿لا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ﴾ أى: لا يملكون شيئا ولا يحكمون بشىء ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ أى: سميع لأقوال خلقه، بصير بهم، فيهدى من يشاء، ويضل من يشاء، وهو الحاكم العادل فى جميع ذلك.

﴿أَوَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ (٢١) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٢٢)﴾.

يقول تعالى: أو لم يسر هؤلاء المكذبون برسالتك يا محمد ﴿فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ﴾ أى: من الأمم المكذبة بالأنبياء، ما حل بهم من العذاب والنكال، مع أنهم كانوا أشد من هؤلاء قوة، ﴿وَآثَارًا فِي الأَرْضِ﴾ أى: أثروا فى الأرض من البنايات والمعالم والديارات، ما لا يقدر عليه هؤلاء، كما قال: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ﴾ [الأحقاف: ٢٦]، وقال: ﴿وَأَثَارُوا الأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾ [الروم: ٩] أى: ومع هذه القوة العظيمة والبأس الشديد، أخذهم الله بذنوبهم، وهى كفرهم برسلهم، ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ﴾ أى: وما دفع عنهم عذاب الله أحد، ولا رده عنهم راد، ولا وقاهم واق.

ثم ذكر علة أخذه إياهم وذنوبهم التى ارتكبوها واجترموها، فقال: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أى: بالدلائل الواضحات والبراهين القاطعات، ﴿فَكَفَرُوا﴾ أى: مع هذا البيان والبرهان كفروا وجحدوا، ﴿فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ﴾ أى: أهلكهم ودمَّر عليهم وللكافرين أمثالها، ﴿إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ أى: ذو قوة عظيمة وبطش شديد، وهو ﴿شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ أى: عقابه أليم شديد وجيع. أعاذنا الله منه.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (٢٣) إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ (٢٤) فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلالٍ (٢٥) وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الأَرْضِ الْفَسَادَ (٢٦) وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لاَّ يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ (٢٧)﴾.

(١) زيادة من أ.
(٢) فى س: «لتجزى».

يقول تعالى مسليا لنبيه ﷺ[1] فى تكذيب من كذبه من قومه، ومبشراً له بأن العاقبة والنصرة له فى الدنيا والآخرة، كما جرى لموسى بن عمران[2]، فإن الله تعالى أرسله بالآيات البينات، والدلائل[3] الواضحات؛ ولهذا قال: ﴿ **بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ** ﴾ والسلطان هو: الحُجة والبرهان ﴿ **إِلَىٰ فِرْعَوْنَ**﴾، هو: ملك القبط بالديار المصرية، ﴿ **وَهَامَانَ** ﴾، وهو: وزيره فى مملكته، ﴿ **وَقَارُونَ** ﴾، وكان أكثر الناس فى زمانه مالا وتجارة ﴿ **فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ** ﴾ أى: كذبوه وجعلوه ساحراً مُمَخْرِقاً مموهاً كذاباً فى أن الله أرسله. وهذه كقوله [تعالى][4]: ﴿ **كَذَٰلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ .أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ**﴾ [الذاريات: ٥٢، ٥٣].

﴿ **فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِندِنَا** ﴾ أى: بالبرهان القاطع الدال على أن الله تعالى أرسله إليهم، ﴿ **قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ** ﴾ وهذا أمر ثان من فرعون بقتل ذكور بنى إسرائيل. أما الأول: فكان لأجل الاحتراز من وجود موسى، أو لإذلال هذا الشعب وتقليل عددهم، أو لمجموع الأمرين. وأما الأمر الثانى: فللعلة الثانية، لإهانة هذا الشعب، ولكى يتشاءموا بموسى، عليه السلام؛ ولهذا قالوا: ﴿ **أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ** ﴾ [الأعراف: ١٢٩].

قال قتادة: هذا أمر بعد أمر.

قال الله تعالى: ﴿**وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ**﴾ أى: وما مكرهم وقصدهم الذى هو تقليل عدد بنى إسرائيل لئلا يُنصروا عليهم، إلا ذاهب وهالك فى ضلال.

﴿ **وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ** ﴾: وهذا عَزْمٌ من فرعون ـ لعنه الله ـ على قتل موسى، عليه السلام، أى: قال لقومه: دعونى حتى أقتل لكم هذا، ﴿ **وَلْيَدْعُ رَبَّهُ** ﴾ أى: لا أبالى منه. وهذا فى غاية الجحد والتجهرم والعناد.

وقوله ـ قبحه الله ـ: ﴿ **إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ** ﴾، يعنى: موسى، يخشى فرعون أن يُضلَّ موسى الناس ويغير رسومهم وعاداتهم. وهذا كما يقال فى المثل: «صار فرعون مُذَكِّراً»، يعنى: واعظا، يشفق على الناس من موسى، عليه السلام.

وقرأ الأكثرون: «أن يبدل دينكم وأن يُظهر فى الأرض الفساد» وقرأ آخرون: ﴿ **أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ** ﴾ وقرأ بعضهم: «يَظْهَرَ فى الأرض الفسادُ»، بالضم.

وقال موسى: ﴿ **إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ**﴾ أى: لما بلغه قول فرعون: ﴿ **ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ**﴾ قال موسى: استجرتُ بالله وعُذْتُ به من شره وشر أمثاله؛ ولهذا قال: ﴿ **إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم**﴾، أيها المخاطبون، ﴿**مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ**﴾ أى: عن الحق، مجرم، ﴿**لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ**

---

(١) فى س: «لنبيه محمد صلوات الله وسلامه عليه».
(٢) فى أ: «لموسى عليه السلام».
(٣) فى ت: «والدلالات».
(٤) زيادة من ت، س.

الْحِسَابِ﴾؛ ولهذا جاء فى الحديث عن أبى موسى، رضى الله عنه، أن رسول الله ﷺ كان إذا خاف قوما قال: «اللهم، إنا نعوذ بك من شرورهم، وندرأ بك فى نحورهم»(١).

﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ (٢٨) يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِن جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلاَّ مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ (٢٩)﴾ .

المشهور أن هذا الرجل المؤمن كان قِبْطياً من آل فرعون.

قال السدى: كان ابن عم فرعون، ويقال: إنه الذى نجا مع موسى. واختاره ابن جرير(٢)، وَرَدَّ قول من ذهب إلى أنه كان إسرائيلياً؛ لأن فرعون انفعل لكلامه واستمعه، وكف عن قتل موسى، عليه السلام، ولو كان إسرائيلياً لأوشك أن يعاجل(٣) بالعقوبة؛ لأنه منهم(٤).

وقال ابن جُرَيج، عن ابن عباس: لم يؤمن من آل فرعون سوى هذا الرجل وامرأة فرعون، والذى قال: **﴿يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ﴾** [القصص: ٢٠] رواه ابن أبى حاتم.

وقد كان هذا الرجلُ يكتم إيمانه عن قومه القبط، فلم يظهر إلا هذا اليوم حين قال فرعون: **﴿ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ﴾**، فأخذت الرجل غضبة لله عز وجل، و«أفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر»، كما ثبت بذلك الحديث، ولا أعظم من هذه الكلمة عند فرعون، وهى قوله: **﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ﴾** [أى: لأجل أن يقول ربى الله](٥)، اللهم إلا ما رواه البخارى فى صحيحه حيث قال:

حدثنا على بن عبد الله، حدثنا الوليد بن مسلم، حدثنا الأوزاعى، حدثنى يحيى بن أبى كثير، حدثنى محمد بن إبراهيم التيمى، حدثنى(٦) عروة بن الزبير قال: قلت لعبد الله بن عمرو بن العاص: أخبرنى بأشد شىء مما صنعه المشركون برسول الله ﷺ قال: بينا رسول الله ﷺ يصلى بفناء الكعبة، إذ أقبل عُقْبة بن أبى مُعَيط، فأخذ بمَنْكب رسول الله ﷺ ولَوَى ثوبه فى عنقه، فخنقه خنقاً شديدا، فأقبل أبو بكر، رضى الله عنه، فأخذ بمنكبة(٧) ودفَع عن النبى ﷺ، ثم قال: **﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ﴾**.

(١) رواه أحمد فى مسنده (٤/ ٤١٤).
(١) تفسير الطبرى (٢٤/ ٣٨).
(٣) فى ت: «يقابل».
(٤) فى ت، س: «متهم».
(٥) زيادة من ت، س، أ.
(٦) فى ت: «فى صحيحه بإسناده عن».
(٧) فى ت، س: «بمنكبيه».

انفرد به البخارى من حديث الأوزاعى قال: وتابعه محمد بن إسحاق، عن يحيى بن عروة، عن أبيه، به[١].

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا هارون بن إسحاق الهمدانى، حدثنا عَبْدة، عن هشام ـ يعنى ابن عروة ـ عن أبيه، عن عمرو بن العاص أنه سُئل: ما أشد ما رأيت قريشاً بلغوا من رسول الله ﷺ؟ قال: مر بهم ذات يوم فقالوا له: أنت تنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا؟ فقال: «أنا ذاك» فقاموا إليه، فأخذوا بمجامع ثيابه، فرأيتُ أبا بكر محتضنه من ورائه، وهو يصيح بأعلى صوته، وإن عينيه ليسيلان، وهو يقول: يا قوم، ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ﴾؟ حتى فرغ من الآية كلها.

وهكذا رواه النسائى من حديث عبدة، فجعله من مسند عمرو بن العاص، رضى الله عنه[٢].

وقوله: ﴿وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ﴾ أى: كيف تقتلون رجلا لكونه يقول: «ربى الله»، وقد أقام لكم البرهان على صدق ما جاءكم به من الحق؟ ثم تَنَزّل معهم فى المخاطبة فقال: ﴿وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ﴾ يعنى: إذا لم يظهر لكم صحة ما جاءكم به، فمن العقل والرأى التام والحزم أن تتركوه ونفسه، فلا تؤذوه، فإن يك كاذبا فإن الله سيجازيه على كذبه بالعقوبة فى الدنيا والآخرة، وإن يك صادقا وقد آذيتموه يصبكم بعض الذى يعدكم، فإنه يتوعدكم إن خالفتموه بعذاب فى الدنيا والآخرة، فمن الجائز عندكم أن يكون صادقا، فينبغى على هذا ألا تتعرضوا له، بل اتركوه وقومه يدعوهم ويتبعونه.

وهكذا أخبر الله [تعالى][٣] عن موسى، عليه السلام، أنه طلب من فرعون وقومه الموادعة فى قوله: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ. أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ. وَأَن لاَّ تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ. وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ. وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ﴾ [الدخان: ١٧ ـ ٢١] وهكذا قال رسول الله ﷺ لقريش أن يتركوه يدعو إلى الله [تعالى][٤] عباد الله، ولا يمسوه بسوء، وأن يصلوا ما بينه وبينهم من القرابة فى ترك أذيته، قال الله تعالى: ﴿قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ [الشورى: ٢٣] أى: إلا ألا تؤذونى فيما بينى وبينكم من القرابة، فلا تؤذونى وتتركوا بينى وبين الناس. وعلى هذا وقعت الهدنة يوم الحديبية، وكان فتحاً مبيناً.

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ أى: لو كان هذا الذى يزعم أن الله أرسله إليكم كاذبا كما تزعمون، لكان أمره بينا، يظهر لكل أحد فى أقواله وأفعاله، كانت تكون فى غاية الاختلاف والاضطراب، وهذا نرى أمره سديدا ومنهجه مستقيما، ولو كان من المسرفين الكذابين لما هداه الله، وأرشده إلى ما ترون من انتظام أمره وفعله.

---

(١) صحيح البخارى برقم (٤٨١٥).
(٢) النسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٤٦٢).
(٣) زيادة من ت، س، أ.
(٤) زيادة من أ.

ثم قال المؤمن محذراً قومه زوال نعمة الله عنهم[1] وحلول نقمة الله بهم: ﴿يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الأَرْضِ﴾ أى: قد أنعم الله عليكم بهذا الملك والظهور فى الأرض بالكلمة النافذة والجاه العريض، فراعوا هذه النعمة بشكر الله، وتصديق رسوله ﷺ، واحذروا نقمة الله إن كذبتم رسوله، ﴿فَمَن يَنصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِن جَاءَنَا﴾ أى: لا تغنى عنكم هذه الجنود وهذه العساكر، ولا ترد عنا شيئا من بأس الله إن أرادنا بسوء.

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ﴾ لقومه، راداً على ما أشار به هذا الرجل الصالح البار الراشد الذى كان أحق بالملك من فرعون: ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلاَّ مَا أَرَىٰ﴾ أى: ما أقول لكم وأشير عليكم إلا ما أراه لنفسى وقد كذب فرعون، فإنه كان يتحقق صدق موسى فيما جاء به[2] من الرسالة ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَؤُلاءِ إِلاَّ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ بَصَائِرَ﴾ [الإسراء: ١٠٢]، وقال الله تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤].

فقوله: ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلاَّ مَا أَرَىٰ﴾ كذب فيه وافترى، وخان الله ورسوله ورعيته، فغشهم وما نصحهم وكذا قوله: ﴿وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ أى: وما أدعوكم إلا إلى طريق الحق والصدق والرشد وقد كذب أيضا فى ذلك، وإن كان قومه قد أطاعوه واتبعوه، قال الله تعالى: ﴿فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾ [هود: ٩٧]، وقال تعالى: ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَىٰ﴾ [طه: ٧٩]، وفى الحديث: «ما من إمام يموت يوم يموت وهو غاش لرعيته، إلا لم يَرح رائحة الجنة، وإن ريحها ليوجد من مسيرة خمسمائة عام»[3].

﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ الأَحْزَابِ (٣٠) مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ (٣١) وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ (٣٢) يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٣٣) وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُم بِهِ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولاً كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ (٣٤) الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ وَعِندَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ (٣٥)﴾.

هذا إخبار من الله، عز وجل، عن هذا الرجل الصالح، مؤمن آل فرعون: أنه حذر قومه بأس الله فى الدنيا والآخرة فقال: ﴿يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ الأَحْزَابِ﴾ أى: الذين كذبوا رسل الله فى قديم الدهر، كقوم نوح وعاد وثمود، والذين من بعدهم من الأمم المكذبة، كيف حل بهم بأس الله، وما رده عنهم راد، ولا صده عنهم صاد.

---

(١) فى س، أ: «عليهم». (٢) فى س: «جاءه».

(٣) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٧١٥٠، ٧١٥١) ومسلم فى صحيحه برقم (١٤٢) بنحوه من حديث معقل بن يسار رضى الله عنه.

﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ﴾ أى: إنما أهلكهم الله بذنوبهم، وتكذيبهم رسله، ومخالفتهم أمره. فأنفذ فيهم قدره، ثم قال: ﴿وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ﴾ يعنى: يوم القيامة وسمى بذلك، قال بعضهم: لما جاء فى حديث الصور: إن الأرض إذا زلزلت وانشقت من قطر إلى قطر، وماجت وارتجت، فنظر الناس إلى ذلك، ذهبوا هاربين ينادى بعضهم بعضا.

وقال آخرون، منهم الضحاك: بل ذلك إذا جيء بجهنم، ذهب الناس هرَابا[1]، فتتلقاهم الملائكة فتردهم إلى مقام المحشر، وهو قوله تعالى: ﴿وَالْمَلَكُ عَلَىٰ أَرْجَائِهَا﴾ [الحاقة: ١٧]، وقوله: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانفُذُوا لا تَنفُذُونَ إِلاَّ بِسُلْطَانٍ﴾ [الرحمن: ٣٣].

وقد روى عن ابن عباس، والحسن، والضحاك: أنهم قرؤوا: «يوم التنادّ»، بتشديد الدال، من ند البعير: إذا شرد وذهب.

وقيل: لأن الميزان عنده ملك، وإذا وزن عمل العبد[2] فرجح نادى بأعلى صوته: ألا قد سعد فلان بن فلان سعادة لا يشقى بعدها أبدا. وإن خف عمله نادى: ألا قد شقى فلان بن فلان.

وقال قتادة: ينادى كل قوم بأعمالهم: ينادى أهل الجنة أهل الجنة، وأهل النار أهل النار.

وقيل: سمى بذلك لمناداة أهل الجنة أهل النار: ﴿أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ﴾ [الأعراف: ٤٤]. ومناداة أهل النار أهل الجنة: ﴿أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [الأعراف: ٥٠]، ولمناداة أصحاب الأعراف أهل الجنة وأهل النار، كما هو مذكور فى سورة الأعراف.

واختار البغوى وغيره: أنه سمى بذلك لمجموع ذلك. وهو قول حسن جيد، والله أعلم[3].

وقوله: ﴿يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ﴾ أى: ذاهبين هاربين، ﴿كَلاَّ لا وَزَرَ. إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ﴾ [القيامة: ١١، ١٢]، ولهذا قال: ﴿مَا لَكُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾ أى: ما لكم مانع يمنعكم من بأس الله وعذابه، ﴿وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ أى: من أضله [الله][4] فلا هادى له غيره.

وقوله: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ يعنى: أهل مصر، قد بعث الله فيهم رسولا من قبل موسى، وهو يوسف، عليه السلام، كان عزيز أهل مصر، وكان رسولا يدعو إلى الله أمته[5] القبط، فما أطاعوه تلك الساعة[6] إلا لمجرد الوزارة والجاه الدنيوى؛ ولهذا قال: ﴿فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُم بِهِ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولاً﴾ أى: يئستم فقلتم طامعين: ﴿لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولاً﴾ وذلك لكفرهم وتكذيبهم ﴿كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ﴾ أى: كحالكم هذا

(١) فى س، أ: «هرابا منه». (٢) فى ت: «أعمال العبد».
(٣) معالم التنزيل للبغوى (٧/ ١٤٧، ١٤٨).
(٤) زيادة من ت، س. (٥) فى أ: «أمة». (٦) فى ت، س، أ: «تلك الطاعة».
(٧) فى س: «تكون».

ثم قال: ﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ﴾ أى: الذين يدفعون الحق بالباطل، ويجادلون الحجج بغير دليل وحجة معهم من الله، فإن الله يمقت على ذلك أشد المقت؛ ولهذا قال تعالى: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ وَعِندَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أى: والمؤمنون أيضا يُبغضُون من تكون هذه صفته، فإن من كانت هذه صفته يطبع الله على قلبه، فلا يعرف بعد ذلك معروفا، ولا ينكر منكرا؛ ولهذا قال: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ﴾ أى: على اتباع الحق ﴿جَبَّارٍ﴾.

وروى ابن أبى حاتم، عن عكرمة ـ وحكى عن الشعبى ـ أنهما قالا: لا يكون الإنسان جبارا حتى يقتل نفسين.

وقال أبو عمران الجونى، وقتادة: آية الجبابرة القتل بغير حق.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ (٣٦) أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ (٣٧)﴾.

يقول تعالى مخبرا عن فرعون، وعتوه، وتمرده، وافترائه فى تكذيبه موسى، عليه السلام، أنه أمر وزيره هامان أن يبنى له صرحا، وهو: القصر العالى المنيف الشاهق. وكان اتخاذه من الآجرّ المضروب من الطين المشوى، كما قال: ﴿فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا﴾ [القصص: ٣٨]، ولهذا قال إبراهيم النخعى: كانوا يكرهون البناء بالآجر، وأن يجعلوه فى قبورهم. رواه ابن أبى حاتم.

وقوله: ﴿لَّعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ . أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ﴾ قال سعيد بن جبير، وأبو صالح: أبواب السموات. وقيل: طرق السموات ﴿فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا﴾، وهذا من كفره وتمرده، أنه كذب موسى فى أن الله، عز وجل، أرسله إليه، قال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ﴾ أى: بصنيعه هذا الذى أراد أن يوهم به الرعية أنه يعمل شيئا يتوصل به إلى تكذيب موسى، عليه السلام؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ﴾ قال ابن عباس [رضى الله عنهما][(1)]، ومجاهد: يعنى إلا فى خسار.

﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ (٣٨) يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ (٣٩) مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ (٤٠)﴾.

يقول المؤمن لقومه ممن تمرد وطغى وآثر الحياة الدنيا، ونسى الجبار الأعلى، فقال لهم: ﴿يَا قَوْمِ

---

(١) زيادة من س.

اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ ، لا كما كذب فرعون فى قوله: ﴿وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾.

ثم زهدهم فى الدنيا التى [قد][1] آثروها على الأخرى، وصدتهم عن التصديق برسول الله موسى [ﷺ][2]، فقال: ﴿يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ﴾ أى: قليلة زائلة فانية عن قريب تذهب [وتزول] [3]وتضمحل، ﴿وَإِنَّ الآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ﴾ أى: الدار التى لا زوال لها، ولا انتقال منها ولا ظعن عنها إلى غيرها، بل إما نعيم وإما جحيم، ولهذا قال: ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلا يُجْزَىٰ إِلاَّ مِثْلَهَا﴾ أى: واحدة مثلها، ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أى: لا يتقدر بجزاء بل يثيبه الله، ثوابا كثيرا لا انقضاء له ولا نفاد.

﴿ وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ (٤١) تَدْعُونَنِي لأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ (٤٢) لا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلا فِي الآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ (٤٣) فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (٤٤) فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ (٤٥) النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ (٤٦) ﴾.

يقول لهم المؤمن: ما بالى أدعوكم إلى النجاة، وهى عبادة الله وحده لا شريك له وتصديق رسوله الذى بعثه ﴿وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ. تَدْعُونَنِي لأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ﴾؟ أى: جهل[4] بلا دليل ﴿وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ﴾أى: هو فى عزته وكبريائه يغفر ذنب من تاب إليه، ﴿لا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾ يقول: حقا.

قال السدى، وابن جرير: معنى قوله: ﴿لا جَرَمَ﴾ :حقا.

وقال الضحاك: ﴿لا جَرَمَ﴾: لا كذب.

وقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: ﴿لا جَرَمَ﴾، يقول: بلى، إن الذى تدعوننى إليه من الأصنام والأنداد ﴿لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلا فِي الآخِرَةِ﴾.

قال مجاهد: الوثن ليس بشىء.

وقال قتادة: يعنى الوثن، لا ينفع ولا يضر.

وقال السدى: لا يجيب داعيه، لا فى الدنيا ولا فى الآخرة.

وهذا كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لاَّ يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ . وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٥، ٦]، ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ﴾ [فاطر: ١٤].

---

(١) زيادة من ت، س، أ.
(٢) زيادة من ت.
(٣) زيادة من ت.
(٤) فى ت، أ: «على جهل».

وقوله: ﴿وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ﴾ أى: فى الدار الآخرة، فيجازى كلا بعمله؛ ولهذا قال: ﴿وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ أى: خالدين فيها بإسرافهم، وهو شركهم بالله.

﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ﴾ أى: سوف تعلمون صدق ما أمرتكم به ونهيتكم عنه، ونصحتكم ووضحت لكم، وتتذكرونه، وتندمون حيث لا ينفعكم الندم، ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ﴾ أى: وأتوكل على الله وأستعينه، وأقاطعكم وأباعدكم، ﴿إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ أى: هو بصير بهم، فيهدى من يستحق الهداية، ويضل من يستحق الإضلال، وله الحجة البالغة، والحكمة التامة، والقدر النافذ.

وقوله [تعالى][(١)]: ﴿فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا﴾ أى: فى الدنيا والآخرة، أما فى الدنيا فنجاه الله مع موسى، عليه السلام، وأما فى الآخرة فبالجنة ﴿وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ﴾ وهو: الغرق فى اليم، ثم النقلة منه إلى الجحيم. فإن أرواحهم تعرض على النار صباحا ومساءً إلى قيام الساعة، فإذا كان يوم القيامة اجتمعت أرواحهم وأجسادهم فى النار؛ ولهذا قال: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ أى: أشده ألما وأعظمه نكالا. وهذه الآية أصل كبير فى استدلال أهل السنة على عذاب البرزخ فى القبور، وهى قوله: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾.

ولكن هاهنا سؤال، وهو أنه لاشك أن هذه الآية مكية، وقد استدلوا بها على عذاب القبر فى البرزخ، وقد قال الإمام أحمد:

حدثنا هاشم ـ هو ابن القاسم أبو النضر ـ حدثنا إسحاق بن سعيد[(٢)] ـ هو ابن عمرو بن سعيد ابن العاص ـ حدثنا سعيد ـ يعنى أباه ـ عن عائشة؛ أن يهودية كانت تخدمها، فلا تصنع عائشة إليها شيئا من المعروف إلا قالت لها اليهودية: وقاك الله عذاب القبر. قالت: فدخل رسول الله ﷺ علىّ فقلت: يا رسول الله، هل للقبر عذاب قبل يوم القيامة؟ قال: «لا، وعم ذلك؟». قالت: هذه اليهودية، لا نصنع إليها شيئا من المعروف إلا قالت: وقاك الله عذاب القبر. قال: «كذبت يهود[(٣)]. وهم على الله أكذب، لا عذاب دون يوم القيامة». ثم مكث بعد ذلك ما شاء الله أن يمكث، فخرج ذات يوم نصف النهار مشتملا بثوبه، محمرة عيناه، وهو ينادى بأعلى صوته: «القبر كقطع الليل المظلم. أيها الناس، لو تعلمون ما أعلم لبكيتم كثيرا وضحكتم قليلا. أيها الناس، استعيذوا بالله من عذاب القبر، فإن عذاب القبر حق»[(٤)].

وهذا إسناد صحيح على شرط البخارى ومسلم، ولم يخرجاه.

وروى أحمد: حدثنا يزيد، حدثنا سفيان، عن الزهرى، عن عروة، عن عائشة ـ قال: سألتها امرأة يهودية فأعطتها، فقالت لها: أعاذك الله من عذاب القبر. فأنكرت عائشة ذلك، فلما رأت رسول الله ﷺ قالت له، فقال: «لا». قالت عائشة: ثم قال لنا رسول الله ﷺ بعد ذلك: «وإنه أوحى إلى أنكم تفتنون فى قبوركم».

---

(١) زيادة من أ. (٢) فى أ: «سعد». (٣) فى أ: «يهودية».
(٤) المسند (٦/ ٨١).

وهذا أيضا على شرطهما[١].

فيقال: فما الجمع بين هذا وبين كون الآية مكية، وفيها الدليل على عذاب البرزخ؟ والجواب: أن الآية دلت على عرض الأرواح إلى النار غدوا وعشيا فى البرزخ، وليس فيها دلالة على اتصال تألمها بأجسادها فى القبور، إذ قد يكون ذلك مختصا بالروح، فأما حصول ذلك للجسد وتألمه بسببه، فلم يدل عليه إلا السنة فى الأحاديث المرضية الآتى ذكرها.

وقد يقال: إن هذه الآية إنما دلت على عذاب الكفار فى البرزخ، ولا يلزم من ذلك أن يعذب المؤمن فى قبره بذنب، ومما يدل على هذا ما رواه الإمام أحمد:

حدثنا عثمان بن عمر، حدثنا يونس، عن الزهرى، عن عروة، عن عائشة، رضى الله عنها، أن رسول الله ﷺ دخل عليها وعندها امرأة من اليهود، وهى تقول: أشعرت أنكم تفتنون فى قبوركم؟ فارتاع رسول الله ﷺ وقال: «إنما يفتن يهود». قالت عائشة: فلبثنا ليالى، ثم قال رسول الله ﷺ: «أشعرت أنه أوحى إلى أنكم تفتنون فى القبور؟». وقالت عائشة: سمعت رسول الله ﷺ بعد يستعيذ من عذاب القبر.

وهكذا رواه مسلم، عن هارون بن سعيد وحرملة، كلاهما عن ابن وهب، عن يونس بن يزيد الأيلى، عن الزهرى، به[٢].

وقد يقال: إن هذه الآية دلت على عذاب الأرواح فى البرزخ، ولا يلزم من ذلك أن يتصل بالأجساد فى قبورها، فلما أوحى إليه فى ذلك بخصوصيته استعاذ منه، والله، سبحانه وتعالى، أعلم.

وقد روى البخارى من حديث شعبة، عن أشعث بن أبى الشعثاء، عن أبيه، عن مسروق، عن عائشة[٣]، رضى الله عنها، أن يهودية دخلت عليها فقالت: أعاذك الله من عذاب القبر[٤]. فسألت عائشة[٥] رسول الله ﷺ عن عذاب القبر؟ فقال: «نعم، عذاب القبر حق». قالت عائشة: فما رأيت رسول الله ﷺ بعد صلى صلاة إلا تعوذ من عذاب القبر[٦].

فهذا يدل على أنه بادر إلى تصديق اليهودية فى هذا الخبر، وقرر عليه. وفى الأخبار المتقدمة: أنه أنكر ذلك حتى جاءه الوحى، فلعلهما قضيتان، والله أعلم، وأحاديث عذاب القبر كثيرة جدا.

وقال قتادة فى قوله: ﴿غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾: صباحا ومساء، ما بقيت الدنيا، يقال لهم: يا آل فرعون، هذه منازلكم، توبيخا ونقمة وصَغَارا لهم.

وقال ابن زيد: هم فيها اليوم، يُغدَى بهم ويراح إلى أن تقوم الساعة .

---

(١) المسند (٦/٢٣٨).

(٢) المسند (٦/٢٤٨) وصحيح مسلم برقم (٥٨٤).

(٣) فى ت: «وقد روى البخارى بإسناده من عائشة».

(٤) فى ت: «القبور» وفى أ: «وقاك الله من عذاب القبر».

(٥) فى ت: «عائشة رضى الله عنها».

(٦) صحيح البخارى برقم (١٣٧٢).

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبو سعيد، حدثنا المحاربى، حدثنا ليث، عن عبد الرحمن بن ثروان، عن هزيل، عن عبد الله بن مسعود[١]، رضى الله عنه، قال: إن أرواح الشهداء فى أجواف طير خضر تسرح بهم فى الجنة حيث شاؤوا، وإن أرواح ولدان المؤمنين فى أجواف عصافير تسرح فى الجنة حيث شاءت، فتأوى إلى قناديل معلقة فى العرش، وإن أرواح آل فرعون فى أجواف طير سود تغدو على جهنم وتروح عليها، فذلك عرضها.

وقد رواه الثورى، عن أبى قيس، عن الهُزَيل بن شرحبيل، من كلامه فى أرواح آل فرعون. وكذلك قال السدى.

وفى حديث الإسراء من رواية أبى هارون العبدى، عن أبى سعيد الخدرى، رضى الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال فيه: «ثم انطلق بى إلى خلق كثير من خلق الله، رجالٌ كلٌّ رجل منهم بطنه مثل البيت الضخم، مصفدون على سابلة آل فرعون، وآل فرعون يعرضون على النار غدوا وعشيا. ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾، وآل فرعون كالإبل المسومة[٢] يخبطون الحجارة والشجر ولا يعقلون»[٣].

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا على بن الحسين، حدثنا زيد بن أخْرَم، حدثنا عامر بن مُدْرِك الحارثى، حدثنا عتبة ـ يعنى ابن يقظان ـ عن قيس بن مسلم، عن طارق، عن[٤] شهاب، عن ابن مسعود، عن النبى ﷺ قال: «ما أحسن محسن من مسلم أو كافر إلا أثابه الله». قال: قلنا: يا رسول الله، ما إثابة الكافر؟ فقال: «إن كان قد وصل رحما أو تصدق بصدقة أو عمل حسنة، أثابه الله المال والولد والصحة وأشباه ذلك». قلنا: فما إثابته فى الآخرة؟ قال: «عذابا دون العذاب»، وقرأ: ﴿أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾.

ورواه البزار فى مسنده، عن زيد بن أخرم، ثم قال: لا نعلم له إسنادا غير هذا[٥].

وقال ابن جرير: حدثنا عبد الكريم بن أبى عمير، حدثنا حماد بن محمد الفزارى البلخى قال: سمعت[٦] الأوزاعى وسأله رجل فقال: رحمك الله. رأينا طيورا تخرج من البحر، تأخذ ناحية الغرب بيضا، فوجا فوجا، لا يعلم عددها إلا الله، عز وجل، فإذا كان العشى رجع مثلها سودا. قال: وفطنتم إلى ذلك؟ قال: نعم. قال: إن تلك[٧] الطير فى حواصلها أرواح آل فرعون، تعرض على النار غدوا وعشيا، فترجع إلى وكورها وقد احترقت رياشُها وصارت سودا، فينبت عليها من الليل ريش أبيض، وتتناثر السود، ثم تغدو على النار غدوا وعشيا، ثم ترجع إلى وكورها. فذلك دأبهم فى الدنيا، فإذا كان يوم القيامة قال الله تعالى: ﴿أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾، قال: وكانوا

---

(١) فى ت: «وروى ابن أبى حاتم بإسناده عن ابن مسعود».
(٢) فى س: «المنسومة».
(٣) انظر تخريج هذا الحديث عند تفسير الآية الأولى من سورة الإسراء.
(٤) فى س: «ابن».
(٥) مسند البزار برقم (٩٤٥) «كشف الأستار» ورواه الحاكم فى المستدرك (٢/٢٥٣) من طريق على بن الحسين به، وقال: «صحيح الإسناد ولم يخرجاه» وتعقبه الذهبى. قلت: فيه عتبة بن يقظان وهو واه.
(٦) فى ت: «وروى ابن جرير بإسناده إلى».
(٧) فى ت: «ذلك».

يقولون: إنهم ستمائة ألف مقاتل[١].

وقال الإمام أحمد: حدثنا إسحاق، أخبرنا مالك، عن نافع، عن ابن عمر[٢] قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشى، إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار. فيقال: هذا مقعدك حتى يبعثك الله، عز وجل، إلى يوم القيامة».

أخرجاه في الصحيحين، من حديث مالك، به[٣].

﴿وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ (٤٧) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ (٤٨) وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ (٤٩) قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَىٰ قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ (٥٠)﴾.

يخبر تعالى عن تحاج أهل النار في النار، وتخاصمهم، وفرعون وقومه من جملتهم **﴿فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ﴾** وهم: الأتباع **﴿لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾** وهم: القادة والسادة والكبراء: **﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾** أى: أطعناكم فيما دعوتمونا إليه فى الدنيا من الكفر والضلال، **﴿فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ﴾** أى: قسطا تتحملونه عنا. **﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا﴾** أى: لا نتحمل عنكم شيئا، كفى بنا ما عندنا، وما حملنا من العذاب والنكال. **﴿إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ﴾** أى: يقسم[٤] بيننا العذاب بقدر ما يستحقه كل منا، كما قال تعالى: **﴿قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾** [الأعراف: ٣٨].

﴿وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ﴾؛ لما علموا أن الله، سبحانه، لا يستجيب منهم ولا يستمع لدعائهم، بل قد قال: **﴿اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾** [المؤمنون: ١٠٨] سألوا الخزنة ـ وهم كالبوابين[٥] لأهل النار ـ أن يدعوا لهم الله أن يخفف عن الكافرين ولو يوما واحدا من العذاب، فقالت لهم الخزنة رادين عليهم: **﴿أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾** أى: أو ما قامت عليكم الحجج فى الدنيا على ألسنة الرسل؟ **﴿قَالُوا بَلَىٰ قَالُوا فَادْعُوا﴾** أى: أنتم لأنفسكم، فنحن لا ندعو لكم ولا نسمع منكم ولا نود خلاصكم، ونحن منكم برآء، ثم نخبركم أنه سواء دعوتم أو لم تدعوا، لا يستجاب لكم ولا يخفف عنكم؛ ولهذا قالوا[٦]: **﴿وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾** أى: إلا من ذهاب، لا يتقبل ولا يستجاب.

---

(١) تفسير الطبرى (٢٤/ ٤٦).

(٢) فى أ: «ابن عمر رضى الله عنهما».

(٣) المسند (٢/ ١١٣) وصحيح البخارى برقم (١٣٧٩) وصحيح مسلم برقم (٢٨٦٦).

(٤) فى ت: «فقسم». (٥) فى ت، أ: «كالسجانين». (٦) فى ت: «قال».

﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ (٥١) يَوْمَ لا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ (٥٢) وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ (٥٣) هُدًى وَذِكْرَىٰ لأُولِي الأَلْبَابِ (٥٤) فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالإِبْكَارِ (٥٥) إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلاَّ كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (٥٦)﴾.

قد أورد أبو جعفر بن جرير، رحمه الله تعالى، عند قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ سؤالا فقال: قد عُلم أن بعض الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، قتله قومه بالكلية كيحيى وزكريا[١] وشعياء، ومنهم من خرج من بين أظهرهم إما مهاجرا كإبراهيم[٢]، وإما إلى السماء كعيسى[٣]، فأين النصرة فى الدنيا؟ ثم أجاب عن ذلك بجوابين[٤].

أحدهما: أن يكون الخبر خرج عاما، والمراد به البعض، قال: وهذا سائغ فى اللغة.

الثانى: أن يكون المراد بالنصر الانتصار لهم ممن آذاهم، وسواء كان ذلك بحضرتهم أو فى غيبتهم أو بعد موتهم، كما فُعِلَ بقتلة يحيى وزكريا[٥] وشعياء، سلط عليهم من أعدائهم من أهانهم وسفك دماءهم، وقد ذكر أن النمروذ أخذه الله أخذ عزيز مقتدر، وأما الذين راموا صلب المسيح، عليه السلام، من اليهود، فسلط الله عليهم الروم فأهانوهم وأذلوهم، وأظهرهم الله عليهم. ثم قبل يوم القيامة سينزل عيسى ابن مريم إماما عادلا، وحكما مقسطا، فيقتل المسيح الدجال وجنوده من اليهود، ويقتل الخنزير، ويكسر الصليب، ويضع الجزية فلا يقبل إلا الإسلام. وهذه نصرة عظيمة، وهذه سنة الله فى خلقه فى قديم الدهر وحديثه: أنه ينصر عباده المؤمنين فى الدنيا، ويقر أعينهم ممن أذاهم، ففى صحيح البخارى عن أبى هريرة، رضى الله عنه، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «يقول الله تعالى: من عادى لى وليا فقد بارزنى بالحرب»[٦]. وفى الحديث الآخر: «إنى لأثأر لأوليائى كما يثأر الليث الحرب»[٧]؛ ولهذا أهلك تعالى قوم نوح وعاد وثمود، وأصحاب الرس، وقوم لوط، وأهل[٨] مدين، وأشباههم وأضرابهم، ممن كذب الرسل وخالف الحق. وأنجى الله من بينهم المؤمنين، فلم يهلك منهم أحدا، وعذب الكافرين، فلم يفلت منهم أحدا[٩].

قال السدى: لم يبعث الله رسولا قط إلى قوم فيقتلونه، أو قوما من المؤمنين يدعون إلى الحق فيقتلون، فيذهب ذلك القرن حتى يبعث الله لهم من ينصرهم، فيطلب بدمائهم ممن فعل ذلك بهم فى الدنيا. قال: فكانت[١٠] الأنبياء والمؤمنون يقتلون فى الدنيا، وهم منصورون فيها.

---

(١) فى ت، أ: «كيحيى بن زكريا». (٢) فى أ: «كإبراهيم عليه السلام». (٣) فى أ: «كعيسى عليه السلام».
(٤) تفسير الطبرى (٢٤/ ٤٨).
(٥) فى ت: «يحيى بن زكريا».
(٦) صحيح البخارى برقم (٦٥٠٢).
(٧) لم أجده بهذا اللفظ، وقد رواه أبو نعيم فى الحلية (١/ ١١) موقوفا على ابن عباس: «وأنا الثائر لأوليائى يوم القيامة».
(٨) فى أ: «وأصحاب». (٩) فى س: «واحدا». (١٠) فى ت، س: «وكانت».

وهكذا نصر الله [سبحانه][١] نبيه محمدا ﷺ وأصحابه على من خالفه وناوأه، وكذبه وعاداه، فجعل كلمته هى العليا، ودينه هو الظاهر على سائر الأديان. وأمره بالهجرة من بين ظهرانى قومه إلى المدينة النبوية، وجعل له فيها أنصارا وأعوانا، ثم منحه أكتاف المشركين يوم بدر، فنصره عليهم وخذلهم له، وقتل صناديدهم، وأسر سراتهم، فاستاقهم مقرنين فى الأصفاد، ثم من عليهم بأخذه الفداء منهم، ثم بعد مدة قريبة فتح [عليه][٢] مكة، فقرت عينه ببلده، وهو البلد المحرم الحرام المشرف المعظم، فأنقذه الله به مما كان فيه من الشرك والكفر، وفتح له اليمن، ودانت له جزيرة[٣] العرب بكمالها، ودخل الناس فى دين الله أفواجا. ثم قبضه الله، تعالى، إليه، لما له عنده من الكرامة العظيمة، فأقام الله أصحابه خلفاء بعده، فبلغوا عنه دين الله، ودعوا عباد الله إلى الله. وفتحوا البلاد والرّساتيق والأقاليم والمدائن والقرى والقلوب، حتى انتشرت الدعوة المحمدية فى مشارق الأرض ومغاربها. ثم لا يزال هذا الدين قائما منصورا ظاهرا إلى قيام[٤] الساعة؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ﴾ أى: يوم القيامة تكون النصرة أعظم وأكبر وأجل.

قال مجاهد: الأشهاد: الملائكة.

وقوله: ﴿ يَوْمَ لا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ﴾ بدل من قوله: ﴿وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ﴾.

وقرأ آخرون: «يَوْمُ» بالرفع، كأنه فسره به ﴿ يَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ. يَوْمُ لا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ﴾، وهم المشركون ﴿مَعْذِرَتُهُمْ﴾ أى: لا يقبل منهم عذر ولا فدية، ﴿وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ﴾ أى: الإبعاد والطرد من الرحمة، ﴿وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ وهى النار. قاله السدى، بئس المنزل والمقيل.

وقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: ﴿وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ أى: سوء العاقبة.

وقوله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَىٰ﴾، وهو ما بعثه الله به من الهدى والنور؛ ﴿وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ﴾ أى: جعلنا لهم العاقبة، وأورثناهم[٥] بلاد فرعون وأمواله وحواصله وأرضه، بما صبروا على طاعة الله واتباع رسوله موسى، عليه السلام، وفى الكتاب الذى أورثوه ـ وهو التوراة ـ ﴿هُدًى وَذِكْرَىٰ لأُولِي الأَلْبَابِ﴾ وهى: العقول الصحيحة السليمة.

وقوله: ﴿ فَاصْبِرْ ﴾ أى: يا محمد، ﴿ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ﴾ أى: وعدناك أنا سنعلى كلمتك، ونجعل العاقبة لك ولمن اتبعك، والله لا يخلف الميعاد. وهذا الذى أخبرناك به حق لا مرية فيه ولا شك.

وقوله: ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ﴾، هذا تهييج للأمة على الاستغفار، ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ﴾ أى: فى أواخر النهار وأوائل الليل، ﴿وَالإِبْكَارِ﴾، وهى أوائل النهار وأواخر الليل.

وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ﴾ أى: يدفعون الحق بالباطل، ويردون الحجج الصحيحة بالشبه الفاسدة بلا برهان ولا حجة من الله، ﴿إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلاَّ كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ﴾

---

(١) زيادة من أ. (٢) زيادة من ت، وفى أ: «عليهم». (٣) فى ت: «جزائر».
(٤) فى ت: «يوم». (٥) فى ت: «وأورثنا بنى إسرائيل».

أى: ما فى صدورهم إلا كبر على اتباع الحق، واحتقار لمن جاءهم به، وليس ما يرومونه من إخمال الحق وإعلاء الباطل بحاصل لهم، بل الحق هو المرفوع، وقولهم وقصدهم هو الموضوع، ﴿**فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ**﴾ أى: من حال مثل هؤلاء، ﴿**إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ**﴾ أو[1]: من شر[2] مثل هؤلاء المجادلين فى آيات الله بغير سلطان. هذا تفسير ابن جرير.

وقال كعب وأبو العالية: نزلت هذه الآية فى اليهود: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ**﴾ قال أبو العالية: وذلك أنهم ادعوا أن الدجال منهم، وأنهم يملكون به الأرض. فقال الله لنبيه ﷺ آمرا له أن يستعيذ من فتنة الدجال، ولهذا قال: ﴿ **فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ** ﴾.

وهذا قول غريب، وفيه تعسف بعيد، وإن كان قد رواه ابن أبى حاتم فى كتابه، والله أعلم.

﴿ **لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٥٧) وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلا الْمُسِيءُ قَلِيلاً مَّا تَتَذَكَّرُونَ (٥٨) إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ (٥٩)** ﴾.

يقول تعالى منبها على أنه يعيد الخلائق يوم القيامة، وأن ذلك سهل عليه، يسير لديه ـ بأنه خلق السموات والأرض، وخلقهم أكبر من خلق الناس بدأة وإعادة، فمن قدر على ذلك فهو قادر على ما دونه بطريق الأولى والأحرى، كما قال تعالى: ﴿**أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**[3]﴾ [الأحقاف: ٣٣]. وقال هاهنا: ﴿**لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ**﴾؛ فلهذا لا يتدبرون هذه الحجة ولا يتأملونها، كما كان كثير من العرب يعترفون بأن الله خلق السموات والأرض، وينكرون المعاد، استبعادا وكفرا وعنادا، وقد اعترفوا بما هو أولى مما أنكروا.

ثم قال: ﴿**وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلا الْمُسِيءُ**﴾ أى: كما لا يستوى الأعمى الذى لا يبصر شيئا، والبصير الذى يرى ما انتهى إليه بصره، بل بينهما فرق عظيم، كذلك لا يستوى المؤمنون الأبرار والكفرة الفجار، ﴿**قَلِيلاً مَّا تَتَذَكَّرُونَ**﴾ أى: ما أقل ما يتذكر كثير من الناس.

ثم قال: ﴿**إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ**[4]﴾ أى: لكائنة وواقعة، ﴿**لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ**﴾ أى: لا يصدقون بها، بل يكذبون بوجودها.

---

(١) فى ت: «أى». (٢) فى أ: «شك».

(٣) فى ت، أ: «أو ليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يحيى الموتى بلى إنه على كل شىء قدير» وهو خطأ، والصواب ما أثبتناه، حيث إن ناسخا المخطوطتين ت، أ قد خلطا بين الآية الحادية والثمانين من سورة يس وبين الآية الثالثة والثلاثين من سورة الأحقاف. (٤) فى ت: «آتية» وهو خطأ.

قال ابن أبى حاتم: حدثنا محمد بن عبد الله بن عبد الحكم، حدثنا أشهب، حدثنا مالك، عن[١] شيخ قديم من أهل اليمن ـ قدم من ثم ـ قال: سمعت أن الساعة إذا دنت اشتد البلاء على الناس، واشتد حر الشمس.

﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ (٦٠)﴾.

هذا من فضله، تبارك وتعالى، وكرمه: أنه ندب عباده إلى دعائه، وتكفل لهم بالإجابة، كما كان سفيان الثورى يقول: يا مَنْ أحبُّ عباده إليه مَنْ سأله فأكثر سؤاله، ويا من أبغض عباده إليه من لم يسأله، وليس كذلك[٢] غيرك يارب.

رواه ابن أبى حاتم.

وفى هذا المعنى يقول الشاعر:

اللهُ يَغْضبُ إن تركْتَ سُؤَالهُ ... وبُنِىُّ آدمَ حين يُسألُ يَغْضَبُ

وقال قتادة: قال كعب الأحبار: أعطيت هذه الأمة ثلاثا لم تُعطهُن[٣] أمة قبلهم إلا نبى: كان إذا أرسل الله نبيا قيل له: «أنت شاهد على أمتك»، وجعلتكم[٤] شهداء على الناس. وكان يقال له: «ليس عليك فى الدين من حرج». وقال لهذه الأمة: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨]. وكان يقال له: «ادعنى[٥] أستجب لك» وقال لهذه الأمة: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ رواه ابن أبى حاتم.

وقال[٦] الإمام الحافظ أبو يعلى. أحمد بن على بن المثنى الموصلى فى مسنده: حدثنا أبو إبراهيم الترجمانى، حدثنا صالح المرى قال: سمعت الحسن يحدث عن أنس بن مالك، رضى الله عنه، عن النبى ﷺ ـ فيما يروى عن ربه عز وجل ـ قال: «أربع خصال، واحدة منهن لى، وواحدة لك، وواحدة فيما بينى وبينك، وواحدة فيما بينك وبين عبادى[٧]: فأما التى لى فتعبدنى لا تشرك بى شيئا، وأما التى لك علىَّ فما عملت من خير جزيتك به، وأما التي بينى وبينك: فمنك الدعاء وعلى الإجابة، وأما التى بينك وبين عبادى: فارض لهم ما[٨] ترضى لنفسك»[٩].

وقال[١٠] الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن ذر، عن يُسيع الكندى، عن النعمان بن بشير، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الدعاء هو العبادة»، ثم قرأ: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾.

---

(١) فى ت: «روى ابن أبى حاتم عن». (٢) فى ت، أ: «وليس أحد كذلك». (٣) فى س: «يعطهن».
(٤) فى ت، أ: «وجعلكم». (٥) فى س: «ادعونى». (٦) فى ت: «وروى».
(٧) فى ت: «العباد». (٨) فى ت، أ: «بما».
(٩) مسند أبى يعلى (٥/ ١٤٣) ورواه البزار فى مسنده برقم (١٩) «كشف الأستار» من طريق الحجاج بن المنهال عن صالح المرى به، وقال: «تفرد به صالح المرى». قال الهيثمى فى المجمع (١/ ٥١): «فى إسناده صالح المرى وهو ضعيف، وتدليس الحسن أيضا» والمحمل هنا على صالح بن بشير المرى فهو ضعيف جدا وقد تفرد به.
(١٠) فى ت: «وروى».

وهكذا رواه أصحاب السنن: الترمذى، والنسائى، وابن ماجه، وابن أبى حاتم، وابن جرير، كلهم من حديث الأعمش، به[١]. وقال الترمذى: حسن صحيح.

ورواه أبو داود، والترمذى، والنسائى، وابن جرير أيضا، من حديث شعبة، عن منصور، عن ذر، به[٢].

وأخرجه الترمذى أيضا من حديث الثورى، عن منصور والأعمش، كلاهما عن ذر، به[٣].

ورواه ابن حبان والحاكم فى صحيحيهما، وقال الحاكم: صحيح الإسناد[٤].

وقال[٥] الإمام أحمد: حدثنا وكيع، حدثنى أبو مليح المدنى ـ شيخ من أهل المدينة ـ سمعه عن أبى صالح، وقال مرة: سمعت أبا صالح يحدث عن أبى هريرة [رضى الله عنه][٦] قال: قال رسول الله ﷺ: «من لم يدع الله، عز وجل، غضب الله عليه».

تفرد به أحمد[٧]، وهذا إسناد لا بأس به.

وقال[٨] الإمام أحمد أيضا: حدثنا مروان الفزارى، حدثنا صُبيح أبو المليح: سمعت أبا صالح يحدث عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من لا يسأله يغضب عليه»[٩].

قال ابن معين: أبو المليح هذا اسمه: صُبَيْح. كذا قيده بالضم عبد الغنى بن سعيد. وأما أبوصالح هذا فهو[١٠] الخُوزى[١١]، سكن شعَب الخوز[١٢]. قاله البزار فى مسنده. وكذا وقع فى روايته أبو المليح الفارسى، عن أبى صالح الخُوزى، عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من لا يسأل الله يغضب عليه»[١٣].

وقال[١٤] الحافظ أبو محمد الحسن بن عبد الرحمن الرامهُرْمزى: حدثنا همام، حدثنا إبراهيم، عن الحسن، حدثنا نائل بن نجيح، حدثنى عائذ بن حبيب، عن محمد بن سعيد قال: لما مات محمد ابن مسلمة الأنصارى، وجدنا فى ذؤابة[١٥] سيفه كتابا: «بسم الله الرحمن الرحيم، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن لربكم فى بقية دهركم نفحات[١٦]، فتعرضوا له، لعل دعوة أن توافق رحمة فيسعد[١٧] بها صاحبها سعادة لا يخسر بعدها أبدا»[١٨].

---

(١) المسند (٤/ ٢٧١) وسنن الترمذى برقم (٣٣٧٢) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٤٦٤) وسنن ابن ماجه برقم (٣٨٢٨) وتفسير الطبرى (٢٤/ ٥١).

(٢) سنن أبى داود برقم (١٤٧٩) وسنن الترمذى برقم (٢٩٦٩) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٤٤٦) وتفسير الطبرى (٢٤/ ٥١).

(٣) سنن الترمذى برقم (٣٢٤٧).

(٤) صحيح ابن حبان برقم (٢٣٩٦) «موارد» والمستدرك (١/ ٤٩١).

(٥) فى ت: «وروى». (٦) زيادة من ت.

(٧) المسند (٢/ ٤٧٧) وتفرد به أحمد بهذا اللفظ، وإلا فقد رواه ابن ماجه فى السنن برقم (٣٨٢٧) من طريق وكيع بهذا الإسناد بلفظ: «من لم يسأل الله يغضب عليه».

(٨) فى ت: «وروى».

(٩) المسند (٢/ ٤٤٢).

(١٠) فى ت، س: «وهو». (١١) فى أ: «الجزرى». (١٢) فى أ: «الجزر».

(١٣) ورواه الترمذى فى السنن برقم (٣٣٧٣) وقال: «أبو المليح اسمه صبيح، وسمعت محمدا يقوله، وقال: يقال له: فارسى».

(١٤) فى ت: «وروى». (١٥) فى ت: «رواية».

(١٦) فى ت: «فى بقية أيام نفحات»، وفى س، أ: «فى بقية أيام دهركم نفحات». (١٧) فى ت: «يسعد».

(١٨) ورواه الطبرانى فى المعجم الكبير (١٩/ ٢٣٣) من وجه آخر.

وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي﴾ أي: عن دعائي وتوحيدي، ﴿سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ أي: صاغرين حقيرين، كما قال[1] الإمام أحمد:

حدثنا يحيى بن سعيد، عن ابن عجلان، حدثني عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده، عن النبي ﷺ قال: «يُحْشَر المتكبرون يوم القيامة أمثال الذرّ، في صور الناس، يعلوهم كل شيء من الصغار، حتى يدخلوا[2] سجنا في جهنم ـ يقال له: بولس ـ تعلوهم نار الأنيار، يسقون من طينة الخبال: عصارة أهل النار»[3].

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا أبو بكر بن محمد بن يزيد بن خُنَيْس: سمعت أبي يحدث عن وُهَيب[4] بن الورد: حدثني رجل قال: كنت أسير ذات يوم في أرض الروم، فسمعت هاتفا من فوق رأس جبل وهو يقول: يارب، عجبت لمن عرفك كيف يرجو أحدا غيرك! يارب، عجبت لمن عرفك كيف يطلب حوائجه إلى أحد غيرك ـ قال: ثم ذهبت، ثم جاءت الطامة الكبرى ـ قال: ثم عاد الثانية فقال: يارب، عجبت لمن عرفك كيف يتعرض لشيء من سخطك يُرضي[5] غيرك. قال وهيب: وهذه الطامة الكبرى. قال: فناديته: أجني أنت أم إنسي؟ قال: بل إنسي، اشغل نفسك بما يَعْنيك عما لا يعنيك.

﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ (٦١) ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ (٦٢) كَذَلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (٦٣) اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٦٤) هُوَ الْحَيُّ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٦٥)﴾.

يقول تعالى ممتنا على خلقه، بما جعل لهم من الليل الذي يسكنون فيه ويستريحون من حركات ترددهم في المعايش بالنهار، وجعل النهار مبصرا، أي: مضيئا، ليتصرفوا فيه بالأسفار، وقطع الأقطار، والتمكن من الصناعات، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ[6] لا يَشْكُرُونَ﴾ أي: لا يقومون بشكر نعم[7] الله عليهم.

ثم قال: ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾ أي: الذي فعل هذه الأشياء هو الله الواحد الأحد، خالق الأشياء، الذي لا إله غيره، ولا رب سواه، ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ أي: فكيف تعبدون غيره من الأصنام، التي لا تخلق شيئا، بل هي مخلوقة منحوتة.

---

(١) في ت: «روى».
(٢) في ت: «يدخلون».
(٣) المسند (٢/ ١٧٩).
(٤) في ت: «وروى ابن أبي حاتم بسنده عن وهيب».
(٥) في ت، س: «برضى».
(٦) في ت: «ولكن أكثرهم» وهو خطأ.
(٧) في أ: «ما أنعم».

وقوله: ﴿كَذَلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ أى: كما ضل هؤلاء بعبادة غير الله، كذلك أفك الذين من قبلهم، فعبدوا غيره بلا دليل ولا برهان بل بمجرد الجهل والهوى، وجحدوا حجج الله وآياته.

وقوله: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ قَرَارًا﴾ أى: جعلها مستقرا لكم، بساطا مهادا تعيشون عليها، وتتصرفون فيها، وتمشون فى مناكبها، وأرساها بالجبال لئلا تميد بكم، ﴿وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾ أى: سقفا للعالم محفوظا، ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ أى: فخلقكم فى أحسن الأشكال، ومنحكم أكمل الصور فى أحسن تقويم، ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ أى: من المآكل والمشارب فى الدنيا. فذكر أنه خلق الدار، والسكان، والأرزاق ـ فهو الخالق الرازق، كما قال فى سورة البقرة: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا[١] رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ. الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٠، ٢١] وقال هاهنا بعد خلق هذه الأشياء: ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾: أى: فتعالى وتقدس وتنزه رب العالمين كلهم.

ثم قال: ﴿هُوَ الْحَيُّ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾ أى: هو الحى أزلاً وأبداً، لم يزل ولا يزال، وهو الأول والآخر، والظاهر والباطن، ﴿لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾ أى: لا نظير له ولا عديل له، ﴿فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ أى: موحدين له مقرين بأنه لا إله إلا هو ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

قال ابن جرير: كان جماعة من أهل العلم يأمرون من قال: «لا إله إلا الله» أن يتبعها بالحمد لله رب العالمين، عملا بهذه الآية.

ثم روى عن محمد بن على بن الحسن بن شقيق، عن أبيه، عن الحسين بن واقد، عن الأعمش، عن مجاهد، عن ابن عباس[٢] قال: من قال: «لا إله إلا الله» فليقل على أثرها: «الحمد لله رب العالمين» فذلك[٣] قوله تعالى: ﴿فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

وقال أبو أسامة وغيره، عن إسماعيل بن أبى خالد، عن سعيد بن جبير قال: إذا قرأت: ﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾[غافر: ١٤]، فقل: «لا إله إلاّ الله» وقل على أثرها: «الحمد لله رب العالمين» ثم قرأ هذه الآية: ﴿فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِي الْبَيِّنَاتُ مِن رَّبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٦٦) هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلاً مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٦٧) هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٦٨)﴾

يقول تعالى: قل يا محمد لهؤلاء المشركين: إن الله ينهى أن يُعبَد أحد سواه من الأصنام والأنداد

(١) فى س: «اتقوا» وهو خطأ. (٢) فى ت: «ثم روى بإسناده عن ابن عباس». (٣) فى ت، س: «وذلك».

والأوثان. وقد بين تعالى أنه لا يستحق العبادة أحد سواه، في قوله: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا﴾ أي: هو الذي يقلبكم في هذه الأطوار كلها، وحده لا شريك له، وعن أمره وتدبيره وتقديره يكون ذلك كله، ﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ﴾ أي: من قبل أن يوجد ويخرج إلى هذا العالم، بل تسقطه أمه سقطا، ومنهم من يتوفى صغيرا، وشابا، وكهلا قبل الشيخوخة، كقوله ﴿لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الحج: ٥] وقال هاهنا: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾، قال ابن جريج، تتذكرون البعث.

ثم قال: ﴿هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ أي: هو المتفرد بذلك، لا يقدر على ذلك أحد سواه، ﴿فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ أي: لا يخالف ولا يمانع، بل ما شاء كان [لا محالة][1].

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ (٦٩) الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٧٠) إِذِ الأَغْلالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلاسِلُ يُسْحَبُونَ (٧١) فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ (٧٢) ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ (٧٣) مِن دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُو مِن قَبْلُ شَيْئًا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ (٧٤) ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ (٧٥) ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ (٧٦)﴾.

يقول تعالى: ألا تعجب يا محمد من هؤلاء المكذبين بآيات الله، ويجادلون في الحق والباطل، كيف تُصرّف عقولهم عن الهدى إلى الضلال، ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا﴾ أي: من الهدى والبيان، ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾: هذا تهديد شديد، ووعيد أكيد، من الرب، جل جلاله، لهؤلاء، كما قال تعالى: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ [المرسلات: ١٥].

وقوله: ﴿إِذِ الأَغْلالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلاسِلُ﴾ أي: متصلة بالأغلال، بأيدي الزبانية يسحبونهم على وجوههم، تارة إلى الحميم وتارة إلى الجحيم؛ ولهذا قال: ﴿يُسْحَبُونَ. فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ﴾، كما قال: ﴿هَٰذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ. يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ﴾ [الرحمن: ٤٣، ٤٤]. وقال بعد ذكره أكلهم الزقوم وشربهم الحميم: ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لإِلَى الْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٦٨] وقال: ﴿وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ. فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ. وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ. لا بَارِدٍ وَلا كَرِيمٍ﴾ إلى أن قال: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ. لآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ. فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ. فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ. فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ. هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ﴾ [الواقعة: ٤١ـ ٥٦]. وقال: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ. طَعَامُ الأَثِيمِ. كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ. كَغَلْيِ الْحَمِيمِ. خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَاءِ الْجَحِيمِ. ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ. ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ. إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِ تَمْتَرُونَ﴾ [الدخان: ٤٣ ـ ٥٠]،

---
(١) زيادة من س، أ.

أى: يقال لهم ذلك على وجه التقريع والتوبيخ، والتحقير والتصغير، والتهكم والاستهزاء بهم.

قال ابن أبى حاتم: حدثنا على بن الحسين، حدثنا أحمد بن منيع، حدثنا منصور بن عمار، حدثنا بشير[١] بن طلحة الخزامى، عن خالد بن دُرَيْك، عن يعلى بن مُنْيَة ـ رفع الحديث إلى رسول الله ﷺ ـ قال: «ينشئ الله سحابة لأهل النار سوداء مظلمة، ويقال: يا أهل النار، أى شىء تطلبون؟ فيذكرون بها سحاب الدنيا فيقولون: نسأل بَرْد الشراب، فتمطرهم أغلالا تزيد فى أغلالهم، وسلاسل تزيد فى سلاسلهم، وجمرا يُلْهِبُ النار عليهم». هذا حديث غريب[٢].

وقوله: ﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ. مِن دُونِ اللَّهِ﴾ أى: قيل لهم: أين الأصنام التى كنتم تعبدونها من دون الله؟ هل ينصرونكم اليوم؟ ﴿قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا﴾ أى: ذهبوا فلم ينفعونا، ﴿بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُو مِن قَبْلُ شَيْئًا﴾ أى: جحدوا عبادتهم، كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلاَّ أَن قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣]؛ ولهذا قال: ﴿كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ﴾.

وقوله: ﴿ذَلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ﴾ أى: تقول لهم الملائكة: هذا الذى أنتم فيه جزاء على فرحكم فى الدنيا بغير الحق، ومرحكم وأشركم وبطركم، ﴿ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ أى: فبئس الْمَنْزِلُ والْمَقِيلُ الذى فيه الهوان والعذاب الشديد، لمن استكبر عن آيات الله، واتباع دلائله وحُججه.

﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ (٧٧) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ (٧٨)﴾.

يقول تعالى آمرا رسوله، صلوات الله وسلامه عليه، بالصبر على تكذيب من كذبه من قومه؛ فإن الله سينجز لك ما وعدك من النصر والظفر على قومك، وجعل العاقبة لك ولمن اتبعك فى الدنيا والآخرة، ﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ﴾ أى: فى الدنيا. وكذلك وقع، فإن الله أقر أعينهم من كبرائهم وعظمائهم، أبيدوا فى يوم بدر. ثم فتح الله عليه مكة وسائر جزيرة العرب فى أيام حياته ﷺ.

وقوله: ﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ أى: فنذيقهم العذاب الشديد فى الآخرة.

ثم قال مسليا له: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ كما قال فى «سورة النساء» سواء، أى: منهم من أوحينا إليك خبرهم وقصصهم مع قومهم كيف كذبوهم ثم كانت للرسل العاقبة والنصرة، ﴿وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾، وهم أكثر ممن ذكر

---

(١) فى أ: «بشر».

(٢) ورواه الطبرانى فى الأوسط برقم (٤٨٤٦) وابن عدى فى الكامل (٦/ ٣٩٤) من طريق أحمد بن منيع عن منصور به، وقال الطبرانى: «لا يروى عن يعلى إلا بهذا الإسناد، تفرد به منصور». وقال الهيثمى فى المجمع (١٠/ ٣٩٠): «فيه من فيه ضعف قليل، وفيه من لم أعرفه».

بأضعاف أضعاف، كما تقدم التنبيه على ذلك في سورة النساء[١]، ولله الحمد والمنة.

وقوله: ﴿ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ أي: ولم يكن لواحد من الرسل أن يأتي قومه بخارق للعادات، إلا أن يأذن الله[٢] له في ذلك، فيدل ذلك على صدقه فيما جاءهم به، ﴿ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ ﴾: وهو عذابه ونكاله المحيط بالمكذبين ﴿ قُضِيَ بِالْحَقِّ ﴾، فينجو المؤمنون، ويهلك الكافرون؛ ولهذا قال: ﴿ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ ﴾.

﴿ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (٧٩) وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ (٨٠) وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنكِرُونَ (٨١) ﴾.

يقول تعالى ممتنا على عباده، بما خلق لهم من الأنعام، وهي الإبل والبقر والغنم، ﴿فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴾ [يس: ٧٢]، فالإبل تركب وتؤكل وتحلب، ويحمل عليها الأثقال في الأسفار والرحال إلى البلاد النائية، والأقطار الشاسعة. والبقر تؤكل، ويشرب لبنها، وتحرث عليها الأرض. والغنم تؤكل، ويشرب لبنها. والجميع تجز أصوافها وأشعارها وأوبارها، فيتخذ منه الأثاث والثياب والأمتعة، كما فَصَّل وبَيَّنَ في أماكن تقدم ذكرها في «سورة الأنعام»[٣]، و«سورة النحل»[٤]، وغير ذلك؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ . وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾.

وقوله: ﴿ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ﴾ أي: حججه وبراهينه في الآفاق وفي أنفسكم، ﴿ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنكِرُونَ﴾؟ أي: لا تقدرون على إنكار شيء من آياته، إلا أن تعاندوا وتكابروا.

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الأَرْضِ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٨٢) فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٨٣) فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ (٨٤) فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ (٨٥) ﴾.

يخبر تعالى عن الأمم المكذبة بالرسل في قديم الدهر، وماذا حل بهم من العذاب الشديد، مع

---

(١) راجع تفسير الآية: ١٦٤ من سورة النساء.

(٢) في أ: «إلا بإذن الله».

(٣) راجع تفسير الآيات: ١٤١ ـ ١٤٤ من سورة الأنعام.

(٤) راجع تفسير الآيات: ٥ ـ ٨ من سورة النحل.

شدة قواهم، وما أثروه فى الأرض، وجمعوه من الأموال، فما أغنى عنهم ذلك شيئا، ولا رد عنهم ذرة من بأس الله؛ وذلك لأنهم لما جاءتهم الرسل(١) بالبينات، والحجج القاطعات، والبراهين الدامغات، لم يلتفتوا إليهم، ولا أقبلوا عليهم، واستغنوا بما عندهم من العلم فى زعمهم عما جاءتهم به الرسل.

قال مجاهد: قالوا: نحن أعلم منهم، لن نبعث ولن نعذب.

وقال السدى: فرحوا بما عندهم من العلم بجهالتهم، فأتاهم من بأس الله ما لا قِبَل لهم به.

﴿ وَحَاقَ بِهِم﴾ أى: أحاط بهم ﴿ مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ أى: يكذبون ويستبعدون وقوعه.

﴿ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾ أى: عاينوا وقوع العذاب بهم، ﴿ قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ﴾ أى: وحدوا الله وكفروا بالطاغوت، ولكن حيث لا تُقَال العثرات، ولا تنفع المعذرة. وهذا كما قال فرعون حين أدركه الغرق: ﴿ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٩٠]، قال الله [تبارك و](٢) تعالى: ﴿ آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾؟ [يونس: ٩١] أى: فلم يقبل الله منه؛ لأنه قد استجاب لنبيه موسى دعاءه عليه حين قال: ﴿وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ﴾ [يونس: ٨٨]. و[هكذا](٣) هاهنا قال: ﴿ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ﴾ أى: هذا حكم الله فى جميع(٤) مَنْ تاب عند معاينة العذاب: أنه لا يقبل؛ ولهذا جاء فى الحديث: «إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر»(٥) أى: فإذا غرغر وبلغت الروح الحنجرة، وعاين الملك، فلا توبة حينئذ؛ ولهذا قال: ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾.

آخر تفسير «سورة غافر(٦)»، ولله الحمد والمنة

---

(١) فى أ: «رسلهم». (٢) زيادة من س، أ. (٣) زيادة من س، أ.
(٤) فى أ: «فى جميع عباده».
(٥) رواه الترمذى فى السنن برقم (٣٥٣٧) وابن ماجه فى السنن برقم (٤٢٥٣) من حديث عبد الله بن عمر رضى الله عنهما.
(٦) فى س: «المؤمن».

٤٠ — سورة غافر

(مكية وآياتها خمس وثمانون آية)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ ٤٠ غافر

تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٢﴾ ٤٠ غافر

غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿٣﴾ ٤٠ غافر

ومن مزيدة أو لابتداء الحفوف (يسبحون بحمد ربهم) أى ينزهونه تعالى عما لا يليق به متلبسين بحمده * والجملة حال ثانية أو مقيدة للأولى والمعنى ذاكرين له تعالى بوصفى جلاله وإكرامه تلذذاً به وفيه إشعار بأن أقصى درجات العليين وأعلى لذائذهم هو الاستغراق فى شئونه عزوجل (وقضى بينهم بالحق) أى * بين الخلق بإدخال بعضهم النار وبعضهم الجنة أو بين الملائكة بإقامتهم فى منازلهم على حسب تفاضلهم (وقيل الحمد لله رب العالمين) أى على ماقضى بيننا بالحق وأنزل كلامنا منزلته التى هى حقه والقائلون هم * المؤمنون ممن قضى بينهم أو الملائكة وطى ذكرهم لتعينهم وتعظيمهم . عن النبى ﷺ من قرأ سورة الزمر لم يقطع الله تعالى رجاءه يوم القيامة وأعطاه ثواب الخائفين وعن عائشة رضى الله عنها أنه ﷺ كان يقرأ كل ليلة بنى إسرائيل والزمر .

﴿ سورة غافر مكية وآياتها خمس وثمانون آية ﴾

١ (بسم الله الرحمن الرحيم) (حم) بتفخيم الألف وتسكين الميم وقرىء بإمالة الألف وإخراجها بين بين وبفتح الميم لالتقاء الساكنين أو نصبها بإضمار اقرأ ونحوه ومنع الصرف للتعريف وكونها على زنة
٢ قابيل وهابيل وبقية الكلام فيه وفى قوله تعالى (تنزيل الكتاب) كالذى سلف فى الم السجدة وقوله تعالى (من الله العزيز العليم) كما فى مطلع سورة الزمر فى الوجوه كلها ووجه التعرض لنعتى العزة والعلم
٣ ماذكر هناك (غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذى الطول) إما صفات أخر لتحقيق مافيها من الترغيب والترهيب والحث على ماهو المقصود والإضافة فيها حقيقية على أنه لم يرد بها زمان مخصوص وأريد بشديد العقاب مشدده أو الشديد عقابه بحذف اللام للازدواج وأمن الالتباس أو إبدال وجعله وحده بدلا كما فعله الزجاج مشوش للنظم وتوسيط الواو بين الأولين لإفادة الجمع بين محو الذنوب وقبول التوبة أو تغاير الوصفين إذ ربما يتوهم الاتحاد أو تغاير موقع الفعلين لأن الغفر هو الستر مع بقاء الذنب وذلك لمن لم يتب فإن التائب من الذنب كمن لا ذنب له والتوب مصدر كالتوبة وقيل هو جمعها والطول الفضل بترك العقاب المستحق وفى توحيد صفة العذاب مغمورة بصفات الرحمة دليل سبقها

مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَا يَغۡرُرۡكَ تَقَلُّبُهُمۡ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ﴿٤﴾ ٤٠ غافر

كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۖ وَهَمَّتۡ كُلُّ أُمَّةِۭ بِرَسُولِهِمۡ لِيَأۡخُذُوهُۖ وَجَٰدَلُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّ فَأَخَذۡتُهُمۡۖ فَكَيۡفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٥﴾ ٤٠ غافر

وَكَذَٰلِكَ حَقَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٦﴾ ٤٠ غافر

ورجحانها (لا إله إلا هو) فيجب الإقبال الكلى على طاعته فى أوامره ونواهيه (إليه المصير) فحسب
٤ لا إلى غيره لا استقلالا ولا اشتراكا فيجزى كلا من المطيع والعاصى (ما يجادل فى آيات الله) أى بالطعن
فيها واستعمال المقدمات الباطلة لإدحاض الحق كقوله تعالى وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق (إلا
الذين كفروا) بها وأما الذين آمنوا فلا يخطر ببالهم شائبة شبهة منها فضلا عن الطعن فيها وأما الجدال فيها
لحل مشكلاتها وكشف معضلاتها واستنباط حقائقها الكلية وتوضيح مناهج الحق فى مضايق الأفهام
ومزالق الأقدام وإبطال شبه أهل الزيغ والضلال فمن أعظم الطاعات ولذلك قال ﷺ إن جدالا فى
* القرآن كفر بالتنكير للفرق بين جدال وجدال والفاء فى قوله تعالى (فلا يغررك تقلبهم فى البلاد)
لترتيب النهى أو وجوب الانتهاء على ماقبلها من التسجيل عليهم بالكفر الذى لا شىء أمقت منه عند
الله تعالى ولا أجلب لخسران الدنيا والآخرة فإن من تحقق ذلك لايكاد يغتر بما لهم من حظوظ الدنيا
٥ وزخارفها فإنهم مأخوذون عما قليل أخذ من قبلهم من الأمم حسبما ينطق به قوله تعالى (كذبت قبلهم
قوم نوح والأحزاب من بعدهم) أى الذين تحزبوا على الرسل وناصبوهم بعد قوم نوح مثل عاد وثمود
* وأضرابهم (وهمت كل أمة) من تلك الأمم العاتية (برسولهم) وقرىء برسولها (ليأخذوه) ليتمكنوا
منه فيصيبوا به ما أرادوا من تعذيب أوقتل من الأخذ بمعنى الأسر (وجادلوا بالباطل) الذى لا أصل
ولا حقيقة له أصلا (ليدحضوا به الحق) الذى لا محيد عنه كما فعل هؤلاء (فأخذتهم) بسبب ذلك
أخذ عزيز مقتدر (فكيف كان عقاب) الذى عاقبتهم به فإن آثار دمارهم عبرة للناظرين ولآخذن هؤلاء
٦ أيضاً لاتحادهم فى الطريقة واشتراكهم فى الجريرة كما ينبىء عنه قوله تعالى (وكذلك حقت كلمة ربك)
أى كما وجب وثبت حكمه تعالى وقضاؤه بالتعذيب على أولئك الأمم المكذبة المتحزبة على رسلهم
* المجادلة بالباطل لإدحاض الحق به وجب أيضاً (على الذين كفروا) أى كفروا بك وتحزبوا عليك وهموا
بما لم ينالوا كما ينبىء عنه إضافة اسم الرب إلى ضميره ﷺ فإن ذلك للإشعار بأن وجوب كلمة العذاب
عليهم من أحكام تربيته التى من جملتها نصرته ﷺ وتعذيب أعدائه وذلك إنما يتحقق بكون الموصول
* عبارة عن كفار قومه لا عن الأمم المهلكة وقوله تعالى (أنهم أصحاب النار) فى حيز النصب بحذف
لام التعليل أى لأنهم مستحقو أشد العقوبات وأفظعها التى هى عذاب النار وملازموها أبداً لكونهم
كفاراً معاندين متحزبين على الرسول ﷺ كدأب من قبلهم من الأمم المهلكة فهم لسائر فنون العقوبات
أشد استحقاقا وأحق استيجاباً وقيل هو فى محل الرفع على أنه بدل من كلمة ربك والمعنى مثل ذلك

ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ
ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ
ٱلۡجَحِيمِ ⑦ ٤٠ غافر

الوجوب وجب على الكفرة المهلكة كونهم من أصحاب النار أى كما وجب إهلاكهم فى الدنيا بعذاب الاستئصال كذلك وجب تعذيبهم بعذاب النار فى الآخرة ومحل الكاف على التقديرين النصب على أنه
نعت لمصدر محذوف (الذين يحملون العرش ومن حوله) وهم أعلى طبقات الملائكة عليهم السلام وأولهم ٧
وجوداً وحملهم إياه وحفيفهم حوله مجاز عن حفظهم وتدبيرهم له وكناية عن زلفاهم من ذى العرش جل
جلاله ومكانتهم عنده ومحل الموصول الرفع على الابتداء خبره (يسبحون بحمد ربهم) والجملة استئناف *
مسوق لتسلية رسول الله ﷺ ببيان أن أشراف الملائكة عليهم السلام مثابرون على ولاية من معه من
المؤمنين ونصرتهم واستدعاء مايسعدهم فى الدارين أى ينزهونه تعالى عن كل مالا يليق بشأنه الجليل
ملتبسين بحمده على نعمائه التى لا تتناهى (ويؤمنون به) إيماناً حقيقياً بحالهم والتصريح به مع الغنى عن ذكره *
رأساً لإظهار فضيلة الإيمان وإبراز شرف أهله والإشعار بعلة دعائهم للمؤمنين حسبما ينطق به قوله تعالى
(ويستغفرون للذين آمنوا) فإن المشاركة فى الإيمان أقوى المناسبات وأتمها وأدعى الدواعى إلى النصح *
والشفقة وفى نظم استغفارهم لهم فى سلك وظائفهم المفروضة عليهم من تسبيحهم وتحميدهم وإيمانهم إيذان
بكمال اعتنائهم به وإشعار بوقوعه عند الله تعالى فى موقع القبول . روى أن حملة العرش أرجلهم فى
الأرض السفلى ورءوسهم قد خرقت العرش وهم خشوع لا يرفعون طرفهم وعن النبى ﷺ لا تتفكروا
فى عظم ربكم ولكن تفكروا فيما خلق الله من الملائكة فإن خلقاً من الملائكة يقال له إسرافيل زاوية من
زوايا العرش على كاهله وقدماه فى الأرض السفلى وقد مرق رأسه من سبع سموات وإنه ليتضاءل من
عظمة الله حتى يصير كأنه الوصع وفى الحديث أن الله أمر جميع الملائكة أن يغدوا ويروحوا بالسلام
على حملة العرش تفضيلا لهم على سائرهم وقيل خلق الله تعالى العرش من جوهرة خضراء وبين القائمتين
من قوائمه خفقان الطير المسرع ثمانين ألف عام وقيل حول العرش سبعون ألف صف من الملائكة يطوفون
به مهللين مكبرين ومن ورائهم سبعون ألف صف قيام قد وضعوا أيديهم على عواتقهم رافعين أصواتهم
بالتهليل والتكبير ومن ورائهم مائة ألف صف قد وضعوا أيمانهم على الشمائل مامنهم أحد إلا وهو
يسبح بما لا يسبح به الآخر (ربنا) على إرادة القول أى يقولون ربنا على أنه إما بيان لاستغفارهم أو حال *
(وسعت كل شىء رحمة وعلماً) أى وسعت رحمتك وعلمك فأزيل عن أصله للإغراق فى وصفه تعالى بالرحمة
والعلم والمبالغة فى عمومهما وتقديم الرحمة لأنها المقصودة بالذات ههنا والفاء فى قوله تعالى (فاغفر للذين *
تابوا واتبعوا سبيلك) أى الذين علمت منهم التوبة واتباع سبيل الحق لترتيب الدعاء على ماقبلها من
سعة الرحمة والعلم (وقهم عذاب الجحيم) واحفظهم عنه وهو تصريح بعد إشعار للتأكيد .

رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ
إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨﴾ ٤٠ غافر
وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٩﴾ ٤٠ غافر
إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ
فَتَكْفُرُونَ ﴿١٠﴾ ٤٠ غافر

---

٨ (ربنا وأدخلهم) عطف على قهم وتوسيط النداء بينهما للمبالغة فى الجؤار (جنات عدن التى وعدتهم)
أى وعدتهم إياها وقرىء جنة عدن (ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم) أى صلاحا مصححاً
لدخول الجنة فى الجملة وإن كان دون صلاح أصولهم وهو عطف على الضمير الأول أى وأدخلها معهم
هؤلاء ليتم سرورهم ويتضاعف ابتهاجهم أو على الثانى لكن لا بناء على الوعد العام للكل كما قيل إذلا يبقى
حينئذ للعطف وجه بل بناء على الوعد الخاص بهم بقوله تعالى ألحقنا بهم ذريتهم بأن يكونوا أعلى درجة
من ذريتهم قال سعيد بن جبير يدخل المؤمن الجنة فيقول أين أبى أين ولدى أين زوجى فيقال إنهم
لم يعملوا مثل عملك فيقول إنى كنت أعمل لى ولهم فيقال أدخلوهم الجنة وسبق الوعد بالإدخال والإلحاق
لا يستدعى حصول الموعود بلا توسط شفاعة واستغفار وعليه مبنى قول من قال فائدة الاستغفار
زيادة الكرامة والثواب والأول هو الأولى لأن الدعاء بالإدخال فيه صريح وفى الثانى ضمنى وقرىء
صلح بالضم وذريتهم بالإفراد (إنك أنت العزيز) أى الغالب الذى لا يمتنع عليه مقدور (الحكيم) أى
الذى لا يفعل إلا ما تقتضيه الحكمة الباهرة من الأمور التى من جملتها إنجاز الوعد فالجملة تعليل لما قبلها
٩ (وقهم السيئات) أى العقوبات لأن جزاء السيئة سيئة مثلها أو جزاء السيئات على حذف المضاف وهو
تعميم بعد تخصيص أو مخصوص بالأتباع أو المعاصى فى الدنيا فمعنى قوله تعالى (ومن تق السيئات يومئذ
فقد رحمته) ومن تقه المعاصى فى الدنيا فقد رحمته فى الآخرة كأنهم طلبوا لهم السبب بعد ماسألوا المسبب
(وذلك) إشارة إلى الرحمة المفهومة من رحمته أو إليها وإلى الوقاية وما فيه من معنى البعد لما مر مراراً
١٠ من الإشعار ببعد درجة المشار إليه (هو الفوز العظيم) الذى لا مطمع وراءه لطامع (إن الذين كفروا)
شروع فى بيان أحوال الكفرة بعد دخول النار بعد ما بين فيما سبق أنهم أصحاب النار (ينادون) أى
من مكان بعيد وهم فى النار وقد مقتوا أنفسهم الأمارة بالسوء التى وقعوا فيما وقعوا باتباع هواها أو
مقت بعضهم بعضاً من الأحباب كقوله تعالى يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضاً أى أبغضوها
أشد البغض وأنكروها أبلغ الإنكار وأظهروا ذلك على رءوس الأشهاد فيقال لهم عند ذلك (لمقت الله
أكبر من مقتكم أنفسكم) أى لمقت الله أنفسكم الأمارة بالسوء أو مقته إياكم فى الدنيا (إذ تدعون) من
جهة الأنبياء (إلى الإيمان) فتأبون قبوله (فتكفرون) اتباعا لأنفسكم الأمارة ومسارعة إلى هواها
أو اقتداء بأخلائكم المضلين واستحبابا لآرائهم أكبر من مقتكم أنفسكم الأمارة أو من مقت بعضكم بعضاً

قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثۡنَتَيۡنِ وَأَحۡيَيۡتَنَا ٱثۡنَتَيۡنِ فَٱعۡتَرَفۡنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلۡ إِلَىٰ خُرُوجٖ مِّن سَبِيلٖ ﴿١١﴾ ٤٠ غافر
ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُۥ كَفَرۡتُمۡ وَإِن يُشۡرَكۡ بِهِۦ تُؤۡمِنُواْۚ فَٱلۡحُكۡمُ لِلَّهِ ٱلۡعَلِيِّ
ٱلۡكَبِيرِ ﴿١٢﴾
٤٠ غافر

اليوم فإذا ظرف للمقت الأول وإن توسط بينهما الخبر لما فى الظروف من الاتساع وقيل لمصدر آخر مقدر أى مقته إياكم إذ تدعون وقيل مفعول لاذكروا والأول هو الوجه وقيل كلا المقتين فى الآخرة وإذ تدعون تعليل لما بين الظرف والسبب من علاقة اللزوم والمعنى لمقت الله إياكم الآن أكبر من مقتكم أنفسكم لما كنتم تدعون إلى الإيمان فتكفرون وتخصيص هذا الوجه بصورة كون المراد بأنفسهم أضرابهم
١١ مما لا داعى إليه (قالوا ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين) صفتان لمصدرى الفعلين المذكورين أى إماتتين وإحياءتين أو موتتين وحياتين على أنهما مصدران لهما أيضاً بحذف الزوائد أو لفعلين يدل عليهما المذكوران فإن الإماتة والإحياء ينبئان عن الموت والحياة حتماً كأنه قيل أمتنا فمتنا موتتين اثنتين وأحييتنا فحيينا حياتين اثنتين على طريقة قول من قال [وعضة دهر يا ابن مروان لم تدع • من المال إلا مسحت أو مجلف] أى لم تدع فلم يبق إلا مسحت الخ قيل أرادوا بالإماتة الأولى خلقهم أمواتاً وبالثانية إماتتهم عند انقضاء آجالهم على أن الإماتة جعل الشىء عادم الحياة أعم من أن يكون بإنشائه كذلك كما فى قولهم سبحان من صغر البعوض وكبر الفيل أو بجعله كذلك بعد الحياة وبالإحياءين الإحياء الأول وإحياء البعث وقيل أرادوا بالإماتة الأولى ما بعد حياة الدنيا وبالثانية ما بعد حياة القبر وبالإحياءين ما فى القبر وما عند البعث وهو الأنسب بحالهم وأما حديث لزوم الزيادة على النص ضرورة تحقق حياة الدنيا فمدفوع لكن لا بما قيل من عدم اعتدادهم بها لزوالها وانقضائها وانقطاع آثارها وأحكامها بل بأن مقصودهم إحداث الاعتراف بما كانوا
• ينكرونه فى الدنيا كما ينطق به قولهم (فاعترفنا بذنوبنا) والتزام العمل بموجب ذلك الاعتراف ليتوسلوا بذلك إلى ما علقوا به أطماعهم الفارغة من الرجع إلى الدنيا كما قد صرحوا به حيث قالوا فارجعنا نعمل
• صالحاً إنا موقنون وهو الذى أرادوه بقولهم (فهل إلى خروج من سبيل) مع نوع استبعاد له واستشعار يأس منه لا أنهم قالوه بطريق القنوط البحت كما قيل ولا ريب فى أن الذى كان ينكرونه ويفرعون عليه فنون الكفر والمعاصى ليس إلا الإحياء بعد الموت وأما الإحياء الأول فلم يكونوا ينكرونه لينظموه فى سلك ما اعترفوا به وزعموا أن الاعتراف يجديهم نفعاً وإنما ذكروا الموتة الأولى مع كونهم معترفين بها فى الدنيا لتوقف حياة القبر عليها وكذا حال الموتة فى القبر فإن مقصدهم الأصلى هو الاعتراف بالإحياءين وإنما ذكروا الإماتتين لترتيبهما عليهما ذكراً حسب ترتيبهما عليهما وجوداً وتنكير سبيل
١٢ للإبهام أى من سبيل ما كيفما كان وقوله تعالى (ذلكم) الخ جواب لهم باستحالة حصول ما يرجونه ببيان ما يوجبها من أعمالهم السيئة أى ذلكم الذى أنتم فيه من العذاب مطلقاً لا مقيداً بالخلود كما قيل (بأنه) أى بسبب أن الشأن (إذا دعى الله) فى الدنيا أى عبد (وحده) أى منفرداً (كفرتم) أى بتوحيده (وإن

هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ ٤٠ غافر

فَٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾ ٤٠ غافر

رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ﴿١٥﴾ ٤٠ غافر

يشرك به تؤمنوا) أى بالإشراك به وتسارعوا فيه وفى إيراد إذا وصيغة الماضى فى الشرطية الأولى وإن
وصيغة المضارع فى الثانية مالا يخفى من الدلالة على كمال سوء حالهم وحيث كان حالكم كذلك (فالحكم
لله) الذى لا يحكم إلا بالحق ولا يقضى إلا بما تقتضيه الحكمة (العلى الكبير) الذى ليس كمثله شىء فى
ذاته ولا فى صفاته ولا فى أفعاله يفعل مايشاء ويحكم مايريد لا معقب لحكمه وقد حكم بأنه لا مغفرة
١٣ للشرك ولا نهاية لعقوبته كما لا نهاية لشناعته فلا سبيل لكم إلى الخروج أبداً (هو الذى يريكم آياته)
الدالة على شئونه العظيمة الموجبة لتفرده بالألوهية لتستدلوا بها على ذلك وتعملوا بموجبها فتوحدوه
تعالى وتخصوه بالعبادة (وينزل) بالتشديد وقرىء بالتخفيف من الإنزال (لكم من السماء رزقاً) أى
سبب رزق وهو المطر وإفراده بالذكر مع كونه من جملة الآيات الدالة على كمال قدرته تعالى لتفرده
بعنوان كونه من آثار رحمته وجلائل نعمته الموجبة للشكر وصيغة المضارع فى الفعلين للدلالة على
تجدد الإراءة والتنزيل واستمرارهما وتقديم الجار والمجرور على المفعول لما مر غير مرة (ومايتذكر) بتلك
الآيات الباهرة ولا يعمل بمقتضاها (إلا من ينيب) إلى الله تعالى ويتفكر فيما أودعه فى تضاعيف
مصنوعاته من شواهد قدرته الكاملة ونعمته الشاملة الموجبة لتخصيص العبادة به تعالى ومن ليس كذلك
١٤ فهو بمعزل من التذكر والاتعاظ (فادعوا الله مخلصين له الدين) أى إذا كان الأمر كما ذكر من اختصاص
التذكر بمن ينيب فاعبدوه أيها المؤمنون مخلصين له دينكم بموجب إنابتكم إليه تعالى وإيمانكم به (ولو كره
١٥ الكافرون) ذلك وغاظهم إخلاصكم (رفيع الدرجات) نحو بديع السموات على أنه صفة مشبهة أضيفت
إلى فاعلها بعد النقل إلى فعل بالضم كما هو المشهور وتفسيره بالرافع ليكون من إضافة اسم الفاعل إلى
المفعول بعيد فى الاستعمال أى رفيع درجات ملائكته أى معارجهم ومصاعدهم إلى العرش (ذو
العرش) أى مالكه وهما خبران آخران لقوله تعالى هو أخبر عنه بهما إيذاناً بعلو شأنه تعالى وعظم
سلطانه الموجبين لتخصيص العبادة به وإخلاص الدين له إما بطريق الاستشهاد بهما عليهما فإن ارتفاع
معارج ملائكته إلى العرش وكون العرش العظيم المحيط بأكناف العالم العلوى والسفلى تحت ملكوته
وقبضة قدرته مما يقضى بكون علو شأنه وعظم سلطانه فى غاية لا غاية وراءها وإما بجعلهما عبارة عنهما
بطريق المجاز المتفرع على الكناية كالاستواء على العرش وتمهيداً لما يعقبهما من قوله تعالى (يلقى الروح
من أمره) فإنه خبر آخر لما ذكر منبىء عن إنزال الرزق الروحانى الذى هو الوحى بعد بيان إنزال
الرزق الجسمانى الذى هو المطر أى ينزل الوحى الجارى من القلوب منزلة الروح من الأجساد وقوله

يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ ٤٠ غافر
ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٧﴾ ٤٠ غافر

تعالى من أمره بيان للروح الذى أريد به الوحى فإنه أمر بالخير أو حال منه أى حال كونه ناشئاً ومبتدأ من أمره أو صفة له على رأى من يجوز حذف الموصول مع بعض صلته أى الروح الكائن من أمره أو متعلق بياقى ومن للسببية كالباء مثل ما فى قوله تعالى مما خطيئاتهم أى ياقى الوحى بسبب أمره (على من يشاء من عباده) وهو الذى اصطفاه لرسالته وتبليغ أحكامه إليهم (لينذر) أى الله تعالى أو الملقى عليه أو الروح وقرىء لتنذر على أن الفاعل هو الرسول ﷺ أو الروح لأنها قد تؤنث (يوم التلاق) إما ظرف للمفعول الثانى أى لينذر الناس العذاب يوم التلاق وهو يوم القيامة لأنه يتلاقى فيه الأرواح والأجسام وأهل السموات والأرض أو هو المفعول الثانى اتساعا أو أصالة فإنه من شدة هوله وفظاعته حقيق بالإنذار أصالة وقرىء لينذر على البناء للمفعول ورفع اليوم (يوم هم بارزون) بدل من يوم التلاق ١٦
أى خارجون من قبورهم أو ظاهرون لا يسترهم شىء من جبل أو أكمة أو بناء لكون الأرض يومئذ قاعا صفصفاً ولا عليهم ثياب إنما هم عراة مكشوفون كما جاء فى الحديث يحشرون عراة حفاة غرلا وقيل ظاهرة نفوسهم لا تحجبهم غواشى الأبدان أو أعمالهم وسرائرهم (لا يخفى على الله منهم شىء) استئناف لبيان بروزهم وتقرير له وإزاحة لما كان يتوهمه المتوهمون فى الدنيا من الاستتار توهما باطلا أو خبر ثان وقيل حال من ضمير بارزون أى لا يخفى عليه شىء ما من أعيانهم وأعمالهم وأحوالهم الجلية والخفية السابقة واللاحقة (لمن الملك اليوم لله الواحد القهار) حكاية لما يقع حينئذ من السؤال والجواب بتقدير قول معطوف على ما قبله من الجملة المنفية المستأنفة أو مستأنف يقع جواباً عن سؤال نشأ من حكاية بروزهم وظهور أحوالهم كأنه قيل فماذا يكون حينئذ فقيل يقال الخ أى ينادى مناد لمن الملك اليوم فيجيبه أهل المحشر لله الواحد القهار وقيل المجيب هو السائل بعينه لما روى أنه يجمع الله الخلائق يوم القيامة فى صعيد واحد فى أرض بيضاء كأنها سبيكة فضة لم يعص الله فيها قط فأول ما يتكلم به أن ينادى مناد لمن الملك اليوم لله الواحد القهار وقيل حكاية لما ينطق به لسان الحال من تقطع أسباب التصرفات المجازية واختصاص جميع الأفاعيل بقبضة القدرة الإلهية (اليوم تجزى كل نفس بما كسبت) الخ إما من تتمة الجواب لبيان ١٧
حكم اختصاص الملك به تعالى ونتيجته التى هى الحكم السوى والقضاء الحق أو حكاية لما سيقوله تعالى يومئذ عقيب السؤال والجواب أى تجزى كل نفس من النفوس البرة والفاجرة بما كسبت من خير أو شر (لا ظلم اليوم) بنقص ثواب أو زيادة عذاب (إن الله سريع الحساب) أى سريع حسابه تماماً إذ لا يشغله تعالى شأن عن شأن فيحاسب الخلائق قاطبة فى أقرب زمان كما نقل عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه تعالى إذا أخذ فى حسابهم لم يقل أهل الجنة إلا فيها ولا أهل النار إلا فيها فيكون تعليلا لقوله تعالى اليوم تجزى الخ فإن كون ذلك اليوم بعينه يوم التلاقى ويوم البروز ربما يوهم استبعاد وقوع الكل

وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾ ٤٠ غافر

يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴿١٩﴾ ٤٠ غافر

وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿٢٠﴾ ٤٠ غافر

أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٢١﴾ ٤٠ غافر

١٨ فيه أو سر بع مجيئاً فيكون تعليلا للإنذار (وأنذرهم يوم الآزفة) أى القيامة سميت بها لأزوفها وهو القرب
غير أن فيه إشعاراً بضيق الوقت وقيل الخطة الآزفة وهي مشارفة أهل النار دخولها وقيل وقت حضور الموت
كما فى قوله تعالى فلولا إذا بلغت الحلقوم وقوله كلا إذا بلغت التراقى وقوله تعالى (إذ القلوب لدى الحناجر)
بدل من يوم الآزفة فإنها ترتفع من أماكنها فتلتصق بحلوقهم فلا تعود فيتروحوا ولا تخرج فيستريحوا بالموت
(كاظمين) على الغم حال من أصحاب القلوب على المعنى إذ الأصل قلوبهم أو من ضميرها فى الظرف وجمع
السلامة باعتبار أن الكظم من أحوال العقلاء كقوله تعالى فظلت أعناقهم لها خاضعين أو من مفعول أنذرهم
على أنها حال مقدرة أى أنذرهم مقدراً كظمهم أو مشارفين الكظم (ماللظالمين من حميم) أى قريب مشفق
(ولا شفيع يطاع) أى لا شفيع مشفع على معنى نفى الشفاعة والطاعة معاً على طريقة قوله [على لاحب
لا يهتدى بمناره] والضمائر إن عادت إلى الكفار وهو الظاهر فوضع الظالمين موضع ضميرهم للتسجيل
١٩ عليهم بالظلم وتعليل الحكم به (يعلم خائنة الأعين) النظرة الخائنة كالنظرة الثانية إلى غير المحرم واستراق
النظر إليه أو خيانة الأعين على أنها مصدر كالعافية (وما تخفى الصدور) من الضمائر والأسرار والجملة
٢٠ خبر آخر مثل يلقى الروح للدلالة على أنه ما من خفى إلا وهو متعلق العلم والجزاء (والله يقضى بالحق)
لأنه المالك الحاكم على الإطلاق فلا يقضى بشىء إلا وهو حق وعدل (والذين يدعون) يعبدونهم
(من دونه) تعالى (لا يقضون بشىء) تهكم بهم لأن الجماد لا يقال فى حقه يقضى أو لا يقضى وقرىء
تدعون على الخطاب التفاتا أو على إضمار قل (إن الله هو السميع البصير) تقرير لعلمه تعالى بخائنة
٢١ الأعين وقضائه بالحق ووعيد لهم على ما يقولون ويفعلون وتعريض بحال ما يدعون من دونه (أو
لم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم) أى مآل حال من قبلهم من الأمم
المكذبة لرسلهم كعاد وثمود وأضرابهم (كانوا هم أشد منهم قوة) قدرة وتمكناً من التصرفات وإنما
جىء بضمير الفصل مع أن حقه التوسط بين معرفتين لمضاهاة أفعل من للمعرفة فى امتناع دخول اللام
عليه وقرىء أشد منكم بالكاف (وآثاراً فى الأرض) مثل القلاع الحصينة والمدائن المنيفة وقيل المعنى
وأكثر آثاراً كقوله [متقلداً سيفاً ورمحاً] (فأخذهم الله بذنوبهم) أخذاً وبيلا (وما كان لهم من الله

ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَكَفَرُوا۟ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ إِنَّهُۥ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٢﴾ ٤٠ غافر

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ ٤٠ غافر

إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ فَقَالُوا۟ سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾ ٤٠ غافر

فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ ٱقْتُلُوٓا۟ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُوا۟ نِسَآءَهُمْ وَمَا كَيْدُ

ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿٢٥﴾ ٤٠ غافر

وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ

ٱلْفَسَادَ ﴿٢٦﴾ ٤٠ غافر

٢٢ من واق) أى من واق يقيهم عذاب الله (ذلك) أى ماذكر من الأخذ (بأنهم) بسبب أنهم (كانت
تأتيهم رسلهم بالبينات) أى بالمعجزات أو بالأحكام الظاهرة (فكفروا فأخذهم الله إنه قوى) متمكن
٢٣ مما يريد غاية التمكن (شديد العقاب) لا يؤبه عند عقابه بعقاب (ولقد أرسلنا موسى بآياتنا) وهى معجزاته
(وسلطان مبين) أى وحجة قاهرة وهى إما عين الآيات والعطف لتغاير العنوانين وإما بعض مشاهيرها
كالعصا أفردت بالذكر مع اندراجها تحت الآيات لانافتها إفراد جبريل وميكائيل مع دخولهما فى الملائكة
٢٤ عليهم السلام (إلى فرعون وهامان وقارون فقالوا ساحر كذب) أى فيما أظهره من المعجزات وفيما ادعاه
٢٥ من رسالة رب العالمين (فلما جاءهم بالحق من عندنا) وهو ما ظهر على يده من المعجزات القاهرة (قالوا
اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه واستحيوا نساءهم) كما قال فرعون سنقتل أبناءهم ونستحيى نساءهم أى أعيدوا
عليهم ما كنتم تفعلونه أولا وكان فرعون قد كف عن قتل الولدان فلما بعث ﷺ وأحس بأنه قد وقع ما وقع
أعاده عليهم غيظاً وحنقاً وزعماً منه أنه يصدهم بذلك عن مظاهرته ظناً منهم أنه المولود الذى حكم المنجمون
والكهنة بذهاب ملكهم على يده (وما كيد الكافرين إلا فى ضلال) أى فى ضياع وبطلان لا يغنى عنهم
شيئاً وينفذ عليهم لامحالة القدر المقدور والقضاء المحتوم واللام إما للعهد والإظهار فى موقع الإضمار
لذمهم بالكفر والإشعار بعلة الحكم أو للجنس وهم داخلون فيه دخولاً أولياً والجملة اعتراض جىء به فى
تضاعيف ما حكى عنهم من الأباطيل للمسارعة إلى بيان بطلان ما أظهروه من الإبراق والإرعاد
٢٦ واضمحلاله بالمرة (وقال فرعون ذرونى أقتل موسى) كان ملؤه إذاهم بقتله عليه الصلاة والسلام كفوه
بقولهم ليس هذا بالذى تخافه فإنه أقل من ذلك وأضعف وما هو إلا بعض السحرة وبقولهم إذا قتلته
أدخلت على الناس شبهة واعتقدوا أنك عجزت عن معارضته بالحجة وعدلت إلى المقارعة بالسيف والظاهر
من دهاء اللعين ونكارته أنه كان قد استيقن أنه نبى وأن ماجاء به آيات باهرة وما هو بسحر ولكن كان
يخاف إن هم بقتله أن يعاجل بالهلاك وكان قوله هذا تمويهاً على قومه وإيهاماً أنهم هم الكافون له عن قتله

وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴿٢٧﴾ ٤٠ غافر

وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ ٤٠ غافر

ولولا هم لقتله وما كان الذى يكفه إلا مافى نفسه من الفزع الهائل وقوله (وليدع ربه) تجلد منه وإظهار لعدم المبالاة بدعائه ولكنه أخوف مايخافه (إنى أخاف) إن لم أقتله (أن يبدل دينكم) أن يغير ما أنتم عليه من الدين الذى هو عبارة عن عبادته وعبادة الأصنام لتقربهم إليه (أو أن يظهر فى الأرض الفساد) مايفسد دنياكم من التحارب والتهارج إن لم يقدر على تبديل دينكم بالكلية وقرىء بالواو الجامعة وقرىء بفتح الياء والهاء ورفع الفساد وقرى يظهر بتشديد الظاء والهاء من تظهر بمعنى تظاهر أى تتابع وتعاون

٢٧ (وقال موسى) أى لقومه حين سمع بما تقوله اللعين من حديث قتله عليه الصلاة والسلام (إنى عذت بربى وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب) صدر عليه الصلاة والسلام كلامه بأن تأكيداً له وإظهاراً لمزيد الاعتناء بمضمونه وفرط الرغبة فيه وخص اسم الرب المنبىء عن الحفظ والتربية لأنهما الذى يستدعيه وأضافه إليه وإليهم حثاً لهم على موافقته فى العياذ به تعالى والتوكل عليه فإن فى تظاهر النفوس تأثيراً قوياً فى استجلاب الإجابة ولم يسم فرعون بل ذكره بوصف يعمه وغيره من الجبابرة لتعميم الاستعاذة والإشعار بعلة القساوة والجرأة على الله تعالى وقرىء عدت بالإدغام (وقال رجل

٢٨ مؤمن من آل فرعون) قيل كان قبطياً ابن عم لفرعون آمن بموسى سراً وقيل كان إسرائيلياً أو غريباً موحداً (يكتم إيمانه) أى من فرعون وملئه (أتقتلون رجلا) أتقصدون قتله (أن يقول) لأن يقول أو كراهة أن يقول (ربى الله) أى وحده من غير روية وتأمل فى أمره (وقد جاءكم بالبينات) والحال أنه قد جاءكم بالمعجزات الظاهرة التى شاهدتموها وعهدتموها (من ربكم) أضافه إليهم بعد ذكر البينات احتجاجا عليهم واستنزالا لهم عن رتبة المكابرة ثم أخذهم بالاحتجاج من باب الاحتياط فقال (فإن يك كاذباً فعليه كذبه) لا يتخطاه وبال كذبه فيحتاج فى دفعه إلى قتله (وإن يك صادقا يصبكم بعض الذى يعدكم) أى إن لم يصبكم كله فلا أقل من إصابة بعضه لاسيا إن تعرضتم له بسوء وهذا كلام صادر عن غاية الإنصاف وعدم التعصب ولذلك قدم من شق الترديد كونه كاذباً أو يصبكم مايعدكم من عذاب الدنيا وهو بعض مايعدهم كأنه خوفهم بما أظهر احتمالا عندهم وتفسير البعض بالكل مستدلا بقول لبيد [تراك أمكنة إذا لم أرضها ۞ أو يرتبط بعض النفوس حمامها] مردود لما أن مراده بالبعض نفسه (إن الله لا يهدى من هو مسرف كذاب) احتجاج آخر ذو وجهين أحدهما أنه لو كان مسرفا كذاباً لما هداه الله تعالى إلى البينات ولما أيده بتلك المعجزات وثانيهما إن كان كذلك خذله الله وأهلكه فلا حاجة لكم إلى قتله ولعله أراد المعنى الثانى وهو عاكف على المعنى الأول لتلين شكيمتهم وقد عرض به لفرعون بأنه

يَـٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَـٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا ۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ ٤٠ غافر

وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَـٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ ٤٠ غافر

مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ ٤٠ غافر

وَيَـٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ ٤٠ غافر

يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ ٤٠ غافر

---

٢٩ مسرف كذاب لا يهديه الله سبيل الصواب و منهاج النجاة (ياقوم لكم الملك اليوم ظاهرين) غالبين عالين
على بنى إسرائيل (فى الأرض) أى أرض مصر لا يقاومكم أحد فى هذا الوقت (فمن ينصرنا من بأس الله)
من أخذه وعذابه (إن جاءنا) أى فلا تفسدوا أمركم ولا تتعرضوا لبأس الله بقتله فإنه إن جاءنا لم يمنعنا
منه أحد وإنما نسب مايسرهم من الملك والظهور فى الأرض إليهم خاصة ونظم نفسه فى سلكهم فيما يسوؤهم
من مجيء بأس الله تعالى تطييباً لقلوبهم وإيذاناً بأنه مناصح لهم ساع فى تحصيل مايجديهم ودفع مايرديهم
سعيه فى حق نفسه ليتأثروا بنصحه (قال فرعون) بعد ماسمع نصحه (ماأريكم) أى ما أشير عليكم (إلا
ما أرى) واستصوبه من قتله (وما أهديكم) بهذا الرأى (إلا سبيل الرشاد) أى الصواب أولا أعلمكم
إلا ما أعلم ولا أسر عنكم خلاف ما أظهره ولقد كذب حيث كان مستشعراً للخوف الشديد ولكنه
كان يتجلد ولولاه لما استشار أحداً أبداً وقرىء بتشديد الشين للمبالغة من رشد كعلام أو من رشد كعباد
لامن أرشد كجبار من أجبر لأنه مقصور على السماع أو للنسبة إلى الرشد كعواج و بتات غير منظور فيه
٣٠ إلى فعل (وقال الذى آمن) مخاطباً لقومه (ياقوم إنى أخاف عليكم) فى تكذيبه والتعرض له بالسوء (مثل
يوم الأحزاب) مثل أيام الأمم الماضية يعنى وقائعهم وجمع الأحزاب مع التفسير أغنى عن جمع اليوم
٣١ (مثل دأب قوم نوح وعاد وثمود) أى مثل جزاء ماكانوا عليه من الكفر وإيذاء الرسل (والذين من
بعدهم) كقوم لوط (وما الله يريد ظلماً للعباد) فلا يعاقبهم بغير ذنب ولا يخلى الظالم منهم بغير انتقام وهو
٣٢ أبلغ من قوله تعالى وما ربك بظلام للعبيد لما أن المنفى فيه إرادة ظلم ماينتفى الظلم بطريق الأولوية (وياقوم
إنى أخاف عليكم يوم التناد) خوفهم بالعذاب الأخروى بعد تخويفهم بالعذاب الدنيوى و يوم التناد
يوم القيامة لأنه ينادى فيه بعضهم للاستغاثة أو يتصايحون بالويل والثبور أو يتنادى أصحاب الجنة
وأصحاب النار حسبما حكى فى سورة الأعراف وقرىء بتشديد الدال وهو أن يند بعضهم من بعض
كقوله تعالى يوم يفر المرء من أخيه وعن الضحاك إذا سمعوا زفير النار ندوا هرباً فلا يأتون قطراً من
٣٣ الأقطار إلا وجدوا ملائكة صفوفاً فبينا هم يموج بعضهم فى بعض إذ سمعوا منادياً أقبلوا إلى الحساب (يوم
تولون مدبرين) بدل من يوم التناد أى منصرفين عن الموقف إلى النار أو فارين منها حسبما نقل آنفاً

وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ ٤٠ غافر

ٱلَّذِينَ يُجَـٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَـٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾ ٤٠ غافر

وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَـٰهَـٰمَـٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَـٰبَ ﴿٣٦﴾ ٤٠ غافر

أَسْبَـٰبَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَـٰذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ﴿٣٧﴾ ٤٠ غافر

(مالكم من الله من عاصم) يعصمكم من عذابه والجملة حال أخرى من ضمير تولون (ومن يضلل الله فماله
٣٤ من هاد) يهديه إلى طريق النجاة (ولقد جاءكم يوسف) هو يوسف بن يعقوب عليهما السلام على أن فرعونه
فرعون موسى أو على نسبة أحوال الآباء إلى الأولاد وقيل سبطه يوسف بن إبراهيم بن يوسف الصديق
(من قبل) من قبل موسى (بالبينات) بالمعجزات الواضحة (فما زلتم فى شك مما جاءكم به) من الدين (حتى
إذا هلك) بالموت (قلتم لن يبعث الله من بعده رسولا) ضما إلى تكذيب رسالته تكذيب رسالة من
بعده أو جزما بأن لا يبعث بعده رسول مع الشك فى رسالته وقرىء ألن يبعث الله على أن بعضهم يقرر
بعضاً بنفى البعث (كذلك) مثل ذلك الإضلال الفظيع (يضل الله من هو مسرف) فى عصيانه (مرتاب)
٣٥ فى دينه شاك فيما تشهد به البينات لغلبة الوهم والانهماك فى التقليد (الذين يجادلون فى الله) بدل من الموصول
الأول أو بيان له أو صفة باعتبار معناه كأنه قيل كل مسرف مرتاب أو المسرفين المرتابين (بغير سلطان)
متعلق بيجادلون أى بغير حجة صالحة للتمسك بها فى الجملة (أتاهم) صفة سلطان (كبر مقتاً عند الله
وعند الذين آمنوا) فيه ضرب من التعجب والاستعظام وفى كبر ضمير يعود إلى من وتذكيره باعتبار
اللفظ وقيل إلى الجدال المستفاد من يجادلون (كذلك) أى مثل ذلك الطبع الفظيع (يطبع الله على قلب كل
متكبر جبار) فيصدر عنه أمثال ماذكر من الإسراف والارتياب والمجادلة بالباطل وقرىء بتنوين قلب
٣٦ ووصفه بالتكبر والتجبر لأنه منبعهما (وقال فرعون ياهامان ابن لى صرحا) أى بناء مكشوفا عالياً من
٣٧ صرح الشيء إذا ظهر (لعلى أبلغ الأسباب) أى الطرق (أسباب السموات) بيان لها وفى إبهامها ثم
إيضاحها تفخيم لشأنها وتشويق للسامع إلى معرفتها (فأطلع إلى إله موسى) بالنصب على جواب الترجى
وقرىء بالرفع عطفاً على أبلغ ولعله أراد أن يبنى له رصداً فى موضع عال ليرصد منه أحوال الكواكب
التى هى أسباب سماوية تدل على إرسال الله تعالى إياه أو ان يرى فساد قوله عليه الصلاة والسلام بأن
إخباره من إله السماء يتوقف على إطلاعه عليه ووصوله إليه وذلك لا يتأتى إلا بالصعود إلى السماء وهو مما

وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ ٤٠ غافر

يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ ٤٠ غافر

مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ
ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾ ٤٠ غافر

وَيَٰقَوْمِ مَا لِىٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِىٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ ٤٠ غافر

تَدْعُونَنِى لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾ ٤٠ غافر

لا يقوى عليه الإنسان وما ذاك إلا لجهله بالله سبحانه وكيفية استنبائه (وإنى لأظنه كاذباً) فيما يدعيه من *
الرسالة أى ومثل ذلك التزيين البليغ المفرط (زين لفرعون سوء عمله) فانهمك فيه انهماكا لا يرعوى عنه بحال
(وصد عن السبيل) أى سبيل الرشاد والفاعل فى الحقيقة هو الله تعالى ويؤيده قراءة زين بالفتح وبالتوسط *
لشيطان وقرىء وصد على أن فرعون صد الناس عن الهدى بأمثال هذه التمويهات والشبهات ويؤيده
قوله تعالى (وما كيد فرعون إلا فى تباب) أى خسار وهلاك أو على أنه من صد صدوداً أى أعرض *
وقرىء بكسر الصاد على نقل حركة الدال إليه وقرىء وصد على أنه عطف على سوء عمله وقرىء وصدوا
أى هو وقومه (وقال الذى آمن) أى مؤمن آل فرعون وقيل موسى عليه السلام (ياقوم اتبعونى) فيما ٣٨
دللتكم عليه (أهدكم سبيل الرشاد) أى سبيلا يصل سالكه إلى المقصود وفيه تعريض بأن ما يسلكه
فرعون وقومه سبيل الغى والضلال (ياقوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع) أى تمتع يسير لسرعة زوالها ٣٩
أجمل لهم أولا ثم فسر فافتتح بذم الدنيا وتصغير شأنها لأن الإخلاد إليها رأس كل شر ومنه تتشعب فنون
ما يؤدى إلى سخط الله تعالى ثم ثنى بتعظيم الآخرة فقال (وإن الآخرة هى دار القرار) لخلودها ودوام
ما فيها (من عمل) فى الدنيا (سيئة فلا يجزى) فى الآخرة (إلا مثلها) عدلا من الله سبحانه وفيه دليل على ٤٠
أن الجنايات تغرم بأمثالها (ومن عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك) الذين عملوا ذلك
(يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب) أى بغير تقدير وموازنة بالعمل بل أضعافا مضاعفة فضلا *
من الله عز وجل ورحمة وجعل العمل عمدة والإيمان حالا للإيذان بأنه لا عبرة بالعمل بدونه وأن ثوابه
أعلى من ذلك (ويا قوم مالى أدعوكم إلى النجاة وتدعوننى إلى النار) كرر نداءهم إيقاظاً لهم عن سنة الغفلة ٤١
واعتناء بالمنادى له ومبالغة فى توبيخهم على ما يقابلون به نصحه ومدار التعجب الذى يلوح به الاستفهام
دعوتهم إياه إلى النار ودعوته إياهم إلى النجاة كأنه قيل أخبرونى كيف هذه الحال أدعوكم إلى الخير
وتدعوننى إلى الشر وقد جعله بعضهم من قبيل مالى أراك حزيناً وقوله تعالى (تدعوننى لأكفر بالله) ٤٢
بدل أو بيان فيه تعليل والدعاء كالهداية فى التعدية بإلى واللام (وأشرك به ما ليس لى به) بشركته له تعالى
فى المعبودية وقيل بربوبيته (علم) والمراد نفى المعلوم والإشعار بأن الألوهية لابد لها من برهان موجب

لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾ ٤٠ غافر

فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ ٤٠ غافر

فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٤٠ غافر

ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾ ٤٠ غافر

للعلم بها (وأنا أدعوكم إلى العزيز الغفار) الجامع لجميع صفات الألوهية من كمال القدرة والغلبة وما
٤٣ يتوقف عليه من العلم والإرادة والتمكن من المجازاة والقدرة على التعذيب والغفران (لا جرم) لا رد
لما دعوه إليه وجرم فعل ماض بمعنى حق وفاعله قوله تعالى (أن ماتدعوننى إليه ليس له دعوة فى الدنيا
ولا فى الآخرة) أى حق ووجب عدم دعوة آلهتكم إلى عبادتها أصلا أو عدم دعوة مستجابة دعوة لها
وقيل جرم بمعنى كسب وفاعله مستكن فيه أى كسب ذلك الدعاء إليه بطلان دعوته بمعنى ماحصل من
ذلك إلا ظهور بطلان دعوته وقيل جرم فعل من الجرم وهو القطع كما أن بدأ من لابد فعل من التبديد
أى التفريق والمعنى لاقطع لبطلان ألوهية الأصنام أى لا ينقطع فى وقت ما فينقلب حقاً ويؤيده قولهم
• لاجرم أنه يفعل بضم الجيم وسكون الراء وفعل وفعل أخوان كرشد ورشد (وأن مردنا إلى الله) أى
بالموت عطف على أن ماتدعوننى داخل فى حكمه وكذا قوله تعالى (وأن المسرفين) أى فى الضلال
٤٤ والطغيان كالإشراك وسفك الدماء (هم أصحاب النار) أى ملازموها (فستذكرون) وقرىء فستذكرون
أى فسيذكر بعضكم بعضاً عند معاينة العذاب (ما أقول لكم) من النصائح (وأفوض أمرى إلى الله)
٤٥ قاله لما أنهم كانوا توعدوه (إن الله بصير بالعباد) فيحرس من يلوذ به من المكاره (فوقاه الله سيئات
ما مكروا) شدائد مكرهم وماهموا به من إلحاق أنواع العذاب بمن خالفهم قيل نجا مع موسى عليه السلام
• (وحاق بآل فرعون) أى بفرعون وقومه وعدم التصريح به للاستغناء بذكرهم عن ذكره ضرورة أنه
أولى منهم بذلك وقيل بطلبة المؤمن من قومه لما أنه فر إلى جبل فاتبعه طائفة ليأخذوه فوجدوه يصلى
٤٦ والوحوش صفوف حوله فرجعوا رعباً فقتلهم (سوء العذاب) الغرق والقتل والنار (النار يعرضون
عليها غدواً وعشياً) جملة مستأنفة مسوقة لبيان كيفية سوء العذاب أو النار خبر مبتدأ محذوف كأن قائلا
قال ما سوء العذاب فقيل هو النار ويعرضون استئناف للبيان أو بدل من سوء العذاب ويعرضون حال
منها أو من الآل ولا يشترط فى الحيق أن يكون الحائق ذلك السوء بعينه حتى يرد أن آل فرعون لم
يهموا بتعذيبه بالنار ليكون ابتلاؤهم بها من قبيل رجوع ماهموا به عليهم بل يكفى فى ذلك أن يكون
مما يطلق عليه اسم السوء وقرئت منصوبة على الاختصاص أو بإضمار فعل يفسره يعرضون مثل يصلون
فإن عرضهم على النار بإحراقهم بها من قولهم عرض الأسارى على السيف إذا قتلوا به وذلك لأرواحهم

وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَـٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾ ٤٠ غافر

قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴿٤٨﴾ ٤٠ غافر

وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ ٤٠ غافر

قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَالُوا۟ فَٱدْعُوا۟ وَمَا دُعَـٰٓؤُا۟ ٱلْكَـٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ ﴿٥٠﴾ ٤٠ غافر

كما روى ابن مسعود رضى الله عنه أن أرواحهم فى أجواف طير سود تعرض على النار بكرة وعشياً إلى
يوم القيامة وذكر الوقتين إما للتخصيص وأما فيما بينهما فالله تعالى أعلم بحالهم وإما للتأبيد هذا مادامت
الدنيا (ويوم تقوم الساعة) يقال للملائكة (أدخلوا آل فرعون أشد العذاب) أى عذاب جهنم فإنه أشد *
مما كانوا فيه أو أشد عذاب جهنم فإن عذابها ألوان بعضها أشد من بعض وقرىء ادخلوا من الدخول
٤٧ أى يقال لهم ادخلوا يا آل فرعون أشد العذاب (وإذ يتحاجون فى النار) أى واذكر لقومك وقت
تخاصمهم فيها (فيقول الضعفاء) منهم (للذين استكبروا) وهم رؤساؤهم (إنا كنا لكم تبعاً) أتباعاً كخدم
* فى جمع خادم أو ذوى تبع أى اتباع على إضمار المضاف أو تبعاً على الوصف بالمصدر مبالغة (فهل أنتم
مغنون عنا نصيباً من النار) بالدفع أو بالحمل ونصيباً منصوب بمضمر يدل عليه مغنون أى دافعون عنا
نصيباً الخ أو بمغنون على تضمينه معنى الحمل أى مغنون عنا حاملين نصيباً الخ أو نصب على المصدرية
كشيئاً فى قوله تعالى لن تغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً فإنه فى موقع غناء فكذلك نصيباً
٤٨ (قال الذين استكبروا إنا كل فيها) أى نحن وأنتم فكيف نغنى عنكم ولو قدرنا لأغنينا عن أنفسنا وقرىء
كلا على التأكيد لاسم إن بمعنى كلنا وتنوينه عوض عن المضاف إليه ولا مساغ لجعله حالا من المستكن
فى الظرف فإنه لا يعمل فى الحال المتقدمة كما يعمل فى الظرف المتقدم فإنك تقول كل يوم لك ثوب ولا
تقول جديداً لك ثوب (إن الله قد حكم بين العباد) وقضى قضاء متقناً لا مرد له ولا معقب لحكمه
٤٩ (وقال الذين فى النار) من الضعفاء والمستكبرين جميعاً لما ضاقت حيلهم وعيت بهم عللهم (لخزنة جهنم)
أى للقوام بتعذيب أهل النار ووضع جهنم موضع الضمير للتهويل والتفظيع أو لبيان محلهم فيها بأن تكون
جهنم أبعد دركات النار وفيها أعتى الكفرة وأطغاهم أو لكون الملائكة الموكلين بعذاب أهلها أقدر على
* الشفاعة لمزيد قربهم من الله تعالى (ادعوا ربكم يخفف عنا يوما) أى مقدار يوم أو فى يوم ما من الأيام
على أنه ظرف لا معيار شيئاً (من العذاب) واقتصارهم فى الاستدعاء على ماذكر من تخفيف قدر يسير
من العذاب فى مقدار قصير من الزمان دون رفعه رأساً أو تخفيف قدر كثير منه فى زمان مديد لأن ذلك
٥٠ عندهم مما ليس فى حيز الإمكان ولا يكاد يدخل تحت أمانيهم (قالوا) أى الخزنة (أو لم تك تأتيكم رسلكم

إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾ ٤٠ غافر
يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٥٢﴾ ٤٠ غافر
وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ ﴿٥٣﴾ ٤٠ غافر
هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٤﴾ ٤٠ غافر
فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٥٥﴾ ٤٠ غافر

بالبينات) أى ألم تنبهوا على هذا ولم تك تأتيكم رسلكم فى الدنيا على الاستمرار بالحجج الواضحة الدالة
على سوء مغبة ما كنتم عليه من الكفر والمعاصى كما فى قوله تعالى ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات
ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا أرادوا بذلك إلزامهم وتوبيخهم على إضاعة أوقات الدعاء وتعطيل أسباب
الإجابة (قالوا بلى) أى أتونا بها فكذبناهم كما نطق به قوله تعالى بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا ما نزل
الله من شىء إن أنتم إلا فى ضلال كبير والفاء فى قوله تعالى (قالوا فادعوا) فصيحة كما فى قول من قال
[فقد جئنا خراساناً] أى إذا كان الأمر كذلك فادعوا أنتم فإن الدعاء لمن يفعل ذلك مما يستحيل صدوره
عنا وتعليل امتناعهم عن الدعاء بعدم الإذن فيه مع عرائه عن بيان أن سببه من قبلهم كما تفصح عنه الفاء
ربما يوهم أن الإذن فى حيز الإمكان وأنهم لو أذن لهم فيه لفعلوا ولم يريدوا بأمرهم بالدعاء إطماعهم فى
الإجابة بل إقناطهم منها وإظهار خيبتهم حسبما صرحوا فى قولهم (وما دعاء الكافرين إلا فى ضلال) أى
٥١ ضياع وبطلان وقوله تعالى (إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا) الخ كلام مستأنف مسوق من جهته تعالى
لبيان أن ما أصاب الكفرة من العذاب المحكى من فروع حكم كلى تقتضيه الحكمة وهو أن شأننا المستمر
أنا ننصر رسلنا وأتباعهم (فى الحياة الدنيا) بالحجة والظفر والانتقام لهم من الكفرة بالاستئصال
والقتل والسبى وغير ذلك من العقوبات ولا يقدح فى ذلك ما قد يتفق لهم من صورة الغلبة امتحاناً إذ
العبرة إنما هى بالعواقب وغالب الأمر (ويوم يقوم الأشهاد) أى يوم القيامة عبر عنه بذلك للإشعار
بكيفية النصرة وأنها تكون عند جميع الأولين والآخرين بشهادة الأشهاد للرسل بالتبليغ وعلى الكفرة
٥٢ بالتكذيب (يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم) بدل من الأول وعدم نفع المعذرة لأنها باطلة وقرىء لا تنفع
٥٣ بالتاء (ولهم اللعنة) أى البعد عن الرحمة (ولهم سوء الدار) أى جهنم (ولقد آتينا موسى الهدى) ما يهتدى
به من المعجزات والصحف والشرائع (وأورثنا بنى إسرائيل الكتاب) وتركنا عليهم من بعده التوراة
٥٤ (هدى وذكرى) هداية وتذكرة أو هادياً ومذكراً (لأولى الألباب) لذوى العقول السليمة العاملين
٥٥ بما فى تضاعيفه (فاصبر) على ما نالك من أذية المشركين (إن وعد الله) أى وعده الذى ينطق به قوله تعالى
ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين إنهم لهم المنصورون وإن جندنا لهم الغالبون أو وعده الخاص بك أو
جميع مواعيده التى من جملتها ذلك (حق) لا يحتمل الإخلاف أصلا واستشهد بحال موسى وفرعون

إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ فَٱسْتَعِذْ
بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٥٦﴾ ٤٠ غافر
لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ ٤٠ غافر
وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ ٤٠ غافر

(واستغفر لذنبك) تداركا لما فرط منك من ترك الأولى فى بعض الأحايين فإنه تعالى كافيك فى نصرة
دينك وإظهاره على الدين كله (وسبح بحمد ربك بالعشى والإبكار) أى ودم على التسبيح ملتبساً بحمده
تعالى وقيل صل لهذين الوقتين إذ كان الواجب بمكة ركعتين بكرة وركعتين عشياً وقيل صل شكراً لربك
٥٦ بالعشى والإبكار وقيل هما صلاة العصر وصلاة الفجر (إن الذين يجادلون فى آيات الله) ويجحدون بها
(بغير سلطان أتاهم) فى ذلك من جهته تعالى وتقييد المجادلة بذلك مع استحالة إتيانه للإيذان بأن التكلم
فى أمر الدين لابد من استناده إلى سلطان مبين البتة وهذا عام لكل مجادل مبطل وإن نزل فى مشركى مكة
وقوله تعالى (إن فى صدورهم إلا كبر) خبر لإن أى ما فى قلوبهم إلا تكبر عن الحق وتعظم عن التفكر
والتعلم أو إلا إرادة الرياسة والتقدم على الإطلاق أو إلا إرادة أن تكون النبوة لهم دونك حسداً وبغياً
حسبما قالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم وقالوا لو كان خيراً ما سبقونا إليه ولذلك
يجادلون فيها لا أن فيها موقع جدال ما وأن لهم شيئاً يتوهم أن يصلح مدارا لمجادلاتهم فى الجملة وقوله تعالى
(ماهم ببالغيه) صفة لكبر قال مجاهد ماهم ببالغى مقتضى ذلك الكبر وهو ما أرادوه من الرياسة أو النبوة
وقيل المجادلون هم اليهود وكانوا يقولون لست صاحبنا المذكور فى التوراة بل هو المسيح بن داود يريدون
الدجال يخرج فى آخر الزمان ويبلغ سلطانه البر والبحر وتسير معه الأنهار وهو آية من آيات الله تعالى
فيرجع إلينا الملك فسمى الله تعالى تمنيهم ذلك كبراً ونفى أن يبلغوا متمناهم (فاستعذ بالله) أى فالتجىء
إليه من كيد من يحسدك ويبغى عليك وفيه رمز إلى أنه من همزات الشياطين (إنه هو السميع البصير)
٥٧ لأقوالكم وأفعالكم وقوله تعالى (لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس) تحقيق للحق وتبيين
لأشهر ما يجادلون فيه من أمر البعث على منهاج قوله تعالى أو ليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على
أن يخلق مثلهم (ولكن أكثر الناس لا يعلمون) لقصورهم فى النظر والتأمل لفرط غفلتهم واتباعهم لأهوائهم
٥٨ (وما يستوى الأعمى والبصير) أى الغافل والمستبصر (والذين آمنوا وعملوا الصالحات ولا المسىء)
أى والمحسن والمسىء فلابد أن تكون لهم حال أخرى يظهر فيها ما بين الفريقين من التفاوت وهى فيما
بعد البعث وزيادة لا فى المسىء لتأكيد النفى لطول الكلام بالصلة ولأن المقصود نفى مساواته للمحسن
فيما له من الفضل والكرامة والعاطف الثانى عطف الموصول بما عطف عليه على الأعمى والبصير لتغاير
الوصفين فى المقصود أو الدلالة بالصراحة والتمثيل (قليلا ما تتذكرون) على الخطاب بطريق الالتفات

إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٩﴾ ٤٠ غافر

وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾ ٤٠ غافر

ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾ ٤٠ غافر

ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٦٢﴾ ٤٠ غافر

كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٤٠ غافر

ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾ ٤٠ غافر

---

٥٩ أى تذكرا قليلا تتذكرون وقرىء على الغيبة والضمير للناس أو الكفار (إن الساعة لآتية لاريب فيها) أى
فى مجيئها لوضوح شواهدها وإجماع الرسل على الوعد بوقوعها (ولكن أكثر الناس لا يؤمنون) لا يصدقون
٦٠ بها لقصور أنظارهم على ظواهر ما يحسون به (وقال ربكم ادعونى) أى اعبدونى (أستجب لكم) أى
أثبكم لقوله تعالى (إن الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين) أى صاغرين أذلاء وإن
فسر الدعاء بالسؤال كان الأمر الصارف عنه منزلا منزلة الاستكبار عن العبادة للمبالغة أو المراد
٦١ بالعبادة الدعاء فإنه من أفضل أبوابها وقرىء سيدخلون على صيغة المبنى للمفعول من الإدخال (الله الذى
جعل لكم الليل لتسكنوا فيه) بأن خلقه باردا مظلما ليؤدى إلى ضعف الحركات وهدء الحواس
لتستريحوا فيه وتقديم الجار والمجرور على المفعول قد مر سره مرارا (والنهار مبصرا) أى مبصرا فيه
أو به (إن الله لذو فضل) عظيم لا يوازيه ولا يدانيه فضل (على الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون)
٦٢ لجهلهم بالمنعم وإغفالهم مواضع النعم وتكرير الناس لتخصيص الكفران بهم (ذلكم) المتفرد بالأفعال
المقتضية للألوهية والربوبية (الله ربكم خالق كل شىء لا إله إلا هو) أخبار مترادفة تخصص اللاحقة
منها السابقة وتقررها وقرىء خالق بالنصب على الاختصاص فيكون لا إله إلا هو استئنافا بما هو
كالنتيجة للأوصاف المذكورة (فأنى تؤفكون) فكيف ومن أى وجه تصرفون عن عبادته خاصة إلى عبادة
٦٣ غيره (كذلك يؤفك الذين كانوا بآيات الله يجحدون) أى مثل ذلك الإفك العجيب الذى لا وجه له ولا
٦٤ مصحح أصلا يؤفك كل من جحد بآياته تعالى أى آية كانت لا إفكا آخر له وجه ومصحح فى الجملة (الله
الذى جعل لكم الأرض قرارا والسماء بناء) بيان لفضله تعالى المتعلق بالمكان بعد بيان فضله المتعلق
بالزمان وقوله تعالى (وصوركم فأحسن صوركم) بيان لفضله المتعلق بأنفسهم والفاء فى فأحسن تفسيرية

هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾ ٤٠ غافر

قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِىَ ٱلْبَيِّنَـٰتُ مِن رَّبِّى وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٦٦﴾ ٤٠ غافر

هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًا وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوٓا۟ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ ٤٠ غافر

هُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٦٨﴾ ٤٠ غافر

فإن الإحسان عين التصوير أى صوركم أحسن تصوير حيث خلقكم منتصب القامة بادى البشرة متناسب
الأعضاء والتخطيطات متهيئاً لمزاولة الصنائع واكتساب الكمالات (ورزقكم من الطيبات) أى اللذائذ
(ذلكم) الذى نعت بما ذكر من النعوت الجليلة (الله ربكم) خبران لذلكم (فتبارك الله) أى تعالى بذاته
(رب العالمين) أى مالكم ومربيهم والكل تحت ملكوته مفتقر إليه فى ذاته ووجوده وسائر أحواله
٦٥ جميعاً بحيث لو انقطع فيضه عنه آناً لانعدم بالكلية (هو الحى) المتفرد بالحياة الذاتية الحقيقية (لا إله
إلا هو) إذ لا موجود يدانيه فى ذاته وصفاته وأفعاله (فادعوه) فاعبدوه خاصة لاختصاص مايوجبه به
تعالى (مخلصين له الدين) أى الطاعة من الشرك الجلى والخفى (الحمد لله رب العالمين) أى قائلين ذلك. عن
٦٦ ابن عباس رضى الله عنهما من قال لا إله إلا الله فليقل على أثرها الحمد لله رب العالمين (قل إنى نهيت أن
أعبد الذين تدعون من دون الله لما جاءنى البينات من ربى) من الحجج والآيات أو من الآيات لكونها
مؤيدة لأدلة العقل منبهة عليها فإن الآيات التنزيلية مفسرات الآيات التكوينية الآفاقية والأنفسية
٦٧ (وأمرت أن أسلم لرب العالمين) أى بأن أنقاد له وأخلص له دينى (هو الذى خلقكم من تراب) أى فى
ضمن خلق آدم عليه الصلاة والسلام منه حسبما مر تحقيقه مراراً (ثم من نطفة) أى ثم خلقكم خلقاً
تفصيلياً من نطفة أى منى (ثم من علقة ثم يخرجكم طفلا) أى أطفالا والإفراد لإرادة الجنس أو لإرادة
كل واحد من أفراده (ثم لتبلغوا أشدكم) علة ليخرجكم معطوفة على علة أخرى له مناسبة لها كأنه قيل
ثم يخرجكم طفلا لتكبروا شيئاً فشيئاً ثم لتبلغوا كمالكم فى القوة والعقل وكذا الكلام فى قوله تعالى
(ثم لتكونوا شيوخا) ويجوز عطفه على لتبلغوا وقرىء شيخاً كقوله تعالى طفلا (ومنكم من يتوفى
من قبل) أى من قبل الشيخوخة بعد بلوغ الأشد أو قبله أيضاً (ولتبلغوا) متعلق بفعل مقدر بعده أى
ولتبلغوا (أجلا مسمى) هو وقت الموت أو يوم القيامة بفعل ذلك (ولعلكم تعقلون) ولكى تعقلوا
٦٨ مافى ذلك من فنون الحكم والعبر (هو الذى يحيى) الأموات (ويميت) الأحياء أو الذى يفعل الإحياء
والإماتة (فإذا قضى أمراً) أى أراد أمراً من الأمور (فإنما يقول له كن فيكون) من غير توقف على
شىء من الأشياء أصلا وهذا تمثيل لتأثير قدرته تعالى فى المقدورات عند تعلق إرادته بها وتصوير لسرعة

أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ ﴿٦٩﴾ ٤٠ غافر
ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِٱلْكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ ٤٠ غافر
إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ ٤٠ غافر
فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾ ٤٠ غافر
ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ ٤٠ غافر

ترتب المكونات على تكوينه من غير أن يكون هناك آمر ومأمور والفاء الأولى للدلالة على أن مابعدها
٦٩ من نتائج ماقبلها من اختصاص الإحياء والإماتة به سبحانه (ألم تر إلى الذين يجادلون فى آيات الله أنى
يصرفون) تعجيب من أحوالهم الشنيعة وآرائهم الركيكة وتمهيد لما يعقبه من بيان تكذيبهم بكل
القرآن وبسائر الكتب والشرائع وترتيب الوعيد على ذلك كما أن ماسبق من قوله تعالى إن الذين يجادلون
فى آيات الله الخ بيان لابتناء جدالهم على مبنى فاسد لا يكاد يدخل تحت الوجود هو الأمنية الفارغة فلا
تكرير فيه أى انظر إلى هؤلاء المكابرين المجادلين فى آياته تعالى الواضحة الموجبة للإيمان بها الزاجرة عن
الجدال فيها كيف يصرفون عنها مع تعاضد الدواعى إلى الإقبال عليها وانتفاء الصوارف عنها بالكلية
٧٠ وقوله تعالى (الذين كذبوا بالكتاب) أى بكل القرآن أو بجنس الكتب السماوية فإن تكذيبه تكذيب
لها فى محل الجر على أنه بدل من الموصول الأول أو فى حيز النصب أو الرفع على الذم وإنما وصل
الموصول الثانى بالتكذيب دون المجادلة لأن المعتاد وقوع المجادلة فى بعض المواد لا فى الكل وصيغة
الماضى الدلالة على التحقق كما أن صيغة المضارع فى الصلة الأولى للدلالة على تجدد المجادلة وتكررها
(وبما أرسلنا به رسلنا) من سائر الكتب أو مطلق الوحى والشرائع (فسوف يعلمون) كنه مافعلوا
٧١ من الجدال والتكذيب عند مشاهدتهم لعقوباته (إذ الأغلال فى أعناقهم) ظرف ليعلمون إذ المعنى على
الاستقبال ولفظ الماضى لتيقنه (والسلاسل) عطف على الأغلال والجار فى نية التأخير وقيل مبتدأ
• حذف خبره لدلالة خبر الأول عليه وقيل قوله تعالى (يسحبون) بحذف العائد أى يسحبون بها وهو
على الأولين حال من المستكن فى الظرف وقيل استئناف وقع جواباً عن سؤال نشأ من حكاية حالهم
٧٢ كأنه قيل فماذا يكون حالهم بعد ذلك فقيل يسحبون (فى الحميم) وقرىء والسلاسل يسحبون بالنصب
وفتح الياء على تقديم المفعول وعطف الفعلية على الاسمية والسلاسل بالجر حملا على المعنى لأن قوله تعالى
• الأغلال فى أعناقهم فى معنى أعناقهم فى الأغلال أو إضمار الباء ويدل عليه القراءة به (ثم فى النار يسجرون)
أى يحرقون من سجر التنور إذا ملأه بالوقود ومنه السجير للصديق كأنه سجر بالحب أى ملىء والمراد
٧٣ بيان أنهم يعذبون بأنواع العذاب وينقلون من باب إلى باب (ثم قيل لهم أين ما كنتم تشركون)

مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُواْ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ
ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ ٤٠ غافر
ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾ ٤٠ غافر
ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾ ٤٠ غافر
فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٧٧﴾ ٤٠ غافر
وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ
أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ قُضِىَ بِٱلْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٧٨﴾ ٤٠ غافر

(من دون الله قالوا ضلوا عنا) أى يقال لهم ويقولون وصيغة الماضى الدلالة على التحقق ومعنى ضلوا عنا ٧٤
غابوا عنا وذلك قبل أن يقرن بهم آلهتهم أوضاعوا عنا فلم نجد ما كنا نتوقع منهم (بل لم نكن ندعو من
قبل شيئاً) أى بل تبين لنا أنا لم نكن نعبد شيئاً بعبادتهم لما ظهر لنا اليوم أنهم لم يكونوا شيئاً يعتدبه
كقولك حسبته شيئاً فلم يكن (كذلك) أى مثل ذلك الضلال الفظيع (يضل الله الكافرين) حيث لا يهتدون
إلى شىء ينفعهم فى الآخرة أو كما ضل عنهم آلهتهم يضلهم عن آلهتهم حتى لو تطالبوا لم يتصادفوا (ذلكم) ٧٥
الإضلال (بما كنتم تفرحون فى الأرض) أى تبطرون وتتكبرون (بغير الحق) وهو الشرك والطغيان
(وبما كنتم تمرحون) تتوسعون فى البطر والأشر والالتفات للمبالغة فى التوبيخ (ادخلوا أبواب ٧٦
جهنم) أى أبوابها السبعة المقسومة لكم (خالدين فيها) مقدراً خلودكم فيها (فبئس مثوى المتكبرين) أى
عن الحق جهنم والتعبير عن مدخلهم بالمثوى لكون دخولهم بطريق الخلود (فاصبر) إلى أن يلاقوا ٧٧
ما أعد لهم من العذاب (إن وعد الله) بتعذيبهم (حق) كائن لا محالة (فإما نرينك) أى فإن نرك وما مزيدة
لتأكيد الشرطية ولذلك لحقت النون الفعل ولا تلحقه مع إن وحدها (بعض الذى نعدهم) وهو القتل
والأسر (أو نتوفينك) قبل ذلك (فإلينا يرجعون) يوم القيامة فنجازيهم بأعمالهم وهو جواب نتوفينك
وجواب نرينك محذوف مثل فذاك ويجوز أن يكون جواباً لهما بمعنى إن نعذبهم فى حياتك أو لم نعذبهم فإنا
نعذبهم فى الآخرة أشد العذاب وأفظعه كما ينبىء عنه الاقتصار على ذكر الرجوع فى هذا المعرض (ولقد ٧٨
أرسلنا رسلا من قبلك منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك) إذ قيل عدد الأنبياء عليهم
السلام مائة وأربعة وعشرون ألفاً والمذكور قصصهم أفراد معدودة وقيل أربعة آلاف من بنى إسرائيل
وأربعة آلاف من سائر الناس (وما كان لرسول) أى وما صح وما استقام لرسول منهم (أن يأتى بآية
إلا بإذن الله) فإن المعجزات على تشعب فنونها عطايا من الله تعالى قسمها بينهم حسبما اقتضته مشيئته
المبنية على الحكم البالغة كسائر القسم ليس لهم اختار فى إيثار بعضها والاستبداد بإتيان المقترح منها

ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ ٤٠ غافر

وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَلِتَبْلُغُوا۟ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾ ٤٠ غافر

وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَأَىَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ ﴿٨١﴾ ٤٠ غافر

أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ
قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ ٤٠ غافر

* (فإذا جاء أمر الله) بالعذاب فى الدنيا والآخرة (قضى بالحق) بإنجاء المحق وإثابته وإهلاك المبطل
وتعذيبه (وخسر هنالك) أى وقت مجىء أمر الله اسم مكان استعير للزمان (المبطلون) أى المتمسكون
٧٩ بالباطل على الإطلاق فيدخل فيهم المعاندون المقترحون دخولا أولياً (الله الذى جعل لكم الأنعام)
قيل هى الإبل خاصة أى خلقها لأجلكم ومصلحتكم وقوله تعالى (لتركبوا منها ومنها تأكلون) تفصيل
لما دل عليه اللام إجمالا ومن لابتداء الغاية ومعناها ابتداء الركوب والأكل منها أى تعلقهما بها وقيل
للتبعيض أى لتركبوا بعضها وتأكلوا بعضها لا على أن كلا من الركوب والأكل مختص ببعض معين منها
بحيث لايجوز تعلقه بما تعلق به الآخر بل على أن كل بعض منها صالح لكل منهما وتغيير النظم الكريم فى
٨٠ الجملة الثانية لمراعاة الفواصل مع الإشعار بأصالة الركوب (ولكم فيها منافع) أخر غير الركوب والأكل
كألبانها وأوبارها وجلودها (ولتبلغوا عليها حاجة فى صدوركم) بحمل أثقالكم من بلد إلى بلد (وعليها
وعلى الفلك تحملون) لعل المراد به حمل النساء والولدان عليها بالهودج وهو السر فى فصله عن الركوب
والجمع بينها وبين الفلك فى الحمل لما بينهما من المناسبة التامة حتى سميت سفائن البر وقيل هى الأزواج
الثمانية فمعنى الركوب والأكل منها تعلقهما بالكل لكن لا على أن كلا منهما يجوز تعلقه بكل منها ولا على
أن كلا منهما مختص ببعض معين منها بحيث لا يجوز تعلقه بما تعلق به الآخر بل على أن بعضها يتعلق
به الأكل فقط كالغنم وبعضها يتعلق به كلاهما كالإبل والبقر والمنافع تعم الكل وبلوغ الحاجة عليها
٨١ يعم البقر (ويريكم آياته) دلائله الدالة على كمال قدرته ووفور رحمته (فأى آيات الله) أى فأى آية من
تلك الآيات الباهرة (تنكرون) فإن كلا منها من الظهور بحيث لا يكاد يجترىء على إنكارها من له
عقل فى الجملة وهو ناصب لأى وإضافة الآيات إلى الاسم الجليل لتربية المهابة وتهويل إنكارها وتذكير
أى هو الشائع المستفيض والتأنيث قليل لأن التفرقة بين المذكر والمؤنث فى الأسماء غير الصفات نحو
٨٢ حمار وحمارة غريب وهى فى أى أغرب لإبهامه (أفلم يسيروا) أى أقعدوا فلم يسيروا (فى الأرض
فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم) من الأمم المهلكة وقوله تعالى (كانوا أكثر منهم وأشد
قوة) الخ استئناف مسوق لبيان مبادى أحوالهم وعواقبها (وآثاراً فى الأرض) باقية بعدهم من
* الأبنية والقصور والمصانع وقيل هى آثار أقدامهم فى الأرض لعظم أجرامهم (فما أغنى عنهم ما كانوا

فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨٣﴾ ٤٠ غافر

فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ ٤٠ غافر

فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾ ٤٠ غافر

يكسبون) ما الأولى نافية أو استفهامية منصوبة بأغنى والثانية موصولة أو مصدرية مرفوعة أى لم يغن
عنهم أو أى شىء أغنى عنهم مكسوبهم أو كسبهم (فلما جاءتهم رسلهم بالبينات) بالمعجزات أو بالآيات ٨٣
الواضحة (فرحوا بما عندهم من العلم) أى أظهروا الفرح بذلك وهو مالهم من العقائد الزائغة والشبه
الداحضة وتسميتها علماً للتهكم بهم أو علم الطبائع والتنجيم والصنائع ونحو ذلك أو هو علم الأنبياء الذى
أظهره رسلهم على أن معنى فرحهم به ضحكهم منه واستهزاؤهم به ويؤيده قوله تعالى (وحاق بهم ما كانوا *
به يستهزئون) وقيل الفرح أيضاً للرسل فإنهم لما شاهدوا تمادى جهلهم وسوء عاقبتهم فرحوا بما أوتوا
من العلم المؤدى إلى حسن العاقبة وشكروا الله عليه وحاق بالكافرين جزاء جهلهم واستهزائهم (فلما رأوا ٨٤
بأسنا) شدة عذابنا ومنه قوله تعالى بعذاب بئيس (قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين)
يعنون الأصنام (فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا) أى عند رؤية عذابنا لامتناع قبوله حينئذ ولذلك ٨٥
قيل فلم يك بمعنى لم يصح ولم يستقم والفاء الأولى بيان عاقبة كثرتهم وشدة قوتهم وما كانوا يكسبون بذلك
زعماً منهم أن يغنى عنهم فلم يترتب عليه إلا عدم الإغناء فبهذا الاعتبار جرى مجرى النتيجة وإن كان عكس
الغرض ونقيض المطلوب كما فى قولك وعظته فلم يتعظ والثانية تفسير وتفصيل لما أبهم وأجمل من عدم
الإغناء وقد كثر فى الكلام مثل هذه الفاء ومبناها على التفسير بعد الإبهام والتفصيل بعد الإجمال
والثالثة لمجرد التعقيب وجعل ما بعدها تابعاً لما قبلها واقعاً عقيبه لأن مضمون قوله تعالى فلما جاءتهم الخ
هو أنهم كفروا فصار مجموع الكلام بمنزلة أن يقال فكفروا ثم لما رأوا بأسنا آمنوا والرابعة للعطف
على آمنوا كأنه قيل فآمنوا فلم ينفعهم لأن النافع هو الإيمان الاختيارى (سنة الله التى قد خلت فى عباده) *
أى سن الله تعالى ذلك سنة ماضية فى العباد وهو من المصادر المؤكدة (وخسر هنالك الكافرون) اى *
وقت رؤيتهم البأس على أنه اسم مكان قد استعير للزمان كما سلف آنفاً . عن رسول الله صلى الله عليه
وسلم من قرأ سورة المؤمن لم يبق روح نبي ولا صديق ولا شهيد ولا مؤمن إلا صلى عليه واستغفر له .

﴿ تم الجزء السابع ويليه الجزء الثامن وأوله سورة فصلت ﴾

سورة غافر

ترتيبها ٤٠ — آياتها ٨٥

وتسمى سورة غافر وسورة الطول، وهي كما روي عن ابن عباس وابن الزبير ومسروق وسمرة بن جندب مكية، وحكى أبو حيان الإجماع على ذلك، وعن الحسن أنها مكية إلا قوله تعالى: ﴿وسبح بحمد ربك﴾ [غافر: ٥٥] لأن الصلوات نزلت بالمدينة وكانت الصلاة بمكة ركعتين من غير توقيت. وأنت تعلم أن الحق قول الأكثرين: إن الخمس نزلت بمكة على أنه لا يتعين إرادة الصلاة بالتسبيح في الآية، وقيل: هي مكية إلا قوله تعالى: ﴿إن الذين يجادلون﴾ [غافر: ٣٥] الآية فإنها مدنية، فقد أخرج ابن أبي حاتم عن أبي العالية وغيره أنها نزلت في اليهود لما ذكروا الدجال، وهذا ليس بنص على أنها نزلت بالمدينة، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: قولهم نزلت الآية في كذا يراد به تارة سبب النزول ويراد به تارة أن ذلك داخل في الآية وإن لم يكن السبب كما تقول: عني بهذه الآية كذا، وقال الزركشي في البرهان: قد عرف من عادة الصحابة والتابعين أن أحدهم إذا قال: نزلت الآية في كذا فإنه يريد بذلك أنها تتضمن هذا الحكم لا أن هذا كان السبب في نزولها فهو من جنس الاستدلال على الحكم بالآية لا من جنس النقل لما وقع. نعم سيأتي إن شاء الله تعالى عن أبي العالية ما هو كالنص على ذلك.

وآيها خمس وثمانون في الكوفي والشامي، وأربع في الحجازي، واثنتان في البصري، وقيل: ست وثمانون، وقيل: ثمان وثمانون، ووجه مناسبة أولها لآخر الزمر أنه تعالى لما ذكر سبحانه هناك ما يؤول إليه حال الكافر وحال المؤمن ذكر جل وعلا هنا أنه تعالى غافر الذنب وقابل التوب ليكون ذلك استدعاء للكافر إلى الإيمان والإقلاع عما هو فيه، وبين السورتين أنفسهما أوجه من المناسبة، ويكفي فيها أنه ذكر في كل من أحوال يوم القيامة وأحوال الكفرة فيه وهم في المحشر وفي النار ما ذكر، وقد فصل في هذه من ذلك ما لم يفصل منه في تلك.

وفي تناسق الدرر وجه إيلاء الحواميم السبع لسورة الزمر تواخي المطالع في الافتتاح بتنزيل الكتاب. وفي مصحف ابن مسعود أول الزمر ﴿حم﴾ وتلك مناسبة جلية، ثم إن الحواميم ترتبت لاشتراكها في الافتتاح ـ بحم ـ وبذكر الكتاب وأنها مكية بل ورد عن ابن عباس وجابر بن زيد أنها نزلت عقب الزمر متتاليات كترتيبها في المصحف، وورد في فضلها أخبار كثيرة، أخرج أبو عبيد في فضائله عن ابن عباس قال: إن لكل شيء لباباً وإن لباب القرآن الحواميم. وأخرج هو وابن الضريس وابن المنذر والحاكم والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن مسعود قال: الحواميم ديباج القرآن. وأخرجه أبو الشيخ وأبو نعيم والديلمي عن أنس رضي الله تعالى عنه مرفوعاً، وأخرج الديلمي وابن مردويه عن سمرة بن جندب مرفوعاً «الحواميم روضة من رياض الجنة».

وأخرج محمد بن نصر والدارمي عن سعد بن إبراهيم قال: كن الحواميم يسمين العرائس. وأخرج ابن نصر وابن

مردويه عن أنس بن مالك قال: «سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن الله تعالى أعطاني السبع الطوال مكان التوراة وأعطاني الراءات إلى الطواسين مكان الإنجيل وأعطاني ما بين الطواسين إلى الحواميم مكان الزبور وفضلني بالحواميم والمفصل ما قرأهن نبي قبلي».

وأخرج البيهقي في الشعب عن الخليل بن مرة أن رسول الله ﷺ قال: «الحواميم سبع وأبواب جهنم سبع تجيء كل ﴿حم﴾ منها فتقف على باب من هذه الأبواب تقول: اللهم لا تدخل من هذا الباب من كان يؤمن بي ويقرؤني» وجاء في خصوص بعض آيات هذه السورة ما يدل على فضله. أخرج الترمذي والبزار ومحمد بن نصر وابن مردويه والبيهقي في الشعب عن أبي هريرة قال: «قال رسول الله من قرأ ﴿حم﴾ إلى ﴿ وإليه المصير﴾ وآية الكرسي حين يصبح حفظ بهما حتى يمسي ومن قرأهما حين يمسي حفظ بهما حتى يصبح».

بسم الله الرحمن الرحيم

حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٢﴾ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ
لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٣﴾ مَا يُجَٰدِلُ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿٤﴾
كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَٰدَلُوا۟
بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٥﴾ وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ
كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ
وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ
وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ
وَذُرِّيَّٰتِهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ
رَحِمْتَهُۥ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ
أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ ﴿١٠﴾ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا
بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴿١١﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ
تُؤْمِنُوا۟ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ ﴿١٢﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا وَمَا
يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ فَٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾ رَفِيعُ
ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ﴿١٥﴾ يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ
لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾

﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ حم﴾ بتفخيم الألف وتسكين الميم، وقرأ ابن عامر برواية ذكوان، وحمزة والكسائي وأبو بكر بالإمالة الصريحة، ونافع برواية ورش. وأبو عمرو بالإمالة بين بين، وقرأ ابن أبي إسحاق وعيسى بفتح الميم على التحريم لالتقاء الساكنين بالفتحة للخفة كما في أين وكيف، وجوز أن يكون ذلك نصباً بإضمار اقرأ ومنع من الصرف للعلمية والتأنيث لأنه بمعنى السورة أو للعلمية وشبه العجمة لأن فاعيل ليس من أوزان أبنية العرب وإنما وجد ذلك في لغة العجم كقابيل وهابيل، ونقل هذا عن سيبويه. وفي الكشف أن الأولى أن يعلل بالتعريف والتركيب.

وقرأ أبو السمال بكسر الميم على أصل التقاء الساكنين كما في جير: والزهري برفعها والظاهر أنه إعراب فهو إما مبتدأ أو خبر مبتدأ محذوف، والكلام في المراد به كالكلام في نظائره، ويجمع على حواميم وحاميمات أما الثاني فقد أنشد فيه ابن عساكر في تاريخه:

هـذا رسـول الله فـي الـخـيـرات ... جـاء بـيـاسـين وحـامـيـمـات

وأما الأول فقد تقدم عدة أخبار فيه ولا أظن أن أحداً ينكر صحة جميعها أو يزعم أن لفظ حواميم فيها من تحريف الرواة الأعاجم؛ وأيضاً أنشد أبو عبيدة:

حـلـفـت بـالـسـبـع الألـى تـطـولـت ... وبـمـئـين بـعـدهـا قـد أمـئـيـت
وبـثـمـان ثـنـيـت وكـررت ... وبـالـطـواسـين الـلـواتـي ثـلـيـت
وبـالـحـواميـم الـلـواتـي سـبـعـت ... وبـالـمـفـصـل الـتـي قـد فـصـلـت

وذهب الجواليقي والحريري وابن الجوزي إلى أنه لا يقال حواميم، وفي الصحاح عن الفراء أن قول العامة الحواميم ليس من كلام العرب، وحكى صاحب زاد المسير عن شيخه أبي منصور اللغوي أن من الخطأ أن تقول: قرأت الحواميم والصواب أن تقول قرأت آل حم، وفي حديث ابن مسعود إذا وقعت في آل حم فقد وقعت في روضات دمثات أتأنق فيهن، وعلى هذا قول الكميت بن زيد في الهاشميات:

وجـدنـا لـكـم فـي آل حـم آيـة ... تـأولـهـا مـنـا تـقـي ومـعـرب

والطواسين والطواسيم بالميم بدل النون كذلك عندهم، وما سمعت يكفي في ردهم. نعم ما قالوه مسموع مقبول كالذي قلناه لكن ينبغي أن يعلم أن آل في قولهم آل حم كما قال الخفاجي ليس بمعنى الآل المشهور وهو الأهل بل هو لفظ يذكر قبل ما لا يصح تثنيته وجمعه من الأسماء المركبة ونحوها كتأبط شراً فإذا أرادوا تثنيته أو جمعه وهو جملة لا يتأتى فيها ذلك إذ لم يعهد مثله في كلام العرب زادوا قبله لفظة آل أو ذوا فيقال: جاءني آل تأبط شراً أو ذوا تأبط شراف أي الرجلان أو الرجال المسمون بهذا الاسم، فآل حم بمعنى الحواميم وآل بمعنى ذو، والمراد به ما يطلق عليه ويستعمل فيه هذا اللفظ وهو مجاز عن الصحبة المعنوية، وفي كلام الرضي وغيره إشارة إلى هذا إلا أنهم لم يصرحوا بتفسيره فعليك بحفظه، وحكي في الكشف أن الأولى أن يجمع بذوات حم أي دون حواميم أو حاميمات ومعناه السور المصحوبات بهذا اللفظ أعني حم.

﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ الكلام فيه اعراباً كالكلام في مطلع سورة الزمر بيد أنه يجوز هنا أن يكون ﴿تنزيل﴾ خبراً عن ﴿حم﴾ ولعل تخصيص الوصفين لما في القرآن الجليل من الإعجاز وأنواع العلوم التي يضيق عن الإحاطة بها نطاق الإفهام أو هو على نحو تخصيص الوصفين فيما سبق فإن شاء البليغ علمه بالأشياء أن يكون حكيماً إلا أنه قيل ﴿العليم﴾ دون الحكيم تفنناً، وقوله تعالى: ﴿غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي

الطول ﴾ صفات للاسم الجليل كالعزيز العليم، وذكر ﴿**غافر الذنب وقابل التوب** ﴾ و ﴿**ذي الطول** ﴾ للترغيب وذكر ﴿**شديد العقاب** ﴾ للترهيب والمجموع للحث على المقصود من ﴿**تنزيل الكتاب** ﴾ وهو المذكور بعد من التوحيد والإيمان بالبعث المستلزم للإيمان بما سواهما والإقبال على الله تعالى، والأولان منها وإن كانا اسمي فاعل إلا أنهما لم يرد بهما التجدد ولا التقييد بزمان بل أريد بهما الثبوت والاستمرار فإضافتهما للمعرفة بعدهما محضة اكسبتهما تعريفاً فصح أن يوصف بهما أعرف المعارف، والأمر في ﴿**ذي الطول** ﴾ ظاهر جداً. نعم الأمر في ﴿**شديد العقاب** ﴾ مشكل فإن شديداً صفة مشبهة وقد نص سيبويه على أن كل ما أضافته غير محضة إذا أضيف إلى معرفة جاز أن ينوي بإضافته التمحض فيتعرف وينعت به المعرفة إلا ما كان من باب الصفة المشبهة فإنه لا يتعرف ومن هنا ذهب الزجاج إلى أن ﴿**شديد العقاب** ﴾ بدل، ويرد عليه أن في توسيط البدل بين الصفات تنافراً بينا لأن الوصف يؤذن بأن الموصوف مقصود والبدل بخلافه فيكون بمنزلة استئناف القصد بعد ما جعل غير مقصود، والجواب أنه إنما يشكل ظاهراً على مذهب سيبويه وسائر البصريين القائلين بأن الصفة المشبهة لا تتعرف أصلاً بالإضافة إلى المعرفة، وأما على مذهب الكوفيين القائلين بأنها كغيرها من الصفات قد تتعرف بالإضافة ويجوز وصف المعرفة بها نحو مررت بزيد حسن الوجه فلا، ويقال فيما ذكر على المذهب الأول: إن «شديداً» مؤول بمشدد اسم فاعل من أشده جعله شديداً كأذين بمعنى مؤذن فيعطي حكمه، أو يقال: إنه معرف بأل والأصل الشديد عقابه لكن حذفت لأمن اللبس بغير الصفة لوقوعه بين الصفات واحتمال كونه بدلاً وحده لا يلتفت على ما سمعت إليه ورعاية لمشاكلة ما معه من الأوصاف المجردة منها والمقدر في حكم الموجود، وقد غيروا كثيراً من كلامهم عن قوانينه لأجل المشاكلة حتى قالوا: ما يعرف سحادليه من عنادليه أرادوا ما يعرف ذكره من أنثييه فثنوا ما هو وتر لأجل ما هو شفع، وجوز كون جميع التوابع المذكورات أبدالاً وتعمد تنكير ﴿**شديد العقاب** ﴾ وإبهامه للدلالة على فرط الشدة وعلى ما لا شيء أدهى منه وأمر لزيادة الإنذار. وفي الكشف جعل كلها إبدالاً فيه تنافر عظيم لا سيما في إبدال ﴿**العزيز** ﴾ من ﴿**الله** ﴾ الاسم الجامع لسائر الصفات العلم النص وأين هذا من براعة الاستهلال؟ وذهب مكي إلى جواز كون ﴿**غافر الذنب وقابل التوب** ﴾ دون ما قبلهما بدلين وأنهما حينئذ نكرتان، وقد علمت ما فيه مما تقدم، وقال أبو حيان: إن بدل البداء عند من أثبته قد يتكرر وأما بدل كل من كل وبدل بعض من كل وبدل اشتمال فلا نص عن أحد من النحويين أعرفه في جواز التكرار فيها أو منعه إلا أن في كلام بعض أصحابنا ما يدل على أن البدل من البدل جائز دون تعدد البدل واتحاد المبدل منه، وظاهر كلام الخفاجي أن النحاة صرحوا بجواز تعدده حيث قال: لا يرد على القول بالإبدال قلة البدل في المشتقات، ولا أن النكرة لا تبدل من المعرفة ما لم توصف، ولا أن تعدد البدل لم يذكره النحاة كما قيل لأن النحاة صرحوا بخلافه في الجميع، وللدماميني فيه كلام طويل الذيل في أول شرح الخزرجية لا يسعه هذا المقام فإن أردته فانظر فيه انتهى.

وعندي أن الإبدال هنا ليس بشيء كلاً أو بعضاً، و ﴿**التوب** ﴾ يحتمل أن يكون مصدراً كالأوب بمعنى الرجوع ويحتمل أن يكون اسم جمع لتوبة كتمر وتمرة، و ﴿**الطول** ﴾ الفضل بالثواب والإنعام أو بذلك وبترك العقاب المستحق كما قيل وهو أولى من تخصيصه بترك العقاب وإن وقع بعد ﴿**شديد العقاب** ﴾ وكون الثواب موعوداً فصار كالواجب فلا يكون فضلاً ليس بشيء فإن الوعد به ليس بواجب، وفسره ابن عباس بالسعة والغنى، وقتادة بالنعم، وابن زيد بالقدرة، وتوسيط الواو بين ﴿**غافر الذنب وقابل التوب** ﴾ لإفادة الجمع للمذنب التائب بين رحمتين بين أن يقبل سبحانه توبته فيكتبها له طاعة من الطاعات وأن يجعلها محاءة للذنب كأنه لم يذنب كأنه قيل: جامع المغفرة والقبول

قاله الزمخشري، ووجهه كما في الكشف أنها صفات متعاقبة بدون الواو دالة على معنى الجمع المطلق من مجرد الإجراء فإذا خصت بالواو إحدى القرائن دل على أن المراد المعتبر فيها وفيما تقدمها خاصة صوناً لكلام البليغ عن الإلغاء، ففي الواو هنا الدلالة على أنه سبحانه جامع بين الغفران وقبول التوب للتائب خاصة، ولا ينافي ذلك أنه عزَّ وجلّ قد يغفر لمن لم يتب، وما قيل: إن التوسيط يدل على أن المعنى كماأخرج أبو الشيخ في العظمة عن الحسن غافر الذنب لمن لم يتب وقابل التوب لمن تاب فغير مسلم، والتغاير الذي يذكرونه بين موقع الفعلين وهما غفران الذنب وقبول التوبة عنه المقتضي لكون الغفران بالنسبة إلى قوم والقبول بالنسبة إلى آخرين إذ جعلوا موقع الأول الذنب الباقي في الصحائف من غير مؤاخذة وموقع الثاني الذنب الزائل الممحو عنها حاصل مع الإجراء فلا مدخل للواو، ثم ما ذكر من الوجه السابق حار على أصلي أهل السنة والمعتزلة فلا وجه لرده بما ليس بقادح وإيثار ما هو مرجوح، وتقديم الغافر على القابل من باب تقديم التخلية على التحلية فافهم. وفي القطع بقبول توبة العاصي قولان لأهل السنة. وفي البحر الظاهر من الآية أن توبة العاصي بغير الكفر كتوبة العاصي به مقطوع بقبولها، وفي توحيد صفة العذاب مغمورة بصفاته تعالى الدالة على الرحمة دليل على زيادة الرحمة وسبقها فسبحانه من إله ما أرحمه وأكرمه ﴿**لا إِلَٰهَ إِلاَّ هُوَ**﴾ فيجب الإقبال الكلي على طاعته في أوامره ونواهيه ﴿**إِلَيْهِ الْمَصِيرُ**﴾ فحسب لا إلى غيره تعالى لا استقلالاً ولا اشتراكاً فيجازي كلاً من المطيع والعاصي، وجملة ﴿**لا إله إلا هو**﴾ مستأنفة أو حالية، وقيل: صفة لله تعالى أو لشديدالعقاب، وفي الآيات مما يقتضي الاتعاظ ما فيها. أخرج عبد بن حميد عن يزيد بن الأصم أن رجلاً كان ذا بأس وكان من أهل الشام وأن عمر رضي الله تعالى عنه فقده فسأل عنه فقيل له: تتابع في الشراب فدعا عمر كاتبه فقال له: اكتب من عمر ابن الخطاب إلى فلان بن فلان سلام عليكم فإني أحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو ﴿**بسم الله الرحمن الرحيم حم ـ** إلى قوله تعالى ـ **إليه المصير**﴾ وختم الكتاب، وقال لرسوله: لا تدفعه إليه حتى تجده صاحياً ثم أمر من عنده بالدعاء له بالتوبة فلما أتته الصحيفة جعل يقرؤها ويقول: قد وعدني ربي أن يغفر لي وحذرني عقابه فلم يبرح يرددها على نفسه حتى بكى ثم نزع فأحسن النزوع فلما بلغ عمر توبته قال: هكذا فافعلوا إذا رأيتم أخاكم قد زل زلة فسددوه ووقفوه وادعوا الله تعالى أن يتوب عليه ولا تكونوا أعواناً للشياطين عليه.

﴿**مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللهِ إِلاَّ الَّذِينَ كَفَرُوا**﴾ نزلت على ما قال أبو العالية في الحارث بن قيس السلمي أحد المستهزئين، والمراد بالجدال الجدال بالباطل من الطعن في الآيات والقصد إلى إدحاض الحق وإطفاء نور الله عزَّ وجلّ لقوله تعالى بعد، ﴿**وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق**﴾ فإنه مذكور تشبيهاً لحال كفار مكة بكفار الأحزاب من قبل وإلا فالجدال فيها لإيضاح ملتبسها وحل مشكلها ومقادحة أهل العلم في استنباط معانيها ورد أهل الزيغ عنها أعظم جهاد في سبيل الله تعالى؛ وفي قوله ﷺ وقد أخرجه عبد بن حميد عن أبي هريرة مرفوعاً: «إن جدالاً في القرآن كفر» إيماء إلى ذلك حيث ذكر فيه جدالاً منكراً للتنويع فأشعر أن نوعاً منه كفر وضلال ونوعاً آخر ليس كذلك.

والتحقيق كما في الكشف أن المجادلة في الشيء تقتضي أن يكون ذلك الشيء إما مشكوكاً عند المجادلين أو أحدهما أو منكراً كذلك، وأياً ما كان فهو مذموم اللهم إلا إذا كان من موحد لخارج عن الملة أو من محقق لزائغ إلى البدعة فهو محمود بالنسبة إلى أحد الطرفين، وأما ما قيل: إن البحث فيها لإيضاح الملتبس ونحوه جدال عنها لا فيها فإن الجدال يتعدى بعن إذا كان للمنع والذب عن الشيء وبفي لخلافه كما ذكره الإمام وبالباء أيضاً كما في قوله تعالى: ﴿وجادلهم بالتي هي أحسن﴾ [النحل: ١٢٥] ففيه بحث، وفي قوله تعالى: ﴿**فـي آيات الله**﴾ دون ـ فيه ـ بالضمير العائد إلى الكتاب دلالة على أن كل آية منه يكفي كفر المجادلة فكيف بمن ينكره كله ويقول فيه ما يقول،

وفيه أن كل آية منه آية أنه من الله تعالى الموصوف بتلك الصفات فيدل على شدة شكيمة المجادل في الكفر وأنه جادل في الواضح الذي لا خفاء به، ومما ذكر يظهر اتصال هذه الآية بما قبلها وارتباط قوله تعالى: ﴿فَلاَ يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ﴾ بها أي إذا علمتَ أن هؤلاء شديدو الشكائم في الكفر قد خسروا الدنيا والآخرة حيث جادلوا في آيات الله العزيز العليم وأصروا على ذلك فلا تلتفت لاستدراجهم بتوسعة الرزق عليهم وإمهالهم فإن عاقبتهم الهلاك كما فعل بمن قبلهم من أمثالهم مما أشير إليه بقوله سبحانه: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ الخ، والتقلب الخروج من أرض إلى أخرى. والمراد بالبلاد بلاد الشام واليمن فإن الآية في كفار قريش وهم كانوا يتقلبون بالتجارة في هاتيك البلاد ولهم رحلة الشتاء لليمن ورحلة الصيف للشام، ولا بأس في إرادة ما يعم ذلك وغيره. وقرأ زيد بن علي وعبيد بن عمير «فلا يغرك» بالإدغام مفتوح الراء وهي لغة تميم والفك لغة الحجازين، وبدأ بقوم نوح لأنه عليه الصلاة والسلام على ما في البحر أول رسول في الأرض أو لأنهم أول قوم كذبوا رسولهم وعتوا عتواً شديداً ﴿وَالأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ أي والذين تحزبوا واجتمعوا على معاداة الرسل عليهم السلام من قوم نوح كعاد وثمود وقوم فرعون ﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ﴾ من تلك الأمم ﴿بِرَسُولِهِمْ﴾ وقرأ عبد الله «برسولها» رعاية اللفظ الأمة ﴿لِيَأْخُذُوهُ﴾ ليتمكنوا من إيقاع ما يريدون به من حبس وتعذيب وقتل وغيره، فالأخذ كناية عن التمكن المذكور، وبعضهم فسره بالأسر وهو قريب مما ذكر، وقال قتادة: أي ليقتلوه ﴿وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ﴾ بما لا حقيقة له قيل هو قولهم: ﴿ما أنتم إلا بشر مثلنا﴾ [إبراهيم: ١٠] والأولى أن يقال هو كل ما يذكرونه لنفي الرسالة وتحسين ما هم عليه، وتفسيره بالشيطان ليس بشيء ﴿لِيُدْحِضُوا﴾ ليزيلوا ﴿بِهِ﴾ أي بالباطل، وقيل: أي بجدالهم بالباطل ﴿الْحَقَّ﴾ الأمر الثابت الذي لا محيد عنه ﴿فَأَخَذْتُهُمْ﴾ بالإهلاك المستأصل لهم ﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ فإنكم تمرون على ديارهم وترون أثره، وهذا تقرير فيه تعجيب للسامعين مما وقع بهم، وجوز أن يكون من عدم اعتبار هؤلاء، واكتفى بالكسرة عن ياء الإضافة في عقاب لأنه فاصلة، واختلف في المسبب عنه الأخذ المذكور فقيل: مجموع التكذيب والهم بالأخذ والجدال بالباطل، واختار الزمخشري كونه الهم بالأخذ، قال في الكشف: وذلك لأن قوله تعالى: ﴿وجادلوا بالباطل ليدحضوا﴾ هو التكذيب بعينه والأخذ يشاكل الأخذ وإنما التكذيب موجب استحقاق العذاب الأخروي المشار إليه بعد، ولا ينكر أن كليهما يقتضي كليهما لكن لما كان ملاءمة الأخذ للأخذ أتم والتكذيب للعذاب الأخروي أظهر أنه متعلق بالأخذ تنبيهاً على كمال الملاءمة، ثم المجادلة العنادية ليس الغرض منها إلا الإيذاء فهي تؤكد الهم من هذا الوجه بل التكذيب أيضاً يؤكده، والغرض من تمهيد قوله تعالى: ﴿ما يجادل﴾ وذكر الأحزاب الإلمام بهذا المعنى، ثم التصريح بقوله سبحانه-: ﴿وهمت كل أمة برسولهم﴾ يدل على ما اختاره دلالة بينة فلا حاجة إلى أن يعتذر بأنه إنما اعتبر هذا لا ما سيق له الكلام من المجادلة الباطلة للتسلي انتهى، والإنصاف إن فيما صنعه جار الله رعاية جانب المعنى ومناسبة لفظية إلا أن الظاهر هو التفريع على المجموع كما لا يخفى ﴿وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي كما وجب حكمه تعالى بالإهلاك على هؤلاء المتحزبين على الأنبياء وجب حكمه سبحانه بالإهلاك على هؤلاء المتحزبين عليك أيضاً وهم كفار قريش ﴿أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ أي لأنهم أصحاب النار أي لأن العلة متحدة وهي أنهم كفار معاندون مهتمون بقتل النبي مثلهم، فوضع ﴿أصحاب النار﴾ موضع ما ذكر لأنه آخر أوصافهم وشرها والدال على الباقي، و ﴿أنهم﴾ الخ في حيز النصب بحذف لام التعليل كما أشرنا إليه، وجوز أن يكون في محل رفع على أنه بدل من ﴿كلمة ربك﴾ بدل كل من كل أن أريد بالكلمة قوله تعالى أو حكمه سبحانه بأنهم من أصحاب النار، وبدل اشتمال أن أريد بها الأعم، ويراد بالذين كفروا أولئك المتحزبون، والمعنى كما وجب إهلاكهم بالعذاب المستأصل في الدنيا وجب إهلاكهم بعذاب النار في الآخرة أيضاً لكفرهم، والوجه الأول أظهر بالمساق.

والتعبير بعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضميره ﷺ، وفسرت ﴿كلمة ربك﴾ عليه بقوله سبحانه: ﴿وكان حقاً علينا نصر المؤمنين﴾ [الروم: ٤٧] ونحوه. وفي مصحف عبد الله «وكذلك سبقت» وهو على ما قيل تفسير معنى لا قراءة. وقرأ ابن هرمز وشيبة وابن القعقاع ونافع وابن عامر «كلمات» على الجمع.

﴿الذين يحملون العرش﴾ وهو جسم عظيم له قوائم الكرسي وما تحته بالنسبة إليه كحلقة في فلاة.

وفي بعض الآثار خلق الله تعالى العرش من جوهرة خضراء وبين القائمتين من قوائمه خفقان الطير المسرع ثمانين ألف عام. وذكر بعضهم في سعته أنه لو مسح مقعره بجميع مياه الدنيا مسحاً خفيفاً لقصرت عن استيعابه ويزعم أهل الهيئة ومن وافقهم أنه كري وأنه المحدد وفلك الأفلاك وأنه كسائر الأفلاك لا يوصف بثقل ولا خفة وليس لهم في ذلك خبر يعول عليه بل الأخبار ظاهرة في خلافه.

والظاهر أن الحمل على حقيقته وحملته ملائكة عظام. أخرج أبو يعلى وابن مردويه بسند صحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: «أذن لي أن أحدث عن ملك قد مرقت رجلاه الأرض السابعة السفلى والعرش على منكبيه وهو يقول: سبحانك أين كنت وأين تكون. وأخرج أبو داود وجماعة بسند صحيح عن جابر بلفظ «أذن لي أن أحدث عن ملك من ملائكة الله تعالى من حملة العرش ما بين شحمة إذنه إلى عاتقه مسيرة سبعمائة عام» وهم على ما في بعض الآثار ثمانية. أخرج ابن المنذر وأبو الشيخ والبيهقي في شعب الإيمان عن هارون بن رباب قال: حملة العرش ثمانية يتجاوبون بصوت رخيم يقول أربعة منهم سبحانك وبحمدك على حلمك بعد عفوك وأربعة منهم سبحانك وبحمدك على عفوك بعد قدرتك. وأخرج أبو الشيخ وابن أبي حاتم من طريق أبي قبيل أنه سمع ابن عمر رضي الله تعالى عنهما يقول: حملة العرش ثمانية ما بين موق أحدهم إلى مؤخر عينيه مسيرة خمسمائة عام، وفي بعض الآثار أنهم اليوم أربعة ويوم القيامة ثمانية.

أخرج أبو الشيخ عن وهب قال: حملة العرش أربعة فإذا كان يوم القيامة أيدوا بأربعة آخرين، ملك منهم في صورة إنسان يشفع لبني آدم في أرزاقهم، وملك منهم في صورة نسر يشفع للطير في أرزاقهم، وملك منهم في صورة ثور يشفع للبهائم في أرزاقهم، وملك منهم في صورة أسد يشفع للسباع في أرزاقهم فلما حملوا العرش وقعوا على ركبهم من عظمة الله تعالى فلقنوا لا حول ولا قوة إلا بالله فاستووا قياماً على أرجلهم.

وجاء رواية عن وهب أيضاً أنهم يحملون العرش على أكتافهم وهو الذي يشعر به ظاهر خبر أبي هريرة السابق.

وأخرج ابن المنذر وأبو الشيخ عن حبان بن عطية قال: حملة العرش ثمانية أقدامهم مثبتة في الأرض السابعة ورؤوسهم قد جاوزت السماء السابعة وقرونهم مثل طولهم عليها العرش.

وفي بعض الآثار أنهم خشوع لا يرفعون طرفهم، وفي بعضها لا يستطيعون أن يرفعوا أبصارهم من شعاع النور، وهم على ما أخرج ابن أبي شيبة عن أبي أمامة يتكلمون بالفارسية أي إذا تكلموا بغير التسبيح وإلا فالظاهر أنهم يسبحون بالعربية، على أن الخبر الله تعالى أعلم بصحته. وفي بعض الآثار عن وهب أنهم ليس لهم كلام إلا أن يقولوا قدوس الله القوي ملأت عظمته السماوات والأرض، وما سيأتي إن شاء الله تعالى بعيد هذا في الآية يأبى ظاهره الحصر ﴿وَمَنْ حَوْلَهُ﴾ أي والذين من حول العرش وهم ملائكة في غاية الكثرة لا يعلم عدتهم إلا الله تعالى.

وقيل: حول العرش سبعون ألف صف من الملائكة يطوفون به مهللين مكبرين ومن ورائهم سبعون ألف صف قيام قد وضعوا أيديهم على عواتقهم رافعين أصواتهم بالتهليل والتكبير ومن ورائهم مائة ألف صف قد وضعوا الأيمان

على الشمائل ما منهم أحد إلا وهو يسبح بما لا يسبح به الآخر. وذكر في كثرتهم أن مخلوقات البر عشر مخلوقات البحر والمجموع عشر مخلوقات الجو والمجموع عشر ملائكة السماء الدنيا والمجموع عشر ملائكة السماء الثانية وهكذا إلى السماء السابعة والمجموع عشر ملائكة الكرسي والمجموع عشر الملائكة الحافين بالعرش، ولا نسبة بين مجموع المذكور وما يعلمه الله تعالى من جنوده سبحانه ﴿وما يعلم جنود ربك إلا هو﴾ [المدثر: ٣١] ويقال لحملة العرش والحافين به الكروبيون جمع كروبي بفتح الكاف وضم الراء المهملة المخففة وتشديدها خطأ ثم واو بعدها ياء موحدة ثم ياء مشددة من كرب بمعنى قرب، وقد توقف بعضهم في سماعه من العرب وأثبته أبو علي الفارسي واستشهد له بقوله:

كروبية منهم ركوع وسجد

وفيه دلالة على المبالغة في القرب لصيغة فعول والياء التي تزاد للمبالغة، وقيل: من الكرب بمعنى الشدة والحزن وكأن وصفهم بذلك لأنهم أشد الملائكة خوفاً.

وزعم بعضهم أن الكروبيين حملة العرش وأنهم أول الملائكة وجوداً ومثله لا يعرف إلا بسماع. وعن البيهقي أنهم ملائكة العذاب وكأن ذلك إطلاق آخر من الكرب بمعنى الشدة والحزن، وقال ابن سينا في رسالة الملائكة: الكروبيون هم العامرون لعرصات التيه الأعلى الواقفون في الموقف الأكرم زمراً الناظرون إلى المنظر الأبهى نظراً وهم الملائكة المقربون والأرواح المبرؤون، وأما الملائكة العاملون فهم حملة العرش والكرسي وعمار السماوات انتهى.

وذهب بعضهم إلى أن حمل العرش مجاز عن تدبيره وحفظه من أن يعرض له ما يخل به أو بشيء من أحواله التي لا يعلمها إلا الله عزَّ وجلّ، وجعلوا القرينة عقلية لأن العرش كريّ في حيزه الطبيعي فلا يحتاج إلى حمل ونسب ذلك إلى الحكماء وأكثر المتكلمين، وكذا ذهبوا إلى أن الحفيف والطواف بالعرش كناية أو مجاز عن القرب من ذي العرش سبحانه ومكانتهم عنده تعالى وتوسطهم في نفاذ أمره عزَّ وجلّ، والحق الحقيقة في الموضعين؛ وما ذكر من القرينة العقلية في حيز المنع.

وقرأ ابن عباس وفرقة «العُرُش» بضم العين فقيل: هو جمع عرش كسقف وسقف أو لغة في العرش، والموصول الأول مبتدأ والثاني عطف عليه والخبر قوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُونَ بحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ والجملة استئناف مسوق لتسلية رسول الله ﷺ ببيان أن الملائكة الذين هم في المحل الأعلى مثابرون على ولاية من معه من المؤمنين ونصرتهم واستدعاء ما يسعدهم في الدارين أي ينزهونه تعالى عن كل ما لا يليق بشأنه الجليل كالجسمية وكون العرش حاملاً له عزَّ وجلّ ملتبسين بحمده جل شأنه على نعمائه التي لا تتناهى.

﴿وَيُؤْمِنُونَ به﴾ إيماناً حقيقياً كاملاً، والتصريح بذلك مع الغنى عن ذكره رأساً لإظهار فضيلة الإيمان وإبراز شرف أهله والإشعار بعلة دعائهم للمؤمنين حسبما ينطق به قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَغْفِرونَ للَّذينَ آمَنُوا﴾ فإن المشاركة في الإيمان أقوى المناسبات وأتمها وادعى الدواعي إلى النصح والشفقة وإن تخالفت الأجناس وتباعدت الأماكن، وفيه على ما قيل: إشعار بأن حملة العرش وسكان الفرش سواء في الإيمان بالغيب إذ لو كان هناك مشاهدة للزومها من الحمل بناء على العادة الغالبة أو على أن العرش جسم شفاف لا يمنع الأبصار البتة لم يقل يؤمنون لأن الإيمان هو التصديق القلبي أعني العلم أو ما يقوم مقامه مع اعتراف وإنما يكون يكون في الخبر ومضمونه من معتقد علمي أو ظني ناشىء من البرهان أو قول الصادق كأنه اعترف بصدق المخبر أو البرهان وأما العيان فيغني عن البيان، ففي ذلك رمز إلى الرد على المجسمة، ونظيره في ذلك قوله عليه الصلاة والسلام: «لا تفضلوني على ابن متى» كذا قيل، وينبغي أن يعلم أن كون

حملة العرش لا يرونه عزّ وجلّ بالحاسة لا يلزم منه عدم رؤية المؤمنين إياه تعالى في الدار الآخرة ﴿رَبَّنَا وَسِعتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وعلْماً﴾ على إرادة القول أي يقولون ربنا الخ، والجملة لا محل لها من الإعراب على أنها تفسير ـ ليستغفرون ـ أو في محل رفع على أنها عطف بيان على تلك الجملة بناء على جوازه في الجمل أو في محل نصب على الحالية من الضمير في ﴿يستغفرون﴾.

وفسر استغفارهم على هذا الوجه بشفاعتهم للمؤمنين وحملهم على التوبة بما يفيضون على سرائرهم، وجوز أن يكون الاستغفار في قوله تعالى: ﴿ويستغفرون لمن في الأرض﴾ المفسر بترك معاجلة العقاب وإدرار الرزق والارتفاق بما خلق من المنافع الجمة ونحو ذلك وهو وإن لم يخص المؤمنين لكنهم أصل فيه فتخصيصهم هنا بالذكر للإشارة إلى ذلك، والأظهر كون الجملة تفسيراً، ونصب ﴿رحماً وعلماً﴾ على التمييز وهو محول عن الفاعل والأصل وسعت رحمتك وعلمك كل شيء وحول إلى ما في النظم الجليل للمبالغة في وصفه عزَّ وجلّ بالرحمة والعلم حيث جعلت ذاته سبحانه كأنها عين الرحمة والعلم مع التلويح إلى عمومها لأن نسبة جميع الأشياء إليه تعالى مستوية فتقتضي استواءها في شمولهما، ووصفه تعالى بكمال الرحمة والعلم كالتمهيد لقوله سبحانه: ﴿فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعوا سَبِيلَكَ﴾ الخ، وتسبب المغفرة عن الرحمة ظاهر، وأما تسببها عن العلم فلأن المعنى فاغفر للذين علمت منهم التوبة أي من الذنوب مطلقاً بناء على أنه المتبادر من الإطلاق واتباع سبيلك وهو سبيل الحق التي نهجها الله تعالى لعباده ودعا إليها الإسلام أي علمك الشامل المحيط بما خفي وما علن يقتضي ذلك، وفيه تنبيه على طهارتهم من كدورات الرياء والهوى فإن ذلك لا يعلمه إلا الله تعالى وحده.

ويتضمن التمهيد المذكور الإشارة إلا أن الرحمة الواسعة والعلم الشامل يقتضيان أن ينال هؤلاء الفوز العظيم والقسط الأعلى من الرضوان وفيه إيماء إلى معنى:

إن تغفر اللهم تغفر جما وأي عبد لك لا ألما

فإن العبد وإن بالغ حق المبالغة في أداء حقوقه تعالى فهو مقصر، وإليه الإشارة بقوله ﷺ: «ولا أنا إلا أن يتغمدني الله تعالى برحمته» وتقديم الرحمة لأنها المقصودة بالذات هاهنا، وفي تصدير الدعاء بربنا من الاستعطاف ما لا يخفى ولذا كثر تصدير الدعاء به، وقوله تعالى: ﴿وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ أي واحفظهم عنه تصريح بعد تلويح للتأكيد فإن الدعاء بالمغفرة يستلزم ذلك، وفيه دلالة على شدة العذاب.

﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ﴾ أي وعدتهم إياها فالمفعول الآخر مقدر والمراد وعدتهم دخولها، وتكرير النداء لزيادة الاستعطاف، وقرأ زيد بن علي والأعمش «جَنَّةَ عَدْنٍ» بالإفراد وكذا في مصحف عبد الله ﴿وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبائهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ﴾ عطف على الضمير المنصوب في ﴿أدخلهم﴾ أي وأدخل معهم هؤلاء ليتم سرورهم ويتضاعف ابتهاجهم، وجوز الفراء والزجاج العطف على الضمير في ﴿وعدتهم﴾ أي وعدتهم ووعدت من صلح الخ فقيل: المراد بذلك الوعد العام. وتعقب بأنه لا يبقى على هذا للعطف وجه فالمراد الوعد الخاص بهم بقوله تعالى: ﴿ألحقنا بهم ذرياتهم﴾ [الطور: ٢١]، والظاهر العطف على الأول والدعاء بالإدخال فيه صريح، وفي الثاني ضمني والظاهر أن المراد بالصلاح الصلاح المصحح لدخول الجنة وإن كان دون صلاح المتبوعين، وقرأ ابن عبلة «صَلُحَ» بضم اللام يقال: صلح فهو صليح وصلح فهو صالح، وقرأ عيسى «ذريتهم» بالإفراد ﴿إنك أنت العزيز﴾ أي الغالب الذي لا يمتنع عليه مقدور ﴿الحكيم﴾ الذي لا يفعل إلا ما تقتضيه الحكمة الباهرة من الأمور التي من جملتها ادخال من طلب ادخالهم الجنات فالجملة تعليل لما قبلها.

﴿وقهم السيئات﴾ أي العقوبات على ما روي عن قتادة، وإطلاق السيئة على العقوبة لأنها سيئة في نفسها، وجوز أن يراد بها المعنى المشهور وهو المعاصي والكلام على تقدير مضاف أي و قهم جزاء السيئات أو تجوز بالسبب عن المسبب، وأياً ما كان فلا يتكرر هذا مع ﴿وقهم عذاب الجحيم﴾ بل هو تعميم بعد تخصيص لشموله العقوبة الدنيوية والأخروية مطلقاً أو الدعاء الأول للمتبوعين وهذا للتابعين، وجوز أن يراد بالسيئات المعنى المشهور بدون تقدير مضاف ولا تجوز أي المعاصي أي و قهم المعاصي في الدنيا ووقايتهم منها حفظهم عن ارتكابها وهو دعاء بالحفظ عن سبب العذاب بعد الدعاء بالحفظ عن المسبب وهو العذاب، وتعقب بأن الأنسب على هذا تقديم هذا الدعاء على ذاك ﴿ومن تق السيئات يومئذ﴾ أي يوم المؤاخذة ﴿فقد رحمته﴾ ويقال على الوجه الأخير ومن تق السيئات يوم العمل أي في الدنيا فقد رحمته في الآخرة وأيد هذا الوجه بأن المتبادر من يومئذ الدنيا لأن ﴿إذ﴾ تدل على المضي، وفيه منع ظاهر ﴿وذلك﴾ إشارة إلى الرحمة المفهومة من رحمته أو إلى الوقاية المفهومة من فعلها أو إلى مجموعهما، وأمر التذكير على الاحتمالين الأولين وكذا أمر الإفراد على الاحتمال الأخير ظاهر ﴿هو الفوز﴾ أي الظفر ﴿العظيم﴾ الذي لا مطمع وراءه لطامع، هذا وإلى كون المراد بالذين تابوا الذين تابوا من الذنوب مطلقاً ذهب الزمخشري، وقال في السيئات على تقدير حذف المضاف هي الصغائر أو الكبائر المتوب عنها، وذكر أن الوقاية منها التكفير أو قبول التوبة وأن هؤلاء المستغفر لهم تائبون صالحون مثل الملائكة في الطهارة وأن الاستغفار لهم بمنزلة الشفاعة وفائدته زيادة الكرامة والثواب فلا يضر كونهم موعودين المغفرة والله تعالى لا يخلف الميعاد، وتعقب بأنه لا فائدة في ذكر الرحمة والمبالغة فيها إذا كان المغفور له مثل الملائكة عليهم السلام في الطهارة وأي حاجة إلى الاستغفار فضلاً عن المبالغة، وأن ما قاله في السيئات لا يجوز فإن إسقاط عقوبة الكبيرة بعد التوبة واجب في مذهبه وما كان فعله واجباً كان طلبه بالدعاء عبثاً قبيحاً عند المعتزلة، وكذا إسقاط عقوبة الصغيرة فلا يحسن طلبه بالدعاء، ولا يجوز أن يكون ذلك لزيادة منفعة لأن ذلك لا يسمى مغفرة، حكي هذا الطيبي عن الإمام ثم قال: فحينئذ يجب القول بأن المراد بالتوبة التوبة عن الشرك كما قال الواحدي فاغفر للذين تابوا عن الشرك واتبعوا سبيلك أي دينك الإسلام، فإن قلت: لو لم يكن التوبة من المعاصي مراداً لكان يكفي أن يقولوا: فاغفر للذين آمنوا ليطابق السابق، قلت: والله تعالى أعلم هو قريب من وضع المظهر موضع المضمر من غير اللفظ السابق وبيانه أن قوله تعالى: ﴿ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلماً فاغفر للذين تابوا﴾ الآية جاء مفصولاً عن قوله تعالى: ﴿ويستغفرون للذين آمنوا﴾ فالآية بيان لكيفية الاستغفار لا لحال المستغفر لهم، ووصفهم المميز يعرف بالذوق، وأما فائدة العدول عن المضمر وأنه لم يقل: فاغفر لهم بل قيل: للذين تابوا فهي أن الملائكة كما عللوا الغفران في حق مفيض الخيرات جل شأنه بالعلم الشامل والرحمة الواسعة عللوا قابل الفيض أيضاً بالتوبة عن الشرك واتباع سبيل الإسلام، فإن قلت: هذه التوبة إنما تصح في حق من سبق شركه على إسلامه دون من ولد مسلماً ودام عليه، قلت: الآية نازلة في زمن الصحابة وجلهم انتقلوا من الشرك إلى الإسلام ولو قيل: فاغفر لمن لم يشرك لخرجوا فغلب الصحابة رضي الله تعالى عنهم على سنن جميع الأحكام انتهى، ولعمري إن للبحث فيه مجالاً أي مجال.

وفي الكشف إنما اختار الزمخشري ما اختاره على ما قال الواحدي من أن التوبة عن الشرك لأن التوبة عند الإطلاق تنصرف إلى التوبة من الذنوب مطلقاً على أن فيه تكراراً إذ ذاك لأن التائب عن الشرك هو المسلم، وقد فسر متبع السبيل في هذا القول به وإذا شرط حملة العرش ومن حوله عليهم السلام صلاح التابع وهو الذرية مع ما ورد من قوله تعالى: ﴿بإيمان ألحقنا بهم ذرياتهم﴾ [الطور: ٢١] فما بال المتبوع، وأنت تعلم أن الصلاح من أخص أوصاف المؤمن وكفاك دعاء إبراهيم ويوسف عليهما السلام في الإلحاق بالصالحين شاهداً، وأما أنهم غير محتاجين إلى الدعاء فجوابه أنه لا يجب أن يكون للحاجة، ألا ترى إلى قولنا: اللهم صل على سيدنا محمد وما ورد فيه من الفضائل

والمعلوم حصوله منه تعالى يحسن طلبه فإن الدعاء في نفسه عبادة ويوجب للداعي والمدعو له من الشرف ما لا يتقاعد عن حصول أصل الثواب، ثم إن الوقاية عن السيئات إن كانت بمعنى التكفير وقع الكلام في أن السيئات المكفرة ما هي ولا خفاء أن النصوص دالة على تكفير التوبة للسيئات كلها وأن الصغائر مكفرات ما اجتنبت الكبائر فلا بد من تخصيصها به كما ذكر وإن كان معناها أن يعفي عنها ولا يؤاخذ بها كما هو قول الواحدي ومختار الإمام ومن ائتم به فينبغي أن ينظر أن الوقاية في أي المعنيين أظهر وأن قوله تعالى: ﴿**ومن تق السيئات يومئذ فقد رحمته**﴾ وما يفيده من المبالغة على نحو من أدرك مرعى الصمان فقد أدرك.

وتعقيبه بقوله سبحانه: ﴿**وذلك هو الفوز العظيم**﴾ في شأن المقصرين أظهر أو شأن المكفرين، ومن هذا التقرير قد لاح أن هذا الوجه ظاهر هذا السياق وأنه يوافق أصل الفريقين وليس فيه أنه سبحانه يعفو عن الكبائر بلا توبة أو لا يعفو فلا ينافي جوازه من أدلة أخرى إلى آخر ما قال وهو كلام حسن وإن كان في بعضه كحديث التكرار وكون الصلاح في الآية ما هو من أخص أوصاف المؤمن نوع مناقشة، وقد يرجح كون المراد بالتوبة التوبة من الذنوب مطلقاً دون التوبة عن الشرك فقط بأن المتبادر من ﴿**وقهم عذاب الجحيم**﴾ وق كل واحد منهم ذلك، ومن المعلوم أنه لا بد من نفوذ الوعيد في طائفة من المؤمنين العاصين وتعذيبهم في النار فيكون الدعاء بحفظ كل من المؤمنين من العذاب محرماً.

وقد نصوا على حرمة أن يقال: اللهم اغفر لجميع المؤمنين جميع ذنوبهم لذلك، ولا يلزم ذلك على كون الدعاء للتائبين الصالحين، وحمل الإضافة على العهد بأن يراد بعذاب الجحيم ما كان على سبيل الخلود لا يخفى حاله؛ والاعتراض بلزوم الدعاء بمعلوم الحصول على كون المراد بالتوبة ذلك بخلاف ما إذا أريد بها التوبة عن الشرك فإنه لا يلزم ذلك إذ المعنى عليه فاغفر للذين تابوا عن الشرك ذنوبهم التي لم يتوبوا عنها وغفران تلك الذنوب غير معلوم الحصول قد علم جوابه مما في الكشف، على أن في كون الغفران للتائب معلوم الحصول خلافاً أشرنا إليه أول السورة. نعم هذا اللزوم ظاهر في قولهم: ﴿**وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم**﴾ ونظير ذلك ما ورد في الدعاء أثر الأذان وابعثه مقاماً محموداً الذي وعدته، وقد أجيب عن ذلك بغير ما أشير إليه وهو أن سبق الوعد لا يستدعي حصول الموعود بلا توسط دعاء.

وبالجملة لا بأس بحمل التوبة على التوبة من الذنوب مطلقاً ولا يلزم من القول به القول بشيء من أصول المعتزلة فتأمل وأنصف، وقوله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذين كَفَرُوا**﴾ شروع في بيان أحوال الكفار بعد دخول النار ﴿**يُنَادَوْنَ**﴾ وهم في النار وقد مقتوا أنفسهم الأمّارة بالسوء التي وقعوا فيما وقعوا باتباع هواها حتى أكلوا أناملهم من المقت كما أخرج ذلك عبد بن حميد عن الحسن.

وفي بعض الآثار أنهم يمقتون أنفسهم حين يقول لهم الشيطان: ﴿فلا تلوموني ولوموا أنفسكم﴾ [إبراهيم: ٢٢] وقيل: يمقتونها حين يعلمون أنهم من أصحاب النار، والمنادى الخزنة أو المؤمنون يقولون لهم إعظاماً لحسرتهم: ﴿**لَمَقْتُ الله أَكْبَرُ منْ مَّقْتكُمْ أَنْفُسَكُمْ**﴾ وهذا معمول للنداء لتضمنه معنى القول كأنه قيل ينادون مقولاً لهم لمقت الخ أو معمول لقول مقدر بفاء التفسير أي ينادون فيقال لهم: لمقت الخ، وجعله معمولاً للنداء على حذف الجار وإيصال الفعل بالجملة ليس بشيء، و ﴿**مقت**﴾ مصدر مضاف إلى الاسم الجليل إضافة المصدر لفاعله، وكذا إضافة المقت الثاني إلى ضمير الخطاب.

وفي الكلام تنازع أو حذف معمول الأول من غير تنازع أي لمقت الله إياكم أو أنفسكم أكبر من مقتكم

أنفسكم، واللام للابتداء أو للقسم، والمقت أشد البغض؛ والخلف يؤولونه مسنداً إليه تعالى بأشد الإنكار.

﴿إِذْ تُدْعَوْنَ﴾ أي إذ يدعوكم الأنبياء ونوابهم ﴿إِلَى الإِيمَانِ﴾ فتأبون قبوله ﴿فَتَكْفُرُونَ﴾ وهذا تعليل للحكم أو للمحكوم به ـ فإذ ـ متعلقة ـ بأكبر ـ وكان التعبير بالمضارع للإشارة إلى الاستمرار التجددي كأنه قيل: لمقت الله تعالى أنفسكم أكبر من مقتكم إياها لأنكم دعيتم مرة بعد مرة إلى الإيمان فتكرر منكم الكفر، وزمان المقتين واحد على ما هو المتبادر وهو زمان مقتهم أنفسهم الذي حكيناه آنفاً».

ويجوز أن يكون تعليلاً لمقتهم أنفسهم وإذ متعلقة ـ بمقت ـ الثاني فهم مقتوا أنفسهم لأنهم دعوا مراراً إلى الإيمان فكفروا، والتعبير بالمضارع كما في الوجه السابق، وزمان المقتين كذلك، والعلة في الحقيقة إصرارهم على الكفر مع تكرر دعائهم إلى الإيمان، وجوز أن يكون تعليلاً لمقت الله و ﴿إِذْ﴾ متعلقة به، ويعلم مما سيأتي قريباً إن شاء الله تعالى ما عليه وما له، وظاهر صنيع جماعة من الأجلة اختيار كون ﴿إِذْ﴾ ظرفية لا تعليلية فقيل: هي ظرف ـ لمقت ـ الأول، والمعنى لمقت الله تعالى أنفسكم في الدنيا إذ تدعون إلى الإيمان فتكفرون أشد من مقتكم إياها اليوم وأنتم في النار أو وأنتم متحققون أنكم من أصحابها فزمان المقتين مختلف، وكون زمان الأول الدنيا وزمان الثاني الآخرة مروي عن الحسن، وأخرجه عبد بن حميد وابن المنذر عن مجاهد، واعترض عليه غير واحد بلزوم الفصل بين المصدر وما في صلته بأجنبي هو الخبر، وفي أمالي ابن الحاجب لا بأس بذلك لأن الظروف متسع فيها، وقيل: هي ظرف لمصدر آخر يدل عليه الأول أو لفعل يدل عليه ذلك كما في البحر.

وفي الكشف فيه أن المقدر لا بد له من جزاءات إن استقل ويتسع الخرق وإن جعل بدلاً فحذفه وأعمال المصدر المحذوف لا يتقاعد عن الفصل بالخبر وليس أجنبياً من كل وجه، وتقدير الفعل أي مقتكم الله إذ تدعون أبعد وأبعد، وقيل: هي ظرف لمقت الثاني. واعترض بأنهم لم يمقتوا أنفسهم وقت الدعوة بل في القيامة.

وأجيب بأن الكلام على هذا الوجه من قبيل قول الأمير كرم الله تعالى وجهه: إنما أكلت يوم أكل الثور الأحمر وقول عمرو بن عدس التميمي لمطلقته دختنوس بنت لقيط وقد سألته لبناً وكانت مقفرة من الزاد: الصيف ضيعت اللبن وذلك بأن يكون مجازاً بتنزيل وقوع السبب وهو كفرهم وقت الدعوة منزلة وقوع المسبب وهو مقتهم لأنفسهم حين معاينتهم ما حل بهم بسببه، وقيل: إن المراد عليه إذ تبين أنكم دعيتم إلى الإيمان المنحى والحق الحقيق بالقبول فأبيتم أو أن المراد بأنفسهم جنسهم من المؤمنين فإنهم كانوا يمقتون المؤمنين في الدنيا إذ يدعون إلى الإيمان وهو أبعد التأويلات؛ وقال مكي: ﴿إِذْ﴾ معمولة لاذكروا مضمراً والمراد التحير والتنديم واستحسنه بعضهم وأراه خلاف المتبادر. وادعى صاحب الكشف أن فيه تنافراً بيناً وعلله بما لم يظهر لي وجهه فتأمل.

وتفسير ﴿مقتكم أنفسكم﴾ بمقت كل واحد نفسه هو الظاهر، وجوز أن يراد به مقت بعضهم بعضاً فقيل: إن الأتباع يمقتون الرؤساء لما ورطوهم فيه من الكفر والرؤساء يمقتون الاتباع لما أنهم اتبعوهم فحملوا أوزاراً مثل أوزارهم فلا تغفل ﴿قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ﴾ صفتان لمصدري الفعلين، والتقدير أمتنا إماتتين اثنتين وأحييتنا إحياءتين اثنتين.

وجوز كون المصدرين موتتين وحياتين وهما إما مصدران للفعلين المذكورين أيضاً بحذف الزوائد أو مصدران لفعلين آخرين يدل عليهما المذكوران فإن الإماتة والإحياء ينبئان عن الموت والحياة حتماً فكأنه أمتنا فمتنا موتتين اثنتين وأحييتنا فحيينا حياتين اثنتين على طرز قوله:

وعض زمان يا ابن مروان لم يدع ... من المال إلا مسحت أو مجلف

أي لم يدع فلم يبق إلا مسحت الخ، واختلف في المراد بذلك فقيل: أرادوا بالإماتة الأولى خلقهم أمواتاً وبالثانية إماتتهم عند انقضاء آجالهم وبالإحياءة الأولى احياءتهم بنفخ الروح فيهم وهم في الأرحام وبالثانية احياءتهم بإعادة أرواحهم إلى أبدانهم للبعث. وأخرج هذا ابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس وجماعة منهم الحاكم وصححه عن ابن مسعود، وعبد بن حميد، وابن المنذر عن قتادة، وروي أيضاً عن الضحاك وأبي مالك وجعلوا ذلك نظير آية [البقرة: ٢٨] ﴿كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم﴾ والإماتة إن كانت حقيقة في جعل الشيء عادم الحياة سبق بحياة أم لا فالأمر ظاهر وإن كانت حقيقة في تصيير الحياة معدومة بعد أن كانت موجودة كما هو ظاهر كلامهم حيث قالوا: إن صيغة الأفعال وصيغة التفعيل موضوعتان للتصيير أي النقل من حال إلى حال ففي إطلاقها على ما عد اماتة أولى خفاء لاقتضاء ذلك سبق الحياة ولا سبق فيما ذكر، ووجه بأن ذلك من باب المجاز كما قرروه في ضيق فم الركية ووسع أسفلها قالوا: إن الصانع إذا اختار أحد الجائزين وهو متمكن منهما على السواء فقد صرف المصنوع الجائز عن الآخر فجعل صرفه عنه كنقله منه يعني أنه تجوز بالأفعال أو التفعيل الدال على التصيير وهو النقل من حال إلى حال أخرى عن لازمه وهو الصرف عما في حيز الإمكان، ويتبعه جعل الممكن الذي تجوز إرادته بمنزلة الواقع، وكذا جعل الأمر في ضيق فم الركية مثلاً بإنشائه على الحال الثانية بمنزلة أمره بنقله عن غيرها، ولذا جعله بعض الأجلة بمنزلة الاستعارة بالكناية فيكون مجازاً مرسلاً مستتبعاً للاستعارة بالكناية، فالمراد بالإماتة هناك الصرف لا النقل، وذكر بعضهم أنه لا بد من القول بعموم المجاز لئلا يلزم الجمع بين الحقيقة والمجاز في الآية أو استعمال المشترك في معنييه بناء على زعم أن الصيغة مشتركة بين الصرف والنقل، ومن أجاز ما ذكر لم يحتج للقول بذلك. وفي الكشف آثر جار الله أن إحدى الإماتتين ما ذكر في قوله تعالى: ﴿**وكنتم أمواتاً فأحياكم**﴾ وإطلاقها عليه من باب المجاز وهو مجاز مستعمل في القرآن، وقد ذكر وجه التجوز، وتحقيق ذلك يبتني على حرف واحد وهو أن الإحياء معناه جعل الشيء حياً فالمادة الترابية أو النطفية إذا أفيضت عليها الحياة صدق أنها صارت ذات حياة على الحقيقة إذ لا يحتاج إلى سبق موت على الحقيقة بل إلى سبق عدم الحياة فهناك إحياء حقيقة، وأما الإماتة فإن جعل بين الموت والحياة التقابل المشهوري استدعى المسبوقية بالحياة فلا تصح الإماتة قبلها حقيقة، وإن جعل التقابل الحقيقي صحت، لكن الظاهر في الاستعمال بحسب عرفي العرب والعجم أنه مشهوري انتهى، وأراد بالمشهوري والحقيقي ما ذكروه في التقابل بالعدم والملكة فإنهم قالوا: المتقابلان بالعدم والملكة وهما أمران يكون أحدهما وجودياً والآخر عدم ذلك الوجودي في موضوع قابل له إن اعتبر قبوله بحسب شخصه في وقت اتصافه بالأمر العدمي فهو العدم والملكة المشهوران كالكوسجية فإنها عدم اللحية عما من شأنه في ذلك الوقت أن يكون ملتحياً فإن الصبي لا يقال له كوسج، وإن اعتبر قبوله أعم من ذلك بأن لا يقيد بذلك الوقت كعدم اللحية عن الطفل أو يعتبر قبوله بحسب نوعه كالعمى للأكمه أو جنسه القريب كالعمى للعقرب أو البعيد كعدم الحركة الإرادية عن الجبل فإن جنسه البعيد أعني الجسم الذي هو فوق الجماد قابل للحركة الإرادية فهو العدم والملكة الحقيقيان لكن في بناء اقتضاء المسبوقية بالحياة وعدمه على ذلك خفاء، وإن ضم إليه التعبير بصيغة الماضي كما لا يخفى على المتدبر.

ثم وجه تسبب الإماتة مرتين والإحياء كذلك لقوله تعالى: ﴿**فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا**﴾ أنهم قد أنكروا البعث فكفروا وتبع ذلك من الذنوب ما لا يحصى لأن من لم يخش العاقبة تخرق في المعاصي فلما رأوا الإماتة والإحياء قد تكرر عليهم علموا بأن الله تعالى قادر على الإعادة قدرته على الإنشاء فاعترفوا بذنوبهم التي اقترفوها من إنكار البعث وما تبعه من معاصيهم.

وقال السدي: أرادوا بالإماتة الأولى إماتتهم عند انقضاء آجالهم وبالإحياءة الأولى احياءتهم في القبر للسؤال

وبالإماتة الثانية إماتتهم بعد هذه الإحياءة إلى قيام الساعة وبالإحياءة الثانية احياءتهم للبعث، واعترض عليه بأنه يلزم هذا القائل ثلاث إحياءات فكان ينبغي أن يكون المنزل أحييتنا ثلاثاً فإن ادعى عدم الاعتداد بالإحياءة المعروفة وهي التي كانت في الدنيا لسرعة انصرامها وانقطاع آثارها وأحكامها لزمه أن لا يعتد بالإماتة بعدها.

وقال بعض المحققين في الانتصار له: إن مراد الكفار من هذا القول اعترافهم بما كانوا ينكرونه في الدنيا ويكذبون الأنبياء حين كانوا يدعونهم إلى الإيمان بالله تعالى واليوم الآخر لأن قولهم هذا كالجواب عن النداء في قوله تعالى: ﴿ينادون لمقت الله﴾ كأنهم أجابوا أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام دعونا وكنا نعتقد أن لا حياة بعد الموت فالآن نعترف بالموتين والحياتين لما قاسينا من شدائدهما وأحوالهما فالذنب المعترف به تكذيب البعث، ولهذا جعل مرتباً على القول وإنما ذكروا الإماتتين ليذكروا الإحياءين إذ كلتا الحياتين كانتا منكرتين عندهم دون الحياة المعروفة ومقام هذه الآية غير مقام قوله تعالى: ﴿وكنتم أمواتاً فأحياكم﴾ فإن هذه كما سمعت لبيان الإقرار والاعتراف منهم في الآخرة بما أنكروه في الدنيا وتلك لبيان الامتنان الذي يستدعي شكر المنعم أو لبيان الدلائل لتصرفهم عن الكفر.

ويرجح هذا القول إن أمر إطلاق الإماتة على كلتا الإماتتين ظاهر. وتعقبه في الكشف بأنه لا قرينة في اللفظ تدل على خروج الإحياء الأول مع أن الإطلاق عليه أظهر والمقابلة تنادي على دخوله. ويكفي في الاعتراف إثبات احياء واحد منهما غير الأول، وقيل: إنما قالوا: ﴿أحييتنا اثنتين﴾ لأنهما نوعان إحياء البعث وإحياء قبله، ثم إحياء البعث قسمان إحياء في القبر وإحياء عند القيام ولم يذكر تقسيمه لأنهم كانوا منكرين لقسميه.

وتعذب أن ذكر الإماتة الثانية التي في القبر دليل على أن التقسيم ملحوظ، والمراد التعدد الشخصي لا النوعي نعم هذا يصلح تأييداً لما اختاره جار الله، وروي عن جمع من السلف من أن الإحياءات وإن كانت ثلاثاً إنما سكت عن الثانية لأنها داخلة في إحياءة البعث قاله صاحب الكشف ثم قال: وعلى هذا فالإماتة على مختار جار الله إماتة قبل الحياة وإماتة بعدها وطويت إماتة القبر كما طويت إحياءته ولك أن تقول إن الإماتة نوع واحد بخلاف الإحياء فروعي التعدد فيها شخصاً بخلافه، وذكر الإماتة الثانية لأنها منكرة عندهم كالحياتين، ويجب الاعتراف بها لا للدلالة على أن التعدد في الإحياء شخصي والحق أن ذلك وجه لكن قوله تعالى: ﴿اثنتين﴾ ظاهر في المرة فلذا آثر من آثر الوجه الأول وإن كانت الإماتة فيه غير ظاهرة ذهاباً إلى أن ذلك مجاز مستعمل في القرآن فتأمل.

وقال الإمام: إن أكثر العلماء احتجوا بهذه الآية في إثبات عذاب القبر وذلك أنهم أثبتوا لأنفسهم موتتين فإحدى الموتتين مشاهد في الدنيا فلا بد من إثبات حياة أخرى في القبر حتى يصير الموت الذي عقيبها موتاً ثانياً، وذلك يدل على حصول حياة في القبر، وأطال الكلام في تحقيق ذلك والانتصار له، والمنصف يرى أن عذاب القبر ثابت بالأحاديث الصحيحة دون هذه الآية لقيام الوجه المروي عمن سمعت أولاً فيها، وقد قيل: إنه الوجه لكنني أظن أن اختيار الزمخشري له لدسيسة اعتزالية، وقال ابن زيد في الآية أريد إحياؤهم نسماً عند أخذ العهد عليهم من صلب آدم ثم إماتتهم بعد ثم إحياؤهم في الدنيا ثم إماتتهم ثم إحياؤهم وهذا صريح في أن الإحياءات ثلاث، وقد أطلق فيه الإحياء الثالث؛ والأغلب على الظن أنه عنى به إحياء البعث، وقيل: التثنية في كلامهم مثلها في قوله تعالى: ﴿ثم أرجع البصر كرتين﴾ [الملك: ٤] مراد بها التكرير والتكثير فكأنهم قالوا: أمتنا مرة بعد مرة وأحييتنا مرة بعد مرة فعلمنا عظيم قدرتك وأنه لا يتعاصاها الإعادة كما لا يتعاصاها غيرها فاعترفنا بذنوبنا التي اقترفناها من إنكار ذلك، وحينئذ فلا عليك أن تعتبر الموت في صلب آدم ثم الإحياء لأخذ العهد ثم الإماتة ثم الإحياء بنفخ الروح في الأرحام ثم الإماتة عند انقضاء الأجل في الدنيا ثم الإحياء في القبر للسؤال أو لغيره ثم الإماتة فيه ثم الإحياء للبعث ولا يخفى أنه على ما فيه

إنما يتم لو كان المقول أمتنا إماتتين أو كرتين وأحييتنا احياءتين أو كرتين مثلاً دون ما في المنزل، فإن ﴿اثنتين﴾ فيه وصف لإماتتين ولإحياءتين وهو دافع لاحتمال إرادة التكثير كما قيل في ﴿إلهين اثنين﴾ [النحل: ٥١] وبناء الأمر على أن العدد لا مفهوم له لا يخلو عن بحث، ومن غرائب ما قيل في ذلك ما روي عن محمد بن كعب أن الكافر في الدنيا حي الجسد ميت القلب فاعتبرت الحالتان فهناك إماتة وإحياء للقلب والجسد في الدنيا ثم إماتتهم عند انقضاء الآجال ثم إحياؤهم للبعث، ومثل هذا يحكى ليطلع على حاله ﴿فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ﴾ أي إلى نوع خروج من النار أي فهل إلى خروج سريع أو بطيء أو من مكان منها إلى آخر أو إلى الدنيا أو غيرها ﴿مِنْ سَبِيلٍ﴾ طريق من الطرق فنسلكه مثل هذا التركيب يستعمل عند اليأس، وليس المقصود به الاستفهام وإنما قالوه من فرط قنوطهم تعللاً أو تحيراً ولذلك أجيبوا بذكر ما أوقعهم في الهلاك وهو قوله تعالى: ﴿ذَلِكُمْ﴾ الخ من غير جواب عن الخروج نفياً أو إثباتاً وإن كان الاستفهام على ظاهره، والمراد طلب الخروج نظير ﴿فأرجعنا نعمل صالحاً﴾ [السجدة: ١٢] ونحوه لقيل: ﴿اخسؤوا فيها﴾ [المؤمنون: ١٠٨] أو نحو ذلك كذا قيل، وجوز أن يكونوا طلبوا الرجعة ليعملوا بموجب ذلك الإعتراف لكن مع استبعاد لها واستشعار يأس منها والجواب إقناط لهم ببيان أنهم كانوا مستمرين على الشرك فجوزوا باستمرار العقاب والخلود في النار كما يقتضيه حكمه تعالى وذلك جواب بنفي السبيل إلى الخروج على أبلغ وجه، ولا أرى في هذا الوجه بأساً ويوشك أن يكون المتبادر، والمعنى ذلكم الذي أنتم فيه من العذاب ﴿بأنَّه﴾ أي بسبب أن الشأن ﴿إِذَا دُعِيَ اللَّهُ﴾ أي عبد سبحانه في الدنيا ﴿وَحْدَهُ﴾ أي متحداً منفرداً فهو نصب على الحال مؤول بمشتق منكر أو يوحد وحده على أنه مفعول مطلق لفعل مقدر على حد ﴿أنبتكم من الأرض نباتا﴾ [نوح: ١٧] والجملة بتمامها حال أيضاً حذفت وأقيم المصدر مقامها، وفيه كلام آخر مفصل في الوفدة وقد تقدم بعضه.

﴿كَفَرْتُمْ﴾ بتوحيدة تعالى أي جحدتم وأنكرتم ذلك ﴿وَإِنْ يُشْرَكْ به تُؤْمِنُوا﴾ بالإشراك أي تذعنوا وتقروا به، وفي إيراد ﴿إذا﴾ وصيغة الماضي في الشرطية الأولى و ﴿إن﴾ وصيغة المضارع في الثانية ما لا يخفى من الدلالة على سوء حالهم وحيث كان كذلك ﴿فَالْحُكْمُ لله﴾ الذي لا يحكم إلا بالحق ولا يقضي إلا بما تقتضيه الحكمة ﴿الْعَلِيِّ الكَبِيرِ﴾ المتصف بغاية العلوم نهاية الكبرياء فليس كمثله شيء في ذاته وصفاته وأفعاله، ولذا اشتدت سطوته بمن أشرك به واقتضت حكمته خلوده في النار فلا سبيل لخروجكم منها أبداً إذ كنتم مشركين. واستدلال الحرورية بهذه الآية على زعمهم الفاسد في غاية السقوط، ويكفي في الرد عليهم قوله تعالى: ﴿فابعثوا حكماً من أهله وحكماً من أهلها﴾ [النساء: ٣٥] الآية وقوله تعالى: ﴿يحكم به ذوا عدل منكم﴾ [المائدة: ٩٥] ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِه﴾ الدالة على شؤونه العظيمة الموجبة لتفرده بالألوهية لتستدلوا بها على ذلك وتعملوا بموجبها فإذا دعى سبحانه وحده تؤمنوا وإن يشرك به تكفروا، وهذه الآيات ما يشاهد من آثار قدرته عزَّ وجلّ:

وفي كل شيء له آية ... تدل على أنه واحد

﴿وَيُنَزِّلُ﴾ بالتشديد وقرىء بالتخفيف من الإنزال ﴿لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقاً﴾ أي سبب رزق وهو المطر، وإفراده بالذكر مع كونه من جملة تلك الآيات لتفرده بعنوان كونه من آثار رحمته وجلائل نعمته الموجبة للشكر، وصيغة المضارع في الفعلين للدلالة على تجدد الإراءة والتنزيل واستمرارهما، وتقديم الجار والمجرور على المفعول لما مر غير مرة ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ﴾ بتلك الآيات التي هي كالمركوزة في العقول لظهورها المغفول عنها للانهماك في التقليد واتباع الهوى ﴿إِلاَّ مَنْ يُنِيبُ﴾ يرجع عن الإنكار بالإقبال عليها والتفكر فيها، فإن الجازم بشيء لا ينظر فيما ينافيه فمن لا ينيب بمعزل عن التذكر ﴿فَادْعُوا اللَّهَ﴾ اعبدوه عزَّ وجلّ ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ من الشرك ﴿وَلَوْ كَرِهَ الكَافِرُونَ﴾ إخلاصكم وشق عليهم.

وظاهر كلام الكشاف أن ﴿ادعو﴾ الخ مسبب عن الإنابة وأن فيه التفاتاً حيث قال: ثم قال للمنيبين والأصل فليدع ذلك المنيب، على معنى إن صحت الإنابة على نحو فقد جئنا خراساناً، وقد وافق على كونه خطاباً لمن ذكر غير واحد. وفي الكشف التحقيق أن قوله تعالى: ﴿وما يتذكر﴾ الخ اعتراض وقوله سبحانه: ﴿فادعوا الله﴾ مسبب عن قوله تعالى: ﴿هو الذي يريكم﴾ على أنه خطاب يعم المؤمن والكافر لسبق ذكرهما لا للكفار وحدهم على نحو ﴿من مقتكم أنفسكم﴾ إذ ليس مما نودوا به يوم القيامة، والمعنى فادعوه فوضع الظاهر موضع المضمر ليتمكن فضل تمكن وليشعر بأن كونه تعالى هو المعبود بحق هو الذي يقتضي أن يعبد وحده. وفائدة الاعتراض أن هذه الآيات ودلالتها على اختصاصه سبحانه وحده بالعبادة بالنسبة إلى من ينيب لا المعاند.

وقوله في الكشاف: ثم قال للمنيبين إشارة أن فائدة تقديم الاعتراض أن الانتفاع بالآيات على هذا التقدير فكأنه مسبب عن الإنابة معنى لما كان تسبب السابق للاحق الإنابة، فهذا هو الوجه ولا يأباه تفسير ﴿ولو كره الكافرون﴾ بقوله: وإن غاظ ذلك أعداءكم فإنه للتنبيه على أن امتثال ذلك الأمر إنما يكون بعد إنابتهم وكأن قد حصل ذلك وحصل التضاد بينهم وبين الكافرين، وهو تحقيق حقيق بالقبول لكن في توجيه كلام الكشاف تكلف ظاهر ﴿رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ﴾ صفة مشبهة أضيفت إلى فاعلها من رفع الشيء بالضم إذا علا، وجوز أن يكون صيغة مبالغة من باب أسماء الفاعلين وأضيف إلى المفعول وفيه بعد، و ﴿الدرجات﴾ مصاعد الملائكة عليهم السلام إلى أن يبلغوا العرش أي رفيع درجات ملائكته ومعارجهم إلى عرشه.

وفسرها ابن جبير بالسماوات ولا بأس بذلك فإن الملائكة يعرجون من سماء إلى سماء حتى يبلغوا العرش إلا أنه جعل «رفيعاً» اسم فاعل مضافاً إلى المفعول فقال: أي رفع سماء فوق سماء والعرش فوقهن، وقد سمعت آنفاً أن فيه بعداً، ووصفه عزَّ وجلّ بذلك للدلالة على سبيل الإدماج على عزته سبحانه وملكوته جل شأنه.

ويجوز أن يكون كناية عن رفعة شأنة وسلطانه عز شأنه وسلطانه كما أن قوله تعالى: ﴿ذُو الْعَرْشِ﴾ كناية عن ملكه جل جلاله، ولا نظر في ذلك إلى أن له سبحانه عرشاً أو لا، فالكناية وإن لم تناف إرادة الحقيقة لكن لا تقتضي وجوب إرادتها فقد وقد؛ وعن ابن زيد أنه قال: أي عظيم الصفات وكأنه بيان لحاصل المعنى الكنائي، وقيل: هي درجات ثوابه التي ينزلها أولياءه تعالى يوم القيامة، وروي ذلك عن ابن عباس وابن سلام، وهذا أنسب بقوله تعالى: ﴿فادعوا الله مخلصين﴾ والمعنى الأول أنسب بقوله تعالى: ﴿يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِه﴾ لتضمنه ذكر الملائكة عليهم السلام وهم المنزلون بالروح كما قال سبحانه: ﴿ينزل الملائكة بالروح من أمره﴾ [النحل: ٢] وأياً ما كان ـ فرفيع الدرجات ـ و ﴿ذو العرش﴾ وجملة ﴿يلقي﴾ أخبار ثلاثة قيل: ـ لهو ـ السابق في قوله تعالى: ﴿هو الذي يريكم﴾ الخ واستبعده أبو حيان بطول الفصل، وقيل: لهو محذوفاً، والجملة كالتعليل لتخصيص العبادة وإخلاص الدين له تعالى، وهي متضمنة بيان إنزال الرزق الروحاني بعد بيان انزال الرزق الجسماني في ﴿ينزل لكم من السماء رزقاً﴾ فإن المراد بالروح على ما روي عن قتادة الوحي وعلى ما روي عن ابن عباس القرآن وذلك جار من القلوب مجرى الروح من الأجساد، وفسره الضحاك بجبريل عليه السلام وهو عليه السلام حياة القلوب باعتبار ما ينزل به من العلم.

وجوز ابن عطية أن يراد به كل ما ينعم الله تعالى به على عباده المهتدين في تفهيم الإيمان والمعقولات الشريفة وهو كما ترى، وقوله تعالى: ﴿من أمره﴾ قيل: بيان للروح، وفسر بما يتناول الأمر والنهي، وأوثر على لفظ الوحي للإشارة إلى أن اختصاص حياة القلوب بالوحي من جهتي التخلي والتحلي الحاصلين بالامتثال والانتهاء. وعن ابن عباس تفسير الأمر بالقضاء فجعلت ﴿من﴾ ابتدائية متعلقة بمحذوف وقع حالاً من ﴿الروح﴾ أي ناشئاً من أمره أو

صفة له على رأي من يجوز حذف الموصول مع بعض صلته أي الكائن من أمره، وفسره بعضهم بالملك وجعل ﴿من﴾ ابتدائية متعلقة بمحذوف وقع حالاً أو صفة على ما ذكر آنفاً، وكون الملك مبدأ للوحي لتلقيه عنه، ومن فسر الروح بجبريل عليه الصلاة والسلام قال: ﴿من﴾ سببية متعلقة ـ بيلقي ـ والمعنى ينزل الروح من أجل تبليغ أمره ﴿على من يشاء من عباده﴾ وهو الذي اصطفاه سبحانه لرسالته وتبليغ أحكامه إليهم، والاستمرار التجددي المفهوم من ﴿يلقي﴾ ظاهر فإن الإلقاء لم يزل من لدن آدم عليه السلام إلى انتهاء زمان نبينا ﷺ، وهو في حكم المتصل إلى قيام الساعة بإقامة من يقوم بالدعوة على ما روى أبو داود عن أبي هريرة عن النبي عليه الصلاة والسلام أنه قال: «إن الله تعالى يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها» أي بإحياء ما اندرس من العمل بالكتاب والسنة والأمر بمقتضاهما، وأمر ذلك التجدد على ما جوزه ابن عطية لا يحتاج إلى ما ذكر. وقرىء «رفيع» بالنصب على المدح ﴿لينذر﴾ علة للإلقاء، وضميره المستتر لله تعالى أو لمن وهو الملقى إليه أو للروح أو للأمر، وعوده على الملقى إليه وهو الرسول أقرب لفظاً ومعنى لقرب المرجع وقوة الإسناد فإنه الذي ينذر الناس حقيقة بلا واسطة، واستظهر أبو حيان رجوعه إليه تعالى لأنه سبحانه المحدث عنه، وقوله تعالى: ﴿يوم التلاق﴾ مفعول ـ لينذر ـ أو ظرف والمنذر به محذوف أي لينذر العذاب أو نحوه يوم التلاق، وقوله سبحانه: ﴿يوم هم بارزون﴾ بدل من ﴿يوم التلاق﴾ و﴿هم﴾ مبتدأ و ﴿بارزون﴾ خبر والجملة في محل جر بإضافة ﴿يوم﴾ إليها، قيل: وهذا تخريج على مذهب أبي الحسن من جواز إضافة الظرف المستقبل كإذا إلى الجملة الاسمية نحو أجيئك إذا زيد ذاهب، وسيبويه لا يجوز ذلك ويوجب تقدير فعل بعد الظرف يكون الاسم مرتفعاً به، وجوز أن يكون ﴿يوم﴾ ظرفاً لقوله تعالى: ﴿لا يخفى على الله منهم شيء﴾ والظاهر البدلية، وهذه الجملة استئناف لبيان بروزهم وتقرير له وإزاحة لما كان يتوهمه بعض المتوهمين في الدنيا من الاستتار توهماً باطلاً، وجوز أن تكون خبراً ثانياً ـ لهم ..

وقيل: هي حال من ضمير ﴿بارزون﴾ و ﴿يوم التلاق﴾ يوم القيامة سمي بذلك قال ابن عباس: لالتقاء الخلائق فيه، وقال مقاتل: لالتقاء الخالق والمخلوق فيه. وحكاه الطبرسي عن ابن عباس، وقال السدي: لالتقاء أهل السماء وأهل الأرض؛ وقال ميمون بن مهران: لالتقاء الظالم والمظلوم، وحكى الثعلبي أن ذلك لالتقاء كل امرىء وعمله، واختار بعض الآجلة ما قال مقاتل وقال: هو أولى الوجوه لما فيه من حمل المطلق على ما ورد في كثير من المواضع نحو ﴿فمن كان يرجو لقاء ربه. إن الذين لا يرجون لقاءنا وقال الذين لا يرجون لقاءنا﴾.

وقال صاحب الكشف: القول الأول وهو ما نقل عن ابن عباس أولاً أشبه لجريان الكلام فيه على الحقيقة ونفي ما يتوهم من المساواة بين الخالق والمخلوق واستقلال كل من البدلين بفائدة في التهويل لما في الأول من تصوير تلاقي الخلائق على اختلاف أنواعها، وفي الثاني من البروز لمالك أمرها بروزاً لا يبقى لأحد فيه شبهة. وأما نحو قوله تعالى: ﴿لقاء ربه﴾ [الكهف: ١١٠] فمسوق بمعنى آخر، و ﴿بارزون﴾ من برز وأصله حصل في براز أي فضاء، والمراد ظاهرون لا يسترهم شيء من جبل أو أكمة أو بناء لأن الأرض يومئذ قاع صفصف وليس عليهم ثياب إنما هم عراة مكشوفون كما جاء في الصحيحين عن ابن عباس «سمعت رسول الله ﷺ يقول: إنكم ملاقو الله حفاة عراة غرلاً» وقيل: المراد خارجون من قبورهم أو ظاهرة أعمالهم وسرائرهم، وقيل: ظاهرة نفوسهم لا تحجب بغواشي الأبدان مع تعلقها بها، ولا يقبل هذا بدون ثبت من المعصوم، والمراد بقوله تعالى: ﴿منهم﴾ على ما قيل: من أحوالهم وأعمالهم. وقيل: من أعيانهم، واختير التعميم أي لا يخفى عليه عز شأنه شيء ما من أعيانهم وأعمالهم وأحوالهم الجلية والخفية السابقة واللاحقة.

وقرأ أبي «لِيُنْذِرَ يَوْمُ» ببناء ينذر للفاعل ورفع يوم على الفاعلية مجازاً. وقرأ اليماني فيما ذكر صاحب اللوامح «لينذر» مبنياً للمفعول «يوم» بالرفع على النيابة عن الفاعل. وقرأ الحسن واليماني فيما ذكر ابن خالويه «لتنذر» بالتاء الفوقية فقيل: الفاعل فيه ضمير الخطاب للرسول ﷺ، وقيل: ضمير الروح لأنها تؤنث؛ وقوله تعالى: ﴿**لمن الملك اليوم لله الواحد القهار**﴾ حكاية لما يسأل عنه في ذلك اليوم ولما يجاب به بتقدير قول معطوف على ما قبله من الجملة المنفية المستأنفة أو مستأنف يقع جواباً عن سؤال نشأ من حكاية بروزهم وظهور أحوالهم كأنه قيل: فما يكون حينئذ؟ فقيل: يقال: ﴿**لمن الملك**﴾ الخ، وقوله تعالى:

ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٧﴾ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْـَٔازِفَةِ
إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَـٰظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا
تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ
ٱلْبَصِيرُ ﴿٢٠﴾ ۞ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا۟ هُمْ أَشَدَّ
مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٢١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ
كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَكَفَرُوا۟ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ
بِـَٔايَـٰتِنَا وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَقَـٰرُونَ فَقَالُوا۟ سَـٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا
جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ ٱقْتُلُوٓا۟ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُوا۟ نِسَآءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ
ٱلْكَـٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ
دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ
مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٧﴾ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَـٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا
أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَـٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا
يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ يَـٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ
ظَـٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا ۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ
إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَـٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ
نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَـٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾
يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن
قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ
رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ يُجَـٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَـٰنٍ

أَتَىٰهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾
وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ
وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ
إِلَّا فِى تَبَابٍ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا
هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا
وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ
حِسَابٍ ﴿٤٠﴾ ۞ وَيَٰقَوْمِ مَا لِىٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِىٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِى لِأَكْفُرَ
بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ
لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾
فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ
سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ
تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾ وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟
لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾

﴿اليوم تجزى كل نفس﴾ أي من النفوس البرة والفاجرة **﴿بما كسبت﴾** أي من خير أو شر **﴿لا ظلم اليوم﴾** بنقص الثواب وزيادة العقاب **﴿إن الله سريع الحساب﴾** أي سريع حسابه إذ لا يشغله سبحانه شأن عن شأن فيصل إلى المحاسب من النفوس ما يستحقه سريعاً. روي عن ابن عباس أنه تعالى إذا أخذ في حسابهم لم يقل أهل الجنة إلا فيها ولا أهل النار إلا فيها من تتمة الجواب جيء به لبيان إجمال فيه، والتذييل لتعليل ما قبله.

والمنادي بذلك سؤالاً وجواباً واحد. أخرج عبد بن حميد عن ابن مسعود قال: «يجمع الله تعالى الخلق يوم القيامة بصعيد واحد بأرض بيضاء كأنها سبيكة فضة لم يعص الله تعالى فيها قط ولم يخطأ فيها فأول ما يتكلم أن ينادي منادٍ ﴿لمن الملك اليوم لله الواحد القهار اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب﴾ فأول ما يبدؤون به من الخصومات الدماء» الحديث، وهو عند الحسن الله نفسه عزَّ وجلّ، وقيل: ملك، وقيل: السائل هو الله تعالى أو ملك والمجيب الناس.

وذكر الطيبي تقريراً لعبارة الكشاف أن قوله تعالى: **﴿اليوم تجزى﴾** الخ تعليل فيجب أن يكون السائل والمجيب هو الله عزَّ وجلّ، فإنه سبحانه لما سأل **﴿لمن الملك اليوم﴾** وأجاب هو سبحانه بنفسه **﴿لله الواحد القهار﴾** كان المقام موقع السؤال وطلب التعليل فأوقع **﴿اليوم تجزى﴾** جواباً عنه يعني إنما اختص الملك به تعالى لأنه وحده يقدر على مجازاة كل نفس بما كسبت وله العدل التام فلا يظلم أحداً وله التصرف فلا يشغله شأن عن شأن

فيسرع الحساب، ولو أوقع ﴿لله الواحد القهار﴾ جواباً عن أهل المحشر لم يحسن هذا الاستئناف انتهى، وفيه ما فيه.

والحق أن قوله تعالى: ﴿اليوم تجزى كل نفس﴾ الخ إن كان من كلام المجيب كما هو ظاهر حديث ابن مسعود بعد أن يكون من الناس، وجوز فيه أن لا يكون من تتمة الجواب بل هو حكاية لما سيقوله تعالى في ذلك اليوم عقيب السؤال والجواب. وأياً ما كان فتخصيص الملك به تعالى في ذلك اليوم إنما هو بالنظر إلى ظاهر الحال من زوال الأسباب وارتفاع الوسائط وظهور ذلك للكفرة والجهلة. وأما حقيقة الحال فناطقة بذلك دائماً. وذهب محمد بن كعب القرظي إلى أن السؤال والجواب منه تعالى ويكونان بين النفختين حين يفني عزَّ وجلّ الخلائق. وروي نحوه عن ابن عباس.

أخرج عبد بن حميد في زوائد الزهد وابن أبي حاتم والحاكم وصححه وأبو نعيم في الحلية عنه رضي الله تعالى عنه قال: «ينادي مناد بين يدي الساعة يا أيها الناس أتتكم الساعة فيسمعها الأحياء والأموات وينزل الله سبحانه إلى السماء الدنيا فيقول: لمن الملك اليوم لله الواحد القهار» والسياق ظاهر في أن ذلك يوم القيامة فلعله على تقدير صحة الحديث يكون مرتين. ومعنى جزاء النفوس بما كسبت أنها تجزى خيراً إن كسبت خيراً وشراً إن كسبت شراً. وقيل: إن النفوس تكتسب بالعقائد والأعمال هيئات توجب لذتها وألمها لكنها لا تشعر بها في الدنيا فإذا قامت قيامتها وزالت العوائق أدركت ألمها ولذتها. والظاهر أن هذا قول باللذة والألم الروحانيين ونحن لا ننكر حصولهما يومئذ لكن نقول: إن الجزاء لا ينحصر بهما بل يكون أيضاً بلذة وألم جسمانيين. فالاقتصار في تفسير الآية على ذلك قصور.

﴿وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الآزِفَةِ﴾ يوم القيامة كما قال مجاهد وقتادة وابن زيد، ومعنى ﴿الآزفة﴾ القريبة يقال: أزف الشخوص إذا قرب وضاق وقته، فهي في الأصل اسم فاعل ثم نقلت منه وجعلت اسماً للقيامة لقربها بالإضافة لما مضى من مدة الدنيا أو لما بقي فإن كل آت قريب، ويجوز أن تكون باقية على الأصل فتكون صفة لمحذوف أي الساعة الآزفة، وقدر بعضهم الموصوفة الخطة بضم الخاء المعجمة وتشديد الطاء المهملة وهي القصة والأمر العظيم الذي يستحق أن يخط ويكتب لغرابته، ويراد بذلك ما يقع يوم القيامة من الأمور الصعبة وقربها لأن كل آت قريب، والمراد باليوم الوقت مطلقاً أو هو يوم القيامة، وقال أبو مسلم: ﴿يوم الآزفة﴾ يوم المنية وحضور الأجل.

ورجح بأنه أبعد عن التكرار وأنسب بما بعده ووصف القرب منه أظهر ﴿إِذِ القُلُوبُ لَدَى الحَنَاجِرِ﴾ بدل من ﴿يوم الآزفة﴾ و ﴿الحناجر﴾ جمع حنجرة أو حنجور كحلقوم لفظاً ومعنى؛ وهي كما قال الراغب: رأس الغلصمة من خارج وهي لحمة بين الرأس والعنق، والكلام كناية عن شدة الخوف أو فرط التألم، وجوز أن يكون على حقيقته وتبلغ قلوب الكفار حناجرهم يوم القيامة ولا يموتون كما لو كان ذلك في الدنيا.

﴿كاظمينَ﴾ حال من أصحاب القلوب على المعنى فإن ذكر القلوب يدل على ذكر أصحابها فهو من باب ﴿ونزعنا ما في صدورهم من غل إخواناً﴾ [الحجر: ٤٧] فكأنه قيل: إذ قلوبهم لدى الحناجر كاظمين عليها، وهو من كظم القربة إذا ملأها وسد فاها، فالمعنى ممسكين أنفسهم على قلوبهم لئلا تخرج مع النفس فإن كاظم القربة كاظم على الماء ممسكها عليه لئلا يخرج امتلاء. وفيه مبالغة عظيمة، وجوز كونه حالاً من ضمير ﴿القلوب﴾ المستتر في الخبر أعني ﴿لدى الحناجر﴾ وعلى رأي من يجوز مجيء الحال من المبتدأ كونه حالاً من ﴿القلوب﴾ نفسها.

وجمع جمع العقلاء لتنزيلها منزلتهم لوصفها بصفتهم كما في قوله تعالى: ﴿فظلت أعناقهم لها خاضعين﴾

[الشعراء: ٤] والمعنى حال كون القلوب كاظمة على الغم والكرب، ومنه يعلم أنه لا يجوز أن يكون ﴿لدى الحناجر﴾ ظرف ﴿كاظمين ﴾ لفساد المعنى والحاجة إلى تقدير محذوف مع الغنى عنه، وكذلك على قراءة ﴿كاظمون ﴾ للأول فقط فيتعين كون ﴿لدى الحناجر ﴾ خبراً و ﴿كاظمون ﴾ خبراً آخر وبذلك يترجح كون الحال من القلوب، وقدر الكواشي هم كاظمون ليوافق وجه الحالية من الأصحاب، وجوز كونه حالاً من مفعول ﴿أنذرهم ﴾ أي أنذرهم مقدراً كظمهم أو مشارفين الكظم.

﴿مَا للظَّالمينَ منْ حَميم ﴾ أي قريب مشفق من احتم فلان لفلان احتد فكأنه الذي يحتد حماية لذويه ويقال لخاصة الرجل حامته ومن هنا فسر الحميم بالصديق ﴿وَلاَ شَفيع يُطَاعُ ﴾ أي ولا شفيع يشفع فالجملة في محل جر أو رفع صفة ﴿شفيع ﴾ والمراد نفي الصفة والموصوف لا الصفة فقط ليدل على أن ثم شفيعاً لكن لا يطاع فالكلام من باب:

لا ترى الضب بها ينجحر

ولم يقتصر على نفع الشفيع بل ضم إليه ما ضم ليقام انتفاء الموصوف مقام الشاهد على انتفاء الصفة فيكون ذلك الضم إزالة لتوهم وجود الموصوف حيث جعل انتفاؤه أمراً مسلماً مشهوراً لا نزاع فيه لأن الدليل ينبغي أن يكون أوضح من المدلول، وهذا كما تقول لمن عاتبك على القعود عن الغزو ما لي فرس أركبه وما معي سلاح أحارب به فليفهم، والضمائر المذكورة من قوله تعالى: ﴿وأنذرهم ﴾ إلى هنا إن كانت للكفار كما هو الظاهر فوضع الظالمين موضع ضميرهم للتسجيل عليهم بالظلم وتعليل الحكم، وإن كانت عامة لهم ولغيرهم فليس هذا من باب وضع الظاهر موضع الضمير وإنما هو بيان حكم للظالمين بخصوصهم، والمراد بهم الكاملون في الظلم وهم الكافرون لقوله تعالى: ﴿إن الشرك لظلم عظيم ﴾ [لقمان: ١٣] ﴿يَعْلَمُ خَائنَةَ الأَعْيُنِ ﴾ أي النظرة الخائنة كالنظرة إلى غير المحرم واستراق النظر إليه وغير ذلك ـ فخائنة ـ صفة لموصوف مقدر، وجعل النظرة خائنة إسناد مجازي أو استعارة مصرحة أو مكنية وتخييلية بجعل النظر بمنزلة شيء يسرق من المنظور إليه ولذا عبر فيه بالاستراق، ويجوز أن يكون خائنة مصدراً كالكاذبة والعاقبة والعافية أي يعلم سبحانه خيانة الأعين، وقيل: هو وصف مضاف إلى موصوفه كما في قوله:

وإن سقيت كرام الناس فاسقينا

أي يعلم سبحانه الأعين الخائنة ولا يحسن ذلك لقوله تعالى: ﴿وَمَا تُخْفي الصُّدُورُ ﴾ أي والذي تخفيه الصدور من الضمائر أو إخفاء الصدور لما تخفيه من ذلك لأن الملاءمة واجبة الرعاية في علم البيان وملائم الأعين الخائنة الصدور المخفية، وما قيل في عدم حسن ذلك من أن مقام المبالغة يقتضي أن يراد استراق العين ضم إليه هذه القرينة أولاً فغير قادح في التعليل المذكور إذ لا مانع من أن يكون على مطلوب دلائل ثم لولا القرينة لجاز أن تجعل الأعين تمهيداً للوصف فالقرينة هي المانعة وهذه الجملة على ما في الكشاف متصلة بأول الكلام خبر من أخبار هو في قوله تعالى: ﴿هو الذي يريكم ﴾ على معنى هو الذي يريكم الخ وهو يعلم خائنة الأعين ولم يجعله تعليلاً لنفي الشفاعة على معنى ما لهم من شفيع لأن الله تعالى يعلم منهم الخيانة سراً وعلانية قيل: لأنه لا يصلح تعليلاً لنفيها بل لنفي قبولها فإن الله تعالى هو العالم لا الشفيع والمقصود نفي الشفاعة، ووجه تقرير هذا الخبر في هذا الموضع ما فيه من التخلص إلى ذم آلهتهم مع أن تقديمه على ﴿ الذي يريكم ﴾ لا وجه له لتعلقه بما قبله أشد التعلق كما أشير إليه وكذلك على ﴿رفيع الدرجات ﴾ لاتصاله بالسابق وأمر المنيبين بالإخلاص ولما فيه من النبو من توسيط المنكر الفعلي بين المبتدأ وخبره المعرف الأسمى، وأما توسيطه بين القرائن الثلاث فبين العصا ولحائها فلا موضع له أحق من

هذا ولا يضر البعد اللفظي في مثل ذلك كما لا يخفى، وظن بعضهم ضرره فمنهم من قال: الجملة متصلة بمجموع قوله عزَّ وجل: ﴿وأنذرهم يوم الآزفة﴾ إلى آخره، وذلك أنه سبحانه لما أمر بإنذار ذلك اليوم وما يعرض فيه من شدة الكرب والغم وذكر تعالى أن الظالم لا يجد من يحميه من ذلك ولا من يشفع له ذكر جل وعلا اطلاعه على جميع ما يصدر من العبد وأنه مجازي بما عمل ليكون على حذر من ذلك اليوم إذا علم أن الله تعالى مطلع على أعماله وإلى هذا ذهب أبو حيان.

وقال ابن عطية: هي متصلة بقوله تعالى: ﴿سريع الحساب﴾ لأن سرعة حسابه تعالى للخلق إنما هي لعلمه تعالى الذي لا يحتاج معه إلى روية وفكر ولا لشيء مما يحتاجه المحاسبون، وحكى رحمه الله تعالى عن فرقة أنها متصلة بقوله تعالى: لا يخفى على الله منهم شيء ثم قال: وهذا قول حسن يقويه تناسب المعنيين ويضعفه البعد وكثرة الحائل، وجعلها بعض متصلة بنفي قبول الشفاعة الذي تضمنه قوله تعالى: ﴿ولا شفيع يطاع﴾ فإن ﴿يطاع﴾ المنفي بمعنى تقبل شفاعته على أنها تعليل لذلك أي لا تقبل شفاعة شفيع لهم لأن الله تعالى يعلم منه الخيانة سراً وعلانية وليست تعليلاً لنفي الشفاعة ليرد ما قيل، ولا يخفى ما فيه، ولعمري إن جار الله في مثل هذا المقام لا يجارى.

﴿وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ﴾ أي والذي هذه صفاته يقضي قضاء ملتبساً بالحق لا بالباطل لاستغنائه سبحانه عن الظلم، وتقديم المسند إليه للتقوى، وجوز أن يكون للحصر وفائدة العدول عن المضمر إلى المظهر والإتيان بالاسم الجامع عقيب ذكر الأوصاف ما أشير إليه من إرادة الموصوف بتلك الصفات.

﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ﴾ تهكم بآلهتهم لأن الجماد لا يقال فيه يقضي أو لا يقضي، وجعله بعضهم من باب المشاكلة وأصله لا يقدرون على شيء، واختير الأول قيل لأن التهكم أبلغ لأنه ليس المقصود الاستدلال على عدم صلاحيتهم للإلهية.

وقرأ أبو جعفر وشيبة ونافع بخلاف عنه. وهشام «تدعون» بتاء الخطاب على الالتفات، وجوز أن يكون على اضمار قل فلا يكون التفاتاً وإن عبر عنه بالغيبة قبله لأنه ليس على خلاف مقتضى الظاهر إذ هو ابتداء كلام مبني على خطابهم ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ تقرير لعلمه تعالى بخائنة الأعين وما تخفي الصدور وقضاؤه سبحانه بالحق ووعيد لهم على ما يقولون ويفعلون وتعريض بحال ما يدعون من دونه عزَّ وجلّ، وفيه إشارة إلى أن القاضي ينبغي أن يكون سميعاً بصيراً ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أي ما حال الذين كذبوا الرسل عليهم السلام قبلهم كعاد. وثمود، و ﴿ينظروا﴾ مجزوم على أنه معطوف على ﴿يسيروا﴾، وجوز أبو حيان كونه منصوباً في جواب النفي كما في قوله:

ألم تسأل فتخبرك الرسوم

وتعقب بأنه لا يصح تقديره بأن لم يسيروا ينظروا. وأجيب بأن الاستفهام إنكاري وهو في معنى النفي فيكون جواب نفي النفي ﴿كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ قدرة وتمكناً من التصرفات، والضمير المنفصل تأكيد للضمير المتصل قبله، وجوز كونه ضمير فصل ولا يتعين وقوعه بين معرفتين فقد أجاز الجرجاني وقوع المضارع بعده كما في قوله تعالى: ﴿إنه هو يبدىء ويعيد﴾ [البروج: ١٣] نعم الأصل الأكثر فيه ذلك، على أن أفعل التفضيل الواقع بعده من الداخلة على المفضل عليه مضارع للمعرفة لفظاً في عدم دخول أل عليه ومعنى لأن المراد به الأفضل باعتبار أفضلية معينة.

وجملة ﴿كانوا﴾ الخ مستأنفة في جواب كيف صارت أمورهم. وقرأ ابن عامر «منكم» بضمير الخطاب على

الالتفات. ﴿وَآثَاراً فِي الأَرْضِ﴾ عطف على قوة أي وأشد آثاراً في الأرض مثل القلاع المحكمة والمدائن الحصينة، وقد حكى الله تعالى عن قوم منهم أنهم كانوا ينحتون من الجبال بيوتاً.

وجوز كونه عطفاً على ﴿أشد﴾ بتقدير محذوف أي وأكثر آثاراً فتشمل الآثار القوية وغيرها، وهو ارتكاب خلاف المتبادر من غير حاجة يعتد بها، وقيل: المراد بهذه الآثار آثار أقدامهم في الأرض لعظم أجرامهم وليس بشيء أصلاً ﴿فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللهِ من وَاقٍ﴾ أي وليس لهم واق من الله تعالى يقيهم ويمنع عنهم عذابه تعالى أبداً، فكان للاستمرار والمراد استمرار النفي لا نفي الاستمرار، ومن الثانية زائدة ومن الأولى متعلقة بواق، وقدم الجار والمجرور للاهتمام والفاصلة لأن اسم الله تعالى قيل: لم يقع مقطعاً للفواصل. وجوز أن تكون من الأولى للبدلية أي ما كان لهم بدلاً من المتصف بصفات الكمال واق وأريد بذلك شركاؤهم، وأن تكون ابتدائية تنبيهاً على أن الأخذ في غاية العنف لأنه إذا لم يتبدىء من جهته سبحانه واقية لم يكن لهم باقية ﴿ذَلِكَ﴾ الأخذ ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ أي بسبب أنهم ﴿كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالبَيِّنَاتِ﴾ بالمعجزات والأحكام الواضحة ﴿فَكَفَرُوا﴾ ريثما أتتهم رسلهم بذلك ﴿فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ﴾ متمكن مما يريده عزّ وجلّ غاية التمكن ﴿شَدِيدُ العِقَابِ﴾ لا يعتد بعقاب عند عقابه سبحانه، وهذا بيان للإجمال في قوله تعالى: ﴿فأخذهم الله بذنوبهم﴾ إن كانت الباء هناك سببية وبيان لسبب الأخذ إن كانت للملابسة أي أخذهم ملابسين لذنوبهم غير تائبين عنها فتأمل ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا﴾ وهي معجزاته عليه السلام ﴿وَسُلْطَانٍ مبِينٍ﴾ حجة قاهرة ظاهرة، والمراد بذلك قيل ما أريد بالآيات ونزل تغاير الوصفين منزلة تغاير الذاتين فعطف الثاني على الأول، وقيل: المراد به بعض من آياته له شأن كالعصا، وعطف عليها تفخيماً لشأنه كما عطف جبريل وميكال عليهما السلام على الملائكة.

وتعقب بأن مثله إنما يكون إذا غير الثاني بعلم أو نحوه أما مع إبهامه ففيه نظر، وحكى الطبرسي أن المراد بالآيات حجج التوحيد وبالسلطان المعجزات الدالة على نبوته عليه السلام، وقيل الآيات المعجزات والسلطان ما أوتيه عليه السلام من القوة القدسية وظهورها باعتبار ظهور آثارها من الإقدام على الدعوة من غير اكتراث. وقرأ عيسى «سُلُطَان» بضم اللام ﴿إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ﴾ وزير فرعون، وزعم اليهود أنه لم يكن لفرعون وزير يدعى هامان وإنما هامان ظالم جاء بعد فرعون بزمان مديد ودهر داهر نفي جاءهم من اختلال أمر كتبهم وتواريخ فرعون لطول العهد وكثرة المحن التي ابتلوا بها فاضمحلت منها أنفسهم وكتبهم.

﴿وَقَارُونَ﴾ قيل هو الذي كان من قوم موسى عليه السلام، وقيل: هو غيره وكان مقدم جنود فرعون، وذكرهما من بين أتباع فرعون لمكانتهما في الكفر وكونهما أشهر الأتباع.

وفي ذكر قصة الإرسال إلى فرعون ومن معه وتفصيل ما جرى تسلية لرسول الله ﷺ وبيان لعاقبة من هو أشد الذين كانوا من قبل وأقربهم زماناً ولذا خص ذلك بالذكر، ولا بعد في كون فرعون وجنوده أشد من عاد ﴿فَقَالُوا سَاحِرٌ﴾ أي هو يعنون موسى عليه السلام ساحر فيما أظهر من المعجزات ﴿كَذَّابٌ﴾ في دعواه أنه رسول من رب العالمين ﴿فَلَمَّا جَاءَهُم بِالحَقِّ مِنْ عِندِنَا﴾ وبلغهم أمر الله تعالى غير مكترث بقولهم ساحر كذاب ﴿قَالُوا﴾ غيظاً وحنقاً وعجزاً عن المعارضة ﴿اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ﴾ أي أعيدوا عليهم ما كنتم تفعلونه بهم أولاً كي تصدوهم عن مظاهرة موسى عليه السلام، فالأمر بالقتل والاستحياء وقع مرتين. المرة الأولى حين أخبرت الكهنة والمنجمون في قول فرعون بمولود من بني إسرائيل يسلبه ملكه، والمرة الثانية هذه، وضمير ﴿قالوا﴾ لفرعون ومن معه.

وقيل: إن قارون لم يصدر منه هذه المقالة لكنهم غلبوا عليه ﴿وَمَا كَيْدُ الكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلال﴾ في ضياع من ضلت الدابة إذا ضاعت، والمراد أنه لا يفيدهم شيئاً فالعاقبة للمتقين، واللام إما للعهد والإظهار في موقع الإضمار لذمهم بالكفر والإشعار بعلة الحكم أو للجنس والمذكورون داخلون فيه دخولاً أولياً، والجملة اعتراض جيء به في تضاعيف ما حكي عنهم من الأباطيل للمسارعة إلى بيان بطلان ما أظهروه من الإبراق والإرعاد واضمحلاله بالمرة.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنَ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى﴾ كان إذا هم بقتله كفّوه بقولهم: ليس بالذي تخافه وهو أقل من ذلك وأضعف وما هو إلا ساحر يقاومه ساحر مثله وأنك إذا قتلته أدخلت الشبهة على الناس واعتقدوا أنك عجزت عن مظاهرته بالحجة، والظاهر أنه لعنه الله تعالى استيقن أنه عليه السلام نبي ولكن كان فيه خب وجربزة وكان قتالاً سفاكاً للدماء في أهون شيء فكيف لا يقتل من أحسن منه بأنه الذي يثل عرشه ويهدم ملكه ولكنه يخاف إن هم بقتله أن يعاجل بالهلاك فقوله: ﴿ذروني﴾ الخ كان تمويهاً على قومه وإيهاماً أنهم هم الذين يكفونه وما كان يكفه إلا ما في نفسه من هول الفزع ويرشد إلى ذلك قوله: ﴿وَلْيَدْعُ رَبَّهُ﴾ لأن ظاهره الاستهانة بموسى عليه السلام بدعائه ربه سبحانه كما يقال: ادع ناصرك فإني منتقم منك، وباطنه أنه كان يرعد فرائصه من دعاء ربه فلهذا تكلم به أول ما تكلم وأظهر أنه لا يبالي بدعاء ربه وما هو إلا كمن قال: ذروني أفعل كذا وما كان فليكن وإلا فما لمن يدعى أنه ربهم إلا على أن يجعل لما يدعيه موسى عليه السلام وزناً فيتفوه به تهكماً أو حقيقة ﴿إِنِّي أَخَافُ﴾ إن لم أقتله ﴿أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ﴾ أن يغير حالكم الذي أنتم عليه من عبادتي وعبادة الأصنام وكان عليه اللعنة قد أمرهم بنحتها وأن تجعل شفعاء لهم عنده كما كان كفار مكة يقولون: ﴿هؤلاء شفعاؤنا عند الله﴾ [يونس: ١٨] ولهذا المعنى أضافوا الآلهة إليه في قولهم: ﴿ويذرك وآلهتك﴾ [الأعراف: ١٢٧] فهي إضافة تشريف واختصاص وهذا ما ذهب إليه بعض المفسرين، وقال ابن عطية: الدين السلطان ومنه قول زهير:

لئن حللت بحي من بني أسد ... في دين عمرو وحالت بيننا فدك

أي إني أخاف أن يغير سلطانكم ويستذلكم ﴿أَوْ أَنْ يُظْهِرَ﴾ إن لم يقدر على تغيير دينكم بالكلية ﴿فِي الأَرْضِ الفَسَادَ﴾ وذلك بالتهارج الذي يذهب معه الأمن وتتعطل المزارع والمكاسب ويهلك الناس قتلاً وضياعاً فالفساد الذي عناه فساد دنياهم، فيكون حاصل المعنى على ما قرر أولاً أني أخاف أن يفسد عليكم أمر دينكم بالتبديل أو يفسد عليكم أمر دنياكم بالتعطيل وهما أمران كل منهما مر، ونحو هذا يقال على المعنى الثاني للدين، وعن قتادة أن اللعين عنى بالفساد طاعة الله تعالى: وقرأ أهل المدينة وأبو عمرو و «وأن» الواو الواصلة.

وقرأ الأعرج والأعمش وابن وثاب وعيسى وابن كثير وابن عامر والكوفيون غير حفص ﴿يظهر﴾ بفتح الياء والهاء «الفسادُ» بالرفع. وقرأ مجاهد «يُظَّهَّر» بتشديد الظاء والهاء «الفسادُ» بالرفع. وقرأ زيد بن علي «يُظْهَرُ» بضم الياء وفتح الهاء مبنياً للمفعول «الفسادُ» بالرفع.

﴿وَقَالَ مُوسَى﴾ لما سمع بما أجراه اللعين من حديث قتله ﴿إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الحِسَابِ﴾ قاله عليه السلام مخاطباً به قومه على ما ذهب إليه غير واحد، وذلك أنه لما كان القول السابق من فرعون خطاباً لقومه على سبيل الاستشارة وإجالة الرأي لا بمحضر منه عليه السلام كان الظاهر أن موسى عليه السلام أيضاً خاطب قومه لا فرعون وحاضريه بذلك، ويؤيده قوله تعالى: وفي [الأعراف: ١٢٨] ﴿وقال موسى لقومه استعينوا﴾ في هذه القصة بعينها، وقوله تعالى هنا: ﴿وربكم﴾ فإن فرعون ومن معه لا يعتقدون ربوبيته تعالى واردة أنه تعالى كذلك في نفس الأمر لا يضر في كونه مؤيداً لأن التأييد مداره الظاهر، وصدر الكلام بأن تأكيداً وتنبيهاً على أن

السبب المؤكد في دفع الشر هو العياذ بالله تعالى، وخص اسم الرب لأن المطلوب هو الحفظ، والتربية وأضافه إليه وإليهم حثاً لهم على موافقته في العياذ به سبحانه والتوجه التام بالروح إليه جل شأنه لما في تظاهر الأرواح من استجلاب الإجابة، وهذا هو الحكمة في مشروعية الجماعة في العبادات، و ﴿من كل﴾ على معنى من شر كل وارداً بالتكبير الاستكبار عن الإذعان للحق وهو أقبح استكبار وأدله على دناءة ومهانة نفسه وعلى فرط ظلمه وعسفه، وضم إليه عدم الإيمان بيوم الجزاء ليكون أدل وأدل، فمن اجتمع فيه التكبر والتكذيب بالجزاء وقلة المبالاة بالعاقبة فقد استكمل أسباب القسوة والجراءة على الله تعالى وعباده ولم يترك عظيمة إلا ارتكبها، واختير المنزل دون منه سلوكاً لطريق التعريض لأنه كلام وارد في عرضهم فلا يلبسون جلد النمر إذا عرض عليهم مع ما في ذلك من الدلالة على علة الاستعاذة ورعاية حتى تربية اللعين له عليه السلام في الجملة. وقرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي «عت» بإدغام الذال المعجمة في التاء بعد قلبها تاء ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ قيل كان قبطياً ابن عم فرعون وكان يجري مجرى ولي العهد ومجرى صاحب الشرطة، وقيل: كان إسرائيلياً، وقيل: كان غريباً ليس من الفئتين، ووصفه على هذين القولين بكونه من آل فرعون باعتبار دخوله في زمرتهم وإظهار أنه على دينهم وملتهم تقية وخوفاً، ويقال نحو هذا في الإضافة في مؤمن آل فرعون الواقع في عدة أخبار، وقيل: ﴿من آل فرعون﴾ على القولين متعلق بقوله تعالى: ﴿يَكْتُمُ إِيمَانَهُ﴾ والتقديم للتخصيص أي رجل مؤمن يكتم إيمانه من آل فرعون دون موسى عليه السلام ومن اتبعه، ولا بأس على هذا في الوقت على مؤمن. واعترض بأن كتم يتعدى بنفسه دون من فيقال: كتمت فلاناً كذا دون كتمت من فلان قال الله تعالى: ﴿ولا يكتمون الله حديثاً﴾ [النساء: ٤٢] وقال الشاعر:

كتمتك ليلاً بالجمومين ساهراً ... وهمين هما مستكناً وظاهرا
أحاديث نفس تشتكي ما يريبها ... وورد هموم لن يجدن مصادرا

وأراد على مافي البحر كتمتك أحاديث نفس وهمين، وفيه أنه صرح بعض اللغويين بتعديه بمن أيضاً قال في المصباح كتم من باب قتل يتعدى إلى مفعولين ويجوز زيادة من في المفعول الأول فيقال: كتمت من زيد الحديث كما يقال: بعته الدار وبعتها منه. نعم تعلقه بذلك خلاف الظاهر بل الظاهر تعلقه بمحذوف وقع صفة ثانية لرجل، والظاهر على هذا كونه من آل فرعون حقيقة وفي كلامه المحكي عنه بعد ما هو ظاهر في ذلك واسمه قيل: شمعان بشين معجمة، وقيل: خربيل بخاء معجمة مكسورة وراء مهملة ساكنة، وقيل: حزبيل بحاء مهملة وزاي معجمة، وقيل: حبيب.

وقرأ عيسى وعبد الوارث وعبيد بن عقيل وحمزة بن القاسم عن أبي عمروة «رَجْل» بسكون الجيم وهي لغة تميم ونجد ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً﴾ أي أتقصدون قتله فهو مجاز ذكر فيه المسبب وأريد السبب، وكون الإنكار لا يقتضي الوقوع لا يصححه من غير تجوز ﴿أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ﴾ أي لأن يقول ذلك ﴿وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ الشاهدة على صدقه من المعجزات، والاستدلالات الكثيرة وجمع المؤنث السالم وإن شاع أنه للقلة لكنه إذا دخلت عليه أل يفيد الكثرة بمعونة المقام. والجملة حالية من الفاعل أو المفعول، وهذا إنكار من ذلك الرجل عظيم وتبكيت لهم شديد كأنه قال: أترتكبون الفعلة الشنعاء التي هي قتل نفس محرمة وما لكم عليه في ارتكابها إلا كلمة الحق التي نطق بها وهي قوله: ﴿ربي الله﴾ مع أنه قد جاءكم بالبينات ﴿مِن رَّبِّكُمْ﴾ أي من عند من نسب إليه الربوبية وهو ربكم لا ربه وحده، وهذا استدراج إلى الاعتراف وفي ﴿أن يقول ربي الله ـــ إلى ـ من ربكم﴾ نكتة جليلة وهي أن من يقول ربي الله أو فلان لا يقتضي أن يقابل بالقتل كما لا تقابلون بالقتل إذا قلتم: ربنا فرعون كيف وقد جعل ربه من هو ربكم فكان عليكم بأن تعزروه وتوقروه لا أن تخذلوه وتقتلوه، وجوز الزمخشري كون ﴿أن يقول﴾ على تقدير مضاف أي

وقت أن يقول فحذف الظرف فانتصب المضاف إليه على الظرفية لقيامه مقامه، والمعنى أتقتلونه ساعة سمعتم منه هذا القول من غير روية ولا فكر في أمره، ورده أبو حيان بأن القائم مقام الظرف لا يكون إلا المصدر الصريح كجئت صياح الديك أو ما كان بما الدوامية دون الغير الصريح كجئت أن صاح أو أن يصيح الديك، وفيه إن ابن جني كالزمخشري صرح بالجواز وكل إمام. ثم إن الرجل احتاط لنفسه خشية أن يعرف اللعين حقيقة أمره فيبطش به فتلطف به الاحتجاج فقال: ﴿وَإِنْ يَكُ كَاذِباً فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ﴾ لا يتخطاه وبال كذبه فيحتاج في دفعه إلى قتله ﴿وَإِنْ يَكُ صَادِقاً يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ﴾ فلا أقل من أن يصيبكم بعض الذي يعدكم به أو يعدكموه، وفيه مبالغة في التحذير فإنه إذا حذرهم من إصابة البعض أفاد أنه مهلك مخوف فما بال الكل وإظهار للإنصاف وعدم التعصب ولذا قدم احتمال كونه كاذباً، وقيل: المراد يصبكم ما يعدكم من عذاب الدنيا وهو بعض مواعيده كأنه خوفهم بما هو أظهر احتمالاً عندهم، وقيل: بعض بمعنى كل وانشدوا لذلك قول عمرو القطامي:

قد يدرك المتأني بعض حاجته ... وقد يكون مع المستعجل الزلل

وذهب الزجاج إلى أن ﴿بعض﴾ فيه على ظاهره، والمراد إلزام الحجة وإبانة فضل المتأني على المستعجل بما لا يقدر الخصم أن يدفعه فالبيت كالآية على الوجه الأول، وأنشدوا لمجيء بعض بمعنى كل قول الشاعر:

إن الأمور إذا الأحداث دبرها ... دون الشيوخ قرى في بعضها خللا

ولا يتعين فيه ذلك كما لا يخفى، وعن أبي عبيدة أنه فسر البعض بالكل أيضاً وأنشد قول لبيد:

تراك أمكنة إذا لم أرضها ... أو يرتبط بعض النفوس حمامها

حمل البيت على معنى لا أزال أنتقل في البلاد إلى أن لا يبقى أحد أقصده من العباد، والمحققون على أن البعض فيه على ظاهره والمراد به نفسه، والمعنى لا أزال أترك ما لم أرضه من الأمكنة إلا أن أموت، وقال الزمخشري: إن صحت الرواية عن أبي عبيدة في ذلك فقد حق فيه قول المازني في مسألة العلقي كان أجفى من أن يفقه ما أقول له، وفيه مبالغة في الرد ﴿أَنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ احتجاج آخر ذو وجهين. أحدهما أنه لو كان مسرفاً كذاباً لما هداه الله تعالى إلى البينات ولما عضده بتلك المعجزات. وثانيهما إن كان كذلك خذله الله تعالى وأهلكه فلا حاجة لكم إلى قتله، ولعله أراد به المعنى الأول وأوهمهم أنه أراد الثاني لتلين شكيمتهم؛ وعرض لفرعون بأنه مسرف أي في القتل والفساد كذاب في ادعاء الربوبية لا يهديه الله تعالى سبيل الصواب ومنهاج النجاة، فالجملة مستأنفة متعلقة معنى بالشرطية الأولى أو بالثانية أو بهما ﴿يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ﴾ غالبين عالين على بني إسرائيل ﴿فِي الأَرْضِ﴾ أي في أرض مصر لا يقاومكم أحد في هذا الوقت ﴿فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللهِ﴾ من أخذه وعذابه سبحانه ﴿إِنْ جَاءَنَا﴾ أي فلا تفسدوا أمركم ولا تتعرضوا لبأس الله تعالى بقتله فإنه إن جاءنا لم يمنعنا منه أحد، فالفاء في ـ فمن ـ الخ فصيحة والاستفهام إنكاري، وإنما نسب ما يسرهم من الملك والظهور في الأرض إليهم خاصة ونظم نفسه في سلكهم فيما يسؤهم من مجيء بأس الله تعالى تطيبياً لقلوبهم وإيذاناً بأنه مناصح لهم ساع في تحصيل ما يجديهم ودفع ما يرديهم سعيه في حق نفسه ليتأثروا بنصحه.

﴿قَالَ فِرْعَوْنَ﴾ بعد ما سمع ذلك ﴿مَا أُرِيكُمْ﴾ أي ما أشير عليكم ﴿إِلاَّ مَا أَرَى﴾ إلا الذي أراه وأستصوبه من قتله يعني لا أستصوب إلا قتله وهو الذي تقولونه غير صواب ﴿وَمَا أَهْدِيكُمْ﴾ بهذا الرأي ﴿إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ طريق الصواب والصلاح أو ما أعلمكم إلا ما أعلم من الصواب ولا أدخر منه شيئاً ولا أسر عنكم خلاف ما أظهر يعني

أن لسانه وقلبه متواطئان على ما يقول، وقد كذب عدو الله فقد كان مستشعراً للخوف الشديد من جهة موسى عليه السلام لكنه كان يتجلد ولولا استشعاره لم يستشر أحداً، وعن معاذ بن جبل والحسن أنهما قرءا «الرشَّاد» بشد الشين على أنه فعال للمبالغة من رشد بالكسر كعلام من علم أو من رشد بالفتح كعباد من عبد.

وقيل: هو من أرشد المزيد كجبار من أجبر، وتعقب بأن فعالاً لم يجيء من المزيد إلا في عدة أحرف نحو جبار ودراك وقصار وسار ولا يحسن القياس على القليل مع أنه ثبت في بعضه كجبار سماع الثلاثي فلا يتعين كونه من المزيد فقد جاء جبره على كذا كأجبره وقصار كجبار عند بعض لا يتعين كونه من أقصر لمجيء قصر عن الشيء كأقصر عنه، وحكي عن الجوهري أن الاقصار كف مع قدرة والقصر كف مع عجز فلا يتم هذا عليه، وأما دراك وسآر فقد خرجا على حذف الزيادة تقديراً لا استعمالاً كما قالوا: أبقل المكان فهو باقل وأورس الرمث فهو وارس، قال ابن جني: وعلى هذا خرج الرشاد فيكون من رشد بمعنى أرشد تقديراً لا استعمالاً فإن المعنى على ذلك، ثم قال: فإن قيل إذا كان المعنى على أرشد فكيف أجزت أن يكون من رشد المكسور أو من رشد المفتوح؟ قيل: المعنى راجع إلى أنه مرشد لأنه إذا رشد أرشد لأن الإرشاد من الرشد فهو من باب الاكتفاء بذكر السبب عن المسبب انتهى، وقيل: أجيز ذلك لأن المبالغة في الرشد تكون بالإرشاد كما قرروا في قيوم وطهور.

وقال بعض المحققين: إن رشد بمعنى اهتدى فالمعنى ما أهديكم إلا سبيل من اهتدى وعظم رشده فلا حاجة إلى ما سمعت، وإنما يحتاج إليه لو وجب كون المعنى ما أهديكم إلا سبيل من كثر ارشاده ومن أين وجب ذلك؟ وجوز كون فعال في هذه القراءة للنسبة كما قالوا: عواج لبياع العاج وبتات لبياع البت وهو كساء غليظ، وقيل: طيلسان من خز أو صوف، وأنكر بعضهم كون القراءة على صيغة فعال في كلام فرعون وإنما هي في قول الذي آمن يا قوم اتبعون أهدكم سبيل الرشاد، فإن معاذ بن جبل كان كما قال أبو الفضل الرازي وأبو حاتم يفسر ﴿**سبيل الرشاد**﴾ على قراءته بسبيل الله تعالى وهو لا يتسنى في كلام فرعون كما لا يخفى، وستعلم إن شاء الله تعالى أن معاذاً قرأ كذلك في قول المؤمن فلعل التفسير بسبيل الله عزَّ وجلّ كان فيه دون كلام فرعون والله تعالى أعلم.

﴿**وَقَالَ الَّذي آمَنَ**﴾ الجمهور على أنه الرجل المؤمن الكاتم إيمانه القائل: ﴿**أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله**﴾ قوى الله تعالى نفسه وثبت قلبه فلم يهب فرعون ولم يعبأ به فأتى بنوع آخر من التهديد والتخويف فقال: ﴿**يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الأَحْزَابِ**﴾ إلى آخره، وقالت فرقة: كلام ذلك المؤمن قد تم، والمراد بالذي آمن هنا هو موسى نفسه عليه السلام، واحتجت بقوة كلامه، وعلى الأول المعول أي قال ناصحاً لقومه: يا قوم إني أخاف عليكم في تكذيب موسى عليه السلام والتعرض له بالسوء أن يحل بكم مثل ما حل بالذين تحزبوا على أنبيائهم من الأمم الماضية، واليوم واحد الأيام بمعنى الوقائع وقد كثر استعمالها بذلك حتى صار حقيقة عرفية أو بمعناها المعروف لغة، والكلام عليه على حذف مضاف أي مثل حادث يوم الأحزاب.

وأياً ما كان فالظاهر جمع اليوم لكن جمع الأحزاب المضاف هو إليه مع التفسير بما بعد أغنى عن جمعه، والمعنى عليه ورجح الأفراد بالخفة والاختصار، وقال الزجاج: المراد يوم حزب حزب بمعنى أن جمع حزب مراد به شمول أفراده على طريق البدل وهو تأويل في الثاني وما تقدم أظهر.

﴿**مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ**﴾ أي مثل جزاء دأبهم أي عادتهم الدائمة من الكفر وإيذاء الرسل، وقدر المضاف لأن المخوف في الحقيقة جزاء العمل لا هو، وجاء هذا من نصب ﴿**مثل**﴾ الثاني على أنه عطف بيان لمثل الأول لأن آخر ما تناولته الإضافة قوم نوح، ولو قلت: أهلك الله الأحزاب قوم نوح وعاد وثمود لم يكن إلا عطف بيان

لإضافة قوم إلى أعلام فسرى ذلك الحكم إلى أول ما تناولته الإضافة.

وقال ابن عطية: هو بدل من ﴿مثل﴾ الأول، والاحتياج إلى تقدير المضاف على حاله ﴿وَالَّذينَ منْ بَعْدهمْ﴾ كقوم لوط ﴿وَمَا اللَّهُ يريدُ ظُلْماً للْعبَاد﴾ أي فما فعل سبحانه بهؤلاء الأحزاب لم يكن ظلماً بل كان عدلاً وقسطاً لأنه عزَّ وجلّ أرسل إليهم رسلهم بالبينات فكذبوهم وتحزبوا عليهم فاقتضى ذلك اهلاكهم، وهذا أبلغ من قوله تعالى: ﴿وما ربك بظلام العبيد﴾ [فصلت: ٤٦] من حيث جعل المنفى فيه إرادة الظلم لأن من كان عن إرادة الظلم بعيداً كان عن الظلم نفسه أبعد، وحيث نكر الظلم كأنه نفي أن يريد ظلماً ما لعباده، ويجوز الزمخشري أن يكون معناه كمعنى قوله تعالى: ﴿ولا يرضى لعباده الكفر﴾ [الزمر: ٧] أي لا يريد سبحانه لهم أن يظلموا يعني أنه عزَّ وجلّ دمرهم لأنهم كانوا ظالمين، ولا يخفى أن هذا المعنى مرجوح لفظاً ومعنى، ثم لا حجة فيه للمعتزلة لثبوت الفرق بين أراده منه وأراده له فلو سلم أنه سبحانه لا يريد لهم أن يظلموا لم يلزم أن لا يريده منهم والممتنع عند أهل السنة هو هذا فلا احتياج إلى صرف الآية عن الظاهر عندهم أيضاً.

﴿وَيَا قَوْم إنِّي أخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّناد﴾ خوفهم بالعذاب الأخروي بعد تخويفهم بالعذاب الدنيوي، والتناد مصدر تنادى القوم أي نادى بعضهم بعضاً، ويوم التناد يوم القيامة سمي بذلك لأنه ينادي فيه بعضهم بعضاً للاستغاثة أو يتصايحون فيه بالويل والثبور أو لتنادي أهل الجنة وأهل النار كما حكي في سورة الأعراف أو لأن الخلق ينادون إلى المحشر أو لنداء المؤمن ﴿هاؤم اقرؤوا كتابيه﴾ [الحاقة: ١٩] والكافر ﴿ليتني لم أوت كتابيه﴾ [الحاقة: ٢٥].

وعن ابن عباس أن هذا التنادي هو التنادي الذي يكون بين الناس عند النفخ في الصور ونفخة الفزع في الدنيا وأنهم يفرون على وجوههم للفزع الذي نالهم وينادي بعضهم بعضاً، وروي هذا عن أبي هريرة عن النبي ﷺ، وقال ابن عطية: يحتمل أن يراد التذكير بكل نداء في القيامة فيه مشقة على الكفار والعصاة.

وقرأت فرقة «التَنَادْ» بسكون الدال في الوصل اجراء له مجرى الوقف. وقرأ ابن عباس والضحاك وأبو صالح والكلبي والزعفراني وابن مقسم «التَنَادّ» بتشديد الدال من ند البعير إذا هرب أي يوم الهرب والفرار لقوله تعالى: ﴿يوم يفر المرء من أخيه﴾ [عبس: ٣٤] الآية، وفي الحديث أن الناس جولة يوم القيامة يندون يظنون أنهم يجدون مهرباً.

وقيل: المراد به يوم الإجتماع من ندا إذا اجتمع ومنه النادي ﴿يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبرينَ﴾ بدل من يوم التناد أي يوم تولون عن الموقف منصرفين عنه إلى النار، وقيل: فارين من النار، فقد روي أنهم إذا سمعوا زفير النار هربوا فلا يأتون قطراً من الأقطار إلا وجدوا ملائكة صفوفاً فلا ينفعهم الهرب، ورجح هذا القول بأنه أتم فائدة وأظهر ارتباطاً بقوله تعالى: ﴿مَا لَكُمْ منَ الله منْ عَاصم﴾ أي يعصمكم في فراركم حتى لا تعذبوا في النار قاله السدي، وقال قتادة: أي ما لكم في الانطلاق إلى النار من مانع يمنعكم منها أو ناصر، وهذا ما يقال على المعنى الأول ـ ليوم تولون مدبرين ـ وأياً ما كان فالجملة حال أخرى من ضمير ﴿تولون﴾.

﴿وَمَنْ يُضْلل اللَّهُ فَمَا لَهُ منْ هَاد﴾ يهديه إلى طريق النجاة أصلاً، وكأن الرجل يئس من قبولهم نصحه فقال ذلك ثم وبخهم على تكذيب الرسل السالفين فقال: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ﴾ بن يعقوب عليهما السلام ﴿منْ قَبْلُ﴾ أي من قبل موسى ﴿بالْبَيِّنَات﴾ الأمور الظاهرة الدالة على صدقه ﴿فَمَا زلْتُمْ في شَكّ مّمَّا جَاءَكُمْ به﴾ من الدين ﴿حَتَّى إذَا هَلَكَ﴾ بالموت ﴿قُلْتُمْ لَن يَّبْعَثَ الله من بَعْده رَسُولاً﴾ غاية لقوله. ﴿فما زلتم﴾ وأرادوا بقولهم ﴿لن يبعث الله من بعده رسولا﴾ تكذيب رسالته ورسالة غيره أي لا رسول فيبعث فهم بعد الشك بتوا بهذا التكذيب يكون ذلك ترقياً.

ويجوز أن يكون الشك في رسالته على حاله وبتهم إنما هو بتكذيب رسالة غيره من بعده، وقيل: يحتمل أن يكونوا أظهروا الشك في حياته حسداً وعناداً فلما مات عليه السلام أقروا بها وأنكروا أن يبعث الله تعالى من بعده رسولاً وهو خلاف الظاهر، ومجيء يوسف بن يعقوب عليهما السلام المخاطبين بالبينات قيل: من باب نسبة أحوال الآباء إلى الأولاد وكذلك نسبة الأفعال الباقية إليهم، وجوز كون بعض الذين جاءهم يوسف عليه السلام حقيقة حياً؛ ففي بعض التواريخ أن وفاة يوسف عليه السلام قبل مولد موسى عليه السلام بأربع وستين سنة فيكون من نسبة حال البعض إلى الكل، واستظهر في البحر أن فرعون يوسف عليه السلام هو فرعون موسى عليه السلام، وذكر عن أشهب عن مالك أنه بلغه أنه عمر أربعمائة وأربعين سنة، والذي ذكره أغلب المؤرخين أن فرعون موسى اسمه الريان وفرعون يوسف اسمه الوليد.

وذكر القرطبي أن فرعون الأول من العمالقة وهذا قبطي، وفرعون يوسف عليه السلام مات في زمنه، واختار القول بتغايرهما، وأمر المجيء وما معه من الأفعال على ما سمعت، وقيل: المراد بيوسف المذكور هو يوسف بن إبراهيم بن يوسف الصديق أرسله الله تعالى نبياً فأقام فيهم عشرين سنة وكان من أمرهم ما قص الله عزَّ وجلّ. ومن الغريب جداً ما حكاه النقاش والماوردي أن يوسف المذكور في هذه السورة من الجن بعثه الله تعالى رسولاً إليهم، نقله الجلال السيوطي في الإتقان ولا يقبله من له أدنى إتقان. نعم القول بأن للجن نبياً منهم اسمه يوسف أيضاً مما عسى أن يقبل كما لا يخفى.

وقرىء «ألن يبعث» بإدخال همزة الاستفهام على حرف النفي كأن بعضهم يقرر بعضاً على نفي البعثة.

﴿**كَذَلِكَ**﴾ أي مثل ذلك الاضلال الفظيع ﴿**يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ**﴾ في العصيان ﴿**مِرْتَابٌ**﴾ في دينه شاك فيما تشهد به البينات لغلبة الوهم والانهماك في التقليد ﴿**الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللهِ**﴾ من الموصول الأول ـ أعني من ـ أو بيان أو صفة له باعتبار معناه كأنه قيل: كل مسرف مرتاب أو المسرفين المرتابين، وجوز نصبه بأعني مقدراً، وقوله تعالى شأنه: ﴿**بِغَيْرِ سُلْطَانٍ**﴾ على الأوجه المذكورة متعلق ـ بيجادلون ـ وقوله سبحانه: ﴿**أَتَاهُمْ**﴾ صفة ﴿**سلطان**﴾ والمراد بإتيانه إتيانه من جهته سبحانه وتعالى إما على أيدي الرسل عليهم السلام فيكون ذلك إشارة إلى الدليل النقلي، وإما بطريق الإفاضة على عقولهم فيكون ذلك إشارة إلى الدليل العقلي، وقد يعمم فيكون المعنى يجادلون بغير حجة صالحة للتمسك بها أصلاً لا عقلية ولا نقلية.

وقوله سبحانه: ﴿**كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا**﴾ تقرير لما أشعر به الكلام من ذمهم وفيه ضرب من التعجب والاستعظام، وفاعل ﴿**كبر**﴾ ضمير راجع إلى الجدال الدال عليه ﴿**يجادلون**﴾ على نحو من كذب كان شراً له أي كبر الجدال في آيات الله بغير حجة مقتاً عند الله الخ، أو إلى الموصول الأول وأفرد رعاية للفظه، واعترض عليه بأنه حمل على اللفظ من بعد الحمل على المعنى، وأهل العربية يجتنبونه.

وقال صاحب الكشف: هذا شيء نقله ابن الحاجب ولم يساعده غيره وهو غير مسلم أي كبر المسرف المرتاب المجادل في آيات الله بغير حجة مقتاً أي كبر مقته وعظم عند الله تعالى وعند المؤمنين ﴿**كَذَلِكَ**﴾ أي مثل ذلك الطبع الفظيع ﴿**يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ**﴾ فيصدر عنه أمثال ما ذكر من الإسراف والارتياب والمجادلة بغير حق؛ وجوز أن يكون ﴿**الذين**﴾ مبتدأ وجملة ﴿**كبر**﴾ خبره لكن على حذف مضاف هو المخبر عنه حقيقة أي جدال الذين يجادلون كبر مقتاً، وأن يكون ﴿**الذين**﴾ مبتدأ على حذف المضاف ﴿**وبغير سلطان**﴾ خبر المضاف المقدر أي جدال الذين يجادلون في آيات الله تعالى كائن بغير سلطان، وظاهر كلام البعض أن ﴿**الذين**﴾

مبتدأ من غير حذف مضاف و ﴿**بغير سلطان**﴾ خبره، وفيه الأخبار عن الذات والجثة بالظرف وفاعل ﴿**كبر**﴾ كذلك على مذهب من يرى اسمية الكاف كالأخفش أي كبر مقتاً مثل ذلك الجدال فيكون قوله تعالى: ﴿**يطبع**﴾ الخ استئنافاً للدلالة على الموجب لجدالهم، ولا يخفى ما في ذلك من العدول عن الظاهر، وفي البحر الأولى في إعراب هذا الكلام أن يكون ﴿**الذين**﴾ مبتدأ وخبره ﴿**كبر**﴾ والفاعل ضمير المصدر المفهوم من ﴿**يجادلون**﴾ أي الذين يجادلون كبر جدالهم مقتاً فتأمل.

وقرأ أبو عمرو وابن ذكوان والأعرج بخلاف عنه «قلب» بالتنوين فما بعده صفته، ووصفه بالكبر والتجبر لأنه منبعهما كقولهم: رأت عيني وسمعت أذني، وجوز أن يكون ذاك على حذف مضاف أي كل ذي قلب متكبر جبار، وجعل الصفتين لصاحب القلب لتتوافق القراءتان هذه وقراءة باقي السبعة بلا تنوين، وعن مقاتل المتكبر المعاند في تعظيم أمر الله تعالى، والجبار المتسلط على خلق الله تعالى، والظاهر أن عموم كل منسحب على المتكبر والجبار أيضاً فكأنه اعتبر أولاً إضافة «قلب» إلى ما بعده ثم اعتبرت إضافته إلى المجموع.

﴿**وَقَالَ فِرْعَوْنَ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحاً**﴾ بناء مكشوفاً عالياً من صرح الشيء إذا ظهر ﴿**لَعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبَابَ**﴾ أي الطرق كما روي عن السدي، وقال قتادة: الأبواب وهي جمع سبب ويطلق على كل ما يتوصل به إلى شيء ﴿**أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ**﴾ بيان لها، وفي إبهامها ثم إيضاحها تفخيم لشأنها وتشويق للسامع إلى معرفتها.

﴿**فَأَطَّلِعَ إِلَى إِله مُوسَى**﴾ بالنصب على جواب الترجي عند الكوفيين فإنهم يجوزون النصب بعد الفاء في جواب الترجي كالتمني، ومنع ذلك البصريون وخرجوا النصب هنا على أنه في جواب الأمر وهو ﴿**ابن**﴾ كما في قوله:

يا ناق سيري عنقاً فسيحا ... إلى سليمان فنستريحا

وجوز أن يكون بالعطف على خبر لعلى بتوهم أن فيه لأنه كثيراً ما جاءنا مقرورنا بها أو على ﴿**الأسباب**﴾ على حد:

ولبس عباءة وتقر عيني

وقال بعض: إن هذا الترجي تمن في الحقيقة لكن أخرجه اللعين هذا المخرج تمويهاً على سامعيه فكان النصب في جواب التمني، والظاهر أن البصريين لا يفرقون بين ترج وترج. وقرأ الجمهور بالرفع عطفاً على ﴿**أبلغ**﴾ قيل: ولعله أراد أن يبني له رصداً في موضع عال يرصد منه أحوال الكواكب التي هي أسباب سماوية تدل على الحوادث الأرضية فيرى هل فيها ما يدل على ارسال الله تعالى إياه، وهذا يدل على أنه مقر بالله عزَّ وجلَّ وإنما طلب ما يزيل شكه في الرسالة، وكان للعين وأهل عصره اعتناء بالنجوم وأحكامها على ما قيل.

وهذا الاحتمال في غاية البعد عندي، وقيل: أراد أن يعلم الناس بفساد قول موسى عليه السلام: إني رسول من رب السماوات بأنه إن كان رسولاً منه فهو ممن يصل إليه وذلك بالصعود للسماء وهو محال فما بنى عليه مثله، ومنشأ ذلك جهله بالله تعالى وظنه أنه سبحانه مستقر في السماء وأن رسله كرسل الملوك يلاقونه ويصلون إلى مقره، وهو عزَّ وجلَّ منزه عن صفات المحدثات والأجسام ولا تحتاج إلى ما تحتاج إليه رسل الملوك رسله الكرام عليهم الصلاة والسلام، وهذا نفي لرسالته من الله تعالى ولا تعرض فيه لنفي الصانع المرسل له، وقال الإمام: الذي عندي في تفسير الآية أن فرعون كان من الدهرية وغرضه من هذا الكلام إيراد شبهة في نفي الصانع وتقريره أنه قال: إنا لا نرى شيئاً

نحكم عليه بأنه إله العالم فلا يجز إثبات هذا الإله، أما أنا لا نراه فلأنه لو كان موجوداً لكان في السماء ونحن لا سبيل لنا إلى صعود السماوات فكيف يمكننا أن نراه، وللمبالغة في بيان عدم الإمكان قال: ﴿**يا هامان ابن لي صرحاً**﴾ فما هو إلا لإظهار عدم إمكان ما ذكر لكل أحد، ولعل لا تأبى ذلك لأنها للتهكم على هذا وهي شبهة في غاية الفساد إذ لا يلزم من انتفاء أحد طرق العلم بالشيء انتفاء ذلك الشيء، ورأيت لبعض السلفيين أن اللعين ماقال ذلك إلا لأنه سمع من موسى عليه السلام أو من أحد من المؤمنين وصف الله تعالى بالعلو أو بأنه سبحانه في السماء فحمله على معنى مستحيل في حقه تعالى لم يرده موسى عليه السلام ولا أحد من المؤمنين فقال ما قال تهكماً وتمويهاً على قومه، وللإمام في هذاالمقام كلام رد به على القائلين بأن الله تعالى في السماء ورد احتجاجهم بما أشعرت به الآية على ذلك وسماهم المشبهة، والبحث في ذلك طويل المجال والحق مع السلف عليهم رحمة الملك المتعال وحاشاهم ثم حاشاهم من التشبيه، وقوله: ﴿**وَإِنّي لأَظُنُّهُ كَاذِباً**﴾ يحتمل أن يكون عني به كاذباً في دعوى الرسالة وأن يكون عني به كاذباً في دعوى أن له الهاً غيري لقوله: ﴿ما علمت لكم من إله غيري﴾ [القصص: ٣٨].

﴿**وَكَذلكَ**﴾ أي ومثل ذلك التزيين البليغ المفرط ﴿**زُيِّنَ لفرْعَوْنَ سُوءُ عَمَله**﴾ فانهمك فيه انهماكاً الا يرعوي عنه بحال ﴿**وَصُدَّ عَن السَّبيل**﴾ أي عن سبيل الرشاد، فالتعريف للعهد والفعلان مبنيان للمفعول والفاعل في الحقيقة هو الله تعالى، ولم يفعل سبحانه كلاً من التزيين والصدر إلا لأن فرعون طلبه بلسان استعداده واقتضى ذلك سوء اختياره؛ ويدل على هذا أنه قرىء «زَيَّنَ» مبنياً للفاعل ولم يسبق سوى ذكره تعالى دون الشيطان.

وجوز أن يكون الفاعل الشيطان ونسبة الفعل إليه بواسطة الوسوسة، وقرأ الحجازيان والشامي وأبو عمرو «وَصَدَّ» بالبناء للفاعل وهو ضمير فرعون على أن المعنى وصد فرعون الناس عن سبيل الرشاد بأمثال هذه التمويهات والشبهات، ويؤيده ﴿**وَمَا كَيْدُ فَرْعَوْنَ إلاَّ في تَبَاب**﴾ أي في خسار لأنه يشعر بتقدم ذكر للكيد وهو في هذه القراءة أظهر، وقرأ ابن وثاب «وصِدّ» بكسر الصاد أصله صدد نقلت الحركة إلى الصاد بعد توهم حذفها، وابن أبي إسحاق وعبد الرحمن ابن أبي بكرة «وصَدٌّ» بفتح الصاد وضم الدال منونة عطفاً على ﴿**سوء عمله**﴾، وقرىء «وصدوا» بواو الجمع أي هو وقومه ﴿**وَقَالَ الَّذي آمَنَ**﴾ هو مؤمن آل فرعون، وقيل: فيه نظير ما قيل في سابقه أنه موسى عليه السلام وهو ضعيف كما لا يخفى ﴿**يَا قَوْم اتَّبعون**﴾ فيما دللتكم عليه ﴿**أَهْدكُمْ سَبيلَ الرَّشَاد**﴾ سبيلاً يصل به سالكه إلى المقصود، وفيه تعريض بأن ما عليه فرعون وقومه سبيل الغي. وقرأ معاذ بن جبل كما في البحر ﴿**الرشاد**﴾ بتشديد الشين وتقدم الكلام في ذلك فلا تغفل ﴿**يَا قَوْم إنَّمَا هَذه الْحَيَاةُ الدُّنْيا مَتَاعٌ**﴾ أي تمتع أو متمتع به يسير لسرعة زواله ﴿**وَإنَّ الآخرَةَ هيَ دَارُ الْقَرَار**﴾ لخلودها ودوام ما فيها ﴿**مَنْ عَملَ سَيِّئَةً**﴾ في الدنيا ﴿**فَلاَ يُجزَى**﴾ في الآخرة ﴿**إلاَّ مثْلَهَا**﴾ عدلاً من الله عزَّ وجلّ، واستدل به على أن الجنايات تغرم بمثلها أي بوزانها من غير مضاعفة ﴿**وَمَنْ عَملَ صَالحاً مِّنْ ذَكَر أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمنٌ فَأُولَئكَ**﴾ الذين عملوا ذلك ﴿**يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فيهَا بغير حسَاب**﴾ بغير تقدير وموازنة بالعمل بل أضعافاً مضاعفة فضلاً منه تعالى ورحمة، وقسم العمال إلى ذكر وأنثى للاهتمام والاحتياط في الشمول لاحتمال نقص الإناث، وجعل الجزاء في جزاء أعمالهم جملة اسمية مصدرة باسم الإشارة مع تفضيل الثواب وتفصيله تغليباً للرحمة وترغيباً فما عند الله عزَّ وجلّ، وجعل العمل عمدة وركناً من القضية الشرطية والإيمان حالاً للدلالة على أن الإيمان شرط في اعتبار العمل والاعتداد به والثواب عليه لأن الأحوال قيود وشروط للحكم التي وقعت فيه، ويتضمن ذلك الإشارة إلى عظيم شرفه ومزيد ثوابه، وقرأ الأعرج. والحسن. وأبو جعفر. وعيسى. وغير واحد من السبعة «يُدْخَلُونَ» مبنياً للمفعول ﴿**وَيَا قَوْم مَا لي أَدْعُوكُمْ إلَى النَّجاة وتدْعونَني إلَى النَّار**﴾ كرر نداءهم ايقاظاً لهم عن

سنة الغفلة واهتماماً بالمنادي له ومبالغة في توبيخهم على ما يقابلون به دعوته، وترك العطف في النداء الثاني وهو ﴿**يا قوم إنما هذه الحياة الدنيا**﴾ الخ لأنه تفسير لما أجمل في النداء قبله من الهداية إلى سبيل الرشاد فإنها التحذير من الإخلاد إلى الدنيا والترغيب في إيثار الآخرة على الأولى وقد أدى ذلك فيه على أتم وجه وأحسنه ولم يترك في هذا النداء لأنه ليس بتلك المثابة وذلك لأنه للموازنة بين الدعوتين دعوته إلى دين الله الذي ثمرته النجاة ودعوتهم إلى اتخاذ الأنداد الذي عاقبته النار، وليس ذلك من تفسير الهداية في شيء بل ذلك لتحقيق أنه هادوا أنهم مضلون وأن ماعليه هو الهدى وما هم عليه هو الضلال فهو عطف على النداء الأول أو المجموع، وقيل: هو عطف على النداء الثاني داخل معه في التفسير لما أجمل في النداء الأول تصريحاً وتعريضاً، ولكل وجه وفي الترجيح كلام.

﴿**تَدْعُونَنِي لأَكْفُرَ بالله**﴾ بدل من تدعونني إلى النار أو عطف بيان له بناء على أنه يجري في الجمل كالمفردات أو جملة مستأنفة مفسرة لذلك، والدعاء كالهداية في التعدية بإلى واللام ﴿**وَأُشْرِكَ به مَا لَيْسَ لِي به**﴾ أي بكونه شريكاً له تعالى في المعبود أو بربوبيته وألوهيته ﴿**عِلْمٌ**﴾ ونفي العلم هنا كناية عن نفي المعلوم، وفي إنكاره للدعوة إلى ما لا يعلمه إشعار بأن الألوهية لا بد لها من برهان موجب للعلم بها.

﴿**وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ**﴾ المستجمع لصفات الألوهية من كمال القدرة والغلبة وما يتوقف عليه من العلم والإرادة والتمكن من المجازاة والقدرة على التعذيب والغفران وخص هذان الوصفان بالذكر وإن كانا كناية عن جميع الصفات لاستلزامهما ذلك كما أشير إليه لما فيهما من الدلالة على الخوف والرجاء المناسب لحاله وحالهم ﴿**لا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلا فِي الآخِرَةِ**﴾ سياقه على مذهب البصريين أن ﴿**لا**﴾ رد لكلام سابق وهو ما يدعونه إليه هاهنا من الكفر بالله سبحانه وشرك الآلهة الباطلة عزَّ وجلّ به و ﴿**جرم**﴾ فعل ماضي بمعنى ثبت وحق كما في قوله:

ولقد طعنت أبا عبيدة طعنة ... جرمت فزارة بعدها أن يغضبوا

وأن مع ما في حيزها فاعلة أي ثبت وحق عدم دعوة للذي تدعونني إليه من الأصنام إلى نفسه أصلاً يعني أن من حق المعبود بالحق أن يدعو العباد المكرمين كالأنبياء والملائكة إلى نفسه ويأمرهم بعبادته ثم يدعو العباد بعضهم بعضاً إليه تعالى وإلى طاعته سبحانه إظهاراً لدعوة ربهم عزَّ وجلّ وما تدعون إليه وإلى عبادته من الأصنام لا يدعو هو إلى ذلك ولا يدعي الربوبية أصلاً لا في الدنيا لأنه جماد فيها لا يستطيع شيئاً من دعاء وغيره ولا في الآخرة لأنه إذا أنشأه الله تعالى فيها حيواناً تبرأ من الدعاة إليه ومن عبدته وحاصله حق أن ليس لآلهتكم دعوة أصلاً فليست بآلهة حقة أو بمعنى كسب وفاعله ضمير الدعاء السابق الذي دعاه قومه وإن مع ما في حيزها مفعوله أي كسب دعاؤكم إياي إلى آلهتكم أن لا دعوة لها أي ما حصل من ذلك إلا ظهور بطلان دعوتها وذهابها ضياعاً، وقيل: ﴿**جرم**﴾ اسم لا وهو مصدر مبني على الفتح بمعنى القطع والخبر أن مع ما في حيزها على معنى لا قطع لبطلان دعوة ألوهية الأصنام أي لا ينقطع ذلك البطلان في وقت من الأوقات فينقلب حقاً، وهذا البطلان هو معنى النفي الذي يفهم من قوله تعالى: ﴿**ليس له دعوة**﴾ الخ، و ﴿**لا جرم**﴾ على هذا مثل لا بد فإنه من التبديد وهو التفريق وانقطاع بعض الشيء من بعض، ومن ثم قيل: المعنى لا بد من بطلان دعوة الأصنام أي بطلانها أمر ظاهر مقرر، ونقل هذا القول عن الفراء، وعنه أن ذلك هو أصل ﴿**لا جرم**﴾ لكنه كثر استعماله حتى صار بمعنى حقاً فلهذا يجاب بما يجاب به القسم في مثل لا جرم لآتينك. وفي الكشاف وروي عن العرب لا جرم أنه يفعل بضم الجيم وسكون الراء أي لا بد وفعل وفعل إخوان كرشد ورشد وعدم وعدم، وهذه اللغة تؤيد القول بالاسمية في اللغة الأخرى ولا تعينها كما لا يخفى، وقد تقدم شيء من الكلام في لا جرم أيضاً فليتذكر.

ولام له في جميع هذه الأوجه لنسبة الدعوة إلى الفاعل على ما سمعت من المعنى، وجوز أن يكون لنسبتها إلى المفعول فإن الكفار كانوا يدعون آلهتهم في الآية دعاءهم إياها في معنى نفي الاستجابة منها لدعائهم إياها، فالمعنى أن ما تدعونني إليه من الأصنام ليس له استجابة دعوة لمن يدعوه أصلاً أو ليس له دعوة مستجابة أي لا يدعي دعاء يستجيبه لداعيه. فالكلام إما على حذف المضاف أو على حذف الموصوف، وجوز التجوز فيه بالدعوة فعن استجابتها التي تترتب عليها، وهذا كما سمي الفعل المجازي عليه باسم الجزاء في قولهم: كما تدين تدان وهو من باب المشاكلة عند بعض ﴿**وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللهِ**﴾ أي مرجعنا إليه تعالى بالموت، وهذا عطف على أن ما تدعونني داخل في حكمه، وكذا قوله تعالى: ﴿**وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ**﴾ وفسر ابن مسعود ومجاهد ﴿**المسرفين**﴾ هنا بالسفاكين للدماء بغير حلها فيكون المؤمن قد ختم تعريضاً بما افتتح به تصريحاً في قوله: ﴿**أتقتلون رجلاً**﴾.

وعن قتادة أنهم المشركون فإن الإشراك إسراف في الضلالة، وعن عكرمة أنهم الجبارون المتكبرون، وقيل: كل من غلب شره خيره فهو مسرف والمراد بأصحاب النار ملازموها، فإن أريد بالمسرفين ما يدخل فيه المؤمن العاصي أريد بالملازمة العرفية الشاملة للمكث الطويل، وإن أريد بهم ما يخص الكفرة فهي بمعنى الخلود.

﴿**فَسَتَذْكُرُونَ**﴾ وقرىء ﴿ فَسَتَذَّكَّرُونَ ﴾ بالتشديد أي فسيذكر بعضكم بعضاً عند معاينة العذاب ﴿**مَا أَقُولُ لَكُمْ**﴾ من النصائح ﴿**وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللهِ**﴾ ليعصمني من كل سوء ﴿**إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ**﴾ فيحرس من يلوذ به سبحانه منهم من المكاره، وهذا يحتمل أن يكون جواب توعدهم المفهوم من قوله تعالى: ﴿وما كيد فرعون إلا في تباب﴾ [غافر: ٣٧] أو من قوله سبحانه: ﴿**فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا**﴾ ويحتمل أن يكون متاركة والتفريع في ﴿**فستذكرون**﴾ على قوله الأخير: ﴿**يا قوم ما لي أدعوكم**﴾ الخ، وجعله من جعل ذلك معطوفاً على ﴿**يا قوم**﴾ الثاني تفريعاً على جملة الكلام، و ﴿**ما**﴾ في ﴿**ما مكروا**﴾ مصدرية و ﴿**السيئات**﴾ الشدائد أي فوقاه الله تعالى شدائد مكرهم ﴿ **وحاق بآل فِرْعَوْنَ** ﴾ أي بفرعون وقومه، فاستغنى بذكرهم عن ذكره ضرورة أنه أولى منهم بذلك، ويجوز أن يكون آل فرعون شاملاً له عليه اللعنة بأن يراد بهم مطلق كفرة القبط كما قيل في قوله تعالى: ﴿اعملوا آل داود شكراً﴾ [سبأ: ١٣] أنه شامل لداود عليه السلام، وكانوا على ما حكى الأوزاعي ولا أعتقد صحته ألفي ألف وستمائة ألف.

وعن ابن عباس أن هذا المؤمن لما أظهر إيمانه قصد فرعون قتله فهرب إلى جبل فبعث في طلبه ألف رجل فمنهم من أدركه يصلي والسباع حوله فلما هموا ليأخذوه ذبت عنه فأكلتهم، ومنهم من مات في الجبل عطشاً، ومنهم من رجع إلى فرعون خائباً فاتهمه وقتله وصلبه، فالمراد بآل فرعون هؤلاء الألف الذين بعثهم إلى قتله أي فنزل بهم وأصابهم ﴿**سُوءُ الْعَذَابِ**﴾ الغرق على الأول وأكل السباع والموت عطشاً والقتل والصلب على ما روي عن ابن عباس والنار عليهما ولعله الأولى، وإضافة ﴿**سوء**﴾ إلى ﴿**العذاب**﴾ لأمية أو من إضافة الصفة للموصوف، وقوله تعالى: ﴿**النَّارُ**﴾ مبتدأ وجملة قوله تعالى: ﴿**يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوّاً وَعَشِيّاً**﴾ خبره والجملة تفسير لقوله تعالى: ﴿**وحاق**﴾ الخ.

وجوز أن تكون ﴿**النار**﴾ بدلاً من ﴿**سوء العذاب**﴾ و ﴿**يعرضون**﴾ في موضع الحال منها أو من الآل، وأن تكون النار خبر مبتدأ محذوف هو ضمير ﴿**سوء العذاب**﴾ كأنه قيل: ما سوء العذاب؟ فقيل: هو النار، وجملة ﴿**يعرضون**﴾ تفسير على ما مر، وفي الوجه الأول من تعظيم أمر النار وتهويل عذابها ما ليس في هذا الوجه كما ذكره صاحب الكشاف، ومنشأ التعظيم على ما في الكشف الإجمال والتفسير في كيفية تعذيبهم وإفادة كل من الجملتين نوعاً من التهويل. الأولى الإحاطة بعذاب يستحق أن يسمى سوء العذاب. والثانية النار المعروض عليها غدواً وعشياً.

والسر في إفادة تعظيم النار في هذا الوجه دون ما تضمن تفسير ﴿**سوء العذاب**﴾ وبيان كيفية التعذيب أنك إذا فسرت ﴿**سوء العذاب**﴾ بالنار فقد بالغت في تعظيم سوء العذاب. ثم استأنفت بيعرضون عليها تتميماً لقوله تعالى: ﴿**وحاق بآل فرعون**﴾ من غير مدخل للنار فيما سيق له الكلام، وإذا جئت بالجملتين من غير نظر إلى المفردين وإن أحدهما تفسير للآخر فقد قصدت بالنار قصد الاستقلال حيث جعلتها معتمد الكلام وجئت بالجملة بياناً وإيضاحاً للأولى كأنك قد آذنت بأنها أوضح لاشتمالها على ما لا أسوأ منه أعني النار؛ على أن من موجبات تقديم المسند إليه إنباؤه عن التعظيم مع اقتضاء المقام له وهاهنا كذلك على ما لا يخفى، والتركيب أيضاً يفيد التقوى على نحو زيد ضربته.

ومن هنا قال صاحب الكشف: هذا هو الوجه، وأيد بقراءة من نصب ﴿**النار**﴾ بناء على أنها ليست منصوبة بأخص أو أعني بل بإضمار فعل يفسره ﴿**يعرضون**﴾ مثل يصلون فإن عرضهم على النار إحراقهم بها من قولهم: عرض الأسارى على السيف قتلوا به، وهو من باب الاستعارة التمثيلية بتشبيه حالهم بحال متاع يبرز لمن يريد أخذه، وفي ذلك جعل النار كالطالب الراغب فيهم لشدة استحقاقهم الهلاك، وهذا العرض لأرواحهم.

أخرج ابن أبي شيبة وهناد وعبد بن حميد عن هزيل بن شرحبيل أن أرواح آل فرعون في أجواف طير سود تغدو وتروح على النار فذلك عرضها.

وأخرج عبد الرزاق وابن أبي حاتم عن ابن مسعود نحو ذلك، وهذه الطير صور تخلق لهم من صور أعمالهم، وقيل: ذاك من باب التمثيل وليس بذاك، وذكر الوقتين ظاهر في التخصيص بمعنى أنهم يعرضون على النار صباحاً مرة ومساء مرة أي فيما هو صباح ومساء بالنسبة إلينا، ويشهد له ما أخرجه ابن المنذر والبيهقي في شعب الإيمان وغيرهما عن أبي هريرة أنه كان له صرختان في كل يوم غدوة وعشية كان يقول أول النهار: ذهب الليل وجاء النهار وعرض آل فرعون على النار، ويقول أول الليل: ذهب النهار وجاء الليل وعرض آل فرعون على النار فلا يسمع أحد صوته إلا استعاذ بالله تعالى من النار، والفصل بين الوقتين إما بترك العذاب أو بتعذيبهم بنوع آخر غير النار.

وجوز أن يكون المراد التأبيد اكتفاء بالطرفين المحيطين عن الجميع، وأياً ما كان ففي الآية دليل ظاهر على بقاء النفس وعذاب البرزخ لأنه تعالى بعد أن ذكر ذلك العرض قال جل شأنه:

﴿**وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ العَذَاب**﴾ وهو ظاهر في المغايرة فيتعين كون ذلك في البرزخ، ولا قائل بالفرق بينهم وبين غيرهم فيتم الاستدلال على العموم، وفي الصحيحين وغيرهما عن ابن عمر عن رسول الله ﷺ «إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشي إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة وإن كان من أهل النار فمن أهل النار فيقال: هذا مقعدك حتى يبعثك الله تعالى» و ﴿**يوم**﴾ على ما استظهره أبو حيان معمول لقول مضمر، والجملة عطف على ما قبلها أي ويوم تقوم الساعة يقال للملائكة: أدخلوا آل فرعون أشد العذاب أي عذاب جهنم فإنه أشد مما كانوا فيه أو أشد عذاب جهنم فإن عذابها ألوان بعضها أشدّ من بعض، وعن بعض أشد العذاب هو عذاب الهاوية، وقيل: هو معمول ﴿**أدخلوا**﴾.

وقيل: هو عطف على ﴿**عشياً**﴾ فالعامل فيه ﴿**يعرضون**﴾ و ﴿**أدخلوا**﴾ على إضمار القول وهو كما ترى، وقرأ علي كرم الله وجهه والحسن وقتادة وابن كثير، والعربيان وأبو بكر «أدخلوا» على أنه أمر لآل فرعون بالدخول أي ادخلوا يا آل فرعون، وقوله تعالى: ﴿**وَإِذْ يَتَحَاجُونَ فِي النَّار**﴾ معمول لا ذكر محذوفاً أي واذكر وقت تخاصمهم في النار، والجملة معطوفة على ما قبلها عطف القصة على القصة لا على مقدر تقديره اذكر ما تلى عليك من قصة موسى

عليه السلام وفرعون ومؤمن آل فرعون ولا على قوله تعالى: ﴿ولا يغرك تقلبهم في البلاد﴾ [غافر: ٤] أو على قوله سبحانه: ﴿وأنذرهم يوم الآزفة﴾ [غافر: ١٨] لعدم الحاجة إلى التقدير في الأول وبعد المعطوف عليه في الأخيرين.

وزعم الطبري أن ﴿إذا﴾ معطوفة على ﴿إذ القلوب لدى الحناجر﴾ [غافر: ١٨] وهو مع بعده فيه ما فيه، وجوز أن تكون معطوفة على ﴿**غدوا**﴾ وجملة ﴿**يوم تقوم**﴾ اعتراض بينهما وهو مع كونه خلاف الظاهر قليل الفائدة، وضمير يتحاجون على ما اختاره ابن عطية وغيره لجميع كفار الأمم، ويتراءى من كلام بعضهم أنه لكفار قريش، وقيل: هو لآل فرعون، وقوله تعالى: ﴿**فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا**﴾ تفصيل للمحاجّة والتخاصم في النار أي يقول المرؤوسون لرؤسائهم: ﴿**إِنَّا كُنَّا**﴾ في الدنيا ﴿**لَكُمْ تَبَعاً**﴾ تباعاً فهو كخدم في جمع خادم.

وذهب جمع لقلة هذا الجمع إلى أن ﴿**تبعاً**﴾ مصدر إما بتقدير مضاف أي إنا كنا لكم ذوي أي أتباعاً أو على التجوز في الظرف أو الإسناد للمبالغة بجعلهم لشدة تبعيتهم كأنهم عين التبعية ﴿**فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيباً مِنَ النَّارِ**﴾ بدفع بعض عذابها أو بتحمله عنا، و ﴿**مغنون**﴾ من الغناء بالفتح بمعنى الفائدة، و ﴿**نصيباً**﴾ بمعنى حصة مفعول لما دل عليه من الدفع أو الحمل أوله بتضمين أحدهما أي دافعين أو حاملين عنا نصيباً، ويجوز أن يكون نصيباً قائماً مقام المصدر كشيئاً في قوله تعالى: ﴿لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً﴾ [آل عمران: ١١٦]. و ﴿**من النار**﴾ على هذا متعلق ـ بمغنون ـ وعلى ما قبله ظرف مستقر بيان ـ لنصيباً ـ ..

قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴿٤٨﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ
لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوٓاْ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم
بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُواْ بَلَىٰ قَالُواْ فَٱدْعُواْ وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿٥٠﴾ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا
وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ
وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٥٢﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ ﴿٥٣﴾ هُدًى
وَذِكْرَىٰ لِأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٤﴾ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ
بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٥٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ إِن فِى
صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٥٦﴾ لَخَلْقُ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَمَا يَسْتَوِى
ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ إِنَّ
ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٩﴾ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ
أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ
لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ

لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٦٢﴾ كَذَٰلِكَ
يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ
بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ
رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾ هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ
ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾ ۞ قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِىَ ٱلْبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّى وَأُمِرْتُ
أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٦﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا
ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًا وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوٓا۟ أَجَلًا مُّسَمًّى
وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٦٨﴾ أَلَمْ تَرَ
إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ ﴿٦٩﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِٱلْكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ
رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ
يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾

﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾ للضعفاء ﴿إِنَّا كُلٌّ فِيهَا﴾ نحن وأنتم فكيف نغني عنكم ولو قدرنا لدفعنا عن أنفسنا شيئاً من العذاب؛ ورفع ﴿كل﴾ على الابتداء وهو مضاف تقديراً لأن المراد كلنا و ﴿فيها﴾ خبره والجملة خبر إن.

وقرأ ابن السميفع وعيسى بن عمر «كلاً» بالنصب، وأخرجه ابن عطية والزمخشري على أنه توكيد لاسم إن، وكون كل المقطوع عن الإضافة يقع تأكيداً اكتفاء بأن المعنى عليها مذهب الفراء ونقله أبو حيان عن الكوفيين ورده ابن مالك في شرحه للتسهيل، وقيل: هو حال من المستكن في الظرف. وتعقب بأنه في معنى المضاف ولذا جاز الابتداء به فكيف يكون حالاً، وإذا سلم كفاية هذا المقدار من التنكير في الحالية فالظرف لا يعمل في الحال المتقدمة كما يعمل في الظرف المتقدم نحو كل يوم لك ثوب.

وأجيب عن أمر العمل بأن الأخفش أجاز عمل الظرف في الحال إذا توسطت بينه وبين المبتدأ نحو زيد قائماً في الدار عندك وما في الآية الكريمة كذلك، على أن بعضهم أجاز ذلك ولو تقدمت الحال على المبتدأ والظرف؛ نعم منعه بعضهم مطلقاً لكن المخرج لم يقلده، وابن الحاجب جوزه في بعض كتبه ومنعه في بعض، قيل: وقد يوفق بينهما بأن المنع على تقدير عمل الظرف لنيابته عن متعلقه، والجواز على جعل العامل متعلقه المقدر فيكون لفظياً لا معنوياً، وإلى هذا التخريج ذهب ابن مالك وأنشد له قول بعض الطائيين:

دعا فأجبنا وهو بادي ذلة ... لديكم فكان النصر غير قريب

وحمل قوله تعالى: ﴿والسماوات مطويات بيمينه﴾ [الزمر: ٦٧] في قراءة النصب على ذلك، وقال أبو حيان: الذي أختاره في تخريج هذه القراءة أن كلاً بدل من اسم إن لأن كلاً يتصرف فيها بالابتداء ونواسخه وغير ذلك فكأنه قيل: إن كلاً فيها. وإذا كانوا قد تأولوا حولاً أكتعا ويوماً أجمعا على البدل مع أنهما لا يليان العوامل فإن يدعي في كل البدل أولى، وأيضاً فتنكير ﴿كل﴾ ونصبه حالاً في غاية الشذوذ نحو مررت بهم كلاً أي جميعاً. ثم قال: فإن قلت: كيف تجعله بدلاً وهو بدل كل من كل من ضمير المتكلم وهو لا يجوز على مذهب جمهور النحويين؟ قلت: مذهب

الأخفش. والكوفيين جوازه وهو الصحيح، على أن هذا ليس مما وقع فيه الخلاف بل إذا كان البدل يفيد الإحاطة جاز أن يبدل من ضمير المتكلم وضمير المخاطب لا نعلم خلافاً في ذلك كقوله تعالى: ﴿تكون لنا عيداً لأولنا وآخرنا﴾ [المائدة: ١١٤] وكقولك: مررت بكم صغيركم وكبيركم معناه مررت بكم كلكم وتكون لنا عيداً كلنا، فإذا جاز ذلك فيما هو بمعنى الإحاطة فجوازه فيما دل على الإحاطة وهو ﴿كل﴾ أولى ولا التفات لمنع المبرد البدل فيه لأنه بدل من ضمير المتكلم لأنه لم يحقق مناط الخلاف انتهى، ولعل القول بالتوكيد أحسن من هذا وأقرب، ورد ابن مالك له لا يعول عليه ﴿إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ﴾ فأدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار، وقدر لكل منا ومنكم عذاباً لا يدفع عنه ولا يتحمله عنه غيره ﴿وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ﴾ من الضعفاء والمستكبرين جميعاً لما ضاقت بهم الحيل وعيت بهم العلل ﴿لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ﴾ أي للقوام بتعذيب أهل النار، وكان الظاهر ـ لخزنتها ـ بضمير النار لكن وضع الظاهر موضعه للتهويل، فإن جهنم أخص من النار بحسب الظاهر لإطلاقها على ما في الدنيا أو لأنها محل لأشد العذاب الشامل للنار وغيرها، وجوز أن يكون ذلك لبيان محل الكفرة في النار بأن تكون جهنم أبعد دركاتها من قولهم: بئر جهنام بعيدة القعر وفيها أعتى الكفرة وأطغاهم، فلعل الملائكة الموكلين بعذاب أولئك أجوب دعوة لزيادة قربهم من الله عزَّ وجلّ فلهذا تعمدهم أهل النار بطلب الدعوة منهم وقالوا لهم: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْماً﴾ أي مقدار يوم من أيام الدنيا ﴿مِنَ الْعَذَابِ﴾ أي شيئاً من العذاب، فمفعول ﴿يخفف﴾ محذوف، و ﴿من﴾ تحتمل البيان والتبعيض، ويجوز أن يكون المفعول ﴿يوماً﴾ بحذف المضاف نحو ألم يوم و ﴿من العذاب﴾ بيانه، والمراد يدفع عنا يوماً من أيام العذاب: ﴿قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي لم تنبهوا على هذا ولم تك تأتيكم رسلكم في الدنيا على الاستمرار بالحجج الواضحة الدالة على سوء مغبة ما كنتم عليه من الكفر والمعاصي كما في قوله تعالى: ﴿ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا﴾ وأرادوا بذلك إلزامهم وتوبيخهم على إضاعة أوقات الدعاء وتعطيل أسباب الإجابة ﴿قَالُوا بَلَىٰ﴾ أي أتونا بها فكذبناهم كما نطق به قوله تعالى: ﴿بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شيء إن أنتم إلاَّ في ضلال كبير﴾ [الملك: ٩] والفاء في قوله تعالى: ﴿قَالُوا فَادْعُوا﴾ فصيحة أي إذا كان الأمر كذلك فادعوا أنتم فإن الدعاء لمن يفعل فعلكم ذلك مستحيل صدوره عنا، وقيل: في تعليل امتناع الخزنة عن الدعاء: لأنا لم نؤذن في الدعاء لأمثالكم، وتعقب بأنه مع عرائه عن بيان أن سببه من قبل الكفرة كما يفصح عنه الفاء ربما يوهم أن الإذن في حيز الإمكان وأنهم لو أذن لهم لفعلوا فالتعليل الأول أولى، ولم يريدوا بأمرهم بالدعاء إطماعهم في الإجابة بل إقناطهم منها وإظهار خيبتهم حيثما صرحوا به في قولهم: ﴿وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلَالٍ﴾ أي في ضياع وبطلان أي لا يجاب، فهذه الجملة من كلام الخزنة، وقيل: هي من كلامه تعالى اخباراً منه سبحانه لرسوله محمد ﷺ. واستدل بها مطلقاً من قال: إن دعاء الكافر لا يستجاب وإنه لا يمكن من الخروج في الاستسقاء، والحق أن الآية في دعاء الكفار يوم القيامة وأن الكافر قد يقع في الدنيا ما يدعو به ويطلبه من الله تعالى إثر دعائه كما يشهد بذلك آيات كثيرة، وأما أنه هل يقال لذلك إجابة أم لا فبحث لا جدوى له، وقوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ الخ كلام مستأنف مسوق من جهته تعالى لبيان أن ما أصاب الكفرة من العذاب المحكي من فروع حكم كلي تقتضيه الحكمة هو أن شأننا المستمر أننا ننصر رسلنا وأتباعهم ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ بالحجة والظفر والانتقام لهم من الكفرة بالاستئصال والقتل والسبي وغير ذلك من العقوبات، ولا يقدح في ذلك ما قد يتفق للكفرة من صورة الغلبة امتحاناً إذا العبرة إنما هي بالعواقب وغالب الأمر، وقد تقدم تمام الكلام في ذلك فتذكر ﴿وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ أي ويوم القيامة عبر عنه بذلك للإشعار بكيفية النصرة وأنها تكون عند جمع الأولين والآخرين وشهادة الإشهاد للرسل بالتبليغ وعلى الكفرة بالتكذيب، فالإشهاد جمع شهيد بمعنى

شاهد كأشراف جمع شريف، وقيل: جمع شاهد بناء على أن فاعلاً قد يجمع على أفعال، وبعض من لم يجوز يقول: هو جمع شهد بالسكون اسم جمع لشاهد كما قالوا في صحب بالسكون اسم جمع لصاحب، وفسر بعضهم ﴿الاشهاد﴾ بالجوارح وليس بذاك، وهو عليهما من الشهادة، وقيل: هو من المشاهدة بمعنى الحضور.

وفي الحواشي الخفاجية أن النصرة في الآخرة لا تتخلف أصلاً بخلافها في الدنيا فإن الحرب فيها سجال وإن كانت العاقبة للمتقين ولذا دخلت ﴿في﴾ على ﴿الحياة الدنيا﴾ دون قرينه لأن الظرف المجرور بفي لا يستوعب كالمنصوب على الظرفية كما ذكره الأصوليون انتهى، وفيه بحث.

وقرأ ابن هرمز وإسماعيل وهي رواية عن أبي عمرو «تقوم» بتاء التأنيث على معنى جماعة الإشهاد. ﴿يَوْمَ لا يَنْفَعُ الظالمينَ مَعْذِرَتُهُم﴾ بدل من ﴿يوم يقوم﴾ و ﴿لا﴾ قيل: تحتمل أن تكون لنفي النفع فقط على معنى أنهم يعتذرون ولا ينفعهم معذرتهم لبطلانها وتحتمل أن تكون لنفي النفع والمعذرة على معنى لا تقع معذرة لتنفع، وفي الكشاف يحتمل أنهم يعتذرون بمعذرة ولكنها لا تنفع لأنها باطلة وأنهم لو جاؤوا بمعذرة لم تكن مقبولة لقوله تعالى: ﴿ولا يؤذن لهم فيعتذرون﴾ [المرسلات: ٣٦] وأراد على ما في الكشف أن عدم النفع إما لأمر راجع إلى المعذرة الكائنة وهو بطلانها، وإما لأمر راجع إلى من يقبل العذر ولا نظر فيه إلى وقوع العذر؛ والحاصل أن المقصود بالنفي الصفة ولا نظر فيه إلى الموصوف نفياً أو إثباتاً، وليس في كلامه إشارة إلى إرادة نفيهما جميعاً فتدبر، وقرأ غير الكوفيين ونافع «لا تنفع» بالتاء الفوقية، ووجهها ظاهر، وأما قراءة الياء فلأن المعذرة مصدر وتأنيثه غير حقيقي مع أنه فصل عن الفعل بالمفعول ﴿وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ﴾ أي البعد من الرحمة.

﴿وَلَهُمْ سُوءُ الدَّار﴾ هي جهنم وسوءها ما يسوء فيها من العذاب فإضافته لأمية أو هي من إضافة الصفة للموصوف أي الدار السوأى، ولا يخفى ما في الجملتين من إهانتهم والتهكم بهم ﴿وَلَقَدْ آتَينَا مُوسَى الْهُدَى﴾ ما يهتدى به من المعجزات والصحف والشرائع فهو مصدر تجوز به عما ذكر أو جعل عين الهدى مبالغة فيه.

﴿وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ﴾ تركنا عليهم بعد وفاته عليه السلام من ذلك التوراة فالإيراث مجاز مرسل عن الترك أو هو استعارة تبعية له، ويجوز أن يكون المعنى جعلنا بني إسرائيل آخذين الكتاب عنه عليه السلام بلا كسب فيشمل من في حياته عليه السلام كما يقال: العلماء ورثة الأنبياء، وهو وجه إلا أن اعتبار بعد الموت أوفق في الإيراث والعلاقة عليه أتم، وإرادة التوراة من الكتاب هو الظاهر، وجوز أن يكون المراد به جنس ما أنزل على أنبيائهم فيشمل التوراة والزبور والإنجيل ﴿هُدًى وَذِكْرَى﴾ هداية وتذكرة أي لأجلهما أو هادياً ومذكراً فهما مصدران في موضع الحال ﴿لأُولي الأَلْبَاب﴾ لذوي العقول السليمة الخالصة من شوائب الوهم، وخصوا لأنهم المنتفعون به ﴿فَاصْبِرْ﴾ أي إذا عرفت ما قصصناه عليك للتأسي فاصبر على ما نالك من أذية المشركين ﴿إِنَّ وَعْدَ الله﴾ إياك والمؤمنين بالنصر المشار إليه بقوله سبحانه: ﴿إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا﴾ أو جميع مواعيده تعالى ويدخل فيه وعده سبحانه بالنصر دخولاً أولياً ﴿حقٌّ﴾ لا يخلفه سبحانه أصلاً فلا بد من وقوع نصره جل شأنه لك وللمؤمنين، واستشهد بحال موسى ومن معه وفرعون ومن تبعه ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾ أقبل على أمر الدين وتلاف ما ربما يفرط مما يعد بالنسبة إليك ذنباً وإن لم يكنه، ولعل ذلك هو الاهتمام بأمر العدا بالاستغفار فإن الله تعالى كافيك في النصر وإظهار الأمر، وقيل: ﴿لذنبك﴾ لذنب أمتك في حقك، قيل: فإضافة المصدر للمفعول ﴿وَسَبِّحْ بحَمْد رَبِّكَ بالعَشيِّ وَالإبْكَار﴾ أي ودم على التسبيح والتحميد لربك على أنه عبر بالطرفين وأريد جميع الأوقات، وجوز أن يراد خصوص الوقتين، والمراد بالتسبيح معناه الحقيقي كما في الوجه الأول أو الصلاة، قال قتادة: أريد صلاة الغداة وصلاة العصر، وعن الحسن أريد ركعتان بكرة

وركعتان عشياً، قيل: لأن الواجب بمكة كان ذلك، وقد قدمنا أن الحس لا يقول بفرضية الصلوات الخمس بمكة فقيل: كان يقول بفرضية ركعتين بكرة وركعتين عشياً.

وقيل: إنه يقول كان الواجب ركعتين في أي وقت اتفق، والكل مخالف للصريح المشهور، وجوز على إرادة الدوام أن يراد بالتسبيح الصلاة ويراد بذلك الصوات الخمس، وحكي ذلك في البحر عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللهِ﴾ دلائله سبحانه التي نصبها على توحيده وكتبه المنزلة وما أظهر على أيدي رسله من المعجزات ﴿بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ﴾ أي بغير حجة في ذلك أتتهم من جهته تعالى، والجار متعلق ـ بيجادلون ـ وتقييد المجادلة بذلك مع استحالة إتيان الحجة للإيذان بأن المتكلم في أمر الدين لا بدّ من استناده إلى حجة واضحة وبرهان مبين، وهذا عام في كل مجادل مبطل وإن نزل في قوم مخصوصين وهم على الأصح مشركو مكة.

وقوله تعالى: ﴿إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلاَّ كِبْرٌ﴾ خبر لأن و ﴿إِن﴾ نافية، والمراد بالصدور القلوب أطلقت عليها للمجاورة والملابسة، والكبر التكبر والتعاظم أي ما في قلوبهم إلا تكبر عن الحق وتعاظم عن التفكر والتعلم أو هو مجاز عن إرادة الرياسة والتقدم على الإطلاق أو إرادة أن تكون النبوة لهم أي ما في قلوبهم إلا إرادة الرياسة أو أن تكون النبوة لهم دونك حسداً وبغياً حسبما قالوا: ﴿لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم﴾ [الزخرف: ٣١] وقالوا: ﴿لو كان خيراً ما سبقونا إليه﴾ [الأحقاف: ١١] ولذلك يجادلون في آياته تعالى لا أن فيها موقع جدال ما أو أن لهم شيئاً يتوهم صلاحيته لأن يكون مدار لمجادلتهم في الجملة، وقوله تعالى: ﴿مَا هُمْ بَبالغيه﴾ صفة ـ لكبر ـ أي ما هم ببالغي موجب الكبر ومقتضيه وهو متعلق إرادتهم من دفع الآيات أو من الرياسة أو النبوة، وقال الزجاج: المعنى ما يحملهم على تكذيبك إلا ما في صدورهم من الكبر عليك وما هم ببالغي مقتضى ذلك الكبر لأن الله تعالى أذلهم، وقيل: الجملة مستأنفة وضمير ﴿بالغيه﴾ لدفع الآيات المفهوم من المجادلة، وما تقدم أظهر، وقال مقاتل: المجادلون الذين نزلت فيهم الآية اليهود عظموا أمر الدجال فنزلت، وإلى هذا ذهب أبو العالية أخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم بسند صحيح عنه قال: إن اليهود أتوا النبي ﷺ فقالوا: إن الدجال يكون منا في آخر الزمان ويكون من أمره ما يكون فعظموا أمره وقالوا: يصنع كذا وكذا فأنزل الله تعالى ﴿إن الذين يجادلون﴾ الخ، وهذا كالنص في أن أمر اليهود كان السبب في نزولها، وعليه تكون الآية مدنية وقد مر الكلام في ذلك فتذكر. وفي رواية أن اليهود كانوا يقولون: يخرج صاحبنا المسيح بن داود يريدون الدجال ويبلغ سلطانه البر والبحر وتسير معه الأنهار وهو آية من آيات الله فيرجع إلينا الملك، حكاها في الكشاف ثم قال: فسمى الله تعالى تمنيهم ذلك كبراً ونفى سبحانه أن يبلغوا متمناهم، ويخطر لي على هذا القول إن اليهود لم يريدوا من تعظيم أمر الدجال سوى نفي أن يكون نبينا ﷺ النبي المبعوث في آخر الزمان الذي بشر به أنبياؤهم وزعم أن المبشر به هو ذلك اللعين، ففي بعض الروايات أنهم قالوا للنبي عليه الصلاة والسلام: لست صاحبنا ـ يعنون النبي المبشر به أنبياؤهم، فالإضافة لأدنى ملابسة بل هو المسيح بن داود يبلغ سلطانه البر والبحر ويسير معه الأنهار، وفي ذلك بزعمهم دفع الآيات الدالة على نبوة النبي ﷺ والداعي لهم إلى ذلك الكبر والحسد وحب أن لا تخرج النبوة من بني إسرائيل، فمعنى الآية عليه نحو معناها على القول بكون المجادلين مشركي مكة. ثم إن اليهود عليهم اللعنة كذبوا أولاً بقولهم للنبي عليه الصلاة والسلام: لست صاحبنا، وثانياً بقولهم: بل هو المسيح بن داود يعنون الدجال، أما الكذب الأول فظاهر، وأما الثاني فلأنه لم يبعث نبي إلا وقد حذر أمته الدجال وأنذرهم إياه كما نطقت بذلك الأخبار، وهم قالوا: هو صاحبنا يعنون المبشر ببعثته آخر الزمان، وكل ذلك من الجدال في آيات الله تعالى بغير سلطان ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللهِ﴾ أي فالتجىء إليه تعالى من كيد من يحسدك ويبغي عليك، وفيه رمز إلى أنه من

همزات الشياطين، وقال أبو العالية: هذا أمر للنبي ﷺ أن يتعوذ من فتنة الدجال بالله عزَّ وجلّ ﴿**إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ**﴾ أي لأقوالكم وأفعالكم، والجملة لتعليل الأمر قبلها.

وقوله تعالى: ﴿**لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلق النَّاس**﴾ تحقيق للحق وتبيين لأشهر ما يجادلون فيه من أمر البعث الذي هو كالتوحيد في وجوب الإيمان به على منهاج قوله تعالى: ﴿أو ليس الذي خلق السماوات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم﴾ [يس: ٨١] وإضافة ﴿**خلق**﴾ إلى ما بعده من إضافة المصدر إلى مفعوله أي لخلق الله تعالى السماوات والأرض أعظم من خلقه سبحانه الناس لأن الناس بالنسبة إلى تلك الأجرام العظيمة كلا شيء، والمراد أن من قدر على خلق ذلك فهو سبحانه على خلق ما لا يعد شيئاً بالنسبة إليه بدأ وإعادة أقدر وأقدر.

وقال أبو العالية: الناس الدجال وهو بناء على ما روي عنه في المجادلين، ولعمري إن تطبيق هذا ونحوه على ذلك في غاية البعد وأنا لا أقول به ﴿**وَلكنَّ أَكْثَرَ النَّاس لا يَعْلَمُونَ**﴾ وهم الكفرة، ولما كان ما قبل لإثبات البعث الذي يشهد له العقل وتقتضيه الحكمة اقتضاء ظاهراً ناسب نفي العلم عمن كفر به لأنهم لو كانوا من العقلاء الذين من شأنهم التدبر والتفكر فيما يدل عليه لم يصدر عنهم إنكاره، ولم يذكر للعلم مفعولاً لأن المناسب للمقام تنزيله منزلة اللازم، وقيل: المراد لا يعلمون أن خلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس أي لا يجرون على موجب العلم بذلك من الإقرار بالبعث ومن لا يجري على موجب علمه هو والجاهل سواء.

وفي البحر أنه تعالى نبه على أنه لا ينبغي أن يجادل في آيات الله ولا يتكبر الإنسان بقوله سبحانه: ﴿**لخلق**﴾ الخ أي إن مخلوقاته تعالى أكبر وأجل من خلق البشر فما لأحدهم يجادل ويتكبر على خالقه سبحانه وتعالى ولكن أكثر الناس لا يعلمون لا يتأملون لغلبة الغفلة عليهم ولذلك جادلوا وتكبروا، ولا يخفى أنه تفسير قليل الجدوى.

﴿**وَمَا يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالبَصِيرُ**﴾ أي الغافل عن معرفة الحق في مبدئه ومعاده ومن كانت له بصيرة في معرفتهما، وتفسير ﴿**البصير**﴾ بالله تعالى و ﴿**الأعمى**﴾ بالصنم غير مناسب هنا ﴿**وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ**﴾ أي المحسن ولذا قوبل بقوله تعالى: ﴿**وَلا المُسيءُ**﴾ وعدل عن التقابل الظاهر كما في الأعمى والبصير إلى ما في النظم الجليل إشارة إلى أن المؤمنين علم في الإحسان، وقدم ﴿**الأعمى**﴾ لمناسبة العمى ما قبله من نفي العلم، وقدم الذين آمنوا بعد لمجاورة البصير ولشرفهم، وفي مثله طرق أن يجاور كل ما يناسبه كما هنا، وأن يقدم ما يقابل الأول ويؤخر ما يقابل الآخر كقوله تعالى: ﴿وما يستوي الأعمى والبصير ولا الظلمات ولا النور ولا الظل ولا الحرور﴾ [فاطر: ١٩ ـ ٢٢] وأن يؤخر المتقابلان كالأعمى والأصم والسميع والبصير وكل ذلك من باب التفنن في البلاغة وأساليب الكلام، والمقصود من نفي استواء من ذكر بيان أن هذا التفاوت مما يرشد إلى البعث كأنه قيل: ما يستوي الغافل والمستبصر والمحسن والمسيء فلا بد أن يكون لهم حال أخرى يظهر فيها ما بين الفريقين من التفاوت وهي فيما بعد البعث.

وأعيدت ﴿**لا**﴾ في المسيء تذكيراً للنفي السابق لما بينهما من الفصل بطول الصلة، ولأن المقصود بالنفي أن الكافر المسيء لا يساوي المؤمن المحسن، وذكر عدم مساواة الأعمى للبصير توطئة له، ولو لم يعد النفي فيه فربما ذهل عنه وظن أنه ابتداء كلام، ولو قيل: ولا الذين آمنوا والمسيء لم يكن نصاً فيه أيضاً لاحتمال أنه مبتدأ و ﴿**قليلاً ما تتذكرون**﴾ خبره وجمع على المعنى قاله الخفاجي، وهو أن تم فعلي القراءة بياء الغيبة، وقيل: لم يقل ولا الذين آمنوا والمسيء لأن المقصود نفي مساواة المسيء للمحسن لا نفي مساواة المحسن له إذا المراد بيان خسارته ولا يصفو عن كدر فتدبر، والموصول مع ما عطف عليه معطوف على ﴿**الأعمى**﴾ مع ما عطف عليه عطف المجموع على

المجموع كما في قوله تعالى: ﴿هو الأول والآخر والظاهر والباطن﴾ [الحديد: ٣] ولم يترك العطف بينهما بناء على أن الأول مشبه به والثاني مشبه وهما متحدان مآلاً لأن كلاً من الوصفين الأولين مغاير لكل من الوصفين الأخيرين وتغاير الصفات كتغاير الذوات في صحة التعاطف، ووجه التغاير أن الغافل والمستبصر والمحسن والمسيء صفات متغايرة المفهوم بقطع النظر عن اتحاد ما صدقهما وعدمه، وقيل: التغاير بين الوصفين الأولين والوصفين الأخيرين من جهة أن القصد في الأولين إلى العلم، وفي الأخيرين إلى العمل، وهو وجه لا بأس به، وقيل: هما وإن اتحدا ذاتاً متغايران اعتباراً من حيث إن الثاني صريح والأول مذكور على طريق التمثيل، ونظر فيه بأنه لو اكتفى بمجرد هذه المغايرة لزم جواز عطف المشبه على المشبه به وعكسه.

﴿قَلِيلاً مَّا تَتَذَكَّرُونَ﴾ أي تذكراً قليلاً تتذكرون. وقرأ الجمهور والأعرج والحسن وأبو جعفر وشيبة بياء الغيبة والضمير للناس أو الكفار، قال الزمخشري: والتاء أعم، وعلله صاحب التقريب بأن فيه تغليب الخطاب على الغيبة، وقال القاضي: إن التاء للتغيب أو الالتفات أو أمر الرسول ﷺ بالمخاطبة أي بتقدير قل قبله، وآثر العلامة الطيبي الالتفات لأن العدول من الغية إلى الخطاب في مقام التوبيخ يدل على العنف الشديد والإنكار البليغ، فهذه الآية متصلة بخلق السماوات وهو كلام مع المجادلين. وتعقبه صاحب الكشف بأنه يجوز أن يجعل ما ذكر نكتة التغليب فيكون أولى لفائدة التعميم أيضاً فليفهم، والظاهر أن التغليب جار على احتمال كون الضمير للناس واحتمال كونه للكفار لأن بعض الناس أو الكفار مخاطب هنا؛ والتقليل أيضاً يصح اجراؤه على ظاهره لأن منهم من يتذكر ويهتدي، وقال الجلبي: الضمير إذا كان للناس فالتقليل على معناه الحقيقي والمستثنى هم المؤمنون وإذا كان للكفار فهو بمعنى النفي، ثم الظاهر أن المخاطب من خاطبه ﷺ من قريش فمن قال: المخاطب هو النبي عليه الصلاة والسلام لقوله تعالى: ﴿فاصبر﴾ ولا يناسب ادخاله فيمن لم يتذكر فقدسها ولم يتذكر.

﴿إِنَّ السَّاعَةَ لآتية لا رَيْبَ فيهَا﴾ أي في مجيئها أي لا بد من مجيئها ولا محالة لوضوح الدلالة على جوازها وإجماع الأنبياء على الوعد الصادق بوقوعها. ويجوز أن يكون المعنى أنها آتية وأنها ليست محلاً للريب أي لوضوح الدلالة إلى آخر ما مر، والفرق أن متعلق الريب على الأول المجيء وعلى هذا الساعة والحمل عليه أولى.

﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاس لا يُؤْمِنُونَ﴾ لا يصدقون بها لقصور نظرهم على ما يدركونه بالحواس الظاهرة واستيلاء الأوهام على عقولهم ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ أي اعبدوني أثبكم على ما روي عن ابن عباس والضحاك ومجاهد وجماعة. وعن الثوري أنه قيل له: ادع الله تعالى فقال: إن ترك الذنوب هو الدعاء يعني أن الدعاء باللسان ترجمة عن طلب الباطن وأنه إنما يصح لصحة التوجه وترك المخالفة فمن ترك الذنوب فقد سأل الحق بلسان الاستعداد وهو الدعاء الذي يلزمه الإجابة ومن لا يتركها فليس بسائل وإن دعاه سبحانه ألف مرة؛ وما ذكر مؤيد لتفسير الدعاء بالعبادة ومحقق له فإن ترك الذنوب من أجل العبادات وينطبق على ذلك كمال الانطباق قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عبادتي سَيَدْخلُونَ جَهَنَّمَ دَاخرينَ﴾ أي صاغرين أذلاء.

وجوز أن يكون المعنى اسألوني أعطكم وهو المروي عن السدي فمعنى قوله تعالى: ﴿يستكبرون عن عبادتي﴾ يستكبرون عن دعائي لأن الدعاء نوع من العبادة ومن أفضل أنواعها، بل روى ابن المنذر والحاكم وصححه عن ابن عباس أنه قال: أفضل العبادة الدعاء وقرأ الآية، والتوعد على الاستكبار عنه لأن ذلك عادة المترفين المسرفين وإنما المؤمن يتضرع إلى الله تعالى في كل تقلباته، وفي إيقاع العبادة صلة الاستكبار ما يؤذن بأن الدعاء باب من أبواب الخضوع لأن العبادة خضوع ولأن المراد بالعبادة الدعاء والاستكبار إنما يكون عن شيء إذا أتى به لم يكن مستكبراً.

قال في الكشف: وهذا الوجه أظهر بحسب اللفظ وأنسب إلى السياق لأنه لما جعل المجادلة في آيات الله تعالى من الكبر جعل الدعاء وتسليم آياته من الخضوع لأن الداعي له تعالى الملتجىء إليه عزَّ وجلّ لا يجادل في آياته بغير سلطان منه البتة، والعطف في قوله تعالى: ﴿وقال﴾ من عطف مجموع قصة على مجموع أخرى لاستوائهما في الغرض، ولهذا لما تمم هذه القصة أعني قوله سبحانه: ﴿وقال ربكم﴾ إلى قوله عزَّ وجلّ: ﴿كون فيكون﴾ [البقرة: ١١٧ وغيرها] صرح بالغرض في قوله تعالى: ﴿ألم تر إلى الذين يجادلون في آيات الله﴾ كما بنى القصة أولاً على ذلك في قوله تبارك وتعالى: ﴿إن الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان﴾ [غافر: ٣٥] ولو تؤمل في هذه السورة الكريمة حق التأمل وجد جل الكلام فيها مبنياً على رد المجادلين في آيات الله المشتملة على التوحيد والبعث وتبيين وجه الرد في ذلك بفنون مختلفة، ثم انظر إلى ما ختم به السورة كيف يطابق ما بدئت من قوله سبحانه: ﴿فلا يغررك تقلبهم﴾ [غافر: ٤] وكيف صرح آخراً بما رمز إليه أولاً لتقضي منه العجب فهذا وجه العطف انتهى.

وما ذكره من أظهرية هذا الوجه بحسب اللفظ ظاهر جداً لما في الأولى من ارتكاب خلاف الظاهر قبل الحاجة إليه في موضعين في الدعاء حيث تجوز به عن العبادة لتضمنها له أو لأنه عبادة خاصة أريد به المطلق، وفي الاستجابة حيث جعلت الإثابة على العبادة لترتبها عليها استجابة مجازاً أو مشاكلة بخلاف الثاني فإن فيه ارتكاب خلاف الظاهر وهو التجوز في موضع واحد وهو ﴿عن عبادتي﴾ ومع هذا هو بعد الحاجة فلم يكن كنزع الخف قبل الوصول إلى الماء بل قيل: لا حاجة إلى التجوز فيه لأن الإضافة مراد بها العهد هنا فتفيد ما تقدم، لكن كونه أنسب بالسياق أيضاً مما لا يتم في نظري، وأياً ما كان ﴿فأستجب﴾ جزم في جواب الأمر أي إن تدعوني أستجب لكم والاستجابة على الوجهين مشروطة بالمشيئة حسبما تقتضيه أصولنا، وقد صرح بذلك في استجابة الدعاء قال سبحانه: ﴿فيكشف ما تدعون إليه إن شاء﴾ [الأنعام: ٤١] والاستكبار عن عبادة الله تعالى دعاء كانت أو غيره كفر يترتب عليه ما ذكر في الآية الكريمة.

وأما ترك ذلك لا عن استكبار فتفصيل الكلام فيه لا يخفى، والمقامات في ترك الدعاء فقيل: متفاوتة فقد لا يحسن كما يدل عليه قوله ﷺ: «من لم يدع الله تعالى يغضب عليه» أخرجه أحمد وابن أبي شيبة والحاكم عن أبي هريرة مرفوعاً، وقد يحسن كما يدل عليه ما روي من ترك الخليل عليه السلام الدعاء يوم ألقي في النار وقوله علمه بحالي يغني عن سؤالي، وربما يقال: ترك الدعاء اكتفاء بعلم الله عزَّ وجلّ دعاء والله تعالى أعلم.

وقرأ ابن كثير وأبو بكر وزيد بن علي وأبو جعفر «سَيُدْخَلُونَ» مبنياً للمفعول من الإدخال واختلفت الرواية عن عاصم وأبي عمرو ﴿اللَّهُ الَّذي جَعَلَ لَكُمْ اللَّيْلَ لِتَسْكنُوا فيه﴾ لتستريحوا فيه بأن أغاب سبحانه فيه الشمس فجعله جل شأنه بارداً مظلماً وجعل عزَّ وجلّ برده سبباً لضعف القوى المحركة وظلمته سبباً لهدو الحواس الظاهرة إلى أشياء أخرى جعلها أسباباً للسكون والراحة ﴿وَالنَّهَارَ مُبْصراً﴾ يبصر فيه أو به فالنهار إما ظرف زمان للإبصار أو سبب له.

وأياً ما كان فإسناد الإبصار له بجعله مبصراً إسناد مجازي لما بينهما من الملابسة، وفيه مبالغة وأنه بلغ الإبصار إلى حد سرى في نهار المبصر، ولذا لم يقل: لتبصروا فيه على طرز ما وقع في قرينه، فإن قيل: لم لم يقل جعل لكم الليل ساكناً ليكون فيه المبالغة المذكورة وتخرج القرينتان مخرجاً واحداً في المبالغة، قلت: أجيب عن ذلك بأن نعمة النهار أتم وأعظم من نعمة الليل فسلك مسلك المبالغة فيها، وتركت الأخرى على الظاهر تنبيهاً على ذلك، وقيل: إن النعمتين فرسا رهان فدل على فضل الأولى بالتقديم وعلى فضل الأخرى بالمبالغة وهو كما ترى، وقيل: لم يقل ذلك

لأن الليل يوصف على الحقيقة بالسكون فيقال: ليل ساكن أي لا ريح فيه ولا يبعد أن يكون السكون بهذا المعنى حقيقة عرفية. فلو قيل: ساكناً لم يتميز المراد نظراً إلى الإطلاق وإن تميز نظراً إلى قرينة التقابل.

وكان رجحان هذا الأسلوب لأن الكلام المحكم الواضح بنفسه من أول الأمر هو الأصل لا سيما في خطاب ورد في معرض الامتنان للخاصة والعامة، وهم متفاوتون في الفهم والدراية الناقصة والتامة، وفي الكشف لما لم يكن الأبصار علة غائية في نفسه بل العلة ابتغاء الفضل كما ورد مصرحاً به في سورة القصص بخلاف السكون والدعة في الليل صرح بذلك في الأول ورمز في الثاني مع إفادة نكتة سرية في الإسناد المجازي.

وقال الجلبي: إذا حملت الآية على الاحتباك، وقيل: المراد جعل لكم الليل مظلماً لتسكنوا فيه والنهار مبصراً لتنتشروا فيه ولتبتغوا من فضل الله تعالى فحذف من الأول بقرينة الثانية ومن الثاني بقرينة الأول لم يحتج إلى ما ذكر في تعليل ترك المبالغة في القرينة الأولى، وهذا هو المشهور في الآية والله سبحانه وتعالى أعلم.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ﴾ لا يوازيه فضل ولقصد الإشعار به لم يقل المفضل **﴿عَلَى النَّاس﴾** برهم وفاجرهم **﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاس لا يَشْكُرُونَ﴾** لجهلهم بالمنعم وإغفالهم مواقع النعم، وتكرير الناس لتخصيص الكفران بهم، وذلك من إيقاعه على صريح اسمهم الظاهر الموضوع موضع الضمير الدال على أنه من شأنهم وخاصتهم في الغالب.

﴿ذَلِكُمُ﴾ المتصف بالصفات المذكورة المقتضية للألوهية والربوبية **﴿اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كل شَيْءٍ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾** أخبار مترادفة تخصص اللاحقة السابقة وتقلل اشتراكها في المفهوم نظراً إلى أصل الوضع وتقررها، وجوز في بعضها الوصفية والبدلية، وأخر **﴿خالق كل شيء﴾** عن **﴿لا إله إلا هو﴾** في آية [١٠٦ من سورة الأنعام]، وقدم هنا لما أن المقصود هاهنا على ما قيل الرد على منكري البعث فناسب تقديم ما يدل عليه، وهو أنه منه سبحانه وتعالى مبدأ كل شيء فكذا إعادته.

وقرأ زيد بن علي «خالِقَ» بالنصب على الاختصاص أي أعني أو أخص خالق كل شيء فيكون **﴿لا إله إلا هو﴾** استئنافاً مما هو كالنتيجة للأوصاف المذكورة فكأنه قيل: الله تعالى متصف بما ذكر من الصفات ولا إله إلا من اتصف بها فلا إله إلا هو **﴿فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾** فكيف ومن أي جهة تصرفون من عبادته سبحانه إلى عبادة غيره عزَّ وجلّ. وقرأ طلحة في رواية «يؤفكون» بياء الغيبة.

﴿كَذلِكَ يُؤْفَكُ الَّذينَ كَانُوا بآيَات الله يَجْحَدُونَ﴾ أي مثل ذلك الإفك العجيب الذي لا وجه له ولا مصحح أصلاً يؤفك كل من جحد بآياته تعالى أي آية كانت لا إفكاً آخر له وجه ومصحح في الجملة.

﴿اللَّهُ الَّذي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ قَرَاراً﴾ أي مستقراً **﴿وَالسَّماءَ بَناءً﴾** أي قبة ومنه أبنية العرب لقبابهم التي تضرب وإطلاق ذلك على السماء على سبيل التشبيه، وهو تشبيه بليغ وفيه إشارة لكريتها. وهذا بيان لفضله تعالى المتعلق بالمكان بعد بيان فضله المتعلق بالزمان، وقوله سبحانه: **﴿وَصَوَّرَكُم فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾** بيان لفضله تعالى المتعلق بأنفسهم، والفاء في **﴿فأحسن﴾** تفسيرية فالمراد صوركم أحسن تصوير حيث خلق كلاً منكم منتصب القامة بادي البشرة متناسب الأعضاء والتخطيطات متهيء لمزاولة الصنائع واكتساب الكمالات. وقرأ الأعمش وأبو رزين «صِوَرَكُم» بكسر الصاد فراراً من الضمة قبل الواو، وجمع فعلة بضم الفاء على فعل بكسرها شاذ ومنه قوة وقوى بكسر القاف في الجمع. وقرأت فرقة «صُوْرَكُم» بضم الصاد وإسكان الواو على نحو بسرة وبسر **﴿وَرَزَقَكُمْ منَ الطَّيِّبات﴾** أي المستلذات طعماً ولباساً وغيرهما وقيل الحلال **﴿ذَلكُمُ﴾** الذي نعت بما ذكر من النعوت الجليلة **﴿اللَّهُ رَبُّكُمْ﴾**

خبران لذلكم ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ﴾ تعالى بذاته ﴿رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ أي مالكهم ومربيهم والكل تحت ملكوته مفتقر إليه تعالى في ذاته ووجوده وسائر أحواله جميعها بحيث لو انقطع فيضه جل شأنه عنه آناً لعدم بالكلية ﴿هُوَ الْحَيُّ﴾ المنفرد بالحياة الذاتية الحقيقية ﴿لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾ إذ لا موجود يدانيه في ذاته وصفاته وأفعاله عزَّ وجلّ ﴿فَادْعُوهُ﴾ فاعبدوه خاصة لاختصاص ما يوجب ذلك به تعالى.

وتفسير الدعاء بالعبادة هو الذي يقتضيه قوله تعالى: ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ الدينَ﴾ أي الطاعة من الشرك الخفي والجلي وأنه الأليق بالترتب على ما ذكر من أوصاف الربوبية والألوهية، وإنما ذكرت بعنوان الدعاء لأن اللائق هو العبادة على وجه التضرع والانكسار والخضوع ﴿الْحَمْدُ للَّه رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي قائلين ذلك.

أخرج ابن جرير وابن المنذر والحاكم وصححه والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابن عباس قال: من قال لا إله إلا الله فليقل على أثرها الحمد لله رب العالمين وذلك قوله تعالى: ﴿فادعوه مخلصين﴾ الخ. وأخرج عبد بن حميد عن سعيد بن جبير نحو ذلك، وعلى هذا ف ﴿الحمد لله﴾ الخ من كلام المأمورين بالعبادة قبله، وجوز كونه من كلام الله تعالى على أنه إنشاء حمد ذاته سبحانه بذاته جل شأنه.

﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لَمَّا جَاءَنِي الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي﴾ من الحجج والآيات أو من الآيات لكونها مؤيدة لأدلة العقل منبهة عليها فإن الآيات التنزيلية مفسرات للآيات التكوينية الآفاقية والأنفسية ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي بأن أنقاد له تعالى وأخلص له عزَّ وجلّ ديني.

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ﴾ في ضمن خلق آدم عليه السلام منه حسبما مر تحقيقه ﴿ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ﴾ أي ثم خلقكم خلقاً تفصيلياً من نطفة أي من مني ﴿ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ﴾ قطعة دم جامد ﴿ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً﴾ أي أطفالاً وهو اسم جنس صادق على القليل والكثير.

وفي المصباح، قال ابن الأنباري: يكون الطفل بلفظ واحد للمذكر والمؤنث والجمع ويجوز فيه المطابقة أيضاً، وقيل: إنه أفراد بتأويل خلق كل فرد من هذا النوع ثم يخرج كل فرد منه طفلاً ﴿ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ﴾ للام فيه متعلقة بمحذوف تقديره ثم يبقيكم لتبلغوا وذلك المحذوف عطف على ﴿يخرجكم﴾ وجوز أن يكون ﴿لتبلغوا﴾ عطفاً على علة مقدرة ليخرجكم كأنه قيل: ثم يخرجكم لتكبروا شيئاً فشيئاً ثم لتبلغوا أشدكم وكمالكم في القوة والعقل، وكذا الكلام في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخاً﴾ ويجوز عطفه على ﴿لتبلغوا﴾.

وقرأ ابن كثير وابن ذكوان وأبو بكر وحمزة والكسائي «شِيُوخاً» بكسر الشين. وقرىء «شيخاً» كقوله تعالى: ﴿طفلاً﴾ ﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ﴾ أي من قبل الشيخوخة بعد بلوغ الأشد أو قبله أيضاً ﴿وَلِتَبْلُغُوا﴾ متعلق بفعل مقدر بعده أي ولتبلغوا ﴿أَجَلاً مُسَمًّى﴾ هو يوم القيامة بفعل ذلك الخلق من تراب وما بعده من الأطوار، وهو عطف على ﴿خلقكم﴾ والمراد من يوم القيامة ما فيه من الجزاء فإن الخلق ما خلقوا إلا ليعبدوا ثم يبلغوا الجزاء، وتفسير الأجل المسمى بذلك مروي عن الحسن، وقال بعض: هو يوم الموت. وتعقب بأن وقت الموت فهم من ذكر التوفي قبله فالأولى تفسيره بما تقدم، وظاهر صنيع الزمخشري ترجيح هذا على ما بين في الكشف ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ ولكي تعقلوا ما في ذلك التنقل في الأطوار من فنون الحكم والعبر.

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج أنه قال: أي ولعلكم تعقلون عن ربكم أنه يحييكم كما أماتكم ﴿هُوَ الَّذِي يُحْيِي﴾ الأموات ﴿وَيُمِيتُ﴾ الأحياء أو الذي يفعل الإحياء والإماتة ﴿فَإِذَا قَضَى أَمْراً﴾ أراد بروز أمر من الأمور إلى

الوجود الخارجي ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ من غير توقف على شيء من الأشياء أصلاً.

وهذا عند الخلف تمثيل لتأثير قدرته تعالى في المقدورات عند تعلق إرادته سبحانه بها وتصوير لسرعة ترتب المكونات على تكوينه من غير أن يكون هناك آمر ومأمور وقد تقدم الكلام في ذلك، والفاء الأولى للدلالة على أن ما بعدها من نتائج ما قبلها من حيث إنه يقتضي قدرة ذاتية غير متوقفة على العدد والمواد، وجوز فيها كونها تفصيلية وتعليلية أيضاً فتدبر ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللهِ أَنَّى يُصْرَفُونَ﴾ تعجيب من أحوالهم الشنيعة وآرائهم الركيكة وتمهيد لما يعقبه من بيان تكذيبهم بكل القرآن وبسائر الكتب والشرائع وترتيب الوعيد على ذلك، كما أن ما سبق من قوله تعالى: ﴿إن الذين يجادلون﴾ الخ بيان لابتناء جدالهم على مبنى فاسد لا يكاد يدخل تحت الوجود فلا تكرير فيه كذا في إرشاد العقل السليم.

وقال القاضي: تكرير ذكر المجادلة لتعدد المجادل بأن يكون هناك قوماً وهنا قوماً آخرين أو المجادلة فيه بأن يحمل في كل على معنى مناسب ففيما مر في البعث وهنا في التوحيد أو هو للتأكيد اهتماماً بشأن ذلك. واختار ما في الارشاد، أي انظر إلى هؤلاء المكابرين المجادلين في آياته تعالى الواضحة الموجبة للإيمان بها الزاجرة عن الجدال فيها كيف يصرفون عنها مع تعاضد الدواعي إلى الإقبال عليها وانتفاء الصوارف عنها بالكلية.

وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا بالكتاب﴾ أي بكل القرآن أو بجنس الكتب السماوية فإن تكذيبه تكذيب لها في محل الجر على أنه بدل من الموصول الأول أو بيان أو صفة له أو في محل النصب على الذم أو في محل الرفع على أنه خبر محذوف أو مبتدأ خبره ﴿فسوف يعلمون﴾ وإنما وصل الموصول الثاني بالتكذيب دون المجادلة لأن المعتاد وقوع المجادلة في بعض المواد لا في الكل. وصيغة الماضي للدلالة على التحقيق كما أن صيغة المضارع في الصلة الأولى للدلالة على تجدد المجادلة وتكررها ﴿وَبِمَا أَرْسَلْنَا به رُسُلَنَا﴾ من سائر الكتب على الوجه الأول في تفسير الكتاب أو مطلق الوحي والشرائع على الوجه الثاني فيه.

﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ كنه ما فعلوا من الجدال والتكذيب عند مشاهدتهم لعقوباته ﴿إذ الأَغْلاَلُ في أعْناقهم﴾ ظرف ليعلمون، والمعنى على الاستقبال، والتعبير بلفظ المضي للدلالة على تحققه حتى كأنه ماض حقيقة فلا تنافر بين سوف وإذ ﴿والسَّلاَسِلُ﴾ عطف على ﴿الأغلال﴾ والجار والمجرور في نية التأخير كأنه قيل: إذ الأغلال والسلاسل في أعناقهم، وقوله تعالى: ﴿يُسْحَبُونَ﴾ أي يجرون ﴿في الحميمَ﴾ حال من ضمير ﴿يعلمون﴾ أو ضمير ﴿في أعناقهم﴾ أو جملة مستأنفة لبيان حالهم بعد ذلك، وجوز كون ﴿السلاسل﴾ مبتدأ أو جملة ﴿يسحبون﴾ خبره والعائد محذوف أي يسحبون بها.

وجوز كون ﴿الأغلال﴾ مبتدأ ﴿والسلاسل﴾ عطف عليه والجملة خبر المبتدأ و ﴿في أعناقهم﴾ في موضع الحال، ولا يخفى حاله، وقرأ ابن مسعود وابن عباس وزيد بن علي وابن وثاب «والسلاسلُ يَسْحَبُونَ» بنصب السلاسل وبناء يسحبون للفاعل فيكون السلاسل مفعولاً مقدماً ليسحبون، والجملة معطوفة على ما قبلها، ولا بأس بالتفاوت اسمية وفعلية.

وقرأت فرقة منهم ابن عباس في رواية «والسلاسل» بالجر، وخرج ذلك الزجاج على الجر بخافض محذوف كما في قوله:

أشارت كليب بالأكف الأصابع

أي وبالسلاسل كما قرىء به أو في السلاسل كما في مصحف أبي، والفراء على العطف بحسب المعنى إذ الأغلال في أعناقهم بمعنى أعناقهم في الأغلال، ونظيره قوله:

مشائيم ليسوا مصلحين عشيرة ... ولا ناعب إلا ببين غرابها

ويسمى في غير القرآن عطف التوهم، وذهب إلى هذا التخريج الزمخشري وابن عطية، وابن الأنباري بعد أن ضعف تخريج الزجاج خرج القراءة على ما قال الفراء قال: وهذا كما تقول: خاصم عبد الله زيد العاقلين بنصب العاقلين ورفعه لأن أحدهما إذا خاصم صاحبه فقد خاصم الآخر، وهذه المسألة لا تجوز عند البصريين ونقل جوازها عن محمد ابن سعدان الكوفي قال: لأن كل واحد منهما فاعل مفعول ﴿ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ﴾ يحرقون ظاهراً وباطناً من سجر التنور إذا ملأه إيقاداً ويكون بمعنى ملأه بالحطب ليحميه، ومنه السجير للصديق الخليل كأنه سجر بالحب أي مليء، ويفهم من القاموس أن السجر من الأضداد، وكلا الاشتقاقين مناسب في السجير أي مليء من حبك أو فرغ من غيرك إليك والأول أظهر.

والمراد بهذا وما قبله أنهم معذبوهم بأنواع العذاب سحبهم على وجوههم في النار الموقدة ثم تسليط النار على باطنهم وأنهم يعذبون ظاهراً وباطناً فلا استدراك في ذكر هذا بعد ما تقدم.

ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُواْ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا
كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ
﴿٧٥﴾ ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا
نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٧٧﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن
قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ فَإِذَا جَآءَ
أَمْرُ ٱللَّهِ قُضِىَ بِٱلْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٧٨﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ لِتَرْكَبُواْ مِنْهَا
وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَلِتَبْلُغُواْ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ
تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَأَىَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ ﴿٨١﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ
كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوٓاْ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ
يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ
يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ
يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾

﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ مِنْ دُونِ الله قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا﴾ أي يقال لهم ويقولون، وصيغة الماضي للدلالة على تحقق الوقوع، والسؤال للتوبيخ، وضلالهم عنهم بمعنى غيبتهم من ضلت دابته إذا لم يعرف مكانها، وهذا لا ينافي ما يشعر بآن آلهتهم مقرونون بهم في النار لأن للنار طبقات ولهم فيها مواقف فيجوز غيبتهم عنهم في بعضها

واقترانهم بهم في بعض آخر، ويجوز أن يكون ضلالهم استعارة لعدم النفع فحضورهم كالعدم فذكر على حقيقته في موضع وعلى مجازه في آخر ﴿بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُو مِنْ قَبْلُ شَيْئاً﴾ أي بل تبين لنا اليوم أنا لم نكن نعبد في الدنيا شيئاً يعتد به، وهو إضراب عن كون الآلهة الباطلة ليست بموجودة عندهم أو ليست بنافعة إلى أنها ليست شيئاً يعتد به.

وفي ذلك اعتراف بخطئهم وندم على قبيح فعلهم حيث لا ينفع ذلك، وجعل الجلبي هذه الآية كقوله تعالى: ﴿والله ربنا ما كنا مشركين﴾ [الأنعام: ٢٣] يفزعون إلى الكذب لحيرتهم واضطرابهم، ومعنى قوله تعالى: ﴿كَذلكَ يُضلُّ اللَّهُ الكَافرينَ﴾ أنه تعالى يحيرهم في أمرهم حتى يفزعون إلى الكذب مع علمهم بأنه لا ينفعهم، ولعل ما تقدم هو المناسب للسياق.

ومعنى هذا مثل ذلك الإضلال يضل الله تعالى في الدنيا الكافرين حتى أنهم يدعون فيها ما يتبين لهم أنه ليس بشيء أو مثل ضلال آلهتهم عنهم في الآخرة نضلهم عن آلهتهم فيها حتى لو طلبوا الآلهة وطلبتهم لم يلق بعضهم بعضاً أو مثل ذلك الضلال وعدم النفع يضل الله تعالى الكافرين حتى لا يهتدوا في الدنيا إلى ما ينفعهم في الآخرة، وفي المجمع كما أضل الله تعالى أعمال هؤلاء وأبطل ما كانوا يؤملونه كذلك يفعل بأعمال جميع من يتدين بالكفر فلا ينتفعون بشيء منها، فإضلال الكافرين على معنى إضلال أعمالهم أي إبطالها، ونقل ذلك عن الحسن، وقيل في معناه غير ذلك.

وقوله تعالى: ﴿ذَلكُمْ﴾ إشارة إلى المذكور من سحبهم في السلاسل والأغلال وتسجيرهم في النار وتوبيخهم بالسؤال، وجوز على بعض الأوجه أن يكون إشارة إلى إضلال الله تعالى الكافرين، وإلى الأول ذهب ابن عطية أي ذلكم العذاب الذي أنتم فيه ﴿بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الأَرْض﴾ تبطرون وتأشرون كما قال مجاهد ﴿بِغَير الْحَقِّ﴾ وهو الشرك والمعاصي أو بغير استحقاق لذلك، وفي ذلك ﴿الأرض﴾ زيادة تفظيع للبطر ﴿وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ﴾ تتوسعون في الفرح، وقيل: المعنى بما كنتم تفرحون بما يصيب أنبياء الله تعالى أولياءه من المكاره وبما كنتم تتوسعون في الفرح بما أوتيتم حتى نسيتم لذلك الآخرة واشتغلتم بالنعمة عن المنعم، وفي الحديث «الله تعالى يبغض البذخين الفرحين ويحب كل قلب حزين» وبين الفرح والمرح تجنيس حسن، والعدول إلى الخطاب للمبالغة في التوبيخ لأن ذم المرء في وجهه تشهير له، ولذا قيل: النصح بين الملأ تقريع ﴿ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّم﴾ أي الأبواب المقسومة لكم ﴿خالدينَ فيهَا﴾ مقدرين الخلود ﴿فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبرينَ﴾ عن الحق جهنم، وكان مقتضى النظم الجليل حيث صدر بادخلوا أن يقال: فبئس مدخل المتكبرين ليتجاوب الصدر والعجز لكن لما كان الدخول المقيد بالخلود سبب الثواء عبر بالمثوى وصح التجاوب معنى، وهذا الأمر على ما استظهره في البحر مقول لهم بعد المحاورة السابقة وهم في النار، ومطمح النظر فيه الخلود فهو أمر بقيد الخلود لا بمطلق الدخول، ويجوز أن يقال: هم بعد الدخول فيها أمروا أن يدخلوا الأبواب المقسومة لهم فكان أمراً بالدخول بقيد التجزئة لكل باب، وقال ابن عطية: يقال لهم قبل هذه المحاورة في أول الأمر ادخلوا.

﴿فَاصْبر إنَّ وَعْدَ اللَّه﴾ بتعذيب أعدائك الكفرة ﴿حَقٌ﴾ كائن لا محالة ﴿فَإمَّا نُرِيَنَّكَ﴾ أصله فإن نرك فزيدت ﴿ما﴾ لتوكيد ﴿إن﴾ الشرطية ولذلك جاز أن يلحق الفعل نون التوكيد على ما قيل: وإلى التلازم بين ما ونون التوكيد بعد أن الشرطية ذهب المبرد. والزجاج فلا يجوز عندهما زيادة ما بدون إلحاق نون ولا إلحاق نون بدون زيادة ما ورد بقوله:

فأما تريني ولي لمة ... فإن الحوادث أودى بها

ونسب أبو حيان على كلام فيه جواز الأمرين إلى سيبويه والغالب أن إن إذا أكدت ـ بما ـ يلحق الفعل بعدها نون التوكيد على ما نص عليه غير واحد ﴿**بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُم**﴾ وهو القتل والأسر ﴿**أَو نَتَوَفَّيَنَّكَ**﴾ قبل ذلك ﴿**فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ**﴾ يوم القيامة فنجازيهم بأعمالهم، وهو جواب ﴿**نتوفينك**﴾ وجواب ﴿**نرينك**﴾ محذوف مثل فذاك، وجوز أن يكون جواباً لهما على معنى أن نعذبهم في حياتك أو لم نعذبهم فإنا نعذبهم في الآخرة أشد العذاب ويدل على شدته الاقتصار على ذكر الرجوع في هذا المعرض. والزمخشري آثر في الآية هنا ما ذكر أولاً وذكر في [الرعد: ٤٠] في نظيرها أعني قوله تعالى: ﴿وأما نرينك بعض الذي نعدهم أو نتوفينك فإنما عليك البلاغ﴾ ما يدل على أن الجملة المقرونة بالفاء جواب على التقديرين، قال في الكشف: والفرق أن قوله تعالى: ﴿فاصبر إن وعد الله حق﴾ [الروم: ٦٠، غافر: ٥٥، ٧٧] عدة للإنجاز والنصر وهو الذي همه عليه الصلاة والسلام وهم المؤمنين معقود به لمقتضى هذا السياق فينبغي أن يقدر فذاك هناك ثم جيء بالتقدير الثاني رداً لشماتتهم وأنه منصور على كل حال وإتماماً للتسلي، وأما مساق التي في الرعد فلا يجاب التبليغ وأنه ليس عليه غير ذلك كيفما دارت القضية، فمن ذهب إلى إلحاق ما هنا بما في الرعد ذهب عنه مغزى الزمخشري انتهى فتأمل ولا تغفل.

وقرأ أبو عبد الرحمن ويعقوب «يَرْجعُونَ» بفتح الياء، وطلحة بن مصرف ويعقوب في رواية الوليد بن حسان بفتح تاء الخطاب ﴿**وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً**﴾ ذوي خطر وكثرة ﴿**مِنْ قَبْلِكَ**﴾ من قبل إرسالك.

﴿**مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا**﴾ أوردنا أخبارهم وآثارهم ﴿**عَلَيْكَ**﴾ كنوح وإبراهيم وموسى عليهم السلام.

﴿**وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ**﴾ وهم أكثر الرسل عليهم الصلاة والسلام، أخرج الإمام أحمد عن أبي ذر رضي الله تعالى عنه قال: «قلت يا رسول الله كم عدة الأنبياء؟ قال مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً الرسل من ذلك ثلاثمائة وخمسة عشر جماً غفيراً» والظاهر أن المراد بالرسول في الآية ماهو أخص من النبي، وربما يوهم صنيع القاضي أن المراد به ما هو مساو للنبي.

وأياً ما كان لا دلالة في الآية على عدم علمه ﷺ بعدد الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام كما توهم بعض الناس، ورد لذلك خبر الإمام أحمد وجرى بيننا وبينه من النزاع ما جرى، وذلك لأن المنفي القص وقد علمت معناه فلا يلزم من نفي ذلك نفي ذكر أسمائهم، ولو سلم فلا يلزم من نفى ذكر الأسماء نفي ذكر أن عدتهم كذا من غير تعرض لذكر أسمائهم، على أن النفي بلم وهي على الصحيح تقلب المضارع ما ضيافاً لمنفي القص في الماضي ولا يلزم من ذلك استمرار النفي فيجوز أن يكون قد قصوا عليه عليه الصلاة والسلام جميعاً بعد ذلك ولم ينزل ذلك قرآناً، وأظهر من ذلك في الدلالة على عدم استمرار النفي قوله تعالى: ﴿رسلاً قد قصصناهم عليك من قبل ورسلاً لم نقصصهم عليك﴾ [النساء: ١٦٤] لتبادر الذهن فيه إلى أن المراد لم نقصصهم عليك من قبل لمكان ﴿قصصناهم عليك من قبل﴾ وبالجملة الاستدلال بالآية على أنه ﷺ لم يعلم عدة الأنبياء والمرسلين عليهم السلام ولا علمها بعد جهل عظيم بل خذلان جسيم نعوذ بالله تعالى من ذلك، وأخرج الطبراني في الأوسط وابن مردويه عن علي كرم الله تعالى وجهه في قوله تعالى: ﴿**ومنهم من لم نقصص عليك**﴾ قال: بعث الله تعالى عبداً حبشياً نبياً فهو ممن لم يقصص على محمد ﷺ، وعن ابن عباس بلفظ «إن الله تعالى بعث نبياً أسود في الحبش فهو ممن لم يقصص عليه عليه الصلاة والسلام» والمراد بذلك على نحو ما مر أنه لم تذكر له ﷺ قصصه وآثاره ولا أوردت عليه أحواله وأخباره كما كان في شأن موسى وعيسى وغيرهما من المرسلين عليهم الصلاة والسلام، ولا يمكن أن يقال: المراد أنه لم يذكر له ﷺ بعثة شخص موصوف بذلك إذ لا يساعد عليه اللفظ، وأيضاً لو أريد ما ذكر فمن أين علم علي كرم الله تعالى وجهه أو ابن عباس ذلك

وهل يقول باب مدينة العلم على علم لم يفض عليك من تلك المدينة حاشاه ثم حاشاه وكذا ابن عمه العباس عبد الله. واستشكل هذا الخبر بأن فيه رسالة العبد وقد قالوا العبد لا يكون رسولاً، وأجيب بأن العبد فيه ليس بمعنى المملوك وهو الذي لا يكون رسولاً لنقصان تصرفه ونفرة النفوس عن اتباعه بل هو أحد العبيد بمعنى السودان عرفاً ولو قيل: إن العبد بهذا المعنى لا يكون رسولاً أيضاً لنفرة النفوس عن اتباعه كنفرتها عن اتباع المملوك قلنا: على تقدير تسليم النفرة إنما هي فيما إذا كان الإرسال لغير السودان وأما إذا كان الإرسال للسودان فليست هناك نفرة أصلاً، وظاهر لفظ ابن عباس أن ذلك الأسود إنما بعث في الحبش والتزام أنه لا يكون رسول من السودان أولاد حام مما لا يساعد عليه الدليل لأنه إن كانت النفرة مانعة من الإرسال فهي لا تتحقق فيما إذا كان الإرسال إلى بني صنفه؛ وإن كان المانع أنه لا يوجد متأهل للإرسال في بني حام لنقصان عقولهم وقلة كمالهم فدعوى ذلك جهل والله تعالى أعلم حيث يجعل رسالته وكم رأينا في أبناء حام من هو أعقل وأكمل من كثير من أبناء سام ويافث، وإن كان قد ورد قاطع من نبينا ﷺ أنه لا يكون من أولئك رسول فليذكر وأني به ثم إن أمر النبوة فيمن ذكر أهون من أمر الرسالة كما لا يخفى، وكأنه لمجموع ما ذكرنا قال الخفاجي عليه الرحمة: في صحة الخبر نظر ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ﴾ أي وما صح وما استقام لرسول من أولئك الرسل ﴿أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ﴾ بمعجزة ﴿إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ﴾ فالمعجزات على تشعب فنونها عطايا من الله تعالى قسمها بينهم حسبما اقتضته مشيئته المبنية على الحكم البالغة كسائر القسم ليس لهم اختيار في ايثار بعضها والاستبداد بإتيان المقترح بها ﴿فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللهِ﴾ بالعذاب في الدنيا والآخرة ﴿قُضِيَ بِالْحَقِّ﴾ بإنجاء المحق وإثابته وإهلاك المبطل وتعذيبه ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ﴾ أي وقت مجيء أمر الله تعالى اسم مكان استعير للزمان ﴿الْمُبْطِلُونَ﴾ المتمسكون بالباطل على الإطلاق فيدخل فيهم المعاندون المقترحون دخولاً أولياً ومن المفسرين من فسر المبطلين بهم وفسر أمر الله بالقيامة، ومنهم من فسره بالقتل يوم بدر وما ذكرنا أولى.

وأبعد ما رأينا في الآية أن المعنى فإذا أراد الله تعالى إرسال رسول وبعثة نبي قضى ذلك وأنفذه بالحق وخسر كل مبطل وحصل على فساد آخرته.

﴿اللهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَنْعَامَ﴾ المراد بها الإبل خاصة كما حكي عن الزجاج واختاره صاحب الكشاف، واللام للتعليل لا للاختصاص فإن ذلك هو المعروف في نظير الآية أي خلقها لأجلكم ولمصلحتكم، وقوله تعالى: ﴿لِتَرْكَبُوا مِنْهَا﴾ الخ تفصيل لما دل عليه الكلام إجمالاً، ومن هنا جعل ذلك بعضهم بدلاً مما قبله بدل مفصل من مجمل بإعادة حرف الجر، و ﴿مِن﴾ لابتداء الغاية أي ابتداء تعلق الركوب بها أو تبعيضية وكذا ﴿مِن﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ وليس المراد على إرادة التبعيض إن كلاً من الركوب والأكل مختص ببعض معين منها بحيث لا يجوز تعلقه بما تعلق به الآخر بل على أن كل بعض منها صالح لكل منهما. نعم كثيراً ما يعدون النجائب من الإبل للركوب، والجملة على ما ذهب إليه الجلبي عطف على المعنى فإن قوله تعالى: ﴿لتركبوا منها﴾ في معنى منها تركبون أو إن منها تأكلون في معنى لتأكلوا منها لكن لم يؤت به كذلك لنكتة.

وقال العلامة التفتازاني: إن هذه الجملة حالية لكن يرد على ظاهره أن فيه عطف الحال على المفعول له ولا محيص عنه سوى تقدير معطوف أي خلق لكم الأنعام منها تأكلون ليكون من عطف جملة على جملة.

وتعقبه الخفاجي بقوله: لم يلح لي وجه جعل هذه الواو عاطفة محتاجة إلى التقدير المذكور مع أن الظاهر أنها واو حالية سواء قلنا إنها حال من الفاعل أو المفعول والمنساق إلى ذهني العطف بحسب المعنى، ولعل اعتباره في جانب المعطوف أيسر فيعتبر أيضاً في قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ﴾ أي غير الركوب والأكل كالألبان والأوبار

والجلود ويقال: إنه في معنى ولتنتفعوا بمنافع فيها أو نحو ذلك ﴿وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ﴾ أي أمراً ذا بال تهتمون به وذلك كحمل الأثقال من بلد إلى بلد، وهذا عطف على لتركبوا منها جاء على نمطه، وكان الظاهر المزاوجة بين الفوائد المحصلة من الأنعام بأن يؤتى باللام في الجميع أو تترك فيه لكن عدل إلى ما في النظم الجليل لنكتة.

قال صاحب الكشف: إن الأنعام هاهنا لما أريد بها الإبل خاصة جعل الركوب وبلوغ الحاجة من أتم الغرض منها لأن من منافعها الركوب والحمل عليها، وأما الأكل منها والانتفاع بأوبارها وألبانها بالنسبة إلى ذينك الأمرين فنزر قليل، فأدخل اللام عليهما وجعلا مكتنفين لما بينهما تنبيهاً على أنه أيضاً مما يصلح للتعليل ولكن قاصراً عنهما، وأما الاختصاص المستفاد من قوله تعالى: ﴿ومنها تأكلون﴾ فلأنها من بين ما يقصد للركوب ويعد للأكل فلا ينتقض بالخيل على مذهب من أباح لحمها ولا بالبقر، وقال صاحب الفرائد: إنما قيل ﴿ومنها تأكلون ولكم فيها منافع﴾ ولم يقل: لتأكلوا منها ولتصلوا إلى المنافع لأنهم في الحال آكلون وآخذون المنافع وأما الركوب وبلوغ الحاجة فأمران منتظران فجيء فيهما بما يدل على الاستقبال. وتعقب بأن الكل مستقبل بالنسبة إلى زمن الخلق.

وقال القاضي: تغيير النظم في الأكل لأنه في حيز الضرورة، وقيل في توجيهه: يعني أن مدخول الغرض لا يلزم أن يترتب على الفعل، فالتغيير إلى صورة الجملة الحالية مع الإتيان بصيغة الاستمرار لتنبيه على امتيازه عن الركوب في كونه من ضروريات الإنسان. ويطرد هذا الوجه في قوله تعالى: ﴿ولكن فيها منافع﴾ لأن المراد منفعة الشرب واللبس وهذا مما يلحق بالضروريات وهو لا يضر نعم فيه دغدغة لا تخفى. وقال الزمخشري: إن الركوب وبلوغ الحاجة يصح أن يكونا غرض الحكيم جل شأنه لما فيهما من المنافع الدينية كإقامة دين وطلب علم واجب أو مندوب فلذا جيء فيهما باللام بخلاف الأكل وإصابة المنافع فإنهما من جنس المباحات التي لاتكون غرض الحكيم. وهو مبني على مذهبه من الربط بين الأمر والإرادة ولا يصح أيضاً لأن المباحات التي هي نعمة تصح أن تكون غرض الحكيم جل جلاله عندهم، ويا ليت شعري ماذا يقول في قوله تعالى: ﴿هو الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه﴾ [يونس: ٦٧] نعم لو ذكر أنه لاشتماله على الغرض الديني كان أنسب بدخول اللام لكان وجهاً إن تم.

وقيل: تغيير النظم الجليل في الأكل لمراعاة الفواصل كما أن تقديم الجار والمجرور لذلك. وأما قوله تعالى: ﴿ولكم فيها منافع﴾ فكالتابع للأكل فأجري مجراه وهو كما ترى، وقوله تعالى: ﴿وَعَلَيْهَا﴾ توطئة لقوله سبحانه: ﴿وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾ ليجمع بين سفائن البر وسفائن البحر فكأنه قيل: وعليها في البر وعلى الفلك في البحر تحملون فلا تكرار. وفي إرشاد العقل السليم لعل المراد بهذا الحمل حمل النساء والولدان عليها بالهودج وهو السر في فصله عن الركوب، وتقديم الجار قيل: لمراعاة الفواصل كتقديمه قبل.

وقيل التقديم هنا وفيما تقدم للاهتمام؛ وقيل: ﴿على الفلك﴾ دون في الفلك كما في قوله تعالى: ﴿احمل فيها من كل زوجين اثنين﴾ [هود: ٤٠] لأن معنى الظرفية والاستعلاء موجود فيها فيصح كل من العبارتين، والمرجح لعلى هنا المشاكلة.

وذهب غير واحد إلى أن المراد بالأنعام الأزواج الثمانية فمعنى الركوب والأكل منها تعلقهما بالكل لكي لا على أن كلاً منهما مختص ببعض معين منها بحيث لا يجوز تعلقه بما تعلق به الآخر بل على أن بعضها يتعلق به الأكل فقط كالغنم وبعضها يتعلق به كلاهما كالإبل ومنهم من عد البقر أيضاً وركوبه معتاد عند بعض أهل الأخبية، وأدرج بعضهم الخيل والبغال وسائر ما ينتفع به من البهائم في الأنعام وهو ضعيف.

ورجح القول بأن المراد الأزواج الثمانية على القول المحكي عن الزجاج من أن المراد الإبل خاصة بأن المقام

مقام امتنان وهو مقتض للتعميم، والظاهر ذاك، وكون المقام مقام امتنان غير مسلم بل هو مقام استدلال كقوله تعالى: ﴿أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت﴾ [الغاشية: ١٧] كما يشعر به السياق، ولا يأباه ذكر المنافع فإنه استطرادي ﴿وَيُرِيكُم آيَاتِه﴾ أي دلائله الدالة على كمال شؤونه جل جلاله ﴿فَأَيَّ آيَاتِ الله﴾ أي فأي آية من تلك الآيات الباهرة ﴿تُنْكِرُونَ﴾ فإن كلاً منها من الظهور بحيث لا يكاد يجترىء على إنكارها من له عقل في الجملة. فأين للاستفهام التوبيخي وهي منصوبة بتنكرون، وإضافة الآيات إلى الاسم الجليل لتربية المهابة وتهويل إنكارها وتنكير أي في مثل ما ذكر هو الشائع المستفيض والتأنيث قليل ومنه قوله:

بأي كتاب أم بأية سنة ترى حبهم عاراً علي وتحسب

قال الزمخشري: لأن التفرقة بين المذكر والمؤنث في الأسماء غير الصفات نحو حمار وحمارة غريب وهي في أي أغرب لإبهامه لأنه اسم استفهام عما هو مبهم مجهول عند السائل والتفرقة مخالفة لما ذكر لأنها تقتضي التمييز بين ما هو مؤنث ومذكر فيكون معلوماً له ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا﴾ أي أقعدوا فلم يسيروا على أحد الرؤيين: ﴿فِي الأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ من الأمم المهلكة، وقوله تعالى: ﴿كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَاراً فِي الأَرْضِ﴾ الخ استئناف نظير ما مر في نظيره أول السورة بل أكثر الكلام هناك جار هاهنا ﴿فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ ﴿ما﴾ الأولى نافية أو استفهامية في معنى النفي في محل نصب بأغنى، والثانية موصولة في موضع رفع به أو مصدرية والمصدر الحاصل بالتأويل مرفوع به أيضاً أي لم يغن عنهم أو أي شيء أغنى عنهم الذي كسبوه أو كسبهم ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ المعجزات أو الآيات الواضحات الشاملة لذلك ﴿فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ﴾ ذكر فيه ستة أوجه. الأول أن المراد بالعلم عقائدهم الزائغة وشبههم الداحضة فيما يتعلق بالمبدأ والمعاد وغيرهما أو عقائدهم المتعلقة بأحوال الآخرة كما هو ظاهر كلام الكشاف، والتعبير عن ذلك بالعلم على زعمهم للتهكم كما في قوله تعالى: ﴿بل ادارك علمهم في الآخرة﴾ [النمل: ٦٦]. والمعنى أنهم كانوا يفرحون بذلك ويستحقرون له علم الرسل عليهم السلام ويدفعون به البينات. الثاني أن المراد به علم الفلاسفة والدهريين من بني يونان على اختلاف أنواعه فكانوا إذا سمعوا بوحي الله تعالى دفعوه وصغروا علم الأنبياء عليهم السلام إلى ما عندهم من ذلك. وعن سقراط أنه سمع بموسى عليه الصلاة والسلام، وقيل له: لو هاجرت إليه فقال: نحن قوم مهذبون فلا حاجة لنا إلى من يهذبنا. والزمان متشابه فقد رأينا من ترك متابعة خاتم المرسلين ﷺ واستنكف عن الانتساب إلى شريعة أحد منهم فرحاً بما لحس من فضلات الفلاسفة وقال: إن العلم هو ذاك دون ما جاء به الرسل صلوات الله تعالى وسلامه عليهم أجمعين. الثالث أن أصل المعنى فلما جاءتهم رسلهم بالبينات لم يفرحوا بما جاءهم من العلم فوضعوا موضعه فرحوا بما عندهم من الجهل ثم سمي ذلك الجهل علماً لاغتباطهم به ووضعهم إياه مكان ما ينبغي لهم من الاغتباط بما جاءهم من العلم، وفيه التهكم بفرط جهلهم والمبالغة في خلوهم من العلم، وضمير ﴿فرحوا﴾ و ﴿عندهم﴾ على هذه الأوجه للكفرة المحدث عنهم.

الرابع أن يجعل ضمير ﴿فرحوا﴾ للكفرة وضمير ﴿عندهم﴾ للرسل عليهم السلام، والمراد بالعلم الحق الذي جاء المرسلون به أي فرحوا بما عند الرسل من العلم فرح ضحك منه واستهزاء به، وخلاصته أنهم استهزؤوا بالبينات وبما جاء به الرسل من علم الوحي، ويؤيد هذا قوله تعالى: ﴿وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾.

الخامس أن يجعل الضمير أن للرسل عليهم السلام، والمعنى أن الرسل لما رأوا جهل الكفرة المتمادي واستهزاءهم بالحق وعلموا سوء عاقبتهم وما يلحقهم من العقوبة على جهلهم واستهزائهم فرحوا بما أوتوا من العلم

وشكروا الله تعالى وحاق بالكافرين جزاء جهلهم واستهزائهم، وحكي هذا عن الجبائي.

السادس أن يجعل الضمير أن للكفار، والمراد بما عندهم من العلم علمهم بأمور الدنيا ومعرفتهم بتدبيرها كما قال تعالى: ﴿يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون﴾ [الروم: ٧] ﴿ذلك مبلغهم من العلم﴾ [النجم: ٣٠] فلما جاءهم الرسل بعلم الديانات وهي أبعد شيء من علمهم لبعثها على رفض الدنيا والظلف عن الملاذ والشهوات لم يلتفتوا إليها وصغروها واستهزؤوا بها واعتقدوا أنه لا علم أنفع وأجلب للفوائد من علمهم ففرحوا به، قال صاحب الكشف: والأرجح من بين هذه الأوجه الستة الثالث ففيه التهكم والمبالغة في خلوهم من العلم ومشتمل على ما يشتمل عليه الأول وزيادة سالم عن عدم الطباق للواقع كما في الثاني وعن قصور العبارة عن الأداء كالرابع وعن فك الضمائر كما في الخامس، والسادس قريب لكنه قاصر عن فوائد الثالث انتهى فتأمله جداً. وأبو حيان استحسن الوجه السادس وتعقب الوجه الثالث بأنه لا يعبر بالجملة الظاهر كونها مثبتة عن الجملة المنفية إلا في قليل من الكلام نحو شر أهر ذا ناب على خلاف فيه، ولما آل أمره إلى الإثبات المحصور جاز، وأما الآية فينبغي أن لا تحمل على القليل لأن في ذلك تخليطاً لمعاني الجمل المتباينة فلا يوثق بشيء منها، وأنت تعلم أنه لا تباين معنى بين لم يفرحوا بما جاءهم من العلم و ﴿فرحوا بما عندهم من العلم﴾ على ما قرر. نعم هذا الوجه عندي مع ما فيه من حسن لا يخلو عن بعد، وكلام صاحب الكشف لا يخلو عن دغدغة ﴿فَلَمَّا رَأَوا بَأْسَنَا﴾ شدة عذابنا ومنه قوله تعالى: ﴿بعذاب بئيس﴾ [الأعراف: ١٦٥] ﴿قَالُوا آمَنَّا بالله وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بمَا كُنَّا به مُشْركينَ﴾ يعنون الأصنام أو سائر آلهتهم الباطلة: ﴿فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوا بَأْسَنَا﴾ أي عند رؤية عذابنا لأن الحكمة الإلهية قضت أن لا يقبل مثل ذلك الإيمان، و ﴿إيمانهم﴾ رفع بيك أسمالها أو فاعل ﴿ينفعهم﴾ وفي ﴿يك﴾ ضمير الشأن على الخلاف الذي في كان يقوم زيد، ودخل حرف النفي على الكون لا على النفع لإفادة معنى نفي الصحة فكأنه لم يصح ولم يستقم حكمة نفع إيمانهم إياهم عند رؤية العذاب، وهاهنا أربعة فاءات فاء ﴿فما أغنى﴾ وفاء ﴿فلما جاءتهم﴾ وفاء ﴿فلما رأوا﴾ وفاء ﴿فلم يك﴾ فالفاء الأولى مثلها في نحو قولك: رزق المال فمنع المعروف فما بعدها نتيجة مالية لما كانوا فيه من التكاثر بالأموال والأولاد والتمتع بالحصون ونحوها، والثانية تفسيرية مثلها في قولك: فلم يحسن إلى الفقراء بعد فمنع المعروف في المثال فما بعدها إلى قوله تعالى: ﴿وحاق بهم﴾ إيضاح لذلك المجمل وأنه كيف انتهى بهم الأمر إلى عكس ماأملوه وأنهم كيف جمعوا واحتشدوا وأوسعوا في إطفاء نور الله وكيف حاق المكر السيء بأهله إذ كان في قوله سبحانه: ﴿فما أغنى عنهم﴾ إيماء بأنهم زاولوا أن يجعلوها مغنية، والثالث للتعقيب، وجعل ما بعدها تابعاً لما قبلها واقعاً عقيبه ﴿فلما رأوا بأسنا﴾ مترتب على قوله تعالى: ﴿فلما جاءتهم﴾ الخ تابع له لأنه بمنزلة فكفروا إلا أن ﴿فلما جاءتهم﴾ الآية بيان كفر مفصل مشتمل على سوء معاملتهم وكفرانهم بنعمة الله تعالى العظمى من الكتاب والرسول فكأنه قيل: فكفروا فلما رأوا بأسنا آمنوا، ومثلها الفاء الرابعة فما بعدها عطف على آمنوا دلالة على أن عدم نفع إيمانهم ورده عليهم تابع للإيمان عند رؤية العذاب كأنه قيل: فلما رأوا بأسنا آمنوا فلم ينفعهم إيمانهم إذ النافع إيمان الاختيار ﴿سنَّةَ الله الَّتي قَدْ خَلَتْ في عبَاده﴾ أي سن الله تعالى ذلك أعني عدم نفع الإيمان عند رؤية البأس سنة ماضية في البعاد، وهي من المصادر المؤكدة كوعد الله وصبغة الله، وجوز انتصابها على التحذير أي احذروا يا أهل مكة سنة الله تعالى في أعداء الرسل.

﴿وَخَسرَ هُنَالكَ الْكافرُونَ﴾ أي وقت رؤيتهم البأس على أنه اسم مكان قد استعير للزمان كما سلف آنفاً، وهذا الحكم خاص بإيمان البأس وأما توبة البأس فهي مقبولة نافعة بفضل الله تعالى وكرمه، والفرق ظاهر.

وعنه بعض الأكابر أن إيمان البأس مقبول أيضاً ومعنى ﴿**فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا**﴾ أن نمس إيمانهم لم ينفعهم وإنما نفعهم الله تعالى حقيقة به، ولا يخفى عليك حال هذا التأويل وما كان من ذلك القبيل والله تعالى أعلم.

«ومن باب الإشارة في بعض الآيات» على ما أشار إليه بعض السادات ﴿**حم**﴾ إشارة إلى ما أفيض على قلب محمد ﷺ من الرحمن فإن الحاء والميم من وسط الاسمين الكريمين، وفي ذلك أيضاً سر لا يجوز كشفه ولما صدرت السورة بما أشار إلى الرحمة وأنها وصف المدعو إليه والداعي ذكر بعد من صفات المدعو إليه وهو الله عزَّ وجلّ ما يدل على عظيم الرحمة وسبقها، وفي ذلك من بشارة المدعو ما فيه.

﴿**الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا**﴾ الخ فيه إشارة إلى شرف الإيمان وجلالة قدر المؤمنين وإلى أنه ينبغي للمؤمنين من بني آدم أن يستغفر بعضهم لبعض؛ وفي ذلك أيضاً من تأكيد الدلالة على عظم رحمة الله عزَّ وجلّ ما لا يخفى ﴿**فادعوا الله مخلصين له الدين**﴾ بأن يكون غير مشوب بشيء من مقاصد الدنيا والآخرة ﴿**يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده**﴾ قيل: في إطلاق الروح إشارة إلى روح النبوة وهو يلقى على الأنبياء، وروح الولاية ويلقى على العارفين، وروح الدراية ويلقى على المؤمنين الناسكين ﴿**لينذر يوم التلاق**﴾ قيل التلاقي مع الله تعالى ولا وجود لغيره تعالى وهو مقام الفناء المشار إليه بقوله سبحانه: ﴿**يوم هم بارزون**﴾ من قبول وجودهم ﴿**لا يخفى على الله منهم شيء لمن الملك اليوم لله الواحد القهار**﴾ إذ ليس في الدار غيره ديار ﴿**اليوم تجزى كل نفس**﴾ من التجلي ﴿**بما كسبت**﴾ في بذل الوجود للمعبود ﴿**لا ظلم اليوم**﴾ فتنال كل نفس من التجلي بقدر بذلها من الوجود لا أقل من ذلك.

﴿**وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين**﴾ هذه قيامة العوام المؤجلة ويشير إلى قيامة الخواص المعجلة لهم، فقد قيل: إن لهم في كل نفس قيامة من العتاب والعقاب والثواب والبعاد والاقتراب وما لم يكن لهم في حساب، وخفقان القلب ينطق والنحول يخبر واللون يفصح والمشوق يستر ولكن البلاء يظهر، وإذا أزف فناء الصفات بلغت القلوب الحناجر وشهدت العيون بما تخفي الضمائر ﴿**يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور**﴾ خائنة أعين المحبين استحسانهم تعمد النظر إلى غير المحبوب باستحسان واستلذاذ وما تخفيه الصدور من متمنيات النفوس ومستحسنات القلوب ومرغوبات الأرواح ﴿**وقال ربكم ادعوني أستجب لكم**﴾ قيل أي اطلبوني مني أجبكم فتجدوني ومن وجدني وجد كل شيء فالدعاء الذي لا يرد هو هذا الدعاء، ففي بعض الأخبار من طلبني وجدني ﴿**إن الذين يستكبرون عن عبادتي**﴾ دعائي وطلبي ﴿**سيدخلون جهنم**﴾ الحرمان والبعد مني ﴿**داخرين**﴾ ذليلين مهينين ﴿**الله الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصراً**﴾ فيه إشارة إلى ليل البشرية ونهار الروحانية، وذكر أن سكون الناس في الليل المعروف على أقسام فأهل الغفلة يسكنون إلى استراحة النفوس والأبدان، وأهل الشهوة يسكنون إلى أمثالهم وأشكالهم من الرجال والنسوان، وأهل الطاعة يسكنون إلى حلاوة أعمالهم وقوة آمالهم. وأهل المحبة يسكنون إلى أنين النفوس وحنين القلوب وضراعة الأسرار واشتعال الأرواح بالأشواق التي هي أحر من النار ﴿**الله الذي جعل لكم الأرض قراراً**﴾ يشير إلى أنه تعالى جعل أرض البشرية مقراً للروح ﴿**والسماء**﴾ بناء أي سماء الروحانية مبنية عليها ﴿**وصوركم فأحسن صوركم**﴾ بأن جعلكم مرايا جماله وجلاله، وفي الخبر «خلق الله تعالى آدم على صورته» وفي ذلك إشارة إلى رد ﴿أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء﴾ [البقرة: ٣٠] ولله تعالى من قال:

ما حطك الواشون عن رتبة ... عندي ولا ضرك مغتاب
كأنهم أثنوا ولم يعلموا ... عليك عندي بالذي عابوا

والكافر لسوء اختياره التحق بالشياطين وصار مظهراً لصفات القهر من رب العالمين وما ظلمهم الله ولكن كانوا هم الظالمين، تم الكلام على سورة المؤمن والحمد لله أولاً وآخراً وباطناً وظاهراً.

(٤١) سورة فصلت مكية
وآياتها أربع وخمسون

بسم الله الرحمن الرحيم

حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ
قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا
يَسْمَعُونَ ﴿٤﴾ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ
بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ﴿٥﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ
أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ
لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟
ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٨﴾

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ حم ، تنزيل من الرحمن الرحيم ، كتاب فصلت آياته قرآنا عربياً لقوم يعلمون ، بشيراً ونذيراً فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون ، وقالوا قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه وفى آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل إننا عاملون ، قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى أنما إلهكم إله واحد فاستقيموا إليه واستغفروه وويل للمشركين ، الذين لا يؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم كافرون ، إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر غير ممنون ﴾ .

اعلم أن فى أول هذه السورة احتمالات (أحدها) وهو الأقوى أن يقال حم اسم للسورة وهو فى موضع المبتدأ وتنزيل خبره ، (وثانيها) قال الأخفش : تنزيل رفع بالابتداء وكتاب خبره ، (وثالثها) قال الزجاج : تنزيل رفع بالابتداء وخبره كتاب فصلت آياته ووجهه أن قوله (تنزيل)

تخصص بالصفة وهو قوله (من الرحمن الرحيم) لجاز وقوعه مبتدأ .

واعلم أنه تعالى حكم على السورة المسماة بحم بأشياء (أولها) كونه تنزيلا والمراد المنزل والتعبير عن المفعول بالمصدر مجاز مشهور ، يقال هذا بناء الأمير أى مبنيه ، وهذا الدرهم ضرب السلطان أى مضروبه ، والمراد من كونها منزلا أن الله تعالى كتبها فى اللوح المحفوظ وأمر جبريل عليه السلام بأن يحفظ تلك الكلمات ثم ينزل بها على محمد ﷺ ويبلغها إليه ، فلما حصل تفهيم هذه الكلمات بواسطة نزول جبريل عليه السلام سمى لذلك تنزيلا (وثانيها) كون ذلك التنزيل من الرحمن الرحيم ، وذلك يدل على كون ذلك التنزيل نعمة عظيمة من الله تعالى لأن الفعل المقرون بالصفة لابد وأن يكون مناسباً لتلك الصفة ، فكونه تعالى رحماناً رحيما صفتان دالتان على كمال الرحمة ، فالتنزيل المضاف إلى هاتين الصفتين لابد وأن يكون دالا على أعظم وجوه النعمة ، والأمر فى نفسه كذلك ، لأن الخلق فى هذا العالم كالمرضى والزمنى والمحتاجين ، والقرآن مشتمل على كل مايحتاج إليه المرضى من الأدوية وعلى كل ما يحتاج إليه الأصحاء من الأغذية ، فكان أعظم النعم عند الله تعالى على أهل هذا العالم إنزال القرآن عليهم (وثالثها) كونه كتاباً وقد بينا أن هذا الاسم مشتق من الجمع وإنما سمى كتاباً لأنه جمع فيه علوم الأولين والآخرين (ورابعها) قوله (فصلت آياته) والمراد أنه فرقت آياته وجعلت تفاصيل فى معان مختلفة فبعضها فى وصف ذات الله تعالى وشرح صفات التنزيه والتقديس وشرح كمال علمه وقدرته ورحمته وحكمته وعجائب أحوال خلقة السموات والأرض والكواكب وتعاقب الليل والنهار وعجائب أحوال النبات والحيوان والإنسان ، وبعضها فى أحوال التكاليف المتوجهة نحو القلوب ونحو الجوارح ، وبعضها فى الوعد والوعيد والثواب والعقاب درجات أهل الجنة ودرجات أهل النار ، وبعضها فى المواعظ والنصائح وبعضها فى تهذيب الأخلاق ورياضة النفس ، وبعضها فى قصص الأولين وتواريخ الماضين ، وبالجملة فمن أنصف علم أنه ليس فى يد الخلق كتاب اجتمع فيه من العلوم المختلفة والمباحث المتباينة مثل مافى القرآن (وخامسها) قوله (قرآناً) والوجه فى تسميته قرآناً قد سبق وقوله تعالى (قرآناً) نصب على الاختصاص والمدح أى أريد بهذا الكتاب المفصل قرآناً من صفته كيت وكيت ، وقيل هو نصب على الحال (وسادسها) قوله (عربياً) والمعنى أن هذا القرآن إنما نزل بلغة العرب وتأكد هذا بقوله تعالى (وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه) (وسابعها) قوله تعالى (لقوم يعلمون) والمعنى أنا جعلناه عربياً لأجل أنا أنزلناه على قوم عرب فجعلناه بلغة العرب ليفهموا منه المراد ، فإن قيل قوله (لقوم يعلمون) متعلق بماذا ؟ قلنا يجوز أن يتعلق بقوله (تنزيل) أو بقوله (فصلت) أى تنزيل من الله لأجلهم أو فصلت آياته لأجلهم ، والأجود أن يكون صفة مثل ما قبله وما بعده ، أى قرآناً عربياً كائناً لقوم عرب ، لئلا يفرق بين الصلات والصفات (وثامنها وتاسعها) قوله (بشيراً ونذيراً) يعنى بشيراً للمطيعين بالثواب ونذيراً للمجرمين

بالعقاب ، والحق أن القرآن بشارة ونذارة إلا أنه أطلق اسم الفاعل عليه للتنبيه على كونه كاملا في هذه الصفة ، كما يقال شعر شاعر وكلام قائل .

﴿ الصفة العاشرة ﴾ كونهم معرضين عنه لا يسمعون ولا يلتفتون إليه ، فهذه هي الصفات العشرة التي وصف الله القرآن بها ، ويتفرع عليها مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ القائلون بخلق القرآن احتجوا بهذه الآية من وجوه (الأول) أنه وصف القرآن بكونه تنزيلا ومنزلا والمنزل والتنزيل مشعر بالتصيير من حال ، فوجب أن يكون مخلوقاً (الثاني) أن التنزيل مصدر والمصدر هو المفعول المطلق باتفاق النحويين (الثالث) المراد بالكتاب إما الكتاب وهو المصدر الذي هو المفعول المطلق أو المكتوب الذي هو المفعول (الرابع) أن قوله (فصلت) يدل على أن متصرفاً يتصرف فيه بالتفصيل والتمييز ، وذلك لا يليق بالقديم (الخامس) أنه إنما سمي قرآناً لأنه قرن بعض أجزائه بالبعض وذلك يدل على كونه مفعول فاعل ومجعول جاعل (السادس) وصفه بكونه عربياً ، وإنما صحت هذه النسبة لأجل أن هذه الألفاظ إنما دخلت على هذه المعاني بحسب وضع العرب واصطلاحاتهم ، وما جعل بجعل جاعل وفعل فاعل فلابد وأن يكون محدثاً ومخلوقا (الجواب) أن كل هذه الوجوه التي ذكرتموها عائدة إلى اللغات وإلى الحروف والكلمات ، وهي عندنا محدثة مخلوقة ، إنما الذي ندعي قدمه شيء آخر سوى هذه الألفاظ والله أعلم .

﴿ المسألة الثانية ﴾ ذهب أكثر المتكلمين إلى أنه يجب على المكلف تنزيل ألفاظ القرآن على المعاني التي هي موضوعة لها بحسب اللغة العربية ، فأما حملها على معان أخر لا بهذا الطريق فهذا باطل قطعاً ، وذلك مثل الوجوه التي يذكرها أهل الباطن ، مثل أنهم تارة يحملون الحروف على حساب الجمل وتارة يحملون كل حرف على شيء آخر ، وللصوفية طرق كثيرة في الباب ويسمونها علم المكاشفة والذي يدل على فساد تلك الوجوه بأسرها قوله تعالى (قرآناً عربياً) وإنما سماه عربياً لكونه دالا على هذه المعاني المخصوصة بوضع العرب وباصطلاحاتهم ، وذلك يدل على أن دلالة هذه الألفاظ لم تحصل إلا على تلك المعاني المخصوصة ، وأن ماسواه فهو باطل .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ ذهب قوم إلى أنه حصل في القرآن من سائر اللغات كقوله (استبرق) و (سجيل) فانهما فارسيان ، وقوله (مشكاة) فإنها من لغة الحبشة وقوله (قسطاس) فانه من لغة الروم والذي يدل على فساد هذا المذهب قوله (قرآناً عربياً) ، وقوله (وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه) .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قالت المعتزلة لفظ الإيمان والكفر والصلاة والزكاة والصوم والحج ألفاظ شرعية لا لغوية ، والمعنى أن الشرع نقل هذه الألفاظ عن مسمياتها اللغوية الأصلية إلى مسميات أخرى ، وعندنا أن هذا باطل ، وليس للشرع تصرف في هذه الألفاظ عن مسمياتها إلا

من وجه واحد ، وهو أنه خصص هذه الأسماء بنوع واحد من أنواع مسمياتها مثلا ، الإيمان عبارة عن التصديق فخصصه الشرع بنوع معين من التصديق ، والصلاة عبارة عن الدعاء فخصصه الشرع بنوع معين من الدعاء ، كذا القول فى البواقى ودليلنا على صحة مذهبنا قوله تعالى (قرآنا عربياً) ، وقوله (وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه) .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ إنما وصف الله القرآن بكونه (عربياً) فى معرض المدح والتعظيم وهذا المطلوب لا يتم إلا إذا ثبت أن لغة العرب أفضل اللغات .

واعلم أن هذا المقصود إنما يتم إذا ضبطنا أقسام فضائل اللغات بضابط معلوم ، ثم بينا أن تلك الأقسام حاصلة فيه لافى غيره ، فنقول لاشك أن الكلام مركب من الكلمات المفردة ، وهى مركبة من الحروف ، فالكلمة لها مادة وهى الحروف ، ولها صورة وهى تلك الهيئة المعينة الحاصلة عند التركيب . فهذه الفضيلة إنما تحصل إما بحسب مادتها أو بحسب صورتها ، أما التى بحسب مادتها فهى آحاد الحروف ، واعلم أن الحروف على قسمين بعضها بينة المخارج ظاهرة المقاطع وبعضها خفية المخارج مشتبهة المقاطع ، وحروف العرب بأسرها ظاهرة المخارج بينة المقاطع ، ولا يشتبه شىء منها بالآخر . وأما الحروف المستعملة فى سائر اللغات فليست كذلك بل قد يحصل فيها حرف يشتبه بعضها بالبعض ، وذلك يخل بكمال الفصاحة ، وأيضاً الحركات المستعملة فى سائر لغة العرب حركات ظاهرة جلية وهى النصب والرفع والجر ، وكل واحد من هذه الثلاثة فانه يمتاز عن غيره امتيازاً ظاهراً جلياً ، وأما الإشمام والروم فيقل حصولها فى لغات العرب ، وذلك أيضاً من جنس ما يوجب الفصاحة ، وأما الكلمات الحاصلة بحسب التركيب فهى أنواع :

(أحدها) أن الحروف على قسمين متقاربة المخرج ومتباعدة المخرج ، وأيضاً الحروف على قسمين منها صلبة ومنها رخوة ، فيحصل من هذا التقسيم أقسام أربعة الصلبة المتقاربة ، والرخوة المتقاربة ، والصلبة المتباعدة ، والرخوة المتباعدة ، فإذا توالى فى الكلمة حرفان صلبان متقاربان صعب اللفظ بها ، لأن بسبب تقارب المخرج يصير التلفظ بها جارياً مجرى ما إذا كان الإنسان مقيداً ثم يمشى ، وبسبب صلابة تلك الحروف تتوارد الأعمال الشاقة القوية على الموضع الواحد من المخرج ، وتوالى الأعمال الشاقة يوجب الضعف والإعياء ، ومثل هذا التركيب فى اللغة العربية قليل (وثانيها) أن جنس بعض الحروف ألذ وأطيب فى السمع ، وكل كلمة يحصل فيها حرف من هذا الجنس كان سماعها أطيب (وثالثها) الوزن فنقول : الكلمة إما أن تكون ثنائية أو ثلاثية أو رباعية ، وأعدلها هو الثلاثى لأن الصوت إنما يتولد بسبب الحركة ، والحركة لابد لها من مبدأ ووسط ومنتهى ، فهذه ثلاث مراتب ، فالكلمة لابد أن يحصل فيها هذه المراتب الثلاثة حتى تكون تامة ، أما الثنائية فهى ناقصة وأما الرباعية فهى زائدة ، والغالب فى كلام العرب الثلاثيات ، فثبت بما ذكرنا ضبط فضائل اللغات ، والاستقراء يدل على أن لغة العرب موصوفة بها ، وأما سائر اللغات فليست كذلك ، والله أعلم .

﴿ المسألة السادسة ﴾ قوله (لقوم يعلمون) يعني إنما جعلناه (عربياً) لأجل أن يعلموا المراد منه ، والقائلون بأن أفعال الله معللة بالمصالح والحكم ، تمسكوا بهذه الآية وقالوا إنها تدل على أنه إنما جعله (عربياً) لهذه الحكمة ، فهذا يدل على أن تعليل أفعال الله تعالى وأحكامه جائز .

﴿ المسألة السابعة ﴾ قال قوم القرآن كله غير معلوم بل فيه ما يعلم وفيه مالا يعلم ، وقال المتكلمون لا يجوز أن يحصل فيه شيء غير معلوم ، والدليل عليه قوله تعالى (قرآناً عربياً لقوم يعلمون) يعني إنما جعلناه عربياً ليصير معلوماً ، والقول بأنه غير معلوم يقدح فيه .

﴿ المسألة الثامنة ﴾ قوله تعالى (فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون) يدل على أن الهادي من هداه الله وأن الضال من أضله الله وتقريره أن الصفات التسعة المذكورة للقرآن توجب قوة الاهتمام بمعرفته وبالوقوف على معانيه ، لأنا بينا أن كونه نازلا من عند الإله الرحمن الرحيم يدل على اشتماله على أفضل المنافع وأجل المطالب ، وكونه (قرآناً عربياً) مفصلا يدل على أنه في غاية الكشف والبيان ، وكونه (بشيراً ونذيراً) يدل على أن الاحتياج إلى فهم ما فيه من أهم المهمات ، لأن سعي الإنسان في معرفة ما يوصله إلى الثواب أو إلى العقاب من أهم المهمات ، وقد حصلت هذه الموجبات الثلاثة في تأكيد الرغبة في فهم القرآن وفي شدة الميل إلى الإحاطة به ، ثم مع ذلك فقد أعرضوا عنه ولم يلتفتوا إليه ونبذوه وراء ظهورهم ، وذلك يدل على أنه لا مهدي إلا من هداه الله ، ولا ضال إلا من أضله الله .

واعلم أنه تعالى لما وصف القرآن بأنهم أعرضوا عنه ولا يسمعونه ، بين أنهم صرحوا بهذه النفرة والمباعدة وذكروا ثلاثة أشياء (أحدها) أنهم قالوا (قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه) وأكنة جمع كنان كأغطية جمع غطاء ، والكنان هو الذي يحصل فيه السهام (وثانيها) قولهم (وفي آذاننا وقر) أي صمم وثقل يمنع من استماع قولك (وثالثها) قولهم (ومن بيننا وبينك حجاب) والحجاب هو الذي يمنع من الرؤية والفائدة في كلمة (من) في قوله (ومن بيننا) أنه لو قيل : وبيننا وبينك حجاب ، لكان المعنى أن حجاباً حصل وسط الجهتين ، وأما بزيادة لفظ (من) كأن المعنى أن الحجاب ابتدأ منا وابتدأ منك ، فالمسافة الحاصلة بيننا وبينك مستوعبة بالحجاب ، وما بقي جزء منها فارغاً عن هذا الحجاب فكانت هذه اللفظة دالة على قوة هذا الحجاب ، هكذا ذكره صاحب الكشاف وهو في غاية الحسن .

واعلم أنه إنما وقع الاقتصار على هذه الأعضاء الثلاثة ، وذلك لأن القلب محل المعرفة وسلطان البدن والسمع والبصرهما الآلتان المعينتان لتحصيل المعارف ، فلما بين أن هذه الثلاثة محجوبة كان ذلك أقصى ما يمكن في هذا الباب .

واعلم أنه إذا تأكدت النفرة عن الشيء صارت تلك النفرة في القلب فإذا سمع منه كلاماً لم يفهم معناه كما ينبغي ، وإذا راه لم تصر تلك الرؤية سبباً للوقوف على دقائق أحوالك ذلك

المرئى ، وذلك المدرك والشاعر هو النفس ، وشدة نفرة النفس عن الشيء تمنعها من التدبر والوقوف على دقائق ذلك الشيء ، فإذا كان الأمر كذلك كان قولهم (قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه وفى آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب) استعارات كاملة فى إفادة المعنى المراد ، فإن قيل إنه تعالى حكى هذا المعنى عن الكفار فى معرض الذم ، وذكر أيضاً مايقرب منه فى معرض الذم ؟ فقال (وقالوا قلوبنا غلف بل لعنهم الله بكفرهم) .

ثم إنه تعالى ذكر هذه الأشياء الثلاثة بعينها فى معرض التقرير والإثبات فى سورة الأنعام فقال (وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفى آذانهم وقراً) فكيف الجمع بينهما ؟ قلنا إنه لم يقل ههنا أنهم كذبوا فى ذلك إنما الذى ذمهم عليه أنهم قالوا : إنا إذا كنا كذلك لم يجز تكليفنا وتوجيه الأمر والنهى علينا ، وهذا الثانى باطل ، أما الأول فلأنه ليس فى الآية مايدل على أنهم كذبوا فيه .

واعلم أنهم لما وصفوا أنفسهم بهذه الصفات الثلاثه قالوا (فاعمل إننا عاملون) والمراد فاعمل على دينك إننا عاملون على ديننا ، ويجوز أن يكون المراد فاعمل فى إبطال أمرنا إننا عاملون فى إبطال أمرك ، والحاصل عندنا أن القوم ما كذبو فى قولهم (قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه ، وفى آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب) بل إنما أتوا بالكفر والكلام الباطل فى قولهم (فاعمل إننا عاملون) .

ولما حكى الله عنهم هذه الشبهة أمر محمداً صلى الله عليه وسلم أن يجيب عن هذه الشبهة بقوله (قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى) وبيان هذا الجواب كأنه يقول إنى لاأقدر أن أحملكم على الإيمان جبراً وقهراً فإنى بشر مثلكم ولا امتياز بينى وبينكم إلا بمجرد أن الله عز وجل أوحى إلى وما أوحى إليكم فأنا أبلغ هذا الوحى إليكم ، ثم بعد ذلك إن شرفكم الله بالتوحيد والتوفيق قبلتموه ، وإن خذلكم بالحرمان رددتموه ، وذلك لا يتعلق بنبوتى ورسالتى ، ثم بين أن خلاصة ذلك الوحى ترجع إلى أمرين : العلم والعمل ، أما العلم فالرأس والرئيس فيه معرفة التوحيد ، ذلك لأن الحق هو أن الله واحد وهو المراد من قوله (إنما إلهكم إله واحد) وإذا كان الحق فى نفس الأمر ذلك وجب علينا أن نعترف به ، وهو المراد من قوله (فاستقيموا إليه) ونظيره قوله (اهدنا الصراط المستقيم) وقوله (إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا) وقوله تعالى (وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه) وفى قوله تعالى (فاستقيموا إليه) وجهان (الأول) فاستقيموا متوجهين إليه (الثانى) أن يكون قوله (فاستقيموا إليه) معناه فاستقيموا له لأن حروف الجر يقام بعضها مقام البعض .

واعلم أن التكليف له ركنان (أحدهما) الاعتقاد والرأس والرئيس فيه اعتقاد التوحيد ، فلما أمر بذلك انتقل إلى وظيفة العمل والرأس والرئيس فيه الاستغفار ، فلهذا السبب قال (واستغفروه)

فإن قيل المقصود من الاستغفار والتوبة إزالة مالا ينبغي وذلك مقدم على فعل ماينبغي ، فلم عكس هذا الترتيب ههنا وقدم ماينبغي على إزالة مالا ينبغي ؟ قلنا ليس المراد من هذا الاستغفار الاستغفار عن الكفر ، بل المراد منه أن يعمل ثم يستغفر بعده لأجل الخوف من وقوع التقصير في العمل الذي أتى به كما قال صلى الله عليه وسلم « وإنه ليغان على قلبي وإني لأستغفر الله في اليوم والليلة سبعين مرة » ولما رغب الله تعالى في الخير والطاعة أمر بالتحذير عما لا ينبغي ، فقال : (وويل للمشركين الذين لا يؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم كافرون) وفي هذه الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ وجه النظم في هذه الآية من وجوه (الأول) أن العقول والشرائع ناطقة بأن خلاصة السعادات مربوطة بأمرين التعظيم لأمر الله والشفقة على خلق الله ، وذلك لأن الموجودات ، إما الخالق وإما الخلق ، فأما الخالق فكمال السعادة في المعاملة معه أن يقر بكونه موصوفاً بصفات الجلال والعظمة . ثم يأتي بأفعال دالة على كونه في نهاية العظمة في اعتقادنا وهذا هو المراد من التعظيم لأمر الله ، وأما الخلق فكمال السعادة في المعاملة معهم أن يسعى في دفع الشر عنهم وفي إيصال الخير إليهم ، وذلك هو المراد من الشفقة على خلق الله ، فثبت أن أعظم الطاعات التعظيم لأمر الله ، وأفضل أبواب التعظيم لأمر الله الإقرار بكونه واحداً وإذا كان التوحيد أعلى المراتب وأشرفها كان ضده وهو الشرك أخس المراتب وأرذلها ، ولما كان أفضل أنواع المعاملة مع الخلق هو إظهار الشفقة عليهم كان الامتناع من الزكاة أخس الأعمال ، لأنه ضد الشفقة على خلق الله ، إذا عرفت هذا فنقول إنه تعالى أثبت الويل لمن كان موصوفاً بصفات ثلاثة (أولها) أن يكون مشركا وهو ضد التوحيد . وإليه الإشارة بقوله (وويل للمشركين) (وثانيها) كونه ممتنعاً من الزكاة وهو ضد الشفقة على خلق الله ، وإليه الإشارة بقوله (الذين لا يؤتون الزكاة) (وثالثها) كونه منكراً للقيامة مستغرقاً في طلب الدنيا ولذاتها ، وإليه الإشارة بقوله (وهم بالآخرة هم كافرون) وتمام الكلام في أنه لازيادة على هذه المراتب الثلاثة أن الإنسان له ثلاثة أيام : الأمس واليوم والغد . أما معرفة أنه كيف كانت أحوال الأمس في الأزل فهو بمعرفة الله تعالى الأزلي الخالق لهذا العالم . وأما معرفة أنه كيف ينبغي وقوع الأحوال في اليوم الحاضر فهو بالإحسان إلى أهل العالم بقدر الطاقة وأما معرفة الأحوال في اليوم المستقبل فهو الإقرار بالبعث والقيامة ، وإذا كان الإنسان على ضد الحق في هذه المراتب الثلاثة كان في نهاية الجهل والضلال ، فلهذا حكم الله عليه بالويل ، فقال (وويل للمشركين الذين لا يؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم كافرون) وهذا ترتيب في غاية الحسن ، والله أعلم (الوجه الثاني) في تقرير كيفية النظم أن يقال المراد بقوله (لا يؤتون الزكاة) أي لايزكون أنفسهم من لوث الشرك بقولهم : لا إله إلا الله ، وهو مأخوذ من قوله تعالى (ونفس وما سواها) (الثالث) قال الفراء : إن قريشاً كانت تطعم الحاج فحرموا ذلك على من آمن بمحمد صلى الله عليه وسلم .

قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ

﴿ المسألة الثانية ﴾ احتج أصحابنا فى إثبات أن الكفار مخاطبون بفروع الإسلام بهذه الآية ، فقالوا إنه تعالى ألحق الوعيد الشديد بناء على أمرين (أحدهما) كونه مشركا (والثانى) أنه لا يؤتى الزكاة ، فوجب أن يكون لكل واحد من هذين الأمرين تأثير فى حصول ذلك الوعيد ، وذلك يدل على أن لعدم إيتاء الزكاة من المشرك تأثيراً عظيما فى زيادة الوعيد وذلك هو المطلوب .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ احتج بعضهم على أن الامتناع من إيتاء الزكاة يوجب الكفر ، فقال إنه تعالى لما ذكر هذه الصفة ذكر قبلها ما يوجب الكفر ، وهو قوله (فويل للمشركين) وذكر أيضاً بعدها مايوجب الكفر ، وهو قوله (وهم بالآخرة هم كافرون) فلو لم يكن عدم إيتاء الزكاة كفراً لكان ذكره فيما بين الصفتين الموجبتين للكفر قبيحاً ، لأن الكلام إنما يكون فصيحاً إذاكانت المناسبة مرعية بين أجزائه ، ثم أكدوا ذلك بأن أبا بكر الصديق رضى الله عنه حكم بكفر مانعى الزكاة (والجواب) لما ثبت بالدليل أن الإيمان عبارة عن التصديق بالقلب والإقرار باللسان وهما حاصلان عند عدم إيتاء الزكاة ، فلم يلزم حصول الكفر بسبب عدم إيتاء الزكاة ، والله أعلم .

ثم إنه تعالى لما ذكر وعيد الكفار أردفه بوعد المؤمنين ، فقال : (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر غير ممنون) أى غير مقطوع ، من قولك مننت الحبل ، أى قطعته ، ومنه قولهم قد منه السفر ، أى قطعه ، وقيل لا يمن عليهم ، لأنه تعالى لما سماه أجراً ، فإذاً الأجر لا يوجب المنة ، وقيل نزلت فى المرضى والزمنى إذا عجزوا عن الطاعة كتب لهم الأجر كأحسن ما كانوا يعملون .

قوله تعالى : ﴿ قل أئنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين وتجعلون له أنداداً ذلك رب العالمين ، وجعل فيها رواسى من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها فى أربعة أيام سواء للسائلين ، ثم استوى إلى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرهاً قالتا أتينا طائعين ، فقضاهن

سَمَٰوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿١٢﴾

سبع سموات فى يومين وأوحى فى كل سماء أمرها وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظاً ذلك تقدير العزيز العليم ﴾.

اعلم أنه تعالى لما أمر محمداً ﷺ فى الآية الأولى أن يقول (إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى أنما إلهكم إله واحد فاستقيموا إليه واستغفروه) أردفه بما يدل على أنه لا يجوز إثبات الشركة بينه تعالى وبين هذه الأصنام فى الإلهية والمعبودية ، وذلك بأن بين كمال قدرته وحكمته فى خلق السموات والأرض فى مدة قليلة ، فمن هذا صفته كيف يجوز جعل الأصنام الخسيسة شركاء له فى الإلهية والمعبودية ؟ فهذا تقرير النظم ، وفى الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قرأ ابن كثير : أينكم لتكفرون بهمزة وياء بعدها خفيفة ساكنة بلا مد ، وأما نافع فى رواية قالون وأبو عمرو فعلى هذه الصورة ، إلا أنهما يمدان ، والباقون بهمزتين بلا مد .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قوله تعالى (أئنكم) استفهام بمعنى الإنكار ، وقد ذكر عنهم شيئين منكرين (أحدهما) الكفر بالله ، وهو قوله (لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين) (وثانيهما) إثبات الشركاء والأنداد له ، ويجب أن يكون الكفر المذكور أولا مغايراً لإثبات الأنداد له ، ضرورة أن عطف أحدهما على الآخر يوجب التغاير ، والأظهر أن المراد من كفرهم وجوه (الأول) قولهم إن الله تعالى لا يقدر على حشر الموتى ، فلما نازعوا فى ثبوت هذه القدرة فقد كفروا بالله (الثانى) أنهم كانوا ينازعون فى صحة التكليف ، وفى بعثة الأنبياء ، وكل ذلك قدح فى الصفات المعتبرة فى الإلهية ، وهو كفر بالله (الثالث) أنهم كانوا يضيفون إليه الأولاد ، وذلك أيضاً قدح فى الإلهية وهو يوجب الكفر بالله ، فالحاصل أنهم كفروا بالله لأجل قولهم بهذه الأشياء ، وأثبتوا الأنداد أيضاً لله لأجل قولهم بإلهية تلك الأصنام ، واحتج تعالى على فساد قولهم بالتأثير فقال كيف يجوز الكفر بالله ، وكيف يجوز جعل هذه الأصنام الخسيسة أنداداً لله تعالى ، مع أنه تعالى هو الذى خلق الأرض فى يومين ، وتمم بقية مصالحها فى يومين آخرين . وخلق السموات بأسرها فى يومين آخرين ؟ فمن قدر على خلق هذه الأشياء العظيمة ، كيف يعقل الكفر به وإنكار قدرته على الحشر والنشر ، وكيف يعقل إنكار قدرته على التكليف وعلى بعثة الأنبياء ، وكيف يعقل جعل هذه الأصنام الخسيسة أنداداً له فى المعبودية والإلهية ، فإن قيل من استدل بشىء على إثبات شىء ، فذلك الشىء المستدل به يجب أن يكون مسلماً عند الخصم حتى يصح الاستدلال به ، وكونه تعالى خالقاً للأرض فى يومين أمر لا يمكن إثباته بالعقل المحض ، وإنما يمكن إثباته بالسمع ووحى

الأنبياء ، والكفار كانوا منازعين فى الوحى والنبوة ، فلا يعقل تقرير هذه المقدمة عليهم ، وإذا امتنع تقرير هذه المقدمة عليهم امتنع الاستدلال بها على فساد مذاهبهم ، قلنا إثبات كون السموات والأرض مخلوقة بطريق العمل ممكن ، فإذا ثبت ذلك أمكن الاستدلال به على وجود الإله القادر القاهر العظيم ، وحينئذ يقال للكافرين . فكيف يعقل التسوية بين الإله الموصوف بهذه القدرة القاهرة وبين الصنم الذى هو جماد لا يضر ولا ينفع فى المعبودية والإلهية ؟ بقى أن يقال : فحينئذ لا يبقى فى الاستدلال بكونه تعالى خالقاً للأرض فى يومين أثر ، فنقول هذا أيضاً له أثر فى هذا الباب ، وذلك لأن أول التوراة مشتمل على هذا المعنى ، فكان ذلك فى غاية الشهرة بين أهل الكتاب ، فكفار مكة كانوا يعتقدون فى أهل الكتاب أنهم أصحاب العلوم والحقائق ، والظاهر أنهم كانوا قد سمعوا من أهل الكتاب هذه المعانى واعتقدوا فى كونها حقة ، وإذا كان الأمر كذلك فحينئذ يحسن أن يقال لهم إن الإله الموصوف بالقدرة على خلق هذه الأشياء العظيمة فى هذه المدة الصغيرة كيف يليق بالعقل جعل الخشب المنجور والحجر المنحوت شريكا له فى المعبودية والإلهية ؟ فظهر بما قررنا أن هذا الاستدلال قوى حسن .

قوله تعالى : ﴿ ذلك رب العالمين ﴾ أى ذلك الموجود الذى علمت من صفته وقدرته أنه خلق الأرض فى يومين هو (رب العالمين) وخالقهم ومبدعهم ، فكيف أثبتم له أنداداً من الخشب والحجر ؟ ثم إنه تعالى لما أخبر عن كونه خالقاً للأرض فى يومين أخبر أنه أتى بثلاثة أنواع من الصنع العجيب والفعل البديع بعد ذلك (فالأول) قوله (وجعل فيها رواسى من فوقها) والمراد منها الجبال ، وقد تقدم تفسير كونها (رواسى) فى سورة النحل ، فإن قيل : ما الفائدة فى قوله (من فوقها) ولم لم يقتصر على قوله (وجعل فيها رواسى) كقوله تعالى (وجعلنا فيها رواسى شامخات) (وجعلنا فى الأرض رواسى) ؟ قلنا لأنه تعالى لو جعل فيها رواسى من تحتها لأوهم ذلك أن تلك الأساطين التحتانية هى التى أمسكت هذه الأرض الثقيلة عن النزول ، ولكنه تعالى قال خلقت هذه الجبال الثقال فوق الأرض ، ليرى الإنسان بعينه أن الأرض والجبال أثقال على أثقال ، وكلها مفتقرة إلى ممسك وحافظ ، وما ذاك الحافظ المدبر إلا الله سبحانه وتعالى (والنوع الثانى) مما أخبر الله تعالى فى هذه الآية قوله (وبارك فيها) والبركة كثرة الخير والخيرات الحاصلة من الأرض أكثر مما يحيط به الشرح والبيان ، وقد ذكرناها بالاستقصاء فى سورة البقرة قال ابن عباس رضى الله عنهما : يريد شق الأنهار وخلق الجبال وخلق الأشجار والثمار وخلق أصناف الحيوانات وكل مايحتاج إليه من الخيرات (والنوع الثالث) قوله تعالى (وقدر فيها أقواتها) وفيه أقوال (الأول) أن المعنى وقدر فيها أقوات أهلها ومعايشهم وما يصلحهم ، قال محمد بن كعب : قدر أقوات الأبدان قبل أن يخلق الأبدان (والقول الثانى) قال مجاهد : وقدر فيها أقواتها من المطر ، وعلى هذا القول فالأقوات للأرض لا للسكان ، والمعنى أن الله تعالى قدر لكل أرض حظها من المطر (والقول

الثالث) أن المراد من إضافة الأقوات إلى الأرض كونها متولدة من تلك الأرض ، وحادثة فيها لأن النحويين قالوا يكفي فى حسن الإضافة أدنى سبب فالشيء قد يضاف إلى فاعله تارة وإلى محله أخرى ، فقوله (وقدر فيها أقواتها) أى قدر الأقوات التى يختص حدوثها بها ، وذلك لأنه تعالى جعل كل بلدة معدناً لنوع آخر من الأشياء المطلوبة ، حتى أن أهل هذه البلدة يحتاجون إلى الأشياء المتولدة فى تلك البلدة وبالعكس ، فصار هذا المعنى سبباً لرغبة الناس فى التجارات من اكتساب الأموال ، ورأيت من كان يقول صنعة الزراعة والحراثة أكثر الحرف والصنائع بركة ، لأن الله تعالى وضع الأرزاق والأقوات فى الأرض قال (وقدر فيها أقواتها) وإذا كانت الأقوات موضوعة فى الأرض كان طلبها من الأرض متعيناً ، ولما ذكر الله سبحانه هذه الأنواع الثلاثة من التدبير قال بعده (فى أربعة أيام سواء للسائلين) وههنا سؤالات :

﴿ السؤال الأول ﴾ أنه تعالى ذكر أنه خلق الأرض فى يومين ، وذكر أنه أصلح هذه الأنواع الثلاثة فى أربعة أيام أخر ، وذكر أنه خلق السموات فى يومين ، فيكون المجموع ثمانية أيام ، لكنه ذكر فى سائر الآيات أنه خلق السموات والأرض فى ستة أيام فلزم التناقض ، واعلم أن العلماء أجابوا عنه بأن قالوا المراد من قوله (وقدر فيها أقواتها فى أربعة أيام) مع اليومين الأولين ، وهذا كقول القائل سرت من البصرة إلى بغداد فى عشرة أيام ، وسرت إلى الكوفة فى خمسة عشر يوماً يريد كلا المسافتين ، ويقول الرجل للرجل أعطيتك ألفاً فى شهر وألوفاً فى شهرين فيدخل الألف فى الألوف والشهر فى الشهرين .

﴿ السؤال الثانى ﴾ أنه لما ذكر أنه خلق الأرض فى يومين ، فلو ذكر أنه خلق هذه الأنواع الثلاثة الباقية فى يومين آخرين كان أبعد عن الشبهة وأبعد عن الغلط ، فلم ترك هذا التصريح ، وذكر ذلك الكلام المجمل ؟ (والجواب) أن قوله (فى أربعة أيام سواء للسائلين) فيه فائدة على ما إذا قال خلقت هذه الثلاثة فى يومين ، وذلك لأنه لو قال خلقت هذه الأشياء فى يومين لم يفد هذا الكلام كون هذين اليومين مستغرقين بتلك الأعمال لأنه قد يقال عملت هذا العمل فى يومين مع أن اليومين ماكانا مستغرقين بذلك العمل ، أما لما ذكر خلق الأرض وخلق هذه الاشياء ، ثم قال بعده (فى أربعة أيام سواء للسائلين) دل ذلك على أن هذه الأيام الأربعة صارت مستغرقة فى تلك الأعمال من غير زيادة ولا نقصان .

﴿ السؤال الثالث ﴾ كيف القراءآت فى قوله (سواء) ؟ (والجواب) قال صاحب الكشاف قرىء (سواء) بالحركات الثلاثة الجر على الوصف والنصب على المصدر استوت سواء أى استواء والرفع على هى سواء .

﴿ السؤال الرابع ﴾ ما المراد من كون تلك الأيام الأربعة سواء ؟ فنقول إن الأيام قد تكون متساوية المقادير كالأيام الموجودة فى أماكن خط الإستواء . وقد تكون مختلفة كالأيام

الموجودة فى سائر الأماكن ، فبين تعالى أن تلك الأيام الأربعة كانت متساوية غير مختلفة .

﴿ السؤال الخامس ﴾ بم يتعلق قوله (للسائلين) ؟ الجواب فيه وجهان : (الأول) أن الزجاج قال قوله (فى أربعة أيام) أى فى تتمة أربعة أيام ، إذا عرفت هذا فالتقدير (وقدر فيها أقواتها) فى تتمة أربعة أيام لأجل السائلين أى الطالبين للأقوات المحتاجين إليها (والثانى) أنه متعلق بمحذوف والتقدير كأنه قيل هذا الحصر والبيان لأجل من سأل كم خلقت الأرض وما فيها ، ولما شرح الله تعالى كيفية تخليق الأرض وما فيها أتبعه بكيفية تخليق السموات فقال (ثم استوى إلى السماء وهى دخان) وفيه مباحث :

﴿ البحث الأول ﴾ قوله تعالى (ثم استوى إلى السماء) من قولهم استوى إلى مكان كذا إذا توجه إليه توجهاً لا يلتفت معه إلى عمل آخر ، وهو من الاستواء الذى هو ضد الاعوجاج ، ونظيره قولهم استقام إليه وامتد إليه ، ومنه قوله تعالى (فاستقيموا إليه) والمعنى ثم دعاه داعى الحكمة إلى خلق السماء بعد خلق الأرض وما فيها ، من غير صارف يصرفه ذلك .

﴿ البحث الثانى ﴾ ذكر صاحب الأثر أنه كان عرش الله على الماء قبل خلق السموات والأرض فأحدث الله فى ذلك الماء سخونة فارتفع زبد ودخان ، أما الزبد فيبقى على وجه الماء فخلق الله منه اليبوسة وأحدث منه الأرض ، وأما الدخان فارتفع وعلا فخلق الله منه السموات .

واعلم أن هذه القصة غير موجودة فى القرآن ، فان دل عليه دليل صحيح قبل وإلا فلا ، وهذه القصة مذكورة فى أول الكتاب الذى يزعم اليهود أنه التوراة ، وفيه أنه تعالى خلق السماء من أجزاء مظلمة ، وهذا هو المعقول لأنا قد دللنا فى المعقولات على أن الظلمة ليست كيفية وجودية ، بدليل أنه لو جلس إنسان فى ضوء السراج وإنسان آخر فى الظلمة ، فان الذى جلس فى الضوء لا يرى مكان الجالس فى الظلمة ويرى ذلك الهواء مظلماً ، وأما الذى جلس فى الظلمة فانه يرى ذلك الذى كان جالساً فى الضوء ويرى ذلك الهواء مضيئاً ، ولو كانت الظلمة صفة قائمة بالهواء لما اختلفت الأحوال بحسب اختلاف أحوال الناظرين ، فثبت أن الظلمة عبارة عن عدم النور ، فالله سبحانه وتعالى لما خلق الأجزاء التى لا تتجزأ ، فقبل أن خلق فيها كيفية الضوء كانت مظلمة عديمة النور ، ثم لما ركبها وجعلها سموات وكواكب وشمساً وقمراً ، وأحدث صفة الضوء فيها فحينئذ صارت مستنيرة ، فثبت أن تلك الأجزاء حين قصد الله تعالى أن يخلق منها السموات والشمس والقمر كانت مظلمة ، فصح تسميتها بالدخان ، لأنه لا معنى الدخان إلا أجزاء متفرقة غير متواصلة عديمة النور ، فهذا ما خطر بالبال فى تفسير الدخان ، والله أعلم بحقيقة الحال .

﴿ البحث الثالث ﴾ قوله (ثم استوى إلى السماء وهى دخان) مشعر بأن تخليق السماء حصل بعد تخليق الأرض ، وقوله تعالى (والأرض بعد ذلك دحاها) مشعر بأن تخليق الأرض حصل بعد تخليق السماء وذلك يوجب التناقض ، واختلف العلماء فى هذه المسألة ، و(الجواب المشهور) أن يقال إنه تعالى

خلق الأرض فى يومين أولا . ثم خلق بعدها السماء ، ثم بعد خلق السماء دحا الأرض ، وبهذا الطريق يزول التناقض ، واعلم أن هذا الجواب مشكل عندى من وجوه (الأول) أنه تعالى بين أنه خلق الأرض فى يومين ، ثم إنه فى اليوم الثالث (جعل فيها رواسى من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها) وهذه الأحوال لا يمكن إدخالها فى الوجود إلا بعد أن صارت الأرض مدحوة لأن خلق الجبال فيها لا يمكن إلا بعد أن صارت الأرض مدحوة منبسطة ، وقوله تعالى (وبارك فيها) مفسر بخلق الأشجار والنبات والحيوان فيها ، وذلك لا يمكن إلا بعد صيرورتها منبسطة ، ثم إنه تعالى قال بعد ذلك (ثم استوى إلى السماء) فهذا يقتضى أنه تعالى خلق السماء بعد خلق الأرض وبعد أن جعلها مدحوة ، وحينئذ يعود السؤال المذكور (الثانى) أنه قد دلت الدلائل الهندسية على أن الأرض كرة ، فهى فى أول حدوثها إن قلنا إنها كانت كرة والآن بقيت كرة أيضاً فهى منذ خلقت كانت مدحوة ، وإن قلنا أنها غير كرة ثم جعلت كرة فيلزم أن يقال إنها كانت مدحوة قبل ذلك ثم أزيل عنها هذه الصفة ، وذلك باطل (الثالث) أن الأرض جسم فى غاية العظم ، والجسم الذى يكون كذلك فانه من أول دخوله فى الوجود يكون مدحواً ، فيكون القول بأنها ما كانت مدحوة ، ثم صارت مدحوة قول باطل ، والذى جاء فى كتب التواريخ أن الأرض خلقت فى موضع الصخرة ببيت المقدس ، فهو كلام مشكل لأنه إن كان المراد أنها على عظمها خلقت فى ذلك الموضع ، فهذا قول بتداخل الأجسام الكثيفة وهو محال ، وإن كان المراد منه أنه خلق أولا أجزاء صغيرة فى ذلك الموضع ثم خلق بقية أجزائها ، وأضيفت إلى تلك الأجزاء التى خلقت أولا ، فهذا يكون اعترافاً بأن تخليق الأرض وقع متأخراً عن تخليق السماء (الرابع) أنه لما حصل تخليق ذات الأرض فى يومين وتخليق سائر الأشياء الموجودة فى الأرض فى يومين آخرين وتخليق السموات فى يومين آخرين كان مجموع ذلك ستة أيام ، فإذا حصل دحو الأرض من بعد ذلك فقد حصل هذا الدحو فى زمان آخر بعد الأيام الستة ، فحينئذ يقع تخليق السموات والأرض فى أكثر من ستة أيام وذلك باطل (الخامس) أنه لا نزاع أن قوله تعالى بعد هذه الآية (ثم استوى إلى السماء فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً) كناية عن إيجاد السماء والأرض ، فلو تقدم إيجاد السماء على إيجاد الأرض لكان قوله (ائتيا طوعاً أو كرهاً) يقتضى إيجاد الموجود وإنه محال باطل .

فهذا تمام البحث عن هذا الجواب المشهور ، ونقل الواحدى فى البسيط عن مقاتل أنه قال خلق الله السموات قبل الأرض وتأويل قوله (ثم استوى إلى السماء) ثم كان قد استوى إلى السماء وهى دخان ، وقال لها قبل أن يخلق الأرض فأضمر فيه كان كما قال تعالى (قالوا إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل) معناه إن يكن سرق ، وقال تعالى (وكم من قرية أهلكناها فجاءها بأسنا) والمعنى فكان قد جاءها ، هذا ما نقله الواحدى وهو عندى ضعيف ، لأن تقدير الكلام ثم كان قد استوى إلى السماء ، وهذا جمع بين الضدين لأن كلمة (ثم) تقتضى التأخير ، وكلمة (كان)

تقتضى التقديم والجمع بينهما يفيد التناقض ، وذلك دليل على أنه لا يمكن إجراؤه على ظاهره وقد بينا أن قوله (ائتيا طوعاً أو كرهاً) إنما حصل قبل وجودهما ، وإذا كان الأمر كذلك امتنع حمل قوله (ائتيا) على الأمر والتكليف ، فوجب حمله على ماذكرناه ، بقى على لفظ الآية سؤالات .

﴿ السؤال الأول ﴾ ما الفائدة فى قوله تعالى (فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً) ؟ (الجواب) المقصود منه إظهار كمال القدرة والتقدير (ائتيا) شئتما ذلك أو أبيتما ، كما يقول الجبار لمن تحت يده لتفعلن هذا شئت أو لم تشأ ، ولتفعلنه طوعاً أو كرهاً ، وانتصابهما على الحال بمعنى طائعين أو مكرهين (قالتا أتينا) على الطوع لا على الكره ، وقيل إنه تعالى ذكر السماء والأرض ثم ذكر الطوع والكره ، فوجب أن يتصرف الطوع إلى السماء والكره إلى الأرض بتخصيص السماء بالطوع لوجوه (أحدها) أن السماء فى دوام حركتها على نهج واحد لا يختلف ، تشبه حيواناً مطيعاً لله تعالى بخلاف الأرض فإنها مختلفة الأحوال ، تارة تكون فى السكون وأخرى فى الحركات المضطربة (وثانيها) أن الموجود فى السماء ليس لها إلا الطاعة ، قال تعالى (يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون مايؤمرون) وأما أهل الأرض فليس الأمر فى حقهم كذلك (وثالثها) السماء موصوفة بكمال الحال فى جميع الأمور ، قالوا إنها أفضل الألوان وهى المستنيرة ، وأشكالها أفضل الأشكال وهى المستديرة ، ومكانها أفضل الأمكنة وهو الجو العالى ، وأجرامها أفضل الأجرام وهى الكواكب المتلألئة بخلاف الأرض فإنها مكان الظلمة والكثافة واختلاف الأحوال وتغير الذوات والصفات ، فلا جرم وقع التعبير عن تكون السماء بالطوع وعن تكون الأرض بالكره ، وإذا كان مدار خلق الأرض على الكره كان أهلها موصوفين أبداً بما يوجب الكره والكرب والقهر والقسر .

﴿ السؤال الثانى ﴾ ما المراد من قوله (أئتيا) ومن قوله (اتينا) ؟ ، (الجواب) المراد ائتيا إلى الوجود والحصول وهو كقوله (كن فيكون) وقيل المعنى ائتيا على ماينبغى أن تأتيا عليه من الشكل والوصف ، أى بأرض مدحوة قراراً ومهاداً وأى بسماء مقببة سقفاً لهم ، ومعنى الإتيان الحصول والوقوع على وفق المراد ، كما تقول أتى عمله مرضياً وجاء مقبولا ، ويجوز أيضاً أن يكون المعنى لتأتى كل واحدة منكما صاحبتها الإتيان الذى تقتضيه الحكمة والتدبير من كون الأرض قراراً للسماء وكون السماء سقفاً للأرض .

﴿ السؤال الثالث ﴾ هلا قيل طائعين على اللفظ أو طائعات على المعنى ، لأنهما سموات وأرضون ؟ (الجواب) لما جعلن مخاطبات ومجيبات ووصفن بالطوع والكره قيل طائعين فى موضع طائعات نحو قوله (ساجدين) ومنهم من استدل به على كون السموات أحياء وقال الأرض فى جوف السموات أقل من الذرة الصغيرة فى جوف الجبل الكبير ، فلهذا السبب صارت اللفظة الدالة العقل والحياة غالبة ، إلا أن هذا القول باطل ، لإجماع المتكلمين على فساده .

ثم قال تعالى (فقضاهن سبع سموات فى يومين) وقضاء الشيء إنما هو إتمامه والفراغ منه والضمير فى قوله (فقضاهن) يجوز أن يرجع إلى السماء على المعنى كما قال (طاسين) ونحوه (أعجاز نخل خاوية) ويجوز أن يكون ضميراً مبهما مفسراً بسبع سموات والفرق بين النصبين أن أحدهما على الحال والثانى على التمييز.

ذكر أهل الأثر أنه تعالى خلق الأرض فى يوم الأحد والإثنين وخلق سائر ما فى الأرض فى يوم الثلاثاء والأربعاء ، وخلق السموات وما فيها فى يوم الخميس والجمعة وفرغ فى آخر ساعة من يوم الجمعة فخلق فيها آدم وهى الساعة التى تقوم فيها القيامة ، فإن قيل اليوم عبارة عن النهار والليل وذلك إنما يحصل بسبب طلوع الشمس وغروبها ، وقبل حدوث السموات والشمس والقمر كيف يعقل حصول اليوم ؟ قلنا معناه إنه مضى من المدة مالو حصل هناك فلك وشمس لكان المقدار مقدراً بيوم.

ثم قال تعالى (وأوحى فى كل سماء أمرها) قال مقاتل أمر فى كل سماء بما أراد ، وقال قتادة خلق فيها شمسها وقمرها ونجومها ، وقال السدى خلق فى كل سماء خلقها من الملائكة وما فيها من البحار وجبال البرد ، قال ولله فى كل سماء بيت يحج إليه ويطوف به الملائكة كل واحد منها مقابل الكعبة ولو وقعت منه حصاة ما وقعت إلا على الكعبة ، والأقرب أن يقال قد ثبت فى علم النحو أنه يكفى فى حسن الإضافة أدنى سبب ، ولله تعالى على أهل كل سماء تكليف خاص ، فمن الملائكة من هو فى القيام من أول خلق العالم إلى قيام القيامة ، ومنهم ركوع لا ينتصبون ومنهم سجود لا يرفعون ، وإذا كان ذلك الأمر مختصاً بأهل ذلك السماء كان ذلك الأمر مختصاً بتلك السماء ، وقوله تعالى (وأوحى فى كل سماء أمرها) أى وكان قد خص كل سماء بالأمر المضاف إليها كقوله (وكم من قرية أهلكناها فجاءها بأسنا) والمعنى فكان قد جاءها ، هذا مانقله الواحدى وهو عندى ضعيف لأن تقدير الكلام ثم كان قد استوى إلى السماء وكان قد أوحى ، وهذا جمع بين الضدين لأن كلمة ثم تقتضى التأخير وكلمة كان تقتضى التقديم فالجمع بينهما تفيد التناقض ، ونظيره قول القائل ضربت اليوم زيداً ثم ضربت عمراً بالأمس ، فكما أن هذا باطل فكذا ماذكرتموه وإنما يجوز تأويل كلام الله بما لا يؤدى إلى وقوع التناقض والركاكة فيه ، والمختار عندى أن يقال خلق السموات مقدم على خلق الأرض ، بقى أن يقال كيف تأويل هذه الآية ؟ فنقول : الخلق ليس عبارة عن التكوين والإيجاد ، والدليل عليه قوله (إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال كن فيكون) فلو كان الخلق عبارة عن الإيجاد والتكوين لكان تقدير الآية أوجده من تراب ثم قال له كن فيكون وهذا محال ، لأنه يلزم أنه تعالى قد قال للشيء الذى وجد كن ثم إنه يكون وهذا محال ، فثبت أن الخلق ليس عبارة عن التكوين والإيجاد ، بل هو عبارة عن التقدير ، والتقدير حق الله تعالى هو حكمه بأنه سيوجده وقضاؤه بذلك ، وإذا ثبت هذا فنقول قوله (خلق الأرض فى يومين) معناه أنه قضى بحدوثه فى يومين ، وقضاء الله بأنه سيحدث كذا فى مدة كذا ، لا يقتضى حدوث ذلك

الشيء في الحال ، فقضاء الله تعالى بحدوث الأرض في يومين قد تقدم على إحداث السماء ، ولا يلزم منه تقدم إحداث الأرض على أحداث السماء ، وحينئذ يزول السؤال ، فهذا ما وصلت إليه في هذا الموضع المشكل .

ثم قال تعالى (فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين) .

واعلم أن ظاهر هذا الكلام يقتضي أن الله تعالى أمر السماء والأرض بالإتيان فأطاعا وامتثلا وعند هذا حصل في الآية قولان :

(القول الأول) أن تجرى هذه الآية على ظاهرها فنقول : إن الله تعالى أمرهما بالإتيان فأطاعاه قال القائلون بهذا القول وهذا غير مستبعد ، ألا ترى أنه تعالى أمر الجبال أن تنطق مع داود عليه السلام فقال (ياجبال أوبي معه والطير) والله تعالى تجلى للجبل قال (فلما تجلى ربه للجبل) والله تعالى أنطق الأيدي والأرجل فقال (يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون) وإذا كان كذلك فكيف يستبعد أن يخلق الله في ذات السماء والأرض حياة وعقلا وفهماً ، ثم يوجه الأمر والتكليف عليهما ، ويتأكد هذا الاحتمال بوجوه (الأول) أن الأصل حمل اللفظ على ظاهره إلا إذا منع منه مانع ، وههنا لا مانع ، فوجب إجراؤه على ظاهره (الثاني) أنه تعالى أخبر عنهما ، فقال (قالتا أتينا طائعين) وهذا الجمع جمع ما يعقل ويعلم (الثالث) قوله تعالى (إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها) وهذا يدل على كونها عارفة بالله ، مخصوصة بتوجيه تكاليف الله عليها ، والإشكال عليه أن يقال : المراد من قوله (ائتيا طوعاً أو كرهاً) الإتيان إلى الوجود والحدوث والحصول . وعلى هذا التقدير فحال توجه هذا الأمر كانت السموات والأرض معدومة ، إذ لو كانت موجودة لصار حاصل هذا الأمر أن يقال : ياموجود كن موجوداً ، وذلك لا يجوز ، فثبت أنها حال توجه هذا الأمر عليها كانت معدومة ، وإذا كانت معدومة لم تكن فاهمة ولا عارفة للخطاب ، فلم يجز توجيه الامر عليها ، فان قال قائل : روى مجاهد عن ابن عباس أنه قال قال الله سبحانه للسموات أطلعي شمسك وقمرك ونجومك ، وقال للأرض شققي أنهارك وأخرجي ثمارك . وكان الله تعالى أودع فيهما هذه الأشياء ثم أمرهما بإبرازها وإظهارها ، فنقول فعلى هذا التقدير لا يكون المراد من قوله (أتينا طائعين) حدوثهما في ذاتهما ، بل يصير المراد من هذا الأمر أن يظهرا ما كان مودعاً فيهما ، إلا أن هذا الكلام باطل ، لأنه تعالى قال (فقضاهن سبع سموات في يومين) والفاء للتعقيب ، وذلك يدل على أن حدوث السموات إنما حصل بعد قوله (ائتيا طوعاً أو كرهاً) فهذا جملة ما يمكن ذكره في هذا البحث .

(القول الثاني) أن قوله تعالى (قال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً) ليس المراد منه توجيه الأمر والتكليف على السموات والأرض بل المراد منه أنه أراد تكوينهما فلم يمتنعا عليه ووجدتا كما أرادهما ، وكانتا في ذلك كالمأمور المطيع إذا ورد عليه أمر الأمير المطاع ، ونظيره قول القائل :

فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ

قال الجدار الوتد لم تشقني ؟ قال الوتد : اسأل من يدقني ، فإن الحجر الذي ورائي ما خلاني ورائي .

واعلم أن هذا عدول عن الظاهر ، وإنما جاز العدول عن الظاهر إذا قام دليل على أنه لا يمكن إجراؤه على ظاهره ، وقد بينا أن قوله (ائتيا طوعاً أو كرهاً) إنما حصل قبل وجودهما ، وإذا كان الأمر كذلك امتنع حمل قوله (ائتيا طوعا أو كرهاً) على الأمر والتكليف ، فوجب حمله على ما ذكرنا .

واعلم أن إثبات الأمر والتكليف فيهما مشروط بحصول المأمور فيهما ، وهذا يدل على أنه تعالى أسكن هذه السموات الملائكة ، أو أنه تعالى أمرهم بأشياء ونهاهم عن أشياء . وليس في الآية ما يدل على إنه إنما خلق الملائكة مع السموات ، أو أنه تعالى خلقهم قبل السموات ، ثم أنه تعالى أسكنهم فيها ، وأيضاً ليس في الآية بيان الشرائع التي أمر الملائكة بها ، وهذه الأسرار لا تليق بعقول البشر ، بل هي أعلى من مصاعد أفهامهم ومرامي أوهامهم ، ثم قال (وزينا السماء الدنيا بمصابيح) وهي النيرات التي خلقها في السموات ، وخص كل واحد بضوء معين ، وسر معين ، وطبيعة معينة ، لا يعرفها إلا الله ، ثم قال (وحفظاً) يعني وحفظناها حفظاً ، يعني من الشياطين الذين يسترقون السمع ، فأعد لكل شيطان نجماً يرميه به ولا يخطئه ، فمنها ما يحرق ، ومنها مايقتل ومنها ما يجعله مخبلا ، وعن ابن عباس أن اليهود سألوا الرسول ﷺ عن خلق السموات والأرض فقال « خلق الله تعالى الأرض في يوم الأحد والإثنين ، وخلق الجبال والشجر في يومين وخلق في يوم الخميس السماء ، وخلق في يوم الجمعة النجوم والشمس والقمر والملائكة ، ثم خلق آدم عليه السلام وأسكنه الجنة - ثم قالت اليهود ثم ماذا يا محمد ؟ قال - ثم استوى على العرش - قالوا : ثم استراح - فغضب رسول الله ﷺ » فنزل قوله تعالى (وما مسنا من لغوب) .

واعلم أنه تعالى لما ذكر هذه التفاصيل ، قال (ذلك تقدير العزيز العليم) والعزيز إشارة إلى كمال القدرة ، والعليم إشارة إلى كمال العلم ، وما أحسن هذه الخاتمة ، لأن تلك الأعمال لا تمكن إلا بقدرة كاملة وعلم محيط .

قوله تعالى : ﴿ فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود ، إذ جاءتهم الرسل من بين أيديهم ومن خلفهم ألا تعبدوا إلا الله قالوا لو شاء ربنا لأنزل ملائكة فإنا بما أرسلتم به كافرون ،

بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ
مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ
نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ
وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَـٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ
فَأَخَذَتْهُمْ صَـٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ
ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾

فأما عاد فاستكبروا فى الارض بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة أولم يرو أن الله الذى خلقهم هو أشد منهم قوة وكانو بآياتنا يجحدون ، فأرسلنا عليهم ريحاً صرصراً فى أيام نحسات لنذيقهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أخزى وهم لا ينصرون ، وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى فأخذتهم صاعقة العذاب الهون بما كانوا يكسبون ، ونجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون ﴾.

إعلم أن الكلام إنما ابتدىء من قوله (أنما إلهكم إله واحد) واحتج عليه بقوله (قل أئنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين) وحاصله أن الإله الموصوف بهذه القدرة القاهرة كيف يجوز الكفر به ، وكيف يجوز جعل هذه الأجسام الخسيسة شركاء له فى الإلهية ؟ ولما تمم تلك الحجة قال (فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود) وبيان ذلك لأن وظيفة الحجة قد تمت على أكمل الوجوه ، فان بقوا مصرين على الجهل لم يبق حينئذ علاج فى حقهم إلا إنزال العذاب عليهم . فلهذا السبب قال (فان أعرضوا فقل أنذرتكم) بمعنى إن أعرضوا عن قبول هذه الحجة القاهرة التى ذكرناها وأصروا على الجهل والتقليد (فقل أنذرتكم) والإنذار هو : التخويف ، قال المبرد والصاعقة الثائرة المهلكة لأى شىء كان ، وقرىء صعقة مثل صعقة عاد وثمود قال صاحب الكشاف وهى المرة من الصعق .

ثم قال (إذ جاءتهم الرسل من بين أيديهم ومن خلفهم) وفيه وجهان (الأول) المعنى أن الرسل المبعوثين إليهم أتوهم من كل جانب واجتهدوا بهم وأتوا بجميع وجوه الحيل فلم يروا منهم إلا العتو والإعراض ، كما حكى الله تعالى عن الشيطان قوله (ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم) يعنى (لآتينهم) من كل جهة ولأعملن فيهم كل حيلة ، ويقول الرجل : استدرت بفلان من كل

جانب فلم تؤثر حيلتي فيه .

﴿ السؤال الثاني ﴾ المعنى : أن الرسل جاءتهم من قبلهم ومن بعدهم ، فإن قيل : الرسل الذين جاؤا من قبلهم ومن بعدهم ، كيف يمكن وصفهم بأنهم جاؤهم ؟ قلنا : قد جاءهم هود وصالح داعيين إلى الإيمان بهما وبجميع الرسل ، وبهذا التقدير فكأن جميع الرسل قد جاؤهم .

ثم قال (ألا تعبدوا إلا الله) يعنى أن الرسل الذين جاؤهم من بين أيديهم ومن خلفهم أمروهم بالتوحيد ونفي الشرك ، قال صاحب الكشاف أن في قوله (أن لا تعبدوا إلا الله) بمعنى أي أو مخففة من الثقيلة أصله بأنه (لا تعبدوا) أي بأن الشأن والحديث قولنا لكم لا تعبدوا إلا الله .

ثم حكى الله تعالى عن أولئك الكفار أنهم قالوا (لو شاء ربنا لأنزل ملائكة) يعني أنهم كذبوا أولئك الرسل ، وقالوا الدليل على كونكم كاذبين أنه تعالى لو شاء إرسال الرسالة إلى البشر لجعل رسله من زمرة الملائكة ، لأن إرسال الملائكة إلى الخلق أفضى إلى المقصود من البعثة والرسالة ، ولما ذكروا هذه الشبهة قالوا (فإنا بما أرسلتم به كافرون) معناه : فاذا أنتم بشر ولستم بملائكة ، فأنتم لستم برسل ، وإذا لم تكونوا من الرسل لم يلزمنا قبول قولكم ، وهو المراد من قوله (فإنا بما أرسلتم به كافرون) .

واعلم أنا بالغنا في الجواب عن هذه الشبهات في سورة الأنعام ، وقوله (أرسلتم به) ليس بإقرار منهم بكون أولئك الأنبياء رسلا ، وإنما ذكروه حكاية لكلام الرسل أو على سبيل الاستهزاء ، كما قال فرعون (إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون) . روى أن أبا جهل قال في ملأ من قريش : التبس علينا أمر محمد ، فلو التمستم لنا رجلا عالماً بالشعر والسحر والكهانة فكلمه ، ثم أتانا ببيان عن أمره ، فقال عتبة بن ربيعة والله لقد سمعت الشعر والسحر والكهانة وعلمت من ذلك علماً وما يخفى علي ، فأتاه فقال : يا محمد أنت خير أم هاشم ؟ أنت خير أم عبد المطلب ؟ أنت خير أم عبد الله ؟ لم تشتم آلهتنا وتضللنا ؟ فان كنت تريد الرياسة عقدنا لك اللواء فكنت رئيسنا ، وإن تكن بك الباءة زوجناك عشر نسوة تختارهن ، أي بنات من شئت من قريش ، وإن كان المال مرادك جمعنا لك ما تستغني به ، ورسول الله ﷺ ساكت ، فلما فرغ قال (بسم الله الرحمن الرحيم حم تنزيل من الرحمن الرحيم) إلى قوله (صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود) فأمسك عتبة على فيه وناشده بالرحم ، ورجع إلى أهله ولم يخرج إلى قريش ، فلما احتبس عنهم قالوا ، لا نرى عتبة إلا قد صبأ ، فانطلقوا إليه وقالوا يا عتبة ما حبسك عنا إلا أنك قد صبأت : فغضب وأقسم لا يكلم محمداً أبداً ، ثم قال : والله لقد كلمته فأجابني بشيء ما هو بشعر ولا سحر ولا كهانة ، ولما بلغ صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود أمسكت بفيه وناشدته بالرحم ، ولقد علمت أن محمداً إذا قال شيئاً لم يكذب فخفت أن ينزل بكم العذاب .

واعلم أنه تعالى لما بين كفر قوم عاد وثمود على الإجمال بين خاصية كل واحدة من هاتين الطائفتين فقال ﴿ فأما عاد فاستكبروا في الأرض بغير الحق ﴾ وهذا الاستكبار فيه وجهان (الأول) إظهار النخوة والكبر ، وعدم الالتفات إلى الغير (والثاني) الاستعلاء على الغير

واستخدامهم ، ثم ذكر تعالى سبب ذلك الاستكبار وهو أنهم قالوا (من أشد منا قوة) وكانوا مخصوصين بكبر الأجسام وشدة القوة ، ثم إنه تعالى ذكر مايدل على أنه لايجوز لهم أن يغتروا بشدة قوتهم ، فقال (أولم يروا أن الله الذى خلقهم هو أشد منهم قوه) يعنى أنهم وإن كانوا أقوى من غيرهم ، فالله الذى خلقهم هو أشد منهم قوة ، فإن كانت الزيادة فى القوة توجب كون الناقص فى طاعة الكامل ، فهذه المعاملة توجب عليهم كونهم منقادين لله تعالى ، خاضعين لأوامره ونواهيه .

واحتج أصحابنا بهذه الآية على إثبات القدرة لله ، فقالوا القوة لله تعالى ويتأكد هذا بقوله (الله الذى خلقهم هو أشد منهم قوة) يدل على إثبات القوة لله تعالى ويتأكد هذا بقوله (إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين) فإن قيل صيغة أفعل التفضيل إنما تجرى بين شيئين لأحدهما مع الآخر نسبة ، لكن قدرة العبد متناهية وقدرة الله لا نهاية لها ، والمتناهى لا نسبة له إلى غير المتناهى ، فا معنى قوله إن الله أشد منهم قوة ؟ قلنا هذا ورد على قانون قولنا الله أكبر .

ثم قال (وكانوا بآياتنا يجحدون) والمعنى أنهم كانوا يعرفون أنها حق ولكنهم جحدوا كما يجحد المودع الوديعة .

واعلم أن نظم الكلام أن يقال : أما عاد فاستكبروا فى الأرض بغير الحق وكانوا بآياتنا يجحدون ، وقوله (وقالوا من أشدمنا قوة ، أولم يروا أن الله الذى خلقهم هو أشدمنهم قوة) اعتراض وقع فى البين لتقرير السبب الداعى لهم إلى الاستكبار .

واعلم أنا ذكرنا أن مجامع الخصال الحيدة الإحسان إلى الخلق والتعظيم للخالق ، فقوله (استكبروا فى الأرض بغير الحق) مضاد للاحسان إلى الخلق وقوله (وكانوا بآياتنا يجحدون) مضاد للتعظيم للخالق ، وإذا كان الأمر كذلك فهم قد بلغوا فى الصفات المذمومة الموجبة للهلاك والإبطال إلى الغاية القصوى ، فلهذا المعنى سلط الله العذاب عليهم فقال (فأرسلنا عليهم ريحاً صرصراً) وفى الصرصر قولان (أحدهما) أنها العاصفة التى تصرصر أى تصوت فى هبوبها ، وفى علة هذه التسمية وجوه (قيل) إن الرياح عند اشتداد هبوبها يسمع منها صوت يشبه صوت الصرصر فسميت هذه الرياح بهذا الإسم (وقيل) هو من صرير الباب ، (وقيل) من الصرة والصيحة ، ومنه قوله تعالى (فأقبلت امرأته فى صرة) (والقول الثانى) أنها الباردة التى تحرق ببردها كما تحرق النار بحرها ، وأصلها من الصر وهو البرد قال تعالى (كمثل ريح فيها صر) وروى عن رسول الله ﷺ أنه قال : « الرياح ثمان أربع منها عذاب العاصف والصرصر والعقيم والسموم ، وأربع منها رحمة الناشرات والمبشرات والمرسلات والذاريات » وعن ابن عباس أن الله تعالى ما أرسل على عباده من الريح إلا قدر خاتمى ، والمقصود أنه مع قلته أهلك الكل وذلك يدل على كمال قدرته .

وأما قوله (فى أيام نحسات) ففيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو (نحسات) بسكون الحاء والباقون بكسر

الحاء ، قال صاحب الكشاف يقال نحس نحساً نقيض سعد سعداً فهو نحس ، وأما نحس فهو إما مخفف نحس أو صفة على فعل أو وصف بمصدر .

﴿ المسألة الثانية ﴾ استدل الأحكاميون من المنجمين بهذه الآية على أن بعض الأيام قد يكون نحسا وبعضها قد يكون سعداً ، وقالوا هذه الآية صريحة فى هذا المعنى ، أجاب المتكلمون بأن قالوا (أيام نحسات) أى ذوات غبار وتراب ثائر لا يكاد يبصر فيه ويتصرف ، وأيضاً قالوا معنى كون هذه الأيام نحسات أن الله أهلكهم فيها ، أجاب المستدل الأول بأن النحسات فى وضع اللغة هى المشئومات لأن السعد يقابله السعد ، والكدر يقابله الصافى ، وأجاب عن السؤال الثانى أن الله تعالى أخبر عن إيقاع ذلك العذاب فى تلك الأيام النحسات ، فوجب أن يكون كون تلك الأيام نحسة مغايراً لذلك العذاب الذى وقع فيها .

ثم قال تعالى (ولنذيقهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا) أى عذاب الهوان والذل ، والسبب فيه أنهم استكبروا ، فقابل الله ذلك الاستكبار بإيصال الخزى والهوان والذل إليهم .

ثم قال تعالى (ولعذاب الآخرة أخزى) أى أشد إهانة وخزياً (وهم لا ينصرون) أى أنهم يقعون فى الخزى الشديد ومع ذلك فلا يكون لهم ناصر يدفع ذلك الخزى عنهم .

ولما ذكر الله قصة عاد أتبعه بقصة ثمود فقال (وأما ثمود) قال صاحب الكشاف قرىء (ثمود) بالرفع والنصب منوناً وغير منون والرفع أفصح لوقوعه بعد حرف الابتداء وقرىء بضم الثاء وقوله (فهديناهم) أى دللناهم على طريق الخير والشر (فاستحبوا العمى على الهدى) أى اختاروا الدخول فى الضلالة على الدخول فى الرشد .

واعلم أن صاحب الكشاف ذكر فى تفسير الهدى فى قوله تعالى (هدى للمتقين) أن الهدى عبارة عن الدلالة الموصلة إلى البغية ، وهذه الآية تبطل قوله ، لأنها تدل على أن الهدى قد حصل مع أن الإفضاء إلى البغية لم يحصل ، فثبت أن قيد كونه مفضياً إلى البغية غير معتبر فى اسم الهدى .

وقد ثبت فى هذه الآية سؤال يشعر بذلك إلا أنه لم يذكر جواباً شافياً فتركناه ، قالت المعتزلة هذه الآية دالة على أن الله تعالى قد ينصب الدلائل ويزيح الأعذار والعلل ، إلا أن الإيمان إنما يحصل من العبد لأن قوله (وأما ثمود فهديناهم) يدل على أنه تعالى قد نصب لهم الدلائل وقوله (فاستحبوا العمى على الهدى) يدل على أنهم من عند أنفسهم أتوا بذلك العمى فهذا يدل على أن الكفر والإيمان يحصلان من العبد ، وأقول بل هذه الآية من أدل الدلائل ، على أنهما إنما يحصلان من الله لا من العبد ، وبيانه من وجهين : (الأول) أنهم إنما صدر عنهم ذلك العمى ، لأنهم أحبوا تحصيله ، فلما وقع فى قلبهم هذه المحبة دون محبة ضده ، فان حصل ذلك الترجيح لا لمرجح فهو باطل ، وإن كان المرجح هو العبد عاد الطلب ، وإن كان المرجح هو الله فقد حصل المطلوب (الثانى) أنه تعالى قال (فاستحبوا

وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا
شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا۟
لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ
مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ
وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ

العمى على الهدى) ومن المعلوم بالضرورة أن أحداً لا يحب العمى والجهل مع العلم بكونه عمى وجهلا ، بل مالم يظن فى ذلك العمى والجهل كونه تبصرة وعلماً لا يرغب فيه ، فإقدامه على اختيار ذلك الجهل لابد وإن يكون مسبوقاً بجهل آخر ، فان كان ذلك الجهل الثانى باختياره أيضاً لزم التسلسل وهو محال ، فلا بد من انتهاء تلك الجهالات إلى جهل يحصل فيه لا باختياره وهو المطلوب ، ولما وصف الله كفرهم قال (فأخذتهم صاعقة العذاب الهون) و (صاعقة العذاب) أى داهية العذاب و (الهون) الهوان ، وصف به العذاب مبالغة أو أبدل منه (بما كانوا يكسبون) يريد من شركهم وتكذيبهم صالحاً وعقرهم الناقة ، وشرع صاحب الكشاف ههنا فى سفاهة عظيمة . والأولى أن لا يلتفت إليه لأنه وإن كان قد سعى سعياً حسنا فيما يتعلق بالألفاظ ، إلا أن المسكين كان بعيداً من المعانى .

ولما ذكر الله الوعيد أردفه بالوعد فقال (ونجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون) يعنى وكانوا يتقون الأعمال التى كان يأتى بها قوم عاد وثمود ، فان قيل كيف يجوز للرسول صلى الله عليه وسلم أن ينذر قومه مثل صاعقة عاد وثمود ، مع العلم بأن ذلك لا يقع فى أمة محمد ﷺ ، وقد صرح الله تعالى بذلك فى قوله (وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم) وجاء فى الأحاديث الصحيحة أن الله تعالى رفع عن هذه الأمة هذه الأنواع من الآفات ؟ قلنا إنهم لما عرفوا كونهم مشاركين لعاد وثمود فى استحقاق مثل تلك الصاعقة جوزوا حدوث ما يكون من جنس ذلك ، وإن كان أقل درجة منهم وهذا القدر يكفى فى التخويف .

قوله تعالى : ﴿ ويوم يحشر أعداء الله إلى النار فهم يوزعون ، حتى إذا ما جاءوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون ، وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله الذى أنطق كل شىء وهو خلقكم أول مرة وإليه ترجعون ، وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيراً مما تعملون ، وذلكم ظنكم الذى ظننتم

ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن يَصْبِرُوا۟ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ۖ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾

بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين ، فإن يصبروا فالنار مثوى لهم ، وإن يستعتبوا فما هم من المعتبين ﴾ .

واعلم أنه تعالى لما بين كيفية عقوبة أولئك الكفار فى الدنيا أردفه بكيفية عقوبتهم فى الآخرة ، ليحصل منه تمام الاعتبار فى الزجر والتحذير ، وقرأ نافع (نحشر) بالنون (أعداء) بالنصب أضاف الحشر إلى نفسه ، والتقدير يحشر الله عز وجل أعداءه الكفار من الأولين والآخرين وحجته أنه معطوف على قوله (ونجينا) فيحسن أن يكون على وفقه فى اللفظ ، ويقويه قوله (ويوم نحشر المتقين) (وحشرناهم) وأما الباقون فقرؤا على فعل مالم يسم فاعله لأن قصة ثمود قد تمت وقوله (ويوم يحشر) ابتداء كلام آخر ، وأيضاً الحاشرون لهم هم المأمورون بقوله (احشروا) وهم الملائكة ، وأيضاً أن هذه القراءة موافقة لقوله (فهم يوزعون) وأيضاً فتقدير القراءة الأولى أن الله تعالى قال (ويوم نحشر أعداء الله إلى النار) فكان الأولى على هذا التقدير أن يقال ويوم نحشر أعداءنا إلى النار .

واعلم أنه تعالى لما ذكر أن أعداء الله يحشرون إلى النار قال (فهم يوزعون) أى يحبس أولهم على آخرهم ، أى يوقف سوابقهم حتى يصل إليهم تواليهم ، والمقصود بيان أنهم إذا اجتمعوا سئلوا عن أعمالهم .

ثم قال ﴿حتى إذا ماجاؤها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم﴾ وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ التقدير حتى إذا جاؤها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم ، وعلى هذا التقدير فكلمة (ما) صلة ، وقيل فيها فائدة زائدة وهى تأكيد أن عند مجيئهم لابد وأن تحصل هذه الشهادة كقوله (أثم إذا ماوقع آمنتم به) أى لابد لوقت وقوعه من أن يكون وقت إيمانهم به .

﴿ المسألة الثانية ﴾ روى أن العبد يقول يوم القيامة : يارب العزة ألست قد وعدتنى أن لا تظلمنى ، فيقول الله تعالى فإن لك ذلك ، فيقول العبد إنى لا أقبل على نفسى شاهداً إلا من نفسى ، فيختم الله على فيه وينطق أعضاءه بالأعمال التى صدرت منه ، فذلك قوله (شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم) واختلف الناس فى كيفية الشهادة وفيه ثلاثة أقوال (أحدها) أنه تعالى يخلق الفهم والقدرة والنطق فيها فتشهد كما يشهد الرجل على ما يعرفه (والثانى) أنه تعالى يخلق فى تلك الأعضاء الأصوات والحروف الدالة على تلك المعانى كما خلق الكلام فى الشجرة (والثالث) أن يظهر تلك الأعضاء أحوالا تدل على صدور تلك الأعمال من ذلك الإنسان ، وتلك الأمارات تسمى

شهادات ، كما يقال يشهد هذا العالم بتغيرات أحواله على حدوثه . واعلم أن هذه المسألة صعبة على المعتزلة أما (القول الأول) فهو صعب على مذهبهم لأن البنية عندهم شرط لحصول العقل والقدرة فاللسان مع كونه لساناً يمتنع أن يكون محلا للعلم والعقل ، فإن غير الله تعالى تلك البنية والصورة خرج عن كونه لساناً وجلداً ، وظاهر الآية يدل على إضافة تلك الشهادة إلى السمع والبصر والجلود ، فإن قلنا إن الله تعالى ماغير بنية هذه الأعضاء فحينئذ يمتنع عليها كونها عاقلة ناطقة فاهمة ، وأما (القول الثانى) وهو أن يقال إن الله تعالى خلق هذه الأصوات والحروف فى هذه الأعضاء ، وهذا أيضاً باطل على أصول المعتزلة لأن مذهبهم أن المتكلم هو الذى فعل الكلام ، لا ماكان موصوفاً بالكلام ، فإنهم يقولون إن الله تعالى خلق الكلام فى الشجرة وكان المتكلم بذلك الكلام هو الله تعالى لا الشجرة ، فههنا لو قلنا إن الله خلق الأصوات والحروف فى تلك الأعضاء لزم أن يكون الشاهد هو الله تعالى لا تلك ، ولزم أن يكون المتكلم بذلك الكلام هو الله لاتلك الأعضاء ، وظاهر القرآن يدل على أن تلك الشهادة شهادة صدرت من تلك الأعضاء لامن الله تعالى لأنه تعالى قال (شهدعليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم) وأيضاً أنهم قالوا لتلك الأعضاء (لم شهدتم علينا) فقالت الأعضاء (أنطقنا الله الذى أنطق كل شىء) وكل هذه الآيات دالة على أن المتكلم بتلك الكلمات هى تلك الأعضاء ، وأن تلك الكلمات ليست كلام الله تعالى ، فهذا توجيه الإشكال على هذين القولين ، وأما (القول الثالث) وهو تفسير هذه الشهادة بظهور أمارات مخصوصة على هذه الأعضاء دالة على صدور تلك الأعمال منهم ، فهذا عدول عن الحقيقة إلى المجاز والأصل عدمه ، فهذا منتهى الكلام فى هذا البحث ، أما على مذهب أصحابنا فهذا الإشكال غير لازم ، لأن عندنا البنية ليست شرطاً للحياة ولا للعلم ولا للقدرة ، فالله تعالى قادر على خلق العقل والقدرة والنطق فى كل جزء من أجزاء هذه الأعضاء ، وعلى هذا التقدير فالاشكال زائل وهذه الآية يحسن التمسك بها فى بيان أن البنية ليست شرطاً للحياة ولا لشىء من الصفات المشروطة بالحياة والله أعلم .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ ما رأيت للمفسرين فى تخصيص هذه الأعضاء الثلاثة بالذكر سبباً وفائدة ، وأقول لاشك أن الحواس خمسة السمع والبصر والشم والذوق واللمس ، ولا شك أن آلة اللمس هى الجلد ، فالله تعالى ذكر ههنا من الحواس وهى السمع والبصر واللمس ، وأهمل ذكر نوعين وهما الذوق والشم ، لأن الذوق داخل فى اللمس من بعض الوجوه ، لأن إدراك الذوق إنما يتأتى بأن تصير جلدة اللسان والحنك مماسة لجرم الطعام ، فكان هذا داخلا فيه فبقى حس الشم وهو حس ضعيف فى الإنسان ، وليس لله فيه تكليف ولا أمر ولا نهى ، إذا عرفت هذا فنقول نقل عن ابن عباس أنه قال المراد من شهادة الجلود شهادة الفروج . قال وهذا من باب الكنايات كما قال (ولكن لا تواعدوهن سراً) وأراد النكاح وقال (أو جاء أحد من الغائط) والمراد قضاء الحاجة وعن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال «أول مايتكلم من الآدمى فخذه وكفه» وعلى هذا التقدير فتكون هذه

وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ

الآية وعيداً شديداً فى الإتيان بالزنا ، لأن مقدمة الزنا إنما تحصل بالكف ، ونهاية الأمر فيها إنما تحصل بالفخذ .

ثم حكى الله تعالى عنهم أنهم يقولون لتلك الأعضاء (لم شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله الذى أنطق كل شىء وهو خلقكم أول مرة وإليه ترجعون) ومعناه أن القادر على خلقكم وإنطاقكم فى المرة الأولى حالما كنتم فى الدنيا ثم على خلقكم وإنطاقكم فى المرة الثانية وهى حال القيامة والبعث كيف يستبعد منه إنطاق الجوارح والأعضاء ؟ .

ثم قال تعالى (وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم) والمعنى إثبات أنهم كانوا يستترون عند الإقدام على الأعمال القبيحة ، إلا أن استتارهم ما كان لأجل خوفهم من أن يشهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم وذلك لأنهم كانوا منكرين للبعث والقيامة ، ولكن ذلك الاستتار لأجل أنهم كانوا يظنون أن الله لا يعلم الأعمال التى يقدمون عليها على سبيل الخفية والاستتار . عن ابن مسعود قال : كنت مستتراً بأستار الكعبة فدخل ثلاثة نفر على ثقفيان وقرشى فقال أحدهم : أترون الله يسمع ما تقولون ؟ فقال الرجلان إذا سمعنا أصواتنا سمع وإلا لم يسمع . فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فنزل (وما كنتم تستترون) .

ثم قال تعالى (وذلكم ظنكم الذى ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين) وهذا نص صريح فى أن من ظن بالله تعالى أنه يخرج شىء من المعلومات عن علمه فإنه يكون من الهالكين الخاسرين ، قال أهل التحقيق الظن قسمان ظن حسن بالله تعالى وظن فاسد ، أما الظن الحسن فهو أن يظن به الرحمة والفضل ، قال ﷺ حكاية عن الله عز وجل «أنا عند ظن عبدى بى» وقال ﷺ « لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله » ، والظن القبيح فاسد وهو أن يظن بالله تعالى أنه يعزب عن علمه بعض هذه الأحوال ، وقال قتادة : الظن نوعان ظن منج وظن مرد ، فالمنج قوله (إنى ظننت أنى ملاق حسابيه) وقوله (الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم) ، وأما الظن المردى فهو قوله (وذلكم ظنكم الذى ظننتم بربكم أرداكم) قال صاحب الكشاف (وذلكم) رفع بالابتداء (وظنكم) و(أرداكم) خبران ويجوز أن يكون ظنكم بدلا من ذلكم وأرداكم الخبر .

ثم قال (فإن يصبروا فالنار مثوى لهم) يعنى إن أمسكوا عن الاستغاثة لفرج ينتظرونه لم يجدوا ذلك وتكون النار مثوى لهم أى مقاماً لهم (وإن يستعتبوا فما هم من المعتبين) أى لم يعطوا العتبى ولم يجابوا إليها ، ونظيره قوله تعالى (أجزعنا أم صبرنا مالنا من محيص) وقرىء وإن يستعتبوا فما هم من المعتبين أى أن يسئلوا أن يرضوا ربهم فما هم فاعلون أى لا سبيل لهم إلى ذلك .

قوله تعالى : ﴿ وقيضنا لهم قرناء فزينوا لهم ما بين أيديهم وما خلفهم وحق عليهم القول فى أمم

ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ
(٢٥) وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ (٢٦)
فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ
(٢٧) ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُ ۖ لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ ۖ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا
يَجْحَدُونَ (٢٨) وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ
نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ (٢٩)

قد خلت من قبلهم من الجن والإنس إنهم كانوا خاسرين ، وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون ، فلنذيقن الذين كفروا عذاباً شديداً ولنجزينهم أسوأ الذى كانوا يعملون ، ذلك جزاء أعداء الله النار لهم فيها دار الخلد جزاء بما كانوا بآياتنا يجحدون ، وقال الذين كفروا ربنا أرنا الذين أضلانا من الجن والإنس نجعلهما تحت أقدامنا ليكونا من الأسفلين ﴾ .

إعلم أنه تعالى لما ذكر الوعيد الشديد فى الدنيا والآخرة على كفر أولئك الكفار أردفه بذكر السبب الذى لأجله وقعوا فى ذلك الكفر فقال ﴿وقيضنا لهم قرناء﴾ وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قال صاحب الصحاح : يقال قايضت الرجل مقايضة أى عاوضته بمتاع ، وهما قيضان ، كما يقال بيعان ، وقيض الله فلاناً لفلان أى جاءه به وأتى به له ، ومنه قوله تعالى (وقيضنا لهم قرناء) .

﴿ المسألة الثانية ﴾ احتج أصحابنا بهذه الآية على أنه تعالى يريد الكفر من الكافر ، فقالوا إنه تعالى ذكر أنه قيض لهم أولئك القرناء ، وكان عالماً بأنه متى قيض لهم أولئك القرناء فإن يزينوا الباطل لهم ، وكل من فعل فعلا وعلم أن ذلك الفعل يفضى إلى أثر لا محالة ، فان فاعل ذلك الفعل لابد وأن يكون مريداً لذلك الأثر فثبت أنه تعالى لما قيض لهم قرناء فقد أراد منهم ذلك الكفر ، أجاب الجبائى عنه بأن قال لو أراد المعاصى لكانوا بفعلها مطيعين إذ الفاعل لما أراده منه غيره يجب أن يكون مطيعاً له ، وبأن قوله (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) يدل على أنه لم يرد منهم إلا العبادة ، فثبت بهذا أنه تعالى لم يرد منهم المعاصى ، وأما هذه الآية فنقول : إنه تعالى لم يقل وقيضنا لهم قرناء ليزينوا لهم ، وإنما قال (فزينوا لهم) فهو تعالى قيض القرناء لهم بمعنى أنه تعالى

أخرج كل أحد إلى آخر من جنسه ، فقيض أحد الزوجين للآخر والغنى للفقير والفقير للغنى ثم بين تعالى أن بعضهم يزين المعاصى للبعض .

واعلم أن وجه استدلال أصحابنا ما ذكرناه ، وهو أن من فعل فعلا وعلم قطعاً أن ذلك الفعل يفضى إلى أثر ، فاعل ذلك الفعل يكون مريداً لذلك الأثر ، فههنا الله تعالى قيض أولئك القرناء لهم وعلم أنه متى قيض أولئك القرناء لهم فإنهم يقعون فى ذلك الكفر والضلال ، وما ذكره الجبائى لا يدفع ذلك ، وقوله ولو أراد الله منهم المعاصى لكانوا بفعلها مطيعين لله ، قلنا لو كان من فعل ما أراده غيره مطيعاً له لوجب أن يكون الله مطيعاً لعباده إذا فعل ما أرادوه ومعلوم أنه باطل ، وأيضاً فهذا إلزام لفظى لأنه يقال إن أردت بالطاعة أنه فعل ما أراد فهذا إلزام للشىء على نفسه ، وإن أردت غيره فلابد من بيانه حتى ينظر فيه أنه هل يصح أم لا .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ اختلفوا فى المراد بقوله (فزينوا لهم مابين أيديهم وما خلفهم) وذكر الزجاج فيه وجهين : (الأول) زينوا لهم مابين أيديهم من أمر الآخرة أنه لا بعث ولا جنة ولا نار وما خلفهم من أمر الدنيا ، فزينوا أن الدنيا قديمة ، وأنه لا فاعل ولا صانع إلا الطبائع والأفلاك (الثانى) زينوا لهم أعمالهم التى يعملونها ويشاهدونها وما خلفهم وما يزعمون أنهم يعملونه ، وعبر ابن زيد عنه ، فقال زينوا لهم مامضى من أعمالهم الخبيثة وما بقى من أعمالهم الخسيسة .

ثم قال تعالى (وحق عليهم القول فى أمم قد خلت من قبلهم من الجن والإنس إنهم كانوا خاسرين) فقوله فى أمم فى محل النصب على الحال من الضمير فى عليهم ، والتقدير حق عليهم القول حال كونهم كائنين فى جملة (أمم) من المتقدمين (إنهم كانوا خاسرين) واحتج أصحابنا أيضاً بأنه تعالى أخبر بأن هؤلاء (حق عليهم القول) فلو لم يكونوا كفاراً لانقلب هذا القول الحق باطلا وهذا العلم جهلا ، وهذا الخبر الصدق كذباً ، وكل ذلك محال ومستلزم المحال محال ، فثبت أن صدور الإيمان عنهم ، وعدم صدور الكفر عنهم محال .

واعلم أن الكلام فى أول السورة ابتدىء من قوله (وقالوا قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه) إلى قوله (فاعمل إننا عاملون) فأجاب الله تعالى عن تلك الشبهة بوجوه من الأجوبة ، واتصل الكلام بعضه بالبعض إلى هذا الموضع ، ثم إنه حكى عنهم شبهة أخرى فقال (وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون) ، قال صاحب الكشاف قرىء (والغوا فيه) بفتح الغين وضمها يقال لغى يلغى ولغا يلغو واللغو الساقط من الكلام الذى لا طائل تحته .

واعلم أن القوم علموا أن القرآن كلام كامل فى المعنى ، وفى اللفظ وأن كل من سمعه وقف على جزالة ألفاظه ، وأحاط عقله بمعانيه ، وقضى عقله بأنه كلام حق واجب القبول ، فدبروا تدبيراً فى منع الناس عن استماعه ، فقال بعضهم لبعض (لا تسمعوا لهذا القرآن) إذا قرىء وتشاغلوا عند قراءته برفع الأصوات بالخرافات والأشعار الفاسدة والكلمات الباطلة ، حتى تخلطوا على القارىء

وتشوشوا عليه وتغلبوا على قراءته ، كانت قريش يوصي بذلك بعضهم بعضاً ، والمراد افعلوا عند تلاوة القرآن ما يكون لغواً وباطلا ، لتخرجوا قراءة القرآن عن أن تصير مفهومة للناس ، فبهذا الطريق تغلبون محمداً ﷺ ، وهذا جهل منهم لأنهم فى الحال أقروا بأنهم مشتغلون باللغو والباطل من العمل والله تعالى ينصر محمداً بفضله ، ولما ذكر الله تعالى ذلك هددهم بالعذاب الشديد فقال (فلنذيقن الذين كفروا عذاباً شديداً) لأن لفظ الذوق إنما يذكر فى القدر القليل الذى يؤتى به لأجل التجربة ، ثم إنه تعالى ذكر أن ذلك الذوق عذاب الشديد ، فاذا كان القليل منه عذاباً شديداً فكيف يكون حال الكثير منه ، ثم قال (ولنجزينهم أسوأ الذى كانوا يعملون) واختلفوا فيه فقال الأكثرون المراد جزاء سوء أعمالهم ، وقال الحسن بل المراد أنه لا يجازيهم على محاسن أعمالهم ، لأنهم أحبطوها بالكفر فضاعت تلك الأعمال الحسنة عنهم ، ولم يبق معهم إلا الأعمال القبيحة الباطلة ، فلا جرم لم يتحصلوا إلا على جزاء السيئات .

ثم قال تعالى (ذلك جزاء أعداء الله النار) والمعنى أنه تعالى لما قال فى الآية المتقدمة (ولنجزينهم أسوأ الذى كانوا يعملون) بين أن ذلك الأسوأ الذى جعل جزاء أعداء الله هو النار .

ثم قال تعالى (لهم فيها دار الخلد) أى لهم فى جملة النار دار السيئات معينة وهى دار العذاب المخلد لهم (جزاء بما كانوا بآياتنا يجحدون) أى جزاء بما كانوا يلغون فى القراءة ، وإنما سماه جحوداً لأنهم لما علموا أن القرآن بالغ إلى حد الإعجاز خافوا من أنه لو سمعه الناس لآمنوا به فاستخرجوا تلك الطريقة الفاسدة ، وذلك يدل على أنهم علموا كونه معجزاً إلا أنهم جحدوا للحسد .

واعلم أنه تعالى لما بين أن الذى حملهم على الكفر الموجب للعقاب الشديد مجالسة قرناء السوء بين أن الكفار عند الوقوع فى العذاب الشديد يقولون (ربنا أرنا الذين أضلانا من الجن والإنس) والسبب فى ذكر هذين القسمين أن الشيطان على ضربين جنى وإنسى ، قال تعالى (وكذلك جعلنا لكل نبى عدواً شياطين الإنس والجن) وقال (الذى يوسوس فى صدور الناس من الجنة والناس) وقيل هما إبليس وقابيل لأن الكفر سنة إبليس ، والقتل بغير حق سنة قابيل .

وقرى (أرنا) بسكون الراء لثقل الكسرة كما قالوا فى فخذ فخذ ، وقيل معناه أعطنا الذين أضلانا وحكوا عن الخليل إنك إذا قلت أرنى ثوبك بالكسر ، فالمعنى بصرنيه وإذا قلته بالسكون فهو استعطاء معناه أعطنى ثوبك .

ثم قال تعالى (نجعلهما تحت أقدامنا) قال مقاتل يكونان أسفل منا فى النار (ليكونا من الأسفلين) قال الزجاج : ليكونا فى الدرك الأسفل من النار ، وكان بعض تلامذتى ممن يميل إلى الحكمة يقول المراد باللذين يضلان الشهوة والغضب ، وإليهما الإشارة فى قصة الملائكة بقوله (أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء) ثم قال والمراد بقوله (نجعلهما تحت أقدامنا) يعنى يا ربنا أعنا حتى نجعل الشهوة والغضب تحت أقدام جوهر النفس القدسية ، والمراد بكونهما تحت أقدامه كونهما مسخرين للنفس القدسية مطيعين لها ، وأن لا يكونا مستوليين عليها قاهرين لها .

إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾

قوله تعالى : ﴿إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة أن لاتخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون ، نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ولكم فيها ما تشتهى أنفسكم ولكم فيها ما تدعون ، نزلا من غفور رحيم﴾ .

اعلم أنه تعالى لما أطنب فى الوعيد أردفه بهذا الوعد الشريف ، وهذا ترتيب لطيف مدار كل القرآن عليه ، وقد ذكرنا مراراً أن الكمالات على ثلاثة أقسام النفسانية والبدنية والخارجية وأشرف المراتب النفسانية وأوسطها البدنية وأدونها الخارجية ، وذكرنا أن الكمالات النفسانية محصورة فى نوعين العلم اليقينى والعمل الصالح ، فإن أهل التحقيق قالوا كمال الإنسان فى أن يعرف الحق لذاته والخير لأجل العمل به ورأس المعارف اليقينية ورئيسها معرفة الله وإليه الإشارة بقوله (إن الذين قالوا ربنا الله) ورأس الأعمال الصالحة ورئيسها أن يكون الإنسان مستقيما فى الوسط غير مائل إلى طرفى الإفراط والتفريط . كما قال (وكذلك جعلناكم أمة وسطاً) وقال أيضاً (اهدنا الصراط المستقيم) وإليه الإشارة فى هذه الآية بقوله (ثم استقاموا) وسمعت أن القارىء قرأ فى مجلس العبادى هذه الآية ، فقال العبادى : والقيامة فى القيامة ، بقدر الاستقامة ، إذا عرفت هذا فنقول : قوله تعالى (إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا) ليس المراد منه القول باللسان فقط لأن ذلك لا يفيد الاستقامة ، فلما ذكر عقيب ذلك القول الاستقامة علمنا أن ذلك القول كان مقروناً باليقين التام والمعرفة الحقيقية ، إذا عرفت هذا فنقول فى الاستقامة قولان (أحدهما) أن المراد منه الاستقامة فى الدين والتوحيد والمعرفة (الثانى) أن المراد منه الاستقامة فى الأعمال الصالحة أما على القول الأول ففيه عبارات : قال أبو بكر الصديق رضى الله عنه : ثم استقاموا أى لم يلتفتوا إلى إله غيره ، قال ابن عباس فى بعض الروايات هذه الآية نزلت فى أبى بكر رضى الله عنه ، وذلك أن أبا بكر رضى الله عنه وقع فى أنواع شديدة من البلاء والمحنة ولم يتغير البتة عن دينه ، فكان هو الذى قال (ربنا الله) وبقى مستقيما عليه لم يتغير بسبب من الأسباب ، وأقول يمكن فيه وجوه أخرى ، وذلك أن من أقر بأن لهذا العالم إلهاً بقيت له مقامات أخرى (فأولها)

أن لا يتوغل فى جانب النفى إلى حيث ينتهى إلى التعطيل ، ولا يتوغل فى جانب الإثبات إلى حيث ينتهى إلى التشبيه ، بل يبقى على الخط المستقيم الفاصل بين التشبيه والتعطيل ، وأيضاً يجب أن يبقى على الخط المستقيم الفاصل بين الجبر والقدر ، وكذا فى الرجاء والقنوط يجب أن يكون على الخط المستقيم ، فهذا هو المراد من قوله (إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا) وأما على القول الثانى وهو أن نحمل الاستقامة على الإتيان بالأعمال الصالحة ، فهذا قول جماعة كثيرة من الصحابة والتابعين ، قالوا وهذا أولى حتى يكون قوله (إن الذين قالوا ربنا الله) متناولا للقول والاعتقاد ويكون قوله (ثم استقاموا) متناولا للأعمال الصالحة .

ثم قال (تتنزل عليهم الملائكة) قيل عند الموت وقيل فى مواقف ثلاثة عند الموت وفى القبر وعند البعث إلى القيامة (أن لاتخافوا) أن بمعنى أى أو بمخففة من الثقيلة وأصله بأنه لاتخافوا والهاء ضمير الشأن واعلم أن الغاية القصوى فى رعاية المصالح دفع المضار وجلب المنافع ، ومعلوم أن دفع المضرة أولى بالرعاية من جلب المصلحة ، والمضرة إما أن تكون حاصلة فى المستقبل أو فى الحال أو فى الماضى ، وههنا دقيقة عقلية وهى أن المستقبل مقدم على الحاضر والحاضر مقدم على الماضى ، فان الشيء الذى لم يوجد ويتوقع حدوثه يكون مستقبلا ، فاذا وجد يصير حاضراً ، فاذا عدم وفنى بعد ذلك يصير ماضياً ، وأيضاً المستقبل فى كل ساعة يصير أقرب حصولا والماضى فى كل حالة أبعد حصولا ، ولهذا قال الشاعر :

فلا زال ماتهواه أقرب من غد ولا زال ماتخشاه أبعد من أمس

وإذا ثبت هذا فالمضار التى يتوقع حصولها فى المستقبل أولى بالدفع من المضار الماضية ، وأيضاً الخوف عبارة عن تألم القلب بسبب توقع حصول مضرة فى المستقبل ، والغم عبارة عن تألم القلب بسبب فوت نفع كان موجوداً فى الماضى ، وإذا كان كذلك فدفع الخوف أولى من دفع الحزن الحاصل بسبب الغم ، إذا عرفت هذا ، فنقول : إنه تعالى أخبر عن الملائكة أنهم فى أول الأمر يخبرون بأنه لاخوف عليكم بسبب ماتستقبلونه من أحوال القيامة ، ثم يخبرون بأنه لاحزن عليكم بسبب مافاتكم من أحوال الدنيا ، وعند حصول هذين الأمرين فقد زالت المضار والمتاعب بالكلية ، ثم بعد الفراغ منه يبشرون بحصول المنافع وهو قوله تعالى (وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون) فإن قيل البشارة عبارة عن الخبر الأول بحصول المنافع ، فأما إذا أخبر الرجل بحصول منفعة ثم أخبر ثانياً بحصولها كان الإخبار الثانى إخباراً ولا يكون بشارة ، والمؤمن قد يسمع بشارات الخير فاذا سمع المؤمن هذا الخبر من الملائكة وجب أن يكون هذا إخباراً ولا يكون بشارة ، فما السبب فى تسمية هذا الخبر بالبشارة ، قلنا المؤمن يسمع أن من كان مؤمناً تقياً كان له الجنة ، أما من لم يسمع البتة أنه من أهل الجنة فاذا سمع هذا الكلام من الملائكة كان هذا إخباراً بنفع عظيم مع أنه هو الخبر الأول بذلك فكان ذلك بشارة .

وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾

واعلم أن هذا الكلام يدل على أن المؤمن عند الموت وفي القبر وعند البعث لا يكون فازعاً من الأهوال ومن الفزع الشديد ، بل يكون آمن القلب ساكن الصدر لأن قوله (أن لا تخافوا ولا تحزنوا) يفيد نفي الخوف والحزن على الإطلاق .

ثم إنه تعالى أخبر عن الملائكة أنهم قالوا للمؤمنين (نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة) وهذا في مقابلة ما ذكره في وعيد الكفار حيث قال (وقيضنا لهم قرناء) ومعنى كونهم أولياء للمؤمنين أن للملائكة تأثيرات في الأرواح البشرية ، بالإلهامات والمكاشفات اليقينية ، والمقامات الحقيقية ، كما أن للشياطين تأثيرات في الأرواح بإلقاء الوساوس فيها وتخييل الأباطيل إليها . وبالجملة فكون الملائكة أولياء للأرواح الطيبة الطاهرة حاصل من جهات كثيرة معلومة لأرباب المكاشفات والمشاهدات ، فهم يقولون : كما أن تلك الولاية كانت حاصلة في الدنيا فهي تكون باقية في الآخرة فإن تلك العلائق ذاتية لازمة غير قابلة للزوال ، بل كأنها تصير بعد الموت أقوى وأبقى ، وذلك لأن جوهر النفس من جنس الملائكة ، وهي كالشعلة بالنسبة إلى الشمس ، والقطرة بالنسبة إلى البحر ، والتعلقات الجسمانية هي التي تحول بينها وبين الملائكة ، كما قال صلى الله عليه وسلم « لولا أن الشياطين يحومون على قلوب بني آدم لنظروا إلى ملكوت السموات » فإذا زالت العلائق الجسمانية والتدبيرات البدنية ، فقد زال الغطاء والوطاء ، فيتصل الأثر بالمؤثر ، والقطرة بالبحر ، والشعلة بالشمس ، فهذا هو المراد من قوله (نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة) ثم قال (ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم ولكم فيها ما تدعون) قال ابن عباس : (ولكم فيها ما تدعون) أي ماتتمنون ، ، كقوله تعالى (لهم فيها فاكهة ولهم ما يدعون) فان قيل فعلى هذا التفسير لا يبقى فرق بين قوله (ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم) وبين قوله (ولكم فيها ماتدعون) قلنا : الأقرب عندي أن قوله (ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم) إشارة إلى الجنة الجسمانية ، وقوله (ولكم فيها ما تدعون) إشارة إلى الجنة الروحانية المذكورة في قوله (دعواهم فيها سبحانك اللهم وتحيتهم فيها سلام ، وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين) .

ثم قال (نزلا من غفور رحيم) والنزل : رزق النزيل وهو الضيف ، وانتصابه على الحال ، قال العارفون : دلت هذه الآية على أن كل هذه الاشياء المذكورة جارية مجرى النزل ، والكريم إذا أعطى النزل فلا بد وأن يبعث الخلع النفيسة بعدها ، وتلك الخلع النفيسة ليست إلا السعادات الحاصلة عند الرؤية والتجلي والكشف التام ، نسأل الله تعالى أن يجعلنا لها أهلا بفضله وكرمه ، إنه قريب مجيب .

قوله تعالى : ﴿ ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إنني من المسلمين ﴾ :

وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾

﴿ ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ادفع بالتى هى أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم ، وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم ، وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم ﴾ .

إعلم أن فى الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ أنا ذكرنا أن الكلام من أول هذه السورة إنما ابتدىء حيث قالوا للرسول (قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه) ومرادهم ألا نقبل قولك ولا نلتفت إلى دليلك ، ثم ذكروا طريقة أخرى فى السفاهة ، فقالوا (لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه) وإنه سبحانه ذكر الأجوبة الشافية ، والبيانات الكافية فى دفع هذه الشبهات وإزالة هذه الضلالات ، ثم إنه سبحانه وتعالى بين أن القوم وإن أتوا بهذه الكلمات الفاسدة ، إلا أنه يجب عليك تتابع المواظبة على التبليغ والدعوة ، فان الدعوة إلى الدين الحق أكمل الطاعات ورأس العبادات ، وعبر عن هذا المعنى فقال (ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إننى من المسلمين) فهذا وجه شريف حسن فى نظم آيات هذه السورة . وفيه وجه آخر . وهو أن مراتب السعادات اثنان : التام ، وفوق التام ، أما التام : فهو أن يكتسب من الصفات الفاضلة ما لأجلها يصير كاملا فى ذاته . فإذا فرغ من هذه الدرجة اشتغل بعدها بتكميل الناقصين وهو فوق التام ، إذا عرفت هذا فنقول إن قوله (إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا) إشارة إلى المرتبة الأولى ، وهى اكتساب الأحوال التى تفيد كمال النفس فى جوهرها ، فإذا حصل الفراغ من هذه المرتبة وجب الانتقال إلى المرتبة الثانية . وهى الاشتغال بتكميل الناقصين ، وذلك إنما يكون بدعوة الخلق إلى الدين الحق ، وهو المراد من قوله (ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله) فهذا أيضاً وجه حسن فى نظم هذه الآيات .

واعلم أن من آتاه الله قريحة قوية ونصاباً وافياً من العلوم الإلهية الكشفية ، عرف أنه لا ترتيب أحسن ولا أكمل من ترتيب آيات القرآن .

﴿ المسألة الثانية ﴾ من الناس من قال المراد من قوله (ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله)

هو الرسول ﷺ ، ومنهم من قال هم المؤذنون ، ولكن الحق المقطوع به أن كل من دعا إلى الله بطريق من الطرق فهو داخل فيه ، والدعوة إلى الله مراتب :.

﴿ فالمرتبة الأولى ﴾ دعوة الأنبياء عليهم السلام راجحة على دعوة غيرهم من وجوه (أحدها) أنهم جمعوا بين الدعوة بالحجة أولا ، ثم الدعوة بالسيف ثانياً ، وقلما اتفق لغيرهم الجمع بين هذين الطريقين (وثانيها) أنهم هم المبتدئون بهذه الدعوة ، وأما العلماء فإنهم يبنون دعوتهم على دعوة الأنبياء ، والشارع فى إحداث الأمر الشريف على طريق الابتداء أفضل (وثالثها) أن نفوسهم أقوى قوة ، وأرواحهم أصفى جوهراً ، فكانت تأثيراتها فى إحياء القلوب الميتة واشراق الأرواح الكدرة أكمل ، فكانت دعوتهم أفضل (ورابعها) أن النفوس على ثلاثة أقسام : ناقصة وكاملة لاتقوى على تكميل الناقصين وكاملة تقوى على تكميل الناقصين (فالقسم الأول) العوام (والقسم الثانى) هم الأولياء (والقسم الثالث) هم الأنبياء ، ولهذا السبب قال صلى الله عليه وسلم « علماء أمتى ، كأنبياء بنى إسرائيل » وإذا عرفت هذا فنقول : إن نفوس الأنبياء حصلت لها مزيتان : الكمال فى الذات ، والتكميل للغير ، فكانت قوتهم على الدعوة أقوى ، وكانت درجاتهم أفضل وأكمل ، إذا عرفت هذا فنقول : الأنبياء عليهم السلام لهم صفتان : العلم والقدرة ، أما العلماء ، فهم نواب الأنبياء فى العلم ، وأما الملوك ، فهم نواب الأنبياء فى القدرة ، والعلم يوجب الاستيلاء على الأرواح ، والقدرة توجب الاستيلاء على الأجساد ، فالعلماء خلفاء الأنبياء فى عالم الأرواح ، والملوك خلفاء الأنبياء فى عالم الأجساد . وإذا عرفت هذا ظهر أن أكمل الدرجات فى الدعوة إلى الله بعد الأنبياء درجة العلماء ، ثم العلماء على ثلاثة أقسام : العلماء بالله . والعلماء بصفات الله ، والعلماء بأحكام الله . أما العلماء بالله ، فهم الحكماء الذين قال الله تعالى فى حقهم (يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً) وأما العلماء بصفات الله تعالى فهم أصحاب الأصول ، وأما العلماء بأحكام الله فهم الفقهاء ، ولكل واحد من هذه المقامات ثلاث درجات لانهاية لها ، فلهذا السبب كان للدعوة إلى الله درجات لانهاية لها ، وأما الملوك فهم أيضاً يدعون إلى دين الله بالسيف ، وذلك بوجهين إما بتحصيله عند عدمه مثل المحاربة مع الكفار ، وإما بإبقائه عند وجوده وذلك مثل قولنا المرتد يقتل ، وأما المؤذنون فهم يدخلون فى هذا الباب دخولا ضعيفاً ، أما دخولهم فيه فلأن ذكر كلمات الأذان دعوة إلى الصلاة ، فكان ذلك داخلا تحت الدعاء إلى الله ، وأما كون هذه المرتبة ضعيفة فلأن الظاهر من حال المؤذن أنه لا يحيط بمعانى تلك الكلمات وبتقدير أن يكون محيطاً بها إلا أنه لايريد بذكرها تلك المعانى الشريفة ، فهذا هو الكلام ، فى مراتب الدعوة إلى الله .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قوله (ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله) يدل على أن الدعوة إلى الله أحسن من كل ماسواها ، إذا عرفت هذا فنقول : كل ماكان أحسن الأعمال وجب أن يكون واجباً ، لأن كل مالا يكون واجباً فالواجب أحسن منه ، فثبت أن كل ما كان أحسن الأعمال فهو

واجب ، إذا عرفت هـذا فنقول الدعوة إلى الله أحسن الأعمال بمقتضى هذه الآية ، وكل ماكان أحسن الأعمال فهو واجب ، ثم ينتج أن الدعوة إلى الله واجبة ، ثم نقول الأذان دعوة إلى والدعوة إليه واجبة فينتج الأذان واجب ، واعلم أن الأكثرين من الفقهاء زعموا أن الأذان غير واجب ، وزعموا أن الأذان غير داخل فى هذه الآية ، والدليل القاطع عليه أن الدعوة المرادة بهذه الآية يجب أن تكون أحسن الأقوال ، وثبت أن الأذان ليس أحسن الأقوال ، لأن الدعوة إلى دين الله سبحانه وتعالى بالدلائل اليقينية أحسن من الأذان ، ينتج من الشكل الثانى أن الداخل تحت هذه الآية ليس هو الأذان .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ اختلف الناس فى أن الأولى أن يقول الرجل أنا المسلم أو الأولى أن يقول أنا مسلم إن شاء الله ، فالقائلون بالقول الأولى احتجوا على صحة قولهم بهذه الآية فإن التقدير ومن أحسن قولا ممن قال إنى من المسلمين ، فحكم بأن هذا القول أحسن الأقوال ، ولو كان قولنا إن شاء الله معتبراً فى كونه أحسن الأقوال لبطل ما دل عليه ظاهر هذه الآية .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ الآية تدل على أن أحسن الأقوال قول من جمع بين خصال ثلاثة (أولها) الدعوة إلى الله (وثانيها) العمل الصالح (وثالثها) أن يكون من المسلمين ، أما الدعوة إلى الله فقد شرحناها وهى عبارة عن الدعوة إلى الله بإقامة الدلائل اليقينية والبراهين القطعية :

وأما قوله (وعمل صالحاً) فاعلم أن العمل الصالح إما أن يكون عمل القلوب وهو المعرفة ، أو عمل الجوارح وهو سائر الطاعات .

وأما قوله (وقال إننى من المسلمين) فهو أن ينضم إلى عمل القلب وعمـل الجوارح الإقرار باللسان ، فيكون هذا الرجل موصوفاً بخصال أربعة (أحدها) الإقرار باللسان (والثانى) الأعمال الصالحة بالجوارح (والثالث) الاعتقاد الحق بالقلب (والرابع) الاشتغال بإقامة الحجة على دين الله ، ولا شك أن الموصوف بهذه الخصال الأربعة أشرف الناس وأفضلهم ، وكمال الدرجة فى هذه المراتب الأربعة ليس إلا لمحمد ﷺ .

قوله تعالى : ﴿ ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ﴾ واعلم انا بينا أن الكلام من أول السورة ابتدىء من أن الله حكى عنهم أنهم قالوا (قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه) فأظهروا من أنفسهم الإصرار الشديد على أديانهم القديمة وعدم التأثر بدلائل محمد ﷺ ، ثم إنه تعالى أطنب فى الجواب عنه وذكر الوجوه الكثيرة وأردفها بالوعد والوعيد ، ثم حكى عنهم شبهة أخرى وهى قولهم (لا تسمعوا لهـذا القرآن والغوا فيه) وأجاب عنها أيضاً بالوجوه الكثيرة ، ثم إنه تعالى بعد الإطناب فى الجواب عن تلك الشبهات رغب محمداً ﷺ فى أن لايترك الدعوة إلى الله فابتدأ أولا بأن قال (إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا) فلهم الثواب العظيم ثم ترقى من تلك الدرجة إلى درجة أخرى وهى أن الدعوة إلى الله من أعظم الدرجات ، فصار الكلام من أول السورة إلى

هذا الموضع واقعاً على أحسن وجوه الترتيب ، ثم كأن سائلا سأل فقال إن الدعوة إلى الله وإن كانت طاعة عظيمة ، إلا أن الصبر على سفاهة هؤلاء الكفار شديد لا طاقة لنا به ، فعند هذا ذكر الله ما يصلح لأن يكون دافعاً لهذا الأشكال فقال (ولا تستوى الحسنة ولا السيئة) والمراد بالحسنة دعوة الرسول ﷺ إلى الدين الحق ، والصبر على جهالة الكفار ، وترك الانتقام ، وترك الالتفات إليهم ، والمراد بالسيئة ما أظهروه من الجلافة فى قولهم (قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه) وما ذكروه فى قولهم (لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه) فكأنه قال يا محمد فعلك حسنة وفعلهم سيئة ، ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ، بمعنى أنك إذا أتيت بهذه الحسنة تكون مستوجباً للتعظيم فى الدنيا والثواب فى الآخرة ، وهم بالضد من ذلك ، فلا ينبغى أن يكون إقدامهم على تلك السيئة مانعاً لك من الاشتغال بهذه الحسنة .

ثم قال (ادفع بالتى هى أحسن) يعنى ادفع سفاهتهم وجهالتهم بالطريق الذى هو أحسن الطرق ، فإنك إذا صبرت على سوء أخلاقهم مرة بعد أخرى ، ولم تقابل سفاهتهم بالغضب ولا إضرارهم بالإيذاء والإيحاش استحيوا من تلك الأخلاق المذمومة وتركوا تلك الأفعال القبيحة .

ثم قال (فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم) يعنى إذا قابلت إساءتهم بالإحسان ، وأفعالهم القبيحة بالأفعال الحسنة تركوا أفعالهم القبيحة وانقلبوا من العداوة إلى المحبة ومن البغضة إلى المودة ، ولما أرشد الله تعالى إلى هذا الطريق النافع فى الدين والدنيا والآخرة عظمه فقال : (وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم) قال الزجاج : أى وما يلقى هذه الفعلة إلا الذين صبروا على تحمل المكاره وتجرع الشدائد وكظم الغيظ وترك الانتقام .

ثم قال (وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم) من الفضائل النفسانية والدرجة العالية فى القوة الروحانية ، فإن الاشتغال بالانتقام والدفع لا يحصل إلا بعد تأثر النفس ، وتأثر النفس من الواردات الخارجية لا يحصل إلا عند ضعف النفس فأما إذا كانت النفس قوية الجوهر لم تتأثر من الواردات الخارجية ، وإذا لم تتأثر منها لم تضعف ولم تتأذ ولم تشتغل بالانتقام ، فثبت أن هذه السيرة التى شرحناها لا يلقاها إلا ذو حظ عظيم من قوة النفس وصفاء الجوهر وطهارة الذات ، ويحتمل أن يكون المراد (وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم) من ثواب الآخرة ، فعلى هذا الوجه قوله (وما يلقاها إلا الذين صبروا) مدح بفعل الصبر ، وقوله (وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم) وعد بأعظم الحظ من الثواب .

ولما ذكر هذا الطريق الكامل فى دفع الغضب والانتقام ، وفى ترك الخصومة ذكر عقيبه طريقاً آخر عظيم النفع أيضاً فى هذا الباب ، فقال (وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم) وهذه الآية مع ما فيها من الفوائد الجليلة مفسرة فى آخر سورة الأعراف على الاستقصاء ، قال صاحب الكشاف النزغ والنسغ بمعنى واحد وهو شبه النخس

وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلَّيْـلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ﴿٣٨﴾ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَـٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾

والشيطان ينزغ الإنسان ، كأنه ينخسه ببعثه على مالا ينبغي وجعل النزغ نازغاً ، كما قيل : جد جده أو أريد (وإما ينزغنك) نازغ وصفاً للشيطان بالمصدر ، وبالجملة فالمقصود من الآية وإن صرفك الشيطان عما شرعت من الدفع بالتي هي أحسن ، فاستعذ بالله من شره ، وامض على شأنك ولا تطعه ، والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر لاتسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذي خلقهن إن كنتم إياه تعبدون ، فإن استكبروا فالذين عند ربك يسبحون له بالليل والنهار وهم لا يسأمون ، ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت إن الذي أحياها لمحيي الموتى إنه على كل شيء قدير ﴾ .

اعلم أنه تعالى لما بين في الآية المتقدمة أن أحسن الأعمال والأقوال هو الدعوة إلى الله تعالى أردفه بذكر الدلائل الدالة على وجود الله وقدرته وحكمته ، تنبيهاً على أن الدعوة إلى الله تعالى عبارة عن تقرير الدلائل الدالة على ذات الله وصفاته ، فهذه تنبيهات شريفة مستفادة من تناسق هذه الآيات ، فكان العلم بهذه اللطائف أحسن علوم القرآن ، وقد عرفت أن الدلائل الدالة على هذه المطالب العالية هي العالم بجميع مافيه من الأجزاء والأبعاض ، فبدأ ههنا بذكر الفلكيات وهي الليل والنهار وإنما قدم ذكر الليل على ذكر النهار تنبيهاً على أن الظلمة عدم ، والنور وجود ، والعدم سابق على الوجود ، فهذا كالتنبيه على حدوث هذه الأشياء ، وأما دلالة الشمس والقمر والأفلاك وسائر الكواكب على وجود الصانع ، فقد شرحناها في هذا الكتاب مراراً ، لا سيما في تفسير قوله (الحمد لله رب العالمين) وفي تفسير قوله (الحمد لله الذي خلق السموات والأرض) .

ولما بين أن الشمس والقمر محدثان ، وهما دليلان على وجود الإله القادر قال (لا تسجدوا للشمس ولا للقمر) يعني أنهما عبدان دليلان على وجود الإله ، والسجدة عبارة عن نهاية التعظيم

فهى لاتليق إلا بمن كان أشرف الموجودات ، فقال (لا تسجدوا للشمس ولا للقمر) لأنهما عبدان مخلوقان (واسجدوا لله) الخالق القادر الحكيم ، والضمير فى قوله (خلقهن) لليل والنهار والقمر ، لأن حكم جماعة ما لا يعقل حكم الأنثى أو الإناث ، يقال للأقلام بريتها وبريتهن ، ولما قال (ومن آياته) كن فى معنى الإناث فقال (خلقهن) وإنما قال (إن كنتم إياه تعبدون) لأن ناساً كانوا يسجدون للشمس والقمر كالصابئين فى عبادتهم الكواكب ويزعمون أنهم يقصدون بالسجود لهما السجود لله فنهوا عن هذه الواسطة وأمروا أن لا يسجدوا إلا لله الذى خلق الأشياء ، فإن قيل إذا كان لا بد فى الصلاة من قبلة معينة ، فلو جعلنا الشمس قبلة معينة عند السجود كان ذلك أولى ، قلنا الشمس جوهر مشرق عظيم الرفعة عالى الدرجة ، فلو أذن الشرع فى جعلها قبلة فى الصلوات ، فعند اعتياد السجود إلى جانب الشمس ربما غلب على الأوهام أن ذلك السجود للشمس لا لله ، فلأجل الخوف من هذا المحذورنهى الشارع الحكيم عن جعل الشمس قبلة للسجود ، بخلاف الحجر المعين فانه ليس فيه مايوهم الإلهية ، فكان المقصود من القبلة حاصلا والمحذور المذكور زائلا فكان هذا أولى ، واعلم أن مذهب الشافعى رضى الله عنه أن موضع السجود هوقوله (تعبدون) لأجل أن قوله (واسجدوا لله) متصل به ، وعند أبى حنيفة هو قوله (وهم لا يسأمون) لأن الكلام إنما يتم عنده .

ثم إنه تعالى لما أمر بالسجود قال بعده (فإن استكبروا فالذين عند ربك يسبحون له بالليل والنهار وهم لايسأمون) وفيه سؤالات :

(السؤال الأول) إن الذين يسجدون للشمس والقمر يقولون نحن أقل وأذل من أن يحصل لنا أهلية عبودية الله تعالى ، ولكنا عبيد للشمس وهما عبدان لله ، وإذاكان قول هؤلاء هكذا ، فكيف يليق أن يقال إنهم استكبروا عن السجود لله ؟ (والجواب) ليس المراد من لفظ الاستكبار ماذكرتم ، بل المراد فإن استكبروا عن قبول قولك يامحمد فى النهى عن السجود للشمس والقمر .

(السؤال الثانى) أن المشبهة تمسكوا بقوله (فالذين عند ربك) فى إثبات المكان والجهة لله تعالى (والجواب) أنه يقال عند الملك من الجند كذا وكذا ، ولا يراد به قرب المكان . فكذا ههنا . ويدل عليه قوله « أنا عند ظن عبدى بى ، وأنا عند المنكسرة قلوبهم لأجلى ، فى مقعد صدق عند مليك مقتدر » ويقال عند الشافعى رضى الله عنه إن المسلم لا يقتل بالذمى .

(السؤال الثالث) هل تدل هذه الآية على أن الملك أفضل من البشر ؟ (الجواب) نعم ، لأنه إنما يستدل بحال الأعلى على حال الأدون ، فيقال هؤلاء الأقوام إن استكبروا عن طاعة فلان فالأكابر يخدمونه ويعترفون بتقدمه ، فثبت أن هذا النوع من الاستدلال إنما يحسن بحال الأعلى على حال الأدون .

(السؤال الرابع) قال ههنا فى صفة الملائكة (يسبحون بالليل والنهار) فهذا يدل على

إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ

أنهم مواظبون على التسبيح ، لاينفكون عنه لحظة واحدة ، واشتغالهم بهذا العمل على سبيل الدوام يمنعهم من الاشتغال بسائر الأعمال ككونهم ينزلون إلى الأرض كما قال (نزل به الروح الأمين على قلبك) وقال (ونبئهم عن ضيف إبراهيم) وقوله تعالى (عليها ملائكة غلاظ شداد) الجواب أن الذين ذكرهم الله تعالى ههنا بكونهم مواظبين على التسبيح أقوام معينون من الملائكة وهم الأشراف الأكابر منهم ، لأنه تعالى وصفهم بكونهم عنده ، والمراد من هذه العندية كمال الشرف والمنقبة ، وهذا لاينافي كون طائفة أخرى من الملائكة مشتغلين بسائر الأعمال ، فان قالوا هب أن الأمر كذلك إلا أنهم لابد وإن يتنفسوا ، فاشتغالهم بذلك التنفس يصدهم عن تلك الحالة من التسبيح قلنا كما أن التنفس سبب لصلاح حال الحياة بالنسبة إلى البشر فذكر الله تعالى سبب لصلاح حالهم فى حياتهم ، ولا يجب على العاقل المنصف أن يقيس أحوال الملائكة فى صفاء جوهرها وإشراق ذواتها واستغراقها فى معارج معارف الله بأحوال البشر ، فان بين الحالتين بعد المشرقين .

ثم قال تعالى (ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة) .

واعلم أنه تعالى لما ذكر الآيات الأربع الفلكية وهى الليل والنهار والشمس والقمر ، أتبعها بذكر آية أرضية فقال (ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة) والخشوع التذلل والتصاغر ، واستعير هذا اللفظ لحال الأرض حال خلوها عن المطر والنبات (فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت) أى تحركت بالنبات ، وربت : انتفخت لأن النبت إذا قرب أن يظهر ارتفعت له الأرض وانتفخت ، ثم تصدعت عن النبات ، ثم قال (إن الذى أحياها لمحيي الموتى) يعنى أن القادر على إحياء الأرض بعد موتها هو القادر على إحياء هذه الأجساد بعد موتها ، وقد ذكرنا تقرير هذا الدليل مراراً لاحصر لها ، ثم قال (إنه على كل شيء قدير) وهذا هو الدليل الأصلى وتقريره إن عودة التأليف والتركيب إلى تلك الأجزاء المتفرقة ممكن لذاته ، وعود الحياة والعقل والقدرة إلى تلك الأجزاء بعد اجتماعها أيضاً أمر ممكن لذاته ، والله تعالى قادر على الممكنات ، فوجب أن يكون قادراً على إعادة التركيب والتأليف والحياة والقدرة والعقل والفهم إلى تلك الأجزاء ، وهذا يدل دلالة واضحة على أن حشر الأجساد ممكن لا امتناع فيه البتة ، والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ إن الذين يلحدون فى آياتنا لا يخفون علينا أفمن يلقى فى النار خير أمن يأتى آمناً يوم القيامة أعملوا ماشئتم إنه بما تعملون بصير ، إن الذين كفروا بالذكر لما جاءهم وإنه لكتاب

كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾

عزيز ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد﴾ .

اعلم أنه تعالى لما بين أن الدعوة إلى دين الله تعالى أعظم المناصب وأشرف المراتب ، ثم بين أن الدعوة إلى دين الله تعالى ، إنما تحصل بذكر دلائل التوحيد والعدل وصحة البعث والقيامة ، عاد إلى تهديد من ينازع فى تلك الآيات ، ويحاول إلقاء الشبهات فيها ، فقال (إن الذين يلحدون فى آياتنا) يقال ألحد الحافر ولحد إذا مال عن الاستقامة فحفر فى شق ، فالملحد هو المنحرف ، ثم بحكم العرف اختص بالمنحرف عن الحق إلى الباطل ، وقوله (لا يخفون علينا) تهديد كما إذا قال الملك المهيب : إن الذين ينازعوننى فى ملكى أعرفهم ، فانه يكون ذلك تهديداً ، ثم قال (أفمن يلقى فى النار خير أمن يأتى آمناً يوم القيامة) وهذا استفهام بمعنى التقرير ، والغرض التنبيه على أن الذين يلحدون فى آياتنا يلقون فى النار ، والذين يؤمنون بآياتنا يأتون آمنين يوم القيامة . ثم قال (اعملوا ماشئتم إنه بما تعملون بصير) وهذا أيضاً تهديد ثالث ، ونظيره مايقوله الملك المهيب عند الغضب الشديد إذا أخذ يعاتب بعض عبيده ثم يقول لهم (اعملوا ماشئتم) فان هذا مما يدل على الوعيد الشديد .

قوله تعالى : ﴿إن الذين كفروا بالذكر لما جاءهم﴾ وهذا أيضاً تهديد ، وفى جوابه وجهان : (أحدهما) أنه محذوف كسائر الأجوبة المحذوفة فى القرآن على تقدير (إن الذين كفروا بالذكر لما جاءهم) يجازون بكفرهم أو ما أشبه ذلك (والثانى) أن جوابه قوله (أولئك ينادون من مكان بعيد) والأول أصوب ، ولما بالغ فى تهديد الذين يلحدون فى آيات القرآن أتبعه ببيان تعظيم القرآن ، فقال (وإنه لكتاب عزيز) والعزيز له معنيان (أحدهما) الغالب القاهر (والثانى) الذى لا يوجد نظيره ، أما كون القرآن عزيزاً بمعنى كونه غالباً ، فالأمر كذلك لأنه بقوة حجته غلب على كل ماسواه ، وأما كونه عزيزاً بمعنى عديم النظير ، فالأمر كذلك لأن الأولين والآخرين عجزوا عن معارضته ، ثم قال (لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه) وفيه وجوه : (الأول) لاتكذبه الكتب المتقدمة كالتوراة والإنجيل والزبور ، ولا يجىء كتاب من بعده يكذبه (الثانى) ما حكم القرآن بكونه حقاً لا يصير باطلا ، وما حكم بكونه باطلا لا يصير حقاً (الثالث) معناه أنه محفوظ من أن ينقص منه فيأتيه الباطل من بين يديه ، أو يزاد فيه فيأتيه الباطل من خلفه . والدليل عليه قوله (وإنا له لحافظون) فعلى هذا الباطل هو الزيادة والنقصان (الرابع) يحتمل أن يكون المراد أنه لا يوجد فى المستقبل كتاب يمكن جعله معارضاً له ولم يوجد فيما تقدم

مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ۖ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ ۗ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ ۖ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ ۗ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿٤٥﴾ مَّنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾

كتاب يصلح جعله معارضاً له (الخامس) قال صاحب الكشاف هذا تمثيل ، والمقصود أن (الباطل) لا يتطرق إليه ، ولا يجد إليه سبيلا من جهة من الجهات حتى يتصل إليه .

واعلم أن لأبي مسلم الأصفهاني أن يحتج بهذه الآية على أنه لم يوجد النسخ فيه لأن النسخ إبطال فلو دخل النسخ فيه لكان قد أتاه الباطل من خلفه وإنه على خلاف هذه الآية .

ثم قال تعالى (تنزيل من حكيم حميد) أي حكيم في جميع أحواله وأفعاله ، حميد إلى جميع خلقه بسبب كثرة نعمه ، ولهذا السبب جعل (الحمد لله رب العالمين) فاتحة كلامه ، وأخبر أن خاتمة كلام أهل الجنة ، وهو قوله (الحمد لله رب العالمين) .

قوله تعالى : ﴿ مايقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك إن ربك لذو مغفرة وذو عقاب أليم ، ولو جعلناه قرآناً أعجمياً لقالوا لولا فصلت آياته أأعجمي وعربي قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر وهو عليهم عمى أولئك ينادون من مكان بعيد ، ولقد آتينا موسى الكتاب فاختلف فيه ولولا كلمة سبقت من ربك لقضى بينهم وإنهم لفي شك منه مريب ، من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد ﴾ .

واعلم أنه تعالى لما هدد الملحدين في آيات الله ، ثم بين شرف آيات الله ، وعلو درجة كتاب الله رجع إلى أمر رسول الله ﷺ بأن يصبر على أذى قومه وأن لا يضيق قلبه بسبب ما حكاه عنهم في أول السورة من أنهم (قالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه) إلى قوله (فاعمل إننا عاملون)

فقال (ما يقال لك إلا ماقد قيل للرسل من قبلك) وفيه وجهان : (الأول) وهو الأقرب أن المراد ماتقول لك كفار قومك إلا مثل ماقد قال للرسل كفار قومهم من الكلمات المؤذية والمطاعن فى الكتب المنزلة (وإن ربك لذو مغفرة) للمحقين (وذو عقاب أليم) للمبطلين ففوض هذا الأمر إلى الله واشتغل بما أمرت به وهو التبليغ والدعوة إلى الله تعالى (الثانى) أن يكون المراد ماقال الله لك إلا مثل ماقال لسائر الرسل وهو أنه تعالى أمرك وأمر كل الأنبياء بالصبر على سفاهة الأقوام فمن حقه أن يرجوه أهل طاعته ويخافه أهل معصيته ، وقد ظهر من كلامنا فى تفسير هذه السورة أن المقصود من هذه السورة ، هو ذكر الأجوبة عن قولهم (وقالوا قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه وفى آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل إننا عاملون) فتارة ينبه على فساد هذه الطريقة ، وتارة يذكر الوعد والوعيد لمن لم يؤمن بهذا القرآن ولمن يعرض عنه ، وامتد الكلام إلى هذا الموضع من أول السورة على الترتيب الحسن والنظم الكامل . ثم إنه تعالى ذكر جواباً آخر عن قولهم (وقالوا قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه وفى آذاننا وقر) فقال (ولو جعلناه قرآناً أعجمياً لقالوا لولا فصلت آياته أأعجمى وعربى) وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قرأ حمزة والكسائى وأبو بكر عن عاصم : أأعجمى بهمزتين على الاستفهام ، والباقون بهمزة واحدة ومدة على أصلهم فى أمثاله ، كقوله (أأنذرتهم) ونحوها على الاستفهام ، وروى عن ابن عباس بهمزة واحدة ، وأما القراءة بهمزتين : فالهمزة الأولى همزة إنكار ، والمراد أنكروا وقالوا قرآن أعجمى ورسول عربى ، أومرسل إليه عربى ، وأما القراءة بغير همزة الاستفهام ، فالمراد الإخبار بأن القرآن أعجمى والمرسل إليه عربى .

﴿ المسألة الثانية ﴾ نقلوا فى سبب نزول هذه الآية أن الكفار لأجل التعنت ، قالوا لو نزل القرآن بلغة العجم فنزلت هذه الآية ، وعندى أن أمثال هذه الكلمات فيها حيف عظيم على القرآن ، لأنه يقتضى ورود آيات لا تعلق للبعض فيها بالبعض ، وأنه يوجب أعظم أنواع الطعن فكيف يتم مع التزام مثل هذا الطعن ادعاء كونه كتاباً منتظما ، فضلا عن ادعاء كونه معجزاً ؟ بل الحق عندى أن هذه السورة من أولها إلى آخرها كلام واحد ، على ماحكى الله تعالى عنهم من قولهم (قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه وفى آذاننا وقر) وهذا الكلام أيضاً متعلق به ، وجواب له ، والتقدير : أنا لو أنزلنا هذا القرآن بلغة العجم لكان لهم أن يقولوا : كيف أرسلت الكلام العجمى إلى القوم العرب ، ويصح لهم أن يقولوا (قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه) أى من هذا الكلام (وفى آذاننا وقر) منه لأنا لانفهمه ولا نحيط بمعناه ، أما لما أنزلنا هذا الكتاب بلغة العرب وبألفاظهم وأنتم من أهل هذه اللغة ، فكيف يمكنكم ادعاء أن قلوبكم فى أكنة منها ، وفى آذانكم وقر منها ، فظهر أنا إذا جعلنا هذا الكلام جواباً عن ذلك الكلام ، بقيت السورة من أولها إلى آخرها على أحسن وجوه النظم ، وأما على الوجه الذى يذكره الناس فهو عجيب جداً .

قوله تعالى : ﴿قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لا يؤمنون فى آذانهم وقر وهو عليهم عمى أولئك ينادون من مكان بعيد﴾ .

واعلم أن هذا متعلق بقولهم (وقالوا قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه) إلى آخر الآية ، كأنه تعالى يقول : إن هذا الكلام أرسلته إليكم بلغتكم لا بلغة أجنبية عنكم ، فلا يمكنكم أن تقولوا إن قلوبنا فى أكنة منه بسبب جهلنا بهذه اللغة ، فبقى أن يقال إن كل من آتاه الله طبعاً مائلا إلى الحق ، وقلباً مائلا إلى الصدق ، وهمة تدعوه إلى بذل الجهد فى طلب الدين ، فإن هذا القرآن يكون فى حقه هدى وشفاء . أما كونه (هدى) فلأنه دليل على الخيرات ويرشد إلى كل السعادات ، وأما كونه (شفاء) فإنه إذا أمكنه الاهتداء فقد حصل الهدى ، فذلك الهدى شفاء له من مرض الكفر والجهل ، وأما من كان غارقاً فى بحر الخذلان ، وتائها فى مفاوز الحرمان ، ومشغوفاً بمتابعة الشيطان ، كان هذا القرآن فى آذانه وقراً ، كما قال (وفى آذاننا وقر) وكان القرآن عليهم (عمى) كما قال (ومن بيننا وبينك حجاب ، أولئك ينادون من مكان بعيد) بسبب ذلك الحجاب الذى حال بين الانتفاع ببيان القرآن ، وكل من أنصف ولم يتعسف علم أنا إذا فسرنا هذه الآية على الوجه الذى ذكرناه صارت هذه السورة من أولها إلى آخرها كلاماً واحداً منتظماً مسوقاً نحو غرض واحد ، فيكون هذا التفسير أولى مما ذكروه ، وقرأ الجمهور (وهو عليهم عمى) على المصدر ، وقرأ ابن عباس عم على النعت ، قال أبو عبيد والأول هو الوجه ، كقوله (هدى وشفاء) وكذلك (عمى) هو مصدر مثلها ، ولو كان المذكور أنه هاد وشاف لكان الكسر فى (عمى) أجود فيكون نعتاً مثلهما ، وقوله تعالى (أولئك ينادون من مكان بعيد) قال ابن عباس : يريد مثل البهيمة التى لا تفهم إلا دعاء ونداء ، وقيل من دعى من مكان بعيد لم يسمع ، وإن سمع لم يفهم ، فكذا حال هؤلاء .

قوله تعالى : ﴿ ولقد آتينا موسى الكتاب فاختلف فيه ﴾ وأقول أيضاً إن هذا متعلق بما قبله ، كأنه قيل إنا لما آتينا موسى الكتاب اختلفوا فيه ، فقبله بعضهم ورده الآخرون ، فكذلك آتيناك هذا الكتاب فقبله بعضهم وهم أصحابك ، ورده الآخرون ، وهم الذين يقولون (قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه) .

قوله تعالى : ﴿ ولولا كلمة سبقت من ربك ﴾ يعنى فى تأخير العذاب عنهم إلى أجل مسمى وهو يوم القيامة ، كما قال (بل الساعة موعدهم لقضى بينهم) يعنى المصدق والمكذب بالعذاب الواقع بمن كذب وإنهم لفى شك من صدقك وكتابك مريب ، فلا ينبغى أن تستعظم استيحاشك من قولهم (قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه) .

ثم قال ﴿ من عمل صالحاً فلنفسه ، ومن أساء فعليها ﴾ يعنى خفف على نفسك إعراضهم ، فإنهم إن آمنوا فنفع إيمانهم يعود عليهم ، وإن كفروا فضرر كفرهم يعود إليهم ، والله سبحانه يوصل إلى كل أحد ما يليق بعمله من الجزاء (وما ربك بظلام للعبيد) .

إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ۚ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا
تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى قَالُوٓا۟ ءَاذَنَّـٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ ﴿٤٧﴾
وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَدْعُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَظَنُّوا۟ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٤٨﴾ لَّا يَسْـَٔمُ
ٱلْإِنسَـٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ
رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَـٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن
رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ ۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟
وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا
بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ
عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا
فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ

قوله تعالى : ﴿ إليه يرد علم الساعة وما تخرج من ثمرات من أكمامها وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه ويوم يناديهم أين شركائى قالوا آذناك ما منا من شهيد ، وضل عنهم ما كانوا يدعون من قبل وظنوا ما لهم من محيص ، لا يسأم الإنسان من دعاء الخير وإن مسه الشر فيئوس قنوط ، ولئن أذقناه رحمة منا من بعد ضراء مسته ليقولن هذا لى وما أظن الساعة قائمة ولئن رجعت إلى ربى إن لى عنده للحسنى فلننبئن الذين كفروا بما عملوا ولنذيقنهم من عذاب غليظ ، وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه وإذا مسه الشر فذو دعاء عريض ، قل أرأيتم إن كان من عند الله ثم كفرتم به من أضل ممن هو فى شقاق بعيد ، سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أولم يكف بربك أنه على كل شىء شهيد .

شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ

ألا إنهم فى مرية من لقاء ربهم ألا إنه بكل شىء محيط ﴾ .

واعلم أنه تعالى لما هدد الكفار فى الآية المتقدمة بقوله (من عمل صالحاً فلنفسه ، ومن أساء فعليها) ومعناه أن جزاء كل أحد يصل إليه فى يوم القيامة ، وكأن سائلا قال ومتى يكون ذلك اليوم ؟ فقال تعالى إنه لا سبيل للخلق إلى معرفة ذلك اليوم ولا يعلمه إلا الله ، فقال (إليه يرد علم الساعة) وهذه الكلمة تفيد الحصر أى لا يعلم وقت الساعة بعينه إلا الله ، وكما أن هذا العلم ليس إلا عند الله فكذلك العلم بحدوث الحوادث المستقبلة فى أوقاتها المعينة ليس إلا عند الله سبحانه وتعالى ، ثم ذكر من أمثلة هذا الباب مثالين (أحدهما) قوله (وما تخرج من ثمرات من أكمامها) (والثانى) قوله (وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه) قال أبو عبيدة أكمامها أوعيتها وهى ما كانت فيه الثمرة واحدها كم وكمة ، قرأ نافع وابن عامر وحفص عن عاصم من ثمرات بالألف على الجمع والباقون من ثمرة بغير ألف على الواحد .

واعلم أن نظير هذه الآية قوله (إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث) إلى آخر الآية ، فإن قيل أليس أن المنجمين قد يتعرفون من طالع سنة العالم أحوالا كثيرة من أحوال العالم ، وكذلك قد يتعرفون من طوالع الناس أشياء من أحوالهم ، وههنا شىء آخر يسمى علم الرمل وهو كثير الإصابة وأيضاً علم التعبير بالاتفاق قد يدل على أحوال المغيبات ، فكيف الجمع بين هذه العلوم المشاهدة وبين هذه الآية ؟ قلنا إن أصحاب هذه العلوم لا يمكنهم القطع والجزم فى شىء من المطالب البتة وإنما الغاية القصوى ادعاء ظن ضعيف والمذكور فى هذه الآية أن علمها ليس إلا عند الله والعلم هو الجزم واليقين وبهذا الطريق زالت المنافاة والمعاندة والله أعلم ، ثم إنه تعالى لما ذكر القيامة أردفه بشىء من أحوال يوم القيامة ، وهذا الذى ذكره ههنا شديد التعلق أيضاً بما وقع الابتداء به فى أول السورة ، وذلك لأن أول السورة يدل على أن شدة نفورهم عن استماع القرآن إنما حصلت من أجل أن محمداً ﷺ كان يدعوهم إلى التوحيد وإلى البراءة عن الأصنام والأوثان بدليل أنه قال فى أول السورة (قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى أنما إلهكم إله واحد) فذكر فى خاتمة السورة وعيد القائلين بالشركاء والأنداد فقال (ويوم يناديهم فيقول أين شركائى) أى بحسب زعمكم واعتقادكم قالوا (آذناك) قال ابن عباس أسمعناك كقوله تعالى (وأذنت لربها وحقت) بمعنى سمعت ، وقال الكلبى أعلمناك وهذا بعيد ، لأن أهل القيامة يعلمون الله ويعلمون أنه يعلم الأشياء علماً واجباً ، فالإعلام فى حقه محال .

ثم قال (ما منا من شهيد) وفيه وجوه (الأول) ليس أحد منا يشهد بأن لك شريكا ، فالمقصود أنهم فى ذلك اليوم يتبرءون من إثبات الشريك لله تعالى (الثانى) ما منا من أحد يشاهدهم لأنهم

ضلوا عنهم وضلت عنهم آلهتهم لا يبصرونها فى ساعة التوبيخ (الثالث) أن قوله (مامنا من شهيد) كلام الأصنام فإن الله يحييها ، ثم إنها تقول مامنا من أحد يشهد بصحة ما أضافوا إلينا من الشركة ، وعلى هذا التقدير فعنى أنها لا تنفعهم فكأنهم ضلوا عنهم .

ثم قال (وظنوا مالهم من محيص) وهذا ابتداء كلام من الله تعالى يقول إن الكفار ظنوا أولا ثم أيقنوا أنه لامحيص لهم عن النار والعذاب ، ومنهم من قال إنهم ظنوا أولا أنه لامحيص لهم عن النار ثم أيقنوا ذلك بعده ، وهذا بعيد لأن أهل النار يعلمون أن عقابهم دائم ، ولما بين الله تعالى من حال هؤلاء الكفار أنهم بعد أن كانوا مصرين على القول بإثبات الشركاء والأضداد لله فى الدنيا تبرءوا عن تلك الشركاء فى الآخرة بين أن الإنسان فى جميع الأوقات متبدل الأحوال متغير المنهج ، فإن أحس بخير وقدرة انتفخ وتعظم وإن أحس ببلاء ومحنة ذبل ، كما قيل فى المثل : إن هذا كالقرلى ، إن رأى خيراً تدلى ، وإن رأى شراً تولى ، فقال (لايسأم الإنسان من دعاء الخير وإن مسه الشر فيئوس قنوط) يعنى أنه فى حال الإقبال ومجىء المرادات لا ينتهى قط إلى درجة إلا ويطلب الزيادة عليها ويطمع بالفوز بها ، وفى حال الإدبار والحرمان يصير آيساً قانطاً ، فالانتقال من ذلك الرجاء الذى لا آخر له إلى هذا اليأس الكلى يدل على كونه متبدل الصفة متغير الحال وفى قوله (يئوس قنوط) مبالغة من وجهين (أحدهما) من طريق بناء فعول (والثانى) من طريق التكرير واليأس من صفة القلب ، والقنوط أن يظهر آثار اليأس فى الوجه والأحوال الظاهرة .

ثم بين تعالى أن هذا الذى صار آيساً قانطاً لوعاودته النعمة والدولة ، وهو المراد من قوله (ولئن أذقناه رحمة منا من بعد ضراء مسته) فإن هذا الرجل يأتى بثلاثة أنواع من الأقاويل الفاسدة والمذاهب الباطلة الموجبة للكفر والبعد عن الله تعالى (فأولها) أنه لابد وأن يقول هذا لى وفيه وجهان (الأول) معناه أن هذا حق وصل إلى ، لأنى استوجبته بما حصل عندى من أنواع الفضائل وأعمال البر والقربة من الله ولا يعلم المسكين أن أحداً لايستحق على الله شيئاً ، وذلك لأنه إن كان ذلك الشخص عارياً عن الفضائل ، فهذا الكلام ظاهر الفساد وإن كان موصوفاً بشىء من الفضائل والصفات الحيدة ، فهى بأسرها إنما حصلت له بفضل الله وإحسانه ، وإذا تفضل الله بشىء على بعض عبيده ، امتنع أن يصير تفضله عليه بتلك العطية سبباً لأن يستحق على الله شيئاً آخر ، فثبت بهذا فساد قوله إنما حصلت هذه الخيرات بسبب استحقاق (والوجه الثانى) أن هذا لى أى لا يزول عنى ويبقى على وعلى أولادى وذريتى .

﴿ والنوع الثانى ﴾ من كلماتهم الفاسدة أن يقول (وما أظن الساعة قائمة) يعنى أنه يكون شديد الرغبة فى الدنيا عظيم النفرة عن الآخرة فإذا آل الأمر إلى أحوال الدنيا يقول إنها لى وإذا آل الأمر إلى الآخرة يقول (وما أظن الساعة قائمة) .

﴿ والنوع الثالث ﴾ من كلماتهم الفاسدة أن يقول (ولئن رجعت إلى ربى إن لى عنده للحسنى)

يعنى أن الغالب على الظن أن القول بالبعث والقيامة باطل ، وبتقدير أن يكون حقاً فإن لى عنده للحسنى ، وهذه الكلمة تدل على جزمهم بوصولهم إلى الثواب من وجوه (الأول) أن كلمة إن تفيد التأكيد (الثانى) أن تقديم كلمة لى تدل على هذا التأكيد (الثالث) قوله (عنده) يدل على أن تلك الخيرات حاضرة مهيئة عنده كما تقول لى عند فلان كذا من الدنانير ، فإن هذا يفيد كونها حاضرة عنده ، فلو قلت إن لى عند فلان كذا من الدنانير لا يفيد ذلك (والرابع) اللام في قوله (للحسنى) تفيد التأكيد (الخامس) للحسنى يفيد الكمال فى الحسنى .

ولما حكى الله تعالى عنهم هذه الأقوال الثلاثة الفاسدة قال (فلننبئن الذين كفروا بما عملوا) أى نظهر لهم أن الأمر على ضد ما اعتقدوه وعلى عكس ما تصوروه كما قال تعالى (وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثوراً ، ولنذيقنهم من عذاب غليظ) فى مقابلة قولهم (إن لى عنده للحسنى) .

ولما حكى الله تعالى أقوال الذى أنعم عليه بعد وقوعه فى الآفات حكى أفعاله أيضاً فقال (وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض) عن التعظيم لأمر الله والشفقة على خلق الله (ونأى بجانبه) أى ذهب بنفسه وتكبر وتعظم ، ثم إن مسه الضر والفقر أقبل على دوام الدعاء وأخذ فى الابتهال والتضرع ، وقد استعير العرض لكثرة الدعاء ودوامه وهو من صفات الأجرام ويستعار له الطول أيضاً كما استعير الغلظ لشدة العذاب .

واعلم أنه تعالى لما ذكر الوعيد العظيم على الشرك وبين أن المشركين يرجعون عن القول بالشرك فى يوم القيامة ، ويظهرون من أنفسهم الذلة والخضوع بسبب استيلاء الخوف عليهم ، وبين أن الإنسان جبل على التبدل ، فإن وجد لنفسه قوة بالغ فى التكبر والتعظم ، وإن أحس بالفتور والضعف بالغ فى إظهار الذلة والمسكنة ذكر عقيبه كلاماً آخر يوجب على هؤلاء الكفار أن لا يبالغوا فى إظهار النفرة من قبول التوحيد ، وأن لا يفرطوا فى إظهار العداوة مع الرسول صلى الله عليه وسلم فقال (قل أرأيتم إن كان من عند الله ثم كفرتم به من أضل ممن هو فى شقاق بعيد) وتقرير هذا الكلام أنكم كلما سمعتم هذا القرآن أعرضتم عنه وما تأملتم فيه وبالغتم فى النفرة عنه حتى قلتم (قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه وفى آذاننا وقر) ثم من المعلوم بالضرورة أنه ليس العلم بكون القرآن باطلا علماً بديهياً ، وليس العلم بفساد القول بالتوحيد والنبوة علماً بديهياً ، فقبل الدليل يحتمل أن يكون صحيحاً وأن يكون فاسداً فبتقدير أن يكون صحيحاً كان إصراركم على دفعه من أعظم موجبات العقاب ، فهذا الطريق يوجب عليكم أن تتركوا هذه النفرة ، وأن ترجعوا إلى النظر والاستدلال فان دل الدليل على صحته قبلتموه ، وإن دل على فساده تركتموه ، فأما قبل الدليل فالإصرار على الدفع والإعراض بعيد عن العقل ، وقوله (ممن هو فى شقاق بعيد) موضوع موضع منكم بياناً لحالهم وصفاتهم ، ولما ذكر هذه الوجوه الكثيرة فى تقرير التوحيد والنبوة ، وأجاب عن شبهات

المشركين وتمويهات الضالين قال (سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق) قال الواحدى وأحد الآفاق أفق وهو الناحية من نواحى الأرض ، وكذلك آفاق السماء نواحيها وأطرافها ، وفى تفسير قوله (سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم) قولان (الأول) أن المراد بآيات الآفاق الآيات الفلكية والكوكبية وآيات الليل والنهار وآيات الأضواء والإضلال والظلمات وآيات عالم العناصر الأربعة وآيات المواليد الثلاثة ، وقد أكثر الله منها فى القرآن ، وقوله (وفى أنفسهم) المراد منها الدلائل المأخوذة من كيفية تكون الأجنة فى ظلمات الأرحام وحدوث الأعضاء العجيبة والتركيبات الغريبة ، كما قال تعالى (وفى أنفسكم أفلا تبصرون) يعنى نريهم من هذه الدلائل مرة بعد أخرى إلى أن تزول الشبهات عن قلوبهم ويحصل فيها الجزم والقطع بوجود الإله القادر الحكيم العليم المنزه عن المثل والضد ، فان قيل هذا الوجه ضعيف لأن قوله تعالى (سنريهم) يقتضى أنه تعالى ما أطلعهم على تلك الآيات إلى الآن وسيطلعهم عليها بعد ذلك ، والآيات الموجودة فى العالم الأعلى والأسفل قد كان الله أطلعهم عليها قبل ذلك فثبت أنه تعذر حمل هذا اللفظ على هذا الوجه ، قلنا إن القوم وإن كانوا قد رأوا هذه الأشياء إلا أن العجائب التى أودعها الله تعالى فى هذه الأشياء مما لا نهاية لها ، فهو تعالى يطلعهم على تلك العجائب زماناً فزماناً ، ومثاله كل أحد رأى بعينه بنية الإنسان وشاهدها ، إلا أن العجائب التى أبدعها الله فى تركيب هذا البدن كثيرة وأكثر الناس لا يعرفونها ، والذى وقف على شىء منها فكلما ازداد وقوفاً على تلك العجائب والغرائب فصح بهذا الطريق قوله (سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم) (والقول الثانى) أن المراد بآيات الآفاق فتح البلاد المحيطة بمكة وبآيات أنفسهم فتح مكة والقائلون بهذا القول رجحوه على القول الأول لأجل أن قوله (سنريهم) يليق بهذا الوجه ولا يليق بالأول إلا أنا أجبنا عنه بأن قوله (سنريهم) لائق بالوجه الأول كما قررناه ، فإن قيل حمل الآية على هذا الوجه بعيد لأن أقصى مافى الباب أن محمداً صلى الله عليه وسلم استولى على بعض البلاد المحيطة بمكة ، ثم استولى على مكة ، إلا أن الاستيلاء على بعض البلاد لا يدل على كون المستولى محقاً ، فإنا نرى أن الكفار قد يحصل لهم استيلاء على بلاد الإسلام وعلى ملوكهم ، وذلك لا يدل على كونهم محقين ، ولهذا السبب قلنا إن حمل الآية على الوجه الأول أولى ، ثم نقول إن أردنا تصحيح هذا الوجه ، قلنا إنا لا نستدل بمجرد استيلاء محمد صلى الله عليه وسلم على تلك البلاد على كونه محقاً فى ادعاء النبوة ، بل نستدل به من حيث أنه صلى الله عليه وسلم أخبر عن مكة أنه يستولى عليها ويقهر أهلها ويصير أصحابه قاهرين للأعداء ، فهذا إخبار عن الغيب وقد وقع مخبره مطابقاً لخبره ، فيكون هذا إخباراً صدقا عن الغيب ، والإخبار عن الغيب معجزة ، فبهذا الطريق يستدل بحصول هذا الاستيلاء على كون هذا الدين حقاً .

ثم قال (أو لم يكف بربك أنه على كل شىء شهيد) وقوله (بربك) فى موضع الرفع على أنه

فاعل (يكف) و (أنه على كل شيء شهيد) بدل منه ، وتقديره : أولم يكفهم أن ربك على كل شيء شهيد ، ومعنى كونه تعالى شهيداً على الأشياء أنه خلق الدلائل عليها ، وقد استقصينا ذلك في تفسير قوله (قل أي شيء أكبر شهادة قل الله) والمعنى ألم تكفهم هذه الدلائل الكثيرة التي أوضحها الله تعالى وقررها في هذه السورة وفي كل سور القرآن الدالة على التوحيد والتنزيه والعدل والنبوة .

ثم ختم السورة بقوله (ألا إنهم في مرية من لقاء ربهم) أي أن القوم في شك عظيم وشبهة شديدة من البعث والقيامة ، وقرىء (في مرية) بالضم .

ثم قال (ألا إنه بكل شيء محيط) أي عالم بجميع المعلومات التي لا نهاية لها فيعلم بواطن هؤلاء الكفار وظواهرهم ، ويجازي كل أحد على فعله بحسب ما يليق به إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر فإن قيل قوله (ألا إنه بكل شيء محيط) يقتضي أن تكون علومه متناهية ، قلنا قوله (بكل شيء محيط) يقتضي أن يكون علمه محيطاً بكل شيء من الأشياء فهذا يقتضي كون كل واحد منها متناهياً ، لا كون مجموعها متناهياً ، والله أعلم بالصواب .

تم تفسير هذه السورة وقت ظهر الرابع من ذي الحجة سنة ثلاث وستمائة والحمد لله رب العالمين ، وصلاته على خاتم النبيين محمد وآله وصحبه وسلم

سورة فصلت مكية في قول الجميع[1]

وهي أربعٌ وخمسون[2]، وقيل: ثلاثٌ وخمسون آية[3].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿حم (١) تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ (٢) كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٣) بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ (٤) وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ (٥)﴾

قوله تعالى: ﴿حم . تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ قال الزجاج[4]: «تَنزِيلٌ» رفع بالابتداء وخبره ﴿كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ﴾ وهذا قولُ البصريين. وقال الفراء: يجوز أن يكون رَفْعُه على إضمار هذا. ويجوز أن يقال: «كِتَابٌ» بدل من قوله: «تَنْزِيلٌ»[5]. وقيل: نَعْتٌ لقوله: «تَنْزِيلٌ». وقيل: «حم» أي: هذه «حم» كما تقول: باب كذا، أي: هو باب كذا فـ «حم» خبر ابتداء مُضمر، أي: هو «حم»، وقوله: «تَنْزِيلٌ» مبتدأ آخر، وقوله: «كِتَابٌ» خبره.

«فُصِّلَتْ آيَاتُهُ» أي: بُيِّنَت وفُسِّرت. قال قتادة: ببيان حلاله من حرامه، وطاعته من معصيته. الحسن: بالوعد والوعيد. سفيان: بالثواب والعقاب[6].

---

(١) المحرر الوجيز ٥/ ٣ ، وزاد المسير ٧/ ٢٤٠ .

(٢) تفسير البغوي ٤/ ١٠٧ .

(٣) ذكره السيوطي في الإتقان ١/ ٢١٥ .

(٤) في معاني القرآن ٤/ ٣٧٩ ، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٤/ ٤٧ ، وقول الفراء الذي بعده منه.

(٥) الكشاف ٣/ ٤٤١ .

(٦) النكت والعيون ٥/ ١٦٧ .

وقُرئ: «فَصَلَتْ» أي: فرَّقت بين الحقّ والباطل، أو فصل بعضها من بعض باختلاف معانيها؛ من قولك: فصل، أي: تباعدَ من البلد[١].

﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾. في نصبه وجوه؛ قال الأخفش[٢]: هو نَصْبٌ على المدح. وقيل: على إضمار فعل؛ أي: اذكر «قُرْآنًا عَرَبِيًّا». وقيل: على إعادة الفعل؛ أي: فصَّلنا «قُرْآناً عَرَبِيًّا». وقيل: على الحال، أي: «فُصِّلَتْ آيَاتُهُ» في حال كونه «قُرْآناً عَرَبِيًّا». وقيل: لما شُغل التفصيل[٣] بالآيات حتى صارت بمنزلة الفاعل، انتصب «قُرآناً» لوقوع البيان عليه. وقيل: على القطع[٤].

﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ قال الضحاك: أي: إن القرآن مُنزَل من عند الله. وقال مجاهد: أي: يعلمون أنه إله واحد في التوراة والإنجيل. وقيل: يعلمون العربية فيعجِزون عن مثله[٥]، ولو كان غيرَ عربيّ لما علموه.

قلت: هذا أصحّ، والسورةُ نزلت تقريعاً وتوبيخاً لقريش في إعجاز القرآن.

﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ حالان من الآيات، والعامل فيه «فُصِّلَتْ»[٦]. وقيل: هما نعتان للقرآن[٧] «بَشِيرًا» لأولياء الله «نذيرًا» لأعدائه. وقرئ: «بَشِيرٌ ونذيرٌ»[٨] صفة للكتاب. أو خبر مبتدأ محذوف[٩]. ﴿فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ﴾ يعني أهل مكة ﴿فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ سماعاً ينتفعون به.

---

(١) الكشاف ٣/ ٤٤١ .

(٢) في معاني القرآن ٢/ ٦٨٠ .

(٣) في (م): فصلت.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٤٧ بنحوه.

(٥) النكت والعيون ٥/ ١٦٨ .

(٦) مشكل إعراب القرآن لمكي ٢/ ٦٣٩ .

(٧) ذكره السمين الحلبي في الدر المصون ٩/ ٥٠٦ .

(٨) نسبها أبو حيان في البحر ٧/ ٤٨٣ لزيد بن علي.

(٩) الكشاف ٣/ ٤٤١ .

ورُوي أن الزَّيَّال[١] بن حرملة قال: [قال جابر بن عبد الله][٢]: قال الملأ من قريش وأبو جهل: قد التبس علينا أمرُ محمد، فلو التمستُم رجلاً عالماً بالشِّعر والكهانة والسِّحر فكلَّمه ثم أتانا ببيانٍ من أمره؛ فقال عتبةُ بن ربيعة: والله، لقد سمعتُ الكهانةَ والشِّعر والسِّحر، وعلمتُ من ذلك علماً لا يخفى عليَّ إن كان كذلك. فقالوا: إيته فحدِّثه. فأتى النبيَّ ﷺ فقال له: يا محمد، أنت خيرٌ أَمْ قصيّ بن كلاب؟ أنت خيرٌ أَمْ هاشم؟ أنت خيرٌ أَمْ عبد المطلب؟ أنت خيرٌ أم عبد الله؟ فبم تَشْتِمُ آلهتنا، وتُضَلِّل آباءنا، وتُسفِّه أحلامَنا، وتذمُّ ديننا؟ فإنْ كنتَ إنما تُريد الرِّياسة عَقَدْنا إليك ألويتنا، فكنت رئيسنا ما بقيت، وإن كنتَ تُريد الباءة زوَّجناك عشرَ نساء من أيِّ بنات قريش شئت، وإنْ كنتَ تُريد المال جمعنا لك ما تستغني به أنت وَعقِبك من بعدك، وإن كان هذا الذي يأتيك رَئِيًّا من الجن قد غلب عليك بَذَلْنا لك أموالَنا في طلب ما تتداوى به أو نغلب فيك، والنبيُّ ﷺ ساكت، فلما فرغ قال: «قد فَرَغْتَ يا أبا الوليد؟» قال: نعم. قال: اسمع[٣]: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ * حمٓ * تَنزِيلٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ * كِتَٰبٞ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾ إلى قوله: ﴿فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ فَقُلۡ أَنذَرۡتُكُمۡ صَٰعِقَةٗ مِّثۡلَ صَٰعِقَةِ عَادٖ وَثَمُودَ﴾ فوثَبَ عتبةُ ووضع يدَه على فم النبيِّ ﷺ، وناشدَه اللهَ والرِّحِمَ ليَسْكُتَنَّ، ورَجَعَ إلى أهله ولم يَخرجْ إلى قريش فجاءه أبو جهل؛ فقال: أصبوتَ إلى محمد؟ أَمْ أعجبكَ طعامُه؟ فغضب عُتبة وأقسم ألا يُكلِّم محمداً أبداً، ثم قال: والله، لقد تعلمون أني من أكثر قريش مالاً، ولكني لما قصصت عليه القصة أجابني بشيء ـ والله ـ ما هو بشعر ولا كهانة ولا سحر؛ ثم تلا عليهم ما سمع منه إلى قوله: ﴿مِّثۡلَ صَٰعِقَةِ عَادٖ وَثَمُودَ﴾ وأمسكتُ بفيه وناشدتُه بالرَّحِم أن يَكُفَّ، وقد علمتم أن محمداً إذا قال شيئاً لم يكذب، فوالله، لقد خفت أن ينزلَ بكم العذاب؛ يعني الصاعقة[٤].

---

(١) في النسخ: الريان، وهو خطأ، والمثبت من المصادر.

(٢) ما بين حاصرتين من مصادر التخريج.

(٣) عبارة (م): «قد فرغت يا أبا الوليد؟» قال: نعم. فقال: «يا ابن أخي اسمع» قال: أسمعُ، قال...

(٤) أخرجه بنحوه عبد بن حميد في مسنده (١١٢٣)، والبغوي في تفسيره ٤/ ١١٠. وفي إسناده الأجلح =

وقد روى هذا الخبر أبو بكر الأنباري في كتاب «الردّ» له عن محمد بن كعب القرظي، وأن النبي ﷺ قرأ «حم. فُصِّلَتْ» حتى انتهى إلى السجدة فسجد وعُتبة مُصْغٍ يستمع، قد اعتمد على يديه من وراء ظهره. فلما قطع رسولُ الله ﷺ القراءة قال له: «يا أبا الوليد، قد سمعتَ الذي قرأتُ عليك، فأنت وذاك» فانصرف عتبةُ إلى قريش في ناديها فقالوا: والله، لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي مضَى به من عندكم. ثم[١] قالوا: ما وراءك أبا الوليد؟ قال: والله، لقد سمعتُ كلاماً من محمد ما سمعتُ مثلَه قط، والله، ما هو بالشِّعر ولا بالسِّحر ولا بالكهانة. فأطيعوني في هذه وأنزلوها بي؛ خلُّوا محمداً وشأنه واعتزلوه، فوالله ليكونن لِمَا سَمعتُ من كلامه نبأٌ، فإنْ أصابته العربُ كُفِيتُموه بأيدي غيركم، وإن كان مَلِكاً أو نبيًّا كنتم أسعدَ الناس به؛ لأن مُلْكَه مُلْكُكُم وَشَرَفَهُ شرفُكم. فقالوا: هيهات، سحرك محمدٌ يا أبا الوليد. وقال: هذا رأيي لكم فاصنعوا ما شئتم[٢].

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ﴾ الأَكِنَّة جمع كنان، وهو الغطاء. وقد مضَى في «البقرة»[٣]. قال مجاهد: الكنان للقلب كالجَعْبَة[٤] للنبل. ﴿وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ﴾ أي: صَمَم؛ فكلامُك لا يدخل أسماعَنا، وقلوبنا مستورةٌ عن فهمه. ﴿وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ أي: خلاف في الدين، لأنهم يعبدون الأصنامَ وهو يعبدُ اللهَ عزّ وجلّ. قال معناه الفراء[٥] وغيره. وقيل: سِتْرٌ مانعٌ عن الإجابة. وقيل: إنَّ أبا جهل استغشى على رأسه ثوباً وقال: يا محمد، بيننا وبينك حجاب؛ استهزاء منه. حكاه النقاش[٦]، وذكره القشيري. فالحجابُ هنا الثوب.

= ابن عبد الله الكندي. قال الحافظ ابن كثير في تفسيره ٧/ ١٦٢ : وقد ضُعِّف بعض الشيء.

(١) قوله: ثم، من (م).

(٢) وأخرجه عن محمد بن كعب القرظي ابنُ إسحاق كما في السيرة النبوية ١/ ٢٩٣ - ٣٩٤ .

(٣) ٢/ ٢٤٦ .

(٤) في النسخ: كالجنة، والمثبت من تفسير مجاهد ٢/ ٥٦٩ ، وتفسير الطبري ٢٠/ ٣٧٧ ، والنكت والعيون ٥/ ١٦٨ .

(٥) في معاني القرآن ٣/ ١٢ .

(٦) النكت والعيون ٥/ ١٦٨ .

﴿فَٱعۡمَلۡ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ﴾ أي: اعمل في هلاكِنا فإنا عاملون في هلاكك؛ قاله الكلبي. وقال مقاتل: اعمل لإلهك الذي أرسلك، فإنا نعمل لآلهتنا التي نعبدها. وقيل: اعمل بما يقتضيه دينُك، فإنا عاملون بما يقتضيه ديننا. ويحتمل خامسًا[1]: فاعمل لآخرتك، فإنا نعمل لدنيانا؛ ذكره الماوردي[2].

قوله تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ وَٱسۡتَغۡفِرُوهُۗ وَوَيۡلٞ لِّلۡمُشۡرِكِينَ ۝٦ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ۝٧ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونٖ ۝٨﴾

قوله تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ﴾ أي: لست بمَلَك، بل أنا من بني آدم. قال الحسن: علَّمه الله تعالى التواضع[3]. ﴿يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ أي: من السماء على أيدي الملائكة ﴿أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾ ﴿فـ﴾ آمِنوا به و﴿اسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ﴾ أي: وجِّهوا وجوهكم بالدُّعاء له والمسألة إليه، كما يقول الرجل: استقم إلى منزلك؛ أي: لا تعرج على شيء غير القَصْد إلى منزلك. ﴿وَٱسۡتَغۡفِرُوهُۗ﴾ أي: من شِرْككم.

﴿وَوَيۡلٞ لِّلۡمُشۡرِكِينَ . ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ قال ابن عباس: لا يشهدون أن لا إله إلا الله، وهي زكاةُ الأنفس. وقال قتادة: لا يُقِرُّون بالزكاة أنها واجبة[4]. وقال الضحاك ومقاتل: لا يتصدَّقون ولا يُنفقون في الطاعة[5]. قرَّعهم بالشُّح الذي يَأْنَفُ منه الفُضَلاء. وفيه دلالةٌ على أن الكافر يُعذَّب بكفره مع منع وجوب الزكاة عليه[6]. وقال الفراء[7] وغيره: كان المشركون يُنفقون النَّفقات، ويَسقون الحجيج ويُطعمونهم، فحرَّموا ذلك على مَنْ آمن بمحمد ﷺ، فنزلت فيهم هذه الآية.

---

(١) كذا في النسخ: خامسًا، لكن المصنف رحمه الله لم يذكر إلا أربعةَ أقوال.

(٢) في النكت والعيون ١٦٨/٥ .

(٣) المحرر الوجيز ٤/٥ .

(٤) أخرجهما الطبري ٣٧٩/٢٠ .

(٥) المحرر الوجيز ٥/٥ .

(٦) النكت والعيون ١٦٨/٥ .

(٧) في معاني القرآن ١٢/٣ .

﴿وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ﴾ فلهذا لا يُنفقون في الطاعة ولا يستقيمون ولا يستغفرون.

الزمخشري[(١)]: فإنْ قلتَ: لم خصَّ من بين أوصاف المشركين منعَ الزكاة مقروناً بالكُفر بالآخرة؟ قلت: لأنَّ أحبَّ شيء إلى الإنسان مالُه، وهو شقيقُ روحه، فإذا بَذَله في سبيل الله فذلك أقوى دليلٍ على ثَباته، ألا ترى إلى قوله عزّ وجلّ: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثۡبِيتٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ﴾ [البقرة: ٢٦٥] أي: يُثَبِّتون أنفسهم، ويدلون على ثَباتها بإنفاق الأموال، وما خُدع المؤلفة قلوبهم إلا بِلُمظة[(٢)] من الدنيا، فقويت عُصْبتُهم ولانت شَكيمتهم؛ وأهل الرِّدة بعد رسول الله ﷺ ما تظاهروا إلا بمنع الزكاة، فَنُصِبتْ لهم الحروب وجُوهدوا. وفيه بعثٌ للمؤمنين على أداء الزكاة، وتخويفٌ شديدٌ من مَنْعها، حيث جعل المنع من أوصاف المشركين، وقُرِن بالكفر بالآخرة.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونٖ﴾ قال ابن عباس: غير مقطوع؛ مأخوذٌ من: مننتُ الحبل إذا قطعتَه؛ ومنه قول ذي الإصبع:

إنِّي لَعَمْرُكَ ما بابي بِذِي غَلَقٍ ... على الصَّدِيق ولا خَيْرِي بممنونِ[(٣)]

وقال آخر:

فَتَرى خَلْفَها مِنَ الرَّجْعِ والوَقْـ ... ـعِ مَنِيناً كأنَّهُ أَهْبَاء[(٤)]

يعني بالمَنِين الغبار المنقطع الضعيف. وعن ابن عباس أيضًا ومقاتل: غير منقوص[(٥)]. ومنه المَنُون؛ لأنها تنقص مُنَّة الإنسانِ، أي: قوَّته؛ وقاله قطرب[(٦)]؛

---

(١) الكشاف ٣/ ٤٤٣.

(٢) اللُّمظة: النُّكتة من البياض. اللسان (لمظ) والمراد هنا: الشيء اليسير.

(٣) البيت في المفضليات ص ١٦٠. والكلام من النكت والعيون ٥/ ١٦٩، وفيه: ابن عيسى، بدل: ابن عباس.

(٤) قائله الحارث بن حِلِّزة اليشكري، والبيت من معلَّقته. ينظر شرح القصائد المشهورات للنحاس ص٥٧.

(٥) أخرجه الطبري ٢٠/ ٣٨١ عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٦) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٥/ ١٦٩.

وأنشد قول زهير:

فَضْلَ الجِيادِ على الخيل البِطاءِ فلا يُعْطي بذلك مَمْنُونًا ولا نَزِقا[١]

قال الجوهري[٢]: والمَنُّ القطع، ويقال: النَّقْص؛ ومنه قوله تعالى: ﴿لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾. وقال لَبيد:

غُبْسٌ كَوَاسِبُ لا يُمَنُّ طَعامُها[٣]

وقال مجاهد: «غيرُ مَمْنُونٍ» غير محسوب. وقيل: «غيرُ مَمْنُون» عليهم به. قال السدي: نزلت في الزَّمْنى والمَرْضَى والهَرْمى إذا ضَعُفُوا عن الطاعة كُتب لهم من الأجر كأصحّ ما كانوا يعملون فيه[٤].

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿١٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ «أَئِنَّكُمْ» بهمزتين؛ الثانية بَيْن بَيْن، و«أائِنَّكُمْ» بألف بين همزتين[٥]، وهو استفهام معناه التوبيخ. أمره

---

(١) شرح ديوان زهير ص٤٩ .

(٢) في الصحاح (منن).

(٣) شرح ديوان لبيد ص ٣٠٨. وصدره: لمعفَّرٍ قَهْد تنازع شِلْوَهُ. قال شارحه: الغُبس: الذئاب أو الكلاب ذات اللون الأغبر. كواسب: تتعيَّش من الصيد. لا يُمَنّ طعامها: لا أحد يُطعمها فيَمنَّ عليها.

(٤) تفسير البغوي ٤/١٠٨ .

(٥) قرأ نافع ـ في رواية قالون ـ وأبو عمرو بتسهيل الهمزة الثانية مع إدخال ألف بينهما. وقرأ نافع ـ في رواية ورش ـ وابن كثير بالتسهيل من غير إدخال ألف. والباقون بتحقيق الهمزتين من غير إدخال ألف. السبعة ص ١٣٧ ، والتيسير ص ٣٢ .

بتوبيخهم والتعجب من فِعْلهم، أي: لِمَ تكفُرون بالله وهو خالق السماوات والأرض؟! «فِي يَوْمَيْنِ» الأحد والاثنين[١].

﴿وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًاۚ﴾ أي: أضداداً وشُركاء ﴿ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾. ﴿وَجَعَلَ فِيهَا﴾ أي: في الأرض ﴿رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا﴾ يعني الجبال. وقال وهب: لما خلقَ اللهُ الأرضَ مادَتْ على وجه الماء؛ فقال لجبريل: ثبِّتها يا جبريل. فنزل فأمْسكها فغلبته الرياح، قال: يا رب، أنت أعلمُ، لقد غُلِبتُ فيها، فَثبَّتها بالجبال وأرساها.

﴿وَبَٰرَكَ فِيهَا﴾ بما خلق فيها من المنافع. قال السدي: أنبت فيها شجرها. ﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا﴾ قال السدي والحسن: أرزاق أهلها ومصالحهم. وقال قتادة ومجاهد: خلق فيها أنهارها وأشجارها ودوابَّها في يوم الثلاثاء والأربعاء. وقال عكرمة والضحاك: معنى «قَدَّرَ فيها أَقْوَاتَها» أي: أرزاق أهلها وما يصلح لمعايشهم من التجارات والأشجار والمنافع في كل بلدة ما لم يجعله في الأُخرى لِيعيش بعضُهم من بعض بالتجارة والأسفار من بلد إلى بلد[٢]. قال عكرمة: حتى إنه في بعض البلاد لَيتبايعون الذهبَ بالمِلح مِثلاً بمثل. وقال مجاهد والضحاك: السابريّ من سابور، والطيالسة من الرّي، والحِبَرُ اليمانية من اليمن[٣].

﴿فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ﴾ يعني في تتمة أربعة أيام. ومثاله قول القائل: خرجتُ من البصرة إلى بغداد في عشرة أيام، وإلى الكوفة في خمسةَ عشرَ يوماً؛ أي: في تتمة خمسةَ عشر يوماً[٤]. قال معناه ابن الأنباري وغيره.

﴿سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ﴾ قال الحسن: المعنى: في أربعة أيام مستوية تامَّة. الفراء[٥]: في

(١) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٥/ ١٧٠ عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) هذه الأقوال في النكت والعيون ٥/ ١٧٠، وتفسير البغوي ٤/ ١٠٨.

(٣) أخرجه الطبري ٢٠/ ٣٨٧ - ٣٨٨.

(٤) النكت والعيون ٥/ ١٧١.

(٥) معاني القرآن ٣/ ١٢ - ١٣.

الكلام تقديمٌ وتأخير، والمعنى: وقدَّر فيها أقواتَها سواء للمحتاجين. واختاره الطبري(١).

وقرأ الحسن البصري ويعقوبُ الحَضْرمي: «سَوَاءٍ للسَّائِلِينَ» بالجر. وعن ابن القَعْقاع: «سَواءٌ» بالرفع(٢)؛ فالنصب على المصدر، و«سَوَاءً» بمعنى استواء، أي: استوت استواء. وقيل: على الحال والقطع؛ والجرّ على النَّعت لأيام أو لأربعة، أي: «في أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ» مستوية تامَّة. والرفع على الابتداء والخبر «لِلسَّائِلِينَ» أو على تقدير هذه «سَوَاءٌ لِلسَّائِلِينَ»(٣).

وقال أهل المعاني: معنى «سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ»: ولغير السائلين؛ أي: خلق الأرضَ وما فيها لمن سأل ولمن لم يسأل، ويُعطي مَنْ سأل ومَنْ لا يسأل.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ﴾ أي: عَمَدَ إلى خَلْقها وقَصَدَ لِتسويتها(٤). والاستواء من صفة الأفعال على أكثر الأقوال؛ يدل عليه قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾ [البقرة:٢٩] وقد مضى القولُ هناك(٥). وروى أبو صالح عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ يعني: صَعِدَ أمرُه إلى السماء(٦)؛ وقاله الحسن(٧). ومَن قال: إنه صفةٌ ذاتية زائدةٌ قال: استوى في

---

(١) تفسير الطبري ٢٠/ ٣٩٠ .

(٢) قراءة يعقوب ويزيد بن القعقاع (من العشرة) في النشر ٢/ ٣٦٦ . وقراءة الحسن في المحرر الوجيز ٥/ ٦ .

(٣) المحرر الوجيز ٥/ ٦ بنحوه.

(٤) تفسير البغوي ٤/ ١٠٩ .

(٥) ١/ ٣٨٠ وما بعدها.

(٦) أخرجه البيهقي في الأسماء والصفات (٨٧٢) من طريق محمد بن مروان ـ وهو السدي الصغير ـ عن الكلبي عن أبي صالح به. وهؤلاء كلهم متروكون عند أهل العلم بالحديث، لا يحتجون بشيء من رواياتهم لكثرة المناكير فيها. ذكره البيهقي. وينظر تقريب التهذيب.

(٧) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٥/ ١٧٢ .

الأزل بصفاته. و«ثُمَّ» ترجع إلى نقل السماء من صفة الدُّخان إلى حالة الكثافة، وكان ذلك الدُّخان من تنفُّس الماء حين تنفس؛ على ما مضَى في «البقرة» عن ابن مسعود وغيره(١).

﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ أي: جيئا بما خلقتُ فيكما من المنافع والمصالح، وأَخْرِجاها لِخَلْقي. قال ابن عباس: قال اللهُ تعالى للسماء: أَطلِعِي شَمْسَك وقمرك وكواكبك، وأجري رياحَك وسحابَك، وقال للأرض: شُقِّي أنهارَك وأخرجي شجرَك وثمارَكِ طائعتين أوكارهتين ﴿قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾(٢). وفي الكلام حذف، أي: أتينا أمرَكَ «طَائِعِينَ». وقيل: معنى هذا الأمر التسخير؛ أي: كُونا فكانتا كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَـٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠] فعلى هذا قال ذلك قبلَ خَلْقهما. وعلى القول الأول قال ذلك بعد خلقهما. وهو قول الجمهور.

وفي قوله تعالى لهما وجهان: أحدهما: أنه قولٌ تكلَّم به. الثاني: أنها قُدرةٌ منه ظهرتْ لهما، فقام مَقامَ الكلام في بلوغ المُراد؛ ذكره الماوردي(٣).

«قالتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ» فيه أيضاً وجهان: أحدُهما أنه ظُهور الطاعة منهما حيث انقادا وأجابا، فقام مقامَ قولهما، ومنه قول الراجز:

امتلأ الحَوْضُ وقال قَطْني ... مَهْلًا رُوَيدًا قد مَلأت بَطْني(٤)

يعني ظهرَ ذلك فيه. وقال أكثرُ أهل العلم: بل خلقَ اللهُ فيهما الكلام فتكلَّمتا كما أراد تعالى؛ قال أبو نَصْر السَّكْسكي: فنطقَ من الأرض موضعُ الكعبة، ونطقَ من السماء ما بحيَالها؛ فوضع الله تعالى فيه حَرَمه(٥).

---

(١) ١/٣٨٣ - ٣٨٤.

(٢) أخرجه الطبري ٢٠/٣٩١.

(٣) في النكت والعيون ٥/١٧٢. وما بعده منه.

(٤) سلف ٢/٢٥٥.

(٥) النكت والعيون ٥/١٧٣.

وقال: «طَائِعِينَ» ولم يقل: طائعتين على اللفظ، ولا طائعات على المعنى؛ لأنهما سماواتٌ وأَرَضُون؛ لأنه أخبر عنهما وعمن فيهما. وقيل: لما وَصَفَهُنَّ بالقول والإجابة وذلك مِن صفات مَن يعقل أجراهما في الكناية مُجرى مَن يعقِل[(١)]، ومثله: ﴿رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ﴾ [يوسف: ٤] وقد تقدَّم. وفي حديث: إن موسى عليه الصلاة والسلام قال: يا ربّ، لو أن السماواتِ والأرضَ حين قلت لهما: ﴿ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ عَصَيَاكَ، ما كنتَ صانعاً بهما؟ قال: كنتُ آمرُ دابَّةً من دوابِّي فتبتلعهما. قال: يا ربّ، وأين تلك الدابَّة؟ قال: في مَرْج من مُرُوجي. قال: يا رب، وأين ذلك المَرْج؟ قال: عِلْم من علمي. ذكره الثعلبي[(٢)].

وقرأ ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جُبير وعكرمة: «آتِيا» بالمَدّ والفتح. وكذلك قوله تعالى: «آتَيْنَا طَائِعِينَ»[(٣)] على معنى: أَعْطِيَا[(٤)] الطاعةَ من أنفسكما، «قالتا»: أَعْطَيْنَا «طَائِعِينَ» فحذف المفعولين جميعاً. ويجوز ـ وهو أحسنُ ـ أن يكون «آتَيْنَا» فاعَلْنا، فَحُذِفَ مفعولٌ واحد. ومَن قرأ: «أَتَيْنَا» فالمعنى: جئنا بما فينا؛ على ما تقدَّم بيانُه في غير ما موضع، والحمد لله.

قوله تعالى: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ﴾ أي: أكملهنَّ وفرغَ منهنَّ. وقيل: أَحكمهنَّ كما قال:

وعليهما مَسْرُودَتَانِ قَضَاهما ... داودُ أو صَنَعُ السَّوابِغِ تُبَّعُ[(٥)]

﴿فِى يَوْمَيْنِ﴾ سوى الأربعة الأيام التي خلقَ فيها الأرض، فوقع خلقُ السماوات والأرض في ستة أيام؛ كما قال تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ [الأعراف: ٥٤] على ما تقدَّم في «الأعراف» بيانُه.

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٥١، وتفسير البغوي ٤/ ١٠٩ بنحوه.

(٢) هذا الخبر من الإسرائيليات.

(٣) المحتسب ٢/ ٢٤٥، وينظر الدر المصون ٩/ ٥١١.

(٤) في النسخ الخطية: أعطينا، والمثبت من (م).

(٥) قائله أبو ذؤيب الهذلي، وسلف ٢/ ٣٣٦. وقوله: مسرودتان، أي: درعان. والصَّنَع: الحاذق بالعمل. شرح ديوان الهذليين ص ١٩.

قال مجاهد: ويوم من الستة الأيام كألف سنة مما تعدُّون[١]. وعن عبد الله بن سَلَام قال: خلق اللهُ الأرضَ في يومين، وقدَّر فيها أقواتَها في يومين، وخلق السماوات في يومين؛ خلق الأرضَ في يوم الأحد والاثنين، وقدَّر فيها أقواتَها يومَ الثلاثاء ويومَ الأربعاء، وخلقَ السماواتِ في يوم الخميس ويوم الجمعة، وآخرُ ساعة في يوم الجمعة خلقَ اللهُ آدمَ في عَجَل، وهي التي تقوم فيها الساعة، وما خلق الله من دابَّة إلا وهي تفزعُ من يوم الجمعة إلا الإنس والجن[٢]. على هذا أهل التفسير؛ إلا ما رواه مسلم من حديث أبي هريرة قال: أخذَ رسولُ الله ﷺ بيدي، فقال: «خلق اللهُ التربةَ يومَ السبت» الحديث، وقد تكلَّمنا على إسناده في أول سورة «الأنعام»[٣].

﴿وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا﴾ قال قتادة والسدي: خلق فيها شَمْسَها وقمرها ونجومَها وأفلاكَها، وخلق في كل سماء خَلْقها من الملائكة والخَلْق الذي فيها من البحار وجبال البَرَد والثلوج[٤]. وهو قول ابن عباس[٥]؛ قال: ولله في كل سماء بيت تحجُّ إليه وتطوفُ به الملائكة بحذاء الكعبة، والذي في السماء الدنيا هو البيت المعمور[٦]. وقيل: أوحى الله في كل سماء؛ أي: أوحى فيها ما أراده وما أمر به فيها[٧]. والإيحاء قد يكون أمراً؛ لقوله: ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾ [الزلزلة: ٥] وقوله: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ﴾ [المائدة: ١١١] أي: أمرتهم، وهو أمرُ تكوين.

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٤٩ .

(٢) أخرجه الطبري ١/ ٤٦٤ دون قوله: وما خلق الله من دابة إلا وهي تفزع من يوم الجمعة إلا الإنس والجن. وهذا قطعة من حديث أبي هريرة ﷺ. أخرجه أحمد (٧٦٨٧).

(٣) ٨/ ٣١٤ وما بعدها، وينظر تخريج الحديث ثمة.

(٤) النكت والعيون ٥/ ١٧٣ ، وتفسير الرازي ٢٧/ ١٠٧ ، وأخرجه الطبري ٢٠/ ٣٩٣ - ٣٩٤ .

(٥) ذكره البغوي في تفسيره ٤/ ١٠٩ .

(٦) ذكره الرازي في تفسيره ٢٧/ ١٠٧ عن السدي.

(٧) تفسير البغوي ٤/ ١٠٩ بنحوه.

﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾ أي: بكواكب تُضيء. وقيل: إنَّ في كل سماء كواكبَ تُضيء. وقيل: بل الكواكبُ مختصةٌ بالسماء الدنيا. ﴿وَحِفۡظٗا﴾ أي: وحَفِظْناها حِفْظًا؛ أي: من الشياطين الذين يسترقون السمع. وهذا الحِفْظ بالكواكب التي تُرجم بها الشياطين على ما تقدَّم في «الحجر» بيانه[1].

وظاهر هذه الآية يدلُّ على أن الأرضَ خُلقت قبل السماء. وقال في آية أخرى: ﴿أَمِ ٱلسَّمَآءُۚ بَنَىٰهَا﴾ [النازعات: ٢٧] ثم قال: ﴿وَٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾ [النازعات: ٣٠] وهذا يدلُّ على خلق السماء أوّلاً. وقال قوم: خُلقت الأرضُ قبل السماء؛ فأما قوله: ﴿وَٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾ فالدَّحْوُ غيرُ الخَلْق، فالله خَلَقَ الأرضَ، ثم خلق السماوات، ثم دحا الأرضَ، أي: مدَّها وبَسَطها؛ قاله ابن عباس. وقد مضى هذا المعنى مجوَّداً في «البقرة»[2]، والحمد لله. ﴿ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾.

قوله تعالى: ﴿فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ فَقُلۡ أَنذَرۡتُكُمۡ صَٰعِقَةٗ مِّثۡلَ صَٰعِقَةِ عَادٖ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذۡ جَآءَتۡهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۖ قَالُواْ لَوۡ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةٗ فَإِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا عَادٞ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَقَالُواْ مَنۡ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةًۖ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَهُمۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا صَرۡصَرٗا فِيٓ أَيَّامٖ نَّحِسَاتٖ لِّنُذِيقَهُمۡ عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَخۡزَىٰۖ وَهُمۡ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ﴾ يعني ـ كفار قريش ـ عمَّا تَدْعوهم إليه يا محمد من الإيمان. ﴿فَقُلۡ أَنذَرۡتُكُمۡ صَٰعِقَةٗ مِّثۡلَ صَٰعِقَةِ عَادٖ وَثَمُودَ﴾ أي: خوَّفتُكم هلاكاً مثلَ هلاك عاد وثمود. ﴿إِذۡ جَآءَتۡهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ﴾ يعني: مَنْ أُرسل إليهم وإلى مَن قَبْلهم ﴿أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۖ﴾ موضع «أنْ» نصب بإسقاط الخافض، أي: بـ «ألّا

(١) ١٢/ ١٨٧ وما بعدها.

(٢) ١/ ٣٨٣. وما بعدها.

تَعْبُدُوا». ﴿قَالُوا لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾ بدلَ الرُّسل[١]، ﴿فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ من الإنذار والتبشير. قيل: هذا استهزاءٌ منهم. وقيل: إقرارٌ منهم بإرسالهم، ثم بعدَه جُحود وعناد.

قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ على عبادِ الله هود ومَن آمن معه ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ اغتروا بأجسامهم حين تهدَّدهم بالعذاب، وقالوا: نحن نقدر على دَفْعِ العذاب عن أنفسنا بفضل قوَّتنا. وذلك أنهم كانوا ذوي أجسام طوال وخَلْق عظيم[٢]. وقد مضى في «الأعراف»[٣] عن ابن عباس: أن أطولَهم كان مئةَ ذراع وأقصرهم كان ستين ذراعاً. فقال الله تعالى ردًّا عليهم: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ وقُدرة، وإنما يقدرُ العبدُ بإقدار الله؛ فالله أقدرُ إذًا. ﴿وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ أي: بمعجزاتنا يكفرون.

قوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا﴾ هذا تفسيرُ الصاعقة التي أَرسلها عليهم، أي: ريحاً باردةً شديدةَ البرد وشديدةَ الصوت والهُبوب. ويقال: أصلُها صَرَّرَ من الصّر فأبدلوا مكان الراء الوسطى فاء الفعل؛ كقولهم: كُبكِبُوا، أصله: كُبِّبوا، وتَجَفْجَفَ الثوبُ أصله تجفَّف[٤]. أبو عُبيدة[٥]: معنى صَرْصَر: شديدة عاصفة. عكرمة وسعيد بن جُبير: شديدة البرد. وأنشد قُطْرُب قول الحطيئة:

المُطْعِمون إذا هَبَّتْ بِصَرْصَرةٍ والحامِلون إذا اسْتُودُوا على النَّاسِ

استودوا: إذا سُئلوا الدِّيَة. مجاهد: الشديدة السموم[٦]. وروى معمر عن قتادة

---

(١) الكلام بنحوه في المحرر الوجيز ٥/٨، وتفسير البغوي ٤/١٠٩.

(٢) تفسير البغوي ٤/١١١.

(٣) ٩/٢٦٤.

(٤) الصحاح (صرر).

(٥) مجاز القرآن ٢/١٩٦.

(٦) النكت والعيون ٥/١٧٤، والكلام السالف منه، ولم نقف على البيت في ديوان الحطيئة المطبوع.

قال: باردة[١]. وقاله عطاء؛ لأن «صَرْصَراً» مأخوذ من صرّ، والصِّرُّ في كلام العرب البرد، كما قال:

لـهـا عُـذَرٌ كـقُـرون الـنِّـسـا ءِ رُكِّـبْـنَ فـي يـومِ ريـح وصِـرّ[٢]

وقال السدي: الشديدة الصَّوت[٣]. ومنه صَرّ القلمُ، والبابُ يَصِرّ صريراً، أي: صَوَّت. ويقال: درهم صَرِّيٌّ وصِرِّيٌّ للذي له صوت إذا نُقِد[٤]. قال ابن السِّكِّيت[٥]: صَرْصَر يجوز أن يكون من الصِّر، وهو البرد، ويجوز أن يكون من صرير الباب، ومن الصَّرة، وهي الصيحة. ومنه ﴿فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ﴾ [الذاريات: ٢٩]. وصَرْصَر اسم نهر العراق[٦].

﴿فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ﴾ أي: مشؤومات؛ قاله مجاهد وقتادة. كُنَّ آخرَ شوال من يوم الأربعاء إلى يوم الأربعاء، وذلك ﴿سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾ [الحاقة: ٧] قال ابن عباس: ما عُذِّب قومٌ إلا في يوم الأربعاء. وقيل: «نَحِسَاتٍ» باردات؛ حكاه النقاش. وقيل: متتابعات؛ عن ابن عباس وعطية. الضحاك: شِداد. وقيل: ذات غُبار؛ حكاه ابن عيسى. ومنه قول الراجز:

قـدِ اغْـتَـدى قـبـلَ طُـلـوعِ الـشَّـمـس لـلـصَّـيْـدِ فـي يـومٍ قَـلـيـلِ الـنَّـحْـسِ[٧]

قال الضحاك وغيره: أمسك اللهُ عنهم المطر ثلاثَ سنين، ودرَّت الرياحُ عليهم من غير مطر[٨]، وخرج منهم قومٌ إلى مكة يستسقون بها للعباد، وكان الناسُ في ذلك

(١) أخرجه الطبري ٢٠/ ٣٩٨.

(٢) معاني القرآن للنحاس ٦/ ٢٥٥، والبيت لامرئ القيس، وهو في ديوانه ص١٦٥. والعُذَر: شعرات من القفا إلى وسط العنق. اللسان (عذر).

(٣) النكت والعيون ٥/ ١٧٤.

(٤) الصحاح (صرر).

(٥) ذكره عنه الأزهري في تهذيب اللغة ١٢/ ١٠٧.

(٦) ذكره ابن منظور في اللسان (صرر).

(٧) الرجز والأقوال التي قبله كلها من النكت والعيون ٥/ ١٧٤ - ١٧٥ ما عدا قول الضحاك، فقد ذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٩.

(٨) تفسير البغوي ٤/ ١١١.

الزمان إذا نزل بهم بلاء أو جَهْدٌ طلبوا إلى الله تعالى الفَرَجَ منه، وكانت طلبتهم ذلك من الله تعالى عند بيته الحرام مكة؛ مُسلمهم وكافرهم، فيجتمع بمكة ناسٌ كثير شتى، مختلفةٌ أديانهم، وكلُّهم مُعَظِّم لمكة، عارفٌ حُرمتها ومكانها من الله تعالى.

وقال جابر بن عبد الله والتَّيمي: إذا أراد اللهُ بقوم خيراً أرسلَ عليهم المطرَ وحبس عنهم كَثْرة الرياح، وإذا أراد اللهُ بقوم شرًّا حبس عنهم المطر وسلَّط عليهم كَثرة الرياح[١]. وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو: «نَحْساتٍ» بإسكان الحاء على أنه جمع نَحْس الذي هو مصدر وصف به. الباقون: «نَحِسَاتٍ» بكسر الحاء[٢]، أي: ذوات نحس. ومما يدلُّ على أن النَّحْس مصدر قوله: ﴿فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ﴾ [القمر: ١٩] ولو كان صفةً لم يُضف اليوم إليه؛ وبهذا كان يحتجُّ أبو عمرو على قراءته[٣]؛ واختاره أبو حاتم. واختار أبو عُبيد القراءةَ الثانيةَ وقال: لا تصحُّ حُجَّةُ أبي عمرو؛ لأنه أضاف اليومَ إلى النحس فأسكن، وإنما كان يكون حُجَّةً لو نوّن اليوم ونعت وأسكن؛ فقال: في يَوْمٍ نَحْسٍ، وهذا لم يقرأ به أحدٌ نعلمه. وقال المهدوي: ولم يُسمَعْ في «نَحْسٍ» إلا الإسكان.

قال الجوهري[٤]: وقُرئ في قوله: «في يَوْمِ نَحْسٍ» على الصفة، والإضافة أكثرُ وأجودُ. وقد نَحِسَ الشيء ـ بالكسر ـ فهو نَحِسٌ أيضًا؛ قال الشاعر:

أَبْلِغْ جُذاماً ولَخْماً أنّ إخوتهم ... طَيًّا وبَهْرَاءَ قومٌ نصرُهم نَحِسُ[٥]

ومنه قيل: أيام نَحِسَات. ﴿لِّنُذِيقَهُمْ﴾ أي: لكي نُذيقَهم ﴿عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ بالريح العقيم. ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَخْزَىٰ﴾ أي: أعظمُ وأشدُّ ﴿وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ﴾.

---

(١) المحرر الوجيز ٥/٩.

(٢) السبعة ص ٥٧٦، والتيسير ص ١٩٣.

(٣) المحرر الوجيز ٥/٩ بنحوه.

(٤) في الصحاح (نحس).

(٥) لم نقف عليه في غير الصحاح.

قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ﴾ أي: بيَّنا لهم الهُدى والضلال؛ عن ابن عباس وغيره[١]. وقرأ الحسن وابن أبي إسحاق وغيرهما: «وَأَمَّا ثَمُودَ» بالنصب[٢]، وقد مضى الكلامُ فيه في «الأعراف»[٣]. ﴿فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ أي: اختاروا الكفر على الإيمان. وقال أبو العالية: اختاروا العمى على البيان. السدي: اختاروا المعصية على الطاعة[٤].

﴿فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ﴾ «الهُونِ» بالضم الهوان. وهون بن خُزَيْمة بن مدركة بن إلياس بن مُضَر أخو كنانة وأسد. وأهانه: استخفَّ به. والاسمُ الهَوان والمهانة[٥]. وأُضيف الصاعقة إلى العذاب، لأن الصاعقةَ اسمٌ للمبيد المُهلك، فكأنه قال: مُهلك العذاب؛ أي: العذاب المُهلك. والهُون وإن كان مصدراً فمعناه الإهانة، والإهانة عذاب، فجاز أن يجعل أحدهما وصفاً للآخر؛ فكأنه قال: صاعقة الهون. وهو كقولك: عندي علمُ اليقين، وعندي العلم اليقين. ويجوز أن يكون الهُون اسماً مثل الدُّون؛ يقال: عذابٌ هون، أي: مُهين؛ كما قال: ﴿مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾ [سبأ: ١٤]. وقيل: أي: صاعقةُ العذاب ذي الهُون. ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ من تكذيبهم صالحاً وعقرهم الناقةَ، على ما تقدّم[٦].

﴿وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ يعني صالحاً ومَن آمن به؛ أي: ميَّزناهم عن الكفار، فلم يحلَّ بهم ما حلَّ بالكفار، وهكذا يا محمد نفعل بمؤمني قومك وكُفَّارهم.

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ١١١ .

(٢) القراءات الشاذة ص ١٣٣ .

(٣) ٩/ ٢٦٥ - ٢٦٦ .

(٤) النكت والعيون ٥/ ١٧٥ .

(٥) الصحاح (هون).

(٦) ١١/ ١٥٢ وما بعدها.

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ قرأ نافع: «نَحْشُرُ» بالنون، «أَعْدَاءَ» بالنصب. الباقون: «يُحْشَرُ» بياء مضمومة «أَعْدَاءُ» بالرفع[1]، ومعناهما بَيِّن. وأعداء الله: الذين كذَّبوا رُسُلَه وخالفوا أَمْرَه. «فَهُمْ يُوزَعُونَ» يُساقون ويُدفعون إلى جهنم. قال قتادة والسدي: يُحبس أوَّلُهم على آخرهم حتى يجتمعوا[2]؛ قال أبو الأحوص: فإذا تكاملت العدةُ بُدئ بالأكابر فالأكابر جُرماً[3]. وقد مضى في «النمل» الكلامُ في «يُوزَعُونَ» مستوفًى[4].

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا﴾ «مَا» زائدة ﴿شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ الجلود يعني بها الجلود بأعيانها في قول أكثر المفسرين. وقال السدي وعُبيد الله بن أبي جعفر[5] والفراء: أراد بالجلود الفروج[6]؛ وأنشد بعضُ الأدباء لعامر بن جُوَيّة:

المرءُ يسعى للسلا ... مةِ والسلامةُ حسبه
أَوَ سالمٌ من قد تثـ ... ـنَّى جلدُه وابيضَّ رأسه[7]

وقال: جلده كناية عن فرجه. ﴿وَقَالُوا۟﴾ يعني الكفار ﴿لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا﴾ وإنما كنا نُجادل عنكم ﴿قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ لما خَاطَبتْ وخُوطِبَتْ

(١) السبعة ص ٥٧٦، والتيسير ص ١٩٣.
(٢) تفسير البغوي ٤/ ١١٢. وقول قتادة والسدي أخرجهما الطبري ٢٠/ ٤٠٥.
(٣) معاني القرآن للنحاس ٦/ ٢٥٧.
(٤) ١٦/ ١١٧ وما بعدها.
(٥) أخرجه الطبري ٢٠/ ٤٠٦.
(٦) معاني القرآن ٣/ ١٦.
(٧) لم نقف عليهما.

أُجريتْ مُجرى من يعقل. ﴿وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أي: ركَّب الحياة فيكم بعد أن كنتم نُطفاً، فمن قدر عليه قدر على أن يُنطق الجُلودَ وغيرَها من الأعضاء. وقيل: ﴿وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ ابتداءُ كلامٍ من الله.

﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ وفي «صحيح» مسلم: عن أنس بن مالك قال: كنا عند رسول الله ﷺ فَضَحِكَ فقال: «هل تدرون مِمَّ أضحك؟» قلنا: اللهُ ورسولهُ أعلم، قال: «مِن مُخاطبةِ العبدِ ربَّه، يقول: يا رب، ألم تُجرني من الظُّلم، قال: يقول: بلى، قال: فيقول: فإني لا أُجيز على نفسي إلا شاهداً مني، قال: يقول: كفى بِنفسِكَ اليوم عليك شهيداً، وبالكرامِ الكاتبين شُهوداً، قال: فَيُخْتَم على فيه فيقال لأركانه: انطِقي، فَتَنْطِقُ بأعماله قال: ثم يُخَلَّى بينه وبين الكلام قال: فيقول: بُعْدًا لَكُنَّ وسُحْقًا، فعنكُنَّ كنتُ أُناضِلُ»[(١)].

وفي حديث أبي هريرة: ثم يقال: «الآن نبعثُ شاهِدَنا عليك، ويتفكَّر في نَفْسه؛ مَنْ ذا الذي يشهدُ فَيُخْتَم على فيه، ويقال لفخذه [ولحمه وعظامه]: انطِقي، فَتنطِقُ فَخْذُه ولحمه وعظامُه بعمله، وذلك لِيُعْذِر من نفسه، وذلك المنافق، وذلك الذي سَخِط الله عليه» خرجه أيضاً مسلم[(٢)].

قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن يَصْبِرُوا۟ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُوا۟ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ﴾ يجوز أن يكون هذا من

(١) صحيح مسلم (٢٩٦٩).

(٢) الحديث (٢٩٦٨)، وما بين حاصرتين منه.

قول الجوارح لهم، ويجوز أن يكونَ من قول الله عز وجل أو الملائكة[١].

وفي «صحيح» مسلم: عن ابن مسعود قال: اجتمع عند البيت ثلاثةُ نفر؛ قُرَشيان وثَقَفيٌّ، أو ثَقَفِيَّان وقرشيٌّ؛ قليلٌ فِقْهُ قلوبهم، كثيرٌ شحمُ بطونهم، فقال أحدهم: أترون اللهَ يسمعُ ما نقول؟ فقال الآخر: يسمعُ إنْ جَهَرْنا، ولا يسمعُ إنْ أَخْفينا؛ وقال الآخر: إنْ كان يسمع إذا جَهَرْنا فهو يسمع إذا أَخْفَيْنا؛ فأنزل الله عز وجل: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ﴾ الآية[٢].

خرجه الترمذي فقال: اختصم عند البيت ثلاثةُ نفرٍ. ثم ذكره بلفظه حرفاً حرفاً وقال: حديثٌ حسنٌ صحيح؛ حدّثنا هَنّاد قال: حدثنا أبو معاوية، عن الأعمش، عن عمارة بن عُمَير، عن عبد الرحمن بن يزيد قال: قال عبد الله: كنتُ مستتراً بأستار الكعبة، فجاء ثلاثة نفرٍ كثيرٌ شحمُ بطونهم قليلٌ فِقهُ قلوبهم، قرشيّ وخَتَناه ثَقَفيان، أو ثَقفيّ وخَتَناه قرشيان، فتكلَّموا بكلام لم أفْهَمه؛ فقال أحدُهم: أَترون أن الله يسمع كلامَنا هذا، فقال الآخر: إنا إذا رفعنا أصواتَنا سَمِعَه، وإذا لم نرفع أصواتَنا لم يَسْمعه، فقال الآخر: إنْ سمع منه شيئاً سمعه كلَّه، فقال عبد الله: فذكرت ذلك للنبي ﷺ فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ قال: هذا حديث حسن صحيح[٣].

قال الثعلبي: والثقفيّ عبدُ ياليل، وخَتَناه ربيعة وصفوان بن أمية[٤].

ومعنى «تَسْتَتِرُونَ»: تَستخفون، في قول أكثر العلماء؛ أي: ما كنتم تَستخفون من أنفسكم حَذَراً من شهادة الجوارح عليكم؛ لأن الإنسانَ لا يُمكنه أن يُخفي من نَفْسِهِ عَمَلَه، فيكون الاستخفاء بمعنى ترك المعصية. وقيل: الاستتار بمعنى الاتقاء؛ أي:

---

(١) المحرر الوجيز ٥/ ١١ .

(٢) صحيح مسلم (٢٧٧٥)، وأخرجه أحمد (٣٦١٤).

(٣) سنن الترمذي (٣٢٤٨) و(٣٢٤٩).

(٤) المحرر الوجيز ٥/ ١١ .

ما كنتم تتقون في الدنيا أن تشهد عليكم جوارحُكم في الآخرة فتتركوا المعاصي خوفاً من هذه الشهادة. وقال معناه مجاهد. وقال قتادة: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ﴾ أي: تظنون ﴿أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ﴾[1] بأن يقول: سمعت الحقَّ وما وعيت، وسمعت ما لا يجوز من المعاصي، ﴿وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ﴾ فتقول: رأيت آياتِ الله وما اعتبرت، ونظرت فيما لا يجوز «ولا جُلُودُكُمْ» تقدَّم.

﴿وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ من أعمالكم، فجادَلتُم على ذلك حتى شَهِدتْ عليكم جوارحُكم بأعمالكم.

روى بَهْز بن حَكيم، عن أبيه، عن جدِّه عن النبي ﷺ في قوله: ﴿أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ﴾ قال: «إنكم تُدْعَون يومَ القيامة مُفَدَّمة أفواهُكم بِفدام، فأول ما يُبين عن الإنسان فَخِذُه وكفُّه»[2] قال عبد الله بن عبد الأعلى الشامي[3] فأحسن:

العمرُ يَنْقُصُ والذُّنُوب تَزيدُ ... وتُقالُ عَثراتُ الفتى فيعودُ
هل يستطيعُ جُحُود ذَنبٍ واحِدٍ ... رجلٌ جوارِحُه عليهِ شُهودُ
والمرءُ يسأل عن سِنيهِ فيشتهي ... تقليلَها وعنِ المماتِ يحِيدُ

وعن مَعْقِل بن يسار عن النبيّ ﷺ قال: «ليس مِن يومٍ يأتي على ابن آدمَ إلا يُنادى فيه: يا ابنَ آدمَ، أنا خلقٌ جديد، وأنا فيما تعملُ غداً عليك شهيد، فاعملْ فيَّ خيرًا أشهدْ لك به غدًا، فإني لو قد مضيتُ لم ترني أبداً، ويقول الليلُ مثلَ ذلك» ذكره أبو

---

(١) هذه الأقوال بنحوها في تفسير الطبري ٢٠/٤٠٩ - ٤١٠، والنكت والعيون ٥/١٧٦.

(٢) أخرجه بنحوه ومطولاً أحمد (٢٠٠٤٣). والفِدام: ما يُشَدّ على فم الإبريق والكوز من خرقة لتصفية الشراب الذي فيه، أي: إنهم يُمنعون الكلام بأفواههم حتى تتكلم جوارحهم. النهاية (فدم).

(٣) كذا في النسخ، وفي أدب الدنيا والدين ص ٨٩ - والأبيات التالية منه ـ وفي شرحه ص ١٦٦: عبد الأعلى بن عبد الله. وفي سير أعلام النبلاء ١٠/٢٢٨: عبد الأعلى بن مسهر بن عبد الأعلى، الإمام، توفي سنة (٢١٨هـ).

نُعيم الحافظ[١]، وقد ذكرناه في كتاب «التذكرة»[٢] في باب شهادة الأرض والليالي والأيام والمال. وقال محمد بن بشير[٣] فأحسن:

مَضَى أمسُكَ الأدنى شَهيداً معدَّلًا ... ويومُك هذا بِالفِعالِ شهيدُ

فإنْ تكُ بالأمسِ اقترفتَ إساءةً ... فثَنِّ بإحسانٍ وأنتَ حميدُ

ولا تُرْجِ فِعلَ الخيرِ مِنكَ إلى غدٍ ... لعلّ غدًا يأتي وأنتَ فَقيدُ

قوله تعالى: ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ﴾ أي: أهلككم فأوردكم النار. قال قتادة: الظنّ هنا بمعنى العِلْم. وقال النبي ﷺ: «لا يَموتنَّ أحدُكم إلا وهو يُحسِنُ الظَّنَّ بالله، فإن قوماً أساءوا الظنَّ بربِّهم فأهلكهم، فذلك قوله: ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ﴾»[٤].

وقال الحسن البصري: إنَّ قوماً أَلْهتهم الأمانيُّ حتى خرجوا من الدنيا وما لهم من حسنة، ويقول أحدُهم: إني أُحسِنُ الظنَّ بربِّي، وكذب، ولو أحسنَ الظنَّ لأحسنَ العمل، وتلا قول الله تعالى: ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾.

---

(١) في حلية الأولياء ٢/ ٣٠٣ . وفي إسناده زيد بن الحواري العَمِّي، وهو ضعيف كما في تقريب التهذيب. قال أبو نعيم: حديث معاوية [يعني ابن قرة] تفرد به عنه زيد، ولا أعلمه رُوي مرفوعاً عن النبي ﷺ إلا بهذا الإسناد.

(٢) ص ٢٨٨ .

(٣) لعله محمد بن بشير بن عبد الله بن عقيل أبو سليمان، من بني خارجة، ومن شعراء الدولة الأموية. الأغاني ١٦/ ١٠٢ . ووقع في (ق): يسير، ولعله محمد بن يَسير الرِّياسي، من شعراء أهل البصرة وأدبائهم. الأغاني ١٤/ ١٧ .

(٤) قوله منه: «لا يموتن أحدُكم إلا وهو يُحسن الظن بالله» صحيح، أخرجه أحمد (١٤٤٨١)، ومسلم (٢٨٧٧) من حديث جابر ﷺ، وأخرجه بتمامه أحمد (١٥١٩٧)، وفي إسناده النضر بن إسماعيل ومحمد ابن عبد الرحمن بن أبي ليلى، وهما ضعيفان كما في التقريب.

وقال قتادة: من استطاع منكم أن يموتَ وهو حسنُ الظنِّ بربِّه فليفعل، فإن الظنَّ اثنان: ظنٌّ يُنْجِي وظنٌّ يُردي[١].

وقال عمر بن الخطاب في هذه الآية: هؤلاء قومٌ كانوا يُدمِنون المعاصي ولا يتوبون منها، ويتكلَّمون على المغفرة، حتى خرجوا من الدنيا مفاليسَ، ثم قرأ: ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾.

قوله تعالى: ﴿فَإِن يَصْبِرُوا۟ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ أي: فإنْ يصبروا في الدنيا على أعمال أهل النار فالنار مثوًى لهم. نظيره: ﴿فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ١٧٥] على ما تقدَّم.

﴿وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟﴾ في الدنيا وهم مُقيمون على كُفرهم ﴿فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ﴾.

وقيل: المعنى: «فَإِنْ يَصْبِرُوا» في النار أو يَجْزَعوا «فَالنَّارُ مُثْوًى لهم» أي: لا مَحيصَ لهم عنها، ودلَّ على الجَزَعِ قولُه: «وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا»؛ لأن الْمُسْتَعْتِبَ جَزِعٌ، والمُعتب المقبول عتابُه؛ قال النابغة:

فإنْ أَكُ مَظْلُوماً فَعَبْدٌ ظَلَمْتَه وإنْ تَكُ ذَا عُتْبَى فَمِثْلُكَ يُعْتِبُ[٢]

أي: مثلك من قَبِل الصُّلح والمراجعة إذا سُئِل. قال الخليل: العِتاب مُخاطبة الإدلال ومُذاكرة المَوْجِدة. تقول: عاتبته مُعاتبة، وبينهم أُعْتوبة يتعاتبون بها. يقال: إذا تعاتبوا أصلحَ ما بينهم العِتاب. وأعتبني فلان: إذا عاد إلى مَسَرَّتي راجعاً عن الإساءة، والاسم منه العُتْبى، وهو رجوعُ المعتوب عليه إلى ما يُرضي العاتب. واستعتبَ وأَعتب بمعنى، واستعتبَ أيضاً طلب أن يُعْتَب؛ تقول: استعتبته فأعتبني، أي: استرضيتُه فأرضاني[٣].

---

(١) أخرجه بنحوه الطبري ٢٠/ ٤١٤ .

(٢) ديوان النابغة ص ١٨ .

(٣) الصحاح (عتب).

فمعنى «وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا» أي: طلبوا الرِّضا لم ينفعهم ذلك، بل لا بدَّ لهم من النار. وفي التفاسير: وإن يستقيلوا ربَّهم فما هم من المُقالين[(١)].

وقرأ عُبيد بن عُمير وأبو العالية: «وَإِنْ يُسْتَعْتَبُوا» بفتح التاء الثانية وضم الياء على الفعل المجهول «فما هم مِنَ المُعْتَبِينَ» بكسر التاء[(٢)]، أي: إن أقالهم الله وردَّهم إلى الدنيا لم يعملوا بطاعته لِما سبق لهم في علم الله تعالى من الشقاء، قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ [الأنعام: ٢٨] ذكره الهروي[(٣)]. وقال ثعلب: يقال: أَعتب إذا غَضِبَ، وأَعتب إذا رَضِي[(٤)].

قوله تعالى: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ﴾ قال النقَّاش: أي: هيَّأنا لهم شياطين[(٥)]. وقيل: سلَّطنا عليهم قُرناء يُزيِّنون عندهم المعاصي، وهؤلاء القُرناء من الجنّ والشياطين ومن الإنس أيضاً؛ أي: سبَّبْنا لهم قُرناء؛ يقال: قَيَّض الله فلاناً لفلان، أي: جاءه به وأَتاحه له، ومنه قوله تعالى: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ﴾. القشيري: ويقال: قيّض الله لي رزقاً، أي: أتاحه كما كنتُ أطلبُه، والتقييض الإبدال، ومنه المُقايضة، قايضتُ الرجل مُقايضةً، أي: عاوضتُه بمتاع، وهما قيِّضان، كما تقول: بيِّعان.

﴿فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ من أمر الدنيا، فحسَّنوه لهم حتى آثروه على الآخرة ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ حسَّنوا لهم ما بعد مَماتهم وَدَعَوْهم إلى التكذيب بأمور الآخرة؛ عن مجاهد. وقيل: المعنى: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ﴾ في النار ﴿فَزَيَّنُوا لَهُم﴾ أعمالَهم في الدنيا؛ والمعنى: قدَّرنا عليهم أن ذلك سيكون، وحَكَمنا به عليهم. وقيل: المعنى:

---

(١) النكت والعيون ٥/ ١٧٧ .

(٢) القراءات الشاذة ص ١٣٣ ، والمحتسب ٢/ ٢٤٥ ، والمحرر الوجيز ٥/ ١٢ ، والدر المصون ٩/ ٥٢٢ وعند جميعهم: عمرو بن عبيد، بدل: عبيد بن عمير.

(٣) تهذيب اللغة ٢/ ٢٧٧ .

(٤) النكت والعيون ٥/ ١٧٧ .

(٥) المصدر السابق.

أحوجناهم إلى الأقران؛ أي: أحوجنا الفقيرَ إلى الغني لِينالَ منه، والغنيَّ إلى الفقير، لِيستعينَ به، فزيَّن بعضَهم لبعض المعاصي[١]. وليس قوله: «وما خَلْفَهُمْ» عطفاً على «ما بين أَيْدِيهِم» بل المعنى: وأَنْسَوهم ما خلفَهم، ففيه هذا الإضمار.

قال ابن عباس: «ما بين أيديهم» تكذيبُهم بأمور الآخرة «وما خَلْفَهُمْ» التسويف والترغيب في الدنيا[٢]. الزجاج[٣]: «ما بين أيديهم» ما عملوه «وما خلفهم» ما عَزَموا على أن يعملوه. وقد تقدَّم قولُ مجاهد.

وقيل: المعنى: لهم مثلُ ما تقدَّم من المعاصي «وما خلفهم» ما يعمل بعدَهم. ﴿وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ﴾ أي: وجب عليهم من العذاب ما وجب على الأُمم الذين من قبلهم الذين كفروا كَكُفرهم. وقيل: «في» بمعنى مع؛ فالمعنى هم داخلون مع الأُمم الكافرةِ قبلَهم فيما دخلوا فيه[٤]. وقيل: «في أُمَمٍ» في جُملة أُمَمٍ، ومثلُه قولُ الشاعر:

إنْ تَكُ عن أحسنِ الصَّنيعةِ مَأْ فُوكاً ففي آخَرينَ قد أُفِكُوا[٥]

يُريد: فأنت في جُملة آخرين لست في ذلك بأوحد. ومحل «في أُمَم» النصب على الحال من الضمير في «عليهم» أي: حقَّ عليهم القولُ كائنين في جملة أُمم[٦]. ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ﴾ أعمالَهم في الدنيا وأنفسَهم وأهليهم يومَ القيامة.

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٥٨ .

(٢) المصدر السابق.

(٣) معاني القرآن ٤/ ٣٨٤ .

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٥٨ بنحوه.

(٥) قائله عروة بن أذينة، وهو في إصلاح المنطق ص ٢٧ ، وفيه: المروَّة، بدل: الصنيعة. قال ابن السِّكيت: الأَفْك: مصدر أَفَكَهُ عن الشيء يأْفِكُه، إذا صرفه عنه وقلبه.

(٦) تفسير الرازي ٢٧/ ١١٩ .

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾ فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٢٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ﴾ لمَّا أخبر تعالى عن كُفر قوم هود وصالح وغيرهم أَخبر عن مُشركي قريش وأنهم كذَّبوا القرآن فقالوا: «لا تَسْمَعُوا». وقيل: معنى «لا تَسْمَعُوا» لا تُطيعوا[١]؛ يقال: سمعتُ لك أي: أطعتُك. «والغَوْا فيهِ» قال ابن عباس: قال أبو جهل: إذا قرأ محمدٌ فصيحوا في وجهه حتى لا يدري ما يقول. وقيل: إنهم فعلوا ذلك لمَّا أعجزهم القرآن[٢]. وقال مجاهد: المعنى: «والغَوْا فيهِ» بالـمُكَاء والتَّصفيق والتخليط في المَنْطِق حتى يصير لَغْوًا[٣]. وقال الضحاك أكثِروا الكلامَ لِيختلطَ عليه ما يقول[٤]. وقال أبو العالية وابن عباس أيضاً: قِعُوا فيه وعَيِّبوه[٥]، ﴿لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ محمداً على قراءته فلا تظهر ولا تستميل[٦] القلوب.

وقرأ عيسى بن عمر والجَحْدري وابن أبي إسحاق وأبو حَيْوةَ وبكر بن حبيب السَّهمي: «والغُوا» بضم الغين[٧]، وهي لغةٌ مِن لغا يلغو. وقراءة الجماعة من لَغِيَ يَلْغَى.

---

(١) النكت والعيون ٥/١٧٨ .

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٥/٥٩ .

(٣) أخرجه الطبري ٢٠/٤١٨ .

(٤) تفسير البغوي ٤/١١٣ .

(٥) النكت والعيون ٥/١٧٨ .

(٦) في (د) و(ز) و(م): فلا يظهر ولا يستميل. والمثبت من (ظ).

(٧) القراءات الشاذة ص ١٣٣ ، والمحتسب ٢/٢٤٦ .

قال الهروي: وقوله: «والْغَوْا فيهِ» قيل: عارِضوه بكلام لا يفهم. يقال: لَغَوْت أَلْغو وأَلْغَى، ولَغِيَ يَلْغَى، ثلاث لُغات. وقد مضَى معنى اللَّغو في «البقرة»[(١)] وهو ما لا يُعلَم له حقيقةٌ ولا تحصيل.

قوله تعالى: ﴿فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ قد تقدَّم أن الذَّوقَ يكون محسوساً، ومعنى العذاب الشديد: ما يتوالى فلا ينقطع. وقيل: هو العذابُ في جميع أجزائهم. ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ أي: وَلَنجزينَّهم في الآخرة جزاءَ قُبْحِ أعمالهم التي عَمِلُوها في الدنيا. وأسوأُ الأعمال الشِّرك.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُ﴾ أي: ذلك العذابُ الشديد، ثم بيَّنه بقوله: «النَّارُ». وقرأ ابن عباس: «ذلكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللهِ النَّارُ دَارُ الْخُلْدِ»[(٢)] فترجم بالدار عن النار وهو مَجاز الآية. و«ذلك» ابتداء و«جَزَاءُ» الخبر، و«النَّارُ» بدل من «جَزَاءُ»، أو خبر مبتدأ مضمر، والجملة في موضع بيانٍ للجملة الأُولى[(٣)].

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ يعني: في النار، فذكره بلفظ الماضي، والمراد المستقبل ﴿رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ يعني إبليس وابن آدم الذي قتل أخاه؛ عن ابن عباس وابن مسعود وغيرهما[(٤)]؛ ويشهد لهذا القول الحديثُ المرفوع: «ما مِن مسلم يُقتَلُ ظُلماً إلا كان على ابن آدم الأوّل كِفْل من ذَنْبه؛ لأنه أوّلُ من سنَّ القَتْل» ويروى: «أسنَّ القتل»[(٥)]. خرَّجه الترمذي[(٦)].

---

(١) ٤/١٧.

(٢) ذكرها الطبري ٢٠/٤١٩ عن ابن مسعود ﷺ.

(٣) المحرر الوجيز ٥/١٣.

(٤) معاني القرآن للنحاس ٦/٢٦٥ وأخرجه الطبري ٢٠/٤٢٠ - ٤٢١ عن علي ﷺ وقتادة. قال الآلوسي في تفسيره ٢٤/١٢٠: وُتُعقِّب بأنه لا يصحّ عن علي كرم الله وجهه، فإن قابيل مؤمن عاصٍ، والظاهر أن الكفار إنما طلبوا إراءة المضلين بالكفر المؤدي إلى الخلود، وكونهم رئيس الكفرة ورئيس أهل الكبائر خلاف الظاهر. اهـ.

(٥) قوله: ويروى: «أسنَّ القتل» من (ظ) و(ق).

(٦) في سننه (٢٦٧٣). وأخرجه أحمد (٣٦٣٠)، والبخاري (٣٣٣٥)، ومسلم (١٦٧٧) من حديث ابن مسعود ﷺ وعندهم: نفس، بدل: مسلم. ودمها، بدل: ذنبه.

وقيل: هو بمعنى الجنس[١]، وبُني على التثنية لاختلاف الجنسين.

﴿نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ﴾ سألوا ذلك حتى يشتفوا منهم بأن يجعلوهم تحت أقدامهم ﴿لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ﴾ في النار وهو الدَّرك الأسفل. سألوا أن يُضعِّف اللهُ عذابَ مَنْ كان سببَ ضلالتهم من الجن والإنس.

وقرأ ابن مُحيصن والسوسي عن أبي عمرو وابن عامر وأبو بكر والمُفضَّل: «أَرْنَا» بإسكان الراء[٢]، وعن أبي عمرو[٣] أيضاً باختلاسها. وأشبع الباقون كسرتها، وقد تقدّم في «الأعراف»[٤].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ﴾ قال عطاء عن ابن عباس: نزلَتْ هذه الآيةُ في أبي بكر الصدّيق ﷺ؛ وذلك أن المشركين قالوا: ربُّنا اللهُ والملائكةُ بناتُه، وهؤلاء شفعاؤنا عند الله؛ فلم يستقيموا. وقال أبو بكر: ربُّنا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، ومحمدٌ ﷺ عبدُه ورسوله؛ فاستقام[٥].

وفي الترمذي: عن أنس بن مالك أن رسولَ الله ﷺ قرأ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ﴾ قال: «قد قال الناسُ، ثم كَفَرَ أكثرُهم، فمن مات عليها فهو ممن استقام» قال: حديثٌ غريب، ويُروى في هذه الآية عن النبيّ ﷺ وأبي بكر وعمر

---

(١) المحرر الوجيز ٥/ ١٤.

(٢) وقرأ بها ابن كثير من السبعة. السبعة ص ٥٧٦، والتيسير ص ١٩٣.

(٣) في رواية الدوري.

(٤) كذا في النسخ: الأعراف، وصوابه في البقرة ٢/ ٣٩٨.

(٥) أسباب النزول للواحدي ص ٣٩٤.

وعثمان وعليّ معنى ﴿ٱسۡتَقَـٰمُواْ﴾[1].

ففي «صحيح» مسلم: عن سفيان بن عبد الله الثقفيّ قال: قلتُ: يا رسولَ الله، قل لي في الإسلام قولاً لا أسألُ عنه أحداً بعدَك ـ وفي رواية ـ غيرَك. قال: «قل: آمنتُ بالله ثم استقِمْ»[2] زاد الترمذي: قلت: يا رسولَ الله، ما أخوفُ ما تخاف عليّ؟ فأخذ بلسان نَفْسِه وقال: «هذا»[3].

وروي عن أبي بكر الصدّيق رضي الله عنه أنه قال: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَقَـٰمُواْ﴾ لم يُشركوا بالله شيئاً. وروى عنه الأسودُ بن هلال أنه قال لأصحابه: ما تقولون في هاتين الآيتين: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَـٰمُواْ﴾ و﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَـٰنَهُم بِظُلۡمٍ﴾ [الأنعام: ٨٢] فقالوا: استقاموا فلم يُذنبوا ولم يَلْبِسوا إيمانهم بخطيئة؛ فقال أبو بكر: لقد حملتموها على غير المَحْمل ﴿قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَـٰمُواْ﴾ فلم يلتفتوا إلى إلهٍ غيره ﴿وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَـٰنَهُم﴾ بشرك ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ﴾[4] [الأنعام: ٨٢].

ورُوي عن عمر رضي الله عنه أنه قال على المنبر وهو يخطب: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَـٰمُواْ﴾ فقال: استقاموا ـ والله ـ على الطريقة لِطاعته ثم لم يَروغُوا رَوَغان الثعالب[5].

وقال عثمان رضي الله عنه: ثم أخلصوا العملَ لله. وقال عليّ رضي الله عنه: ثم أدُّوا الفرائض. وأقوال التابعين بمعناها. قال ابن زيد وقتادة: استقاموا على الطاعة لله. الحسن: استقاموا على أمر الله فعملوا بطاعته واجتنبوا معصيته. وقال مجاهد وعكرمة: استقاموا على شهادة أن لا إله إلا الله حتى ماتوا. وقال سفيان الثوري: عَمِلُوا على

---

(١) سنن الترمذي (٣٢٥٠) وليس في مطبوعه ذِكْر عثمان وعلي رضي الله عنهما، وسيذكر المصنف أقوالهم قريباً.

(٢) صحيح مسلم (٣٨)، وأخرجه أحمد (١٥٤١٦).

(٣) سنن الترمذي (٢٤١٠)، وأخرجه أحمد (١٥٤١٩).

(٤) أخرجه الطبري ٢٠/ ٤٢٣ بنحوه.

(٥) أخرجه الطبري ٢٠/ ٤٢٥ .

وِفاق ما قالوا. وقال الربيع: أعرضوا عما سوى الله. وقال الفُضيل بن عِياض: زَهِدوا في الفانية ورَغِبوا في الباقية. وقيل: استقاموا إسراراً كما استقاموا إقراراً. وقيل: استقاموا فِعْلاً كما استقاموا قولاً[١].

وقال أنس: لما نزلتْ هذه الآيةُ قال النبيُّ ﷺ: «هم أمتي وربِّ الكعبة»[٢]. وقال الإمام ابن فُورَك: السين سين الطلب، مثل: استسقى، أي: سألوا من الله أن يُثبِّتَهم على الدين. وكان الحسنُ إذا قرأ هذه الآيةَ قال: اللهمَّ أنت ربُّنا فارزقنا الاستقامة[٣].

قلت: وهذه الأقوالُ وإن تداخلَتْ فتلخيصُها: اعتدَلوا على طاعة الله عقداً وقولاً وفعلاً، وداموا على ذلك.

﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ قال ابن زيد ومجاهد: عند الموت. وقال مقاتل وقتادة: إذا قاموا من قبورهم للبعث. وقال ابن عباس: هي بُشرى تكون لهم من الملائكة في الآخرة. وقال وكيع وابن زيد: البُشرى في ثلاثةِ مواطنَ عند الموت وفي القبر وعند البعث[٤].

﴿أَلَّا تَخَافُواْ﴾ أي: بألَّا تَخافُوا، فحذف الجار. وقال مجاهد: لا تخافوا الموت ﴿وَلَا تَحْزَنُواْ﴾ على أولادكم[٥]، فإنَّ اللهَ خليفتُكم عليهم. وقال عطاء بن أبي رباح: لا تخافوا ردَّ ثوابكم فإنه مقبولٌ، ولا تحزنوا على ذنوبكم فإني أغْفِرُها لكم. وقال عكرمة: لا تخافوا أمامَكم، ولا تحزنوا على ذُنوبكم ﴿وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾[٦].

---

(١) هذه الأقوال في تفسير الطبري ٢٠/ ٤٢٤ - ٤٢٥ ، والنكت والعيون ٥/ ١٧٩ ، والمحرر الوجيز ٥/ ١٤ - ١٥ .

(٢) لم نقف عليه.

(٣) ذكره البغوي في تفسيره ٤/ ١١٤ .

(٤) الأقوال السالفة في تفسير الطبري ٢٠/ ٤٢٥ - ٤٢٧ ، والنكت والعيون ٥/ ١٨٠ ، وتفسير البغوي ٤/ ١١٤ .

(٥) النكت والعيون ٥/ ١٨٠ .

(٦) تفسير البغوي ٤/ ١١٤ بنحوه .

قوله تعالى: ﴿نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْآخِرَةِ﴾ أي: تقول لهم الملائكةُ الذين تتنزلُ عليهم بالبِشارة: «نحن أَوْلِيَاؤُكُمْ» قال مجاهد: أي: نحن قُرناؤكم الذين كنَّا معكم في الدنيا، فإذا كان يومُ القيامة قالوا: لا نُفارقكم حتى نُدخِلَكم الجنة. وقال السدي: أي: نحن الحَفَظَةُ لأعمالكم في الدنيا وأولياؤكم في الآخرة[١]. ويجوز أن يكون هذا من قول الله تعالى، والله وليُّ المؤمنين ومولاهم.

﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِيٓ أَنفُسُكُمْ﴾ أي: من الملاذِّ. ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾ تسألون وتتمنَّون. ﴿نُزُلًا﴾ أي: رِزْقاً وضيافةً. وقد تقدَّم في «آل عمران»[٢] وهو منصوبٌ على المصدر، أي: أنزلناه نُزُلاً. وقيل: على الحال[٣]. وقيل: هو جمع نازل، أي: لكم ما تدَّعون نازلين، فيكون حالاً من الضمير المرفوع في «تَدَّعُونَ» أو من المجرور في «لكم».

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسْتَوِي ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ هذا توبيخٌ للذين تواصَوْا باللَّغو في القرآن. والمعنى: أيُّ كلام أحسنُ من القرآن، ومن أحسنُ قولاً من الداعي إلى الله وطاعته وهو محمد ﷺ. قال ابن سيرين والسُّدي وابن زيد والحسن: هو رسولُ الله ﷺ[٤].

(١) أخرجه الطبري ٢٠/ ٤٢٨، وأورده البغوي في تفسيره ٤/ ١١٤.

(٢) ٥/ ٤٨٢ - ٤٨٣.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٦٠.

(٤) أخرجه الطبري ٢٠/ ٤٣٠ عن السدي وابن زيد، وذكره عن ابن سيرين البغوي في تفسيره ٤/ ١١٤.

وكان الحسن إذا تلا هذه الآية يقول: هذا رسولُ الله، هذا حبيبُ الله، هذا وليُّ الله، هذا صفوةُ الله، هذا خِيرة الله، هذا ـ والله ـ أحبُّ أهل الأرض إلى الله؛ أجاب اللهَ في دعوته، ودعا الناسَ إلى ما أجاب إليه[١].

وقالت عائشة رضي الله عنها وعكرمة وقيس بن أبي حازم ومجاهد: نزلت في المُؤَذّنين[٢]. قال فُضيل بن رُفيدة: كنتُ مُؤَذِّناً لأصحاب عبد الله بن مسعود، فقال لي عاصم بن هُبيرة: إذا أذَّنتَ فقلت: الله أكبر، الله أكبر، لا إله إلا الله، فقل: وأنا من المسلمين؛ ثم قرأ هذه الآية[٣].

قال ابن العربي[٤]: الأول أصحُّ؛ لأن الآيةَ مكيَّةٌ والأذان مدني؛ وإنما يدخل فيها بالمعنى؛ لا أنه كان المقصودَ وقتَ القول، ويدخل فيها أبو بكر الصدّيق حين قال في النبيّ ﷺ وقد خَنَقَهُ الملعون[٥]: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾ [غافر: ٢٨] وتتضمَّن كلَّ كلام حَسَنٍ فيه ذِكْرُ التوحيد والإيمان.

قلت: وقولٌ ثالثٌ، وهو أحسنُها؛ قال الحسن: هذه الآيةُ عامةٌ في كل مَنْ دعا إلى الله. وكذا قال قيس بن أبي حازم قال: نزلت في كل مؤمن. قال: ومعنى «وَعَمِلَ صَالِحًا» الصلاة بين الأذان والإقامة. وقاله أبو أمامة؛ قال: صلَّى ركعتين بين الأذان والإقامة. وقال عكرمة: «وعَمِلَ صَالِحًا» صلّى وصام. وقال الكلبي: أدّى الفرائض[٦].

قلت: وهذا أحسنُها مع اجتناب المحارم وكَثْرةِ المندوب. والله أعلم.

---

(١) أخرجه الطبري ٢٠/٤٢٩ .

(٢) أخرجه الطبري ٢٠/ ٤٣٠ عن قيس بن أبي حازم، وذكره عن عائشة رضي الله عنها ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ١٥ .

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٦١ ، والمحرر الوجيز ٥/ ١٦ .

(٤) في أحكام القرآن ٤/ ١٦٥٠ .

(٥) يعني عقبة بن أبي مُعَيط، وسلفت قصته ١٥/ ٣٠٨ .

(٦) هذه الأقوال في النكت والعيون ٤/ ١٨١ ، والمحرر الوجيز ٥/ ١٥ - ١٦ وتفسير البغوي ٤/ ١١٤ .

﴿وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾، قال ابن العربي[١]: وما تقدَّم يدلُّ على الإسلام، لكن لمَّا كان الدعاء بالقول والسيف يكون للاعتقاد ويكون للحجة، وكان العملُ يكون للرِّياء والإخلاص، دلَّ على أنه لا بدَّ من التصريح بالاعتقاد لله في ذلك كلِّه، وأن العملَ لوجهه.

مسألة: لما قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ ولم يقل له: اشترط إنْ شاء الله، كان في ذلك ردٌّ على من يقول: أنا مسلم إنْ شاء الله[٢].

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِي ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ﴾ قال الفراء: «لا» صلة، أي: ولا تَسْتَوِي الحسنةُ والسيئةُ[٣]، وأنشد:

ما كان يَرْضَى رسولُ الله فِعْلَهُم ... والطَّيِّبانِ أبو بكر ولا عمرُ[٤]

أراد: أبو بكر وعمر؛ أي: لا يستوي ما أنت عليه من التوحيد، وما المشركون عليه من الشِّرك. قال ابن عباس: الحسنةُ لا إله إلا الله، والسيئة الشِّرك. وقيل: الحسنةُ الطاعة، والسيئة الشِّرك. وهو الأولُ بعينه. وقيل: الحسنة المُداراة، والسيئة الغِلْظة. وقيل: الحسنة العفو، والسيئة الانتصار. وقال الضحاك: الحسنة العلم[٥]، والسيئة الفحش. وقال عليّ بن أبي طالب ﷺ: الحسنةُ حبُّ آل الرسول، والسيئة بُغْضُهم.

قوله تعالى: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ نُسِخَتْ بآية السيف[٦]، وبقي المُسْتَحَبُّ من ذلك: حسنُ العشرة والاحتمال والإغضاء. قال ابن عباس: أي: ادفع بحلمك جَهْلَ

---

(١) في أحكام القرآن ٤/ ١٦٥٠ .

(٢) المصدر السابق.

(٣) تفسير البغوي ٤/ ١١٥ .

(٤) قائله جرير، وهو في ديوانه ١/ ١٥٩ ، وفيه: دينهم، بدل: فعلهم.

(٥) في النكت والعيون ٥/ ١٨٢ (والكلام منه): الحلم، وكذا في زاد المسير ٧/ ٢٥٨ .

(٦) زاد المسير ٧/ ٢٥٨ .

من يجهلُ عليك[١]. وعنه أيضاً: هو الرجل يَسُبُّ الرجلَ فيقول الآخر: إن كنتَ صادقاً فغفر الله لي، وإن كنتَ كاذباً فغفر الله لك. وكذلك يُروى في الأثر: إن أبا بكر الصديق ﷺ قال ذلك لرجل نالَ منه[٢].

وقال مجاهد: «بالتي هي أَحْسَنُ» يعني السلام إذا لَقِيَ من يُعاديه؛ وقاله عطاء[٣]. وقولٌ ثالثٌ ذكره القاضي أبو بكر بن العربي في «الأحكام»[٤] وهو المُصافحة. وفي الأثر: «تصافحوا يَذهبِ الغِلُّ»[٥]. ولم يَرَ مالكُ المصافحة، وقد اجتمع مع سفيان فتكلَّما فيها فقال سفيان: قد صافح رسولُ الله ﷺ جعفراً حين قَدِمَ من أرض الحبشة[٦]؛ فقال له مالك: ذلك خاصٌّ. فقال له سفيان: ما خَصَّ رسول الله ﷺ يخصُّنا، وما عَمَّه يعمُّنا، والمصافحةُ ثابتةٌ فلا وجهَ لإنكارها.

وقد روى قتادة قال: قلت لأنس: هل كانت المصافحةُ في أصحاب رسول الله ﷺ؟ قال: نعم. وهو حديثٌ صحيح. وفي الأثر: «مِنْ تمامِ المحبةِ الأخذُ باليد»[٧]. ومن حديث محمد بن إسحاق ـ وهو إمامٌ مقدَّم ـ عن الزهري عن عروة عن عائشة قالت: قَدِمَ زيدُ بن حارثةَ المدينةَ ورسولُ الله ﷺ في بيتي، فقرع البابَ فقام إليه رسولُ الله ﷺ عُرياناً يَجُرُّ ثوبَه ـ والله ما رأيتُه عُرياناً قبلَه ولا بعدَه ـ فاعتنقه وقبَّله[٨].

قلت: قد رُوي عن مالك جوازُ المصافحة وعليها جماعةٌ من العلماء. وقد مضى ذلك في «يوسف»[٩]، وذكرنا هناك حديثَ البراء بن عازب قال: قال رسولُ الله ﷺ:

(١) النكت والعيون ٥/ ١٨٢ .
(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٦٥١ .
(٣) المحرر الوجيز ٥/ ١٦ .
(٤) ٤/ ١٦٥١ .
(٥) أخرجه مالك في الموطأ ٢/ ٩٠٨ عن عطاء مرسلاً. قال ابن عبد البر في التمهيد ٢١/ ١٢ : وهذا يتصل من وجوه شتى حسان كلها. وسلف ١١/ ٤٥٨ .
(٦) أخرجه الطحاوي في شرح معاني الآثار ٤/ ٢٨١ ، وسلف ١١/ ٤٥٨ .
(٧) أخرجه الترمذي (٢٧٣٠) من حديث ابن مسعود ﷺ، وفيه: التحية، بدل: المحبة. قال الترمذي هذا حديث غريب.. سألت محمد بن إسماعيل عن هذا الحديث فلم يَعُدَّه محفوظاً.
(٨) أخرجه الترمذي (٢٧٣٢) وقال: هذا حديث حسن غريب، لا نعرفه من حديث الزهري إلا بهذا الوجه.
(٩) ١١/ ٤٥٨ - ٤٥٩ .

«ما مِنْ مُسلمين يلتقيان فيأخذَ أحدُهما بيدِ صاحبه مَوَدَّةً بينهما ونصيحةً إلا أُلقيت ذنوبهما بينهما»(١).

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾ أي: قريب صديق. قال مقاتل: نزلت في أبي سفيان بن حرب، كان مُؤذياً للنبيِّ ﷺ، فصار له وليًّا بعد أن كان عدوّاًبالمصاهرة التي وقعت بينه وبين النبي ﷺ، ثم أسلم فصار وليًّا في الإسلام حميماً بالقرابة(٢).

وقيل: هذه الآيةُ نزلت في أبي جهل بن هشام، كان يُؤذي النبي ﷺ، فأمره الله تعالى بالصبر عليه والصَّفح عنه؛ ذكره الماوردي(٣). والأول ذكره الثعلبي والقشيري وهو أظهر؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾. وقيل: كان هذا قبلَ الأمر بالقتال. قال ابن عباس: أمره اللهُ تعالى في هذه الآية بالصبر عند الغضب، والحِلْم عند الجَهْل، والعفو عند الإساءة، فإذا فعل الناس ذلك عَصَمهم اللهُ من الشيطان، وخضع لهم عدوُّهم. ورُوي أن رجلاً شتم قَنْبراً مولى علي بن أبي طالب فناداه عليٌّ: يا قَنْبَرُ، دَعْ شاتمكَ، والْهَ عنه تُرضِ الرحمن وتُسخط الشيطان، وتُعاقب شاتمك، فما عُوقب الأحمقُ بمثل السكوت عنه. وأنشدوا:

وَلَلْكَفُّ عن شَتْمِ اللَّئيم تَكَرُّمًا ... أَضَرُّ له مِنْ شَتْمِهِ حين يُشْتَمُ(٤)

وقال آخر:

وما شيءٌ أَحَبُّ إلى سَفيهٍ ... إذا سبَّ الكريمَ مِنَ الجوابِ
مُتارَكَةُ السَّفيهِ بلا جوابٍ ... أَشَدُّ على السَّفيهِ من السِّبابِ(٥)

---

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط (٨٣٣٥)، وابن عبد البر في التمهيد ٢١/ ١٣ .

(٢) تفسير البغوي ٤/ ١١٥ .

(٣) في النكت والعيون ٥/ ١٨٢ .

(٤) قائله المُؤَمَّل بن أُمَيل، وهو في شرح ديوان الحماسة للتبريزي ٣/ ٨٦ .

(٥) أوردهما ابن عبد البر في بهجة المجالس ٢/ ٦٠٨ ، وعنده البيت الثاني قبل الأول، وعجز البيت الأول عنده: إذا وقع الكريم من السباب. وعجز البيت الثاني: أشد على السفيه من العذاب.

وقال محمود الورّاق:

سَأُلزِم نفسي الصَّفْحَ عن كلّ مذنِبٍ ... وإن كَثُرَتْ منه لديَّ الجَرائمُ
فما الناس إلا واحِدٌ مِن ثلاثةٍ ... شريفٌ ومَشْروفٌ ومِثْلٌ مقاومُ
فأما الذي فَوْقي فأعرِفُ قَدْرَه ... وأَتْبَعُ فيه الحقَّ والحقُّ لازِمُ
وأما الذي دوني فإنْ قال صُنْتُ عن ... إجابَتِه عِرضي وإنْ لامَ لائِمُ
وأما الذي مِثْلِي فإنْ زَلَّ أوْهَفا ... تَفَضَّلْتُ إنّ الفَضْلَ بالحِلْم حاكِمُ[١]

﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ﴾ يعني هذه الفعلة الكريمة والخَصْلة الشريفة ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ﴾ بكظم الغيظ واحتمال الأذى. ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ أي: نصيب وافر من الخير؛ قاله ابن عباس. وقال قتادة ومجاهد: الحظُّ العظيم الجنة. قال الحسن: والله ما عظم حظٌّ قطّ دون الجنة[٢]. وقيل: الكناية في «يُلَقَّاهَا» عن الجنة؛ أي: ما يلقَّاها إلا الصابرون؛ والمعنى متقارب.

قوله تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ﴾ تقدَّم في آخر «الأعراف» مستوفًى[٣]. ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾ من كيدِه وشرِّه ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لاستعاذتك ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بأفعالك وأقوالك.

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ لَا تَسْجُدُواْ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُواْ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ﴿٣٨﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ﴾ علاماته الدالَّة على وحدانيته وقُدرته ﴿ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ

(١) ذكر هذه الأبيات ابن عبد البر في بهجة المجالس ٢/ ٦٠٦ باختلاف يسير في بعض الألفاظ.
(٢) النكت والعيون ٥/ ١٨٢ .
(٣) ٩/ ٤٢٢ وما بعدها.

﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ وقد مضى في غير موضع. ثم نهى عن السجود لهما؛ لأنهما وإن كانا خَلْقين فليس ذلك لفضيلةٍ لهما في أنفسهما فيستحقَّان بها العبادةَ مع الله؛ لأنَّ خالقَهما هو الله، ولو شاء لأعدمهما أو طمس نورَهما.

﴿وَٱسْجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ﴾ وصوَّرهنَّ وسخَّرهنَّ؛ فالكناية ترجع إلى الشمس والقمر والليل والنهار. وقيل: للشمس والقمر خاصَّة؛ لأن الاثنين جمع[١]. وقيل: الضميرُ عائدٌ على معنى الآيات[٢]، ﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾[٣]. وإنما أنَّث على جمع التكسير[٤]، ولم يجر على طريق التغليب للمذكر والمؤنث لأنه فيما لا يعقل.

﴿فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُواْ﴾ يعني الكفار عن السجود لله ﴿فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾ من الملائكة ﴿يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ﴾ أي: لا يملُّون عبادتَه. قال زهير:

سَئِمتُ تَكاليفَ الحياةِ ومَنْ يَعِشْ ثمانِينَ حولًا ـ لا أبالكَ ـ يَسْأَمِ[٥]

مسألة: هذه الآيةُ آيةُ سجدة بلا خلاف؛ واختلفوا في موضع السجود منها. فقال مالك: موضعه ﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾؛ لأنه متصلٌ بالأمر. وكان عليّ وابن مسعود وغيرهم يسجدون عند قوله: «تَعْبُدُونَ». وقال ابن وهب والشافعي: موضعُه ﴿وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ﴾ لأنه تمامُ الكلام وغايةُ العبادة والامتثال. وبه قال أبو حنيفة. وكان ابن عباس يسجد عند قوله: «يَسْأَمُونَ». وقال ابن عمر: السجدة[٦] بالآخرة منهما. وكذلك يُروى عن مسروق وأبي عبد الرحمن السُّلمي وإبراهيم النخعي وأبي صالح ويحيى بن وثَّاب وطلحة وزُبيد اليامِيَّين والحسن وابن سيرين. وكان أبو وائل وقتادة

---

(١) المحرر الوجيز ٥/ ١٧ .

(٢) معاني القرآن للنحاس ٦/ ٢٧٢ .

(٣) وقع في النسخ قوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ في هذا الموضع، وحقُّه أن يُذكر بعد قوله: فيما لا يعقل الآتي.

(٤) في (د) و(م): التكثير، وينظر الكلام في التفسير البغوي ٤/ ١١٥ ، والدر المصون ٩/ ٥٢٨ .

(٥) ديوان زهير ص ٢٩ ، وسلف ٤/ ٤٥٦ .

(٦) في (م): اسجدوا.

وبكر بن عبد الله يسجدون عند قوله: «يَسْأَمُونَ». قال ابن العربي[١]: والأمر قريب.

مسألة: ذكر ابن خُوَيْز مَنْدَاد: أن هذه الآيةَ تضمَّنت صلاةَ كسوف القمر والشمس؛ وذلك أن العربَ كانت تقول: إن الشمسَ والقمرَ لا يَكْسِفان إلا لموت عظيم، فصلَّى النبيّ ﷺ صلاةَ الكسوف.

قلت: صلاةُ الكسوف ثابتةٌ في الصحاح البخاري ومسلم وغيرهما[٢]. واختلفوا في كيفيتها اختلافاً كثيراً، لاختلاف الآثار، وحسبُك ما في «صحيح» مسلم من ذلك، وهو العُمدة في الباب.

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً﴾ الخطاب لكل عاقل، أي: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ الدالَّة على أنه يُحيي الموتى ﴿أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً﴾ أي: يابسة جدبة، هذا وصفُ الأرض بالخشوع؛ قال النابغة:

رمادٌ كَكُحْلِ العينِ لأياً أُبِينُهُ ... وَنُؤْيٌ كَجِذْمِ الحَوْضِ أَثْلَمُ خاشِعُ[٣]

والأرض الخاشعة: الغبراء التي تنبت. وبلدة خاشعة: أي: مغبرة لا منزلَ بها. ومكانٌ خاشع[٤]. ﴿فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ﴾ أي: بالنبات؛ قاله مجاهد[٥]. يقال: اهتزَّ الإنسان، أي: تحرَّك؛ ومنه:

تَراه كَنَصْلِ السيف يَهْتَزُّ لِلنَّدى ... إذا لم تَجِدْ عِند امرِئ السَّوْءِ مَطْمَعا[٦]

(١) في أحكام القرآن ٤/ ١٦٥٢ ، وما قبله منه دون ذكر أبي حنيفة وزبيد اليامي. وقول أبي حنيفة ذكره الزمخشري في الكشاف ٣/ ٤٥٤ .

(٢) صحيح البخاري (١٠٤٤)، وصحيح مسلم (٩٠١)، من حديث عائشة رضي الله عنهما، وهو في مسند أحمد (٢٥٣١٣)، وفي الباب عن عدد من الصحابة رضوان الله عليهم، تُنظر في مسند أحمد.

(٣) ديوان النابغة ٧٩ ، وسلف ٢/ ٧٠ ، والنُّؤيُ: حَفيرة تُحفر حول الخباء، ويُجعل ترابها حاجزاً لئلا يدخله المطر. والجِذْم: الأصل. خزانة الأدب ٢/ ٤٥٣ .

(٤) الصحاح (خشع).

(٥) أخرجه الطبري ٢٠/ ٤٣٨ .

(٦) قائله متمم بن نُويرة، وهو في الكامل للمبرد ٣/ ١٤٤١ . ومعاني القرآن للنحاس ٦/ ٢٧٢ - ٢٧٣ ، وما قبله منه.

﴿وَرَبَتْ﴾ أي: انتفخَتْ وَعَلَتْ قبلَ أن تَنبُتَ؛ قاله مجاهد[١]. أي: تصعدت عن النبات بعد موتها. وعلى هذا التقدير يكون في الكلام تقديمٌ وتأخير وتقديره: رَبَتْ واهتزت[٢]. والاهتزاز والرُّبُوُّ قد يكونان قبلَ الخروج من الأرض؛ وقد يكونان بعد خروج النبات إلى وجه الأرض؛ فَرُبُوُّها ارتفاعُها. ويقال للموضع المرتفع: ربوة ورابية؛ فالنبات يتحرك للبروز، ثم يزداد في جسمه بالكِبَر طولاً وعرضاً.

وقرأ أبو جعفر وخالد: «وَرَبَأَتْ» ومعناه: عَظُمَتْ؛ من الربيئة[٣]. وقيل: «اهْتَزَّتْ» أي: استبشرت بالمطر «وَرَبَتْ» أي: انتفخت بالنبات. والأرض إذا انشقَّت بالنبات: وُصِفَتْ بالضَّحِك، فيجوز وَصْفُها بالاستبشار أيضاً. ويجوز أن يقال: الرُّبُوُّ والاهتزاز واحد؛ وهي حالة خروج النبات. وقد مضى هذا المعنى في «الحج»[٤].

﴿إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ تقدَّم في غير موضع.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا﴾ أي: يميلون عن الحق في أدِلَّتنا[٥]. والإلحاد: المَيْل والعُدول. ومنه اللَّحد في القبر؛ لأنه أميلُ إلى ناحية منه. يقال: ألحدَ في دين الله، أي: حاد عنه وعَدَلَ. ولَحَدَ لغةٌ فيه. وهذا يرجع إلى الذين قالوا:

---

(١) أخرجه الطبري ٢٠/٤٣٩ .

(٢) النكت والعيون ٥/ ١٨٤ .

(٣) معاني القرآن للنحاس ٦/٢٧٣ ، وقراءة أبي جعفر من العشرة في النشر ٢/ ٣٢٥ .

(٤) ١٤/٣٢٤ - ٣٢٥ .

(٥) تفسير البغوي ٤/١١٦ .

﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ﴾ وهم الذين ألحدوا في آياته ومالوا عن الحقّ فقالوا: ليس القرآن من عند الله، أو هو شِعر أو سحر؛ فالآياتُ آيات القرآن.

قال مجاهد: «يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا» يُكذِّبون في آياتنا. أي: عند تلاوة القرآن بالمُكَاءِ والتَّصْدِيةِ واللَّغوِ والغِناء. وقال ابن عباس: هو تبديلُ الكلام ووضعه في غير موضعه. وقال قتادة: «يُلْحِدُونَ في آياتِنَا»: يُكذِّبون في آياتنا. وقال السدي: يُعاندون ويشاقُّون. وقال ابن زيد: يُشركون ويكذبون. والمعنى متقارب. وقال مقاتل: نزلت في أبي جهل(١).

وقيل: الآياتُ المعجزات، وهو يرجع إلى الأوّل، فإن القرآن مُعجِزٌ.

﴿أَفَمَن يُلْقَىٰ فِي ٱلنَّارِ﴾ على وجهه، وهو أبو جهل في قول ابن عباس وغيره ﴿خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِيٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ قيل: النبي ﷺ؛ قاله مقاتل. وقيل: عثمان. وقيل: عمار بن ياسر. وقيل: حمزة. وقيل: عمر بن الخطاب. وقيل: أبو سلمة بن عبد الأسد المخزومي. وقيل: المؤمنون. وقيل: إنها على العموم؛ فالذي يلقى في النار الكافر، والذي يأتي آمناً يومَ القيامة المؤمن؛ قاله ابن بحر(٢).

﴿ٱعْمَلُواْ مَا شِئْتُمْ﴾ أمر تهديد؛ أي: بعد ما علمتم أنهما لا يستويان فلا بدَّ لكم من الجزاء. ﴿إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ وعيدٌ بتهديد وتوعُّد(٣).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ﴾ الذِّكر ها هنا القرآن في قول الجميع؛ لأن فيه ذِكْرَ ما يُحتاج إليه من الأحكام. والخبر محذوف [تقديره](٤): هالكون أو معذَّبون. وقيل: الخبر ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [الآية: ٤٤] واعترضَ قولُه: «ما يُقال لك» ثم رَجَعَ إلى الذِّكر فقال: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا﴾ ثم قال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ﴾ والأوّلُ الاختيار؛ قال النحاس(٥): عند النحويين جميعاً

(١) الأقوال السابقة في النكت والعيون ٥/ ١٨٤، وتفسير البغوي ٤/ ١١٦.
(٢) الأقوال السابقة في المصدرين السابقين ما عدا قوله: أبو سلمة بن عبد الأسد المخزومي.
(٣) النكت والعيون ٥/ ١٨٥.
(٤) ما بين حاصرتين زيادة ليست في النسخ.
(٥) في معاني القرآن ٦/ ٢٧٥، وما قبله فيه بنحوه.

فيما علمت.

﴿وَإِنَّهُ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ﴾ أي: عزيز على الله؛ قاله ابن عباس؛ وعنه: عزيز من عند الله. وقيل: كريم على الله. وقيل: «عَزِيزٌ» أي: أعزَّه الله فلا يتطرّق إليه باطل. وقيل: ينبغي أن يُعَزَّ ويُجَلّ وألا يُلغى فيه. وقيل: «عَزِيزٌ» من الشيطان أن يُبدِّله؛ قاله السدي. مقاتل: مُنع من الشيطان والباطل. السدي: غير مخلوق فلا مثلَ له. وقال ابن عباس أيضاً: «عَزِيزٌ» أي: ممتنع عن الناس أن يقولوا مثله[1].

﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ أي: لا يُكذبه شيء مما أنزلَ الله من قبلُ، ولا ينزلُ من بعده كتابٌ يُبطله وينسخُه؛ قاله الكلبي. وقال السدي وقتادة: «لا يَأْتِيهِ الباطلُ» يعني الشيطان ﴿مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ لا يستطيع أن يُغيِّر ولا يزيد ولا ينقص[2].

وقال سعيد بن جُبير: لا يأتيه التكذيب ﴿مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾. ابن جُريج: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ﴾ فيما أخبر عما مضى ولا فيما أخبر عما يكون[3]. وعن ابن عباس: «مِنْ بين يَدَيْهِ» من الله تعالى «وَلَا مِنْ خَلْفِهِ» يريد من جبريل ﷺ، ولا من محمد ﷺ.

﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ ابن عباس: «حَكِيم» في خلقه «حَمِيد» إليهم. قتادة: «حَكِيم» في أمره «حَمِيد» إلى خلقه[4].

قوله تعالى: ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ﴾ أي: من الأذى والتكذيب ﴿إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾ يُعزِّي نبيه ويُسلِّيه ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ﴾ لك ولأصحابك ﴿وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾ يريد: لأعدائك وجيعاً. وقيل: أي: ما يقال لك من إخلاص العبادة لله إلا ما قد أُوحي إلى مَن قبلك، ولا خِلاف بين الشرائع فيما يتعلَّق بالتوحيد، وهو كقوله:

---

(١) الأقوال السالفة في المحرر الوجيز ٥/ ١٩ ، والنكت والعيون ٥/ ١٨٥ ، وتفسير البغوي ٤/ ١١٦ .

(٢) تفسير البغوي ٤/ ١١٦ بنحوه.

(٣) النكت والعيون ٥/ ١٨٥ ، وزاد المسير ٧/ ٢٦٢ .

(٤) النكت والعيون ٥/ ١٨٦ .

﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥] أي: لم تدعهم إلا إلى ما تدعو إليه جميعَ الأنبياء، فلا معنى لإنكارهم عليك. وقيل: هو استفهامٌ، أي: أيّ شيء يقال لك ﴿إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾؟

وقيل: «إِنَّ رَبَّكَ» كلامٌ مبتدأ، وما قبله كلامٌ تامٌّ إذا كان الخبر مضمراً. وقيل: هو متصل بـ «ما يقال لكَ»(١). ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾ أي: إنما أُمِرْتَ بالإنذار والتبشير.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ﴾

فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا﴾ أي: بلغة غير العرب ﴿لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ﴾ أي: بُيِّنَت بلغتنا، فإننا عربٌ لا نفهم الأعجميَّةَ. فبين أنه أنزله بلسانهم ليتقرَّر به معنى الإعجاز؛ إذ هم أعلمُ الناس بأنواع الكلام نَظْماً ونثراً. وإذا عَجَزوا عن مُعارضته كان من أدلِّ الدليل على أنه من عند الله، ولو كان بلسان العجم لقالوا: لا عِلْمَ لنا بهذا اللسان.

الثانية: وإذا ثبت هذا ففيه دليلٌ على أن القرآن عربي، وأنه نزل بلغة العرب، وأنه ليس أعجميًّا، وأنه إذا نُقِلَ عنها إلى غيرها لم يكن قرآناً(٢).

الثالثة: قوله تعالى: ﴿ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ﴾ وقرأ أبو بكر وحمزة والكسائي: «ءَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ» بهمزتين مُحقَّقتين(٣)، والعجميّ الذي ليس من العرب كان فصيحاً أو غيرَ

---

(١) بعدها في (ظ): أي: إنما يقال لك.

(٢) أحكام القرآن للكيا ٤/ ٣٦٣.

(٣) في النسخ: مخففتين، وهو خطأ، والمثبت من كتب القراءات، ينظر السبعة ص ٥٧٧، والتيسير ص١٩٣.

فصيح، والأعجميُّ الذي لا يُفصح كان من العرب أو من العجم[١]. فالأعجم ضدُّ الفصيح، وهو الذي لا يُبين كلامه. ويقال للحيوان غير الناطق: أعجم، ومنه «صلاةُ النهار عَجْماء»[٢] أي: لا يُجهر فيها بالقراءة، فكانت النسبة إلى الأعجم آكَدَ، لأن الرجل العجمي الذي ليس من العرب قد يكون فصيحًا بالعربية، والعربيّ قد يكون غيرَ فصيح؛ فالنسبة إلى الأعجميّ آكدُ في البيان.

والمعنى: أقرآنٌ أعجميٌّ، ونبيٌّ عربي؟ وهو استفهامُ إنكار[٣].

وقرأ الحسن وأبو العالية ونصر بن عاصم والمغيرة وهشام عن ابن عامر: «أَعْجَمِيٌّ» بهمزة واحدة على الخبر[٤]. والمعنى: «لولا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ» فكان منهم عربيّ يفهمه العرب، وأعجميٌّ يفهمه العَجَم. وروى سعيد بن جُبير قال: قالت قريش: لولا أُنزل القرآنُ أعجميًّا وعربيًّا، فيكون بعضُ آياته عجميًّا وبعضُ آياته عربيًّا، فنزلت الآيةُ. وأُنزل في القرآن من كل لغة فمنه «السِّجِّيل» وهي فارسيةٌ، وأصلُها سنكَيل؛ أي: طين وحجر[٥]، ومنه «الفِرْدَوس» رومية، وكذلك «القِسْطَاس».

وقرأ أهلُ الحجاز وأبو عمرو وابن ذكوان وحفص على الاستفهام، إلا أنهم ليَّنُوا الهمزة على أصولهم[٦]. والقراءة الصحيحة قراءة الاستفهام. والله أعلم.

---

(١) المحرر الوجيز ٥/ ٢٠ .

(٢) قال السخاوي في المقاصد الحسنة (٦٢٨): قال النووي: إنه باطل، لا أصل له، وكذا قال الدارقطني: لم يُروَ عن النبي ﷺ، وإنما هو من قول بعض الفقهاء.

(٣) تفسير البغوي ٤/ ١١٧ .

(٤) قراءة هشام عن ابن عامر في التيسير ص ١٩٣ . وقراءة الحسن في المحرر الوجيز ٥/ ٢٠ .

(٥) أخرجه الطبري ٢٠/ ٤٤٨ بنحوه. وفي المعجم الفارسي: سنكين، بالنون.

(٦) قرأ قالون وأبو عمرو وأبو جعفر بتحقيق الهمزة الأولى وتسهيل الثانية مع إدخال ألف بينهما، وقرأ ابن كثير وابن ذكوان وحفص ورُويس بتحقيق الأولى وتسهيل الثانية من غير إدخال ألف، وسلفت قراءة هشام، وقرأ الباقون: بتحقيق الأولى والثانية من غير إدخال. السبعة ص ٥٧٦ - ٥٧٧ ، والتيسير ص١٩٣ ، والنشر ١/ ٣٦٦ .

قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ﴾ أعلمَ اللهُ أن القرآن هُدًى وشفاءٌ لكل من آمن به من الشكِّ والرِّيب والأوجاع. ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ﴾ أي: صَمَمٌ عن سماع القرآن. ولهذا تواصَوْا باللَّغو فيه. ونظير هذه الآية: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّـٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢] وقد مضَى مستوفى.

وقراءة العامة ﴿عَمًى﴾ على المصدر. وقرأ ابن عباس وعبد الله بن الزبير وعمرو ابن العاص ومعاوية وسليمان بن قَتَّة: «وهو عليهم عَمٍ» بكسر الميم[(١)]، أي: لا يتبيَّن لهم. واختار أبو عُبيد القراءةَ الأُولى؛ لإجماع الناس فيها؛ ولقوله أوّلاً: «هُدًى وَشِفَاءٌ» ولو كان: هادٍ وشافٍ، لكان الكسر في «عَمًى» أجودَ؛ ليكون نعتاً مثلَهما[(٢)]؛ تقديره: «والذين لا يؤمِنونَ» في ترك قبوله بمنزلة مَنْ في آذانهم «وقرٌ وهو» يعني القرآن «عليهم» ذو عمى، لأنهم لا يفقهون فحذف المضاف. وقيل: المعنى: والوَقْر عليهم عمى[(٣)].

﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ يقال ذلك لمن لا يفهم من التمثيل. وحكى أهلُ اللغة أنه يقال للذي يفهم: أنت تسمع من قريب. ويقال للذي لا يفهم: أنت تُنادَى من بعيد. أي: كأنه يُنادى من موضع بعيد منه، فهو لا يسمع النداء ولا يفهمه. وقال الضحاك: «يُنَادَوْنَ» يوم القيامة بأقبح أسمائهم «مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ» فيكون ذلك أشدَّ لتوبيخهم وفضيحتهم[(٤)].

وقيل: أي: من لم يتدبَّر القرآن صار كالأعمى الأصمّ، فهو يُنادى من مكان بعيد فينقطع صوتُ المنادي عنه وهو لم يسمع. وقال علي ﷺ ومجاهد: أي: بعيد من قلوبهم. وفي التفسير: كأنما يُنادَوْن من السماء فلا يسمعون. وحكى معناه النقاش[(٥)].

---

(١) المحرر الوجيز ٥/ ٢١.

(٢) تفسير الرازي ٢٧/ ١٣٤.

(٣) معاني القرآن للنحاس ٦/ ٢٨٠.

(٤) معاني القرآن للنحاس ٦/ ٢٨٠ - ٢٨١ ، وقول الضحاك أخرجه الطبري ٢٠/ ٤٥١.

(٥) النكت والعيون ٥/ ١٨٧.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِۗ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ۝٤٥ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَاۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ۝٤٦﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ يعني التوراة ﴿فَٱخْتُلِفَ فِيهِۗ﴾ أي: آمن به قومٌ وكذَّب به قوم. والكناية ترجِع إلى الكتاب، وهو تسليةٌ للنبي ﷺ؛ أي: لا يحزنك اختلافُ قومك في كتابك، فقد اختلَف مَن قبلهم في كتابهم[١]. وقيل: الكناية ترجع إلى موسى.

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ أي: في إمهالهم. ﴿لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾ أي: بتعجيل العذاب. ﴿وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ﴾ من القرآن ﴿مُرِيبٍ﴾ أي: شديد الريبة. وقد تقدَّم[٢].

وقال الكلبي في هذه الآية: لولا أن الله أخَّر عذابَ هذه الأُمة إلى يوم القيامة لأتاهم العذابُ كما فعل بغيرهم من الأُمم. وقيل: تأخيرُ العذاب لِمَا يخرج من أصلابهم من المؤمنين.

قوله تعالى: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦۖ﴾ شرطٌ وجوابه، وكذا ﴿وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَاۗ﴾. والله جلّ وعزّ مُستغنٍ عن طاعة العباد، فمن أطاع فالثواب له، ومن أساء فالعقاب عليه. ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ نَفى الظُّلمَ عن نفسه جلّ وعزّ قليلَه وكثيرَه، وإذا انتفت المبالغة انتفى غيرها، دليلُه قوله الحق: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا﴾ [يونس: ٤٤]. وروى العُدول الثِّقات، والأئمة الأثبات، عن الزاهد العدل، عن أمين الأرض، عن أمين السماء، عن الرب جل جلاله: «يا عبادي، إني حرَّمتُ الظُّلمَ على نفسي، وجعلتُه بينكم محرَّماً، فلا تَظالموا» الحديث[٣]. وأيضًا فهو الحكيم المالك، وما يفعله

---

(١) زاد المسير ٧/ ٢٦٤ بنحوه.

(٢) ١١/ ١٥٣ .

(٣) قطعة من حديث أبي ذر ﷺ، أخرجه مسلم (٢٥٧٧)، وسلف ٥/ ٤٣٠ .

المالك في مُلْكه لا اعتراضَ عليه؛ إذ له التصرف في مُلْكه بما يُريد.

قوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى قَالُوٓا۟ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ ﴿٤٧﴾ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَدْعُونَ مِن قَبْلُ وَظَنُّوا۟ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٤٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ أي: حين وقتها. وذلك أنهم قالوا: يا محمد، إن كنت نبيًّا فخبِّرنا متى قيامُ الساعة فنزلت[١]. ﴿وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ﴾ «مِنْ» زائدة، أي: وما تخرج ثمرة. ﴿مِّنْ أَكْمَامِهَا﴾ أي: من أوعيتها، فالأكمام أوعيةُ الثمرة، واحدُها كُمّة، وهي كل ظرف لمال أو غيره؛ ولذلك سمّى قِشْر الطَّلْع ـ أعني كُفُرّاه ـ الذي ينشقُّ عن الثمرة كُمَّةً؛ قال ابن عباس: الكُمّة الكُفُرَّى قبل أن تنشقَّ، فإذا انشقَّتْ فليست بكمَّة[٢]. وسيأتي لهذا مزيد بيان في سورة «الرحمن»[٣].

وقرأ نافع وابن عامر وحفص: «مِنْ ثَمَرَاتٍ» على الجمع. الباقون: «ثَمَرَة» على التوحيد[٤]، والمراد الجمع، لقوله: ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ﴾ والمراد الجمع، يقول: «إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْم الساعةِ» كما يُرَدُّ إليه علمُ الثمار والنتاج. ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ﴾ أي: ينادي اللهُ المشركين: ﴿أَيْنَ شُرَكَآءِى﴾ الذين زعمتم في الدنيا أنها آلهةٌ تشفع. ﴿قَالُوٓا۟﴾ يعني الأصنام. وقيل: المشركون. ويَحتمِلُ أن يريدَهم جميعًا؛ العابد والمعبود: ﴿ءَاذَنَّٰكَ﴾ أسمعناكَ وأعلمناكَ[٥]. يقال:

آذنَ يُؤْذِنُ: إذا أعلم، قال:

آذَنَتْنَا بِبَيْنِها أَسْماءُ ... رُبَّ ثَاوٍ يُمَلُّ منه الثَّوَاءُ[٦]

(١) زاد المسير ٧/ ٢٦٤ .

(٢) تفسير البغوي ٤/ ١١٧ .

(٣) في تفسير الآية (١١).

(٤) السبعة ص ٥٧٧ ، والتيسير ص ١٩٤ .

(٥) تفسير البغوي ٤/ ١١٧ بنحوه.

(٦) قائله الحارث بن حِلِّزة اليشكري، والبيت مطلع معلقته. شرح القصائد المشهورات للنحاس ص ٥١ .

﴿مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ﴾ أي: نُعلِمُكَ ما منا أحدٌ يشهد بأن لك شريكاً؛ لمَّا عاينوا القيامةَ تبرَّؤوا من الأصنام[١]، وتبرأتِ الأصنامُ منهم كما تقدّم في غير موضع[٢].

﴿وَضَلَّ عَنْهُم﴾ أي: بَطَلَ عنهم ﴿مَّا كَانُوا۟ يَدْعُونَ مِن قَبْلُ﴾ في الدنيا ﴿وَظَنُّوا۟﴾ أي: أيقنوا وعَلِموا ﴿مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾ أي: فرار عن النار. و«مَا» هنا حرف وليس باسم؛ فلذلك لم يعمل فيه الظنّ وجعل الفعل ملغى[٣]؛ تقديره: وظنوا أنهم ما لهم محيص ولا مهرب. يقال: حاص يَحيص حَيْصاً ومَحيصاً، إذا هرب. وقيل: إن الظنَّ هنا الذي هو أغلبُ الرأي، لا يشكون في أنهم أصحاب النار، ولكن يطمعون أن يخرجوا منها. وليس يبعد أن يكون لهم ظنٌّ ورجاءٌ إلى أن يُؤَيَّسوا.

قوله تعالى: ﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَـٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَـٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَـٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ﴾ أي: لا يَمَلُّ من دعائه بالخير. والخير هنا المال والصحة والسُّلطان والعِزّ. قال السدي: والإنسان هاهنا يُراد به الكافر[٤]. وقيل: الوليد بن المغيرة. وقيل: عتبة وشيبة ابنا ربيعة وأمية بن خلف. وفي قراءة عبد الله: «لا يسأمُ الإنسانُ مِنْ دُعاءِ المال»[٥].

(١) تفسير البغوي ٤/ ١١٧ .

(٢) ١٦/ ٣٠٣ وما بعدها.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٦٧ .

(٤) النكت والعيون ٥/ ١٨٨ .

(٥) الكلام بنحوه في المحرر الوجيز ٥/ ٢٢ ، وفيه أن قراءة ابن مسعود ﷺ: «من دعاءِ بالخير» وهي كذلك في القراءات الشاذة ص ١٣٣ ، والكشاف ٣/ ٤٥٧ .

﴿وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ﴾ الفقر والمرض ﴿فَيَـُٔوسٌ﴾ من رَوْح الله ﴿قَنُوطٌ﴾ من رحمته[١]. وقيل: «يؤوسٌ» من إجابة الدعاء «قنوطٌ» بسوء الظن بربه[٢]. وقيل: «يؤوسٌ» أي: يئس من زوال ما به من المكروه «قنوطٌ» أي: يظنُّ أنه يدوم؛ والمعنى متقارب.

قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا﴾ عاقبةً ورخاء وغِنًى ﴿مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ﴾ ضُرّ وسُقْم وشِدَّة وفَقْر. ﴿لَيَقُولَنَّ هَـٰذَا لِى﴾ أي: هذا شيء أستحقه على الله لرضاه بعملي؛ فيرى النعمة حتماً واجباً على الله تعالى، ولم يعلم أنه ابتلاه بالنعمة والمحنة؛ ليتبيَّن شكره وصبره. وقال ابن عباس: «هذا لِي» أي: هذا من عندي.

﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾ أي: الجنة، واللام للتأكيد؛ يتمنَّى الأماني بلا عمل. قال الحسن بن محمد بن علي بن أبي طالب: للكافر أمنيتان؛ أما في الدنيا فيقول: ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾، وأما في الآخرة فيقول: ﴿يَـٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنعام: ٢٧] و﴿يَـٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا﴾[٣] [النبأ: ٤٠].

﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟﴾ أي: لَنَجْزِيَنَّهم. قسمٌ أقسمَ اللهُ عليه. ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ شديد.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ﴾ يريد الكافر ﴿أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ﴾. وقال ابن عباس: يريد عُتبةَ بن ربيعةَ وشيبة بن ربيعة وأميةَ بن خلف، أعرضوا عن الإسلام وتباعدوا عنه.

ومعنى «نَأى بِجَانِبِهِ» أي: ترفَّع عن الانقياد إلى الحق وتكبر على أنبياء الله. وقيل: «نَأى» تباعد. يقال: نأيته ونأيتُ عنه نأيًا بمعنى: تباعدت عنه، وأنأيته فانتأى: أبعدته فبعُد، وتناءَوا تباعدوا، والمُنتأى الموضع البعيد؛ قال النابغة:

---

(١) تفسير البغوي ٤/١١٨.
(٢) النكت والعيون ٥/١٨٨.
(٣) ذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/٢٢ مختصراً.

فإنَّك كالليل الذي هو مُدْرِكي ... وإنْ خِلْتُ أنَّ المُنْتَأى عنكَ واسِعُ[(١)]

وقرأ يزيد بن القعقاع: «ونَاءَ بِجَانِبِهِ» بالألف قبل الهمزة[(٢)]. فيجوز أن يكون من «ناء» إذا نهض. ويجوز أن يكون على قلب الهمزة بمعنى الأوّل[(٣)].

﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ﴾ أي: أصابه المكروه ﴿فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ﴾ كثير، والعرب تستعمل الطول والعرض في الكثرة. يقال: أطال فلان في الكلام، وأعرض في الدعاء إذا أكثر[(٤)]. وقال ابن عباس: «فَذُوا دُعَاءٍ عَرِيض» فذو تضرع واستغاثة. والكافر يعرف ربه في البلاء ولا يعرفه في الرَّخاء[(٥)].

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ ۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ ﴿٥٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ﴾ أي: قل لهم يا محمد: «أرأيتُمْ» يا مَعْشَرَ المشركين ﴿إِن كَانَ﴾ هذا القرآن ﴿مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ﴾ أي: فأيُّ الناسِ أضلُّ، أي: لا أحدَ أضلُّ منكم لفرطِ شقاقكم وعداوتكم[(٦)]. وقيل: قوله: ﴿إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ يرجع إلى الكتاب المذكور في قوله: ﴿ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ والأوّل أظهرُ، وهو قولُ ابن عباس.

قوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ﴾ أي: علامات وحدانيتنا وقُدرتنا «في

---

(١) ديوان النابغة ص ٨١ ، والبيت وما قبله من الصحاح (نأي).

(٢) وقرأ بها ابن عامر في رواية ابن ذكوان. السبعة ص ٥٧٧ ، والتيسير ص ١٤١ ، والنشر ٢/٣٠٨ .

(٣) معاني القرآن للنحاس ٦/ ٢٨٥ .

(٤) تفسير البغوي ٤/١١٨ .

(٥) النكت والعيون ٥/ ١٨٩ .

(٦) زاد المسير ٧/ ٢٦٧ بنحوه.

الآفَاقِ» يعني: خرابَ منازل الأُمم الخالية ﴿وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ بالبلايا والأمراض[١]. وقال ابن زيد: «فِي الآفَاقِ» آيات السماء «وَفِي أَنْفُسِهِمْ» حوادث الأرض[٢]. وقال مجاهد: «فِي الْآفَاقِ» فتح القرى[٣]؛ فيسَّرَ الله عز وجل لرسوله ﷺ وللخلفاء من بعده وأنصار دينه في آفاق الدنيا وبلاد المشرق والمغرب عموماً، وفي ناحية المغرب خصوصاً من الفتوح التي لم يتيسَّر أمثالُها لأحد من خلفاء الأرض قبلهم، ومن الإظهار على الجبابرة والأكاسرة وتغليب قليلهم على كثيرهم، وتسليط ضعفائهم على أقويائهم، وإجرائه على أيديهم أموراً خارجةً عن المعهود خارقةً للعادات[٤]. «وَفِي أَنْفُسِهِمْ» فتح مكة. وهذا اختيار الطبري[٥]. وقاله المِنهال بن عمرو والسدي[٦].

وقال قتادة والضحاك: «فِي الْآفَاقِ» وقائع الله في الأُمم «وَفِي أَنْفُسِهِمْ» يوم بدر. وقال عطاء وابن زيد أيضاً: «فِي الْآفَاقِ» يعني أقطار السماوات والأرض من الشمس والقمر والنجوم والليل والنهار والرياح والأمطار والرعد والبرق والصواعق والنبات والأشجار والجبال والبحار وغيرها[٧]. وفي «الصحاح»[٨]: الآفاق النواحي، واحدها أُفْقٌ وَأُفُقٌ مثل: عُسْر وعُسُر، ورجل أَفَقِيّ؛ بفتح الهمزة والفاء: إذا كان من آفاق الأرض. حكاه أبو نصر. وبعضهم يقول: أُفُقِيّ، بضمهما، وهو القياس. وأنشد غير الجوهري:

أَخَذْنَا بِآفَاقِ السَّماءِ عَلَيكُمُ ... لنا قَمَراها والنُّجُومُ الطَّوالِعُ[٩]

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ١١٨ .
(٢) النكت والعيون ٥/ ١٨٩ دون نسبة.
(٣) تفسير أبي الليث ٣/ ١٨٨ ، وتفسير البغوي ٤/ ١١٨ .
(٤) الكشاف ٣/ ٤٥٨ .
(٥) في تفسيره ٢٠/ ٤٦٢ .
(٦) أخرجه الطبري ٢٠/ ٤٦١ .
(٧) تفسير البغوي ٤/ ١١٨ - ١١٩ .
(٨) الصحاح (أفق).
(٩) قائله الفرزدق، وهو في ديوانه ١/ ٤١٩ .

«وَفِي أَنْفُسِهِمْ» من لطيف الصنعة وبديع الحكمة حتى سبيل الغائط والبول؛ فإن الرجل يشرب ويأكل من مكان واحد ويتميز ذلك من مكانين[(١)]، وبديع صنعة الله وحكمته في عينيه اللتين هما قطرة ماء ينظر بهما من السماء إلى الأرض مسيرة خمس مئة عام، وفي أذنيه اللتين يفرق بهما بين الأصوات المختلفة. وغير ذلك من بديع حكمة الله فيه.

وقيل: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ من كونهم نُطَفًا إلى غير ذلك من انتقال أحوالهم[(٢)]، كما تقدّم في «المؤمنون» بيانه[(٣)]. وقيل: المعنى: سيَرْوْن ما أخبرهم به النبي ﷺ من الفتن وأخبار الغيوب ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ فيه أربعة أوجه: أحدها: أنه القرآن. والثاني: الإسلام جاءهم به الرسول ودعاهم إليه[(٤)]. والثالث: أن ما يريهم الله ويفعل من ذلك هو الحق. والرابع: أن محمداً ﷺ هو الرسول الحق.

﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ﴾ في: موضع رفع بأنه فاعل بـ «يَكْفِ» و﴿أَنَّهُۥ﴾ بدل من «رَبِّكَ» فهو رفع إن قدّرته بدلاً على الموضع، وجَرّ إن قدرته بدلاً على اللفظ. ويجوز أن يكون نصباً بتقدير حذف اللام، والمعنى: أولم يكفهم ربك بما دلهم عليه من توحيده؛ لأنه ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾، وإذا شهده جازى عليه. وقيل: المعنى: «أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ» في معاقبته الكفار. وقيل: المعنى: «أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ» يا محمد أنه شاهد على أعمال الكفار[(٥)].

وقيل: «أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ» شاهداً على أن القرآن من عند الله. وقيل: «أَوَ لَمْ يَكْفِ بِرِبِّكَ أَنَّه عَلَى كُلِّ شَيْءٍ» مما يفعله العبد «شَهِيدٌ»، والشهيد بمعنى العالم[(٦)]؛ أو

---

(١) زاد المسير ٧/ ٢٦٨ عن ابن زيد.

(٢) النكت والعيون ٥/ ١٨٩ .

(٣) ١٥/ ١٧ وما بعدها .

(٤) النكت والعيون ٥/ ١٨٩ .

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٦٨ .

(٦) تفسير أبي الليث ٣/ ١٨٨ بنحوه.

هو من الشهادة التي هي الحضور.

﴿أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ﴾ في شك ﴿مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ﴾ في الآخرة. وقال السدي: أي: من البعث. ﴿أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ﴾ أي: أحاط علمه بكل شيء. قاله السدي. وقال الكلبي: أحاطت قدرته بكل شيء[1].

وقال الخطابي: هو الذي أحاطت قدرته بجميع خلقه، وهو الذي أحاطَ بكل شيء علمًا، وأحصى كلَّ شيء عدداً. وهذا الاسم أكثرُ ما يجيء في مَعْرِض الوعيد، وحقيقتُه الإحاطةُ بكل شيء، واستئصال المُحاط به، وأصله مُحْيِط، نقلتْ حركةُ الياء إلى الحاء فسكنت. يقال منه: أحاط يُحيط إحاطةً وحِيْطةً؛ ومن ذلك حائطُ الدار، يحوطها أهلُها. وأحاطت الخيلُ بفلان: إذا أخِذ مأخذاً حاصراً من كل جهة، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ﴾ [الكهف: ٤٢] والله أعلم بصواب ذلك.

(١) النكت والعيون ٥/ ١٩٠ .

تفسير سورة فصلت[1]

وهى مكية.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝٢ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٣ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ۝٤ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ ۝٥﴾ .

يقول تعالى: ﴿حمٓ . تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ يعنى: القرآن منزل من الرحمن الرحيم، كقوله تعالى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ [النحل: ١٠٢]، وقوله: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ. نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ .عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٢ ـ ١٩٤] .

وقوله: ﴿كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ﴾ أى: بُينت معانيه وأحكمت أحكامه[2]، ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ أى: فى حال كونه لفظا عربيا، بينا واضحا، فمعانيه مفصلة، وألفاظه واضحة غير مشكلة، كقوله: ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: ١] أى: هو معجز من حيث لفظه ومعناه، ﴿لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢].

وقوله: ﴿لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أى: إنما يعرف هذا البيان والوضوح العلماءُ الراسخون، ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ أى: تارة يبشر المؤمنين، وتارة ينذر الكافرين، ﴿فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ أى: أكثر قريش، فهم لا يفهمون منه شيئا مع بيانه ووضوحه، ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ﴾ أى: فى غلف مغطاة ﴿مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ﴾ أى: صمم عما جئتنا به، ﴿وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ فلا يصل إلينا شىء مما تقول، ﴿فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ﴾ أى: اعمل أنت على طريقتك، ونحن على طريقتنا لا نتابعك.

قال الإمام العَلَم عبد بن حُمَيد فى مسنده: حدثنى ابن أبى شيبة، حدثنا على بن مُسْهِر، عن الأجلح، عن الذَّيَّال بن حَرْمَلة الأسدى، عن جابر بن عبد الله، رضى الله عنه، قال: اجتمعت قريش يوما فقالوا: انظروا أعْلَمكم بالسحر والكهانة والشعر، فليأت هذا الرجل الذى قد فرق جماعتنا، وشتت أمرنا، وعاب ديننا، فليكلمه ولننظر ماذا يرد عليه؟ فقالوا: ما نعلم أحدا غير عتبة ابن ربيعة. فقالوا: أنت يا أبا الوليد. فأتاه عتبة فقال: يا محمد، أنت خير أم عبد الله؟ فسكت رسول الله ﷺ، فقال: أنت خير أم عبد المطلب؟ فسكت رسول الله ﷺ، فقال: فإن كنت تزعم أن هؤلاء خير منك، فقد عبدوا الآلهة التى عِبْتَ، وإن كنت تزعم أنك خير منهم فتكلم حتى نسمع

---

(١) فى س: «تفسير حم السجدة».

(٢) فى أ: «آياته».

قولك، إنا والله ما رأينا سَخْلَةً قط أشأم على قومك[١] منك؛ فرقت جماعتنا، وشتت أمرنا، وعبت ديننا، وفضحتنا فى العرب، حتى لقد طار فيهم أن فى قريش ساحرًا، وأن فى قريش كاهنا! والله ما ننظر[٢] إلا مثل صيحة الحُبْلى أن يقوم بعضنا إلى[٣] بعض بالسيوف، حتى نتفانى! أيها الرجل، إن كان إنما بك الحاجة جمعنا لك حتى تكون أغنى قريش رجلا[٤]، وإن كان إنما بك الباءة فاختر أى نساء قريش [شئت][٥] فلنزوجك عشرا. فقال رسول الله ﷺ: «فَرَغْتَ؟» قال: نعم. فقال رسول الله ﷺ: ﴿**بسم الله الرحمن الرحيم. حمٓ . تنزيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ**﴾ حتى بلغ: ﴿ **فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ**﴾. فقال عتبة: حسبك! حسبك! ما عندك غير هذا؟ قال: «لا». فرجع إلى قريش، فقالوا: ما وراءك؟ قال: ما تركت شيئا أرى أنكم تكلمونه به إلا كلمته. قالوا: فهل أجابك؟ [قال: نعم، قالوا: فما قال؟][٦] قال: لا، والذى نصبها بَنِيَّةً ما فَهِمْتُ شيئا مما قال، غير أنه أنذركم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود. قالوا: ويلك! يكلمك الرجل بالعربية ما تدرى ما قال؟! قال: لا، والله ما فهمت شيئا مما قال غير ذكر الصاعقة.

وهكذا رواه الحافظ أبو يعلى الموصلى فى مسنده، عن أبى بكر بن أبى شيبة بإسناده، مثله سواء[٧].

وقد ساقه البغوى فى تفسيره بسنده عن محمد بن فُضَيل، عن الأجلح ـ وهو ابن عبد الله الكندى [الكوفى][٨] ـ وقد ضُعِّفَ بعض الشىء عن الذَّيَّال بن حرملة، عن جابر، فذكر الحديث إلى قوله: ﴿ **فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ**﴾ فأمسك عتبة على فيه، وناشده بالرحم، ورجع إلى أهله، ولم يخرج إلى قريش واحتبس عنهم. فقال أبو جهل: يا معشر قريش، والله ما نرى عتبة إلا قد صَبَا إلى محمد، وأعجبه طعامه، وما ذاك إلا من حاجة [قد][٩] أصابته، فانطلقوا بنا إليه. فانطلقوا إليه فقال أبو جهل: يا عتبة، ما حبسك عنا إلا أنك صبوت إلى محمد وأعجبك طعامه، فإن كانت لك[١٠] حاجة جمعنا لك من أموالنا ما يغنيك عن طعام محمد. فغضب عتبة، وأقسم ألا يكلم محمداً أبدا، وقال: والله، لقد علمتم أنى من أكثر قريش مالا، ولكنى أتيته وقصصت عليه [القصة][١١] فأجابنى بشىء والله ما هو بشعر ولا كهانة ولا سحر، وقرأ السورة إلى قوله: ﴿ **فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ**﴾، فأمسكتُ بفيه، وناشدته بالرحم أن يكف، وقد علمتم أن محمدا إذا قال شيئا لم يكذب، فخشيت أن ينزل بكم العذاب[١٢].

وهذا السياق أشبه من سياق البزار وأبى يعلى، والله أعلم.

وقد أورد هذه القصة الإمام محمد بن إسحاق بن يسار فى كتاب السيرة على خلاف هذا النمط، فقال:

(١) فى س: «جماعته». (٢) فى س: «ننتظر». (٣) فى أ: «على».
(٤) فى س، أ: «رجلا واحدا». (٥) زيادة من س، أ. (٦) زيادة من أ.
(٧) المنتخب لعبد بن حميد برقم (١١٢١) ومسند أبى يعلى (٣/٣٤٩) وفى إسناده الأجلح الكندى ضعفه النسائى وغيره.
(٨) زيادة من س، أ. (٩) زيادة من أ. (١٠) فى س، أ: «بك».
(١١) زيادة من س، أ.
(١٢) معالم التنزيل للبغوى (٧/١٦٧).

حدثنى يزيد بن زياد، عن محمد بن كعب القُرَظى قال: حُدِّثْتُ أن عتبة بن ربيعة ـ وكان سيدا ـ قال يوما وهو جالس فى نادى قريش، ورسول الله ﷺ جالس فى المسجد وحده: يا معشر قريش ألا أقوم إلى محمد فأكلمه وأعرض عليه أمورا لعله يقبل بعضها، فنعطيه أيَّها شاء ويكف عنا؟ وذلك حين أسلم حمزة، ورأوا أصحاب رسول الله ﷺ يزيدون ويكثرون، فقالوا: بلى يا أبا الوليد، فقم إليه فكلمه[1]. فقام إليه عتبة حتى جلس إلى رسول الله ﷺ فقال: يا ابن أخى، إنك منا حيث قد علمت من السِّطَة فى العشيرة، والمكان فى النسب، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم، فرقت به جماعتهم، وسفهت به أحلامهم، وعبت به آلهتهم ودينهم، وكفرت به من مضى من آبائهم، فاسمع منى أعرض عليك أمورا تنظر فيها لعلك تقبل منا بعضها. قال: فقال له رسول الله ﷺ: «قل يا أبا الوليد، أسمع». قال: يا ابن أخى، إن كنت إنما تريدُ بما جئتَ به من[2] هذا الأمر مالا، جمعنا لك من أموالنا حتى تكون من أكثرنا أموالا[3]. وإن كنت تريد به شرفا سودناك علينا، حتى لا نقطع أمراً دونك. وإن كنت تريد به ملكا ملكناك علينا. وإن كان هذا الذى يأتيك رَئِيّا تراه لا تستطيع رده عن نفسك، طلبنا لك الطب، وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يُدَاوَى منه ـ أو كما قال له ـ حتى إذا فرغ عتبة ورسول الله ﷺ يستمع منه قال: «أفرغت يا أبا الوليد؟». قال: نعم. قال: «فاستمع منى» قال: أفعل. قال: ﴿ **بسم الله الرحمن الرحيم .حمٓ . تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ .كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ . بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ** ﴾. ثم مضى رسول الله ﷺ فيها يقرؤها عليه. فلما سمع عتبة أنصت لها، وألقى يديه خلف ظهره معتمدا عليهما يسمع منه، ثم انتهى رسول الله ﷺ إلى السجدة منها، فسجد، ثم قال: «قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت، فأنت وذاك[4]»، فقام عتبة إلى أصحابه، فقال بعضهم لبعض: أقسم ـ يحلف[5] بالله ـ لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذى ذهب به. فلما جلس إليهم قالوا: ما وراءك يا أبا الوليد؟ قال: ورائى أنى قد سمعت قولا والله ما سمعت مثله قط، والله ما هو بالسحر ولا بالشعر ولا بالكهانة. يا معشر قريش، أطيعونى واجعلوها لى، خلوا بين الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه، فوالله ليكونَنَّ لقوله الذى سمعت نبأ، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب فمُلْكُهُ ملككم، وعزه عزكم، وكنتم أسعد الناس به. قالوا: سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه! قال: هذا رأيى فيه، فاصنعوا ما بدا لكم[6].

وهذا السياق أشبه من الذى قبله، والله أعلم.

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ (٦) الَّذِينَ لا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (٧) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (٨) ﴾ .

(١) فى أ: «وكلمه». (٢) فى أ: «فى». (٣) فى س: «مالا».
(٤) فى أ: «وحالك». (٥) فى س: «نحلف».
(٦) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٢٩٣).

يقول تعالى: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء المكذبين المشركين: ﴿إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾، لا كما تعبدونه[1] من الأصنام والأنداد والأرباب المتفرقين، إنما الله إله واحد، ﴿فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ﴾أى: أخلصوا له العبادة على منوال ما أمركم به على ألسنة الرسل، ﴿وَاسْتَغْفِرُوهُ﴾ أى: لسالف الذنوب، ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ﴾ أى: دمار لهم وهلاك عليهم، ﴿الَّذِينَ لا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ : قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: يعنى: الذين لا يشهدون أن لا إله إلا الله. وكذا قال عكرمة.

وهذا كقوله تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا .وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴾ [الشمس: ٩، ١٠]، وكقوله: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ .وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ ﴾ [الأعلى: ١٤، ١٥]، وقوله: ﴿ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰ أَن تَزَكَّىٰ ﴾ [النازعات: ١٨]. والمراد بالزكاة هاهنا: طهارة النفس من الأخلاق الرذيلة، ومن أهم ذلك طهارة النفس من الشرك. وزكاة المال إنما سميت زكاة لأنها تطهره من الحرام، وتكون سببا لزيادته وبركته وكثرة نفعه، وتوفيقا إلى استعماله فى الطاعات.

وقال السدى: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ .الَّذِينَ لا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ أى: الذين لا يَدِينون بالزكاة.

وقال معاوية بن قرة: ليس هم من أهل الزكاة.

وقال قتادة: يمنعون زكاة أموالهم.

وهذا هو الظاهر عند كثير من المفسرين، واختاره ابن جرير. وفيه نظر؛ لأن إيجاب الزكاة إنما كان فى السنة الثانية من الهجرة إلى المدينة، على ما ذكره غير واحد، وهذه الآية مكية، اللهم إلا أن يقال: لا يبعد أن يكون أصل الزكاة الصدقة كان مأمورا به فى ابتداء البعثة، كقوله تعالى:﴿وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾ [الأنعام: ١٤١]، فأما الزكاة ذات النصب والمقادير فإنما بَيَّن أمرها بالمدينة، ويكون هذا جمعا بين القولين، كما أن أصل الصلاة كان واجبا قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فى ابتداء البعثة، فلما كان ليلة الإسراء قبل الهجرة بسنة ونصف، فرض الله على رسوله [ﷺ][2] الصلوات الخمس، وفصل شروطها وأركانها وما يتعلق بها بعد ذلك، شيئا فشيئا، والله أعلم.

ثم قال بعد ذلك: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ قال مجاهد وغيره: لا مقطوع ولا مجبوب[3]، كقوله: ﴿مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴾ [الكهف: ٣]، وكقوله تعالى:﴿عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ [هود : ١٠٨].

وقال السدى: غير ممنون عليهم. وقد رد عليه بعض الأئمة هذا التفسير، فإن المنة لله على أهل الجنة؛ قال الله تعالى: ﴿ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ ﴾ [الحجرات: ١٧]، وقال أهل الجنة: ﴿فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ﴾ [الطور: ٢٧]، وقال رسول الله ﷺ: «إلا أن يتغمدنى الله برحمة منه وفضل».

---

(١) فى س: «يعبدونه» . (٢) زيادة من س، أ. (٣) فى أ: «غير مقطوع ولا محسوب».

﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٩) وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ (١٠) ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ (١١) فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (١٢)﴾ .

هذا إنكار من الله على المشركين الذين عبدوا معه غيره، وهو الخالق لكل شيء، القاهر لكل شيء، المقدر لكل شيء، فقال: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا﴾ أي: نظراء وأمثالا تعبدونها[1] معه، ﴿ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ أي: الخالق للأشياء هو رب العالمين كلهم.

وهذا المكان فيه تفصيل لقوله تعالى: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ [الأعراف: ٥٤]، ففصل هاهنا ما يختص بالأرض مما اختص بالسماء، فذكر أنه خلق الأرض أولا لأنها كالأساس، والأصل أن يُبْدَأَ بالأساس، ثم بعده بالسقف، كما قال: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ﴾ الآية [البقرة: ٢٩].

فأما قوله: ﴿أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا . رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا . وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا . وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا . أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا . وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا . مَتَاعًا لَّكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ﴾ [النازعات: ٢٧ ـ ٣٣] ففى هذه الآية أن دَحْى الأرض كان بعد خلق السماء[2]، فالدَّحْىُ هو مفسر بقوله: ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا﴾، وكان هذا بعد خلق السماء، فأما خلق الأرض فقبل خلق السماء بالنص، وبهذا أجاب ابن عباس فيما ذكره البخارى عند تفسير هذه الآية من صحيحه، فإنه قال:

وقال المنهال، عن سعيد بن جبير قال: قال رجل لابن عباس: إنى أجد فى القرآن أشياء تختلف علىّ، قال: ﴿فَلا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلا يَتَسَاءَلُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠١]، ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ [الصافات: ٢٧]، ﴿وَلا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٤٢]، ﴿وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣]؛ فقد كتموا فى هذه الآية؟ وقال: ﴿أَمِ السَّمَاءُ[3] بَنَاهَا﴾، إلى قوله: ﴿دَحَاهَا﴾ [النازعات: ٢٧ ـ ٣٠]، فذكر خلق السماء قبل [خلق][4] الأرض ثم قال: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ إلى قوله: ﴿طَائِعِينَ﴾ ، فذكر فى هذه خلق الأرض قبل خلق السماء؟ وقال: ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ٩٦]، ﴿عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ٥٦]، ﴿سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [النساء: ٥٨]، فكأنه كان ثم مضى.

قال ـ يعنى ابن عباس ـ: ﴿فَلا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلا يَتَسَاءَلُونَ﴾ فى النفخة الأولى، ثم ينفخ فى الصور، ﴿فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَن شَاءَ اللَّهُ﴾[الزمر: ٦٨] ، فلا أنساب بينهم عند

(١) فى س: «يعبدونها». (٢) فى أ: «السموات».
(٣) فى س: «والسماء». (٤) زيادة من س.

ذلك ولا يتساءلون، ثم في النفخة الأخرى ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾.

وأما قوله: ﴿مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾، ﴿وَلا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثاً﴾، فإن الله يغفر لأهل الإخلاص ذنوبهم، فقال المشركون: تعالوا نقول: «لم نكن مشركين»، فيختم على أفواههم، فتنطق أيديهم، فعند ذلك يعرف[1] أن الله لا يكتم حديثا، وعنده ﴿يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ الآية [الحجر: ٢].

وخلق الأرض في يومين، ثم خلق السماء، ثم استوى إلى السماء، فسواهن في يومين آخرين، ثم دَحَى الأرض، ودَحْيُها: أن أخرج منها الماء والمرعى، وخلق الجبال والجماد والآكام وما بينهما في يومين آخرين، فذلك قوله: ﴿دَحَاهَا﴾، وقوله: ﴿خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾، فَخُلِقت الأرض وما فيها من شيء في أربعة أيام، وخلقت السموات في يومين.

﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً﴾ [النساء: ٩٦]، سمى نفسه بذلك، وذلك قوله، أي: لم يزل كذلك؛ فإن الله لم يرد شيئا إلا أصاب به الذى أراد، فلا يختلفن عليك القرآن، فإن كلا من عند الله عز وجل.

قال البخاري: حدثنيه يوسف بن عدى، حدثنا عبيد الله بن عمرو، عن زيد بن أبى أُنَيْسَة[2]، عن المنهال ـ هو ابن عمرو ـ بالحديث[3].

فقوله: ﴿خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ يعنى: يوم الأحد ويوم الإثنين ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا﴾ أى: جعلها مباركة قابلة للخير والبذر والغراس، ﴿وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا﴾، وهو: ما يحتاج[4] أهلها إليه من الأرزاق والأماكن التى تزرع وتغرس، يعني: يوم الثلاثاء والأربعاء، فهما مع اليومين السابقين أربعة؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ﴾ أى: لمن أراد السؤال عن ذلك ليعلمه.

وقال مجاهد وعكرمة فى قوله: ﴿وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا﴾: جعل فى كل أرض ما لا يصلح فى غيرها، ومنه: العصب باليمن، والسابرى بسابور، والطيالسة بالرّى.

وقال ابن عباس، وقتادة، والسدى فى قوله تعالى: ﴿سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ﴾ أى: لمن أراد السؤال عن ذلك.

وقال ابن زيد: معناه ﴿وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ﴾ أى: على وفق مراد من له حاجة إلى رزق أو حاجة، فإن الله قدر له ما هو محتاج إليه.

وهذا القول يشبه ما ذكروه فى قوله تعالى: ﴿وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ [إبراهيم: ٣٤]، والله أعلم.

وقوله: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ﴾، وهو: بخار الماء المتصاعد منه حين خلقت الأرض،

---

(١) فى أ: «عرفوا».

(٢) فى أ: «شيبة».

(٣) صحيح البخارى (٨/ ٥٥٦) «فتح».

(٤) فى س: «ما تحتاج».

﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ أى: استجيبا لأمرى، وانفعلا لفعلى، طائعتين أو مكرهتين.

قال الثورى، عن ابن جريج، عن سليمان بن موسى، عن مجاهد، عن ابن عباس فى قوله [تعالى][1]: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ قال: قال الله تعالى للسموات: أطلعى شمسى وقمرى ونجومى. وقال للأرض: شققى أنهارك، وأخرجى ثمارك. فقالتا: ﴿أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾.

واختاره ابن جرير ـ رحمه الله.

﴿قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ أى: بل نستجيب لك مطيعين بما فينا، مما تريد خلقه من الملائكة والإنس والجن جميعا مطيعين[2] لك. حكاه ابن جرير عن بعض أهل العربية، قال: وقيل: تنزيلا لهن معاملة من يعقل بكلامهما.

وقيل[3]: إن المتكلم من الأرض بذلك هو مكان الكعبة، ومن السماء ما يسامته منها، والله أعلم.

وقال الحسن البصرى: لو أبيا عليه أمره لعذبهما عذابا يجدان ألمه. رواه ابن أبى حاتم.

﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾ أى: ففرغ من تسويتهن سبع سموات فى يومين، أى: آخرين، وهما يوم الخميس ويوم الجمعة.

﴿وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا﴾ أى: ورتب مقررا فى كل سماء ما تحتاج إليه من الملائكة، وما فيها من الأشياء التى لا يعلمها إلا هو، ﴿وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ﴾، وهن الكواكب المنيرة المشرقة على أهل الأرض، ﴿وَحِفْظًا﴾ أى: حرسا من الشياطين أن تستمع إلى الملأ الأعلى.

﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ أى: العزيز الذى قد عز كل شىء فغلبه وقهره، العليم بجميع حركات المخلوقات وسكناتهم.

قال ابن جرير: حدثنا هَنَّاد بن السرى، حدثنا أبو بكر بن عياش، عن أبى سعيد[4] البقال، عن عكرمة، عن ابن عباس ـ قال هناد: قرأت سائر الحديث ـ أن اليهود أتت النبى ﷺ فسألته عن خلق السموات والأرض، فقال: «خلق الله الأرض يوم الأحد ويوم الإثنين، وخلق الجبال يوم الثلاثاء وما فيهن من منافع، وخلق يوم الأربعاء الشجر والماء والمدائن والعمران والخراب، فهذه أربعة: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ . وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ﴾: لمن سأل، قال: «وخلق يوم الخميس السماء، وخلق يوم الجمعة النجوم والشمس والقمر والملائكة إلى ثلاث ساعات بقيت منه، فخلق فى أول ساعة من هذه الثلاثة الآجال، حين يموت من مات، وفى الثانية ألقى الآفة على كل شىء مما ينتفع به الناس، وفى الثالثة آدم، وأسكنه الجنة، وأمر إبليس بالسجود له، وأخرجه منها فى آخر ساعة». ثم قالت اليهود: ثم ماذا يا محمد؟ قال: «ثم استوى على العرش». قالوا: قد أصبت لو أتممت! قالوا:

---

(١) زيادة من س.
(٢) فى س: «مطيعون».
(٣) فى س، أ: «ويقال».
(٤) فى س: «سعد».

ثم استراح. فغضب النبى ﷺ غضبا شديدا، فنزل: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ . فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ [ق: ٣٨] (١).

هذا الحديث فيه غرابة. فأما حديث ابن جريج، عن إسماعيل بن أمية، عن أيوب بن خالد، عن عبد الله بن رافع، عن أبى هريرة قال: أخذ رسول الله ﷺ بيدى فقال: «خلق الله التربة يوم السبت، وخلق فيها الجبال يوم الأحد، وخلق الشجر يوم الإثنين، وخلق المكروه يوم الثلاثاء، وخلق النور يوم الأربعاء، وبث فيها الدواب يوم الخميس، وخلق آدم بعد العصر يوم الجمعة آخر الخلق فى آخر ساعة من ساعات الجمعة، فيما بين العصر إلى الليل»، فقد رواه مسلم، والنسائى فى كتابيهما، عن حديث ابن جريج، به(٢). وهو من غرائب الصحيح، وقد علَّله البخارى فى التاريخ فقال: رواه بعضهم عن أبى هريرة [رضى الله عنه](٣)، عن كعب الأحبار، وهو الأصح.

﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ (١٣) إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لأَنزَلَ مَلائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ (١٤) فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ (١٥) فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لا يُنصَرُونَ (١٦) وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٧) وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (١٨)﴾ .

يقول تعالى: قل يا محمد لهؤلاء المشركين المكذبين بما جئتهم به من الحق: إن أعرضتم عما جئتكم به من عند الله، فإنى أنذركم حلول نقمة الله بكم، كما حلت بالأمم الماضين من المكذبين بالمرسلين ﴿صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ أى: ومن شاكلهما(٤) ممن فعل كفعلهما، ﴿إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ ، كقوله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ﴾ [الأحقاف: ٢١] أى: فى القرى المجاورة لبلادهم، بعث الله إليهم الرسل

---

(١) تفسير الطبرى (٢٤/ ٦١)، ورواه أبو الشيخ فى العظمة برقم (٨٧٨) والحاكم فى المستدرك (٢/ ٥٤٣) من طريق هناد به، وقال الحاكم: «صحيح الإسناد» وتعقبه الذهبى فقال: «أبو سعيد البقال: قال ابن معين: لا يكتب حديثه».

(٢) صحيح مسلم برقم (٢٧٨٩)، والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٠١٠).

(٣) زيادة من ت.

(٤) فى أ: «شاكلهم».

يأمرون بعبادة الله وحده لا شريك له، ومبشرين ومنذرين، ورأوا ما أحل الله بأعدائه من النقم، وما ألبس[١] أولياءه من النعم، ومع هذا ما آمنوا ولا صدقوا، بل كذبوا وجحدوا، وقالوا: ﴿لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لأَنزَلَ مَلائِكَةً﴾ أى: لو أرسل الله رسلا[٢] لكانوا ملائكة من عنده، ﴿فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ﴾ أى: أيها البشر ﴿كَافِرُونَ﴾ أى: لا نتبعكم وأنتم بشر مثلنا. قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الأَرْضِ [بِغَيْرِ الْحَقِّ][٣]﴾ أى: بغوا وعتوا وعصوا، ﴿وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ أى: منوا بشدة تركيبهم وقواهم، واعتقدوا أنهم يمتنعون به من بأس الله! ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ أى: أفما يتفكرون[٤] فيمن يبارزون بالعداوة؟ فإنه العظيم الذى خلق الأشياء وركب فيها قواها الحاملة لها، وإن بطشه شديد، كما قال تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ [الذاريات: ٤٧]، فبارزوا الجبار بالعداوة، وجحدوا بآياته وعصوا رسوله، فلهذا قال: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا﴾ قال بعضهم: وهى الشديدة الهبوب. وقيل: الباردة. وقيل: هى التى لها صوت.

والحق أنها متصفة بجميع ذلك، فإنها كانت ريحا شديدة قوية؛ لتكون عقوبتهم من جنس ما اغتروا به من قواهم، وكانت باردة شديدة البرد جدا، كقوله تعالى: ﴿بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٦] أى: باردة شديدة، وكانت ذات صوت مزعج، ومنه سمى النهر المشهور ببلاد المشرق «صرصرا[٥]»، لقوة صوت جريه.

وقوله: ﴿فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ﴾ أى: متتابعات، ﴿سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾ [الحاقة: ٧]، كقوله: ﴿فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ﴾ [القمر: ١٩] أى: ابتدئوا بهذا العذاب فى يوم نحس عليهم، واستمر بهم هذا النحس سبع ليال وثمانية أيام، حتى أبادهم عن آخرهم، واتصل بهم خزى الدنيا بعذاب الآخرة؛ ولهذا قال تعالى: ﴿لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَخْزَى﴾ [أى][٦]: أشد خزيا لهم، ﴿وَهُمْ لا يُنصَرُونَ﴾ أى: فى الأخرى[٧]، كما لم ينصروا فى الدنيا، وما كان لهم من الله من واق يقيهم العذاب ويدرأ عنهم النكال.

وقوله: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ﴾ قال ابن عباس، وأبو العالية، وسعيد بن جبير، وقتادة، والسدى، وابن زيد: بينا لهم[٨].

وقال الثورى: دعوناهم.

﴿فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ﴾ أى: بصرناهم، وبينا لهم، ووضحنا لهم الحق على لسان نبيهم صالح ﷺ[٩]، فخالفوه وكذبوه، وعقروا ناقة الله التى جعلها آية وعلامة على صدق نبيهم، ﴿فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ﴾ أى: بعث الله عليهم صيحة ورجفة وذلا وهوانا وعذابا ونكالا، ﴿بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ أى: من التكذيب والجحود.

---

(١) فى س: «ألبس الله». (٢) فى ت: «رسولا». (٣) زيادة من ت، أ.
(٤) فى ت، س: «أفما يفكرون»، وفى أ: «فيما يتفكرون». (٥) فى ت، س: «صرصر». (٦) زيادة من أ.
(٧) فى ت: «الآخرة». (٨) فى ت: «وسعيد بن جبير وغيرهم».
(٩) فى ت، س: «عليه السلام».

﴿وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا [وَكَانُوا يَتَّقُونَ][(١)]﴾ أى: من بين أظهرهم، لم يمسهم سوء، ولا نالهم من ذلك ضرر، بل نجاهم الله مع نبيهم صالح [عليه السلام][(٢)] بإيمانهم، وتقواهم لله، عز وجل.

﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (١٩) حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٠) وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢١) وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ (٢٢) وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ (٢٣) فَإِن يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُم مِّنَ الْمُعْتَبِينَ (٢٤) ﴾.

يقول تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ أى: اذكر لهؤلاء المشركين يوم يحشرون إلى النار[(٣)]، ﴿يُوزَعُونَ﴾ أى: تجمع الزبانية أولهم على آخرهم، كما قال تعالى: ﴿وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾ [مريم: ٨٦] أى: عطاشا.

وقوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا﴾ أى: وقفوا عليها، ﴿شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ[(٤)]﴾ أى: بأعمالهم مما قدموه وأخروه، لا يُكتَم منه حرف.

﴿وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا﴾ ؟ أى: لاموا أعضاءهم وجلودهم حين شهدوا عليهم، فعند ذلك أجابتهم الأعضاء: ﴿قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أى: فهو لا يخالف ولا يمانع، وإليه ترجعون.

قال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا محمد بن عبد الرحيم، حدثنا على بن قادم، حدثنا شريك، عن عبيد المُكْتَب، عن الشعبى[(٥)]، عن أنس بن مالك، رضى الله عنه، قال: ضحك رسول الله ﷺ ذات يوم وتبسم[(٦)]، فقال: «ألا تسألونى عن أى شىء ضحكت؟» قالوا: يا رسول الله، من أى شىء ضحكت؟ قال: «عجبت من مجادلة العبد ربه يوم القيامة، يقول: أى ربى، أليس وعدتنى ألا تظلمنى؟ قال: بلى، فيقول: فإنى لا أقبل علىّ شاهدا إلا من نفسى. فيقول الله تبارك وتعالى: أو ليس كفى بى شهيدا، وبالملائكة الكرام الكاتبين؟! قال: فيردد هذا الكلام مرارا». قال: «فيختم على فيه، وتتكلم أركانه بما كان يعمل، فيقول: بُعداً لكُنَّ وسُحقا، عنكن كنت أجادل».

ثم رواه [(٧)]هو وابن أبى حاتم، من حديث أبى عامر الأسدى، عن الثورى، عن عُبيد المُكْتَب، عن فُضيل بن عمرو، عن الشعبى [(٨)] ثم قال: «لانعلم رواه عن أنس غير الشعبى». وقد أخرجه مسلم

(١) زيادة من ت، أ. (٢) زيادة من ت، أ. (٣) فى ت، أ: «جهنم».
(٤) فى ت: «يكسبون» وهو خطأ. (٥) فى ت: «وروى الحافظ أبو بكر البزار بإسناده». (٦) فى أ: «أو تبسم».
(٧) فى ت: «ورواه».
(٨) ورواه ابن أبى الدنيا فى التوبة برقم (١٨) من طريق مهران بن أبى عمر عن سفيان الثورى بنحوه.

والنسائى جميعا عن أبى بكر بن أبى النضر، عن أبى النضر، عن عُبيد الله بن عبد الرحمن الأشجعى، عن الثورى، به [(١)]. ثم قال النسائى: «لا أعلم أحداً رواه عن الثورى غير الأشجعى». وليس كما قال كما رأيت، والله أعلم.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا أحمد بن إبراهيم، حدثنا إسماعيل بن عُلَيَّة، عن يونس ابن عُبَيْد، عن حُميد بن هلال قال: قال أبو بُرْدَة: قال أبو موسى: ويدعى الكافر والمنافق للحساب، فيعرض عليه ربه ـ عز وجل ـ عمله، فيجحد ويقول: أى رب، وعزتك لقد كتب على هذا الملك ما لم أعمل! فيقول له الملك: أما عملت كذا، فى يوم كذا، فى مكان كذا؟ فيقول: لا وعزتك، أى رب ماعملته. [قال] [(٢)]: فإذا فعل ذلك خُتِم على فيه ـ قال الأشعرى: فإنى لأحسب أول ما ينطق منه فخذه اليمنى.

وقال الحافظ أبو يعلى: حدثنا زُهَيْر، حدثنا حسن، عن ابن لَهيعة: قال دَرّاج، عن أبى الهيثم[(٣)]، عن أبى سعيد الخدرى، عن النبى ﷺ قال: «إذا كان يوم القيامة، عُرِّف الكافر بعمله، فجحد وخاصم، فيقال: هؤلاء جيرانك، يشهدون عليك؟ فيقول: كذبوا. فيقول: أهلك [و][(٤)] عشيرتك؟ فيقول: كذبوا. فيقول: احلفوا. فيحلفون، ثم يصمتهم الله وتشهد عليهم ألسنتهم، ويدخلهم النار»[(٥)].

وقال ابن أبى حاتم: وحدثنا أبى، حدثنا أحمد بن إبراهيم، حدثنا عبد الصمد بن عبد الوارث: سمعت أبى: حدثنا على بن زيد، عن مسلم بن صُبْيح أبى الضُّحى، عن ابن عباس: أنه قال لابن الأزرق: إن يوم القيامة يأتى على الناس منه حين، لا ينطقون ولا يعتذرون ولا يتكلمون حتى يؤذن لهم، ثم يؤذن لهم فيختصمون، فيجحد الجاحد بشركه بالله، فيحلفون له كما يحلفون لكم، فيبعث الله عليهم حين يجحدون شهداء من أنفسهم، جلودهم وأبصارهم وأيديهم وأرجلهم، ويختم على أفواههم، ثم يفتح لهم الأفواه فتخاصم الجوارح، فتقول: ﴿أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾، فتقر الألسنة بعد الجحود.

وقال [(٦)] ابن أبى حاتم: حدثنا عبدة بن سليمان، حدثنا ابن المبارك، حدثنا صفوان بن عمرو، عن عبد الرحمن بن جُبير الحضرمى، عن رافع أبى الحسن ـ وصف رجلا جحد ـ قال: فيشير الله إلى لسانه، فيربو فى فمه [(٧)] حتى يملأه، فلا يستطيع أن ينطق بكلمة، ثم يقول لآرابه [(٨)] كلها: تكلمى واشهدى عليه. فيشهد عليه سمعه وبصره وجلده، وفرجه ويداه ورجلاه: صنعنا، عملنا، فعلنا.

وقد تقدم أحاديث كثيرة، وآثار عند قوله تعالى فى سورة يس: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [يس: ٦٥]، بما أغنى عن إعادته هاهنا.

---

(١) صحيح مسلم برقم (٢٩٦٩)، والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٦٥٣).

(٢) زيادة من أ.

(٣) فى ت: «وقال الحافظ أبو يعلى بإسناده».

(٤) زيادة من أ.

(٥) مسند أبى يعلى (٥٢٦٢)، ودراج عن أبى الهيثم، ضعيف.

(٦) فى ت: «وروى». (٧) فى ت، س، أ: «فيه». (٨) فى أ: «لأركانه».

وقال ابن أبى حاتم ـ رحمه الله ـ : حدثنا أبى، حدثنا سويد بن سعيد، حدثنا يحيى بن سُلَيم الطائفى، عن ابن خُثَيْم، عن أبى الزبير[١]، عن جابر بن عبد الله قال: لما رجعت إلى النبى ﷺ[٢] مهاجرةُ البحر قال: «ألا تحدثون بأعاجيب[٣] مارأيتم بأرض الحبشة؟» فقال فتية منهم: بلى يا رسول الله، بينا[٤] نحن جلوس إذ مرت علينا عجوز من عجائز رهابينهم، تحمل على رأسها قلة من ماء، فمرت بفتى منهم، فجعل إحدى يديه بين كتفيها، ثم دفعها فخرت على ركبتيها، فانكسرت قلتها. فلما ارتفعت التفتت إليه فقالت: سوف تعلم ياغُدَر، إذا وضع الله الكرسى، وجمع الأولين والآخرين، وتكلمت الأيدى والأرجل بما كانوا يكسبون، فسوف تعلم كيف أمرى وأمرك عنده غدا؟ قال: يقول رسول الله ﷺ: «صَدَقَتْ،[و][٥] صدقت، كيف يُقدس الله قوما لا يؤخذ لضعيفهم من شديدهم؟».

هذا حديث غريب من هذا الوجه. ورواه ابن أبى الدنيا فى كتاب الأهوال: أخبرنا إسحاق بن إبراهيم قال: أخبرنا يحيى بن سليم، به[٦].

وقوله: ﴿ **وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلا أَبْصَارُكُمْ وَلا جُلُودُكُمْ** ﴾ أى: تقول لهم الأعضاء والجلود حين يلومونها على الشهادة عليهم: ماكنتم تتكتمون[٧] منا الذى كنتم تفعلونه، بل كنتم تجاهرون الله بالكفر والمعاصى، ولا تبالون منه فى زعمكم؛ لأنكم كنتم لا تعتقدون أنه يعلم جميع أفعالكم؛ ولهذا قال: ﴿ **وَلَكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ . وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ** ﴾ أى: هذا الظن الفاسد ـ وهو اعتقادكم أن الله لا يعلم كثيراً مما تعملون ـ هو الذى أتلفكم وأرداكم عند ربكم، ﴿ **فَأَصْبَحْتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ** ﴾ أى: فى مواقف القيامة خسرتم أنفسكم وأهليكم.

قال الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن عمارة، عن عبد الرحمن ابن يزيد[٨]، عن عبد الله قال: كنت مستترًا بأستار الكعبة فجاء ثلاثة نفر: قرشى، وختناه ثقفيان ـ أو: ثقفى وختناه قرشيان ـ كثير شحم بطونهم، قليل فقه قلوبهم، فتكلموا بكلام لم أسمعه، فقال أحدهم: أترون أن الله يسمع كلامنا هذا؟ فقال الآخر: إنا إذا رفعنا أصواتنا سمعه[٩]، وإذا لم نرفعه لم يسمعه، فقال الآخر: إن سمع منه شيئا سمعه كله. قال: فذكرت ذلك للنبى ﷺ، فأنزل الله عز وجل: ﴿ **وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلا أَبْصَارُكُمْ وَلا جُلُودُكُمْ** ﴾ إلى قوله: ﴿ **مِّنَ الْخَاسِرِينَ** ﴾.

وكذا رواه الترمذى عن هناد، عن أبى معاوية، بإسناده نحوه[١٠]. وأخرجه أحمد ومسلم والترمذى أيضا، من حديث سفيان الثورى، عن الأعمش، عن عُمارة بن عمير، عن وهب بن

---

(١) فى ت: «وروى ابن أبى حاتم بإسناده». (٢) فى أ: «رسول الله». (٣) فى ت: «بأعجب».
(٤) فى ت، س، أ: «بينما». (٥) زيادة من أ.
(٦) الأهوال لابن أبى الدنيا برقم (٢٤٣)، ورواه ابن ماجه فى السنن برقم (٤٠١٠) حدثنا سويد بن سعيد فذكره. قال البوصيرى فى زوائد ابن ماجه: «هذا إسناد حسن، سويد مختلف فيه».
(٧) فى أ: «تكتمون». (٨) فى ت: «رواه الإمام أحمد بإسناده». (٩) فى ت: «يسمعه».
(١٠) المسند (١/ ٣٨١)، وسنن الترمذى برقم (٣٢٤٩).

ربيعة، عن عبد الله بن مسعود، رضى الله عنه، بنحوه[١]. ورواه البخارى ومسلم أيضا، من حديث السفيانين، عن منصور، عن مجاهد، عن أبى مَعْمَر عبد الله بن سَخْبرة، عن ابن مسعود، به[٢].

وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن بهز بن حكيم، عن أبيه، عن جده، عن النبى ﷺ فى قوله: ﴿ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلا أَبْصَارُكُمْ وَلا جُلُودُكُمْ﴾ قال: «إنكم تُدعَون مُفَدَّماً على أفواهكم بالفدام، فأول شىء يبين[٣] عن أحدكم فخذه وكفه[٤]»[٥].

قال معمر: وتلا الحسن: ﴿وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ ﴾، ثم قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله: أنا مع عبدى عند ظنه بى، وأنا معه إذا دعانى»، ثم افترَّ الحسن ينظر فى هذا، فقال: ألا إنما عمل الناس على قدر ظنونهم بربهم، فأما المؤمن فأحسن الظن بربه فأحسن العمل، وأما الكافر والمنافق فأساءا الظن بالله فأساءا العمل. ثم قال: قال الله تعالى: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلا أَبْصَارُكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾.

وقال الإمام أحمد: حدثنا النضر بن إسماعيل القاص[٦] ـ وهو أبو المغيرة ـ حدثنا ابن أبى ليلى، عن أبى الزبير، عن جابر[٧] قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يموتن أحد منكم إلا وهو يحسن بالله الظن، فإن قوما قد أرداهم سوء ظنهم بالله، فقال الله تعالى: ﴿وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾»[٨].

وقوله: ﴿فَإِن يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُم مِّنَ الْمُعْتَبِينَ﴾ أى: سواء عليهم أصبروا أم لم يصبروا هم فى النار، لا محيد لهم عنها، ولا خروج لهم منها. وإن طلبوا أن يستعتبوا ويبدوا أعذارا[٩] فما لهم أعذار، ولا تُقَال لهم عثرات.

قال ابن جرير: ومعنى قوله: ﴿وَإِن يَسْتَعْتِبُوا﴾ أى: يسألوا الرجعة إلى الدنيا، فلا جواب لهم ـ قال: وهذه كقوله تعالى إخبارا عنهم: ﴿ قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ . رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ . قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون: ١٠٦ ـ ١٠٨].

﴿ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ (٢٥) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ (٢٦) فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ

(١) المسند (١/٤٠٨) وصحيح مسلم برقم (٢٧٧٥)، وسنن الترمذى برقم (٣٢٤٩).
(٢) صحيح البخارى برقم (٤٨١٧)، وصحيح مسلم برقم (٢٧٧٥).
(٣) فى أ: «ينطق». (٤) فى أ: «وكتفه».
(٥) تفسير عبد الرزاق (٢/١٥١)، والمصنف (٢٠١١٥)، ورواه النسائى فى السنن (٥/٤) وابن ماجه فى السنن برقم (٢٥٣٦) من طريق عن بهز بن حكيم بنحوه.
(٦) فى أ: «القاضى». (٧) فى ت: «وروى الإمام أحمد عن جابر».
(٨) المسند (٣/٣٩٠).
(٩) فى ت، أ: «أعذارهم».

أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٧) ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءً بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ (٢٨) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا اللَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ (٢٩)﴾ .

يذكر تعالى أنه هو الذى أضل المشركين، وأن ذلك بمشيئته وكونه وقدرته، وهو الحكيم فى أفعاله، بما قَيَّض لهم من القرناء من شياطين الإنس والجن: ﴿**فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ**﴾ أى: حَسَّنوا لهم أعمالهم فى الماضى، وبالنسبة إلى المستقبل فلم يروا أنفسهم إلا محسنين، كما قال تعالى: ﴿**وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ . وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ**﴾ [الزخرف: ٣٦، ٣٧].

وقوله تعالى: ﴿**وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ**﴾ أى: كلمة العذاب كما حق على أمم قد خلت من قبلهم، ممن فعل كفعلهم، من الجن والإنس، ﴿**إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ**﴾ أى: استووَا هم وإياهم فى الخسار والدمار.

وقوله تعالى: ﴿**وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ**﴾ أى: تواصوا فيما بينهم ألا يطيعوا للقرآن، ولا ينقادوا لأوامره[١]، ﴿**وَالْغَوْا فِيهِ**﴾ أى: إذا تلى لا تستمعوا له. كما قال مجاهد: ﴿**وَالْغَوْا فِيهِ**﴾ يعنى: بالمكاء[٢] والصفير والتخليط فى المنطق على رسول الله ﷺ إذا قرأ القرآن قريش تفعله.

وقال الضحاك، عن ابن عباس: ﴿**وَالْغَوْا فِيهِ**﴾ : عيبوه[٣].

وقال قتادة: اجحدوا به، وأنكروه وعادوه.

﴿**لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ**﴾: هذا حال هؤلاء الجهلة من الكفار، ومن سلك مسلكهم عند سماع القرآن. وقد أمر الله ـ سبحانه ـ عباده المؤمنين بخلاف ذلك فقال: ﴿**وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ**﴾ [الأعراف: ٢٠٤].

ثم قال تعالى: منتصرا للقرآن، ومنتقما ممن عاداه من أهل الكفران: ﴿**فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا**﴾ أى: فى مقابلة ما اعتمدوه فى القرآن وعند سماعه، ﴿ **وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾ أى: بشرِّ أعمالهم، وسيِّئ أفعالهم ﴿**ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءً بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ .وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا اللَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ**﴾.

قال سفيان الثورى، عن سلمة بن كُهَيْل، عن مالك بن الحصين الفزارى، عن أبيه[٤]، عن على،

---

(١) فى ت: «لأمره».
(٢) فى ت، أ: «بالمكاء والتصدية».
(٣) فى ت، س: «قعوا فيه، عيبوه».
(٤) فى ت: «عن أبيه روى».

رضى الله عنه، فى قوله: ﴿اللَّذَيْنِ أَضَلاَّنَا﴾ قال: إبليس وابن آدم الذى قتل أخاه.

وهكذا روى حبة العُرَنى عن على، مثل ذلك.

وقال السدى، عن على: فإبليس يدعو به كل صاحب شرك، وابن آدم يدعو به كل صاحب كبيرة، فإبليس ـ لعنه الله ـ هو الداعى إلى كل شر من شرك فما دونه، وابن آدم الأول. كما ثبت فى الحديث: «ما قتلت نفس ظلما إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها؛ لأنه أول من سن القتل»[(١)].

وقوله[(٢)]: ﴿نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا﴾ أى: أسفل منا فى العذاب ليكونا أشد عذابا منا؛ ولهذا قالوا: ﴿لِيَكُونَا مِنَ الأَسْفَلِينَ﴾ أى: فى الدرك الأسفل من النار، كما تقدم فى «الأعراف» من سؤال الأتباع من الله أن يعذب قادتهم أضعاف عذابهم، قال: ﴿لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِن لاَّ تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٨] أى: إنه تعالى قد أعطى كلا منهم ما يستحقه من العذاب والنكال، بحسب عمله وإفساده، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾ [النحل: ٨٨].

﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلاً مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾.

يقول تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ أى: أخلصوا العمل لله، وعملوا بطاعة الله تعالى على ما شرع الله لهم.

قال الحافظ أبو يعلى الموصلى: حدثنا الجراح، حدثنا سلم[(٣)] بن قتيبة أبو قتيبة الشَّعيرى، حدثنا سهيل[(٤)] بن أبى حزم، حدثنا ثابت[(٥)]، عن أنس بن مالك قال: قرأ علينا رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾، قد قالها ناس ثم كفر أكثرهم[(٦)]، فمن قالها حتى[(٧)] يموت فقد[(٨)] استقام عليها.

وكذا رواه النسائى فى تفسيره، والبزار وابن جرير، عن عمرو بن على الفلاس، عن سلم[(٩)] بن قتيبة، به[(١٠)]. وكذا رواه ابن أبى حاتم، عن أبيه، عن الفلاس، به. ثم قال ابن جرير:

حدثنا ابن بشار، حدثنا عبد الرحمن، حدثنا سفيان، عن أبى إسحاق، عن عامر بن سعد[(١١)]،

(١) الحديث أخرجه الجماعة سوى أبى داود، وانظر تخريجه عند الآية: ٢٩ من سورة المائدة.
(٢) فى س: «وقولهم». (٣) فى أ: «مسلم». (٤) فى أ: «سهل».
(٥) فى ت: «قال الحافظ أبو يعلى الموصلى بسنده». (٦) فى أ: «ثم كفروا». (٧) فى ت: «حين».
(٨) فى ت، س: «فهو ممن».
(٩) فى أ: «مسلم».
(١٠) مسند أبى يعلى (٦/ ٢١٣) ، والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٤٧٠) ، وتفسير الطبرى (٢٤/ ٧٣).
(١١) فى أ: «سعيد».

عن سعيد[١] بن نمران[٢] قال: قرأت[٣] عند أبى بكر الصديق هذه الآية: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا**﴾ قال: هم الذين لم يشركوا بالله شيئا.

ثم روى من حديث الأسود بن هلال قال: قال أبو بكر، رضى الله عنه: ما تقولون فى هذه الآية: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا**﴾؟ قال: فقالوا: ﴿**رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا**﴾: من ذنب. فقال: لقد حملتموها على غير المحمل، ﴿**قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا**﴾ فلم يلتفتوا إلى إله غيره.

وكذا قال مجاهد، وعكرمة، والسدى، وغير واحد[٤].

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبو عبد الله الظهرانى[٥]، أخبرنا حفص بن عمر العدنى، عن الحكم ابن أبان، عن عكرمة قال: سئل ابن عباس[٦]، رضى الله عنهما: أى آية فى كتاب الله أرخص؟ قال قوله: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا**﴾ على شهادة أن لا إله إلا الله.

وقال الزهرى: تلا عمر هذه الآية على المنبر، ثم قال: استقاموا ـ والله ـ لله بطاعته، ولم يروغوا روغان الثعالب.

وقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: ﴿ **قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا**﴾ على أداء فرائضه. وكذا قال قتادة، قال: وكان الحسن يقول: اللهم، أنت ربنا، فارزقنا الاستقامة.

وقال أبو العالية: ﴿ **ثُمَّ اسْتَقَامُوا**﴾: أخلصوا له العمل والدين.

وقال الإمام أحمد: حدثنا هُشَيْم، حدثنا يعلى بن عطاء، عن عبد الله بن سفيان الثقفى، عن أبيه[٧]؛ أن رجلا قال: يا رسول الله، مرنى بأمر فى الإسلام لا أسأل عنه أحدًا بعدك. قال: «قل: آمنت بالله، ثم استقم». قلت: فما أتقى؟ فأومأ إلى لسانه.

ورواه النسائى من حديث شعبة، عن يعلى بن عطاء، به[٨].

ثم قال الإمام أحمد: حدثنا يزيد بن هارون، أخبرنا إبراهيم بن سعد، حدثنى ابن شهاب، عن محمد بن عبد الرحمن بن ماعز الغامدى، عن سفيان[٩] بن عبد الله الثقفى قال: قلت: يا رسول الله، حدثنى بأمر أعتصم به. قال: «قل: ربى الله، ثم استقم». قلت: يا رسول الله، ما أكثر ما تخاف على؟ فأخذ رسول الله ﷺ بطرف لسان نفسه، ثم قال: «هذا».

وهكذا[١٠] رواه الترمذى وابن ماجه، من حديث الزهرى، به[١١]. وقال الترمذى: حسن صحيح.

---

(١) فى ت: «رواه ابن جرير عن سعيد». (٢) فى أ: «مهران». (٣) فى ت: «قُرِئَت».
(٤) فى ت: «مجاهد وغيره». (٥) فى أ: «الطبرانى».
(٦) فى ت: «وروى ابن أبى الدنيا بسنده عن ابن عباس أنه سئل». (٧) فى ت: «وروى الإمام أحمد بسنده».
(٨) المسند (٤/ ٣٨٤)، والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٤٨٩).
(٩) فى ت: «وروى أحمد عن سفيان». (١٠) فى أ: «هكذا وكذا».
(١١) المسند (٣/ ٤١٣)، وسنن الترمذى برقم (٢٤١٠)، وسنن ابن ماجة برقم (٣٩٧٢).

وقد أخرجه مسلم فى صحيحه والنسائى، من حديث هشام بن عروة، عن أبيه، عن سفيان بن عبد الله الثقفى قال: قلت: يا رسول الله، قل لى فى الإسلام قولا، لا أسأل عنه أحدا بعدك. قال: «قل: آمنت بالله، ثم استقم». وذكر تمام الحديث[١].

وقوله: ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ﴾ قال مجاهد، والسدى، وزيد بن أسلم، وابنه: يعنى عند الموت قائلين: ﴿أَلاَّ تَخَافُوا﴾ قال مجاهد، وعكرمة، وزيد بن أسلم: أى مما تقدمون عليه من أمر الآخرة، ﴿وَلا تَحْزَنُوا﴾ [أي][٢]: على ما خلفتموه من أمر الدنيا، من ولد وأهل، ومال أو دين، فإنا نخلفكم فيه، ﴿وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ فيبشرونهم بذهاب الشر وحصول الخير.

وهذا كما فى حديث البراء[٣]، رضى الله عنه: «إن الملائكة تقول لروح المؤمن: اخرجى أيتها الروح الطيبة فى الجسد الطيب كنت تعمرينه، اخرجى إلى روح وريحان، ورب غير غضبان».

وقيل: إن الملائكة تتنزل عليهم يوم خروجهم من قبورهم. حكاه ابن جرير عن ابن عباس، والسدى.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبو زُرْعَةَ، حدثنا عبد السلام بن مطهر، حدثنا جعفر بن سليمان: سمعت ثابتا قرأ سورة «حم. السجدة»[٤]، حتى بلغ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ﴾ . فوقف فقال: بلغنا أن العبد المؤمن حين يبعثه الله من قبره، يتلقاه الملكان اللذان كانا معه فى الدنيا، فيقولان له: لا تخف ولا تحزن، ﴿وَأَبْشِرُوا[٥] بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ . قال: فيؤمن الله خوفه، ويقر عينه، فما عظيمة يخشى الناس يوم القيامة إلا هى للمؤمن قرة عين، لما هداه الله، ولما كان يعمل له فى الدنيا.

وقال زيد بن أسلم: يبشرونه عند موته، وفى قبره، وحين يبعث. رواه ابن أبى حاتم.

وهذا القول يجمع الأقوال كلها، وهو حسن جدا. وهو الواقع.

وقوله: ﴿نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ﴾ أى: تقول الملائكة للمؤمنين عند الاحتضار: نحن كنا أولياءكم، أى: قرناءكم فى الحياة الدنيا، نسددكم ونوفقكم، ونحفظكم بأمر الله، وكذلك نكون معكم فى الآخرة نؤنس منكم الوحشة فى القبور، وعند النفخة فى الصور، ونؤمنكم يوم البعث والنشور، ونجاوز بكم الصراط المستقيم، ونوصلكم إلى جنات النعيم. ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ﴾ أى: فى الجنة من جميع ما تختارون[٦] مما تشتهيه النفوس، وتقر به العيون، ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾ أى: مهما طلبتم وجدتم، وحضر بين أيديكم، [أى][٧]: كما اخترتم، ﴿نُزُلاً مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾ أى: ضيافة وعطاء وإنعاما من غفور لذنوبكم، رحيم بكم رؤوف، حيث غفر، وستر، ورحم، ولطف.

---

(١) صحيح مسلم برقم (٣٨). (٢) زيادة من ت، س، أ.
(٣) حديث البراء سبق تخريجه عند تفسير الآية: ٤٠ من سورة الأعراف إلا أن هذا اللفظ هو لفظ حديث أبى هريرة رضى الله عنه وهو مخرج فى نفس الموضع. (٤) فى ت: «وروى ابن أبى حاتم عن ثابت أنه قرأ السجدة».
(٥) فى ت، س، أ: «وأبشر» وهو خطأ. (٦) فى ت: «تختارونه». (٧) زيادة من ت.

وقد ذكر ابن أبى حاتم هاهنا حديث «سوق الجنة» عند قوله تعالى: ﴿**وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ . نُزُلاً مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ**﴾، فقال:

حدثنا أبى، حدثنا هشام بن عمار، حدثنا عبد الحميد بن حبيب(١) بن أبى العشرين أبى سعيد، حدثنا الأوزاعى، حدثنى حسان بن عطية، عن سعيد بن المسيب: أنه لقى أبا هريرة [رضى الله عنه](٢)، فقال أبو هريرة: نسأل(٣) الله أن يجمع بينى وبينك فى سوق الجنة. فقال سعيد: أو فيها سوق؟ قال: نعم، أخبرنى رسول الله ﷺ أن أهل الجنة إذا دخلوا فيها، نزلوا بفضل أعمالهم، فيؤذن لهم فى مقدار يوم الجمعة فى أيام الدنيا فيزورون الله، عز وجل، ويبرز لهم عرشه، ويتبدى لهم فى روضة من رياض الجنة، وتوضع لهم منابر من نور، ومنابر من لؤلؤ، ومنابر من ياقوت، ومنابر من زبرجد، ومنابر من ذهب، ومنابر من فضة، ويجلس [فيه](٤) أدناهم وما فيهم دنىء على كثبان المسك والكافور، ما يرون بأن أصحاب الكراسى بأفضل منهم مجلسا.

قال أبو هريرة: قلت: يا رسول الله، وهل نرى ربنا [يوم القيامة](٥)؟ قال: «نعم، هل تتمارون(٦) فى رؤية الشمس والقمر ليلة البدر؟» قلنا: لا. قال ﷺ: «فكذلك لا تتمارون فى رؤية ربكم تعالى، ولا يبقى فى ذلك المجلس أحد إلا حاضره الله محاضرة، حتى إنه ليقول للرجل منهم: يا فلان بن فلان، أتذكر يوم عملت كذا وكذا؟ ـ يَذكِّره ببعض غدراته فى الدنيا ـ فيقول: أى رب، أفلم تغفر لى؟ فيقول: بلى، فبسعة مغفرتى بلغت منزلتك هذه. قال: فبينما هم على ذلك، غشيتهم سحابة من فوقهم، فأمطرت عليهم طيبا لم يجدوا مثل ريحه شيئا قط». قال: «ثم يقول ربنا ـ عزوجل ـ: قوموا إلى ما أعددت لكم من الكرامة، وخذوا ما اشتهيتم». قال: «فنأتى سوقا قد حَفَّت به الملائكة، فيها ما لم تنظر العيون إلى مثله، ولم تسمع الآذان، ولم يخطر على القلوب. قال: فيحمل لنا ما اشتهينا، ليس يباع فيه شىء ولا يشترى، وفى ذلك السوق يلقى أهل الجنة بعضهم بعضا». قال: «فيقبل الرجل ذو المنزلة الرفيعة، فيلقى من هو دونه ـ وما فيهم دنىء فيروعه ما يرى عليه من اللباس، فما ينقضى آخر حديثه حتى يتمثل عليه أحسن منه؛ وذلك لأنه لا ينبغى لأحد أن يحزن فيها.

ثم ننصرف إلى منازلنا، فيتلقانا أزواجنا فيقلن: مرحبا وأهلا بِحِبِّنا، لقد جئت وإن بك من الجمال والطيب أفضل مما فارقتنا عليه. فيقول: إنا جالسنا اليوم ربنا الجبار ـ عز وجل ـ وبحقنا أن ننقلب بمثل(٧) ما انقلبنا به».

وقد رواه الترمذى فى «صفة الجنة» من جامعه، عن محمد بن إسماعيل، عن هشام بن عمار، ورواه ابن ماجه عن هشام بن عمار، به نحوه(٨). ثم قال الترمذى: هذا حديث غريب، لا نعرفه إلا من هذا الوجه.

---

(١) فى أ: «الوليد». (٢) زيادة من ت. (٣) فى أ: «أسأل».
(٤) زيادة من أ. (٥) زيادة من أ. (٦) فى ت، س، أ: «تمارون».
(٧) فى أ: «على».
(٨) سنن الترمذى برقم (٢٥٤٩) ،وسنن ابن ماجه برقم (٤٣٣٦).

وقال الإمام أحمد: حدثنا ابن أبى عَدى، عن حميد، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه». قلنا[١]: يا رسول الله، كلنا نكره الموت؟ قال: «ليس ذلك كراهية الموت، ولكن المؤمن إذا حُضِر جاءه البشير من الله بما هو صائر إليه، فليس شيء أحب إليه من أن يكون قد لقى الله فأحب الله لقاءه» قال: «وإن الفاجر ـ أو الكافر ـ إذا حُضِر[٢] جاءه بما هو صائر إليه من الشر ـ أو: ما يلقى من الشر ـ فكره لقاء الله، فكره الله لقاءه».

وهذا حديث صحيح[٣]، وقد ورد فى الصحيح من غير هذا الوجه[٤].

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٣٣) وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (٣٤) وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٣٥) وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٦)﴾ .

يقول تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ﴾ أى: دعا عباد الله إليه، ﴿وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ أى: وهو فى نفسه مهتد بما يقوله، فنفعه لنفسه ولغيره لازم ومُتَعَد، وليس هو من الذين يأمرون بالمعروف ولا يأتونه، وينهون عن المنكر ويأتونه، بل يأتمر بالخير ويترك الشر، ويدعو الخلق إلى الخالق تبارك وتعالى. وهذه عامة فى كل من دعا إلى خير، وهو فى نفسه مهتد، ورسول الله ﷺ أولى الناس بذلك، كما قال محمد بن سيرين، والسدى، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم.

وقيل: المراد بها المؤذنون الصلحاء، كما ثبت فى صحيح مسلم: «المؤذنون أطول الناس أعناقا يوم القيامة»[٥]. وفى السنن مرفوعا: «الإمام ضامن، والمؤذن مؤتمن، فأرشد الله الأئمة، وغفر للمؤذنين»[٦].

وقال[٧] ابن أبى حاتم: حدثنا على بن الحسين، حدثنا محمد بن عَرُوبَة الهروى، حدثنا غسان قاضى هراة وقال أبو زرعة: حدثنا إبراهيم بن طهمان، عن مطر، عن الحسن، عن سعد بن أبى وقاص أنه قال: «سهام المؤذنين عند الله يوم القيامة كسهام المجاهدين، وهو بين الأذان والإقامة كالمتشحط فى سبيل الله فى دمه».

قال: وقال ابن مسعود: «لو كنت مؤذنا ما باليت ألا أحج ولا أعتمر ولا أجاهد».

---

(١) فى أ: «قال».

(٢) فى أ: «احتضر».

(٣) المسند (٣/١٠٧).

(٤) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٦٥٠٧)، ومسلم فى صحيحه برقم (٢٦٨٣) من طريق قتادة عن أنس عن عبادة بن الصامت بنحو الحديث المتقدم .

(٥) صحيح مسلم برقم (٣٨٧) من حديث معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنه.

(٦) رواه أحمد فى مسنده (٢/ ٢٣٢)، وأبو داود فى السنن برقم (٥/٨)، والترمذى فى السنن برقم (٢٠٧).

(٧) فى ت: «وروى».

قال: وقال عمر بن الخطاب: لو كنت مؤذنا لكمل أمرى، وما باليت ألا أنتصب لقيام الليل ولا لصيام النهار، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «اللهم اغفر للمؤذنين» ثلاثا، قال: فقلت: يا رسول الله، تركتنا، ونحن نجتلد على الأذان بالسيوف. قال: «كلا يا عمر، إنه يأتى[١] على الناس زمان يتركون الأذان على ضعفائهم، وتلك لحوم حرمها الله على النار، لحوم المؤذنين»[٢].

قال: وقالت عائشة: ولهم هذه الآية: ﴿**وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ**﴾، قالت: فهو المؤذن إذا قال: «حى على الصلاة» فقد دعا إلى الله.

وهكذا قال ابن عمر، وعكرمة: إنها نزلت فى المؤذنين.

وقد ذكر البغوى عن أبى أمامة الباهلى، رضى الله عنه، أنه قال فى قوله: ﴿**وَعَمِلَ صَالِحًا**﴾، قال: يعنى صلاة ركعتين بين الأذان والإقامة.

ثم أورد البغوى حديث «عبد الله بن المغفل» قال: قال رسول الله ﷺ: «بين كل أذانين صلاة». ثم قال فى الثالثة: «لمن شاء»[٣] وقد أخرجه الجماعة فى كتبهم، من حديث عبد الله بن بريدة، عنه[٤] وحديث الثورى، عن زيد العمى، عن أبى إياس معاوية بن قرة، عن أنس بن مالك، رضى الله عنه، قال الثورى: لا أراه إلا وقد رفعه إلى النبى ﷺ: «الدعاء لا يرد بين الأذان والإقامة».

ورواه أبو داود، والترمذى، والنسائى فى «اليوم والليلة»، كلهم من حديث الثورى، به[٥]. وقال الترمذى: هذا حديث حسن.

ورواه النسائى أيضا من حديث سليمان التيمى، عن قتادة، عن أنس، به[٦].

والصحيح أن الآية عامة فى المؤذنين وفى غيرهم، فأما حال نزول هذه الآية فإنه لم يكن الأذان مشروعا بالكلية؛ لأنها مكية، والأذان إنما شرع بالمدينة بعد الهجرة، حين أريه عبد الله بن زيد بن عبدربه الأنصارى فى منامه، فقصه على رسول الله ﷺ، فأمره أن يلقيه على بلال فإنه أندى صوتا، كما هو مقرر فى موضعه، فالصحيح إذًا أنها عامة، كما قال عبد الرزاق، عن معمر، عن الحسن البصرى: أنه تلا هذه الآية: ﴿**وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ**﴾، فقال: هذا حبيب الله، هذا ولى الله، هذا صفوة الله، هذا خيرَة الله، هذا أحب أهل الأرض إلى الله، أجاب الله فى دعوته، ودعا الناس إلى ما أجاب الله فيه من دعوته، وعمل صالحا فى إجابته، وقال:

---

(١) فى ت، س: «سيأتى».

(٢) ورواه الإسماعيلى فى مسنده كما فى مسند عمر لابن كثير (١/ ١٤٤) من طريق إبراهيم بن طهمان عن مطر عن الحسن البصرى عن عمر به والحسن لم يسمع من عمر.

(٣) معالم التنزيل للبغوى (٧/ ١٧٤).

(٤) صحيح البخارى برقم (٦٢٧)، وصحيح مسلم برقم (٨٣٨)، وسنن أبى داود برقم (٢٢٨٣)، وسنن الترمذى برقم (١٨٥)، وسنن النسائى (٢/ ٢٨)، وسنن ابن ماجه برقم (١١٦٢).

(٥) سنن أبى داود برقم (٥٢١) وسنن الترمذى برقم (٢١٢) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (٩٨٩٦).

(٦) النسائى فى السنن الكبرى برقم (٩٨٩٩).

إننى من المسلمين، هذا خليفة الله.

وقوله: ﴿وَلا تَسْتَوى الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ﴾ أى: فرق عظيم بين هذه وهذه، ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِي أَحْسَنُ﴾ أى: من أساء إليك فادفعه عنك بالإحسان إليه، كما قال عمر [رضى الله عنه](١): ما عاقبت من عصى الله فيك بمثل أن تطيع الله فيه.

وقوله: ﴿فَإِذَا الَّذى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِى حَمِيمٌ﴾ وهو الصديق، أى: إذا أحسنت إلى من أساء إليك قادته تلك الحسنة إليه إلى مصافاتك ومحبتك، والحنو عليك، حتى يصير كأنه ولى لك حميم، أى: قريب إليك من(٢) الشفقة عليك والإحسان إليك.

ثم قال: ﴿وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ أى: وما يقبل(٣) هذه الوصية ويعمل بها إلا من صبر على ذلك، فإنه يشق على النفوس، ﴿وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾أى: ذو نصيب وافر من السعادة فى الدنيا والأخرى.

قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس فى تفسير هذه الآية: أمر الله المؤمنين بالصبر عند الغضب، والحلم عند الجهل، والعفو عند الإساءة، فإذا فعلوا ذلك عصمهم الله من الشيطان، وخضع لهم عدوهم كأنه ولى حميم.

وقوله: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ أى: إن شيطان الإنس ربما ينخدع بالإحسان إليه، فأما شيطان الجن فإنه لا حيلة فيه إذا وسوس إلا الاستعاذة بخالقه الذى سلطه عليك، فإذا استعذت بالله ولجأت إليه، كفه عنك ورد كيده. وقد كان رسول الله ﷺ: إذا قام إلى الصلاة يقول: «أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم، من همزه ونفخه ونفثه»(٤).

وقد قدمنا أن هذا المقام لا نظير له فى القرآن إلا فى «سورة الأعراف» عند قوله: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ . وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ١٩٩، ٢٠٠]، وفى سورة المؤمنين عند قوله: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ . وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ . وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾ [المؤمنون: ٩٦ ـ ٩٨].

[لكن الذى ذكر فى الأعراف أخف على النفس مما ذكر فى سورة السجدة؛ لأن الإعراض عن الجاهل وتركه أخف على النفس من الإحسان إلى المسىء فتتلذذ النفس من ذلك ولا انتقاد له إلا بمعالجة ويساعدها الشيطان فى هذه الحال، فتنفعل له وتستعصى على صاحبها، فتحتاج إلى مجاهدة وقوة إيمان؛ فلهذا أكد ذلك هاهنا بضمير الفصل والتعريف باللام فقال: ﴿وَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾](٥).

(١) زيادة من ت، س. (٢) فى ت، أ: «فى». (٣) فى أ: «يتقبل».

(٤) انظر تخريج الحديث عند تفسير الآية: ٩٧ من سورة «المؤمنون».

(٥) زيادة من ت، س.

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (٣٧) فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لا يَسْأَمُونَ (٣٨) وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٣٩) ﴾ .

يقول تعالى منبها خلقه على قدرته العظيمة، وأنه الذى لا نظير له، وأنه على ما يشاء، قادر، ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾ أى: إنه خلق الليل بظلامه، والنهار بضيائه، وهما متعاقبان لا يقران، والشمس ونورها وإشراقها، والقمر وضياءه وتقدير منازله فى فلكه، واختلاف سيره فى سمائه، ليُعرف باختلاف سيره وسير الشمس مقادير الليل والنهار، والجُمَع والشهور والأعوام، ويتبين بذلك حلول الحقوق، وأوقات العبادات والمعاملات.

ثم لما كان الشمس والقمر أحسن الأجرام المشاهدة فى العالم العلوى والسفلى، نبه تعالى على أنهما مخلوقان عبدان من عبيده، تحت قهره وتسخيره، فقال: ﴿لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ أى: ولا تشركوا به، فما تنفعكم عبادتكم له مع عبادتكم لغيره، فإنه لا يغفر أن يشرك به؛ ولهذا قال: ﴿فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا﴾ أى: عن إفراد العبادة له وأبوا إلا أن يشركوا معه غيره، ﴿فَالَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾ يعنى: الملائكة، ﴿يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لا يَسْأَمُونَ﴾، كقوله: ﴿ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ ﴾ [الأنعام: ٨٩].

وقال الحافظ أبو يعلى: حدثنا سفيان ـ يعنى ابن وكيع ـ حدثنا أبى، عن ابن أبى ليلى، عن أبى الزبير، عن جابر[١] قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تسبوا الليل ولا النهار، ولا الشمس ولا القمر، ولا الرياح فإنها ترسل رحمة لقوم، وعذابا لقوم»[٢].

وقوله: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ﴾ أى: على قدرته على إعادة الموتى ﴿أَنَّكَ تَرَى الأَرْضَ خَاشِعَةً﴾ أى: هامدة لا نبات فيها، بل هى ميتة، ﴿فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾أى: أخرجت من جميل ألوان الزروع والثمار، ﴿إِنَّ الَّذِى أَحْيَاهَا لَمُحْيِى الْمَوْتَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَمَن يُلْقَىٰ فِي النَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٤٠) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ (٤١) لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ (٤٢) مَا

(١) فى ت: «روى الحافظ أبو يعلى عن جابر».

(٢) مسند أبى يعلى (٤/ ١٣٩)، قال الهيثمى فى المجمع (٨/ ٧١) : «إسناده ضعيف».

يُقَالُ لَكَ إِلاَّ مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ (٤٣)﴾.

قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا﴾، قال ابن عباس: الإلحاد: وضع الكلام على غير مواضعه.

وقال قتادة، وغيره: هو الكفر والعناد.

وقوله: ﴿لا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا﴾ أى: فيه تهديد شديد، ووعيد أكيد، أى: إنه تعالى عالم بمن يلحد فى آياته وأسمائه وصفاته، وسيجزيه على ذلك بالعقوبة والنكال؛ ولهذا قال: ﴿أَفَمَن يُلْقَىٰ فِي النَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾؟ أى: أيستوى هذا وهذا؟ لا يستويان.

ثم قال ـ عز وجل ـ تهديداً[١] للكفرة: ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾ قال مجاهد، والضحاك، وعطاء الخراسانى: ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾ : وعيد، أى: من خير أو شر، إنه عالم بكم وبصير بأعمالكم؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

ثم قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ قال الضحاك، والسدى، وقتادة: وهو القرآن، ﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ﴾ أى: منيع الجناب، لا يرام أن يأتى أحد بمثله، ﴿لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ﴾ أى: ليس للبطلان إليه سبيل؛ لأنه منزل من رب العالمين؛ ولهذا قال: ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ أى: حكيم فى أقواله وأفعاله، حميد بمعنى محمود، أى: فى جميع ما يأمر به وينهى عنه الجميع محمودة عواقبه وغاياته.

ثم قال: ﴿مَا يُقَالُ لَكَ إِلاَّ مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾ قال قتادة، والسدى، وغيرهما: ما يقال لك من التكذيب إلا كما قد قيل للرسل من قبلك، فكما قد كذبت فقد كذبوا، وكما صبروا على أذى قومهم لهم، فاصبر أنت على أذى قومك لك. وهذا اختيار ابن جرير، ولم يحك هو، ولا ابن أبى حاتم غيره.

وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ [لِلنَّاسِ][٢]﴾ أى: لمن تاب إليه، ﴿وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾ أى: لمن استمر على كفره، وطغيانه، وعناده، وشقاقه، ومخالفته.

قال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا حماد، عن على بن زيد[٣]، عن سعيد بن المسيب قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ﴾ قال رسول الله ﷺ: «لولا غَفْر[٤] الله وتجاوزه ما هَنَّأ أحدا العيشُ، ولولا وعيده وعقابه لاتكل كل أحد»[٥].

﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا لَوْلا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُوْلَئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ (٤٤) وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ

(١) فى ت، س، أ: «مهددا». (٢) زيادة من أ. (٣) فى ت: «روى ابن أبى حاتم عن سعيد بن المسيب».
(٤) فى ت، س، أ: «عفو».
(٥) إسناده مرسل، وعلى بن زيد متفق على ضعفه.

وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ (٤٥)﴾ .

لما ذكر تعالى القرآن وفصاحته وبلاغته، وإحكامه فى لفظه ومعناه، ومع هذا لم يؤمن به المشركون، نبه على أن كفرهم به كفر عناد وتعنت، كما قال: ﴿ **وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَىٰ بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ . فَقَرَأَهُ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ** ﴾ [الشعراء:١٩٨، ١٩٩]. وكذلك لو أنزل القرآن كله بلغة العجم، لقالوا على وجه التعنت والعناد: ﴿ **لَوْلا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ** ﴾ أى: لقالوا: هلا أنزل مفصلا بلغة العرب، ولأنكروا ذلك وقالوا: أعجمى وعربى؟ أى: كيف ينزل كلام أعجمى على مخاطب عربى لا يفهمه.

هكذا رُوى هذا المعنى عن ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبير، والسدى، وغيرهم.

وقيل: المراد بقولهم: ﴿ **لَوْلا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ** ﴾ أى: هلا أنزل بعضها بالأعجمى، وبعضها بالعربى.

هذا قول الحسن البصرى، وكان يقرؤها كذلك بلا استفهام فى قوله ﴿ **أَعْجَمِيٌّ** ﴾، وهو رواية عن سعيد بن جبير. وهو فى [التعنت و][(١)] العناد أبلغ.

ثم قال تعالى: ﴿ **قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ** ﴾ أى: قل يا محمد: هذا القرآن لمن آمن به هدى لقلبه، وشفاء لما فى الصدور من الشكوك[(٢)] والريب، ﴿ **وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ** ﴾ أى: لا يفهمون ما فيه، ﴿ **وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى** ﴾ أى: لا يهتدون إلى ما فيه من البيان، كما قال تعالى: ﴿ **وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلاَّ خَسَارًا** ﴾ [الإسراء: ٨٢].

﴿ **أُوْلَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ** ﴾ قال مجاهد: يعنى بعيد من قلوبهم.

قال ابن جرير: معناه: كأن من يخاطبهم يناديهم[(٣)] من مكان بعيد، لا يفهمون ما يقول[(٤)].

قلت: وهذا كقوله تعالى: ﴿ **وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لا يَسْمَعُ إِلاَّ دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ** ﴾ [البقرة: ١٧١].

وقال الضحاك: ينادون يوم القيامة بأشنع أسمائهم.

وقال السدى: كان عمر بن الخطاب [رضى الله عنه][(٥)] جالسا عند رجل من المسلمين يقضى، إذ قال: يالبَّيكاه. فقال عمر: لِمَ تلبى؟ هل رأيت أحدا، أو دعاك أحد؟ قال: دعانى داع من وراء[(٦)] البحر. فقال عمر: أولئك ينادون من مكان بعيد. رواه ابن أبى حاتم.

وقوله: ﴿ **وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ** ﴾ أى: كُذِّب وأوذى، ﴿ **فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ** ﴾ [الأحقاف: ٣٥]. ﴿ **وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى** ﴾ [الشورى: ١٤] بتأخير

(١) زيادة من ت، س. (٢) فى أ: «الشرك». (٣) فى أ: «يدعوهم».
(٤) تفسير الطبرى (٢٤/ ٨١).
(٥) زيادة من ت. (٦) فى ت، س، أ: «خلف».

الحساب إلى يوم المعاد، ﴿لَقُضِيَ بَيْنَهُم﴾ أي: لعجل لهم العذاب، بل لهم موعد لن يجدوا من دونه موئلا، ﴿وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾ أي: وما كان تكذيبهم له عن بصيرة منهم لما قالوا، بل كانوا شاكين فيما قالوا[١]، غير محققين لشيء كانوا فيه. هكذا وجهه ابن جرير، وهو محتمل، والله أعلم.

﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾ إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَاتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِي قَالُوا آذَنَّاكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ ﴿٤٧﴾ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَدْعُونَ مِن قَبْلُ وَظَنُّوا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٤٨﴾﴾.

يقول تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ﴾ أي: إنما يعود نفع ذلك على نفسه، ﴿وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾ أي: إنما يرجع وبال ذلك عليه، ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ أي: لا يعاقب أحدا إلا بذنب، ولا يعذب أحدا إلا بعد قيام الحجة عليه، وإرسال الرسول إليه.

ثم قال: ﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ أي: لا يعلم ذلك أحد سواه، كما قال ﷺ، وهو سيد البشر لجبريل وهو من سادات الملائكة ـ حين سأله عن الساعة، فقال: «ما المسؤول عنها بأعلم من السائل»، وكما[٢] قال تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَاهَا﴾ [النازعات: ٤٤]، وقال: ﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ﴾ [الأعراف: ١٨٧].

وقوله: ﴿وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَاتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ﴾ أي: الجميع بعلمه، لا يعزب عن علمه[٣] مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء. وقد قال تعالى: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾ [الأنعام: ٥٩]، وقال جلت عظمته: ﴿يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ [الرعد: ٨]، وقال: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [فاطر: ١١].

وقوله: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِي﴾ أي: يوم القيامة ينادي الله المشركين على رؤوس الخلائق: أين شركائي الذين عبدتموهم معي؟ ﴿قَالُوا آذَنَّاكَ﴾ أي: أعلمناك، ﴿مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ﴾ أي: ليس أحد منا اليوم يشهد أن معك شريكا، ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَدْعُونَ مِن قَبْلُ﴾ أي: ذهبوا فلم ينفعوهم، ﴿وَظَنُّوا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾ أي: وظن المشركون يوم القيامة، وهذا بمعنى اليقين، ﴿مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾ أي: لا محيد لهم عن عذاب الله، كقوله تعالى: ﴿وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا﴾ [الكهف: ٥٣].

---

(١) في ت، س: «قالوه». (٢) في ت: «ولهذا».
(٣) في ت: «عمله».

﴿ لا يَسْأَمُ الإنسَانُ مِن دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ الشَّرُّ فَيَؤُوسٌ قَنُوطٌ (٤٩) وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَىٰ فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ (٥٠) وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الإنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ (٥١) ﴾ .

يقول تعالى: لا يَمَلّ الإنسان من دعائه ربّه بالخير ـ وهو: المال، وصحة الجسم، وغير ذلك ـ وإن مسه الشر ـ وهو: البلاء أو الفقر ـ **﴿فَيَؤُوسٌ قَنُوطٌ﴾** أى: يقع فى ذهنه أنه لا يتهيأ له بعد هذا خير.

﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي﴾أى: إذا أصابه خير ورزق بعد ما كان فى شدة ليقولن: هذا لى، إنى كنت أستحقه عند ربى، **﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً﴾** أى: يكفر بقيام الساعة، أى: لأجل أنه خُوِّل نعمة يفخر، ويبطر، ويكفر، كما قال تعالى: **﴿ كَلاَّ إِنَّ الإنسَانَ لَيَطْغَىٰ. أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ﴾** [العلق: ٦، ٧].

﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَىٰ﴾ أى: ولئن كان ثَمّ معاد فليُحسنَنّ إلى ربى، كما أحسن إلى فى هذه الدار، يتمنى على الله، عز وجل، مع إساءته العمل وعدم اليقين. قال تعالى: **﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾** يتهدد تعالى من كان هذا عمله واعتقاده بالعقاب والنكال.

ثم قال: **﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الإنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ﴾** أى: أعرض عن الطاعة، واستكبر عن الانقياد لأوامر الله، عز وجل، كقوله تعالى: **﴿فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِ﴾** [الذاريات: ٣٩].

﴿وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ ﴾ أى: الشدة، **﴿فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ ﴾** أى: يطيل المسألة فى الشىء الواحد فالكلام العريض: ما طال لفظه وقل معناه، والوجيز: عكسه، وهو: ما قل ودل. وقد قال تعالى: **﴿وَإِذَا مَسَّ الإنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا**[(١)] **فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُ﴾** [يونس: ١٢].

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ (٥٢) سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٥٣) أَلا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَاءِ رَبِّهِمْ أَلا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ (٥٤) ﴾ .

يقول تعالى: قل يا محمد لهؤلاء المشركين المكذبين بالقرآن: **﴿ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ﴾** هذا القرآن **﴿ مِنْ عِندِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِ﴾**؟ أى: كيف تُرَون حالكم عند الذى أنزله على رسوله؟ ولهذا قال: **﴿مَنْ أَضَلُّ**

---

(١) فى ت، س: «أو قائما أو قاعدا» وهو خطأ.

مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾؟ أى: فى كفر وعناد ومشاقة للحق، ومَسْلَك بعيد من الهدى.

ثم قال: ﴿**سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ**﴾ أى: سنظهر لهم دلالاتنا وحُجَجنا على كون القرآن حقا منزلا من عند الله ،عز وجل ، على رسوله ﷺ بدلائل خارجية ﴿**فِي الآفَاقِ**﴾، من الفتوحات وظهور الإسلام على الأقاليم وسائر الأديان.

قال [1]مجاهد، والحسن، والسدى: ودلائل فى أنفسهم، قالوا: وقعة بَدْر، وفتح مكة، ونحو ذلك من الوقائع التى حلّت بهم، نصر الله فيها محمدا وصحبه، وخذل فيها الباطل وحزبَه.

ويحتمل أن يكون المراد من ذلك ما الإنسان مركب منه وفيه وعليه من المواد والأخلاط والهيئات العجيبة، كما هو مبسوط فى علم التشريح الدال على حكمة الصانع تبارك وتعالى. وكذلك ما هو مجبول عليه من الأخلاق المتباينة، من حَسن وقبيح وبين ذلك، وما هو متصرف فيه تحت الأقدار التى لا يقدر بحوله، وقوته، وحيَله، وحذره أن يجوزها، ولا يتعداها، كما أنشده ابن أبى الدنيا فى كتابه «التفكر والاعتبار»، عن شيخه أبى جعفر القرشى:

وَإذَا نَظَرْتَ تُرِيدُ مُعْتَبَرا ... فَانظُرْ إليْكَ فَفيكَ مُعْتَبَرُ
أنتَ الذى يُمْسِى وَيُصْبحُ فى الـ ... ـدنيا وكُلّ أمُوره عبَرُ
أنْتَ المصرّفُ كانَ فى صِغَرٍ ... ثُمّ استَقَلَّ بِشَخْصِكَ الكِبَرُ
أنت الذى تَنعَاه خلْقَتُه ... يَنْعاه منه الشَّعْرُ وَالبَشَرُ
أنت الذى تُعْطَى وَتُسْلَب لا ... يُنْجيه من أنْ يُسْلَبَ الحَذَرُ
أنْتَ الذى لا شْىءَ منْه لَهُ ... وَأحَقُّ منْه بِمَاله القَدَرُ

وقوله تعالى: ﴿**حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ**﴾؟ أى: كفى بالله[2] شهيدا على أفعال عباده وأقوالهم، وهو يشهد أن محمداً صادق فيما أخبر به عنه، كما قال: ﴿**لَٰكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلائِكَةُ يَشْهَدُونَ**﴾ [النساء: ١٦٦].

وقوله: ﴿**أَلا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَاءِ رَبِّهِمْ**﴾ أى: فى شك من قيام الساعة؛ ولهذا لا يتفكرون فيه، ولا يعملون له، ولا يحذرون منه، بل هو عندهم هَدَرٌ لا يعبؤون به وهو واقع لاريب فيه وكائن لا محالة.

قال ابن أبى الدنيا: حدثنا أحمد بن إبراهيم، حدثناخَلَف بن تميم، حدثنا عبد الله بن محمد بن سعيد الأنصارى: أن عمر بن عبد العزيز صَعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أما بعد، أيها الناس، فإنى لم أجمعكم لأمر أحدثه فيكم، ولكن فكرت فى هذا الأمر الذى أنتم إليه صائرون، فعلمت أن المصدق بهذا الأمر أحمق، والمكذب به هالك ثم نزل.

---

(١) فى ت، أ: «قاله».

(٢) فى ت: «به».

ومعنى قوله، رضى الله عنه: «أن المصدق به أحمق» أى: لأنه لا يعمل له عمل مثله، ولا يحذر منه ولا يخاف من هوله، وهو مع ذلك مصدق به، موقن بوقوعه، وهو مع ذلك يتمادى فى لعبه وغفلته وشهواته وذنوبه، فهو أحمق بهذا الاعتبار، والأحمق فى اللغة: ضعيف العقل.

وقوله: «والمكذب به هالك»: هذا واضح، والله أعلم.

ثم قال تعالى ـ مقررا على أنه على كل شيء قدير، وبكل شيء محيط، وإقامة الساعة لديه يسير سهل عليه تبارك وتعالى ـ : ﴿أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ﴾ أى: المخلوقات كلها تحت قهره وفى قبضته، وتحت طى علمه، وهو المتصرف فيها كلها بحكمه، فما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن.

[آخر تفسير سورة حم السجدة][١]

(١) زيادة من ت، س، أ.

٤١ ـــ سورة فصلت
(مكية وآياتها أربع وخمسون)

بسم الله الرحمن الرحيم

حمٓ ﴿١﴾ ٤١ فصلت

تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢﴾ ٤١ فصلت

كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ٤١ فصلت

بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٤﴾ ٤١ فصلت

وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا
عَٰمِلُونَ ﴿٥﴾ ٤١ فصلت

﴿ سورة فصلت مكية وآياتها أربع وخمسون آية ﴾

١ (بسم الله الرحمن الرحيم) (حم) إن جعل اسما للسورة فهو إما خبر لمبتدأ محذوف وهو الأظهر
٢ لما مر سره مراراً أو مبتدأ خبره (تنزيل) وهو على الأول خبر بعد خبر وخبر لمبتدأ محذوف إن
جعل مسروداً على نمط التعديد وقوله تعالى (من الرحمن الرحيم) متعلق به مؤكد لما أفاده التنوين
٣ من الفخامة الذاتية بالفخامة الإضافية أو خبر آخر أو تنزيل مبتدأ لتخصصه بالصفة خبره (كتاب)
وهو على الوجوه الأول بدل منه أو خبر آخر أو خبر لمحذوف ونسبة التنزيل إلى الرحمن الرحيم للإيذان
بأنه مدار للمصالح الدينية والدنيوية واقع بمقتضى الرحمة الربانية حسبما ينبىء عنه قوله تعالى وما أرسلناك
إلا رحمة للعالمين (فصلت آياته) ميزت بحسب النظم والمعنى وجعلت تفاصيل فى أساليب مختلفة ومعان
متغايرة من أحكام وقصص ومواعظ وأمثال ووعد ووعيد وقرىء فصلت أى فرقت بين الحق
والباطل أو فصل بعضها من بعض باختلاف الأساليب والمعانى من قولك فصل من البلد فصولا
(قرآناً عربياً) نصب على المدح أو الحالية من كتاب لتخصصه بالصفة أو من آياته (لقوم يعلمون)
أى معانيه لكونه على لسانهم وقيل لأهل العلم والنظر لأنهم المنتفعون به واللام متعلقة بمحذوف هو
صفة أخرى لقرآناً أى كائناً لقوم الخ أو بتنزيل على أن من الرحمن الرحيم ليست بصفة له أو بفصلت
٤ (بشيراً ونذيراً) صفتان أخريان لقرآناً أى بشيراً لأهل الطاعة ونذيراً لأهل المعصية أو حالان
من كتاب أو من آياته وقرئا بالرفع على الوصفية لكتاب أو الخبرية لمحذوف (فأعرض أكثرهم) عن
٥ تدبره مع كونه على لغتهم (فهم لا يسمعون) سماع تفكر وتأمل حتى يفهموا جلالة قدره فيؤمنوا به (وقالوا)

قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ ٤١ فصلت

ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٧﴾ ٤١ فصلت

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٨﴾ ٤١ فصلت

أى لرسول الله صلى الله عليه وسلم عند دعوته إياهم إلى الإيمان والعمل بما فى القرآن (قلوبنا فى أكنة) أى أغطية متكاثفة (مما تدعونا إليه وفى آذاننا وقر) أى صمم وأصله الثقل وقرىء بالكسر وقرىء بفتح القاف (ومن بيننا وبينك حجاب) غليظ يمنعنا عن التواصل ومن للدلالة على أن الحجاب مبتدأ من الجانبين بحيث استوعب ما بينهما من المسافة المتوسطة ولم يبق ثمة فراغ أصلا وهذه تمثيلات لنبو قلوبهم عن إدراك الحق وقبوله ومج أسماعهم له كأن بها صمما وامتناع مواصلتهم وموافقتهم للرسول صلى الله عليه وسلم (فاعمل) أى على دينك وقيل فى إبطال أمرنا (إننا عاملون) أى على
٦ ديننا وقيل فى إبطال أمرك والأول هو الأظهر فإن قوله تعالى (قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى أنما إلهكم إله واحد) تلقين للجواب عنه أى لست من جنس مغاير لكم حتى يكون بينى وبينكم حجاب وتباين مصحح لتباين الأعمال والأديان كما ينبىء عنه قولكم فاعمل إننا عاملون بل إنما أنا بشر مثلكم مأمور بما أمرتم به حيث أخبرنا جميعاً بالتوحيد بخطاب جامع بينى وبينكم فإن الخطاب فى إلهكم محكى منتظم للكل لا أنه خطاب منه عليه الصلاة والسلام للكفرة كما فى مثلكم وقيل المعنى لست ملكا ولا جنياً لا يمكنكم التلقى منه ولا أدعوكم إلى ما تنبو عنه العقول والأسماع وإنما أدعوكم إلى التوحيد والاستقامة فى العمل وقد تدل عليهما دلائل العقل وشواهد النقل وقيل المعنى إنى لست بملك وإنما أنا بشر مثلكم وقد أوحى إلى دونكم فصحت بالوحى إلى وأنا بشر نبوتى وإذا صحت نبوتى وجب عليكم اتباعى فتأمل والفاء فى قوله تعالى (فاستقيموا إليه) لترتيب ما بعدها على ما قبلها من إيحاء الوحدانية فإن ذلك موجب لاستقامتهم إليه تعالى بالتوحيد والإخلاص فى الأعمال (واستغفروه) مما كنتم عليه من سوء العقيدة والعمل وقوله تعالى (وويل للمشركين) ترهيب وتنفير لهم عن الشرك
٧ إثر ترغيبهم فى التوحيد ووصفهم بقوله تعالى (الذين لا يؤتون الزكاة) لزيادة التحذير والتخويف عن منع الزكاة حيث جعل من أوصاف المشركين وقرن بالكفر بالآخرة حيث قيل (وهم بالآخرة هم كافرون) وهو عطف على لا يؤتون داخل فى حيز الصلة واختلافهما بالفعلية والاسمية لما أن عدم إيتائها متجدد والكفر أمر مستمر ونقل عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه فسر لا يؤتون الزكاة بقوله لا يقولون لا إله إلا الله فإنها زكاة الأنفس والمعنى لا يطهرون أنفسهم من الشرك بالتوحيد وهو مأخوذ من قوله تعالى ونفس وما سواها وقال الضحاك ومقاتل لا ينفقون فى الطاعات ولا يتصدقون وقال مجاهد لا يزكون أعمالهم (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر غير ممنون) أى ٨

قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ ٤١ فصلت

وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾ ٤١ فصلت

لايمن به عليهم من المن وأصله الثقل أولا يقطع من مننت الحبل قطعته وقيل نزلت فى المرضى
٩ والهرمى إذا عجزوا عن الطاعة كتب لهم الأجر كأصح ما كانوا يعملونه (قل أئنكم لتكفرون)
إنكار وتشنيع لكفرهم وإن واللام إما لتأكيد الإنكار وتقديم الهمزة لاقتضائها الصدارة لالإنكار
التأكيد وإما للإشعار بأن كفرهم من البعد بحيث ينكر العقلاء وقوعه فيحتاج إلى التأكيد وإنما علق
كفرهم بالموصول حيث قيل (بالذى خلق الأرض فى يومين) لتفخيم شأنه تعالى واستعظام كفرهم
به أى بالعظيم الشأن الذى قدر وجودها أى حكم بأنها ستوجد فى مقدار يومين أو فى نوبتين على أن
مايوجد فى كل نوبة يوجد بأسرع ما يكون وإلا فاليوم الحقيقى إنما يتحقق بعد وجودها وتسوية
السموات وإبداع نيراتها وترتيب حركاتها (وتجعلون له أنداداً) عطف على تكفرون داخل فى
حكم الإنكار والتوبيخ وجمع الأنداد باعتبار ماهو الواقع لا بأن يكون مدار الإنكار هو التعدد أى
وتجعلون له أنداداً والحال أنه لايمكن أن يكون له ند واحد (ذلك) إشارة إلى الموصول باعتبار
اتصافه بما فى حيز الصلة وما فيه من معنى البعد مع قرب العهد بالمشار إليه للإيذان ببعد منزلته فى
العظمة وإفراد الكاف لما مر مراراً من أن المراد ليس تعيين المخاطبين وهو مبتدأ خبره ما بعده أى
ذلك العظيم الشأن الذى فعل ماذكر (رب العالمين) أى خالق جميع الموجودات ومربيها دون الأرض
١٠ خاصة فكيف يتصور أن يكون أخس مخلوقاته نداً له وقوله تعالى (وجعل فيها رواسى) عطف على
خلق داخل فى حكم الصلة والجعل إبداعى وحديث لزوم الفصل بينهما بجملتين خارجتين عن حيز
الصلة مدفوع بأن الأولى متحدة بقوله تعالى تكفرون فهو بمنزلة الإعادة له والثانية اعتراضية مقررة
لمضمون الكلام بمنزلة التأكيد فالفصل بهما كلا فصل على أن فيه فائدة التنبيه على أن مجرد المعطوف
عليه كاف فى تحقق ربوبيته للعالمين واستحالة أن يجعل له ند فكيف إذا انضم إليه المعطوفات وقيل
هو عطف على مقدر أى خلقها وجعل الخ وقيل هو كلام مستأنف وأياً ما كان فالمراد تقدير الجعل
لا الجعل بالفعل وقوله تعالى (من فوقها) متعلق بجعل أو بمضمر هو صفة لرواسى أى كائنة من
فوقها مرتفعة عليها لتكون منافعها معرضة لأهلها ويظهر للنظار مافيها من مراصد الاعتبار ومطارح
الأفكار (وبارك فيها) أى قدر أن يكثر خيرها بأن يخلق أنواع الحيوانات التى من جملتها الإنسان
وأصناف النبات التى منها معايشهم (وقدر فيها أقواتها) أى حكم بالفعل بأن يوجد فيما سيأتى لأهلها
من الأنواع المختلفة أقواتها المناسبة لها على مقدار معين تقتضيه الحكمة وقرىء وقسم فيها أقواتها

ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ ٤١ فصلت

فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿١٢﴾ ٤١ فصلت

(فى أربعة أيام) متعلق بحصول الأمور المذكورة لا بتقديرها أى قدر حصولها فى يومين وإنما قيل
فى أربعة أيام أى تتمة أربعة تصريحاً بالفذلكة (سواء) مصدر مؤكد لمضمر هو صفة لأيام أى استوت *
سواء أى استواء كما ينبىء عنه القراءة بالجر وقيل هو حال من الضمير فى أقواتها أو فى فيها وقرىء بالرفع
أى هى سواء (للسائلين) متعلق بمحذوف تقديره هذا الحصر للسائلين عن مدة خلق الأرض وما فيها أو
١١ بقدر أى قدر فيها أقواتها لأجل السائلين أى الطالبين لها المحتاجين إليها من المقتاتين وقوله تعالى (ثم استوى
إلى السماء) شروع فى بيان كيفية التكوين إثر بيان كيفية التقدير ولعل تخصيص البيان بما يتعلق
بالأرض وأهلها لما أن بيان اعتنائه تعالى بأمر المخاطبين وترتيب مبادى معايشهم قبل خلقهم مما يحملهم
على الإيمان ويزجرهم عن الكفر والطغيان أى ثم قصد نحوها قصداً سوياً لا يلوى على غيره (وهى *
دخان) أى أمر ظلمانى عبر به عن مادتها أو عن الأجزاء المتصغرة التى ركبت هى منها أو دخان
مرتفع من الماء كما سيأتى وإنما خص الاستواء بالسماء مع أن الخطاب المترتب عليه متوجه إليهما
معاً حسبما ينطق به قوله تعالى (فقال لها وللأرض) اكتفاء بذكر تقديرها وتقدير مافيها كأنه قيل *
فقال لها وللأرض التى قدر وجودها ووجود مافيها (ائتيا) أى كونا واحدثا على وجه معين وفى وقت
مقدر لكل منكما وهو عبارة عن تعلق إرادته تعالى بوجودهما تعلقاً فعليا بطريق التمثيل بعد تقدير
أمرهما من غير أن يكون هناك أمر ومأمور كما فى قوله تعالى كن وقوله تعالى (طوعا أو كرهاً) تمثيل *
لتحتم تأثير قدرته تعالى فيهما واستحالة امتناعهما من ذلك لا إثبات الطوع والكره لهما وهما مصدران
وقعاً موقع الحال أى طائعتين أو كارهتين وقوله تعالى (قالتا أتينا طائعين) أى منقادين تمثيل لكمال *
تأثرهما بالذات عن القدرة الربانية وحصولهما كما أمرتا به وتصوير لكون وجودهما كما هما عليه جارياً
على مقتضى الحكمة البالغة فإن الطوع منبىء عن ذلك والكره موهم لخلافه وإنما قيل طائعين باعتبار
١٢ كونهما فى معرض الخطاب والجواب كقوله تعالى ساجدين وقوله تعالى (فقضاهن سبع سموات)
تفسير وتفصيل لتكوين السماء المجمل المعبر عنه بالأمر وجوابه لا أنه فعل مترتب على تكوينها أى
خلقهن خلقاً إبداعياً وأتقن أمرهن حسبما تقتضيه الحكمة والضمير إما للسماء على المعنى أو مبهم
وسبع سموات حال على الأول تمييز على الثانى (فى يومين) فى وقت مقدر بيومين وقد بين مقدار زمان
خلق الأرض وخلق مافيها عند بيان تقديرهما فكان خلق الكل فى ستة أيام حسبما نص عليه فى مواقع
من التنزيل (وأوحى فى كل سماء أمرها) عطف على قضاهن أى خلق فى كل منها ما فيها من الملائكة *

والنيرات وغير ذلك مما لا يعلمه إلا الله تعالى كما قاله قتادة والسدى فالوحى عبارة عن التكوين كالأمر مقيد بما قيد به المعطوف عليه من الوقت أو أوحى إلى أهل كل منها أوامره وكلفهم مايليق بهم من التكاليف فهو بمعناه ومطلق عن القيد المذكور وأياما كان فعلى ماقرر من التفصيل لا دلالة فى الآية الكريمة على الترتيب بين إيجاد الأرض وإيجاد السماء وإنما الترتيب بين التقدير والإيجاد وأما على تقدير كون الخلق وما عطف عليه من الأفعال الثلاثة على معانيها الظاهرة فهى وما فى سورة البقرة من قوله تعالى هو الذى خلق لكم مافى الأرض جميعاً ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سموات تدلان على تقدم خلق الأرض وما فيها على خلق السماء وما فيها وعليه إطباق أكثر أهل التفسير وقد روى أن العرش العظيم كان قبل خلق السموات والأرض على الماء ثم إنه تعالى أحدث فى الماء اضطراباً فأزبد فارتفع منه دخان فأما الزبد فبقى على وجه الماء فخلق فيه اليبوسة فجعله أرضاً واحدة ثم فتقها فجعلها أرضين وأما الدخان فارتفع وعلا فخلق منه السموات وروى أنه تعالى خلق جرم الأرض يوم الأحد ويوم الاثنين ودحاها وخلق مافيها يوم الثلاثاء ويوم الأربعاء وخلق السموات وما فيهن يوم الخميس ويوم الجمعة وخلق آدم عليه السلام فى آخر ساعة منه وهى الساعة التى تقوم فيها القيامة وقيل إن خلق جرم الأرض مقدم على خلق السموات لكن دحوها وخلق ما فيها مؤخر عنه لقوله تعالى والأرض بعد ذلك دحاها ولما روى عن الحسن رحمه الله من أنه تعالى خلق الأرض فى موضع بيت المقدس كهيئة الفهر عليه دخان ملتزق بها ثم أصعد الدخان وخلق منه السموات وأمسك الفهر فى موضعها وبسط منها الأرض وذلك قوله تعالى كانتا رتقاً ففتقناهما الآية وليس المراد بنظمها مع السماء فى سلك الأمر بالإتيان إنشاءها وإحداثها بل إنشاء دحوها وجعلها على وجه خاص يليق بها من شكل معين ووصف مخصوص كأنه قيل ائتيا على ماينبغى أن تأتيا عليه ائتى يا أرض مدحوة قراراً ومهاداً لأهلك وائتى ياسماء مقبية سقفاً لهم ومعنى الإتيان الحصول على ذلك الوجه كما تنبىء عنه قراءة آتيا وآتينا من المواتاة وهى الموافقة وأنت خبير بأن المذكور قبل الأمر بالإتيان ليس مجرد خلق جرم الأرض حتى يتأتى ماذكر بل خلق مافيها أيضاً من الأمور المتأخرة عن دحوها قطعاً فالأظهر أن يسلك مسلك الأولين ويحمل الأمر بالإتيان على تكوينهما متوافقتين على الوجه المذكور وليس من ضرورته أن يكون دحوها مترتباً على ذلك التكوين وإنما اللازم ترتب حصول التوافق عليه ولا ريب فى أن تكوين السماء على الوجه اللائق بها كاف فى حصوله ولا يقدح فى ذلك تكوين الأرض على الوجه المذكور قبل ذلك وأن يحمل الأرض فى قوله تعالى والأرض بعد ذلك دحاها منصوبا بمضمر قد حذف على شريطة التفسير ويجعل ذلك إشارة إلى ذكر ماذكر من بناء السماء ورفع سمكها وتسويتها وغيرها لا إلى أنفسها وتحمل البعدية إما على أنه قاصر عن الأول فى الدلالة على القدرة القاهرة كما قيل وإما على أنه أدخل فى الإلزام لما أن المنافع المنوطة بما فى الأرض أكثر وتعلق مصالح الناس بذلك أظهر وإحاطتهم بتفاصيلها أكمل وليس ماروى عن الحسن

فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ ٤١ فصلت

إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ قَالُوا۟ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾ ٤١ فصلت

رضى الله عنه نصاً فى تأخر دحو الأرض عن خلق السماء فإن بسط الأرض معطوف على إصعاد الدخان وخلق السماء بالواو فلا دلالة فى ذلك على الترتيب قطعاً وقد نقل الإمام الواحدى عن مقاتل أن خلق السماء مقدم على إيجاد الأرض فضلا عن دحوها فلابد من حمل الأمر بإتيانهما حينئذ أيضاً على ماذكر من التوافق والمواتاة ولا يقدح فى ذلك تقدم خلق السماء على خلق الأرض كالم يقدح فيه تقدم خلق الأرض على خلق السماء هذا كله على تقدير كون كلمة ثم للتراخى الزمانى وأما على تقدير كونها للتراخى الرتبى كما جنح إليه الأكثرون فلادلالة فى الآية الكريمة على الترتيب كما فى الوجه الأول وعلى ذلك بنى الكلام فى تفسير قوله تعالى هو الذى خلق لكم مافى الأرض جميعاً الآية وإنما لم يحمل الخلق هناك على معنى التقدير كما حمل عليه ههنا لتوفية مقام الامتنان حقه (وزينا السماء الدنيا بمصابيح) من الكواكب فإنها كلها ترى متلألئة عليها كأنها فيها والالتفات إلى نون العظمة لإبراز مزيد العناية بالأمر وقوله تعالى (وحفظاً) مصدر مؤكد لفعل معطوف على زينا أى وحفظناها من الآفات أو من المسترقة حفظاً وقيل مفعول له على المعنى كأنه قيل وخلقنا المصابيح زينة وحفظاً (ذلك) الذى ذكر بتفاصيله (تقدير العزيز العليم) المبالغ فى القدرة والعلم (فإن أعرضوا) ١٣
متصل بقوله تعالى قل أئنكم الخ أى فإن أعرضوا عن التدبر فيما ذكر من عظائم الأمور الداعية إلى الإيمان أو عن الإيمان بعد هذا البيان (فقل) لهم (أنذرتكم) أى أنذركم وصيغة الماضى للدلالة على تحقق الإنذار المنبىء عن تحقق المنذر به (صاعقة) أى عذابا هائلا شديد الوقع كأنه صاعقة (مثل صاعقة عاد وثمود) وقرىء صعقة مثل صعقة عاد وثمود وهى المرة من الصعق أو الصعق يقال صعقته الصاعقة صعقاً فصعق صعقا وهو من باب فعلته ففعل (إذ جاءتهم الرسل) حال من صاعقة عاد ولا ١٤
سداد لجعله ظرفا لأنذرتكم أو صفة لصاعقة لفساد المعنى وأما جعله صفة لصاعقة عاد أى الكائنة إذ جاءتهم ففيه حذف الموصول مع بعض صلته (من بين أيديهم ومن خلفهم) متعلق بجاءتهم أى من جميع جوانبهم واجتهدوا بهم من كل جهة أو من جهة الزمان الماضى بالإنذار عما جرى فيه على الكفار ومن جهة المستقبل بالتحذير عما سيحيق بهم من عذاب الدنيا وعذاب الآخرة وقيل المعنى جاءتهم الرسل المتقدمون والمتأخرون على تنزيل مجىء كلامهم ودعوتهم إلى الحق منزلة مجىء أنفسهم فإن هوداً وصالحاً كانا داعيين لهم إلى الإيمان بهما وبجميع الرسل ممن جاء من بين أيديهم أى من قبلهم وممن يجىء من خلفهم أى من بعدهم فكان الرسل قد جاءوهم وخاطبوهم بقوله تعالى (أن لا تعبدوا إلا الله) أى بأن لا تعبدوا على أن أن مصدرية أو أى لا تعبدوا على أنها مفسرة (قالوا لو شاء ربنا) أى

فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ ٤١ فصلت

فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لَا يُنْصَرُونَ ﴿١٦﴾ ٤١ فصلت

إرسال الرسل لا إنزال الملائكة كما قيل فإنه عار عن إفادة ما أرادوه من نفي رسالة البشر وقد مر فيما سلف (لأنزل ملائكة) أي لأرسلهم لكن لما كان إرسالهم بطريق الإنزال قيل لأنزل (فإنا بما أرسلتم به) أي على زعمكم وفيه ضرب تهكم بهم (كافرون) لما أنكم بشر مثلنا من غير فضل لكم علينا روى أن أبا جهل قال في ملأ من قريش قد التبس علينا أمر محمد فلو التمستم لنا رجلا عالما بالشعر والكهانة والسحر فكلمه ثم أتانا ببيان من أمره فقال عتبة بن ربيعة والله لقد سمعت الشعر والكهانة والسحر وعلمت من ذلك علماً وما يخفى على فأتاه فقال أنت يامحمد خير أم هاشم أنت خير أم عبد المطلب أنت خير أم عبد الله فبم تشتم آلهتنا وتضللنا فإن كنت تريد الرياسة عقدنا لك اللواء فكنت رئيساً وإن تك بك الباءة زوجناك عشر نسوة تختارهن أى بنات قريش شئت وإن كان بك المال جمعنا لك ماتستغنى ورسول الله صلى الله عليه وسلم ساكت فلما فرغ عتبة قال صلى الله عليه وسلم بسم الله الرحمن الرحيم حم إلى قوله تعالى مثل صاعقة عاد وثمود فأمسك عتبة على فيه صلى الله عليه وسلم وناشده بالرحم ورجع إلى أهله ولم يخرج إلى قريش فلما احتبس عنهم قالوا ما نرى عتبة إلا قد صبأ فانطلقوا إليه وقالوا ياعتبة ماحبسك عنا إلا أنك قد صبأت فغضب ثم قال والله لقد كلمته فأجابني بشيء والله ما هو بشعر ولا كهانة ولا سحر ولما بلغ صاعقة عاد وثمود أمسكت بفيه وناشدته بالرحم أن يكف وقد

١٥ علمتم أن محمداً إذا قال شيئاً لم يكذب نخفت أن ينزل بكم العذاب (فأما عاد فاستكبروا في الأرض) شروع في حكاية مايخص بكل واحدة من الطائفتين من الجناية والعذاب إثر حكاية ما يعم الكل من الكفر المطلق أي فتعظموا فيها على أهلها أو استعلوا فيها واستولوا على أهلها (بغير الحق) أي بغير استحقاق للتعظم والولاية (وقالوا) مدلين بشدتهم وقوتهم (من أشد منا قوة) حيث كانوا ذوى أجسام طوال وخلق عظيم وقد بلغ من قوتهم أن الرجل كان ينزع الصخرة من جبل فيقتلعها بيده (أو لم يروا) أي أغفلوا أو ألم ينظروا ولم يعلموا علماً جلياً شبيهاً بالمشاهدة والعيان (أن الله الذى خلقهم هو أشد منهم قوة) أي قدرة فإنه تعالى قادر بالذات مقتدر على مالايتناهى قوى على مالايقدر عليه غير مفيض للقوى والقدر على كل قوى وقادر وإنما أورد في حيز الصلة خلقهم دون خلق السموات والأرض لادعائهم الشدة في القوة وفيه ضرب من التهكم بهم (وكانوا بآياتنا) المنزلة على الرسل (يجحدون) أي ينكرونها وهم يعرفون حقيتها وهو عطف على فاستكبروا كقوله تعالى وقالوا وما

١٦ بينهما اعتراض للرد على كلمتهم الشنعاء (فأرسلنا عليهم ريحاً صرصراً) أي باردة تهلك وتحرق بشدة

وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ ٤١ فصلت

وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾ ٤١ فصلت

وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ ٤١ فصلت

حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ ٤١ فصلت

بردها من الصر وهو البرد الذى يصر أى يجمع ويقبض أو عاصفة تصوت فى هبوبها من الصرير (فى أيام نحسات) جمع نحسة من نحس نحساً نقيض سعد سعداً وقرىء بالسكون على التخفيف أو على أنه نعت على فعل أو وصف بمصدر مبالغة قيل كن آخر شوال من الأربعاء إلى الأربعاء وما عذب قوم إلا فى يوم الأربعاء (لنذيقهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا) وقرىء لتذيقهم على إسناد الإذاقة إلى الريح أو إلى الأيام وأضيف العذاب إلى الخزى الذى هو الذل والاستكانة على أنه وصف له كما يعرب عنه قوله تعالى (ولعذاب الآخرة أخزى) وهو فى الحقيقة وصف للمعذب وقد وصف به العذاب للمبالغة (وهم لا ينصرون) بدفع العذاب عنهم بوجه من الوجوه (وأما ثمود فهديناهم) فدللناهم على الحق بنصب
١٧
الآيات التكوينية وإرسال الرسل وإنزال الآيات التشريعية وأزحنا عللهم بالكلية وقد مر تحقيق معنى الهدى فى تفسير قوله تعالى هدى للمتقين وقرىء ثمود بالنصب بفعل يفسره ما بعده ومنونا فى الحالين وبضم الثاء (فاستحبوا العمى على الهدى) أى اختاروا الضلالة على الهداية (فأخذتهم صاعقة العذاب الهون) داهية العذاب وقارعة العذاب والهون الهوان وصف به العذاب مبالغة أو أبدل منه (بما كانوا يكسبون) من اختيار الضلالة (ونجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون) من تلك الصاعقة
١٨
(ويوم يحشر أعداء الله) شروع فى بيان عقوباتهم الآجلة إثر بيان عقوباتهم العاجلة والتعبير عنهم
١٩
بأعداء الله تعالى لذمهم والإيذان بعلة ما يحيق بهم من ألوان العذاب وقيل المراد بهم الكفار من الأولين والآخرين ويرده ما سيأتى من قوله تعالى فى أمم قد خلت من قبلهم من الجن والإنس وقرىء يحشر على بناء الفاعل ونصب أعداء الله وبنون العظمة وضم الشين وكسرها (إلى النار) أى إلى موقف الحساب إذ هناك تتحقق الشهادة الآتية لا بعد تمام السؤال والجواب وسوقهم إلى النار والتعبير عنه بالنار إما للإيذان بأنها عاقبة حشرهم وأنهم على شرف دخولها وإما لأن حسابهم يكون على شفيرها ويوم اما منصوب باذكر أو ظرف لمضمر مؤخر قد حذف ايهاماً لقصور العبارة عن تفصيله كما مر فى قوله تعالى يوم يجمع الله الرسل وقيل ظرف لما يدل عليه قوله تعالى (فهم يوزعون) أى يحبس أولهم على آخرهم ليتلاحقوا وهو عبارة عن كثرتهم وقيل يساقون ويدفعون إلى النار وقوله تعالى (حتى
٢٠

وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ ٤١ فصلت

وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ ٤١ فصلت

إذا ما جاءوها) أى جميعاً غاية ليحشر أو ليوزعون أى حتى إذا حضروها وما مزيدة لتأكيد
اتصال الشهادة بالحضور (شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون) فى الدنيا من
فنون الكفر والمعاصى بأن ينطقها الله تعالى أو يظهر عليها آثار ما اقترفوا بها وعن ابن عباس
رضى الله عنهما أن المراد بشهادة الجلود شهادة الفروج وهو الأنسب بتخصيص السؤال بها فى قوله
٢١ تعالى (وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا) فإن ماتشهد به من الزنا أعظم جناية وقبحاً وأجلب للخزى
والعقوبة مما يشهد به السمع والأبصار من الجنايات المكتسبة بتوسطهما وقيل المراد بالجلود
الجوارح أى سألوها سؤال توبيخ لما روى أنهم قالوا لها فعنكن كنا نناضل وفى رواية بعداً لكن
وسحقاً عنكن كنت أجادل وصيغة جمع العقلاء فى خطاب الجلود وفى قوله تعالى (قالوا أنطقنا الله
الذى أنطق كل شىء) لوقوعها فى موقع السؤال والجواب المختصين بالعقلاء أى أنطقنا الله الذى
أنطق وأقدرنا على بيان الواقع فشهدنا عليكم بما عملتم بواسطتنا من القبائح وما كتمناها وقيل
مانطقنا باختيارنا بل أنطقنا الله الذى أنطق كل شىء وليس بذاك لما فيه من إيهام الاضطرار فى
الأخبار وقيل سألوها سؤال تعجب فالمعنى حينئذ ليس نطقنا بعجب من قدرة الله الذى أنطق كل
حى (وهو خلقكم أول مرة وإليه ترجعون) فإن من قدر على خلقكم وإنشائكم أولا وعلى إعادتكم
ورجعكم إلى جزائه ثانيا لا يتعجب من انطاقه لجوارحكم ولعل صيغة المضارع مع أن هذه المحاورة
بعد البعث والرجع لما أن المراد بالرجع ليس مجرد الرد إلى الحياة بالبعث بل مايعمه وما يترتب
عليه من العذاب الخالد المترقب عند التخاطب على تغليب المتوقع على الواقع على أن فيه مراعاة
٢٢ الفواصل وقوله تعالى (وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم) حكاية
لما سيقال لهم يومئذ من جهته تعالى بطريق التوبيخ والتقريع تقريرا لجواب الجلود أى ما كنتم
تستترون فى الدنيا عند مباشرتكم الفواحش مخافة أن تشهد عليكم جوارحكم بذلك كما كنتم تستترون
من الناس مخافة الافتضاح عندهم بل كنتم جاحدين بالبعث والجزاء رأساً (ولكن ظننتم أن الله
لا يعلم كثيراً مما تعملون) من القبائح المخفية فلا يظهرها فى الآخرة ولذلك اجترأتم على مافعلتم وفيه
إيذان بأن شهادة الجوارح بأعلامه تعالى حينئذ لا بأنها كانت عالمة بما شهدت به عند صدوره عنهم .
عن ابن مسعود رضى الله عنه كنت مستتراً بأستار الكعبة فدخل ثلاثة نفر ثقفيان وقرشى أو
قرشيان وثقفى فقال أحدهم أترون أن الله يسمع مانقول قال الآخر يسمع إن جهرنا ولا يسمع إن

وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ ٤١ فصلت

فَإِن يَصْبِرُوا۟ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ۖ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾ ٤١ فصلت

وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُوا۟ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢٥﴾ ٤١ فصلت

وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾ ٤١ فصلت

أخفينا فذكرت ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فأنزل الله تعالى وما كنتم تستترون الآية فالحكم المحكى
حينئذ يكون خاصاً بمن كان على ذلك الاعتقاد من الكفرة ولعل الأنسب أن يراد بالظن معنى مجازي يعم
معناه الحقيقي وما يجرى مجراه من الأعمال المنبئة عنه كما فى قوله تعالى يحسب أن ماله أخلده ليعم ماحكى
من الحال جميع أصناف الكفرة فتدبر (وذلكم) إشارة إلى ماذكر من ظنهم وما فيه من معنى البعد للإيذان ٢٣
بغاية بعد منزلته فى الشر والسوء وهو مبتدأ وقوله تعالى (ظنكم الذى ظننتم بربكم أرداكم) خبران له
ويجوز أن يكون ظنكم بدلا وأرداكم خبراً (فأصبحتم) بسبب ذلك الظن السوء الذى أهلككم (من
الخاسرين) إذ صار مامنحوا لنيل سعادة الدارين سبباً لشقاء النشأتين (فإن يصبروا فالنار مثوى لهم) ٢٤
أى محل ثواء وإقامة أبدية لهم بحيث لابراح لهم منها والالتفات إلى الغيبة للإيذان باقتضاء حالهم أن
يعرض عنهم ويحكى سوء حالهم لغيرهم أو للإشعار بإبعادهم عن حيز الخطاب وإلقائهم فى غاية دركات
النار (وإن يستعتبوا) أى يسألوا العتبى وهو الرجوع إلى مايحبونه جزعا مما هم فيه (فما هم من المعتبين) ٭
المجابين إليها ونظيره قوله تعالى سواء علينا أجزعنا أم صبرنا مالنا من محيص وقرىء وإن يستعتبوا
فما هم من المعتبين أى إن يسألوا أن يرضوا ربهم فما هم فاعلون لفوات المكنة (وقيضنا لهم) أى قدرنا ٢٥
وقرنا للكفرة فى الدنيا (قرناء) جمع قرين أى أخدانا من الشياطين يستولون عليهم استيلاء القيض
على البيض وهو القشر وقيل أصل القيض البدل ومنه المقايضة للمعاوضة (فزينوا لهم ما بين أيديهم) ٭
من أمور الدنيا واتباع الشهوات (وما خلفهم) من أمور الآخرة حيث أروهم أن لابعث ولا حساب
ولا مكروه قط (وحق عليهم القول) أى ثبت وتقرر عليهم كلمة العذاب وتحقق موجبها ومصداقها ٭
وهو قوله تعالى لإبليس فالحق والحق أقول لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين وقوله تعالى
لمن اتبعك منهم لأملأن جهنم منكم أجمعين كما مر مراراً (فى أمم) حال من الضمير المجرور أى كائنين ٭
فى جملة أمم وقيل فى بمعنى مع وهذا كما ترى صريح فى أن المراد بأعداء الله تعالى فيما سبق المعهودون
من عاد وثمود لا الكفار من الأولين والآخرين كما قيل (قد خلت) صفة لأمم أى مضت (من ٭
قبلهم من الجن والإنس) على الكفر والعصيان كدأب هؤلاء (إنهم كانوا خاسرين) تعليل لاستحقاقهم
العذاب والضمير للأولين والآخرين (وقال الذين كفروا) من رؤساء المشركين لأعقابهم أو قال ٢٦

فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ٤١ فصلت

ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٢٨﴾ ٤١ فصلت

وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٢٩﴾ ٤١ فصلت

إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ ٤١ فصلت

بعضهم لبعض (لاتسمعوا لهذا القرآن) أى لاتنصتوا له (والغوا فيه) وعارضوه بالخرافات من الرجز
والشعر والتصدية والمكاء أو ارفعوا أصواتكم بها لتشوشوه على القارىء وقرىء بضم الغين والمعنى واحد
٢٧ يقال لغى يلغى كلقى يلقى ولغا يلغو إذا هذى (لعلكم تغلبون) أى تغلبونه على قراءته (فلنذيقن الذين كفروا)
أى فو الله لنذيقن هؤلاء القائلين واللاغين أو جميع الكفار وهم داخلون فيهم دخولا أولياً (عذاباً
* شديداً) لا يقادر قدره (ولنجزينهم أسوأ الذى كانوا يعملون) أى جزاء سيئات أعمالهم التى هى فى
أنفسها أسوأ وقيل إنه لايجازيهم بمحاسن أعمالهم كإغاثة الملهوفين وصلة الأرحام وقرى الأضياف
لأنها محبطة بالكفر وعن ابن عباس رضى الله عنهما عذاباً شديداً يوم بدر وأسوأ الذى كانوا
٢٨ يعملون فى الآخرة (ذلك) مبتدأ وقوله تعالى (جزاء أعداء الله) خبره أى ماذكر من الجزاء جزاء
معد لأعدائه تعالى وقوله تعالى (النار) عطف بيان للجزاء أو ذلك خبر مبتدأ محذوف أى الأمر
ذلك على أنه عبارة عن مضمون الجملة لاعن الجزاء وما بعده جملة مستقلة مبينة لما قبلها وقوله تعالى
* (لهم فيها دار الخلد) جملة مستقلة مقررة لما قبلها أو النار مبتدأ هى خبره أى هى بعينها دار إقامتهم
على أن فى للتجريد وهو أن ينتزع من أمر ذى صفة أمر آخر مثله مبالغة لكماله فيها كما يقال فى البيضة
عشرون منا حديد وقيل هى على معناها والمراد أن لهم فى النار المشتملة على الدركات داراً مخصوصة
* هم فيها خالدون (جزاء بما كانوا بآياتنا يجحدون) منصوب بفعل مقدر أى يجزون جزاء أو بالمصدر
السابق فإن المصدر ينتصب بمثله كما فى قوله تعالى فإن جهنم جزاؤكم جزاء موفوراً والباء الأولى متعلقة
بجزاء والثانية بيجحدون قدمت عليه لمراعاة الفواصل أى بسبب ما كانوا يجحدون بآياتنا الحقة أو يلغون
٢٩ فيها وذكر الجحود لكونه سبباً للغو (وقال الذين كفروا) وهم متقلبون فيما ذكر من العذاب (ربنا
أرنا اللذين أضلانا من الجن والإنس) يعنون فريقى شياطين النوعين المقيضين لهم الحاملين لهم على الكفر
والمعاصى بالتسويل والتزيين وقيل هما إبليس وقابيل فإنهما سنا الكفر والقتل بغير حق وقرىء أرنا
تخفيفاً كفخذ فى فخذ وقيل معناه أعطناهما وقرىء باختلاس كسرة الراء (نجعلهما تحت أقدامنا) أى
٣٠ ندسهما انتقاماً منهما وقيل نجعلهما فى الدرك الأسفل (ليكونا من الأسفلين) أى ذلا ومهانة أو مكاناً (إن

نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ ٤١ فصلت

نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾ ٤١ فصلت

وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ ٤١ فصلت

الذين قالوا ربنا الله) شروع فى بيان حسن أحوال المؤمنين فى الدنيا و الآخرة بعد بيان سوء حال الكفرة
فيهما أى قالوا اعترافا بربوبيته تعالى وإقراراً بوحدانيته (ثم استقاموا) أى ثبتوا على الإقرار ومقتضياته *
على أن ثم للتراخى فى الزمان أو فى الرتبة فإن الاستقامة لها الشأن كله وما روى عن الخلفاء الراشدين رضى
الله تعالى عنهم فى معناها من الثبات على الإيمان وإخلاص العمل وأداء الفرائض بيان لجزئياتها (تتنزل *
عليهم الملائكة) من جهته تعالى يمدونهم فيما يعن لهم من الأمور الدينية والدنيوية بما يشرح صدورهم ويدفع
عنهم الخوف والحزن بطريق الإلهام كما أن الكفرة يغويهم ماقيض لهم من قرناء السوء بتزيين القبائح وقيل
تتنزل عند الموت بالبشرى وقيل إذا قاموا من قبورهم وقيل البشرى فى مواطن ثلاثة عند الموت وفى القبر
وعند البعث والأظهر هو العموم والإطلاق كما ستعرفه (أن لا تخافوا) ماتقدمون عليه فإن الخوف غم *
يلحق لتوقع المكروه (ولا تحزنوا) على ما خلفتم فإنه غم يلحق لوقوعه من فوات نافع أو حصول ضار *
وقيل المراد نهيهم عن الغموم على الإطلاق والمعنى أن الله تعالى كتب لكم الأمن من كل غم فلن
تذوقوه أبداً وأن إما مفسرة أو مخففة من الثقيلة والأصل بأنه لاتخافوا والهاء ضمير الشأن وقرىء
لاتخافوا أى يقولون لاتخافوا على أنه حال من الملائكة أو استئناف (وأبشروا) أى سروا (بالجنة *
التى كنتم توعدون) فى الدنيا على ألسنة الرسل هذا من بشاراتهم فى أحد المواطن الثلاثة وقوله تعالى
٣١ (نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا) الخ من بشاراتهم فى الدنيا أى أعوانكم فى أموركم نلهمكم الحق ونرشدكم
إلى مافيه خيركم وصلاحكم ولعل ذلك عبارة عما يخطر ببال المؤمنين المستمرين على الطاعات من أن
ذلك بتوفيق الله تعالى وتأييده لهم بواسطة الملائكة عليهم السلام (وفى الآخرة) نمدكم بالشفاعة *
ونتلقاكم بالكرامة حين يقع بين الكفرة وقرنائهم مايقع من التعادى والخصام (ولكم فيها) أى فى
الآخرة (ماتشتهى أنفسكم) من فنون الطيبات (ولكم فيها ماتدعون) ماتتمنون افتعال من الدعاء *
بمعنى الطلب أى تدعون لأنفسكم وهو أعم من الأول ولكم فى الموضعين خبر وما مبتدأ وفيها حال
من ضميره فى الخبر وعدم الاكتفاء بعطف ماتدعون على ماتشتهى للإشباع فى البشارة والإيذان
٣٢ باستقلال كل منهما (نزلا من غفور رحيم) حال مما تدعون مفيدة لكون مايتمنونه بالنسبة إلى
٣٣ مايعطون من عظائم الأجور كالنزل للضيف (ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله) أى إلى توحيده
تعالى وطاعته . عن ابن عباس رضى الله عنهما هو رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا إلى الإسلام

وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ
كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ ٤١ فصلت

وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ ٤١ فصلت

وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾ ٤١ فصلت

وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ
ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ ٤١ فصلت

وعنه أنهم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقيل نزلت فى المؤذنين والحق أن حكمها عام لكل
* من جمع مافيها من الخصال الحميدة وإن نزلت فيمن ذكر (وعمل صالحاً) فيما بينه وبين ربه (وقال
إننى من المسلمين) ابتهاجا بأنه منهم أو اتخاذاً للإسلام ديناً ونحلة من قولهم هذا قول فلان أى مذهبه
٣٤ لا أنه تكلم بذلك وقرىء إنى بنون واحدة (ولا تستوى الحسنة ولا السيئة) جملة مستأنفة سيقت
لبيان محاسن الأعمال الجارية بين العباد إثر بيان محاسن الأعمال الجارية بين العبد وبين الرب عز وجل
ترغيباً لرسول الله صلى الله عليه وسلم فى الصبر على أذية المشركين ومقابلة إساءتهم بالإحسان أى
لاتستوى الخصلة الحسنة والسيئة فى الآثار والأحكام ولا الثانية مزيدة لتأكيد النفى وقوله تعالى
* (ادفع بالتى هى أحسن) الخ استئناف مبين لحسن عاقبة الحسنة أى ادفع السيئة حيث اعترضتك
من بعض أعاديك بالتى هى أحسن مايمكن دفعها به من الحسنات كالإحسان إلى من أساء فإنه أحسن
من العفو وإخراجه مخرج الجواب عن سؤال من قال كيف أصنع للمبالغة ولذلك وضع أحسن
موضع الحسنة وقوله تعالى (فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم) بيان لنتيجة الدفع
٣٥ المأمور به أى فإذا فعلت ذلك صار عدوك المشاق مثل الولى الشفيق (وما يلقاها) أى مايلقى هذه
الخصلة والسجية التى هى مقابلة الإساءة بالإحسان (إلا الذين صبروا) أى شأنهم الصبر (وما يلقاها
إلا ذو حظ عظيم) من الخير وكمال النفس وقيل الحظ العظيم الجنة وقيل هو الثواب وقيل نزلت فى
٣٦ أبى سفيان بن حرب وكان مؤذياً لرسول الله صلى الله عليه وسلم فصار ولياً مصافياً (وإما ينزغنك
من الشيطان نزغ) النزغ والنسغ بمعنى وهو شبه النخس شبه به وسوسة الشيطان لأنها بعث على الشر
وجعل نازغا على طريقة جد جده أو أريد وإما ينزغنك نازغ وصفاً للشيطان بالمصدر أى وإن
* صرفك الشيطان عما وصيت به من الدفع بالتى هى أحسن (فاستعذ بالله) من شره ولا تطعه (إنه
هو السميع) باستعاذتك (العليم) بنيتك أو بصلاحك وفى جعل ترك الدفع بالأحسن من آثار
٣٧ نزغات الشيطان مزيد تحذير وتنفير عنه (ومن آياته) الدالة على شئونه العظيمة (الليل والنهار

فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ۝٣٨ ٤١ فصلت

وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٣٩ ٤١ فصلت

إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ ۗ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ ۖ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝٤٠ ٤١ فصلت

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ۝٤١ ٤١ فصلت

والشمس والقمر) كل منها مخلوق من مخلوقاته مسخر لأمره (لاتسجدوا للشمس ولا للقمر) لأنهما
من جملة مخلوقاته المسخرة لأوامره مثلكم (واسجدوا لله الذى خلقهن) الضمير للأربعة لأن حكم جماعة *
مالا يعقل حكم الأنثى أو الإناث أو لأنها عبارة عن الآيات وتعليق الفعل بالكل مع كفاية بيان
مخلوقية الشمس والقمر للإيذان بكمال سقوطهما عن رتبة المسجودية بنظمهما فى المخلوقية فى سلك
الأعراض التى لاقيام لها بذاتها وهو السر فى نظم الكل فى سلك آياته تعالى (إن كنتم إياه تعبدون) *
فإن السجود أقصى مراتب العبادة فلابد من تخصيصه به سبحانه وهو موضع للسجود عند الشافعى
رحمه الله وعندنا آخر الآية الأخرى لأنه تمام المعنى (فإن استكبروا) عن الامتثال (فالذين عند ٣٨
ربك) من الملائكة (يسبحون له بالليل والنهار) أى دائماً (وهم لايسأمون) لايفترون ولا يملون
وقرىء لايسأمون بكسر الياء (ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة) يابسة متطامنة مستعار من ٣٩
الخشوع بمعنى التذلل (فإذا أنزلنا عليها الماء) أى المطر (اهتزت وربت) أى تحركت بالنبات
وانتفخت لأن النبت إذا دنا أن يظهر ارتفعت له الأرض وانتفخت ثم تصدعت عن النبات وقيل
تزخرفت بالنبات وقرىء ربأت أى ارتفعت (إن الذى أحياها) بما ذكر بعد موتها (لمحي الموتى)
بالبعث (إنه على كل شىء) من الأشياء التى من جملتها الإحياء (قدير) مبالغ فى القدرة (إن الذين ٤٠
يلحدون) يميلون عن الاستقامة وقرىء يلحدون (فى آياتنا) بالطعن فيها وتحريفها بحملها على المحامل
الباطلة (لايخفون علينا) فنجازيهم بإلحادهم وقوله تعالى (أفمن يلقى فى النار خير أم من يأتى آمناً يوم
القيامة) تنبيه على كيفية الجزاء (اعملوا ماشئتم) من الأعمال المؤدية إلى ماذكر من الإلقاء فى النار
والإتيان آمناً وفيه تهديد شديد (إنه بما تعملون بصير) فيجازيكم بحسب أعمالكم وقوله تعالى (إن ٤١
الذين كفروا بالذكر لما جاءهم) بدل من قوله تعالى إن الذين يلحدون الخ وخبر إن هو الخبر السابق
وقيل مستأنف وخبرها محذوف وقال الكسائى سد مسده الخبر السابق والذكر القرآن وقوله تعالى
(وإنه لكتاب عزيز) أى كثير المنافع عديم النظير أو منيع لاتتأتى معارضته جملة حالية مفيدة لغاية *

لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ ٤١ فصلت

مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾ ٤١ فصلت

وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ۖ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ ۗ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾ ٤١ فصلت

---

٤٢ شناعة الكفر به وقوله تعالى (لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه) أى لا يتطرق إليه الباطل من جهة من الجهات صفة أخرى لكتاب وقوله تعالى (تنزيل من حكيم حميد) خبر لمبتدأ محذوف أو صفة أخرى لكتاب مفيدة لفخامته الإضافية كما أن الصفتين السابقتين مفيدتان لفخامته الذاتية وقوله تعالى لا يأتيه الخ اعتراض عند من لا يجوز تقديم غير الصريح من الصفات على الصريح كل ذلك لتأكيد بطلان

٤٣ الكفر بالقرآن وقوله تعالى (ما يقال لك) الخ تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم عما يصيبه من أذية الكفار أى ما يقال فى شأنك وشأن ما أنزل إليك من القرآن من جهة كفار قومك (إلا ما قد قيل

* للرسل من قبلك) أى إلا مثل ما قد قيل فى حقهم مما لا خير فيه (إن ربك لذو مغفرة) لأنبيائه (وذو عقاب أليم) لأعدائهم وقد نصر من قبلك من الرسل وانتقم من أعدائهم وسيفعل مثل ذلك بك

٤٤ وبأعدائك أيضاً (ولو جعلناه قرآناً أعجمياً) جواب لقولهم هلا أنزل القرآن بلغة العجم والضمير للذكر (لقالوا لولا فصلت آياته) أى بينت بلسان نفقهه وقوله تعالى (أأعجمى وعربى) إنكار مقرر للتحضيض والأعجمى يقال لكلام لا يفهم وللمتكلم به والياء للمبالغة فى الوصف كأحمرى والمعنى أكلام أعجمى ورسول أو مرسل إليه عربى على أن الإفراد مع كون المرسل إليهم أمة جمة لما أن المراد بيان التنافى والتنافر بين الكلام وبين المخاطب به لا بيان كون المخاطب واحداً أو جمعاً وقرىء أعجمى أى أكلام منسوب إلى أمة العجم وقرىء أعجمى على الإخبار بأن القرآن أعجمى والمتكلم والمخاطب عربى ويجوز أن يراد هلا فصلت آياته فجعل بعضها أعجمياً لإفهام العجم وبعضها عربياً لإفهام العرب

* وأياً ما كان فالمقصود بيان أن آيات الله تعالى على أى وجه جاءتهم وجدوا فيها متعنتا يتعللون به (قل هو للذين آمنوا هدى) يهديهم إلى الحق (وشفاء) لما فى الصدور من شك وشبهة (والذين لا يؤمنون) مبتدأ خبره (فى آذانهم وقر) على أن التقدير هو أى القرآن فى آذانهم وقر على أن وقر خبر للضمير المقدر وفى آذانهم متعلق بمحذوف وقع حالا من وقر وهو أوفق لقوله تعالى (وهو عليهم عمى) وقيل خبر الموصول فى آذانهم ووقر فاعل الظرف وقيل وقر مبتدأ والظرف خبره والجملة خبر للموصول وقيل التقدير والذين لا يؤمنون فى آذانهم منه وقر ومن جوز العطف على عاملين عطف الموصول على الموصول الأول أى هو للأولين هدى وشفاء وللآخرين وقر فى آذانهم (أولئك) إشارة إلى

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۗ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿٤٥﴾ ٤١ فصلت

مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾ ٤١ فصلت

إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ۚ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى قَالُوٓا۟ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ ﴿٤٧﴾ ٤١ فصلت

الموصول الثانى باعتبار اتصافه بما فى حيز صلته وملاحظة ما أثبت له وما فيه من معنى البعد مع قرب العهد بالمشار إليه للإيذان ببعد منزلته فى الشر مع مافيه من كمال المناسبة للنداء من بعيد أى أولئك البعداء الموصوفون بما ذكر من التصام عن الحق الذى يسمعونه والتعامى عن الآيات الظاهرة التى يشاهدونها (ينادون من مكان بعيد) تمثيل لهم فى عدم قبولهم واستماعهم له بمن ينادى من مسافة نائية لا يكاد
يسمع من مثلها الأصوات (ولقد آتينا موسى الكتاب فاختلف فيه) كلام مستأنف مسوق لبيان أن ٤٥
الاختلاف فى شأن الكتب عادة قديمة للأمم غير مختص بقومك على منهاج قوله تعالى مايقال لك إلا ماقد قيل للرسل من قبلك أى وبالله لقد آتيناه التوراة فاختلف فيها فمن مصدق لها ومكذب وهكذا
حال قومك فى شأن ما آتيناك من القرآن فمن مؤمن به وكافر (ولولا كلمة سبقت من ربك) فى حق *
أمتك المكذبة وهى العدة بتأخير عذابهم وفصل مابينهم وبين المؤمنين من الخصومة إلى يوم القيامة
بنحو قوله تعالى بل الساعة موعدهم وقوله تعالى ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى (لقضى بينهم) باستئصال *
المكذبين كما فعل بمكذبى الأمم السالفة (وإنهم) أى كفار قومك (لفى شك منه مريب) أى من
القرآن وجعل الضمير الأول لليهود والثانى للتوراة مما لا وجه له (من عمل صالحاً) بأن آمن بالكتب ٤٦
وعمل بموجبها (فلنفسه) أى فلنفسه يعمله أو فنفعه لنفسه لا لغيره (ومن أساء فعليها) ضرره لا على
غيره (وما ربك بظلام للعبيد) اعتراض تذييلى مقرر لمضمون ماقبله مبنى على تنزيل ترك إثابة المحسن *
بعمله أو إثابة الغير بعمله وتنزيل التعذيب بغير إساءة أو بإساءة غيره منزلة الظلم الذى يستحيل صدوره عنه سبحانه وتعالى وقد مر مافى المقام من التحقيق والتفصيل فى سورة آل عمران وسورة الأنفال
(إليه يرد علم الساعة) أى إذا سئل عنها يقال الله يعلم أولا يعلمها إلا الله تعالى (وما تخرج من ثمرات ٤٧
من أكمامها) أى من أوعيتها جمع كم بالكسر وهو وعاء الثمرة كجف الطلعة وقرىء من ثمرة على إرادة الجنس والجمع لاختلاف الأنواع وقد قرىء بجمع الضمير أيضاً وما نافية ومن الأولى مزيدة
للاستغراق واحتمال أن تكون ما موصولة معطوفة على الساعة ومن مبينة بعيد (وما تحمل من أنثى *
ولا تضع) أى حملها وقوله تعالى (إلا بعلمه) استثناء مفرغ من أعم الأحوال أى وما يحدث شىء

وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَدْعُونَ مِن قَبْلُ وَظَنُّوا۟ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٤٨﴾ ٤١ فصلت

لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَـٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾ ٤١ فصلت

وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَـٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ ۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾ ٤١ فصلت

من خروج ثمرة ولا حمل حامل ولا وضع واضع ملابساً بشيء من الأشياء إلا ملابساً بعلمه المحيط
* (ويوم يناديهم أين شركائي) أي بزعمكم كما نص عليه في قوله تعالى نادوا شركائي الذين زعمتم وفيه تهكم
بهم وتقريع لهم ويوم منصوب باذكر أو ظارف لمضمر مؤخر قد ترك إيذاناً بقصور البيان عنه كما مر
* في قوله تعالى يوم يجمع الله الرسل (قالوا آذناك) أي أخبرناك (ما منا من شهيد) من أحد يشهد لهم
بالشركة إذ تبرأنا منهم لما عاينا الحال وما منا أحد إلا وهو موحد لك أو ما منا من أحد يشاهدهم لأنهم
ضلوا عنهم حينئذ وقيل هو قول الشركاء أي ما منا من شهيد يشهد لهم بأنهم كانوا محقين وقولهم آذناك
إما لأن هذا التوبيخ مسبوق بتوبيخ آخر مجاب بهذا الجواب أو لأن معناه أنك علمت من قلوبنا وعقائدنا
الآن أنا لا نشهد تلك الشهادة الباطلة لأنه إذا علمه من نفوسهم فكأنهم أعلموه أو لأن معناه الإنشاء لا
٤٨ الإخبار بإيذان قد كان قبل ذلك (وضل عنهم ما كانوا يدعون) أي يعبدون (من قبل) أي غابوا عنهم
أو ظهر عدم نفعهم فكان حضورهم كغيبتهم (وظنوا) أي أيقنوا (ما لهم من محيص) مهرب والظن
٤٩ معلق عنه بحرف النفي (لا يسأم الإنسان) أي لا يمل ولا يفتر (من دعاء الخير) من طلب السعة في النعمة
وأسباب المعيشة وقرىء من دعاء بالخير (وإن مسه الشر) أي العسر والضيقة (فيؤوس قنوط) فيه
مبالغة من جهة البناء ومن جهة التكرير ومن جهة أن القنوط عبارة عن يأس مفرط يظهر أثره في
الشخص فيتضاءل وينكسر أي مبالغ في قطع الرجاء من فضل الله تعالى ورحمته وهذا وصف للجنس
٥٠ بوصف غالب أفراده لما أن اليأس من رحمته تعالى لا يتأتى إلا من الكافر وسيصرح به (ولئن أذقناه
رحمة منا من بعد ضراء مسته) بتفريجها عنه (ليقولن هذا لي) أي حقي أستحقه لما لي من الفضل
والعمل أولي لا لغيري فلا يزول عني أبداً (وما أظن الساعة قائمة) أي تقوم فيما سيأتي (ولئن
رجعت إلى ربي) على تقدير قيامها (إن لي عنده للحسنى) أي للحالة الحسنى من الكرامة وذلك
لاعتقاده أن ما أصابه من نعم الدنيا لاستحقاقه له وأن نعم الآخرة كذلك (فلننبئن الذين كفروا
بما عملوا) أي لنعلمنهم بحقيقة أعمالهم حين أظهرناها بصورها الحقيقة وقد مر تحقيقه في سورة الأعراف
عند قوله تعالى والوزن يومئذ الحق وفي قوله تعالى إنما بغيكم على أنفسكم من سورة يونس (ولنذيقنهم
من عذاب غليظ) لا يقادر قدره ولا يبلغ كنهه .

وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾ ٤١ فصلت

قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ ٤١ فصلت

سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ
كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ ٤١ فصلت

٥١ (وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض) أى عن الشكر (ونأى بجانبه) أى ذهب بنفسه وتباعد بكليته تكبراً
وتعظما والجانب مجاز عن النفس كما فى قوله تعالى فى جنب الله ويجوز أن يراد به عطفه ويكون عبارة عن
* الانحراف والازورار كما قالوا ثنى عطفه وتولى بركنه (وإذا مسه الشر فذو دعاء عريض) أى كثير مستعار
مما له عرض متسع للإشعار بكثرته واستمراره وهو أبلغ من الطويل إذ الطول أطول الامتدادين فإذا
كان عرضه كذلك فاظنك بطوله ولعل هذا شأن بعض غير البعض الذى حكى عنه اليأس والقنوط أو
٥٢ شأن الكل فى بعض الأوقات (قل أرأيتم) أى أخبرونى (إن كان) أى القرآن (من عند الله ثم كفرتم
به) مع تعاضد موجبات الإيمان به (من أضل ممن هو فى شقاق بعيد) أى من أضل منكم فوضع الموصول
٥٣ موضع الضمير شرحا لحالهم وتعليلا لمزيد ضلالهم (سنريهم آياتنا) الدالة على حقيته وكونه من عند الله
(فى الآفاق) هو ما أخبرهم به النبى صلى الله عليه وسلم من الحوادث الآتية وآثار النوازل الماضية وما
يسر الله تعالى له ولخلفائه من الفتوح والظهور على آفاق الدنيا والاستيلاء على بلاد المشارق والمغارب
* على وجه خارق للعادة (وفى أنفسهم) هو ما ظهر فيما بين أهل مكة وما حل بهم وقال ابن عباس رضى الله
عنهما فى الآفاق أى منازل الأمم الخالية وآثارهم وفى أنفسهم يوم بدر وقال مجاهد والحسن والسدى فى
الآفاق ما يمتح الله من القرى عليه عليه الصلاة والسلام والمسلمين وفى أنفسهم فتح مكة وقيل فى الآفاق
أى فى أقطار السموات والأرض من الشمس والقمر والنجوم وما يترتب عليها من الليل والنهار
والأضواء والظلال والظلمات ومن النبات والأشجار والأنهار وفى أنفسهم من لطيف الصنعة وبديع
الحكمة فى تكوين الأجنة فى ظلمات الأرحام وحدوث الأعضاء العجيبة والتركيبات الغريبة كقوله
تعالى وفى أنفسكم أفلا تبصرون واعتذر بأن معنى السين مع أن إراءة تلك الآيات قد حصلت قبل ذلك
* أنه تعالى سيطلعهم على تلك الآيات زمانا فزمانا ويزيدهم وقوفا على حقائقها يوما فيوما (حتى يتبين
لهم) بذلك (أنه الحق) أى القرآن أو الإسلام والتوحيد (أو لم يكف بربك) استئناف وارد
لتوبيخهم على ترددهم فى شأن القرآن وعنادهم المحوج إلى إراءة الآيات وعدم اكتفائهم بإخباره تعالى
والهمزة للإنكار والواو للعطف على مقدر يقتضيه المقام أى ألم يغن ولم يكف ربك والباء مزيدة
* للتأكيد ولا تكاد تزاد إلا مع كفى وقوله تعالى (أنه على كل شيء شهيد) بدل منه أى ألم يغنهم عن
إراءة الآيات الموعودة المبينة لحقية القرآن ولم يكفهم فى ذلك أنه تعالى شهيد على جميع الأشياء وقد
أخبر بأنه من عنده وقيل معناه إن هذا الموعود من إظهار آيات الله فى الآفاق وفى أنفسهم سيرونه

أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌ ﴿٥٤﴾ ٤١ فصلت

ويشاهدونه فيتبينون عند ذلك أن القرآن تنزيل عالم الغيب الذى هو على كل شىء شهيد أى مطلع يستوى عنده غيبه وشهادته فيكفيهم ذلك دليلا على أنه حق وأنه من عنده ولو لم يكن كذلك لما قوى هذه القوة ولما نصر حاملوه هذه النصرة فتأمل وأما ماقيل من أن المعنى أو لم يكفك أنه تعالى على كل شىء شهيد محقق له فيحقق أمرك بإظهار الآيات الموعودة كما حقق سائر الأشياء الموعودة فمع

٥٤ إشعاره بما لا يليق بجلالة منصبه عليه السلام من التردد فيما ذكر من تحقيق الموعود يرده قوله تعالى
(ألا إنهم فى مرية من لقاء ربهم) أى فى شك عظيم من ذلك بالبعث والجزاء فإنه صريح فى أن عدم
الكفاية معتبر بالنسبة إليهم وقرىء مرية بالضم وهو لغة فيها (ألا إنه بكل شىء محيط) عالم بجميع الأشياء جملها وتفاصيلها وظواهرها وبواطنها فلا تخفى عليه خافية منهم وهو مجازيهم على كفرهم ومريتهم لامحالة . عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة السجدة أعطاه الله تعالى بكل حرف عشر حسنات والله أعلم .

سورة فصلت

ترتيبها ٤١ — آياتها ٥٤

وتسمى سورة السجدة وسورة حم السجدة وسورة المصابيح وسورة الأقوات، وهي مكية بلا خلاف ولم أقف فيها على استثناء، وعدد آياتها كما قال الداني خمسون وآيتان بصري وشامي وثلاث مكي ومدني وأربع كوفي، ومناسبتها لما قبلها أنه سبحانه ذكر قبل ﴿أفلم يسيروا في الأرض﴾ [غافر: ٨٢] الخ وكان ذلك متضمناً تهديداً وتقريعاً لقريش وذكر جل شأنه هنا نوعاً آخر من التهديد والتقريع لهم وخصهم بالخطاب في قوله تعالى: ﴿فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود﴾ [فصلت: ١٣] ثم بين سبحانه كيفية اهلاكهم وفيه نوع بيان لما في قوله تعالى: ﴿أفلم يسيروا﴾ الآية، وبينهما أوجه من المناسبة غير ما ذكر. وأخرج البيهقي في شعب الإيمان عن الخليل بن مرة أن رسول الله ﷺ كان لا ينام حتى يقرأ تبارك وحم السجدة.

بسم الله الرحمن الرحيم

حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرًا
وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٤﴾ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ
وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ﴿٥﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ
وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ
كَٰفِرُونَ ﴿٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٨﴾ ۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ
بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ
فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا
طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا
ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿١٢﴾ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ
صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ قَالُوا۟ لَوْ شَآءَ

رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً فَإِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا عَادٌ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَقَالُواْ مَنۡ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةًۖ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَهُمۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ ﴿١٥﴾

﴿**بسْم الله الرَّحْمن الرَّحِيم حم**﴾ أن جعل اسماً للسورة أو القرآن فهو إما خبر لمحذوف أو مبتدأ خبره ﴿**تَنْزِيلٌ**﴾ على المبالغة أو التأويل المشهور، وهو على الأول خبر بعد خبر، وخبر مبتدأ محذوف أن جعل ﴿**حم**﴾ مسروداً على نمط التعديد عند الفراء، وقوله تعالى: ﴿**مِنَ الرَّحْمن الرَّحِيم**﴾ من تتمته مؤكد لما أفاده التنوين من الفخامة الذاتية بالفخامة الإضافية أو خبر آخر للمبتدأ المحذوف أو تنزيل مبتدأ لتخصصه بما بعده خبره ﴿**كِتَابٌ**﴾ وحكي ذلك عن الزجاج والحوفي، وهو على الأوجه الأول بدل منه أو خبر آخر أو خبر لمحذوف، وجملة ﴿**فُصِّلَتْ آيَاتُهُ**﴾ على جميع الأوجه في موضع الصفة لكتاب، وإضافة التنزيل إلى ﴿**الرحمن الرحيم**﴾ من بين أسمائه تعالى للإيذان بأنه مدار للمصالح الدينية والدنيوية واقع بمقتضى الرحمة الربانية حسبما ينبىء عنه قوله تعالى: ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾ [الأنبياء: ١٠٧] وتفصيل آياته تمييزها لفظاً بفواصلها ومقاطعها ومبادىء السور وخواتمها، ومعنى بكونها وعداً ووعيداً وقصصاً وأحكاماً إلى غير ذلك بل من أنصف علم أنه ليس في بدء الخلق كتاب اجتمع فيه من العلوم والمباحث المتباينة عبارة وإشارة مثل ما في القرآن. وعن السدي ﴿**فصلت آياته**﴾ أي بينت ففصل بين حرامه وحلاله وزجره وأمره ووعده ووعيده، وقال الحسن: فصلت بالوعد والوعيد، وقال سفيان: بالثواب والعقاب، وما ذكرنا أولاً أعم ولعل ما ذكروه من باب التمثيل لا الحصر، وقيل: المراد فصلت آياته في التنزيل أي لم تنزل جملة واحدة وليس بذاك. وقرىء «فَصَلَت» بفتح الفاء والصاد مخففة أي فرقت بين الحق والباطل، وقال ابن زيد: بين النبي ﷺ ومن خالفه على أن فصل متعد أو فصل بعضها من بعض باختلاف الفواصل والمعاني على أن فصل لازم بمعنى انفصل كما في قوله تعالى: ﴿فصلت العير﴾ [يوسف: ٩٤].

وقرىء «فُصِلَت» بضم الفاء وكسر الصاد مخففة على أنه مبني للمفعول والمعنى على ما مر ﴿**قُرآناً عَرَبيّاً**﴾ نصب على المدح بتقدير أعني أو أمدح أو نحوه أو على الحال فقيل: من ﴿**كتاب**﴾ لتخصصه بالصفة، وقيل: من ﴿**آياته**﴾ وجوز في هذه الحال أن تكون مؤكدة لنفسها وأن تكون موطئة للحال بعدها، وقيل: نصب على المصدر أي يقرؤوه قرآناً، وقال الأخفش: هو مفعول ثان لفصلت، وهو كما ترى إن لم تكن أخفش، وأياً ما كان ففي ﴿**قرآناً عربياً**﴾ امتنان بسهولة قراءته وفهمه لنزوله بلسان من نزل بين أظهرهم ﴿**لقَوْم يَعْلَمُونَ**﴾ أي معانيه لكونه على لسانهم على أن المفعول محذوف أو لأهل العلم والنظر على أن الفعل منزل منزلة اللازم ولام ﴿**لقوم**﴾ تعليلية أو اختصاصية وخصهم بذلك لأنهم هم المنتفعون به والجار والمجرور إما في موضع صفة أخرى ـ لقرآناً ـ أو صلة ـ لتنزيل ـ أو ـ لفصلت ـ قال الزمخشري: ولا يجوز أن يكون صفة مثل ما قبله وما بعده أي قرآناً عربياً كائناً لقوم عرب لئلا يفرق بين الصلات والصفات، ولعله أراد لئلا يلزم التفريق بين الصفة وهي قوله تعالى: ﴿**بَشيراً وَنَذيراً**﴾ وموصوفها وهو ﴿**قرآناً**﴾ بناء على أنه صفة له بالصلة وهي ﴿**لقوم**﴾ على تقدير تعلقه ـ بتنزيل ـ أو ـ بفصلت ـ وبين الصلة وموصولها بالصفة أي ﴿**تنزيل**﴾ أو ﴿**فصلت**﴾ و ﴿**لقوم**﴾ والجمع للمبالغة على حد قولك لمن يفرق بين آخرين: لا تفعل فإن التفريق بين الأخوان مذموم أو أراد لئلا يفرق بين الصلتين في الحكم مع عدم الموجب للتفريق وهو أن يتصل ﴿**من الرحمن**﴾ بموصوله ولا يتصل ﴿**لقوم**﴾ وكذلك بين الصفتين وهو ﴿**عربياً**﴾ بموصوفه ولا يتصل ﴿**بشيراً**﴾ والجمع لذلك أيضاً. واختار أبو حيان كون الجار والمجرور صلة ﴿**فصلت**﴾ وقال: يبعد تعلقه ـ بتنزيل ـ لكونه وصف قبل أخذ متعلقه إن كان ﴿**من الرحمن**﴾ في موضع الصفة أو أبدل منه ﴿**كتاب**﴾ أو كان خبراً ـ لتنزيل

ـ فيكون في ذلك البدل من الموصول أو الإخبار عنه قبل أخذه متعلقه وهو لا يجوز ولعل ذلك غير مجمع عليه، وكون ﴿بشيراً﴾ صفة ﴿قرآناً﴾ هو المشهور، وجوز أن يكون مع ما عطف عليه حال من ﴿كتاب﴾ أو من ﴿آياته﴾ وقرأ زيد بن علي «بشيرٌ» و «نذيرٌ» برفعهما وهي رواية شاذة عن نافع على الوصفية لكتاب أو الخبرية لمحذوف أي هو بشير لأهل الطاعة ونذير لأهل المعصية ﴿فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ﴾ عن تدبره وقبوله، والضمير للقوم على المعنى الأول ليعلمون وللكفار المذكورين حكماً على المعنى الثاني، ويجوز أن يكون للقوم عليه أيضاً بأن يراد به ما من شأنهم العلم والنظر ﴿فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ﴾ أي لا يقبلون ولا يطيعون من قولك: تشفعت إلى فلان فلم يسمع قولي ولقد سمعه ولكنه لما لم يقبله ولم يعمل بمقتضاه فكأنه لم يسمعه وهو مجاز مشهور.

وفي الكشف أن قوله تعالى: ﴿فأعرض﴾ مقابل قوله تعالى: ﴿لقوم يعلمون﴾ وقوله سبحانه: ﴿فهم لا يسمعون﴾ مقابل قوله جل شأنه: ﴿بشيراً ونذيراً﴾ أي أنكروا إعجازه والإذعان له مع العلم ولم يقبلوا بشائره ونذره لعدم التدبر.

﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ﴾ أي أغطية متكاثفة ﴿مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ﴾ من الإيمان بالله تعالى وحده وترك ما ألفينا عليه آباءنا و ﴿من﴾ على ما في البحر لابتداء الغاية ﴿وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ﴾ أي صمم وأصله الثقل.

وقرأ طلحة بكسر الواو وقرىء بفتح القاف ﴿وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ غليظ يمنعنا عن التواصل ومن للدلالة على أن الحجاب مبتدأ من الجانبين بحيث استوعب ما بينهما من المسافة المتوسطة ولم يبق ثمت فراغ أصلاً.

وتوضيحه أن البين بمعنى الوسط بالسكون وإذا قيل: بيننا وبينك حجاب صدق على حجاب كائن بينهما استوعب أولاً، وأما إذا قيل: من بيننا فيدل على أن مبتدأ الحجاب من الوسط أعني طرفه الذي يلي المتكلم فسواء أعيد ﴿من﴾ أو لم يعد يكون الطرف الآخر منتهي باعتبار ومبتدأ باعتبار فيكون الظاهر الاستيعاب لأن جميع الجهة أعني البين جعل مبتدأ الحجاب فالمنتهي غيره البتة، وهذا كاف في الفرق بين الصورتين كيف وقد أعيد البين لاستئناف الابتداء من تلك الجهة أيضاً إذ لو قيل: ومن بيننا بتغليب المتكلم لكفى، ثم ضرورة العطف على نحو بيني وبينك إن سلمت لا تنافي إرادة الإعادة له فتدبر، وما ذكروه من الجمل الثلاث تمثيلات لنبو قلوبهم عن إدراك الحق وقبوله ومج أسماعهم له وامتناع مواصلتهم وموافقتهم للرسول ﷺ وأرادوا بذلك إقناطه عليه الصلاة والسلام عن اتباعهم إياه عليه الصلاة والسلام حتى لا يدعوهم إلى الصراط المستقيم.

وذكر أبو حيان أنه لما كان القلب محل المعرفة والسمع والبصر معينان على تحصيل المعارف ذكروا أن هذه الثلاثة محجوبة عن أن يصل إليها مما يلقيه الرسول ﷺ شيء ولم يقولوا على قلوبنا أكنة كما قالوا: وفي آذاننا وقر ليكون الكلام على نمط واحد في جعل القلوب والآذان مستقر الأكنة والوقر وإن كان أحدهما استقرار استعلاء والثاني استقرار احتواء إذ لا فرق في المعنى بين قلوبنا في أكنة وعلى قلوبنا أكنة والدليل عليه قوله تعالى: ﴿إنا جعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه﴾ [الكهف: ٥٧] ولو قيل إنا جعلنا قلوبهم في أكنة لم يختلف المعنى فالمطابقة حاصلة من حيث المعنى والمطابيع من العرب لا يراعون الطباق والملاحظة إلا في المعاني، واختصاص كل من العبارتين بموضعه للتفنن على أنه لما كان منسوباً إلى الله تعالى في سورة بني إسرائيل والكهف كان معنى الاستعلاء والقهر أنسب، وهاهنا لما كان حكاية عن مقالهم كان معنى الاحتواء أقرب، كذا حققه بعض الأجلة ودغدغ فيه، وتفسير الأكنة بالأغطية هو الذي عليه جمهور المفسرين فهي جمع كنان كغطاء لفظاً ومعنى، وقيل: هي ما يجعل فيها السهام. أخرج عبد بن حميد. وابن المنذر عن مجاهد أنه قال في قوله تعالى: ﴿وقالوا قلوبنا في أكنة﴾ قالوا كالجعبة للنبل

﴿فَاعْمَلْ﴾ على دينك وقيل في إبطال أمرنا ﴿إِنَّنَا عَامِلُونَ﴾ على ديننا وقيل: في ابطال أمرك والكلام على الأول متاركة وتقنيط عن اتباعه عليه الصلاة والسلام، ومقصودهم أننا عاملون، والأول توطئة له، وحاصل المعنى أنا لا نترك ديننا بل نثبت عليه كما نثبت على دينك، وعلى الثاني هو مبارزة بالخلاف والجدال، وقائل ما ذكر أبو جهل ومعه جماعة من قريش.

ففي خبر أخرجه أبو سهل السري من طريق عبد القدوس عن نافع بن الأزرق عن ابن عمر عن عمر رضي الله تعالى عنهما أنه قال في الآية: أقبلت قريش إلى رسول الله ﷺ فقال لهم: ما يمنعكم من الإسلام فتسودوا العرب؟ فقالوا: يا محمد ما نفقة ما تقول ولا نسمعه وأن على قلوبنا لغلفاً وأخذ أبو جهل ثوباً فمده فما بينه وبين رسول الله عليه الصلاة والسلام فقال: يا محمد قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه وفي آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب، وفيه فلما كان من الغد أقبل منهم سبعون رجلاً إلى النبي ﷺ فقالوا: يا محمد اعرض علينا الإسلام فلما عرض عليهم الإسلام أسلموا عن آخرهم فتبسم النبي عليه الصلاة والسلام وقال: الحمد لله بالأمس تزعمون أن على قلوبكم غلفاً وقلوبكم في أكنة مما أدعوكم إليه وفي آذانكم وقراً وأصبحتم اليوم مسلمين فقالوا: يا رسول الله كذبنا والله بالأمس لو كذلك ما اهتدينا أبداً ولكن الله تعالى الصادق والعباد الكاذبون عليه وهو الغني ونحن الفقراء إليه ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ لست ملكاً ولا جنياً لا يمكنكم التلقي منه. وهو رد لقولهم: بيننا وبينك حجاب ﴿يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ أي ولا أدعوكم إلى ما تنبو عنه العقول وإنما أدعوكم إلى التوحيد الذي دلت عليه دلائل العقل وشهدت له شواهد السمع، وهذا جواب عن قولهم: قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه وفي آذاننا وقر ﴿فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ﴾ فاستتووا إليه تعالى بالتوحيد وإخلاص العبادة ولا تتمسكوا بعرا الشرك وتقولوا لمن يدعوكم إلى التوحيد: قلوبنا في أكنة الخ ﴿وَاسْتَغْفِرُوهُ﴾ مما سلف منكم من القول والعمل وهذا وجه لا يخلو عن حسن في ربط الأمر بما قبله، وفي ارشاد العقل السليم أي لست من جنس مغاير لكم حتى يكون بيني وبينكم حجاب وتباين مصحح لتباين الأعمال والأديان كما ينبىء عنه قولكم: ﴿فاعمل إننا عاملون﴾ بل إنما أنا بشر مثلكم مأمور بما آمركم به حيث أخبرنا جميعاً بالتوحيد بخطاب جامع بيني وبينكم، فإن الخطاب في ﴿إلهكم﴾ محكي منتظم للكل لا أنه خطاب منه عليه الصلاة والسلام للكفرة كما في مثلكم وهو مبني على اختيار الوجه الأول في ﴿فاعمل إننا عاملون﴾ ولا بأس به من هذه الجهة نعم فيه قصور من جهة أخرى، وقال صاحب الفرائد: ليس هذا جواباً لقولهم إذ لا يقتضي أن يكون له جواب، وحاصله لا تتركهم وما يدينون لقولهم ذلك المقصود منه أن تتركهم، سلمنا أنه جواب لكن المراد منه أني بشر فلا أقدر أن أخرج قلوبكم من الأكنة وأرفع الحجاب من البين والوقر من الآذان ولكني أوحى إلي وأمرت بتبليغ ﴿أنما إلهكم إله واحد﴾ وللإمام كلام قريب مما ذكر في حيز التسليم، وكلا الكلامين غير وافٍ بجزالة النظم الكريم، وجعله الزمخشري جواباً من أن المشركين طالما يتمسكون في رد النبوة بأن مدعيها بشر ويجب أن يكون ملكاً ولا يجوز أن يكون بشراً ولذا لا يصغون إلى قول الرسول ولا يتفكرون فيه فقوله عليه الصلاة والسلام: إني لست بملك وإنما أنا بشر من باب القلب عليهم لا القول بالموجب ولا من الأسلوب الحكيم في شيء كما قيل كأنه ﷺ قال: ما تمسكتم به في رد نبوتي من أني بشر هو الذي يصحح نبوتي إذ لا يحسن في الحكمة أن يرسل إليكم الملك فهذا يوجب قبولكم لا الرد والغلو في الإعراض.

وقوله: ﴿يوحي إلي أنما إلهكم﴾ تمهيد للمقصود من البعثة بعد إثبات النبوة أولاً مفصلاً بقوله تعالى: ﴿حم﴾ الآيات ومجملاً ثانياً بقوله: ﴿يوحي إلي﴾ ثم قيل: ﴿أنما إلهكم﴾ بياناً للمقصود فقوله ﴿يوحى إليَّ﴾ مسوق

للتمهيد، وفيه رمز إلى إثبات النبوة، وهذا المعنى على القول بأن المراد من ﴿فاعمل﴾ الخ فاعمل في ابطال أمرنا إننا عاملون في إبطال أمرك ظاهر، وأما على القول الأول فوجهه أن الدين هو جملة ما يلتزمه المبعوث إليه من طاعة الباعث تعالى بوساطة تبليغ المبعوث فهو مسبب عن نبوته المسببة عن دليلها فأظهروا بذلك أنهم منقادون لما قرر لديهم آباؤهم من منافاة النبوة للبشرية وأنه دينهم فقيل لهم ما قيل، وهو على هذا الوجه أكثر طباقاً وأبلغ، وهذا حسن دقيق وما ذكر أولاً أسرع تبادراً، وفي الكشف أن ﴿قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي﴾ في مقابلة إنكارهم الإعجاز والنبوة وقوله: ﴿فاستقيموا﴾ يقابل عدم القبول وفيه رمز إلى شيء مما سمعت فتأمل، وقرأ ابن وثاب والأعمش ﴿قال إنما﴾ فعلاً ماضياً، وقرأ النخعي والأعمش «يُوْحِي» بكسر الحاء على أنه مبني للفاعل أي يوحي الله إلي أنما إلهكم إله واحد.

﴿وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ من شركهم بربهم عزَّ وجلّ ﴿الَّذِينَ لا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ لبخلهم وعدم إشفاقهم على الخلق وذلك من أعظم الرذائل ﴿وَهُمْ بالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ متبدأ وخبر ـ وهم ـ الثاني ضمير فصل و ﴿بالآخرة﴾ متعلق بكافرون، والتقديم للاهتمام ورعاية الفاصلة، والجملة حال مشعرة بأن امتناعهم عن الزكاة لاستغراقهم في الدنيا وإنكارهم للآخرة، وحمل الزكاة على معناها الشرعي مما قاله ابن السائب، وروي عن قتادة والحسن والضحاك ومقاتل، وقيل: الزكاة بالمعنى اللغوي أي لا يفعلون ما يزكي أنفسهم وهو الإيمان والطاعة.

وعن مجاهد والربيع لا يزكون أعمالهم، وأخرج ابن جرير وجماعة عن ابن عباس أنه قال: في ذلك أي لا يقولون لا إله إلا الله، وكذا الحكيم الترمذي. وغيره عن عكرمة فالمعنى حينئذ لا يطهرون أنفسهم من الشرك، واختار ذلك الطيبي قال: والمعنى عليه فاستقيموا إليه بالتوحيد وإخلاص العبادة له تعالى وتوبوا إليه سبحانه مما سبق لكم من الشرك وويل لكم إن لم تفعلوا ذلك كله فوضع موضعه منع إيتاء الزكاة ليؤذن بأن الاستقامة على التوحيد وإخلاص العمل لله تعالى والتبري عن الشرك هو تزكية النفس، وهو أوفق لتأليف النظم، وما ذهب إليه حبر الأمة إلا لمراعاة النظم، وجعل قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ أي غير مقطوع مذكوراً على جهة الاستطراد تعريضاً بالمشركين وأن نصيبهم مقطوع حيث لم يزكّوا أنفسهم كما زكوا، واستدل على الاستطراد بالآية بعد، وفي الكشف القول الأول أظهر والمشركون باق على عمومه لا من باب إقامة الظاهر مقام المضمر كهذا القول وأن الجملة معترضة كالتعليل لما أمرهم به وكذلك ﴿إن الذين آمنوا﴾ الآية لأنه بمنزلة وويل للمشركين وطوبى للمؤمنين، وفيهما من التحذير والترغيب ما يؤكد أن الأمر بالإيمان والاستقامة تأكيداً لا يخفى حاله على ذي لب، وكذلك الزكاة فيه على الظاهر، وخص من بين أوصاف الكفرة منعها لما أنها معيار على الإيمان المستكن في القلب كيف، وقد قيل: المال شقيق الروح بل قال بعض الأدباء:

وقالوا شقيق الروح مالك فاحتفظ ... به فأجبت المال خير من الروح
أرى حفظه يقضي بتحسين حالتي ... وتضييعه يفضي لتسآل مقبوح

والصرف عن الحقيقة الشرعية الشائعة من غير موجب لا يجوز كيف ومعنى الإيتاء لا يقر قراره، نعم لو كان بدله يأتون كما في قوله تعالى: ﴿ولا يأتون الصلاة إلاّ وهم كسالى﴾ [التوبة: ٥٤] لحسن لا يقال: إن الزكاة فرضت بالمدينة والسورة مكية لأنا نقول: إطلاق الاسم على طائفة مخرجة من المال على وجه من القربة مخصوص كان شائعاً قبل فرضيتها بدليل شعر أمية بن أبي الصلت الفاعلون للزكوات، على أن هذا الحق على هذا الوجه المعروف فرض بالمدينة، وقد كان في مكة فرض شيء من المال يخرج إلى المستحق لا على هذا الوجه وكان يسمى زكاة أيضاً ثم نسخ انتهى.

ومنه يعلم سقوط ما قاله الطيبي. بقي مخالفة الحبر وهي لا تتحقق إلا إذا تحققت الرواية عنه وبعده الأمر أيضاً سهل، ولعله رضي الله تعالى عنه كان يقرأ لا يأتون من الإتيان إذ القراءة المشهورة تأبى ذلك إلا بتأويل بعيد، والعجب نسبة ما ذكر عن الحبر في البحر إلى الجمهور أيضاً، وحمل الآية على ذلك مخلص بعض ممن لا يقول بتكليف الكفار بالفروع لكن لا يخفى حال الحمل وهي على المعنى المتبادر دليل عليه وممن لا يقول به قال: هم مكلفون باعتقاد حقيتها دون ايقاعها والتكليف به بعد الإيمان فمعنى الآية لا يؤتون الزكاة بعد الإيمان، وقيل: المعنى لا يقرون بفرضيتها، والقول بتكليف المجنون أقرب من هذا التأويل، وقيل كلمة ﴿**ويل**﴾ تدل على الذم لا التكليف وهو مذموم عقلاً، وفيه بحث لا يخفى، هذا وقيل: في ﴿**ممنون**﴾ لا يمن به عليهم من المن بمعنى تعداد النعم، وأصل معناه الثقل فأطلق على ذلك لثقله على الممنون عليه، وعن ابن عباس تفسيره بالمنقوص، وأنشدوا لذي الأصبع العدواني:

إني لعمرك ما بابي بذي غلق ... عن الصديق ولا زادي بممنون

والآية على ما روي عن السدي نزلت في المرضى والهرمى إذا عجزوا عن كمال الطاعات كتب لهم من الأجر في المرض والهرم مثل الذي كان يكتب لهم وهم أصحاء وشبان ولا تنقص أجورهم وذلك من عظيم كرم الله تعالى ورحمته عزَّ وجلّ ﴿**قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ**﴾ إلى آخر الآيات والكلام فيها كثير ومنه ما ليس بالمشهور ولنبدأ بما هو المشهور وبعد التمام نذكر الآخر فنقول: هذا إنكار وتشنيع لكفرهم، وأن اللام إما لتأكيد الإنكار وتقديم الهمزة لاقتضائها الصدارة لا لإنكار التأكيد وإما للإشعار بأن كفرهم من البعد بحيث ينكر العقلاء وقوعه فيحتاج إلى التأكيد، وعلق سبحانه كفرهم بالموصول لتفخيم شأنه تعالى واستعظام كفرهم به عزَّ وجلّ، والظاهر أن المراد بالأرض الجسم المعروف، وقيل: لعل المراد منها ما في جهة السفل من الأجرام الكثيفة واللطيفة من التراب والماء والهواء تجوزاً باستعمالها في لازم المعنى على ما قيل بقرينة المقابلة وحملت على ذلك لئلا يخلو الكلام عن التعرض لمدة خلق ما عدا التراب، ومن خلقها في يومين أنه سبحانه خلق لها أصلاً مشتركاً ثم خلق لها صوراً بها تنوعت إلى أنواع، واليوم في المشهور عبارة عن زمان كون الشمس فوق الأفق وأريد منه هاهنا الوقت مطلقاً لأنه لا يتصور ذلك قبل خلق السماء والكواكب والأرض نفسها ثم إن ذلك الوقت يحتمل أن يكون بمقدار اليوم المعروف ويحتمل أن يكون أقل منه أو أكثر والأقل أنسب بالمقام، وأياً ما كان فالظاهر أن اليومين ظرفان لخلق الأرض مطلقاً من غير توزيع.

وقال بعض الأجلة: إنه تعالى خلق أصلها ومادتها في يوم وصورها وطبقاتها في آخر، وقال في إرشاد العقل السليم المراد بخلق الأرض تقدير وجودها أي حكم بأنها ستوجد في يومين مثله في قوله تعالى: ﴿إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون﴾ [آل عمران: ٥٩] والمراد بكفرهم به تعالى إلحادهم في ذاته سبحانه وصفاته عزَّ وجلّ وخروجهم عن الحق اللازم له جل شأنه على عباده من توحيده واعتقاد ما يليق بذاته وصفاته جل جلاله فلا ينزهونه تعالى عن صفات الأجسام ولا يثبتون له القدرة التامة والنعوت اللائقة به سبحانه وتعالى ولا يعترفون بإرساله تعالى الرسل وبعثه سبحانه الأموات حتى كأنهم يزعمون أنه سبحانه خلق العباد عبثاً وتركهم سدى، وقوله تعالى: ﴿**وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَاداً**﴾ عطف على تكفرون داخل معه في حكم الإنكار والتوبيخ، وجعله حالاً من الضمير في ﴿**خلق**﴾ لا يخفى حاله، وجمع الأنداد باعتبار ما هو الواقع لا بأن يكون مدار الإنكار هو التعدد أي وتجعلون له أنداداً وأكفاء من الملائكة والجن وغيرهم والحال أنه لا يمكن أن يكون له سبحانه ند واحد ﴿**ذَلِكَ**﴾

إشارة إلى الموصول باعتبار اتصافه بما في حيز الصلة وما فيه من معنى البعد مع قرب العهد بالمشار إليه للإيذان ببعد منزلته في العظمة، وإفراد الكاف لما أن المراد ليس تعيين المخاطبين، وهو مبتدأ خبره ما بعده أي ذلك العظيم الشأن الذي فعل ما ذكر في مدة يسيرة ﴿رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ أي خالق جميع الموجودات ومربيها دون الأرض خاصة فكيف يتصور أن يكون شيء من مخلوقاته نداً له عزَّ وجلّ، وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ﴾ على ما اختاره غير واحد عطف على ﴿خلق الأرض﴾ داخل في حكم الصلة، ولا ضير في الفصل بينهما بالجملتين المذكورتين لأن الأولى متحدة بقوله تعالى: ـ تكفرون ـ بمنزلة إعادتها والثانية معترضة مؤكدة لمضمون الكلام فالفصل بهما كلا فصل، وفيه بلاغة من حيث المعنى لدلالته على أن المعطوف عليه أن ﴿خلق الأرض﴾ كاف في كونه تعالى رب العالمين وأن لا يجعل له ند فكيف إذا انضمت إليه هذه المعطوفات.

وتعقب بأن الاتحاد لا يخرجه عن كونه فاصلاً مشوشاً للذهن مورثاً للتعقيد فالحق والأقرب أن تجعل الواو اعتراضية وكل من الجملتين معترض ليندفع بالاعتراض الاعتراض أو يجعل ابتداء كلام بناء على أنه يصدر بالواو أو يقال: هو معطوف على مقدر كخلق، واختار هذا الأخير صاحب الكشف فقال: أوجه ما ذكر فيه أنه عطف على مقدر بعد ﴿رب العالمين﴾ أي خلقها وجعل فيها رواسي فكأنه ساق قوله تعالى: ﴿خلق الأرض في يومين﴾ أولاً رداً عليهم في كفرهم ثم ذكره ثانياً تتميماً للقصة وتأكيداً للإنكار، وليس سبيل قوله سبحانه: ﴿ذلك رب العالمين﴾ سبيل الاعتراض حتى تجعل الجملة عطفاً على الصلة ويعتذر عن تخلل ﴿تجعلون﴾ عطفاً على ﴿تكفرون﴾ باتحاده بما قبله على أسلوب ﴿وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام﴾ [البقرة: ٢١٧] وذلك لأنه مقصود لذاته في هذا المساق وهو ركن للإنكار مثل قوله تعالى: ﴿الذي خلق الأرض﴾ وأكد على ما لا يخفى على ذي بصيرة.

والرواسي الجبال من رسا إذا ثبت، والمراد بجعلها إبداعها بالفعل، وفي الإرشاد المراد تقدير الجعل لا الجعل بالفعل، وقوله تعالى: ﴿مِن فَوْقِهَا﴾ متعلق بجعل أو بمحذوف صفة لراوسي أي كائنة من فوقها والضمير للأرض وفي ذلك استخدام على ما قيل في المراد منها لأن الجبال فوق الأرض المعروفة لا فوق جميع الأجسام السفلية والبسائط العنصرية، وفائدة ﴿من فوقها﴾ الإشارة إلى أنها جعلت مرتفعة عليها لا تحتها كالأساطين ولا مغروزة فيها كالمسامير لتكون منافعها معرضة لأهلها ويظهر للنظار ما فيها من مراصد الاعتبار ومطارح الأفكار؛ ولعمري إنّ في ارتفاعها من الحكم التكوينية ما تدهش منه العقول، والآية لا تأبى أن يكون في المغمور من الأرض في الماء جبالاً كما لا يخفى والله تعالى أعلم.

﴿وَبَارَكَ فِيهَا﴾ أي كثر خيرها، وفي الارشاد قدر سبحانه أن يكثر خيرها بأن يكثر فيها أنواع النباتات وأنواع الحيوانات التي من جملتها الإنسان ﴿وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا﴾ أي بين كميتها وأقدارها، وقال في الإرشاد: أي حكم بالفعل بأن يوجد فيما سيأتي لأهلها من الأنواع المختلفة أقواتها المناسبة لها على مقدار معين تقتضيه الحكمة والكلام على تقدير مضاف، وقيل: لا يحتاج إلى ذلك والإضافة لأدنى ملابسة، وإليه يشير كلام السدي حيث قال: أضاف الأقوات إليها من حيث هي فيها وعنها برزت، وفسر مجاهد الأقوات بالمطر والمياه.

وفي رواية أخرى عنه وإليه ذهب عكرمة والضحاك أنها ما خص به كل إقليم من الملابس والمطاعم والنباتات ليكون الناس محتاجين بعضهم لبعض وهو مقتض لعمارة الأرض وانتظام أمور العالم، ويؤيد هذا قراءة بعضهم «وقسم فيها أقواتها» ﴿فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ﴾ متعلق بحصول الأمور المذكورة لا بتقديرها على ما في إرشاد العقل السليم، والكلام على تقدير مضاف أي قدر حصولها في تتمة أربعة أيام؛ وكان الزجاج يعلقه ـ بقدر ـ كما هو رأي الإمام أبي حنيفة في

القيد إذا وقع بعد متعاطفات نحو أكرمت زيداً وضربت عمراً ورأيت خالداً في الدار، والشافعي يقول: المتعقب للجمل يعود إليها جميعاً لأن الأصل اشتراك المعطوف والمعطوف عليه في المتعلقات فيكون القيد هنا عائداً إلى جعل الرواسي وما بعده وهو الذي يتبادر إلى فهمي ولا بد من تقدير المضاف الذي سمعت وقد صرح الزجاج بتقديره ولم يقدره الزمخشري وجعل الجار متعلقاً بمحذوف وقع خبراً لمبتدأ محذوف أي كل ذلك من خلق الأرض وما بعده كائن في أربعة أيام على أنه فذلكة أي كلام منقطع أتى به لمجمل ما ذكر مفصلاً مأخوذة من فذلكة الحساب وقولهم: فذلك كذا بعد استقرار الجمع فما نحن فيه ألحق فيه أيضاً جملة من العدد بجملة أخرى وجعله كذلك لا يمنع عطف ﴿**جعل فيها رواسي**﴾ على مقدر لأن الربط المعنوي كافٍ. والقول بأن الفذلكة تقتضي التصريح بذكر الجملتين مثل أن يقال: سرت من البصرة إلى واسط في يومين ومن واسط إلى الكوفة في يومين فذلك أربعة أيام وهاهنا لم ينص إلا على أحد المبلغين غير سديد لأن العلم بالمبلغين في تحقيق الفذلكة كاف على أن المراد أنه جار مجراها وإنما لم يجز الحمل على أن جعل الرواسي وما ذكر عقيبه أو تقدير الأقوات في أربعة أيام لأنه يلزم أن يكون خلق الأرض وما فيها في ستة أيام وقد ذكر بعده أن خلق السماوات في يومين فيكون المجموع ثمانية أيام.

وقد تكرر في كتاب الله تعالى أن خلقهما أعني السماوات والأرض في ستة أيام، وقيدت الأيام الأربعة بقوله تعالى: ﴿**سَوَاءً**﴾ فإنه مصدر مؤكد لمضمر هو صفة لأيام أي استوت سواء أي استواء كما يدل عليه قراءة زيد بن علي، والحسن وابن أبي إسحاق وعمرو بن عبيد وعيسى ويعقوب «سواءٍ» بالجر فإنه صريح في الوصفية وبذلك يضعف القول بكونه حالاً من الضمير في ﴿**أقواتها**﴾ مع قلة الحال من المضاف إليه في غير الصور الثلاث ولزوم تخالف القراءتين في المعنى.

ويعلم من ذلك أنه على قراءة أبي جعفر بالرفع يجعل خبر المبتدأ محذوف أي هو سواء وتجعل الجملة صفة لأيام أيضاً لا حالاً من الضمير لدفع التجوز فإنه شائع في مثل ذلك مطرد في عرفي العرب والعجم فتراهم يقولون: فعلته في يومين ويريدون في يوم ونصف مثلاً وسرت أربعة أيام ويريدون ثلاثة ونصفاً مثلاً، ومنه قوله تعالى: ﴿الحج أشهر معلومات﴾ [البقرة: ١٩٧] فإن المراد بالأشهر فيه شوال وذو القعدة وتسع من ذي الحجة وليلة النحر وذلك لأن الزائد جعل فرداً مجازاً.

ثم أطلق على المجموع اسم العدد الكامل فالمعنى هاهنا في أربعة أيام لا نقصان فيها ولا زيادة وكأنه لذلك أوثر ما في التنزيل على أن يقال: وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها في يومين كما قيل أولاً ﴿**خلق الأرض في يومين**﴾ وحاصله أنه لو قيل ذلك لكان يجوز أن يراد باليومين الأولين والأخيرين أكثرهما وإنما لم يقل خلق الأرض في يومين كاملين وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها في يومين كاملين أو خلق الأرض في يومين وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها في يومين تلك أربعة سواء لأن ما أورده سبحانه أخصر وأفصح وأحسن طباقاً لما عليه التنزيل من مغاصات القرائح ومصاك الركب ليتميز الفاضل من الناقص والمتقدم من الناكص وترتفع الدرجات وتتضاعف المثوبات.

وقال بعض الأجلة: إن في النظم الجليل دلالة أي مع الاختصار على أن اليومين الأخيرين متصلان باليومين الأولين لتبادره من جعلهما جملة واحدة واتصالهما في الذكر، وقوله تعالى: ﴿**للسَّائلينَ**﴾ متعلق بمحذوف وقع خبراً لمبتدأ محذوف أي هذا الحصر في أربعة كائن للسائلين عن مدة خلق الأرض وما فيها، ولا ضير في توالي حذف مبتدأين بناء على ما آثره الزمخشري في الجار والمجرور قبل، وقيل هو متعلق ـ بقدر ـ السابق أي وقدر فيها أقواتها

لأجل الطالبين لها المحتاجين إليها من المقتاتين، وقيل: متعلق بمقدر هو حال من الأقوات، والكل لا يستقيم إلا على ما آثره الزجاج دون ما آثره الزمخشري لأن الفذلكة كما يعلم مما سبق لا تكون إلا بعد تمام الجملتين فلا يجوز أن تتوسط بين الجملة الثانية وبعض متعلقاتها وقيل متعلق بسواء على أنه حال من الضمير والمعنى مستوية مهيأة للمحتاجين أو به على قراءة الرفع وجعله خبر مبتدأ محذوف أي هو أي أمر هذه المخلوقات ونفعها مستو مهيأ للمحتاجين إليه من البشر وهو كما ترى ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ﴾ أي قصد إليها وتوجه دون إرادة تأثير في غيرها من قولهم: استوى إلى مكان كذا إذا توجه إليه لا يلوي على غيره.

وذكر الراغب أن الاستواء متى عدي بعلى فبمعنى الاستيلاء كقوله تعالى: ﴿الرحمن على العرش استوى﴾ [طه: ٥] وإذا عدي بإلى فبمعنى الانتهاء إلى الشيء إما بالذات أو بالتدبير، وعلى الثاني قوله تعالى: ﴿**ثم استوى إلى السماء**﴾ الآية، وكلام السلف في الاستواء مشهور.

وقد ذكرنا فيما سلف طرفاً منه ويشعر ظاهر كلام البعض أن في الكلام مضافاً محذوفاً أي ثم استوى إلى خلق السماء ﴿وَهِيَ دُخَانٌ﴾ أمر ظلماني ولعله أريد به مادتها التي منها تركبت وأنا لا أقول بالجواهر الفردة لقوة الأدلة على نفيها ولا يلزم من ذلك محذور أصلاً كما لا يخفى على الذكي المنصف، وقيل: إن عرشه تعالى كان قبل خلق السماوات والأرض على الماء فأحدث الله تعالى في الماء سخونة فارتفع زبد ودخان فأما الزبد فبقي على وجه الماء فخلق الله تعالى فيه اليبوسة وأحدث سبحانه منه الأرض وأما الدخان فارتفع وعلا فخلق الله تعالى منه السماوات.

وقيل: كان هناك ياقوتة حمراء فنظر سبحانه إليها بعين الجلال فذابت وصارت ماء فأزبد وارتفع منه دخان فكان ما كان، وأياً ما كان فليس الدخان كائناً من النار التي هي إحدى العناصر لأنها من توابع الأرض ولم تكن موجودة إذ ذاك على قول كما ستعرف إن شاء الله تعالى، وعلى القول بالوجود لم يذهب أحد إلى تكون ذلك من تلك النار والحق الذي ينبغي أن لا يلتفت إلى ما سواه أن كره النار التي يزعمها الفلاسفة المتقدمون ووافقهم كثير من الناس عليها ليست بموجودة ولا توقف لحدوث الشهب على وجودها كما يظهر لذي ذهن ثاقب.

﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائتيَا﴾ بما خلقت فيكما من المنافع فليس المعنى على إتيان ذاتهما وإيجادهما بل إتيان ما فيهما مما ذكر بمعنى إظهاره والأمر للتسخير قيل ولا بد على هذا أن يكون المترتب بعد جعل السماوات سبعاً أو مضمون مجموع الجمل المذكورة بعد الفاء وإلا فالأمر بالإتيان بهذا المعنى مترتب على خلق الأرض والسماء.

وقال بعض: الكلام على التقديم والتأخير والأصل ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقضاهن سبع سماوات الخ فقال لها وللأرض ائتيا الخ وهو أبعد عن القيل والقال إلا أنه خلاف الظاهر أو كونا وأحدثا على وجه معين وفي وقت مقدر لكل منكما فالمراد إتيان ذاتهما وإيجادهما فالأمر للتكوين على أن خلق وجعل وبارك وقدر بالمعنى الذي حكيناه عن إرشاد العقل السليم ويكون هذا شروعاً في بيان كيفية التكوين أثر بيان كيفية التقدير، ولعل تخصيص البيان بما يتعلق بالأرض وما فيها لما أن بيان اعتنائه تعالى بأمر المخاطبين وترتيب مبادىء معايشهم قبل خلقهم مما يحملهم على الإيمان ويزجرهم عن الكفر والطغيان، وخص الاستواء بالسماء مع أن الخطاب المترتب عليه متوجه إليهما معاً اكتفاء بذكر تقدير الأرض وتقدير ما فيها كأنه قيل: فقيل لها وللأرض التي قدر وجودها ووجود ما فيها كونا وأحدثا وهذا الوجه هو الذي قدمه صاحب الإرشاد وذكره غيره احتمالاً وجعل الأمر عبارة عن تعلق إرادته تعالى بوجودهما تعلقاً فعلياً بطريق التمثيل من غير أن يكون هناك آمر ومأمور كما قيل في قوله تعالى: ﴿**كن**﴾ وقوله تعالى: ﴿طَوعاً أَو كَرْهاً﴾ تمثيلاً لتحتم تأثير قدرته تعالى فيهما واستحالة امتناعهما من ذلك لا إثبات الطوع والكره لهما، وهما مصدران

وقعا موقع الحال أي طائعتين أو كارهتين، وقوله تعالى: ﴿قَالَتَا أَتَينَا طَائِعِينَ﴾ أي منقادين تمثيلاً لكمال تأثرهما عن القدرة الربانية وحصولهما كما أمرا به وتصوير لكون وجودهما كما هما عليه جارياً على مقتضى الحكمة البالغة فإن الطوع منبيء عن ذلك والكره موهم لخلافه، وقيل: ﴿طائعين﴾ بجمع المذكر السالم مع اختصاصه بالعقلاء باعتبار كونهما في معرض الخطاب والجواب ولا وجه للتأنيث عند أخبارهم عن أنفسهم لكون التأنيث بحسب اللفظ فقط، وقوله تعالى: ﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَماوات فِي يَوْمَيْن﴾تفسيراً وتفصيلاً لتكوين السماء المجمل المعبر عنه بالأمر وجوابه لا أنه فعل مترتب على تكوينهما أي خلقهن خلقاً إبداعياً وأتقن أمرهن حسبما تقتضيه الحكمة في وقتين وضمير ﴿هن﴾ إما للسماء على المعنى لأنه بمعنى السماوات ولذا قيل: هو اسم جمع - فسبع - حال من الضمير وإما مبهم يفسره ما بعده على أنه تمييز فهو له وإن تأخر لفظاً ورتبة لجوازه في التمييز نحو ربه رجلاً وهو وجه عربي.

وقال أبو حيان: انتصب ﴿سَبْعَ﴾ على الحال وهو حال مقدرة، وقال بعضهم: بدل من الضمير، وقيل: مفعول به والتقدير قضى منهن سبع سماوات، وقال الحوفي: على أنه مفعول ثان على تضمين القضاء معنى التصيير ولم يذكر مقدار زمن خلق الأرض وخلق ما فيها اكتفاء بذكره في بيان تقديرهما، وقوله تعالى: ﴿وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاء أَمْرَهَا﴾ عطفاً على ﴿قضاهن﴾ أي خلق في كل منها ما استعدت له واقتضت الحكمة أن يكون فيها من الملائكة والنيرات وغير ذلك مما لا يعلمه إلا الله تعالى كما يقتضيه كلام السدي. وقتادة فالوحي عبارة عن التكوين كالأمر مقيد بما قيد به المعطوف عليه من الوقت أو أوحى إلى أهل كل منها أوامره وكلفهم ما يليق بهم من التكاليف كمل قيل: فالوحي بمعناه المشهور من بين معانيه ومطلق عن القيد المذكور أو مقيد به فيما أرى، واحتمال التقييد والإطلاق جار في قوله تعالى: ﴿وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ﴾ أي من الكواكب وهي فيها وإن تفاوتت في الارتفاع والانخفاض على ما يقتضيه الظاهر أو بعضها فيها وبعضها فيما فوقها لكنها لكونها كلها ترى متلألئة عليها صح كون تزيينها بها، والالتفات إلى نون العظمة لإبراز مزيد العناية، وأما قوله تعالى:﴿وَحِفْظاً﴾فهو مفعول مطلق لفعل مقدر معطوف على قوله تعالى: ﴿زينا﴾ أي وحفظناها حفظاً، والضمير للسماء وحفظها إما من الآفات أو من الشياطين المسترقة للسمع وتقدم الكلام في ذلك وقيل الضمير للمصابيح وهو خلاف الظاهر، وجوز كونه مفعولاً لأجله على المعنى أي معطوفاً على مفعول له يتضمنه الكلام السابق أي زينة وحفظاً، ولا يخفى أنه تكلف بعيد لا ينبغي القول به مع ظهور الأول وسهولته كما أشار إليه في البحر.

وجعل قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى جميع الذي ذكر بتفاصيله أي ذلك المذكور ﴿تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ أي البالغ في القدرة والبالغ في العلم، ثم قال صاحب الإرشاد بعد ما سمعت مما حكي عنه: فعلى هذا لا دلالة في الآية الكريمة على الترتيب بين إيجاد الأرض وإيجاد السماء وإنما الترتيب بين التقدير أي تقدير إيجاد الأرض وما فيها وإيجاد السماء وأما على تقدير كون الخلق وما عطف عليه من الأفعال الثلاثة على معانيها الظاهرة فهي تدل على تقدم خلق الأرض وما فيها وعليه إطباق أكثر أهل التفسير، ولا يخفى عليك أن حمل تلك الأفعال على ما حملها عليه خلاف الظاهر كما هو مقربه، وعدم التعرض لخلق الأرض وما فيها بالفعل كما تعرض لخلق السماوات كذلك لا يلائم دعوى الاعتناء التي أشار إليها في بيان وجه تخصيص البيان بما يتعلق بالأرض وما فيها على أن خلق ما فيها بالفعل غير ظاهر من قوله تعالى: ﴿فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين﴾ لا سيما وقد ذكرت الأرض قبل مستقلة وذكر ما فيها مستقلاً فلا يتبادر من الأرض هنا إلا تلك الأرض المستقلة لا هي مع ما فيها، وأمر تقدم خلق الأرض وتأخره سيأتي إن شاء الله تعالى الكلام فيه.

وقيل: إن إتيان السماء حدوثها وإتيان الأرض أن تصير مدحوة وفيه جمع بين معنيين مجازيين حيث شبه البروز من العدم وبسط الأرض وتمهيدها بالإتيان من مكان آخر وفي صحة الجمع بينهما كلام على أن في كون الدحو مؤخراً عن جعل الرواسي كلاماً أيضاً ستعرفه إن شاء الله تعالى، وقيل: المراد لتأت كل منكما الأخرى في حدوث ما أريد توليده منكما وأيد بقراءة ابن عباس وابن جبير ومجاهد «آتيا» و «قالتا أتينا» على أن ذلك من المواتات بمعنى الموافقة، قال الجوهري: تقول آتيته على ذلك الأمر مواتاة إذا وافقته وطاوعته لأن المتوافقين يأتي كل منهما صاحبه وجعل ذلك من المجاز المرسل وعلاقته اللزوم، وقال ابن جني: هي المسارعة وهو حسن أيضاً ولم يجعله أكثر الأجلة من الإيتاء لأنه غير لائح وجعله ابن عطية منه وقدر المفعول أي أعطيا من أنفسكما من الطاعة ما أردته منكما وما تقدم أحسن وما أسلفناه في أول الأوجه من الكلام يأتي نحوه هنا كما لا يخفى.

واختلف الناس في أمر التقدم والتأخر في خلق كل من السماوات وما فيها والأرض وما فيها وذلك للآيات والأحاديث التي ظاهرها التعارض فذهب بعض إلى تقدم خلق الأرض لظاهر هذه الآية حيث ذكر فيها أولاً خلق الأرض وجعل الرواسي فيها وتقدير الأقوات ثم قال سبحانه: ﴿**ثم استوى إلى السماء**﴾ الخ وأبى أن يكون الأمر بالإتيان للأرض أمر تكوين، ولظاهر قوله تعالى: في آية [البقرة: ٢٩] ﴿خلق لكم ما في الأرض جميعاً ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سماوات﴾ وأول آية النازعات أعني قوله تعالى: ﴿أأنتم أشد خلقاً أم السماء بناها رفع سمكها فسواها وأغطش ليلها وأخرج ضحاها والأرض بعد ذلك دحاها أخرج منها ماءها ومرعاها والجبال أرساها متاعاً لكم ولأنعامكم﴾ [النازعات: ٢٧ ـ ٣٣] لما أن ظاهره يدل على تأخر خلق الأرض وما فيها من الماء والمرعى والجبال لأن ذلك إشارة إلى السابق وهو رفع السمك والتسوية، والأرض منصوب بمضمر على شريطة التفسير أي ودحا الأرض بعد رفع السماء وتسويتها دحاها الخ بأن الأرض منصوب بمضمر نحو تذكر وتدبر أو اذكر الأرض بعد ذلك لا بمضمر على شريطة التفسير أو به وبعد ذلك إشارة إلى المذكور سابقاً من ذكر خلق السماء لا خلق السماء نفسه ليدل على أنه متأخر في الذكر عن خلق السماء تنبيهاً على أنه قاصر في الأول لكنه تتميم كما تقول جملاً ثم تقول بعد ذلك كيت وكيت وهذا كثير في استعمال العرب والعجم، وكأن بعد ذلك بهذا المعنى عكسه إذا استعمل لتراخي الرتبة والتعظيم؛ وقد تستعمل ثم أيضاً بهذا المعنى وكذا الفاء، وبعضهم يذهب في الجواب إلى ما قاله ابن عباس.

فقد روى الحاكم والبيهقي بإسناد صحيح عن سعيد بن جبير قال: جاء رجل إلى ابن عباس رضي الله تعالى عنهما فقال: رأيت أشياء تختلف علي في القرآن قال: هات ما اختلف عليك من ذلك فقال: اسمع الله تعالى يقول: ﴿**أئنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض** ـــ حتى بلغ ـ **طائعين**﴾ فبدأ بخلق الأرض في هذه الآية قبل خلق السماء ثم قال سبحانه في الآية الأخرى ﴿**أم السماء بناها** ـــ ثم قال ـ **والأرض بعد ذلك دحاها**﴾ فبدأ جل شأنه بخلق السماء قبل خلق الأرض. فقال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: أما خلق الأرض في يومين فإن الأرض خلقت قبل السماء وكانت السماء دخاناً فسواهن سبع سماوات في يومين بعد خلق الأرض، وأما قوله تعالى: ﴿**والأرض بعد ذلك دحاها**﴾ يقول جعل فيها جبلاً وجعل فيها نهراً وجعل فيها شجراً وجعل فيها بحوراً انتهى، قال الخفاجي: يعني أن قوله تعالى: ﴿**أخرج منها ماءها**﴾ بدل أو عطف بيان لدحاها بمعنى بسطها مبين للمراد منه فيكون تأخرها في هذه الآية ليس بمعنى تأخر ذاتها بل بمعنى تأخر خلق ما فيها وتكميله وترتيبه بل خلق التمتع والانتفاع به فإن البعيدة كما تكون باعتبار نفس الشيء تكون باعتبار جزئه الأخير وقيده المذكور كما لو قلت: بعثت إليك رسولاً ثم كنت بعثت فلاناً لينظر ما يبلغه فبعث الثاني وإن تقدم لكن ما بعث لأجله متأخر عنه فجعل نفسه متأخراً. فإن قلت: كيف هذا مع

ما رواه ابن جرير وغيره وصححوه عن ابن عباس أيضاً أن اليهود أتت النبي ﷺ فسألته عن خلق السماوات والأرض فقال عليه الصلاة والسلام: «خلق الله تعالى الأرض يوم الأحد والاثنين وخلق الجبال وما فيهن من المنافع يوم الثلاثاء وخلق يوم الأربعاء الشجر والماء والمدائن والعمران والخراب فهذه أربعة فقال تعالى: ﴿**أئنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أنداداً ذلك رب العالمين وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين**﴾ وخلق يوم الخميس السماء وخلق يوم الجمعة النجوم والشمس والقمر والملائكة» فإنه يخالف الأول لاقتضائه خلق ما في الأرض من الأشجار والأنهار ونحوها قبل خلق السماء قلت: الظاهر حمله على أنه خلق فيما ذكر مادة ذلك وأصوله إذ لا يتصور العمران والخراب قبل خلق السماء فعطفه عليه قرينة لذلك فلا تعارض بين الحديثين كما أنه ليس بين الآيات اختلاف انتهى كلام الخفاجي، ولا يخفى أن قول ابن عباس السابق نص في أن جعل الجبال في الأرض بعد خلق السماء وهو ظاهر آية النازعات إذا كان بعد ذلك معتبراً في قوله تعالى: ﴿والجبال أرساها﴾ [النازعات: ٣٢] وآية حم السجدة ظاهرة في أن جعل الجبال قبل خلق السماوات، ثم إن رواية ابن جرير المذكورة عنه مخالفة لخبر مسلم عن أبي هريرة قال: «أخذ رسول الله ﷺ بيدي فقال: خلق الله تعالى التربة يوم السبت وخلق فيها الجبال يوم الأحد وخلق الشجر يوم الاثنين وخلق المكروه يوم الثلاثاء وخلق النور يوم الأربعاء وبث فيها الدواب يوم الخميس وخلق آدم بعد العصر من يوم الجمعة في آخر الخلق في آخر ساعة من النهار فيما بين العصر إلى الليل» واستدل في شرح المهذب بهذا الخبر على أن السبت أول أيام الأسبوع دون الأحد ونقله عن أصحابه الشافعية وصححه الأسنوي وابن عساكر، وقال العلامة ابن حجر: هو الذي عليه الأكثرون وهو مذهبنا يعني الشافعية كما في الروضة وأصلها بل قال السهيلي في روضه لم يقل بأن أوله الأحد إلا ابن جرير، وجرى النووي في موضع على ما يقتضي أن أوله الأحد فقال: في يوم الاثنين سمي به لأنه ثاني الأيام. وأجيب بأنه جرى في توجيه التسمية المكتفى فيه بأدنى مناسبة على القول الضعيف.

وانتصر القفال من الشافعية لكون أوله الأحد بأن الخبر المذكور تفرد به مسلم وقد تكلم عليه الحفاظ على ابن المدائني والبخاري وغيرهما وجعلوه من كلام كعب وأن أبا هريرة إنما سمعه منه ولكن اشتبه على بعض الرواة فجعله مرفوعاً. وأجيب بأن من حفظ الرفع حجة على من لم يحفظه والثقة لا يرد حديثه بمجرد الظن ولأجل ذلك أعرض مسلم عما قاله أولئك واعتمد الرفع وخرج طريقه في صحيحه فوجب قبولها. وذكر أحمد بن أحمد المقرىء المالكي أن الإمام أحمد رواه أيضاً في مسنده عن أبي هريرة مرفوعاً بلفظ شبك بيدي أبو القاسم ﷺ وقال: «خلق الله تعالى الأرض يوم السبت» الحديث، وفي الدر المنثور عدة أخبار عن ابن عباس ناطقة بأن مبدأ خلق الأرض كان يوم الأحد، وفيه أيضاً أخرج ابن جرير عن أبي بكر رضي الله تعالى عنه قال: «جاء اليهود إلى النبي ﷺ فقالوا: يا محمد أخبرنا ما خلق الله تعالى من الخلق في هذه الأيام الستة فقال: خلق الله تعالى الأرض يوم الأحد والاثنين وخلق الجبال يوم الثلاثاء وخلق المدائن والأقوات والأنهار وعمرانها وخرابها يوم الأربعاء وخلق السماوات والملائكة يوم الخميس إلى ثلاث ساعات يعني من يوم الجمعة وخلق في أول ساعة الآجال وفي الثانية الآفة وفي الثالثة آدم قالوا: صدقت إن تممت فعرف النبي ﷺ ما يريدون فغضب فأنزل الله تعالى ﴿وما مسنا من لغوب فاصبر على ما يقولون﴾.

واليهود قاطبة على أن أول الأسبوع يوم الأحد احتجاجاً بما يسمونه التوراة وظاهره الاشتقاق يقتضي ذلك.

ومن ذهب إلى أن الأول السبت قال: لا حجة في ذلك لأن التسمية لم تثبت بأمر من الله تعالى ولا من رسوله ﷺ فلعل اليهود وضعوا أسماء الأسبوع على ما يعتقدون فأخذتها العرب عنهم ولم يرد في القرآن إلا الجمعة والسبت

وليسا من أسماء العدد على أن هذه التسمية لو ثبتت عن العرب لم يكن فيها دليل لأن العرب تسمي خامس الورد ربعاً وتاسعه عشراً وهذا هو الذي أخذ منه ابن عباس قوله الذي كاد ينفرد به أن يوم عاشوراء هو يوم تاسع المحرم وتاسوعاء هو يوم ثامنه، ولا يخفى أن الجواب الأول خارج عن الإنصاف فلأيام الأسبوع عند العرب أسماء أخر فيها ما يدل على ذلك أيضاً، وهي أول وأهون وجبار ودبار ومؤنس وعروبة وشيار، ولا يسوغ لمنصف أن يظن أن العرب تبعوا في ذلك اليهود وجاء الإسلام وأقرهم على ذلك، وليت شعري إذا كانت تلك الأسماء وقعت متابعة لليهود فما الأسماء الصحيحة التي وضعها واضع لغة العرب غير تابع فيها لليهود، والجواب الثاني خلاف الظاهر جداً.

ونقل الواحدي في البسيط عن مقاتل أن خلق السماء مقدم على إيجاد الأرض فضلاً عن دحوها واختاره الإمام ونسبه بعضهم إلى المحققين من المفسرين وأوّلوا الآية بأن الخلق ليس عبارة عن التكوين والإيجاد بل هو عبارة عن التقدير، والمراد به في حقه تعالى حكمه تعالى أن سيوجد وقضاؤه عزَّ وجلّ بذلك مثله في قوله تعالى: ﴿إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون﴾ [آل عمران: ٥٩] ولا بد على هذا من تأويل ﴿**جعل**﴾ و ﴿**بارك**﴾ بنحو ما سمعت عن الإرشاد، وجوز أن يبقى خلق وكذا ما بعده على ما يتبادر منه ويكون الكلام على إرادة الإرادة كما في قوله تعالى: ﴿إذا قمتم إلى الصلاة﴾ [المائدة: ٦] أي بالذي أراد خلق الأرض في يومين وأراد أن يجعل فيها رواسي وقالوا: إن ثم للتفاوت في الرتبة المنزلة منزلة التراخي الزماني كما في قوله تعالى: ﴿ثم كان من الذين آمنوا﴾ [البلد: ١٧] فإن اسم كان ضمير يرجع إلى فاعل ﴿فلا اقتحم﴾ [البلد: ١١] وهو الإنسان الكافر وقوله سبحانه: ﴿فك رقبة أو إطعام في يوم ذي مسغبة يتيماً ذا مقربة أو مسكيناً ذا متربة﴾ [البلد: ١٣ ـ ١٦] تفسير للعقبة، والترتيب الظاهري يوجب تقديم الإيمان عليه لكن ثم هنا للتراخي في الرتبة مجازاً، وفي الكشف أن ما نقله الواحدي لا إشكال فيه ويتعين ﴿ثم﴾ في هذه السورة والسجدة على تراخي الرتبة وهو أوفق لمشهور قواعد الحكماء لكن لا يوافق ما جاء من أن الابتداء من يوم الأحد كان، وخلق السماوات وما فيها من يوم الخميس والجمعة وفي آخر يوم الجمعة تم خلق آدم عليه السلام، وفي البحر الذي نقوله: إن الكفار وبخوا وقرعوا بكفرهم بمن صدرت عنه هذه الأشياء جميعها من غير ترتيب زماني وإن ﴿ثم﴾ لترتيب الأخبار لا لترتيب الزمان والمهلة كأنه قال سبحانه بالذي أخبركم أنه خلق الأرض وجعل فيها رواسي وبارك فيها وقدر فيها أقواتها ثم أخبركم أنه استوى إلى السماء فلا تعرض في الآية لترتيب الوقوع الترتيب الزماني، ولما كان خلق السماء أبدع في القدرة من خلق الأرض استؤنف الإخبار فيه بثم فهي لترتيب الأخبار كما في قوله تعالى: ﴿ثم كان من الذين آمنوا﴾ بعد قوله سبحانه: ﴿**فلا اقتحم العقبة**﴾ **وقوله تعالى:** ﴿**ثم آتينا موسى الكتاب**﴾ [الأنعام: ١٥٤] بعد قوله عزَّ وجلّ: ﴿**قل تعالوا اتل**﴾ [الأنعام: ١٥١] ويكون قوله جل شأنه ﴿**فقال لها وللأرض**﴾ بعد إخباره تعالى أخبر به تصويراً لخلقهما على وفق إرادته تعالى كقولك أرأيت الذي أثنيت عليه فقلت له إنك عالم صالح فهذا تصوير لما أثنيت به وتفسير له فكذلك أخبر سبحانه بأنه خلق كيت وكيت فأوجد ذلك إيجاداً لم يتخلف عن إرادته انتهى، وظاهر ما ذكره في قوله تعالى: ﴿**فقال لها**﴾ الخ أن القول بعد الإيجاد، وقال بعض الأجلة يجوز أن يكون ذلك للتمثيل أو التخييل للدلالة على أن السماء والأرض محلا قدرته تعالى يتصرف فيهما كيف يشاء إيجاداً وإكمالاً ذاتاً وصفة ويكون تمهيداً لقوله سبحانه: ﴿**فقضاهن**﴾ أي لما كان الخلق بهذه السهولة قضى السماوات وأحكم خلقها في يومين فيصح هذا القول قبل كونهما وبعده، وفي أثنائه إذ ليس الغرض دلالة على وقوع.

وذكر في نكتة تقديم خلق الأرض وما فيها في الذكر هاهنا وفي سورة البقرة على خلق السماوات والعكس في

سورة النازعات أنها يجوز أن يكون أن المقام في الأوليين مقام الامتنان وتعداد النعم فمقتضاه تقديم ما هو أقرب النعم إلى المخاطبين والمقام في الثالثة مقام بيان كمال القدرة فمقتضاه تقديم ما هو أدل على كمالها، وروي عن الحسن أنه تعالى خلق الأرض في موضع بيت المقدس كهيئة الفهر عليها دخان ملتزق بها ثم أصعد الدخان وخلق منه السماوات وأمسك الفهر في موضعها وبسط منها الأرض، وذلك قوله تعالى: ﴿كانتا رتقاً ففتقناهما﴾ [الأنبياء: ٣٠] الآية.

وجعله بعضهم دليلاً على تأخر دحو الأرض عن خلق السماء، وفي الإرشاد أنه ليس نصاً في ذلك فإن بسط الأرض معطوف على إصعاد الدخان وخلق السماء بالواو فلا دلالة في ذلك على الترتيب قطعاً، وفي الكشف أنه يدل على أن كون السماء دخاناً سابق على دحو الأرض وتسويتها بل ظاهر قوله تعالى: **﴿ثم استوى إلى السماء وهي دخان﴾** يدل على ذلك، وإيجاد الجوهرة النورية والنظر إليها بعين الجلال المبطن بالرحمة والجمال ذويها وامتياز لطيفها عن كثيفها وصعود المادة الدخانية اللطيفة وبقاء الكثيف هذا كله سابق على الأيام الستة وثبت في الخبر الصحيح ولا ينافي الآيات. واختار بعضهم أن خلق المادة البعيدة للسماء والأرض كان في زمان واحد وهي الجوهرة النورية أو غيرها وكذا فصل مادة كل عن الأخرى وتمييزها عنها أعني الفتق وإخراج الأجزاء اللطيفة وهي المادة القريبة للسماوات وإبقاء الكثيفة وهي المادة القريبة للأرض فإن فصل اللطيف عن الكثيف يستلزم فصل الكثيف عنه وبالعكس، وأما خلق كل على الهيئة التي يشاهد بها فليس في زمان واحد بل خلق السماوات سابق في الزمان على خلق الأرض، ولا ينبغي لأحد أن يرتاب في تأخر خلق الأرض بجميع ما فيها عن خلق السماوات كذلك، ومتى ساغ حمل **﴿ثم﴾** للترتيب في الأخبار هان أمر ما يظن من التعارض في الآيات والأخبار هذا والله تعالى أعلم. ولبعض المتأخرين في الآية كلام غريب دفع به ما يظن من المنافاة بين الآيات الدالة على أن خلق السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام كقوله تعالى: ﴿الله الذي خلق السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام ثم استوى على العرش﴾ [الفرقان: ٥٩، السجدة: ٤] وقوله سبحانه: ﴿ولقد خلقنا السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام وما مسنا من لغوب﴾ [ق: ٣٨] وهذه الآية التي يخيل منها أن خلق ذلك في ثمانية أيام وهو أن للشيء حكماً من حيث ذاته ونفسه وحكماً من حيث صفاته وإضافاته ونسبه وروابطه واقتضاءاته ومتمماته وسائر ما يضاف إليه ولكل من ذلك أجل معدود وحد محدود يظهره سبحانه في ذلك بالأزمان الخاصة به والأوقات المؤجلة له وهي متفاوتة مختلفة، والله تعالى خلق السماوات والأرض وما بينهما في حد ذاتها في ستة أيام، وذلك عند نشئها في ذاتها من خلقه سبحانه إياها من البحر الحاصل من ذوبان الياقوتة الحمراء لما نظر إليها جل شأنه بنظر الهيبة فتموج إلى أن حصل منه الزبد وثار الدخان فخلق السماء من الدخان والأرض والزبد والنجوم من الشعلات المستجنة في زبد البحر والنار والهواء والماء من جسم أكثف من الدخان وألطف من الزبد، والسماء حقيقة وحدانية في ذاتها ولها صلاحية التعدد والكثرة على حسب بدو شأنها في علم الغيب فتعينها بالسبعة على الجهة الخاصة ووقوع كل سماء في محلها الخاص مترتباً عليها حكم خاص يحتاج إلى جعل غير جعلها في نفسها وهو المسمى بالقدر وتعيين الحدود التي هي الهندسة الإيجادية، وهذا الجعل متفرع على الخلق ونحوه غير نحوه قطعاً كما يشعر به قوله تعالى: ﴿وخلق كل شيء فقدره تقديراً﴾ [الفرقان: ٢] وقد يسمى بالتسوية وبالقضاء أيضاً كما في قوله تعالى: ﴿ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سماوات﴾ [البقرة: ٢٩] وقوله تعالى هنا **﴿ثم استوى إلى السماء وهي دخان ـــ** إلى قوله سبحانه ـ **فقضاهن سبع سماوات﴾** وأما تقدير أقوات الأرض وإعطاء البركة وتوليد المتولدات فلها أيام معدودات وحدود محدودات لا تدخل في أيام خلق السماوات والأرض لأنها لإيجاد أنفسها، فالأيام الأربعة المذكورة في الآية إنما هي

لجعل الرواسي وتقدير الأقوات وإحداث البركة وليست من تلك الستة وكذلك اليومان اللذان لتسوية السماء وقضائها سبع سماوات خارجان عنها فليس في الآية التي الكلام فيها سوى أن خلق الأرض كان في يومين وأما خلق السماوات وما بينها وبين الأرض فلم يذكر في الآية مدة له وإنما ذكر مدة قضاء السماوات وهو غير خلقها ومدة جعل الرواسي وتقدير الأقوات وإحداث البركة وذلك غير خلق الأرض وما بينها وبين السماء فلا تنافي بينها وبين الآيات الدالة على أن خلق السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام، ولا يعكر على ذلك ما روي عن الصادق أن الله سبحانه خلق في يوم الأحد والاثنين الأرضين وخلق أقواتها في يوم الثلاثاء وخلق السماوات في يوم الأربعاء ويوم الخميس وخلق أقواتها يوم الجمعة وذلك قول الله سبحانه: ﴿**خلق السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام**﴾ لأنه بعد تسليم صحته المذكور فيه أن الأقوات قد خلقت في يومين لا أنها قدرت وبين الخلق والتقدير بون بعيد، فخلق الأقوات عبارة عن إيجاد ذاتياتها وموادها وعللها وأسبابها فإذا وجدت قدرت وفصلت على الأطوار المعلومة فلا إشكال.

والعجب ممن استشكل هذا المقام كيف لم ينظر في مدلولات الألفاظ الإلهية بحسب القواعد القرآنية واللغوية فاحتاج في حله إلى تكلفات أمور خفيّة وارتكاب توجيهات غير مرضية، ثم إن هذا البعض ذكر لليوم ما يزيد على ستين إطلاقاً منها المرتبة ونقل هذا عن شيخه ورأيته في بعض الكتب لغيره، وجوز إرادته في الآية وكذا جوز إرادة غيره من الإطلاقات، وذكر سر كون خلق السماوات والأرض في ستة أيام وأطال الكلام في هذا المقام، وكان ذلك ضمن رسالة ألفها حين طلبت منه جواباً عما يظن من المنافاة غير ما ذكروه من الجواب عن ذلك، ومن وقف على تلك الرسالة سمع منها قعقعة بلا سلاح وأحس بطيران في جو ما يزعمه تحقيقاً بلا جناح فكم فيها من قول لا سند له ومدعي لم يورد دليله، فعليك بالتأمل التام فيما ذكره المفسرون وما ذكره هذا الرجل من الكلام ولاتك للإنصاف مجانباً وللتعصب مصاحباً والله تعالى الموفق.

وما تقدم من حمل قوله تعالى: ﴿**قالتا أتينا طائعين**﴾ على التمثيل هو ما ذهب إليه جماعة من المفسرين، وقالت طائفة: إنهما نطقتا نطقاً حقيقياً وجعل الله تعالى لهما حياة وإدراكاً، قال ابن عطية: وهذا أحسن لأنه لا شيء يدفعه وأن العبرة فيه أتم والقدرة فيه أظهر، ولا يخفى أن المعنى الأول أبلغ، ومن ذهب إلى أن للجمادات إدراكاً لائقاً بها قال بظاهر الآية ولعلها إحدى أدلته على ذلك. وذكر بعضهم في قوله سبحانه: ﴿**وأوحى في كل سماء أمرها**﴾ أنه سبحانه خص كل سماء بما ميزها عن السماء الأخرى من الذاتيات وجعل ذلك وجهاً في جمع السماوات وإفراد الأرض. وقرأ الأعمش «أو كُرهاً» بضم الكاف، قال أبو حيان: والأصح أنها لغة في الإكراه على الشيء، والأكثر على أن الكره بالضم معناه المشقة ﴿**فَإِنْ أَعْرَضُوا**﴾ متصل بقوله تعالى: ﴿**قل أئنكم**﴾ الخ أي فإن أعرضوا عن التدبر فيما ذكر من عظائم الأمور الداعية إلى الإيمان أو عن الإيمان بعد هذا البيان ﴿**فَقُلْ**﴾ لهم: ﴿**أَنْذَرْتُكُمْ**﴾ أي أنذركم، وصيغة الماضي للدلالة على تحقق الإنذار المنبيء عن تحقق المنذر ﴿**صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ**﴾ أي عذاباً مثل عذابهم قاله قتادة، وهو ظاهر على القول بأن الصاعقة تأتي في اللغة بمعنى العذاب، ومنع ذلك بعضهم وجعل ما ذكر مجازاً، والمراد عذاباً شديد الوقع كأنه صاعقة مثل صاعقتهم، وأياً ما كان فالمراد أعلمتكم حلول صاعقة.

وقرأ ابن الزبير والسلمي وابن محيصن «صعقة مثل صعقة» بغير ألف فيهما وسكون العين وهي المرة من الصعق أو الصعق ويقال: صعقته الصاعقة صعقاً فصعق صعقاً بالفتح أي هلك بالصاعقة المصيبة به ﴿**إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ**﴾ أي جاءت عاداً وثمود ففيه إطلاق الجمع على الاثنين وهو شائع وكذا ﴿**الرسل**﴾ وقيل: يحتمل أن يراد مايعم رسول

الرسول، وجوز في الأول أن يكون باعتبار أفراد القبيلتين، وذكروا في ﴿إذ﴾ أوجهاً من الإعراب. الأول أنه ظرف لأنذرتكم. الثاني أنه صفة لصاعقة الأولى، وأورد عليهما لزوم كون إنذاره عليه الصلاة والسلام والصاعقة التي أنذر بها واقعين في وقت مجيء الرسل عاداً وثمود وليس كذلك. الثالث أنه صفة لصاعقة الثانية، وتعقب بأنه يلزم عليه حذف الموصول مع بعض صلته وهو غير جائز عند البصريين أو وصف المعرفة بالنكرة. الرابع واختاره أبو حيان أنه معمول لصاعقة عاد وثمود بناء على أن المراد بها العذاب وإلا فهي بالمعنى المعروف جثة لا يتعلق بها الظرف وفيه شيء لا يخفى. الخامس واختاره غير واحد أنه حال منها لأنها معرفة بالإضافة، وبعضهم يجوز كونه حالاً من الأولى أيضاً لتخصصها بالوصف بالمتخصص بالإضافة فتكون الأوجه ستة، وقوله تعالى: ﴿مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ متعلق بجاءتهم، والضمير المضاف إليه لعاد وثمود، والجهتان كناية عن جميع الجهات على ما عرف في مثله أي أتتهم الرسل من جميع جهاتهم، والمراد بإتيانهم من جميع الجهات بذل الوسع في دعوتهم على طريق الكناية ويجوز أن يراد بما بين أيديهم الزمن الماضي وبما خلفهم المستقبل وبالعكس واستعير فيه ظرف المكان للزمان والمراد جاؤوهم بالإنذار عما جرى على أمثالهم الكفرة في الماضي وبالتحذير عما سيحيق بهم في الآخرة.

وروي هذا عن الحسن، وجوز كون الضمير المضاف إليه للرسل والمراد جاءتهم الرسل المتقدمون والمتأخرون على تنزيل مجيء كلامهم ودعوتهم إلى الحق منزلة مجيء أنفسهم فإن هوداً وصالحاً كانا داعيين لهم إلى الإيمان بهما وبجميع الرسل ممن جاء من بين أيديهم وممن يجيء من خلفهم فكأن الرسل قد جاؤوهم وخاطبوهم بقوله تعالى: ﴿أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ﴾ وروي هذا الوجه عن ابن عباس والضحاك، وإليه ذهب الفراء. ونص بعض الأجلة على أن ﴿من بـين أيديهم﴾ عليه حال من الرسل لا متعلق بجاءتهم، وجمع الرسل عليه ظاهر، وقيل: يحتمل أن يكون كون الرسل من بين أيديهم ومن خلفهم كناية عن الكثرة كقوله تعالى: ﴿يأتيها رزقها رغداً من كل مكان﴾ [النحل: ١١٢] وقال الطبري: الضمير في قوله تعالى: ﴿من بـين أيديهم﴾ لعاد وثمود وفي قوله تعالى: ﴿ومن خلفهم﴾ للرسل وتعقبه في البحر بأن فيه خروجاً عن الظاهر في تفريق الضمائر وتعمية المعنى إذ يصير التقدير جاءتهم الرسل من بين أيديهم وجاءتهم من خلف الرسل أي من خلف أنفسهم، وهذا معنى لا يتعقل إلا أن كان الضمير عائداً في ﴿من خلفهم﴾ على الرسل لفظاً وهو عائد على رسل آخرين معنى فكأنه قيل: جاءتهم الرسل من بين أيديهم ومن خلف رسل آخرين فيكون كقولهم: عندي درهم ونصفه أي ونصف درهم آخر، وبعده لا يخفى.

وخص بالذكر من الأمم المهلكة عاد وثمود لعلم قريش بحالهما ولوقوفهم على بلادهم في اليمن والحجر، و﴿أن﴾ يصح أن تكون مفسرة لمجيء الرسل لأنه بالوحي وبالشرائع فيتضمن معنى القول و ﴿لا﴾ ناهية وأن تكون مصدرية ولا ناهية أيضاً، والمصدرية قد توصل بالنهي كما توصل بالأمر على كلام فيه، وجعل الحوفي ﴿لا﴾ نافية و﴿أن﴾ ناصبة للفعل، وقيل: إنها المخففة من الثقيلة ومعها ضمير شأن محذوف، وأورد عليه أنها إنما تقع بعد أفعال اليقين وأن خبر باب أن لا يكون طلباً إلا بتأويل، وقد يدفع بأنه بتقدير القول وأن مجيء الرسل كالوحي معنى فيكون مثله في وقوع أن بعده لتضمنه ما يفيد اليقين كما أشار إليه الرضي وغيره، ولا يخفى ما فيه من التكلف المستغنى عنه؛ وعلى احتمال كونها مصدرية وكونها مخففة يكون الكلام بتقدير حرف الجر أي بأن لا تعبدوا إلا الله ﴿قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا﴾ مفعول المشيئة محذوف وقدره الزمخشري إرسال الرسل أي لو شاء ربنا إرسال الرسل ﴿لأَنْزَلَ مَلاَئِكَةً﴾ أي لأرسلهم لكن لما كان إرسالهم بطريق الإنذار قيل: لأنزل، قيل: ولم يقدر إنزال الملائكة بناء على أن الشائع تقدير مفعول المشيئة بعد لو الشرطية من مضمون الشرط لأنه عار عن إفادة ما أرادوه من نفي إرساله تعالى البشر والشائع غير

مطرد، وقال أبو حيان: إنما التقدير لو شاء ربنا إنزال ملائكة بالرسالة منه إلى الإنس لأنزلهم بها إليهم، وهذا أبلغ في الامتناع من إرسال البشر إذ علقوا ذلك بإنزال الملائكة وهو سبحانه لم يشأ ذلك فكيف يشاؤوه في البشر وهو وجه حسن.

﴿فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ﴾ أي بالذي أرسلتم به على زعمكم، وفيه ضرب تهكم بهم ﴿كَافِرُونَ﴾ لما أنكم بشر مثلنا لا فضل لكم علينا، والفاء فاء النتيجة السببية فيكون في الكلام إيماء إلى قياس استثنائي أي لكنه لم ينزل، ويجوز أن تكون تعليلية لشرطيتهم أي إنما قلنا ذلك لأنا منكرون لما أرسلتم به كما ننكر رسالتكم، و﴿ما﴾ كما أشرنا إليه موصولة، وكونها مصدرية وضمير ﴿به﴾ لقولهم: ﴿أن لا تعبدوا إلا الله﴾ خلاف الظاهر، أخرج البيهقي في الدلائل. وابن عساكر عن جابر بن عبد الله قال: قال أبو جهل والملأ من قريش قد التبس علينا أمر محمد ﷺ فلو التمستم رجلاً عالماً بالسحر والكهانة والشعر فكلمه ثم أتانا ببيان من أمره، فقال عتبة بن ربيعة: والله لقد سمعت الشعر والكهانة والسحر وعلمت من ذلك علماً وما يخفى عليّ إن كان كذلك فأتاه فقال له يا محمد أنت خير أم هاشم أنت خير أم عبد المطلب؟ فلم يجبه قال: فبم تشتم آلهتنا وتضلل آباءنا فإن كنت إنما بك الرياسة عقدنا ألويتنا لك، وإن كان المال جمعنا لك من أموالنا ما تستغني به أنت وعقبك من بعدك، وإن كان بك الباءة زوجناك عشر نسوة تختار من أي بنات قريش ورسول الله ﷺ ساكت لا يتكلم فلما فرغ قال عليه الصلاة والسلام: «بسم الله الرحمن الرحيم حم تنزيل من الرحمن الرحيم كتاب فصلت آياته قرآناً عربياً ـ فقرأ حتى بلغ ـ فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود» فأمسك عتبة علي فيه عليه الصلاة والسلام فأنشده الرحم أن يكف عنه ورجع إلى أهله ولم يخرج إلى قريش فلما احتبس عنهم قال أبو جهل: يا معشر قريش ما أرى عقبة إلا قد صبا إلى محمد ﷺ وأعجبه طعامه وما ذاك إلا من حاجة أصابته انتقلوا بنا إليه فأتوه فقال أبو جهل: والله يا عتبة ما حسبنا إلا أنك صبوت إلى محمد وأعجبك أمره فإن كنت بك حاجة جمعنا لك من أموالنا ما يغنيك عن محمد ﷺ فغضب وأقسم بالله تعالى لا يكلم محمداً عليه الصلاة والسلام أبداً وقال: لقد علمتم أني أكثر قريش مالاً ولكني أتيته فقص عليهم القصة فأجابني بشيء والله ما هو بسحر ولا شعر ولا كهانة قرأ بسم الله الرحمن الرحيم حم تنزيل من الرحمن الرحيم كتاب فصلت آياته قرآناً عربياً حتى أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود فأمسكت بفيه وناشدته الرحم فكف وقد علمتم أن محمداً ﷺ إذا قال شيئاً لم يكذب فخفت أن ينزل بكم العذاب» ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ شروع في تفصيل ما لكل واحدة من الطائفتين من الجناية والعذاب، ولتفرع التفصيل على الإجمال قرن بفاء السببية، وبدىء بقصة عاد لأنها أقدم زماناً أي فأما عاد فتعظموا في الأرض التي لا ينبغي التعظم فيها على أهلها ﴿بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ أي بغير استحقاق للتعظم.

وقيل: تعظموا عن امتثال أمر الله عزَّ وجلّ وقبول ما جاءتهم به الرسل ﴿وَقَالُوا﴾ اغتراراً بقوتهم: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ أي لا أشد منا قوة فالاستفهام إنكاري، وهذا بيان لاستحقاقهم العظمة وجواب الرسل عما خوفوهم به من العذاب، وكانوا ذوي أجسام طوال وخلق عظيم وقد بلغ من قوتهم أن الرجل كان ينزع الصخرة من الجبل ويرفعها بيده ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا﴾ أي أغفلوا ولم ينظروا أو ولم يعلموا علماً جلياً شبيهاً بالمشاهدة والعيان ﴿أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ قدرة فإنه تعالى قادر بالذات مقتدر على ما لا يتناهى قوي على ما لا يقدر عليه غيره عزَّ وجلّ مفيض للقوة والقدر على كل قوي وقادر، وفي هذا إيماء إلى أن ما خوفهم به الرسل ليس من عند أنفسهم بناء على قوة منهم وإنما هو من الله تعالى خالق القوى والقدر وهم يعلمون أنه عزَّ وجلّ أشد قوة منهم، وتفسير القوة بالقدرة لأنه أحد معانيها كما يشير إليه كلام الراغب.

وزعم بعضهم أن القوة عرض ينزه الله تعالى عنه لكنها مستلزمة للقدرة فلذا عبر عنها بها مشاكلة.

وأورد في حيز الصلة ﴿خلقهم﴾ دون خلق السماوات والأرض لادعائهم الشدة في القوة، وفيه ضرب من التهكم بهم ﴿وَكَانُوا بآيَاتنا يَجْحَدُونَ﴾ أي ينكرونها وهم يعرفون حقيتها وهو عطف على ﴿فاستكبروا﴾ أو ﴿قالوا﴾ فجملة ﴿أو لم يروا﴾ الخ مع ما عطف هو عليه اعتراض، وجوز أن يكون هو وحده اعتراضاً والواو اعتراضية لا عاطفة.

فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ
أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ
الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ
يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا
لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ
﴿٢١﴾ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ
كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن
يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُم مِّنَ الْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾ ۞ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُم
مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا
خَاسِرِينَ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾ فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا
عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءً بِمَا
كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ
أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ
أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا
وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾
وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ
وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا
الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾

﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيهِمْ ريحاً صَرْصَراً﴾ قال مجاهد: شديدة السموم فهو من الصر بفتح الصاد بمعنى الحر، وقال ابن عباس والضحاك وقتادة والسدي: باردة تهلك بشدة بردها من الصر بكسر الصاد وهو البرد الذي يصر أي يجمع ظاهر

جلد الإنسان ويقبضه؛ والأول أنسب لديار العرب، وقال السدي أيضاً وأبو عبيدة وابن قتيبة والطبري وجماعة: مصوتة من صريصر إذا صوت، وقال ابن السكيت: صرصر يجوز أن يكون من الصرة وهي الصيحة ومنه ﴿فأقبلت امرأته في صرة﴾ [الذاريات: ٢٩] وفي الحديث أنه تعالى أمر خزنة الريح ففتحوا عليهم قدر حلقة الخاتم ولو فتحوا قدر منخر الثور لهلكت الدنيا، وروي أنها كانت تحمل العير بأوقارها فترميهم في البحر ﴿**فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ**﴾ جمع نحسة بكسر الحاء صفة مشبهة من نحس نحساً كعلم علماً نقيض سعد سعداً.

وقرأ الحرميان وأبو عمرو والنخعي وعيسى والأعرج «نَحْسَاتٍ» بسكون الحاء فاحتمل أن يكون مصدراً وصف به مبالغة، واحتمل أن يكون صفة مخففاً من فعل كصعب. وفي البحر تتبعت ما ذكره التصريفيون مما جاء صفة من فعل اللازم فلم يذكروا فيه فعلاً بسكون العين وإنما ذكروا فعلاً بالكسر كفرح وأفعل كأحور وفعلان كشبعان وفاعلاً كسالم، وهو صفة ﴿**أيام**﴾ وجمع بالألف والتاء لأنه صفة لما لا يعقل، والمراد بها مشائيم عليهم لما أنهم عذبوا فيها، فاليوم الواحد يوصف بالنحس والسعد بالنسبة إلى شخصين فيقال له سعد بالنسبة إلى من ينعم فيه، ويقال له نحس بالنسبة إلى من يعذب، وليس هذا مما يزعمه الناس من خصوصيات الأوقات، لكن ذكر الكرماني في مناسكه عن ابن عباس أنه قال: الأيام كلها لله تعالى لكنه سبحانه خلق بعضها نحوساً وبعضها سعوداً، وتفسير ﴿**نحسات**﴾ بمشائيم مروي عن مجاهد وقتادة والسدي، وقال الضحاك: أي شديدة البرد حتى كأن البرد عذاب لهم، وأنشد الأصعمي في النحس بمعنى البرد:

كأن سلافه مزجت بنحس

وقيل: نحسات ذوات غبار، وإليه ذهب الجبائي ومنه قول الراجز:

قد اغتدي قبل طلوع الشمس ... للصيد في يوم قليل النحس

يريد قليل الغبار، وكانت هذه الأيام من آخر شباط وتسمى أيام العجوز، وكانت فيما روي عن ابن عباس ومجاهد وقتادة آخر شوال من الأربعاء إلى الأربعاء، وروي ما عذب قوم إلا في يوم الأربعاء، وقال السدي: أولها غداة يوم الأحد، وقال الربيع بن أنس: يوم الجمعة ﴿**لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا**﴾ أضيف العذاب إلى الخزي وهو الذل على قصد وصفه به لقوله تعالى: ﴿**وَلَعَذَابُ الآخرة أَخْزَى**﴾ وهو في الأصل صفة المعذب وإنما وصف به العذاب على الإسناد المجازي للمبالغة، فإنه يدل على أن ذل الكافر زاد حتى اتصف به عذابه كما قرر في قولهم: شعر شاعر، وهذا في مقابلة استكبارهم وتعظمهم. وقرىء «لتذيقهم» بالتاء على أن الفاعل ضمير الريح أو الأيام النحسات ﴿**وَهُمْ لا يُنْصَرُونَ**﴾ بدفع العذاب عنهم بوجه من الوجوه.

﴿**وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ**﴾ قال ابن عباس وقتادة والسدي: أي بينا لهم، وأرادوا بذلك على ما قيل بيان طريقي الضلالة والرشد كما في قوله تعالى: ﴿وهديناه النجدين﴾ [البلد: ١٠] وهو أنسب بقوله تعالى: ﴿**فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى**﴾ أي فاختاروا الضلالة على الهدى فالظاهر في أنه بين لهم الطريقان فاختاروا أحدهما، وصرح ابن زيد بذلك فقد حكي عنه أنه قال: أي أعلمناهم الهدى من الضلال، وفسر غير واحد الهداية هنا بالدلالة أي فدللناهم على الحق بنصب الحجج وإرسال الرسل فاختاروا الضلال ولم يفسروها بالدلالة الموصلة لإباء ظاهر ﴿**فاستحبوا**﴾ الخ عنه.

واستدل المعتزلة بهذه الآية على أن الإيمان باختيار العبد على الاستقلال بناء على أن قوله تعالى: ﴿**هديناهم**﴾ دل على نصب الأدلة وإزاحة العلة، وقوله تعالى: ﴿**استحبوا العمى**﴾ الخ دل على أنهم بأنفسهم آثروا العمى.

والجواب كما في الكشف أن في لفظ الاستحباب ما يشعر بأن قدرة الله تعالى هي المؤثرة وأن لقدرة العبد مدخلاً ما فإن المحبة ليست اختيارية بالاتفاق وإيثار العمى حباً وهو الاستحباب من الاختيارية، فانظر إلى هذه الدقيقة تر العجب العجاب، وإلى نحوه أشار الإمام الداعي إلى الله تعالى قدس سره، ومعنى كون المحبة ليست اختيارية إنها بعد حصول ما تتوقف عليه من أمور اختيارية تكون بجذب الطبيعة من غير اختيار للشخص في ميل قلبه وارتباط هواه بمن يحبه، فهي نفسها غير اختيارية لكنها باعتبار مقدماتها اختيارية، ولذلك كلفنا بمحبة الله تعالى ومحبة رسوله ﷺ، وفي طوق الحمامة لابن سعيد أن المحبة ميل روحاني طبيعي، وإليه يشير قوله عزَّ وجلّ: ﴿وخلق منها زوجها ليسكن إليها﴾ [الأعراف: ١٨٩] أي يميل فجعل علة ميلها كونها منها، وهو المراد بقوله عليه الصلاة والسلام: «الأرواح جنود مجندة» وتكون المحبة لأمور أخر كالحسن والإحسان والكمال، ولها آثار يطلق عليها محبة كالطاعة والتعظيم، وهذه هي التي يكلف بها لأنها اختيارية فاعرفه. وقرأ ابن وثاب والأعمش وبكر بن حبيب «وأما ثمودٌ» بالرفع مصروفاً.

وقد قرأ الأعمش وابن وثاب بصرفه في جميع القرآن إلا في قوله تعالى: ﴿وآتينا ثمود الناقة﴾ [الإسراء: ٥٩] لأنه في المصحف بغير ألف. وقرأ ابن أبي إسحاق وابن هرمز بخلاف عنه والمفضل، قال ابن عطية: والأعمش وعاصم وروي عن ابن عباس «ثموداً» بالنصب والتنوين، وروى المفضل عن عاصم الوجهين والمنع عن الصرف للعلمية والتأنيث على إرادة القبيلة، ومن صرفه جعله اسم رجل، والنصب على جعله من باب الاضمار على شريطة التفسير، ويقدر الفعل الناصب بعده لأن أما لا يليها في الغالب إلا اسم. وقرىء بضم الثاء على أنه جمع ثمد وهو قلة الماء فكأنهم سموا بذلك لأنهم كانوا يسكنون في الرمال بين حضرموت وصنعاء وكانوا قليلي الماء ﴿**فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُون**﴾ أي الذل وهو صفة للعذاب أو بدل منه، ووصفه به مصدراً للمبالغة وكذا إضافة صاعقة إلى العذاب فيفيد ذلك أن عذابهم عين الهون وأن له صاعقة، والمراد بالصاعقة النار الخارجة من السحاب كما هو المعروف، وسبب حدوثها العادي مشهور في كتب الفلسفة القديمة وقد تكلم في ذلك أهل الفلسفة الجديدة المتداولة اليوم في بلاد الروم وما قرب منها فقالوا في كيفية انفجار الصاعقة: من المعلوم أن انطلاق الكهربائية التي في السحاب وهي قوة مخصوصة في الأجسام نحو قوة الكهرباء التي بها تجذب التبنة ونحوها إليها إنما يحصل باتحاد كهربائية الأجسام مع بعضها فإذا قرب السحاب من الأجسام الأرضية طلبت الكهربائية السحابية أن تتحد بالكهربائية الأرضية فتتبجس بينهما شرارة كهربائية فتصعق الأجسام الأرضية، وتتفاوت قوة الصاعقة باختلاف الاستحالة البخارية فليست في جميع البلاد والفصول واحدة، وأوضحوا ذلك بكلام طويل من أراده فليرجع إليه في كتبهم، وقيل: المراد بالصاعقة هنا الصيحة كما وردت في آيات أخر، ولا مانع من الجمع بينهما.

وقرا ابن مقسم «الهوان» بفتح الهاء وألف بعد الواو ﴿**بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ**﴾ من اختيار الضلالة على الهدى، وهذا تصريح بما تشعر به الفاء ﴿**وَنَجَّيْنَا**﴾ من تلك الصاعقة ﴿**الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ**﴾ بسبب إيمانهم واستمرارهم على التقوى، والمراد بها تقوى الله عز وجل، وقيل: تقوى الصاعقة والمتقي عذاب الله تعالى متق لله سبحانه وليس بذاك ﴿**وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللهِ إِلَى النَّارِ**﴾ شروع في بيان عقوباتهم الآجلة بعد ذكر عقوباتهم العاجلة، والتعبير عنهم بأعداء الله تعالى لذمهم والإيذان بعلة ما يحيق بهم من ألوان العذاب وقيل: المراد بهم الكفار من الأولين والآخرين.

وتعقب بأن قوله تعالى الآتي: ﴿في أمم قد خلت من قبلهم من الجن والإنس﴾ [فصلت: ٢٥] كالصريح في إرادة الكفرة المعهودين، والمراد من قوله تعالى: ﴿**إلى النار**﴾ قيل: إلى موقف الحساب، والتعبير عنه بالنار للإيذان بأن النار عاقبة حشرهم وأنهم على شرف دخولها، ولا مانع من إبقائه على ظاهره والقول بتعدد الشهادة فتشهد

عليهم جوارحهم في الموقف مرة وعلى شفير جهنم أخرى، و ﴿يوم﴾ إما منصوب باذكر مقدر معطوف على قوله تعالى: ﴿قل أنذرتكم صاعقة﴾ [فصلت: ١٢] أو ظرف لمضمر مؤخر قد حذف إيهاماً لقصور العبارة عن تفصيله، وقيل: ظرف لما يدل عليه قوله تعالى: ﴿فَهُمْ يوزَعُونَ﴾ أي يحبس أولهم على آخرهم ليتلاحقوا وهو كناية عن كثرتهم، وقيل: يساقون ويدفعون إلى النار، والفاء تفصيلية. وقرأ زيد بن علي ونافع والأعرج وأهل المدينة «نحشر» بالنون «أعداءَ» بالنصب وكسر الأعرج الشين. وقرىء «يَحْشُرُ» على البناء للفاعل وهو الله تعالى ونصب «أعداءَ الله» وقوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا مَا جَاؤُوهَا﴾ أي النار جميعاً غاية ليحشر أو ليوزعون أي حتى إذا حضروها، و﴿ما﴾ مزيدة لتأكيد اتصال الشهادة بالحضور لأنها تؤكد ما زيدت بعده فهي تؤكد معنى إذا، و ﴿إذا﴾ دالة على اتصال الجواب بالشرط لوقوعهما في زمان واحد، وهذا مما لا تعلق له بالنحو حتى يضر فيه أن النحاة لم يذكروه كما شنع به أبو حيان وأكد لأنهم ينكرونه، وفي الكلام حذف والتقدير حتى إذا ما جاؤوها وسألوا عما أجرموا فأنكروا ﴿شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ واكتفى عن المحذوف بذكر الشهادة لاستلزامها إياه، ولا يأبى التقدير تأكيد الاتصال إذ يكفي للاتصال وقوع ذلك في مجلس واحد، والظاهر أن الجلود هي المعروفة، وقيل: هي الجوارح كني بها عنها، وقيل: كني بها عن الفروج، قيل: وعليه أكثر المفسرين منهم ابن عباس رضي الله تعالى عنهما. وفي الارشاد أنه الأنسب بتخصيص السؤال في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا﴾ فإن ما تشهد به من الزنا أعظم جناية وقبحاً واجلب للخزي والعقوبة مما يشهد به السمع والأبصار من الجنايات المكتسبة بتوسطهما وفيه نظر ولعل إرادة الظاهر أولى، ولعل تخصيص السؤال بالجلود لأنها بمرأى منهم بخلاف السمع والبصر أو لأنها هي مدركة العذاب بالقوة المودعة فيها كما يشعر به قوله تعالى: ﴿كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب﴾ [النساء: ٥٦] قال الجلبي، ثم نقل عن العلامة الثاني في ذلك أن الشهادة من الجلود أعجب وأبعد إذ ليس شأنها الإدراك بخلاف السمع والبصر، وتعقبه بقوله: فيه نظر فإن الجلد محل القوة اللامسة التي هي أهم الحواس للحيوان كما أن السمع والبصر محل السامعة والباصرة والذي ينطق الأعيان دون الأعراض ثم إن اللامسة تشتمل على الذائقة التي هي الأهم بعد اللامسة، ثم قال: ويلوح بما قررناه وجه آخر للتخصيص فإن الأهمية للإنسان والاشتمال على أهم من غيرها يصلح أن يكون مخصصاً، فانقلاب ما يرجون منه أكمل النفع أعجب ومثله أحق بالتوبيخ من غيره. واعترض عليه بأن رده على العلامة لم يصادف محزه إذ ليس المراد مما ذكره من أنها ليس من شأنها الإدراك إلا إدراك أنواع المعاصي التي يشهد عليها كالكفر والكذب والقتل والزنا مثلاً وإدراك مثلها منحصر في السمع والبصر.

وأنت تعلم بعد طي كشح البحث في هذا الجواب أن ما ذكره العلامة لا يناسب ظاهر السؤال أعني ﴿لم شهدتم علينا﴾ وأولى ما قيل من أوجه التخصيص: إن المدافعة عن الجلود أزيد من المدافعة عن السمع والبصر فإن جلد الإنسان الواحد لو جزىء لزاد على ألف سمع وبصر وهو يدافع عن كل جزء ويحذر أن يصيبه ما يشينه فكانت الشهادة من الجلود عليهم أعجب وأبعد عن الوقوع.

وفي الحديث ـ إن أول ما ينطق من الإنسان فخذه اليسرى ثم تنطق الجوارح فيقول: تباً لك فعنك كنت أدافع، ووجه إفراد السمع قد مر أول التفسير، ووجه الاقتصار على السمع والبصر والجلد أشار إليه أبو حيان قال: لما كانت الحواس خمسة السمع والبصر والشم والذوق واللمس وكان الذوق مندرجاً في اللمس إذ بمماسة جلد اللسان الرطب للمذوق يحصل إدراك طعم المذوق وكان حس الشم ليس فيه تكليف لا أمر ولا نهي وهو ضعيف اقتصر من الحواس

على السمع والبصر واللمس، وللبحث فيه مجال. وكأني بك تختار أن المراد بالجلود ما سوى السمع والأبصار وأن ذكر السمع لما أنه وسيلة إدراك أكثر الآيات التنزيلية وذكر الأبصار لما أنها وسيلة إدراك أكثر الآيات التكوينية.

وقد أشير إلى كل في قوله تعالى: ﴿**وأما ثمود فهديناهم**﴾ على وجه، وأن شهادتهما فيما يتعلق بالكفر، فيشهد السمع عليهم أنهم كذبوا بالآيات التنزيلية التي جاء بها الرسل وسمعوها منهم، والأبصار أنهم لم يعبئوا بالآيات التكوينية التي أبصروها وكفروا بما تدل عليه، ولعل شهادة الجلود فيما يتعلق بما سوى الكفر من المعاصي التي نهى عنها الرسل عليهم السلام كالزنا مثلاً، وجوز أن تكون شهادة السمع بإدراك الآيات التنزيلية والأبصار بإدراك الآيات التكوينية والجلود بالكفر بما يقتضيه كل وبالمعاصي الآخر، ولا بعد في شمول ﴿**ما كانوا يعملون**﴾ لإدراك الآيات والاحساس بها بقسميها فتدبر.

ولعل قوله تعالى: ﴿**لم شهدتم**﴾ سؤال عن العلة الموجبة، وصيغة جمع العقلاء في ﴿**شهدتم**﴾ وما بعد مع أن المراد منه ليس من ذوي العقول لوقوع ذلك في موقع السؤال والجواب المختصين بالعقلاء. وقرأ زيد بن عليّ «لم شهدتن» بضمير المؤنثات ﴿**قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ**﴾ أي أنطقنا الله تعالى وأقدرنا على بيان الواقع فشهدنا عليكم بما عملتم من القبائح وما كتمنا، وحيث كان معنى السؤال لأي علة موجبة شهدتم؟ صلح ما ذكر جواباً له، وقيل: لا قصد هنا للسؤال أصلاً وإنما القصد إلى التعجب ابتداء لأن التعجب يكون فيما لا يعلم سببه وعلته فالسؤال عن العلة المستلزم لعدم معرفتها جعل مجازاً أو كناية عن التعجب، فقد قيل: إذا ظهر السبب بطل العجب فكأنه قيل: ليس نطقنا بعجب من قدرة الله تعالى الذي أنطق كل شيء؛ وأياً ما كان فالنطق على معناه الحقيقي كما هو الظاهر وكذا الشهادة، ولا يقال: الشاهد أنفسهم والسمع والأبصار والجلود آلات كاللسان فما معنى ﴿**شهدتم علينا**﴾ لأنه يقال: ليس المراد هذا النوع من النطق الذي يسند حقيقة إلى جملة الشخص ويكون غيره آلة بلا قدرة وإرادة له في نفسه حتى لو أسند إليه كان مجازاً كإسناد الكتابة إلى القلم بل هو نطق يسند إلى العضو حقيقة فيكون نفسه ناطقاً بقدرة وإرادة خلقهما الله تعالى فيه كما ينطق الشخص بالآلة، وكيف لا وأنفسهم كارهة لذلك منكرة له، وقيل: الناطق هم بتلك الأعضاء إلا أنهم لا يقدرون على دفع كونها آلات ولذا نسبت الشهادة عليهم إليها وليس بشيء، وجوز بعضهم أن يكون النطق مجازاً عن الدلالة فالمراد بالشهادة ظهور علامات على الأعضاء دالة على ما كانت ملتبسة به في الدنيا بتغيير أشكالها ونحوه مما يلهم الله تعالى من رآه أنها تلبست به في الدنيا لارتفاع الغطاء في الآخرة، وهو خلاف ظاهر الآيات والأحاديث ولا داعي إليه، وعلى الظاهر لا بد من تخصيص ﴿**كل شيء**﴾ بكل حي نطق إذ ليس كل شيء ولا كل حي ينطق بالنطق الحقيقي ومثل هذا التخصيص شائع، ومنه ما قيل في ﴿والله على كل شيء قدير﴾ [البقرة: ٢٨٤، آل عمران: ٢٩، المائدة: ١٩، ٤٠، التوبة: ٣٩] و ﴿تدمر كل شيء﴾ [الأحقاف: ٢٥]، وجوز أن يكون النطق في ﴿**أنطقنا**﴾ بمعناه الحقيقي ويحمل النطق في ﴿**أنطق كل شيء**﴾ على الدلالة فيبقى العام على عمومه ولا يحتاج إلى التخصيص المذكور ويكون التعبير بالنطق للمشاكلة وهو خلاف الظاهر، والموصول المشعر بالعلية يأباه إباء ظاهراً، وقوله تعالى: ﴿**وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ**﴾ يحتمل أن يكون من تمام كلام الجلود ومقول القول ويحتمل أن يكون مستأنفاً من كلامه عزَّ وجلّ والأول أظهر، والمراد على كل حال تقرير ما قبله بأن القادر على الخلق أول مرة قادر على الانطاق، وصيغة المضارع إذا كان الخطاب يوم القيامة مع أن الرجع فيه متحقق لا مستقبل لما أن المراد بالرجع ليس مجرد الرد إلى الحياة بالبعث بل ما يعمه وما يترتب عليه من العذاب الخالد المرتقب عند التخاطب على تغليب المتوقع على الواقع، وجوز أن تكون لاستحضار الصورة مع ما في ذلك

من مراعاة الفواصل، وقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلا أَبْصَارُكُمْ وَلا جُلُودُكُمْ﴾ حكاية لما سيقال لهم يومئذ من جهته تعالى بطريق التوبيخ والتقريع تقريراً لجواب الجلود، واستظهر أبو حيان أنه من كلام الجوارح و ﴿أن يشهد﴾ مفعول له بتقدير مضاف أي ما كنتم تستترون في الدنيا عند مباشرتكم الفواحش مخافة أو كراهة أن تشهد عليكم جوارحكم بذلك أي ليس استتاركم للخوف مما ذكر أو لكراهته ﴿وَلَكِنْ ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لا يَعْلَمُ كَثِيراً مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ أي ولكن لأجل ظنكم أن الله تعالى لا يعلم كثيراً مما تعملون وهو ما عملتم خفية فلا يظهره سبحانه يوم القيامة وينطق الجوارح به فلذا سعيتم في الاستتار عن الخلق دون الخالق عزَّ وجلّ أو هو بتقدير حرف جر متعلق بتستترون فقيل: هو الباء والمستتر عنه الجوارح، والمعنى ما استترتم عنها بملابسة أن تشهد عليكم أي تتحمل الشهادة إذ ما ظننتم أنها تشهد عليكم بل ظننتم أن الله سبحانه لا يعلم فلذا لم يكن استتاركم بهذا السبب، وقيل: هو عن والمعنى لم يمكنكم الاستتار عن الجوارح لئلا تتحمل الشهادة عليكم حين ترتكبون ماترتكبون لكن ظننتم ما ظننتم.

وقيل: ﴿أن تشهد﴾ مفعول له والمستتر عنه الجوارح أي ما تستترون عن جوارحكم مخافة أن تشهد عليكم لكن ظننتم الخ، وقيل: إن ﴿تستترون﴾ ضمن معنى الظن فعدي تعديته أي ما كنتم تستترون ظانين شهادة الجوارح عليكم، ويؤيده قول قتادة: أي ما كنتم تظنون أن تشهد عليكم الخ، والحق أن هذا بيان لحاصل المعنى.

أخرج أحمد والبخاري ومسلم والترمذي والنسائي وجماعة عن ابن مسعود قال: كنت مستتراً بأستار الكعبة فجاء ثلاثة نفر قرشي وثقفيان أو ثقفي وقرشيان كثير لحم بطونهم قليل عفة قلوبهم فتكلموا بكلام لم أسمعه فقال أحدهم: أترون الله يسمع كلامنا هذا؟ فقال الآخر: إنا إذا رفعنا أصواتنا يسمعه وإذا لم نرفع لم يسمع فقال الآخر: إن سمع منه شيئاً سمعه كله قال: فذكرت ذلك للنبي ﷺ فأنزل الله تعالى ﴿وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ـــ إلى قوله سبحانه ـ من الخاسرين﴾ فالحكم المحكي حينئذٍ يكون خاصاً بمن كان على ذلك الاعتقاد من الكفر لكنه قليل في الكفرة. وفي الارشاد لعل الأنسب أن يراد بالظن معنى مجازي يعم معناه الحقيقي وما يجري مجراه من الأعمال المنبئة عنه كما في قوله تعالى: ﴿يحسب أن ماله أخلده﴾ [الهمزة: ٣] ليعم ما حكي من الحال جميع أصناف الكفرة فتدبر. وفي الآية تنبيه على أن المؤمن ينبغي أن لا يمر عليه حال إلا بملاحظة أن عليه رقيباً كما قال أبو نواس:

إذا ما خلوت الدهر يوماً فلا تقل ... خلوت ولكن قل علي رقيب
ولا تحسبنَّ الله يغفل ساعة ... ولا أن ما يخفى عليه يغيب

﴿وَذَلِكُمْ﴾ إشارة إلى ظنهم المذكور في ضمن قوله سبحانه: ﴿ظننتم﴾ وما فيه من معنى البعد للإيذان بغاية بعد منزلته في الشر والسوء، وهو مبتدأ وقوله تعالى: ﴿ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُمْ بِرَبِّكُمْ﴾ بدل منه، وقوله سبحانه: ﴿أَرْدَاكُمْ﴾ أي أهلككم خبره، وجوز أن يكون ﴿ظنكم﴾ خبر أو ﴿أرداكم﴾ خبراً بعد خبر. ورده أبو حيان بأن ﴿ذلكم﴾ إشارة إلى ظنهم السابق فيصير التقدير وظنكم بربكم أنه لا يعلم ظنكم بربكم فما استفيد من الخبر هو ما استفيد من المبتدأ وهو لا يجوز كقولهم: سيد الجارية مالكها وقد منعه النحاة. وأجيب بأنه لا يلزم ما ذكر لجواز جعل الإشارة إلى الأمر العظيم في القباحة فيختلف المفهوم باختلاف العنوان ويصح الحمل كما في هذا زيد، ولو سلم فالاتحاد مثله في قوله: أنا أبو النجم وشعري شعري مما يدل على الكمال في الحسن كما في هذا المثال أو في القبح كما في الجملة المذكورة، وقيل: المراد منه التعجب والتهكم، وقد يراد من الخبر غير فائدة الخبر ولازمها. واختار

بعضهم في الجواب ما أشار إليه ابن هشام في شرح ـ بانت سعاد ـ وبسط الكلام فيه من أن الفائدة كما تحصل من الخبر تحصل من صفته وقيده كالحال، وجوز في جملة ﴿أرداكم﴾ أن تكون حالاً بتقدير قد أو بدونه، والموصول في جميع الأوجه صفة ﴿ظنكم﴾ وقيل: الثلاثة أخبار فلا تغفل ﴿فَأَصْبَحْتُمْ﴾ بسبب ذلك الظن السوء الذي أهلككم ﴿مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ إذ صار ماأعطوا من الجوارح لنيل السعادة في الدنيا والآخرة لأن بها تعيشهم في الدنيا وإدراكهم ما يهتدون به إلى اليقين ومعرفة رب العالمين الموصل للسعادة الأخروية سبباً للشقاء في الدارين حيث أداهم إلى كفران نعم الرازق والكفر بالخالق والانهماك في الغفلات وارتكاب المعاصي واتباع الشهوات ﴿فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ أي محل ثواء وإقامة أبدية لهم بحيث لا براح لهم منها، وترتيب الجزاء على الشرط لأن التقدير أن يصبروا والظن أن الصبر ينفعهم لأنه مفتاح الفرج لا ينفعهم صبرهم إذا لم يصادف محله فإن النار محلهم لا محالة، وقيل: في الكلام حذف والتقدير أو لا يصبروا كقوله تعالى: ﴿اصبروا أو لا تصبروا سواء عليكم﴾ [الطور: ١٦] وقيل: المراد فإن يصبروا على ترك دينك واتباع هواهم فالنار مثوى لهم وليس بذاك، والالتفات للإيذان باقتضاء حالهم أن يعرض عنهم ويحكي سوء حالهم للغير أو للإشعار بابعادهم عن حيز الخطاب والقائهم في غيابة دركات النار ﴿وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا﴾ أي يسألوا العتبى وهي الرجوع إلى ما يحبونه جزعاً مما هم فيه ﴿فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ﴾ أي المجابين إليها.

وقال الضحاك: المراد إن يعتذروا فما هم من المعذورين: وقرأ الحسن وعمرو بن عبيد وموسى الأسواري «وإن يُسْتَعْتَبُوا» مبنياً للمفعول «فما هم من المُعْتِبِينَ» اسم فاعل أي إن طلب منهم أن يرضوا ربهم فما هم فاعلون ولا يكون ذلك لأنهم قد فارقوا الدنيا دار الأعمال كما قال ﷺ: «ليس بعد الموت مستعتب» ويحتمل أن تكون هذه القراءة بمعنى قوله عزَّ وجلّ: ﴿ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه﴾ [الأنعام: ٢٨].

﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ﴾ أي قدرنا، وفي البحر أي سببنا لهم من حيث لم يحتسبوا وقيل: سلطنا وكلنا عليهم ﴿قُرَنَاءَ﴾ جمع قرين أي أخداناً وأصحاباً من غواة الجن، وقيل: منهم ومن الإنس يستولون عليهم استيلاء القيض وهو القشر على البيض، وقيل: أصل القيض البدل ومنه المقايضة للمعاوضة فتقييض القرين للشخص إما لاستيلائه عليه أو لأخذه بدلاً عن غيره من قرنائه ﴿فَزَيَّنُوا لَهُمْ﴾ حسنوا وقرروا في أنفسهم ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ قال ابن عباس: من أمر الآخرة حيث ألقوا إليهم أنه لا جنة ولا نار ولا بعث ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ من أمر الدنيا من الضلالة والكفر واتباع الشهوات، وقال الحسن: ما بين أيديهم من أمر الدنيا وما خلفهم من أمر الآخرة، وقال الكلبي: ما بين أيديهم أعمالهم التي يشاهدونها وما خلفهم ما هم عاملوه في المستقبل ولكل وجهة، ولعل الأحسن ما حكي عن الحسن ﴿وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾ أي ثبت وتقرر عليهم كلمة العذاب وتحقق موجبها ومصداقها وهي قوله تعالى لإبليس ﴿فالحق والحق أقول لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين﴾ [ص: ٨٥].

﴿فِي أُمَمٍ﴾ حال من الضمير المجرور أي كائنين في جملة أمم، وقيل: ﴿في﴾ بمعنى مع ويحتمل المعنيين قوله:

إن تك عن أحسن الصنيعة مأ ... فوكا ففي آخرين قد أفكوا

وفي البحر لا حاجة للتضمين مع صحة معنى في، وتنكير ﴿أمم﴾ للتكثير أي في أمم كثيرة ﴿قَدْ خَلَتْ﴾ أي مضت ﴿مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ﴾ على الكفر والعصيان كدأب هؤلاء ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ﴾ تعليل لاستحقاقهم العذاب والضمير لهم وللأمم، وجوز كونه لهم بقرينة السياق ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ من رؤساء المشركين لأعقابهم أو قال بعضهم لبعض: ﴿لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ﴾ أي لا تنصتوا له.

أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: كان النبي ﷺ وهو بمكة إذا قرأ القرآن يرفع صوته فكان المشركون يطردون الناس عنه ويقولون: لا تسمعوا لهذا القرآن ﴿وَالْغَوْا فيه﴾ وأتوا باللغو عند قراءته ليتشوش على القارىء، والمراد باللغو ما لا أصل له وما لا معنى له، وكان المشركون عند قراءته عليه الصلاة والسلام يأتون بالمكاء والصفير والصياح وإنشاد الشعر والأراجيز، وقال أبو العالية أي قعوا فيه وعيبوه، وفي كتاب ابن خالويه قرأ عبد الله بن بكر السهمي وقتادة وأبو حيوة وأبو السمال والزعفراني وابن أبي إسحاق وعيسى بخلاف عنهما «وألغوا» بضم الغين مضارع لغا بفتحها وهما لغتان يقال لغى يلغي كرضى يرضي ولغا يلغو كعدا يعدو إذا هذى، وقال صاحب اللوامح: يجوز أن يكون الفتح من لغى بالشيء يلغي به إذا رمى به فيكون ﴿فيه﴾ بمعنى به أي ارموا به وانبذوه ﴿لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ أي تغلبونه على قراءته أو تطمون أمره وتميتون ذكره ﴿فَلَنُذيقَنَّ الَّذينَ كَفَرُوا﴾ أي فوالله لنذيقن هؤلاء القائلين، والإظهار في مقام الإضمار للإشعار بالعلية أو جميع الكفار وهم يدخلون فيه دخولاً أولياً.

﴿عذاباً شَديداً﴾ لا يقادر قدره ﴿وَلَنَجزِيَنَّهم أَسْوَأَ الَّذي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي جزاء سيئات أعمالهم التي هي في أنفسها أسوأ ـ فأفعل ـ للزيادة المطلقة، وقيل: إنه سبحانه لا يجازيهم بمحاسن أعمالهم كإغاثة الملهوفين وصلة الأرحام وقِرى الأضياف لأنها محبطة بالكفر، والعذاب إما في الدارين أو في احداهما، وعن ابن عباس عذاباً شديداً يوم بدر وأسوأ الذي كانوا يعملون في الآخرة.

﴿ذَلكَ﴾ إشارة إلى ما ذكر من الجزاء وهو مبتدأ وقوله تعالى: ﴿جَزاءُ أَعْدَاء الله﴾ خبره أي ما ذكر من الجزاء جزاء معد لأعدائه تعالى، وقوله سبحانه: ﴿النَّارُ﴾ عطف بيان لجزاء أو بدل أو خبر لمبتدأ محذوف.

وجوز أن يكون ذلك خبر مبتدأ محذوف أي الأمر ذلك و ﴿جزاء﴾ مبتدأ و ﴿النار﴾ خبره، والإشارة حينئذٍ إلى مضمون الجملة السابقة، وقوله تعالى: ﴿لَهُم فيهَا دَارُ الـخُلْد﴾ جملة مستقلة مقررة لما قبلها، وجوز أن يكون ﴿النار﴾ مبتدأ وهذه الجملة خبره أي هي بعينها دار إقامتهم على أن في للتجريد كما قيل: في قوله تعالى: ﴿لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة﴾ [الأحزاب: ٢١] وقول الشاعر:

وفي الله إن لم ينصفوا حكم عدل

وهو أن ينتزع من أمر ذي صفة آخر مثله مبالغة فيها، وجوز أن يقال: المقصود ذكر الصفة والدار إنما ذكرت توطئة فكأنه قيل: لهم فيها الخلود، وقيل: الكلام على ظاهره والظرفية حقيقية، والمراد أن لهم في النار المشتملة على الدركات دار مخصوصة هم فيها خالدون والأول أبلغ.

﴿جَزَاءً بمَا كَانُوا بآيَاتنَا يَجْحَدُونَ﴾ منصوب بفعل مقدر أي يجزون جزاء أو بالمصدر السابق فإن المصدر ينتصب بمثله كما في قوله تعالى: ﴿فإن جهنم جزاؤكم جزاء موفوراً﴾ [الإسراء: ٦٣] والباء الأولى متعلقة بجزاء والثانية بيجحدون قدمت عليه لقصد الحصر الإضافي مع ما فيه من مراعاة الفواصل أي بسبب ما كانوا يجحدون بآياتنا الحقة دون الأمور التي ينبغي جحودها، وجعل بعضهم الجحود مجازاً عن اللغو المسبب عنه أي جزاء بما كانوا بآياتنا يلغون ﴿وَقَالَ الَّذينَ كَفَرُوا﴾ وهم متقلبون فيما ذكر من العذاب.

﴿رَبَّنَا أَرنَا اللَّذَيْن أَضَلاَّنَا منَ الـجِّن وَالإنس﴾ يعنون فريقي شياطين النوعين المقيضين لهم الحاملين لهم على الكفر والمعاصي بالتسويل والتزيين، وعن علي كرم الله وجهه وقتادة أنهما إبليس وقابيل فإنهما سببا الكفر والقتل بغير حق. وتعقب بأنه لا يصح عن علي كرم الله تعالى وجهه فإن قابيل مؤمن عاص، والظاهر أن الكفار إنما طلبوا إراءة

المضلين بالكفر المؤدي إلى الخلود وكونهم رئيس الكفرة ورئيس أهل الكبائر خلاف الظاهر، وقرأ ابن كثير وابن عامر ويعقوب وأبو بكر «أرنا» بالتخفيف كفخذ بالسكون في فخذ، وفي الكشاف «أرنا» بالكسر للاستبصار وبالسكون للاستعطاء ونقله عن الخليل، فمعنى القراءة عليه أعطنا اللذين أضلانا ﴿نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا﴾ ندوسهما بها انتقاماً منهما، وقيل: نجعلهما في الدرك الأسفل من النار ليشتد عذابهما فالمراد نجعلهما في الجهة التي تحت أقدامنا، وقرىء في السبعة «اللذين» بتشديد النون وهي حجة على البصريين الذين لا يجوزون التشديد فيها في حال كونها بالياء وكذا في اللتين وهذين وهاتين ﴿لِيَكُونَا مِنَ الأَسْفَلِينَ﴾ ذلاً ومهانة أو مكاناً.

﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾ شروع في بيان حسن أحوال المؤمنين في الدنيا والآخرة بعد بيان سوء حال الكفرة فيهما أي قالوه اعترافاً بربوبيته تعالى وإقراراً بوحدانيته كما يشعر به الحصر الذي يفيده تعريف الطرفين كما في صديقي زيد ﴿ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ ثم ثبتوا على الإقرار ولم يرجعوا إلى الشرك، فقد روي عن الصديق رضي الله تعالى عنه أنه تلا الآية وهي قد نزلت على ما روي عن ابن عباس ثم قال: ما تقولون فيها؟ قالوا: لم يذنبوا قال: قد حملتم الأمر على أشده قالوا: فما تقول؟ قال: لم يرجعوا إلى عبادة الأوثان. وعن عمر رضي الله تعالى عنه استقاموا الله تعالى بطاعته لم يروغوا روغان الثعالب، وعن عثمان رضي الله تعالى عنه اخلصوا العمل، وعن الأمير علي كرم الله وجهه أدوا الفرائض، وقال الثوري: عملوا على وفاق ما قالوا، وقال الفضيل: زهدوا في الفانية ورغبوا في الباقية، وقال الربيع: أعرضوا عما سوى الله تعالى، وفي الكشاف أي ثم ثبتوا على الإقرار ومقتضياته وأراد أن من قال: ربي الله تعالى فقد اعترف أنه عزَّ وجلّ مالكه ومدبر أمره ومربيه وأنه عبد مربوب بين يدي مولاه فالثبات على مقتضاه أن لا تزل قدمه عن طريق العبودية قلباً وقالباً ولا يتخطاه وفيه يندرج كل العبادات والاعتقادات ولهذا قال ﷺ لمن طلب أمراً يعتصم به: «قل ربي الله تعالى ثم استقم» وذكر أن ما ورد عن الخلفاء الراشدين رضي الله تعالى عنهم جزئيات لهذا المعنى ذكر كل منها على سبيل التمثيل ولا يخفى أن كلام الصديق رضي الله تعالى عنه يبعد كون ما ذكره على سبيل التمثيل، ولعل ﴿ثم﴾ على هذا للتراخي الرتبي فإن الاستقامة عليه أعظم وأصعب من الإقرار وكذا يقال على أغلب التفاسير السابقة؛ وجوز أن تكون للتراخي الزماني لأنها تحصل بعد مدة من وقت الإقرار، وجعلت على تفسير الاستقامة بأداء الفرائض أو بالعمل للتراخي الرتبي أيضاً بناء على أن الاقرار مبدأ الاستقامة على ذلك ومنشؤها، وهذا على عكس التراخي الرتبي الذي سمعته أولاً لأن المعطوف عليه فيه أعلى مرتبة من المعطوف إذ هو العمدة والأساس، وعلى ما تقدم المعطوف أعلى مرتبة من المعطوف عليه كما لا يخفى ﴿تَتَنَزَّلَ عَلَيْهِم﴾من الله ربهم عزَّ وجلّ ﴿الملائكة﴾ قال مجاهد والسدي: عند الموت، وقال مقاتل: عند البعث، وعن زيد بن أسلم عند الموت وفي القبر وعند البعث، وقيل: تتنزل عليهم يمدونهم فيما يعن ويطرأ لهم من الأمور الدينية والدنيوية بما يشرح صدورهم ويدفع عنهم الخوف والحزن بطريق الإلهام كما أن الكفرة يغويهم ما قيض لهم من قرناء السوء بتزيين القبائح، قيل: وهذا هو الأظهر لما فيه من الإطلاق والعموم الشامل لتنزلهم في المواطن الثلاث السابقة وغيرها، وقد قمنا لك أن جميعاً من الناس يقولون: بتنزل الملائكة على المتقين في كثير من الأحايين وأنهم يأخذون منهم ما يأخذون فتذكر.

﴿أَلاَّ تَخَافُوا﴾ ما تقدمون عليه فإن الخوف غم يلحق لتوقع المكروه ﴿وَلا تَحْزَنُوا﴾ على ما خلفتم فإنه غم يلحق لوقوعه من فوات نافع أو حصول ضار وروي هذا عن مجاهد، وقال عطاء بن أبي رباح: لا تخافوا رد حسناتكم فإنها مقبولة ولا تحزنوا على ذنوبكم فإنها مغفورة، وقيل: المراد نهيهم عن الغموم على الإطلاق.

والمعنى أن الله تعالى كتب لكم الأمن من كل غم فلن تذوقوه أبداً و ﴿أن﴾ إما مصدرية و ﴿لا﴾ ناهية أو

نافية وسقوط النون للنصب والخبر في موضع الإنشاء مبالغة، وإما مخففة من الثقيلة و ﴿تتنزل﴾ مضمن معنى العلم ولا ناهية وأن في الوجهين مقدرة بالباء أي بأن لا تخافوا أو بأنه لا تخافوا والهاء ضمير الشأن. وإما مفسرة و ﴿تتنزل﴾ مضمن معنى القول ولا ناهية أيضاً.

وفي قراءة عبد الله «لا تخافوا» بدون ﴿أن﴾ أي يقولون لا تخافوا على أنه حال من الملائكة أو استئناف.

﴿وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ أي التي كنتم توعدونها في الدنيا على ألسنة الرسل عليهم السلام، هذا من بشاراتهم في أحد المواطن الثلاثة، وقوله تعالى: ﴿نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ إلى آخره من بشاراتهم في الدنيا أي أعوانكم في أموركم نلهمكم الحق ونرشدكم إلى ما فيه خيركم وصلاحكم، ولعل ذلك عبارة عما يخطر ببال المؤمنين المستمرين على الطاعات من أن ذلك بتوفيق الله تعالى وتأييده لهم بواسطة الملائكة عليهم السلام، ويجوز على قول بعض الناس أن تقول الملائكة لبعض المتقين شفاهاً في غير تلك المواطن: ﴿نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا﴾ ﴿وَفِي الآخِرَةِ﴾ نمدكم بالشفاعة ونتلقاكم بالكرامة حين يقع بين الكفرة وقرنائهم ما يقع من الدعاوى والخصام.

وذهب بعض المفسرين على أن هذا من بشاراتهم في أحد المواطن الثلاثة أيضاً على معنى كنا نحن أولياؤكم في الدنيا ونحن أولياؤكم في الآخرة، وقيل: هذا من كلام الله تعالى دون الملائكة أي نحن أولياؤكم بالهداية والكفاية في الدنيا والآخرة ﴿وَلَكُمْ فِيهَا﴾ أي في الآخرة ﴿مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ﴾ من فنون الملاذ ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾ ما تتمنون وهو افتعال من الدعاء بمعنى الطلب أي تدعون لأنفسكم وهو عند بعض أعم من الأول لأنه قد يقع الطلب في أمور معنوية وفضائل عقلية روحانية، وقيل: بينهما عموم وخصوص من وجه إذ قد يشتهي المرء ما لا يطلبه كالمريض يشتهي ما يضره ولا يريده، وكون التمني أعم من الإرادة غير مسلم، نعم قيل: إذا أريد بالمتمني ما يصح تمنيه لا ما يتمنى بالفعل فذاك.

وقال ابن عيسى: المراد ما تدعون أنه لكم فهو لكم بحكم ربكم ﴿ولكم﴾ في الموضعين خبر و ﴿ما﴾ مبتدأ و ﴿فيها﴾ حال من ضميره في الخبر وعدم الاكتفاء بعطف ﴿ما تدعون﴾ على ﴿ما تشتهي﴾ للإيذان باستقلال كل منهما ﴿نُزُلاً﴾ قال الحسن: منّاً وقال بعضهم: ثواباً، وتنوينه للتعظيم وكذا وصفه بقوله تعالى: ﴿مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ﴾ والمشهور أن النزل ما يهيأ للنزيل أي الضيف ليأكله حين نزوله وتحسن إرادته هنا على التشبيه لما في ذلك من الإشارة إلى عظم ما بعد من الكرامة، وانتصابه على الحال من الضمير في الظرف الراجع إلى ﴿ما تدعون﴾ لا من الضمير المحذوف الراجع إلى ﴿ما﴾ لفساد المعنى لأن التمني والادعاء ليس في حال كونه نزلاً بل ثبت لهم ذلك المدعي واستقر حال كونه نزلاً، وجعله حالاً من المبدأ نفسه لا يخفى حاله على ذي تمييز.

وقال ابن عطية: ﴿نزلاً﴾ نصب على المصدر، والمحفوظ أن مصدر نزل نزول لا نزل، وجعله بضعهم مصدراً لأنزل، وقيل: هو جمع نازل كشارف وشرف فينتصب على الحال أيضاً أي نازلين، وذو الحال على ما قال أبو حيان: الضمير المرفوع في ﴿تدعون﴾ ولا يحسن تعلق ﴿من غفور﴾ به على هذا القول فقيل: هو في موضع الحال من الضمير في الظرف فلا تغفل.

وقرأ أبو حيوة «نُزْلاً» بإسكان الزاي ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللهِ﴾ أي إلى توحيده تعالى وطاعته والظاهر العموم في كل داع إليه تعالى، وإلى ذلك ذهب الحسن ومقاتل وجماعة، وقيل: بالخصوص فقال ابن عباس: هو رسول الله ﷺ، وعنه أيضاً هم أصحاب محمد ﷺ وقالت عائشة وقيس بن أبي حازم وعكرمة ومجاهد: نزلت

في المؤذنين، وينبغي أن يتأول قولهم على أنهم داخلون في الآية وإلا فالسورة بكمالها مكية بلا خلاف ولم يكن الأذان بمكة إنما شرع بالمدينة، والتزام القول بتأخر حكمها عن نزولها كما ترى، والظاهر أن المراد الدعاء باللسان، وقيل: به وباليد كأن يدعو إلى الإسلام ويجاهد، وقال زيد بن علي: دعا إلى الله بالسيف، ولعل هذا والله تعالى أعلم هو الذي حمله على الخروج بالسيف على بعض الظلمة من ملوك بني أمية، وكان زيد هذا رضي الله تعالى عنه عالماً بكتاب الله تعالى وله تفسير ألقاه على بعض النقلة عنه وهو في حبس هشام بن عبد الملك وفيه من العلم والاستشهاد بكلام العرب حظ وافر.

ويقال: إنه كان إذا تناظر هو وأخوه محمد الباقر اجتمع الناس بالمحابر يكتبون ما يصدر عنهما من العلم رحمهما الله تعالى ورضي عنهما، والاستفهام في معنى النفي أي لا أحد أحسن قولاً ممن دعا إلى الله ﴿وَعَمِلَ صَالِحاً﴾ أي عملاً صالحاً أي عمل صالح كان.

وقال أبو أمامة: صلى بين الأذان والإقامة، ولا يخفى ما فيه، وقال عكرمة: صلى وصام، وقال الكلبي: أدى العرائض والحق العموم ﴿وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ أي تلفظ بذلك ابتهاجاً بأنه منهم وتفاخراً به مع قصد الثواب إذ هو لا ينافيه أو جعل واتخذ الإسلام ديناً له من قولهم: هذا قول فلان أي مذهبه ومعتقده، وبعضهم يرجع الوجهين إلى وجه واحد، والمعنى على القول بكون الآية خاصة بالنبي ﷺ اختار النسبة إلى الإسلام دون عز الدنيا وشرفها وهو قولهم رد لا تسمعوا لهذا القرآن وتعجب منه، وقرأ ابن أبي عبلة وإبراهيم بن نوح عن قتيبة الميال «وقال إنِّي» بنون مشددة دون نون الوقاية.

واستدل أبو بكر بن العربي بالآية على عدم اشتراط الاستثناء في قول القائل: أنا مسلم أو أنا مؤمن. وفي الآية إشارة إلى أنه ينبغي للداعي إلى الله تعالى أن يكون عاملاً عملاً صالحاً ليكون الناس إلى قبول دعائه أقرب وإليه أسكن.

﴿وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ﴾ جملة مستأنفة سيقت لبيان محاسن الأعمال الجارية بين العباد إثر بيان محاسن الأعمال الجارية بين العبد والرب عزَّ وجلّ ترغيباً لرسول الله ﷺ في الصبر على أذية المشركين ومقابلة اساءتهم بالإحسان، والحكم عام أي لا تستوي الخصلة الحسنة والسيئة في الآثار والأحكام، و ﴿لا﴾ الثانية مزيدة لتأكيد النفي مثلها في قوله تعالى: ﴿ولا الظل ولا الحرور﴾ [فاطر: ٢١] لأن استوى لا يكتفي بمفرد وقوله تعالى: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ استئناف مبين لحسن عاقبة الحسنة أي ادفع السيئة حيث اعترضتك من بعض أعاديك بالتي هي أحسن منها وهي الحسنة على أن المراد بالأحسن الزائد مطلقاً أو بأحسن ما يمكن دفعها به من الحسنات كالإحسان إلى من أساء فإنه أحسن من مجرد العفو فأحسن على ظاهره والمفضل عليه عام ولذا حذف كما في الله تعالى أكبر، وإخراجه مخرج الجواب عن سؤال من قال: كيف أصنع؟ للمبالغة والإشارة إلى أنه مهم ينبغي الاعتناء به والسؤال عنه، وللمبالغة أيضاً وضع ﴿أحسن﴾ موضع الحسنة لأن من دفع بالأحسن هان عليه الدفع بما دونه، ومما ذكرنا يعلم أن ليس المراد بالحسنة والسيئة أمرين معينين. وعن علي كرم الله تعالى وجهه الحسنة حب الرسول وآله عليهم الصلاة والسلام والسيئة بغضهم، وعن ابن عباس الحسنة لا إله إلا الله والسيئة الشرك، وقال الكلبي: الدعوتان إليهما، وقال الضحاك: الحلم والفحش، وقيل: الصبر، وقيل: المدارة والغلظة، وقيل غير ذلك، ولا يخفى أن بعض المروي يكاد لا تصح إرادته هنا فلعله لم يثبت عمن روي عنه، وجوز أن يكون المراد بيان تفاوت الحسنات والسيئات في أنفسهما بمعنى أن الحسنات تتفاوت إلى حسن وأحسن والسيئات كذلك فتعريف الحسنة والسيئة للجنس و ﴿لا﴾ الثانية ليست مزيدة وأفعل على ظاهره، والكلام في ﴿ادفع﴾ الخ على معنى الفاء أي إذا كان كل من الجنسين

متفاوت الإفراد في نفسه فادفع بأحسن الحسنتين السيء والأسوأ، وترك الفاء للاستئناف الذي ذكرنا وهو أقوى الوصلين ولعل الأول أقرب ﴿فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم﴾ بيان لنتيجة الدفع المأمور به أي فإذا فعلت ذلك صار عدوك المشاق مثل الولي الشفيق. قال ابن عطية: دخلت ﴿كأن﴾ المفيدة للتشبيه لأن العدو لا يعود ولياً حميماً بالدفع بالتي هي أحسن وإنما يحسن ظاهره فيشبه بذلك الولي الحميم؛ ولعل ذلك من باب الاكتفاء بأقل اللازم وهذا بالنظر إلى الغالب وإلا فقد تزول العداوة بالكلية بذلك كما قيل:

إن العداوة تستحيل مودة ... بتدارك الهفوات بالحسنات

و ﴿الذي بينك وبينه عداوة﴾ أبلغ من عدوك ولذا اختير عليه مع اختصاره، والآية قيل: نزلت في أبي سفيان ابن حرب كان عدواً مبيناً لرسول الله ﷺ فصار عند أهل السنة ولياً مصافياً وكأن ما عنده انتقل إلى ولد ولده يزيد عليه من الله عزَّ وجلّ ما يستحق ﴿وَمَا يُلَقَاهَا﴾ أي ما يلقى ويؤتى هذه الفعلة والخصلة الشريفة التي هي الدفع بالتي هي أحسن فالضمير راجع لما يفهم من السياق، وجوز رجوعه للتي هي أحسن، وحكى مكي أن الضمير لشهادة أن لا إله إلا الله فكأنه أرجع للتي هي أحسن وفسرت بالشهادة المذكورة ومع هذا هو كما ترى، وقيل: الضمير للجنة وليس بشيء.

وقرأ طلحة وابن كثير في رواية «وما يلاقاها» من الملاقاة ﴿إلاَّ الَّذينَ صَبَرُوا﴾ أي الذين فيهم طبيعة الصبر وشأنهم ذلك ﴿وَمَا يُلَقَّاهَا إلاَّ ذُو حَظّ عَظيم﴾ ذو نصيب عظيم من خصال الخير وكمال النفس كما روي عن ابن عباس، وقال قتادة: ذو حظ عظيم من الثواب، وقيل: الحظ العظيم الجنة، وعليهما فهو وعد وعلى الأول هو مدح، وكرر ﴿وما يلقاها﴾ تأكيداً لمدح تلك الفعلة الجميلة الجليلة ولأوحد أهل عصره الذي بخل الزمان أن يأتي بمثله صالح أفندي كاتب ديوان الإنشاء في الحدباء في هذه الآية عبارة مختصرة التزم الدقة فيها رحمة الله تعالى عليه وهي قوله تعالى: ﴿وما يلقاها إلاّ الذين صبروا﴾ الآية يمكن أن يؤخذ من الأول ما هو من أول الأول لا الثاني للاتفاق فيتحقق الأشرف بعد إعطاء المقام حقه فيتحقق الحابس أنه مجدود فيقف عند الحد المحدود انتهت.

وأراد والله تعالى أعلم أنه يمكن أن يؤخذ من الأول أي قوله تعالى: ﴿وما يلقاها إلاّ الذين صبروا﴾ ومن الثاني وهو قوله سبحانه: ﴿وما يلقاها إلاّ ذو حظ عظيم﴾ ما أي شكل هو من أول ضروب الشكل الأول الأربعة وهو قياس منه مركب من موجبتين كليتين ينتج موجبة كلية بأن يقال: كل صابر هو الذي يلقاها وكل من يلقاها فهو ذو حظ عظيم ينتج كل صابر هو ذو حظ عظيم، ولا يمكن أن يؤخذ قياس من الشكل الثاني للاتفاق في الكيف وشرط الشكل الثاني اختلاف المقدمتين فيه كما هو مقرر في محله فيتحقق بعد الأخذ وتركيب المقدمتين الأمر الأشرف أي النتيجة التي هي موجبة كلية وهي أشرف المحصورات الأربع لاشتمالها على الايجاب الأشرف من السلب والكلية الأشرف من الجزئية بعد إعطاء المقام حقه من جعل الموصول للاستغراق كما أشير إليه ليفيد الكلية فعند ذلك يتحقق ويعلم الحابس أي الصابر أنه مجدود أي ذو جد وحظ فيقف عند الحد المحدود ولا يتجاوز من الصبر إلى غيره فافهم.

وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ۩ ﴿٣٨﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ ٱلَّذِىٓ

أَحْيَاهَا لَمُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِي
ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِيٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا
جَآءَهُمْ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ مَّا
يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا
لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ
فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ
فَٱخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿٤٥﴾ مَّنْ
عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾

﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ﴾ النزع النخس وهو المس بطرف قضيب أو أصبع بعنف مؤلم استعير هنا للوسوسة الباعثة على الشر وجعل نازغاً للمبالغة على طريقة جد جده ـ فمن ـ على هذا ابتدائية، ويجوز أن يراد به نازغ على أن المصدر بمعنى اسم الفاعل وصفاً للشيطان ـ فمن ـ بيانية والجار والمجرور في موضع الحال أو هي ابتدائية أيضاً لكن على سبيل التجريد، وجوز أن يكون المراد بالنازغ وسوسة الشيطان و «إن» شرطية و «ما» مزيدة أي وإن ينزغنك ويصرفنك الشيطان عما وصيت به من الدفع بالتي هي أحسن **﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾** من شره ولا تطعه **﴿إِنَّهُ﴾** عزّ وجلّ **﴿هُوَ السَّمِيعُ﴾** فيسمع سبحانه استعاذتك **﴿الْعَلِيمُ﴾** فيعلم جل شأنه نيتك وصلاحك، وقيل: السميع لقول من أذاك العليم بفعله فينتقم منه مغنياً عن انتقامك، وقيل: العليم بنزغ الشيطان، وفي جعل ترك الدفع من آثار نزغات الشيطان مزيد تحذير وتنفير عنه، ولعل الخطاب من باب إياكِ أعني واسمعي يا جارة.

وجوز أن يراد بالشيطان ما يعم شيطان الإنس فإن منهم من يصرف عن الدفع بالتي هي أحسن ويقول: إنه عدوك الذي فعل بك كيت وكيت فانتهز الفرصة فيه وخذ ثأرك منه لتعظم في عينه وأعين الناس ولا يظن فيك العجز وقلة الهمة وعدم المبالاة إلى غير ذلك من الكلمات التي ربما لا تخطر أبداً ببال شيطان الجن نعوذ بالله تعالى السميع العليم من كل شيطان، وفسر عبد الرحمن بن زيد النزغ بالغضب واستدل بالآية على استحباب الاستعاذة عنده.

وقد روى الحاكم عن سليمان بن صرد قال: استبَّ رجلان عند النبي ﷺ فاشتد غضب أحدهما فقال النبي عليه الصلاة والسلام: «إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه الغضب. أعوذ بالله من الشيطان الرجيم فقال الرجل: أمجنوناً تراني؟ فتلا رسول الله ﷺ وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله».

ولعل الغضب من آثار الوسوسة **﴿ومن آياته﴾** الدالة على شؤونه الجليلة جل شأنه: **﴿اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ﴾** في حدوثهما وتعاقبهما وإيلاج كل منهما في الآخر **﴿وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾** في استنارتهما واختلافهما في قوة النور والعظم والآثار والحركات مثلاً، وقدم ذكر الليل قيل: تنبيهاً على تقدمه مع كون الظلمة عدماً، وناسب ذكر الشمس بعد النهار لأنها آيته وسبب تنويره ولأنها أصل لنور القمر بناء على ما قالوا من أنه مستفاد من ضياء الشمس، وأما ضياؤها فالمشهور أنه غير طارىء عليها من جرم آخر، وقيل: هو من العرش، والفلاسفة اليوم يظنون أنه من جرم آخر وادعوا أنهم يرون في طرف من جرم الشمس ظلمة قليلة **﴿لاَ تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلاَ لِلْقَمَرِ﴾** لأنها من جملة مخلوقاته سبحانه

وتعالى المسخّرة على وفق إرادته تعالى مثلكم ﴿وَاسْجُدُوا اللهَ الَّذِي خَلَقَهُنَّ﴾ الضمير قيل للأربعة المذكورة والمقصود تعليق الفعل بالشمس والقمر لكن نظم معهما الليل والنهار إشعاراً بأنهما من عداد ما لا يعلم ولا يختار ضرورة أن الليل والنهار كذلك ولو ثني الضمير لم يكن فيه إشعار بذلك.

وحكم جماعة ما لا يعقل ـ على ما قال الزمخشري ـ حكم الأنثى فيقال: الأقلام بريتها وبريتهن فلا يتوهم أن الضمير لما كان لليل والنهار والشمس والقمر كان المناسب تغليب الذكور، والجواب بأنه لما كن من الآيات عدت كالإناث تكلف عنه غنى بالقاعدة المذكورة. نعم قال أبو حيان: ينبغي أن يفرق بين جمع القلة من ذلك وجمع الكثرة فإن الأفصح والأفصح في الأول أن يكون بضمير الواحد تقول الأجذاع انكسرت على الأفصح في الثاني أن يكون بضمير الإناث تقول الجذوع انكسرن وما في الآية ليس بجمع قلة بلفظ واحد لكنه منزل منزلة المعبر عنه به، وقيل: الضمير للشمس والقمر والاثنان جمع وجمع ما لا يعقل يؤنث، ومن حيث يقال شموس وأقمار لاختلافهما بالأيام والليالي ساغ أن يعود الضمير إليهما جمعاً، وقيل: الضمير للآيات المتقدم ذكرها في قوله تعالى: ﴿ومن آياته﴾ ﴿إِنْ كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ فإن السجود أقصى مراتب العبادة فلا بد من تخصيصه به عزَّ وجلّ، وكان علي كرم الله تعالى وجهه. وابن مسعود يسجدان عند ﴿تعبدون﴾ ونسب القول بأنه موضع السجدة للشافعي، وسجد عند ﴿لا يسأمون﴾ ابن عباس وابن عمر وأبو وائل وبكر بن عبد الله، وكذلك روي عن ابن وهب ومسروق والسلمي والنخعي وأبي صالح وابن وثاب والحسن وابن سيرين وأبي حنيفة رضي الله تعالى عنهم، ونقله في التحرير عن الشافعي رضي الله تعالى عنه وفي الكشف أصح الوجهين عند أصحابنا ـ يعني الشافعية ـ أن موضع السجدة ﴿لا يسأمون﴾ كما هو مذهب الإمام أبي حنيفة، ووجهه أنها تمام المعنى على أسلوب اسجد فإن الاستكبار عند مذموم، وعلله بعضهم بالاحتياط لأنها إن كانت عند ﴿تعبدون﴾ جاز التأخير لقصر الفصل، وإن كانت عند ﴿يسأمون﴾ لم يجز تعجيلها ﴿فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا﴾ تعاظموا عن اجتناب ما نهوا عنه من السجود لتلك المخلوقات وامتثال ما أمروا به من السجود لخالقهن فلا يعبأ بهم أو فلا يخل ذلك بعظمة ربك ﴿فَالَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾ أي في حضرة قدسه عزَّ وجلّ من الملائكة عليهم السلام الذين هم خير منهم ﴿يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ أي دائماً وإن لم يكن عندهم ليل ونهار ﴿وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ﴾ لا يملون ذلك، وجواب الشرط في الحقيقة ما أشرنا إليه أو نحوه وما ذكر قائم مقامه، ويجوز أن يكون الكلام على معنى الإخبار كما قيل في نحو إن أكرمتني اليوم فقد أكرمتك أمس أنه على معنى فأخبرك إني قد أكرمتك أمس.

وقرىء «لا يِسْأَمُون» بكسر الياء، والظاهر أن الآية في أناس من الكفرة كانوا يسجدون للشمس والقمر كالصابئين في عبادتهم الكواكب ويزعمون أنهم يقصدون بالسجود لهما السجود لله تعالى فنهوا عن هذه الواسطة وأمروا أن يقصدوا بسجودهم وجه الله تعالى خالصاً. واستدل الشيخ أبو إسحاق في المهذب بالآية على صلاتي الكسوف والخسوف قال: لأنه لا صلاة تتعلق بالشمس والقمر غيرهما وأخذ من ذلك تفضيلهما على صلاة الاستسقاء لكونهما في القرآن بخلافها ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى﴾ يا من تصح منه الرؤية: ﴿الْأَرْضَ خَاشِعَةً﴾ يابسة متطامنة مستعار من الخشوع بمعنى التذلل ﴿فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ﴾ أي المطر ﴿اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ أي تحركت بالنبات وانتفخت لأن النبت إذا دنا أن يظهر ارتفعت له الأرض وانتفخت ثم تصدعت عن النبات، ويجوز أن يكون في الكلام استعارة تمثيلية شبه حال جدوبة الأرض وخلوها عن النبات ثم إحياء الله تعالى إياها بالمطر وانقلابها من الجدوبة إلى الخصب وإنبات كل زوج بهيج بحال شخص كئيب كاسف البال رث الهيئة لا يؤبه به ثم إذا أصابه شيء من متاع الدنيا وزينتها تكلف بأنواع الزينة والزخارف فيختال في مشيه زهواً فيهتز بالأعطاف خيلاء وكبراً فحذف المشبه واستعمل الخشوع

والاهتزاز دلالة على مكانه ورجح اعتبار التمثيل. وقرىء «رَبَأَتْ» أي زادت، وقال الزجاج: معنى ربت عظمت وربأت بالهمز ارتفعت ومنه الربيئة وهي طليعة على الموضع المرتفع ﴿**إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا**﴾ بما ذكر بعد موتها ﴿**لَمُحْيِي الْمَوْتَى**﴾ بالبعث ﴿**إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ**﴾ من الأشياء التي من جملتها الأحياء ﴿**قَدِيرٌ**﴾ مبالغة في القدرة.

﴿**إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا**﴾ ينحرفون في تأويل آيات القرآن عن جهة الصحة والاستقامة فيحملونها على المحامل الباطلة، وهو مراد ابن عباس بقوله: يضعون الكلام في غير موضعه، وأصله من ألحد إذا مال عن الاستقامة فحفر في شق ويقال لحد. وقرىء «يلحدون» و «يلحدون» باللغتين، وقال قتادة: هنا الإلحاد التكذيب، وقال مجاهد: المكاء والصفير واللغو فالمعنى يميلون عما ينبغي ويليق في شأن آياتنا فيكذبون القرآن أو فيلغون ويصفرون عند قراءته، وجوز أن يراد بالآيات ما يشمل جميع الكتب المنزلة وبالإلحاد ما يشمل تغيير اللفظ وتبديله لكن ذلك بالنسبة إلى غير القرآن لأنه لم يقع فيه كما وقع في غيره من الكتب على ما هو الشائع. وعن أبي مالك تفسير الآيات بالأدلة فالإلحاد في شأنها الطعن في دلالتها والاعراض عنها، وهذا أوفق بقوله تعالى: ﴿**ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر**﴾ ﴿**ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة**﴾ الخ، وما تقدم أوفق بقوله سبحانه: ﴿وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه﴾ [فصلت: ٢٦] وبما بعد، والآية على تفسير مجاهد أوفق وأوفق.

والمراد بقوله تعالى: ﴿**لا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا**﴾ مجازاتهم على الإلحاد فالآية وعيد لهم وتهديد، وقوله تعالى: ﴿**أَفَمَن يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَّنْ يَأْتِي آمِناً يَوْمَ الْقِيَامَةِ**﴾ تنبيه على كيفية الجزاء، وكان الظاهر أن يقابل الإلقاء في النار بدخول الجنة لكنه عدل عنه إلى ما في النظم الجليل اعتناء بشأن المؤمنين لأن الأمن من العذاب أعم وأهم ولذا عبر في الأول بالإلقاء الدال على القسر والقهر وفيه بالإتيان الدال على أنه بالاختيار والرضا مع الأمن ودخول الجنة لا ينفي أن يبدل حالهم من بعد خوفهم أمناً، وجوز أن تكون الآية من الاحتباك بتقدير من يأتي خائفاً ويلقى في النار ومن يأتي آمناً ويدخل الجنة فحذف من الأول مقابل الثاني ومن الثاني مقابل الأول وفيه بعد. والآية كما قال ابن بحر عامة في كل كافر ومؤمن.

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس ﴿**أفمن يلقى في النار**﴾ أبو جهل ﴿**أم من يأتي آمناً**﴾ أبو بكر الصديق رضي الله تعالى عنه، وأخرج عبد الرزاق وغيره عن بشير بن تميم من يلقى في النار أبو جهل ومن يأتي آمناً عمار، والآية نزلت فيهما، وقال مقاتل: نزلت في أبي جهل وعثمان بن عفان، وقيل: فيه وفي عمر، وقيل: فيه وفي حمزة، وقال الكلبي: فيه وفي الرسول ﷺ ﴿**اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ**﴾ تهديد شديد للكفرة الملحدين الذين يلقون في النار وليس المقصود حقيقة الأمر ﴿**إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ**﴾ فيجازيكم بحسب أعمالكم.

﴿**إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ**﴾ وهو القرآن ﴿**لَمَّا جَاءَهُمْ**﴾ من غير أن يمضي عليهم زمان يتأملون فيه ويتكفرون ﴿**وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ**﴾ لا يوجد نظيره أو منيع لا تتأتى معارضته، وأصل العز حالة مانعة للإنسان عن أن يغلب، وإطلاقه على عدم النظير مجاز مشهور وكذا كونه منيعاً، وقيل: غالب للكتب لنسخه إياها. وعن ابن عباس أي كريم على الله تعالى؛ والجملة حالية مفيدة لغاية شناعة الكفر به، وقوله تعالى: ﴿**لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ**﴾ صفة أخرى لكتاب، وما بين يديه وما خلفه كناية عن جميع الجهات كالصباح والمساء كناية عن الزمان كله أي لا يتطرق إليه الباطل من جميع جهاته، وفيه تمثيل لتشبيهه بشخص حمي من جميع جهاته فلا يمكن أعداءه الوصول إليه لأنه في حصن حصين من حماية الحق المبين، وجوز أن يكون المعنى لا يأتيه الباطل من جهة ما أخبر به من الأخبار الماضية والأمور الآتية.

وقيل: الباطل بمعنى المبطل كوارس بمعنى مورس أو هو مصدر كالعافية بمعنى مبطل أيضاً؛ وقوله تعالى: ﴿**تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ**﴾ أي محمود على ما أسدى من النعم التي منها تنزيل الكتاب، وحمده سبحانه: بلسان الحال متحقق من كل منعم عليه وبلسان القال متحقق ممن وفق لذلك خبر مبتدأ محذوف أو صفة أخرى لكتاب مفيدة لفخامته الإضافية كما أن الصفتين السابقتين مفيدتان لفخامته الذاتية.

وقوله تعالى: ﴿**لا يأتيه**﴾ الخ اعتراض عند من لا يجوز تقديم غير الصريح من الصفات على الصريح كل ذلك لتأكيد بطلان الكفر بالقرآن، واختلفوا في خبر ﴿**أن**﴾ أمذكور هو أو محذوف فقيل: مذكور وهو قوله تعالى: ﴿**أولئك ينادون من مكان بعيد**﴾ وهو قول أبي عمرو بن العلاء في حكاية جرت بينه وبين بلال بن أبي بردة سئل بلال في مجلسه عن هذا فقال: لم أجد لها نفاذاً فقال له أبو عمرو: إنه منك لقريب ﴿**أولئك ينادون من مكان بعيد**﴾ وذهب إليه الحوفي وهو في مكان بعيد، وذهب أبو حيان إلى أنه قوله تعالى: ﴿**لا يأتيه الباطل**﴾ بحذف العائد أي الكافرون وحاله أنه كتاب عزيز لا يأتيه الباطل منهم أي متى راموا إبطالاً له لم يصلوا إليه أو بجعل أل في الباطل عوضاً من الضمير به على قول الكوفين أي لا يأتيه باطلهم أو قوله سبحانه: ﴿**ما يقال لك**﴾ الخ والعائد أيضاً محذوف أي ما يقال لك في شأنهم أو فيهم إلا ما قد قيل للرسل من قبلك أي أوحى إليك في شأن هؤلاء المكذبين لك ولما جئت به مثل ما أوحى إلي من قبلك من الرسل وهو أنهم عاقبتهم سيئة في الدنيا بالهلاك وفي الآخرة بالعذاب الدائم ثم قال: وغاية ما في هذين التوجيهين حذف الضمير العائد وهو موجود نحن السمن منوان بدرهم والبركر بدرهم أي منه.

ونقل عن بعض نحاة الكوفة أن الخبر في قوله تعالى: ﴿**وأنه لكتاب عزيز**﴾ وتعقبه بأنه لا يتعقل، وقيل: هو محذوف وخبر ﴿**أن**﴾ يحذف لفهم المعنى، وسأل عيسى بن عمر عمرو بن عبيد عن ذلك فقال عمرو: معناه في التفسير أن الذين كفروا بالذكر لما جاءهم كفروا به وأنه لكتاب عزيز فقال عيسى: أجدت يا أبا عثمان. وقال قوم: تقديره معاندون أو هالكون، وقال الكسائي: قد سد مسده ما تقدم من الكلام قبل وهو قوله تعالى: ﴿**أفمن يلقى**﴾ وكأنه يريد أنه محذوف دل عليه ما قبله فيمكن أن يقدر يخلدون في النار، ويقدر الخبر على ما استحسنه ابن عطية بعد ﴿**حميد**﴾ وفي الكشاف أنه قوله تعالى: ﴿**إن الذين كفروا بالذكر**﴾ بدل من قوله تعالى: ﴿**إن الذين يلحدون في آياتنا**﴾ قال في البحر: ولم يتعرض بصريح الكلام إلى خبر ﴿**أن**﴾ أمذكور هو أو محذوف لكنه قد يدعي أنه أشار إلى ذلك فإن المحكوم به على المبدل منه هو المحكوم به على البدل فيكون التقدير إن الذين يلحدون في آياتنا إن الذين كفروا بالذكر لما جاءهم لا يخفون علينا. وفي الكشف فائدة هذا الإبدال التنبيه على أنه ما يحملهم على الإلحاد إلا مجرد الكفر، وفيه إمداد التحذير من وجوه ما ذكر من التنبيه؛ ووضع الذكر موضع الضمير الراجع إلى الآيات زيادة تحسير لهم، وما في ﴿**لما**﴾ من معنى مفاجأتهم بالكفر أول ما جاء، وما فيه من التعظيم لشأن الآيات والتمهيد للحديث عن كمال الكتاب الدال على سوء مغبة الملحد فيه، ثم الأشبه أن يحمل كلام الكشاف على أن الخبر محذوف لدلالة السابق عليه ولزيادة التهويل لذهاب الوهم كل مذهب وتكون الجملة بدلاً عن الجملة لأن البدل بتكرير العامل إنما جوز في المجرور لشدة الاتصال انتهى فتأمل والله تعالى الموفق ﴿**مَا يُقَالُ لَكَ**﴾ إلى آخره تسلية له ﷺ عما يصيبه من أذية الكفار من طعنهم في كتابه وغير ذلك فالقائل الكفار أي ما يقول كفار قومك في شأنك وشأن ما أنزل إليك من القرآن ﴿**إِلاَّ مَا قَدْ قِيلَ**﴾ أي مثل ما قد قال الكفرة السابقون ﴿**لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ**﴾ من الكلام المؤذي المتضمن للطعن فيما أنزل إليهم، وهذا نظير قوله تعالى: ﴿كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلاّ قالوا ساحر أو مجنون﴾ [الذاريات: ٥٢].

وقوله تعالى: ﴿**إن ربك لذو مَغْفِرَة وَذُو عقَاب أَلِـيم**﴾ قيل: تعليل لما يستفاد من السياق من الأمر بالصبر كأنه قيل: ما يقال لك إلا نحو ما قيل لأمثالك من الرسل فاصبر كما صبروا إن ربك لذو مغفرة عظيمة لأوليائه وذو عقاب أليم لأعدائهم فينصر أولياءه وينتقم من أعدائهم، أو جواب سؤال مقدر كأنه قيل: ثم ماذا؟ فقيل: إن ربك لذو مغفرة لأوليائه وذو عقاب أليم لأعدائهم وقد نصر لذلك من قبلك من الرسل عليهم السلام وانتقم من أعدائهم وسيفعل ذلك بك وبأعدائك أيضاً، وجوز أن يكون القائل هو الله تعالى والمعنى على ما سمعت عن أبي حيان وقد جعل هذه الجملة خبر ﴿**إن**﴾ أي ما يوحي الله تعالى إليك في شأن الكفار المؤذين لك إلا مثل ما أوحى للرسل من قبلك في شأن الكفار المؤذين لهم من أن عاقبتم سيئة في الدنيا بالهلاك وفي الآخرة بالعذاب الأليم فاصبر إن ربك الخ، وقد يجعل ﴿**إن ربك**﴾ الخ باعتبار مضمونه تفسيراً للمقول فحاصل المعنى ما أوحى إليك وإلى الرسل إلا وعد المؤمنين بالمغفرة والكافرين بالعقوبة دون العكس الذي يزعمه الكفرة بلسان حالهم فاصبر فسينجز الله تعالى وعده، وقيل: المقول هو الشرائع أي ما يوحى إليك إلا مثل ما أوحى إلى الرسل من الشرائع دون أمور الدنيا وقد جرت عادة الكفار بتكذيب ذلك فما عليك إذا كذب كفار قومك واصبر على ذلك، وجعل ﴿**إن ربك**﴾ الخ تعليلاً لما يستفاد من السياق أيضاً، وجعله بعضهم تفسيراً لذلك المقول أعني الشرائع لأنها الأوامر والنواهي الإلهية وهي مجملة فيه، وفيه من البعد ما فيه، وإلى نحو ما ذكرناه أولاً ذهب قتادة.

أخرج ابن أبي حاتم عنه أنه قال في الآية: ﴿**ما يقال لك**﴾ من التكذيب ﴿**إلا ما قد قيل للرسل من قبلك**﴾ فكما كذبوا كذبت وكما صبروا على أذى قومهم لهم فاصبر على أذى قومك لك، واختيار ﴿**أليم**﴾ على شديد مع أنه أنسب بالفواصل للإيماء إلى أن نظم القرآن ليس كالأسجاع والخطب وأن حسنه ذاتي والنظر فيه إلى المعاني دون الألفاظ، ويحسن وصف العقاب به هنا كون العقاب جزاء التكذيب المؤلم ﴿**وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآناً أَعْجَمِيّاً**﴾ جواب لقولهم: هلا أنزل القرآن بلغة العجم، والضمير الذكر ﴿**لَقَالُوا لَوْلاَ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ**﴾ أي بينت لنا وأوضحت بلسان نفقهه، وقوله تعالى: ﴿**أأعجميٌّ وَعَرَبيٌّ**﴾ بهمزتين الأولى للاستفهام والثاني همزة أعجمي والجمهور يقرؤون بهمزة استفهام بعدها مدة هي همزة أعجمي إنكار مقرر للتحضيض أي كلام أعجمي ورسول أو مرسل إليه عربي، وحاصله أنه لو نزل كما يريدون لأنكروا أيضاً وقالوا ما لك وللعجمة أو ما لنا وللعجمة، والأعجمي أصله أعجم بلا ياء ومعناه من لا يفهم كلامه للكنته أو لغرابة لغته وزيدت الياء للمبالغة كما في أحمري ودواري وأطلق على كلامه مجازاً لكنه اشتهر حتى التحق بالحقيقة، وزعم صاحب اللوامح أن الياء فيه بمنزلة ياء كرسي وهو وهم، وقيل: ﴿**عربي**﴾ على احتمال أن يكون المراد ومرسل إليه عربي مع أن المرسل إليهم جمع فحقه أن يقال: عربية أو عربيون لأن المراد بيان التنافي والتنافر بين الكلام وبين المخاطب به لا بيان كون المخاطب به واحداً أو جمعاً، ومن حق البليغ أن يجرد الكلام للدلالة على ما ساقه له ولا يأتي بزائد عليه إلا ما يشد من عضده فإذا رأى لباساً طويلاً على امرأة قصيرة قال: اللباس طويل واللابس قصير دون واللابسة قصيرة لأن الكلام لم يقع في ذكورة اللابس وأنوثته فلو قال لخيل إن لذلك مدخلاً فيما سيق له الكلام، وهذا أصل من الأصول يجب أن يكون على ذكر، ويبنى عليه الحذف والإثبات والتقييد والإطلاق إلى غير ذلك في كلام الله تعالى وكل كلام بليغ. وقرأ عمرو بن ميمون «أَعَجَمِيٌّ» بهمزة استفهام بفتح العين أي أكلام منسوب إلى العجم وهم من عدا العرب وقد يخص بأهل فارس ولغتهم العجمية أيضاً فبين الأعجمي والعجمي عموم وخصوص من وجه، والظاهر أن المراد بالعربي مقابل الأعجمي في القراءة المشهورة ومقابله العجمي في القراءة الأخرى.

وقرأ الحسن وأبو الأسود والجحدري وسلام والضحاك وابن عباس وابن عامر بخلاف عنهما «أَعْجَمِيٌّ» بلا استفهام وبسكون العين على أن الكلام اخبار بأن القرآن أعجمي والمتكلم به أو المخاطب عربي.

وجوز أن يكون المراد هلا فصلت آياته فجعل بعضها أعجمياً لإفهام العجم وبعضها عربياً لإفهام العرب وروي هذا عن ابن جبير فالكلام بتقدير مبتدأ هو بعض أي بعضها أعجمي وبعضها عربي، والمقصود من الجملة الشرطية إبطال مقترحهم وهو كونه بلغة العجم باستلزامه المحذور وهو فوات الغرض منه إذ لا معنى لإنزاله أعجمياً على من لا يفهمه أو الدلالة على أنهم لاينفكون عن التعنت فإذا وجدت الأعجمية طلبوا أمراً آخر وهكذا.

﴿**قُلْ**﴾ رداً عليهم ﴿**هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى**﴾ يهدي إلى الحق ﴿**وَشِفَاءٌ**﴾ لما في الصدور من شك وشبهة ﴿**وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ**﴾ مبتدأ خبره ﴿**فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ**﴾ على أن ﴿**في آذانهم**﴾ خبر مقدم و ﴿**وقر**﴾ مبتدأ أي مستقر في آذانهم وقر أي صمم منه فلا يسمعونه، وقيل: خبر الموصول ﴿**في آذانهم**﴾ و ﴿**وقر**﴾ فاعل الظرف، وقيل: ﴿**وقر**﴾ خبر مبتدأ محذوف تقديره هو أي القرآن و ﴿**في آذانهم**﴾ متعلق بمحذوف وقع حالاً من ﴿**وقر**﴾.

ورجح بأنه أوفق بقوله تعالى: ﴿**وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمىً**﴾ ومن جوز العطف على معمولي عاملين عطف الموصول على الموصول الأول و ﴿**وقر**﴾ على ﴿**هدى**﴾ على معنى هو للذين آمنوا هدى وللذين لا يؤمنون وقر، وقوله تعالى: ﴿**في آذانهم**﴾ ذكر بياناً لمحل الوقر أو حال من الضمير في الظرف الراجع إلى ﴿**وقر**﴾ والأول أبلغ؛ ويرد عليه بعد الإغماض عما في جواز العطف المذكور من الخلاف أن فيه تنافراً بجعل القرآن نفس الوقر لا سيما وقد ذكر محله وليس كجعله نفس العمى لأنه يقابل جعله نفس الهدى فروعي الطباق ولذا لم يبين محله، وأما الوقر إذا جعل نفس الكتاب فهو كالدخيل ولم يطابق ما ورد في سائر المواضع من التنزيل، وهذا يرد على الوجه الذي قبله أيضاً، وجوز ابن الحاجب في الأمالي أن يكون ﴿**وهو عليهم عمى**﴾ مرتبطاً بقوله سبحانه: ﴿**هو للذين آمنوا هدى وشفاء**﴾ والتقدير هو للذين آمنوا هدى وعلى الذين لا يؤمنون عمى، وقوله تعالى: ﴿**والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر**﴾ جملة معترضة على الدعاء، وتعقب بأن هذا وإن جاز من جهة الإعراب لكنه من جهة المعاني مردود لفك النظم، وزعم بعضهم أو ضمير ﴿**هو**﴾ عائد على الوقر وهو من العمى كماترى.

وأولى الأوجه ما تقدم وجيء بعلى في ﴿**عليهم عمى**﴾ للدلالة على استيلاء العمى عليهم، ولم يذكر حال القلب لما علم من التعريض في قوله سبحانه: ﴿**للذين آمنوا هدى وشفاء**﴾ بأنه لغيرهم مرض فظيع ﴿**أُولَئِكَ**﴾ إشارة إلى الموصول الثاني باعتبار اتصافه بما في حيز صلته وما فيه من معنى البعد للإيذان ببعد منزلته في الشر مع ما فيه من كمال المناسبة للنداء من مكان بعيد أي أولئك البعداء الموصوفون بما ذكر من التصامّ عن الحق الذي يسمعونه والتعامي عن الآيات التي يشاهدونها ﴿**يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ**﴾ تمثيل لهم في عدم فهمهم وانتفاعهم بما دعوا له بمن ينادى من مسافة نائية فهو يسمع الصوت ولا يفهم تفاصيله ولا معانيه أو لا يسمع ولا يفهم، فقد حكى أهل اللغة أنه يقال للذي لا يفهم: أنت تنادي من بعيد، وإرادة هذا المعنى مروية عن علي كرم الله تعالى وجهه. ومجاهد، وعن الضحاك أن الكلام على حقيقته وأنهم يوم القيامة ينادون بكفرهم وقبيح أعمالهم بأقبح أسمائهم من بعد حتى يسمع ذلك أهل الموقف فتعظم السمعة عليهم وتحل المصائب بهم، وحاصل الرد أنه هاد للمؤمنين شاف لما في صدورهم كاف في دفع الشبه فلذا ورد بلسانهم معجزاً بيّناً في نفسه مبيناً لغيره والذين لا يؤمنون بمعزل عن الانتفاع به على أي حال جاءهم، وقرأ ابن عمر وابن عباس وابن الزبير ومعاوية وعمرو بن العاص وابن هرمز «عمٍ» بكسر الميم وتنوينه، وقال يعقوب القاري وأبو حاتم: لا ندري نوّنوا أم فتحوا الياء على أنه فعل ماض، وبغير تنوين رواها عمرو بن دينار وسليمان

بن قتيبة عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما ﴿**وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ**﴾ كلام مستأنف مسوق لبيان أن الاختلاف في شأن الكتب عادة قديمة للأمم غير مختص بقومك على منهاج قوله تعالى: ﴿**ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك**﴾ على ما سمعت أولاً أي وبالله لقد آتينا موسى التوراة فاختلف فيها فمن مصدق لها ومكذب وهكذا حال قومك في شأن ما آتيناك من القرآن فمن مؤمن به وكافر ﴿**وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ من رَّبِّكَ**﴾ في حق أمتك المكذبة وهي العدة بتأخير عذابهم وفصل ما بينهم وبين المؤمنين من الخصومة إلى يوم القيامة بنحو قوله تعالى: ﴿بل الساعة موعدهم﴾ [القمر: ٤٦] وقوله سبحانه: ﴿ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى﴾ [فاطر: ٤٥] ﴿**لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ**﴾ باستئصال المكذبين كما فعل بمكذبي الأمم السالفة ﴿**وَإِنَّهُمْ**﴾ أي كفار قومك ﴿**لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ**﴾ أي من القرآن ﴿**مُرِيبٍ**﴾ موجب للقلق والاضطراب، وقيل: الضمير الثاني للتوراة والأول لليهود بقرينة السياق لأنهم الذين اختلفوا في كتاب موسى عليه السلام وليس بشيء ﴿**مَّنْ عَمِلَ صَالِحاً**﴾ بأن آمن بالكتب وعمل بموجبها ﴿**فَلِنَفْسِهِ**﴾ أي فلنفسه يعمله أو فلنفسه نفعه لا لغيره، و ﴿**من**﴾ يصح فيها الشرطية والموصولية وكذا في قوله تعالى: ﴿**وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا**﴾ ضره لا على الغير ﴿**وَمَا رَبُّكَ بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ**﴾ اعتراض تذييلي مقرر لمضمون ما قبله مبني على تنزيل ترك إثابة المحسن بعمله أو إثابة الغير بعمله وتنزيل التعذيب بغير إساءة أو بإساءة غيره منزلة الظلم الذي يستحيل صدوره عنه تعالى ولم يحتج بعضهم إلى التنزيل، وقد مر الكلام في ذلك وفي توجيه النفي والمبالغة فتذكر.

«تم الجزء الرابع والعشرون ويليه الجزء الخامس والعشرون وأوله إليه يرد علم الساعة» الخ.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ۚ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى قَالُوٓا۟ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ ﴿٤٧﴾ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَدْعُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَظَنُّوا۟ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٤٨﴾ لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ ۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ ۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ ﴿٥٤﴾

﴿إليه يُرَدُّ علْمُ السَّاعَة﴾ أي إذا سئل عنها قيل الله تعالى يعلم أو لا يعلمها إلا الله عزَّ وجلَّ فالمقصود من هذا الكلام إرشاد المؤمنين في التفصي عن هذا السؤال وكلا الجوابين يلزمه اختصاص علمها به تعالى.

أما الثاني فظاهر، وأما فلأنك إذا سئلت عن مسألة وقلت. فلان يعلمه كان فيه نفي عنك كناية وتنبيه على أن فلاناً أهل أن يسأل عنه دونك **﴿وَمَا تَخرُجُ من ثَمَرَات مِّنْ أَكْمَامِهَا﴾** أي من أوعيتها جمع كم بالكسر وهو وعاء كجف الطلعة من كمه إذا ستره وقد يضم وكم القميص بالضم وقرأ الحسن في رواية والأعمش وطلحة وغير واحد من السبعة «من ثمرة» على إرادة الجنس والجمع لاختلاف الأنواع. وقرىء «من ثمرات من أكمامهن» بجميع الضمير أيضاً وما نافية ومن الأولى مزيدة لتأكيد الاستغراق والنص عليه ومن الثانية ابتدائية وكذا **﴿ما﴾** في قوله تعالى: **﴿وَمَا تَحملُ مِنْ أُنْثَى وَلاَ تَضَعُ﴾** أي حملها، وقوله تعالى: **﴿إلاَّ بعلْمه﴾** في موضع الحال والباء للملابسة أو المصاحبة والاستثناء من أعم الأحوال أي ما يحدث شيء من خروج ثمرة ولا حمل حامل ولا وضع واضع ملابساً أو مصاحباً بشيء من

الأشياء إلا مصاحباً أو ملابساً بعلمه المحيط سبحانه واقعاً حسب تعلقه به، وجوز في الأولى أن تكون موصولة معطوفة على الساعة أي إليه يرد علم الساعة وعلم ما يخرج ومن الأولى بيانية والجار والمجرور في موضع الحال ومن الثانية على حالها، وتأنيث ﴿تخرج﴾ باعتبار المعنى لأن ما بمعنى ثمرة قيل: ولا يجوز في الثانية ذلك لمكان الاستثناء المفرغ وأجازه بعضهم، ويكفي لصحة التفريغ النفي في قوله تعالى: ﴿ولا تضع﴾ وجملة لا تضع إما حال أو معطوفة على جملة ﴿إليه يرد﴾ الخ، ولا يخفى عليك أن المتبادر في الموضعين النفي ثم إن الاستثناء متعلق بالكل وتبيين القدر المشترك بين الأفعال الثلاثة وجعله الأصل في تعلق المفرغ كما سمعت لإظهار المعنى والإيماء إلى أنه لا يحتاج في مثله إلى حذف من الأولين أعني ما تخرج وما تحمل وهو قريب من أسلوب. وقد حيل بين العير والنزوان. لأن خرج زيد معناه حدث خروجه كما أن معنى ذلك فعل الحيلولة وليس ذاك من باب الاستثناء المتعقب لجمل والخلاف في متعلقه في شيء لأن ذلك في غير المفرغ فقد ذكر النحويون في باب التنازع وإن كان منفياً بإلا فالحذف ليس إلا ولو كان منه لم يكن من المختلف فيه لاتحاد الجمل في المقصود وظهور قرينة الرجوع إلى الكل، والكلام على ما في شرح التأويلات متصل بأمر الساعة والبعث فإنه لا يعلم هذا كله إلا الله تعالى فذكر هذه الأمور لمناسبتها لعلم الساعة وإن الكل إيجاد بعد العدم بقدرته عزَّ وجلَّ فيكون كالبرهان على الحشر، وجوز أن يكون متصلاً بقوله تعالى: ﴿ومن آياته الليل والنهار﴾ [فصلت: ٣٧] الخ وبقوله سبحانه: ﴿ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة﴾ [فصلت: ٣٩] الخ؛ فالمعنى من آيات ألوهيته تعالى وقدرته أن تخرج الثمرات وتحمل الحوامل وتضع حسب علمه جل وعلا، والأول وأقرب.

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِي﴾ أي بزعمكم كما نص عليه بقوله سبحانه: ﴿أين شركائي الذين كنتم تزعمون﴾ [القصص: ٦٢، ٧٤] وفيه تهكم بهم وتقريع لهم. و ﴿يوم﴾ منصوب باذكر أو ظرف بمضمر مؤخر قد ترك إيذانا بقصور البيان عنه كما في قوله تعالى: ﴿يوم يجمع الله الرسل﴾ [المائدة: ١٠٩] وضمير ﴿يناديهم﴾ عام في كل من عبد غير الله تعالى فيندرج فيه عبدة الأوثان. ﴿قَالُوا﴾ أي أولئك المنادون ﴿آذَنَّاكَ﴾ أي أعلمناك والمراد بالإعلام هنا الإخبار لأنه تعالى عالم فلا يصح إعلامه بما هو سبحانه عالم به بخلاف الأخبار فإنه يكون للعالم فكأنه قيل أخبرناك ﴿مَا مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ﴾ أي بأنه ليس منا أحد يشهد لهم بالشركة فالجملة في محل نصب مفعول ﴿آذناك﴾ وقد علق عنها وفي تعليق باب أعلم وأنبأ خلاف والصحيح أنه مسموع في الفصيح، و ﴿شهيد﴾ فعيل من الشهادة ونفي الشهادة كناية عن التبرؤ منهم لأن الكفرة يوم القيامة أنكروا عبادة غيره تعالى مرة وأقروا بها وتبرؤوا عنها مرة أخرى وفسره السمرقندي بالإنكار لعبادتهم غير الله تعالى وشركهم كذباً منهم وافتراء كقوله تعالى حكاية عنهم: ﴿والله ربنا ما كنا مشركين﴾ [الأنعام: ٢٣] وظاهر «آذناك» يقتضي سبق الإيذان في جواب أين شركائي وإنما سئلوا ثانياً حتى أجابوا بأنه قد سبق الجواب لأنه توبيخ وفي إعادة التوبيخ من تأكيد أمر الجناية وتقبيح حال من يرتكبها ما لا يخفى، واستظهر أبو حيان أن المراد إحداث إيذان لا إخبار عن إيذان سابق على نحو طلقت وأمثاله، وجوز أن يقال: إنه إخبار بإعلام سابق وذلك الاعلام السابق ما علمه تعالى من بواطنهم يوم القيامة إنهم لم يبقوا على الشرك وعلى تلك الشهادة وكأنه اعلام منهم بلسان الحال وهذا لا يقتضي سبق سؤال ولا جواب وفيه حسن أدب كأنهم يقولون أنت أعلم به ثم يأخذون في الجواب.

قال في الكشف: وهذا الوجه هو المختار لاشتماله على النكتة المذكورة وما في الآخرين من سوء الأدب، ويحتمل أن يكون المعنى آذناك بأنه ليس منا أحد يشاهدهم فشهيد من الشهود بمعنى الحضور والمشاهدة ونفي

مشاهدتهم الظاهر أنه على الحقيقة وذلك في موقف وجعل بعض العبدة مقرين بمعبوداتهم في آخر فلا تنافي بينهما، وقيل: هو كناية عن نفي أن يكون له تعالى شريك نحو قولك: لا نرى لك مثلا تريد لا مثل لك لنراه، والكلام في ﴿آذناك﴾ على ما آذناك، وقيل: ضمير ﴿قالوا﴾ للشركاء أي قال الشركاء: ليس منا أحد يشهد لهم بأنهم كانوا محقين فشهيد من الشهادة لا غير، والمراد التبرؤ منهم وفيه تفكيك الضمائر، ومعنى قوله تعالى: ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ﴾ على ما قيل: إن شركاءهم الذين كانوا يدعونهم من قبل ويرجون نفعهم غابوا عنهم على أن الضلال على معناه الحقيقي وهو الذي يقابل الوجدان أو أن شركاءهم لم ينفعوهم بشيء على أن الضلال مجاز عن عدم النفع و ﴿ما﴾ اسم موصول عبارة عن الشركاء، ويحسن جمع من يعقل ومن لا يعقل في التعبير بما في مثل هذا المقام، وجوز أن تكون ما عبارة عن القول الذي كانوا يقولونه في شأن الشركاء من أنهم آلهة وشركاء لله سبحانه وتعالى، والمعنى نسوا ما كانوا يقولونه في شأن شركائهم من نسبة الألوهية إليهم. ولك أن تجعلها مصدرية والجملة يحتمل أن تكون حالاً وأن تكون اعتراضاً، وذكر بعض الأجلة أنه يتعين الأخير على القول بأن ضمير ﴿قالوا﴾ للشركاء وكون الضلال مجازاً عن عدم النفع فتدبر ﴿وَظَنُّوا﴾ أي أيقنوا كما قال السدي وغيره لأنه لا احتمال لغيره هنا والظن يكون بمعنى العالم كثيراً ﴿مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ﴾ أي مهرب، والظاهر أن الجملة في محل نصب سادة مسد مفعولي ظن وهي معلقة عنها بحرف النفي، وقيل: تم الكلام عند قوله تعالى: ﴿وظنوا﴾ والظن على ظاهره أي وترجح عندهم أن قولهم: ﴿ما منا من شهيد﴾ منجاة لهم أو أمر يموهون به، والجملة بعد مستأنفة أي لا يكون لهم منجى أو موضع روغان ﴿لا يَسأمُ الانسانُ﴾ لا يمل ولا يفتر ﴿من دُعَاء الْخَير﴾ من طلب السعة في النعمة وأسباب المعيشة، ﴿ودعاء﴾ مصدر مضاف للمفعول وفاعله محذوف أي من دعاء الخير هو.

وقرأ عبد الله «مِنْ دُعَاءِ بالخَيْرِ» بباء داخلة على الخير ﴿وَإِن مسَّهُ الشَّرُّ﴾ الضيقة والعسر ﴿فَيَؤُوسٌ قَنُوطٌ﴾ أي فهو يؤوس قنوط من فضل الله تعالى ورحمته، وهذا صفة الكافر، والآية نزلت في الوليد بن المغيرة، وقيل: في عتبة بن ربيعة وقد بولغ في يأسه من جهة الصيغة لأن فعولاً من صيغ المبالغة ومن جهة التكرار المعنوي فإن القنوط أن يظهر عليه أثر اليأس فيتضاءل وينكسر، ولما كان أثره الدال عليه لا يفارقه كان في ذكره ذكره ثانياً بطريق أبلغ، وقدم اليأس لأنه صفة القلب وهو أن يقطع رجاءه من الخير وهي المؤثرة فيما يظهر على الصورة من التضاؤل والانكسار ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ﴾ أي لئن فرجنا عنه بصحة بعد مرض أو سعة بعد ضيق أو غير ذلك ﴿لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي﴾ أي حقي أستحقه لما لي من الفضل والعمل لا تفضل من الله عن وجل فاللام للاستحقاق أو هو لي دائماً لا يزول فاللام للملك وهو يشعر بالدوام ولعل الأول أقرب.

﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً﴾ أي تقوم فيما سيأتي ﴿وَلَئِنْ رجعتُ إِلَى رَبِّي﴾ على تقدير قيامها ﴿إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى﴾ أي للحالة الحسنى من الكرامة، والتأكيد بالقسم هنا ليس لقيام الساعة بل لكونه مجزياً بالحسنى باستحقاقه للكرامة لاعتقاده أن ما أصابه من نعم الدنيا لاستحقاقه له وإن نعم الآخرة كذلك فلا تنافي بين إن التي الأصل فيها أن تستعمل لغير المتقين وبين التأكيد بالقسم وإن واللام وتقديم الظرفين وصيغة التفضيل ﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا﴾ لنعلمنهم بحقيقة أعمالهم ولنبصرنهم بعكس ما اعتقدوا فيها فيظهر لهم أنهم مستحقون للإهانة لا الكرامة كما توهموا ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ لا يمكنهم التفصي عنه لشدته فهو كوثاق غليظ لا يمكن قطعه ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الإِنْسَانِ أَعْرَضَ﴾ عن الشكر ﴿وَنَأَى بِجَانِبِهِ﴾ تكبر واختال على أن الجانب بمعنى الناحية والمكان ثم نزل مكان الشيء وجهته كناية منزلة الشيء نفسه، ومنه قوله تعالى: ﴿ولمن خاف مقام ربه﴾ [الرحمن: ٤٦] وقول الشاعر:

ذعرت به القطا ونفيت عنه مقام الذئب كالرجل اللعين

وقول الكتاب حضرة فلان ومجلسه العالي وكتبت إلى جهته وإلى جانبه العزيز يريدون نفسه وذاته فكأنه قيل: نأى بنفسه ثم كنى بنفسه عن التكبر والخيلاء، وجوز أن يراد ﴿بجانبه﴾ عطفه ويكون عبارة عن الانحراف والازورار كما قالوا: ثنى عطفه وتولى بركنه والأول مشتمل على كنايتين، وضع الجانب موضع النفس والتعبير عن التكبير البالغ بنحو ذهب بنفسه وهذا على واحدة على ما في الكشف، وجعل بعضهم الجانب والجنب حقيقة كالعطف في الجارحة وأحد شقي البدن مجازاً في الجهة فلا تغفل، وعن أبي عبيدة نأى بجانبه إن نهض به وهو عبارة عن التكبر كشمخ بأنفه، والباء للتعدية ثم إن التعبير عن ذات الشخص بنحو المقام والمجلس كثيراً ما يكون لقصد التعظيم والاحتشام عن الصريح بالاسم وهو يتركون التصريح به عند إرادة تعظيمه قال زهير:

فعرض إذا ما جئت بالبان والحمى وإياك أن تنسى فتذكر زينبا
سيكفيك من ذاك المسمى إشارة فدعه مصونا بالجلال محجبا

ومن هنا قال الطيبي: إن ما هنا وارد على التهكم. وقرىء «ونآ» بإمالة الألف وكسر النون للاتباع «وناء» على القلب كما قالوا راء في رأى ﴿وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ﴾ أي كثير مستمر مستعار مما له عرض متسع وأصله مما يوصف به الأجسام وهو أقصر الامتدادين وأطولهما هو الطول، ويفهم في العرف من العريض الاتساع وصيغة المبالغة وتنوين التكثير يقويان ذلك، ووصف الدعاء بما ذكر يستلزم عظم الطول أيضاً لأنه لا بد أن يكون أزيد من العرض وإلا لم يكن طولا، والاستعارة في كل من الدعاء والعريض جائزة ولا يخفى كيفية إجرائها.

وذكر بعض الأجلة أن الآيات قد تضمنت ضربين من طغيان جنس الإنسان فالأول في بيان شدة حرصه على الجمع وشدة جزعه على الفقد والتعريض بتظليم ربه سبحانه في قوله ﴿هذا لي﴾ مدمجاً فيه سوء اعتقاده في المعاد المستجلب لتلك المساوي كلها، والثاني في بيان طيشه المتولد عنه إعجابه واستكباره عند وجود النعمة واستكانته عند فقدها وقد ضمن في ذلك ذمه بشغله عن المنعم في الحالتين، أما في الأول فظاهر، وأما في الثاني فلأن التضرع جزعاً على الفقد ليس رجوعاً إلى المنعم بل تأسف على الفقد المشغل عن المنعم كل الأشغال، وذكر أن في ذكر الوصفين ما يدل على أنه عديم النهية أي العقل ضعيف المنة أن القوة فإن اليأس والقنوط ينافيان الدعاء العريض وأنه عند ذلك كالغريق المتمسك بكل شيء انتهى، ومنه يعلم جواب ما قيل: كونه يدعو دعاء عريضاً متكرراً ينافي وصفه بأنه يؤوس قنوط لأن الدعاء فرع الطمع والرجاء وقد اعتبر في القنوط ظهور أثر اليأس فظهور ما يدل على الرجاء يأباه، وأجاب آخرون بأنه يجوز أن يقال: الحال الثاني شأن بعض غير البعض الذي حكى عنه اليأس والقنوط أو شأن الكل في بعض الأوقات، واستدل بعضهم بقوله تعالى: ﴿فذو دعاء عريض﴾ على أن الايجاز غير الاختصار وفسره لهذه الآية بحذف تكرير الكلام مع اتحاد المعنى والإيجاز بحذف طوله وهو الإطناب وهو استدلال بما لا يدل إذ ليس فيها حذف ذلك العرض فضلاً عن تسميته ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ﴾ الخ رجوع لإلزام الطاعنين والملحدين وختم للسورة بما يلتفت لفت بدنها وهو من الكلام المنصف وفيه حث على التأمل واستدراج للاقرار مع ما فيه من سحر البيان وحديث الساعة وقع في البين تتميماً للوعيد وتنبيهاً على ما هم فيه من الضلال البعيد كذا قيل، وسيأتي إن شاء الله تعالى بسط الكلام في ذلك، ومعنى ﴿أرأيتم﴾ أخبروني ﴿إِنْ كَانَ﴾ أي القرآن ﴿مِنْ عِندِ اللهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ﴾ مع تعاضد موجبات الإيمان به، و ﴿ثم﴾ كما قال النيسابوري للتراخي الرتبي ﴿مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ﴾ أي خلاف ﴿بَعِيدٍ﴾ غاية البعد عن

الحق، والمراد ممن هو في شقاق المخاطبون، ووضع الظاهر موضع ضميرهم شرحاً لحالهم بالصلة وتعليلاً لمزيد ضلالهم، وجملة ﴿من أضل﴾ على ما قال ابن الشيخ سادّة مسد مفعولي ﴿رأيتم﴾ وفي البحر المفعول الأول محذوف تقديره أرأيتم أنفسكم والثاني هو جملة الاستفهام، وأياً ما كان فجواب الشرط محذوف، قال النيسابوري: تقديره مثلاً فمن أضل منكم، وقيل: إن كان من عند الله ثم كفرتم به فأخبروني من أضل منكم، ولعله الأظهر. وقوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ﴾ الخ مرتبط على ما اختاره صاحب الكشاف بقوله تعالى: ﴿قل أرأيتم﴾ الخ على وجه التتميم والإرشاد إلى ما ضمن من الحث على النظر ليؤدي إلى المقصود فيهدوا إلى إعجازه ويؤمنوا بما جاء به ويعملوا بمقتضاه ويفوزوا كل الفوز، وفسر الآيات بما أجرى الله تعالى على يدي نبيه ﷺ وعلى أيدي خلفائه وأصحابهم رضي الله تعالى عنهم من الفتوحات الدالة على قوة الإسلام وأهله ووهن الباطل وحزبه، والآفاق النواحي أفق بضمتين وأفق بفتحتين أي سنريهم آياتنا في النواحي عموماً من مشارق الأرض ومغاربها وشمالها وجنوبها، وفيه أن هذه الإرادة كائنة لا محالة حق لا يحوم حولها ريبة ﴿وَفِي أَنْفُسِهِمْ﴾ في بلاد العرب خصوصاً وهو من عطف جبريل على ملائكته، وفي العدول عنها إلى المنزل ما لا يخفى من تمكين ذلك النصر وتحقيق دلالته على حقية المطلوب إثباته وإظهار أن كونه آية بالنسبة إلى الأنفس وإن كان كونه فتحاً بالنسبة إلى الأرض والبلدة ﴿حَتَّى يَتَبَيَّنَ﴾ يظهر ﴿لَهُمْ أَنَّهُ﴾ أي القرآن هو ﴿الْحَقُّ﴾ الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه فهو الحق كله من عند الله تعالى المطلع على كل غيب وشهادة فلهذا نصر حاملوه وكانوا محقين، وفي التعريف من الفخامة ما لا يخفى جلالة وقدراً، وفيما ذكر إشارة إلى أنه تعالى لا يزال ينشيء فتحا بعد فتح وآية غب آية إلى أن يظهره على الدين كله ولو كره المشركون فانظر إلى هذه الآية الجامعة كيف دلت على حقية القرآن على وجه تضمن حقية أهله ونصرتهم على المخالفين وأعظم بذاك تسلياً عما أشعرت به الآية السابقة من أنهماكهم في الباطل إلى حد يقرب من اليأس، وقيل: الضمير للرسول عليه الصلاة والسلام أو الدين أو التوحيد ولعل الأول أولى ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ﴾ استئناف وارد لتوبيخهم على إنكارهم تحقق الإرادة.

والهمزة للإنكار والواو على أحد الرأيين للعطف على مقدر دخلت عليه الهمزة يقتضيه المقام والباء مزيدة للتأكيد و ﴿ربك﴾ فاعل كفى وزيادة الباء في فاعلها هو القول المشهور المرضي للنحاة وتزاد في فاعل فعل التعجب أيضاً نحو أحسن بزيد فإن أحسن فعل ماض جيء به على صيغة الأمر والباء زائدة وزيد فاعل عند جماعة من النحويين ولا تكاد تزاد في غيرهما، وقوله:

ألم يأتيك والأنباء تنمي ... بما لاقت لبون بني زياد

شاذ قبيح على ما قال الشهاب، وقوله تعالى: ﴿أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ بدل من الفاعل بدل اشتمال، وقيل: هو بتقدير حرف الجر أي أو لم يكفهم ربك بأنه الخ، وما للنحويين في مثل هذا التركيب من الكلام شهير، أي أنكروا إراءة ذلك الدالة على حقيقة القرآن ولم يكفهم دليلاً أنه عزَّ وجلَّ مطلع على كل شيء عالم به ومن ذلك حالهم وحالك الموجبان حكمة نصرك عليهم وخذلانهم، وكأن ذلك لظهوره نزل منزلة المعلوم لهم.

وفي الكشف أي أو لم يكفهم أن ربك سبحانه مطلع على كل شيء يستوي عنده غيب الأشياء وشهادتها على معنى أو لم يكفهم هذه الإراءة دليلاً قاطعاً ولما كان ما وعده غيباً عنهم كيف وقد نزل وهم في حال ضعف وقلة يقاسون ما يقاسون من مشركي مكة قيل: أو لم يكفهم اطلاع من هذا الكتاب الحق من عنده على كل غيب وشهادة دليلاً على كينونة الإراءة وإحضار ذلك الغيب عندهم إذ لا غيب بالنسبة إليه تعالى، وفي العدول إلى هذه العبارة

فائدتان: إحداهما تحقيق إنجاز ذلك الموعد كأنه مشاهد بذكر الدليل القاطع على الوقوع. والثانية الدلالة على أن هذه الإراءة الآن وهم في ضعف وقلة قد تمت بالنسبة إلى إثبات حقية القرآن لأن من علم أنه تعالى على كل شيء شهيد وعلم أن القرآن معجز من عنده علم أن جميع ما فيه حق وصدق فعلم أن تلك النصرة كائنة.

والحاصل أنه كما يستدل من تلك الآيات على حقية القرآن وحقية أهله تارة يستدل من إعجاز القرآن على حقية تلك الآيات وقوعاً وحقية أهل الإسلام أخرى فأدى المعنيان في عبارة جامعة تؤدي الغرضين على وجه لا يمكن أتم منه انتهى. ولا يخفى أن في الآية عليه نوعاً من الالغاز، وقيل: أي ألم يغنهم عن إراءة الآيات الموعودة المبينة لحقية القرآن ولم يكفهم في ذلك أنه تعالى شهيد على جميع الأشياء وقد أخبر بأنه من عنده عزَّ وجلَّ، وهو كما ترى، وقيل: المعنى ولم يكفك أنه تعالى على كل شيء محقق له فيحقق أمرك بإظهار الآيات الموعودة كما حقق سائر الأشياء الموعودة. وتعقب بأنه مع إيهامه ما لا يليق بجلالة منصبه ﷺ من التردد فيما ذكر من تحقق الموعود لا يلائم قوله تعالى: **﴿أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ﴾** أي في شك عظيم من ذلك بالبعث لاستبعادهم إعادة الموتى بعد تبدد أجزائهم وتفرق أعضائهم فلا يلتفتون إلى أدلة ما ينفعهم عند لقائه تعالى كحقية القرآن لأنه صريح في أن عدم الكفاية معتبر بالنسبة إليهم.

وقوله تعالى **﴿أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ﴾** لبيان ما يترتب على تلك المرية بناء على أن المعنى أنه تعالى عالم بجميع الأشياء على أكمل وجه فلا يخفى عليه جلّ وعلا خافية منهم فيجازيهم جل جلاله على كفرهم ومريتهم لا محالة.

وقيل: دفع لمريتهم وشكهم في البعث وإعادة ما تفرق واختلط مما يتوهمون عدم إمكان تمييزه أي إنه تعالى عالم بجمل الأشياء وتفاصيلها مقتدر عليها لا يفوته شيء منها فهو سبحانه يعلم الأجزاء ويقدر على البعث.

هذا وما ذكر في تفسير **﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم﴾** في معنى ما روي عن الحسن ومجاهد والسدي وأبي المنهال وجماعة قالوا: إن قوله سبحانه: **﴿سنريهم﴾** الخ وعيد للكفار بما يفتحه الله تعالى على رسوله ﷺ من الأقطار حول مكة وفي غير ذلك من الأرض كخيبر وأراد بقوله تعالى: **﴿في أنفسهم﴾** فتح مكة، وقال الضحاك وقتادة: في الآفاق ما أصاب الأمم المكذبة في أقطار الأرض قديماً وفي أنفسهم ما كان يوم بدر فإن في ذلك دلالة على نصرة من جاء بالحق وكذب من الأنبياء عليهم السلام فيدل على حقية النبي ﷺ وما جاء به من القرآن. وأورد عليه أن **﴿سنريهم﴾** يأبى كون ما في الآفاق ما أصاب الأمم المكذبة لكونه مرئياً لهم قبل. وقال عطاء وابن زيد: إن معنى **﴿سنريهم آياتنا في الآفاق﴾** أي أقطار السماء والأرض من الشمس والقمر وسائر الكواكب والرياح والجبال الشامخة وغير ذلك وفي أنفسهم من لطيف الصنعة وبديع الحكمة، وضعف ذلك الإمام بنحو ما سمعت آنفاً. وأجيب بأن القوم وإن كانوا قد رأوا تلك الآيات إلا أن العجائب التي أودعها الله تعالى فيها مما لا نهاية لها فهو سبحانه يطلعهم عليها زماناً قريباً حالاً فحالاً فإن كل أحد يشاهد بنية الإنسان إلا أن العجائب المودعة في تركيبها لا تحصى وأكثر الناس غافلون عنها فمن حمل على التفكير فيها بالقوارع التنزيلية والتنبيهات الإلهية كلما ازداد تفكراً ازداد وقوفاً فصح معنى الاستقبال.

واختار ذلك صاحب الكشف تبعاً لغيره وبين وجه مناسبة الآيات لما قبلها عليه، وجعل ضمير **﴿أنه الحق﴾** لله عزَّ وجلَّ فقال: إن قوله تعالى: **﴿قل أرأيتم إن كان من عند الله﴾** إشعاراً بأن كونه من عنده سبحانه ينافي الكفر به وإنهم مسلمون ذلك لكن يطعنون في كونه من عنده عزَّ وجلَّ ولذا جعل نحو ﴿أساطير الأولين﴾ [النحل: ٢٤] في جواب قولهم ﴿ماذا أنزل ربكم﴾ [النحل: ٢٤] أنه إعراض عن كونه منزلاً وجواب بأنه أساطير لا منزل فأريد أن يبين

إثبات كونه حقاً من عنده تعالى على سبيل الكناية ليكون أوصل إلى الغرض ويناسب ما بني عليه الكلام من سلوك طريق الإنصاف فقيل: ﴿**سنريهم**﴾ أي سيرى الله تعالى، والالتفات للدلالة على زيادة الاختصاص وتحقيق ثبوت الإراءة ثم قيل: ﴿**حتى يتبين لهم أنه الحق**﴾ أي إن الله جلّ جلاله هو الحق من كل وجه ذاتاً وصفة وقولاً وفعلاً وما سواه باطل من كل وجه لاحق إلا هو سبحانه وإذا تبين لهم حقيته عز شأنه من كل وجه يلزم ثبوت القرآن وكونه من عنده تعالى بالضرورة، ثم قيل: أو لم يكف بربك أي أو لم يكفك شهوده تعالى على كل شيء فمنه سبحانه تشهد كل شيء لا من آيات الآفاق والأنفس تشهده تعالى فالأول استدلال بالأثر على المؤثر والثاني من المؤثر على الأثر وهذا هو اللمي العيني، وفي قوله تعالى: ﴿**بربك**﴾ مضافاً إلى ضميره ﷺ وإيثاره على أولم يكف به إشعار بأنه عليه الصلاة والسلام وأتباعه من كل العارفين هم الذين يكفيهم شهوده على كل شيء دليلاً وأن ذلك لهم نفس عنايته تعالى وتربيته من دون مدخل لتعلمهم فيه بخلاف الأول، ثم قيل: ﴿**ألا إنهم في مرية من لقاء ربهم**﴾ فلهذا لا يكفيهم أنه تعالى على كل شيء شهيد لأنه لا شهود لهم ليشهدوا شهوده تعالى فهو شامل لفريقي الأبرار والكفار، أما الكفار فلأنهم في شك في الأصل، وأما الأبرار فلأنهم في شك من الشهود أي لا علم لهم به إلا إيماناً متمحضاً عن التقليد.

وإطلاق المرية للتغلب ولا يخفى حسن موقعه، ثم قيل: ﴿**ألا إنه بكل شيء محيط**﴾ تتميماً لقوله تعالى: ﴿**أولم يكف بربك**﴾ لأن من أحاط بكل شيء علماً وقدرة لم يتخلف شيء عن شهوده فمن شهده شهد كل شيء فهذا هو الوجه في تعميم الآيات من غير تخصيص لها بالفتوح وهو أنسب من قول الحسن ومجاهد وأجري على قواعد الصوفية وعلماء الأصول رحمة الله تعالى عليهم أجمعين انتهى، وقد أبعد عليه الرحمة المغزى وتكلف ما تكلف، ونقل العارف الجامي قدس سره في نفحاته عن القاشاني أن قوله تعالى: ﴿**سنريهم**﴾ الخ يدل على وحدة الوجود، وقد رأيت في بعض كتب القوم الاستدلال به على ذلك وجعل ضمير ﴿**أنه الحق**﴾ إلى المرئي وتفسير ﴿**الحق**﴾ بالله عزَّ وجلَّ، ومن هذا ونحوه قال الشيخ الأكبر قدس سره: سبحان من أظهر الأشياء وهو عينها وهذه الوحدة هي التي حارت فيها الأفهام وخرجت لعدم تحقيق أمرها رقاب من ربقة الإسلام، وللشيخ إبراهيم الكوراني قدس سره النوراني عدة رسائل في تحقيق الحق فيها وتشييد مبانيها نسأل الله تعالى أن يمن علينا بصحيح الشهود ويحفظنا بجوده عما علق بأذهان الملاحدة من وحدة الوجود، وقرىء «إنه على كل شيء شهيد» بكسر همزة إن على إضمار القول، وقرأ السلمي. والحسن «في مُرْيَة» بضم الميم وهي لغة فيها كالكسر ونحوها خفية يضم الخاء وكسرها والكسر أشهر لمناسبة الياء.

ومن كلمات القوم في الآيات: ﴿**إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر غير ممنون**﴾ فيه إشارة إلى أن أجر المؤمن الغير العامل ممنون أي منقوص بالنسبة إلى أجر المؤمن العامل وأجر هذا العامل على الأعمال البدنية كالصلاة والحج الجنة، وعلى الأعمال القلبية كالرضا والتوكل الشوق والمحبة وصدق الطلب، وعلى الأعمال الروحانية كالتوجه إلى الله تعالى كشف الأسرار وشهود المعاني والاستئناس بالله تعالى والاستيحاش من الخلق والكرامات، وعلى أعمال الأسرار كالإعراض عن السوي بالكلية دوام التجلي ﴿**قل أئنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض**﴾ أي أرض البشرية ﴿**في يومين**﴾ يومي الهوى والطبيعة ﴿**وتجعلون له أنداداً**﴾ من الهوى والطبيعة ﴿**وجعل فيها رواسي**﴾ العقول الإنسانية ﴿**وبارك فيها**﴾ بالحواس الخمس ﴿**وقدر فيها**﴾ أقواتها من القوى البشرية ﴿**ثم استوى إلى السماء**﴾ سماء القلب ﴿**وهو دخان**﴾ هيولى إلهية ﴿**فقضاهن سبع سموات**﴾ هي الأطوار السبعة للقلب فالأول محل الوسوسة والثاني مظهر الهواجس والثالث معدن الرؤية ويسمى الفؤاد والرابع منبع الحكمة ويسمى القلب

والخامس مرآة الغيب ويسمى السويداء والسادس مثوى المحبة ويسمى الشغاف والسابع مورد التجلي ومركز الأسرار ومهبط الأنوار ويسمى الحبة ﴿**في يومين**﴾ يومي الروح الإنساني والإلهام ﴿**وزينا السماء الدنيا بمصابيح**﴾ وهي أنوار الاذكار والطاعات ﴿**إن الذين قالوا ربنا الله**﴾ يوم خوطبوا بألست بربكم؟ ﴿**ثم استقاموا**﴾ على إقرارهم لما خرجوا إلى عالم الصور ولم ينحرفوا عن ذلك كالمنافقين والكافرين، وذلك أن الاستقامة متفاوتة فاستقامة العوام في الظاهر بالأوامر والنواهي وفي الباطن بالإيمان واستقامة الخواص في الظاهر بالرغبة عن الدنيا وفي الباطن بالرغبة عن الجنان شوقاً إلى الرحمن واستقامة خواص الخواص في الظاهر برعاية حقوق المبايعة بتسليم النفس والمال وفي الباطن بالفناء والبقاء ﴿**تتنزل عليهم الملائكة**﴾ تنزلاً متفاوتاً حسب تفاوت مراتبهم، وعن بعض أئمة أهل البيت أن الملائكة لتزاحمنا بالركب أو ما هذا معناه ﴿**وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون**﴾ هي أيضاً متفاوتة فمنهم من يبشر بالجنة المعروفة ومنهم من يبشر بجنة الوصال ورؤية الملك المتعال ﴿**ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله**﴾ بترك ما سواه ﴿**وعمل صالحاً**﴾ لئلا يخالف حاله قاله ﴿**وقال إنني من المسلمين**﴾ المنقادين لحكمه تعالى الراضين بقضائه وقدره، وفيه إشارة إلى صفات الشيخ المرشد وما ينبغي أن يكون عليه ويحق أن يقال في كثير من المتصدين للإرشاد في هذا الزمان المتلاطمة أمواجه بالفساد:

خلت الرقاع من الرخاخ ... وتفرزنت فيها البيادق
وتصاهلت عرج الحمير ... وذاك من عدم السوابق

﴿**ولا تستوي الحسنة**﴾ وهي التوجه إلى الله تعالى بصدق الطلب وخلوص المحبة ﴿**ولا السيئة**﴾ وهي طلب السوى والرضا بالدون ﴿**ادفع بالتي هي أحسن**﴾ وهي طلب الله تعالى ما سواه سبحانه ﴿**فإذا الذي بينك وبينه عداوة**﴾ وهو النفس الأمارة بالسوء ﴿**كأنه ولي حميم**﴾ لتزكي النفس عن صفاتها الذميمة وانفطامها عن المخالفات القبيحة ﴿**وإما ينزغنك من الشيطان نزغ**﴾ لتميل إلى ما يهوى ﴿**فاستعذ بالله**﴾ وارجع إليه سبحانه لئلا يؤثر فيك نزغه، وفيه إشارة إلى أنه لا ينبغي الأمن من المكر والغفلة عن الله عزَّ وجلَّ ﴿**إن الذين يلحدون في آياتنا لا يخفون علينا**﴾ فيه إشارة إلى سوء المنكرين على الأولياء فإنهم من آيات الله تعالى والإنكار من الإلحاد نسأل الله تعالى العفو والعافية ﴿**قل هو**﴾ أي القرآن ﴿**للذين آمنوا هدى وشفاء**﴾ على حسب مراتبهم فمنهم من يهديه إلى شهود الملك العلام فعن الصادق على آبائه وعليه السلام لقد تجلى الله تعالى في كتابه لعباده ولكن لا يبصرون ﴿**سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم**﴾ فيه إشارة إلى أن الخلق لا يرون الآيات إلا بإراءته عزَّ وجلَّ وهي كشف الحجب ليظهر أن الإيمان ما شمت رائحة الوجود ولا تشمه أبدا وأنه عزَّ وجلَّ هو الأول والآخر والظاهر والباطن كان الله ولا شيء معه وهو سبحانه الآن على ما عليه كان وإليه الإشارة عندهم بقوله تعالى: ﴿**حتى يتبين لهم أنه الحق**﴾ ومن هنا قال الشيخ الأكبر قدس سره:

ما آدم في الكون ما إبليس ... ما ملك سليمان وما بلقيس
الكل إشارة وأنت المعنى ... يا من هو للقلوب مغناطيس

وأكثر كلامه قدس سره من هذا القبيل بل هو أم وحدة الوجود وأبوها وابنها وأخوها، وإياك أن تقول كما قال ذلك الأجل حتى تصل بتوفيق الله تعالى إلى ما إليه وصل والله عزَّ وجلَّ الهادي إلى سواء السبيل، تم الكلام على السورة والحمد لله على جزيل نعمائه والصلاة والسلام على رسوله محمد مظهر أسمائه وعلى آله وأصحابه وسائر أتباعه وأحبائه وصلاة وسلاماً باقيين إلى يوم لقائه.

(٤٢) سورة الشورى مكية وآياتها ثلاث وخمسون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ عٓسٓقٓ ﴿٢﴾ كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ
ٱلْحَكِيمُ ﴿٣﴾ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٤﴾ تَكَادُ
ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ ۚ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ
لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ
أَوْلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٦﴾

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ حمٓ، عسق، كذلك يوحى إليك وإلى الذين من قبلك الله العزيز الحكيم، له ما فى السموات وما فى الأرض وهو العلى العظيم، تكاد السموات يتفطرن فى فوقهن والملائكة يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن فى الأرض ألا إن الله هو الغفور الرحيم، والذين اتخذوا من دونه أولياء الله حفيظ عليهم وما أنت عليهم بوكيل ﴾.

اعلم أن الكلام فى أمثال هذه الفواتح معلوم إلا أن فى هذا الموضع سؤالان زائدان (الأول) أن يقال أن هذه السورة السبعة مصدرة بقوله (حم) فما السبب فى اختصاص هذه السورة بمزيد (عسق)؟ (الثانى) أنهم أجمعوا على أنه لا يفصل بين (كهيعص) وههنا يفصل بين (حم) وبين (عسق) فما السبب فيه؟.

واعلم أن الكلام فى أمثال هذه الفواتح يضيق، وفتح باب المجازفات مما لا سبيل إليه، فالأولى أن يفوض علمها إلى الله، وقرأ ابن عباس وابن مسعود (حم، عسق).

أما قوله تعالى (كذلك يوحى إليك) فالكاف معناه المثل وذا للاشارة إلى شىء سبق ذكره، فيكون المعنى مثل (حم عسق كذلك يوحى إليك وإلى الذين من قبلك) وعند هذا حصل قولان:

(الأول) نقل عن ابن عباس رضى الله عنه أنه قال «لا نبى صاحب كتاب إلا وقد أوحى إليه حم عسق» وهذا عندى بعيد .

(الثانى) أن يكون المعنى : مثل الكتاب المسمى (بحم عسق) يوحى الله إليك وإلى الذين من قبلك ، وهذه المماثلة المراد منها المماثلة فى الدعوة إلى التوحيد والعدل والنبوة والمعاد وتقبيح أحوال الدنيا والترغيب فى التوجه إلى الآخرة ، والذى يؤكد هذا أنا بينا فى سورة (سبح اسم ربك الأعلى) أن أولها فى تقرير التوحيد ، وأوسطها فى تقرير النبوة ، وآخرها فى تقرير المعاد ، ولما تم الكلام فى تقرير هذه المطالب الثلاثة قال (إن هذا لفى الصحف الأولى صحف إبراهيم وموسى) يعنى أن المقصود من إنزال جميع الكتب الإلهية ليس إلا هذه المطالب الثلاثة ، فكذلك ههنا يعنى مثل الكتاب المسمى بحم عسق يوحى الله إليك وإلى كل من قبلك من الأنبياء ، والمراد بهذه المماثلة الدعوة إلى هذه المطالب العالية والمباحث المقدسة الإلهية ، قال صاحب الكشاف : ولم يقل أوحى إليك ، ولكن قال (يوحى إليك) على لفظ المضارع ليدل على أن إيحاء مثله عادته ، وقرأ ابن كثير (كذلك يوحى) بفتح الحاء على ما لم يسم فاعله وهى إحدى الروايتين عن أبى عمرو وعن بعضهم (نوحى) بالنون ، وقرأ الباقون (يوحى إليك وإلى الذين من قبلك) بكسر الحاء ، فان قيل فعلى القراءة الأولى مارافع اسم الله تعالى ؟ قلنا مادل عليه يوحى ، كأن قائلا قال من الموحى ؟ فقيل الله ونظيره قراءة السلمى (وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤهم) على البناء للمفعول ورفع شركاؤهم ، فإن قيل فما رافعه فيمن قرأ (نوحى) بالنون ؟ قلنا يرفع بالابتداء ، والعزيز وما بعده أخبار ، أو (العزيز الحكيم) صفتان والظرف خبره ، ولما ذكر أن هذا الكتاب حصل بالوحى بين أن الموحى من هو فقال إنه هو (العزيز الحكيم) وقد بينا فى أول سورة (حم) المؤمن أن كونه (عزيزاً) يدل على كونه قادراً على مالانهاية له وكونه (حكيما) يدل على كونه عالماً بجميع المعلومات غنياً عن جميع الحاجات فيحصل لنا من كونه (عزيزاً حكيما) كونه قادراً على جميع المقدورات عالماً بجميع المعلومات غنياً عن جميع الحاجات ومن كان كذلك كانت أفعاله وأقواله حكمة وصواباً ، وكانت مبرأة عن العيب والعبث ، قال مصنف الكتاب قلت فى قصيدة :

الحمـــد لله ذى الآلاء والنعم والفضل والجود والإحسان والكرم
منزه الفعل عن عيب وعن عبث مقدس الملك عن عزل وعن عدم

والصفة الثالثة قوله (له ما فى السموات وما فى الأرض) وهـــذا يدل على مطلوبين فى غاية الجلال (أحدهما) كونه موصوفاً بقدرة كاملة نافذة فى جميع أجزاء السموات والأرض على عظمتهما وسعتهما بالإيجاد والإعدام والتكوين والإبطال (والثانى) أنه لما بين بقوله (له ما فى السموات وما فى الأرض) أن كل مافى السموات وما فى الأرض فهو ملكه وملكه ، وجب أن يكون منزهاً عن كونه حاصلا فى السموات وفى الأرض ، وإلا لزم كونه ملكا لنفسه ، وإذا

ثبت أنه ليس فى شىء من السموات امتنع كونه أيضاً فى العرش ، لأن كل ما سماك فهو سماء فاذا كان العرش موجوداً فوق السموات كان فى الحقيقة سماء ، فوجب أن يكون كل ما كان حاصلا فى العرش ملكا لله وملكا له ، فوجب أن يكون منزهاً عن كونه حاصلا فى العرش ، وإن قالوا إنه تعالى قال (له ما فى السموات) وكلمة مالا تتناول من يعقل قلنا هذا مدفوع من وجهين : (الأول) أن لفظة ما واردة فى حق الله تعالى قال تعالى (والسماء وما بناها ، والأرض وما طحاها) وقال (لا أعبد ما تعبدون ولا أنتم عابدون ما أعبد) ، (والثانى) أن صيغة من وردت فى مثل هذه السورة قال تعالى (إن كل من فى السموات و الأرض إلا آتى الرحمن عبداً) وكلمة من لا شك أنها واردة فى حق الله تعالى فدلت هذه الآية على أن كل من فى السموات والأرض فهو عبد لله فلو كان الله موجوداً فى السموات والأرض وفى العرش لكان هو من جملة من فى السموات فوجب أن يكون عبد الله ، ولما ثبت بهذه الآية أن كل من كان موجوداً فى السموات والعرش فهو عبد لله وجب فيمن تقدست كبرياؤه عن تهمة العبودية أن يكون منزهاً عن الكون فى المكان والجهة والعرش والكرسى .

والصفة الرابعة والخامسة قوله تعالى (وهو العلى العظيم) ولا يجوز أن يكون المراد بكونه علياً العلو فى الجهة والمكان لما ثبتت الدلالة على فساده ، ولا يجوز أن يكون المراد من العظيم العظمة بالجثة وكبر الجسم ، لأن ذلك يقتضى كونه مؤلفاً من الأجزاء والأبعاض ، وذلك ضد قوله (الله أحد) فوجب أن يكون المراد من العلى المتعالى عن مشابهة الممكنات ومناسبة المحدثات ، ومن العظيم العظمة بالقدرة والقهر بالاستعلاء وكمال الإلهية .

ثم قال ﴿تكاد السموات يتفطرن من فوقهن﴾ وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قرأ أبو عمرو وعاصم فى رواية أبى بكر (تكاد) بالتاء (يتفطرن) بالياء والنون ، وقرأ ابن كثير وابن عامر وحفص عن عاصم وحمزة (تكاد) بالتاء (يتفطرن) بالياء والتاء ، وقرأ نافع والكسائى : (يكاد) بالياء (يتفطرن) أيضاً بالتاء ، قال صاحب الكشاف : وروى يونس عن أبى عمرو قراءة غريبة (تتفطرن) بالتاءين مع النون ، ونظيرها حرف نادر ، روى فى نوادر ابن الإعرابى : الإبل تتشممن .

﴿ المسألة الثانية ﴾ فى فائدة قوله (من فوقهن) وجوه (الأول) روى عكرمة عن ابن عباس أنه قال (تكاد السموات يتفطرن من فوقهن) قال والمعنى أنها تكاد تتفطر من ثقل الله عليها .

واعلم أن هذا القول سخيف ، ويجب القطع ببراءة ابن عباس عنه ، ويدل على فساده وجوه : (الأول) أن قوله (من فوقهن) لا يفهم منه من فوقهن (وثانيها) هب أنه يحمل على ذلك ، لكن لم قلتم إن هذه الحالة إنما حصلت من ثقل الله عليها ، ولم لا يجوز أن يقال إن هذه الحالة إنما حصلت من ثقل الملائكة عليها ، كما جاء فى الحديث أنه صلى الله عليه وسلم قال « أطت السماء وحق لها أن تئط ما فيها موضع شبر إلا وفيه ملك قائم أو راكع أو ساجد » (وثالثها) لم لا يجوز أن يكون المراد

تكاد السموات تنشق و تنفطر من هيبة من هو فوقها بالفوقية بالإلهية والقهر والقدرة ؟ ، فثبت بهذه الوجوه أن القول الذى ذكروه فى غاية الفساد والركاكة (والوجه الثانى) فى تأويل الآية ماذكره صاحب الكشاف ، وهو أن كلمة الكفر إنما جاءت من الذين تحت السموات ، وكان القياس أن يقال : يتفطرن من تحتهن من الجهة التى جاءت منها الكلمة ، ولكنه بولغ فى ذلك فقلب فجعلت مؤثرة فى جهة الفوق ، كأنه قيل : يكدن يتفطرن من الجهة التى فوقهن ، ودع الجهة التى تحتهن ، ونظيره فى المبالغة قوله تعالى (يصب من فوق رؤوسهم الحميم ، يصهر به ما فى بطونهم والجلود) لجعل مؤثراً فى أجزائه الباطنة (الوجه الثالث) فى تأويل الآية أن يقال (من فوقهن) أى من فوق الأرضين ، لأنه تعالى قال قبل هذه الآية (له ما فى السموات وما فى الأرض) ثم قال (تكاد السموات يتفطرن من فوقهن) أى من فوق الأرضين (والوجه الربع) فى التأويل أن يقال معنى (من فوقهن) أى من الجهة التى حصلت هذه السموات فيها ، وتلك الجهة هى فوق ، فقوله (من فوقهن) أى من الجهة الفوقانية التى هن فيها .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ اختلفوا فى أن هذه الهيئة لم حصلت ؟ وفيه قولان (الأول) أنه تعالى لما بين أن الموحى لهذا الكتاب هو الله العزيز الحكيم ، بين وصف جلاله وكبريائه ، فقال (تكاد السموات يتفطرن من فوقهن) أى من هيبته وجلالته (والقول الثانى) أن السبب فيه إثباتهم الولد لله لقوله ، (تكاد السموات يتفطرن) منه ، وههنا السبب فيه إثباتهم الشركاء لله ، لقوله بعد هذه الآية (والذين اتخذوا من دونه أولياء) والصحيح هو الأول ، ثم قال (والملائكة يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن فى الأرض) .

واعلم أن مخلوقات الله تعالى نوعان : عالم الجسمانيات وأعظمها السموات ، وعالم الروحانيات وأعظمها الملائكة ، والله تعالى يقرر كمال عظمته لأجل نفاذ قدرته وهيبته فى الجسمانيات ، ثم يردفه بنفاذ قدرته واستيلاء هيبته على الروحانيات ، والدليل عليه أنه تعالى قال فى سورة (عم يتساءلون) لما أراد تقرير العظمة والكبرياء بدأ بذكر الجسمانيات ، فقال (رب السموات والأرض وما بينهما الرحمن لا يملكون منه خطاباً) ثم انتقل إلى ذكر عالم الروحانيات ، فقال (يوم يقوم الروح والملائكة صفاً لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صواباً) فكذلك القول فى هذه الآية بين كمال عظمته باستيلاء هيبته على الجسمانيات ، فقال (تكاد السموات يتفطرن من فوقهن) ثم انتقل إلى ذكر الروحانيات ، فقال (والملائكة يسبحون بحمد ربهم) فهذا ترتيب شريف وبيان باهر .

واعلم أن الموجودات على ثلاثة أقسام : مؤثر لا يقبل الأثر ، وهو الله سبحانه وتعالى وهو أشرف الأقسام ، ومتأثر لا يؤثر ، وهو القابل وهو الجسم وهو أخس الأقسام ، وموجود يقبل الأثر من القسم الأول ، ويؤثر فى القسم الثانى وهو الجواهر الروحانيات المقدسة ، وهو المرتبة

المتوسطة ، إذا عرفت هذا ، فنقول الجواهر الروحانية لها تعلقان : تعلق بعالم الجلال والكبرياء ، وهو تعلق القبول ، فإن الجلايا القدسية والأضوء الصمدية إذا أشرقت على الجواهر الروحانية استضاءت جواهرها وأشرقت ماهياتها ، ثم إن الجواهر الروحانية إذا استفادت تلك القوى الروحانية ، قويت بها على الاستيلاء على عوالم الجسمانيات ، وإذا كان كذلك فلها وجهان : وجه إلى جانب الكبرياء وحضرة الجلال ، ووجه إلى عالم الأجسام والوجه الأول أشرف من الثانى . إذا عرفت هذا فنقول :

قوله تعالى (يسبحون بحمد ربهم) إشارة إلى الوجه الذى لهم إلى عالم الجلال والكبرياء ، وقوله (ويستغفرون لمن فى الأرض) إشارة إلى الوجه الذى لهم إلى عالم الأجسام ، فما أحسن هذه اللطائف وما أشرفها وما أشد تأثيرها فى جذب الأرواح من حضيض الخلق إلى أوج معرفة الحق ، إذا عرفت هذا فنقول : أما الجهة الأولى وهى الجهة العلوية المقدسة ، فقد اشتملت على أمرين : أحدهما التسبيح ، وثانيهما التحميد ، لأن قوله (يسبحون بحمد ربهم) يفيد هذين الأمرين ، والتسبيح مقدم على التحميد ، لأن التسبيح عبارة عن تنزيه الله تعالى عما لا ينبغى ، والتحميد عبارة عن وصفه بكونه مفيضاً لكل الخيرات وكونه منزهاً فى ذاته عما لا ينبغى ، مقدم بالرتبة على كونه فياضاً للخيرات والسعادات ، لأن وجود الشىء مقدم على إيجاد غيره ، وحصوله فى نفسه مقدم على تأثيره فى حصول غيره ، فلهذا السبب كان التسبيح مقدماً على التحميد ، ولهذا قال (يسبحون بحمد ربهم) .

وأما الجهة الثانية ، وهى الجهة التى لتلك الأرواح إلى عالم الجسمانيات ، فالإشارة إليها بقوله (ويستغفرون لمن فى الأرض) والمراد منه تأثيراتها فى نظم أحوال هذا العالم وحصول الطريق الأصوب الأصلح فيها ، فهذه ملامح من المباحث العالية الإلهية مدرجة فى هذه الآيات المقدسة ، ولنرجع إلى مايليق بعلم التفسير ، فإن قيل كيف يصح أن يستغفروا لمن فى الأرض وفيهم الكفار ، وقد قال تعالى (أولئك عليهم لعنة الله والملائكة) فكيف يكونون لاعنين ومستغفرين لهم ؟ ، قلنا (الجواب) عنه من وجوه :

(الأول) أن قوله (لمن فى الأرض) لا يفيد العموم ، لأنه يصح أن يقال إنهم استغفروا لكل من فى الأرض وأن يقال إنهم استغفروا لبعض من فى الأرض دون البعض ، ولو كان قوله لمن فى الأرض صريحاً فى العموم لما صح ذلك التقسيم (الثانى) هب أن هذا النص يفيد العموم إلا أنه تعالى حكى عن الملائكة فى سورة حم المؤمن فقال (ويستغفرون للذين آمنوا ربنا وسعت كل شىء رحمة وعلماً فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك) (الثالث) يجوز أن يكون المراد من الاستغفار أن لا يعاجلهم بالعقاب كما فى قوله تعالى (إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا) إلى أن قال (إنه كان حليماً غفوراً) (الرابع) يجوز أن يقال إنهم يستغفرون لكل من فى الأرض ، أما فى حق الكفار فبواسطة طلب الإيمان لهم ، وأما فى حق المؤمنين فبالتجاوز عن سيئاتهم ، فانا

وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ ﴿٧﴾ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ

تقول اللهم اهد الكافرين وزين قلوبهم بنور الإيمان وأزل عن خواطرهم وحشة الكفر ، وهذا فى الحقيقة استغفار .

واعلم أن قوله (ويستغفرون لمن فى الأرض) يدل على أنهم لا يستغفرون لأنفسهم ، ولو كانوا مصرين على المعصية لكان استغفارهم لأنفسهم قبل استغفارهم لمن فى الأرض ، وحيث لم يذكر الله عنهم استغفارهم لأنفسهم علمنا أنهم مبرءون عن كل الذنوب والأنبياء عليهم السلام لهم ذنوب والذى لا ذنب له البتة أفضل ممن له ذنب وأيضاً فقوله (ويستغفرون لمن فى الأرض) يدل على أنهم يستغفرون للأنبياء لأن الأنبياء فى جملة من فى الأرض ، وإذا كانوا مستغفرين للأنبياء عليهم السلام كان الظاهر أنهم أفضل منهم .

ولما حكى الله تعالى عن الملائكة التسبيح والتحميد والاستغفار قال (ألا إن الله هو الغفور الرحيم) والمقصود التنبيه على أن الملائكة وإن كانوا يستغفرون للبشر إلا أن المغفرة المطلقة والرحمة المطلقة للحق سبحانه وتعالى وبيانه من وجوه (الأول) أن إقدام الملائكة على طلب المغفرة للبشر من الله تعالى إنما كان لأن الله تعالى خلق فى قلوبهم داعية لطلب تلك المغفرة ، ولولا أن الله تعالى خلق فى قلوبهم تلك الدواعى وإلا لما أقدموا على ذلك الطلب وإذا كان كذلك كان الغفور المطلق والرحيم المطلق هو الله سبحانه وتعالى (الثانى) أن الملائكة قالوا فى أول الأمر (أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك) ثم فى آخر الأمر صاروا يستغفرون لمن فى الأرض ، وأما رحمة الحق وإحسانه فقد كان موجوداً فى الأول والآخر فثبت أن الغفور المطلق والرحيم المطلق هو الله تعالى (الثالث) أنه تعالى حكى عنهم أنهم يستغفرون لمن فى الأرض ولم يحك عنهم أنهم يطلبون الرحمة لمن فى الأرض فقال (ألا إن الله هو الغفور الرحيم) يعنى أنه يعطى المغفرة التى طلبوها ويضم إليها الرحمة الكاملة التامة .

ثم قال تعالى (والذين اتخذوا من دونه أولياء) أى جعلوا له شركاء وأندادا (الله حفيظ عليهم) أى رقيب على أحوالهم وأعمالهم ، لا يفوته منها شىء وهو محاسبهم عليها لا رقيب عليهم إلا هو وحده وما أنت يا محمد بمفوض إليك أمرهم ولا قسرهم على الإيمان ، إنما أنت منذر فحسب .

قوله تعالى : ﴿ وكذلك أوحينا إليك قرآناً عربياً لتنذر أم القرى ومن حولها وتنذر يوم الجمع لاريب فيه فريق فى الجنة وفريق فى السعير ، ولو شاء الله لجعلهم أمة واحدة ولكن يدخل من يشاء فى رحمته والظالمون مالهم من ولى ولا نصير ، أم اتخذوا من دونه أولياء فالله هو الولى وهو

لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحْمَتِهِۦ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيٍّ

وَلَا نَصِيرٍ ﴿٨﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ

وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٩﴾ وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ذَٰلِكُمُ

ٱللَّهُ رَبِّى عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾ فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَعَلَ لَكُم

مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ

ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾ لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ

وَيَقْدِرُ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٢﴾

يحيي الموتى وهو على كل شيء قدير ، وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه إلى الله ذلكم الله ربي عليه توكلت وإليه أنيب ، فاطر السموات والأرض جعل لكم من أنفسكم أزواجاً ومن الأنعام أزواجاً يذرؤكم فيه ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ، له مقاليد السموات والأرض يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر إنه بكل شيء عليم ﴾

واعلم أن كلمة (ذلك) للاشارة إلى شيء سبق ذكره فقوله (وكذلك أوحينا إليك قرآناً عربياً) يقتضي تشبيه وحي الله بالقرآن بشيء ههنا قد سبق ذكره ، وليس ههنا شيء سبق ذكره يمكن تشبيه وحي القرآن به إلا قوله (والذين اتخذوا من دونه أولياء الله حفيظ عليهم وما أنت عليهم بوكيل) يعني كما أوحينا إليك أنك لست حفيظاً عليهم ولست وكيلا عليهم ، فكذلك أوحينا إليك قرآناً عربياً لتكون نذيراً لهم وقوله تعالى (لتنذر أم القرى) أي لتنذر أهل أم القرى لأن البلد لا تعقل وهو كقوله (واسأل القرية) وأم القرى أصل القرى وهي مكة وسميت بهذا الاسم إجلالا لها لأن فيها البيت ومقام إبراهيم ، والعرب تسمي أصل كل شيء أمه حتى يقال هذه القصيدة من أمهات قصائد فلان ، ومن حولها من أهل البدو والحضر وأهل المدر ، والإنذار التخويف ، فإن قيل فظاهر اللفظ يقتضي أن الله تعالى إنما أوحى إليه لينذر أهل مكة وأهل القرى المحيطة بمكة وهذا يقتضي أن يكون رسولا إليهم فقط وأن لا يكون رسولا إلى كل العالمين (والجواب) أن التخصيص بالذكر لا يدل على نفي الحكم عما سواه ، فهذه الآية تدل على كونه رسولا إلى هؤلاء

خاصة وقوله (وما أرسلناك إلا كافة للناس) يدل على كونه رسولا إلى كل العالمين ، وأيضاً لما ثبت كونه رسولا إلى أهل مكة وجب كونه صادقاً ، ثم إنه نقل إلينا بالتواتر كان يدعى أنه رسول إلى كل العالمين ، والصادق إذا أخبر عن شيء وجب تصديقه فيه ، فثبت أنه رسول إلى كل العاملين .

ثم قال تعالى (وتنذر يوم الجمع) الأصل أن يقال أنذرت فلاناً بكذا فكان الواجب أن يقال لتنذر أم القرى بيوم الجمع وأيضاً فيه اضمار والتقدير لتنذر أهل أم القرى بعذاب يوم الجمع وفى تسميته بيوم الجمع وجوه (الأول) أن الخلائق يجمعون فيه قال تعالى (يوم يجمعكم ليوم الجمع) فيجتمع فيه أهل السموات من أهل الأرض (الثانى) أنه يجمع بين الأرواح والأجساد (الثالث) يجمع بين كل عامل وعمله (الرابع) يجمع بين الظالم والمظلوم وقوله (لا ريب فيه) صفة ليوم الجمع الذى لاريب فيه ، وقوله (فريق فى الجنة وفريق فى السعير) تقديره ليوم الجمع الذى من صفته يكون القوم فيه فريقين ، فريق فى الجنة وفريق فى السعير ، فإن قيل قوله (يوم الجمع) يقتضى كون القوم مجتمعين وقوله (فريق فى الجنة وفريق فى السعير) يقتضى كونهم متفرقين ، والجمع بين الصفتين محال ، قلنا إنهم يجتمعون أولا ثم يصيرون فريقين .

ثم قال (ولو شاء الله لجعلهم أمة واحدة) والمراد تقرير قوله (والذين اتخذوا من دونه أولياء الله حفيظ عليهم وما أنت عليهم بوكيل) أى لا يكن فى قدرتك أن تحملهم على الإيمان ، فلو شاء الله ذلك لفعله لأنه أقدر منك ، ولكنه جعل البعض مؤمناً والبعض كافراً ، فقوله (يدخل من يشاء فى رحمته) يدل على أنه تعالى هو الذى أدخلهم فى الإيمان والطاعة ، وقوله (والظالمون مالهم من ولى ولا نصير) يعنى أنه تعالى ماأدخلهم فى رحمته ، وهذا يدل على أن الأولين إنما دخلوا فى رحمته ، لأنه كان لهم ولى ونصير أدخلهم فى تلك الرحمة ، وهؤلاء ماكان لهم ولى ولا نصير يدخلهم فى رحمته .

ثم قال تعالى (أم اتخذوا من دونه أولياء) والمعنى أنه تعالى حكى عنهم أولا أنهم اتخذوا من دونه أولياء ، ثم قال بعده لمحمد ﷺ لست عليهم رقيباً ولا حافظاً ، ولا يجب عليك أن تحملهم على الإيمان شاءوا أم أبوا ، فإن هذا المعنى لو كان واجباً لفعله الله ، لأنه أقدر منك ، ثم إنه تعالى أعاد بعده ذلك الكلام على سبيل الاستنكار ، فإن قوله (أم اتخذوا من دونه أولياء) استفهام على سبيل الإنكار .

ثم قال تعالى (فالله هو الولى) والفاء فى قوله (فالله هو الولى) جواب شرط مقدر ، كأنه قال : إن أرادو أولياء بحق فالله هو الولى بالحق لا ولى سواه ، لأنه يحيى الموتى وهو على كل شيء قدير ، فهو الحقيق بأن يتخذ ولياً دون من لايقدر على شيء .

ثم قال ﴿ وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه إلى الله ﴾ وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ وجه النظم أنه تعالى كما منع الرسول ﷺ أن يحمل الكفار على الإيمان قهراً ، فكذلك منع المؤمنين أن يشرعوا معهم فى الخصومات والمنازعات فقال (وما اختلفتم فيه من شىء فحكمه إلى الله) وهو إثابة المحقين فيه ومعاقبة المبطلين ، وقيل وما اختلفتم فيه من شىء وتنازعتم فتحاكموا فيه إلى الرسول ﷺ ، ولا تؤثر حكومة غيره على حكومته ، وقيل وما وقع بينكم فيه خلاف من الأمور التى لا تصل بتكليفكم ، ولا طريق لكم إلى علمه ككيفية الروح ، فقولوا الله أعلم به ، قال تعالى (ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى) .

﴿ المسألة الثانية ﴾ تقدير الآية كأنه قال : قل يا محمد (وما اختلفتم فيه من شىء فحكمه إلى الله) والدليل عليه قوله تعالى (ذلكم الله ربى عليه توكلت وإليه أنيب) .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ احتج نفاة القياس بهذه الآية فقالوا قوله تعالى (وما اختلفتم فيه من شىء فحكمه إلى الله) إما أن يكون المراد فحكمه مستفاد من نص الله عليه ، أو المراد فحكمه مستفاد من القياس على ما نص الله عليه ، والثانى باطل لأنه يقتضى كون كل الاحكام مثبتة بالقياس وأنه باطل فيعتبر الأول ، فوجب كون كل الاحكام مثبتة بالنص وذلك ينفى العمل بالقياس ، ولقائل أن يقول لم لا يجوز أن يكون المراد فحكمه يعرف من بيان الله تعالى ، سواء كان ذلك البيان بالنص أو بالقياس ؟ أجيب عنه بأن المقصود من التحاكم إلى الله قطع الاختلاف ، والرجوع إلى القياس يقوى حكم الاختلاف ولا يوضحه ، فوجب أن يكون الواجب هو الرجوع إلى نصوص الله تعالى .

ثم قال تعالى (ذلكم الله ربى) أى ذلكم الحاكم بينكم هو (ربى عليه توكلت) فى دفع كيد الأعداء وفى طلب كل خير (وإليه أنيب) أى وإليه أرجع فى كل المهمات ، وقوله (عليه توكلت) يفيد الحصر ، أى لا أتوكل إلا عليه ، وهو إشارة إلى تزييف طريقة من اتخذ غير الله ولياً .

ثم قال (فاطر السموات والأرض) قرىء بالرفع والجر ، فالرفع على أنه خبر ذلكم ، أو خبر مبتدأ محذوف ، والجر على تقدير أن يكون الكلام هكذا (وما اختلفتم فيه من شىء فحكمه إلى الله فاطر السموات والأرض) وقوله (ذلكم الله ربى) اعتراض وقع بين الصفة والموصوف ، (جعل لكم من أنفسكم) من جنسكم من الناس (أزواجا ومن الأنعام أزوجا) أى خلق من الأنعام أزواجا ، ومعناه وخلق أيضاً للأنعام من أنفسها أزواجا (يذرأكم) أى يكثركم ، يقال : ذرأ الله الخلق ، أى كثرهم ، وقوله (فيه) أى فى هذا التدبير ، وهو التزويج وهو أن جعل الناس والأنعام أزواجا حتى كان بين ذكورهم وإناثهم التوالد والتناسل ، والضمير فى (يذرؤكم) يرجع إلى المخاطبين ، إلى أنه غلب فيه جانب الناس من وجهين (الأول) أنه غلب فيه جانب العقلاء على غير العقلاء (الثانى) أنه غلب فيه جانب المخاطبين على الغائبين ، فإن قيل ما معنى يذرؤكم فى هذا التدبير ، ولم لم يقل يذرؤكم به ؟ قلنا جعل هذا التدبير كالمنبع والمعدن لهذا التكثير ، ألا ترى أنه يقال للحيوان فى خلق الأزواج تكثير ، كما قال تعالى (ولكم فى القصاص حياة) .

قوله تعالى : ﴿ليس كمثله شيء وهو السميع البصير﴾ وهذه الآية فيها مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ احتج علماء التوحيد قديماً وحديثاً بهذه الآية فى نفى كونه تعالى جسما مركباً من الأعضاء والأجزاء وحاصلا فى المكان والجهة ، وقالوا لو كان جسما لكان مثلا لسائر الأجسام ، فيلزم حصول الأمثال والأشباه له ، وذلك باطل بصريح قوله تعالى (ليس كمثله شيء) ويمكن إيراد هذه الحجة على وجه آخر ، فيقال إما أن يكون المراد (ليس كمثله شيء) فى ماهيات الذات ، أو أن يكون المراد ليس كمثله فى الصفات شيء ، والثانى باطل ، لأن العباد يوصفون بكونهم عالمين قادرين ، كما أن الله تعالى يوصف بذلك ، وكذلك يوصفون بكونهم معلومين مذكورين ، مع أن الله تعالى يوصف بذلك ، فثبت أن المراد بالمماثلة المساواة فى حقيقة الذات ، فيكون المعنى أن شيئاً من الذوات لا يساوى الله تعالى فى الذاتية ، فلو كان الله تعالى جسما ، لكان كونه جسما ذاتاً لا صفة ، فإذا كان سائر الأجسام مساوية له فى الجسمية ، أعنى فى كونها متحيزة طويلة عريضة عميقة ، ، فحينئذ تكون سائر الأجسام مماثلة لذات الله تعالى فى كونه ذاتاً ، والنص ينفى ذلك فوجب أن لا يكون جسما .

واعلم أن محمد بن إسحق بن خزيمة أورد استدلال أصحابنا بهذه الآية فى الكتاب الذى سماه بالتوحيد ، وهو فى الحقيقة كتاب الشرك ، واعترض عليها ، وأنا أذكر حاصل كلامه بعد حذف التطويلات ، لأنه كان رجلا مضطرب الكلام ، قليل الفهم ، ناقص العقل ، فقال : « نحن نثبت لله وجهاً ونقول : إن لوجه ربنا من النور والضياء والبهاء ، مالو كشف حجابه لأحرقت سبحات وجهه كل شيء أدركه بصره ، ووجه ربنا منفى عنه الهلاك والفناء ، ونقول إن لبنى آدم وجوهاً كتب الله عليها الهلاك والفناء ، ونفى عنها الجلال والإكرام ، غير موصوفة بالنور والضياء والبهاء ، ولو كان مجرد إثبات الوجه لله يقتضى التشبيه لكان من قال إن لبنى آدم وجوهاً وللخنازير والقردة والكلاب وجوهاً ، لكان قد شبه وجوه بنى آدم بوجوه الخنازير والقردة والكلاب . ثم قال : ولا شك أنه اعتقاد الجهمية لأنه لو قيل له : وجهك يشبه وجه الخنازير والقردة لغضب ولشافهه بالسوء ، فعلمنا أنه لا يلزم من إثبات الوجه واليدين لله إثبات التشبيه بين الله وبين خلقه » .

وذكر فى فصل آخر من هذا الكتاب « أن القرآن دل على وقوع التسوية بين ذات الله تعالى وبين خلقه فى صفات كثيرة ، ولم يلزم منها أن يكون القائل مشبهاً فكذا ههنا » ونحن نعد الصور التى ذكرها على الاستقصاء (فالأول) أنه تعالى قال فى هذه الآية (وهو السميع البصير) وقال فى حق الإنسان (فجعلناه سميعاً بصيراً) ، (الثانى) قال (وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله) وقال فى حق المخلوقين (أولم يروا إلى الطير مسخرات فى جو السماء) ، (الثالث) قال (واصنع الفلك بأعيننا ، واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا) وقال فى حق المخلوقين (ترى أعينهم تفيض من الدمع) (الرابع) قال لإبليس (مامنعك أن تسجد لما خلقت بيدى) وقال (بل يداه مبسوطتان) وقال

فى حق المخلوقين (ذلك بما قدمت أيديكم) ، (ذلك بما قدمت يداك) ، (إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم) ، (الخامس) قال تعالى (الرحمن على العرش استوى) وقال فى الذين يركبون الدواب (لتستووا على ظهوره) وقال فى سفينة نوح (واستوت على الجودى) (السادس) سمى نفسه عزيزا فقال (العزيز الجبار) ، ثم ذكر هذا الاسم فى حق المخلوقين بقوله (يا أيها العزيز إن له أباً شيخاً كبيراً ، يا أيها العزيز مسنا وأهلنا الضر) ، (السابع) سمى نفسه بالملك وسمى بعض عبيده أيضاً بالملك فقال (وقال الملك ائتونى به) وسمى نفسه بالعظيم ثم أوقع هذا الاسم على المخلوق فقال (رب العرش العظيم) وسمى نفسه بالجبار المتكبر وأوقع هذا الاسم على المخلوق فقال (كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار) ثم طول فى ضرب الأمثلة من هذا الجنس ، وقال ومن وقف على الأمثلة التى ذكرناها أمكنه الإكثار منها ، فهذا ما أورده هذا الرجل فى هذا الكتاب .

وأقول هذا المسكين الجاهل إنما وقع فى أمثال هذه الخرافات لأنه لم يعرف حقيقة المثلين وعلماء التوحيد حققوا الكلام فى المثلين ثم فرعوا عليه الاستدلال بهذه الآية ، فنقول المثلان هما اللذان يقوم كل واحد منهما مقام الآخر فى حقيقته وماهيته ، وتحقيق الكلام فيه مسبوق بمقدمة أخرى فنقول : المعتبر فى كل شىء ، إما تمام ماهيته وإما جزء من أجزاء ماهيته وإما أمر خارج عن ماهيته ، ولكنه من لوازم تلك الماهية ، وأما أمر خارج عن ماهيته ولكنه ليس من لوازم تلك الماهية وهذا التقسيم مبنى على الفرق بين ذات الشىء وبين الصفات القائمة به وذلك معلوم بالبديهة ، فانا نرى الحبة من الحصرم كانت فى غاية الخضرة والحموضة ثم صارت فى غاية السواد والحلاوة ، فالذات باقية والصفات مختلفة والذات الباقية مغايرة للصفات المختلفة ، وأيضاً نرى الشعر قد كان فى غاية السواد ثم صار فى غاية البياض ، فالذات باقية والصفات متبدلة والباقى غير المتبدل ، فظهر بما ذكرنا أن الذوات مغايرة للصفات . إذا عرفت هذا فنقول : اختلاف الصفات لا يوجب اختلاف الذوات البتة ، لأنا نرى الجسم الواحد كان ساكناً ثم يصير متحركا ، ثم يسكن بعد ذلك ، فالذوات باقية فى الأحوال كلها على نهج واحد ونسق واحد ، والصفات متعاقبة متزايلة ، فثبت بهذا أن اختلاف الصفات والأعراض لا يوجب اختلاف الذوات ، إذا عرفت هذا فنقول : الأجسام منها تألف وجه الكلب والقرد مساوية للأجسام التى تألف منها وجه الإنسان والفرس وإنما حصل الاختلاف بسبب الأعراض القائمة وهى الألوان والأشكال والخشونة والملاسة وحصول الشعور فيه وعدم حصولها ، فالاختلاف إنما وقع بسبب الاختلاف فى الصفات والأعراض ، فأما ذوات الأجسام فهى متماثلة إلا أن العوام لايعرفون الفرق بين الذوات وبين الصفات ، فلا جرم يقولون إن وجه الإنسان مخالف لوجه الحمار ، ولقد صدقوا فإنه حصلت تلك بسبب الشكل واللون وسائر الصفات ، فأما الأجسام من حيث إنها أجسام فهى متماثلة متساوية ، فثبت أن الكلام

الذى أورده إنما ذكره لأجل أنه كان من العوام وماكان يعرف أن المعتبر فى التماثل والاختلاف حقائق الأشياء وماهياتها لا الأعراض والصفات القائمة بها ، بقى ههنا أن يقال فما الدليل على أن الأجسام كلها متماثلة ؟ فنقول لنا هاهنا مقامان :

﴿المقام الأول﴾ أن نقول هذه المقدمة إما أن تكون مسلمة أولا تكون مسلمة ، فإن كانت مسلمة فقد حصل المقصود ، وإن كانت ممنوعة ، فنقول فلم لا يجوز أن يقال إله العالم هو الشمس أو القمر أو الفلك أو العرش أو الكرسى ، ويكون ذلك الجسم مخالفاً لماهية سائر الإجسام فكان هو قديماً أزلياً واجب الوجود وسائر الأجسام محدثة مخلوقة ، ولو أن الأولين والآخرين اجتمعوا على أن يسقطوا هذا الإلزام عن المجسمة لايقدرون عليه ؟ فإن قالوا هذا باطل لأن القرآن دل على أن الشمس والقمر والأفلاك كلها محدثة مخلوقة فيقال هذا من باب الحماقة المفرطة لأن صحة القرآن وصحة نبوة الأنبياء مفرعة على معرفة الإله ، فإثبات معرفة الإله بالقرآن وقول النبى لايقوله عاقل يفهم مايتكلم به .

﴿والمقام الثانى﴾ أن علماء الأصول أقاموا البرهان القاطع على تماثل الأجسام فى الذوات والحقيقة ، وإذا ثبت هذا ظهر أنه لو كان إله العالم جسما لكانت ذاته مساوية لذوات الأجسام إلا أن هذا باطل بالعقل والنقل ، أما العقل فلأن ذاته إذا كانت مساوية لذوات سائر الأجسام وجب أن يصح عليه مايصح على سائر الأجسام، فيلزم كونه محدثاً مخلوقاً قابلا للعدم والفناء قابلا للتفرق والتمزق . وأما النقل فقوله تعالى (ليس كمثله شىء) فهذا تمام الكلام فى تقرير هذا الدليل وعند هذا يظهر أنا لانقول بأنه متى حصل الاستواء فى الصفة لزم حصول الاستواء فى تمام الحقيقة إلا أنا نقول لما ثبت أن الأجسام متماثلة فى تمام الماهية ، فلو كانت ذاته جسما لكان ذلك الجسم مساوياً لسائر الأجسام فى تمام الماهية ، وحينئذ يلزم أن يكون كل جسم مثلا له ، لما بينا أن المعتبر فى حصول المماثلة اعتبار الحقائق من حيث هى هى ، لا اعتبار الصفات القائمة بها فظهر بالتقرير الذى ذكرناه أن حجة أهل التوحيد فى غاية القوة ، وأن هذه الكلمات التى أوردها هذا الإنسان إنما أوردها لأنه كان بعيداً عن معرفة الحقائق ، فجرى على منهج كلمات العوام فاغتر بتلك الكلمات التى ذكرها ونسأل الله تعالى حسن الخاتمة .

﴿المسألة الثانية﴾ فى ظاهر هذه الآية إشكال ، فإنه يقال المقصود منها نفى المثل عن الله تعالى وظاهرها يوجب إثبات المثل لله ، فانه يقتضى نفى المثل عن مثله لا عنه ، وذلك يوجب إثبات المثل لله تعالى ، وأجاب العلماء عنه بأن قالوا إن العرب تقول مثلك لا يبخل أى أنت لا تبخل فنفوا البخل عن مثله ، وهم يريدون نفيه عنه ، ويقول الرجل : هذا الكلام لا يقال لمثلى أى لا يقال لى قال الشاعر :

« ومثلى كمثل جذوع النخيل »

والمراد منه المبالغة فانه إذاكان ذلك الحكم منتفياً عمن كان مشابهاً بسبب كونه مشابهاً له ، فلأن يكون منتفياً عنه كان ذلك أولى ، ونظيره قولهم : سلام على المجلس العالى ، والمقصود أن سلام الله إذاكان واقعاً على مجلسه وموضعه فلأن يكون واقعاً عليه كان ذلك أولى . فكذا ههنا قوله تعالى (ليس كمثله شيء) والمعنى ليس كهو شيء على سبيل المبالغة من الوجه الذى ذكرناه ، وعلى هذا التقدير فلم يكن هذا اللفظ ساقطاً عديم الأثر ، بل كان مفيداً للمبالغة من الوجه الذى ذكرناه ، وزعم جهم بن صفوان إن المقصود من هذه الآية بيان أنه تعالى ليس مسمى باسم الشيء قال لأن كل شيء فانه يكون مثلا لمثل نفسه فقول (ليس كمثله شيء) معناه ليس مثل مثله شيء وذلك يقتضى أن لايكون هو مسمى باسم الشيء ، وعندى فيه طريقة أخرى ، وهى أن المقصود من ذكر الجمع بين حرفى التشبيه الدليل الدال على كونه منزها عن المثل ، وتقريره أن يقال لوكان له مثل لكان هو مثل نفسه ، وهذا محال فاثبات المثل له محال ، أما بيان أنه لو كان له مثل لكان هو مثل نفسه فالأمر فيه ظاهر ، وأما بيان أن هذا محال فلأنه لوكان مثل مثل نفسه لكان مساوياً لمثله فى تلك الماهية ومبايناًله فى نفسه ، ومابه المشاركة غيرمابه المباينة . فتكون ذات كل واحد منهما مركباً وكل مركب ممكن ، فثبت أنه لو حصل لواجب الوجود مثل لماكان هو فى نفسه واجب الوجود ، إذاعرفت هذا فقوله ليس مثل مثله شيء إشارة إلى أنه لو صدق عليه أنه مثل مثل نفسه لماكان هو شيئاً بناء على ما بينا أنه لو حصل لواجب الوجود مثل لماكان واجب الوجود ، فهذا ما يحتمله اللفظ .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ هذه الآية دالة على نفى المثل وقوله تعالى (وله المثل الأعلى) يقتضى إثبات المثل فلابد من الفرق بينهما ، فنقول المثل هو الذى يكون مساوياً للشيء فى تمام الماهية والمثل هو الذى يكون مساوياً له فى بعض الصفات الخارجة عن الماهية وإن كان مخالفاً فى تمام الماهية .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قوله (وهو السميع البصير) يدل على كونه تعالى سامعاً للمسموعات مبصراً للمرئيات ، فإن قيل يمتنع إجراء هذا اللفظ على ظاهره وذلك لأنه إذا حصل قرع أو قلع انقلب الهواء من بين ذينك الجسمين انقلاباً بعنف فيتموج الهواء بسبب ذلك ويتأدى ذلك التموج إلى سطح الصماخ فهذا هو السماع ، وأما الإبصار فهو عبارة عن تأثر الحدقة بصورة المرئى ، فثبت أن السمع والبصر عبارة عن تأثر الحاسة ، وذلك على الله محال ، فثبت أن إطلاق السمع والبصر على عله تعالى بالمسموعات والمبصرات غير جائز (والجواب) الدليل على أن السماع مغاير لتأثر الحاسة إنا إذا سمعنا الصوت علمنا أنه من أى الجوانب جاء فعلمنا أنا أدركنا الصوت حيث وجد ذلك الصوت فى نفسه ، وهذا يدل على أن إدراك الصوت حالة مغايرة لتأثير الصماخ عن تموج ذلك الهواء . وأما الرؤية فالدليل على أنها حالة مغايرة لتأثر الحدقة ، فذلك لأن نقطة الناظر جسم صغير فيستحيل انطباع الصورة العظيمة فيه ، فنقول الصورة المنطبعة صغيرة والصورة المرئية فى نفس العالم عظيمة ، وهذا يدل على أن الرؤية حالة مغايرة لنفس ذلك الانطباع ، وإذا ثبت هذا فنقول

شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ وَمَا تَفَرَّقُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ

لا يلزم من امتناع التأثر فى حق الله امتناع السمع والبصر فى حقه ، فإن قالوا هب أن السمع والبصر حالتان مغايرتان لتأثر الحاسة إلا أن حصولهما مشروط بحصول ذلك التأثر ، فلما كان حصول ذلك التأثر فى حق الله تعالى ممتنعاً كان حصول السمع والبصر فى حق الله ممتنعاً ، فنقول ظاهر قوله (وهو السميع البصير) يدل على كونه (سميعاً بصيراً) فلم يجز لنا أن نعدل عن هذا الظاهر إلا إذا قام الدليل على أن الحاسة المسماة بالسمع والبصر مشروطة بحصول التأثر ، والتأثر فى حق الله تعالى ممتنع ، فكان حصول الحاسة المسماة بالسمع والبصر ممتنعاً ، وأنتم المدعون لهذا الاشتراط فعليكم الدلالة على حصوله ، وإنما نحن متمسكون بظاهر اللفظ إلى أن تذكروا ما يوجب العدول عنه ، فإن قال قائل قوله (وهو السميع البصير) يفيد الحصر ، فما معنى هذا الحصر ، مع أن العباد أيضاً موصوفون بكونهم سميعين بصيرين ؟ فنقول السميع والبصير لفظان مشعران بحصول هاتين الصفتين على سبيل الكمال ، والكمال فى كل الصفات ليس إلا لله ، فهذا هو المراد من هذا الحصر .

أما قوله تعالى (له مقاليد السموات والأرض) فاعلم أن المراد من الآية أنه تعالى (فاطر السموات والأرض) والأصنام ليست كذلك ، وأيضاً فهو خالق أنفسنا وأزواجنا وخالق أولادنا منا ومن أزواجنا ، والأصنام ليست كذلك ، وأيضاً (فله مقاليد السموات والأرض) والأصنام ليست كذلك ، والمقصود من الكل بيان القادر المنعم الكريم الرحيم ، فكيف يجوز جعل الأصنام التى هى جمادات مساوية له فى المعبودية ؟ فقوله (له مقاليد السموات والأرض) يريد مفاتيح الرزق من السموات والأرض ، فمقاليد السموات الأمطار ، ومقاليد الأرض النبات ، وذكرنا تفسير المقاليد فى سورة الزمر عند قوله (يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر) لأن مفاتيح الأرزاق بيده (إنه بكل شىء) من البسط والتقدير (عليم) .

قوله تعالى : ﴿ شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذى أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه كبر على المشركين ما تدعوهم إليه الله يجتبى إليه من يشاء ويهدى إليه من ينيب ، وما تفرقوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم ولولا

أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِيَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِن بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ
مُرِيبٍ ﴿١٤﴾ فَلِذَٰلِكَ فَادْعُ ۖ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ ۖ وَقُلْ
آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ ۖ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ۖ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ
لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ ۖ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ۖ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا ۖ وَإِلَيْهِ
الْمَصِيرُ ﴿١٥﴾ وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ
رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾ اللَّهُ الَّذِي أَنزَلَ الْكِتَابَ
بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ ۗ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾ يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا
يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ ۗ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ
يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾ اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ ۖ
وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴿١٩﴾

كلمة سبقت من ربك إلى أجل مسمى لقضى بينهم ، وإن الذين أورثوا الكتاب من بعدهم لفى شك منه مريب ، فلذلك فادع واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب وأمرت لأعدل بينكم الله ربنا وربكم لنا أعمالنا ولكم أعمالكم لا حجة بيننا وبينكم الله يجمع بيننا وإليه المصير ، والذين يحاجون فى الله من بعد ما استجيب له حجتهم داحضة عند ربهم وعليهم غضب ولهم عذاب شديد ، الله الذى أنزل الكتاب بالحق والميزان ومايدريك لعل الساعة قريب ، يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها والذين آمنوا مشفقون منها ويعلمون أنها الحق ألا إن الذين يمارون فى الساعة لفى ضلال بعيد ، الله لطيف بعباده يرزق من يشاء وهو القوى العزيز ﴾ .

اعلم أنه تعالى لما عظم وحيه إلى محمد ﷺ بقوله (كذلك يوحى إليك وإلى الذين من قبلك الله العزيز الحكيم) ذكر فى هذه الآية تفصيل ذلك فقال (شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا)

والمعنى شرع الله لكم يا أصحاب محمد من الدين ما وصى به نوحا ومحمداً وإبراهيم وموسى وعيسى ، هذا هو المقصود من لفظ الآية ، وإنما خص هؤلاء الأنبياء الخمسة بالذكر لأنهم أكابر الأنبياء وأصحاب الشرائع العظيمة والأتباع الكثيرة ، إلا أنه بقي في لفظ الآية اشكالات (أحدها) أنه قال في أول الآية (ما وصى به نوحا) وفي آخرها (وما وصينا به إبراهيم) وفي الوسط (والذى أوحينا إليك) فما الفائدة في هذا التفاوت ؟ (وثانيها) أنه ذكر نوحا عليه السلام على سبيل الغيبة فقال (ما وصى به نوحا) والقسمين الباقيين على سبيل التكلم فقال (والذى أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم) (وثالثها) أنه يصير تقدير الآية : شرع الله لكم من الدين الذى أوحينا إليك فقوله (شرع لكم) خطاب الغيبة وقوله (والذى أوحينا إليك) خطاب الحضور ، فهذا يقتضى الجمع بين خطاب الغيبة وخطاب الحضور في الكلام الواحد بالاعتبار الواحد ، وهو مشكل ، فهذه المضايق يجب البحث عنها والقوم ما داروا حولها ، وبالجملة فالمقصود من الآية أنه يقال شرع لكم من الدين ديناً تطابقت الأنبياء على صحته ، وأقول يجب أن يكون المراد من هذا الدين شيئاً مغايراً للتكاليف والأحكام ، وذلك لأنها مختلفة متفاوتة قال تعالى (لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً) فيجب أن يكون المراد منه الأمور التي لا تختلف باختلاف الشرائع ، وهي الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، والإيمان يوجب الإعراض عن الدنيا والإقبال على الآخرة والسعى في مكارم الأخلاق والاحتراز عن رذائل الأحوال ، ويجوز عندى أن يكون المراد من قوله (ولا تتفرقوا) أي لا تتفرقوا بالآلهة الكثيرة ، كما قال يوسف عليه السلام (أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار) وقال تعالى (وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون) واحتج بعضهم بقوله (شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا) على أن النبي ﷺ في أول الأمر كان مبعوثاً بشريعة نوح عليه السلام ، والجواب ما ذكرناه أنه عطف عليه سائر الأنبياء وذلك يدل على أن المراد هو الأخذ بالشريعة المتفق عليها بين الكل ، ومحل (أن أقيموا الدين) إما نصب بدل من مفعول (شرع) والمعطوفين عليه ، وإما رفع على الاستئناف كأنه قيل ماذاك المشروع ؟ فقيل هو إقامة الدين (كبر على المشركين) عظم عليهم وشق عليهم (ما تدعوهم إليه) من إقامة دين الله تعالى على سبيل الاتفاق والإجماع ، بدليل أن الكفار قالوا (أجعل الآلهة إلهاً واحداً إن هذا لشيء عجاب) وههنا مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ احتج نفاة القياس بهذه الآية قالوا إنه تعالى أخبر أن أكابر الأنبياء أطبقوا على أنه يجب إقامة الدين بحيث لا يفضي إلى الاختلاف والتنازع ، والله تعالى ذكر في معرض المنة على عباده أنه أرشدهم إلى الدين الخالي عن التفرق والمخالفة ومعلوم أن فتح باب القياس يفضي إلى أعظم أنواع التفرق والمنازعة ، فإن الحس شاهد بأن هؤلاء الذين بنوا دينهم على

الآخذ بالقياس تفرقوا تفرقاً لا رجاء فى حصول الاتفاق بينهم إلى آخر القيامة ، فوجب أن يكون ذلك محرماً ممنوعاً عنه .

﴿ المسألة الثانية ﴾ هذه الآية تدل على أن هذه الشرائع قسمين منها ما يمتنع دخول النسخ والتغيير فيه ، بل يكون واجب البقاء فى جميع الشرائع والأديان ، كالقول بحسن الصدق والعدل والإحسان ، والقول بقبح الكذب والظلم والإيذاء ، ومنها مايختلف باختلاف الشرائع والأديان ، ودلت هذه الآية على أن سعى الشرع فى تقرير النوع الأول أقوى من سعيه فى تقرير النوع الثانى ، لأن المواظبة على القسم الأول مهمة فى اكتساب الأحوال المفيدة لحصول السعادة فى الدار الآخرة .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قوله تعالى (أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه) مشعر بأن حصول الموافقة أمر مطلوب فى الشرع والعقل ، وبيان منفعته من وجوه (الأول) أن للنفوس تأثيرات ، وإذا تطابقت النفوس وتوافقت على واحد قوى التأثير (الثانى) أنها إذا توافقت صار كل واحد منها معيناً للآخر فى ذلك المقصود المعين ، وكثرة الأعوان توجب حصول المقصود ، أما إذا تخالفت تنازعت وتجادلت فضعفت فلا يحصل المقصود (الثالث) أن حصول التنازع ضد مصلحة العالم لأن ذلك يفضى إلى الهرج والمرج والقتل والنهب ، فلهذا السبب أمر الله تعالى فى هذه الآية بإقامة الدين على وجه لا يفضى إلى التفرق وقال فى آية أخرى (ولا تنازعوا فتفشلوا) .

ثم قال تعالى (الله يجتبى إليه من يشاء ويهدى إليه من ينيب) وفيه وجهان (الأول) أنه تعالى لما أرشد أمة محمد ﷺ إلى التمسك بالدين المتفق عليه بين أنه تعالى إنما أرشدهم إلى هذا الخير ، لأنه اجتباهم واصطفاهم وخصهم بمزيد الرحمة والكرامة (الثانى) أنه إنما كبر عليهم هذا الدعاء من الرسل لما فيه من الانقياد لهم تكبراً وأنفة فبين تعالى أنه يخص من يشاء بالرسالة ويلزم الانقياد لهم ، ولا يعتبر الحسب والنسب والغنى ، بل الكل سواء فى أنه يلزمهم اتباع الرسل الذين اجتباهم الله تعالى ، واشتقاق لفظ الاجتباء يدل على الضم والجمع ، فمنه جبى الخراج واجتباه وجبى الماء فى الحوض فقوله (الله يجتبى إليه) أى يضمه إليه ويقربه منه تقريب الإكرام والرحمة ، وقوله (من يشاء) كقوله تعالى (يعذب من يشاء ويرحم من يشاء) .

ثم قال (ويهدى إليه من ينيب) وهو كما روى فى الخبر من « تقرب منى شبراً تقربت منه ذراعا ومن أتانى يمشى أتيته هرولة » أى من أقبل إلى بطاعته أقبلت إليه بهدايتى وإرشادى بأن أشرح له صدره وأسهل أمره .

واعلم أنه تعالى لما بين أنه أمر كل الأنبياء والأمم بالأخذ بالدين المتفق عليه ، كان لقائل أن يقول : فلماذا نجدهم متفرقين ؟ فأجاب الله تعالى عنهم بقوله (وما تفرقوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم) يعنى أنهم ماتفرقوا إلا من بعد أن علموا أن الفرقة ضلالة ، ولكنهم فعلوا ذلك للبغى

وطلب الرياسة لحملتهم الحمية النفسانية والأنفة الطبيعة ، على أن ذهب كل طائفة إلى مذهب ودعا الناس إليه وقبح ما سواه طلباً للذكر والرياسة ، فصار ذلك سبباً لوقوع الاختلاف ، ثم أخبر تعالى أنهم استحقوا العذاب بسبب هذا الفعل ، إلا أنه تعالى أخر عنهم ذلك العذاب ، لأن لكل عذاب عنده أجلا مسمى ، أى وقتاً معلوماً ، إما لمحض المشيئة كما هو قولنا ، أو لأنه علم أن الصلاح تحقيقه به كما عند المعتزلة ، وهو معنى قوله (ولولا كلمة سبقت من ربك إلى أجل مسمى لقضى بينهم) والأجل المسمى قد يكون فى الدنيا وقد يكون فى القيامة ، واختلفوا فى الذين أريدوا بهذه الصفة من هم ؟ فقال الأكثرون هم اليهود والنصارى ، والدليل قوله تعالى فى آل عمران (وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ماجاءهم العلم بغياً بينهم) وقال فى سورة لم يكن (وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ماجاءتهم البينة) ولأن قوله (إلا من بعد ماجاءهم العلم) لائق بأهل الكتاب ، وقال آخرون : إنهم هم العرب ، وهذا باطل بالوجوه المذكورة ، لأن قوله تعالى بعد هذه الآية (وإن الذين أورثوا الكتاب من بعدهم) لايليق بالعرب ، لأن الذين أورثوا الكتاب من بعدهم ، هم أهل الكتاب الذين كانوا فى عهد رسول الله ﷺ (لفى شك منه) من كتابهم (مريب) لايؤمنون به حق الإيمان .

قوله تعالى : ﴿ فلذلك فادع واستقم كما أمرت ﴾ يعنى فلأجل ذلك التفرق ولأجل ما حدث من الاختلافات الكثيرة فى الدين ، فادع إلى الاتفاق على الملة الحنيفية واستقم عليها وعلى الدعوة إليها ، كما أمرك الله ، ولا تتبع أهواءهم المختلفة الباطلة (وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب) أى بأى كتاب صح أن الله أنزله ، يعنى الإيمان بجميع الكتب المنزلة ، لأن المتفرقين آمنوا ببعض وكفروا ببعض ، ونظيره قوله (نؤمن ببعض ونكفر ببعض) إلى قوله (أولئك هم الكافرون) ثم قال (وأمرت لأعدل بينكم) أى فى الحكم إذا تخاصمتم فتحاكمتم إلى ، قال القفال : معناه أن ربى أمرنى أن لاأفرق بين نفسى وأنفسكم بأن آمركم بما لاأعمله ، أو أخالفكم إلى مانهيتكم عنه ، لكنى أسوى بينكم وبين نفسى ، وكذلك أسوى بين أكابركم وأصاغركم فيما يتعلق بحكم الله .

ثم قال (الله ربنا وربكم ، لنا أعمالنا ولكم أعمالكم ، لاحجة بيننا وبينكم ، الله يجمع بيننا وإليه المصير) والمعنى أن إله الكل واحد ، وكل واحد مخصوص بعمل نفسه ، فوجب أن يشتغل كل واحد فى الدنيا بنفسه ، فإن الله يجمع بين الكل فى يوم القيامة ويجازيه على عمله ، والمقصود منه المتاركة واشتغال كل أحد بمهم نفسه ، فإن قيل كيف يليق بهذه المتاركة مافعل بهم من القتل وتخريب البيوت وقطع النخيل والإجلاء ؟ قلنا هذه المتاركة كانت مشروطة بشرط أن يقبلوا الدين المتفق على صحته بين كل الأنبياء ، ودخل فيه التوحيد ، وترك عبادة الأصنام ، والإقرار بنبوة الأنبياء ، وبصحة البعث والقيامة ، فلما لم يقبلوا هذا الدين ، فحينئذ فات الشرط ، فلا جرم فات المشروط .

واعلم أنه ليس المراد من قوله (لاحجة بيننا وبينكم) تحريم مايجرى مجرى محاجتهم ، ويدل عليه وجوه (الأول) أن هذا الكلام مذكور فى معرض المحاجـة ، فلو كان المقصود من هـذه الآية تحريم المحاجة ، لزم كونها محرمة لنفسها وهو متناقض (والثانى) أنه لولا الأدلة لما توجه التكليف (الثالث) أن الدليل يفيد العلم وذلك لايمكن تحريمه ، بل المراد أن القوم عرفوا بالحجة صدق محمد ﷺ ، وإنما تركوا تصديقه بغياً وعناداً ، فبين تعالى أنه قد حصل الاستغناء عن محاجتهم لانهم عرفوا بالحجة صدقه فلا حاجة معهم إلى المحاجـة البتة ، وممـا يقوى قولنا : أنه لايجوز تحريم المحاجة ، قوله (وجادلهم بالتى هى أحسن) وقوله تعـالى (ادع إلى سبيل ربك) وقوله (ولا تجادلوا أهل الـكتاب إلا بالتى هى أحسن) وقوله (يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا) وقوله (وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه) .

قوله تعالى : ﴿ والذين يحاجون فى الله ﴾ أى يخاصمون فى دينه (من بعد ما استجيب له) أى من بعد مااستجاب الناس لذلك الدين (حجتهم داحضة) أى باطلة وتلك المخاصمة هى أن اليهود قالوا ألستم تقولون إن الأخذ بالمتفق أولى من الأخذ بالمختلف ؟ فنبوة موسى وحقية التوارة معلومة بالاتفاق ، ونبوة محمد ليست متفقاً عليها ، فإذا بنيتم كلامكم فى هذه الآية على أن الأخذ بالمتفق أولى ، وجب أن يكون الأخـذ باليهودية أولى ، فبين تعـالى أن هذه الحجة داحضة ، أى باطلة فاسدة ، وذلك لأن اليهود أطبقوا على أنه إنما وجب الإيمـان بموسى عليه السلام لأجل ظهور المعجزات على وفق قوله ، وههنا ظهرت المعجزات على وفق قول محمد عليه السلام ، واليهود شاهدوا تلك المعجزات ، فإن كان ظهور المعجزة يدل على الصدق ، فههنا يجب الاعتراف بنبوة محمد ﷺ ، وإن كان لايدل على الصدق وجب فى حق موسى أن لا يقروا بنبوته . وأما الإقرار بنبوة موسى والإصرار على إنكار نبوة محمد مع استوائهما فى ظهور المعجزة يكون متناقضاً ، ولما قرر الله هـذه الدلائل خوف المنكرين بعذاب القيـامة ، فقال (الله الذى أنزل الـكتاب بالحق والميزان وما يدريك لعل الساعة قريب) والمعنى أنه تعالى أنزل الـكتاب المشتمل على أنوع الدلائل والبينات ، وأنزل الميزان وهو الفصل الذى هو القسطاس المستقيم ، وأنهم لا يعلمون أن القيامة متى تفاجئهم ومتى كان الأمر كذلك ، وجب على العاقل أن يجد ويجتهد فى النظر والاستدلال ، ويترك طريقة أهل الجهل والتقليد ، ولما كان الرسول يهددهم بنزول القيامة وأ كثر فى ذلك ، وأنهم مارأوا منه أثراً قالوا على سبيل السخرية : فمتى تقوم القيامة ، وليتها قامت حتى يظهر لنا أن الحق ما نحن عليه أو الذى عليه محمد وأصحابه ، فلدفع هذه الشبهة قال تعالى (يستعجل بها الذين لايؤمنون بها والذين آمنوا مشفقون منها) والمعنى ظاهر ، وإنما يشفقون ويخافون لعلمهم أن عندها تمتنع التوبة ، وأما منكر البعث فلأن لايحصل له هذا الخوف .

ثم قال (ألا إن الذين يمارون فى الساعة لفى ضلال بعيد) والمارة الملاجة ، قال الزجاج : الذين

مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾ تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا۟ وَهُوَ وَاقِعٌۢ بِهِمْ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِ ۖ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٢﴾ ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ۗ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ

تدخلهم المرية والشك فى وقوع الساعة ، فيمارون فيها ويجحدون (لنى ضلال بعيد) لأن استيفاء حق المظلوم من الظالم واجب فى العدل ، فلولم تحصل القيامة لزم إسناد الظلم إلى الله تعالى ، وهذا من أمحل المحالات ، فلا جرم كان إنكار القيامة ضلالا بعيداً .

ثم قال (الله لطيف بعباده) أى كثير الإحسان بهم ، وإنما حسن ذكر هذا الكلام ههنا لأنه أنزل عليهم الكتاب المشتمل على هذه الدلائل اللطيفة ، فكان ذلك من لطف الله بعباده ، وأيضاً المتفرقون استوجبوا العذاب الشديد ، ثم إنه تعالى أخر عنهم ذلك العذاب فكان ذلك أيضاً من لطف الله تعالى ، فلما سبق ذكر إيصال أعظم المنافع إليهم ودفع أعظم المضار عنهم ، لا جرم حسن ذكره ههنا ، ثم قال (يرزق من يشاء) يعنى أن أصل الإحسان والبرعام فى حق كل العباد ، وذلك هو الإحسان بالحياة والعقل والفهم ، وإعطاء مالابد منه من الرزق ، ودفع أكثر الآفات والبليات عنهم ، فأما مراتب العطية والبهجة فمتفاوتة مختلفة .

ثم قال (وهو القوى) أى القادر على كل ما يشاء (العزيز) الذى لا يغالب ولا يدافع .

قوله تعالى : ﴿ من كان يريد حرث الآخرة نزد له فى حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وماله فى الآخرة من نصيب ، أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله ولولا كلمة الفصل لقضى بينهم وإن الظالمين فى عذاب أليم ، ترى الظالمين مشفقين مما كسبوا وهو واقع بهم والذين آمنوا وعملوا الصالحات فى روضات الجنات لهم ما يشاءون عند ربهم ذلك الفضل الكبير ، ذلك

فِيهَا حُسْنًا إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٢٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٤﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾ وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۚ وَٱلْكَٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿٢٦﴾

الذى يبشر الله عباده الذين آمنوا وعملوا الصالحات قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة فى القربى ومن يقترف حسنة نزد له فيها حسناً إن الله غفور شكور ، أم يقولون افترى على الله كذباً فإن يشإ الله يختم على قلبك ويمح الله الباطل ويحق الحق بكلماته إنه عليم بذات الصدور ، وهو الذى يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ماتفعلون ، ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله والكافرون لهم عذاب شديد ﴾ .

اعلم أنه تعالى لما بين كونه لطيفاً بعباده كثير الإحسان إليهم بين أنه لابد لهم من أن يسعوا فى طلب الخيرات وفى الاحتراز عن القبائح فقال (من كان يريد حرث الآخرة نزد له فى حرثه) قال صاحب الكشاف إنه تعالى سمى مايعمله العامل مما يطلب به الفائدة حرثاً على سبيل المجاز وفى الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ أنه تعالى أظهر الفرق فى هذه الآية بين من أراد الآخرة وبين من أراد الدنيا من وجوه (الأول) أنه قدم مريد حرث الآخرة فى الذكر على مريد حرث الدنيا ، وذلك يدل على التفضيل ، لأنه وصفه بكونه آخرة ثم قدمه فى الذكر تنبيهاً على قوله «نحن الآخرون السابقون» (الثانى) أنه قال فى مريد حرث الآخرة (نزد له فى حرثه) وقال فى مريد حرث الدنيا (نؤته منها) وكلمة من للتبعيض ، فالمعنى أنه يعطيه بعض مايطلبه ولا يؤتيه كله ، وقال فى سورة بنى إسرائيل (عجلنا له فيها مانشاء لمن نريد) وأقول البرهان العقلى مساعد على البابين ، وذلك لأن كل من عمل للآخرة وواظب على ذلك العمل ، فكثرة الأعمال سبب لحصول الملكات ، فكل من كانت مواظبته على تلك الأعمال أكثر كان ميل قلبه إلى طلب الآخرة أكثر ، وكلما كان الأمر كذلك كان الابتهاج أعظم والسعادات أكثر ، وذلك هو المراد بقوله (نزد له فى حرثه) وأما طالب الدنيا فكلما كانت مواظبته على أعمال ذلك الطلب أكثر كانت رغبته فى الفوز بالدنيا أكثر وميله إليها

أشد ، وإذا كان الميل أبداً فى التزايد ، وكان حصول المطلوب باقياً على حالة واحدة كان الحرمان لازماً لامحالة (الثالث) أنه تعالى قال فى طالب حرث الآخرة (نزد له فى حرثه) ولم يذكر أنه تعالى يعطيه الدنيا أم لا ، بل بقى الكلام ساكتاً عنه نفياً وإثباتاً ، وأما طالب حرث الدنيا فانه تعالى بين أنه لايعطيه شيئاً من نصيب الآخرة على التنصيص ، وهذا يدل على التفاوت العظيم كأنه يقول الآخرة أصل والدنيا تبع ، فواجد الأصل يكون واجداً للتبع بقدر الحاجة ، إلا أنه لم يذكر ذلك تنبيهاً على أن الدنيا أخس من أن يقرن ذكرها بذكر الآخرة (والرابع) أنه تعالى بين أن طالب الآخرة يزاد فى مطلوبه ، وبين أن طالب الدنيا يعطى بعض مطلوبه من الدنيا ، وأما فى الآخرة فإنه لايحصل له نصيب البتة ، فبين بالكلام الأول أن طالب الآخرة يكون حاله أبداً فى الترقى والتزايد وبين بالكلام الثانى أن طالب الدنيا يكون حاله فى المقام الأول فى النقصان وفى المقام الثانى فى البطلان التام (الخامس) أن الآخرة نسيئة والدنيا نقد والنسيئة مرجوحة بالنسبة إلى النقد ، لأن الناس يقولون النقد خير من النسيئة فبين تعالى أن هذه القضية انعكست بالنسبة إلى أحوال الآخرة والدنيا ، فالآخرة وإن كانت نقداً إلا أنها متوجهة للزيادة والدوام فكانت أفضل وأكمل ، والدنيا وإن كانت نقداً إلا أنها متوجهة إلى النقصان ثم إلى البطلان فكانت أخس وأرذل ، فهذا يدل على أن حال الآخرة لايناسب حال الدنيا البتة ، وأنه ليس فى الدنيا من أحوال الآخرة إلا مجرد الاسم كما هو مروى عن ابن عباس (السادس) الآية دالة على أن منافع الآخرة والدنيا ليست حاضرة بل لابد فى البابين من الحرث ، والحرث لا يتأتى إلا بتحمل المشاق فى البذر ثم التسقية والتنمية والحصد ثم التنقية ، فلما سمى الله كلا القسمين حرثاً علمنا أن كل واحد منهما لايحصل إلا بتحمل المتاعب والمشاق ، ثم بين تعالى أن مصير الآخرة إلى الزيادة والكمال وإن مصير الدنيا إلى النقصان ثم الفناء ، فكأنه قيل إذا كان لابد فى القسمين جميعاً من تحمل متاعب الحراثة والتسمية والتنمية والحصد والتنقية ، فلأن تصرف هذه المتاعب إلى مايكون فى التزايد والبقاء أولى من صرفها إلى ما يكون فى النقصان والانقضاء والفناء .

﴿ المسألة الثانية ﴾ فى تفسير قوله (نزد له فى حرثه) قولان (الأول) المعنى أنا نزيد فى توفيقه وإعانته وتسهيل سبل الخيرات والطاعات عليه ، وقال مقاتل (نزد له فى حرثه) بتضعيف الثواب ، قال تعالى (ليوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله) وعن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « من أصبح وهمه الدنيا شتت الله تعالى عليه همه وجعل فقره بين عينيه ، ولم يأته من الدنيا إلى ما كتب له ، ومن أصبح همه الآخرة جمع الله همه وجعل غناه فى قلبه وأتته الدنيا وهى رغمة عن أنفها » أو لفظا يقرب من أن يكون هذا معناه .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ ظاهر اللفظ يدل على أن من صلى لأجل طلب الثواب أو لأجل دفع العقاب فإنه تصح صلاته ، وأجمعوا على أنها لاتصح (والجواب) أنه تعالى قال (من كان يريد حرث

الآخرة) والحرث لا يتأتى إلا بإلقاء البذر الصحيح فى الأرض ، والبذر الصحيح لجميع الخيرات والسعادات ليس إلا عبودية الله تعالى .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قال أصحابنا إذا توضأ بغير نية لم يصح ، قالوا لأن هذا الإنسان ما أراد حرث الآخرة ، لأن الكلام فيما إذا كان غافلا عن ذكر الله وعن الآخرة ، فوجب أن لا يحصل له نصيب فيما يتعلق بالآخرة والخروج عن عهدة الصلاة من باب منافع الآخرة ، فوجب أن لا يحصل فى الوضوء العارى عن النية .

واعلم أن الله تعالى لما بين القانون الأعظم والقسطاس الأقوم فى أعمال الآخرة والدنيا أردفه بالتنبيه على ما هو الأصل فى باب الضلالة والشقاوة فقال (أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين مالم يأذن به الله) ومعنى الهمزة فى أم التقرير والتقريع و (شركاؤهم) شياطينهم الذين زينوا الشرك وإنكار البعث والعمل للدنيا لأنهم لا يعلمون غيرها ، وقيل (شركاؤهم) أوثانهم ، وإنما أضيفت إليهم لأنهم هم الذين اتخذوها شركاء لله ، ولما كان سبباً لضلالتهم جعلت شارعة لدين الضلالة كما قال إبراهيم صلى الله عليه وسلم (رب إنهن أضللن كثيراً من الناس) وقوله (شرعوا لهم من الدين مالم يأذن به الله) يعنى أن تلك الشرائع بأسراها على ضدين لله ، ثم قال (ولولا كلمة الفصل) أى القضاء السابق بتأخير الجزاء ، أو يقال ولولا الوعد بأن الفصل أن يكون يوم القيامة (لقضى بينهم) أى بين الكافرين والمؤمنين أو بين المشركين وشركائهم (وإن الظالمين لهم عذاب أليم) وقرأ بعضهم ، وأن بفتح الهمزة فى أن عطفاً له على كلمة الفصل يعنى (ولولا كلمة الفصل) وأن تقريره تعذيب الظالمين فى الآخرة (لقضى بينهم) فى الدنيا ثم إنه تعالى ذكر أحوال أهل العقاب وأحوال أهل الثواب ، (الأول) فهو قوله (ترى الظالمين مشفقين) خائفين خوفا شديداً (مما كسبوا) من السيئات (وهو واقع بهم) يريد أن وباله واقع بهم سواء أشفقوا أو لم يشفقوا ، وأما (الثانى) فهو أحوال أهل الثواب وهو قوله تعالى (والذين آمنوا وعملوا الصالحات فى روضات الجنات) لأن روضة الجنة أطيب بقعة فيها ، وفى الآية تنبيه على أن الفساق من أهل الصلاة كلهم فى الجنة ، إلا أنه خص الذين آمنوا وعملوا الصالحات بروضات الجنات ، وهى البقاع الشريفة من الجنة ، فالبقاع التى دون تلك الروضات لابد وأن تكون مخصوصة بمن كان دون أولئك الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، ثم قال (لهم مايشاءون عند ربهم) وهذا يدل على أن كل الأشياء حاضرة عنده مهيأة ، ثم قال تعالى فى تعظيم هذه الدرجة (ذلك هو الفضل الكبير) وأصحابنا استدلوا بهذه الآية على أن الثواب غير واجب على الله ، وإنما يحصل بطريق الفضل من الله تعالى لأنه تعالى قال (والذين آمنوا وعملوا الصالحات فى روضات الجنات لهم مايشاءون عند ربهم) فهذا يدل على أن روضات الجنات ووجدان كل مايريدونه إنما كان جزاء على الإيمان والأعمال الصالحات .

ثم قال تعالى (ذلك هو الفضل الكبير) وهذا تصريح بأن الجزاء المرتب على العمل إنما حصل بطريق الفضل لا بطريق الاستحقاق .

ثم قال (ذلك الذى يبشر الله عباده الذين آمنوا وعملوا الصالحات) قال صاحب الكشاف قرىء (يبشر) من بشره (ويبشر) من أبشره (ويبشر) من بشره .

واعلم أن هذه الآيات دالة على تعظيم حال الثواب من وجوه : (الأول) أن الله سبحانه رتب على الإيمان وعمل الصالحات روضات الجنات ، والسلطان الذى هو أعظم الموجودات وأكرمهم إذا رتب على أعمال شاقة جزاء ، دل ذلك على أن ذلك الجزاء قد بلغ إلى حيث لا يعلم كنهه إلا الله تعالى (الثانى) أنه تعالى قال (لهم مايشاءون عند ربهم) وقوله (لهم مايشاءون) يدخل فى باب غير المتناهى لأنه لادرجة إلا والإنسان يريد ماهو أعلى منها (الثالث) أنه تعالى قال (ذلك هو الفضل الكبير) والذى يحكم بكبره من له الكبرياء والعظمة على الإطلاق كان فى غاية الكبر (الرابع) أنه تعالى أعاد البشارة على سبيل التعظيم فقال (الذى يبشر الله عباده) وذلك يدل أيضاً على غاية العظمة ، نسأل الله الفوز بها والوصول اليها .

واعلم أنه تعالى لما أوحى إلى محمد ﷺ هذا الكتاب الشريف العالى وأودع فيه الثلاثة أقسام الدلائل وأصناف التكاليف ، ورتب على الطاعة الثواب ، وعلى المعصية العقاب ، بين أنى لا أطلب منكم بسبب هذا التبليغ نفعاً عاجلا ومطلوباً حاضراً ، لئلا يتخيل جاهل أن مقصود محمد ﷺ من هذا التبليغ المال والجاه فقال﴿ قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة فى القربى﴾ وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ ذكر الناس فى هذه الآية ثلاثة أقوال :

﴿ الأول﴾ قال الشعبى أكثر الناس علينا فى هذه الآية ، فكتبنا إلى ابن عباس نسأله عن ذلك فكتب ابن عباس أن رسول الله ﷺ كان واسط النسب من قريش ليس بطن من بطونهم إلا وقد ولده فقال الله (قل لا أسألكم) على ما أدعوكم إليه (أجراً إلا) أن تودونى لقرابتى منكم ، والمعنى أنكم قومى وأحق من أجابنى وأطاعنى ، فاذا قد أبيتم ذلك فاحفظوا حق القربى ولا تؤذونى ولا تهيجوا على .

﴿ والقول الثانى ﴾ روى الكلبى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال إن النبى صلى الله عليه وسلم لما قدم المدينة كانت تعروه نوائب وحقوق وليس فى يده سعة ، فقال الأنصار إن هذا الرجل قد هداكم الله على يده وهو ابن أختكم وجاركم فى بلدكم ، فاجمعوا له طائفة من أموالكم ففعلوا ثم أتوه بهفرده عليهم ، فنزل قوله تعالى (قل لا أسألكم عليه أجراً) أى على الإيمان إلا أن تودوا أقاربى فحثهم على مودة أقاربه .

﴿ القول الثالث ﴾ ما ذكره الحسن فقال : إلا أن تودوا إلى الله فيما يقربكم إليه من التودد إليه بالعمل الصالح ، فالقربى على القول الأول القرابة التى هى بمعنى الرحم وعلى الثانى القرابة التى هى بمعنى الأقارب ، وعلى الثالث هى فعلى من القرب والتقريب ، فإن قيل الآية مشكلة ، ذلك لأن طلب الأجر على تبليغ الوحى لا يجوز ويدل عليه وجوه :

(الأول) أنه تعالى حكى عن أكثر الأنبياء عليهم السلام : أنهم صرحوا بنفى طلب الأجرة ، فذكر فى قصة نوح عليه السلام (وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين) وكذا فى قصة هود وصالح ، وفى قصة لوط وشعيب عليهم السلام ، ورسولنا أفضل من سائر الأنبياء عليهم السلام فكان بأن لا يطلب الأجر على النبوة والرسالة أولى (الثانى) أنه صلى الله عليه وسلم صرح بنفى طلب الأجر فى سائر الآيات فقال (قل ما سألتكم من أجر فهو لكم) وقال (قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين) (الثالث) العقل يدل عليه وذلك لأن ذلك التبليغ كان واجباً عليه قال تعالى (بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته) وطلب الأجر على أداء الواجب لا يليق بأقل الناس فضلا عن أعلم العلماء . (الرابع) أن النبوة أفضل من الحكمة وقد قال تعالى فى صفة الحكمة (ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً) وقال فى صفة الدنيا (قل متاع الدنيا قليل) فكيف يحسن فى العقل مقابلة أشرف الأشياء بأخس الأشياء (الخامس) أن طلب الأجر كان يوجب التهمة ، وذلك ينافى القطع بصحة النبوة ، فثبت بهذه الوجوه أنه لا يجوز من النبى ﷺ أن يطلب أجراً البتة على التبليغ والرسالة ، وظاهر هذه الآية يقتضى أنه طلب أجراً على التبليغ والرسالة ، وهو المودة فى القربى هذا تقرير السؤال . (والجواب عنه) أنه لا نزاع فى أنه لايجوز طلب الأجر على التبليغ والرسالة ، بقى قوله (إلا المودة فى القربى) نقول الجواب عنه من وجهين (الأول) أن هذا من باب قوله :

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم   بهـا من قراع الدارعين فلول

المعنى أنا لا أطلب منكم إلا هذا . وهذا فى الحقيقة ليس أجراً لأن حصول المودة بين المسلمين أمر واجب قال تعالى (والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض) وقال صلى الله عليه وسلم « المؤمنون كالبنيان يشد بعضهم بعضاً » والآيات والأخبار فى هذا الباب كثيرة وإذا كان حصول المودة بين جمهور المسلمين واجباً فحصولها فى حق أشرف المسلمين وأكابرهم أولى ، وقوله تعالى : (قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة فى القربى) تقديره والمودة فى القربى ليست أجراً ، فرجع الحاصل إلى أنه لا أجر البتة (الوجه الثانى) فى الجواب أن هذا استثناء منقطع ، وتم الكلام عند قوله (قل لا أسألكم عليه أجراً) .

ثم قال (إلا المودة فى القربى) أى لكن أذكركم قرابتى منكم وكأنه فى اللفظ أجر وليس بأجر .

﴿ المسألة الثانية ﴾ نقل صاحب الكشاف عن النبى ﷺ أنه قال « من مات على حب آل محمد

مات شهيداً . ألا ومن مات على حب آل محمد مات مغفوراً له ، ألا ومن مات على حب آل محمد مات تائباً ، ألا ومن مات على حب آل محمد مات مؤمناً مستكمل الإيمان ، ألا ومن مات على حب آل محمد بشره ملك الموت بالجنة ثم منكر ونكير ، ألا ومن مات على حب آل محمد يزف إلى الجنة كما تزف العروس إلى بيت زوجها ، ألا ومن مات على حب آل محمد فتح له في قبره بابان إلى الجنة ، ألا ومن مات على حب آل محمد جعل الله قبره مزار ملائكة الرحمة ، ألا ومن مات على حب آل محمد مات على السنة والجماعة ، ألا ومن مات على بغض آل محمد جاء يوم القيامة مكتوباً بين عينيه آيس من رحمة الله ، ألا ومن مات على بغض آل محمد مات كافراً ، ألا ومن مات على بغض آل محمد لم يشم رائحة الجنة » هذا هو الذي رواه صاحب الكشاف ، وأنا أقول : آل محمد ﷺ هم الذين يؤول أمرهم إليه فكل من كان أمرهم إليه اشد وأكمل كانوا هم الآل ، ولا شك أن فاطمة وعلياً والحسن والحسين كان التعلق بينهم وبين رسول الله ﷺ أشد التعلقات وهذا كالمعلوم بالنقل المتواتر فوجب أن يكونوا هم الآل ، وأيضاً اختلف الناس في الآل فقيل هم الأقارب وقيل هم أمته ، فإن حملناه على القرابة فهم الآل ، وإن حملناه على الأمة الذين قبلوا دعوته فهم أيضاً آل فثبت أن على جميع التقديرات هم الآل ، وأما غيرهم فهل يدخلون تحت لفظ الآل ؟ فمختلف فيه . وروى صاحب الكشاف أنه لما نزلت هذه الآية قيل يا رسول الله من قرابتك هؤلاء الذين وجبت علينا مودتهم ؟ فقال علي وفاطمة وأبناهما ، فثبت أن هؤلاء الأربعة أقارب النبي ﷺ وإذا ثبت هذا وجب أن يكونوا مخصوصين بمزيد التعظيم ويدل عليه وجوه : (الأول) قوله تعالى (إلا المودة في القربى) ووجه الاستدلال به ما سبق (الثاني) لا شك أن النبي ﷺ كان يحب فاطمة عليها السلام قال صلى الله عليه وسلم « فاطمة بضعة مني يؤذيني ما يؤذيها » وثبت بالنقل المتواتر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان يحب علياً والحسن والحسين وإذا ثبت ذلك وجب على كل الأمة مثله لقوله (واتبعوه لعلكم تهتدون) ولقوله تعالى (فليحذر الذين يخالفون عن أمره) ولقوله (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله) ولقوله سبحانه (لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة) (الثالث) أن الدعاء للآل منصب عظيم ولذلك جعل هذا الدعاء خاتمة التشهد في الصلاة وهو قوله اللهم صل على محمد وعلى آل محمد وارحم محمداً وآل محمد ، وهذا التعظيم لم يوجد في حق غير الآل ، فكل ذلك يدل على أن حب آل محمد واجب ، وقال الشافعي رضي الله عنه :

يا راكباً قف بالمحصب من منى ... واهتف بساكن خيفها والناهض

سحراً إذا فاض الحجيج إلى منى ... فيضاً كما نظم الفرات الفائض

إن كان رفضاً حب آل محمد ... فليشهد الثقلان أني رافضي

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قوله (إلا المودة في القربى) فيه منصب عظيم للصحابة لأنه تعالى قال : (والسابقون السابقون أولئك المقربون) فكل من أطاع الله كان مقرباً عند الله تعالى فدخل

تحت قوله (إلا المودة فى القربى) والحاصل أن هذه الآية تدل على وجوب حب آل رسول الله ﷺ وحب أصحابه ، وهذا المنصب لا يسلم إلا على قول أصحابنا أهل السنة والجماعة الذين جمعوا بين حب العترة والصحابة ، وسمعت بعض المذكرين قال إنه ﷺ قال «مثل أهل بيتى كمثل سفينة نوح من ركب فيها نجا» وقال ﷺ «أصحابى كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم» ونحن الآن فى بحر التكليف وتضربنا أمواج الشبهات والشهوات وراكب البحر يحتاج إلى أمرين (أحدهما) السفينة الخالية عن العيوب والثقب (والثانى) الكواكب الظاهرة الطالعة النيرة ، فاذا ركب تلك السفينة ووقع نظره على تلك الكواكب الظاهرة كان رجاء السلامة غالباً ، فكذلك ركب أصحابنا أهل السنة سفينة حب آل محمد ووضعوا أبصارهم على نجوم الصحابة فرجوا من الله تعالى أن يفوزوا بالسلامة والسعادة فى الدنيا والآخرة .

ولنرجع إلى التفسير : أورد صاحب الكشاف على نفسه سؤالا فقال : هلا قيل إلا مودة القربى ، أو إلا مودة للقربى ، وما معنى قوله (إلا المودة فى القربى) ؟ وأجاب عنه بأن قال جعلوا مكاناً للمودة ومقراً لها كقوله لى فى آل فلان مودة ولى فيهم هوى وحب شديد ، تريد أحبهم وهم مكان حبى ومحله .

ثم قال تعالى (ومن يقترف حسنة نزد له فيها حسنا) قيل نزلت هذه الآية فى أبى بكر رضى الله عنه ، والظاهر العموم فى أى حسنة كانت ، إلا أنها لما ذكرت عقيب ذكر المودة فى القربى دل ذلك على أن المقصود التأكيد فى تلك المودة .

ثم قال تعالى (إن الله غفور شكور) والشكور فى حق الله تعالى مجاز والمعنى أنه تعالى يحسن إلى المطيعين فى إيصال الثواب إليهم وفى أن يزيد عليه أنواعاً كثيرة من التفضيل .

وقال تعالى (أم يقولون افترى على الله كذباً) واعلم أن الكلام فى أول السورة إنما ابتدىء فى تقرير أن هذا الكتاب إنما حصل بوحى الله وهو قوله تعالى (كذلك يوحى إليك وإلى الذين من قبلك الله العزيز الحكيم) واتصل الكلام فى تقرير هذا المعنى وتعلق البعض بالبعض حتى وصل إلى ههنا ، ثم حكى ههنا شبهة القوم وهى قولهم : إن هذا ليس وحياً من الله تعالى فقال (أم يقولون افترى على الله كذباً) قال صاحب الكشاف أم منقطعة ، ومعنى الهمزة نفس التوبيخ كأنه قيل : أيقع فى قلوبهم ويجرى فى ألسنتهم أن ينسبوا مثله إلى الافتراء على الله الذى هو أقبح أنواع الفرية وأفحشها ، ثم أجاب عنه بأن قال (فإن يشإ الله يختم على قلبك) وفيه وجوه (الأول) قال مجاهد يربط على قلبك بالصبر على أذاهم حتى لا يشق عليك قولهم إنه مفتر كذاب (والثانى) يعنى بهذا الكلام أنه إن يشإ الله يجعلك من المختوم على قلوبهم حتى يفترى عليه الكذب فانه لا يجترىء على افتراء الكذب على الله إلا من كان فى مثل هذه الحالة ، والمقصود من ذكر هذا الكلام المبالغة فى تقرير الاستبعاد ، ومثاله أن ينسب رجل بعض الأمناء إلى الخيانة فيقول

الأمين ، لعل الله خذلني لعل الله أعمى قلبي ، وهو لا يريد إثبات الخذلان وعمى القلب لنفسه ، وإنما يريد إستبعاد صدور الخيانة عنه .

ثم قال تعالى (ويمح الله الباطل ويحق الحق) أى ومن عادة الله إبطال الباطل وتقرير الحق فلو كان محمد مبطلا كذاباً لفضحه الله ولكشف عن باطله ولما أيده بالقوة والنصرة ، ولما لم يكن الأمر كذلك علمنا أنه ليس من الكاذبين المفترين على الله ، ويجوز أن يكون هذا وعداً من الله لرسوله بأنه يمحو الباطل الذى هم عليه من البهت والفرية والتكذيب ويثبت الحق الذى كان محمد صلى الله عليه وسلم عليه .

ثم قال (إنه عليم بذات الصدور) أى إن الله عليم بما فى صدرك وصدورهم فيجرى الأمر على حسب ذلك ، وعن قتادة يختم على قلبك ينسيك القرآن ويقطع عنك الوحى ، بمعنى لو افترى على الله الكذب لفعل الله به ذلك .

واعلم أنه تعالى لما قال (أم يقولون افترى على الله كذباً) ثم برأ رسوله مما أضافوه إليه من هذا وكان من المعلوم أنهم قد استحقوا بهذه الفرية عقاباً عظيماً ، لاجرم ندبهم الله إلى التوبة وعرفهم أنه يقبلها من كل مسىء وإن عظمت إساءته ، فقال ﴿ وهو الذى يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ﴾ وفى هذه الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قال صاحب الكشاف يقال قبلت منه الشىء وقبلته عنه ، فمعنى قبلته منه أخذته منه وجعلته مبدأ قبول ومنشأه ، ومعنى قبلته عنه أخذته وأثبته عنه وقد سبق البحث المستقصى عن حقيقة التوبة فى سورة البقرة ، وأقل مالابد منه الندم على الماضى والترك فى الحال والعزم على أن لايعود إليه فى المستقبل ، وروى جابر أن أعرابياً دخل مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال اللهم إنى أستغفرك وأتوب إليك وكبر ، فلما فرغ من صلاته قال له على عليه السلام ياهذا إن سرعة اللسان بالاستغفار توبة الكذابين فتوبتك تحتاج إلى توبة ، فقال يا أمير المؤمنين وما التوبة ؟ فقال اسم يقع على ستة أشياء على الماضى من الذنوب الندامة ولتضييع الفرائض الإعادة ورد المظالم وإذابة النفس فى الطاعة كما ربيتها فى المعصية وإذاقة النفس مرارة الطاعة كما أذقتها حلاوة المعصية والبكاء بدل كل ضحك ضحكته .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قالت المعتزلة يجب على الله تعالى عقلا قبول التوبة ، وقال أصحابنا لا يجب على الله شىء وكل مايفعله فإنما يفعله بالكرم والفضل ، واحتجوا على صحة مذهبهم بهذه الآية فقالوا إنه تعالى تمدح بقبول التوبة ، ولو كان ذلك القبول واجباً لما حصل التمدح العظيم ، ألا ترى أن من مدح نفسه بأن لايضرب الناس ظلماً ولا يقتلهم غضباً ، كان ذلك مدحاً قليلا ، أما إذا قال إنى أحسن اليهم مع أن ذلك لايجب على كان ذلك مدحاً وثناء .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قوله تعالى (ويعفو عن السيئات) إما أن يكون المراد منه أن يعفو

وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ

عن الكبائر بعد الإتيان بالتوبة ، أو المراد منه أنه يعفو عن الصغائر ، أو المراد منه أنه يعفو عن الكبائر قبل التوبة ، والأول باطل وإلا لصار قوله (ويعفو عن السيئآت) عين قوله (وهو الذى يقبل التوبة) والتكرار خلاف الأصل ، والثانى أيضاً باطل لأن ذلك واجب وأداء الواجب لا يتمدح به فبق القسم الثالث فيكون المعنى أنه تارة يعفو بواسطة قبول التوبة وتارة يعفو ابتداء من غير توبة .

ثم قال (ويعلم ماتفعلون) قرأ حمزة والكسائى وحفص عن عاصم بالتاء على المخاطبة والباقون بالياء على المغايبة ، والمعنى أنه تعالى يعلمه فيثيبه على حسناته ويعاقبه على سيئآته .

ثم قال (ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله) وفيه قولان (أحدهما) الذين آمنوا وعملوا الصالحات رفع على أنه فاعل تقديره ويجيب المؤمنون الله فيما دعاهم إليه . (والثانى) محله نصب والفاعل مضمر وهو الله وتقديره ، ويستجيب الله للمؤمنين إلا أنه حذف اللام كما حذف فى قوله (وإذا كالوهم) وهذا الثانى أولى لأن الخبر فيما قبل وبعد عن الله لأن ماقبل الآية قوله تعالى (وهو الذى يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات) وما بعدها قوله (ويزيدهم من فضله) فيزيد عطف على ويستجيب ، وعلى الأول ويجيب العبد ويزيد الله من فضله .

أما من قال إن الفعل للذين آمنوا ففيه وجهان : (أحدهما) ويجيب المؤمنون ربهم فيما دعاهم إليه (والثانى) يطيعونه فيما أمرهم به ، والاستجابة الطاعة .

وأما من قال إن الفعل لله فقد اختلفوا ، فقيل يجيب الله دعاء المؤمنين ويزيدهم ماطلبوه من فضله ، فان قالوا تخصيص المؤمنين بإجابة الدعاء هل يدل على أنه تعالى لا يجيب دعاء الكفار ؟ قلنا قال بعضهم لا يجوز لأن إجابة الدعاء تعظيم ، وذلك لا يليق بالكفار ، وقيل يجوز على بعض الوجوه ، وفائدة التخصيص أن إجابة دعاء المؤمنين تكون على سبيل التشريف ، وإجابة دعاء الكافرين تكون على سبيل الاستدراج ، ثم قال (ويزيدهم من فضله) أى يزيدهم على ما طلبوه بالدعاء (والكافرون لهم عذاب شديد) والمقصود التهديد .

قوله تعالى : ﴿ ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا فى الأرض ولكن ينزل بقدر ما يشاء إنه بعباده خبير بصير ، وهو الذى ينزل الغيث من بعد ماقنطوا وينشر رحمته وهو الولى الحميد ، ومن

فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٣١﴾

آياته خلق السموات والأرض وما بث فيهما من دابة وهو على جمعهم إذا يشاء قدير ، وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفوا عن كثير ، وما أنتم بمعجزين فى الأرض وما لكم من دون الله من ولى ولا نصير ﴾ . وفى الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ اعلم أنه تعالى لما قال فى الآية الأولى : إنه يجيب دعاء المؤمنين ورد عليه سؤال وهو أن المؤمن قد يكون فى شدة وبلية وفقر ثم يدعوا فلا يشاهد أثر الإجابة فكيف الحال فيه مع ما تقدم من قوله (ويستجيب الذين آمنوا) ؟ فأجاب تعالى عنه بقوله (ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا فى الأرض) أى ولأقدموا على المعاصى ، ولما كان ذلك محذوراً وجب أن لا يعطيهم ماطلبوه ، قال الجبائى : هذه الآية تدل على بطلان قول المجبرة من وجهين : (الأول) أن حاصل الكلام أنه تعالى (لو بسط الرزق لعباده لبغوا فى الأرض) والبغى فى الأرض غير مراد فإرادة بسط الرزق غير حاصلة ، فهذا الكلام إنما يتم إذا قلنا إنه تعالى لا يريد البغى فى الأرض ، وذلك يوجب فساد قول المجبرة (الثانى) أنه تعالى بين أنه إنما لم يرد بسط الرزق لأنه يفضى إلى المفسدة فلما بين تعالى أنه لا يريد ما يفضى إلى المفسدة فبأن لا يكون مريداً للمفسدة كان أولى ، أجاب أصحابنا بأن الميل الشديد إلى البغى والقسوة والقهر صفة حدثت بعد أن لم تكن فلا بد لها من فاعل ، وفاعل هذه الأحوال إما العبد أو الله والأول باطل لأنه إنما يفعل هذه الأشياء لو مال طبعه إليها فيعود السؤال فى أنه من المحدث لذلك الميل الثانى ؟ ويلزم التسلسل ، وإيضاً فالميل الشديد إلى الظلم والقسوة عيوب ونقصانات ، والعاقل لا يرضى بتحصيل موجبات النقصان لنفسه ، ولما بطل هذا ثبت أن محدث هذا الميل والرغبة هو الله تعالى ، ثم أورد الجبائى فى تفسيره على نفسه سؤالا قال : فإن قيل أليس قد بسط الله الرزق لبعض عباده مع أنه بغى ؟ وأجاب عنه بأن الذى عنده الرزق وبغى كان المعلوم من حاله أنه يبغى على كل حال سواء أعطى ذلك الرزق أو لم يعط ، وأقول هذا الجواب فاسد ويدل عليه القرآن والعقل ، أما القرآن فقوله تعالى (إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى) حكم مطلقاً بأن حصول الغنى سبب لحصول الطغيان . وأما العقل فهو أن النفس إذا كانت مائلة إلى الشر لكنها كانت فاقدة الآلات والأدوات كان الشر أقل ، وإذا كانت واجدة لها كان الشر أكثر ، فثبت أن وجدان المال يوجب الطغيان .

﴿ المسألة الثانية ﴾ فى بيان الوجه الذى لأجله كان التوسع موجباً للطغيان ذكروا فيه وجوهاً (الأول) أن الله تعالى لو سوى فى الرزق بين الكل لامتنع كون البعض خادماً للبعض ولو صار الأمر كذلك لخرب العالم وتعطلت المصالح (الثانى) أن هذه الآية مختصة بالعرب فانه كلما اتسع رزقهم ووجدوا من المطر مايرويهم ومن الكلأ والعشب مايشبعهم أقدموا على النهب والغارة (الثالث) أن الإنسان متكبر بالطبع فإذا وجد الغنى والقدرة عاد إلى مقتضى خلقته الأصلية وهو التكبر ، وإذا وقع فى شدة وبلية ومكروه انكسر فعاد إلى الطاعه والتواضع .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قال خباب بن الأرت فينا نزلت هذه الآية وذلك أنا نظرنا إلى أموال بنى قريظة والنضير وبنى قينقاع فتمنيناها ، وقيل نزلت فى أهل الصفة تمنوا سعة الرزق والغنى .

ثم قال تعالى (ولكن ينزل بقدر مايشاء) قرأ ابن كثير وأبو عمرو (ينزل) خفيفة والباقون بالتشديد ، ثم نقول (بقدر) بتقدير يقال قدره قدراً وقدراً (إنه بعباده خبير بصير) يعنى أنه عالم بأحوال الناس وبطباعهم وبعواقب أمورهم فيقدر أرزاقهم على وفق مصالحهم ، ولما بين تعالى أنه لا يعطيهم ما زاد على قدر حاجتهم لأجل أنه علم أن تلك الزيادة تضرهم فى دينهم بين أنهم إذا احتاجوا إلى الرزق فانه لا يمنعهم منه فقال (وهو الذى ينزل الغيث من بعد ما قنطوا) قرأ نافع وابن عامر وعاصم (ينزل) مشددة والباقون مخففة ، قال صاحب الكشاف قرىء (قنطوا) بفتح النون وكسرها ، وإنزال الغيث بعد القنوط أدعى إلى الشكر لأن الفرح بحصول النعمة بعد البلية أتم ، فكان إقدام صاحبه على الشكر أكثر (وينشر رحمته) أى بركات الغيث ومنافعه وما يحصل به من الخصب ، وعن عمر رضى الله عنه أنه قيل له «اشتد القحط وقنط الناس فقال : إذن مطروا» أراد هذه الآية ، ويجوز أن يريد رحمته الواسعة فى كل شىء كأنه قيل ينزل الرحمة التى هى الغيث وينشر سائر أنواع الرحمة (وهو الولى الحميد) (الولى) الذى يتولى عباده بإحسانه (والحميد) المحمود على ما يوصل للخلق من أقسام الرحمة ، ثم ذكر آية أخرى تدل على إلهيته فقال (ومن آياته خلق السموات والأرض وما بث فيهما من دابة) فنقول : أما دلالة خلق السموات والأرض على وجود الإله الحكيم فقد ذكرناها وكذلك دلالة وجود الحيوانات على وجود الإله الحكيم ، فان قيل كيف يجوز إطلاق لفظ الدابة على الملائكة ؟ قلنا فيه وجوه (الأول) أنه قد يضاف الفعل إلى جماعة وإن كان فاعله واحداً منهم يقال بنو فلان فعلوا كذا ، وإنما فعله واحد منهم ومنه قوله تعالى (يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان) (الثانى) أن الدبيب هو الحركة ، والملائكة لهم حركة (الثالث) لا يبعد أن يقال إنه تعالى خلق فى السموات أنواعاً من الحيوانات يمشون مشى الأناسى على الأرض .

ثم قال تعالى (وهو على جمعهم إذا يشاء قدير) قال صاحب الكشاف ، إذا تدخل على المضارع كما تدخل على الماضى ، قال تعالى (والليل إذا يغشى) ومنه (إذا يشاء قدير) والمقصود أنه تعالى خلقها متفرقة ، لا لعجز ولكن لمصلحة ، فلهذا قال (وهو على جمعهم إذا يشاء قدير) يعنى الجمع

للحشر والمحاسبة ، وإنما قال (على جمعهم) ولم يقل على جمعها ، لأجل أن المقصود من هذا الجمع المحاسبة ، فكأنه تعالى قال ، وهو على جمع العقلاء إذا يشاء قدير ، واحتج الجبائي بقوله (إذا يشاء قدير) على أن مشيئته تعالى محدثة بان قال : إن كلمة (إذا) تفيد ظرف الزمان ، وكلمة (يشاء) صيغة المستقبل ، فلو كانت مشيئته تعالى قديمة لم يكن لتخصيصها بذلك الوقت المعين من المستقبل فائدة ، ولما دل قوله (إذا يشاء قدير) على هذا التخصيص علمنا أن مشيئته تعالى محدثة (والجواب) أن هاتين الكلمتين كما دخلتا على المشيئة ، أى مشيئة الله ، فقد دخلتا أيضاً على لفظ (القدير) فلزم على هذا أن يكون كونه قادراً صفة محدثة ، ولما كان هذا باطلا ، فكذا القول فيما ذكره ، والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ﴾ وفى الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قرأ نافع وابن عامر (بما كسبت) بغير فاء ، وكذلك هي فى مصاحف الشام والمدينة ، والباقون بالفاء وكذلك هى فى مصاحفهم ، وتقدير الأول أن مامبتدأ بمعنى الذى ، وبما كسبت خبره ، والمعنى والذى أصابكم وقع بما كسبت أيديكم ، وتقدير الثانى تضمين كلمة : (ما) معنى الشرطية .

﴿ المسألة الثانية ﴾ المراد بهذه المصائب الأحوال المكروهة نحو الآلام والأسقام والقحط والغرق والصواعق وأشباهها ، واختلفوا فى نحو الآلام أنها هل هى عقوبات على ذنوب سلفت أم لا ؟ منهم من أنكر ذلك لوجوه (الأول) قوله تعالى (اليوم تجزى كل نفس بما كسبت) بين تعالى أن الجزاء إنما يحصل فى يوم القيامة ، وقال تعالى فى سورة الفاتحة (مالك يوم الدين) أى يوم الجزاء ، وأطبقوا على أن المراد منه يوم القيامة (والثانى) أن مصائب الدنيا يشترك فيها الزنديق والصديق ، وما يكون كذلك امتنع جعله من باب العقوبة على الذنوب ، بل الاستقراء يدل على أن حصول هذه المصائب للصالحين والمتقين أكثر منه للمذنبين ، ولهذا قال ﷺ « خص البلاء بالأنبياء ، ثم الأولياء ، ثم الأمثل فالأمثل » (الثالث) أن الدنيا دار التكليف ، فلو حصل الجزاء فيها لكانت الدنيا دار التكليف ودار الجزاء معاً ، وهو محال ، وأما القائلون بأن هذه المصائب قد تكون أجزية على الذنوب المتقدمة ، فقد تمسكوا أيضاً بما روى عن النبى ﷺ أنه قال « لا يصيب ابن آدم خدش عود ولا غيره إلا بذنب أو لفظ » هذا معناه وتمسكوا أيضاً بهذه الآية ، وتمسكوا أيضاً بقوله تعالى (فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات) وتمسكوا أيضاً بقوله تعالى بعد هذه الآية (أو يوبقهن بما كسبوا) وذلك تصريح بأن ذلك الإهلاك كان بسبب كسبهم ، وأجاب الأولون عن التمسك بهذه الآية ، فقالوا إن حصول هذه المصائب يكون من باب الامتحان فى التكليف ، لا من باب العقوبة كما فى حق الأنبياء والأولياء ، ويحمل قوله (فبما كسبت أيديكم)

على أن الأصلح عند إتيانكم بذلك الكسب إنزال هذه المصائب عليكم ، وكذا الجواب عن بقية الدلائل ، والله أعلم .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ احتج أهل التناسخ بهذه الآية ، وكذلك الذين يقولون إن الأطفال والبهائم لا تتألم ، فقالوا دلت الآية على أن حصول المصائب لا يكون إلا لسابقة الجرم ، ثم إن أهل التناسخ قالوا : لكن هذه المصائب حاصلة للأطفال والبهائم ، فوجب أن يكون قد حصل لها ذنوب فى الزمان السابق ، وأما القائلون بأن الأطفال والبهائم ليس لها ألم قالوا قد ثبت أن هذه الأطفال والبهائم ماكانت موجودة فى بدن آخر لفساد القول بالتناسخ فوجب القطع بأنها لا تتألم إذ الألم مصيبة (والجواب) أن قوله تعالى (وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم) خطاب مع من يفهم ويعقل ، فلا يدخل فيه البهائم والأطفال ، ولم يقل تعالى : إن جميع ما يصيب الحيوان من المكاره فإنه بسبب ذنب سابق ، والله أعلم .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قوله (فبما كسبت أيديكم) يقتضى إضافة الكسب إلى اليد ، قال والكسب لا يكون باليد ، بل بالقدرة القائمة باليد ، وإذا كان المراد من لفظ اليد ههنا القدرة ، وكان هذا المجاز مشهوراً مستعملا ، كان لفظ اليد الوارد فى حق الله تعالى يجب حمله على القدرة تنزيهاً لله تعالى عن الأعضاء والأجزاء ، والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ ويعفوا عن كثير ﴾ ومعناه أنه تعالى قد يترك الكثير من هذه التشديدات بفضله ورحمته ، وعن الحسن قال : دخلنا على عمران بن حصين فى الوجع الشديد ، فقيل له : إنا لنغتم لك من بعض ما نرى ، فقال لا تفعلوا فوالله إن أحبه إلى الله أحبه إلى ، وقرأ (وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم) فهذا بما كسبت يداى ، وسيأتينى عفو ربى ، وقد روى أبو سخلة عن على بن أبى طالب رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قرأ هذه الآية وقال : « ما عفى الله عنه فهو أعز وأكرم من أن يعود إليه فى الآخرة ، وما عاقب عليه فى الدنيا فالله أكرم من أن يعيد العذاب عليه فى الآخرة » رواه الواحدى فى البسيط ، وقال إذا كان كذلك فهذه أرجى آية فى كتاب الله لأن الله تعالى جعل ذنوب المؤمنين صنفين : صنف كفره عنهم بالمصائب فى الدنيا ، وصنف عفا عنه فى الدنيا ، وهو كريم لا يرجع فى عفوه ، وهذه سنة الله مع المؤمنين ، وأما الكافر فلأنه لا يعجل عليه عقوبة ذنبه حتى يوافى ربه يوم القيامة .

قوله تعالى : ﴿ وما أنتم بمعجزين فى الأرض ﴾ يقول ما أنتم معشر المشركين بمعجزين فى الأرض ، أى لا تعجزوننى حيثما كنتم ، فلا تسبقوننى بسبب هربكم فى الأرض (وما لكم من دون الله من ولى ولا نصير) والمراد بهم من يعبد الأصنام ، بين أنه لا فائدة فيها البتة ، والنصير هو الله تعالى ، فلا جرم هو الذى تحسن عبادته .

وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ
رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا
كَسَبُوا۟ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٤﴾ وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ
﴿٣٥﴾ فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ
ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا
غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ
شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ
يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾

قوله تعالى : ﴿ ومن آياته الجوار فى البحر كالأعلام ، إن يشأ يسكن الريح فيظللن رواكد على ظهره إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور ، أو يوبقهن بما كسبوا ويعف عن كثير . ويعلم الذين يجادلون فى آياتنا ما لهم من محيص ، فما أوتيتم من شىء فمتاع الحياة الدنيا وما عند الله خير وأبقى للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون ، والذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش وإذا ما غضبوا هم يغفرون والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون ، والذين إذا أصابهم البغى هم ينتصرون ﴾ . وفى الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قرأ نافع وأبو عمرو (الجوارى) بياء فى الوصل والوقف ، فإثبات الياء على الأصل وحذفها للتخفيف .

﴿ المسألة الثانية ﴾ الجوارى ، يعنى السفن الجوارى ، لحذف الموصوف لعدم الالتباس .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ اعلم أنه تعالى ذكر من آياته أيضاً هذه السفن العظيمة التى تجرى على وجه البحر عند هبوب الرياح ، واعلم أن المقصود من ذكره أمران (أحدهما) أن يستدل به على وجود القادر الحكيم (والثانى) أن يعرف ما فيه من النعم العظيمة لله تعالى على العباد (أما الوجه الأول) فقد اتفقوا على أن المراد بالأعلام الجبال ، قالت الخنساء فى مرثية أخيها : ،

وإن صخراً لتأتم الهداة به كأنه علم فى رأسه نار

ونقل أن النبي ﷺ استنشد قصيدتها هذه فلما وصل الراوى إلى هذا البيت ، قال « قاتلها الله مارضيت بتشبيهها له بالجبل حتى جعلت على رأسه ناراً ! » إذا عرفت هذا فنقول : هذه السفن العظيمة التى تكون كالجبال تجرى على وجه البحر عند هبوب الرياح على أسرع الوجوه ، وعند سكون هذه الرياح تقف ، وقد بينا بالدليل فى سورة النحل ، أن محرك الرياح ومسكنها هو الله تعالى ، إذ لا يقدر أحد على تحريكها من البشر ولا على تسكينها ، وذلك يدل على وجود الإله القادر ، وأيضاً أن السفينة تكون فى غاية الثقل ، ثم إنها مع ثقلها بقيت على وجه الماء ، وهو أيضاً دلالة أخرى (وأما الوجه الثانى) وهو معرفة ما فيها من المنافع ، فهو أنه تعالى خص كل جانب من جوانب الأرض بنوع آخر من الأمتعة ، وإذا نقل متاع هذا الجانب إلى ذلك الجانب فى السفن وبالعكس حصلت المنافع العظيمة فى التجارة ، فلهذه الأسباب ذكر الله تعالى حال هذه السفينة .

قوله تعالى : ﴿ إن يشأ يسكن الريح فيظللن رواكد على ظهره ﴾ قرأ أبو عمرو والجمهور : بهمزة (إن يشأ) لأن سكون الهمزة علامة للجزم ، وعن ورش عن نافع بلا همزة ، وقرأ نافع وحده (يسكن الرياح) على الجمع ، والباقون (الريح) على الواحد ، قال صاحب الكشاف : قرىء (يظللن) بفتح اللام وكسرها من ظل يظل ويظل ، وقوله تعالى (رواكد) أى رواتب ، أى لا تجرى على ظهره ، أى على ظهر البحر (إن فى ذلك لآيات لكل صبار) على بلاء الله (شكور) لنعمائه ، والمقصود التنبيه ، على أن المؤمن يجب أن لا يكون غافلا عن دلائل معرفة الله البتة ، لأنه لا بد وأن يكون إما فى البلاء وإما فى الآلاء ، فإن كان فى البلاء كان من الصابرين ، وإن كان فى النعماء كان من الشاكرين ، وعلى هذا التقدير فإنه لا يكون البتة من الغافلين .

قوله تعالى : ﴿ أو يوبقهن بما كسبوا ﴾ يعنى أو يهلكهن ، يقال أوبقه ، أى أهلكه ، ويقال للمجرم أوبقته ذنوبه ، أى أهلكته ، والمعنى أنه تعالى إن شاء ابتلى المسافرين فى البحر بإحدى بليتين : إما أن يسكن الريح فتركد الجوارى على متن البحر وتقف ، وإما أن يرسل الرياح عاصفة فيها فيهلكن بسبب الإغراق ، وعلى هذا التقدير فقوله (أو يوبقهن) معطوف على قوله (يسكن) لأن التقدير (إن يشأ يسكن الريح) فيركدن ، أو يعصفها فيغرقن بعصفها ، وقوله (ويعفو عن كثير) معناه إن يشأ يهلك ناساً وينج ناساً عن طريق العفو عنهم ، فإن قيل فما معنى إدخال العفو فى حكم الإيباق حيث جعل مجزوماً مثله ، قلنا معناه إن يشأ يهلك ناساً وينج ناساً على طريق العفو عنهم ، وأما من قرأ (ويعفو) فقد استأنف الكلام .

ثم قال (ويعلم الذين يجادلون فى آياتنا مالهم من محيص) قرأ نافع وابن عامر : يعلم بالرفع على الاستئناف ، وقرأ الباقون بالنصب ، فالقراءة بالرفع على الاستئناف ، وأما بالنصب فللعطف على

تعليل محذوف تقديره لينتقم منهم (ويعلم الذين يجادلون فى آياتنا) والعطف على التعليل المحذوف غير عزيز فى القرآن . ومنه قوله تعالى (ولنجعله آية الناس) وقوله تعالى (خلق السموات والأرض بالحق ولتجزى كل نفس بما كسبت) قال صاحب الكشاف : ومن قرأ على جزم (ويعلم) فكأنه قال أو إن يشأ ، يجمع بين ثلاثة أمور : هلاك قوم ، ونجاة قوم ، وتحذير آخرين . إذا عرفت هذا فنقول معنى الآية (وليعلم الذين يجادلون) أى ينازعون على وجه التكذيب ، أن لا مخاص لهم إذا وقفت السفن ، وإذا عصفت الرياح فيصير ذلك سبباً لاعترافهم بأن الإله النافع الضار ليس إلا الله .

واعلم أنه تعالى لما ذكر دلائل التوحيد أردفها بالتنفير عن الدنيا وتحقير شأنها ، لأن الذى يمنع من قبول الدليل إنما هو الرغبة فى الدنيا بسبب الرياسة وطلب الجاه ، فإذا صغرت الدنيا فى عين الرجل لم يلتفت إليها ، فحينئذ ينتفع بذكر الدلائل ، فقال (فما أوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا) وسماه متاعاً تنبيهاً على قلته وحقارته ، ولأن الحس شاهد بأن كل ما يتعلق بالدنيا فإنه يكون سريع الانقراض والانقضاء .

ثم قال تعالى (وما عند الله خير وأبقى) والمعنى أن مطالب الدنيا خسيسة منقرضة ، ونبه على خساستها بتسميتها بالمتاع ، ونبه على انقراضها بأن جعلها من الدنيا . وأما الآخرة فإنها خير وأبقى ، وصريح العقل يقتضى ترجيح الخير الباقى على الخسيس الفانى ، ثم بين أن هذه الخيرية إنما تحصل لمن كان موصوفاً بصفات :

﴿ الصفة الأولى ﴾ أن يكون من المؤمنين بدليل قوله تعالى (الذين آمنوا) .

﴿ الصفة الثانية ﴾ أن يكون من المتوكلين على فضل الله ، بدليل قوله تعالى (وعلى ربهم يتوكلون) فأما من زعم أن الطاعة توجب الثواب ، فهو متكل على عمل نفسه لا على الله ، فلا يدخل تحت الآية .

﴿ الصفة الثالثة ﴾ أن يكونوا مجتنبين لكبائر الإثم والفواحش ، عن ابن عباس : كبير الإثم ، هو الشرك ، نقله صاحب الكشاف وهو عندى بعيد ، لأن شرط الإيمان مذكور أولا وهو يغنى عن عدم الشرك ، وقيل المراد بكبائر الإثم ما يتعلق بالبدع واستخراج الشبهات ، وبالفواحش ما يتعلق بالقوة الشهوانية ، وبقوله (وإذا ما غضبوا هم يغفرون) ما يتعلق بالقوة الغضبية ، وإنما خص الغضب بلفظ الغفران ، لأن الغضب على طبع النار ، واستيلاؤه شديد ومقاومته صعبة ، فلهذا السبب خصه بهذا اللفظ ، والله أعلم .

﴿ الصفة الرابعة ﴾ قوله تعالى (والذين استجابوا لربهم) والمراد منه تمام الانقياد ، فإن قالوا أليس أنه لما جعل الإيمان شرطاً فيه فقد دخل فى الإيمان إجابة الله ؟ قلنا الأقرب عندى أن يحمل هذا على الرضاء بقضاء الله من صميم القلب ، وأن لا يكون فى قلبه منازعة فى أمر من الأمور . ولما ذكر هذا الشرط قال (وأقاموا الصلاة) والمراد منه إقامة الصلوات الواجبة ، لأن هذا هو

وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ

الشرط فى حصول الثواب .

وأما قوله تعالى (أمرهم شورى بينهم) فقيل كان إذا وقعت بينهم واقعة اجتمعوا وتشاوروا فأثنى الله عليهم ، أى لا ينفردون برأى بل مالم يجتمعوا عليه لا يقدمون عليه ، وعن الحسن : ماتشاور قوم إلا هدوا لأرشد أمرهم ، والشورى مصدر كالفتيا بمعنى التشاور ، ومعنى قوله (وأمرهم شورى بينهم) أى ذو شورى .

﴿ الصفة الخامسة ﴾ قوله تعالى (والذين إذا أصابهم البغى هم ينتصرون) والمعنى أن يقتصروا فى الانتصار على ما يجعله الله لهم ولا يتعدونه ، وعن النخعى أنه كان إذا قرأها قال كانوا يكرهون أن يذلوا أنفسهم فيجترىء عليهم السفهاء ، فإن قيل هذه الآية مشكلة لوجهين (الأول) أنه لما ذكر قبله (وإذا ما غضبوا هم يغفرون) فكيف يليق أن يذكر معه ما يجرى مجرى الضد له وهو قوله (والذين إذا أصابهم البغى هم ينتصرون) ؟ (الثانى) وهو أن جميع الآيات دالة على أن العفو أحسن قال تعالى (وأن تعفوا أقرب للتقوى) وقال (وإذا مروا باللغو مروا كراماً) وقال (خذ العفو وامر بالعرف وأعرض عن الجاهلين) وقال وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين) فهذه الآيات تناقض مدلول هذه الآية (والجواب) أن العفو على قسمين (أحدهما) أن يكون العفو سبباً لتسكين الفتنة وجناية الجانى ورجوعه عن جنايته (والثانى) أن يصير العفو سبباً لمزيد جراءة الجانى ولقوة غيظه وغضبه ، والآيات فى العفو محمولة على القسم الأول ، وهذه الآية محمولة على القسم الثانى ، وحينئذ يزول التناقض والله أعلم ، ألا ترى أن العفو عن المصر يكون كالإغراء له ولغيره ، فلو أن رجلا وجد عبده فجر بجاريته وهو مصر فلو عفا عنه كان مذموماً ، وروى أن زينب أقبلت على عائشة فشتمتها فنهاها النبى صلى الله عليه وسلم عنها فلم تنته فقال النبى ﷺ « دونك فانتصرى » وأيضاً إنه تعالى لم يرغب فى الانتصار بل بين أنه مشروع فقط ، ثم بين بعده أن شرعه مشروط برعاية المماثلة ،ثم بين أن العفو أولى بقوله (فمن عفا وأصلح فأجره على الله) فزال السؤال والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله إنه لا يحب الظالمين ، ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل ، إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون فى

لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿٤٣﴾ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن وَلِيٍّ مِّن بَعْدِهِ وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾ وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴿٤٥﴾ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَاءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن سَبِيلٍ ﴿٤٦﴾

الأرض بغير الحق أولئك لهم عذاب أليم ، ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور ، ومن يضلل الله فما له من ولى من بعده وترى الظالمين لما رأوا العذاب يقولون هل إلى مرد من سبيل ، وتراهم يعرضون عليها خاشعين من الذل ينظرون من طرف خفى وقال الذين آمنوا إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ألا إن الظالمين فى عذاب مقيم ، وما كان لهم من أولياء ينصرونهم من دون الله ومن يضلل الله فما له من سبيل ﴾

اعلم أنه تعالى لما قال (والذين إذا أصابهم البغى هم ينتصرون) أردفه بما يدل على أن ذلك الانتصار يجب أن يكون مقيداً بالمثل فإن النقصان حيف والزيادة ظلم والتساوى هو العدل وبه قامت السموات والأرض ، فلهذا السبب قال (وجزاء سيئة سيئة مثلها) وفى الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ لقائل أن يقول جزاء السيئة مشروع مأذون فيه ، فكيف سمى بالسيئة ؟ أجاب صاحب الكشاف عنه كلتا الفعلتين الأولى وجزاؤها سيئة لأنها تسوء من تنزل به ، قال تعالى (وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك) يريد ما يسوءهم من المصائب والبلايا ، وأجاب غيره بأنه لما جعل أحدهما فى مقابلة الآخر على سبيل المجاز أطلق اسم أحدهما على الآخر ، والحق ما ذكره صاحب الكشاف .

﴿ المسألة الثانية ﴾ هذه الآية أصل كبير فى علم الفقه فإن مقتضاها أن تقابل كل جناية بمثلها وذلك لأن الإهدار يوجب فتح باب الشر والعدوان ، لأن فى طبع كل أحد الظلم والبغى والعدوان ، فإذا لم يزجر عنه أقدم عليه ولم يتركه ، وأما الزيادة على قدر الذنب فهو ظلم والشرع منزه عنه فلم يبق إلا أن يقابل بالمثل ، ثم تأكد هذا النص بنصوص أخر ، كقوله تعالى (وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به) وقوله تعالى (من عمل سيئة فلا يجزى إلا مثلها) وقوله عز وجل (كتب عليكم

القصاص) فى القتلى والقصاص عبارة عن المساواة والمماثلة وقوله تعالى (والجروح قصاص) وقوله تعالى (ولكم فى القصاص حياة) فهذه النصوص بأسرها تقتضى مقابلة الشىء بمثله . ثم ههنا دقيقة : وهى أنه إذا لم يمكن استيفاء الحق إلا باستيفاء الزيادة فههنا وقع التعارض بين إلحاق زيادة الضرر بالجانى وبين منع المجنى عليه من استيفاء حقه ، فأيهما أولى ؟ فههنا محل اجتهاد المجتهدين ، ويختلف ذلك باختلاف الصور ، وتفرع على هذا الأصل بعض المسائل تنبيهاً على الباقى .

(المثال الأول) احتج الشافعى رضى الله عنه على أن المسلم لا يقتل بالذمى وأن الحر لا يقتل بالعبد ، بأن قال المماثلة شرط لجريان القصاص وهى مفقودة فى هاتين المسألتين ، فوجب أن لا يجرى القصاص بينهما ، أما بيان أن المماثلة شرط لجريان القصاص فهى النصوص المذكورة ، وكيفية الاستدلال بها أن نقول إما أن نحمل المماثلة المذكورة فى هذه النصوص على المماثلة فى كل الأمور إلا ما خصه الدليل أو نحملها على المماثلة فى أمر معين ، والثانى مرجوح لأن ذلك الأمر المعين غير مذكور الآية ، فلو حملنا الآية عليها لزم الإجمال . ولو حملنا النص على القسم الأول لزم تحمل التخصيص ، ومعلوم أن دفع الإجمال أولى من دفع التخصيص ، فثبت أن الآية تقتضى رعاية المماثلة فى كل الأمور إلا ما خصه دليل العقل ودليل نقلى منفصل ، وإذا ثبت هذا فنقول رعاية المماثلة فى قتل المسلم بالذمى ، وفى قتل الحر بالعبد لا تمكن لأن الإسلام اعتبره الشرع فى إيجاب القتل ، لتحصيله عند عدمه كما فى حق الكافر الأصلى ، ولإبقائه عند وجوده كما فى حق المرتد وأيضاً الحرية صفة اعتبرها الشرع فى حق القضاء والإمامة والشهادة ، فثبت أن المماثلة شرط لجريان القصاص وهى مفقودة ههنا فوجب المنع من القصاص .

(المثال الثانى) احتج الشافعى رضى الله عنه فى أن الأيدى تقطع باليد الواحدة ، فقال لا شك أنه إذا صدر كل القطع أو بعضه عن كل أولئك القاطعين أو عن بعضهم فوجب أن يشرع فى حق أولئك القاطعين مثله لهذه النصوص وكل من قال يشرع القطع إما كله أو بعضه فى حق كلهم أو بعضهم قال بإيجابه على الكل ، بقى أن يقال فيلزم منه استيفاء الزيادة من الجانى وهو ممنوع منه إلا أنا نقول لما وقع التعارض بين جانب الجانى وبين جانب المجنى عليه كان جانب المجنى عليه بالرعاية أولى .

(المثال الثالث) شريك الأب شرع فى حقه القصاص ، والدليل عليه أنه صدر عنه الجرح فوجب أن يقابل بمثله لقوله تعالى (والجروح قصاص) وإذا ثبت هذا ثبت تمام القصاص لأنه لا قائل بالفرق .

(المثال الرابع) قال الشافعى رضى الله تعالى عنه من حرق حرقناه ومن غرق غرقناه والدليل عليه هذه النصوص الدالة على مقابلة كل شىء بمماثله .

(المثال الخامس) شهود القصاص إذا رجعوا وقالوا تعمدنا الكذب يلزمهم القصاص لأنهم بتلك الشهادة أهدروا دمه ، فوجب أن يصير دمهم مهدراً لقوله تعالى (وجزاء سيئة سيئة مثلها)

(المثال السادس) قال الشافعى رضى الله عنه المكره يجب عليه القود لأنه صدر عنه القتل ظلماً فوجب أن يجب عليه مثله ، أما أنه صدر عنه القتل فالحس يدل عليه وأما أنه قتل ظلماً فلأن المسلمين أجمعوا على أنه مكلف من قبل الله تعالى بأن لا يقتل وأجمعوا على أنه يستحق به الإثم العظيم والعقاب الشديد ، وإذا ثبت هذا فوجب أن يقابل بمثله لقوله تعالى (وجزاء سيئة سيئة مثلها) .

(المثال السابع) قال الشافعى رضى الله عنه القتل بالمثقل يوجب القود ، والدليل عليه أن الجانى أبطل حياته فوجب أن يتمكن ولى المقتول من إبطال حياة القاتل لقوله تعالى (وجزاء سيئة سيئة مثلها) .

(المثال الثامن) الحر لا يقتل بالعبد قصاصاً ونحن وإن ذكرنا هذه المسألة فى المثال الأول إلا أنا نذكر ههنا وجهاً آخر من البيان ، فنقول إن القاتل أتلف على مالك العبد شيئاً يساوى عشرة دنانير مثلا فوجب عليه أداء عشرة دنانير لقوله تعالى (وجزاء سيئة سيئة مثلها) وإذا وجب الضمان وجب أن لا يجب القصاص لأنه لا قائل بالفرق .

(المثال التاسع) منافع الغصب مضمونة عند الشافعى رضى الله عنه والدليل عليه أن الغاصب فوت على المالك منافع تقابل فى العرف بدينار فوجب أن يفوت على الغاصب مثله من المال لقوله تعالى (وجزاء سيئة سيئة مثلها) وكل من أوجب تفويت هذا القدر على الغاصب قال بأنه يجب أداؤه إلى المغصوب منه .

(المثال العاشر) الحر لا يقتل بالعبد قصاصاً لأنه لو قتل بالعبد لكان هو مساوياً للعبد فى المعانى الموجبة للقصاص لقوله (من عمل سيئة فلا يجزى إلا مثلها) ولسائر النصوص التى تلوناها ثم إن عبده يقتل قصاصا بعبد نفسه فيجب أن يكون عبد غيره مساوياً لعبد نفسه فى المعانى الموجبة للقصاص لعين هذه النصوص التى ذكرناها ، فعلى هذا التقدير يكون عبد نفسه مساوياً لعبد غيره فى المعانى الموجبة للقصاص ، فكان عبد نفسه مثلا لمثل نفسه ، ومثل المثل مثل فوجب كون عبد نفسه مثلا لنفسه فى المعانى الموجبة للقصاص ، ولو قتل الحر بعبد غيره لقتل بعبد نفسه بالبيان الذى ذكرناه ولا يقتل بعبد نفسه فوجب أن لا يقتل بعبد غيره ، فقد ذكرنا هذه الأمثلة العشرة فى التفريع على هذه الآية ، ومن أخذت الفطانة بيده سهل عليه تفريع كثير من مسائل الشريعة على هذا الأصل والله أعلم ، ثم ههنا بحث وهو أن أبا حنيفة رضى الله عنه قال فى قطع الأيدى لا شك أنه صدر كل القطع أو بعضه عن كلهم أو عن بعضهم إلا أنه لا يمكن استيفاء ذلك الحق إلا باستيفاء الزيادة لأن تفويت عشرة من الأيدى أزيد من تفويت يد واحدة ، فوجب أن يبقى على أصل الحرمة ، فقال الشافعى رضى الله عنه لو كان تفويت عشرة من الأيدى فى مقابلة يد واحدة حراماً لكان تفويت عشرة من النفوس فى مقابلة نفس واحدة حراماً ، لأن تفويت النفس يشتمل على تفويت اليد فتفويت عشرة من النفوس فى مقابلة النفس الواحدة يوجب تفويت عشرة من الأيدى فى مقابلة اليد الواحدة ،

فلو كان تفويت عشرة من الأيدى فى مقابلة اليد الواحدة حراماً لكان تفويت عشرة من النفوس لأجل النفس الواحدة مشتملا على الحرام وكل ما اشتمل على الحرام فهو حرام فكان يجب أن يحرم قتل النفوس العشرة فى مقابلة النفس الواحدة ، وحيث أجمعنا على أنه لايحرم علمنا أن ماذكرتم من استيفاء الزيادة غير ممنوع منه شرعاً ، والله أعلم .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قد بينا أن قوله (وجزاء سيئة سيئة مثلها) يقتضى وجوب رعاية المماثلة مطلقاً فى كل الأحوال إلا فيما خصه الدليل ، والفقهاء أدخلوا التخصيص فيه فى صور كثيرة فتارة بناء على نص آخر أخص منه وأخرى بناء على القياس ، ولا شك أن من ادعى التخصيص فعليه البيان والمكلف يكفيه أن يتمسك بهذا النص فى جميع المطالب ، قال مجاهد والسدى إذا قال له أخزاه الله ، فليقل له أخزاه الله ، أما إذا قذفه قذفاً يوجب الحد فليس له ذلك بل الحد الذى أمر الله به .

ثم قال تعالى (فمن عفا وأصلح) بينه وبين خصمه بالعفو والإغضاء كما قال تعالى (فإذا الذى بينك وبينه عدواة كأنه ولى حميم) ، (فأجره على الله) وهو وعد مبهم لايقاس أمره فى التعظيم .

ثم قال تعالى (إنه لايحب الظالمين) وفيه قولان (الأول) أن المقصود منه التنبيه على أن المجنى عليه لايجوز له استيفاء الزيادة من الظالم لأن الظالم فيما وراء ظلمه معصوم والانتصار لايكاد يؤمن فيه تجاوز التسوية والتعدى خصوصاً فى حال الحرب والتهاب الحمية ، فربما صار المظلوم عند الإقدام على استيفاء القصاص ظالماً ، وعن النبى صلى الله عليه وسلم « إذا كان يوم القيامة نادى مناد من كان له على الله أجر فليقم ، قال فيقوم خلق فيقال لهم ماأجركم على الله ؟ فيقولون نحن الذين عفونا عمن ظلمنا ، فيقال لهم ادخلوا الجنة بإذن الله تعالى » (الثانى) أنه تعالى لما حث على العفو عن الظالم أخبر أنه مع ذلك لا يحبه تنبيهاً على أنه إذا كان لا يحبه ومع ذلك فانه يندب إلى عفوه ، فالمؤمن الذى هو حبيب الله بسبب إيمانه أولى أن يعفو عنه .

ثم قال تعالى (ولمن انتصر بعد ظلمه) أى ظلم الظالم إياه ، وهذا من باب إضافة المصدر إلى المفعول (فأولئك) يعنى المنتصرين (ماعليهم من سبيل) كعقوبة ومؤاخذة لأنهم أتوا بما أبيح لهم من الانتصار واحتج الشافعى رضى الله تعالى عنه بهذه الآية فى بيان أن سراية القود مهدرة ، فقال الشرع إما أن يقال إنه أذن له فى القطع مطلقاً أو بشرط أن لا يحصل منه السريان ، وهذا الثانى باطل لأن الأصل فى القطع الحرمة فاذا كان تجويزه معلقاً بشرط عدم السريان ، وكان هذا الشرط مجهولا وجب أن يبقى ذلك القطع على أصل الحرمة ، لأن الأصل فيها هو الحرمة ، والحل إنما يحصل معلقاً على شرط مجهول فوجب أن يبقى ذلك أصل الحرمة ، وحيث لم يكن كذلك علمنا أن الشرع أذن له فى القطع كيف كان سواء سرى أولم يسر ، وإذا كان كذلك وجب أن لايكون ذلك السريان مضموناً لأنه قد انتصر من بعد ظلمه فوجب أن لا يحصل لأحد عليه سبيل .

ثم قال (إنما السبيل على الذين يظلمون الناس) أى يبدأون بالظلم (ويبغون فى الأرض بغير الحق أولئك لهم عذاب أليم).

ثم قال تعالى (ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور) والمعنى (ولمن صبر) بأن لا يقتص (وغفر) وتجاوز (فان ذلك) الصبر والتجاوز (من عزم الأمور) يعنى أن عزمه على ترك الانتصار لمن عزم الأمور الجيدة وحذف الراجع لأنه مفهوم كما حذف من قولهم السمن منوان بدرهم ويحكى أن رجلا سب رجلا فى مجلس الحسن فكان المسبوب يكظم ويعرق فيمسح العرق ثم قام وتلا هذه الآية ، فقال الحسن عقلها والله وفهمها لما ضيعها الجاهلون.

ثم قال تعالى (ومن يضلل الله فما له من ولى من بعده) أى فليس له من ناصر يتولاه من بعد خذلانه أى من بعد إضلال الله إياه ، وهذا صريح فى جواز الإضلال من الله تعالى ، وفى أن الهداية ليست فى مقدور أحد سوى الله تعالى ، قال القاضى المراد من يضلل الله عن الجنة فما له من ولى من بعده ينصره (والجواب) أن تقييد الإضلال بهذه الصورة المعينة خلاف الدليل . وأيضاً فالله تعالى ما أضله عن الجنة على قولكم بل هو أضل نفسه عن الجنة.

قوله تعالى : ﴿ وترى الظالمين لما رأوا العذاب يقولون هل إلى مرد من سبيل﴾ والمراد أنهم يطلبون الرجوع إلى الدنيا لعظم ما يشاهدون من العذاب ، ثم ذكر حالهم عند عرض النار عليهم فقال (وتراهم يعرضون عليها خاشعين من الذل) أى حال كونهم خاشعين حقيرين مهانين بسبب مالحقهم من الذل ، ثم قال (ينظرون من طرف خفى) أى يبتدىء نظرهم من تحريك لأجفانهم ضعيف خفى بمسارقة كما ترى الذى يتيقن أن يقتل فإنه ينظر إلى السيف كأنه لا يقدر على أن يفتح أجفانه عليه ويملأ عينيه منه كما يفعل فى نظره إلى المحبوبات ، فان قيل أليس أنه تعالى قال فى صفة الكفار إنهم يحشرون عمياً فكيف قال ههنا إنهم ينظرون من طرف خفى ؟ قلنا لعلهم يكونون فى الابتداء هكذا ، ثم يجعلون عمياً أو لعل هذا فى قوم ، وذلك فى قوم آخرين ، ولما وصف الله تعالى حال الكفار حكى مايقوله المؤمنون فيهم فقال (وقال الذين آمنوا إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة) قال صاحب الكشاف (يوم القيامة) إما أن يتعلق بخسروا أو يكون قول المؤمنين واقعاً فى الدنيا ، وإما أن يتعلق بقال أى يقولون يوم القيامة إذا رأوهم على تلك الصفة

ثم قال (ألا إن الظالمين فى عذاب مقيم) أى دائم قال القاضى ، وهذا يدل على أن الكافر والفاسق يدوم عذابهما (والجواب) أن لفظ الظالم المطلق فى القرآن مخصوص بالكافر قال تعالى (والكافرون هم الظالمون) والذى يؤكد هذا أنه تعالى قال بعد هذه الآية (وما كان لهم من أولياء ينصرونهم من الله) والمعنى أن الأصنام التى كانوا يعبدونها لأجل أن تشفع لهم عند الله تعالى ما أتوا بتلك الشفاعة ومعلوم أن هذا لا يليق إلا بالكفار ثم قال (ومن يضلل الله فما له من سبيل) وذلك يدل على أن المضل والهادى هو الله تعالى على ما هو قولنا ومذهبنا والله أعلم.

ٱسْتَجِيبُواْ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ﴿٤٧﴾ فَإِنْ أَعْرَضُواْ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ ﴿٤٨﴾ لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾

قوله تعالى : ﴿ استجيبوا لربكم من قبل أن يأتى يوم لا مرد له من الله مالكم من ملجأ يومئذ ومالكم من نكير ، فإن أعرضوا فما أرسلناك عليهم حفيظاً إن عليك إلا البلاغ وإنا إذا أذقنا الإنسان منارحمة فرح بها و إن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم فإن الإنسان كفور ، لله ملك السموات والأرض يخلق ما يشاء يهب لمن يشاء إناثاً ويهب لمن يشاء الذكور ، أو يزوجهم ذكراناً وإناثاً ويجعل من يشاء عقيما إنه عليم قدير ﴾

اعلم أنه تعالى لما أطنب فى الوعد والوعيد ذكر بعده ما هو المقصود فقال (استجيبوا لربكم من قبل أن يأتى يوم لا مرد له من الله) وقوله (من الله) يجوز أن يكون صلة لقوله (لا مرد له) يعنى لا يرده الله بعد ما حكم به ، ويجوز أن يكون صلة لقوله (يأتى) أى من قبل أن يأتى من الله يوم لا يقدر أحد على رده ، واختلفوا فى المراد بذلك اليوم فقيل يوم ورود الموت ، وقيل يوم القيامة لأنه وصف ذلك اليوم (بأنه لا مرد له) وهذا الوصف موجود فى كلا اليومين ، ويحتمل أن يكون معنى قوله (لا مرد له) أنه لا يقبل التقديم والتأخير أو أن يكون معناه أن لا مرد فيه إلى حال التكليف حتى يحصل فيه التلافى .

ثم قال تعالى فى وصف ذلك اليوم (مالكم من ملجأ) ينفع فى التخلص من العذاب (وما لكم من نكير) ممن ينكر ذلك حتى يتغير حالكم بسبب ذلك المنكر ، ويجوز أن يكون المراد من النكير الإنكار أى لا تقدرون أن تنكروا شيئاً مما اقترفتموه من الأعمال (فان أعرضوا) أى هؤلاء الذين أمرتهم بالاستجابة أى لم يقبلوا هذا الأمر (فما أرسلناك عليهم حفيظاً) بأن تحفظ أعمالهم وتحصيها (إن عليك إلا البلاغ) وذلك تسلية من الله تعالى ، ثم إنه تعالى بين السبب فى

إصرارهم على مذاهبهم الباطلة ، وذلك أنهم وجدوا فى الدنيا سعادة وكرامة والفوز بمطالب الدنيا يفيد الغرور والفجور والتكبر وعدم الانقياد للحق فقال (وإنا إذا أذقنا الإنسان منا رحمة فرح بها) ونعم الله فى الدنيا وإن كانت عظيمة إلا أنها بالنسبة إلى السعادات المعدة فى الآخرة كالقطرة بالنسبة إلى البحر فلذلك سماها ذوقاً فبين تعالى أن الإنسان إذا فاز بهذا القدر الحقير الذى حصل فى الدنيا فانه يفرح بها ويعظم غروره بسببها ويقع فى العجب والكبر ، ويظن أنه فاز بكل المنى ووصل إلى أقاصى السعادات ، وهذه طريقة من يضعف اعتقاده فى سعادات الآخرة ، وهذه الطريقة مخالفة لطريقة المؤمن الذى لا يعد نعم الدنيا إلا كالوصلة إلى نعم الآخرة ، ثم بين أنه متى أصابتهم (سيئة) أى شىء يسوءهم فى الحال كالمرض والفقر وغيرهما فانه يظهر منه الكفر وهو معنى قوله (فان الإنسان كفور) والكفور الذى يكون مبالغاً فى الكفران ، ولم يقل فإنه كفور ، ليبين أن طبيعة الإنسان تقتضى هذه الحالة إلا إذا أدبها الرجل بالآداب التى أرشد الله إليها ، ولما ذكر الله إذاقة الإنسان الرحمة واصابته بضدها أتبع ذلك بقوله (لله ملك السموات والأرض) والمقصود منه أن لا يغتر الإنسان بما ملكه من المال والجاه بل إذا علم أن الكل ملك الله وملكه ، وأنه إنما حصل ذلك القدر تحت يده لأن الله أنعم عليه به فحينئذ يصير ذلك حاملا له على مزيد الطاعة والخدمة ، وأما إذا اعتقد أن تلك النعم ، إنما تحصل بسبب عقله وجده واجتهاده بقى مغروراً بنفسه معرضاً عن طاعة الله تعالى ، ثم ذكر من أقسام تصرف الله فى العالم أنه يخص البعض بالأولاد الإناث والبعض بالذكور والبعض بهما والبعض بأن يجعله محروماً من الكل ، وهو المراد من قوله (ويجعل من يشاء عقيما) .

واعلم أن أهل الطبائع يقولون السبب فى حدوث الولد صلاح حال النطفة والرحم وسبب الذكورة استيلاء الحرارة ، وسبب الأنوثة استيلاء البرودة ، وقد ذكرنا هذا الفصل بالاستقصاء التام فى سورة النحل ، وأبطلناه بالدلائل اليقينية ، وظهر أن ذلك من الله تعالى لا أنه من الطبائع والأنجم والأفلاك وفى الآية سؤالات :

﴿ السؤال الأول ﴾ أنه قدم الإناث فى الذكر على الذكور فقال (يهب لمن يشاء إناثاً ويهب لمن يشاء الذكور) ثم فى الآية الثانية قدم الذكور على الإناث فقال (أو يزوجهم ذكراناً وإناثاً) فما السبب فى هذا التقديم والتأخير ؟ .

﴿ السؤال الثانى ﴾ أنه ذكر الإناث على سبيل التنكير فقال (يهب لمن يشاء إناثاً) وذكر الذكور بلفظ التعريف فقال (ويهب لمن يشاء الذكور) فما السبب فى هذا الفرق ؟ .

﴿ السؤال الثالث ﴾ لم قال فى إعطاء الإناث وحدهن . وفى إعطاء الذكور وحدهم بلفظ الهبة فقال (يهب لمن يشاء إناثاً ويهب لمن يشاء الذكور) وقال فى إعطاء الصنفين معاً (أو يزوجهم ذكراناً وإناثاً) .

﴿ السؤال الرابع ﴾ لما كان حصول الولد هبة من الله فيكفى فى عدم حصوله أن لا يهب فأى حاجة فى عدم حصوله إلى أن يقول (ويجعل من يشاء عقيما) ؟ .

﴿ السؤال الخامس ﴾ هل المراد من هذا الحكم جمع معينون أو المراد الحكم على الإنسان المطلق ؟

﴿ والجواب ﴾ عن السؤال الأول من وجوه (الأول) أن الكريم يسعى فى أن يقع الختم على الخير والراحة والسرور والبهجة فإذا وهب الولد الأنثى أولا ثم أعطاه الذكر بعده فكأنه نقله من الغم إلى الفرح وهذا غاية الكرم ، أما إذا أعطى الولد أولا ثم أعطى الأنثى ثانياً فكأنه نقله من الفرح إلى الغم فذكر تعالى هبة الولد الأنثى أولا وثانياً هبة الولد الذكر حتى يكون قد نقله من الغم إلى الفرح فيكون ذلك أليق بالكرم (الوجه الثانى) أنه إذا أعطى الولد الأنثى أولا علم أنه لا اعتراض له على الله تعالى فيرضى بذلك فإذا أعطاه الولد الذكر بعد ذلك علم أن هذه الزيادة فضل من الله تعالى وإحسان إليه فيزداد شكره وطاعته ، ويعلم أن ذلك إنما حصل بمحض الفضل والكرم (والوجه الثالث) قال بعض المذكرين الأنثى ضعيفة ناقصة عاجزة فقدم ذكرها تنبيهاً على أنه كلما كان العجز والحاجة أتم كانت عناية الله به أكثر (الوجه الرابع) كأنه يقال أيتها المرأة الضعيفة العاجزة إن أباك وأمك يكرهان وجودك فإن كانا قد كرها وجودك فأنا قدمتك فى الذكر لتعلمى أن المحسن المكرم هو الله تعالى ، فاذا علمت المرأة ذلك زادت فى الطاعة والخدمة والبعد عن موجبات الطعن والذم ، فهذه المعانى هى التى لأجلها وقع ذكر الإناث مقدماً على ذكر الذكور وإنما قدم ذكر الذكور بعد ذلك على ذكر الإناث لأن الذكر أكمل وأفضل من الأنثى والأفضل الأكمل مقدم على الأخس الأرذل ، والحاصل أن النظر إلى كونه ذكراً أو أنثى يقتضى تقديم ذكر الذكر على ذكر الأنثى ، أما العوارض الخارجية التى ذكرناها فقد أوجبت تقديم ذكر الأنثى على ذكر الذكر ، فلما حصل المقتضى للتقديم والتأخير فى البابين لا جرم قدم هذا مرة وقدم ذلك مرة أخرى والله أعلم .

﴿ وأما السؤال الثانى ﴾ وهو قوله لم عبر عن الإناث بلفظ التنكير ، وعن الذكور بلفظ التعريف ؟ فجوابه أن المقصود منه التنبيه على كون الذكر أفضل من الأنثى .

﴿ وأما السؤال الثالث ﴾ وهو قوله لم قال تعالى فى إعطاء الصنفين (أو يزوجهم ذكرانا وإناثاً) ؟ فجوابه أن كل شيئين يقرن أحدهما بالآخر فهما زوجان ، وكل واحد منهما يقال له زوج والكناية فى (يزوجهم) عائدة على الإناث والذكور التى فى الآية الأولى ، والمعنى يقرن الإناث والذكور فيجعلهم أزواجاً .

﴿ وأما السؤال الرابع ﴾ فجوابه أن العقيم هو الذى لا يولد له ، يقال رجل عقيم لا يلد ، وامرأة عقيم لا تلد وأصل العقم القطع ، ومنه قيل الملك عقيم لأنه يقطع فيه الأرحام بالقتل والعقوق .

﴿ وأما السؤال الخامس ﴾ فجوابه قال ابن عباس (يهب لمن يشاء إناثاً) يريد لوطاً وشعيباً عليهما السلام لم يكن لهما إلا البنات (ويهب لمن يشاء الذكور) يريد إبراهيم عليه السلام لم يكن له

وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾

إلا الذكور (أو يزوجهم ذكراناً وإناثاً) يريد محمداً ﷺ كان له من البنين أربعة القاسم والطاهر وعبد الله وإبراهيم ، ومن البنات أربعة زينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة (ويجعل من يشاء عقيما) يريد عيسى ويحيى ، وقال الأكثرون من المفسرين هذا الحكم عام فى حق كل الناس ، لأن المقصود بيان نفاذ قدرة الله فى تكوين الأشياء كيف شاء وأراد فلم يكن للتخصيص معنى والله أعلم . ثم ختم الآية بقوله (إنه عليم قدير) قال ابن عباس عليم بما خلق قدير على ما يشاء أن يخلقه والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحى بإذنه مايشاء إنه على حكيم ، وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً نهدى به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم ، صراط الله الذى له مافى السموات وما فى الأرض ألا إلى الله تصير الأمور ﴾

اعلم أنه تعالى لما بين كمال قدرته وعلمه وحكمته أتبعه ببيان أنه كيف يخص أنبياءه بوحيه وكلامه وفى الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ (وما كان لبشر) وماصح لأحد من البشر (أن يكلمه الله) إلا على أحد ثلاثة أوجه ، إما على الوحى وهو الإلهام والقذف فى القلب أو المنام كما أوحى الله إلى أم موسى وإبراهيم عليه السلام فى ذبح ولده ، وعن مجاهد أوحى الله تعالى الزبور إلى داود عليه السلام فى صدره ، وإما على أن يسمعه كلامه من غير واسطة مبلغ ، وهذا أيضاً وحى بدليل أنه تعالى أسمع موسى كلامه من غير واسطة مع أنه سماه وحياً ، قوله تعالى (فاستمع لما يوحى) وإما على أن يرسل إليه رسولا من الملائكة فيبلغ ذلك الملك ذلك الوحى إلى الرسول البشرى فطريق الحصر أن يقال وصول الوحى من الله إلى البشر إما أن يكون من غير واسطة مبلغ أو يكون بواسطة مبلغ ، وإذا كان الأول وهو أن يصل إليه وحى الله لا بواسطة شخص آخر فههنا إما أن يقال إنه

لم يسمع عين كلام الله أو يسمعه ، أما الأول وهو أنه وصل إليه الوحى لا بواسطة شخص آخر وما سمع عين كلام الله فهو المراد بقوله (إلا وحياً) وأما الثانى وهو أنه وصل إليه الوحى لا بواسطة شخص آخر ولكنه سمع عين كلام الله فهو المراد من قوله (أو من وراء حجاب) وأما الثالث وهو أنه وصل إليه الوحى بواسطة شخص آخر فهو المراد بقوله (أو يرسل رسولا فيوحى بإذنه ما يشاء) .

واعلم أن كل واحد من هذه الأقسام الثلاثة وحى ، إلا أنه تعالى خصص القسم الأول باسم الوحى ، لأن ما يقع فى القلب على سبيل الإلهام فهو يقع دفعة فكان تخصيص لفظ الوحى به أولى فهذا هو الكلام فى تميز هذه الأقسام بعضها عن بعض .

﴿ المسألة الثانية ﴾ القائلون بأن الله فى مكان احتجوا بقوله (أو من وراء حجاب) وذلك لأن التقدير وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا على أحد ثلاثة أوجه (أحدها) أن يكون الله من وراء حجاب ، وإنما يصح ذلك لو كان مختصاً بمكان معين وجهة معينة (والجواب) أن ظاهر اللفظ وإن أوهم ما ذكرتم إلا أنه دلت الدلائل العقلية والنقلية على أنه تعالى يمتنع حصوله فى المكان والجهة ، فوجب حمل هذا اللفظ على التأويل ، والمعنى أن الرجل إذا سمع كلاماً مع أنه لا يرى ذلك المتكلم كان ذلك شبيهاً بما إذا تكلم من وراء حجاب ، والمشابهة سبب لجواز المجاز .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قالت المعتزلة هذه الآية تدل على أنه تعالى لا يرى ، وذلك لأنه تعالى حصر أقسام وحيه فى هذه الثلاثة ولو صحت رؤية الله تعالى لصح من الله تعالى أنه يتكلم مع العبد حال مايراه العبد ، فحينئذ يكون ذلك قسما رابعاً زائداً على هذه الأقسام الثلاثة ، والله تعالى نفى القسم الرابع بقوله (وما كان لبشر أن يكلمه الله) إلا على هذه الأوجه الثلاثة (والجواب) نزيد فى اللفظ قيداً فيكون التقدير وما كان لبشر أن يكلمه الله فى الدنيا إلا على أحد هذه الأقسام الثلاثة وحينئذ لا يلزم ما ذكرتموه ، وزيادة هذا القيد وإن كانت على خلاف الظاهر لكنه يجب المصير إليها للتوفيق بين هذه الآيات وبين الآيات الدالة على حصول الرؤية فى يوم القيامة والله أعلم .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ أجمعت الامة على أن الله تعالى متكلم ، ومن سوى الأشعرى وأتباعه أطبقوا على أن كلام الله هو هذه الحروف المسموعة والأصوات المؤلفة ، وأما الأشعرى وأتباعه فإنهم زعموا أن كلام الله تعالى صفة قديمة يعبر عنها بهذه الحروف والأصوات .

﴿ أما الفريق الأول ﴾ وهم الذين قالوا كلام الله تعالى هو هذه الحروف والكلمات فهم فريقان (أحدهما) الحنابلة الذين قالوا بقدم هذه الحروف وهؤلاء أخس من أن يذكروا فى زمرة العقلاء ، واتفق أنى قلت يوماً لبعضهم لو تكلم الله بهذه الحروف إما أن يتكلم بها دفعة واحدة أو على التعاقب والتوالى والأول باطل لأن التكلم بجملة هذه الحروف دفعة واحدة لا يفيد هذا النظم المركب على هذا التعاقب والتوالى ، فوجب أن لا يكون هذا النظم المركب من هذه الحروف

المتوالية كلام الله تعالى ، والثانى باطل لأنه تعالى لو تكلم بها على التوالى والتعاقب كانت محدثة ، ولما سمع ذلك الرجل هذا الكلام قال الواجب علينا أن نقر ونمر ، يعنى نقر بأن القرآن قديم ونمر على هذا الكلام على وفق ماسمعناه فتعجبت من سلامة قلب ذلك القائل ، وأما العقلاء من الناس فقد أطبقوا على أن هذه الحروف والأصوات كائنة بعد أن لم تكن حاصلة بعد أن كانت معدومة ، ثم اختلفت عباراتهم فى أنها هل هى مخلوقة ، أولا يقال ذلك ، بل يقال إنها حادثة أو يعبر عنها بعبارة أخرى ، واختلفوا أيضاً فى أن هذه الحروف هل هى قائمة بذات الله تعالى أو يخلقها فى جسم آخر ، فالأول هو قول الكرامية ، والثانى قول المعتزلة ، وأما الأشعرية الذين زعموا أن كلام الله صفة قديمة تدل عليها هذه الألفاظ والعبارات فقد اتفقوا على أن قوله (أو من وراء حجاب) هو أن الملك والرسول يسمع ذلك الكلام المنزه عن الحرف والصوت من وراء حجاب ، قالوا وكما لا يبعد أن نرى ذات الله مع أنه ليس بجسم ولا فى حيز فأى بعد فى أن يسمع كلام الله مع أنه لا يكون حرفاً ولا صوتاً ؟ وزعم أبو منصور الماتريدى السمرقندى أن تلك الصفة القائمة يمتنع كونها مسموعة ، وإنما المسموع حروف وأصوات يخلقها الله تعالى فى الشجرة وهذا القول قريب من قول المعتزلة والله أعلم .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ قال القاضى هذه الآية تدل على حدوث كلام الله تعالى من وجوه : (الأول) أن قوله تعالى (أن يكلمه الله) يدل عليه لأن كلمة أن مع المضارع تفيد الاستقبال (الثانى) أنه وصف الكلام بأنه وحى لأن لفظ الوحى يفيد أنه وقع على أسرع الوجوه (الثالث) أن قوله (أو يرسل رسولا فيوحى بإذنه مايشاء) يقتضى أن يكون الكلام الذى يبلغه الملك إلى الرسول البشر مثل الكلام الذى سمعه من الله والذى يبلغه إلى الرسول البشرى حادث ، فلما كان الكلام الذى سمعه من الله مماثلا لهذا الذى بلغه إلى الرسول البشرى ، وهذا الذى بلغه إلى الرسول البشرى حادث ومثل الحادث حادث ، وجب أن يقال إن الكلام الذى سمعه من الله حادث (الرابع) أن قوله (أو يرسل رسولا فيوحى) يقتضى كون الوحى حاصلا بعد الإرسال ، وما كان حصوله متأخراً عن حصول غيره كان حادثاً (والجواب) أنا نصرف جملة هذه الوجوه التى ذكرتموها إلى الحروف والأصوات ونعترف بأنها حادثة كائنة بعد أن لم تكن وبديهة العقل شاهدة بأن الأمر كذلك ، فأى حاجة إلى إثبات هذا المطلوب الذى علمت صحته ببديهة العقل وبظواهر القرآن ؟ والله أعلم .

﴿ المسألة السادسة ﴾ ثبت أن الوحى من الله تعالى ، إما أن لا يكون بواسطة شخص آخر ، ويمتنع أن يكون كل وحى حاصلا بواسطة شخص آخر ، وإلا لزم إما التسلسل ولما الدور ، وهما محالان ، فلا بد من الاعتراف بحصول وحى يحصل لا بواسطة شخص آخر ، ثم ههنا أبحاث :

﴿ البحث الأول ﴾ أن الشخص الأول الذى سمع وحى الله لا بواسطة شخص آخر كيف

يعرف أن الكلام الذى سمعه كلام الله ؟ فإن قلنا إنه سمع تلك الصفة القديمة المنزهة عن كونها حرفاً وصوتاً ، لم يبعد أنه إذا سمعها علم بالضرورة كونها كلام الله تعالى ، ولم يبعد أن يقال إنه يحتاج بعد ذلك إلى دليل زائد ، أما إن قلنا إن المسموع هو الحرف والصوت امتنع أن يقطع بكونه كلاماً لله تعالى ، إلا إذا ظهرت دلالة على أن ذلك المسموع هو كلام الله تعالى .

﴿ البحث الثانى ﴾ أن الرسول إذا سمعه من الملك كيف يعرف أن ذلك المبلغ ملك معصوم لاشيطان مضل ؟ والحق أنه لايمكنه القطع بذلك إلا بناء على معجزة تدل على أن ذلك المبلغ ملك معصوم لاشيطان خبيث ، وعلى هذا التقدير ، فالوحى من الله تعالى لا يتم إلا بثلاث مراتب فى ظهور المعجزات :

﴿ المرتبة الأولى ﴾ أن الملك إذا سمع ذلك الكلام من الله تعالى ، فلا بد له من معجزة تدل على أن ذلك الكلام كلام الله تعالى .

﴿ المرتبة الثانية ﴾ أن ذلك الملك إذا وصل إلى الرسول ، لابد له أيضاً من معجزة .

﴿ المرتبة الثالثة ﴾ أن ذلك الرسول إذا أوصله إلى الأمة ، فلابد له أيضاً من معجزة ، فثبت أن التكليف لا يتوجه على الخلق إلا بعد وقوع ثلاث مراتب فى المعجزات .

﴿ البحث الثالث ﴾ أنه لا شك أن ملكا من الملائكة قد سمع الوحى من الله تعالى ابتداء ، فذلك الملك هو جبريل ، ويقال لعل جبريل سمعه من ملك آخر ، فالكل محتمل ولو بألف واسطة ، ولم يوجد مايدل على القطع بواحد من هذه الوجوه .

﴿ البحث الرابع ﴾ هل فى البشر من سمع وحى الله تعالى من غير واسطة ؟ المشهور أن موسى عليه السلام سمع كلام الله من غير واسطة ، بدليل قوله تعالى (فاستمع لما يوحى) وقيل إن محمد ﷺ سمعه أيضاً لقوله تعالى (فأوحى إلى عبده ما أوحى) .

﴿ البحث الخامس ﴾ أن الملائكة يقدرون على أن يظهروا أنفسهم على أشكال مختلفة ، فبتقدير أن يراه الرسول ﷺ فى كل مرة وجب أن يحتاج إلى المعجزة ، ليعرف أن هذا الذى رآه فى هذه المرة عين ما رآه فى المرة الأولى ، وإن كان لا يرى شخصه كانت الحاجة إلى المعجزة أقوى ، لاحتمال أنه حصل الاشتباه فى الصوت ، إلا أن الإشكال فى أن الحاجة إلى إظهار المعجزة فى كل مرة لم يقل به أحد .

﴿ المسألة السابعة ﴾ دلت المناظرات المذكورة فى القرآن بين الله تعالى وبين إبليس على أنه تعالى كان يتكلم مع إبليس من غير واسطة ، فذلك هل يسمى وحياً من الله تعالى الى إبليس أم لا ، الأظهر منعه ، ولا بد فى هذا الموضع من بحث غامض كامل .

﴿ المسألة الثامنة ﴾ قرأ نافع (أو يرسل رسولا) برفع اللام ، فيوحى بسكون الياء ومحله رفع على تقدير ، وهو يرسل فيوحى ، والباقون بالنصب على تأويل المصدر ، كأنه قيل ماكان لبشر

أن يكلمه الله إلا وحياً أو إسماعاً لكلامه من وراء حجاب أو يرسل ، لكن فيه إشكال لأن قوله وحياً أو إسماعاً اسم وقوله (أو يرسل) فعل ، وعطف الفعل على الاسم قبيح ، فأجيب عنه بأن التقدير : وما كان لبشر أن يكلمه إلا أن يوحى إليه وحياً أو يسمع إسماعاً من وراء حجاب أو يرسل رسولا .

﴿ المسألة التاسعة ﴾ الصحيح عند أهل الحق أن عندما يبلغ الملك الوحى إلى الرسول ، لا يقدر الشيطان على إلقاء الباطل فى أثناء ذلك الوحى ، وقال بعضهم : يجوز ذلك لقوله تعالى (وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى إلا إذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته) وقالوا الشيطان ألقى فى أثناء سورة النجم ، تلك الغرانيق العلى منها الشفاعة ترتجى ، وكان صديقنا الملك سام بن محمد رحمه الله ، وكان أفضل من لقيته من أرباب السلطنة يقول هذا الكلام بعد الدلائل القوية القاهرة ، باطل من وجهين آخرين (الأول) أن النبى ﷺ قال « من رآنى فى المنام فقد رآنى ، فإن الشيطان لا يتمثل بصورتى » فإذا لم يقدر الشيطان على أن يتمثل فى المنام بصورة الرسول ، فكيف قدر على التشبه بجبريل حال اشتغال تبليغ وحى الله تعالى؟ (والثانى) أن النبى صلى الله عليه وسلم قال « ما سلك عمر فجاً إلا وسلك الشيطان فجاً آخر » فإذا لم يقدر الشيطان أن يحضر مع عمر فى فج واحد ، فكيف يقدر على أن يحضر مع جبريل فى موقف تبليغ وحى الله تعالى ؟.

﴿ المسألة العاشرة ﴾ قوله تعالى (فيوحى بإذنه ما يشاء) يعنى فيوحى ذلك الملك بإذن الله ما يشاء الله ، وهذا يقتضى أن الحسن لا يحسن لوجه عائد عليه ، وأن القبيح لا يقبح لوجه عائد إليه ، بل لله أن يأمر بما يشاء من غير تخصيص ، وأن ينهى عما يشاء من غير تخصيص ، إذ لو لم يكن الأمر كذلك لما صح قوله (ما يشاء) والله أعلم .

ثم قال تعالى فى آخر الآية (إنه على حكيم) يعنى أنه على عن صفات المخلوقين (حكيم) يجرى أفعاله على موجب الحكمة ، فيتكلم تارة بغير واسطة على سبيل الإلهام ، وأخرى بإسماع الكلام ، وثالثاً بتوسيط الملائكة الكرام . ولما بين الله تعالى كيفية أقسام الوحى إلى الأنبياء عليهم السلام ، قال (وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا) والمراد به القرآن وسماه روحاً ، لأنه يفيد الحياة من موت الجهل أو الكفر .

قوله تعالى : ﴿ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان﴾ واختلف العلماء فى هذه الآية مع الإجماع ، على أنه لا يجوز أن يقال الرسل كانوا قبل الوحى على الكفر ، وذكروا فى الجواب وجوهاً (الأول) (ما كنت تدرى ما الكتاب) أى القرآن (ولا الإيمان) أى الصلاة ، لقوله تعالى (وما كان الله ليضيع إيمانكم) أى صلاتكم (الثانى) أن يحمل هذا على حذف المضاف ، أى (ما كنت تدرى ما الكتاب) ومن أهل الإيمان ، يعنى من الذى يؤمن ، ومن الذى لا يؤمن (الثالث) (ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان) حين كنت طفلا فى المهد (الرابع)

(الإيمان) عبارة عن الإقرار بجميع ما كلف الله تعالى به . وإنه قبل النبوة ما كان عارفاً بجميع تكاليف الله تعالى ، بل إنه كان عارفاً بالله تعالى ، وذلك لا ينافى ما ذكرناه (الخامس) صفات الله تعالى على قسمين : منها ما يمكن معرفته بمحض دلائل العقل ، ومنها ما لا يمكن معرفته إلا بالدلائل السمعية . فهذا القسم الثانى لم تكن معرفته حاصلة قبل النبوة .

ثم قال تعالى (ولكن جعلناه نوراً نهدى به من نشاء من عبادنا) واختلفوا فى الضمير فى قوله (ولكن جعلناه) فمنهم من قال إنه راجع إلى القرآن دون الإيمان لأنه هو الذى يعرف به الأحكام ، فلا جرم شبه بالنور الذى يهتدى به ، ومنهم من قال إنه راجع إليهما معاً ، وحسن ذلك لأن معناهما واحد كقوله تعالى (وإذا رأوا تجارة أو لهواً انفضوا إليها) .

ثم قال (نهدى به من نشاء من عبادنا) وهذا يدل على أنه تعالى بعد أن جعل القرآن نفسه فى نفسه هدى كما قال (هدى للمتقين) فإنه قد يهدى به البعض دون البعض وهذه الهداية ليست إلا عبارة عن الدعوة وإيضاح الأدلة لأنه تعالى قال فى صفة محمد ﷺ (وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم) وهو يفيد العموم بالنسبة إلى الكل وقوله (نهدى به من نشاء من عبادنا) يفيد الخصوص فثبت أن الهداية بمعنى الدعوة عامة والهداية فى قوله (نهدى به من نشاء من عبادنا) خاصة والهداية الخاصة غير الهداية العامة فوجب أن يكون المراد من قوله (نهدى به من نشاء من عبادنا) أمراً مغايراً لإظهار الدلائل ولإزالة الأعذار ، ولا يجوز أيضاً أن يكون عبارة عن الهداية إلى طريق الجنة لأنه تعالى قال (ولكن جعلناه نوراً نهدى به من نشاء من عبادنا) أى جعلنا القرآن نوراً نهدى به من نشاء ، وهذا لا يليق إلا بالهداية التى تحصل فى الدنيا ، وأيضاً فالهداية إلى الجنة عندكم فى حق البعض واجب ، وفى حق الآخرين محظور ، وعلى التقديرين فلا يبقى لقوله (من نشاء من عبادنا) فائدة ، فثبت أن المراد أنه تعالى يهدى من يشاء ويضل من يشاء ولا اعتراض عليه فيه .

ثم قال تعالى لمحمد ﷺ (وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم) فبين تعالى أنه كما أن القرآن يهدى فكذلك الرسول يهدى ، وبين أنه (يهدى إلى صراط مستقيم) وبين أن ذلك الصراط هو (صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض) نبه بذلك على أن الذى تجوز عبادته هو الذى يملك السموات والأرض ، والغرض منه إبطال قول من يعبد غير الله .

ثم قال (ألا إلى الله تصير الأمور) وذلك كالوعيد والزجر ، فبين أن أمر من لا يقبل هذه التكاليف يرجع إلى الله تعالى ، أى إلى حيث لا حاكم سواه فيجازى كلا منهم بما يستحقه من ثواب أو عقاب .

(قال رضى الله عنه) تم تفسير هذه السورة آخر يوم الجمعة الثامن من شهر ذى الحجة سنة ثلاث وستمائة ، يا مدبر الأمور ، ويا مدهر الدهور ويا معطى كل خير وسرور ، ويا دافع البلايا والشرور ، أوصلنا إلى منازل النور ، فى ظلمات القبور ، بفضلك ورحمتك يا أرحم الراحمين .

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة الشُّورَى

مكِّيَّةٌ في قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر. وقال ابن عباس وقتادة: إلا أربعَ آيات منها أنزلت بالمدينة: ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ﴾ [الآية: ٢٣] إلى آخرها. وهي ثلاثٌ وخمسون آية[١].

قوله تعالى: ﴿حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ ۝٢ كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٣ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ۝٤﴾

قوله تعالى: ﴿حمٓ . عٓسٓقٓ﴾ قال عبد المؤمن: سألت الحسين بن الفضل: لِمَ قطعَ «حم» من «عسق» ولم تقطع «كهيعص» و«المر» و«المص»؟ فقال: لأن «حم. عسق» بين سُوَرٍ أوّلها «حم» فجرت مَجرى نظائرها قبلَها وبعدَها؛ فكأنَّ «حم» مبتدأ و«عسق» خبره. ولأنها عُدَّت آيتين، وعُدَّت أخواتُها اللواتي كُتبت جملةً آيةً واحدة[٢].

وقيل: إن الحروف المعجمة كلَّها في المعنى واحد، من حيث إنها أُسُّ البيان وقاعدةُ الكلام؛ ذكره الجُرْجَانِي.

وكتبت «حم. عسق» منفصلاً و«كهيعص» متصلاً لأنه قيل: حم؛ أي: حُمَّ ما هو كائن، ففصلوا بين ما يُقدَّر فيه فعل وبين ما لا يُقدَّر. ثم لو فُصل هذا ووُصِل ذا لجاز؛ حكاه القُشيري.

وفي قراءة ابن مسعود وابن عباس: «حم. سق»[٣]. قال ابن عباس: وكان

(١) النكت والعيون ٥/ ١٩١ .

(٢) تفسير البغوي ٤/ ١١٩ دون ذكر عبد المؤمن، ولم نعرفه.

(٣) القراءات الشاذة ص١٣٤ ، والمحرر الوجيز ٥/ ٢٥ .

عليٌّ ﷺ يعرف الفِتَنَ بها[(١)].

وقال أرطاةُ بن المنذر: قال رجلٌ لابن عباس وعنده حذيفة بن اليمان: أَخْبِرني عن تفسير قوله تعالى: «حم. عسق»؟ فأعرض عنه حتى أعاد عليه ثلاثاً، فأعرضَ عنه. فقال حُذيفة بن اليمان: أنا أنبئك بها، قد عرفتُ لِم تركها؛ نزلت في رجل من أهل بيته يقال له: عبد الإله، أو عبد الله؛ ينزل على نهر من أنهار المشرق، يبني عليه مدينتين يشق النهر بينهما شقًّا، فإذا أراد اللهُ زوالَ مُلكهم وانقطاعَ دولتهم، بعث على إحداهما ناراً ليلاً فتصبح سوداءَ مُظْلِمةً، فتحترق كلُّها كأنها لم تكن مكانَها؛ فتصبح صاحبتُها متعجبةً كيف قُلبت، فما هو إلا بياضُ يومها حتى يجتمع فيها كلُّ جبار عَنيد، ثم يخسفُ الله بها وبهم جميعاً؛ فذلك قوله: «حم. عسق» أي: عَزْمةٌ من عَزَمات الله تعالى، وفتنةٌ وقضاء؛ «حم»: حُمَّ. «ع»: عدلاً منه، «س»: سيكون، «ق»: واقع في هاتين المدينتين[(٢)].

ونظير هذا التفسير ما روى جرير بن عبد الله البَجَليُّ قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «تُبنى مدينةٌ بين دِجْلة ودُجيل وقُطْرَبُّل والصَّراة، يجتمع فيها جبابرةُ الأرض تُجبى إليها الخزائنُ يخسفُ بها ـ وفي رواية: بأهلها ـ فَلَهِيَ أسرعُ ذهاباً في الأرض من الوَتِد الجيِّد في الأرض الرِّخوة»[(٣)].

وقرأ ابن عباس: «حم. سق» بغير عين. وكذلك هو في مصحف عبد الله بن مسعود؛ حكاه الطبري[(٤)].

---

(١) تفسير الطبري ٢٠/ ٤٦٥ ، والمحرر الوجيز ٥/ ٢٥ .

(٢) أخرجه الطبري ٢٠/ ٤٦٤ ، وذكره الحافظ ابن كثير في تفسيره ٧/ ١٨٩ ، وقال: أثر غريب عجيب منكر.

(٣) أخرجه أبو عمرو الداني في السنن الواردة في الفتن (٣٥٠)، وهو حديث منكر جداً فيما ذكره الذهبي في الميزان ٣/ ١٦٥ ، وقد أخرجه ابن الجوزي في الموضوعات ١/ ٣٦٥ ـ ٣٧٢ ، من طرق عديدة وأعلَّها كلَّها، ثم نقل عن الإمام أحمد قوله: ليس لهذا الحديث أصل. ودُجيل: اسم نهر مخرجه من أعلى بغداد، وقُطْرَبُّل: كلمة أعجمية، اسم قرية بين بغداد وعُكبَرا. والصَّراة. نهران ببغداد؛ الصراة الكبرى والصراة الصغرى. معجم البلدان ٢/ ٤٤٣ و٣/ ٣٩٩ و٤/ ٣٧١ .

(٤) في تفسيره ٢٠/ ٤٦٥ ، وسلف قريباً.

وروى نافع عن ابن عباس: «الحاء» حِلْمه[١]، و«الميم» مَجْده، و«العين» عِلْمه، و«السين» سَنَاه، و«القاف» قُدرته؛ أقسم الله بها[٢].

وعن محمد بن كعب: أقسم الله بحِلمه[٣] ومَجْده وعُلُوِّه وسَنَاه وقُدرته ألا يُعذِّب من عاذ بلا إله إلا الله مُخلصاً من قلبه[٤]. وقال جعفر بن محمد وسعيد بن جُبير: «الحاء» من الرحمن، و«الميم» من المجيد، و«العين» من العليم، و«السين» من القُدُّوس، و«القاف» من القاهر.

وقال مجاهد: فواتح السور. وقال عبد الله بن بُريدة: إنه اسمُ الجبل المحيط بالدنيا.

وذكر القشيريّ، واللفظ للثعلبيّ: أن النبيَّ ﷺ لما نزلَتْ هذه الآيةُ عُرفت الكآبةُ في وجهه؛ فقيل له: يا رسولَ الله، ما أحزنك؟ قال: «أُخبِرتُ ببلايا تنزلُ بأُمتي مِن خَسْفٍ وقَذْف ونارٍ تحشرهم، وريحٍ تَقْذِفهم في البحر وآياتٍ متتابعات مُتَّصلات بنزول عيسى وخروج الدَّجال»[٥]. والله أعلم.

وقيل: هذا في شأن النبيِّ ﷺ؛ فـ«الحاء» حوضه المورود، و«الميم» مُلكه الممدود، و«العين» عِزُّه الموجود، و«السين» سناه المشهود، و«القاف» قيامه في المقام المحمود، وقُربه في الكرامة من المَلِك المعبود.

وقال ابن عباس: ليس من نبيّ صاحب كتاب إلا وقد أُوحي إليه: «حم. عسق»؛ فلذلك قال: «يُوحِي إِلَيْكَ وإِلى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ»[٦].

المهدويّ: وقد جاء في الخبر أن «حم. عسق» معناه: أَوْحيتُ إلى الأنبياء المتقدِّمين.

---

(١) في (د) و(ظ): حكمه.

(٢) ذكره البغوي في تفسيره ٤/ ١١٩ عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) في (د) و(ظ): بحكمه.

(٤) تفسير أبي الليث ٣/ ١٨٩ عن ابن عباس رضي الله عنهما بنحوه.

(٥) لم نقف عليه.

(٦) تفسير أبي الليث ٣/ ١٩٠ ، والمحرر الوجيز ٥/ ٢٥ .

وقرأ ابن مُحَيْصِن وابن كثير ومجاهد: «يُوحَى» بفتح الحاء على ما لم يُسَمَّ فاعلُه[١]؛ ورُوي عن ابن عمر. فيكون الجار والمجرور في موضع رفع لقيامه مقام الفاعل، ويجوز أن يكون اسم ما لم يُسَمَّ فاعلُه مضمراً؛ أي: يُوحَى إليك القرآن الذي تضمَّنته هذه السورة، ويكون اسمُ الله مرفوعاً بإضمار فعل، التقدير: يُوحيه اللهُ إليك[٢]؛ كقراءة ابن عامر وأبي بكر: ﴿يُسَبَّحُ له فيها بالغُدُوِّ والآصَالِ رِجالٌ﴾[٣] [النور:٣٦] أي: يُسبِّحه رجال. وأنشد سيبويه:

لِـيُـبْـكَ يـزيـدُ ضـارعٌ لـخـصـومـة[٤] وأشـعـثُ مـمـن طـوَّحـتـه الـطـوائـح

فقال: لِيُبْكَ يزيدُ، ثم بيَّن من ينبغي أن يَبْكيَه، فالمعنى: يَبكيه ضارعٌ[٥].

ويجوز أن يكون مبتدأ والخبر محذوف؛ كأنه قال: اللهُ يُوحيه. أو على تقدير إضمار مبتدأ، أي: المُوحي الله. أو يكون مبتدأ والخبر «العزيزُ الحكيمُ». وقرأ الباقون: «يُوحِي إِلَيْكَ» بكسر الحاء، ورفع الاسم على أنه الفاعل[٦].

﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ تقدّم في غير موضع[٧].

قوله تعالى: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ ۚ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥﴾

قوله تعالى: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ قراءة العامة بالتاء. وقرأ نافع وابن وَثّاب والكسائيّ

---

(١) قراءة ابن كثير في السبعة ص ٥٨٠، والتيسير ص ١٩٤. وقراءة مجاهد في المحرر الوجيز ٥/ ٢٦.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٧١ بنحوه.

(٣) السبعة ص ٤٥٦، والتيسير ص ١٦٢، وسلفت ١٥/ ٢٨٦.

(٤) في (د) و(م): بخصومه، والمثبت من (ظ) وهو الموافق لكتاب سيبويه ١/ ٢٨٨، وقد نسبه للحارث ابن نهيك. قال البغدادي في الخزانة ١/ ٣١٣: الصواب أنه لنهشل بن حَرِّيّ.

(٥) معاني القرآن للنحاس ٦/ ٢٩٣.

(٦) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٧١ بنحوه. وينظر السبعة ص٥٨٠، والتيسير ص١٩٤.

(٧) ٢/ ٣١١ و٤/ ٢٧١.

بالياء. ﴿يَتَفَطَّرْنَ﴾ قرأ نافع وغيره بالياء والتاء والتشديد في الطاء، وهي قراءة العامة. وقرأ أبو عمرو وأبو بكر والمفضّل وأبو عُبيد: «يَنْفَطِرْنَ» من الانفطار[١]؛ كقوله تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ﴾ [الانفطار:١] وقد مضى في سورة «مريم» بيانُ هذا[٢].

وقال ابن عباس: «تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ» أي: تكاد كلُّ واحدة منها تنفطر فوقَ التي تليها؛ من قول المشركين: ﴿ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗا﴾[٣] [البقرة:١١٦]. وقال الضحاك والسدي: «يَتَفَطَّرْنَ» أي: يتشقَّقْنَ من عَظَمةِ الله وجلاله فوقَهنّ[٤]. وقيل: «فوقهنَّ»: فوق الأَرَضين من خشية الله لو كُنَّ مما يعقل.

قوله تعالى: ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ﴾ أي: يُنزِّهونه عما لا يجوز في وَصْفه، وما لا يَليق بجلاله. وقيل: يتعجَّبون من جُرأة المشركين؛ فيذكر التسبيح في موضع التعجّب.

وعن عليّ ﷺ: أن تسبيحَهم تعجُّب مما يرون من تعرُّضهم لِسخط الله. وقال ابن عباس: تسبيحهم خضوع لما يرون من عظمة الله تعالى. ومعنى «بِحَمْدِ رَبِّهِمْ»: بأمر ربهم؛ قاله السُّدِّي. ﴿وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِۗ﴾ قال الضحاك: لمن في الأرض من المؤمنين؛ وقاله السدي. بيانه في سورة المؤمن: ﴿وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْۖ﴾ [الآية:٧]. وعلى هذا تكون الملائكةُ هنا حَمَلَةَ العرش. وقيل: جميع ملائكة السماء؛ وهو الظاهر من قول الكلبيّ[٥].

وقال وهب بن مُنَبِّه: هو منسوخ بقوله: ﴿وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْۖ﴾[٦]. وقال المهدويّ: والصحيح أنه ليس بمنسوخ؛ لأنه خبر، وهو خاصٌّ للمؤمنين.

---

(١) السبعة ص ٤١٣ و٥٨٠، والتيسير ص ١٥٠ و١٩٤.

(٢) ١٣/ ٥٢١.

(٣) تفسير البغوي ٤/ ١٢٠ دون نسبة.

(٤) النكت والعيون ٥/ ١٩٢.

(٥) النكت والعيون ٥/ ١٩٢ ـ ١٩٣.

(٦) تفسير أبي الليث ٣/ ١٩١.

وقال أبو الحسن الماوَرْدِيّ[١] عن الكلبيّ: إن الملائكة لما رأت المَلَكين اللَّذَين اخْتُبروا وبُعِثا إلى الأرض لِيحكما بينهم، فافتتنا بالزُّهَرَة وهربا إلى إدريس - وهو جَدّ أبي نوح عليهما السلام - وسألاه أن يدعُوَ لهما؛ سبَّحت الملائكةُ بحمد ربهم واستغفرت لبني آدم[٢].

قال أبو الحسن بن الحصَّار: وقد ظنَّ بعضُ مَن جهل أن هذه الآيةَ نزلت بسبب هاروت وماروت، وأنها منسوخةٌ بالآية التي في المؤمن، وما علموا أن حَمَلَةَ العرش مخصوصون بالاستغفار للمؤمنين خاصة، ولله ملائكة أُخر يستغفرون لمن في الأرض.

الماوردي[٣]: وفي استغفارهم لهم قولان: أحدهما: من الذنوب والخطايا؛ وهو ظاهرُ قول مقاتل. الثاني: أنه طلب الرزق لهم والسَّعة عليهم؛ قاله الكلبيّ.

قلت: وهو أظهرُ، لأن الأرضَ تعمُّ الكافرَ وغيره، وعلى قول مقاتل لا يدخل فيه الكافر. وقد رُوي في هذا الباب خبرٌ رواه عاصمٌ الأحولُ عن أبي عثمان عن سَلْمان قال: إنَّ العبدَ إذا كان يذكر اللهَ في السَّرَّاء فنزلت به الضَّرَّاء قالت الملائكة: صوتٌ معروفٌ من آدميٍّ ضعيف، كان يذكر الله تعالى في السَّرَّاء فنزلت به الضَّرَّاء؛ فيستغفرون له. فإذا كان لا يذكر الله في السراء فنزلت به الضرَّاء قالت الملائكة: صوتٌ منكرٌ من آدميٍّ لا يذكر الله في السَّراء، فنزلت به الضَّرَّاء، فلا يستغفرون اللهَ له[٤].

وهذا يدلُّ على أن الآية في الذاكر لِله تعالى في السرَّاء والضرَّاء، فهي خاصَّة ببعض مَن في الأرض من المؤمنين. والله أعلم.

ويَحتمِل أن يقصِدوا بالاستغفار طلبَ الحِلْم والغُفران في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ

---

(١) في النكت والعيون ٥/ ١٩٣ .

(٢) هذه قصة باطلة، وسلفت ٢/ ٢٨٤ ، وينظر الكلام عليها ثمة.

(٣) النكت والعيون ٥/ ١٩٣ .

(٤) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (١١٤٠).

يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَاۚ﴾ إلى أن قال: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [فاطر: ٤١]، وقولِه تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْۖ﴾ [الرعد: ٦]. والمراد الحِلْم عنهم وألا يُعاجلهم بالانتقام؛ فيكون عامًّا؛ قاله الزمخشريّ(١).

وقال مُطَرِّف: وجدنا أنصحَ عبادِ الله لعباد الله الملائكةَ، ووجدنا أغشَّ عباد الله لعباد الله الشياطين. وقد تقدَّم(٢).

﴿أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ قال بعضُ العلماء: هَيَّب وعَظَّم جلَّ وعزَّ في الابتداء، وألطفَ وبشَّرَ في الانتهاء.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ۝٦﴾

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾ يعني أصناماً يعبدونها. ﴿ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ﴾ أي: يحفظ أعمالَهم لِيُجازيَهم بها. ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ وهذه منسوخةٌ بآية السيف(٣). وفي الخبر: «أَطّتِ السماءُ وحُقَّ لها أن تَئِطّ»(٤) أي: صوَّتَتْ من ثِقَل سُكَّانها لِكَثْرتهم، فهم مع كَثْرتهم لا يفتُرُون عن عبادة الله؛ وهؤلاء الكفار يُشركون به.

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِۚ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ ۝٧﴾

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ أي: وكما أوحينا إليك وإلى مَن قبلك هذه المعاني فكذلك أوحينا إليك قرآناً عربيًّا بيَّناه بلغة العرب. وقيل: أي: أنزلنا

---

(١) الكشاف ٣/ ٤٦٠ .

(٢) ١٨/ ٣٣٢ .

(٣) زاد المسير ٧/ ٢٧٣ ، وقال: لا يصح.

(٤) أخرجه أحمد (٢١٥١٦)، وسلف ٥/ ٤٢٨ .

عليك قرآناً عربيًّا بلسان قومك؛ كما أرسلنا كلَّ رسول بلسان قومه. والمعنى واحد. ﴿لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ﴾ يعني مكة. وقيل لمكة: أُمُّ القُرَى؛ لأن الأرضَ دُحيت من تحتها[١]. ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ من سائر الخلق. ﴿وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ﴾ أي: بيوم الجمع، وهو يومُ القيامة. ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ لا شكَّ فيه.

﴿فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ﴾ ابتداء وخبر. وأجاز الكسائي النصب[٢] على تقدير: لِتنذر فريقاً في الجنة وفريقاً في السعير[٣].

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ۝٨﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ قال الضحاك: أهلَ دين واحد؛ أهل ضلالة أو أهل هُدًى. ﴿وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ﴾ قال أنس بن مالك: في الإسلام[٤]. ﴿وَٱلظَّٰلِمُونَ﴾ رفع على الابتداء، والخبر ﴿مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ﴾، ﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾ عطف على اللفظ. ويجوز: ولا نَصيرٌ، بالرفع على الموضع[٥] و«مِنْ» زائدة.

قوله تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِىُّ وَهُوَ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٩﴾

قوله تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوٓا۟﴾ أي: بل اتَّخذوا. ﴿مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾ يعني أصناماً. ﴿فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِىُّ﴾ أي: وَليُّك يا محمد ووليُّ من اتَّبعك[٦]، ولا وَلِيَّ سواه. ﴿وَهُوَ يُحْىِ

---

(١) سلف هذا الكلام ١/ ١٧٣.

(٢) قرأ بها زيد بن علي كما في البحر المحيط ٧/ ٥٠٩.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٧٢.

(٤) النكت والعيون ٥/ ١٩٤.

(٥) يعني في اللغة لا في التلاوة.

(٦) ذكره البغوي في تفسيره ٤/ ١٢١ عن ابن عباس رضي الله عنهما.

﴿ٱلْمَوْتَىٰ﴾ يُريد عند البعث. ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ وغيره من الأولياء لا يقدر على شيء.

قوله تعالى: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّى عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ۝١٠﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ﴾ حكايةُ قول رسول الله ﷺ للمؤمنين؛ أي: وما خالفكم فيه الكفارُ من أهل الكتاب والمشركين من أمر الدين، فقولوا لهم: حُكمه إلى الله لا إليكم[١]. وقد حكم أن الدِّين هو الإسلام لا غيره. وأمور الشرائع إنما تُتَلَقَّى من بيان الله.

﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّى﴾ أي: الموصوف بهذه الصِّفات هو ربي وحدَه؛ وفيه إضمار: أي: قل لهم يا محمد: ذلكم اللهُ يُحيي الموتى ويحكم بين المختلفين هو ربّي. ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ اعتمدتُ. ﴿وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ أرْجِعُ.

قوله تعالى: ﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا ۖ يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ ۚ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ۝١١﴾

قوله تعالى: ﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ بالرفع على النعت لاسم الله، أو على تقدير هو فاطر. ويجوز النصب على النداء، والجرّ على البدل من الهاء في «عليه»[٢]. والفاطر: المُبدع والخالق. وقد تقدَّم.

﴿جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ قيل: معناه: إناثًا. وإنما قال: «مِنْ أَنْفُسِكُمْ» لأنه خَلَقَ حوَّاء من ضِلَع آدم[٣]. وقال مجاهد: نَسْلًا بعد نَسْل[٤]. ﴿وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا﴾ يعني الثمانية التي ذكرها في «الأنعام»[٥] ذكور الإبل والبقر والضأن والمَعْز وإناثها.

---

(١) الكشاف ٣/ ٤٦١-٤٦٢ .

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٧٣ .

(٣) تفسير البغوي ٤/ ١٢١ .

(٤) تفسير مجاهد ٢/ ٥٧٣ ، وأخرجه الطبري ٢٠/ ٤٧٥ لكن في تفسير قوله تعالى: ﴿يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ﴾ التالي.

(٥) ٩/ ١٧٦ .

﴿يَذْرَؤُكُمْ فِيهِۚ﴾ أي: يخلقكم ويُنشئكم «فِيهِ» أي: في الرحم. وقيل: في البطن. وقال الفرّاء[١] وابن كيسان: «فيه» بمعنى به. وكذلك قال الزجاج[٢]: معنى «يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ» يُكثركم به؛ أي: يُكثركم بجعلكم[٣] أزواجًا، أي: حلائلَ؛ لأنهن سبب النسل. وقيل: إن الهاء في «فِيهِ» للجعل، ودلّ عليه «جَعَلَ»؛ فكأنه قال: يخلقكم ويكثركم في الجعل. ابن قُتيبة[٤]: «يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ» أي: في الزوج؛ أي: يخلقكم في بطون الإناث. وقال: ويكون «فِيهِ» في الرحم، وفيه بُعْدٌ؛ لأن الرحم مؤنثة ولم يتقدَّم لها ذِكْر.

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ قيل: إن الكاف زائدةٌ للتوكيد؛ أي: ليس مثله شيء[٥]. قال:

وصـالـيـاتٍ كَـكُـمَـا يُـؤْثَـفَـيْـن[٦]

فأدخل على الكاف كافاً تأكيداً للتشبيه. وقيل: المثل زائدة للتوكيد؛ وهو قول ثعلب[٧]: ليس كهو شيء؛ نحو قوله تعالى: ﴿فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا﴾[٨] [البقرة: ١٣٧]. وفي حرف ابن مسعود «فَإِنْ آمَنُوا بِمَا آمَنْتُمْ به فقد اهتَدَوْا»[٩] قال أَوْسُ بن حَجَر:

وقَـتْـلَـى كـمـثـل جـذوع الـنـخـيـ ... ـل يَـغْـشـاهـم مَـطَـرٌ مُـنـهـمِـرْ[١٠]

---

(١) في معاني القرآن ٣/ ٢٢ .
(٢) في معاني القرآن ٤/ ٣٩٥ .
(٣) في (م): يجعلكم. وعبارة الزجاج: أي: يُكثركم بجعله منكم ومن الأنعام أزواجاً.
(٤) غريب القرآن ص ٣٩١ .
(٥) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٧٤ .
(٦) نسبه سيبويه في كتابه ١/ ٣٢ ، والبغدادي في خزانته ٢/ ٣١٣ لخطام المجاشعي. والصَّاليات: الأثافيّ، وهي الأحجار التي يُنصب عليها القدر. قاله البغدادي.
(٧) النكت والعيون ٥/ ١٩٥ .
(٨) قال السمين الحلبي في الدر المصون ٩/ ٥٤٥ : وهذا ليس بجيد؛ لأن زيادة الأسماء ليست بجائزة، وأيضاً يصير التقدير: ليس كهو شيء، ودخول الكاف على الضمائر لا يجوز إلا في شعر.
(٩) المحتسب ١/ ١١٣ .
(١٠) ديوان أوس بن حجر ص ٣٠ ، وفيه: تغشَّاهم، بدل: يغشاهم. ومُسبل، بدل: مطر، وكلاهما بمعنى واحد.

أي: كجذوع. والذي يُعتقد في هذا الباب أن الله جلّ اسمه في عَظَمته وكبريائه ومَلَكوته وحُسنى أسمائه وعَلِيّ صفاته لا يُشبه شيئاً من مخلوقاته ولا يُشبَّه به، وإنما جاء مما أطلقه الشرعُ على الخالق والمخلوق، فلا تشابُهَ بينهما في المعنى الحقيقي؛ إذ صفاتُ القديم جلّ وعزّ بخلاف صفاتِ المخلوق؛ إذ صفاتهم لا تنفكُّ عن الأغراض والأعراض، وهو تعالى منزَّهٌ عن ذلك؛ بل لم يزلْ بأسمائه وبصفاته على ما بيَّناه في «الكتاب الأسنى في شرح أسماء الله الحُسنى»، وكفى في هذا قولُه الحقّ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾.

وقد قال بعضُ العلماء المحقِّقين: التوحيد إثباتُ ذاتٍ غيرِ مُشبهة للذوات ولا معطَّلة من الصِّفات. وزاد الواسطيّ رحمه الله تعالى بياناً فقال: ليس كذاته ذات، ولا كاسمه اسم، ولا كفعله فعل، ولا كصفته صفة إلا من جهة موافقة اللَّفظ؛ وجلَّت الذات القديمة أن يكون لها صفةٌ حديثة؛ كما استحال أن يكون للذات المُحدثة صفةٌ قديمة. وهذا كلُّه مذهبُ أهل الحقّ والسنة والجماعة ﷺ.

قوله تعالى: ﴿لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ تقدَّم في «الزُّمَر» بيانه[1]. النحاس[2]: والذي يملك المفاتيحَ يملك الخزائن؛ يقال للمفتاح: إقليد، وجمعه على غير قياس؛ كمحاسن والواحد حُسن.

﴿يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ تقدَّم أيضًا في غير موضع[3].

(١) ١٨/ ٣٠٤.

(٢) معاني القرآن ٦/ ٢٩٨.

(٣) ١٢/ ٦٤ و١٦/ ٣٨٦.

قوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ وَمَا تَفَرَّقُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا﴾ **فيه مسألتان:**

الأولى: قوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ﴾ أي: الذي له مقاليدُ السماوات والأرض شرعَ لكم من الدين ما شرعَ لقوم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى، ثم بيَّن ذلك بقوله تعالى: ﴿أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ﴾ وهو توحيدُ الله وطاعته، والإيمان برسله وكُتبه وبيوم الجزاء، وبسائرِ ما يكون الرجل بإقامته مسلماً. ولم يُرِد الشرائعَ التي هي مصالح الأُمم على حَسَب[1] أحوالها، فإنها مختلفةٌ متفاوتةٌ؛ قال الله تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨] وقد تقدم القولُ فيه.

ومعنى «شَرَعَ» أي: نهج وأوضح وبيَّن المسالك. وقد شَرَعَ لهم يَشْرَع شَرْعًا، أي: سنَّ. والشارع: الطريق الأعظم. وقد شَرَع المنزِلُ إذا كان على طريق نافذ. وَشَرَعْتُ الإبلَ إذا أمكنتها من الشريعة. وشرعتُ الأديمَ إذا سلختَه. وقال يعقوب[2]: إذا شَقَقْتَ ما بين الرِّجلين، قال: وسمعته من أم الحُمَارِس البَكْرِيّة. وشرعتُ في هذا الأمر شُروعاً، أي: خضت.

﴿أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ﴾ «أَنْ» في محل رفع، على تقدير: والذي وصَّى به نوحًا أن أقيموا الدِّين، ويُوقف على هذا الوجه على «عيسى». وقيل: هو نصب، أي: شرعَ لكم إقامةَ الدين. وقيل: هو جرّ بدلاً من الهاء في «به»؛ كأنه قال: به أقيموا الدين. ولا يوقف

(١) في (م): حسن.
(٢) في إصلاح المنطق ص ٤٩، ونقله المصنف عنه بواسطة الجوهري في الصحاح (شرع)، وما قبله منه.

على «عيسى» على هذين الوجهين. ويجوز أن تكون «أن» مفسَّرة؛ مثل: أن امشوا، فلا يكون لها محلٌ من الإعراب[١].

الثانية: قال القاضي أبو بكر بن العربيّ[٢]: ثبت في الحديث الصحيح أن النبيَّ ﷺ قال في حديث الشفاعة الكبير المشهور: «ولكن ائتوا نوحًا فإنه أوّلُ رسول بعثه اللهُ إلى أهل الأرض، فيأتون نوحًا فيقولون له: أنت أوّلُ رسول بعثه اللهُ إلى أهل الأرض»[٣] وهذا صحيحٌ لا إشكالَ فيه، كما أن آدمَ أوّلُ نبيٍّ[٤] بغير إشكال؛ إلا أن[٥] آدم لم يكن معه إلا بَنوه[٦]، ولم تُفرَض له الفرائض ولا شُرعت له المحارم، وإنما كان تنبيهاً على بعض الأمور واقتصاراً على ضرورات المعاش، وأخذًا بوظائف الحياة والبقاء؛ واستقرَّ المَدَى إلى نوح فبعثه الله بتحريم الأُمَّهات والبنات والأخوات، ووظَّف عليه الواجبات وأوضحَ له الآدابَ في الديانات، ولم يزل ذلك يتأكّد بالرُّسل ويتناصر بالأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم واحداً بعد واحد وشريعةً إثر شريعة، حتى ختمها الله بخير المِلل مِلَّتِنا، على لسان أكرم الرُّسل نبينا محمد ﷺ؛ فكان المعنى: أوصيناك يا محمد ونوحًا ديناً واحداً؛ يعني في الأصول التي لا تختلف فيه الشريعة، وهي التوحيد والصلاة والزكاة والصيام والحج، والتقرّب إلى الله بصالح الأعمال، والزّلَف إليه بما يردُّ القلب والجارحة إليه، والصدق والوفاء بالعهد، وأداء الأمانة وصِلة الرحم، وتحريم الكفر والقتل والزنى والأذيَّة[٧] للخلق

(١) المحرر الوجيز ٥/ ٢٩ بنحوه، وينظر إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٧٤.

(٢) في أحكام القرآن ٤/ ١٦٥٤ ـ ١٦٥٥.

(٣) أخرجه أحمد (٩٦٢٣)، والبخاري (٣٣٤٠)، ومسلم (١٩٤) مطولاً من حديث أبي هريرة ﷺ، وفي الباب عن عدد من الصحابة رضوان الله عليهم تنظر في مسند أحمد. وقد سلف قطعة من الحديث ٣/ ٤٠٦.

(٤) في (د) و(ز) و(ي): أول رسول نبي، والمثبت من (ظ)، وهو موافق لأحكام القرآن لابن العربي.

(٥) في (م) وأحكام القرآن: لأن، والمثبت من النسخ الخطية.

(٦) في (م): نبوّة.

(٧) في النسخ الخطية: الاذاية، والمثبت من (م).

كيفما تصرفت، والاعتداء على الحيوان كيفا دار، واقتحام الدناءات وما يعود بخرم المروءات؛ فهذا كلُّه مشروعٌ دِينًا واحدًا ومِلَّةً متَّحدة، لم تختلف على ألسنة الأنبياء وإن اختلفت أعدادُهم؛ وذلك قوله تعالى: ﴿أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾ أي: اجعلوه قائمًا؛ يريد دائماً مستمراً محفوظًا مستقرًّا من غير خلاف فيه ولا اضطراب؛ فمن الخَلْق مَن وفّى بذلك ومنهم من نكث؛ ﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾ [الفتح: ١٠]. واختلفت الشرائعُ وراءَ هذا في معانٍ حَسبَما أراده اللهُ مما اقتضت المصلحةُ وأوجبت الحِكمةَ وَضْعَه في الأزمنة على الأُمم. والله أعلم.

قال مجاهد: لم يبعث اللهُ نبيًّا قطُّ إلا وصَّاه بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والإقرار لله بالطاعة، فذلك دِينُه الذي شَرع لهم(١)؛ وقاله الوالِبيّ عن ابن عباس، وهو قول الكلبيّ.

وقال قتادة: يعني تحليل الحلال وتحريم الحرام. وقال الحكم: تحريم الأمهات والأخوات والبنات(٢). وما ذكره القاضي يجمع هذه الأقوالَ ويزيد عليها. وخصَّ نوحاً وإبراهيم وموسى وعيسى بالذِّكر لأنهم أربابُ الشرائع.

قوله تعالى: ﴿كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ أي: عَظُم عليهم ﴿مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ من التوحيد ورفض الأوثان. قال قتادة: كَبُرَ على المشركين فاشتدَّ عليهم شهادة أن لا إله إلا الله، وضاق بها إبليسُ وجنوده، فأَبى الله عزّ وجلّ إلا أن ينصرها ويُعليها ويُظهرها على من ناوأها(٣). ثم قال: ﴿ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ﴾ أي: يختار. والاجتباء الاختيار؛ أي: يختار للتوحيد من يشاء. ﴿وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ أي: يستخلص لدينه مَن رَجَع إليه.

﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓا۟﴾ قال ابن عباس: يعني قريشًا ﴿إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ﴾

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ١٢٢ .

(٢) النكت والعيون ٥/١٩٦ ـ ١٩٧ .

(٣) المحرر الوجيز ٥/ ٢٩ بنحوه.

محمدٌ ﷺ[١]؛ وكانوا يتمنَّون أن يُبعَثَ إليهم نبيّ؛ دليله قوله تعالى في سورة فاطر: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ﴾ [الآية: ٤٢] يريد نبيًّا. وقال في سورة البقرة: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ﴾ [الآية: ٨٩] على ما تقدَّم بيانُه هناك.

وقيل: أُمَم الأنبياء المُتقدِّمين؛ فإنهم فيما بينهم اختلفوا لما طال بهم المَدى، فآمن قومٌ وكفر قومٌ. وقال ابن عباس أيضًا: يعني أهلَ الكتاب؛ دليلُه في سورة المُنفَكِّين: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ﴾[٢] [الآية: ٤]. فالمشركون قالوا: لِمَ خُصّ بالنبوَّة؟! واليهود حسدوه لمَّا بُعث؛ وكذا النصارى.

﴿بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾ أي: بغيًا من بعضهم على بعض طلبًا للرِّياسة، فليس تفرُّقُهم لِقصور في البيان والحُجَج، ولكن للبغي والظلم والاشتغال بالدنيا.

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ في تأخير العقاب عن هؤلاء. ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ قيل: القيامة؛ لقوله تعالى: ﴿بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ﴾ [القمر: ٤٦]. وقيل: إلى الأجل الذي قضى فيه بعذابهم. ﴿لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾ أي: بين مَن آمن وبين مَن كَفَرَ بنزول العذاب.

﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ يريد اليهود والنصارى. ﴿مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ أي: من بعد المختلفين في الحق ﴿لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾ من الذي أوصى به الأنبياء. والكتابُ هنا التوراة والإنجيل. وقيل: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ قريش.

«مِنْ بَعْدِهِمْ» من بعد اليهود النصارى. «لَفِي شَكٍّ» من القرآن أو من محمد. وقال مجاهد: معنى «مِنْ بَعْدِهِمْ» من قَبْلهم؛ يعني: من قَبْلِ مُشركي مكة، وهم اليهود والنصارى[٣].

---

(١) تفسير أبي الليث ٣/ ١٩٣ دون ذكر ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) تفسير البغوي ٤/ ١٢٢ .

(٣) المصدر السابق، ونسب قول مجاهد لقتادة.

قوله تعالى: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدۡعُۖ وَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡۖ وَقُلۡ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٖۖ وَأُمِرۡتُ لِأَعۡدِلَ بَيۡنَكُمُۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمۡۖ لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡۖ لَا حُجَّةَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُۖ ٱللَّهُ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَاۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ١٥﴾

قوله تعالى: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدۡعُۖ وَٱسۡتَقِمۡ﴾ لما جاز أن يكون الشكُّ لليهود والنصارى، أو لقريش قيل له: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدۡعُۖ﴾ أي: فتبينت شكَّهم فادعُ إلى الله؛ أي: إلى ذلك الدين الذي شرعه اللهُ للأنبياء ووصَّاهم به. فاللام بمعنى إلى؛ كقوله تعالى: ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوۡحَىٰ لَهَا﴾ [الزلزلة: ٥] أي: إليها. و«ذلك» بمعنى هذا. وقد تقدَّم أولَ «البقرة»[(١)]. والمعنى: فإلى هذا[(٢)] القرآن فادعُ. وقيل: في الكلام تقديم وتأخير؛ والمعنى: كبر على المشركين ما تدعوهم إليه فلذلك فادع[(٣)]. وقيل: إن اللام على بابها؛ والمعنى: فمن أجل ذلك الذي تقدم ذكره فادع واستقم[(٤)]. قال ابن عباس: أي: إلى القرآن فادعُ الخَلْقَ.

﴿وَٱسۡتَقِمۡ﴾ خطابٌ له عليه الصلاة والسلام. قال قتادة: أي: استَقِمْ على أمر الله. وقال سفيان: أي: استَقِمْ على القرآن. وقال الضحاك: استَقِمْ على تبليغ الرسالة[(٥)].

﴿وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡۖ﴾ أي: لا تنظر إلى خلاف مَن خالفك. ﴿وَقُلۡ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٖۖ وَأُمِرۡتُ لِأَعۡدِلَ بَيۡنَكُمُۖ﴾ أي: أنْ أعدِلَ؛ كقوله تعالى: ﴿وَأُمِرۡتُ أَنۡ أُسۡلِمَ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [غافر: ٦٦]. وقيل: هي لام كي، أي: أعدِلَ[(٦)]؛ قال ابن عباس وأبو العالية: لأُسوِّيَ بينكم في الدِّين، فأُؤمن بكلِّ كتاب وبكلِّ رسول. وقال غيرُهما:

---

(١) ١/ ٢٤٢.

(٢) في النسخ: فلهذا، والمثبت من إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٧٥ ـ ٧٦ والكلام فيه بنحوه.

(٣) معاني القرآن للنحاس ٦/ ٣٠٢.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٦/ ٧٦.

(٥) النكت والعيون ٥/ ١٩٩.

(٦) زاد المسير ٧/ ٢٧٩.

لِأعدِلَ في جميع الأحوال. وقيل: هذا العدل هو العدل في الأحكام. وقيل: في التبليغ[١].

﴿ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْۖ لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡۖ لَا حُجَّةَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُۖ﴾ قال ابن عباس ومجاهد: الخِطاب لليهود؛ أي: لنا ديننا ولكم دينُكم. قال: ثم نُسخت بقوله: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ الآية [التوبة: ١٢٩] قال مجاهد: ومعنى ﴿لَا حُجَّةَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُۖ﴾ لا خصومةَ بيننا وبينكم. وقيل: ليس بمنسوخ، لأن البراهينَ قد ظهرت، والحُجَجَ قد قامت، فلم يبقَ إلا العِناد، وبعد العناد لا حُجَّةَ ولا جدال.

قال النحاس[٢]: ويجوز أن يكون معنى ﴿لَا حُجَّةَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُۖ﴾ على ذلك القول: لم يؤمر أن يحتجَّ عليكم ويُقاتلكم[٣]؛ ثم نسخ هذا. كما أن قائلاً لو قال من قبل أن تُحوَّلَ القبلة: لا تُصَلِّ إلى الكعبة، ثم حوّل الناس بعد؛ لجاز أن يقال: نسخ ذلك.

﴿ٱللَّهُ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَاۖ﴾ يريد يومَ القيامة. ﴿وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾ أي: فهو يحكم بيننا إذا صِرْنا إليه، ويُجازي كُلًّا بما كان عليه.

وقيل: إنَّ هذه الآيةَ نَزلت في الوليد بن المغيرة وشيبة بن ربيعة، وقد سألا رسولَ الله ﷺ أن يرجع عن دعوته ودينه إلى دين قريش، على أن يُعطيَه الوليدُ نصفَ ماله ويُزوِّجَه شيبةُ بابنته[٤].

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ٱسۡتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمۡ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمۡ وَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ وَلَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٌ ١٦﴾

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِي ٱللَّهِ﴾ رَجع إلى المشركين ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا ٱسۡتُجِيبَ

---

(١) النكت والعيون ٥/ ١٩٩ .

(٢) في الناسخ والمنسوخ ٢/ ٦١٤ ، وما قبله منه.

(٣) عبارة (ظ): لن نؤمن أن نحتجَّ عليكم ونقاتلكم.

(٤) النكت والعيون ٥/ ١٩٩ .

لَهُۥ﴾ قال مجاهد: من بعد ما أسلم الناس. قال: وهؤلاء قد توهَّموا أن الجاهلية تعود[(١)]. وقال قتادة: الذين يُحاجُّون في الله اليهودُ والنصارى، ومُحَاجَّتهم قولُهم: نبيُّنا قبل نبيِّكم، وكتابُنا قبل كتابكم؛ وكانوا يرون لأنفسهم الفضيلةَ بأنهم أهلُ كتاب وأنهم أولادُ الأنبياء[(٢)]. وكان المشركون يقولون: ﴿أَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ [مريم: ٧٣] فقال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أي: لا ثَباتَ لها، كالشيء الذي يَزِلُّ عن موضعه.

والهاء في «لَهُ» يجوز أن يكون لِله عز وجل؛ أي: من بعد ما وحَّدوا الله وشَهِدُوا له بالوحدانية. ويجوز أن يكون للنبيِّ ﷺ؛ أي: من بعد ما استُجيب لمحمد[(٣)] ﷺ في دعوته على[(٤)] أهل بدر ونَصْر الله المؤمنين.

يقال: دَحَضت حُجَّته دُحوضًا بطلت. وأَدْحضها اللهُ. والإدحاض: الإزلاق. ومكان دَحْضٌ وَدَحَضٌ أيضًا ـ بالتحريك ـ أي: زَلِق. ودَحَضت رجلُه تَدْحَض دَحْضًا زَلِقت. ودَحَضت الشمس عن كبد السماء زالت[(٥)].

﴿وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ﴾ يريد في الدنيا. ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ يريد في الآخرة عذاب دائم.

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ ۗ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ يعني القرآنَ وسائرَ الكتب المُنزلة.

---

(١) زاد المسير ٧/ ٢٧٩.

(٢) النكت والعيون ٥/ ٢٠٠، وتفسير البغوي ٤/ ١٢٣.

(٣) في (م): محمد.

(٤) في النسخ: من، والمثبت من إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٧٦ - ٧٧، والكلام فيه بنحوه.

(٥) الصحاح (دحض).

﴿بِٱلۡحَقِّ﴾ أي: بالصدق. ﴿وَٱلۡمِيزَانَ﴾ أي: العَدْل؛ قاله ابن عباس وأكثر المفسرين. والعدل يُسمَّى ميزانًا؛ لأن الميزانَ آلةُ الإنصاف والعدل(١). وقيل: الميزان ما بُيِّن في الكُتب مما يجب على الإنسان أن يعملَ به.

وقال قتادة: الميزان العَدْل فيما أمر به ونهى عنه. وهذه الأقوالُ متقاربةُ المعنى. وقيل: هو الجزاءُ على الطاعة بالثواب وعلى المعصية بالعقاب. وقيل: إنه الميزانُ نفسُه الذي يُوزَن به؛ أنزله من السماء وعلَّم العبادَ الوزنَ به؛ لئلا يكون بينهم تَظالمٌ وتباخُس(٢)؛ قال الله تعالى: ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلۡقِسۡطِۖ﴾ [الحديد: ٢٥].

قال مجاهد: هو الذي يُوزَن به. ومعنى إنزال(٣) الميزان هو إلهامُه للخلق أن يعملوه ويعملوا [به](٤). وقيل: الميزان محمد ﷺ، يقضي بينكم بكتاب الله(٥).

﴿وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ فلم يُخبره بها. يحضُّه على العمل بالكتاب والعَدْل والسَّويَّة، والعمل بالشرائع قبل أن يُفاجئ اليوم الذي يكون فيه المُحاسبة ووزن الأعمال، فَيُوفَّى لمن أوفى ويُطفَّف لمن طفَّف.

فـ «لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ» أي: منك وأنت لا تدري. وقال: «قَرِيبٌ» ولم يقل: قريبة؛ لأن تأنيثَها غيرُ حقيقي؛ لأنها كالوقت؛ قاله الزجاج(٦). والمعنى: لعلَّ البعثَ، أو لعلَّ مجيء الساعة قريب. وقال الكسائي: «قَرِيبٌ» نعت يُنعت به المُذكَّر والمُؤنَّث والجمع بمعنًى ولفظٍ واحد؛ قال الله تعالى: ﴿إِنَّ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ١٢٣، وزاد المسير ٧/ ٢٨٠.

(٢) النكت والعيون ٥/ ٢٠٠.

(٣) في (د) و(م): أنزل، والمثبت من (ظ).

(٤) زاد المسير ٧/ ٢٨٠، وما بين حاصرتين منه.

(٥) ذكره الطبرسي في مجمع البيان ٢٥/ ٤٦ عن علقمة.

(٦) في معاني القرآن ٤/ ٣٩٧، وينظر الكلام في إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٧٧.

﴿ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦] قال الشاعر:

وكنا قريباً والديار بعيدةٌ فلما وصلنا نُصْب أعينهم غِبنا[١]

قوله تعالى: ﴿يَسۡتَعۡجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِهَاۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مُشۡفِقُونَ مِنۡهَا وَيَعۡلَمُونَ أَنَّهَا ٱلۡحَقُّۗ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِي ٱلسَّاعَةِ لَفِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٍ ١٨﴾

قوله تعالى: ﴿يَسۡتَعۡجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِهَاۖ﴾ يعني على طريق الاستهزاء، ظنًّا منهم أنها غيرُ آتية، أو إيهاماً للضَّعَفة أنها لا تكون. ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مُشۡفِقُونَ مِنۡهَا﴾ أي: خائفون وَجِلون لاستقصارهم أنفسَهم مع الجهد في الطاعة؛ كما قال: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ أَنَّهُمۡ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ رَٰجِعُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٠].

﴿وَيَعۡلَمُونَ أَنَّهَا ٱلۡحَقُّۗ﴾ أي: التي لا شكَّ فيها. ﴿أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِي ٱلسَّاعَةِ﴾ أي: يشكُّون ويُخاصمون في قيام الساعة. ﴿لَفِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٍ﴾ أي: عن الحق وطريق الاعتبار؛ إذ لو تذكَّروا لعلموا أن الذي أنشأهم من تراب ثم من نطفة إلى أن بلغوا ما بلغوا قادرٌ على أن يَبعثهم.

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ ١٩﴾

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ﴾ قال ابن عباس: حَفِيٌّ بهم. وقال عكرمة: بارٌّ بهم. وقال السُّديّ: رفيقٌ بهم. وقال مقاتل: لطيفٌ بالبَرِّ والفاجر؛ حيث لم يقتلهم جوعاً بمعاصيهم[٢]. وقال القُرَظِيّ: لطيفٌ بهم في العرض والمُحاسبة. قال:

غدًا عند مَوْلَى الخَلْق للخلق موقفٌ يُسائلهم فيه الجليل ويَلْطُفُ[٣]

وقال جعفر بن محمد بن عليّ بن الحسين: يَلطُفُ بهم في الرزق من وجهين: أحدهما: أنه جعل رزقَك من الطَّيِّبات. والثاني: أنه لم يَدْفَعْه إليك مرةً واحدة

(١) ذكره القزويني في تاريخ قزوين ٣/ ٢٦٧ ونسبه لأبي طاهر عبد العزيز الاستراباذي.

(٢) تفسير البغوي ٤/ ١٢٣.

(٣) لم نقف عليه.

فتبذِّرَه[١].

وقال الحسين بن الفضل: لطيفٌ بهم في القرآن وتفصيله وتفسيره.

وقال الجنيد: لطيف بأوليائه حتى عَرَفوه، ولو لَطَفَ بأعدائه لما جَحَدوه[٢]. وقال محمد بن عليّ الكتّاني[٣]: اللطيف بمن لجأ إليه من عباده إذا يئس من الخلق وتوكَّل عليه، ورَجَع إليه، فحينئذ يقبلُه ويُقبِلُ عليه. وجاء في حديث النبيّ ﷺ: «إنَّ الله تعالى يطَّلعُ على القبور الدوارس فيقول جلّ وعز: إمَّحتْ آثارُهم، واضمحلَّتْ صُوَرُهم، وبقي عليهم العذابُ، وأنا اللطيفُ وأنا أرحمُ الراحمين، خفِّفوا عنهم العذابَ، فَيُخفَّف عنهم العذاب»[٤]. قال أبو عليّ الثقفيّ رضي الله عنه:

أمُرُّ بأفناءِ القبور كأنني ... أخو فِطْنة والثوبُ فيه نحيفُ
ومَنْ شَقَّ فاه اللهُ قدَّر رِزْقَه ... وربِّي بمن يلجأ إليه لطيفُ[٥]

وقيل: اللطيفُ الذي ينشر من عباده المناقبَ ويستر عليهم المثالب؛ وعلى هذا قال النبيُّ ﷺ: «يا مَنْ أظهرَ الجميلَ وسَتَرَ القبيح»[٦]. وقيل: هو الذي يقبل القليلَ ويبذل الجَزيل. وقيل: هو الذي يجبر الكَسير ويُيسِّر العسير. وقيل: هو الذي لا يُخاف إلا عَدْلُه ولا يُرجَى إلا فَضْلُه[٧]. وقيل: هو الذي يبذُل لعبده النعمة فوق الهمَّة، ويُكلِّفه الطاعة فوق الطاقة؛ قال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم: ٣٤]، ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان: ٢٠]، وقال: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ١٢٣.

(٢) المحرر الوجيز ٥/ ٣٢.

(٣) لعله أبو بكر محمد بن علي بن جعفر البغدادي، شيخ الصوفية. توفي سنة (٣٢٢هـ). السير ١٤/ ٥٣٣.

(٤) لم نقف عليه.

(٥) لم نقف عليهما، وأبو علي الثقفي: هو محمد بن عبد الوهاب بن عبد الرحمن، النيسابوري، الشافعي، من ولد الحجاج، المحدث، شيخ خراسان. توفي سنة (٣٢٨هـ). السير ١٥/ ٢٨٠.

(٦) قطعة من حديث أخرجه الحاكم في المستدرك ١/ ٥٤٥.

(٧) ذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٣٢.

﴿فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ﴾ [الحج: ٧٨]، ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمۡۚ﴾ [النساء: ٢٨]. وقيل: هو الذي يُعين على الخدمة ويُكثر المِدْحة. وقيل: هو الذي لا يُعاجل مَن عصاه، ولا يُخَيِّب مَن رجاه. وقيل: هو الذي لا يردُّ سائِلَه ولا يُؤيِّس آمِلَه. وقيل: هو الذي يعفو عمن يهفو. وقيل: هو الذي يرحم مَن لا يرحم نَفْسَه. وقيل: هو الذي أوقد في أسرار العارفين من المُشاهدة سِراجًا، وجعل الصراط المستقيمَ لهم مِنْهاجًا، وأجزل لهم من سحائب بِرِّه ماء ثَجَّاجًا. وقد مضى في «الأنعام» قولُ أبي العالية والجُنَيد أيضًا[1]. وقد ذكرنا جميع هذا في «الكتاب الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى» عند اسمه اللطيف[2]، والحمد لله.

﴿يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُۖ﴾ ويَحْرِم من يشاء. وفي تفضيل قوم بالمال حِكمةٌ؛ لِيحتاج البعض إلى البعض؛ كما قال: ﴿لِّيَتَّخِذَ بَعۡضُهُم بَعۡضٗا سُخۡرِيّٗاۗ﴾ [الزخرف: ٣٢]، فكان هذا لُطْفًا بالعباد. وأيضًا ليمتحن الغنيّ بالفقير والفقير بالغنيّ؛ كما قال: ﴿وَجَعَلۡنَا بَعۡضَكُمۡ لِبَعۡضٖ فِتۡنَةً أَتَصۡبِرُونَۗ﴾ [الفرقان: ٢٠] على ما تقدَّم بيانه. ﴿وَهُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ﴾.

قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلۡأٓخِرَةِ نَزِدۡ لَهُۥ فِي حَرۡثِهِۦۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلدُّنۡيَا نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ٢٠﴾

قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلۡأٓخِرَةِ نَزِدۡ لَهُۥ فِي حَرۡثِهِۦۖ﴾ الحَرْثُ العمل والكسب. ومنه قول عبد الله بن عمرو[3]: واحْرُثْ لدنياك كأنك تعيش أبدًا، واعمَلْ لآخرتك كأنك تموتُ غدًا[4]. ومنه سُمِّي الرجل حارثًا[5]. والمعنى: أي: مَن طلبَ بما رزقناه حَرْثًا لآخرته، فأدَّى حقوقَ الله، وأنفق في إعزاز الدِّين؛ فإنما نُعطيه ثوابَ

(١) ٨/ ٤٨٥ - ٤٨٦.
(٢) وهو ليس في المطبوع منه.
(٣) في (د) و(ز) و(م): عمر، والمثبت من (ظ)، وهو الموافق للمصادر.
(٤) سلف ٣/ ٣٨٦.
(٥) معاني القرآن للنحاس ٦/ ٣٠٥ - ٣٠٦.

ذلك للواحد عشراً إلى سبع مئة فأكثر.

﴿وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: طَلَبَ بالمال الذي آتاه اللهُ رِياسةَ الدنيا والتوصُّلَ إلى المحظورات، فإنا لا نَحرِمه الرِّزق أصلاً، ولكن لا حظَّ له في الآخرة من ماله؛ قال الله تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ۝ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ [الإسراء: ١٨-١٩].

وقيل: «نَزِدْ له في حَرْثِه» نوفِّقه للعبادة ونُسهِّلها عليه. وقيل: حرث الآخرة الطاعة؛ أي: مَن أطاع فله الثواب. وقيل: «نَزِد لَهُ في حَرْثِهِ» أي: نُعطه الدنيا مع الآخرة. وقيل: الآية في الغَزْو؛ أي: من أراد بِغَزْوِه الآخرةَ أُوتي الثواب، ومن أراد بغزوه الغنيمةَ أُوتي منها[1].

قال القُشيريّ: والظاهر أن الآيةَ في الكافر؛ يُوسَّع له في الدنيا؛ أي: لا ينبغي له أن يَغْترَّ بذلك؛ لأن الدنيا لا تبقى.

وقال قتادة: إن الله يُعطي على نية الآخرة ما شاء من أمر الدنيا، ولا يعطي على نية الدنيا إلا الدنيا[2]. وقال أيضاً: يقول الله تعالى: مَن عَمِلَ لآخرته زِدْناه في عمله، وأعطيناه من الدنيا ما كَتبنا له، ومن آثرَ دنياه على آخرته لم نَجْعَلْ له نصيبًا في الآخرة إلا النارَ، ولم يُصِبْ من الدنيا إلا رزقًا قد قسمناه له لا بُدَّ أن كان يُؤتاه مع إيثار أو غير إيثار. قلت: قول قتادة حسن[3].

وروى جُوَيبِرُ عن الضحاك عن ابن عباس قال: وقوله عز وجل: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ﴾: مَن كان من الأبرار يُريد بعمله الصالح ثوابَ الآخرة «نَزِدْ له في حَرْثِهِ» أي: في حسناته. ﴿وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: من كان من الفُجّار يُريد

(١) مجمع البيان ٢٥/ ٤٧ بنحوه.

(٢) النكت والعيون ٥/ ٢٠١.

(٣) قوله: قلت: قول قتادة حسن، من (ظ).

بعمله الحَسَن الدنيا «نُؤْتِه منها»، ثم نُسخ ذلك في «سبحان»: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾[١] [الآية:١٨]. والصواب أن هذا ليس بنسخ؛ لأن هذا خبر، والأشياء كلُّها بإرادة الله عز وجل. ألا ترى أنه قد صحَّ عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «لا يَقُلْ أحدُكم: اللهم اغفِرْ لي، إن شئتَ، اللهم ارحمني إنْ شئتَ»[٢]. وقد قال قتادة ما تقدَّم ذِكْره، وهو يُبيِّن لك أن لا نسخ. وقد ذكرنا في «هود» أن هذا من باب المطلق والمقيَّد، وأن النسخَ لا يدخل في الأخبار[٣]. والله المستعان.

مسألة: هذه الآيةُ تُبطِلُ مذهبَ أبي حنيفة في قوله: إنه من توضَّأ تَبَرُّدًا أنه يَجزيه عن فريضة الوضوء الموظَّف عليه؛ فإن فريضةَ الوضوء من حرث الآخرة والتبرُّد من حرث الدنيا، فلا يدخل أحدُهما على الآخر، ولا تَجزي نِيَّته عنه بظاهر هذه الآية؛ قاله ابن العربي[٤].

قوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَـٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَـٰٓؤُا۟﴾ أي: ألهم؟ والميم صِلة، والهمزة للتقريع. وهذا مُتَّصلٌ بقوله: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا﴾، وقولِه تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ ۗ﴾ كانوا لا يؤمنون به، فهل لهم آلهة شَرَعوا لهم الشِّرك الذي لم يأذن به الله؟ وإذا استحال هذا فالله لم يشرع الشِّرك، فمن أين يدينون به؟!

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ﴾ يوم القيامة حيث قال: ﴿بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ﴾ [القمر:٤٦]. ﴿لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾ في الدنيا، فعاجلَ الظالم بالعقوبة وأثابَ الطائع. ﴿وَإِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ أي: المشركين. ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في الدنيا: القتلُ والأَسْر والقهر، وفي

---

(١) أخرجه النحاس في الناسخ والمنسوخ (٧٨١)، وما بعده منه.

(٢) أخرجه البخاري (٦٣٣٩)، ومسلم (٢٦٧٩) من حديث أبي هريرة ﷺ، وسلف ٣/ ١٨٤ .

(٣) ١١/ ٨٥ - ٨٦ .

(٤) في أحكام القرآن ٤/ ١٦٥٥ .

الآخرة عذابُ الدنيا.

وقرأ ابن هُرْمُز: «وأنّ» بفتح الهمزة[١]، على العطف على «ولولا كلمةٌ»، والفَصْلُ بين المعطوف والمعطوف عليه بجواب «لولا» جائزٌ. ويجوز أن يكون موضع «أنّ» رفعاً على تقدير: وجب أنَّ الظالمين لهم عذابٌ أليم؛ فيكون منقطعاً مما قبلَه كقراءة الكسر؛ فاعْلَمه.

قوله تعالى: ﴿تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا۟ وَهُوَ وَاقِعٌۢ بِهِمْ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِ ۖ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشْفِقِينَ﴾ أي: خائفين ﴿مِمَّا كَسَبُوا۟﴾ أي: من جزاء ما كسبوا. والظالمون هاهنا الكافرون؛ بدليل التقسيم بين المؤمن والكافر. ﴿وَهُوَ وَاقِعٌۢ بِهِمْ﴾ أي: نازلٌ بهم. ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِ﴾ الروضة: الموضع النَّزِه الكثير الخُضرة. وقد مضى في «الروم»[٢]. ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أي: من النعيم والثواب الجزيل. ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾ أي: لا يُوصَفُ ولا تهتدي العقولُ إلى كُنْهِ صِفته؛ لأن الحقَّ إذا قال: كبير، فمن ذا الذي يقدر قَدْره؟.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ۗ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٢٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ قُرئ: «يُبَشِّر» مِن بَشَّره[٣]،

---

(١) القراءات الشاذة ص ١٣٤، والمحتسب ٢/ ٢٥٠.

(٢) ١٤/ ١١ - ١٢.

(٣) قرأ بها نافع وعاصم وابن عامر. السبعة ص ٢٠٥ - ٢٠٦، والتيسير ص ١٩٥.

وَ«يُبْشِر» من أبشره[١]، وَ«يَبْشُر» مِن بَشَره[٢]، وفيه حذف؛ أي: يُبَشِّر اللهُ به عبادَه المؤمنين لِيتعجَّلوا السرور ويزدادوا منه وَجْدًا في الطاعة.

قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ **فيه مسألتان:**

الأولى: قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ أي: قُلْ يا محمد: لا أسألكم على تبليغ الرسالة جُعْلاً. ﴿إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ قال الزجاج[٣]: «إِلَّا الْمَوَدَّةَ» استثناء ليس من الأول؛ أي: إلا أن تَوَدُّوني لقرابتي فتحفظوني. والخِطاب لقريش خاصَّةً؛ قاله ابن عباس وعكرمة ومجاهد وأبو مالك والشعبيّ وغيرهم[٤]. قال الشعبيّ: أَكْثَر الناسُ علينا في هذه الآية فكتبنا إلى ابن عباس نسأله عنها؛ فكتب أن رسولَ الله ﷺ كان أوسطَ الناس في قريش، فليس بَطْنٌ من بطونهم إلا وقد وَلَده؛ فقال الله له: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ إلا أن تَوَدُّوني في قرابتي منكم؛ أي: تُراعوا ما بيني وبينكم فتصدِّقوني[٥]. فـ «الْقُرْبَى» هاهنا قرابة الرَّحِم؛ كأنه قال: اتَّبعوني للقرابة إن لم تتَّبعوني للنبوَّة.

قال عكرمة: وكانت قريش تَصِلُ أرحامَها، فلما بُعث النبيّ ﷺ قَطَعَتْهُ؛ فقال: صِلُوني كما كنتم تفعلون. فالمعنى على هذا: قُلْ: لا أسألكم عليه أجراً، لكن أُذكِّركم قرابتي؛ على أنه[٦] استثناءٌ ليس من الأوّل؛ ذكره النحاس[٧].

وفي البخاريّ[٨]: عن طاوس عن ابن عباس أنه سُئل عن قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ

(١) قرأ بها مجاهد وحُميد بن قيس. المحتسب ٢/ ٢٥١ .
(٢) قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو وحمزة والكسائي. السبعة ص ٢٠٥ - ٢٠٦ ، والتيسير ص ١٩٥ .
(٣) في معاني القرآن ٤/ ٣٩٨ .
(٤) معاني القرآن للنحاس ٦/ ٣٠٨ ، وأخرج أقوالهم الطبري ٢٠/ ٤٩٥ - ٤٩٦ .
(٥) أخرجه سعيد بن منصور كما في فتح الباري ٨/ ٥٦٥ ، وأخرجه بنحوه الطبري ٢٠/ ٤٩٥ .
(٦) قوله: أنه، ليس في (م).
(٧) في معاني القرآن ٦/ ٣٠٨ .
(٨) الحديث (٤٨١٨).

﴿فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۚ﴾ فقال سعيد بن جُبير: قُربى آل محمد؛ فقال ابن عباس: عَجِلت، إن النبيَّ ﷺ لم يكن بطنٌ من قريش إلا كان له فيهم قرابة، فقال: إلا أن تَصِلوا ما بيني وبينكم[١] من القرابة. فهذا قول.

وقيل: القُربى قرابةُ الرسول ﷺ، أي: لا أَسألُكم أجرًا إلا أن تودُّوا قرابتي وأهل بيتي، كما أمر بإعظامهم ذوي القُربى. وهذا قولُ علي بن حسين وعمرو بن شُعيب والسُّدّي[٢]. وفي رواية سعيد بن جُبير عن ابن عباس: لما أنزل اللهُ عز وجل: ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ﴾ قالوا: يا رسولَ الله، من هؤلاء الذين نَوَدُّهم؟ قال: «عليٌّ وفاطمةُ وأبناؤهما»[٣]. ويدلُّ عليه أيضًا ما رُوي عن عليٍّ ﷺ قال: شكوتُ إلى النبيِّ ﷺ حَسَدَ الناس لي. فقال: «أما ترضى أن تكونَ رابعَ أربعة أوّل من يدخلُ الجنةَ: أنا وأنت والحسن والحسين وأزواجُنا عن أيماننا وشمائلنا وذُرِّيتنا خلفَ أزواجنا»[٤]. وعن النبي ﷺ: «حُرِّمتِ الجنةُ على من ظلمَ أهلَ بيتي وآذاني في عِتْرتي، ومن اصطنع صنيعةً إلى أحدٍ من ولد عبد المطلب ولم يُجازه عليها، فأنا أُجازيه عليها غدًا إذا لَقِيني يومَ القيامة»[٥].

وقال الحسن وقتادة: المعنى: إلا أن يتودَّدوا إلى الله عز وجل ويتقرَّبوا إليه بطاعته[٦]. فـ «الْقُرْبَى» على هذا بمعنى القربة. يقال: قُرْبَة وقُرْبى بمعنًى؛ كالزُّلفة والزُّلْفى.

(١) في (د) و(ز) و(ف) و(م): إلا أن تصلوا ما بينكم، والمثبت من (ظ)، وهو موافق لصحيح البخاري.

(٢) أخرجه عنهم الطبري ٢٠/ ٤٩٩ - ٥٠٠ .

(٣) أخرجه الطبراني (١٢٢٥٩)، وفي إسناده حسين الأشقر، قال الحافظ ابن حجر في تخريج أحاديث الكشاف ص ١٤٥ : ضعيف ساقط، وقد عارضه ما هو أولى منه.. وذكر حديث طاوس عن ابن عباس رضي الله عنهما الذي أخرجه البخاري، وقد ذكره المصنف قريباً.

(٤) ذكره الزمخشري في الكشاف ٣/ ٤٦٧ ، قال الحافظ ابن حجر في تخريج أحاديث الكشاف ص ١٤٥ : سنده واهٍ.

(٥) نسبه الحافظ ابن حجر في تخريج أحاديث الكشاف ص ١٤٥ إلى الثعلبي من حديث علي ﷺ، ثم قال: فيه عبد الله بن أحمد بن عامر الطائي، عن أبيه، وهو كذاب.

(٦) أخرجه الطبري ٢٠/ ٥٠٠ - ٥٠١ .

وروى قَزَعةُ بن سُويد عن ابن أبي نَجيح عن مجاهد عن ابن عباس عن النبي ﷺ «قل: لا أسألُكم على ما آتيتكم به أجرًا إلا أن تَوادُّوا وتقرَّبوا إليه بالطاعة»[١]. وروى منصور وعوف عن الحسن ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ قال: يتودَّدون إلى الله عز وجل ويتقرَّبون منه بطاعته[٢].

وقال قوم: الآيةُ منسوخةٌ وإنما نزلت بمكة؛ وكان المشركون يُؤذون رسولَ الله ﷺ فنزلت هذه الآية، وأمرهم الله بمودَّة نبيِّه ﷺ وصِلة رَحِمِه، فلما هاجر آوته الأنصارُ ونصروه، وأراد الله أن يُلحقه بإخوانه من الأنبياء حيث قالوا: ﴿وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء:١٠٩]، فأنزل الله تعالى: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾ [سبأ:٤٧] فنسخت بهذه الآية وبقوله: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾ [ص:٨٦]، وقوله: ﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ﴾ [المؤمنون:٧٢]، وقوله: ﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ﴾ [الطور:٤٠]؛ قاله الضحاك والحسين بن الفضل[٣]. ورواه جُوَيبر عن الضحاك عن ابن عباس. قال الثَّعْلبيّ: وليس بالقويّ، وكفى قُبْحًا بقول من يقول: إن التقرّبَ إلى الله بطاعته ومودَّة نبيه ﷺ وأهلِ بيته منسوخٌ؛ وقد قال النبيّ ﷺ: «مَن ماتَ على حُبِّ آل محمد ماتَ شهيداً. ومَن مات على حُبِّ آل محمد جعل الله زُوَّار قبره ملائكةَ الرحمة[٤]، ومن مات على حُبِّ آل محمد مات على السُّنة والجماعة[٥]. ومَن مات على بُغْض آل

---

(١) أخرجه أحمد (٢٤١٥)، والطبري ٢٠/ ٥٠٠ ، والنحاس في الناسخ والمنسوخ (٧٨٨)، وقَزَعَةُ بن سُويد ضعيف، كما في تهذيب التهذيب ٣/ ٤٣٩ .

(٢) أخرجه الطبري ٢٠/ ٥٠٠ .

(٣) تفسير البغوي ٤/ ١٢٥ . وقال: وهذا قول غير مرضي؛ لأن مودة النبي ﷺ وكفَّ الأذى عنه ومودّة أقاربه، والتقرب إلى الله بالطاعة والعمل الصالح من فرائض الدين.

(٤) في (د) و(ز) و(ف) و(م): الملائكة والرحمة، وفي (ظ): الملائكة، والمثبت من الكشاف ٣/ ٤٦٧ - والكلام منه كما سيذكر المصنف - وسيأتي الحديث مطولاً عند المصنف بهذا اللفظ.

(٥) قوله: ومن مات على حب آل محمد مات على السنة والجماعة، زيادة من (ظ)، وهي قطعة من الحديث. وسيذكره المصنف بتمامه.

محمد جاء يومَ القيامة مكتوباً بين عينيه: آيسٌ اليومَ من رحمة الله. ومَن ماتَ على بُغض آل محمد لم يَرَحْ رائحة الجنة. ومَن مات على بُغض آل بيتي فلا نصيبَ له في شفاعتي»[١].

قلت: وذكر هذا الخبر الزمخشريُّ في «تفسيره» بأطولَ مِن هذا فقال: وقال رسولُ الله ﷺ: «مَن ماتَ على حُبِّ آلِ محمد ماتَ شهيداً، ألاَ ومن مات على حُبِّ آل محمد مات مؤمناً مُستكمِلَ الإيمان، ألَا ومن ماتَ على حُبِّ آل محمد بَشَّره ملكُ الموت بالجنة ثم مُنْكر ونكير، ألا ومَن مَات على حُبِّ آل محمد يُزَفُّ إلى الجنة كما تُزَفُّ العروس إلى بيت زوجها، ألا ومَن مات على حُبِّ آلِ محمد فُتح له في قبره بابان إلى الجنة، ألا ومَن ماتَ على حُبِّ آل محمد جَعَلَ اللهُ قبرَه مزارَ ملائكةِ الرحمة، ألا ومَن ماتَ على حُبِّ آل محمد مات على السُّنة والجماعة، ألا ومَن ماتَ على بُغض آل محمد جاء يومَ القيامة مكتوباً بين عينيه: آيسٌ من رحمة الله، ألَا ومَن ماتَ على بُغض آلِ محمد مات كافراً، ألَا ومَن مَات على بُغض آل محمد لم يَشَمَّ رائحةَ الجنة»[٢].

قال النحاس: ومذهبُ عِكرمة ليست بمنسوخة؛ قال: كانوا يَصِلون أرحامَهم، فلما بُعِثَ النبيُّ ﷺ قطعوه فقال: قل: لا أسألُكم عليه أجراً إلا أن تَوَدُّوني وتحفظوني لِقرابتي، ولا تُكذِّبوني[٣].

قلت: وهذا هو معنى قول ابن عباس في البخارِيُّ والشعبيّ عنه بعينه؛ وعليه لا نسخ.

قال النحاس[٤]: وقول الحسن حسن، ويدلُّ على صحته الحديثُ المُسنَدُ عن

(١) ينظر التعليق التالي.
(٢) الكشاف ٣/ ٤٦٧ ، ونسبه الحافظ ابن حجر في تخريج أحاديث الكشاف ص ١٤٥ إلى الثعلبي وقال: آثار الوضع عليه واضحة.
(٣) الناسخ والمنسوخ للنحاس ٢/ ٦١٩ ، وسلف قول عكرمة أول هذه المسألة.
(٤) في الناسخ والمنسوخ ٢/ ٦٢٠ .

رسول الله ﷺ كما حدَّثنا أحمدُ بن محمد الأزدي قال: أخبرنا الربيعُ بن سليمان المُرادي قال: أخبرنا أسدُ بن موسى قال: حدثنا قَزَعةُ ـ وهو ابن سُويد[١] البصري ـ قال: حدثنا عبد الله بن أبي نَجيح عن مجاهد عن ابن عباس أن رسولَ الله ﷺ قال: «لا أسألُكم على ما أُنبئكم به من البيِّنات والهُدَى أجرًا إلا أن توادُّوا الله عزّ وجلّ وأن تتقرَّبوا إليه بطاعته». فهذا المُبيِّن عن الله عز وجل قد قال هذا، وكذا قالت الأنبياء صلى الله عليهم قبلَه: ﴿إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۖ﴾ [يونس: ٧٢].

الثانية: واختلفوا في سبب نزولها؛ فقال ابن عباس: لما قَدِمَ النبيُّ ﷺ المدينةَ كانت تنوبه نوائبُ وحقوق لا يسعها ما في يديه؛ فقالت الأنصار: إنَّ هذا الرجل هداكم اللهُ به، وهو ابن أُختكم[٢]، وتنوبه نوائبُ وحقوقٌ لا يسعها ما في يديه، فنجمع له؛ ففعلوا، ثم أتَوْه به فنزلت[٣].

وقال الحسن: نزلت حين تفاخرت الأنصارُ والمهاجرون، فقالت الأنصار: نحن فعلنا، وفَخَرت المهاجرون بقرابتهم من رسول الله ﷺ. روى مِقْسَم عن ابن عباس قال: سمع رسولُ الله ﷺ شيئًا، فخطب فقال للأنصار: «ألم تكونوا أَذِلَّاءَ فأعزَّكم الله بي. ألم تكونوا ضُلَّالاً فهداكم الله بي. ألم تكونوا خائفين فأمَّنكم الله بي، ألا تردُّون عليَّ»؟ فقالوا: بِمَ نُجيبكَ؟ قال: «تقولون: ألم يَطْرُدْكَ قومُك فآويناك. ألم يُكَذِّبك قومُك فصدَّقناك» فعدَّد عليهم. قال: فَجَثَوْا على رُكَبهم فقالوا: أَنْفُسنا وأموالنا لك؛ فنزلت: ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ﴾[٤].

---

(١) في النسخ: يزيد، وهو خطأ، والمثبت من المصادر، وسلف الحديث قريباً، وذكرنا أنه ضعيف.

(٢) في (د) و(ز) و(ف) و(م): أخيكم، والمثبت من (ظ).

(٣) أسباب النزول للواحدي ص ٣٩٣.

(٤) أخرجه بهذا اللفظ الطبراني في الأوسط (٣٨٧٦). قال الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/ ٣٢: رواه الطبراني عن شيخه علي بن سعيد، وفيه لين. قلنا: وفيه يزيد بن أبي زياد، قال الحافظ ابن كثير في تفسيره ٧/ ٢٠١: هو ضعيف. والحديث أخرجه - دون ذكر نزول الآية - أحمد (١٢٠٢١) من حديث أنس ﷺ، وأخرجه البخاري (٤٣٣٠)، ومسلم (١٠٦١) من حديث عبد الله بن زيد ﷺ بنحوه. قال =

وقال قتادة: قال المشركون: لعلّ محمدًا فيما يتعاطاه يطلب أجرًا؛ فنزلت هذه الآية، لِيحُثَّهم على مودَّته ومودَّة أقربائه[١]. قال الثعلبي: وهذا أشبهُ بالآية، لأن السورةَ مكيةٌ.

قوله تعالى: ﴿وَمَن يَقۡتَرِفۡ حَسَنَةٗ﴾ أي: يكتسب. وأصلُ القَرْف الكسب، يقال: فلان يَقْرِف لِعياله، أي: يَكسِبُ. والاقتراف الاكتساب[٢]، وهو مأخوذٌ من قولهم: رجلٌ قُرَفَة، إذا كان مُحتالاً[٣]. وقد مضى في «الأنعام» القول فيه[٤].

وقال ابن عباس: ﴿وَمَن يَقۡتَرِفۡ حَسَنَةٗ﴾ قال: المودّة لِآل محمد ﷺ[٥]. ﴿نَّزِدۡ لَهُۥ فِيهَا حُسۡنًاۚ﴾ أي: نُضاعف له الحسنة بعشرٍ فصاعدًا.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ شَكُورٌ﴾ قال قتادة: «غَفُورٌ» للذنوب، «شَكُورٌ» للحسنات. وقال السّدي: «غَفورٌ» لذنوب آل محمد عليه الصلاة والسلام، «شَكُورٌ» لحسناتهم[٦].

قوله تعالى: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗاۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخۡتِمۡ عَلَىٰ قَلۡبِكَۗ وَيَمۡحُ ٱللَّهُ ٱلۡبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٢٤﴾

قوله تعالى: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗاۖ﴾ الميم صلة، والتقدير: أيقولون: افترى. واتَّصل الكلام بما قبلُ؛ لأن الله تعالى لما قال: ﴿وَقُلۡ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٖۖ﴾ [الشورى: ١٥]، وقال: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ﴾ [الشورى: ١٧] قال إتماماً للبيان: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗاۖ﴾ يعني: كفار قريش قالوا: إنّ محمدًا

= الحافظ ابن كثير: وذِكْرُ نزولها في المدينة فيه نَظَرٌ، لأن السورة مكية، وليس يظهر بين هذه الآية الكريمة وبين السياق مناسبة.

(١) ذكره الواحدي في أسباب النزول ص ٣٩٥ بنحوه.

(٢) الصحاح (قرف).

(٣) معاني القرآن للنحاس ٦/ ٣١٠.

(٤) ٨/ ٥٠٥.

(٥) ذكره الطبرسي في مجمع البيان ٢٥/ ٥١ عن السدي.

(٦) النكت والعيون ٥/ ٢٠٢.

اختلق الكذب على الله.

﴿فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخۡتِمۡ﴾ شرطٌ وجوابُه. ﴿عَلَىٰ قَلۡبِكَ﴾ قال قتادة: يطبع على قلبك فينسيك القرآن؛ فأخبرهم اللهُ أنه لو افترى عليه لَفعل بمحمد ما أخبرهم به في هذه الآية. وقال مجاهد ومقاتل: «إنْ يشأ اللهُ» يربِطْ على قلبك بالصبر على أذاهم حتى لا يدخل قلبَك مشقَّةٌ من قولهم. وقيل: المعنى: إنْ يشأ يُزِلْ تمييزك. وقيل: المعنى: لو حدَّثت نَفْسَك أن تفتريَ على الله كذبًا لَطبع على قلبك؛ قاله ابن عيسى[١].

وقيل: فإن يشأ الله يَخْتِمْ على قلوب الكفار وعلى ألسنتهم، ويعاجلهم[٢] بالعقاب. فالخِطاب له والمرادُ الكفار؛ ذكره القشيري.

ثم ابتدأ فقال: ﴿وَيَمۡحُ ٱللَّهُ ٱلۡبَٰطِلَ﴾ قال ابن الأنباري[٣]: «يَخْتِمْ على قَلْبِكَ» تامٌّ.

وقال الكسائي: فيه تقديمٌ وتأخيرٌ؛ مجازه: واللهُ يمحو الباطل؛ فحذف منه الواو في المصحف، وهو في موضع رفع. كما حُذِفت من قوله: ﴿سَنَدۡعُ ٱلزَّبَانِيَةَ﴾ [العلق: ١٨]، ﴿وَيَدۡعُ ٱلۡإِنسَٰنُ﴾[٤] [الإسراء: ١١] ولأنه عطفٌ[٥] على قوله: ﴿يَخۡتِمۡ عَلَىٰ قَلۡبِكَۗ﴾.

وقال الزجاج: قوله: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗاۖ﴾ تمام؛ وقوله: ﴿وَيَمۡحُ ٱللَّهُ ٱلۡبَٰطِلَ﴾ احتجاجٌ على مَن أنكر ما أتى به النبيّ ﷺ؛ أي: لو كان ما أتى به باطلًا لَمحاه كما جرت به عادته في المُفترين[٦].

---

(١) هذه الأقوال في النكت والعيون ٥/ ٢٠٢ - ٢٠٣ ، وتفسير البغوي ٤/ ١٢٦ .

(٢) في النسخ: وعاجلهم، والمثبت من فتح القدير ٤/ ٥٣٥ ، وروح المعاني ٢٥/ ٣٥ ، والقول فيهما.

(٣) في إيضاح الوقف والابتداء ٢/ ٨٨١ .

(٤) تفسير البغوي ٤/ ١٢٦ .

(٥) كذا في النسخ، والمفسرون على أنه مرفوع ـ كما ذكر المصنف آنفاً ـ وليس معطوفاً على «يختم». ينظر الكشاف ٣/ ٤٦٨ ، ومجمع البيان ٢٥/ ٤٨ ، وروح المعاني ٢٥/ ٣٤ .

(٦) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٨١ .

﴿وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ﴾ أي: الإسلام فَيُبيِّنه[١] ﴿بِكَلِمَـٰتِهِۦٓ﴾ أي: بما أنزله من القرآن. ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ عامٌّ، أي: بما في قلوب العباد. وقيل: خاصٌّ. والمعنى: إنك لو حدَّثت نفسَك أن تفتريَ على الله كذباً لَعلمه وطَبَعَ على قلبك.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾ قال ابن عباس: لما نزل قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [الشورى: ٢٣] قال قومٌ في نفوسهم: ما يريد إلا أن يَحُثَّنا على أقاربه من بعده؛ فأخبر جبريلُ النبيَّ ﷺ، وأنهم قد اتَّهموه، فأنزل: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ الآية؛ فقال القوم: يا رسولَ الله، فإنا نشهدُ أنك صادقٌ ونتوب. فنزلت: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾. قال ابن عباس: أي: عن أوليائه وأهل طاعته[٢].

والآية عامة. وقد مضى الكلامُ في معنى التّوبة وأحكامِها[٣]؛ ومضى هذا اللفظ في «براءة»[٤].

﴿وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ أي: عن الشِّرك قبلَ الإسلام. ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ أي: من الخير والشرّ.

وقرأ حمزة والكسائي وحفص وخلف بالتاء على الخطاب[٥]، وهي قراءة ابن مسعود وأصحابه[٦]. الباقون بالياء على الخبر، واختاره أبو عُبيد وأبو حاتم؛ لأنه بين

(١) في (م): فيثبته.

(٢) ذكر قولي ابن عباس رضي الله عنهما البغوي في تفسيره ٤/ ١٢٦ .

(٣) ٦/ ١٤٩ وما بعدها.

(٤) ١٠/ ٣٦٦ .

(٥) السبعة ص ٥٨١ ، والتيسير ص ١٩٥ ، والنشر ٢/ ٣٦٧ .

(٦) ذكرها ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٣٥ .

خبرين: الأوّل: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾ والثاني: ﴿وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۚ وَٱلْكَٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿٢٦﴾﴾

«الَّذينَ» في موضع نصب؛ أي: ويستجيبُ اللهُ الذين آمنوا[١]، أي: يقبل عبادةَ من أخلص له بقلبه وأطاع ببدنه. وقيل: يُعطيهم مسألتَهم إذا دَعَوْه. وقيل: ويُجيب دعاء المؤمنين بعضهم لبعض؛ يقال: أجاب واستجاب بمعنًى، وقد مضى في «البقرة»[٢].

وقال ابن عباس: ﴿وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ يُشَفِّعهم في إخوانهم. ﴿وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ قال: يُشفِّعهم في إخوان إخوانهم[٣].

وقال المُبرِّد: معنى ﴿وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾: وَلِيستدع[٤] الذين آمنوا الإجابة؛ هكذا حقيقةُ معنى استفعل. فـ«الَّذِينَ» في موضع رفع[٥]. ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾﴾

فيه مسألتان:

الأولى: في نزولها؛ قيل: إنها نزلت في قوم من أهل الصُّفَّة تمنَّوْا سَعةَ الرزق. وقال خَبَّاب بن الأرَتّ: فينا نزلت؛ نظرنا إلى أموال بني النَّضير وقُريظة وبني قَيْنُقاع فتمنَّيناها فنزلت[٦].

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٨٢ .

(٢) ٣/ ١٧٧ وما بعدها.

(٣) تفسير البغوي ٤/ ١٢٧ .

(٤) في (ظ): ويستدع.

(٥) معاني القرآن للنحاس ٦/ ٣١٣ .

(٦) المحرر الوجيز ٥/ ٣٦ .

﴿وَلَوْ بَسَطَ﴾ معناه: وَسَّع. وبسط الشيء نشره. وبالصاد أيضًا. ﴿لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ﴾ طغَوْا وعصَوْا. وقال ابن عباس: بَغْيهم طَلَبهم منزلةً بعد منزلة، ودابَّةً بعد دابَّة، ومركباً بعد مركب، ومَلْبساً بعد مَلْبس[1].

وقيل: أراد: لو أعطاهم الكثيرَ لَطلبوا ما هو أكثرُ منه، لقوله: «لو كان لابن آدمَ واديان من ذهب لابتغى إليهما ثالثًا»[2] وهذا هو البَغْيُ، وهو معنى قول ابن عباس. وقيل: لو جعلناهم سواءً في المال لما انقاد بعضُهم لبعض، ولتعطَّلت الصنائع. وقيل: أراد بالرزق المطر الذي هو سببُ الرزق؛ أي: لو أدام المطرَ لَتشاغلوا به عن الدعاء، فيقبِض تارةً لِيتضرَّعوا وَيَبْسُط أُخرى لِيشكروا. وقيل: كانوا إذا أخصبوا أغار بعضُهم على بعض؛ فلا يبعد حملُ البغي على هذا.

الزّمخشرِيّ[3]: «لَبَغَوْا» من البغي وهو الظُّلم؛ أي: لَبغى هذا على ذاك وذاك على هذا؛ لأن الغِنَى مَبْطَرة مَأْشرة، وكفى بقارون عبرة. ومنه قوله عليه الصلاة والسلام: «أَخْوَفُ ما أخاف على أمتي زَهْرةُ الدنيا وكَثْرتُها»[4]. ولبعض العرب:

وقد جعل الوسْمِيُّ يُنبت بيننا ... وبين بني رُومان نَبْعًا وشَوْحَطا[5]

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ١٢٧ .

(٢) أخرجه أحمد (٢١١١١) من حديث أُبَيّ ﷺ بهذا اللفظ، وأخرجه البخاري (٦٤٣٦) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، ومسلم (١٠٤٨) من حديث أنس ﷺ وفيهما: «من مال» بدل: «من ذهب»، وفي الباب عن عدد من الصحابة رضوان الله عليهم، تنظر في مسند أحمد.

(٣) الكشاف ٣/ ٤٦٩ .

(٤) أخرجه البخاري (٦٤٢٧)، ومسلم (١٠٥٢) من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ بنحوه، وسلف ١٣/ ٢٠٨ .

(٥) أورده أبو العلاء في رسالة الصاهل والشاحج ص ٥٤٠ ، وابن قتيبة في المعاني الكبير ٢/ ٨٩٥ ، وابن منظور في اللسان (شحط). وفيه وفي (م): دودان، بدل: رومان.

وبنو رومان: رَهْط من طيِّئ، كما في الاشتقاق ص ٣٨٠ ، والوسميّ: مطر الربيع الأول. القاموس (وسم)، والنَّبع والشَّوْحط ضربان من الشجر، وهي هاهنا القِسيّ. قاله ابن قتيبة.

يعني: أنهم أُحْيُوا فحدَّثوا أنفسهم بالبغي والتفاتن[١]. أو من البَغْي، وهو البَذَخُ والكِبْر؛ أي: لَتَكَبَّروا في الأرض وفعلوا ما يتبع الكِبْرَ من العُلوّ فيها والفساد.

﴿وَلَكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ﴾ أي: يُنزِّل أرزاقَهم بقدر ما يشاء لِكفايتهم. وقال مقاتل: «يُنَزِّلُ بِقَدَر ما يشاءُ» يجعل من يشاء غَنيًّا ومن يشاء فقيرًا.

الثانية: قال علماؤنا: أفعالُ الربِّ سبحانه لا تخلو عن مصالح وإن لم يَجِبْ على الله الاستصلاح؛ فقد يعلم من حال عبدٍ أنه لو بَسَطَ عليه قادَه ذلك إلى الفساد فَيَزْوِي عنه الدنيا؛ مصلحةً له. فليس ضيقُ الرزق هوانًا ولا سعةُ الرزق فضيلةً؛ وقد أعطى أقواماً مع علمه بأنهم يستعملونه في الفساد، ولو فعل بهم خلافَ ما فعل لكانوا أقربَ إلى الصلاح. والأمرُ على الجُملة مفوَّضٌ إلى مشيئته، ولا يمكن التزام مذهب الاستصلاح في كل فعل من أفعال الله تعالى. وروى أنسٌ عن النبيّ ﷺ فيما يرويه عن ربِّه تبارك وتعالى قال: «مَنْ أهان لي وليًّا فقد بازرني بالمُحاربة، وإني لأسرعُ شيء إلى نُصْرة أوليائي، وإني لأغضبُ لهم كما يغضب الليث الحَرِد، وما تردَّدت في شيء أنا فاعلُه تردُّدي في قبض روح عبدي المؤمن يكره الموتَ وأنا أكره إساءتَه ولا بدَّ له منه. وما تقرَّب إليَّ عبدي المؤمنُ بمثل أداءِ ما افترضتُ عليه. وما يزال عبدي المؤمن يتقرَّبُ إليَّ بالنوافل حتى أُحِبَّه، فإذا أحببتُه كنتُ له سمعًا وبصرًا ولسانًا ويدًا ومُؤَيِّدًا، فإن سألني أعطيته وإن دعاني أجبتُه. وإنَّ من عبادي المؤمنين من يسألني الباب من العبادة وإني عليمٌ أنْ لو أعطيتُه إيَّاه لَدخله العُجْب فأفسده. وإن من عبادي المؤمنين من لا يُصلحه إلا الغِنى، ولو أفقرتُه لأفسده الفَقْر. وإنَّ من عبادي المؤمنين من لا يُصلحه إلا الفقر، ولو أغنيتُه لأفسده الغِنى. وإني لَأُدَبِّر عبادي لِعلمي بقلوبهم، فإني عليمٌ خبير». ثم قال أنس: اللهم إني من عبادك المؤمنين الذين لا يُصلحهم إلا الغِنى، فلا تُفقرني برحمتك[٢].

---

(١) في (د) و(م) و(ي): التغابن، والمثبت من (ظ)، وهو الموافق للكشاف.

(٢) أخرجه بهذا اللفظ البغوي في تفسيره ٤/ ١٢٧ . دون قول أنس ﷺ وضعَّفه الحافظ ابن حجر في الفتح =

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾﴾

قرأ ابن كثير وابن مُحيْصن وحُميد ومجاهد وأبو عمرو ويعقوب وابن وَثّاب والأعمش وغيرهما والكسائي: «يُنزِل» مُخفَّفًا. الباقون بالتشديد[١]. وقرأ ابن وَثّاب أيضًا والأعمش وغيرهما: «قنِطوا» بكسر النون[٢]؛ وقد تقدَّم جميعُ هذا[٣]. والغيث المطر؛ وسُمِّي الغيثُ غيثاً لأنه يَغيثُ الخلق. وقد غاث الغيثُ الأرضَ، أي: أصابها. وغاث اللهُ البلاد يَغيثها غَيْثًا. وغِيثت الأرضُ تُغاث غَيْثًا، فهي أرضٌ مَغيثة ومَغْيُوثة. وعن الأصمعيّ قال: مررتُ ببعض قبائل العرب وقد مُطِروا، فسألتُ عجوزاً منهم: أتاكم المطر؟ فقالت: غِثنا ما شئنا غَيْثًا؛ أي: مُطِرنا. وقال ذو الرُّمة: قاتل اللهُ أَمَةَ بني فلان ما أفصحَها! قلتُ لها: كيف كان المطرُ عندكم؟ فقالت: غِثْنا ما شئنا. ذكر الأوّل الثعلبي والثاني الجوهري[٤]. وربما سُمِّي السحاب والنبات غَيْثًا.

والقنوط الإِياس؛ قاله قتادة[٥]. ذُكِر أنّ رجلًا قال لعمر بن الخطاب: يا أمير المؤمنين، قَحط المطرُ، وَقَلَّ الغيثُ، وقَنَطَ الناس؟ فقال: مُطِرتُم إنْ شاء الله؛ ثم قرأ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟﴾[٦]. والغيث ما كان نافعاً في وقته، والمطر قد يكون نافعاً وضارًّا في وقته وغير وقته؛ قاله الماورديّ.

﴿وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ﴾ قيل: المطر؛ وهو قول السُّدي. وقيل: ظهور الشمس بعد

= ١١/ ٣٤٣ ، وأخرج بعض ألفاظه البخاري (٦٥٠٢) من حديث أبي هريرة ﷺ، وسلف ٧/ ٤١١ ، وقول أنس ذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٣٦ .

(١) قراءة ابن كثير وأبي عمرو والكسائي ويعقوب - وقرأ بها حمزة - في السبعة ص ١٦٥ ، والتيسير ص٧٥ ، والنشر ٢/ ٢١٨ .

(٢) المحرر الوجيز ٥/ ٣٦ .

(٣) ٢/ ٢٥١ و١٢/ ٢٢٣ .

(٤) في الصحاح (غيث).

(٥) بعدها في (م) و(ي): وغيره، قال قتادة. والمثبت موافق للنكت والعيون (والكلام منه) ٥/ ٢٠٣ .

(٦) وذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٣٦ ، والزمخشري في الكشاف ٣/ ٤٦٩ .

المطر؛ ذكره المَهدَوِي. وقال مقاتل: نزلت في حبس المطر عن أهل مكةَ سبعَ سنين حتى قَنَطوا، ثم أنزل الله المطر(١). وقيل: نزلت في الأعرابي الذي سأل رسولَ الله ﷺ عن المطر يومَ الجمعة في خبر الاستسقاء(٢)؛ ذكره القشيري، والله أعلم. ﴿وَهُوَ ٱلْوَلِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ «الوَلِيُّ» الذي ينصر أولياءه. «الحَمِيدُ» المحمود بكل لسان.

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: علاماته الدَّالة على قُدرته. ﴿وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ﴾ قال مجاهد: يدخل في هذا الملائكةُ والناس(٣)، وقد قال تعالى: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٨]. وقال الفرَّاء: أراد: ما بثَّ في الأرض دون السماء؛ كقوله: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن: ٢٢] وإنما يخرج من الملح دون العَذْب(٤). وقال أبو عليّ: تقديره: وما بثَّ في أحدهما؛ فحذف المضاف. وقوله: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا﴾ أي: من أحدهما. ﴿وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ﴾ أي: يوم القيامة. ﴿إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٣١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ قرأ نافع وابن عامر:

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ١٢٨.

(٢) أخرجه أحمد (٣٦٩٣)، والبخاري (١٠٣٣)، ومسلم (٨٩٧) من حديث أنس ﷺ وأوله: بينا رسول الله ﷺ يخطب على المنبر يوم الجمعة قام أعرابيٌّ فقال: يا رسول الله، هلك المال وجاع العيال، فادع الله لنا أن يسقينا...

(٣) أخرجه الطبري ٢٠/ ٥١٢.

(٤) معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٤، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٤/ ٨٢.

«بِمَا كَسَبَتْ» بغير فاء. الباقون «فَبِمَا» بالفاء[١]، واختاره أبو عُبيد وأبو حاتم للزيادة في الحرف والأجر.

قال المهدَوِيّ: إنْ قدَّرت أن «ما» الموصولة جاز حذفُ الفاء وإثباتُها، والإثباتُ أحسنُ. وإن قدَّرتها التي للشرط لم يَجُزِ الحذفُ عند سيبويه، وأجازه الأخفش واحتجَّ بقوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾[٢] [الأنعام: ١٢١].

والمصيبة هنا الحدود على المعاصي؛ قاله الحسن[٣]. وقال الضحاك: ما تعلَّم رجلٌ القرآنَ ثم نَسِيه إلا بذنب؛ قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَصَـٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ ثم قال: وأيّ مُصيبة أعظمُ من نسيان القرآن؛ ذكره ابن المبارك[٤] عن عبد العزيز بن أبي روَّاد. قال أبو عبيد[٥]: إنما هذا على الترك، فأما الذي هو دائبٌ في تلاوته، حريصٌ على حِفْظه إلا أن النِّسيان يغلِبه فليس من ذلك في شيء. ومما يُحقِّق ذلك أن النبيّ ﷺ كان ينسى الشيء من القرآن حتى يذكره؛ من ذلك حديث عائشة أنَّ[٦] النبي ﷺ سمع قراءةَ رجل في المسجد فقال: «ماله ـ رَحِمه الله ـ لقد أَذْكرني آياتٍ كنت أُنسيتها من سورة كذا وكذا»[٧].

وقيل: «ما» بمعنى الذي، والمعنى: الذي أصابكم فيما مضى بما كسبت أيديكم[٨]. وقال عليّ ﷺ: هذه الآيةُ أرجى آية في كتاب الله عز وجل. وإذا كان يُكفِّر عني بالمصائب، ويعفو عن كثير فيما يبقى بعدَ كفارته وعفوِه؟! وقد رُوي هذا المعنى

---

(١) السبعة ص ٥٨١، والتيسير ص ١٩٥.

(٢) المحرر الوجيز ٥/ ٣٧ بنحوه.

(٣) أخرجه الطبري ٢٠/ ٥١٤.

(٤) في الزهد (٨٥).

(٥) في غريب الحديث ٣/ ١٤٩ - ١٥٠.

(٦) في (د) و(م): عن.

(٧) أخرجه أحمد (٢٤٣٣٥)، والبخاري (٥٠٣٨) ومسلم (٧٨٨). والرجل الذي سمع النبي ﷺ صوته هو عبّاد بن بشر ﷺ. كما في صحيح البخاري (٢٦٥٥) وفتح الباري ٥/ ٢٦٥.

(٨) ذكره النحاس في إعراب القرآن ٤/ ٨٣ واستبعده.

مرفوعًا عنه ﷺ، قال عليّ بن أبي طالب ﷺ: ألَا أُخبركم بأفضلِ آية في كتاب الله حدّثنا بها النبيُّ ﷺ: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾ الآية: «يا عليّ، ما أصابَكم من مرضٍ أو عقوبةٍ أو بلاءٍ في الدنيا فبما كسبت أيديكم. واللهُ أكرمُ من أن يُثنِّيَ عليكم العقوبة في الآخرة، وما عفا عنه في الدنيا فالله أحلمُ من أن يُعاقب به بعد عَفْوه»(١). وقال الحسن: لما نزلت هذه الآيةُ قال النبيّ ﷺ: «ما مِن اختلاج عِرْق ولا خَدْشِ عُود ولا نَكْبةِ حَجَر إلّا بذنب، ولما يعفو اللهُ عنه أكثر»(٢).

وقال الحسن: دخلنا على عمران بن حُصين فقال رجل: لا بدَّ أن أسألك عما أرى بك من الوَجَع؛ فقال عمران: يا أخي لا تفعل، فوالله، إني لأُحِبُّ الوَجَع، ومَنْ أحبَّه كان أحبَّ الناس إلى الله، قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ﴾ فهذا مما كسبت يدي، وعَفْوُ ربي عما بقي أكثرُ. وقال مُرَّة الهَمْداني: رأيتُ على ظهر كفِّ شُريح قرحةً فقلت: يا أبا أُميَّة، ما هذا؟ قال: هذا بما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير(٣).

وقال ابن عَون: إن محمد بن سِيرين لما رَكِبه الدَّين اغتمَّ لذلك فقال: إني لأعرفُ هذا الغمَّ، هذا بذنب أصبته منذ أربعين سنة(٤). وقال أحمد بن أبي الحَوَارِي: قيل لأبي سليمان الدّاراني: ما بال العقلاء أزالوا اللَّوْمَ عمن أساء إليهم؟ فقال: لأنهم علموا أن الله تعالى إنما ابتلاهم بذنوبهم، قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ﴾(٥). وقال عِكرمة: ما من نكبةٍ أصابت عبدًا فما فوقها إلا بذنب لم يكن الله لِيغفره له إلا بها أو لِينال درجةً لم يكن

---

(١) أخرجه بهذا اللفظ أحمد (٦٤٩)، والبغوي في تفسيره ٤/ ١٢٨ . وفي إسناده الأزهر بن راشد الكاهلي، وهو ضعيف، والخضر بن القواس وأبو سُخيلة، وهما مجهولان، فيما قاله الحافظ ابن حجر في التقريب. وقد أخرجه بنحوه ودون ذكر الآية أحمد (٧٧٥). والترمذي (٢٦٢٦) وقال: هذا حديث حسن غريب صحيح.

(٢) أخرجه سعيد بن منصور وابن أبي حاتم كما في الدر المنثور ٦/ ٩ ، وهو هكذا مرسل.

(٣) ذكر هذا الخبر والذي قبله ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٣٧ .

(٤) أخرجه أبو نعيم في الحلية ٢/ ٢٧١ .

(٥) ذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٣٧ ، وابن الجوزي في زاد المسير ٧/ ٢٨٨ .

يُوصله إليها إلا بها[١].

ورُوي أن رجلاً قال لموسى: يا موسى، سَلِ اللهَ لي في حاجة يقضيها لي هو أعلمُ بها؛ ففعل موسى؛ فلما نزل إذا هو بالرجل قد مزَّق السَّبع لحمه وقَتَله؛ فقال موسى: ما بال هذا يا رب؟ فقال اللهُ تبارك وتعالى له: يا موسى، إنه سألني درجةً عَلِمتُ أنه لم يبلُغْها بعمله فأصبتُه بما ترى لأجعلها وسيلةً له في نَيْل تلك الدرجة. فكان أبو سليمان الدَّارَاني إذا ذكر هذا الحديث يقول: سبحان من كان قادراً على أن يُنيلَه تلك الدرجة بلا بلوى! ولكنه يفعل ما يشاء[٢].

قلت: ونظيرُ هذه الآية في المعنى قولُه تعالى: ﴿مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ﴾ [النساء: ١٢٣] وقد مضَى القولُ فيه.

قال علماؤنا: وهذا في حقِّ المؤمنين، فأما الكافر فعقوبته مؤخَّرةٌ إلى الآخرة. وقيل: هذا خطابٌ للكفار، وكان إذا أصابهم شرٌّ قالوا: هذا بشؤم محمد؛ فردَّ عليهم وقال: بل ذلك بشؤم كُفركم. والأوّل أكثرُ وأظهرُ وأشهر.

وقال ثابت البُنانِيّ: إنه كان يقال: ساعات الأذى يُذهبن ساعاتِ الخطايا. ثم فيها قولان: أحدهما: أنها خاصة في البالغين أن تكون عقوبةً لهم، وفي الأطفال أن تكون مَثُوبة لهم. الثاني: أنها عقوبةٌ عامة للبالغين في أنفسهم والأطفال في غيرهم من والد ووالدة.

﴿وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ﴾ أي: عن كثير من المعاصي ألا يكون عليها حدود؛ وهو مقتضى قول الحسن. وقيل: أي: يعفو عن كثير من العُصاة ألّا يعجل عليهم بالعقوبة[٣]. ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: بفائتين الله؛ أي: لن تُعجزوه ولن تفوتوه ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ﴾ تقدَّم في غير موضع[٤].

---

(١) تفسير البغوي ٤/١٢٨.
(٢) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٩٨٥٣) بنحوه دون قول أبي سليمان.
(٣) النكت والعيون ٥/٢٠٤.
(٤) ٢/٣١١.

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ﴾ أي: ومن علاماته الدالَّة على قُدرته السفنُ الجارية في البحر كأنها من عِظَمها أعلامٌ. والأعلام: الجبال، وواحد الجواري جارية، قال الله تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ﴾ [الحاقة: ١١]. سُمِّيت جارية لأنها تجري في الماء. والجارية: هي المرأة الشابَّة؛ سُمِّيت بذلك لأنها يجري فيها ماء الشباب. وقال مجاهد: الأعلام القصور، واحدها علم؛ ذكره الثعلبي[١]. وذكر الماوَرْدي[٢] عنه أنها الجبال. وقال الخليل: كل شيء مرتفع عند العرب فهو علم[٣]. قالت الخنساء ترثي أخاها صخراً:

وإنّ صخراً لتَأتَمُّ الهُداة به ... كأنه علَمٌ في رأسهِ نار[٤]

﴿إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ﴾ كذا قراءة العامة، وقراءة أهل المدينة: «الرِّيَاح» بالجمع[٥]. ﴿فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ﴾ أي: فتبقى السفنُ سواكنَ على ظهر البحر لا تجري. رَكَد الماء ركودًا سكن. وكذلك الريح والسفينة، والشمس إذا قام قائم الظَّهيرة. وكلّ ثابتٍ في مكان فهو راكد. وركد الميزان استوى. ورَكد القوم هَدَؤوا. والمراكد: المواضع التي يَرْكُد فيها الإنسان وغيره[٦].

وقرأ قتادة: «فَيَظْلِلْنَ» بكسر اللام الأولى[٧] على أن يكون لغة، مثلُ ضَلِلت أَضِل[٨]. وفتح اللام هي اللغة المشهورة.

---

(١) وذكره البغوي في تفسيره ٤/١٢٨ .

(٢) في النكت والعيون ٥/ ٢٠٥ .

(٣) تفسير البغوي ٤/١٢٨ .

(٤) ديوان الخنساء ص ٤٩ .

(٥) السبعة ص١٧٣ ، والتيسير ص٧٨ ، والنشر ٢/ ٢٢٣ .

(٦) الصحاح (ركد).

(٧) المحرر الوجيز ٥/ ٣٨ .

(٨) في النسخ: ظللت أظل، والمثبت من الكشاف ٣/ ٤٧١ ، وينظر ما قاله أبو حيان في البحر ٧/ ٥٢٠ .

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ﴾ أي: دلالات وعلامات ﴿لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ أي: صبَّار على البَلْوَى شكور على النعماء. قال قُطْرُب: نِعْمَ العبد الصبَّار الشَّكور، الذي إذا أُعطِي شكر وإذا ابتُلي صبر. قال عَوْن بن عبد الله: فكم من مُنْعَم عليه غير شاكر، وكم من مبتلًى غير صابر[١].

قوله تعالى: ﴿أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٤﴾ وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٣٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا﴾ أي: وإن يشأ يجعل الرياحَ عواصفَ فَيُوبق السفن؛ أي: يُغرقهن بذنوب أهلها. وقيل: يُوبق أهل السفن[٢]. ﴿وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ﴾ من أهلها فلا يُغرقهم معها؛ حكاه الماوردي[٣]. وقيل: «وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ» أي: ويتجاوز عن كثير من الذنوب فَيُنجيهم اللهُ من الهلاك.

قال القُشَيرِيّ: والقراءة الفاشية: «وَيَعْفُ» بالجزم، وفيها إشكال؛ لأن المعنى: إن يشأ يُسكن الريح فتبقى تلك السفن رواكدَ ويُهلكها بذنوب أهلها، فلا يحسن عطف «يَعْفُ» على هذا لأنه يصير المعنى: إنْ يشأ يعفُ، وليس المعنى ذلك بل المعنى الإخبار عن العفو من غير شرط المشيئة، فهو إذًا عطف على المجزوم من حيث اللفظ لا من حيث المعنى. وقد قرأ قوم: «ويعفو» بالرفع، وهي جيدة في المعنى[٤].

﴿وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾ يعني الكفار؛ أي: إذا توسَّطوا البحر وغَشِيتهم الرياح من كل مكان، أو بقيت السفن رواكدَ علموا أنه لا مَلْجأ لهم سوى الله، ولا دافع لهم إنْ أراد اللهُ إهلاكهم، فَيُخلصون له العبادة. وقد مضى هذا

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٢٠٥ .

(٢) زاد المسير ٧/ ٢٨٩ .

(٣) في النكت والعيون ٥/ ٢٠٥ .

(٤) ذكر قول القشيري أبو حيان في البحر ٧/ ٥٢٠ - ٥٢١ ، ثم قال: ما قاله ليس بجيد، إذ لم يَفْهم مدلول التركيب، والمعنى: أنه تعالى إن يشأ أهلك ناساً وأنجى ناساً على طريق العفو عنهم.

المعنى في غير موضع[١]، ومضى القولُ في ركوب البحر في «البقرة» وغيرها بما يُغني عن إعادته.[٢]

وقرأ نافع وابن عامر: «وَيَعْلَمُ» بالرفع، الباقون بالنصب[٣]. فالرفع على الاستئناف بعد الشرط والجزاء؛ كقوله في سورة التوبة: ﴿وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ ثم قال: ﴿وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾ [التوبة: ١٤-١٥] رفعًا. ونظيره في الكلام: إن تأتني آتِكَ وينطلقُ عبد الله. أو على أنه خبرُ ابتداء محذوف. والنصب على الصرف؛ كقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٢] صرف من حال الجزم إلى النصب استخفافاً كراهيةً لتوالي الجزم[٤]؛ كقول النابغة:

فإن يَهْلِك أبو قابوسَ يَهْلِكْ ربيعُ الناس والشهرُ الحرامُ
ونُمْسِكَ[٥] بعده بذِناب عَيْشٍ أَجَبِّ الظَّهْرِ ليس له سَنام[٦]

وهذا معنى قول الفرّاء[٧]، قال: ولو جزم «ويعلم» جاز. وقال الزجاج[٨]: نصب على إضمار «أن» لأن قبلها جزمًا؛ تقول: ما تصنعْ أصنعْ مثلَه وأُكرمَك. وإنْ شئتَ قلت: وأُكرمْك، بالجزم.

وفي بعض المصاحف: «وليعلمَ». وهذا يدلُّ على أن النصب بمعنى: وليعلم، أو لأنْ يعلم.

---

(١) ١٠/ ٤٧٥ و١٦/ ١٩٣ .

(٢) ٢/ ٤٩٥ .

(٣) السبعة ص ٥٨١ ، والتيسير ص ١٩٥ .

(٤) الحجة للفارسي ٦/ ١٣٠ بنحوه.

(٥) في النسخ: ويمسك، والمثبت من المصادر.

(٦) ديوان النابغة ص ١١٠ . وأبو قابوس: هو النعمان بن المنذر، وسلف البيتان ١٠/ ١٢٩ . وينظر ضبط قوله: أجبّ الظهر في خزانة الأدب الشاهد (٧٥٦).

(٧) في معاني القرآن ٣/ ٢٤ - ٢٥ .

(٨) في معاني القرآن ٤/ ٣٩٩ .

وقال أبو عليّ والمبرّد: النصب بإضمار «أن» على أن يجعل الأوّل في تقدير المصدر؛ أي: ويكون منه عَفْوٌ وأن يعلم فلما حَمَله على الاسم أضمرَ أن، كما تقول: إنْ تَأْتِني وتُعطيَني أُكرمك، فتنصب تُعطيني، أي: إن يكن منك إتيانٌ وأنْ تُعطيني[1].

ومعنى ﴿مِن مَّحِيصٍ﴾ أي: من فِرار ومَهْرب؛ قاله قُطْرُب. السدي: مِن مَلْجأ. وهو مأخوذٌ من قولهم: حاص به البعير حيصةً إذا رمى به. ومنه قولهم: فلان يحيص عن الحق، أي: يميلُ عنه[2].

قوله تعالى: ﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ﴾ يريد من الغِنى والسَّعة في الدنيا .﴿فَمَتَـٰعُ﴾ أي: فإنما هو متاعٌ في أيام قليلة تنقضي وتذهب؛ فلا ينبغي أن يتفاخرَ به. والخِطاب للمشركين .﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ يريد من الثواب على الطاعة ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ صدَّقوا ووحَّدوا ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ نزلت في أبي بكر الصدِّيق حين أنفق جميعَ ماله في طاعة الله فلامَه الناسُ[3]. وجاء في الحديث أنه: أنفق ثمانين ألفاً.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَـٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾

فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ﴾ الذين في موضع جرّ معطوفٌ على قوله: ﴿خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾[4] أي: وهو للذين يجتنبون ﴿كَبَـٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ﴾ وقد مضى القولُ

---

(١) الحجة للفارسي ٦/ ١٣٠ بنحوه.

(٢) النكت والعيون ٥/ ٢٠٥ .

(٣) الكشاف ٣/ ٤٧٢ ، وحديث إنفاق أبي بكر ﷺ ماله كلّه وإنفاق عمر ﷺ نصف ماله أخرجه أبو داود (١٦٧٨)، والترمذي (٣٦٧٥) من حديث عمر ﷺ.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٨٦ .

في الكبائر في «النساء»[١].

وقرأ حمزة والكسائي: «كَبيرَ الإِثْمِ»[٢] والواحد قد يُراد به الجمع عند الإضافة؛ كقوله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم: ٣٤]، وكما جاء في الحديث: «مَنَعتِ العراقُ دِرْهمها وَقَفِيزَها»[٣]. الباقون بالجمع هنا وفي «النجم» [الآية: ٣٢].

﴿وَٱلْفَوَٰحِشَ﴾ قال السُّدّي: يعني الزنى[٤]. وقاله ابن عباس، وقال: كبير الإثم الشِّرك[٥].

وقال قوم: كبائرُ الإثم ما تقع على الصغائر مغفورة عند اجتنابها. والفواحش داخلة في الكبائر، ولكنها تكون أفحشَ وأشنعَ، كالقتل بالنسبة إلى الجرح، والزنى بالنسبة إلى المراودة. وقيل: الفواحشُ والكبائرُ بمعنًى واحد، فكرَّر لِتعدُّد اللَّفظ؛ أي: يجتنبون المعاصي لأنها كبائرُ وفواحشُ.

وقال مقاتل: الفواحشُ مُوجِباتُ الحدود[٦].

الثانية: قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ أي: يتجاوزون ويَحلُمون عمن ظَلَمهم. قيل: نزلت في عمر حين شُتِم بمكة. وقيل: في أبي بكر حين لامَه الناس على إنفاق ماله كله وحين شُتم فَحلُم. وعن علي ﷺ قال: اجتمع لأبي بكر مال مرة، فتصدّق به كلّه في سبيل الخير؛ فلامه المسلمون وخطّأه الكافرون فنزلت: ﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ إلى قوله

(١) ٦/ ٢٦١ وما بعدها.

(٢) السبعة ص ٥٨١، والتيسير ص ١٩٥.

(٣) أخرجه أحمد (٧٥٦٥)، ومسلم (٢٨٩٦) من حديث أبي هريرة ﷺ. والقفيز: اثنا عشر صاعاً. حاشية السندي على مسند أحمد.

(٤) أخرجه الطبري ٢٠/ ٥٢٢.

(٥) الكشاف ٣/ ٤٧٢.

(٦) المحرر الوجيز ٥/ ٣٩.

﴿وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ﴾[١]. وقال ابن عباس: شَتَم رجل من المشركين أبا بكر فلم يردَّ عليه شيئًا؛ فنزلت الآية[٢]. وهذا من محاسن الأخلاق، يُشفقون على ظالمهم ويَصْفَحون لمن جَهِل عليهم؛ يطلبون بذلك ثواب الله تعالى وعفوه؛ لقوله تعالى في آل عمران: ﴿وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٣٤]. وهو أن يتناولك الرجلُ فتكظِم غيظَك عنه. وأنشد بعضهم:

إني عفوتُ لظالمي ظلمي ... ووهبتُ ذاك له على عِلْمي
ما زال يَظْلِمُني وأرحمُه ... حتى بَكيتُ له من الظُّلم[٣]

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾﴾

فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ قال عبد الرحمن بن زيد: هم الأنصار بالمدينة؛ استجابوا إلى الإيمان بالرسول حين أنفذ إليهم اثني عشر نقيباً منهم قبل الهجرة. ﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي: أدَّوها لمواقيتها بشروطها وهيئاتها[٤].

الثانية: قوله تعالى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ أي: يتشاورون في الأمور. والشُّورَى مصدر شاورته، مثل البُشرى والذِّكرى ونحوه.

فكانت الأنصارُ قبل قدوم النبيّ ﷺ إليهم إذا أرادوا أمرًا تشاوروا فيه، ثم عملوا عليه؛ فَمدَحَهُم الله تعالى به؛ قاله النقَّاش. وقال الحسن: أي: إنهم لانقيادهم إلى الرأي في أمورهم متَّفقون لا يختلفون؛ فَمُدِحوا باتِّفاق كلمتهم. قال الحسن: ما تشاور قوم قطُّ إلا هُدُوا لأرشدِ أمورهم. وقال الضحاك: هو تشاورُهم حين سمعوا

(١) الكشاف ٣/ ٤٧٢، وسلف الخبر في تفسير الآية السابقة.

(٢) أخرجه أحمد (٩٦٢٤)، وأبو داود (٤٨٩٦) مطولاً دون ذكر الآية.

(٣) ذكرهما ابن عبد البر في بهجة المجالس ١/ ٣٦٦ ونسبهما لمحمود الوراق.

(٤) النكت والعيون ٥/ ٢٠٦.

بظهور رسول الله ﷺ، وورد النُّقباء إليهم حتى اجتمع رأيُهم في دار أبي أيوب على الإيمان به والنُّصرة له. وقيل: تشاورُهم فيما يعرِض لهم؛ فلا يستأثر بعضُهم بخبر[١] دون بعض.

وقال ابن العربي[٢]: الشُّورَى أُلفةٌ للجماعة ومِسْبارٌ للعقول وسببٌ إلى الصواب، وما تشاور قومٌ قطُّ إلا هُدُوا. وقد قال الحكيم:

إذا بلغ الرأيُ المشورة فاستعِنْ ... برأي لبيبٍ أو مشورةِ حازم

ولا تجعل الشُّورى عليك غَضَاضة ... فإنَّ الخَوَافي نافعٌ للقوادم[٣]

فمدح اللهُ المشاورةَ في الأمور بمدح القوم الذين كانوا يتمثَّلون ذلك. وقد كان النبيُّ ﷺ يُشاور أصحابَه في الآراء المتعلقة بمصالح الحروب؛ وذلك في الآثار[٤] كثيرٌ. ولم يكن يُشاورهم في الأحكام؛ لأنها مُنزلةٌ من عند الله على جميع الأقسام من الفرض والندب والمكروه والمباح والحرام. فأما الصحابة بعد استئثار الله تعالى به علينا فكانوا يَتشَاورون في الأحكام ويستنبطونها من الكتاب والسنة. وأوّل ما تشاور فيه الصحابة الخلافةُ؛ فإنَّ النبيَّ ﷺ لم يَنُصَّ عليها حتى كان فيها بين أبي بكر والأنصار ما سبق بيانه[٥].

وقال عمر ﷺ: نرضى لِدُنيانا مَنْ رَضِيَهُ رسولُ الله ﷺ لديننا[٦]. وتشاوروا في أهل الرِّدَّة فاستقرَّ رأيُ أبي بكر على القتال. وتشاوروا في الجَدّ وميراثه، وفي حدّ الخمر

(١) في النكت والعيون ٥/٢٠٦ (والأقوال السالفة كلها منه): بخير.

(٢) في أحكام القرآن ٤/١٦٥٦ . والكلام منه إلى آخر المسألة.

(٣) البيتان لبشار بن برد، وهما في ديوانه ٢/٥٠٣ ، وعجز البيت الأول فيه: برأي نصيح أو نصيحة حازم. وعجز البيت الثاني: مكان الخوافي قوة للقوادم. والخوافي: ريشاتٌ إذا ضمَّ الطائرُ جناحيه خَفِيَتْ، والقوادم: أربع أو عشر ريشات في مُقدَّم الجناح. القاموس المحيط (خفي) و(قدم).

(٤) في النسخ: الآراء، والمثبت من أحكام القرآن لابن العربي.

(٥) ١/٣٩٥ وما بعدها.

(٦) سلف ١/٤٠٦ - ٤٠٧ و٩/١٦٧ من قول علي ﷺ.

وعدده. وتشاوروا بعد رسول الله ﷺ في الحروب؛ حتى شاور عمرُ الهُرْمُزان حين وَفَدَ عليه مسلماً في المغازي، فقال له الهُرْمُزان: مَثَلُها وَمَثَلُ من فيها من الناس من عدوٌ المسلمين مَثَلُ طائرٍ له رأس[1] وله جناحان ورجلان، فإن كُسِرَ أحدُ الجناحين نَهَضَتِ الرِّجلان بجناح والرأس، وإنْ كُسِرَ الجناحُ الآخر نَهَضتِ الرِّجلان والرأس وإن شُدِخ الرأسُ ذهب الرِّجلان والجناحان. والرأسُ كسْرى والجناح الواحد قيصر والآخر فارس؛ فَمُرِ المسلمين فَلْينفِروا إلى كِسْرى. وذكر الحديث[2].

وقال بعض العقلاء: ما أخطأت قطُّ! إذا حَزَبَني أمرٌ شاورتُ قومي ففعلت الذي يَرَوْن؛ فإن أصبتُ فهم المُصيبون، وإن أخطأتُ فهم المُخطئون[3].

الثالثة: قد مضى في «آل عمران» ما تضمَّنته الشُّورى من الأحكام عند قوله تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾ [الآية: ١٥٩]. والمَشُورة بركة. والمَشْوَرة: الشُّورَى، وكذلك المَشُورة بضم الشين؛ تقول منه: شاوَرْته في الأمر واستشرته بمعنًى[4].

وروى الترمذي[5] عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا كان أمراؤكم خيارَكم وأغنياؤكم سُمَحاءَكم وأَمْرُكم شُورَى بينكم فظَهْرُ الأرض خيرٌ لكم من بطنها، وإذا كان أمراؤكم شِرارَكم وأغنياؤكم بُخَلاءَكم وأمورُكم إلى نسائكم فبطنُ الأرض خيرٌ لكم من ظَهْرها». قال حديث غريب[6]. ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ أي: ومما أعطيناهم يتصدَّقون. وقد تقدّم في «البقرة»[7].

(١) في النسخ: ريش، وهو تصحيف، والمثبت من المصادر.

(٢) أخرجه البخاري (٣١٥٩).

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٤/١٦٥٦ - ١٦٥٧ .

(٤) الصحاح (شور).

(٥) في سننه (٢٢٦٦).

(٦) وقال أيضاً: لا نعرفه إلا من حديث صالح المُرِّي، وصالح المُرِّيُّ في حديثه غرائب ينفرد بها لا يتابع عليها، وهو رجل صالح.

(٧) ١/٢٧٣ وما بعدها .

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ الْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ۝٣٩ وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى اللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ الظَّٰلِمِينَ ۝٤٠ وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ۝٤١ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٤٢ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ۝٤٣﴾

فيه إحدى عشرة مسألة:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ الْبَغْىُ﴾ أي: أصابهم بَغيُ المشركين. قال ابن عباس: وذلك أن المشركين بَغَوْا على رسول الله ﷺ وعلى أصحابه وآذَوْهم وأخرجوهم من مكة، فأَذِنَ اللهُ لهم بالخروج، ومَكَّنَ لهم في الأرض، ونَصرهم على من بَغَى عليهم[(١)]؛ وذلك قوله في سورة الحج: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ . الَّذِينَ أُخْرِجُوا۟﴾ الآيات [٣٩-٤١] كلها. وقيل: هو عامٌّ في بَغْي كل باغ من كافر وغيره[(٢)]، أي: إذا نالهم ظُلم لم يستسلموا لِظُلمه. وهذه إشارةٌ إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإقامة الحدود.

قال ابن العربي[(٣)]: ذَكَر اللهُ الانتصار في البغي في مَعْرِض المَدْح، وذكر العفو عن الجُرم في موضع آخرَ في مَعْرِض المدح؛ فاحتمل أن يكون أحدُهما رافعاً للآخر، واحتمل أن يكون ذلك راجعًا إلى حالتين:

إحداهما: أن يكون الباغي مُعلناً بالفجور، وَقِحًا في الجمهور، مُؤذِيًا للصغير والكبير؛ فيكون الانتقام منه أفضلَ. وفي مثله قال إبراهيم النَّخَعِيّ: كانوا يكرهون أن يُذِلُّوا أنفسهم فتجترئ عليهم الفُسَّاق.

الثانية: أن تكون الفَلْتة، أو يقع ذلك ممن يعترف بالزَّلّة ويسأل المغفرة؛ فالعفو

(١) ذكره ابن الجوزي في زاد المسير ٧/ ٢٩١ بنحوه عن عطاء.

(٢) زاد المسير ٤/ ٢٩٢.

(٣) في أحكام القرآن ٤/ ١٦٥٧.

هاهنا أفضلُ، وفي مثله نزلت: ﴿وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [البقرة: ٢٣٧]. وقوله: ﴿فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ﴾ [المائدة: ٤٨]. وقوله: ﴿وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ [النور: ٢٢].

قلت: هذا حسن، وهكذا ذكر الكِيا الطبري في «أحكامه»[1] قال: قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ﴾ يدل ظاهرُه على أن الانتصار في هذا الموضع أفضل؛ ألا ترى أنه قرنه إلى ذكر الاستجابة لله سبحانه وتعالى وإقام الصلاة؛ وهو محمولٌ على ما ذكر إبراهيم النَّخَعِيّ أنهم كانوا يكرهون للمؤمنين أن يُذِلُّوا أنفسهم فتجترئ عليهم الفُسَّاق؛ فهذا فيمن تعدّى وأصرَّ على ذلك. والموضع المأمور فيه بالعفو إذا كان الجاني نادماً مُقْلِعاً. وقد قال عَقِيب هذه الآية: ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ﴾. ويقتضي ذلك إباحةَ الانتصار لا الأمر به؛ وقد عقَّبه بقوله: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾. وهو محمولٌ على الغفران عن غير المُصِرّ، فأما المُصِرّ على البغي والظلم فالأفضل الانتصار منه بدلالة الآية التي قبلَها.

وقيل: أي: إذا أصابهم البغي تناصروا عليه حتى يُزيلوه عنهم ويدفعوه؛ قاله ابن بحر[2]. وهو راجعٌ إلى العموم على ما ذكرنا.

الثانية: قوله تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ قال العلماء: جعل الله المؤمنين صِنفين: صنف يعفُون عن الظالم فبدأ بذكرهم في قوله: ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ﴾. وصنف ينتصرون من ظالمهم[3]. ثم بين حدّ الانتصار بقوله: ﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ فينتصر ممن ظَلَمه من غير أن يعتدي. قال مقاتل وهشام بن حُجَير: هذا في المجروح ينتقم من الجارح بالقصاص دون غيره من سبٍّ أو شَتْم. وقاله الشافعي وأبو حنيفة وسفيان[4]. قال سفيان: وكان ابن شُبْرُمَة يقول: ليس بمكة مثل هشام[5].

---

(١) ٤/ ٣٦٦ - ٣٦٧.

(٢) النكت والعيون ٥/ ٢٠٦.

(٣) زاد المسير ٧/ ٢٩١ بنحوه.

(٤) النكت والعيون ٥/ ٢٠٧.

(٥) ذكره الحافظ ابن حجر في تهذيب التهذيب ٤/ ٢٦٧.

وتأوّل الشافعي في هذه الآية أنَّ للإنسان أن يأخُذَ من مال مَن خانَه مثلَ ما خانه من غير عِلْمه؛ واستشهد في ذلك بقول النبي ﷺ لهند زوجِ أبي سفيان: «خُذي من مالهِ ما يَكفيكِ وولدَكِ»[1] فأجاز لها أخذَ ذلك بغير إذْنه. وقد مضى الكلام في هذا مستوفى في «البقرة»[2].

وقال ابن أبي نَجيح: إنه محمولٌ على المُقابلة في الجراح. وإذا قال: أخزاه اللهُ، أو لعنه الله أن يقول مثلَه. ولا يُقابل القذفَ بقذف، ولا الكذب بكذب[3].

وقال السُّدِّي: إنما مدح اللهُ من انتصر ممن بغى عليه من غير اعتداء بالزيادة على مقدار ما فعل به؛ يعني كما كانت العرب تفعله[4].

وسُمِّي الجزاء سيئةً لأنه في مُقابلتها؛ فالأوّل ساء هذا في مال أو بدن، وهذا الاقتصاص يسوءه بمثل ذلك أيضاً؛ وقد مضى هذا كلُّه في «البقرة» مستوفى[5].

الثالثة: قوله تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ﴾ قال ابن عباس: من ترك القصاص وأصلح بينه وبين الظالم بالعفو ﴿فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ أي: إن اللهَ يأجُره على ذلك. قال مقاتل: فكان العفو من الأعمال الصالحة. وقد مضى في «آل عمران» في هذا ما فيه كفاية[6]، والحمد لله.

وذكر أبو نعيم الحافظ[7] عن علي بن الحسين ﷺ قال: إذا كان يوم القيامة نادى مُنادٍ: أيكم أهل الفضل، فيقوم ناسٌ من الناس، فيقال: انطلقوا إلى الجنة، فتتلقَّاهم

(١) أخرجه البخاري (٥٣٦٤)، ومسلم (١٧١٤) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) ٣/ ٢٤٩، وسلف ثمة حديث هند زوجة أبي سفيان رضي الله عنهما.

(٣) النكت والعيون ٥/ ٢٠٧.

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٦٥٧.

(٥) ٣/ ٢٤٨ - ٢٤٩.

(٦) ٥/ ٣١٩ وما بعدها.

(٧) في حلية الأولياء ٣/ ١٣٩.

الملائكةُ، فيقولون: إلى أين؟ فيقولون: إلى الجنة، قالوا: قبل الحساب؟! قالوا: نعم، قالوا: من أنتم؟ قالوا: أهلُ الفَضْل؛ قالوا: وما كان فَضْلكم؟ قالوا: كنا إذا جُهل علينا حَلُمنا وإذا ظُلِمنا صَبَرْنَا وإذا سِيء إلينا عَفَوْنا؛ قالوا: ادخلوا الجنة، فنعم أجرُ العاملين. وذكر الحديث.

﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: مَن بدأ بالظلم؛ قاله سعيد بن جبير. وقيل: لا يحب مَن يتعدَّى في الاقتصاص ويُجاوز الحد؛ قاله ابن عيسى[(١)].

الرابعة: قوله تعالى: ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ﴾ أي: المسلم إذا انتصر من الكافر فلا سبيلَ إلى لَوْمه، بل يُحمَدُ على ذلك مع الكافر. ولا لومَ إن انتصر الظالم من المسلم؛ فالانتصار من الكافر حتم، ومن المسلم مباح، والعفو مندوب.

الخامسة: في قوله تعالى: ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ﴾ دليلٌ على أن له أن يستوفيَ ذلك بنفسه. وهذا ينقسم ثلاثة أقسام:

أحدها: أن يكون قصاصاً في بدن يستحقُّه آدميٌّ، فلا حرجَ عليه إن استوفاه من غير عُدوان وثبت حقُّه عند الحُكَّام، لكن يزجره الإمام في تفرُّده[(٢)] بالقصاص لما فيه من الجُرأة على سفك الدم. وإن كان حقُّه غيرَ ثابت عند الحاكم فليس عليه فيما بينه وبين الله حرج، وهو في الظاهر مُطالَبٌ وبفعله مُؤاخَذٌ ومُعاقَب.

القسم الثاني: أن يكون حدًّا لله تعالى لا حقَّ لآدمي فيه، كحدّ الزنى وقطع السرقة؛ فإن لم يَثْبُتْ ذلك عند حاكم أُخِذَ به وعُوقب عليه، وإن ثبت عند حاكم نُظر، فإن كان قطعاً في سرقة سقط به الحدّ لزوال العضو المستحق قطعه، ولم يجب عليه في ذلك حقٌّ إلا التعزير أدباً[(٣)]، وإن كان جَلْداً لم يسقط به الحَدُّ لِتعدّيه مع بقاء محلِّه، فكان مأخوذاً بحكمه.

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٢٠٧ - ٢٠٨ .

(٢) في (د): تقويه، وفي (ف) و(م): تفوته، والمثبت من (ظ)، وهو الموافق للنكت والعيون ٥/ ٢٠٨ والكلام منه إلى آخر المسألة.

(٣) في النسخ: لأن التعزير أدب، والمثبت من النكت والعيون.

القسم الثالث: أن يكون حقًّا في مال؛ فيجوز لصاحبه أن يُغالب على حقِّه حتى يصل إليه إن كان هو ممن هو عالمٌ به[١]، وإن كان غيرَ عالم نُظر، فإنْ أمكنه الوصول إليه عند المطالبة لم يكن له الاستسرارُ بأخذه. وإن كان لا يصل إليه بالمُطالبة لِجُحود من هو عليه من عدم بيّنةٍ تشهد له ففي جواز استسراره بأخذه مذهبان: أحدهما: جوازه؛ وهو قول مالك والشافعي. الثاني: المنع؛ وهو قول أبي حنيفة.

السادسة: قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظۡلِمُونَ ٱلنَّاسَ﴾ أي: بعدوانهم عليهم؛ في قول أكثر العلماء. وقال ابن جُريح: أي: يظلمونهم بالشِّرك المُخالف لدينهم. ﴿وَيَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۚ﴾ أي: في النفوس والأموال؛ في قول الأكثرين. وقال مقاتل: بَغْيُهم عَمَلُهم بالمعاصي. وقال أبو مالك: هو ما يرجوه كفارُ قريش أن يكون بمكة غير الإسلام ديناً[٢]. وعلى هذا الحدّ قال ابن زيد: إنَّ هذا كلَّه منسوخٌ بالجهاد، وإنَّ هذا للمشركين خاصة. وقول قتادة: إنه عامٌّ؛ وكذا يدل ظاهر الكلام[٣]. وقد بيَّنَّاه والحمد لله.

السابعة: قال ابن العربي[٤]: هذه الآيةُ في مقابلة الآية المتقدّمة في «براءة» وهي قوله: ﴿مَا عَلَى ٱلۡمُحۡسِنِينَ مِن سَبِيلٍۚ﴾ [الآية:٩٢]؛ فكما نفى اللهُ السبيل عمن أحسن فكذلك أثبتها[٥] على من ظلم؛ واستوفى بيان القسمين.

الثامنة: واختلف علماؤنا في السلطان يضع على أهل بلد مالًا معلوماً يأخذهم به ويؤدّونه على قدر أموالهم؛ هل لمن قدر على الخلاص من ذلك أن يفعل، وهو إذا تخلص أخذ سائر أهل البلد بتمام ما جعل عليهم. فقيل: لا؛ وهو قول سُحنون من علمائنا. وقيل: نعم، له ذلك إنْ قدر على الخلاص؛ وإليه ذهب أبو جعفر أحمد بن

---

(١) في النكت والعيون: إن كان من هو عليه عالماً به، وكلاهما بمعنى.

(٢) النكت والعيون ٥/٢٠٨ - ٢٠٩ .

(٣) الناسخ والمنسوخ للنحاس ٢/ ٦٢٣ .

(٤) في أحكام القرآن ٤/١٦٥٨ .

(٥) في النسخ: نفاها، والمثبت من أحكام القرآن.

نصر الداودي ثم المالكي. قال: ويدلُّ عليه قول مالك في الساعي يأخذ من غنم أحد الخُلطاء شاةً وليس في جميعها نصاب: إنها مظلمة على من أُخذت له لا يرجِع على أصحابه بشيء. قال: ولست آخذ بما روِي عن سحنون؛ لأن الظُّلم لا أُسوةَ فيه، ولا يلزم أحدٌ أن يُولج نفسَه في ظُلم مخافةَ أن يُضاعَفَ الظُّلمُ على غيره، والله سبحانه يقول: ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ﴾ .

التاسعة: واختلف العلماء في التحليل؛ فكان ابن المُسَيَّب لا يُحلل أحدًا من عِرض ولا مال. وكان سليمان بن يَسار ومحمد بن سِيرين يُحلِّلان من العِرض والمال. ورأى مالك التحليل من المال دون العرض. روى ابن القاسم وابن وهب عن مالك وسئل عن قول سعيد بن المسيب: لا أُحلِّل أحدًا، فقال: ذلك يختلف؛ فقلت له: يا أبا عبد الله، الرجلُ يُسلف الرجلَ فَيَهْلِكُ ولا وفاء له؟ قال: أرى أن يُحلله وهو أفضل عندي؛ فإن الله تعالى يقول: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ﴾ [الزمر: ١٨]. فقيل له: الرجل يظلم الرجل؟ فقال: لا أرى ذلك، هو عندي مُخالفٌ للأوّل؛ يقول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ﴾ ويقول تعالى: ﴿مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍۚ﴾ [التوبة: ٩٢] فلا أرى أن يجعله من ظُلمه في حِلّ .

قال ابن العربي(١): فصار في المسألة ثلاثة أقوال: أحدها: لا يُحلِّله بحالٍ؛ قاله سعيد ابن المسيّب. الثاني: يُحلّله؛ قاله محمد بن سيرين. الثالث: إن كان مالاً حلَّله وإن كان ظُلماً لم يُحلِّله؛ وهو قول مالك .

وجه الأوّل ألّا يُحلِّل ما حرّم الله؛ فيكون كالتبديل لحكم الله. ووجه الثاني أنه حقُّه فله أن يُسقطَه كما يُسقط دمَه وعِرْضه. ووجه الثالث الذي اختاره مالك هو أن الرجل إذا غلب على أداء حقك فمن الرفق به أن تُحلِّله(٢)، وإن كان ظالماً فمن الحق ألا تتركَه لئلا تغترَّ الظَّلَمةُ ويسترسلوا(٣) في أفعالهم القبيحة .

---

(١) في أحكام القرآن ٤/١٦٥٨ ، وما قبله منه.

(٢) في (د): يحلله، وفي (م): يتحلله، والمثبت من (ظ).

(٣) في النسخ الخطية: يستشرون، والمثبت من أحكام القرآن.

وفي «صحيح» مسلم حديثُ أبي اليَسَر الطويل وفيه أنه قال لِغريمه: أُخرج إليّ، فقد علمتُ أين أنت؛ فخرج؛ فقال: ما حملك على أن اختبأتَ مني؟ قال: أنا والله أُحَدِّثُكَ ثم لا أكذِبُك، خَشيتُ ـ والله ـ أن أُحدِّثَك فأكذِبَك، وأن أَعِدَك فأُخْلِفك، وكنتَ صاحبَ رسول الله ﷺ، وكنتُ والله مُعْسِرًا. قال: قلت: آللهِ؟ قال اللهِ[١]؛ قال: فأتى بصحيفة فمحاها فقال: إن وجدتَ قضاءً فاقضِ، وإلا فأنت في حِلّ. وذكر الحديث[٢].

قال ابن العربي[٣]: وهذا في الحي الذي يُرجى له الأداء لسلامة الذِّمَّة ورجاء التَّحَلُّل[٤]، فكيف بالميت الذي لا مُحاللة له ولا ذِمّة معه.

العاشرة: قال بعض العلماء: إن مَن ظُلم وأُخِذ له مالٌ فإنما له ثوابُ ما احتُبِس عنه إلى موته، ثم يرجع الثواب إلى ورثته، ثم كذلك إلى آخرهم؛ لأن المال يصير بعده للوارث. قال أبو جعفر الداودي المالكي: هذا صحيحٌ في النظر؛ وعلى هذا القول إن مات الظالمُ قبل مَن ظَلَمه ولم يترك شيئاً، أو ترك ما لم يعلم وارثُه فيه بظلم لم تنتقل تِباعةُ المظلوم إلى ورثة الظالم؛ لأنه لم يبقَ للظالم ما يستوجبه ورثة المظلوم.

الحادية عشرة: قوله تعالى: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ﴾ أي: صبر على الأذى و«غفر» أي: ترك الانتصار لوجه الله تعالى؛ وهذا فيمن ظَلَمه مسلم. ويُحكى أن رجلاً سبَّ رجلاً في مجلس الحسن رحمه الله فكان المسبوب يكظِم ويعرق فيمسح العرق، ثم قام فتلا هذه الآية؛ فقال الحسن: عَقَلها والله، وفهمها إذ ضيَّعها الجاهلون[٥].

---

(١) قال الإمام النووي في شرح مسلم ١٨/ ١٣٥ : الأول بهمزة ممدودة على الاستفهام، والثاني بلا مدّ، والهاء فيهما مكسورة، هذا هو المشهور. قال القاضي: رويناه بكسرها وفتحها معاً، قال: وأكثر أهل العربية لا يُجيزون غير كسرها.

(٢) صحيح مسلم (٣٠٠٦).

(٣) في أحكام القرآن ٤/ ١٦٥٩ .

(٤) في النسخ: التمحل، وجاء في هامش (ي): يقال: تمحل، أي: احتال، فهو مُتَمحِّل. قاله الجوهري [الصحاح (محل)]. والمثبت من أحكام القرآن.

(٥) الكشاف ٣/ ٤٧٣ ، وما بعده منه.

وبالجملة العفو مندوب إليه، ثم قد ينعكس الأمر في بعض الأحوال فيرجع ترك العفو مندوباً إليه كما تقدّم؛ وذلك إذا احتيج إلى كفّ زيادة البغي وقطع مادّة الأذى، وعن النبي ﷺ ما يدل عليه، وهو أن زينب أسمعت عائشةَ رضي الله عنهما بحضرته فكان ينهاها فلا تنتهي، فقال لعائشة: «دونَكِ فانتصري» خرجه مسلم في «صحيحه» بمعناه(١).

وقيل: «صَبَر» عن المعاصي وستر على المساوئ. ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ أي من عزائم الله التي أمر بها. وقيل من عزائم الصواب التي وفق لها. وذكر الكلبي والفراء(٢) أن هذه الآية نزلت في أبي بكر الصديق ﷺ مع ثلاث آيات قبلها، وقد شَتَمه بعضُ الأنصار فردّ عليه ثم أمسك. وهي المَدَنِيَّات من هذه السورة.

وقيل: هذه الآيات في المشركين، وكان هذا في ابتداء الإسلام قبل الأمر بالقتال ثم نسختها آيةُ القتال؛ وهو قول ابن زيد، وقد تقدم(٣).

وفي تفسير ابن عباس: «وَلَمَنْ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ» يريد حمزة بن عبد المطلب وعُبيدة(٤) وعليًّا وجميع المهاجرين رضوان الله عليهم. ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ﴾ يريد حمزة بن عبد المطلب وعُبيدة وعليًّا رضوان الله عليهم أجمعين. ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ﴾ يريد عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة والوليد بن عتبة وأبا جهل والأسود، وكل من قاتل من المشركين يوم بدر. ﴿وَيَبْغُونَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ يريد بالظلم والكفر. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ يريد وجيع. ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ﴾ يريد أبا بكر وعمر وأبا عبيدة بن

---

(١) صحيح مسلم (٢٤٤٢)، وأخرجه أحمد (٢٤٥٧٥)، والبخاري (٢٥٨١) بنحوه أيضاً، وأخرجه بلفظ المصنف أحمد (٢٤٦٢٠).

(٢) في معاني القرآن ٣/ ٢٥ ، ونقله المصنف عنه بواسطة الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٢٠٩ وما قبله وما بعده منه.

(٣) تقدم آخر المسألة السادسة.

(٤) هو عُبيدة بن الحارث بن المطلب، القرشي، أسلم قديماً، وشهد بدراً، وبارز فيها مع حمزة وعلي رضوان الله عليهم عُتبةَ وشيبة ابني ربيعة والوليدَ بن عتبة، وأصل قصتهم في صحيح البخاري (٣٩٦٥)، وينظر الإصابة ٦/ ٣٦٩ .

الجراح ومُصعب بن عُمير وجميع أهل بدر رضوان الله عليهم أجمعين .﴿إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ حيث قَبِلوا الفِداء وصبروا على الأذى.

قوله تعالى: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ﴾ أي: يَخْذُله ﴿فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ﴾ هذا فيمن أعرض عن النبيّ ﷺ فيما دعاه إليه من الإيمان بالله والمودّة في القُربى، ولم يُصدِّقه في البعث وأن متاعَ الدنيا قليل. أي: من أضلَّه اللهُ عن هذه الأشياء فلَا يهديه هادٍ.

قوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي الكافرين .﴿لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ يعني جهنم. وقيل: رَأَوُا العذابَ عند الموت .﴿يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ﴾ يطلبون أن يُرَدُّوا إلى الدنيا لِيعملوا بطاعة الله، فلا يُجابون إلى ذلك[1].

قوله تعالى: ﴿وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ ۗ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴿٤٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا﴾ أي: على النار لأنها عذابهم؛ فكنى عن العذاب المذكور بحرف التأنيث؛ لأن ذلك العذابَ هو النار، وإن شئت جهنم، ولو راعى اللفظ لقال: عليه.

ثم قيل: هم المشركون جميعاً يُعرَضون على جهنم عند انطلاقهم إليها؛ قاله الأكثرون. وقيل: آل فرعون خصوصًا، تُحبس أرواحُهم في أجواف طير سود تغدو على جهنم وتروح؛ فهو عَرْضُهم عليها؛ قاله ابن مسعود. وقيل: إنهم عامة المشركين، تعرض عليه ذنوبهم في قبورهم، ويُعرضون على العذاب في قبورهم؛

(١) تفسير الطبري ٢٠/٥٢٩ بنحوه.

وهذا معنى قول أبي الحجاج[١].

﴿خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ﴾ ذهب بعض القُرَّاء إلى الوقف على «خَاشِعينَ». وقوله: «مِنَ الذُّلِّ» ومُتعلِّقٌ بـ «يَنْظُرُونَ». وقيل: متعلق بـ «خَاشِعِينَ»[٢]. والخشوع الانكسار والتواضع.

ومعنى ﴿يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ أي: لا يرفعون أبصارهم للنظر رفعًا تامًّا؛ لأنهم ناكسو الرؤوس. والعرب تصف الذليل بغَضِّ الطرف، كما يستعملون في ضدّه حديد النظر إذا لم يُتَّهم بريبة فيكون عليه منها غَضاضة. وقال مجاهد: «مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ» أي: ذليل، قال: وإنما ينظرون بقلوبهم لأنهم يُحشرون عُمياً[٣]، وعين القلب طرفٌ خفِيٌّ[٤]. وقال قتادة والسدّي والقُرَظِيّ وسعيد بن جبير: يسارقون النظر من شدّة الخوف[٥]. وقيل: المعنى ينظرون من عين ضعيفة النظر. وقال يونس: «مِن» بمعنى الباء؛ أي: ينظرون بطرف خفي، أي: ضعيف من الذُّل والخوف، ونحوه عن الأخفش[٦]. وقال ابن عباس: بطرف ذابل ذليل[٧]. وقيل: أي: يفزعون أن ينظروا إليها بجميع أبصارهم لِمَا يرون من أصناف العذاب.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أي: يقول المؤمنون في الجنة لما عاينوا ما حلَّ بالكفار: إن الخُسران في الحقيقة ما صار إليه هؤلاء، فإنهم خسروا أنفسهم لأنهم في العذاب المُخلّد، وخسروا أهليهم لأن

(١) النكت والعيون ٥/ ٢٠٩ .

(٢) المحرر الوجيز ٥/ ٤١ ، والكشاف ٣/ ٤٧٤ .

(٣) معاني القرآن للنحاس ٦/ ٣٢٣ .

(٤) قال ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٤١ : في هذا التأويل تكلُّف، وقال الزمخشري في الكشاف ٣/ ٤٧٤ : فيه تعسُّف.

(٥) أخرجه الطبري ٢٠/ ٥٣٣ عن قتادة والسدي.

(٦) ذكر الأخفش في معاني القرآن ٢/ ٦٨٧ قول يونس.

(٧) أخرجه الطبري ٢٠/ ٥٣٢ .

الأهل إن كانوا في النار فلا انتفاع بهم، وإن كانوا في الجنة فقد حيل بينه وبينهم. وقيل: خسران الأهل أنهم لو آمنوا لكان لهم أهلٌ في الجنة من الحور العِين(١).

وفي «سنن» ابن ماجه: عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما منكم من أحدٍ إلا له مَنْزلان: منزلٌ في الجنة ومنزلٌ في النار، فإذا ماتَ فدخلَ النارَ وَرِثَ أهلُ الجنة منزلَه فذلك قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ﴾». وقد تقدم(٢).

وفي «مسند» الدّارِمِيّ: عن أبي أُمامة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما مِنْ أحدٍ يُدخله الله الجنةَ إلا زوَّجه اثنين وسبعين زوجةً من الحور العين وسبعين من ميراثه من أهل النار، وما منهنَّ واحدةٌ إلا ولها قُبُلٌ شهِيّ وله ذَكَر لا يَنْثني». قال هشام بن خالد: «مِن ميراثه من أهل النار» يعني رجالاً أُدخلوا النار فورث أهلُ الجنة نساءهم كما ورثت امرأة فرعون(٣).

﴿أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ﴾ أي: دائم لا ينقطع. ثم يجوز أن يكون هذا من قول المؤمنين، ويجوز أن يكون ابتداء من الله تعالى(٤).

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ ﴿٤٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ﴾ أي: أعواناً ونُصراء ﴿يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: من عذابه ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ﴾ أي: طريق يَصِلُ به إلى الحقّ

(١) المحرر الوجيز ٥/ ٤١ بنحوه.

(٢) سنن ابن ماجه (٤٣٤١)، وصحَّح إسناده الحافظ ابن حجر في الفتح ١١/ ٤٤٢ ، وسلف ١٥/ ١٦ .

(٣) لم نقف عليه في مسند الدارمي، وأخرجه ابن ماجه (٤٣٣٧)، وفي إسناده خالد بن يزيد بن أبي مالك. وهَّاه ابن معين، وقال أحمد: ليس بشيء. ميزان الاعتدال ١/ ٦٤٥ . وهشام بن خالد هو شيخ ابن ماجه الذي روى عنه هذا الحديث.

(٤) المحرر الوجيز ٥/ ٤٢ .

في الدنيا والجنة في الآخرة؛ لأنه قد سدَّت عليه طريق النجاة.

قوله تعالى: ﴿ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۚ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ﴿٤٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم﴾ أي: أجيبوه إلى ما دعاكم إليه من الإيمان به والطاعة. استجاب وأجاب بمعنًى؛ وقد تقدّم. ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾ يريد يومَ القيامة؛ أي: لا يردُّه أحدٌ بعد ما حكم اللهُ به وجعله أجلاً ووقتاً. ﴿مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ﴾ أي: من ملجأ يُنجيكم من العذاب.

﴿وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ﴾ أي: من ناصر ينصركم؛ قاله مجاهد. وقيل: النكير بمعنى المُنكر؛ كالأليم بمعنى المُؤلِم؛ أي: لا تجدون يومئذ مُنكِراً لما ينزل بكم من العذاب؛ حكاه ابن أبي حاتم؛ وقاله الكلبي[(١)]. الزجاج[(٢)]: معناه: أنهم لا يقدرون أن يُنكروا الذنوبَ التي يُوقَفون عليها. وقيل: «مِنْ نَكِيرٍ» أي: إنكار ما ينزل بكم من العذاب، والنكير والإنكار تغييرُ المنكر.

قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ ﴿٤٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟﴾ أي: عن الإيمان ﴿فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ أي: حافظاً لأعمالهم حتى تُحاسبَهم عليها. وقيل: مُوَكَّلاً بهم لا تُفارقهم دون أن يؤمنوا؛ أي: ليس لك إكراهُهم على الإيمان. ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ وقيل: نسخ هذا بآية القتال[(٣)]. ﴿وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾ الكافر ﴿مِنَّا رَحْمَةً﴾ رخاءً وصحة. ﴿فَرِحَ بِهَا﴾

(١) النكت والعيون ٥/ ٢١٠.

(٢) في معاني القرآن ٤/ ٤٠٢.

(٣) زاد المسير ٧/ ٢٩٥.

بَطِرَ بها. ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ﴾ بلاءٌ وشدَّةٌ. ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ﴾ أي: لما تقدَّم من النعمة، فيعدِّد المصائب وينسى النعم.

قوله تعالى: ﴿لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ﴾ **فيه أربع مسائل:**

الأولى: قوله تعالى: ﴿لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ﴾ ابتداء وخبر. ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ﴾ من الخلق. ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ﴾ قال عَبيدة[(١)] وأبو مالك ومجاهد والحسن والضحاك: يهب لمن يشاء إناثاً لا ذكور معهنّ، ويهب لمن يشاء ذكورًا لا إناثَ معهم؛ وأدخل الألف واللام على الذكور دون الإناث لأنهم أشرف، فميَّزهم بسمة التعريف[(٢)]. وقال واثلة بن الأسقع: إنَّ مِن يُمْن المرأة تبكيرَها بالأنثى قبل الذكر، وذلك أن الله تعالى قال: ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ﴾ فبدأ بالإناث[(٣)].

﴿أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ﴾ قال مجاهد: هو أن تَلِدَ المرأة غلاماً ثم تلد جاريةً، ثم تلد غلاماً ثم تلد جارية[(٤)]. وقال محمد بن الحنفية: هو أن تَلِدَ تَوْءَمًا، غلاماً وجارية، أو يزوّجهم ذكراناً وإناثاً[(٥)]. قال القُتبيّ[(٦)]: التزويج هاهنا هو الجمع بين

(١) في النسخ: أبو عبيدة: والمثبت من المصادر، وهو عَبيدة السلماني.

(٢) النكت والعيون ٥/ ٢١١، وينظر معاني القرآن للنحاس ٦/ ٣٢٧، وأخرج أقوال عَبيدة السلماني والحسن والضحاك الطبري ٢٠/ ٥٣٧ - ٥٣٩.

(٣) ذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٤٣.

(٤) أخرجه الطبري ٢٠/ ٥٣٨.

(٥) النكت والعيون ٥/ ٢١١.

(٦) في غريب القرآن ص ٣٩٤.

البنين والبنات؛ تقول العرب: زوَّجتُ إبلي، إذا جمعت بين الكبار والصغار.

﴿وَيَجۡعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًاۚ﴾ أي: لا يُولَد له؛ يقال: رجل عقيم، وامرأة عقيم. وعَقِمَت المرأة تَعْقَم عقْمًا؛ مثل حَمِد يَحْمَدُ. وعَقُمت تَعْقُم، مثل عَظُم يَعْظُم. وأصله القطع، ومنه المُلْك العقيم، أي: تقطع فيه الأرحام بالقتل والعقوق خوفاً على الملك. وريح عقيم؛ أي: لا تلقح سحاباً ولا شجراً. ويوم القيامة يوم عقيم؛ لأنه لا يوم بعده. ويقال: نساء عُقُم وعُقْم؛ قال الشاعر:

عُقِم النساء فما يَلِدْنَ شبيهه ... إنَّ النساءَ بمثله عُقْمُ[1]

وحكى النقاش أن هذه الآية نزلت في الأنبياء خصوصًا وإن عمَّ حُكمها؛ وَهَبَ لِلُوطٍ الإناث ليس معهنّ ذكَر، ووهب لإبراهيم الذكور ليس معهم أنثى، ووهب لإسماعيل وإسحاق الذكور والإناث، وجعل عيسى ويحيى عقيمين[2]؛ ونحوه عن ابن عباس وإسحاق بن بشر. قال إسحاق: نزلت في الأنبياء، ثم عمَّت. ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثٗا﴾ يعني لوطاً عليه السلام، لم يُولد له ذَكَر، وإنما ولد له ابنتان. ﴿وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ﴾ يعني إبراهيم عليه السلام لم يُولَد له أنثى، بل وُلِدَ له ثمانية ذكور. ﴿أَوۡ يُزَوِّجُهُمۡ ذُكۡرَانٗا وَإِنَٰثٗاۖ﴾ يعني رسول الله ﷺ، ولد له أربعة بنين وأربع بنات. ﴿وَيَجۡعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًاۚ﴾ يعني يحيى بن زكريا عليهما السلام[3]؛ لم يذكر عيسى.

ابن العربي[4]: قال علماؤنا: «يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا» يعني لوطاً، كان له بنات ولم يكن له ابن. ﴿وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ﴾ يعني إبراهيم، كان له بنون ولم يكن له بنت. وقوله: «أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا» يعني آدم، كانت حوّاء تلد له في كل بطن توأمين؛ ذكراً وأنثى، ويزوّج الذكر من هذا البطن من الأنثى من البطن الآخر، حتى أحكم الله

---

(١) البيت لأبي دَهْبل الجُمحي كما في شرح الحماسة البصرية للمرزوقي ٤/ ١٦٠٥. والكلام السالف من الصحاح (عقم).

(٢) النكت والعيون ٥/ ٢١١.

(٣) المحرر الوجيز ٥/ ٤٣.

(٤) في أحكام القرآن ٤/ ١٦٦٠.

التحريم في شرع نوح ﷺ. وكذلك محمد ﷺ كان له ذكور وإناث من الأولاد: القاسم والطيب والطاهر وعبد الله وزينب وأم كلثوم ورقية وفاطمة؛ وكلهم من خديجة رضي الله عنها، وإبراهيم وهو من مارية القِبطية. وكذلك قسم الله الخلق من لدن آدم إلى زماننا هذا، إلى أن تقوم الساعة، على هذا التقدير المحدود بحكمته البالغة ومشيئته النافذة؛ ليبقى النسل، ويتمادى الخَلْق، وينفذ الوعد، ويحق الأمر، وتعمر الدنيا، وتأخذ الجنة وجهنم كل واحد ما يملؤها ويبقى. ففي الحديث: «إنَّ النارَ لن تمتلئ حتى يَضَعَ الجَبَّارُ فيها قَدَمَه، فتقول: قَطْ قَطْ. وأما الجنة فيبقى منها، فينشئ اللهُ لها خَلْقاً آخر»(١).

الثانية: قال ابن العربي(٢): إنَّ الله تعالى لِعموم قُدرته وشديد قوّته يخلق الخلق ابتداء من غير شيء، وبعظيم لطفه وبالغ حكمته يخلق شيئًا من شيء لا عن حاجة؛ فإنه قُدُّوس عن الحاجات سلام عن الآفات، كما قال: ﴿ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَـٰمُ﴾ [الحشر: ٢٣] فخلق آدم من الأرض وخلق حوّاء من آدم، وخلق النشأة من بينهما منهما مرتبًا على الوطء، كائناً على الحمل، موجوداً في الجنين بالوضع؛ كما قال النبي ﷺ: «إذا سبق ماءُ الرجل ماءَ المرأة أَذْكَرا، وإذا سبق ماءُ المرأة ماءَ الرجل آنثا»(٣). وكذلك في الصحيح أيضاً «إذا علا ماءُ الرجل ماءَ المرأة أَشبهَ الولدُ أعمامَه، وإذا علا ماءُ المرأة ماءَ الرجل أشبهَ الولدُ أخواله»(٤).

قلت: هذا معنى حديث عائشة لا لفظه، خرّجه مسلم من حديث عروة بن الزبير عنها أن امرأة قالت لرسول الله ﷺ: هل تغتسل المرأة إذا احتلمت وأبصرت الماء؟

---

(١) أخرجه أحمد (٧٧١٨)، والبخاري (٤٨٥٠)، ومسلم (٢٨٤٦) مطولاً من حديث أبي هريرة ﷺ. وفي الباب عن أنس ﷺ أخرجه أحمد (١٢٤٤٠)، والبخاري (٧٣٨٤)، ومسلم (٢٨٤٨).

(٢) في أحكام القرآن ٤/ ١٦٦٠ .

(٣) هذا حديث ثوبان ﷺ بنحوه، وسيذكره المصنف قريباً.

(٤) هو حديث عائشة رضي الله عنها بنحوه كما سيذكر المصنف بعده.

فقال: «نعم» فقالت لها عائشة: تَرِبَتْ يداك وأُلَّت؛ فقال رسول الله ﷺ: «دَعِيها، وهل يكون الشَّبه إلا مِن قِبَل ذلك. إذا علا ماؤها ماءَ الرجل أشبهَ الولد أخوالَهُ، وإذا علا ماء الرجل ماءها أشبهَ أعمامَهُ»(١).

قال علماؤنا(٢): فعلى مقتضى هذا الحديث أن العلو يقتضي الشبه؛ وقد جاء في حديث ثَوْبان ـ خرجه مسلم أيضاً ـ أن النبي ﷺ قال لليهودي: «ماءُ الرجل أبيضُ، وماءُ المرأة أصفرُ، فإذا اجتمعا فعلا مَنِيُّ الرجل مَنِيَّ المرأة أذْكَرا بإذن الله، وإذا علا مَنِيُّ المرأة مَنِيَّ الرجل آنثا بإذن الله» الحديث(٣). فجعل في هذا الحديث أيضاً العلوَّ يقتضي الذكورة والأنوثة؛ فعلى مقتضى الحديثين يلزم اقتران الشَّبه للأعمام والذكورة إن علا مَنِيّ الرجل، وكذلك يلزم إن علا مَنِيّ المرأة اقتران الشبه للأخوال والأنوثة؛ لأنهما معلولَا عِلّةٍ واحدة، وليس الأمر كذلك بل الوجود بخلاف ذلك؛ لأنا نجد الشَّبه للأخوال والذكورةَ والشّبه للأعمام والأنوثة، فتعيَّن تأويل أحد الحديثين.

والذي يتعين تأويله [العلو] الذي في حديث ثَوْبان فيقال: إن ذلك العلو معناه سبق الماء إلى الرحم، ووجهه أنَّ العلوَّ لما كان معناه الغَلَبَةَ من قولهم: سابقني فلان فسبقته، أي: غلبته؛ ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ [الواقعة: ٦٠] أي: بمغلوبين، قيل عليه: علا. ويُؤيِّد هذا التأويل قولُه في الحديث: «إذا سبق ماءُ الرجل ماءَ المرأة أذكرا، وإذا سبق ماءُ المرأة ماءَ الرجل آنثا».

وقد بنى القاضي أبو بكر بن العربي(٤) على هذه الأحاديث بناءً فقال: إن للماءين

(١) صحيح مسلم (٣١٤)، وأخرجه أحمد (٢٤٦١٠)، وهو عند البخاري (١٣٠) من حديث أم سلمة رضي الله عنها بنحوه ودون قوله: «إذا علا ماؤها ماء الرجل...» وقوله: وأُلَّت: أي: أُصيبت بالألَّة، وهي الحربة. المفهم ١/ ٥٧٢ .

(٢) هو قول أبي العباس القرطبي في المفهم١/ ٥٧١ - ٥٧٢ . وما بين حاصرتين الآتي منه.

(٣) صحيح مسلم (٣١٥).

(٤) في أحكام القرآن ٤/ ١٦٦٠ - ١٦٦١ ، ونقله المصنف عنه بواسطة أبو العباس القرطبي في المفهم ١/ ٥٧٢ والكلام منه إلى آخر المسألة.

أربعةَ أحوال: الأوّل: أن يخرج ماءُ الرجل أولاً، الثاني: أن يخرج ماء المرأة أوّلاً، الثالث: أن يخرج ماء الرجل أوّلاً ويكون أكثر، الرابع: أن يخرج ماءُ المرأة أوّلاً ويكون أكثر. ويتم التقسيم بأن يخرج ماءُ الرجل أوّلاً، ثم يخرج ماءُ المرأة بعده ويكون أكثر، أو بالعكس؛ فإذا خرج ماء الرجل أوّلاً وكان أكثرَ جاء الولد ذكراً بحكم السَّبق، وأشبه الولدُ أعمامَه بحكم الكَثْرة.

وإن خرج ماء المرأة أوّلاً وكان أكثر جاء الولد أُنثى بحكم السَّبق، وأشبه أخواله بحكم الغَلَبة. وإن خرج ماء الرجل أوّلاً لكن لمَّا خرج ماء المرأة بعدهاكان أكثر، كان الولد ذكراً بحكم السَّبق، وأشبه أخوالَه بحكم غَلَبة ماء المرأة، وإن سبق ماء المرأة لكن لما خرج ماء الرجل كان أعلى من ماء المرأة كان الولد أنثى بحكم سبق ماء المرأة وأشبه أعمامَه بحكم غَلَبة ماء الرجل. قال: وبانتظام هذه الأقسامِ يستتبُّ الكلام ويرتفع التعارضُ عن الأحاديث، فسبحان الخالق العليم.

الثالثة: قال علماؤنا(١): كانت الخِلْقة مستمرةً ذكراً وأُنثى إلى أن وقع في الجاهلية الأولى الخُنثى، فأُتِي به فرِيضَ العرب ومُعمَّرها عامرَ بن الظَّرِب فلم يدرِ ما يقول فيه، وأرجأهم عنه؛ فلما جنّ عليه الليل تنكّر موضعه، وأَقَضَّ عليه مضجعه، وجعل يتقلّى ويتقلّب، وتجيء به الأفكارُ وتذهب، إلى أن أنكرت خادمُه حالَه، فقالت: ما بك؟ قال لها: سهرت لأمر قُصدت به، فلم أدرِ ما أقول فيه؟ فقالت: ماهو؟ قال لها: رجلٌ له ذَكَر وفَرْج، كيف يكون حاله في الميراث؟ قالت له الأَمَة: ورّثه من حيث يبول؛ فعَقَلها وأصبح، فعرضها عليهم وانقلبوا بها راضين.

وجاء الإسلام على ذلك فلم تنزل إلا في عهد عليّ ﷺ فقضي فيها(٢).

وقد روى الفَرَضيُّونَ عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس عن النبيّ ﷺ أنه سُئل عن مولود له قُبُل وذَكَرٌ من أين يُورَّث؟ قال: «من حيث يبول». وروي أنه أُتي

---

(١) هو قول ابن العربي في أحكام القرآن ٤/ ١٦٦١ - ١٦٦٢، والكلام منه إلى آخر المسألة.

(٢) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى ٦/ ٢٦١ .

بخنثى من الأنصار فقال: «ورِّثوه من أول ما يبول»[١]. وكذا روى محمد ابن الحنفية عن عليّ، ونحوه عن ابن عباس، وبه قال ابن المسيّب وأبو حنيفة وأبو يوسف ومحمد، وحكاه المُزني عن الشافعي. وقال قوم: لا دلالة في البول؛ فإن خرج البولُ منهما جميعاً؛ قال أبو يوسف: يحكم بالأكثر. وأنكره أبو حنيفة وقال: أتكيله! ولم يجعل أصحاب الشافعي للكثرة حكماً. وحُكي عن عليّ والحسن أنهما قالا: تُعَدُّ أضلاعه، فإن المرأة تزيد على الرجل بِضِلَعٍ واحد[٢]. وقد مضى ما للعلماء في هذا الحديث في آية المواريث في «النساء» مجوّداً[٣]، والحمد لله.

الرابعة: قال القاضي أبو بكر بن العربي[٤]: وقد أنكر قوم من رؤوس العوامِّ وجودَ الخُنثى، لأن الله تعالى قسم الخَلْق إلى ذكر وأنثى. قلنا: هذا جهل باللغة، وغباوة عن مقطع الفصاحة، وقصور عن معرفة سَعة القُدرة. أما قدرة الله سبحانه فإنه واسعٌ عليم، وأما ظاهر القرآن فلا ينفي وجودَ الخُنثى؛ لأن الله تعالى قال: ﴿لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾. فهذا عموم مدح فلا يجوز تخصيصه؛ لأن القُدرة تقتضيه. وأما قوله: ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ . أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا﴾ فهذا إخبارٌ عن الغالب في الموجودات، وسكت عن ذكر النادر؛ لدخوله تحت عموم الكلام الأوّل، والوجود يشهد له والعِيان يُكذِّب مُنكرَه، وقد كان يقرأ معنا برِباط أبي سعيد علي الإمام الشهيد من بلاد المغرب خُنثى ليس له لحية وله ثديان، وعنده جارية؛ فربُّك أعلم به، ومع طول الصُّحبة عقلني الحياء عن سؤاله، وبودّي اليوم لو كاشفته عن حاله.

---

(١) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى ٦/ ٢٦١ باللفظ الأول، ومحمد بن السائب الكلبي متهم بالكذب كما في تقريب التهذيب.

(٢) قال أبو عبد الله الشقاق شيخ ابن العربي فيما نقله عنه في أحكام القرآن ٤/ ١٦٦٢ : ولو صح هذا لما أشكل حاله.

(٣) ٦/ ١٠٩ وما بعدها.

(٤) في أحكام القرآن ٤/ ١٦٦٣ .

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ۝٥١﴾

فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا﴾ سبب ذلك أن اليهود قالوا للنبيّ ﷺ: ألّا تُكلِّم الله وتنظر إليه إن كنتَ نبيًّا كما كلّمه موسى ونظر إليه؛ فإنا لن نُؤمن لك حتى تفعل ذلك. فقال النبي ﷺ: «إنَّ موسى لن ينظر إليه» فنزل قوله: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا﴾؛ ذكره النقاش والواحدي[(١)] والثعلبي.

﴿وَحْيًا﴾ قال مجاهد: نَفْثٌ يُنْفَث في قلبه فيكون إلهاما[(٢)]؛ ومنه قوله ﷺ: «إن روح القُدُس نَفَث في رُوعِي أنّ نَفْساً لن تموت حتى تستكملَ رزقَها وأجلها، فاتقوا اللهَ وأَجْمِلوا في الطلب. خُذوا ما حلّ ودَعُوا ما حَرُم»[(٣)].

﴿أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ﴾ كما كلم موسى. ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا﴾ كإرساله جبريل عليه السلام. وقيل: «إِلَّا وَحْيًا» رؤيا يراها في منامه؛ قاله زهير بن محمد[(٤)]. «أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ» كما كلم موسى. «أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا» قال زهير: هو جبريل عليه السلام. ﴿فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُۚ﴾ وهذا الوحي من الرسل خطابٌ منهم للأنبياء يسمعونه نُطقاً ويَرَونه عِياناً. وهكذا كانت حال جبريل عليه السلام إذا نزل بالوحي على النبي ﷺ. قال ابن عباس: نزل جبريل عليه السلام على كل نبيّ فلم يَرَهُ منهم إلا محمدٌ وعيسى وموسى وزكريا عليهم السلام. فأما غيرهم فكان وحياً إلهاماً في المنام[(٥)].

---

(١) في أسباب النزول ص ٣٩٦، وذكره عن النقاش الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٢١٢.

(٢) النكت والعيون ٥/ ٢١٢.

(٣) أخرجه القضاعي في مسند الشهاب (١١٥١)، والبغوي في شرح السنة (٤١١١) و(٤١١٢) و(٤١١٣) من حديث ابن مسعود ﷺ.

(٤) في النسخ: محمد بن زهير، وهو خطأ، والمثبت من النكت والعيون ٥/ ٢١٢، والمصادر، وسلفت ترجمته ٢/ ٣٩٩.

(٥) النكت والعيون ٥/ ٢١٢.

وقيل: «إِلَّا وَحْيًا» بإرسال جبريل «أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ» كما كلم موسى «أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا» إلى الناس كافة.

وقرأ الزهري وشيبة ونافع: «أَوْ يرسلُ رسولاً فَيُوحِي» برفع الفعلين[(١)]. الباقون بنصبهما. فالرفع على الاستئناف؛ أي: وهو يُرسل. وقيل: «يُرسلُ» بالرفع في موضع الحال؛ والتقدير: إلا مُوحياً أو مُرسلاً. ومن نصب عطفوه على محل الوحي؛ لأن معناه: وما كان لِبشر أن يُكلِّمه اللهُ إلا أن يُوحي أو يُرسلَ. ويجوز أن يكون النصب على تقدير حذف الجار من أن المضمرة. ويكون في موضع الحال؛ التقدير: أو بأن يُرسلَ رسولاً. ولا يجوز أن يعطف «أَوْ يُرْسِلَ» بالنصب على «أَنْ يُكَلِّمَهُ» لفساد المعنى؛ لأنه يصير: ما كان لِبشر أن يُرسِلَه أو أن يُرسِلَ إليه رسولاً، وهو قد أرسل الرُّسلَ من البشر وأرسلَ إليهم[(٢)].

الثانية: احتجَّ بهذه الآية من رأى فيمن حلف ألا يُكلّم رجلاً فأرسل إليه رسولاً أنه حانث؛ لأن المُرسِلَ قد سُميّ فيها مُكلِّماً للمرسَل إليه، إلا أن ينوي الحالف المواجهة بالخطاب.

قال ابن المنذر[(٣)]: واختلفوا في الرجل يحلف ألا يُكلِّم فلاناً فكتب إليه كتاباً، أو أرسل إليه رسولاً؛ فقال الثَّوْري: الرسول ليس بكلام. وقال الشافعي: لا يبين أن يحنثَ. وقال النَّخَعي: والحكم في الكتاب يحنث. وقال مالك: يَحنَثُ في الكتاب والرسول. وقال مَرَّة: الرسول أسهلُ من الكتاب.وقال أبو عُبيد: الكلام سوى الخط والإشارة. وقال أبو ثور: لا يحنث من الكتاب. قال ابن المنذر: لا يَحْنَثُ في الكتاب والرسول.

قلت: وهو قول مالك[(٤)]. قال أبو عمر[(٥)]: ومن حلف ألّا يكلّم رجلاً فسلّم عليه

(١) قراءة نافع في السبعة ص ٥٨٢ ، والتيسير ص ١٩٥ .
(٢) الكشف عن وجوه القراءات ٢/ ٢٥٣ - ٢٥٤ بنحوه.
(٣) في الإشراف ١/ ٤٧٤ .
(٤) كذا قال المصنف، وسلف أن مالكاً قال: يحنث في الكتاب والرسول. وينظر المدونة ٢/ ١٣١ .
(٥) في الكافي ١/ ٤٥٠ .

عامداً أو ساهياً، أو سلّم على جماعة هو فيهم فقد حنث في ذلك كلّه عند مالك. وإن أرسل إليه رسولاً، أو سلّم عليه في الصلاة لم يحنث.

قلت: يحنث في الرسول إلا أن ينويَ المُشافهة؛ للآية، وهو قول مالك وابن الماجشُون. وقد مضى في أول «سورة مريم» هذا المعنى عن علمائنا مستوفًى[١]، والحمد لله.

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾﴾

فيه أربع مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ أي: وكالذي أوحينا إلى الأنبياء من قبلك أوحينا إليك ﴿رُوحًا﴾ أي: نبوة؛ قاله ابن عباس. الحسن وقتادة: رحمة من عندنا. السُّدّي: وحْيًا. الكلبي: كتاباً. الربيع: هو جبريل. الضحاك: هو القرآن. وهو قول مالك بن دينار[٢]. وسمّاه روحًا لأن فيه حياةً من موت الجهل. وجعله من أمره بمعنى: أنزله كما شاء على من يشاء من النَّظم المُعجز والتأليف المُعجب.

ويمكن أن يُحمَلَ قوله: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ﴾ [الإسراء: ٨٥] على القرآن أيضًا ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ أي: يسألونك من أين لك هذا القرآن؟ قل: إنه من أمر الله أنزله عليّ مُعجزاً؛ ذكره القُشَيْري. وكان مالك بن دينار يقول: يا أهل القرآن، ماذا زرع القرآنُ في قلوبكم؟ فإن القرآنَ ربيعُ القلوب كما أن الغيثَ ربيعُ الأرض[٣].

الثانية: قوله تعالى: ﴿مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾ أي: لم تكن تعرف

---

(١) ١١/ ٨٦.

(٢) تفسير البغوي ٤/ ١٣٢، ما عدا قول الضحاك فهو في النكت والعيون ٥/ ٢١٢.

(٣) أخرجه أبو نعيم في الحلية ٢/ ٣٥٨.

الطريق إلى الإيمان. وظاهرُ هذا يدلُّ على أنه ما كان قبل الإيحاء مُتَّصفًا بالإيمان. قال القُشَيري: وهو من مجوّزات العقول، والذي صار إليه المُعظم أن الله ما بعث نبياً إلا كان مؤمناً به قبل البِعثة. وفيه تحكّم، إلا أن يثبت ذلك بتوقيف مقطوع به.

قال القاضي أبو الفضل عياض[(١)]: وأما عصمتهم من هذا الفن قبل النبوّة فللناس فيه خلاف؛ والصواب أنهم معصومون قبل النبوة من الجهل بالله وصفاته والتشكك في شيء من ذلك. وقد تعاضدت الأخبار والآثار عن الأنبياء بتنزيههم عن هذه النقيصة منذ وُلدوا؛ ونشأتهم على التوحيد والإيمان، بل على إشراق أنوار المعارف ونفحات ألطاف السعادة، ومن طالَعَ سِيَرَهم منذ صباهم إلى مبعثهم حقَّق ذلك؛ كما عُرف من حال موسى وعيسى ويحيى وسليمان وغيرهم عليهم السلام.

قال الله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ [مريم: ١٢] قال المفسرون: أعطى يحيى العلم بكتاب الله في حال صباه. قال معمر: كان ابن سنتين أو ثلاث؛ فقال له الصبيان: لم لا تلعب! فقال: أَلِلَّعب خُلقت[(٢)]؟! وقيل في قوله ﴿مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ٣٩]: صدَّق يحيى بعيسى وهو ابن ثلاث سنين، فشهد له أنه كلمة الله وروحه. وقيل: صدقه وهو في بطن أمه؛ فكانت أمّ يحيى تقول لمريم: إني أجد ما في بطني يسجد لما في بطنك تحية له[(٣)].

وقد نص الله على كلام عيسى لأمه عند ولادتها إياه بقوله: ﴿أَلَّا تَحْزَنِى﴾ على قراءة من قرأ: «مَنْ تَحْتَهَا»[(٤)] وعلى قول من قال: إن المُنادي عيسى، ونصّ على كلامه في مهده فقال: ﴿إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا﴾ [مريم: ٣٠]. وقال: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [الأنبياء: ٧٩] وقد ذكر من حُكم سليمان وهو صبي يلعب في قصة المرجومة وفي قصة الصبيّ[(٥)] ما اقتدى به أبوه داود. وحكى الطبري

---

(١) في الشفا ٢/٢٥٧.

(٢) سلف ١١/٨٧.

(٣) سلف ٥/١١٦ و١١/٩٣.

(٤) قرأ بها ابن كثير وابن عامر وأبو عمرو شعبة. السبعة ص٤٠٨، والتيسير ص١٤٨. وسلفت ١١/٩٣.

(٥) سلفت ١٤/٢٤١ - ٢٤٢.

أن عمره كان حين أوتي الملك اثني عشر عاماً. وكذلك قصة موسى عليه السلام مع فرعون وأخذه بلحيته وهو طفل. وقال المفسرون في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ﴾ [الأنبياء: ٥١]: أي: هديناه صغيراً؛ قاله مجاهد وغيره[١]. وقال ابن عطاء: اصطَفيناه قبل إبداء خلقه. وقال بعضهم: لما وُلِدَ إبراهيم بعث الله إليه مَلَكًا يأمره عن الله تعالى أن يعرِفه بقلبه ويذكره بلسانه فقال: قد فعلتُ؛ ولم يقل: أفعل؛ فذلك رُشده. وقيل: إن إلقاء إبراهيم في النار ومِحنته كانت وهو ابن ست عشرة سنة[٢]. وإن ابتلاء إسحاق بالذبح وهو ابن سبع سنين[٣]. وإن استدلال إبراهيم بالكوكب والقمر والشمس كان وهو ابن خمس عشرة سنة[٤]. وقيل: أُوحِيَ إلى يوسف وهو صبي عندما همّ إخوته بإلقائه في الجُبّ بقوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا﴾ الآية؛ إلى غير ذلك من أخبارهم.

وقد حكى أهل السِّيَر أن آمنة بنت وهب أخبرتْ أن نبينا محمداً ﷺ وُلِدَ حين وُلِدَ باسطاً يديه إلى الأرض رافعاً رأسه إلى السماء[٥]، وقال في حديثه ﷺ: «لما نشأت بُغِّضت إليّ الأوثان وبُغِّض إلي الشعر ولم أهمّ بشيء مما كانت الجاهلية تفعله إلا مرتين فعصمني الله منهما ثم لم أعد»[٦]. ثم يتمكَّن الأمر لهم، وتترادف نفحاتُ الله تعالى عليهم، وتشرق أنوار المعارف في قلوبهم حتى يصلوا الغاية، ويبلغوا باصطفاء الله تعالى لهم بالنبوّة في تحصيل الخصال الشريفة النهايةَ دون ممارسة ولا رياضة. قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾.

---

(١) أخرجه الطبري ١٦/ ٢٩٠.

(٢) ١٤/ ٢٢٨.

(٣) سلفت قصة الذبيح في الصافات [١٠٣ - ١١٣] وذكرنا ثمة أن الصحيح المقطوع به أنه إسماعيل عليه السلام.

(٤) في النسخ: خمسة عشر شهراً، وسلف هذا القول ٨/ ٤٣٨.

(٥) طبقات ابن سعد: ١/ ١٠٢، والبداية والنهاية ٣/ ٣٨٥.

(٦) ذكره القاضي عياض في الشفا ١/ ٢١٣.

قال القاضي[(١)]: ولم ينقل أحد من أهل الأخبار أن أحداً نُبِّئ واصْطُفِي ممن عُرِف بكفر وإشراك قبل ذلك. ومستند هذا الباب النقل. وقد استدلَّ بعضهم بأن القلوب تنفر عمن كانت هذه سبيله. قال القاضي: وأنا أقول: إن قريشاً قد رمت نبينا عليه الصلاة والسلام بكل ما افترته، وعيّر كفار الأمم أنبياءها بكل ما أمكنها واختلقته، مما نص الله عليه، أو نقلته إلينا الرواة، ولم نجد في شيء من ذلك تعييرًا لواحد منهم برفضه آلهته[(٢)] وتقريعه بذَمِّه بترك ما كان قد جامعهم عليه. ولو كان هذا لكانوا بذلك مبادرين، وبتلوُّنه في معبوده مُحتجِّين، ولكان توبيخهم له بنهيهم عما كان يعبد قبلُ أفظعَ وأقطعَ في الحُجَّة من توبيخه بنهيهم عن تركهم[(٣)] آلهتهم وما كان يعبد آباؤهم من قبل؛ ففي إطباقهم على الإعراض عنه دليلٌ على أنهم لم يجدوا سبيلاً إليه، إذ لو كان لنُقل وما سكتوا عنه كما لم يسكتوا عن تحويل القبلة، وقالوا: ﴿مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا﴾ كما حكاه الله عنهم.

الثالثة[(٤)]: وتكلم العلماءُ في نبينا ﷺ؛ هل كان مُتَعَبِّدًا بدين قبل الوَحْي أم لا؟ فمنهم من منع ذلك مطلقاً وأحاله عقلاً. قالوا: لأنه يبعد أن يكون متبوعاً من عُرف تابعاً، وبَنَوْا هذا على التحسين والتقبيح. وقالت فرقة أخرى بالوقف في أمره عليه الصلاة والسلام، وتركِ قطع الحكم عليه بشيء في ذلك، إذ لم يُحِل الوجهين منهما العقل، ولا استبان عندها في أحدهما طريق النقل، وهذا مذهب أبي المعالي. وقالت فرقة ثالثة: إنه كان متعبداً بشرع من قبله وعاملاً به؛ ثم اختلف هؤلاء في التعيين، فذهبت طائفة إلى أنه كان على دين عيسى، فإنه ناسخ لجميع الأديان والملل قبلها؛ فلا يجوز أن يكون النبي على دين منسوخ. وذهبت طائفة إلى أنه كان على دين إبراهيم؛

---

(١) هو القاضي عياض في الشفا ٢/ ٢٥٧ - ٢٥٨، والكلام منه إلى آخر المسألة.

(٢) في (د) و(م): آلهتهم، والمثبت من (ظ) و(ي)، وهو الموافق للشفا.

(٣) في (د) و(ي) و(م): تركه، والمثبت من (ظ)، وهو الموافق للشفا.

(٤) هذه المسألة في الشفا ٢/ ٢٦٧ - ٢٦٨ و٣٣٥ - ٣٣٧، وينظر الإبهاج للسبكي ٢/ ٢٧٥ وما بعدها.

لأنه من ولده وهو أبو الأنبياء. وذهبت طائفة إلى أنه كان على دين موسى؛ لأنه أقدم الأديان. وذهبت المعتزلة إلى أنه لا بد أن يكون على دينٍ، ولكن عين الدين غير معلومة عندنا. وقد أبطل هذه الأقوال كلها أئمتُنا؛ إذ هي أقوال متعارضة وليس فيها دلالة قاطعة، وإن كان العقل يجوّز ذلك كلّه. والذي يُقطع به أنه عليه الصلاة والسلام لم يكن منسوبًا إلى واحد من الأنبياء نسبةً تقتضي إلى أن يكون واحدًا من أمته ومخاطَبًا بكل شريعته؛ بل شريعتُه مستقِلَّة بنفسها مفتتحة من عند الله الحاكم جلَّ وعز، وأنه ﷺ كان مؤمناً بالله عز وجل، ولا سجد لصنم، ولا أشرك بالله، ولا زنى ولا شرب الخمر، ولا شهد السامر[1]، ولا حضر حلف المطر[2]، ولا حلْفَ المُطَيِّبين[3]؛ بل نزهه الله وصانه عن ذلك.

فإن قيل: فقد روى عثمان بن أبي شيبة حديثاً بسنده عن جابر أن النبي ﷺ قد كان يشهد مع المشركين مشاهدهم، فسمع مَلَكين خلفه أحدهما يقول لصاحبه: اذهب حتى تقوم خلفه، فقال الآخر: كيف أقوم خلفه وعهده باستلام الأصنام فلم يشهدهم بعد[4]؟ فالجواب أن هذا حديثٌ أنكره الإمام أحمد بن حنبل جدّا وقال: هذا موضوع أو شبيهٌ بالموضوع[5]. وقال الدَّارَقُطْني: إن عثمان وَهِمَ في إسناده، والحديث بالجملة منكر غير متفق على إسناده فلا يُلتفَت إليه، والمعروف عن النبي ﷺ خلافه عند أهل العلم من قوله: «بُغِّضت إليّ الأصنام»[6] وقوله في قصة بحِيرا حين

(١) السامر: مجلس السُّمَّار. القاموس (سمر).

(٢) كذا في النسخ، ولم نعرفه. والأحلاف المشهورة قبل البعثة هي حلف الأحلاف وحلف المُطيِّبين وحلف الفضول. ينظر السيرة النبوية ١/ ١٣٠ - ١٣٣ .

(٣) لم يشهد النبي ﷺ حلف المطيبين لأنه كان قبل مولده ﷺ. كما في صحيح ابن حبان بعد الحديث (٤٣٧٤)، وسنن البيهقي ٦/ ٣٦٧ .

(٤) أخرجه أبو يعلى في مسنده (١٨٧٧).

(٥) نقله المصنف عنه بواسطة القاضي في الشفا ٢/ ٢٦٧ وما بعده منه.

(٦) سلف في المسألة السابقة.

استحلف النبيّ ﷺ باللّات والعزّى إذ لَقِيَه بالشام في سَفْرَتِه مع عمه أبي طالب وهو صبي، ورأى فيه علاماتِ النبوّة فاختبره بذلك؛ فقال له النبي ﷺ: «لا تسألني بهما، فواللهِ ما أبغضت شيئاً قطُّ بُغْضَهُمَا» فقال له بَحيرا: فبالله إلا ما أخبرتني عما أسألك عنه، فقال: «سل عما بدا لك». وكذلك المعروف من سيرته عليه الصلاة والسلام وتوفيقِ الله إياه له أنه كان قبل نبوّته يخالف المشركين في وقوفهم بمزدلِفة في الحج، وكان يقف هو بعرفة، لأنه كان موقف إبراهيم عليه السلام.

فإن قيل: فقد قال الله تعالى: ﴿قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ﴾ [البقرة: ١٣٥] وقال: ﴿أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [النحل: ١٢٣] وقال: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ﴾ الآية [الشورى: ١٣]. وهذا يقتضي أن يكون مُتعبِّدًا بشرع. فالجواب أن ذلك فيما لا تختلف فيه الشرائع من التوحيد وإقامة الدّين؛ على ما تقدَّم بيانُه في غير موضع وفي هذه السورة عند قوله: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ﴾ والحمد لله.

الرابعة: إذا تقرّر هذا فاعلم أن العلماء اختلفوا في تأويل قوله تعالى: ﴿مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾. فقال جماعة: معنى الإيمان في هذه الآية شرائع الإيمان ومعالمه؛ ذكره الثعلبي. وقيل: تفاصيل هذا الشرع؛ أي: كنتَ غافلاً عن هذه التفاصيل. ويجوز إطلاق لفظ الإيمان على تفاصيل الشرع؛ ذكره القشيري.

وقيل: ما كنت تدري قبل الوحي أن تقرأ القرآن، ولا كيف تدعو الخلق إلى الإيمان؛ ونحوه عن أبي العالية. وقال بكر القاضي(١): ولا الإيمان الذي هو الفرائض والأحكام. قال: وكان قبل مؤمناً بتوحيده، ثم نزلت الفرائض التي لم يكن يدريها قبل؛ فزاد بالتكليف إيماناً. وهذه الأقوال الأربعة متقاربة. وقال ابن خزيمة: عنى بالإيمان الصلاة؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ﴾ [البقرة: ١٤٣](٢) أي: صلاتكم إلى بيت المقدس؛ فيكون اللفظ عاماً والمراد الخصوص.

---

(١) لعله بكر بن العلاء القشيري. وفي الشفا ٢/ ٢٦٦ (والكلام منه): أبو بكر القاضي.

(٢) ذكره البغوي في تفسيره ٤/ ١٣٢ .

وقال الحسين بن الفضل: أي: ما كنت تدري ما الكتاب ولا أهل الإيمان. وهو من باب حذف المضاف؛ أي: مَن الذي يؤمن؟ أبو طالب أو العباس أو غيرهما. وقيل: ما كنت تدري شيئاً إذ كنتَ في المهد وقبل البلوغ. وحكى الماوردي نحوه عن عليّ بن عيسى قال: ما كنت تدري ما الكتاب لولا الرسالة، ولا الإيمان لولا البلوغ. وقيل: ما كنت تدري ما الكتاب لولا إنعامُنا عليك، ولا الإيمان لولا هدايتنا لك، وهو مُحتَمِل. وفي هذا الإيمان وجهان: أحدهما: أنه الإيمان بالله، وهذا يعرِفه بعد بلوغه وقبل نبوته. والثاني: أنه دين الإسلام، وهذا لا يعرفه إلا بعد النبوّة(١).

قلت: الصحيح أنه ﷺ كان مؤمناً بالله عز وجل من حين نشأ إلى حين بلوغه؛ على ما تقدّم. وقيل: ﴿مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾ أي: كنتَ من قوم أُمِّيين لايعرفون الكتابَ ولا الإيمان، حتى تكونَ قد أخذتَ ما جئتهم به عمن كان يعلم ذلك منهم؛ وهو كقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ [العنكبوت:٤٨] روي معناه عن ابن عباس رضي الله عنهما.

﴿وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ﴾ قال ابن عباس والضحاك: يعني الإيمان. السدي: القرآن(٢). وقيل: الوحي؛ أي: جعلنا هذا الوحي ﴿نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ﴾ أي: من نختاره للنبوّة؛ كقوله تعالى: ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة:١٠٥]. ووحَّد الكناية لأن الفعل في كَثْرة أسمائه بمنزله الفعل في الاسم الواحد؛ ألا ترى أنك تقول: إقبالك وإدبارك يعجبني؛ فتوحّد، وهما اثنان(٣).

﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ﴾ أي: تدعو وتُرشد ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ دين قويم لا اعوجاج فيه. وقال عليّ: إلى كتاب مستقيم(٤).

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٢١٢ .

(٢) النكت والعيون ٥/ ٢١٢ - ٢١٣ ، وتفسير البغوي ٤/ ١٣٢ .

(٣) تفسير الطبري ٢٠/ ٥٤٣ .

(٤) النكت والعيون ٥/ ٢١٣ .

وقرأ عاصم الجحدري وحَوْشب: «وَإِنَّكَ لَتُهْدى» غير مسمَّى الفاعل[١]؛ أي: لتُدْعَى. الباقون: «لَتَهدي» مسمى الفاعل. وفي قراءة أُبَيّ: «وَإِنَّكَ لَتَدْعُو»[٢].

قال النحاس[٣]: وهذا لا يُقرأ به؛ لأنه مخالف للسواد، وإنما يُحمل ما كان مثله على أنه من قائله على جهة التفسير؛ كما قال سفيان في قوله عز وجل[٤]: «وَإِنَّكَ لَتَهْدِي» أي: لتدعو. وروى مَعْمَر عن قتادة في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ﴾ قال: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ [الرعد: ٧].

﴿صِرَٰطِ ٱللَّهِ﴾ بدل من الأوّل بدل المعرفة من النكرة. قال عليّ: هو القرآن. وقيل الإسلام. ورواه النوّاس بن سمعان عن النبيّ ﷺ[٥].

﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ مُلكًا وعبداً وخَلْقًا. ﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾ وعيدٌ بالبعث والجزاء. قال سهل بن أبي الجَعْد: احترق مصحفٌ فلم يبقَ إلا قوله: ﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾[٦] وغَرِق مصحفٌ فامَّحَى كلُّه إلا قولَه: ﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾. والحمد لله وحدَه.

[تم الجزء الثامن عشر من تفسير القرطبي
ويليه الجزء التاسع عشر، ويبدأ بتفسير سورة الزخرف]

---

(١) القراءات الشاذة ص ١٣٤.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٩٥، والمحرر الوجيز ٥/ ٤٤، ونسبها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص ١٣٤ لابن مسعود ﷺ.

(٣) في معاني القرآن ٦/ ٣٢٩.

(٤) قوله: سفيان في قوله عز وجل، ليس في (م)، و(ظ) و(ي)، وأثبتناه من (د) ومعاني القرآن.

(٥) النكت والعيون ٥/ ٢١٣، وحديث النواس بن سمعان ﷺ أخرجه أحمد (١٧٦٣٤) مطولاً، وسلف ١٠/ ٤٨١.

(٦) المحرر الوجيز ٥/ ٤٤.

تفسير سورة الشورى

وهى مكية.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ حمٓ ⟨١⟩ عٓسٓقٓ ⟨٢⟩ كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ⟨٣⟩ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ⟨٤⟩ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ وَالْمَلائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الأَرْضِ أَلا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ⟨٥⟩ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ⟨٦⟩ ﴾.

قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة. وقد روى ابن جرير هاهنا أثرا غريبا عجيبا منكرا، فقال:

حدثنا أحمد بن زُهَير، حدثنا عبد الوهاب بن نَجْدَةَ الحَوْطى، حدثنا أبو المغيرة عبد القدوس بن الحجاج، عن أرطاة بن المنذر [(١)] قال: جاء رجل إلى ابن عباس فقال له ـ وعنده حُذيفة بن اليمان ـ: أخبرنى عن تفسير قول الله: ﴿ حمٓ . عٓسٓقٓ ﴾، قال: فأطرق ثم أعرض عنه، ثم كرر مقالته فأعرض عنه، فلم يجبه بشىء وكره مقالته، ثم كررها الثالثة فلم يُحرْ إليه شيئا. فقال حذيفة[(٢)] : أنا أنبئك بها، قد عرفت لم كرهها؟ نزلت فى رجل من أهل بيته يقال له«عبد الإله» ـ أو: عبد الله ـ ينزل على نهر من أنهار المشرق تُبْنى عليه مدينتان[(٣)]، يشق النهر بينهما شقا، فإذا أذن الله فى زوال ملكهم وانقطاع دولتهم ومدتهم، بعث الله على إحداهما ناراً ليلاً، فتصبح سوداء مظلمة قد احترقت، كأنها لم تكن مكانها، وتصبح صاحبتها متعجبة: كيف أفلتت؟ فما هو إلا بياض يومها ذلك، حتى يجتمع فيها كل جبار عنيد منهم، ثم يخسف الله بها وبهم جميعا، فذلك قوله: ﴿ حمٓ . عٓسٓقٓ ﴾، يعنى: عزيمة من الله تعالى وفتنة وقضاء حُمّ : ﴿ حمٓ ﴾، عين: يعنى عدلا منه، سين: يعنى سيكون، ق: يعنى واقع بهاتين المدينتين[(٤)].

وأغرب منه ما رواه الحافظ أبو يعلى الموصلى فى الجزء الثانى من مسند ابن عباس، وعن أبى ذر، عن النبى ﷺ فى ذلك، ولكن إسناده ضعيف جدا ومنقطع، فإنه قال:

حدثنا أبو طالب عبد الجبار بن عاصم، حدثنا أبو عبد الملك الحسن بن يحيى الخُشَنى الدمشقى، عن أبى معاوية قال: صعد عمر بن الخطاب المنبر فقال: أيها الناس، هل سمع منكم أحد رسول الله ﷺ يفسر ﴿ حمٓ . عٓسٓقٓ ﴾؟ فوثب ابن عباس فقال، أنا: قال:«﴿ حمٓ ﴾ اسم من أسماء الله تعالى»، قال: فعين؟ قال: «عاين المولون عذاب يوم بدر»، قال: فسين؟ قال: «سيعلم الذين ظلموا أى منقلب

---

(١) فى ت:«وقد روى ابن جرير هاهنا أثرا غريبا عجيبا بسنده».
(٢) فى أ: «فقال له حذيفة».
(٣) فى ت، م،أ:«مدينتين».
(٤) تفسير الطبرى (٢٥/ ٥)، ورواه نعيم بن حماد فى الفتن برقم (٥٦٨) من طريق أبى المغيرة عن أرطاة بن المنذر عمن حدثه عن ابن عباس فذكره.

ينقلبون» قال: فقاف؟ فسكت، فقام أبو ذر ففسر كما قال ابن عباس، رضى الله عنهما، وقال: قاف: قارعة من السماء تغشى الناس[١].

وقوله: ﴿ كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ أى: كما أنزل إليك هذا القرآن، كذلك أنزل الكتب والصحف على الأنبياء قبلك. وقوله: ﴿ اللَّهُ الْعَزِيز ﴾ أى: فى انتقامه، ﴿ الْحَكِيمُ ﴾ فى أقواله وأفعاله.

قال الإمام مالك ـ رحمه الله ـ عن هشام بن عُرْوَة، عن أبيه، عن عائشة: أن الحارث بن هشام سأل رسول الله ﷺ فقال: يارسول الله، كيف يأتيك الوحى؟ فقال رسول الله ﷺ: «أحياناً يأتينى مثل صَلْصَلَة الجَرَس، وهو أشده عَلَىّ فيفصم عنّى قد وَعَيت ما قال. وأحيانا يأتينى الملك رجُلا فيكلمنى، فأعى ما يقول». قالت عائشة[٢]: فلقد رأيته ينزل عليه الوحى فى اليوم الشديد البرد، فَيفصِم عنه، وإن جبينه ليتفصّد عرقا.

أخرجاه فى الصحيحين، ولفظه للبخارى[٣].

وقد [٤] رواه الطبرانى عن عبد الله ابن الإمام أحمد، عن أبيه، عن عامر بن صالح، عن هشام ابن عُرْوَة، عن أبيه، عن عائشة، عن الحارث بن هشام؛ أنه سأل رسول الله ﷺ: كيف ينزل عليك الوحى؟ فقال: « مثل[٥] صلصلة الجرس، فيفصمُ عنى وقد وعَيتُ ما قاله» قال: «وهو أشده على » قال: «وأحياناً يأتينى الملك فيتمثل لى فيكلمنى، فأعى ما يقول»[٦].

وقال الإمام [٧] أحمد: حدثنا قتيبة، حدثنا ابن لَهِيعة، عن يزيد بن أبى حبيب، عن عمرو بن الوليد، عن عبد الله بن عمرو[٨]، رضى الله عنهما، قال: سألت رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله، هل تحس بالوحى؟ فقال رسول الله ﷺ: «أسمع صلاصل ثم أسكت عند ذلك، فما من مرة يوحى إلىّ إلا ظننت أن نفسى تُقبَض». تفرد به أحمد[٩].

وقد ذكرنا كيفية إتيان الوحى إلى رسول الله ﷺ فى أول شرح البخارى، بما أغنى عن إعادته هاهنا، ولله الحمد والمنة.

وقوله تعالى: ﴿ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ ﴾ أى: الجميع عبيد له وملك له، تحت قهره وتصريفه، ﴿ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيم ﴾، كقوله تعالى: ﴿ الْكَبِيرُ الْمُتَعَال ﴾ [الرعد: ٩]، ﴿ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِير﴾ [سبأ: ٢٣] ، والآيات فى هذا كثيرة.

وقوله: ﴿ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ من فَوْقِهِنَّ﴾ قال ابن عباس، والضحاك، وقتادة، والسدى، وكعب الأحبار: أى فَرَقاً، من العظمة ﴿ وَالْمَلائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الأَرْضِ﴾ كقوله: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ

(١) ورواه ابن عساكر فى تاريخه كما فى الدر المنثور (٧/ ٣٣٦).
(٢) فى ت: «عائشة رضى الله عنها».
(٣) الموطأ (١/ ٢٠٢)، وصحيح البخارى برقم (٢) ، وصحيح مسلم برقم (٢٣٣٣).
(٤) فى أ: «ولقد».
(٥) فى أ: «فقال: فى مثل».
(٦) المعجم الكبير (٣/ ٢٥٩).
(٧) فى ت: «وروى».
(٨) فى ت: «عمر».
(٩) المسند (٢/ ٢٢٢).

شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر: ٧].

وقوله: ﴿أَلا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ : إعلام بذلك وتنويه به.

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا من دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ يعنى: المشركين، ﴿اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ﴾ أى: شهيد على أعمالهم، يحصيها ويعدها عداً، وسيجزيهم بها أوفر الجزاء. ﴿وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ أى: إنما أنت نذير، والله على كل شىء وكيل.

﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ (٧) وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ (٨) ﴾ .

يقول تعالى: وكما أوحينا إلى الأنبياء قبلك، ﴿ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ أى: واضحا جليا بينا، ﴿لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى﴾ وهى مكة، ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ أى: من سائر البلاد شرقا وغربا، وسميت مكة «أم القرى»؛ لأنها أشرف من سائر البلاد، لأدلة كثيرة مذكورة فى مواضعها. ومن أوجز ذلك وأدله ما قال[١] الإمام أحمد:

حدثنا أبو اليمان، حدثنا شعيب، عن الزُّهْرِى، أخبرنا أبو سلمة بن عبد الرحمن أن عبد الله بن عَدِى بن الحمراء الزهرى أخبره: أنه سمع رسول الله ﷺ يقول[٢] ـ وهو واقف بالحَزْوَرَة فى سوق مكة ـ: «والله، إنك لخير أرض الله، وأحب أرض الله إلى الله، ولولا أنى أُخْرِجَتْ منك ما خرجت»[٣].

وهكذا رواية الترمذى، والنسائى، وابن ماجه، من حديث الزهرى، به [٤] . وقال الترمذى: حسن صحيح .

وقوله: ﴿وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ﴾، وهو يوم القيامة، يجمع الله الأولين والآخرين فى صعيد واحد.

وقوله: ﴿ لا رَيْبَ فِيهِ﴾ أى: لا شك فى وقوعه، وأنه كائن لا محالة.

وقوله: ﴿ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾، كقوله: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ﴾ [التغابن: ٩] أى: يَغْبَن أهل الجنة أهل النار، وكقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ[٥] يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ . وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلاَّ لأَجَلٍ مَّعْدُودٍ . يَوْمَ يَأْتِ لا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلاَّ بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴾ [هود: ١٠٣ـ ١٠٥].

قال[٦] الإمام أحمد: حدثنا هاشم بن القاسم، حدثنا لَيْث، حدثنى أبو قبيل المعَافرى، عن شُفَىّ[٧]

---

(١) فى ت: «ما رواه». (٢) فى ت: «قال».

(٣) المسند (٤/ ٣٠٥).

(٤) سنن الترمذى برقم (٣٩٢٥) ،والنسائى فى السنن الكبرى برقم (٤٢٥٢) ،وسنن ابن ماجه برقم (٣١٠٨).

(٥) قبلها فى ت، م، أ: «﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الآخِرَةِ﴾». (٦) فى ت: «روى». (٧) فى أ: «شقيق».

الأصبحى، عن عبد الله بن عمرو ـ رضى الله عنهما ـ قال: خرج علينا رسول الله ﷺ وفى يده كتابان، فقال: «أتدرون ما هذان الكتابان؟» قال: قلنا: لا، إلا أن تخبرنا يا رسول الله. قال للذى فى يده اليُمنى: « هذا كتاب من رب العالمين، بأسماء أهل الجنة وأسماء آبائهم وقبائلهم، ثم أجمل على آخرهم ـ لا يزاد فيهم ولا ينقص منهم أبدا» ثم قال للذى فى يساره: «هذا كتاب أهل النار بأسمائهم وأسماء آبائهم وقبائلهم، ثم أجمل على آخرهم ـ لا يزاد فيهم ولا ينقص منهم أبدا» فقال أصحاب رسول الله ﷺ: فلأى شيء إذاً نعمل إن كان هذا أمر قد فُرِغ منه؟ فقال [(١)] رسول الله ﷺ: «سَدِّدوا وقاربوا، فإن صاحب الجنة يختم له بعمل الجنة[(٢)]، وإن عَمِلَ أى عَمل، وإن صاحب النار ليختم له بعمل النار[(٣)]، وإن عمل أى عمل» ثم قال بيده فقبضها، ثم قال: «فرغ ربكم عز وجل من العباد» ثم قال باليمنى فنبذ بها فقال: «فريق فى الجنة»، ونبذ باليسرى فقال: «فريق فى السعير».

وهكذا رواه الترمذى والنسائى جميعا، عن قتيبة، عن الليث بن سعد وبكر بن مضر، كلاهما عن أبى قَبِيل، عن شُفَىّ بن ماتع [(٤)] الأصبحى، عن عبد الله بن عمرو، به[(٥)].

وقال الترمذى: حسن صحيح غريب.

وساقه البغوى فى تفسيره من طريق بشر بن بكر[(٦)]، عن سعيد بن عثمان، عن أبى الزاهرية، عن عبد الله بن عمرو، عن النبى ﷺ، فذكره بنحوه. وعنده زيادات منها: ثم قال: «فريق فى الجنة وفريق فى السعير، عدل من الله عز وجل»[(٧)].

ورواه [(٨)]ابن أبى حاتم عن أبيه، عن عبد الله بن صالح ـ كاتب الليث ـ عن الليث، به.

ورواه ابن جرير عن يونس، عن ابن وهب، عن عمرو بن الحارث، عن أبى قَبِيل، عن شُفَى، عن رجل من الصحابة، فذكره[(٩)].

ثم روى عن يونس، عن ابن وَهْب، عن عمرو بن الحارث وحَيْوَة بن [(١٠)] شُرَيْح، عن يحيى بن أبى أسيد؛ أن أبا فراس [(١١)]حدثه: أنه سمع عبد الله بن عمرو يقول: إن الله لما خلق آدم نفضه نفض المِزْوَد[(١٢)]، وأخرج منه كل ذريته، فخرج أمثال النَّغَف، فقبضهم قبضتين، ثم قال: شقى وسعيد، ثم ألقاهما، ثم قبضهما. فقال: فريق فى الجنة وفريق فى السعير[(١٣)].

وهذا الموقوف أشبه بالصواب، والله أعلم.

---

(١) فى ت، م: «قال».
(٢) فى م: «بعمل أهل الجنة».
(٣) فى م، ت، أ: «بعمل أهل النار».
(٤) فى أ: «رافع».
(٥) المسند (٢/ ١٦٧)، وسنن الترمذى برقم (٢١٤١)، والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٤٧٣).
(٦) فى م: «بكير».
(٧) معالم التنزيل للبغوى (٧/ ١٨٥).
(٨) فى ت: «روى».
(٩) تفسير الطبرى (٢٥/ ٧).
(١٠) فى أ: «عن».
(١١) فى ت: «عن أبى فراس».
(١٢) فى م: «المرود».
(١٣) تفسير الطبرى (٢٥/ ٧).

وقال الإمام أحمد، رحمه الله :حدثنا عبد الصمد، حدثنا حماد ـ يعنى ابن سلمة ـ أخبرنا الجُرَيرى، عن أبى نضرة، أن رجلا من أصحاب النبى ﷺ يقال له: أبو عبد الله ـ دخل عليه أصحابه يعودونه وهو يبكى، فقالوا له: مايبكيك؟، ألم يقل لك رسول الله ﷺ:«خذ من شاربك ثم أقره حتى تلقانى» قال: بلى، ولكن سمعت رسول الله ﷺ يقول:«إن الله قبض بيمينه قبضة، وأخرى باليد الأخرى، قال: هذه لهذه، وهذه لهذه ولا أبالى» فلا أدرى فى أى القبضتين أنا[1].

وأحاديث القدر فى الصحاح والسنن والمسانيد كثيرة جدا، منها حديث على، وابن مسعود، وعائشة، وجماعة جمة.

وقوله: ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ أى: إما على الهداية أو على الضلالة، ولكنه تعالى فاوت بينهم، فهدى من يشاء [2] إلى الحق، وأضل من يشاء عنه، وله الحكمة والحجة البالغة؛ ولهذا قال: ﴿وَلَكِن يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ﴾.

وقال ابن جرير: حدثنى يونس، أخبرنا ابن وَهْب، أخبرنى عَمرو بن الحارث، عن أبى سويد، حدثه عن ابن حجيرة: أنه بلغه [3] أن موسى، عليه السلام، قال: يارب خَلقُك الذين [4] خلقتهم، جعلت منهم فريقا فى الجنة وفريقا فى النار، لو ما أدخلتهم كلهم الجنة؟! فقال: يا موسى، ارفع ذَرْعك. فرفع، قال: قد رفعت. قال: ارفع. فرفع، فلم يترك شيئا، قال: يارب، قد رفعت، قال: ارفع. قال: قد رفعت، إلا ما لا خير فيه. قال: كذلك أدخل خلقى كلهم الجنة، إلا ما لا خير فيه.

﴿ أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٩) وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ (١٠) فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (١١) لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١٢) ﴾.

يقول تعالى منكراً على المشركين فى اتخاذهم آلهة من دون الله، ومخبراً أنه الولى الحق الذى لا تنبغى العبادة إلا له وحده، فإنه القادر على إحياء الموتى وهو على كل شىء قدير.

ثم قال: ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ أى: مهما اختلفتم فيه من الأمور، وهذا عام فى جميع الأشياء، ﴿فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ أى: هو الحاكم فيه بكتابه، وسنة نبيه ﷺ، كقوله: ﴿ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ [النساء: ٥٩].

﴿ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي ﴾ أى: الحاكم فى كل شىء، ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ أى: أرجع فى جميع الأمور.

---

(١) المسند (٤/ ١٧٦).

(٢) فى أ: «شاء». (٣) فى ت: «وروى ابن جرير بسنده».

(٤) فى ت: «الذى».

وقوله: ﴿فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ أي: خالقهما وما بينهما، ﴿جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾ أي: من جنسكم وشكلكم، منةً عليكم وتفضلا جعل من جنسكم ذكرا وأنثى، ﴿وَمِنَ الأَنْعَامِ أَزْوَاجًا﴾ أي: وخلق لكم من الأنعام ثمانية أزواج.

وقوله: ﴿يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ﴾ أي: يخلقكم فيه، أي: في ذلك الخلق على هذه الصفة لا يزال يذرؤكم(١) فيه ذكورا وإناثا، خلقا من بعد خلق، وجيلا بعد جيل، ونسلا بعد نسل، من الناس والأنعام.

وقال البغوى، رحمه الله: ﴿يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ﴾ أي: في الرحم. وقيل: في البطن. وقيل: في هذا الوجه من الخلقة.

قال مجاهد: ونسلا بعد نسل من الناس والأنعام.

وقيل: «في» بمعنى «الباء»، أي: يذرؤكم به.

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ أي: ليس كخالق الأزواج كلها شيء؛ لأنه الفرد الصمد الذى لا نظير له، ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾.

وقوله: ﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ تقدم تفسيره في «سورة الزمر»، وحاصل ذلك أنه المتصرف الحاكم فيهما، ﴿يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ أي: يوسع على من يشاء، ويضيق على من يشاء، وله الحكمة والعدل التام، ﴿إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ (١٣) وَمَا تَفَرَّقُوا إِلاَّ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ (١٤)﴾.

يقول تعالى لهذه الأمة: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾، فذكر أول الرسل بعد آدم وهو نوح، عليه السلام، وآخرهم وهو محمد ﷺ، ثم ذكر من بين ذلك من أولى العزم وهم: إبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم، عليهم السلام. وهذه الآية انتظمت ذكر الخمسة، كما اشتملت آية «الأحزاب» عليهم في قوله:

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ الآية [الأحزاب: ٧]. والدين الذى جاءت به الرسل كلهم هو: عبادة الله وحده لا شريك له، كما قال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]. وفى

(١) فى أ: «نوعكم».

الحديث: «نحن معشر [١] الأنبياء أولاد علات ديننا واحد» أى: القدر المشترك بينهم هو عبادة الله وحده لا شريك له، وإن اختلفت شرائعهم ومناهجهم، كقوله تعالى: ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة:٤٨]؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾ أى: وصى الله [سبحانه و] [٢] تعالى جميع الأنبياء، عليهم السلام، بالائتلاف والجماعة، ونهاهم عن الافتراق والاختلاف.

وقوله: ﴿كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ أى: شق عليهم وأنكروا ما تدعوهم إليه يا محمد من التوحيد.

ثم قال: ﴿اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ أى: هو الذى يُقدّر الهداية لمن يستحقها، ويكتب الضلالة على من آثرها على طريق الرشد؛ ولهذا قال: ﴿وَمَا اختلفوا إِلاَّ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾، أى: إنما كان مخالفتهم للحق بعد بلوغه إليهم، وقيام الحجة عليهم، وما حملهم على ذلك إلا البغىُ والعنادُ والمشاقة.

ثم قال [الله] [٣] تعالى: ﴿وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أى: لولا الكلمة السابقة من الله بإنظار العباد بإقامة حسابهم إلى يوم المعاد، لعجل لهم العقوبة فى الدنيا سريعاً.

وقوله: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ ﴾ يعنى: الجيل المتأخر بعد القرن الأول المكذّب للحق ﴿لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴾ أى: ليسوا على يقين من أمرهم، وإنما هم مقلدون لآبائهم وأسلافهم، بلا دليل ولا بُرهان، وهم فى حيرة من أمرهم، وشك مريب، وشقاق بعيد.

﴿ فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ (١٥) ﴾.

اشتملت هذه الآية الكريمة على عشر كلمات مستقلات، كل منها منفصلة عن التى قبلها، [لها] [٤] حكم برأسه ـ قالوا: ولا نظير لها سوى آية الكرسى، فإنها أيضا عشرة [٥] فصول كهذه.

قوله [٦]: ﴿فَلِذَلِكَ فَادْعُ﴾ أى: فللذى أوحينا إليك من الدين الذى وصينا به جميع المرسلين قبلك أصحاب الشرائع الكبار المتبعة كأولى العزم وغيرهم، فادعُ الناس إليه.

وقوله: ﴿وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾ أى: واستقم أنت ومن اتبعك على عبادة الله، كما أمركم الله عز وجل.

وقوله: ﴿وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ ﴾ يعنى: المشركين فيما اختلقوه، وكذبوه، وافتروه من عبادة الأوثان.

وقوله: ﴿وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ﴾ أى: صدقت بجميع الكتب المنزلة من السماء على

(١) فى ت، م: «معاشر». (٢) زيادة من ت، م، أ. (٣) زيادة من م.
(٤) زيادة من ت، أ. (٥) فى ت: «عشر». (٦) فى ت: «فقوله».

الأنبياء، لا نفرق (١) بين أحد منهم.

وقوله: ﴿ وَأُمِرْتُ لأَعْدِلَ بَيْنَكُم﴾ أي: في الحكم كما أمرني الله.

وقوله: ﴿اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾ أي: هو المعبود، لا إله غيره، فنحن نقر بذلك اختيارا، وأنتم وإن لم تفعلوه اختيارا، فله يسجد من في العالمين طوعا واختياراً.

وقوله: ﴿ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ﴾ أي: نحن برآء منكم، كما قال تعالى: ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ٤١].

وقوله: ﴿لا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُم﴾ قال مجاهد: أي لا خصومة. قال السدي: وذلك قبل نزول آية السيف. وهذا متَّجه؛ لأن هذه الآية مكية، وآية السيف بعد الهجرة.

وقوله: ﴿ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا ﴾ أي: يوم القيامة، كقوله: ﴿ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ ﴾ [سبأ: ٢٦].

وقوله: ﴿ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ أي: المرجع والمآب يوم الحساب.

﴿ وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ (١٦) اللَّهُ الَّذِي أَنزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ (١٧) يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلالٍ بَعِيدٍ (١٨) ﴾.

يقول تعالى ـ متوعدا الذين يصدون عن سبيل الله من آمن به ـ: ﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ﴾ أي: يجادلون المؤمنين المستجيبين لله ولرسوله، ليصدوهم عما سلكوه من طريق الهدى، ﴿حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أي: باطلة عند الله، ﴿وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ﴾ أي: منه، ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ أي: يوم القيامة.

قال ابن عباس، ومجاهد: جادلوا المؤمنين بعد ما استجابوا لله ولرسوله، ليصدوهم عن الهدى، وطمعوا أن تعود الجاهلية.

وقال قتادة: هم اليهود والنصارى، قالوا لهم: ديننا خير من دينكم، ونبينا قبل نبيكم، ونحن خير منكم، وأولى بالله منكم. وقد كذبوا في ذلك.

ثم قال: ﴿ اللَّهُ الَّذِي أَنزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ ﴾ يعني: الكتب المنزلة من عنده على أنبيائه ﴿ وَالْمِيزَانَ﴾، وهو: العدل والإنصاف، قاله مجاهد، وقتادة.

وهذه كقوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾[الحديد: ٢٥]، وقوله: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ . أَلاَّ تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ . وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ [الرحمن: ٧ ـ ٩].

(١) في ت: «لا يفرق».

وقوله: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾: فيه ترغيب فيها، وترهيب منها، وتزهيد فى الدنيا.

وقوله: ﴿ يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِهَا ﴾ أى: يقولون: ﴿ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [سبأ:٢٩]، وإنما يقولون [١] ذلك تكذيبا واستبعادا، وكفراً وعناداً، ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا﴾ أى: خائفون وَجِلُون من وقوعها ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ﴾ أى: كائنة لا محالة، فهم مستعدون لها عاملون من أجلها.

وقد رُوى من طرق تبلغ درجة التواتر، فى الصحاح والحسان، والسنن والمسانيد، وفى بعض ألفاظه؛ أن رجلا سأل رسول الله ﷺ بصوت جَهْوَرِىّ، وهو فى بعض أسفاره، فناداه فقال: يامحمد. فقال له النبى ﷺ نحوا من صوته «هاؤم». فقال: متى الساعة؟ فقال له رسول الله ﷺ: «ويحك، إنها كائنة، فما أعددت لها؟». فقال: حُب الله ورسوله. فقال: «أنت مع من أحببت»[٢].

فقوله فى الحديث: «المرء مع من أحب»، هذا متواتر لا محالة، والغرض أنه لم يجبه عن وقت الساعة، بل أمره بالاستعداد لها.

وقوله: ﴿أَلا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ ﴾ أى: يحاجّون فى وجودها ويدفعون وقوعها، ﴿لَفِي ضَلالٍ بَعِيدٍ﴾ أى: فى جهل بين؛ لأن الذى خلق السموات والأرض قادرٌ على إحياء الموتى بطريق الأولى والأحرى، كما قال: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ [الروم:٢٧].

﴿ اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ (١٩) مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ (٢٠) أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ وَلَوْلا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢١) تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ (٢٢) ﴾.

يقول تعالى مخبرا عن لطفه بخلقه فى رزقه إياهم عن آخرهم، لا ينسى أحدا منهم، سواء فى رزقه البرّ والفاجر، كقوله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [هود:٦]. ولها [٣] نظائر كثيرة

وقوله: ﴿ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ ﴾أى: يوسع على من يشاء، ﴿ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾ أى: لا يعجزه شىء.

---

(١) فى ت: «يقول».

(٢) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٦١٦٧)، ومسلم فى صحيحه برقم (٢٦٣٩) من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه.

(٣) فى ت: «ولهذا».

ثم قال: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ﴾ أى: عمل الآخرة، ﴿ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ﴾ أى: نقويه ونعينه على ما هو بصدده، ونكثر نماءه، ونجزيه بالحسنة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، إلى ما يشاء الله. ﴿وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ أى: ومن كان إنما سعيه ليحصل له شيء من الدنيا، وليس له إلى الآخرة همَّة[١] البتة بالكلية، حرَمه الله الآخرة، والدنيا إن شاء أعطاه منها، وإن لم يشأ لم يحصل[٢] له لا هذه ولا هذه، وفاز هذا الساعى بهذه النية بالصفقة الخاسرة فى الدنيا والآخرة.

والدليل على هذا أن هذه الآية هاهنا مقيدة بالآية التى فى «سبحان» وهى قوله تعالى: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا . وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا . كُلاًّ نُّمِدُّ هَؤُلاءِ وَهَؤُلاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا . انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَلَلآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً﴾ [الإسراء: ١٨ ـ ٢١].

وقال الثورى، عن مُغيرة، عن أبى العالية، عن أبى بن كعب [رضى الله عنه][٣] قال: قال رسول الله ﷺ: «بشر هذه الأمة بالسَّناء والرفعة، والنصر والتمكين فى الأرض، فمن عمل منهم عمل الآخرة للدنيا، لم يكن له فى الآخرة من نصيب»[٤].

وقوله: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ﴾ أى: هم لا يتبعون ما شرع الله لك من الدين القويم، بل يتبعون ما شرع لهم شياطينهم من الجن والإنس، من تحريم ما حرموا عليهم، من البحيرة والسائبة والوصيلة والحام، وتحليل الميتة والدم والقمار، إلى نحو ذلك من الضلالات والجهالة[٥] الباطلة، التى كانوا قد اخترعوها فى جاهليتهم، من التحليل والتحريم، والعبادات الباطلة، والأقوال الفاسدة.

وقد ثبت فى الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «رأيت عَمرو بن لُحىّ بن قَمَعَة يَجُر قُصْبَه فى النار»[٦]. لأنه أول من سيب السوائب. وكان هذا الرجل أحد ملوك خزاعة، وهو أول من فعل هذه الأشياء، وهو الذى حَمَل قريشا على عبادة الأصنام، لعنه الله وقبحه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَوْلا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ ، أى: لعوجلوا بالعقوبة، لولا ما تقدم من الإنظار إلى يوم المعاد، ﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أى: شديد موجع[٧] فى جهنم وبئس المصير.

ثم قال تعالى: ﴿ تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا﴾ أى: فى عرصات القيامة، ﴿وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ ﴾ أى: الذى يخافون منه واقع بهم لا محالة، هذا حالهم يوم معادهم، وهم فى هذا الخوف والوجل، ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ ، فأين هذا من هذا:

---

(١) فى ت: «وهم». (٢) فى أ: «يجعل». (٣) زيادة من ت.
(٤) رواه البغوى فى شرح السنة (١٤/ ٣٣٥) من طريق الثورى به.
(٥) فى أ: «الجهالات».
(٦) انظر تخريج هذا الحديث عند تفسير الآية: ١٠٣ من سورة المائدة.
(٧) فى ت، أ: «وجيع».

أين من هو فى العَرَصات فى الذل والهوان والخوف المحقق عليه بظلمه، ممن هو فى روضات الجنات، فيما يشاء من مآكل ومشاربَ وملابس ومساكن ومناظر ومناكح وملاذ، فيما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

قال الحسن بن عرفة: حدثنا عمر بن عبد الرحمن الأبار، حدثنا محمد بن سعد الأنصارى[١]، عن أبى طَيْبَة، قال: إن الشَّرْب من أهل الجنة لتظلهم السحابة فتقول: ما أمطِرُكُم. قال: فما يدعو داع من[٢] القوم بشىء إلا أمطرتهم، حتى إن القائل منهم ليقول: أمطرينا كواعب أترابا.

رواه ابن جرير، عن الحسن بن عرفة، به.

ولهذا قال تعالى: ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ أى: الفوز العظيم، والنعمة التامة السابغة الشاملة العامة.

﴿ ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ (٢٣) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِن يَشَإِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٢٤) ﴾.

يقول تعالى لما ذكر روضات الجنة، لعباده الذين آمنوا وعملوا الصالحات: ﴿ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أى: هذا حاصل لهم، كائن لا محالة، ببشارة الله لهم به.

وقوله: ﴿ قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾ أى: قل يا محمد لهؤلاء المشركين من كفار قريش: لا أسألكم على هذا البلاغ والنصح لكم ما لا تعطونيه، وإنما أطلب منكم أن تكفوا شركم عنى، وتذرونى أبلغ رسالات[٣] ربى، إن لم تنصرونى فلا تؤذونى بما بينى وبينكم من القرابة.

قال البخارى: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن عبد الملك بن ميسرة قال: سمعت طاوسا[٤] عن ابن عباس: أنه سئل عن قوله تعالى: ﴿ إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾، فقال سعيد بن جبير: قربى آل محمد. فقال ابن عباس: عَجِلْتَ، إن النبى ﷺ لم يكن بطن من قريش إلا كان له فيهم قرابة، فقال: إلا أن تصلوا ما بينى وبينكم من القرابة. انفرد به البخارى[٥].

ورواه الإمام أحمد، عن يحيى القطان، عن شعبة به. وهكذا روى عامر الشعبى، والضحاك، وعلى بن أبى طلحة، والعَوْفى، ويوسف بن مِهْران، وغير واحد، عن ابن عباس، مثله. وبه قال مجاهد، وعكرمة، وقتادة، والسدى، وأبو مالك، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وغيرهم.

وقال الحافظ أبو القاسم الطبرانى[٦]: حدثنا هاشم بن يزيد الطبرانى وجعفر القلانسى قالا: حدثنا

---

(١) فى ت: «روى الحسن بن عرفة بسنده». (٢) فى أ: «فى». (٣) فى ت، م، أ: «رسالة».
(٤) فى ت: «روى البخارى بسنده».
(٥) صحيح البخارى برقم (٤٨١٨)، والمسند (١/ ٢٢٩).
(٦) فى ت: «وروى الطبرانى».

آدم بن أبى إياس، حدثنا شريك، عن خُصَيف، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: قال لهم رسول الله ﷺ: «لا أسألكم عليه أجرا إلا أن تَوَدّونى فى نفسى لقرابتى منكم، وتحفظوا القرابة التى بينى وبينكم»[١].

وروى الإمام أحمد، عن حسن بن موسى: حدثنا قَزَعة، يعنى ابن سُوَيد ـ وابن أبى حاتم ـ عن أبيه، عن مسلم بن إبراهيم، عن قَزَعة بن سويد ـ عن ابن أبى نَجِيح، عن مجاهد، عن ابن عباس؛ أن النبى ﷺ قال: «لا أسألكم على ما آتيتكم من البينات والهدى أجرا، إلا أن تُوَادوا الله، وأن تقربوا إليه بطاعته»[٢].

وهكذا روى قتادة عن الحسن البصرى، مثله.

وهذا كأنه تفسير بقول ثان، كأنه يقول: **﴿ إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى ﴾** أى: إلا أن تعملوا بالطاعة التى تقربكم عند الله زلفى.

وقول ثالث: وهو ما حكاه البخارى وغيره، رواية عن سعيد بن جبير، ما معناه، أنه قال: معنى ذلك أن تودونى فى قرابتى، أى: تحسنوا إليهم وتبروهم.

وقال السدى، عن أبى الديلم قال: لما جىء بعلى بن الحسين أسيرا، فأقيم على درج دمشق، قام رجل من أهل الشام فقال: الحمد لله الذى قتلكم واستأصلكم، وقطع قرنى الفتنة. فقال له على بن الحسين: أقرأت القرآن؟ قال: نعم. قال: أقرأت آل حم؟ قال: قرأت القرآن، ولم أقرأ آل حم. قال: ما قرأت: **﴿ قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى ﴾** ؟ قال: وإنكم أنتم[٣] هم؟ قال: نعم.

وقال أبو إسحاق السَّبِيعى: سألت عمرو بن شعيب عن قوله تعالى: **﴿ قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى ﴾**، فقال: قربى النبى ﷺ. رواهما ابن جرير[٤].

ثم قال ابن جرير: حدثنا أبو كُرَيْب، حدثنا مالك بن إسماعيل، حدثنا عبد السلام، حدثنى يزيد ابن أبى زياد، عن مقسم، عن ابن عباس قال: قالت الأنصار: فعلنا وفعلنا، وكأنهم فخروا. فقال ابن عباس ـ أو: العباس، شك عبد السلام ـ: لنا الفضل عليكم. فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فأتاهم فى مجالسهم فقال: «يا معشر الأنصار، ألم تكونوا أذلة فأعزكم الله بى؟» قالوا: بلى، يا رسول الله. قال: «ألم تكونوا ضلالاً فهداكم الله بى؟» قالوا: بلى يا رسول الله. قال: «أفلا تجيبونى؟» قالوا: ما نقول يا رسول الله؟ قال: «ألا تقولون: ألم يخرجك قومك فآويناك؟ أو لم يكذبوك فصدقناك؟ أو لم يخذلوك فنصرناك»؟ قال: فما زال يقول حتى جثوا على الركب، وقالوا: أموالنا وما فى أيدينا لله ولرسوله. قال: فنزلت: **﴿ قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى ﴾**[٥].

وهكذا رواه ابن أبى حاتم، عن على بن الحسين، عن عبد المؤمن بن على، عن عبد السلام، عن

---

(١) المعجم الكبير (١١/ ٤٣٥).
(٢) المسند (١/ ٢٦٨).
(٣) فى ت، أ: «لأنتم».
(٤) تفسير الطبرى (٢٥/ ١٧).
(٥) تفسير الطبرى (٢٥/ ١٦).

يزيد بن أبى زياد ـ وهو ضعيف ـ بإسناده مثله، أو قريبا منه.

وفى الصحيحين ـ فى قسم غنائم حنين ـ قريب من هذا السياق، ولكن ليس فيه ذكر نزول هذه الآية. وذكْرُ نزولها فى المدينة فيه نظر؛ لأن السورة مكية، وليس يظهر بين هذه الآية الكريمة وبين السياق مناسبة، والله أعلم.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا على بن الحسين، حدثنا رجل سماه، حدثنا حسين الأشقر، عن قيس، عن الأعمش، عن سعيد بن جبير[1]، عن ابن عباس قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿ **قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى** ﴾، قالوا: يا رسول الله، من هؤلاء الذين أمر الله بمودتهم؟ قال: «فاطمة وولدها، عليهم السلام»[2].

وهذا إسناد[3] ضعيف، فيه مبهم لا يعرف، عن شيخ شيعى مُتَخَرِّق[4]، وهو حسين الأشقر، ولا يقبل خبره فى هذا المحل. وذكْرُ نزول هذه الآية فى المدينة بعيد؛ فإنها مكية ولم يكن إذ ذاك لفاطمة أولاد بالكلية، فإنها لم تتزوج بعلى إلا بعد بدر من[5] السنة الثانية من الهجرة.

والحق تفسير الآية بما فسرها به الإمام حَبْرُ الأمة، وترجمان القرآن، عبد الله بن عباس، كما رواه عنه البخارى [رحمه الله][6]: ولا تنكر الوصاة[7] بأهل البيت، والأمر بالإحسان إليهم، واحترامهم وإكرامهم، فإنهم من ذرية طاهرة، من أشرف بيت وجد على وجه الأرض، فخراً وحسباً ونسباً، ولاسيما إذا كانوا متبعين للسنة النبوية الصحيحة الواضحة الجلية، كما كان عليه سلفهم، كالعباس وبنيه، وعلى وأهل بيته وذريته، رضى الله عنهم أجمعين.

و [قد ثبت][8] فى الصحيح: أن رسول الله ﷺ قال فى خطبته بِغَدِير خُمّ: «إنى تارك فيكم الثقلين: كتاب الله وعترتى، وإنهما لم يفترقا حتى يردا على الحوض»[9].

وقال الإمام أحمد: حدثنا يزيد بن هارون، أخبرنا إسماعيل بن أبى خالد، عن يزيد بن أبى زياد، عن عبد الله بن الحارث[10]، عن العباس بن عبد المطلب قال: قلت: يا رسول الله، إن قريشا إذا لقى بعضهم بعضا لقوهم ببشر حَسَن، وإذا لقونا لقونا بوجوه لا نعرفها؟ قال: فغضب النبى ﷺ غضباً شديدا، وقال: «والذى نفسى بيده، لا يدخل قلب الرجل الإيمان حتى يحبكم لله ولرسوله»[11].

ثم قال أحمد[12]: حدثنا جرير، عن يزيد بن أبى زياد، عن عبد الله بن الحارث، عن عبد المطلب ابن ربيعة قال: دخل العباس على رسول الله ﷺ فقال: إنا لنخرج فنرى قريشا تُحدْث، فإذا رأونا

(١) فى ت: «وروى ابن أبى حاتم بسنده».
(٢) ورواه الطبرانى فى المعجم الكبير (١١/ ٤٤٤) من طريق حرب الطحان عن حسين الأشقر به.
(٣) فى أ: «الإسناد». (٤) فى أ: «مخترق». (٥) فى أ: «فى».
(٦) زيادة من ت، م، أ. (٧) فى ت: «ولا ينكر الوصاية». (٨) زيادة من ت، أ.
(٩) صحيح مسلم برقم (٢٤٠٨) بنحوه من حديث زيد بن الأرقم.
(١٠) فى ت: «وروى الإمام أحمد بإسناده».
(١١) المسند (١/ ٢٠٧).
(١٢) فى ت: «ثم روى الإمام أحمد».

سكتوا. فغضب رسول الله ﷺ ودرّ عِرْقُ بين عينه[١]، ثم قال: «والله لا يدخل قلب امرئ[٢] إيمان حتى يحبكم لله ولقرابتى»[٣].

وقال البخارى: حدثنا عبد الله بن عبد الوهاب، حدثنا خالد، حدثنا شعبة، عن واقد قال: سمعتُ أبى يحدّث[٤] عن ابن عمر، عن أبى بكر الصديق، رضى الله عنه، قال: ارقبوا محمدا ﷺ فى أهل بيته[٥].

وفى الصحيح: أن الصديق قال لعلى، رضى الله عنهما: والله لقرابة رسول الله ﷺ أحب إلىّ أن أصل من قرابتى[٦] [٧].

وقال عمر بن الخطاب للعباس، رضى الله عنهما: والله لإسلامك يوم أسلمت، كان أحب إلىّ من إسلام الخطاب لو أسلم؛ لأن إسلامك كان أحب إلى رسول الله من إسلام الخطاب.

فحال الشيخين، رضى الله عنهما، هو الواجب على كل أحد أن يكون كذلك؛ ولهذا كانا أفضل المؤمنين بعد النبيين والمرسلين، رضى الله عنهما، وعن سائر الصحابة أجمعين.

وقال الإمام أحمد، رحمه الله: حدثنا إسماعيل بن إبراهيم، عن أبى حَيّان التيمى، حدثنى يزيد ابن حيّان قال: انطلقت أنا وحُسَين بن مَيْسَرة، وعمر[٨] بن مسلم إلى زيد[٩] بن أرقم، فلما جلسنا إليه قال له حصين: لقد لقيتَ يا زيد[١٠] خيراً كثيراً، رأيتَ رسول الله ﷺ، وسمعت حديثه، وغزوتَ معه، وصليتَ معه. لقد رأيت يا زيد خيراً كثيراً. حدثنا يا زيد ما سمعت من رسول الله ﷺ. فقال: يا ابن أخى، والله كَبُرت[١١] سنى، وقدم عهدى، ونسيت بعض الذى كنت أعى من رسول الله ﷺ، فما حدثتكم فاقبلوه، وما لا فلا تُكَلّفونيه. ثم قال: قام رسول الله ﷺ يوماً خطيباً فينا، بماء يدعى خُمّا ـ بين مكة والمدينة ـ فحمد الله وأثنى عليه، وذكر ووعظ، ثم قال: «أما بعد، ألا أيها الناس، إنما أنا بشر يوشك أن يأتينى رسول ربى فأجيب، وإنى تارك فيكم الثقلين، أولهما: كتاب الله، فيه الهدى والنور، فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به» فحث على كتاب الله ورغب فيه، وقال: «وأهل بيتى أذكركم الله فى أهل بيتى، أذكركم الله فى أهل بيتى». فقال له حصين: ومَنْ أهل بيته يا زيد؟ أليس نساؤه من أهل بيته؟ قال: إن نساءه من أهل بيته، ولكن أهل بيته من حُرِم الصدقة بعده. قال: ومن هم؟ قال: هم آل على، وآل عقيل، وآل جعفر، وآل العباس. قال: أكل هؤلاء حرم الصدقة؟ قال: نعم.

وهكذا رواه مسلم [فى الفضائل][١٢]، والنسائى من طرق عن يزيد بن حيّان به[١٣].

---

(١) فى ت، أ: «عينيه». (٢) فى ت، أ: «امرئ مسلم».
(٣) المسند (١/٢٠٧).
(٤) فى ت: «وروى البخارى بإسناده».
(٥) صحيح البخارى برقم (٣٧١٣).
(٦) فى أ: «أحب إلىَّ من أن أصل قرابتى».
(٧) صحيح البخارى برقم (٣٧١٢).
(٨) فى ت، أ: «وعمرو». (٩) فى أ: «يزيد». (١٠) فى أ: «يزيد».
(١١) فى ت، أ: «والله لقد كبرت». (١٢) زيادة من ت، م، أ.
(١٣) المسند (٤/٣٦٦) وصحيح مسلم برقم (٢٤٠٨) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (٨١٧٥).

وقال أبو عيسى الترمذى[(١)]: حدثنا على بن المنذر الكوفى، حدثنا محمد بن فضيل، حدثنا الأعمش، عن عطية، عن أبى سعيد ـ والأعمش، عن حبيب بن أبى ثابت، عن زيد بن أرقم ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «إنى تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدى، أحدهما أعظم من الآخر: كتاب الله حبل ممدود من[(٢)] السماء إلى الأرض، والآخر عترتى: أهل بيتى، ولن يتفرَّقا حتى يردا على الحوض، فانظروا كيف تخلفونى فيهما».

تفرد بروايته الترمذى[(٣)]، ثم قال: هذا حديث حسن غريب.

وقال الترمذى أيضا[(٤)]: حدثنا نصر بن عبد الرحمن الكوفى، حدثنا زيد بن الحسن، عن جعفر ابن محمد، عن أبيه، عن جابر بن عبد الله [(٥)] قال: رأيت رسول الله ﷺ فى حجته يوم عرفة، وهو على ناقته القصواء يخطب، فسمعته يقول: «يا أيها الناس، إنى تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا: كتاب الله، وعترتى: أهل بيتى».

تفرد به الترمذى أيضا[(٦)]، وقال: حسن غريب، وفى الباب عن أبى ذر، وأبى سعيد، وزيد بن أرقم، وحذيفة بن أسيد.

ثم قال الترمذى: حدثنا أبو داود سليمان بن الأشعث، حدثنا يحيى بن مَعين، حدثنا هشام بن يوسف، عن عبد الله بن سليمان النوفلى، عن محمد بن على بن عبد الله بن عباس، عن أبيه، عن جده عبد الله بن عباس[(٧)] قال: قال رسول الله ﷺ: «أحبوا الله لما يغذوكم [(٨)] من نعمه، وأحبونى[(٩)] بحب الله، وأحبوا أهل بيتى بحبى».

ثم قال[(١٠)]: حسن غريب إنما نعرفه من هذا الوجه[(١١)].

وقد أوردنا أحاديث أُخَر عند قوله تعالى: ﴿ **إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً** ﴾ [الأحزاب: ٣٣][(١٢)]، بما أغنى عن إعادتها هاهنا، ولله الحمد والمنة.

وقال الحافظ أبو يعلى: حدثنا سويد بن سَعِيد، حدثنا مُفَضّل بن عبد الله، عن أبى إسحاق، عن حَنَش قال: سمعت أبا ذر وهو آخذ بحلقة الباب يقول: يأيها الناس، من عرفنى فقد عرفنى، ومن أنكرنى فأنا أبو ذر، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنما مثل أهل بيتى فيكم مَثَل سفينة نوح، من

---

(١) فى ت: «وروى الترمذى».
(٢) فى ت: «بين».
(٣) سنن الترمذى برقم (٣٧٨٨).
(٤) فى ت: «وروى الترمذى».
(٥) فى ت: «عبد الله رضى الله عنه».
(٦) سنن الترمذى برقم (٣٧٨٦).
(٧) فى ت: «وروى الترمذى أيضا عن ابن عباس».
(٨) فى ت: «يغذوكم به».
(٩) فى ت: «فأحبونى».
(١٠) فى ت: «وقال».
(١١) سنن الترمذى برقم (٣٧٨٩).
(١٢) انظر: تفسير الآية: ٣٣ من سورة الأحزاب.

دخلها نجا، ومن تخلف عنها هلك»[١].

هذا بهذا الإسناد ضعيف.

وقوله: ﴿ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا ﴾ أى: ومن يعمل حسنة ﴿ نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا﴾ أى: أجرا وثوابا، كقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيماً ﴾ [النساء: ٤٠].

وقال بعض السلف: [إن][٢] من ثواب الحسنة الحسنة بعدها، ومن جزاء السيئة السيئة بعدها.

وقوله: ﴿ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ أى: يغفر الكثير من السيئات، ويكثر القليل من الحسنات، فيستر ويغفر، ويضاعف فيشكر.

وقوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِن يَشَأِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ أى: لو افتريت عليه كذباً كما يزعم هؤلاء الجاهلون ﴿ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ﴾ أى: لطبع على قلبك وسلبك ما كان آتاك من القرآن، كقوله تعالى: ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ . لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ . ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ . فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾ [الحاقة: ٤٤ـ ٤٧] أى: لانتقمنا منه أشد الانتقام، وما قدر أحد من الناس أن يحجز عنه.

وقوله: ﴿ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ﴾ ليس معطوفا على قوله: ﴿يَخْتِمْ﴾ فيكون مجزوما، بل هو مرفوع على الابتداء، قاله ابن جرير، قال: وحذفت من كتابته «الواو» في رسم المصحف الإمام، كما حذفت في[٣] قوله: ﴿سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ﴾ [العلق: ١٨]، وقوله: ﴿ وَيَدْعُ الإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ﴾ [الإسراء: ١١].

وقوله: ﴿ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ﴾ معطوف على ﴿ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ﴾ أى: يحققه ويثبته ويبينه ويوضحه بكلماته، أى بحججه وبراهينه، ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أى: بما تكنه الضمائر، وتنطوى عليه السرائر.

﴿ وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ (٢٥) وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ (٢٦) وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الأَرْضِ وَلَكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ (٢٧) وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ (٢٨) ﴾.

يقول تعالى ممتنا على عباده بقبول توبتهم إليه إذا تابوا ورجعوا إليه: أنه من كرمه وحلمه أنه يعفو ويصفح ويستر ويغفر، كقوله: ﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ١١٠]، وقد ثبت فى صحيح مسلم، رحمه الله، حيث قال:

---

(١) ورواه الحاكم فى المستدرك وصححه (٣/ ١٥٠) من طريق مفضل بن صالح عن أبى إسحاق به، وتعقبه الذهبى بقوله: «فيه مفضل ابن صالح واه»، ورواه الطبرانى فى المعجم الكبير (٣/ ٣٧) من طريق عبد الله بن داهر عن عبد الله بن عبد القدوس عن الأعمش عن أبى إسحاق به، وفى إسناده عبد الله بن داهر الرازى متروك.

(٢) زيادة من ت، م ، أ.

(٣) فى ت، أ: «من».

حدثنا محمد بن الصباح وزهير بن حرب قال[(١)]: حدثنا عمر بن يونس، حدثنا عكرمة بن عمار، حدثنا إسحاق بن أبى طلحة، حدثنى أنس بن مالك ـ وهو عمه [(٢)] ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «لله أشد فرحا بتوبة عبده حين يتوب إليه، من أحدكم كان راحلته بأرض فلاة فانفلتت منه، وعليها طعامه وشرابه، فأيس منها، فأتى شجرة فاضطجع فى ظلها، قد أيس من راحلته، فبينما هو كذلك إذا هو بها قائمة عنده، فأخذ بخطامها ثم قال من شدة الفرح: اللهم، أنت عبدى وأنا ربك ـ أخطأ من شدة الفرح»[(٣)].

وقد ثبت أيضا فى الصحيح من رواية عبد الله بن مسعود نحوه[(٤)] [(٥)].

وقال عبد الرزاق، عن معمر، عن الزهرى فى قوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾ : إن أبا هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لله أشد فرحا بتوبة عبده من أحدكم يجد ضالته[(٦)] فى المكان الذى يخاف أن يقتله العطش فيه»[(٧)].

وقال همام بن الحارث: سئل ابن مسعود عن الرجل يفجر بالمرأة ثم يتزوجها؟ قال: لا بأس به، وقرأ: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾ الآية رواه ابن جرير، وابن أبى حاتم من حديث شريك القاضى، عن إبراهيم بن مهاجر، عن إبراهيم النخعى، عن همام، فذكره[(٨)].

وقوله: ﴿وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ﴾ أى: يقبل التوبة فى المستقبل، ويعفو عن السيئات فى الماضى، ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ أى: هو عالم بجميع ما فعلتم وصنعتم وقلتم، ومع هذا يتوب على من تاب إليه.

وقوله: ﴿ وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ قال السدى: يعنى يستجيب لهم. وكذا قال ابن جرير: معناه يستجيب الدعاء لهم[(٩)] [لأنفسهم][(١٠)] ولأصحابهم وإخوانهم. وحكاه عن بعض النحاة، وأنه جعلها كقوله: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ﴾ [آل عمران: ١٩٥].

ثم روى هو وابن أبى حاتم، من حديث الأعمش، عن شقيق بن سلمة، عن سلمة بن سبرة قال: خطبنا معاذ بالشام فقال: أنتم المؤمنون، وأنتم أهل الجنة. والله إنى أرجو أن يدخل الله من تَسْبون من فارس والروم الجنة، وذلك بأن أحدكم إذا عمل له ـ يعنى أحدُهم عملا ـ قال: أحسنت رحمك[(١١)] الله، أحسنت بارك الله فيك، ثم قرأ: ﴿وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُم

---

(١) فى أ: «قالا».
(٢) فى ت: «عمه رضى الله عنه».
(٣) صحيح مسلم برقم (٢٧٤٧).
(٤) فى ت: «مثله».
(٥) صحيح مسلم برقم (٢٧٤٤).
(٦) فى ت: «راحلته».
(٧) تفسير عبد الرزاق (٢/ ١٥٦) وقد روى متصلا، فرواه مسلم فى صحيحه برقم (٢٦٧٥) من طريق عبد الرزاق عن معمر عن همام ابن منبه عن أبى هريرة به.
(٨) تفسير الطبرى (٢٥/ ١٨).
(٩) فى ت، م: «لهم الدعاء».
(١٠) زيادة من ت، م.
(١١) فى ت، م، أ: «يرحمك».

مِّن فَضْلِهِ ﴾.

وحكى ابن جرير عن بعض أهل العربية أنه جعل[١] [مثل][٢] قوله: ﴿ وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ كقوله: ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ﴾ [الزمر: ١٨] أى: هم الذين يستجيبون للحق ويتبعونه، كقوله تبارك وتعالى: ﴿ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ﴾ [الأنعام: ٣٦] والمعنى الأول أظهر؛ لقوله[٣] تعالى: ﴿ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ ﴾ أى: يستجيب دعاءهم ويزيدهم فوق ذلك؛ ولهذا قال ابن أبى حاتم:

حدثنا على بن الحسين، حدثنا محمد بن المصفى، حدثنا بقية، حدثنا إسماعيل بن عبد الله الكندى، حدثنا الأعمش، عن شقيق، عن عبد الله[٤] قال: قال رسول الله ﷺ فى قوله: ﴿ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ﴾، قال: «الشفاعة لمن وجبت له النار، ممن صنع إليهم معروفا[٥] فى الدنيا»[٦].

وقال قتادة عن إبراهيم النخعى اللخمى في قوله تعالى: ﴿ وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾، قال: يشفعون فى إخوانهم، ﴿ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ ﴾ قال: يشفعون فى إخوان إخوانهم.

وقوله: ﴿ وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ : لما ذكر المؤمنين وما لهم من الثواب الجزيل، ذكر الكافرين وما لهم عنده يوم القيامة من العذاب الشديد الموجع المؤلم يوم معادهم وحسابهم.

وقوله: ﴿ وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الأَرْضِ﴾ أى: لو أعطاهم فوق حاجتهم من الرزق، لحملهم ذلك على البغى والطغيان من بعضهم على بعض، أشرا وبطرا.

وقال قتادة: كان يقال: خير العيش ما لا يلهيك ولا يطغيك. وذكر قتادة حديث: «إنما أخاف عليكم ما يخرج الله من زهرة الحياة الدنيا»، وسؤال السائل: أيأتى الخير بالشر؟ الحديث.

وقوله: ﴿وَلَكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ أى: ولكن يرزقهم من الرزق ما يختاره مما فيه صلاحهم، وهو أعلم بذلك، فيغنى من يستحق الغنى، ويفقر من يستحق الفقر. كما جاء فى الحديث المروى: «إن من عبادى لمن[٧] لا يصلحه إلا الغنى، ولو أفقرته لأفسدت عليه دينه، وإن من عبادى لمن لا يصلحه إلا الفقر، ولو أغنيته لأفسدت عليه دينه».

وقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا﴾ أى: من بعد إياس الناس من نزول المطر، ينزله عليهم فى وقت حاجتهم وفقرهم إليه، كقوله: ﴿ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ ﴾ [الروم: ٤٩].

وقوله: ﴿ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ ﴾ أى: يعم بها الوجود على أهل ذلك القُطْر وتلك الناحية.

---

(١) فى ت، م: «جعله».

(٢) زيادة من ت، أ. (٣) فى ت: «كقوله». (٤) فى ت: «روى ابن أبى حاتم بسنده عن عبد الله».

(٥) فى أ: «المعروف».

(٦) ورواه ابن أبى عاصم فى السنة برقم (٨٤٦) من طريق محمد بن مصفى عن بقية به، وفى إسناده إسماعيل الكندى. قال الذهبى فى الميزان (١/ ٢٣٥): «عن الأعمش، وعنه بقية، بخبر عجيب منكر».

(٧) فى ت: «من».

قال قتادة: ذكر لنا أن رجلا قال لعمر بن الخطاب: يا أمير المؤمنين، قُحطَ المطر وقنط الناس؟ فقال عمر، رضى الله عنه: مطرتم، ثم قرأ: ﴿ **وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ**﴾[(١)].

﴿**وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ**﴾ أى: هو المتصرف لخلقه بما ينفعهم فى دنياهم وأخراهم، وهو المحمود العاقبة فى جميع ما يقدره ويفعله.

﴿ **وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ (٢٩) وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ (٣٠) وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ (٣١)** ﴾ .

يقول تعالى: ﴿ **وَمِنْ آيَاتِهِ** ﴾ الدالة على عظمته وقدرته العظيمة وسلطانه القاهر ﴿**خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا**﴾ أى: ذرأ فيهما، أى: فى السموات والأرض، ﴿**مِن دَابَّةٍ** ﴾، وهذا يشمل الملائكة والجن والإنس وسائر الحيوانات، على اختلاف أشكالهم وألوانهم ولغاتهم، وطباعهم وأجناسهم، وأنواعهم، وقد فرقهم فى أرجاء أقطار الأرض والسموات، ﴿ **وَهُوَ** ﴾ مع هذا كله ﴿ **عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ**﴾ أى: يوم القيامة يجمع الأولين والآخرين وسائر الخلائق فى صعيد واحد، يسمعهم الداعى، ويَنْفُذهم البصر، فيحكم فيهم بحكمه العدل الحق.

وقوله: ﴿ **وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ** ﴾ أى: مهما أصابكم أيها الناس من المصائب فإنما هو[(٢)] عن سيئات تقدمت لكم، ﴿ **وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ**﴾ أى: من السيئات، فلا يجازيكم عليها بل يعفو عنها، ﴿ **وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ** ﴾ [فاطر: ٤٥]. وفى الحديث الصحيح: «والذى نفسى بيده، ما يصيب المؤمن من نَصَب ولا وَصَب ولا هم ولا حُزَن، إلا كفر الله عنه بها من خطاياه، حتى الشوكة[(٣)] يشاكها»[(٤)].

وقال ابن جرير: حدثنا يعقوب بن إبراهيم، حدثنا ابن عُلَيَّة، حدثنا أيوب قال: قرأت فى كتاب أبى قِلاَبَة قال: نزلت: ﴿**فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ . وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ** ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨]، وأبو بكر يأكل، فأمسك وقال: يا رسول الله، إنى لراء ما عملت من خير وشر؟ فقال: «أرأيت ما رأيت مما تكره، فهو من مثاقيل ذَرّ الشر، وتدخر مثاقيل الخير حتى تعطاه يوم القيامة» قال: قال أبو إدريس: فإنى أرى مصداقها فى كتاب الله: ﴿ **وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ**﴾[(٥)].

ثم رواه من وجه آخر، عن أبى قِلاَبَة، عن أنس[(٦)]، قال: والأول أصح.

---

(١) رواه الطبرى فى تفسيره (٢٥/ ١٩).

(٢) فى ت، أ: «هى». (٣) فى ت، أ: «بالشوكة».

(٤) صحيح البخارى برقم (٥٦٤١، ٥٦٤٢) وصحيح مسلم برقم (٢٥٧٣) «من حديث أبى سعيد الخدرى وأبى هريرة رضى الله عنهما».

(٥) تفسير الطبرى (٢٥/ ٢٠).

(٦) تفسير الطبرى (٢٥/ ٢١).

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا محمد بن عيسى بن الطباع، حدثنا مروان بن معاوية الفَزَارِي، حدثنا الأزهر بن راشد الكاهلي، عن الخَضْر بن القَوَّاس البجلي، عن أبي سخيلة[١]، عن علي، رضي الله عنه، قال: ألا أخبركم بأفضل آية في كتاب الله عز وجل، وحدثنا به رسول الله ﷺ، قال: ﴿ وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ﴾. وسأفسرها لك يا علي: «ما أصابكم من مرض أو عقوبة أو بلاء في الدنيا، فبما كسبت أيديكم[٢]، والله تعالى أحلم من أن يُثَنِّي عليه العقوبة في الآخرة، وما عفا الله عنه في الدنيا فالله[٣] تعالى أكرم من أن يعود بعد عفوه».

وكذا رواه الإمام أحمد، عن مروان بن معاوية وعَبْدة، عن أبي سُخَيلة قال: قال علي. . . فذكر نحوه مرفوعا[٤].

ثم روى ابن أبي حاتم [نحوه][٥] من وجه آخر موقوفا فقال: حدثنا أبي، حدثنا منصور بن أبي مزاحم، حدثنا أبو سعيد بن أبي الوضاح، عن أبي الحسن، عن أبي جُحَيفَة قال: دخلت على علي ابن أبي طالب، رضي الله عنه، فقال: ألا أحدثكم بحديث ينبغي لكل مؤمن أن يَعيه[٦]؟ قال: فسألناه، فتلا[٧] هذه الآية: ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ﴾. قال: ما عاقب الله به في الدنيا فالله أحلم من أن يُثَنِّي عليه العقوبة يوم القيامة، وما عفا الله عنه في الدنيا فالله أكرم من أن يعود في عفوه يوم القيامة.

وقال[٨] الإمام أحمد: حدثنا يعلى بن عبيد، حدثنا طلحة ـ يعني ابن يحيى ـ عن أبي بُرْدَةَ، عن معاوية ـ هو ابن أبي سفيان، رضي الله عنهما، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من شيء يصيب المؤمن في جسده يؤذيه إلا كَفَّرَ الله عنه به من سيئاته»[٩].

وقال أحمد أيضا: حدثنا حسين، عن زائدة، عن ليث، عن مجاهد[١٠]، عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «إذا كثرت ذنوب العبد، ولم يكن له ما يكفرها، ابتلاه الله بالحَزَنِ ليكفرها»[١١].

وقال[١٢] ابن أبي حاتم: حدثنا عمرو بن عبد الله الأودي، حدثنا أبو أسامة، عن إسماعيل بن مسلم، عن الحسن ـ هو البصري ـ قال في قوله: ﴿ وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ﴾ قال: لما نزلت قال رسول الله ﷺ: «والذي نفس محمد بيده، ما من خَدْش عود، ولا اختلاج عِرْق، ولا عَثْرة قدم، إلا بذنب، وما يعفو الله عنه أكثر»[١٣].

وقال[١٤] أيضا: حدثنا أبي، حدثنا عمر بن علي، حدثنا هُشَيْم، عن منصور، عن الحسن، عن

(١) في ت: «وروى ابن أبي حاتم بإسناده». (٢) في أ: «أيديكم ويعفو عن كثير». (٣) في ت: «والله».
(٤) المسند (١/ ٨٥).
(٥) زيادة من أ. (٦) في أ: «يصيبه».
(٧) في ت: «قبل». (٨) في ت: «وروى».
(٩) المسند (٤/ ٩٨) قال الهيثمي في المجمع (٢/ ٣٠١): «رجال أحمد رجال الصحيح».
(١٠) في ت، م: «عن مجاهد، وروى أيضا».
(١١) المسند (٦/ ١٥٧).
(١٢) في ت: «وروى».
(١٣) ورواه هناد بن السري في الزهد برقم (٤٣١) من طريق إسماعيل بن مسلم به مرسلا.
(١٤) في ت: «وروى».

عمران بن حصين، رضى الله عنه، قال: دخل عليه بعض أصحابه وقد كان ابتلى فى جسده، فقال له بعضهم إنا لَنَبْتَئِسُ لك لما نرى فيك. قال: فلا تبتئس بما ترى، فإن ما ترى بذنب، وما يعفو الله عنه أكثر، ثم تلا هذه الآية: ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ﴾.

[قال:][1] وحدثنا أبى: حدثنا يحيى بن عبد الحميد الحمَّانى، حدثنا جرير، عن أبى البلاد[2] قال: قلت للعلاء بن بدر: ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾، وقد ذهب بصرى وأنا غلام؟ قال: فبذنوب والديك.

وحدثنا أبى: حدثنا على بن محمد الطَّنَافسى، حدثنا وكيع، عن عبد العزيز بن أبى رواد، عن الضحاك[3] قال: ما نعلم أحدا حفظ القرآن ثم نسيه[4] إلا بذنب، ثم قرأ الضحاك: ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ﴾. ثم يقول الضحاك: وأى مصيبة أعظم من نسيان القرآن.

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالأَعْلامِ (٣٢) إِن يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (٣٣) أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ (٣٤) وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ (٣٥)﴾.

يقول تعالى: ومن آياته الدالة على قدرته وسلطانه، تسخيره البحر لتجرى فيه الفلك بأمره، وهى الجوارى فى البحر كالأعلام، أى: كالجبال، قاله مجاهد، والحسن، والسدى، والضحاك، أى: هى[5] فى البحر كالجبال فى البر، ﴿إِن يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ﴾ أى: التى تسير بالسفن[6]، لو شاء لسكنها حتى لا تتحرك[7] السفن، بل تظل راكدة لا تجىء ولا تذهب، بل واقفة على ظهره، أى: على وجه الماء ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ﴾ أى: فى الشدائد ﴿شَكُورٍ﴾ أى: إن فى تسخيره البحر وإجرائه الهوى بقدر ما يحتاجون إليه لسيرهم، لدلالات على نعمه تعالى على خلقه ﴿لِّكُلِّ صَبَّارٍ﴾ أى: فى الشدائد، ﴿شَكُورٍ﴾ فى الرخاء.

وقوله: ﴿أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا﴾ أى: ولو شاء لأهلك السفن وغرقها بذنوب أهلها الذين هم راكبون عليها[8]، ﴿وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ﴾ أى: من ذنوبهم. ولو أخذهم بجميع ذنوبهم لأهلك كل من ركب البحر[9].

وقال بعض علماء التفسير: معنى قوله: ﴿أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا﴾ أى: لو شاء لأرسل الريح قوية عاتية، فأخذت السفن وأحالتها[10] عن سيرها المستقيم، فصرفتها ذات اليمين أو ذات الشمال، آبقة لا تسير على طريق، ولا إلى جهة مقصد.

---

(١) زيادة من ت، أ. (٢) فى أ: «أبى العلا». (٣) فى ت: «وروى أيضا عن الضحاك».
(٤) فى أ: «سيبه». (٥) فى أ: «هذه». (٦) فى ت: «تسير بها السفن».
(٧) فى ت: «يتحرك». (٨) فى ت، م، أ: «فيها». (٩) فى م: «كل من يركب فى البحر»، وفى أ: «كل من يركب البحر».
(١٠) فى ت، أ: «فأجالتها»، وفى م: «فاجتالتها».

وهذا القول هو يتضمن هلاكها، وهو مناسب للأول[١]، وهو أنه تعالى لو شاء لسكن الريح فوقفت، أو لقواه فشردت وأبقَت وهلكت. ولكن من لطفه[٢] ورحمته أنه يرسله بحسب الحاجة، كما يرسل المطر بقدر الكفاية، ولو أنزله كثيرا جدا لهدم البنيان، أو قليلا لما أنبت الزرع [٣]والثمار، حتى إنه يرسل إلى مثل بلاد مصر سيحا من أرض أخرى غيرها[٤]؛ لأنهم لا يحتاجون إلى مطر، ولو أنزل عليهم لهدم بنيانهم، وأسقط جدرانهم.

وقوله: ﴿وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾ أى: لا محيد لهم عن بأسنا ونقمتنا، فإنهم مقهورون بقدرتنا.

﴿فَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٣٦) وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ (٣٧) وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٣٨) وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ (٣٩)﴾ .

يقول تعالى محقرا بشأن الحياة الدنيا وزينتها، وما فيها من الزهرة والنعيم الفانى، بقوله: ﴿فَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أى: مهما حصلتم وجمعتم فلا تغتروا به، فإنما هو متاع الحياة الدنيا، وهى دار دنيئة فانية زائلة لا محالة، ﴿وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ أى: وثواب الله خير من الدنيا، وهو باق سرمدى، فلا تقدموا الفانى على الباقى؛ ولهذا قال: ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ أى: للذين صبروا على ترك الملاذ فى الدنيا، ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ أى: ليعينهم على الصبر فى أداء الواجبات وترك المحرمات.

ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ﴾، وقد قدمنا الكلام على الإثم والفواحش فى «سورة الأعراف» ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ أى: سجيتهم [وخلقهم وطبعهم][٥] تقتضى الصفح والعفو عن الناس، ليس سجيتهم الانتقام من الناس.

وقد ثبت فى الصحيح: أن رسول الله ﷺ ما انتقم لنفسه قط، إلا أن تنتهك حرمات الله[٦]. وفى حديث آخر: «كان يقول لأحدنا[٧] عند المعتبة: ماله؟ تربت جبينه»[٨].

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا ابن أبى عمر، حدثنا سفيان، عن زائدة، عن منصور[٩]، عن إبراهيم قال: كان المؤمنون يكرهون أن يستذلوا، وكانوا إذا قدروا عفوا.

---

(١) فى ت، أ: «للقول الأول». (٢) فى أ: «لطف الله». (٣) فى ت، م: «الزروع».
(٤) فى أ: «عليها». (٥) زيادة من أ.
(٦) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٦١٢٦) من حديث عائشة بلفظ: «وما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه فى شىء قط، إلا أن تنتهك حرمة الله، فينتقم بها لله».
(٧) فى أ: «للرجل».
(٨) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٦٠٣١) من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه .
(٩) فى ت: «وروى ابن أبى حاتم بسنده».

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ﴾ أى: اتبعوا رسله وأطاعوا أمره، واجتنبوا زجره، ﴿وَأَقَامُوا الصَّلاةَ﴾، وهى أعظم العبادات لله عز وجل، ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ أى: لا يبرمون أمرا حتى يتشاوروا [(١)] فيه، ليتساعدوا بآرائهم فى مثل الحروب وما جرى مجراها، كما قال تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥٩] ولهذا كان عليه [الصلاة][(٢)] السلام، يشاورهم فى الحروب ونحوها، ليطيب بذلك قلوبهم. وهكذا لما حضرت عمر بن الخطاب [رضى الله عنه][(٣)] الوفاة حين طعن، جعل الأمر بعده شورى فى ستة نفر، وهم: عثمان، وعلى، وطلحة، والزبير، وسعد، وعبد الرحمن بن عوف، رضى الله عنهم أجمعين، فاجتمع رأى الصحابة كلهم على تقديم عثمان عليهم، رضى الله عنهم، ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾، وذلك بالإحسان إلى خلق الله، الأقرب إليهم منهم فالأقرب.

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ﴾ أى: فيهم قوة الانتصار ممن ظلمهم واعتدى عليهم، ليسوا بعاجزين ولا أذلة، بل يقدرون على الانتقام ممن بغى عليهم، وإن كانوا مع هذا إذا قدروا وعفوا، كما قال يوسف، عليه السلام، لإخوته: ﴿لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ [وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ][(٤)]﴾ [يوسف: ٩٢]، مع قدرته على مؤاخذتهم ومقابلتهم على صنيعهم إليه، وكما عفا رسول الله ﷺ عن أولئك النفر الثمانين الذين قصدوه عام الحديبية، ونزلوا من جبل التنعيم، فلما قدر عليهم مَنَّ عليهم [(٥)] مع قدرته على الانتقام، وكذلك عفوه عن غَوْرَث بن الحارث، الذى أراد الفتك به [عليه السلام] [(٦)] حين اخترط سيفه وهو نائم، فاستيقظ، عليه السلام، وهو فى يده صَلْتًا، فانتهره، فوضعه من يده، وأخذ رسول الله ﷺ السيف من يده، ودعا أصحابه، ثم أعلمهم بما كان من أمره وأمر هذا الرجل، وعفا عنه. وكذلك عفا عن لبيد بن الأعصم[(٧)]، الذى سحره، عليه السلام، ومع هذا لم يعرض له، ولا عاتبه، مع قدرته عليه. وكذلك عفوه، عليه السلام، عن المرأة اليهودية ـ وهى زينب أخت[(٨)] مرحب اليهودى الخيبرى الذى قتله محمود بن مسلمة ـ التى سمت الذراع يوم خيبر، فأخبره الذراع بذلك، فدعاها فاعترفت فقال: «ماحملك على ذلك» قالت: أردت إن كنت نبيا لم يضرك، وإن لم تكن نبيا استرحنا منك، فأطلقها، عليه الصلاة والسلام، ولكن لما مات منه بشر بن البراء قتلها به، والأحاديث والآثار فى هذا كثيرة جدا، والحمد لله[(٩)].

﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (٤٠) وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُوْلَئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ (٤١) إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٤٢) وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأُمُورِ (٤٣)﴾.

قوله تعالى: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾، كقوله تعالى: ﴿فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا

(١) فى أ: «يشاورون».
(٢) زيادة من ت.
(٣) زيادة من ت.
(٤) زيادة من أ.
(٥) فى ت، م،أ: «عنهم».
(٦) زيادة من ت.
(٧) فى ت: «أعصم».
(٨) فى ت، م: «بنت».
(٩) فى أ: «ولله الحمد والمنة».

اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٤]. وكقوله[١] ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ﴾ [النحل: ١٢٩]، فشرع العدل وهو القصاص، وندب إلى الفضل وهو العفو، كقوله [تعالى][٢] : ﴿ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ﴾ [المائدة: ٤٥]؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾أى: لا يضيع ذلك عند الله كما صح فى الحديث: «وما زاد الله عبدا بعفو إلا عزا». وقوله: ﴿ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ أى: المعتدين، وهو المبتدئ بالسيئة.

[وقال بعضهم: لما كانت الأقسام ثلاثة: ظالم لنفسه، ومقتصد، وسابق بالخيرات، ذكر الأقسام الثلاثة فى هذه الآية فذكر المقتصد وهو الذى يفيض بقدر حقه لقوله: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾، ثم ذكر السابق بقوله: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾، ثم ذكر الظالم بقوله: ﴿إِنَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ فأمر بالعدل، وندب إلى الفضل، ونهى من الظلم][٣].

ثم قال: ﴿وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَٰئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ﴾ أى: ليس عليهم جناح فى الانتصار ممن ظلمهم.

قال ابن جرير[٤]: حدثنا محمد بن عبد الله بن بَزِيع[٥]، حدثنا معاذ بن معاذ، حدثنا[٦] ابن عَوْن قال: كنت أسأل عن الانتصار: ﴿وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَٰئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ﴾، فحدثنى على ابن زيد[٧] بن جدعان، عن أم محمد ـ امرأة أبيه ـ قال ابن عون: زعموا أنها كانت تدخل على أم المؤمنين عائشة[٨] ـ قالت: قالت أم المؤمنين: دخل علينا رسول الله ﷺ، وعندنا زينب بنت جحش، فجعل يصنع بيده شيئا فلم يَفْطِنْ لها، فقلت بيده حتى[٩] فَطَّنْته لها، فأمسك. وأقبلت زينب تقحم لعائشة، فنهاها، فأبت أن تنتهى. فقال لعائشة: «سُبِّيها» فسبتها فغلبتها، وانطلقت زينب فأتت عليا فقالت: إن عائشة تقع بكم، وتفعل بكم. فجاءت فاطمة فقال[١٠] لها: «إنها حبة أبيك ورب الكعبة» فانصرفت، وقالت لعلى: إنى قلت له كذا وكذا، فقال لى كذا وكذا. قال: وجاء على إلى النبى ﷺ فكلمه فى ذلك[١١].

هكذا ورد هذا السياق، وعلى بن زيد بن جدعان يأتى فى رواياته بالمنكرات غالبا، وهذا فيه نكارة، والحديث الصحيح خلاف هذا السياق، كما رواه النسائى وابن ماجه من حديث خالد بن سلمة الفأفاء، عن عبد الله البَهِىّ، عن عروة قال: قالت عائشة، رضى الله عنها: ما علمتُ حتى دخلت علىَّ زينب بغير إذن وهى غضبى، ثم قالت لرسول الله ﷺ: حسبك إذا قلبت لك ابنة أبى بكر ذُرَيِّعَتَيْهَا ثم أقبلت على فأعرضت عنها، حتى قال النبى ﷺ: «دونك فانتصرى» فأقبلت عليها حتى رأيتها وقد يبس ريقها فى فمها، ما[١٢] ترد على شيئا. فرأيت النبى ﷺ يتهلل وجهه. وهذا لفظ

---

(١) فى ت: «وقوله». (٢) زيادة من ت. (٣) زيادة من ت، أ.
(٤) فى ت: «وروى ابن جرير» (٥) فى أ: «سويع».
(٦) فى ت: «عن». (٧) فى ت: «يزيد». (٨) فى ت: «عائشة رضى الله عنها».
(٩) فى أ: «فقلت له حتى». (١٠) فى ت: «فقالت».
(١١) تفسير الطبرى (٢٥/ ٢٤).
(١٢) فى م: «لم» .

النسائى[١].

وقال البزار: حدثنا يوسف بن موسى، حدثنا أبو غسان، حدثنا أبو الأحوص، عن أبى حمزة، عن إبراهيم، عن الأسود[٢]، عن عائشة، رضى الله عنها، قالت: قال رسول الله ﷺ: «من دعا على من ظلمه فقد انتصر».

ورواه الترمذى من حديث أبى الأحوص، عن أبى حمزة ـ واسمه ميمون ـ ثم قال: «لانعرفه إلا من حديثه، وقد تكلم فيه من قبل حفظه»[٣].

وقوله: ﴿ إِنَّمَا السَّبِيلُ﴾ أى: إنما الحرج والعنت﴿ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ أى: يبدؤون الناس بالظلم. كما جاء فى الحديث الصحيح: «المُسْتَبَّان ما قالا، فعلى البادئ ما لم يَعْتَد المظلوم».

﴿ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أى: شديد موجع.

قال أبو بكر بن أبى شيبة: حدثنا الحسن بن موسى، حدثنا سعيد بن زيد ـ أخو حماد بن زيد ـ حدثنا عثمان الشحام، حدثنا [٤] محمد بن واسع قال: قدمت مكة فإذا على الخندق مَنْظَرَة، فأخذت فانطلق بى إلى مروان بن المهلب، وهو أمير على البصرة، فقال: حاجتك يا أبا عبد الله. قلت: حاجتى إن استطعت أن تكون كما قال أخو بنى عدى. قال: ومن أخو بنى عدى؟ قال: العلاء بن زياد، استعمل صديقا له مرة على عمل، فكتب إليه: أما بعد فإن استطعت ألا تبيت إلا وظهرك خفيف، وبطنك خميص، وكفك نقية من دماء المسلمين وأموالهم، فإنك إذا فعلت [٥] ذلك لم يكن عليك سبيل، ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾فقال[٦]: صدق والله ونصح ثم قال: ما حاجتك يا أبا عبد الله؟ قلت: حاجتى أن تلحقنى بأهلى. قال: نعم. رواه ابن أبى حاتم[٧].

ثم إنه تعالى لما ذم الظلم وأهله وشرع القصاص، قال نادباً إلى العفو والصفح: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ﴾ أى: صبر على الأذى وستر السيئة، ﴿ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأُمُورِ ﴾.

قال سعيد بن جبير: [يعنى] [٨] لمن حق الأمور التى أمر الله بها، أى: لمن الأمور المشكورة والأفعال الحميدة [٩] التى عليها ثواب جزيل وثناء جميل.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا عمران بن موسى الطرسوسى، حدثنا عبد الصمد بن يزيد ـ خادم الفُضَيل بن عياض ـ قال: سمعت [١٠] الفضيل بن عياض يقول[١١]: إذا أتاك رجل

(١) النسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٤٧٦) وسنن ابن ماجه برقم (١٩٨١) قال البوصيرى فى الزوائد (٢/ ١١٥): «هذا إسناد صحيح على شرط مسلم».

(٢) فى ت: «وروى البزار بسنده».

(٣) سنن الترمذى برقم (٣٥٥٢) ورواه ابن أبى شيبة فى المصنف (١٠/ ٣٤٧) وابن عدى فى الكامل (٦/ ٤١٢) من طريق أبى الأحوص به، وقال ابن عدى: «لا أعلم من يرويه عن أبى حمزة غير أبى الأحوص».

(٤) فى ت: «عن». (٥) فى أ: «قبلت». (٦) فى ت، أ: «فقال مروان».

(٧) المصنف لابن أبى شيبة (١٤/ ٦٣)

(٨) زيادة من أ. (٩) فى ت: «المحمودة». (١٠) فى ت« وعن».

(١١) فى ت: «قال».

يشكو إليك رجلا فقل: «ياأخى، اعف عنه». فإن العفو أقرب للتقوى، فإن قال: لا يحتمل قلبى العفو، ولكن أنتصر كما أمرنى الله [(١)] عز وجل. فقل له[(٢)]: إن كنت تحسن أن تنتصر وإلا فارجع إلى باب العفو، فإنه باب واسع، فإنه من عفا وأصلح فأجره على الله، وصاحب العفو ينام على فراشه بالليل، وصاحب الانتصار يقلب الأمور[(٣)].

وقال الإمام أحمد: حدثنا يحيى ـ يعنى ابن سعيد القطان ـ عن ابن عَجْلان، حدثنا سعيد بن أبى سعيد[(٤)]، عن أبى هريرة، رضى الله عنه، أن رجلا شتم أبا بكر والنبى ﷺ جالس، فجعل النبى ﷺ يعجب ويتبسم، فلما أكثر رد عليه بعض قوله، فغضب النبى ﷺ وقام، فلحقه أبو بكر فقال: يا رسول الله، إنه كان يشتمنى وأنت جالس، فلما رددت عليه بعض قوله غضبت وقمت! قال: «إنه كان معك ملك يرد عنك، فلما رددت عليه بعض قوله حضر[(٥)] الشيطان، فلم أكن لأقعد مع الشيطان». ثم قال: «يا أبا بكر، ثلاث كلهن حق، ما من عبد ظُلم بمظلمة فيغضى عنها لله، إلا أعز الله بها نَصْرَه، وما فتح رجل باب عطية يريد بها صلة، إلا زاده الله بها كثرة، وما فتح رجل باب مسألة يريد بها كثرة ، إلا زاده الله بها قلة».

وكذا رواه أبو داود، عن عبد الأعلى بن حماد، عن سفيان بن عيينة ـ قال: ورواه صفوان بن عيسى، كلاهما عن محمد بن عَجْلان [(٦)] .ورواه من طريق الليث، عن سعيد المَقْبُرِى، عن بشير بن المحرر،عن سعيد بن المسيب مرسلا[(٧)].

وهذا الحديث فى غاية الحسن فى المعنى، وهو سببُ سبه للصديق[(٨)].

﴿ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن وَلِيٍّ مِّنْ بَعْدِهِ وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ (٤٤) وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ (٤٥) وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَاءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن سَبِيلٍ (٤٦) ﴾ .

يقول تعالى مخبرا عن نفسه الكريمة: إنه ما شاء [(٩)] كان ولا راد له، وما لم يشأ لم يكن فلا موجد له[(١٠)]، وأنه من هداه فلا مُضِل له، ومن يضلل [(١١)] فلا هادى له، كما قال: ﴿وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾ [الكهف: ١٧].

ثم قال مخبرا عن الظالمين، وهم المشركون بالله ﴿ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ﴾ أى: يوم القيامة يتمنون

(١) فى ت: «ربى». (٢) فى ت، أ: «قال له الفضيل». (٣) بعدها: «رواه ابن أبى حاتم».
(٤) فى ت: «وروى الإمام أحمد بسنده». (٥) فى ت، م، أ: «وقع».
(٦) المسند (٢/ ٤٣٦) وسنن أبى داود برقم (٤٨٩٦، ٤٨٩٧).
(٧) سنن أبى داود برقم (٤٨٩٧).
(٨) فى ت، أ: «وهذا الحديث فى غاية الحسن وهو مناسب للصديق»، وفى م: «وهذا الحديث فى غاية الحسن فى المعنى وهو مناسب للصديق».
(٩) فى ت: «ما شاء الله». (١٠) فى أ: «فلا مؤاخذة له». (١١) فى ت، م: «يضلل الله».

الرجعة إلى الدنيا، ﴿يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ﴾، كما قال[تعالى](١): ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ . بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٧، ٢٨].

وقوله: ﴿وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا﴾ أي: على النار ﴿خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ﴾، أي: الذى قد اعتراهم بما أسلفوا من عصيان الله، ﴿يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ قال مجاهد: يعنى ذليل، أي ينظرون إليها مُسارقة خوفا منها، والذى يحذرون منه واقع بهم لا محالة، وما هو أعظم مما فى نفوسهم، أجارنا الله من ذلك.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي: يقولون يوم القيامة: ﴿إِنَّ الْخَاسِرِينَ﴾ أي: الخسار (٢) الأكبر ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أي: ذهب بهم إلى (٣) النار، فعدموا لذتهم فى دار الأبد، وخسروا أنفسهم، وفرق بينهم وبين أصحابهم وأحبابهم وأهاليهم وقراباتهم(٤)، فخسروهم، ﴿أَلا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ﴾ أي: دائم سرمدى أبدى، لا خروج لهم منها ولا محيد لهم عنها.

وقوله: ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَاءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ أي: ينقذونهم مما هم فيه من العذاب والنكال، ﴿وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن سَبِيلٍ﴾ أي: ليس له خلاص.

﴿ اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَّ مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ (٤٧) فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلاَّ الْبَلاغُ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الإِنسَانَ كَفُورٌ (٤٨) ﴾.

لما ذكر تعالى ما يكون في يوم القيامة من الأهوال والأمور العظام الهائلة، حَذَّر منه وأمر بالاستعداد له، فقال: ﴿اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَّ مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ﴾ أي: إذا أمر بكونه فإنه كلمح البصر يكون، وليس له دافع ولا مانع.

وقوله: ﴿مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ﴾ أي: ليس لكم حصن تتحصنون فيه، ولا مكان يستركم وتتنكرون فيه، فتغيبون عن بصره، تبارك وتعالى، بل هو محيط بكم بعلمه وبصره وقدرته، فلا ملجأ منه إلا إليه، ﴿يَقُولُ الإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ . كَلاَّ لا وَزَرَ . إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ﴾[القيامة: ١٠ ـ ١٢].

وقوله: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا﴾ يعني: المشركين ﴿فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ أي: لست عليهم بمصيطر. وقال تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٧٢]، وقال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ [الرعد: ٤٠]. وقال هاهنا: ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلاَّ الْبَلاغُ﴾ أي: إنما كلفناك أن تبلغهم رسالة الله إليهم.

---

(١) زيادة من ت.
(٢) فى أ: «الخاسر».
(٣) فى ت: «فى».
(٤) فى ت: «وأقربائهم».

ثم قال تعالى: ﴿وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا﴾ أى: إذا أصابه رخاء ونعمة فرح بذلك، ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ﴾ يعنى الناس ﴿سَيِّئَةٌ﴾ أى: جدب ونقمة وبلاء وشدة، ﴿فَإِنَّ الإِنسَانَ كَفُورٌ﴾ أى: يجحد ما تقدم من النعمة[١] ولا يعرف إلا الساعة الراهنة، فإن أصابته نعمة أشر وبطر، وإن أصابته محنة يئس وقنط، كما قال رسول الله ﷺ[للنساء][٢]: «يا معشر النساء، تصدقن فإنى رأيتكن أكثر أهل النار» فقالت امرأة: ولِمَ يارسول الله؟ قال: «لأنكن تُكثرن الشكاية، وتكفرن العشير، لو أحسنت إلى إحداهن الدهر ثم تركت يوما قالت: ما رأيت منك خيرا قط»[٣]. وهذا حال أكثر الناس[٤] إلا من هداه الله وألهمه رشده، وكان من الذين آمنوا وعملوا الصالحات، فالمؤمن كما قال رسول الله ﷺ: «إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن»[٥].

﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ (٤٩) أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ (٥٠)﴾.

يخير تعالى أنه خالق السموات والأرض ومالكهما والمتصرف فيهما، وأنه ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، وأنه يعطى من يشاء، ويمنع من يشاء، ولا مانع لما أعطى، ولا معطى لما منع، وأنه يخلق ما يشاء، و﴿يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا﴾ أى: يرزقه البنات فقط ـ قال البغوى: ومنهم لوط، عليه السلام ﴿وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ﴾ أى: يرزقه البنين فقط. قال البغوى: كإبراهيم الخليل، عليه السلام ـ لم يولد له أنثى، ﴿أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا﴾ أى: ويعطى من يشاء من الناس الزوجين الذكر والأنثى، أى: من هذا وهذا[٦]. قال البغوى: كمحمد، عليه الصلاة والسلام ﴿وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا﴾ أى: لا يولد له. قال البغوى: كيحيى وعيسى، عليهما السلام، فجعل الناس أربعة أقسام، منهم من يعطيه البنات، ومنهم من يعطيه البنين، ومنهم من يعطيه من النوعين ذكورا وإناثا، ومنهم من يمنعه هذا وهذا، فيجعله عقيما لا نسل له ولا يولد له، ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ﴾ أى: بمن يستحق كل قسم من هذه الأقسام، ﴿قَدِيرٌ﴾ أى: على من يشاء، من تفاوت الناس فى ذلك.

وهذا المقام شبيه بقوله تعالى عن عيسى: ﴿وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ﴾[مريم: ٢١] أى: دلالة لهم على قدرته، تعالى وتقدس، حيث خلق الخلق على أربعة أقسام، فآدم، عليه السلام، مخلوق من تراب، لا من ذكر ولا أنثى، وحواء، عليها السلام، [مخلوقة][٧] من ذكر بلا أنثى، وسائر الخلق سوى عيسى [عليه السلام][٨] من ذكر وأنثى، وعيسى، عليه السلام، من أنثى بلا ذكر فتمت الدلالة بخلق عيسى ابن مريم، عليهما السلام؛ ولهذا قال: ﴿وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ﴾، فهذا المقام فى الآباء، والمقام الأول فى الأبناء، وكل منهما أربعة أقسام، فسبحان العليم القدير.

---

(١) فى ت، م: «النعم».　　(٢) زيادة من ت، م، أ.
(٣) رواه مسلم فى صحيحه برقم (٧٩)من حديث عبد الله بن عمر رضى الله عنه، وبرقم (٨٠) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه.
(٤) فى ت، م، أ: «النساء».
(٥) رواه مسلم فى صحيحه برقم (٢٩٩) من حديث صهيب رضى الله عنه.
(٦) فى ت: «هذا من هذا».
(٧) زيادة من م.　　(٨) زيادة من ت، م، وفى أ: «عيسى ابن مريم عليهما السلام».

﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ (٥١) وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٥٢) صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ أَلا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الأُمُورُ (٥٣) ﴾.

هذه مقامات [١] الوحى بالنسبة إلى جناب الله، عز وجل، وهو أنه تعالى تارة يقذف فى روع النبى ﷺ شيئا لا يتمارى فيه أنه من الله عز وجل، كما جاء فى صحيح ابن حبان، عن رسول الله ﷺ؛ أنه قال: «إن رُوح القُدُس نفث فى رُوعى: أن نفسا لن تموت حتى تستكمل رزقها وأجلها، فاتقوا الله وأجملوا فى الطلب»[٢].

وقوله: ﴿أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ﴾، كما كلم موسى، عليه السلام، فإنه سأل الرؤية بعد التكليم، فحجب عنها.

وفى الصحيح أن رسول الله ﷺ قال لجابر بن عبد الله: «ما كلم الله أحدا إلا من وراء حجاب، وإنه كلم أباك كفاحا» الحديث[٣]، وكان [أبوه][٤] قد قتل يوم أحد، ولكن هذا فى عالم البرزخ، والآية إنما هى فى الدار [٥] الدنيا.

وقوله: ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ﴾، كما ينزل جبريل [عليه السلام] [٦] وغيره من الملائكة على الأنبياء، عليهم السلام، ﴿إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾، فهو على عليم خبير حكيم.

وقوله[٧]: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ يعنى: القرآن، ﴿مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ﴾ أى: على التفصيل الذى شرع لك فى القرآن، ﴿وَلَكِن جَعَلْنَاهُ﴾ أى: القرآن ﴿نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾، كقوله: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُوْلَئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٤].

وقوله: ﴿وَإِنَّكَ﴾ [أى] [٨]يامحمد ﴿لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾، وهو الخلق [٩] القويم، ثم فسره بقوله: ﴿صِرَاطِ اللَّهِ [الَّذِي][١٠]﴾ أى: شرعه الذى أمر به الله، ﴿الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ أى: ربهما ومالكهما والمتصرف فيهما، الحاكم الذى لا معقب لحكمه، ﴿أَلا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الأُمُورُ﴾، أى ترجع الأمور، فيفصلها ويحكم فيها .

آخر تفسير سورة «[حم][١١] الشورى» والحمد لله رب العالمين

(١) فى ت: «مقدمات».
(٢) ورواه البغوى فى شرح السنة (١٤/ ٣٠٤) من طريق إسماعيل بن أبى خالد عن زبيد اليامى عمن أخبره عن ابن مسعود به.
(٣) رواه الترمذى فى السنن برقم (٣٠١٠) وقال: «هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه». (٤) زيادة من ت، أ.
(٥) فى ت: «دار». (٦) زيادة من م. (٧) فى ت: «فقوله». (٨) زيادة من م.
(٩) فى ت، م، أ: «الحق». (١٠) زيادة من أ. (١١) زيادة من أ.

٤٢ — سورة الشورى
نزلت بمكة وآياتها ثلاث وخمسون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

حمٓ ﴿١﴾ ٤٢ الشورى

عٓسٓقٓ ﴿٢﴾ ٤٢ الشورى

كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣﴾ ٤٢ الشورى

﴿ سورة الشورى مكية وآياتها ثلاث وخمسون آية ﴾

١، ٢ (بسم الله الرحمن الرحيم) (حم عسق) اسمان للسورة ولذلك فصل بينهما وعدا آيتين وقيل
اسم واحد والفصل ليناسب سائر الحواميم وقرىء حم سق فعلى الأول هما خبران لمبتدأ محذوف وقيل
٣ حم مبتدأ وعسق خبره وعلى الثانى الكل خبر واحد وقوله تعالى (كذلك يوحى إليك وإلى الذين من
قبلك الله العزيز الحكيم) كلام مستأنف وارد لتحقيق أن مضمون السورة موافق لما فى تضاعيف
سائر الكتب المنزلة على الرسل المتقدمة فى الدعوة إلى التوحيد والإرشاد إلى الحق أو أن إيحاءها
مثل إيحائها بعد تنويهها بذكر اسمها والتنبيه على فخامة شأنها والكاف فى حيز النصب على أنه مفعول
ليوحى على الأول وعلى أنه نعت لمصدر مؤكد له على الثانى وذلك على الأول إشارة إلى مافيها
وعلى الثانى إلى إيحائها وما فيه من معنى البعد للإيذان بعلو رتبة المشار إليه وبعد منزلته فى الفضل أى
مثل مافى هذه السورة من المعانى أوحى إليك فى سائر السور وإلى من قبلك من الرسل فى كتبهم على
أن مناط المماثلة ما أشير إليه من الدعوة إلى التوحيد والإرشاد إلى الحق وما فيه صلاح العباد فى
المعاش والمعاد أو مثل إيحائها أوحى إليك عند إيحاء سائر السور وإلى سائر الرسل عند إيحاء كتبهم
إليهم لا إيحاء مغايراً له كما فى قوله تعالى إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح الآية على أن مدار المثلية
كونه بواسطة الملك وصيغة المضارع على حكاية الحال الماضية للإيذان باستمرار الوحى وأن إيحاء
مثله عادته وفى جعل مضمون السورة أو إيحائها مشبهاً به من تفخيمها مالا يخفى وكذا فى وصفه تعالى
بوصفى العزة والحكمة وتأخير الفاعل لمراعاة الفواصل مع مافيه من التشويق وقرىء يوحى على البناء
للمفعول على أن كذلك مبتدأ ويوحى خبره المسند إلى ضميره أو مصدر ويوحى مسند إلى إليك والله
مرتفع بما دل عليه يوحى كأنه قيل من يوحى فقيل الله والعزيز الحكيم صفتان له أو مبتدأ كما فى قراءة
نوحى والعزيز وما بعده خبران له أو العزيز الحكيم صفتان له .

لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٤﴾ ٤٢ الشورى

تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي ٱلْأَرْضِ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾ ٤٢ الشورى

وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٦﴾ ٤٢ الشورى

وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي ٱلسَّعِيرِ ﴿٧﴾ ٤٢ الشورى

---

٤ وقوله تعالى (له مافى السموات ومافى الأرض وهو العلى العظيم) خبران له وعلى الوجوه السابقة استئناف
٥ مقرر لعزته وحكمته (تكاد السموات) وقرىء بالياء (يتفطرن) يتشققن من عظمة الله تعالى وقيل
من دعاء الولد له كما فى سورة مريم وقرىء ينفطرن والأول أبلغ لأنه مطاوع فطر وهذا مطاوع
* فطر وقرىء تتفطرن بالتاء لتأكيد التأنيث وهو نادر (من فوقهن) أى يبتـدأ التفطر من جهتهن
الفوقانية وتخصيصها على الأول لما أن أعظم الآيات وأدلها على العظمة والجلال من تلك الجهة وعلى
الثانى للدلالة على التفطر من تحتهن بالطريق الأولى لأن تلك الكلمة الشنعاء الواقعة فى الأرض
حيث أثرت فى جهة الفوق فلأن تؤثر فى جهة التحت أولى وقيل الضمير للأرض فإنها فى معنى الأرضين
* (والملائكة يسبحون بحمد ربهم) ينزهونه تعالى عما لا يليق به ملتبسين بحمده (ويستغفرون لمن فى
الأرض) بالسعى فيما يستدعى مغفرتهم من الشفاعة والإلهام وترتيب الأسباب المقربة إلى الطاعة
واستدعاء تأخير العقوبة طمعاً فى إيمان الكافر وتوبة الفاسق وهذا يعم المؤمن والكافر بل لو فسر
الاستغفار بالسعى فيما يدفع الخلل المتوقع عم الحيوان بل الجماد وحيث خص بالمؤمنين كما فى قوله
* تعالى ويستغفرون للذين آمنوا فالمراد به الشفاعة (ألا إن الله هو الغفور الرحيم) إذ ما من مخلوق
إلا وله حظ عظيم من رحمته تعالى والآية على الأول زيادة تقرير لعظمته تعالى وعلى الثانى بيان لكمال
تقدسه عما نسب إليه وأن ترك معاجلتهم بالعقاب على تلك الكلمة الشنعاء بسبب استغفار الملائكة
وفرط غفرانه ورحمته ففيها رمز إلى أنه تعالى يقبل استغفارهم ويزيدهم على ما طلبوه من المغفرة
٦ رحمة (والذين اتخذوا من دونه أولياء) شركاء وأنداداً (الله حفيظ عليهم) رقيب على أحوالهم
وأعمالهم فيجازيهم بها (وما أنت عليهم بوكيل) بموكل بهم أو بموكول إليه أمرهم وإنما وظيفتك
٧ الإنذار (وكذلك أوحينا إليك قرآناً عربياً) ذلك إشارة إلى مصدر أوحينا ومحل الكاف النصب
على المصدرية وقرآناً عربياً مفعول لأوحينا أى ومثل ذلك الإيحاء البديع البين المفهم أوحينا إليك
قرآناً عربياً لا لبس فيه عليك ولا على قومك وقيل إشارة إلى معنى الآية المتقدمة من أنه تعالى هو
الحفيظ عليهم وإنما أنت نذير فحسب فالكاف مفعول به لأوحينا وقرآناً عربياً حال من المفعول

وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٨﴾

٤٢ الشورى

به أى أوحيناه إليك وهو قرآن عربى بين (لتنذر أم القرى) أى أهلها وهى مكة (ومن حولها) من العرب (وتنذر يوم الجمع) أى يوم القيامة لأنه يجمع فيه الخلائق قال تعالى يوم يجمعكم ليوم الجمع وقيل تجمع فيه الأرواح والأشباح وقيل الأعمال والعمال والإنذار يتعدى إلى مفعولين وقد يستعمل ثانيهما بالباء وقد حذف ههنا ثانى مفعولى الأول وأول مفعولى الثانى للتهويل وإيهام التعميم وقرىء لينذر بالياء على أن فاعله ضمير القرآن (لاريب فيه) اعتراض مقرر لما قبله (فريق فى الجنة وفريق فى السعير) أى بعد جمعهم فى الموقف فإنهم يجمعون فيه أولا ثم يفرقون بعد الحساب والتقدير منهم فريق والضمير للمجموعين لدلالة الجمع عليه وقرئا منصوبين على الحالية منهم أى وتنذر يوم جمعهم متفرقين أى مشارفين للتفرق أو متفرقين فى دارى الثواب والعقاب (ولو شاء الله لجعلهم) أى فى ٨
الدنيا (أمة واحدة) قيل مهتدين أو ضالين وهو تفصيل لما أجمله ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله على دين واحد فمعنى قوله تعالى (ولكن يدخل من يشاء فى رحمته) أنه تعالى يدخل فى رحمته من يشاء أن يدخله فيها ويدخل فى عذابه من يشاء أن يدخله فيه ولا ريب فى أن مشيئته تعالى لكل من الإدخالين تابعة لاستحقاق كل من الفريقين لدخول مدخله ومن ضرورة اختلاف الرحمة والعذاب اختلاف حال الداخلين فيهما قطعاً فلم يشأ جعل الكل أمة واحدة بل جعلهم فريقين وإنما قيل (والظالمون مالهم من ولى ولا نصير) للإيذان بأن الإدخال فى العذاب من جهة الداخلين بموجب سوء اختيارهم لامن جهته تعالى كما فى الإدخال فى الرحمة لالما قيل من المبالغة فى الوعيد وقيل مؤمنين كلهم وهو ماقاله مقاتل على دين الإسلام كما فى قوله تعالى ولو شاء الله لجمعهم على الهدى وقوله تعالى ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها والمعنى ولو شاء الله مشيئة قدرة لقسرهم على الإيمان ولكنه شاء مشيئة حكمة وكلفهم وبنى أمرهم على مايختارون ليدخل المؤمنين فى رحمته وهم المرادون بقوله تعالى يدخل من يشاء وترك الظالمين بغير ولى ولا نصير وأنت خبير بأن فرض جعل الكل مؤمنين يأباه تصدير الاستدراك بإدخال بعضهم فى رحمته إذ الكل حينئذ داخلون فيها فكان المناسب حينئذ تصديره بإخراج بعضهم من بينهم وإدخالهم فى عذابه فالذى يقتضيه سياق النظم الكريم وسباقه أن يراد الاتحاد فى الكفر كما فى قوله تعالى كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين الآية على أحد الوجهين بأن يراد بهم الذين هم فى فترة إدريس أو فى فترة نوح عليهما السلام فالمعنى ولو شاء الله لجعلهم أمة واحدة متفقة على الكفر بأن لا يرسل إليهم رسولا لينذرهم ماذكر من يوم الجمع وما فيه من ألوان الأهوال فيبقوا على ماهم عليه من الكفر ولكن يدخل من يشاء فى رحمته أى شأنه ذلك فيرسل إلى الكل من ينذرهم ما ذكر فيتأثر بعضهم بالإنذار فيصرفون اختيارهم إلى الحق فيوفقهم الله للإيمان والطاعة ويدخلهم فى رحمته ولا يتأثر به الآخرون ويتمادون فى غيهم وهم الظالمون فيبقون فى الدنيا

أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۖ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِىُّ وَهُوَ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٩﴾ ٤٢ الشورى
وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّى عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾ ٤٢ الشورى
فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا ۖ يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ ۚ
لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾ ٤٢ الشورى

على ماهم عليه من الكفر ويصيرون فى الآخرة إلى السعير من غير ولى يلى أمرهم ولا نصير يخلصهم
٩ من العذاب (أم اتخذوا من دونه أولياء) جملة مستأنفة مقررة لما قبلها من انتفاء أن يكون للظالمين
ولى أو نصير وأم منقطعة وما فيها من بل للانتقال من بيان ماقبلها إلى بيان مابعدها والهمزة لإنكار
الوقوع ونفيه على أبلغ وجه وآكده لا لإنكار الواقع واستقباحه كما قيل إذ المراد بيان أن مافعلوا ليس
من اتخاذ الأولياء فى شىء لأن ذلك فرع كون الأصنام أولياء وهو أظهر الممتنعات أى بل أتخذوا
متجاوزين الله أولياء من الأصنام وغيرها هيهات وقوله تعالى (فالله هو الولى) جواب شرط محذوف
كأنه قيل بعد إبطال ولاية مااتخذوه أولياء إن أرادوا ولياً فى الحقيقة فالله هو الولى لاولى سواه (وهو
يحيى الموتى) أى ومن شأنه ذلك (وهو على كل شىء قدير) فهو الحقيق بأن يتخذ ولياً فليخصوه
١٠ بالاتخاذ دون من لا يقدر على شىء (وما اختلفتم فيه من شىء) حكاية لقول رسول الله صلى الله
عليه وسلم للمؤمنين أى وما خالفكم الكفار فيه من أمور الدين فاختلفتم أنتم وهم (فحكمه) راجع
(إلى الله) وهو إثابة المحقين وعقاب المبطلين (ذلكم) الحاكم العظيم الشأن (الله ربى) مالكى (عليه
توكلت) فى مجامع أمورى خاصة لاعلى غيره (وإليه أنيب) أرجع فى كل مايعن لى من معضلات
الأمور لا إلى أحد سواه وحيث كان التوكل أمراً واحداً مستمراً والإنابة متعددة متجددة حسب
تجدد موادها أوثر فى الأول صيغة الماضى وفى الثانى صيغة المضارع وقيل وما اختلفتم فيه وتنازعتم
فى شىء من الخصومات فتحاكموا فيه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا تؤثروا على حكومته
حكومة غيره وقيل وما اختلفتم فيه من تأويل آية واشتبه عليكم فارجعوا فى بيانه إلى المحكم من
كتاب الله والظاهر من سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وقيل وما وقع بينكم الخلاف فيه من
العلوم التى لاتتعلق بتكليفكم ولا طريق لكم إلى علمه فقولوا الله أعلم كمعرفة الروح ولا مساغ لحمل
١١ هذا على الاجتهاد لعدم جوازه بحضرة الرسول صلى الله عليه وسلم (فاطر السموات والأرض)
خبر آخر لذلكم أو خبر لمبتدأ محذوف أو مبتدأ خبره (جعل لكم) وقرىء بالجر على أنه بدل من
الضمير أو وصف للاسم الجليل فى قوله تعالى إلى الله وما بينهما اعتراض بين الصفة والموصوف
(من أنفسكم) من جنسكم (أزواجا) نساء وتقديم الجار والمجرور على المفعول الصريح قد مر سره
غيره مرة (ومن الأنعام) أى وجعل للأنعام من جنسها (أزواجا) أو خلق لكم من الأنعام
أصنافا أو ذكوراً وإناثاً (يذرؤكم) يكثركم من الذرء وهو البث وفى معناه الذرو والذر (فيه) أى

لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٢﴾ ٤٢ الشورى
شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ
أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن
يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾
٤٢ الشورى

فيما ذكر من التدبير فإن جعل الناس والأنعام ازواجا يكون بينهم توالد كالمنبع للبث والتكثير (ليس كمثله شيء) أي ليس مثله شيء في شأن من الشئون التي من جملتها هذا التدبير البديع والمراد من مثله ذاته كما في قولهم مثلك لا يفعل كذا على قصد المبالغة في نفيه عنه فإنه إذا نفي عمن يناسبه كان نفيه عنه أولى ثم سلكت هذه الطريقة في شأن من لا مثل له وقيل مثله صفته أي ليس كصفته صفة (وهو السميع البصير) المبالغ في العلم بكل ما يسمع ويبصر

١٢ (له مقاليد السموات والأرض) أي خزائنهما (يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر) يوسع ويضيق حسبما تقتضيه مشيئته المؤسسة على الحكم البالغة (إنه بكل شيء عليم) مبالغ في الإحاطة به فيفعل كل ما يفعل على ما ينبغي أن يفعل عليه والجملة تعليل لما قبلها وتمهيد لما بعدها من قوله تعالى

١٣ (شرع لكم من الدين ماوصى به نوحا والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى) وإيذان بأن ماشرع لهم صادر عن كمال العلم والحكمة كما أن بيان نسبته إلى المذكورين عليهم الصلاة والسلام تنبيه على كونه ديناً قديماً أجمع عليه الرسل والخطاب لأمته عليه الصلاة والسلام أي شرع لكم من الدين ماوصى به نوحا ومن بعده من أرباب الشرائع وأولي العزائم من مشاهير الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وأمرهم به أمراً مؤكداً على أن تخصيصهم بالذكر لما ذكر من علو شأنهم ولاستمالة قلوب الكفرة إليه لاتفاق الكل على نبوة بعضهم وتفرد اليهود في شأن موسى عليه السلام وتفرد النصارى في حق عيسى عليه السلام وإلا فما من نبي إلا وهو مأمور بما أمروا به وهو عبارة عن التوحيد ودين الإسلام وما لا يختلف باختلاف الأمم وتبدل الأعصار من أصول الشرائع والأحكام كما ينبيء عنه التوصية فإنها معربة عن تأكيد الأمر والاعتناء بشأن المأمور به والمراد بإيحائه إليه عليه الصلاة والسلام إما ماذكر في صدر السورة الكريمة وفي قوله تعالى وكذلك أوحينا الآية أو مايعمهما وغيرهما مما وقع في سائر المواقع التي من جملتها قوله تعالى ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفاً وقوله تعالى قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى أنما إلهكم إله واحد وغير ذلك والتعبير عن ذلك عند نسبته إليه عليه الصلاة والسلام بالذي لزيادة تفخيم شأنه من تلك الحيثية وإيثار الإيحاء على ماقبله وما بعده من التوصية لمراعاة ماوقع في الآيات المذكورة ولما في الإيحاء من التصريح برسالته عليه الصلاة والسلام القامع لإنكار الكفرة والالتفات إلى نون العظمة لإظهار كمال الاعتناء بإيحائه وهو السر في تقديمه على مابعده مع تقدمه عليه زماناً وتقديم

وَمَا تَفَرَّقُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٤﴾ ٤٢ الشورى

توصية نوح عليه السلام للمسارعة إلى بيان كون المشروع لهم ديناً قديماً أو توجيه الخطاب إليه عليه الصلاة والسلام بطريق التلوين للتشريف والتنبيه على أنه تعالى شرعه لهم على لسانه عليه الصلاة والسلام (أن أقيموا الدين) أي دين الإسلام الذي هو توحيد الله تعالى وطاعته والإيمان بكتبه ورسله وبيوم الجزاء وسائر ما يكون الرجل به مؤمناً والمراد بإقامته تعديل أركانه وحفظه من أن يقع فيه زيغ أو المواظبة عليه والتشمر له ومحل أن أقيموا إما النصب على أنه بدل من مفعول شرع والمعطوفين عليه أو الرفع على أنه جواب عن سؤال نشأ من إبهام المشروع كأنه قيل وما ذاك فقيل هو إقامة الدين وقيل بدل من ضمير به وليس بذاك لما أنه مع إفضائه إلى خروجه عن حيز الإيحاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم مستلزم لكون الخطاب في قوله تعالى (ولا تتفرقوا فيه) للأنبياء المذكورين عليهم الصلاة والسلام وتوجيه النهي إلى أممهم تمحل ظاهر مع أن الأظهر أنه متوجه إلى أمته صلى الله عليه وسلم وأنهم المتفرقون كما ستحيط به خبراً أي لا تتفرقوا في الدين الذي هو عبارة عما ذكر من الأصول دون الفروع المختلفة حسب اختلاف الأمم باختلاف الأعصار كما ينطق به قوله تعالى لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا وقوله تعالى (كبر على المشركين) شروع في بيان أحوال بعض من شرع لهم ما شرع من الدين القويم أي عظم وشق عليهم (ما تدعوهم إليه) من التوحيد ورفض عبادة الأصنام واستبعدوه حيث قالوا أجعل الآلهة إلهاً واحداً إن هذا لشيء عجاب وقوله تعالى (الله يجتبي إليه من يشاء) استئناف وارد لتحقيق الحق وفيه إشعار بأن منهم من يجيب إلى الدعوة أي الله يجتلب إلى ما تدعوهم إليه من يشاء أن يجتبيه إليه وهو من صرف اختياره إلى ما دعي إليه كما ينبيء عنه قوله تعالى (ويهدي إليه من ينيب) أي يقبل إليه حيث يمده بالتوفيق والألطاف

١٤ وقوله تعالى (وما تفرقوا) شروع في بيان أحوال أهل الكتاب عقيب الإشارة الإجمالية إلى أحوال أهل الشرك قال ابن عباس رضي الله عنهما هم اليهود والنصارى لقوله تعالى وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءتهم البينة أي وما تفرقوا في الدين الذي دعوا إليه ولم يؤمنوا كما آمن بعضهم (إلا من بعد ما جاءهم العلم) بحقيته بما شاهدوا في رسول الله صلى الله عليه وسلم والقرآن من دلائل الحقية حسبما وجدوه في كتابهم أو العلم بمبعثه صلى الله عليه وسلم وهو استثناء مفرغ من أعم الأحوال أو من أعم الأوقات أي وما تفرقوا في حال من الأحوال أو في وقت من الأوقات إلا حال مجيء العلم أو إلا وقت مجيء العلم (بغياً بينهم) وحمية وطلباً للرياسة لا لأن لهم في ذلك شبهة (ولولا كلمة سبقت من ربك) وهي العدة بتأخير العقوبة (إلى أجل مسمى) هو يوم القيامة (لقضي بينهم) لأوقع القضاء بينهم باستئصالهم لاستيجاب جناياتهم لذلك قطعاً وقوله تعالى (وإن الذين

فَلِذَٰلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَا أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾

٤٢ الشورى

أورثوا الكتاب من بعدهم) الخ بيان لكيفية كفر المشركين بالقرآن إثر بيان كيفية كفر أهل الكتاب وقرىء ورثوا وورثوا أى وإن المشركين الذين أورثوا القرآن من بعد ما أورث أهل الكتاب كتابهم (لفى شك منه) من القرآن (مريب) موقع فى القلق أو فى الريبة ولذلك لا يؤمنون به لا لمحض البغى * والمكابرة بعد ماعلموا بحقيته كدأب أهل الكتابين هذا وأما ماقيل من أن ضمير تفرقوا للأمم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وأن المراد تفرق كل أمة بعد نبيها مع علمهم بأن الفرقة ضلال وفساد وأمر متوعد عليه على ألسنة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فيرده قوله تعالى ولولا كلمة سبقت من ربك إلى أجل مسمى لقضى بينهم وكذا ماقيل من أن الناس كانوا أمة واحدة مؤمنين بعد ما أهلك الله تعالى أهل الأرض بالطوفان فلما مات الآباء اختلف الأبناء فيما بينهم وذلك حين بعث الله تعالى النبيين مبشرين ومنذرين وجاءهم العلم وإنما اختلفوا للبغى بينهم فإن مشاهير الأمم المذكورة قد أصابهم عذاب الاستئصال من غير إنظار وإمهال على أن مساق النظم الكريم لبيان أحوال هذه الأمة وإنما ذكر من ذكر من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لتحقيق أن ماشرع لهؤلاء دين قديم أجمع عليه أولئك الأعلام عليهم الصلاة والسلام تأكيداً لوجوب إقامته وتشديداً للزجر عن التفرق والاختلاف فيه فالتعرض

١٥ لبيان تفرق أممهم عنه ربما يوهم الإخلال بذلك المرام (فلذلك) أى فلأجل ماذكر من التفرق والشك المريب أو فلأجل أنه شرع لهم الدين القويم القديم الحقيق بأن يتنافس فيه المتنافسون (فادع) أى الناس كافة إلى إقامة ذلك الدين والعمل بموجبه فإن كلا من تفرقهم وكونهم فى شك * مريب ومن شرع ذلك الدين لهم على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم سبب للدعوة إليه والأمر بها وليس المشار إليه ما ذكر من التوصية والأمر بالإقامة والنهى عن التفرق حتى يتوهم شائبة التكرار وقيل المشار إليه نفس الدين المشروع واللام بمعنى إلى كما فى قوله تعالى بأن ربك أوحى لها أى فإلى ذلك الدين فادع (واستقم) عليه وعلى الدعوة إليه (كما أمرت) وأوحى إليك (ولا تتبع أهواءهم) * الباطلة (وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب) أى كتاب كان من الكتب المنزلة لا كالذين آمنوا ببعض منها وكفروا ببعض وفيه تحقيق للحق وبيان لاتفاق الكتب فى الأصول وتأليف لقلوب أهل الكتابين وتعريض بهم وقد مر بيان كيفية الإيمان بها فى خاتمة سورة البقرة (وأمرت لأعدل * بينكم) فى تبليغ الشرائع والأحكام وفصل القضايا عند المحاكمة والخصام وقيل معناه لاسوى بينى وبينكم ولا آمركم بما لا أعمله ولا أخالفكم إلى ماأنهاكم عنه ولا أفرق بين أكابركم وأصاغركم واللام إما على حقيقتها والمأمور به محذوف أى أمرت بذلك لأعدل أو زائدة أى أمرت أن أعدل والباء محذوفة (الله ربنا وربكم) أى خالقنا جميعاً ومتولى أمورنا (لنا أعمالنا) لايتخطانا جزاؤها ثواباً كان

وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ
عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾ ٤٢ الشورى
ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾ ٤٢ الشورى
يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ أَلَآ إِنَّ
ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾ ٤٢ الشورى

أو عقاباً (ولكم أعمالكم) لاتجاوزكم آثارها لنستفيد بحسناتكم ونتضرر بسيآتكم (لا حجة بيننا
وبينكم) لامحاجة ولا خصومة لأن الحق قد ظهر ولم يبق للمحاجة حاجة ولا للمخالفة محمل سوى
المكابرة (الله يجمع بيننا) يوم القيامة (وإليه المصير) فيظهر هناك حالنا وحالكم وهذا كما ترى
١٦ محاجزة فى مواقف المجاوبة لامتاركة فى مواطن المحاربة حتى يصار إلى النسخ بآية القتال (والذين
يحاجون فى الله) أى فى دينه (من بعد ما استجيب له) من بعدما استجاب له الناس ودخلوا فيه والتعبير
عن ذلك بالاستجابة باعتبار دعوتهم إليه أو من بعد ما استجاب الله لرسوله صلى الله عليه وسلم وأيده
بنصره أو من بعد ما استجاب له أهل الكتاب بأن أقروا بنبوته صلى الله عليه وسلم واستفتحوا
به قبل مبعثه صلى الله عليه وسلم وذلك أن اليهود والنصارى كانوا يقولون للمؤمنين كتابنا قبل
كتابكم ونبينا قبل نبيكم ونحن خير منكم وأولى بالحق (حجتهم داحضة عند ربهم) زالة زائلة باطلة
بل لاحجة لهم أصلا وإنما عبر عن أباطيلهم بالحجة مجاراة معهم على زعمهم الباطل (وعليهم غضب)
١٧ عظيم لمكابرتهم الحق بعد ظهوره (ولهم عذاب شديد) لايقادر قدره (الله الذى أنزل الكتاب)
أى جنس الكتاب (بالحق) ملتبساً به فى أحكامه وأخباره أو بما يحق إنزاله من العقائد والأحكام
(والميزان) والشرع الذى يوزن به الحقوق ويسوى بين الناس أو نفس العدل بأن أنزل الأمر
به أو آلة الوزن (وما يدريك) أى أى شيء يجعلك عالماً (لعل الساعة) التى يخبر بمجيئها الكتاب
الناطق بالحق (قريب) أى شيء قريب أو قريب مجيئها وقيل القريب بمعنى ذات قرب أو الساعة
بمعنى البعث والمعنى أنها على جناح الإتيان فاتبع الكتاب واعمل به وواظب على العدل قبل أن
١٨ يفاجئك اليوم الذى يوزن فيه الأعمال ويوفى جزاؤها (يستعجل بها الذين لايؤمنون بها) استعجال
إنكار واستهزاء كانوا يقولون متى هى ليتها قامت حتى يظهر لنا الحق أهو الذى نحن عليه أم الذى
عليه محمد وأصحابه (والذين آمنوا مشفقون منها) خائفون منها مع اعتناء بها لتوقع الثواب (ويعلمون
أنها الحق) أى الكائن لامحالة (ألا إن الذين يمارون فى الساعة) يجادلون فيها من المرية أو من
مريت الناقة إذا مسحت ضرعها بشدة للحلب لأن كلا من المتجادلين يستخرج ماعند صاحبه بكلام
فيه شدة (لفى ضلال بعيد) عن الحق فإن البعث أشبه الغائبات بالمحسوسات فمن لم يهتد إلى تجويزه فهو عن

ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ ﴿١٩﴾ ٤٢ الشورى

مَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلۡأٓخِرَةِ نَزِدۡ لَهُۥ فِي حَرۡثِهِۦۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلدُّنۡيَا نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾ ٤٢ الشورى

أَمۡ لَهُمۡ شُرَكَـٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمۡ يَأۡذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ وَلَوۡلَا كَلِمَةُ ٱلۡفَصۡلِ لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۗ وَإِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾ ٤٢ الشورى

تَرَى ٱلظَّـٰلِمِينَ مُشۡفِقِينَ مِمَّا كَسَبُواْ وَهُوَ وَاقِعُۢ بِهِمۡۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فِي رَوۡضَاتِ ٱلۡجَنَّاتِۖ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمۡۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ ﴿٢٢﴾ ٤٢ الشورى

---

١٩ الاهتداء إلى ماوراءه أبعد وأبعد (الله لطيف بعباده) أى بر بليغ البر بهم يفيض عليهم من فنون
ألطافه مالا يكاد يناله أيدى الأفكار والظنون (يرزق من يشاء) أن يرزقه كيفما يشاء فيخص كلا من
عباده بنوع من البر على ماتقتضيه مشيئته المبنية على الحكم البالغة (وهو القوى) الباهر القدرة الغالب
٢٠ على كل شيء (العزيز) المنيع الذى لايغلب (من كان يريد حرث الآخرة) الحرث فى الأصل إلقاء
البذر فى الأرض يطلق على الزرع الحاصل منه ويستعمل فى ثمرات الأعمال ونتائجها بطريق الاستعارة
المبنية على تشبيهها بالغلال الحاصلة من البذور المتضمن لتشبيه الأعمال بالبذور أى من كان يريد بأعماله
ثواب الآخرة (نزد له فى حرثه) نضاعف له ثوابه بالواحد عشرة إلى سبعمائة فما فوقها (ومن كان يريد) *
بأعماله (حرث الدنيا) وهو متاعها وطيباتها (نؤته منها) أى شيئاً منها حسبما قسمنا له لا ما يريده
ويبتغيه (وما له فى الآخرة من نصيب) إذ كانت همته مقصورة على الدنيا وقد مر تفصيله فى سورة
٢١ الإسراء (أم لهم شركاء) أى بل ألهم شركاء من الشياطين والهمزة للتقرير والتقريع (شرعوا لهم)
بالتسويل (من الدين مالم يأذن به الله) كالشرك وإنكار البعث والعمل للدنيا وقيل شركاؤهم أوثانهم
وإضافتها إليهم لأنهم الذين جعلوها شركاء لله تعالى وإسناد الشرع إليها لأنها سبب ضلالتهم وافتتانهم
كقوله تعالى إنهن أضللن كثيراً أو تماثيل من سن الضلالة لهم (ولولا كلمة الفصل) أى القضاء السابق *
بتأخير الجزاء أو العدة بأن الفصل يكون يوم القيامة (لقضى بينهم) أى بين الكافرين والمؤمنين أو
بين المشركين وشركائهم (وإن الظالمين لهم عذاب أليم) وقرىء بالفتح عطفا على كلمة الفصل أى ولولا *
كلمة الفصل وتقدير عذاب الظالمين فى الآخرة لقضى بينهم فى الدنيا فإن العذاب الأليم غالب فى عذاب
٢٢ الآخرة (ترى الظالمين) يوم القيامة والخطاب لكل أحد من يصلح له للقصد إلى أن سوء حالهم غير مختص
برؤية راء دون راء (مشفقين) خائفين (مما كسبوا) من السيآت (وهو واقع بهم) أى ووباله لاحق
بهم لامحالة أشفقوا أو لم يشفقوا والجملة حال من ضمير مشفقين أو اعتراض (والذين آمنوا وعملوا

ذَٰلِكَ ٱلَّذِي يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ وَمَن يَقۡتَرِفۡ حَسَنَةً نَّزِدۡ لَهُۥ فِيهَا حُسۡنًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٢٣﴾ ٤٢ الشورى

أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًاۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخۡتِمۡ عَلَىٰ قَلۡبِكَۗ وَيَمۡحُ ٱللَّهُ ٱلۡبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٤﴾ ٤٢ الشورى

الصالحات فى روضات الجنات) مستقرون فى أطيب بقاعها وأنزهها (لهم مايشاءون عند ربهم) أى مايشتهونه من فنون المستلذات حاصل لهم عند ربهم ظرف للاستقرار العامل فى لهم وقيل ظرف ليشاءون (ذلك) إشارة إلى ماذكر من حال المؤمنين وما فيه من معنى البعد للإيذان ببعد منزلة المشار
٢٣ إليه) هو الفضل الكبير) الذى لايقادر قدره ولا يبلغ غايته (ذلك) الفضل الكبير هو (الذى يبشر الله عباده) أى يبشرهم به لحذف الجار ثم العائد إلى الموصول كما فى قوله تعالى أهذا الذى بعث الله رسولا أو ذلك التبشير الذى يبشره الله تعالى عباده (الذين آمنوا وعملوا الصالحات) وقرىء يبشر من أبشر (قل لا أسألكم عليه) روى أنه اجتمع المشركون فى مجمع لهم فقال بعضهم لبعض أترون أن محمداً يسأل على ما يتعاطاه أجراً فنزلت أى لا أطلب منكم على ماأنا عليه من التبليغ والبشارة (أجراً) نفعاً (إلا المودة فى القربى) أى إلا أن تودونى لقرابتى منكم أو تودوا أهل قرابتى وقيل الاستثناء منقطع والمعنى لا أسألكم أجراً قط ولكن أسألكم المودة وفى القربى حال منها أى إلا المودة ثابتة فى القربى متمكنة فى أهلها أو فى حق القرابة والقربى مصدر كالزلفى بمعنى القرابة روى أنها لما نزلت قيل يارسول الله من قرابتك هؤلاء الذين وجبت علينا مودتهم قال على وفاطمة وابناهما وعن النبى صلى الله عليه وسلم حرمت الجنة على من ظلم أهل بيتى وآذانى فى عترتى ومن اصطنع صنيعة إلى أحد من ولد عبد المطلب ولم يجازه فأنا أجازيه عليها غداً إذا لقينى يوم القيامة وقيل القربى التقرب إلى الله أى إلا أن تودوا الله ورسوله فى تقربكم إليه بالطاعة والعمل الصالح وقرىء إلا مودة فى القربى (ومن يقترف حسنة) أى يكتسب أى حسنة كانت فتتناول مودة ذى القربى تناولا أولياً وعن السدى أنها المرادة وقيل نزلت فى الصديق رضى الله عنه ومودته فيهم (نزد له فيها) أى فى الحسنة (حسناً) بمضاعفة الثواب وقرىء يزد أى يزد الله وقرىء حسنى
٢٤ (إن الله غفور) لمن أذنب (شكور) لمن أطاع بتوفية الثواب والتفضل عليه بالزيادة (أم يقولون) بل أيقولون (افترى) محمد (على الله كذباً) بدعوى النبوة وتلاوة القرآن على أن الهمزة للإنكار التوبيخى كأنه قيل أيتمالكون أن ينسبوا مثله عليه السلام وهو هو إلى الافتراء لاسيما الافتراء على الله الذى هو أعظم الفرى وأفحشها وقوله تعالى (فإن يشأ الله يختم على قلبك) استشهاد على بطلان ماقالوا ببيان أنه عليه السلام لو افترى على الله تعالى لمنعه من ذلك قطعاً وتحقيقه أن دعوى كون القرآن افتراء عليه تعالى قول منهم بأنه تعالى لايشاء صدوره عن النبى صلى الله عليه وسلم بل يشاء عدم صدوره

وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾ ٤٢ الشورى
وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۚ وَٱلْكَٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ
شَدِيدٌ ﴿٢٦﴾
٤٢ الشورى

عنه ومن ضرورته منعه عنه قطعاً فكأنه قيل لوكان افتراء عليه تعالى لشاء عدم صدوره عنك وإن يشأ ذلك يختم على قلبك بحيث لم يخطر ببالك معنى من معانيه ولم تنطق بحرف من حروفه وحيث لم يكن الأمر كذلك بل تواتر الوحي حيناً فحيناً تبين أنه من عند الله تعالى هذا وقيل المعنى إن يشأ يجعلك من المختوم على قلوبهم فإنه لا يجترىء على الافتراء عليه تعالى إلا من كان كذلك ومؤداه استبعاد الافتراء من مثله عليه السلام وأنه فى البعد مثل الشرك بالله والدخول فى جملة المختوم على قلوبهم وعن قتادة يختم على قلبك ينسك القرآن ويقطع عنك الوحي يعني لو افترى على الله الكذب لفعل به ذلك وهذا معنى ماقيل لو كذب على الله لأنساه القرآن وقيل يختم على قلبك يربط عليه بالصبر حتى لا يشق عليك أذاهم (ويمحو الله الباطل ويحق الحق بكلماته) استئناف مقرر لنفي الافتراء غير معطوف على يختم كما ينبىء عنه إظهار الاسم الجليل وسقوط الواو كما فى بعض المصاحف لاتباع اللفظ كما فى قوله تعالى ويدع الإنسان بالشر أى ومن عادته تعالى أنه يمحو الباطل ويثبت الحق بوحيه أو بقضائه كقوله تعالى بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فلوكان افتراء كما زعموا لمحقه ودمغه أو عدة لرسول الله صلى الله عليه وسلم بأنه تعالى يمحو الباطل الذى هم عليه من البهت والتكذيب ويثبت الحق الذى هو عليه بالقرآن أو بقضائه الذى لا مرد له بنصرته عليهم (إنه عليم بذات الصدور) فيجرى عليها أحكامها اللائقة بها من المحو والإثبات (وهو الذى يقبل التوبة عن عباده) التوبة هى
٢٥ الرجوع عن المعاصى بالندم عليها والعزم على أن لا يعاودها أبداً وروى جابر رضي الله عنه أن أعرابياً دخل مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال اللهم إنى أستغفرك وأتوب إليك وكبر فلما فرغ من صلاته قال له على رضى الله عنه ياهذا إن سرعة اللسان بالاستغفار توبة الكذابين وتوبتك هذه تحتاج إلى التوبة فقال يا أمير المؤمنين وما التوبة قال اسم يقع على ستة معان على الماضى من الذنوب الندامة ولتضييع الفرائض الإعادة ورد المظالم وإذابة النفس فى الطاعة كما ربيتها فى المعصية وإذاقتها مرارة الطاعة كما أذقتها حلاوة المعصية والبكاء بدل كل ضحك ضحكته (ويعفو عن السيئات) صغيرها وكبيرها لمن يشاء (ويعلم ما يفعلون) كائناً ما كان من خير وشر فيجازى ويتجاوز حسبما تقتضيه مشيئته المبنية على الحكم والمصالح وقرىء ما تفعلون بالتاء (ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات)
٢٦ أى يستجيب الله لهم فحذف اللام كما فى قوله تعالى وإذا كالوهم أى كالوا لهم والمراد إجابة دعوتهم والإثابة على طاعتهم فإنها كدعاء وطلب لما يترتب عليها ومنه قوله صلى الله عليه وسلم أفضل الدعاء الحمد لله أو يستجيبون الله بالطاعة إذا دعاهم إليها وعن إبراهيم بن أدهم أنه قيل له ما بالنا ندعو فلا

وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾ ٤٢ الشورى

وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُواْ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾ ٤٢ الشورى

وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ ٤٢ الشورى

نجاب قال لأنه دعاكم ولم تجيبوه ثم قرأ والله يدعو إلى دار السلام (ويزيدهم من فضله) على ماسألوا واستحقوا بموجب الوعد (والكافرون لهم عذاب شديد) بدل ما للمؤمنين من الثواب والفضل

٢٧ المزيد (ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا فى الأرض) لتكبروا وأفسدوا فيها بطراً أو لعلا بعضهم على بعض بالاستيلاء والاستعلاء كما عليه الجبلة البشرية وأصل البغى طلب تجاوز الاقتصاد فيمايتحرى من حيث الكمية أو الكيفية (ولكن ينزل بقدر) أى بتقدير (مايشاء) أن ينزله مما تقتضيه مشيئته (إنه بعباده خبير بصير) محيط بخفايا أمورهم وجلاياها فيقدر لكل واحد منهم فى كل وقت من أوقاتهم مايليق بشأنهم فيفقر ويغنى ويمنع ويعطى ويقبض ويبسط حسبما تقتضيه الحكمة الربانية ولو أغناهم جميعاً لبغوا ولو أفقرهم لهلكوا وروى أن أهل الصفة تمنوا الغنى فنزلت وقيل نزلت فى

٢٨ العرب كانوا إذا أخصبوا تحاربوا وإذا أجدبوا انتجعوا (وهو الذى ينزل الغيث) أى المطر الذى يغيثهم من الجدب ولذلك خص بالنافع منه وقرىء ينزل من الإنزال (من بعد ماقنطوا) يئسوا منه وتقييد تنزيله بذلك مع تحققه بدونه أيضاً لتذكر كال النعمة وقرىء بكسر النون (وينشر رحمته) أى بركات الغيث ومنافعه فى كل شىء من السهل والجبل والنبات والحيوان أو رحمته الواسعة المنتظمة لما ذكر انتظاماً أولياً (وهو الولى) الذى يتولى عباده بالإحسان ونشر الرحمة (الحميد) المستحق

٢٩ للحمد على ذلك لاغيره (ومن آياته خلق السموات والأرض) على ماهما عليه من تعاجيب الصنائع فإنها بذاتها وصفاتها تدل على شئونه العظيمة (وما بث فيهما) عطف على السموات أو الخلق (من دابة) من حى على إطلاق اسم المسبب على السبب أو مما يدب على الأرض فإن مايختص بأحد الشيئين المتجاورين يصح نسبته إليهما كما فى قوله تعالى يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان وإنما يخرج من الملح وقد جوز أن يكون للملائكة عليهم السلام مشى مع الطيران فيوصفوا بالدبيب وأن يخلق الله فى السماء حيواناً يمشون فيها مشى الأناسى على الأرض كما ينبىء عنه قوله تعالى ويخلق مالا تعلمون وقد روى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال فوق السماء السابعة بحر بين أسفله وأعلاه كما بين السماء والأرض ثم فوق ذلك ثمانية أوعال بين ركبهن وأظلافهن كما بين السماء والأرض ثم فوق ذلك العرش العظيم (وهو على جمعهم) أى حشرهم بعد البعث للمحاسبة وقوله تعالى (إذا يشاء) متعلق بما قبله لا بقوله تعالى

وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾ ٤٢ الشورى

وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٣١﴾ ٤٢ الشورى

وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٣٢﴾ ٤٢ الشورى

إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾ ٤٢ الشورى

أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُواْ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٤﴾ ٤٢ الشورى

وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٣٥﴾ ٤٢ الشورى

(قدير) فإن المقيد بالمشيئة جمعه تعالى لاقدرته وإذا عند كونها بمعنى الوقت كما تدخل الماضى تدخل
٣٠ المضارع (وما أصابكم من مصيبة) أى مصيبة كانت (فبما كسبت أيديكم) أى فهى معاصيكم التى اكتسبتموها
والفاء لأن ما شرطية أو متضمنة لمعنى الشرط وقرىء بدونها اكتفاء بما فى الباء من معنى السببية (ويعفوا
عن كثير) من الذنوب فلا يعاقب عليها والآية مخصوصة بالمجرمين فإن ما أصاب غيرهم لأسباب أخرى
٣١ منها تعريضه للثواب بالصبر عليه (وما أنتم بمعجزين فى الأرض) فائتين ماقضى عليكم من المصائب وإن
هربتم من أقطارها كل مهرب (وما لكم من دون الله من ولى) يحميكم منها (ولا نصير) يدفعها عنكم
٣٢ (ومن آياته الجوار) السفن الجارية (فى البحر) وقرىء الجوارى (كالأعلام) أى كالجبال على
٣٣ الإطلاق لا التى عليها النار للاهتداء خاصة (إن يشأ يسكن الريح) التى تجريها وقرىء الرياح (فيظللن
رواكد على ظهره) فيبقين ثوابت على ظهر البحر أى غير جاريات لا غير متحركات أصلا (إن فى
ذلك) الذى ذكر من السفن اللاتى يجرين تارة ويركدن أخرى على حسب مشيئته تعالى (لآيات)
عظيمة فى أنفسها كثيرة فى العدد دالة على ما ذكر من شئونه تعالى (لكل صبار شكور) لكل من
حبس نفسه عن التوجه إلى ما لا ينبغى ووكل همته بالنظر فى آيات الله تعالى والتفكر فى آلائه أو لكل
٣٤ مؤمن كامل فإن الإيمان نصفه صبر ونصفه شكر (أو يوبقهن بما كسبوا) عطف على يسكن والمعنى
إن يشأ يسكن الريح فيركدن أو يرسلها فيغرقن بعصفها وإيقاع الإيباق عليهن مع أنه حال أهلهن
للمبالغة والتهويل وإجراء حكمه على العفو فى قوله تعالى (ويعف عن كثير) لما أن المعنى أو يرسلها
٣٥ فيوبق ناساً وينج آخرين بطريق العفو عنهم وقرىء ويعفو على الاستئناف (ويعلم الذين يجادلون
فى آياتنا) عطف على علة مقدرة مثل لينتقم منهم وليعلم الخ كما فى قوله تعالى ولنجعله آية للناس وقوله
ولنعلمه من تأويل الأحاديث ونظائرهما وقرىء بالرفع على الاستئناف وبالجزم عطفاً على يعف
فيكون المعنى وإن يشأ يجمع بين إهلاك قوم وإنجاء قوم وتحذير قوم (مالهم من محيص) أى من
مهرب من العذاب والجملة معلق عنها الفعل.

فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ ٤٢ الشورى

وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَـٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ ٤٢ الشورى

وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ ٤٢ الشورى

وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ ٤٢ الشورى

وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ ٤٢ الشورى

---

٣٦ (فما أوتيتم من شيء) مما ترغبون وتتنافسون فيه (فمتاع الحياة الدنيا) أى فهو متاعها تتمتعون به
مدة حياتكم (وما عند الله) من ثواب الآخرة (خير) ذاتاً لخلوص نفعه (وأبقى) زماناً حيث
لا يزول ولا يفنى (للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون) لا على غيره أصلا والموصول الأول لما كان
متضمناً لمعنى الشرط من حيث أن إيتاء ما أوتوا سبب للتمتع بها فى الحياة الدنيا دخلت جوابها الفاء
بخلاف الثانى وعن على رضى الله عنه أنه تصدق أبو بكر رضى الله عنه بماله فلامه جمع من المسلمين
٣٧ فنزلت وقوله تعالى (والذين يجتنبون كبائر الإثم) أى الكبائر من هذا الجنس (والفواحش وإذا
ماغضبوا هم يغفرون) مع مابعده عطف على الذين آمنوا أو مدح بالنصب أو الرفع وبناء يغفرون
على الضمير خبراً له للدلالة على أنهم الأخصاء بالمغفرة حال الغضب لعزة منالها وقرىء كبير الإثم
٣٨ وعن ابن عباس رضى الله عنهما كبير الإثم الشرك (والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة) نزل فى
الأنصار دعاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الإيمان فاستجابوا له (وأمرهم شورى بينهم) أى ذو
شورى لا ينفردون برأى حتى يتشاوروا ويجتمعوا عليه وكانوا قبل الهجرة وبعدها إذا حزبهم
أمر اجتمعوا وتشاوروا (ومما رزقناهم ينفقون) أى فى سبيل الخير ولعل فصله عن قرينه بذكر
٣٩ المشاورة لوقوعها عند اجتماعهم للصلوات (والذين إذا أصابهم البغى هم ينتصرون) أى ينتقمون ممن
بغى عليهم على ماجعله الله تعالى لهم كراهة التذلل وهو وصف لهم بالشجاعة بعد وصفهم بسائر
مهمات الفضائل وهذا لا ينافى وصفهم بالغفران فإن كلا منهما فضيلة محمودة فى موقع نفسه ورذيلة
مذمومة فى موقع صاحبه فإن الحلم عن العاجز وعوراء الكرام محمود وعن المتغلب ولغواء اللئام
مذموم فإنه إغراء على البغى وعليه قول من قال [إذا أنت أكرمت الكريم ملكته * وإن أنت
أكرمت اللئيم تمردا] [فوضع الندى فى موضع السيف بالعلا * مضر كوضع السيف فى موضع
٤٠ الندى] وقوله تعالى (وجزاء سيئة سيئة مثلها) بيان لوجه كون الانتصار من الخصال الحميدة مع
كونه فى نفسه إساءة إلى الغير بالإشارة إلى أن البادىء هو الذى فعله لنفسه فإن الأفعال مستتبعة
لأجزيتها حتما إن خيراً فخير وإن شراً فشر وفيه تنبيه على حرمة التعدى وإطلاق السيئة على الثانية

وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ ٤٢ الشورى

إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ
أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ ٤٢ الشورى

وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾ ٤٢ الشورى

وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِىٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ
إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾ ٤٢ الشورى

وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِىٍّ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ
ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ
مُّقِيمٍ ﴿٤٥﴾ ٤٢ الشورى

لأنها تسوء من نزلت به (فمن عفا) عن المسيء إليه (وأصلح) بينه وبين من يعاديه بالعفو والإغضاء *
كما فى قوله تعالى فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم (فأجره على الله) عدة مبهمة منبئة عن *
عظم شأن الموعود وخروجه عن الحد المعهود (إنه لا يحب الظالمين) البادئين بالسيئة والمعتدين فى *
الانتقام (ولمن انتصر بعد ظلمه) أى بعد ما ظلم وقد قرىء به (فأولئك) إشارة إلى من باعتبار المعنى ٤١
كما أن الضميرين لها باعتبار اللفظ (ما عليهم من سبيل) بالمعاتبة أو المعاقبة (إنما السبيل على الذين ٤٢
يظلمون الناس) يبتدئونهم بالإضرار أو يعتدون فى الانتقام (ويبغون فى الأرض بغير الحق) أى *
يتكبرون فيها تجبراً وفساداً (أولئك) الموصوفون بما ذكر من الظلم والبغى بغير الحق (لهم عذاب *
أليم) بسبب ظلمهم وبغيهم (ولمن صبر) على الأذى (وغفر) لمن ظلمه ولم ينتصر وفوض أمره إلى ٤٣
الله تعالى (إن فى ذلك) الذى ذكر من الصبر والمغفرة (لمن عزم الأمور) أى إن ذلك منه فحذف *
ثقة بغاية ظهوره كما فى قولهم السمن منوان بدرهم وهذا فى المواد التى لا يؤدى العفو إلى الشر كما أشير إليه
(ومن يضلل الله فما له من ولى من بعده) من ناصر يتولاه من بعد خذلانه تعالى إياه (وترى الظالمين ٤٤
لما رأوا العذاب) أى حين يرونه وصيغة الماضى للدلالة على التحقق (يقولون هل إلى مرد) أى *
إلى رجعة إلى الدنيا (من سبيل) حتى نؤمن ونعمل صالحاً (وتراهم يعرضون عليها) أى على النار ٤٥
المدلول عليها بالعذاب والخطاب فى الموضعين لكل من يتأتى منه الرؤية (خاشعين من الذل) متذللين *
متضائلين مما دهاهم (ينظرون من طرف خفى) أى يبتدىء نظرهم إلى النار من تحريك لأجفانهم ضعيف *
كالمصبور ينظر إلى السيف (وقال الذين آمنوا إن الخاسرين) أى المتصفين بحقيقة الخسران (الذين *
خسروا أنفسهم وأهليهم) بالتعريض للعذاب الخالد (يوم القيامة) أما ظرف لخسروا فالقول فى *

وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ ﴿٤٦﴾ ٤٢ الشورى
ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۚ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن
نَّكِيرٍ ﴿٤٧﴾ ٤٢ الشورى
فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ
مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ ﴿٤٨﴾ ٤٢ الشورى
لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ
ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ ٤٢ الشورى

الدنيا أو لقال فالقول يوم القيامة أى يقولون حين يرونهم على تلك الحال وصيغة الماضى للدلالة
على تحققه وقوله تعالى (ألا إن الظالمين فى عذاب مقيم) إما من تمام كلامهم أو تصديق من الله تعالى
٤٦ لهم (وما كان لهم من أولياء ينصرونهم) برفع العذاب عنهم (من دون الله) حسبما كانوا يرجون ذلك
٤٧ فى الدنيا (ومن يضلل الله فما له من سبيل) يؤدى سلوكه إلى النجاة (إستجيبوا لربكم) إذا دعاكم إلى
الإيمان على لسان نبيه (من قبل أن يأتى يوم لامرد له من الله) أى لايرده الله بعد ماحكم به على أن
من صلة مرد أو من قبل أن يأتى من الله يوم لايمكن رده (مالكم من ملجأ يومئذ) أى مفر تلتجئون
إليه (وما لكم من نكير) أى إنكاره لما اقترفتموه لأنه مدون فى صحائف أعمالكم وتشهد عليكم
٤٨ جوارحكم (فإن أعرضوا فما أرسلناك عليهم حفيظاً) تلوين للكلام وصرف له عن خطاب الناس
بعد أمرهم بالاستجابة وتوجيه له إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أى فإن لم يستجيبوا وأعرضوا
عما تدعوهم إليه فما أرسلناك رقيباً ومحاسباً عليهم (إن عليك إلا البلاغ) وقد فعلت (وإنا إذاً أذقنا
الإنسان منا رحمة) أى نعمة من الصحة والغنى والأمن (فرح بها) أريد بالإنسان الجنس لقوله تعالى
* (وإن تصبهم سيئة) أى بلاء من مرض وفقر وخوف (بما قدمت أيديهم فإن الإنسان كفور) بليغ
الكفر ينسى النعمة رأساً ويذكر البلية ويستعظمها ولا يتأمل سببها بل يزعم أنها أصابته بغير
استحقاق لها وإسناد هذه الخصلة إلى الجنس مع كونها من خواص المجرمين لغلبتهم فيما بين الأفراد
وتصدير الشرطية الأولى بإذا مع إسناد الإذاقة إلى نون العظمة للتنبيه على أن إيصال النعمة محقق
الوجود كثير الوقوع وأنه مقتضى الذات كما أن تصدير الثانية بأن وإسناد الإصابة إلى السيئة وتعليلها
بأعمالهم للإيذان بندرة وقوعها وأنها بمعزل عن الانتظام فى سلك الإرادة بالذات ووضع الظاهر
٤٩ موضع الضمير للتسجيل على أن هذا الجنس موسوم بكفران النعم (لله ملك السموات والأرض)
فمن قضيته أن يملك التصرف فيهما وفى كل مافيهما كيفما يشاء ومن جملته أن يقسم النعمة والبلية حسبما
يريده (يخلق مايشاء) مما تعلمه ومما لاتعلمه (يهب لمن يشاء إناثاً) من الأولاد (ويهب لمن يشاء الذكور)

أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ ٤٢ الشورى

وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾ ٤٢ الشورى

٥٠ منهم من غير أن يكون فى ذلك مدخل لأحد (أو يزوجهم) أى يقرن بين الصنفين فيهبهما جميعاً (ذكراناً وإناثاً) قالوا معنى يزوجهم أن تلد غلاماً ثم جارية أو جارية ثم غلاماً أو تلد ذكراً وأنثى توأمين (ويجعل من يشاء عقيما) والمعنى يجعل أحوال العباد فى حق الأولاد مختلفة على ماتقتضيه المشيئة فيهن فيهب لبعض إما صنفاً واحداً من ذكر أو أنثى وإما صنفين ويعقم آخرين ولعل تقديم الإناث لأنها أكثر لتكثير النسل أو لأن مساق الآية للدلالة على أن الواقع ماتتعلق به مشيئته تعالى لا ما تتعلق به مشيئة الإنسان والإناث كذلك أو لأن الكلام فى البلاء والعرب تعدهن أعظم البلايا أو لتطييب قلوب آبائهن أو للمحافظة على الفواصل ولذلك عرف الذكور أو لجبر التأخير وتغيير العاطف فى الثالث لأنه قسيم المشترك بين القسمين ولا حاجة إليه فى الرابع لإفصاحه بأنه قسيم المشترك بين الأقسام المتقدمة وقيل المراد بيان أحوال الأنبياء عليهم السلام حيث وهب لشعيب ولوط إناثاً ولإبراهيم ذكوراً وللنبي صلى الله عليه وسلم ذكوراً وإناثاً وجعل يحيى وعيسى عقيمين (إنه عليم

٥١ قدير) مبالغ فى العلم والقدرة فيفعل مافيه حكمة ومصلحة (وما كان لبشر) أى وما صح لفرد من أفراد البشر (أن يكلمه الله) بوجه من الوجوه (إلا وحياً) أى إلا بأن يوحى إليه ويلهمه ويقذف فى قلبه كما أوحى إلى أم موسى وإلى ابراهيم عليهما السلام فى ذبح ولده وقد روى عن مجاهد أوحى الله الزبور إلى دواود عليه السلام فى صدره أو بأن يسمعه كلامه الذى يخلقه فى بعض الأجرام من غير أن يبصر السامع من يكلمه وهو المراد بقوله تعالى (أو من وراء حجاب) فإنه تمثيل له بحال الملك المحتجب الذى يكلم بعض خواصه من وراء الحجاب يسمع صوته ولا يرى شخصه وذلك كما كلم موسى وكما يكلم الملائكة عليهم السلام أو بأن يكلمه بواسطة الملك وذلك قوله تعالى (أو يرسل رسولا) أى ملكا (فيوحى) ذلك الرسول إلى المرسل إليه الذى هو الرسول البشرى (بإذنه) أى بأمره تعالى وتيسيره (مايشاء) أن يوحيه إليه وهذا هو الذى يجرى بينه تعالى وبين الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فى عامة الأوقات من الكلام وقيل قوله تعالى وحياً وقوله تعالى أو يرسل مصدران واقعان موقع الحال وقوله تعالى أو من وراء حجاب ظرف واقع موقعها والتقدير وما صح أن يكلم إلا موحياً أو مسمعاً من وراء حجاب أو مرسلا وقرىء أو يرسل بالرفع على إضمار مبتدأ وروى أن اليهود قالت للنبي صلى الله عليه وسلم ألا تكلم الله وتنظر إليه إن كنت نبياً كما كلمه موسى ونظر إليه فإنا لن نؤمن حتى تفعل ذلك فقال عليه السلام لم ينظر موسى عليه السلام إلى الله تعالى فنزلت وعن عائشة رضى الله عنها من زعم أن محمداً رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية ثم قالت رضى الله عنها

وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ ٤٢ الشورى

صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ ﴿٥٣﴾ ٤٢ الشورى

---

* أو لم تسمعوا ربكم يقول فتلت هذه الآية (إنه على) متعال عن صفات المخلوقين لا يتأتى جريان
* المفاوضة بينه تعالى وبينهم إلا بأحد الوجوه المذكورة (حكيم) يجرى أفعاله على سنن الحكمة
٥٢ فيكلم تارة بواسطة وأخرى بدونها إما الهاماً وإما خطاباً (وكذلك) أى ومثل ذلك الإيحاء البديع
* (أوحينا إليك روحا من أمرنا) هو القرآن الذى هو للقلوب بمنزلة الروح للأبدان حيث يحييها حياة
* أبدية وقيل جبريل عليه السلام ومعنى إيحائه إليه عليهما السلام إرساله إليه بالوحى (ما كنت تدرى)
* قبل الوحى (ماالكتاب) أى أى شيء هو (ولا الإيمان) أى الإيمان بتفاصيل ما فى تضاعيف
الكتاب من الأمور التى لا تهتدى إليها العقول لا الإيمان بما يستقل به العقل والنظر فإن درايته عليه
* الصلاة والسلام له بما لا ريب فيه قطعاً (ولكن جعلناه) أى الروح الذى أوحيناه إليك (نوراً
* نهدى به من نشاء) هدايته (من عبادنا) وهو الذى يصرف اختياره نحو الاهتداء به وقوله تعالى
* (وإنك لتهدى) تقرير لهدايته تعالى وبيان لكيفيتها ومفعول لتهدى محذوف ثقة بغاية الظهور أى
* وإنك لتهدى بذلك النور من نشاء هدايته (إلى صراط مستقيم) هو الإسلام وسائر الشرائع والأحكام
٥٣ وقرىء لتهدى أى ليهديك الله وقرىء لتدعو (صراط الله) بدل من الأول وإضافته إلى الاسم الجليل
* ثم وصفه بقوله تعالى (الذى له مافى السموات والأرض) لتفخيم شأنه وتقرير استقامته وتأكيد
وجوب سلوكه فإن كون جميع مافيهما من الموجودات له تعالى خلقاً وملكا وتصرفا مما يوجب ذلك
* أتم إيجاب (ألا إلى الله تصير الأمور) أى أمور مافيهما قاطبة لا إلى غيره ففيه من الوعد للمهتدين
إلى الصراط المستقيم والوعيد للضالين عنه مالا يخفى . عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ
سورة حم عسق كان ممن تصلى عليه الملائكة ويستغفرون ويسترحمون له .

سورة الشورى

ترتيبها ٤٢ — آياتها ٥٣

بسم الله الرحمن الرحيم

حمٓ ﴿١﴾ عٓسٓقٓ ﴿٢﴾ كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣﴾ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٤﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ ۚ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٦﴾ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ ﴿٧﴾ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٨﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۖ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِىُّ وَهُوَ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٩﴾ وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّى عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾ فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا ۖ يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ ۚ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾ لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٢﴾

وتسمى سورة ﴿**حم عسق**﴾ و ﴿**عسق**﴾ نزلت على ما روي عن ابن عباس وابن الزبير بمكة وأطلق غير واحد القول بمكيتها من غير استثناء، وفي البحر هي مكية إلا أربع آيات من قوله تعالى: ﴿قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى﴾ [الشورى: ٢٣] إلى آخر أربع آيات وقال مقاتل: فيها مدني قوله تعالى: ﴿ذلك الذي يبشر الله عباده. إلى. الصدور﴾ [الشورى: ٢٣ . ٢٤] واستثنى بعضهم قوله تعالى: ﴿أم يقولون افترى﴾ [الشورى: ٢٤] الخ، قال الجلال السيوطي: ويدل له ما أخرجه الطبراني والحاكم في سبب نزولها فإنها نزلت في الأنصار، وقوله سبحانه: ﴿ولو بسط الله الرزق﴾ [الشورى: ٢٧] الخ فإنها نزلت في أصحاب الصفة رضي الله تعالى عنهم، واستثنى أيضاً ﴿**الذين إذا**

أصابهم البغي﴾ إلى قوله تعالى: ﴿من سبيل﴾ [الشورى: ٣٩ . ٤١] حكاه ابن الفرس، وسيأتي إن شاء الله تعالى ما يدل على استثناء غير ذلك على بعض الروايات، وجوز أن يكون الإطلاق باعتبار الأغلب وعدد آياتها ثلاث وخمسون في الكوفي وخمسون فيما عداه والخلاف في ﴿حم عسق﴾ وقوله تعالى: ﴿كالأعلام﴾ [الشورى: ٣٢] كما فصله الداني وغيره، ومناسبة أولها لآخر السورة قبلها اشتمال كل على ذكر القرآن وذب طعن الكفرة فيه وتسلية النبي ﷺ.

﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ حم عسق﴾ لعلهما اسمان للسورة وأيد بعدهما آيتين والفصل بينهما في الخط وبورود تسميتها ﴿عسق﴾ من غير ذكر ﴿حم﴾، وقيل: هما اسم واحد وآية واحدة وحقه أن يرسم متصلاً كما في ﴿كهيعص﴾ [مريم: ١] لكنه فصل ليكون مفتتح السورة على طرز مفتتح اخواتها حيث رسم في كل مستقلا وعلى الأول هما خبران لمبتدأ محذوف. وقيل: ﴿حم﴾ مبتدأ و ﴿عسق﴾ خبره وعلى الثاني الكل خبر واحد، وقيل: إن ﴿حم عسق﴾ إشارة إلى هلاك مدينتين تبنيان على نهر من أنهار المشرق يشق النهر بينهما يجتمع فيهما كل جبار عنيد يبعث الله تعالى على إحداهما ناراً ليلاً فتصبح سوداء مظلمة قد احترقت كأنها لم تكن مكانها ويخسف بالأخرى في الليلة الأخرى، وروي ذلك عن حذيفة، وقيل: إن ﴿حم﴾ اسم من أسماء الله تعالى و «عين» إشارة إلى عذاب يوم بدر و «سنين» إشارة إلى قوله تعالى: ﴿سيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون﴾ [الشعراء: ٢٢٧] و «قاف» إلى قارعة من السماء تصيب الناس، وروي ذلك بسند ضعيف عن أبي ذر، والذي يغلب على الظن عدم ثبوت شيء من الروايتين.

وفي البحر ذكر المفسرون في ﴿حم عسق﴾ أقوالا مضطربة لا يصلح منها شيء ضربنا عن ذكرها صفحاً، وما ذكرناه أولاً قد اختاره غير واحد، ومنهم من اختار أنها مقطعات جيء بها للايقاظ، وقرأ ابن عباس وابن مسعود «حم سق» بلا عين.

وقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ كلام مستأنف وارد لتحقيق أن مضمون السورة موافق لما في تضاعف الكتب المنزلة على سائر الرسل المتقدمين في الدعوة إلى التوحيد والإرشاد إلى الحق أو أن إيحاءها بعد تنويهها بذكر اسمها والتنبيه على فخامة شأنها، والكاف مفعول «يوحي» على الأول أن يوحي مثل ما في هذه السورة من المعاني أو نعت لمصدر مؤكد على الثاني أي يوحي إيحاء مثل إيحائها إليك وإلى الرسل أي بواسطة الملك، وهي في الوجهين اسم كما هو مذهب الأخفش وإن شئت فاعتبرها حرفاً واعتبر الجار والمجرور مفعولاً أو متعلقاً بمحذوف وقع نعتاً، وقول العلامة الثاني في التلويح إن جار الله لا يجوز الابتداء بالفعل ويقدر المبتدأ في جميع ما يقع فيه الفعل ابتداء كلام غير مسلم وقد ترددوا فيه حتى قيل: إنه لم يظهر له وجه.

وجوز أبو البقاء كون ﴿كذلك﴾ مبتدأ و ﴿يوحي﴾ الخبر والعائد محذوف أي مثل ذلك يوحيه إليك الخ وحذف مثله شائع في الفصيح، نعم هذا الوجه خلاف الظاهر، والإشارة كما أشرنا إليه إلى ما في السورة أو إلى إيحائها، والدلالة على البعد لبعد منزلة المشار إليه في الفضل، وصيغة المضارع على حكاية الحال الماضية للدلالة على استمراره في الأزمنة الماضية وإن إيحاء مثله عادته عَزَّ وَجَلَّ، وقيل: إنها على التغلب فإن الوحي إلى من مضى مضى إليه عليه الصلاة والسلام بعضه ماض وبعضه مستقبل، وجوز أن تكون على ظاهرها ويضمر عامل يتعلق به ﴿إلى الذين﴾ أي وأوحى إلى الذين وهو كما ترى، وفي جعل مضمون السورة أو إيحائها مشبهاً به من تفخيمها ما لا يخفى.

وقرأ مجاهد وابن كثير وعياش ومحبوب كلاهما عن أبي عمرو «يُوحَى» مبنياً للمفعول على أن ﴿كذلك﴾ مبتدأ و ﴿يوحي﴾ خبره المسند إلى ضميره أو مصدر و ﴿يوحي﴾ مسند إلى ﴿إليك﴾ و ﴿الله﴾ مرتفع عند السكاكي على الفاعلية ليوحي الواقع في جواب من يوحي؟ نحو ما قرروه في قوله تعالى: ﴿يسبح له فيها بالغدو

والآصال رجال﴾ [النور: ٣٦ . ٣٧] على قراءة «يُسَبَّحُ» بالبناء للمفعول، وقوله:

ليبك يزيد ضارع لخصومة ومختبط مما تطيح الطوائح

وقال الزمخشري: رافعه ما دل عليه ﴿يوحي﴾ كأن قائلاً قال: من الموحي؟ فقيل: الله وإنما قدر كذلك على ما قاله صاحب الكشف ليدل على أن الإيحاء مسلم معلوم وإنما الغرض من الإخبار إثبات اتصافه بأنه تعالى من شأنه الوحي لا إثبات أنه موح، ولم يرتض القول بعدم الفرق بين هذا وقوله تعالى: ﴿يسبح له فيها بالغدو والآصال رجال﴾ بل أوجب الفرق لأن الفعل المضارع هنالك على ظاهره لم يؤت به للدلالة على الاستمرار ولهم فيه مقال.

و ﴿العزيز الحكيم﴾ صفتان له تعالى عند الشيخين، وجوز أبو حيان كون الاسم الجليل مبتدأ وما بعده خبر له وقيل: ﴿الله العزيز الحكيم﴾ إلى آخر السورة قائم مقام فاعل ﴿يوحي﴾ أي هذه الكلمات.

وقرأ أبو حيوة والأعشى عن أبي بكر وأبان «نوحي» بنون العظمة فالله مبتدأ وما بعده خبر أو ﴿العزيز الحكيم﴾ صفتان، وقوله تعالى: ﴿لَهُ ما في السَّمَوَات وَمَا في الأَرْض وَهُوَ العَليُّ الْعَظيمُ﴾ خبر له، وعلى الأوجه السابقة استئناف مقرر لعزته تعالى وحكمته عزَّ وجلَّ ﴿تَكَادُ السَّمواتُ﴾ وقرىء «يكاد» بالياء ﴿يَتَفَطَّرْنَ﴾ يتشققن من عظمة الله تعالى وجلاله جل شأنه وروي ذلك عن قتادة: وأخرج جماعة منهم الحاكم وصححه عن ابن عباس أنه قال: تكاد السموات يتفطرن من الثقل، وقيل: من دعاء الشريك والولد له سبحانه كما في سورة مريم، وأيد هذا بقوله تعالى بعد: ﴿والذين اتخذوا من دونه أولياء﴾ فإيراد الغفور الرحيم بعد لأنهم استوجبوا بهذه المقالة صب العذاب عليهم لكنه صرف عنهم لسبق رحمته عزَّ وجلَّ، والآية عليه واردة للتنزيه بعد إثبات المالكية والعظمة، والأول أولى في هذا المقام لأن الكلام مسوق لبيان عظمته تعالى وعلوه جل جلاله ويؤيده ترك العاطف، ويليه ما روي عن الحبر فإن الآية وإن تضمنت عليه الغرض المسوق له الكلام لكن دلالتها عليه بناء على القول الأول أظهر.

وقرأ البصريان وأبو بكر «ينفطرن» بالنون، والأول أبلغ لأن المطاوع والمطاوع من التفعيل والتفعل الموضوع للمبالغة بخلاف الثاني فإنه انفعال مطاوع للثلاثي، وروى يونس عن أبي عمرو أنه قرأ «تتفطرن» بتاءين ونون في آخره على ما في الكشاف، و «تنفطرن» بتاء واحدة ونون على ما في البحر عن ابن خالويه وهو على الروايتين شاذ عن القياس والاستعمال لأن العرب لا تجمع بين علامتي التأنيث فلا تقول النساء تقمن ولا الوالدات ترضعن، والوجه فيه تأكيد التأنيث كتأكيد الخطاب في أرأيتك؛ ومثله ما رواه أبو عمر الزاهد في نوادر ابن الأعرابي الإبل تتشممن. ﴿مِنْ فَوقِهِنَّ﴾ أي يبتدأ التفطر من جهتهن الفوقانية، وتخصيصها على الأول في سبب التفطر لما أن أعظم الآيات وأدلها على العظمة والجلال كالعرش والكرسي والملائكة من تلك الجهة ولذا كانت قبلة الدعاء، وعلى الثالث للدلالة على التفطر من تحتهن بالطريق الأولى لأن تلك الكلمة الشنعاء الواقعة في الأرض حين أثرت من جهة الفوق فلأن تؤثر من جهة التحت أولى، وكذا على الثاني لأن العادة تفطر سطح البيت مثلا من جهة التحتانية بحصول ثقل عليه، وقيل: الضمير للأرض أي لجنسها فيشمل السبع ولذا جمع الضمير وهو خلاف الظاهر، وقال علي بن سليمان الأخفش: الضمير للكفار والمراد من فوق الفرق والجماعات الملحدة، وبهذا الاعتبار أنث الضمير، وفي ذلك إشارة إلى أن التفطر من أجل أقوال هاتيك الجماعات، وفيه ما فيه.

﴿والْمَلاَئكَةُ يُسَبِّحُونَ بحَمْد رَبِّهمْ﴾ ينزهونه سبحانه عما لا يليق به جلَّ جلاله ملتبسين بحمده عزَّ وجلَّ، وقيل: يصلون والظاهر العموم في الملائكة، وقال مقاتل المراد بهم حملة العرش ﴿وَيَسْتَغْفرُونَ لمَنْ في الأَرْض﴾

بالسعي فيما يستدعي مغفرتهم من الشفاعة والإلهام وترتيب الأمور المقربة إلى الطاعة كالمعاونة في بعض أمورالمعاش ودفع العوائق واستدعاء تأخير العقوبة طمعاً في إيمان الكافر وتوبة الفاسق وهذا يعم المؤمن والكافر بل لو فسر الاستغفار بالسعي فيما يدفع الخلل المتوقع عم الحيوان بل الجماد، وهو فيما ذكر مجاز مرسل واستعارة.

وقال السدي وقتادة: المراد بمن في الأرض المؤمنون لقوله تعالى في آية أخرى: ﴿ويستغفرون للذين آمنوا﴾ [غافر: ٧] والمراد بالاستغفار عليه حقيقته، وقيل: الشفاعة.

﴿أَلاَ إِنَّ الله هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ إذ ما من مخلوق إلا وله حظ عظيم من رحمته تعالى وإنه سبحانه لذو مغفرة للناس على ظلمهم، وفيه إشارة إلى قبول استغفار الملائكة عليهم السلام وأنه سبحانه يزيدهم على ما طلبوه من المغفرة رحمة، والآية على كون قوله تعالى: ﴿تكاد السموات يتفطرن﴾ لبيان عظمته جلّ شأنه مقررة لما دل عليه ذلك ومؤكدة لأن تسبيح الملائكة وتنزيههم له تعالى لمزيد عظمته تبارك وتعالى وعظيم جلاله جل وعلا والاستغفار لغيرهم للخوف عليهم من سطوة جبروته عزَّ وجلَّ والتذييل بقوله تعالى: ﴿ألا إن الله﴾ الخ على هذا ظاهر، وعلى كون تفطر السموات لنسبة الولد والشريك بيان لكمال قدسه تعالى عما نسب إليه عزَّ وجلَّ فيكون تسبيحهم عما يقوله الكفرة واستغفارهم للمؤمنين الذين تبرأوا عما صدر من هؤلاء والتذييل للإشارة إلى سبب ترك معاجلة العذاب مع استحقاقهم له وعمم بعض المستغفر لهم وأدخل استغفار الملائكة في سبب ترك المعاجلة ﴿وَالَّذين اتَّخذُوا مِنْ دُونه أَوْلِيَاءَ﴾ شركاء وأنداداً ﴿الله حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ﴾ رقيب على أحوالهم وأعمالهم فيجازيهم بها ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بوَكِيل﴾ أي بموكل بهم أو بموكول إليك أمرهم وإنما وظيفتك البلاغ والإنذار فوكيل فعيل بمعنى مفعول من المزيد أو الثلاثي، وما في هذه الآية من الموادعة على ما في البحر منسوخ بآية السيف ﴿وَكَذٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآناً عَرَبِيًّا﴾ ذلك إشارة إلى مصدر ﴿أوحينا﴾ ومحل الكاف على ما ذهب إليه الأخفش من ورودها اسما النصب على المصدرية و ﴿قرآنا﴾ مفعول لأوحينا أي ومثل ذلك الإيحاء البديع البين المفهم أوحينا إليك قرآنا عربياً لا لبس فيه عليك ولا على قومك، وقيل: إشارة إلى ما تقدم من ﴿الله حفيظ عليهم وما أنت عليهم بوكيل﴾ فالكاف مفعول لأوحينا ﴿وقرآناً عربياً﴾ حال من المفعول به أي أوحيناه إليك وهو قرآن عربي، وجوز نصبه على المدح أو البدلية من كذلك، وقيل: أولى من هذا أن يكون إشارة إلى معنى الآية المتقدمة من أنه تعالى هو الحفيظ عليهم وأنه عليه الصلاة والسلام نذير فحسب لأنه أتم فائدة وأشمل عائدة ولا بد عليه من التجوز في قرآناً عربياً إذ لا يصح أن يقال أوحينا ذلك المعنى وهو قرآن عربي لأن القرآنية والعربية صفة اللفظ لا المعنى لكن أمره سهل لقربه من الحقيقة لما بين اللفظ والمعنى من الملابسة القوية حتى يوصف أحدهما بما يوصف به الآخر مع ما في المجاز في البلاغة ﴿لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى﴾ أي أهل أم القرى على التجوز في النسبة أو بتقدير المضاف والمراد بأم القرى مكة، وسميت بذلك على ما قال الراغب لما روي أنه دحيت الدنيا من تحتها فهي كالأصل لها والأم تقال لكل ما كان أصلاً لشيء، وقد يقال هي أم لما حولها من القرى لأنها حدثت قبلها لا كل قرى الدنيا، وقد يقال لبلد: هي أم البلاد باعتبار احتياج أهالي البلاد إليها ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ من العرب على ما ذهب إليه كثير وخص المذكورون بالذكر لأن السورة مكية وهم أقرب إليه عليه الصلاة والسلام وأول من أنذر أو لدفع ما يتوهم من أن أهل مكة ومن حولها لهم طمع في شفاعته ﷺ وإن لم يؤمنوا لحق القرابة والمساكنة والجوار فخصهم بالإنذار لإزالة ذلك الطمع الفارغ، وقيل: ﴿من حولها﴾ جميع أهل الأرض واختاره البغوي وكذا القشيري وقال: لأن الكعبة سرة الأرض والدنيا محدقة بما هي فيه أعني مكة. وهذا عندي لا يكاد يصح مع قولهم: إن عرضها كام وطولها عز وإن المعمور في جانب الشمال أكثر منه في جانب الجنوب ﴿وَتُنْذِر يَوْمَ الْجَمع﴾ أي يوم

القيامة لأنه يجمع فيه الخلائق قال الله تعالى: ﴿يوم يجمعكم ليوم الجمع﴾ [التغابن: ٩] وقيل: تجمع فيه الأرواح والأشباح، وقيل: الأعمال والعمال، والإنذار يتعدى إلى مفعولين وقد يستعمل ثانيهما بالباء وقد حذف ههنا ثاني مفعول الأول وهو **﴿يوم الجمع﴾** والمراد به عذابه وأول مفعول الثاني وهو **﴿أم القرى ومن حولها﴾** فقد حذف من الأول ما أثبت في الثاني ومن الثاني ما أثبت في الأول وذلك من الاحتباك. وقال جار الله: الأول عام في الإنذار بأمور الدنيا والآخرة ثم خص بقوله تعالى: **﴿وتنذر يوم الجمع﴾** يوم القيامة زيادة في الإنذار وبياناً لعظمة أهواله لأن الإفراد بالذكر يدل عليه وكذلك إيقاع الإنذار عليه ثانياً والظاهر عليه أن حذف المفعول الثاني من الأول لإفادة العموم وإن كان حذف الأول من الثاني لذلك أيضاً وتنذر كل أحد يوم الجمع، وقيل: يوم الجمع ظرف فيكون المفعولان محذوفين وقرىء «لينذر» بياء الغيبة على أن الفاعل ضمير القرآن لعدم حسن الالتفات ههنا **﴿لاَ رَيْبَ فِيهِ﴾** اعتراض في آخر الكلام مقرر لما قبله ويحتمل الحالية من **﴿يوم الجمع﴾** أو الاستئناف **﴿فَرِيقٌ في الجنة وفريقٌ في السَّعير﴾** أي بعد جمعهم في الموقف فإنهم يجمعون فيه أولا ثم يفرقون بعد الحساب، **﴿وفريق﴾** مبتدأ و **﴿في الجنة﴾** صفته والخبر محذوف وكذا **﴿فريق في السعير﴾** أي منهم فريق كائن في الجنة ومنهم فريق كائن في النار، وضمير منهم للمجموعين لدلالة الجمع عليه، وجملة المبتدأ والخبر استئناف في جواب سؤال تقديره ثم كيف يكون حالهم؟ أو حال ولا ركاكة فيه؛ واشتراط الواو فيه غير مسلم، وجوز كون **﴿فريق﴾** فاعلاً للظرف المقدر، وفيه ضعف، وكونه مبتدأ والظرف المقدر في موضع الصفة له وفي الجنة خبره أي **﴿فريق﴾** كائن منهم مستقر في الجنة، وكونه مبتدأ خبره ما بعده من غير أن يكون هناك ظرف مقدر واقع صفة، وساغ الابتداء بالنكرة لأنها في سياق التفصيل والتقسيم كما في قوله: فثوب لبست وثوب أجر. وكونه خبره مبتدأ محذوف أي المجموعون فريق الخ.

وقرأ زيد بن علي رضي الله تعالى عنهما «فريقاً وفريقاً» بنصبهما فقيل: هو على الحال من مقدر أي افترقوا أي المجموعون فريقاً وفريقاً أو من ضمير جمعهم المقدر لأن أل قامت مقامه أي وتنذر يوم جمعهم متفرقين وهو من مجاز المشارفة أي مشارفين للتفرق أو الحال مقدرة فلا يلزم كون افتراقهم في حال اجتماعهم أو يقال إن اجتماعهم في زمان واحد لا ينافي افتراق أمكنتهم كما تقول: صلوا في وقت واحد في مساجد متفرقة فالمراد متفرقين في دارِي الثواب والعقاب، وإذا أريد بالجمع جمع الأرواح بالأشباح أو الأعمال بالعمال لا يحتاج إلى توفيق أصلاً، وجوز كون النصب بتنذر المقدر أو المذكور والمعنى تنذر فريقاً من أهل الجنة وفريقاً من أهل السعير لأن الإنذار ليس في الجنة والسعير ولا يخفى تكلفه **﴿وَلَوْ شَاءَ اللهُ﴾** جعلهم أمة واحدة **﴿لَجَعَلَهُمْ﴾** أي في الدنيا **﴿أُمَّةً وَاحِدَةً﴾** مهتدين أو ضالين وهو تفصيل لما أجمله ابن عباس في قوله: على دين واحد، فمعنى قوله تعالى: **﴿وَلَكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ﴾** أنه تعالى يدخل في رحمته من يشاء أن يدخله فيها ويدخل من يشاء في عذابه أن يدخله فيه ولا ريب في أن مشيئته تعالى لكل من الإدخالين تابعة لاستحقاق كل من الفريقين لدخول ما أدخله ومن ضرورة اختلاف الرحمة والعذاب اختلاف حال الداخلين فيهما قطعاً فلم يشأ جعل الكل أمة واحدة بل جعلهم فريقين وإنما قيل **﴿وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ﴾** وكان الظاهر أن يقال ويدخل من يشاء في عذابه ونقمته للإيذان بأن الادخال في العذاب من جهة الداخلين بموجب سوء اختيارهم لا من جهته عزَّ وجلَّ كما في الإدخال في الرحمة، واختار الزمخشري كون المراد أمة واحدة مؤمنين وهو ما قاله مقاتل على دين الإسلام كما في قوله تعالى: ﴿ولو شاء الله لجمعهم على الهدى﴾ [الأنعام: ٣٥] وقوله سبحانه: ﴿ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها﴾ [السجدة: ١٣] والمعنى ولو شاء الله تعالى مشيئة قدرة لقسرهم على الإيمان ولكنه سبحانه شاء مشيئة حكمة وكلفهم وبنى أمرهم على ما يختارون ليدخل المؤمنين في

رحمته وهم المرادون بقوله تعالى ﴿**من يشاء**﴾ وترك الظالمين بغير ولي ولا نصير، والكلام متعلق بقوله تعالى: ﴿**والذين اتخذوا من دونه أولياء الله حفيظ عليهم وما أنت عليهم بوكيل**﴾ كالتعليل للنهي عن شدة حرصه ﷺ على إيمانهم، فالظالمون مظهر أقيم مقام ضمير المتخذين ليفيد أن ظلمهم علة لما بعده أو هو للجنس ويتناولهم تناولاً أولياً، وعدل عن الظاهر إلى ما في النظم الجليل إذ الكلام في الإنذار وهو أبلغ في تخويفهم لإشعاره بأن كونهم في العذاب أمر مفروغ منه وإنما الكلام في أنه بعد تحتمه هل لهم من يخلصهم بالدفع أو الرفع فإذا نفي ذلك علم أنهم في عذاب لا خلاص منه.

وتعقب بأن فرض جعل الكل مؤمنين يأباه تصدير الاستدراك بادخال بعضهم في رحمته تعالى إذ الكل حينئذ داخلون فيها فكان المناسب حينئذ تصديره بإخراج بعضهم من بينهم وإدخالهم في عذابه، وربما يقال: حيث إن الآية متعلقة بما سمعت كان المراد ولو شاء الله تعالى لجعل الجميع مؤمنين كما تريد وتحرص عليه ولكنه سبحانه لم يشأ ذلك بل جعل بعضهم مؤمناً كما أردت وجعل بعضهم الآخر وهم أولئك المتخذون من دونه أولياء كفاراً لا خلاص لهم من العذاب حسبما تقتضيه الحكمة وكان التصدير بما صدر به مناسباً كما لا يخفى على من له ذوق بأساليب الكلام إلا أن الظاهر على هذا أدخل من شاء دون ﴿**يدخل من يشاء**﴾ لكن عدل عنه إليه حكاية للحال الماضية، وقال شيخ الإسلام: الذي يقتضيه سياق النظم الكريم وسياقه أن يراد الاتحاد في الكفر كما في قوله تعالى: ﴿كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين﴾ [البقرة: ٢١٣] الآية على أحد الوجهين، فالمعنى ولو شاء الله تعالى لجعلهم أمة واحدة متفقة على الكفر بأن لا يرسل إليه رسولاً لينذرهم ما ذكر من يوم الجمع وما فيه من ألوان الأهوال فيبقوا على ما هم عليه من الكفر ولكن يدخل من يشاء في رحمته سبحانه أي شأنه عز شأنه ذلك فيرسل إلى الكل من ينذرهم ما ذكر فيتأثر بعضهم بالإنذار فيصرفون اختيارهم إلى الحق فيوفقهم الله تعالى للإيمان والطاعات ويدخلهم في رحمته عزَّ وجلَّ ولا يتأثر به الآخرون ويتمادون في غيهم وهم الظالمون فيبقون في الدنيا على ما هم عليه من الكفر ويصيرون في الآخرة إلى السعير من غير ولي يلي أمرهم ولا نصير يخلصهم من العذاب انتهى.

ولا يخفى أن بين قوله تعالى: ﴿كان الناس أمة واحدة﴾ الآية، وقوله سبحانه: ﴿**ولو شاء الله لجعلهم أمة واحدة**﴾ بالمعنى الذي اختاره هنا فيهما نوع تناف فتدبر جميع ذلك والله تعالى الموفق ﴿**أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ**﴾ جملة مستأنفة مقررة لما قبلها من انتفاء أن يكون للظالمين ولي أو نصير وكلام الكشاف يومي إلى أنه متصل بقوله تعالى: «والذين اتخذوا» الخ على معنى دع الاهتمام بشأنهم واقطع الطمع في إيمانهم وكيت وكيت أليسوا الذين اتخذوا من دون الله تعالى أولياء وهو سبحانه الولي الحقيقي القادر على كل شيء وعدلوا عنه عزَّ وجلَّ إلا ما لا نسبة بينه تعالى وبينه أصلاً وإن قوله سبحانه ﴿**وكذلك أوحينا**﴾ الآية اعتراض مؤكد لمضمون الآيتين، و ﴿**أم**﴾ على القولين منقطعة وهي تقدر في الأغلب ببل والهمزة، وقدرها جماعة ههنا بهما إلا أن بل على القول الثاني للإضراب وعلى القول الأول للانتقال من بيان ما قبلها إلى بيان ما بعدها، والهمزة قيل: لإنكار الواقع واستقباحه، وقيل: لا بل لإنكار الوقوع ونفيه على أبلغ وجه وآكده إذ المراد بيان أن ما فعلوا ليس اتخاذ الأولياء في شيء لأن ذلك فرع كون الأصنام أولياء وهو أظهر الممتنعات أي بل اتخذوا متجاوزين الله تعالى أولياء من الأصنام وغيرها ﴿**فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ**﴾ قيل: هو جواب شرط مقدر أي إن أرادوا ولياً بحق فالله تعالى هو الولي بحق لا ولي بحق سواه عزَّ وجلَّ، وكونه جواب الشرط على معنى الإخبار ونحوه.

وقال في البحر: لا حاجة إلى اعتبار شرط محذوف والكلام يتم بدونه، ولعله يريد ما قيل: إنه عطف على ما

قبله وأنه تعليل للإنكار المأخوذ من الاستفهام كقولك أتضرب زيداً فهو أخوك أي لا ينبغي لك ضربه فإنه أخوك.

وتعقب بأن المعروف في مثله استعماله بالواو وإنما يحسن التعليل في صريح الإنكار، ولا يناسب معنى المضي أيضاً ﴿وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ﴾ أي شأنه ذلك نحو فلان يقري الضيف ويحمي الحريم ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فهو سبحانه الحقيق بأن يتخذ ولياً فليخصوه بالاتخاذ دون من لا يقدر على شيء ما أصلاً.

﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ﴾ إلى آخره حكاية لقول رسول الله ﷺ للمؤمنين أي ما خالفكم الكفار فيه من أمور الدين كاتخاذ الله تعالى وحده ولياً فاختلفتم أنتم وهو ﴿فَحُكْمُهُ﴾ راجع ﴿إِلَى اللَّهِ﴾ وهو إثابة المحقين وعقاب المبطلين، ويجوز أن يكون كلاماً من جهته تعالى متضمناً التسلية ويكون قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ﴾ الخ بتقدير قل، والإمام اعتبره من أول الكلام، وأياً ما كان فالإشارة إليه تعالى من حيث اتصافه بما تقدم من الصفات على ما قاله الطيبي من كونه تعالى هو يحيي الموتى وكونه سبحانه على كل شيء قدير وكونه عزَّ وجلَّ ما اختلفوا فيه فحكمه إليه، وقال في الإرشاد: أي ذلكم الحاكم العظيم الشأن ﴿اللَّهُ رَبِّي﴾ مالكي ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ في مجامع أموري خاصة لا على غيره ﴿وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ أرجع في كل ما يعن لي من معضلات الأمور لا إلى أحد سواه وحيث كان التوكل أمراً واحداً مستمراً والإنابة متعددة متجددة حسب تجدد موادها أوثر في الأول صيغة الماضي وفي الثاني صيغة المضارع، وقيل: وما اختلفتم فيه وتنازعتم من شيء من الخصومات فتحاكموا فيه إلى رسول الله ﷺ ولا تؤثروا على حكومته حكومة غيره كقوله تعالى: ﴿فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله الرسول﴾ [النساء: ٥٩].

وقيل: وما اختلفتم فيه من شيء من تأويل آيه واشتبه عليكم فارجعوا في بيانه إلى المحكم من كتاب الله تعالى والظاهر من سنة رسول الله ﷺ، وقيل: وما وقع بينكم الخلاف فيه من العلوم التي لا تتعلق بتكليفكم ولا طريق لكم إلى علمه فقولوا الله تعالى أعلم كمعرفة الروح وأورد على الكل أنه مخالف للسياق لأن الكلام مسوق للمشركين وهو على ذلك مخصوص بالمؤمنين، وظاهر كلام الإمام اختيار الاختصاص فإنه قال في وجه النظم الكريم: إنه تعالى كما منع رسوله ﷺ أن يحمل الكفار على الإيمان كذلك منع المؤمنين أن يشرعوا معه في الخصومات والمنازعات، وذكر أنه احتج نفاة القياس به فقالوا إما أن يكون المراد منه وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه مستفاد من نص الله تعالى أو من القياس على ما نص سبحانه عليه والثاني باطل لأنه يقتضي أن تكون كل الأحكام مبنية على القياس فتعين الأول، ولقائل أن يقول: لم لا يجوز أن يكون المراد فحكمه معروف من بيان الله تعالى سواء كان ذلك البيان بالنص أو بالقياس، وأجيب عنه بأن المقصود من التحاكم إلى الله تعالى قطع الاختلاف لقوله تعالى: ﴿وما اختلفتم﴾ والرجوع إلى القياس مما يقوي الاختلاف فوجب الرجوع إلى النصوص ا هـ وأنت تعلم أن النصوص غير كافية في جميع الأحكام وأن الآية على ما سمعت أولا ما لا يكاد يصح الاستدلال بها على هذا المطلب من أول الأمر. وفي الكشاف لا يجوز حمل الاختلاف فيها على اختلاف المجتهدين في أحكام الشريعة لأن الاجتهاد لا يجوز بحضرة الرسول الله ولا يخفى عليك أن هذه المسألة مختلف فيها فقال الأكثرون بجواز الاجتهاد المذكور عقلاً ومنهم من أحاله، ثم المجوزون منه من منع وقوع التعبد به وهو مذهب أبي علي. وابنه أبي هاشم، وإليه صاحب الكشاف وذكر ما يخالفه نقل لمذهب الغير وإن لم يعقبه برد كما هو عادته في الأكثر ومنهم من ادعى الوقوع ظنا ومنهم من جزم بالوقوع، وقيل: إنه الأصح عند الأصوليين ومنهم من توقف، والبحث فيها مستوفى في أصول الفقه، والذي نقوله هنا: إن الاستدلال بالآية على منعه لا يكاد يتم وأقل ما يقال فيه: إنه استدلال بما فيه احتمال، وقوله تعالى: ﴿فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ خبر آخر لذلكم أو خبر لمبتدأ محذوف أي هو فاطر أو صفة لربي أو بدل منه أو مبتدأ خبره ﴿جَعَلَ لَكُم﴾

وقرأ زيد بن علي رضي الله تعالى عنهما بالجر على أنه بدل من ضمير ﴿إليه﴾ أو ﴿عليه﴾ أو وصف للاسم الجليل في قوله تعالى: ﴿إلى الله﴾ وما بينهما جملة معترضة بين الصفة والموصوف وقد تقدم معنى ﴿فاطر﴾ وجعل أي خلق ﴿مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ من جنسكم ﴿أَزْوَاجاً﴾ نساء.

وتقديم الجار والمجرور على المفعول الصريح لما مر غير مرة ﴿وَمِنَ الأَنْعَامِ أَزْوَاجاً﴾ أي وخلق للأنعام من جنسها أزواجاً كما خلق لكم من أنفسكم أزواجاً ففيه جملة مقدرة لدلالة القرينة أو وخلق لكم من الأنعام أصنافاً أو ذكوراً وإناثاً ﴿يَذْرَؤُكُمْ﴾ يكثركم يقال ذرأ الله تعالى الخلق بثهم وكثرهم والذر والذر اخوان ﴿فيه﴾ أي فيما ذكر من التدبير وهو أن جعل سبحانه للناس والأنعام أزواجاً يكون بينهم توالد وجعل التكثر في هذا الجعل لوقوعه في خلاله وأثنائه فهو كالمنبع له، ويجوز أن تكون في للسببية وغلب في ﴿يذرؤكم﴾ المخاطبون العقلاء على الغيب مما لا يعقل فهناك تغليب واحد اشتمل على جهتي تغليب وذلك لأن الأنعام غائب غير عاقل فإذا أدخلت في خطاب العقلاء كان فيه تغليب العقل والخطاب معاً، وهذا التغليب ـ أعني التغليب لأجل الخطاب والعقل ـ من الأحكام ذات العلتين وهما هنا الخطاب والعقل وهذا هو الذي عناه جار الله وهو مما لا بأس فيه لأن العلة ليست حقيقة، وزعم ابن المنير أن الصحيح أنهما حكمان متباينان غير متداخلين أحدهما. مجيئه على نعت ضمير العقلاء أعم من كونه مخاطباً أو غائباً. والثاني مجيئه بعد ذلك على نعت الخطاب فالأول لتغليب العقل والثاني لتغليب الخطاب ليس بشيء ولا يحتاج إليه، وكلام صاحب المفتح يحتمل اعتبار تغليبين. أحدهما تغليب المخاطبين على الغيب. وثانيهما تغليب العقلاء على ما لا يعقل، وقال الطيبي. إن المقام يأبى ذلك لأنه يؤدي إلى أن الأصل يذرؤكم ويذرؤها ويذرؤكن ويذرؤها لكن الأصل يذرؤكم ويذرؤها لا غير لأن ـ كم ـ في ﴿يذرؤكم﴾ هو كم ﴿في جعل لكم من أنفسكم أزواجا﴾ بعينه لكن غلب ههنا على الغيب فليس في يذرؤكم إلا تغليب واحد انتهى، ثم إنه لا ينبغي أن يقال: إن التذرئة حكم علل في الآية بعلتين. احداهما جعل الناس أزواجاً. والثانية جعل الأنعام أزواجاً ويجوز أن يكون هو الذي عناه جار الله لأن الحكم هو البث المطلق وعلته المجموع وإن جعل كل جزء منه علة فكل بث حكم أيضاً فأين الحكم الواحد المتعدد علته فافهم، وعن ابن عباس أن معنى ﴿يذرؤكم﴾ فيه يجعل لكم فيه معيشة تعيشون بها، وقريب منه قول ابن زيد يرزقكم فيه، والظاهر عليه أن الضمير لجعل الأزواج من الأنعام.

وقال مجاهد أي يخلقكم نسلاً بعد نسل وقرناً بعد قرن، ويتبادر منه أن الضمير للجعل المفهوم من ﴿جعل لكم من أنفسكم أزواجا﴾ ويجوز أن يكون كما في الوجه الأول ويفهم منه أن الذرء أخص من الخلق وبه صرح ابن عطية قال: ولفظة ذرأ على تزيد على لفظة خلق معنى آخر ليس في خلق وهو توالي الطبقات على مر الزمان، وقال العتبي: ضمير ﴿فيه﴾ للبطن لأنه في حكم المذكور والمراد يخلقكم في بطون الإناث، وفي رواية عن ابن زيد أنه لما خلق من السموات والأرض، وهو كما ترى ما قبله والله تعالى أعلم ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ نفي للمشابهة من كل وجه ويدخل في ذلك نفي أن يكون مثله سبحانه شيء يزاوجه عزَّ وجلَّ وهو وجه ارتباط هذه الآية بما قبلها أو المراد ليس مثله تعالى شيء في الشؤون التي من جملتها التدبير البديع السابق فترتبط بما قبلها أيضاً، والمراد من مثله ذاته تعالى فلا فرق بين ليس كذاته شيء وليس كمثله شيء في المعنى إلا أن الثاني كناية مشتملة على مبالغة وهي أن المماثلة منفية عمن يكون مثله وعلى صفته فكيف عن نفسه وهذا لا يستلزم وجود المثل إذ الفرض كاف في المبالغة ومثل هذا شائع في كلام العرب نحو قول أوس بن حجر:

ليس كمثل الفتى زهير ... خلق يوازيه في الفضائل

وقول الآخر:

وقتلى كمثل جذوع النخيل تغشاهم مسبل منهمر

وقول الآخر:

سعد بن زيد إذا أبصرت فضلهم ما أن كمثلهم في الناس من أحد

وقد ذكر ابن قتيبة وغيره أن العرب تقيم المثل مقام النفس فتقول مثلك لا يبخل وهي تريد أنت لا تبخل أي على سبيل الكناية وقد سمعت فائدتها. وفي الكشف أنها الدلالة على فضل إثبات لذلك الحكم المطلوب وتمكينه وذلك لوجهين: أحدهما أنه فرض جامع يقتضي ذلك فإذا قلت مثلك لا يبخل دل على أن موجب عدم البخل موجود بخلافه إذا قلت أنت لا تبخل. والثاني أنه إذا جعل من جماعة لا يبخلون يكون أدل على عدم البخل لأنه جعل معدوداً من جملتهم، ومن ذلك قولهم قد أيفعت لداته أي أترابه وأمثاله في السن، وقول رقيقة بنت أبي صيفي بن هشام في سقيا عبد المطلب: ألا وفيهم الطيب الطاهر لذاته تعني رسول الله ﷺ إلى غير ذلك، وقيل: إن مثلا بمعنى الصفة وشيئاً عبارة عنها أيضاً حكاه الراغب ثم قال: والمعنى كصفته تعالى صفة تنبيهاً على أنه تعالى وإن وصف بكثير مما يوصف البشر فليس تلك الصفات له عزَّ وجلَّ حسب ما يستعمل في البشر.

وذهب الطبري وغيره إلى أن مثلا زائدة للتأكيد كالكاف في قوله:

بالأمس كانوا في رخاء مأمول فأصبحت مثل كعصف مأكول

وقول الآخر:

أهل عرفت الدار بالغريين وصاليات ككما يؤثفين

وتعقبه أبو حيان بأنه ليس يجيد لأن مثلاً اسم والأسماء لا تزاد بخلاف الكاف فإنها حرف فتصلح للزيادة، ونسب الزجاج وابن جنبي والأكثرين القول بأن الكاف زائدة للتأكيد، ورده ابن المنير بأن الكاف تفيد تأكيد التشبيه لا تأكيد النفي ونفي الماثلة المهملة أبلغ من نفي المماثلة المؤكدة فليس الآية نظير شطري البيتين، ويقال نحوه فيما نقل عن الطبري ومن معه، وأجيب بأنه يفيد تأكيد التشبيه إن سلباً فسلب وإن إثباتاً فإثبات فيندفع ما أورد، نعم الأول هو الوجه، والمثل قال الراغب: أعم الألفاظ الموضوعة للمشابهة وذاك أن الند يقال لما يشارك في الجوهر فقط والشبه لما يشارك في الكيفية فقط والمساوي لما يشارك في الكيفية فقط والشكل لما يشارك في القدر والمساحة فقط والمثل عام في جميع ذلك، ولهذا لما أراد الله تعالى نفي الشبه من كل وجه خصه سبحانه بالذكر، وذكر الإمام الرازي أن المثلين عند المتكلمين هما اللذان يقوم كل منهما مقام الآخر في حقيته وماهيته وحمل المثل في الآية على ذلك أن لا يساوي الله تعالى في حقيقة الذات شيء، وقال لا يصح أن يكون المعنى ليس كمثله تعالى في الصفات شيء لأن العباد يوصفون بكونهم عالمين قادرين كما أن الله تعالى يوصف بذلك وكذا يوصفون بكونهم معلومين مذكورين مع أن الله تعالى يوصف بذلك، وأطال الكلام في هذا المقام وفي القلب منه شيء.

وفي شرح جوهره التوحيد أعلم أن قدماء المعتزلة كالجبائي وابنه أبي هاشم ذهبوا إلى أن المماثلة هي المشاركة في أخص صفات النفس فمماثلة زيد لعمر ومثلاً عندهم مشاركته إياه في الناطقية فقط، وذهب المحققون من الماتريدية إلى أن المماثلة هي الاشتراك في الصفات النفسية كالحيوانية والناطقية لزيد وعمرو.

ومن لازم الاشتراك في الصفة النفسية أمران: أحدهما الاشتراك فيما يجب ويجوز ويمتنع. وثانيهما أن يسد كل منهما مسد الآخر والمتماثلان وإن اشتركا في الصفات النفسية لكن لا بد من اختلافهما بجهة أخرى ليتحقق التعدد والتمايز فيصح التماثل، ونسب إلى الأشعري أنه يشترط في التماثل التساوي من كل وجه.

واعترض. بأنه لا تعدد حينئذ فلا تماثل، وبأن أهل اللغة مطبقون على صحة قولنا: زيد مثل عمرو في الفقه إذا كان يساويه فيه ويسد مسده وإن اختلف في كثير من الأوصاف، وفي الحديث «الحنطة بالحنطة مثلاً بمثل» وأريد به الاستواء في الكيل دون الوزن وعدد الحبات وأوصافها، ويمكن أن يجلب بأن مراده التساوي في الوجه الذي به التماثل حتى أن زيداً وعمراً لو اشتركا في الفقه وكان بينهما مساواة فيه بحيث ينوب أحدهما مناب الآخر صح القول بأنهما مثلان فيه وإلا فلا يخالف مذهب الماتريدية، وفيه أيضاً أنه عزَّ وجلَّ ليس له سبحانه مماثل في ذاته وصفاته فلا يسد مسد ذاته تعالى ذات ولا مسد صفته جلت صفته صفة، والمراد بالصفة الصفة الحقيقية الوجودية، ومن هنا تعلم ما في قول الإمام لا يصح أن يكون المعنى ليس كمثله تعالى في الصفات شيء لأن العباد يوصفون بكونهم عالمين قادرين كما أن الله سبحانه يوصف بذلك فإن معنى ذلك أنه تعالى ليس مثل صفته سبحانه صفة، ومن المعلوم البين أن علم العباد وقدرتهم ليسا مثل علم الله عزَّ وجلَّ وقدرته جل وعلا أي ليسا سادّين مسدهما. وأما كونه تعالى مذكوراً ونحوه فهو ليس من الصفات المعتبرة القائمة بذاته تعالى كما لا يخفى، وزعم جهم بن صفوان أن المقصود من هذه الآية بيان أنه تعالى ليس مسمى باسم الشيء لأن كل شيء فإنه يكون مثلاً لمثل نفسه فقوله تعالى: ﴿**ليس كمثله شيء**﴾ معناه ليس مثل مثله شيء وذلك يقتضي أن لا يكون هو سبحانه مسمى باسم الشيء فلم يجعل المثل كناية عن الذات على ما سمعت ولا حكم بزيادته ولا بزيادة الكاف ومع هذا وإغماض العين عما في كلامه لا يتم له مقصود إذ لنا أن نجعل ليس مثل مثله شيء نفياً للمثل على سبيل الكناية أيضاً لكن بوجه آخر وهو أنه نفي للشيء بنفي لازمه لأن نفي اللازم يستلزم نفي الملزوم كما يقال: ليس لأخي زيد أخ فأخو زيد ملزوم والأخ لازمه لا بد لأخي زيد من أخ هو زيد فنفيت هذا اللازم والمراد نفي ملزومه أي ليس لزيد أخ إذ لو كان له أخ لكان لذلك الأخ أخ هو زيد فكذا نفيت أن يكون لمثل الله تعالى مثل، والمراد نفي مثله سبحانه وتعالى إذ لو كان له مثل لكان هو مثل إذ التقدير أنه موجود، ومغايرته لما تقدم أن مبناه إثبات اللزوم بين وجود المثل ووجود مثل ليكون نفي اللازم كناية عن نفي الملزوم من غير ملاحظة والتفات إلى أن حكم الأمثال واحد وأنه يجري في النفي دون الإثبات فإن نفي اللازم يستلزم نفي الملزوم دون العكس بخلاف ما تقدم فإن مبناه ابن حكم المتماثلين واحد وإلا لم يكونا متماثلين ولا يحتاج إلى إثبات اللزوم بين وجود المثل ومثل المثل وإنه يجري في النفي والإثبات كما سمعت من الأمثلة وليس ذاك من المذهب الكلامي في شيء، أما أولا فلأنه إيراد الحجة وليس في الآية اشعار بها فضلاً عن الإيراد، وأما ثانياً فلأنه حينئذ تكون الحجة قياساً استثنائياً استثني فيه نقيض التالي هكذا لو كان له سبحانه مثل لكان هو جل شأنه مثل مثله لكنه ليس مثلاً لمثله فلا بد من بيان بطلان التالي حتى تتم الحجة إذ ليس بينا بنفسه بل وجود المثل ووجود مثل المثل في مرتبة واحدة في العلم والجهل لا يجوز جعل أحدهما دليلاً على الآخر، لكن قيل: إن المفهوم من ليس مثل مثله شيء على ذلك التقدير نفي أن يكون مثل لمثله سواه تعالى بقرينة الإضافة كما أن المفهوم من قول المتكلم: إن دخل داري أحد فكذا غير المتكلم، وأيضاً لا نسلم أنه لو وجد له سبحانه مثل لكان هو جلَّ وعلا مثل مثله لأن وجود مثله سبحانه محال والمحال جاز أن يستلزم المحال.

وأجيب عن الأول أن اسم ليس ﴿**شيء**﴾ وهو نكرة في سياق النفي فتعم الآية نفي شيء يكون مثلاً لمثله، ولا

شك أنه على تقدير وجود المثل يصدق عليه أنه شيء مثل لمثله، والإضافة لا تقتضي خروجه عن عموم شيء بخلاف المثال المذكور فإن القرينة العقلية دلت على تخصيص أحد بغير المتكلم لأن مقصوده المنع عن دخول الغير، وعن الثاني أن وجود المثل لشيء مطلقاً يستلزم المثل مع قطع النظر عن خصوصية ذلك الشيء وذلك بين فالمنع بتجويز أن يكون لذاته تعالى مثل ولا يكون هو سبحانه مثلاً لمثله مكابرة، ثم إن هذا الوجه لكثرة ما فيه من القيل والقال بالنسبة إلى غيره من الأوجه السابقة لم نذكره عند ذكرها وهو على علاته أحسن من القول بالزيادة كما لا يخفى على من وفقه الله عزَّ وجلَّ ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ﴾ المدرك إدراكاً تاماً لا على طريق التخيل والتوهم لجميع المسموعات ولا على طريق تأثر حاسة ولا وصول هواء ﴿الْبَصِيرُ﴾ المدرك إدراكاً تاماً لجميع المبصرات أو الموجودات لا على سبيل التخيل والتوهم ولا على طريق تأثر حاسة ولا وصول شعاع فالسمع والبصر صفتان غير العلم على ما هو الظاهر وأرجعهما بعضهم إلى صفة العلم، وتمام الكلام على ذلك في الكلام، وقدم سبحانه نفي المثل على إثبات السمع والبصر لأنه أهم في نفسه وبالنظر إلى المقام.

﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ تقدم تفسيره في سورة الزمر وكذا قوله تعالى: ﴿يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾.

وقرىء «يُقَدِّر» بالتشديد ﴿إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ مبالغ في الإحاطة به فيفعل كل ما يفعل جلَّ شأنه على ما ينبغي أن يفعل عليه، والجملة تعليل لما قبلها وتمهيد لما بعدها من قوله تعالى:

۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ
أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ
إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ
أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٤﴾ فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ
وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ
بَيْنَكُمُ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ
ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾ وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ
وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾
يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ
يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾ ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ
﴿١٩﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى
ٱلْءَاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ
ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾ تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا

كَسَبُواْ وَهُوَ وَاقِعُۢ بِهِمْۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي رَوۡضَاتِ ٱلۡجَنَّاتِۖ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمۡۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ ﴿٢٢﴾ ذَٰلِكَ ٱلَّذِي يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِۗ قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ وَمَن يَقۡتَرِفۡ حَسَنَةٗ نَّزِدۡ لَهُۥ فِيهَا حُسۡنًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ شَكُورٌ ﴿٢٣﴾

﴿شَرَعَ لَكُم مِّن الدِّين مَا وَصَّى به نُوحاً وَالَّذي أَوْحَيْنَا إِليكَ وَمَا وَصَّيْنَا به إبْرَاهِيمَ وَمُوسى وَعيسَى﴾ وإيذان بأن ما شرع سبحانه لهم صادر عن كمال العلم والحكمة كما أن بيان نسبته إلى المذكورين عليهم الصلاة والسلام تنبيه على كونه ديناً قديماً أجمع عليه الرسل، والخطاب لأمته عليه الصلاة والسلام أي شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً ومن بعده من أرباب الشرائع وأولي العزم من مشاهير الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وأمرهم به أمراً مؤكداً، وتخصيص المذكورين بالذكر لما أشير إليه من علو شأنهم وعظم شهرتهم ولاستمالة قلوب الكفرة إلى الاتباع لاتفاق كل على نبوة بعضهم واختصاص اليهود بموسى عليه السلام والنصارى بعيسى عليه السلام وإلا فما من نبي إلا وهو مأمور بما أمروا به من إقامة دين الإسلام وهو التوحيد وما لا يختلف باختلاف الأمم وتبدل الأعصار من أصول الشرائع والأحكام كما ينبيء عنه التوصية فإنها معربة عن تأكيد الأمر والاعتناء بشأن المأمور به، والمراد بايحائه إليه ﷺ إما ما ذكر في صدر السورة الكريمة وفي قوله تعالى: ﴿وكذلك أوحينا إليك﴾ [الشورى: ٧] الآية وإما ما يعمهما وغيرهما ما وقع في سائر المواقع التي من جملتها قوله تعالى: ﴿ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفاً﴾ [النحل: ١٢٣] وقوله سبحانه: ﴿قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي إنما إلهكم إله واحد﴾ [الكهف: ١١٠] وغير ذلك، وإيثار الإيحاء على ما قبله وما بعده من التوصية لمراعاة ما وقع في الآية المذكورة ولما في الإيحاء من التصريح برسالته عليه الصلاة والسلام القامع لإنكار الكفرة، والالتفات إلى نون العظمة لإظهار كمال الاعتناء بايحائه، وفي ذلك إشعار بأن شريعته ﷺ هي الشريعة المعتنى بها غاية الاعتناء ولذا عبر فيها بالذي التي هي أصل الموصولات وذلك هو السر في تقديم الذي أوحى إليه عليه الصلاة والسلام على ما بعده مع تقدمه عليه زماناً، وتقديم توصية نوع عليه السلام للمسارعة إلى بيان كون المشروع لهم ديناً قديماً، وقد قيل إنه عليه الصلاة والسلام أول الرسل، وتوجيه الخطاب إليه عليه الصلاة والسلام بطريق التلوين للتشريف والتنبيه على أنه تعالى شرعه لهم على لسانه ﷺ **﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ﴾** أي دين الإسلام الذي هو توحيد الله تعالى وطاعته والإيمان بكتبه ورسله وبيوم الجزاء وسائر ما يكون العبد به مؤمناً، والمراد بإقامته تعديل أركانه وحفظه من أن يقع فيه زيغ والمواظبة عليه، و **﴿أن﴾** مصدرية وتقدم الكلام في وصلها بالأمر والنهي أو مخففة من الثقيلة لما في **﴿شرع﴾** من معنى العلم، والمصدر إما منصوب على أنه بدل من مفعول **﴿شرع﴾** والمعطوفين عليه أو مرفوع على أنه خبر مبتدأ محذوف أو مبتدأ خبره محذوف والحملة جواب عن سؤال نشأ من إبهام المشروع كأنه قيل: وما ذاك؟ فقيل: هو أن أقيموا الدين، وقيل: هو مجرور على أنه بدل من ضمير **﴿به﴾** ولا يلزمه بقاء الموصول بلا عائد لأن المبدل منه ليس في نية الطرح حقيقة، نعم قال شيخ الإسلام: إنه ليس بذاك لما أنه مع إفضائه إلى خروجه عن حيز الإيحاء إلى النبي ﷺ مستلزم لكون الخطاب في النهي الآتي عن التفرق للأنبياء المذكورين عليهم السلام وتوجيه النهي إلى أممهم تمحل ظاهر مع أن الأظهر أنه متوجه إلى أمته ﷺ وأنهم المتفرقون، ثم بين ما استظهره وسنشير إليه إن شاء الله تعالى.

وجوز كونه بدلاً من **﴿الدين﴾** ويجوز كون **﴿أن﴾** مفسرة فقد تقدمها ما يتضمن معنى القول دون حروفه والخطاب في **﴿أقيموا﴾** وقوله تعالى: **﴿وَلاَ تَتَفَرَّقُوا فيه﴾** على ما اختاره غير واحد من الأجلة شامل للنبي ﷺ

وأتباعه وللأنبياء والأمم قبلهم وضمير ﴿فيه﴾ للدين أن ولا تتفرقوا في الدين الذي هو عبارة عما تقدم من الأصول بأن يأتي به بعض ولا يأتي بعض ويأتي بعض ببعض منه دون بعض وهو مراد مقاتل أي لا تختلفوا فيه، ولا يشمل هذا النهي عن الاختلاف في الفروع فإنها ليست من الأصول المرادة هنا ولم يتحد بها النبيون كما يؤذن بذلك قوله تعالى: ﴿لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا﴾ [المائدة: ٤٨] وبعضهم أدخل بعض الفروع في أصول الدين المرادة هنا من الدين.

قال مجاهد: لم يبعث نبي إلا أمر بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والإقرار بالله تعالى وطاعته سبحانه وذلك إقامة الدين، وقال الحافظ أبو بكر بن العربي: لم يكن مع آدم عليه السلام إلا بنوه ولم يفرض له الفرائض ولا شرعت له المحارم وإنما كان منبهاً على بعض الأمور مقتصراً على بعض ضروريات المعاش واستمر الأمر إلى نوح عليه السلام فبعثه الله تعالى بتحريم الأمهات والبنات ووظف عليه الواجبات وأوضح له الأدب في الديانات ولم يزل ذلك يتأكد بالرسل ويتناصر بالأنبياء واحداً بعد واحد شريعة إثر شريعة حتى ختمه سبحانه بخير الملل على لسان أكرم الرسل، فمعنى الآية شرعنا لكم مما شرعنا للأنبياء ديناً واحداً في الأصول وهي التوحيد والصلاة والزكاة والصيام والحج والتقرب بصالح الأعمال والصدق والوفاء بالعهد وأداء الأمانة وصلة الرحم وتحريم الكبر والزنا والإيذاء للخلق والاعتداء على الحيوان واقتحام الدناءات وما يعود بخرم المروءات فهذا كله مشروع ديناً واحداً وملة متحدة لم يختلف على ألسنة الأنبياء وإن اختلفت أعدادهم، ومعنى ﴿أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه﴾ اجعلوه قائماً أي دائماً مستمراً من غير خلاف فيه ولا اضطراب انتهى، ولعله أراد بالصلاة والزكاة والصيام والحج مطلقها لا ما نعرفه في شرعنا منها فإن الصلوات الخمس والزكاة المخصوصة وصيام شهر رمضان من خواص هذه الأمة على الصحيح، والظاهر أن حج البيت لم يشرع لأمة موسى وأمة عيسى عليهما السلام ولا لأكثر الأمم قبلهما على أن الآية مكية ولم تشرع الزكاة المعروفة وصيام رمضان إلا في المدينة، وبالجملة لا شك في اختلاف الأديان في الفروع، نعم لا يبعد اتفاقها فيما هو من مكارم الأخلاق واجتناب الرذائل ﴿كَبُرَ﴾ أي عظم وشق ﴿عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ على سبيل الاستمرار التجددي من التوحيد ورفض عبادة الأصنام ويشعر بإرادته التعبير بالمشركين وهو أصل الأصول وأعظم ما شق عليهم كما تنبىء بذلك الآيات أو ما تدعوهم إليه من إقامة الدين وعدم التفرق فيه ﴿الله يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ تسلية له ﷺ بأن منهم من يجيب، و ﴿يجتبي﴾ من الاجتباء بمعنى الاصطفاء والضمير في ﴿إليه﴾ لله تعالى كما ذكر محيي السنة وغيره وكذا الضمير في قوله تعالى: ﴿وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ﴾ أي يصطفي إليه سبحانه من يشاء اصطفاءه ويخصصه سبحانه بفيض إلهي يتحصل له منه أنواع النعم ويهدي عزَّ وجلَّ بالإرشاد والتوفيق من يقبل إليه تعالى شأنه، وعدي الاجتباء بإلى لما فيه من الجمع على ما يفهم من كلام الراغب، وجعله جمع من الجباية بمعنى الجمع يقال: جبيت الماء في الحوض جمعته فيه فمنهم من اختار جعل ضمير ﴿إليه﴾ في الموضعين ـ لما ـ لما فيه من اتساق الضمائر أي يجتلب ويجمع من يشاء اجتلابه وجمعه إلى ما تدعوهم إليه، ومنهم من اختار جعله للدين لمناسبة معنوية هي اتحاد المتفرق فيه والمجتمع عليه والزمخشري اختار كونه من الجباية بمعنى الجمع وعود الضمير على الدين، وما ذكره محيي السنة وغيره . قال في الكشف: أظهر وأملأ بالفائدة، أما الثاني فللدلالة على أنه أهل الاجتباء غير أهل الاهتداء وكلتا الطائفتين هم أهل الدين والتوحيد الذين لم يتفرقوا فيه وعلى مختار طائفة واحدة.

وأما الأول فلأن الاجتباء بمعنى الاصطفاء أكثر استعمالاً ولأنه يدل على أن أهل الدين هم صفوة الله تعالى اجتباهم إليه واصطفاهم لنفسه سبحانه، وأما الذي آثره الزمخشري فكلام ظاهري بناه على أن الكلام في عدم التفرق

في الدين فناسب الجمع والانتهاء إليه، وقيل: ﴿ما تدعوهم إليه﴾ على معنى ما تدعوهم إلى الإيمان به والمراد به الرسالة أي ثقلت عليهم رسالتك وعظم لديهم تخصيصنا إياك بالرسالة والوحي دونهم وقوله تعالى: ﴿الله يجتبي إليه من يشاء﴾ رد عليهم على نحو ﴿الله أعلم حيث يجعل رسالته﴾ [الأنعام: ١٢٤] وما قدمنا أظهر ﴿وَمَا تَفَرَّقُوا﴾ أي أمم الأنبياء بعد وفاة أنبيائهم كما في الكشف منذ بعث نوح عليه السلام في الدين الذي دعوا إليه واختلفوا فيه في وقت من الأوقات ﴿إِلاَّ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُم الْعِلْمُ﴾ من أنبيائهم بأن الفرقة ضلال وفساد وأمر متوعد عليه؛ وهذا يؤيد ما دل عليه سابقاً من أن الأمم القديمة والحديثة أمروا باتفاق الكلمة وإقامة الدين، والمراد بالعلم سببه مجازاً مرسلاً، ويجوز أن يكون التجوز في الإسناد، وأن يكون يكون الكلام بتقدير مضاف أي جاءهم سبب العلم، وقد يقال جاء مجاز عن حصل، والاستثناء على ما أشرنا إليه مفرغ من أَعم الأوقات، وجوز أن يكون من أعم الأحوال أي ما تفرقوا في حال من الأحوال إلا حال من الأحوال إلا حال مجيء العلم ﴿بَغْياً بَيْنَهُمْ﴾ أي عداوة على أن البغي الظلم والتجاوز والعداوة سبب له وهي الداعي للتفرق أو طلباً للدنيا والرياسة على أن البغي مصدر بغي بمعنى طلب ﴿وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ﴾ هي عدته تعالى بترك معاجلتهم بالعذاب ﴿إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ معلوم له سبحانه وهو يوم القيامة أو آخر أعمارهم القدرة لهم ﴿لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ باستئصال المبطلين حين افترقوا لعظم ما اقترفوا ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ هم أهل الكتاب الذين كانوا في عهده ﷺ وقرأ زيد بن علي «وُرِّثُوا» مبنياً للمفعول مشدد الواو ﴿لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ﴾ أي من كتابهم فلم يؤمنوا به حق الإيمان ﴿مُرِيبٍ﴾ مقلق أو مدخل في الريبة، والجملة اعتراض يؤكد أن تفرقهم ذلك باقٍ في أعقابهم منضما إليه الشك في كتابهم مع انتسابهم إليه فهم تفرقوا بعد العلم الحاصل لهم من النبي المبعوث إليهم المصدق لكتابهم وتفرقوا قبله شكاً في كتابهم فلم يؤمنوا به ولم يصدقوا حقه.

﴿فَلِذَلِكَ﴾ أي إذا كان الأمر كما ذكر فلأجل ذلك التفرق ولما حدث بسببه من تشعب الكفر في الأمم السالفة شعبا ﴿فَادْعُ﴾ إلى الائتلاف والاتفاق على الملة الحنيفية القديمة ﴿وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾ أي اثبت على الدعاء كما أوحي إليك، وقيل: الإشارة إلى قوله تعالى: ﴿شرع لكم﴾ وما يتصل به ونقل عن الواحدي أي ولأجل ذلك من التوصية التي شوركت فيها مع نوح ومن بعده ولأجل ذلك الأمر بالإقامة والنهي عن التفرق فادع، وما ذكر أولاً أولى لأن قوله تعالى: ﴿أن أقيموا﴾ شمل النبي عليه الصلاة والسلام وأتباعه كما سمعت، ويدل عليه ﴿كبر على المشركين ما تدعوهم إليه﴾ فقوله تعالى: ﴿فلذلك فادع﴾ الخ لا يتسبب عنه لما يظهر من التكرار وهو تفرع الأمر عن الأمر، وأما تسببه عن تفرقهم فظاهر على معنى فلما أحدثوا من التفرق وأبدعوا فاثبت أنت على الدعاء الذي أمرت به واستقم وهذا ظاهر للمتأمل.

ومن الناس من جعل المشار إليه الشرع السابق ولم يدخل فيه الأمر بالإقامة لئلا يلزم التكرار أي فلأجل أنه شرع لهم الدين القويم القديم الحقيق بأن يتنافس فيه المتنافسون فادع، وقيل: هو الكتاب، وقيل: هو العلم المذكور في قوله تعالى: ﴿جاءهم العلم﴾ وقيل: هو الشك ورجح بالقرب وليس بذاك، واللام على جميع الأقوال المذكورة للتعليل، وقيل: على بعضها هي بمعنى إلى صلة الدعاء فما بعدها هو المدعو إليه، وأنت تعلم أنه لا حاجة في إرادة ذلك إلى جعلها بمعنى إلى فإن الدعاء يتعدى بها أيضاً كما في قوله:

دعوت لما نابني مسورا

ونقل ذلك عن الفراء والزجاج، وأياً ما كان فالفاء الأولى واقعة في جواب شرط مقدر كما أشرنا إليه والفاء الثانية مؤكدة للأولى، وقيل: كان الناس بعد الطوفان أمة واحدة موحدين فاختلف أبناؤهم بعد موتهم حين بعث الله تعالى النبيين مبشرين

ومنذرين، وجعل ضمير «تفرقوا» لإخلاف أولئك الموحدين والذين أورثوا الكتاب باق على ما تقدم والأول أظهر.

وقيل: ضمير تفرقوا لأهل الكتاب تفرقوا من بعد ما جاءهم العلم ببعث النبي ﷺ فهذا كقوله تعالى: ﴿وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءتهم البينة﴾ [البينة: ٤] وإنما تفرقوا حسداً له عليه الصلاة والسلام لا لشبهة، والمراد بالذين أورثوا الكتاب من بعدهم مشركو مكة وأحزابهم لأنهم أورثوا القرآن فالكتاب القرآن وضمير منه له وقيل للرسول وهو خلاف الظاهر، واختار كون المتفرقين أهل الكتاب اليهود والنصارى والمورثين الشاكين مشركي مكة وأحزابهم شيخ الإسلام واستظهر الخطاب في ﴿أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه﴾ لأمته ﷺ. وتعقب القول بكون المتفرق كل أمة بعد نبيها والقول بكونه اخلاف الموحدين الذين كانوا بعد الطوفان فقال: يرد ذلك قوله تعالى: ﴿ولولا كلمة سبقت من ربك إلى أجل مسمى لقضي بينهم﴾ فإن مشاهير الأمم المذكورة قد أصابهم عذاب الاستئصال من غير إنظار وإمهال على أن مساق النظم الكريم لبيان أحوال هذه الأمة وإنما ذكر من ذكر من الأنبياء عليهم السلام لتحقيق أن ما شرع لهؤلاء دين قديم أجمع عليه أولئك الأعلام عليهم الصلاة والسلام تأكيد الوجوب إقامته وتشديداً للزجر عن التفرق والاختلاف فيه فالتعرض لبيان تفرق أممهم عنه ربما يوهم الإخلال بذلك المرام انتهى.

وأجيب عن الأول بأن ضمير ﴿بينهم﴾ لأولئك الذين تفرقوا وقد علمت أن المراد بهم المتفرقون بعد وفاة أنبيائهم وهم لم يصبهم عذاب الاستئصال وإنما أصاب الذين لم يؤمنوا غي عهد أنبيائهم وإطلاق المتفرقين ليس بذاك الظهور، وقيل: المراد لقضي بينهم ريثما افترقوا ولم يمهلوا أعواماً، وقيل: المراد لقضي بينهم بإهلاك المبطلين وإثابة المحقين إثابتهم في العقبى وهو كما ترى، وعن الثاني بأنا لا نسلم إيهام التعرض لبيان تفرق الأمم الاخلال بالمرام بعد بيان أنه لم يكن إلا بعد أن جاءهم العلم بأنه ضلال وفساد وأمر متوعد عليه وأنه كان بغياً بينهم ولم يكن لشبهة في صحة الدين، وقيل: ضمير ﴿تفرقوا﴾ للمشركين في قوله تعالى: ﴿كبر على المشركين﴾.

حكي في البحر عن ابن عباس أنه قال: وما تفرقوا يعني قريشاً والعلم محمد ﷺ وكانوا يتمنون أن يبعث إليهم نبي قال سبحانه: ﴿وأقسموا بالله جهد أيمانهم﴾ [الأنعام: ١٠٩، النحل: ٣٨، النور: ٥٣، فاطر:٤٢] لئن جاءهم نذير الآية، وقد يقال عليه: المراد بالذين أورثوا الكتاب أهل الكتاب الذين عاصروا النبي ﷺ. ومعنى من بعدهم على ما قال أبو حيان من بعد أسلافهم.

ونقل الطبرسي عن السدي ما يدل على أن المراد من بعد احبارهم وفسر الموصول بعوام أهل الكتاب، وقيل: ضمير بعدهم للمشركين أيضاً والبعدية رتبية كما قيل في قوله تعالى: «والأرض بعد ذلك دحاها» ولا يخفى عليك أنه لا بأس بعود ضمير ﴿تفرقوا﴾ للمشركين لو وجد للذين أورثوا الكتاب توجيه يقع في حيز القبول والله تعالى الموفق، وجعل متعلق ﴿استقم﴾ الدعاء لا تخفى مناسبته. وجوز جعله عاماً فيكون استقم أمراً بالاستقامة في جميع أموره عليه الصلاة والسلام، والاستقامة أن يكون على خط مستقيم، وفسرها الراغب بلزوم المنهج المستقيم فلا حاجة إلى التأويل بالدوام على الاستقامة أي دم على الاستقامة ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ أي شيئاً من أهوائهم الباطلة على أن الإضافة للجنس ﴿وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللهُ مِن كِتَابٍ﴾ أي بجميع الكتب المنزلة لأن ما من أدوات العموم، وتنكير ﴿كتاب﴾ المبين مؤيد لذلك، وفي هذا القول تحقيق للحق وبيان لاتفاق الكتب في الأصول وتأليف لقلوب أهل الكتابين وتعريض بهم حيث لم يؤمنوا بجميعها ﴿وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾ أي أمرني الله تعالى بما أمرني به لأعدل بينكم في تبليغ الشرائع والأحكام فلا أخص بشيء منها شخصا دون شخص وقيل: لأعدل بينكم في الحكم إذا تخاصمتم، وقيل: بتبليغ الشرائع وفصل الخصومة واختاره غير واحد، وقيل: لأسوّي بيني وبينكم ولا آمركم بما لا أعمله ولا أخالفكم إلى ما

أنهاكم عنه ولا أفرق بين أصاغركم وأكابركم في إجراء حكم الله عزَّ وجلَّ، فاللام للتعليل والمأمور به محذوف، وقيل: اللام مزيدة أي أمرت أن أعدل ويحتاج لتقدير الباء أي بأن أعدل، ولا يخلو عن بعد ﴿الله رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾ أي خالق الكل ومتولي أمره فليس المراد خصوص المتكلم والمخاطب ﴿لَنَا أَعْمَالُنَا﴾ لا يتخطانا جزاؤها ثواباً كان أو عقاباً ﴿وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ﴾ لا يجاوزكم آثارها لننتفع بحسناتكم ونتضرر بسيئاتكم ﴿لاَ حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ أي لا احتجاج ولا خصومة لأن الحق قد ظهر فلم يبق للاحتجاج حاجة ولا للمخالفة محمل سوى المكابرة والعناد، وجاءت الحجة هنا على أصلها فإنها في الأصل مصدر بمعنى الاحتجاج كما ذكره الراغب وشاعت بمعنى الدليل وليس بمراد ﴿الله يَجْمَعُ بَيْنَنَا﴾ يوم القيامة ﴿وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ فيفصل سبحانه بيننا وبينكم، وليس في الآية ما يدل على متاركة الكفار رأساً حتى تكون منسوخة بآية السيف، وادعى أبو حيان أن ما يظهر منها الموادعة المنسوخة بتلك الآية.

﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي الله﴾ أي يخاصمون في دينه، قال ابن عباس ومجاهد نزلت في طائفة من بني اسرائيل همت برد الناس عن الإِسلام وإضلالهم فقالوا: كتابنا قبل كتابكم ونبينا قبل نبيكم فديننا أفضل من دينكم، وفي رواية بدل ديننا الخ فنحن أولى بالله تعالى منكم، وأخرج ابن المنذر عن عكرمة قال: لما نزلت ﴿إذا جاء نصر الله والفتح﴾ [الفتح: ١] قال المشركون بمكة لمن بين أظهرهم من المؤمنين: قد دخل الناس في دين الله أفواجاً فاخرجوا من بين أظهرنا أو اتركوا الإِسلام، والمحاجة فيه غير ظاهرة ولعلهم مع هذا يذكرون ما فيه ذلك ﴿مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ﴾ أي من بعد ما استجاب الناس لله عزَّ وجلَّ أو لدينه ودخلوا فيه وأذعنوا له لظهور الحجة ووضوح المحجة، والتعبير عن ذلك بالاستجابة باعتبار دعوتهم إليه ﴿حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ زائلة باطلة لا تقبل عنده عزَّ وجلَّ بل لا حجة لهم أصلاً، وإنما عبر عن أباطيلهم بالحجة وهي الدليل ههنا مجاراة معهم على زعمهم الباطل.

وجوز كون ضمير ﴿له﴾ للرسول عليه الصلاة والسلام لكونه في حكم المذكور والمستجيب أهل الكتب واستجابتهم له ﷺ إقرارهم بنعوته واستفتاهم به قبل مبعثه عليه الصلاة والسلام فإذا كانوا هم المحاجين كان الكلام في قوة والذين يحاجون في دين الله من بعد ما استجابوا لرسوله وأقروا بنعوته حجتهم في تكذيبه باطلة لما فيها من نفي ما أقروا به قبل وصدقة العيان، وقيل: المستجيب هو الله عزَّ وجلَّ وضمير ﴿له﴾ لرسوله عليه الصلاة والسلام، واستجابته تعالى له ﷺ بإظهار المعجزات الدالة على صدقة، وإلى نحوه ذهب الجبائي حيث قال: أي من بعد ما استجاب الله تعالى دعاءه في كفار بدر حتى قتلهم بأيدي المؤمنين ودعائه على أهل مكة حتى قحطوا ودعاءه للمستضعفين حتى خلصهم الله تعالى من أيدي قريش وغير ذلك مما يطول تعداده، وبطلان حجتهم لظهور خلاف ما تقتضيه بزعمهم بذلك، وهذا ظاهر في أن هذه الآية مدنية لأن وقعة بدر بعد الهجرة وحمل ﴿استجيب﴾ على الوعد خلاف الظاهر جدا، وكذا ما روي عن عكرمة، وقيل: إن حمل الاستجابة على استجابة أهل الكتاب يقتضي ذلك أيضاً إذ لم يكن بمكة أحد منهم، وقيل: لا يقتضيه لأن خبر استجابتهم وإقرارهم بنعوته ﷺ وهو عليه الصلاة والسلام بمكة بلغ أهل مكة والمجادلون محمول عليهم فلا مانع من كونها مكية ﴿وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ﴾ عظيم لمكابرتهم الحق بعد ظهوره ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ لا يقادر قدره.

﴿الله الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ﴾ جنس الكتاب أو الكتاب المعهود أو جميع الكتب ﴿بِالْحَقِّ﴾ ملتبساً بالحق بعيداً من الباطل في أحكامه وأخباره أو ملتبساً بما يحق ويجب من العقائد والأحكام ﴿وَالْمِيزَانَ﴾ أي العدل كما قال ابن عباس ومجاهد وقتادة وغيرهم أو الشرع الذي يوزن به الحقوق ويسوي بين الناس، وعلى الوجهين فيه استعارة ونسبة الإنزال إليه مجز لأنه من صفات الأجسام والمنزل حقيقة من بلغه، واعتبر بعضهم الأمر أي أنزل الأمر بالميزان، وتعقب

بأنه أيضاً محتاج إلى التأويل، وقد يقال: نسبة الإنزال وكذا النزول إلى الأمر مشهورة جداً فالتحقت بالحقيقة، ويجوز أن يتجوز في الإنزال ويقال نحو ذلك في ﴿أنزل الكتاب﴾ وعن مجاهد أن الميزان الآلة المعروفة فعلى هذا إنزاله على حقيقته، وجوز أن يكون على سبيل الأمر به، واستظهر الأول لما نقل الزمخشري في الحديد أنه نزل إلى نوح وأمر أن يوزن به، وكون المراد به ميزان الأعمال بعيد هنا.

﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾ أي: أي شيء يجعلك دارياً أي عالماً ﴿لَعَلَّ السَّاعَةَ﴾ أي إتيان الساعة الذي أخبر به الكتاب الناطق بالحق فالكلام بتقدير مضاف مذكر، وقوله تعالى: ﴿قريبٌ﴾ خبر عنه في الحقيقة لأن المحذوف بقرينة كالملفوظ وهو وجه في تذكيره؛ وجوز أن يكون لتأويل الساعة بالبعث وأن يكون ﴿قريب﴾ من باب تامر ولابن أي ذات قرب إلى أوجه أخر تقدمت في الكلام على قوله تعالى: ﴿إن رحمة الله قريب﴾ [الأعراف: ٥٦] وأياً ما كان فالمعنى إن الساعة على جناح الاتيان فاتبع الكتاب وواظب على العدل واعمل بالشرع قبل أن يفاجئك اليوم الذي توزن فيه الأعمال ويوفى جزاؤها ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾ استعجال إنكار واستهزاء كانوا يقولون: متى هي ليتها قامت حتى يظهر لنا أهو الذي نحن عليه أم كالذي عليه محمد عليه الصلاة والسلام وأصحابه.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشفِقُونَ مِنْهَا﴾ أي خائفون منها مع اعتناء بها فإن الاشفاق عناية مختلطة بخوف فإذا عدي بمن كما هنا فمعنى الخوف فيه أظهر وإذا عدي بعلى فمعني العناية أظهر، وعنايتهم بها لتوقع الثواب، وزعم الجلبي أن الآية من الاحتباك والأصل يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها فلا يشفقون منها والذين آمنوا مشفقون منها فلا يستعجلون بها ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ﴾ الأمر المتحقق الكائن لا محالة ﴿أَلا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ﴾ أي يجادلون فيها، وأصله من مريت الناقة إذا مسحت ضرعها للحلب، وإطلاق المماراة على المجادلة لأن كلاً من المتجادلين يستخرج ما عند صاحبه، ويجوز أن يكون من المرية التردد في الأمر وهو أخص من الشك ومعنى المفاعلة غير مقصود فالمعنى أن الذين يترددون في أمر الساعة ويشكون فيه ﴿لَفِي ضَلاَلٍ بَعِيدٍ﴾ عن الحق فإن البعث أقرب الغائبات بالمحسوسات لأنه يعلم من تجويزه من إحياء الأرض بعد موتها وغير ذلك فمن لم يهتد إليه فهو عن الاهتداء إلى ما وراءه أبعد وأبعد.

﴿الله لطيفٌ بعباده﴾ بر بليغ البر بهم يفيض جل شأنه على جميعهم من صنوفه ما لا يبلغه الأفهام ويؤذن بذلك مادة اللطف وصيغة المبالغة فيها وتنكيرها الدال على المبالغة بحسب الكمية والكيفية، قال حجة الإسلام عليه الرحمة: إنما يستحق هذا الاسم من يعلم دقائق المصالح وغوامضها وما دق منها ولطف ثم يسلك في إيصالها إلى المستصلح سبيل الرفق دون العنف فإذا اجتمع الرفق في الفعل واللطف في الإدراك تم معنى اللطيف ولا يتصور كمال ذلك إلا في الله تعالى شأنه، فصنوف البر من المبالغة في الكم، وكونها لا تبلغها الأفهام من المادة والمبالغة في الكيفية لأنه إذا دق جدا كان أخفى وأخفى، وإرادة الجميع من إضافة العباد وهو جمع إلى ضميره تعالى فيفيد الشمول والاستغراق، وبالعموم قال مقاتل إلا أنه قال: لطيف بالبر والفاجر حيث لم يقتلهم جوعاً.

وقال أبو حيان: لطيف بعباده أي بر بعباده المؤمنين ومن سبق له الخلود في الجنة وما يرى من النعم على الكافر فليس بلطف إنما هو إملاء إلا ما آل إلى رحمة ووفاة على الإسلام، وحكى الطيبي هذا التخصيص عن الواحدي ومال إلى ترجيحه وذلك أنه ادعى أن الإضافة في ﴿عباده﴾ إضافة تشريف إذ أكثر استعمال التنزيل الجليل في مثل ذلك فيختص العباد بأوليائه تعالى المؤمنين، وحمل اللطف على منح الهداية وتوفيق الطاعة وعلى الكمالات الأخروية والكرامات السنية، وحمل الرزق في قوله تعالى: ﴿يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ﴾ عليه أيضاً وقال: إن استعماله فيما ذكر كاستعماله في قوله تعالى: ﴿ليجزيهم الله أحسن ما علموا ويزيدهم من فضله والله يرزق من يشاء بغير حساب﴾ [النور: ٣٨].

وجعل قوله سبحانه: ﴿وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾ مؤذناً بالتعليل كأنه قيل: إنما تلطف جل شأنه في حق عباده المؤمنين دون من غضب عليهم بمحض مشيئته سبحانه لأنه تعالى قوي قادر على أن يختص برحمته وكرامته من يشاء من عباده عزيز غالب لا يمنعه سبحانه عما يريده أحد، وادعى أنه يكون وزان الآية على هذا مع قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِد لَهُ فِي حَرْثِه﴾ الآية وزان قوله عزَّ وجلَّ ﴿ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها﴾ [الشمس: ٧، ١٠] وينتظم الكلام أتم انتظام وتلتئم أطرافه أشد التئام، ولا يقال حينئذ: إن قوله تعالى: ﴿يرزق من يشاء﴾ حكم مترتب على السابق فكان ينبغي أن يعم عمومه والعموم أظهر، وحديث التخصيص في ﴿يرزق من يشاء﴾ فقد أجاب عنه صاحب التقريب فقال: إنما خصص الرزق بمن يشاء مع أنهم كلهم بر سبحانه بهم لأنه تعالى قد يخص أحداً بنعمة وغيره بأخرى فالعموم لجنس البر والخصوص لنوعه. وأشار جار الله إلى أنه لا تخصيص بالحقيق فإن الله تعالى بليغ البر بجميع عباده يرزق من يشاء ما يشاء سبحانه منه . فيرزق من يشاء . بيان لتوزيعه على جميعهم فليس الرزق إلا النصيب الخاص لكل واحد، ولما شمل الدارين لاءم قوله تعالى: ﴿من كان يريد﴾ الخ كل الملاءمة، ولا يتوقف هذا على ما قاله الطيبي، ولعل أمر التذييل بالاسمين الجليلين على القول بالعموم أظهر والتعليل أنسب فكأنه قيل: لطيف بعباده عام الإحسان بهم لأنه تعالى القوي الباهر القدرة الذي غلب وغلبت قدرته سبحانه جميع القدر يرزق من يشاء لأنه العزيز الذي لا يغلب على ما يريد فكل من الاسمين الجليلين ناظر إلى حكم فافهم ﴿وقل رب زدني علماً﴾ [طه: ١١٤].

فكم لله من لطف خفي ... يدق خفاه عن فهم الذكي

والحرث في الأصل إلقاء البذر في الأرض يطلق على الزرع الحاصل منه، ويستعمل في ثمرات الأعمال ونتائجها بطريق الاستعارة المبنية على تشبيهها بالغلال الحاصلة من البذور المتضمن لتشبيه الأعمال بالبذور أي من كان يريد بأعماله ثواب الآخرة نضاعف له ثوابه بالواحد عشرة إلى سبعمائة فما فوقها ﴿وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ﴾ بأعماله ﴿حَرْثَ الدُّنيَا﴾ وهو متاعها وطيباتها ﴿نُؤْتِه مِنهَا﴾ أي شيئاً منها حسبما قدرناه له بطلبه وإرادته ﴿وَمَا لَه فِي الآخرة مِنْ نَصِيب﴾ إذ كانت همته مقصورة على الدنيا وقرأ ابن مقسم والزعفراني ومحبوب والمنقري كلاهما عن أبي عمرو «يزد» و «يؤته» بالياء فيهما، وقرأ سلام «نُؤْتِهُ» بضم الهاء وهي لغة أهل الحجاز وقد جاء في الآية فعل الشرط ماضياً والجواب مضارعاً مجزوماً قال أبو حيان: ولا نعلم خلافاً في جواز الجزم في مثل ذلك وانه فصيح مختار مطلقاً إلا ما ذكره صاحب كتاب الاعراب أبو الحكم بن عذرة عن بعض النحويين أنه لا يجيء في الفصيح إلا إذا كان فعل الشرط كان، وإنما يجيء معها لأنها أصل الأفعال ونص كلام سيبويه والجماعة أنه لا يختص بكان بل سائر الأفعال مثلها في ذلك وأنشد سيبويه للفرزدق:

دست رسولاً بأن القوم إن قدروا ... عليك يشفوا صدوراً ذات توغير

وقال أيضاً:

تعش فإن عاهدتني لا تخونني ... نكن مثل من يا ذئب يصطحبان

﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ﴾ في الكفر وهم الشياطين ﴿شَرَعُوا لَهُمْ﴾ أي لهؤلاء الكفرة المعاصرين لك بالتسويل والتزيين ﴿مِنَ الدِّين مَا لَمْ يَأْذَنْ به الله﴾ كالشرك وإنكار البعث والعمل للدنيا. و ﴿أم﴾ منقطعة فيها معنى بل الاضرابية والهمزة التي للتقرير والتقريع والاضراب عما سبق من قوله تعالى: ﴿شرع لكم من الدين﴾ الخ فالعطف عليه وما اعترض به بين الآيتين من تتمة الأولى، وتأخير الاضراب ليدل على أنهم في شرع يخالف ما شرعه الله تعالى من كل

وجه فالشرك في مقابلة إقامة الدين والاستقامة عليه وإنكار البعث في مقابلة قوله تعالى: ﴿**والذين آمنوا مشفقون منها ويعلمون أنها الحق**﴾ والعمل للدنيا لقوله سبحانه: ﴿**من كان يريد حرث الآخرة**﴾ وهذا أظهر من جعل الاضراب عما تقدم من قوله تعالى: ﴿**كبر على المشركين**﴾ كما لا يخفى، وقيل: شركاؤهم أصنامهم، وإضافتها إليهم لأنهم الذين جعلوها شركاء لله سبحانه، وإسناد الشرع إليها لأنها سبب ضلالتهم وافتتانهم كقوله تعالى: ﴿إنهن أضللن كثيراً﴾ [إبراهيم: ٤٦] وجوز أن يكون الاستفهام المقدر على هذا للإنكار أي ليس لهم شرع ولا شارع كما في قوله تعالى: ﴿أم لهم آلهة تمنعهم من دوننا﴾ [الأنبياء: ٤٣] وأياً ما كان فضمير ﴿**شرعوا**﴾ للشركاء وضمير ﴿**لهم**﴾ للكفار.

وجوز على تفسير الشركاء بالأصنام أن يكون الأول للكفار والثاني للشركاء أي شرع الكفار لأصنامهم ورسموا من المعتقدات والأحكام ما لم يأذن به الله تعالى كاعتقاد أنهم آلهة وأن عبادتهم تقربهم إلى الله سبحانه، وكجعل البحيرة والسائبة والوصيلة وغير ذلك، وهو كما ترى ﴿**وَلَوْلاَ كَلِمَةُ الْفَصْلِ**﴾ أي القضاء والحكم السابق منه تعالى بتأخير العذاب إلى يوم القيامة أو إلى آخر أعمارهم ﴿**لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ**﴾ أي بين الكافرين والمؤمنين في الدنيا أو حين افترقوا بالعقاب والثواب، وجوز أن يكون المعنى لولا ما وعدهم الله تعالى به من الفصل في الآخرة لقضي بينهم فالفصل بمعنى البيان كما في قوله تعالى: ﴿هذا يوم الفصل جمعناكم والأولين﴾ [المرسلات: ٣٨] وقيل: ضمير بينهم للكفار وشركائهم بأي معنى كان ﴿**وَإِنَّ الظَّالِمِينَ**﴾ وهم المحدث عنهم أو الأعم منهم ويدخلون دخولاً أولياً ﴿**لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ**﴾ في الآخرة. وفي البحر أي في الدنيا بالقتل والأسر والنهب وفي الآخرة بالنار.

وقرأ الأعرج ومسلم بن جندب «وأن» بفتح الهمزة عطفاً على ﴿**كلمة الفصل**﴾ أي لولا القضاء السابق بتأخير العذاب وتقدير أن الظالمين لهم عذاب أليم في الآخرة أو لولا العدة بأن الفصل يكون يوم القيامة وتقدير أن الظالمين لهم الخ لقضي بينهم، والعطف على التقديرين تتميم للإيضاح لا تفسيري محض ﴿**تَرَى الظَّالِمِينَ**﴾ جملة مستأنفة لبيان ما قبل، والخطاب لكل أحد يصلح له للقصد إلى المبالغة في سوء حالهم أن ترى يا من يصح منه الرؤيا الظالمين يوم القيامة ﴿**مُشْفِقِينَ**﴾ خائفين الخوف الشديد ﴿**مِمَّا كَسَبُوا**﴾ في الدنيا من السيئات، والكلام قيل على تقدير مضاف.

و ﴿**من**﴾ صلة الاشفاق أي مشفقين من وبال ما كسبوا ﴿**وَهُوَ**﴾ أي الوبال ﴿**وَاقِعٌ بِهِمْ**﴾ أي حاصل لهم لاحق بهم، واختار بعضهم أن لا تقدير ومن تعليلية لأنه أدخل في الوعيد، والجملة اعتراض للإشارة إلى أن إشفاقهم لا ينفعهم، وإيثار ﴿**واقع**﴾ على يقع من أن المعنى على الاستقبال لأن الخوف إنما يكون من التوقع بخلاف الحزن للدلالة على تحققه وأنه لا بد منه، وجوز أن تكون حالا من ضمير ﴿**مشفقين**﴾ وظاهر ما سمعت أنه حال مقدرة.

﴿**وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ**﴾ أي مستقرون في أطيب بقاعها وأنزهها.

وقال الراغب: هي محاسنها وملاذها، وأصل الروضة مستنقع الماء والخضرة واللغة الكثيرة في واوها جمعاً التسكين كما في المنزل ولغة هذيل بن مدركة فتحها فيقولون روضات إجراء للمعتل مجرى الصحيح نحو جفنات ولم يقرأ فيما علمنا بغتهم ﴿**لَهُمْ مَا يَشَاؤُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ**﴾ أي ما يشتهونه من فنون المستلذات حاصل لهم عند ربهم فالظرف متعلق بمتعلق الجار والمجرور الواقع خبراً لما أو به واختاره جار الله ونفى أن يكون متعلقاً بيشاؤون مع أنه الظاهر نحوا، وبين صاحب الكشف ذلك بأنه كلام في معرض المبالغة في وصف ما يكون أهل الجنة فيه من النعيم الدائم فأفيد أنهم في أنزه موضع من الجنة وأطيب مقعد منها بقوله تعالى: ﴿**في روضات الجنات**﴾ لأن روضة الجنة

أنزه موضع منها لا سيما والإضافة في هذا المقام تنبىء عن تميزها بالشرف والطيب، والتعقيب بقوله تعالى: ﴿**لهم ما يشاؤون**﴾ أيضاً ثم أفيد أن لهم ما يشتهون من ربهم ولا خفاء أنك إذا قلت: لي عند فلان ما شئت كان أبلغ في حصول كل مطالبك منه مما إذا قلت: لي ما شئت عند فلان بالنسبة إلى الطالب والمطلوب منه.

أما الأول فلأنه يفيد أن جميع ما تشاؤوه موجود مبذول لك منه، والثاني يفيد أن ما شئت عنده مبذول لا جميع ما تشاؤوه، وأما الثاني فلأنك وصفته بأنه يبذل جميع المرادات، وفي الثاني وصفته بأن ما شئت عنده مبذول لك إما منه وإما من غيره ثم في الأول مبالغة في تحقيق ذلك وثبوته كما تقول: لي عندك وقبلك كذا، فالله تعالى شأنه أخبر بأن ذلك حق لهم ثابت حق لهم ثابت مقتضى في ذمة فضله سبحانه ولا كذلك في الثاني، ثم قال: ولعل الأوجه أن يجعل ﴿**عند ربهم**﴾ خبراً آخر أي الذين آمنوا وعملوا الصالحات عند ربهم في روضات الجنات لهم فيها ما يشاؤون، وإنما أخر توخياً لسلوك طريق المبالغة في الترقي من الترقي من الأدنى إلى الأعلى ومراعاة لترتيب الوجود أيضاً فإن الوافد والضيف ينزل في أنزه موضع ثم يحضر بين يديه الذي يشتهيه؛ وملاك ذلك كله أن يختص رب المنزل بالقرب والكرامة، وأن جعله حالا من فاعل يشاؤون أو من المجرور في ﴿**لهم**﴾ أفاد هذا المعنى أيضاً لكنه يقصر عما آثرناه لأنه قد أتى به إتيان الفضلة وهو مقصود بذاته عمدة، ولعمري إن ما آثره حسن معنى إلا أنه أبعد لفظاً مما أثره جار الله، ولا يخفى عليك ما هو الأنسب بالتنزيل. وفي الخبر عن أبي ظبية قال: إن السرب من أهل الجنة لتظلهم السحابة فتقول: ما أمطركم؟ فما يدعو داع من القوم إلا امطرته حتى أن القائل منهم ليقول: أمطرينا كواعب أترابا ﴿**ذَٰلِكَ**﴾ إشارة إلى ما ذكر من حال المؤمنين، وما فيه من معنى البعد للإيذان ببعد منزلة المشار إليه ﴿**هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ**﴾ الذي لا يقدر قدره ولا تبلغ غايته ويصغر دونه ما لغيرهم في الدنيا ﴿**ذَٰلِكَ**﴾ الفضل الكبير أو الثواب المفهوم من السياق هو ﴿**الَّذِي يُبَشِّرُ اللهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ**﴾ أي يبشر به فحذف الجار ثم العائد إلى الموصول كما هو عادتهم في التدريج في الحذف، ولا مانع كما قال الشهاب من حذفهما دفعة، وجوز كون ذلك إشارة إلى التبشير المفهوم من ﴿**يبشر**﴾ بعد والإشارة قد تكون لما يفهم بعد كما قرروه في قوله تعالى: ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطا﴾ [البقرة: ١٤٣] ونحوه، والعائد إلى الموصول ضمير منصوب بيبشر على أنه مفعول مطلق له لأنه ضمير المصدر أي ذلك التبشير يبشره الله عباده؛ وزعم أبو حيان أنه لا يظهر جعل الإشارة إلى التبشير لعدم تقدم لفظ البشرى ولا ما يدل عليها وهو ناشىء عن الغفلة عما سمعت فلا حاجة في الجواب عنه أن كون ما تقدم تبشيراً للمؤمنين كاف في صحة ذلك، ثم قال: ومن النحويين من جعل الذي مصدرية حكاه ابن مالك عن يونس وتأول عليه هذه الآية أي ذلك تبشير الله تعالى عباده، وليس بشيء لأنه إثبات للاشتراك بين مختلفي الحد بغير دليل وقد ثبتت اسمية الذي فلا يعدل عن ذلك بشيء لا يقوم به دليل ولا شبهة.

وقرأ عبد الله بن يعمر وابن أبي إسحاق والجحدري والأعمش وطلحة في رواية والكسائي وحمزة «يبشر» ثلاثياً ومجاهد وحميد بن قيس بضم الياء وتخفيف الشين من أبشر وهو معدى بالهمزة من بشر اللازم المكسور الشين وإما بشر بفتحها فمتعد وبشر بالتشديد للتكثير لا للتعدية لأن المعدى إلى واحد وهو مخفف لا يعدى بالتضعيف إليه فالتضعيف فيه للتكثير لا للتعدية ﴿**قُلْ لاَ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ**﴾ أي على ما أتعاطاه لكم من التبليغ والبشارة وغيرهما ﴿**أَجْراً**﴾ أي نفعا ما، ويختص في العرف بالمال ﴿**إِلاَّ الْمَوَدَّةَ**﴾ أي إلا مودتكم إياي ﴿**فِي الْقُرْبَىٰ**﴾ أي لقرابتي منكم ففي للسببية مثلها في «إن امرأة دخلت النار في هرة» فهي بمعنى اللام لتقارب السبب والعلة، وإلى هذا المعنى مجاهد وقتادة وجماعة والخطاب إما لقريش على ما قيل: إنهم جمعوا له مالاً وأرادوا أن يرشوه على أن يمسك عن سب آلهتهم

فلم يفعل ونزلت. وله عليه الصلاة والسلام في جميعهم قرابة. أخرج أحمد والشيخان. والترمذي. وغيرهم عن ابن عباس أنه سئل عن قوله تعالى: ﴿الا المودة في القربى﴾ فقال سعيد بن جبير: قربى آل محمد ﷺ فقال ابن عباس: عجلت أن النبي عليه الصلاة والسلام لم يكن بطن من قريش إلا كان له فيهم قرابة أو للأنصار بناء على ما قيل: إنهم أتوه بمال ليستعين به على ما ينوبه فنزلت فرده، وله عليه الصلاة والسلام قرابة منهم لأنهم أخواله فإن أم عبد المطلب وهي سلمى بنت زيد النجارية منهم وكذا أخوال آمنة أمه عليه الصلاة والسلام كانوا على ما في بعض التواريخ من الأنصار أيضاً أو لجميع العرب لقرابته عليه الصلاة والسلام منهم جميعا في الجملة كيف لا وهم إما عدنانيون وقريش منهم وإما قحطانيون والأنصار منهم، وقرابته عليه الصلاة والسلام من كل قد علمت وذلك يستلزم قرابته من جميع العرب، وقضاعة من قحطان لا قسم برأسه على ما عليه معظم النسابين، والمعنى إن لم تعرفوا حقي لنبوتي وكوني رحمة عامة ونعمة تامة فلا أقل من مودتي لأجل حق القرابة وصلة الرحم التي تعتنون بحفظها ورعايتها.

وحاصله لا أطلب منكم إلا مودتي ورعاية حقوقي لقرابتي منكم وذلك أمر لازم عليكم، وروي نحو هذا في الصحيحين عن ابن عباس بل جاء ذلك عنه رضي الله تعالى عنه في روايات كثيرة وظاهرها أن الخطاب لقريش منها ما أخرجه سعيد بن منصور وابن مسعود وعبد بن حميد والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في الدلائل عن الشعبي قال: أكثر الناس علينا في هذه الآية ﴿قل لا أسألكم﴾ الخ فكتبنا إلى ابن عباس نسأله فكتب رضي الله تعالى عنه إن رسول الله ﷺ كان وسط النسب في قريش ليس بطن من بطونهم إلا وقد ولدوه قال الله تعالى: ﴿قل لا أسألكم عليه أجرا﴾ على ما أدعوكم عليه ﴿إلا المودة في القربى﴾ تودوني لقرابتي منكم وتحفظوني بها ومنها ما أخرجه ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم. والطبراني عنه قال: كان لرسول الله ﷺ قرابة من جميع قريش فلما كذبوه وأبوا أن يتابعوه قال: يا قوم إذا أبيتم أن تتابعوني فاحفظوا قرابتي فيكم ولا يكون غيركم من العرب أولى بحفظي ونصرتي منكم، والظاهر من هذه الأخبار أن الآية مكية والقول بأنها في الأنصار يقتضي كونها مدنية، والاستثناء متصل بناءً على ما سمعت من تعميم الأجر.

وقيل: لا حاجة إلى التعميم وكون المودة المذكورة من أفراد الأجر ادعاء كاف لاتصال الاستثناء، وقيل: هو منقطع إما بناءً على أن المودة له عليه الصلاة والسلام ليست أجراً أصلاً بالنسبة إليه ﷺ أو لأنها لازمة لهم ليمدحوا بصلة الرحم فنفعها عائد عليهم والانقطاع اقطع لتوهم المنافاة بين هذه الآية والآيات المتضمنة لنفي سؤال الأجر مطلقاً؛ وذهب جماعة إلى أن المعنى لا أطلب منكم أجراً إلا محبتكم أهل بيتي وقرابتي. وفي البحر أنه قول ابن جبير والسدي وعمرو بن شعيب، و ﴿في﴾ عليه للظرفية المجازية.

و ﴿القربى﴾ بمعنى الأقرباء، والجار والمجرور في موضع الحال أي إلا المودة ثابتة في أقربائي متمكنة فيهم، ولمكانة هذا المعنى لم يقل: إلا مودة القربى، وذكر أنه على الأول كذلك وأمر اتصال الاستثناء وانقطاعه على ما سبق، والمراد بقرابته عليه الصلاة والسلام في هذا القول قيل: ولد عبد المطلب، وقيل علي وفاطمة وولدها رضي الله تعالى عنهم وروي ذلك مرفوعاً، أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه من طريق ابن جبير عن ابن عباس قال: «لما نزلت هذه الآية ﴿قل لا أسألكم﴾ الخ قالوا: يا رسول الله من قرابتك الذين وجبت مودتهم؟ قال علي وفاطمة وولدها ﷺ على النبي وعليهم».

وسند هذا الخبر على ما قال السيوطي في الدر المنثور ضعيف، ونص على ضعفه في تخريج أحاديث الكشاف ابن حجر، وأيضاً لو صح لم يقل ابن عباس ما حكي عنه في الصحيحين وغيرهما وقد تقدم إلا أنه روي عن جماعة من

أهل البيت ما يؤيد ذلك، أخرج ابن جرير عن أبي الديلم قال: لما جيء بعلي بن الحسين رضي الله تعالى عنهما أسيراً فأقيم على درج دمشق قام رجل من أهل الشام فقال: الحمد لله الذي قتلكم واستأصلكم فقال له علي رضي الله تعالى عنه: أقرأت القرآن؟ قال: نعم قال: أقرأت آل حم؟ قال: نعم قال: ما قرأت: ﴿**قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى**﴾ قال: فإنكم لأنتم هم؟ قال: نعم. وروى ذاذان عن علي كرم الله تعالى وجهه قال: فينا في آل حم آية لا يحفظ مودتنا إلا مؤمن ثم قرأ هذه الآية، وإلى هذا أشار الكميت في قوله:

وجدنا لكم في آل حم آية ... تأولها منا تقيٌّ ومعرب

ولله تعالى در السيد عمر الهيتي أحد الأقارب المعاصرين حيث يقول:

بأية آية يأتي يزيد ... غداة صحائف الأعمال تتلى
وقام رسول رب العرش يتلو ... وقد صمت جميع الخلق قل لا

والخطاب على هذا القول لجميع الأمة لا للأنصار فقط وإن ورد ما يوهم ذلك فإنهم كلهم مكلفون بمودة أهل البيت، فقد أخرج مسلم والترمذي والنسائي عن زيد بن أرقم «أن رسول الله ﷺ قال: أذكركم الله تعالى في أهل بيتي. وأخرج الترمذي وحسنه والطبراني والحاكم والبيهقي في الشعب عن ابن عباس قال: قال عليه الصلاة والسلام «أحبوا الله تعالى لما يغذوكم به من نعمة وأحبوني لحب الله تعالى وأحبوا أهل بيتي لحبي» وأخرج ابن حبان والحاكم عن أبي سعيد قال: «قال رسول الله ﷺ والذي نفسي بيده لا يبغضنا أهل البيت رجل إلا أدخله الله تعالى النار» إلى غير ذلك مما لا يحصى كثرة من الأخبار، وفي بعضها ما يدل على عموم القربى وشمولها لبني عبد المطلب. أخرج أحمد والترمذي وصححه والنسائي عن المطلب بن ربيعة قال: دخل العباس على رسول الله ﷺ فقال: إنا لنخرج فنرى قريشاً تحدث فإذا رأونا سكتوا فغضب رسول الله ﷺ ودر عرق بين عينيه ثم قال: والله لا يدخل قلب امرىء مسلم إيمان حتى يحبكم لله تعالى ولقرابتي، وهذا ظاهر إن خص القربى بالمؤمنين منهم وإلا فقيل: إن الحكم منسوخ، وفيه نظر، والحق وجوب محبة قرابته عليه الصلاة والسلام من حيث إنهم قرابته ﷺ كيف كانوا، وما أحسن ما قيل:

داريت أهلك في هواك وهم عدا ... ولأجل عين ألف عين تكرم

وكلما كانت جهة القرابة أقوى كان طلب المودة أشد، فمودة العلويين الفاطميين ألزم من محبة العباسيين على القول بعموم ﴿**القربى**﴾ وهي على القول بالخصوص قد تتفاوت أيضاً باعتبار تفاوت الجهات والاعتبارات وآثار تلك المودة التعظيم والاحترام والقيام بأداء الحقوق أتم قيام، وقد تهاون كثير من الناس بذلك حتى عدوا من الرفض السلوك في هاتيك المسالك. وأنا أقول قول الشافعي الشافي العي:

يا راكباً قف بالمحصب من منى ... واهتف بساكن خيفها والناهض
سحراً إذا فاض الحجيج إلى منى ... فيضاً كملتطم الفرات الفائض
إن كان رفضاً حب آل محمد ... فليشهد الثقلان أني رافضي

ومع هذا لا أعد الخروج عما يعتقده أكابر أهل السنة في الصحابة رضي الله تعالى عنهم ديناً وأرى حبهم فرضاً علي مبيناً فقد أوجبه أيضاً الشارع وقامت على ذلك البراهين السواطع. ومن الظرائف ما حكاه الإمام عن بعض المذكرين قال: إنه عليه الصلاة والسلام قال: «أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم» ونحن الآن في بحر التكليف وتضربنا أمواج الشبهات والشهوات وراكب البحر يحتاج إلى أمرين: أحدهما السفينة الخالية عن العيوب، والثاني الكواكب الطالعة النيرة، فإذا ركب تلك السفينة ووضع بصره على تلك الكواكب كان رجاء السلامة غالباً، فلذلك

ركب أصحابنا أهل السنة سفينة حب آل محمد ﷺ ووضعوا أبصارهم على نجوم الصحابة يرجون أن يفوزوا بالسلامة والسعادة في الدنيا والآخرة انتهى، والكثير من الناس في حق كل من الآل والأصحاب في طرفي التفريط والإفراط وما بينهما هو الصراط المستقيم، ثبتنا الله تعالى على ذلك الصراط.

وقال عبد الله بن القاسم: المعنى لا أسألكم عليه أجراً إلا أن يود بعضكم بعضاً وتصلوا قراباتكم، وأمر ﴿في﴾ والاستثناء لا يخفى.

وأخرج عبد بن حميد عن الحسن أن المعنى لا أسألكم عليه أجراً إلا التقرب إلى الله تعالى بالعمل الصالح فالقربى بمعنى القرابة وليس المراد قرابة النسب؛ قيل: ويجري في الاستثناء الاتصال والانقطاع، واستظهر الخفاجي أنه منقطع وأنه على نهج قوله:

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم

البيت، وأراه على القول قبله كذلك.

وقرأ زيد بن علي رضي الله تعالى عنهما «إلا مودة في القربى» هذا ومن الشيعة من أورد الآية في مقام الاستدلال على إمامة علي كرم الله تعالى وجهه قال علي كرم الله تعالى وجهه: واجب المحبة وكل واجب المحبة واجب الطاعة وكل واجب الطاعة صاحب الإمامة ينتج علي رضي الله تعالى عنه صاحب الإمامة وجعلوا الآية دليل الصغرى، ولا يخفى ما في كلامهم هذا من البحث، أما أولاً فلأن الاستدلال بالآية على الصغرى لا يتم إلا على القول بأن معناها لا أسألكم عليه أجراً إلا أن تودوا قرابتي وتحبوا أهل بيتي وقد ذهب الجمهور إلى المعنى الأول، وقيل في هذا المعنى: إنه لا يناسب شأن النبوة لما فيه من التهمة فإن أكثر طلبة الدنيا يفعلون شيئاً ويسألون عليه ما يكون فيه نفع لأولادهم وقراباتهم، وأيضاً فيه منافاة ما لقوله تعالى: ﴿وما تسألهم عليه من أجر﴾ [يوسف: ١٠٤] وأما ثانياً فلأنا لا نسلم أن كل واجب المحبة واجب الطاعة فقد ذكر ابن بابويه في كتاب الاعتقادات أن الإمامية أجمعوا على وجوب محبة العلوية مع أنه لا يجب طاعة كل منهم، وأما ثالثاً فلأنا لا نسلم أن كل واجب الطاعة صاحب الإمامة أي الزعامة الكبرى وإلا لكان كل نبي في زمنه صاحب ذلك ونص ﴿إن الله قد بعث لكم طالوت ملكاً﴾ [البقرة: ٢٤٧] يأبى ذلك، وأما رابعاً فلأن الآية تقتضي أن تكون الصغرى أهل البيت واجبو الطاعة ومتى كانت هذه صغرى قياسهم لا ينتج النتيجة التي ذكروها ولو سلمت جميع مقدماته بل ينتج أهل البيت صاحبو الإمامة وهم لا يقولون بعمومه إلى غير ذلك من الأبحاث فتأمل ولا تغفل.

﴿وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً﴾ أي يكتسب أي حسنة كانت، والكلام تذييل، وقيل المراد بالحسنة المودة في قربى الرسول ﷺ وروي ذلك عن ابن عباس والسدي، وأن الآية نزلت في أبي بكر رضي الله تعالى عنه لشدة محبته لأهل البيت، وقصة فدك. والعوالي لا تأبى ذلك عند من له قلب سليم، والكلام عليه تتميم، ولعل الأول أولى، وحب آل الرسول عليه الصلاة والسلام من أعظم الحسنات وتدخل في الحسنة هنا دخولاً أولياً ﴿نَّزِدْ لَهُ فِيهَا﴾ أي في الحسنة ﴿حُسْناً﴾ بمضاعفة الثواب عليها فإنها يزاد بها حسن الحسنة، ففي للظرفية و ﴿حسناً﴾ مفعول به أو تمييز، وقرأ زيد بن علي وعبد الوارث عن أبي عمرو وأحمد بن جبير عن الكسائي «يزد» بالياء أي يزد الله تعالى. وقرأ عبد الوارث عن أبي عمرو «حُسْنَى» بغير تنوين وهو مصدر كبشرى أو صفة لموصوف مقدر أي صفة أو خصلة حسنى ﴿إِنَّ اللهَ غَفُورٌ﴾ ساتر ذنوب عباده ﴿شَكُورٌ﴾ مجاز من أطاع منهم بتوفية الثواب والتفضل عليه بالزيادة، وقال السدي: غفور لذنوب آل محمد ﷺ شكور لحسناتهم.

أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًاۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَۗ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ

بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٤﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾
وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦۚ وَٱلْكَٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿٢٦﴾ ۞ وَلَوْ بَسَطَ
ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ
ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُواْ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا
بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ
أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ
﴿٣١﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ
لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُواْ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٤﴾

﴿أَمْ يَقُولُونَ﴾ بل أيقولون **﴿افْتَرَى﴾** محمد عليه الصلاة والسلام **﴿عَلَى الله كَذِباً﴾** بدعوى النبوة أو القرآن، والهمزة للإنكار التوبيخي وبل للإضراب من غير إبطال وهو إضراب أطم من الأول فأطم فإن إثبات ما هم عليه من الشرع وإن كان شراً وشركاً أقرب من جعل الحق الأبلج المعتضد بالبرهان النير من أوسطهم فضلاً ودعة وعقلاً افتراء ثم افتراء على الله عز وجل فكأنه قيل: أيتمالكون التفوه بنسبة مثله عليه الصلاة والسلام إلى الافتراء ثم إلى الافتراء على الله عز وجل الذي هو أعظم الفرى وأفحشها ولا تحترق ألسنتهم.

وفي ذلك أتم دلالة على بعده ﷺ من الافتراء كيف وقد أردف بقوله تعالى: **﴿فَإِنْ يَشَأ الله يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ﴾** فإن هذا الأسلوب مؤداه استبعاد الافتراء من مثله عليه الصلاة والسلام وأنه في البعد مثل الشرك بالله سبحانه والدخول في جملة المختوم على قلوبهم فكأنه قيل: فإن يشأ الله سبحانه يجعلك من المختوم على قلوبهم حتى تفتري عليه الكذب فإنه لا يجترىء على افتراء الكذب على الله تعالى إلا من كان في مثل حالهم وهو في معنى فإن يشأ يجعلك منهم لأنهم هم المفترون الذين شرعوا من الدين ما لم يأذن به الله تعالى، وما أحسن هذا التعريض بأنهم المفترون وأنهم في نفس هذه المقالة عن افترائهم مفترون، ونظير الآية فيما ذكر قول أمين نسب إلى الخيانة: لعل الله تعالى خذلني لعل الله تعالى أعمى قلبي وهو لا يريد إثبات الخذلان وعمى القلب وإنما يريد استبعاد أن يخون مثله والتنبيه على أنه ركب من تخوينه أمر عظيم، فالكلام تعليل لإنكار قولهم، وأتى بإن مع أن عدم مشيئته تعالى مقطوع به قيل إرخاء للعنان، وقيل: إشعار بعظمته تعالى وأنه سبحانه غني عن العالمين، ثم ذيل بقوله تعالى: **﴿وَيَمْحُ الله الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِه﴾** تأكيداً للمفهوم من السابق من أنه ليس من الافتراء في شيء أي كيف يكون افتراء ومن عادته تعالى محو الباطل ومحقه وإثبات الحق بوحيه أو بقضائه وما أتى به عليه الصلاة والسلام يزداد كل يوم قوة ودحواً فلو كان مفترياً كما يزعمون لكشف الله تعالى افتراءه ومحقه وقذف بالحق على باطله فدمغه.

والفعل المضارع للاستمرار. والكلام ابتدائي فيمح مرفوع لا مجزوم بالعطف على **﴿يختم﴾** وأسقطت الواو في الرسم في أغلب المصاحف تبعاً لإسقاطها في اللفظ لالتقاء الساكنين كما في **﴿سندع الزبانية﴾** [العلق: ١٨]. و**﴿يدع الإنسان بالشر﴾** [الإسراء: ١١] وكان القياس إثباتها رسماً لكن رسم المصحف لا يلزم جريه على القياس، ويؤيد الاستئناف دون العطف على **﴿يختم﴾** إعادة الاسم الجليل ورفع **﴿يحق﴾** وهذا ما ذكره جار الله في الجملتين

وبيان ارتباطهما بما قبلهما، وقد دقق النظر في ذلك وأتى بما استحسنه النظار حتى قال العلامة الطيبي: لو لم يكن في كتابه إلا هذا لكفاه مزية وفضلاً، وجوز هو أيضاً في قوله تعالى: ﴿ويمح﴾ الخ أن يكون عدة لرسول الله ﷺ بالنصر أي يمحو الله تعالى باطلهم وما بهتوك به ويثبت الحق الذي أنت عليه بالقرآن وبقضائه الذي لا مرد له، وحينئذٍ يكون اعتراضاً يؤكد ما سبق له الكلام من كونهم مبطلين في هذه النسبة إلى من هو أصدق الناس لهجة بأصدق حديث من أصدق متكلم، وقال في إرشاد العقل السليم في الجملة الأولى: إنها استشهاد على بطلان ما قالوه ببيان أنه عليه الصلاة والسلام لو افترى على الله تعالى كذباً لمنعه من ذلك قطعاً، وتحقيقه أن دعوى كون القرآن افتراء عليه تعالى قول منهم أنه سبحانه لا يشاء صدوره عن النبي ﷺ بل يشاء عدم صدوره عنه ومن ضرورياته منعه عنه قطعاً فكأنه قيل: لو كان افتراء عليه تعالى لشاء عدم صدوره عنك وإن يشأ ذلك يختم على قلبك بحيث لم يخطر ببالك معنى من معانيه ولم تنطق بحرف من حروفه وحيث لم يكن الأمر كذلك بل تواتر الوحي حيناً فحيناً تبين أنه من عند الله عز وجل، وذكر في الجملة الثانية ما ذكره جار الله من الوجهين، ولا يخفى عليك ما يرد على كلامه من المنع مع أن فيه جعل مفعول المشيئة غير ما يدل عليه الجواب وهو ذلك المشار به إلى عدم الصدور، والمتبادر كون المفعول الختم على ما هو المعروف في نظائر هذا التركيب أي فإن يشأ الله تعالى الختم على قلبك يختم، وإيهام كون القرآن ناشئاً منه ﷺ لا منزلاً عليه عليه الصلاة والسلام، وقال السمرقندي: المعنى إن يشأ يختم على قلبك كما فعل بهم فهو تسلية له عليه الصلاة والسلام وتذكير لإحسانه إليه وإكرامه له ﷺ ليشكر ربه سبحانه ويترحم على من ختم على قلبه فاستحق غضب ربه ولولا ذلك ما اجترأ على نسبته لما ذكر، فالتفريع بالنظر إلى المعنى المكنى عنه، وحاصله أنهم اجترؤوا على هذا لأنهم مطبوعون على الضلال انتهى، وفيه شمة مما ذكره الزمخشري.

وعن قتادة وجماعة يختم على قلبك ينسك القرآن، والمراد على ما قال ابن عطية الرد على مقالة الكفار وبيان بطلانها كأنه قيل: وكيف يصح أن تكون مفترياً وأنت من الله تعالى بمرأى ومسمع وهو سبحانه قادر ولو شاء لختم على قلبك فلا تعقل ولا تنطق ولا يستمر افتراؤك، وفيه أن اللفظ ضيق عن أداء هذا المعنى، وذكر القشيري أن المعنى فإن يشأ الله تعالى يختم على قلوب الكفار وعلى ألسنتهم ويعاجلهم بالعذاب، وعدل عن الغيبة إلى الخطاب ومن الجمع إلى الإفراد، وحاصله يختم على قلبك أيها القائل إنه عليه الصلاة والسلام افترى على الله تعالى كذباً، وفيه من البعد ما فيه مع أن الكفار مختوم على قلوبهم، وقال مجاهد ومقاتل: المعنى فإن يشأ يربط على قلبك بالصبر على أذاهم حتى لا يشق عليك قولهم إنك مفتر، ولا مانع عليه من عطف ﴿يمح﴾ على جواب الشرط بل هو الظاهر فيكون سقوط الواو للجازم، و ﴿يحق﴾ حينئذٍ مستأنف أي وإن يشأ يمح باطلهم عاجلاً لكنه سبحانه لم يفعل لحكمة أو مطلقاً وقد فعل جل وعلا بالآخرة وأظهر دينه، وقيل: لا مانع من العطف على بعض الأقوال السابقة أيضاً أي إن يشأ يمح افتراءك لو افتريت وهو كما ترى، وكذا جوز كون الجملة حالية وإن أحوج ذلك إلى تقدير المبتدأ وفيه تكلف مستغنى عنه؛ وربما يقال: إن جملة ﴿فإن يشأ الله يختم﴾ من تتمة قولهم مفرعاً على ﴿افترى﴾ كأنه قيل: افترى على الله كذباً فإن يشأ الله يختم على قلبه بسبب افترائه فلا يعقل شيئاً أو كأنه قيل: افتريت على الله فإن يشأ يختم على قلبك جزاء ذلك إلا أن نكتة اختيار الغيبة في إحدى الجملتين والخطاب في الأخرى غير ظاهرة، وكونها الإشارة إلى أن من افترى يحق أن يواجه بالجزاء ليس مما يهش له السامع فيما أرى، ولعل الأولى أن يكون ﴿فإن يشأ﴾ الخ مفرعاً على كلامهم خارجاً مخرج التهكم بهم، ولا بأس حينئذٍ بعطف يمح على جواب الشرط ويراد بالباطل ما هو باطل بزعمهم كأنه قيل: أم يقولون افترى على الله فإذن إن يشأ الله يختم على قلبك ويمح ما يزعمون أنه باطل، وهذا كما تقول لمن أخبرك أن

زيداً افترى عليك وأنت تعلم أنه لم يفتر وإنما أدى عنك ما أمرته به فإذن نؤدبه وننتقم منه ونمحو افتراءه تقصد بذلك التهكم بالقائل فتأمل، فهذه الآية كما قال الخفاجي من أصعب ما مر في كلامه تعالى العظيم وفقنا الله تعالى وإياكم لفهم معانيه والوقوف على سره وخافيه ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ فيعلم سبحانه ما في صدرك وصدورهم فيجري جلَّ وعلا الأمر على حسب ذلك.

﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبادِهِ﴾ بالتجاوز عما تابوا عنه والقبول يعدى بعن لتضمنه معنى الإبانة وبمن لتضمنه معنى الأخذ كما في قوله تعالى: ﴿وما منعهم أن تقبل منهم نفقاتهم﴾ [التوبة: ٥٤] أي تؤخذ، وقيل: القبول مضمن هنا معنى التجاوز والكلام على تقدير مضاف أي يقبل التوبة متجاوزاً عن ذنوب عباده وهو تكلف.

والتوبة أن يرجع عن القبيح والإخلال بالواجب في الحال ويندم على ما مضى ويعزم على تركه في المستقبل وزادوا التقصي منه بأي وجه أمكن إن كان الذنب لعبد فيه حق وذلك بالرد إليه أو إلى وكيله أو الاستحلال منه إن كان حياً وبالرد إلى ورثته إن كان ميتاً ووجدوا ثم القاضي لو كان أميناً وهو كالإكسير ومن رأى الإكسير؟ فإن لم يقدر على شيء من ذلك يتصدق عنه والا يدع له ويستغفر.

وفي الكشف التقصي داخل في الرجوع إذ لا يصح الرجوع عنه وهو ملتبس به بعد، واختير أن حقيقتها الرجوع وإنما الندم والعزم ليكون الرجوع إقلاعاً ويتحقق أنه التوبة التي ندبنا إليها وهو موافق لما في الاحياء من أنها اسم لتلك الحالة بالحقيقة والباقي شروط التحقق؛ ويشترط أيضاً أن يكون الباعث على الرجوع مع الندم والعزم دينياً فلو رجع لمانع آخر من ضعف بدن أو غرم لذلك لم يكن من التوبة في شيء، وأشار الزمخشري إلى ذلك بكون الرجوع لأن المرجوع عنه قبيح وإخلال بالواجب وخرج عنه ما لو رجع طلباً للثناء أو رياء أو سمعة لأن قبح القبيح معناه كونه مقتضياً للعقاب آجلاً وللذم عاجلاً فلو رجع لما سبق لم يكن رجوعاً لذلك.

وروى جابر أن أعرابياً دخل مسجد رسول الله ﷺ وقال: اللهم إني أستغفرك وأتوب إليك وكبر فلما فرغ من صلاته قال له علي كرم الله وجهه: إن سرعة اللسان بالاستغفار توبة الكذابين وتوبتك تحتاج إلى التوبة فقال يا أمير المؤمنين: ما التوبة؟ قال: اسم يقع على ستة معان على الماضي من الذنوب الندامة ولتضيع الفرائض الإعادة ورد المظالم وإذابة النفس في الطاعة كما ربيتها في المعصية وإذاقة النفس مرارة الطاعة كما أذقتها حلاوة المعصية والبكاء بدل كل ضحك ضحكته، وهذا يحتمل أن تكون التوبة مجموع هذه الأمور فالمراد أكمل أفرادها، ويحتمل أنها اسم لكل واحد منها والأول أظهر. واختلف في التوبة عن بعض المعاصي مع الإصرار على البعض هل هي صحيحة أم لا والذي عليه الأصحاب أنها صحيحة لظواهر الآيات والأحاديث وصدق التعريف عليها، وأكثر المعتزلة على أنها غير صحيحة قال أبو هاشم منهم: لو تاب عن القبيح لكونه قبيحاً وجب أن يتوب عن كل القبائح وإن تاب عنه لا لمجرد قبحه بل لغرض آخر لم تصح توبته. وتعقب بأنه يجوز أن يكون الباعث شدة القبح أو أمراً دينياً آخر وأيضاً يجري نظير هذا في فعل الحسن بل يقال: لو فعل الحسن لكونه حسناً وجب عليه أن يفعل كل حسن وإن فعله لغرض آخر لم يقبل وفيه بحث.

واستدل المعتزلة بالآية على أنه يجب عليه تعالى قبول التوبة واستدل أهل السنة بها على عدم الوجوب لمكان التمدح ولا تمدح بالواجب، وفيه أيضاً بحث والأنفع في هذا المقام أدلة نفي الوجوب مطلقاً عليه عز وجل. ﴿وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ﴾ صغائرها وكبائرها لمن يشاء من غير اشتراط شيء كالتوبة للكبائر واجتنابها للصغائر.

وقال الطيبي: المعنى من شأنه تعالى شأنه قبول التوبة عن عباده إذا تابوا والعفو عن سيئاتهم بمحض رحمته أو

بشفاعة شافع، وقال المعتزلة: أي يعفو عن الكبائر إذا تيب عنها وعن الصغائر إذا اجتنبت الكبائر فالعفو عن السيئات عليه أعم من قبول التوبة لشموله الصغائر إذا اجتنبت الكبائر وهو تعميم بعد تخصيص، والظاهر مع أهل السنة إذ لا دلالة في النظم الجليل على تخصيص السيئات نعم المراد بها غير الشرك بالإجماع.

﴿وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ بتاء الخطاب عند حفص والأخوين وعلقمة وعبد الله وبياء الغيبة عند الجمهور وعلى الأول ففيه التفات وما موصولة والعائد محذوف أي يعلم الذي تفعلونه كائناً ما كان من خير وشر فيجازى بالثواب والعقاب أو يتجاوز سبحانه بالعفو حسبما تقتضيه مشيئته جل وعلا المبنية على الحكم والمصالح.

وقيل: يعلم ذلك فيجازي التائب ويتجاوز عن غيره إذا شاء سبحانه والأول أظهر. وفي الكشاف يعلم سبحانه ذلك فيثيب على الحسنات ويعاقب على السيئات. وفي الكشف بعد نقله هو أي قوله تعالى. ﴿ويعلم﴾ الخ تذييل للكلام السابق يؤكد ما ذكره من القبول والعفو لأنه تعالى إذا علم العملين والعاملين جازى كلاً بما فعل فأولى أن يجازي هؤلاء المحسنين بأفعالهم، ثم فيه لطف وحث على لزوم الحذر منه تعالى والإخلاص له سبحانه في إمحاض التوبة، ونحن أيضاً لا ننكر أنه تذييل فيه تأكيد كما لا يخفى ﴿وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ عطف على ﴿يقبل التوبة﴾ فالفاعل ضميره تعالى و ﴿الذين﴾ مفعول بدون تقدير شيء بناءً على أن ﴿يستجيب﴾ يتعدى بنفسه كما يتعدى باللام نحو شكرته وشكرت له أو بتقدير اللام على أنه من باب الحذف والإيصال والأصل يستجيب للذين آمنوا بناءً على أنه يتعدى للداعي باللام وللدعاء بنفسه ونحو هذا قوله:

وداع دعا يا من يجيب إلى الندى ... فلم يستجبه عند ذاك مجيب

وأجاب واستجاب بمعنى أي ويجيب الله تعالى الذين آمنوا إذا دعوا وحاصله يجيب دعاءهم، وجوز بعضهم أن يكون الكلام بتقدير هذا المضاف قيل: وهو أولى من القول بإيصال الفعل بحذف الصلة لأن حذف المضاف إذا لم يلبس منقاس وذاك مسموع، ويجوز أن يكون المراد يثيبهم على طاعتهم فإن الطاعة لكونها طلب ما يترتب عليها من الثواب شابهت الدعاء وشابهت الإثابة عليها الإجابة، ومن هذا يسمى الثناء دعاء لأنه يترتب عليه ما يترتب عليه، وسئل سفيان عن قوله عليه الصلاة والسلام في الحديث: «أكثر دعائي ودعاء الأنبياء قبلي لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير» فقال: هذا كقوله تعالى في الحديث القدسي: «من شغله ذكري عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين» ألا ترى قول أمية بن الصلت لابن جدعان حين أتاه يبغي نائلة:

أأذكر حاجتي أم قد كفاني ... ثناؤك إن شيمتك الحياء
إذا أثنى عليك المرء يوماً ... كفاه عن تعرضك الثناء

وجعلوا من ذلك قوله ﷺ «أفضل الدعاء الحمد لله» على معنى أن الحمد يدل على الدعاء والسؤال بطريق الكناية والتعريض، وقيل: هو على إطلاق الدعاء على الحمد لشبهه به في طلب ما يترتب عليه، وجوز أن يراد بالإجابة معناها الحقيقي والإثابة بناءً على القول بصحة الجمع بين الحقيقة والمجاز أي يجيب دعاءهم ويثيبهم على الطاعة ﴿وَيَزِيدُهُمْ﴾ على ما سألوا واستحقوا ﴿مِنْ فَضْلِهِ﴾ الواسع جل شأنه، وقيل: إن فاعل ﴿ويستجيب الذين آمنوا﴾ واستظهره أبو حيان، والجملة عطف على مجموع قوله تعالى: ﴿هو الذي يقبل التوبة﴾ الخ أي ينقادون لله تعالى ويجيبونه سبحانه إذا دعاهم، وهو المروي عن ابن جبير، وعن إبراهيم بن أدهم أنه قيل له: ما لنا ندعو فلا نجاب؟ فقال: لأنه سبحانه دعاكم فلم تجيبوه ثم قرأ ﴿والله يدعو إلى دار السلام﴾ [يونس: ٢٥] ﴿ويستجيب الذين آمنوا﴾ وهذا يؤكد هذا الوجه لأنه قدس سره ذكر أن الله تعالى دعاكم بقوله عز وجل: ﴿والله يدعو إلى دار السلام﴾ وذكر

أن المؤمن من استجاب دعوة ربه تعالى بقوله: ﴿**ويستجيب الذين آمنوا**﴾ فمن لا يجيب دعاءه تعالى لا يجيب تعالى أيضاً دعاءه، وكون الفاعل ضميره تعالى قد روى ما يقتضيه عن ابن عباس. ومعاذ بن جبل ﴿**ويزيدهم**﴾ عليه عطف على ما قبله وعلى الوجه الآخر عطف على مقدر أي فيوفيهم أجورهم ويزيدهم عليها على أسلوب ﴿وقالا الحمد لله الذي فضلنا﴾ [النمل: ١٥] وقوله سبحانه: ﴿**من فضله**﴾ متعلق بيزيدهم مطلقاً، وجوز تعليقه بالفعلين على التنازع فإن الإِجابة والثواب فضل منه تعالى كالزيادة.

وأيا ما كان فالظاهر عموم الذين آمنوا وروي عن سعيد بن جبير أن رسول الله ﷺ حين قدم المدينة واستحكم الإِسلام قالت الأنصار فيما بينها: نأتي رسول الله عليه الصلاة والسلام ونقول له: إن تعرك أمور فهذه أموالنا تحكم فيها فنزلت قل ﴿**لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى**﴾ فقرأها عليهم، وقال تودون قرابتي من بعدي فخرجوا مسلمين فقال المنافقون: إن هذا لشيء افتراه في مجلسه أراد بذل عز قرابته من بعده فنزلت ﴿أم يقولون افترى على الله كذباً﴾ [سبأ: ٨] فأرسل إليهم فتلاها عليهم فبكوا وندموا فأنزل الله تعالى ﴿**وهو الذي يقبل التوبة عن عباده**﴾ فأرسل ﷺ إليهم فبشرهم وقال: ﴿**ويستجيب الذين آمنوا**﴾ وهم الذين سلموا لقوله ذكر ذلك الطبرسي، وذكر قريباً منه في الدر المنثور لكن قال: أخرجه الطبراني في الأوسط. وابن مردويه عن ابن جبير بسند ضعيف، والذي يغلب على الظن الوضع ﴿**وَالكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ**﴾ بدل ما للمؤمنين من الإِجابة والتفضل.

﴿**وَلَو بَسَطَ الله الرِّزْقَ لعبَاده لَبَغَوا في الأَرْض**﴾ أي لتكبروا فيها بطراً وتجاوزوا الحد الذي يليق بالعبيد أو لظلم بعضهم بعضاً فإن الغني مبطرة مأشرة، وكفى بحال قارون عبرة، وفي الحديث «أخوف ما أخاف على أمتي زهرة الدنيا وكثرتها» ولبعض العرب:

وقد جعل الوسمي ينبت بيننا ... وبين بني رومان نبعاً وشوحطا

وأصل البغي طلب أكثر مما يجب بأن يتجاوز في القدر والكمية أو في الوصف والكيفية ﴿**وَلَٰكنْ يُنَزّلُ**﴾ بالتشديد، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بالتخفيف من الإِنزال ﴿**بقَدَر**﴾ بتقدير ﴿**مَا يَشَاءُ**﴾ وهو ما اقتضته حكمته جل شأنه ﴿**إنَّهُ بعباده خَبيرٌ بَصيرٌ**﴾ محيط بخفيات أمورهم وجلاياها فيقدر لكل واحد منهم في كل وقت من أوقاتهم ما يليق بشأنه فيفقر ويغني ويمنع ويعطي ويقبض ويبسط حسبما تقتضيه الحكمة الربانية ولو أغناهم جميعاً لبغوا ولو أفقرهم لهلكوا. واستشكلت الآية بأن الغنى كما يكون سبب البغي فكذلك الفقر قد يكون فلا يظهر الشرطية، وأجاب جار الله بأنه لا شبهة أن البغي مع الفقر أقل ومع البسط أكثر وأغلب وكلاهما سبب ظاهر للإِقدام على البغي والإِحجام عنه فلو عم البسط لغلب البغي حتى ينقلب الأمر إلى عكس ما عليه الآن وأراد الله تعالى أعلم أن نظام العالم على ما هو عليه يستمر وإن كان قد يصدر من الغنى في بعض الأحيان بغي ومن الفقير كذلك لكن في أحدهما ما يدفع الآخر أما لو أفقرهم كلهم لكان الضعف والهلك لازماً ولو بسط عليهم كلهم مع أن الحاجة طبيعية لكان من البغي ما لا يقادر قدره لأن نظام العالم بالفقر أكثر منه بالغنى، وهذا أمر ظاهر مكشوف؛ ثم إن الفقر الكلي لا يتصور معه البغي للضعف العام ولأنه لا يجد حاجته عند غيره ليظلمه، وأما الغنى الكلي فعنده البغي التام، وأما الذي عليه سنة الله عزو جل فهو الذي جمع الأمرين مشتملاً على خوف للغني من الفقراء يزعه عن الظلم وخوف للفقير من الأغنياء أكثر منه يدعوه إلى التعاون ليفوز بمبتغاه ويزعه عن البغي، ثم قد يتفق بغي من هذا أو ذاك كذا قرره صاحب الكشف ثم قال: وهذا جواب حسن لا تكلف فيه وهو إشارة إلى رد العلامة الطيبي فإنه زعم أنه جواب متكلف وإن السؤال قوي، وذهب هو إلى أن المراد ﴿**بعباده**﴾ من خصهم الله تعالى بالكرامة وجعلهم من أوليائه ثم قال: وينصره التذييل بقوله تعالى: ﴿**إنه بعباده**

خبير بصير﴾ ووضع المظهر موضع المضمر أي إنه تعالى خبير بأحوال عباده المكرمين بصير بما يصلحهم وما يرديهم، وإليه ينظر ما ورد عنه ﷺ إذا أحب الله تعالى عبداً حماه الدنيا كما يظل أحدكم يحمي سقيمه الماء، ويشد من عضده قول خباب بن الأرت نظرنا إلى أموال بني قريظة والنضير وبني قينقاع فتمنيناها فنزلت ﴿**ولو بسط**﴾ الآية وقول عمرو بن حريث طلب قوم من أهل الصفة من الرسول ﷺ أن يغنيهم الله تعالى ويبسط لهم الأموال والأرزاق فنزلت وعليه تفسير محيي السنة انتهى. ولا يخفى أن الأنسب بحال المكرمين المصطفين من عباده تعالى أن لا يبطرهم الغنى لصفاء بواطنهم وقوة توجههم إلى حظائر القدس ومزيد تعلق قلوبهم بمحبوبهم ووقوفهم على حقائق الأشياء وكمال علمهم بمنتهى زخارف الحياة الدنيا، وأبناء الدنيا لو فكروا في ذلك حق التفكر لهان أمرهم وقل شغفهم كما قيل:

لو فكر العاشق في منتهى ... حسن الذي يسبيه لم يسبه

فلعل الأولى ما تقدم أو يقال إن هذا في بعض العباد المؤمنين فتأمل ﴿**وَهُوَ الَّذي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ**﴾ أي المطر الذي يغيثهم من الجدب ولذلك خص بالنافع منه فلا يقال غيث لكل مطر، وقرأ الجمهور «يُنْزِلُ» مخففاً.

﴿**مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا**﴾ بكسر النون ﴿**وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ**﴾ أي منافع الغيث وآثاره في كل شيء من السهل والجبل والنبات والحيوان أو رحمته الواسعة المنتظمة لما ذكر انتظاماً أولياً، وقيل: الرحمة هنا ظهور الشمس لأنه إذا دام المطر سئم فتجيء الشمس بعده عظيمة الموقع ذكره المهدوي وليس بشيء، ومن البعيد جداً ما قاله السدي من أن الرحمة هنا الغيث نفسه عدد النعمة نفسها بلفظين، وأياً ما كان فضمير ﴿**رحمته**﴾ لله عز وجل، وجوز على الأول كونه للغيث.

﴿**وَهُوَ الْوَلِيُّ**﴾ الذي يتولى عباده بالإحسان ونشر الرحمة ﴿**الْحَمِيدُ**﴾ المستحق للحمد على ذلك لا غيره سبحانه.

﴿**وَمِنْ آيَاته خَلْقُ السَّمَوَات وَالأَرْض**﴾ على ما هما عليه من تعاجيب الصنائع فإنها بذاتها وصفاتها تدل على شؤونه تعالى العظيمة، ومن له أدنى إنصاف وشعور يجزم باستحالة صدورها من الطبيعة العديمة الشعور.

﴿**وَمَا بَثَّ فيهِمَا**﴾ عطف على ﴿**السموات**﴾ أي ومن آياته خلق ما بث أو عطف على ﴿**خلق**﴾ أي ومن آياته ما بث. و ﴿**ما**﴾ تحتمل الموصولية والمصدرية والموصولية أظهر ولا حاجة عليه إلى تقدير مضاف أي خلق الذي بث خلافاً لأبي حيان ﴿**مِنْ دَابَّة**﴾ أي حيوان له دبيب وحركة، وظاهر الآية وجود ذلك في السموات وفي الأرض وبه قال مجاهد وفسر الدابة بالناس والملائكة، ويجوز أن يكون للملائكة مشي مع الطيران، واعترض ذلك ابن المنير بأن إطلاق الدابة على الاناسي بعيد في عرف اللغة فكيف بالملائكة وادعى أن الأصح كون الدواب في الأرض لا غير؛ وما في أحد الشيئين يصدق أنه فيهما في الجملة، فالآية على أسلوب ﴿**يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان**﴾ [الرحمن: ٢٢] وذلك لقوله تعالى في [البقرة: ١٦٤] ﴿**وبث فيها من كل دابة**﴾ فإنه يدل على اختصاص الدواب بالأرض لأن مقام الإطناب يقتضي ذكره لو كان لا للعمل بمفهوم اللقب الذي لا يقول به الجمهور والجواب أن التي في البقرة لما كانت كلاماً مع الغبي والفهم والمسترشد والمعاند جيء فيه بما هو معروف عند الكل وهو بث الدواب في الأرض وأما ههنا فجيء به مدمجاً مختصراً لما تكرر في القرآن ولا سيما في هذه السورة من كمال قدرته على كل ممكن فقيل: ﴿**ومن آياته خلق السموات والأرض وما بث فيهما**﴾ مؤثراً على لفظ الخلق ليدل على التكثير الدال على كمال القدرة وبين بقوله تعالى: ﴿**من دابة**﴾ تعميماً وتغليباً لغير ذوي العلم في السماوي والأرضي تحقيقاً للمخلوقية فقد ثبت في صحاح الأحاديث ما يدل على وجود الدواب في السماء من مراكب أهل الجنة وغيرها، وكذلك ما يدل على وجود ملائكة كالأوعال بل لا يبعد أن يكون في كل سماء حيوانات ومخلوقات على صور شتى وأحوال مختلفة لا نعلمها

ولم يذكر في الأَخبار شيء منها فقد قال تعالى: ﴿ويخلق ما لا تعلمون﴾ [النحل: ٨] وأهل الأرصاد اليوم يتراءى لهم بواسطة نظاراتهم مخلوقات في جرم القمر لكنهم لم يحققوا أمرها لنقص ما في الآلات على ما يدعون، ويحتمل أن يكون فيما عدا القمر ونفي ذلك ليس من المعلوم من الدين بالضرورة ليضر القول به، وقيل: المراد بالسموات جهات العلو المسامتة للأقاليم مثلاً وفي جو كل قليم بل كل بلدة بل كل قطعة من الأرض حيوانات لا يحصي كثرتها إلا الله تعالى بعضها يحس بها بلا واسطة آلة وبعضها بواسطتها، وقيل: المراد بها السحب وفيها من الحيوانات ما فيها وكل ذلك على ما فيه لا يحتاج إليه، وكذا لا يحتاج إلى ما ذهب إليه كثير من أن المراد بالدابة الحي مجازاً إما من استعمال المقيد في المطلق أو إطلاق الشيء على لازمه أو المسبب على سببه لأن الحياة سبب للدبيب وإن لم تكن الدابة سبباً للحي فيكون مجازاً مرسلاً تبعياً لأن الاحتياج إلى ذلك عدول عن الظاهر ولا يعدل عنه إلا إذا دل دليل على خلافه وأين ذلك الدليل؟ بل هو قائم على وجود الدواب في السماء كما هي موجودة في الأرض.

﴿وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ﴾ أي حشرهم بعد البعث للمحاسبة ﴿إِذَا يَشَاءُ﴾ ذلك ﴿قَدِيرٌ﴾ تام القدرة كاملها، و﴿إذا﴾ متعلقة بما قبلها لا بقدر لأن المقيد بالمشيئة جمعه تعالى لا قدرته سبحانه وهي كما تدخل على الماضي تدخل على المضارع، ومنه قوله:

وإذا ما أشاء أبعث منها ... آخر الليل ناشطاً مذعورا

وقول صاحب الكشف: لقائل أن يفرق بين إذا وإذا ما الظاهر أنه ليس في محله وقد نص الخفاجي على عدم الفرق وجعل القول به توهماً، وكذا نص على أنها تدخل على الفعلين ظرفية كانت أو شرطية، وقيد ذلك الطيبي بما إذا كانت بمعنى الوقت كما هنا، وضمير ﴿جمعهم﴾ قيل للسموات والأرض وما فيهما على التغليب وهو كما ترى، وقيل: للدواب المفهوم مما تقدم وضمير العقلاء للتغليب المناسب لكون الجمع للمحاسبة، وقيل: للناس المعلوم من ذلك ولعله الأولى ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ﴾ أي مصيبة كانت من مصائب الدنيا كالمرض وسائر النكبات ﴿فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ أي فبسبب معاصيكم التي اكتسبتموها، و ﴿ما﴾ اسم موصوف مبتدأ والمبتدأ إذا كان موصولاً صلته جملة فعلية تدخل على خبره الفاء كثيراً لما فيه من معنى الشرط لإشعاره بابتناء الخبر عليه فلذا جيء بالفاء هنا.

وقرأ نافع وابن عامر وأبو جعفر في رواية وشيبة «بما» بغير فاء لأنها ليست بلازمة وإيقاع المبتدأ موصولاً يكفي في الإشعار المذكور، وحكي عن ابن مالك أنه قال: اختلاف القراءتين دل على أن ما موصولة فجيء تارة بالفاء في خبرها وأخرى لم يؤت بها حطاً للمشبه عن المشبه به، وجوز كون ما شرطية واستظهره أبو حيان في القراءة بالفاء وجعلها موصولة في القراءة الأخرى بناءً على أن حذف الفاء من جواب الشرط مخصوص بالشعر عند سيبويه نحو:

من يفعل الحسنات الله يشكرها

والأخفش وبعض نحاة بغداد أجازوا ذلك مطلقاً، ومنه قوله تعالى: ﴿وإن أطعتموهم إنكم لمشركون﴾ [الأنعام: ١٢١].

وقال أبو البقاء: حذف الفاء من الجواب حسن إذا كان الشرط بلفظ الماضي ويعلم منه مزيد حسن حذفها هنا على جعل ما موصولة ﴿وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾ أي من الذنوب فلا يعاقب عليها بمصيبة عاجلاً قيل وآجلاً.

وجوز كون المراد بالكثير الكثير من الناس والظاهر الأول وهو الذي تشهد له الأخبار. روى الترمذي عن أبي موسى أن رسول الله ﷺ قال: «لا يصيب عبدا نكبة فما فوقها أو دونها إلا بذنب وما يعفو الله تعالى عنه أكثر وقرأ ﴿وما أصابكم من مصيبة﴾».

وأخرج ابن المنذر وجماعة عن الحسن قال: لما نزلت هذه الآية ﴿**وما أصابكم**﴾ الخ، قال عليه الصلاة والسلام والذي نفسي بيده ما من خدش عود ولا اختلاج عرق ولا نكبة حجر ولا عثرة قدم إلا بذنب وما يعفو الله عزَّ وجلَّ عنه أكثر، وأخرج ابن سعد عن أبي مليكة أن أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنهما كانت تصدع فتضع يدها على رأسها وتقول بذنبي وما يغفره الله تعالى أكثر، ورؤي على كف شريح قرحة فقيل: بم هذا؟ فقال: بما كسبت يدي، وسئل عمران بن حصين عن مرضه فقال: إن أحبه إلى الله تعالى وهذا بما كسبت يدي، والآية مخصوصة بأصحاب الذنوب من المسلمين وغيرهم فإن من لا ذنب له كالأنبياء عليهم السلام قد تصيبهم مصائب، ففي الحديث «أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل» ويكون ذلك لرفع درجاتهم أو لحكم أخرى خفيت علينا، وأما الأطفال والمجانين فقيل غير داخلين في الخطاب لأنه للمكلفين وبفرض دخولهم أخرجهم التخصيص بأصحاب الذنوب فما يصيبهم من المصائب فهو لحكم خفية، وقيل: في مصائب الطفل رفع درجته ودرجة أبويه أو من يشفق عليه بحسن الصبر ثم إن المصائب قد تكون عقوبة على الذنب وجزاء عليه بحيث لا يعاقب عليه يوم القيامة، ويدل على ذلك ما رواه أحمد في مسنده والحكيم الترمذي وجماعة عن علي كرم الله تعالى وجهه قال: ألا أخبركم بأفضل آية في كتاب الله تعالى حدثنا بها رسول الله ﷺ ﴿**وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير**﴾ وسأفسرها لك يا علي ما أصابك من مرض أو عقوبة أو بلاء في الدنيا فبما كسبت أيديكم والله تعالى أكرم من أن يثني عليكم العقوبة في الآخرة وما عفا الله تعالى عنه في الدنيا فالله سبحانه أكرم من أن يعود بعد عفوه، وزعم بعضهم أنها لا تكون جزاء لأن الدنيا دار تكليف فلو حصل الجزاء فيها لكانت دار جزاء وتكليف معا وهو محال فما هي إلا امتحانات، وخبر علي كرم الله وجهه يرده وكذا ما صح من أن الحدود أي غير حد قاطع الطريق مكفرات وأي محالية في كون الدنيا دار تكليف ويقع فيها لبعض الأشخاص ما يكون جزاء له على ذنبه أي مكفراً له.

وعن الحسن تفسير المصيبة بالحد قال: المعنى ما أصابكم من حد من حدود الله تعالى فإنما هو بكسب أيديكم وارتكابكم ما يوجبه ويعفو الله تعالى عن كثير فيستره على العبد حتى لا يحد عليه، وهو مما تأباه الأخبار ومع هذا ليس بشيء ولعله لم يصح عن الحسن.

وفي الانتصاف أن هذه الآية تبلس عندها القدرية ولا يمكنهم ترويج حيلة في صرفها عن مقتضى نصها فإنها حملوا قوله تعالى: ﴿ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾ [النساء: ٤٨، ١١٦] على التائب وهو غير ممكن لهم ههنا فإنه قد أثبت التبعيض في العفو ومحال عندهم أن يكون العفو هنا مقيداً بالتوبة فإنه يلزم تبعيضاً أيضاً وهي عندهم لا تتبعض كما نقل الإمام عن أبي هاشم وهو رأس الاعتزال والذي تولى كبره منهم فلا محل لها إلا الحق الذي لا مرية فيه وهو رد العفو إلى مشيئة الله تعالى غير موقوف على التوبة. وأجيب عنهم بأن لهم أن يقولوا: المراد ويعفو عن كثير فلا يعاقب عليه في الدنيا بل يؤخر عقوبته في الآخرة لمن لم يتب. وأنت تعلم ما دل خبر على كلام الله تعالى وجهه.

﴿**وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ**﴾ أي بجاعلين الله سبحانه وتعالى عاجزاً عن أن يصيبكم بالمصائب بما كسبت أيديكم وإن هربتم في أقطار الأرض كل مهرب، وقيل: المراد أنكم لا تعجزون من في الأرض من جنوده تعالى فكيف من في السماء ﴿**وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ**﴾ من متول بالرحمة يرحمكم إذا أصابتكم المصائب وقيل يحميكم عنها ﴿**وَلاَ نَصِيرٍ**﴾ يدفعها عنكم، والجملة كالتقرير لقوله تعالى: ﴿**ويعفو عن كثير**﴾ أي إن الله تعالى يعفو عن كثير من المصائب إذ لا قدرة لكم أن تعجزوه سبحانه فتفوتوا ما قضى عليكم منها ولا لكم أيضاً من متول بالرحمة غيره عزَّ وجلَّ ليرحمكم إذا أصابتكم ولا ناصر سواه لينصركم منها ولهذا جاء عن علي كرم الله تعالى وجهه أن هذه أرجى آية

في القرآن للمؤمنين، ويقوي أمر الرجاء على ما قيل: أن معنى ﴿ما أنتم﴾ الخ ما أنتم بمعجزين الله في دفع مصائبكم أي إنه سبحانه قادر على ذلك ﴿وَمِنْ آيَاتِه الْجَوَار﴾ أي السفن الجواري أي الجارية فهي صفة لموصوف محذوف لقرينة قوله تعالى: ﴿في الْبَحْرِ﴾ وبذلك حسن الحذف وإلا فهي صفة غير مختصة والقياس فيها أن لا يحذف الموصوف وتقوم مقامه، وجوز أبو حيان أن يقال: إنها صفة غالبة كالأبطح وهي يجوز فيها أن تلي العوامل بغير ذكر الموصوف، و﴿في البحر﴾ متعلق بالجواري وقوله تعالى: ﴿كَالأَعْلام﴾ في موضع الحال.

وجوز أن يكون الأول أيضاً كذلك، والأعلام جمع علم وهو الجبل وأصله الأثر الذي يعلم به الشيء كعلم الطريق وعلم الجيش وسمي الجبل علماً لذلك ولا اختصاص له بالجبل الذي عليه النار للاهتداء بل إذا أريد ذلك قيد كما في قول الخنساء:

وإن صخراً لَتأتمُّ الهداة به ... كأنه علمٌ في رأسه نار

وفيه مبالغة لطيفة، وحكي أن النبي ﷺ قال لما سمعه: قاتلها الله تعالى ما رضيت بتشبيهه بالجبل حتى جعلت على رأسه نارا وقرأ نافع وأبو عمرو «الجواري» بياء في الوصل دون الوقف.

وقرأ ابن كثير بها فيهما والباقون بالحذف فيهما والإثبات على الأصل والحذف للتخفيف، وعلى كل فالإعراب تقديري وسمع من بعض العرب الاعراب على الراء ﴿إِنْ يَشَأ يُسْكِن الرِّيحَ﴾ التي تجري بها ويعدم سبب تموجها وهو تكاثف الهواء الذي كان في المحل الذي جرت إليه وتراكم بعضه على بعض وسبب ذلك التكاثف إما انخفاض درجة حرارة الهواء فيقل تمدده ويتكاثف ويترك أكثر المحل الذي كان مشغولاً به خلياً وإما تجمع فجائي يحصل في الأبخرة المنتشرة في الهواء فيخلو محلها، وهذا على ما قيل أقوى الأسباب فإذا وجد الهواء أمامه فراغاً بسبب ذلك جرى بقوة ليشغله فتحدث الريح وتستمر حتى تملأ المحل وما ذكر في سبب التموج هو الذي ذكره فلاسفة العصر. وأما المتقدمون فذكروا أشياء أخرى، ولعل هناك أسباباً غير ذلك كله لا يعلمها إلا الله عزَّ وجلَّ، والقول بالأسباب تحريكاً وإسكاناً لا ينافي إسناد الحوادث إلى الفاعل المختار جلَّ جلاله وعم نواله.

وقرأ نافع «الرياح» جمعاً ﴿فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِه﴾ فيصرن ثوابت على ظهر البحر أي غير جاريات لا غير متحركات أصلاً، وفسر بعضهم ﴿يظللن﴾ ببيقين فيكون ﴿رواكد﴾ حالاً والأول أولى.

وقرأ قتادة «فَيَظْلِلْنَ» بكسر اللام والقياس الفتح لأن الماضي مكسور العين فالكسر في المضارع شاذ، وقال الزمخشري: هو من ظل يظل ويظل بالفتح والكسر نحو ضل بالضاد يضل ويضل، وتعقبه أبو حيان بأنه ليس كما ذكر لأن يضل بالفتح من ضللت بالكسر ويضل بالكسر من ضللت بالفتح وكلاهما مقيس ﴿إِنَّ في ذَلِكَ﴾ الذي ذكر من السفن المسخرة في البحر تحت أمره سبحانه وحسب مشيئته تعالى: ﴿لآيَات﴾ عظيمة كثيرة على عظمة شؤونه عزَّ وجلَّ ﴿لِكُلِّ صبَّار شَكُور﴾ لكل من حبس نفسه عن التوجه إلى ما لا ينبغي ووكل همته بالنظر في آيات الله تعالى والتفكر في آلائه سبحانه فالصبر هنا حبس مخصوص والتفكر في نعمه تعالى شكر.

ويجوز أن يكون قد كنى بهذين الوصفين عن المؤمن الكامل لأن الإيمان نصفه صبر ونصفه شكر.

وذكر الإمام أن المؤمن لا يخلو من أن يكون في السراء والضراء فإن كان في الضراء كان من الصابرين وإن كان في السراء كان من الشاكرين ﴿أَوْ يُوبِقْهُنَّ﴾ عطف على ﴿يسكن﴾ أي أو يهلكهن بإرسال الريح العاصفة المغرقة، والمراد على ما قال غير واحد اهلاك أهلها إما بتقدير مضاف أو بالتجوز بإطلاق المحل على حاله أو بطريق

الكناية لأنه يلزم من إهلاكها إهلاك من فيها والقرينة على إرادة ذلك قوله تعالى: ﴿بِمَا كَسَبُوا﴾ وأصله أو يرسلها أي الريح فيوبقهن لأنه قسيم يسكن فاقتصر فيه على المقصود من إرسالها عاصفة وهو إما إهلاكهم أو إنجاؤهم المراد من قوله تعالى: ﴿وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ﴾ إذ المعنى أو يرسلها فيوبق ناساً بذنوبهم وينج ناساً على طريق العفو عنهم وبهذا ظهر وجه جزم ﴿يعف﴾ لأنه بمعنى ينج معطوف على يوبق، ويعلم وجه عطفه بالواو لأنه مندرج في القسيم وهو إرسالها عاصفة، وعلى هذا التفسير تكون الآية متضمنة لإسكانها ولإرسالها عاصفة مع الإهلاك والإنجاء وارسالها باعتدال معلوم من قوله سبحانه الجواري فإنها المطلوب الأصلي منها.

وقال بعض الأجلة: التحقيق أن ﴿يعف﴾ عطف على قوله تعالى: ﴿يسكن الريح﴾ إلى قوله سبحانه: ﴿بما كسبوا﴾ ولذا عطف بالواو لا بأو والمعنى إن يشأ يعاقبهم بالإسكان أو الإعصاف وإن يشأ يعف عن كثير.

وجوز بعضهم حمل ﴿يوبقهن﴾ على ظاهره لأن السفن من جملة أموالهم التي هلاكها والخسارة فيها بذنوبهم أيضاً وجعل الآية مثل قوله تعالى ﴿وما أصابكم من مصيبة﴾. الخ.

وقرأ الأعمش «يَعْفُو» بالواو الساكنة آخره على عطفه على مجموع الشرط والجواب دون الجواب وحده كما في قراءة الجزم، وعن أهل المدينة أنهم قرؤوا «يَعْفُوَ» بالواو المفتوحة على أنه منصوب بأن مضمرة وجوباً بعد الواو والعطف على هذه القراءة على مصدر متصيد من الكلام السابق كأنه قيل: يقع وهو من العطف على المعنى وهذا مذهب البصريين في مثل ذلك وتسمى هذه الواو واو الصرف لصرفها عن عطف الفعل المجزوم قبلها إلى عطف مصدر على مصدر، ومذهب الكوفيين أن الواو بمعنى أن المصدرية ناصبة للمضارع بنفسها.

واختار الرضي أن الواو إما واو الحال والمصدر بعدها مبتدأ خبره مقدر والجملة حالية أو واو المعية وينصب بعدها الفعل لقصد الدلالة على معية الأفعال كما أن الواو في المفعول معه دالة على مصاحبة الأسماء فعدل به عن الظاهر ليكون نصاً في معنى الجمعية، والمشهور اليوم على ألسنة المعربين مذهب البصريين وعليه خرج أبو حيان النصب في هذه القراءة وكذا خرج غير واحد ومنهم الزجاج النصب في قوله تعالى:

وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٖ ﴿٣٥﴾ فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيۡءٖ فَمَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ
وَأَبۡقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمۡ
يَغۡفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِرَبِّهِمۡ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمۡرُهُمۡ شُورَىٰ بَيۡنَهُمۡ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ
أَصَابَهُمُ ٱلۡبَغۡيُ هُمۡ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ
﴿٤٠﴾ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعۡدَ ظُلۡمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيۡهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظۡلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبۡغُونَ فِي
ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٤٢﴾ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ﴿٤٣﴾ وَمَن
يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيّٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦۗ وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ يَقُولُونَ هَلۡ إِلَىٰ مَرَدّٖ مِّن سَبِيلٖ ﴿٤٤﴾
وَتَرَىٰهُمۡ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرۡفٍ خَفِيّٖۗ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ
ٱلۡخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِي عَذَابٖ مُّقِيمٖ ﴿٤٥﴾ وَمَا

كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ ﴿٤٦﴾ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ
أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ﴿٤٧﴾ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَمَآ
أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ
سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ ﴿٤٨﴾ لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ
يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ
عَقِيمًا إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ ۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا
فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِى مَا
ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾
صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾

﴿وَيَعْلَم الَّذينَ يُجَادلُونَ في آياتنَا مَا لَهُمْ منْ مَحيص﴾ أي من مهرب ومخلص من العذاب على ذلك، وجعلوا الجزاء بمنزلة الإنشاء كالاستفهام فكأنه تقدم أحد الأمور الستة ولم يرتض ذلك الزمخشري وقال: فيه نظر لما أورده سيبويه في الكتاب قال: واعلم أن النصب بالفاء والواو في قوله: إن تأتني آتك وأعطيك ضعيف وهو نحو من قوله:

وألحق بالحجاز فأستريحا

فهذا تجوز ولا بحد الكلام ولا وجهه إلا أنه في الجزاء صار أقوى قليلاً لأنه ليس بواجب أنه يفعل إلا أن يكون من الأول فعل فلما ضارع الذي لا يوجبه كالاستفهام ونحوه أجازوا فيه هذا على ضعف، ولا يجوز أن تحمل القراءة المستفيضة على وجه ضعيف ليس بحد الكلام ولا وجهه ولو كانت من هذا الباب لما أخلى سيبويه منها كتابه وقد ذكر نظائرها من الآيات المشكلة انتهى، وخرج هو النصب في **﴿يعلم﴾** على العطف على علة مقدرة قال: أي لينتقم منهم ويعلم الذين الخ، وكم من نظير له في القرآن العظيم إلا أن ذلك من وجود حرف التعليل كقوله تعالى: ﴿ولنجعله آية للناس﴾ [مريم: ٢١] وقوله سبحانه: ﴿خلق الله السموات والأرض بالحق ولتجزى كل نفس بما كسبت﴾ [الجاثية: ٢٢].

وقال أبو حيان: يبعد هذا التقدير أنه ترتب على الشرط إهلاك قوم ونجاة قوم فلا يحسن لينتقم منهم.

وأجيب بأن الآية مخصوصة بالمجرمين فالمقصود الهلاك ويجوز أن يقدر ليظهر عظيم قدرته تعالى ويعلم الذين يجادلون فلا يرد عليه ما ذكر ويحسن ذلك التقدير في توجيه النصب في «يعفو» على ما روي عن أهل المدينة إذا خدش التوجيه السابق بما نقل عن سيبويه فيقال: إنه عطف على تعليل مقدر أي لينتقم منهم ويعفو عن كثير، وقراءة النصب في **﴿يعلم﴾** هي التي قرأ بها أكثر السبعة.

وقرأ نافع وابن عامر وأبو جعفر والأعرج وشيبة وزيد بن علي بالرفع، وقرر في الكشف وجهه بأنه على عطف يعلم على مجموع الجملة الشرطية على معنى ومن آياته الدالة على كمال القدرة السفن في البحر ثم ذكر وجه الدلالة وأنها مسخرة تحت أمره سبحانه تارة بتضمن نفع من فيها وتارة بالعكس ثم قال جل وعلا ويعلم الذين يعاندون ولا

يعترفون بآيات الله تعالى الباهرة بدل قوله سبحانه فيها بالضمير الراجع إلى الآية المبحوث عنها شهادة بأنها من آيات الله تعالى وزيادة للتحذير وذم الجدال فيها وليكون على أسلوب الكناية على نحو العرب لا تخفر الذمم فكأنه لما قيل: إن يشأ يسكن الريح وذكر سبب الدلالة صار في معنى يعلمها ويعترف بها المتدبرون في آياتنا المسترشدون ويعلم المجادلون فيها المنكرون ما لهم من محيص، وجاز أن يجعل عطفاً على قوله تعالى: ﴿ومن آياته الجوار﴾ وتجعل هذه وحدها آيات لتضمنها وجودها من الدلالة أقيمت مقام المضمر، والمعنى ومن آياته الجوار ويعلم المجادلون فيها، واعترض بين المعطوف والمعطوف عليه ببيان وجه الدلالة ليدل على موجب وعيد المجادل وعلى كونها آية بل آيات، ونقل عن أن الحاجب أنه يجوز أن يكون الرفع بالعطف على موضع الجزاء المتقدم باعتبار كونه جملة لا باعتبار عطف مجرد الفعل ليجب الجزم فتكون الجملتان مشتركتين في المسببية، وفيه بحث يعلم مما سيأتي إن شاء الله تعالى، وقرىء «ويَعْلَمْ» بالجزم.

وخرج على العطف علي ﴿يعف﴾ وتسببه عن الشرط باعتبار تضمن الأخبار عن علم المجادلين بما يحل بهم في المستقبل الوعيد والتحذير كما قيل:

سوف ترى إذا انجلى الغبار ... أفرس تحتك أم حمار

ومرجع المعنى علي ذلك أنه تعالى إن يشأ يعصف الريح فيغرق بعضاً وينج آخرين عفواً ويجذر جماعة أخرى.

واعترض بأن التخصيص بالمجادلين في هذا التحذير غير لائح، وأيضاً علمهم بأن لا محيص من عذاب الله تعالى على تقدير عصف الريح بأهل السفن على سبيل العبرة ولا اختصاص لها بهم ولا بهذا المقدور خاصة.

وأجيب عن الأول بأن التخصيص بالمجادلين لأنهم أولى بالتحذير، وعن الأخير بأنه أريد أن البر والبحر لا ينجيان من بأسه عزَّ وجلَّ فهو تعميم، واختار في الكشف كون التخريج على أن الآية في الكافرين بمعنى إن يعصف الريح فيغرق بعضهم وينج آخرين منهم عفواً ويعلموا ما لهم من محيص فلا يغتروا بالنجاة والعفو في هذه المرة، فالمجادلون هم الكثير الناجون أو بعضهم وهو على منوال قوله تعالى ﴿أم أمنتم أن يعيدكم فيه تارة أخرى﴾ [الإسراء: ٦٩]، ومن مجموع ما سمعت يلوح لك ضعف هذه القراءة ولهذا لم يقرأ بها في السبعة، والظاهر على القراءات الثلاث أن فاعل ﴿يعلم الذين﴾ وجملة ﴿ما لهم من محيص﴾ سادة مسد المفعولين. وفي الدر المصون أن الجملة في قراءة الرفع تحتمل الفعلية وتحتمل الاسمية أي وهو يعلم الذين، ولا يخفى أن الظاهر على الاحتمال الثاني كون ﴿الذين﴾ مفعولاً أولاً والجملة مفعولاً ثانياً والفاعل ضميره تعالى المستتر، وأوجب بعضهم هذا على قراءة الجزم وعطف ﴿يعلم﴾ على ﴿يعف﴾ لئلا يخرج الكلام عن الانتظام ويظهر قصد التحذير لشيوع أن علم الله تعالى يكون كناية عن المجازاة وهو كما ترى ﴿فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ أي شيء كان من أسباب الدنيا، والظاهر أن الخطاب للناس مطلقاً، وقيل: للمشركين، وما موصوله مبتدأ والعائد محذوف أي أوتيتموه والخبر ما بعد، ودخلت الفاء لتضمنها معنى الشرط، وقال أبو حيان: هي شرطية مفعول ثان لأوتيتم و ﴿من شيء﴾ بيان لها وقوله تعالى: ﴿فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي فهو متاعها تتمتعون به مدة حياتكم فيها جواب الشرط، والأول أوفق بقوله تعالى: ﴿وَمَا عِنْدَ اللهِ﴾ من ثواب الآخرة ﴿خَيْرٌ﴾ ذاتاً لخلوص نفعه ﴿وَأَبْقَىٰ﴾ زماناً حيث لا يزول ولا يفنى لأن الظاهر أن ﴿ما﴾ فيه موصولة وإنما لم يؤت بالفاء في خبرها مع أن الموصول المبتدأ إذا وصل بالظرف يتضمن معنى الشرط أيضاً لأن مسببية كون الشيء عند الله تعالى لخيريته أمر معلوم مقرر غني عن الدلالة عليه بحرف موضوع له بخلاف ما عند غيره سبحانه

والتعبير عنه بأنه عند الله تعالى دون ما ادخر لذلك، وقوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ إما متعلق بأبقى أو اللام لبيان من له هذه النعمة فهو خبر مبتدأ محذوف أي ذلك للذين آمنوا.

﴿وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ لا على غيره تعالى أصلاً، وعن علي كرم الله تعالى وجهه اجتمع لأبي بكر رضي الله تعالى عنه مال فتصدق به كله في سبيل الله تعالى فلامه المسلمون وخطأه الكافرون فنزلت؛ والموصول في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ مع ما بعد إما عطف على الموصول الأول أو هو مدح مرفوع على الخبرية لمبتدأ محذوف أو منصوب بمقدر كأعني أو أمدح، والواو اعتراضية كما ذكره الرضي، وغفل أبو البقاء عن الواو فلم يذكر العطف وذكر بدله البدل، وكبائر الاثم ما رتب عليه الوعيد أو ما يوجب الحد أو كل ما نهى الله تعالى عنه والفواحش ما فحش وعظم قبحه منها، وقيل: المراد بالكبائر ما يتعلق بالبدع واستخرج الشبهات وبالفواحش ما يتعلق بالقوة الشهوانية وبقوله تعالى: ﴿وإذا ما غضبوا هم يغفرون﴾ ما يتعلق بالقوة الغضبية وهو كما ترى، والمراد بالإثم الجنس وإلا لقيل الآثام، و ﴿إذا﴾ ظرف ليغفرون و ﴿هم﴾ مبتدأ لا تأكيد لضمير غضبوا وجوزه في البحر وجملة يغفرون خبره وتقديمه لافادة الاختصاص لأنه فاعل معنوي، واختصاصهم باعتبار أنهم أحقاء بذلك دون غيرهم فإن المغفرة حال الغضب عزيزة المثال، وفي الآية إيماء إلى أنهم يغفرون قبل الاستغفار، وقيل ﴿هم﴾ مرفوع بفعل يفسره ﴿يغفرون﴾ ولما حذف انفصل الضمير وليس بشيء، وجعل أبو البقاء ﴿إذا﴾ شرطية وجملة ﴿هم يغفرون﴾ جواباً لها، وتعقبه أبو حيان بأنه يلزم الفاء حينئذ ولا يجوز حذفها إلا في الشعر، وتقدم لك آنفاً ما ينفعك تذكره فتذكر، وقرأ حمزة والكسائي «كبير الإثم» بالإفراد لإرادة الجنس أو الفرد الكامل منه وهو الشرك، وروي تفسيره به عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما، ولا يلزم التكرار لأن المراد الاستمرار والدوام ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ﴾ قيل: نزلت في الأنصار دعاهم الله تعالى على لسان رسوله ﷺ للإيمان به وطاعته سبحانه فاستجابوا له فأثنى عليهم جلَّ وعلا بما أثنى، وعليه فهو من ذكر الخاص بعد العام لبيان شرفه لايمانهم دون تردد وتلعثم، والآية إن كانت مدنية فالأمر ظاهر وإذا كانت مكية فالمراد بالأنصار من آمن بالمدينة قبل الهجرة أو المراد بهم أصحاب العقبة ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾ أي ذو شورى ومراجعة في الآراء بينهم بناء على أن الشورى مصدر كالبشرى فلا يصح الإخبار لأن الأمر متشاور فيه لا مشاورة إلا إذا قصد المبالغة، وأورد أنه يقال من غير تأويل شأني الكرم والأمر هنا بمعنى الشأن. نعم إذا حمل على القضايا المتشاور فيها احتاج إلى التأويل أو قصد المبالغة، وقيل: إن إضافة المصدر للعموم فلا يصح الإخبار إلا بالتأويل ورد بأن المراد أمرهم فيما يتشاور فيه لا جميع أمورهم وفيه نظر، وقال الراغب: المشورة استخراج الرأي بمراجعة البعض إلى البعض من قولهم: شرت العسل وأشرته استخرجته والشورى الأمر الذي يتشاور فيه انتهى، والمشهور كونه مصدراً، وجيء بالجملة اسمية مع أن المعطوف عليه جملة فعلية للدلالة على أن التشاور كان حالهم المستمرة قبل الإسلام وبعده، وفي الآية مدح للتشاور لا سيما على القول بأن فيها الإخبار بالمصدر، وقد أخرج البيهقي في شعب الإيمان عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما عن النبي ﷺ قال: من أراد أمراً فشاور فيه وقضى هدي لأرشد الأمور، وأخرج عبد بن حميد. والبخاري في الأدب. وابن المنذر عن الحسن قال: ما تشاور قوم قط إلا هدوا وأرشد أمرهم ثم تلا ﴿وأمرهم شورى بينهم﴾، وقد كانت الشورى بين النبي ﷺ وأصحابه فيما يتعلق بمصالح الحروب، وكذا بين الصحابة رضي الله تعالى عنهم بعده عليه الصلاة والسلام، وكانت بينهم أيضاً في الأحكام كقتال أهل الردة وميراث الجد وعدد حد الخمر وغير ذلك، والمراد ما لم يكن لهم فيه نص شرعي وإلا فالشورى لا معنى لها وكيف يليق بالمسلم العدول عن حكم الله عزَّ وجلَّ إلى آراء

الرجال والله سبحانه هو الحكيم الخبير، ويؤيد ما قلنا ما أخرجه الخطيب عن علي كرم الله تعالى وجهه قال: قلت يا رسول الله الأمر ينزل بنا بعدك لم ينزل فيه قرآن ولم يسمع منك فيه شيء قال: اجمعوا له العابد من أمتي واجعلوه بينكم شورى ولا تقضوه برأي واحد، وينبغي أن يكون المستشار عاقلاً كما ينبغي أن يكون عابداً، فقد أخرج الخطيب أيضاً عن أبي هريرة مرفوعاً «استرشدوا العاقل ترشدوا ولا تعصوه فتندموا» والشورى على الوجه الذي ذكرناه من جملة أسباب صلاح الأرض ففي الحديث «إذا كان أمراؤكم خياركم وأمركم شورى فظهر الأرض خير لكم من بطنها وإذا كان أمراؤكم شراركم وأغنياؤكم بخلاءكم وأمركم إلى نسائكم فبطن الأرض خير لكم من ظهرها» وإذا لم تكن على ذلك الوجه كان إفسادها للدين والدنيا أكثر من اصلاحها ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ أي في سبيل الخير لأنه مسوق للمدح بمجرد الإنفاق، ولعل فصله عن قرينه بذكر المشاورة لأن الاستجابة لله تعالى وإقام الصلاة كانا من آثارها، وقيل: لوقوعها عند اجتماعهم للصلوات.

﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ﴾ أي ينتقمون ممن بغى عليهم على ما جعله الله تعالى لهم ولا يعتدون، ومعنى الاختصاص أنهم الأخصاء بالانتصار وغيرهم يعدو ويتجاوز، ولا يراد أنهم ينتصرون ولا يغفرون ليتناقض هو والسابق، فكأنه وصفهم سبحانه بأنهم الأخصاء بالغفران لا يغول الغضب أحلامهم كما يغول في غيرهم وإنهم الأخصاء بالانتصار على ما جوز لهم إن كافؤوا ولا يعتدون كغيرهم فهم محمودون في الحالتين بين حسن وأحسن مخصوصون بذلك من بين الناس، وقال غير واحد: إن كلاً من الوصفين في محل وهو فيه محمود فالعفو عن العاجز المعترف بجرمه محمود ولفظ المغفرة مشعر به والانتصار من المخاصم المصر محمود، ولفظ الانتصار مشعر به ولو أوقعا على عكس ذلك كانا مذمومين وعلى هذا جاء قوله:

إذا أنت أكرمت الكريم ملكته ... وإن أنت أكرمت اللئيم تمردا
فوضع الندى في موضع السيف بالعلا ... مضرٌّ كوضع السيف في موضع الندى

وقد يحمد كل ويذم باعتبارات أخر فلا تناقض أيضاً سواء اتحد الموصوفان في الجملتين أولا، وقال بعض المحققين: الأوجه أن لا يحمل الكلام على التخصيص بل على التقوى أي يفعلون المغفرة تارة والانتصار أخرى لا دائماً للتناقض وليس بذاك، وعن النخعي أنه كان إذا قرأ هذه الآية قال: كانوا يكرهون أن يذلوا أنفسهم فيجترىء عليهم الفساق، وفيه إيماء إلى أن الانتصار من المخاصم المصرّ وإلا فلا إذلال للنفس بالعفو عن العاجز المعترف، ثم إن جملة ﴿هم ينتصرون﴾ من المبتدأ والخبر صلة الموصول و ﴿إذا﴾ ظرف ﴿ينتصرون﴾ وجوز كونها شرطية والجملة جواب الشرط وجملة الجواب والشرط هي الصلة. وتعقبه أبو حيان بما مر آنفاً، وجوز أيضاً كون ﴿هم﴾ فاعلاً لمحذوف وهو كما سمعت في ﴿وإذا ما غضبوا﴾ الخ. وقال الحوفي: يجوز جعل ﴿هم﴾ توكيداً لضمير ﴿أصابهم﴾ وفيه الفصل بين المؤكد والمؤكد بالفاعل ولعله لا يمتنع، ومع هذا فالوجه في الإعراب ما أشرنا إليه أولاً ﴿وَجَزاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾ بيان لما جعل للمنتصر وتسمية الفعلة الثانية وهي الجزاء سيئة قيل للمشاكلة، وقال جار الله: تسمية كلتا الفعلتين سيئة لأنها تسوء مَنْ تنزل به، وفيه رعاية لحقيقة اللفظ وإشارة إلى أن الانتصار مع كونه محموداً إنما يحمد بشرط رعاية المماثلة وهي عسرة ففي مساقها حث على العفو من طريق الاحتياط، وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا﴾ أي عن المسيء إليه ﴿وَأَصْلَحَ﴾ ما بينه وبين من يعاد به بالعفو والاغضاء عما صدر منه ﴿فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ﴾ فيجزيه جلَّ وعلا أعظم الجزاء، تصريح بما لوح إليه ذلك من الحث وتنبيه على أنه وإن كان سلوكاً لطريق الاحتياط يتضمن مع ذلك إصلاح ذات البين المحمود حالاً ومآلاً ليكون زيادة تحريض عليه، وإبهام الأجر وجعله حقاً على العظيم الكريم جل شأنه الدال

على عظمه زيادة في الترغيب، وجيء بالفاء ليرفعه عن السابق أي إذا كان سلوك الانتصار غير مأمون العثار فمن عفا وأصلح فهو سالك الطريق المأمون العثار المحمود في الدارين، وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لاَ يُحبُّ الظَّالـمِينَ﴾ المتجاوزين الحد في الانتقام، تتميم لذلك المعنى وتصريح بما ضمن من عسر رعاية طريق المماثلة وأنه قلما تخلو عن الاعتداء والتجاوز لا سيما في حال الحرد والتهاب الحمية فيكون دخولاً في زمرة من لا يحبه الله تعالى، ولا حاجة على هذا المعنى إلى جعل ﴿فمن عفا﴾ الخ اعتراضاً، ثم لو كان كذلك بأن يكون هذا متعلقاً بجزاء سيئة سيئة مثلها على أنه تعليل لما يفهم منه فالفاء غير مانعة عنه كما توهم، وأدخل غير واحد المبتدئين بالسيئة في الظالمين ﴿وَلَـمَنَ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْـمِه﴾ بعد ما ظلم بالبناء للمجهول، وقرىء به فالمصدر مضاف لمفعوله أو هو مصدر المبني للمفعول واللام للقسم، وجوز أن تكون لام الابتداء جيء بها للتوكيد و ﴿من﴾ شرطية أو موصولة وحمل انتصر على لفظها وحمل ﴿فَأُولئكَ مَا عَلَيْهِمْ منْ سَبيل﴾ أي للمعاقب ولا للعاتب والعائب على معناها، والجملة عطف على ﴿من عفا﴾ وجيء بها للتصريح بأن ما حض عليه إنما حض عليه إرشاد إلى الأصلح في الأغلب لا أن المنتصر عليه سبيل بوجه حالاً أو مآلاً، ولإيهام الحض خلاف ما تضمنته من نفس السبيل على العموم صدرت باللام، وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا السَّبيلُ عَلَى الَّذين يَظْلـمُونَ النَّاسَ﴾ تعيين لمن عليه السبيل بعد نفي ذلك عن المنتصرين، والمراد بالذين يظلمون الناس من يبتدؤونهم بالظلم أو يزيدون في الانتقام ويتجاوزون ما حد لهم، وفسر ذلك بعضهم بالذين يفعلون بهم ما لا يستحقونه وهو أعم.

﴿وَيَبْغُونَ فـي الأَرْض بغَيْر الْـحَقّ﴾ أي يتكبرون فيها تجبراً وفساداً ﴿أُولَئكَ﴾ الموصوفون بالظلم والبغي بغير الحق ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلـيمٌ﴾ بسبب ظلمهم وبغيهم، والمراد بهؤلاء الظالمين الباغين الكفرة.

وقيل: من يعمهم وغيرهم، وقوله تعالى: ﴿وَلَـمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إنَّ ذَلكَ لـمنْ عَزْم الأُمُور﴾ تحذير عن الظلم والبغي وما يؤدي إلى العذاب الأليم بوجه، وفيه حض على ما حض عليه أولاً اهتماماً به وزيادة ترغيب فيه، فالصبر هنا هو الاصلاح المؤخر فيما تقدم قدم ههنا، وعبر عنه بالصبر لأنه من شأن أولي العزم وإشارة إلى أن الإصلاح بالعفو والإغضاء إنما يحمد إذا كان عن قدرة لا عن عجز، و ﴿ذلك﴾ إشارة إلى المذكور من الصبر والمغفرة، و ﴿عزم الأمور﴾ الأمور المعزومة المقطوعة أو العازمة الصادقة، وجوز في ﴿من﴾ أن تكون موصولة وأن تكون شرطية، وفي اللام أن تكون ابتدائية وأن تكون قسمية واكتفى بجواب القسم عن جواب الشرط، وإذا جعلت اللام للابتداء و ﴿من﴾ شرطية فجملة ﴿إن ذلك﴾ جواب الشرط وحذفت الفاء منها، ومن يخص الحذف بالشعر لا يجوز هذا الوجه، وذكر جماعة أن في الكلام حذفاً أي إن ذلك منه لمن عزم الأمور، وعلل ذلك بأن الجملة خبر فلا بد فيها من رابط و ﴿ذلك﴾ لا يصلح له لأنه إشارة إلى الصبر والمغفرة، وكونه مغنياً عنه لأن المراد صبره أو «ذلك» رابط والإشارة لمن بتقدير من ذوي عزم الأمور تكلف.

هذا واختار العلامة الطيبي أن تسمية الفعلة الثانية التي هي الجزاء سيئة من باب التهجين دون المشاكلة.

وزعم أن المجازى مسيء وبني على ذلك ربط جملة ﴿إنه لا يحب الظالـمين﴾ بما قبل فقال: يمكن أن يقال لما نسب المجازي إلى المساءة في قوله سبحانه: ﴿وجزاء سيئة سيئة مثلها﴾ والمسيء في هذا المقام مفسداً لما في البين بدليل ﴿فمن عفا وأصلح﴾ علل مفهوم ذلك بقوله سبحانه: ﴿إنه لا يحب الظالـمين﴾ كأنه قيل: من أخرج نفسه بالعفو والإصلاح من الانتساب إلى السيئة والإفساد كان مقسطاً إن الله يحب المقسطين فوضع موضعه ﴿فأجره على الله﴾ ومن اشتغل بالمجازاة وانتسب إلى السيئة وأفسد ما في البين وحرم نفسه ذلك الأجر الجزيل كان ظالماً

نفسه ﴿**إنه لا يحب الظالمين**﴾ فالآية واردة إرشاداً للمظلوم إلى مكارم الأخلاق وإيثار طريق المرسلين.

وقال: إن قوله تعالى: ﴿**ولمن انتصر بعد ظلمه**﴾ الخ خطاب للولاة والحكام وتعليم فعل ما ينبغي فعله بدليل قوله سبحانه: ﴿**إنما السبيل على الذين يظلمون الناس**﴾ حيث أعاد السبيل المنكر بالتعريف وعلق به ﴿**يظلمون الناس**﴾ وفسره بقوله تعالى: ﴿**عذاب أليم**﴾ وكذا قوله سبحانه: ﴿**ولمن صبر وغفر**﴾ الخ تعليم لهم أيضاً طريق الحكم يعني أن صاحب الحق إذا عدل من الأولى وانتصر من الظالم فلا سبيل لكم عليه لما قد رخص له ذلك وإذا اختار الأفضل فلا سبيل لكم على الظالم لأن عفو المظلوم من عزم الأمور فتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان انتهى، ولا يخفى ما فيه.

وفي الكشف أن جعل ما ذكر خطاباً للولاة والحاكم يوجب التعقيد في الكلام فالمعول عليه ما قدمناه، وقد جاءت أخبار كثيرة في فضل العافين عمن ظلمهم، أخرج البيهقي في شعب الإيمان عن أبي هريرة قال: «قال رسول الله ﷺ: قال موسى بن عمران عليه الصلاة والسلام يا رب من أعز عبادك عندك؟ قال: من إذا قدر غفر» وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في الشعب عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا وقف العباد للحساب نادى مناد ليقم من أجره على الله تعالى فليدخل الجنة ثم نادى الثانية ليقم من أجره على الله تعالى قالوا: ومن ذا الذي أجره على الله تعالى؟ قال: العافون عن الناس فقام كذا وكذا ألفا فدخلوا الجنة بغير حساب».

وأخرج أحمد وأبو داود عن أبي هريرة أن رجلاً شتم أبا بكر رضي الله تعالى عنه والنبي ﷺ جالس فجعل عليه الصلاة والسلام يعجب ويتبسم فلما أكثر رد عليه بعض قوله: فغضب النبي ﷺ وقام فلحقه أبو بكر رضي الله تعالى عنه فقال: يا رسول الله كان يشتمني وأنت جالس فلما رددت عليه بعض قوله غضبت وقمت قال: إنه كان معك ملك يرد عنك فلما رددت عليه بعض قوله: وقع الشيطان فلم أكن لأقعد مع الشيطان ثم قال عليه الصلاة والسلام: «ثلاث من الحق ما من عبد ظلم بمظلمة فيغضي عنها لله تعالى ألا أعز الله عز وجل بها نصره وما فتح رجل باب عطية يريد بها صلة إلا زاده الله تعالى بها كثرة وما فتح رجل باب مسألة يريد بها كثرة إلا زاده الله تعالى بها قلة» واستشكل هذا الخبر بأنه يشعر بعتب أبي بكر رضي الله تعالى عنه وهو نوع من السبيل المنفي في قوله تعالى: ﴿**ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل**﴾ وأجيب بأنا لا نسلم ذلك وليس فيه أكثر من تنبيهه رضي الله تعالى عنه على ترك الأولى وهو شيء والعتب شيء آخر، وكذا لا يعد لو ما كما لا يخفى.

ومن الناس من خص السبيل في الآية بالإثم والعقاب فلا إشكال عليه أصلاً، وقيل: هو باق على العموم إلا أن الآية في عوام المؤمنين ومن لم يبلغ مبلغ أبي بكر رضي الله تعالى عنه فإن مثله يلام بالشتم وإن كان بحق بحضرة رسول الله ﷺ قبل أن يأذن له به قالاً أو حالاً بل لاح عليه ﷺ ما يشعر باستحسان السكوت عنه وحسنات الأبرار سيئات المقربين.

وقد أمر ﷺ بعض الأشخاص برد الشتم على الشاتم، أخرج النسائي، وابن ماجه وابن مردويه عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: دخلت علي زينب رضي الله تعالى عنها وعندي رسول الله ﷺ فأقبلت علي تسبني فوزعها النبي عليه الصلاة والسلام فلم تنته فقال لي: سبيها فسببتها حتى جف ريقها في فمها ووجه رسول الله ﷺ يتهلل سروراً، ولعله كان هذا منه عليه الصلاة والسلام تعزيراً لزينب رضي الله تعالى عنها بلسان عائشة رضي الله تعالى عنها لما أن لها حقا في الردود أي المصلحة في ذلك وقد ذكر فقهاؤنا أن للقاضي أن يعزر من استحق التعزير بشتم غير القذف وكذا للزوج أن يعزر زوجته على شتمها غير محرم إلى أمور أخر فتأمل.

وظاهر قوله تعالى: ﴿وجزاء سيئة سيئة مثلها﴾ يقتضي رعاية المماثلة مطلقاً، وفي تفسير الإمام أن الآية تقتضي وجوب رعاية المماثلة في كل الأمور إلا فيما خصه الدليل لأنه لو حملت المماثلة في أمر معين فهو غير مذكور فيها فيلزم الإجمال وعلى ما قلنا يلزم تحمل التخصيص ومعلوم أن دفع الإجمال أولى من دفع التخصيص.

والفقهاء أدخلوا التخصيص فيها في صور كثيرة تارة بناء على نص آخر أخص وأخرى بناء على القياس، ولا شك أن من ادعى التخصيص فعليه البيان والمكلف يكفيه أن يتمسك بها في جميع المطالب.

وعن مجاهد والسدي إذا قال له: أخزاه الله تعالى فليقل أخزاه الله تعالى وإذا قذفه قذفاً يوجب الحد فليس له ذلك بل الحد الذي أمر الله تعالى به، ونقل أبو حيان عن الجمهور أنهم قالوا إذا بغى مؤمن على مؤمن فلا يجوز له أن ينتصر منه بنفسه بل يرفع ذلك إلى الإمام أو نائبه، وفي مجمع الفتاوى جاز المجازاة بمثله في غير موجب حد للإذن به ﴿ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل﴾ والعفو أفضل ﴿فمن عفا وأصلح فأجره على الله﴾ وقال ابن الهمام: الأولى أن الإنسان إذا قيل له ما يوجب التعزير أن لا يجيبه قالوا: لو قال له: يا خبيث الأحسن أن يكف عنه ويرفعه إلى القاضي ليؤدبه بحضوره ولو أجاب مع هذا فقال: بل أنت لا بأس.

وفي التنوير وشرحه ضرب غيره بغير حق وضربه المضروب أيضاً يعزران كما لو تشاتما بين يدي القاضي ولم يتكافآ، وأنت تعلم ما يقتضيه ظاهر الآية ولا يعدل عنه إلا لنص، وظاهر كلام العلامة الطيبي أن المظلوم إذا عفا لا يلزم الظالم التعزير بضرب أو حبس أو نحوه، وذكر فقهاؤنا أن التعزير يغلب فيه حق العبد فيجوز فيه الإبراء العفو واليمين والشهادة على الشهادة وشهادة رجل وامرأتين ويكون أيضاً حقا لله تعالى فلا عفو فيه إلا إذا علم الإمام انزجار الفاعل إلى آخر ما قالوا، ويترجح عندي إن الإمام متى رأى بعد التأمل والتجرد عن حظوظ النفس ترك التعزير للعفو سبباً للفساد والتجاسر على التعدي وتجاوز الحدود عزر بما تقتضيه المصلحة العامة وليبذل وسعه فيما فيه إصلاح الدين وانتظام أمور المسلمين وإياه أن يتبع الهوى فيضل عن الصراط المستقيم.

﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَلِّي مِنْ بَعْدِهِ﴾ أي ما له من ناصر يتولاه من بعد خذلان الله تعالى إياه فضمير ﴿بعده﴾ لله تعالى بتقدير مضاف فيه، وقيل للخذلان المفهوم من ﴿يضلل﴾ والجملة عطف على قوله تعالى: ﴿أولئك لهم عذاب أليم﴾ وكني بمن عن الظالم الباغي تسجيلاً بأنه ضال مخذول أو أتي به مبهماً ليشمله شمولاً أولياً فقوله سبحانه: ﴿ولمن صبر﴾ الخ اعتراض لما أشرنا إليه ﴿وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ﴾ أي حين يرونه، وصيغة الماضي للدلالة على التحقق ﴿يَقُولُونَ هَلْ إِلَى مَرَدٍّ﴾ أي رجعة إلى الدنيا ﴿مِنْ سَبِيلٍ﴾ حتى نؤمن ونعمل صالحاً، وجوز أن يكون المعنى هل إلى رد للعذاب ومنع من سبيل، وتنكير ﴿مرد﴾ وكذا ﴿سبيل﴾ للمبالغة والجملة حال وقيل مفعول ثان لترى.

﴿وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا﴾ أي على النار المدلول عليها بالعذاب، والجملة كالسابقة ﴿خَاشِعِينَ﴾ متضائلين متقاصرين ﴿مِنَ الذُّلِّ﴾ أي بسبب الذل لعظم ما لحقهم فمن سببية متعلقة بخاشعين وهو وكذا ما بعده حال.

وجوز أن يعلق الجار بقوله تعالى: ﴿يَنْظُرُونَ﴾ ويوقف على ﴿خاشعين﴾ ﴿مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ والأول أظهر، والطرف مصدر طرف إذا حرك عينه ومنه طرفة العين، والمراد بالخفي الضعيف، ومن ابتدائية أي يبتدىء نظرهم من تحريك لأجفانهم ضعيف بمسارقة كما ترى المصبور ينظر إلى السيف وهكذا نظر الناظر إلى المكاره لا يقدر أن يفتح أجفانه عليها ويملأ عينيه منها كما يفعل في نظره إلى المحاب، ويجوز أن تكون من بمعنى الباء.

وعن ابن عباس ﴿خفي﴾ ذليل فالطرف عليه جفن العين، وقيل: يحشرون عمياً فلا ينظرون إلا بقلوبهم وذاك

نظر من طرف خفي، وهو تأويل متكلف، والجملتان السابقتان أعني ﴿ترى الظالمين﴾ و ﴿تراهم يعرضون﴾ معطوفان على ﴿ومن يضلل﴾ وأصل الكلام والظالمون لما رأوا العذاب يقولون وهم يعرضون عليها خاشعين، ثم قيل ﴿وترى﴾ ﴿وتراهم﴾ خطاباً لكل من يتأتّى منه الرؤية ويعتبر بحالهم زيادة للتهويل كأنه يعجبهم مما هم فيه ليعتبروا ويبتهجوا، ومنه يظهر أنه خطاب للنبي ﷺ وأتباعه ﴿وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخَاسِرِينَ﴾ أي إنهم ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ﴾ بالتعريض للعذاب الخالد أو على ما مر في الزمر، وعدل عن أنهم إلى الذين تسجيلاً عليهم بأكمل الخسران إذ المراد أن الكاملين في صفة الخسران المتصفين بحقيقته ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ متعلق بخسروا والقول في الدنيا، وجوز أن يكون متعلقاً بقال، والماضي لتحقق الوقوع أي ويقولون إذا رأوهم على تلك الصفة. وفي الكشف الظاهر أنه قول يوم القيامة كالخسران من باب التنازع بين الفعلين، وآثر صاحب الكشاف على ما يؤذن به صنيعه أن يتعلق بالخسران وحده لأن الأصل في ﴿قال الذين آمنوا إن الخاسرين﴾ الخ هم الخاسرون كما أن الأصل في ﴿وترى الظالمين﴾ والظالمون لما رأوا ثم قيل ﴿وقال الذين آمنوا﴾ على نحو ما قيل ﴿وترى﴾ الخ وكما أن الرؤية رؤية الدنيا استحضاراً لعذابهم الكائن في الآخرة تهويلاً كذلك القول كأنهم جعلهم حضوراً يعاين عذابهم ويسمع ما يقول المؤمنون فيهم ورد على الخطاب في الرؤية والغيبة في القول لأن معاينة العذاب لما كانت أدخل في التهويل جعل العذاب قريباً مشاهداً وخصوا بالخطاب على سبيل استحضار الحال لمزيد الابتهاج ولم يكن في الخسران ذلك المعنى لأنه أمر معقول والمحسوسات أقوى لا سيما إذا كن موجبات الخسران فجيء به على الأصل من الغيبة، وعدله من المضارع إلى الماضي لأنه قول صادر عن مقتضى الحال قد حق ووقع تفوهوا به أو لا وأسند إلى المؤمنين دلالة على الابتهاج المذكور واغتباطهم بنجاتهم عما هم فيه وإلا فالقول والرؤية لكل من يتأتى منه القول والرؤية، وجعله حالاً كما فعل الطيبي على معنى وتراهم وقد صدق فيهم قول المؤمنين في الدنيا إن الخاسرين الخ من أسلوب قوله:

إذا ما انتسبنا لم تلدني لئيمة

وفيه أنه إنما يرتكب عند تعذر الحقيقة وقد أمكن الحمل على التنازع فلا تعذر.

ثم إنه على التقدير لا يظهر أنه قول فيها إلا بدليل خارج، وهذا بخلاف ما ذكره جار الله في قوله تعالى: ﴿وقد قدمت إليكم بالوعيد﴾ [ق: ٢٨] من تقدير وقد صح عندكم أني قدمت لأن في اللفظ إشعاراً به بيناً انتهى، ولعمري لقد أبعد قدس سره المغزى في هذه الآيات العظام وأتى بما تستحسنه النظار من ذي الإفهام فليفهم، وقوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُقِيمٍ﴾ إما من تمام كلام المؤمنين ويجري فيه ما سمعت من الأصل ونكتة العدول أو استئناف إخبار منه تعالى تصديقاً لذلك ﴿وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ أَوْلِيَاءَ يَنْصُرُونَهُمْ﴾ برفع العذاب عنهم ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ حسبما يزعمون ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ﴾ إلى الهدى أو النجاة، وقيل: المراد ما له من حجة ﴿اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ﴾ إذا دعاكم لما به النجاة على لسان رسوله ﷺ ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ﴾ الجار والمجرور إما متعلق بمرد ويعامل اسم لا الشبيه بالمضاف معاملته فيترك تنوينه كما نص عليه ابن مالك في التسهيل؛ ومنه قوله عليه الصلاة والسلام «لا مانع لما أعطيت» وقوله تعالى: ﴿لا تثريب عليكم اليوم﴾ [يوسف: ٩٢] أي لا يرده الله تعالى بعد ما حكم به.

ومن لم يرض بذلك قال: هو خبر لمبتدأ محذوف أي ذلك من الله تعالى، والجملة استئناف في جواب سؤال مقدر تقديره ممن ذلك؟ أو حال من الضمير المستتر في الظرف الواقع خبر لا أو متعلق بالنفي أو بما دل عليه كما قيل في قوله تعالى: ﴿ما أنت بنعمة ربك بمجنون﴾ [القلم: ٢] وقيل: هو متعلق بيأتي، وتعقب بأنه خلاف المتبادر من

اللفظ والمعنى، وقيل: هو مع ذلك قليل الفائدة، وجوز كونه صفة ليوم، وتعقب بأنه ركيك معنى، والظاهر أن المراد بذلك اليوم يوم القيامة لا يوم ورود الموت كما قيل ﴿مَا لَكُمْ مِنْ مَلْجَأٍ يَوْمَئِذٍ﴾ أي ملاذ تلتجئون إليه فتخلصون من العذاب على أن ﴿ملجأ﴾ اسم مكان، ويجوز أن يكون مصدراً ميمياً ﴿وَمَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ﴾ إنكار على أنه مصدر أنكر على غير القياس ونفي ذلك مع قوله تعالى حكاية عنهم: ﴿والله ربنا ما كنا مشركين﴾ [الأنعام: ٢٣] تنزيلاً لما يقع من إنكارهم منزلة العدم لعدم نفعه وقيام الحجة وشهادة الجوارح عليهم أو يقال إن الأمرين باعتبار تعدد الأحوال والمواقف، وجوز أن يكون ﴿نكير﴾ اسم فاعل للمبالغة أي ما لكم منكر لأحوالكم غير مميز لها ليرحمكم وهو كما ترى ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِم حَفِيظًا﴾ تلوين للكلام وصرف له عن خطاب الناس بعد أمرهم بالاستجابة وتوجيه له إلى الرسول ﷺ أي فإن لم يستجيبوا وأعرضوا عما تدعوهم إليه فلا تهتم بهم فما أرسلناك رقيباً ومحاسباً عليهم ﴿إِنْ عَلَيْكَ﴾ أي ما عليك ﴿إِلاَّ الْبَلاَغُ﴾ لا الحفظ وقد فعلت.

﴿وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً﴾ أي نعمة من الصحة والغنى والأمن ونحوها ﴿فَرِحَ بِهَا﴾ أريد بالإنسان الجنس الشامل للجميع وهو حينئذٍ بمعنى الأناسي أو الناس ولذا جمع ضميره في قوله سبحانه: ﴿وَإِنْ تُصِبْهُمْ﴾ وليست للاستغراق والجمعية لا تتوقف عليه فكأنه قيل: وإن تصب الناس أو الأناسي ﴿سَيِّئَةٌ﴾ بلاء من مرض وفقر وخوف وغيرها ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ بسبب ما صدر منهم من السيئات ﴿فَإِنَّ الإِنْسَانَ كَفُورٌ﴾ بليغ الكفر ينسى النعمة رأساً ويذكر البلية ويستعظمها ولا يتأمل سببها بل يزعم أنها أصابته من غير استحقاق لها.

وأل فيه أيضاً للجنس، وقيل: هي فيهما للعهد على أن المراد المجرمون، وقيل: هي في الأول للجنس وفي الثاني للعهد، وقال الزمخشري: أراد بالإنسان الجمع لا الواحد لمكان ضمير الجمع ولم يرد إلا المجرمين لأن إصابة السيئة بما قدمت أيديهم إنما يستقيم فيهم، ثم قال: ولم يقل فإنه لكفور ليسجل على أن هذا الجنس موسوم بكفران النعم كما قال سبحانه: ﴿إن الإنسان لظلوم كفار﴾ [إبراهيم: ٣٤]. ﴿إن الإنسان لربه لكنود﴾ [العاديات: ٦] ففهم منه العلامة الطيبي أنها في الأول للعهد وأن المراد الكفار المخاطبون في قوله تعالى: ﴿استجيبوا لربكم﴾ لترتيب فإن أعرضوا ﴿عليه﴾، ووضع المظهر موضع المضمر للإشعار بتصميمهم على الكفران والإيذان بأنهم لا يرعوون مما هم فيه وأنها في الثاني للجنس ليكون المعنى ليس ببدع من هذا الإنسان المعهود الإصرار لأن هذا الجنس موسوم بكفران النعم فيكون ذم المطلق دليلاً على ذم المقيد، وفي الكشف أنه أراد أن الإنسان أي الأول للجنس الصالح للكل وللبعض وإذا قام دليل على إرادة البعض تعين وقد قام لما سلف أن الإصابة في غير المجرمين للعوض الموفى ولم يذهب إلى أن اللام للعهد وجعل قوله تعالى: ﴿فإن الإنسان كفور﴾ للجنس ليكون تعليلاً للمقيد بطريق الأولى ومطابقاً لما جاء في مواضع عديدة من الكتاب العزيز؛ ولا بأس بأن يجعل إشارة إلى السالف فإنه للجنس أيضاً، ويكون في وضع المظهر موضع المضمر الفائدة المذكورة مرارا بل هو أدل على القانون الممهد في الأصول وبكون كليهما للجنس أقول؛ وإسناد الكفران مع أنه صفة الكفرة إلى الجنس لغلبتهم فهو مجاز عقلي حيث أسند إلى الجنس حال أغلب أفراده لملابسته الأغلبية، ويجوز أن يعتبر أغلب الأفراد عين الجنس لغلبتهم على غيرهم فيكون المجاز لغوياً، وكذا يقال في إسناد الفرح إذا كان بمعنى البطر فإنه أيضاً من صفات الكفرة بل إن كان أيضاً بمعناه المعروف وهو انشراح الصدر بلذة عاجلة وأكثر مايكون ذلك في اللذات البدنية الدنيوية فإنه وإن لم يكن من خواص الكفار بل يكون في المؤمنين أيضاً اضطراراً أو شكراً إلا أنه لا يعم جميع أفراد الجنس وإن قلت بعمومه لم تحتج إلى ذلك كما إذا فسرته بالبطر على إرادة العهد في الإنسان، وإصابة السيئة بالذنوب غير عامة للأفراد أيضاً فحال إسنادها يعلم مما

ذكرنا؛ وتصدير الشرطية الأولى بإذا مع إسناد الإذاقة بلفظ الماضي إلى نون العظمة للتنبيه على أن إيصال النعمة محقق الوجود كثير الوقوع وأنه مراد بالذات من الجواد المطلق سبحانه وتعالى كما أن تصدير الثانية بإن وإسناد الإصابة بلفظ المضارع إلى السيئة وتعليلها بأعمالهم للإيذان بندرة وقوعها وأنها بمعزل عن الانتظام في سلك الإرادة بالذات والقصد الأولى، وإقامة علة الجزاء مقام الجزاء مبالغة في ذمهم.

﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ لا لغيره سبحانه اشتراكاً أو استقلالاً ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ من غير وجوب عليه سبحانه ﴿يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثاً وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَاناً وَإِنَاثاً وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيماً﴾ استئناف بياني أو بيان ليخلق أو بدل منه بدل البعض على ما اختاره القاضي، ولما ذكر سبحانه إذاقة الإنسان الرحمة وإصابته بضدها أتبع جل وعلا ذلك أن له سبحانه الملك وأنه تعالى يقسم النعمة والبلاء كما شاء بحكمته تعالى البالغة لا كما شاء الإنسان بهواه، وفيه إشارة إلى أن إذاقة الرحمة ليست للفرح والبطر بل للشكر لموليها وإصابة المحنة ليست للكفران والجزع بل للرجوع إلى مبليها؛ وتأكيد لإنكار كفرانهم من وجهين: الأول أن الملك ملكه سبحانه من غير منازع ومشارك يتصرف فيه كيف يشاء فليس على من هو أحقر جزء من ملكه تعالى أن يعترض ويريد أن يجري التدبير حسب هواه الفاسد. الثاني أن هذا الملك الواسع لذلك العزيز الحكيم جلَّ جلاله الذي من شأنه أن يخلق ما يشاء فأنى يجوز أن يكون تصرفه إلا على وجه لا يتصور أكمل منه ولا أوفق لمقتضى الحكمة والصواب، وعند ذلك لا يبقى إلا التسليم والشغل بتعظيم المنعم المبلي عن الكفران والإعجاب، وناسب هذا المساق أن يدل في البيان من أول الأمر على أنه تعالى فعل لمحض مشيئته سبحانه لا مدخل لمشيئة العبد فيه فلذا قدمت الإناث وأخرت الذكور كأنه قيل: يخلق ما يشاء يهب لمن يشاء من الأناسي ما لا يهواه ويهب لمن يشاء منهم ما يهواه فقد كانت العرب تعد الإناث بلاء ﴿وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم﴾ [النحل: ٥٨] ولو قدم المؤخر لاختل النظم، وليس التقديم لمجرد رعاية مناسبة القرب من البلاء ليعارض بأن الآية السابقة ذكرت الرحمة فيها مقدمة عليه فناسب ذلك تقديم الذكور على الإناث، وفي تعريف الذكور مع ما فيه من الاستدراك لقضية التأخير التنبيه على أنه المعروف الحاضر في قلوبهم أول كل خاطر وأنه الذي عقدوا عليه مناهم، ولما قضى الوطر من هذا الأسلوب قيل: ﴿أو يزوجهم﴾ أي الأولاد ﴿ذكراناً وإناثاً﴾ أي يخلق ما يهبهم زوجاً لأن التزويج جعل الشيء زوجاً فذكراناً وإناثاً حال من الضمير، والواو قيل للمعية لأن حقه التأخير عن القسمين سياقاً ووجوداً فلا تتأتى المقارنة إلا بذلك، وقيل ذلك لأن المراد يهب لمن يشاء ما لا يهواه ويهب لمن يشاء ما يهواه أو يهب الأمرين معاً لا أنه سبحانه يجعل من كل من الجنسين الذكور والإناث على حياله زوجاً ولولا ذلك لتوهم ما ذكر فتأمله، ولتركبه منهما لم يكرر فيه حديث المشيئة، وقدم المقدم على ما هو عليه في الأصل ولم يعرف إذ لا وجه له، ثم قيل: ﴿ويجعل من يشاء عقيماً﴾ أي لا يولد له فقيد بالمشيئة لأنه قسم آخر، وكأنه جيء بأو في ﴿أو يزوجهم﴾ دون الواو كما في سابقه من حيث إنه قسيم الانفراد المشترك بين الأولين ولم يؤت في الأخير لاتضاحه بأنه قسيم الهبة المشتركة بين الأقسام المتقدمة فتأمل، وقيل: قدم الإناث توصية برعايتهن لضعفهن لا سيما وكانوا قريبي العهد بالوأد، وفي الحديث «من ابتلي بشيء من هذه البنات فأحسن إليهن كن له ستراً من النار» وقيل: قدمت لأنها أكثر لتكثير النسل فهي من هذا الوجه أنسب بالخلق المراد بيانه، وقيل: لتطييب قلوب آبائهن لما في تقديمن من التشريف لأنهن سبب لتكثير مخلوقاته تعالى، وقال الثعالبي: إنه إشارة إلى ما في تقدم ولادتهن من اليمن حتى أن أول مولود ذكر يكون مشؤوماً فيقولون له بكر بكرين؛ وعن قتادة من يمن المرأة تبكيرها بأنثى، وقيل: قدمت وأخر الذكور معرفاً للمحافظة على الفواصل، والمناسب

للسياق ما علمت سابقاً، وقال مجاهد في ﴿أو يزوجهم﴾ التزويج أن تلد المرأة غلاماً ثم تلد جارية، وقال محمد بن الحنفية رضي الله تعالى عنهما: هو أن تلد توأماً غلاماً وجارية. وزعم بعضهم أن الآية نزلت في الأنبياء عليهم الصلاة والسلام حيث وهب سبحانه لشعيب ولوط عليهم السلام اناثاً ولإبراهيم عليه السلام ذكوراً ولرسوله محمد ﷺ ذكوراً واناثاً وجعل عيسى ويحيى عليهما السلام عقيمين اهـ ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ مبالغ جل شأنه في العلم والقدرة فيفعل ما يفعل بحكمة واختيار ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ﴾ أي ما صح لفرد من أفراد البشر.

﴿أَنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ إِلاَّ وَحْياً أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِي بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ﴾ ظاهره حصر التكليم في ثلاثة أقسام: الأول الوحي وهو المراد بقوله تعالى: ﴿إلاَّ وحياً﴾ وفسره بعضهم بالإلقاء في القلب سواء كان في اليقظة أو في المنام والإلقاء أعم من الإلهام فإن إيحاء أم موسى إلهام وإيحاء إبراهيم عليه السلام إلقاء في المنام وليس إلهاماً وإيحاء الزبور إلقاء في اليقظة كما روي عن مجاهد وليس بإلهام؛ والفرق أن الإلهام لا يستدعي صورة كلام نفساني فقد وقد وأما اللفظي فلا، وأما نحو إيحاء الزبور فيستدعيه، وقد جاء إطلاق الوحي على الإلقاء في القلب في قول عبيد بن الأبرص:

وأوحى إليَّ الله أن قد تأمروا بإبل أبي أوفى فقمت على رجلي

فإنه أراد قذف في قلبي. والثاني إسماع الكلام من غير أن يبصر السامع من يكلمه كما كان لموسى وكذا الملائكة الذين كلمهم الله تعالى في قضية خلق آدم عليه السلام ونحوهم وهو المراد بقوله سبحانه ﴿أو من وراء حجاب﴾ فإنه تمثيل له سبحانه بحال الملك المتحجب الذي يكلم بعض خواصه من وراء حجاب يسمع صوته ولا يرى شخصه. والثالث إرسال الملك كالغالب من حال نبينا ﷺ وهو حال كثير من الأنبياء عليهم السلام، وزعم أنه من خصوصيات أولي العزم من المرسلين غير صحيح وهو المراد بقوله عز وجل: ﴿أو يرسل رسولاً﴾ أي ملكاً ﴿فيوحي﴾ ذلك الرسول إلى المرسل إليه الذي هو الرسول البشري ﴿بإذنه﴾ أي بأمره تعالى وتيسيره سبحانه ﴿ما يشاء﴾ أن يوحيه، وهذا يدل على أن المراد من الأول الوحي من الله تعالى بلا واسطة لأن إرسال الرسول جعل فيه إيحاء ذلك الرسول، وبنى المعتزلي على هذا الحصر أن الرؤية غير جائزة لأنها لو صحت لصح التكليم مشافهة فلم يصح الحصر، وقال بعض: المراد حصر التكليم في الوحي بالمعنى المشهور والتكليم من وراء حجاب وتكليم الرسل البشريين مع أممهم، واستبعد بأن العرف لم يطرد في تسمية ذلك إيحاء، وقال القاضي إن قوله تعالى ﴿إلا وحياً﴾ معناه إلا كلاماً خفياً يدرك بسرعة وليس في ذاته مركباً من حروف مقطعة وهو ما يعم المشافهة كما روي في حديث المعراج وما وعد به في حديث الرؤية والمهتف به كما اتفق لموسى عليه السلام في الطور لكن عطف قوله تعالى: ﴿أو من وراء حجاب﴾ عليه يخصه بالأول فالآية دليل على جواز الرؤية لا على امتناعها، وإلى الأول ذهب الزمخشري وانتصر له صاحب الكشف عفا الله تعالى عنه فقال: وأما نحن فنقول والله تعالى أعلم: إن قوله تعالى: ﴿وما كان لبشر﴾ على التعميم يقتضي الحصر بوجه لا يخص التكلم بالأنبياء عليهم السلام ويدخل فيه خطاب مريم وما كان لأم موسى وما يقع للمحدثين من هذه الأمة وغيرهم فحمل الوحي على ما ذهب إليه الزمخشري أولى. ثم إنه يلزم القاضي أن لا يكون ما وقع من وراء حجاب وحياً لا أنه يخصصه لأنه نظير قولك: ما كان لك أن تنعم إلا على المساكين وزيد، نعم يحتمل أن يكون زيد داخلاً فيهم على نحو ﴿ملائكته ورسله وجبريل﴾ [البقرة: ٩٨] وهذا يضر القاضي لاقتضائه أن يكون هذا القسم أعني ما وقع من وراء حجاب أعلى المراتب فلا يكون الثاني هو المشافهة، وتقدير إلا وحياً من غير حجاب أو من وراء حجاب خلاف الظاهر وفيه فك للنظم لقوله سبحانه: ﴿أو يرسل﴾ وهو

عطف على قوله تعالى: ﴿إلا وحياً﴾ مع كونه خلاف الظاهر.

وعلى هذا يفسد ما بني عليه من حديث التنزل من القسم الأعلى إلى ما دونه، ومع ذلك لا يدل على عدم وقوع الرؤية فضلاً عن جوازه بل دل على أنها لو وقعت لم يكن معها المكالمة وذلك هو الصحيح لأن الرؤية تستدعي الفناء والبقاء به عز وجل وهو يقتضي رفع حجاب المخاطب المستدعي كوناً وجودياً ثم الكامل لتوفيته حق المقامات الكبرى يكون المحتظى منه بالشهود في مقام البقاء المذكور ومع ذلك لا يمنعه عن حظه من سماع الخطاب لأنه حظ القلب المحجوب عن مقام الشهود، والمقصود أن الذي يصح ذوقاً ونقلاً وعقلاً كون الخطاب من وراء حجاب البتة وهو صحيح لكن لا ينفع منكر الرؤية ولا مثبتها، وأما سؤال الترقي في الأقسام فالجواب عنه أن الترقي حاصل بين الأول والثاني الذي له سمي الكليم كليماً، وأما الثالث فلما كان تكليماً مجازياً أخر عن القسمين ولم ينظر إلى أنه أشرف من القسم الأول فإن ذلك الأمر غير راجع إلى التكليم بل لأنه مخصوص بالأنبياء عليهم السلام انتهى.

وتعقب ما اعترض به على القاضي بأنه لا يرد لأن الوحي بذلك المعنى بالتخصيص المذكور والتقييد المأخوذ من التقابل صار مغايراً لما بعده وليس من شيء من القبيلين حتى يذهب إلى الترقي أو التدلي لأنه لا يعطف بأو بل بالواو كما لا يخفى، ولزوم أن لا يكون الواقع من وراء حجاب وحياً غير مسلم لأنه إن أراد أن لا يكون وحياً مطلقاً فغير صحيح لأن قوله تعالى بعده: فيوحي بإذنه قرينة على أن المراد بالوحي السابق وحي مخصوص كالذي بعده وإن أراد أنه لا يكون من الوحي المخصوص السابق فلا يضره لأنه عين ما عناه، نعم الحصر على ما ذهب إليه القاضي غير ظاهر إلا بعد ملاحظة أنه مخصوص بما كان بالكلام فتدبر، والظاهر أن عائشة رضي الله تعالى عنها حملت الآية على نحو ما حملها المعتزلة، أخرج البخاري ومسلم والترمذي عنها أنها قالت: من زعم أن محمداً رأى ربه فقد كذب ثم قرأت ﴿لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير﴾ [الأنعام: ١٠٣] ﴿**وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب**﴾ وأنت تعلم أن أكثر العلماء على أن النبي ﷺ رأى ربه سبحانه ليلة الإسراء لكثرة الروايات المصرحة بالرؤية نعم ليس فيها التصريح بأنها بالعين لكن الظاهر من الرؤية كونها بها، والمروي عن الأشعري وجمع من المتكلمين أنه جل شأنه كلمه عليه الصلاة والسلام تلك الليلة بغير واسطة ويعزى ذلك إلى جعفر بن محمد الباقر وابن عباس وابن مسعود رضي الله تعالى عنهم وهو الظاهر للأحاديث الصحاح في مرادة الصلاة واستقرار الخمسين على الخمس وغير ذلك، وعائشة رضي الله تعالى عنها لم تنف الرؤية إلا اعتماداً على الاستنباط من الآيات ولو كان معها خبر لذكرته، واحتجاجها بما ذكر من الآيات غير تام، أما عدم تمامية احتجاجها بآية لا تدركه الأبصار فمشهور، وأما عدم تمامية الاحتجاج بالآية الثانية فلما سمعت عن صاحب الكشف قدس سره، وقال الخفاجي بعد تقرير الاحتجاج بأنه تعالى حصر تكليمه سبحانه للبشر في الثلاثة: فإذا لم يره جلّ وعلا من يكلمه سبحانه في وقت الكلام لم يره عز وجل في غيره بالطريق الأولى وإذا لم يره تعالى هو أصلاً لم يره سبحانه غيره إذ لا قائل بالفصل، وقد أجيب عنه في الأصول بأنه يحتمل أن يكون المراد حصر التكليم في الدنيا في هذه الثلاثة أو نقول يجوز أن تقع الرؤية حال التكليم وحياً إذ الوحي كلام بسرعة وهو لا ينافي الرؤية انتهى، ولا يخفى عليك أن الجواب الأول لا ينفع فيما نحن بصدده إلا بالتزام أن ما وقع لنبينا عليه الصلاة والسلام تلك الليلة لا يعد تكليماً في الدنيا على ما ذكره الشرنبلالي في إكرام أولي الألباب لأنه كان في الملكوت الأعلى وأنه يستفاد من كلام صاحب الكشف منع ظاهر للشرطية في وجه الاستدلال الذي قرره، وبعضهم أجاب بأن العالم مخصص بغير ما دليل وفي البحر قيل «قالت قريش: ألا تكلم الله تعالى وتنظر إليه إن كنت نبياً صادقاً كما كلم جل وعلا موسى ونظر إليه تعالى فقال لهم الرسول ﷺ: «لم ينظر

موسى عليه السلام إلى الله عز وجل فنزلت ﴿**وما كان لبشر**﴾ الآية» وهذا ظاهر في أن الآية لم تتضمن التكليم الشفاهي مع الرؤية وكذا ما فيه أيضاً كان من الكفار خوض في تكليم الله تعالى موسى عليه السلام فذهبت قريش واليهود في ذلك إلى التجسيم فنزلت فإن عدم تضمنها ذلك أدفع لتوهم التجسيم، وبالجملة الذي يترجح عندي ما قاله صاحب الكشف قدس سره أن الآية لا تنفع منكر الرؤية ولا مثبتها وما ذكر من سبب النزول ليس بمتيقن الثبوت، ويفهم من كلام بعضهم أن الوحي كما يكون بالإلقاء في الروع يكون بالخط فقد قال النخعي كان في الأنبياء عليهم السلام من يخط له في الأرض، ومعناه اللغوي يشمل ذلك، فقد قال الإمام أبو عبد الله التيمي الأصبهاني: الوحي أصله التفهيم وكل ما فهم به شيء من الإلهام والإشارة والكتب فهو وحي، وقال الراغب: أصل الوحي الإشارة السريعة ولتضمن السرعة قيل أمر وحي وذلك يكون بالكلام على الزمر والتعريض، وقد يكون بصوت مجرد عن التركيب وبإشارة ببعض الجوارح وبالكتابة، وقد حمل على ذلك قوله تعالى: ﴿فأوحى إليهم أن سبحوا بكرة﴾ [مريم: ١١] فقد قيل رمز وقيل اعتبار وقيل كتب وجعل التسخير من الوحي أيضاً وحمل عليه قوله تعالى: ﴿وأوحى ربك إلى النحل﴾ [النحل: ٦٨] وسيأتي إن شاء الله تعالى ما للصوفية قدست أسرارهم من الكلام في هذه الآية، و ﴿**وحياً**﴾ على ما قال الزمخشري مصدر واقع موقع الحال وكذا أن يرسل لأنه بتأويل إرسالاً، و ﴿**من وراء حجاب**﴾ ظرف واقع موقع الحال أيضاً كقوله تعالى: ﴿وعلى جنوبهم﴾ [آل عمران: ١٩١] والتقدير وما صح أن يكلم أحداً في حال من الأحوال إلا موحياً أو مسمعاً من وراء حجاب أو مرسلاً. وتعقبه أبو حيان فقال: وقوع المصدر حالاً لا ينقاس فلا يجوز جاء زيد بكاء تريد باكياً، وقاس منه المبرد ما كان نوعاً للفعل نحو جاء زيد مشياً أو سرعة ومنع سيبويه من وقوع أن مع الفعل موقع الحال فلا يجوز جاء زيد أن يضحك في معنى ضحكاً الواقع موقع ضاحكاً.

وأجيب عن الأول بأن القرآن يقاس عليه ولا يلزم أن يقاس على غيره مع أنه قد يقال: يكتفى بقياس المبرد، وعن الثاني بأنه علل المنع بكون الحاصل بالسبك معرفة وهي لا تقع حالاً، وفي ذلك نظر لأنه غير مطرد ففي شرح التسهيل أنه قد يكون نكرة أيضاً ألا تراهم فسروا ﴿**أن يفتري**﴾ بمفترى، وقد عرض ابن جني ذلك على أبي علي فاستحسنه، وعلى تسليم الاطراد فالمعرفة قد تكون حالاً لكونها في معنى النكرة كوحده، والاقتصار على المنع أولى لمكان التعسف في هذا، واختار غير واحد أن وحياً بما عطف عليه منتصب بالمصدر لأنه نوع من الكلام أو بتقدير إلا كلام وحي و ﴿**من وراء حجاب**﴾ صفة كلام أو سماع محذوف وصفة المصدر تسد مسده والإرسال نوع من الكلام أيضاً بحسب المآل والاستثناء عليه مفرغ من أعم المصادر، وقال الزجاج: قال سيبويه سألت الخليل عن قوله تعالى: ﴿**أو يرسل رسولاً**﴾ بالنصب فقال: هو محمول على أن سوى هذه التي في قوله تعالى: أن يكلمه الله لما يلزم منه أن يقال: ما كان لبشر أن يرسل الله رسولاً وذلك غير جائز، والمعنى ما كان لبشر ﴿**أن يكلمه الله**﴾ إلا بأن يوحى أو أن يرسل، وعليه أن يقدر في قوله تعالى: ﴿**أو من وراء حجاب**﴾ نحو أو أن يسمع من وراء حجاب وأي داع إلى ذلك مع ما سمعت؟ واختلف في الاستثناء هل هو متصل أو منقطع وأبو البقاء على الانقطاع. وتعقبه بعضهم بأن المفرغ لا يتصف بذلك والبحث شهير. وقرأ ابن أبي عبلة «أو من وراء حجب» بالجمع. وقرأ نافع وأهل المدينة «أو يُرْسِلُ رَسُولاً فَيُوحِي» برفع الفعلين ووجهوا ذلك بأنه على إضمار مبتدأ أي هو يرسل أو هو معطوف على ﴿**وحياً**﴾ أو على ما يتعلق به ﴿**من وراء**﴾ بناءً على أن تقديره أو يسمع من وراء حجاب، وقال العلامة الثاني: إن التوجيه الثاني وما بعده ظاهر وهو عطف الجملة الفعلية الحالية على الحال المفردة، وأما إضمار المبتدأ فإن حمل على هذا فتقدير المبتدأ لغو، وإن أريد أنها مستأنفة فلا يظهر ما يعطف عليه سوى ﴿**ما كان لبشر**﴾ الخ وليس بحسن الانتظام. وتعقب بأنه يجوز أن يكون تقدير المبتدأ مع اعتبار الحالية بناءً على أن الجملة الاسمية التي الخبر فيها جملة فعلية تفيد ما لا تفيده الفعلية الصرفة مما

يناسب حال إرسال الرسول، أو يقال: لا نسلم أن العطف على ﴿ما كان لبشر﴾ ليس بحسن الانتظام، وفيه دغدغة لا تخفى، وفي الآية على ما قال ابن عطية دليل على أن من حلف أن لا يكلم فلاناً فراسله حنث لاستثنائه تعالى الإرسال من الكلام، ونقله الجلال السيوطي في أحكام القرآن عن مالك وفيه بحث والله تعالى الهادي.

﴿إِنَّهُ عَلِيٌّ﴾ متعال عن صفات المخلوقين ﴿حَكِيمٌ﴾ يجري سبحانه أفعاله على سنن الحكمة فيكلم تارة بواسطة وأخرى بدونها إما إلهاماً وإما خطاباً أو إما عياناً وإما خطاباً من وراء حجاب على ما يقتضيه الاختلاف السابق في تفسير الآية ﴿وَكَذَلِكَ﴾ أي ومثل هذا الإيحاء البديع على أن الإشارة لما بعد ﴿أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا﴾ وهو ما أوحي إليه عليه الصلاة والسلام أو القرآن الذي هو للقلوب بمنزلة الروح للأبدان حيث يحييها حياة أبدية، وقيل: أي ومثل الإيحاء المشهور لغيرك أوحينا إليك، وقيل: أي ومثل ذلك الإيحاء المفصل أوحينا إليك إذ كان عليه الصلاة والسلام اجتمعت له الطرق الثلاث سواء فسر الوحي بالإلقاء أم فسر بالكلام الشفاهي، وقد ذكر أنه عليه الصلاة والسلام قد ألقي إليه في المنام كما ألقي إلى إبراهيم عليه السلام وألقي إليه عليه الصلاة والسلام في اليقظة على نحو إلقاء الزبور إلى داود عليه السلام.

ففي الكبريت الأحمر للشعراني نقلاً عن الباب الثاني من الفتوحات المكية أنه ﷺ أعطي القرآن مجملاً قبل جبريل عليه السلام من غير تفصيل الآيات والسور. وعن ابن عباس تفسير الروح بالنبوة.

وقال الربيع: هو جبريل عليه السلام، وعليه فأوحينا مضمن معنى أرسلنا، والمعنى أرسلناه بالوحي إليك لأنه لا يقال: أوحى الملك بل أرسله.

ونقل الطبرسي عن أبي جعفر وأبي عبد الله رضي الله تعالى عنهما أن المراد بهذا الروح ملك أعظم من جبرائيل وميكائيل كان مع رسول الله ﷺ ولم يصعد إلى السماء، وهذا القول في غاية الغرابة ولعله لا يصح عن هذين الإمامين، وتنوين ﴿روحاً﴾ للتعظيم أي روحاً عظيماً ﴿مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلاَ الإِيمَانُ﴾ الظاهر أن ما الأولى نافية والثانية استفهامية في محل رفع على الابتداء و ﴿الكتاب﴾ خبر، والجملة في موضع نصب بتدري وجملة ﴿ما كنت﴾ الخ حالية من ضمير ﴿أوحينا﴾ أو هي مستأنفة والمضي بالنسبة إلى زمان الوحي.

واستشكلت الآية بأن ظاهرها يستدعي عدم الاتصاف بالإيمان قبل الوحي ولا يصح ذلك لأن الأنبياء عليهم السلام جميعاً قبل البعثة مؤمنون لعصمتهم عن الكفر بإجماع من يعتد به، وأجيب بعدة أجوبة، الأول أن الإيمان هنا ليس المراد به التصديق المجرد بل مجموع التصديق والإقرار والإعمال فإنه كما يطلق على ذلك يطلق على هذا شرعاً، ومنه قوله تعالى: ﴿وما كان الله ليضيع إيمانكم﴾ [البقرة: ١٤٣] والأعمال لا سبيل إلى درايتها من غير سمع فهو مركب والمركب ينتفي بانتفاء بعض أجزائه فلا يلزم من انتفاء الإيمان المركب بانتفاء الأعمال انتفاء الإيمان بالمعنى الآخر أعني التصديق وهو الذي أجمع العلماء على اتصاف الأنبياء عليهم السلام به قبل البعثة، ولذا عبر بتدري دون أن يقال: لم تكن مؤمناً وهو جواب حسن ولا يلزمه نفي الإيمان عمن لا يعمل الطاعات ليكون القول به اعتزالاً كما لا يخفى.

الثاني أن الإيمان إنما يعني به التصديق بالله تعالى وبرسوله عليه الصلاة والسلام دون التصديق بالله عز وجل ودون ما يدخل فيه الأعمال والنبي ﷺ مخاطب بالإيمان برسالة نفسه كما أن أمته ﷺ مخاطبون بذلك، ولا شك أنه قبل الوحي لم يكن عليه الصلاة والسلام يعلم أنه رسول الله وما علم ذلك إلا بالوحي فإذا كان الإيمان هو التصديق بالله تعالى ورسوله ﷺ ولم يكن هذا المجموع ثابتاً قبل الوحي بل كان الثابت هو التصديق بالله تعالى خاصة المجمع

على اتصاف الأنبياء عليهم السلام به قبل البعثة استقام نفي الإيمان قبل الوحي وإلى هذا ذهب ابن المنير. الثالث أن المراد شرائع الإيمان ومعالمه مما لا طريق إليه إلا السمع وإليه ذهب محيي السنة البغوي وقال: إن النبي ﷺ كان قبل الوحي على دين إبراهيم عليه السلام ولم تتبين له عليه الصلاة والسلام شرائع دينه، ولا يخفى أنه إذا لم يعتبر كون الكلام على حذف مضاف يلزمه إطلاق الإيمان على الأعمال وحدها وهو خلاف المعروف. الرابع أن الكلام على تقدير مضاف فقيل التقدير دعوة الإيمان أي ما كنت تدري كيف تدعو الخلق إلى الإيمان وإليه يشير كلام أبي العالية.

وقال الحسين بن الفضل: أي أهل الإيمان أي لا تدري من الذي يؤمن، وأنت تدري أنه لا يرتضي هذا إلا من لا يدري. الخامس المراد نفي دراية المجموع أي ما كنت تدري قبل الوحي مجموع الكتاب والإيمان فلا ينافي كونه ﷺ كان يدري الإيمان وحده ويأباه إعادة ﴿لا﴾ السادس أن المراد ما كنت تدري ذلك إذ كنت في المهد وإليه ذهب علي بن عيسى وهو خلاف الظاهر، والظاهر أن المراد استمرار النفي إلى زمن الوحي، وظاهر كلام الكشف يميل إلى اعتبار نحو ذلك القيد قال: لعل الأشبه أن الإيمان على ظاهره والآية واردة في معرض الامتنان والإيحاء يشمل الإلقاء في الروع وإرسال الرسول فالإيمان عرفه بالأول والكتاب بالثاني على أن الآية تدل على أنه ﷺ عرفهما بعد أن لم يكن عارفاً وهو كذلك أما أنه عليه الصلاة والسلام عرفهما بعد الوحي فلا فجاز أن يعرفهما به وجاز أن يعرف واحداً منهما معيناً به. وقد دل الدليل على أن المعرف به هو الكتاب والإيمان بعد العقل وقبل الوحي، والتمسك به على أنه ﷺ لم يكن متعبداً بشرع من قبله ضعيف لأن عدم الدراية لا يلزمه عدم التعبد بل يلزمه سقوط الإثم إن لم يكن تقصيراً انتهى.

وأنت تعلم أن المتبادر أنه عليه الصلاة والسلام عرفهما بعد الوحي، وأما قوله قدس سره في تضعيف التمسك بذلك على أنه ﷺ لم يكن متعبداً بشرع من قبله إن عدم الدراية لا يلزمه عدم التعبد فقد قيل عليه: إنه ساقط لأنه عليه الصلاة والسلام إذا لم يدر شرعاً فكيف يتعبد به، وقد يجاب بأن مراد المدقق أن الدراية المنفية الدراية بمعنى العلم الجازم الثابت المطابق للواقع وعدمها لا يلزمه، عدم التعبد إذ يكفي في التعبد بشرع من قبله عليه الصلاة والسلام الظن الراجح ثبوته فلعله كان حاصلاً له ﷺ.

ومثل هذا الظن يكفي للمتعبدين اليوم بشرع نبينا عليه الصلاة والسلام فإن أكثر الفروع ظنية، ومن يتتبع الأخبار يعلم أن العرب لم يزالوا على بقايا من دين إبراهيم عليه السلام من الحج والختان وإيقاع الطلاق والغسل من الجنابة وتحريم ذوات المحارم بالقرابة والصهر وغير ذلك وأن النبي ﷺ كان أحرص الناس على اتباع دين إبراهيم عليه السلام. وفي الصحيح أنه ﷺ كان أي قبل البعثة يتحنث بغار حراء، وفسر التحنث بالتحنف أي اتباع الحنيفية وهي دين إبراهيم عليه الصلاة والسلام، والفاء تبدل ثاء في كثير من كلامهم وفي رواية ابن هشام في السير يتحنف بالفاء بدل الثاء، نعم فسر أيضاً بالتعبد كما في صحيح البخاري وباتقاء الحنث أي الإثم كالتحرج والتأثم وكل ذلك مما ذكره الحافظ القسطلاني في شرح الصحيح.

ثم إن الظاهر أن من قال: إنه ﷺ كان متعبداً بشرع من قبله ليس مراده أنه عليه الصلاة والسلام كان متعبداً بجميع شرع من قبله بل بما ترجح عنده ﷺ ثبوته. والذي ينبغي أن يرجح كون ذلك من شرع إبراهيم عليه السلام لأنه من ذريته عليهما الصلاة والسلام وقد كلفت العرب بدينه.

وقال بعضهم: إن عبادته ﷺ التفكر والاعتبار، ولعله أيضاً مما ترجح عنده عليه الصلاة والسلام كونه من شريعته عليه السلام وربما يقال: بما علمه ﷺ لا على ذلك الوجه من شرع من قبله أنه ﷺ لم يزل موحى إليه وأنه

عليه الصلاة والسلام متعبد بما يوحى إليه إلا أن الوحي السابق على البعثة كان إلقاءً ونفثاً في الروع وما عمل بما كان من شرائع أبيه إبراهيم عليهما الصلاة والسلام إلا بواسطة ذلك الإلقاء وإذا كان بعض إخوانه من الأنبياء عليهم السلام قد أوتي الحكم صبياً ابن سنتين أو ثلاث فهو عليه الصلاة والسلام أولى بأن يوحى إليه ذلك النوع من الإيحاء صبياً أيضاً. ومن علم مقامه ﷺ وصدق بأنه الحبيب الذي كان نبياً وآدم بين الماء والطين لم يستبعد ذلك فتأمل.

﴿وَلَكِن جَعَلْنَاهُ﴾ أي الروح الذي أوحيناه إليك، وقال ابن عطية: الضمير للكتاب، وقيل: للإيمان ورجح بالقرب، وقيل: للكتاب والإيمان ووحد لأن مقصدهما واحد فهو نظير ﴿والله ورسوله أحق أن يرضوه﴾ [التوبة: ٦٢].

﴿نُوراً﴾ عظيماً ﴿نَّهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَاءُ﴾ هدايته ﴿مِنْ عِبَادِنَا﴾ وهو الذي يصرف اختياره نحو الاهتداء به والجملة إما مستأنفة أو صفة «نوراً» وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي﴾ تقرير لهدايته، وبيان لكيفيتها، ومفعول ﴿لتهدي﴾ محذوف ثقة بغاية الظهور أي وإنك لتهدي بذلك النور من تشاء هدايته ﴿إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ هو الإسلام وسائر الشرائع والأحكام؛ وقرأ ابن السميفع «لَتُهْدِي» بضم التاء وكسر الدال من أهدى، وقرأ حوشب «لَتُهْدَى» مبنياً للمفعول أي ليهديك الله وقرىء لتدعو ﴿صِرَاطِ اللَّهِ﴾ بدل من الأول وإضافته إلى الاسم الجليل ثم وصفه بقوله تعالى: ﴿الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ لتفخيم شأنه وتقرير استقامته وتأكيد وجوب سلوكه فإن كون جميع ما فيهما من الموجودات له تعالى خلقاً وملكاً وتصرفاً مما يوجب ذلك أتم إيجاب. ﴿أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾ أي أمور من فيهما قاطبة لا إلى غيره تعالى وذلك بارتفاع الوسائط يوم القيامة ففيه من الوعد للمهتدين إلى الصراط المستقيم والوعيد للضالين عنه ما لا يخفى، وصيغة المضارع على ما قررنا على ظاهرها من الاستقبال، وقال في البحر: المراد بها الاستمرار كما في زيد يعطي أي من شأنه ذلك، والأول أظهر والله تعالى أعلم.

ومما قاله أرباب الإشارات في بعض الآيات قال سبحانه: ﴿لتنذر أم القرى ومن حولها﴾ قيل يشير ذلك إلى إنذار نفسه الشريفة لأنها أم قرى نفوس آدم وأولاده لأنه ﷺ أول العالمين خلقاً ومنه عليه الصلاة والسلام نشأت الأرواح والنفوس ومن هذا كان آدم ومن دونه تحت لوائه ﷺ، وقد أشار إلى ذلك سلطان العاشقين عمر بن الفارض بقوله على لسان الحقيقة المحمدية:

وإني وإن كنت ابن آدم صورة ... فلي منه معنى شاهد بأبوتي

وقوله سبحانه: ﴿ومن حوله﴾ يشير إلى نفوس أهل العالم وقد أنذر ﷺ كلاً حسب استعداده، وقيل: في قوله تعالى: ﴿ليس كمثله شيء وهو السميع البصير﴾ إنه يشير إلى التنزيه والتشبيه، وقرر ذلك الشيخ الأكبر قدس سره بما يطول ﴿له مقاليد السموات والأرض﴾ أي مفاتيح سموات القلوب وفيها خزائن لطفه تعالى ورحمته عز وجل وأرض النفوس وفيها خزائن قهره سبحانه وعزته جل جلاله فكل قلب مخزن لنوع من ألطافه كالمعرفة والمحبة والشوق والتوحيد والهيبة والانس والرضا إلى غير ذلك، وقد يجتمع في القلب خزائن وكل نفس مخزن لنوع من آثار قهره كالنكرة والجحود والإنكار والشرك والنفاق والحرص والكبر والبخل والشره وغير ذلك، وقد يجتمع في النفس خزائن، وفائدة الإخبار بأن له سبحانه مقاليد ذلك قطع أفكار العباد عمن سواه سبحانه في جلب ما يريدونه ودفع ما يكرهونه ﴿الله يجتبي إليه من يشاء ويهدي إليه من ينيب﴾ يشير إلى مقامي المجذوب والسالك فالمجذوب من الخواص اجتباه ربه سبحانه في الأزل وسلكه في مسلك من يحبهم واصطنعه سبحانه لنفسه جل شأنه وجذبه تعالى عن الدارين بجذبة توازي عمل الثقلين فهو في مقعد صدق عند مليك مقتدر، والسالك من العوام سلكه في سلك من يحبونه بالتوفيق للهداية والقيام على قدمي الجهد والإنابة إلى سبيل الرشاد من طريق العناد ﴿والذين يجادلون في الله من بعد

ما استجيب له﴾ يشير إلى الذين يجادلون في معرفة الله تعالى بشبه العقل الذي استجاب له تعالى حين دعاه فوصل إلى الحضرة فهو في كشف وعيان وأولئك من وراء ما يزعمون أنه برهان **﴿أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله﴾** يشير إلى كفار النفوس فإنهم شرعوا عند استيلائهم للأرواح والقلوب ما لم يرض به الله تعالى من مخالفات الشريعة وموافقات الطبيعة **﴿الله لطيف بعباده﴾** يشير إلى عموم لطفه تعالى وهو أنواع لا تحصى ومراتب لا تستقصى.

وروى السلمي عن سيد الطائفة قدس سره اللطيف من نور قلبك بالهدى وربى جسمك بالغذا ويخرجك من الدنيا بالإيمان ويحرسك من نار لظى ويمكنك حتى تنظر وترى هذا لطف اللطيف بالعبد الضعيف **﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾** استعملوا تكاليف الشرع لقمع الطبع وكسر الهوى وتزكية النفس وتصفية القلب وجلاء الروح **﴿في روضات الجنات﴾** في الدنيا جنات الوصلة والمعارف وطيب الأنس في الخلوة والآخرة في روضات الجنة **﴿لهم ما يشاؤون عند ربهم﴾** حسب مراتبهم في القربات والوصلات والمكاشفات ونيل الدرجات وعلى قدر هممهم **﴿قل لا أسألكم عليه أجراً إلاّ المودة في القربى﴾** وهم أقاربه ﷺ الذين خلقوا من عنصره الشريف وتحلوا بحلاه المنيف كأئمة أهل البيت ومودتهم يعود نفعها إلى من يودهم لأنها سبب للفيض وهم رضي الله تعالى عنهم أبوابه وفي قوله ﷺ «أنا مدينة العلم وعلي بابها» رمز إلى ذلك فافهم الإشارة **﴿وهو الذي يقبل التوبة عن عباده﴾** لمزيد كرمه جل شأنه فمتى وفق عبداً للتوبة قبلها جوداً وكرماً وعن بعضهم أنه قال لبعض المشايخ: إن تبت فهل يقبلني الله تعالى؟ فقال: إن يقبلك الله تعالى تتب إليه سبحانه فقبول الله تعالى سابق على التوبة **﴿ويزيدهم من فضله﴾** إشارة إلى الرؤية فإن الجنان ونعيمها مخلوقة تقع في مقابلة مخلوق وهو عمل العمال والرؤية مما تتعلق بالقديم فلا تقع إلا فضلاً ربانياً، وفي بعض الأخبار أن هذه الزيادة أن يشفعهم في إخوان إخوانهم **﴿استجيبوا لربكم﴾** الاستجابة للعوام بالوفاء بعده تعالى والقيام بحقه سبحانه والرجوع عن مخالفته جل شأنه إلى موافقته عزَّ وجلَّ وللخواص بالاستسلام للأحكام الأزلية والإعراض عن الدنيا وزينتها وشهواتها، ولأخص الخواص من أهل المحبة بصدق الطلب بالإعراض عن الدارين والتوجه لحضرة الجلال ببذل الوجود في نيل الوصول الوصال **﴿يهب لمن يشاء إناثاً ويهب لمن يشاء الذكور أو يزوجهم ذكراناً وإناثاً ويجعل من يشاء عقيماً﴾** قيل فيه إشارة إلى أحوال المشايخ من حيث المريدين فمنهم من يهب الله تعالى له ومنهم من لا تصرف له في غيره بالتخريج والتسليك وهو أشبه شيء بالأنثى من حيث عدم التصرف ومنهم من يهب سبحانه له من له قدرة التصرف بالتخريج والتسليك وهو أشبه شيء بالذكر ومنهم من يهب له تعالى هذا وهذا ومنهم من يجعله جل وعلا عقيماً لأمر يدله أصلاً **﴿وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولاً فيوحي بإذنه ما يشاء إنه عليٌّ حكيم﴾** قال سيدي الشيخ عبد الوهاب الشعراني في تفسيره الآية المذكورة اعلم أن المانع من سماع كلام الحق إنما هو البشرية فإذا ارتفع العبد عنها كلمه الله تعالى من حيث كلم سبحانه الأرواح المجردة عن المواد، والبشر ما سمي بشراً إلا لمباشرته الأمور التي تعوقه عن اللحوق بدرجة فلما لم يلحق كلمه الله تعالى في الأشياء وتجلى سبحانه له فيها بخلاف من لحق كالأنبياء عليهم السلام فلا يتجلى الحق سبحانه لغيرهم إلا في حجاب الصور ولولا هدايته تعالى للعبد ما عرف أنه سبحانه ربه، واعلم أن الحقيقة تأبى أن يكلم الله تعالى غير نفسه أو يسمع غير نفسه فلا بد إذا خاطب عبداً على قصد إسماعه أن يكون جميع قواه لأنه محال أن يطيق الحادث سماع كلام القديم ولم يكن الحق سبحانه قواه عند النجوى ولذلك خر موسى عليه السلام صعقاً إذ لم يكن له استعداد يقبل له التجلي اللائق بمقامه وثبت نبينا ﷺ ولما لم يكن للجبل درجة المحبة التي

يكون بها الحق سمع عبده وبصره وجميع قواه لم يقدر على سماع الخطاب فدك، واعلم أن حديث الحق سبحانه للخلق لا يزال أبداً غير أن من الناس من يفهم أنه حديث كعمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه ومن ورثه من الأولياء ومنهم من لا يعرف ذلك ويقول: ظهر لي كذا وكذا ولا يعرف أن ذلك من حديث الحق سبحانه معه وكان شيخنا يقول: كان عمر من أهل السماع المطلق الذي يحدثهم الله تعالى في كل شيء ولكن له ألقاب وهو أنه إن أجابوه به تعالى فهو حديث وإن أجابوه بهم فهي محادثة وان سمعوا حديثه سبحانه فليس بحديث في حقهم وإنما هو خطاب أو كلام، وقد ورد في المتهجدين انهم أهل المسامرة فقد علمت أن الوحي ما يلقيه الله تعالى في قلوب خواص عباده على جهة الحديث فيحصل لهم من ذلك علم بأمر ما فإن لم يكن كذلك فليس بوحي ولا خطاب فإن بعض الناس يجدون في قلوبهم علماً بأمر ما مثل العلوم الضرورية عند الناس فهو علم صحيح لكن ليس صادراً عن خطاب وكلامنا إنما هو في الخطاب الإلهي والمسمى وحياً فإن الله تعالى جعل هذا الصنف من الوحي كلاماً يستفيد به العلم من جاء له.

واعلم أنه لا ينزل على قلوب الأولياء من وحي الإلهام إلا دقائق ممتدة من الأرواح الملكية لانفس الملائكة لأن الملك لا ينزل بوحي على غير نبي أصلاً ولا يأمر بأمر إلهي قطعاً لأن الشريعة قد استقرت فلم يبق إلا وحي المبشرات وهو الوحي الأعم ويكون من الحق إلا العبد من غير واسطة ويكون أيضاً بواسطة والنبوة من شأنها الواسطة فلا بد من واسطة الملك فيها لكن الملك لا يكون حال إلقائه ظاهراً بخلاف الأنبياء عليهم السلام فإنهم يرون الملك حال الكلام والولي لا يشهد الملك إلا في غير حال الإلقاء فإن سمع كلامه لم يره وإن رآه لا يكلمه فالعارفون لا ينالون ما فاتهم من النبوة مع بقاء المبشرات عليهم إلا أن الناس يتفاضلون فمنهم من لا يبرح في بشارة الواسطة ومنهم من يرتفع عنها كالأفراد فإن لهم المبشرات بارتفاع الوسائط وما لهم النبوات ولهذا ينكر عليهم الأحكام لأنهم ضاهوا الأنبياء من حيث كونهم يعلمون بما يرونه من تعريفات الحق لهم كأنه شريعة مستقلة في الظاهر وليس ذلك بشريعة إنما هو بيان لها فالمنقطع إنما هو وحي التشريع لا غير أما التعريف لأمور مجملة في السنة فهو باق لهذه الأمة ليكونوا على بصيرة فيما يدعون الناس إليه لأنه خبر إلهي وأخبار من الله تعالى للعبد على يد ملك مغيب على هذا الملهم، ولا يكون الإلهام إلا في الخير و ﴿فألهمها فجورها﴾ [الشمس: ٨] على معنى إلهامها إياه لتجتنبه كما إلهامها تقواها لتعمل بها، وأكمل الإلهام أن يلهم اتباع الشرع والنظر في الكتب الإلهية ويقف عند حدودها وأوامرها حتى يزول صدى طبيعته وتنتقش فيها صور العالم، وأما قوله تعالى: **﴿أو من وراء حجاب﴾** فهو خطاب إلهي يلقيه على السمع لا على القلب فيدركه من ألقي إليه فيفهم منه ما قصده من يسمعه ذلك وقد يحصل له ذلك في صورة التجلي فتخاطبه تلك الصورة وهي عين الحجاب فيفهم من ذلك الخطاب علم ما يدل عليه ويعلم أن ذلك حجاب وأن المتكلم من وراء ذلك الحجاب وكل من أدرك صورة التجلي الإلهي يعلم أن ذلك هو الله تعالى فما يزيد صاحب هذا الحال على غيره إلا بمعرفته أن المخاطب له من وراء الحجاب.

وأما قوله تعالى: **﴿أو يرسل رسولاً﴾** فهو ما ينزل به الملك أو ما يجيء به الرسول البشري إلينا إذا نقلا كلام الله تعالى خاصة كالتالين فإن نقلا علماً وجداه في أنفسهما وأفصحا عنه فذلك ليس بكلام إلهي، ومن الأولياء من يعطي الترجمة عن الله سبحانه في حال الإلقاء والوحي الخاص بكل إنسان فيكون المترجم موجداً لصور الحروف اللفظية أو المرقومة ويكون روح تلك الصور كلام الله عزَّ وجلَّ لا غير، وقد يقول الولي: حدثني قلبي عن ربي يعني به من الوجه الخاص فاعلم ذلك وتأمل ما قررته لك فإنه نفيس والله تعالى يتولى هداك، وله قدس سره كلام كثير في هذا المقام تركناه خوف الإطالة، ولعل فيما ذكرناه كفاية لذوي الأفهام **﴿وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا﴾** وهو ما

به الحياة الطيبة الأبدية ﴿**ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان**﴾ قبل الإيحاء.

قيل: أشير هذا الإيحاء في هذه النشأة وكان له ﷺ في كل حال من أحواله فيها نوع من الوحي والدراية المنفية إذ كان عليه الصلاة والسلام في كينونته وقبل إخراجه منها بتجلي كينونته عزَّ وجلَّ وإلا فهو ﷺ نبي ولا آدم ولا ماء ولا طين ولا يعقل نبي بدون إيحاء ﴿**وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم**﴾ وهو التوحيد السليم من زوايا الأغيار ويشير إلى ذلك قوله تعالى: ﴿**ألا إلى الله تصير الأمور**﴾ تمت السورة بتوفيق الله عزَّ وجلَّ والصلاة والسلام على أول نور أشرق من شمس الأزل وبها والحمد لله تعالى.

(٤٣) سورة الزخرف مكية
وآياتها تسع وثمانون

بسم الله الرحمن الرحيم

حمٓ ﴿١﴾ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ
﴿٣﴾ وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٤﴾ أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا أَن
كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ﴿٥﴾ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِىٍّ فِى ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِىٍّ إِلَّا
كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٧﴾ فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ حم ، والكتاب المبين ، إنا جعلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون ، وإنه فى أم الكتاب لدينا لعلى حكيم ، أفنضرب عنكم الذكر صفحاً أن كنتم قوماً مسرفين ، وكم أرسلنا من نبى فى الأولين ، وما يأتيهم من نبى إلا كانوا به يستهزئون ، فأهلكنا أشد منهم بطشاً ومضى مثل الأولين ﴾ .

اعلم أن قوله (حم ، والكتاب المبين) يحتمل وجهين (الأول) أن يكون التقدير هذه (حم والكتاب المبين) فيكون القسم واقعاً على أن هذه السورة هي سورة (حم) ويكون قوله (إنا جعلناه قرآناً عربياً) ابتداء لكلام آخر (الثانى) أن يكون التقدير هذه (حم) .
ثم قال (والكتاب المبين ، إنا جعلناه قرآناً عربياً) فيكون المقسم عليه هو قوله (إنا جعلناه قرآناً عربياً) وفى المراد بالكتاب قولان (أحدهما) أن المراد به القرآن ، وعلى هذا التقدير فقد أقسم بالقرآن أنه جعله عربياً (الثانى) أن المراد بالكتاب الكتابة والخط أقسم بالكتابة لكثرة ما فيها من المنافع ، فإن العلوم إنما تكاملت بسبب الخط فإن المتقدم إذا استنبط علماً وأثبته فى كتاب ، وجاء المتأخر ووقف عليه أمكنه أن يزيد فى استنباط الفوائد ، فبهذا الطريق تكاثرت الفوائد وانتهت إلى الغايات العظيمة ، وفى وصف الكتاب بكونه مبيناً من وجوه (الأول) أنه المبين

الذين أنزل إليهم لأنه بلغتهم ولسانهم (والثانى) المبين هو الذى أبان طريق الهدى من طريق الضلالة وأبان كل باب عما سواه وجعلها مفصلة ملخصة .

واعلم أن وصفه بكونه مبيناً مجاز لأن المبين هو الله تعالى وسمى القرآن بذلك توسعاً من حيث إنه حصل البيان عنده .

أما قوله ﴿إنا جعلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون﴾ ففيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ القائلون بحدوث القرآن احتجوا بهذه الآية من وجوه (الأول) أن الآية تدل على أن القرآن مجعول ، والمجعول هو المصنوع المخلوق ، فإن قالوا لم لا يجوز أن يكون المراد أنه سماه عربياً ؟ قلنا هذا مدفوع من وجهين (الأول) أنه لو كان المراد بالجعل هذا لوجب أن من سماه عجمياً أن يصير عجمياً وإن كان بلغة العرب ومعلوم أنه باطل (الثانى) أنه لو صرف الجعل إلى التسمية لزم كون التسمية مجعولة ، والتسمية أيضاً كلام الله ، وذلك يوجب أنه فعل بعض كلامه ، وإذا صح ذلك فى البعض صح فى الكل (الثانى) أنه وصفه بكونه قرآناً ، وهو إنما سمى قرآناً لأنه جعل بعضه مقروناً بالبعض وما كان كذلك كان مصنوعاً معمولا (الثالث) أنه وصفه بكونه عربياً ، وهو إنما كان عربياً لأن هذه الألفاظ إنما اختصت بمسمياتها بوضع العرب واصطلاحاتهم ، وذلك يدل على كونه معمولا ومجعولا (والرابع) أن القسم بغير الله لا يجوز على ماهو معلوم فكان التقدير حم ورب الكتاب المبين ، وتأكد هذا أيضاً بما روى أنه عليه السلام كان يقول يارب طه ويس ويارب القرآن العظيم (والجواب) أن هذا الذى ذكرتموه حق ، وذلك لأنكم إنما استدللتم بهذه الوجوه على كون هذه الحروف المتوالية والكلمات المتعاقبة محدثة مخلوقة ، وذلك معلوم بالضرورة ومن الذى ينازعكم فيه ، بل كان كلامكم يرجع حاصله إلى إقامة الدليل على ماعرف ثبوته بالضرورة .

﴿ المسألة الثانية ﴾ كلمة لعل للتمنى والترجى وهو لا يليق بمن كان عالماً بعواقب الأمور ، فكان المراد منها ههنا : كى أى أنزلناه قرآناً عربياً لكى تعقلوا معناه ، وتحيطوا بفحواه ، قالت المعتزله فصار حاصل الكلام (إنا أنزلناه قرآناً عربياً) لأجل أن تحيطوا بمعناه ، وهذا يفيد أمرين (أحدهما) أن أفعال الله تعالى معللة بالأغراض والدواعى (والثانى) أنه تعالى إنما أنزل القرآن ليهتدى به الناس ، وذلك يدل على أنه تعالى أراد من الكل الهداية والمعرفة ، خلاف قول من يقول إنه تعالى أراد من البعض الكفر والإعراض . واعلم أن هذا النوع من استدلالات المعتزلة مشهور ، وأجوبتنا عنه مشهورة ، فلا فائدة فى الإعادة والله أعلم .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قوله (لعلكم تعقلون) يدل على أن القرآن معلوم وليس فيه شىء مبهم مجهول خلافاً لمن يقول بعضه معلوم وبعضه مجهول .

ثم قال تعالى (وإنه فى أم الكتاب لدينا لعلى حكيم) وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قرأ حمزة والكسائي (أم الكتاب) بكسر الألف والباقون بالضم .

﴿ المسألة الثانية ﴾ الضمير في قوله وإنه عائد إلى الكتاب الذي تقدم ذكره في (أم الكتاب لدينا) واختلفوا في المراد بأم الكتاب على قولين : (فالقول الأول) إنه اللوح المحفوظ لقوله (بل هو قرآن مجيد في لوح محفوظ) .

واعلم أن على هذا التقدير فالصفات المذكورة ههنا كلها صفات اللوح المحفوظ .

﴿ الصفة الأولى ﴾ أنه (أم الكتاب) والسبب فيه أن أصل كل شيء أمه والقرآن مثبت عند الله في اللوح المحفوظ ، ثم نقل إلى سماء الدنيا ، ثم أنزل حالا بحسب المصلحة ، عن ابن عباس رضي الله عنه «إن أول ما خلق الله القلم ، فأمره أن يكتب ما يريد أن يخلق» . فالكتاب عنده فإن قيل وما الحكمة في خلق هذا اللوح المحفوظ مع أنه تعالى علام الغيوب ويستحيل عليه السهو والنسيان ؟ قلنا إنه تعالى لما أثبت في ذلك أحكام حوادث المخلوقات ، ثم إن الملائكة يشاهدون أن جميع الحوادث إنما تحدث على موافقة ذلك المكتوب ، استدلوا بذلك على كمال حكمة الله وعلمه .

﴿ الصفة الثانية ﴾ من صفات اللوح المحفوظ قوله (لدينا) هكذا ذكره ابن عباس ، وإنما خصه الله تعالى بهذا التشريف لكونه كتاباً جامعاً لأحوال جميع المحدثات ، فكأنه الكتاب المشتمل على جميع ما يقع في ملك الله وملكوته ، فلا جرم حصل له هذا التشريف ، قال الواحدي ، ويحتمل أن يكون هذا صفة القرآن والتقدير إنه لدينا في أم الكتاب .

﴿ الصفة الثالثة ﴾ كونه (علياً) والمعنى كونه عالياً عن وجوه الفساد والبطلان وقيل المراد كونه عالياً على جميع الكتب بسبب كونه معجزاً باقياً على وجه الدهر .

﴿ الصفة الرابعة ﴾ كونه (حكيما) أي محكما في أبواب البلاغة والفصاحة . وقيل حكيم أي ذو حكمة بالغة ، وقيل إن هذه الصفات كلها صفات القرآن على ما ذكرناه (والقول الثاني) في تفسير أم الكتاب أنه الآيات المحكمة لقوله تعالى (هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب) ومعناه أن سورة حم واقعة في الآيات المحكمة التي هي الأصل والأم .

قوله تعالى : ﴿ أفنضرب عنكم الذكر صفحاً أن كنتم قوماً مسرفين ﴾ وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قرأ نافع وحمزة والكسائي (إن كنتم) بكسر الألف تقديره : إن كنتم مسرفين لا نضرب عنكم الذكر صفحاً ، وقيل إن بمعنى إذ كقوله تعالى (وذروا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين) وبالجملة فالجزاء مقدم على الشرط ، وقرأ الباقون بفتح الألف على التعليل أي لأن كنتم مسرفين .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال الفراء والزجاج يقول ضربت عنه وأضربت عنه أي تركته وأمسكت عنه وقوله (صفحاً) أي إعراضا والأصل فيه أنك توليت بصفحة عنقك وعلى هذا فقوله (أفنضرب عنكم الذكر صفحاً) تقديره : أفنضرب عنكم إضرابنا أو تقديره أفنصفح عنكم صفحا ، واختلفوا

وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ
﴿٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ
﴿١٠﴾ وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ
﴿١١﴾ وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَـٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾
لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى

فى معنى الذكر فقيل معناه أفنرد عنكم ذكر عذاب الله ، وقيل أفنرد عنكم النصائح والمواعظ ، وقيل أفنرد عنكم القرآن ، وهذا استفهام على سبيل الإنكار ، يعنى إنا لا نترك هذا الإعذار الإنذار بسبب كونكم مسرفين ، قال قتادة : لو أن هذا القرآن رفع حين رده أوائل هذه الأمة لهلكوا ولكن الله برحمته كرره عليهم ودعاهم إليه عشرين سنة إذا عرفت هذا فنقول هذا الكلام يحتمل وجهين : (الأول) الرحمة يعنى أنا لا نترككم مع سوء اختياركم بل نذكركم ونعظكم إلى أن ترجعوا إلى الطريق الحق (الثانى) المبالغة فى التغليظ يعنى أتظنون أن تتركوا مع ما تريدون ، كلا بل نلزمكم العمل وندعوكم إلى الدين ونؤاخذكم متى أخللتم بالواجب وأقدمتم على القبيح .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قال صاحب الكشاف الفاء فى قوله (أفنضرب) للعطف على محذوف تقديره أنهملكم فنضرب عنكم الذكر .

ثم قال تعالى (وكم أرسلنا من نبى فى الأولين وما يأتيهم من نبى إلا كانوا به يستهزئون) والمعنى أن عادة الأمم مع الأنبياء الذين يدعونهم إلى الدين الحق هو التكذيب والاستهزاء ، فلا ينبغى أن تتأذى من قومك بسبب إقدامهم على التكذيب والاستهزاء لأن المصيبة إذا عمت خفت .

ثم قال تعالى (فأهلكنا أشد منهم بطشاً) يعنى أن أولئك المتقدمين الذين أرسل الله إليهم الرسل كانوا أشد بطشاً من قريش يعنى أكثر عدداً وجلداً ، ثم قال (ومضى مثل الأولين) والمعنى أن كفار مكة سلكوا فى الكفر والتكذيب مسلك من كان قبلهم فليحذروا أن ينزل بهم من الخزى مثل ما نزل بهم فقد ضربنا لهم مثلهم كما قال (وكلا ضربنا له الأمثال) وكقوله (وسكنتم فى مساكن الذين ظلموا أنفسهم) إلى قوله (وضربنا لكم الأمثال) والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم ، الذى جعل لكم الأرض مهداً وجعل لكم فيها سبلا لعلكم تهتدون ، والذى نزل من السماء ماء بقدر فأنشرنا به بلدة ميتاً كذلك تخرجون ، والذى خلق الأزواج كلها وجعل لكم من الفلك والأنعام ماتركبون ،

سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾

لتستووا على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه وتقولوا سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين ، وإنا إلى ربنا لمنقلبون ﴾ .

اعلم أنه قد تقدم ذكر المسرفين وهم المشركون وتقدم أيضاً ذكر الأنبياء فقوله (ولئن سألتهم) يحتمل أن يرجع إلى الأنبياء ، ويحتمل أن يرجع إلى الكفار إلا أن الأقرب رجوعه إلى الكفار ، فبين تعالى أنهم مقرون بأن خالق السموات والأرض وما بينهما هو الله العزيز الحكيم ، والمقصود أنهم مع كونهم مقرين بهذا المعنى يعبدون معه غيره وينكرون قدرته على البعث ، وقد تقدم الإخبار عنهم ، ثم إنه تعالى ابتدأ دالا على نفسه بذكر مصنوعاته فقال (الذى جعل لكم الأرض مهداً) ولو كان هذا من جملة كلام الكفار لوجب أن يقولوا : الذى جعل لنا الأرض مهداً ، ولأن قوله فى أثناء الكلام (فأنشرنا به بلدة ميتاً) لا يتعلق إلا بكلام الله ونظيره من كلام الناس أن يسمع الرجل رجلا يقول الذى بنى هذا المسجد فلان العالم فيقول السامع لهذا الكلام الزاهد الكريم كأن ذلك السامع يقول أنا أعرفه بصفات حميدة فوق ما تعرفه فأزيد فى وصفه . فيكون النعتان جميعاً من رجلين لرجل واحد . إذا عرفت كيفية النظم فى الآية فنقول إنها تدل على أنواع من صفات الله تعالى .

﴿ الصفة الأولى ﴾ كونه خالقاً للسموات والأرض والمتكلمون بينوا أن أول العلم بالله العلم بكونه محدثاً للعالم فاعلا له ، فلهذا السبب وقع الابتداء بذكر كونه خالقاً ، وهذا إنما يتم إذا فسرنا الخلق بالإحداث والإبداع .

﴿ الصفة الثانية ﴾ العزيز وهو الغالب وما لأجله يحصل المكنة من الغلبة هو القدرة وكان العزيز إشارة إلى كمال القدرة :

﴿ الصفة الثالثة ﴾ العليم وهو إشارة إلى كمال العلم ، واعلم أن كمال العلم والقدرة إذا حصل كان الموصوف به قادراً على خلق جميع الممكنات ، فلهذا المعنى أثبت تعالى كونه موصوفاً بهاتين الصفتين ثم فرع عليه سائر التفاصيل .

﴿ الصفة الرابعة ﴾ قوله (الذى جعل لكم الأرض مهداً) وقد ذكرنا فى هذا الكتاب أن كون الأرض مهداً إنما حصل لأجل كونها واقفة ساكنة ولأجل كونها موصوفة بصفات مخصوصة باعتبارها يمكن الانتفاع بها فى الزراعة وبناء الأبنية وفى كونها ساترة لعيوب الأحياء والأموات ، ولما كان المهد موضع الراحة للصبى جعل الأرض مهداً لكثرة ما فيها من الراحات .

﴿ الصفة الخامسة ﴾ قوله (وجعل لكم فيها سبلا) والمقصود أن انتفاع الناس إنما يكمل

إذا قدر كل أحد أن يذهب من بلد إلى بلد ومن إقليم إلى إقليم ، ولولا أن الله تعالى هيأ تلك السبل ووضع عليها علامات مخصوصة وإلا لما حصل هذا الانتفاع .

ثم قال تعالى ﴿ لعلكم تهتدون ﴾ يعنى المقصود من وضع السبل أن يحصل لكم المكنة من الاهتداء ، والثانى المعنى لتهتدوا إلى الحق فى الدين .

﴿ الصفة السادسة ﴾ قوله تعالى (والذى نزل من السماء ماء بقدر فأنشرنا به بلدة ميتاً) وههنا مباحث (أحدها) أن ظاهر هذه الآية يقتضى أن الماء ينزل من السماء . فهل الأمر كذلك أو يقال إنه ينزل من السحاب وسمى نازلا من السماء لأن كل ما سماك فهو سماء ؟ وهذا البحث قد مر ذكره بالاستقصاء (وثانيها) قوله (بقدر) أى إنما ينزل من السماء بقدر ما يحتاج إليه أهل تلك البقعة من غير زيادة ولا نقصان لا كما أنزل على قوم نوح بغير قدر حتى أغرقهم بل بقدر حتى يكون معاشاً لكم ولأنعامكم (وثالثها) قوله (فأنشرنا به بلدة ميتاً) أى خالية من النبات فأحييناها وهو الإنشار .

ثم قال ﴿ كذلك تخرجون ﴾ يعنى أن هذا الدليل كما يدل على قدرة الله وحكمته فكذلك يدل على قدرته على البعث والقيامة ووجه التشبيه أنه يجعلهم أحياء بعد الإماتة كهذه الأرض التى أنشرت بعد ما كانت ميتة ، وقال بعضهم بل وجه التشبيه أن يعيدهم ويخرجهم من الأرض بماء كالمنى كما تنبت الأرض بماء المطر ، وهذا الوجه ضعيف لأنه ليس فى ظاهر اللفظ إلا إثبات الإعادة فقط دون هذه الزيادة .

﴿ الصفة السابعة ﴾ قوله تعالى (والذى خلق الأزواج كلها) قال ابن عباس الأزواج الضروب والأنواع كالحلو والحامض والأبيض والأسود والذكر والأنثى ، وقال بعض المحققين كل ما سوى الله فهو زوج كالفوق والتحت واليمين واليسار والقدام والخلف والماضى والمستقبل والذوات والصفات والصيف والشتاء والربيع والخريف ، وكونها أزواجاً يدل على كونها ممكنة الوجود فى ذواتها محدثة مسبوقة بالعدم ، فأما الحق سبحانه فهو الفرد المنزه عن الضد والند والمقابل والمعاضد فلهذا قال سبحانه (والذى خلق الأزواج كلها) أى كل ما هو زوج فهو مخلوق ، فدل هذا على أن خالقها فرد مطلق منزه عن الزوجية ، وأقول أيضاً العلماء بعلم الحساب بينوا أن الفرد أفضل من الزوج من وجوه (الأول) أن أقل الأزواج هو الإثنان وهو لا يوجد إلا عند حصول وحدتين فالزوج يحتاج إلى الفرد والفرد وهو الوحدة غنية عن الزوج والغنى أفضل من المحتاج (الثانى) أن الزوج يقبل القسمة بقسمين متساويين والفرد هو الذى لا يقبل القسمة وقبول القسمة انفعال وتأثر وعدم قبولها قوة وشدة ومقاومة فكان الفرد أفضل من الزوج (الثالث) أن العدد الفرد لا بد وأن يكون أحد قسميه زوجا والثانى فرداً فالعدد الفرد حصل فيه الزوج والفرد معاً ، وأما العدد الزوج فلابد وأن يكون كل واحد من قسميه زوجا والمشتمل على القسمين أفضل من الذى

لا يكون كذلك (الرابع) أن الزوجية عبارة عن كون كل واحد من قسميه معادلا للقسم الآخر فى الذات والصفات والمقدار ، وإذا كان كل ما حصل له من الكمال فمثله حاصل لغيره لم يكن هو كاملا على الإطلاق ، أما الفرد فالفردية كائنة له خاصة لا لغيره ولا لمثله فكماله حاصلا له لا لغيره فكان أفضل (الخامس) أن الزوج لا بد وأن يكون كل واحد من قسميه مشاركا للقسم الآخر فى بعض الأمور ومغايراً له فى أمور أخرى وما به المشاركة غير ما به المخالفة فكل زوجين فهما ممكنا الوجود لذاتيهما وكل ممكن فهو محتاج فثبت أن الزوجية منشأ الفقر والحاجة ، وأما الفردانية فهى منشأ الاستغناء والاستقلال لأن العدد محتاج إلى كل واحد من تلك الوحدات ، وأما كل واحد من تلك الوحدات فإنه غنى عن ذلك العدد ، فثبت أن الأزواج ممكنات ومحدثات ومخلوقات وأن الفرد هو القائم بذاته المستقبل بنفسه الغنى عن كل ما سواه ، فلهذا قال سبحانه (والذى خلق الأزواج كلها) .

﴿ الصفة الثامنة ﴾ قوله (وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون) وذلك لأن السفر إما سفر البحر أو البر ، أما سفر البحر فالحامل هو السفينة ، وأما سفر البر فالحامل هو الأنعام وههنا سؤالان :

﴿ السؤال الأول ﴾ لم لم يقل على ظهورها ؟ أجابوا عنه من وجوه (الأول) قال أبو عبيدة التذكير لقوله ما والتقدير ما تركبون (الثانى) قال الفراء أضاف الظهور إلى واحد فيه معنى الجمع بمنزل الجيش والجند ، ولذلك ذكر وجمع الظهور (الثالث) أن هذا التأنيث ليس تأنيثاً حقيقياً لجاز أن يختلف اللفظ فيه كما يقال عندى من النساء من يوافقك .

﴿ السؤال الثانى ﴾ يقال ركبوا الأنعام وركبوا فى الفلك وقد ذكر الجنسين فكيف قال تركبون ؟ (والجواب) غلب المتعدى بغير واسطة لقوته على المتعدى بواسطة .

ثم قال تعالى (ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه) ومعنى ذكر نعمة الله ، أن يذكروها فى قلوبهم ، وذلك الذكر هو أن يعرف أن الله تعالى خلق وجه البحر ، وخلق الرياح ، وخلق جرم السفينة على وجه يتمكن الإنسان من تصريف هذه السفينة إلى أى جانب شاء وأراد ، فإذا تذكروا أن خلق البحر ، وخلق الرياح ، وخلق السفينة على هذه الوجوه القابلة لتصريفات الإنسان ولتحريكاته ليس من تدبير ذلك الإنسان ، وإنما هو من تدبير الحكيم العليم القدير ، عرف أن ذلك نعمة عظيمة من الله تعالى ، فيحمله ذلك على الإنقياد والطاعة له تعالى ، وعلى الاشتغال بالشكر لنعمه التى لا نهاية لها .

ثم قال تعالى (وتقولوا سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين) .

واعلم أنه تعالى عين ذكراً معيناً لركوب السفينة ، وهو قوله (بسم الله مجراها ومرساها) وذكراً آخر لركوب الأنعام ، وهو قوله (سبحان الذى سخر لنا هذا) وذكر عند دخول المنازل

ذكراً آخر ، وهو قوله (رب أنزلنى منزلا مباركا وأنت خير المنزلين) وتحقيق القول فيه أن الدابة التى يركبها الإنسان ، لابد وأن تكون أكثر قوة من الإنسان بكثير ، وليس لها عقل يهديها إلى طاعة الإنسان ، ولكنه سبحانه خلق تلك البهيمة على وجوه مخصوصة فى خلقها الظاهر ، وفى خلقها الباطن يحصل منها هذا الانتفاع ، أما خلقها الظاهر : فلأنها تمشى على أربع قوائم ، فكان ظاهرها كالموضع الذى يحسن استقرار الإنسان عليه ، وأما خلقها الباطن ، فلأنها مع قوتها الشديدة قد خلقها الله سبحانه بحيث تصير منقادة للانسان ومسخرة له ، فإذا تأمل الإنسان فى هذه العجائب وغاص بعقله فى بحار هذه الأسرار ، عظم تعجبه من تلك القدرة القاهرة والحكمة غير المتناهية ، فلابد وأن يقول (سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين) قال أبو عبيدة : فلان مقرن لفلان ، أى ضابط له . قال الواحدى : وكان اشتقاقه من قولك ضرب له قرناً ، ومعنى أنا قرن لفلان ، أى مثاله فى الشدة ، فكان المعنى أنه ليس عندنا من القوة والطاقة أن نقرن هذه الدابة والفلك وأن نضبطها ، فسبحان من سخرها لنا بعلمه وحكمته وكمال قدرته ، روى صاحب الكشاف عن النبى صلى الله عليه وسلم ، أنه كان إذا وضع رجليه فى الركاب قال « بسم الله ، فاذا استوى على الدابة ، قال الحمد لله على كل حال ، سبحان الذى سخر لنا هذا ، إلى قوله لمنقلبون» وروى القاضى فى تفسيره عن أبى مخلد أن الحسن بن على عليهما السلام : رأى رجلا ركب دابة ، فقال سبحان الذى سخر لنا هذا ، فقال له مابهذا أمرت ، أمرت أن تقول : الحمد لله الذى هدانا للاسلام ، الحمد لله الذى من علينا بمحمد صلى الله عليه وسلم ، والحمد لله الذى جعلنا من خير أمة أخرجت للناس ، ثم تقول : سبحان الذى سخر لنا هذا ، وروى أيضاً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم « أنه كان إذا سافر وركب راحلته ، كبر ثلاثا ، ثم يقول : سبحان الذى سخر لنا هذا ، ثم قال : اللهم إنى أسألك فى سفرى هذا البر والتقوى ومن العمل ماترضى ، اللهم هون علينا السفر واطوعنا بعد الارض ، اللهم أنت الصاحب فى السفر والخليفة على الأهل ، اللهم اصحبنا فى سفرنا ، واخلفنا فى أهلنا » وكان إذا رجع إلى أهله يقول « آيبون تائبون ، لربنا حامدون » قال صاحب الكشاف : دلت هذه الآية على خلاف قول المجبرة من وجوه (الأول) أنه تعالى قال (لتستووا على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم) فذكره بلام كى ، وهذا يدل على أنه تعالى أراد منا هذا الفعل ، وهذا يدل على بطلان قولهم إنه تعالى أراد الكفر منه ، وأراد الإصرار على الإنكار (الثانى) أن قوله (لتستووا) يدل على أن فعله معلل بالاغراض (الثالث) أنه تعالى بين أن خلق هذه الحيونات على هذه الطبائع إنما كان لغرض أن يصدر الشكر على العبد ، فلو كان فعل العبد فعلا لله تعالى ، لكان معنى الآية إنى خلقت هذه الحيوانات لأجل أن أخلق سبحان الله فى لسان العبد ، وهذا باطل ، لأنه تعالى قادر على أن يخلق هذا اللفظ فى لسانه بدون هذه الوسايط .

واعلم أن الكلام على هذه الوجوه معلوم ، فلا فائدة فى الإعادة .

وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُم بِالْبَنِينَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾ أَوَمَن يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ ﴿١٩﴾

ثم قال تعالى (وإنا إلى ربنا لمنقلبون) واعلم أن وجه اتصال هذا الكلام بما قبله أن ركوب الفلك فى خطر الهلاك ، فإنه كثيراً ما تنكسر السفينة ويهلك الإنسان وراكب الدابة أيضاً كذلك لأن الدابة قد يتفق لها اتفاقات توجب هلاك الراكب ، وإذا كان كذلك فركوب الفلك والدابة يوجب تعريض النفس للهلاك ، فوجب على الراكب أن يتذكر أمر الموت ، وأن يقطع أنه هالك لا محالة ، وأنه منقلب إلى الله تعالى وغير منقلب من قضائه وقدره ، حتى لو اتفق له ذلك المحذور كان قد وطن نفسه على الموت .

قوله تعالى : ﴿ وجعلوا له من عباده جزءاً إن الإنسان لكفور مبين ، أم اتخذ مما يخلق بنات وأصفاكم بالبنين ، وإذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلا ظل وجهه مسوداً وهو كظيم ، أو من ينشأ فى الحلية وهو فى الخصام غير مبين ، وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا أشهدوا خلقهم ستكتب شهادتهم ويسئلون ﴾ .

اعلم أنه تعالى لما قال (ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله) بين أنهم مع إقرارهم بذلك ، جعلوا له من عباده جزءا ، والمقصود منه التنبيه على قلة عقولهم وسخافة عقولهم . وفى الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قرأ عاصم فى رواية أبى بكر : جزء بضم الزاى والهمزة فى كل القرآن وهما لغتان ، وأما حمزة فإذا وقف عليه قال جزا بفتح الزاى بلا همزة .

﴿ المسألة الثانية ﴾ فى المراد من قوله (وجعلوا له من عباده جزءاً) قولان : (الأول) وهو المشهور أن المراد أنهم أثبتوا له ولداً ، وتقرير الكلام أن ولد الرجل جزء منه ، قال عليه السلام « فاطمة بضعة منى » ولأن المعقول من الوالد أن ينفصل عنه جزء من أجزائه ، ثم يتربى ذلك الجزء ويتولد منه شخص مثل ذلك الأصل ، وإذا كان كذلك فولد الرجل جزء منه وبعض منه ،

فقوله (وجعلوا له من عباده جزءاً) معنى جعلوا حكموا وأثبتوا وقالوا به ، والمعنى أنهم أثبتوا له جزءاً ، وذلك الجزء هو عبد من عباده .

واعلم أنه لو قال وجعلوا لعباده منه جزءاً ، أفاد ذلك أنهم أثبتوا أنه حصل جزء من أجزائه فى بعض عباده وذلك هو الولد ، فكذا قوله (وجعلوا له من عباده جزءاً) معناه وأثبتوا له جزءاً ، وذلك الجزء هو عبد من عباده ، والحاصل أنهم أثبتوا لله ولداً ، وذكروا فى تقرير هذا القول وجوهاً أخر ، فقالوا الجزء هو الأنثى فى لغة العرب ، واحتجوا فى إثبات هذه اللغة ببيتين فالأول قوله : إن أجزأت حرة يوماً فلا عجب قد تجزىء الحرة المذكاة أحياناً

وقوله : زوجتها من بنات الأوس مجزئة للعوسج اللدن فى أبياتها غزل

وزعم الزجاج والأزهرى وصاحب الكشاف : أن هذه اللغة فاسدة ، وأن هذه الأبيات مصنوعة (والقول الثانى) فى تفسير الآية أن المراد من قوله (وجعلوا له من عباده جزءاً) إثبات الشركاء لله ، وذلك لأنهم لما أثبتوا الشركاء لله تعالى فقد زعموا أن كل العباد ليس لله ، بل بعضها لله ، وبعضها لغير الله ، فهم ماجعلوا لله من عباده كلهم ، بل جعلوا له منهم بعضاً وجزءاً منهم ، قالوا والذى يدل على أن هذا القول أولى من الأول ، أنا إذا حملنا هذه الآية على إنكار الشريك لله ، وحملنا الآية التى بعدها على إنكار الولد لله ، كانت الآية جامعة للرد على جميع المبطلين .

قوله تعالى : ﴿ أم اتخذ مما يخلق بنات وأصفاكم بالبنين ﴾ .

واعلم أنه تعالى رتب هذه المناظرة على أحسن الوجوه ، وذلك لأنه تعالى بين أن إثبات الولد لله محال ، وبتقدير أن يثبت الولد فجعله بنتاً أيضاً محال ، أما بيان أن إثبات الولد لله محال ، فلأن الولد لابد وأن يكون جزءاً من الوالد ، وماكان له جزء كان مركباً ، وكل مركب ممكن ، وأيضاً ماكان كذلك فإنه يقبل الاتصال والانفصال والاجتماع والافتراق ، وماكان كذلك فهو عبد محدث ، فلا يكون إلهاً قديماً أزلياً .

(وأما المقام الثانى) وهو أن بتقدير ثبوت الولد فإنه يمتنع كونه بنتاً ، وذلك لأن الإبن أفضل من البنت ، فلو قلنا إنه اتخذ لنفسه البنات وأعطى البنين لعباده ، لزم أن يكون حال العبد أكمل وأفضل من حال الله ، وذلك مدفوع فى بديهة العقل ، يقال اصفيت فلاناً بكذا ، اى آثرته به إيثاراً حصل له على سبيل الصفاء من غير ان يكون له فيه مشارك ، وهو كقوله (أفأصفاكم ربكم بالبنين) ثم بين نقصان البنات من وجوه (الأول) قوله (وإذا بشر احدهم بما ضرب للرحمن مثلا ظل وجهه مسوداً وهو كظيم) والمعنى ان الذى بلغ حاله فى النقص إلى هذا الحد كيف يجوز للعاقل إثباته لله تعالى ! وعن بعض العرب ان امراته وضعت انثى ، فهجر البيت الذى فيه المرأة ، فقالت :

ما لأبى حمزة لا يأتينا يظل فى البيت الذى يلينا غضبان أن لا نلد البنينا
ليس لنا من أمرنا ماشينا وإنما نأخذ ما أعطينا

وقوله (ظل) أى صار ، كما يستعمل أكثر الأفعال الناقصة ، قال صاحب الكشاف : قرىء مسود ومسواد ، والتقدير وهو مسود ، فتقع هذه الجملة موقع الخبر (والثانى) قوله (أو من ينشأ فى الحلية وهو فى الخصام غير مبين) وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قرأ حمزة والكسائى وحفص عن عاصم ينشؤ بضم الياء وفتح النون وتشديدالشين على مالم يسم فاعله ، أى يربى ، والباقون ينشأ ، بضم الياء وسكون النون وفتح الشين ، قال صاحب الكشاف : وقرىء يناشأ ، قال ونظير المناشأة بمعنى الإنشاء ، المغالاة بمعنى الإغلاء .

﴿ المسألة الثانية ﴾ المراد من قوله ﴿أو من ينشأ فى الحلية﴾ التنبيه على نقصانها ، وهو أن الذى يربى فى الحلية يكون ناقص الذات ، لأنه لولا نقصان فى ذاتها لما احتاجت إلى تزيين نفسها بالحلية ، ثم بين نقصان حالها بطريق آخر ، وهو قوله (وهو فى الخصام غير مبين) يعنى أنها إذا احتاجت المخاصمة والمنازعة عجزت وكانت غير مبين ، وذلك لضعف لسانها وقلة عقلها وبلادة طبعها ، ويقال قلما تكلمت امرأة فأرادت أن تتكلم بحجتها إلا تكلمت بما كان حجة عليها ، فهذه الوجوه دالة على كمال نقصها ، فكيف يجوز إضافتهن بالولدية إليه !.

﴿ المسألة الثالثة ﴾ دلت الآية على أن التحلى مباح للنساء ، وأنه حرام للرجال ، لأنه تعالى جعل ذلك من المعايب وموجبات النقصان ، وإقدام الرجل عليه يكون إلقاء لنفسه فى الذل وذلك حرام ، لقوله عليه السلام « ليس للمؤمن أن يذل نفسه » وإنما زينة الرجل الصبر على طاعة الله ، والتزين بزينة التقوى ، قال الشافعى :

تدرعت يوماً للقنوع حصينة أصون بها عرضى وأجعلها ذخرا
ولم أحذر الدهر الخئون وإنما قصاراه أن يرمى بى الموت والفقرا
فأعددت للموت الإله وعفوه وأعددت للفقر التجلد والصبرا

قوله تعالى : ﴿وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً﴾ وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ المراد بقوله : جعلوا ، أى حكموا به ، ثم قال (أشهدوا خلقهم) وهذا استفهام على سبيل الإنكار ، يعنى أنهم لم يشهدوا خلقهم ، وهذا مما لا سبيل إلى معرفته بالدلائل العقلية ، واما الدلائل النقلية فكلها مفرعة على إثبات النبوة ، وهؤلاء الكفار منكرون للنبوة ، فلا سبيل لهم إلى إثبات هذا المطلوب بالدلائل النقلية ، فثبت انهم ذكروا هذه الدعوى من غير ان عرفوه لا بضرورة ولا بدليل ، ثم إنه تعالى هددهم فقال (ستكتب شهادتهم ويسألون) وهذا يدل على ان القول بغير دليل منكر ، وان التقليد يوجب الذم العظيم والعقاب الشديد . قال اهل

وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَاهُم مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ (٢٠) أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِّن قَبْلِهِ فَهُم بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ (٢١) بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ (٢٢) وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم

التحقيق : هؤلاء الكفار كفروا فى هذا القول من ثلاثة أوجه (أولها) إثبات الولد لله تعالى (وثانيها) أن ذلك الولد بنت (وثالثها) الحكم على الملائكة بالأنوثة .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قرأ نافع وابن كثير وابن عامر : عند الرحمن بالنون ، وهو اختيار أبى حاتم واحتج عليه بوجوه (الأول) أنه يوافق قوله (إن الذين عند ربك) وقوله (ومن عنده) (والثانى) أن كل الخلق عباده فلا مدح لهم فيه (والثالث) أن التقدير أن الملائكة يكونون عند الرحمن ، لا عند هؤلاء الكفار ، فكيف عرفوا كونهم إناثاً ؟ وأما الباقون فقرأوا عباد جمع عبد وقيل جمع عابد ، كقائم وقيام ، وصائم وصيام ، ونائم ونيام ، وهى قراءة ابن عباس ، واختيار أبى عبيد ، قال لأنه تعالى رد عليهم قولهم : إنهم بنات الله ، وأخبر أنهم عبيد ، ويؤيد هذه القراءة قوله (بل عباد مكرمون) .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قرأ نافع وحده : (آأشهدوا) بهمزة ومدة بعدها خفيفة لينة وضمة ، أى [أ]أحضروا خلقهم ، وعن نافع غير ممدود على مالم يسم فاعله ، والباقون : أشهدوا ، بفتح الألف ، من [أ]شهدوا ، أى أحضروا .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ احتج من قال بتفضيل الملائكة على البشر بهذه الآية ، فقال أما قراءة عند بالنون ، فهذه العندية لا شك أنها عندية الفضل والقرب من الله تعالى بسبب الطاعة ، ولفظة (هم) توجب الحصر ، والمعنى أنهم هم الموصوفون بهذه العندية لا غيرهم . فوجب كونهم أفضل من غيرهم رعاية للفظ الدال على الحصر ، وأما من قرأ عباد جمع العبد ، فقد ذكرنا أن لفظ العباد مخصوص فى القرآن بالمؤمنين فقوله (هم عباد الرحمن) يفيد حصر العبودية فيهم ، فاذا كان اللفظ الدال على العبودية دالا على الفضل والشرف ، كان اللفظ الدال على حصر العبودية دالا على حصر الفضل والمنقبة والشرف فيهم . وذلك يوجب كونهم افضل من غيرهم والله اعلم .

قوله تعالى : ﴿ وقالوا لو شاء الرحمن ماعبدناهم مالهم بذلك من علم إن هم إلا يخرصون ، ام آتيناهم كتاباً من قبله فهم به مستمسكون ، بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على امة وإنا على آثارهم مهتدون ،

مُقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَاءَكُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٢٤﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٥﴾

وكذلك ما أرسلنا من قبلك فى قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون ، قال أولو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم قالوا إنا بما أرسلتم به كافرون ، فانتقمنا منهم فانظر كيف كان عاقبة المكذبين ﴾ .

اعلم أنه تعالى حكى نوعا آخر من كفرهم وشبهاتهم ، وهو أنهم قالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم ، وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قالت المعتزلة هذه الآية تدل على فساد قول المجبرة فى أن كفر الكافر يقع بإرادة الله من وجهين (الأول) أنه تعالى حكى عنهم أنهم قالوا (لو شاء الرحمن ما عبدناهم) وهذا صريح قول المجبرة ، ثم إنه تعالى أبطله بقوله (مالهم بذلك من علم إن هم إلا يخرصون) فثبت أنه حكى مذهب المجبرة ، ثم أردفه بالإبطال والإفساد ، فثبت أن هذا المذهب باطل ، ونظيره قوله تعالى فى سورة الأنعام (سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا) إلى قوله (قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تخرصون) ، (والوجه الثانى) أنه تعالى حكى عنهم قبل هذه الآية أنواع كفرهم (فأولها) قوله (وجعلوا له من عباده جزءاً) ، (وثانيها) قوله (وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً) ، (وثالثها) قوله تعالى (وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم) فلما حكى هذه الأقاويل الثلاثة بعضها على إثر بعض ، وثبت أن القولين الأولين كفر محض . فكذلك هذا القول الثالث يجب أن يكون كفراً ، واعلم أن الواحدى أجاب فى البسيط عنه من وجهين (الأول) ما ذكره الزجاج : وهو أن قوله تعالى (ما لهم بذلك من علم) عائد إلى قولهم الملائكة إناث وإلى قولهم الملائكة بنات الله (والثانى) أنهم أرادوا بقولهم (لو شاء الرحمن ما عبدناهم) أنه أمرنا بذلك ، وأنه رضى بذلك ، وأقرنا عليه ، فأنكر ذلك عليهم ، فهذا ما ذكره الواحدى فى الجواب ، وعندى هذان الوجهان ضعيفان (أما الأول) فلأنه تعالى حكى عن القوم قولين باطلين ، وبين وجه بطلانهما ، ثم حكى بعده مذهباً ثالثاً فى مسألة أجنبية عن المسألتين الأوليين ، ثم حكم بالبطلان والوعيد فصرف هذا الإبطال عن هذا الذى ذكره عقيبه إلى كلام متقدم أجنبى عنه فى غاية البعد (وأما الوجه الثانى) فهو أيضاً ضعيف ، لأن قوله (لو شاء الرحمن ما عبدناهم) ليس فيه بيان متعلق بتلك المشيئة ، والإجمال خلاف الدليل ، فوجب أن يكون التقدير لو شاء الله ألا نعبدهم ما عبدناهم ، وكلمة لو تفيد انتفاء الشىء لانتفاء غيره ، فهذا يدل على أنه لم توجد مشيئة الله لعدم عبادتهم ، وهذا عين مذهب المجبرة ، فالإبطال والإفساد يرجع إلى هذا

المعنى ، ومن الناس من أجاب عن هذا الاستدلال بأن قال إنهم إنما ذكروا ذلك الكلام على سبيل الاستهزاء والسخرية ، فلهذا السبب استوجبوا الطعن والذم ، وأجاب صاحب الكشاف عنه من وجهين (الأول) أنه ليس فى اللفظ مايدل على أنهم قالوا مستهزئين ، وادعاء مالا دليل عليه باطل (الثانى) أنه تعالى حكى عنهم ثلاثة أشياء وهى : أنهم (جعلوا له من عباده جزءاً) وأنهم جعلوا الملائكة إناثاً ، وأنهم قالوا (لو شاء الرحمن ما عبدناهم) فلو قلنا بأنه إنما جاء الذم على القول الثالث لأنهم ذكروه على طريق الجد ، وجب أن يكون الحال فى حكاية القولين الأولين كذلك ، فلزم أنهم لو نطقوا بتلك الأشياء على سبيل الجد أن يكونوا محقين ، ومعلوم أنه كفر ، وأما القول بأن الطعن فى القولين الأولين إنما توجه على نفس ذلك القول ، وفى القول الثالث لاعلى نفسه بل على إيراده على سبيل الاستهزاء ، فهذا يوجب تشويش النظم ، وإنه لايجوز فى كلام الله .

واعلم أن الجواب الحق عندى عن هذا الكلام ماذكرناه فى سورة الأنعام ، وهو أن القوم إنما ذكروا هذا الكلام لأنهم استدلوا بمشيئة الله تعالى للكفر على أنه لايجوز ورود الأمر بالإيمان فاعتقدوا أن الأمر والإرادة يجب كونهما متطابقين ، وعندنا أن هذا باطل فالقوم لم يستحقوا الذم بمجرد قولهم إن الله يريد الكفر من الكافر بل لأجل أنهم قالوا لما أراد الكفر من الكافر وجب أن يقبح منه أمر الكافر بالإيمان ، وإذا صرفنا الذم والطعن إلى هذا المقام سقط استدلال المعتزلة بهذه الآية ، وتمام التقرير مذكور فى سورة الأنعام والله أعلم .

﴿ المسألة الثانية ﴾ أنه تعالى لما حكى عنهم ذلك المذهب الباطل قال (ما لهم بذلك من علم إن هم إلا يخرصون) وتقريره كأنه قيل إن القوم يقولون لما أراد الله الكفر من الكافر وخلق فيه ما أوجب ذلك الكفر وجب أن يقبح منه أن يأمره بالإيمان لأن مثل هذا التكليف قبيح فى الشاهد فيكون قبيحاً فى الغائب فقال تعالى (ما لهم بذلك من علم) أى مالهم بصحة هذا القياس من علم ، وذلك لأن أفعال الواحد منا وأحكامه مبنية على رعاية المصالح والمفاسد لأجل أن كل ماسوى الله فإنه ينتفع بحصول المصالح ويستضر بحصول المفاسد ، فلاجرم أن صريح طبعه وعقله يحمله على بناء أحكامه وأفعاله على رعاية المصالح ، أما الله سبحانه وتعالى فإنه لاينفعه شىء ولا يضره شىء فكيف يمكن القطع بأنه تعالى يبنى أحكامه وأفعاله على رعاية المصالح مع ظهور هذا الفارق العظيم فقوله تعالى (ما لهم بذلك من علم) أى مالهم بصحة قياس الغائب على الشاهد فى هذا الباب علم .

ثم قال (إن هم إلا يخرصون) أى كما لم يثبت لهم صحة ذلك القياس فقد ثبت بالبرهان القاطع كونهم كذابين خراصين فى ذلك القياس لأن قياس المنزه عن النفع والضر من كل الوجوه على المحتاج المنتفع المتضرر قياس باطل فى بديهة العقل .

ثم قال (أم آتيناهم كتاباً من قبله فهم به مستمسكون) يعنى أن القول الباطل الذى حكاه الله تعالى عنهم عرفوا صحته بالعقل أو بالنقل ، أما إثباته بالعقل فهو باطل لقوله (مالهم بذلك من علم إن هم إلا يخرصون) وأما إثباته بالنقل فهو أيضاً باطل لقوله (أم آتيناهم كتاباً من قبله فهم به مستمسكون) والضمير فى قوله من قبله للقرآن أو الرسول ، والمعنى أنهم [هل] وجدوا ذلك الباطل فى كتاب منزل قبل القرآن حتى جاز لهم أن يعولوا عليه ، وأن يتمسكوا به ، والمقصود منه ذكره فى معرض الإنكار ، ولما ثبت أنه لم يدل عليه لا دليل عقلى ولا دليل نقلى وجب أن يكون القول به باطلا .

ثم قال تعالى (بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون) والمقصود أنه تعالى لما بين أنه لا دليل لهم على صحة ذلك القول البتة بين أنه ليس لهم حامل يحملهم عليه إلا التقليد المحض ، ثم بين أن تمسك الجهال بطريقة التقليد أمر كان حاصلا من قديم الدهر فقال (وكذلك ما أرسلنا من قبلك فى قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون) وفى الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قال صاحب الكشاف قرىء (على إمة) بالكسر وكلتاهما من الأم وهو القصد ، فالأمة الطريقة التى تؤم أى تقصد كالرحلة للمرحول إليه ، والإمة الحالة التى يكون عليها الآم وهو القاصد .

﴿ المسألة الثانية ﴾ لو لم يكن فى كتاب الله إلا هذه الآيات لكفت فى إبطال القول بالتقليد وذلك لأنه تعالى بين أن هؤلاء الكفار لم يتمسكوا فى إثبات ما ذهبوا إليه لا بطريق عقلى ولا بدليل نقلى ، ثم بين أنهم إنما ذهبوا إليه بمجرد تقليد الآباء والأسلاف ، وإنما ذكر تعالى هذه المعانى فى معرض الذم والتهجين ، وذلك يدل على أن القول بالتقليد باطل ، ومما يدل عليه أيضاً من حيث العقل أن التقليد أمر مشترك فيه بين المبطل وبين المحق وذلك لأنه كما حصل لهذه الطائفة قوم من المقلدة فكذلك حصل لأضدادهم أقوام من المقلدة فلو كان التقليد طريقاً إلى الحق لوجب كون الشىء ونقيضه حقاً ومعلوم أن ذلك باطل .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ أنه تعالى بين أن الداعى إلى القول بالتقليد والحامل عليه ، إنما هو حب التنعم فى طيبات الدنيا وحب الكسل والبطالة وبغض تحمل مشاق النظر والاستدلال لقوله (إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة) والمترفون هم الذين أترفتهم النعمة أى أبطرتهم فلا يحبون إلا الشهوات والملاهى ويبغضون تحمل المشاق فى طلب الحق ، وإذا عرفت هذا علمت أن رأس جميع الآفات حب الدنيا واللذات الجسمانية ورأس جميع الخيرات هو حب الله والدار الآخرة ، فلهذا قال عليه السلام « حب الدنيا رأس كل خطيئة » .

ثم قال تعالى لرسوله (قال أولو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم) أى بدين أهدى من دين آبائكم فعند هذا حكى الله عنهم أنهم قالوا إنا ثابتون على دين آبائنا لا ننفك عنه وإن جئتنا بما

وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿٢٩﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٠﴾

هو أهدى (فإنا بما أرسلتم به كافرون) وإن كان أهدى بما كنا عليه ، فعند هذا لم يبق لهم عذر ولا علة ، فلهذا قال تعالى (فانتقمنا منهم فانظر كيف كان عاقبة المكذبين) والمراد منه تهديد الكفار والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه إنني براء مما تعبدون ، إلا الذي فطرني فإنه سيهدين ، وجعلها كلمة باقية في عقبه لعلهم يرجعون ، بل متعت هؤلاء وآباءهم حتى جاءهم الحق ورسول مبين ، ولما جاءهم الحق قالوا هذا سحر وإنا به كافرون﴾ .

اعلم أنه تعالى لما بين فى الآية المتقدمة أنه ليس لأولئك الكفار داع يدعوهم إلى تلك الأقاويل الباطلة إلا تقليد الآباء والأسلاف ، ثم بين أنه طريق باطل ومنهج فاسد ، وأن الرجوع إلى الدليل أولى من الاعتماد على التقليد ، أردفه بهذه الآية والمقصود منها ذكر وجه آخر يدل على فساد القول بالتقليد وتقريره من وجهين : (الأول) أنه تعالى حكى عن إبراهيم عليه السلام أنه تبرأ عن دين آبائه بناء على الدليل فنقول : إما أن يكون تقليد الآباء فى الأديان محرماً أو جائزاً ، فإن كان محرماً فقد بطل القول بالتقليد ، وإن كان جائزاً فمعلوم أن أشرف آباء العرب هو إبراهيم عليه السلام ، وذلك لأنهم ليس لهم فخر ولا شرف إلا بأنهم من أولاده ، وإذا كان كذلك فتقليد هذا الأب الذى هو أشرف الآباء أولى من تقليد سائر الآباء ، وإذا ثبت أن تقليده أولى من تقليد غيره فنقول إنه ترك دين الآباء ، وحكم بأن اتباع الدليل أولى من متابعة الآباء ، وإذا كان كذلك وجب تقليده فى ترك تقليد الآباء ووجب تقليده فى ترجيح الدليل على التقليد ، وإذا ثبت هذا فنقول : فقد ظهر أن القول بوجوب التقليد يوجب المنع من التقليد ، وما أفضى ثبوته إلى نفيه كان باطلا ، فوجب أن يكون القول بالتقليد باطلا ، فهذا طريق رقيق فى إبطال التقليد وهو المراد بهذه الآية .

(الوجه الثانى) فى بيان أن ترك التقليد والرجوع إلى متابعة الدليل أولى فى الدنيا وفى الدين ، أنه تعالى بين أن إبراهيم عليه السلام لما عدل عن طريقة أبيه إلى متابعة الدليل لاجرم جعل الله دينه ومذهبه باقياً فى عقبه إلى يوم القيامة ، وأما أديان آبائه فقد اندرست وبطلت ، فثبت أن الرجوع

إلى متابعة الدليل يبقى محمود الأثر إلى قيام الساعة ، وأن التقليد والإصرار ينقطع أثره ولا يبقى منه فى الدنيا خير ولا أثر ، فثبت من هذين الوجهين أن متابعة الدليل وترك التقليد أولى ، فهذا بيان المقصود الأصلى من هذه الآية ، ولنرجع إلى تفسير ألفاظ الآية .

أما قوله (إننى براء مما تعبدون) فقال الكسائى والفراء والمبرد والزجاج (براء) مصدر لايثنى ولايجمع مثل عدل ورضا وتقول العرب أنا البراء منك والخلاء منك ونحن البراء منك والخلاء ولا يقولون البراآن ولاالبراؤن لأن المعنى ذوا البراء وذوو البراء فان قلت برىء وخلى ثنيت وجمعت .

ثم استثنى خالقه من البراءة فقال (إلا الذى فطرنى) والمعنى أنا أتبرأ مما تعبدون إلا من الله عز وجل ، ويجوز أن يكون إلا بمعنى لكن فيكون المعنى لكن الذى فطرنى فإنه سيهدين أى سيرشدنى لدينه ويوفقنى لطاعته .

واعلم أنه تعالى حكى عن إبراهيم عليه السلام فى آية أخرى أنه قال (الذى خلقنى فهو يهدين) وحكى عنه ههنا أنه قال (سيهدين) فأجمع بينهما وقدر كأنه قال : فهو يهدين وسيهدين ، فيدلان على استمرار الهداية فى الحال والاستقبال (وجعلها) أى وجعل إبراهيم كلمة التوحيد التى تكلم بها وهى قوله (إننى براء مما تعبدون) جارياً مجرى (لاإله) وقوله (إلا الذى فطرنى) جارياً مجرى قوله (إلا الله) فكان مجموع قوله (إننى براء مما تعبدون إلا الذى فطرنى) جارياً مجرى قوله (لاإله إلا الله) ثم بين تعالى أن إبراهيم جعل هذه الكلمة باقية فى عقبه أى فى ذريته فلا يزال فيهم من يوحد الله ويدعو إلى توحيده (لعلهم يرجعون) أى لعل من أشرك منهم يرجع بدعاء من وحد منهم ، وقيل وجعلها الله ، وقرىء كلمة على التخفيف وفى عقبه .

ثم قال تعالى (بل متعت هؤلاء وآباءهم) يعنى أهل مكة وهم عقب إبراهيم بالمد فى العمر والنعمة فاغتروا بالمهلة واشتغلوا بالتنعم واتباع الشهوات وطاعة الشيطان عن كلمة التوحيد (حتى جاءهم الحق) وهو القرآن (ورسول مبين) بين الرسالة وأوضحها بما معه من الآيات والبينات فكذبوا به وسموه ساحراً وما جاء به سحراً وكفروا به ، ووجه النظم أنهم لما عولوا على تقليد الآباء ولم يتفكروا فى الحجة اغتروا بطول الإمهال وامتاع الله إياهم بنعيم الدنيا فأعرضوا عن الحق ، قال صاحب الكشاف إن قيل ماوجه قراءة من قرأ متعت بفتح التاء ؟ قلنا كأن الله سبحانه اعترض على ذاته فى قوله (وجعلها كلمة باقية فى عقبه لعلهم يرجعون) فقال بل متعتهم بما متعتهم به من طول العمر والسعة فى الرزق حتى شغلهم ذلك عن كلمة التوحيد ، وأراد بذلك المبالغة فى تعييرهم لأنه إذا متعهم بزيادة النعم وجب عليهم أن يجعلوا ذلك سبباً فى زيادة الشكر والثبات على التوحيد لاأن يشركوا به ويجعلوا له أنداداً ، فمثاله أن يشكو الرجل إساءة من أحسن إليه ثم يقبل على نفسه فيقول أنت السبب فى ذلك بمعروفك وإحسانك إليه ، وغرضه بهذا الكلام توبيخ المسىء لاتقبيح فعل نفسه .

وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾

قوله تعالى : ﴿ وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ، أهم يقسمون رحمت ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً ورحمت ربك خير مما يجمعون ﴾ .

اعلم أن هذا هو (النوع الرابع) من كفرياتهم التى حكاها الله تعالى عنهم فى هذه السورة ، وهؤلاء المساكين قالوا منصب رسالة الله منصب شريف فلايليق إلا برجل شريف ، وقد صدقوا فى ذلك إلا أنهم ضموا إليه مقدمة فاسدة وهى أن الرجل الشريف هو الذى يكون كثير المال والجاه ومحمد ليس كذلك فلا تليق رسالة الله به ، وإنما يليق هذا المنصب برجل عظيم الجاه كثير المال فى إحدى القريتين وهى مكة والطائف ، قال المفسرون والذى بمكة هو الوليد بن المغيرة والذى بالطائف هو عروة بن مسعود الثقفى ، ثم أبطل الله تعالى هذه الشبهة من وجهين (الأول) قوله (أهم يقسمون رحمت ربك) وتقرير هذا الجواب من وجوه (أحدها) أنا أوقعنا التفاوت فى مناصب الدنيا ولم يقدر أحد من الخلق على تغييره فالتفاوت الذى أوقعناه فى مناصب الدين والنبوة بأن لايقدروا على التصرف فيه كان أولى (وثانيها) أن يكون المراد أن اختصاص ذلك الغنى بذلك المال الكثير إنما كان لأجل حكمنا وفضلنا وإحساننا إليه ، فكيف يليق بالعقل أن نجعل إحساننا إليه بكثرة المال حجة علينا فى أن نحسن إليه أيضاً بالنبوة ؟ (وثالثها) إنا لما أوقعنا التفاوت فى الإحسان بمناصب الدنيا لالسبب سابق فلم لايجوز أيضاً أن نوقع التفاوت فى الإحسان بمناصب الدين والنبوة لالسبب سابق ؟ فهذا تقرير الجواب ، ونرجع إلى تفسير الألفاظ فنقول الهمزة فى قوله (أهم يقسمون رحمت ربك) للانكار الدال على التجهيل والتعجب من إعراضهم وتحكمهم وأن يكونوا هم المدبرين لأمر النبوة ، ثم ضرب لهذا مثالا فقال (نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات) وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ أنا أوقعنا هذا التفاوت بين العباد فى القوة والضعف والعلم والجهل والحذاقة والبلاهة والشهرة والخمول ، وإنما فعلنا ذلك لأنا لو سوينا بينهم فى كل هذه الأحوال لم يخدم أحد

وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَٱلْءَاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴿٣٨﴾ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾

أحداً ولم يصر أحد منهم مسخراً لغيره وحينئذ يفضى ذلك إلى خراب العالم وفساد نظام الدنيا ، ثم إن أحداً من الخلق لم يقدر على تغيير حكمنا ولا على الخروج عن قضائنا ، فإن عجزوا عن الإعراض عن حكمنا فى أحوال الدنيا مع قلتها ودناءتها ، فكيف يمكنهم الاعتراض على حكمنا وقضائنا فى تخصيص العباد بمنصب النبوة والرسالة ؟ .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قوله تعالى (نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا) يقتضى أن تكون كل أقسام معايشهم إنما تحصل بحكم الله وتقديره ، وهذا يقتضى أن يكون الرزق الحرام والحلال كله من الله تعالى (والوجه الثانى) فى الجواب ما هو المراد من قوله (ورحمت ربك خير مما يجمعون) ؟ ، وتقريره أن الله تعالى إذا خص بعض عبيده بنوع فضله ورحمته فى الدين فهذه الرحمة خير من الأموال التى يجمعها لأن الدنيا على شرف الانقضاء والانقراض وفضل الله ورحمته تبقى أبد الآباد .

قوله تعالى : ﴿ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفاً من فضة ومعارج عليها يظهرون ، ولبيوتهم أبواباً وسرراً عليها يتكئون ، وزخرفاً وإن كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا والآخرة عند ربك للمتقين ، ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين ، وإنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون ، حتى إذا جاءنا قال يا ليت بينى وبينك بعد المشرقين فبئس القرين ، ولن ينفعكم اليوم إذ ظلمتم أنكم فى العذاب مشتركون﴾ وفى الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ اعلم أنه تعالى أجاب عن الشبهة التي ذكروها بناء على تفضيل الغني على الفقير بوجه ثالث وهو أنه تعالى بين أن منافع الدنيا وطيباتها حقيرة خسيسة عند الله وبين حقارتها بقوله (ولولا أن يكون الناس أمة واحدة) والمعنى لولا أن يرغب الناس في الكفر إذا رأوا الكافر في سعة من الخير والرزق لأعطيتهم أكثر الأسباب المفيدة للتنعم (أحدها) أن يكون سقفهم من فضة (وثانيها) معارج أيضاً من فضة عليها يظهرون (وثالثها) أن نجعل لبيوتهم أبواباً من فضة وسرراً أيضاً من فضة عليها يتكئون .

ثم قال (وزخرفاً) وله تفسيران (أحدهما) أنه الذهب (والثاني) أنه الزينة ، بدليل قوله تعالى (حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت) فعلى التقدير الأول يكون المعنى ونجعل لهم مع ذلك ذهباً كثيراً ، وعلى الثاني أنا نعطيهم زينة عظيمة في كل باب ، ثم بين تعالى أن كل ذلك متاع الحياة الدنيا ، وإنما سماه متاعا لأن الإنسان يستمتع به قليلا ثم ينقضي في الحال ، وأما الآخرة فهي باقية دائمة ، وهي عند الله تعالى وفي حكمه للمتقين عن حب الدنيا المقبلين على حب المولى ، وحاصل الجواب أن أولئك الجهال ظنوا أن الرجل الغني أولى بمنصب الرسالة من محمد بسبب فقره ، فبين تعالى أن المال والجاه حقيران عند الله ، وأنهما على شرف الزوال فحصولهما لا يفيد حصول الشرف والله أعلم .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو (سقفاً) بفتح السين وسكون القاف على لفظ الواحد لإرادة الجنس ، كما في قوله (فخر عليهم السقف من فوقهم) والباقون سقفاً على الجمع واختلفوا فقيل هو جمع سقف ، كرهن ورهن ، قال أبو عبيد : ولا ثالث لهما ، وقيل السقف جمع سقوف ، كرهن ورهون وزبر وزبور ، فهو جمع الجمع .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قوله (لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم) فقوله (لبيوتهم) بدل اشتمال من قوله (لمن يكفر) قال صاحب الكشاف : قرىء معارج ومعاريج ، والمعارج جمع معرج ، أو اسم جمع لمعراج ، وهي المصاعد إلى المساكن العالية كالدرج والسلالم عليها يظهرون ، أي على تلك المعارج يظهرون ، وفي نصب قوله (وزخرفاً) قولان : قيل لجعلنا لبيوتهم سقفاً من فضة ، ولجعلنا لهم زخرفاً وقيل من فضة وزخرف ، فلما حذف الخافض انتصب . وأما قوله (وإن كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا) قرأ عاصم وحمزة (لما) بتشديد الميم ، والباقون بالتخفيف ، وأما قراءة حمزة بالتشديد فإنه جعل لما في معنى إلا ، وحكى سيبويه : نشدتك بالله لما فعلت ، بمعنى إلا فعلت ، ويقوي هذه القراءة أن في حرف أبي ، وما ذلك إلا متاع الحياة الدنيا ، وهذا يدل على أن لما بمعنى إلا ، وأما القراءة بالتخفيف ، فقال الواحدي لفظة ما لغو ، والتقدير لمتاع الحياة الدنيا ، قال أبو الحسن : الوجه التخفيف ، لأن لما بمعنى إلا لا تعرف ، وحكي عن الكسائي أنه قال : لا أعرف وجه التثقيل .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قالت المعتزلة : دلت الآية على أنه تعالى إنما لم يعط الناس نعم الدنيا ، لأجل أنه لو فعل بهم ذلك لدعاهم ذلك إلى الكفر ، فهو تعالى لم يفعل بهم ذلك لأجل أن لا يدعوهم إلى الكفر ، وهذا يدل على أحكام (أحدها) أنه إذا لم يفعل بهم ما يدعوهم إلى الكفر فلأن لا يخلق فيهم الكفر أولى (وثانيها) أنه ثبت أن فعل اللطف قائم مقام إزاحة العذر والعلة ، فلما بين تعالى أنه لم يفعل ذلك إزاحة للعذر والعلة عنهم ، دل ذلك على أنه يجب أن يفعل بهم كل ما كان لطفاً داعياً لهم إلى الإيمان ، فصارت هذه الآية من هذا الوجه دالة على أنه يجب على الله تعالى فعل اللطف (وثالثها) أنه ثبت بهذه الآية ، أن الله تعالى إنما يفعل ما يفعله ويترك مايتركه لأجل حكمة ومصلحة ، وذلك يدل على تعليل أحكام الله تعالى وأفعاله بالمصالح والعلل ، فإن قيل لما بين تعالى أنه لو فتح على الكافر أبواب النعم ، لصار ذلك سبباً لاجتماع الناس على الكفر ، فلم لم يفعل ذلك بالمسلمين حتى يصير ذلك سبباً لاجتماع الناس على الإسلام ؟ قلنا لأن الناس على هذا التقدير كانوا يجتمعون على الإسلام لطلب الدنيا ، وهذا الإيمان إيمان المنافقين ، فكان الأصوب أن يضيق الأمر على المسلمين ، حتى أن كل من دخل الإسلام ، فإنما يدخل فيه لمتابعة الدليل ولطلب رضوان الله تعالى ، فحينئذ يعظم ثوابه لهذا السبب .

ثم قال تعالى (ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين) والمراد منه التنبيه على آفات الدنيا ، وذلك أن من فاز بالمال والجاه صار كالأعشى عن ذكر الله ، ومن صار كذلك صار من جلساء الشياطين الضالين المضلين ، فهذا وجه تعلق هذا الكلام بما قبله ، قال صاحب الكشاف : قرىء (ومن يعش) بضم الشين وفتحها ، والفرق بينهما أنه إذا حصلت الآفة في بصره قيل عشي ، وإذا نظر نظر العشى ولا آفة به ، قيل عشي ونظيره عرج لمن به الآفة ، وعرج لمن مشى مشية العرجان من غير عرج ، قال الحطيئة :

متى تأته تعشو إلى ضوء ناره

أي تنظر إليها نظر العشى ، لما يضعف بصرك من عظم الوقود واتساع الضوء ، وقرىء يعشو على أن من موصولة غير مضمنة معنى الشرط ، وحق هذا القارىء أن يرفع (نقيض) ومعنى القراءة بالفتح ، ومن يعم عن ذكر الرحمن وهو القرآن ، لقوله (صم بكم عمي) وأما القراءة بالضم فمعناها ومن يتعام عن ذكره ، أي يعرف أنه الحق وهو يتجاهل ويتعامى ، كقوله تعالى (وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم) ، (ونقيض له شيطاناً) قال مقاتل : نضم إليه شيطاناً (فهو له قرين) .

ثم قال (وإنهم ليصدونهم عن السبيل) يعني وإن الشياطين ليصدونهم عن سبيل الهدى والحق وذكر الكناية عن الإنسان والشياطين بلفظ الجمع ، لأن قوله (ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً) يفيد الجمع ، وإن كان اللفظ على الواحد (ويحسبون أنهم مهتدون) يعني الشياطين يصدون الكفار عن السبيل ، والكفار يحسبون أنهم مهتدون ، ثم عاد إلى لفظ الواحد ، فقال (حتى إذا

جاءنا) يعنى الكافر ، وقرىء جاءانا ، يعنى الكافر وشيطانه ، روى أن الكافر إذا بعث يوم القيامة من قبره أخذ شيطانه بيده ، فلم يفارقه حتى يصيرهما الله إلى النار ، فذلك حيث يقول (يا ليت بينى وبينك بعد المشرقين) والمراد ياليت حصل بينى وبينك بعد على أعظم الوجوه ، واختلفوا فى تفسير قوله (بعد المشرقين) وذكروا فيه وجوهاً (الأول) قال الأكثرون : المراد بعد المشرق والمغرب ، ومن عادة العرب تسمية الشيئين المتقابلين باسم أحدهما ، قال الفرزدق :

لنا قمراها والنجوم الطوالع

يريد الشمس والقمر ، ويقولون للكوفة والبصرة : البصرتان ، وللغداة والعصر : العصران ، ولأبى بكر وعمر : العمران ، وللماء والتمر : الأسودان (الثانى) أن أهل النجوم يقولون : الحركة التى تكون من المشرق إلى المغرب ، هى حركة الفلك الأعظم ، والحركة التى من المغرب إلى المشرق ، هى حركة الكواكب الثابتة ، وحركة الأفلاك الممثلة التى للسيارات سوى القمر ، وإذا كان كذلك فالمشرق والمغرب كل واحد منهما مشرق بالنسبة إلى شىء آخر ، فثبت أن إطلاق لفظ المشرق على كل واحد من الجهتين حقيقة (الثالث) قالوا يحمل ذلك على مشرق الصيف ومشرق الشتاء وبينهما بعد عظيم ، وهذا بعيد عندى ، لأن المقصود من قوله (ياليت بينى وبينك بعد المشرقين) المبالغة فى حصول البعد ، وهذه المبالغة إنما تحصل عن ذكر بعد لا يمكن وجود بعد آخر أزيد منه ، والبعد بين مشرق الصيف ومشرق الشتاء ليس كذلك ، فيبعد حمل اللفظ عليه (الرابع) وهو أن الحس يدل على أن الحركة اليومية إنما تحصل بطلوع الشمس من المشرق إلى المغرب ، وأما القمر فإنه يظهر فى أول الشهر فى جانب المغرب ، ثم لا يزال يتقدم إلى جانب المشرق ، وذلك يدل على أن مشرق حركة القمر هو المغرب ، وإذا ثبت هذا فالجانب المسمى بالمشرق هو مشرق الشمس ، ولكنه مغرب القمر ، وأما الجانب المسمى بالمغرب ، فإنه مشرق القمر ولكنه مغرب الشمس ، وبهذا التقدير يصح تسمية المشرق والمغرب بالمشرقين ، ولعل هذا الوجه أقرب إلى مطابقة اللفظ ورعاية المقصود من سائر الوجوه ، والله أعلم .

ثم قال تعالى (فبئس القرين) أى الكافر يقول لذلك الشيطان (يا ليت بينى وبينك بعد المشرقين فبئس القرين) أنت ، فهذا ما يتعلق بتفسير الألفاظ ، والمقصود من هذا الكلام تحقير الدنيا وبيان ما فى المال والجاه من المضار العظيمة ، وذلك لأن كثرة المال والجاه تجعل الإنسان كالأعشى عن مطالعة ذكر الله تعالى ومن صار كذلك صار جليساً للشيطان ومن صار كذلك ضل عن سبيل الهدى والحق وبقى جليس الشيطان فى الدنيا وفى القيامة ، ومجالسة الشيطان حالة توجب الضرر الشديد فى القيامة بحيث يقول الكافر (ياليت بينى وبينك بعد المشرقين فبئس القرين) أنت فثبت بما ذكرنا أن كثرة المال والجاه توجب كمال النقصان والحرمان فى الدين والدنيا ، وإذا ظهر هذا فقد ظهر أن الذين قالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ، قالوا كلاماً

أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٠﴾ فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَـٰهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾ فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾

فاسداً وشبهة باطلة .

ثم قال تعالى (ولن ينفعكم اليوم إذ ظلمتم أنكم فى العذاب مشتركون) فقوله (أنكم) فى محل الرفع على الفاعلية يعنى ولن ينفعكم اليوم كونكم مشتركين فى العذاب والسبب فيه أن الناس يقولون المصيبة إذا عمت طابت ، وقالت الخنساء فى هذا المعنى :

ولولا كثرة الباكين حولى على إخوانهم لقتلت نفسى
ولا يبكون مثل أخى ولكن أعزى النفس عنه بالتأسى

فبين تعالى أن حصول الشركة فى ذلك العذاب لا يفيد التخفيف كما كان يفيده فى الدنيا والسبب فيه وجوه (الأول) أن ذلك العذاب شديد فاشتغال كل واحد بنفسه يذهله عن حال الآخر ، فلا جرم الشركة لا تفيد الخفة (الثانى) أن قوماً إذا اشتركوا فى العذاب أعان كل واحد منهم صاحبه بما قدر عليه فيحصل بسببه بعض التخفيف وهذا المعنى متعذر فى القيامة (الثالث) أن جلوس الإنسان مع قرينه يفيده أنواعا كثيرة من السلوة .

فبين تعالى أن الشيطان وإن كان قريناً إلا أن مجالسته فى القيامة لا توجب السلوة وخفة العقوبة وفى كتاب ابن مجاهد عن ابن عامر قرأ (إذ ظلمتم إنكم) بكسر الألف وقرأ الباقون أنكم بفتح الألف والله أعلم .

قوله تعالى :﴿ أفأنت تسمع الصم أو تهدى العمى ومن كان فى ضلال مبين ، فإما نذهبن بك فإنا منهم منتقمون ، أو نرينك الذى وعدناهم فإنا عليهم مقتدرون ، فاستمسك بالذى أوحى إليك إنك على صراط مستقيم ، وإنه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون ، واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون ﴾ .

اعلم أنه تعالى لما وصفهم فى الآية المتقدمة بالعشى وصفهم فى هذه الآية بالصمم والعمى

وما أحسن هذا الترتيب ، وذلك لأن الإنسان فى أول اشتغاله بطلب الدنيا يكون كمن حصل بعينه رمد ضعيف ، ثم كلما كان اشتغاله بتلك الأعمال أكثر كان ميله إلى الجسمانيات أشد وإعراضه عن الروحانيات أكمل ، لما ثبت فى علوم العقل أن كثرة الأفعال توجب حصول الملكات الراسخة فينتقل الإنسان من الرمد إلى أن يصير أعشى فإذا واظب على تلك الحالة أياماً أخرى انتقل من كونه أعشى إلى كونه أعمى ، فهذا ترتيب حسن موافق لما ثبت بالبراهين اليقينية ، روى أنه صلى الله عليه وسلم كان يجتهد فى دعاء قومه وهم لا يزيدون إلا تصميماً على الكفر وتمادياً فى الغى ، فقال تعالى (أفأنت تسمع الصم أو تهدى العمى) يعنى أنهم بلغوا فى النفرة عنك وعن دينك إلى حيث إذا أسمعتهم القرآن كانوا كالأصم ، وإذا أريتهم المعجزات كانوا كالأعمى ، ثم بين تعالى أن صممهم وعماهم إنما كان بسبب كونهم فى ضلال مبين .

ولما بين تعالى أن دعوته لا تؤثر فى قلوبهم قال (فإما نذهبن بك) يريد حصول الموت قبل نزول النقمة بهم (فإنا منهم منتقمون) بعدك أو نرينك فى حياتك ما وعدناهم من الذل والقتل فإنا مقتدرون على ذلك ، واعلم أن هذا الكلام يفيد كمال التسلية للرسول عليه السلام لأنه تعالى بين أنهم لا تؤثر فيهم دعوته واليأس إحدى الراحتين ، ثم بين أنه لا بد وأن ينتقم لأجله منهم إما حال حياته أو بعد وفاته ، وذلك أيضاً يوجب التسلية ، فبعد هذا أمره أن يستمسك بما أمره تعالى ، فقال (فاستمسك بالذى أوحى إليك) بأن تعتقد أنه حق وبأن تعمل بموجبه فانه الصراط المستقيم الذى لا يميل عنه إلا ضال فى الدين .

ولما بين تأثير التمسك بهذا الدين فى منافع الدين بين أيضاً تأثيره فى منافع الدنيا فقال (وإنه لذكر لك ولقومك) أى إنه يوجب الشرف العظيم لك ولقومك حيث يقال إن هذا الكتاب العظيم أنزله الله على رجل من قوم هؤلاء ، واعلم أن هذه الآية تدل على أن الإنسان لابد وأن يكون عظيم الرغبة فى الثناء الحسن والذكر الجميل ، ولو لم يكن الذكر الجميل أمراً مرغوباً فيه لما من الله به على محمد صلى الله عليه وسلم حيث قال (وإنه لذكر لك ولقومك) ولما طلبه إبراهيم عليه السلام حيث قال (واجعل لى لسان صدق فى الآخرين) ولأن الذكر الجميل قائم مقام الحياة الشريفة ، بل الذكر أفضل من الحياة لأن أثر الحياة لا يحصل إلا فى مسكن ذلك الحى ، أما أثر الذكر الجميل فإنه يحصل فى كل مكان وفى كل زمان .

ثم قال تعالى (وسوف تسألون) وفيه وجوه (الأول) قال الكلبى تسألون هل أديتم شكر إنعامنا عليكم بهذا الذكر الجميل (الثانى) قال مقاتل المراد أن من كذب به يسأل لم كذبه ، فيسأل سؤال توبيخ (الثالث) تسألون هل عملتم بما دل عليه من التكاليف ، واعلم أن السبب الأقوى فى إنكار الكفار لرسالة محمد صلى الله عليه وسلم ولبغضهم له أنه كان ينكر عبادة الأصنام ، فبين تعالى أن إنكار عبادة الأصنام ليس من خواص دين محمد صلى الله عليه وسلم ، بل كل الأنبياء

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَـٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ۖ وَأَخَذْنَـٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ وَقَالُوا۟ يَـٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿٥٠﴾ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَـٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَـٰذِهِ ٱلْأَنْهَـٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ

والرسل كانوا مطبقين على إنكاره فقال (واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون) وفيه أقوال (الأول) معناه واسأل مؤمنى أهل الكتاب أى أهل التوراة والإنجيل فإنهم سيخبرونك أنه لم يرد فى دين أحد من الأنبياء عبادة الأصنام ، وإذا كان هذ الأمر متفقاً عليه بين كل الأنبياء والرسل وجب أن لا يجعلوه سبباً لبغض محمد صلى الله عليه وسلم

﴿ والقول الثانى ﴾ قال عطاء عن ابن عباس « لما أسرى به ﷺ إلى المسجد الأقصى بعث الله له آدم وجميع المرسلين من ولده ، فأذن جبريل ثم أقام فقال : يا محمد تقدم فصل بهم فلما فرغ رسول الله صلى الله عليه من الصلاة قال له جبريل عليه السلام واسأل يا محمد من أرسلنا من قبلك من رسلنا الآية ، فقال صلى الله عليه وسلم لا أسأل لأنى لست شاكا فيه » .

﴿ والقول الثالث ﴾ أن ذكر السؤال فى موضع لا يمكن السؤال فيه يكون المراد منه النظر والاستدلال ، كقول من قال : سل الأرض من شق أنهارك ، وغرس أشجارك ، وجنى ثمارك ، فإنها إن لم تجبك جواباً أجابتك اعتباراً ، فههنا سؤال النبى صلى الله عليه وسلم عن الأنبياء الذين كانوا قبله ممتنع ، فكان المراد منه انظر فى هذه المسألة بعقلك وتدبر فيها بفهمك والله أعلم .

قوله تعالى :﴿ ولقد أرسلنا موسى بآياتنا إلى فرعون وملائه فقال إنى رسول رب العالمين ، فلما جاءهم بآياتنا إذاهم منها يضحكون ، وما نريهم من آية إلا هى أكبر من أختها وأخذناهم بالعذاب لعلهم يرجعون ، وقالوا يا أيها الساحر ادع لنا ربك بما عهد عندك إننا لمهتدون ، فلما كشفنا عنهم العذاب إذاهم ينكثون ، ونادى فرعون فى قومه قال يا قوم أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجرى من تحتى أفلا تبصرون ، أم أنا خير من هذا الذى هو مهين ولا يكاد يبين فلولا ألقى عليه

مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ ﴿٥٦﴾

أسورة من ذهب أو جاء معه الملائكة مقترنين ، فاستخف قومه فأطاعوه إنهم كانوا قوماً فاسقين ، فلما آسفونا انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين فجعلناهم سلفاً ومثلا للآخرين ﴾ وفى الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ اعلم أن المقصود من إعادة قصة موسى عليه السلام وفرعون فى هذا المقام تقرير الكلام الذى تقدم ، وذلك لأن كفار قريش طعنوا فى نبوة محمد صلى الله عليه وسلم بسبب كونه فقيراً عديم المال والجاه ، فبين الله تعالى أن موسى عليه السلام بعد أن أورد المعجزات القاهرة الباهرة التى لا يشك فى صحتها عاقل أورد فرعون عليه هذه الشبهة التى ذكرها كفار قريش فقال : إنى غنى كثير المال والجاه ، ألا ترون أنه حصل لى ملك مصر وهذه الأنهار تجرى من تحتى ، وأما موسى فإنه فقير مهين وليس له بيان ولسان ، والرجل الفقير كيف يكون رسولا من من عند الله إلى الملك الكبير الغنى ، فثبت أن هذه الشبهة التى ذكرها كفار مكة وهى قولهم (لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم) وقد أوردها بعينها فرعون على موسى ، ثم إنا انتقمنا منهم فأغرقناهم ، والمقصود من إيراد هذه القصة تقرير أمرين (أحدهما) أن الكفار والجهال أبداً يحتجون على الأنبياء بهذه الشبهة الركيكة فلا يبالى بها ولا يلتفت إليها (والثانى) أن فرعون على غاية كمال حاله فى الدنيا صار مقهوراً باطلا ، فيكون الأمر فى حق أعدائك هكذا ، فثبت أنه ليس المقصود من إعادة هذه القصة عين هذه القصة ، بل المقصود تقرير الجواب عن الشبهة المذكورة ، وعلى هذا فلا يكون هذا تقريراً للقصة البتة وهذا من نفائس الأبحاث والله علم .

﴿ المسألة الثانية ﴾ فى تفسير الألفاظ ذكر تعالى أنه أرسل موسى بآياته وهى المعجزات التى كانت مع موسى عليه السلام إلى فرعون وملائه أى قومه ، فقال موسى إنى رسول رب العالمين ، فلما جاءهم بتلك الآيات إذاهم منها يضحكون ، قيل إنه لما ألقى عصاه صار ثعباناً ، ثم أخذه فعاد عصاً كما كان ضحكوا ، ولما عرض عليهم اليد البيضاء ثم عادت كما كانت ضحكوا . فإن قيل كيف جاز أن يجاب عن لما بإذا الذى يفيد المفاجأة ؟ قلنا لأن فعل المفاجأة معها مقدر كأنه قيل فلما جاءهم بآياتنا فاجأوا وقت ضحكهم .

ثم قال (وما نريهم من آية إلا هى أكبر من أختها) فإن قيل ظاهر اللفظ يقتضى كون كل واحد منها أفضل من التالى وذلك محال ، قلنا إذا أريد المبالغة فى كون كل واحد من تلك الأشياء بالغاً إلى أقصى الدرجات فى الفضيلة ، فقد يذكر هذا الكلام بمعنى أنه لا يبعد فى أناس ينظرون إليها أن يقول هذا إن هذا أفضل من الثانى ، وأن يقول الثانى لا بل الثانى أفضل ، وأن يقول الثالث لا بل الثالث أفضل ، وحينئذ يصير كل واحد من تلك الأشياء مقولا فيه إنه أفضل من غيره .

ثم قال تعالى (وأخذناهم بالعذاب لعلهم يرجعون) أى عن الكفر إلى الإيمان ، قالت المعتزلة هذا يدل على أنه تعالى يريد الإيمان من الكل وأنه إنما أظهر تلك المعجزات القاهرة لإرادة أن يرجعوا من الكفر إلى الإيمان ، قال المفسرون ومعنى قوله (وأخذناهم بالعذاب) أى بالأشياء التى سلطها عليها كالطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم والطمس .

ثم قال تعالى (وقالوا ياأيها الساحر ادع لنا ربك بما عهد عندك إننا لمهتدون) فإن قيل كيف سموه بالساحر مع قولهم (إننا لمهتدون) ؟ قلنا فيه وجوه (الأول) أنهم كانوا يقولون للعالم الماهر ساحر ، لأنهم كانوا يستعظمون السحر ، وكما يقال فى زماننا فى العامل العجيب الكامل إنه أتى بالسحر (الثانى) (يا أيها الساحر) فى زعم الناس ومتعارف قوم فرعون كقوله (يا أيها الذى نزل عليه الذكر إنك لمجنون) أى نزل عليه الذكر فى اعتقاده وزعمه (الثالث) أن قولهم (إننا لمهتدون) وقد كانوا عازمين على خلافه ألا ترى إلى قوله (فلما كشفنا عنهم العذاب إذاهم ينكثون) فتسميتهم إياه بالسحر لاينافى قولهم (إننا لمهتدون) ثم بين تعالى أنه لما كشف عنهم العذاب نكثوا ذلك العهد .

ولما حكى الله تعالى معاملة فرعون مع موسى ، حكى أيضاً معاملة فرعون معه فقال (ونادى فرعون فى قومه) والمعنى أنه أظهر هذا القول فقال (قال ياقوم أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجرى من تحتى) يعنى الأنهار التى فصلوها من النيل ومعظمها أربعة نهر الملك ونهر طولون ونهر دمياط ونهر تنيس ، قيل كانت تجرى تحت قصره ، وحاصل الأمر أنه احتج بكثرة أمواله وقوة جاهه على فضيلة نفسه .

ثم قال (أم أنا خير من هذا الذى هو مهين ولا يكاد يبين) وعنى بكونه مهيناً كونه فقيراً ضعيف الحال ، وبقوله (ولا يكاد يبين) حبسة كانت فى لسانه ، واختلفوا فى معنى أم ههنا فقال أبو عبيدة مجازها بل أنا خير ، وعلى هذا فقدتم الكلام عند قوله (أفلا تبصرون) ثم ابتدأ فقال (أم أنا خير) بمعنى بل أنا خير ، وقال الباقون أم هذه متصلة لأن المعنى (أفلا تبصرون) أم تبصرون إلا أنه وضع قوله (أنا خير) موضع تبصرون ، لأنهم إذا قالوا له أنت خير فهم عنده بصراء ، وقال آخرون إن تمام الكلام عند قوله (أم) وقوله (أنا خير) ابتداء الكلام والتقدير (أفلا

تبصرون) أم تبصرون لكنه اكتفى فيه بذكر أم كما تقول لغيرك : أتأكل أم ، أى أتأكل أم لا تأكل ، تقتصر على ذكر كلمة أم إيثاراً للاختصار فكذا ههنا ، فإن قيل أليس أن موسى عليه السلام سأل الله تعالى أن يزيل الرتة عن لسانه بقوله (واحلل عقدة من لسانى يفقهوا قولى) فأعطاه الله تعالى ذلك بقوله (قد أوتيت سؤلك يا موسى) فكيف عابه فرعون بتلك الرتة ؟ (والجواب) عنه من وجهين : (الأول) أن فرعون أراد بقوله (ولا يكاد يبين) حجته التى تدل على صدقه فيما يدعى ولم يرد أنه لا قدرة له على الكلام (والثانى) أنه عابه بما كان عليه أولا ، وذلك أن موسى كان عند فرعون زماناً طويلا وفى لسانه حبسة ، فنسبه فرعون إلى ماعهده عليه من الرتة لأنه لم يعلم أن الله تعالى أزال ذلك العيب عنه .

ثم قال (فلولا ألقى عليه أسورة من ذهب) والمراد أن عادة القوم جرت بأنهم إذا جعلوا واحداً منهم رئيساً لهم سوروه بسوار من ذهب وطوقوه بطوق من ذهب ، فطلب فرعون من موسى مثل هذه الحالة ، واختلف القراء فى أسورة فبعضهم قرأ أسورة وآخرون أساورة فأسورة جمع سوار لأدنى العدد ، كقولك حمار وأحمرة وغراب وأغربة ، ومن قرأ أساورة فذاك لأن أساوير جمع أسوار وهو السوار فأساورة تكون الهاء عوضاً عن الياء ، نحو بطريق وبطارقة وزنديق وزنادقة وفرزين وفرازنة فتكون أساورة جمع أسوار ، وحاصل الكلام يرجع إلى حرف واحد وهو أن فرعون كان يقول أنا أكثر مالا وجاها ، فوجب أن أكون أفضل منه فيمتنع كونه رسولا من الله ، لأن منصب النبوة يقتضى المخدومية ، والأخس لا يكون مخدوماً للأشرف ، ثم المقدمة الفاسدة هى قوله من كان أكثر مالا وجاهاً فهو أفضل وهى عين المقدمة التى تمسك بها كفار قريش فى قولهم (لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم) ثم قال (أو جاء معه الملائكة مقترنين) يجوز أن يكون المراد مقترنين به ، من قولك قرنته به فاقترن وأن يكون من قولهم اقترنوا بمعنى تقارنوا ، قال الزجاج معناه يمشون معه فيدلون على صحة نبوته .

ثم قال تعالى (فاستخف قومه فأطاعوه) أى طلب منهم الخفة فى الإتيان بما كان يأمرهم به فأطاعوه (إنهم كانوا قوماً فاسقين) حيث أطاعوا ذلك الجاهل الفاسق (فلما آسفونا) أغضبونا ، حكى أن ابن جريج غضب فى شىء فقيل له أتغضب يا أبا خالد ؟ فقال قد غضب الذى خلق الأحلام إن الله يقول (فلما آسفونا) أى أغضبونا .

ثم قال تعالى (انتقمنا منهم) واعلم أن ذكر لفظ الأسف فى حق الله تعالى محال وذكر لفظ الانتقام وكل واحد منهما من المتشابهات التى يجب أن يصار فيها إلى التأويل ، ومعنى الغضب فى حق الله إرادة العقاب ، ومعنى الانتقام إرادة العقاب لجرم سابق .

ثم قال تعالى (فجعلناهم سلفاً ومثلا) السلف كل شىء قدمته من عمل صالح أو قرض فهو سلف والسلف أيضاً من تقدم من آبائك وأقاربك واحدهم سالف ، ومنه قول طفيل يرثى قومه .

وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوٓا۟ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿٦٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٢﴾

مضوا سلفاً قصد السبيل عليهم   وصرف المنايا بالرجال تقلب

فعلى هذا قال الفراء والزجاج يقول : جعلناهم متقدمين ليتعظ بهم الآخرون ، أى جعلناهم سلفاً لكفار أمة محمد عليه السلام . وأكثر القراء قرأوا بالفتح وهو جمع سالف كما ذكرناه ، وقرأ حمزة والكسائى (سلفاً) بالضم وهو جمع سلف ، قال الليث : يقال سلف بضم اللام يسلف سلوفاً فهو سلف أى متقدم ، وقوله (ومثلا للآخرين) يريد عظة لمن بقى بعدهم وآية وعبرة ، قال أبو على الفارسى المثل واحد يراد به الجمع ، ومن ثم عطف على سلف ، والدليل على وقوعه على أكثر من واحد قوله تعالى (ضرب الله مثلا عبداً مملوكا لا يقدر على شىء ومن رزقناه) فأدخل تحت المثل شيئين والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ ولما ضرب ابن مريم مثلا إذا قومك منه يصدون ، وقالوا أآلهتنا خير أم هو ما ضربوه لك إلا جدلا بل هم قوم خصمون ، إن هو إلا عبد أنعمنا عليه وجعلناه مثلا لبنى إسرائيل ولو نشاء لجعلنا منكم ملائكة فى الأرض يخلفون ، وإنه لعلم للساعة فلا تمترن بها واتبعون هذا صراط مستقيم ، ولا يصدنكم الشيطان إنه لكم عدو مبين ﴾ فى الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ اعلم أنه تعالى ذكر أنواعا كثيرة من كفرياتهم فى هذه السورة وأجاب عنها بالوجوه الكثيرة (فأولها) قوله تعالى (وجعلوا له من عباده جزءاً) (وثانيها) قوله تعالى وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً) (وثالثها) قوله (وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم) (ورابعها) قوله (وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم) (وخامسها) هذه الآية التى نحن الآن فى تفسيرها ، ولفظ الآية لا يدل إلا على أنه لما ضرب ابن مريم مثلا أخذ القوم يضجون ويرفعون أصواتهم ، فأما أن ذلك المثل كيف كان ، وفى أى شىء كان فاللفظ لا يدل عليه والمفسرون ذكروا فيه وجوهاً كلها محتملة (فالأول) أن الكفار لما سمعوا أن النصارى يعبدون

عيسى قالوا إذا عبدوا عيسى فآلهتنا خير من عيسى ، وإنما قالوا ذلك لأنهم كانوا يعبدون الملائكة (الثانى) روى أنه لما نزل قوله تعالى (إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم) قال عبد الله ابن الزبعرى هذا خاصة لنا ولآلهتنا أم لجميع الأمم ؟ فقال ﷺ «بل لجميع الأمم» فقال خصمتك ورب الكعبة ، ألست تزعم أن عيسى ابن مريم نبى وتثنى عليه خيراً وعلى أمه ، وقد علمت أن النصارى يعبدونهما واليهود يعبدون عزيراً والملائكة يعبدون ، فاذا كان هؤلاء فى النار فقد رضينا أن نكون نحن وآلهتنا معهم فسكت النبى ﷺ وفرح القوم وضحكوا وضجوا ، فأنزل الله تعالى (إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون) ونزلت هذه الآية أيضاً والمعنى ، ولما (ضرب) عبد الله بن الزبعرى عيسى (ابن مريم مثلا) وجادل رسول الله بعبادة النصارى إياه (إذا قومك) قريش (منه) أى من هذا المثل (يصدون) أى يرتفع لهم ضجيج وجلبة فرحاً وجدلا وضحكا بسبب ما رأوا من إسكات رسول الله فإنه قد جرت العادة بأن أحد الخصمين إذا انقطع أظهر الخصم الثانى الفرح والضجيج ، (وقالوا أآلهتنا خير أم هو) يعنون أن آلهتنا عندك ليست خيراً من عيسى فإذا كان عيسى من حصب جهنم كان أمر آلهتنا أهون (الوجه الثالث) فى التأويل وهو أن النبى ﷺ لما حكى أن النصارى عبدوا المسيح وجعلوه إلهاً لأنفسهم ، قال كفار مكة إن محمداً يريد أن يجعل لنا إلهاً كما جعل النصارى المسيح إلهاً لأنفسهم ، ثم عند هذا قالوا (أآلهتنا خير أم هو) يعنى أآلهتنا خير أم محمد ، وذكروا ذلك لأجل أنهم قالوا : إن محمداً يدعونا إلى عبادة نفسه ، وآباؤنا زعموا أنه يجب عبادة هذه الأصنام ، وإذا كان لابد من أحد هذين الأمرين فعبادة هذه الأصنام أولى ، لأن آباءنا وأسلافنا كانوا متطابقين عليه ، وأما محمد فإنه متهم فى أمرنا بعبادته فكان الاشتغال بعبادة الأصنام أولى ، ثم إنه تعالى بين أنا لم نقل إن الاشتغال بعبادة المسيح طريق حسن بل هو كلام باطل ، فإن عيسى ليس إلا عبداً أنعمنا عليه ، فإذا كان الأمر كذلك فقد زالت شبهتهم فى قولهم : إن محمداً يريد ان يأمرنا بعبادة نفسه ، فهذه الوجوه الثلاثة مما يحتمل كل واحد منها لفظ الآية .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قرأ نافع وابن عامر والكسائى وأبو بكر عن عاصم يصدون بضم الصاد وهو قراءة على بن أبى طالب عليه السلام والباقون بكسر الصاد وهى قراءة ابن عباس ، واختلفوا فقال الكسائى : هما بمعنى نحو يعرشون ويعرشون ويعكفون ، ومنهم من فرق ، أما القراءة بالضم فمن الصدود ، أى من أجل هذا المثل يصدون عن الحق ويعرضون عنه ، وأما بالكسر فمعناه يضجون .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قرأ عاصم وحمزة والكسائى أآلهتنا استفهاماً بهمزتين الثانية مطولة والباقون استفهاماً بهمزة ومدة .

ثم قال تعالى (ما ضربوه لك إلا جدلا) أى ما ضربوا لك هذا المثل إلا لأجل الجدل والغلبة

وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى

فى القول لا لطلب الفرق بين الحق والباطل (بل هم قوم خصمون) مبالغون فى الخصومة ، وذلك لأن قوله (إنكم وما تعبدون من دون الله) لايتناول الملائكة وعيسى ، وبيانه من وجوه (الأول) أن كلمة مالا تتناول العقلاء البتة (والثانى) أن كلمة ما ليست صريحة فى الاستغراق بدليل أنه يصح إدخال لفظى الكل والبعض عليه ، فيقال إنكم وكل ما تعبدون من دون الله ، أو إنكم وبعض ماتعبدون من دون الله (الثالث) أن قوله إنكم وكل ماتعبدون من دون الله أو وبعض ماتعبدون خطاب مشافهة فلعله ماكان فيهم أحد يعبد المسيح والملائكة (الرابع) أن قوله (إنكم وما تعبدون من دون الله) هب أنه عام إلا أن النصوص الدال على تعظيم الملائكة وعيسى أخص منه ، والخاص مقدم على العام .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ القائلون بذم الجدل تمسكوا بهذه الآية إلا أنا قد ذكرنا فى تفسير قوله تعالى (ما يجادل فى آيات الله إلا الذين كفروا) أن الآيات الكثيرة دالة على أن الجدل موجب للمدح والثناء ، وطريق التوفيق أن تصرف تلك الآيات إلى الجدل الذى يفيد تقرير الحق ، وأن تصرف هذه الآية إلى الجدل الذى يوجب تقرير الباطل .

ثم قال تعالى (إن هو إلا عبد أنعمنا عليه) يعنى ماعيسى إلا عبد كسائر العبيد أنعمنا عليه حيث جعلناه آية بأن خلقناه من غير أب كما خلقنا آدم وشرفناه بالنبوة وصيرناه عبرة عجيبة كالمثل السائر (ولو نشاء لجعلنا منكم) لولدنا منكم يارجال (ملائكة يخلفونكم فى الأرض) كما يخلفكم أولادكم كما ولدنا عيسى من أنثى من غير فحل لتعرفوا تميزنا بالقدرة الباهرة ولتعرفوا أن دخول التوليد والتولد فى الملائكة أمر ممكن وذات الله متعالية عن ذلك (وإنه) أى عيسى (لعلم للساعة) شرط من أشراطها تعلم به فسمى الشرط الدال على الشىء علما لحصول العلم به ، وقرأ ابن عباس : لعلم . وهو العلامة وقرىء للعلم وقرأ أبى : لذكر ، وفى الحديث « أن عيسى ينزل على ثنية فى الأرض المقدسة يقال لها أفيق وبيده حربة وبها يقتل الدجال فيأتى بيت المقدس فى صلاة الصبح والإمام يؤم بهم فيتأخر الإمام فيقدمه عيسى ويصلى خلفه على شريعة محمد ﷺ ثم يقتل الخنازير ويكسر الصليب ويخرب البيع والكنائس ويقتل النصارى إلا من آمن به » (فلا تمترن بها) من المرية وهو الشك (واتبعون) واتبعوا هداى وشرعى (هذا صراط مستقيم) أى هذا الذى أدعوكم إليه صراط مستقيم (ولا يصدنكم الشيطان إنه لكم عدو مبين) قد بانت عداوته لكم لأجل أنه هو الذى أخرج أباكم من الجنة ونزع عنه لباس النور .

قوله تعالى : ﴿ ولما جاء عيسى بالبينات قال قد جئتكم بالحكمة ولأبين لكم بعض الذى تختلفون فيه فاتقوا الله وأطيعون ، إن الله هو ربى وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم ، فاختلف

تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾ فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٦٥﴾ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٦﴾ الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾

الأحزاب من بينهم فويل للذين ظلموا من عذاب يوم أليم ، هل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة وهم لا يشعرون ﴾ .

اعلم أنه تعالى ذكر أنه لما جاء عيسى بالمعجزات وبالشرائع البينات الواضحات (قال قد جئتكم بالحكمة) وهى معرفة ذات الله وصفاته وأفعاله (ولأبين لكم بعض الذى تختلفون فيه) يعنى أن قوم موسى كانوا قد اختلفوا فى أشياء من أحكام التكاليف واتفقوا على أشياء ، فجاء عيسى ليبين لهم الحق فى تلك المسائل الخلافية ، وبالجملة فالحكمة معناها أصول الدين وبعض الذى يختلفون فيه معناه فروع الدين ، فان قيل لم لم يبين لهم كل الذى يختلفون فيه ؟ قلنا لأن الناس قد يختلفون فى أشياء لا حاجة بهم إلى معرفتها ، فلا يجب على الرسول بيانها ، ولما بين الأصول والفروع قال (فاتقوا الله) فى الكفر به والإعراض عن دينه (وأطيعون) فيما أبلغه إليكم من التكاليف (إن الله هو ربى وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم) والمعنى ظاهر (فاختلف الأحزاب) أى الفرق المتحزبة بعد عيسى وهم الملكانية واليعقوبية والنسطورية ، وقيل اليهود والنصارى (فويل للذين ظلموا من عذاب يوم أليم) وهو وعيد بيوم الأحزاب ، فإن قيل قوله (من بينهم) الضمير فيه إلى من يرجع ؟ قلنا إلى الذين خاطبهم عيسى فى قوله (قد جئتكم بالحكمة) وهم قومه .

ثم قال (هل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة) فقوله أن تأتيهم بدل من الساعة والمعنى هل ينظرون إلا إتيان الساعة . فان قالوا قوله (بغتة) يفيد عين ما يفيده قوله (وهم لا يشعرون) فما الفائدة فيه ؟ قلنا يجوز أن تأتيهم بغتة وهم يعرفونه بسبب أنهم يشاهدونه .

قوله تعالى : ﴿ الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين ، يا عباد لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون . الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين ، ادخلوا الجنة أنتم وأزواجكم تحبرون ، يطاف

ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٧١﴾ وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٣﴾

عليهم بصحاف من ذهب وأكواب وفيها ماتشتهيه الأنفس وتلذ الأعين وأنتم فيها خالدون ، وتلك الجنة التي أورثتموها بما كنتم تعملون ، لكم فيها فاكهة كثيرة منها تأكلون ﴾ .

اعلم أنه تعالى لما قال (هل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة) ذكر عقيبه بعض ما يتعلق بأحوال القيامة (فأولها) قوله تعالى (الأخلاء يومئذ بعضهم عدو إلا المتقين) والمعنى (الأخلاء) فى الدنيا (يومئذ) يعنى فى الآخرة (بعضهم لبعض عدو) يعنى أن الخلة إذا كانت على المعصية والكفر صارت عداوة يوم القيامة (إلا المتقين) يعنى الموحدين الذين يخالل بعضهم بعضاً على الإيمان والتقوى ، فإن خلتهم لا تصير عداوة ، وللحكماء فى تفسير هذه الآية طريق حسن ، قالوا إن المحبة أمر لا يحصل إلا عند اعتقاد حصول خير أو دفع ضرر ، فمتى حصل هذا الاعتقاد حصلت المحبة لا محالة ، ومتى حصل اعتقاد أنه يوجب ضرراً حصل البغض والنفرة ، إذا عرفت هذا فنقول : تلك الخيرات التى كان اعتقاد حصولها يوجب حصول المحبة ، إما أن تكون قابلة للتغير والتبدل ، أو لا تكون كذلك ، فإن كان الواقع هو القسم الاول ، وجب أن تبدل تلك المحبة بالنفرة ، لأن تلك المحبة إنما حصلت لا عتقاد حصول الخير والراحة ، فإذا زال ذلك الاعتقاد ، وحصل عقيبه اعتقاد أن الحاصل هو الضرر والآلم ، وجب أن تتبدل تلك المحبة بالبغضة ، لأن تبدل العلة يوجب تبدل المعلول ، أما إذا كانت الخيرات الموجبة للمحبة ، خيرات باقية أبدية ، غير قابلة للتبدل والتغير ، كانت تلك المحبة أيضاً محبة باقية آمنة من التغير ، إذا عرفت هذا الأصل فنقول : الذين حصلت بينهم محبة ومودة فى الدنيا ، إن كانت تلك المحبة لأجل طلب الدنيا وطيباتها ولذاتها ، فهذه المطالب لا تبقى فى القيامة ، بل يصير طلب الدنيا سبباً لحصول الآلام والآفات فى يوم القيامة ، فلا جرم تنقلب هذه المحبة الدنيوية بغضة ونفرة فى القيامة ، أما إن كان الموجب لحصول المحبة فى الدنيا الاشتراك فى محبة الله وفى خدمته وطاعته ، فهذا السبب غير قابل للنسخ والتغير ، فلاجرم كانت هذه المحبة باقية فى القيامة ، بل كأنها تصير أقوى وأصفى وأكمل وأفضل مما كانت فى الدنيا ، فهذا هو التفسير المطابق لقوله تعالى (الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا

إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾

المتقين) ، (الحكم الثانى) من أحكام يوم القيامة ، وقوله تعالى (ياعباد لاخوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون) وقد ذكرنا مراراً أن عادة القرآن جارية بتخصيص لفظ العباد ، بالمؤمنين المطيعين المتقين ، فقوله (ياعباد) كلام الله تعالى ، فكأن الحق يخاطبهم بنفسه ويقول لهم (ياعباد لاخوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون) وفيه أنواع كثيرة مما يوجب الفرح (أولها) أن الحق سبحانه وتعالى خاطبهم بنفسه من غير واسطة (وثانيها) أنه تعالى وصفهم بالعبودية ، وهذا تشريف عظيم ، بدليل أنه لما أراد أن يشرف محمداً ﷺ ليلة المعراج ، قال (سبحان الذى أسرى بعبده) (وثالثها) قوله (لاخوف عليكم اليوم) فأزال عنهم الخوف فى يوم القيامة بالكلية ، وهذا من أعظم النعم (ورابعها) قوله (ولا أنتم تحزنون) فنفى عنهم الحزن بسبب فوت الدنيا الماضية .

ثم قال تعالى (الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين) قيل (الذين آمنوا) مبتدأ ، وخبره مضمر ، والتقدير يقال لهم : أدخلوا الجنة ، ويحتمل أن يكون المعنى أعنى الذين آمنوا ، قال مقاتل : إذا وقع الخوف يوم القيامة ، نادى مناد (ياعباد لاخوف عليكم اليوم) فإذا سمعوا النداء رفع الخلائق رءوسهم ، فيقال (الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين) فتنكس أهل الأديان الباطلة رؤوسهم (الحكم الثالث) من وقائع القيامة ، أنه تعالى إذا أمن المؤمنين من الخوف والحزن وجب أن يمر حسابهم على أسهل الوجوه وعلى أحسنها ، ثم يقال لهم (ادخلوا الجنة أنتم وأزواجكم تحبرون) والحبرة المبالغة فى الإكرام فيما وصف بالجميل ، يعنى يكرمون إكراماً على سبيل المبالغة ، وهذا مما سبق تفسيره فى سورة الروم .

ثم قال ﴿يطاف عليهم بصحاف من ذهب وأكواب﴾ قال الفراء : الكوب المستدير الرأس الذى لاأذن له ، فقوله (يطاف عليهم بصحاف من ذهب) إشارة إلى المطعوم ، وقوله (وأكواب) إشارة إلى المشروب ، ثم إنه تعالى ترك التفصيل وذكر بياناً كلياً ، فقال (فيها ماتشتهيه الأنفس وتلذ الأعين وأنتم فيها خالدون) .

ثم قال ﴿وتلك الجنة التى أورثتموها بما كنتم تعملون﴾ وقد ذكرنا فى وراثة الجنة وجهين فى قوله (أولئك هم الوارثون ، الذين يرثون الفردوس) ولما ذكر الطعام والشراب فيها تقدم ، ذكر ههنا حال الفاكهة ، فقال (لكم فيها فاكهة منها تأكلون) .

واعلم أنه تعالى بعث محمداً ﷺ إلى العرب أولا ، ثم إلى العالمين ثانياً ، والعرب كانوا فى ضيق شديد بسبب المأكول والمشرب والفاكهة ، فلهذا السبب تفضل الله تعالى عليهم بهذه المعانى مرة بعد أخرى ، تكميلا لرغبتهم وتقوية لدواعيهم .

قوله تعالى : ﴿ إن المجرمين فى عذاب جهنم خالدون ، لايفتر عنهم وهم فيه مبلسون ،

وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٦﴾ وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٨﴾ أَمْ أَبْرَمُوٓا۟ أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴿٧٩﴾ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾

وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين ، ونادوا يامالك ليقض علينا ربك قال إنكم ماكثون ، لقد جئناكم بالحق ولكن أكثركم للحق كارهون ، أم أبرموا أمراً فإنا مبرمون ، أم يحسبون أنالانسمع سرهم ونجواهم بلى ورسلنا لديهم يكتبون ﴾ .

اعلم أنه تعالى لما ذكر الوعد ، أردفه بالوعيد على الترتيب المستمر فى القرآن ، وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ احتج القاضى على القطع بوعيد الفساق بقوله (إن المجرمين فى عذاب جهنم خالدون ، لا يفتر عنهم وهم فيه مبلسون) ولفظ المجرم يتناول الكافر والفاسق ، فوجب كون الكل فى عذاب جهنم ، وقوله (خالدون) يدل على الخلود ، وقوله أيضاً (لا يفتر عنهم) يدل على الخلود والدوام أيضاً (والجواب) أن ماقبل هذه الآية وما بعدها ، يدل على أن المراد من لفظ (المجرمين) ههنا الكفار ، أما ماقبل هذه الآية فلأنه قال (يا عباد لاخوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون ، الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين) فهذا يدل على أن كل من آمن بآيات الله وكانوا مسلمين ، فإنهم يدخلون تحت قوله (يا عباد لاخوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون ، الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين) والفاسق من أهل الصلاة آمن بالله تعالى وبآياته وأسلم ، فوجب أن يكون داخلا تحت ذلك الوعد ، ووجب أن يكون خارجاً عن هذا الوعيد ، وأما ما بعد هذه الآية فهو قوله (جئناكم بالحق ولكن أكثركم للحق كارهون) والمراد (بالحق) ههنا إما الإسلام وإما القرآن ، والرجل المسلم لا يكره الإسلام ولا القرآن ، فثبت أن ماقبل هذه الآية وما بعدها ، يدل على أن المراد من المجرمين الكفار ، والله أعلم.

﴿ المسألة الثانية ﴾ أنه تعالى وصف عذاب جهنم فى حق المجرمين بصفات ثلاثة (أحدها) الخلود ، وقد ذكرنا فى مواضع كثيرة أنه عبارة عن طول المكث ولا يفيد الدوام (وثانيها) قوله (لايفتر عنهم) أى لا يخفف ولا ينقص من قولهم فترت عنه الحمى إذاسكنت ونقص حرها (وثالثها) قوله (وهم فيه مبلسون) والمبلس اليائس الساكت سكوت يائس من فرج ، عن الضحاك يجعل المجرم فى تابوت من نار ، ثم يقفل عليه فيبقى فيه خالداً لايرى ، قال صاحب الكشاف وقرىء (وهم فيها) أى وهم فى النار .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ احتج القاضي بقوله تعالى (وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين) فقال إن كان خلق فيهم الكفر ليدخلهم النار فما الذى نفاه بقوله (وما ظلمناهم) وما الذى نسبه إليهم مما نفاه عن نفسه ؟ أوليس لو أثبتناه ظلماً لهم كان لايزيد على مايقوله القوم ، فإن قالوا ذلك الفعل لم يقع بقدرة الله عز وجل فقط ، بل إنما وقع بقدرة الله مع قدرة العبد معاً ، فلم يكن ذلك ظلماً من الله . قلنا : عندكم أن القدرة على الظلم موجبة للظلم ، وخالق تلك القدرة هو الله تعالى ، فكأنه تعالى لما فعل مع خلق الكفر قدرة على الكفر خرج عن أن يكون ظالما لهم ، وذلك محال لأن من يكون ظالماً فى فعل ، فإذا فعل معه مايوجب ذلك الفعل يكون بذلك أحق ، فيقال للقاضي قدرة العبد هل هى صالحة للطرفين أو هى متعينة لأحد الطرفين ؟ فان كانت صالحة لكلا الطرفين فالترجيح إن وقع لا لمرجح لزم نفى الصانع ، وإن افتقر إلى مرجح عاد التقسيم الأول فيه ، ولابد وأن ينتهى إلى داعية مرجحة يخلقها الله فى العبد ، وإن كانت متعينة لأحد الطرفين فحينئذ يلزمك ما أوردته علينا .

واعلم أنه ليس الرجل من يرى وجه الاستدلال فيذكره ، إنما الرجل الذى ينظر فيما قبل الكلام وفيما بعده ، فإن رآه وارداً على مذهبه بعينه لم يذكره والله أعلم .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قرأ ابن مسعود (يامال) بحذف الكاف للترخيم فقيل لابن عباس إن ابن مسعود قرأ ونادوا يامال فقال : ماأشغل أهل النار عن هذا الترخيم ! وأجيب عنه بأنه إنما حسن هذا الترخيم لأنه يدل على أنهم بلغوا فى الضعف والنحافة إلى حيث لا يمكنهم أن يذكروا من الكلمة إلا بعضها .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ اختلفوا فى أن قولهم (يامالك ليقض علينا ربك) على أى وجه طلبوا فقال بعضهم على التمنى ، وقال آخرون على وجه الاستغاثة ، وإلا فهم عالمون بأنه لاخلاص لهم عن ذلك العقاب ، وقيل لا يبعد أن يقال إنهم لشدة ما هم فيه من العذاب نسوا تلك المسألة فذكروه على وجه الطلب . ثم إنه تعالى بين أن مالكا يقول لهم (إنكم ماكثون) وليس فى القرآن متى أجابهم ، هل أجابهم فى الحال أو بمدة طويلة ، وإن كان بعد ذلك فهل حصل ذلك الجواب بعد ذلك السؤال بمدة قليلة أو بمدة طويلة ، فلا يمتنع أن تؤخر الإجابة استخفافاً بهم وزيادة فى غمهم ، فعن عبد الله بن عمر بعد أربعين سنة ، وعن غيره بعد مائة سنة ، وعن ابن عباس بعد ألف سنة والله أعلم بذلك المقدار .

ثم بين تعالى أن مالكا لما أجابهم بقوله (إنكم ماكثون) ذكر بعده ماهو كالعلة لذلك الجواب فقال (لقد جئناكم بالحق ولكن أكثركم للحق كارهون) والمراد نفرتهم عن محمد وعن القرآن وشدة بغضهم لقبول الدين الحق ، فان قيل كيف قال (ونادوا يامالك) بعد ما وصفهم بالإبلاس ؟ قلنا تلك أزمنة متطاولة وأحقاب ممتدة ، فتختلف بهم الأحوال فيسكتون أوقاتاً لغلبة اليأس عليهم ويستغيثون أوقاتاً لشدة مابهم ، روى أنه يلقى على أهل النار الجوع حتى يعدل ماهم

قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ﴿٨١﴾ سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا
يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٨٣﴾ وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَٰهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَٰهٌ وَهُوَ
الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾ وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا
وَعِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٥﴾ وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ
الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ
لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾ وَقِيلِهِ يَا رَبِّ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾

فيه من العذاب ، فيقولون ادعوا مالكا فيدعون (يا مالك ليقض علينا ربك) ولما ذكر الله تعالى كيفية عذابهم فى الآخرة ذكر بعده كيفية مكرهم وفساد باطنهم فى الدنيا فقال (أم أبرموا أمراً فإنا مبرمون) والمعنى أم ابرموا أى مشركوا مكة أمراً من كيدهم ومكرهم برسول الله ، فإنا مبرمون كيدنا كما أبرموا كيدهم كقوله تعالى (أم يريدون كيداً فالذين كفروا هم المكيدون) قال مقاتل : نزلت فى تدبيرهم فى المكر به فى دار الندوة ، وهو ما ذكره الله تعالى فى قوله تعالى (وإذ يمكر بك الذين كفروا) وقد ذكرنا القصة .

ثم قال (أم يحسبون أنا لا نسمع سرهم ونجواهم) السر ما حدث به الرجل نفسه أو غيره فى مكان خال ، والنجوى ما تكلموا به فيما بينهم (بلى) نسمعها ونطلع عليها (ورسلنا) يريد الحفظة (يكتبون) عليهم تلك الأحوال ، وعن يحيى ابن معاذ من ستر من الناس ذنوبه وأبداها للذى لا يخفى عليه شىء فى السموات فقد جعله أهون الناظرين إليه وهو من علامات النفاق .

قوله تعالى : ﴿ قل إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين ، سبحان رب السموات والأرض رب العرش عما يصفون ، فذرهم يخوضوا ويلعبوا حتى يلاقوا يومهم الذى يوعدون ، وهو الذى فى السماء إله وفى الأرض إله وهو الحكيم العليم ، وتبارك الذى له ملك السموات والأرض وما بينهما وعنده علم الساعة وإليه ترجعون ، ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة إلا من شهد بالحق وهم يعلمون ، ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله فأنى يؤفكون ، وقيله يارب إن هؤلاء قوم لا يؤمنون ،

فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَٰمٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾

فاصفح عنهم وقل سلام فسوف يعلمون ﴾ ، وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قرأ حمزة والكسائي (ولد) بضم الواو وإسكان اللام، والباقون بفتحهما (فأنا أول العابدين) قرأ نافع (فأنا) بفتحة طويلة على النون والباقون بلا تطويل .

﴿ المسألة الثانية ﴾ اعلم أن الناس ظنوا أن قوله (قل إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين) لو أجريناه على ظاهره فانه يقتضى وقوع الشك فى إثبات ولد لله تعالى ، وذلك محال فلا جرم افتقروا إلى تأويل الآية ، وعندى أنه ليس الأمر كذلك وليس فى ظاهر اللفظ ما يوجب العدول عن الظاهر ، وتقريره أن قوله (إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين) قضية شرطية والقضية الشرطية مركبة من قضيتين خبريتين أدخل على إحداهما حرف الشرط وعلى الأخرى حرف الجزاء فحصل بمجموعهما قضية واحدة ، ومثاله هذه الآية فان قوله (إن كان الرحمن ولد فأنا أول العابدين) قضية مركبة من قضيتين : (إحداهما) قوله (إن كان الرحمن ولد) ، (والثانية) قوله (فأنا أول العابدين) ثم أدخل حرف الشرط وهو لفظة إن على القضية الأولى وحرف الجزاء وهو الفاء على القضية الثانية فحصل من مجموعهما قضية الأولى واحدة ، وهو القضية الشرطية ، إذا عرفت هذا فنقول القضية الشرطية لا تفيد إلا كون الشرط مستلزماً للجزاء ، وليس فيها إشعار بكون الشرط حقاً أو باطلا أو بكون الجزاء حقاً أو باطلا ، بل نقول القضية الشرطية الحقة قد تكون مركبة من قضيتين حقيتين أو من قضيتين باطلتين أو من شرط باطل وجزاء حق أو من شرط حق وجزاء باطل ، فأما القسم الرابع وهو أن تكون القضية الشرطية الحقة مركبة من شرط حق وجزاء باطل فهذا محال .

ولنبين أمثال هذه الأقسام الأربعة ، فإذا قلنا إن كان الإنسان حيواناً فالإنسان جسم فهذه شرطية حقة وهي مركبة من قضيتين حقيتين ، إحداهما قولنا الإنسان حيوان ، والثانية قولنا الإنسان جسم ، وإذا قلنا إن كانت الخمسة زوجاً كانت منقسمة بمتساويين فهذه شرطية حقة لكنها مركبة من قولنا الخمسة زوج ، ومن قولنا الخمسة منقسمة بمتساويين وهما باطلان ، وكونهما باطلين لا يمنع من أن يكون استلزام أحدهما للآخر حقاً ، وقد ذكرنا أن القضية الشرطية لا تفيد إلا مجرد الاستلزام ، وإذا قلنا إن كان الإنسان حجراً فهو جسم ، فهذا جسم ، فهذا أيضاً حق لكنها مركبة من شرط باطل وهو قولنا الإنسان حجر ، ومن جزء حق وهو قولنا الإنسان جسم ، وإنما جاز هذا لأن الباطل قد يكون بحيث يلزم من فرض وقوعه وقوع حق ، فانا فرضنا كون الإنسان حجراً وجب كونه جسما فهذا شرط باطل يستلزم جزاء حقاً .

(وأما القسم الرابع) وهو تركيب قضية شرطية حقة من شرط حق وجزاء باطل ، فهذا

محال ، لأن هـذا التركيب يلزم منـه كون الحق مستلزماً للباطل وذلك محال بخلاف القسم الثالث فإنه يلزم منه كون الباطل مستلزماً للحق وذلك ليس بمحال ، إذا عرفت هـذا الأصل فلنرجع إلى الآية فنقول قوله (إن كان الرحمن ولد فأنا أول العابدين) قضية شرطية حقة من شرط باطل ومن جزاء باطل لأن قولنا كان الرحمن ولد باطل ، وقولنا (أنا أول العابدين) لذلك الولد باطل أيضاً إلا أنا بينا أن كون كل واحد منهما باطلا لا يمنع من أن يكون استلزام أحدهما للآخر حقاً كما ضربنا من المثال فى قولنا إن كانت الخمسة زوجاً كانت منقسمة بمتساويين ، فثبت أن هذا الكلام لا امتناع فى إجرائه على ظاهره ، ويكون المراد منـه أنه إن كان الرحمن ولد فأنا أول العابدين لذلك الولد ، فان السلطان إذا كان له ولد فكما يجب على عبده أن يخدمه فكذلك يجب عليه أن يخدم ولده ، وقد بينا أن هذا التركيب لا يدل على الاعتراف بإثبات ولد أم لا .

ومما يقرب من هـذا الباب قوله (لوكان فيهما آلهـة إلا الله لفسـدتا) فهذا الكلام قضية شرطية والشرط هو قولنا (فيهما آلهة) والجزاء هو قولنا (فسدتا) فالشرط فى نفسه باطل والجزاء أيضاً باطل لأن الحق أنه ليس فيهما آلهة ، وكلمة لو تفيد انتفاء الشىء بانتفاء غيره لأنهما ما فسدتا ثم مع كون الشرط باطـلا وكون الجزاء باطلا كان استلزام ذلك الشرط لهـذا الجزاء حقاً فكذا ههنا ، فان قالوا الفرق أن ههنا ذكر الله تعالى هـذه الشرطية بصيغـة لوفقال (لو كان فيهما آلهـة) وكلمة لوتفيد انتفاء الشىء لانتفاء غيره ، وأما فى الآية التى نحن فى تفسيرها إنما ذكر الله تعالى كلمة إن وهذه الكلمة لا تفيد انتفاء الشىء لانتفاء غيره ، بل هذه الكلمة تفيد الشك فى أنه هل حصل الشرط أم لا ، وحصول هذا الشك للرسول غير ممكن ، قلنا الفرق الذى ذكرتم صحيح إلا أن مقصودنا بيان أنه لايلزم من كون الشرطية صادقة كون جزءيها صادقتين أو كاذبتين على ماقررناه أما قوله إن لفظة إن تفيـد حصول الشرط هل حصل أم لا ، قلنا هـذا ممنوع فان حرف إن حرف الشرط وحرف الشرط لا يفيـد إلا كون الشرط مستلزماً للجزاء ، وأما بيان أن ذلك الشرط معلوم الوقوع أو مشكوك الوقوع ، فاللفظ لادلالة فيه عليه البتة ، فظهر من المباحث التى لخصناها أن الكلام ههنا ممكن الإجراء على ظاهره من جميع الوجوه وأنه لاحاجة فيه البتة إلى التأويل ، والمعنى أنه تعالى قال (قل) يا محمد (إن كان الرحمن ولد فأنا أول العابدين) لذلك الولد وأنا أول الخادمين له ، والمقصود من هذا الكلام بيان أنى لا أنكر ولده لأجل العناد والمنازعة فان بتقدير أن يقوم الدليل على ثبوت هذا الولد كنت مقراً به معترفاً بوجوب خدمته إلا انه لم يوجد هذا الولد ولم يقم الدليل على ثبوته البتة ، فكيف أقول به ؟ بل الدليل القاطع قائم على عدمه فكيف أقول به وكيف أعترف بوجوده ؟ وهذا الكلام ظاهر كامل لاحاجة به البتة إلى التأويل والعدول عن الظاهر ، فهذا ما عندى فى هذا الموضع ونقل عن السدى من المفسرين أنه كان يقول حمل هذه الآية على ظاهرها ممكن ولا حاجة إلى التأويل ، والتقرير الذى ذكرناه يدل على أن الذى

قاله هو الحق ، أما القائلون بأنه لابد من التأويل فقد ذكروا وجوهاً (الأول) قال الواحدى كثرت الوجوه فى تفسير هذه الآية ، والأقوى أن يقال المعنى إن كان الرحمن ولد فى زعمكم (فأنا أول العابدين) أى الموحدين لله المكذبين لقولكم بإضافة الولد إليه ، ولقائل أن يقول إما أن يكون تقدير الكلام : إن يثبت للرحمن ولد فى نفس الأمر فأنا أول المنكرين له أو يكون التقدير إن يثبت لكم ادعاء أن للرحمن ولداً فأنا أول المنكرين له ، والأول باطل لأن ثبوت الشىء فى نفسه لايقتضى كون الرسول منكراً له ، لأن قوله إن كان الشىء ثابتاً فى نفسه فأنا أول المنكرين يقتضى إصراره على الكذب والجهل وذلك لا يليق بالرسول ، والثانى أيضاً باطل لأنهم سواء أثبتوا لله ولداً أو لم يثبتوه له فالرسول منكر لذلك الولد ، فلم يكن لزعمهم تأثير فى كون الرسول منكراً لذلك الولد فلم يصلح جعل زعمهم إثبات الولد مؤثراً فى كون الرسول منكراً للولد .

(الوجه الثانى) قالوا معناه (إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين) الآنفين من أن يكون له ولد من عبد يعبد إذا اشتدت أنفته فهو عبد وعابد ، وقرأ بعضهم عبدين .

واعلم أن السؤال المذكور قائم ههنا لأنه إن كان المراد إن كان للرحمن ولد فى نفس الأمر فأنا أول الآنفين من الإقرار به ، فهذا يقتضى الإصرار على الجهل والكذب ، وإن كان المراد إن كان للرحمن ولد فى زعمكم واعتقادكم فأنا أول الآنفين ، فهذا التعليق فاسد لأن هذه الأنفة حاصلة سواء حصل ذلك الزعم والاعتقاد أو لم يحصل ، وإذا كان الأمر كذلك لم يكن هذا التعليق جائزاً .

(والوجه الثالث) قال بعضهم إن كلمة إن ههنا هى النافية والتقدير ما كان للرحمن ولد فأنا أول الموحدين من أهل مكة أن لا ولد له .

واعلم أن التزام هذه الوجوه البعيدة إنما يكون للضرورة ، وقد بينا أنه لا ضرورة البتة فلم يجز المصير إليها والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ سبحان رب السموات والأرض رب العرش عما يصفون ﴾ والمعنى أن إله العالم يجب أن يكون واجب الوجود لذاته ، وكل ما كان كذلك فهو فرد مطلق لايقبل التجزأ بوجه من الوجوه ، والولد عبارة عن أن ينفصل عن الشىء جزء من أجزائه فيتولد عن ذلك الجزء شخص مثله ، وهذا إنما يعقل فيما تكون ذاته قابلة للتجزىء والتبعيض ، وإذا كان ذلك محالا فى حق إله العالم امتنع إثبات الولد له ، ولما ذكر هذا البرهان القاطع قال (فذرهم يخوضوا ويلعبوا حتى يلاقوا يومهم الذى يوعدون) والمقصود منه التهديد ، يعنى قد ذكرت الحجة القاطعة على فساد ماذكروا وهم لم يلتفتوا إليها لأجل كونهم مستغرقين فى طلب المال والجاه والرياسة فاتركهم فى ذلك الباطل واللعب حتى يصلوا إلى ذلك اليوم الذى وعدوا فيه بما وعدوا ، والمقصود منه التهديد .

قوله تعالى : ﴿ وهو الذى فى السماء إله وفى الأرض إله ﴾ وفيه أبحاث :

﴿ البحث الأول ﴾ قال أبو على نظرت فيما يرتفع به إله فوجدت ارتفاعه يصح بأن يكون خبر مبتدأ محذوف والتقدير وهو الذى فى السماء هو إله .

﴿ والبحث الثانى ﴾ هذه الآية من أدل الدلائل على أنه تعالى غير مستقر فى السماء ، لأنه تعالى بين بهذه الآية أن نسبته إلى السماء بالإلهية كنسبته إلى الأرض ، فلما كان إلهاً للأرض مع أنه غير مستقر فيها فكذلك يجب أن يكون إلهاً للسماء مع أنه لايكون مستقراً فيها ، فان قيل وأى تعلق لهذا الكلام بنفى الولد عن الله تعالى ؟ قلنا تعلقه به أنه تعالى خلق عيسى بمحض كن فيكون من غير واسطة النطفة والأب ، فكأنه قيل إن هذا القدر لا يوجب كون عيسى ولداً لله سبحانه ، لأن هذا المعنى حاصل فى تخليق السموات والأرض وما بينهما مع انتفاء حصول الولدية هناك .

ثم قال تعالى (وهو الحكيم العليم) وقد ذكرنا فى سورة الأنعام أن كونه تعالى حكيما عليما ينافى حصول الولد له .

ثم قال (وتبارك الذى له ملك السموات والأرض ومابينهما وعنده علم الساعة وإليه ترجعون) واعلم أن قوله (تبارك) إما أن يكون مشتقاً من الثبات والبقاء ، وإما أن يكون مشتقاً من كثرة الخير ، وعلى التقديرين فكل واحد من هذين الوجهين ينافى كون عيسى عليه السلام ولداً لله تعالى ، لأنه إن كان المراد منه الثبات والبقاء ، فعيسى عليه السلام لم يكن واجب البقاء والدوام ، لأنه حدث بعد أن لم يكن ، ثم عند النصارى أنه قتل ومات ومن كان كذلك لم يكن بينه وبين الباقى الدائم الأزلى مجانسة ومشابهة ، فامتنع كونه ولداً له ، وإن كان المراد بالبركة كثرة الخيرات مثل كونه خالقاً للسموات والأرض وما بينهما فعيسى لم يكن كذلك بل كان محتاجاً إلى الطعام وعند النصارى أنه كان خائفاً من اليهود وبالآخرة أخذوه وقتلوه ، فالذى هذا صفته كيف يكون ولداً لمن كان خالقاً للسموات والأرض وما بينهما ! .

وأما قوله (وعنده علم الساعة) فالمقصود منه إنه لما شرح كمال قدرته فكذلك شرح كمال علمه ، والمقصود التنبيه على أن من كان كاملا فى الذات والعلم والقدرة على الحد الذى شرحناه امتنع أن يكون ولده فى العجز وعدم الوقوف على أحوال العالم بالحد الذى وصفه النصارى .

ولما أطنب الله تعالى فى نفى الولد أردفه ببيان نفى الشركاء فقال (ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة إلا من شهد بالحق وهم يعلمون) ذكر المفسرون فى هذه الآية قولين (أحدهما) أن الذين يدعون من دونه الملائكة وعيسى وعزير ، والمعنى أن الملائكة وعيسى وعزيراً لا يشفعون إلا لمن شهد بالحق ، روى أن النضر بن الحرث ونفراً معه قالوا إن كان ما يقول محمد حقاً فنحن نتولى الملائكة فهم أحق بالشفاعة من محمد ، فأنزل الله هذه الآية يقول لا يقدر هؤلاء أن يشفعوا لأحد ثم استثنى فقال (إلا من شهد بالحق) والمعنى على هذا القول هؤلاء لا يشفعون إلا لمن شهد بالحق ، فأضمر اللام أو يقال التقدير إلا شفاعة من شهد بالحق لحذف المضاف ، وهذا على لغة من

يعدى الشفاعة بغير لام ، فيقول شفعت فلاناً بمعنى شفعت له كما تقول كلمته وكلمت له ونصحته ونصحت له (والقول الثانى) أن الذين يدعون من دونه كل معبود من دون الله ، وقوله (إلا من شهد بالحق) الملائكة وعيسى وعزير ، والمعنى أن الأشياء التى عبدها الكفار لا يملكون الشفاعة إلا من شهد بالحق ، وهم الملائكة وعيسى وعزير فان لهم شفاعة عند الله ومنزلة ، ومعنى من شهد بالحق من شهد أنه لا إله إلا الله .

ثم قال تعالى (وهم يعلمون) وهذا القيد يدل على أن الشهادة باللسان فقط لا تفيد البتة ، واحتج القائلون بأن إيمان المقلد لا ينفع البتة بهذه الآية ، فقالوا بين الله تعالى أن الشهادة لا تنفع إلا إذا حصل معها العلم والعلم عبارة عن اليقين الذى لو شكك صاحبه فيه لم يتشكك ، وهذا لم يحصل إلا عند الدليل ، فثبت أن إيمان المقلد لا ينفع البتة .

قوله تعالى : ﴿ ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله فأنى يؤفكون ﴾ وفيه مسألتان :

﴿ المسألة الأولى ﴾ ظن قوم أن هذه الآية وأمثالها فى القرآن تدل على أن القوم مضطرون إلى الاعتراف بوجود الإله للعالم ، قال الجبائى وهذا لا يصح لأن قوم فرعون قالوا لا إله لهم غيره ، وقوم إبراهيم قالوا (وإنا لفى شك مما تدعوننا إليه) فيقال لهم لا نسلم أن قوم فرعون كانوا منكرين لوجود الإله ، والدليل على قولنا قوله تعالى (وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً) وقال موسى لفرعون (لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض بصائر) فالقراءة بفتح التاء فى علمت تدل على أن فرعون كان عارفاً بالله ، وأما قوم إبراهيم حيث قالوا (وإنا لفى شك مما تدعوننا إليه) فهو مصروف إلى إثبات القيامة وإثبات التكاليف وإثبات النبوة .

﴿ المسألة الثانية ﴾ اعلم أنه تعالى ذكر هذا الكلام فى أول هذه السورة وفى آخرها ، والمقصود التنبيه على أنهم لما اعتقدوا أن خالق العالم وخالق الحيوانات هو الله تعالى فكيف أقدموا مع هذا الاعتقاد على عبادة أجسام خسيسة وأصنام خبيثة لا تضر ولا تنفع ، بل هى جمادات محضة .

وأما قوله (فأنى تؤفكون) معناه لم تكذبون على الله فتقولون إن الله أمرنا بعبادة الأصنام ، وقد احتج بعض أصحابنا به على أن إفكهم ليس منهم بل من غيرهم بقوله (فأنى تؤفكون) وأجاب القاضى بأن من يضل فى فهم الكلام أو فى الطريق يقال له أين يذهب بك ، والمراد أين تذهب ، وأجاب الأصحاب بأن قول القائل أين يذهب بك ظاهره يدل على أن ذاهباً آخر ذهب به ، فصرف الكلام عن حقيقته خلاف الأصل الظاهر ، وأيضاً فإن الذى ذهب به هو الذى خلق تلك الداعية فى قلبه ، وقد ثبت بالبرهان الباهر أن خالق تلك الداعية هو الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ وقيله يارب إن هؤلاء قوم لا يؤمنون ﴾ وفيه مباحث :

﴿ الأول ﴾ قرأ الأكثرون (وقيله) بفتح اللام وقرأ عاصم وحمزة بكسر اللام ، قال الواحدى وقرأ أناس من غير السبعة بالرفع ، أما الذين قرؤا بالنصب فذكر الأخفش والفراء فيه قولين

(أحدها) أنه نصب على المصدر بتقدير وقال قيله وشكا شكواه إلى ربه يعنى النبى صلى الله عليه وسلم فانتصب قيله بإضمار قال (والثانى) أنه عطف على ما تقدم من قوله (أنا لا نسمع سرهم ونجواهم . . . وقيله) وذكر الزجاج فيه وجهاً (ثالثاً) فقال إنه نصب على موضع الساعة لأن قوله (وعنده علم الساعة) معناه أنه علم الساعة ، والتقدير علم الساعة ، وقيله ، ونظيره قولك عجبت من ضربِ زيد وعمراً ، وأما القراءة بالجر فقال الأخفش والفراء والزجاج إنه معطوف على الساعة ، أى عنده علم الساعة ، وعلم قيله يارب ، قال المبرد العطف على المنصوب حسن وإن تباعد المعطوف من المعطوف عليه لأنه يجوز أن يفصل بين المنصوب وعامله والمجرور يجوز ذلك فيه على قبح ، وأما القراءة بالرفع ففيها وجهان (الأول) أن يكون وقيله مبتدأ وخبره مابعده (والثانى) أن يكون معطوفاً على علم الساعة على تقدير حذف المضاف معناه وعنده علم الساعة وعلم قيله ، قال صاحب الكشاف هذه الوجوه ليست قوية فى المعنى لا سيما وقوع الفصل بين المعطوف والمعطوف عليه بمـا لا يحسن اعتراضاً ، ثم ذكر وجهاً آخر وزعم أنه أقوى ممـا سبق ، وهو أن يكون النصب والجر على إضمار حرف القسم وحذفه والرفع على قولهم أيمن الله وأمانة الله ويمين الله ، يكون قوله (إن هؤلاء قوم لا يؤمنون) جواب القسم كأنه قيل وأقسم بقيله يارب أو وقيله يارب قسمى ، وأقول هذا الذى ذكره صاحب الكشاف متكلف أيضاً وههنا إضمار امتلأ القرآن منه وهو إضمار اذكر ، والتقدير واذكر قيله يارب ، وأما القراءة بالجر ، فالتقدير واذكر وقت قيله يارب ، وإذا وجب التزام الإضمار فلأن يضمر شيئاً جرت العادة فى القرآن بالتزام إضماره أولى من غيره ، وعن ابن عباس أنه قال فى تفسير قوله (وقيله يارب) المراد وقيل يارب والهاء زيادة .

﴿ البحث الثانى ﴾ القيل مصدر كالقول ، ومنه قول النبى صلى الله عليه وسلم « نهى عن قيل وقال » قال الليث تقول العرب كثر فيه القيل والقـال ، وروى شمر عن أبى زيد يقال ما أحسن قيلك وقولك وقالك ومقالتك خمسة أوجه .

﴿ البحث الثالث ﴾ الضمير فى قيله لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

﴿ البحث الرابع ﴾ أن النبى صلى الله عليه وسلم لمـا ضجر منهم وعرف إصرارهم أخبر عنهم أنهم قوم لايؤمنون وهو قريب ممـا حكى الله عن نوح أنه قال (رب إنهم عصونى واتبعوا من لم يزده ماله وولده إلا خساراً) .

ثم إنه تعالى قال له (فاصفح عنهم) فأمره بأن يصفح عنهم وفى ضمنه منعه من أن يدعو عليهم بالعذاب ، والصفح هو الإعراض .

ثم قال (وقل سلام) قال سيبويه إنمـا معناه المتاركة ، ونظيره قول إبراهيم لأبيه (سلام عليك سأستغفر لك ربى) وكقوله (سلام عليكم لا نبتغى الجاهلين) .

قوله ﴿ فسوف تعلمون ﴾ والمقصود منه التهديد . وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قرأ نافع وابن عامر تعلمون بالتاء على الخطاب ، والباقون بالياء كناية عن قوم لا يؤمنون .

﴿ المسألة الثانية ﴾ احتج قوم بهذه الآية على أنه يجوز السلام على الكافر ، وأقول إن صح هذا الاستدلال فهذا يوجب الاقتصار على مجرد قوله (سلام) وأن يقال للمؤمن سلام عليكم . والمقصود التنبيه على التحية التى تذكر للمسلم والكافر .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قال ابن عباس قوله تعالى (فاصفح عنهم وقل سلام) منسوخ بآية السيف ، وعندى أن التزام النسخ فى أمثال هذه المواضع مشكل ، لأن الأمر لا يفيد الفعل إلا مرة واحدة فإذا أتى به مرة واحدة فقد سقطت دلالة اللفظ ، فأى حاجة فيه إلى التزام النسخ ، وأيضاً فتله يمين الفور مشهورة عند الفقهاء وهى دالة على أن اللفظ قد يتقيد بحسب قرينة العرف ، وإذا كان الأمر كذلك فلا حاجة فيه إلى التزام النسخ والله أعلم بالصواب .

قال مولانا المؤلف عليه سحائب الرحمة والرضوان : تم تفسير هذه السورة يوم الأحد الحادى عشر من ذى الحجة سنة ثلاث وستمائة والحمد لله أولا وآخراً وباطناً وظاهراً ، والصلاة على ملائكته المقربين والأنبياء والمرسلين خصوصاً على محمد صلى الله عليه وسلم وآله وصحبه أجمعين أبد الآبدين ودهر الداهرين .

سورة الزخرف

مكيةٌ بإجماع. وقال مقاتل: إلا قولَه: ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ﴾ [الزخرف:٤٥]، وهي تسعٌ وثمانون آيةً[١].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿حمٓ ۝١ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٣﴾

قولُه تعالى: ﴿حمٓ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ تقدَّم الكلامُ فيه[٢]. وقيل: «حم» قسمٌ، «والْكِتَابِ الْمُبِينِ» قسمٌ ثانٍ، ولله أن يُقسمَ بما شاء، والجوابُ: «إِنَّا جَعَلْنَاهُ»[٣]. وقال ابنُ الأنباري[٤]: مَن جعل جوابَ «وَالْكِتَابِ» «حم» كما تقولُ: نزلَ واللهِ، وَجَب واللهِ؛ وقفَ على «الْكِتَابِ الْمُبِينِ»، ومَن جعلَ جوابَ القسم «إِنَّا جَعَلْنَاهُ»؛ لم يقف على «الْكِتَابِ الْمُبِينِ».

ومعنى: «جَعَلْنَاهُ» أي: سَمَّيناه ووَصفناه[٥]، ولذلك تعدَّى إلى مفعولين[٦]، كقولِهِ تعالى: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ﴾ [المائدة:١٠٣]. وقال السُّدِّيّ: أي: أنزلناه قرآناً. مجاهد: قلناه. الزَّجَّاجُ وسفيان الثَّوْري: بَيَّنَّاه. ﴿عَرَبِيًّا﴾ أي: أنزلناه بلسانِ العرب؛

---

(١) الوسيط ٤/ ٦٣، والمحرر الوجيز ٥/ ٤٥، والكشاف ٣/ ٤٧٧، وزاد المسير ٧/ ٣٠١، وتفسير البغوي ٤/ ١٣٣.

(٢) عند تفسير الآية الأولى من سورة غافر.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٩٧، والكشاف ٣/ ٤٧٧، وتفسير السمرقندي ٣/ ٢٠٢، والنكت والعيون ٥/ ٢١٤.

(٤) في إيضاح الوقف والابتداء ٢/ ٨٨٣.

(٥) تفسير السمرقندي ٣/ ٢٠٢، والبغوي ٤/ ١٣٣.

(٦) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٩٧.

لأنَّ كل نبيٍّ أُنزِل كتابُه بلسان قومه؛ قاله سفيانُ الثوري وغيره. وقال مقاتل: لأنَّ لسان أهلِ السماء عربيٌّ[1]. وقيل: المرادُ بالكتاب جميعُ الكتب المنزلة على الأنبياء؛ لأن الكتابَ اسمُ جنس، فكأنَّه أقسم بجميع ما أُنزِل من الكتبِ أنَّه جعلَ القرآنَ عربيًّا. والكنايةُ في قوله: «جَعَلْنَاهُ» ترجعُ إلى القرآن[2] وإن لم يجرِ له ذكرٌ في هذه السورة، كقولِهِ تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾ [القدر: ١]. ﴿لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾، أي: تفهمون أحكامَه ومعانيَه. فعلى هذا القولِ يكون خاصًّا للعرب دونَ العجم؛ قاله ابنُ عيسى. وقال ابنُ زيد: المعنى: لعلكم تتفكرون، فعلى هذا يكون خطاباً عامًّا للعرب والعجم[3]. ونُعِت الكتابُ بالمبين؛ لأن الله بيَّن فيه أحكامَه وفرائضَه[4]، على ما تقدَّم في غير موضع.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ يعني: القرآن في اللوحِ المحفوظ ﴿لَدَيْنَا﴾ عندنا[5] ﴿لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ﴾ أي: رفيعٌ محكم لا يوجد فيه اختلافٌ ولا تناقض؛ قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ﴾ [الواقعة: ٧٧-٧٨] وقال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾ [البروج: ٢١-٢٢]. وقال ابنُ جُريج: المرادُ بقوله تعالى: «وَإِنَّهُ»، أي: أعمالُ الخلقِ من إيمانٍ وكفر، وطاعةٍ ومعصية. «لَعَلِيٌّ»، أي: رفيعٌ عن أن يُنَال فَيبدَّلَ، «حَكِيمٌ»، أي: محفوظ من نقصٍ أو تغيير[6]. وقال ابن عباس: أَوَّلُ ما خلقَ الله القلمُ، فأَمرَه أن يكتبَ ما يريد أن يَخلُق، فالكتابُ عنده، ثم قرأ: ﴿وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٢١٥ .

(٢) الطبري ٢٠/ ٥٤٥ ، والمحرر الوجيز ٥/ ٤٥ .

(٣) النكت والعيون ٥/ ٢١٥ .

(٤) الكلام بنحوه في الكشاف ٣/ ٤٧٧ .

(٥) تفسير البغوي ٤/ ١٣٣ ، والسمرقندي ٣/ ٢٠٢ .

(٦) النكت والعيون ٥/ ٢١٥-٢١٦ .

﴿ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾[١]. وكسرَ الهمزةَ من «أمّ الكتاب» حمزةُ والكسائيُّ، وضمَّ الباقون، وقد تقدم[٢].

قوله تعالى: ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ۝٥﴾

قولُه تعالى: ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا﴾ يعني: القرآن؛ عن الضَّحاكِ وغيره. وقيل: المرادُ بالذكرِ العذاب، أي: أفنضربُ عنكم العذابَ ولا نعاقبكم على إسرافِكم وكفركم؟ قاله مجاهدٌ وأبو صالح والسُّدّيّ[٣]، ورواه العَوْفي عن ابن عباس. وقال ابنُ عباس: المعنى: أفحسِبتم أن نصفحَ عنكم العذابَ ولمّا تفعلوا ما أُمِرتم به[٤]؟ وعنه أيضاً أنَّ المعنى: أتكذبون بالقرآن ولا تُعاقبون؟ وقال السّدّيّ أيضاً: المعنى: أفنترُكُكم سُدًى فلا نأمُركم ولا نَنهاكم؟ وقال قتادة: المعنى: أَفنُهلكُكم ولا نأمُركم ولا ننهاكم؟ وعنه أيضاً: أَفنُمسك عن إنزالِ القرآن من قبلِ أنكم لا تُؤمنون به فلا نُنزله عليكم[٥]؟ وقاله ابن زيد[٦]. قال قتادة: والله لو كان هذا القرآن رُفِع حين ردَّته[٧] أوائلُ هذه الأمة لهلكوا، ولكن الله كرَّره[٨] عليهم برحمته. وقال الكسائي: أَفنطوي عنكم الذكر طَيًّا فلا تُوعَظُون ولا تؤمرون[٩]؟ وقيل: الذِّكرُ: التذكرُ، فكأنه

---

(١) أخرجه الطبري ٢٠/ ٥٤٦، وذكره البغوي ٤/ ١٣٣.

(٢) التيسير ص٩٤، والسبعة ص٢٨٨، وسلف ٦/ ١١٩. وكسرُ الهمزة لحمزة والكسائي في قوله: «في أُمّ» هو عند الوصل، أما عند الابتداء بـ «أُمّ» فبضمّ الهمزة.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٥٨، والنكت والعيون ٥/ ٢١٦، والمحرر الوجيز ٥/ ٤٦، وتفسير مجاهد ٢/ ٥٧٩.

(٤) أخرجه الطبري ٢٠/ ٥٤٩، والنكت والعيون ٥/ ٢١٦.

(٥) تفسير البغوي ٤/ ١٣٤.

(٦) أخرجه الطبري ٢٠/ ٥٤٩-٥٥٠ بنحوه، والكلام في زاد المسير ٧/ ٣٠٣.

(٧) في النسخ: ردَّدته، والمثبت من الطبري ٢٠/ ٥٤٩، والبغوي ٤/ ١٣٤.

(٨) في (م): ردَّده وكرَّره.

(٩) تفسير البغوي ٤/ ١٣٤.

قال: أنترك تذكيرَكم لأنْ كُنتم قوماً مسرفين[١]، في قِراءةِ مَن فَتَح. ومَن كسرَ[٢] جعلَها للشرط وما قبلَها جواباً لها؛ لأنَّها لم تعملْ في اللفظ[٣]. ونظيرُه: ﴿وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [البقرة:٢٧٨] وقيل: الجوابُ محذوفٌ دلَّ عليه ما تقدَّم، كما تقول: أنت ظالمٌ إن فعلت[٤]. ومعنى الكسرِ عندَ الزجاج الحالُ[٥]؛ لأنَّ في الكلامِ معنى التقريرِ والتوبيخ. ومعنى ﴿صَفْحًا﴾ إعراضاً؛ يقال: صَفحتُ عن فلانٍ: إذا أعرضتَ عن ذنبِه، وقد ضربتُ عنه صفحاً: إذا أَعرضتَ عنه وتَركته[٦]. والأصلُ فيه صفحةُ العُنق؛ يقال: أَعرضتُ عنه، أي: وَلَّيتُه صفحةَ عنقي. قال الشاعر:

صَفوحاً فما تلقاكَ إلا بخيلَةً فمَنْ مَلَّ منها ذلك الوصلَ مَلَّتِ[٧]

وانتصب «صَفْحاً» على المصدر؛ لأنَّ معنى: «أَفَنَضْرِبُ»: أفنصفح[٨]. وقيل: التقديرُ: أفنضربُ عنكم الذكرَ صافحين، كما يقال: جاءَ فلان مشياً[٩]. ومعنى: ﴿مُّسْرِفِينَ﴾ مشركين[١٠]. واختار أبو عبيدة الفتحَ في «أن» - وهي قراءةُ ابنِ كثير وأبي عمرو، وعاصم وابن عامر[١١] - قال: لأنَّ الله تعالى عاتَبهم على ما كان منهم، وعَلِمَه قبل ذلك من فعلِهم.

---

(١) المحرر الوجيز ٥/٤٦، وينظر أمالي ابن الشجري ٣/١٦٢.

(٢) وهم: نافع وحمزة والكسائي. السبعة ص٥٨٤، والتيسير ص١٩٥.

(٣) مشكل إعراب القرآن ٢/٦٤٩.

(٤) الوسيط ٤/٦٤.

(٥) معاني القرآن للزجاج، ولفظه فيه: ومن كسرَها فعلى معنى الاستقبال. ٤/٤٠٥، ونقله عنه ابن الجوزي في زاد المسير ٧/٣٠٣.

(٦) الصحاح (صفح).

(٧) البيت لكثيّر عزة في ديوانه ص٧٧، وفيه: صفوحٌ بالرفع. وهو برواية المصنف في زاد المسير ٧/٣٠٢.

(٨) البيان ٢/٣٥٢.

(٩) إعراب القرآن للنحاس ٤/٩٨.

(١٠) تفسير البغوي ٤/١٣٤، والنكت والعيون ٥/٢١٦، وزاد المسير ٧/٣٠٣.

(١١) السبعة ص٥٨٤. قال الطبري ٢٠/٥٥١: الكسر والفتح في الألف في هذا الموضع قراءتان مشهورتان في قرأة الأمصار، صحيحتا المعنى، فبأيتهما قرأ القارئ فمصيب.

قوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي ٱلْأَوَّلِينَ ۝٦ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٧ فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٨﴾

قوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي ٱلْأَوَّلِينَ﴾ «كَمْ» هنا خبريةٌ، والمرادُ بها التكثير، والمعنى: ما أكثرَ ما أرسلنا من الأنبياء. كما قال: ﴿كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ [الدخان: ٢٥] أي: ما أكثر ما تركوا. ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ﴾ أي: لم يكن يأتيهم نبيٌّ ﴿إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ كاستهزاءِ قومِك بك، يُعزي نبيَّه محمداً ﷺ ويسلِّيه، ﴿فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا﴾ أي: قوماً أشدَّ منهم قوةً. والكنايةُ في «مِنْهُمْ» ترجعُ إلى المشركين المخاطَبين بقوله: «أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحاً»[1]، فكنَى عنهم بعد أن خاطبهم. و«أشدّ» نُصِب على الحال. وقيل: هو مفعولٌ، أي: فقد أهلكنا أقوى من هؤلاءِ المشركين في أبدانِهم وأتباعهم، ﴿وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي: عقوبتُهم؛ عن قتادة[2]. وقيل: صفة[3] الأولين؛ فَخبَّرهم بأنهم أُهلِكوا على كفرهم؛ حكاه النَّقاشُ والمهدويُّ[4]. والْمَثَلُ: الوصفُ والخبر.

قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ۝٩﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم﴾ يعني: المشركين ﴿مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾ فأقرُّوا له بالخلقِ والإيجاد، ثم عَبدوا معه غيرَه جهلاً منهم[5]. وقد مضى في غيرِ موضع[6].

---

(١) المحرر الوجيز ٥/ ٤٦، وتفسير السمرقندي ٣/ ٢٠٣، والكشاف ٣/ ٤٧٨.

(٢) أخرجه عنه عبد الرزاق في التفسير ٢/ ١٩٤، والطبري ٢٠/ ٥٥٣.

(٣) في (م): صفحة، والكلام بنحوه في إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٩٩، وتفسير البغوي ٤/ ١٣٤.

(٤) ذكره بنحوه الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٦٤ عن النقاش.

(٥) المحرر الوجيز ٥/ ٤٦، وتفسير البغوي ٤/ ١٣٤.

(٦) ٨/ ٣١٣ وما بعدها.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۝١٠﴾

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا﴾ وَصَف نفسَه سبحانه بكمال القدرة، وهذا ابتداءُ إخبارٍ منه عن نفسِه، ولو كان هذا إخباراً عن قولِ الكفارِ لقالَ: الذي جعلَ لنا الأرض ﴿مِهَٰدًا﴾: فراشاً وبساطاً. وقد تقدَّم[١]. وقرأ الكوفيون: «مَهْداً»[٢]، ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾ أي: معايش. وقيل: طرقاً[٣]، لتَسلُكوا منها إلى حيثُ أردتم، ﴿لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ فتَستدلون بمقدوراتِه على قدرتِه. وقيل: «لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ» في أسفارِكم؛ قاله ابنُ عيسى. وقيل: لعلَّكم تعرفون نعمةَ الله عليكم؛ قاله سعيد بنُ جبير. وقيل: تَهتدون إلى معايشكم[٤].

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ۝١١﴾

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ﴾ قال ابنُ عباس: أي: لا كما أُنزل على قومِ نوحٍ بغير قدر حتى أغرقهم، بل هو بقدرٍ لا طوفانٌ مغرِقٌ، ولا قاصرٌ عن الحاجة[٥]، حتى يكون معاشاً لكم ولأنعامكم، ﴿فَأَنشَرْنَا﴾ أي: أَحيينا[٦] ﴿بِهِۦ﴾ أي: بالماء ﴿بَلْدَةً مَّيْتًا﴾ أي: مُقفِرةً من النبات، ﴿كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ أي: من قبورِكم؛ لأنَّ مَن قدر على هذا قدر على ذلك. وقد مضى في «الأعراف» مجوَّداً[٧].

---

(١) ١٤/ ٧٨.

(٢) السبعة ص٥٨٤، والتيسير ص١٩٥.

(٣) تفسير الطبري ٢٠/ ٥٥٤، والنكت والعيون ٥/ ٢١٧.

(٤) النكت والعيون ٥/ ٢١٧.

(٥) الوسيط للواحدي ٤/ ٦٥.

(٦) تفسير البغوي ٤/ ١٣٤، وزاد المسير ٧/ ٣٠٤.

(٧) ٩/ ٢٥٥.

وقرأ يحيى بنُ وثّاب والأعمشُ، وحمزةُ والكسائي، وابنُ ذَكْوان عن ابن عامر: «تَخْرُجُونَ» بفتح التاءِ وضم الراء. الباقون على الفعلِ المجهول(١).

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ۝١٢ لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ۝١٣ وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ۝١٤﴾

فيه خمسُ مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ﴾ أي: واللهُ الذي خلقَ الأزواج. قال سعيدُ بنُ جبير: أي: الأصنافَ كلَّها. وقال الحسن: الشتاء والصيف، والليل والنهار، والسماوات والأرض، والشمس والقمر، والجنة والنار. وقيل: أزواج الحيوانِ من ذكرٍ وأنثى؛ قاله ابن عيسى. وقيل: أرادَ أزواجَ النبات، كما قال تعالى: ﴿وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ [ق:٧]، و﴿مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ [الشعراء:٧]. وقيل: ما يتقلَّبُ فيه الإنسانُ من خيرٍ وشرّ، وإيمانٍ وكفر، ونفعٍ وضر، وفقرٍ وغنى، وصحةٍ وسقم(٢).

قلت: وهذا القولُ يعمُّ الأقوال كلَّها ويجمعها بعمومه.

﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ﴾: السفن ﴿وَالْأَنْعَامِ﴾: الإبل ﴿مَا تَرْكَبُونَ﴾ في البر والبحر، ﴿لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ﴾ ذكَّر الكناية؛ لأنه ردَّه إلى ما في قوله: «ما تَرْكَبُونَ»؛ قاله أبو عبيد(٣). وقال الفرَّاء(٤): أضافَ الظهورَ إلى واحدٍ؛ لأنَّ المرادَ به الجنسُ، فصار الواحدُ في معنى الجمعِ بمنزلةِ الجيش(٥) والجند، فلذلك ذكَّر وجمع الظهور،

(١) السبعة ص٥٨٤، والتيسير ص١٠٩، والمحرر الوجيز ٥/ ٤٧، وزاد المسير ٧/ ٣٠٤، ووقع في (م) و(د): يخرجون بفتح الياء، وهو خطأ.

(٢) النكت والعيون ٥/ ٢١٧. دون: قول: أراد أزواج النبات، وهو في تفسير السمرقندي ٣/ ٢٠٣.

(٣) في زاد المسير ٧/ ٣٠٤: أبو عبيدة.

(٤) في معاني القرآن ٣/ ٢٨.

(٥) في (د) و(ظ): الجنس، والكلام أيضاً بنحوه في تفسير الطبري ٢٠/ ٥٥٦-٥٥٧.

أي: على ظهورِ هذا الجنس.

الثانية: قال سعيدُ بن جبير: الأنعامُ هنا الإبلُ والبقر. وقال أبو معاذ: الإبلُ وحدَها، وهو الصحيحُ؛ لقولِهِ عليه الصلاة والسلام: «بينما رجلٌ راكبٌ بقرةً إذ قالت له: لَمْ أُخلَق لهذا، إنما خُلِقتُ للحرث». فقال النبيُّ ﷺ: «آمنتُ بذلك أنا وأبو بكر وعمرُ». وما هما في القوم. وقد مضى هذا في أوّل سورةِ النحل مستوفى. والحمدُ لله[١].

الثالثة: قولُه تعالى: ﴿لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ﴾ يعني به الإبل خاصَّةً بدليلِ ما ذكرنا، ولأنَّ الفُلكَ إنما تُركب بطونُها، ولكنه ذكَرهما جميعاً في أوّل الآية وعطف آخرها على أحدِهما. ويحتمل أن يجعلَ ظاهرها باطنها[٢]؛ لأن الماءَ غَمَره وسَتره، وباطنها ظاهراً[٣]؛ لأنَّه انكشفَ للظاهرين وظهرَ للمبصرين.

الرابعة: قولُه تعالى: ﴿ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ﴾ أي: ركبتم عليه، وذِكرُ النِعمةِ هو الحمدُ لله على تسخيرِ ذلك لنا في البرِّ والبحر. ﴿وَتَقُولُوا۟ سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَـٰذَا﴾ أي: ذلَّل لنا هذا المركبَ[٤]. في قراءةِ عليّ بن أبي طالب: «سُبْحَانَ مَنْ سَخَّرَ لَنَا هَـذَا»[٥]. ﴿وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ﴾ أي: مطيقين؛ في قولِ ابن عباس والكلبي[٦]. وقال الأخفشُ وأبو عبيدة: «مُقْرِنِينَ» ضابطين[٧]. وقيل: مماثلين في

---

(١) ١٢/ ٢٧٧ ، والحديث أخرجه أحمد (٨٩٦٣)، والبخاري (٣٤٧١)، ومسلم (٢٣٨٨)، عن أبي هريرة ﷺ.
قوله: وما هما بالقوم، أي: ليسا حاضرَيْن، والعبارة عند البخاري ومسلم: وما هما ثَمَّ.

(٢) في النسخ الخطية: باطنهما، والمثبت من (م) وهو الموافق لما في أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٦٦٤ . والكلام منه.

(٣) في أحكام القرآن: ظاهر.

(٤) الوسيط ٤/ ٦٥ ، والنكت والعيون ٥/ ٢١٨ .

(٥) لم نقف عليها عند غير المصنف.

(٦) النكت والعيون ٥/ ٢١٨ ، وأخرج الطبري ٢٠/ ٥٥٩ قول ابن عباس.

(٧) مجاز القرآن لأبي عبيدة ٢/ ٢٠٢ ، وقول الأخفش في النكت والعيون ٥/ ٢١٨ .

الأَيْد والقوَّة؛ من قولهم: هو قِرنُ فلانٍ، إذا كان مثلَه في القوَّة. ويقال: فلان مُقْرِن لفلان، أي: ضابط له. وأَقرنتُ كذا، أي: أَطقتُه. وأَقرنَ له، أي: أَطاقه وقويَ عليه، كأنه صارَ له قِرْناً. قال الله تعالى: «وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ» أي: مطيقين. وأنشدَ قُطْرب قولَ عمرو بنِ مَعْد يكَرِب:

لقد علمَ القبائلُ ما عُقيلٌ لنا في النائباتِ بمُقرنينا[1]

وقال آخرُ:

رَكبتُم صَعْبَتي أَشَراً وَحَيْفاً ولستم للصِّعاب بمقرنينا[2]

والمُقْرِنُ أيضاً: الذي غلبته ضَيعتُه، يكونُ له إبلٌ أو غنمٌ ولا معينَ له عليها، أو يكون يسقي إبلَه ولا ذائدَ له يَذودُها[3]. قال ابنُ السِّكِّيت: وفي أصلِه قولان: أحدهما: أنه مأخوذٌ من الإقرانِ، يقال: أقرنَ يُقرنُ إقراناً إذا أَطاق. وأَقرنتَ كذا: إذا أَطقتَه وحكمتَه، كأنه جعله في قَرَن ـ وهو الحبلُ ـ فأَوثقه به وشدَّه. والثاني: أنَّه مأخوذٌ من المقارنةِ وهو أن يقرنَ بعضَها ببعض في السير. يقال: قَرَنتُ كذا بكذا: إذا ربطتَه به وجعلتَه قرينَه[4].

الخامسة: علَّمنا اللهُ سبحانه ما نقولُ إذا رَكبنا الدَّوابَّ، وعرَّفَنا في آيةٍ أخرى على لسانِ نوح عليه السلام ما نقولُ إذا رَكبنا السفن، وهي قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱرْكَبُواْ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرِيٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [هود: ٤١][5] فكم من راكبِ دابَّةٍ عَثَرت به أو شَمَسَت، أو تَقَحَّمت أو طَاحَ من ظهرِها فهلك[6]، وكم مِن راكبين في سفينةٍ

(١) النكت والعيون ٥/ ٢١٨ .

(٢) البيت للكميت بن زيد الأسدي وهو في ديوانه ص٤٦٢ ، ووقع في (ظ): وحيناً، بدل: وحيفاً، وهي رواية أبي عبيدة في مجاز القرآن ٢/ ٢٠٢ ، وقال شارح ديوان الكميت: أي: ركبتم أمري، وأشراً: بطراً.

(٣) الصحاح (قرن).

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٦٦٤ ، والنكت والعيون ٥/ ٢١٨ .

(٥) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٦٦٤ .

(٦) في (د) و(ظ): فهلكت.

انكسرتْ بهم فغرِقوا، فلمَّا كان الركوبُ مباشرةَ أمرٍ مخطر واتصالاً بسبب[1] من أسبابِ التلفِ؛ أُمِر ألَّا ينسى عندَ اتصالِه به يومَه، وأنه هالكٌ لا محالةَ فمنقلبٌ إلى الله عزَّ وجل غير منفلتٍ من قضائِه، ولا يَدع ذكرَ ذلك بقلبِه ولسانِه حتى يكون مستعدًّا للقاءِ الله بإصلاحِه من نفسِه، والحذر من أن يكونَ ركوبُه ذلك من أسبابِ موتِه في علمِ الله وهو غافلٌ عنه.

حكى سليمانُ بنُ يسار أنَّ قوماً كانوا في سفرٍ، فكانوا إذا ركبوا قالوا: «سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ» وكان فيهم رجلٌ على ناقةٍ له رَازِمٍ ـ وهي التي لا تتحرَّكُ هُزالاً[2] ـ فقال: أمَّا أنا فإني لِهذه لَمُقرِنٌ. قال: فقَمَصت به، فدَقَّت عنقَه. ورُوي أنَّ أعرابيًّا ركب قَعوداً له، وقال: إني لَمقرِنٌ له، فركضت به القعودُ حتى صَرَعته، فاندقَّت عنقُه. ذكر الأوَّلَ الماورديُّ، والثانيَ ابنُ العربي[3]. قال[4]: وما ينبغي لعبدٍ أن يدعَ قولَ هذا، وليس بواجبٍ ذكره باللسان؛ فيقول متى ركبَ وخاصَّةً في السفرِ إذا تذكَّر: «سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ وإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ»، اللهمَّ أنت الصاحب في السفر، والخليفةُ في الأهل والمال[5]، اللهمَّ إني أعوذُ بك من وَعْثاء السفر، وكآبةِ المنقلَب، والحَوْر بعدَ الكَوْر، وسوءِ المنظر في الأهلِ والمال. يعني بـ «الحَور بعد الكور» تَشتُّتَ أمرِ الرجلِ بعد اجتماعِه.

وقال عمرُو بنُ دِينار: ركبتُ مع أبي جعفر إلى أرضٍ له نحوَ حائطٍ يقالُ لها:

---

(١) في النسخ: أمر محظور واتصالاً بأسباب، والمثبت من الكشاف ٣/ ٤٨٠ والكلام منه.

(٢) وقع بعدها في (ف) و(م) ما نصُّه: الرازم من الإبل: الثابت على الأرض لا يقوم من الهُزال، وقد رَزَمت الناقة ترزُم وترزِم رُزوماً ورُزاماً: قامت من الإعياء والهُزال، فلم تتحرك، فهي رازم. قاله الجوهري في الصحاح. اهـ. وهذا الكلام قد أُقحم في نص هاتين النسختين، فقد وقع حاشيةً في هامش كلٍّ من (ز) و(ك)، ولم يرد في (د) و(ظ).

(٣) الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٢١٨، وابن العربي في أحكام القرآن ٤/ ١٦٦٥.

(٤) أي: ابن العربي.

(٥) هو بنحوه عند مسلم (١٣٤٢) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

مدركة، فركبَ على جملٍ صَعْبٍ فقلتُ له: أبا جعفر! أَما تخاف أن يصرعَك. فقال: إنَّ رسول الله ﷺ قال: «على سنامِ كلِّ بعيرٍ شيطانٌ إذا ركبتموها، فاذكروا اسمَ اللهِ كما أَمركم ثم امتهنوها لأنفسِكم، فإنَّما يحملُ الله»[١].

وقال عليّ بن ربيعة: شهدتُ عليَّ بن أبي طالب ركبَ دابةً يوماً فلمَّا وضعَ رجلَه في الرِّكابِ قال: باسم الله، فلما استوى على الدابةِ قال: الحمدُ لله، ثم قال: «سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ. وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ» ثم قال: الحمدُ لله والله أكبر ـ ثلاثاً ـ اللهمَّ لا إله إلا أنتَ، ظلمتُ نفسي فاغفر لي، إنَّه لا يغفرُ الذنوبَ إلا أنت؛ ثم ضحكَ، فقلت له: ما أَضحكَك؟ قال: رأيتُ رسولَ الله ﷺ صنعَ كما صنعتُ، وقال كما قلتُ، ثم ضحكَ، فقلت له: ما يُضحِكُك يا رسولَ الله؟ قال: «العبدُ، أو قال: عجباً لعبدٍ أن يقولَ: اللهمَّ لا إلهَ إلا أنت. ظلمتُ نفسي فاغفر لي، فإنَّه لا يغفرُ الذنوبَ إلا أنت. يعلم أنه لا يغفرُ الذنوب غيره». خَرَّجه أبو داود الطيالسي في «مسنده»[٢]، وأبو عبدِ الله محمدُ بنُ خُوَيْزِمَنْدَاد في «أحكامه».

وذكر الثعلبيُّ نحوَه مختصراً عن عليٍّ ﷺ، ولفظُه عنه: أنَّ النبيَّ ﷺ كانَ إذا وضعَ رجلَه في الرِّكابِ قال: «باسمِ الله، فإذا استوى قال: الحمدُ للهِ على كلِّ حال، سبحانَ الذي سخَّر لنا هذا وما كنَّا له مُقْرِنينَ وإنَّا إلى ربِّنا لمنقلبون. وإذا نَزلتم من الفلكِ والأنعام فقولُوا: اللهمَّ أَنزلنا منزلاً مباركاً وأنتَ خير المنزلين».

وروى ابنُ أبي نجيح، عن مجاهد قال: مَن ركبَ ولم يقل: «سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ» قال له الشيطانُ: تَغَنَّه؛ فإن لم يحسن قال له: تمنَّه. ذكره النَّحاسُ[٣].

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في المصنف (٩٢٣٩) من طريق عمرو بن دينار، عن أبي جعفر محمد بن علي بن حسين، عن النبي ﷺ، مرسلاً. وأخرجه مرفوعاً أحمد (١٧٩٣٨) (١٧٩٣٩)، من حديث أبي لاس الخزاعي ﷺ، و(١٦٠٣٩)، من حديث حمزة الأسلمي ﷺ.

(٢) برقم (١٣٢)، وهو عند أحمد (١٠٥٦)، والكلام السالف في أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٦٦٥.

(٣) في معاني القرآن ٦/ ٣٤٠، وينظر تفسير السمرقندي ٣/ ٢٠٤.

ويستعيذُ بالله من مقامِ مَن يقول لقرنائه: تعالَوْا نَتنزَّه على الخيلِ أو في بعضِ الزوارق، فيركبونَ حاملينَ مع أنفسِهم أواني الخمرِ والمعازف، فلا يزالون يسقون[(١)] حتى تُمَلّ طلاهم وهم على ظهورِ الدوابّ، أو في بطونِ السفن وهي تجري بهم، لا يذكرونَ إلا الشيطان، ولا يمتثلون إلا أوامرَه. الزَّمخشريُّ[(٢)]: ولقد بلغني أنَّ بعضَ السلاطين ركبَ وهو يشرب الخمرَ من بلد إلى بلد بينهما مسيرةُ شهر، فلم يَصْحُ إلا بعدَ ما اطمأنَّت به الدار، فلم يشعرْ بمسيرهِ ولا أحسَّ به؛ فكم بينَ فعلِ أولئك الراكبين، وبينَ ما أمر الله به في هذه الآية؟!

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا ۚ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا﴾ أي: عِدْلاً؛ عن قتادة[(٣)]. يعني: ما عُبِد من دون الله عزَّ وجلَّ. الزجاجُ[(٤)] والمبرِّدُ: الجزءُ هاهنا البناتُ، عجَّب المؤمنينَ من جهلِهم؛ إذ أقرُّوا بأنَّ خالق السماوات والأرض هو اللهُ، ثم جعلوا له شريكاً أو ولداً، ولم يعلموا أنَّ من قدرَ على خلق السماوات والأرض لا يحتاج إلى شيء يعتضدُ به أو يستأنسُ به؛ لأنَّ هذا من صفات النقص. قال الماورديّ: والجزءُ عندَ أهلِ العربية البناتُ، يقال: قد أجزأتِ المرأةُ: إذا وَلدتِ البناتِ، قال الشاعرُ:

إنْ أَجزأتْ حُرَّةٌ يوماً فلا عجبٌ ... قد تُجزئ الحُرَّةُ المِذكارُ أحيانا[(٥)]

الزمخشري[(٦)]: ومِن بِدعِ التفاسير تفسيرُ الجزءِ بالإناث، وادِّعاء أنَّ الجزء في لغةِ

(١) في (م): يستقون.

(٢) في الكشاف ٣/ ٤٨٠، وما قبله.

(٣) أخرجه عبد الرزاق في التفسير ٢/ ١٩٥، والطبري ٢٠/ ٥٦١.

(٤) في معاني القرآن ٤/ ٤٠٦.

(٥) النكت والعيون ٥/ ٢١٩. والبيت أيضاً في المحرر الوجيز ٥/ ٤٨، ومعاني القرآن للزجاج ٤/ ٤٠٧، وإعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٠١ وزاد المسير ٧/ ٣٠٥، واللسان (جزأ).

(٦) الكشاف ٣/ ٤٨١.

العرب اسمٌ للإناث، وما هو إلا كذبٌ على العرب، ووضعٌ مستحدَثٌ منحول، ولم يُقنعهم ذلك حتى اشتقُّوا منه: أجزأتِ المرأة، ثم صنعوا بيتاً، وبيتاً:

إنْ أَجزأَت حرةٌ[١] يوماً فلا عجبٌ

زُوِّجْتُها من بناتِ الأوسِ مُجزِئة[٢]

وإنَّما قولُه: «وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءاً» متصلٌ بقوله: «وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ» أي: ولئن سألتَهم عن خالقِ السماوات والأرض لَيعترفُنَّ به، وقد جعلوا له مع ذلك الاعترافِ من عبادِهِ جزءاً، فَوصفوه بصفات المخلوقين. ومعنى «مِنْ عِبَادِهِ جُزْءاً» أنْ قالوا: الملائكةُ بناتُ الله، فجعلوهم جزءاً له وبعضاً، كما يكون الولدُ بَضْعَةً من والدِه وجزءاً له، وقُرئ «جُزُؤا» بضمتين[٣]. ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَـٰنَ﴾ يعني: الكافر[٤] ﴿لَكَفُورٞ مُّبِينٌ﴾ قال الحسنُ: يَعُدُّ المصائبَ وينسى النعمَ[٥]. «مُبِينٌ»: مظهرٌ الكفرَ.

قوله تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخۡلُقُ بَنَاتٖ وَأَصۡفَىٰكُم بِٱلۡبَنِينَ ١٦﴾

قوله تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخۡلُقُ بَنَاتٖ﴾ الميمُ صِلةٌ، تقديره: أتخذَ ممَّا يخلقُ بناتٍ كما زعمتم أنَّ الملائكةَ بنات الله؟ فلفظُه لفظُ الاستفهام ومعناهُ التوبيخ. ﴿وَأَصۡفَىٰكُم بِٱلۡبَنِينَ﴾ أي: اختصَّكم وأخلصكم بالبنين[٦]، يقال: أَصفيتُه بكذا، أي: آثرتُه به. وأَصفيتُه الوُدَّ: أَخلصتُه له. وصافيتُه وتصافينا: تَخالصنا[٧]. عَجِبَ من إضافتِهم إلى الله اختيارَ البنات مع اختيارِهم لأنفسهم البنين، وهو مقدَّس عن أن

---

(١) في النسخ الخطية: حمدة، والمثبت من المصادر، وهذا الشطر هو نفسه صدر البيت السالف قبله.

(٢) هو صدر بيت، وعجزه: للعوسج اللَّدْنِ في أبياتها زَجَلُ، وهو في مجالس ثعلب ص١٤٥، واللسان (جزأ)، وصدر البيت هذا والذي قبله في الكشاف ٣/ ٤٨١، والكلام بعده منه.

(٣) لم نقف عليها عند غير الزمخشري.

(٤) تفسير البغوي ٤/ ١٣٥، وزاد المسير ٧/ ٣٠٥، والوسيط للواحدي ٤/ ٦٦.

(٥) النكت والعيون ٥/ ٢١٩.

(٦) الوسيط ٤/ ٦٦، وزاد المسير ٧/ ٣٠٥.

(٧) الصحاح (صفا).

يكون له ولدٌ إن توهَّم جاهل أنه اتخذَ لنفسه ولداً، فهلّا أضافَ إليه أرفعَ الجنسين! ولِمَ جعل هؤلاء لأنفسِهم أشرفَ الجنسين وله الأخسّ؟ وهذا كما قال الله تعالى: ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ﴾ [النجم: ٢١-٢٢].

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا﴾ أي: بأنَّه وُلِدت له بنتٌ ﴿ظَلَّ وَجْهُهُۥ﴾ أي: صارَ وجهُه ﴿مُسْوَدًّا﴾ قيل: ببطلانِ مَثَلِه الذي ضربه. وقيل: بما بُشِّر به من الأنثى[1]، دليلُه في سورة النحل ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ﴾ [النحل: ٥٨].

ومِن حالِهم أنَّ أحدَهم إذا قيل له: قد وُلِدت له أنثى اغتمَّ واربدَّ وجهُه غيظاً وتأسُّفاً وهو مملوءٌ من الكرب. وعن بعضِ العربِ أنَّ امرأَتَه وَضعت أنثى، فهجرَ البيتَ الذي فيه المرأةُ، فقالت:

مـا لِأبـي حـمـزةَ لا يـأتـيـنـا   يَـظَـلُّ فـي الـبـيـتِ الـذي يـلـيـنـا
غـضـبـانَ ألَّا نـلـدَ الـبـنـيـنـا   وإنَّـمـا نـأخـذُ مـا أُعـطـيـنـا[2]

وقُرِئ: مُسودٌّ، ومسوادٌّ[3].

وعلى قراءةِ الجماعةِ يكون وجهُه اسمَ «ظلّ»، و«مُسْوَدًّا» خبرَ «ظَلَّ». ويجوزُ أن يكونَ في «ظَلَّ» ضميرٌ عائد على «أحد» وهو اسمُها، و«وَجْهُهُ» بدل من الضميرِ، و«مُسْوَدًّا» خبر «ظَلَّ». ويجوز أن يكون رُفِعَ «وَجْهُهُ» بالابتداء، ويرفع «مُسْوَدًّا» على أنه

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٢١٩.

(٢) الرَّجز في الكشاف ٣/ ٤٨٢ وفيه قبل البيت الأخير: ليس لنا من أمرنا ما شينا. وفي البيان والتبيين ١/ ١٨٦ و ٤/ ٤٧. وفيه زيادة على ما أورده المصنف.

(٣) لم نقف عليها عند غير الزمخشري ٣/ ٤٨٢؛ قال: على أن في «ظلّ» ضمير المبشّر، و«وجهه مسودٌّ» جملة واقعة موقع الخبر. وسيذكر المصنف جواز هذا الوجه لغةً، وذكر ذلك الفراء في معاني القرآن ٣/ ٢٨، والنحاس في إعراب القرآن ٤/ ١٠٢، ولم يذكرا أنها قراءة.

خبرُه، وفي «ظَلَّ» اسمُها، والجملةُ خبرُها. ﴿وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ أي: حزين؛ قاله قتادةُ. وقيل: مكروبٌ؛ قاله عكرمة. وقيل: ساكت؛ قاله ابنُ أبي حاتم؛ وذلك لفسادِ مَثَله وبطلانِ حجتِه[١]. ومَن أجازَ أن تكون الملائكةُ بناتِ الله فقد جعلَ الملائكةَ شِبهاً لِله؛ لأنَّ الولدَ من جنس الوالد وشبهه[٢]. ومَنِ اسودَّ وجهُه بما يُضاف إليه ممَّا لا يرضى، أولى من أن يسودَّ وجهُه بإضافةِ مثل ذلك إلى مَن هو أجلُّ منه، فكيف إلى اللهِ عزَّ وجل! وقد مضى في «النحلِ» في معنى هذه الآية ما فيهِ كفايةٌ[٣].

قوله تعالى: ﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُا فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ ﴿١٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُا فِي الْحِلْيَةِ﴾ **فيه مسألتان**:

الأولى: قوله تعالى: ﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُا﴾ أي: يُربَّى و يَشِبُّ. والنُّشوءُ: التربيةُ[٤]، يقال: نَشأتُ في بني فلان نَشْئاً ونشوءاً: إذا شَبَبْتَ فيهم، ونُشِّئ وأُنشئ بمعنًى[٥]. وقرأ ابنُ عباس، والضحَّاكُ وابنُ وَثَّاب، وحفصٌ وحمزة، والكسائيُّ وخلف: «يُنَشَّأُ» بضم الياءِ وفتح النونِ وتشديد الشين، أي: يُربَّى ويَكْبَر في الحِلْية. واختاره أبو عبيد؛ لأنَّ الإسنادَ فيها أعلى. وقرأ الباقون: «يَنْشأ» بفتح الياء وإسكان النون[٦]، واختاره أبو حاتم، أي: يرسخُ وينبت[٧]، وأصلُه من نشأَ، أي: ارتفعَ، قاله الهروي. فـ «يُنَشَّأ» متعدٍّ، و«يَنشَأ» لازمٌ.

(١) النكت والعيون ٥/ ٢١٩ ، وأخرج الطبري ٢٠/ ٥٦٣ قول قتادة.

(٢) بنحوه في زاد المسير ٧/ ٣٠٥ .

(٣) ١٢/ ٣٤٠ وما بعدها.

(٤) تفسير البغوي ٤/ ١٣٥ ، والنكت والعيون ٥/ ٢١٩ .

(٥) الصحاح (نشأ).

(٦) السبعة ص٥٨٤ ، والتيسير ص١٩٦ ، والنشر ٢/ ٣٦٨ .

(٧) في (ظ): يثبت.

الثانية: قولُه تعالى: ﴿فِى ٱلْحِلْيَةِ﴾ أي: في الزينة. قال ابنُ عباس وغيرُه: هنَّ الجواري زِيُّهن غيرُ زِيِّ الرجالِ. قال مجاهد: رُخِّص للنساءِ في الذهبِ والحرير؛ وقرأ هذه الآية[١]. قال الكيا[٢]: فيه دلالةٌ على إباحةِ الحُليّ للنساء، والإجماعُ منعقدٌ عليه، والأخبارُ فيه لا تُحصى.

قلت: رُوي عن أبي هريرةَ أنه كان يقول لابنتِه: يا بُنَيَّة، إياكِ والتَّحلِّيَ بالذهب، فإني أخاف عليكِ اللهب[٣].

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾ أي: في المجادلة والإدلاءِ بالحُجَّة. قال قتادة: ما تكلمت امرأةٌ ولها حُجةٌ إلّا جعلَتْها على نفسِها[٤]. وفي مصحف عبدِ الله: «وهو في الكلامِ غيرُ مبين»[٥]. ومعنى الآية: أَيُضاف إلى اللهِ مَن هذا وصفُه؟! أي: لا يجوزُ ذلك.

وقيل: المُنشَّأُ في الحلية أصنامُهم التي صاغُوها من ذهبٍ وفضةٍ وحلَّوها؛ قاله ابنُ زيد والضَّحاكُ[٦]. ويكون معنى: «وَهُوَ فِي الخصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ» على هذا القولِ: أي: ساكتٌ عن الجوابِ. و«مَن» في محلِّ نصبٍ، أي: اتخذوا للهِ مَن يُنشَّأ في الحِليةِ[٧]. ويجوزُ أن يكون رفعاً على الابتداءِ والخبرُ مضمرٌ؛ قاله الفراء[٨]. وتقديرُه:

---

(١) تفسير الطبري ٢٠/ ٥٦٣-٥٦٤ .

(٢) في أحكام القرآن ٤/ ٣٦٩ .

(٣) أخرجه عبد الرزاق (١٩٩٣٨)، وأحمد في الزهد ص١٩٢ ، وأبو نعيم في الحلية ١/ ٣٨٠ ، والبيهقي في الشعب (٦١٩١) و(١٠٦٩١) بلفظ: ... لا تلبسي... قال الذهبي في السير ٢/ ٦٢٩ : هذا صحيح عن أبي هريرة، وكأنه كان يذهب إلى تحريم الذهب على النساء أيضاً، أو أن المرأة إذا كانت تختال في لبس الذهب وتفخر، فإنه يحرم، كما فيمن جر ثوبه خيلاء.

(٤) أخرجه الطبري ٢٠/ ٥٦٤ .

(٥) المحرر الوجيز ٥/ ٤٩ .

(٦) أخرجه الطبري ٢٠/ ٥٦٥ عن ابن زيد.

(٧) الحجة لأبي علي الفارسي ٦/ ١٤٠ .

(٨) في معاني القرآن ٣/ ٢٩ ، وقاله مكي في مشكل إعراب القرآن ٢/ ٦٥٠ .

أَوَ مَن كان على هذه الحالةِ يَستحقُّ العبادةَ؟ وإن شئتَ قلتَ: خُفِض ردًّا إلى أوَّل الكلام، وهو قولُه: «بِما ضَرَبَ»، أو على «ما» في قوله: «مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ»[(١)]. وكون[(٢)] البدل في هذين الموضعين ضعيف؛ لكونِ ألفِ الاستفهام حائلةً بين البدلِ والمبدَلِ منه.

﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَـٰدُ ٱلرَّحْمَـٰنِ إِنَـٰثًا﴾ قرأَ الكوفيون: «عِبَادُ» بالجمع[(٣)] واختاره أبو عبيد؛ لأنَّ الإسنادَ فيها أعلى، ولأنَّ الله تعالى إنَّما كذَّبهم في قولهم: إنَّهم بناتُ اللهِ، فأَخبرهم أنَّهم عبيدٌ، وأنَّهم ليسوا ببناتِه. وعن ابن عباس أنَّه قرأ: «عِبادُ الرَّحْمَنِ»، فقال سعيد بنُ جبير: إنَّ في مصحفي: «عند[(٤)] الرحمن» فقال: امحهُا واكتبها «عِبَادُ الرَّحْمَنِ». وتصديقُ هذه القراءةِ قولُه تعالى: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾[(٥)] [الأنبياء: ٢٦]، وقولُه تعالى: ﴿أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن يَتَّخِذُوا۟ عِبَادِى مِن دُونِىٓ أَوْلِيَآءَ﴾ [الكهف: ١٠٢]، وقولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ [الأعراف: ١٩٤].

وقرأَ الباقون: «عند الرحمن» بنون ساكنةٍ. واختارَه أبو حاتم[(٦)]. وتصديقُ هذه القراءةِ قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾ [الأعراف: ٢٠٦] وقوله: ﴿وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَنْ عِندَهُۥ﴾[(٧)] [الأنبياء: ١٩]. والمقصودُ إيضاحُ كذبِهم وبيانُ جهلِهم في نسبةِ الأولادِ إلى الله سبحانَه، ثمَّ في تحكُّمِهم بأنَّ الملائكةَ إناثٌ، وهم بناتُ اللهِ. وذِكرُ العبادِ مدحٌ لهم، أي: كيفَ عَبَدوا مَن هو في نهاية العبادة، ثم كيف حَكموا بأنَّهم إناثٌ من غير دليل. والجعلُ هنا بمعنى القولِ والحُكْم، تقول: جعلتُ زيداً أعلمَ

(١) تفسير البغوي ٤/ ١٣٦ .
(٢) في (ظ): وكونه.
(٣) وكذا قرأ أبو عمرو. السبعة ص٥٨٥ ، والتيسير ص١٩٦ .
(٤) في (د) و(م): عبد. وهو خطأ، والكلام بنحوه في إعراب للنحاس ٤/ ١٠٣ .
(٥) ينظر تفسير الرازي ٢٧/ ٢٠٣ .
(٦) قرأ بها من السبعة نافع وابن كثير وابن عامر.

الناس، أي: حكمتُ له بذلك[١].

﴿أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ﴾ أي: أَحضَروا حالةَ خلقِهم حتى حكموا بأنَّهم إناث[٢]. وقيل: إنَّ النبيَّ ﷺ سألَهم وقال: «فما يُدريكم أنَّهم إناثٌ؟» فقالوا: سَمِعنا بذلك من آبائنا؛ ونحن نشهدُ أنَّهم لم يَكْذبوا في أنَّهم إناث، فقال الله تعالى: ﴿سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ﴾ أي: يُسألونَ عنها في الآخرة[٣].وقرأ نافعٌ: «أَأُشْهِدُوا»[٤] بهمزةِ استفهامٍ داخلةٍ على همزةٍ مضمومةٍ مسهَّلة[٥]، ولا يَمدُّ؛ سوى ما رَوَى المسيَّبي عنه أنه يمدّ[٦]. ورَوى المفضل عن عاصمٍ مثلَ ذلك وتحقُّقَ الهمزتين[٧]. والباقون: «أَشَهِدُوا» بهمزة واحدةٍ للاستفهام[٨]. ورُوِيَ عن الزُّهري: «أُشْهِدُوا خَلْقَهُمْ» على الخبر[٩].

﴿سَتُكْتَبُ﴾ قراءةُ العامةِ بضمِّ التاء على الفعل المجهول، «شَهَادَتُهُمْ» رفعاً. وقرأ السُّلمِيُّ وابنُ السَّمَيْفَع وهُبيرة عن حفص: «سَنَكْتُبُ» بنون، «شَهَادَتَهُمْ» نصباً بتسميةِ الفاعل[١٠]. وعن أبي رجاء: «سَتُكْتَبُ شَهَادَاتُهُمْ» بالجمع[١١].

---

(١) تفسير الرازي ٢٧/٢٠٣.

(٢) معاني القرآن للزجاج ٤/٤٠٧، والوسيط للواحدي ٤/ ٦٧، وزاد المسير ٧/٣٠٧.

(٣) تفسير أبي الليث ٣/ ٢٠٥.

(٤) الوسيط للواحدي ٤/٦٨، وتفسير البغوي ٤/١٣٦.

(٥) اختلف رسمها في النسخ، فوقع في (د) و(ز) و(م): أَوُشْهدوا، وفي (ظ) و(ف): أو اشهدوا، والمثبت من (ق).

(٦) هي من رواية ورش عنه، وسهلها قالون مع إدخال ألف بخلف عنه. التيسير ص١٩٦.

(٧) المحرر الوجيز ٥/ ٥٠. وذكر في السبعة ص٥٨٥ رواية المفضل عن عاصم مثل نافع.

(٨) السبعة ص٥٨٥، والتيسير ص١٩٦.

(٩) المحرر الوجيز ٥/ ٥٠.

(١٠) رواية هبيرة عن حفص في جامع البيان ٢/ ٤٠٠.

(١١) نسبها في المحرر الوجيز ٥/ ٥٠، والقراءات الشاذة ص١٣٥ للحسن.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ يعني: قال المشركون على طريق الاستهزاء والسخرية: لو شاءَ الرحمنُ على زعمِكم ما عَبدنا هذه الملائكة. وهذا منهم كلمةُ حقٍّ أُريدَ بها باطلٌ. وكلُّ شيءٍ بإرادة الله، وإرادتُه تجب، وكذا علمُه، فلا يُمكِن الاحتجاجُ بهما[1]؛ وخلافُ المعلومِ والمرادِ مقدورٌ وإن لم يقع. ولو عَبَدوا الله بدلَ الأصنام، لَعلمنا أنَّ الله أراد منهم ما حصل منهم. وقد مضى هذا المعنى في «الأنعام» عند قوله: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا﴾ [الآية:١٤٨]، وفي «يس»: ﴿أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ﴾[2] [الآية:٤٧].

وقولُه: ﴿مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾ مردودٌ إلى قوله: «وَجَعَلُوا المَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثاً» أي: ما لهم بقولهم: الملائكةُ بناتُ الله من علم؛ قاله قتادةُ ومقاتلٌ والكلبي[3]. وقال مجاهدٌ وابن جريج: يعني الأوثان[4]، أي: ما لهم بعبادةِ الأوثانِ من علم. «مِن» صِلة.

﴿إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ أي: يَحْدِسون ويَكذبون، فلا عذرَ لهم في عبادة غيرِ الله عزَّ وجلَّ. وكان في ضمن كلامِهم أنَّ الله أَمَرنا بهذا، أو رضي ذلك منَّا، ولهذا لم يَنْهَنا ولم يُعاجِلنا بالعقوبة.

قوله تعالى: ﴿أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾﴾

هذا معادِلٌ لقوله: «أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ». والمعنى: أَحضَروا خلقَهم، أم آتيناهم كتاباً من قَبْله؟ أي: من قبلِ القرآنِ بما ادَّعَوه، فهم به متمسكون يعملون بما فيه!

---

(١) في (م): بها.

(٢) ٩/١٠٢، و١٧/٤٥٦ - ٤٥٧.

(٣) تفسير البغوي ٤/١٣٦.

(٤) أخرجه الطبري ٢٠/٥٦٨ عن مجاهد.

قوله تعالى: ﴿بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾﴾

فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾ أي: على طريقة ومذهب؛ قاله عمر بنُ عبد العزيز[١]. وكان يقرأ هو ومجاهدٌ وقتادة: «على إِمَّةٍ» بكسر الألف[٢]. والإِمَّةُ: الطريقة[٣]. وقال الجوهري[٤]: والإِمَّة، بالكسرِ: النعمة. والإِمّةُ أيضاً لغةٌ في الأُمَّة ـ وهي الطريقةُ والدين ـ عن أبي عبيد[٥].

قال عَديُّ بنُ زيد في النعمة:

ثـم بـعـدَ الـفَـلَاح والـمُـلْـكِ والإمَّـ ـةِ وارتْـهُـمُ هـنـاك الـقـبـورُ

عن غير الجوهري[٦].

وقال قتادةُ وعطية: «على أُمَّةٍ»: على دِين[٧]، ومنه قولُ قيس بنِ الخطيم:

كـنَّـا عـلـى أُمَّـةِ آبـائـنـا ويـقـتـدي الآخِـرُ بـالأَوَّلِ[٨]

قال الجوهري: والأُمَّةُ: الطريقةُ والدِّين، يقال: فلانٌ لا أُمَّة له، أي: لا دينَ له ولا نِحْلة. قال الشاعر:

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٢٢١ .

(٢) نسبها لعمر بن عبد العزيز ومجاهد الفراء في معاني القرآن ٣/ ٣٠ ، والنحاس في إعراب القرآن ٤/ ١٠٤ ، والطبري ٢٠/ ٥٧٠ ، وابن خالويه في القراءات الشاذة ص١٣٥ وزاد نسبتها للجحدري.

(٣) معاني القرآن للفراء ٣/ ٣٠ ، والنكت والعيون ٥/ ٢٢١ ، وتهذيب اللغة ١٥/ ٦٣٤ .

(٤) في الصحاح (أمم).

(٥) في (م)، وتفسير أبي الليث ٣/ ٢٠٥ : أبو عبيدة.

(٦) معاني القرآن للفراء ٣/ ٣٠ ، وتفسير الطبري ٢٠/ ٥٧١ .

(٧) النكت والعيون ٥/ ٢٢١ ، وأخرجه الطبري ٢٠/ ٥٧٠ ، عن ابن عباس وقتادة والسدي.

(٨) النكت والعيون ٥/ ٢٢١ .

وهـل يـسـتـوي ذو أُمَّـةٍ وكَـفُـورُ[١]

وقال مجاهد وقطرب: على دينٍ، على مِلَّة. وفي بعضِ المصاحف: «قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى مِلَّة». وهذه الأقوالُ متقاربة. وحُكِي عن الفرَّاء: على ملة: على قِبْلة. الأخفشُ: على استقامة، وأنشدَ قولَ النابغة:

حَـلَـفْـتُ فـلـم أتـرك لـنـفـسـكَ ريـبـةً وهـل يـأثَـمَـنْ ذو أُمَّـةٍ[٢] وهـو طـائـعُ[٣]

الـثـانـيـة: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ﴾ أي: نـهـتـدي بـهـم. وفـي الآيـة الأخـرى: «مُقْتَدُونُ»، أي: نقتدي بهم، والمعنى واحد. قال قتادة: مقتدون: متَّبِعون[٤]. وفي هذا دليلٌ على إبطال التقليد؛ لِذَمِّه إياهم على تقليدِ آبائهم، وتركِهم النظرَ فيما دَعاهم إليه الرسولُ ﷺ[٥]. وقد مضى القولُ في هذا في «البقرة» مستوفًى[٦].

وحكى مقاتلٌ أنَّ هذه الآيةَ نزلت في الوليد بنِ المغيرة وأبي سفيان وأبي جهل وعتبةَ وشيبة ابني ربيعة من قريش[٧]، أي: وكما قال هؤلاء فقد قال مَن قبلَهم أيضاً. يُعَزِّي نبيَّه ﷺ؛ ونظيرُه: ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾ [فصلت: ٤٣]. والمترفُ: المُنْعمُ، والمرادُ هنا الملوكُ والجبابرة.

قـولـه تـعـالـى: ﴿قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٢٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ﴾ أي: قُلْ يا محمدُ لقومك: أوَليسَ قد جئتُكم من عند الله بأهدى، يريد: بأرشدَ ﴿مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم

(١) الصحاح (أمم).

(٢) قال في اللسان (أمم): ويروى ذو إمة.

(٣) النكت والعيون ٥/ ٢٢١ ، والبيت في ديوان النابغة ص٨١ ، وسلف ٥/ ٢٦٠ .

(٤) أخرجه الطبري ٢٠/ ٥٧٢ ، وهو في النكت والعيون.

(٥) أحكام القرآن للكيا ٤/ ٣٦٩ .

(٦) ٣/ ١٦ فما بعد.

(٧) النكت والعيون ٥/ ٢٢١ .

بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ يعني: بكلِّ ما أُرسِل به الرسل. فالخطابُ للنبيِّ ﷺ، ولفظُه لفظُ الجمع؛ لأنَّ تكذيبَه تكذيبٌ لمن سواه.

وقُرِئ: «قُلْ» وَ«قَالَ»، وَ«جِئْتُكُمْ» وَ«جِئْنَاكُمْ» يعني: أتتَّبعون آباءَكم ولو جئتكم بدين أَهدى من دين آبائكم؟ قالوا: إنا ثابتون على دينِ آبائنا لا ننفكُّ عنه وإن جئتنا بما هو أَهدى[1]. وقد مضى في «البقرة» القولُ في التقليد وذمِّه[2]، فلا معنى لإعادته.

قوله تعالى: ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ بالقحط والقتل والسَّبي ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾: آخِرُ أمرِ مَن كذَّب الرسل.

وقراءة العامة: «قُلْ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ». وقرأ ابن عامر وحفص: «قَالَ أَوَلَوْ»[3]، على الخبر عن النذير أنه قال لهم هذه المقالة. وقرأ أبو جعفر: «قُلْ أَوَلَوْ جِئْنَاكُمْ» بنون وألف[4]، على أنَّ المخاطبة من رسول الله ﷺ عن جميع الرسل.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ﴾ أي: ذكِّرهم إذ قال ﴿إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾ البَراء يُستعمل للواحد فما فوقه؛ فلا يُثنَّى ولا يجمع ولا يؤنَّث؛ لأنه مصدرٌ وُضع موضعَ النعت[5]؛ لا يقال: البراءان والبراؤون؛ لأن المعنى: ذو[6] البراء،

(١) الكشاف ٣/ ٤٨٤، وسيرد ذكر القراءات.

(٢) ٣/ ١٦ فما بعد.

(٣) السبعة ص٥٨٥، والتيسير ص١٩٦.

(٤) النشر ٢/ ٣٦٩.

(٥) تفسير الطبري ٢٠/ ٥٧٥، وتفسير البغوي ٤/ ١٣٧، وينظر معاني القرآن للفراء ٣/ ٣٠، والكشاف ٣/ ٤٨٤.

(٦) في (ف): ذوا، والكلام بنحوه في معاني القرآن للزجاج ٤/ ٤٠٩، وزاد المسير ٧/ ٣٠٩، وينظر تفسير الرازي ٢٧/ ٢٠٨.

وذوو البراء.

قال الجوهري[١]: وتبرَّأتُ من كذا، وأنا منه بَرآء، وخَلاءٌ منه، لا يثنَّى ولا يجمع؛ لأنه مصدر في الأصل؛ مثل: سَمِع سَماعاً. فإذا قلت: أنا بريءٌ منه وخَليّ، ثَنَّيتَ وجمعت وأنَّثت، وقلتَ في الجمع: نحن منه بُرَآء، مثل: فقيهٌ وفقهاء، وبِراء أيضاً، مثل: كريم وكِرام، وأَبْراء، مثل: شريف وأشراف، وأبرياء، مثل: نصيب وأَنصِباء، وبريئون. وامرأةٌ بريئة، وهما بريئتان، وهن بريئاتٌ وبَرايا، ورجلٌ بريء وبُراء، مثل: عجيب وعُجاب. والبَراء، بالفتح: أوَّلُ ليلةٍ من الشهر، سُمِّيت بذلك لتبرُّؤ القمرِ من الشمس.

﴿إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ استثناءٌ متصل؛ لأنهم عبدوا اللهَ مع آلهتهم. قال قتادة: كانوا يقولون: اللهُ ربُّنا[٢]؛ مع عبادة الأوثان. ويجوز أن يكونَ منقطعاً[٣]؛ أي: لكن الذي فطرني فهو يهدين. قال ذلك ثقةً بالله، وتنبيهاً لقومه أنَّ الهداية مِن ربه.

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةَۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾﴾

فيه ثلاثُ مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةَۢ بَاقِيَةً﴾ الضمير في «جَعَلَهَا» عائدٌ على قوله: «إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي». وضمير الفاعل في «جَعَلَهَا» لله عزَّ وجلَّ؛ أي: وجعل اللهُ هذه الكلمةَ والمقالةَ باقيةً في عَقِبه، وهم ولده وولدُ ولده؛ أي: إنهم توارثوا البراءةَ عن عبادة غيرِ الله، وأوصى بعضُهم بعضاً في ذلك. والعَقِبُ مَن يأتي بعده[٤]. وقال السُّدِّيُّ: هم آل محمدٍ ﷺ. وقال ابن عباس: قوله: «فِي عَقِبِهِ» أي: في خَلَفه[٥]. وفي

(١) في الصحاح (برأ).

(٢) أخرجه الطبري ٢٠/٥٧٦.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٤/١٠٥، وينظر تفسير الرازي ٢٧/٢٠٨.

(٤) ينظر إعراب القرآن للنحاس ٤/١٠٦، والكشاف ٣/ ٤٨٤.

(٥) النكت والعيون ٥/٢٢٢، وأخرج القولين الطبري ٢٠/٥٧٨.

الكلام تقديمٌ وتأخير؛ المعنى: فإنه سيهدينِ لعلهم يرجعون وجعلها كلمةً باقية في عقبه، أي: قال لهم ذلك لعلهم يتوبون عن عبادة غير الله[١].

قال مجاهدٌ وقتادة: الكلمة: لا إله إلا الله؛ قال قتادة: لا يزال من عقبه مَن يعبد اللهَ إلى يوم القيامة[٢]. وقال الضحَّاك: الكلمة: أنْ لا تعبدوا إلا الله. عكرمة: الإسلام؛ لقوله تعالى: ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾[٣] [الحج:٧٨]. القُرَظي: وجَعل وصيةَ إبراهيم التي وصَّى بها بنيه ـ وهو قولُه: ﴿يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ﴾ الآيةُ المذكورة في البقرة [الآية:١٣٢] ـ كلمَةً باقية في ذُرِّيته وبنيه. وقال ابن زيد: الكلمة قوله: «أَسْلَمْتُ لِرَبِّ العَالَمِينَ»، وقرأ: ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾[٤].

وقيل: الكلمة: النبوَّة. قال ابن العربي[٥]: ولم تزل النبوَّةُ باقيةً في ذُرِّيَّة إبراهيم، والتوحيد هم أصلُه، وغيرُهم فيه تَبَعٌ لهم.

الثانية: قال ابن العربي[٦]: إنما كانت لإبراهيم في الأعقاب موصولةً بالأحقاب؛ بدعوتَيه المجابتَين، إحداهما في قوله: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة:١٢٤] فقد قال: نعم إلَّا من ظلم منهم فلا عهد. ثانيهما قوله: ﴿وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم:٣٥]. وقيل: بل[٧] الأولى قولُه: ﴿وَٱجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي ٱلْآخِرِينَ﴾ [الشعراء:٨٤]، فكلُّ أُمة تعظِّمه، بنوه وغيرهم؛ ممن يجتمع معه في سامٍ أو نوح.

الثالثة: قال ابن العربي[٨]: جرى ذِكْرُ العَقِب هاهنا موصولاً في المعنى

(١) الوسيط للواحدي ٤/ ٦٩.
(٢) أخرج قولهما الطبري ٢٠/ ٥٧٦-٥٧٧.
(٣) النكت والعيون ٥/ ٢٢٢.
(٤) ذكر القولين البغوي ٤/ ١٣٧. وأخرج الطبري ٢٠/ ٥٧٧ قول ابن زيد.
(٥) في أحكام القرآن ٤/ ١٦٦٦.
(٦) المصدر السابق.
(٧) في أحكام القرآن: وقيل بدل.
(٨) في أحكام القرآن ٤/ ١٦٦٦-١٦٧٠، وما بين حاصرتين منه.

[بالحِقب]، وذلك مما يدخل في الأحكام وتُرتَّبُ عليه عقودُ العُمْرَى والتحبيس[١].
قال النبيُّ ﷺ: «أيُّما رَجلٍ أُعمِر عُمْرَى له ولعقِبه، فإنها لِلذي أُعطِيَها، لا ترجع إلى الذي أعطاها؛ لأنه أعطى عطاءً وقعت فيه المواريث»[٢].

وهي تَرِد على أحدَ عشَرَ لفظاً:

اللفظ الأول: الولد. وهو عند الإطلاق عبارةٌ عمن وُجد من الرجل وامرأتِه في الإناث والذُّكور. وعن ولد الذكور دون الإناث لغةً وشرعاً؛ ولذلك وقع الميراثُ على الولد المعيَّن وأولاد الذكور من المعيَّن دون ولد الإناث؛ لأنه من قومٍ آخرين، ولذلك لم يدخلوا في الحُبس بهذا اللفظ؛ قاله مالكٌ في المجموعة وغيرِها.

قلت: هذا مذهبُ مالكٍ وجميعِ أصحابه المتقدِّمين، ومِن حجَّتهم على ذلك الإجماعُ على أنَّ ولد البنات لا ميراث لهم مع قوله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِيٓ أَوْلَٰدِكُمْ﴾ [النساء: ١١]. وقد ذهب جماعةٌ من العلماء إلى أنَّ ولد البنات من الأولاد والأعقاب يدخلون في الأحباس بقول[٣] المُحْبِس: حبستُ على ولدي، أو على عَقِبي. وهذا اختيارُ أبي عمر بنِ عبد البَرّ وغيرِه[٤]؛ واحتجُّوا بقول اللهِ جلَّ وعزّ: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ﴾ [النساء: ٢٣]. قالوا: فلما حَرَّم اللهُ البنات فَحَرُمت بذلك بنتُ البنت بإجماع، عُلم أنها بنتٌ، ووجب أن تدخل في حُبْس أبيها إذا حَبَسَ على ولده أو عقبه. وقد مضى هذا المعنى في «الأنعام» مستوفًى[٥].

---

(١) العمرى: من قولهم: أعمرته الدار عُمرى: أي جعلتها له يسكنها مدة عمره، فإذا مات عادت إلي. والتحبيس: الوقف. النهاية (عمر) (حبس).

(٢) صحيح مسلم (١٦٢٥) من حديث جابر، وسلف ١١/ ١٥١ .

(٣) في (م): يقول.

(٤) الذي قاله ابن عبد البَرّ في الكافي ٢/ ١٠١٨ : إذا حبس الرجل على ولده وولد ولده، أو على عقبه وعقب عقبه؛ فلا حقَّ لولد البنات في حُبسه ذلك؛ إلا أن يُسميَهم ويدخلَهم فيه، وإنما ذلك لولده وولد ولده الذكور ما تناسلوا.

(٥) ٨/ ٤٤٧ - ٤٤٨ .

اللفظ الثاني: البنون. فإن قال: هذا حُبْسٌ على ابني؛ فلا يتعدَّى الولدَ المعيَّنَ ولا يتعدَّد. ولو قال: ولدي، لَتعدَّى وتعدَّد في كلِّ مَن ولد. وإن قال: على بَنِيّ، دخل فيه الذكورُ والإناث. قال مالك: مَن تصدَّق على بنيه وبني بنيه، فإنَّ بناتِه وبناتِ بناته يدخلن في ذلك. وروى عيسى عن ابن القاسم فيمن حبس على بناته؛ فإنَّ بناتِ بنته يدخلن في ذلك مع بنات صُلْبه. والذي عليه جماعةُ أصحابه أنَّ ولد البنات لا يدخلون في البنين. فإن قيل: فقد قال النبيُّ ﷺ في الحسن ابنِ ابنته: «إنَّ ابني هذا سيِّدٌ، ولعلَّ اللهَ أنْ يُصلِحَ به بين فئتين عظيمتين من المسلمين»(١). قلنا: هذا مجاز، وإنما أشار به إلى تشريفه وتقديمه؛ أَلَا ترى أنه يجوز نفيُه عنه، فيقول الرجل في ولد بنته: ليس بابني؛ ولو كان حقيقةً ما جاز نفيُه عنه؛ لأن الحقائق لا تُنفى عن مُنتسباتها(٢). ألا ترى أنه ينتسب إلى أبيه دون أمه؛ ولذلك قيل في عبد الله بنِ عباس: إنه هاشميٌّ وليس بهلالي، وإن كانت أُمُّه هلالية.

قلت: هذا الاستدلال غيرُ صحيح، بل هو ولدٌ على الحقيقة في اللغة؛ لوجود معنى الولادةِ فيه، ولأن أهل العلم قد أجمعوا على تحريم بنت البنت مِن قول اللهِ تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَـٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ﴾ [النساء: ٢٣]. وقال تعالى: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ﴾ إلى قوله: ﴿مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ [الأنعام: ٨٤-٨٥]، فجعل عيسى من ذُرِّيَّته، وهو ابنُ بنته على ما تقدَّم بيانُه هناك(٣). فإن قيل: فقد قال الشاعر:

بنونا بنو أبنائنا، وبناتُنا   بنوهنَّ أبناءُ الرجالِ الأباعدِ(٤)

---

(١) صحيح البخاري (٢٧٠٤)، وسلف ٥/ ١١٦ .

(٢) في (ف): مشبهاتها، وفي أحكام القرآن: مسمياتها.

(٣) ٨/ ٤٤٦-٤٤٧ .

(٤) كتاب الحيوان للجاحظ ١/ ٣٤٦ ، والإنصاف لابن الأنباري ١/ ٦٦ ، ومغني اللبيب ص٥٨٩ ، والخزانة ١/ ٤٤٤ دون نسبة. قال البغدادي: هذا البيت لا يعرف قائله مع شهرته في كتب النحاة وغيرهم. ورأيت في شرح الكرماني في شواهد شرح الكافية للخبيصي أنه قال: هذا البيت قائله أبو فراس همام الفرزدق بن غالب. والله أعلم بحقيقة الحال.

قيل لهم: هذا لا دليلَ فيه؛ لأن معنى قولِه إنما هو أَنَّ[١] ولد بنيه الذُّكرانِ هم الذين لهم حكمُ بنيه في الموارثة والنسب، وأَنَّ ولد بناته ليس لهم حكمُ بناته في ذلك؛ إذ ينتسبون إلى غيره، فأخبر بافتراقهم بالحكم مع اجتماعهم في التسمية، ولم يَنْفِ عن ولد البناتِ اسمَ الولد؛ لأنه ابن؛ وقد يقول الرجل في ولده: ليس هو بابني؛ إذ لا يطيعني ولا يرى لي حقًّا، ولا يريد بذلك نفيَ اسمِ الولدِ عنه، وإنما يريد أن ينفيَ عنه حكمَه. ومَن استدلَّ بهذا البيتِ على أنَّ ولد البنت لا يُسمَّى ولداً، فقد أفسد معناه وأبطل فائدته، وتأوَّل على قائله ما لا يصح؛ إذ لا يمكن أن يُسمَّى ولدُ الابن في اللسان العربيِّ ابناً، ولا يُسمَّى ولدُ الابنة ابناً؛ من أجل أنَّ معنى الولادة التي اشتُقَّ منها اسمُ الولد فيه أَبْيَنُ وأقوى؛ لأن ولد الابنةِ هو ولدُها بحقيقة الولادة، وولد الابن إنما هو ولدُه بماله مما[٢] كان سبباً للولادة. ولم يُخرِجْ مالكٌ رحمه الله أولادَ البنات مِن حُبْس مَن حَبَس[٣] على ولده من أجل أنَّ اسم الولد غيرُ واقعٍ عليه عنده في اللسان، وإنما أخرجهم منه قياساً على الموارثة. وقد مضى هذا في «الأنعام»، والحمدُ لله[٤].

اللفظ الثالث: الذُّرِّيَّة. وهي مأخوذةٌ مِن: ذرأَ اللهُ الخلقَ؛ فيدخل فيه[٥] ولدُ البنات، لقوله: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ﴾ إلى أن قال: ﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ﴾ [الأنعام: ٨٤-٨٥]. وإنما كان من ذريته مِن قِبَل أُمه. وقد مضى في «البقرة» اشتقاقُ الذرية[٦] وفي «الأنعام» الكلامُ على «وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ» الآية [٨٤][٧]؛ فلا معنى للإعادة.

---

(١) لفظة: أن ليست في (د) و(م).

(٢) في (د) و(ف): فما.

(٣) قوله: من حبس، من (ظ).

(٤) ٨/ ٤٤٧-٤٤٨.

(٥) في أحكام القرآن ٤/ ١٦٦٧ زيادة: عند علمائنا.

(٦) ٢/ ٣٦٨.

(٧) ٨/ ٤٤٦ - ٤٤٧.

اللفظ الرابع: العَقِب. وهو في اللغة عبارةٌ عن شيء بعد شيءٍ كان مِن جنسه أو من غير جنسه؛ يقال: أعقب اللهُ بخير؛ أي: جاء بعد الشِّدَّة بالرَّخاء. وأعقب الشيبُ السَّواد.

وعَقَب يَعْقُب عُقُوباً وعَقْباً: إذا جاء شيئاً بعد شيء؛ ولهذا قيل لولد الرجل: عَقِبه[١].

والمِعْقاب من النساء: التي تلد ذَكَراً بعد أنثى، هكذا أبداً. وعقب الرجل: ولده وولدُ ولدِه الباقون بعده. والعاقبة: الولد؛ قال يعقوب: في القرآن: «وَجَعَلَهَا كَلِمَةَ بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ». وقيل: بل الورثة كلُّهم عَقِب. والعاقبة: الولد؛ وكذلك[٢] فسَّره مجاهدٌ هنا. وقال ابن زيد: هاهنا هم الذُّرِّيَّة. وقال ابن شهاب: هم الولد وولدُ الولد. وقيل غيره على ما تقدَّم عن السُّدِّيّ[٣].

وفي الصحاح: والعَقِب، بكسر القاف: مُؤخَّر القدم، وهي مؤنثة. وعقب الرجل أيضاً: ولدُه وولدُ ولدِه. وفيه لغتان: عَقِب وعَقْب، بالتسكين، وهي أيضاً مؤنثة، عن الأخفش. وعَقَبَ فلانٌ مكانَ أبيه عاقبةً، أي: خلفه؛ وهو اسمٌ جاء بمعنى المصدر، كقوله تعالى: ﴿لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ﴾[٤] [الواقعة: ٢].

ولا فرق عند أحدٍ من العلماء بين لفظ العَقِب والولد في المعنى. واختُلف في الذُّرِّيَّة والنسل، فقيل: إنهما بمنزلة الولد والعَقِب؛ لا يدخل ولدُ البنات فيهما على مذهب مالك. وقيل: إنهم يدخلون فيهما. وقد مضى الكلامُ في الذرية هنا وفي «الأنعام».

اللفظ الخامس: نَسْلي. وهو عند علمائنا كقوله: ولدي وولدُ ولدي[٥]؛ فإنه

(١) تهذيب اللغة ١/ ٢٧١ .

(٢) في (د) و(م): ولذلك، والمثبت من (ظ) و(ف)، وهو الموافق لما في أحكام القرآن.

(٣) في المسألة الأولى. وقول ابن زيد وابن شهاب أخرجهما الطبري ٢٠/ ٥٧٨ .

(٤) الصحاح (عقب).

(٥) في أحكام القرآن: ولد ولدي، بدل: ولدي وولد ولدي.

يدخل فيه ولدُ البنات. ويجب أن يدخلوا؛ لأنَّ نَسَل بمعنى خرج، وولد البنات قد خرجوا منه بوجهٍ، ولم يقترن به ما يَخُصُّه كما اقترن بقوله: عَقِبي ما تناسلوا.

وقال بعض علمائنا: إنَّ النسل بمنزلة الولد والعقبِ، لا يدخل فيه ولدُ البنات؛ إلَّا أنْ يقول المُحبِس: نسلي ونسلُ نسلي، كما إذا قال: عقبي وعَقِبُ عقبي، وأما إذا قال: ولدي أو عقبي مُفْرَداً، فلا يدخل فيه البنات.

اللفظ السادس: الآل. وهم الأهل؛ وهو اللفظ السابع. قال ابن القاسم: هما سواء، وهم العَصَبةُ والإخوة والأَخَوات[1] والبنات والعمات؛ ولا يدخل فيه الخالات. وأصل الأهل: الاجتماعُ، يقال: مكانٌ آهِل: إذا كان فيه جماعة، وذلك بالعصبة ومَن دخل في العقد[2]، والعَصَبة مشتقَّةٌ منه، وهي أخصُّ به. وفي حديث الإفك: يا رسول الله، أَهْلُكَ! ولا نعلم إلَّا خيراً؛ يعني عائشة[3]. ولكن لا تدخل فيه الزوجةُ بإجماع وإن كانت أصلَ التأهُّل؛ لأنَّ ثبوتها ليس بيقين، إذ قد يتبدَّل ربطُها وينحلُّ بالطلاق. وقد قال مالك: آلُ محمدٍ كلُّ تقي[4]؛ وليس من هذا الباب. وإنما أراد أنَّ الإيمان أخصُّ من القرابة، فاشتملت عليه الدَّعوةُ وقُصد بالرحمة.

وقد قال أبو إسحاق التونسي: يدخل في الأهل كلُّ مَن كان من جهة الأبوين. فوفَّى الاشتقاقَ حقَّه، وغَفَلَ عن العُرف ومطلقِ الاستعمال. وهذه المعاني إنما تُبنى

---

(١) قوله: والأخوات ليس في (د) و(ظ) و(م).

(٢) كذا في النسخ الخطية وأحكام القرآن ٤/ ١٦٦٨ ، والكلام منه، وبعدها في (م): من النساء. وقد ذكر أبو الوليد الباجي في المنتقى ٦/ ١٢٤ كلام ابن القاسم ثم قال: ومعنى ذلك عندي العصبة، أو من كان في قُعْددهنَّ من النساء. والقُعْدُد: الأقرب إلى الأب الأكبر. المصباح المنير (قعد).

(٣) القائل أسامة بن زيد ﷺ كما في البخاري (٢٦٦١)، ومسلم (٢٧٧٠). وقد سلف ١/ ٣٩٩ .

(٤) ذكره عنه ابن العربي في أحكام القرآن ٤/ ١٦٦٨ . وقد أخرجه مرفوعاً العقيلي في الضعفاء ٤/ ٢٨٧ ، وابن عدي في الكامل ٧/ ٢٥١٣ ، والبيهقي ٢/ ١٥٢ من طريق نافع السلمي، عن أنس ﷺ. قال البيهقي: وهذا لا يحل الاحتجاج بمثله. وأخرجه الطبراني في الصغير (٣١٨)، والأوسط (٣٣٥٦) من طريق نوح ابن أبي مريم، عن يحيى بن سعيد الأنصاري، عن أنس. قال الحافظ في الفتح ١١/ ١٦١ : سنده واهٍ جداً.

على الحقيقة، أو على العرف المستعملِ عند الإطلاق، فهذان لفظان.

اللفظ الثامن: قرابة. فيه أربعة أقوال:

الأوّل: قال مالكٌ في كتاب محمدٍ وابنِ[١] عَبْدوس: إنهم الأقربُ فالأقربُ بالاجتهاد؛ ولا يدخل فيه ولدُ البنات ولا ولدُ الخالات.

الثاني: يدخل فيه أقاربُه من قِبَل أبيه وأُمّه؛ قاله علي بنُ زياد.

الثالث: قال أشهب: يدخل فيه كلُّ رَحِمٍ من الرجال والنساء.

الرابع: قال ابن كِنَانة: يدخل فيه الأعمامُ والعمَّات والأخوال والخالات[٢] وبنات الأخت.

وقد قال ابن عباس في تفسير قولهِ تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ﴾ [الشورى: ٢٣] قال: إلَّا أنْ تَصِلوا قرابةَ ما بيني وبينكم؛ وقال: لم يكن بطنٌ من قريشٍ إلا كان بينه وبين النبيِّ ﷺ قرابة[٣]. فهذا يَضبِطه، والله أعلم.

اللفظ التاسع: العشيرة. ويضبِطه الحديثُ الصحيح: إن الله تعالى لما أنزل: ﴿وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤] دعا النبيُّ ﷺ بطونَ قريشٍ وسمَّاهم، كما تقدَّم ذِكْرُه[٤]، وهم العشيرة الأقربون، وسِوَاهم عشيرةٌ في الإطلاق. واللفظ يُحمل على الأخصِّ الأقربِ بالاجتهاد، كما تقدَّم مِن قول علمائنا.

اللفظ العاشر: القوم. يُحمل[٥] ذلك على الرجال خاصَّةً من العَصَبة دون النساء. والقوم يشمل الرجالَ والنساء؛ وإن كان الشاعر قد قال:

---

(١) لفظة: و، ليست في (م).

(٢) في بعض النسخ الخطية من أحكام القرآن (كما في حواشيه) زيادة: وبنات الأخ.

(٣) أخرجه أحمد (٢٠٢٤)، والبخاري (٣٤٩٧).

(٤) ٨٣/١٦ .

(٥) قبلها في المطبوع من أحكام القرآن: قال القرويون.

وما أدري وسوف إخال أدري أقومٌ آل حِصْنٍ أم نساءُ[١]

ولكنه أراد أنَّ الرجل إذا دعا قومه للنُّصرة، عنى الرجال، وإذا دعاهم للحُرْمة، دخل فيهم الرجالُ والنساء؛ فتَعُمُّه الصفة وتخصِّصه القرينة.

اللفظ الحادي عشر: المَوَالي. قال مالك: يدخل فيه موالي أبيه وابنِه مع مواليه. وقال ابن وهب: يدخل فيه أولادُ مواليه.

قال ابن العربي[٢]: والذي يتحصَّل منه أنه يدخل فيه مَن يرثه بالوَلاء؛ قال: وهذه فصولُ الكلام وأصولُه المرتبطةُ بظاهر القرآن والسنة المبيِّنة له؛ والتفريعُ والتتميم في كتب[٣] المسائل، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿٢٩﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٠﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿بَلْ مَتَّعْتُ﴾ وقُرئ: «بَلْ مَتَّعْنا»[٤]. ﴿هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ﴾ أي: في الدنيا بالإمهال. ﴿حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾ أي: محمدٌ ﷺ بالتوحيد والإسلامِ الذي هو أصلُ دين إبراهيم؛ وهو الكلمة التي بقَّاها اللهُ في عقِبه. ﴿وَرَسُولٌ مُّبِينٌ﴾ أي: يبيِّن لهم ما بهم إليه حاجة.

﴿وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾ يعني القرآن. ﴿قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ جاحدون[٥].

---

(١) سلف ٢/ ١٠٩ .

(٢) في أحكام القرآن ٤/ ١٦٧٠ ، وما قبله منه.

(٣) المثبت من (ف) وأحكام القرآن، وفي باقي النسخ: كتاب.

(٤) هي قراءة الأعمش كما في المحرر الوجيز ٥/ ٥٢ ، وهي قراءة شاذة.

(٥) تفسير أبي الليث ٣/ ٢٠٦ .

﴿وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ﴾ أي: هلَّا نزل ﴿هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ﴾ وقرئ: «على رَجْل» بسكون الجيم. ﴿مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ﴾ أي: من إحدى القريتَين؛ كقوله تعالى: ﴿يَخۡرُجُ مِنۡهُمَا ٱللُّؤۡلُؤُ وَٱلۡمَرۡجَانُ﴾ [الرحمن: ٢٢] أي: من أحدهما[١]. أو على أحدِ رجلين من القريتين. القريتان: مكة والطائف. والرجلان: الوليدُ بنُ المغيرة بنِ عبد الله بن عمر ابن مخزوم عمُّ أبي جهل. والذي من الطائف أبو مسعود عروة بنُ مسعود الثقفي؛ قاله قتادة. وقيل: عمير بنُ عبد ياليل الثقفي من الطائف، وعتبة بنُ ربيعة من مكة؛ وهو قول مجاهد. وعن ابن عباس: أنَّ عظيم الطائف حبيب بنُ عمرٍو الثقفي. وقال السُّدِّيّ: كنانة بنُ عبد بنِ عمرو. وروي أنَّ الوليد بنَ المغيرة ـ وكان يُسمى ريحانةَ قريش ـ كان يقول: لو كان ما يقول محمدٌ حقًّا، لنزل عليَّ أو على أبي مسعود؛ فقال الله تعالى: ﴿أَهُمۡ يَقۡسِمُونَ رَحۡمَتَ رَبِّكَۚ﴾[٢] يعني النبوَّةَ فيضعونها حيث شاؤوا![٣]

﴿نَحۡنُ قَسَمۡنَا بَيۡنَهُم مَّعِيشَتَهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ﴾ أي: أفقَرنا قوماً وأغنينا قوماً؛ فإذا لم يكن أمرُ الدنيا إليهم؛ فكيف نفوِّض أمرَ النبوَّة إليهم؟ قال قتادة: تَلْقاه ضعيفَ القوَّة قليلَ الحيلة عَييَّ اللسان وهو مبسوطٌ له، وتلقاه شديدَ الحيلة بسيطَ اللسان وهو مُقَتَّرٌ عليه[٤].

وقرأ ابن عباس ومجاهدٌ وابن مُحَيْصِن في رواية عنه: «مَعَايِشَهُمْ»[٥]. وقيل: أي: نحن أعطينا عظيمَ القريتين ما أعطينا لا لكرامتهما عليَّ، وأنا قادرٌ على نزع النِّعمةِ عنهما، فأيُّ فضلٍ وقَدْرٍ لهما؟!

﴿وَرَفَعۡنَا بَعۡضَهُمۡ فَوۡقَ بَعۡضٖ دَرَجَٰتٖ﴾ أي: فاضَلْنا بينهم، فمن فاضلٍ ومفضول

---

(١) الكشاف ٣/ ٤٨٥ . وقراءة «رَجْل» بسكون الجيم شاذة.

(٢) أخرج هذه الأقوال الطبري ٢٠/ ٥٨٠-٥٨٤ ، وينظر الوسيط للواحدي ٤/ ٧٠ .

(٣) النكت والعيون ٥/ ٢٢٣ .

(٤) النكت والعيون ٥/ ٢٢٣ ، وأخرجه الطبري ٢٠/ ٥٨٤-٥٨٥ .

(٥) ذكر القراءة عن ابن عباس ابن خالويه في القراءات الشاذة ص١٣٥ .

ورئيس ومرؤوس؛ قاله مقاتل. وقيل: بالحرية والرِّق؛ فبعضهم مالِكٌ وبعضهم مملوك. وقيل: بالغِنى والفقر؛ فبعضُهم غنيٌّ وبعضهم فقير. وقيل: بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر[١].

﴿لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ قال السُّدِّيُّ وابن زيد: خَوَلاً وخُدَّاماً، يسخِّر الأغنياءُ الفقراءَ، فيكون بعضُهم سبباً لمعاشِ بعض. وقال قتادة والضحاك: يعني ليملكَ بعضُهم بعضاً[٢]. وقيل: هو من السُّخرِيَّة التي بمعنى الاستهزاء؛ أي: لِيستهزئَ الغنيُّ بالفقير[٣]. قال الأخفش: سَخِرت به وسَخِرت منه، وضَحِكت منه وضَحِكت به، وهزِئت منه وبه؛ كلٌّ يقال، والاسم: السُّخرِيَّة، بالضم؛ والسُّخْرِيُّ والسِّخْرِيّ، بالضمِّ والكسر[٤]. وكلُّ الناس ضمُّوا «سُخْرِيًّا» إلا ابنَ مُحَيْصِن ومجاهداً، فإنهما قرأا: «سِخْرِيًّا»[٥].

﴿وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ أي: أفضل ممَّا يجمعون من الدنيا. ثم قيل: الرحمة: النبوَّة، وقيل: الجنة. وقيل: تمامُ الفرائض خيرٌ من كثرة النوافل. وقيل: ما يَتفضَّل به عليهم خيرٌ مما يجازيهم عليه من أعمالهم[٦].

قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾﴾

فيه خمسُ مسائل:

الأولى: قال العلماء: ذَكَرَ حقارةَ الدنيا وقلَّةَ خطرها، وأنها عنده من الهوان

(١) النكت والعيون ٥/ ٢٢٣.

(٢) أخرج أقوالهم الطبري ٢٠/ ٥٨٥-٥٨٦ بنحوها.

(٣) ينظر تفسير أبي الليث ٣/ ٢٠٧.

(٤) الصحاح (سخر)، وكلام الأخفش فيه.

(٥) ذكر قراءة ابن محيصن ابن خالويه في القراءات الشاذة ص١٣٥.

(٦) النكت والعيون ٥/ ٢٢٤.

بحيث كان يَجعل بيوتَ الكَفَرةِ ودَرَجها ذهباً وفِضَّةً لولا غلبةُ حبِّ الدنيا على القلوب؛ فيَحمِلُ ذلك على الكفر[١].

قال الحسن: المعنى: لولا أنْ يكفُرَ الناسُ جميعاً بسبب ميلهم إلى الدنيا وتركِهم الآخرةَ، لأعطيناهم في الدنيا ما وصفناه؛ لِهوان الدنيا عند الله عزَّ وجلَّ. وعلى هذا أكثرُ المفسِّرين، ابنُ عباس والسُّدِّيُّ وغيرهم.

وقال ابن زيد: «وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً» في طلب الدنيا واختيارِها على الآخرة «لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سقُفاً مِنْ فِضَّةٍ»[٢].

وقال الكسائي: المعنى: لولا أن يكونَ في الكفار غنيٌّ وفقير وفي المسلمين مِثلُ ذلك، لأعطينا الكفارَ من الدنيا هذا لهوانها.

الثانية: قرأ ابن كثيرٍ وأبو عمرٍو: «سَقْفًا» بفتح السين وإسكان القاف على الواحد، ومعناه الجمع، اعتباراً بقوله تعالى: ﴿فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ﴾ [النحل:٢٦]. وقرأ الباقون بضمِّ السينِ والقافِ على الجمع[٣]؛ مثل: رَهْن ورُهُن. قال أبو عبيد[٤]: ولا ثالث لهما. وقيل: هو جمع سقيف؛ مثل: كَثِيب وكُثُب، ورَغيف ورُغُف؛ قاله الفراء. وقيل: هو جمع سُقُوف، فيصير جَمْعَ الجمع[٥]؛ سَقْف وسُقُوف، نحو: فَلْس وفُلُوس. ثم جعلوا فُعولاً كأنه اسمُ واحد، فجمعوه على فُعُل.

وروي عن مجاهد: «سَقْفاً» بإسكان القاف[٦].

وقيل: اللام في «لِبيُوتِهِمْ» بمعنى على، أي: على بيوتهم. وقيل: بدل؛ كما

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٦٧٠ .

(٢) أخرج هذه الأقوال الطبري ٢٠/ ٥٨٧ - ٥٨٨ .

(٣) السبعة ص٥٨٥ ، والتيسير ص١٩٦ . وينظر تفسير الطبري ٢٠/ ٥٨٩ .

(٤) في تفسير البغوي ٤/ ١٣٨ والكلام منه: أبو عبيدة.

(٥) بنحوه في معاني القرآن للفراء ٣/ ٣٢ .

(٦) المحرر الوجيز ٥/ ٥٤ .

تقول: فعلت هذا لزيدٍ لكرامته؛ قال الله تعالى: ﴿وَلِأَبَوَيۡهِ لِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُ﴾ [النساء: ١١] كذلك قال هنا: ﴿لَّجَعَلۡنَا لِمَن يَكۡفُرُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ لِبُيُوتِهِمۡ﴾[(١)].

الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَمَعَارِجَ﴾ يعني الدَّرَج؛ قاله ابن عباس، وهو قولُ الجمهور. واحدها مِعراج[(٢)]، والمِعراج: السُّلَّم؛ ومنه ليلة المعراج. والجمع: معارج ومعاريج؛ مثل: مفاتح ومفاتيح[(٣)]؛ لغتان.

«وَمَعَارِيجَ» قرأ أبو رجاء العُطَارِدِيُّ وطلحة بنُ مُصَرِّف[(٤)]؛ وهي المراقي والسلاليم. قال الأخفش: إن شئتَ جعلت الواحد مِعْرَج ومَعْرَج؛ مثل: مِرقاة ومَرقاة[(٥)].

﴿عَلَيۡهَا يَظۡهَرُونَ﴾ أي: على المعارج يرتقون ويصعدون؛ يقال: ظهرت على البيت، أي: علوتُ سطحَه. وهذا لأنَّ مَن علا شيئاً وارتفع عليه ظهر للناظرين. ويقال: ظهرت على الشيء، أي: عَلِمْته. وظهرت على العدوّ، أي: غلبته.

وأنشد نابغةُ بني جَعْدةَ رسولَ الله ﷺ قولَه:

عَلَوْنا السماءَ عِزَّةً ومهابةً وإنَّا لنرجو فوق ذلك مظهرا[(٦)]

أي: مصعداً؛ فغضب رسولُ الله ﷺ وقال: «إلى أين؟» قال: إلى الجنة؟، قال: «أجل إن شاء الله»[(٧)].

---

(١) الكلام بنحوه في معاني القرآن للفراء ٣/ ٣١ ، وإعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٠٧ .

(٢) النكت والعيون ٥/ ٢٢٤ ، وأخرج قول ابن عباس وغيره الطبري ٢٠/ ٥٩٠-٥٩١ .

(٣) الصحاح (عرج).

(٤) قراءة طلحة في القراءات الشاذة ص٨٥ . والمحرر الوجيز ٥/ ٥٤ .

(٥) الصحاح (عرج).

(٦) ورد البيت في الديوان ص٥١ و ٦٨ في قصيدتين، في الأولى براوية: بلغنا السماء مجدنا وجدودنا، وفي الثانية: بلغنا السما مجداً وجوداً وسودداً.

(٧) أخرجه البزار (٢١٠٤ كشف الأستار). قال الهيثمي في المجمع ٨/ ١٢٦ : فيه يعلى بن الأشدق، وهو ضعيف. اهـ . ورواية البيت فيه: علونا العباد عفة وتكرماً.

قال الحسن: واللهِ لقد مالت الدنيا بأكثرِ أهلِها وما فَعَلَ ذلك! فكيف لو فعل؟![١]

الرابعة: استدلَّ بعض العلماء بهذه الآيةِ على أنَّ السقف لا حَقَّ فيه لربِّ العُلْو؛ لأن الله تعالى جعل السقوفَ للبيوت كما جعل الأبوابَ لها. وهذا مذهبُ مالكٍ رحمه الله.

قال ابن العربي[٢]: وذلك لأنَّ البيت عبارةٌ عن قاعة وجدار وسقف وباب، فمَن له البيتُ، فله أركانه. ولا خلاف أنَّ العُلْوَ له إلى السماء. واختلفوا في السُّفل؛ فمنهم مَن قال: هو له، ومنهم مَن قال: ليس له في باطن الأرض شيء. وفي مذهبنا القولان. وقد بيَّن حديثُ الإسرائيليِّ الصحيحِ - فيما تقدَّم - أنَّ رجلاً باع من رجل داراً، فبناها فوجد فيها جَرَّةً مِن ذهب، فجاء بها إلى البائع فقال: إنما اشتريتُ الدارَ دون الجرَّة، وقال البائع: إنما بِعتُ الدار بما فيها، وكلاهما[٣] تدافعها. فقُضي بينهم[٤] أنْ يزوِّجَ أحدُهما ولدَه مِن بنت الآخرَ ويكون المال لهما[٥]. والصحيح أنَّ العُلْو والسُّفل له، إلَّا أنْ يَخرُجَ عنهما بالبيع، فإذا باع أحدُهما أحدَ الموضعين فله منه ما ينتفع به، وباقيه للمبتاع منه.

الخامسة: مِن أحكام العُلْو والسُّفل: إذا كان العُلْوُ والسُّفلُ بين رجلين، فيعتلُّ السُّفلُ أو يريد صاحبُه هَدْمَه؛ فذكر سُحْنون عن أشهب أنه قال: إذا أراد صاحبُ السُّفل أن يَهدِم، أو أراد صاحبُ العلو أن يبني عُلْوَه، فليس لصاحب السفل أن يهدم إلَّا مِن ضرورة، ويكون هدمُه له أرفقَ لصاحب العلو؛ لئلا ينهدم بانهدامه العلو،

---

(١) أخرجه الطبري ٢٠/ ٥٨٧ .

(٢) في أحكام القرآن ٤/ ١٦٧٠ . وينظر المحرر الوجيز ٥/ ٥٤ .

(٣) في النسخ: وكلهم، والمثبت من أحكام القرآن.

(٤) في النسخ زيادة: النبي ﷺ.

(٥) أخرجه بنحوه أحمد (٨١٩١)، والبخاري (٣٤٧٢)، ومسلم (١٧٢١) من حديث أبي هريرة ﷺ.

وليس لربِّ العلو أن يبنيَ على عُلْوه شيئاً لم يكن قبل ذلك، إلا الشيءَ الخفيفَ الذي لا يَضُرُّ بصاحب السفل. ولو انكسرت خشبةٌ من سقف العلو، لَأَدخلَ مكانَها خشبةً ما لم تكن أثقلَ منها ويُخافُ ضررُها على صاحب السفل. قال أشهب: وباب الدار على صاحب السفل. قال: ولو انهدم السُّفلُ أُجبر صاحبُه على بنائه، وليس على صاحب العُلْوِ أن يبنيَ السُّفل؛ فإن أبى صاحبُ السُّفل من البناء، قيل له: بِعْ ممن يبني.

وروى ابن القاسم عن مالكٍ في السُّفل لرجل والعلوِ لآخَر، فاعتلَّ السُّفل، فإنَّ صلاحه على ربِّ السُّفل، وعليه تعليقُ العُلْوِ حتى يُصلِحَ سُفلَه؛ لأن عليه: إمَّا أن يَحمِلَه على بنيان، أو على تعليق، وكذلك لو كان على العُلو عُلْوٌ، فتعليق العُلوِ الثاني على صاحب الأوسط. وقد قيل: إنَّ تعليق العُلو الثاني على ربِّ العُلو حتى يبنيَ الأسفل[1].

وحديث النعمان بنِ بشير عن النبيِّ ﷺ قال: «مَثَلُ القائمِ على حدود الله والواقعِ فيها كمثل قومٍ اسْتَهَمُوا على سفينة، فأصاب بعضُهم أعلاها وبعضُهم أسفلها، فكان الذين في أسفلها إذا استقَوا من الماء، مرُّوا على مَن فوقهم فقالوا: لو أنَّا خرقنا في نصيبنا خَرْقاً ولم نؤذِ مَن فوقنا. فإنْ يتركوهم وما أرادوا، هلكوا جميعاً. وإن أخذوا على أيديهم نَجَوا ونَجَوا جميعاً»[2] أصلٌ في هذا الباب. وهو حُجَّةٌ لمالكٍ وأشهب. وفيه دليلٌ على أنَّ صاحب السفل ليس له أن يُحدِثَ على صاحب العُلْوِ ما يَضرُّ به، وأنه إن أحدث عليه ضرراً؛ لَزِمه إصلاحُه دون صاحبِ العُلو، وأنَّ لصاحب العُلو منعَه من الضرر؛ لقوله عليه الصلاة والسلام: «فإن أخذوا على أيديهم نَجَوْا ونَجَوْا جميعاً» ولا يجوز الأخذُ إلَّا على يد الظالم أو مَن هو ممنوعٌ من إحداث ما لا يجوز له في السُّنة.

وفيه دليلٌ على استحقاق العقوبةِ بترك الأمر بالمعروف والنهيِ عن المنكر، وقد

---

(١) ينظر النوادر والزيادات ١١/ ٢٢٧، وعقد الجواهر الثمينة ٢/ ٦٤٣.

(٢) سلف ٩/ ٤٨٧.

مضى في «الأنفال»[١].

وفيه دليلٌ على جواز القُرعةِ واستعمالِها، وقد مضى في «آل عمران»[٢]. فتأمَّل كُلًا في موضعه تجدْه مبيَّناً، والحمد لله.

قوله تعالى: ﴿وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا﴾ أي: ولَجعلنا لبيوتهم. وقيل: «لِبُيُوتِهِمْ» بدلُ اشتمالٍ مِن قوله: ﴿لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾[٣]. «أبواباً» أي: مِن فضة. ﴿وَسُرُرًا﴾ كذلك؛ وهو جمع السَّرير[٤]. وقيل: جمع الأَسِرَّة، والأَسِرَّة جمعُ السرير، فيكون جمعَ الجمع[٥].

﴿عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ﴾ الاتِّكاء والتَّوكُّؤ: التحامل على الشيء[٦]؛ ومنه: ﴿أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا﴾ [طه: ١٨]. ورجل تُكَأَة، مثال هُمَزَة: كثير الاتّكاء. والتُّكَأة أيضاً: ما يُتَّكأ عليه. واتَّكأ على الشيء فهو متَّكِئ؛ والموضع متَّكَأ. وطعنه حتى أتكأه، على أَفْعَلَه، أي: ألقاه على هيئة المُتَّكِئ. وتوكَّأت على العصا. وأصل التاء في جميع ذلك واو[٧]، ففُعِل به ما فُعل بـ: اتَّزن واتَّعد.

﴿وَزُخْرُفًا﴾ الزُّخرف هنا الذهب؛ عن ابن عباس وغيرِه[٨]. نظيرُه: ﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ

---

(١) ٩/ ٤٨٧.

(٢) ٥/ ١٣٢.

(٣) مضى في المسألة الثانية من الآية السابقة.

(٤) الوسيط للواحدي ٤/ ٧١.

(٥) ينظر تهذيب اللغة ١٢/ ٢٨٧.

(٦) الوسيط للواحدي ٤/ ٧١.

(٧) الصحاح (وكأ).

(٨) أخرجه عنه وعن غيره الطبري ٢٠/ ٥٩٢-٥٩٣.

بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ﴾ [الإسراء:٩٣][١] وقد تقدَّم[٢]. وقال ابن زيد: هو ما يتخذه الناسُ في منازلهم من الأمتعة والأثاث[٣]. وقال الحسن: النقوش[٤]؛ وأصله الزينة. يقال: زخرفت الدار، أي: زيَّنتها. وتزخرف فلان، أي: تزيَّن[٥]. وانتصب «زُخْرُفاً» على معنى: وجعلنا لهم مع ذلك زخرفاً. وقيل: بنزع الخافض؛ والمعنى: لَجعلنا[٦] لهم سُقُفاً وأبواباً وسُرُراً من فضة ومِن ذهب؛ فلما حَذف «مِن»، قال: «وزخرفاً» فنصب.

﴿وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ قرأ عاصمٌ وحمزة وهشام عن ابن عامر: ﴿وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ بالتشديد. الباقون بالتخفيف[٧]؛ وقد ذُكر هذا. وروي عن أبي رجاءٍ كسرُ اللام من «لما»؛ فـ «ما» عنده بمنزلة الذي، والعائدُ عليها محذوف، والتقدير: وإنْ كلُّ ذلك لِلذي هو متاعُ الحياةِ الدنيا[٨]، وحذفُ الضمير هاهنا كحذفه في قراءة مَن قرأ: ﴿مَثَلًا مَّا بعوضةٌ فَمَا فَوْقَهَا﴾[٩] [البقرة:٢٦] و﴿تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنُ﴾ [الأنعام:١٥٤].

أبو الفتح: ينبغي أنْ يكونَ «كُلُّ» على هذه القراءةِ منصوبةً؛ لأنَّ «إنْ» مخفَّفةٌ من الثقيلة، وهي إذا خُفِّفت وبطَلَ عملُها، لَزِمتها اللامُ في آخر الكلام؛ للفرق بينها وبين «إن» النافيةِ التي بمعنى «ما»؛ نحو: إنْ زيدٌ لقائم، ولا لامَ هنا سوى الجارَّة[١٠].

(١) تفسير البغوي ٤/١٣٨.

(٢) ١٣/١٧٦.

(٣) أخرجه الطبري ٢٠/٥٩٣.

(٤) النكت والعيون ٥/ ٢٢٥.

(٥) ينظر تهذيب اللغة ٧/ ٦٧٢.

(٦) في (د) و(م): فجعلنا. وينظر معاني القرآن للفراء ٣/ ٣٢، وإعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٠٩.

(٧) وهو الوجه الثاني لهشام. السبعة ص٥٨٦، والتيسير ص١٩٦.

(٨) المحتسب ٢/ ٢٥٥، والمحرر الوجيز ٥/ ٥٤.

(٩) أي: ما هو بعوضة. المحتسب ٢/ ٢٥٥، وهي قراءة شاذة، وينظر ١/ ٣٦٥.

(١٠) المحتسب ٢/ ٢٥٥. وقال ابن جني بعد ذلك: ولو جاءت معها لوجب أن تقول: وإنْ كلُّ ذلك لَلِما =

﴿وَٱلْآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ يريد: الجنةُ لمن اتَّقى وخاف.

وقال كعب: إني لَأجد في بعض كتبِ الله المنزلة: لولا أنْ يَحْزَن عبدي المؤمن، لكلَّلتُ رأسَ عبدي الكافرِ بالإكليل، ولا يتصدَّعُ ولا يَنبِض منه عِرْقٌ بوجع[1].

وفي صحيح الترمذيِّ عن أبي هريرة قال: قال رسولُ الله ﷺ: «الدنيا سجنُ المؤمن وجَنة الكافر»[2]. وعن سهل بنِ سعد قال: قال رسول الله ﷺ: «لو كانت الدنيا تَعْدِل عند الله جَناحَ بعوضة، ما سقى كافراً منها شَرْبَةَ ماء». وفي الباب عن أبي هريرة، وقال: حديثٌ صحيح[3] غريب[4].

وأنشدوا:

فلو كانت الدنيا جزاءً لمحسنٍ إذاً لم يكن فيها معاشٌ لظالمِ
لقد جاع فيها الأنبياءُ كرامةً وقد شَبِعت فيها بطونُ البهائمِ

وقال آخَر[5]:

تَسَمَّعْ[6] من الأيام إن كنت حازماً فإنَّك فيها بين ناهٍ وآمِرِ
إذا أبقت الدنيا على المرء دينَه فما فاته منها فليس بضائرِ
فلا تَزِنُ الدنيا جناحَ بعوضةٍ ولا وزنَ زِفٍّ[7] من جَناحٍ لطائرِ

= متاعُ الحياة الدنيا. وقال السمين الحلبي في الدرّ المصون ٩/ ٥٨٦ : كان الوجه أن تدخل اللام الفارقة لعدم إعمالها، إلا أنها لما دلَّ الدليل على الإثبات جاز حذفها.

(١) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ١٩٧ عن معمر، عن أبان.

(٢) سنن الترمذي (٢٣٢٤)، وهو عند أحمد (٨٢٨٩)، ومسلم (٢٩٥٦).

(٣) في (د) و(م): حسن.

(٤) سنن الترمذي (٢٣٢٠). وسلف ٨/ ٣٦٢ .

(٥) هو أبو العتاهية، وقد سلفت الأبيات ٨/ ٣٦٣ باختلاف يسير.

(٦) في (م): تمتع.

(٧) في (د) و(ز) و(م): رق، وفي (ظ): زق، والمثبت من الموضع السالف للأبيات. والزف: صغار ريش النعام، أو كل طائر. القاموس (زفف).

فلم يرضَ بالدنيا ثواباً لمحسنٍ ولا رَضِيَ الدنيا عقاباً لكافرِ

قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴿٣٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾ وقرأ ابن عباسٍ وعكرمة: «ومَن يَعْشَ» بفتح الشين[1]، ومعناه: يعمَى؛ يقال منه: عَشِيَ يَعْشَى عَشاً: إذا عَمِيَ. ورجلٌ أعشى وامرأةٌ عشواء: إذا كان لا يُبصر؛ ومنه قولُ الأعشى:

رأتْ رجلاً غائبَ الوافِدَيْـ ـنِ مختلِفَ الخَلْقِ أعْشَى ضريرا[2]

وقولُه:

أأَنْ رأتْ رجلاً أعشى أضرَّ به رَيْبُ المَنُونِ ودَهْرٌ مُفْنِدٌ خَبِلُ[3]

الباقون بالضم؛ مِن: عشا يعشُو: إذا لَحِقَه ما يلحق الأعشى[4].

وقال الخليل: العَشْو هو النظر ببصرٍ ضعيف؛ وأنشد:

متى تأتِهِ تَعْشُو إلى ضَوْءِ نارِهِ تَجِدْ خيرَ نارٍ عندها خيرُ مُوقِدِ[5]

وقال آخر:

لَنِعمَ الفتى تعشو إلى ضوء ناره إذا الريحُ هبَّت والمكانُ جديبُ[6]

---

(١) قراءة ابن عباس في تفسير البغوي ٤/ ١٣٩ .

(٢) ديوان الأعشى ص١٤٥ . والوافد: المرتفِع من الخد عند المضغ. ومن شاب غاب وافداه. القاموس (وفد).

(٣) سلف ٥/ ١٧٤ .

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ١١٠ .

(٥) البيت للحطيئة، وسلف ٤/ ٤٩١ . وكلام الخليل في تفسير البغوي ٤/ ١٣٩ ، وينظر كتاب العين ٢/ ١٨٧ .

(٦) قائله الحطيئة، وهو في ديوانه ص٢٤٨ . قال شارحه: الشطر الثاني يعني في الشتاء والجدب.

الجوهريّ: والعَشَا ـ مقصور ـ مصدرُ الأعشى، وهو الذي لا يُبصر بالليل ويبصر بالنهار. والمرأة عشواء، وامرأتان عشواوان. وأعشاه اللهُ فعَشِيَ ـ بالكسر ـ يَعْشَى عَشًا، وهما يَعْشَيان، ولم يقولوا: يَعْشَوان؛ لأن الواو لمَّا صارت في الواحد ياءً لكسرة ما قبلها، تُركت في التثنية على حالها. وتعاشَى: إذا أرى مِن نفسه أنه أعشى. والنسبة إلى أَعْشَى أعْشَوِيّ. وإلى العَشِيَّة عَشَوِيّ. والعشواء: الناقة التي لا تُبصر أمامها؛ فهي تَخْبِط بيديها كلَّ شيء. ورَكِبَ فلانٌ العشواء: إذا خَبَط أمرَه على غير بصيرة. وفلانٌ خابطٌ خَبْطَ عشواء(١).

وهذه الآية تتصل بقوله أوَّلَ السورة: ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا﴾ [الآية: ٥] أي: نواصل لكم الذِّكر؛ فمن يَعْشُ عن ذلك الذكرِ بالإعراض عنه إلى أقاويل المضِلِّين وأباطيلِهم «نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَاناً» أي: نسبِّبْ له شيطاناً جزاءً له على كفره «فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ» قيل: في الدنيا، يمنعه من الحلال، ويبعثه على الحرام، وينهاه عن الطاعة، ويأمره بالمعصية؛ وهو معنى قولِ ابنِ عباس(٢).

وقيل: في الآخرة إذا قام مِن قبره؛ قاله سعيد الجُرَيْري.

وفي الخبر: أنَّ الكافر إذا خرج من قبره، يُشْفَعُ بشيطان لا يزال معه حتى يدخلا النار. وأنَّ المؤمن يُشْفع بملَكَ حتى يقضيَ اللهُ بين خلقه؛ ذكره المهدويّ(٣).

وقال القُشيري: والصحيح: فهو له قرينٌ في الدنيا والآخرة.

وقال أبو الهيثم والأزهري: عَشوتُ إلى كذا، أي: قصدته. وعشوت عن كذا، أي: أعرضت عنه، فتفرّق بين «إلى» و«عن»؛ مثل: ملْتُ إليه، ومِلْتُ عنه(٤). وكذا

---

(١) الصحاح (عشو).

(٢) النكت والعيون ٥/ ٢٢٦ .

(٣) وأخرجه الطبري ٢٠/ ٥٩٩ عن سعيد الجُريري بنحوه، ونسبه الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٢٢٦ لسعيد بن جبير.

(٤) تهذيب اللغة ٣/ ٥٥-٥٦ .

قال قتادة: يَعْشُ: يُعْرِض؛ وهو قول الفراء[١].

النحاس[٢]: وهو غيرُ معروفٍ في اللغة. وقال القُرَظي: يولِّي ظهره؛ والمعنى واحد. وقال أبو عبيدة والأخفش: تُظْلِم عينُه [عنه][٣].

وأنكر القُتَبيُّ[٤] عشوت بمعنى أعرضت؛ قال: وإنما الصواب: تعاشيت. والقول قول أبي الهيثم والأزهري. وكذلك قال جميع أهل المعرفة.

وقرأ السُّلَمِيُّ، وابن أبي إسحاق، ويعقوبُ، وعِصْمة عن عاصم وعن الأعمش: «يقيِّض» بالياء؛ لِذِكر «الرَّحْمَن» أوّلاً؛ أي: يقيِّض له الرحمنُ شيطاناً[٥]. الباقون بالنون.

وعن ابن عباس: «يُقَيَّضْ له شيطانٌ فهو له قرين»[٦] أي: ملازمٌ ومصاحب. قيل: «فَهُوَ» كنايةٌ عن الشيطان؛ على ما تقدَّم. وقيل: عن الإعراض[٧] عن القرآن؛ أي: هو قرينٌ للشيطان.

﴿وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ﴾ أي: وإنَّ الشياطين لَيصدُّونهم عن سبيل الهدى؛ وذُكر بلفظ الجمع؛ لأن «مَن» في قوله: «وَمَنْ يَعْشُ» في معنى الجمع[٨].

---

(١) معاني القرآن له ٣/ ٣٢ ، وقول قتادة أخرجه الطبري ٢٠/ ٥٩٦ . قال الفراء: ومن قرأها: يَعْشَ عن: يريد: يَعْمَ عنه.

(٢) في معاني القرآن ٦/ ٣٥٧ .

(٣) مجاز القرآن لأبي عبيدة، وما بين حاصرتين منه، ونقله عنه ابن الجوزي في زاد المسير ٧/ ٣١٥ ، وذكره البغوي ٤/ ١٣٩ عن أبي عبيدة والأخفش بلفظ: يظلم بصرف بصره عنه.

(٤) في تفسير غريب القرآن ص٣٩٨ . ووقع في (د) و(ز) و(م): العتبي.

(٥) قراءة السلمي والأعمش في القراءات الشاذة ص١٣٥ ، وقراءة يعقوب في النشر ٢/ ٣٦٩ ، ورواية عصمة ـ وهي عن أبي بكر عن عاصم ـ في جامع البيان ٢/ ٤٠١ ، والنشر ٢/ ٣٦٩ ، والقراءات الشاذة ص١٣٥ .

(٦) المحرر الوجيز ٥/ ٥٥ .

(٧) في النسخ الخطية: التعرض.

(٨) ينظر معاني القرآن للفراء ٣/ ٣٢ ، وإعراب القرآن للنحاس ٤/ ١١٠ .

﴿وَيَحْسَبُونَ﴾ أي: ويحسب الكفار ﴿أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾. وقيل: ويَحسبُ الكفار أنَّ الشياطين مهتدون فيطيعونهم.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا﴾ على التوحيد قرأ أبو عمرو وحمزة والكسائيُّ وحفص؛ يعني: الكافر يوم القيامة. الباقون: «جاءانا» على التثنية[١]، يعني: الكافر وقرينه وقد جُعلا في سلسلة واحدة[٢]؛ فيقول الكافر: «يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ المَشْرِقَيْنِ» أي: مشرق الشتاء ومشرقُ الصيف[٣]، كما قال تعالى: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ﴾ [الرحمن: ١٧] ونحوُه قولُ مقاتل[٤].

وقراءة التوحيد وإن كان ظاهرُها الإفراد، فالمعنى لهما جميعاً؛ لأنه قد عرَّف ذلك بما بعده؛ كما قال:

وعَيْنٌ لها حَدْرَةٌ بَدْرَةٌ   شُقَّت مآقيهما من أُخُرْ[٥]

قال مقاتل: يتمنَّى الكافرُ أنَّ بينهما بُعْدَ مشرِق أطولِ يومٍ في السنة إلى مَشْرِق أقصرِ يومٍ في السنة، ولذلك قال: «بُعْدَ المَشْرِقَيْنِ»[٦].

وقال الفراء[٧]: أراد المشرقَ والمغرب، فغلَّب اسمَ أحدهما، كما يقال: القمران: للشمس والقمر، والعُمَران: لأبي بكر وعمر، والبصرتان: للكوفة والبصرة، والعصران: للغَدَاة والعصر. وقال الشاعر:

أخذنا بآفاق السماءِ عليكُمُ   لنا قمراها والنجوم الطوالعُ[٨]

(١) السبعة ص٥٨٦، والتيسير ص١٩٦.
(٢) الوسيط للواحدي ٤/ ٧٣، وتفسير البغوي ٤/ ١٣٩.
(٣) معاني القرآن للفراء ٣/ ٣٣، وتفسير الطبري ٢٠/ ٥٩٨.
(٤) سيأتي قوله.
(٥) البيت لامرئ القيس، وهو في ديوانه ص١٦٦، وسلف ١٦/ ٢٦.
(٦) ذكر قوله بنحوه ابن الجوزي في زاد المسير ٧/ ٣١٦.
(٧) في معاني القرآن ٣/ ٣٣.
(٨) سلف عند تفسير الآية (٥٢) من سورة فصلت.

وأنشد أبو عبيدة لجرير:

ما كان يرضى رسولُ الله فعلَهُمُ والعُمَران[١] أبو بكر ولا عُمرُ

وأنشد سيبويه:

قَدْنِيَ مِن نَصْرِ الخُبَيْبَيْنِ قَدِي

يريد عبدَ الله ومصعباً ابنَي الزبير، وإنما أبو خبيب عبدُ الله[٢].

﴿فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ﴾ أي: فبئس الصاحبُ أنت؛ لأنه يورده إلى النار. قال أبو سعيد الخُدريّ: إذا بُعث الكافرُ، زُوِّج بقرينه من الشياطين، فلا يفارقُه حتى يصيِّرَه إلى النار[٣].

قوله تعالى: ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ﴾ «إذْ» بَدَلٌ من اليوم؛ أي: يقول الله للكافرين[٤]: لن ينفعَكم اليوم إذ أشركتم في الدنيا هذا الكلامُ؛ وهو قولُ الكافر: «يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ المَشْرِقَيْنِ» أي: لا تنفع الندامة اليوم.

﴿إِنَّكُمْ﴾ بالكسر ﴿فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ وهي قراءة ابنِ عامر باختلاف عنه. الباقون بالفتح[٥]. وهي في موضعِ رفع، تقديره: ولن ينفعكم اليوم اشتراكُكم في العذاب[٦]؛ لأنَّ لكل واحدٍ نصيبَه الأوفرَ منه. أَعْلَمَ اللهُ تعالى أنه مَنَعَ أهلَ النار التأسِّيَ كما يتأسَّى أهلُ المصائب في الدنيا، وذلك أنَّ التأسِّيَ يستروِحه أهلُ الدنيا، فيقول أحدهم: لي

---

(١) في (د) و(ز) و(ظ): والطيبان، وسلف بهذا اللفظ عند تفسير الآية (٣٤) من سورة فصلت.

(٢) معاني القرآن للنحاس ٦/ ٣٦١. وسلف الرجز عند تفسير الآية (١٣٠) من سورة الصافات.

(٣) تفسير البغوي ٤/ ١٣٩.

(٤) في النسخ عدا (ظ): للكافر.

(٥) السبعة ص٥٨٦. وقراءة ابن عامر المذكورة هي من رواية التغلبي عنه، كما ذكر أبو عمرو الداني في جامع البيان ٢/ ٤٠١.

(٦) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ١١١.

في البلاء والمصيبة أُسوة؛ فيُسكن ذلك مِن حزنه؛ كما قالت الخنساء:

فلولا كثرةُ الباكين حولي ... على إخوانهم لقتلت نفسي
وما يبكون مثلَ أخي ولكن ... أُعزِّي النفسَ عنه بالتأسِّي[١]

فإذا كان في الآخرة، لم ينفعهم التأسِّي شيئاً؛ لِشغلهم بالعذاب.

وقال مقاتل: لن ينفعَكم الاعتذارُ والندم اليوم؛ لأن قُرَناءكم وأنتم في العذابِ مشترِكون كما اشتركتم في الكفر[٢].

قوله تعالى: ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ﴾ يا محمد ﴿وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ أي: ليس لك ذلك؛ فلا يضيقُ صدرُك إن كفروا؛ ففيه تسليةٌ للنبيِّ ﷺ. وفيه ردٌّ على القَدَرية وغيرِهم، وأنَّ الهدى والرُّشدَ والخِذلان في القلب خَلْقُ الله تعالى، يُضِلُّ من يشاء ويهدي من يشاء.

قوله تعالى: ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَٰهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ﴾ يريد: نخرجنَّك من مكةَ من أذى قريش[٣]. ﴿فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ . أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَٰهُمْ﴾ وهو الانتقامُ منهم في حياتك. ﴿فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ﴾ قال ابن عباس: قد أراه اللهُ ذلك يومَ بدر[٤]؛ وهو قولُ أكثرِ المفسرين[٥].

(١) ديوانها ص٨٤-٨٥.

(٢) تفسير البغوي ٤/ ١٤٠.

(٣) النكت والعيون ٥/ ٢٢٧.

(٤) زاد المسير ٧/ ٣١٧.

(٥) تفسير البغوي ٤/ ١٤٠.

وقال الحسن وقتادة: هي في أهل الإسلام؛ يريد ما كان بعد النبيِّ ﷺ مِن الفتن. و«نَذْهَبَنَّ بِكَ» على هذا: نتوفَّينَّك. وقد كان بعد النبيِّ ﷺ نِقمةٌ شديدةٌ، فأكرم الله نبيَّه ﷺ وذهب به، فلم يُرِه في أُمته إلَّا الذي(١) تَقَرُّ به عينُه، وأبقى النِّقمةَ بعده، وليس مِن نبيٍّ إلَّا وقد أُرِي النقمةَ في أمته(٢). ورُويَ أن النبيَّ ﷺ أُرِي ما لَقِيَت أُمَّتُه مِن بعده، فما زال منقبضاً، ما انبسط ضاحكاً حتى لقيَ اللهَ عزَّ وجلَّ(٣). وعن ابن مسعود: أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «إذا أراد اللهُ بأُمَّة خيراً، قَبض نبيَّها قبلها، فجعله لها فَرَطاً وسَلَفاً. وإذا أراد بأمة عذاباً، عذَّبها ونبيُّها حيٌّ؛ لتَقَرَّ عينُه لمَّا كذَّبوه وعصَوا أمرَه»(٤).

قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ﴾ يريد: القرآن، وإنْ كذَّب به مَن كذَّب؛ فَـ ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ يوصلك إلى الله ورضاه وثوابه.

﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ يعني: القرآنُ شرفٌ لك ولقومك من قريش(٥)؛ إذ نزل بلغتهم وعلى رجل منهم، نظيرُه: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ [الأنبياء: ١٠] أي: شَرَفُكم. فالقرآن نزل بلسان قريشٍ وإياهم خاطَب؛ فاحتاج أهلُ اللغات كلِّها إلى لسانهم، كلُّ مَن آمن بذلك، فصاروا عِيالاً عليهم؛ لأن أهل كلِّ لغةٍ احتاجوا إلى أنْ يأخذوه من لغتهم، حتى يقفوا على المعنى الذي عني به، من الأمر والنهيِ وجميعِ ما

(١) في النسخ عدا (ظ): التي.

(٢) أخرجه الطبري ٢٠/ ٦٠٠ عن الحسن وقتادة بنحوه.

(٣) هو بعض أثر قتادة السالف.

(٤) لم نقف عليه من حديث ابن مسعود ﷺ. وأخرجه ابن حبان (٦٦٤٧) من حديث أبي موسى ﷺ. وأورده مسلم (٢٢٨٨) وقال فيه: حُدِّثت عن أبي أسامة.

(٥) النكت والعيون ٥/ ٢٢٧ عن ابن عباس رضي الله عنهما. وأخرجه عنه الطبري ٢٠/ ٦٠٣، والطبراني في الكبير (١٣٠٣٠).

فيه من الأنباء، فشَرُفُوا بذلك على سائر أهل اللغات؛ ولذلك سُمِّي عربيًّا.

وقيل: بيانٌ لك ولأُمتك فيما بكم إليه حاجة.

وقيل: تذكرةٌ تذكُرون به أمرَ الدِّينِ وتعملون به[١].

وقيل: «وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ» يعني الخلافة؛ فإنها في قريش لا تكون في غيرهم؛ قال النبيُّ ﷺ: «الناس تَبَعٌ لقريش في هذا الشأن، مُسْلمُهم تَبَعٌ لمسلمهم، وكافرُهم تبع لكافرهم»[٢].

وقال مالك: هو قول الرجل: حدَّثني أبي عن أبيه، حكاه ابن أبي سلمة عن أبيه، عن مالك بن أنس، فيما ذكر الماورديُّ[٣] والثعلبيُّ وغيرهما.

قال ابن العربي[٤]: ولم أجد في الإسلام هذه الرتبة[٥] لأحد إلا ببَغْداد، فإنَّ بني التميميِّ بها يقولون: حدَّثني أبي قال: حدَّثني أبي، إلى رسول الله ﷺ؛ وبذلك شَرُفت أَقدارُهم، وعظَّم الناسُ شأنهم، وتهمَّمت الخلافة بهم. ورأيتُ بمدينة السلامِ ابنَي أبي محمدٍ رِزقِ الله بنِ عبد الوهَّاب أبي الفرج بنِ عبد العزيز بن الحارث بن أسد بن الليث بن سليمان بن أسود بن سفيان بن يزيد بن أُكَيْنة بنِ عبد الله التميميِّ، وكانا يقولان: سمعنا أبانا رزقَ الله يقول: سمعت أبي يقول: سمعت أبي يقول: سمعت أبي يقول: سمعت أبي يقول: سمعت أبي يقول[٦]: سمعت عليَّ بن أبي طالب ﷺ يقول ـ وقد سئل عن الحنَّان المَنَّان ـ فقال: الحنَّان الذي يُقبل على مَن أعرض عنه،

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٢٢٧ عن ابن عيسى.

(٢) أخرجه أحمد (٧٣٠٦)، والبخاري (٣٤٩٥)، ومسلم (١٨١٨) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٣) النكت والعيون ٥/ ٢٢٧.

(٤) في أحكام القرآن ٤/ ١٦٧١.

(٥) في أحكام القرآن: المرتبة.

(٦) عبارة: سمعت أبي؛ وردت في (ز) و(ق) سبع مرات، وفي (ظ) ثماني مرات، وفي أحكام القرآن ثلاث مرات. وقد أخرجه الخطيب في تاريخه ١١/ ٣٢ عن عبد الوهاب بن عبد العزيز، بهذا الإسناد.

والمنَّان الذي يبدأ بالنوال قبل السؤال[١]. والقائل سمعتُ عليًّا: أُكَيْنة بنُ عبد الله جَدُّهم الأعلى. والأقوى أن يكون المرادُ بقوله: «وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ» يعني القرآن؛ فعليه انبنى الكلام، وإليه يرجع المصير، والله أعلم.

قال الماورديّ: «وَلِقَوْمِكَ» فيه[٢] قولان: أحدهما: مَن اتَّبعك مِن أمتك؛ قاله قتادة، وذكره الثعلبيُّ[٣] عن الحسن. الثاني: لقومك من قريش؛ فيقال: ممن هذا؟ فيقال: من العرب، فيقال: من أيِّ العرب؟ فيقال: من قريش؛ قاله مجاهد[٤].

قلت: والصحيح أنه شرفٌ لمن عَمِلَ به، كان من قريش أو من غيرهم. رويَ عن ابن عباس قال: أَقبَل نبيُّ الله ﷺ من سَرِيَّة أو غَزَاة، فدعا فاطمةَ فقال: «يا فاطمة، اشتري نفسَك من الله، فإني لا أُغْني عنكِ من الله شيئاً». وقال مثلَ ذلك لنِسْوَته، وقال مثلَ ذلك لِعترته، ثم قال نبيُّ الله ﷺ: «ما بنو هاشم بأَولى الناس بأمتي، إنَّ أولى الناس بأمتي المتقون، ولا قريشٌ بأولى الناس بأمتي، إنَّ أولى الناس بأمتي المتقون، ولا الأنصارُ بأولى الناس بأمتي، إن أولى الناس بأمتي المتقون، ولا الموالي بأولى الناس بأمتي، إن أولى الناس بأمتي المتقون. إنما أنتم من رجل وامرأة، وأنتم كجِمَام[٥] الصاع، ليس لأحد على أحد فضلٌ إلّا بالتقوى»[٦].

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لَينتهينَّ أقوامٌ يفتخرون بفحم من فحم جهنم أو يكونوا[٧] شرًّا عند الله من الجِعلان التي تدفع النَّتْن بأنفها، كلُّكم بنو آدم

(١) أورده الذهبي في الميزان ٢/ ٦٢٥ - ٦٢٦ في ترجمة عبد العزيز بن الحارث وقال: آذى نفسه ووضع حديثاً أو حديثين في مسند الإمام أحمد. وقال: وأكثر أجداده لا ذكر لهم لا في تاريخ ولا في أسماء رجال.

(٢) في النسخ: فيهم، والمثبت من النكت والعيون ٥/ ٢٢٧ للماوردي.

(٣) وابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٥٧ .

(٤) أخرجه عنه الطبري ٢٠/ ٦٠٣ .

(٥) الجمام: الكيل إلى رأس المكيال. القاموس (جمم).

(٦) لم نقف عليه. وقد سلف بمعناه ١٦/ ٨٣ من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٧) في (م): يكونون، وفي مصادر التخريج: ليكونن.

وآدم من تراب، إن الله أذهب عنكم عُبِّيَّةَ[١] الجاهلية وفخرها بالآباء. مؤمن تقيٌّ وفاجر شقي»[٢]. خرَّجهما الطبري[٣]. وسيأتي لهذا مزيدُ بيانٍ في «الحجرات» إن شاء اللهُ تعالى[٤].

﴿وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ﴾ أي: عن الشكر عليه؛ قاله مقاتلٌ والفرَّاء[٥]. وقال ابن جُريج: أي: تُسألون أنت ومَن معك على ما آتاك[٦]. وقيل: تسألون عما عملتم فيه[٧]؛ والمعنى متقارب.

قوله تعالى: ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾﴾

قال ابن عباس وابنُ زيد: لـمَّا أُسريَ برسول الله ﷺ من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ـ وهو مسجدُ بيتِ المقدس ـ بعث الله له آدمَ ومَن وُلد من المرسلين، وجبريلُ مع النبيِّ ﷺ؛ فأذَّن جبريل ﷺ ثم أقام الصلاة، ثم قال: يا محمد، تقدَّم فصلِّ بهم؛ فلما فرغ رسولُ الله ﷺ، قال له جبريل ﷺ: «سَلْ يا محمدُ مَن أرسلنا مِن قبلك مِن رسلنا: أَجعلنا مِن دون الرحمنِ آلهةً يُعبدون». فقال رسول الله ﷺ: «لا أسأل؛ قد اكتفيت»[٨]. قال ابن عباس: وكانوا سبعين نبيًّا، منهم إبراهيمُ وموسى وعيسى عليهم السلام؛ فلم يسألهم لأنه كان أعلمَ بالله منهم[٩].

---

(١) العبيَّة: الكِبْر. النهاية (عبب).
(٢) أخرجه أحمد (٨٧٣٦)، وأبو داود (٥١١٦)، والترمذي (٣٩٥٥) وقال: حديث حسن غريب.
(٣) لم نقف عليهما عنده.
(٤) عند تفسير الآية (١٣) منها.
(٥) في معاني القرآن ٣/ ٣٤، وقول مقاتل في النكت والعيون ٥/ ٢٢٧.
(٦) النكت والعيون ٥/ ٢٢٧.
(٧) تفسير الرازي ٢٧/ ٢١٥.
(٨) ذكره عنهما الواحدي في الوسيط ٤/ ٧٥، والبغوي في تفسيره ٤/ ١٤١، وأخرجه الطبري ٢٠/ ٦٠٥ عن ابن زيد.
(٩) النكت والعيون ٥/ ٢٢٨.

في غير رواية ابنِ عباس: فصلَّوا خلف رسول الله ﷺ سبعةَ صفوف، المرسلون ثلاثةُ صفوف، والنبيون أربعة؛ وكان يلي ظهرَ رسول الله ﷺ إبراهيمُ خليل الله، وعلى يمينه إسماعيل، وعلى يساره إسحاق، ثم موسى، ثم سائر المرسلين، فأَمَّهم ركعتين؛ فلمَّا انفتل قام فقال: «إنَّ ربي أوحى إليَّ أنْ أسألَكم: هل أُرسل أحدٌ منكم يدعو إلى عبادةِ غير الله تعالى؟» فقالوا: يا محمد، إنا نشهد أنَّا أُرسلنا أجمعين بدعوة واحدة: أنْ لا إله إلا الله، وأنَّ ما يعبدون من دونه باطل، وأنك خاتمُ النبيين وسيد المرسلين، قد استبان ذلك لنا بإمامتك إيَّانا، وأنْ لا نبيَّ بعدك إلى يوم القيامة، إلا عيسى ابنَ مريم فإنه مأمورٌ أن يتَّبعَ أَثرك».

وقال سعيد بن جبير في قوله تعالى: «وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا» قال: لقيَ الرُّسلَ ليلةَ أُسري به[1].

وقال الوليد بن مسلم في قوله تعالى: ﴿وَسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ﴾ قال: سألتُ عن ذلك خُلَيد بنَ دَعْلَج[2]، فحدَّثني عن قتادة قال: سألهم ليلةَ أُسري به، لقي الأنبياءَ، ولقي آدم ومالك خازنَ النار.

قلت: هذا هو الصحيح في تفسير هذه الآية. و«مِنْ» التي قبل «رُسُلِنَا» على هذا القولِ غيرُ زائدة.

وقال المبرِّد وجماعةٌ من العلماء: إنَّ المعنى: واسأل أممَ مَن قد أرسلنا من قبلك مِن رسلنا. وروي أنَّ في قراءة ابنِ مسعود: «وَاسْأَلْ الذين[3] أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ رُسُلنا»[4]. وهذه قراءةٌ مفسِّرة؛ فـ«مِن» على هذا زائدة، وهو قول مجاهدٍ والسُّدِّيِّ

---

(١) أورده السيوطي في الدر المنثور ٦/ ١٩ ، ونسبه لسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر.

(٢) أبو حَلْبَس، ويقال: أبو عبيد، وأبو عمرو، وأبو عمر، السَّدوسي. محدث بصري ضعيف، نزل الموصل ثم سكن بيت المقدس. مات بحران سنة ١٦٦هـ. السير ٧/ ١٩٥ .

(٣) في النسخ عدا (ف): الذي، وهو خطأ.

(٤) أخرج القراءة الطبري ٢٠/ ٦٠٤ ، وذكرها البغوي في تفسيره ٤/ ١٤١ ، وابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٥٧ .

والضحاك وقتادة وعطاء والحسن، وابنِ عباس أيضاً. أي: واسأل مؤمني أهلِ الكتابين: التوراة والإنجيل[١].

وقيل: المعنى: سلنا يا محمد عن الأنبياء الذين أرسلنا قبلك[٢]؛ فحذفت «عن»، والوقف على «رُسُلِنَا» على هذا تامّ، ثم ابتدأ بالاستفهام على طريق الإنكار. وقيل: المعنى: واسأل تُبَّاعَ مَن أرسلنا مِن قبلك مِن رسلنا، فحذف المضاف. والخطابُ للنبيِّ ﷺ، والمرادُ أمّتُه[٣].

﴿أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ أخبر عن الآلهة كما أخبر عمن يعقل فقال: «يُعْبَدُونَ» ولم يقل: تُعبد، ولا يُعبدن، لأنَّ الآلهة جرت عندهم مَجرى مَن يعقل، فأجرى الخبرَ عنهم مُجرى الخبرِ عمن يعقل[٤].

وسبب هذا الأمرِ بالسؤال أنَّ اليهود والمشركين قالوا للنبيِّ ﷺ: إنَّ ما جئت به مخالفٌ لمن كان قبلك؛ فأمره الله بسؤاله الأنبياءَ على جهة التوقيف والتقرير؛ لا لأنه كان في شكٍّ منه[٥].

واختلف أهل التأويل في سؤال النبيِّ ﷺ لهم على قولين: أحدهما: أنه سألهم، فقالت الرسل: بُعثنا بالتوحيد؛ قاله الواقدي. الثاني: أنه لم يسألهم؛ ليقينه بالله عزَّ وجلَّ؛ حتى حكى ابنُ زيد أنَّ ميكائيل قال لجبريل: «هل سألك محمدٌ عن ذلك؟ فقال جبريل: هو أشدُّ إيماناً وأعظم يقيناً من أن يسألَ عن ذلك»[٦]. وقد تقدَّم هذا المعنى في الروايتين حسبما ذكرناه.

---

(١) أخرجه الطبري ٢٠/ ٦٠٤ - ٦٠٥ عن مجاهد والسدي والضحاك وقتادة. وينظر النكت والعيون ٥/ ٢٢٨ ، وتفسير البغوي ٤/ ١٤١ ، والمحرر الوجيز ٥/ ٥٧ .

(٢) ذكر هذا المعنى ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٥٧ .

(٣) ينظر معاني القرآن للزجاج ٤/ ٤١٤ .

(٤) الكلام بنحوه في معاني القرآن للفراء ٣/ ٣٤ ، وتفسير الطبري ٢٠/ ٦٠٧ ، والمحرر الوجيز ٥/ ٥٧ .

(٥) النكت والعيون ٥/ ٢٢٨ .

(٦) المصدر السابق.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَـٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ۖ وَأَخَذْنَـٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ وَقَالُوا۟ يَـٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿٥٠﴾ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَـٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَـٰذِهِ ٱلْأَنْهَـٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَـٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَآ﴾ لمَّا أَعلم النبيَّ ﷺ أنه منتقمٌ له مِن عدوِّه، وأقامَ الحجَّةَ باستشهاد الأنبياء واتفاقِ الكلِّ على التوحيد، أكَّد ذلك بقصة موسى وفرعون، وما كان مِن فرعون من التكذيب، وما نزل به وبقومه من الإغراق والتكذيب، أي: أرسلنا موسى بالمعجزات، وهي التسع الآيات، فَكُذِّب؛ فجُعلت العاقبةُ الجميلة له، فكذلك أنت. ومعنى: ﴿يَضْحَكُونَ﴾ استهزاء وسخرية؛ يوهمون أتباعهم أنَّ تلك الآياتِ سحرٌ وتخييل، وأنهم قادرون عليها.

وقوله: ﴿وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ۖ﴾ أي: كانت آيات موسى من كبار الآيات، وكانت كلُّ واحدةٍ أعظمَ مما قبلها. وقيل: «إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا» لأن الأُولى تقتضي علماً، والثانيةَ تقتضي علماً، فتُضَمُّ الثانيةُ إلى الأولى فيزداد الوضوح، ومعنى الأُخوَّة: المشاكلة والمناسبة؛ كما يقال: هذه صاحبة هذه، أي: هما قريبتان في المعنى.

﴿وَأَخَذْنَـٰهُم بِٱلْعَذَابِ﴾ أي: على تكذيبهم بتلك الآيات، وهو كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ [الأعراف: ١٣٠]؛ والطوفان والجراد والقُمَّل والضفادع. وكانت هذه الآيات الأخيرة عذاباً لهم وآياتٍ لموسى. ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ من كفرهم.

﴿وَقَالُوا۟ يَـٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ﴾ لمَّا عاينوا العذاب قالوا: يا أيها الساحر؛ نَادَوه بما كانوا

ينادونه به من قبل ذلك على حسب عادتهم[(١)]. وقيل: كانوا يسمُّون العلماءَ سَحَرة، فنادَوه بذلك على سبيل التعظيم. قال ابن عباس: «يا أيُّها السَّاحِر»: يا أيها العالم، وكان الساحر فيهم عظيماً[(٢)] يُوقِّرونه؛ ولم يكن السحر صفةَ ذمّ. وقيل: يا أيها الذي غَلَبنا بسحره[(٣)]؛ يقال: ساحرتُه فسحرته، أي: غلبته بالسحر؛ كقول العرب: خاصمته فخصمته، أي: غلبته بالخصومة، وفاضلته ففضلته، ونحوِها. ويحتمل أن يكون أرادوا به الساحرَ على الحقيقة على معنى الاستفهام، فلم يَلُمْهم على ذلك رجاءَ أن يؤمنوا.

وقرأ ابن عامر وأبو حَيْوَة ويحيى بنُ وَثَّاب: «أيُّهُ الساحر» بغير ألفٍ، والهاءُ مضمومة[(٤)]، وعِلَّتها أنَّ الهاء خُلطت بما قبلها، وأُلزمت ضمَّ الياء الذي أوجبه النداءُ المفرَد. وأنشد الفرَّاء:

يـا أيُّـهُ الـقـلـبُ الـلَّـجُـوجُ الـنَّـفْـسِ أَفـقْ عن الـبِـيض الحِـسَـانِ الـلُّـعْـسِ[(٥)]

فضمَّ الهاءَ حملاً على ضم الياء؛ وقد مضى في «النور» معنى هذا[(٦)].

ووقف أبو عمرو وابنُ أبي إسحاق ويحيى والكسائي: «أيها» بالألف على الأصل. الباقون بغير ألف[(٧)]؛ لأنها كذلك وقعت في المصحف.

﴿ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ﴾ أي: بما أخبرنا عن عهده إليك إنْ آمنا كشف عنا؛ فسله يكشفْ عنا[(٨)] ﴿إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ﴾ أي: فيما يستقبل. ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ

(١) الكلام بنحوه في معاني القرآن للزجاج ٤/ ٤١٤، والمحرر الوجيز ٥/ ٥٨.

(٢) ذكر قوله ابن الجوزي في زاد المسير ٧/ ٣٢٠، وينظر تفسير الطبري ٢٠/ ٦٠٩، والنكت والعيون ٥/ ٢٢٩، والوسيط للواحدي ٤/ ٧٦، وتفسير البغوي ٤/ ١٤١.

(٣) تفسير البغوي ٤/ ١٤١.

(٤) قراءة ابن عامر في السبعة ص٥٨٦، والتيسير ص١٦١ - ١٦٢.

(٥) سلف ١٥/ ٢٢٨.

(٦) ١٥/ ٢٢٨. وسلف الشعر والكلام عليه ثمة.

(٧) السبعة ص٥٨٧، والتيسير ص٦١ و ١٦٢.

(٨) تفسير البغوي ٤/ ١٤١.

﴿ٱلْعَذَابَ﴾أي: فدعا فكشفنا. ﴿إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾ أي: يَنقضُون العهدَ الذي جعلوه على أنفسهم فلم يؤمنوا. وقيل: قولهم: «إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ» إخبارٌ منهم عن أنفسهم بالإيمان؛ فلما كشف عنهم العذابَ ارتدُّوا.

قوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِۦ﴾ قيل: لمَّا رأى تلك الآيات، خاف مَيلَ القوم إليه، فجمع قومه فقال. فنادى بمعنى: قال؛ قاله أبو مالك[١]. فيجوز أن يكون عنده عظماءُ القِبط، فرفع صوته بذلك فيما بينهم، ثم يُنشر عنه في جموع القبط؛ وكأنه نودي به بينهم. وقيل: إنه أمر مَن ينادي في قومه؛ قاله ابن جريج[٢]. ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ﴾ أي: لا ينازعني فيه أحد. قيل: إنه مَلَكَ منها أربعين فرسخاً في مثلها؛ حكاه النقَّاش. وقيل: أراد بالمُلك هنا الإسكندرية[٣].

﴿وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِي مِن تَحْتِيٓ﴾ يعني: أنهار النيل، ومعظمُها أربعة: نهر الملِك، ونهر طولون، ونهر دِمياط، ونهر تِنِّيس[٤]. قال قتادة: كانت جِنَاناً وأنهاراً تجري من تحت قصوره. وقيل: من تحت سريره[٥]. وقيل: «مِنْ تَحْتِي» أي: تصرُّفي نافذٌ فيها من غير صانع[٦]. وقيل: كان إذا أمسك عِنَانه، أمسك النيلُ عن الجَرْي. قال القشيريّ: ويجوز ظهورُ خوارقِ العادة على مدَّعي الرُّبُوبية؛ إذ لا حاجة في تمييز الإله من غير الإله إلى فعلِ خارق للعادة. وقيل: معنى «وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي» أي: القوَّاد والرؤساء والجبابرة يسيرون تحت لوائي؛ قاله الضحاك. وقيل: أراد بالأنهار الأموال، وعبَّر عنها بالأنهار لكثرتها وظهورها. وقوله: «تَجْرِي مِنْ تَحْتِي»

(١) النكت والعيون ٥/ ٢٢٩ .

(٢) المصدر السابق، وينظر الكشاف ٣/ ٤٩٢ ، والمحرر الوجيز ٥/ ٥٩ .

(٣) النكت والعيون ٥/ ٢٢٩ ، والقول الثاني حكاه عن مجاهد.

(٤) الكشاف ٣/ ٤٩٢ .

(٥) النكت والعيون ٥/ ٢٣٠ ، وقول قتادة أخرجه الطبري ٢٠/ ٦١٠ .

(٦) ذكره بمعناه الواحدي في الوسيط ٤/ ٧٦ ، والبغوي في تفسيره ٤/ ١٤٢ ونسباه للحسن.

أي: أفرِّقها على مَن يتبعني؛ لأن الترغيب والقدرة في الأموال دون الأنهار(١).

﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ عظمتي وقوَّتي وضَعْفَ موسى. وقيل: قدرتي على نفقتكم(٢) وعجزَ موسى. والواو في «وَهَٰذِهِ» يجوز أن تكونَ عاطفةً للأنهار على «مُلْكُ مِصْرَ» و«تَجْرِي» نصب على الحال منها. ويجوز أن تكون واوَ الحال، واسمُ الإشارة مبتدأ، و«الْأَنْهَارُ» صفة لاسم الإشارة، و«تَجْرِي» خبر للمبتدأ(٣).

وفَتَحَ الياءَ مِن «تَحْتِيَ» أهلُ المدينة والبَزِّيُّ وأبو عمرو، وأسكن الباقون(٤).

وعن الرشيد أنه لمَّا قرأها قال: لأُوَلِّيَنَّها أخسَّ(٥) عبيدي، فولَّاها الخصيب، وكان على وضوئه. وعن عبد الله بنِ طاهر أنه وَلِيَها فخرج إليها، فلمَّا شارفها ووقع عليها بصره، قال: أهذه القريةُ التي افتخر بها فرعونُ حتى قال: «أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ»؟! واللهِ لَهي عندي أقلُّ مِن أنْ أَدخلَها! فثنى عِنانه(٦).

ثم صرَّح بحاله فقال: «أَمْ أَنَا خَيْرٌ» قال أبو عبيدة والسُّدِّي: «أَمْ» بمعنى «بل»(٧). وليست بحرف عطف؛ على قول أكثرِ المفسرين(٨). والمعنى: قال فرعون لقومه: بل أنا خيرٌ «مِنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ» أي: لا عِزَّ له؛ فهو يمتهن نفسَه في حاجاته لحقارته وضعفه ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ يعني ما كان في لسانه من العُقدة؛ على ما تقدَّم في «طه»(٩).

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٢٣٠، وكلام الضحاك منه.

(٢) في النكت والعيون: نفعكم.

(٣) الكشاف ٣/ ٤٩٢، وينظر إعراب القرآن للنحاس ٤/ ١١٣.

(٤) السبعة ص٥٩٠، والتيسير ص١٩٧، والنشر ٢/ ٣٧٠.

(٥) في (م): أحسن، وهو خطأ.

(٦) الكشاف ٣/ ٤٩٢.

(٧) النكت والعيون ٥/ ٢٣٠، ومجاز القرآن لأبي عبيدة ٢/ ٢٠٤، وأخرج الطبري ٢٠/ ٦٦١-٦٦٢ قول السدي.

(٨) تفسير البغوي ٤/ ١٤٢.

(٩) ١٤/ ٥١. ونقلنا ثمة عن ابن كثير قوله: إن اتهام فرعون لموسى بأنه لا يكاد يبين، إنما هو افتراء من =

وقال الفراء[١]: في «أَمْ» وجهان: إن شئتَ جعلتَها من الاستفهام الذي جُعل بـ «أَم» لاتصاله بكلامٍ قبله، وإن شئتَ جعلتَها نَسَقاً على قوله: «أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ».

وقيل: هي زائدة. وروى أبو زيد عن العرب أنهم يجعلون «أَمْ» زائدة؛ والمعنى: أنا خير من هذا الذي هو مهين[٢]. وقال الأخفش: في الكلام حذف، والمعنى: أفلا تبصرون أم تبصرون؛ كما قال:

أيا ظَبْيَةَ الوَعْساءِ بين جُلاجِلٍ ... وبين النَّقا آأنتِ أمْ أمُّ سالِمِ[٣]

أي: أنتِ أحسن أَم أُمُّ سالم؟

ثم ابتدأ فقال: «أَنَا خَيْرٌ».

وقال الخليل وسيبويه: المعنى: «أَفَلَا تُبْصِرُونَ»، أم أنتم بُصَراء؟ فعطف بـ «أم» على «أَفَلَا تُبْصِرُونَ»؛ لأن معنى «أَمْ أَنَا خَيْرٌ» أي: أم تُبصرون؛ وذلك أنهم إذا قالوا له: أنت خيرٌ منه، كانوا عنده بُصراء[٤].

وروي عن عيسى الثَّقفِيِّ ويعقوبَ الحضرميِّ أنهما وقفا على «أم» على أن يكون التقدير: أفلا تبصرون أم تبصرون؛ فحذف «تبصرون» الثاني. وقيل: مَن وقف على «أم» جعلها زائدة، وكأنه وقف على «تُبْصِرُونَ» مِن قوله: «أَفَلَا تُبْصِرُونَ». ولا يَتمُّ الكلام على «تُبْصِرُونَ» عند الخليل وسيبويه؛ لأنَّ «أم» تقتضي الاتصالَ بما قبلها. وقال قوم: الوقف على قوله: «أَفَلَا تُبْصِرُونَ» ثم ابتدأ «أَمْ أَنَا خَيْرٌ» بمعنى: بل أنا؛

= فرعون، حمله على هذا الكفرُ والعِناد، وليس عدم الإفصاح من موسى بسبب لثغته بالجمرة؛ لأن موسى عليه السلام سأل الله عزَّ وجلَّ أن يَحُلَّ عقدة من لسانه ليفقهوا قوله، وقد استجاب الله تبارك وتعالى له في ذلك في قوله: ﴿قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ [طه: ٣٦].

(١) في معاني القرآن ٣/ ٣٥.

(٢) قال ابن الأنباري في البيان ٢/ ٣٥٤: وزعم أبو زيد أن «أم» زائدة، وليس بشيء. اهـ. ونحوه في أمالي ابن الشجري ٣/ ١٠٩ - ١١٠.

(٣) البيت لذي الرُّمة، وسلف ١/ ٢٨٢.

(٤) كلام سيبويه في الكتاب ٣/ ١٧٣، وينظر معاني القرآن للزجاج ٤/ ٤١٥، وأمالي ابن الشجري ٣/ ١١٠.

وأنشد الفرَّاء[١]:

بدت مِثْلَ قَرْن الشمسِ في رَوْنَقِ الضُّحى وصورتِها أم أنتِ في العين أمْلَحُ

فمعناه: بل أنتِ أملح.

وذكر الفرَّاء[٢] أنَّ بعض القراء قرأ: «أَمَا أَنَا خَيْرٌ»؛ ومعنى هذا: ألستُ خيراً.

وروي عن مجاهدٍ أنه وقف على «أم»، ثم يبتدئ «أنا خَيْرٌ»[٣]. وقد ذُكر.

قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَآ﴾ أي: هلَّا ﴿أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ﴾ إنما قال ذلك؛ لأنه كان عادةَ الوقت وزِيَّ أهلِ الشرف[٤].

وقرأ حفص: «أَسْوِرَةٌ»[٥] جمع سِوار، كخِمار وأخمرة.

وقرأ أُبَيّ: «أَساوِر» جمع إسوار. وابن مسعود: «أَساوير»[٦]. الباقون: «أَسَاوِرَة» جمع الأَسْوِرة؛ فهو جمع الجمع. ويجوز أن يكون «أَسَاوِرة» جمعَ «إِسْوَار»، وأُلحقت الهاءُ في الجمع عوضاً من الياء؛ فهو مِثل: زناديق وزنادقة، وبطاريق وبطارقة، وشِبهِه. وقال أبو عمرو بنُ العَلَاء: واحد الأَساورةِ والأَساور والأَساوير إسوار[٧]، وهي لغةٌ في سِوَار.

---

(١) في معاني القرآن ١/ ٧٢ . وسلف البيت ٢/ ٢٠٥ .

(٢) في معاني القرآن ٣/ ٣٥ .

(٣) المحرر الوجيز ٥/ ٥٩ .

(٤) النكت والعيون ٥/ ٢٣٠ .

(٥) السبعة ص٥٨٧ ، والتيسير ص١٩٧ .

(٦) المحرر الوجيز ٥/ ٥٩ . وقراءة «أساور» نسبها في القراءات الشاذة ص١٣٥ للأعمش. وقراءة «أساوير» نسبها لأُبي أو عبد الله. وينظر تفسير الطبري ٢٠/ ٦١٥ ، وإعراب القرآن للنحاس ٤/ ١١٤ .

(٧) ذكره عنه بنحوه الطبري في تفسيره ٢٠/ ٦١٥ ، والجوهري في الصحاح (سور).

قال مجاهد: كانوا إذا سوَّدوا[١] رجلاً، سوَّروه بسوارَين، وطوَّقوه بطوقِ ذهب؛ علامةً لسيادته، فقال فرعون: هلَّا أَلقى ربُّ موسى عليه أساورةً من ذهب إن كان صادقاً! ﴿أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾ يعني: متتابعين؛ في قول قتادة. مجاهد: يمشون معًا[٢]. ابن عباس: يعاونونه على مَن خالفه؛ والمعنى: هلَّا ضمَّ إليه الملائكة التي يزعُم أنها عند ربه حتى يتكثَّرَ بهم ويَصرِفَهم على أمره ونهيه؛ فيكونَ أَهْيَبَ في القلوب. فأَوهمَ قومَه أنَّ رسل الله ينبغي أن يكونوا كرسل الملوك في الشاهد، ولم يَعلم أنَّ رسلَ الله إنما أُيِّدوا بالجنود السماوية؛ وكلُّ عاقلٍ يعلم أنَّ حِفظ الله موسى، مع تفرُّده ووَحدته، من فرعون، مع كثرة أتباعه، وإمدادَ موسى بالعصا واليدِ البيضاء كان أبلغَ مِن أن يكون له أسورةٌ، أو ملائكة يكونون معه أعواناً؛ في قول مقاتلٍ، أو دليلاً على صدقه؛ في قول الكلبي. وليس يَلزم هذا؛ لأن الإعجاز كافٍ، وقد كان في الجائز أن يُكَذَّبَ مع مجيء الملائكة كما كُذِّب مع ظهور الآيات. وذَكَر فرعونُ الملائكة حكايةً عن لفظ موسى؛ لأنه لا يؤمن بالملائكة مَن لا يَعرف خالقهم[٣].

قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ﴾ قال ابن الأعرابي: المعنى: فاستجهلَ قومَه[٤] ﴿فَأَطَاعُوهُ ۚ﴾ لِخِفَّة أحلامهم وقِلَّة عقولهم؛ يقال: استخفَّه الفرح، أي: أزعجه، واستخفَّه، أي: حمله على الجهل، ومنه: ﴿وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ [الروم: ٦٠]. وقيل: استفزَّهم بالقول فأطاعوه على التكذيب[٥]. وقيل: استخفَّ قومَه،

---

(١) في النسخ عدا (ف): سوروا. والمثبت من (ف)، وهو الموافق لما في تفسير البغوي ٤/ ١٤٢، والكلام منه.

(٢) أخرج قولهما الطبري ٢٠/٦١٦ .

(٣) النكت والعيون ٥/ ٢٣١ ، وفيه قول مقاتل والكلبي.

(٤) ياقوتة الصراط ص٤٦٠ .

(٥) النكت والعيون ٥/ ٢٣١ عن ابن زياد.

أي: وجدهم خِفَافَ العقول. وهذا لا يدُلُّ على أنه يجب أن يطيعوه، فلا بدَّ من إضمارٍ بعيد، تقديره: وجدهم خفافَ العقول فدعاهم إلى الغَوَاية فأطاعوه. وقيل: استخفَّ قومه وقهرهم حتى اتَّبعوه؛ يقال[1]: استخفَّه خلافُ استثقله، واستخفَّ به: أهانه. ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ أي: خارجين عن طاعة الله.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ روى الضحَّاك عن ابن عباس: أي: غاظونا وأغضبونا. وروى عنه عليُّ بن أبي طلحة: أي: أسخطونا. قال الماورديّ[2]: ومعناهما مختلف، والفرق بينهما أنَّ السَّخط إظهارُ الكراهة، والغضبَ إرادة الانتقام. القشيريّ: والأسف ها هنا بمعنى الغضب؛ والغضب من الله إمَّا إرادةُ العقوبة، فيكونُ من صفات الذات، وإما عينُ العقوبة، فيكون من صفات الفعل؛ وهو معنى قولِ الماوردي[3].

وقال عمر بنُ ذَرّ: يا أهل معاصي الله، لا تغترُّوا بطول حِلْم اللهِ عنكم، واحذَروا أسفه؛ فإنه قال: ﴿فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾. وقيل: «آسَفُونَا» أي: أغضبوا رسُلَنا وأولياءنا المؤمنين[4]؛ نحوُ السَّحَرةِ وبني إسرائيل. وهو كقوله تعالى: ﴿يُؤْذُونَ اللَّهَ﴾ [الأحزاب: ٥٧] و ﴿يُحَارِبُونَ اللَّهَ﴾ [المائدة: ٣٣] أي: أولياءه ورسلَه.

قوله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِلْآخِرِينَ ﴿٥٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا﴾ أي: جعلنا قومَ فرعونَ سَلَفًا. قال أبو مِجْلَز: «سَلَفاً» لمن عَمِلَ عملَهم، «وَمَثَلًا» لمن [لم] يعملْ عملَهم[5]. وقال مجاهد: «سَلَفًا»

---

(١) قاله الجوهري في الصحاح (خفف).

(٢) في النكت والعيون ٥/ ٢٣١ ، وما قبله منه. وقول ابن عباس رضي الله عنهما أخرجه الطبري ٢٠/ ٦١٧ .

(٣) الصواب إثبات صفة الغضب لله عز وجل بلا تشبيه ولا تمثيل ولا تأويل، على ما يليق بجلال الله وعظمته.

(٤) الوسيط ٤/ ٧٧-٧٨، والنكت والعيون ٥/ ٢٣٢ .

(٥) معاني القرآن للنحاس ٦/ ٣٧٣ ، وما بين حاصرتين منه.

إخباراً لأمة محمدٍ ﷺ، «وَمَثَلًا» أي: عِبرةً لهم. وعنه أيضاً: «سَلَفًا» لكفار قومك يتقدَّمونهم إلى النار. قتادة: «سَلَفًا» إلى النار، «وَمَثَلًا»: عِظةً لمن يأتي بعدهم[1]. والسَّلَف: المتقدِّم؛ يقال سَلَفَ يَسْلُف سَلَفًا؛ مثل: طلب يطلُب[2] طلباً، أي: تقدَّم ومضى. وسلف له عملٌ صالح، أي: تقدَّم. والقوم السُّلَّاف: المتقدِّمون. وسَلَفُ الرَّجُل: آباؤه المتقدِّمون؛ والجمع: أسلافٌ وسُلَّاف.

وقراءة العامة: «سَلَفًا» بفتح السين واللام: جمع سالف؛ كخادم وخَدَم، وراصد ورَصَد، وحارس وحَرَس. وقرأ حمزة والكِسائي: «سُلُفًا» بضم السين واللام[3]. قال الفراء[4]: هو جمع سَلِيف، نحو: سرير وسُرُر. وقال أبو حاتم: هو جمع سَلَف؛ نحو خَشَب وخُشُب، وثَمَر وثُمُر؛ ومعناهما واحد.

وقرأ عليٌّ وابن مسعود وعلقمة وأبو وائلٍ والنَّخَعيُّ وحُميد بنُ قيس: «سُلَفاً» بضم السين وفتح اللام، جمع سُلْفة[5]، أي: فِرقةٌ متقدِّمة. قال المؤرِّج والنَّضْر بنُ شُمَيل: «سُلَفًا» جمع سُلْفة، نحو غُرْفَة وغُرَف، وطُرْفة وطُرَف، وظُلْمة وظُلَم.

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾﴾

لمَّا قال تعالى: ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ تعلَّق المشركون بأمر عيسى، وقالوا: ما يريد محمدٌ إلَّا أنْ نتخذه إلهًا كما اتخذت النصارى عيسى ابنَ مريم إلهًا، قاله قتادة. ونحوُه عن مجاهد؛ قالت: إنَّ قريشًا قالت: إنَّ محمدًا يريد أن نعبُدَه كما عبد قومُ عيسى عيسى؛ فأنزل الله هذه الآية[6].

---

(١) أخرج هذه الآثار الطبري ٢٠/ ٦٢٠-٦٢١ .

(٢) قوله: يطلب من (ظ)، وهو موافق لما في الصحاح (سلف)، والكلام منه.

(٣) السبعة ص٥٨٧ ، والتيسير ص١٩٧ .

(٤) كلامه في تفسير البغوي ٤/ ١٤٢ ، وينظر معاني القرآن له ٣/ ٣٦ .

(٥) قراءة علي ﷺ في المحرر الوجيز ٥/ ٦٠ ، وقراءة حميد في القراءات الشاذة ص١٣٥ .

(٦) أخرج قولهما الطبري ٢٠/ ٦٢٢ .

وقال ابن عباس: أراد به مناظرةَ عبدِ الله بنِ الزِّبَعْرَى مع النبيِّ ﷺ في شأن عيسى، وأنَّ الضارب لهذا المثل هو عبد الله بنُ الزِّبَعْرَى السَّهْمِيُّ حالةَ كفره؛ لمَّا قالت له قريش: إنَّ محمداً يتلو: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء:٩٨] الآية، فقال: لو حضرتُه لَرددت عليه؛ قالوا: وما كنتَ تقول له؟ قال: كنت أقول له: هذا المسيحُ تعبده النصارى، واليهودُ تعبد عُزَيْراً، أَفَهما من حَصَب جهنم؟ فعَجِبت قريشٌ من مقالته ورأوا أنه قد خُصِم؛ وذلك معنى قوله: «يَصِدُّونَ»، فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠١].

ولو تأمل ابنُ الزبعرى الآيةَ ما اعترض عليها؛ لأنه قال: «وَمَا تَعْبُدُونَ» ولم يقل: ومن تعبدون، وإنما أراد الأصنام ونحوَها مما لا يَعقِل، ولم يُرد المسيح ولا الملائكةَ وإنْ كانوا معبودين. وقد مضى هذا في آخر سورة الأنبياء[١].

وروى ابنُ عباس أنَّ رسول الله ﷺ قال لقريش: «يا معشر قريش، لا خير في أَحدٍ يُعبد من دون الله». قالوا: أليس تزعُمُ أنَّ عيسى كان عبداً نبيًّا وعبداً صالحًا، فإن كان كما تزعم فقد كان يُعبد من دون الله!. فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾[٢]. أي: يَضِجُّون كضجيج الإبلِ عند حمل الأثقال.

وقرأ نافعٌ وابن عامر والكِسائي: «يَصُدُّون». بضم الصاد، ومعناه: يُعرِضون؛ قاله النَّخَعيُّ، وكَسَرَ الباقون[٣]. قال الكسائي[٤]: هما لغتان؛ مثل: يَعْرِشون ويَعْرُشون ويَنِمُّون ويَنُمُّون، ومعناه: يَضِجُّون.

---

(١) ١٤/ ٢٩٠ ، ومضى فيه أثر ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه أحمد (٢٩١٨)، والواحدي في أسباب النزول ص٣٩٧ .

(٣) السبعة ص٥٨٧ ، والتيسير ص١٩٧ ، وقول النخعي في النكت والعيون ٥/ ٢٣٤ .

(٤) ذكر قوله النحاس في إعراب القرآن ٤/ ١١٥ ، والبغوي في تفسيره ٤/ ١٤٣ ، وابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٦٠ .

قال الجوهري[١]: وصَدَّ يَصُدُّ صديداً، أي: ضَجّ. وقيل: إنه بالضم من الصدود وهو الإعراض، وبالكسر من الضجيج؛ قاله قُطْرُب[٢]. قال أبو عبيد: لو كانت من الصدود عن الحقِّ لكانت: إذا قومُك عنه يصدون[٣]. الفرَّاء[٤]: هما سواء؛ منه وعنه. ابنُ المسيّب: يصدون: يَصيحون[٥]. الضحاك: يَعجُّون. ابن عباس: يضحكون[٦]. أبو عبيدة[٧]: مَن ضَمَّ فمعناه: يعدلون؛ فيكون المعنى: من أجل الميل يعدلون. ولا يُعَدَّى «يَصِدُّون» بمن، وَمن كَسَرَ فمعناه: يضِجُّون؛ فـ «من» متصلةٌ بـ «يَصِدُّون» والمعنى: يَضجون منه.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيۡرٌ أَمۡ هُوَۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلَۢاۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٌ خَصِمُونَ ۝٥٨﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيۡرٌ أَمۡ هُوَۚ﴾ أي: آلهتنا خيرٌ أم عيسى؟ قاله السُّدّيّ. وقال: خاصموه وقالوا: إنَّ كلَّ مَن عُبد من دون الله في النار، فنحن نرضى أن تكونَ آلهتُنا مع عيسى والملائكةِ وعُزير، فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنۡهَا مُبۡعَدُونَ﴾ الآية [الأنبياء: ١٠١][٨]. وقال قتادة: «أَمْ

---

(١) في الصحاح (صدد).

(٢) النكت والعيون ٥/ ٢٣٤ .

(٣) ذكره النحاس في إعراب القرآن ٤/ ١١٥ - ١١٦ ، ثم قال: وفي هذا ردٌّ على الجماعة الذين قراءتهم حجة، وقد خالف بقوله هذا الكسائي والفراء، والذي ذكره من الحجة ليس بواجب؛ لأنه يقال: صددتُ من قوله، أي: لأجل قوله.

(٤) في معاني القرآن ٣/ ٣٧ .

(٥) في (ف) و(م): يضجون. وذكر هذا الأثر والذي بعده البغوي في تفسيره ٤/ ١٤٣ .

(٦) المشهور عن ابن عباس: يضجون؛ كما أخرجه الفراء ٣/ ٣٦ وغيره. وهو في مسند أحمد (٢٩١٨) وقد سلف قريباً تخريجه. وقوله: يضحكون، نسبه في النكت والعيون ٥/ ٢٣٣ لقتادة، وفي تهذيب اللغة ١٢/ ١٠٤ لليث. وينظر المحرر الوجيز ٥/ ٦٠ .

(٧) في مجاز القرآن ٢/ ٢٠٥ .

(٨) أخرجه الطبري ٢٠/ ٦٢٧ .

هُوَ» يعنون محمداً ﷺ(١).

وفي قراءة ابنِ مسعود: «آلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هَذَا»(٢). وهو يقوِّي قولَ قتادة، فهو استفهامُ تقريرٍ في أنَّ آلهتهم خير.

وقرأ الكوفيُّون ويعقوب: «أألِهتُنا» بتحقيق الهمزتين، وليَّن الباقون(٣). وقد تقدَّم.

﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا﴾ حال، أي: جدلين. يعني: ما ضربوا لك هذا المَثَلَ إلَّا إرادةَ الجدل؛ لأنهم علموا أنَّ المراد بحصب جهنم ما اتخذوه من المَوَات(٤).

﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾: مجادِلون بالباطل.

وفي صحيح الترمذِيّ عن أبي أُمامة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما ضلَّ قومٌ بعد هُدًى كانوا عليه إلَّا أُوتوا الجدل» ثم تلا رسولُ الله ﷺ هذه الآية: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾(٥).

قوله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٥٩﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿٦٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ﴾ أي: ما عيسى إلَّا عبدٌ أنعم اللهُ عليه بالنبوَّة، وجَعَلَه مَثَلًا لبني إسرائيل، أي: آيةً وعبرةً يُستدلُّ بها على قدرة الله تعالى، فإنَّ عيسى كان من غير أب، ثم جعل إليه من إحياء الموتى وإبراءِ الأَكْمَه والأبرص والأسقامِ كلِّها ما لم يجعل لغيره في زمانه، مع أنَّ بني إسرائيل كانوا يومئذ خيرَ الخلق وأحبَّه إلى الله عزَّ وجلَّ، والناسُ دونهم، ليس أحدٌ عند الله عزَّ وجلَّ مثلَهم. وقيل: المراد بالعبد المنعَمِ عليه محمدٌ ﷺ، والأوَّلُ أظهر.

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٢٣٤ ، وتفسير البغوي ٤/ ١٤٣ ، والمحرر الوجيز ٥/ ١٠٤ .

(٢) الكشاف ٣/ ٤٩٤ .

(٣) السبعة ص٥٨٧ ، والتيسير ص١٩٧ ، وقراءة يعقوب هي من رواية روح كما في النشر ١/ ٣٦٤-٣٦٥ .

(٤) الوسيط للواحدي ٤/ ٧٩ .

(٥) سنن الترمذي (٣٢٥٣) وقال: حديث حسن صحيح. وهو في مسند أحمد (٢٢١٦٤).

﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم﴾ أي: بَدَلًا منكم ﴿مَلَٰٓئِكَةً﴾ يكونون خَلَفًا عنكم؛ قاله السُّدِّيّ. ونحوُه عن مجاهد قال: ملائكةً يَعمُرون الأرضَ بدلاً منكم(١).

وقال الأزهريّ: إنَّ «مِن» قد تكون للبدل؛ بدليل هذه الآية(٢).

قلت: قد تقدَّم هذا المعنى في «براءة»(٣) وغيرِها.

وقيل: لو نشاء لجَعلنا من الإنس ملائكةً وإنْ لم تَجرِ العادةُ بذلك(٤)، والجواهرُ جِنسٌ واحدٌ والاختلافُ بالأوصاف؛ والمعنى: لو نشاء لأسكنا الأرضَ الملائكة، وليس في إسكاننا إيَّاهم السماءَ شرفٌ حتى يُعبدوا، أو يقال لهم: بناتُ الله.

ومعنى «يَخْلُفُونَ»: يخلفُ بعضُهم بعضاً؛ قاله ابن عباس(٥).

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا﴾ قال الحسن وقتادة وسعيد بنُ جبير: يريد القرآن(٦)؛ لأنه يدلُّ على قُرب مجيء الساعة، أو به تُعلم الساعةُ وأهوالها وأحوالها. وقال ابن عباس ومجاهدٌ والضحاك والسديُّ وقتادة أيضاً: إنه خروجُ عيسى عليه السلام(٧)، وذلك من أعلام الساعة، لأن الله يُنزِله من السماء قُبيلَ قيامِ الساعة، كما أنَّ خروج الدجَّال من أعلام الساعة.

---

(١) أخرج قولهما الطبري ٢٠/ ٦٣٠ .

(٢) ذكر قوله الواحدي في الوسيط ٤/ ١٠٥ .

(٣) ١٠/ ٢٠٧ .

(٤) ينظر النكت والعيون ٥/ ٢٣٥ .

(٥) أخرجه الطبري ٢٠/ ٦٣٠ .

(٦) أخرجه الطبري ٢٠/ ٦٣٤ عن الحسن وقتادة، وذكره عنهما ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٦١ ، وذكره الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٢٣٥ عن الحسن وسعيد بن جبير.

(٧) أخرج أقوالهم الطبري ٢٠/ ٦٣١ - ٦٣٣ . وقول ابن عباس قطعة من حديث عند أحمد (٢٩١٨)، وسلف بعضه عند الآية (٥٧).

وقرأ ابن عباس وأبو هريرة وقتادة ومالك بنُ دينار والضحاك: «وإِنَّهُ لَعَلَمٌ لِلسَّاعَةِ» بفتح العين واللام[١]، أي: أمارة. وقد روي عن عِكرمة: «وإنه لَلْعَلَم» بلامين[٢]، وذلك خلافٌ للمصاحف.

وعن عبد الله بنِ مسعود قال: لما كان ليلةَ أُسْريَ برسول الله ﷺ، لقي إبراهيمَ وموسى وعيسى عليهم الصلاة والسلام، فتذاكروا الساعة، فبدؤوا بإبراهيم فسألوه عنها، فلم يكن عنده منها علم، ثم سألوا موسى، فلم يكن عنده منها علم؛ فرُدَّ الحديثُ إلى عيسى ابنِ مريم، فقال: قد عُهد إليَّ فيما دون وَجْبَتِها، فأما وجبتُها فلا يعلمُها إلَّا اللهُ عزَّ وجلَّ؛ فذَكَرَ خروجَ الدجال، قال: فأَنزِلُ فأقتُلُه. وذكر الحديث، خرَّجه ابنُ ماجه في سننه[٣].

وفي صحيح مسلم[٤]: « فبينما هو ـ يعني المسيحَ الدجال ـ إذ بعث اللهُ المسيح ابنَ مريم، فيَنزل عند المنارة البيضاءِ شرقيّ دِمَشْق بين مَهْرُودَتَين واضعاً كفَّيه على أجنحة مَلَكين، إذا طأطأ رأسَه قَطَر، وإذا رفعه تحدَّر منه جُمَانٌ كاللؤلؤ، فلا يَحِلُّ لكافر يجد ريحَ نَفَسِه إلَّا مات، ونَفَسُه ينتهي حيث ينتهي طَرْفُه، فيطلبُه حتى يدرِكَه بباب لُدٍّ، فيقتله...» الحديث.

وذكر الثعلبيُّ والزَّمَخْشريُّ وغيرهما من حديث أبي هريرة، أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «يَنزل عيسى ابنُ مريم عليه السلام[٥] على ثَنِيَّةٍ من الأرض المقدَّسة، يقال لها: أَفِيقُ، بين مُمَصَّرَتَيْن، وشعرُ رأسه دَهين، وبيده حَرْبةٌ يقتل بها الدَّجَّال، فيأتي بيت المقدس

(١) القراءات الشاذة ص١٣٥ - ١٣٦ والمحرر الوجيز ٥/ ٦١ . وقراءة ابن عباس أخرجها الطبري ٢٠/ ٦٣٢ .

(٢) المحرر الوجيز ٥/ ٦١ ، والقراءات الشاذة ص١٣٦ .

(٣) برقم (٤٠٨١). قال البوصيري في الزوائد ٢/ ٣١٢ : هذا إسناد صحيح رجاله ثقات. قوله: وجبتها، أي: قيامها. شرح السندي ٢/ ٥١٧ .

(٤) برقم (٢٩٣٧)، وسلف ٥/ ١٣٧ .

(٥) بعدها في (م): من السماء.

والناسُ في صلاة العصر والإمامُ يَؤمُّ بهم، فيتأخر الإمام، فيقدِّمه عيسى ويصلِّي خلفه على شريعة محمدٍ ﷺ، ثم يقتل الخنازير، ويَكسِر الصليب، ويخرب البِيَعَ والكنائس، ويقتل النصارى إلَّا مَن آمن به»[١].

وروى خالدٌ عن الحسن قال: قال رسول الله ﷺ: «الأنبياء إخوةٌ لِعَلَّات، أُمهاتُهم شَتَّى ودينُهُم واحد، وأنا أوْلَى الناس بعيسى ابنِ مريم، إنه ليس بيني وبينه نبيّ، وإنه أوَّلُ نازلٍ، فيَكسِرُ الصليب، ويقتل الخِنزير، ويقاتلُ الناسَ على الإسلام»[٢].

قال الماورديّ: وحكى ابن عيسى عن قوم أنهم قالوا: إذا نزل عيسى رُفع التكليف؛ لئلَّا يكونَ رسولاً إلى ذلك الزمانِ يأمرُهم عن الله تعالى وينهاهم.

وهذا قول مردودٌ لثلاثة أمور؛ منها: الحديث، ولأنَّ بقاء الدنيا يقتضي [بقاء] التكليفِ فيها، ولأنه يَنزل آمرًا بمعروفٍ وناهياً عن منكر. وليس يُستنكر أنْ يكونَ أَمْرُ الله تعالى له مقصوراً على تأييد الإسلام والأمرِ به والدعاءِ إليه[٣].

قلت: ثبت في صحيح مسلم وابنِ ماجه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لَيَنْزِلَنَّ عيسى ابنُ مريم حَكَمًا عادلاً، فليَكْسِرَنَّ الصليب، ولَيَقتُلَنَّ الخِنزير، ولَيَضَعنَّ الجِزية، ولَتُتْرَكَنَّ القِلَاصُ فلا يُسعَى عليها، ولَتَذهَبَنَّ الشحناءُ والتَّباغضُ والتحاسد، ولَيَدْعُوَنَّ إلى المال فلا يقبلُه أحد»[٤]. وعنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كيف أنتم إذا

---

(١) الكشاف ٣/ ٤٩٤ ، وتفسير البغوي ٤/ ١٤٤ . وقوله: ممصرتين: هما الثوبان فيهما صفرة خفيفة. النهاية (مصر). وفي الكشاف: وعليه ممصَّرتان.

(٢) النكت والعيون ٥/ ٢٣٥ . وأخرجه أحمد (٩٢٧٠) من حديث أبي هريرة ﷺ بنحوه مطولاً. وهو عند البخاري (٣٤٤٢)، ومسلم (٢٣٦٥) مختصر. قوله: إخوة لِعَلَّات؛ قال الحافظ ابن حجر في الفتح ٦/ ٤٨٩ : العَلَّات؛ بفتح المهملة: الضرائر. . . وأولاد العَلَّات: الإخوة من الأب وأمهاتهم شتَّى. . . ومعنى الحديث أن أصل دينهم واحد ـ وهو التوحيد ـ وإن اختلفت فروع الشرائع. وقيل: أزمنتهم مختلفة.

(٣) النكت والعيون ٥/ ٢٣٥ ، وما سلف بين حاصرتين منه.

(٤) صحيح مسلم (١٥٥): (٢٤٣)، وهو في سنن ابن ماجه (٤٠٧٨) مختصر. وسلف ٥/ ١٥٥ .

نزل ابنُ مريم فيكم وإمامُكم منكم» وفي رواية: «فأمَّكم منكم». قال ابن أبي ذئب: تدري: ما «أمَّكم منكم؟» قلت: تُخْبِرني، قال: فأمَّكم بكتاب ربِّكم وسُنَّةِ نبيِّكم ﷺ(١).

قال علماؤنا رحمةُ الله عليهم: فهذا نصٌّ على أنه يَنزِل مجدِّدًا لِدين النبيِّ ﷺ للذي دَرَس منه، لا بشرعٍ مبتَدأ، والتكليفُ باقٍ؛ على ما بيَّنّاه هنا وفي كتاب «التذكرة»(٢).

وقيل: «وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ» أي: وإنَّ إحياءَ عيسى الموتى دليلٌ على الساعة وبعثِ الموتى؛ قاله ابنُ إسحاق(٣).

قلت: ويحتمل أن يكون المعنى: «وَإِنَّهُ»: وإنَّ محمدًا ﷺ لَعِلْم للساعة؛ بدليل قوله عليه الصلاة والسلام: «بُعثت أنا والساعة كهاتين» وضَمَّ السَّبَّابةَ والوسطى؛ خرَّجه البخاريُّ ومسلم(٤). وقال الحسن: أوَّلُ أشراطها محمدٌ ﷺ(٥).

﴿فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا﴾: فلا تشكُّون فيها؛ يعني: في الساعة؛ قاله يحيى بنُ سلَّام. وقال السُّدِّي: فلا تكذِّبون بها(٦)، ولا تجادلون فيها فإنها كائنةٌ لا محالة. ﴿وَٱتَّبِعُونِۚ﴾ أي: في التوحيد وفيما أُبلِّغكم عن الله. ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسۡتَقِيمٌ﴾ أي: طريقٌ قويم إلى الله، أي: إلى جنته.

وأثبت الياءَ يعقوبُ في قوله: «وَاتَّبِعُونِ» في الحالين، وكذلك «وَأَطِيعُونِ». وأبو عمرٍو وإسماعيلُ عن نافع في الوصل دون الوقف(٧)، وحَذَفَ الباقون في الحالين.

---

(١) صحيح مسلم (١٥٥): (٢٤٤)، (٢٤٦). وسلف ٥/ ١٥٥ . وابن أبي ذئب أحد رجال السند.
(٢) ص٦٧٧ - ٦٧٨ .
(٣) النكت والعيون ٥/ ٢٣٥ .
(٤) صحيح البخاري (٦٥٠٤)، وصحيح مسلم (٢٩٥١) من حديث أنس ﷺ. وسلف ١٢/ ٢٦٨ .
(٥) أورده السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٥٠ بلفظ: محمد ﷺ من أشراطها. ونسبه لابن أبي حاتم.
(٦) النكت والعيون ٥/ ٢٣٦ . وأخرجه الطبري ٢٠/ ٦٣٤ بلفظ: فلا تشكون فيها.
(٧) يعني في قوله: ﴿وَٱتَّبِعُونِۚ﴾. وقراءة نافع المشهورة عنه كقراءة الباقين. السبعة ص٥٩٠ ، والتيسير ص١٩٧ ، والنشر ٢/ ٣٧٠ .

﴿وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ أي: لا تغترُّوا بوساوسه وشُبَهِ الكفار المجادِلين؛ فإنَّ شرائع الأنبياء لم تَختلف في التوحيد، ولا فيما أخبروا به مِن عِلم الساعة وغيرِها بما تضمنته من جنةٍ ونار. ﴿إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ تقدَّم في «البقرة»[(١)] وغيرِها.

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ قال ابن عباس: يريد إحياءَ الموتى وإبراءَ الأسقام، وخَلْقَ الطير، والمائدةَ وغيرَها، والإخبارَ بكثيرٍ من الغيوب. وقال قتادة: البيِّنات هنا الإنجيل[(٢)]. ﴿قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ﴾ أي: النبوَّة؛ قاله السُّدِّيّ. ابن عباس: عِلمُ ما يؤدِّي إلى الجميل ويَكفُّ عن القبيح. وقيل: الإنجيل؛ ذكره القشيريُّ والماوردي[(٣)].

﴿وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ قال مجاهد: مِن تبديل التوراة[(٤)]. الزَّجاج[(٥)]: المعنى: لأبين لكم في الإنجيل بعضَ الذي تختلفون فيه من تبديل التوراة. قال مجاهد: وبيَّن لهم في غير الإنجيل ما احتاجوا إليه. وقيل: بيَّن لهم بعضَ الذي اختلفوا فيه من أحكام التوراةِ على قَدْر ما سألوه. ويجوز أن يختلفوا في أشياءَ غيرِ ذلك لم يَسألوه عنها. وقيل: إنَّ بني إسرائيل اختلفوا بعد موت موسى في أشياءَ مِن أمر دينهم وأشياءَ مِن أمر دنياهم، فبيَّن لهم أمرَ دينهم.

---

(١) ٣/ ١٣.

(٢) النكت والعيون ٥/ ٢٣٦. وقول قتادة أخرجه الطبري ٢٠/ ٦٣٥.

(٣) في النكت والعيون ٥/ ٢٣٦، وقول ابن عباس نسبه لابن عيسى. وقول السدي أخرجه الطبري ٢٠/ ٦٦٣.

(٤) أخرجه الطبري ٢٠/ ٦٣٦.

(٥) معاني القرآن له ٤/ ٤١٨، وإعراب القرآن للنحاس ٤/ ١١٨.

ومذهب أبي عبيدة[١] أنَّ البعض بمعنى الكلّ؛ ومنه قولُه تعالى: ﴿يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ﴾ [غافر: ٢٨]. وأنشد الأخفش قولَ لبيد:

تَـرَّاكُ أمـكـنـةٍ إذا لـم أرضـهـا ... أو يعـتـلـقْ بـعـضَ الـنـفـوس حِـمـامُـهـا

والموت لا يعتلق بعضَ النفوس دون بعض[٢]. ويقال للمنيَّة: عَلُوق وعَلَّاقة. قال المفضَّل النُّكْري[٣]:

وسـائـلـةٍ بـثـعـلـبـةَ بـنِ سَـيْـرٍ ... وقـد عَـلِـقـت بـثـعـلـبـةَ الـعَـلُـوقُ[٤]

وقال مقاتل: هو كقوله: ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ [آل عمران: ٥٠]. يعني: ما أُحلَّ في الإنجيل مما كان محرَّماً في التوراة؛ كلحم الإبل والشحمِ مِن كل حَيَوان، وصيدِ السمك يومَ السبت.

﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ أي: اتقوا الشِّركَ ولا تعبُدوا إلَّا اللهَ وحده؛ وإذا كان هذا قولَ عيسى، فكيف يجوز أن يكونَ إلهًا أو ابنَ إله؟! ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ فيما أدعوكم إليه من التوحيد وغيره. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَـٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ أي: عبادةُ الله صراطٌ مستقيم، وما سواه معوجٌ لا يؤدِّي سالكَه إلى الحقّ.

قوله تعالى: ﴿فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٦٥﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ﴾ قال قتادة: يعني ما بينهم، وفيهم قولان: أحدهما: أنهم أهلُ الكتاب من اليهود والنصارى، خالف بعضُهم بعضًا؛

(١) في مجاز القرآن ٢/ ٢٠٥.

(٢) النكت والعيون ٥/ ٢٣٧. والبيت في شرح ديوان لبيد ص٣١٣، وسلف ٥/ ١٤٧.

(٣) في (ف) و(م): البكري، وفي (د): الكبرى. وكلاهما خطأ. وهو المفضل بن معشر بن أسحم بن عدي ابن شيبان بن سُود بن عُذرة بن منبِّه بن نُكرة. فضّلته قصيدته التي يقال لها: المُنصِفة. طبقات فحول الشعراء ١/ ٢٧٤ - ٢٧٥. والبيت من هذه القصيدة.

(٤) إصلاح المنطق ص٣٦٨، والصحاح (علق)، ورسالة الصاهل والشاحج ص٤٨٠، واللسان (علق).

قاله مجاهدٌ والسُّدِّيّ. الثاني: فِرَقُ النصارى من النُّسْطُورِية والمَلْكية واليعاقِبة، اختلفوا في عيسى؛ فقالت النُّسطورية: هو ابن الله. وقالت اليعاقبة: هو الله. وقالت المَلْكية: ثالثُ ثلاثةٍ أحدهم الله تعالى؛ قاله الكلبي ومقاتل(١)، وقد مضى هذا في سورة مريم(٢).

﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ أي: كفروا وأشركوا؛ كما في سورة مريم. ﴿مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ أي: أليم عذابُه؛ ومثلُه: ليلٌ نائم؛ أي: يُنام فيه.

﴿هَلْ يَنظُرُونَ﴾ يريد: الأحزابُ لا ينتظرون(٣) ﴿إِلَّا ٱلسَّاعَةَ﴾ يريد القيامة ﴿أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً﴾ أي: فَجْأةً ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾: يَفطُنون. وقد مضى في غير موضع(٤). وقيل: المعنى: لا ينتظر مشركو العربِ إلَّا الساعة. ويكون «الأَحْزَابُ» على هذا الذين تحزَّبوا على النبيِّ ﷺ وكذَّبوه من المشركين. ويتَّصل هذا بقوله تعالى: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا﴾ [الآية: ٥٨].

قوله تعالى: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ۝٦٧﴾

قوله تعالى: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ﴾ يريد: يومَ القيامة. ﴿بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ أي: أعداء، يعادي بعضُهم بعضًا، ويلعن بعضُهم بعضًا. ﴿إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ فإنهم أخِلَّاءُ في الدنيا والآخرة؛ قال معناه ابنُ عباس ومجاهدٌ وغيرهما.

وحكى النقَّاش أنَّ هذه الآيةَ نزلت في أميَّة بنِ خَلَف الجُمَحيِّ وعُقْبةَ بن أبي مُعَيْط، كانا خليلين؛ وكان عقبةُ يجالس النبيَّ ﷺ، فقالت قريش: قد صبأ عقبة بنُ أبي مُعَيط؛ فقال له أميَّة: وجهي مِن وجهك حرام إنْ لَقِيتَ محمدًا ولم تَتْفُل في وجهه.

---

(١) النكت والعيون ٥/٢٣٧. وقول السدي أخرجه الطبري ٢٠/٦٣٨.

(٢) ١٣/٤٥١ - ٤٥٤.

(٣) في النسخ الخطية عدا (ق): ينظرون.

(٤) ١/٢٩٩.

ففعل عقبةُ ذلك؛ فنذر النبيُّ ﷺ قتلَه، فقتله يوم بدرٍ صَبْرًا، وقُتل أميةُ في المعركة؛ وفيهم نزلت هذه الآية[١].

وذكر الثعلبيُّ عن عليٍّ[٢] ﷺ في هذه الآية. قال: كان خليلان مؤمنان وخليلان كافران، فمات أحدُ المؤمنَين فقال: يا ربّ، إنّ فلانًا كان يأمرني بطاعتك وطاعةِ رسولك، وكان يأمرني بالخير وينهاني عن الشرّ، ويُخْبرني أني ملاقيك، يا ربِّ فلا تُضِلَّه بعدي، واهدِه كما هديتني، وأكرمه كما أكرمتني. فإذا مات خليلُه المؤمن جمع الله بينهما، فيقول الله تعالى: لِيُثْنِ كلُّ واحدٍ منكما على صاحبه، فيقول: يا ربّ، إنه كان يأمرني بطاعتك وطاعة رسولك، ويأمرني بالخير وينهاني عن الشرّ، ويخبرني أني ملاقيك، فيقول الله تعالى: نِعْمَ الخليلُ ونعم الأخُ ونعم الصاحبُ كان. قال: ويموت أحد الكافرَين فيقول: يا رب، إنَّ فلانًا كان ينهاني عن طاعتك وطاعة رسولك، ويأمرني بالشرّ وينهاني عن الخير، ويُخبرني أني غيرُ ملاقيك، فأسألك يا ربِّ ألّا تَهْدِهِ بعدي، وأنْ تُضِلَّه كما أضللتني، وأن تُهينَه كما أهنتني. فإذا مات خليلُه الكافر قال الله تعالى لهما: لِيُثْنِ كلُّ واحد منكما على صاحبه، فيقول: ياربّ، إنه كان يأمرني بمعصيتك ومعصيةِ رسولك، ويأمرني بالشرّ وينهاني عن الخير، ويخبرني أني غير ملاقيك، فأسألك أنْ تضاعِفَ عليه العذاب؛ فيقول الله تعالى: بِئسَ الصاحبُ والأخ والخليل كنتَ. فيلعنُ كلُّ واحدٍ منهما صاحبَه[٣].

قلت: والآية عامةٌ في كل مؤمن ومُتَّقٍ وكافرٍ ومُضِلّ.

قوله تعالى: ﴿يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾﴾

قال مقاتل ـ ورواه المعتمر بنُ سليمان عن أبيه ـ: ينادي منادٍ في العَرَصات: «يا

(١) النكت والعيون ٥/ ٢٣٨ . وقوله: «ففعل عقبة ذلك» منكر، ونقلنا ١٥/ ٤٠٢ عن عبد الرزاق والطبري أن الله لم يمكّن عقبة مما أراد فعله.

(٢) قوله: عن علي، ليس في (م).

(٣) أخرجه البغوي في تفسيره ٤/ ١٤٥ من طريق الثعلبي. وأخرجه أيضاً الطبري ٢٠/ ٦٤٠ .

عبادي، لا خوفٌ عليكم اليوم»، فيرفع أهلُ العَرَصات[١] رؤوسهم، فيقول المنادي: «الَّذِين آمنوا بِآياتِنا وكانوا مُسْلِمِين» فينكِّس أهلُ الأديان رؤوسَهم غيرَ المسلمين[٢].

وذكر المحاسبيُّ في «الرِّعاية»: وقد روي في هذا الحديثِ أنَّ المنادي ينادي يوم القيامة: «يا عِبادي لا خَوْفٌ عليكُمُ اليومَ ولا أنتم تَحزنون» فيرفع الخلائقُ رؤوسهم، فيقولون: نحن عباد الله. ثم ينادي الثانية: «الَّذِين آمنوا بِآياتِنا وكانوا مسْلِمِين» فينكِّس الكفار رؤوسهم، ويبقى الموحِّدون رافعي رؤوسِهم. ثم ينادي الثالثة: «الذين آمنوا وكانوا يتقون» فينكِّس أهل الكبائر رؤوسهم ويبقى أهل التقوى رافعي رؤوسِهم، قد أزال عنهم الخوفَ والحزن كما وعدهم؛ لأنه أكرم الأكرمين، لا يَخذُل ولِيَّه ولا يُسْلِمه عند الهَلَكة. وقرئ: «يَا عِبَادِ»[٣]

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾﴾

قال الزجَّاج[٤]: «الَّذِينَ» نصب على النعت لـ «عبادي»؛ لأن «عِبَادِي» منادَى مضاف. وقيل: «الَّذِينَ آمَنُوا» [خبر لمبتدإ محذوف، أو][٥] ابتداءٌ وخبره محذوف؛ تقديره: هم الذين آمنوا، أو: الذين آمنوا يقال لهم: «ادْخُلُوا الْجَنَّةَ».

وقرأ أبو بكر وزِرُّ بن حُبيش: «يَا عِبَادِيَ» بفتح الياء وإثباتها في الحالين؛ وكذلك أثبتها نافعٌ وابن عامر وأبو عمرو ورُوَيْس[٦] ساكنةً في الحالين. وحذفها الباقون في الحالين[٧]؛ لأنها وقعت مثبَتةً في مصاحف أهلِ الشام والمدينة لا غير[٨].

(١) في النسخ عدا (ظ): العرصة.
(٢) قول مقاتل في الوسيط للواحدي ٤/ ٨٠ - ٨١، ورواية المعتمر أخرجها الطبري ٢٠/ ٦٤١ بنحوها.
(٣) سترد قريباً.
(٤) في معاني القرآن ٤/ ٤١٩.
(٥) ما بين حاصرتين زيادة لضرورة السياق.
(٦) بخلاف عنه كما في النشر ٢/ ٣٧٠.
(٧) السبعة ص٥٨٨، والتيسير ص١٩٧.
(٨) المقنع لأبي عمرو الداني ص٣٤، والنشر ٢/ ٣٧٠.

﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ﴾ أي: يقال لهم: أُدخلُوا الجنة، أو: يا عبادي الذين آمنوا ادخلُوا الجنة. ﴿أَنتُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ﴾ المسلمات في الدنيا. وقيل: قرناؤكم من المؤمنين. وقيل: زوجاتُكم[١] من الحور العين. ﴿تُحۡبَرُونَ﴾: تكرمون؛ قاله ابن عباس؛ والكرامة في المنزلة. الحسن: تفرحون، والفرح في القلب. قتادة: تُنعمون؛ النعيم في البدن. مجاهد: تُسرُّون؛ السرور في العين. ابن أبي نَجيح: تعجبون؛ والعجب هاهنا دَرْكُ ما يُستطرَف. يحيى بن أبي كثير: هو التلذذ بالسَّماع[٢]. وقد مضى هذا في «الروم»[٣].

قوله تعالى: ﴿يُطَافُ عَلَيۡهِم بِصِحَافٖ مِّن ذَهَبٖ وَأَكۡوَابٖۖ وَفِيهَا مَا تَشۡتَهِيهِ ٱلۡأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلۡأَعۡيُنُۖ وَأَنتُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٧١﴾

فيه أربعُ مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿يُطَافُ عَلَيۡهِم بِصِحَافٖ مِّن ذَهَبٖ وَأَكۡوَابٖۖ﴾ أي: لهم في الجنة أطعمةٌ وأشربة يطاف بها عليهم في صِحافٍ مِن ذهب وأكواب. ولم يَذكر الأطعمةَ والأشربة؛ لأنه يُعلم أنه لا معنى للإطافة بالصِّحاف والأكوابِ عليهم مِن غيرِ أنْ يكونَ فيها شيء[٤]. وذَكَرَ الذهبَ في الصحاف واستغنى به عن الإعادة في الأكواب؛ كقوله تعالى: ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ﴾ [الأحزاب: ٣٥].

وفي الصحيحين[٥] عن حُذيفة أنه سمع النبيَّ ﷺ يقول: «لا تَلبَسوا الحريرَ ولا الدِّيباج، ولا تشربوا في آنية الذهب والفضة، ولا تأكلوا في صِحَافها؛ فإنها لهم في الدنيا ولكم في الآخرة». وقد مضى في سورة الحجِّ[٦] أنَّ مَن أكل فيهما في الدنيا أو

(١) في النسخ الخطية: زوجاتهم، والمثبت من (م).

(٢) النكت والعيون ٥/ ٢٣٨ . وقول قتادة أخرجه الطبري ٢٠/ ٦٤٢ ، وعبد الرزاق ٢/ ٢٠٢ ، وقول يحيى أخرجه عبد الرزاق ٢/ ٢٠١ .

(٣) ١٦/ ٤٠٥ .

(٤) الكلام بنحوه في تفسير الطبري ٢٠/ ٦٤٥ .

(٥) صحيح البخاري (٥٤٢٦)، ومسلم (٢٠٦٧). وهو عند أحمد (٢٣٣١٤).

(٦) ١٤/ ٣٤٧ - ٣٤٨ .

لبس الحرير في الدنيا، ولم يتب، حُرم ذلك في الآخرة تحريماً مؤبَّداً. والله أعلم.

وقال المفسرون: يطوف على أدناهم في الجنة منزلةً سبعون ألفَ غلامٍ بسبعين ألفَ صَحْفةٍ من ذهب، يُغْدَى عليه بها في كل واحدةٍ منها لونٌ ليس في صاحبتها، يأكل مِن آخرها كما يأكل من أوَّلها، ويجد طعمَ آخِرها كما يجد طعم أوَّلها، لا يُشبه بعضُه بعضاً، ويُراح عليه بمثلها. ويطوف على أرفعهم درجةً كلَّ يومٍ سبعُ مئةِ ألفِ غلام، مع كل غلامٍ صحفةٌ من ذهب، فيها لونٌ من الطعام ليس في صاحبتها، يأكل من آخرها كما يأكل من أولها، ويجد طعمَ آخرها كما يجد طعم أولها، لا يُشبه بعضُه بعضاً[(١)].

﴿وَأَكْوَابٍ﴾ أي: ويطاف عليهم بأكواب؛ كما قال تعالى: ﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ﴾ [الإنسان: ١٥].

وذَكَرَ ابنُ المبارك[(٢)] قال: أخبرنا مَعْمَر، عن رجل، عن أبي قِلَابة قال: يؤتَون بالطعام والشراب، فإذا كان في آخر ذلك، أُتوا بالشراب الطهور، فَتضْمُرُ لذلك بطونُهم، ويَفيض عرقاً من جلودهم أَطيبَ من ريح المسك؛ ثم قرأ ﴿شَرَابًا طَهُورًا﴾ [الإنسان: ٢١].

وفي صحيح مسلمٍ عن جابر بن عبد الله قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنَّ أهل الجنة يأكلون فيها ويشربون، ولا يَتْفُلون ولا يبولون ولا يتغوّطون [ولا يمتخِطون]. قالوا: فما بالُ الطعام؟ قال: جُشَاءٌ ورَشْح كرشح المِسك، يُلْهَمون التَّسبيحَ والتحميد ـ والتكبيرَ في رواية ـ كما يلهمون النَّفَس»[(٣)].

الثانية: روى الأئمة من حديث أمِّ سلمة عن النبيِّ ﷺ قال: «الذي يشرب في آنية الذهب والفضة إنما يُجَرجِرُ في بطنه نارَ جهنم»[(٤)]. وقال: «لا تشربوا في آنية الذهب

(١) تفسير عبد الرزاق ٢/ ٢٠١، والطبري ٢٠/ ٦٤٣-٦٤٤، وابن أبي حاتم ١٠/ ٣٢٨٦ بنحوه.

(٢) في الزهد (٢٧٤ زوائد نعيم).

(٣) صحيح مسلم (٢٨٣٥)، وهو عند أحمد (١٤٤٠١). وما بين حاصرتين منهما.

(٤) مسند أحمد (٢٦٥٦٨)، وصحيح البخاري (٥٦٣٤)، وصحيح مسلم (٢٠٦٥).

والفضة، ولا تأكلوا في صِحَافها»[١] وهذا يقتضي التحريم، ولا خلاف في ذلك.

واختلف الناس في استعمالها في غير ذلك. قال ابن العربي[٢]: والصحيح أنه لا يجوز للرجال استعمالها في شيء؛ لقول النبيِّ ﷺ في الذهب والحرير: «هذان حرامٌ لذكور أُمتي حِلٌّ لإناثها»[٣]. والنهيُ عن الأكل والشرب فيها يدلُّ على تحريم استعمالها؛ لأنه نوعٌ من المتاع، فلم يَجز؛ أصله الأكل والشرب، ولأن العِلَّة في ذلك استعجالُ أمرِ[٤] الآخرة، وذلك يستوي فيه الأكلُ والشرب وسائرُ أجزاءِ الانتفاع؛ ولأنه ﷺ قال: «هي لهم في الدنيا ولنا في الآخرة»[٥]، فلم يجعل لنا فيها حظًّا في الدنيا.

الثالثة: إذا كان الإناءُ مُضَبَّباً بهما أو فيه حَلْقةٌ منهما، فقال مالك: لا يُعجبني أنْ يُشربَ فيه، وكذلك المرآةُ تكون فيها الحلقةُ من الفضة، لا يعجبني أن ينظرَ فيها وجهَه. وقد كان عند أنسٍ إناءٌ مضبَّبٌ بفضة، وقال: لقد سَقيتُ فيه النبيَّ ﷺ. قال ابن سيرين: كانت فيه حلقةُ حديد، فأراد أنسٌ أنْ يجعلَ فيه حلقةَ فِضة؛ فقال أبو طلحة: لا أُغيِّر شيئاً مما صنعه رسولُ الله ﷺ؛ فتركه[٦].

الرابعة: إذا لم يَجز استعمالُها لم يجز اقتناؤها؛ لأنَّ ما لا يجوز استعمالُه لا

---

(١) سلف في المسألة السابقة، وهو من حديث حذيفة ﷺ.

(٢) في أحكام القرآن ٤/ ١٦٧٦ .

(٣) أخرجه ابن ماجه (٣٥٩٥) من حديث علي ﷺ. وأخرجه أحمد (٧٥٠)، وأبو داود (٤٠٥٧)، والنسائي ٨/ ١٦٠-١٦١ دون قوله: حل لإناثها.

وله شواهد. منها حديث أبي موسى ﷺ عند أحمد (١٩٥١٥)، والترمذي (١٧٢٠)، والنسائي ٨/ ١٩٠ .

(٤) في أحكام القرآن: أجر.

(٥) سلف في المسألة الأولى.

(٦) هو عند البخاري (٥٦٣٨) عن عاصم الأحول قال: رأيت قدح النبي ﷺ عند أنس بن مالك، وكان قد انصدع، فسلسله بفضة. . . الخ وفيه قول أبي طلحة لأنس: لا تغيرنَّ شيئاً. . . الخ. وأبو طلحة: هو الأنصاري زوج أم سليم والدة أنس. وقد ساق المصنف لفظ الحديث من أحكام القرآن لابن العربي.

يجوز اقتناؤه، كالصنم والطُّنْبور[١]. وفي كتب علمائنا: أنه يلزم الغُرْمُ في قيمتها لمن كسرها، وهو معنًى فاسد، فإنَّ كَسْرَها واجب، فلا ثمن لقيمتها. ولا يجوز تقويمُها في الزكاة بحال. وغيرُ هذا لا يُلتفت إليه[٢].

قوله تعالى: ﴿بِصِحَافٍ﴾ قال الجوهري: الصَّحْفة كالقَصْعة، والجمع: صِحاف. قال الكِسائي: أعظم القصاع الجَفْنة، ثم القَصْعة تليها تُشبع العشرة، ثم الصحفة تُشبع الخمسة، ثم المِئْكَلة تُشبع الرجلين والثلاثة، ثم الصُّحَيفة تشبع الرجل. والصحيفة: الكتاب، والجمع: صُحُف وصحائف[٣].

قوله تعالى: ﴿وَأَكْوَابٍ﴾ قال الجوهري[٤]: الكوب: كوزٌ لا عُروةَ له، والجمع: أكواب. قال الأعشى يصف الخمر:

صَريفِيَّةٌ[٥] طَيِّبٌ طَعْمُها ... لها زَبَدٌ بين كُوبٍ ودَنّ

وقال آخر[٦]:

مُتَّكِئاً تَصْفِقُ أبوابُه ... يسعى عليه العَبْدُ بالكوبِ

وقال قتادة: الكُوب: المدوَّرُ القصير العنقِ القصيرُ العروة، والإبريق: المستطيل العنق الطويلُ العروة. وقال الأخفش: الأكواب: الأباريق التي لا خراطيم لها. وقال قُطْرُب: هي الأباريق التي ليست لها عُرًى. وقال مجاهد: إنها الآنيةُ المدوَّرةُ الأفواه. السُّدِّي: هي التي لا آذان لها[٧]. ابن عُزيز: «أكواب»: أباريقُ لا عُرَى لها ولا

---

(١) آلة من آلات اللعب واللهو والطرب. المعجم الوسيط (طنب).

(٢) نهاية كلام ابن العربي.

(٣) الصحاح (صحف).

(٤) في الصحاح (كوب).

(٥) في الديوان ص٦٧: صليفية، وهي المعتَّقة كما قال شارحه. والصريفية: نسبة إلى صَرِيفون: بلدة بواسط منها الخمر الصريفية. أو قيل لها: صريفية؛ لأنها أخذت من الدن ساعتئذ، كاللبن الصريف. القاموس (صرف).

(٦) هو عدي بن زيد، والبيت في تهذيب اللغة ١٠/ ٤٠٠ ، والصحاح، واللسان (كوب).

(٧) النكت والعيون ٥/ ٢٣٨-٢٣٩ ، وقول السدي أخرجه الطبري ٢٠/ ٦٤٤-٦٤٥ .

خراطيم؛ واحدها كُوب(١).

قلت: وهو معنى قولِ مجاهدٍ والسُّدِّيّ، وهو مذهب أهلِ اللغة أنها التي لا آذان لها ولا عُرًى.

قوله تعالى: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ﴾ روى التِّرمذيُّ عن سليمانَ بنِ بُريدة، عن أبيه: أنَّ رجلاً سأل النبيَّ ﷺ فقال: يا رسول الله، هل في الجنة مِن خيل؟ قال: «إنِ اللهُ أدخلك الجنة، فلا تشاءُ أن تحَمِلَ فيها على فرس مِن ياقوتة حمراءَ يطير بك [في الجنة] حيث شئتَ(٢)». قال: وسأله رجلٌ فقال: يا رسول الله، هل في الجنة مِن إبل؟ قال: فلم يقل له مِثلَ ما قال لصاحبه، قال: «إنْ يُدخلكَ اللهُ الجنة، يكن لك فيها ما اشتهت نفسُك ولَذَّت عينُك»(٣).

وقرأ أهل المدينة وابنُ عامر وأهلُ الشام(٤): «وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الأَنْفُسُ»، الباقون: «تَشْتَهي الأَنْفُسُ» أي: تشتهيه الأنفس(٥)؛ تقول: الذي ضربت زيد(٦)، أي: الذي ضربته زيد.

﴿وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ﴾ تقول: لذَّ الشيءُ يَلَذُّ لَذاذاً، ولَذاذة. ولَذِذت بالشيء أَلَذّ - بالكسر في الماضي والفتح في المستقبل - لَذاذاً ولَذَاذة، أي: وجدته لذيذاً.

---

(١) نزهة القلوب ص٩٨ .

(٢) في رواية أحمد زيادة: إلا ركبت.

(٣) سنن الترمذي (٢٥٤٣)، وما بين حاصرتين منه. وهو عند أحمد (٢٢٩٨٢) كلاهما من طريق المسعودي، عن علقمة بن مَرْثَد، عن ابن بريدة... وخالف المسعوديَّ سفيانُ الثوري - كما أخرجه الترمذي عقب الحديث - فرواه عن علقمة بن مرثد، عن عبد الرحمن بن سابط مرسلاً. قال الترمذي: وهذا أصح من حديث المسعودي .
وللحديث شواهد.

(٤) في (ز) و(ظ) و(ق): في أهل الشام .

(٥) السبعة ص٥٨٩ ، والتيسير ص١٩٧ ، والنشر ٢/ ٣٧٠ . وقرأ حفص أيضاً عن عاصم مثل قراءة أهل المدينة وابن عامر.

(٦) في النسخ الخطية: زيداً. والمثبت من (م).

والْتذذت به وتلذَّذت به بمعنًى[١]. أي: في الجنة ما تستلَذُّه العينُ، فكان حَسَنَ المَنْظَر. وقال سعيد بن جبير: «وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ»: النظر إلى الله عزَّ وجلَّ؛ كما في الخبر: «أسألك لَذَّةَ النظرِ إلى وجهك»[٢]. ﴿وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾: باقون دائمون؛ لأنها لو انقطعت لتبغَّضت.

قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ﴾ أي: يقال لهم: هذه تلك الجنةُ التي كانت توصف لكم في الدنيا. وقال ابن خالويه: أشار تعالى إلى الجنة بـ «تلك» وإلى جهنم بـ «هذه»؛ ليخوِّفَ بجهنم ويؤكِّدَ التحذيرَ منها. وجعلها بالإشارة القريبةِ كالحاضرة التي يُنظر إليها.

﴿ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ قال ابن عباس: خلق الله لكل نَفْسٍ جنةً وناراً؛ فالكافر يرث نارَ المسلم، والمسلمُ يرث جنةَ الكافر[٣]؛ وقد تقدَّم هذا مرفوعاً في ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [المؤمنون: ١] من حديث أبي هريرة[٤]، وفي «الأعراف» أيضاً[٥].

قوله تعالى: ﴿لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٣﴾﴾

الفاكهة معروفة، وأجناسُها الفواكه، والفاكِهانيُّ: الذي يبيعها. وقال ابن عباس: هي الثمارُ كلُّها، رَطْبُها ويابِسُها، أي: لهم في الجنة سوى الطعامِ والشراب فاكهةٌ كثيرة يأكلون منها.

---

(١) الصحاح (لذذ).

(٢) أخرجه أحمد (١٨٣٢٥)، والنسائي ٣/ ٥٤-٥٥ من حديث عمار بن ياسر رضي الله عنهما مطولاً.

(٣) الوسيط للواحدي ٤/ ٨١ .

(٤) ١٥/ ١٥-١٦ .

(٥) ٩/ ٢٢٣ .

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ﴾ لمَّا ذكر أحوالَ أهل الجنة؛ ذَكَرَ أحوال أهلِ النار أيضاً؛ ليبيِّنَ فضلَ المطيع على العاصي. ﴿لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ﴾ أي: لا يُخفَّف عنهم ذلك العذاب. ﴿وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ أي: آيسون من الرحمة. وقيل: ساكتون سكوتَ يأس. وقد مضى في «الأنعام»[1]. ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ﴾ بالعذاب ﴿وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أنفسَهم بالشِّرك. ويجوز: «وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمُونَ» بالرفع على الابتداء والخبر، والجملة خبرُ كان[2].

قوله تعالى: ﴿وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ﴾ وهو خازنُ جهنم، خَلَقَه لِغضبه؛ إذا زجر النارَ زجرةً أكل بعضُها بعضاً.

وقرأ عليٌّ وابن مسعود رضي الله عنهما: «وَنَادَوْا يَا مَالِ». وذلك خلافُ المصحف[3]. وقال أبو الدرداء وابن مسعود: قرأ النبيُّ ﷺ: «وَنَادَوْا يَا مَالِ» باللام خاصة[4]؛ يعني رَخَّم الاسمَ وحذف الكاف. والترخيمُ الحذف، ومنه ترخيم الاسم في النداء، وهو أن يُحذفَ مِن آخره حرفٌ أو أكثر، فتقول في مالك: يا مالِ، وفي حارث: يا حارِ، وفي فاطمة: يا فاطمَ، وفي عائشة: يا عائشَ، وفي مروان: يا مروَ، وهكذا. قال[5]:

---

(١) ٨/ ٣٨١.

(٢) الكلام بنحوه في القراءات الشاذة ص١٣٦ . وهي قراءة ابن مسعود كما في معاني القرآن للفراء ٣/ ٣٧ ، وإعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٢١ ، والمحرر الوجيز ٥/ ٦٤ . قال الزجاج في معاني القرآن ٤/ ٤٢٠ : لا تقرأنَّ بها لأنها تخالف المصحف.

(٣) القراءات الشاذة ص١٣٦ ، والمحتسب ٢/ ٢٥٧ .

(٤) أخرجها الدوري في قراءات النبي ﷺ ص١٤٦-١٤٧ عن أبي الدرداء ﷺ.

(٥) هو زهير، والبيت في ديوانه ص١٨٠ .

يا حارِ لا أُرْمَيَنْ منكم بداهية ... لم يَلْقَها سُوقةٌ قبلي ولا مَلِكُ

وقال امرؤ القيس[(١)]:

أحارِ ترى بَرْقاً أُريك وميضَه ... كلمع اليدين في حَبِيٍّ مُكلَّلِ

وقال أيضاً[(٢)]:

أفاطِمَ مهلاً بعضَ هذا التدلُّلِ ... وإن كنتِ قد أزمعتِ صَرْمي فأجْمِلِ

وقال آخر[(٣)]:

يا مَروَ إنَّ مطيَّتي محبوسةٌ ... ترجو الحِباءَ وربُّها لم ييأسِ

وفي صحيح الحديث: «أي فُلُ، هلُمَّ»[(٤)].

ولكَ في آخر الاسم المرخَّم وجهان: أحدهما: أن تُبْقيَه على ما كان عليه قبل الحذف. والآخر: أن تَبنيَه على الضم؛ مثل: يا زيدُ؛ كأنك أنزلته منزلتَه ولم تراعِ المحذوف[(٥)].

وذكر أبو بكر الأنباريُّ قال: حدَّثنا محمد بن يحيى المَرْوَزيُّ قال: حدَّثنا محمد ـ وهو ابن سعدان ـ قال: حدَّثنا حجاجٌ، عن شعبة، عن الحكم بن عتيبة[(٦)]، عن مجاهد قال: كنا لا ندري ما الزُّخرف حتى وجدناه في قراءة عبدِ الله: «بيتٌ من ذهب»، وكنا لا ندري: «وَنَادَوْا يَا مَالِكُ» أو: يا ملك ـ بفتح اللام وكسرها ـ حتى وجدناه في قراءة عبدِ الله: «وَنَادَوْا يَا مَالِ» على الترخيم[(٧)]. قال أبو بكر: لا يُعمل

---

(١) ديوانه ص٢٤ . وسلف ٣/ ٤٢٥ .

(٢) ديوانه ص١٢ .

(٣) هو الفرزدق، والبيت في ديوانه ١/ ٣٨٤ .

(٤) صحيح البخاري (٢٨٤١)، وصحيح مسلم (١٠٢٧): (٨٦) من حديث أبي هريرة مطولاً. وسلف ٨/ ٣٤١ بنحوه. وقوله: فلُ، أي: فلان.

(٥) بنحوه في إعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٢١ .

(٦) تحرفت في النسخ إلى: عيينة.

(٧) ذكر قول مجاهد ابن خالويه في القراءات الشاذة ص١٣٦ . وذكر القطعة الثانية منه النحاس في إعراب القرآن ٤/ ١٢١ .

على هذا الحديث؛ لأنه مقطوعٌ لا يُقبل مِثلُه في الرواية عن الرسول عليه الصلاة والسلام؛ وكتابُ الله أحقُّ بأن يُحتاطَ له ويُنفى عنه الباطل.

قلت: وفي صحيح البخاريِّ عن صَفْوان بنِ يَعْلَى، عن أبيه قال: سمعت النبيَّ ﷺ يقرأ على المنبر: ﴿وَنَادَوْا يَمَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾[1] بإثبات الكاف.

وقال محمد بن كعب القُرَظيُّ: بلغني - أو ذُكر لي - أنَّ أهل النار استغاثوا بالخَزَنَة، فقال الله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ﴾ فسألوا يومًا واحداً يُخفَّف عنهم فيه العذاب؛ فرَدَّت عليهم: ﴿أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ [غافر: ٤٩-٥٠] قال: فلما يَئسوا مما عند الخزنة نَادَوْا مالكًا؛ وهو مُشرِفٌ[2] عليهم وله مجلسٌ في وسطها، وجسورٌ تمرُّ عليها ملائكةُ العذاب؛ فهو يرى أقصاها كما يرى أدناها، فقالوا: «يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ». قال[3]: سألوا الموت، قال: فسكت عنهم لا يجيبهم ثمانينَ سَنة، قال: والسَّنة سِتُّونَ وثلاثُ مِئةِ يوم، والشهر ثلاثون يوماً، واليومُ كألف سَنةٍ مما تَعدُّون، ثم لحظ إليهم بعد الثمانين فقال: «إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ» وذكر الحديث؛ ذكره ابن المبارك.

وفي حديث أبي الدرداء عن النبيِّ ﷺ قال: «فيقولون: ادعوا مالكاً، فيقولون: يا مالك لِيقضِ علينا ربُّك، قال: إنكم[4] ماكثون». قال الأعمش: نُبِّئْتُ أنَّ بين دعائهم وبين إجابةِ مالكٍ إياهم ألفَ عام. خرَّجه الترمذي[5].

وقال ابن عباس: يقولون ذلك فلا يجيبهم ألفَ سنة، ثم يقول: إنكم ماكثون.

---

(١) صحيح البخاري (٣٢٣٠). وهو عند أحمد (١٧٩٦١)، ومسلم (٨٧١).

(٢) قوله: مشرف، من (ظ).

(٣) لفظة: قال ليست في (م).

(٤) قبلها في سنن الترمذي: فيجيبهم.

(٥) في سننه (٢٥٨٦)، ورجح وقفه. والأعمش أحد رجال السند.

وقال مجاهد ونَوْفٌ البِكَاليّ: بين ندائهم وإجابته إياهم مئةُ سنة[١]. وقال عبد الله بن عمرو: أربعون سنة؛ ذكره ابن المبارك[٢].

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٨﴾﴾

يحتمل أنْ يكونَ هذا من قول مالكٍ لهم، أي: إنكم ماكثون في النار؛ لأننا جئناكم في الدنيا بالحقِّ فلم تقبلوا. ويحتمل أن يكونَ من كلام الله لهم اليوم، أي: بيَّنَّا لكم الأدلةَ وأرسلنا إليكم الرسل[٣].

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ﴾ قال ابن عباس: «وَلَكِنّ أَكْثَرَكُمْ» أي: ولكنَّ كلَّكم[٤]. وقيل: أراد بالكثرة الرؤساءَ والقادةَ منهم، وأما الأتباعُ فما كان لهم أثر. ﴿لِلْحَقِّ﴾ أي: للإسلام ودينِ الله ﴿كَٰرِهُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿أَمْ أَبْرَمُوٓا۟ أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴿٧٩﴾﴾

قال مقاتل: نزلت في تدبيرهم بالمكر بالنبيِّ ﷺ في دار الندوة، حتى استقرَّ أمرُهم على ما أشار به أبو جهل عليهم أنْ يبرُزَ من كل قبيلةٍ رجلٌ ليشتركوا في قتله، فتَضعُفَ المطالبةُ بدمه؛ فنزلت هذه الآية، وقتل اللهُ جميعَهم ببدر[٥].

«أَبْرَمُوا»: أحكموا. والإبرام: الإحكام. أبرمت الشيءَ: أحكمته. وأبرم الفِتَال: إذا أحكم الفتل، وهو الفتل الثاني، والأول سَحِيل؛ كما قال:

.... مِـــن سَـــحِـــيـــلٍ ومُـــبْـــرَمِ[٦]

---

(١) قولا ابن عباس ونوف البكالي أخرجهما الطبري ٢٠/ ٦٤٩ ، ٦٥٠ .

(٢) في الزهد (٣١٩ زوائد نعيم) مطولاً. وأخرجه أيضاً الطبري ٢٠/ ٦٤٩ - ٦٥٠ .

(٣) الكلام بنحوه في المحرر الوجيز ٥/ ٦٥ . وينظر الكشاف ٣/ ٤٩٦ .

(٤) الوسيط للواحدي ٤/ ٨٢ .

(٥) ذكره مختصراً الرازي في تفسيره ٢٧/ ٢٢٨ ، وذكره بطوله الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٢٤٠ غير أنه لم ينسبه لأحد.

(٦) قائله زهير، وهو في ديوانه ص١٤ ، والبيت بتمامه:

يميناً لَنِعم السيدان وجدتما   على كل حال من سحيل ومبرم

فالمعنى: أم أحكموا كيدًا؛ فإنَّا مُحكِمون لهم كَيْدًا؛ قاله ابن زيد ومجاهد. قتادة: أم أجمعوا على التكذيب؛ فإنا مُجمعون على الجزاء بالبعث. الكلبي: أم قَضَوْا أمرًا؛ فإنَّا قاضون عليهم بالعذاب[١]. وأم بمعنى: بل. وقيل: «أَمْ أَبْرَمُوا» عطفٌ على قوله: ﴿أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ [الآية: ٤٥]. وقيل: أي: ولقد جئناكم بالحقّ فلم تسمعوا، أم سمعوا فأعرضوا؛ لأنهم في أنفسهم أبرموا أمرًا أمِنُوا به العقاب.

قوله تعالى: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمۚ﴾ أي: ما يُسِرُّونه في أنفسهم ويتناجَون به بينهم. ﴿بَلَىٰ﴾ نسمع ونعلم. ﴿وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ أي: الحفظةُ عندهم يكتبون عليهم. ورُويَ أنَّ هذا نزل في ثلاثة نفر كانوا بين الكعبة وأستارها؛ فقال أحدهم: أترون أنَّ الله يسمع كلامنا؟ وقال الثاني: إذا جهرتم سَمِع، وإذا أسررتم لم يسمع. وقال الثالث: إن كان يسمع إذا أعلنتم فهو يسمع إذا أسررتم؛ قاله محمد بنُ كعب القُرَظي[٢]. وقد مضى هذا المعنى عن ابن مسعود في سورة فصلت[٣].

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴿٨١﴾ سُبْحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ﴾ اختُلف في معناه؛ فقال ابن عباس والحسن والسُّدِّي: المعنى: ما كان للرحمن ولد، فـ «إن» بمعنى «ما»، ويكون الكلام على هذا تامًّا، ثم تبتدئ: «فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ» أي: الموحِّدين من أهل مكة

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٢٤٠ . وأخرج هذه الآثار ـ عدا قول الكلبي ـ الطبري ٢٠/ ٦٥٢ .

(٢) أخرجه عنه الطبري ٢٠/ ٦٥٣ .

(٣) عند تفسير الآية (٢٢) من سورة فصلت.

على أنه لا ولدَ له. والوقف على «العابِدِين» تام[1].

وقيل: قل يا محمد: إنْ ثبت لله ولد، فأنا أوَّلُ مَن يَعبد ولدَه، ولكن يستحيل أن يكونَ له ولد؛ وهو كما تقول لمن تناظره: إن ثبت ما قلتَ بالدليل، فأنا أوَّلُ مَن يعتقده؛ وهذا مبالغةٌ في الاستبعاد، أي: لا سبيل إلى اعتقاده. وهذا ترقيقٌ في الكلام؛ كقوله: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ: ٢٤]. والمعنى على هذا: فأنا أوَّل العابدين لذلك الولد، لأنَّ تعظيم الولد تعظيمٌ للوالد.

وقال مجاهد: المعنى: إن كان للرحمن ولد، فأنا أوَّل مَن عبده وحده. على أنه لا ولد له.

وقال السُّدِّيُّ أيضاً: المعنى: لو كان له ولد، كنت أوَّلَ مَن عبده على أنَّ له ولداً؛ ولكن لا ينبغي ذلك.

قال المَهدويّ: فـ «إن» على هذه الأقوالِ للشرط، وهو الأجود، وهو اختيارُ الطبري[2]؛ لأن كونها بمعنى «ما» يتوهم معه أن المعنى لم يكن له فيما مضى.

وقيل: إنَّ معنى «الْعَابِدِينَ»: الآنِفين. وقال بعض العلماء: لو كان كذلك لكان: العَبِدِين. وكذلك قرأ أبو عبد الرحمن واليماني[3]: «فَأَنَا أَوَّلُ الْعَبِدِينَ» بغير ألف، يقال: عَبِدَ يَعْبَدَ عَبَدًا ـ بالتحريك ـ إذا أنِف وغضِب، فهو عَبِد، والاسم العَبَدة، مثلُ الأَنفة، عن أبي زيد[4]. قال الفرزدق:

(١) تفسير الطبري ٢٠/ ٦٥٤ - ٦٥٥ ، وزاد المسير ٧/ ٣٣٢ ، والنكت والعيون ٥/ ٢٤١ . وينظر الوقف والابتداء لابن الأنباري ٢/ ٨٨٦ .

(٢) في تفسيره ٢٠/٦٥٧ -٦٥٨ ، وفيه أثر مجاهد والسدي ص٦٥٤ ، ٦٥٦ .

(٣) في النسخ الخطية: أبو عبد الرحمن اليماني، والمثبت من (م)، والقراءة في المحتسب ٢/ ٢٥٧ ، ومجمع البيان ٥٢/ ٩٩ . ونسبها ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٦٦ لأبي عبد الرحمن. ووقع في القراءات الشاذة ص١٣٧ : أبو عبد الله واليماني، وينظر البحر المحيط ٨/ ٢٨ .

(٤) الصحاح (عبد).

أولـئـك أحـلاسي فـجـئـنـي بـمـثـلـهـم وأَعْـبَـدُ أن أهـجُـو كُـلَـيْـبًـا بـدارمِ[١]

ويُنشد أيضاً:

أولـئـك نـاس إن هَـجَـوني هـجـوتُـهـم وأَعْـبَـدُ أن يُـهـجـى كُـلَـيْـبٌ بـدارم[٢]

قال الجوهري[٣]: وقال أبو عمرو: وقوله تعالى: ﴿فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَـٰبِدِينَ﴾ من الأَنَف والغضب، وقاله الكِسائيُّ والقُتَبي، حكاه الماورديُّ عنهما[٤]. وقال الهَرَوِي: وقوله تعالى: ﴿فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَـٰبِدِينَ﴾ قيل: هو من عَبِد يَعْبَد، أي: من الآنفين. وقال ابن عرفة: إنما يقال: عَبِد يَعبَدُ فهو عَبِد؛ وقلَّما يقال: عابد، والقرآن لا يأتي بالقليل من اللغة ولا الشاذِّ، ولكنَّ المعنى: فأنا أوَّلُ مَن يعبدُ الله عزَّ وجلَّ على أنه واحدٌ لا ولد له.

ورُوي أنَّ امرأة دخلت على زوجها فوَلدت منه لستة أشهر، فذُكر ذلك لعثمانَ ﷺ فأمر برجمها؛ فقال له عليٌّ ﷺ: قال الله تعالى: ﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَـٰلُهُۥ ثَلَـٰثُونَ شَهْرًا﴾ [الأحقاف:١٥]. وقال في آية أخرى: ﴿وَفِصَـٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ﴾ [لقمان:١٤] فواللهِ ما عَبِدَ عثمانُ أنْ بعث إليها تُرَدّ. قال عبد الله بن وهب: يعني: ما استنكف ولا أَنِف[٥].

وقال ابن الأعرابي: «فَأَنَا أَوَّلُ العابِدِينَ» أي: الغِضابِ الآنفين. وقيل: «فَأَنَا أَوَّلُ العابِدِينَ» أي: أنا أوَّلُ مَن يعبده على الوحدانية مخالفاً لكم[٦]. أبو عبيدة[٧]: معناه الجاحدين؛ وحُكي: عَبَدَني حَقِّي، أي: جحدني[٨].

---

(١) إصلاح المنطق ص٥٩، والصحاح (عبد)، وفصل المقال لأبي عبيد البكري ص٣٨١. قوله: الأحلاس جمع حِلْس: وهو الكبير من الناس. القاموس (حلس).

(٢) مجاز القرآن ٢/ ٢٠٦، وجمهرة الأمثال ١/ ٥١٢، واللسان (عبد) باختلاف يسير.

(٣) في الصحاح (عبد).

(٤) في النكت والعيون ٥/ ٢٤١. وكلام ابن قتيبة في تفسير غريب القرآن له ص٤٠١.

(٥) أخرجه الطبري ٢٠/ ٦٥٧.

(٦) ياقوتة الصراط ص٤٦١ - ٤٦٢.

(٧) في مجاز القرآن ٦/ ٢٠٧.

(٨) المحرر الوجيز ٥/ ٦٦.

وقرأ أهل الكوفة إلَّا عاصمًا: «وُلْدٌ» بضم الواو وإسكان اللام. الباقون وعاصم: «وَلَدٌ». وقد تقدَّم[١].

﴿سُبْحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: تنزيهاً له وتقديساً، نَزَّه نفسه عن كلِّ ما يقتضي الحدوث. وأمرَ النبيَّ ﷺ بالتنزيه. ﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾ أي: عما يقولون من الكذب.

قوله تعالى: ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٨٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟﴾ يعني كفارَ مكةَ حين كذَّبوا بعذاب الآخرة. أي: اتركهم يخوضوا في باطلهم ويلعبوا في دنياهم ﴿حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ﴾ إمَّا العذاب في الدنيا أو في الآخرة. وقيل: إنَّ هذا منسوخٌ بآية السيف. وقيل: هو مُحْكَم، وإنما أُخرج مُخرجَ التهديد[٢].

وقرأ ابن مُحيصِن ومجاهدٌ وحُميدٌ وابن القَعقاع وابن السَّمَيْفَع: «حَتَّى يَلْقَوا» بفتح الياء وإسكانِ اللام مِن غير ألف وفتحِ القاف، هنا وفي «الطور» و«المعارج». الباقون: «يُلَاقُوا»[٣].

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾﴾

هذا تكذيبٌ لهم في أنَّ لله شريكًا وولدًا، أي: هو المستحِقُّ للعبادة في السماء والأرض. وقال عمر رضي الله عنه وغيرُه: المعنى: وهو الذي في السماء إلهٌ في[٤] الأرض[٥]؛ وكذلك قرأ[٦]. والمعنى[٧]: أنه يُعبد فيهما. وروي أنه قرأ هو وابنُ مسعود وغيرُهما:

---

(١) السبعة ص٤١٢، والتيسير ص١٤٩ - ١٥٠، وتقدم ١٣/ ٥١٩.

(٢) الكلام بنحوه في المصفى بأكف أهل الرسوخ من علم الناسخ والمنسوخ لابن الجوزي ص٤٨.

(٣) قراءة ابن القعقاع في هذه المواضع في النشر ٢/ ٣٧٠، وهي من العشرة، وقراءة ابن محيصن في القراءات الشاذة ص١٣٧.

(٤) في (د) و(ظ): وفي ...

(٥) بعدها في (ظ): إله.

(٦) في (د) و(ظ): قرئ، ولم نقف عليها.

(٧) قبلها في (ظ): ويقرى بغير واو وهو الذي في السماء إله وفي الأرض إله يعني إله السماء والأرض واحد.. (وقع بعدها سواد).

«وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ اللهُ وَفِي الْأَرْضِ اللهُ»(١) وهذا خلاف المصحف. و«إلهٌ» رفع على أنه خبرُ مبتدأ محذوف؛ أي: وهو الذي في السماء هو إله؛ قاله أبو علي(٢). وحَسُن حذفُه لطول الكلام(٣). وقيل: «في» بمعنى «على»؛ كقوله تعالى: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾ [طه: ٧١] أي: على جذوع النخل؛ أي: هو القادر على السماء والأرض. ﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ﴾ تقدَّم(٤).

قوله تعالى: ﴿وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٥﴾﴾

﴿تَبَارَكَ﴾: تفاعل، من البركة. وقد تقدَّم(٥). ﴿وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ أي: وقتُ قيامها. ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ قرأ ابن كثير وحمزة والكِسائي: «وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ» بالياء. الباقون بالتاء(٦). وكان ابن مُحَيْصِن وحُميدٌ ويعقوب وابن أبي إسحاق يفتحون أوَّله على أصولهم. وضَمَّ الباقون(٧).

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾﴾

فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ﴾ «مَنْ» في موضع الخفض. وأراد بـ «الذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونه» عيسى وعُزَيراً والملائكة. والمعنى: ولا يملك هؤلاء الشفاعةَ

(١) القراءات الشاذة ص١٣٦، والمحرر الوجيز ٥/ ٦٦.

(٢) تفسير الرازي ٢٧/ ٢٣٢.

(٣) أمالي ابن الشجري ١/ ١١٣ و ٣٣١ بنحوه.

(٤) ١/ ٤٢٩.

(٥) ٩/ ٢٤٤.

(٦) السبعة ص٥٨٩، والتيسير ص١٩٧.

(٧) قراءة يعقوب في النشر ٢/ ٣٧٠، وهي بالتاء من رواية روح، وبالياء من رواية رويس.

إلَّا لمن شهد بالحقِّ وآمن على علمٍ وبصيرة؛ قاله سعيد بن جبير وغيره[١]. قال: وشهادةُ الحقِّ: لا إله إلا الله.

وقيل: «مَنْ» في محلِّ رفع؛ أي: ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعةَ ـ يعني الآلهة؛ في قول قتادة[٢]، أي: لا يشفعون لعابديها ـ إلَّا مَن شهد بالحق، يعني عُزيراً وعيسى والملائكة؛ فإنهم يشهدون بالحقِّ والوَحدانيةِ لله[٣]. ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ حقيقة ما شهدوا به.

وقيل: إنها نزلت بسبب أنَّ النَّضْر بنَ الحارث ونَفَراً من قريش قالوا: إنْ كان ما يقول محمدٌ حقًّا فنحن نتولَّى الملائكة، وهم أحقُّ بالشفاعة لنا منه؛ فأنزل الله: ﴿وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ﴾[٤] أي: اعتقدوا أنَّ الملائكة أو الأصنام أو الجِنَّ أو الشياطين تشفع لهم، ولا شفاعةَ لأحد يومَ القيامة.

﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ﴾ يعني المؤمنين إذا أُذِن لهم. قال ابن عباس: «إلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ» أي: شَهِد أنْ لا إله إلا اللهُ وأنَّ محمدًا رسولُ الله[٥].

وقيل: أي: لا يملك هؤلاء العابدون من دون الله أن يَشفعَ لهم أحدٌ إلَّا مَن شَهِد بالحق؛ فإنَّ مَن شهد بالحق يَشفع له ولا يَشفع لمشرك. و«إلَّا» بمعنى: لكن، أي: لا ينال المشركون[٦] الشفاعةَ، لكن ينال الشفاعةَ مَن شهد بالحق؛ فهو استثناءٌ منقطع.

(١) تفسير البغوي ٤/ ١٤٧ . وأخرجه الطبري ٢٠/ ٦٦١ عن مجاهد، والاستثناء على هذا التأويل منفصل، كما ذكر ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٦٧ .

(٢) أخرج قوله الطبري ٢٠/ ٦٦٢ .

(٣) تفسير البغوي ٤/ ١٤٧ ، والاستثناء على هذا التأويل متصل، وهو ما رجحه البغوي وابن عطية، وتكون «مَنْ» في محل رفع على البدلية من «الذين»، ويجوز أيضاً النصب على الاستثناء. ينظر إعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٢٢ .

(٤) النكت والعيون ٥/ ٢٤٢ ، وزاد المسير ٧/ ٣٣٣ .

(٥) أخرجه البيهقي في البعث والنشور (٣) دون قوله: وأن محمداً رسول الله.

(٦) في النسخ الخطية: المشركين.

ويجوز أن يكون متصلاً؛ لأن في جملةِ «الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ» الملائكةَ[١]. ويقال: شَفَعْته وشَفَعْت له؛ مثل: كِلْته وكِلْت له. وقد مضى في «البقرة» معنى الشفاعة واشتقاقها[٢]، فلا معنى لإعادتها.

وقيل: «إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالحَقِّ»: إلَّا مَن تشهد له الملائكةُ بأنه كان على الحق في الدنيا، مع علمهم بذلك منه بأنْ يكونَ اللهُ أخبرهم به، أو بأنْ شاهدوه على الإيمان.

الثانية: قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ يدلُّ على معنيين: أحدهما: أنَّ الشهادة[٣] بالحقِّ غيرُ نافعةٍ إلّا مع العلم، وأنَّ[٤] التقليد لا يُغني مع عدم العلمِ بصحة المقالة. والثاني: أنَّ شرط سائرِ الشهادات في الحقوق وغيرِها أن يكونَ الشاهدُ عالماً بها. ونحوُه ما رُوي عن النبيِّ ﷺ «إذا رأيتَ مِثلَ الشمس فاشهد، وإلَّا فَدَعْ». وقد مضى في «البقرة»[٥].

قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ أي: لَأقرُّوا بأنَّ الله خلقهم بعد أن لم يكونوا شيئًا. ﴿فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ أي: كيف ينقلبون عن عبادته وينصرفون عنها حتى أشركوا به غيرَه رجاءَ شفاعتِهم له. يقال: أَفَكَه يَأْفِكُه أَفْكًا؛ أي: قَلَبه وصَرَفه عن الشيء. ومنه قولُه تعالى: ﴿قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا﴾[٦] [الأحقاف:٢٢]. وقيل: أي: ولئن سألتَ الملائكةَ وعيسى «مَنْ خَلَقَهُمْ» لَقالوا: الله. «فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ» أي: فأنَّى يُؤفك هؤلاء في ادِّعائهم إياهم آلهةً!

(١) الكشاف ٣/ ٤٩٨.

(٢) ٢/ ٧٦.

(٣) في (م): الشفاعة.

(٤) في أحكام القرآن للكيا ٤/ ٣٦٩ ـ والكلام منه ـ: فإن.

(٥) ٤/ ٤٤١.

(٦) الصحاح (أفك).

قوله تعالى: ﴿وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾﴾

في «قِيلِهِ» ثلاثُ قراءات: النصب، والجرّ، والرفع. فأمَّا الجرُّ، فهي قراءةُ عاصم وحمزة. وبقية السبعة بالنصب[١]. وأما الرفع؛ فهي قراءة الأعرجِ وقتادةَ وابنِ هُرْمُزٍ[٢] ومسلم بن جُنْدب[٣].

فمن جَرَّ حمله على معنى: وعنده عِلْمُ الساعة وعلمُ قِيلِه.

ومَن نصب فعلى معنى: وعنده عِلم الساعة ويعلم قِيلَه؛ وهذا اختيار الزَّجاج[٤].

وقال الفرَّاء والأخفش[٥]: يجوز أن يكون ﴿قِيلَهُۥ﴾ عطفًا على قوله: ﴿أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم﴾ [الآية: ٨٠].

قال ابن الأنباري[٦]: سألتُ أبا العباس محمد بنَ يزيدَ المبرِّد: بأيِّ شيءٍ تَنْصِبُ القيل؟ فقال: أنصبه على «وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيعْلَم قِيلَه». فمن هذا الوجهِ لا يَحسُن الوقفُ على «تُرْجَعُونَ»، ولا على «يَعْلَمُونَ». ويحسُن الوقفُ على «يَكْتُبُونَ». وأجاز الفراءُ والأخفش[٧] أن يُنصبَ القيلُ على معنى: [أنَّا] لا نسمع سِرَّهم ونجواهم وقِيلَه؛ كما ذكرنا عنهما. فمن هذا الوجهِ لا يحسُن الوقف على «يَكْتُبُونَ»[٨].

وأجاز الفراء والأخفش أيضًا[٩] أن يُنصب على المصدر؛ كأنه قال: وقال قِيلَه، وشكا شكواه إلى الله عزَّ وجلَّ، كما قال كعب بن زهير:

---

(١) السبعة ص٥٨٩، والتيسير ص١٩٧.

(٢) هو نفسه الأعرج المذكور، واسمه عبد الرحمن، روى له الجماعة.

(٣) المحتسب ٢/ ٢٥٨، والقراءات الشاذة ص١٣٦، والبحر ٨/ ٣٠.

(٤) في معاني القرآن ٤/ ٤٢١.

(٥) كلام الفراء في معاني القرآن له ٣/ ٣٨، وكلام الأخفش في معاني القرآن للزجاج ٤/ ٤٢١.

(٦) في الوقف والابتداء ٢/ ٨٨٦.

(٧) كلام الفراء في معاني القرآن له ٣/ ٣٨، وكلام الأخفش في إعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٢٣.

(٨) الوقف والابتداء ٢/ ٨٨٧.

(٩) كلام الفراء في معاني القرآن له ٣/ ٣٨، وكلام الأخفش في إعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٢٣.

يـمـشـي الـوُشـاةُ جَـنـابَـيـهـا وقِـيـلَـهُـمُ إنَّـك يـا ابـنَ أبـي سُـلْـمَـى لَـمـقـتـولُ

أراد: ويقولون قيلَهم[١].

ومَن رفع «قيله»، فالتقدير: وعنده قِيلُه، أو: قِيلُه مسموع[٢]، أو: قِيلُه هذا القولُ.

الزمخشريّ: والذي قالوه ليس بقويٍّ في المعنى، مع وقوع الفصل بين المعطوف والمعطوف عليه بما لا يحسُن اعتراضًا، ومع تنافر النَّظْم. وأقوى من ذلك وأوجهُ أن يكونَ الجرُّ والنصب على إضمار حرفِ القَسَم وحذفِه. والرفع على قولهم: أَيمُنُ الله، وأمانة الله، ويمين الله، ولَعْمرُك، ويكون قولُه: «إِنَّ هَٰؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ» جوابَ القسم؛ كأنه قال: وأقسم بقيله: ياربِّ، أو: قيلِهِ: يا ربِّ قَسَمي، إنَّ هؤلاءِ قومٌ لا يؤمنون[٣].

وقال ابن الأنباري[٤]: ويجوز في العربية: «وقيلُه» بالرفع، على أنْ تَرفعَه بـ «إنَّ هؤلاءِ قومٌ لا يؤمنون». المهدوي: أو يكون على تقدير: وقِيلُه قِيلُه يا ربّ؛ فحذف قيله الثاني[٥] الذي هو خبر. وموضع «يا ربّ» نصبٌ بالخبر المضمَر، ولا يمتنع ذلك من حيث امتنع حذفُ بعضِ الموصول وبقي بعضه؛ لأن حذف القول قد كَثُر حتى صار بمنزلة المذكور.

والهاء في «قِيله» لعيسى[٦]، وقيل: لمحمد ﷺ، وقد جرى ذِكْرُه إذ قال: «قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ»[٧].

---

(١) الوقف والابتداء ٢/ ٨٨٧ . وبيت كعب في ديوانه ص٨٩ ، وروايته: يسعى الوشاة بجنبيها وقولهم.

(٢) مشكل إعراب القرآن ٢/ ٦٥٢ .

(٣) الكشاف ٣/ ٤٩٨ .

(٤) في الوقف والابتداء ٢/ ٨٨٧ .

(٥) في النسخ الخطية: الأول.

(٦) ضعَّف هذا القول ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٦٧ .

(٧) الكلام بنحوه في إعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٢٤ . وينظر تفسير الطبري ٢٠/ ٦٦٤ ، ومشكل إعراب القرآن ٢/ ٦٥٢ .

وقرأ أبو قِلابة: «يَاربَّ» بفتح الباء[١]. والقيل مصدر كالقول؛ ومنه الخبر: «نهى عن قِيْلٍ وقال»[٢]. ويقال: قلت قَوْلًا وقِيلًا وقالًا. وفي النساء: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾ [الآية: ١٢٢].

قوله تعالى: ﴿فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَٰمٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ۝٨٩﴾

قال قتادة: أمرَه بالصَّفح عنهم، ثم أمره بقتالهم، فصار الصفحُ منسوخاً بالسيف. ونحوُه عن ابن عباس قال: «فَاصْفَحْ عَنْهُمْ»: أَعرِض عنهم. ﴿وَقُلْ سَلَٰمٌ﴾ أي: معروفًا؛ أي: قل لمشركي أهل مكة «فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ» ثم نُسخ هذا في سورة براءةٌ بقوله تعالى: ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ [الآية: ٥][٣]. وقيل: هي مُحْكَمة لم تُنسخ.

وقراءة العامة: «فَسَوْفَ يعلمون» بالياء؛ على أنه خبرٌ من الله تعالى لنبيِّه بالتهديد. وقرأ نافعٌ وابن عامر: «تَعْلَمُونَ» بالتاء[٤]؛ على أنه من خطاب النبيِّ ﷺ للمشركين بالتهديد. و«سلَامٌ» رفع بإضمار: عليكم؛ قاله الفرَّاء[٥]. ومعناه: الأمر بتوديعهم بالسلام، ولم يجعله تحيَّةً لهم؛ حكاه النقَّاش. وروى شعيب بن الحَبْحاب أنه عرَّفه بذلك كيف السلامُ عليهم[٦]؛ والله أعلم.

---

(١) مشكل إعراب القرآن ٢/ ٦٥٢، والمحرر الوجيز ٥/ ٦٧، وهي قراءة شاذة.

(٢) أخرجه مسلم (١٧١٥) من حديث أبي هريرة، وسلف ٥/ ٢٥١.

(٣) أخرج قولهما النحاس في الناسخ والمنسوخ ٢/ ٦٢٤، وقول قتادة أخرجه أيضاً الطبري ٢٠/ ٦٦٥.

(٤) السبعة ص٥٨٩، والتيسير ص١٩٧.

(٥) في معاني القرآن ٣/ ٣٨.

(٦) النكت والعيون ٥/ ٢٤٣.

تفسير سورة الزُّخرف

وهى مكية .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ حم ① وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ② إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ③ وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ④ أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ⑤ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي الأَوَّلِينَ ⑥ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلاَّ كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ⑦ فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ الأَوَّلِينَ ⑧ ﴾ .

يقول تعالى: ﴿حم . وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ أى: البين [(١)] الواضح الجلى المعانى والألفاظ؛ لأنه نزل[(٢)] بلغة العرب التى هى أفصح اللغات للتخاطب [(٣)] بين الناس؛ ولهذا قال: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهُ ﴾ أى: أنزلناه ﴿ قُرْآنًا عَرَبِيًّا ﴾ أى: بلغة العرب فصيحا واضحا، ﴿ لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ أى: تفهمونه وتتدبرونه، كما قال: ﴿ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾ [الشعراء: ١٩٥].

وقوله تعالى: ﴿ وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴾: بين شرفه فى الملأ الأعلى، ليشرفه ويعظمه ويطيعه أهل الأرض، فقال تعالى: ﴿ وَإِنَّهُ ﴾ أى: القرآن ﴿ فِي أُمِّ الْكِتَابِ﴾ أى: اللوح المحفوظ، قاله ابن عباس، ومجاهد، ﴿ لَدَيْنَا ﴾ أى: عندنا، قاله قتادة وغيره، ﴿ لَعَلِيٌّ ﴾ أى: ذو مكانة عظيمة وشرف وفضل، قاله قتادة، ﴿ حَكِيمٌ ﴾ أى: محكم برىء من اللبس والزيغ.

وهذا كله تنبيه على شرفه وفضله، كما قال: ﴿ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ . فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ . لا يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ . تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الواقعة: ٧٧ـ ٨٠] وقال: ﴿ كَلاَّ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ . فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ . فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ . مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ . بِأَيْدِي سَفَرَةٍ . كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴾ [عبس: ١١ ـ ١٦]؛ ولهذا استنبط العلماء، رحمهم الله، من هاتين الآيتين: أن المُحدثَ لا يمس المصحف، كما ورد به الحديث إن صح؛ لأن[(٤)] الملائكة يعظمون المصاحف المشتملة على القرآن فى الملأ الأعلى، فأهل الأرض بذلك أولى وأحرى، لأنه نزل عليهم، وخطابه متوجه إليهم، فهم أحق أن يقابلوه بالإكرام والتعظيم، والانقياد له بالقبول والتسليم، لقوله: ﴿ وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾.

وقوله: ﴿ أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ﴾ :اختلف المفسرون فى معناها، فقيل: معناها: أتحسبون أن نصفح عنكم فلا نعذبكم ولم تفعلوا ما أمرتم به؟ قاله ابن عباس، ومجاهد وأبو صالح، والسدى، واختاره ابن جرير[(٥)].

وقال قتادة فى قوله: ﴿ أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا﴾: والله لو أن هذا القرآن رفع حين ردته

(١) فى أ: «النير». (٢) فى ت، م: «منزل». (٣) فى ت، م: «المتخاطب».
(٤) فى ت، أ: «إن صح ، وقوله: «لا تمس المصحف إلا وأنت طاهر »لأن». (٥) فى ت: «ومجاهد وغيرهما».

أوائل [١] هذه الأمة لهلكوا، ولكن الله عاد بعائدته ورحمته، وكرره عليهم ودعاهم إليه عشرين سنة، أو ما شاء الله من ذلك.

وقول قتادة لطيف المعنى جدا، وحاصله أنه يقول في معناه: أنه تعالى من لطفه ورحمته بخلقه لا يترك دعاءهم إلى الخير والذكر [٢] الحكيم ـ وهو القرآن ـ وإن كانوا مسرفين معرضين عنه، بل أمر [٣] به ليتهدى من قَدّر هدايته، وتقوم الحجة على من كتب شقاوته.

ثم قال تعالى ـ مسليا لنبيه في تكذيب من كذبه من قومه، وآمرا له بالصبر عليهم ـ: ﴿ **وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي الأَوَّلِينَ** ﴾ أي: في شيع الأولين، ﴿ **وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلاَّ كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُون** ﴾ أي: يكذبونه ويسخرون به.

وقوله: ﴿ **فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا** ﴾ أي: فأهلكنا المكذبين بالرسل، وقد كانوا أشد بطشا من هؤلاء المكذبين لك يامحمد. كقوله: ﴿ **أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً** ﴾ [غافر: ٨٢] والآيات في ذلك كثيرة.

وقوله: ﴿ **وَمَضَىٰ مَثَلُ الأَوَّلِينَ** ﴾: قال مجاهد: سنتهم. وقال قتادة: عقوبتهم. وقال غيرهما: عبرتهم، أي: جعلناهم عبرة لمن بعدهم من المكذبين أن يصيبهم ما أصابهم، كقوله في آخر هذه السورة: ﴿ **فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلاً لِّلآخِرِينَ** ﴾[الزخرف: ٥٦]. وكقوله: ﴿ **سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ** ﴾ [غافر: ٨٥] وقال: ﴿ **وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً** ﴾ [الأحزاب: ٦٢].

﴿ **وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ (٩) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٠) وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ (١١) وَالَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ (١٢) لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ (١٣) وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ (١٤)** ﴾.

يقول تعالى: ولئن سألت ـ يا محمد ـ هؤلاء المشركين بالله العابدين معه غيره: ﴿ **مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ** ﴾ أي: ليعترفن بأن الخالق لذلك هو الله [تعالى] [٤] وحده لا شريك له، وهم مع هذا يعبدون معه غيره من الأصنام والأنداد.

ثم قال: ﴿ **الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ مِهَادًا** ﴾ أي: فراشاً قراراً ثابتة، يسيرون عليها ويقومون وينامون وينصرفون، مع أنها مخلوقة على تيار الماء، لكنه أرساها بالجبال لئلا تميد هكذا ولا هكذا، ﴿ **وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً** ﴾ أي: طرقا بين الجبال والأودية ﴿ **لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ** ﴾ أي: في سيركم من بلد إلى بلد،

---

(١) في ت: «أول».
(٢) في ت، م، أ: «إلى الخير وإلى الذكر».
(٣) في ت، م: «يأمر».
(٤) زيادة من أ.

وقطر إلى قطر، وإقليم إلى إقليم.

﴿وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ﴾ أى: بحسب الكفاية لزروعكم [١] وثماركم وشربكم، لأنفسكم ولأنعامكم.

وقوله: ﴿ فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا ﴾ أى: أرضا ميتة، فلما جاءها الماء اهتزت وربت، وأنبتت من كل زوج بهيج.

ثم نبه بإحياء الأرض على إحياء الأجساد يوم المعاد بعد موتها، فقال: ﴿كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ﴾.

ثم قال: ﴿وَالَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا ﴾ أى: مما تنبت الأرض من سائر الأصناف، من نبات وزروع وثمار وأزاهير، وغير ذلك [أى] [٢] من الحيوانات على اختلاف أجناسها وأصنافها، ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ﴾ أى: السفن﴿وَالأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ﴾ أى: ذللها لكم وسخرها ويسرها لأكلكم لحومها، وشربكم ألبانها وركوبكم ظهورها؛ ولهذا قال: ﴿لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ [٣] ﴾أى: لتستووا [٤] متمكنين مرتفقين ﴿عَلَىٰ ظُهُورِهِ﴾ أى: على ظهور هذا الجنس، ﴿ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ﴾ أى: فيما سخر لكم ﴿إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾ أى: مقاومين. ولولا تسخير[٥] الله لنا هذا ما قدرنا عليه.

قال ابن عباس[٦]، وقتادة، والسدى، وابن زيد: ﴿مُقْرِنِينَ﴾ أى: مطيقين [٧] . ﴿وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴾ أى: لصائرون إليه بعد مماتنا، وإليه سيرنا الأكبر. وهذا من باب التنبيه بسير الدنيا على سير الآخرة، كما نبه بالزاد الدنيوى على [الزاد] [٨] الأخروى فى قوله: ﴿ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ﴾ [البقرة:١٩٧]، وباللباس الدنيوى على الأخروى فى قوله تعالى: ﴿وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَلِكَ خَيْرٌ [ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ][٩]﴾ [الأعراف:٢٦].

ذكر الأحاديث الواردة عند ركوب الدابة:

حديث أمير المؤمنين على بن أبى طالب، رضى الله عنه:

قال الإمام أحمد: حدثنا يزيد، حدثنا شَرِيك بن عبد الله، عن أبى إسحاق، عن على بن ربيعة قال: رأيت عليا، رضى الله عنه، أتى[١٠] بدابة، فلما وضع رجله فى الرّكاب قال: باسم الله. فلما استوى عليها قال: الحمد لله، ﴿سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ . وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾، ثم حمد الله ثلاثا، وكبر ثلاثا، ثم قال: سبحانك، لا إله إلا أنت، قد ظلمت نفسى فاغفر لى. ثم ضحك، فقلت له: من أى شىء ضحكت [١١] يا أمير المؤمنين؟ فقال: رأيتُ رسول الله ﷺ صنع كما صنعت[١٢] ،ثم ضحك .فقلت: مم ضحكت يارسول الله؟ فقال:«يعجب الرب [١٣] من عبده إذا قال: رب، اغفر لى. ويقول: علم عبدى أنه لا يغفر الذنوب غيرى».

---

(١) فى ت،م: «لزرعكم». (٢) زيادة من ت. (٣) فى ت:«ظهره».
(٤) فى أ:«لتستقروا». (٥) فى م:«ولولا ما يسخر». (٦) فى أ:«عياض».
(٧) فى أ:«مطيعين». (٨) زيادة من ت، م،أ. (٩) زيادة من أ. (١٠) فى ت: «أنه أتى».
(١١) فى ت، م:«مم ضحكت». (١٢) فى ت، م،أ: «فعل مثل ما فعلت». (١٣) فى ت، م: «الرب عز وجل».

وهكذا رواه أبو داود، والترمذى، والنسائى، من حديث أبى الأحوص ـ زاد النسائى: ومنصور ـ عن أبى إسحاق السَّبيعى، عن على بن ربيعة الأسدى الوالبى، به [١] [٢]. وقال الترمذى: حسن صحيح.

وقد قال عبد الرحمن بن مَهْدِىّ، عن شعبة: قلت لأبى إسحاق السَّبيعى: ممن سمعت هذا الحديث؟ قال: من يونس بن خباب. فلقيت يونس بن خباب فقلت: ممن سمعته؟ فقال: من رجل سمعه من على بن ربيعة. ورواه بعضهم عن يونس بن خباب، عن شقيق بن عقبة الأسدى، عن على ابن ربيعة الوالبى، به[٣].

حديث عبد الله بن عباس، رضى الله عنهما:

قال الإمام أحمد: حدثنا أبو المغيرة، حدثنا أبو بكر بن عبد الله، عن على بن أبى طلحة، عن عبد الله بن عباس؛ أن رسول الله ﷺ أردفه على دابته، فلما استوى عليها كبر رسول الله ﷺ ثلاثا، وحمد[٤] ثلاثا، وهلل الله واحدة. ثم استلقى عليه فضحك، ثم أقبل عليه فقال: «ما من امرئ مسلم يركب دابة فيصنع كما صنعت، إلا أقبل الله، عز وجل، عليه، فضحك إليه كما ضحكت إليك». تفرد به أحمد[٥].

حديث عبد الله بن عمر، رضى الله عنهما:

قال الإمام أحمد: حدثنا أبو كامل، حدثنا حماد بن سلمة، عن أبى الزبير، عن على بن عبد الله البارقى، عن عبد الله بن عمر، رضى الله عنهما؛ أن النبى ﷺ كان إذا ركب راحلته كبر ثلاثا ثم قال: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ . وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾. ثم يقول: «اللهم إنى أسألك فى سفرى هذا البر والتقوى، ومن العمل ما ترضى. اللهم، هون علينا السفر واطو لنا البعيد. اللهم، أنت الصاحب فى السفر، والخليفة فى الأهل. اللهم، اصحبنا فى سفرنا، واخلفنا فى أهلنا». وكان إذا رجع إلى أهله قال: «آيبون تائبون إن شاء الله، عابدون، لربنا حامدون».

وهكذا رواه مسلم وأبو داود والنسائى، من حديث ابن جريج، والترمذى من حديث حماد بن سلمة، كلاهما عن أبى الزبير، به[٦].

حديث آخر:

قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن عبيد، حدثنا محمد بن إسحاق، عن محمد بن إبراهيم، عن

---

(١) فى ت: «رواه الإمام أحمد وأبو داود والترمذى والنسائى».
(٢) المسند (١/ ٩٧) وسنن أبى داود برقم (٢٦٠٢) وسنن الترمذى برقم (٣٤٤٦) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (٨٨٠٠).
(٣) تحفة الأشراف للمزى (٧/ ٤٣٦).
(٤) فى ت، أ: «وحمد الله ثلاثا».
(٥) المسند (١/ ٣٣٠) قال الهيثمى فى المجمع (١٠/ ١٣١): «فيه أبو بكر بن أبى مريم وهو ضعيف».
(٦) المسند (٢/ ١٤٤) وصحيح مسلم برقم (١٣٤٢) وسنن أبى داود برقم (٢٥٩٩) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١٠٣٨٢) وسنن الترمذى برقم (٣٤٤٧).

عمرو بن الحكم بن ثوبان[١]، عن أبى لاس الخزاعى قال: حملنا رسول الله ﷺ على إبل من إبل الصدقة إلى الحج. فقلنا: يا رسول الله، ما نرى[٢] أن تحملنا هذه! فقال: «ما من بعير إلا فى ذروته شيطان، فاذكروا اسم الله عليها إذا ركبتموها كما آمركم[٣]، ثم امتهنوها لأنفسكم، فإنما يحمل الله عز وجل»[٤].

أبو لاس اسمه: محمد بن الأسود بن خَلَف.

حديث آخر فى معناه:

قال أحمد: حدثنا عتَّاب، أخبرنا عبد الله (ح) وعلى بن إسحاق، أخبرنا عبد الله ـ يعنى ابن المبارك ـ أخبرنا أسامة بن زيد، أخبرنى محمد بن حمزة؛ أنه سمع أباه يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «على ظهر كل بعير شيطان، فإن ركبتموها فسموا الله، عز وجل، ثم لا تقصروا عن حاجاتكم»[٥].

﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الإِنسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ (١٥) أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُم بِالْبَنِينَ (١٦) وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلاً ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ (١٧) أَوَ مَن يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ (١٨) وَجَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ (١٩) وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُم مَّا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ (٢٠)﴾ .

يقول تعالى مخبرا عن المشركين فيما افتروه وكذبوه فى جعلهم بعض الأنعام لطواغيتهم وبعضها لله، كما ذكر الله عنهم فى سورة «الأنعام»، فى قوله: **﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾** [الأنعام: ١٣٦] .وكذلك جعلوا له من قسمى[٦] البنات والبنين أخسَّهما وأردأهما وهو البنات، كما قال تعالى: **﴿أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنثَىٰ . تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى﴾** [النجم: ٢١، ٢٢]. وقال هاهنا: **﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الإِنسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ﴾**.

ثم قال: **﴿أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُم بِالْبَنِينَ﴾**؟، وهذا إنكار عليهم غاية الإنكار. ثم ذكر تمام الإنكار فقال: **﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلاً ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾** أى: إذا بشر أحد هؤلاء بما جعلوه لله من البنات يأنف من ذلك غاية الأنفة، وتعلوه كآبة من سوء ما بشر به،

---

(١) فى ت: «رواه الإمام أحمد بسنده». (٢) فى م: «ما ترى». (٣) فى ت: «أمرتم».

(٤) المسند (٤/ ٢٢١) ورجاله ثقات.

(٥) المسند (٣/ ٤٩٤) وقال الهيثمى فى المجمع (١٠/ ١٣١): «رجاله رجال الصحيح غير محمد بن حمزة وهو ثقة».

(٦) فى ت: «من كل قسم».

ويتوارى من القوم من خجله من ذلك، يقول تعالى: فكيف تأنفون أنتم من ذلك، وتنسبونه إلى الله عز وجل؟

ثم قال: **﴿أَوَ مَن يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾** أى: المرأة ناقصة يكمل نقصها بلبس الحلى منذ تكون طفلة، وإذا خاصمت فلا عبارة لها، بل هى عاجزة عَيِيَّة، أَوَ مَنْ يكون هكذا ينسب إلى جناب الله عز وجل[(١)]؟!، فالأنثى ناقصة الظاهر والباطن، فى الصورة والمعنى، فيكمل نقص ظاهرها وصورتها بلبس الحلى وما فى معناه، ليجبر ما فيها من نقص، كما قال بعض شعراء العرب:

وَمَا الحَلْى إلا زينَةٌ من نقيصــةٍ ... يتمّمُ مـن حُسْن إذا الحسْنُ قَصَّـرا
وأمَّا إذَا كان الجـــمـــالُ موفَّرا ... كحُسْنك، لم يَحْتَجْ إلى أن يزوَّرا

وأما نقص معناها، فإنها ضعيفة عاجزة عن الانتصار عند الانتصار، لا عبارة لها ولا همة، كما قال بعض العرب وقد بشر ببنت: «ما هى بنعم الولد: نصرها بالبكاء، وبرها سرقة».

وقوله: **﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا﴾** أى: اعتقدوا فيهم ذلك، فأنكر عليهم تعالى قولهم ذلك، فقال: **﴿أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ﴾** أى: شاهدوه وقد خلقهم الله إناثا، **﴿سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ﴾** أى: بذلك، **﴿وَيُسْأَلُونَ﴾** عن ذلك يوم القيامة. وهذا تهديد شديد، ووعيد أكيد.

﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُم﴾ أى: لو أراد الله لحال بيننا وبين عبادة هذه الأصنام، التى هى على صور[(٢)] الملائكة التى هى بنات الله، فإنه عالم بذلك وهو يقررنا عليه، فجمعوا بين أنواع كثيرة من الخطأ:

أحدها: جَعْلُهم لله ولدا، تعالى وتقدس وتنزه عن ذلك علوا كبيرا.

الثانى: دعواهم أنه اصطفى البنات على البنين، فجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا.

الثالث: عبادتهم لهم مع ذلك كله، بلا دليل ولا برهان، ولا إذن من الله عز وجل، بل بمجرد الآراء والأهواء، والتقليد للأسلاف والكبراء والآباء، والخبط فى الجاهلية الجهلاء.

الرابع: احتجاجهم بتقريرهم على ذلك قَدَرا [والحجة إنما تكون بالشرع][(٣)]، وقد جهلوا فى هذا الاحتجاج جهلاً كبيرًا، فإنه تعالى قد أنكر ذلك عليهم أشد الإنكار، فإنه منذ بعث الرسل وأنزل الكتب يأمر بعبادته وحده لا شريك له، وينهى عن عبادة ما سواه، قال [تعالى][(٤)]: **﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾** [النحل: ٣٦]، وقال تعالى: **﴿وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾** [الزخرف: ٤٥].

---

(١) فى ت: «الله تعالى»، وفى م، أ: «الله العظيم».

(٢) فى أ: «صورة».

(٣) زيادة من أ.

(٤) زيادة من أ.

وقال فى هذه الآية ـ بعد أن ذكر حجتهم هذه ـ: ﴿مَّا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾ أى: بصحة ما قالوه واحتجوا به ﴿إِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ﴾، أى: يكذبون ويتقولون.

وقال مجاهد فى قوله: ﴿مَّا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ﴾ أى[1]: ما يعلمون قدرة الله على ذلك.

﴿أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِّن قَبْلِهِ فَهُم بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ (٢١) بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ (٢٢) وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ (٢٣) قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ (٢٤) فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (٢٥)﴾ .

يقول تعالى منكرا على المشركين فى عبادتهم غير الله بلا برهان ولا دليل ولا حجة: ﴿أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِّن قَبْلِهِ﴾ ؟ أى: من قبل شركهم، ﴿فَهُم بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ﴾ أى: فيما هم فيه، أى: ليس الأمر كذلك، كقوله: ﴿أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ﴾ [الروم: ٣٥] أى: لم يكن ذلك.

ثم قال: ﴿ بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ ﴾ أى: ليس لهم مستند[2] فيما هم فيه من الشرك سوى تقليد الآباء والأجداد، بأنهم كانوا على أمة، والمراد بها الدين هاهنا، وفى قوله: ﴿ إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ [الأنبياء: ٩٢].

وقولهم: ﴿ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم ﴾ أى: وراءهم ﴿مُّهْتَدُونَ ﴾، دعوى منهم بلا دليل.

ثم بين تعالى أن مقالة هؤلاء قد سبقهم إليها أشباههم ونظراؤهم من الأمم السالفة المكذبة للرسل، تشابهت قلوبهم، فقالوا مثل مقالتهم: ﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ . أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴾ [الذاريات: ٥٢، ٥٣]، وهكذا قال هاهنا: ﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿ قُلْ﴾ أى: يا محمد لهؤلاء المشركين: ﴿أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ﴾ ؟ أى: ولو علموا وتيقنوا صحة ما جئتهم به، لما انقادوا لذلك بسوء قصدهم ومكابرتهم للحق وأهله.

قال الله تعالى: ﴿فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ أى: من الأمم المكذبة بأنواع من العذاب، كما فصله تعالى فى قصصهم، ﴿ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾؟ أى: كيف بادوا وهلكوا، وكيف نجى الله المؤمنين؟

---

(١) فى ت، م: «يعنى».   (٢) فى أ: «سند».

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ (٢٦) إِلاَّ الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ (٢٧) وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٢٨) بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ (٢٩) وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ (٣٠) وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١) أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ (٣٢) وَلَوْلا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ (٣٣) وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ (٣٤) وَزُخْرُفًا وَإِن كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ (٣٥)﴾ .

يقول تعالى مخبرا عن عبده ورسوله وخليله إمام الحنفاء، ووالد من بعث بعده من الأنبياء، الذى تنتسب إليه قريش فى نسبها ومذهبها: أنه تبرأ من أبيه وقومه فى عبادتهم الأوثان، فقال: ﴿إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ . إِلاَّ الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ .وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ﴾ أى: هذه الكلمة، وهى عبادة الله تعالى وحده لا شريك له، وخلع ما سواه من الأوثان، وهى «لا إله إلا الله»، أى: جعلها دائمة فى ذريته يقتدى به فيها من هداه الله من ذرية إبراهيم، عليه السلام، ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أى: إليها.

وقال عكرمة، ومجاهد، والضحاك، وقتادة، والسدى، وغيرهم[١] فى قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ﴾ يعنى: لا إله إلا الله، لا يزال فى ذريته من يقولها. ورُوى نحوه عن ابن عباس.

وقال ابن زيد: كلمة الإسلام. وهو يرجع إلى ما قاله الجماعة.

ثم قال تعالى: ﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلاءِ﴾ يعنى: المشركين، ﴿وَآبَاءَهُمْ﴾ أى: فتطاول عليهم العمر فى ضلالهم[٢]، ﴿حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ﴾ أى: بين الرسالة والنذارة.

﴿وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ﴾ أى: كابروه وعاندوه ودفعوا[٣] بالصدور والراح كفرا وحسدا وبغيا، ﴿وَقَالُوا﴾ [أى][٤]: كالمعترضين على الذى أنزله تعالى وتقدس: ﴿لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ أى: هلا كان إنزال هذا القرآن على رجل عظيم كبير فى أعينهم من القريتين؟ يعنون مكة والطائف. قاله ابن عباس، وعكرمة، ومحمد بن كعب القرظى، وقتادة، والسدى، وابن زيد.

(١) فى ت: «وغيرهما».
(٢) فى م: «ضلالتهم».
(٣) في أ: «ودفعوه».
(٤) زيادة من ت، م.

وقد ذكر غير واحد منهم [(١)]: أنهم أرادوا بذلك الوليد بن المغيرة، وعروة بن مسعود الثقفى.

وقال مالك عن زيد بن أسلم، والضحاك، والسدى: يعنون الوليد بن المغيرة، ومسعود بن عمرو الثقفى.

وعن مجاهد: عمير بن عمرو بن مسعود الثقفى. وعنه أيضا: أنهم يعنون الوليد بن المغيرة، وحبيب بن عمرو بن عمير الثقفى.

وعن مجاهد: يعنون عتبة بن ربيعة بمكة، وابن عبد ياليل بالطائف.

وقال السدى: عنوا [بذلك][(٢)] الوليد بن المغيرة، وكنانة بن عبد عمرو بن عمير الثقفى.

والظاهر: أن مرادهم رجل كبير من أى البلدتين كان.

قال الله تعالى رادا عليهم فى هذا الاعتراض: ﴿**أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ**﴾ ؟ أى: ليس الأمر مردودا إليهم، بل إلى الله، عز وجل، والله أعلم حيث يجعل رسالاته، فإنه لا ينزلها إلا على أزكى الخلق قلبا ونفسا، وأشرفهم بيتا، وأطهرهم أصلا.

ثم قال تعالى مبينا أنه قد فاوت بين خلقه فيما أعطاهم من الأموال والأرزاق والعقول والفهوم، وغير ذلك من القوى الظاهرة والباطنة، فقال: ﴿**نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ**﴾.

وقوله: ﴿**لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا**﴾، قيل: معناه ليسخر[(٣)] بعضهم بعضا فى الأعمال، لاحتياج هذا إلى هذا، وهذا إلى هذا، قاله السدى وغيره.

وقال قتادة، والضحاك: ليملك بعضهم بعضا. وهو[(٤)] راجع إلى الأول.

ثم قال: ﴿**وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ**﴾ أى: رحمة الله بخلقه خير لهم مما بأيديهم من الأموال ومتاع الحياة الدنيا.

ثم قال تعالى: ﴿**وَلَوْلا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً**﴾ أى: لولا أن يعتقد كثير من الناس الجهلة أن إعطاءنا المال دليل على محبتنا لمن أعطيناه، فيجتمعوا على الكفر لأجل المال ـ هذا معنى قول ابن عباس، والحسن، وقتادة، والسدى، وغيرهم ـ ﴿**لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ [عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ]**[(٥)]﴾ أى: سلالم ودرجا من فضة ـ قاله ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، والسدى: وابن زيد، وغيرهم ـ ﴿**عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ**﴾، أى: يصعدون، ﴿**وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا**[(٦)]﴾ أى: أغلاقا على أبوابهم ﴿**وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ**﴾، أى: جميع ذلك يكون فضة، ﴿**وَزُخْرُفًا**﴾، أى: وذهبا. قاله ابن عباس، وقتادة، والسدى، وابن زيد[(٧)].

---

(١) فى م، أ: «منهم وقتادة». (٢) زيادة من أ. (٣) فى أ: «لتسخير».
(٤) فى ت، أ: «وهذا». (٥) زيادة من ت. (٦) فى ت: ﴿أبوابا وسررا﴾.
(٧) فى ت: «ابن عباس وغيرهم».

ثم قال: ﴿وَإِن كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أى: إنما ذلك من الدنيا الفانية الزائلة الحقيرة عند الله [تعالى][(١)] أى: يعجل[(٢)] لهم بحسناتهم التى يعملونها فى الدنيا مآكل ومشارب، ليوافوا الآخرة وليس لهم عند الله حسنة يجزيهم بها، كما ورد به الحديث الصحيح[(٣)]. [وقد][(٤)] ورد فى حديث آخر: «لو أن الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة، ما سقى منها كافرا شربة ماء»، أسنده البغوى من رواية زكريا بن منظور، عن أبى حازم، عن سهل بن سعد، عن النبى ﷺ، فذكره[(٥)]. ورواه الطبرانى من طريق زمعة بن صالح، عن أبى حازم، عن سهل بن سعد، عن النبى ﷺ: «لو عدلت الدنيا جناح بعوضة، ما أعطى كافرا منها شيئا»[(٦)].

ثم قال: ﴿وَالآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ أى: هى لهم خاصة لا يشاركهم: فيها [أحد][(٧)] غيرهم؛ ولهذا لما قال عمر بن الخطاب لرسول الله ﷺ حين صعد إليه فى تلك المشربه لما آلى من نسائه، فرآه [عمر][(٨)] على رمال حصير قد أثر بجنبه[(٩)] فابتدرت عيناه بالبكاء، وقال: يا رسول الله، هذا كسرى وقيصر فيما هما فيه، وأنت صفوة الله من خلقه. وكان رسول الله ﷺ متكئا فجلس وقال: «أوَ فى[(١٠)] شك أنت يا ابن الخطاب؟» ثم قال: «أولئك قوم عجلت لهم طيباتهم فى حياتهم الدنيا». وفى رواية: «أما ترضى أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة؟»[(١١)].

وفى الصحيحين أيضا وغيرهما: أن رسول الله ﷺ قال: «لا تشربوا فى آنية الذهب والفضة، ولا تأكلوا فى صحافها، فإنها لهم فى الدنيا ولنا فى الآخرة». وإنما خولهم الله تعالى فى الدنيا لحقارتها، كما روى الترمذى وابن ماجه، من طريق أبى حازم، عن سهل بن سعد قال: قال رسول الله ﷺ: «لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة، ما سقى منها كافرا شربة ماء أبدا»، قال الترمذى: حسن صحيح[(١٢)].

﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ (٣٦) وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ (٣٧) حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ (٣٨) وَلَن يَنفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ (٣٩) أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ وَمَن كَانَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٤٠) فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ (٤١) أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ (٤٢) فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ

(١) زيادة من أ. (٢) فى ت: «يجعل».
(٣) رواه مسلم فى صحيحه برقم (٢٨٠٨) من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه.
(٤) زيادة من م.
(٥) معالم التنزيل للبغوى (٧/ ٢١٣).
(٦) المعجم الكبير (٦/ ١٧٨) وفى إسناده زمعة بن صالح وهو ضعيف.
(٧، ٨) زيادة من أ. (٩) فى ت، م، أ: «بجلده».
(١٠) فى ت: «أفى».
(١١) انظر تخريج هذا الحديث عند تفسير الآية: ١٣١ من سورة طه.
(١٢) سنن الترمذى برقم (٢٣٢٠) وسنن ابن ماجه برقم (٤١١٠).

صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٤٣) وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ (٤٤) وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ (٤٥) ﴾ .

يقول تعالى: ﴿**وَمَن يَعْشُ**﴾ أى: يتعامى ويتغافل ويعرض، ﴿**عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ**﴾ والعشا فى العين: ضعف بصرها. والمراد هاهنا: عشا البصيرة، ﴿**نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ**﴾ كقوله: ﴿**وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا**﴾ [النساء: ١١٥]، وكقوله: ﴿**فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ**﴾ [الصف: ٥]، وكقوله: ﴿**وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ**﴾ [فصلت: ٢٥]؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿**وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ . حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا**﴾ أى: هذا الذى تغافل عن الهدى نقيض له من الشياطين من يضله، ويهديه إلى صراط الجحيم. فإذا وافى الله يوم القيامة يتبرم بالشيطان الذى وكل به، ﴿**قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ**﴾ [أى: فبئس القرين كنت لى فى الدنيا][١]. وقرأ بعضهم: «حتى إذا جاءانا» يعنى: القرين والمقارن.

قال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن سعيد الجُرَيرى قال: بلغنا أن الكافر إذا بعث من قبره يوم القيامة سَفَعَ بيده شيطان فلم يفارقه، حتى يصيرهما الله تعالى إلى النار، فذلك حين يقول: ﴿**يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ**﴾[٢].

والمراد بالمشرقين هنا[٣] هو ما بين المشرق والمغرب. وإنما استعمل هاهنا تغليبا، كما يقال[٤]: القمران، والعمران، والأبوان، [والعسران][٥]. قاله ابن جرير وغيره.

[ولما كان الاشتراك فى المصيبة فى الدنيا يحصل به تسلية لمن شاركه فى مصيبته، كما قالت الخنساء تبكى أخاها:

وَلَوْلا كثرةُ الباكين حَــوْلى ... عَلَى قَتْلاهم لقتلتُ نَفْســى

وما يَبْكُون مثلَ أخـى ولكن ... أُسَلِّى النفسَ عنه بالتأسِّــى

قطع الله بذلك بين أهل النار، فلا يحصل لهم بذلك تأسى وتسلية ولا تخفيف][٦]

ثم قال[٧] تعالى: ﴿ **وَلَن يَنفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ**﴾ أى: لا يغنى عنكم اجتماعكم فى النار واشتراككم فى العذاب الأليم.

وقوله: ﴿ **أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ وَمَن كَانَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ**﴾ أى: ليس ذلك إليك، إنما عليك البلاغ، وليس عليك هداهم، ولكن الله يهدى من يشاء، ويضل من يشـاء، وهـو الحـكم العدل [٨] فى ذلك.

---

(١) زيادة من ت.
(٢) تفسير عبد الرزاق (٢/ ١٦١).
(٣) فى ت، م، أ: «ههنا». (٤) فى ت، م: «قيل». (٥) زيادة من أ.
(٦) زيادة من ت، أ. (٧) فى ت: «فقال». (٨) فى ت، م، أ: «الحاكم العادل».

ثم قال: ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ﴾ أى: لابد أن ننتقم منهم ونعاقبهم، ولو ذهبت أنت، ﴿أَوْ[١] نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ﴾ أى: نحن قادرون على هذا وعلى هذا. ولم يقبض الله رسوله حتى أقر عينه من أعدائه، وحكمه فى نواصيهم، وملكه ما تضمنته صياصيهم. هذا معنى قول السدى، واختاره ابن جرير.

وقال ابن جرير[٢]: حدثنا ابن عبد الأعلى، حدثنا ابن[٣] ثور، عن معمر قال: تلا قتادة: ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ﴾ فقال: ذهب النبى ﷺ وبقيت النقمة، ولم يُرِ الله [٤] نبيه ﷺ فى أمته شيئا يكرهه، حتى مضى[٥]، ولم يكن نبى قط إلا ورأى[٦] العقوبة فى أمته، إلا نبيكم ﷺ. قال: وذُكر لنا أن رسول الله ﷺ أرِىَ ما يصيب أمته من بعده، فما رُئِى ضاحكا منبسطا حتى قبضه الله عز وجل[٧].

وذكر من رواية سعيد بن أبى عروبة، عن قتادة نحوه. ثم روى ابن جرير عن الحسن نحو ذلك أيضا.

وفى الحديث: «النجوم أمنة للسماء، فإذا ذهبت النجوم أتى السماء ما تُوعَدُ، وأنا أَمَنَة لأصحابى، فإذا ذهبت أتى أصحابى ما يوعدون»[٨].

ثم قال تعالى: ﴿فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أى: خذ بالقرآن المنزل على قلبك، فإنه هو الحق، وما يهدى إليه هو الحق المفضى إلى صراط الله المستقيم، الموصل إلى جنات النعيم، والخير الدائم المقيم.

ثم قال: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ قيل: معناه: لشرف[٩] لك ولقومك، قاله ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، والسدى، وابن زيد. واختاره ابن جرير، ولم يحك سواه.

وأورد البغوى هاهنا حديث الزهرى، عن محمد بن جبير بن مطعم، عن معاوية قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن هذا الأمر فى قريش لا ينازعهم فيه أحد إلا أكَبَّه الله على وجهه ما أقاموا الدين». رواه البخارى[١٠].

و[قيل][١١]: معناه: أنه شرف لهم من حيث إنه أنزل بلغتهم، فهم أفهم الناس له، فينبغى أن يكونوا أقوم الناس به وأعملهم بمقتضاه، وهكذا كان خيارهم وصفوتهم من الخُلَّص من المهاجرين السابقين الأولين، ومن شابههم وتابعهم.

وقيل: معناه: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ أى: لتذكير لك ولقومك، وتخصيصهم بالذكر لا ينفى من سواهم، كقوله: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠]، وكقوله: ﴿وَأَنذِرْ

(١) فى ت، أ: «وإما»وهو خطأ. (٢) فى ت: «وروى هو قال». (٣) فى ت: «أبو».
(٤) فى أ: «الله تعالى». (٥) فى ت، م: «قبض». (٦) فى ت، م، أ: «إلا وقد رأى».
(٧) تفسير الطبرى (٢٥/ ٤٥).
(٨) رواه مسلم فى صحيحه برقم (٢٥٣١) من حديث أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه.
(٩) فى م: «الشرف».
(١٠) معالم التنزيل للبغوى (٧/ ٢١٥) وصحيح البخارى برقم (٣٥٠٠).
(١١) زيادة من ت، م.

عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤].

﴿وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾ أى: عن هذا القرآن وكيف كنتم فى العمل به والاستجابة له.

وقوله: **﴿وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾** ؟ أى: جميع الرسل دعوا إلى ما دعوت الناس إليه من عبادة الله وحده لا شريك له، ونهوا عن عبادة الأصنام والأنداد، كقوله: **﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾** [النحل: ٣٦]. قال مجاهد: فى قراءة عبد الله بن مسعود: «واسأل الذين أرسلنا إليهم قبلك رسلنا» . وهكذا حكاه قتادة والضحاك والسدى، عن ابن مسعود. وهذا كأنه تفسير لا تلاوة، والله أعلم.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: واسألهم ليلة الإسراء، فإن الأنبياء جُمِعوا له. واختار ابن جرير الأول، [والله أعلم][١].

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٦) فَلَمَّا جَاءَهُم بِآيَاتِنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ (٤٧) وَمَا نُرِيهِم مِّنْ آيَةٍ إِلاَّ هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٤٨) وَقَالُوا يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ (٤٩) فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ (٥٠) ﴾ .

يقول تعالى مخبرا عن عبده ورسوله موسى، عليه السلام، أنه ابتعثه إلى فرعون وملئه من الأمراء والوزراء والقادة، والأتباع والرعايا، من القبط وبنى إسرائيل، يدعوهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وينهاهم عن عبادة ما سواه، وأنه بعث معه آيات عظاما، كيده وعصاه، وما أرسل معه من الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم، ومن نقص الزروع والأنفس والثمرات، ومع هذا كله استكبروا عن اتباعها والانقياد لها، وكذبوها وسخروا منها، وضحكوا ممن جاءهم بها. **﴿وَمَا نُرِيهِم مِّنْ آيَةٍ إِلاَّ هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا﴾**، ومع هذا ما رجعوا عن غيهم وضلالهم، وجهلهم وخبالهم. وكلما جاءتهم آية من هذه الآيات يضرعون إلى موسى، عليه السلام، ويتلطفون له فى العبارة بقولهم: **﴿يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ﴾** أى: العالم، قاله ابن جرير. وكان علماء زمانهم هم السحرة. ولم يكن السحر عندهم فى زمانهم مذموما، فليس هذا منهم على سبيل الانتقاص منهم؛ لأن الحال حال ضرورة منهم إليه لا تناسب ذلك، وإنما هو تعظيم فى زعمهم، ففى كل مرة يَعِدُون موسى [عليه السلام][٢] إن كشف عنهم هذا أن يؤمنوا ويرسلوا معه بنى إسرائيل. وفى كل مرة ينكثون ما عاهدوا عليه، وهذا كقوله [تعالى][٣]: **﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ .وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى[٤] ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ . فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَىٰ أَجَلٍ هُم بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾** [الأعراف: ١٣٣ ـ ١٣٥].

---

(١) زيادة من أ. (٢، ٣) زيادة من ت. (٤) فى ت، م: «يأيها الساحر» وهو خطأ .

﴿ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلا تُبْصِرُونَ (٥١) أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلا يَكَادُ يُبِينُ (٥٢) فَلَوْلا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ (٥٣) فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (٥٤) فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ (٥٥) فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلاً لِّلآخِرِينَ (٥٦) ﴾ .

يقول تعالى مخبرا عن فرعون وتمرده وعتوه وكفره وعناده: أنه جمع قومه، فنادى فيهم متبجحا مفتخرا بملك مصر وتصرفه فيها: ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي﴾، قال قتادة: قد كانت لهم جنان وأنهار ماء، ﴿أَفَلا تُبْصِرُونَ﴾؟ أى: أفلا ترون ما أنا فيه من العظمة والملك، يعنى: وموسى وأتباعه[١] فقراء ضعفاء. وهذا كقوله تعالى: ﴿فَحَشَرَ فَنَادَىٰ . فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَىٰ. فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الآخِرَةِ وَالأُولَىٰ﴾ [النازعات: ٢٣ ـ ٢٥].

وقوله: ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ ﴾ قال السدى: يقول: بل أنا خير من هذا الذى هو مهين. وهكذا قال بعض نحاة البصرة: إن «أم» هاهنا بمعنى «بل». ويؤيد هذا ما حكاه الفراء عن بعض القراء أنه قرأها: «أما أنا خير من هذا الذى هو مهين». قال ابن جرير: ولو صحت هذه القراءة لكان معناها صحيحا واضحا، ولكنها خلاف قراءة الأمصار، فإنهم قرؤوا: ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ﴾ ؟ على الاستفهام.

قلت: وعلى كل تقدير فإنما يعنى فرعون ـ عليه اللعنة[٢] ـ أنه خير من موسى، عليه السلام، وقد كذب فى قوله هذا كذبا بينا واضحا، فعليه لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة.

ويعنى بقوله: ﴿مَهِينٌ﴾ كما قال سفيان: حقير. وقال قتادة، والسدى: يعنى: ضعيف. وقال ابن جرير: يعنى: لا ملك له ولا سلطان ولا مال.

﴿وَلا يَكَادُ يُبِينُ﴾ يعنى: لا يكاد يفصح عن كلامه[٣]، فهو عيى حصر[٤].

قال السدى: ﴿وَلا يَكَادُ يُبِينُ﴾ أى: لا يكاد يفهم. وقال قتادة، والسدى، وابن جرير: يعنى عيى اللسان. وقال سفيان: يعنى فى لسانه شىء من الجمرة حين[٥] وضعها فى فيه وهو صغير.

وهذا الذى قاله فرعون ـ لعنه الله ـ كذب واختلاق، وإنما حمله على هذا الكفر والعناد، وهو ينظر إلى موسى، عليه السلام، بعين كافرة شقية، وقد كان موسى[٦]، عليه السلام، من الجلالة والعظمة والبهاء فى صورة يبهر[٧] أبصار ذوى [الأبصار و][٨] الألباب. وقوله: :﴿ مَهِينٌ﴾ كذب، بل هو المهين الحقير خِلْقَة وخلقا ودينا. وموسى [عليه السلام][٩] هو الشريف الرئيس الصادق البار

---

(١) فى أ: «ومن معه». (٢) فى ت، م، أ: «لعنة الله». (٣) فى ت: «بكلامه».
(٤) فى ت، أ: «حصير». (٥) فى ت: «التى». (٦) فى ت: «لموسى».
(٧) فى ت، م: «تبهر». (٨) زيادة من ت. (٩) زيادة من ت، م.

الراشد[(١)]. وقوله: ﴿وَلا يَكَادُ يُبِينُ﴾ افتراء أيضا، فإنه وإن كان قد أصاب لسانه فى حال صغره شىء من جهة تلك الجمرة، فقد سأل الله، عز وجل، أن يحل عقدة من لسانه ليفقهوا قوله، وقد استجاب الله [(٢)]له فى [ذلك فى][(٣)] قوله: ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَىٰ﴾[طه: ٣٦]، وبتقدير أن يكون قد بقى شىء لم يسأل إزالته، كما قاله الحسن البصرى، وإنما سأل زوال ما يحصل معه الإبلاغ والإفهام، فالأشياء الخلقية[(٤)] التى ليست من فعل العبد لا يعاب بها ولا يذم عليها، وفرعون وإن كان يفهم وله عقل فهو يدرى هذا، وإنما أراد الترويج على رعيته، فإنهم كانوا جهلة أغبياء، وهكذا قوله: ﴿فَلَوْلا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسَاوِرَةٌ[(٥)] مِّن ذَهَبٍ﴾ أى: وهى ما يجعل فى الأيدى من الحلى، قاله ابن عباس وقتادة وغير واحد، ﴿أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾ أى: يكتنفونه خدمة له ويشهدون بتصديقه، نظر[(٦)] إلى الشكل الظاهر، ولم يفهم السر المعنوى الذى هو أظهر مما نظر إليه، لو كان يعلم؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ﴾ أى: استخف عقولهم، فدعاهم إلى الضلالة فاستجابوا له، ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾.

قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾، قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: ﴿آسَفُونَا﴾ أسخطونا.

وقال الضحاك، عنه: أغضبونا. وهكذا قال ابن عباس أيضا، ومجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبير، ومحمد بن كعب القرظى، وقتادة، والسدى، وغيرهم[(٧)] من المفسرين.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبو عبيد الله[(٨)] ابن أخى ابن وهب، حدثنا عمى، حدثنا ابن لهيعة، عن عقبة بن مسلم التجيبى[(٩)] عن عقبة بن عامر أن رسول الله ﷺ قال: «إذا رأيت الله عز وجل يعطى العبد ما شاء، وهو مقيم على معاصيه، فإنما ذلك استدراج منه له»، ثم تلا: ﴿فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾[(١٠)].

وحدثنا أبى، حدثنا يحيى بن عبد الحميد الحِمَّانى، حدثنا قيس بن الربيع، عن قيس بن مسلم[(١١)]، عن طارق بن شهاب قال: كنت عند عبد الله فذكر عنده موت الفجأة، فقال: تخفيف على المؤمن، وحسرة على الكافر. ثم قرأ: ﴿فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾.

وقال عمر بن عبد العزيز، رضى الله عنه: وجدت النقمة مع الغفلة، يعنى قوله: ﴿فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

وقوله: ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلاً لِّلآخِرِينَ﴾: قال أبو مجلز: ﴿سَلَفًا﴾ لمثل من عمل بعملهم.

---

(١) فى ت: «الرشيد». (٢) فى ت: «استجاب الله دعاءه له». (٣) زيادة من ت، م.
(٤) فى ت: «الخليقة»، وفى م: «الخلقة». (٥) فى أ: «أسورة». (٦) فى ت، أ: «نظرا».
(٧) فى ت: «وغير واحد». (٨) فى أ: «عبد الله». (٩) فى ت: «وروى ابن أبى حاتم بإسناده».
(١٠) ورواه الطبرانى فى المعجم الأوسط برقم (٤٩٢٦) «مجمع البحرين»، والبيهقى فى شعب الإيمان برقم (٤٥٤٠) من طريق عبد الله ابن صالح عن حرملة بن عمران به، ورواه أحمد فى مسنده (٤/ ١٤٥) عن رشدين بن سعد، والدولابى فى الكنى (١/ ١١١) عن حجاج بن سليمان كلاهما عن حرملة بن عمران به، وقد حسنه الحافظ العراقى فى تخريج أحاديث الإحياء.
(١١) فى ت: «وروى أيضا».

وقال هو ومجاهد: ﴿وَمَثَلاً﴾ أى: عبرة لمن بعدهم.

﴿ وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ (٥٧) وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلاَّ جَدَلاً بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ (٥٨) إِنْ هُوَ إِلاَّ عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلاً لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ (٥٩) وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلائِكَةً فِي الأَرْضِ يَخْلُفُونَ (٦٠) وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ (٦١) وَلا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (٦٢) وَلَمَّا جَاءَ عِيسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِالْحِكْمَةِ وَلأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (٦٣) إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ (٦٤) فَاخْتَلَفَ الأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ (٦٥) ﴾ .

يقول تعالى مخبرا عن تعنت قريش فى كفرهم وتعمدهم العناد والجدل: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ قال غير واحد، عن ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة والضحاك، والسدى: يضحكون[١]، أى: أعجبوا بذلك.

وقال قتادة: يجزعون ويضحكون. وقال إبراهيم النخعى: يعرضون.

وكان السبب فى ذلك ما ذكره محمد بن إسحاق فى السيرة حيث قال: وجلس رسول الله ﷺ ـ فيما بلغنى ـ يوما مع الوليد بن المغيرة فى المسجد، فجاء النضر بن الحارث حتى جلس معهم، وفى المجلس غير واحد من رجال قريش، فتكلم رسول الله ﷺ، فعرض له النضر بن الحارث، فكلمه رسول الله ﷺ حتى أفحمه، ثم تلا عليه وعليهم: ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ﴾ الآيات [الأنبياء: ٩٨]. ثم قام رسول الله ﷺ، وأقبل عبد الله بن الزِّبَعرى التميمى[٢]، حتى جلس، فقال الوليد بن المغيرة له: والله ما قام النضر بن الحارث لابن عبد المطلب وما قعد، وقد زعم محمد أنا وما نعبد من آلهتنا هذه حصب جهنم، فقال عبد الله بن الزبعرى: أما والله لو وجدته لَخَصَمْتُه، سلوا[٣] محمدا: أكل ما يعبد من دون الله فى جهنم مع من عبده، فنحن نعبد الملائكة، واليهود تعبد عزيرا، والنصارى تعبد المسيح [عيسى][٤] ابن مريم؟ فعجب الوليد ومن كان معه فى المجلس من قول عبد الله بن الزبعرى، ورأوا أنه قد احتج وخاصم، فذُكر ذلك لرسول الله ﷺ فقال: «كل من أحب أن يعبد من دون الله، فهو مع من عبده، فإنهم إنما يعبدون الشيطان ومن أمرهم بعبادته»، فأنزل الله عز وجل: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُوْلَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠١] أى: عيسى وعزير ومن عبد[٥] معهما من الأحبار والرهبان الذين مضوا على طاعة الله، عز وجل، فاتخذهم من يعبدهم من أهل الضلالة أربابا من دون الله. ونزل فيما يذكرون أنهم يعبدون الملائكة وأنهم بنات الله: ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ الآيات [الأنبياء: ٢٦]، ونزل

(١) فى ت، أ: «وعكرمة وغيرهم يعنى يعجبون». (٢) فى ت، م، أ: «السهمى». (٣) فى ت، م: «فسلوا».
(٤) زيادة من ت، م، أ. (٥) فى ت، م: «عبدوا».

فيما يذكر من أمر عيسى وأنه يعبد من دون الله. وعجب[١] الوليد ومن حضره من حجته وخصومته: ﴿ وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ أي: يصدون عن أمرك بذلك من قوله. ثم ذكر عيسى فقال: ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلاً لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ. وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلائِكَةً فِي الأَرْضِ يَخْلُفُونَ . وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾ أي: ما وضعت على يديه من الآيات من إحياء الموتى وإبراء الأسقام، فكفى به دليلا على علم الساعة، يقول: ﴿فَلا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾[٢].

وذكر ابن جرير من رواية العَوفى، عن ابن عباس قوله: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ قال: يعنى قريشا، لما قيل لهم: ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٨] إلى آخر الآيات، فقالت له قريش: فما ابن مريم؟ قال: «ذاك عبد الله ورسوله». فقالوا: والله ما يريد هذا إلا أن نتخذه ربا، كما اتخذت النصارى عيسى ابن مريم ربا، فقال الله تعالى[٣]: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلاَّ جَدَلاً بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾.

وقال[٤] الإمام أحمد: حدثنا هاشم بن القاسم، حدثنا شيبان، عن عاصم بن أبى النَّجُود، عن أبى رَزِين، عن أبي يحيى ـ مولى ابن عقيل الأنصارى ـ قال: قال ابن عباس: لقد علمت آية من القرآن ما سألنى عنها رجل قط، فما أدرى أعلمها الناس فلم يسألوا عنها، أم لم يفطنوا لها فيسألوا عنها. قال: ثم طفق يحدثنا، فلما قام تلاومنا ألا نكون سألناه عنها. فقلت: أنا لها إذا راح غدا. فلما راح الغد قلت: يا ابن عباس، ذكرت أمس أن آية من القرآن لم يسألك عنها رجل قط، فلا تدرى أعلمها الناس [٥] أم لم يفطنوا لها؟ فقلت: أخبرنى عنها وعن اللاتى قرأت قبلها. قال: نعم، إن رسول الله ﷺ قال لقريش: «يا معشر قريش، إنه ليس أحد يعبد من دون الله فيه خير»، وقد علمت قريش أن النصارى تعبد عيسى ابن مريم، وما تقول فى محمد، فقالوا: يا محمد، ألست تزعم أن عيسى كان نبيا وعبدا من عباد الله صالحا، فإن كنت صادقا كان[٦] آلهتهم كما تقولون؟ قال: فأنزل الله: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴾. قلت: ما يَصِدون؟ قال: يضحكون، ﴿وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾ قال: هو خروج عيسى ابن مريم قبل القيامة[٧].

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا محمد بن يعقوب الدمشقى، حدثنا آدم، حدثنا شيبان، عن عاصم ابن أبى النجود، عن أبى أحمد مولى الأنصار[٨]، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «يا معشر قريش، إنه ليس أحد يعبد من دون الله فيه خير». فقالوا له: ألست تزعم أن عيسى كان نبيا وعبدا من عباد الله صالحا، فقد كان يعبد من دون الله؟ فأنزل الله عز وجل: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ

(١) فى أ: «وتعجب».
(٢) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (١/٣٥٨).
(٣) فى ت، م: «عز وجل». (٤) فى ت: «وروى». (٥) فى أ: «أعلمها الناس فلم يسألوا عنها».
(٦) فى م، أ: «فإن».
(٧) المسند (١/٣١٨).
(٨) فى أ: «الأنصاريين».

مَثَلاً إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾[١].

وقال مجاهد فى قوله: **﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾**: قالت قريش: إنما يريد محمد أن نعبده كما عبد قوم عيسى عيسى. ونحو هذا قال قتادة.

وقوله: **﴿وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ﴾** : قال قتادة: يقولون: آلهتنا خير منه. وقال قتادة: قرأ ابن مسعود: «وقالوا أآلهتنا خير أم هذا» ، يعنون محمدا ﷺ.

وقوله: **﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلاَّ جَدَلاً﴾** أى: مراء، وهم يعلمون أنه ليس بوارد على الآية؛ لأنها لما لا يعقل، وهى قوله: **﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾** [الأنبياء: ٩٨]. ثم هى خطاب لقريش، وهم إنما كانوا يعبدون الأصنام والأنداد، ولم يكونوا يعبدون المسيح حتى يوردوه، فتعين أن مقالتهم إنما كانت جدلا منهم ،ليسوا يعتقدون صحتها.

وقد قال[٢] الإمام أحمد، رحمه الله تعالى: حدثنا ابن نمير، حدثنا حجاج بن دينار، عن أبى غالب، عن أبى أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه، إلا أورثوا الجدل»، ثم تلا هذه الآية: **﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلاَّ جَدَلاً بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾**.

وقد رواه الترمذى، وابن ماجه، وابن جرير، من حديث حجاج بن دينار، به[٣]. ثم قال الترمذى: حسن صحيح لا نعرفه إلا من حديثه كذا قال.

وقد روى من وجه آخر عن أبى أمامة بزيادة، فقال ابن أبى حاتم: حدثنا حميد بن عياش الرملى، حدثنا مؤمَّل، حدثنا حماد، أخبرنا ابن مخزوم، عن القاسم أبى عبد الرحمن الشامى، عن أبى أمامة ـ قال حماد: لا أدرى رفعه[٤] أم لا؟ ـ قال: ما ضلت أمة بعد نبيها إلا كان أول ضلالها التكذيب بالقدر، وما ضلت أمة بعد نبيها إلا أعطوا الجدل، ثم قرأ: **﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلاَّ جَدَلاً بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾**[٥].

وقال ابن جرير أيضا: حدثنا أبو كريب، حدثنا أحمد بن عبد الرحمن، عن عباد بن عباد، عن جعفر، عن القاسم[٦]، عن أبى أمامة قال: إن رسول الله ﷺ خرج على الناس وهم يتنازعون فى القرآن، فغضب غضبا شديدا حتى كأنما صب على وجهه الخل، ثم قال: «لا تضربوا كتاب الله بعضه ببعض، فإنه ما ضل قوم قط إلا أوتوا[٧] الجدل»، ثم تلا: **﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلاَّ جَدَلاً بَلْ هُمْ قَوْمٌ**

---

(١) ورواه الطبرانى فى المعجم الكبير (١٢/ ١٥٤) .

(٢) فى ت: «روى».

(٣) المسند (٥/ ٢٥٦) وسنن الترمذى برقم (٣٢٥٣) وسنن ابن ماجه برقم (٤٨) وتفسير الطبرى (٢٥/ ٥٣).

(٤) فى أ: «أرفعه».

(٥) وفى إسناده القاسم بن عبد الرحمن الشامى، ضعفه ابن حبان، وقال: «كان يروى عن أصحاب رسول الله ﷺ المعضلات».

(٦) فى أ: «جعفر بن القاسم». (٧) فى ت: «أورثوا».

خَصِمُونَ﴾[١].

وقوله: ﴿**إِنْ هُوَ إِلاَّ عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ**﴾ يعني: عيسى، عليه السلام، ما هو إلا عبد [من عباد الله][٢] أنعم الله عليه بالنبوة والرسالة، ﴿**وَجَعَلْنَاهُ مَثَلاً لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ**﴾ أى: دلالة وحجة وبرهانا على قدرتنا على ما نشاء.

وقوله: ﴿ **وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم** ﴾ أى: بدلكم [٣] ﴿**مَّلائِكَةً فِي الأَرْضِ يَخْلُفُونَ**﴾، قال السدى: يخلفونكم فيها. وقال ابن عباس، وقتادة: يخلف بعضهم بعضا، كما يخلف بعضكم بعضا. وهذا القول يستلزم الأول. وقال مجاهد: يعمرون الأرض بدلكم.

وقوله: ﴿**وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ**﴾: تقدم تفسير ابن إسحاق: أن المراد من ذلك : ما بُعث به عيسى، عليه السلام، من إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص، وغير ذلك من الأسقام. وفى هذا نظر. وأبعد منه ما حكاه قتادة، عن الحسن البصرى وسعيد بن جبير: أى الضمير فى ﴿**وَإِنَّهُ**﴾، عائد على القرآن، بل الصحيح أنه عائد على عيسى [عليه السلام][٤]، فإن السياق فى ذكره، ثم المراد بذلك نزوله قبل يوم القيامة، كما قال تبارك وتعالى: ﴿**وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ**﴾ أى: قبل موت، عيسى، عليه الصلاة والسلام، ثم ﴿**وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا**﴾ [النساء:١٥٩]، ويؤيد هذا المعنى القراءة الأخرى: «وإنه لعَلَم للساعة» أى: أمارة ودليل على وقوع الساعة، قال مجاهد: ﴿**وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ**﴾ أى: آية للساعة خروج عيسى ابن مريم قبل يوم القيامة. وهكذا روى عن أبى هريرة [رضى الله عنه][٥]، وابن عباس، وأبى العالية، وأبى مالك، وعكرمة، والحسن، وقتادة، والضحاك، وغيرهم.

وقد تواترت الأحاديث عن رسول الله ﷺ، أنه أخبر بنزول عيسى [ابن مريم][٦]، عليه السلام، قبل يوم القيامة إمامًا عادلا ، وحكما مقسطا.

وقوله: ﴿**فَلا تَمْتَرُنَّ بِهَا**﴾ أى: لا تشكوا [٧] فيها، إنها واقعة وكائنة لا محالة، ﴿**وَاتَّبِعُونِ**﴾ أى: فيما أخبركم به ﴿**هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ . وَلا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطَانُ**﴾أى: عن اتباع الحق ﴿**إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ . وَلَمَّا جَاءَ عِيسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِالْحِكْمَةِ**﴾ أى: بالنبوة ﴿**وَلأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ**﴾.

قال ابن جرير: يعنى من الأمور الدينية لا الدنيوية[٨] .وهذا الذى قاله حسن جيد، ثم رد قول من زعم أن «بعض» هاهنا بمعنى «كل»، واستشهد بقول لبيد الشاعر:

---

(١) تفسير الطبرى (٢٥/ ٥٣) .

(٢) زيادة من ت، م.

(٣) فى ت: «بدلا منكم».

(٤، ٥) زيادة من ت.

(٦) زيادة من ت، م.

(٧) فى ت، م، أ: «تشكون».

(٨) تفسير الطبرى (٢٥/ ٥٥).

تَرّاك أمْكنَة إذَا لم أرْضَها [١] أو يَعتَلق[٢] بَعْضَ النفوس حمَامُها[٣]

وأولوه على أنه أراد جميع النفوس. قال ابن جرير: وإنما أراد نفسه فقط، وعبر بالبعض عنها. وهذا الذى قاله محتمل.

وقوله: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أى: [فيما] [٤] أمركم به، ﴿وَأَطِيعُونِ﴾، فيما جئتكم به، ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ أى: أنا وأنتم عبيد له، فقراء إليه، مشتركون فى عبادته وحده لا شريك له، ﴿هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ أى: هذا الذى جئتكم به هو الصراط المستقيم، وهو عبادة الرب، عز وجل، وحده.

وقوله: ﴿فَاخْتَلَفَ الأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ﴾ أى اختلفت الفرق وصاروا شيعا فيه، منهم من يقر بأنه عبد الله ورسوله ـ وهو الحق ـ ومنهم من يدعى أنه ولد الله، ومنهم من يقول: إنه الله ـ تعالى الله عن قولهم علوا كبيرا ـ ولهذا قال: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾.

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (٦٦) الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ (٦٧) يَا عِبَادِ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ (٦٨) الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ (٦٩) ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ (٧٠) يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الأَنفُسُ وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٧١) وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٧٢) لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ (٧٣)﴾.

يقول تعالى: هل ينتظر هؤلاء المشركون المكذبون للرسل ﴿إِلاَّ السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾؟ أى: فإنها كائنة لا محالة وواقعة، وهؤلاء غافلون عنها غير مستعدين [لها] [٥] فإذا جاءت إنما تجىء وهم لا يشعرون بها، فحينئذ يندمون كل الندم، حيث لا ينفعهم ولا يدفع عنهم.

وقوله: ﴿الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ﴾ أى: كل صداقة وصحابة لغير الله فإنها تنقلب يوم القيامة عداوة إلا ما كان لله، عز وجل، فإنه دائم بدوامه. وهذا كما قال إبراهيم، عليه السلام، لقومه: ﴿إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٥].

وقال عبد الرزاق: أخبرنا إسرائيل، عن أبى إسحاق، عن الحارث[٦]، عن على، رضى الله

(١) فى أ: «أرمنها». (٢) فى أ: «يقتلوا».
(٣) البيت فى تفسير الطبرى (٢٥/ ٥٥) وديوان لبيد العامرى (ص٣١٣).
(٤) زيادة من ت، م، أ.
(٥) زيادة من أ.
(٦) فى ت: «وروى ابن أبى حاتم عن على».

عنه: ﴿الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ﴾ قال: خليلان مؤمنان، وخليلان كافران، فتوفى أحد المؤمنين وبشر بالجنة فذكر خليله، فقال: اللهم، إن فلانا خليلى كان يأمرنى بطاعتك وطاعة رسولك، ويأمرنى بالخير وينهانى عن الشر، وينبئنى أنى ملاقيك، اللهم فلا تضله بعدى حتى تريه مثل ما أريتنى، وترضى عنه كما رضيت عنى. فيقال له: اذهب فلو تعلم ما له عندى لضحكت كثيرا وبكيت قليلا. قال: ثم يموت الآخر، فتجتمع أرواحهما، فيقال: ليثن أحدكما [(١)] على صاحبه، فيقول كل واحد منهما لصاحبه: نعم الأخ، ونعم الصاحب، ونعم الخليل. وإذا مات أحد الكافرين وبشر بالنار ذكر خليله فيقول: اللهم، إن خليلى فلانا كان يأمرنى بمعصيتك ومعصية رسولك، ويأمرنى بالشر وينهانى عن الخير، ويخبرنى أنى غير ملاقيك، اللهم فلا تهده بعدى حتى تريه مثل ما أريتنى، وتسخط عليه كما [(٢)] سخطت على. قال: فيموت الكافر الآخر، فيجمع بين أرواحهما فيقال: ليثن كل واحد منكما على صاحبه. فيقول كل واحد منهما لصاحبه: بئس الأخ، وبئس الصاحب، وبئس الخليل. رواه ابن أبى حاتم[(٣)].

وقال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة: صارت كل خلة عداوة يوم القيامة إلا المتقين.

وروى الحافظ ابن عساكر ـ فى ترجمة هشام بن أحمد ـ عن هشام بن عبد الله بن كثير: حدثنا أبو جعفر محمد بن الخضر بالرقة، عن معافى: حدثنا حكيم بن نافع، عن الأعمش، عن أبى صالح، عن أبى هريرة، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «لو أن رجلين تحابا فى الله، أحدهما بالمشرق والآخر بالمغرب، لجمع الله بينهما يوم القيامة، يقول: هذا الذى أحببته فى»[(٤)].

وقوله: ﴿يَا عِبَادِ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ ثم بشرهم فقال: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ أى: آمنت قلوبهم وبواطنهم، وانقادت لشرع الله جوارحهم وظواهرهم.

قال المعتمر بن سليمان، عن أبيه: إذا كان يوم القيامة فإن الناس حين يبعثون لا يبقى أحد منهم إلا فزع، فينادى مناد: ﴿يَا عِبَادِ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ فيرجوها الناس كلهم، قال: فيتبعُها: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ﴾، قال: فييأس الناس منها غير المؤمنين. ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ﴾ أى: يقال لهم: ادخلوا الجنة ﴿أَنتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ﴾ أى: نظراؤكم ﴿تُحْبَرُونَ﴾ أى تنعمون وتسعدون، وقد تقدم تفسيرها فى سورة الروم.

﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ﴾ أى: زبادى آنية الطعام، ﴿وَأَكْوَابٍ﴾ وهى: آنية الشراب، أى: من ذهب لا خراطيم لها ولا عُرَى، ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِي الأَنفُسُ﴾ ـ وقرأ بعضهم: «تشتهيه

---

(١) فى أ: «أحدهما».

(٢) فى ت: «مثل ما».

(٣) تفسير عبد الرزاق (٢/ ١٦٤).

(٤) مختصر تاريخ دمشق لابن منظور (٢٧/ ٧٩).

الأنفس» ـ ﴿وَتَلَذُّ الأَعْيُن﴾ أى: طيب الطعم والريح وحسن المنظر.

قال عبد الرزاق: أخبرنا مَعْمَر، أخبرنى إسماعيل بن أبى سعيد(١)، عن (٢) عكرمة ـ مولى ابن عباس ـ أخبره أن رسول الله ﷺ قال: «إن أدنى أهل الجنة منزلة وأسفلهم درجة لرجل لا يدخل الجنة بعده أحد، يفسح له فى بصره مسيرة مائة عام فى قصور من ذهب، وخيام من لؤلؤ، ليس فيها موضع شبر إلا معمور يغدى عليه ويراح بسبعين ألف صحفة من ذهب، ليس فيها صحفة إلا فيها لون ليس فى الأخرى، مثله شهوته فى آخرها كشهوته فى أولها، لو نزل به جميع أهل الأرض لوسع عليهم مما أعطى، لا ينقص ذلك مما أوتى شيئا»(٣).

وقال (٤) ابن أبى حاتم: حدثنا على بن الحسين بن الجنيد، حدثنا عمرو بن سواد السرحى، حدثنا عبد الله بن وهب، عن ابن لهيعة، عن عقيل بن خالد، عن الحسن، عن أبى هريرة: أن أبا أمامة، رضى الله عنه، حدث أن رسول الله ﷺ حدثهم ـ وذكر الجنة ـ فقال: «والذى نفس محمد بيده، ليأخذن أحدكم اللقمة فيجعلها فى فيه، ثم يخطر على باله طعام آخر، فيتحول الطعام الذى فى فيه على الذى اشتهى» ثم قرأ: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ(٥) الأَنفُسُ وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾(٦).

وقال (٧) الإمام أحمد: حدثنا حسن ـ هو ابن موسى ـ حدثنا سُكَيْن بن عبد العزيز، حدثنا الأشعث الضرير، عن شهر بن حَوْشَب، عن أبى هريرة (٨) قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أدنى أهل الجنة منزلة إن له لسبع درجات، وهو على السادسة وفوقه السابعة، وإن له ثلثمائة خادم، ويغدى عليه ويراح كل يوم بثلاثمائة صحفة ـ ولا أعلمه إلا قال: من ذهب ـ فى كل صحفة لون ليس فى الأخرى، وإنه ليلذ أوله كما يلذ آخره، ومن الأشربة ثلاثمائة إناء، فى كل إناء لون ليس فى الآخر، وإنه ليلذ أوله كما يلذ آخره، وإنه يقول: يارب، لو أذنت لى لأطعمت أهل الجنة وسقيتهم، لم ينقص مما عندى شىء، وإن له من الحور العين لاثنين وسبعين زوجة، سوى أزواجه من الدنيا، وإن الواحدة منهن ليأخذ مقعدها قدر ميل من الأرض»(٩).

﴿وَأَنتُمْ فِيهَا﴾ أى: فى الجنة ﴿خَالِدُونَ﴾ أى: لا تخرجون منها ولا تبغون عنها حولا. ثم قيل لهم على وجه التفضل والامتنان: ﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أى: أعمالكم الصالحة كانت سببا لشمول رحمة الله إياكم، فإنه لا يدخل أحداً عمله الجنة، ولكن بفضل من الله ورحمته.

---

(١) فى م: «سعد». (٢) فى أ: «أن».
(٣) تفسير عبد الرزاق (٢/ ١٦٥).
(٤) فى ت: «وروى». (٥) فى ت: «ما تشتهى» وهو خطأ.
(٦) وفى إسناده الحسن البصرى لم يسمع من أبى هريرة.
(٧) فى ت: «وروى».
(٨) فى ت: «أبى هريرة رضى الله عنه».
(٩) المسند (٢/ ٥٣٧).

وإنما الدرجات تفاوتها [١] بحسب عمل الصالحات.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا الفضل بن شاذان المقرئ، حدثنا يوسف بن يعقوب - يعني الصفار - حدثنا أبو بكر بن عياش، عن الأعمش، عن أبي صالح[٢]، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «كل أهل النار يرى منزله من الجنة حسرة، فيقول: ﴿لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾[الزمر: ٥٧] وكل أهل الجنة يرى منزله من النار فيقول: ﴿وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾[الأعراف: ٤٣]، ليكون [٣] له شكرا». قال: وقال رسول الله ﷺ: «ما من أحد إلا وله منزل في الجنة ومنزل في النار، فالكافر يرث المؤمن منزله من النار، والمؤمن يرث الكافر منزله من الجنة» وذلك [٤] قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[٥].

وقوله: ﴿لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ أي: من جميع الأنواع، ﴿مِّنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ أي: مهما اخترتم وأردتم. ولما ذكر [الله تعالى] [٦] الطعام والشراب، ذكر بعده الفاكهة لتتم [هذه] [٧] النعمة والغبطة.

﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ (٧٤) لا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ (٧٥) وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ (٧٦) وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ (٧٧) لَقَدْ جِئْنَاكُم بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ (٧٨) أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ (٧٩) أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ (٨٠)﴾.

لما ذكر [تعالى] [٨] حال السعداء، ثنى بذكر الأشقياء، فقال: ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ. لا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ﴾ أي: ساعة واحدة ﴿وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ أي: آيسون من كل خير، ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ﴾ أي: بأعمالهم السيئة بعد قيام الحجج عليهم وإرسال الرسل إليهم، فكذبوا وعصوا، فجوزوا بذلك جزاء وفاقا، وما ربك بظلام للعبيد.

﴿وَنَادَوْا يَا مَالِكُ﴾ وهو: خازن النار.

قال البخاري: حدثنا حجاج بن منهال، حدثنا سفيان بن عيينة، عن عمرو بن عطاء[٩]، عن صفوان بن يعلى، عن أبيه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقرأ على المنبر: ﴿وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا

---

(١) في أ: «وإنما الدرجات ينال تفاوتها».

(٢) في ت: «وروى ابن أبي حاتم بسنده». (٣) في ت، م: «فيكون».

(٤) في ت، م: «فيكون».

(٥) ورواه أحمد في مسنده (٢/ ٥١٢) من طريق أبي بكر بن عياش به مختصرًا.

(٦، ٧) زيادة من ت.

(٨) زيادة من أ.

(٩) في ت: «روى البخاري بإسناده».

رَبُّكَ﴾[(١)] أي: ليقبض أرواحنا فيريحنا مما نحن فيه، فإنهم كما قال تعالى: ﴿**لا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا**﴾ [فاطر: ٣٦]. وقال: ﴿**وَيَتَجَنَّبُهَا**[(٢)] **الأَشْقَى . الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَىٰ . ثُمَّ لا يَمُوتُ فِيهَا وَلا يَحْيَىٰ**﴾ [الأعلى: ١١ ـ ١٣]، فلما سألوا أن يموتوا أجابهم مالك، ﴿**قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ**﴾: قال ابن عباس: مكث ألف سنة، ثم قال: إنكم ماكثون. رواه ابن أبي حاتم.

أي: لا خروج لكم منها ولا محيد لكم عنها.

ثم ذكر سبب شقوتهم وهو مخالفتهم للحق ومعاندتهم له فقال: ﴿**لَقَدْ جِئْنَاكُم بِالْحَقِّ**﴾ أي: بيناه لكم ووضحناه وفسرناه، ﴿**وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ**﴾ أي: ولكن كانت سجاياكم لا تقبله ولا تقبل عليه، وإنما تنقاد للباطل وتعظمه، وتصد عن الحق وتأباه، وتبغض أهله، فعودوا على أنفسكم بالملامة، واندموا حيث لا تنفعكم[(٣)] الندامة.

ثم قال تعالى: ﴿**أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ**﴾ قال مجاهد: أرادوا كيد شر فكدناهم.

وهذا الذى قاله مجاهد كما قال تعالى: ﴿**وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ**﴾[النمل: ٥٠]، وذلك لأن المشركين كانوا يتحيلون فى رد الحق بالباطل بحيل ومكر يسلكونه، فكادهم الله، ورد وبال ذلك عليهم؛ ولهذا قال: ﴿**أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم**﴾ أى: سرهم وعلانيتهم، ﴿**بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ**﴾ أى: نحن نعلم ما هم عليه، والملائكة أيضا يكتبون أعمالهم، صغيرها وكبيرها.

﴿**قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ (٨١) سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ (٨٢) فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ (٨٣) وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَٰهٌ وَفِي الأَرْضِ إِلَٰهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ (٨٤) وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٨٥) وَلا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلاَّ مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٨٦) وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ (٨٧) وَقِيلِهِ يَا رَبِّ إِنَّ هَؤُلاءِ قَوْمٌ لاَّ يُؤْمِنُونَ (٨٨) فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٨٩)**﴾ .

يقول تعالى: ﴿**قُلْ**﴾ يا محمد: ﴿**إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ**﴾أى: لو فرض هذا لعبدته

(١) صحيح البخارى برقم (٤٨١٩).
(٢) فى م: «وسيجنبها».
(٣) فى ت، م: «لا تنفع».

على ذلك؛ لأنى عبد من عبيده، مطيع لجميع ما يأمرنى به، ليس عندى استكبار ولا إباء عن عبادته، فلو فرض كان هذا، ولكن هذا ممتنع فى حقه تعالى، والشرط لا يلزم منه الوقوع ولا الجواز أيضا، كما قال تعالى: ﴿ لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [الزمر: ٤].

[و] (١) قال بعض المفسرين فى قوله: ﴿فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ أى: الآنفين. ومنهم سفيان الثورى، والبخارى حكاه فقال: ويقال: ﴿أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ : الجاحدين، من عبد يعبد.

وذكر ابن جرير لهذا القول من الشواهد ما رواه عن يونس بن عبد الأعلى، عن ابن وهب: حدثنى ابن أبى ذئب عن أبى قُسَيْط(٢)، عن بَعَجة بن زيد الجهنى؛ أن امرأة منهم دخلت على زوجها ـ وهو رجل منهم أيضا ـ فولدت له فى ستة أشهر، فذكر ذلك زوجها لعثمان بن عفان، رضى الله عنه، فأمر بها أن ترجم، فدخل عليه على بن أبى طالب، رضى الله عنه، فقال: إن الله يقول فى كتابه: ﴿وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا ﴾[الأحقاف: ١٥]، وقال: ﴿ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ﴾[لقمان: ١٤]، قال: فوالله ما عبد عثمان، رضى الله عنه، أن بعث إليها: ترد ـ قال يونس: قال ابن وهب: عبد: اشتنكف(٣).

[و] (٤) قال الشاعر:

متَىَ مَا يَشَأ ذُو الودِّ يصرِمْ خَليله ويَعْبَدُ عَليَه لا مِحَالَةَ ظَالماً(٥)

وهذا القول فيه نظر؛ لأنه كيف يلتئم مع الشرط فيكون تقديره: إن كان هذا فأنا ممتنع منه؟ هذا فيه نظر، فلْيتأمل. اللهم إلا أن يقال: «إن» ليست شرطا، وإنما هى نافية كما قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس فى قوله: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ﴾، يقول : لم يكن للرحمن ولد فأنا أول الشاهدين.

وقال قتادة: هى كلمة من كلام العرب: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ أى: إن ذلك لم يكن فلا ينبغى.

وقال أبو صخر: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ أى: فأنا أول من عبده بأن لا ولد له، وأول من وحده. وكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم.

وقال مجاهد: ﴿فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ أى: أول من عبده ووحده وكذبكم.

---

(١) زيادة من ت، م.
(٢) فى ت: «ما رواه بإسناده».
(٣) تفسير الطبرى (٢٥/ ٦١).
(٤) زيادة من ت، م.
(٥) البيت فى تفسير الطبرى (٢٥/ ٦٠).

وقال البخارى: ﴿فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾: الآنفين. وهما لغتان، رجل عابد وعبد[١].

والأول أقرب على أنه شرط وجزاء، ولكن هو ممتنع.

وقال السدى [فى قوله][٢]: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ يقول: لو كان له ولد كنت أول من عبده، بأن له ولدا، لكن لا ولد له.وهو اختيار ابن جرير، ورد قول من زعم أن «إن» نافية.

ولهذا قال: ﴿سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ أى: تعالى وتقدس وتنزه خالق الأشياء عن أن يكون له ولد، فإنه فرد أحد صمد، لا نظير له ولا كفء له، فلا [٣]ولد له.

وقوله: ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا﴾ أى: فى جهلهم وضلالهم ﴿وَيَلْعَبُوا﴾ فى دنياهم ﴿حَتَّىٰ يُلاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾، وهو يوم القيامة، أى: فسوف يعلمون كيف يكون مصيرهم، ومآلهم، وحالهم فى ذلك اليوم.

وقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الأَرْضِ إِلَهٌ﴾ أى: هو إله من فى السماء، وإله من فى الأرض، يعبده أهلهما، وكلهم خاضعون له، أذلاء بين يديه، ﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾.

وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾ [الأنعام:٣] أى: هو المدعو الله فى السموات والأرض.

﴿وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أى: هو خالقهما ومالكهما والمتصرف فيهما، بلا مدافعة ولا ممانعة، فسبحانه وتعالى عن الولد، وتبارك: أى استقر له السلامة من العيوب والنقائص؛ لأنه الرب العلى العظيم، المالك للأشياء، الذى بيده أزمة الأمور نقضا وإبراما، ﴿وَعِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ أى: لا يجليها لوقتها إلا هو، ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أى: فيجازى كلا بعمله، إن خيرا فخير، وإن شرا فشر.

ثم قال تعالى: ﴿وَلا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ﴾ أى: من الأصنام والأوثان ﴿الشَّفَاعَةَ﴾ أى: لا يقدرون على الشفاعة لهم، ﴿إِلاَّ مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾، هذا استثناء منقطع، أى: لكن من شهد بالحق على بصيرة وعلم، فإنه تنفع شفاعته عنده بإذنه له.

ثم قال: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ أى: ولئن سألت هؤلاء المشركين بالله العابدين معه غيره ﴿مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ أى: هم يعترفون [٤] أنه الخالق للأشياء جميعها، وحده لا شريك له فى ذلك، ومع هذا يعبدون معه غيره، ممن لا يملك شيئا ولا يقدر على شىء، فهم فى

(١)صحيح البخارى (٨/ ٥٦٨) «فتح البارى».

(٢)زيادة من أ.

(٣) فى ت: «ولا».

(٤) فى ت: «يعرفون».

ذلك فى غاية الجهل والسفاهة وسخافة العقل؛ ولهذا قال: ﴿ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾.

وقوله: ﴿ وَقِيلِهِ[١] يَا رَبِّ إِنَّ هَؤُلاءِ قَوْمٌ لاَّ يُؤْمِنُونَ﴾ أى: وقال محمد: قيله، أى: شكا إلى ربه شكواه من قومه الذين كذبوه، فقال: يارب إن هؤلاء قوم لا يؤمنون، كما أخبر تعالى فى الآية الآخرى: ﴿ وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُوراً﴾ [الفرقان: ٣٠] وهذا الذى قلناه هو [معنى] [٢] قول ابن مسعود، ومجاهد، وقتادة، وعليه فسر ابن جرير[٣].

قال البخارى: وقرأ عبد الله ـ يعنى ابن مسعود ـ: « وقال الرسول يارب»[٤].

وقال مجاهد فى قوله: ﴿ وَقِيلِهِ يَا رَبِّ إِنَّ هَؤُلاءِ قَوْمٌ لاَّ يُؤْمِنُونَ﴾، قال: فأبر الله قول محمد.

وقال قتادة: هو قول نبيكم ﷺ، يشكو قومه إلى ربه عز وجل.

ثم حكى ابن جرير فى قوله: ﴿ وَقِيلِهِ يَا رَبِّ ﴾ قراءتين، إحداهما النصب، ولها توجيهان: أحدهما أنه معطوف على قوله: ﴿نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم﴾ [الزخرف: ٨٠] والثانى: أن يقدر فعل، وقال: قيلَه. والثانية: الخفض، وقيلِه، عطفا على قوله: ﴿ وَعِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾، تقديره: وعلم قيله.

وقوله: ﴿فَاصْفَحْ عَنْهُمْ ﴾ أى: المشركين، ﴿ وَقُلْ سَلامٌ ﴾ أى: لا تجاوبهم بمثل ما يخاطبونك به من الكلام السيئ، ولكن تألفهم واصفح عنهم فعلا وقولا، ﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ[٥]﴾، هذا تهديد منه تعالى لهم، ولهذا أحل بهم بأسه الذى لا يرد، وأعلى دينه وكلمته، وشرع بعد ذلك الجهاد والجلاد، حتى دخل الناس فى دين الله أفواجا، وانتشر الإسلام فى المشارق والمغارب.

آخر تفسير سورة الزخرف

(١) فى ت: «وقيل هو».
(٢) زيادة من ت، أ.
(٣) تفسير الطبرى (٢٥/ ٦٢).
(٤) صحيح البخارى (٨/ ٥٦٨) «فتح البارى».
(٥) فى م: «تعلمون».

٤٣ — سورة الزخرف

(مكية وآياتها تسع وثمانون)

بسم الله الرحمن الرحيم

حمٓ ﴿١﴾ ٤٣ الزخرف

وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ ٤٣ الزخرف

إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾ ٤٣ الزخرف

وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٤﴾ ٤٣ الزخرف

﴿ سورة الزخرف مكية وقيل الا قوله واسأل من ارسلنا وآياتها تسع وثمانون ﴾

١ (بسم الله الرحمن الرحيم) (حم) الكلام فيه كالذى مر فى فاتحة سورة يس خلا أن الظاهر على تقدير
٢ إسميته كونه اسما للقرآن لا للسورة كما قيل فإن ذلك مخل بجزالة النظم الكريم (والكتاب) بالجر على
أنه مقسم به إما ابتداء أو عطفاً على حم على تقدير كونه مجروراً بإضمار باء القسم على أن مدار العطف
* المغايرة فى العنوان ومناط تكرير القسم المبالغة فى تأكيد مضمون الجملة القسمية (المبين) أى البين
لمن أنزل عليهم لكونه بلغتهم وعلى أساليبهم أو المبين لطريق الهدى من طريق الضلالة الموضح لكل
٣ مايحتاج إليه فى أبواب الديانة (إنا جعلناه قرآناً عربياً) جواب للقسم لكن لا على أن مرجع التأكيد
* جعله كذلك كما قيل بل ماهو غايته التى يعرب عنها قوله تعالى (لعلكم تعقلون) فإنها المحتاجة إلى التحقيق
والتأكيد لكونها منبئة عن الاعتناء بأمرهم وإتمام النعمة عليهم وإزاحة أعذارهم أى جعلنا ذلك
الكتاب قرآناً عربياً لكى تفهموه وتحيطوا بما فيه من النظم الرائق والمعنى الفائق وتقفوا على مايتضمنه
من الشواهد الناطقة بخروجه عن طوق البشر وتعرفوا حق النعمة فى ذلك وتنقطع أعذاركم بالكلية
٤ (وإنه فى أم الكتاب) أى فى اللوح المحفوظ فإنه أصل الكتب السماوية وقرىء إم الكتاب بالكسر
* (لدينا) أى عندنا (لعلى) رفيع القدر بين الكتب شريف (حكيم) ذو حكمة بالغة أو محكم وهما
خبران لأن وما بينهما بيان لمحل الحكم كأنه قيل بعد بيان اتصافه بما ذكر من الوصفين الجليلين هذا فى أم
الكتاب ولدينا والجملة إما عطف على الجملة المقسم عليها داخلة فى حكمها ففى الإقسام بالقرآن على علو
قدره عنده تعالى براعة بديعة وإيذان بأنه من علو الشأن بحيث لايحتاج فى بيان إلى الاستشهاد عليه
بالإقسام بغيره بل هو بذاته كاف فى الشهادة على ذلك من حيث الإقسام به كما أنه كاف فيها من حيث
إعجازه ورمز إلى أنه لا يخطر بالبال عند ذكره شىء آخر أولى منه بالإقسام به وأما مستأنفة مقررة
لعلو شأنه الذى أنبأ عنه الإقسام به على منهاج الاعتراض فى قوله تعالى وإنه لقسم لو تعلمون عظيم

أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ﴿٥﴾ ٤٣ الزخرف
وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ ﴿٦﴾ ٤٣ الزخرف
وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٧﴾ ٤٣ الزخرف
فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ الْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾ ٤٣ الزخرف
وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴿٩﴾ ٤٣ الزخرف
الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾ ٤٣ الزخرف

وبعد مابين علو شأن القرآن العظيم وحقق أن إنزاله على لغتهم ليعقلوه ويؤمنوا به ويعملوا بموجبه
٥ عقب ذلك بإنكار أن يكون الأمر بخلافه فقيل (أفنضرب عنكم الذكر) أى ننحيه ونبعده عنكم مجاز
من قولهم ضرب الغرائب عن الحوض وفيه إشعار باقتضاء الحكمة توجه الذكر إليهم وملازمته لهم
كأنه يتهافت عليهم والفاء للعطف على محذوف يقتضيه المقام أى أنهملكم فننحى الذكر عنكم (صفحاً)
أى إعراضاً عنكم على أنه مفعول له للمذكور أو مصدر مؤكد لما دل هو عليه فإن التنحية منبئة عن
الصفح والإعراض قطعاً كأنه قيل أفنصفح عنكم صفحاً أو بمعنى الجانب فينتصب على الظرفية أى
أفننحيه عنكم جانباً (أن كنتم قوماً مسرفين) أى لأن كنتم منهمكين فى الإسراف مصرين عليه على
معنى أن حالكم وإن اقتضى تخليتكم وشأنكم حتى تموتوا على الكفر والضلالة وتبقوا فى العذاب
الخالد لكننا لسعة رحمتنا لا نفعل ذلك بل نهديكم إلى الحق بإرسال الرسول الأمين وإنزال الكتاب
المبين وقرىء إن بالكسر على أن الجملة شرطية مخرجة للمحقق مخرج المشكوك لاستجهالهم والجزاء
٦،٧ محذوف ثقة بدلالة ما قبله عليه وقوله تعالى (وكم أرسلنا من نبى فى الأولين) (وما يأتيهم من نبى
إلا كانوا به يستهزؤن) تقرير لما قبله ببيان أن إسراف الأمم السالفة لم يمنعه تعالى من إرسال الأنبياء
٨ إليهم وتسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم عن استهزاء قومه به وقوله تعالى (فأهلكنا أشد منهم
بطشاً) أى من هؤلاء القوم المسرفين عدة له عليه الصلاة والسلام ووعيد لهم بمثل ماجرى على الأولين
ووصفهم بأشدية البطش لإثبات حكمهم لهؤلاء بطريق الأولوية (ومضى مثل الأولين) أى سلف
٩ فى القرآن غير مرة ذكر قصتهم التى حقها أن تسير مسير المثل (ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض
ليقولن خلقهن العزيز العليم) أى ليسندن خلقها الى من هذا شأنه فى الحقيقة وفى نفس الأمر لأنهم
يعبرون عنه بهذا العنوان وسلوك هذه الطريقة للإشعار بأن اتصافه تعالى بما سرد من جلائل الصفات
والأفعال وبما يستلزمه ذلك من البعث والجزاء أمر بين لاريب فيه وأن الحجة قائمة عليهم شاؤا أو
١٠ أبوا وقد جوز أن يكون ذلك عين عبارتهم وقوله تعالى (الذى جعل لكم الأرض مهداً) استئناف
من جهته تعالى أى بسطها لكم تستقرون فيها (وجعل لكم فيها سبلا) تسلكونها فى أسفاركم (لعلكم

وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١١﴾ ٤٣ الزخرف

وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ ٤٣ الزخرف

لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ ٤٣ الزخرف

وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾ ٤٣ الزخرف

تهتدون) أى لكى تهتدوا بسلوكها إلى مقاصدكم أو بالتفكر فيها إلى التوحيد الذى هو المقصد الأصلى
١١ (والذى نزل من السماء ماء بقدر) بمقدار تقتضيه مشيئته المبنية على الحكم والمصالح (فأنشرنا به) أى
أحيينا بذلك الماء (بلدة ميتاً) خالياً عن النماء والنبات بالكلية وقرىء ميتاً بالتشديد وتذكيره لأن البلدة
فى معنى البلد والمكان والالتفات إلى نون العظمة لإظهار كمال العناية بأمر الإحياء والإشعار بعظم
* خطره (كذلك) أى مثل ذلك الإحياء الذى هو فى الحقيقة إخراج النبات من الأرض (تخرجون)
أى تبعثون من قبوركم أحياء وفى التعبير عن إخراج النبات بالإنشار الذى هو إحياء الموتى وعن
إحيائهم بالإخراج تفخيم لشأن الإنبات وتهوين لأمر البعث لتقويم سنن الاستدلال وتوضيح منهاج
١٢ القياس (والذى خلق الأزواج كلها) أى أصناف المخلوقات وعن ابن عباس رضى الله عنهما الأزواج
الضروب والأنواع كالحلو والحامض والأبيض والأسود والذكر والأنثى وقيل كل ما سوى الله
تعالى فهو زوج كالفوق والتحت واليمين واليسار إلى غير ذلك (وجعل لكم من الفلك والأنعام
ماتركبون) أى ماتركبونه تغليباً للأنعام على الفلك فإن الركوب متعد بنفسه واستعماله فى الفلك ونحوها
بكلمة فى للرمز إلى مكانيتها وكون حركتها غير إرادية كما مر فى سورة هود عند قوله تعالى وقال
١٣ اركبوا فيها (لتستووا على ظهوره) أى لتستعلوا على ظهور ماتركبونه من الفلك والأنعام والجمع
باعتبار المعنى (ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه) أى تذكروها بقلوبكم معترفين بها مستعظمين
* لها ثم تحمدوا عليها بألسنتكم (وتقولوا سبحان الذى سخر لنا هذا) متعجبين من ذلك كما يروى عن
النبى صلى الله عليه وسلم أنه كان إذا وضع رجله فى الركاب قال بسم الله فإذا استوى على الدابة قال
* الحمد لله على كل حال سبحان الذى سخر لنا هذا إلى قوله تعالى لمنقلبون وكبر ثلاثاً وهلل ثلاثاً (وما
كنا له مقرنين) أى مطيقين من أقرن الشىء إذا أطاقه وأصله وجده قرينته لأن الصعب لا يكون
قرينة للضعيف وقرىء بالتشديد والمعنى واحد وهذا من تمام ذكر نعمته تعالى إذ بدون اعتراف
١٤ المنعم عليه بالعجز عن تحصيل النعمة لايعرف قدرها ولاحق المنعم بها (وإنا إلى ربنا لمنقلبون) أى
راجعون وفيه إيذان بأن حق الراكب أن يتأمل فيما يلابسه من المسير ويتذكر منه المسافرة العظمى
التى هى الانقلاب إلى الله تعالى فيبنى أموره فى مسيره ذلك على تلك الملاحظة ولا يخطر بباله فى شىء

وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ ٤٣ الزخرف

أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُم بِالْبَنِينَ ﴿١٦﴾ ٤٣ الزخرف

وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾ ٤٣ الزخرف

أَوَمَن يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾ ٤٣ الزخرف

١٥ مما يأتي ويذر أمراً ينافيها ومن ضرورته أن يكون ركوبه لأمر مشروع (وجعلوا له من عباده جزءاً)
متصل بقوله تعالى ولئن سألتهم الخ أي وقد جعلوا له سبحانه بألسنتهم واعتقادهم بعد ذلك الاعتراف
من عباده ولداً وإنما عبر عنه بالجزء لمزيد استحالته في حق الواحد الحق من جميع الجهات وقرىء جزؤاً
* بضمتين (إن الإنسان لكفور مبين) ظاهر الكفران مبالغ فيه ولذلك يقولون مايقولون سبحان الله
١٦ عما يصفون (أم اتخذ مما يخلق بنات) أم منقطعة وما فيها من معنى بل للإنتقال من بيان بطلان جعلهم له
تعالى ولداً على الإطلاق إلى بيان بطلان جعلهم ذلك الولد من أخس صنفيه والهمزة للإنكار والتوبيخ
* والتعجيب من شأنهم وقوله تعالى (وأصفاكم بالبنين) إما عطف على اتخذ داخل في حكم الإنكار والتعجيب
الخلاف المشهور والالتفات إلى خطابهم لتأكيد الإلزام وتشديد التوبيخ أي بل اتخذ من خلقه أخس
أو حال من فاعله بإضمار قد أو بدونه على الصنفين واختار لكم أفضلهما على معنى هبوا أنكم اجترأتم
على إضافة اتخاذ جنس الولد إليه سبحانه مع ظهور استحالته وامتناعه أما كان لكم شيء من العقل ونبذ
من الحياء حتى اجترأتم على التفوه بالعظيمة الخارقة للعقول من ادعاء أنه تعالى آثركم على نفسه بخير الصنفين
وأعلاهما وترك له شرهما وأدناهما وتنكير بنات وتعريف البنين لتربية ما اعتبر فيهما من الحقارة
١٧ والفخامة (وإذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلا) الخ استئناف مقرر لما قبله وقيل حال على معنى
أنهم نسبوا إليه ماذكر ومن حالهم أن أحدهم إذا بشر به اغتم والالتفات للإيذان باقتضاء ذكر قبائحهم
أن يعرض عنهم ويحكي لغيرهم تعجيباً منها أي إذا أخبر أحدهم بولادة ماجعله مثلا له سبحانه إذ الولد
* لابد أن يجانس الوالد ويماثله (ظل وجهه مسوداً) أي صار أسود في الغاية من سوء مابشر به (وهو
كظيم) مملوء من الكرب والكآبة والجملة حال وقرىء مسود ومسواد على أن في ظل ضمير المبشر
١٨ ووجهه مسود جملة وقعت خبراً له (أومن ينشأ في الحلية) تكرير للإنكار وتثنية للتوبيخ ومن منصوبة
بمضمر معطوف على جعلوا أي أو جعلوا من شأنه أن يربى في الزينة وهو عاجز عن أن يتولى لأمره
بنفسه فالهمزة لإنكار الواقع واستقباحه وقد جوز انتصابها بمضمر معطوف على اتخذ فالهمزة حينئذ
لإنكار الوقوع واستبعاده وإقحامها بين المعطوفين لتذكير ما في أم منقطعة من الإنكار وتأكيده والعطف
* للتغاير العنواني أي أو اتخذ من هذه الصفة الذميمة صفته (وهو) مع ماذكر من القصور (في الخصام)
* أي الجدال الذي لا يكاد يخلو عنه الإنسان في العادة (غير مبين) غير قادر على تقرير دعواه وإقامة
حجته لنقصان عقله وضعف رأيه وإضافة غير لاتمنع عمل مابعده في الجار المتقدم لأنه بمعنى النفي وقرىء

وَجَعَلُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا أَشَهِدُواْ خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴿١٩﴾ ٤٣ الزخرف

وَقَالُواْ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾ ٤٣ الزخرف

أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾ ٤٣ الزخرف

بَلْ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ ٤٣ الزخرف

١٩ ينشأ ويناشأ من الأفعال والمفاعلة والكل بمعنى واحد ونظيره غلاه وأغلاه وغالاه (وجعلوا الملائكة
الذين هم عباد الرحمن إناثاً) بيان لتضمن كفرهم المذكور لكفر آخر وتقريع لهم بذلك وهو جعلهم
أكمل العباد وأكرمهم على الله عز وجل أنقصهم رأياً وأخسهم صنفاً وقرىء عبيد الرحمن وقرىء
* عند الرحمن على تمثيل زلفاهم وقرىء أنثاً وهو جمع الجمع (أشهدوا خلقهم) أى أحضروا خلق الله
تعالى إياهم فشاهدوهم إناثا حتى يحكموا بأنوثتهم فإن ذلك مما يعلم بالمشاهدة وهو تجهيل لهم وتهكم بهم
* وقرىء أأشهدوا بهمزتين مفتوحة ومضمومة وآ أشهدوا بألف بينهما (ستكتب شهادتهم) هذه فى
* ديوان أعمالهم (ويسألون) عنها يوم القيامة وقرىء سيكتب وسنكتب بالياء والنون وقرىء شهاداتهم
٢٠ وهى قولهم إن لله جزءاً وإن له بنات وإنها الملائكة وقرىء يساءلون من المساءلة للمبالغة (وقالوا لو شاء
الرحمن ماعبدناهم) بيان لفن آخر من كفرهم أى لو شاء عدم عبادتنا للملائكة مشيئة ارتضاء ماعبدناهم
أرادوا بذلك بيان أن مافعلوه حق مرضى عنده تعالى وأنهم إنما يفعلونه بمشيئته تعالى إياه منهم مع اعترافهم
بقبحه حتى ينتهض ذمهم به دليلا للمعتزلة ومبنى كلامهم الباطل على مقدمتين إحداهما أن عبادتهم لهم
بمشيئته تعالى والثانية أن ذلك مستلزم لكونها مرضية عنده تعالى ولقد أخطأوا فى الثانية حيث جهلوا
أن المشيئة عبارة عن ترجيح بعض الممكنات على بعض كائناً ما كان من غير اعتبار الرضا أو السخط
* فى شىء من الطرفين ولذلك جهلوا بقوله تعالى (مالهم بذلك) أى بما أرادوا بقولهم ذلك من كون مافعلوه
* بمشيئة الارتضاء لا بمطلق المشيئة فإن ذلك محقق ينطق به مالا يحصى من الآيات الكريمة (من علم)
* يستند إلى سند ما (إن هم إلا يخرصون) يتمحلون تمحلا باطلا وقد جوز أن يشار بذلك إلى أصل
الدعوى كأنه لما أظهر وجوه فسادها وحكى شبههم المزيفة نفى أن يكون لهم بها علم من طريق العقل
٢١ ثم أضرب عنه إلى إبطال أن يكون لهم سند من جهة النقل فقيل (أم آتيناهم كتاباً من قبله) من قبل
* القرآن أو من قبل ادعائهم ينطق بصحة مايدعونه (فهم به) بذلك الكتاب (مستمسكون) وعليه معولون
٢٢ (بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثرهم مهتدون) أى لم يأتوا بحجة عقلية أو نقلية بل اعترفوا
بأن لاسند لهم سوى تقليد آبائهم الجهلة مثلهم والأمة الدين والطريقة التى تأم أى تقصد كالرحلة لما
يرحل إليه وقرىء إمة بالكسر وهى الحالة التى يكون عليها الآم أى القاصد وقوله تعالى على آثارهم
مهتدون خبران والظرف صلة لمهتدون .

وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ ٤٣ الزخرف

قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٢٤﴾ ٤٣ الزخرف

فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٥﴾ ٤٣ الزخرف

وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ ٤٣ الزخرف

إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ ٤٣ الزخرف

٢٣ (وكذلك) أى والأمر كما ذكر من عجزهم عن الحجة وتشبثهم بذيل التقليد وقوله تعالى (ما أرسلنا
من قبلك فى قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون) استئناف
مبين لذلك دال على التقليد فيما بينهم ضلال قديم ليس لأسلافهم أيضاً سند غيره وتخصيص المترفين
٢٤ بتلك المقالة للإيذان بأن التنعم وحب البطالة هو الذى صرفهم عن النظر إلى التقليد (قال) حكاية لما
جرى بين المنذرين وبين أممهم عند تعللهم بتقليد آبائهم أى قال كل نذير من أولئك المنذرين لأممهم
* (أولو جئتكم) أى أتقتدون بآبائكم ولو جئتكم (بأهدى) بدين أهدى (مما وجدتم عليه آباءكم)
من الضلالة التى ليست من الهداية فى شىء وإنما عبر عنها بذلك مجاراة معهم على مسلك الإنصاف وقرىء
قل على أنه حكاية أمر ماض أوحى حينئذ إلى كل نذير لا على أنه خطاب للرسول صلى الله عليه وسلم
* كما قيل لقوله تعالى (قالوا إنا بما أرسلتم به كافرون) فإنه حكاية عن الأمم قطعاً أى قال كل أمة لنذيرها
إنا بما أرسلت به الخ وقد أجمل عند الحكاية للإيجاز كما مر فى قوله تعالى يأيها الرسل كلوا من الطيبات
وجعله حكاية عن قومه عليه الصلاة والسلام بحمل صيغة الجمع على تغليبه على سائر المنذرين عليهم
السلام وتوجيه كفرهم إلى ما أرسل به الكل من التوحيد لإجماعهم عليه كما فى نظائر قوله تعالى كذبت
٢٥ عاد المرسلين تمحل بعيد يرده بالكلية قوله تعالى (فانتقمنا منهم) أى بالاستئصال (فانظر كيف كان
٢٦ عاقبة المكذبين) من الأمم المذكورين فلا تكترث بتكذيب قومك (وإذ قال إبراهيم) أى واذكر
لهم وقت قوله عليه الصلاة والسلام (لأبيه وقومه) المكبين على التقليد كيف تبرأ مما هم فيه بقوله
* (إننى براء مما تعبدون) وتمسك بالبرهان ليسلكوا مسلكه فى الاستدلال أو ليقلدوه إن لم يكن لهم
بد من التقليد فإنه أشرف آبائهم وبراء مصدر نعت به مبالغة ولذلك يستوى فيه الواحد والمتعدد
والمذكر والمؤنث وقرىء برىء وبراء بضم الباء ككريم وكرام وما إما مصدرية أو موصولة حذف
٢٧ عائدها أى إننى برىء من عبادتكم أو معبودكم (إلا الذى فطرنى) استثناء منقطع أو متصل على أن
ما تعم أولى العلم وغيرهم وأنهم كانوا يعبدون الله والأصنام أو صفة على أن ما موصوفة أى إننى براء
من آلهة تعبدونها غير الذى فطرنى (فإنه سيهدين) أى سيثبتنى على الهداية أو سيهدين إلى ماوراء الذى

وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ ٤٣ الزخرف

بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿٢٩﴾ ٤٣ الزخرف

وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٠﴾ ٤٣ الزخرف

وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ ٤٣ الزخرف

هدانى إليه إلى الآن والأوجه أن السين للتأكيد دون التسويف وصيغة المضارع للدلالة على الاستمرار
٢٨ (وجعلها) أى جعل إبراهيم كلمة التوحيد التى ما تكلم به عبارة عنها (كلمة باقية فى عقبه) أى فى ذريته
حيث وصاهم بها كما نطق به قوله تعالى ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب الآية فلا يزال فيهم من يوحد
الله تعالى ويدعو إلى توحيده وقرىء كلمة وفى عقبه على التخفيف (لعلهم يرجعون) علة للجعل أى
٢٩ جعلها باقية فى عقبه رجاء أن يرجع إليها من أشرك منهم بدعاء الموحد (بل متعت هؤلاء) إضراب
عن محذوف ينساق إليه الكلام كأنه قيل جعلها كلمة باقية فى عقبه بأن وصى بها بنيه رجاء أن يرجع
إليها من أشرك منهم بدعاء الموحد فلم يحصل ما رجاه بل متعت منهم هؤلاء المعاصرين للرسول صلى
* الله عليه وسلم من أهل مكة (وآباءهم) بالمد فى العمر والنعمة فاغتروا بالمهلة وانهمكوا فى الشهوات
وشغلوا بها عن كلمة التوحيد (حتى جاءهم) أى هؤلاء (الحق) أى القرآن (ورسول) أى رسول
* (مبين) ظاهر الرسالة واضحها بالمعجزات الباهرة أو مبين للتوحيد بالآيات البينات والحجج وقرىء
متعنا ومتعت بالخطاب على أنه تعالى اعترض به على ذاته فى قوله تعالى وجعلها كلمة باقية الخ مبالغة فى
تعييرهم فإن التمتيع بزيادة النعم يوجب عليهم أن يجعلوه سبباً لزيادة الشكر والثبات على التوحيد
٣٠ والإيمان فجعله سبباً لزيادة الكفران أقصى مراتب الكفر والضلال (ولما جاءهم الحق) لينبههم عما
هم فيه من الغفلة ويرشدهم إلى التوحيد ازدادوا كفراً وعتواً وضموا إلى كفرهم السابق معاندة الحق
والاستهانة به حيث (قالوا هذا سحر وإنا به كافرون) فسموا القرآن سحراً وكفروا به واستحقروا
٣١ الرسول صلى الله عليه وسلم (وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين) أى من إحدى
القريتين مكة والطائف على نهج قوله تعالى يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان (عظيم) أى بالجاه والمال
كالوليد بن المغيرة المخزومى وعروة بن مسعود الثقفى وقيل حبيب بن عمر بن عمير الثقفى وعن مجاهد
عتبة بن ربيعة وكنانة بن عبد ياليل ولم يتفوهوا بهذه العظيمة حسداً على نزوله إلى الرسول صلى الله
عليه وسلم دون من ذكر من عظمائهم مع اعترافهم بقرآنيته بل استدلالا على عدمها بمعنى أنه لو كان
قرآناً لنزل إلى أحد هؤلاء بناء على ما زعموا من أن الرسالة منصب جليل لا يليق به إلا من له جلالة
من حيث المال والجاه ولم يدروا أنها رتبة روحانية لا يترقى إليها إلا همم الخواص المختصين بالنفوس
الزكية المؤيدين بالقوة القدسية المتحلين بالفضائل الإنسية وأما المتزخرفون بالزخارف الدنيوية
المتمتعون بالحظوظ الدنية فهم من استحقاق تلك الرتبة بألف منزل .

أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ
بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾ ٤٣ الزخرف
وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ
عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ ٤٣ الزخرف
وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ ٤٣ الزخرف
وَزُخْرُفًا وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾ ٤٣ الزخرف

٣٢ وقوله تعالى (أهم يقسمون رحمت ربك) إنكار فيه تجهيل لهم وتعجيب من تحكمهم والمراد بالرحمة
النبوة (نحن قسمنا بينهم معيشتهم) أى أسباب معيشتهم (فى الحياة الدنيا) قسمة تقتضيها مشيئتنا المبنية
على الحكم والمصالح ولم نفوض أمرها إليهم علماً منا بعجزهم عن تدبيرها بالكلية (ورفعنا بعضهم فوق
بعض) فى الرزق وسائر مبادى المعاش (درجات) متفاوتة بحسب القرب والبعد حسبما تقتضيه الحكمة
فمن ضعيف وقوى وفقير وغنى وخادم ومخدوم وحاكم ومحكوم (ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً) ليصرف
بعضهم بعضاً فى مصالحهم ويستخدموهم فى مهنهم ويتسخروهم فى أشغالهم حتى يتعايشوا ويترافدوا
ويصلوا إلى مرافقهم لا لكمال فى الموسع ولا لنقص فى المقتر ولو فوضنا ذلك إلى تدبيرهم لضاعوا
وهلكوا فإذا كانوا فى تدبير خويصة أمرهم وما يصلحهم من متاع الدنيا الدنيئة وهو فى طرف الثمام
على هذه الحالة فما ظنهم بأنفسهم فى تدبير أمر الدين وهو أبعد من مناط العيوق ومن أين لهم البحث
عن أمر النبوة والتخير لها من يصلح لها ويقوم بأمرها (ورحمت ربك) أى النبوة وما يتبعها من سعادة
٣٣ الدارين (خير مما يجمعون) من حطام الدنيا الدنيئة الفانية وقوله تعالى (ولولا أن يكون الناس أمة واحدة)
استئناف مبين لحقارة متاع الدنيا ودناءة قدره عند الله عز وجل والمعنى أن حقارة شأنه بحيث لولا
أن لا يرغب الناس لحبهم الدنيا فى الكفر إذا رأوا أهله فى سعة وتنعم فيجتمعوا عليه لأعطيناه بحذافيره
من هو شر الخلائق وأدناهم منزلة وذلك قوله تعالى (لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفاً من فضة)
أى متخذة منها ولبيوتهم بدل اشتمال من لمن وجمع الضمير باعتبار معنى من كما أن أفراد المستكن فى
يكفر باعتبار لفظها والسقف جمع سقف كرهن جمع رهن وعن الفراء أنه جمع سقيفة كسفن وسفينة
وقرىء سقفاً بسكون القاف تخفيفاً وسقفاً اكتفاء بجمع البيوت وسقفاً كأنه لغة فى سقف وسقوفا
(ومعارج) أى جعلنا لهم معارج من فضة أى مصاعد جمع معرج وقرىء معاريج جمع معراج (عليها
٣٤ يظهرون) أى يعلون السطوح والعلالى (ولبيوتهم) أى وجعلنا لبيوتهم (أبواباً وسرراً) من فضة
٣٥ (عليها) أى على السرر (يتكئون) ولعل تكرير ذكر بيوتهم لزيادة التقرير (وزخرفاً) أى زينة
عطف على سقفاً أو ذهباً عطف على محل من فضة (وإن كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا) أى وما

وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ ٤٣ الزخرف
وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ ٤٣ الزخرف
حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴿٣٨﴾ ٤٣ الزخرف
وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾ ٤٣ الزخرف

كل ماذكر من البيوت الموصوفة بالصفات المفصلة إلا شيء يتمتع به فى الحياة الدنيا وفى معناه ماقرىء
وما كل ذلك إلا متاع الحياة الدنيا وقرىء بتخفيف ماعلى أن أن هى المخففة واللام هى الفارقة وقرىء
بكسر اللام على أنها لام العلة وما موصولة قد حذف عائدها أى للذى هو متاع الخ كما فى قوله تعالى
تماما على الذى أحسن (والآخرة) بما فيها من فنون النعم التى يقصر عنها البيان (عند ربك للمتقين) *
أى عن الكفر والمعاصى وبهذا تبين أن العظيم هو العظيم فى الآخرة لا فى الدنيا (ومن يعش) أى ٣٦
يتعام (عن ذكر الرحمن) وهو القرآن وإضافته إلى اسم الرحمن للإيذان بنزوله رحمة للعالمين وقرىء *
يعش بالفتح أى يعم يقال عشى يعشى إذا كان فى بصره آفة وعشا يعشو إذا تعشى بلا آفة كعرج
وعرج وقرىء يعشو على أن من موصولة غير مضمنة معنى الشرط والمعنى ومن يعرض عنه لفرط
اشتغاله بزهرة الحياة الدنيا وانهما كه فى حظوظها الفانية والشهوات (نقيض له شيطاناً فهو له قرين) *
لايفارقه ولا يزال يوسوسه ويغويه وقرىء يقيض بالياء على إسناده إلى ضمير الرحمن ومن رفع يعشو
فحقه أن يرفع يقيض (وإنهم) أى الشياطين الذين قيض كل واحد منهم لكل واحد ممن يعشو (ليصدونهم) ٣٧
أى قرناءهم فدار جمع الضميرين اعتبار معنى من كما أن مدار إفراد الضمائر السابقة اعتبار لفظها (عن *
السبيل) المستبين الذى يدعو إليه القرآن (ويحسبون) أى العاشون (أنهم) أى الشياطين (مهتدون) *
أى إلى السبيل المستقيم وإلا لما اتبعوهم أو يحسبون أن أنفسهم مهتدون لأن اعتقاد كون الشياطين
مهتدين مستلزم لاعتقاد كونهم كذلك لاتحاد مسلكهما والجملة حال من مفعول يصدون بتقدير المبتدأ
أو من فاعله أو منهما لاشتمالها على ضميريهما أى وإنهم ليصدونهم عن الطريق الحق وهم يحسبون أنهم
مهتدون إليه وصيغة المضارع فى الأفعال الأربعة للدلالة على الاستمرار التجددى لقوله تعالى (حتى ٣٨
إذا جاءنا) فإن حتى وإن كانت ابتدائية داخلة على الجملة الشرطية لكنها تقتضى حتماً أن تكون غاية
لأمر ممتد كما مر مراراً وإفراد الضمير فى جاء وما بعده لما أن المراد حكاية مقالة كل واحد واحد
من العاشين لقرينه لتهويل الأمر وتفظيع الحال والمعنى يستمر العاشون على ماذكر من مقارنة الشياطين
والصدر والحسبان الباطل حتى إذا جاءنا كل واحد منهم مع قرينه يوم القيامة (قال) مخاطباً له (ياليت *
بينى وبينك) فى الدنيا (بعد المشرقين) أى بعد المشرق والمغرب أى تباعد كل منهما عن الآخر فغلب *
المشرق وثنى وأضيف البعد إليهما (فبئس القرين) أى أنت وقوله تعالى (ولن ينفعكم) الخ حكاية ٣٩
لما سيقال لهم حينئذ من جهة الله عز وجل توبيخاً وتقريعاً أى لن ينفعكم (اليوم) أى يوم القيامة

أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٠﴾ ٤٣ الزخرف

فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾ ٤٣ الزخرف

أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَـٰهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾ ٤٣ الزخرف

فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ ٤٣ الزخرف

وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾ ٤٣ الزخرف

وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾ ٤٣ الزخرف

تمنيكم لمباعدتهم (إذ ظلمتم) أى لأجل ظلمكم أنفسكم فى الدنيا باتباعكم إياهم فى الكفر والمعاصى
وقيل إذ ظلمتم بدل من اليوم أى إذ تبين عندكم وعند الناس جميعاً أنكم ظلمتم أنفسكم فى الدنيا وعليه
قول من قال [إذا ما انتسبنا لم تلدنى لئيمة] أى تبين أنى لم تلدنى لئيمة بل كريمة وقوله تعالى (أنكم
فى العذاب مشتركون) تعليل لنفى النفع أى لأن حقكم أن تشتركوا أنتم وقرناؤكم فى العذاب كما كنتم
مشتركين فى سببه فى الدنيا ويجوز أن يسند الفعل إليه لكن لا بمعنى لن ينفعكم اشتراككم فى العذاب
كما ينفع الواقعين فى شدائد الدنيا اشتراكهم فيها لتعاونهم فى تحمل أعبائها وتقسمهم لعنائها لأن لكل
منهم مالا تبلغه طاقته كما قيل لأن الانتفاع بذلك الوجه ليس مما يخطر ببالهم حتى يرد عليهم بنفيه بل
بمعنى لن يحصل لكم التشفى بكون قرنائكم معذبين مثلكم حيث كنتم تدعون عليهم بقولكم ربنا آتهم
ضعفين من العذاب والعنهم لعناً كبيراً وقولكم فآتهم عذاباً ضعفاً من النار ونظائرهما لتتشفوا بذلك .
كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يبالغ فى المجاهدة فى دعاء قومه وهم لا يزيدون إلا غياً وتعامياً عما
٤٠ يشاهدونه من شواهد النبوة وتصاما عما يسمعونه من بينات القرآن فنزل (أفأنت تسمع الصم أو تهدى
العمى) وهو إنكار تعجيب من أن يكون هو الذى يقدر على هدايتهم وهم قد تمرنوا فى الكفر واستغرقوا
فى الضلال بحيث صار مابهم من العشى عمى مقروناً بالصمم (ومن كان فى ضلال مبين) عطف على العمى
باعتبار تغاير الوصفين ومدار الإنكار هو التمكن والاستقرار فى الضلال المفرط بحيث لا ارعواء له
منه لا توهم القصور من قبل الهادى ففيه رمز إلى أنه لا يقدر على ذلك إلا الله تعالى وحده بالقسر والإلجاء
٤١ (فإما نذهبن بك) أى فإن قبضناك قبل أن نبصرك عذابهم ونشفى بذلك صدرك وصدور المؤمنين (فإنا
منتقمون) لا محالة فى الدنيا والآخرة فما مزيدة للتأكيد بمنزلة لام القسم فى أنها لا تفارق النون المؤكدة
٤٢ (أو نرينك الذى وعدناهم) أى أو أردنا أن نريك العذاب الذى وعدناهم (فإنا عليهم مقتدون) بحيث
٤٣ لا مناص لهم من تحت ملكتنا وقهرنا ولقد أراه عليه السلام ذلك يوم بدر (فاستمسك بالذى أوحى
إليك) من الآيات والشرائع سواء عجلنا لك الموعود أو أخرناه إلى يوم الآخرة وقرىء أوحى على
٤٤ البناء للفاعل وهو الله عز وجل (إنك على صراط مستقيم) تعليل للاستمساك أو للأمر به (وإنه
٤٥ لذكر) لشرف عظيم (لك ولقومك وسوف تسألون) يوم القيامة عنه وعن قيامكم بحقوقه (واسأل

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٦﴾ ٤٣ الزخرف

فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾ ٤٣ الزخرف

وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ۖ وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ ٤٣ الزخرف

وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ ٤٣ الزخرف

فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿٥٠﴾ ٤٣ الزخرف

وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ ٤٣ الزخرف

من أرسلنامن قبلك من رسلنا) أى واسأل أممهم وعلماء دينهم كقوله تعالى فاسأل الذين يقرؤن الكتاب من قبلك وفائدة هذا المجاز التنبيه على أن المسؤل عنه عين مانطقت به ألسنة الرسل لا ما يقوله أممهم وعلماؤهم من تلقاء أنفسهم قال الفراء هم إنما يخبرونه عن كتاب الرسل فإذا سألهم فكأنه سأل الأنبياء
عليهم الصلاة والسلام (أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون) أى هل حكمنا بعبادة الأوثان وهل *
جاءت فى ملة من مللهم والمراد به الاستشهاد بإجماع الأنبياء على التوحيد والتنبيه على أنه ليس ببدع
ابتدعه حتى يكذب ويعادى (ولقد أرسلناموسى بآياتنا) ملتبساً بها (إلى فرعون وملإه فقال إنى رسول ٤٦
رب العالمين) أريد باقتصاصه تسلية رسول الله صلى الله عليه وسلم والاستشهاد بدعوة موسى عليه السلام
إلى التوحيد إثر ما أشير إلى إجماع جميع الرسل عليهم السلام عليه (فلما جاءهم بآياتنا إذا هم منها يضحكون) ٤٧
أى فاجؤا وقت ضحكهم منها أى استهزؤا بها أول ما رأوها ولم يتأملوا فيها (وما نريهم من آية) من ٤٨
الآيات (إلا هى أكبر من أختها) إلا وهى بالغة أقصى مراتب الإعجاز بحيث يحسب كل من ينظر *
إليها أنها أكبر من كل مايقاس بها من الآيات والمراد وصف الكل بغاية الكبر من غير ملاحظة قصور
فى شىء منها أو إلا وهى مختصة بضرب من الإعجاز مفضلة بذلك الاعتبار على غيرها (وأخذناهم بالعذاب) *
كالسنين والطوفان والجراد وغيرها (لعلهم يرجعون) لكى يرجعوا عما هم عليه من الكفر (وقالوا ٤٩
يأيها الساحر) نادوه بذلك فى مثل تلك الحال لغاية عتوهم ونهاية حماقتهم وقيل كانوا يقولون للعالم الماهر
ساحر لاستعظامهم علم السحر وقرىء أيه الساحر بضم الهاء (ادع لنا ربك) ليكشف عنا العذاب *
(بما عهد عندك) بعهده عندك من النبوة أو من استجابة دعوتك أو من كشف العذاب عمن اهتدى *
أو بما عهد عندك فوفيت به من الإيمان والطاعة (إننا لمهتدون) أى لمؤمنون على تقدير كشف العذاب *
عنا بدعوتك كقولهم لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك (فلما كشفنا عنهم العذاب) بدعوته (إذا هم ٥٠
ينكثون) فاجؤا وقت نكث عهدهم بالاهتداء وقد مر تفصيله فى الأعراف (ونادى فرعون) بنفسه ٥١

أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ ٤٣ الزخرف
فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ ٤٣ الزخرف
فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾ ٤٣ الزخرف
فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ ٤٣ الزخرف
فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ ﴿٥٦﴾ ٤٣ الزخرف

* أو بمناديه (فى قومه) فى مجمعهم وفيما بينهم بعد أن كشف العذاب عنهم مخافة أن يؤمنوا (قال ياقوم أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار) أنهار النيل ومعظمها أربعة أنهر الملك ونهر طولون ونهر دمياط
* ونهر تنيس (تجرى من تحتى) أى من تحت قصرى أو أمرى وقيل من تحت سريرى لارتفاعه وقيل بين يدى فى جنانى وبساتينى والواو إما عاطفة لهذه الأنهار على ملك مصر فتجرى حال منها أو للحال
٥٢ فهذه مبتدأ والأنهار صفتها وتجرى خبر للمبتدأ (أفلا تبصرون) ذلك يريد به استعظام ملكه (أم أنا
* خير) مع هذه المملكة والبسطة (من هذا الذى هو مهين) ضعيف حقير من المهابة وهى القلة (ولا يكاد يبين) أى الكلام قاله افتراء عليه عليه السلام وتنقيصاله عليه السلام فى أعين الناس باعتبار ما كان فى لسانه عليه السلام من نوع رتة وقد كانت ذهبت عنه لقوله تعالى قد أوتيت سؤلك وأم إما منقطعة والهمزة للتقرير كأنه قال إثر ماعدد أسباب فضله ومبادى خيريته أثبت عندكم واستقر لديكم أنى أنا خير وهذه حالى من هذا الخ وإما متصلة فالمعنى أفلا تبصرون أم تبصرون خلا أنه وضع قوله أنا خير موضع تبصرون لأنهم إذا قالوا له أنت خير فهم عنده بصراء وهذا من باب تنزيل السبب منزلة المسبب ويجوز أن يجعل من تنزيل المسبب منزلة السبب فإن أبصارهم لما ذكر من أسباب فضله
٥٣ سبب على زعمه لحكمهم بخيريته (فلولا ألقى عليه أسورة من ذهب) أى فهلا ألقى إليه مقاليد الملك إن كان صادقا لما أنهم كانوا إذا سودوا رجلا سوروه وطوقوه بطوق من ذهب وأسورة جمع سوار وقرىء أساور جمع أسورة وقرىء أساورة جمع أسوار بمعنى السوار على تعويض التاء من ياء أساوير
* وقد قرىء كذلك وقرىء ألقى عليه أسورة وأساور على البناء للفاعل وهو الله تعالى (أو جاء معه الملائكة مقترنين) مقرونين يعينونه أو يصدقونه من قرنته به فاقترن أو متقارنين من اقترن بمعنى تقارن
٥٤ (فاستخف قومه) فاستفزهم وطلب منهم الخفة فى مطاوعته أو فاستخف أحلامهم (فأطاعوه) فيما
٥٥ أمرهم به (إنهم كانوا قوماً فاسقين) فلذلك سارعوا إلى طاعة ذلك الفاسق الغوى (فلما آسفونا) أى
* أغضبونا أشد الغضب منقول من أسف إذا اشتد غضبه (انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين) فى اليم
٥٦ (فجعلناهم سلفاً) قدوة لمن بعدهم من الكفار يسلكون مسلكهم فى استيجاب مثل ماحل بهم من العذاب وهو إما مصدر نعت به أو جمع سالف كخدم جمع خادم وقرىء بضم السين واللام على أنه جمع سليف أى فريق قد سلف كرغف أو سالف كصبر أو سلف كأسد وقرىء سلفاً بإبدال ضمة اللام

وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ ٤٣ الزخرف

وَقَالُوٓا۟ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ ٤٣ الزخرف

فتحة أو على أنه جمع سلفة أى ثلة قد سلفت (ومثلا للآخرين) أى عظة لهم أو قصة عجيبة تسير مسير الأمثال *
٥٧ لهم فيقال مثلكم مثل قوم فرعون (ولما ضرب ابن مريم مثلا) أى ضربه ابن الزبعرى حين جادل رسول
الله صلى الله عليه وسلم فى قوله تعالى إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم حيث قال أهذا لنا ولآلهتنا
أو لجميع الأمم فقال عليه الصلاة والسلام هو لكم ولآلهتكم ولجميع الأمم فقال اللعين خصمتك ورب الكعبة
أليس النصارى يعبدون المسيح واليهود عزيراً وبنو مليح الملائكة فإن كان هؤلاء فى النار فقد رضينا أن
نكون نحن وآلهتنا معهم ففرح به قومه وضحكوا وارتفعت أصواتهم وذلك قوله تعالى (إذا قومك منه) *
أى من ذلك المثل (يصدون) أى يرتفع لهم جلبة وضجيج فرحا وجدلا وقرىء يصدون أى من أجل ذلك *
المثل يعرضون عن الحق أى يثبتون على ما كانوا عليه من الإعراض أو يزدادون فيه وقيل هو أيضاً
٥٨ من الصديد وهما لغتان فيه نحو يعكف ويعكف وهو الأنسب بمعنى المفاجأة (وقالوا أآلهتنا خير
أم هو) حكاية لطرف من المثل المضروب قالوه تمهيداً لما بنوا عليه من الباطل المموه بما يغتر به السفهاء
أى ظاهر أن عيسى خير من آلهتنا فحيث كان هو فى النار فلا بأس بكوننا مع آلهتنا فيها واعلم أن ما نقل
عنهم من الفرح ورفع الأصوات لم يكن لما قيل من أنه عليه الصلاة والسلام سكت عند ذلك إلى أن
نزل قوله تعالى إن الذين سبقت لهم منا الحسنى الآية فإن ذلك مع إيهامه لما يجب تنزيه ساحته عليه
الصلاة والسلام عنه من شائبة الإفحام من أول الأمر خلاف الواقع كيف لا وقد روى أن قول ابن
الزبعرى خصمتك ورب الكعبة صدر عنه من أول الأمر عند سماع الآية الكريمة فرد عليه النبى صلى
الله عليه وسلم بقوله عليه السلام ما أجهلك بلغة قومك أما فهمت أن ما لما لا يعقل وإنما لم يخص عليه
السلام هذا الحكم بآلهتهم حين سأل الفاجر عن الخصوص والعموم عملا بما ذكر من اختصاص كلمة
ما بغير العقلاء لأن إخراج بعض المعبودين عنه عند المحاجة موهم للرخصة فى عبادته فى الجملة فعممه
عليه السلام للكل لكن لا بطريق عبارة النص بل بطريق الدلالة بجامع الاشتراك فى المعبودية من
دون الله تعالى ثم بين عليه الصلاة والسلام بقوله بل هم عبدوا الشياطين التى أمرتهم بذلك أن الملائكة
والمسيح بمعزل من أن يكونوا معبوديهم كما نطق به قوله تعالى سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا
يعبدون الجن الآية وقد مر تحقيق المقام عند قوله تعالى إن الذين سبقت لهم منا الحسنى الآية بل إنما
كان ما أظهروه من الأحوال المنكرة لمحض وقاحتهم وتهالكهم على المكابرة والعناد كما ينطق به قوله
تعالى (ما ضربوه لك إلا جدلا) أى ما ضربوا لك وذلك المثل إلا لأجل الجدال والخصام لا لطلب *
الحق حتى يذعنوا له عند ظهوره ببيانك (بل هم قوم خصمون) أى لد شداد الخصومة مجبولون على *
المحك واللجاج وقيل لما سمعوا قوله تعالى إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب قالوا نحن
أهدى من النصارى لأنهم عبدوا آدمياً ونحن نعبد الملائكة فنزلت فقولهم أآلهتنا خير أم هو حينئذ

إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَاءِيلَ ﴿٥٩﴾ ٤٣ الزخرف
وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿٦٠﴾ ٤٣ الزخرف
وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ ٤٣ الزخرف

تفضيل لآلهتهم على عيسى عليه السلام لأن المراد بهم الملائكة ومعنى ماضربوه الخ ماقالوا هذا القول إلا للجدل وقيل لما نزلت إن مثل عيسى الآية قالوا مايريد محمد بهذا إلا أن نعبده وأنه يستأهل أن يعبد وإن كان بشراً كما عبدت النصارى المسيح وهو بشر ومعنى يصدون يضجون ويضجرون والضمير فى أم هو لمحمد عليه الصلاة والسلام وغرضهم بالموازنة بينه عليه السلام وبين آلهتهم الاستهزاء به وقد جوز أن يكون مرادهم التنصل عما أنكر عليهم من قولهم الملائكة بنات الله تعالى ومن عبادتهم لهم كأنهم قالوا ماقلنا بدعا من القول ولا فعلنا منكراً من الفعل فإن النصارى جعلوا المسيح ابن الله وعبدوه
٥٩ فنحن أشف منهم قولا وفعلا حيث نسبنا إليه الملائكة وهم نسبوا إليه الأناسى فقوله تعالى (إن هو إلا عبد أنعمنا عليه) أى بالنبوة (وجعلناه مثلا لبنى إسرائيل) أى أمراً عجيباً حقيقاً بأن يسير ذكره كالأمثال السائرة على الوجه الأول استئناف مسوق لتنزيهه عليه السلام عن أن ينسب إليه مانسب إلى الأصنام بطريق الرمز كما نطق به صريحاً قوله تعالى إن الذين سبقت لهم منا الحسنى الآية وفيه تنبيه على بطلان رأى من رفعه عن رتبة العبودية وتعريض بفساد رأى من يرى رأيهم فى شأن الملائكة وعلى الثانى والرابع لبيان أنه قياس باطل بباطل أو بأبطل على زعمهم وما عيسى إلا عبد كسائر العبيد قصارى أمره أنه ممن أنعمنا عليهم بالنبوة وخصصناه ببعض الخواص البديعة بأن خلقناه بوجه بديع وقد خلقنا آدم بوجه أبدع منه فأين هو من رتبة الربوبية ومن أين يتوهم صحة مذهب عبدته حتى يفتخر عبدة الملائكة بكونهم أهدى منهم أو يعتذروا بأن حالهم أشف أو أخف من حالهم وأما على الوجه الثالث فهو لردهم وتكذيبهم فى افترائهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم ببيان أن عيسى فى الحقيقة وفيما أوحى إلى الرسول عليهما الصلاة والسلام ليس إلا أنه عبد منعم عليه كما ذكر فكيف
٦٠ يرضى عليه السلام بمعبوديته أو كيف يتوهم الرضا بمعبودية نفسه وقوله تعالى (ولو نشاء) الخ لتحقيق أن مثل عيسى عليه السلام ليس ببدع من قدرة الله وأنه تعالى قادر على أبدع من ذلك وأبرع مع التنبيه على سقوط الملائكة أيضاً من درجة المعبودية أى قدرتنا بحيث لو نشاء (لجعلنا) أى لخلقنا بطريق التوالد (منكم) وأنتم رجال ليس من شأنكم الولادة (ملائكة) كما خلقناهم بطريق الإبداع (فى الأرض) مستقرين فيها كما جعلناهم مستقرين فى السماء (يخلفون) أى يخلفونكم مثل أولادكم فيما تأتون وما تذرون ويباشرون الأفاعيل المنوطة بمباشرتكم مع أن شأنهم التسبيح والتقديس فى السماء فمن شأنهم بهذه المثابة بالنسبة إلى القدرة الربانية كيف يتوهم استحقاقهم للمعبودية أو انتسابهم إليه تعالى عن ذلك
٦١ علواً (وإنه) وإن عيسى (لعلم للساعة) أى إنه بنزوله شرط من أشراطها وتسمية علماً لحصوله به

وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٢﴾ ٤٣ الزخرف

وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَٱتَّقُوا۟

ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾ ٤٣ الزخرف

إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾ ٤٣ الزخرف

فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٦٥﴾ ٤٣ الزخرف

هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٦﴾ ٤٣ الزخرف

أو بحدوثه بغير أب أو بإحيائه الموتى دليل على صحة البعث الذى هو معظم ما ينكره الكفرة من الأمور الواقعة فى الساعة وقرىء لعلم أى علامة وقرىء للعلم وقرىء لذكر على تسمية ما يذكر به ذكراً كتسمية ما يعلم به علماً وفى الحديث أن عيسى عليه السلام ينزل على ثنية بالأرض المقدسة يقال لها أفيق وعليه ممصرتان وبيده حربة وبها يقتل الدجال فيأتى بيت المقدس والناس فى صلاة الصبح فيتأخر الإمام فيقدمه عيسى عليه السلام ويصلى خلفه على شريعة محمد صلى الله عليه وسلم ثم يقتل الخنازير ويكسر الصليب ويخرب البيع والكنائس ويقتل النصارى إلا من آمن به وقيل الضمير للقرآن لما أن فيه الإعلام بالساعة (فلا تمترن بها) فلا تشكن فى وقوعها (واتبعون) أى واتبعوا هداى أو شرعى أو رسولى وقيل هو قول الرسول مأموراً من جهته تعالى (هذا) أى الذى أدعوكم إليه أو القرآن على أن الضمير فى أنه له (صراط مستقيم) موصل إلى الحق (ولا يصدنكم الشيطان) عن اتباعى (إنه لكم عدو ٦٢

مبين) بين العداوة حيث أخرج أباكم من الجنة وعرضكم للبلية (ولما جاء عيسى بالبينات) أى بالمعجزات ٦٣

أو بآيات الإنجيل أو بالشرائع الواضحات (قال) لبنى إسرائيل (قد جئتكم بالحكمة) أى الإنجيل أو الشريعة (ولأبين لكم) عطف على مقدر ينبىء عنه المجىء بالحكمة كأنه قيل قد جئتكم بالحكمة لأعلمكم إياها ولأبين لكم (بعض الذى تختلفون فيه) وهو ما يتعلق بأمور الدين وأما ما يتعلق بأمور الدنيا فليس بيانه من وظائف الأنبياء عليهم السلام كما قال عليه السلام أنتم أعلم بأمور دنياكم (فاتقوا

الله) فى مخالفتى (وأطيعون) فيما أبلغه عنه تعالى (إن الله هو ربى وربكم فاعبدوه) بيان لما أمرهم ٦٤

بالطاعة فيه وهو اعتقاد التوحيد والتعبد بالشرائع (هذا) أى التوحيد والتعبد بالشرائع (صراط مستقيم) لا يضل سالكه وهو إما من تتمة كلامه عليه السلام أو استئناف من جهته تعالى مقرر لمقالة

عيسى عليه السلام (فاختلف الأحزاب) الفرق المتحزبة (من بينهم) أى من بين من بعث إليهم من ٦٥

اليهود والنصارى (فويل للذين ظلموا) من المختلفين (من عذاب يوم أليم) هو يوم القيامة (هل ينظرون) ٦٦

أى ما ينتظر الناس (إلا الساعة أن تأتيهم) أى إلا إتيان الساعة (بغتة) أى فجأة لكن لا عند كونهم مترقبين لها بل غافلين عنها مشتغلين بأمور الدنيا منكرين لها وذلك قوله تعالى (وهم لا يشعرون)

ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ ٤٣ الزخرف

يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ ٤٣ الزخرف

ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ٤٣ الزخرف

ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾ ٤٣ الزخرف

يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا
خَٰلِدُونَ ﴿٧١﴾ ٤٣ الزخرف

وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ ٤٣ الزخرف

لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٣﴾ ٤٣ الزخرف

---

٦٧ (الأخلاء) المتحابون فى الدنيا على الإطلاق أو فى الأمور الدنيوية (يومئذ) يوم إذ تأتيهم الساعة
* (بعضهم لبعض عدو) لانقطاع مابينهم من علائق الخلة والتحاب لظهور كونها أسباباً للعذاب (إلا
المتقين) فإن خلتهم فى الدنيا لما كانت فى الله تبقى على حالها بل تزداد بمشاهدة كل منهم آثار خلتهم
٦٨ من الثواب ورفع الدرجات والاستثناء على الأول متصل وعلى الثانى منقطع (ياعبادى لاخوف عليكم
اليوم ولا أنتم تحزنون) حكاية لما ينادى به المتقون المتحابون فى الله يومئذ تشريفاً لهم وتطيباً لقلوبهم
٦٩ (الذين آمنوا بآياتنا) صفة للمنادى أو نصب على المدح (وكانوا مسلمين) أى مخلصين وجوههم لنا
جاعلين أنفسهم سالمة لطاعتنا وهو حال من واو آمنوا عن مقاتل إذا بعث الله الناس فزع كل أحد
فينادى مناد ياعبادى فيرفع الخلائق رؤسهم على الرجاء ثم يتبعها الذين آمنوا الآية فينكس أهل الأديان
٧٠ الباطلة رؤسهم (ادخلوا الجنة أنتم وأزواجكم) نساؤكم المؤمنات (تحبرون) تسرون سروراً يظهر
حباره أى أثره على وجوهكم أو تزينون من الحبرة وهو حسن الهيئة أو تكرمون إكراماً بليغاً والحبرة
٧١ المبالغة فيما وصف بجميل (يطاف عليهم) بعد دخولهم الجنة حسبما أمروا به (بصحاف من ذهب
وأكواب) كذلك والصحاف جمع صحفة قيل هى كالقصعة وقيل أعظم القصاع الجفنة ثم القصعة ثم
* المكيلة والأكواب جمع كوب وهو كوز لاعروة له (وفيها) أى فى الجنة (ماتشتهيه الأنفس) من
* فنون الملاذ وقرىء ماتشتهى (وتلذ الأعين) أى تستلذه وتقر بمشاهدته وقرىء وتلذه (وأنتم فيها
خالدون) إتمام للنعمة وإكمال للسرور فإن كل نعيم له زوال بالآخرة مقارن لخوفه لامحالة والالتفات
٧٢ للتشريف (وتلك الجنة) مبتدأ وخبر (التى أورثتموها) وقرىء ورثتموها (بماكنتم تعملون) فى
الدنيا من الأعمال الصالحة شبه جزاء العمل بالميراث لأنه يخلفه العامل عليه وقيل تلك الجنة مبتدأ
وصفة والموصول مع صلته خبره وقيل هو صفة الجنة كالوجه الأول والخبر بماكنتم تعملون فتتعلق
٧٣ الباء بمحذوف لا بأورثتموها كما فى الأولين (لكم فيها فاكهة كثيرة) بحسب الأنواع والأصناف

إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَـٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ ٤٣ الزخرف

لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾ ٤٣ الزخرف

وَمَا ظَلَمْنَـٰهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٧٦﴾ ٤٣ الزخرف

وَنَادَوْا۟ يَـٰمَـٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّـٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾ ٤٣ الزخرف

لَقَدْ جِئْنَـٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَـٰرِهُونَ ﴿٧٨﴾ ٤٣ الزخرف

أَمْ أَبْرَمُوٓا۟ أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴿٧٩﴾ ٤٣ الزخرف

لا بحسب الأفراد فقط (منها تأكلون) أى بعضها تأكلون فى كل نوبة وأما الباقى فعلى الأشجار على *
الدوام لاترى فيها شجرة خلت عن ثمرها لحظة فهى مزينة بالثمار أبداً موقرة بها وعن النبى صلى الله
٧٤ عليه وسلم لاينزع رجل فى الجنة من ثمرها إلا نبت مثلاها مكانها (إن المجرمين) أى الراسخين فى
الإجرام وهم الكفار حسبما ينبىء عنه إيرادهم فى مقابلة المؤمنين بالآيات (فى عذاب جهنم خالدون) *
٧٥ خبر إن أو خالدون هو الخبر وفى متعلقة به (لا يفتر عنهم) أى لا يخفف العذاب عنهم من قولهم فترت
عنه الحمى إذاسكنت قليلاوالتركيب للضعف (وهم فيه) أى فى العذاب وقرىء فيها أى فى النار (مبلسون) *
٧٦ آيسون من النجاة (وما ظلمناهم) بذلك (ولكن كانوا هم الظالمين) لتعريضهم أنفسهم للعذاب الخالد
٧٧ (ونادوا) خازن النار (يامالك) وقرىء يامال على الترخيم بالضم والكسر ولعله رمز إلى ضعفهم
وعجزهم عن تأدية اللفظ بتمامه (ليقض علينا ربك) أى ليمتنا حتى نستريح من قضى عليه إذا أماته والمعنى *
سل ربك أن يقضى علينا وهذا لاينافى ماذكر من إبلاسهم لأنه جؤار وتمن للموت لفرط الشدة (قال *
إنكم ماكثون) أى فى العذاب أبداً لاخلاص لكم منه بموت ولا بغيره عن ابن عباس رضى الله عنهما
٧٨ أنه لايجيبهم إلا بعد ألف سنة وقيل بعد مائة وقيل بعد أربعين سنة (لقد جئناكم بالحق) فى الدنيا
بإرسال الرسل وإنزال الكتب وهو خطاب توبيخ وتقريع من جهة الله تعالى مقرر لجواب مالك ومبين
لسبب مكثهم وقيل فى قال ضمير الله تعالى (ولكن أكثركم للحق) أى حق كان (كارهون) لايقبلونه *
٧٩ وينفرون عنه أما الحق المعهود الذى هو التوحيد أو القرآن فكلهم كارهون له مشمئزون منه (أم
أبرموا أمراً) كلام مبتدأ ناع على المشركين مافعلوا من الكيد برسول الله صلى الله عليه وسلم وأم
منقطعة وما فيها من معنى بل للانتقال من توبيخ أهل النار إلى حكاية جناية هؤلاء والهمزة للإنكار
فإن أريد بالإبرام الأحكام حقيقة فهى لإنكار الوقوع واستبعاده وإن أريد الأحكام صورة فهى
لإنكار الواقع واستقباحه أى أأبرم مشركو مكة أمراً من كيدهم ومكرهم برسول الله صلى الله عليه
(فإنا مبرمون) كيدنا حقيقة لاهم أو فإنا مبرمون كيدنا بهم حقيقة كما أبرموا كيدهم صورة كقوله *
تعالى أم يريدون كيداً فالذين كفروا هم المكيدون وكانوا يتناجون فى أنديتهم ويتشاورون فى أموره

أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾ ٤٣ الزخرف
قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ﴿٨١﴾ ٤٣ الزخرف
سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾ ٤٣ الزخرف
فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٨٣﴾ ٤٣ الزخرف
وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَٰهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَٰهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾ ٤٣ الزخرف

٨٠ عليه الصلاة والسلام (أم يحسبون) أى بل أيحسبون (أنا لانسمع سرهم) وهوماحدثوا به أنفسهم
أو غيرهم فى مكان خال (ونجواهم) أى ماتكلموا به فيما بينهم بطريق التناجى (بلى) نحن نسمعهما
ونطلع عليهما (ورسلنا) الذين يحفظون عليهم أعمالهم ويلازمونهم أينما كانوا (لديهم) عندهم (يكتبون)
أى يكتبونهما أو يكتبون كل ماصدر عنهم من الأفعال والأقوال التى من جملتها ماذكر من سرهم
٨١ ونجواهم والجملة إما عطف على مايترجم عنه بلى أو حال أى نسمعهما والحال أن رسلنا يكتبون (قل)
أى للكفرة تحقيقاً للحق وتنبيهاً لهم على أن مخالفتك لهم بعدم عبادتك لما يعبدونه من الملائكة عليهم
السلام ليست لبغضك وعداوتك لهم أو لمعبوديهم بل إنما هو لجزمك باستحالة مانسبوا إليهم وبنوا
عليه عبادتهم من كونهم بنات الله تعالى (إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين) أى له وذلك لأنه عليه
الصلاة والسلام أعلم الناس بشئونه تعالى وبما يجوز عليه وبما لايجوز وأولاهم بمراعاة حقوقه ومن
مواجب تعظيم الوالد تعظيم ولده وفيه من الدلالة على انتفاء كونهم كذلك على أبلغ الوجوه وأقواها
وعلى كون رسول الله صلى الله عليه وسلم على قوة يقين وثبات قدم فى باب التوحيد مالايخفى مع مافيه
من استنزال الكفرة عن رتبة المكابرة حسبما يعرب عنه إيراد أن مكان لو المنبئة عن امتناع مقدم
الشرطية وقيل إن كان للرحمن ولد فى زعمكم فأنا أول العابدين الموحدين لله تعالى وقيل فأنا أول الآنفين
أى المستنكفين منه أو من أن يكون له ولد من عبد يعبد إذا اشتد أنفه وقيل إن نافية أى ما كان
٨٢ للرحمن ولد فأنا أول من قال بذلك وقرىء ولد (سبحان رب السموات والأرض رب العرش عما
يصفون) أى يصفونه به من أن يكون له ولد وفى إضافة اسم الرب إلى أعظم الأجرام وأقواها تنبيه
على أنها وما فيها من المخلوقات حيث كانت تحت ملكوته وربوبيته كيف يتوهم أن يكون شىء منها جزأ
٨٣ منه سبحانه وفى تكرير اسم الرب تفخيم لشأن العرش (فذرهم) حيث لم يذعنوا للحق بعد ما سمعوا
هذا البرهان الجلى (يخوضوا) فى أباطيلهم (ويلعبوا) فى دنياهم فإن ماهم فيه من الأفعال والأقوال
ليست إلا من باب الجهل واللعب والجزم فى الفعل لجواب الأمر (حتى يلاقوا يومهم الذى يوعدون)
٨٤ من يوم القيامة فإنهم يومئذ يعلمون ما فعلوا وما يفعل بهم (وهو الذى فى السماء إله وفى الأرض إله)
الظرفان متعلقان بالمعنى الوصفى الذى ينبىء عنه الاسم الجليل من معنى المعبودية بالحق بناء على اختصاصه

وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٥﴾ ٤٣ الزخرف
وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ ٤٣ الزخرف
وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾ ٤٣ الزخرف
وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ ٤٣ الزخرف
فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَٰمٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾ ٤٣ الزخرف

بالمعبود بالحق كما مر فى تفسير البسملة كأنه قيل وهو الذى مستحق لأن يعبد فيهما وقد مر تحقيقه فى
سورة الأنعام وقرىء وهو الذى فى السماء الله وفى الأرض الله والراجع إلى الموصول مبتدأ قد
حذف لطول الصلة بمتعلق الخبر والعطف عليه ولا مساغ لكون الجار خبراً مقدماً وإله مبتدأ مؤخر
للزوم عراء الجملة حينئذ عن العائد نعم يجوز أن يكون صلة للموصول وإله خبراً لمبتدأ محذوف على أن
الجملة بيان للصلة وأن كونه فى السماء على سبيل الإلهية لا على سبيل الاستقرار وفيه نفى الآلهة السماوية
والأرضية وتخصيص لاستحقاق الإلهية به تعالى وقوله تعالى (وهو الحكيم العليم) كالدليل على ماقبله *
(وتبارك الذى له ملك السموات والأرض وما بينهما) إما على الدوام كالهواء أو فى بعض الأوقات ٨٥
كالطير (وعنده علم الساعة) أى العلم بالساعة التى فيها تقوم القيامة (وإليه ترجعون) للجزاء والالتفات *
للتهديد وقرىء على الغيبة وقرىء تحشرون بالتاء (ولا يملك الذين يدعون) أى يدعونهم وقرىء بالتاء ٨٦
مخففاً ومشدداً (من دونه الشفاعة) كما يزعمون (إلا من شهد بالحق) الذى هو التوحيد (وهم يعلمون) *
بما يشهدون به عن بصيرة وإيقان وإخلاص وجمع الضمير باعتبار معنى من كما أن الإفراد أولا باعتبار
لفظها والاستثناء إما متصل والموصول عام لكل ما يعبد من دون الله أو منفصل على أنه خاص بالأصنام
(ولئن سألتهم من خلقهم) أى سألت العابدين والمعبودين (ليقولن الله) لتعذر الإنكار لغاية بطلانه ٨٧
(فأنى يؤفكون) فكيف يصرفون عن عبادته إلى عبادة غيره مع اعترافهم بكون الكل مخلوقا له تعالى *
(وقيله) بالجر إما على أنه عطف على الساعة أى عنده علم الساعة وعلم قوله عليه الصلاة والسلام (يارب) ٨٨
الخ فإن القول والقيل والقال كلها مصادر أو على أن الواو للقسم وقوله تعالى (إن هؤلاء قوم لا يؤمنون) *
جوابه وفى الإقسام به من رفع شأنه عليه الصلاة والسلام وتفخيم دعائه والتجائه إليه تعالى ما لا يخفى
وقرىء بالنصب بالعطف على سرهم أو على محل الساعة أو بإضمار فعله أو بتقدير فعل القسم وقرىء
بالرفع على الابتداء والخبر مابعده وقد جوز عطفه على علم الساعة (فاصفح عنهم) فأعرض عن دعوتهم ٨٩
واقنط عن إيمانهم (وقل سلام) أى أمرى تسلم منكم ومتاركة (فسوف يعلمون) حالهم البتة وإن تأخر *
ذلك وهو وعيد من الله تعالى لهم وتسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم وقرىء تعلمون على أنه داخل

سُورَةُ الزُّخْرُفِ

ترتيبها ٤٣ — آياتها ٨٩

مكية كما روي عن ابن عباس وحكى ابن عطية إجماع أهل العلم على ذلك ولم ينقل استثناء، وقال مقاتل: إلا قوله تعالى: ﴿واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا﴾ [الزخرف: ٤٥] فإنها نزلت ببيت المقدس كذا في مجمع البيان، وفي الاتقان نزلت بالسماء، وقيل: بالمدينة، وعدد آيها ثمان وثمانون في الشامي وتسع وثمانون في غيره، ووجه مناسبة مفتتحها لمختتم ما قبلها ظاهر.

بسم الله الرحمن الرحيم

حمٓ ﴿١﴾ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴿٣﴾ وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ
لَدَيۡنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴿٤﴾ أَفَنَضۡرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكۡرَ صَفۡحًا أَن كُنتُمۡ قَوۡمٗا مُّسۡرِفِينَ ﴿٥﴾ وَكَمۡ
أَرۡسَلۡنَا مِن نَّبِيّٖ فِي ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٦﴾ وَمَا يَأۡتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٧﴾ فَأَهۡلَكۡنَآ أَشَدَّ مِنۡهُم
بَطۡشٗا وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٨﴾ وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلۡعَزِيزُ
ٱلۡعَلِيمُ ﴿٩﴾ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ مَهۡدٗا وَجَعَلَ لَكُمۡ فِيهَا سُبُلٗا لَّعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ﴿١٠﴾ وَٱلَّذِي
نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءَۢ بِقَدَرٖ فَأَنشَرۡنَا بِهِۦ بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗاۚ كَذَٰلِكَ تُخۡرَجُونَ ﴿١١﴾ وَٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَزۡوَٰجَ كُلَّهَا
وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡفُلۡكِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ مَا تَرۡكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسۡتَوُۥاْ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ رَبِّكُمۡ إِذَا ٱسۡتَوَيۡتُمۡ عَلَيۡهِ
وَتَقُولُواْ سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقۡرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾ وَجَعَلُواْ لَهُۥ مِنۡ
عِبَادِهِۦ جُزۡءًاۚ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَكَفُورٞ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخۡلُقُ بَنَاتٖ وَأَصۡفَىٰكُم بِٱلۡبَنِينَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا
بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحۡمَٰنِ مَثَلٗا ظَلَّ وَجۡهُهُۥ مُسۡوَدّٗا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾ أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِي ٱلۡحِلۡيَةِ
وَهُوَ فِي ٱلۡخِصَامِ غَيۡرُ مُبِينٖ ﴿١٨﴾ وَجَعَلُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمۡ عِبَٰدُ ٱلرَّحۡمَٰنِ إِنَٰثًاۚ أَشَهِدُواْ خَلۡقَهُمۡۚ
سَتُكۡتَبُ شَهَٰدَتُهُمۡ وَيُسۡـَٔلُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُواْ لَوۡ شَآءَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مَا عَبَدۡنَٰهُمۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنۡ عِلۡمٍۖ إِنۡ هُمۡ إِلَّا

يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ ءَاتَيْنَـٰهُمْ كِتَـٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾ بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾

﴿بسم الله الرَّحْمَـٰنِ الرَّحيم حـم﴾ الكلام فيه على نحو ما مر في مفتتح يس ﴿والكتاب﴾ أي القرآن والمراد به جميعه، وجوز إرادة جنسه الصادق ببعضه وكله، وقيل: يجوز أن يراد به جنس الكتب المنزلة أو المكتوب في اللوح أو المعنى المصدري وهو الكتابة والخط، وأقسم سبحانه بها لما فيها من عظيم المنافع ولا يخفى ما في ذلك، والأولى على تقدير اسمية ﴿حم﴾ كونه اسماً للقرآن وإن يراد ذلك أيضاً بالكتاب وهو مقسم به إما ابتداء أو عطفاً على ﴿حم﴾ على تقدير كونه مجروراً بإضمار باء القسم على أن مدار العطف المغايرة في العنوان لكن يلزم على هذا حذف حرف الجر وإبقاء عمله كما في:

أشارت كليب بالأكف الأصابع

ومنع أن يقسم بشيئين بحرف واحد لا يلتفت إليه ومناط تكرير القسم المبالغة في تأكيد الجملة القسمية ﴿المُبين﴾ أي المبين لمن أنزل عليهم لكونه بلغتهم وعلى أساليب كلامهم على أنه من أبان اللازم أو المبين لطريق الهدى من طريق الضلالة الموضح لأصول ما يحتاج إليه في أبواب الديانة على أنه من أبان المتعدي.

﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا﴾ جواب للقسم، والجعل بمعنى التصيير المعدى لمفعولين لا بمعنى الخلق المعدى لواحد لا لأنه ينافي تعظيم القرآن بل لأنه يأباه ذوق المقام المتكلم فيه لأن الكلام لم يسبق لتأكيد كونه مخلوقاً وما كان إنكارهم متوجهاً عليه بل هو مسوق لإثبات كونه قرآناً عربياً مفصلاً وارداً على أساليبهم لا يعسر عليهم فهم ما فيه ودرك كونه معجزاً كما يؤذن به قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي لكي تفهموه وتحيطوا بما فيه من النظر الرائق والمعنى الفائق وتقفوا على ما يتضمنه من الشواهد الناطقة بخروجه عن طوق البشر وتعرفوا حق النعمة في ذلك وتنقطع أعذاركم بالكلية اولقسم بالقرآن على ذلك من الإيمان الحسنة البديعة لما فيه من رعاية المناسبة والتنبيه على أنه لا شيء أعلى منه فيقسم به ولا أهم من وصفه فيقسم عليه كما قال أبو تمام:

وثـنـايـاك إنـهـا اغـريـض ولآل قـوم وبـرق ومـيـض

بناء على أن جواب القسم قوله: إنها اغريض، واستدل بالآية على أن القرآن مخلوق وأطالوا الكلام في ذلك، وأجيب بأنه إن دل على المخلوقية فلا يدل على أكثر من مخلوقية الكلام اللفظي ولا نزاع فيها.

وأنت تعلم أن الحنابلة ينازعون في ذلك ولهم عن الاستدلال أجوبة مذكورة في كتبهم، وأخرج ابن مردويه عن طاوس قال: جاء رجل إلى ابن عباس من حضرموت فقال له: يا ابن عباس أخبرني عن القرآن أكلام من كلام الله تعالى أم خلق من خلق الله سبحانه قال: بل كلام من كلام الله تعالى أو ما سمعت الله سبحانه يقول: ﴿وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله﴾ [التوبة: ٦] فقال له الرجل أفرأيت قوله تعالى: ﴿إنا جعلناه قرآناً عربياً﴾ قال: كتبه الله تعالى في اللوح المحفوظ بالعربية أما سمعت الله تعالى يقول: ﴿بل هو قرآن مجيد في لوح محفوظ﴾ فتأمل فيه ﴿وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ﴾ أي في اللوح المحفوظ على ما ذهب إليه جمع فإنه أم الكتب السماوية أي أصلها لأنها كلها منقولة منه، وقيل: ﴿أم الكتاب﴾ العلم الأزلي، وقيل: الآيات المحكمات والضمير . لحم . أو للكتاب بمعنى السورة أي إنها واقعة في الآيات المحكمات التي هي الأم وهو كما ترى.

وقرأ الأخوان «إم» بكسر الهمزة لاتباع الميم أو ﴿الكتاب﴾ فلا تكسر في عدم الوصل ﴿لَدَيْنَا﴾ أي عندنا ﴿لعلي﴾ رفيع الشان بين الكتب لإعجازه واشتماله على عظيم الأسرار ﴿حَكِيمٌ﴾ ذو حكمة بالغة أو محكم لا ينتسخه غيره أو حاكم على غيره من الكتب وهما خبران لإن، وفي ﴿أم الكتاب﴾ قيل متعلق بعلي واللام لما فارقت محلها وتغيرت عن أصلها بطلت صدارتها فجاز تقديم ما في حيزها عليها أو حال منه لأنه صفة نكرة تقدمتها أو من ضميره المستتر و ﴿لدينا﴾ بدل من ﴿أم الكتاب﴾ وهما وإن كانا متغايرين بالنظر إلى المعنى متوافقان بالنظر إلى الحاصل أو حال منه أو من الكتاب فإن المضاف في حكم الجزء لصحة سقوطه، ولعل المختار كون الظرفين في موضع الخبر لمبتدأ محذوف والجملة مستأنفة لبيان محل الحكم كأنه قيل بعد بيان اتصافه بما ذكر من الوصفين الجليلين هذا في أم الكتاب ولدينا، ولم يجوزوا كونهما في موضع الخبر لإن لدخول اللام في غيرهما.

وأياً ما كان فالجملة المؤكدة إما عطف على الجملة المقسم عليها داخلة في حكمها وإما مستأنفة مقررة لعلو شأن القرآن الذي أنبأ الإقسام به على منهاج الاعتراض في قوله تعالى: «وإنه لقسم لو تعلمون عظيم» وبعد ما بين سبحانه علو شأن القرآن العظيم وحقق جل وعلا أن إنزاله على لغتهم ليعقلوه ويؤمنوا به ويعملوا بموجبه عقب سبحانه ذلك بإنكار أن يكون الأمر بخلافه فقال جل شأنه: ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ الذِّكْرَ﴾ أي أفننحيه ونبعده عنكم على سبيل الاستعارة التمثيلية من قولهم: ضرب الغرائب عن الحوض شبه حال الذكر وتنحيته بحال غرائب الإبل وذودها عن الحوض إذا دخلت مع غيرها عند الورد ثم استعمل ما كان في تلك القصة ههنا، وفيه إشعار باقتضاء الحكمة توجه الذكر إليهم وملازمته لهم كأنه يتهافت عليهم، ولو جعل استعارة في المفرد بجعل التنحية ضربا جاز ومن ذلك قول طرفة:

اضرب عنك الهموم طارقها ... ضربك بالسيف قونس الفرس

وقول الحجاج في خطبته يهدد أهل العراق: لأضربنكم ضرب غرائب الإبل. و ﴿الذكر﴾ قيل المراد به القرآن ويروي ذلك عن الضحاك وأبي صالح والكلام على تقدير مضاف أي إنزال الذكر وفيه إقامة الظاهر مقام المضمر تفخيماً، وقيل: بل هو ذكر العباد بما فيه صلاحهم فهو بمعنى المصدر حقيقة، وعن ابن عباس. ومجاهد ما يقتضيه، والهمزة للإنكار والفاء للعطف على محذوف يقتضيه على أحد الرأيين في مثل هذا التركيب أي أنهملكم فننحي الذكر عنكم، وقال ابن الحاجب: الفاء لبيان ما قبلها وهو جعل القرآن عربياً سبب لما بعدها وهو إنكار أن يضرب سبحانه الذكر عنهم ﴿صَفْحاً﴾ أي إعراضاً، وهو مصدر لنضرب من غير لفظه فإن تنحية الذكر إعراض فنصبه على أنه مفعول مطلق على نهج قعدت جلوساً كأنه قيل: أفنصفح عنكم صفحاً أو هو منصوب على أنه مفعول له أو حال مؤول بصافحين بمعنى معرضين، وأصل الصفح أن تولي الشيء صفحة عنقك، وقيل: إنه بمعنى الجانب فينتصب على الظرفية أن افننحيه عنكم جانباً، ويؤيده قراءة حسان بن عبد الرحمن الضبعي والسميط بن عمير وشبيل بن عذره «صُفْحاً» بضم الصاد وحينئذ يحتمل أن يكون تخفيف صفح كرسل جمع صفوح بمعنى صافحين، وأبو حيان اختيار أن يكون مفرداً بمعنى المفتوح كالسد والسد.

وحكي عن ابن عطية أن انتصاب صفحاً على أنه مصدر مؤكد لمضمون الجملة السابقة فيكون العامل فيه محذوفاً، ولا يخفى أنه لا يظهر ذلك، وأيا ما كان فالمراد إنكار أن يكون الأمر خلاف ما ذكر من إنزال كتاب على لغتهم ليفهموه ﴿أَن كُنتُمْ قَوْماً مُسْرِفِينَ﴾ أي لأن كنتم منهمكين في الإسراف مصرين عليه على معنى أن الحكمة تقتضي ذكركم وإنزال القرآن عليكم فلا نترك ذلك لأجل أنكم مسرفون لا تلتفتون إليه بل نفعل التفتُّم أم لا.

وقيل: هو على معنى أن حالكم وإن اقتضى تخليتكم وشأنكم حتى تموتوا على الكفر والضلالة وتبقوا في العذاب الخالد لكننا لسعة رحمتنا لا نفعل ذلك بل نهديكم إلى الحق بإرسال الرسول الأمين وإنزال الكتاب المبين.

وقرأ نافع والاخوان «إن كنتم» بكسر الهمزة على أن الجملة شرطية، وإن وإن كانت تستعمل للمشكوك وإسرافهم أمر محقق لكن جيء بها هنا بناء على جعل المخاطب كأنه متردد في ثبوت الشرط شاك فيه قصداً إلى نسبته إلى الجهل بارتكابه الإسراف لتصويره بصورة ما يفرض لوجوب انتفائه وعدم صدوره ممن يعقل، وقيل: لا حاجة إلى هذا لأن الشرط الإسراف في المستقبل وهو ليس بمتحقق، ورد بأن إن الداخلة على كان لا تقلبه للاستقبال عند الأكثر، ولذا قيل: ﴿إن﴾ هنا بمعنى إذ. وأيد بأن علي بن زيد قرأ به وأنه يدل على التعليل فتوافق قراءة الفتح معنى، ولو سلم فالظاهر من حال المسرف المصرّ على إسرافه بقاؤه على ما هو عليه فيكون محققاً في المستقبل أيضاً على القول بأنها تقلب كان كغيرها من الأفعال وجواب الشرط محذوف ثقة بدلالة ما قبل عليه، وجوز أن يكون الشرط في موقع الحال أي مفروضاً اسرافكم على أنه من الكلام المنصف فلا يحتاج إلى تقدير جواب.

وتعقب بأنه إنما يتأتى على القول بأن إن الوصلية ترد في كلامهم بدون الواو والمعروف في العربية خلافه.

وقوله عزَّ وجلَّ ﴿**وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيّ فِي الأَوَّلِينَ وَمَا يَأْتِيهِم مِنْ نَبِيّ إِلاَّ كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ**﴾ تقرير لما قبله ببيان أن إسراف الأمم السالفة لم يمنعه تعالى من إرسال الأنبياء إليهم وتسلية لرسول الله ﷺ عن استهزاء قومه به عليه الصلاة والسلام، فقد قيل: البلية إذا عمت طابت، و ﴿**كم**﴾ مفعول ﴿**أرسلنا**﴾ و ﴿**في الأولين**﴾ متعلق به أو صفة ﴿**نبي**﴾ وما يأتيهم الخ للاستمرار وضميره للأولين، وقوله تعالى: ﴿**فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشاً**﴾ نوع آخر من التسلية له ﷺ، وضمير ﴿**منهم**﴾ يرجع إلى المسرفين المخاطبين لا إلى ما يرجع إليه ضمير ﴿**ما يأتيهم**﴾ لقوله تعالى: ﴿**وَمَضَى مَثَلُ الأَوَّلِينَ**﴾ أي سلف في القرآن غير مرة ذكر قصتهم التي حقها أن تسير مسير المثل، ونصب ﴿**بطشاً**﴾ على التمييز وجوز كونه على الحال من فاعل ﴿**أهلكنا**﴾ أي باطشين، والأول أحسن، ووصف أولئك بالأشدية لإثبات حكمهم لهؤلاء بطريق الأولوية، وقوله تعالى:

﴿**وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ**﴾ عطف على الخطاب السابق والآيتان أعني قوله تعالى: ﴿**وكم أرسلنا**﴾ اعتراض لإفادة التقرير والتسلية كما سمعت، والمراد ولئن سألتهم من خلق العالم ليسندن خلقه إلى من هو متصف بهذه الصفات في نفس الأمر لا أنهم يقولون هذه الألفاظ ويصفونه تعالى بما ذكر من الصفات ذكره الزمخشري فيما نسب إليه. وهذا حسن وله نظير عرفاً وهو أن واحداً لو أخبرك أن الشيخ قال كذا وعنى بالشيخ شمس الأئمة ثم لقيت شمس الأئمة فقلت: إن فلاناً أخبرني أن شمس الأئمة قال: كذا مع أن فلاناً لم يجر على لسانه إلا الشيخ ولكنك تذكر ألقابه وأوصافه فكذا ههنا الكفار يقولون: خلقهن الله لا ينكرون ثم إن الله عزَّ وجلَّ ذكر صفاته أي إن الله تعالى الذي يحيلون عليه خلق السموات والأرض من صفته سبحانه كيت وكيت، وقال ابن المنير: إن ﴿**العزيز العليم**﴾ من كلام المسؤولين وما بعد من كلامه سبحانه. وفي الكشف لا فرق بين ذلك الوجه وهذا في الحاصل فإنه حكاية كلام عنهم متصل به كلامه تعالى على أنه من تتمته وإن لم يكن قد تفوهوا به، وهذا كما يقول مخاطبك: أكرمني زيد فتقول: الذي أكرمك وحياك أو لجماعة آخرين حاضرين الذي أكرمكم وحياكم فإنك تصل كلامه على أنه من تتمته ولكن لا تجعله من مقوله، والأظهر من حيث اللفظ ما ذكره ابن المنير وحينئذ يقع الالتفات في ﴿**فأنشرنا**﴾ بعد موقعه، ونظير ذلك قوله تعالى حكاية عن موسى عليه السلام: ﴿لا يضل ربي ولا ينسى﴾ [طه: ٥٢] إلى قوله تعالى: ﴿فأخرجنا به أزواجاً من نبات شتى﴾ [طه: ٥٣] وفي إعادة الفعل في الجواب اعتناء بشأنه ومطابقته للسؤال

من حيث المعنى على ما زعم أبو حيان لا من حيث اللفظ قال: لأن من مبتدأ فلو طابق في اللفظ لكان بالاسم مبتدأ دون الفعل بأن يقال: العزيز العليم خلقهن ﴿الَّذي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ مَهْداً﴾ مكاناً ممهداً أي موطأ ومآله بسطها لكم تستقرون فيها ولا ينافي ذلك كريتها لمكان العظم، وعن عاصم أنه قرأ «مهداً» بدون ألف ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ فيها سُبُلاً﴾ طرقاً تسلكونها في أسفاركم ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ أي لكي تهتدوا بسلوكها إلى مقاصدكم أو بالتفكر فيها إلى التوحيد الذي هو المقصد الأصلي ﴿وَالَّذي نَزَّلَ منَ السَّماء مَاءً بقَدَرٍ﴾ أي بمقدار تقتضيه المشيئة المبنية على الحكم والمصالح ولا يعلم مقدار ما ينزل من ذلك في كل سنة على التحقيق إلا الله عزَّ وجلَّ، والآلة التي صنعها الفلاسفة في هذه الأعصار المسماة بالأودوميتر يزعمون أنه يعرف بها مقدار المطر النازل في كل بلد من البلاد في جميع السنة لا تفيد تحقيقاً في البقعة الواحدة الصغيرة فضلاً عن غيرها كما لا يخفى على المنصف. وفي البحر بقدر أي بقضاء وحتم في الأزل، والأول أولى ﴿فَأَنْشَرْنَا به﴾ أي أحيينا بذلك الماء ﴿بَلْدَةً مَيْتاً﴾ خالية عن النماء والنبات بالكلية.

وقرأ أبو جعفر وعيسى «مَيِّتاً» بالتشديد، وتذكيره لأن البلدة في معنى البلد والمكان، قال الجلبي: لا يبعد والله تعالى أعلم أن يكون تأنيث البلد وتذكير ﴿ميتاً﴾ إشارة إلى بلوغ ضعف حاله الغاية، وفي الكلام استعارة مكنية أو تصريحية.

والالتفات في ﴿أنشرنا﴾ إلى نون العظمة لإظهار كمال العناية بأمر الإحياء والإشعار بعظم خطره ﴿كَذَلكَ﴾ أي مثل ذلك الانشار الذي هو في الحقيقة إخراج من الأرض وهو صفة مصدر محذوف أي انشاراً كذلك ﴿تُخْرَجُونَ﴾ أي تبعثون من قبوركم أحياء، وفي التعبير عن إخراج النبات بالإنشار الذي هو إحياء الموتى وعن إحيائهم بالإخراج تفخيم لشأن الإنبات وتهوين لأمر البعث، وفي ذلك من الرد على منكريه ما فيه.

وقرأ ابن وثاب وعبد الله بن جبير وعيسى وابن عامر والأخوان «تَخْرُجُونَ» مبيناً للفاعل.

﴿وَالَّذي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا﴾ أي أصناف المخلوقات فالزوج هنا بمعنى الصنف لا بمعناه المشهور، وعن ابن عباس الأزواج الضروب والأنواع كالحلو والحامض والأبيض والأسود والذكر والأنثى، وقيل: كل ما سوى الله سبحانه زوج لأنه لا يخلو من المقابل كفوق وتحت ويمين وشمال وماض ومستقبل إلى غير ذلك والفرد المنزع عن المقابل هو الله عزَّ وجلَّ، وتعقب بأن دعوى اطراده في الموجودات بأسرها لا تخلو عن النظر.

ولعل من قال: كل ما سوى الله سبحانه زوج لم ين الأمر على ما ذكر وإنما بناه على أن الواجب جلَّ شأنه واحد من جميع الجهات لا تركيب فيه سبحانه بوجه من الوجوه لا عقلاً ولا خارجاً ولا كذلك شيء من الممكنات مادية كانت أو مجردة ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ منَ الْفُلْك وَالأَنعَام مَا تَرْكَبُونَ﴾ أي ما تركبونه، فما موصولة والعائد محذوف، والركوب بالنظر إلى الفلك يتعدى بواسطة الحرف وهو في كما قال تعالى: ﴿وإذا ركبوا في الفلك﴾ [العنكبوت: ٦٥] بخلافه لا بالنظر إليه فإنه يتعدى بنفسه كما قال سبحانه: ﴿لتركبوها﴾ [النحل: ٨] إلا أنه غلب المتعدي بغير واسطة لقوته على المتعدي بواسطة فالتجوز الذي يقتضيه التغليب بالنسبة إلى المتعلق أو غلب المخلوق للركوب على المصنوع له لكونه مصنوع الخالق القدير أو الغالب على النادر فالتجوز في ﴿ما﴾ وضميره الذي تعدى الركوب إليه بنفسه دون النسبة إلى المفعول ولتغليب ما ركب من الحيوان على الفلك ﴿لتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُوره﴾ حيث عبر عن القرار على الجميع بالاستواء على الظهور المخصوص بالدواب والضمير. لما تركبون. وأفرد رعاية للفظ، وجمع ظهور مع إضافته إليه رعاية لمعناه، والظاهر أن لام ﴿لتستووا﴾ لام كي، وقال الحوفي: من أثبت لا بالصيرورة جاز له أن

يقول به هنا، وقال ابن عطية: هي لام الأمر، وفيه بعد من حيث استعماله أمر المخاطب بتاء الخطاب، وقد اختلف في أمره فقيل: إنه لغة رديئة قليلة لا تكاد تحفظ إلا في قراءة شاذة نحو «فبذلك فلتفرحوا»[١] أو شعر نحو قوله:

لتقم أنت يا بن خير قريش

وما ذكره المحدثون من قوله عليه الصلاة والسلام: لتأخذوا مصافكم يحتمل أنه من المروي بالمعنى، وقال الزجاج: إنها لغة جيدة، وأبو حيان على الأول وحكاه عن جمهور النحويين.

﴿ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ﴾ أي تذكروها بقلوبكم معترفين بها مستعظمين لها ثم تحمدوا عليها بألسنتكم وهذا هو معنى ذكر نعمة الله تعالى عليهم على ما قال الزمخشري، وحاصله أن الذكر يتضمن شعور القلب والمرور على اللسان فنزل على أكمل أحواله وهو أن يكون ذكراً بالسان مع شعور من القلب، وأما الاعتراف والاستعظام فمن نعمة ربكم لاقتضائه الإحضار في القلب لذلك وهذا عين الحمد الذي هو شكر في هذا المقام لا أنه يوجبه وإن كان ذلك التقرير سديداً أيضاً، ومنه يظهر إيثاره على ثم تحمدوا إذا استويتم، ومن جوز استعمال المشترك في معنييه جوز هنا أن يراد بالذكر الذكر القلبي والذكر اللساني وهو كما ترى.

ولما كانت تلك النعمة متضمنة لأمر عجيب قال سبحانه: ﴿وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا﴾ أي وتقولوا سبحان الذي ذلله وجعله منقاداً لنا متعجبين من ذلك، وليس الإشارة للتحقير بل تصوير الحال وفيها مزيد تقرير لمعنى التعجب، والكلام وإن كان إخباراً على ما سمعت أولا يشعر بالطلب.

أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن أبي مجلز قال: رأى الحسين بن علي رضي الله تعالى عنهما وكرم وجههما رجلاً ركب دابة فقال: سبحان الذي سخر لنا هذا فقال: أوبذلك أمرت؟ فقال: فكيف أقول؟ قال: الحمد لله الذي هدانا للإسلام الحمد لله الذي منَّ علينا بمحمد ﷺ الحمد لله الذي جعلني في خير أمة أخرجت للناس ثم تقول: ﴿سبحان الذي سخر لنا هذا ـ إلى ـ مقرنين﴾ وهذا يومىء إلى أن ليس المراد من النعمة نعمة التسخير، وأخرج ابن المنذر عن شهر بن حوشب أنه فسرها بنعمة الإسلام.

وأخرج أحمد وأبو داود والترمذي وصححه والنسائي وجماعة عن علي كرم الله تعالى وجهه أنه أتى بدابة فلما وضع رجله في الركاب قال: بسم الله فلما استوى على ظهرها قال: الحمد لله ثلاثاً والله أكبر ثلاثاً سبحان الذي سخر لنا هذا إلى لمنقلبون سبحانك لا إله إلا أنت قد ظلمت نفسي فاغفر لي ذنوبي إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت ثم ضحك فقيل له: مم ضحكت يا أمير المؤمنين؟ قال: رأيت رسول الله ﷺ فعل كما فعلت ثم ضحك فقلت: يا رسول الله مم ضحكت؟ فقال: يتعجب الرب من عبده إذا قال: رب اغفر لي ويقول: علم عبدي أنه لا يغفر الذنوب غيري، وفي حديث أخرجه مسلم والترمذي وأبو داود والدارمي عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ كان إذا استوى على بعيره خارجاً إلى سفر حمد الله تعالى وسبح وكبر ثلاثاً ثم قال: سبحان الذي سخر لنا هذا إلى لمنقلبون، وفي حديث أخرجه أحمد. وغيره عن رسول الله ﷺ قال: ما من بعير إلا في ذروته شيطان فاذكروا اسم الله تعالى إذا ركبتموه كما أمركم، وظاهر النظم الجليل أن تذكر النعمة والقول المذكور لا يخصان ركوب الأنعام بل يعمانها والفلك، وذكر بعضهم أنه يقال: إذا ركبت السفينة ﴿بسم الله مجراها ومرساها ـ إلى ـ رحيم﴾ [هود: ٤١] ويقال: عند النزول منها «اللهم أنزلنا

---

(١) في سورة يونس، الآية: ٥٨ «فبذلك فليفرحوا».

منزلاً مباركاً وأنت خير المنزلين» ﴿وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾ أي مطيقين، وأنشد قطرب لعمرو بن معديكرب:

لقد علم القبائل ما عقيل ... لنا في النائبات بمقرنينا

وهو من أقرن الشيء إذا أطاقه، قال ابن هرمة:

وأقرنت ما حملتني ولقلما ... يطاق احتمال الصد يادعد والهجر

وحقيقة أقرنه وجده قرينته وما يقرن به لأن الصعب لا يكون قرينة للضعيف ألا ترى إلى قولهم في الضعيف لا تقرن به الصعبة، والقرن الحبل الذي يقرن به، قال الشاعر:

وابن اللبون إذا ما لز في قرن ... لم يستطع صولة البزل القناعيس

وحاصل المعنى أنه ليس لنا من القوة ما يضبط به الدابة والفلك وإنما الله تعالى هو الذي سخر ذلك وضبطه لنا.

أخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن سليمان بن يسار أن قوماً كانوا في سفر فكانوا إذا ركبوا قالوا: سبحانه الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين وكان فيهم رجل له ناقة رزام فقال: أما أنا فلهذه مقرن فقمصت به فصرعته فاندقت عنقه، وقرىء «مُقَرِّنِين» بتشديد الراء مع فتحها وكسرها وهما بمعنى المخفف.

﴿وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾ أي راجعون، وفيه إيذان بأن حق الراكب أن يتأمل فيما يلابسه من السير ويتذكر منه المسافرة العظمى التي هي الانقلاب إلى الله تعالى فيبني أموره في مسيره ذلك على تلك الملاحظة ولا يأتي بما ينافيها، ومن ضرورة ذلك أن يكون ركوبه لأمر مشروع، وفيه إشارة إلى أن الركوب مخطرة فلا ينبغي أن يغفل فيه عن تذكر الآخرة.

﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا﴾ متصل بقوله تعالى: ﴿ولئن سألتهم﴾ إلى آخره فهو حال من فاعل ﴿ليقولن﴾ بتقدير قد أو بدونه، والمراد بيان أنهم مناقضون مكابرون حيث اعترفوا بأنه عزَّ وجلَّ خالق السموات والأرض ثم وصفوه سبحانه بصفات المخلوقين وما يناقض كونه تعالى خالقاً لهما فجعلوا له سبحانه جزءاً وقالوا: الملائكة بنات الله سبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيراً، وعبر عن الولد بالجزء لأنه بضعة ممن هو ولد له كما قيل: أولادنا أكبادنا، وفيه دلالة على مزيد استحالته على الحق الواحد الذي لا يضاف إليه انقسام حقيقة ولا فرضاً ولا خارجاً ولا ذهناً جلَّ شأنه وعلا، ولتأكيد أمر المناقضة لم يكتف بقوله تعالى: ﴿جزأ﴾ وقيل ﴿من عباده﴾ لأنه يلزمهم على موجب اعترافهم أن يكون ما فيهما مخلوقه تعالى وعبده سبحانه إذ هو حادث بعدهما محتاج إليهما ضرورة.

وقيل: الجزء اسم للإناث يقال: أجزأت المرأة إذ ولدت أنثى، وأنشد قول الشاعر:

إن أجزأت حرة يوماً فلا عجب ... قد تجزىء الحرة المذكار أحيانا

وقوله:

زوجتها من بنات الأوس مجزئة ... للعوسج اللدن في أنيابها زجل

وجعل ذلك الزمخشري من بدع التفاسير وذكر أن ادعاء أن الجزء في لغة العرب اسم للإناث كذب عليهم ووضع مستحدث منخول وأن البيتين مصنوعان، وقال الزجاج: في البيت الأول لا أدري قديم أم مصنوع.

ووجه بعضهم ذلك بأن حواء خلقت من جزء آدم عليه السلام فاستعير لكل الإناث.

وقرأ أبو بكر عاصم «جُزُأً» بضمتين، ثم للكلام وإن سيق للفرض المذكور يفهم منه كفرهم لتجسيم الخالق تعالى والاستخفاف به جلَّ وعلا حيث جعلوا له سبحانه أخس النوعين بل إثبات ذلك يستدعي الأماكن المؤذن بحدوثه تعالى فلا يكون إلهاً ولا بارئاً ولا خالقاً تعالى عما يقولون وسبحانه عما يصفون، وليس الكلام مساقاً لتعديد الكفران كما قيل. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الانسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ﴾ لا يقتضيه فإن المراد المبالغة في كفران النعمة وهي في إنكار الصانع أشد من المبالغة في كفرهم به كما أشير إليه، و ﴿مبين﴾ من أبان اللازم أي ظاهر الكفران، وجوز أن يكون من المتعدي أي مظهر كفرانه ﴿أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ﴾ ﴿أم﴾ مقطعة وما فيها من معنى بل للانتقال والهمزة للإنكار والتعجيب من شأنهم، وقوله تعالى: ﴿وأصفاكم بالْبَنِينَ﴾ إما عطف على «اتخذ» داخل في حكم الانكار والتعجب أو حال من فاعله بإضمار قد أو بدونه، والالتفات إلى خطابهم لتشديد الإنكار أي بل اتخذ سبحانه من خلقه أخس الصنفين واختار لكم أفضلهما على معنى هبوا أن إضافة اتخاذ الولد إليه سبحانه جائزة فرضاً أما تفطنتم لما ارتكبتم من الشطط في القسمة وقبح ما ادعيتم من أنه سبحانه آثركم على نفسه بخير الجزئين وأعلاهما وترك له جلَّ شأنه شرهما وأدناهما فما أنتم إلا في غاية الجهل والحماقة، وتنكير بنات وتعريف البنين لقرينة ما اعتبر فيهما من الحقارة والفخامة، وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَـٰنِ مَثَلاً ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهوَ كَظِيمٌ﴾ قيل: حال وارتضاه العلامة الثاني على معنى أنهم نسبوا إليه تعالى ما ذكروا من حالهم أن أحدهم إذا بشر به اغتم، وقيل: استئناف مقرر لما قبله، وجوز عطفه على ما قبله وليس بذاك. والالتفات للإيذان باقتضاء ذكر قبائحهم أن يعرض عنه وتحكي لغيرهم تعجيباً، والجملة الاسمية في موضع الحال أي إذا أخبر أحدهم بجنس ما جعله مثلاً للرحمن جل شأنه وهو جنس الإناث لأن الولد لا بد أن يجانس الولد ويماثله صار وجهه أسود في الغاية لسوء ما بشر به عنده والحال هو مملوء من الكرب والكآبة، وعن بعض العرب أن امرأته وضعت أنثى فهجر البيت الذي فيه المرأة فقالت:

ما لأبي حمزة لا يأتينا	يظل في البيت الذي يلينا
غضبان أن لا نلد البنينا	وليس لنا من أمرنا ما شينا

وإنما نأخذ ما أعطينا

وقرىء «مُسْوَدٌّ» بالرفع و «مُسْوَادٌّ» بصيغة المبالغة من أسواد كاحمار مع الرفع أيضاً على أن في ﴿ظل﴾ ضمير المبشر ووجهه مسود أو مسواد جملة واقعة موقع الخبر، والمعنى صار المبشر مسود الوجه وقيل: الضمير المستتر في ﴿ظل﴾ ضمير الشأن والجملة خبرها، وقيل: الفعل تام والجملة حالية والوجه ما تقدم، وقوله تعالى:

﴿أَوَ مَن يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ﴾ تكرير للإنكار و ﴿من﴾ منصوبة المحل بمضمر معطوف على ﴿جعلوا﴾ وهناك مفعول محذوف أيضاً أي أو جعلوا له تعالى من شأنه أن يتربى في الزينة وهن البنات كما قال ابن عباس ومجاهد وقتادة والسدي: ولذا فالهمزة لإنكار الواقع واستقباحه.

وجوز انتصاب ﴿من﴾ بمضمر معطوف على ﴿اتخذ﴾ فالهمزة حينئذ لإنكار الوقوع واستبعاده، واقحامها بين المعطوفين لتذكير ما في أم المنقطعة من الإنكار، والعطف للتغاير العنواني أي أو اتخذ سبحانه من هذه الصفة الذميمة ولداً ﴿وَهوَ﴾ مع ما ذكر من القصور ﴿فِي الْخِصَامِ﴾ أي الجدال الذي لا يكاد يخلو عنه إنسان في العادة ﴿غَيْرُ مُبِينٍ﴾ غير قادر على تقرير دعواه وإقامته حجته لنقصان عقله وضعف رأيه، والجار متعلق بمبين، وإضافة ﴿غير﴾ لا تمنع عمل ما بعدها فيه لأنه بمعنى النفي فلا حاجة لجعله متعلقاً بمقدر، وجوز كون من مبتدأ محذوف الخبر أي أو من حاله كيت وكيت ولده عزَّ وجلَّ، وجعل بعضهم خبره جعلوه ولداً لله سبحانه وتعالى أو اتخذه جلَّ وعلا ولداً، وعن ابن زيد

أن المراد بمن ينشأ في الحلية الأصنام قال: وكانوا يتخذون كثيراً منها من الذهب والفضة ويجعلون الحلى على كثير منها، وتعقب بأنه يبعد هذا القول قوله تعالى: ﴿وهو في الخصام غير مبين﴾ إلا إن أريد بنفي الإبانة نفي الخصام أي لا يكون منها خصام فإبانة كقوله:

على لاحب لا يهتدى بمناره

وعندي أن هذا القول بعيد في نفسه وأن الكلام أعني قوله سبحانه: ﴿أم اتخذ﴾ إلى هنا وارد لمزيد الإنكار في أنهم قوم من عادتهم المناقضة ورمي القول من غير علم، وفي المجيء بأم المنقطعة وما في ضمنها من الإضراب دليل على أن معتمد الكلام إثبات جهلهم ومناقضتهم لا إثبات كفرهم لكنه يفهم منه كما سمعت وتسمع إن شاء الله تعالى، وقرأ الجحدري في رواية «يُنْشَأ» مبنياً للمفعول مخففاً، وقرأ الحسن في رواية أيضاً «يُنَاشَأ» على وزن يفاعل مبنياً للمفعول. والمناشاة بمعنى الإنشاء كالمغالاة بمعنى الإغلاء، وقرأ الجمهور «يَنْشَأُ» مبنياً للفاعل، والآية ظاهرة في أن النشوء في الزينة والنعومة من المعايب والمذام وأنه من صفات ربات الحجال فعلى الرجل أن يجتنب ذلك ويأنف منه ويربأ بنفسه عنه ويعيش كما قال عمر رضي الله تعالى عنه: اخشوشنوا في اللباس واخشوشنوا في الطعام وتمعددوا وإن أراد أن يزين نفسه زينها من باطن بلباس التقوى، وقوله تعالى:

﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا﴾ أي سموا وقالوا: إنهم إناث، قال الزجاج: الجعل في مثله بمعنى القول والحكم على الشيء تقول: جعلت زيداً أعلم الناس أي وصفته بذلك وحكمت به، واختار أبو حيان أن المعنى صيروهم في اعتقادهم اناثاً اعتراض وارد لإثبات مناقضتهم أيضاً وادعاء ما لا علم لهم به المؤيد لجعله معتمد الكلام على ما سبق آنفاً فإنهم أنثوهم في هذا المعتقد من غير استناد إلى علم فارشد إلى أن ما هم عليه من إثبات الولد مثل ما هم عليه من تأنيث الملائكة عليهم السلام في أنهما سخف وجهل كانا كفرين أولاً، نعم هما في نفس الأمر كفران، أما الأول فظاهر. وأما الثاني فللاستخفاف برسله سبحانه أعني الملائكة وجعلهم أنقص العباد رأياً وأخسهم صنفاً وهم العباد المكرمون المبرؤون من الذكورة والأنوثة فإنهما من عوارض الحيوان المتغذي المحتاج إلى بقاء نوعه لعدم جريان حكمة الله تعالى ببقاء شخصه وليس ذلك عطفاً على قوله سبحانه: ﴿وجعلوا له من عباده جزءا﴾ لما علمت من أن الجملة في موضع الحال من فاعل ﴿ليقولن﴾ ولا يحسن بحسب الظاهر أن يقال. ﴿ليقولن خلقهن العزيز العليم﴾ وقد جعلوا الملائكة اناثاً، وقرىء «عبيد» جمع عبد وكذا «عباد» وقيل: عباد جمع عابد كصائم وصيام وقائم وقيام، وقرأ عمر بن الخطاب والحسن وأبو رجاء وقتادة وأبو جعفر وشيبة والأعرج والابنان ونافع «عند الرحمن» ظرفاً وهو أدل على رفع المنزلة وقرب المكانة، والكلام على الاستعارة في المشهور لاستحالة العندية المكانية في حقه سبحانه، وقرأ أبي عبد الرحمن بالباء مفرد عباد، والمعنى على الجمع بإرادة الجنس.

وقرأ الأعمش «عبادَ» بالجمع والنصب حكاها ابن خالويه وقال: هي في مصحف ابن مسعود كذلك، وخرج أبو حيان النصب على إضمار فعل أي الذين هم خلقوا عباد الرحمن، وقرأ زيد بن علي «أُنُثاً» بضمتين ككتب جمع إناثاً فهو جمع الجمع، وعلى جميع القراءات الحصر إذا سلم إضافي فلا يتم الاستدلال به على أفضلية الملك على البشر.

﴿أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ﴾ أي أحضروا خلق الله تعالى إياهم فشاهدوهم إناثاً حتى يحكموه بأنوثتهم فإن ذلك مما يعلم بالمشاهدة، وهذا كقوله تعالى: ﴿أم خلقنا الملائكة إناثاً وهم شاهدون﴾ [الصافات: ١٥٠] وفيه تجهيل لهم وتهكم بهم، وإنما لم يتعرض لنفي الدلائل النقلية لأنها في مثل هذا المطلب مفرعة على القول بالنبوة وهم الكفرة الذين لا يقولون بها ولنفي الدلائل العقلية لظهور انتفائها والنفي المذكور أظهر في التهكم فافهم، وقرأ نافع «أآشهدوا» بهمزة

داخلة على أشهد الرباعي المبني للمفعول، وفي رواية أنه سهل هذه الهمزة فجعلها بين الهمزة والواو وهي رواية عن أبي عمرو، وروي ذلك عن علي كرم الله تعالى وجهه وابن عباس ومجاهد، وفي أخرى أنه سهلها وأدخل بينها وبين الأولى ألفاً كراهة اجتماع همزتين ونسبت إلى جماعة، والاكتفاء بالتسهيل أوجه، وقرأ الزهري وناس «أُشْهِدُوا» بغير استفهام مبنياً للمفعول رباعياً فقيل المعنى على الاستفهام نحو قوله:

قالوا تحبها قلت بَهراً

وهو الظاهر، وقيل: على الاخبار، والجملة صفة ﴿إناثاً﴾ وهم وإن لم يشهدوا خلقهم لكن نزلوا لجراءتهم على ذلك منزلة من أشهد أو المراد أنهم أطلقوا عليهم الإناث المعروفات لهم اللاتي أشهدوا خلقهن لا صنفاً آخر من الإناث؛ ولا يخفى ما في كلا التأويلين من التكلف ﴿سَتُكْتَبُ﴾ في ديوان أعمالهم ﴿شَهَادَتُهُمْ﴾ التي شهدوا بها على الملائكة عليهم السلام، وقيل: سألهم الرسول ﷺ ما يدريكم أنهم إناث فقالوا: سمعنا ذلك من آبائنا ونحن نشهد أنهم لم يكذبوا فقال الله تعالى: ﴿ستكتب شهادتهم﴾ ﴿وَيُسْأَلُونَ﴾ عنها يوم القيامة، والكلام وعيد لهم بالعقاب والمجازاة على ذلك والسين للتأكيد، وقيل: يجوز أن تحمل على ظاهرها من الاستقبال ويكون ذلك إشارة إلى تأخير كتابة السيئات لرجاء التوبة والرجوع كما ورد في الحديث إن كاتب الحسنات أمين على كاتب السيئات فإذا أراد أن يكتبها قال له: توقف فيتوقف سبع ساعات فإن استغفر وتاب لم يكتب فلما كان ذلك من شأن الكتابة قرنت بالسين، وكونهم كفاراً مصرين على الكفر لا يأباه. وقرأ الزهري «سَيُكْتَبُ» بالياء التحتية مبنياً للمفعول، وقرأ الحسن كالجمهور إلا أنه قرأ «شَهَادَاتُهُمْ» بالجمع وهي قولهم: إن الله سبحانه جزء وإن له بنات وإنها الملائكة، وقيل: المراد ما أريد بالمفرد والجمع باعتبار التكرار، وقرأ ابن عباس وزيد بن علي وأبو جعفر وأبو حيوة وابن أبي عبلة والجحدري والأعرج «سَنَكْتُبُ» بالنون مبنياً للفاعل «شَهَادَتَهُمْ» بالنصب والإفراد.

وقرأت فرقة «سَيَكْتُبُ» بالياء التحتية مبنياً للفاعل وبإفراد «شَهَادَتَهُمْ» ونصبها أي سيكتب الله تعالى شهادتهم.

وقرىء «يَسَّاءَلُونَ» من المفاعلة للمبالغة ﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ﴾ عطف على قوله سبحانه: ﴿وجعلوا الملائكة﴾ الخ إشارة إلى أنه من جنس ادعائهم أنوثة الملائكة في أنهم قالوه من غير علم، ومرادهم بهذا القول على ما قاله بعض الأجلة الاستدلال بنفي مشيئة الله تعالى ترك عبادة الملائكة عليهم السلام على امتناع النهي عنها أو على حسنها فكأنهم قالوا: إن الله تعالى لم يشأ ترك عبادتها الملائكة ولو شاء سبحانه ذلك لتحقق بل شاء جل شأنه العبادة لأنها المتحققة فتكون مأموراً بها أو حسنة ويمتنع كونها منهياً عنها أو قبيحة، وهو استدلال باطل لأن المشيئة لا تستلزم الأمر أو الحسن لأنها ترجيح بعض الممكنات على بعض حسناً كان أو قبيحاً فلذلك جهلوا بقوله سبحانه: ﴿مَا لَهُمْ بذَلكَ﴾ القول على الوجه الذي قصدوه منه، وحاصله يرجع إلى الإشارة إلى زعمهم أن المشيئة تقتضي طباق الأمر لها أو حسن ما تعلقت به ﴿منْ علم﴾ يستند إلى سند ما.

﴿إنْ هُمْ إلاَّ يَخْرُصُونَ﴾ أي يكذبون كما فسره به غير واحد، ويطلق الخرص على الحزر وهو شائع بل قيل: إنه الأصل وعلى كل هو قول عن ظن وتخمين، وقوله تعالى:

﴿أَمْ آتَيْنَاهُمْ كتَاباً مِّنْ قَبْله فَهُمْ به مُسْتَمْسكُونَ﴾ إضراب عن نفي أن يكون لهم بذلك علم من طريق العقل إلى إبطال أن يكون لهم سند من جهة النقل؛ فأم منقطعة لا متصلة معادلة لقوله تعالى: ﴿أشهدوا﴾ كما قيل لعبده

وضمير **﴿قبله﴾** للقرآن لعلمه من السياق أو الرسول عليه الصلاة والسلام، وسين مستمسكون للتأكيد لا للطلب أي بل آتيناهم كتاباً من قبل القرآن أو من قبل الرسول ﷺ ينطق بصحة ما يدعونه فهم بذلك الكتاب متمسكون وعليه معولون، وقوله جلّ وعلا:

﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُّهْتَدُونَ﴾ إبطال لأن يكون لهم حجة أصلاً أي لا حجة لهم على ذلك عقلية ولا نقلية وإنما جنحوا فيه إلى تقليد آبائهم الجهلة مثلهم، والأمة الدين والطريقة التي تؤم أي كالرحلة للرجل العظيم الذي يقصد في المهمات يقال: فلان لا أمة له أي لا دين ولا نحلة، قال الشاعر: وهل يستوي ذو أمة وكفور. وقال قيس بن الحطيم:

كنا على أمة آبائنا ويقتدي بالأول الآخر

وقال الجبائي: الأمة الجماعة والمراد وجدنا آباءنا متوافقين على ذلك، والجمهور على الأول وعليه المعول، ويقال فيها إمة بكسر الهمزة أيضاً وبها قرأ عمر بن عبد العزيز ومجاهد وقتادة والجحدري.

وقرأ ابن عياش «أَمّة» بفتح الهمزة، قال في البحر: أي على قصد وحال، و **﴿على آثارهم مهتدون﴾** قيل خبران لأن، وقيل: **﴿على آثارهم﴾** صلة **﴿مهتدون﴾** و **﴿مهتدون﴾** هو الخبر، هذا وجعل الزمخشري الآية دليلاً على أنه تعالى لم يشأ الكفر من الكافر وإنما شاء سبحانه الإيمان، وكفر أهل السنة القائلين بأن المقدورات كلها بمشيئة الله تعالى، ووجه ذلك بأن الكفار لما ادعوا أنه تعالى شاء منهم الكفر حيث قالوا: **﴿لو شاء الرحمن﴾** الخ أي لو شاء جل جلاله منا أن نترك عبادة الأصنام تركناها رد **﴿الله﴾** تعالى ذلك عليهم وأبطل اعتقادهم بقوله سبحانه: **﴿ما لهم بذلك من علم﴾** الخ فلزم حقيقة خلافه وهو عين ما ذهب إليه، والجملة عطف على قوله تعالى: **﴿وجعلوا له من عباده جزءاً﴾** أو على **﴿جعلوا الملائكة﴾** الخ فيكون ما تضمنته كفراً آخر ويلزمه كفر القائلين بأن الكل بمشيئته عز وجل، ومما سمعت يعلم رده، وقيل: في رده أيضاً: يجوز أن يكون ذلك إشارة إلى أصل الدعوى وهو جعل الملائكة عليهم السلام بنات الله سبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيراً دون ما قصدوه من قولهم: **﴿لو شاء﴾** الخ وما ذكر بعد أصل الدعوى من تتمتها فإنه حكاية شبهتهم المزيفة لأن العبادة للملائكة وإن كانت بمشيئته تعالى لكن ذلك لا ينافي كونها من أقبح القبائح المنهي عنها وهذا خلاف الظاهر.

وقال بعض الأجلة: إن كفرهم بذلك لأنهم قالوه على جهة الاستهزاء، ورده الزمخشري بأن السياق لا يدل على أنهم قالوه مستهزئين؛ على الله تعالى قد حكى عنهم على سبيل الذم والشهادة بالكفر أنهم جعلوا له سبحانه جزءاً وأنه جلّ وعلا اتخذ بنات واصطفاهم بالبنين وأنهم جعلوا الملائكة المكرمين إناثاً وأنهم عبدوهم وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم فلو كانوا ناطقين بها على طريق الهزء لكان النطق بالمحكيات قبل هذا المحكي الذي هو إيمان عنده لوجدوا بالنطق به مدحاً لهم من قبل أنها كلمات كفر نطقوا بها على طريق الهزء فبقي أن يكونوا جادين ويشترك كلها في أنها كلمات كفر، فإن جعلوا الأخير وحده مقولاً على وجه الهزء دون ما قبله فما بهم إلا تعويج كتاب الله تعالى ولو كانت هذه كلمة حق نطقوا بها هزأ لم يكن لقوله سبحانه: **﴿ما لهم بذلك من علم﴾** الخ معنى لأن الواجب فيمن تكلم بالحق استهزاء أن ينكر عليه استهزاؤه ولا يكذب، ولا يخفى أن رده بأنه لا يدل عليه السياق صحيح، وأما ما ذكر من حكاية الله سبحانه والتعويج فلا لأنه تعالى ما حكى عنهم قولاً أولاً بل أثبت لهم اعتقاداً يتضمن قولاً أو فعلاً وقد بين أنهم مستخفون في ذلك العقد كما أنهم مستخفون في هذا القول فقوله: لو نطقوا الخ لا مدخل له في السابق وليس

فيه تعويج البتة من هذا الوجه وكذلك قوله: لم يكن لقوله تعالى: ﴿ما لهم﴾ الخ معنى مردود لأن الاستهزاء باب من الجهل كما يدل عليه قول موسى عليه السلام ﴿أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين﴾ وقد تقدم في [البقرة: ٦٧]، وأما الكذب فراجع إلى مضمونه والمراد منه كما سمعت فمن قال لا إله إلا الله استهزاء مكذب فيما يلزم من أنه إخبار عن إثبات التعدد لأنه إخبار عن التوحيد فافهم كذا في الكشف.

وفيه أيضاً أن قولهم: ﴿لو شاء الرحمن﴾ الخ فهم منه كونه كفراً من أوجه. أحدها أنه اعتذار عن عبادتهم الملائكة عليهم السلام التي هي كفر وإلزام أنه إذا كان بمشيئته تعالى لم يكن منكراً.

والثاني أن الكفر والإيمان بتصديق ما هو مضطر إلى العلم بثبوته بديهة أو استدلالاً متعلقاً بالمبدأ والمعاد وتكذيبه لا بإيقاع الفعل على وفق المشيئة وعدمه.

والثالث أنهم دفعوا قول الرسول بدعوتهم إلى عبادته تعالى ونهيهم عن عبادة غيره سبحانه بهذه المقالة ثم إنهم ملزمون على مساق هذا القول لأنه إذا استند الكل إلى مشيئته تعالى شأنه فقد شاء إرسال الرسل وشاء دعوتهم للعباد وشاء سبحانه جحودهم وشاء جلّ وعلا دخولهم النار فالإنكار والدفع بعد هذا القول دليل على أنهم قالوه لا عن اعتقاد بل مجازفة، وإليه الإشارة بقوله تعالى في مثله: ﴿قل فلله الحجة البالغة فلو شاء لهداكم أجمعين﴾ [الأنعام: ١٤٩] وفيه أنهم يعجزون الخالق بإثبات التمانع بين المشيئة وضد المأمور به فيلزم أن لا يريد إلا ما أمر سبحانه وبه ولا ينهى جل شأنه إلا وهو سبحانه لا يريده وهذا تعجيز من وجهين. إخراج بعض المقدورات عن أن يصير محلها وتضييق محل أمره ونهيه؛ وهذا بعينه مذهب إخوانهم من القدرية؛ ولهذه النكتة جعل قولهم: ﴿وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم﴾ معتمد الكلام ولم يقل: وعبدوا الملائكة وقالوا: لو شاء ونظير قولهم في أنه إنما أتى به لدفع ما علم ضرورة قوله تعالى عنهم: ﴿لو شاء ربنا لأنزل ملائكة﴾ [المؤمنون: ٢٤] فالدفع كفر والتعجيز كفر في كفر، وقوله تعالى: ﴿ما لهم بذلك من علم﴾ يحتمل أن يرجع إلى جميع ما سبق من قوله تعالى ﴿وجعلوا له من عباده﴾ إلى هذا المقام ويحتمل أن يرجع إلى الأخير فقد ثبت أنهم قالوه من غير علم وهو الأظهر للقرب وتعقيب كل بإنكار مستقل وطباقه لما في الأنعام، وقوله سبحانه: ﴿إن هم إلا يخرصون﴾ على هذا التكذيب المفهوم منه راجع إلى استنتاج المقصود من هذه اللزومية فقد سبق أنها عليهم لا لهم ولوح إلى طرف منه في سورة الأنعام أو إلى الحكم بامتناع الانفكاك مع تجويز الحاكم الانفكاك حال حكمه فإن ذلك يدل على كذبه وإن كان ذلك الحكم في نفسه حقاً صحيحاً يحق أن يعلم كما تقول زيد قائم قطعاً أو البتة وعندك احتمال نقيضه.

وليس هذا رجوعاً إلى مذهب من جعل الصدق بطباقه للمعتقد فافهم، على أنه لما كان اعتذاراً على ما مر صح أن يرجع التكذيب إلى أنه لا يصلح اعتذاراً أي إنهم كاذبون في أن المشيئة تقتضي طباق الأمر لها، وهذا ما آثره الإمام. والعلامة. والقاضي، والظاهر ما قدمناه. وتعقيب الخرص على وجه البيان أو الاستئناف عن قوله تعالى: ﴿ما لهم بذلك من علم﴾ وقوله تعالى: ﴿إن يتبعون إلا الظن﴾ في سورة الأنعام دليل على ما أشرنا فقد لاح للمسترشد أن الآية تصلح حجة لأهل السنة لا للمعتزلة؛ وقال في آية سورة الأنعام: إن قولهم هذا إما لدعوى المشروعية رداً للرسل أو لتسليم أنهم على الباطل اعتذاراً بأنهم مجبورون، والأول باطل لأن المشيئة تتعلق بفعلهم المشروع وغيره فما شاء الله تعالى أن يقع منهم مشروعاً وقع كذلك وما شاء الله تعالى أن يقع لا كذلك وقع لا كذلك.

ولا شك أن من توهم أن كون الفعل بمشيئته تعالى ينافي مجيء الرسل عليهم السلام بخلاف ما عليه المباشر من الكفر والضلال فقد كذب التكذيب كله وهو كاذب في استنتاج المقصود من هذه اللزومية، وظاهر الآية مسوق

لهذا المعنى، والثاني على ما فيه من حصول المقصود وهو الاعتراف بالبطلان باطل أيضاً إذ لا جبر لأن المشيئة تعلقت بأن يشركوا اختياراً منهم والعلم تعلق كذلك فهو يؤكد دفع القدر لا أنه يحققه وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿قل فلله الحجة البالغة﴾ [الأنعام: ١٤٩] ثم إنهم كاذبون في هذا القول لجزمهم حيث لا ظن مطلقاً فضلاً عن العلم وذلك لأن من المعلوم أن العلم بصفات الله سبحانه فرع العلم بذاته جل وعلا والإيمان بها كذلك والمحتجون به كفرة مشركون مجسمون، ونقل العلامة الطيبي نحواً من الكلام الأخير عن إمام الحرمين عليه الرحمة في الإرشاد ا هـ.

وقد أطال العلماء الأعلام الكلام في هذا المقام وأرى الرجل سقى الله تعالى مرقده صيب الرضوان قد مخض كل ذلك وأتى بزبده بل لم يترك من التحقيق شيئاً لمن أتى من بعده فتأمل والله عز وجل هو الموفق.

وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم
مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞ قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٢٤﴾
فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٥﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا
تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ بَلْ
مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿٢٩﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ
كَٰفِرُونَ ﴿٣٠﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ
قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ
وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾ وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ
لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾
وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَٱلْءَاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ
ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾
حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴿٣٨﴾ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ
ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ
مُّبِينٍ ﴿٤٠﴾ فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَٰهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾
فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾

﴿وَكَذَلِكَ﴾ أي والأمر كما ذكر من عجزهم عن الحجة مطلقاً وتشبثهم بذيل التقليد، وقوله سبحانه: **﴿مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِن نَّذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ﴾** استئناف مبين لذلك دال على أن التقليد فيما بينهم ضلال قديم لأسلافهم وأن متقدميهم أيضاً لم يكن لهم سند منظور إليه وتخصيص المترفين بتلك المقالة للإيذان بأن التنعم وحب البطالة صرفهم عن النظر إلى التقليد **﴿قَالَ﴾** حكاية لما

جرى بين المنذرين وبين أممهم عند تعللهم بتقليد آبائهم أي قال: كل نذير من أولئك المنذرين لأمته ﴿أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ﴾ أي أتقتدون بآبائكم ولو جئتكم ﴿بِأَهْدَى﴾ بدين أهدى ﴿مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيه آبَاءكُمْ﴾ من الضلالة التي ليست من الهداية في شيء، وإنما عبر عنها بذلك مجاراة معهم على مسلك الإنصاف.

وقرأ الأكثرون «قُلْ» على أنه حكاية أمر ماض أوحي إلى كل نذير أي فقيل أو قلنا للنذير قل الخ، واستظهر في البحر كونه خطاباً لنبينا ﷺ، والظاهر هو ما تقدم لقوله تعالى:

﴿قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ به كَافِرُونَ﴾ فإنه ظاهر جداً في أنه حكاية عن الأمم السالفة أي قال كل أمة لنذيرها إنا بما أرسلتم به الخ وقد أجمل عند الحكاية للإيجاز كما قرر في قوله تعالى: ﴿يا أيها الرسل كلوا من الطيبات﴾ [المؤمنون: ٥١].

وجعله حكاية عن قومه عليه الصلاة والسلام بحمل صيغة الجمع على تغليبه ﷺ على سائر المنذرين وتوجيه كفرهم إلى ما أرسل به الكل من التوحيد لإجماعهم عليهم السلام عليه كما في نحو قوله تعالى: ﴿كذبت عاد المرسلين﴾ [الشعراء: ١٢٣] تمحل بعيد، وأيضاً يأباه ظاهر قوله سبحانه: ﴿فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ فإن ظاهره كون الانتقام بعذاب الاستئصال وصاحب البحر يحمله على الانتقام بالقحط والقتل والسبي والجلاء.

وقرأ أبي وأبو جعفر وشيبة وابن مقسم والزعفراني وغيرهم «أو لو جئناكم» بنون المتكلمين وهي تؤيد ما ذهبنا إليه والأمر بالنظر فيما انتهى إليه حال المكذبين تسلية له ﷺ وإرشاد إلى عدم الاكتراث بتكذيب قومه إياه عليه الصلاة والسلام ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ﴾ أي واذكر لهم وقت قوله عليه الصلاة والسلام ﴿لأَبِيهِ﴾ آزر ﴿وَقَوْمِهِ﴾ المكبين على التقليد كيف تبرأ مما هم فيه بقوله:

﴿إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾ وتمسك بالبرهان، والكلام تمهيد لما أهل مكة فيه من العناد والحسد والإباء عن تدبر الآيات وأنهم لو قلدوا آباءهم لكان الأولى أن يقلدوا أباهم الأفضل الأعلم الذي هم يفتخرون بالانتماء إليه وهو إبراهيم عليه السلام فكأنه بعد تعييرهم على التقليد يعيرهم على أنهم مسيئون في ترك اختياره أيضاً. وبراء مصدر كالطلاق نعت به مبالغة ولذلك يستوي فيه الواحد والمتعدد والمذكر والمؤنث.

وقرأ الزعفراني والقورصي عن أبي جعفر وابن المناذري عن نافع «بُرَاءٌ» بضم الباء هو اسم مفرد كطوال وكرام بضم الكاف، وقرأ الأعمش «بَري» وهو وصف كطويل وكريم وقراءة العامة لغة العالية وهذه لغة نجد.

وقرأ الأعمش أيضاً «إنّي» بنون مشددة دون نون الوقاية ﴿إِلاَّ الَّذِي فَطَرَنِي﴾ استثناء متصل إن قلنا إن ما عامة لذوي العلم وغيرهم وأنهم كانوا يعبدون الله تعالى والأصنام وليس هذا من الجمع بين الله تعالى وغيره سبحانه الذي يجب اجتنابه لما فيه من إيهام التسوية بينه سبحانه وبين غيره جل وعلا لظهور ما يدل على خلاف ذلك في الكلام أو منقطع بناءً على أن ما مختصة بغير ذوي العلم وأنه لا يناسب التغليب أصلاً وأنهم لم يكونوا يعبدونه تعالى أو أنهم كانوا يعبدونه عز وجل إلا أن عبادته سبحانه مع الشرك في حكم العدم، وعلى الوجهين محل الموصول النصب، وأجاز الزمخشري أن يكون في محل جر على أنه بدل من ما المجرور بمن، وفيه بحث لأنه يصير استثناء من الموجب ولم يجوزوا فيه البدل، ووجهه أنه في معنى النفي لأنه معنى ﴿انني براء مما تعبدون﴾ لا أعبد ما تعبدون فهو نظير قوله تعالى: ﴿ويأبى الله إلا أن يتم نوره﴾ [التوبة: ٣٢] إلا أن ذلك في المفرغ وهذا فيما ذكر فيه المستثنى منه وهم لا يخصونه بالمفرغ ولا بألفاظ مخصوصة أيضاً كأبى وقلما، نعم إن أبا حيان يأبى إلا أنه موجب ولا يعتبر النفي معنى،

وأجاز أيضاً أن تكون ﴿إلا﴾ صفة بمعنى غير على أن ﴿ما﴾ في ما ﴿تعبدون﴾ نكرة موصوفة والتقدير إنني براء من آلهة تعبدونها غير الذي فطرني فهو نظير قوله تعالى: ﴿لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا﴾ [الأنبياء: ٢٢] واعتبار ما نكرة موصوفة بناءً على أن إلا لا تكون صفة إلا لنكرة وكذا اعتبارها بمعنى الجمع بناءً على اشتراط كون النكرة الموصوفة بها كذلك، والمسألة خلافية، فمن النحويين من قال إن ألا يوصف بها المعرفة والنكرة مطلقاً وعليه لا يحتاج إلى اعتبار كون ما نكرة بمعنى آلهة، وفي جعل الصلة ﴿فطرني﴾ تنبيه على أنه لا يستحق العبادة إلا الخالق للعابد ﴿فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ﴾ يثبتني على الهداية فالسين للتأكيد لا للاستقبال لأنه جاء في الشعراء يهدين بدونها والقصة واحدة، والمضارع في الموضعين للاستمرار، وقيل: المراد ﴿سيهدين﴾ إلى وراء ما هداني إليه أولاً فالسين على ظاهرها والتغاير في الحكاية والمحكي بناءً على تكرر القصة ﴿وَجَعَلَهَا﴾ الضمير المرفوع المستتر لإبراهيم عليه السلام أو لله عز وجل والضمير المنصوب لكلمة التوحيد أعني لا إله إلا الله كما روي عن قتادة ومجاهد والسدي ويشعر بها قوله: ﴿إنني براء مما تعبدون﴾ الخ، وجوز أن يعود على هذا القول نفسه وهو أيضاً كلمة لغة ﴿كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِه﴾ في ذريته عليه السلام فلا يزال فيهم من يوحد الله تعالى ويدعو إلى توحيده عز وجل.

وقرأ حميد بن قيس «كِلْمَة» بكسر الكاف وسكون اللام وهي لغة فيها، وقرىء «في عَقْبِهِ» بسكون القاف تخفيفاً و ﴿عقبِهِ﴾ أي من عقبه أي خلفه ومنه تسمية النبي ﷺ بالعاقب لأنه آخر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ تعليل للجعل أي جعلها باقية في عقبه كي يرجع من أشرك منهم بدعاء من وحد أو بسبب بقائها فيهم، والضميران للعقب وهو بمعنى الجمع، والأكثرون على أن الكلام بتقدير مضاف أي لعل مشركيهم أو الإسناد من إسناد ما للبعض إلى الكل وأولوا لعل بناءً على أن الترجي من الله سبحانه وهو لا يصح في حقه تعالى أو منه عليه السلام لكنه من الأنبياء في حكم المتحقق ويجوز ترك التأويل كما لا يخفى بل هو الأظهر إذا كان ذلك من إبراهيم عليه السلام.

﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَٰؤُلَاءِ﴾ أي أهل مكة المعاصرين للرسول ﷺ ﴿وآبَاءَهُمْ﴾ بالمد في العمر والنعمة ﴿حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْحَقُّ﴾ دعوة التوحيد أو القرآن ﴿وَرَسُولٌ مُّبِينٌ﴾ ظاهر الرسالة بما له من المعجزات الباهرات أو مبين للتوحيد بالآيات البينات والحجج القاطعات، والمراد بالتمتيع ما هو سبب له من استمتاعهم بما متعوا واشتغالهم بذلك عن شكر المنعم وطاعته والغاية لذلك فكأنه قيل: اشتغلوا حتى جاء الحق وهي غاية له في نفس الأمر لأن مجيء الرسول مما ينبه عن سنة الغفلة ويزجر عن الاشتغال بالملاذ لكنهم عكسوا فجعلوا ما هو سبب للتنصل سبباً للتوغل فهو على أسلوب قوله تعالى: ﴿لم يكن الذين كفروا﴾ إلى قوله سبحانه: ﴿وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءتهم البينة﴾ [البينة: ١ ـ ٤]، و ﴿بل متعت﴾ إضراب عن قوله جل شأنه ﴿لعلهم يرجعون﴾ كأنه قيل بل متعت مشركي مكة وأشغلتهم بالملاهي والملاذ فاشتغلوا فلم يرجعوا أو فلم يحصل ما رجاه من رجوعهم عن الشرك، وهو في الحقيقة إضراب عن التمهيد الذي سمعت وشروع في المقصود لكن روعي فيه المناسبة بما قرب من جملة الإضراب أعني ﴿لعلهم يرجعون﴾ وفي الحواشي الشهابية أنه إضراب عن قوله تعالى: ﴿وجعلها﴾ الخ أي لم يرجعوا فلم أعاجلهم بالعقوبة بل أعطيتهم نعماً أخر غير الكلمة الباقية لأجل أن يشكروا منعمها ويوحدوه فلم يفعلوا بل زاد طغيانهم لاغترارهم أو التقدير ما اكتفيت في هدايتهم بجعل الكلمة باقية فيهم بل متعتهم وأرسلت رسولاً. وقرأ قتادة والأعمش ﴿بَلْ مَتَّعْتَ﴾ بتاء الخطاب ورواها يعقوب عن نافع وهو من كلامه تعالى على سبيل التجريد لا الالتفات وإن قيل به في مثله أيضاً كأنه تعالى اعترض بذلك على نفسه جل شأنه في قوله سبحانه: ﴿وجعلها﴾ الخ لا لتقبيح فعله سبحانه بل لقصد زيادة توبيخ

المشركين كما إذا قال المحسن على من أساء مخاطباً لنفسه: أنت الداعي لإساءته بالإحسان إليه ورعايته فيبرز كلامه في صورة من يعترض على نفسه ويوبخها حتى كأنه مستحق لذلك وفي ذلك من توبيخ المسيء ما فيه، وقال صاحب اللوامح: هو من كلام إبراهيم عليه السلام ومناجاته ربه عز وجل، وقال في البحر: الظاهر أنه من مناجاة الرسول ﷺ على معنى قل يا رب متعت، والأول أولى وهو الموافق للأصل المشهور، وقرأ الأعمش «مَتَّعْنَا» بنون العظمة.

﴿وَلَمَّا جَاءَهُمُ الحَقُّ﴾ لينبههم عما هم فيه من الغفلة ويرشدهم إلى التوحيد ﴿قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا به كَافِرُونَ﴾ زادوا شرارة فضموا إلى شركهم معاندة الحق والاستخفاف به فسموا القرآن سحراً وكفروا به واستحقروا رسول الله ﷺ ﴿وَقَالُوا لَوْلاَ نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ﴾ أي من إحدى القريتين مكة والطائف أو من رجالهما فمن ابتدائية أو تبعيضية، وقرىء «رَجْلٍ» بسكون الجيم ﴿عَظِيمٍ﴾ بالجاه والمال قال ابن عباس: الذي من مكة الوليد بن المغيرة المخزومي والذي من الطائف حبيب بن عمرو بن عمير الثقفي، وقال مجاهد: عتبة بن ربيعة وكنانة ابن عبد ياليل، وقال قتادة: الوليد بن المغيرة وعروة بن مسعود الثقفي وكان الوليد بن المغيرة يسمى ريحانة قريش وكان يقول: لو كان ما يقول محمد ﷺ حقاً لنزل علي أو على أبي مسعود يعني عروة بن مسعود وكان يكنى بذلك، وهذا باب آخر من إنكارهم للنبوة وذلك أنهم أنكروا أولاً أن يكون النبي بشراً ثم لما بكتوا بتكرير الحجج ولم يبق عندهم تصور رواج لذلك جاؤوا بالإنكار من وجه آخر فتحكموا على الله سبحانه أن يكون الرسول أحد هذين وقولهم هذا القرآن ذكره له على وجه الاستهانة لأنهم لم يقولوا هذه المقالة تسليماً بل إنكاراً كأنه قيل: هذا الكذب الذي يدعيه لو كان حقاً لكان الحقيق به رجل من القريتين عظيم وهذا منهم لجهلهم بأن رتبة الرسالة إنما تستدعي عظيم النفس بالتخلي عن الرذائل الدنية والتحلي بالكمالات والفضائل القدسية دون التزخرف بالزخارف الدنيوية، وقوله تعالى: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ﴾ إنكار فيه تجهيل وتعجيب من تحكمهم بنزول القرآن العظيم على من أرادوا، والرحمة يجوز أن يكون المراد بها ظاهرها وهو ظاهر كلام البحر ونزل تعيينهم لمن ينزل عليه الوحي منزلة التقسيم لها وتدخل النبوة فيها، ويجوز أن يكون المراد بها النبوة وهو الأنسب لما قبل وعليه أكثر المفسرين، وفي إضافة الرب إلى ضميره ﷺ من تشريفه عليه الصلاة والسلام ما فيه، وفي إضافة الرحمة إلى الرب إشارة إلى أنها من صفات الربوبية ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ﴾ أسباب معيشتهم.

وقرأ عبد الله وابن عباس والأعمش وسفيان «معايشهم» على الجمع ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ قسمة تقتضيها مشيئتنا المبنية على الحكم والمصالح ولم نفوض أمرها إليهم علماً منا بعجزهم عن تدبيرها بالكلية وإطلاق المعيشة يقتضي أن يكون حلالها وحرامها من الله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ﴾ في الرزق وسائر مبادىء المعاش ﴿دَرَجَاتٍ﴾ متفاوتة بحسب القرب والبعد حسبما تقتضيه الحكمة فمن ضعيف وقوي وغني وفقير وخادم ومخدوم وحاكم ومحكوم ﴿لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً سُخْرِيًّا﴾ ليستعمل بعضهم بعضاً في مصالحهم ويستخدموهم في مهنهم ويسخروهم في أشغالهم حتى يتعايشوا ويترافدوا ويصلوا إلى مرافقهم لا لكمال في الموسع عليه ولا لنقص في المقتر عليه ولو فوضنا ذلك إلى تدبيرهم لضاعوا وهلكوا فإذا كانوا في تدبير خويصة أمرهم وما يصلحهم من متاع الدنيا الدنية وهو على طرف التمام بهذه الحالة فما ظنهم بأنفسهم في تدبير أمر الدين وهو أبعد من مناط العيوق ومن أين لهم البحث عن أمر النبوة والتخير لها من يصلح لها ويقوم بأمرها، والسخري على ما سمعت نسبة إلى السخرة وهي التذليل والتكليف، وقال الراغب: السخري هو الذي يقهر أن يتسخر بإرادته، وزعم بعضهم أنه هنا من السخر بمعنى الهزء أي ليهزأ الغني بالفقير واستبعده أبو حيان. وقال السمين: إنه غير مناسب للمقام.

وقرأ عمرو بن ميمون وابن محيصن وابن أبي ليلى وأبو رجاء والوليد بن مسلم «سِخْرِياً» بكسر السين والمراد به ما ذكرنا أيضاً، وفي قوله تعالى: ﴿نحن قسمنا﴾ الخ ما يزهد في الانكباب على طلب الدنيا ويعين على التوكل على الله عز وجل والانقطاع إليه جل جلاله:

فاعتبر نحن قسمنا بينهم ... تلقه حقاً وبالحق نزل

﴿وَرَحْمَةُ رَبِّكَ﴾ أي النبوة وما يتبعها من سعادة الدارين، وقيل: الهداية والإيمان، وقال قتادة، والسدي: الجنة ﴿خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ من حطام الدنيا الدنية فالعظيم من رزق تلك الرحمة دون ذلك الحطام الدنيء الفاني.

﴿وَلَوْلاَ أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَـٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفاً مِّنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾ استئناف مبين لحقارة متاع الدنيا ودناءة قدره عند الله عز وجل، والمعنى أن حقارة شأنه بحيث لولا كراهة أن يجتمع الناس على الكفر ويطبقوا عليه لأعطيناه على أتم وجه من هو شر الخلائق وأدناهم منزلة، فكراهة الاجتماع على الكفر هي المانعة من تمتيع كل كافر والبسط عليه لا أن المانع كون متاع الدنيا له قدر عندنا، والكراهة المذكورة هي وجه الحكمة في ترك تنعيم كل كافر وبسط الرزق عليه فلا محذوف في تقديرها؛ وليس ذلك مبنياً على وجوب رعاية المصلحة وإرادة الإيمان من الخلق ليكون اعتزالاً كما ظن، وكأن وجه كون البسط على الكفار سبباً للاجتماع على الكفر مزيد حب الناس للدنيا فإذا رأوا ذلك كفروا لينالوها، وهذا على معنى أن الله تعالى شأنه علم أنه لو فعل ذلك لدعا الناس إذ ذاك حبهم للدنيا إلى الكفر، فلا يقال: إن كثيراً من الناس اليوم يتحقق الغنى التام لو كفر ولا يكفر ولو أكره عليه بالقتل، وكون المراد بالأمر الواحد الذي يقتضيه كونهم أمة واحدة فإنه بمعنى اجتماعهم على أمر واحد الكفر بقرينة الجواب، و﴿لبيوتهم﴾ بدل اشتمال من قوله تعالى: ﴿لمن يكفر﴾ واللام فيهما للاختصاص أو هما متعلقان بالفعل لا على البدلية ولام لمن صلة الفعل لتعديه باللام فهو بمنزلة المفعول به ولام ﴿لبيوتهم﴾ للتعليل فهو بمنزلة المفعول له، ويجوز أن تكون الأولى للملك والثانية للاختصاص كما في قولك: وهبت الحبل لزيد لدابته وإليه ذهب ابن عطية، ولا يجوز على تقدير اختلاف اللامين معنى البدلية إذ مقتضى إعادة العامل في البدل الاتحاد في المعنى وإلى هذا ذهب أبو حيان، وقال الخفاجي: لا مانع من أن يبدل المجموع من المجموع بدون اعتبار إعادة، والسقف جمع سقف كرهن جمع رهن، وعن الفراء أنه جمع سقيفة كسفن جمع سفينة، والمعارج جمع معرج وهو عطف على ﴿سقفا﴾ أي ولجعلنا لهم مصاعد عليها يعلون السطوح والعلالي وكأن المراد معارج من فضة بناءً على أن العطف ظاهر في التشريك في القيد وإن تقدم، وقال أبو حيان: لا يتعين ذلك، وقرأ أبو رجاء «سُقْفاً» بضم السين وسكون القاف تخفيفاً وفي البحر هي لغة تميم.

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بفتح السين والسكون على الإفراد لأنه اسم جنس يطلق على الواحد وما فوقه وهو المراد بقرينة البيوت؛ وقرىء بفتح السين والقاف وهي لغة في سقف وليس ذلك تحريك ساكن لأنه لا وجه له.

وقرىء «سُقُوفاً» وهو جمع سقف كفلوس جمع فلس، وقرأ طلحة «مَعَارِيجَ» جمع معراج ﴿وَلِبُيُوتِهِمْ﴾ أي ولجعلنا لبيوتهم، وتكرير ذكر بيوتهم لزيادة التقرير ولأنه ابتداء أية ﴿أَبْوَاباً وَسُرُراً﴾ أي من فضة على ما سمعت، وقرىء «سَرَراً» بفتح السين والراء وهي لغة لبني تميم وبعض كلب وذلك في جمع فعيل المضعف إذا كان اسماً باتفاق وصفه نحو ثوب جديد وثياب جدد باختلاف بين النحاة ﴿عَلَيْهَا﴾ أي على السرر ﴿يَتَّكِئُونَ﴾ كما هو شأن الملوك لا يهمهم شيء ﴿وَزُخْرُفاً﴾ قال الحسن: أي نقوشاً وتزاويق، وقال ابن زيد: الزخرف أثاث البيت وتحملاته وهو

عليهما عطف على ﴿**سقفاً**﴾. وقال ابن عباس وقتادة والشعبي والسدي والحسن أيضاً في رواية الزخرف الذهب، وأكثر اللغويين ذكروا له معنيين هذا والزينة فقيل الظاهر أنه حقيقة فيهما، وقيل: إنه حقيقة في الزينة ولكون كمالها بالذهب استعمل فيه أيضاً، ويشير إليه كلام الراغب قال: الزخرف الزينة المزوقة ومنه قيل للذهب زخرف، وفي البحر جاء في الحديث إياكم والحمرة فإنها من أحب الزينة إلى الشيطان، وقال ابن عطية: الحسن أحمر والشهوات تتبعه؛ ولبعض شعراء المغرب:

وصبغت درعك من دماء كماتهم ... لما رأيت الحسن يلبس أحمرا

وهو على هذا عطف على محل ﴿**من فضة**﴾ كأن الأصل سقفاً من فضة وزخرف يعني بعضها من فضة وبعضها من ذهب فنصب عطفاً على المحل، وجوز عطفه على ﴿**سقفاً**﴾ أيضاً ﴿**وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا**﴾ أي وما كل ما ذكر من البيوت الموصوفة بالصفات المفصلة الا شيء يتمتع به في الحياة الدنيا وفي معناه ما قرىء «وما كل ذلك إلا متاع لدنيا» وقرأ الجمهور «لَمَا» بفتح اللام والتخفيف على أن ﴿**إن**﴾ هي المخففة من الثقيلة واللام هي الفارقة بين المخففة وغيرها وما زائدة أو موصولة بتقدير لما هو متاع كما في قوله تعالى: «تماماً على الذي أحسن» في قراءة من رفع النون، وقرأ رجاء وفي التحرير أبو حيوة «لِمَا» بكسر اللام والتخفيف على أن ﴿**إن**﴾ هي المخففة واللام حرف جر وما موصولة في محل جر بها والجار والمجرور في موضع الخبر لكل وصدر الصلة محذوف كما سمعت آنفاً.

وحق التركيب في مثله الإتيان باللام الفارقة فيقال للما: متاع لكنها حذفت لظهور إرادة الإثبات كما في قوله:

أنا ابن أباة الضيم من آل مالك ... وإن مالك كانت كرام المعادن

بل لا يجوز في البيت إدخال اللام كما لا يخفى على النحوي ﴿**وَالْآخِرَةُ**﴾ أي بما فيها من فنون النعيم التي لا يحيط بها نطاق البيان ﴿**عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ**﴾ خاصة لهم، والمراد بهم من اتقى الشرك، وقال غير واحد: من اتقى ذلك والمعاصي، وفي الآية من الدلالة على التزهيد في الدنيا وزينتها والتحريض على التقوى ما فيها، وقد أخرج الترمذي وصححه وابن ماجه عن سهل بن سعدة قال: «قال رسول الله ﷺ لو كانت الدنيا تعدل عند الله تعالى جناح بعوضة ما سقى منها كافراً شربة ماء» وعن علي كرم الله تعالى وجهه: الدنيا أحقر من ذراع خنزير ميت بال عليه كلب في يد مجذوم، هذا واستدل بعضهم بقوله تعالى: ﴿**لبيوتهم سقفاً**﴾ على أن السقف لرب البيت الأسفل لا لصاحب العلو لأنه منسوب إلى البيت ﴿**وَمَنْ يَعْشُ**﴾ أي يتعام ويعرض ﴿**عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ**﴾ وهو القرآن، وإضافته إلى الرحمن للإيذان بنزوله رحمة للعالمين، وجوز أن يكون مصدراً أضيف إلى المفعول أي من يعش عن أن يذكر الرحمن. وأن يكون مصدراً أضيف إلى الفاعل أي عن تذكير الرحمن عباده سبحانه، وقرأ يحيى بن سلام البصري «يعشَ» بفتح الشين كيرض أي يعم يقال: عشى كرضي إذا حصلت الآفة في بصره وعشا كغزا إذا نظر نظر العشى لعارض قال الحطيئة:

متى تأته تعشو إلى ضوء ناره ... تجد خير نار عندها خير موقد

أي تنظر إليها نظر العشى لما يضعف بصرك من عظم الوقود واتساع الضوء ولو لم يكن كذلك لم يكن لكلمة الغاية موقع وأظهر منه في المقصود قول حاتم:

أعشو إذا ما جارتي برزت ... حتى يواري جارتي الخدر

لأنه قيد بالوقت وأتى بالغاية وما هو خلقي لا يزول، وقال بعضهم: لم أر أحداً يجيز عشوت عنه إذا أعرضت وإنما يقال تعاشيت وتعاميت عن الشيء إذا تغافلت عنه كأنك لم تره ويقال: عشوت إلى النار إذا استدللت عليها ببصر ضعيف، وهو مما لا يلتفت إليه ومثله عشي وعشا عرج بكسر الراء لمن به الآفة وعرج بفتحها لمن استدللت عليها ببصر ضعيف، وهو مما لا يلتفت إليه ومثله عشي وعشا عرج بكسر الراء لمن به الآفة وعرج بفتحها لمن مشى مشية العرجان من غير عرج على ما في الكشاف، وفيه خلاف لأهل اللغة ففي القاموس يقال: عرج أي بالفتح إذا أصابه شيء في رجله وليس بخلقة فإذا كان خلقة فعرج كفرح أو يثلث في غير الخلقة، وقرأ زيد بن علي «يَعْشُو» بإثبات الواو وخرج ذلك الزمخشري على أن من موصولة لا شرطية جازمة، وجوز أن تكون شرطية والمدة إما للإشباع أو على لغة من يجزم المعتل الآخر بحذف الحركة على ما حكاه الأخفش، وجوز كون الفعل مجزوماً بحذف النون والواو ضمير الجمع، وقد روعي فيه معنى من، وتخريج الزمخشري مبني على الفصيح المطرد المتبادر.

﴿نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا﴾ أي نتح له شيطاناً ليستولي عليه استيلاء القيض على البيض وهو القشر الأعلى.

﴿فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ دائماً لا يفارقه ولا يزال يوسوسه ويغويه وهذا عقاب على الكفر بالختم وعدم الفلاح كما يقال: إن الله تعالى يعاقب على المعصية بمزيد اكتساب السيئات، وقرأ علي كرم الله تعالى وجهه: والسلمي والأعمش ويعقوب وأبو عمرو بخلاف عنه. وحماد عن عاصم وعصمة عن الأعمش وعن عاصم والعليمي عن أبي بكر «يقيض» بالياء على إسناده إلى ضمير ﴿الرحمن﴾، وقرأ ابن عباس «يُقَيَّضُ» بالياء والبناء للمفعول «شيطانٌ» بالرفع والفعل في جميع القراءات مجزوم ولم نسمع أنه قرىء بالرفع، وفي الكشاف حق من قرأ «مَنْ يَعْشُو» بالواو أن يرفعه أي بناء على تخريجه ذلك على أن من موصولة، وجوز على ذلك أيضاً أن يكون «يُقَيِّضُ» مرفوعاً لكنه سكن تخفيفاً.

وفي البحر يجوز أن تكون ﴿من﴾ موصولة وجزم ﴿نقيض﴾ تشبيهاً للموصول باسم الشرط وإذا كان ذلك مسموعاً في الذي وهو لم يكن اسم شرط قط فالأولى أن يكون فيما استعمل موصولاً وشرطاً، قال الشاعر:

لا تحفرن بئراً تريد أخاً بها ... فإنك فيها أنت من دونه تقع
كذاك الذي يبغي على الناس ظالماً ... تصبه على رغم عواقب ما صنع

أنشدهما ابن الاعرابي وهو مذهب للكوفيين، وله وجه من القياس وهو أنه كما شبه الموصول باسم الشرط فدخلت الفاء في خبره فكذلك يشبه به فينجزم الخبر إلا أن دخول الفاء منقاس إذا كان الخبر مسبباً عن الصلة بشروطه المذكورة في النحو وهذا لا يقيسه البصريون ﴿وَإِنَّهُمْ﴾ أي الشياطين الذين قيض وقدر كل واحد منهم لكل واحد ممن يعشو ﴿لَيَصُدُّونَهُمْ﴾ أي ليصدون قرناءهم وهم الكفار المعبر عنهم بمن يعش، وجمع ضمير الشيطان لأن المراد به الجنس. وجمع ضمير من رعاية للمعنى كما أفرد أولا رعاية للفظ. وفي الانتصاف أن في هذه الآية نكتتين بديعتين الأولى الدلالة على أن النكرة الواقعة في سياق الشرط تفيد العموم وهي مسألة أضرب فيها الأصوليون وإمام الحرمين من القائلين بإفادتها العموم حتى استدرك على الأئمة إطلاقهم القول بأن النكرة في سياق الإثبات تخص، وقال إن الشرط يعم والنكرة في سياقه تعم وقد رد عليه الفقيه أبو الحسن علي الأبياري شارح كتابه رداً عنيفاً، وفي هذه الآية للإمام ومن قال بقوله كفاية، وذلك أن الشيطان ذكر فيها منكراً في سياق شرط ونحن نعلم أنه إنما أريد عموم الشياطين لا واحد لوجهين. أحدهما أنه قد ثبت أن لكل أحد شيطاناً فكيف بالعاشي عن ذكر الله تعالى والآخر من الآية وهو أنه أعيد عليه الضمير مجموعا في قوله تعالى: «وإنهم» فإنه عائد إلى الشيطان قولاً واحداً ولولا إفادته عموم الشمول لما

جاز عود ضمير الجمع عليه بلا إشكال، فهذه نكتة تجد سماعها لمخالفي هذا الرأي سكتة. النكتة الثانية أن فيها ردا على من زعم أن العود على معنى من يمنع من العود على لفظها بعد ذلك واحتج لذلك بأنه إجمال بعد تفسير، وهو خلاف المعهود من الفصاحة وقد نقض ذلك الكندي وغيره بآيات، واستخرج جدي من هذه الآية نقض ذلك أيضاً لأنه أعيد الضمير على اللفظ في ﴿يعش﴾ و ﴿له﴾ وعلى المعنى في ﴿ليصدونهم﴾ ثم على اللفظ في ﴿حتى إذا جاءنا﴾ وقد قدمت أن الذي منع قد يكون اقتصر بمنعه على مجيء ذلك في جملة واحدة وأما إذا تعددت الجمل واستقلت كل بنفسها فقد لا يمنع ذلك انتهى.

وفي كون ضمير ﴿إنهم﴾ عائدا على الشيطان قولاً واحداً نظر، فقد قال أبو حيان: الظاهر أن ضمير النصب في ﴿إنهم ليصدونهم﴾ عائد على من على المعنى وهو أولى من عود ضمير ﴿إنهم﴾ على الشيطان كما ذهب إليه ابن عطية لتناسق الضمائر في ﴿إنهم﴾ وما بعده فلا تغفل ﴿عن السَّبيل﴾ المستبين الذي يدعو إليه ذكر الرحمن ﴿ويحسبُونَ﴾ أي العاشون ﴿أَنَّهُمْ﴾ أي الشياطين ﴿مُهْتَدُونَ﴾ أي إلى ذلك السبيل الحق وإلا لما اتبعوهم أو ويحسب العاشون أن أنفسهم مهتدون فإن اعتقاد كون الشياطين مهتدين مستلزم لاعتقاد كونهم كذلك لاتحاد مسلكهما.

والظاهر أن أبا حيان يختار هذا الوجه للتناسق أيضاً، والجملة حال من مفعول «يصدون» بتقدير المبتدأ أو من فاعله أو منهما لاشتمالها على ضميريهما أي وإنهم ليصدونهم عن الطريق الحق وهم يحسبون أنهم مهتدون إليه.

وصيغة المضارع في الأفعال الأربعة للدلالة على الاستمرار التجددي لقوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَنَا﴾ فإن ﴿حتى﴾ وإن كانت ابتدائية داخلة على الجملة الشرطية لكنها تقتضي حتماً أن تكون غاية لأمر ممتد وأفرد الضمير في جاء وما بعده لما أن المراد حكاية مقالة كل واحد من العاشين لقرينه لتهويل الأمر وتفظيع الحال والمعنى يستمر أمر العاشين على ما ذكر حتى إذا جاءنا كل واحد منهم مع قرينه يوم القيامة ﴿قَالَ﴾ مخاطباً له: ﴿يَا لَيت بَيْني وبَيْنَكَ﴾ أي في الدنيا، وقيل: في الآخرة ﴿بُعْدَ الْمشرقَيْن﴾ أي بعد كل منهما من الآخر، والمراد بهما المشرق والمغرب كما اختاره الزجاج او الفراء وغيرهما لكن غلب المشرق على المغرب وثنيا كالموصلين للموصل والجزيرة وأضيف البعد إليهما، والأصل بعد المشرق من المغرب والمغرب من المشرق وإنما اختصر هذا المبسوط لعدم الإلباس إذ لا خفاء أنه لا يراد بعدهما من شيء واحد لأن البعد من أحدهما قرب من الآخر ولأنهما متقابلان فبعد أحدهما من الآخر مثل في غاية البعد لا بعدهما عن شيء آخر، وإشعار السياق بالمبالغة لا ينكر فلا لبس من هذا الوجه أيضاً، وقال ابن السائب: لا تغليب، والمراد مشرق الشمس في أقصر يوم من السنة ومشرقها في أطول يوم منها ﴿فَبِئْسَ الْقَرِين﴾ أي أنت، وقيل: أي هو على أنه من كلامه تعالى وهو كما ترى.

وقرأ أبو جعفر وشيبة وأبو بكر والحرميان وقتادة والزهري والجحدري «جَاءَانَا» على التثنية أي العاشي والقرين وقوله تعالى: ﴿وَلَنْ يَنْفَعَكُمْ﴾ الخ حكاية لما سيقال لهم حينئذ من جهة الله عزَّ وجلَّ توبيخاً وتقريعاً، وفاعل ﴿ينفعكم﴾ ضمير مستتر يعود على ما يفهم مما قبل أي لن ينفعكم هو أي تمنيكم لمباعدتهم أو الندم أو القول المذكور ﴿الْـيَوْمَ﴾ أي يوم القيامة ﴿إِذْ ظَلَمْتُمْ﴾ بدل من ﴿اليوم﴾ أي إذ تبين أنكم ظلمتم في الدنيا قاله غير واحد، وفسر ذلك بالتبين قيل لئلا يشكل جعله وهو ماض بدلاً من ﴿اليوم﴾ وهو مستقبل لأن تبين كونهم ظالمين عند أنفسهم إنما يكون يوم القيامة فاليوم وزمان التبين متحدان وهذا كقوله:

إذا ما انتسبنا لم تلدني لئيمة

وأورد عليه أن السؤال عائد لأن ﴿إذ﴾ ظرف لما مضى من الزمان ولا يخرج عن ذلك باعتبار التبين وتفصي

بعضهم عن الإشكال بأن إذ قد تخرج من المضي إلى الاستقبال على ما ذهب إليه جماعة منهم ابن مالك محتجا بقوله تعالى: ﴿فسوف يعلمون إذ الأغلال﴾ [غافر: ٧٠، ٧١] وإلى الحال كما ذهب إليه بعضهم محتجاً بقوله سبحانه: ﴿ولا تعملون من عمل إلاّ كنا عليكم شهوداً إذ تفيضون فيه﴾ [يونس: ٦١] فلتكن هنا للاستقبال، وأهل العربية يضعفون دعوى خروجها من المضي.

وقال الجلبي: لعل الأظهر حملها على التعليل فيتعلق بالنفي، فقد قال سيبويه: إنها بمعنى التعليل حرف بمنزلة لام العلة، نعم أنكر الجمهور هذا القسم لكن إثبات سيبويه إياه يكفي حجة. فإن القول ما قالت حذام. وتعقب بأنه لا يكفي في تخريج كلام الله سبحانه إثبات سيبويه وحده مع إطباق جميع أئمة العربية على خلافه، وأيضاً تعليل النفي بعد يبعده وقال أبو حيان: لا يجوز البدل على بقاء إذ على موضوعها من كونها ظرفا لما مضى من الزمان فإن جعلت لمطلق الوقت جاز، ولا يخفى أن ذلك مجاز فهل تكفي البدلية قرينة له فإن كفت فذاك، وقال ابن جني: راجعت أبا علي في هذه المسألة يعني الإبدال المذكور مراراً وآخر ما تحصل منه أن الدنيا والآخرة متصلتان وهما سواء في حكم الله سبحانه وعلمه جل شأنه لا يجري عليه عزَّ وجلَّ زمان فكأن ﴿إذ﴾ مستقبل أو ﴿اليوم﴾ ماض فصح ذلك، ورد بأن المعتبر حال الحكاية والكلام فيها وارد على ما تعارفه العرب ولولاه لسد باب النكات ولغت الاعتبارات في العبارات ومثله غني عن البيان، وقال أبو البقاء: التقدير بعد إذ ظلمتم فحذف المضاف للعلم به، وقال الحوفي: ﴿إذ﴾ متعلقة بما دل عليه المعنى كأنه قيل ولن ينفعكم اليوم اجتماعكم إذ ظلمتم مثلا.

ومن الناس من استشكل الآية من حيث إن فيها إعمال ﴿ينفعكم﴾ الدال على الاستقبال لاقترانه بلن في اليوم وهو الزمان الحاضر وإذ وهو للزمان الماضي، وأجيب بأنه يدفع الثاني بما قدروه من التبين لأن تبين الحال يكون في الاستقبال والأول بأن ﴿اليوم﴾ تعريفه للعهد وهو يوم القيامة لا للحضور كتعريف الآن وإن كان نوعاً منه.

وقيل: يدفع بأن الاستقبال بالنسبة إلى وقت الخطاب وهو بعض أوقات اليوم وهو كما ترى فتأمل ولا تغفل.

وقوله تعالى: ﴿أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ تعليل لنفي النفع أي لأن حقكم أن تشتركوا أنتم وقرناؤكم في العذاب كما كنتم مشتركين في سببه في الدنيا.

وجوز أن يكون الفعل مسندا إليه أي لن ينفعكم كونكم مشتركين في العذاب كما ينفع الواقعين في الأمر الصعب اشتراكهم فيه لتعاونهم في تحمل أعبائه وتقسمهم لشدته وعنائه وذلك أن كل واحد منكم به من العذاب ما لا تبلغه طاقته أو لن ينفعكم ذلك من حيث التأسي فإن المكروب يتأسى ويتروح بوجدان المشارك وهو الذي عنته الخنساء بقولها:

يذكرني طلوع الشمس صخرا ... وأذكره بكل مغيب شمس
ولولا كثرة الباكين حولي ... على إخوانهم لقتلت نفسي
وما يبكون مثل أخي ولكن ... أعزي النفس عنه بالتأسي

فهؤلاء يؤسيهم اشتراكهم ولا يروحهم لعظم ما هم فيه أو لن ينفعكم ذلك من حيث التشفي أي لن يحصل لكم التشفي بكون قرنائكم معذبين مثلكم حيث كنتم تدعون عليهم بقولكم: ﴿ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعناً كبيراً﴾ [الأحزاب: ٦٨] وقولكم: ﴿فآتهم عذاباً ضعفاً من النار﴾ [الأعراف: ٣٨] لتتشفوا بذلك، واعترض على الوجه الأول من هذه الأوجه الثلاثة بأن الانتفاع بالتعاون في تحمل أعباء العذاب ليس ما يخطر ببالهم حتى يرد عليهم بنفيه، وأجيب بأنه غير بعيد أن يخطر ذلك ببالهم لمكان المقارنة والصحبة والغريق يتشبث بالحشيش والظمآن يحسب السراب شراباً.

وقرأ ابن عامر «إنكم» بكسر الهمزة وهو تقوى ما ذكر أولاً من إضمار الفاعل وتقديراللام في أنكم معنى ولفظاً لأنه لا يمكن أن يكون فاعلاً فيتعين الإضمار، ولأن الجملة عليها تكون استئنافاً تعليلياً فيناسب تقدير اللام لتتوافق القراءتان، وقوله تعالى: ﴿أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ﴾ إنكار تعجيب من أن يكون ﷺ هو الذي يقدر على هدايتهم وهو قد تمرنوا في الكفر واعتادوه واستغرقوا في الضلال بحيث صار ما بهم من العشى عمى مقروناً بالصمم ﴿وَمَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ عطف على العمى باعتبار تغاير الوصفين أعني العمى والضلال بحسب المفهوم وإن اتحدا مآلاً، ومدار الإنكار هو التمكن والاستقرار في الضلال المفرط الذي لا يخفى لا توهم القصور منه عليه الصلاة والسلام ففيه رمز إلى أنه لا يقدر على ذلك إلا الله وحده بالقسر والإلجاء وقد كان ﷺ يبالغ في المجاهدة في دعاء قومه وهم لا يزيدون إلا غياً وتعامياً عما يشاهدونه من شواهد النبوة وتصاماً عما يسمعونه من بينات القرآن فنزلت ﴿أفأنت﴾ الخ ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ﴾ فإن قبضناك قبل أن نبصرك عذابهم ونشفي بذلك صدرك وصدور المؤمنين ﴿فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ﴾ لا محالة في الدنيا والآخرة واقتصر بعضهم على عذاب الآخرة لقوله تعالى في آية أخرى: ﴿أو نتوفينك فإلينا يرجعون﴾ [غافر: ٧٧] والقرآن يفسر بعضه بعضاً، وما ذكرنا أتم فائدة وأوفق بإطلاق الانتقام، وأما تلك الآية فليس فيها ذكره، وما مزيدة للتأكيد وهي بمنزلة لام القسم في استجلاب النون المؤكدة.

﴿أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ﴾ أي أو أردنا أن نريك العذاب الذي وعدناهم ﴿فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ﴾ بحيث لا مناص لهم من تحت ملكنا وقهرنا واعتبار الإرادة لأنها أنسب بذكر الاقتدار بعد، وفي التعبير بالوعد وهو سبحانه لا يخلف الميعاد إشارة إلى أنه هو الواقع، وهكذا كان إذ لم يفلت أحد من صناديدهم في بدر وغيرها إلا من تحصين بالإيمان، وقرىء «نُرِيَنْكَ» بالنون الخفيفة ﴿فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ تسلية له ﷺ وأمر له عليه الصلاة والسلام أو لأمته بالدوام على التمسك بالآيات والعمل بها، والفاء في جواب شرط مقدر أي إذا كان أحد هذين الأمرين واقعاً لا محالة فاستمسك بالذي أوحيناه إليك، وقوله تعالى: ﴿إنك﴾ الخ تعليل للاستمساك أو للأمر به.

وقرأ بعض قراء الشام «أوحي» بإسكان اللام، وقرأ الضحاك «أَوْحَى» مبنياً للفاعل ﴿وإِنَّهُ﴾ أي ما أوحى إليك والمراد به القرآن ﴿لَذِكْرٌ﴾ لشرف عظيم ﴿لَكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ هم قريش على ما روي عن ابن عباس ومجاهد وقتادة والسدي وابن زيد.

وأخرج ابن عدي وابن مردويه عن علي كرم الله تعالى وجهه وابن عباس رضي الله تعالى عنهما قالا: كان رسول الله ﷺ يعرض نفسه على القبائل بمكة ويعدهم الظهور فإذا قالوا: لمن الملك بعدك أمسك فلم يجبهم بشيء لأنه عليه الصلاة والسلام لم يؤمر في ذلك بشيء حتى نزلت ﴿وإنه لذكر لك ولقومك﴾ فكان ﷺ بعد إذا سئل قال لقريش: فلا يجيبونه حتى قبلته الأنصار على ذلك.

وأخرج الطبراني وابن مردويه عن عدي بن حاتم قال: «كنت قاعداً عند رسول الله ﷺ فقال: ألا إن الله تعالى علم ما في قلبي من حبي لقومي فبشرني فيهم فقال سبحانه: ﴿وإنه لذكر لك ولقومك﴾ الآية فجعل الذكر والشرف لقومي في كتابه» الحديث، وفيه «فالحمد لله الذي جعل الصديق من قومي والشهيد من قومي إن الله تعالى قلب العباد ظهراً وبطناً فكان خير العرب قريش وهي الشجرة المباركة إلى أن قال عدي: ما رأيت رسول الله ﷺ ذكر عنده قريش بخير قط إلا سره حتى يتبين ذلك السرور في وجهه للناس كلهم وكان عليه الصلاة والسلام كثيراً ما يتلو هذه الآية ﴿وإنه لذكر لك ولقومك﴾ الخ، وقيل هم العرب مطلقاً لما أن القرآن نزل بلغتهم ثم يختص بذلك الشرف الأخص

فالأخص منهم حتى يكون الشرف لقريش أكثر من غيرهم ثم لبني هاشم أكثر مما يكون لسائر قريش، وفي رواية عن قتادة هم من اتبعه ﷺ من أمته.

وقال الحسن: هم الأمة والمعنى وإنه لتذكرة وموعظة لك ولأمتك، والأرجح عندي القول الأول.

﴿وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾ يوم القيامة عنه وعن قيامكم بحقوقه، وقال الحسن والكلبي والزجاج: تسألون عن شكر ما جعله الله تعالى لكم من الشرف، قيل إن هذه الآية تدل على إن الإنسان يرغب في الثناء الحسن والذكر الجميل إذ لو لم يكن مرغوباً فيه ما امتن الله تعالى به على رسوله ﷺ والذكر الجميل قائم مقام الحياة ولذا قيل ذكر الفتى عمره الثاني، وقال ابن دريد:

وإنما المرء حديث بعده ... فكن حديثاً حسناً لمن وعى

وقال آخر:

إنما الدنيا محاسنها ... طيب ما يبقى من الخبر

ويحكى أن الطاغية هلاكو سأل أصحابه: من الملك؟ فقالوا له: أنت الذي دوخت البلاد وملكت الأرض وطاعتك الملوك وكان المؤذن إذ ذاك يؤذن فقال لا الملك هذا له أزيد من ستمائة سنة قد مات وهو يذكر على المآذن في كل يوم وليلة خمس مرات يريد محمداً رسول الله ﷺ.

وَسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ
بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ
﴿٤٧﴾ وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَ
ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿٥٠﴾
وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ
﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ
ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا
ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ ﴿٥٦﴾ ۞ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ
مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا بَلْ هُمْ
قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم
مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿٦٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَا
يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٢﴾ وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ
لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ

مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾

﴿وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَٰنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ أي هل حكمنا بعبادة غير الله سبحانه وهل جاءت في ملة من ملل المرسلين عليهم السلام والمراد الاستشهاد بإجماع المرسلين على التوحيد والتنبيه على أنه ليس ببدع ابتدعه ﷺ حتى يكذب ويعادى له، والكلام بتقدير مضاف أي واسأل أمم من أرسلنا أو على جعل سؤال الأمم بمنزلة سؤال المرسلين إليهم.

قال الفراء: هم إنما يخبرون عن كتب الرسل فإذا سألهم عليه الصلاة والسلام فكأنه سأل المرسلين عليهم السلام، وعلى الوجهين المسؤول الأمم، وروي ذلك عن الحسن ومجاهد وقتادة والسدي وعطاء وهو رواية عن ابن عباس أيضاً.

وأخرج ابن المنذر وغيره عن قتادة أنه قال في بعض القراءات واسأل من أرسلنا إليهم رسلنا قبلك.

وأخرج هو وسعيد بن منصور عن مجاهد قال: كان عبد الله يقرأ واسأل الذين أرسلنا إليهم قبلك من رسلنا، وعن ابن مسعود أنه قرأ واسأل الذين يقرؤون الكتاب من قبل مؤمني أهل الكتاب، وجعل بعضهم السؤال مجازاً عن النظر والفحص عن مللهم في سؤال الديار والاطلال ونحوها من قولهم: سل الأرض من شق أنهارك وغرس أشجارك وجنى ثمارك.

وروي عن ابن عباس أيضاً وابن جبير والزهري وابن زيد أن الكلام على ظاهره وأنه عليه الصلاة والسلام قيل له ذلك ليلة الإسراء حين جمع له الأنبياء في البيت المقدس فافهم ولم يسأل عليه الصلاة والسلام إذ لم يكن في شك. وفي بعض الآثار أن ميكال قال لجبريل عليهما السلام: هل سأل محمد ﷺ عن ذلك؟ فقال: هو أعظم يقيناً وأوثق إيماناً من أن يسأل. وتعقب هذا القول بأن المراد بهذا السؤال الزام المشركين وهم منكرون الإسراء، وللبحث فيه مجال. والخطاب على جميع ما سمعت لنبينا عليه الصلاة والسلام.

وفي البحر الذي يظهر أنه خطاب للسامع الذي يريد أن يفحص عن الديانات قيل له اسأل أيها الناظر أتباع الرسل أجاءت رسلهم بعبادة غير الله عزَّ وجلَّ فإنهم يخبرونك أن ذلك لم يقع ولا يمكن أن يأتوا به ولعمري إنه خلاف الظاهر جداً، ومما يقضي منه العجب ما قيل: إن المعنى واسألني أو واسألنا عمن أرسلنا وعلق اسأل فارتفع من وهو اسم استفهام على الابتداء وأرسلنا خبره والجملة في موضع نصب باسأل بعد إسقاط الخافض كأن سؤاله من أرسلت يا رب قبلي من رسلك أجعلت في رسالته آلهة تعبد ثم السؤال فحكى المعنى فرد الخطاب إلى النبي ﷺ في قوله تعالى ﴿من قبلك﴾ انتهى، واسأل من قرأ أبا جاد أيرضى بهذا الكلام ويستحسن تفسير كلام الله تعالى المجيد بذلك ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا﴾ ملتبساً بها ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾ أشراف قومه وخصوا بالذكر لأن غيرهم تبع ﴿فَقَالَ﴾ لهم ﴿إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ إليكم وأريد باقتصاص ذلك تسلية رسول الله ﷺ وإبطال قولهم: ﴿لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم﴾ [الزخرف: ٣١] لأن موسى عليه السلام مع عدم زخارف الدنيا لديه كان له مع فرعون وهو ملك جبار ما كان وقد أيده الله سبحانه بوحيه وما أنزل عليه، والاستشهاد بدعوته عليه السلام إلى التوحيد أثر ما أشير إليه من إجماع جميع الرسل عليهم السلام عليه ويعلم من ذلك وجه مناسبة الآيات لما قبلها، وقال أبو حيان: مناسبتها من وجهين الأول أنه ذكر فيما قبل قول المشركين: ﴿لولا نزل﴾ الخ وفيه زعم أن العظم بالجاه والمال وأشير في هذه الآيات إلى أن مثل ذلك سبق إليه فرعون في قوله: ﴿أليس لي ملك مصر﴾ [الزخرف: ٥١] الخ فهو قدوتهم في ذلك وقد انتقم منه فكذلك ينتقم منهم، الثاني أنه سبحانه لما قال: ﴿واسأل﴾ الخ ذكر جلّ وعلا قصة موسى وعيسى عليهما السلام وهما أكثر أتباعاً ممن سبق من الأنبياء وكل جاء بالتوحيد فلم يكن فيما جاءا به إباحة

اتخاذ آلهة من دون الله تعالى كما اتخذت قريش فناسب ذكر قصتهما الآية التي قبلها.

﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ﴾ أي فاجأهم الضحك منها أي استهزؤوا بها أول ما رأوها ولم يتأملوا فيها، وفي الكشاف جاز أن تجاب لما بإذا المفاجاة لأن فعل المفاجأة مقدر معها وهو عامل النصب في محلها كأنه قيل: فلما جاءهم بآياتنا فاجؤوا وقت ضحكهم. فالجواب عنده ذلك الفعل وهو العامل في لما، وقدر ماضياً لأنه المعروف في جوابها، وإذا مفعول به لا ظرف، وقال أبو حيان: لا نعلم نحوياً ذهب إلى ما ذهب إليه هذا الرجل من أن إذا الفجائية تكون منصوبة بفعل مقدر تقديره فاجأ بل المذاهب فيها ثلاثة. الأول أنها حرف فلا تحتاج إلى عامل. الثاني أنها ظرف مكان فإن صرح بعد الاسم بعدها بخبر له كان ذلك الخبر عاملاً فيها نحو خرجت فإذا زيد قائم فقائم هو الناصب لها والتقدير خرجت ففي المكان الذي خرجت فيه زيد قائم. الثالث أنها ظرف زمان والعامل فيها الخبر أيضاً كأنه قيل: ففي الزمان الذي خرجت فيه زيد قائم: وإذا لم يذكر بعد الاسم خبر أو ذكر اسم منصوب على الحال كانت إذا خبراً للمبتدأ: فإن كان جثة وقلنا: إذا ظرف مكان الأمر واضحاً وإن قلنا ظرف زمان كان الكلام على حذف مضاف أي ففي الزمان حضور زيد ثم إن المفاجأة التي ادعاها لا يدل المعنى على أنها تكون من الكلام السابق بل يدل على أنها تكون من الكلام التي هي فيه تقول خرجت فإذا الأسد فالمعنى ففاجأني الأسد انتهى، وقال الخفاجي ما قيل إن نصبها بفعل المفاجأة المقدر هكذا لم يقله أحد من النحاة لا يلتفت إليه وتفصيله في شروح المغني ﴿وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ﴾ من الآيات:

﴿إِلاَّ هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا﴾ أي من آية مثلها في كونها آية دالة على النبوة واستشكل بأنه يلزم كون كل واحدة من الآيات فاضلة ومفضولة معا وهو يؤدي إلى التناقض وتفضيل الشيء على نفسه لعموم آية في النفي، وأجيب بأن الغرض من هذا الكلام انهن موصوفات بالكبر لا يكدن يتفاوتن فيه على معنى أن كل واحدة لكمالها في نفسها إذا نظر إليها قيل هي أكبر من البواقي لاستقلالها بإفادة المقصود على التمام كما قال الحماسي:

من تلق منهم تقل لاقيت سيدهم ... مثل النجوم التي يسري بها الساري

وإذا لوحظ الكل توقف عن التفضيل بينهن، ولقد فاضلت فاطمة بنت خرشب الأنمارية بين أولادها الكملة ربيعة الحفاظ. وعمارة الوهاب. وأنس الفوارس ثم قال: أبصرت مراتبهم متدانية قليلة التفاوت ثكلتهم إن كنت أعلم أيهم أفضل هم كالحلقة المفرغة لا يدرى أين طرفاها، وقال بعض الأجلة: المراد بأفعل الزيادة من وجه أي ما نريهم من آية الا هي مختصة بنوع من الإعجاز مفضلة على غيرها بذلك الاعتبار، ولا ضمير في كون الشيء الواحد فاضلاً ومفضولاً باعتبارين، وقد أطال الكلام في ذلك جلال الدين الدواني في حواشيه على الشرح الجديد للتجريد فليراجع ذلك من أراده، وفي البحر قيل: كانت آياته عليه السلام من كبار الآيات وكانت كل واحدة أكبر من التي قبلها فعلى هذا يكون ثم صفة محذوفة أي من أختها السابقة عليها ولا يبقى في الكلام تعارض، ولا يكون ذلك الحكم في الآية الأولى لأنه لم يسبقها شيء فتكون أكبر منه، وذكر بعضهم في الأكبرية أن الأولى تقتضي علما والثانية تقتضي علما منضماً إلى علم الأولى فيزداد الرجوع انتهى، والأولى ما تقدم لشيوع إرادة ذلك المعنى من مثل هذا التركيب ﴿وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ﴾ كالسنين والجراد والقمل وغيرها:

﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ لكي يرجعوا ويتوبوا عما هم عليه من الكفر ﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَ السَّاحِرُ﴾ قال الجمهور: وهو خطاب تعظيم فقد كانوا يقولون للعالم الماهر ساحر لاستعظامهم علم السحر، وحكاه في مجمع البيان عن الكلبي والجبائي، وقيل: المعنى يا غالب السحرة من ساحره فسحره كخاصمه فخصمه فهو خطاب تعظيم أيضاً، وقيل:

الساحر على المعنى المعروف فيه وقد تعودوا عليه السلام بذلك قبل، ومقتضى مقام طلب الدعاء منه عليه السلام أن لا يدعوه به إلا أنهم لفرط حسرتهم سبق لسانهم إلى ما تعودوا به، وقيل: هو خطاب استهزاء وانتقاص دعاهم إليه شدة شكيمتهم ومزيد حماقتهم وروي ذلك عن الحسن.

ودفع الزمخشري المنافاة بين هذا الخطاب وقولهم الآتي: ﴿إننا لمهتدون﴾ بأن ذلك القول وعد منوي إخلافه وعهد معزوم على نكثه معلق بشرط أن يدعو لهم وينكشف عنهم العذاب وفيه أن الوعد وإن كان منوي الاخلاف لكن إظهار الاخلاف حال التضرع إليه عليه السلام ينافيه لأنهم في استلانة قلبه عليه السلام.

وقيل الأظهر أنهم قالوا يا موسى كما في الأعراف لكن حكي الله تعالى كلامهم هنا على حسب حالهم ووفق ما في قلوبهم تقبيحاً لذلك وتسلية لحبيبه ﷺ ويكون ذلك على عكس قوله سبحانه ﴿إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله﴾ [النساء: ١٥٧] وجعل على هذا قولهم الآتي مجمل ما فصل هنالك من الإيمان وإرسال بني إسرائيل فلا يحتاج إلى التزام كون القولين في مجلسين للجمع بين ما هنا وما هناك، ولا يخلو عن بعد والالتزام المذكور لا أرى ضرراً فيه. وقرىء «يا أيهُ» بضم الهاء ﴿ادْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ ليكشف عنا العذاب ﴿بِمَا عَهِدَ عِندَكَ﴾ أي بعهده عندك، والمراد به النبوة وسميت عهداً إما لأن الله تعالى عاهد نبيه عليه السلام أن يكرمه بها وعاهد النبي ربه سبحانه على أن يستقل بأعبائها أو لما فيها من الكلفة بالقيام بأعبائها ومن الاختصاص كما بين المتواثقين أو لأن لها حقوقاً تحفظ كما يحفظ العهد أو من العهد الذي يكتب للولاة كأن النبوة منشور من الله تعالى بتولية من أكرمه بها والباء إما صلة لادع.أو متعلق بمحذوف وقع حالا من الضمير فيه أي متوسلا إليه تعالى بما عهد أو بمحذوف دل عليه التماسهم مثل أسعفنا إلى ما نطلب، وإما أن تكون للقسم والجواب ما يأتي، وهي على هذا للقسم حقيقة وعلى ما قبله للقسم الاستعطافي وعلى الوجه الأول للسببية، وإدخال ذلك في الاستعطاف خروج عن الاصطلاح، وجوز أن يراد بالعهد عهد استجابة الدعوة كأنه قيل: بما عاهدك الله تعالى مكرماً لك من استجابة دعوتك أو عهد كشف العذاب عمن اهتدى، وأمر الباء في الوجهين على ما مر؛ وأن يراد بالعهد الإيمان والطاعة أي بما عهد عندك فوفيت به على أنه من عهد إليه أن يفعل كذا أي أخذ منه العهد على فعله ومنه العهد الذي يكتب للولاة، و ﴿عندك﴾ يغني عن ذكر الصلة مع إفادة أنه محفوظ مخزون عند المخاطب، والأولى على هذا أن تكون ما موصولة، وهذا الوجه فيه كما في الكشف نبو لفظاً ومعنى وسياقاً ما لا يخفى على الفطن.

﴿إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ﴾ لمؤمنون ثابتون على الإيمان وهو إما معلق بشرط كشف العذاب كما في قولهم المحكي في سورة الأعراف لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك أو غير معلق ويجب حينئذ أن يكون هذا منهم في مجلس آخر، وإن قلنا: لم يصدر منهم طلب الدعاء إلا مرة أو أكثر منها لكن على طرز واحد قيل هنا: أرادوا من الاهتداء الإيمان وإرسال بني إسرائيل كما سمعت آنفاً ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ﴾ أي بدعوته ففي الكلام حذف أي فدعانا بكشف العذاب فكشفناه فلما كشفناه عنهم ﴿إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾ فاجأهم نكث عهدهم بالاهتداء أو فاجؤوا وقت نكث عهدهم. وقرأ أبو حيوة «يَنْكِثُونَ» بكسر الكاف.

﴿وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي﴾ أي رفع صوته بنفسه فيما بين قومه بذلك القول، ولعله جمع عظماء القبط في محله الذي هو فيه به أن كشف العذاب فنادى فيما بينهم بذلك لتنتشر مقالته في جميع القبط ويعظم في نفوسهم مخافة أن يؤمنوا بموسى عليه السلام ويتركوه.

ويجوز أن يكون إسناد النداء إليه مجازا والمراد أمر بالنداء بذلك في الأسواق والأزقة ومجامع الناس وهذا كما

يقال بنى الأمير المدينة، ﴿ونادى﴾ قيل معطوف على فاجأ المقدر ونزل منزلة اللازم وعدي بفي كقوله: يجرح في عراقيبها نصلي. للدلالة على تمكين النداء فيهم، وعنى بملك مصر ضبطها والتصرف فيها بالحكم ولم يرد مصر نفسها بل هي وما يتبعها وذلك من اسكندرية إلى أسوان كما في البحر، والأنهار الخلجان التي تخرج من النيل المبارك كنهر الملك. ونهر دمياط. ونهر تنيس ولعل نهر طوطون كان منها إذ ذاك لكنه اندرس فجدده أحمد بن طولون ملك مصر في الإسلام وأراد بقوله ﴿من تحتي﴾ من تحت أمري.

وقال غير واحد كانت إنهار تخرج من النيل وتجري من تحت قصره وهو مشرف عليها، وقيل: كان له سرير عظيم مرتفع تجري من تحته أنهار أخرجها من النيل، وقال قتادة: كانت له جنان وبساتين بين يديه تجري فيها الأنهار، وفسر الضحاك الأنهار بالقواد والرؤساء الجبابرة، ومعنى كونهم يجرون من تحته أنهم يسيرون تحت لوائه ويأتمرون بأمره، وقد أبعد جداً وكذا من فسرها بالأموال ومن فسرها بالخيل وقال: كما يسمى الفرس بحراً يسمى نهراً بل التفاسير الثلاثة تقرب من تفاسير الباطنية فلا ينبغي أن يلتفت إليها، والواو في ﴿وهذه﴾ الخ إما عاطفة لهذه الأنهار على الملك فجملة تجري حال منها أو للحال فهذه مبتدأ و ﴿الأنهار﴾ صفة أو عطف بيان وجملة ﴿تجري﴾ خبر للمبتدأ وجملة هذه الخ حال من ضمير التكلم، وجوز أن تكون للعطف ﴿وهذه تجري﴾ مبتدأ وخبر والجملة عطف على اسم وخبرها، وقوله: ﴿أَفَلاَ تُبْصِرُونَ﴾ على تقدير المفعول أي أفلا تبصرون ذلك أي ما ذكر، ويجوز أن ينزل منزلة اللازم والمعنى أليس لكم بصر أو بصيرة، وقرأ عيسى «تبصرون» بكسر النون فتكون الياء الواقعة مفعولاً محذوفة، وقرأ فهد بن الصقر «يُبْصِرُونَ» بياء الغيبة ذكره في الكامل للهزلي والساجي عن يعقوب ذكره ابن خالويه، ولا يخفى ما بين افتخار اللعين بملك مصر ودعواه الربوبية من البعد البعيد، وعن الرشيد أنه لما قرأ هذه الآية قال لأولينها ـ يعني مصر ـ أخس عبيدي فولاها الخطيب وكان على وضوئه، وعن عبد الله بن طاهر أنه وليها فخرج إليها فلما شارفها ووقع عليها بصره قال: هي القرية التي افتخر بها فرعون حتى قال: ﴿أليس لي ملك مصر﴾ والله لهي أقل عندي من أن أدخلها فثنى عنانه ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ﴾ مع هذه البسطة والسعة في الملك والمال ﴿مِنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ﴾ أي ضعيف حقير أو مبتذل ذليل فهو من المهانة وهي القلة أو الذلة ﴿وَلاَ يَكَادُ يُبِينُ﴾ أي الكلام، والجمهور أنه عليه السلام كان بلسانه بعض شيء من أثر الجمرة لكن اللعين بالغ.

ومن ذهب إلى أن الله تعالى كان أجاب سؤاله حل عقدة من لسانه فلم يبق فيه منها أثر قال: المعنى ولا يكاد يبين حجته الدالة على صدقه فيما يدعى لا أنه لا قدرة له على الإفصاح باللفظ وهو افتراء عليه عليه السلام ألا ترى إلى مناظرته له ورده عليه وإفحامه إياه، وقيل: عابه بما كان به عليه السلام من الحبسة أيام كان عنده وأراد اللعين أنه عليه السلام ليس معه من العدد وآلات الملك والسياسة ما يعتضد به وهو في نفسه مخل بما ينعت به الرجال من اللسان وإبانة الكلام، و ﴿أم﴾ على ما نقل عن سيبويه والخليل متصلة، وقد نزل السبب بعدها منزلة المسبب على ما ذهب إليه الزمخشري، والمعنى أفلا تبصرون أم تبصرون إلا أنه وضع ﴿أم أنا خير﴾ موضع ﴿أم تبصرون﴾.

وإيضاح ذلك أن فرعون عليه اللعنة لما قدم أسباب البسطة والرياسة بقوله ﴿أليس لي﴾ الخ وعقبه بقوله أفلا تبصرون استقصاراً لهم وتنبيهاً على أنه من الوضوح بمكان لا يخفى على ذي عينين قال في مقابله: ﴿أم أنا خير﴾ بمعنى أم تبصرون أني أنا المقدم المتبوع، وفي العدول تنبيه على أن هذا الشق هو المسلم لا محالة عندكم فكأنه يحكيه عن لسانهم بعدما أبصروا وهو أسلوب عجيب وفن غريب، وجعله الزمخشري من إنزال السبب مكان المسبب لأن كونه خيراً في نفسه أن محصلاً له أسباب التقدم والملك سبب لأن يقال فيه أنت خير منه وقولهم: أنت خير سبب

لكونهم بصراء وسبب السبب قد يقال له سبب فلا يرد ما يقال إن السبب قولهم: أنت خير لا قوله: أنا خير، وقال القاضي البيضاوي: إنه من إنزال المسبب منزلة السبب لأن علمهم بأنه خير مستفاد من الابصار. وفيه أن المذكور أنا خير لا أم تعلمون أني خير، وله أن يقول: ذلك يغني غناه لأنه جعله مسلماً معلوماً ما عندهم فقال: ﴿أم أنا خير﴾ لا أم تعلمون كما سلف، ولا يخفى أن ما ذكره الزمخشري أظهر كذا في الكشف، وقال العلامة الثاني في تقرير ذلك: إن قوله: أنا خير سبب لقولهم من جهة بعثه على النظر في أحواله واستعداده لما ادعاه وقولهم: أنت خير سبب لكونهم بصراء عنده فأنا خير سبب له بالواسطة لكن لا يخفى أنه سبب للعلم بذلك والحكم به، وأما بحسب الوجود فالأمر بالعكس لأن إبصارهم سبب لقوله أنت خير فتأمل، وبالجملة إن ما بعد ﴿أم﴾ مؤول بجملة فعلية معلولة لفظاً ومعنى هي ما سمعت ونحو ذلك من حيث التأويل ﴿أدعوتموهم أم أنتم صامتون﴾ [الأعراف:١٢٣] أي أم صمتم، وقوله:

أمخدج اليدين أم أتمت

أي أم متماً، وقيل: حذف المعادل لدلالة المعنى عليه، والتقدير أفلا تبصرون أم تبصرون أنا خير الخ، وتعقب بأن هذا لا يجوز إلا إذا كان بعد أم لا نحو أيقوم زيد أم لا أي أم لا يقوم فأما حذفه دون لا فليس من كلامهم، وجوز أن يكون في الكلام طي على نهج الاحتباك والمعنى أهو خير مني فلا تبصرون ما ذكرتكم به أم أنا خير منه لأنكم تبصرونه، ولا ينبغي الالتفات إليه، وجوز غير واحد كون ﴿أم﴾ منقطعة مقدرة ببل والهمزة التي للتقرير كأن اللعين قال أثر ما عدد أسباب فضله ومبادي خيريته: أثبت عندكم واستقر لديكم أني خير وهذه حالي من هذا الخ، ورجحه بعضهم لما فيه من عدم التكلف في أمر المعادل اللازم أولاً لحسن في المتصلة، وقال السدي. وأبو عبيدة: أم بمعنى بل فيكون قد انتقل من ذلك الكلام إلى إخباره بأنه خير كقول الشاعر:

بدت مثل قرن الشمس في رونق الضحى ... وصورتها أم أنت في العين أملح

وقال أبو البقاء: إنها منقطعة لفظاً متصلة وأراد ما تقدم من التأويل، وليس فيه مخالفة لما أجمع عليه النحاة كما توهم، وجملة «لا يكاد يبين» معطوفة على الصلة أو مستأنفة أو حالية. وقرىء «أما أنا خير» بإدخال الهمزة على ما النافية، وقرأ الباقر رضي الله تعالى عنه «يَبِينُ» بفتح الياء من بان إذا ظهر ﴿فَلَوْلاَ أُلْقِـيَ عَلَـيْه أَسْورَةٌ منْ ذَهَب﴾ كناية عن تمليكه، قال مجاهد: كانوا إذا سودوا رجلا سوروه بسوارين وطوقوه بطوق ذهب علامة لسؤدده، فقال فرعون هلا ألقى رب موسى عليه أساور من ذهب إن كان صادقاً، وهذا من اللعين لزعمه أن الرياسة من لوازم الرسالة كما قال كفار قريش في عظيم القريتين، والأسورة جمع سوار نحو خمار وأخمرة، وقرأ الأعمش «أَسَاوِرَ» ورويت عن أبي، وعن أبي عمرو جمع اسورة فهو جمع الجمع، وقرأ الجمهور «أَسَاوِرَة» جمع أسوار بمعنى السوار والهاء عوض من ياء أساوير فإنها تكون في الجمع المحذوف مدته للعوض عنها كما في زنادقة جمع زنديق.

وقد قرأ «أَسَاوِير» عبد الله وأبي في الرواية المشهورة، وقرأ الضحاك ألقى مبنياً للفاعل أي الله تعالى أساورة بالنصب ﴿أَوْ جَاءَ مَعَهُ الـمَلاَئكَةُ مُقْتَرنـينَ﴾ من قرنته به فاقترن، وفسر بمقرونين أي به لأنه لازم معناه بناءً على هذا، وفسر أيضاً بمتقارنين من اقترن بمعنى تقارن والاقتران مجاز أو كناية عن الإعانة.

ولذا قال ابن عباس: يعينونه على من خالفه، وقيل: عن التصديق ولولا ذلك لم يكن لذكره بعد قوله معه فائدة، وهو الأول حسي وعلى الثاني معنوي، وقيل: متقارنين بمعنى مجتمعين كثيرين، وعن قتادة متتابعين.

﴿فَاسْتَـخَفَّ قَوْمَهُ﴾ فطلب منهم الخفة في مطاوعته على أن السين للطلب على حقيقتها، ومعنى الخفة السرعة

لإجابته ومتابعته كما يقال هم خفوف إذا دعوا وهو مجاز مشهور وقال ابن الأعرابي استخف أحلامهم أي وجدهم خفيفة أحلامهم أي قليلة عقولهم فصيغة الاستفعال للوجدان كالأفعال كما يقال أحمدته وجدته محموداً وفي نسبته ذلك للقوم تجوز.

﴿فَأَطَاعُوهُ﴾ فيما أمرهم به ﴿أَنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ﴾ فلذلك سارعوا إلى طاعة ذلك الفاسق الغوي ﴿فَلَمَّا آسَفُونَا﴾ أي أسخطونا كما قال علي كرم الله تعالى وجهه. وفي معناه ما قيل أي أغضبونا أشد الغضب أي بأعمالهم. والغضب عند الخلف مجاز عن إرادة العقوبة فيكون صفة ذات أو عن العقوبة فيكون صفة فعل.

وقال أبو عبد الله الرضا رضي الله تعالى عنه: إن الله سبحانه لا يأسف كأسفنا ولكن له جل شأنه أولياء يأسفون ويرضون فجعل سبحانه رضاهم رضاه وغضبهم غضبه تعالى، وعلى ذلك قال عز وجل: «من أهان لي ولياً فقد بارزني بالمحاربة» وقال سبحانه: ﴿من يطع الرسول فقد أطاع الله﴾ [النساء: ٨٠] وعليه قيل: المعنى فلما أسفوا موسى عليه السلام ومن معه، والسلف لا يؤولون ويقولون: الغضب فينا انفعال نفساني وصفاته سبحانه ليست كصفاتنا بوجه من الوجوه، وروي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما تفسير الأسف بالحزن وأنه قال هنا: أي أحزنوا أولياءنا المؤمنين نحو السحرة وبني إسرائيل.

وذكر الراغب أن الأسف الحزن والغضب معاً وقد يقال لكل منهما على الانفراد، وحقيقته ثوران دم القلب شهوة الانتقام فمتى كان ذلك على من دونه انتشر فصار غضباً ومتى كان على من فوقه انقبض فصار حزناً، ولذلك سئل ابن عباس عنهما فقال: مخرجهما واحد واللفظ مختلف فمن نازع من يقوى عليه أظهره غيظاً وغضباً ومن نازع من لا يقوى عليه أظهره حزناً وجزعاً، وبهذا النظر قال الشاعر:

فحزن كل أخي حزن أخو الغضب

انتهى، وعلى جميع الأقوال آسف منقول بالهمزة من أسف.

﴿انْتَقَمْنَا منهمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعينَ﴾ في اليم ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفاً﴾ قال ابن عباس وزيد بن أسلم. وقتادة أي متقدمين إلى النار.

وقال غير واحد: قدوة للكفار الذين بعدهم يقتدون بهم في استيجاب مثل عقابهم ونزوله بهم، والكلام على الاستعارة لأن الخلف يقتدي بالسلف فلما اقتدوا بهم في الكفر جعلوا كأنهم اقتدوا بهم في معلول الغضب وهو مصدر نعت به ولذا يصح إطلاقه على القليل والكثير، وقيل: جمع سالف كحارس وحرس وخادم وخدم وهذا يحتمل أن يراد بالجمع فيه ظاهره ويحتمل أن يراد به اسم الجمع فإن فعلاً ليس من أبنية الجموع لغلبته في المفردات، والمشهور في جمعه أسلاف وجاء سلاف أيضاً.

وقرأ أبو عبد الله وأصحابه وسعيد بن عياض والأعمش والأعرج وطلحة وحمزة والكسائي «سُلُفاً» بضمتين جمع سليف كفريق لفظاً ومعنى، سمع القاسم بن معن العرب تقول: مضى سليف من الناس يعنون فريقاً، منهم وقيل: جمع سلف كصبر جمع صابر أو جمع سلف كجنب.

وقرأ علي كرم الله تعالى وجهه ومجاهد والأعرج أيضاً «سُلَفاً» بضم ففتح إما على أنه أبدلت فيه ضمة اللام فتحة تخفيفاً كما يقال في جدد بضم الدال جدد بفتحها أو على أنه جمع سلفة بمعنى الأمة والجماعة من الناس أي فجعلناهم أمة سلفت، والسلف بالضم فالفتح في غير هذا ولد القبج والجمع سلفان كصردان ويضم.

﴿وَمَثَلاً لِلآخرينَ﴾ أي عظة لهم، والمراد بهم الكفار بعدهم، والجار متعلق على التنازع بسلفاً ومثلاً، ويجوز أن يراد بالمثل القصة العجيبة التي تسير مسير الأمثال؛ ومعنى كونهم مثلاً للكفار أن يقال لهم: مثلكم مثل قوم فرعون، ويجوز تعلق الجار بالثاني وتعميم الآخرين بحيث يشمل المؤمنين، وكونهم قصة عجيبة للجميع ظاهر ﴿وَلَـمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً﴾ الخ بيان لعناد قريش بالباطل والرد عليهم، فقد روي أن عبد الله بن الزبعري قبل إسلامه، قال للنبي ﷺ وقد سمعه يقول: ﴿إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم﴾ [الأنبياء: ٩٨] أليست النصارى يعبدون المسيح وأنت تقول كان نبياً وعبداً من عباد الله تعالى صالحاً فإن كان في النار فقد رضينا أن نكون نحن وآلهتنا معه ففرح قريش وضحكوا وارتفعت أصواتهم وذلك قوله تعالى: ﴿إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ فالمعنى ولما ضرب ابن الزبعرى عيسى ابن مريم مثلاً وحاجك بعبادة النصارى إياه إذا قومك من ذلك ولأجله يرتفع لهم جلبة وضجيج فرحاً وجدلاً، والحجة لما كانت تسير مسير الأمثال شهرة قيل لها مثل أو المثل بمعنى المثال أي جعله مقياساً وشاهداً على إبطال قوله عليه الصلاة والسلام: إن آلهتهم من حصب جهنم، وجعل عيسى عليه السلام نفسه مثلاً من باب «الحج عرفة».

وقرأ أبو جعفر والأعرج والنخعي وأبو رجاء وابن وثاب وابن عامر ونافع والكسائي «يُصِدُّونَ» بضم الصاد من الصدود، وروي ذلك عن علي كرم الله تعالى وجهه، وأنكر ابن عباس رضي الله تعالى عنهما هذه القراءة وهو قبل بلوغه تواترها، والمعنى عليها إذا قومك من أجل ذلك يعرضون عن الحق بالجدل بحجة داحضة واهية، وقيل: المراد يثبتون على ما كانوا عليه من الإعراض.

وقال الكسائي والفراء: يصدون بالكسر ويصدون بالضم لغتان بمعنى واحد مثل يعرشون ويعرشون ومعناهما يضجون، وجوز أن يكون يعرضون ﴿وَقَالُوا﴾ تمهيداً لما بنوا عليه من الباطل المموه بما يغتر به السفهاء ﴿ءَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ﴾ أي ظاهر عندك أن عيسى عليه السلام خير من آلهتنا فحيث كان هو في النار فلا بأس بكونها وإيانا فيها، وحقق الكوفيون الهمزتين همزة الاستفهام والهمزة الأصلية؛ وسهل باقي السبعة الثانية بين بين، وقرأ ورش في رواية أبي الأزهر بهمزة واحدة على مثال الخبر، والظاهر أنه على حذف همزة الاستفهام، وقوله تعالى: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلاَّ جَدَلاً بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ إبطال لباطلهم إجمالاً اكتفاء بما فصل في قوله تعالى: ﴿إن الذين سبقت﴾ [الأنبياء: ١٠١] وتنبيهاً على أنه مما لا يذهب على ذي مسكة بطلانه فكيف على غيره ولكن العناد يعمي ويصم أي ما ضربوا لك ذلك إلا لأجل الجدال والخصام لا لطلب الحق فإنه في غاية البطلان بل هم قوم لد شداد الخصومة مجبولون على المحك أي سؤال الخلق واللجاج، فجدلاً منتصب على أنه مفعول لأجله، وقيل: هو مصدر في موضع الحال أي مجادلين، وقرأ ابن مقسم «جِدَالاً» بكسر الجيم وألف بعد الدال، وقوله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ﴾ أي ما عيسى ابن مريم ﴿إِلاَّ عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيهِ﴾ بالنبوة وروادفها فهو مرفوع المنزلة على القدر لكن ليس له من استحقاق المعبودية من نصيب، كلام حكيم مشتمل على ما اشتمل عليه قوله تعالى: ﴿إن الذين سبقت﴾ ولكن على سبيل الرمز وعلى فساد رأي النصارى في إيثارهم عبادته عليه السلام تعريضاً بمكان عبادة قريش غيره سبحانه وتعالى، وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهُ مَثَلاً﴾ أي أمراً عجيباً حقيقاً بأن يسير ذكره كالأمثال السائرة ﴿لِبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ حيث خلقناه من غير أب وجعلنا له من إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص ونحو ذلك ما لم نجعل لغيره في زمانه، كلام أجمل فيه وجه الافتتان به وعليه، ووجه دلالته على قدرة خالقه تعالى شأنه وبعد استحقاقه عليه السلام عما قرف به إفراطاً وتفريطاً، وقوله سبحانه: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا﴾ الخ تذييل لوجه دلالته على القدرة وأن الافتتان من عدم التأمل وتضمين للإنكار على من اتخذ الملائكة آلهة كما اتخذ عيسى عليهم السلام أي ولو نشاء لقدرتنا على عجائب الأمور وبدائع الفطر لجعلنا بطريق التوليد ومآله لولدنا

﴿**منكُم**﴾ يا رجال ﴿**مَلائكَةً**﴾ كما ولدنا عيسى من غير أب ﴿**فِي الأَرْضِ يَخْلُفُونَ**﴾ أي يخلفونكم في الأرض كما يخلفكم أولادكم أو يكونون خلفاً ونسلاً لكم ليعرف تميزنا بالقدرة الباهرة وليعلم أن الملائكة ذوات ممكنة تخلق توليداً كما تخلق إبداعاً فمن أين لهم استحقاق الألوهية والانتساب إليه سبحانه وتعالى بالبنوة، وجوز أن يكون معنى لجعلنا الخ لحولنا بعضكم ملائكة فمن ابتدائية أو تبعيضية و ﴿**ملائكة**﴾ مفعول ثان أو حال، وقيل: من للبدل كما في قوله تعالى: ﴿أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة﴾ [التوبة: ٣٨] وقوله:

ولم تذق من البقول الفستقا

أي ولو نشاء لجعلنا بدلكم ملائكة يكونون مكانكم بعد إذهابكم، وإليه يشير كلام قتادة ومجاهد، والمراد بيان كمال قدرته تعالى لا التوعد بالاستئصال وإن تضمنه فإنه غير ملائم للمقام، وقيل: لا مانع من قصدهما معاً نعم كثير من النحويين لا يثبتون لمن معنى البدلية ويتأولون ما ورد مما يوهم ذلك والأظهر ما قرر أولاً.

وذكر العلامة الطيبي عليه الرحمة أن قوله تعالى: ﴿**إن هو إلا عبد**﴾ الخ جواب عن جدل الكفرة في قوله سبحانه: ﴿**إنكم وما تعبدون**﴾ الخ وإن تقريره ان جدلكم هذا باطل لأنه عليه السلام ما دخل في ذلك النص الصريح لأن الكلام معكم أيها المشركون وأنتم المخاطبون به وإنما المراد بما تعبدون الأصنام التي تنحتونها بأيديكم وأما عيسى عليه السلام فما هو إلا عبد مكرم منعم عليه بالنبوة مرفوع المنزلة والذكر مشهور في بني إسرائيل كالمثل السائر فمن أين تدخل في قولنا: ﴿إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم﴾ ثم لا اعتراض علينا أن نجعل قوماً أهلاً للنار وآخرين أهلاً للجنة إذ لو نشاء لجعلنا منكم ومن أنفسكم أيها الكفرة ملائكة أي عبيداً مكرمون مهتدون وإلى الجنة صائرون كقوله تعالى: ﴿ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها﴾ [السجدة: ١٣] اهـ.

وعلى ما ذكرنا أن الكلام في إبطال قد تم عند قوله تعالى: ﴿**خصمون**﴾ وما بعد لما سمعت قبل وهو أدق وأولى مما ذكره بل ما أشار إليه من أن قوله تعالى: ﴿**ولو نشاء**﴾ الخ لنفي الاعتراض ليس بشيء. وروي أن ابن الزبعرى قال للنبي ﷺ حين سمع قوله تعالى: ﴿إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم﴾ [الأنبياء: ٩٨] أهذا لنا ولآلهتنا أم لجميع الأمم؟ فقال عليه الصلاة والسلام: هو لكم ولآلهتكم ولجميع الأمم فقال: خصمتك ورب الكعبة أليست النصارى يعبدون المسيح، واليهود عزيراً، وبنو مليح الملائكة؟ فإن كان هؤلاء في النار فقد رضينا أن نكون نحن وآلهتنا معهم ففرحوا وضحكوا وسكت رسول الله ﷺ فأنزل الله تعالى ﴿إن الذين سبقت﴾ [الأنبياء: ١٠١] الآية أو نزلت هذه الآية، وأنكر بعضهم السكوت، وذكر أن ابن الزبعرى حين قال للنبي عليه الصلاة والسلام: خصمتك رد عليه ﷺ بقوله ما أجهلك بلغة قومك أما فهمت أن ما لما يعقل، وروى محيي السنة في المعالم أن ابن الزبعرى قال له عليه الصلاة والسلام: أنت قلت: ﴿إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم﴾؟ قال: نعم قال: أليست اليهود تعبد عزيراً والنصارى تعبد المسيح وبنو مليح يعبدون الملائكة؟ فقال النبي ﷺ: بل هم يعبدون الشيطان فأنزل الله تعالى ﴿إن الذين سبقت لهم منا الحسنى﴾ وهذا أثبت من الخبر الذي قبله. وتعقب ما تقدم في الخبر السابق من سؤال ابن الزبعرى أهذا لنا الخ، وقوله عليه الصلاة والسلام: هو لكم الخ بأنه ليس بثبت.

وذكر من أثبته أنه ﷺ إنما لم يجب حين سئل عن الخصوص والعموم بالخصوص عملاً بما تقتضيه كلمة ﴿**ما**﴾ لأن إخراج المعهودين عن الحكم عند المحاجة وهم للرخصة في عبادتهم في الجملة فعممه عليه الصلاة والسلام للكل لكن لا بطريق عبارة النص بل بطريق الدلالة بجامع الاشتراك في المعبودية من دون الله تعالى ثم بين أنهم بمعزل من أن يكونوا معبوديهم بما جاء في خبر محيي السنة من قوله عليه الصلاة والسلام: بل هم يعبدون الشيطان كما

نطق به قوله تعالى: ﴿سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن﴾ [سبأ: ٤١] الآية، وقد تقدم ما ينفعك تذكره فتذكر. وفي الدر المنثور أخرج الإمام أحمد وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال لقريش: إنه ليس أحد يعبد من دون الله تعالى فيه خير فقالوا: ألست تزعم أن عيسى كان نبياً وعبداً من عبد الله تعالى صالحاً فإن كنت صادقاً فإنه كآلهتنا فأنزل الله سبحانه: ﴿ولما ضرب ابن مريم مثلاً﴾ الخ، والكلام في الآيات على هذه الرواية يعلم مما تقدم بأدنى التفات، وقيل: إن المشركين لما سمعوا قوله تعالى: ﴿إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب﴾ [آل عمران: ٥٩] قالوا: نحن أهدى من النصارى لأنهم عبدوا آدمياً ونحن نعبد الملائكة فنزلت، فالمثل ما في قوله تعالى: ﴿إن مثل عيسى﴾ الآية والضارب هو تعالى شأنه أي ولما بين الله سبحانه حاله العجيبة اتخذه قومك ذريعة إلى ترويج ما هم فيه من الباطل بأنه مع كونه مخلوقاً بشراً قد عبد فنحن أهدى حيث عبدنا ملائكة مطهرين مكرمين عليه وهو الذي عنوه بقولهم: ﴿ءآلهتنا خير أم هو﴾ فأبطل الله تعالى ذلك بأنه مقايسة باطل بباطل وأنهم في اتخاذهم العبد المنعم عليه إلهاً مبطلون مثلكم في اتخاذ الملائكة وهم عباد مكرمون، ثم قال سبحانه: ﴿ولو نشاء لجعلنا منكم﴾ دلالة على أن الملائكة عليهم السلام مخلوقون مثله وأنه سبحانه قادر على أعجب من خلق عيسى عليه السلام وأنه لا فرق في ذلك بين المخلوق توالداً وإبداعاً فلا يصلح القسمان للإلهية. وفي رواية عن ابن عباس وقتادة أنه لما نزل قوله تعالى: ﴿إن مثل عيسى﴾ الآية قالت قريش: ما أراد محمد ﷺ من ذكر عيسى عليه السلام إلا أن نعبده كما عبدت النصارى عيسى.

ومعنى يصدون يضجون ويضجرون، والضمير في ﴿أم﴾ هو لنبينا عليه الصلاة والسلام، وغرضهم بالموازنة بينه ﷺ وبين آلهتهم الاستهزاء به عليه الصلاة والسلام، وقوله تعالى: ﴿ولو نشاء﴾ الخ رد وتكذيب لهم في افترائهم عليه ﷺ ببيان أن عيسى عليه السلام في الحقيقة وفيما أوحى إلى الرسول عليه الصلاة والسلام ليس إلا أنه عبد منعم عليه كما ذكر فكيف يرضى ﷺ بمعبوديته أو كيف يتوهم الرضا بمعبودية نفسه ثم بين جل شأنه أن مثل عيسى ليس ببدع من قدرة الله تعالى وأنه قادر على أبدع منه وأبدع مع التنبيه على سقوط الملائكة عليهم السلام أيضاً عن درجة المعبودية بقوله سبحانه: ﴿ولو نشاء﴾ الخ وفيه أن الدلالة على ذلك المعنى غير واضحة، وكذلك رجوع الضمير إلى نبينا عليه الصلاة والسلام في قوله تعالى: ﴿أم هو﴾ مع رجوعه إلى عيسى في قوله سبحانه: ﴿إن هو إلا عبد﴾ وفيه من فك النظم ما يجب أن يصان الكتاب المعجز عنه، ولا يكاد يقبل القول برجوع الضمير الثاني إليه ﷺ، ولعل الرواية عن الخبر غير ثابتة، وجوز أن يكون مرادهم التنصل عما أنكر عليهم من قولهم: الملائكة عليهم السلام بنات الله سبحانه ومن عبادتهم إياهم كأنهم قالوا: ما قلنا بدعاً من القول ولا فعلنا منكراً من الفعل فإن النصارى جعلوا المسيح ابن الله عز وجل فنحن أشف منهم قولاً وفعلاً حيث نسبنا إليه تعالى الملائكة عليهم السلام وهم نسبوا إليه الأناسي، وقوله تعالى: ﴿ولو نشاء﴾ الخ عليه كما في الوجه الثاني ﴿وَإِنَّهُ﴾ أي عيسى عليه السلام ﴿لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ﴾ أي إنه بنزوله شرط من أشراطها أو بحدوثه بغير أب أو بإحيائه الموتى دليل على صحة البعث الذي هو معظم ما ينكره الكفرة من الأمور الواقعة في الساعة، وأياً ما كان فعلم الساعة مجاز عما تعلم به والتعبير به للمبالغة.

وقرأ أبي «لذكر» وهو مجاز كذلك.

وقرأ ابن عباس وأبو هريرة وأبو مالك الغفاري وزيد بن علي وقتادة ومجاهد والضحاك ومالك بن دينار والأعمش والكلبي قال ابن عطية وأبو نصرة «لَعَلَم» بفتح العين واللام أي لعلامة.

وقرأ عكرمة قال ابن خالويه وأبو نصرة «لا لعلم» معرفاً بفتحتين والحصر إضافي، وقيل: باعتبار أنه أعظم

العلامات، وقد نطقت الأخبار بنزوله عليه السلام فقد أخرج البخاري ومسلم والترمذي وأبو داود وابن ماجه عن أبي هريرة قال: «قال رسول الله ﷺ ينزلن ابن مريم حكماً عدلاً فليكسرن الصليب وليقتلن الخنزير وليضعن الجزية وليتركن القلاص فلا يسقى عليها وليذهبن الشحناء والتباغض والتحاسد وليدعون إلى المال فلا يقبله أحد»، وفي رواية «وإنه نازل فإذا رأيتموه فاعرفوه فإنه رجل مربوع إلى الحمرة والبياض ينزل بين ممصرتين كأن رأسه يقطر وإن لم يصبه بلل فليقاتل الناس على الإسلام» وفيه «ويهلك المسيح الدجال» وفي أخرى قال: «قال رسول الله ﷺ كيف أنتم إذا نزل ابن مريم فيكم وإمامكم منكم» وفي رواية «فأمكم منكم» قال ابن أبي ذئب: تدري ما أمكم منكم؟ قال: تخبرني قال: فأمكم بكتاب ربكم عز وجل وسنة نبيكم ﷺ، والمشهور نزوله عليه السلام بدمشق والناس في صلاة الصبح فيتأخر الإمام وهو المهدي فيقدمه عيسى عليه السلام ويصلي خلفه ويقول: إنما أقيمت لك.

وقيل بل يتقدم هو ويؤم الناس والأكثرون على اقتدائه بالمهدي في تلك الصلاة دفعاً لتوهم نزوله ناسخاً وأما في غيرها فيؤم هو الناس لأنه الأفضل والشيعة تأبى ذلك.

وفي بعض الروايات أنه عليه السلام ينزل على ثنية يقال لها أفيق بفاء وقاف بوزن أمير وهي هنا مكان بالقدس الشريف نفسه ويمكث في الأرض على ما جاء في رواية عن ابن عباس أربعين سنة وفي رواية سبع سنين قيل والأربعون إنما هي مدة مكثه قبل الرفع وبعده ثم يموت ويدفن في الحجرة الشريفة النبوية، وتمام الكلام في البحور الزاخرة للسفاريني، وعن الحسن وقتادة وابن جبير أن ضمير ﴿إنه﴾ للقرآن لما أن فيه الإعلام بالساعة فجعله عين العلم مبالغة أيضاً، وضعف بأنه لم يجر للقرآن ذكر هنا مع عدم مناسبة ذلك للسياق، وقالت فرقة: يعود على النبي ﷺ فقد قال عليه الصلاة والسلام: «بعثت أنا والساعة كهاتين» وفيه من البعد ما فيه.

وكأن هؤلاء يجعلون ضمير ﴿أم هو﴾ وضمير ﴿إن هو﴾ له ﷺ أيضاً وهو كما ترى ﴿فَلاَ تَمْتَرُنَّ بِهَا﴾ فلا تشكن في وقوعها ﴿واتَّبِعُونِ﴾ أي واتبعوا هداي أو شرعي أو رسولي، وقيل: هو قول الرسول ﷺ مأموراً من جهته عز وجل فهو بتقدير القول أي وقل اتبعوني ﴿هَٰذَا﴾ أي الذي أدعوكم إليه أو القرآن على أن الضمير في «إنه» له ﴿صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ موصل إلى الحق ﴿وَلاَ يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطَانُ﴾ عن اتباعي ﴿إِنَّه لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ أي بين العداوة أو مظهرها حيث أخرج أباكم من الجنة وعرضكم للبلية ﴿وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ﴾ بالأمور الواضحات وهي المعجزات أو آيات الإنجيل أو الشرائع ولا مانع من إرادة الجميع ﴿قَالَ﴾ لبني إسرائيل ﴿قَدْ جِئْتُكُم بِالْحِكْمَةِ﴾ أي الإنجيل كما قال القشيري: والماوردي، وقال السدي. بالنبوة، وفي رواية أخرى عنه هي قضايا يحكم بها العقل، وقال أبو حيان. أي بما تقتضيه الحكمة الإلهية من الشرائع، وقال الضحاك: أي بالموعظة ﴿وَلأُبَيِّنَ لَكُم﴾ متعلق بمقدر أي وجئتكم لأبين لكم، ولم يترك العاطف ليتعلق بما قبله ليؤذن بالاهتمام بالعلة حيث جعلت كأنها كلام برأسه. وفي الإرشاد هو عطف على مقدر ينبىء عنه المجيء بالحكمة كأنه قيل قد جئتكم بالحكمة لأعلمكم إياها ولأبين لكم ﴿بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ وهو أمر الديانات وما يتعلق بالتكليف دون الأمور التي لم يتعبدوا بمعرفتها ككيفية نضد الأفلاك وأسباب اختلاف تشكلات القمر مثلاً فإن الأنبياء عليهم السلام لم يبعثوا لبيان ما يختلف فيه من ذلك ومثلها ما يتعلق بأمر الدنيا ككيفية الزراعة وما يصلح الزرع وما يفسده مثلاً فإن الأنبياء عليهم السلام لم يبعثوا لبيانه أيضاً كما يشير إليه قوله ﷺ في قصة تأبير النخل «أنتم أعلم بأمور دنياكم».

وجوز أن يراد بهذا البعض بعض أمور الدين المكلف بها وأريد بالبيان البيان على سبيل التفصيل وهي لا يمكن بيان جميعها تفصيلاً وبعضها مفوض للاجتهاد، وقال أبو عبيدة: المراد بعض الذي حرم عليهم وقد أحل عليهم السلام

لهم لحوم الإبل والشحم من كل حيوان وصيد السمك يوم السبت، وقال مجاهد: بعض الذي يختلفون فيه من تبديل التوراة، وقال قتادة: لأبين لكم اختلاف الذين تحزبوا في أمره عليه السلام ﴿فَاتَّقُوا اللهَ﴾ من مخالفتي ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ فيما أبلغه عنه تعالى ﴿إِنَّ اللهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ﴾ بيان لما أمرهم بالطاعة فيه وهو اعتقاد التوحيد والتعبد بالشرائع ﴿هَٰذَا﴾ أي هذا التوحيد والتعبد بالشرائع ﴿صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ لا يضل سالكه، وهو إما من تتمة كلام عيسى عليه السلام أو استئناف من الله تعالى مقرر لمقالة عيسى عليه السلام.

فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٦٥﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا
ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٦﴾ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ
﴿٦٧﴾ يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾
ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ۖ وَفِيهَا مَا
تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ۖ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٧١﴾ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ
تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٣﴾ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ
عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٦﴾ وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ
إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٨﴾ أَمْ أَبْرَمُوٓا۟ أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴿٧٩﴾ أَمْ
يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ
ٱلْعَٰبِدِينَ ﴿٨١﴾ سُبْحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ
يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٨٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾
وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٥﴾ وَلَا يَمْلِكُ
ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ
ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾ وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَٰمٌ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾

﴿فَاخْتَلَفَ الأَحْزَابُ﴾ الفرق المتحزبة ﴿مِنْ بَيْنِهِمْ﴾ من بين من بعث إليهم وخاطبهم بما خاطبهم من اليهود والنصارى وهم أمة دعوته عليه السلام، وقيل: المراد النصارى وهم أمة إجابته عليه السلام، وقد اختلفوا فرقاً ملكانية ونسطورية ويعقوبية ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ من المختلفين وهم الذين لم يقولوا: إنه عبد الله ورسوله ﴿مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ هو يوم القيامة وأليم صفة عذاب أو يوم على الإسناد المجازي.

﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ﴾ الضمير لقريش، وأن تأتيهم بدل من الساعة، والاستثناء مفرغ، وجوز جعل إلا بمعنى غير والاستفهام للإنكار وينظرون بمعنى ينتظرون أي ما ينتظرون شيئاً إلا إتيان الساعة فجأة وهم غافلون عنها، وفي ذلك تهكم بهم حيث جعل اتيان الساعة كالمنتظر الذي لا بد من وقوعه.

ولما جاز اجتماع الفجأة والشعور وجب أن يقيد ذلك بقوله سبحانه: ﴿**وهم لا يشعرون**﴾ لعدم إغناء الأول عنه فلا استدراك، وقيل: يجوز أن يراد بلا يشعرون الإثبات لأن الكلام وارد على الإنكار كأنه قيل: هل يزعمون أنها تأتيهم بغتة وهم لا يشعرون أي لا يكون ذلك بل تأتيهم وهم فطنون، وفيه ما فيه، وقيل: ضمير ﴿**ينظرون**﴾ للذين ظلموا، وقيل: للناس مطلقاً وأيد بما أخرجه ابن مردويه عن أبي سعيد قال: «قال رسول الله ﷺ: تقوم الساعة والرجلان يحلبان النعجة والرجلان يطويان الثوب ثم قرأ عليه الصلاة والسلام ﴿**هل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة وهم لا يشعرون**﴾ ﴿**الأَخلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لبَعْض عَدُوٌّ إلاَّ الـمُتَّقِينَ**﴾» الظرف متعلق بعدو والفصل لا يضره، والمراد أن المحبات تنقطع يوم إذ تأتيهم الساعة ولا يبقى إلا محبة المتقين وهم المتصادقون في الله عن وجل لما أنهم يرون ثواب التحاب في الله عن وجل لما أنهم يرون ثواب التحاب في الله تعالى، واعتبار الانقطاع لأن الخل حال كونه خلاً محال أن يصير عدواً.

وقيل: المعنى الأخلاء تنقطع خلتهم ذلك اليوم إلا المجتنبين أخلاء السوء، والفرق بين الوجهين أن المتقي في الأول هو المحب لصاحبه في الله تعالى فاتقى الحب أن يشوبه غرض غير إلهي، وفي الثاني هو من اتقى صحبة الأشرار.

والاستثناء فيهما متصل، وجوز أن يكون يومئذٍ متعلقاً بالأخلاء والمراد به في الدنيا ومتعلق عدو مقدر أي في الآخرة والآية قيل نزلت في أبي بن خلف وعقبة بن أبي معيط ﴿**يَا عباد لاَ خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلاَ أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ**﴾ حكاية لما ينادى به المتقون المتحابون في الله تعالى يومئذٍ فهو بتقدير قول أي فيقال لهم يا عبادي الخ أو فأقول: لهم بناءً على أن المنادي هو الله عز وجل تشريفاً لهم، وعن المعتمر بن سليمان أن الناس حين يبعثون ليس منهم أحداً لا يفزع فينادي مناد يا عباد الخ فيرجوها الناس كلهم فيتبعها قوله تعالى ﴿**الَّذينَ آمَنُوا بآيَاتنَا وَكَانُوا مُسْلمينَ**﴾ فييأس منها الكفار، فيا عباد عام مخصوص إما بالآية السابقة وإما باللاحقة، والأول أوفق من أوجه عديدة.

والموصول إما صفة للمنادى أو بدل أو مفعول لمقدر أي أمدح ونحوه، وجملة ﴿**وكانوا مسلمين**﴾ حال من ضمير ﴿**آمنوا**﴾ بتقدير قد أو بدونه، وجوز عطفها على الصلة، ورجحت الحالية بأن الكلام عليها أبلغ لأن المراد بالإسلام هنا الانقياد والإخلاص ليفيد ذكره بعد الإيمان فإذا جعل حالاً أفاد بعد تلبسهم به في الماضي اتصاله بزمان الإيمان، وكان تدل على الاستمرار أيضاً ومن هنا جاء التأكيد والابلغية بخلاف العطف، وكذا الحال المفردة بأن يقال: الذين آمنوا بآياتنا مخلصين، وقرأ غير واحد من السبعة «يَا عِبَادي» بالياء على الأصل، والحذف كثير شائع وبه قرأ حفص وحمزة والكسائي، وقرأ ابن محيصن «لا خَوْفُ» بالرفع من غير تنوين، والحسن والزهري وابن أبي إسحاق وعيسى وابن يعمر ويعقوب بفتحها من غير تنوين ﴿**ادْخُلُوا الْـجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ**﴾ نساؤكم المؤمنات فالإضافة للاختصاص التام فيخرج من لم يؤمن منهن ﴿**تُحْبَرُونَ**﴾ تسرون سروراً يظهر حباره أي أثره من النضرة والحسن على وجوهكم كقوله تعالى: ﴿**تعرف في وجوههم نضرة النعيم**﴾ [المطففين: ٢٤] أو تزينون من الحبر بفتح الحاء وكسرها وهو الزينة وحسن الهيئة؛ وهذا متحد بما قبله معنى والفرق في المشتق منه، وقال الزجاج: أي تكرمون إكراماً يبالغ فيه، والحبرة بالفتح المبالغة في الفعل الموصوف بأنه جميل ومنه الإكرام فهو في الأصل عام أريد به بعض أفراده هنا ﴿**يُطَافُ عَلَيْهِمْ**﴾ بعد دخولهم الجنة حيثما أمروا به ﴿**بصحَاف منْ ذَهَب وَأَكْوَاب**﴾ كذلك، والصحاف جمع صحفة قيل هي كالقصعة، وقيل: أعظم أواني الأكل الجفنة ثم القصعة ثم الصحفة ثم الكيلة.

والأكواب جمع كوب وهو كوز لا عروة له، وهذا معنى قول مجاهد لا أذن له، وهو على ما روي عن قتادة دون الإبريق، وقال: بلغنا أنه مدور الرأس ولما كانت أواني المأكول أكثر بالنسبة لأواني المشروب عادة جمع الأول جمع

كثرة والثاني جمع قلة، وقد تظافرت الأخبار بكثرة الصحاف، أخرج ابن المبارك وابن أبي الدنيا في صفة الجنة والطبراني في الأوسط بسند رجاله ثقات عن أنس قال: «سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن أسفل أهل الجنة أجمعين درجة لمن يقوم على رأسه عشرة آلاف خادم بيد كل واحد صحفتان واحدة من ذهب والأخرى من فضة في كل واحدة لون ليس في الأخرى مثله يأكل من آخرها مثل ما يأكل من أولها يجد لآخرها من الطيب واللذة مثل الذي يجد لأولها ثم يكون ذلك كرشح المسك الأذفر لا يبولون ولا يتغوطون ولا يمتخطون إخواناً على سرر متقابلين» وفي حديث رواه عكرمة «إن أدنى أهل الجنة منزلة وأسفلهم درجة لرجل لا يدخل بعده أحد يفسح له في بصره مسيرة عام في قصور من ذهب وخيام من لؤلؤ ليس فيها موضع شبر إلا معمور يغدي عليه كل يوم ويراح بسبعين ألف صحفة في كل صحفة لون ليس في الأخرى مثله شهوته في آخرها كشهوته في أولها لو نزل عليه جميع أهل الأرض لوسع عليهم مما أعطى لا ينقص ذلك مما أوتي شيئاً» وروى ابن أبي شيبة هذا العدد عن كعب أيضاً، وإذا كان ذلك للأدنى فما ظنك بالأعلى، رزقنا الله تعالى ما يليق بجوده وكرمه.

وأمال أبو الحرث عن الكسائي كما ذكر ابن خالويه بصحاف ﴿وَفِيهَا﴾ أي في الجنة ﴿مَا تَشْتَهِيهِ الأَنْفُسُ﴾ من فنون الملاذ ﴿وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ﴾ أي تستلذ وتقر بمشاهدته، وذكر ذلك الشامل لكل لذة ونعيم بعد ذكر الطواف عليهم بأواني الذهب الذي هو بعض من التنعم والترفه تعميم بعد تخصيص كما أن ذكر لذة العين التي هي جاسوس النفس بعد اشتهاء النفس تخصيص بعد تعميم، وقال بعض الأجلة: إن قوله تعالى: ﴿يطاف عليهم﴾ بصحاف دل على الأطعمة ﴿وأكواب﴾ على الأشربة، ولا يبعد أن يحمل قوله سبحانه: ﴿وفيها ما تشتهيه الأنفس﴾ على المنكح والملبس وما يتصل بهما ليتكامل جميع المشتهيات النفسانية فبقيت اللذة الكبرى وهي النظر إلى وجه الله تعالى الكريم فكني عنه بقوله عز وجل ﴿وتلذ الأعين﴾ ولهذا قال رسول الله ﷺ فيما رواه النسائي عن أنس: «حبب إليَّ الطيب والنساء وجعلت قرة عيني في الصلاة» وقال قيس بن ملوح:

ولقد هممت بقتلها من حبها ... كيما تكون خصيمتي في المحشر
حتى يطول على الصراط وقوفنا ... وتلذ عيني من لذيذ المنظر

ويوافق هذا قول الإمام جعفر الصادق رضي الله تعالى عنه: شتان بين ما تشتهي الأنفس وبين ما تلذ الأعين لأن جميع ما في الجنة من النعيم والشهوات في جنب ما تلذ الأعين كأصبع تغمس في البحر لأن شهوات الجنة لها حد ونهاية لأنها مخلوقة ولا تلذ عين في الدار الباقية إلا بالنظر إلى الباقي جل وعز ولا حد لذلك ولا صفة ولا نهاية انتهى، ويعلم مما ذكر أن المعنى على اعتبار وفيها ما تلذ الأعين وعلى ذلك بنى الزمخشري قوله: هذا حصر لأنواع النعم لأنها إما مشتهاة في القلوب أو مستلذة في الأعين، وتعقبه في الكشف فقال: فيه نظر لانتقاضه بمستلذات سائر المشاعر الخمس، فإن قيل: إنها من القسم الأول قلنا: مستلذ العين كذلك فالوجه أنه ذكر تعظيماً لنعيمها بأنه مما يتوافق فيه القلب والعين وهو الغاية عندهم في المحبوب لأن العين مقدمة القلب؛ وهذا قول بأنه ليس في الجملة الثانية اعتبار موصول آخر بل هي والجملة قبلها صلتان لموصول واحد وهو المذكور، وما تقدم هو الذي يقتضيه كلام الأكثرين، وحذف الموصول في مثل ذلك شائع، ولا مانع من إدخال النظر إلى وجهه تعالى الكريم فيما تلذ الأعين على ما ذكرناه أولاً، و «أل» في الأنفس والأعين للاستغراق على ما قيل، ولا فرق بين جمع القلة والكثرة.

ولعل من يقول: بأن استغراق المفرد أشمل من استغراق الجمع ويفرق بين الجمعين في المبدأ والمنتهى يقول: بأن استغراق جمع القلة أشمل من استغراق جمع الكثرة، وقيل: هي للعهد، وقيل: عوض عن المضاف إليه أي ما

تشتهيه أنفسهم وتلذ أعينهم، وجمع النفس والعين الباصرة على أفعل في كلامهم أكثر من جمعهما على غيره بل ليس في القرآن الكريم جمع الباصرة إلا على ذلك، وما أنسب هذا الجمع هنا لمكان ﴿الأخلاء﴾ وحمل ما تشتهيه النفس على المنكح والملبس وما يتصل بهما خلاف الظاهر.

وفي الأخبار أيضاً ما هو ظاهر في العموم، أخرج ابن أبي شيبة والترمذي وابن مردويه عن بريدة قال: «جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: هل في الجنة خيل فإنها تعجبني؟ قال: إن أحببت ذلك أتيت بفرس من ياقوتة حمراء فتطير بك في الجنة حيث شئت، فقال له رجل: إن الإبل تعجبني فهل في الجنة من إبل؟ فقال: يا عبد الله إن أدخلت الجنة فلك فيها ما تشتهي نفسك ولذت عينك».

وأخرج أيضاً نحوه عن عبد الرحمن بن سابط وقال: هو أصح من الأول، وجاء نحوه أيضاً في روايات أخر فلا يضره ما قيل من ضعف إسناده، ولا يشكل على العموم أن اللواطة[1] مثلاً لا تكون في الجنة لأن ما لا يليق أن يكون فيها لا يشتهى بل قيل في خصوص اللواطة أنه لا يشتهيها في الدنيا الأنفس السليمة.

واختلف الناس هل يكون في الجنة حمل أم لا فذهب بعض إلى الأول، فقد أخرج الإمام أحمد وهناد والدارمي وعبد بن حميد وابن ماجه وابن حبان والترمذي وحسنه وابن المنذر والبيهقي في البعث عن أبي سعيد الخدري قال: «قلنا يا رسول الله إن الولد من قرة العين وتمام السرور فهل يولد لأهل الجنة؟ فقال عليه الصلاة والسلام: إن المؤمن إذا اشتهى الولد في الجنة كان حمله ووضعه وسنه في ساعة كما يشتهي»

وذهب طاوس وإبراهيم النخعي ومجاهد وعطاء وإسحاق بن إبراهيم إلى الثاني. فقد روي عن أبي رزين العقيلي عن النبي ﷺ قال: «إن أهل الجنة لا يكون لهم ولد» وفي حديث لقيط الطويل الذي رواه عبد الله ابن الإمام أحمد وأبو بكر بن عمرو وأبو أحمد محمد بن أحمد بن إبراهيم والطبراني وابن حبان ومحمد بن إسحاق ابن منده وابن مردويه وأبو نعيم وجماعة من الحفاظ وتلقاه الأئمة بالقبول وقال فيه ابن منده: لا ينكر هذا الحديث إلا جاحد أو جاهل أو مخالف للكتاب والسنة قلت: «يا رسول الله أو لنا فيها ـ يعني الجنةـ أزواج أو منهن مصلحات؟ قال: المصلحات للمصلحين تلذذونهن ويلذذنكم مثل لذاتكم في الدنيا غير أن لا توالد».

وقال مجاهد وعطاء قوله تعالى: ﴿ولهم فيها أزواج مطهرة﴾ [البقرة: ٢٥، النساء: ٥٧] أي مطهرة من الولد والحيض والغائط والبول ونحوها، وقال إسحاق بن إبراهيم في حديث أبي سعيد السابق: إنه على معنى إذا اشتهى المؤمن الولد في الجنة كان حمله ووضعه وسنه في ساعة كما يشتهي ولكن لا يشتهي، وتعقب بأن ﴿إذا﴾ لمتحقق الوقوع ولو أريد ما ذكر لقيل: لو اشتهى، وفي حادي الأرواح إسناد حديث أبي سعيد على شرط الصحيح فرجاله يحتج بهم فيه ولكنه غريب جداً.

وقال السفاريني في البحور الزاخرة: حديث أبي سعيد أجود أسانيده إسناد الترمذي وقد حكم عليه بالغرابة وأنه لا يعرف إلا من حديث أبي الصديق التاجي وقد اضطرب لفظه فتارة يروى عنه إذا اشتهى الولد وتارة أنه يشتهي الولد وتارة أن الرجل ليولد له، وإذا قد تستعمل لمجرد التعليق الأعم من المحقق وغيره، ورجح القول بعدم الولادة بعشرة وجوه مذكورة فيها، وأنا أختار القول بالولادة كما نطق بها حديث أبي سعيد وقد قال فيه الأستاذ أبو

---

(١) وقيل: إن أهل الجنة لا أدبار لهم ا هـ منه.

سهل فيما نقله الحاكم: إنه لا ينكره إلا أهل الزيغ، وفيه غير إسناد، وليس تكون الولد على الوجه المعهود في الدنيا بل يكون كما نطق به الحديث ومتى كان كذلك فلا يستبعد تكونه من نسيم يخرج وقت الجماع، وزعم أن الولد إنما يخلق من المني فحيث لا مني في الجنة كما جاء في الأخبار لا خلق فيه تعجيز للقدرة، ولا ينافي ذلك ما في حديث لقيط لأن المراد هناك نفي التوالد المعهود في الدنيا كما يشير إليه وقوع غير أن لا توالد بعد قوله عليه الصلاة والسلام: مثل لذاتكم في الدنيا، ويقال نحو ذلك في حديث أبي رزين جمعاً بين الأخبار، ثم إن التوالد ليس على سبيل الاستمرار بل هو تابع للاشتهاء ولا يلزم استمراره فالقول بأنه إن استمر لزم وجود أشخاص لا نهاية لها وإن انقطع لزم انقطاع نوع من لذة أهل الجنة ليس بشيء، وما قيل: إنه قد ثبت في الصحيح أنه ﷺ قال: «يبقى في الجنة فضل فينشىء الله تعالى لها خلقاً يسكنهم إياها» ولو كان في الجنة إيلاد لكان الفضل لأولادهم الملازمة فيه ممنوعة لجواز أن يقال من يشتهي الولد يشتهي أن يكون معه في منزله، والقول بأن التوالد في الدنيا لحكمة بقاء النوع وهو باق في الجنة بدون توالد فيكون عبثاً يرد عليه أنه ما المانع من أن يكون هناك للذة ونحوها كالأكل والشرب فإنهما في الدنيا لشيء وفي الجنة لشيء آخر، وبالجملة ما ذكر لترجيح عدم الولادة من الوجوه مما لا يخفى حاله على من له ذهن وجيه.

وقرأ غير واحد من السبعة وغيرهم «ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين» بحذف الضمير العائد على ﴿ما﴾ من الجملتين المتعاطفتين، وفي مصحف عبد الله «ما تشتهيه الأنفس وتلذه الأعين» بالضمير فيهما، والقراءة به في الأول دون الثانية لأبي جعفر وشيبة ونافع وابن عامر وحفص ﴿وَأَنتُمْ فِيهَا﴾ أي في الجنة، وقيل: في الملاذ المفهومة مما تقدم وهو كما ترى ﴿خَالِدُونَ﴾ دائمون أبد الآبدين، والجملة داخلة في حيز النداء وهي كالتأكيد لقوله تعالى: ﴿لا خوف عليكم﴾ ونودوا بذلك إتماماً للنعمة وإكمالاً للسرور فإن كل نعيم زائل موجب لكلفة الحفظ وخوف الزوال ومستعقب للتحسر في ثاني الأحوال، ولله تعالى در القائل:

وإذا نظرت فإن بؤساً زائلاً ... للمرء خير من نعيم زائل

وعن النصر أباذي أنه إن كان خلودهم لشهوة الأنفس ولذة الأعين فالفناء خير من ذلك وإن كان لفناء الأوصاف والاتصاف بصفات الحق والمقام فيها على سرر الرضا والمشاهدة فانتم إذاً انتم، وأنت تعلم أن ما ذكره يدخل في عموم ما تقدم دخولاً أولياً، وذكر بعضهم هنا أن الخطاب هنا من باب الالتفات وأنه للتشريف.

وقال الطيبي: ذق مع طبعك المستقيم معنى الخطاب والالتفات وتقديم الظرف في ﴿وأنتم فيها خالدون﴾ لتقف على ما لا يكتنهه الوصف ﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ﴾ مبتدأ وخبر وقوله تعالى: ﴿الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا﴾ صفة الجنة وقوله سبحانه ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ متعلق بأورثتموها، وقيل: ﴿تلك الجنة﴾ مبتدأ وصفة و ﴿التي أورثتموها﴾ الخبر والجار بعده متعلق به، وقيل: تلك مبتدأ والجنة صفتها والتي أورثتموها صفة الجنة وبما كنتم متعلق بمحذوف هو الخبر.

والإشارة على الوجه الأول إلى الجنة المذكورة في قوله تعالى: ﴿ادخلوا الجنة﴾ وعلى الأخيرين إلى الجنة الواقعة صفة على ما قيل، والباء للسببية أو للمقابلة، وقد شبه ما استحقوه بأعمالهم الحسنة من الجنة ونعيمها الباقي لهم بما يخلفه المرء لوارثه من الأملاك والأرزاق ويلزمه تشبيه العمل نفسه بالمورث اسم فاعل فاستعير الميراث لما استحقوه ثم اشتق أورثتموها فيكون هناك استعارة تبعية، وقال بعض: الاستعارة تمثيلية.

وجوز أن تكون مكنية، وقيل: الإرث مجاز مرسل للنيل والأخذ، وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «ما من أحد إلا وله منزل في الجنة ومنزل في النار فالكافر يرث المؤمن منزله في النار والمؤمن

يرث الكافر منزله في الجنة وذلك قوله تعالى: ﴿وتلك الجنة التي أورثتموها بما كنتم تعملون﴾ ولا يخلو الكلام عن مجاز عليه أيضاً، وأيّاً ما كان فسببية العمل لإيراث الجنة ونيلها ليس إلا بفضل الله تعالى ورحمته عزَّ وجلَّ، والمراد بقوله ﷺ: «لن يدخل أحدكم الجنة عمله» ففي إدخال العمل الجنة على سبيل الاستقلال والسببية التامة فلا تعارض.

وأخرج هناد. وعبد بن حميد في الزهد عن ابن مسعود قال: تجوزون الصراط بعفو الله تعالى وتدخلون الجنة برحمة الله تعالى وتقتسمون المنازل بأعمالكم فتأمل. وقرىء «ورثتموها» ﴿لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ﴾ بحسب الأنواع والأصناف لا بحسب الأفراد فقط ﴿مِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ أي لا تأكلون إلا بعضها وأعقابها باقية في أشجارها فهي مزينة بالثمار أبداً موقرة بها لا ترى شجرة عريانة من ثمرها كما في الدنيا، وفي الحديث «لا ينزع رجل في الجنة من ثمرها إلا نبت مكانها مثلاها» فمن تبعيضية وجوز كونها ابتدائية، والتقديم للحصر الإضافي وقيل لرعاية الفاصلة.

ولعل تكرير ذكر المطاعم في القرآن العظيم مع أنها كلا شيء بالنسبة إلى سائر أنواع نعيم الجنة لما كان بأكثرهم في الدنيا من الشدة والفاقة فهو تسلية لهم، وقيل: إن ذلك لكون أكثر المخاطبين عواما نظرهم مقصور على الأكل والشرب. وتعقب بأنه غير تام للصوفية، كلام سيأتي في مواضع إن شاء الله عزَّ وجلَّ ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ﴾ أي الراسخين في الإجرام الكاملين فيه وهم الكفار فكأنه قيل: إن الكفار ﴿فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾ وأيد إرادة ذلك بجعلهم قسيم المؤمنين بالآيات في قوله تعالى: ﴿الذين آمنوا بآياتنا﴾ [الزخرف: ٦٩] فلا تدل الآية على خلود عصاة المؤمنين كما ذهب إليه المعتزلة والخوارج، ولا يضر عدم التعرض لبيان حكمهم بناء على أن المراد بالذين آمنوا المتقون لقوله تعالى: ﴿يا عباد لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون﴾ [الزخرف: ٦٨] والقول بأن الذين آمنوا شامل لهم لأن العلة إيمانهم وإسلامهم لا يخفى ما فيه. والظرف متعلق بخالدون وخالدون خبر إن، وجوز أن يكون الظرف هو الخبر وخالدون فاعله لاعتماده ﴿لاَ يُفَتَّرُ عَنْهُمْ﴾ أي لا يخفف عنهم من فترت عنه الحمى إذا سكنت قليلاً، والمادة بأي صيغة كانت تدل على الضعف مطلقاً ﴿وَهُمْ فِيهِ﴾ أي في العذاب، وقرأ عبد الله «فِيهَا» أي في جهنم ﴿مُبْلِسُونَ﴾ حزينون من شدة البأس، قال الراغب: الابلاس الحزن المعترض من شدة البأس ومنه اشتق إبليس فيما قيل.

ولما كان المبلس كثيراً ما يلزم السكوت وينسى ما يعنيه قيل أبلس فلان إذا سكت وانقطعت حجته انتهى، وقد فسر الابلاس هنا بالسكوت وانقطاع الحجة ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ﴾ لسوء اختيارهم، و ﴿هم﴾ ضمير فصل فيفيد التخصيص، وقرأ عبد الله. وأبو زيد «الظَّالِمُونَ» بالرفع على أن هم مبتدأ وهو خبره، وذكر أبو عمر الجرمي أن لغة تميم جعل ما هو فصل عند غيرهم مبتدأ ويرفعون ما بعده على الخبر، وقال أبو زيد: سمعتهم يقرؤون «تجدوه عند الله هو خير وأعظم»[1] برفع خير وأعظم، وقال قيس بن ذريح:

تحن إلى ليلى وأنت تركتها ... وكنت عليها بالملا أنت أقدر

وقال سيبويه: بلغنا أن رؤبة كان يقول أظن زيداً هو خير منك يعني بالرفع ﴿وَنَادَوْا﴾ أي من شدة العذاب.

وفي بعض الآثار يلقى على أهل النار الجوع حتى يعدل ما هم فيه من العذاب فيقولون: ادعوا مالكاً فيدعون ﴿يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ أي ليمتنا من قضى عليه إذا أماته، ومرادهم سل ربك أن يقضي علينا حتى نستريح، واضافتهم الرب إلى ضميره لحثه لا للإنكار، وهذا لا ينافي الابلاس على التفسير الأول لأنه صراخ وتمني للموت من فرط الشدة، وأما على التفسير الثاني أنه وإن نفاه لكن زمان كل غير زمان الآخر فإن أزمنة العذاب متطاولة وأحقابه

---

(١) سورة المزمل، الآية:٢٠.

ممتدة فتختلف بهم الأحوال فيسكتون أوقاتاً لغلبة اليأس عليهم وعلمهم أنه لا خلاص لهم ولو بالموت ويغوثون أوقاتاً لشدة ما بهم. وتعقب بأنه لا يناسب دوام الجملة الاسمية أعني وهم مبلسون وقيل إن نادوا معطوف بالواو وهي لا تقتضي ترتيباً، ولا يخفى أن تلك الجملة حالية لا تنفك عن الخلود.

وقرأ علي كرم الله تعالى وجهه وابن مسعود وابن وثاب والأعمش «يا مال» بالترخيم على لغة من ينتظر وقرأ أبو السوار «يا مال» بالترخيم أيضاً لكن على لغة من لم ينتظر.

قال ابن جني: وللترخيم في هذا الموضع سر وذلك أنهم لعظم ما هم فيه ضعفت قواهم وذلت أنفسهم فكان هذا من موضع الاختصار ضرورة وبهذا يجاب عن قول ابن عباس وقد حكيت له القراءة به على اللغة الأولى: ما أشغل أهل النار عن الترخيم مشيراً بذلك إلى إنكارها فإن ما للتعجب وفيها معنى الصد يعني أنهم في حالة تشغلهم عن الالتفات إلى الترخيم وترك النداء على الوجه الأكثر في الاستعمال، وحاصل الجواب أن هذا الترخيم لم يصدر عنهم لقصد التصرف في الكلام والتفنن فيه كما في قوله:

يحيي رفات العظام بالية ... والحق يا مال غير ما تصف

بل للعجز وضيق المجال عن الاتمام كما يشاهد في بعض المكروبين ﴿قَالَ﴾ أي مالك ﴿إِنَّكُم مَّاكِثُونَ﴾ مقيمون في العذاب أبداً لا خلاص لكم منه بموت ولا غيره، وهذا تقنيط ونكاية لهم فوق ما هم فيه ولا يضر في ذلك علمه بيأسهم إن قلنا به.

وذكر بعض الأجلة أن فيه استهزاء لأنه أقام المكث مقام الخلود والمكث يشعر بالانقطاع لأنه كما قال الراغب ثبات مع انتظار، ويمكن أن يكون وجه الاستهزاء التعبير بماكثون من حيث إنه يشعر بالاختيار وإجابتهم بذلك بعد مدة.

قال ابن عباس يجيبهم بعد مضي ألف سنة، وقال نوف: بعد مائة، وقيل ثمانين، وقيل أربعين.

﴿لَقَدْ جِئْنَاكُم بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾ خطاب توبيخ وتقريع من جهته تعالى مقرر لجواب مالك ومبين لسبب مكثهم، ولا مانع من خطاب سبحانه الكفرة تقريعاً لهم، وقيل: هو من كلام بعض الملائكة عليهم السلام وهو كما يقول أحد خدم الملك للرعية أعلمناكم وفعلنا بكم قيل لا يجوز أن يكون من قول مالك لا لأن ضمير الجمع ينافيه بل لأن مالكاً لا يصح منه أن يقوله لأنه لا خدمة له غير خزنه للنار.

وفيه بحث، وقيل: في ﴿قال﴾ ضميره تعالى فالكل مقوله عزَّ وجلَّ، وقيل: إن قوله تعالى ﴿إنكم ماكثون﴾ خاتمة حال الفريقين، وقوله سبحانه لقد الخ كلام آخر مع قريش والمراد عليه جئناكم في هذه السورة أو القرآن بالحق، وعلى ما تقدم لقد جئناكم في الدنيا بالحق وهو التوحيد وسائر ما يجب الإيمان به وذلك بإرسال الرسل وإنزال الكتب ولكن أكثركم للحق أي حق كان كارهون لا يقبلونه وينفرون منه وفسر الحق بذلك دون الحق المعهود سواء كان الخطاب لأهل النار أو لقريش لمكان ﴿أكثركم﴾ فإن الحق المعهود كلهم كارهون له مشمئزون منه، وقد يقال: الظاهر العهد وعبر بالأكثر لأن من الأتباع من يكفر تقليداً. وقرىء «لقد جئتكم» وقوله تعالى: ﴿أَمْ أَبْرَمُوا أَمْراً﴾ كلام مبتدأ ناع على المشركين ما فعلوا من الكيد برسول الله ﷺ، و ﴿أم﴾ منقطعة وما فيها معنى بل للانتقال من توبيخ أهل النار إلى حكاية جناية هؤلاء والهمزة للانكار فإن أريد بالإبرام الأحكام حقيقة فهي لإنكار الوقوع واستبعاده، وإن أريد الأحكام صورة فهي لإنكار الواقع واستقباحه أي بل أبرم مشركو مكة أمراً من كيدهم ومكرهم برسول الله ﷺ ﴿فَإِنَّا مُبْرِمُونَ﴾ كيدنا حقيقة لا هم أو فانا مبرمون كيدنا بهم حقيقة كما أبرموا كيدهم صورة كقوله تعالى ﴿أم

يريدون كيداً فالذين كفروا هم المكيدون﴾ [الطور: ٤٢] والآية إشارة إلى ما كان منهم من تدبير قتله عليه الصلاة والسلام في دار الندوة وإلى ما كان منه عزَّ وجلَّ من تدميرهم، وقيل: هو من تتمة الكلام السابق، والمعنى أم أبرموا في تكذيب الحق ورده ولم يقتصروا على كراهته فإنّا مبرمون أمراً في مجازاتهم، فإن كان ذاك خطاباً لأهل النار فإبرام الأمر في مجازاتهم هو تخليدهم في النار معذبين، وإن كان خطابا لقريش فهو خذلانهم ونصر النبي ﷺ عليهم فكأنه قيل: فإنا مبرمون أمراً في مجازاتهم وإظهار أمرك، وفيه إشارة إلى أن إبرامهم لا يفيدهم، ولا يغني عنهم شيئاً والعدول عن الخطاب في أكثركم إلى الغيبة في أبرموا على هذا القيل للإشعار بأن ذلك أسوأ من كراهتهم ويؤيده ما ذكر أولاً على ما قيل قوله تعالى:

﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لاَ نَسْمَعُ سِرَّهُمْ﴾ لأنه يدل على أن ما أبرموه كان أمراً قد أخفوه فيناسب الكيد دون تكذيب الحق لأن الكفرة مجاهرون فيه والمراد بالسر هنا حديث النفس أي بل أيحسبون أنا لا نسمع حديث أنفسهم بذلك الكيد ﴿وَنَجْوَاهُمْ﴾ أي تناجيهم وتحادثهم سراً.

وقال غير واحد: السر ما حدثوا به أنفسهم أو غيرهم في مكان خال والنجوى ما تكلموا به فيما بينهم بطريق التناجي ﴿بَلَىٰ﴾ نسمعهما ونطلع عليهما ﴿وَرُسُلُنَا﴾ الذي يحفظون عليهم أعمالهم ﴿لَدَيْهِمْ﴾ ملازمون لهم ﴿يَكْتُبُونَ﴾ أي يكتبونهما أو يكتبون كل ما صدر عنهم من الأفعال والأقوال التي من جملتها ما ذكر.

والمضارع للاستمرار التجددي، وهو مع فاعله خبر و ﴿لديهم﴾ حال قدم للفاصلة أو خبر أيضاً وجملة المبتدأ والخبر إما عطف على ما يترجم عنه بل أو حال أي نسمع ذلك والحال أن رسلنا يكتبونه، وإذا كان المراد بالسر حديث النفس فالآية ظاهرة في أن السر والكلام المخيل مسموع له تعالى، وكذا هي ظاهرة في أن الحفظة تكتبه كغيره من أقوالهم وأفعالهم الظاهرة، ولا يبعد ذلك بأن يطلعهم الله تعالى عليه بطريق من طرق الاطلاع فيكتبوه.

ومن خص كتابهم بالأمور الغير القلبية خص السر بما حدث به الغير في مكان خال؛ والظاهر أن حسبانهم ذلك حقيقة ولا يستبعد من الكفرة الجهلة، فقد أخرج ابن جرير عن محمد بن كعب القرظي قال: بينا ثلاثة عند الكعبة وأستارها قرشيان وثقفي أو ثقفيان وقرشي فقال واحد منهم ترون الله تعالى يسمع كلامنا فقال واحد: إذا جهرتم وإذا أسررتم لم يسمع فنزلت ﴿أم يحسبون﴾ الآية.

وقيل: إنهم نزلوا في إقدامهم على الباطل وعدم خوفهم من الله عزَّ وجلَّ منزلة من يحسب أن الله سبحانه لا يسمع سره ونجواه ﴿قُلْ﴾ أي للكفرة تحقيقاً للحق وتنبيهاً لهم على أن مخالفتك لهم بعدم عبادتك ما يعبدون من الملائكة عليهم السلام ليس لبغضك وعداوتك لهم أو لمعبوديهم بل إنما هو لجزمك باستحالة ما نسبوا إليهم وبنوا عليه عبادتهم من كونهم بنات الله سبحانه وتعالى ﴿إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ أي لذلك الولد وكان بمعنى صح كما يقال ما كان لك أن تفعل كذا وهو أحد استعمالاتها، و «أول» أفعل تفضيل والمفضل عليه المقول لهم، وجوز اعتبار ذلك مطلقاً، والمراد إظهار الرغبة والمسارعة، والمنساق إلى الذهن الأول.

ووجه الملازمة أنه عليه الصلاة والسلام أعلم الناس بشؤونه تعالى وبما يجوز عليه وبما لا يجوز أحرصهم على مراعاة حقوقه وما توجبه من تعظيم ولده سبحانه فإن حق الوالد على شخص يوجب عليه تعظيم ولده لما أن تعظيم الولد تعظيم الوالد. فالمعنى إن كان للرحمن ولد وصح ذلك وثبت ببرهان صحيح توردونه وحجة واضحة تدلون بها فأنا أول من يعظم ذلك الولد وأسبقكم إلى طاعته والانقياد له كما يعظم الرجل ولد الملك لعظم أبيه، وهذا نفي

لكينونة ولد له سبحانه على أبلغ وجه وهو الطريق البرهاني والمذهب الكلامي، فإنه في الحقيقة قياس استثنائي استدل فيه بنفي اللازم البين انتفاؤه وهو عبادته ﷺ للولد على نفي الملزوم وهو كينونة الولد له سبحانه، وذلك نظير قوله تعالى: ﴿لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا﴾ [الأنبياء: ٢٢] لكنه جيء بأن دون لو لجعل ما في حيزها بمنزلة ما لا قطع بعدمه على طريق المساهلة وارخاء العنان للتبكيت والإفحام.

وفي الكشف أن في الآية مبالغة من حيث إنه جعل الممكن في نفسه أعني عبادته عليه الصلاة والسلام لما يدعونه ولداً محالاً فهو نفي لعبادة الولد على أبلغ وجه حيث جعل مسبباً عن محال ثم نفى للولد كذلك من طريق آخر وهو أنه لما لم يعبد ﷺ الولد مع كونه أولى بعبادته لو كان دل على نفيه، ونحوها ذكر في الآية مروياً عن قتادة والسدي والطبري.

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد أن المعنى قل إن كان للرحمن ولد في زعمكم فأنا أول من عبد الله تعالى وحده وكذبكم بما تقولون فالمراد من كونه عليه الصلاة والسلام أول العابدين كونه ﷺ أول من ينكر ذلك عليهم، والملازمة في الشرطية باعتبار أن نسبتهم الولد له تعالى تقتضي أن يكذبهم النبي ﷺ وأن يكون أول من ينكره لأنه صاحب الدعوة إلى التوحيد، وقد خفي ذلك على الإمام فنفى صحة هذا الوجه، وتكلف بعضهم فقال: إن تسبب الجزاء عن الشرط عليه باعتبار الأولية في العبادة والتوحيد من بينهم فإنهم إذا أطبقوا على ذلك الزعم يكون النبي ﷺ أولهم في عبادة الله تعالى وحده لا محالة، وقيل: إن السببية باعتبار الأخبار والذكر نحو إن تضربني فأنا لا أضربك وهو أولى مما قبله، والإنصاف أن الارتباط خفي لا يظهر إلا لمجاهد، وحكى أبو حاتم عن جماعة ولم يسم أحداً منهم أن ﴿العابدين﴾ من عبد يعبد كفرح يفرح إذا أنف من الشيء، ومنه قوله:

وأعبد أن أهجو كليباً بدارم

وقول الآخر:

متى ما يشأ ذو الود يصرم خليله ... ويعبد عليه لا محالة ظالما

أي إن كان للرحمن ولد فأنا أول الآنفين من الولد أو من كونه لله سبحانه ونسبته له عزَّ وجلَّ. وروي نحو هذا عن ابن عباس أخرج الطستي عنه أن نافع بن الأزرق قال له: أخبرني عن قوله تعالى: ﴿فأنا أول العابدين﴾ فقال: أنا أول من ينفر عن أن يكون لله تعالى ولد، وأيد ذلك بقراءة السلمي واليماني «العبدين» جمع عبد كحذر وحذرين وهو للمعروف في معنى أنف وقلما يقال فيه عابد، ومن هنا ضعف ابن عرفة هذا الوجه لما فيه من استعمال ما قل استعماله في كلامهم، وذكر الخليل في كتاب العين أنه قرىء «العَبْدين» بسكون الباء تخفيفي العبدين بكسرها، وقال أبو حاتم: العبد بكسر الباء الشديد الغضب، وقال أبو عبيدة: العرب تقول عبدني حقي أي جحدني، وروي عن الحسن وابن زيد وزهير بن محمد وهو رواية عن ابن عباس وقتادة والسدي أيضاً أن ﴿إن﴾ نافية أي ما كان للرحمن ولد فانا أول من قال ذلك وعبد ووحد، و﴿كان﴾ عليه للاستمرار والمقصود استمرار النفي لا نفي الاستمرار والفاء للسببية. وتعقب بأنه خلاف الظاهر مع خفاء وجه السببية أو حسنها، وزعم مكي أنه لا يجوز لإيهامه نفي الولد فيما مضى وهو كما ترى.

وقرأ عبد الله وابن وثاب وطلحة والأعمش وحمزة والكسائي كما قال القاضي «وُلْدٌ» بضم الواو وسكون اللام جمع ولد بفتحهما.

﴿سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ أي عن وصفهم أو الذي يصفونه به من كونه سبحانه له ولد، وفي إضافة اسم الرب إلى أعظم الأجرام وأقواها تنبيه على أنها وما فيها من المخلوقات حيث كانت

تحت ملكوته تعالى وربوبيته عزَّ وجلَّ كيف يتوهم أن يكون شيء منها جزءاً منه سبحانه وهو ينافي وجوب الوجود، وفي تكرير ذلك الاسم الجليل تفخيم لشأن العرش ﴿فَذَرْهُمْ﴾ فدعهم غير ملتفت إليهم حيث لم يذعنوا للحق بعد ما سمعوا هذا البرهان الجلي ﴿يَخُوضُوا﴾ في أباطيلهم ﴿وَيَلْعَبُوا﴾ في دنياهم فإن ما هم فيه من الأقوال والأفعال ليس إلا من باب الجهل، والجزم لجواب الأمر ﴿حَتَّى يُلاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾ وهو يوم القيامة عند الأكثرين، وعن عكرمة. وجماعة أنه يوم بدر وقد وعدوا الهلاك فيه، وقريب منه تفسيره بيوم الموت، وقيل: ينبغي تفسيره به دون يوم القيامة لأن الغاية للخوض واللعب إنما هو يوم الموت لانقطاعهما بالموت، وانتصر للأكثرين بأن يوم القيامة هو اليوم الموعود وبه سمي في لسان الشرع وتفسيره بذاك مخالف لمعروف ولما بعد من ذكر الساعة، وما ذكر من أمر الانقطاع مدفوع بأن الموت وما بعده في حكم القيامة ولذا ورد من مات فقد قامت قيامته ومثله قد يراد به الدلالة على طول المدة مع قطع النظر عن الانتهاء فيقال: لا يزال في ضلالة إلى أن تقوم القيامة.

وقرأ أبو جعفر وابن محيصن وعبيد بن عقيل عن أبي عمرو «يَلْقُوا» مضارع لقي، والآية قيل منسوخة بآية السيف ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الأَرْضِ إِلَهٌ﴾ الظرفان متعلقان بإله لأنه صفة بمعنى معبود من أله بمعنى عبد وهو خبر مبتدأ محذوف أي هو إله وذلك عائد الموصول وحذف لطول الصلة بمتعلق الخبر والعطف عليه.

وقال غير واحد: الجار متعلق بإله باعتبار ما ينبىء عنه من معنى المعبودية بالحق بناء على اختصاصه بالمعبود بالحق وهذا كتعلق الجار بالعلم المشتهر بصفة نحو قولك: هو حاتم في طيء حاتم في تغلب، وعلى هذا تخرج قراءة عمر وعلي وعبد الله وأبي والحكم بن أبي العالي وبلال بن أبي بردة وابن يعمر وجابر وابن زيد وعمر بن عبد العزيز وأبو شيخ الهنائي وحميد وابن مقسم وابن السميفع «وهو الذي في السماء الله وفي الأرض الله» فيعلق الجار بالاسم الجليل باعتبار الوصف المشتهر به، واعتبر بعضهم معنى الاستحقاق للعبادة وعلل ذلك بأن العبادة بالفعل لا تلزم، وجوز كون الجار والمجرور صلة الموصول، و «إله» خبر مبتدأ محذوف أيضاً على أن الجملة بيان للصلة وأن كونه سبحانه في السماء على سبيل الإلهية لا على معنى الاستقرار.

واختير كون ﴿إله﴾ في هذا الوجه خبر مبتدأ محذوف على كونه خبراً آخر للمبتدأ المذكور أو بدلاً من الموصول أو من ضميره بناء على تجويزه لأن إبدال النكرة الغير الموصوفة من المعرفة إذا أفادت ما لم يستفد أولاً كما هنا جائز حسن على ما قال أبو علي في الحجة لأن البيان ههنا أتم وأهم فلذا رجح مع ما فيه من التقدير وحينئذ فلا فاصل أجنبي بين المتعاطفين، ولا يجوز كون الجار والمجرور خبر مقدماً وإله مبتدأ مؤخراً للزوم خلو الجملة عن العائد مع فساد المعنى، وفي الآية نفي الآلهة السماوية والأرضية واختصاص الإلهية به عزَّ وجلَّ لما فيها من تعريف طرفي الإسناد. والموصول في مثل ذلك كالمعرف بالأداة وللاعتناء بكل من إلهيته تعالى في السماء وإلهيته عزَّ وجلَّ في الأرض قيل ﴿وهو الذي في السماء إله وفي الأرض إله﴾ ولم يقل: وهو الذي في السماء وفي الأرض إله أو هو الذي في السماء والأرض إله، وحديث الإعادة قيل مما لا يجري ها هنا لأن القاعدة أغلبية كأكثر قواعد العربية.

وقال بعض الأفاضل: يجوز إجراء القاعدة فيه والمغايرة بين الشيئين أعم من أن تكون بالذات أو بالوصف والاعتبار والمراد هنا الثاني ولا شك أن طريق عبادة أهل السماء له تعالى غير طريق عبادة أهل الأرض على ما يشهد به تتبع الآثار فإذا كان إله بمعنى معبود كان معنى الآية أنه تعالى معبود في السماء على وجه ومعبود في الأرض على وجه آخر، وإن كان بمعنى التحير فيه فالتحير في أهل السماء غير التحير في أهل الأرض فلا جرم تكون أطوارهم مخالفة لأطوار أهل الأرض، ومن ذلك اختلاف علومهم فإن علوم أهل الأرض إن كانت ضرورية فأكثرها مستندة إلى الحس وإن كانت نظرية كانت مكتسبة من النظر فإذا انسد طريق النظر والحس عجزوا وتحيروا ولا كذلك أهل السماء

لتنزههم عن الكسب والحس فتحيرهم على نحو آخر، أو نقول التحير في إدراك ذاته تعالى وصفاته إنما ينشأ من مشاهدة آثار عظمته وكمال قدرته سبحانه ولا شك أن تلك الآثار في السماء أعظم من الآثار في الأرض وعليه فيجوز أن يكون الإله بمعنى المتحير فيه ويكون مجازاً عن عظيم الشأن من باب ذكر اللازم وإرادة الملزوم فيكون المعنى أنه تعالى عظيم الشأن في السماء على نحو وعظيم الشأن في الأرض على نحو آخر ا هـ، ولا يخلو عن شيء كما لا يخفى ﴿وَهُوَ الحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾ كالدليل على النفي والاختصاص المشار إليهما فإن من لا يتصف بكمال الحكمة والعلم لا يستحق الإلهية.

﴿وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ كالهواء ومخلوقات الجو المشاهدة وغيرها ﴿وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ أي العلم بالساعة أي الزمان الذي تقوم القيامة فيه فالمصدر مضاف لمفعوله، والساعة بمعناها اللغوي وهو مقدار قليل من الزمان، ويجوز أن يراد بها معناها الشرعي وهو يوم القيامة، والمحذور مندفع بأدنى تأمل، وفي تقديم الخبر إشارة إلى استئثاره تعالى بعلم ذلك ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ للجزاء، والالتفات إلى الخطاب للتهديد، وقرأ الأكثر بياء الغيبة والفعل في القراءتين مبني للمفعول؛ وقرىء بفتح تاء الخطاب والبناء للفاعل، وقرىء «تحشرون» بتاء الخطاب أيضاً والبناء للمفعول ﴿وَلاَ يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ أي ولا يملك آلهتهم الذين يدعونهم ﴿مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ﴾ كما زعموا أنهم شفعاؤهم عند الله عزَّ وجلَّ، وقرىء «تدعون» بتاء الخطاب والتخفيف؛ والسلمي وابن وثاب بها وشد الدال ﴿إِلاَّ مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ﴾ الذي هو التوحيد ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أي يعلمونه، والجملة في موضع الحال، وقيد بها لأن الشهادة عن غير علم بالمشهود به لا يعول عليها، وجمع الضمير باعتبار معنى من كما أن الأفراد أولا باعتبار لفظه، والمراد به الملائكة وعيسى وعزير وأضرابهم صلاة الله تعالى وسلامه عليهم، والاستثناء قيل: متصل إن أريد بالذين يدعون من دونه كل ما يعبد من دون الله عزَّ وجلَّ ومنفصل إن أريد بذلك الأصنام فقط، وقيل: هو منفصل مطلقاً وعلل بأن المراد نفي ملك الآلهة الباطلة الشفاعة للكفرة ومن شهد بالحق منها لا يملك الشفاعة لهم أيضاً وإنما يملك الشفاعة للمؤمنين فكأنه قيل على تقدير التعميم: ولا يملك الذين يدعونهم من دون الله تعالى كائنين ما كانوا الشفاعة لهم لكن من شهد بالحق يملك الشفاعة لمن شاء الله سبحانه من المؤمنين؛ فالكلام نظير قولك: ما جاء القوم إلي إلا زيداً جاء إلى عمرو فتأمل.

وقال مجاهد وغيره: المراد بمن شهد بالحق المشفوع فيهم، وجعل الاستثناء عليه متصلاً والمستثنى منه محذوفاً كأنه قيل: ولا يملك هؤلاء الملائكة واضرابهم الشفاعة في أحد إلا فيمن وحد عن إيقان وإخلاص ومثله في حذف المستثنى منه قوله:

نجا سالم والنفس منه بشرقة ... ولم ينج إلا جفن سيف ومئزرا

أي واستدل بالآية على أن العلم مما لا بد منه في الشهادة دون المشاهدة.

﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ﴾ أي سألت العابدين أو المعبودين ﴿لَيَقُولُنَّ اللهُ﴾ لتعذر المكابرة في ذلك من فرط ظهوره ووجه قول المعبودين ذلك أظهر من أن يخفى ﴿فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ فكيف يصرفون عن عبادته تعالى إلى عبادة غيره سبحانه ويشركونه معه عزَّ وجلَّ مع إقرارهم بأنه تعالى خالقهم أو مع علمهم بإقرار آلهتهم بذلك، والفاء جزائية أي إذا كان الأمر كذلك فإني الخ، والمراد التعجب من إشراكهم مع ذلك، وقيل: المعنى فكيف يكذبون بعد علمهم بذلك فهو تعجب من عبادة غيره تعالى وإنكارهم للتوحيد مع أنه مركوز في فطرتهم، وأيًّا ما كان فهو متعلق بما قبله من التوحيد والإقرار بأنه تعالى هو الخالق، وأما كون المعنى فكيف أو أين يصرفون عن التصديق بالبعث مع أن الإعادة

أهون من الإبداء وجعله متعلقاً بأمر الساعة كما قيل فيأباه السياق.

وقرأ عبد الوارث عن أبي عمرو «تؤفكون» بتاء الخطاب ﴿وَقيله يَا رَبِّ إنَّ هَؤُلاَءِ قَوْمٌ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾ بحر «قيلة» وهي قراءة عاصم وحمزة والسلمي وابن وثاب. والأعمش.

وقرأ الأعرج وأبو قلابة ومجاهد والحسن وقتادة ومسلم بن جندب برفعه وهي قراءة شاذة.

وقرأ الجمهور بنصبه، واختلف في التخريج فقيل الجر على عطفه لفظ الساعة في قوله تعالى ﴿وعنده علم الساعة﴾ أي عنده علم قيله، والنصب على عطفه على محلها لأنها في محل نصب بعلم المضاف إليها فإنه كما قدمنا مصدر مضاف لمفعوله فكأنه قيل: يعلم الساعة ويعلم قيله، والرفع على عطفه على ﴿علم الساعة﴾ على حذف مضاف والأصل وعلم قيله فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه ونسب الوجه الأول لأبي علي والثالث لابن جني وجميع الأوجه للزجاج وضمير ﴿قيله﴾ عليها للرسول ﷺ المفهوم من قوله تعالى ﴿ولئن سألتهم﴾ والقيل والقال والقول مصادر جاءت بمعنى واحد، والمنادى وما في حيزه مقول القول، والكلام خارج مخرج التحسر والتحزن والتشكي من عدم إيمان أولئك القوم، وفي الإشارة إليهم بهؤلاء دون قوله قومي ونحوه تحقير لهم وتبرّ منهم لسوء حالهم، والمراد من أخباره تعالى بعلمه ذلك وعيده سبحانه إياهم، وقيل: الجر على إضمار حرف القسم والنصب على حذفه وإيصال فعله إليه محذوفاً والرفع على نحو لعمرك لأفعلن وإليه ذهب الزمخشري وجعل المقول يا رب وقوله سبحانه ﴿إن هؤلاء﴾ الخ جواب القسم على الأوجه الثلاثة وضمير ﴿قيله﴾ كما سبق، والكلام إخبار منه تعالى أنهم لا يؤمنون وإقسامه سبحانه عليه بقوله ﷺ: يا رب لرفع شأنه عليه الصلاة والسلام وتعظيم دعائه والتجائه إليه تعالى، والواو عنده للعطف أعني عطف الجملة القسمية على الجملة الشرطية لكن لما كان القسم بمنزلة الجملة الاعتراضية صارت الواو كالمضمحل عنها معنى العطف، وفيه أن الحذف الذي تضمنه تخريجه من ألفاظ شاع استعمالها في القسم كعمرك وايمن الله واضح الوجه على الأوجه الثلاثة، وأما في غيرها كالقيل هنا فلا يخلو عن ضعف، وقيل: الجر على أن الواو واو القسم والجواب محذوف أي لننصرنه أو لنفعلن بهم ما نشاء حكاه في البحر وهو كما ترى، وقيل: النصب على العطف على مفعول يكتبون المحذوف أي يكتبون أقوالهم وأفعالهم وقيله يا رب الخ وليس بشيء، وقيل: بشيء، هو على العطف على مفعول يعلمون أعني الحق أي يعلمون الحق وقيل الخ، وهو قول لا يكاد يعقل، وعن الأخفش أنه على العطف على ﴿سرهم ونجواهم﴾ ورد بأنه ليس بقوي في المعنى مع وقوع الفصل بما لا يحسن اعتراضاً ومع تنافر النظم. وتعقب أن ما ذكر من الفصل ظاهر وأما ضعف المعنى وتنافر النظم فغير مسلم لأن تقديره أم يحسبون أنا لا نسمع سرهم ونجواهم وأنا لا نسمع قيله الخ وهو منتظم أتم انتظام، وعنه أيضاً أنه على إضمار فعل من القيل ناصب له على المصدرية والتقدير قال قيله ويؤيده قراءة ابن مسعود «وقال الرسول» والجملة معطوفة على ما قبلها. ورد بأنه لا يظهر فيه ما يحسن عطفه على الجملة قبله وليس التأكيد بالمصدر في موقعه ولا ارتباط لقوله تعالى ﴿فاصفح﴾ به، وقال العلامة الطيبي في توجيهه: إن قوله تعالى: ﴿ولئن سألتهم﴾ تقديره وقلنا لك: ولئن سألتهم الخ وقلت: يا رب يأساً من إيمانهم وإنما جعل غائباً على طريق الالتفات لأنه كأنه ﷺ فاقد نفسه لتحزن عليهم حيث لم ينفع فيهم سعيه واحتشاده، وقيل: الواو على هذا الوجه للحال وقال بتقدير قد والجملة حالية أي فأنّى يؤفكون وقد قال الرسول يا رب الخ، وحاصله فأنّى يؤفكون وقد شكا الرسول عليه الصلاة والاسلام إصرارهم على الكفر وهو خلاف الظاهر، وقيل: الرفع على الابتداء والخبر يا رب إلى لا يؤمنون أو هو محذوف أي مسموع أو متقبل فجملة النداء وما بعده في موضع نصب بقيله والجملة حال أو معطوفة، ولا يخفى ما في ذلك، والأوجه عندي ما نسب إلى الزجاج،

والاعتراض عليه بالفصل هين، وبضعف المعنى والتنافر غير مسلم، ففي الكشف بعد ذكر تخريج الزجاج الجرأن الفاصل أعني من قوله تعالى: ﴿وإليه ترجعون ـ إلى ـ يؤفكون﴾ يصلح اعتراضاً لأن قوله سبحانه ﴿وعنده علم الساعة﴾ مرتبط بقوله تعالى: ﴿حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدون﴾ على ما لا يخفى، والكلام مسوق للوعيد البالغ بقوله تعالى: ﴿وإليه ترجعون﴾ إلى قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وهم يعلمون﴾ متصل بقوله تعالى: ﴿وعنده علم الساعة﴾ اتصال العصا بلحاها، وقوله تعالى: ﴿ولئن سألتهم﴾ خطاب لمن يتأتى منه السؤال تتميم لذلك الكلام باستحقاقهم ما أوعدوه لعنادهم البالغ، ومنه يظهر وقوع التعجب في قوله سبحانه ﴿فأنى يؤفكون﴾ وعلى هذا ظهر ارتباط وعلم قيله بقوله تعالى: ﴿وعنده علم الساعة﴾ وأن الفاضل متصل بهما اتصالاً يجل موقعه، ومن هذا التقرير يلوح أن ما ذهب إليه الزجاج في الأوجه الثلاثة حسن، ولك أن ترجحه على ما ذهب إليه الأخفش بتوافق القراءتين، وأن حمل ﴿ولئن سألتهم﴾ على الخطاب المتروك إلى غير معين أوفق بالمقام من حمله على خطابه عليه الصلاة والسلام وسلامته من إضمار القول قبل قوله تعالى: ﴿ولئن سألتهم﴾ مع أن السياق غير ظاهر الدلالة عليه ا هـ، وهو أحسن ما رأيته للمفسرين في هذا المقام.وقرأ أبو قلابة «يا ربَ» بفتح الباء ووجه ظاهر ﴿فَاصْفَحْ﴾ فأعرض ﴿عَنْهُمْ﴾ ولا تطمع في إيمانهم، وأصل الصفح ليّ صفحة العنق فكني به عن الإعراض.

﴿وَقُلْ﴾ لهم ﴿سَلاَمٌ﴾ أي امري سلام تسلم منكم ومتاركة فليس ذلك أمراً بالسلام عليهم والتحية وإنما هو أمر بالمتاركة، وحاصله إذا أبيتم القبول فأمري التسلم منكم، واستدل بعضهم بذلك على جواز السلام على الكفار وابتدائهم بالتحية، أخرج ابن أبي شيبة. عن شعيب بن الحبحاب قال: كنت مع علي بن عبد الله البارقي فمر علينا يهودي أو نصراني فسلم عليه قال شعيب: فقلت: إنه يهودي أو نصراني فقرأ علي آخر سورة الزخرف ﴿وقيله يا رب﴾ إلى الآخر، وأخرج ابن أبي شيبة أيضاً عن عون بن عبد الله أنه قال قلت لعمر بن عبد العزيز كيف تقول أنت في ابتداء أهل الذمة بالسلام؟ فقال: ما أرى بأسا أن نبتدئهم قلت لم؟ قال: لقوله تعالى: ﴿فاصفح عنهم وقل سلام﴾ ومما ذكرنا يعلم ضعفه، وقال السدي المعنى قل خيراً بدلا من شرهم، وقال مقاتل: اردد عليهم معروفاً، وحكى الماوردي أي قل ما تسلم به من شرهم والكل كما ترى والحق ما قدمنا ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ حالهم السيئة وإن تأخر ذلك وهو وعيد من الله سبحانه لهم وتسلية لرسوله ﷺ، وقرأ أبو جعفر والحسن والأعرج ونافع وهشام «تعلمون» بتاء الخطاب على أنه داخل في حيز ﴿قل﴾ وإن أريد من الآية الكف عن القتال فهي منسوخة وإن أريد الكف عن مقابلتهم بالكلام فليست بمنسوخة والله تعالى أعلم.

(٤٤) سورة الدخان مكية وآياتها تسع وخمسون

خمسون وتسع آيات مكية إلا قوله إنا كاشفوا العذاب

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ
﴿٣﴾ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٥﴾ رَحْمَةً
مِّن رَّبِّكَ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦﴾ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن
كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٧﴾ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ
﴿٨﴾ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ يَلْعَبُونَ ﴿٩﴾

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ حم ، والكتاب المبين ، إنا أنزلناه فى ليلة مباركة إنا كنا منذرين فيها يفرق كل أمر حكيم ، أمراً من عندنا إنا كنا مرسلين ، رحمة من ربك إنه هو السميع العليم ، رب السموات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين ، لا إله إلا هو يحيى ويميت ربكم ورب آباءكم الاولين ، بل هم فى شك يلعبون ﴾ ، وفى الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ فى قوله (حم ، والكتاب المبين) وجوه من الإحتمالات (أولها) أن يكون التقدير : هذه (حم ، والكتاب المبين) كقولك هذا زيد والله (وثانيها) أن يكون الكلام قد تم عند قوله (حم) ثم يقال (والكتاب المبين ، إنا أنزلناه) ، (وثالثها) أن يكون التقدير : وحم ، والكتاب المبين ، إنا أنزلناه ، فيكون ذلك فى التقدير قسمين على شىء واحد .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قالوا هذا يدل على حدوث القرآن لوجوه (الأول) أن قوله (حم) تقديره : هذه حم ، يعنى هذا شىء مؤلف من هذه الحروف ، والمؤلف من الحروف المتعاقبة محدث (الثانى) أنه ثبت أن الحلف لا يصح بهذه الأشياء بل بإله هذه الأشياء ، فيكون التقدير

ورب حم ورب الكتاب المبين ، وكل من كان مربوباً فهو محدث (الثالث) أنه وصفه بكونه كتاباً والكتاب مشتق من الجمع فمعناه أنه مجموع والمجموع محل تصرف الغير ، وما كان كذلك فهو محدث (الرابع) قوله (إنا أنزلناه) والمنزل محل تصرف الغير ، وما كان كذلك فهو محدث ، وقد ذكرنا مراراً أن جميع هذه الدلائل تدل على أن الشيء المركب من الحروف المتعاقبة والأصوات المتوالية محدث . والعلم بذلك ضروري بديهي ، لا ينازع فيه إلا من كان عديم العقل وكان غير عارف بمعنى القديم والمحدث . وإذا كان كذلك فكيف ينازع في صحة هذه الدلائل ، إنما الذي ثبت قدمه شيء آخر سوى ما تركب من هذه الحروف والأصوات .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ يجوز أن يكون المراد بالكتاب ههنا الكتب المتقدمة التي أنزلها الله على أنبيائه ، كما قال تعالى (لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان) ويجوز أن يكون المراد اللوح المحفوظ ، كما قال (يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب) وقال (وإنه في أم الكتاب لدينا) ويجوز أن يكون المراد به القرآن ، وبهذا التقدير فقد أقسم بالقرآن على أنه أنزل القرآن في ليلة مباركة ، وهذا النوع من الكلام يدل على غاية تعظيم القرآن ، فقد يقول الرجل إذا أراد تعظيم رجل له حاجة إليه : أستشفع بك إليك وأقسم بحقك عليك .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ (المبين) هو المشتمل على بيان ما بالناس حاجة إليه في دينهم ودنياهم ، فوصفه بكونه مبيناً ، وإن كانت حقيقة الإبانة لله تعالى ، لأجل أن الإبانة حصلت به ، كما قال تعالى (إن هذا القرآن يقص على بني إسرائيل) وقال في آية أخرى (نحن نقص عليك أحسن القصص) وقال (أم أنزلنا عليهم سلطاناً فهو يتكلم بما كانوا به يشركون) فوصفه بالتكلم إذ كان غاية في الإبانة ، فكأنه ذو لسان ينطق ، والمعنى فيه المبالغة في وصفه بهذا المعنى .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ اختلفوا في هذه الليلة المباركة ، فقال الأكثرون : إنها ليلة القدر ، وقال عكرمة وطائفة آخرون : إنها ليلة البراءة ، وهي ليلة النصف من شعبان (أما الأولون) فقد احتجوا على صحة قولهم بوجوه (أولها) أنه تعالى قال (إنا إنزلناه في ليلة القدر) وههنا قال (إنا أنزلناه في ليلة مباركة) فوجب أن تكون هذه الليلة المباركة هي تلك المسماة بليلة القدر ، لئلا يلزم التناقض (وثانيها) أنه تعالى قال (شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن) فبين أن إنزال القرآن إنما وقع في شهر رمضان ، وقال ههنا (إنا أنزلناه في ليلة مباركة) فوجب أن تكون هذه الليلة المباركة واقعة في شهر رمضان ، وكل من قال إن هذه الليلة المباركة واقعة في شهر رمضان ، قال إنها ليلة القدر ، فثبت أنها ليلة القدر (وثالثها) أنه تعالى قال في صفة ليلة القدر (تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر سلام هي) وقال أيضاً ههنا (فيها يفرق كل أمر حكيم) وهذا مناسب لقوله (تنزل الملائكة والروح فيها) وههنا قال (أمراً من عندنا) وقال في تلك الآية (بإذن ربهم من كل أمر) وقال ههنا (رحمة من ربك) وقال في تلك الآية (سلام هي) وإذا تقاربت الأوصاف

وجب القول بأن إحدى الليلتين هي الأخرى (ورابعها) نقل محمد بن جرير الطبري في تفسيره عن قتادة أنه قال : نزلت صحف إبراهيم في أول ليلة من رمضان ، والتوراة لست ليال منه ، والزبور لاثنتي عشرة ليلة مضت منه ، والإنجيل لثمان عشرة ليلة مضت منه ، والقرآن لأربع وعشرين ليلة مضت من رمضان ، والليلة المباركة هي ليلة القدر (وخامسها) أن ليلة القدر إنما سميت بهذا الاسم ، لأن قدرها وشرفها عندالله عظيم ، ومعلوم أنه ليس قدرهاوشرفها لسبب ذلك الزمان ، لأن الزمان شيء واحد في الذات والصفات ، فيمتنع كون بعضه أشرف من بعض لذاته ، فثبت أن شرفه وقدره بسبب أنه حصل فيه أمور شريفة عالية لها قدرعظيم ومرتبة رفيعة ، ومعلوم أن منصب الدين أعلى وأعظم من منصب الدنيا ، وأعلى الأشياء وأشرفها منصباً في الدين هو القرآن ، لأجل أن به ثبتت نبوة محمد ﷺ ، وبه ظهر الفرق بين الحق والباطل في سائر كتب الله المنزلة ، كما قال في صفته (ومهيمناً عليه) وبه ظهرت درجات أرباب السعادات ، ودركات أرباب الشقاوات ، فعلى هذا لاشيء إلا والقرآن أعظم قدراً وأعلى ذكراً وأعظم منصباً منه فلوكان نزوله إنما وقع في ليلة أخرى سوى ليلة القدر ، لكانت ليلة القدر هي هذه الثانية لا الأولى ، وحيث أطبقوا على أن ليلة القدر التي وقعت في رمضان ، علمنا أن القرآن إنما أنزل في تلك الليلة ، وأما القائلون بأن المراد من الليلة المباركة المذكورة في هذه الآية ، هي ليلة النصف من شعبان ، فما رأيت لهم فيه دليلا يعول عليه ، وإنما قنعوا فيه بأن نقلوه عن بعض الناس ، فإن صح عن رسول الله ﷺ فيه كلام فلامزيد عليه ، وإلا فالحق هو الأول ، ثم إن هؤلاء القائلين بهذا القول زعموا أن ليلة النصف من شعبان لها أربعة أسماء : الليلة المباركة ، وليلة البراءة ، وليلة الصك ، وليلة الرحمة ، وقيل إنما سميت بليلة البراءة ، وليلة الصك ، لأن البندار إذا استوفى الخراج من أهله كتب لهم البراءة ، كذلك الله عز وجل يكتب لعباده المؤمنين البراءة في هذه الليلة ، وقيل هذه الليلة مختصة بخمس خصال (الأولى) تفريق كل أمر حكيم فيها ، قال تعالى (فيها يفرق كل أمر حكيم) (والثانية) فضيلة العبادة فيها ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «من صلى في هذه الليلة مائة ركعة أرسل الله إليه مائة ملك ثلاثون يبشرونه بالجنة ، وثلاثون يؤمنونه من عذاب النار ، وثلاثون يدفعون عنه آفات الدنيا ، وعشرة يدفعون عنه مكايد الشيطان» ، (الخصلة الثالثة) نزول الرحمة ، قال عليه السلام «إن الله يرحم أمتي في هذه الليلة بعدد شعر أغنام بني كلب » (والخصلة الرابعة) حصول المغفرة ، قال ﷺ « إن الله تعالى يغفر لجميع المسلمين في تلك الليلة ، إلا لكاهن ، أو مشاحن ، أو مدمن خمر ، أو عاق للوالدين ، أو مصر على الزنا » (والخصلة الخامسة) أنه تعالى أعطى رسوله في هذه الليلة تمام الشفاعة ، وذلك أنه سأل ليلة الثالث عشر من شعبان في أمته فأعطى الثالث منها ، ثم سأل ليلة الرابع عشر ، فأعطى الثلثين ، ثم سأل ليلة الخامس عشر ، فأعطى الجميع إلا من شرد على الله شراد البعير ، هذا الفصل نقلته من الكشاف ، فإن قيل لا شك أن الزمان عبارة عن المدة الممتدة التي

تقديرها حركات الأفلاك والكواكب ، وأنه في ذاته أمر متشابه الأجزاء فيمتنع كون بعضها أفضل من بعض ، والمكان عبارة عن الفضاء الممتد والخلاء الخالي فيمتنع كون بعض أجزائه أشرف من البعض ، وإذا كان كذلك كان تخصيص بعض أجزائه بمزيد الشرف دون الباقي ترجيحاً لأحد طرفي الممكن على الآخر لا لمرجح وإنه محال ، قلنا القول بإثبات حدوث العالم وإثبات أن فاعله فاعل مختار بناء على هذا الحرف وهو أنه لا يبعد من الفاعل المختار تخصيص وقت معين بإحداث العالم فيه دون ما قبله وما بعده ، فإن بطل هذا الأصل فقد بطل حدوث العالم وبطل الفاعل المختار وحينئذ لا يكون الخوض في تفسير القرآن فائدة ، وإن صح هذا الأصل فقد زال ما ذكرتم من السؤال ، فهذا هو الجواب المعتمد ، والناس قالوا لا يبعد أن يخص الله تعالى بعض الأوقات بمزيد تشريف حتى يصير ذلك داعياً للمكلف إلى الإقدام على الطاعات في ذلك الوقت ، ولهذا السبب بين أنه تعالى أخفاه في الأوقات وما عينه لأنه لم يكن معيناً جوز المكلف في كل وقت معين أن يكون هو ذلك الوقت الشريف فيصير ذلك حاملا له على المواظبة على الطاعات في كل الأوقات ، وإذا وقفت على هذا الحرف ظهر عندك أن الزمان والمكان إنما فازا بالتشريفات الزائدة تبعاً لشرف الإنسان فهو الأصل وكل ما سواه فهو تبع له والله أعلم .

﴿ المسألة السادسة ﴾ روى أن عطية الحروري سأل ابن عباس رضي الله عنهما عن قوله (إنا أنزلناه في ليلة القدر) وقوله (إنا أنزلناه في ليلة مباركة) كيف يصح ذلك مع أن الله تعالى أنزل القرآن في جميع الشهور ؟ فقال ابن عباس رضي الله عنهما : يا ابن الأسود لو هلكت أنا ووقع هذا في نفسك ولم تجد جوابه هلكت ، نزل القرآن جملة من اللوح المحفوظ إلى البيت المعمور ، وهو في السماء الدنيا ، ثم نزل بعد ذلك في أنواع الوقائع حالا فحالا . والله أعلم .

﴿ المسألة السابعة ﴾ في بيان نظم هذه الآيات ، اعلم أن المقصود منها تعظيم القرآن من ثلاثة أوجه (أحدها) بيان تعظيم القرآن بحسب ذاته (الثاني) بيان تعظيمه بسبب شرف الوقت الذي نزل فيه (والثالث) بيان تعظيمه بحسب شرف منزلته ، أما بيان تعظيمه بحسب ذاته فمن ثلاثة أوجه (أحدها) أنه تعالى أقسم به وذلك يدل على شرفه (وثانيها) أنه تعالى أقسم به على كونه نازلا في ليلة مباركة ، وقد ذكرنا أن القسم بالشيء على حالة من أحوال نفسه يدل على كونه في غاية الشرف (وثالثها) أنه تعالى وصفه بكونه مبيناً وذلك يدل أيضاً على شرفه في ذاته .

﴿ وأما النوع الثاني ﴾ وهو بيان شرفه لأجل شرف الوقت الذي أنزل فيه فهو قوله (إنا أنزلناه في ليلة مباركة) وهذا تنبيه على أن نزوله في ليلة مباركة يقتضي شرفه وجلالته ، ثم نقول إن قوله (إنا أنزلناه في ليلة مباركة) يقتضي أمرين : (أحدهما) أنه تعالى أنزله (والثاني) كون تلك الليلة مباركة فذكر تعالى عقيب هذه الكلمة ما يجري مجرى البيان لكل واحد منهما ، أما بيان أنه تعالى لم أنزله فهو قوله (إنا كنا منذرين) يعني الحكمة في إنزال هذه السورة أن إنذار الخلق لا يتم

إلا به ، وأما بيان أن هذه الليلة ليلة مباركة فهو أمران : (أحدهما) أنه تعالى يفرق فيها كل أمر حكيم ، و (الثانى) أن هذا الأمر الحكيم مخصوصاً بشرف أنه إنما يظهر من عنده ، وإليه الإشارة بقوله (أمراً من عندنا) .

﴿وأما النوع الثالث﴾ فهو بيان شرف القرآن لشرف منزله وذلك هو قوله (إنا كنا مرسلين) فبين أن ذلك الإنذار والإرسال إنما حصل من الله تعالى ، ثم بين أن ذلك الإرسال إنما كان لأجل تكميل الرحمة وهو قوله (رحمة من ربك) وكان الواجب أن يقال رحمة منا إلا أنه وضع الظاهر موضع المضمر إيذاناً بأن الربوبية تقتضى الرحمة على المربوبين ، ثم بين أن تلك الرحمة وقعت على وفق حاجات المحتاجين لأنه تعالى يسمع تضرعاتهم ، ويعلم أنواع حاجاتهم ، فلهذا قال (إنه هو السميع العليم) فهذا ماخطر بالبال فى كيفية تعلق بعض هذه الآيات ببعض .

﴿ المسألة الثامنة ﴾ فى تفسير مفردات هذه الألفاظ ، أما قوله تعالى (إنا أنزلناه فى ليلة مباركة) فقد قيل فيه إنه تعالى أنزل كلية القرآن من اللوح المحفوظ إلى سماء الدنيا فى هذه الليلة ، ثم أنزل فى كل وقت مايحتاج إليه المكلف ، وقيل يبدأ فى استنساخ ذلك من اللوح المحفوظ فى ليلة البراءة ويقع الفراغ فى ليلة القدر فتدفع نسخة الأرزاق إلى ميكائيل ، ونسخة الحروب إلى جبرائيل وكذلك الزلازل والصواعق والخسف ، ونسخة الأعمال إلى إسمعيل[1] صاحب سماء الدنيا وهو ملك عظيم ، ونسخة المصائب إلى ملك الموت .

أما قوله تعالى (فيها يفرق) أى فى تلك الليلة المباركة يفرق أى يفصل و يبين من قولهم فرقت الشىء أفرقه فرقاً وفرقاناً ، قال صاحب الكشاف وقرىء يفرق بالتشديد ويفرق على إسناد الفعل إلى الفاعل ونصب كل والفارق هو الله عز وجل ، وقرأ زيد بن على نفرق بالنون .

أما قوله (كل أمر حكيم) فالحكيم معناه ذو الحكمة ، وذلك لأن تخصيص الله تعالى كل أحد بحالة معينة من العمر والرزق والأجل والسعادة والشقاوة يدل على حكمة بالغة لله تعالى ، فلما كانت تلك الأفعال والأقضية دالة على حكمة فاعلها وصفت بكونها حكيمة ، وهذا من الإسناد المجازى ، لأن الحكيم صفة صاحب الأمر على الحقيقة ووصف الأمر به مجاز ، ثم قال (أمراً من عندنا) وفى انتصاب قوله (أمراً) وجهان : (الأول) أنه نصب على الاختصاص ، وذلك لأنه تعالى بين شرف تلك الأقضية والأحكام بسبب أن وصفها بكونها حكيمة ، ثم زاد فى بيان شرفها بأن قال أعنى بهذا الأمر أمراً حاصلا من عندنا كائنا من لدنا ، وكما اقتضاه علمنا وتدبيرنا (والثانى) أنه نصب على الحال وفيه ثلاثة أوجه : (الأول) أن يكون حال من أحد الضميرين (فى أنزلناه) ، إما من ضمير الفاعل أى (إنا أنزلناه) آمرين أمراً أو من ضمير المفعول أى (إنا أنزلناه) فى حال كونه امراً من عندنا بما يجب ان يفعل (والثالث) ماحكاه ابو على الفارسى عن أبى الحسن رحمهما الله انه حمل قوله (امراً) على الحال وذو الحال قوله (كل امر حكيم) وهو نكرة .

---

(١) هكذا فى الأصل والمعروف المشهور المتواتر أن اسمه « إسرافيل » .

فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى ٱلنَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾
رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ
مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ﴿١٤﴾ إِنَّا كَاشِفُوا۟ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ
عَآئِدُونَ ﴿١٥﴾ يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴿١٦﴾

ثم قال (إنا كنا مرسلين) يعني أنا إنما فعلنا ذلك الإنذار لأجل (إنا كنا مرسلين) يعني الأنبياء .

ثم قال (رحمة من ربك) أي للرحمة فهي نصب على أن يكون مفعولا له .

ثم قال (إنه هو السميع العليم) يعني أن تلك الرحمة كانت رحمة في الحقيقة لأن المحتاجين ، إما أن يذكروا بألسنتهم حاجاتهم ، وإما أن لا يذكروها فإن ذكروها فهو تعالى يسمع كلامهم فيعرف حاجاتهم ، وإن لم يذكروها فهو تعالى عالم بها فثبت أن كونه (سميعاً عليما) يقتضي أن ينزل رحمته عليهم

ثم قال ﴿رب السموات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين﴾ وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قرأ عاصم وحمزة والكسائي بكسر الباء من رب عطفاً على قوله (رحمة من ربك) والباقون بالرفع عطفاً على قوله (هو السميع العليم) .

﴿ المسألة الثانية ﴾ المقصود من هذه الآية أن المنزل إذا كان موصوفاً بهذه الجلالة والكبرياء كان المنزل الذي هو القرآن في غاية الشرف والرفعة .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ الفائدة في قوله (إن كنتم موقنين) من وجوه (الأول) قال أبو مسلم معناه إن كنتم تطلبون اليقين وتريدونه ، فاعرفوا أن الأمر كما قلنا ، كقولهم فلان منجد متهم أي يريد نجداً وتهامة (الثاني) قال صاحب الكشاف كانوا يقرون بأن للسموات والأرض رباً وخالقاً فقيل لهم إن إرسال الرسل وإنزال الكتب رحمة من الرب سبحانه وتعالى ، ثم قيل إن هذا هو السميع العليم الذي أنتم مقرون به ومعترفون بأنه رب السموات والأرض وما بينهما إن كان إقراركم عن علم ويقين ، كما تقول هذا إنعام زيد الذي تسامع الناس بكرمه إن بلغك حديثه وسمعت قصته ، ثم إنه تعالى رد أن يكونوا موقنين بقوله (بل هم في شك يلعبون) وأن إقرارهم غير صادر عن علم ويقين ولا عن جد وحقيقة بل قول مخلوط بهزء ولعب والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين ، يغشى الناس هذا عذاب أليم ، ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون ، أنى لهم الذكرى وقد جاءهم رسول مبين ، ثم تولوا عنه وقالوا معلم مجنون ، إنا كاشفوا العذاب قليلا إنكم عائدون ، يوم نبطش البطشة الكبرى إنا منتقمون ﴾

اعلم أن المراد بقوله (فارتقب) انتظر ويقال ذلك فى المكروه ، والمعنى انتظر يا محمد عذابهم لحذف مفعول الارتقاب لدلالة ما ذكر بعده عليه وهو قوله (هذا عذاب أليم) ويجوز أيضاً أن يكون (يوم تأتى السماء) مفعول الارتقاب وقوله (بدخان) فيه قولان .

﴿ الأول ﴾ أن النبي ﷺ دعا على قومه بمكة لما كذبوه فقال « اللهم اجعل سنيهم كسنى يوسف » فارتفع المطر وأجدبت الأرض وأصابت قريشاً شدة المجاعة حتى أكلوا العظام والكلاب والجيف ، فكان الرجل لما به من الجوع يرى بينه وبين السماء كالدخان ، وهذا قول ابن عباس رضى الله عنهما فى بعض الروايات ومقاتل ومجاهد واختيار الفراء والزجاج وهو قول ابن مسعود رضى الله عنه وكان ينكر أن يكون الدخان إلا هذا الذى أصابهم من شدة الجوع كالظلمة فى أبصارهم حتى كانوا كأنهم يرون دخاناً ، فالحاصل أن هذا الدخان هو الظلمة التى فى أبصارهم من شدة الجوع ، وذكر ابن قتيبة فى تفسير الدخان بهذه الحالة وجهين (الأول) أن فى سنة القحط يعظم يبس الأرض بسبب انقطاع المطر ويرتفع الغبار الكثير ويظلم الهواء ، وذلك يشبه الدخان ولهذا يقال لسنة المجاعة الغبراء (الثانى) أن العرب يسمون الشر الغالب بالدخان فيقول كان بيننا أمر ارتفع له دخان ، والسبب فيه أن الإنسان إذا اشتد خوفه أو ضعفه أظلمت عيناه فيرى الدنيا كالمملوءة من الدخان .

﴿ والقول الثانى ﴾ فى الدخان أنه دخان يظهر فى العالم وهو إحدى علامات القيامة ، قالوا فإذا حصلت هذه الحالة حصل لأهل الإيمان منه حالة تشبه الزكام ، وحصل لأهل الكفر حالة يصير لأجلها رأسه كرأس الحنيذ ، وهذا القول هو المنقول عن على بن أبى طالب عليه السلام وهو قول مشهور لابن عباس واحتج القائلون بهذا القول بوجوه (الأول) أن قوله (يوم تأتى السماء بدخان) يقتضى وجود دخان تأتى به السماء وما ذكرتموه من الظلمة الحاصلة فى العين بسبب شدة الجوع فذاك ليس بدخان أتت به السماء فكان حمل لفظ الآية على هذا الوجه عدولا عن الظاهر لا لدليل منفصل ، وإنه لا يجوز (الثانى) أنه وصف ذلك الدخان بكونه مبيناً ، والحالة التى ذكرتموها ليست كذلك لأنها عارضة تعرض لبعض الناس فى أدمغتهم ، ومثل هذا لا يوصف بكونها دخاناً مبيناً (والثالث) أنه وصف ذلك الدخان بأنه يغشى الناس ، وهذا إنما يصدق إذا وصل ذلك الدخان إليهم واتصل بهم والحال التى ذكرتموها لا توصف بأنها تغشى الناس إلا على سبيل المجاز وقد ذكرنا أن العدول من الحقيقة إلى المجاز لا يجوز إلا لدليل منفصل (الرابع) روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « أول الآيات الدخان ونزول عيسى ابن مريم عليهما السلام ونار تخرج من قعر عدن تسوق الناس إلى المحشر ، قال حذيفة يارسول الله وما الدخان فتلا رسول الله صلى الله عليه وسلم الآية وقال دخان يملأ ما بين المشرق والمغرب يمكث أربعين يوما وليلة ، أما المؤمن فيصيبه كهيئة الزكمة ، وأما الكافر فهو كالسكران يخرج من منخريه وأذنيه ودبره » رواه

صاحب الكشاف ، وروى القاضي عن الحسن عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « بادروا بالأعمال ستاً ، وذكر منها طلوع الشمس من مغربها والدجال والدخان والدابة » أما القائلون بالقول الأول ، فلاشك أن ذلك يقتضي صرف اللفظ عن حقيقته إلى المجاز ، وذلك لايجوز إلا عند قيام دليل يدل على أن حمله على حقيقته ممتنع والقوم لم يذكروا ذلك الدليل فكان المصير إلى ماذكروه مشكلا جداً ، فإن قالوا الدليل على أن المرادماذكرناه ، أنه تعالى حكى عنهم أنهم يقولون (ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون) وهذا إذا حملناه على القحط الذى وقع بمكة استقام فإنه نقل أن القحط لما اشتد بمكة مشى إليه أبو سفيان وناشده بالله والرحم ووعده أنه إن دعا لهم وأزال الله عنهم تلك البلية أن يؤمنوا به ، فلما أزال الله تعالى عنهم ذلك رجعوا إلى شركهم ، أما إذا حملناه على أن المراد منه ظهور علامة من علامات القيامة لم يصح ذلك ، لأن عند ظهور علامات القيامة لا يمكنهم أن يقولوا (ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون) ولم يصح أيضاً أن يقال لهم (إنا كاشفوا العذاب قليلا إنكم عائدون) (والجواب) لم لا يجوز أن يكون ظهور هذه العلامة جارياً مجرى ظهور سائر علامات القيامة فى أنه لا يوجب انقطاع التكليف فتحدث هذه الحالة ، ثم إن الناس يخافون جدا فيتضرعون ، فإذا زالت تلك الواقعة عادوا إلى الكفر والفسق ، وإذا كان هذا محتملا فقد سقط ماقالوه والله أعلم .

ولنرجع إلى التفسير فنقول قوله تعالى (يوم تأتى السماء بدخان مبين) أى ظاهر الحال لايشك أحد فى أنه دخان يغشى الناس أى يشملهم وهو فى محل الجر صفة لقوله (بدخان) وفى قوله (هذا عذاب أليم) قولان (الأول) أنه منصوب المحل بفعل مضمر وهو (يقولون) ويقولون منصوب على الحال أى قائلين ذلك (الثانى) قال الجرجانى صاحب النظم هذا إشارة إليه وإخبار عن دنوه واقترابه كما يقال هذا العدو فاستقبله والغرض منه التنبيه على القرب .

ثم قال (ربنا اكشف عنا العذاب) فإن قلنا التقدير يقولون (هذا عذاب أليم ربنا اكشف عنا العذاب) فالمعنى ظاهر وإن لم يضمر القول هناك أضمرناه ههنا والعذاب على القول الأول هو القحط الشديد ، وعلى القول الثانى الدخان المهلك (إنا مؤمنون) أى بمحمد وبالقرآن ، والمراد منه الوعد بالإيمان إن كشف عنهم العذاب .

قوله تعالى : ﴿أنى لهم الذكرى﴾ يعنى كيف يتذكرون وكيف يتعظون بهذه الحالة وقد جاءهم ماهو أعظم وأدخل فى وجوب الطاعة وهو ماظهر على رسول الله من المعجزات القاهرة والبينات الباهرة (ثم تولوا عنه) ولم يلتفتوا إليه (وقالوا معلم مجنون) وذلك لأن كفار مكة كان لهم فى ظهور القرآن على محمد عليه الصلاة والسلام قولان منهم من كان يقول إن محمداً يتعلم هذه الكلمات من بعض الناس لقوله (إنما يعلمه بشر لسان الذى يلحدون إليه أعجمى) وكقوله تعالى

وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾ أَنْ أَدُّوٓا۟ إِلَىَّ عِبَادَ ٱللَّهِ ۖ إِنِّى
لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾ وَأَن لَّا تَعْلُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنِّىٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٩﴾ وَإِنِّى
عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾ وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ لِى فَٱعْتَزِلُونِ ﴿٢١﴾ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ
هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾ فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا

(وأعانه عليه قوم آخرون) ومنهم من كان يقول إنه مجنون والجن يلقون عليه هذه الكلمات حال مايعرض له الغشى .

ثم قال تعالى (إنا كاشفوا العذاب قليلا إنكم عائدون) أى كما يكشف العذاب عنكم تعودون فى الحال إلى ما كنتم عليه من الشرك ، والمقصود التنبيه على أنهم لا يوفون بعهدهم وأنهم فى حال العجز يتضرعون إلى الله تعالى ، فإذا زال الخوف عادوا إلى الكفر والتقليد لمذاهب الأسلاف .

ثم قال تعالى (يوم نبطش البطشة الكبرى إنا منتقمون) قال صاحب الكشاف : وقرىء نبطش بضم الطاء ، وقرأ الحسن نبطش بضم النون كأنه تعالى يأمر الملائكة بأن يبطشوا بهم والبطش الأخذ بشدة ، وأكثر مايكون بوقع الضرب المتتابع ثم صار بحيث يستعمل فى إيصال الآلام المتتابعة ، وفى المراد بهذا اليوم قولان :

(القول الأول) أنه يوم بدر وهو قول ابن مسعود وابن عباس ومجاهد ومقاتل وأبى العالية رضى الله تعالى عنهم ، قالوا إن كفار مكة لما أزال الله تعالى عنهم القحط والجوع عادوا إلى التكذيب فانتقم الله منهم يوم بدر .

(والقول الثانى) أنه يوم القيامة روى عكرمة عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أنه قال قال ابن مسعود : البطشة الكبرى يوم بدر ، وأنا أقول هى يوم القيامة ، وهذا القول أصح لأن يوم بدر لايبلغ هذا المبلغ الذى يوصف بهذا الوصف العظيم ، ولأن الانتقام التام إنما يحصل يوم القيامة لقوله تعالى (اليوم تجزى كل نفس بما كسبت) ولأن هذه البطشة لما وصفت بكونها كبرى على الإطلاق وجب أن تكون أعظم أنواع البطاش وذلك ليس إلا فى القيامة ولفظ الانتقام فى حق الله تعالى من المتشابهات كالغضب والحياء والتعجب ، والمعنى معلوم والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ ولقد فتنا قبلهم قوم فرعون وجاءهم رسول كريم ، أن أدوا إلى عباد الله إنى لكم رسول أمين ، وأن لاتعلوا على الله إنى آتيكم بسلطان مبين ، وإنى عذت بربى وربكم أن ترجمون ، وإن لم تؤمنوا لى فاعتزلون ، فدعا ربه أن هؤلاء قوم مجرمون ، فأسر بعبادى ليلا

إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾ كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَـٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَـٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾

إنكم متبعون ، واترك البحر رهواً إنهم جند مغرقون ، كم تركوا من جنات وعيون ، وزروع ومقام كريم ، ونعمة كانوا فيها فاكهين ، كذلك وأورثناها قوما آخرين ، فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين ﴾ .

اعلم أنه تعالى لما بين أن كفار مكة مصرون على كفرهم ، بين أن كثيراً من المتقدمين أيضاً كانوا كذلك ، فبين حصول هذه الصفة فى أكثر قوم فرعون ، قال صاحب الكشاف قرىء ، (ولقد فتنا) بالتشديد للتأكيد قال ابن عباس ابتلينا ، وقال الزجاج بلونا ، والمعنى عاملناهم معاملة المختبر ببعث الرسول إليهم (وجاءهم رسول كريم) وهوموسى واختلفوا فى معنى الكريم ههنا فقال الكلبى كريم على ربه يعنى أنه استحق على ربه أنواعاً كثيرة من الإكرام ، وقال مقاتل حسن الخلق وقال الفراء يقال فلان كريم قومه لأنه قل ما بعث رسول إلا من أشراف قومه وكرامهم .

ثم قال (أن أدوا إلى عباد الله) وفى أن قولان (الأول) أنها أن المفسرة وذلك لأن مجىء الرسول إلى من بعث إليهم متضمن لمعنى القول لأنه لا يجيئهم إلا مبشراً ونذيراً وداعياً إلى الله (الثانى) أنها المخففة من الثقيلة ومعناه وجاءهم بأن الشأن والحديث أدواء ، وعباد الله مفعول به وهم بنوا إسرائيل يقول أدوهم إلى وأرسلوهم معى وهو كقوله (فأرسل معنا بنى إسرائيل ولا تعذبهم) ويجوز أيضاً أن يكون نداء لهم والتقدير : أدو إلى عباد الله ما هو واجب عليكم من الإيمان ، وقبول دعوتى ، واتباع سبيلى ، وعلل ذلك بأنه (رسول أمين) قد ائتمنه الله على وحيه ورسالته وأن لا تعلوا أن هذه مثل الأول فى وجهيها أى لا تتكبروا على الله بإهانة وحيه ورسوله (إنى آتيكم بسلطان مبين) بحجة بينة يعترف بصحتها كل عاقل (وإنى عذت بربى وربكم أن ترجمون) قيل المراد أن تقتلون وقيل (أن ترجمون) بالقول فتقولوا ساحر كذاب (وإن لم تؤمنوا لى) أى إن لم تصدقونى ولم تؤمنوا بالله لأجل ما أتيتكم به من الحجة ، فاللام فى لى لام الأجل (فاعتزلون) أى اخلوا سبيلى لا لى ولا على .

قال مصنف الكتاب رحمه الله تعالى : إن المعتزلة يتصلفون ويقولون إن لفظ الاعتزال أينما

جاء في القرآن كان المراد منه الاعتزال عن الباطل لا عن الحق ، فاتفق حضوري في بعض المحافل ، وذكر بعضهم هذا الكلام فأوردت عليه هذه الآية ، وقلت المراد الاعتزال في هذه الآية الاعتزال عن دين موسى عليه السلام وطريقته وذلك لاشك أنه اعتزال عن الحق فانقطع الرجل .

ثم قال تعالى (فدعا ربه) الفاء في فدعا تدل على أنه متصل بمحذوف قبله التأويل أنهم كفروا ولم يؤمنوا فدعا موسى ربه بأن هؤلاء قوم مجرمون ، فإن قالوا الكفر أعظم حال من الجرم ، فما السبب في أن جعل صفة الكفار كونهم مجرمين حال ما أراد المبالغة في ذمهم ؟ قلت لأن الكافر قد يكون عدلا في دينه وقد يكون مجرماً في دينه وقد يكون فاسقاً في دينه فيكون أخس الناس ، قال صاحب الكشاف قرىء إن هؤلاء بالكسر على إضمار القول أي فدعا ربه فقال (إن هؤلاء قوم مجرمون) .

ثم قال (فأسر بعبادى ليلا) قرأ ابن كثير ونافع (فأسر) موصولة الألف والباقون مقطوعة الألف سرى وأسرى لغتان أي أوحينا إلى موسى أن أسر بعباى ليلا إنكم متبعون ، أي يتبعكم فرعون وقومه ذلك سبباً لهلاكهم (واترك البحر رهواً) وفي الرهو قولان (أحدهما) أنه الساكن يقال عيش راه إذا كان خافضاً وادعاً ، وافعل ذلك سهواً رهواً أي ساكناً بغير تشدد ، أراد موسى عليه السلام لما جاوز البحر أن يضربه بعصاه فينطبق كما كان فأمره الله تعالى بأن يتركه ساكناً على هيئته قاراً على حاله في انفلاق الماء وبقاء الطريق يبساً حتى تدخله القبط فاذا حصلوا فيه أطبقه الله عليهم (والثاني) أن الرهو هو الفرجة الواسعة ، والمعنى ذا رهو أي ذا فرجة يعني الطريق الذى أظهره الله فيها بين البحر أنهم جند مغرقون ، يعني اترك الطريق كما كان يدخلوا فيغرقوا ، وإنما أخبره الله تعالى بذلك حتى يبقى فارغ القلب عن شرهم وإيذائهم .

قوله تعالى : ﴿ كم تركوا من جنات وعيون وزروع ومقام كريم ﴾ دلت هذه الآية على أنه تعالى أغرقهم ، ثم قال بعد غرقهم هذا الكلام ، وبين تعالى أنهم تركوا هذه الأشياء الخمسة ، وهي الجنات والعيون والزروع والمقام الكريم والمراد بالمقام الكريم ما كان لهم من المجالس و المنازل الحسنة ، وقيل المنابر التي كانوا يمدحون فرعون عليها (ونعمة كانوا فيها فاكهين) قال علماء اللغة نعمة العيش ، بفتح النون حسنه ونضارته ، ونعمة الله إحسانه وعطاؤه ، قال صاحب الكشاف النعمة بالفتح من التنعم وبالكسر من الإنعام ، وقرىء فاكهين وفكهين كذلك الكاف منصوبة على معنى مثل ذلك الإخراج أخرجناهم منها وأورثناها أو في موضع الرفع على تقدير أن الأمر (كذلك وأورثناها قوماً آخرين) ليسوا منهم في شيء من قرابة ولا دين ولا ولاء ، وهم بنو إسرائيل كانوا مستعبدين في أيديهم فأهلكهم الله على ايديهم واورثهم ملكهم وديارهم .

قوله تعالى : ﴿ فما بكت عليهم السماء والأرض ﴾ وفيه وجوه : (الأول) قال الواحدي في البسيط ، روى أنس بن مالك أن النبي صلى الله عليه وسلم قال « ما من عبد إلا وله في السماء بابان باب يخرج منه رزقه وباب يدخل فيه عمله ، فإذا مات فقداه وبكيا عليه » وتلا هذه الآية ، قال وذلك

وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿٣٠﴾ مِن فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٢﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم مِّنَ ٱلْأَيَٰتِ مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌا۟ مُّبِينٌ ﴿٣٣﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴿٣٥﴾ فَأْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٦﴾ أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَٰهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٣٧﴾ وَمَا خَلَقْنَا

لأنهم لم يكونوا يعملون على الأرض عملا صالحاً فتبكى عليهم ، ولم يصعد لهم إلى السماء كلام طيب ولا عمل صالح فتبكى عليهم ، وهذا قول أكثر المفسرين .

﴿ القول الثانى ﴾ التقدير : فما بكت عليهم أهل السماء وأهل الأرض ، فحذف المضاف والمعنى ما بكت عليهم الملائكة ولا المؤمنون ، بل كانوا بهلاكهم مسرورين .

﴿ والقول الثالث ﴾ أن عادة الناس جرت بأن يقولوا فى هلاك الرجل العظيم الشأن : إنه اظلمت له الدنيا ، وكسفت الشمس والقمر لأجله . وبكت الريح والسماء والأرض ، ويريدون المبالغة فى تعظيم تلك المصيبة لا نفس هذا الكذب . ونقل صاحب الكشاف عن النبى ﷺ أنه قال « ما من مؤمن مات فى غربة غابت فيها بواكيه إلا بكت عليه السماء والأرض » .

وقال جرير :

الشمس طالعة ليست بكاسفة تبكي عليك نجوم الليل والقمرا

وفيه ما يشبه السخرية بهم يعنى أنهم كانوا يستعظمون أنفسهم ، وكانوا يعتقدون فى أنفسهم أنهم لو ماتوا لبكت عليهم السماء والأرض ، فما كانوا فى هذا الحد ، بل كانوا دون ذلك ، وهذا إنما يذكر على سبيل التهكم .

ثم قال (وما كانوا منظرين) أى لما جاء وقت هلاكهم لم ينظروا إلى وقت آخر لتوبة وتدارك وتقصير .

قوله تعالى : ﴿ ولقد نجينا بنى إسرائيل من العذاب المهين ، من فرعون إنه كان عالياً من المسرفين ، ولقد اخترناهم على علم على العالمين ، وآتيناهم من الآيات ما فيه بلاء مبين ، إن هؤلاء ليقولون إن هى إلا موتتنا الأولى وما نحن بمنشرين ، فأتوا بآبائنا إن كنتم صادقين ، أهم خير أم قوم تبع والذين من قبلهم أهلكناهم إنهم كانوا مجرمين ، وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما

ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾

لاعبين ، ماخلقناهما إلا بالحق ولكن أكثرهم لايعلمون ﴾ .

اعلم أنه تعالى لما بين كيفية إهلاك فرعون وقومه بين كيفية إحسانه إلى موسى وقومه . واعلم أن دفع الضرر مقدم على إيصال النفع فبدأ تعالى ببيان دفع الضرر عنهم فقال (ولقد نجينا بنى إسرائيل من العذاب المهين) يعنى قتل الأبناء واستخدام النساء والإتعاب فى الأعمال الشاقة.

ثم قال (من فرعون) وفيه وجهان : (الأول) أن يكون التقدير من العذاب المهين الصادر من فرعون (الثانى) أن يكون فرعون بدلا من العذاب المهين كأنه فى نفسه كان عذاباً مهيناً لإفراطه فى تعذيبهم وإهانتهم . قال صاحب الكشاف وقرىء (من عذاب المهين) وعلى هذه القراءة (فالمهين) هو فرعون لأنه كان عظيم السعي فى إهانة المحقين . وفى قراءة ابن عباس (من فرعون) وهو بمعنى الاستفهام وقوله (إنه كان عالياً من المسرفين) جوابه كأن التقدير أن يقال هل تعرفونه من هو فى عتوه وشيطنته ؟ ثم عرف حاله بقوله (إنه كان عالياً من المسرفين) أى كان عالى الدرجة فى طبقة المسرفين ، ويجوز أن يكون المراد (إنه كان عالياً) لقوله (إن فرعون علا فى الأرض) وكان أيضاً مسرفاً ومن إسرافه أنه على حقارته وخسته ادعى الإلهية . ولما بين الله تعالى أنه كيف دفع الضرر عن بنى إسرائيل وبين أنه كيف أوصل إليهم الخيرات فقال (ولقد اخترناهم على علم على العالمين) وفيه بحثان :

﴿ البحث الأول ﴾ أن قوله على علم فى موضع الحال ثم فيه وجهان : (أحدهما) أى عالمين بكونهم مستحقين لأن يختاروا ويرجحوا على غيرهم (والثانى) أن يكون المعنى مع علمنا بأنهم قد يزيغون ويصدر عنهم الفرطات فى بعض الأحوال .

﴿ البحث الثانى ﴾ ظاهر قوله (ولقد اخترناهم على علم على العالمين) يقتضى كونهم أفضل من كل العالمين فقيل المراد على عالمى زمانهم ، وقيل هذا عام دخله التخصيص كقوله (كنتم خير أمة أخرجت للناس) .

قوله تعالى : ﴿ وآتيناهم من الآيات ﴾ مثل فلق البحر ، وتظليل الغمام ، وإنزال المن والسلوى ، وغيرها (من الآيات) القاهرة التى ما أظهر الله مثلها على أحد سواهم (بلاء مبين) أى نعمة ظاهرة ، لأنه تعالى لما كان يبلو بالمحنة فقد يبلو أيضاً بالنعمة اختباراً ظاهراً ليتميز الصديق عن الزنديق ، وههنا آخر الكلام فى قصة موسى عليه السلام ثم رجع إلى ذكر كفار مكة ، وذلك لأن الكلام فيهم حيث قال (بل هم فى شك يلعبون) أى بل هم فى شك من البعث والقيامة ، ثم بين كيفية

إصرارهم على كفرهم ، ثم بين أن قوم فرعون كانوا فى الإصرار على الكفر على هذه القصة ، ثم بين أنه كيف أهلكهم وكيف أنعم على بنى إسرائيل ، ثم رجع إلى الحديث الأول ، وهو كون كفار مكة منكرين للبعث ، فقال (إن هؤلاء ليقولون ، إن هى إلا موتتنا الأولى وما نحن بمنشرين) فإن قيل القوم كانوا ينكرون الحياة الثانية فكان من حقهم أن يقولوا : إن هى إلا حياتنا الأولى وما نحن بمنشرين ؟ قلنا إنه قيل لهم إنكم تموتون موتة تعقبها حياة ، كما أنكم حال كونكم نطفاً كنتم أمواتاً وقد تعقبها حياة ، وذلك قوله (وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ، فقالوا إن هى إلا موتتنا الأولى) يريدون ما الموتة التى من شأنها أن تعقبها حياة إلا الموتة الأولى دون الموتة الثانية ، وما هذه الصفة التى تصفون بها الموتة من تعقيب الحياة لها إلا الموتة الأولى خاصة ، فلا فرق إذاً بين هذا الكلام وبين قوله (إن هى إلا حياتنا الدنيا) هذا ماذكره صاحب الكشاف ويمكن أن يذكر فيه وجه آخر ، فيقال قوله (إن هى إلا موتتنا الأولى) يعنى أنه لا يأتينا شىء من الأحوال إلا الموتة الأولى ، وهذا الكلام يدل على أنهم لا تأتيهم الحياة الثانية البتة ، ثم صرحوا بهذا المرموز فقالوا (وما نحن بمنشرين) فلا حاجة إلى التكلف الذى ذكره صاحب الكشاف .

ثم قال تعالى (وما نحن بمنشرين) يقال نشر الله الموتى وأنشرهم إذا بعثهم ، ثم إن الكفار احتجوا على نفى الحشر والنشر بأن قالوا : إن كان البعث والنشور ممكناً معقولا فجعلوا لنا إحياء من مات من آبائنا بأن تسألوا ربكم ذلك ، حتى يصير ذلك دليلا عندنا على صدق دعواكم فى النبوة والبعث فى القيامة ، قيل طلبوا من الرسول ﷺ أن يدعو الله حتى ينشر قصى بن كلاب ليشاوروه فى صحة نبوة محمد ﷺ وفى صحة البعث ، ولما حكى الله عنهم ذلك قال (أهم خير أم قوم تبع والذين من قبلهم أهلكناهم إنهم كانوا مجرمين) والمعنى أن كفار مكة لم يذكروا فى نفى الحشر والنشر شبهة حتى يحتاج إلى الجواب عنها ، ولكنهم أصروا على الجهل والتقليد فى ذلك الإنكار ، فلهذا السبب اقتصر الله تعالى على الوعيد ، فقال إن سائر الكفار كانوا أقوى من هؤلاء ، ثم إن الله تعالى أهلكهم فكذلك يهلك هؤلاء ، فقوله تعالى (أهم خير أم قوم تبع) استفهام على سبيل الإنكار ، قال أبو عبيدة : ملوك اليمن كان كل واحد منهم يسمى تبعاً لأن أهل الدنيا كانوا يتبعونه ، وموضع تبع فى الجاهلية موضع الخليفة فى الإسلام وهم الأعاظم من ملوك العرب قالت عائشة ، كان تبع رجلا صالحاً ، وقال كعب : ذم الله قومه ولم يذمه ، قال الكلبى هو أبو كرب أسعد ، وعن النبى صلى الله عليه وسلم « لا تسبوا تبعاً ، فإنه كان قد أسلم ما أدرى أكان تبع نبياً أوغير نبى » فإن قيل ما معنى قوله (أهم خير أم قوم تبع) مع أنه لا خير فى الفريقين ؟ قلنا معناه أهم خير فى القوة والشوكة ، كقوله (أكفاركم خير من أولئكم) بعد ذكر آل فرعون ، ثم إنه تعالى ذكر الدليل القاطع على القول بالبعث والقيامة ، فقال (وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين)

إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾ إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ الْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْيِ الْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِ تَمْتَرُونَ ﴿٥٠﴾

ولو لم يحصل البعث لكان هذا الخلق لعباً وعبثاً ، وقد مر تقرير هذه الطريقة بالاستقصاء فى أول سورة يونس ، وفى آخر سورة (قد أفلح المؤمنون) حيث قال (أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً) وفى سورة ص حيث قال (وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا) .

ثم قال (ما خلقناهما إلا بالحق ولكن أكثرهم لا يعلمون) والمراد أهل مكة ، وأما استدلال المعتزلة بهذه الآية على أنه تعالى لا يخلق الكفر والفسق ولا يريدهما فهو مع جوابه معلوم ، والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ إن يوم الفصل ميقاتهم أجمعين ، يوم لا يغنى مولى عن مولى شيئاً ولا هم ينصرون ، إلا من رحم الله إنه هو العزيز الرحيم ، إن شجرت الزقوم ، طعام الأثيم ، كالمهل يغلى فى البطون ، كغلى الحميم ، خذوه فاعتلوه إلى سواء الجحيم ، ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم ، ذق إنك أنت العزيز الكريم ، إن هذا ما كنتم به تمترون ﴾ .

اعلم أن المقصود من قوله (وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين) إثبات القول بالبعث والقيامة ، فلا جرم ذكر عقيبه قوله (إن يوم الفصل ميقاتهم أجمعين) وفى تسمية يوم القيامة بيوم الفصل وجوه (الأول) قال الحسن : يفصل الله فيه بين أهل الجنة وأهل النار (الثانى) يفصل فى الحكم والقضاء بين عباده (الثالث) أنه فى حق المؤمنين يوم الفصل ، بمعنى أنه يفصل بينه وبين كل ما يكرهه ، وفى حق الكفار ، بمعنى أنه يفصل بينه وبين كل ما يريده (الرابع) أنه يظهر حال كل أحد كما هو ، فلا يبقى فى حاله ريبة ولا شبهة ، فتنفصل الخيالات والشبهات ، وتبقى الحقائق والبينات ، قال ابن عباس رضى الله عنهما : المعنى أن يوم يفصل الرحمن بين عباده ميقاتهم أجمعين البر والفاجر ، ثم وصف ذلك اليوم فقال (يوم لا يغنى مولى عن مولى شيئاً) يريد قريب

عن قريب (ولا هم ينصرون) أى ليس لهم ناصر ، والمعنى أن الذى يتوقع منه النصرة إما القريب فى الدين أو فى النسب أو المعتق ، وكل هؤلاء يسمون بالمولى ، فلما لم تحصل النصرة منهم فبأن لاتحصل ممن سواهم أولى ، وهذه الآية شبيهة بقوله تعالى (واتقوا يوماً لاتجزى نفس عن نفس شيئاً) إلى قوله (ولا هم ينصرون) قال الواحدى : والمراد بقوله (مولى عن مولى) الكفار ألا ترى أنه ذكر المؤمن فقال (إلا من رحم الله) قال ابن عباس رضى الله عنهما : يريد المؤمن فإنه تشفع له الأنبياء والملائكة .

اعلم أنه تعالى لما أقام الدلالة على أن القول بالقيامة حق ، ثم أردفه بوصف ذلك اليوم ذكر عقيبه وعيد الكفار ، ثم بعده وعد الأبرار ، أما وعيد الكفار فهو قوله (إن شجرة الزقوم طعام الأثيم) وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قال صاحب الكشاف : قرىء (إن شجرة الزقوم) بكسر الشين ، ثم قال وفيها ثلاث لغات : شجرة بفتح الشين وكسرها ، وشيرة بالياء ، وشبرة بالباء .

﴿ المسألة الثانية ﴾ البحث عن اشتقاق لفظ (الزقوم) قد تقدم فى سورة والصافات ، فلا فائدة فى الإعادة .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قالت المعتزلة : الآية تدل على حصول هذا الوعيد الشديد للأثيم ، والأثيم هو الذى صدر عنه الإثم ، فيكون هذا الوعيد حاصلا للفساق (والجواب) أنا بينا فى أصول الفقه أن اللفظ المفرد الذى دخل عليه حرف التعريف الأصل فيه أن ينصرف إلى المذكور السابق ، ولا يفيد العموم ، وههنا المذكور السابق هو الكافر ، فينصرف إليه .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ مذهب أبى حنيفة : أن قراءة القرآن بالمعنى جائز ، واحتج عليه بأنه نقل أن ابن مسعود كان يقرىء رجلا هذه الآية فكان يقول : طعام اللثيم ، فقال قل طعام الفاجر ، وهذا الدليل فى غاية الضعف على مابيناه فى أصول الفقه .

ثم قال (كالمهل) قرىء بضم الميم وفتحها وسبق تفسيره فى سورة الكهف ، وقد شبه الله تعالى هذا الطعام بالمهل ، وهو دردى الزيت وعكر القطران ومذاب النحاس وسائر الفلزات ، وتم الكلام ههنا ، ثم أخبر عن غليانه فى بطون الكفار فقال (يغلى فى البطون) وقرىء بالتاء فمن قرأ بالتاء فلتأنيث الشجرة ، ومن قرأ بالياء حمله على الطعام فى قوله (طعام الأثيم) لأن الطعام هو [ثمر] الشجرة فى المعنى ، واختار أبو عبيد الياء لأن الإسم المذكور يعنى المهل هو الذى يلى الفعل فصار التذكير به أولى ، واعلم أنه لايجوز أن يحمل الغلى على المهل لأن المهل مشبه به ، وإنما يغلى مايشبه بالمهل كغلى الحميم والماء إذا اشتد غليانه فهو حميم .

ثم قال (خذوه) أى خذوا الأثيم (فاعتلوه) قرىء بكسر التاء ، قال الليث : العتل أن تأخذ بمنكب الرجل فتعتله أى تجره إليك وتذهب به إلى حبس أو محنة ، وأخذ فلان بزمام الناقة يعتلها

إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٥٣﴾ كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ﴿٥٥﴾ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾ فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٥٧﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ فَٱرْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ ﴿٥٩﴾

وذلك إذا قبض على أصل الزمام عند الرأس وقادها قوداً عنيفاً ، وقال ابن السكيت عتلته إلى السجن وأعتلته إذا دفعته دفعاً عنيفاً ، هذا قول جميع أهل اللغة فى العتل ، وذكروا فى اللغتين ضم التاء وكسرها وهما صحيحان مثل يعكفون ويعكفون ، ويعرشون ويعرشون .

قوله تعالى (إلى سواء الجحيم) أى إلى وسط الجحيم (ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم) وكان الأصل أن يقال : ثم صبوا من فوق رأسه الحميم أو يصب من فوق رؤوسهم الحميم إلا أن هذه الاستعارة أكمل فى المبالغة كأنه يقول : صبوا عليه عذاب ذلك الحميم ، ونظيره قوله تعالى (ربنا أفرغ علينا صبراً) و (ذق إنك أنت العزيز الكريم) وذكروا فيه وجوهاً (الأول) أنه يخاطب بذلك على سبيل الاستهزاء ، والمراد إنك أنت بالضد منه (والثانى) أن أبا جهل قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : ما بين جبليها أعز ولا أكرم منى فوالله ما تستطيع أنت ولا ربك أن تفعلا بى شيئاً (والثالث) أنك كنت تعتز لا بالله فانظر ما وقعت فيه ، وقرىء أنك بمعنى لأنك .

ثم قال (إن هذا ما كنتم به تمترون) أى أن هذا العذاب ما كنتم به تمترون أى تشكون ، والمراد منه ما ذكره فى أول السورة حيث قال (بل هم فى شك يلعبون) .

قوله تعالى : ﴿ إن المتقين فى مقام أمين ، فى جنات وعيون ، يلبسون من سندس وإستبرق متقابلين ، كذلك وزوجناهم بحور عين ، يدعون فيها بكل فاكهة آمنين ، لا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى ووقاهم عذاب الجحيم ، فضلا من ربك ذلك هو الفوز العظيم ، فإنما يسرناه بلسانك لعلهم يتذكرون ، فارتقب إنهم مرتقبون ﴾ .

اعلم أنه تعالى لما ذكر الوعيد فى الآيات المتقدمة ذكر الوعد فى هذه الآيات فقال (إن المتقين) قال أصحابنا كل من اتقى الشرك فقد صدق عليه اسم المتقى فوجب أن يدخل الفاسق فى هذا الوعد . واعلم أنه تعالى ذكر من أسباب تنعمهم أربعة أشياء (أولها) مساكنهم فقال (فى مقام أمين)

واعلم أن المسكن إنما يطيب بشرطين (أحدهما) أن يكون آمناً عن جميع ما يخاف ويحذر وهو المراد من قوله (فى مقام أمين) قرأ الجمهور فى مقام بفتح الميم ، وقرأ نافع وابن عامر بضم الميم ، قال صاحب الكشاف المقام بفتح الميم هو موضع القيام ، والمراد المكان وهو من الخاص الذى جعل مستعملا فى المعنى العام وبالضم هو موضع الإقامة ، والأمين من قولك أمن الرجل أمانة فهو أمين وهو ضد الخائن ، فوصف به المكان استعارة لأن المكان المخيف كأنه يخون صاحبه (والشرط الثانى) لطيب المكان أن يكون قد حصل فيه أسباب النزهة وهى الجنات والعيون ، فلما ذكر تعالى هذين الشرطين فى مساكن أهل الجنة فقد وصفها بما لا يقبل الزيادة .

(والقسم الثانى) من تنعماتهم الملبوسات فقال (يلبسون من سندس وإستبرق) قيل السندس مارق من الديباج ، والإستبرق ماغلظ منه ، وهو تعريب استبرك ، فإن قالوا كيف جاز ورود الأعجمى فى القرآن ؟ قلنا لما عرب فقد صار عربياً .

(والقسم الثالث) فهو جلوسهم على صفة التقابل والغرض منه استئناس البعض بالبعض ، فإن قالوا الجلوس على هذا الوجه موحش لأنه يكون كل واحد منهم مطلعاً على ما يفعله الآخر ، وأيضاً فالذى يقل ثوابه إذا اطلع على حال من يكثر ثوابه يتنغص عيشه ، قلنا أحوال الآخرة بخلاف أحوال الدنيا .

(والقسم الرابع) أزواجهم فقال (كذلك وزوجناهم بحور عين) الكاف فيه وجهان أن تكون مرفوعة والتقدير الأمر كذلك أو منصوبة والتقدير آتيناهم مثل ذلك ، قال أبو عبيدة : جعلناهم أزواجا كما يزوج البعل بالبعل أى جعلناهم اثنين اثنين ، واختلفوا فى أن هذا اللفظ هل يدل على حصول عقد التزويج أم لا ؟ ، قال يونس قوله (وزوجناهم بحور عين) أى قرناهم بهن فليس من عقد التزويج ، والعرب لا تقول تزوجت بها وإنما تقول تزوجتها ، قال الواحدى رحمه الله والتنزيل يدل على ماقال يونس وذلك قوله (فلما قضى زيد منها وطراً زوجناكها) ولو كان المراد تزوجت بها زوجناك بها وأيضاً فقول القائل زوجته به معناه أنه كان فرداً فزوجته بآخر كما يقال شفعته بآخر ، وأما الحور ، فقال الواحدى أصل الحور البياض والتحوير التبييض ، وقد ذكرنا ذلك فى تفسير الحواريين ، وعين حوراء إذا اشتد بياض بياضها واشتد سواد سوادها ، ولا تسمى المرأة حوراء حتى يكون حور عينيها بياضاً فى لون الجسد . والدليل على أن المراد بالحور فى هذه الآية البيض قراءة ابن مسعود بعيس عين والعيس البيض ، وأما العين فجمع عيناء وهى التى تكون عظيمة العينين من النساء ، فقال الجبائى رجل أعين إذا كان ضخم العين واسعها والأنثى عيناء والجمع عين ، ثم اختلفوا فى هؤلاء الحور العين ، فقال الحسن هن عجائزكم الدرد ينشئهن الله خلقاً آخر ، وقال أبو هريرة إنهن ليسوا من نساء الدنيا .

(والنوع الخامس) من تنعمات أهل الجنة المأكول فقال (يدعون فيها بكل فاكهة آمنين)

قالوا إنهم يأكلون جميع أنواع الفاكهة لأجل أنهم آمنون من التخم والأمراض .

ولما وصف الله تعالى أنواع ماهم فيه من الخيرات والراحات ، بين أن حياتهم دائمة ، فقال (لايذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى) وفيه سؤالان :

﴿السؤال الأول﴾ أنهم ما ذاقوا الموتةالأولى فى الجنة فكيف حسن هذا الاستثناء ؟ وأجيب عنه من وجوه (الأول) قال صاحب الكشاف أريد أن يقال : لا يذوقون فيها الموت البتة فوضع قوله (إلا الموتة الأولى) موضع ذلك لأن الموتة الماضية محال فى المستقبل ، فهو من باب التعليق بالمحال ، كأنه قيل إن كانت الموتة الأولى يمكن ذوقها فى المستقبل فإنهم يذوقونها (الثانى) أن إلا بمعنى لكن والتقدير لا يذوقون فيها الموت لكن الموتة الأولى قد ذاقوها (والثالث) أن الجنة حقيقتها ابتهاج النفس وفرحها بمعرفة الله تعالى وبطاعته ومحبته ، وإذا كان الأمر كذلك فإن الإنسان الذى فاز بهذه السعادة فهو فى الدنيا فى الجنة وفى الآخرة أيضاً فى الجنة ، وإذا كان الأمر كذلك فقد وقعت الموتة الأولى حين كان الإنسان فى الجنة الحقيقية التى هى جنة المعرفة بالله والمحبة ، فذكر هذا الاستثناء كالتنبيه على قولنا إن الجنة الحقيقية هى حصول هذه الحالة لا الدار التى هى دار الأكل والشرب ، ولهذا السبب قال عليه السلام « أنبياء الله لا يموتون ولكن ينقلون من دار إلى دار » (والرابع) أن من جرب شيئاً ووقف عليه صح أن يقال إنه ذاقه ، وإذا صح أن يسمى العلم بالذوق صح أن يسمى تذكره أيضاً بالذوق فقوله (لايذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى) يعنى إلا الذوق الحاصل بسبب تذكر الموتة الأولى .

﴿ السؤال الثانى ﴾ أليس أن أهل النار أيضاً لايموتون فلم بشر أهل الجنة بهذا مع أن أهل النار يشاركونهم فيه ؟ (والجواب) أن البشارة ماوقعت بدوام الحياة بل بدوام الحياة مع سابقة حصول تلك الخيرات والسعادات فظهر الفرق .

ثم قال تعالى (ووقاهم عذاب الجحيم) قرىء ووقاهم بالتشديد ، فإن قالوا مقتضى الدليل أن يكون ذكر الوقاية عن عذاب الجحيم متقدماً على ذكر الفوز بالجنة لأن الذى وقى عن عذاب الجحيم قد يفوز وقد لايفوز ، فإذا ذكر بعده أنه فاز بالجنة حصلت الفائدة ، أما الذى فاز بخيرات الجنة فقد تخلص عن عقاب الله لا محالة فلم يكن ذكر الفوز عن عذاب جهنم بعد الفوز بثواب الجنة مفيداً ، قلنا التقدير كأنه تعالى قال ووقاهم فى أول الأمر عن عذاب الجحيم .

ثم قال (فضلا من ربك) يعنى كل ما وصل إليه المتقون من الخلاص عن النار والفوز بالجنة فإنما يحصل بفضل الله ، واحتج أصحابنا بهذه الآية على أن الثواب يحصل تفضلا من الله تعالى لا بطريق الاستحقاق لأنه تعالى لما عدد أقسام ثواب المتقين بين أنها بأسرها إنما حصلت على سبيل الفضل والإحسان من الله تعالى ، قال القاضى أكثر هذه الأشياء وإن كانوا قد استحقوه بعملهم فهو بفضل الله لأنه تعالى تفضل بالتكليف ، وغرضه منه أن يصيرهم إلى هذه المنزلة فهو

كمن أعطى غيره مالا ليصل به إلى ملك ضيعة ، فإنه يقال فى تلك الضيعة إنها من فضله ، فلما مذهبك أن هذا الثواب حق لازم على الله ، وإنه تعالى لوأخل به لصار سفيهاً ولخرج به عن الإلهية فكيف يمكن وصف مثل هذا الشيء بأنه فضل من الله تعالى ؟ .

ثم قال تعالى (ذلك هو الفوز العظيم) واحتج أصحابنا بهذه الآية على أن التفضيل أعلى درجة من الثواب المستحق ، فإنه تعالى وصفه بكونه فضلا من الله ثم وصف الفضل من الله بكونه فوزاً عظيما ، ويدل عليه أيضاً أن الملك العظيم إذا أعطى الأجير أجرته ثم خلع على إنسان آخر فإن تلك الخلعة أعلى حالا من إعطاء تلك الأجرة ، ولما بين الله تعالى الدلائل وشرح الوعد والوعيد قال (فإنما يسرناه بلسانك لعلهم يتذكرون) والمعنى أنه تعالى وصف القرآن فى أول هذه السورة بكونه كتاباً مبيناً أى كثير البيان والفائدة وذكر فى خاتمتها ما يؤكد ذلك فقال : إن ذلك الكتاب المبين ، الكثير الفائدة إنما يسرناه بلسانك ، أى إنما أنزلناه عربياً بلغتك ، لعلهم يتذكرون ، قال القاضى وهذا يدل على أنه تعالى أراد من الكل الإيمان والمعرفة وأنه ما أراد من أحد الكفر وأجاب أصحابنا أن الضمير فى قوله (لعلهم يتذكرون) عائد إلى أقوام مخصوصين فنحن نحمل ذلك على المؤمنين .

ثم قال (فارتقب) أى فانتظر ما يحل بهم (إنهم مرتقبون) مايحل بك ، متربصون بك الدوائر والله أعلم .

قال المصنف رحمه الله تعالى : تم تفسير هذه السورة ليلة الثلاثاء فى نصف الليل الثانى عشر من ذى الحجة سنة ثلاث وستمائة ، يا دائم المعروف ، يا قديم الإحسان ، شهد لك إشراق العرش ، وضوء الكرسى ، ومعارج السموات ، وأنوار الثوابت والسيارات ، على منابرها ، المتوغلة فى العلو الأعلى ، ومعارجها المقدسة عن غبار عالم الكون والفساد ، بأن الأول الحق الأزلى ، لا يناسبه شيء من علائق العقول ، وشوائب الخواطر ، ومناسبات المحدثات ، فالقمر يسبب محوه مقر بالنقصان ، والشمس بشهادة المعارج بتغيراتها ، معترفة بالحاجة إلى تدبير الرحمن ، والطبائع مقهورة تحت القدرة القاهرة ، فالله فى غيبيات المعارج العالية ، والمتغيرات شاهدة بعدم تغيره ، والمتعاقبات ناطقة بدوام سرمديته ، وكل ما نوجه عليه أنه مضى وسيأتى فهو خالقه وأعلى منه ، فبجوده الوجود وإيجاد ، وبإعدامه الفناء والفساد ، وكل ماسواه فهو تائه فى جبروته ، ناثر عند طلوع نور ملكوته ، وليس عند عقول الخلق إلا أنه بخلاف كل الخلق ، له العز والجلال ، والقدرة والكمال ، والجود والافضال ، ربنا ورب مبادينا إياك نروم ، ولك نصلى ونصوم ، وعليك المعول ، وأنت المبدأ الأول ، سبحانك سبحانك .

سورة الدُّخَان

مكية باتفاق؛ إلا قولَه تعالى: ﴿إِنَّا كَاشِفُوا۟ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًاۚ﴾ [الآية: ١٥]. وهي سبعٌ وخمسون آية. وقيل: تسع[1]. وفي مسند الدَّارميِّ[2] عن أبي رافع قال: «مَن قرأ الدخان في ليلة الجمعة، أصبح مغفوراً له، وزُوِّج من الحور العين». رفعه الثعلبيُّ من حديث أبي هريرةَ أن النبيَّ ﷺ قال: «مَن قرأ الدخان في ليلة الجمعة، أصبح مغفوراً له»[3]. وفي لفظ آخر عن أبي هريرةَ أن النبيَّ ﷺ قال: «مَن قرأ الدخان في ليلة، أصبح يستغفر له سبعون ألفَ ملَك»[4]. وعن أبي أمامةَ قال: سمعت النبيَّ ﷺ يقول: «مَن قرأ حم الدخان ليلةَ الجمعة أو يوم الجمعة، بَنى الله له بيتاً في الجنة»[5].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿حمٓ ۝١ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝٣﴾

إن جعلت «حم» جوابَ القسم، تمَّ الكلام عند قوله: «المُبين»، ثم تبتدِئُ: «إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ». وإن جعلت «إِنَّا كُنَّا مُنْذِرين» جواب القسم الذي هو «الكتاب»، وقفت على:

---

(١) الكشاف ٤٩٩/٣، وذكر ابن عطية في المحرر الوجيز ٦٨/٥، وابن الجوزي في زاد المسير ٣٣٦/٧ أن السورة مكية كلها.

(٢) برقم (٣٤٢١).

(٣) أخرجه الترمذي (٢٨٨٩) وقال: هذا حديث لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وهشام أبو المِقدام يضعف، ولم يسمع الحسنُ من أبي هريرة، هكذا قال أيوب ويونس بن عبيد وعلي بن زيد.

(٤) أخرجه الترمذي (٢٨٨٨) وقال: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وعُمر بن أبي خَثْعَم يضعف، قال محمد [يعني البخاري]: وهو منكر الحديث.

(٥) أخرجه الطبراني في الكبير (٨٠٢٦)، قال الهيثمي في المجمع ١٦٨/٢: فيه فضَّال بن جبير وهو ضعيف جدًّا.

«مُنْذِرِينَ»، وابتدأت: «فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ»(١). وقيل: الجواب: «إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ»(٢)، وأنكره بعض النحويين من حيث كان صفة للمُقْسَم به، ولا تكون صفة المقسَم به جواباً للقَسَم.

والهاء في «أَنْزَلْنَاهُ» للقرآن(٣). ومَن قال: أقسم بسائر الكتب فقوله: «إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ» كنَى به عن غير القرآن، على ما تقدَّم بيانه في أوَّل «الزخرف»(٤).

والليلةُ المباركة ليلةُ القدر. ويقال: ليلةُ النصف من شعبان، ولها أربعةُ أسماء: الليلةُ المباركة، وليلةُ البراءة، وليلة الصَّكّ، وليلة القدر(٥). ووصفها بالبركة لِمَا يُنزِّل الله فيها على عباده من البركات والخيرات والثواب. وروى قتادة عن واثلةَ أن النبيَّ ﷺ قال: «أنزلت صحف إبراهيم في أول ليلة من رمضان، وأنزلت التوراة لِستٍّ مَضَيْنَ من رمضان، وأُنزِلت الزَّبور لاثنتي عَشرةَ من رمضان، وأُنزِل الإنجيل لثمان عَشْرة خلت من رمضان، وأُنزِل القرآن لأربع وعشرين مضت من رمضان»(٦).

ثم قيل: أُنزِل القرآن كلُّه إلى السماء الدنيا في هذه الليلة. ثم أُنزِل نَجْماً نَجْماً في سائر الأيام على حسب اتفاق الأسباب(٧). وقيل: كان ينزل في كلِّ ليلةِ القدر ما ينزل

---

(١) إيضاح الوقف والابتداء ٢/ ٨٨٨ .

(٢) الكشاف ٣/ ٤٩٩ ، وزاد المسير ٧/ ٣٣٦ .

(٣) زاد المسير ٧/ ٣٣٦ .

(٤) ص٦ من هذا الجزء.

(٥) الكشاف ٣/ ٤٩٩ .

(٦) النكت والعيون ٥/ ٢٤٥ ، وأخرجه الطبراني في الأوسط (٣٧٥٢)، والبيهقي ٩/ ١٨٨ وفيه أن الإنجيل أنزل لثلاث عشرة خلت، وأن الزبور أنزل لثمان عشرة خلت. قال الطبراني: لم يرو هذا الحديث عن قتادة إلا عمران القطان، ولا يروى عن رسول الله ﷺ إلا بهذا الإسناد. قال الهيثمي في المجمع ١/ ١٩٧ : فيه عمران القطان، ضعفه يحيى، ووثقه ابن حبان، وبقية رجاله ثقات. وسلف ٣/ ١٦١ دون ذكر الزبور، وفيه أن الإنجيل أنزل لثلاث عشرة.

(٧) سلف هذا القول في سورة البقرة ٣/ ١٦٠ - ١٦١ .

في سائر السنة[١]. وقيل: كان ابتداء الإنزال في هذه الليلة[٢]. وقال عكرمة: الليلةُ المباركة ها هنا ليلةُ النصف من شعبان[٣]. والأوّل أصحُّ لقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾ [القدر: ١]. قال قتادة وابن زيد: أنزل الله القرآن كلَّه في ليلة القدر من أمّ الكتاب إلى بيت العِزَّة في سماء الدنيا، ثم أنزله الله على نبيه ﷺ في الليالي والأيام في ثلاث وعشرين سنة[٤]. وهذا المعنى قد مضى في «البقرة»[٥] عند قوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾ [الآية: ١٨٥]، ويأتي آنفاً إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ۝٤﴾

قال ابن عباس: يُحْكِم اللهُ أمرَ الدنيا إلى قابل في ليلة القدر ما كان من حياة أو موت أو رزق. وقاله قتادة ومجاهد والحسن وغيرُهم[٦]. وقيل: إلا الشقاءَ والسعادةَ فإنهما لا يتغيَّران. قاله ابن عمر[٧]. قال المهدوي: ومعنى هذا القول: أمرَ الله عزَّ وجلَّ الملائكةَ بما يكون في ذلك العام، ولم يَزَل ذلك في علمه عزَّ وجلَّ. وقال عكرمة: هي ليلة النصف من شعبان، يُبْرَم فيها أمر السَّنة، ويُنسَخ الأحياءُ من الأموات، ويُكتَب الحاجُّ، فلا يُزادُ فيهم أحد ولا يُنْقَص منهم أحد[٨].

وروى عثمان بن المغيرة قال: قال النبيُّ ﷺ: «تُقطَع الآجال من شعبانَ إلى

(١) ينظر تفسير أبي الليث ٣/ ٢١٥ ، والوسيط ٤/ ٨٥ .

(٢) المحرر الوجيز ٥/ ٦٨ .

(٣) أخرجه الطبري ٢١/ ٩ .

(٤) أخرج قول ابن زيد الطبريُّ ٢١/ ٦ ، وأورد قول قتادة البغوي في تفسيره ٤/ ١٤٨ .

(٥) ٣/ ١٦٠ - ١٦١ .

(٦) معاني القرآن للنحاس ٦/ ٣٩٦ - ٣٩٧ .

(٧) عزاه السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٢٥ لابن أبي حاتم.

(٨) أخرجه الطبري ٢١/ ٩ .

شعبانَ حتى إنَّ الرجل لَيَنْكِح ويُولَد له وقد خرج اسمه في الموتى»[١]. وعن النبيِّ ﷺ قال: «إذا كانت ليلة النصف من شعبان، فقوموا ليلتها، وصوموا نهارها[٢]، فإن الله يَنزِل لغروب الشمس إلى سماء الدنيا يقول: ألا مستغفرٌ فأغفرَ له، ألا مبتلًى فأُعافيَه، ألا مسترزقٌ فأرزقه، ألا كذا ألا كذا، حتى يطلعَ الفجر»[٣] ذكره الثعلبي.

وخرج الترمذيُّ بمعناه عن عائشةَ عن النبيِّ ﷺ قال: «إن الله عز وجل ينزل ليلة النصف من شعبان إلى سماء الدنيا، فيغفرُ لأكثرَ من عدد شعر غَنَم كَلْب»[٤]. وفي الباب عن أبي بكرٍ الصديق قال أبو عيسى: حديثُ عائشةَ لا نعرفه مرفوعاً إلا من حديث الحجاجِ بن أرْطاة، عن يحيى بن أبي كثير، عن عروة، عن عائشة، وسمعت محمداً يُضعِّف هذا الحديث، وقال: يحيى بنُ أبي كثير لم يَسمع من عروة، والحجاجُ بن أرطاة لم يَسمع من يحيى بن أبي كثير.

قلت: وقد ذكر حديثَ عائشة مطوَّلاً صاحبُ كتاب «العروس»، واختار أنَّ الليلة التي يُفْرَق فيها كلُّ أمر حكيم ليلةُ النصف من شعبان، وأنها تُسمَّى ليلة البراءة. وقد ذكرنا قوله والردَّ عليه في غير هذا الموضع، وأنَّ الصحيح إنما هي ليلةُ القدر على ما بيَّنَّاه.

روى حمَّاد بن سَلَمةَ قال: أخبرنا ربيعة بنُ كُلْثوم قال: سأل رجل الحسن وأنا عنده فقال: يا أبا سعيد، أرأيت ليلة القدر، أفي كلِّ رمضان هي؟ قال: إي والله

---

(١) كذا أخرجه الطبري ٢١/ ١٠ مرسلاً، وأخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٣٨٣٩) من قول عثمان بن المغيرة. وعثمان هذا هو ابن محمد بن المغيرة الأخنس منسوب إلى جده، قال ابن حجر في التقريب: صدوق له أوهام.

(٢) في (ظ) و(ق): يومها.

(٣) أخرجه ابن ماجه (١٣٨٨)، والبيهقي في شعب الإيمان (٣٨٢٢) وفيه ابن أبي سَبْرَة، واسمه أبو بكر بن عبد الله بن محمد بن أبي سبرة. قال في الزوائد: إسناده ضعيف؛ لضعف ابن أبي سبرة. . . قال فيه أحمد بن حنبل وابن مَعين: يضع الحديث.

(٤) سنن الترمذي (٧٣٩) والكلام بعده منه، وأخرجه أيضاً أحمد (٢٦٠١٨)، وابن ماجه (١٣٨٩).

الذي لا إله إلا هو، إنها لفي[(١)] كلِّ رمضان، إنها الليلةُ التي يُفرَق فيها كلُّ أمر حكيم، فيها يَقضي الله كلَّ خلق وأجلٍ ورزقٍ وعمل إلى مثلها[(٢)].

وقال ابن عباس: يُكتب من أمِّ الكتاب في ليلة القدر ما يكون في السنة من موت وحياة ورزق ومطر حتى الحجّ، يقال: يحجُّ فلان ويحجُّ فلان[(٣)]. وقال في هذه الآية: إنك لترى الرجل يمشي في الأسواق وقد وقع اسمه في الموتى[(٤)]. وهذه الإبانة لأحكام السَّنة إنما هي للملائكة الموكَّلين بأسباب الخلق. وقد ذكرنا هذا المعنى آنفاً.

وقال القاضي أبو بكر بنُ العربي[(٥)]: وجمهورُ العلماء على أنها ليلةُ القدر. ومنهم مَن قال: إنها ليلةُ النصف من شعبان، وهو باطلٌ؛ لأن الله تعالى قال في كتابه الصادق القاطع: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾ [البقرة: ١٨٥]، فنصَّ على أن ميقات نزوله رمضان، ثم عيَّن من زمانه الليلَ ها هنا بقوله: ﴿فِى لَيْلَةٍ مُّبَـٰرَكَةٍ﴾، فمن زعم أنه في غيره فقد أعظم الفِرْية على الله، وليس في ليلة النصف من شعبان حديثٌ يُعوَّل عليه لا في فضلها ولا في نسخ الآجال فيها، فلا تلتفتوا إليها[(٦)].

الزمخشريُّ[(٧)]: وقيل: يُبدَأ في استنساخ ذلك من اللَّوح المحفوظ في ليلة البراءة، ويقع الفراغ في ليلة القدر، فتُدفَع نسخة الأرزاق إلى ميكائيل، ونسخةُ الحروب إلى جبريل، وكذلك الزلازل والصواعق والخسف، ونسخةُ الأعمال إلى

(١) في (د) و(م): في.

(٢) الاستذكار ١٠/ ٣٣٨، وأخرجه الطبري ٢١/ ٧ من طريق يزيد وابن عُليَّة عن ربيعة بن كلثوم.

(٣) أورده السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٢٥ وعزاه لمحمد بن نصر وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٤) أخرجه الطبري ٢١/ ١٠، والحاكم ٢/ ٤٤٨ - ٤٤٩.

(٥) في أحكام القرآن ٤/ ١٦٧٨.

(٦) غير أن فضلها ورد بمجموع أحاديث، وهي - وإن كان في إسناد كلٍّ منها مقال - تتقوى ببعضها. تنظر أحاديث الباب في حاشية المسند (٦٦٤٢).

(٧) في الكشاف ٣/ ٥٠٠، وإلى آخر تفسير الآية منه.

إسماعيلَ صاحبِ سماء الدنيا، وهو مَلَك عظيم، ونسخةُ المصائب إلى مَلَك الموت. وعن بعضهم: يُعطى كلُّ عامل بركاتِ أعماله، فيُلقى على ألسنة الخلق مدحُه، وعلى قلوبهم هيبتُه.

وقُرِئ: «يُفَرِّق»[1] بالتشديد، و«يَفْرُق»[2] كلٌّ على بنائه للفاعل ونصبِ «كلّ»، والفارقُ الله عزّ وجلّ. وقرأ زيد بن عليٍّ ﷺ: «نفرُق» بالنون.

﴿كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾: كلُّ شأنٍ ذي حكمة، أي: مفعول على ما تقتضيه الحكمة.

قوله تعالى: ﴿أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ۝ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝﴾

قوله تعالى: ﴿أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ﴾ قال النقَّاش: الأمرُ هو القرآنُ؛ أنزله الله من عنده. وقال ابن عيسى: هو ما قضاه الله في اللَّيلة المباركة من أحوال عباده[3].

وهو مصدرٌ في موضح الحال. وكذلك ﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ وهما عند الأخفش[4] حالان، تقديرهما: أنزلناه آمرين به وراحمين. المبرِّد: «أمرًا» في موضع المصدر، والتقدير: أنزلناه إنزالاً[5]. الفرَّاء والزجَّاج: «أمرًا» نصب بـ «يُفْرَق»، مثلُ قولك: يُفْرَق فرقًا، فأمر بمعنى فَرْق فهو مصدر، مثلُ قولك: يضرب ضرباً[6]. وقيل: «يُفْرَق» يدلُّ على يؤمر، فهو مصدرٌ عمل فيه ما قبله[7].

﴿إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ . رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ قال الفراء[8]: «رَحْمَةً» مفعول بـ «مرسِلين».

---

(١) في (م): نفرق. وقراءة: يُفَرِّق؛ بالتشديد، ذكرها الزمخشري في الكشاف ٣/ ٥٠٠ .

(٢) قرأ «يَفرُق» بفتح الياء وضم الراء الحسن والأعرج والأعمش، وقرأها بفتح الياء وكسر الراء أبو المتوكل وأبو نهيك ومعاذ القارئ. ينظر القراءات الشاذة ص١٣٧ ، والمحرر الوجيز ٥/ ٦٩ ، وزاد المسير ٧/ ٣٣٧ .

(٣) النكت والعيون ٥/ ٢٤٦ .

(٤) في معاني القرآن ٢/ ٦٩١ .

(٥) مشكل إعراب القرآن ٢/ ٦٥٤ .

(٦) معاني القرآن للفراء ٣/ ٣٩ ، ومعاني القرآن للزجاج ٤/ ٤٢٤ .

(٧) مشكل إعراب القرآن ٢/ ٦٥٤ .

(٨) في معاني القرآن ٣/ ٣٩ .

والرحمةُ النبيُّ ﷺ. وقال الزجّاج: «رَحْمَةً» مفعولٌ من أجله، أي: أرسلناه للرحمة[١]. وقيل: هي بدل من قوله: «أمْراً». وقيل: هي مصدر[٢]. الزمخشريُّ: «أمْراً» نصب على الاختصاص، جعل كلَّ أمر جَزْلاً فَخْماً بأن وصفه بالحكيم، ثم زاده جَزالة وكسبه فخامة بأن قال: أعني بهذا الأمر أمراً حاصلاً من عندنا، كائناً من لَدُنَّا، وكما اقتضاه علمنا وتدبيرنا.

وفي قراءة زيد بن عليٍّ: «أمْرٌ مِنْ عِنْدِنَا» على: هو أمرٌ، وهي تَنْصُر انتصابه على الاختصاص. وقرأ الحسن: «رحمةٌ» على تلك هي رحمةٌ، وهي تنصر انتصابها بأن مفعول له[٣].

قوله تعالى: ﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ۝٧ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٨ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ يَلْعَبُونَ ۝٩﴾

قوله تعالى: ﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ قرأ الكوفيون: «رَبِّ» بالجرّ. الباقون بالرفع[٤]؛ رَدًّا على قوله: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾. وإن شئت على الابتداء، والخبرُ: لا إله إلا هو. أو يكون خبر ابتداء محذوف، تقديره: هو ربُّ السماوات والأرض. والجرُّ على البدل من «رَبِّكَ»، وكذلك: ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ بالجرّ فيهما، رواه الشَّيْزَريّ[٥] عن الكسائي. الباقون بالرفع على الاستئناف.

ثم يحتمل أن يكون هذا الخطاب مع المعترفِ بأن الله خلق السماواتِ

---

(١) معاني القرآن للزجاج ٤/ ٤٢٤ .

(٢) مشكل إعراب القرآن ٢/ ٦٥٥ .

(٣) الكشاف ٣/ ٥٠٠ - ٥٠١ .

(٤) السبعة ص ٥٩٢ ، والتيسير ص ١٩٨ .

(٥) هو عيسى بن سليمان أبو موسى الحجازي المعروف بالشيزري الحنفي، مقرىء عالم نحوي، كان حجازياً، ثم انتقل إلى شيزر، وأقام بها إلى أن مات، فنسب إليها، أخذ القراءة عرضاً وسماعاً عن الكسائي، وله عنه انفرادات. طبقات القراء ١/ ٦٠٨ ، وقراءته في القراءات الشاذة ص١٣٧ .

والأرض، أي: إن كنتم موقنين به؛ فاعلموا أنَّ له أن يُرسل الرسل، ويُنَزِّلَ الكتب. ويجوز أن يكون الخطاب مع مَن لا يعترف أنه الخالق، أي: ينبغي أن يعرفوا أنه الخالق، وأنه الذي يحيي ويميت. وقيل: الموقنُ ها هنا هو الذي يريد اليقين ويطلبه، كما تقول: فلان يُنْجِد، أي: يريد نَجْداً. ويُتهِم، أي: يريد تِهامة[١].

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾ أي: هو خالقُ العالم، فلا يجوز أن يُشرَك به غيرُه ممَّن لا يقدر على خلق شيء. و«هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ» أي: يحيي الأموات ويميت الأحياء. ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي: مالِكُكم ومالكُ مَن تقدَّم منكم. واتَّقُوا تكذيب محمد لئلا يَنْزِل بكم العذاب.

﴿بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ يَلْعَبُونَ﴾ أي: ليسوا على يقين فيما يُظهرونه من الإيمان والإقرار في قولهم: إن الله خالقُهم، وإنما يقولونه لتقليد آبائهم من غير علم، فهم في شكّ. وإن توهَّموا أنهم مؤمنون، فهم يلعبون في دينهم بما يعُنُّ من غير حجة. وقيل: «يَلْعَبُونَ»: يضيفون إلى النبيِّ ﷺ الافتراءَ استهزاءً. ويقال لمن أعرض عن المواعظ[٢]: لاعب، وهو كالصبيِّ الذي يلعب فيفعل ما لا يدري عاقبته.

قوله تعالى: ﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى ٱلنَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾ ارتقب معناه: انتظر، أي: انتظر يا محمدُ بهؤلاء[٣] الكفار يوم تأتي السماء بدخان مبين. قاله قتادة[٤]. وقيل: معناه: احفظ قولهم هذا لتشهد عليهم يوم تأتي السماء بدخان مبين، ولذلك سُمِّيَ الحافظُ رقيباً[٥].

---

(١) ينظر هذا القول في تفسير الرازي ٢٧/ ٢٤١ .

(٢) في (ظ): الذكر.

(٣) في (ظ): هؤلاء، وقوله: أي انتظر، من (ظ).

(٤) النكت والعيون ٥/ ٢٤٦ ، وأخرجه الطبري ٢١/ ١٣ .

(٥) النكت والعيون ٥/ ٢٤٧ .

وفي الدُّخان أقوال ثلاثة:

الأول: أنه من أشراط الساعة لم يَجِئ بعدُ، وأنه يمكث في الأرض أربعين يوماً يملأ ما بين السماء والأرض، فأما المؤمنُ فيصيبه مثل الزُّكام، وأما الكافرُ والفاجر فيدخل في أنوفهم فيَثْقُبُ مسامِعَهم، ويُضَيِّقُ أنفاسهم، وهو من آثار جهنَم يوم القيامة. وممَّن قال إن الدخان لم يأتِ بعدُ: عليٌّ، وابن عباس، وابنُ عمر، وأبو هريرة، وزيدُ ابن عليّ، والحسنُ، وابنُ أبي مُلَيكَة، وغيرُهم[١]. وروى أبو سعيدٍ الخُدْريُّ مرفوعاً أنه دخانٌ يَهيجُ بالناس يوم القيامة، يأخذ المؤمنَ منه كالزَّكْمة، وينفخُ الكافرَ حتى يخرج من كلِّ مسمع منه. ذكره الماوردي[٢].

وفي صحيح مسلم عن أبي الطُّفَيل، عن حُذيفةَ بنِ أَسِيدٍ الغِفاريِّ قال: اطَّلع النبيُّ ﷺ علينا ونحن نتذاكر فقال: «ما تذكرون»؟ قالوا: نذكر الساعة، قال: «إنها لن تقوم حتى تَرَوْا قبلها عَشْرَ آيات - فذكر - الدُّخانَ، والدَّجّالَ، والدَّابَّةَ، وطلوعَ الشمس من مغربها، ونزولَ عيسى ابنِ مريم، وخروجَ يأجوجَ ومأجوجَ، وثلاثةَ خُسُوف: خَسْفٌ بالمَشْرِق، وخَسْفٌ بالمغرب، وخَسْفٌ بجزيرة العرب، وآخِرُ ذلك نارٌ تخرج من اليَمَن تَطْرُد الناس إلى مَحْشَرهم»[٣].

وفي رواية عن حُذيفة: «إن الساعة لا تكون حتى تكون عَشْرُ آيات: خَسْفٌ بالمشرق، وخَسْفٌ بالمغرب، وخَسْفٌ في جزيرة العرب، والدُّخانُ، والدَّجّالُ، ودابَّةُ الأرض، ويأجوجُ ومأجوجُ، وطلوعُ الشمس من مغربها، ونارٌ تخرج من قَعْر عَدَن تُرَحِّلُ الناس»[٤].

---

(١) قول علي في تفسير عبد الرزاق ٢/ ٢٠٦، وتفسير ابن أبي حاتم ١٠/ ٣٢٨٨ (١٨٥٣٤)، وقول ابن عباس وابن عمر والحسن في تفسير الطبري ٢١/ ١٨ - ١٩. وقول أبي هريرة في زاد المسير ٧/ ٣٣٩، وقول زيد بن علي في المحرر الوجيز ٥/ ٦٩، وقول ابن أبي مليكة في المفهم ٧/ ٢٣٩.

(٢) في النكت والعيون ٥/ ٢٤٧، وأخرجه الطبري ٢١/ ١٩، وابن أبي حاتم ١٠/ ٣٢٨٧ (١٨٥٣٣).

(٣) صحيح مسلم (٢٩٠١): (٣٩)، وهو عند أحمد (١٦١٤١).

(٤) صحيح مسلم (٢٩٠١): (٤٠).

وخرَّجه الثعلبيُّ أيضاً عن حُذيفةَ قال: قال رسول الله ﷺ: «أوَّلُ الآيات خروجاً: الدَّجَّالُ، والدخان[١]، ونزولُ عيسى ابنِ مريم، ونارٌ تخرج من قَعْر عَدَن أبْيَنَ تسوق الناس إلى المحشر، تَبيت معهم حيث باتوا، وتَقِيل معهم إذا قالوا، وتُصبح معهم إذا أصبحوا، وتُمْسي معهم إذا أمسَوا». قلت: يا نبيَّ الله، وما الدُّخان؟ قال: «هذه الآية: ﴿فَٱرۡتَقِبۡ يَوۡمَ تَأۡتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٖ مُّبِينٖ﴾ يملأ ما بين المشرق والمغرب، يمكث أربعين يوماً وليلة، أمَّا المؤمنُ فيصيبه منه شبهُ الزُّكام، وأما الكافرُ فيكون بمنزلة السَّكران يخرج الدخان من فمه ومَنْخَره وعينيه وأُذُنيه ودبره»[٢].فهذا قول.

القول الثاني: أن الدخان هو ما أصاب قريشاً من الجوع بدعاء النبيِّ ﷺ، حتى كان الرجل يرى بين السماء والأرض دخاناً. قاله ابن مسعود[٣]. قال: وقد كشفه الله عنهم، ولو كان يوم القيامة لم يكشفه عنهم.

والحديثُ عنه بهذا في صحيح البخاريِّ ومسلم والترمذيِّ. قال البخاريُّ: حدثني يحيى قال: حدثنا أبو معاوية، عن الأعمش، عن مسلم، عن مَسْرُوق قال: قال عبد الله: إنما كان هذا لأن قريشاً لمَّا استعصت على النبيِّ ﷺ، دعا عليهم بسنينَ كَسِنِي يوسف، فأصابهم قَحْطٌ وجَهْد حتى أكلوا العظام، فجعل الرجل ينظر إلى السماء فيرى ما بينه وبينها كهيئة الدُّخان من الجَهْد، فأنزل الله تعالى: ﴿فَٱرۡتَقِبۡ يَوۡمَ تَأۡتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٖ مُّبِينٖ . يَغۡشَى ٱلنَّاسَۖ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾. قال: فأُتيَ رسول الله ﷺ فقيل: يا رسول الله، استسق الله لِمُضَر فإنها قد هلكت. قال: «لِمُضَر! إنك لَجَريء». فاستسقى فسُقُوا، فنزلت: ﴿إِنَّكُمۡ عَآئِدُونَ﴾ [الآية: ١٥]. فلمَّا أصابتهم الرفاهية، عادوا إلى حالهم حين أصابتهم الرفاهية، فأنزل الله عز وجل: ﴿يَوۡمَ نَبۡطِشُ ٱلۡبَطۡشَةَ ٱلۡكُبۡرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾. قال: يعني يومَ بدر[٤].

---

(١) قوله: والدخان، من (ظ).

(٢) أخرجه الطبري ٢١/ ١٩ - ٢٠ .

(٣) ينظر النكت والعيون ٥/ ٢٤٧ ، والمحرر الوجيز ٥/ ٦٩ ، وزاد المسير ٧/ ٣٤٠ .

(٤) صحيح البخاري (٤٨٢١)، وصحيح مسلم (٢٧٩٨): (٤٠)، وسنن الترمذي (٣٢٥٤)، وهو عند أحمد (٣٦١٣).

قال أبو عبيدة[١]: والدُّخان الجَدْب. القُتَبيُّ[٢]: سُمِّيَ دخاناً ليُبس الأرض منه حين يرتفع منها كالدخان.

القول الثالث: إنه يوم فتح مكة لمَّا حجبت السماءَ الغبرةُ. قاله عبد الرحمن الأعرج[٣].

﴿يَغْشَى ٱلنَّاسَ﴾ في موضع الصفة للدُّخان، فإن كان قد مضى على ما قال ابن مسعود، فهو خاصٌّ بالمشركين من أهل مكة، وإن كان من أشراط الساعة فهو عامٌّ على ما تقدم. ﴿هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: يقول الله لهم: «هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ». فمن قال: إن الدخان قد مضى، فقولُه: «هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ» حكايةُ حالٍ ماضية، ومَن جعله مستقبلاً، فهو حكايةُ حالٍ آتية. وقيل: «هَذَا» بمعنى ذلك. وقيل: أي: يقول الناس لذلك الدخان: «هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ»[٤]. وقيل: هو إخبارٌ عن دُنُوِّ الأمر، كما تقول: هذا الشتاء فأعِدَّ له.

قوله تعالى: ﴿رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾﴾

أي: يقولون ذلك: اكشف عنا العذاب، فـ«إِنَّا مُؤْمِنُونَ»، أي: نؤمن بك إن كشفته عنا. قيل: إن قريشًا أتَوُا النبيَّ ﷺ وقالوا: إن كشف الله عنا هذا العذابَ، أسلمنا، ثم نقضوا هذا القول[٥]. قال قتادة: «العَذَابَ» هنا الدخان. وقيل: الجوع. حكاه النقَّاش[٦].

قلت: ولا تناقض، فإن الدُّخان لم يكن إلا من الجوع الذي أصابهم، على ما

(١) في مجاز القرآن ٢/ ٢٠٨، ونقله المصنف بواسطة الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٢٤٧.

(٢) في تفسير غريب القرآن ص ٤٠٢، ونقله المصنف بواسطة الماوردي في النكت والعيون.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم ١٠/ ٣٢٨٧ (١٨٥٣٢).

(٤) هذا القول في معاني القرآن للزجاج ٤/ ٤٢٥، وزاد المسير ٧/ ٣٤١.

(٥) سلف هذا القول في الآية السابقة في الحديث الذي أخرجه البخاري عن ابن مسعود ﷺ.

(٦) النكت والعيون ٥/ ٢٤٧.

تقدَّم. وقد يقال للجوع والقحط: الدخان؛ ليُبس الأرض في سنة الجَدْب، وارتفاع الغبار بسبب قلَّة الأمطار، ولهذا يقال لسنة الجَدْب: الغَبْراء[١]. وقيل: إن العذاب هنا الثلج. قال الماورديُّ[٢]: وهذا لا وجه له؛ لأن هذا إنما يكون في الآخرة، أو في أهل مكة، ولم تكن مكةُ من بلاد الثلج، غير أنه مقولٌ فحكيناه.

قوله تعالى: ﴿أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ﴿١٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ أي: من أين يكون لهم التذكُّر والاتعاظ عند حلول العذاب. ﴿وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ﴾: يبيِّن لهم الحقَّ، والذِّكْرى والذِّكْرُ واحد. قاله البخاريُّ[٣]. ﴿ثُمَّ تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ﴾ أي: أعرضوا. قال ابن عباس: أي: متى يتَّعظون واللهُ أبعدهم من الاتعاظ والتذكُّر بعد تولِّيهم عن محمد ﷺ وتكذيبِهم إيَّاه؟! وقيل: أي: أنَّى ينفعهم قولُهم: «إِنَّا مُؤْمِنُونَ» بعد ظهور العذاب غدًا أو بعد ظهور أعلام الساعة! فقد صارت المعارف ضرورية. وهذا إذا جعلتَ الدخان آية مرتقبة. ﴿وَقَالُوا۟ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ﴾ أي: عَلَّمه بَشَرٌ، أو علَّمه الكَهَنة والشياطين، ثم هو مجنونٌ وليس برسول.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا كَاشِفُوا۟ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا ۚ إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ ﴿١٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّا كَاشِفُوا۟ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا ۚ﴾ أي: وقتاً قليلاً، وعَدَ أن يكشف عنهم ذلك العذابَ قليلاً، أي: في زمانٍ قليلٍ ليعلم أنهم لا يَفُون بقولهم، بل يعودون إلى الكفر بعد كشفه. قاله ابن مسعود. فلمَّا كُشِف ذلك عنهم باستسقاء النبيِّ ﷺ لهم، عادوا إلى تكذيبه[٤]. ومَن قال: إن الدخان منتظَرٌ قال: أشار بهذا إلى ما يكون من الفُرْجة بين

---

(١) تفسير غريب القرآن ص ٤٠٢ .

(٢) في النكت والعيون ٥/ ٢٤٧ وما قبله منه.

(٣) في صحيحه قبل حديث (٤٨٢٣).

(٤) النكت والعيون ٥/ ٢٤٧ .

آية وآية من آيات قيام الساعة. ثم مَن قضى عليه بالكفر يستمرُّ على كفره، ومَن قال هذا في القيامة قال: أي لو كشفنا عنكم العذابَ، لعدتم إلى الكفر. وقيل: معنى ﴿إِنَّكُمْ عَائِدُونَ﴾ إلينا، أي: مبعوثون بعد الموت. وقيل: المعنى: «إِنَّكُمْ عَائِدُونَ» إلى نار جهنم إن لم تؤمنوا(١).

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴿١٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ﴾ محمولٌ على ما دلَّ عليه ﴿مُنتَقِمُونَ﴾، أي: ننتقم منهم يوم نبطِش. وأبعده بعض النَّحْويين بسبب أنَّ ما بعد «إنَّ» لا يفسِّر ما قبلها. وقيل: إن العامل فيه «مُنْتَقِمُونَ». وهو بعيدٌ أيضاً؛ لأن ما بعد «إن» لا يعمل فيما قبلها. ولا يحسن تعلُّقهُ بقوله: «عَائِدُونَ»، ولا بقوله: «إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابِ»؛ إذ ليس المعنى عليه. ويجوز نصبُه بإضمار فعل، كأنه قال: ذكِّرهم، أو: اذكر. ويجوز أن يكون المعنى: إنكم عائدون، فإذا عُدتُم أنتَقِمُ منكم يومَ نبطِش البطشة الكبرى. ولهذا وصل هذا بقصة فرعون، فإنهم وعدوا موسى الإيمانَ إن كشف عنهم العذاب، ثم لم يؤمنوا حتى غرِقوا. وقيل: «إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابِ قَلِيلاً إِنَّكُمْ عائِدُونَ» كلامٌ تامٌّ. ثم ابتدأ: «يَوْمَ نَبْطِشُ البَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنْتَقِمُونَ» أي: ننتقم من جميع الكفار. وقيل: المعنى وارتقب الدُّخان وارتقب يَوْمَ نَبْطِش، فحذف واو العطف، كما تقول: اتق النار اتق العذاب.

و﴿الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ﴾ في قول ابن مسعود: يوم بدر. وهو قولُ ابنِ عباس وأُبَيِّ بن كعب ومجاهدٍ والضحاك(٢). وقيل: عذابُ جهنمَ يوم القيامة. قاله الحسن وعكرمة وابن عباس أيضاً(٣)، واختاره الزَّجّاج. وقيل: دخانٌ يقع في الدنيا، أو جوعٌ أو قحطٌ

(١) النكت والعيون ٥/ ٢٤٧.

(٢) أخرج قولهم الطبري ٢١/ ٢٥ - ٢٧.

(٣) النكت والعيون ٥/ ٢٤٨، وأخرج قولهم الطبري ٢١/ ٢٧.

يقع قبل يوم القيامة. الماورديُّ[(١)]: ويحتمل أنها قيام الساعة؛ لأنها خاتمةُ بطشاته في الدنيا. ويقال: انتقم الله منه، أي: عاقبه. والاسم منه النَّقْمة، والجمعُ النَّقِمات[(٢)]. وقيل بالفرق بين النَّقْمة والعقوبة، فالعقوبة بعد المعصية لأنها من العاقبة. والنَّقْمة قد تكون قبلها. قاله ابن عباس[(٣)]. وقيل: العقوبةُ ما تقدَّرت، والانتقامُ غير مقدَّر.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾﴾

أي: ابتليناهم، ومعنى هذه الفتنةِ والابتلاءِ الأمرُ بالطاعة. والمعنى: عاملناهم معاملة المختبر ببعثة موسى إليهم، فكذَّبوا فأُهلِكوا، فهكذا أَفعلُ بأعدائك يا محمدُ إن لم يؤمنوا. وقيل: فتنَّاهم: عذَّبناهم بالغرق. وفي الكلام تقديمٌ وتأخير، والتقدير: ولقد جاء آلَ فرعون رسولٌ كريمٌ وفتنَّاهم، أي: أغرقناهم؛ لأن الفتنة كانت بعد مجيء الرسل. والواو لا تُرتِّب.

ومعنى ﴿كَرِيمٌ﴾ أي: كريمٌ في قومه. وقيل: كريمُ الأخلاق بالتجاوز والصفح[(٤)]. وقال الفرَّاء[(٥)]: كريمٌ على ربِّه إذِ اختصه بالنبوَّة وإسماع الكلام.

قوله تعالى: ﴿أَنْ أَدُّوٓاْ إِلَىَّ عِبَادَ ٱللَّهِ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾ وَأَن لَّا تَعْلُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِنِّىٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَنْ أَدُّوٓاْ إِلَىَّ عِبَادَ ٱللَّهِ﴾ قال ابن عباس: المعنى: جاءهم فقال: اتبعوني[(٦)]. فـ«عِبَادَ اللَّهِ» منادى. وقال مجاهد: المعنى: أَرسِلوا معي عبادَ الله

---

(١) في النكت والعيون ٥/٢٤٨.

(٢) الصحاح (نقم).

(٣) في النكت والعيون ٥/٢٤٨ والكلام وما سيرد منه: قاله ابن عيسى.

(٤) النكت والعيون ٥/٢٤٩.

(٥) في معاني القرآن ٣/٤٠.

(٦) أخرجه الطبري ٢١/٢٩.

وأطلقوهم من العذاب[١]. فـ«عِبَادَ اللَّهِ» على هذا مفعول. وقيل: المعنى: أدُّوا إليَّ عبادَ الله ما وجبَ عليكم من حقوق الله. وقيل: أي[٢]: أدُّوا إليَّ سمعَكم حتى أُبلِّغكم رسالةَ ربي.

﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ أي: أمينٌ على الوحي فاقبلوا نُصحي. وقيل: أمينٌ على ما أستأديه منكم، فلا أَخونُ فيه[٣].

﴿وَأَن لَّا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ﴾ أي: لا تتكبروا عليه ولا ترتفعوا عن طاعته. وقال قتادة: لا تبغُوا على الله. ابن عباس: لا تفتروا على الله[٤]. والفرقُ بين البغي والافتراء: أن البغي بالفعل والافتراء بالقول. وقال ابن جُريج: لا تَعْظُمُوا على الله. يحيى بن سلام: لا تستكبروا على عبادة[٥] الله. والفرقُ بين التعظيم والاستكبار: أن التعظيم تطاولُ المقتدِر، والاستكبارَ تَرفُّعُ المحتقِر. ذكره الماوردي[٦].

﴿إِنِّي آتِيكُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ قال قتادة: بعذر بيِّن. وقال يحيى بن سلام: بحجة بيِّنة. والمعنى واحد، أي: برهان بيِّن.

قوله تعالى: ﴿وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾﴾

كأنهم توعَّدوه بالقتل فاستجار بالله. قال قتادة: «تَرْجُمُونِ» بالحجارة[٧]. وقال ابن عباس: تشتمونِ، فتقولوا: ساحرٌ كذَّاب[٨]. وأظهر الذَّال من «عُذْتُ» نافعٌ وابنُ

(١) تفسير مجاهد ٢/ ٥٨٨ بنحوه.

(٢) من قوله: أدُّوا إليَّ، إلى هذا الموضع من (ظ).

(٣) النكت والعيون ٥/ ٢٤٩.

(٤) أخرج قول قتادة وابن عباس الطبري ٢١/ ٣١.

(٥) في (د) والنكت والعيون ٥/ ٢٤٩: عباد.

(٦) في النكت والعيون ٥/ ٢٤٩ وما سيرد منه.

(٧) أخرجه الطبري ٢١/ ٣٢.

(٨) أخرجه الطبري ٢١/ ٣٢ بنحوه.

كثير وابن عامر وعاصمٌ ويعقوب، وأدغم الباقون[١]. والإدغامُ طلباً للتخفيف، والإظهار على الأصل. ثم قيل: إني عذت بالله فيما مضى؛ لأن الله وعده فقال: ﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا﴾ [القصص: ٣٥]. وقيل: إني أعوذ، كما تقول: نشدتك بالله، وأقسمت عليك بالله، أي: أُقسِم.

قوله تعالى: ﴿وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ ﴿٢١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا لِي﴾ أي: إن لم تصدِّقوني ولم تؤمنوا بالله لأجل برهاني. فاللام في «لي» لامُ أَجْل[٢]. وقيل: أي: وإن لم تؤمنوا بي[٣]، كقوله: ﴿فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ﴾ [العنكبوت: ٢٦] أي: به. ﴿فَاعْتَزِلُونِ﴾ أي: دعُوني كَفافاً لا ليَ ولا عَلَيَّ[٤]. قاله مقاتل. وقيل: أي: كونوا بمعزل مني[٥] وأنا بمعزِل منكم إلى أن يحكم الله بيننا. وقيل: فخلُّوا سبيلي وكُفُّوا عن أذاي[٦]. والمعنى متقارب، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَٰؤُلَاءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَدَعَا رَبَّهُ﴾ فيه حذفٌ، أي: فكفروا فدعا ربه. ﴿أَنَّ هَٰؤُلَاءِ﴾ بفتح «أَنَّ» أي: بأنَّ هؤلاء[٧]. ﴿قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ﴾ أي: مشركون[٨]، قد امتنعوا من إطلاق بني إسرائيلَ ومن الإيمان.

---

(١) التيسير ص٤٢، والنشر ٢/ ١٦ .

(٢) تفسير الرازي ٢٧/ ٢٤٥ .

(٣) المحرر الوجيز ٥/ ٧١ .

(٤) معاني القرآن للنحاس ٦/ ٤٠٢، والكشاف ٣/ ٥٠٣ . وفي القاموس: دعني كَفافِ، كقطامِ: كُفَّ عني وأكُفُّ عنك. قال الزَّبيدي في شرحه: ويجيء معرباً، ومنه قول عمر ﷺ: وددتُ أني سلمت من الخلافة كفافاً، لا عليَّ ولا لي.

(٥) في (د) و(ظ): عني .

(٦) النكت والعيون ٥/ ٢٥٠ .

(٧) معاني القرآن للزجاج ٤/ ٤٢٦، والوسيط ٤/ ٨٨، والكشاف ٣/ ٥٠٣ .

(٨) زاد المسير ٧/ ٣٤٣ .

قوله تعالى: ﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾﴾

فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلًا﴾ أي: فأجبنا دعاءه وأوحينا إليه أَنْ أسرِ بعبادي، أي: بمن آمن بالله من بني إسرائيل. ﴿لَيْلًا﴾ أي: قبل الصباح. ﴿إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾ وقرأ أهل الحجاز «فاسْرِ» بوصل الألف. وكذلك ابنُ كثير، مِن سَرَى. الباقون: «فَأَسْرِ» بالقطع، مِن أَسْرى[١]. وقد تقدَّم[٢]. وتقدَّم خروجُ فرعونَ وراء موسى في «البقرة والأعراف وطه والشعراء ويونس»[٣] وإغراقُه وإنجاءُ موسى، فلا معنى للإعادة.

الثانية: أُمِر موسى عليه السلام بالخروج ليلاً. وسَيْرُ الليل في الغالب إنما يكون عن خَوْف، والخوفُ يكون بوجهين: إمَّا من العدوِّ فيتخذ الليل سِتراً مُسْدِلاً، فهو من أستار الله تعالى. وإمَّا مِن خوْفِ المشقة على الدَّواب والأبدان بِحَرٍّ أو جَدْب، فيتخذ السُّرَى مصلحةً من ذلك. وكان النبيُّ ﷺ يَسْرِي ويُدْلج[٤] ويترفَّق ويستعجل، بحسب الحاجة وما تقتضيه المصلحة[٥]. وفي الصحيح عن النبيِّ ﷺ: «إذا سافرتم في الخِصْب، فأعطوا الإبل حَظَّها من الأرض، وإذا سافرتم في السَّنَة، فبادروا بها نِقْيَها»[٦]. وقد مضى في أول «النحل»، والحمد لله.

---

(١) التيسير ص ١٢٥، والنشر ٢/ ٢٩٠.

(٢) ١١/ ١٨٢.

(٣) ٢/ ٩٢ - ٩٣، و١١/ ٤٥، و١٤/ ١١١، ١٦/ ٣١ وما بعدها.

(٤) قوله: ويدلج من الدُّلْجة، وهو السير من أول الليل. القاموس (دلج).

(٥) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٦٧٩.

(٦) أخرجه مسلم (١٩٢٦) من حديث أبي هريرة ﷺ، وسلف ١٢/ ٢٧٧. والمراد بالسَّنة القحط، ونقيها - بكسر النون وإسكان القاف - وهو المخّ، أي: إن سافرتم في القحط فعجّلوا السير لتصلوا المقصد وفيها بقية من قوتها. شرح صحيح مسلم للنووي ١٣/ ٦٩.

قوله تعالى: ﴿وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًاۖ إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾﴾

قال ابن عباس: ﴿رَهْوًاۖ﴾ أي: طريقاً. وقاله كعب والحسن. وعن ابن عباس أيضاً: سَمْتاً. الضحّاك والربيع: سهلاً. عكرمة: يَبَسًا[١]، لقوله: ﴿فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا﴾ [طه: ٧٧] .وقيل: مفترِقاً. مجاهد: منفرِجًا[٢]. وعنه: يابسًا[٣]. وعنه: ساكنًا[٤]. وهو المعروف في اللغة. وقاله قتادة[٥] والهرويُّ. وقال غيرهما: منفرِجًا. وقال ابن عرفة: وهما يرجعان إلى معنى واحد وإن اختلف لفظاهما، لأنه إذا سكن جَرْيُه انفرج. وكذلك كان البحر يسكن جريه وانفرج لموسى عليه السلام. والرَّهْوُ عند العرب: الساكن، يقال: جاءت الخيل رَهْوًا، أي: ساكنة. قال:

والخيل تَمْزَعُ رَهْوًا في أعنَّتها ... كالطير تنجو من الشُّؤْبُوبِ ذي البرَدِ[٦]

الجوهري[٧]: ويقال: افعل ذلك رَهْوًا، أي: ساكناً على هِينَتِك. وعيشٌ راهٍ، أي: ساكنٌ رافِهٌ. وخِمْسٌ[٨] راهٍ: إذا كان سهلاً. ورها البحر، أي: سَكَن. وقال أبو عبيدة[٩]: رَهَا بين رجليه يَرْهُو رَهْوًا، أي: فتح، ومنه قوله تعالى: ﴿وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ

(١) أخرج هذه الأقوال دون قول ابن عباس الأول وقول الحسن الطبريُّ ٢١/ ٣٥-٣٧ ، أما قول ابن عباس الأول فقد أورده الواحدي في الوسيط ٤/ ٨٩ ، وقول الحسن أخرجه ابن الأنباري في الأضداد ص١٥١ .

(٢) أورد هذا القول أبو الليث في تفسيره ٣/ ٢١٨ ، والماوردي في النكت والعيون ٥/ ٢٥٠ ، والسيوطي في الدر المنثور ٦/ ٣٠ وعزاه لعبد بن حميد.

(٣) تفسير مجاهد ٢/ ٥٨٩ ، وعلقه عنه البخاري قبل الحديث (٤٨٢٠) .

(٤) معاني القرآن للنحاس ٦/ ٤٠٣ ، والوسيط ٤/ ٨٨ ، وعلقه البخاري قبل حديث (٤٨٢٠) .

(٥) أخرجه ابن الأنباري في الأضداد ص ١٥١ .

(٦) قائله النابغة الذبياني وهو في ديوانه ص ٣٤ ، وفيه : غَرْباً ، بدل : رهواً . والغَرْب الفرس الكثير الجري . وتمزع، أي: تسرع . والشؤبوب: الدُّفعة من المطر . القاموس (غرب) و(مزع) و(شأب) .

(٧) في الصحاح (رها) .

(٨) الخِمس: من أظمأ الإبل ، وهي أن ترعى ثلاثة أيام ، وترد اليوم الرابع ، وقد أخمس الرجل ، أي : وردت إبله خِمساً . الصحاح (خمس) .

(٩) في (م) : أبو عبيد .

رَهْوًا﴾. والرَّهْوُ: السيرُ السَّهْل، يقال: جاءت الخيل رَهْوًا. قال ابن الأعرابي: رَهَا يَرْهُو في السير، أي: رَفَقَ. قال القَطامي في نعت الرِّكَاب:

يَمْشِينَ رَهْوًا فلا الأعجازُ خاذِلةٌ ولا الصدورُ على الأعجاز تَتَّكِلُ[(١)]

والرَّهْوُ والرَّهْوَة: المكان المرتفع، والمنخفض أيضاً يجتمع فيه الماء، وهو من الأضداد. وقال أبو عبيد: الرَّهْو: الجَوْبَةُ تكون في[(٢)] مَحَلَّة القوم يسيل فيها ماء المطر وغيره[(٣)]. وفي الحديث أنه قضى أن «لا شُفعةَ في فِناء ولا طريقٍ ولا مَنْقَبةٍ ولارُكْحٍ ولا رَهْوٍ»[(٤)]. والجمع رِهَاء. والرَّهْوُ: المرأةُ الواسعة الهَنِ، حكاه النَّضْر بن شُمَيلٍ. والرَّهْو: ضربٌ من الطير، ويقال: هو الكُرْكِيُّ.

قال الهَرَويُّ: ويجوز أن يكون «رَهْوًا» من نعت موسى ـ وقاله القشيريّ ـ أي: سِرْ ساكنًا على هِينَتِك، فالرَّهوُ من نعت موسى وقومِه لا من نعت البحر. وعلى الأوّل هو من نعت البحر، أي: اتركه ساكنًا كما هو قد انفرق، فلا تأمره بالانضمام حتى يدخل فرعون وقومه[(٥)].

قال قتادة: أراد موسى أن يضرب البحر لمَّا قطعه بعصاه حتى يلتئم، وخاف أن يتبعه فرعون، فقيل له هذا[(٦)].

وقيل: ليس الرَّهْو من السكون، بل هو الفُرجة بين الشيئين، يقال: رَهَا ما بين الرِّجلين، أي: فرج. فقوله: «رَهْوًا» أي: منفرِجًا. وقال الليث: الرَّهْو مَشْيٌ في

---

(١) ديوان القطامي ص ٢٦ .

(٢) بعدها في (د) و(ظ) : فناء. اهـ. والجَوْبة: الحفرة المستديرة الواسعة. المعجم الوسيط.

(٣) غريب الحديث ٣/ ١٢٢ .

(٤) أورده أبو عبيد في غريب الحديث ٣/ ١٢١ ، وابن الأثير في النهاية ٢/ ٢٨٥ . قال أبو عبيد : المَنْقَبة هي الطريق الضيق يكون بين الدارين لا يمكن أن يسلكه أحد . والرُّكح : ناحية البيت من ورائه ، وربما كان فضاء لا بناء فيه .

(٥) بنحوه في تهذيب اللغة ٦/ ٤٠٤ .

(٦) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ٢٠٨ ، والطبري ٢١/ ٣٥ .

سكون[١]، يقال: رها يرهو رَهْوًا فهو راهٍ. وعيشٌ راهٍ: وادعٌ خافض. وافعل ذلك سَهْوًا رَهْوًا، أي: ساكنًا بغير شدَّة. وقد ذكرناه آنفاً.

﴿إِنَّهُمْ﴾ أي: إن فرعون وقومه ﴿جُندٌ مُّغْرَقُونَ﴾ أخبر موسى بذلك ليسكن قلبه.

قوله تعالى: ﴿كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ . وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ ﴿كَمْ﴾ للتكثير. وقد مضى الكلام في معنى هذه الآية في «الشعراء» مستوفًى[٢]. ﴿وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ﴾ النَّعْمة ـ بالفتح ـ: التنعيم، يقال: نعَّمه الله وناعَمَه فتَنعَّم، وامرأةٌ مُنَعَّمةٌ ومُنَاعَمَةٌ، بمعنًى. والنِّعمة ـ بالكسر ـ: اليد والصنيعة والمِنَّة وما أُنعِم به عليك. وكذلك النُّعْمى. فإن فتحتَ النون مددتَ وقلتَ: النَّعماء. والنعيم مثله. وفلانٌ واسعُ النعمة، أي: واسعُ المال، جميعه عن الجوهريّ[٣]. وقال ابن عمر: المراد بالنَّعمة نيلُ مصر. ابن لهيعة: الفَيُّوم[٤]. ابن زياد: أرضُ مصرَ لكثرة خيرها. وقيل: ما كانوا فيه من السَّعة والدَّعَة. وقد يقال: نَعْمَة ونِعْمَة؛ بفتح النون وكسرها، حكاه الماورديّ[٥]. قال: وفي الفرق بينهما وجهان:

أحدهما: أنها بكسر النون في المِلْك، وبفتحها في البَدَن والدِّين. قاله النَّضْر بن شُمَيل.

الثاني: أنها بالكسر من المِنَّة؛ وهو الإفضال والعطيَّة، وبالفتح من التنعيم؛ وهو

---

(١) ذكر قول الليث الأزهري في تهذيب اللغة ٦/٤٠٣ .

(٢) ١٣/١٠٢ وما بعدها .

(٣) في الصحاح (نعم).

(٤) الفيوم: موضع بمصر، بينها وبين الفسطاط أربعة أيام ، بينهما مفازة لا ماء بها ولا مرعى . معجم البلدان ٤/٢٨٦ .

(٥) في النكت والعيون ٥/٢٥١ - ٢٥٢ .

سَعةُ العيش والراحة. قاله ابن زياد.

قلت: هذا الفرق هو الذي وقع في الصحاح وقد ذكرناه .

وقرأ أبو رجاء والحسن وأبو الأشهب والأعرج وأبو جعفر وشيبة: «فَكِهِينَ» بغير ألف[١]، ومعناه: أشِرين بَطِرين[٢]. قال الجوهري: فَكِهَ الرجل ـ بالكسر ـ فهو فَكِهٌ: إذا كان طيِّب النفس مَزَّاحاً. والفَكِه أيضاً الأشِر البَطِر. وقرئ: «وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَكِهِينَ»، أي: أَشِرين بَطِرين. و«فَاكِهِينَ» أي: ناعمين[٣]. القشيري: «فَاكِهِينَ»: لاهين مازحين، يقال: إنه لفاكه، أي مَزَّاح. وفيه فكاهة، أي: مَزِح. الثعلبيّ: وهما لغتان كالحاذر والحَذِر، والفارِه والفَرِه. وقيل: إن الفاكه هو المستمتع بأنواع اللذة؛ كما يتمتع الآكل بأنواع الفاكهة[٤]. والفاكهة: فضلٌ عن القوت الذي لا بدّ منه.

قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾﴾

قال الزَّجَّاج: أي الأمر كذلك؛ فيوقف على «كَذَٰلِكَ»[٥]. وقيل: إن الكاف في موضع نصب، على تقدير: نفعل فعلاً كذلك بمن نريد إهلاكه[٦]. وقال الكلبي: «كَذَٰلِكَ» أفعل بمن عصاني[٧]. وقيل: «كَذَٰلِكَ» كان أمرهم فأُهلكوا .﴿وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ﴾ يعني بني إسرائيل، ملّكهم الله تعالى أرض مصر بعد أن كانوا فيها مستعبَدين، فصاروا لها وارثين؛ لوصول ذلك إليهم كوصول الميراث[٨]. ونظيره:

---

(١) قراءة أبي رجاء والحسن في تفسير الطبري ٢١/ ٣٩ ، والمحرر الوجيز ٥/ ٧٣، وقراءة أبي جعفر في النشر ٢/ ٣٥٤ ، وهو من العشرة.

(٢) تفسير الطبري ٢١/ ٣٩ .

(٣) الصحاح للجوهري (فكه) .

(٤) أورد هذا القول الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٢٥٢ ، ونسبه لابن عيسى .

(٥) معاني القرآن للزجاج ٤/ ٤٢٦ .

(٦) مشكل إعراب القرآن ٢/ ٦٥٦ .

(٧) الوسيط ٤/ ٨٩ ، وتفسير البغوي ٤/ ١٥٢ .

(٨) النكت والعيون ٥/ ٢٥٢ .

﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَـٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَـٰرِبَهَا﴾ الآية [الأعراف: ١٣٧].

قوله تعالى: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ ۝٢٩﴾

قوله تعالى: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ﴾ أي: لكفرهم. ﴿وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ﴾ أي: مؤخَّرين بالغرق(١). وكانت العرب تقول عند موت السيد منهم: بكت له السماء والأرض، أي: عمَّت مصيبته الأشياءَ حتى بكته السماءُ والأرضُ والريح والبرق، وبكته الليالي الشاتيات. قال الشاعر:

الريحُ تبكي شَجْوَهُ والبرقُ يلمع في غمامه(٢)

وقال آخر:

والشمسُ طالعةٌ ليست بكاسفة تبكي عليك نجومَ اللَّيل والقمرا(٣)

وقالت الخارجية:

أيا شجرَ الخابور مَالَكَ مُورِقًا كأنك لم تجزع على ابن طَرِيفِ(٤)

وذلك على سبيل التمثيل والتخييل مبالغةً في وجوب الجَزَع والبكاءِ عليه(٥).

والمعنى: أنهم هلكوا فلم تعظُم مصيبتهم، ولم يوجد لهم فَقْد.

وقيل: في الكلام إضمار، أي: ما بكى عليهم أهل السماء والأرض من

---

(١) ذكر هذا الكلام الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٢٥٣ ونسبه للكلبي.

(٢) البيت ليزيد بن المفرِّغ الحميري، وهو في ديوانه ص ١٤٣ براوية: فالريح تبكي شجوها... والبرق يضحك في الغمامة.

(٣) قائله جرير، وهو في ديوانه ٢/ ٧٣٦ وجاء الشطر الأول فيه: فالشمس كاسفة ليست بطالعة. وهو برواية المصنف في الكامل ٢/ ٨٣٣، والعقد الفريد ١/ ٩٦، والمحرر الوجيز ٥/ ٧٤ وغيرهم وقوله: «نجومَ» بالفتح، نصبت بـ «كاسفة» يعني أنها تكسف النجومَ والقمر بإفراط ضيائها. ينظر الكامل للمبرد.

(٤) أورده ابن عبد ربه في العقد الفريد ٣/ ٢٦٩، والزمخشري في الكشاف ٣/ ٥٠٤.

(٥) الكشاف ٣/ ٥٠٤.

الملائكة، كقوله تعالى: ﴿وَسْئَلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: ٨٢] بل سُرُّوا بهلاكهم. قاله الحسن[١].

وروى يزيد الرَّقاشي عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من مؤمن إلا وله في السماء بابان: بابٌ ينزل منه رزقه، وباب يدخل منه كلامه وعمله. فإذا مات، فقداه فبكيا عليه، ثم تلا: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ﴾»[٢].

يعني أنهم لم يعملوا على الأرض عملاً صالحاً تبكي عليهم لأجله، ولا صعِد لهم إلى السماء عملٌ صالح فتبكي فَقْدَ ذلك.

وقال مجاهد: إن السماء والأرض يبكيان على المؤمن أربعين صباحاً[٣]. قال أبو يحيى: فعجبت من قوله، فقال: أتعجب! وما للأرض لا تبكي على عبد [كان] يَعْمُرها بالركوع والسجود! وما للسماء لا تبكي على عبد كان لتسبيحه وتكبيره فيها دَوِيٌّ كدوِيِّ النحل![٤].

وقال عليٌّ وابن عباس رضي الله عنهما: إنه يبكي عليه مُصَلَّاه من الأرض، ومصعدُ عمله من السماء. وتقدير الآية على هذا: فما بكت عليهم مصاعدُ عملهم من السماء، ولا مواضعُ عبادتهم من الأرض. وهو معنى قول سعيد بن جُبير[٥].

وفي بكاء السماء والأرض ثلاثةُ أوجه: أحدُها أنه كالمعروف من بكاء الحيوان. ويشبه أن يكون قولَ مجاهد[٦]. وقال شُريحٌ الحضرمي: قال النبيُّ ﷺ: «إن الإسلام

---

(١) ينظر النكت والعيون ٥/ ٢٥٢ .

(٢) النكت والعيون ٥/ ٢٥٢ - ٢٥٣ ، وأخرجه الترمذي (٣٢٥٥) وقال: هذا حديث لا نعرفه مرفوعاً إلا من هذا الوجه، وموسى بن عبيدة ويزيد بن أبان يضعفان في الحديث.

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة ١٣/ ٥٧٠ ، والطبري ٢١/ ٤٢ .

(٤) النكت والعيون ٥/ ٢٥٢ ، وما بين حاصرتين منه ، وأخرجه أبو الشيخ في العظمة (١١٨٩) وأبو يحيى: هو القتَّات، وهو لين الحديث كما في التقريب .

(٥) النكت والعيون ٥/ ٢٥٢ وأخرج قول علي ابن المبارك في الزهد (٣٣٦)، وقول ابن عباس الطبري ٢١/ ٤٢ ، والبيهقي في الشعب (٣٢٨٨) بنحوه مطولاً ، وقول سعيد بن جبير الطبري ٢١/ ٤٣ .

(٦) النكت والعيون ٥/ ٢٥٣ .

بدأ غريبًا، وسيعود غريبًا كما بدأ، فطوبى للغرباء يوم القيامة. قيل: مَن هم يا رسول الله؟ قال: هم الذين إذا فسد الناس صَلَحُوا». ثم قال: «ألا لا غُرْبَةَ على مؤمن، وما مات مؤمن في غُربة غائبًا عنه بواكيه إلَّا بكت عليه السماء والأرض». ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ﴾ ثم قال: «ألا إنهما لا يبكيان على الكافر»(١).

قلت: وذكر أبو نعيم [حدثنا] محمد بن مَعْمر قال: حدثنا أبو شعيب الحرَّاني قال: حدثنا يحيى بن عبد الله قال: حدثنا الأوزاعيُّ قال: حدثني عطاءٌ الخراساني قال: ما من عبد يسجد لله سجدة في بُقعة من بقاع الأرض إلَّا شهدت له يوم القيامة، وبكت عليه يوم يموت(٢).

وقيل: بكاؤهما: حمرةُ أطرافهما. قاله عليُّ بن أبي طالب ﷺ وعطاءٌ(٣) والسدِّيُّ والترمذيُّ محمد بنُ عليٍّ وحكاه عن الحسن. قال السدِّي: لمَّا قُتِل الحسينُ بنُ عليٍّ رضي الله عنهما، بكت عليه السماء، وبكاؤها حمرتُها(٤). وحكى جرير عن يزيد بن أبي زياد قال: لمَّا قُتِل الحسينُ بن علي بنِ أبي طالب رضي الله عنهما، احمرَّ له آفاقُ السماء أربعةَ أشهر. قال يزيد: واحمرارُها بكاؤها(٥). وقال محمد بن سيرين: أخبرونا أن الحمرة التي تكون مع الشَّفَق لم تكن حتى قُتِل الحسينُ بن عليٍّ رضي الله عنهما(٦). وقال سليمان القاضي: مُطِرْنا دماً يوم قُتِل الحسين.

(١) أخرجه الطبري ٢١/ ٤٣ مختصراً، وهو مرسل، والصحيح منه قوله: «بدأ الإسلام غريباً، وسيعود كما بدأ، فطوبى للغرباء»، وسلف ٥/ ٢٦٣.

(٢) حلية الأولياء لأبي نعيم ٥/ ١٩٧ وما بين حاصرتين منه، وأخرجه أيضاً ابن المبارك في الزهد (٣٤٠) عن الأوزاعي عن عطاء.

(٣) النكت والعيون ٥/ ٢٥٣، وقول عطاء أخرجه الطبري ٢١/ ٤١.

(٤) أخرجه الطبري ٢١/ ٤١، والسُّدي ـ وهو محمد بن مروان ـ متَّهم بالكذب كما في التقريب.

(٥) النكت والعيون ٥/ ٢٥٣، ويزيد بن أبي زياد ضعفه ابن حجر في التقريب، وقال: كَبِر فتغير وصار يتلقَّن وكان شيعياً.

(٦) أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق ١٤/ ٢٢٨.

قلت: روى الدَّارَقُطْنيُّ من حديث مالك بن أنس، عن نافع، عن ابن عمر قال: قال النبيُّ ﷺ: «الشفق الحمرة»[(١)] .

وعن عُبادةَ بنِ الصامت وشدَّاد بن أوس قالا: الشفق شفقان: الحمرة والبياض، فإذا غابت الحمرة حَلَّت الصلاة. وعن أبي هريرة قال: الشفق الحمرة[(٢)]. وهذا يردُّ ما حكاه ابن سيرين.

وقد تقدَّم في «سبحان»[(٣)] عن قرَّةَ بن خالد قال: ما بكت السماء على أحد إلا على يحيى بنِ زكريا والحسينِ بن عليٍّ، وحمرتُها بكاؤها.

وقال محمد بن عليٍّ الترمذيّ: البكاءُ إدرار الشيء، فإذا أدرَّتِ العين بمائها، قيل: بكت، وإذا أدرَّت السماء بحمرتها، قيل: بكت، وإذا أدرَّت الأرض بغبرتها، قيل: بكت؛ لأن المؤمن نورٌ ومعه نورُ الله، فالأرض مضيئةٌ بنوره وإن غاب عن عينيك، فإن فقدتْ نورَ المؤمن اغبرَّت فدرَّت باغبرارها؛ لأنها كانت غبراءَ بخطايا أهل الشرك، وإنما صارت مضيئة بنور المؤمن؛ فإذا قُبِض المؤمنُ منها دَرَّت بغبرتها.

وقال أنس: لمَّا كان اليوم الذي دخل فيه النبيُّ ﷺ المدينة، أضاء كلُّ شيء، فلمَّا كان اليوم الذي قُبِض فيه، أظلم كلُّ شيء، وإنا لفي دفنه ما نفضنا الأيديَ منه حتى أنكرنا قلوبنا.[(٤)]

وأمَّا بكاءُ السماء فحمرتُها كما قال الحسن. وقال نصر بن عاصم: إن أول الآيات حُمْرَةٌ تظهر، وإنما ذلك لدنوِّ الساعة، فتدُرُّ بالبكاء لخلائها من أنوار المؤمنين.

---

(١) سنن الدارقطني (١٠٥٦). قال البيهقي في السنن الكبرى ١/ ٣٧٣: الصحيح موقوف.

(٢) سنن الدارقطني (١٠٥٤) (١٠٥٥). قال البيهقي في معرفة السنن والآثار ٢/ ٢٠٥: لا يصح فيه شيء وعن النبي ﷺ...

(٣) ١٣/ ٢٧.

(٤) سلف ٥/ ٣٤٦.

وقيل: بكاؤها: أمارةٌ تظهر منها تدلُّ على أسف وحزن(١).

قلت: والقولُ الأوَّل أظهر؛ إذ لا استحالة في ذلك. وإذا كانت السماوات والأرض تُسبِّحُ وتسمع وتتكلم كما بيَّنَّاه في «سبحان ومريم وحم فصلت»(٢)، فكذلك تبكي، مع ما جاء من الخبر في ذلك، والله أعلم بصواب هذه الأقوال.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿٣٠﴾ مِن فِرْعَوْنَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾﴾

يعني ما كانت القبط تفعل بهم بأمر فرعون، من قتل الأبناء واستخدام النساء، واستعبادهم إياهم، وتُكلِّفُهم الأعمالَ الشاقَّة. ﴿مِن فِرْعَوْنَ﴾ بدلٌ من «الْعَذَابِ الْمُهِينِ»(٣)، فلا تتعلق «مِنْ» بقوله: «مِنَ الْعَذَاب» لأنه قد وصِف، وهو لا يعمل بعد الوصف عمل الفعل. وقيل: أي: أنجيناهم من العذاب ومن فرعون. ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ أي: جبَّارًا من المشركين. وليس هذا عُلوَّ مَدْح، بل هو عُلُوٌّ في الإسراف، كقوله: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [القصص: ٤] وقيل: هذا العلوُّ هو الترفُّعُ عن عبادة الله.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ﴾ يعني بني إسرائيل. ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ أي: على علم مِنَّا بهم لكثرة الأنبياء منهم. ﴿عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: عالَمي زمانهم، بدليل قوله لهذه الأمة: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠]. وهذا قولُ قتادةَ وغيره(٤). وقيل: على كلِّ العالمين بما جعل فيهم من الأنبياء. وهذا خاصَّةٌ لهم وليس لغيرهم. حكاه

(١) النكت والعيون ٥/ ٢٥٣.

(٢) ١٣/ ٨٩ وما بعدها، و١٣/ ٥٢١ - ٥٢٢، وعند تفسير الآية (١١) من سورة فصلت.

(٣) الكشاف ٣/ ٥٠٤، والمحرر الوجيز ٥/ ٧٤.

(٤) أخرجه الطبري ٢١/ ٤٦ بنحوه.

ابن عيسى[١] والزَّمْخشريُّ[٢] وغيرهما. ويكون قوله: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ﴾ أي: بعد بني إسرائيل. والله أعلم. وقيل: يرجع هذا الاختيار إلى تخليصهم من الغرق، وإيراثهم الأرضَ بعد فرعون.

قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُم مِّنَ ٱلْأَيَٰتِ مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌا۟ مُّبِينٌ ﴿٣٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُم مِّنَ ٱلْأَيَٰتِ﴾ أي: من معجزات موسى[٣] ﴿مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌا۟ مُّبِينٌ﴾ قال قتادة: الآياتُ: إنجاؤهم من فرعون، وفَلْقُ البحر لهم، وتظليلُ الغمام عليهم، وإنزالُ المَنِّ والسَّلْوَى[٤]. ويكون هذا الخطابُ متوجِّهًا إلى بني إسرائيل. وقيل: إنها العصا واليد. ويشبه أن يكون قولَ الفرَّاء[٥]. ويكون الخطابُ متوجِّهًا إلى قوم فرعون. وقول ثالث: إنه الشرُّ الذي كَفَّهم عنه والخيرُ الذي أمرهم به. قاله عبد الرحمن بن زيد. ويكون الخطاب متوجِّهًا إلى الفريقين معًا من قوم فرعونَ وبني إسرائيل[٦].

وفي قوله: «بَلَاءٌ مُبِينٌ» أربعة أوجه:

أحدها: نعمة ظاهرة. قاله الحسن وقتادة. كما قال الله تعالى: ﴿وَلِيُبْلِىَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا﴾ [الأنفال:١٧]. وقال زهير:

فأبلاهما خيرَ البلاءِ الذي يَبْلُو[٧]

الثاني: عذاب شديد. قاله الفرَّاء[٨].

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٢٥٤.

(٢) في الكشاف ٣/ ٥٠٤.

(٣) في (م): من المعجزات لموسى.

(٤) النكت والعيون ٥/ ٢٥٤، وأخرجه الطبري ٢١/ ٤٧.

(٥) قول الفراء في معاني القرآن له ٣/ ٤٢ بنحو قول قتادة السالف ولم يقل: إنها العصا واليد.

(٦) النكت والعيون ٥/ ٢٥٤.

(٧) عجز بيت له وصدره: رأى الله بالإحسان ما فعلا بكم، وهو في ديوانه ص١٠٩. وسلف ١٨/ ٧٢.

(٨) في معاني القرآن ٣/ ٤٢.

الثالث: اختبار يتميَّز به المؤمن من الكافر. قاله عبد الرحمن بنُ زيد[(١)]. وعنه أيضاً: ابتلاؤهم بالرَّخاء والشدة[(٢)]، ثم قرأ: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴿٣٥﴾ فَأْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ﴾ يعني كفارَ قريش[(٣)] ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ﴾ ابتداء وخبر، مثل: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾ [الأعراف: ١٥٥]، ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا﴾ [الأنعام: ٢٩]

﴿وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ﴾ أي: بمبعوثين. ﴿فَأْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أنشرَ الله الموتى فنُشِروا. وقد تقدَّم[(٤)]. والمنشورون: المبعوثون. قيل: إنَّ قائل هذا من كفار قريش أبو جهل، قال: يا محمد، إن كنتَ صادقاً في قولك، فابعث لنا رجلين من آبائنا: أحدُهما: قصيُّ بنُ كِلاب، فإنه كان رجلاً صادقاً، لنسألَه عمَّا يكون بعد الموت. وهذا القولُ من أبي جهل مِن أضعفِ الشبهات؛ لأن الإعادة إنما هي للجزاء لا للتكليف، فكأنه قال: إن كنتَ صادقاً في إعادتهم للجزاء، فأعِدْهم للتكليف. وهو كقول قائل لو قال: إن كان ينشأ بعدنا قومٌ من الأبناء، فلم لا يرجع من مضى من الآباء. حكاه الماوردي[(٥)].

ثم قيل: «فَأْتُوا بِآبَائِنَا» مخاطبةٌ للنبيِّ ﷺ وحده، كقوله: ﴿رَبِّ ٱرْجِعُونِ﴾ [المؤمنون: ٩٩] قاله الفرَّاء[(٦)]. وقيل: مخاطبةٌ له ولأتباعه.

---

(١) أورد هذه الأوجه الثلاثة الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٢٥٤ .

(٢) تفسير البغوي ٤/ ١٥٢ .

(٣) النكت والعيون ٥/ ٢٥٥ .

(٤) ٤/ ٣٠٦ .

(٥) في النكت والعيون ٥/ ٢٥٥ .

(٦) في معاني القرآن ٣/ ٤٢ .

قوله تعالى: ﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَٰهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٣٧﴾ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ﴾ هذا استفهامُ إنكار، أي: إنهم مستحقُّون في هذا القول العذابَ؛ إذ ليسوا خيراً من قوم تُبَّع والأمم المهلَكة، وإذا أهلكنا أولئك فكذا هؤلاء. وقيل: المعنى: أهم أظهرُ نعمةً وأكثرُ أموالاً أم قومُ تُبَّع؟ وقيل: أهم أعزُّ وأشدُّ وأمنع أم قومُ تُبَّع؟[١].

وليس المراد بتُبَّع رجلاً واحداً، بل المرادُ به ملوكُ اليمن، فكانوا يسمُّون ملوكهم التبابعة. فتُبَّع لقبٌ للملك منهم، كالخليفة للمسلمين، وكسرى للفُرْس، وقَيْصر للروم. وقال أبو عبيدة[٢]: سُمِّيَ كلُّ واحد منهم تُبَّعًا لأنه يَتْبَع صاحبه. قال الجوهري[٣]: والتبابعةُ ملوك اليمن، واحدهم تُبَّع، والتُّبَّع أيضاً الظِّلُّ، وقال:

يَـردُ الـمـيـاهَ حـضِـيـرةً ونَـفِـيـضـةً ... وِرْدَ الـقـطَـاةِ إذا اسْـمَـألَّ الـتُّـبَّـعُ[٤]

والتُّبَّعُ أيضاً ضربٌ من الطير.

وقال السهيلي[٥]: تُبَّع اسمٌ لكل مَلِك مَلَكَ اليمن والشِّحْر[٦] وحضرموت. وإنْ مَلكَ اليمن وحدها لم يُقَل له تُبَّع. قاله المسعودي. فمن التبابعة: الحارث الرائش،

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٢٥٥.

(٢) في مجاز القرآن ٢/ ٢٠٩.

(٣) في الصحاح (تبع).

(٤) أورده الأصمعي في الأصمعيات ص ١٠٣، وابن السكيت في إصلاح المنطق ص ٣٩٢، وابن دريد في الاشتقاق ١/ ٢٠٧ ونسبوه لسعدى بنت الشمردل الجهنية، والحضيرة: النفر يُغزى بهم، ومقدمة الجيش. القاموس (حضر). والنفيضة: القوم الذين يَنفُضون، يتقدمون الجيش. واسمأل: ضَمَر. ينظر الاشتقاق.

(٥) في التعريف والإعلام ص ١٥٣ - ١٥٥.

(٦) الشِّحْر: هو صقع على ساحل بحر الهند من ناحية اليمن. معجم البلدان ٣/ ٣٢٧.

وهو ابن همال ذي شدد[١]. وأبرهةُ ذو المنار. وعمرو ذو الأذعار. وشمر بن مالك، الذي تنسب إليه سَمَرْقَنْد. وأفريقيس[٢] بن قيس، الذي ساق البربر إلى أفريقيَّةَ من أرض كنعان، وبه سُمِّيت إفريقية.

والظاهر من الآيات: أن الله سبحانه إنما أراد واحداً من هؤلاء، وكانت العرب تعرفه بهذا الاسم أشدَّ من معرفة غيره، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام: «ولا أدري أتُبَّعٌ لَعِينٌ أم لا»[٣]. ثم قد رُويَ عنه أنه قال: «لا تَسُبُّوا تُبَّعًا فإنه كان مؤمناً»[٤]. فهذا يدلُّك على أنه كان واحداً بعينه، وهو ـ والله أعلم ـ أبو كَرِب الذي كسا البيت بعد ما أراد غزوه، وبعد ما غزا المدينة وأراد خرابها، ثم انصرف عنها لمَّا أُخبِر أنها مُهَاجَر نبيٍّ اسمه أحمد. وقال شعراً أودعه عند أهلها، فكانوا يتوارثونه كابراً عن كابر إلى أن هاجر النبيُّ ﷺ، فأدَّوْهُ إليه. ويقال: كان الكتاب والشعر عند أبي أيوب خالدِ ابن زيد. وفيه:

شهدتُ على أحمدٍ أنهُ ... رسولٌ من الله باري النَّسَمْ
فلو مُدَّ عُمْري إلى عُمْرِهِ ... لكنتُ وزيراً له وابنَ عَمْ[٥]

(١) في (م): ذي سدد، وفي الروض الأنف ١/ ٣٤: وهو ابن همال بن ذي شدد.

(٢) في التعريف والإعلام: وإفريقش.

(٣) أخرجه أبو داود (٤٦٧٤) من طريق ابن أبي ذئب، عن سعيد بن أبي سعيد، عن أبي هريرة مرفوعاً. وأخرجه البخاري في التاريخ الكبير ١/ ١٥٣ عن الزهري مرسلاً، وقال: وهو أصح.

(٤) أخرجه أحمد (٢٢٨٨٠)، والطبراني في الكبير (٦٠١٣)، وابن شاهين في ناسخ الحديث ومنسوخه (٦٦٠) من طريق ابن لهيعة، عن عمرو بن جابر، عن سهل بن سعد ﷺ. قال ابن حجر في تخريج أحاديث الكشاف ص ١٤٨: فيه ابن لهيعة عن عمرو بن جابر وهما ضعيفان.

وأخرجه الطبراني في الكبير (١١٧٩٠)، وفي الأوسط (١٤٤١)، والخطيب في تاريخ بغداد ٣/ ٢٠٥ عن ابن عباس رضي الله عنهما. وإسناده ضعيف، فيه مؤمَّل بن إسماعيل وهو صدوق سيِّئ الحفظ، وفيه سماك بن حرب عن عكرمة، وروايته عن عكرمة خاصة مضطربة، وقد تغير بأَخَرة، فكان ربما تَلَقَّن. قاله ابن حجر في التقريب.

(٥) أورد هذين البيتين غير السهيلي ابنُ رشيق في العمدة في محاسن الشعر وآدابه ٢/ ٢٢٦.

وذكر الزجَّاج[١] وابن أبي الدنيا والزمخشري[٢] وغيرُهم أنه حُفِر قبر له بصنعاء ـ ويقال: بناحية حمير ـ في الإسلام، فوجد فيه امرأتان صحيحتان، وعند رؤوسهما لوحٌ من فضةٍ مكتوبٌ فيه بالذهب: هذا قبر حُبَّى ولَميس. ويُروى أيضًا: حُبَّى وتماضر. ويُروى أيضًا: هذا قبر رضوى وقبرُ حُبَّى ابنتا تُبَّع، ماتتا وهما يشهدان أن لا إله إلا الله ولا يشركان به شيئًا، وعلى ذلك مات الصالحون قبلهما.

قلت: وروى ابن إسحاق وغيرُه أنه كان في الكتاب الذي كتبه: «أما بعد، فإني آمنت بك وبكتابك الذي أُنزِل عليك، وأنا على دينك وسنتك، وآمنتُ بربِّك وربِّ كلِّ شيء، وآمنت بكلِّ ما جاء من ربِّك من شرائع الإسلام، فإن أدركتُك فبِها ونِعمت، وإن لم أُدْرِكْك فاشفع لي ولا تَنسني يوم القيامة، فإني من أمتك الأوّلين وبايعتُك قبل مجيئك، وأنا على ملَّتك وملَّةِ أبيك إبراهيم عليه السلام». ثم ختم الكتاب ونقش عليه: ﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ﴾ [الروم: ٤]. وكتب على عنوانه: «إلى محمد بن عبد الله نبيِّ الله ورسوله، خاتمِ النبيِّين ورسولِ ربِّ العالمين ﷺ. من تُبَّع الأوّل». وقد ذكرنا بقيَّة خبره وأوَّله في «اللُّمع اللؤلؤية في[٣] شرح العشر بينات النبوية» للفارابي رحمه الله. وكان من اليوم الذي مات فيه تُبَّع إلى اليوم الذي بُعِث فيه النبيُّ ﷺ ألفُ سنة لا يزيد ولا ينقص.

واختلف هل كان نبِيًّا أو مَلِكًا؟ فقال ابن عباس: كان تُبَّع نبيًّا[٤]. وقال كعب: كان تُبَّع ملِكًا من الملوك، وكان قومه كُهَّانًا، وكان معهم قوم من أهل الكتاب، فأمَر الفريقين أن يقرِّب كلُّ فريق منهم قُرْبَاناً ففعلوا، فَتُقُبِّل قربان أهل الكتاب فأسلم[٥].

---

(١) في معاني القرآن ٤/ ٤٢٧ .

(٢) في الكشاف ٣/ ٥٠٥ .

(٣) لفظة : في ، ليست في (م) .

(٤) المحرر الوجيز ٥/ ٧٥ .

(٥) معاني القرآن للنحاس ٦/ ٤٠٩ .

وقالت عائشة رضي الله عنها: لا تسبُّوا تُبَّعاً فإنه كان رجلاً صالحاً[١]. وحكى قتادة أن تُبّعًا كان رجلاً من حِميَر، سار بالجيوش[٢] حتى عبر الحِيرة وأتى سَمَرْقَنْدَ فهدَمها. حكاه الماوردي[٣]. وحكى الثعلبيُّ عن قتادةَ أنه تُبَّعٌ الحِميري، وكان سار بالجيوش[٤] حتى عبر الحِيرة. وبنى سَمَرْقَنْدَ[٥] وقتل وهدم البلاد.

وقال الكلبي: تُبَّع هو أبو كَرِب أسعدُ بن مَلْكيكرِب[٦]، وإنما سُمِّيَ تُبَّعَاً لأنه تَبع مَن قبله. وقال سعيد بن جُبَير: هو الذي كسا البيت الحِبَرات[٧]. وقال كعب: ذمَّ الله قومه ولم يذمَّه، وضرب بهم لقريش مثلاً لقربهم من دارهم وعِظمهم في نفوسهم، فلمَّا أهلكهم الله تعالى ومَن قبلهم ـ لأنهم كانوا مجرمين ـ كان مَن أجرمَ مع ضعف اليد وقلَّةِ العدد أحرى بالهلاك[٨]. وافتخر أهل اليمن بهذه الآية، إذ جعل الله قوم تُبَّع خيراً من قريش.

وقيل: سُمِّيَ أوّلُهم تُبّعاً لأنه اتبع قرن الشمس، وسافر في الشرق[٩] مع العساكر.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۚ أَهْلَكْنَٰهُمْۖ﴾ «الَّذين» في موضع رفع عطفٌ على «قَوْمُ تُبَّعٍ»[١٠]. «أَهْلَكْنَاهُمْ» صلته. ويكون «مِنْ قَبْلِهِمْ» متعلِّقاً به.

---

(١) أخرجه الطبري ٢١/ ٥٠ ، وابن شاهين في ناسخ الحديث ومنسوخه (٦٦٣) .

(٢) في (د) و(م) : بالجنود .

(٣) في النكت والعيون ٥/ ٢٥٥ ، وأخرجه الطبري ٢١/ ٤٩ ، والحاكم في المستدرك ٢/ ٤٥٠ .

(٤) في (د) و(م) : بالجنود .

(٥) تفسير البغوي ٤/ ١٥٢ .

(٦) تفسير الرازي ٢٧/ ٢٤٩ ، ووقع في النسخ الخطية : ملكيكوب ، وجاء في السيرة النبوية ١/ ٣٤ : كُلِي كَرِب . وفي البداية والنهاية ٣/ ١٢٢ : كُلْكيكرِب .

(٧) تفسير البغوي ٤/ ١٥٣ ، والحِبَرات جمع حِبَرة، وهي ضرب من برود اليمن . القاموس (حبر) .

(٨) النكت والعيون ٥/ ٢٥٦ ، وأخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ٢٠٨ ، والطبري ٢١/ ٥٠ منه قوله: ذم الله قومه ولم يذمَّه.

(٩) في (د) و(ظ) : المشرق .

(١٠) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٣٣ .

ويجوز أن يكون «مِنْ قَبْلِهِمْ» صلةَ «الَّذين»، ويكونَ في الظرف عائدٌ إلى الموصول. وإذا كان كذلك؛ كان «أَهْلَكْنَاهُمْ» على أحد أمرين: إمَّا أن يقدَّر معه «قد»، فيكون في موضع الحال. أو يقدَّر حذف موصوف، كأنه قال: قومٌ أهلكناهم. والتقدير: أفلا تعتبرون أنَّا إذا قَدَرْنا على إهلاك هؤلاء المذكورين؛ قَدَرنا على إهلاك المشركين.

ويجوز أن يكون «وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ» ابتداء، خبرُه: «أَهْلَكْنَاهُمْ».

ويجوز أن يكون «الَّذين» في موضع جَرٍّ عطفاً على «تُبَّعٍ» كأنه قال: قومُ تُبَّع المهلَكين من قبلهم.

ويجوز أن يكون «الَّذين» في موضع نصب بإضمار فعل دلَّ عليه «أَهْلَكْنَاهُمْ»(١). والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ﴾ أي: غافلين؛ قاله مقاتل. وقيل: لاهين؛ وهو قول الكلبي(٢). ﴿مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ أي: إلا بالأمر الحقّ؛ قاله مقاتل. وقيل: إلا للحقّ؛ قاله الكلبي(٣) والحسن. وقيل: إلا لإقامة الحقّ وإظهارِه من توحيد الله والتزام طاعته(٤). وقد مضى هذا المعنى في «الأنبياء»(٥). ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ﴾ يعني أكثرَ الناس ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ ذلك.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾﴾

﴿يَوْمَ ٱلْفَصْلِ﴾ هو يومُ القيامة، وسُمِّي بذلك لأن الله تعالى يَفْصِل فيه بين خلقه. دليلُه قولُه تعالى: ﴿لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ﴾ [الممتحنة: ٣].

---

(١) المصدر السابق.

(٢) النكت والعيون ٥/ ٢٥٦.

(٣) النكت والعيون ٥/ ٢٥٦.

(٤) الوجيز بهامش مراح لبيد ٢/ ٢٨٤.

(٥) ١٤/ ١٨٤.

ونظيره قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ﴾ [الروم: ١٤]. فـ «يَوْم الفَصْل» ميقاتُ الكلِّ، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَـٰتًا﴾ [النبأ: ١٧] أي: الوقتُ المجعول لتمييز المُسيء من المحسن والفصلِ بينهما؛ فريق في الجنة وفريق في السعير. وهذا غايةٌ في التحذير والوعيد.

ولا خلاف بين القرَّاء في رفع «مِيقَاتُهُمْ» على أنه خبر «إنَّ»، واسمُها «يَوْمَ الفَصْلِ». وأجاز الكسائي والفرَّاء[١] نصبَ «مِيقَاتهم». بـ «إنَّ»، و«يوم الفصل» ظرفٌ في موضع خبر «إن»، أي: إن ميقاتَهم يومَ الفصل.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِى مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِى مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا﴾ «يَوْمَ» بدلٌ من «يوم» الأوّل[٢]. والمَوْلَى: الوَليُّ، وهو ابن العمِّ والناصر، أي: لا يدفع ابن عمٍّ عن ابن عمِّه، ولا قريبٌ عن قريبه، ولا صديقٌ عن صديقه. ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ أي: لا ينصر المؤمنُ الكافرَ لقرابته. ونظيرُ هذه الآية: ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا﴾ [البقرة: ٤٨] الآية.

﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ﴾ «مَنْ» رفع على البدل من المضمر في «يُنْصَرُونَ»[٣]، كأنك قلت: لا يقوم أحدٌ إلا فلان. أو على الابتداء، والخبرُ مضمر، كأنه قال: إلا مَن رحم الله فمغفورٌ له[٤]، أو: فيُغني عنه ويُشفَّع ويُنصَر. أو على البدل من «مَوْلًى» الأول، كأنه قال: لا يغني إلا مَن رحم الله[٥]. وهو عند الكسائي والفرَّاء[٦] نصب

(١) في معاني القرآن ٣/ ٤٢، ونقله المصنف بواسطة مكي في مشكل إعراب القرآن ٢/ ٦٥٧.
(٢) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٣٣.
(٣) مشكل إعراب القرآن ٢/ ٦٥٧.
(٤) في (ظ): فإنه مغفور له.
(٥) ذكر هذا الوجه مكي في مشكل إعراب القرآن ٢/ ٦٥٧.
(٦) في معاني القرآن ٣/ ٤٢.

على الاستثناء المنقطع[١]، أي: لكنْ مَن رحم الله لا ينالهم ما يحتاجون فيه إلى مَن يغنيهم من المخلوقين. ويجوز أن يكون استثناءً متصلاً، أي: لا يغني قريب عن قريب إلا المؤمنين، فإنه يُؤذَن لهم في شفاعة بعضهم لبعض.

﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ أي: المنتقمُ من أعدائه، الرحيمُ بأوليائه، كما قال: ﴿شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ﴾ [غافر: ٣]، فقرن الوعد بالوعيد.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ﴾ كلُّ ما في كتاب الله تعالى من ذكر الشجرة فالوقف عليه بالهاء، إلا حرفاً واحداً في سورة الدخان: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ . طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ﴾ . قاله ابن الأنباري[٢].

و﴿ٱلْأَثِيمِ﴾: الفاجر؛ قاله أبو الدرداء[٣]. وكذلك قرأ هو وابن مسعود. وقال همَّام بن الحارث: كان أبو الدرداء يُقرِئ رجلاً: «إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّوم طَعَامُ الْأَثِيم» والرجلُ يقول: طعام اليتيم، فلمَّا لم يفهم قال له: «طعام الفاجر»[٤]. قال أبو بكر الأنباريُّ: حدَّثني أبي قال: حدَّثنا نصر قال: حدَّثنا أبو عبيد قال: حدَّثنا نُعيم بن حماد، عن عبد العزيز بن محمد، عن ابن عجلان، عن عون بن عبد الله بن عتبة بن مسعود قال: عَلَّم عبد الله بن مسعود رجلاً: «إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ طَعَامُ الْأَثِيم» فقال الرجل: طعام اليتيم، فأعاد عليه عبد الله الصواب، وأعاد الرجل الخطأ، فلمَّا رأى عبد الله أن لسان الرجل لا يستقيم على الصواب قال له: أَمَا تُحسِنُ أن تقول: طعام الفاجر؟ قال: بلى، قال: فافعل[٥]. ولا حجةَ في هذا للجُهَّال من أهل الزَّيْغ أنه يجوز

(١) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٣٤، ومشكل إعراب القرآن ٢/ ٦٥٧.

(٢) في إيضاح الوقف والابتداء ١/ ٢٨٧.

(٣) معاني القرآن للنحاس ٦/ ٤١٢، والكشاف ٣/ ٥٠٦.

(٤) أخرجه عبد الرزاق (٥٩٨٦)، والطبري ٢١/ ٥٤ بنحوه.

(٥) أخرجه أبو عبيد في فضائل القرآن ص ١٨٣ بنحوه.

إبدال الحرف من القرآن بغيره، لأن ذلك إنما كان من عبد الله تقريباً للمتعلِّم، وتوطئةً منه له للرجوع إلى الصواب، واستعمالِ الحقِّ والتكلُّم بالحرف على إنزال الله وحكايةِ رسول الله ﷺ.

وقال الزَّمَخْشريّ[١]: وبهذا يُستدل على أن إبدال كلمة مكان كلمة جائزٌ إذا كانت مؤدِّيةً معناها. ومنه أجاز أبو حنيفة القراءة بالفارسية على شريطة، وهي أن يؤدِّيَ القارئ المعانيَ على كمالها من غير أن يَخْرِم منها شيئاً. قالوا: وهذه الشريطة تشهد أنها إجازة كَلَا إجازة؛ لأن في كلام العرب ـ خصوصاً في القرآن الذي هو معجزٌ بفصاحته وغرابةِ نظمه وأساليبه ـ من لطائف المعاني والأغراض ما لا يستقلُّ بأدائه لسانٌ من فارسية وغيرها، وما كان أبو حنيفة رحمه الله يُحسِن الفارسية، فلم يكن ذلك منه عن تحقُّق وتبصُّر. وروى عليُّ بن الجعد، عن أبي يوسف، عن أبي حنيفة مثلَ قول صاحبيه في إنكار القراءة بالفارسية.

وشجرة الزَّقُّوم: الشجرة التي خلقها الله في جهنم، وسمَّاها الشجرةَ الملعونة، فإذا جاع أهل النار التجؤوا إليها فأكلوا منها، فغليت في بطونهم كما يغلي الماء الحارّ. وشُبِّه ما يصير منها إلى بطونهم بالمُهْل، وهو النُّحاس المذاب.

وقراءة العامة: «تَغْلي» بالتاء حملاً على الشجرة. وقرأ ابن كَثير وحفص وابن مُحَيْصِن ورُوَيْس عن يعقوب: «يغلي» بالياء حملاً على الطعام[٢]، وهو في معنى الشجرة. ولا يُحمل على المُهْل لأنه ذُكِر للتشبيه[٣]. و«الأثيم»: الآثم، مِن أثِم يأثَم إثْمًا؛ قاله القشيريُّ وابن عيسى[٤]. وقيل: هو المشرك المكتسبُ للإثم؛ قاله يحيى بن سلام[٥]. وفي الصحاح: وقد أثِم الرجل ـ بالكسر ـ إثماً ومأثماً: إذا وقع في الإثم،

(١) في الكشاف ٣/ ٥٠٦ .

(٢) السبعة ص ٥٩٢ ، والتيسير ص ١٩٨ ، والنشر ٢/ ٣٧١ .

(٣) ينظر الحجة ٦/ ١٦٦ ، وزاد المسير ٧/ ٣٤٩ .

(٤) نقله عن ابن عيسى الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٢٥٧ .

(٥) النكت والعيون ٥/ ٢٥٧ .

فهو آثم وأثيمٌ وأثوم أيضاً[١]. فمعنى «طَعَامُ الْأَثِيمِ» أي: ذي الإثم الفاجر، وهو أبو جهل[٢]. وذلك أنه قال: يَعِدُنا محمدٌ أن في جهنم الزَّقوم، وإنما هو الثريد بالزُّبد والتمر، فبيَّن الله خلاف ما قاله. وحكى النقَّاش عن مجاهد أن شجرة الزَّقُّوم أبو جهل[٣].

قلت: وهذا لا يصحُّ عن مجاهد. وهو مردودٌ بما ذكرناه في هذه الشجرة في سورة «والصافَّات وسبحان»[٤] أيضاً.

قوله تعالى: ﴿خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿خُذُوهُ﴾ أي: يقال للزَّبانية: خذوه، يعني الأثيم[٥]. ﴿فَاعْتِلُوهُ﴾ أي: جُرُّوه وسُوقُوه. والعَتْل: أن تأخذ بتلابيب الرجل فتعتِلَه، أي: تجرّه إليك لِتَذهب به إلى حبس أو بليَّة[٦]. عَتَلت الرجل أعتِله وأعتُله عَتْلًا: إذا جذبتَه[٧] جَذْباً عنيفاً. ورجل مِعْتَل ـ بالكسر ـ. وقال يصف فرساً:

نَفْرَعُه فَرْعًا ولسنا نَعْتِلُه[٨]

وفيه لغتان، عَتَلَهُ وعَتَنَه، باللام والنون جميعاً. قاله ابن السِّكِّيت[٩]. وقرأ

(١) الصحاح (أثم).
(٢) الوسيط ٤/ ٩١ ، وتفسير البغوي ٤/ ١٥٤ .
(٣) النكت والعيون ٥/ ٢٥٧ .
(٤) ١٣/ ١١١ - ١١٢ ، و١٨/ ٤١ .
(٥) الوسيط ٤/ ٩٢ ، وتفسير البغوي ٤/ ١٥٥ .
(٦) تهذيب اللغة ٢/ ٢٧٠ .
(٧) بعدها في (د) و(ظ) : إليك .
(٨) أورده ابن قتيبة في المعاني الكبير ١/ ٧٧ ونسبة لأبي النجم ، وأبو علي القالي في أماليه ١/ ٥٧ دون نسبة .
(٩) الصحاح (عتل).

الكوفيون وأبو عمرو: «فَاعْتِلُوه» بالكسر. وضم الباقون[١]. ﴿إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ﴾: وسط الجحيم[٢]. ﴿ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ﴾. قال مقاتل: يضرب مالك خازنُ النار ضربة على رأس أبي جهل بِمِقْمَع من حديد، فيتفتَّتُ رأسه عن دماغه، فيجري دماغه على جسده، ثم يصبُّ المَلَكُ فيه ماء حميماً قد انتهى حرُّه، فيقعُ في بطنه، فيقول المَلَك: ذُقِ العذاب[٣]. ونظيره: ﴿يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ﴾ [الحج: ١٩].

قوله تعالى: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ۝٤٩ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ ۝٥٠﴾

قوله تعالى: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾ قال ابن الأنباريّ[٤]: اجتمعت[٥] العوامُّ على كسر «إنّ». وروي عن الحسن بن[٦] عليٍّ رحمه الله: «ذُق أَنَّكَ» بفتح «أنَّ»، وبها قرأ الكسائيُّ[٧]. فمن كسر «إنَّ» وقف على «ذُقْ». ومَن فتحها لم يقف على «ذُقْ»؛ لأن المعنى: ذق لأنك وبأنك أنت العزيز الكريم.

قال قتادة: نزلت في أبي جهل وكان قد قال: ما فيها أعزُّ منّي ولا أكرم، فلذلك قيل له: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾[٨]. وقال عكرمة: التقى النبيُّ ﷺ وأبو جهل، فقال النبيُّ ﷺ: «إن الله أمرني أن أقول لك: أَوْلَى لك فأولى» فقال: بأيِّ شيء

(١) السبعة ص ٥٩٣، والتيسير ص ١٩٨.
(٢) النكت والعيون ٥/ ٢٥٧.
(٣) زاد المسير ٧/ ٣٥٠، وأورده مختصراً الواحدي في الوسيط ٤/ ٩٢، والبغوي في تفسيره ٤/ ١٥٥.
(٤) في إيضاح الوقف والابتداء ٢/ ٨٨٩.
(٥) في (ز) و (ق): أجمعت.
(٦) في النسخ: عن، والمثبت من إيضاح الوقف والابتداء، ومعاني القرآن للنحاس ٦/ ٤١٤، والكشاف ٣/ ٥٠٧، والمحرر الوجيز ٨/ ٤٠.
(٧) السبعة ص ٥٩٣، والتيسير ص ١٩٨.
(٨) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ٢٠٩، والطبري ٢١/ ٦١ بنحوه.

تهدِّدني! والله ما تستطيع أنت ولا ربُّك أن تفعلا بي شيئًا، إني لَمِن أعزِّ هذا الوادي وأكرمِه على قومه. فقتله الله يوم بدر وأذلَّه، ونزلت هذه الآية[١]. أي يقول له الملَك: ذُق إنك أنت العزيز الكريم بزعمك. وقيل: هو على معنى الاستخفاف والتوبيخ والاستهزاء والإهانة والتنقيص، أي قال له: إنك أنت الذليل المهان. وهو كما قال قوم شُعيب لشعيب: ﴿إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلۡحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾ [هود: ٨٧] يعنُون السفيهَ الجاهلَ في أحد التأويلات على ما تقدَّم[٢]. وهذا قول سعيد بن جبير[٣].

﴿إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمۡتَرُونَ﴾ أي تقول لهم الملائكة: إنَّ هذا ما كنتم تشكُّون فيه في الدنيا.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٖ ۝٥١ فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ ۝٥٢ يَلۡبَسُونَ مِن سُندُسٖ وَإِسۡتَبۡرَقٖ مُّتَقَٰبِلِينَ ۝٥٣﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٖ﴾ لمَّا ذكر مستقرَّ الكافرين وعذابَهم، ذكر نُزُل المؤمنين ونعيمَهم. وقرأ نافع وابن عامر: «في مُقَام» بضم الميم، الباقون بالفتح[٤]. قال الكسائي: المُقام المكان، والمُقام الإقامة، كما قال:

عفَتِ الديارُ مَحَلُّها فَمُقَامُها[٥]

قال الجوهريُّ: وأمَّا المَقام والمُقام فقد يكون كلٌّ واحد منهما بمعنى الإقامة، وقد يكون بمعنى موضع القيام؛ لأنك إذا جعلته مِن قام يقوم؛ فمفتوح، وإن جعلته

(١) أخرجه الواحدي في أسباب النزول ص ٣٩٨ مختصراً. وأورده السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٣٣ بنحوه وعزاه للأموي.

(٢) ١١/ ١٩٤.

(٣) أورده بنحوه الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٢٥٨، وابن الجوزي في زاد المسير ٧/ ٣٥٠.

(٤) السبعة ص ٥٩٣، والتيسير ص ١٩٨.

(٥) صدر بيت للبيد، وهو في ديوانه ص ٢٩٧، وعجزه: بمنًى تأبَّد غولُها فرجامُها، والكلام في معاني القرآن للنحاس ١/ ٤١٥. وقوله: عفت، أي: دَرَسَت. والمحلُّ والمُقام، قال شارح الديوان: هما مكان الحلول ومكان الإقامة.

من أقام يقيم؛ فمضموم، لأن الفعل إذا جاوز الثلاثة فالموضع مضموم الميم، لأنه مشبَّه ببنات الأربعة، نحو: دحرج وهذا مُدَحْرجُنا[١]. وقيل: المَقام؛ بالفتح: المشهد والمجلس، وبالضم يمكن أن يراد به المكان، ويمكن أن يكون مصدراً ويقدَّر فيه المضاف، أي: في موضع إقامة[٢].

﴿أَمِينٍ﴾: يُؤمَن[٣] فيه من الآفات ﴿فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ بدل من «مَقَامٍ أَمِينٍ». ﴿يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ لا يرى بعضهم قفا بعض، متواجهين يدور بهم مجلسهم حيث داروا. والسُّنْدُس: ما رَقَّ من الدِّيباج. والإستبرق: ما غَلُظَ منه. وقد مضى في «الكهف»[٤].

قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: الأمرُ كذلك الذي ذكرناه[٥]. فيوقف على «كَذَلِكَ». وقيل: أي: كما أدخلناهم الجنة وفعلنا بهم ما تقدَّم ذكره، كذلك أكرمناهم بأن زوَّجناهم حُوراً عِيناً. وقد مضى الكلام في العِين في «والصَّافَّاتِ»[٦]. والحُوْر: البِيض؛ في قول قتادَة والعامةِ، جمعُ حَوْراء. والحَوْراء: البيضاء التي يُرى ساقها من وراء ثيابها، ويَرى الناظر وجهه في كعبها، كالمِرآة من رِقَّة[٧] الجلد وبضاضة البشرة وصفاء اللون. ودليلُ هذا التأويل أنها في حرف ابن مسعود: «بِعِيس عِين»[٨]. وذكر أبو بكر الأنباريُّ: أخبرنا أحمد بن الحسين قال: حدَّثنا حسين قال: حدَّثنا عمار بن

---

(١) الصحاح (قوم).
(٢) ينظر مجمع البيان ٢٥/١١٩.
(٣) في (د) و(ظ): يأمن.
(٤) ١٣/٢٦٦ - ٢٦٧.
(٥) إعراب القرآن للنحاس ٤/١٣٧، ومشكل إعراب القرآن ٢/٦٥٨.
(٦) ١٨/٣٤.
(٧) في (م): دقة.
(٨) القراءات الشاذة ص١٣٧، والمحتسب ٢/٢٦١.

محمد قال: صلَّيت خلف منصور بن المعتمر، فقرأ في «حم» الدُّخان: «بِعِيس عِين. لا يذوقون طعم الموتِ إلا الموتة الأولى». والعِيس: البِيض؛ ومنه قيل للإبل البِيض: عيس، واحدُها بعيرٌ أَعْيَس، وناقة عَيْساء. قال امرؤ القيس:

يَرُعْنَ إلى صوتي إذا ما سمعنَه كما تَرْعَوي عِيطٌ إلى صوتِ أَعْيَسا[1]

فمعنى الحُوْر هنا: الحسان الثاقبات البياض بحسن.

وذكر ابن المبارك: أخبرنا معمر، عن أبي إسحاق، عن عمرو بن ميمون الأودي، عن ابن مسعود قال: إن المرأة من الحُور العِين ليُرى مُخُّ ساقها من وراء اللَّحم والعظم، ومن تحت سبعين حُلَّةً، كما يُرى الشراب الأحمر في الزجاجة البيضاء[2]. وقال مجاهد: إنما سمِّيت الحُور حوراً لأنهنَّ يَحارُ الطَّرْف في حسنهنَّ وبياضهنَّ وصفاء لونهنَّ[3].

وقيل: إنما قيل لهنَّ حُوْر لِحَوَر أعينهنَّ. والحَوَر: شدَّةُ بياض العين في شدَّة سوادها. [يقال]: امرأة حَوْراء بيِّنةُ الحَوَر. [و] يقال: احورَّت عينه احوراراً، واحورَّ الشيء: ابيضَّ. قال الأصمعي: ما أدري ما الحَوَر في العَيْن؟ وقال أبو عمرو: الحَوَر أن تسودَّ العين كلُّها مثل أعين الظِّباء والبقر. قال: وليس في بني آدم حَوَر، وإنما قيل للنساء: حُورُ العِين لأنهنَّ يشبَّهن بالظِّباء والبقر. وقال العجَّاج:

بأعْينٍ مُحَوَّراتٍ بِيض[4]

يعني الأعينَ النقيات البياض، الشديداتِ سواد الحَدَق[5]. والعِين جمعُ عَيْناء،

(١) ديوان امرئ القيس ص ١٠٦، والعِيط: خيار الإبل وأفتاؤها. القاموس (عيط).

(٢) الزهد لابن المبارك (٢٦٠ - زوائد نعيم بن حماد)، وأخرجه أيضاً عبد الرزاق (٢٠٨٦٧)، والطبراني في الكبير (٨٨٦٤).

(٣) أخرجه الطبري ٢١/ ٦٥ بنحوه.

(٤) ديوان العجَّاج ص ٢٢٨، وفيه: حور، بدل: بيض، وقبله: إذ ترتمي من خَلَل الخُدُور.

(٥) الصحاح (حور) وما بين حاصرتين منه، وفيه: حور، بدل: بيض.

وهي الواسعةُ العظيمةُ العينين[1]. وعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «مهور الحُور العِين قبضاتُ التمر وفِلَق الخبز»[2]. وعن أبي قِرصافةَ: سمعت النبيَّ ﷺ يقول: «إخراج القُمَامة من المسجد مهورُ الحُور العِين»[3]. وعن أنس أن النبيَّ ﷺ قال: «كنس المساجد مهورُ الحُور العِين»[4] ذكره الثعلبي رحمه الله. وقد أفردنا لهذا المعنى باباً مفرداً في كتاب «التذكرة»[5] والحمد لله.

واختلف أيُّما أفضلُ في الجنة؛ نساءُ الآدميات أم الحور؟ فذكر ابن المبارك قال: وأخبرنا رِشْدِين، عن ابن أنْعُم، عن حِبَّان بن أبي جَبَلة قال: إن نساء الآدميات مَن دخل منهنَّ الجنة، فُضِّلن على الحُور العِين بما عملن في الدنيا[6]. ورُوِيَ مرفوعاً: «إن الآدميات أفضلُ من الحُور العِين بسبعين ألفَ ضعف»[7]. وقيل: إن الحُور العِين

(١) الطبري ٢١/٦٦ ، والوسيط ٥/٩٣ ، وتفسير البغوي ٤/ ١٥٥ .

(٢) أخرجه ابن عدي في الكامل ٥/ ١٦٨٤ وفيه عمر بن صبح بن عمران التميمي، قال الذهبي في الميزان ٣/٢٠٦ - ٢٠٧ : ليس بثقة ولا مأمون . قال ابن حبان : كان يضع الحديث . وقال الدارقطني : متروك.

(٣) أخرجه الطبراني في الكبير (٢٥٢١) مطولاً . قال الهيثمي في المجمع ٢/ ٩ : في إسناده مجاهيل . اهـ . وأبو قرصافة اسمه جندرة بن خيشنة ، له صحبة ، سكن فلسطين ، وقيل : كان يسكن أرض تهامة . الاستيعاب بهامش الإصابة ١٢/ ٩٣ - ٩٤ .

(٤) أخرجه ابن الجوزي في الموضوعات ٢/ ٤٢٥ وقال : هذا حديث لا يصح من جميع جهاته . وحديث أنس فيه مجاهيل ، وعبد الواحد ليس بثقة ، قاله يحيى . وقال البخاري والفلَّاس والنسائي . متروك الحديث . اهـ . وسلف ١٥/ ٢٨٥ بلفظ : ... وإن كنس غبار المسجد نقد الحور العين .

(٥) ص ٤٧٨ - ٤٨٠ .

(٦) الزهد (٢٥٥ - زوائد نعيم بن حماد) ، ورشدين، وهو ابن سعد المَهْري المصري ، قال الذهبي في الميزان ٢/ ٤٩ : كان صالحاً عابداً سيِّئ الحفظ غير معتمد . وقال ابن معين : ليس بشيء . وقال أبو زرعة : ضعيف . وقال النسائي : متروك . اهـ وابن أنعُم وهو عبد الرحمن بن زياد بن أنعم الإفريقي ضعيف، الميزان ٢/ ٥٦٢ .

(٧) أورده المصنف في كتابه التذكرة ص ٤٧٧ ، ولم نقف عليه .

أفضلُ؛ لقوله عليه الصلاة والسلام في دعائه: «وأبدِله زوجاً خيراً من زوجه»[١]. والله أعلم.

وقرأ عكرمة: «بِحُورِ عِينٍ» مضاف[٢]. والإضافة والتنوين في «بحور عين» سواء.

قوله تعالى: ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ۝٥٥﴾

قال قتادة: «آمنين» من الموت والوَصَب والشيطان[٣]. وقيل: آمنين من انقطاع ما هم فيه من النعيم، أو من أن ينالهم من أكلها أذًى أو مكروه[٤].

قوله تعالى: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ۝٥٦ فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۝٥٧﴾

قوله تعالى: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾ أي: لا يذوقون فيها الموت البتة لأنهم خالدون فيها[٥]. ثم قال: ﴿إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾ على الاستثناء المنقطع[٦]، أي: لكنْ الموتةُ الأولى قد ذاقوها في الدنيا. وأنشد سيبويه:

مَن كان أسرع في تَفَرُّق فالجٍ ... فلبونُه جَرِبت معًا وأغدَّتِ

ثم استثنى بما ليس من الأول فقال:

إلا كناشِرَةَ الذي ضيَّعْتُمُ ... كالغصنِ في غُلَوائه المتنبِّتِ[٧]

---

(١) هو قطعة من حديث أخرجه أحمد (٢٣٩٧٥)، ومسلم (٩٦٣) عن عوف بن مالك الأشجعي ﵁.

(٢) المحتسب ٢/ ٢٦١.

(٣) أخرجه الطبري ٢١/ ٦٧.

(٤) ينظر معاني القرآن للنحاس ٦/ ٤١٧.

(٥) المصدر السابق.

(٦) مشكل إعراب القرآن ٢/ ٦٥٨.

(٧) الكتاب لسيبويه ٢/ ٣٢٨ ونسبه لعنز بن دجاجة المازني، وكذا نسبه لعنز أبو عبيدة في مجاز القرآن ١/ ٦١، والأعلم الشنتمري في تحصيل عين الذهب ص ٣٦٤. وسماه السيرافي في شرح أبيات سيبويه ٢/ ١٧١ - ١٧٢ عتر بن دجاجة؛ قال: ويروى لمعاوية بن كاسر، اهـ. ونسب البيت لغيره، ينظر الخزانة ٦/ ٣٦٢، والمقتضب ٤/ ٤١٦، وسر صناعة الإعراب ١/ ٣٠٢. قوله: أغدَّت؛ أي: أصابتها الغدّة.

وقيل: إن «إِلَّا» بمعنى بَعْد، كقولك: ما كلَّمت رجلاً اليوم إلا رجلاً عندك، أي: بعد رجل عندك. وقيل: «إِلَّا» بمعنى سوى، أي: سوى الموتةِ التي ماتوها في الدنيا، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾(١) [النساء: ٢٢]. أي: سوى ما قد سلف(٢). وهو كما تقول: ما ذقت اليوم طعاماً سوى ما أكلت أمس.

وقال القتبيُّ: «إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى» معناه أن المؤمن إذا أشرف على الموت استقبلته ملائكة الرحمة ويَلْقى الرَّوْح والرَّيحان، وكان موته في الجنة لاتصافه بأسبابها، فهو استثناء صحيح(٣). والموتُ عَرضٌ لا يذاق، ولكن جُعِل كالطعام الذي يُكره ذوقه، فاستُعير فيه لفظُ الذوق.

﴿وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ . فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ﴾ أي: فعل ذلك بهم تفضُّلًا منه عليهم.(٤) فـ «فَضْلًا» مصدر عمل فيه «يَدْعُونَ». وقيل: العامل فيه «وَوَقَاهُمْ»(٥). وقيل: فعل مضمر. وقيل: معنى الكلام الذي قبله، لأنه تفضُّلٌ منه عليهم، إذ وفَّقهم في الدنيا إلى أعمال يدخلون بها الجنة.

﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ أي: السعادةُ والربح العظيم والنجاة العظيمة. وقيل: هو من قولك: فاز بكذا، أي: ناله وظَفِر به.

قوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ۝٥٨ فَٱرْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ ۝٥٩﴾

قوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ﴾ يعني القرآن، أي: سهَّلناه بلغتك عليك

(١) ذكر هذا القول الزجاج في معاني القرآن ٤/٤٢٨، وابن الجوزي في زاد المسير ٧/٣٥١ – ٣٥٢.
(٢) قوله: أي ما قد سلف، من (ظ) و(ق).
(٣) ينظر تأويل مشكل القرآن ص ٥٥ – ٥٦.
(٤) تفسير البغوي ٤/١٥٦.
(٥) مشكل إعراب القرآن ٢/٦٥٨.

وعلى مَن يقرؤه ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ أي: يتَّعظون وينزجرون. ونظيره: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر:١٧]. فختم السورة بالحثِّ على اتِّباع القرآن وإن لم يكن مذكوراً، كما قال في مفتتح السورة: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَـٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَـٰرَكَةٍ﴾، ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَـٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾ [القدر:١] على ما تقدَّم.

﴿فَٱرْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ﴾ أي: انتظر ما وعدتك من النصر عليهم، إنهم منتظرون لك الموت. حكاه النقاش[(١)].

وقيل: انتظر الفتح من ربك، إنهم منتظرون بزعمهم قهرَك[(٢)].

وقيل: انتظر أن يَحكُم الله بينك وبينهم، فإنهم ينتظرون بك رَيْب الحَدَثان. والمعنى متقارب.

وقيل ارتقب ما وعدتك من الثواب، فإنهم كالمنتظرين لِمَا وعدتهم من العقاب.

وقيل: ارتقب يوم القيامة فإنه يوم الفصل، وإن لم يعتقدوا وقوع القيامة، جُعِلوا كالمرتقِبين لأن عاقبتهم ذلك. والله تعالى أعلم.

---

(١) النكت والعيون ٥/٢٥٩.

(٢) الوجيز بهامش مراح لبيد ٢/٢٨٦.

تفسير سورة الدّخـان

وهى مكية.

قال الترمذى: حدثنا سفيان بن وَكيع، حدثنا زيد بن الحباب، عن عُمَر بن أبى خَثْعَم، عن يحيى بن أبى كثير، عن أبى سلمة[١]، عن أبى هريرة، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ (حم الدخان) فى ليلة أصبح يستغفر له سبعون ألف ملك».

ثم قال: غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه، و عمَر[٢] بن أبى خثعم يضعف. قال البخارى: منكر الحديث[٣].

ثم قال: حدثنا نصر بن عبد الرحمن الكوفى، حدثنا زيد بن الحباب، عن هشام أبى المقدام، عن الحسن[٤]، عن أبى هريرة، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ (حم الدخان) فى ليلة الجمعة، غفر له».

ثم قال: غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وهشام[٥] أبو المقدام يضعف، والحسن لم يسمع من أبى هريرة. كذا قال أيوب، ويونس بن عبيد، وعلى بن زيد[٦].

وفى مسند البزار من رواية أبى الطفيل عامر بن واثلة، عن زيد بن حارثة؛ أن رسول الله ﷺ قال لابن صيَّاد: «إنى قد خبأت خبأ فما هو؟» وخبأ له رسول الله ﷺ سورة الدخان، فقال: هو الدُّخ. فقال: «اخسأ ما شاء الله كان». ثم انصرف[٧].

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿حمٓ ① وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ② إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ③ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ④ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ⑤ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ⑥ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ⑦ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ ⑧﴾.

يقول تعالى مخبراً عن القرآن العظيم: إنه أنزله فى ليلة مباركة، وهى ليلة القدر، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ [القدر: ١] وكان ذلك فى شهر رمضان، كما قال تعالى: ﴿شَهْرُ

(١) فى ت: «روى الترمذى بإسناده».
(٢) فى ت: «الوجه، وفى إسناده عمر».
(٣) سنن الترمذى برقم (٢٨٨٨).
(٤) فى ت: «وروى الترمذى بإسناده».
(٥) فى ت: «الوجه، وفى إسناده هشام».
(٦) سنن الترمذى برقم (٢٨٨٩).
(٧) مسند البزار برقم (٣٣٩٩) «كشف الأستار» ورواه الطبرانى فى المعجم الكبير (٥/ ٨٨) من طريق زياد بن الفرات عن أبى الطفيل به. قال الهيثمى فى المجمع (٨/ ٤): «فيه زياد بن الحسن بن فرات، ضعفه أبو حاتم ووثقه ابن حبان».

رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ [البقرة: ١٨٥]، وقد ذكرنا الأحاديث (١) الواردة فى ذلك فى «سورة البقرة» بما أغنى عن إعادته.

ومن قال: إنها ليلة النصف من شعبان ـ كما روى عن عكرمة ـ فقد أبعد النَّجْعَة، فإن نص القرآن أنها فى رمضان. والحديث الذى رواه عبد الله بن صالح، عن الليث، عن عقيل، عن الزهرى: أخبرنى عثمان بن محمد بن المغيرة بن الأخنس أن رسول الله ﷺ قال: «تقطع الآجال من شعبان إلى شعبان، حتى إن الرجل لينكح ويولد له، وقد أخرج اسمه فى الموتى»(٢) فهو حديث مرسل، ومثله لا يعارض به النصوص.

وقوله: ﴿ **إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ** ﴾ أى: معلمين الناس ما ينفعهم ويضرهم شرعاً، لتقوم حجة الله على عباده.

وقوله: ﴿**فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ**﴾ أى: فى ليلة القدر يفصل من اللوح المحفوظ إلى الكتبة أمر السنة، وما يكون فيها من الآجال والأرزاق، وما يكون فيها إلى آخرها. وهكذا روى عن ابن عمر، وأبى مالك، ومجاهد، والضحاك، وغير واحد من السلف.

وقوله: ﴿**حَكِيمٍ**﴾ أى: محكم، لا يبدل ولايغير؛ ولهذا قال: ﴿ **أَمْرًا مِّنْ عِندِنَا** ﴾ أى: جميع ما يكون ويقدره الله تعالى وما يوحيه (٣) فبأمره وإذنه وعلمه، ﴿**إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ**﴾ أى: إلى الناس رسولاً يتلو عليهم آيات الله مبينات، فإن الحاجة كانت ماسة إليه؛ ولهذا قال: ﴿**رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ. رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا**﴾ أى: الذى أنزل هذا القرآن هو رب السموات والأرض وخالقهما ومالكهما وما فيهما، ﴿ **إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ**﴾ أى: إن كنتم متحققين.

ثم قال: ﴿**لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ** ﴾، وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿ **قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ [فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ]**(٤)﴾ الآية[الأعراف: ١٥٨].

﴿ **بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ (٩) فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ (١٠) يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (١١) رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ (١٢) أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ (١٣) ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ (١٤) إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلاً إِنَّكُمْ عَائِدُونَ(١٥) يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنتَقِمُونَ (١٦)** ﴾.

يقول تعالى: بل هؤلاء المشركون فى شك يلعبون، أى: قد جاءهم اليقين(٥)، وهم يشكون فيه ويمترون، ولا يصدقون به، ثم قال متوعدا لهم ومتهدداً: ﴿ **فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ** ﴾.

قال سليمان بن مِهْرَان الأعمش، عن أبى الضُّحَى مسلم بن صُبَيْح(٦)، عن مسروق قال: دخلنا

(١) فى ت: «الآثار».
(٢) رواه الطبرى فى تفسيره (٢٥/ ٦٥) والبيهقى فى شعب الإيمان برقم (٣٨٣٩) من طريق الليث عن عقيل به.
(٣) فى أ: «يوجبه». (٤) زيادة من ت، أ. (٥) فى ت: «المبين». (٦) فى ت: «روى البخارى ومسلم فى صحيحيهما».

المسجد ـ يعنى مسجد الكوفة ـ عند أبواب كندة، فإذا رجل يقص على أصحابه: ﴿يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾، تدرون ما ذلك الدخان؟ ذلك دخان يأتى يوم القيامة، فيأخذ بأسماع المنافقين وأبصارهم، ويأخذ المؤمنين منه شبه الزكام. قال: فأتينا ابن مسعود فذكرنا ذلك له، وكان مضطجعًا ففزع فقعد، وقال(١): إن الله عز وجل قال لنبيكم ﷺ: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾ [ص:٨٦]، إن من العلم أن يقول الرجل لما لا يعلم: «الله أعلم»، سأحدثكم عن ذلك، إن قريشا لما أبطأت عن الإسلام واستعصت(٢) على رسول الله ﷺ، دعا عليهم بسنين كسنى يوسف، فأصابهم من الجهد والجوع حتى أكلوا العظام والميتة، وجعلوا يرفعون أبصارهم إلى السماء فلا يرون إلا الدخان ـ وفى رواية: فجعل الرجل ينظر إلى السماء، فيرى ما بينه وبينها كهيئة الدخان من الجهد ـ [قال](٣) قال الله تعالى: ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ . يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، فأتى رسول الله ﷺ فقيل: يارسول الله، استسق الله لمضر، فإنها قد هلكت. فاستسقى لهم فَسُقُوا، فأنزل الله: ﴿إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلاً إِنَّكُمْ عَائِدُونَ﴾ قال ابن مسعود: فيكشف العذاب عنهم يوم القيامة، فلما أصابهم الرفاهية عادوا إلى حالهم، فأنزل الله: ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾، قال: يعنى يوم بدر.

قال ابن مسعود: فقد مضى خمسة: الدخان، والروم، والقمر، والبطشة، واللِّزام. وهذا الحديث مخرج فى الصحيحين(٤). ورواه الإمام أحمد فى مسنده، وهو عند الترمذى والنسائى فى تفسيرهما(٥)، وعند ابن جرير وابن أبى حاتم من طرق متعددة، عن الأعمش، به(٦). وقد وافق ابن مسعود على تفسير الآية بهذا، وأن الدخان مضى، جماعة من السلف كمجاهد، وأبى العالية، وإبراهيم النخعى، والضحاك، وعطية العوفى، وهو اختيار ابن جرير.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا جعفر بن مسافر، حدثنا يحيى بن حسان، حدثنا ابن لَهيعة، حدثنا(٧) عبد الرحمن الأعرج فى قوله: ﴿يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾ قال: كان يوم فتح مكة.

وهذا القول غريب جداً، بل منكر.

وقال آخرون: لم يمض الدخان بعد، بل هو من أمارات(٨) الساعة، كما تقدم من حديث أبى سَرِيحة(٩) حذيفة بن أسيد الغفارى، رضى الله عنه، قال: أشرف علينا رسول الله ﷺ من غرفة ونحن نتذاكر الساعة، فقال: «لا تقوم الساعة حتى تروا عشر آيات: طلوع الشمس من مغربها، والدخان، والدابة، وخروج يأجوج ومأجوج، وخروج عيسى ابن مريم، والدجال، وثلاثة خسوف: خسف بالمشرق، وخسف بالمغرب، وخسف بجزيرة العرب، ونار تخرج من قعر عدن تسوق الناس ـ

---

(١) فى ت، م: «فقال». (٢) فى أ: «واستصعبت». (٣) زيادة من أ.

(٤) صحيح البخارى برقم (٤٨٢٠) وصحيح مسلم برقم (٢٧٩٨).

(٥) فى م: «تفسيريهما».

(٦) المسند (١/ ٣٨٠، ٤٣١) وسنن الترمذى برقم (٣٢٥٤) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٤٨١) وتفسير الطبرى (٢٥/ ٦٦).

(٧) فى ت: «وروى ابن أبى حاتم بإسناده عن». (٨) فى ت: «آيات». (٩) فى ت: «أبى سريحة فى».

أو: تحشر الناس ـ: تبيت معهم حيث باتوا، وتقيل معهم حيث قالوا». تفرد بإخراجه مسلم فى صحيحه[1].

وفى الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال لابن الصياد: «إنى خبأت لك خَبْأ»، قال: هو الدُّخ. فقال له: «اخسأ فلن تعدو قدرك». قال: وخبأ له رسول الله ﷺ: **﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾**[2].

وهذا فيه إشعار بأنه من المنتظر المرتقب، وابن صياد كاشف على طريقة الكهان بلسان الجان، وهم يُقَرطمون العبارة؛ ولهذا قال: «هو الدُّخ»، يعنى: الدخان. فعندها عرف رسول الله ﷺ مادته وأنها شيطانية، فقاله له: «اخسأ فلن تعدو قدرك».

ثم قال ابن جرير: وحدثنى عصام بن رَوَّاد بن الجراح، حدثنا أبى، حدثنا سفيان بن سعيد الثورى، حدثنا منصور بن المعتمر، عن رِبْعِى بن حِرَاش قال: سمعت حذيفة بن اليمان يقول[3]: قال رسول الله ﷺ: «إن أول الآيات الدجال، ونزول عيسى ابن مريم، ونار تخرج من قعر عدن أبين، تسوق الناس إلى المحشر، تقيل معهم إذا قالوا، والدخان ـ قال حذيفة: يا رسول الله، وما الدخان؟ فتلا رسول الله ﷺ هذه الآية: **﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ . يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾** ـ يملأ ما بين المشرق والمغرب، يمكث أربعين يوماً وليلة، أما المؤمن فيصيبه منه كهيئة الزكمة[4]، وأما الكافر فيكون بمنزلة السكران، يخرج من منخريه وأذنيه ودبره»[5].

قال ابن جرير: لو صح هذا الحديث لكان فاصلاً، وإنما لم أشهد له بالصحة؛ لأن محمد بن خلف العسقلانى حدثنى أنه سأل روادا عن هذا الحديث: هل سمعه من سفيان؟ فقال له: لا. قال: فقلت: أقرأته عليه؟ قال: لا. قال: فقلت له: فقرئ عليه وأنت حاضر فأقر به؟ فقال: لا. فقلت له: فمن أين جئت به؟ فقال: جاءنى به قوم فعرضوه على، وقالوا لى: اسمعه منا. فقرؤوه علىَّ ثم ذهبوا به، فحدثوا به عنى، أو كما قال[6].

وقد أجاد ابن جرير فى هذا الحديث ههنا، فإنه موضوع بهذا السند، وقد أكثر ابن جرير من سياقه فى أماكن من هذا التفسير، وفيه منكرات كثيرة جداً، ولا سيما فى أول سورة «بنى إسرائيل» فى ذكر المسجد الأقصى، والله أعلم.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبو زرعة، حدثنا صفوان، حدثنا الوليد، حدثنا خليل، عن الحسن، عن أبى سعيد الخدرى، رضى الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «يهيج الدخان بالناس، فأما المؤمن فيأخذه كالزكمة، وأما الكافر فينفخه حتى يخرج من كل مسمع منه».

---

(١) صحيح مسلم برقم (٢٩٠١).

(٢) صحيح البخارى برقم (٣٠٥٥) وصحيح مسلم برقم (٢٩٣٠) من حديث عبد الله بن عمر، رضى الله عنهما.

(٣) فى ت: «وروى ابن أبى حاتم عن حذيفة قال».

(٤) فى ت، م: «الزكام».

(٥) تفسير الطبرى (٢٥/٦٨) ومن طريقه رواه الثعلبى فى تفسيره كما فى تخريج أحاديث الكشاف للزيلعى (١١٧٤) والبغوى فى معالم التنزيل (٧/ ٢٣٠).

(٦) تفسير الطبرى (٢٥/٦٨).

ورواه سعيد بن أبى عَرُوبة، عن قتادة، عن الحسن، عن أبى سعيد الخدرى موقوفاً. ورواه عوف، عن الحسن قوله.

وقال ابن جرير أيضًا: حدثنى محمد بن عوف، حدثنا محمد بن إسماعيل بن عياش، حدثنى أبى، حدثنى ضَمْضَم بن زُرعَة، عن شُريح بن عبيد، عن أبى مالك الأشعرى قال: قال رسول الله ﷺ: «إن ربكم أنذركم ثلاثا: الدخان يأخذ المؤمن كالزكمة، ويأخذ الكافر فينتفخ حتى يخرج من كل مسمع منه، والثانية الدابة، والثالثة الدجال».

ورواه الطبرانى عن هاشم بن يزيد، عن محمد بن إسماعيل بن عياش، به[١]. وهذا إسناد جيد.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا عبد الله بن صالح بن مسلم، حدثنا إسرائيل، عن أبى إسحاق، عن الحارث، عن على، رضى الله عنه، قال: لم تمض آية الدخان بعد، يأخذ المؤمن كهيئة الزكام، وتنفخ الكافر حتى ينفد.

وروى ابن جرير من حديث الوليد بن جميع، عن عبد الملك بن المغيرة، عن عبد الرحمن بن البيلمانى، عن ابن عمر قال: يخرج الدخان فيأخذ المؤمن كهيئة الزكام، ويدخل فى مسامع الكافر والمنافق حتى يكون كالرأس الحنيذ، أى: المشوى على الرَّضف.

ثم قال ابن جرير: حدثنى يعقوب، حدثنا ابن عُلَيَّة، عن ابن جريج[٢]، عن عبد الله بن أبى مليكة قال: غدوت على ابن عباس، رضى الله عنهما، ذات يوم فقال: ما نمت الليلة حتى أصبحت. قلت: لم؟ قال: قالوا: طلع الكوكب ذو الذنب، فخشيت أن يكون الدخان قد طرق، فما نمت حتى أصبحت[٣]. وهكذا رواه ابن أبى حاتم[٤]، عن أبيه، عن ابن أبى عمر، عن سفيان، عن عبد الله بن أبى يزيد، عن عبد الله بن أبى مليكة، عن ابن عباس فذكره. وهذا إسناد صحيح إلى ابن عباس حبر الأمة وترجمان القرآن. وهكذا قول من وافقه من الصحابة والتابعين أجمعين، مع الأحاديث المرفوعة من الصحاح والحسان وغيرهما، التى أوردناها مما فيه مقنع ودلالة ظاهرة على أن الدخان من الآيات المنتظرة، مع أنه ظاهر القرآن.

قال الله تعالى: ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ﴾ أى: بين واضح يراه كل أحد. وعلى ما فسر به ابن مسعود، رضى الله عنه: إنما هو خيال رأوه فى أعينهم من شدة الجوع والجهد. وهكذا قوله: ﴿يَغْشَى النَّاسَ﴾ أى: يتغشاهم ويَعُمهم[٥]، ولو كان أمرا خيالياً يخص أهل مكة المشركين لما

---

(١) تفسير الطبرى (٢٥/ ٦٨) والمعجم الكبير (٣/ ٢٩٢) وقول الحافظ ابن كثير هنا: «هذا إسناد جيد» متعقب، فإن لهذه النسخة ثلاث علل:

الأولى: محمد بن إسماعيل بن عياش، قال أبو حاتم: «لم يسمع من أبيه شيئاً، حملوه على أن يحدث فحدث».

الثانية: ضَمضَم بن زُرعة، ضعفه أبو حاتم ووثقه ابن معين، ومحمد بن إسماعيل بن عياش، قال أبو داود: «لم يكن بذاك».

الثالثة: شُريح بن عبيد، قد كلم فى سماعه من أبى مالك الأشعرى، قال أبو حاتم: «شريح بن عبيد، عن أبى مالك الأشعرى، مرسل».

(٢) فى ت: «وروى ابن أبى حاتم بإسناده».

(٣) تفسير الطبرى (٢٥/ ٦٨).

(٤) فى ت: «ورواه ابن جرير هكذا»، وفى أ: «وهكذا رواه ابن جرير».

(٥) فى أ: «ويغمهم».

قيل فيه: ﴿يَغْشَى النَّاسَ﴾.

وقوله: ﴿هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: يقال لهم ذلك تقريعاً وتوبيخاً، كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا . هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ [الطور: ١٣، ١٤]، أو يقول بعضهم لبعض ذلك.

وقوله: ﴿رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾ أي: يقول الكافرون إذا عاينوا عذاب الله وعقابه سائلين رفعه وكشفه عنهم، كقوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنعام: ٢٧]. وكذا قوله: ﴿وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوَ لَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾ [إبراهيم: ٤٤]، وهكذا قال هاهنا: ﴿أَنَّىٰ لَهُمُ الذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ . ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ﴾.

يقول: كيف لهم بالتذكر، وقد أرسلنا إليهم رسولاً بين الرسالة والنذارة، ومع هذا تولوا عنه وما وافقوه، بل كذبوه وقالوا: معلم مجنون. وهذا كقوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الإِنسَانُ وَأَنَّىٰ لَهُ الذِّكْرَىٰ . يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾ [الفجر: ٢٣، ٢٤]، وقوله[١] تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فَزِعُوا فَلا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ . وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّىٰ لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ . وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِن قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ . وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ﴾ [سبأ: ٥١ ـ ٥٤].

وقوله: ﴿إِنَّا كَاشِفُو[٢] الْعَذَابِ قَلِيلاً إِنَّكُمْ عَائِدُونَ﴾، يحتمل معنيين:

أحدهما: أنه يقوله[٣] تعالى: ولو كشفنا عنكم العذاب ورجعناكم إلى الدار الدنيا، لعدتم إلى ما كنتم فيه من الكفر والتكذيب، كقوله: ﴿وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [المؤمنون: ٧٥]، وكقوله: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٨].

والثاني: أن يكون المراد: إنا مؤخرو العذاب عنكم قليلا بعد انعقاد أسبابه[٤] ووصوله إليكم، وأنتم مستمرون فيما أنتم فيه من الطغيان والضلال، ولا يلزم من الكشف عنهم أن يكون باشرهم، كقوله تعالى: ﴿إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [يونس: ٩٨]، ولم يكن العذاب باشرهم واتصل بهم، بل كان قد انعقد سببه [ووصوله][٥] عليهم، ولا يلزم أيضًا أن يكونوا قد أقلعوا عن كفرهم ثم عادوا إليه، قال الله تعالى إخبارًا عن شعيب أنه قال لقومه حين قالوا: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَ لَوْ كُنَّا كَارِهِينَ . قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا﴾ [الأعراف: ٨٨، ٨٩]، وشعيب [عليه السلام][٦] لم يكن قط على ملتهم وطريقتهم.

وقال قتادة: ﴿إِنَّكُمْ عَائِدُونَ﴾: إلى عذاب الله.

---

(١) في ت، م: «وكقوله».　(٢) في ت: «كاشف».　(٣) في أ: «يقول».
(٤) في ت، م، أ: «سببه».　(٥) زيادة من ت، أ.　(٦) زيادة من ت، م، أ.

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾: فسر ذلك ابن مسعود بيوم بدر. وهذا قول جماعة ممن وافق ابن مسعود على تفسيره الدخان بما تقدم، وروى أيضاً عن ابن عباس [وجماعة][١] من رواية العوفى، عنه. وعن أبى بن كعب وجماعة، وهو محتمل.

والظاهر أن ذلك يوم القيامة، وإن كان يوم بدر يوم بطشة أيضاً.

قال[٢] ابن جرير: حدثنى يعقوب، حدثنا ابن علية، حدثنا خالد الحذاء، عن عكرمة قال: قال ابن عباس: قال ابن مسعود: البطشة الكبرى: يوم بدر، وأنا أقول: هى يوم القيامة[٣].

وهذا إسناد صحيح عنه، وبه يقول الحسن البصرى، وعكرمة فى أصح الروايتين[٤]، عنه.

﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾ أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾ وَأَن لَّا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٩﴾ وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾ وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ ﴿٢١﴾ فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَٰؤُلَاءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾ فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾ كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴿٣٠﴾ مِن فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا مِّنَ الْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٣٢﴾ وَآتَيْنَاهُم مِّنَ الْآيَاتِ مَا فِيهِ بَلَاءٌ مُّبِينٌ ﴿٣٣﴾ ﴾.

يقول تعالى: ولقد اختبرنا قبل هؤلاء المشركين قوم فرعون، وهم قبط مصر، ﴿وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ﴾ يعني: موسى كليمه، عليه السلام، ﴿أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ﴾، كقوله: ﴿ فَأَرْسِلْ[٥] مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ﴾ [طه: ٤٧].

وقوله: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ أى: مأمون على ما أبلغكموه.

وقوله: ﴿وَأَن لَّا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ﴾ أى: لا تستكبروا على اتباع آياته، والانقياد لحججه والإيمان ببراهينه[٦]، كقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠].

﴿إِنِّي آتِيكُم بِسُلْطَانٍ [مُّبِينٍ][٧]﴾ أى: بحجة ظاهرة واضحة، وهى ما أرسله الله به من الآيات البينات والأدلة القاطعة[٨].

---

(١) زيادة من ت.
(٢) فى ت: «وروى».
(٣) تفسير الطبرى (٢٥/ ٧٠).
(٤) فى ت: «القولين».
(٥) فى ت، م، أ: «وأن أرسل» وهو خطأ.
(٦) فى أ: «بالوهيته».
(٧) زيادة من ت، م، أ.
(٨) فى ت، م، أ: «القاطعات».

﴿وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ﴾ قال ابن عباس، وأبو صالح: هو الرجم باللسان وهو الشتم.

وقال قتادة: [هو][١] الرجم بالحجارة.

أى[٢]: أعوذ بالله الذى خلقنى وخلقكم [من][٣] أن تصلوا إلىَّ بسوء من قول أو فعل.

﴿وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ﴾ أى: فلا تتعرضوا[٤] إلىَّ، ودعوا الأمر بينى وبينكم مسالمة إلى أن يقضى الله بيننا. فلما طال مقامه بين أظهرهم، وأقام حجج الله عليهم، كل ذلك وما زادهم ذلك إلا كفراً وعناداً، دعا ربه عليهم دعوة نفذت فيهم، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ .قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا﴾ [يونس: ٨٨، ٨٩]. وهكذا قال هاهنا: ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَؤُلاءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ﴾، فعند ذلك أمره الله تعالى أن يخرج ببنى إسرائيل من بين أظهرهم من غير أمر فرعون ومشاورته واستئذانه؛ ولهذا قال: ﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلاً إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾، كما قال: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لاَّ تَخَافُ دَرَكًا وَلا تَخْشَىٰ﴾ [طه: ٧٧].

وقوله هاهنا: ﴿وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ﴾ وذلك أن موسى، عليه السلام، لما جاوز هو وبنو إسرائيل البحر، أراد موسى أن يضربه بعصاه حتى يعود كما كان، ليصير حائلاً بينهم وبين فرعون، فلا يصل إليهم. فأمره الله[٥] أن يتركه على حاله ساكناً، وبشره بأنهم جند مغرقون فيه[٦]، وأنه لا يخاف دركاً ولا يخشى.

قال ابن عباس: ﴿وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا﴾ كهيئته وامضه. وقال مجاهد ﴿رَهْوًا﴾: طريقاً يبساً كهيئته، يقول: لا تأمره يرجع، اتركه حتى يرجع آخرهم. وكذا قال عكرمة، والربيع بن أنس، والضحاك، وقتادة، وابن زيد، وكعب الأحبار، وسماك بن حرب، وغير واحد[٧].

ثم قال تعالى: ﴿كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ﴾ وهى البساتين ﴿وَعُيُونٍ . وَزُرُوعٍ﴾ والمراد بها الأنهار والآبار، ﴿وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ وهى المساكن الكريمة الأنيقة والأماكن الحسنة.

وقال مجاهد، وسعيد بن جبير: ﴿وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾: المنابر.

وقال ابن لَهيعة، عن وهب[٨] بن عبد الله المعافرى، عن عبد الله بن عمرو قال: نيل مصر سيد الأنهار، سخر الله له كل نهر بين المشرق والمغرب، وذلله له، فإذا أراد الله أن يجرى نيل مصر أمر كل نهر أن يمده، فأمدته الأنهار بمائها، وفجر الله له الأرض عيوناً، فإذا انتهى جريه إلى ما أراد الله، أوحى الله إلى كل ماء أن يرجع إلى عنصره.

---

(١) زيادة من ت. (٢) فى أ: «إنى». (٣) زيادة من ت، م.
(٤) فى أ: «تعترضوا». (٥) فى م: «تعالى». (٦) فى ت: «أى فى البحر»، وفى أ: «أى فيه».
(٧) فى ت: «وغيرهما». (٨) فى م: «ولهب».

وقال فى قوله تعالى: ﴿كَمْ تَرَكُوا[١] مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ . وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ . وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ﴾، قال: كانت الجنان بحافتى هذا النيل من أوله إلى آخره فى الشقين جميعاً، ما بين أسوان إلى رشيد، وكان له تسعة[٢] خلج: خليج الإسكندرية، وخليج دمياط، وخليج سردوس، وخليج منف، وخليج الفيوم، وخليج المنهى، متصلة لا ينقطع منها شىء عن شىء، وزروع ما بين الجبلين كله من أول مصر إلى آخر ما يبلغه الماء، وكانت جميع أرض مصر تروى من ستة عشر ذراعاً، لما قدروا ودبروا من قناطرها وجسورها وخلجها.

﴿وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ﴾ أى: عيشة كانوا يتفكهون فيها فيأكلون ما شاؤوا ويلبسون ما أحبوا مع الأموال والجاهات والحكم فى البلاد، فسلبوا ذلك جميعه فى صبيحة واحدة، وفارقوا الدنيا وصاروا إلى جهنم وبئس المصير، واستولى على البلاد المصرية وتلك الحواصل الفرعونية والممالك القبطية بنو إسرائيل، كما قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الشعراء: ٥٩] وقال فى موضع آخر[٣]: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٧]. وقال هاهنا: ﴿كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾ وهم بنو إسرائيل، كما تقدم.

وقوله: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ﴾ أى: لم تكن لهم أعمال صالحة تصعد فى أبواب السماء فتبكى على فقدهم، ولا لهم فى الأرض بقاع عبدوا الله فيها فقدتهم؛ فلهذا استحقوا ألا ينظروا ولا يؤخروا لكفرهم وإجرامهم، وعتوهم وعنادهم.

قال الحافظ أبو يعلى الموصلى فى مسنده: حدثنا أحمد بن إسحاق البصرى، حدثنا مكى بن إبراهيم، حدثنا موسى بن عبيدة، حدثنى يزيد الرقاشى، حدثنى أنس بن مالك[٤]، عن النبى ﷺ قال: «ما من عبد إلا وله فى السماء بابان: باب يخرج منه رزقه، وباب يدخل منه[٥] عمله وكلامه، فإذا مات فقداه وبكيا عليه»، وتلا هذه الآية: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ﴾ وذُكر أنهم لم يكونوا عملوا[٦] على الأرض عملاً صالحا يبكى عليهم. ولم يصعد لهم إلى السماء من كلامهم ولا من عملهم كلام طيب، ولا عمل صالح فتفقدهم فتبكى عليهم[٧].

ورواه ابن أبى حاتم من حديث موسى بن عبيدة وهو الربذى.

وقال ابن جرير: حدثنى يحيى بن طلحة، حدثنا عيسى بن يونس، عن صفوان بن عمرو، عن شريح بن عبيد الحضرمى قال: قال رسول الله ﷺ[٨]: «إن الإسلام بدأ غريباً وسيعود غريباً. ألا لا غربة على مؤمن، ما مات مؤمن فى غربة غابت عنه فيها بواكيه إلا بكت عليه السماء والأرض». ثم

(١) فى ت، م: «فأخرجناهم» وهو خطأ، ولعل الناسخ أراد الآية: ٥٧ من سورة الشعراء. (٢) فى ت، م: «تسع».
(٣) فى ت، م، أ: «الآية». (٤) فى ت: «وروى الحافظ أبو يعلى الموصلى بإسناده عن أنس بن مالك رضى الله عنه».
(٥) فى ت، أ: «فيه». (٦) فى ت، م: «يعملون».
(٧) مسند أبى يعلى (٧/ ١٦٠) ورواه الترمذى فى السنن برقم (٣٢٥٥) من طريق موسى بن عبيدة به مختصراً، وقال الترمذى: «هذا حديث غريب لا نعرفه مرفوعاً إلا من هذا الوجه، وموسى بن عبيدة ويزيد بن أبان الرقاشى يضعفان فى الحديث».
(٨) فى ت: «وروى ابن جرير أن رسول الله ﷺ قال».

قرأ رسول الله ﷺ: ﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ﴾ ثم قال: «إنهما لا يبكيان على الكافر»[١].

وقال[٢] ابن أبى حاتم: حدثنا أحمد بن عصام، حدثنا أبو أحمد ـ يعنى الزبيرى ـ حدثنا العلاء ابن صالح، عن المنهال بن عمرو، عن عباد بن عبد الله قال: سأل رجل علياً، رضى الله عنه: هل تبكى السماء والأرض على أحد؟ فقال له: لقد سألتنى عن شيء ما سألنى عنه أحد قبلك، إنه ليس [من][٣] عبد إلا له مصلى فى الأرض، ومصعد عمله من السماء. وإن آل فرعون لم يكن لهم عمل صالح فى الأرض، ولا عمل يصعد فى السماء، ثم قرأ على، رضى الله عنه: ﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ﴾.

وقال ابن جرير: حدثنا أبو كريب، حدثنا طلق بن غَنَّام، عن زائدة، عن منصور، عن منهال، عن سعيد بن جبير قال: أتى ابنَ عباس رجلٌ فقال: يا أبا عباس، أرأيت قول الله: ﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ﴾، فهل تبكى السماء والأرض على أحد؟ قال: نعم، إنه ليس أحد من الخلائق إلا وله باب فى السماء منه ينزل رزقه، وفيه يصعد عمله، فإذا مات المؤمن فأغلق بابه من السماء الذى كان يصعد فيه عمله وينزل منه رزقه بكى عليه، وإذا فقد مصلاه من الأرض التى كان يصلى فيها ويذكر الله فيها بكت عليه، وإن قوم فرعون لم تكن لهم فى الأرض آثار صالحة، ولم يكن يصعد إلى الله منهم خير، فلم تبك عليهم السماء والأرض[٤].

وروى العوفى، عن ابن عباس، نحو هذا.

وقال سفيان الثورى، عن أبى يحيى القَتَّات، عن مجاهد، عن[٥] ابن عباس [رضى الله عنهما][٦] قال: كان يقال: تبكى الأرض على المؤمن أربعين صباحاً. وكذا قال مجاهد، وسعيد بن جبير، وغير واحد.

وقال مجاهد أيضاً: ما مات مؤمن إلا بكت عليه السماء والأرض أربعين صباحاً، قال: فقلت له: أتبكى الأرض؟ فقال: أتعجب؟ وما للأرض لا تبكى على عبد، كان يعمرها بالركوع والسجود؟ وما للسماء لا تبكى على عبد كان لتكبيره وتسبيحه فيها دوى كدوى النحل؟

وقال قتادة: كانوا أهون على الله من أن تبكى عليهم السماء والأرض.

وقال ابن حاتم: حدثنا على بن الحسين، حدثنا عبد السلام بن عاصم، حدثنا إسحاق بن إسماعيل، حدثنا المستورد بن سابق، عن عبيد المكتب، عن إبراهيم قال: ما بكت السماء منذ كانت الدنيا إلا على اثنين. قلت لعبيد: أليس السماء والأرض تبكى على المؤمن؟ قال: ذاك مقامه حيث يصعد عمله. قال: وتدرى ما بكاء السماء؟ قلت[٧]: لا. قال: تحمر وتصير وردة كالدهان، إن يحيى

---

(١) تفسير الطبرى (٢٥/ ٧٥) ورواه ابن أبى الدنيا فى ذكر الموت كما فى الدر المنثور (٧/ ٤١٢) وهو مرسل.
(٢) فى ت: «وروى». (٣) زيادة من ت، أ.
(٤) تفسير الطبرى (٢٥/ ٧٤).
(٥) فى ت: «وعن». (٦) زيادة من ت. (٧) فى أ: «قال».

ابن زكريا لما قتل احمرت السماء وقطرت دماً. وإن حسين بن على لما قتل احمرت السماء.

وحدثنا على بن الحسن، حدثنا أبو غسان محمد بن عمرو ـ زُنَيج ـ حدثنا جرير، عن يزيد بن أبى زياد قال: لما قتل حسين[١] بن على، رضى الله عنهما، احمرت آفاق السماء أربعة أشهر. قال يزيد: واحمرارها بكاؤها. وهكذا قال السدى الكبير.

وقال عطاء الخراسانى: بكاؤها: أن تحمر أطرافها.

وذكروا[٢] أيضًا فى مقتل الحسين أنه ما قلب حجر يومئذ إلا وجد تحته دم عَبِيط، وأنه كسفت الشمس، واحمر الأفق، وسقطت حجارة. وفى كل ذلك نظر، والظاهر أنه من سُخْف الشيعة وكذبهم، ليعظموا الأمر ـ ولا شك أنه عظيم ـ ولكن لم يقع هذا الذى اختلقوه وكذبوه، وقد وقع ما هو أعظم من [ذلك] [٣] ـ قتل الحسين، رضى الله عنه ـ ولم يقع شىء مما ذكروه، فإنه قد قتل أبوه على بن أبى طالب، وهو أفضل منه بالإجماع ولم يقع[٤] [شىء من][٥] ذلك، وعثمان بن عفان قتل محصوراً مظلوماً، ولم يكن شىء من ذلك. وعمر بن الخطاب، رضى الله عنه، قتل فى المحراب فى صلاة الصبح، وكأن المسلمين لم تطرقهم مصيبة قبل ذلك، ولم يكن شىء من ذلك. وهذا رسول الله ﷺ وهو سيد البشر فى الدنيا والآخرة يوم مات لم يكن شىء مما ذكروه. ويوم مات إبراهيم ابن النبى ﷺ خسفت الشمس، فقال الناس: [الشمس][٦] خسفت لموت إبراهيم، فصلى بهم رسول الله ﷺ صلاة الكسوف، وخطبهم وبين لهم أن الشمس والقمر لا ينخسفان لموت أحد ولا لحياته[٧].

وقوله: ﴿ وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ . مِن فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا مِّنَ الْمُسْرِفِينَ﴾: يمتن عليهم تعالى بذلك، حيث أنقذهم مما كانوا فيه من إهانة فرعون وإذلاله لهم، وتسخيره إياهم فى[٨] الأعمال المهينة الشاقة.

وقوله: ﴿مِن فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا [مِّنَ الْمُسْرِفِينَ][٩]﴾ أى: مستكبراً جباراً عنيداً، كقوله: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الأَرْضِ [وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا][١٠]﴾ [القصص: ٤].

وقوله: ﴿فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ ﴾ [المؤمنون: ٤٦]، [وقوله: ﴿فَاسْتَكْبَرُوا فِي الأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ ﴾][١١] [العنكبوت: ٣٩]، [فكان فرعون][١٢] سرفاً[١٣] فى أمره، سخيف الرأى على نفسه.

وقوله: ﴿ وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ ـ قال مجاهد: ﴿ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾: على من هم بين ظهريه. وقال قتادة: اختيروا على أهل زمانهم ذلك. وكان يقال: إن

(١) فى ت، م: «الحسين». (٢) فى ت: «وذكر».
(٣) زيادة من أ. (٤) فى ت، أ: «يكن». (٥) زيادة من ت، أ.
(٦) زيادة من ت، وفى أ: «انخسفت الشمس».
(٧) رواه البخارى فى صحيحه برقم (١٠٤٣) ومسلم فى صحيحه برقم (٩١٥).
(٨) فى أ: «من». (٩، ١٠) زيادة من أ.
(١١) زيادة من أ. (١٢) زيادة من ت، أ. (١٣) فى ت، أ: «مسرفا».

لكل زمان عالما. وهذه[١] كقوله تعالى: ﴿قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ﴾ [الأعراف: ١٤٤] أى: أهل زمانه، وكقوله لمريم: ﴿وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٤٢] أى: فى زمانها؛ فإن خديجة أفضل منها، وكذا آسية بنت مزاحم امرأة فرعون، أو مساوية لها فى الفضل، وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام.

وقوله: ﴿وَآتَيْنَاهُم مِّنَ الْآيَاتِ﴾ أى: [من][٢] الحجج والبراهين وخوارق العادات ﴿مَا فِيهِ بَلَاءٌ مُّبِينٌ﴾ أى: اختبار ظاهر جلى لمن اهتدى به.

﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ (٣٤) إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ (٣٥) فَأْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٣٦) أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ (٣٧)﴾.

يقول تعالى منكرًا على المشركين فى إنكارهم البعث والمعاد، وأنه ما ثم إلا هذه الحياة الدنيا، ولا حياة بعد الممات، ولا بعث ولا نشور. ويحتجون بآبائهم الماضين الذين ذهبوا فلم يرجعوا، فإن كان البعث حقاً ﴿فَأْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾. وهذه حجة باطلة وشبهة فاسدة، فإن المعاد إنما هو يوم القيامة لا فى هذه الدار، [بل][٣] بعد انقضائها وذهابها وفراغها يعيد الله العالمين خلقاً جديداً، ويجعل الظالمين لنار جهنم وقوداً، يوم تكون[٤] شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً.

ثم قال تعالى متهدداً لهم، ومتوعداً ومنذراً لهم بأسه الذى لا يرد، كما حل بأشباههم[٥] ونظرائهم من المشركين والمنكرين للبعث وكقوم تبع ـ وهم سبأ ـ حيث أهلكهم الله وخرَّب بلادهم، وشردهم فى البلاد، وفرقهم شذر مذر، كما تقدم ذلك فى سورة سبأ، وهى مُصَدَّرة بإنكار المشركين للمعاد. وكذلك هاهنا شبههم بأولئك، وقد كانوا عرباً من قحطان كما أن هؤلاء عرب من عدنان، وقد كانت حمير ـ وهم سبأ ـ كلما ملك فيهم رجل سموه تُبَّعاً، كما يقال: كسرى لمن ملك الفرس، وقيصر لمن ملك الروم، وفرعون لمن ملك مصر كافراً، والنجاشى لمن ملك الحبشة، وغير ذلك من أعلام الأجناس. ولكن اتفق أن بعض تبابعتهم خرج من اليمن وسار فى البلاد حتى وصل إلى سمرقند، واشتد[٦] ملكه وعظم سلطانه وجيشه، واتسعت مملكته وبلاده، وكثرت رعاياه وهو الذى مَصَّر الحيرة فاتفق أنه مَرَّ بالمدينة النبوية وذلك فى أيام الجاهلية، فأراد قتال أهلها فمانعوه وقاتلوه بالنهار، وجعلوا يَقْرونُه بالليل، فاستحيا منهم وكف عنهم، واستصحب معه حبرين من أحبار يهود كانا قد نصحاه وأخبراه أنه لا سبيل له على هذه البلدة؛ فإنها مُهَاجَرُ نبى يكون فى آخر الزمان، فرجع عنها وأخذهما معه إلى بلاد اليمن، فلما اجتاز بمكة أراد هدم الكعبة فنهياه [عن ذلك][٧] أيضاً، وأخبراه بعظمة هذا البيت، وأنه من بناية إبراهيم الخليل وأنه سيكون له شأن عظيم على يدى

---

(١) فى م: «وهذا».
(٢) زيادة من ت.
(٣) زيادة من ت، أ.
(٤) فى ت: «تكونوا»، وفى م: «تكونون».
(٥) فى ت: «بأشياعهم».
(٦) فى أ: «واستمد».
(٧) زيادة من أ.

ذلك النبى المبعوث فى آخر الزمان، فعظمها وطاف بها[١]، وكساها الملاء والوصائل والحبير. ثم كر راجعاً إلى اليمن ودعا أهلها إلى التهود معه، وكان إذ ذاك دين موسى، عليه السلام، فيه من يكون على الهداية قبل بعثة المسيح، عليه السلام، فتهود معه عامة أهل اليمن. وقد ذكر القصة بطولها الإمام محمد بن إسحاق فى كتابه السيرة[٢]. وقد ترجمه الحافظ ابن عساكر فى تاريخه ترجمة حافلة، أورد فيها أشياء كثيرة مما ذكرنا وما لم نذكر[٣]. وذكر أنه ملك دمشق، وأنه كان إذا استعرض الخيل صُفَّت له من دمشق إلى اليمن، ثم ساق من طريق عبد الرزاق، عن مَعْمَر، عن ابن أبى ذئب[٤]، عن المقبرى، عن أبى هريرة، رضى الله عنه، عن النبى ﷺ قال: «ما أدرى الحدود طهارة لأهلها أم لا؟ ولا أدرى تبع لعيناً [٥] كان أم لا؟ ولا أدرى ذو القرنين نبياً كان أم ملكا؟» وقال غيره: «أعزيراً كان نبياً أم لا». وكذا رواه ابن أبى حاتم، عن محمد بن حماد الظهرانى[٦]، عن عبد الرزاق[٧].

قال الدارقطنى: تفرد به عبد الرزاق[٨]، ثم روى ابن عساكر من طريق محمد بن كُرَيْب، عن أبيه، عن ابن عباس، رضى الله عنهما، مرفوعا: «عُزيرُ لا أدرى أنبياً كان أم لا؟ ولا أدرى ألعين تُبَّع أم لا؟»[٩].

ثم أورد ما جاء فى النهى عن سبه ولعنته، كما سيأتى. وكأنه ـ والله أعلم ـ كان كافراً ثم أسلم، وتابع دين الكليم[١٠] على يدى من كان من أحبار اليهود فى ذلك الزمان على الحق قبل بعثة المسيح، عليه السلام، وحج البيت فى زمن الجُرهُميين، وكساه الملاء والوصائل من الحرير والحبر ونحر عنده ستة آلاف بدنة وعظمه وأكرمه. ثم عاد إلى اليمن. وقد ساق قصته بطولها الحافظ ابن عساكر، من طرق متعددة مطولة[١١] مبسوطة، عن أبى بن كعب، وعبد الله بن سلام، وعبد الله بن عباس وكعب الأحبار. وإليه المرجع فى ذلك كله، وإلى عبد الله بن سلام أيضاً، وهو أثبت وأكبر وأعلم. وكذا روى قصته وهب بن مُنَبِّه، ومحمد بن إسحاق فى السيرة كما هو مشهور فيها. وقد اختلط على الحافظ ابن عساكر فى بعض السياقات ترجمة تُبَّع هذا بترجمة آخر متأخر عنه بدهر طويل، فإن تُبَّعاً هذا المشار إليه فى القرآن أسلم قومه على يديه، ثم لما مات[١٢] عادوا بعده إلى عبادة الأصنام والنيران، فعاقبهم الله تعالى كما ذكره فى سورة سبأ، وقد بسطنا قصتهم هنالك، ولله الحمد والمنة.

وقال سعيد بن جبير: كسا تبع الكعبة، وكان سعيد ينهى عن سبه.

(١) فى ت: «فعظم الكعبة فطاف بها».
(٢) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (١/ ١٩).
(٣) تاريخ دمشق (٣/ ٥٠٠ «القسم المخطوط»).
(٤) فى ت، أ: «ذؤيب». (٥) فى ت: «أمينا».
(٦) فى م: «الطبرانى».
(٧) ورواه الحاكم فى المستدرك (١/ ٣٦) من طريق عبد الرزاق به، ورواه أبو داود فى سننه برقم (٤٦٧٤) من طريق عبد الرزاق به إلا أنه قال: «عزيز» بدل: «ذو القرنين».
(٨) قال الحافظ ابن عبد البر فى جامع بيان العلم وفضله (٢/ ٥٠): «وحديث عبادة بن الصامت: «إن الحدود كفارة لأهلها» أصح وأثبت سندا» ثم ساقه من طريق البخارى بسنده إلى عبادة بن الصامت.
(٩) تاريخ دمشق (٣/ ٥٠١ «القسم المخطوط»).
(١٠) فى ت، م، أ: «الخليل». (١١) فى م: «طويلة». (١٢) فى ت، م، أ: «توفى».

وتُبَّع هذا هو تُبَّع الأوسط، واسمه أسعد أبو[١] كُرَيْب بن مَلْكيكرب[٢] اليمانى، ذكروا أنه ملك على قومه ثلاثمائة سنة وستاً[٣] وعشرين سنة، ولم يكن فى حمير أطول مدة منه، وتوفى قبل مبعث رسول الله ﷺ بنحو من سبعمائة عام. وذكروا أنه لما ذكر له الحبران من يهود المدينة أن هذه البلدة مُهَاجَرُ نبى آخر فى الزمان[٤]، اسمه أحمد، قال فى ذلك شعرا واستودعه عند أهل المدينة. وكانوا يتوارثونه ويروونه خلفاً عن سلف. وكان ممن يحفظه أبو أيوب خالد بن زيد الذى نزل رسول الله ﷺ فى داره، وهو:

شَهِدْتُ عَلَى أَحْمَدَ أَنَّه ... رَسُولٌ مِنَ اللهِ بَارى النَّسَمْ
فَلَو مُدَّ عُمْرى إلى عُمْرِه ... لَكُنْت وَزيرا له وابن عَمْ
وَجَاهَدْتُ بالسَّيفِ أعْدَاءَهُ ... وفَرَّجتُ عَنْ صَدْرِه كُلَّ غَمْ

وذكر ابن أبى الدنيا أنه حُفِر قبر بصنعاء فى الإسلام، فوجدوا فيه امرأتين صحيحتين، وعند رؤوسهما لوح من فضة مكتوب فيه بالذهب: «هذا قبر حبى ولميس ـ وروى: حبى وتماضر ـ ابنتى تُبَّع، ماتتا وهما تشهدان أن لا إله إلا الله ولا تشركان به شيئاً، وعلى ذلك مات الصالحون قبلهما.

وقد ذكرنا فى «سورة سبأ» شعر سبأ فى ذلك أيضاً.

قال قتادة: ذكر لنا أن كعبًا كان يقول فى تبع: نُعت نَعْت الرجل الصالح، ذم الله تعالى قومه ولم يذمه، قال: وكانت عائشة تقول: لا تسبوا تُبَّعاً؛ فإنه قد كان رجلاً صالحاً.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبو زُرْعَة، حدثنا صفوان، حدثنا الوليد، حدثنا عبد الله بن لَهِيعَة، عن أبى زُرْعَة ـ يعنى عمرو بن جابر الحضرمى ـ قال: سمعت سهل بن سعد الساعدى يقول: قال رسول الله ﷺ: «لا تسبوا تُبَّعاً؛ فإنه قد كان أسلم».

ورواه الإمام أحمد فى مسنده عن حسن بن موسى، عن ابن لَهِيعة، به[٥].

وقال الطبرانى: حدثنا أحمد بن على الأبار، حدثنا أحمد بن محمد بن أبى بَزَّة، حدثنا مؤمل ابن إسماعيل، حدثنا سفيان، عن سمَاك بن حرب، عن عِكْرِمة، عن ابن عباس، عن النبى ﷺ قال: «لا تسبوا تبعا؛ فإنه قد أسلم»[٦].

وقال عبد الرزاق: أخبرنا مَعْمَر، عن ابن أبى ذئب، عن المقْبُرى، عن أبى هريرة، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «ما أدرى، تُبَّع نبياً كان أم غير نبى»[٧].

---

(١) فى ت: «بن». (٢) فى م: «مليكرب». (٣) فى ت، م، أ: «وستة».
(٤) فى ت، م، أ: «نبى فى آخر الزمان».
(٥) المسند (٥/ ٣٤٠) قال الحافظ ابن حجر فى تخريج الكشاف: «فيه ابن لهيعة، وعمرو بن جابر، وهما ضعيفان».
(٦) المعجم الكبير (١١/ ٢٩٦) وقال الهيثمى فى المجمع (٨/ ٧٦): « فيه أحمد بن أبى بزة المكى، ولم أعرفه، وبقية رجاله ثقات».
(٧) ورواه الثعلبى فى تفسيره كما فى تخريج الكشاف للزيلعى (٣/ ٢٧٠) من طريق عبد الرزاق بهذا اللفظ.

وتقدم بهذا السند من رواية ابن أبى حاتم كما أورده ابن عساكر: «لا أدرى، تُبَّع كان لعيناً[١] أم لا؟». فالله أعلم.

ورواه ابن عساكر من طريق زكريا بن يحيى البدى[٢]، عن عكرمة، عن ابن عباس موقوفاً.

وقال عبد الرزاق: أخبرنا عمران أبو الهذيل، أخبرنى تميم بن عبد الرحمن قال: قال عطاء بن أبى رباح: لا تسبوا تُبَّعاً؛ فإن رسول الله ﷺ نهى [٣]عن سبه[٤].

﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ (٣٨) مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٣٩) إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ (٤٠) يَوْمَ لا يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْئًا وَلا هُمْ يُنصَرُونَ (٤١) إِلاَّ مَن رَّحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٤٢) ﴾.

يقول تعالى مخبراً عن عدله وتنزيهه نفسه عن اللعب والعبث والباطل، كقوله: **﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ﴾** [ص: ٢٧]، وقال: **﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ . فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾** [المؤمنون: ١١٥، ١١٦].

ثم قال: **﴿ إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ﴾** وهو يوم القيامة، يفصل الله فيه بين الخلائق، فيعذب الكافرين ويثيب المؤمنين.

وقوله: **﴿ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾** أى: يجمعهم كلهم أولهم وآخرهم، **﴿ يَوْمَ لا يُغْنِى مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْئًا﴾** أى: لا ينفع قريب قريباً، كقوله: **﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِى الصُّورِ فَلا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلا يَتَسَاءَلُونَ﴾** [المؤمنون: ١٠١]، وكقوله: **﴿وَلا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا . يُبَصَّرُونَهُمْ﴾** [المعارج: ١٠، ١١] أى: لا يسأل أخاً له عن حاله وهو يراه عياناً.

وقوله: **﴿ وَلا هُمْ يُنصَرُونَ﴾** أى: لا ينصر القريب قريبه، ولا يأتيه نصره من خارج.

ثم قال: **﴿ إِلاَّ مَن رَّحِمَ اللَّهُ ﴾** أى: لا ينفع يومئذ إلا من رحمه الله، عز وجل، لخلقه[٥] **﴿ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾** أى: هو عزيز ذو رحمة واسعة.

﴿ إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ (٤٣) طَعَامُ الأَثِيمِ (٤٤) كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ (٤٥) كَغَلْيِ الْحَمِيمِ (٤٦) خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَاءِ الْجَحِيمِ (٤٧) ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ (٤٨) ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ (٤٩) إِنَّ هَذَا مَا كُنتُم بِهِ تَمْتَرُونَ (٥٠) ﴾.

يقول تعالى مخبراً عما يعذب به [عباده][٦] الكافرين الجاحدين للقائه: **﴿ إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ .**

---

(١) فى أ: «نبيا». (٢) فى أ: «المدنى». (٣) فى ت، أ: «قد نهى».
(٤) تفسير عبد الرزاق (٢/ ١٧١).
(٥) فى أ: «إلا رحمة الله بخلقه». (٦) زيادة من ت، أ.

﴿طَعَامُ الْأَثِيمِ﴾ والأثيم: أى فى قوله وفعله، وهو الكافر. وذكر غير واحد أنه أبو جهل، ولا شك فى دخوله فى هذه الآية، ولكن ليست خاصة به.

قال ابن جرير: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا عبد الرحمن، حدثنا سفيان، عن الأعمش، عن إبراهيم[١]، عن همام بن الحارث؛ أن أبا الدرداء كان يقرئ رجلاً: **﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ . طَعَامُ الْأَثِيمِ﴾**، فقال: طعام اليتيم. فقال أبو الدرداء قل: إن شجرة الزقوم طعام الفاجر. أى: ليس له طعام غيرها.

قال مجاهد: ولو وقعت منها قطرة فى[٢] الأرض لأفسدت على أهل الأرض معايشهم. وقد تقدم نحوه مرفوعاً.

وقوله: **﴿ كَالْمُهْلِ ﴾** قالوا: كعكر الزيت **﴿ تغْلِي[٣] فِي الْبُطُونِ . كَغَلْيِ الْحَمِيمِ﴾** أى: من حرارتها ورداءتها. وقوله: **﴿خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ﴾** أى: [خذوا][٤] الكافر، وقد ورد أنه تعالى إذا قال للزبانية: **﴿خُذُوهُ ﴾** ابتدره سبعون ألفاً منهم.

﴿فَاعْتِلُوهُ﴾ أى: سوقوه سحبا ودفعا فى ظهره.

قال مجاهد: **﴿ خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ﴾** أى: خذوه فادفعوه.

وقال الفرزدق:

لَيسَ الكِرَامُ بِنَاحِلِيكَ أَبَاهُمُ ... حتىَّ تُرَدَّ إلى عَطِيَّة تُعْتَلُ[٥] [٦]

﴿ إِلَىٰ سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾ أى: وسطها، **﴿ ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ﴾**، كقوله: **﴿ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ . يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ ﴾** [الحج: ١٩، ٢٠].

وقد تقدم أن الملك يضربه بمقمعة من حديد، تفتح[٧] دماغه، ثم يصب الحميم على رأسه فينزل فى بدنه، فيسلت ما فى بطنه من أمعائه، حتى تمرق[٨] من كعبيه ـ أعاذنا الله تعالى من ذلك.

وقوله: **﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴾** أى: قولوا له ذلك على وجه التهكم والتوبيخ.

وقال الضحاك، عن ابن عباس: أى لست بعزيز ولا كريم.

وقد قال[٩] الأموى فى مغازيه: حدثنا أسباط، حدثنا أبو بكر الهذلى، عن عكرمة قال: لقى رسول الله ﷺ أبا جهل ـ لعنه الله ـ فقال: «إن الله تعالى أمرنى أن أقول لك: **﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ . ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَى ﴾**» [القيامة: ٣٤، ٣٥] قال: فنزع ثوبه من يده[١٠] وقال: ما تستطيع لى أنت ولا صاحبك من شىء. ولقد علمت أنى أمنع[١١] أهل البطحاء، وأنا العزيز الكريم. قال: فقتله الله تعالى يوم بدر وأذله وعيره بكلمته، وأنزل: **﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴾**[١٢].

وقوله: **﴿ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِ تَمْتَرُونَ ﴾**، كقوله: **﴿ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا. هَٰذِهِ النَّارُ الَّتِي**

---

(١) فى ت: «وروى ابن جرير بإسناده». (٢) فى ت: «على». (٣) فى ت: «يغلى».
(٤) زيادة من ت. (٥) فى أ: «مقتل».
(٦) البيت فى تفسير الطبرى (٢٥/ ٨٠).
(٧) فى أ: «فيفتح». (٨) فى أ: «يمزق». (٩) فى ت: «روى».
(١٠) فى ت، أ: «بدنه». (١١) فى ت: «أنى من أمنع».
(١٢) ذكره السيوطى فى الدر المنثور (٧/ ٤١٨) وهو مرسل.

كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُون أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنتُمْ لا تُبْصِرُونَ﴾ [الطور: ١٣ ـ ١٥]، ولهذا قال هاهنا: ﴿إِنَّ هَذَا مَا كُنتُم بِهِ تَمْتَرُونَ ﴾.

﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ (٥١) فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٥٢) يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَابِلِينَ(٥٣) كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ (٥٤) يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ (٥٥) لا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلاَّ الْمَوْتَةَ الأُولَىٰ وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (٥٦) فَضْلاً مِّن رَّبِّكَ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٥٧) فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٥٨) فَارْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ (٥٩) ﴾.

لما ذكر تعالى حال الأشقياء عطف بذكر [حال][1] السعداء ـ ولهذا سُمّى القرآن مثانى ـ فقال: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ﴾ أى: لله فى الدنيا ﴿فِى مَقَامٍ أَمِينٍ﴾ أى: فى الآخرة وهو الجنة، قد أمنوا فيها من الموت والخروج، ومن كل هم وحزن وجزع[2] وتعب ونصب، ومن الشيطان وكيده، وسائر الآفات والمصائب ﴿فِى جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾. وهذا فى مقابلة ما أولئك فيه من شجر [3] الزقوم، وشرب الحميم.

وقوله تعالى: ﴿يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ﴾ وهو: رفيع الحرير، كالقمصان ونحوها[4]، ﴿وَإِسْتَبْرَقٍ﴾، وهو ما فيه بريق ولمعان وذلك كالرياش، وما يلبس على أعالى القماش، ﴿مُّتَقَابِلِينَ﴾ أى: على السرر، لايجلس أحد منهم وظهره إلى غيره.

وقوله: ﴿كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾ أى: هذا العطاء مع ما قد منحناهم من الزوجات الحور العين الحسان اللاتى ﴿ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلا جَانٌّ ﴾ [الرحمن: ٥٦، ٧٤] ، ﴿ كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ ﴾ [الرحمن: ٥٨] ، ﴿ هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلاَّ الإِحْسَانُ﴾ [الرحمن: ٦٠].

قال [5] ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا نوح بن حبيب، حدثنا نصر بن مزاحم العطار، حدثنا عمر بن سعد، عن رجل، عن أنس ـ رفعه نوح ـ قال: لو أن حوراء بَزَقَت فى بحر لُجِّىٍّ، لعَذُبَ ذلك الماء لعذوبة ريقها[6].

وقوله: ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ﴾ أى: مهما طلبوا من أنواع الثمار أحضر لهم، وهم آمنون من انقطاعه وامتناعه، بل يحضر إليهم [7] كلما أرادوا.

وقوله: ﴿ لا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلاَّ الْمَوْتَةَ الأُولَى﴾: هذا الاستثناء يؤكد النفى، فإنه استثناء منقطع، ومعناه: أنهم لا يذوقون فيها الموت أبداً، كما ثبت فى الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «يؤتى بالموت فى صورة كبش أملح، فيوقف بين الجنة والنار ثم يذبح، ثم يقال: يا أهل الجنة، خلود فلا [8] موت، ويا أهل النار، خلود فلا [9] موت» وقد تقدم الحديث فى سورة مريم[10].

---

(١) زيادة من ت. (٢) فى م: «وجوع». (٣) فى ت،م: «شرب».
(٤) فى ت: «وغيرها». (٥) فى ت: «وروى».
(٦) ورواه أبو نعيم فى صفة الجنة برقم (٣٨٦) من وجه آخر، فرواه من طريق محمد بن إسماعيل الحسانى، عن منصور الواسطى، عن أبى النصر الأبار، عن أنس مرفوعاً بنحوه.
(٧) فى ت، م، أ: «لهم». (٨، ٩) فى أ: «بلا».
(١٠) انظر: تخريج الحديث عند الآية: ٣٩ من سورة مريم.

وقال عبد الرزاق: حدثنا سفيان الثورى، عن أبى إسحاق، عن أبى مسلم الأغر، عن أبى سعيد وأبى هريرة، رضى الله عنهما، قالا: قال رسول الله :«يقال لأهل الجنة: إن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبداً، وإن لكم أن تعيشوا فلا تموتوا أبداً، وإن لكم أن تنعموا فلا تَبْأسوا أبداً، وإن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبداً». رواه مسلم، عن إسحاق بن راهويه وعبد بن حميد، كلاهما عن عبد الرزاق به(١).

هكذا يقول أبو إسحاق وأهل العراق «أبو مسلم الأغر»، وأهل المدينة يقولون:«أبو عبد الله الأغر»(٢).

وقال أبو بكر بن أبى داود السجستانى: حدثنا أحمد بن حفص، عن أبيه، عن إبراهيم بن طَهْمَان، عن الحجاج ـ هو ابن حجاج (٣) ـ عن عبادة(٤)، عن عبيد الله بن عمرو، عن أبى هريرة، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «من اتقى الله دخل الجنة، ينعم فيها ولا يبأس، ويحيا فيها فلا يموت، لا تبلى ثيابه، ولا يفنى شبابه»(٥).

وقال أبو القاسم الطبرانى: حدثنا أحمد بن يحيى، حدثنا عمرو بن محمد الناقد، حدثنا سليمان ابن عبيد الله الرقى، حدثنا مصعب بن إبراهيم، حدثنا عمران بن الربيع الكوفى، عن يحيى بن سعيد الأنصاى، عن محمد بن المُنْكَدِر، عن جابر، رضى الله عنه، قال: سُئل نبى الله ﷺ : أينام أهل الجنة؟ فقال:«النوم أخو الموت، وأهل الجنة لا ينامون»(٦).

وهكذا رواه أبو بكر بن مُرْدَوَيه فى تفسيره: حدثنا أحمد بن القاسم بن صدقة المصرى، حدثنا المقدام بن داود، حدثنا عبد الله بن المغيرة، حدثنا سفيان الثورى، عن محمد بن المُنْكَدِر، عن جابر ابن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «النوم أخو الموت، وأهل الجنة لا ينامون»(٧).

وقال أبو بكر البزار فى مسنده: حدثنا الفضل بن يعقوب، حدثنا محمد بن يوسف الفريابى، عن سفيان، عن محمد بن المنكدر، عن جابر قال: قيل: يا رسول الله، هل ينام أهل الجنة؟ قال: «لا، النوم أخو الموت». ثم قال: «لا نعلم أحداً أسنده عن ابن المنكدر، عن جابر إلا الثورى، ولا عن الثورى، إلا الفريابى»(٨) هكذا قال، وقد تقدم خلاف ذلك، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ أى: مع هذا النعيم العظيم المقيم قد وقاهم، وسلمهم ونجاهم وزحزحهم من (٩) العذاب الأليم فى دركات الجحيم، فحصل لهم المطلوب، ونجاهم من المرهوب؛

(١) صحيح مسلم برقم (٢٨٣٧).

(٢) والأول هو الصواب كما بين ذلك الإمام المزى فى تهذيب الكمال.

(٣) فى أ:«الحجاج».

(٤) فى م، أ:«قتادة».

(٥) ورواه الطبرانى فى المعجم الأوسط برقم(٤٨٩٥) «مجمع البحرين» من طريق أحمد بن حفص به.

(٦) المعجم الأوسط برقم (٤٨٧٥) «مجمع البحرين» وفى إسناده مصعب بن إبراهيم العبسى، منكر الحديث.

(٧) ورواه أبو نعيم فى الحلية (٧/ ٩٠) من طريق أحمد بن القاسم عن المقدام بن داود به، وقال: «غريب من حديث الثورى، تفرد به عبد الله».

(٨) مسند البزار برقم (٣٥١٧) «كشف الأستار» قال الهيثمى فى المجمع (١٠/ ٤١٥): «رجال البزار رجال الصحيح».

(٩) فى ت: «عن».

ولهذا قال: ﴿ **فَضْلاً مِّن رَّبِّكَ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ** ﴾ أي: إنما كان هذا [(١)] بفضله عليهم وإحسانه إليهم، كما ثبت في الصحيح [(٢)] عن رسول الله ﷺ أنه قال: «اعملوا وسددوا وقاربوا، واعلموا أن أحداً لن يُدخله عمله الجنة». قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا، إلا أن يتغمَّدني الله برحمة منه وفضل» [(٣)].

وقوله: ﴿ **فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ** ﴾ أي: إنما يسرنا هذا القرآن الذي أنزلناه سهلاً واضحاً بيناً جلياً بلسانك الذي هو أفصح اللغات وأجلاها وأحلاها وأعلاها ﴿ **لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ** ﴾ أي: يتفهمون ويعملون. ثم لما كان مع هذا البيان والوضوح من الناس من كفر وخالف وعاند، قال الله تعالى لرسوله مسليا له وواعداً له بالنصر، ومتوعداً لمن كذبه بالعطب والهلاك: ﴿ **فَارْتَقِبْ** ﴾ أي: انتظر ﴿ **إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ** ﴾ أي: فسيعلمون [(٤)] لمن يكون النصر والظفر وعُلُو الكلمة في الدنيا والآخرة، فإنها لك يا محمد ولإخوانك من النبيين والمرسلين ومن اتبعكم من المؤمنين، كما قال تعالى: ﴿ **كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ** ﴾ [المجادلة: ٢١]، وقال تعالى: ﴿ **إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ . يَوْمَ لَا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ** ﴾ [غافر: ٥١، ٥٢].

آخر تفسير سورة الدخان، ولله الحمد والمنة، وبه التوفيق والعصمة

---

(١) في ت: «ذلك».

(٢) في أ: «الصحيحين».

(٣) صحيح البخاري برقم (٦٤٦٧) من حديث عائشة، رضي الله عنها.

(٤) في م : «فستعلمون».

٤٤ ـــ سورة الدخان

نزلت بمكة وآياتها تسع وخمسون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

حمٓ ﴿١﴾ ٤٤ الدخان

وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ ٤٤ الدخان

إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٣﴾ ٤٤ الدخان

فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾ ٤٤ الدخان

فى حيز قل . عن النبي صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة الزخرف كان ممن يقال له يوم القيامة ياعباد لاخوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون ادخلوا الجنة بغير حساب .

﴿ سورة الدخان مكية إلا قوله إنا كاشفوا العذاب وآياتها تسع وخمسون آية ﴾

١ ، ٢ (بسم الله الرحمن الرحيم) (حم) (والكتاب المبين) الكلام فيه كالذى سلف فى السورة السابقة
٣ (إنا أنزلناه) أى الكتاب المبين الذى هو القرآن (فى ليلة مباركة) هى ليلة القدر وقيل ليلة البراءة ابتدىء فيها إنزاله أو أنزل فيها جملة إلى السماء الدنيا من اللوح وأملاه جبريل عليه السلام على السفرة ثم كان ينزله على النبي صلى الله عليه وسلم نجوما فى ثلاث وعشرين سنة كما مر فى سورة الفاتحة ووصفها بالبركة لما أن نزول القرآن مستتبع للمنافع الدينية والدنيوية بأجمعها أو لما فيها من تنزل الملائكة والرحمة وإجابة الدعوة وقسم النعمة وفصل الأقضية وفضيلة العبادة وإعطاء تمام الشفاعة لرسول الله
صلى الله عليه وسلم وقيل يزيد فى هذه الليلة ماء زمزم زيادة ظاهره (إنا كنا منذرين) استئناف مبين لما يقضى الإنزال كأنه قيل إنا أنزلناه لأن من شأننا الإنذار والتحذير من العقاب وقيل جواب
٤ للقسم وقوله تعالى إنا أنزلناه الخ اعتراض وقيل جواب ثان بغير عاطف (فيها يفرق كل أمر حكيم) استئناف كما قبله فإن كونها مفرق الأمور المحكمة أو الملتبسة بالحكمة الموافقة لها يستدعى أن ينزل فيها القرآن الذى هو من عظائمها وقيل صفة أخرى لليلة وما بينهما اعتراض وهذا يدل على أنها ليلة القدر ومعنى يفرق أنه يكتب ويفصل كل أمر حكيم من أرزاق العباد وآجالهم وجميع أمورهم من هذه الليلة إلى الأخرى من السنة القابلة وقيل يبدأ فى استنساخ ذلك من اللوح فى ليلة البراءة ويقع الفراغ فى ليلة القدر فتدفع نسخة الأرزاق إلى ميكائيل ونسخة الحروب إلى جبريل وكذا الزلازل والخسف والصواعق ونسخة الأعمال إلى إسماعيل صاحب سماء الدنيا وهو ملك عظيم ونسخة المصائب إلى ملك الموت عليهم السلام وقرىء يفرق بالتشديد وقرىء يفرق على البناء للفاعل أى يفرق الله تعالى

أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٥﴾ ٤٤ الدخان

رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦﴾ ٤٤ الدخان

رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٧﴾ ٤٤ الدخان

لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾ ٤٤ الدخان

بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ يَلْعَبُونَ ﴿٩﴾ ٤٤ الدخان

كل أمر حكيم وقرىء نفرق بنون العظمة (أمراً من عندنا) نصب على الاختصاص أى أعنى بهذا الأمر ٥
أمراً حاصلا من عندنا على مقتضى حكمتنا وهو بيان لفخامته الإضافية بعد بيان فخامته الذاتية ويجوز كونه
حالا من كل أمر لتخصصه بالوصف أو من ضميره فى حكيم وقد جوز أن يراد به مقابل النهى ويجعل مصدراً
مؤكداً ليفرق لاتحاد الأمر والفرقان فى المعنى أو لفعله المضمر لما أن الفرق به أو حالا من أحد ضميرى
أنزلناه أى آمرين أو مأموراً به (إنا كنا منذرين) بدل من إنا كنا منذرين وقيل جواب ثالث وقيل *
مستأنف وقوله تعالى (رحمة من ربك) غاية للإرسال متأخرة عنه على أن المراد بها الرحمة الواصلة إلى ٦
العباد وباعث متقدم عليه على أن المراد مبدؤها أى إنا أنزلنا القرآن لأن من عادتنا إرسال الرسل بالكتب
إلى العباد لأجل إفاضة رحمتنا عليهم أو لاقتضاء رحمتنا السابقة إرسالهم ووضع الرب موضع الضمير
الإيذان بأن ذلك من أحكام الربوبية ومقتضياتها وإضافته إلى ضميره عليه الصلاة والسلام لتشريفه
أو تعليل ليفرق أو لقوله تعالى أمراً على أن قوله تعالى رحمة مفعول للإرسال كما فى قوله تعالى وما
يمسك فلا مرسل له أى يفرق فيها كل أمر أو تصدر الأوامر من عندنا لأن من عادتنا إرسال رحمتنا
ولا ريب فى أن كلا من قسمة الأرزاق وغيرها والأوامر الصادرة منه تعالى من باب الرحمة فإن الغاية
لتكليف العباد تعريضهم للمنافع وقرىء رحمة بالرفع أى تلك رحمة وقوله تعالى (إنه هو السميع العليم) *
تحقيق لربوبيته تعالى وأنها لاتحق إلا لمن هذه نعوته (رب السموات والأرض وما بينهما) بدل من ٧
أو بيان أو نعت وقرىء بالرفع على أنه خبر آخر أو استئناف على إضمار مبتدأ (إن كنتم موقنين) *
أى إن كنتم من أهل الإيقان فى العلوم أو إن كنتم موقنين فى إقراركم بأنه تعالى رب السموات والأرض
وما بينهما إذا سئلتم من خلقها فقلتم الله علمتم أن الأمر كما قلنا أو إن كنتم مريدين اليقين فاعلموا ذلك
(لا إله إلا هو) جملة مستأنفة مقررة لما قبلها وقيل خبر لقوله رب السموات الخ وما بينهما اعتراض ٨
(يحيي ويميت) مستأنفة كما قبلها وكذا قوله تعالى (ربكم ورب آبائكم الأولين) بإضمار مبتدأ أو بدل *
من رب السموات على قراءة الرفع أو بيان أو نعت له وقيل فاعل ليميت وفى يحيي ضمير راجع إلى رب
السموات وقرىء بالجر بدلا من رب السموات على قراءة الجر (بل هم فى شك) مما ذكر من شئونه ٩
تعالى غير موقنين فى إقرارهم (يلعبون) لايقولون مايقولون عن جد وإذعان بل مخلوطاً بهزؤ ولعب *

فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ ﴿١٠﴾ ٤٤ الدخان
يَغْشَى النَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ ٤٤ الدخان
رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ ٤٤ الدخان
أَنَّىٰ لَهُمُ الذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ ﴿١٣﴾ ٤٤ الدخان
ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ ﴿١٤﴾ ٤٤ الدخان

١٠ والفاء فى قوله تعالى (فارتقب) لترتيب الارتقاب أو الأمر به على ماقبلها فإن كونهم فى شك مما يوجب
ذلك حتماً أى فانتظر لهم (يوم تأتى السماء بدخان مبين) أى يوم شدة ومجاعة فإن الجائع يرى بينه وبين
السماء كهيئة الدخان إما لضعف بصره أو لأن فى عام القحط يظلم الهواء لقلة الأمطار وكثرة الغبار أو
لأن العرب تسمى الشر الغالب دخاناً وذلك أن قريشاً لما استعصت رسول الله صلى الله عليه وسلم
دعا عليهم فقال اللهم اشدد وطأتك على مضر واجعلها عليهم سنين كسنى يوسف فأخذتهم سنة حتى
أكلوا الجيف والعظام والعلهز وكان الرجل يرى بين السماء والأرض الدخان وكان يحدث الرجل
١١ يسمع كلامه ولا يراه من الدخان وذلك قوله تعالى (يغشى الناس) أى يحيط بهم (هذا عذاب أليم)
أى قائلين ذلك فمشى إليه عليه الصلاة والسلام أبو سفيان ونفر معه وناشدوه الله تعالى والرحم وواعدوه
١٢ إن دعا لهم وكشف عنهم أن يؤمنوا وذلك قوله تعالى (ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون) وهذا
قول ابن عباس وابن مسعود رضى الله عنهم وبه أخذ مجاهد ومقاتل وهو اختيار الفراء والزجاج
وقيل هو دخان يأتى من السماء قبل يوم القيامة فيدخل فى أسماع الكفرة حتى يكون رأس الواحد
كالرأس الحنيذ ويعترى المؤمن منه كهيئة الزكام وتكون الأرض كلها كبيت أوقد فيه ليس فيه خصاص
وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم أول الآيات الدخان ونزول عيسى ابن مريم ونار تخرج من قعر
عدن أبين تسوق الناس إلى المحشر قال حذيفة يارسول الله وما الدخان فتلا الآية وقال يملأ ما بين
المشرق والمغرب يمكث أربعين يوماً وليلة أما المؤمن فيصيبه كهيئة الزكمة وأما الكافر فهو كالسكران
يخرج من منخريه وأذنيه ودبره والأول هو الذى تستدعيه مساق النظم الكريم قطعاً فإن قوله تعالى
١٣ (أنى لهم الذكرى) الخ رد لكلامهم واستدعائهم الكشف وتكذيب لهم فى الوعد بالإيمان المنبىء
عن التذكر والاتعاظ بما اعتراهم من الداهية أى كيف يتذكرون أو من أين يتذكرون بذلك ويفون
بما وعدوه من الإيمان عند كشف العذاب عنهم (وقد جاءهم رسول مبين) أى والحال أنهم شاهدوا
من دواعى التذكر وموجبات الاتعاظ ماهو أعظم منه فى إيجابها حيث جاءهم رسول عظيم الشأن وبين
١٤ لهم مناهج الحق بإظهار آيات ظاهرة ومعجزات قاهرة تخر لها صم الجبال (ثم تولوا عنه) عن ذلك
الرسول وهو هو ريثما شاهدوا منه ماشاهدوه من العظائم الموجبة للإقبال عليه ولم يقتنعوا بالتولى

إِنَّا كَاشِفُوا۟ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا ۚ إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ ﴿١٥﴾   ٤٤ الدخان

يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴿١٦﴾   ٤٤ الدخان

وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾   ٤٤ الدخان

أَنْ أَدُّوٓا۟ إِلَىَّ عِبَادَ ٱللَّهِ ۖ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾   ٤٤ الدخان

وَأَن لَّا تَعْلُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنِّىٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٩﴾   ٤٤ الدخان

(وقالوا) فى حقه (معلم مجنون) أى قالوا تارة يعلمه غلام أعجمى لبعض ثقيف وأخرى مجنون أو *
يقول بعضهم كذا وآخرون كذا فهل يتوقع من قوم هذه صفاتهم أن يتأثروا بالعظة والتذكير وما
مثلهم إلا كمثل الكلب إذا جاع ضغا وإذا شبع طغى وقوله تعالى (إنا كاشفوا العذاب قليلا إنكم ١٥
عائدون) جواب من جهته تعالى عن قولهم ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون بطريق الالتفات
لمزيد التوبيخ والتهديد وما بينهما اعتراض أى إنا نكشف العذاب المعهود عنكم كشفاً قليلا أوزماناً
قليلا إنكم تعودون إثر ذلك إلى ما كنتم عليه من العتو والإصرار على الكفر وتنسون هذه الحالة
وصيغة الفاعل فى الفعلين للدلالة على تحققهما لامحالة ولقد وقع كلاهما حيث كشفه الله تعالى بدعاء
النبي صلى الله عليه وسلم فما لبثوا أن عادوا إلى ما كانوا عليه من العتو والعناد ومن فسر الدخان بما هو
من الأشراط قال إذا جاء الدخان تضور المعذبون به من الكفار والمنافقين وغوثوا وقالوا ربنا
اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون فيكشفه الله تعالى عنهم بعدأربعين يوماً وريثما يكشفه عنهم يرتدون
ولا يتمهلون (يوم نبطش البطشة الكبرى) يوم القيامة وقيل يوم بدر وهو ظرف لما دل عليه ١٦
قوله تعالى (إنا منتقمون) لا لمنتقمون لأن إن مانعة من ذلك أى يومئذ ننتقم إنا منتقمون وقيل *
هو بدل من يوم تأتى الخ وقرىء نبطش أى نحمل الملائكة على أن يبطشوا بهم البطشة الكبرى وهو
التناول بعنف وصولة أو نجعل البطشة الكبرى باطشة بهم وقرىء نبطش بضم الطاء وهى لغة (ولقد ١٧
فتنا قبلهم قوم فرعون) أى امتحناهم بإرسال موسى عليه السلام أو أوقعناهم فى الفتنة بالإمهال وتوسيع
الرزق عليهم وقرىء بالتشديد للمبالغة أو لكثرة القوم (وجاءهم رسول كريم) على الله تعالى أو على *
المؤمنين أو فى نفسه لأن الله تعالى لم يبعث نبياً إلا من سراة قومه وكرامهم (أن أدوا إلى عباد الله) ١٨
أى بأن أدوا إلى بنى اسرائيل وأرسلوهم معى أو بأن أدوا إلى ياعباد الله حقه من الإيمان وقبول الدعوة
وقيل أن مفسرة لأن مجىء الرسول لا يكون إلا برسالة ودعوة وقيل مخففة من الثقيلة أى جاءهم بأن
الشأن أدوا إلى الخ وقوله تعالى (إنى لكم رسول أمين) تعليل للأمر أو لوجوب المأمور به أى رسول *
غير ظنين قد ائتمننى الله تعالى على وحيه وصدقنى بالمعجزات القاهرة (وأن لا تعلوا على الله) أى لا تتكبروا ١٩
عليه تعالى بالاستهانة بوحيه وبرسوله وأن كالتى سلفت وقوله تعالى (إنى آتيكم) أى من جهته تعالى *

وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾ ٤٤ الدخان

وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ ﴿٢١﴾ ٤٤ الدخان

فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَٰؤُلَاءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾ ٤٤ الدخان

فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾ ٤٤ الدخان

وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾ ٤٤ الدخان

كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ ٤٤ الدخان

وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ ٤٤ الدخان

وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ ﴿٢٧﴾ ٤٤ الدخان

كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿٢٨﴾ ٤٤ الدخان

---

* (بسلطان مبين) تعليل للنهي أي آتيكم بحجة واضحة لا سبيل إلى إنكارها وآتيكم على صيغة الفاعل
٢٠ أو المضارع وفي إيراد الأداء مع الأمين والسلطان مع العلا من الجزالة مالا يخفى (وإني عذت بربي
* وربكم) أي التجأت إليه وتوكلت عليه (أن ترجمون) من أن ترجموني أي تؤذوني ضرباً أو شتماً أو
٢١ أن تقتلوني قيل لما قال وأن لا تعلوا على الله توعدوه بالقتل وقرىء بإدغام الذال في التاء (وإن لم
تؤمنوا لي فاعتزلون) أي وإن كابرتم مقتضى العقل ولم تؤمنوا لي فخلوني كفافاً لا علي ولا لي ولا تتعرضوا
بشر ولا أذى فليس ذلك جزاء من يدعوكم إلى مافيه فلاحكم وحمله على معنى فاقطعوا أسباب الوصلة
٢٢ عني فلا موالاة بيني وبين من لا يؤمن يأباه المقام (فدعا ربه) بعد ماتموا على تكذيبه عليه السلام
* (إن هؤلاء) أي بأن هؤلاء (قوم مجرمون) وهو تعريض بالدعاء عليهم بذكر مااستوجبوه ولذلك
سمي دعاء وقرىء بالكسر على إضمار القول قيل كان دعاؤه اللهم عجل لهم مايستحقونه بإجرامهم وقيل
٢٣ هو قوله ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين (فأسر بعبادي ليلا) بإضمار القول إما بعد الفاء أي فقال
ربه أسر بعبادي وإما قبلها كأنه قيل إن كان الأمر كما تقول فأسر بعبادي أي ببني إسرائيل فقد دبر
* الله تعالى أن تتقدموا وقرىء بوصل الهمزة من سرى (إنكم متبعون) أي يتبعكم فرعون وجنوده
٢٤ بعد ماعلموا بخروجكم (واترك البحر رهواً) مفتوحاً ذا فجوة واسعة أو ساكناً على هيئته بعد ما جاوزته
* ولا تضربه بعصاك لينطبق ولا تغيره عن حاله ليدخله القبط (إنهم جند مغرقون) وقرىء أنهم
٢٥،٢٦ بالفتح أي لأنهم (كم تركوا) أي كثيراً تركوا بمصر (من جنات وعيون) (وزروع ومقام
٢٧ كريم) محافل مزينة ومنازل محسنة (ونعمة) أي تنعم (كانوا فيها فاكهين) متنعمين وقرىء فكهين
٢٨ (كذلك) الكاف في حيز النصب وذلك إشارة إلى مصدر يدل عليه تركوا أي مثل ذلك السلب سلبناهم

فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾ ٤٤ الدخان

وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿٣٠﴾ ٤٤ الدخان

مِن فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ ٤٤ الدخان

وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٢﴾ ٤٤ الدخان

وَءَاتَيْنَٰهُم مِّنَ ٱلْءَايَٰتِ مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌا۟ مُّبِينٌ ﴿٣٣﴾ ٤٤ الدخان

إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ ٤٤ الدخان

إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴿٣٥﴾ ٤٤ الدخان

إياها (وأورثناها قوماً آخرين) وقيل مثل ذلك الإخراج أخرجناهم منها وقيل فى حيز الرفع على *
الخبرية أى الأمر كذلك فحينئذ يكون أورثناها معطوفا على تركوا وعلى الأولين على الفعل المقدر
(فما بكت عليهم السماء والأرض) مجاز عن عدم الاكتراث بهلاكهم والاعتداد بوجودهم فيه تهكم ٢٩
بهم وبحالهم المنافية لحال من يعظم فقده فيقال له بكت السماء والأرض ومنه ماروى أن المؤمن ليبكى
عليه مصلاه ومحل عبادته ومصاعد عمله ومهابط رزقه وآثاره فى الأرض وقيل تقديره أهل السماء
والأرض (وما كانوا) لما جاء وقت هلاكهم (منظرين) ممهلين إلى وقت آخر أو إلى الآخرة بل *
عجل لهم فى الدنيا (ولقد نجينا بنى إسرائيل) بأن فعلنا بفرعون وقومه مافعلنا (من العذاب المهين) ٣٠
من استعباد فرعون إياهم وقتل أبنائهم واستحياء نسائهم على الخسف والضيم (من فرعون) بدل من ٣١
العذاب إما على جعله نفس العذاب لإفراطه فيه وإما على حذف المضاف أى عذاب فرعون أو حال
من المهين أى كائناً من فرعون وقرىء من فرعون على معنى هل تعرفونه من هو فى عتوه وتفرعنه
وفى إبهام أمره أولا وتبيينه بقوله تعالى (إنه كان عالياً من المسرفين) ثانياً من الإفصاح عن كنه أمره *
فى الشر والفساد مالا مزيد عليه وقوله تعالى من المسرفين إما خبر ثان لكان أى كان متكبراً مسرفا
أو حال من الضمير فى عالياً أى كان رفيع الطبقة من بين المسرفين فائقاً لهم بليغاً فى الإسراف (ولقد ٣٢
اخترناهم) أى بنى إسرائيل (على علم) أى عالمين بأنهم أحقاء بالاختيار أو عالمين بأنهم يزيغون فى *
الأوقات ويكثر منهم الفرطات (على العالمين) جميعاً لكثرة الأنبياء فيهم أو على عالمى زمانهم (وآتيناهم ٣٣
من الآيات) كفلق البحر وتظليل الغمام وإنزال المن والسلوى وغيرها من عظائم الآيات التى لم يعهد
مثلها فى غيرهم (مافيه بلاء مبين) نعمة جلية أو اختبار ظاهر لننظر كيف يعملون (إن هؤلاء) يعنى ٣٤
كفار قريش لأن الكلام فيهم وقصة فرعون وقومه مسوقة للدلالة على تماثلهم فى الإصرار على الضلالة
والتحذير عن حلول مثل ماحل بهم (ليقولون) (إن هى إلا موتتنا الأولى) أى ما العاقبة ونهاية ٣٥
الأمر إلا الموتة الأولى المزيلة للحياة الدنيوية ولا قصد إلى إثبات موتة أخرى كما فى قولك حج زيد

فَأْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٦﴾ ٤٤ الدخان

أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٣٧﴾ ٤٤ الدخان

وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ ﴿٣٨﴾ ٤٤ الدخان

مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ ٤٤ الدخان

إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾ ٤٤ الدخان

الحجة الأولى ومات وقيل لما قيل لهم إنكم تموتون موتة تعقبها حياة كما تقدمتكم موتة كذلك قالوا
ماهى إلا موتتنا الأولى أى ما الموتة التى تعقبها حياة إلا الموتة الأولى وقيل المعنى ليست الموتة إلا
٣٦ هذه الموتة دون الموتة التى تعقب حياة القبر كما تزعمون (وما نحن بمنشرين) بمبعوثين (فأتوا بآبائنا)
خطاب لمن وعدهم بالنشور من الرسول عليه الصلاة والسلام والمؤمنين (إن كنتم صادقين) فيما
تعدونه من قيام الساعة وبعث الموتى ليظهر أنه حق وقيل كانوا يطلبون إليهم أن يدعوا الله تعالى
٣٧ فينشر لهم قصى ابن كلاب ليشاوروه وكان كبيرهم ومفزعهم فى المهمات والملمات (أهم خير) رد لقولهم
وتهديد لهم أى أهم خير فى القوة والمنعة اللتين يدفع بهما أسباب الهلاك (أم قوم تبع) هو تبع الحميرى
الذى سار بالجيوش وحير الحيرة وبنى سمرقند وقيل هدمها وكان مؤمناً وقومه كافرين ولذلك ذمهم
الله تعالى دونه وكان يكتب فى عنوان كتابه بسم الله الذى ملك بحراً وبحراً أى بحاراً كثيرة وعن
النبى صلى الله عليه وسلم لاتسبوا تبعاً فإنه كان قد أسلم وعنه عليه الصلاة والسلام ما أدرى أكان تبع
نبياً أو غير نبى وعن ابن عباس رضى الله عنهما أنه كان نبياً وقيل لملوك اليمن التبابعة لأنهم يتبعون
كما يقال لهم الأقيال لأنهم يتقيلون (والذين من قبلهم) عطف على قوم تبع والمراد بهم عاد وثمود وأضرابهم
من كل جبار عنيد أولى بأس شديد والاستفهام لتقرير أن أولئك أقوى من هؤلاء وقوله تعالى (أهلكناهم)
استئناف لبيان عاقبة أمرهم وقوله تعالى (إنهم كانوا مجرمين) تعليل لإهلاكهم ليعلم أن أولئك حيث
أهلكوا بسبب إجرامهم مع ما كانوا فى غاية القوة والشدة فلأن يهلك هؤلاء وهم شركاء لهم فى الإجرام
٣٨ أضعف منهم فى الشدة والقوة أولى (وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما) أى ما بين الجنسين
٣٩ وقرىء وما بينهن (لاعبين) لاهين من غير أن يكون فى خلقهما غرض صحيح وغاية حميدة (ماخلقناهما)
وما بينهما (إلا بالحق) استثناء مفرغ من أعم الأحوال أو أعم الأسباب أى ما خلقناهما ملتبساً بشىء
من الأشياء إلا ملتبساً بالحق أو ماخلقناهما بسبب من الأسباب إلا بسبب الحق الذى هو الإيمان والطاعة
٤٠ والبعث والجزاء (ولكن أكثرهم لايعلمون) أن الأمر كذلك فينكرون البعث والجزاء (إن يوم
الفصل) أى فصل الحق عن الباطل وتمييز المحق من المبطل أو فصل الرجل عن أقاربه وأحبائه (ميقاتهم)
وقت موعدهم (أجمعين) وقرىء ميقاتهم بالنصب على أنه اسم إن ويوم الفصل خبرها أى إن ميعاد
حسابهم وجزائهم فى يوم الفصل .

يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ ٤٤ الدخان

إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾ ٤٤ الدخان

إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ ٤٤ الدخان

طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ ٤٤ الدخان

كَٱلْمُهْلِ يَغْلِي فِي ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ ٤٤ الدخان

كَغَلْيِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ ٤٤ الدخان

خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ٤٤ الدخان

ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ٤٤ الدخان

ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ ٤٤ الدخان

إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ ٤٤ الدخان

(يوم لايغنى) بدل من يوم الفصل أو صفة لميقاتهم أو ظرف لما دل عليه الفصل لالنفسه (مولى) ٤١
من قرابة أو غيرها (عن مولى) أى مولى كان (شيئاً) أى شيئاً من الإغناء (ولا هم ينصرون) الضمير *
لمولى الأول باعتبار المعنى لأنه عام (إلا من رحم الله) بالعفو عنه وقبول الشفاعة فى حقه ومحله الرفع ٤٢
على البدل من الواو أو النصب على الاستثناء (إنه هو العزيز) الذى لاينصرمن أراد تعذيبه (الرحيم) *
لمن أراد أن يرحمه (إن شجرة الزقوم) وقرىء بكسر الشين وقد مر معنى الزقوم فى سورة الصافات ٤٣
(طعام أثيم) أى الكثير الآثام والمراد به الكافر لدلالة ما قبله وما بعده عليه (كالمهل) وهو ٤٤،٤٥
مايمهل فى النار حتى يذوب وقيل هو دردى الزيت (يغلى فى البطون) وقرىء بالتاء على إسناد الفعل *
إلى الشجرة (كغلى الحميم) غلياناً كغليه (خذوه) على إرادة القول والخطاب للزبانية (فاعتلوه) ٤٦،٤٧
أى جروه والعتل الأخذ بمجامع الشىء وجره بقهر وعنف وقرىء بضم التاءوهى لغةفيه (إلى سواء *
الجحيم) أى وسطه (ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم) كان الأصل يصب من فوق رؤسهم الحميم ٤٨
فقيل يصب من فوق رؤسهم عذاب هو الحميم للمبالغة ثم أضيف العذاب إلى الحميم للتخفيف وزيد من
للدلالة على أن المصبوب بعض هذا النوع (ذق إنك أنت العزيز الكريم) أى وقولوا له ذلك استهزاء ٤٩
به وتقريعاً له على ما كان يزعمه روى أن أبا جهل قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم ما بين جبليها أعز
ولا أكرم منى فو الله ماتستطيع أنت ولا ربك أن تفعلا بى شيئاً وقرىء بالفتح أى لأنك أو عذاب
أنك (إن هذا) أى العذاب (ماكنتم به تمترون) تشكون وتمارون فيه والجمع باعتبار المعنى لأن ٥٠

إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ ٤٤ الدخان

فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾ ٤٤ الدخان

يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٥٣﴾ ٤٤ الدخان

كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾ ٤٤ الدخان

يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ﴿٥٥﴾ ٤٤ الدخان

لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾ ٤٤ الدخان

فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٥٧﴾ ٤٤ الدخان

فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ ٤٤ الدخان

فَٱرْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ ﴿٥٩﴾ ٤٤ الدخان

---

٥١ المراد جنس الأثيم (إن المتقين) أي عن الكفر والمعاصي (في مقام) في موضع قيام والمراد المكان
على الإطلاق فإنه من الخاص الذي شاع استعماله في معنى العموم وقرىء بضم الميم وهو موضع إقامة
* (أمين) يأمن صاحبه الآفات والانتقال عنه وهو من الأمن الذي هو ضد الخيانة وصف به المكان
٥٢ بطريق الاستعارة كان المكان المخيف يخون صاحبه لما يلقى فيه من المكاره (في جنات وعيون)
٥٣ بدل من مقام جيء به دلالة على نزاهته واشتماله على طيبات المآكل والمشارب (يلبسون من سندس
واستبرق) إما خبر ثان أو حال من الضمير في الجار أو استئناف والسندس مارق من الحرير والاستبرق
٥٤ ماغلظ منه معرب (متقابلين) في المجالس ليستأنس بعضهم ببعض (كذلك) أي الأمر كذلك أو
* كذلك أثبناهم (وزوجناهم بحور عين) على الوصف وقرىء بالإضافة أي قرناهم بهن والحور جمع
الحوراء وهي البيضاء والعين جمع العيناء وهي العظيمة العينين واختلف في أنهن نساء الدنيا أوغيرها
٥٥ (يدعون فيها بكل فاكهة) أي يطلبون ويأمرون بإحضار مايشتهونه من الفواكه لايتخصص شيء
٥٦ منها بمكان ولازمان (آمنين) من كل مايسوؤهم (لايذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى) بل يستمرون
على الحياة أبداً والاستثناء منقطع أو متصل على أن المراد بيان استحالة ذوق الموت فيها على الإطلاق
* كأنه قيل لايذوقون فيها الموت إلا إذا أمكن ذوق الموتة الأولى حينئذ (ووقاهم عذاب الجحيم) وقرىء
٥٧ مشدداً للمبالغة في الوقاية (فضلا من ربك) أي أعطوا ذلك كله عطاء وتفضلا منه تعالى وقرىء بالرفع
* أي ذلك فضل (ذلك هو الفوز العظيم) الذي لافوز وراءه إذ هو خلاص عن جميع المكاره ونيل
٥٨ لكل المطالب وقوله تعالى (فإنما يسرناه بلسانك لعلهم يتذكرون) فذلكة للسورة الكريمة أي إنما
٥٩ أنزلنا الكتاب المبين بلغتك كي يفهمه قومك ويتذكروا ويعملوا بموجبه وإذا لم يفعلوا ذلك (فارتقب)

ترتيبها ٤٤ — سورة الدخان — آياتها ٥٩

مكية كما روي عن ابن عباس وابن الزبير رضي الله تعالى عنهم واستثنى بعض قوله تعالى: ﴿إنا كاشفو العذاب قليلاً إنكم عائدون﴾ [الدخان: ١٥] وآيها كما قال الداني تسع وخمسون في الكوفي وسبع في البصري وست في عدد الباقين. واختلافها على ما في مجمع البيان أربع آيات ﴿حم﴾ [الدخان: ١] و ﴿إن هؤلاء ليقولون﴾ [الدخان: ٣٤] كوفي ﴿شجرة الزقوم﴾ [الدخان: ٤٣] عراقي شامي والمدني الأول في ﴿البطون﴾ [الدخان: ٤٥] عراقي مكي والمدني الأخير. ووجه مناسبتها لما قبلها أنه عزَّ وجلَّ ختم ما قبل بالوعيد والتهديد وافتتح هذه بشيء من الإنذار الشديد وذكر سبحانه هناك قول الرسول ﷺ: ﴿يا رب إن هؤلاء قوم لا يؤمنون﴾ [الزخرف: ٨٨] وهنا نظيره فيما حكي عن أخيه موسى عليهما الصلاة والسلام بقوله تعالى ﴿فدعا ربه أن هؤلاء قوم مجرمون﴾ [الدخان: ٢٢] وأيضاً ذكر فيما تقدم ﴿فاصفح عنهم وقل سلام﴾ [الزخرف: ٨٩] وحكى سبحانه عن موسى عليه السلام ﴿إني عذت بربي وربكم أن ترجمون وإن لم تؤمنوا لي فاعتزلون﴾ [الدخان: ٢٠، ٢١] وهو قريب من قريب إلى غير ذلك، وهي إحدى النظائر التي كان يصلي بهن رسول الله ﷺ كما أخرج الطبراني عن ابن مسعود الذاريات والطور والنجم واقتربت والرحمن والواقعة ونون والحاقة والمزمل ولا أقسم بيوم القيامة وهل أتى على الإنسان والمرسلات وعم يتساءلون والنازعات وعبس وويل للمطففين وإذا الشمس كورت والدخان، وورد بفضلها أخبار.

أخرج الترمذي ومحمد بن نصر وابن مردويه والبيهقي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ حم الدخان في ليلة أصبح يستغفر له سبعون ألف ملك» وأخرج المذكورون عنه أيضاً يرفعه من قرأ حم الدخان في ليلة جمعة أصبح مغفوراً له» وفي رواية للبيهقي وابن الضريس عنه مرفوعاً «من قرأ ليلة الجمعة حم الدخان ويس أصبح مغفوراً له» وأخرج ابن الضريس عن الحسن أن النبي ﷺ قال «من قرأ سورة الدخان في ليلة غفر له ما تقدم من ذنبه» وأخرج ابن مردويه عن أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ «من قرأ حم الدخان في ليلة جمعة أو يوم جمعة بنى الله تعالى له بيتاً في الجنة».

بسم الله الرحمن الرحيم

حمٓ ﴿١﴾ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٣﴾ فِيهَا يُفۡرَقُ كُلُّ أَمۡرٍ
حَكِيمٍ ﴿٤﴾ أَمۡرٗا مِّنۡ عِندِنَآۚ إِنَّا كُنَّا مُرۡسِلِينَ ﴿٥﴾ رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٦﴾ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٧﴾ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ رَبُّكُمۡ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ

﴿٨﴾ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ ﴿٩﴾ فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى النَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ رَّبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ أَنَّىٰ لَهُمُ الذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ﴿١٤﴾

﴿بسم الله الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ حم وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ الكلام فيه كالذي سلف في السورة السابقة.

﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ﴾ أي الكتاب المبين الذي هو القرآن على القول المعول عليه ﴿فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ﴾ هي ليلة القدر على ما روي عن ابن عباس وقتادة وابن جبير ومجاهد، وابن زيد والحسن وعليه أكثر المفسرين والظواهر معهم، وقال عكرمة. وجماعة: هي ليلة النصف من شعبان. وتسمى ليلة الرحمة والليلة المباركة وليلة الصك وليلة البراءة، ووجه تسميتها بالأخيرين أن البندار إذا استوفى الخراج من أهله كتب لهم البراءة والصك كذلك أن الله عزَّ وجلَّ يكتب لعباده المؤمنين البراءة والصك في هذه الليلة. وظاهر كلامهم هنا أن البراءة وهي مصدر برىء براءة إذا تخلص تطلق على صك الأعمال والديون وما ضاهاها وأنه ورد في الآثار ذلك وهو مجاز مشهور وصار بذلك كالمشترك، وفي المغرب بريء من الدين والعيب براءة، ومنه البراءة لخط الابراء والجمع براءات وبروات عامية اهـ.

وأكثر أهل اللغة على أنه لم يسمع من العرب وأنه عامي صرف وإن كان من باب المجاز الواسع.

قال ابن السيد في المقتضب البراءة في الأصل مصدر برىء براءة، وأما البراءة المستعملة في صناعة الكتاب فتسميتها بذلك إما على أنها من بريء من دينه إذا أداه وبرئت من الأمر إذا تخليت منه فكأن المطلوب منه أمر تبرأ إلى الطالب أو تخلى، وقيل: أصله أن الجاني كان إذا جنى وعفا عنه الملك كتب له كتاب أمان مما خافه فكان يقال: كتب السلطان لفلان براءة ثم عمم ذلك فيما كتب من أولي الأمر وأمثالهم ا هـ.

وذكروا في فضل هذه الليل أخباراً كثيرة، منها ما أخرجه ابن ماجه والبيهقي في شعب الإيمان عن علي كرم الله وجهه قال: «قال رسول الله ﷺ إذا كانت ليلة النصف من شعبان فقوموا ليلها وصوموا نهارها فإن الله تعالى ينزل فيها لغروب الشمس إلى السماء الدنيا فيقول: ألا مستغفر فأغفر له ألا مسترزق فأرزقه ألا مبتلى فأعافيه ألا كذا ألا كذا حتى يطلع الفجر» وما أخرجه الترمذي وابن أبي شيبة والبيهقي وابن ماجه عن عائشة قالت: «فقدت رسول الله ﷺ ذات ليلة فخرجت أطلبه فإذا هو بالبقيع رافعاً رأسه إلى السماء فقال يا عائشة: أكنت تخافين أن يحيف الله تعالى عليك ورسوله؟ قلت: ما بي من ذلك ولكني ظننت أنك أتيت بعض نسائك، فقال: إن الله عز وجل ينزل ليلة النصف من شعبان إلى السماء الدنيا فيغفر لأكثر من عدد شعر غنم كلب». وما أخرجه أحمد بن حنبل في المسند عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن رسول الله ﷺ قال: «يطلع الله تعالى إلى خلقه ليلة النصف من شعبان فيغفر لعباده إلا اثنين مشاحن وقاتل نفس» وذكر بعضهم فيها صلاة مخصوصة وأنها تعدل عشرين حجة مبرورة وصيام عشرين سنة مقبولاً، وروي في ذلك حديثاً طويلاً عن علي كرم الله تعالى وجهه، وقد أخرجه البيهقي ثم قال: يشبه أن يكون هذا الحديث موضوعاً وهو منكر وفي رواته مجهولون وأطال الوعاظ الكلام في هذه الليلة وذكر فضائلها وخواصها، وذكروا عدة أخبار في أن الآجال تنسخ فيها. وفي الدر المنثور طرف غير يسير من ذلك وسنذكر بعضاً منه إن شاء الله تعالى. وفي البحر قال الحافظ أبو بكر بن العربي: لا يصح فيها شيء ولا نسخ الآجال فيها ولا يخلو من مجازفة والله تعالى أعلم.

والمراد بإنزاله في تلك الليلة إنزاله فيها جملة إلى السماء الدنيا من اللوح فالإنزال المنجم في ثلاث وعشرين سنة أو أقل كان من السماء الدنيا وروي هذا عن ابن جرير وغيره، وذكر أن المحل الذي أنزل فيه من تلك السماء البيت المعمور وهو مسامت للكعبة بحيث لو نزل لنزل عليها.

وأخرج سعيد بن منصور عن إبراهيم النخعي أنه قال: نزل القرآن جملة على جبريل عليه السلام وكان جبريل عليه السلام يجيء به بعد إلى النبي ﷺ.

وقال غير واحد: المراد ابتداء إنزاله في تلك الليلة على التجوز في الطرف أو النسبة واستشكل ذلك بأن ابتداء السنة المحرم أو شهر ربيع الأول لأنه ولد فيه ﷺ ومنه اعتبر التاريخ في حياته عليه الصلاة والسلام إلى خلافة عمر رضي الله تعالى عنه وهو الأصح، وقد كان الوحي إليه ﷺ على رأس الأربعين سنة من مدة عمره عليه الصلاة والسلام على المشهور من عدة أقوال فكيف يكون ابتداء الإنزال في ليلة القدر من شهر رمضان أو في ليلة البراءة من شعبان.

وأجيب بأن ابتداء الوحي كان مناماً في شهر ربيع الأول ولم يكن بإنزال شيء من القرآن والوحي يقظة مع الإنزال كان في يوم الاثنين لسبع عشرة خلت من شهر رمضان، وقيل لسبع منه، وقيل لأربع وعشرين ليلة منه، وأنت تعلم كثرة اختلاف الأقوال في هذا المقام فمن يقول بابتداء إنزاله في شهر يلتزم منها ما لا يأباه.

واختلف في أول ما نزل منه، ففي صحيح مسلم أنه ﴿يا أيها المدثر﴾ [المدثر: ١] وتعقبه النووي في شرحه فقال: إنه ضعيف بل باطل والصواب أن أول ما نزل على الإطلاق ﴿اقرأ باسم ربك﴾ [العلق: ١] كما صرح به في حديث عائشة، وأما ﴿يا أيها المدثر﴾ فكان نزولها بعد فترة الوحي كما صرح به في رواية الزهري عن أبي سلمة، عن جابر.

وأما قول من قال من المفسرين أول ما نزل الفاتحة فبطلانه أظهر من أن يذكر ا هـ والكلام في ذلك مستوفى في الإتقان فليرجع إليه من أراده.

ووصف الليلة بالبركة لما أن إنزال القرآن مستتبع للمنافع الدينية والدنيوية بأجمعها أو لما فيها من تنزل الملائكة والرحمة وإجابة الدعوة وفضيلة العبادة أو لما فيها من ذلك وتقدير الأرزاق وفصل الأقضية كالآجال وغيرها وإعطاء تمام الشفاعة له عليه الصلاة والسلام، وهذا بناءً على أنها ليلة البراءة، فقد روي أنه ﷺ سأل ليلة الثالث عشر من شعبان في أمته فأعطى الثلث منها ثم سأل ليلة الرابع عشر فأعطى الثلثين ثم سأل ليلة الخامس عشر فأعطى الجميع إلا من شرد على الله تعالى شراد البعير، وأياً ما كان فقد قيل: إن التعليل إنما يحتاج إليه بناءً على القول بما اختاره العز بن عبد السلام من أن الأمكنة والأزمنة كلها متساوية في حد ذاتها لا يفضل بعضها بعضاً إلا بما يقع فيها من الأعمال ونحوها، وزاد بعضهم أو يحل لتدخل البقعة التي ضمته ﷺ فإنها أفضل البقاع الأرضية والسماوية حتى قيل وبه أقول إنها أفضل من العرش.

والحق أنه لا يبعد أن يخص الله سبحانه بعضها بمزيد تشريف حتى يصير ذلك داعياً إلى إقدام المكلف على الأعمال فيها أو لحكمة أخرى، وجملة ﴿**إنا أنزلناه**﴾ جواب القسم، وفي ذلك مبالغة نحو ما في قوله: وثناياك إنها إغريض.

وقوله تعالى: ﴿**إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ**﴾ استئناف يبين المقتضي للإنزال، وقوله تعالى: ﴿**فيها يفرق كل أمر حكيم**﴾ استئناف أيضاً لبيان التخصيص بالليلة المباركة فكأنه قيل: أنزلناه لأن من شأننا الإنذار والتحذير من العقاب وكان إنزاله

في تلك الليلة المباركة لأنه من الأمور الدالة على الحكم البالغة وهي ليلة يفرق فيها كل أمر حكيم ففي الكلام لف ونشر، واشتراط أن يكون كل منهما بجملتين مستقلتين مما لا داعي إليه، وقيل: إن جملة ﴿**فيها يفرق**﴾ الخ صفة أخرى لليلة وما بينهما اعتراض لا يضر الفصل به بل لا يعد الفصل به فصلاً، وقيل إن قوله تعالى ﴿**إنا كنا منذرين**﴾ هو جواب القسم وما بينهما اعتراض وإليه ذهب ابن عطية زاعماً أنه لا يجوز جعل ﴿**إنا أنزلناه**﴾ جواباً له فيه من القسم بالشيء على نفسه.

واعترض بأن قوله تعالى: ﴿**فيها يفرق كل أمر حكيم**﴾ يكون حينئذٍ من تتمة الاعتراض فلا يحسن تأخره عن المقسم عليه ولا يدفعه أن هذه الجملة مستأنفة لا صفة أخرى لأنه استئناف بياني متعلق بما قبل كما سمعت آنفاً فلا يليق الفصل أيضاً كما لا يخفى على من له ذوق سليم، وما ذكر من حديث القسم بالشيء على نفسه فقد أشرنا إلى جوابه، وقيل إنّ قوله سبحانه: ﴿**إنا كنا منذرين**﴾ جواب آخر للقسم وفيه تعدد المقسم عليه من غير عطف ولم نر من تعرض له، ومعنى يفرق يفصل ويلخص، والحكيم بمعنى المحكم لأنه لا يبدل ولا يغير بعد إبرازه للملائكة عليهم السلام بخلافه قبله وهو في اللوح فإن الله تعالى يمحو منه ما يشاء ويثبت.

وجوز أن يكون بمعنى المحكوم به ونسبته إلى الأمر عليها حقيقة، ويجوز أن يكون المعنى كل أمر ملتبس بالحكمة والأصل حكيم صاحبه فتجوز في النسبة، وقيل: إن حكيم للنسبة كتامرو لابن وقد أبهم سبحانه هذا الأمر.

وأخرج محمد بن نصر وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس أنه قال في ذلك: يكتب من أم الكتاب في ليلة القدر ما يكون في السنة من رزق أو موت أو حياة أو مطر حتى يكتب الحاج يحج فلان ويحج فلان.

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن ربيعة بن كلثوم قال: كنت عند الحسن فقال له رجل: يا أبا سعيد ليلة القدر في كل رمضان هي؟ قال: إي والله إنها لفي كل رمضان وإنها لليلة يفرق فيها كل أمر حكيم فيها يقضي الله تعالى كل أجل وعمل ورزق إلى مثلها، وروي هذا التعميم عن غير واحد من السلف.

وأخرج البيهقي عن أبي الجوزاء فيها يفرق كل أمر حكيم هي ليلة القدر يجاء بالديوان الأعظم السنة إلى السنة فيغفر الله تعالى شأنه لمن يشاء ألا ترى أنه عز وجل قال ﴿**رحمة من ربك**﴾ وفيه بحث، وإلى مثل ذلك التعميم ذهب بعض من قال: إن الليلة المباركة هي ليلة البراءة، أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم من طريق محمد بن سوقة عن عكرمة أنه قال في الآية: في ليلة النصف من شعبان يبرم أمر السنة وينسخ الأحياء من الأموات ويكتب الحاج فلا يزاد فيهم ولا ينقص منهم أحد، وفي كثير من الأخبار الاقتصار على قطع الآجال، أخرج ابن جرير والبيهقي في شعب الإيمان عن الزهري عن عثمان بن محمد بن المغيرة بن الأخفش قال: «قال رسول الله ﷺ: تقطع الآجال من شعبان إلى شعبان حتى أن الرجل لينكح ويولد له وقد خرج اسمه في الموتى» وأخرج الدينوري في المجالسة عن راشد بن سعد أن النبي ﷺ قال: «في ليلة النصف من شعبان يوحي الله تعالى إلى ملك الموت بقبض كل نفس يريد قبضها في تلك السنة» ونحوه كثير، وقيل: يبدآن في استنساخ كل أمر حكيم من اللوح المحفوظ في ليلة البراءة ويقع الفراغ في ليلة القدر فتدفع نسخة الأرزاق إلى ميكائيل عليه السلام ونسخة الحروب إلى جبرائيل عليه السلام وكذلك الزلازل والصواعق والخسف ونسخة الأعمال إلى إسماعيل عليه السلام صاحب سماء الدنيا وهو ملك عظيم ونسخة المصائب إلى ملك الموت.

وروي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما تقضى الأقضية كلها ليلة النصف من شعبان وتسلم إلى أربابها ليلة السابع والعشرين من شهر رمضان. واعترض بما ذكر على الاستدلال بالظواهر على أن الليلة المذكورة هي ليلة القدر لا

ليلة النصف من شعبان ومن تدبر علم أنه لا يخدش الظواهر، نعم حكي عن عكرمة أن ليلة النصف من شعبان هي ليلة القدر ويلزمه تأويل ما يأبى ظاهره ذلك فتدبر، وسيأتي إن شاء الله عز وجل الكلام في هذا المقام مستوفى على أتم وجه في تفسير سورة القدر وهو سبحانه الموفق.

وقرأ الحسن والأعرج والأعمش «يَفْرُقُ» بفتح الياء وضم الراء «كُلَّ» بالنصب أي يفرق الله تعالى، وقرأ زيد بن علي فيما ذكر الزمخشري عنه «نُفَرِّقُ» بالنون «كُلَّ» بالنصب وفيما ذكر أبو علي الأهوازي عنه بفتح الياء وكسر الراء ونصب «كُلَّ» ورفع «حكيمٌ» على أنه الفاعل بيفرق، وقرأ الحسن. وزائدة عن الأعمش «يُفَرَّقُ» بالتشديد وصيغة المفعول وهو للتكثير وفيه رد على قول بعض اللغويين كالحريري أن الفرق مختص بالمعاني والتفريق بالأجسام.

﴿أَمراً مِّنْ عندنَا﴾ نصب على الاختصاص وتنكيره للتفخيم، والجار والمجرور في موضع الصفة له وتعلقه بيفرق ليس بشيء، والمراد بالعندية أنه على وفق الحكمة والتدبير أي أعني بهذا الأمر أمراً فخيماً حاصلاً على مقتضى حكمتنا وتدبيرنا وهو بيان لزيادة فخامته ومدحه، وجوز كونه حالاً من ضمير أمر السابق المستتر في حكيم الواقع صفة له أو من «أمر» نفسه، وصح مجيء الحال منه مع أنه نكرة لتخصصه بالوصف على أن عموم النكرة المضاف إليها كل مسوغ للحالية من غير احتياج الوصف، وقول السمين: إن فيه القول بالحال من المضاف إليه في غير المواضع المذكورة في النحو صادر عن نظر ضعيف لأنه كالجزء في جواز الاستغناء عنه بأن يقال: يفرق أمر حكيم على إرادة عموم النكرة في الإثبات كما في قوله تعالى: ﴿علمت نفس ما أحضرت﴾ [التكوير: ١٤] وقيل: حال من ﴿كل﴾ وأياً ما كان فهو مغاير لذي الحال لوصفه بقوله تعالى: ﴿من عندنا﴾ فيصح وقوعه حالاً من غير لغوية فيه.

وكونها مؤكدة غير متأت مع الوصفية كما لا يخفى على ذي الذهن السليم، وهو على هذه الأوجه واحد الأمور وجوز أن يراد به الأمر الذي هو ضد النهي على أنه واحد الأوامر فحينئذٍ يكون منصوباً على المصدرية لفعل مضمر من لفظه أي أمرنا أمراً من عندنا، والجملة بيان لقوله سبحانه: ﴿يفرق﴾ الخ، وقيل: إما أن يكون نصباً على المصدرية ليفرق لأن كتب الله تعالى للشيء إيجابه وكذلك أمره عز وجل به كأنه قيل: يؤمر بكل شأن مطلوب على وجه الحكمة أمراً فالأمر وضع موضع الفرقان المستعمل بمعنى الأمر، وإما أن يكون على الحالة من فاعل ﴿أنزلنا﴾ أو مفعوله أي إنا إنزلناه آمرين أمراً أو حال كون الكتاب أمراً يجب أن يفعل؛ وفي جعل الكتاب نفس الأمر لاشتماله عليه أيضاً تجوز فيه فخامة، وتعقب ذلك في الكشف فقال: فيه ضعف للفصل بالجملتين بين الحال وصاحبها على الثاني ولعدم اختصاص الأوامر الصادرة منه تعالى بتلك الليلة على الأول.

ووجهه أن تخص بالقرآن ولا يجعل قوله تعالى: ﴿فيها يفرق﴾ علة للإنزال في الليلة بل هو تفصيل لما أجمل في قوله سبحانه: ﴿إنا أنزلناه في ليلة مباركة﴾ على معنى فيها أنزل الكتاب المبين الذي هو المشتمل على كل مأمور به حكيم كأنه جعل الكتاب كله أمراً أو ما أمر به كل المأمورات وفيه مبالغة حسنة، ولا يخفى أن في فهمه من الآية تكلفاً.

وقال الخفاجي في أمر الفصل: إنه لا يضر ذلك الفاصل على الاعتراض وكذا على التعليل لأنه غير أجنبي.

وقرأ زيد بن علي رضي الله تعالى عنهما «أمرٌ» بالرفع وهي تنصر كون انتصابه في قراءة الجمهور على الاختصاص لأن الرفع عليه فيها، وقوله تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ رَحْمَةً مِّنْ رَبِّكَ﴾ تعليل ليفرق أو لقوله تعالى: ﴿أمراً من عندنا﴾ ورحمة مفعول به لمرسلين وتنوينها للتفخيم، والجار والمجرور في موضع الصفة لها، وإيقاع الإرسال عليها هنا كإيقاعه عليها في قوله سبحانه: ﴿ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده﴾ [فاطر: ٢] والمعنى على ما في الكشاف يفصل في هذه الليلة كل أمر لأن من عادتنا أن نرسل رحمتنا وفصل

كل أمر من قسمة الأرزاق وغيرها من باب الرحمة أي إن المقصود الأصلي بالذات من ذلك الرحمة أو تصدر الأوامر من عندنا لأن من عادتنا ذلك والأوامر الصادرة من جهته تعالى من باب الرحمة أيضاً لأن الغاية لتكليف العباد تعريضهم للمنافع، وفيه كما قيل إشارة إلى أن جعله تعليلاً لقوله سبحانه: أمراً من عندنا إنما هو على تقدير أن يراد بالأمر مقابل النهي وهو يجري على تقديري المصدرية والحالية.

وفي الكشف أن قوله: يفصل الخ أو تصدر الأوامر الخ تبيين لمعنى التعليل على التفسيرين في ﴿يفرق﴾ لأنه أما بمعنى الفصل على الحقيقة من قسمة الأرزاق وغيرها أو بمعنى يؤمر والشأن المطلوب يكون مأموراً به لا محالة فحاصله يرجع إلى قوله: أو تصدر الأوامر من عندنا لا لوجهي التعليل من تعلقه بيفرق أو بأمراً فإن تعلقه بأمراً إنما يصح إذا نصب على الاختصاص وإذ ذاك ليس الأمر ما يقابل النهي لأن الأمر إذا كان المقابل فهو إما مصدر وإنما يعلل فعله وإما حال مؤكدة فيكون راجعاً إلى تعليل الإنزال المخصوص وليس المقصود وإنما لم يذكر المعنى على تقدير تعلقه بأمراً لأن المعنى الأول يصلح تفسيراً له أيضاً انتهى.

والظاهر كون ذلك تبييناً لوجهي التعليل، وما ذكر في نفيه لا يخلو عن بحث كما يعرف بالتأمل، واعتبار العادة في بيان المعنى جاء من كنا فإنه يقال: كان يفعل كذا لما تكرر وقوعه وصار عادة كما صرحوا به في الكتب الحديثية وغيرها ولإفادة ذلك عدل عن إنا مرسلون الاخصر وقوله سبحانه: ﴿من ربك﴾ وضع فيه الظاهر موضع الضمير والأصل منا فجيء بلفظ الرب مضافاً إلى ضميره ﷺ على وجه تخصيص الخطاب به ﷺ تشريفاً له عليه الصلاة والسلام ودلالة على أن كونه سبحانه ربك وأنت مبعوث رحمة للعالمين مما يقتضي أن يرسل الرحمة.

وقال الطيبي: خص الخطاب برسوله عليه الصلاة والسلام والمراد العموم، والأصل من ربكم وجيء بلفظ الرب ليؤذن بأن المربوبية تقتضي الرحمة على المربوبين وليكون تمهيده يبتنى عليه التعليل الآتي المتضمن للتعريض بواسطة الحصر بأن آلهتهم لا تسمع ولا تبصر ولا تغني شيئاً وتعقب بأنه لو أريد العموم لفاتت النكتة المذكورة ولزم أن يدخل المؤمنون في قوله تعالى: ﴿إن كنتم موقنين﴾ وما بعده وليس المعنى عليه وفي القلب منه شيء وفسر بعضهم الرحمة المرسلة بنبينا ﷺ ولا يخفى أن صحة التعليل تأبى ذلك.

وجوز أن يكون قوله تعالى: ﴿إنا كنا مرسلين﴾ بدلاً من قوله سبحانه: إنا كنا منذرين الواقع تعليلاً لإنزال الكتاب بدل كل أو اشتمال باعتبار الإرسال والإنذار، ويكون ﴿رحمة﴾ حينئذٍ مفعولاً له أي أنزلنا القرآن لأن عادتنا إرسال الرسل والكتب إلى العباد لأجل الرحمة عليهم واختيار كون الرحمة مفعولاً له ليتطابق البدل والمبدل منه إذ معنى المبدل منه فاعلين الإنذار ويطابقه فاعلين الإرسال ولم يجوز كونها كذلك على وجه التعليل بل أوجب كونها مفعولاً به ليصح إذ لو قيل فيها تفصيل كل شأن حكيم لأنا فاعلون الإرسال لأجل الرحمة لم يفد أن الفصل رحمة ولا أنه سبحانه مرسل فلا يستقيم التعليل قيل وينصر نصب رحمة على المفعول قراءة الحسن وزيد بن علي برفعها لأن الكلام عليه جملة مستأنفة أي هي ﴿رحمة﴾ تعليلاً للإرسال فيلائم القول بأنها في قراءة النصب مفعول له وليطابق قراءتهما في كون معنى ﴿إنا كنا مرسلين﴾ إنا كنا فاعلين الإرسال، وقال بعض أجلة المحققين: إن القول بأنه تعليل أظهر من القول بأنه بدل ليكون الكلام على نسق في التعليل غب التعليل، ولما ذكر في الحالة المقتضية للإبدال ولوقوع الفصل، وأشار على ما قيل بما ذكر في الحالة المقتضية للإبدال بأن المبدل منه غير مقصود وأنه في حكم السقوط وههنا ليس كذلك، وتعقب هذا بأنه أغلبي لا مطرد وقوله: لوقوع الفصل أي بين البدل والمبدل منه بأن الفاصل غير أجنبي فلا يضر الفصل به فتدبر، وجوز كون رحمة مصدراً لرحمنا مقدر وكونها حالاً من ضمير

﴿مرسلين﴾ وكونها بدلاً من ﴿أمراً﴾ فلا تغفل ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ﴾ لكل مسموع فيسمع أقوال العباد ﴿الْعَلِيمُ﴾ لكل معلوم فيعلم أحوالهم، وتوسيط الضمير مع تعريف الطرفين لإفادة الحصر، والجملة تحقيق لربوبيته عز وجل وأنها لا تحق إلا لمن هذه نعوته، وفي تخصيص ﴿السميع العليم﴾ على ما قال الطيبي إدماج لوعيد الكفار ووعد المؤمنين الذين تلقوا الرحمة بأنواع الشكر ﴿رَبِّ السَّمَوات وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ بدل من ﴿ربك﴾ أو بيان أو نعت.

وقرأ غير واحد من السبعة والأعرج وابن أبي إسحاق وأبو جعفر وشيبة بالرفع على أنه خبر آخر لإن أو خبر مبتدأ محذوف أي هو رب، والجملة مستأنفة لإثبات ما قبلها وتعليله ﴿إِن كُنتُم مُوقِنِينَ﴾ أي إن كنتم ممن عنده شيء من الإيقان وطرف من العلوم اليقينية على أن الوصف المتعدي منزل منزلة اللازم لعدم القصد إلى ما يتعلق به، وجواب الشرط محذوف أي إن كنتم من أهل الإيقان علمتم كونه سبحانه رب السموات والأرض لأنه من أظهر اليقينيات دليلاً وحينئذٍ يلزمكم القول بما يقتضيه مما ذكر أولاً، ويجوز أن يكون مفعوله مقدراً أي إن كنتم موقنين في إقراركم إذا سئلتم عمن خلق السموات والأرض فقلتم الله تعالى خلقهن، والجواب أيضاً محذوف أي إن كنتم موقنين في إقراركم بذلك علمتم ما يقتضيه مما تقدم لظهور اقتضائه إياه، وجعل غير واحد الجواب على الوجهين تحقق عندكم ما قلناه، ولم يجوزوا جعله مضمون ﴿رب السموات﴾ الخ لأنه سبحانه كذلك أيقنوا أم لم يوقنوا فلا معنى لجعله دالاً عليه، وكذا جعله مضمون ما بعد بل هذا مما لا يحسن باعتبار العلم أيضاً.

وفي هذا الشرط تنزيل إيقانهم منزلة عدمه لظهور خلافه عليهم، وهو مراد من قال: إنه من باب تنزيل العالم منزلة الجاهل لعدم جريه على موجب العلم، قيل: ولا يصح أن يقال: إنهم نزلوا منزلة الشاكرين لمكان قوله سبحانه بعد: ﴿بل هم في شك﴾ ولا أرى بأساً في أن يقال: إنهم نزلوا أولا كذلك ثم سجل عليهم بالشك لأنهم وإن أقروا بأنه عز وجل رب السموات والأرض لم ينفكوا عن الشك لإلحادهم في صفاته سبحانه وإشراكهم به تعالى شأنه.

وجوز أن يكون ﴿موقنين﴾ مجازاً عن مريدين الإيقان والجواب محذوف أيضاً أي إن كنتم مريدين الإيقان فاعلموا ذلك، وفيه بعد، وأما جعل ﴿إن﴾ نافية كما حكاه النيسابوري فليس بشيء كما لا يخفى ﴿لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾ جملة مستأنفة مقررة لما قبلها، وقيل: خبر لمبتدأ محذوف أي هو سبحانه لا إله إلا هو؛ وجملة المبتدأ وخبره مستأنفة مقررة لذلك، وقيل: خبر آخر لإن على قراءة «رب السموات» بالرفع وجعله خبراً، وقيل: خبر له على تلك القراءة وما بينهما اعتراض ﴿يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ مستأنفة كما قبلها، وكذا قوله تعالى: ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ﴾ بإضمار مبتدأ أو بدل من ﴿رب السموات﴾ على تلك القراءة أو بيان أو نعت له، وقيل: فاعل ليميت، وفي ﴿يحيي﴾ ضمير راجع إليه والكلام من باب التنازع أو إلى ﴿رب السموات﴾، وقيل: ﴿يحيي ويميت﴾ خبر آخر لرب السموات وكذا ﴿ربكم﴾ وقيل: هما خبران آخران لإن، وقرأ ابن أبي إسحق وابن محيصن وأبو حيوة والزعفراني وابن مقسم والحسن وأبو موسى وعيسى بن سليمان وصالح كلاهما عن الكسائي بالجر بدلاً من «رب السموات» على قراءة الجر، وقرأ أحمد بن جبير الانطاكي بالنصب على المدح.

﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ﴾ إضراب ابطالي أبطل به إيقانهم لعدم جريهم على موجبه، وتنوين «شَكٌّ» للتعظيم أي في شك عظيم ﴿يَلْعَبُونَ﴾ لا يقولون ما يقولون مما هو مطابق لنفي الأمر عن جد وإذعان بل يقولونه مخلوطاً بهزء ولعب وهذه الجملة خبر بعد خبر لهم.

وجوز أن تكون هي الخبر والظرف متعلق بالفعل قدم للفاصلة، والالتفات عن خطابهم لفرط عنادهم وعدم التفاتهم، والفاء في قوله تعالى: ﴿فَارْتَقِبْ﴾ لترتيب الارتقاب أو الأمر به على ما قبلها فإن كونهم في شك يلعبون مما

يوجب ذلك حتماً أي فانتظر لهم ﴿**يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ**﴾ أي يوم تأتي بجدب ومجاعة فإن الجائع جداً يرى بينه وبين السماء كهيئة الدخان وهي ظلمة تعرض للبصر لضعفه فيتوهم ذلك فإطلاق الدخان على ذلك المرئي باعتبار أن الرائي يتوهمه دخاناً، ولا يأباه وصفه بمبين وإرادة الجدب والمجاعة منه مجاز من باب ذكر المسبب وإرادة السبب أو لأن الهواء يتكدر سنة الجدب بكثرة الغبار لقلة الأمطار المسكنة له فهو كناية عن الجدب وقد فسر أبو عبيدة الدخان به، وقال القتبي: يسمى دخاناً ليبس الأرض حتى يرتفع منها ما هو كالدخان، وقال بعض العرب: نسمي الشر الغالب دخاناً، ووجه ذلك بأن الدخان مما يتأذى به فأطلق على كل مؤذ يشبهه، وأريد به هنا الجدب ومعناه الحقيقي معروف، وقياس جمعه في القلة أدخنة وفي الكثرة دخنان نحو غراب وأغربة وغربان، وشذوا في جمعه على فواعل فقالوا: دواخن كأنه جمع داخنة تقديراً، وقرينة التجوز فيه هنا حالية كما ستعلمه إن شاء الله تعالى من الخبر، والمراد باليوم مطلق الزمان وهو مفعول به لارتقب أو ظرف له والمفعول محذوف أي ارتقب وعد الله تعالى في ذلك اليوم وبالسماء جهة العلو، وإسناد الإتيان بذلك إليهما من قبيل الإسناد إلى السبب لأنه يحصل بعدم إمطارها ولم يسند إليه عز وجل مع أنه سبحانه الفاعل حقيقة ليكون الكلام مع سابقه المتضمن إسناد ما هو رحمة إليه تعالى شأنه على وزان قوله تعالى ﴿**أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم**﴾ [الفاتحة: ٧] وتفسير الدخان بما فسرناه به مروي عن قتادة وأبي العالية والنخعي والضحاك ومجاهد ومقاتل وهو اختيار الفراء والزجاج.

وقد روي بطرق كثيرة عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه، أخرج أحمد والبخاري وجماعة عن مسروق قال: جاء رجل إلى عبد الله فقال: إني تركت رجلاً في المسجد يقول في هذه الآية ﴿**يوم تأتي السماء بدخان**﴾ الخ: يغشى الناس قبل يوم القيامة دخان، فيأخذ بأسماع المنافقين وأبصارهم ويأخذ المؤمن منه كهيئة الزكام فغضب وكان متكئاً فجلس ثم قال: من علم منكم علماً فليقل به، ومن لم يكن يعلم فليقل الله تعالى أعلم. فإن من العلم أن يقول لما لا يعلم الله تعالى أعلم، وسأحدثكم عن الدخان إن قريشاً لما استعصيت على رسول الله ﷺ، وأبطؤوا عن الإسلام قال: اللهم أعنّي عليهم بسبع كسبع يوسف فأصابهم قحط وجهد حتى أكلوا العظام، فجعل الرجل ينظر إلى السماء فيرى ما بينه وبينه كهيئة الدخان من الجوع، فأنزل الله تعالى ﴿**فارتقب ـــ إلى ـــ اليم**﴾ فأتى النبي ﷺ فقيل: يا رسول الله استسق الله تعالى لمضر فاستسقى لهم عليه الصلاة والسلام، فسقوا فأنزل الله تعالى ﴿**إنا كاشفو العذاب قليلاً إنكم عائدون**﴾ [الدخان: ١٥] الخبر. وفي رواية أخرى صحيحة أنه قال: لما رأى رسول الله ﷺ من الناس إدباراً قال: اللهم سبعاً كسبع يوسف فأخذتهم سنة حتى أكلوا الميتة والجلود والعظام، فجاءه أبو سفيان وناس من أهل مكة فقالوا: يا محمد إنك تزعم أنك قد بعثت رحمة وإن قومك قد هلكوا، فادع الله تعالى فدعا رسول الله ﷺ فسقوا الغيث فأطبقت عليهم سبعاً فشكا الناس كثرة المطر فقال: اللهم حوالينا ولا علينا فانحدرت السحابة عن رأسه فسقي الناس حولهم قال: فقد مضت آية الدخان وهو الجوع الذي أصابهم الحديث، وظاهره يدل كما في تاريخ ابن كثير على أن القصة كانت بمكة فالآية مكية.

وفي بعض الروايات أن قصة أبي سفيان كانت بعد الهجرة فلعلها وقعت مرتين، وقد تقدم ما يتعلق بذلك في سورة المؤمنين.

وأخرج ابن أبي حاتم من طريق أبي لهيعة عن عبد الرحمن الأعرج أنه قال في هذا الدخان: كان في يوم فتح مكة وفي البحر عنه أنه قال ﴿**يوم تأتي السماء**﴾ وهو يوم فتح مكة لما حجبت السماء الغبرة، وفي رواية ابن سعيد أن الأعرج يروي عن أبي هريرة أنه قال: كان يوم فتح مكة دخان، وهو قول الله تعالى ﴿**فارتقب يوم تأتي السماء بدخان**

مبين﴾ ويحسن على هذا القول أن يكون كناية عما حل بأهل مكة في ذلك اليوم من الخوف والذل ونحوهما، وقال علي كرم الله تعالى وجهه وابن عمر وابن عباس وأبو سعيد الخدري وزيد بن علي والحسن: إنه دخان يأتي من السماء قبل يوم القيامة يدخل في أسماع الكفرة حتى يكون رأس الواحد كالرأس الحنيذ ويعتري المؤمن كهيئة الزكام وتكون الأرض كلها كبيت أوقد فيه ليس فيه خصاص.

وأخرج ابن جرير عن حذيفة بن اليمان مرفوعاً أول الآيات الدجال ونزول عيسى ونار تخرج من قعر عدن أبين تسوق الناس إلى المحشر تقيل معهم إذا قالوا والدخان، قال حذيفة: يا رسول الله وما الدخان؟ فتلا رسول الله ﷺ ﴿فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين﴾ وقال: يملأ ما بين المشرق والمغرب يمكث أربعين يوماً وليلة، أما المؤمن فيصيبه منه كهيئة الزكمة، وأما الكافر فيكون بمنزلة السكران يخرج من منخريه وأذنيه ودبره، فالدخان على ظاهره والمعنى فارتقب يوم ظهور الدخان.

وحكى السفاريني في البحور الزاخرة عن ابن مسعود أنه كان يقول: هما دخانان مضى واحد والذي بقي يملأ ما بين السماء والأرض ولا يصيب المؤمن إلا بالزكمة وأما الكافر فيشق مسامعه فيبعث الله تعالى عند ذلك الريح الجنوب من اليمن فتقبض روح كل مؤمن ويبقى شرار الناس، ولا أظن صحة هذه الرواية عنه.

وحمل ما في الآية على ما يعم الدخانين لا يخفى حاله، وقيل: المراد بيوم تأتي السماء الخ يوم القيامة فالدخان يحتمل أن يراد به الشدة والشر مجازاً وأن يراد به حقيقته.

وقال الخفاجي: الظاهر عليه أن يكون قوله تعالى: ﴿تأتي السماء﴾ إلى آخره استعارة تمثيلية إذ لا سماء لأنه يوم تشقق فيه السماء فمفرداته على حقيقتها، وأنت تعلم أنه لا مانع من القول بأن السماء كما سمعت أولاً بمعنى جهة العلو سلمنا أنها بمعنى الجرم المعروف لكن لا مانع من كون الدخان قبل تشققها بأن يكون حين يخرج الناس من القبور مثلاً بل لا مانع من القول بأن المراد من إتيان السماء بدخان استحالتها إليه بعد تشققها وعودها إلى ما كانت عليه أولاً كما قال سبحانه: ﴿ثم استوى إلى السماء وهي دخان﴾ [فصلت: ١١] ويكون فناؤها بعد صيرورتها دخاناً.

هذا والأظهر حمل الدخان على ما روي عن ابن مسعود أولاً لأنه أنسب بالسياق لما أنه في كفار قريش وبيان سوء حالهم مع أن في الآيات بعد ما هو أوفق به، فوجه الربط أنه سبحانه لما ذكر من حالهم مقابلتهم الرحمة بالكفران وأنهم لم ينفعوا بالمنزل والمنزل عليه عقب بقوله تعالى شأنه ﴿فارتقب يوم﴾ الخ، للدلالة على أنهم أهل العذاب والخذلان لا أهل الإكرام والغفران ﴿يَغْشَى النَّاسَ﴾ أي يحيط أنهم والمراد بهم كفار قريش ومن جعل الدخان ما هو من أشراط الساعة حمل الناس على من أدركه ذلك الوقت، ومن جعل ذلك يوم القيامة حمل الناس على العموم، والجملة صفة أخرى للدخان.

وقوله تعالى: ﴿هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ رَّبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾ في موضع نصب بقول مقدر وقع حالاً أي قائلين أو يقولون هذا الخ. والإشارة للتفخيم، وقيل: يجوز أن يكون هذا عذاب أليم إخباراً منه عز وجل تهويلاً للأمر كما قال سبحانه وتعالى في قصة الذبيح ﴿إن هذا لهو البلاء المبين﴾ [الصافات: ١٠٦] فهو استئناف أو اعتراض والإشارة بهذا للدلالة على قرب وقوعه وتحققه، وما تقدم أولى، وقوله سبحانه: ﴿ربنا﴾ إلى آخره كما صرح به غير واحد من المفسرين وعد منهم بالإيمان إن كشف جلّ وعلا عنهم العذاب، فكأنهم قالوا: ربنا إن كشفت عنا العذاب آمنا لكن عدلوا عنه إلى ما في المنزل إظهاراً لمزيد الرغبة وحملوه على ذلك لما في بعض الروايات أنه لما اشتد القحط بقريش مشى أبو سفيان إلى رسول الله ﷺ وناشده الرحم وواعده إن دعا لهم وزال ما بهم آمنوا والمراد بقوله سبحانه وتعالى:

﴿أَنَّىٰ لَهُمُ الذِّكْرَىٰ﴾ نفي صدقهم في الوعد وأن غرضهم إنما هو كشف العذاب والخلاص أي كيف يتذكرون أو من أين يتذكرون بذلك ويفون بما وعدوه من الإيمان عند كشف العذاب عنهم.

﴿وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ﴾ أي والحال أنهم شاهدوا من دواعي التذكر وموجبات الاتعاظ ما هو أعظم من ذلك في إيجابهما حيث جاءهم رسول عظيم الشأن ظاهر أمر رسالته بالآيات والمعجزات التي تخر لها صم الجبال أو مظهر لهم مناهج الحق بذلك ﴿ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ﴾ أي عن ذلك الرسول عليه الصلاة والسلام وهو هو والجملة عطف على قوله تعالى و ﴿قد جاءهم﴾ إلى آخره، وعطفها على قوله سبحانه: ﴿ربنا﴾ الخ لأنه على معنى قالوا: ﴿ربنا﴾ الخ ليس بذاك، وثم للاستبعاد والتراخي الرتبي وإلا فهم قد تولوا ريثما جاءهم وشاهدوا منه ما شاهدوا مما يوجب الإقبال إليه ﷺ ﴿وَقَالُوا﴾ مع ذلك في حقه عليه الصلاة والسلام.

﴿مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ﴾ أي قالوا تارة: يعلمه عداس غلام رومي لبعض ثقيف وأخرى مجنون أو يقول بعضهم كذا وآخرون كذا ولم يقل ومجنون بالعطف لأن المقصود تعديد قبائحهم وقرأ زر بن حبيش معلم بكسر اللام فمجنون صفة له وكأنهم أرادوا رسول مجنون وحاشاه ثم حاشاه ﷺ.

إِنَّا كَاشِفُواْ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًاۚ إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ ﴿١٥﴾ يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴿١٦﴾ ۞ وَلَقَدْ فَتَنَّا
قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾ أَنْ أَدُّوٓاْ إِلَيَّ عِبَادَ ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾ وَأَن لَّا تَعْلُواْ
عَلَى ٱللَّهِۖ إِنِّيٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٩﴾ وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾ وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُواْ لِي فَٱعْتَزِلُونِ ﴿٢١﴾ فَدَعَا
رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾ فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًاۖ إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ
﴿٢٤﴾ كَمْ تَرَكُواْ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُواْ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَۖ
وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُواْ مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ
ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿٣٠﴾ مِن فِرْعَوْنَۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ
﴿٣٢﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم مِّنَ ٱلْأٓيَٰتِ مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌاْ مُّبِينٌ ﴿٣٣﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا
نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴿٣٥﴾ فَأْتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٦﴾ أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۚ أَهْلَكْنَٰهُمْۖ إِنَّهُمْ
كَانُواْ مُجْرِمِينَ ﴿٣٧﴾

﴿إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلاً إِنَّكُمْ عَائِدُونَ﴾ جواب من جهته تعالى عن قولهم وإخبار بالعود على تقدير الكشف أي إن كشفنا عنكم العذاب كشفاً قليلاً أو زماناً قليلاً عدتم، والمراد على ما قيل عائدون إلى الكفر؛ وأنت تعلم أن عودهم إليه يقتضي إيمانهم وقد مر أنهم لم يؤمنوا وإنما وعدوا الإيمان فإما أن يكون وعدهم منزلاً منزلة إيمانهم أو المراد عائدون إلى الثبات على الكفر أو على الإقرار والتصريح به وقال قتادة: هذا توعد بمعاد الآخرة وهو خلاف الظاهر جداً ومن قال: إن الدخان يوم القيامة قال إن قوله سبحانه: ﴿إنا كاشفو﴾ إلى آخره وعد بالكشف على نحو قوله عز وجل: ﴿ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه﴾ [الأنعام: ٢٨] ومن قال المراد به ما هو من أشراط الساعة قال بإمكان الكشف وعدم انقطاع التكليف عند ظهوره وإن كان من الأشراط بل جاء في بعض الآثار أنه يمكث أربعين يوماً وليلة فيكشف عنهم

فيعودون إلى ما كانوا عليه من الضلال، وحمله على ما روي عن ابن مسعود ظاهر الاستقامة لا قيل فيه ولا قال، وقوله سبحانه: ﴿وقد جاءهم﴾ الخ قوي الملاءمة له وهو بعيد الملاءمة للقول المروي عن الأمير كرم الله تعالى وجهه ومن معه فقد احتيج في تحصيلها إلى جعل الإسناد من باب إسناد حال البعض إلى الكل أو حمل الناس على الكفار الموجودين في ذلك الوقت والأمر على القول بأنه ما كان في فتح مكة أهون إلا أنه مع ذلك ليس كقول ابن مسعود فتأمل ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ﴾ هو يوم بدر عند ابن مسعود وأخرجه عبد بن حميد وابن جرير عن أبي بن كعب ومجاهد والحسن وأبي العالية وسعيد بن جبير ومحمد بن سيرين وقتادة وعطية، وأخرجه ابن مردويه عن ابن عباس.

وأخرج ابن جرير وعبد بن حميد بسند صحيح عن عكرمة. قال: قال ابن عباس قال ابن مسعود البطشة الكبرى يوم بدر، وأنا أقول: هي يوم القيامة ونقل في البحر حكاية أنه يوم القيامة عن الحسن وقتادة أيضاً.

والظرف معمول لما دل عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾ أي إنا ننتقم يوم إذ إنا منتقمون، وقيل لمنتقمون ورده الزجاج وغيره بأن ما بعد أن لا يجوز أن يعمل فيما قبلها، وقيل لعائدون على معنى إنكم لعائدون إلى العذاب يوم نبطش.

وقيل بكاشفو العذاب وليس بشيء وقيل لذكرهم أو اذكر مقدراً، وقيل هو بدل من ﴿يوم تأتي﴾ الخ.

وقرىء «نَبْطُشُ» بضم الطاء وقرأ الحسن وأبو رجاء وطلحة بخلاف عنه ﴿نبطش﴾ بضم النون من باب الأفعال على معنى نحمل الملائكة عليهم السلام على أن يبطشوا بهم أو نمكنهم من ذلك فالمفعول به محذوف للعلم وزيادة التهويل، وجعل البطشة على هذا مفعولاً مطلقاً على طريقة أنبتكم نباتاً، وقال ابن جني، وأبو حيان: هي منصوبة بفعل مضمر يدل عليه الظاهر أي يوم نبطش من نبطشه فيبطش البطشة الكبرى، وقال ابن جني: ولك أن تنصبها على أنها مفعول كأنه به قيل: يوم نقوي البطشة الكبرى عليهم ونمكنها منهم كقولك: يوم نسلط القتل عليهم ونوسع الأخذ منهم، وفي القاموس بطش به يبطش ويبطش أخذ بالعنف والسطوة كابطشه والبطش الأخذ الشديد في كل شيء والبأس ا هـ فلا تغفل ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ﴾ أي امتحناهم بإرسال موسى عليه السلام إليهم على أنه من فتن الفضة عرضها على النار فيكون بمعنى الامتحان وهو استعارة والمراد عاملناهم معاملة الممتحن ليظهر حالهم لغيرهم أو أوقعناهم في الفتنة على أنه بمعناه المعروف والمراد بالفتنة حينئذٍ ما يفتن به الشخص أي يغتر ويغفل عما فيه صلاحه كما في قوله تعالى: ﴿وإنما أموالكم وأولادكم فتنة﴾ [الأنفال: ٢٨] وفسرت هنا بالإمهال وتوسيع الرزق.

وفسر بعضهم الفتنة بالعذاب ثم تجوز به عن المعاصي التي هي سبب وهو تكلف ما لا داعي له.

وقرىء «فَتَّنَّا» بتشديد التاء إما لتأكيد معناه المصدري أو لتكثير المفعول أو الفعل.

﴿وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ﴾ أي مكرم معظم عند الله عز وجل أو عند المؤمنين أو عنده تعالى وعندهم أو كريم في نفسه متصف بالخصال الحميدة والصفات الجليلة حسباً ونسباً، وقال الراغب: الكرم إذا وصف به الإنسان فهو اسم للأخلاق والأفعال المحمودة التي تظهر منه ولا يقال هو كريم حتى يظهر ذلك منه، ونقل عن بعض العلماء أن الكرم كالحرية إلا أن الحرية قد تقال في المحاسن الصغيرة والكبيرة والكرم لا يقال إلا في المحاسن الكبيرة. وقال الخفاجي: أصل معنى الكريم جامع المحامد والمنافع وادعى لذلك أن تفسيره به أحسن من تفسيره بالتفسيرين السابقين ﴿أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ﴾ أطلقوهم وسلموهم إلي، والمراد بهم بنو إسرائيل الذين كان فرعون مستعبدهم، والتعبير عنهم بعباد الله تعالى للإشارة إلى أن استعباده إياهم ظلم منه، والأداء مجاز عما ذكر، وهذا كقوله عليه السلام فأرسل معنى بنا إسرائيل ولا تعذبهم وروي ذلك عن ابن زيد ومجاهد وقتادة أو أدوا إلى حق الله تعالى من الإيمان وقبول

الدعوى يا عباد الله على أن مفعول ﴿أدوا﴾ محذوف وعباد منادى وهو عام لبني إسرائيل والقبط، والأداء بمعنى الفعل للطاعة وقبول الدعوى وروي هذا عن ابن عباس، وأن عليهما قيل مصدرية قبلها حرف جر مقدر متعلق بجاءهم أي بأن أدوا، وتعقب بأنه لا معنى لقولك: جاءهم بالتأدية إلى، وحمله على طلب التأدية إلى لا يخلو عن تعسف ورد بأنه بتقدير القول وهو شائع مطرد فتقديره بأن قال أدوا إلي ولا يخلو عن تكلف ما ومع هذا الأمر مبني على جواز وصل المصدرية بالأمر والنهي وهو غير متفق عليه، نعم الأصح الجواز.

وقيل: هي مخففة من الثقيلة، وتعقب بأنها حينئذٍ يقدر معها ضمير الشأن ومفسره لا يكون إلا جملة خبرية وأيضاً لا بد أن يقع بعدها النفي أو قد أو السين أو سوف أو لو وأن يتقدمها فعل قلبي ونحوه وأجيب بأن مجيء الرسول يتضمن معنى فعل التحقيق كالإعلام والفصل المذكور غير متفق عليه، فقد ذهب المبرد تبعاً للبغاددة إلى عدم اشتراطه، والقول بأنه شاذ يصان القرآن عن مثله غير مسلم واشتراط كون مفسر ضمير الشأن جملة خبرية فيه خلاف على ما يفهم من كلام بعضهم، ولم يذكر في المغني في الباب الرابع في الكلام على ضمير الشأن إلا اشتراط كون مفسره جملة ولم يشترط فيها الخبرية ولم يتعرض لخلاف، نعم قال في الباب الخامس: النوع الثامن اشتراطهم في بعض الجملة الخبرية وفي بعضها الإنشائية وعد من الأول خبران وضمير الشأن لكنه قال بعد: وينبغي أن يستثنى من ذلك في خبري أن وضمير الشأن خبر أن المفتوحة إذا خففت فإنه يجوز أن يكون جملة دعائية كقوله تعالى ﴿والخامسة أن غضب الله عليها﴾ [النور: ٩] في قراءة من قرأ أن وغضب بالفعل والاسم الجليل فاعل.

وحقق بعض الأجلة أن الإخبار عن ضمير الشأن بجملة إنشائية جائز عند الزمخشري أو هي مفسرة وقد تقدم ما يدل على القول دون حروفه لأن مجيء الرسول يكون برسالة ودعوة وكأن التفسير لمتعلقه المقدر أي جاءهم بالدعوة وهي أن أدوا إلى عباد الله ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ وَأَن لاَّ تَعْلُواْ عَلَى اللهِ﴾ ولا تستكبروا عليه سبحانه بالاستهانة بوحيه جلّ شأنه ورسوله عليه السلام ﴿وأن﴾ كالتي قبلها، والمعنى على المصدرية بكفكم عن العلو على الله تعالى ﴿أَنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ تعليل للنهي أي آتيكم بحجة واضحة لا سبيل إلى إنكارها أو موضحة صدق دعواي ﴿وآتيكم﴾ على صيغة الفاعل أو المضارع، ولا يخفى حسن ذكر الأمين مع الأداء والسلطان مع العلاء، وذكر أن في الأول ترشيحاً للاستعارة المصرحة أو المكنية بجعلهم كأنهم مال للغير في يده أمره بدفعه لمن يؤتمن عليه وفي الثاني تورية عن معنى الملك مرشحة بقوله ﴿لا تعلوا﴾ وقرأت فرقة «أنّي» بفتح الهمزة فقيل هو أيضاً على تعليل النهي بتقدير اللام، وقيل: هو متعلق بما دخله النهي نظير قولك لمن غضب من قول الحق له لا تغضب لأن قيل لك الحق ﴿وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ﴾ أي التجأت إليه تعالى وتوكلت عليه جل شأنه ﴿أَن تَرْجُمُونِ﴾ من أن ترجموني أي تؤذوني ضرباً أو شتماً أو أن تقتلوني، وروي هذا عن قتادة وجماعة قيل: لما قال: أن لا تعلوا على الله توعدوه بالقتل فقال ذلك، وفي البحر أن هذا كان قبل أن يخبره عز وجل بعجزهم عن رجمه بقوله سبحانه: فلا يصلون إليكما والجملة عطف على الجملة المستأنفة، وقرأ أبو عمرو والأخوان عت بإدغام الذال في التاء ﴿وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ﴾ فكونوا بمعزل مني لا علي ولا لي ولا تتعرضوا لي بسوء فليس ذلك جزاء من يدعوكم إلى ما فيه فلاحكم، وقيل: المعنى وإن لم تؤمنوا لي فلا موالاة بيني وبين من لا يؤمن فتنحوا واقطعوا أسباب الوصلة عني، ففي الكلام حذف الجواب وإقامة المسبب عنه مقامه والأول أوفق بالمقام، والاعتزال عليه عبارة عن الترك وإن لم تكن مفارقة بالأبدان ﴿فَدَعَا رَبَّهُ﴾ بعد أن أصروا على تكذيبه عليه السلام ﴿أَنَّ هَٰؤُلَاءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ﴾ أي بأن هؤلاء الخ فهو بتقدير الباء صلة الدعاء كما يقال دعا بهذا الدعاء، وفيه اختصار كأنه قيل: إن هؤلاء قوم مجرمون تناهى أمرهم في الكفر وأنت

أعلم بهم فافعل بهم ما يستحقونه قيل كان دعاؤه عليه السلام اللهم عجل لهم ما يستحقون بإجرامهم، وقيل: قوله ﴿ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين﴾ إلى قوله ﴿فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم﴾ [يونس: ٨٥ ـ ٨٨] وإنما ذكر الله سبحانه السبب الذي استوجبوا به الهلاك ليعلم منه دعاؤه والإجابة معاً وإن دعاءه كان على يأس من إيمانهم وهذا من بليغ اختصارات الكتاب المعجز.

وقرأ ابن أبي إسحاق وعيسى والحسن في رواية وزيد بن علي بكسر همزة إن وخرج على إضمار القول أي قائلاً إن هؤلاء الخ ﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِي﴾ وهم بنو إسرائيل ومن آمن به من القبط ﴿لَيْلاً﴾ بقطع من الليل، والكلام بإضمار القول أما بعد الفاء أي فقال أسر الخ فالفاء للتعقيب والترتيب والقول معطوف على ما قبله أو قبلها كأنه قيل قال: أو فقال إن كان الأمر كما تقول: فاسر الخ، فالفاء واقعة في جواب شرط مقدر وهو وجوابه مقول القول المقدر مع الفاء أو بدونها على أنه استئناف والإضمار الأول أولى لقلة التقدير مع أن تقدير أن لا يناسب إذ لا شك فيه تحقيقاً ولا تنزيلاً وجعلها بمعنى إذا تكلف على تكلف وأبو حيان لا يجيز حذف الشرط وإبقاء جوابه في مثل هذا الموضع وقد شنع على الزمخشري في تجويزه، وقرأ نافع وابن كثير «فآسر» بوصل الهمزة من سرى.

﴿إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ﴾ يتبعكم فرعون وجنوده إذا علموا بخروجكم فالجملة مستأنفة لتعليل الأمر بالسرى ليلاً ليتأخر العلم به فلا يدركون والتأكيد لتقدم ما يلوح بالخبر ﴿وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْواً﴾ أي ساكناً كما قال ابن عباس يقال رها البحر يرهو رهواً سكن ويقال: جاءت الخيل رهواً أي ساكنة، قال الشاعر:

والخيل تمزع رهواً في أعنتها ... كالطير ينجو من الشؤبوب ذي البرد

ويقال افعل ذلك رهواً أي ساكناً على هينة وأنشد غير واحد للقطامي في نعت الركاب:

يمشين رهواً فلا الأعجاز خاذلة ... ولا الصدور على الأعجاز تتكل

والظاهر أنه مصدر في الأصل يؤول باسم الفاعل، وجوز أن يكون بمعنى الساكن حقيقة وعن مجاهد رهواً أي منفرجاً مفتوحاً قال أبو عبيدة رها الرجل يرهو رهواً فتح بين رجليه، وعن بعض العرب أنه رأى جملاً فالجاً أي ذا سنامين فقال: سبحان الله تعالى رهو بين سنامين قالوا: أراد فرجة واسعة، والظاهر أيضاً أنه مصدر مؤول أو فيه مضاف مقدر أي ذا فرجة قال قتادة: أراد موسى عليه السلام بعد أن جاوز البحر هو ومن معه أن يضربه بعصاه حتى يلتئم كما ضربه أولاً فانفلق لئلا يتبعه فرعون وجنوده فأمر بأن يتركه رهواً أي مفتوحاً منفرجاً أو ساكناً على هيئته قاراً على حاله من انتصاب الماء وكون الطريق يبساً ولا يضربه بعصاه ولا يغير منه شيئاً ليدخله القبط فإذا حصلوا فيه أطبقه الله تعالى عليهم، وذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُغْرَقُونَ﴾ فهو تعليل للأمر بتركه رهواً، وقيل: رهواً سهلاً، وقيل: يابساً، وقيل: جدداً، وقيل: غير ذلك والكل بيان لحاصل المعنى، وزعم الراغب أن الصحيح أن الرهو السعة من الطريق ثم قال: ومنه الرهاء المفازة المستوية ويقال لكل جوبة مستوية يجتمع فيها الماء رهو ومنه قيل: لا شفعة في رهو. والحق أن ما ذكره من جملة إطلاقاته وأما أنه الصحيح فلا وقرىء «أنهم» بالفتح أي لأنهم ﴿كَمْ تَرَكُوا﴾ أي كثيراً تركوا بمصر ﴿مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ حسن شريف في بابه، وأريد بذلك كما روي عن قتادة المواضع الحسان من المجالس والمساكن وغيرها.

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس وابن مردويه عن جابر أنه أريد به المنابر، وروي ذلك عن مجاهد وابن جبير أيضاً، وقيل: السرر في الحجال والأول أولى، وقرأ ابن هرمز. وقتادة. وابن السميفع. ونافع في رواية خارجة «مُقَام»

بضم الميم ﴿وَنَعْمَةٍ﴾ أي تنعم، قال الراغب: النعمة بالفتح التنعم وبناؤها بناء المرة من الفعل كالضربة والشتمة والنعمة بالكسر الحالة الحسنة وبناؤها بناء التي يكون عليها الإنسان كالجلسة والركبة وتقال للجنس الصادق بالقليل والكثير واختير ههنا تفسير النعمة بالشيء المنعم به لأنه أنسب للترك وهي كثيراً ما تكون بهذا المعنى.

وقرأ أبو رجاء «ونعمة» بالنصب وخرج بالعطف على ﴿كم﴾، وقيل: هي معطوفة على محل ما قبلها كأنه قيل: كم تركوا جنات وعيوناً وزروعاً ومقاماً كريماً ونعماً ﴿كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ﴾ طيبي الأنفس وأصحاب فاكهة ففاكه كلابن وتامر، وقال القشيري: لاهين، وقرأ الحسن. وأبو رجاء «فكهين» بغير ألف والفكه يستعمل كثيراً في المستخف المستهزىء فالمعنى مستخفين بشكر النعمة التي كانوا فيها.

وقال الجوهري: فكه الرجل بالكسر فهو فكه إذا كان مزاحاً والفكه أيضاً الأشر ﴿كَذَلِكَ﴾ قال الزجاج: المعنى الأمر كذلك، والمراد التأكيد والتقرير فيوقف على ذلك فالكاف في موضع رفع خبر مبتدأ محذوف أو الجار والمجرور كذلك، وقيل: الكاف في موضع نصب أي نفعل فعلاً كذلك لمن نريد إهلاكه، وقول الكلبي: أي كذلك أفعل بمن عصاني ظاهر فيما ذكر، وقال الزمخشري: الكاف منصوبة على معنى مثل ذلك الإخراج أي المفهوم مما تقدم أخرجناهم منها ﴿وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْماً آخَرِينَ﴾ عطف على تركوا والجملة معترضة فيما عدا القول الأخير وعلى أخرجناهم فيه، وقيل: الكاف منصوبة على معنى تركوا تركاً مثل ذلك فالعطف على ﴿تركوا﴾ بدون اعتراض وهو كما ترى، والمراد بالقوم الآخرين بنو إسرائيل وهم مغايرون للقبط جنساً وديناً. ويفسر ذلك قوله تعالى في سورة [الشعراء: ٥٩] ﴿كذلك وأورثناها بني إسرائيل﴾ وهو ظاهر في أن بني إسرائيل رجعوا إلى مصر بعد هلاك فرعون وملكوها وبه قال الحسن.

وقيل: المراد بهم غير بني إسرائيل رجعوا إلى مصر بعد هلاك فرعون وملكوها وبه قال الحسن.

وقيل: المراد بهم غير بني إسرائيل ممن ملك مصر بعد هلاك القبط وإليه ذهب قتادة قال: لم يرد في مشهور التواريخ أن بني إسرائيل رجعوا إلى مصر ولا أنهم ملكوها قط وأول ما في سورة الشعراء بأنه من باب ﴿وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره﴾ [فاطر: ١١] وقولك: عندي درهم ونصفه فليس المراد خصوص ما تركوه بل نوعه وما يشبهه، والإيراث: الإعطاء وقيل: المراد من إيراثها إياهم تمكينهم من التصرف فيها ولا يتوقف ذلك على رجوعهم إلى مصر كما كانوا فيها أولاً، وأخذ جمع بقول الحسن وقالوا لا اعتبار بالتواريخ وكذا الكتب التي بيد اليهود اليوم لما أن الكذب فيها كثير وحسبنا كتاب الله تعالى وهو سبحانه أصدق القائلين وكتابه جلّ وعلا مأمون من تحريف المحرفين ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ﴾ مجاز عن عدم الاكتراث بهلاكهم والاعتداد بوجودهم، وهو استعارة تمثيلية تخييلية شبه حال موتهم لشدته وعظمته بحال من تبكي عليه السماء والأجرام العظام وأثبت له ذلك والنفي تابع للإثبات في التجوز كما حقق في موضعه، وقيل: هي استعارة مكنية تخييلية بأن شبه السماء والأرض بالإنسان وأسند إليهما البكاء أو تمثيلية بأن شبه حالهما في عدم تغير حالهما وبقائهما على ما كانا عليه بحال من لم يبك، وليس بشيء كما لا يخفى على من راجع كلامهم، وقد كثر في التعظيم لمهلك الشخص بكت عليه السماء والأرض وبكته الريح ونحو ذلك، قال يزيد بن مفرغ:

الريح يبكي شجوه ... والبرق يلمع في غمامه

وقال النابغة:

بكى حارث الجولان من فقد ربه وحوران منه خاشع متضائل

أراد بهما مكانين معروفين، وقال جرير:

لما أتى خبر الزبير تواضعت سور المدينة والجبال الخشع

وقال الفرزدق يرثي أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز:

الشمس طالعة ليست بكاسفة تبكي عليك نجوم الليل والقمرا

يتعجب من طلوع الشمس وكان من حقها أن لا تطلع أو تطلع كاسفة، والنجوم تروى منصوبة ومرفوعة فالنصب على المغالبة أي تغلب الشمس النجوم في البكاء نحو باكيته فبكيته، قال جار الله: كان رضي الله تعالى عنه يتهجد بالليل فتبكيه النجوم ويعدل بالنهار فتبكيه الشمس والشمس غالبة في البكاء لأن العدل أفضل من صلاة الليل، والجوهري جعلها منصوبة بكاسفة أي لا تكسف ضوء النجوم لكثرة بكائها وكأنه جعل خفاء النجوم تحت ضوء الشمس كسفاً لها مجازاً، وفيه أن الكسف بالمعنى المذكور غير واضح وتخلل تبكي غير مستفصح وفي حواشي الصحاح الشمس كاسفة ليست بطالعة. وفيها أن نجوم الليل ظرف أي طول الدهر كأنه من باب آتيك الشمس والقمر أي وقتهما كأنه قيل: تبكي ما يطلع النجوم والقمر، وفيه أن مثل هذا الظرف مسموع لا يثبت إلا بثبت فكيف يعدل إليه مع المعنى الواضح، وقيل: التقدير تبكي بكاء النجوم فحذف المضاف، وفيه أنه مما لا يكاد يفهم، والرفع واضح والقمر منصوب على أنه مفعول معه وهذا استطراد دعانا إليه شهرة البيت مع كثرة الخبط فيه.

وأخرج الترمذي وجماعة عن أنس قال قال رسول الله ﷺ «ما من عبد إلا وله في السماء بابان باب يصعد منه عمله وباب ينزل منه رزقه فالمؤمن إذا مات فقداه وبكيا عليه وتلا هذه الآية ﴿**فما بكت عليهم السماء والأرض**﴾» وذكر أنهم لم يكونوا يعملون على وجه الأرض عملاً صالحاً فتفقدهم فتبكي عليهم، ولم يصعد لهم إلى السماء من كلامهم ولا من عملهم كلام طيب ولا عمل صالح فتفقدهم فتبكي عليهم.

وأخرج البيهقي في شعب الإيمان والحاكم وصححه وغيرهما عن ابن عباس قال: «إن الأرض لتبكي على المؤمن أربعين صباحاً ثم قرأ الآية» وأخرج ابن المنذر وغيره عن علي كرم الله تعالى وجهه أنه قال: إن المؤمن إذا مات بكى عليه مصلاه من الأرض ومصعد عمله من السماء ثم تلا ﴿**فما بكت**﴾ الخ وجعلوا كل ذلك من باب التمثيل.

ومن أثبت كالصوفية للأجرام السماوية والأرضية وسائر الجمادات شعوراً لائقاً بحالها لم يحتج إلى اعتبار التمثيل وأثبت بكاء حقيقياً لها حسبما تقتضيه ذاتها ويليق بها أو أوله بالحزن أو نحوه وأثبته لها حسب ذلك أيضاً.

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن عطاء بكاء السماء حمرة أطرافها. وأخرج ابن أبي الدنيا عن الحسن نحوه، وأخرج عن سفيان الثوري قال: كان يقال هذه الحمرة التي تكون في السماء بكاء السماء على المؤمن؛ ولعمري ينبغي لمن لم يضحك من ذلك أن يبكي على عقله، وأنا لا أعتقد أن من ذكر من الأجلة كانوا يعتقدونه، وقيل: إن الآية على تقدير مضاف أي فما بكت عليهم سكان السماء وهم الملائكة وسكان الأرض وهم المؤمنون بل كانوا بهلاكهم مسرورين.

وروي هذا عن الحسن والأحسن ما تقدم ﴿**وَمَا كَانُوا**﴾ لما جاء وقت هلاكهم ﴿**مُنظَرِينَ**﴾ ممهلين إلى وقت آخر أو إلى يوم القيامة بل عجل لهم في الدنيا ﴿**وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ**﴾ بما فعلنا بفرعون وقومه ما فعلنا ﴿**مِنَ**

﴿الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾ من استعباد فرعون وقتله أبناءهم واستحيائه نساءهم على الخسف والضيم **﴿مِنْ فِرْعَوْنَ﴾** بدل من العذاب على حذف المضاف والتقدير من عذاب فرعون أو جعله عليه اللعنة عين العذاب مبالغة، وجوز أن يتعلق بمحذوف يقع حالاً أي كائناً من جهة فرعون، وقيل: متعلق بمحذوف واقع صفة أي كائناً أو الكائن من فرعون ولا بأس بهذا إذا لم يعد ذلك من حذف الموصول مع بعض صلته.

وقرأ عبد الله «من عذاب المهين» على إضافة الموصوف إلى صفته كبقلة الحمقاء. وقرأ ابن عباس من «فرعون» على الاستفهام لتهويل العذاب أي هل تعرفون من فرعون في عتوه وشيطنته فما ظنكم بعذابه، وقيل: لتحقير فرعون بجعله غير معلوم يستفهم عنه كالنكرة لما فيه في القبائح التي لم يعهد مثلها وما بعد يناسب ما قبل كما لا يخفى.

وأياً ما كان فالظاهر أن الجملة استئناف، وقيل: إنها مقول قول مقدر هو صفة للعذاب، وقدر المقول عنده إن كان تعريف العذاب للعهد ومقول إن كان للجنس فلا تغفل **﴿إِنَّهُ كَانَ عَالِياً﴾** متكبراً **﴿مِّنَ الْمُسْرِفِينَ﴾** في الشر والفساد، والجار والمجرور إما خبر ثاني لكان أي كان متكبراً مغرقاً في الإسراف، وإما حال من الضمير المستتر في عالياً أي كان متكبراً في حال إغراقه في الإسراف **﴿وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ﴾** أي اصطفينا بني إسرائيل وشرفناهم **﴿عَلَى عِلْمٍ﴾** أي عالمين باستحقاقهم ذلك أو مع علم منا بما يفرط منهم في بعض الأحوال، وقيل: عالمين بما يصدر منهم من العدل والإحسان والعلم والإيمان، ويرجع هذا إلى ما قيل أولاً فإن العدل وما معه من أسباب الاستحقاق، وقيل: لأجل علم فيهم، وتعقب بأنه ركيك لأن تنكير العلم لا يصادق محزه.

وأجيب بأنه للتعظيم ويحسن اعتباره علة للاختيار **﴿عَلَى الْعَالَمِينَ﴾** أي عالمي زمانهم كما قال مجاهد وقتادة فالتعريف للعهد أو الاستغراق العرفي فلا يلزم تفضيلهم على أمة محمد ﷺ الذين هم خير أمة أخرجت للناس على الإطلاق، وجوز أن يكون للاستغراق الحقيقي والتفضيل باعتبار كثرة الأنبياء عليهم السلام فيهم لا من كل الوجوه حتى يلزم تفضيلهم على هذه الأمة المحمدية، وقيل: المراد اخترناهم للإيحاء على الوجه الذي وقع وخصصناهم به دون العالمين، وليس بشيء، ومما ذكرنا يعلم أنه ليس في الآية تعلق حرفي جر بمعنى بمتعلق واحد لأن الأول متعلق بمحذوف وقع حالاً والثاني متعلق بالفعل كقوله:

ويوماً على ظهر الكثيب تعذرت ... عليَّ وآلت حلفة لم تحلل

وقيل: لأن كل حرف بمعنى **﴿وَآتَيْنَاهُمْ مِنَ الآيَاتِ﴾** كفلق البحر وتظليل الغمام وإنزال المن والسلوى وغيرها من عظائم الآيات التي لم يعهد مثلها في غيرهم، وبعضها وإن أوتيها موسى عليه السلام يصدق عليهم أنهم أوتوه لأن ما للنبي لأمته **﴿مَا فِيهِ بَلاَءٌ مُّبِينٌ﴾** أي نعمة ظاهرة أو اختبار ظاهر لننظر كيف يعملون، وفي **﴿فِيهِ﴾** إشارة إلى أن هناك أموراً أخرى ككونه معجزة **﴿إِنَّ هَؤُلاَءِ﴾** كفار قريش لأن الكلام فيهم، وذكر قصة فرعون وقومه استطرادي للدلالة على أنهم مثلهم في الإصرار على الضلالة والإنذار عن مثل ما حل بهم، وفي اسم الإشارة تحقير لهم **﴿لَيَقُولُونَ إِنْ هِيَ إِلاَّ مَوْتَتُنَا الأُولَى﴾** أي ما العاقبة ونهاية الأمر إلا الموتة الأولى المزيلة للحياة الدنيوية **﴿وَمَا نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ﴾** أي بمبعوثين بعدها، وتوصيفها بالأولى ليس لقصد مقابلة الثانية كما في قولك: حج زيد الحجة الأولى، ومات.

قال الاسنوي في التمهيد: الأول في اللغة ابتداء الشيء ثم قد يكون له ثان وقد لا يكون، كما تقول: هذا أول ما اكتسبته فقد تكتسب بعده شيئاً وقد لا تكتسب كذا ذكره جماعة منهم الواحدي في تفسيره والزجاج.

ومن فروع المسألة ما لو قال: إن كان أول ولد تلدينه ذكراً فأنت طالق تطلق إذا ولدته، وإن لم تلد غيره

بالاتفاق، قال أبو علي: اتفقوا على أنه ليس من شرط كونه أولاً أن يكون بعده آخر، وإنما الشرط أن لا يتقدم عليه غيره اهـ، ومنه يعلم ما في قول بعضهم: إن الأول يضايف الآخر والثاني ويقتضي وجوده بلا شبهة، والمثال إن صح فإنما هو فيمن نوى تعدد الحج فاخترمته المنية فلحجه ثان باعتبار العزم من قصور الاطلاع وأنه لا حاجة إلى أن يقال: إنها أولى بالنسبة إلى ما بعدها من حياة الآخرة بل هو في حد ذاته غير مقبول لما قال ابن المنير من أن الأولى إنما يقابلها أخرى تشاركها في أخص معانيها، فكما لا يصح أو لا يحسن أن يقول: جاءني رجل وامرأة أخرى لا يقال الموتة الأولى بالنسبة لحياة الآخرة، وقيل: إنه قيل لهم إنكم تموتون موتة تتعقبها حياة كما تقدمتكم موتة قد تعقبتها حياة، وذلك قوله عز وجل ﴿وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم﴾ [البقرة: ٢٨] فقالوا ﴿**إن هي إلا موتتنا الأولى**﴾ يريدون ما الموتة التي من شأنها أن تتعقبها حياة، إلا الموتة الأولى دون الثانية وما هذه الصفة التي تصفون بها الموتة من تعقب الحياة لها إلا للموتة الأولى خاصة، وهذا ما ارتضاه جار الله وأراد أن النفي والإثبات لما كان لرد المنكر المصر إلى الصواب كان منزلاً على إنكارهم، لا سيما والتعريف في الأولى تعريف عهد، وقوله تعالى: ﴿الموتة الأولى﴾ [الدخان: ٥٦] تفسير للمبهم وهي على نحو هي العرب تقول كذا فيتطابقان والمعهود الموتة التي تعقبتها الحياة الدنيوية، ولذلك استشهد بقوله تعالى: ﴿وكنتم أمواتاً﴾ الخ فليس اعتبار الوصف عدولاً عن الظاهر من غير حاجة كما قال ابن المنير. وقوله في الاعتراض أيضاً: إن الموت السابق على الحياة الدنيوية لا يعبر عنه بالموتة لأن ﴿**فيها**﴾ لمكان بناء المرة إشعاراً بالتجدد والموت السابق مستصحب لم تتقدمه حياة مدفوع كما قال صاحب الكشف، ثم إنه لا يلزم من تفسير الموتة الأولى بما بعد الحياة في قوله تعالى: ﴿لا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى﴾ تفسيرها بذلك هنا لأن إيقاع الذوق عليها هناك قرينة أنها التي بعد الحياة الدنيا لأن ما قبل الحياة غير مذوق، ومع هذا كله الإنصاف أن حمل الموتة الأولى هنا أيضاً على التي بعد الحياة الدنيا أظهر من حملها على ما قبل الحياة من العدم بل هي المتبادرة إلى الفهم عند الاطلاق المعروفة بينهم، وأمر الوصف بالأولى على ما سمعت أولاً.

وقيل: إنهم وعدوا بعد هذه الموتة موتة القبر وحياة البعث فقوله تعالى عنهم ﴿**إن هي إلا موتتنا الأولى**﴾ رد للموتة الثانية وفي قوله سبحانه ﴿**وما نحن بمنشرين**﴾ نفي لحياة القبر ضمناً إذ لو كانت بدون الموتة الثانية لثبت النشر ضرورة ﴿**فَأْتُوا بآبَائنَا**﴾ خطاب لمن وعدهم بالنشور من الرسول ﷺ والمؤمنين أي فأتوا لنا بمن مات من آبائنا ﴿**إِنْ كُنتُمْ صَادقينَ**﴾ في وعدكم ليدل ذلك على صدقكم ودلالة الإيقان إما لمجرد الإحياء بعد الموت وإما بأن يسألوا عنه، قيل: طلبوا من الرسول عليه الصلاة والسلام أن يدعو الله تعالى فيحيي لهم قصي بن كلاب ليشاوروه في صحة النبوة والبعث إذ كان كبيرهم ومستشارهم في النوازل ﴿**أَهُمْ خَيْرٌ**﴾ في القوة والمنعة ﴿**أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ**﴾ هو تبع الأكبر الحميري واسمه أسعد بهمزة، وفي بعض الكتب سعد بدونها وكنيته أبو كرب وكان رجلاً صالحاً. أخرج الحاكم وصححه عن عائشة قالت: كان تبع رجلاً صالحاً ألا ترى أن الله تعالى ذم قومه ولم يذمه، وأخرج ابن عساكر عن ابن عباس لا يشتبهن عليكم أمر تبع فإنه كان مسلماً، وأخرج أحمد والطبراني وابن أبي حاتم وابن مردويه عن سهل بن سعد الساعدي قال: «قال رسول الله ﷺ لا تسبوا تبعاً فإنه كان قد أسلم» وأخرج ابن عساكر وابن المنذر عن ابن عباس قال: سألت كعباً عن تبع فإني أسمع الله تعالى يذكر في القرآن قوم تبع ولا يذكر تبعاً فقال: إن تبعاً كان رجلاً من أهل اليمن ملكاً منصوراً فسار بالجيوش حتى انتهى إلى سمرقند فرجع فأخذ طريق الشام فأسر بها أحباراً فانطلق بهم نحو اليمن حتى إذا دنا من ملكه طار في الناس أنه هادم الكعبة فقال له الأحبار: ما هذا الذي تحدث به نفسك فإن هذا البيت لله تعالى وإنك لن تسلط عليه فقال: إن هذا لله تعالى وأنا أحق من حرمه فأسلم من مكانه وأحرم فدخلها محرماً فقضى نسكه ثم انصرف نحو اليمن راجعاً حتى قدم على قومه فدخل عليه أشرافهم فقالوا: يا تبع أنت

سيدنا وابن سيدنا خرجت من عندنا على دين وجئت على غيره فاختر منا أحد أمرين إما أن تخلينا وملكنا وتعبد ما شئت وإما أن تذر دينك الذي أحدثت وبينهم يومئذٍ نار تنزل من السماء فقال الأحبار عند ذلك: اجعل بينك وبينهم النار فتواعد القوم جميعاً على أن يجعلوها بينهم فجيء بالأحبار وكتبهم وجيء بالأصنام وعمارها وقدموا جميعاً إلى النار وقامت الرجال خلفهم بالسيوف فهدرت النار هدير الرعد ورمت شعاعاً لها فنكص أصحاب الأصنام وأقبلت النار وأحرقت الأصنام وعمارها وسلم الآخرون فأسلم قوم واستسلم قوم فلبثوا بعد ذلك عمر تبع حتى إذا نزل بتبع الموت استخلف أخاه وهلك فقتلوا أخاه وكفروا صفقة واحدة، وفي رواية عن ابن عباس أن تبعاً لما أقبل من الشرق بعد أن حبر الحيرة أي بناها ونظم أمرها . وهي بكسر الحاء المهملة وياء ساكنة مدينة بقرب الكوفة . وبنى سمرقند وهي مدينة بالعجم معروفة، وقيل: إنه هدمها وقصد المدينة وكان قد خلف بها حين سافر ابناً له فقتل غيلة فأجمع على خرابها واستئصال أهلها فجمع له الأنصار وخرجوا لقتاله وكانوا يقاتلوه بالنهار ويقرونه بالليل فأعجبه ذلك وقال: إن هؤلاء لكرام فبينما هو على ذلك إذ جاءه كعب، وأسد ابنا عم من قريظة حبران وأخبراه أنه يحال بينك وبين ما تريد فإنها مهاجر نبي من قريش اسمه محمد ﷺ ومولده بمكة فثناه قولهما عما يريد ثم دعواه إلى دينهما فاتبعهما وأكرمهما فانصرفوا عن المدينة ومعهم نفر من اليهود فقال له في الطريق نفر من هذيل: ندلك على بيت فيه كنز من لؤلؤ وزبرجد وذهب وفضة بمكة وأرادت هذيل هلاكه لأنهم عرفوا أنه ما أراده أحد بسوء إلا هلك فذكر ذلك للحبرين فقالا: ما نعلم لله عز وجلّ بيتاً في الأرض اتخذه لنفسه غير هذا فاتخذه مسجداً وانسك عنده واحلق رأسك وما أراد القوم إلا هلاكك فأكرمه وكساه وهو أول من كسى البيت وقطع أيدي أولئك النفر من هذيل وأرجلهم وسمل أعينهم وصلبهم. وفي رواية أنه قال للحبرين حين قالا له ما قالا: وأنتما ما يمنعكما من ذلك؟ فقالا: أما والله إنه لبيت أبينا إبراهيم عليه السلام وإنه لكما أخبرناك ولكن أهله حالوا بيننا وبينه بالأوثان التي نصبوها حوله وبالدماء التي يريقونها عنده وهم نجس أهل شرك فعرف صدقهما ونصحهما فطاف بالبيت ونحر وحلق رأسه وأقام بمكة ستة أيام فيما يذكرون ينحر للناس ويطعم أهلها ويسقيهم العسل، وقيل: إنه أراد تخريب البيت فرمي بداء عظيم فكف عنه وكساه.

وأخرج ابن عساكر عن ابن إسحاق أن تبعاً أري في منامه أن يكسو البيت فكساه الخصف ثم أري أن يكسوه أحسن من ذلك فكساه المعافر ثم أري أن يكسوه أحسن من ذلك فكساه الوصائل وصائل اليمن فكان فيما ذكر لي أول من كساه وأوصى بها ولاته من جرهم وأمر بتطهيره وجعل له باباً ومفتاحاً. وفي رواية أنه قال أيضاً: ولا تقربوه دماً ولا ميتاً ولا تقربه حائض، وفي نهاية ابن الأثير في الحديث أن تبعاً كسى البيت المسوح فانتفض البيت منه ومزقه عن نفسه ثم كساه الخصف فلم يقبله ثم كساه الانطاع، وفي موضع آخر منها أن أول من كسى الكعبة كسوة كاملة تبع كساها الانطاع ثم كساها الوصائل والخصف فعل بمعنى مفعول من الخصف وهو ضم الشيء إلى الشيء والمراد شيء منسوج من الخوص على ما هو الظاهر، وقيل: أريد به ههنا الثياب الغلاظ جداً تشبيهاً بالخصف المذكور، والمعافر برود من اليمن منسوبة إلى معافر قبيلة بها، والميم زائدة، والوصائل ثياب حمر مخططة يمانية، والمسوح جمع مسح بكسر الميم وسكون المهملة أثواب من شعر غليظة، والانطاع جمع نِطع بالكسر وبالفتح وبالتحريك بسط من أديم. وأخرج ابن سعد وابن عساكر عن أبي بن كعب قال: لما قدم تبع المدينة ونزل بفنائها بعث إلى أحبار يهود فقال: إني مخرب هذا البلد حتى لا تقوم به يهودية ويرجع الأمر إلى دين العرب فقال له: شامول اليهودي وهو يومئذٍ أعلمهم: أيها الملك إن هذا بلد يكون إليه مهاجر نبي من بني إسماعيل مولده بمكة اسمه أحمد وهذه دار هجرته إلى أن قال: قال وما صفته؟ قال: رجل ليس بالقصير ولا بالطويل في عينيه حمرة يركب البعير ويلبس الشملة سيفه على عاتقه لا يبالي من لاقى حتى يظهر أمره فقال تبع: ما إلى هذا البلد من سبيل وما كان ليكون

خرابها على يدي. وذكر أبو حاتم الرياشي أنه آمن بالنبي ﷺ قبل أن يبعث بسبعمائة سنة، وقيل: بينه وبين مولده عليه الصلاة والسلام ألف سنة، والقولان يدلان على أنه قبل مبعث عيسى عليه السلام. وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: لا تقولوا في تبع إلا خيراً فإنه قد حج البيت وآمن بما جاء به عيسى ابن مريم، وهو يدل على أنه بعد مبعث عيسى عليه السلام، والأول أشهر.

ومن حديث عباد بن زياد المري أنه لما أخبره اليهود أنه سيخرج نبي بمكة يكون قراره بهذا البلد. يعني المدينة اسمه أحمد وأخبروه أنه لا يدركه قال للأوس والخزرج:

حـدثـت أن رسـول الـمـلـيـك يـخـرج حـقـاً بـأرض الـحـرم
ولـو مـد دهـري إلـى دهـره لـكـنـت وزيـراً لـه وابـن عـم

وفي البحر بدل البيت الأول:

شـهـدت عـلـى أحـمـد أنـه رسـول مـن الله بـاري الـنـسـم

وفيه أيضاً رواية عن ابن إسحاق وغيره أنه كتب أيضاً كتاباً وكان فيه: أما بعد فإني آمنت بك وبكتابك الذي أنزل عليك وأنا على دينك وسنتك وآمنت بربك ورب كل شيء وآمنت بكل ما جاء من ربك من شرائع الإسلام فإن أدركتك فبها ونعمت وإن لم أدركك فاشفع لي ولا تنسني يوم القيامة فإني من أمتك الأولين وتابعيك قبل مجيئك وأنا على ملتك وملة أبيك إبراهيم عليه السلام، ثم ختم الكتاب ونقش عليه لله الأمر من قبل ومن بعد، وكتب عنوانه إلى محمد بن عبد الله نبي الله ورسوله خاتم النبيين ورسول رب العالمين ﷺ من تبع الأول ودفعه إلى عظيم من الأوس والخزرج وأمره أن يدفعه للنبي عليه الصلاة والسلام إن أدركه.

ويقال: إنه بنى له داراً في المدينة يسكنها إذا أدركه ﷺ وقدم إليها وأن تلك الدار دار أبي أيوب خالد بن زيد وأن الشعر والكتاب وصلا إليه وأنه من ولد ذلك الرجل الذي دفعا إليه أولاً، ولما ظهر النبي عليه الصلاة والسلام دفعوا الكتاب إليه فلما قرىء عليه قال: مرحباً بتبع الأخ الصالح ثلاث مرات.

وجاء أنه ﷺ صلى عليه صلاة الجنازة وكذا على البراء بن معرور بعد وفاته بشهر يوم قدومه عليه الصلاة والسلام المدينة كما قال النجم الغيطي وكانت صلاة الجنازة قد فرضت تلك السنة، وكون هذا هو تبع الأول ويقال له الأكبر هو المذكور في غير ما كتاب، وذكر عبد الملك بن عبد الله بن بدرون في شرحه لقصيدة ابن عبدون أن أسعد هذا هو تبع الأوسط وذكر أيضاً أن ملكه ثلثمائة وعشرين سنة وملك بعده عمرو أربعاً وستين سنة، وقال ابن قتيبة حسان وهو الذي قتل زرقاء اليمامة وأباد جديساً وكان ملكه خمساً وعشرين سنة؛ والتواريخ ناطقة بتقدم تبابعة عليه فإن تبعاً يقال لمن ملك اليمن مطلقاً كما يقال لملك الترك خاقان، والروم قيصر، والفرس كسرى أو لا يسمى به إلا إذا كانت له حمير وحضرموت كما في القاموس أو إلا إذا كانت له حمير وسبأ وحضرموت كما ذكره الطيبي، والمتصف بذلك غير واحد كما لا يخفى على من أحاط خبراً بالتواريخ. وما تقدم من حكاية أنه هدم سمرقند ذكر عبد الملك خلافه ونسب هدمها إلى شمر بن افريقيس بن أبرهة أحد التبابعة أيضاً كان قبل تبع المذكور بكثير قال: إن شمر خرج نحو العراق ثم توجه يريد الصين ودخل مدينة الصغد فهدمها وسميت شمر كند أي شمر خربها وعربت بعد فقيل سمرقند ا هـ.

وحكاية البناء يمكن نسبتها إلى شمر هذا فإن كند في لغة أهل أذربيجان ونواحيها على ما قيل بمعنى القرية فسمرقند بمعنى قرية شمر وهو أوفق بالبناء، وذكر علامة عصره الملا أمين أفندي العمري الموصلي تغمده الله تعالى برحمته في كتابه شرح ذات الشفاء أن تبعاً الذي ذكر سابقاً هو ابن حسان وأنه ملك الدنيا كلها وأنه يقال له الرائش لأنه راش الناس بالعطاء، ولعل ما قاله قول لبعضهم وإلا فقد قال ابن قتيبة: إنه ابن كليكرب.

وفي شرح قصيدة ابن عبدون أن الرائش لقب الحارث بن بدر أحد التبابعة، وهو قبل أسعد المتقدم ذكره بزمان طويل جداً، وهو أيضاً ممن ذكر نبينا ﷺ في شعره فقال:

ويملك بعدهم رجل عظيم ... نبي لا يرخص في الحرام
يسمى أحمداً يا ليت أني ... أعمر بعد مخرجه بعام

ثم إن ملكه الدنيا كلها غير مسلم، وبالجملة الأخبار مضطربة في أمر التبابعة وأحوالهم وترتيب ملوكهم بل قال صاحب تواريخ الأمم: ليس في التواريخ أسقم من تاريخ ملوك حمير لما يذكر من كثرة عدد سنينهم مع قلة عدد ملوكهم فإن ملوكهم ستة وعشرون ومدتهم ألفان وعشرون سنة.

وقال بعض: إن مدتهم ثلاثة آلاف واثنان وثمانون سنة ثم ملك من بعدهم اليمن الحبشة والله تعالى أعلم بحقيقة الحال، والقدر المعول عليه ههنا أن تبعاً المذكور هو أسعد أبو كرب وأنه كان مؤمناً بنبينا ﷺ وكان على دين إبراهيم عليه السلام ولم يكن نبياً، وحكاية نبوته عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما لا تصح، وأخباره بمبعثه ﷺ لا يقتضيها لأنه علم ذلك من أحبار اليهود وهم عرفوه من الكتب السماوية.

وما روي من أنه عليه الصلاة والسلام قال: ما أدري أكان تبع نبياً أو غير نبي لم يثبت، نعم روى أبو داود والحاكم أنه عليه الصلاة والسلام قال: «ما أدري أذو القرنين هو أم لا» وليس فيه ما يدل على التردد في نبوته وعدمها فإن ذا القرنين ليس بنبي على الصحيح، ثم إن الظاهر أنه عليه الصلاة والسلام درى بعد أنه ليس ذا القرنين.

وقال قوم: ليس المراد بتبع هاهنا رجلاً واحداً إنما المراد ملوك اليمن، وهو خلاف الظاهر والأخبار تكذبه، ومعنى تبع متبوع فهو فعل بمعنى مفعول وقد يجيء هذا اللفظ بمعنى فاعل كما قيل للظل تبع لأنه يتبع الشمس، ويقال لملوك اليمن إقيال من يقيل فلان أباه إذا اقتدى به لأنهم يقتدى بهم، وقيل: سمي ملكهم قيلاً لنفوذ أقواله وهو مخفف قيل كميت.

﴿وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أي قبل قوم تبع كعاد وثمود أو قبل قريش فهو تعميم بعد تخصيص **﴿أَهْلَكْنَاهُمْ﴾** استئناف لبيان عاقبة أمرهم هدد به كفار قريش أو حال بإضمار قد أو بدونه من الضمير المستتر في الصلة أو خبر عن الموصول إن جعل مبتدأ ولم يعطف على ما قبله **﴿إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾** تعليل لإهلاكهم أي أهلكناهم بسبب كونهم مجرمين فليحذر كفار قريش الإهلاك لإجرامهم.

وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ
﴿٣٩﴾ إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِى مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ إِلَّا
مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾ إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ

يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْيِ الْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ
عَذَابِ الْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّ
الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾ يَلْبَسُونَ مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَقَابِلِينَ ﴿٥٣﴾
كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ ﴿٥٥﴾ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا
الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾ فَضْلًا مِنْ رَبِّكَ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٥٧﴾
فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ فَارْتَقِبْ إِنَّهُمْ مُرْتَقِبُونَ ﴿٥٩﴾

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَات وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أي ما بين الجنسين وهو شامل لما بين الطبقات.

وقرأ عبيد بن عمير «وما بينهن» فالضمير لمجموع السموات والأرض **﴿لاَعِبِينَ﴾** أي عابثين وهو دليل على وقوع الحشر كما مر في الأنبياء وغيرها **﴿مَا خَلَقْنَاهُمَا﴾** أي وما بينهما **﴿إلاَّ بالْحَقِّ﴾** استثناء مفرغ من أعم الأحوال أي ما خلقناهما ملتبسين بشيء من الأشياء إلا ملتبسين بالحق فالجار والمجرور في موضع الحال من الفاعل، وجوز أن يكون في موضع الحال من المفعول، والباء للملابسة فيهما، وجوز أن تكون للسببية، والاستثناء مفرغ من أعم الأسباب أي ما خلقناهما بسبب من الأسباب إلا بسبب الحق الذي هو الإيمان والطاعة والبعث والجزاء والملابسة أظهر **﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾** تذييل وتجهيل فخيم لمنكري الحشر وتوكيد لأن إنكارهم يؤدي إلى إبطال الكائنات بأسرها ﴿وتحسبونه هيناً وهو عند الله عظيم﴾ [النور: ١٥] ولهذا قال المؤمنون: ﴿ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك فقنا عذاب النار﴾ [آل عمران: ١٩١] **﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ﴾** أي فصل الحق عن الباطل والمحق عن المبطل بالجزاء أو فصل الشخص عن أحبابه وذوي قرابته **﴿مِيقَاتُهُمْ﴾** وقت وعدهم **﴿أَجْمَعِينَ﴾** وقرىء «مِيقَاتَهُمْ» بالنصب على أنه اسم إن والخبر **﴿يوم الفصل﴾** أي إن ميعاد حسابهم وجزائهم في يوم الفصل وليس مثل إن حراسنا أسداً **﴿يَوْمَ لاَ يُغْنِي﴾** بدل **﴿من يوم الفصل﴾** أو عطف بيان عند من لا يشترط المطابقة تعريفاً وتنكيراً، وجوز نصبه أعني مقدراً وأن يكون ظرفاً لما دل عليه الفصل لا له للفصل بينه وبينه بأجنبي، وهو مصدر لا يعمل إذا فصل لضعفه أو له على قول من اغتفر الفصل إذا كان المعمول ظرفاً كابن الحاجب، والرضي، وجوز أبو البقاء كونه صفة لميقاتهم. وتعقب بأنه جامد نكرة لاضافته للجملة فكيف يكون صفة للمعرفة مع أنه لا يصح بناؤه عند البصريين إذا أضيف إلى جملة صدرها معرب وهو المضارع أي يوم لا يجزي **﴿مَوْلًى عَنْ مَوْلىً شَيْئاً﴾** من الأغنياء أي الإجزاء، فشيئاً منصوب على المصدرية يجوز كونه مفعولاً به، ويغني بمعنى يدفع وينفع. وتنكير **﴿شيئاً﴾** للتقليل، والمولى الصاحب الذي من شأنه أن يتولى معونة صاحبه على أموره فيدخل في ذلك ابن العم والحلف والعتيق والمعتق وغيره، وذكر الخفاجي أنه من الولاية وهي التصرف فيشمل كل من يتصرف في آخر لأمر ما كقرابة وصداقة وهو قريب مما ذكرنا. وأيّاً ما كان فليس ذلك من استعمال المشترك في أكثر من معنى واحد، ولو سلم أن هناك مشتركا استعمل في أكثر من معنى كانت الآية دليلاً لابن الهمام عليه الرحمة في جواز ذلك في النفي فيقال عنده: ما رأيت عيناً ويراد العين الباصرة وعين الذهب وغيرها ويعلم من نفي إغناء المولى نفي إغناء غيره من باب أولى.

﴿وَلاَ هُمْ يُنْصَرُونَ﴾ الضمير عند جمع المولى الأول؛ والجمع باعتبار المعنى لأنه نكرة في سياق النفي وهي تعم دون الثاني لأنه أفيد وأبلغ لأن حال المولى الثاني نصرته معلوم من نفي الإغناء السابق، ولأنه إذا لم ينصر من

استند إليه فكيف هو، وأيضاً وجه جمع الضمير فيه أظهر، وجوز عوده على الثاني للدلالة على أنه لا ينصره غير مولاه وهو في سياق النفي أيضاً وإن لم يكن في ذلك بمرتبة الأول. نعم قيل في وجه الجمع عليهما: إن النكرة في سياق النفي تدل على كل فرد فرد فلا يرجع الضمير لها جمعاً.

وأجيب بأنه لا يطرد لأنها قد تحمل على المجموع بقرينة عود ضمير الجمع عليها، ولعل الأولى عود الضمير على المولى المفهوم من النكرة المنفية، وقال بعض: لو جعل الضمير للكفار كضمير ﴿**ميقاتهم**﴾ كثرت الفائدة وقلت المؤنة فتأمل ﴿**إِلاَّ مَنْ رَحِمَ اللهُ**﴾ في محل رفع على أنه بدل من ضمير ﴿**ينصرون**﴾ أو في محل نصب على الاستثناء منه أي لا يمنع من العذاب إلا من رحمة الله تعالى وذلك بالعفو عنه وقبول الشفاعة فيه.

وجوز كونه بدلاً أو استثناء من ﴿**مولى**﴾ وفيه كما في الأول دليل على ثبوت الشفاعة لكن الرجحان للأول لفظاً ومعنى؛ والاستثناء من أي كان متصل، وقال الكسائي: إنه منقطع أي لكن من رحمه الله تعالى فإنه لا يحتاج إلى قريب ينفعه ولا إلى ناصر ينصره، ولا وجه له مع ظهور الاتصال، نعم إنه لا يتأتى على كون الاستثناء من الضمير وكونه راجعاً للكفار فلا تغفل.

﴿**إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ**﴾ الغالب الذي لا ينصر من أراد سبحانه تعذيبه ﴿**الرَّحِيمُ**﴾ لمن أراد أن يرحمه عزَّ وجلَّ.

﴿**إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ**﴾ مر معنى الزقوم في الصافات وقرىء «شجرة» بكسر الشين ﴿**طَعَامُ الأَثِيمِ**﴾ أي الكثير الآثام والمراد به الكافر لدلالة ما قبله وما بعده عليه دون ما يعمه والعاصي المكثر من المعاصي ثم إن المراد به جنس الكافر لا واحد بعينه، وقال ابن زيد وسعيد بن جبير: إنه هنا أبو جهل، وليس بشيء ولا دليل على ذلك بما أخرجه سعيد ابن منصور عن أبي مالك من أن أبا جهل كان يأتي بالتمر والزبد فيقول: تزقموا فهذا الزقوم الذي يعدكم به محمد ﷺ فنزلت ﴿**إن شجرة الزقوم طعام الأثيم**﴾ لما لا يخفى، ومثله ما قيل: إنه الوليد وأخرج أبو عبيد في فضائله وابن الأنباري وابن المنذر عن عوف بن عبد الله أن ابن مسعود أقرأ رجلاً ﴿**إن شجرة الزقوم طعام الأثيم**﴾ فقال الرجل طعام اليثيم[1] فرددها عليه فلم يستقم بها لسانه فقال أتستطيع أن تقول طعام الفاجر؟ قال: نعم قال: فافعل، وأخرج الحاكم وصححه وجماعة عن أبي الدرداء أنه وقع له مثل ذلك فلما رأى الرجل أنه لا يفهم قال: إن شجرة الزقوم طعام الفاجر.

واستدل بذلك على أن إبدال كلمة مكان كلمة جائز إذا كانت مؤدية معناها. وتعقبه القاضي أبو بكر في الانتصار بأنه أراد أن ينبهه على أنه لا يريد اليتيم[2] بل الفاجر فينبغي أن يقرأ ﴿**الأثيم**﴾ وأنت تعلم أن هذا التأويل لا يكاد يتأتى فيما روي عن ابن مسعود فإنه كالنص تجويز الإبدال لذلك الرجل وأبعد منه عن التأويل ما أخرج ابن مردويه عن أبي أنه كان يقرىء رجلاً فارسياً فكان إذا قرأ عليه ﴿**إن شجرة الزقوم طعام الأثيم**﴾ قال: طعام اليتيم فمر به النبي ﷺ فقال: «قل طعام الظلام» فقالها ففصح بها لسانه، وفي الباب أخبار كثيرة جياد الاسانيد كخبر أحمد من حديث أبي هريرة «أنزل القرآن على سبعة أحرف عليماً حكيماً غفوراً رحيماً».

وكخبره من حديث أبي بكرة كله أي القرآن شاف كاف ما لم تختم آية عذاب برحمة أو رحمة بعذاب نحو

---

(١) بخط المؤلف بالثاء المثلثة.

(٢) بالتاء المثناة ا هـ منه.

قولك تعالى وأقبل وأسرع وعجل إلى غير ذلك، لكن قال الطحاوي: إنما كان ذلك رخصة لما كان يتعسر على كثير منهم التلاوة بلفظ واحد لعدم علمهم بالكتابة والضبط وإتقان الحفاظ ثم نسخ بزوال العذر وتيسر الكتابة والحفظ، وكذا قال ابن عبد البر والباقلاني وآخرون، ولعله أن تحقق إبدال من أحد من الصحابة رضي الله تعالى عنهم بعده عليه الصلاة والسلام يقال: إنه كان منه قبل الاطلاع على النسخ ومتى لم يجز إبدال كلمة مكان كلمة مؤدية معناها مع الاتحاد عربية فعدم جواز ذلك مع الاختلاف عربية وفارسية مثلاً أظهر، وما روي عن الإمام أبي حنيفة رضي الله تعالى عنه من أنه يرى جواز قراءة القرآن بالفارسية بشرط أداء المعاني على كمالها فقد صح عنه خلافه، وقد حقق الشرنبلالي عليه الرحمة هذه المسألة في رسالة مفردة بما لا مزيد عليه، وقد تقدم في هذا الكتاب شيء من ذلك فتذكر، والطعام ما يتناول منه من الغذاء وأصله مصدر فلذا وقع خبراً عن المؤنث ولم يطابق، وجوز أن يكون ذلك من باب قوله:

إنارة العقل مكسوف بطوع هوى ... وعقل عاصي الهوى يزداد تنويرا

فكأنه قيل: إن الزقوم طعام الأثيم ﴿كَالْمُهْلِ﴾ عكر الزيت كما روي عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما وجاء في حديث رواه الحاكم وغيره عن أبي سعيد مرفوعاً وفيه «فإذا قرب إلى وجهه ـ يعني الجهنمي ـ سقطت فروة وجهه» وربما يؤيد بقوله تعالى: ﴿يوم تكون السماء كالمهل﴾ [المعارج: ٨] مع قوله سبحانه: ﴿فكانت وردة كالدهان﴾ [الرحمن: ٣٧] وقال بعض: عكر القطران، وفي رواية عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما الصدد، ومنه ما في حديث أبي بكر رضي الله تعالى عنه ادفنوني في ثوبي هذين فإنما هما للمهل والتراب. وفي رواية أخرى عنه رضي الله تعالى عنه أنه ما أذيب من ذهب أو فضة أو حديد أو رصاص، وروي ذلك عن ابن مسعود، قيل: وسمي ذلك مهلاً لأنه في النار حتى يذوب فهو من المهل بمعنى السكون، وادعى بعضهم الاشتراك وقد جاء استعماله في كل ما سمعت، وقرأ الحسن «كَالمَهْلِ» بفتح الميم وهو لغة فيه، والجار والمجرور أو الكاف في محل رفع خبر مبتدأ محذوف والجملة استئناف لبيان حال الطعام أي هو كالمهل أو مثل المهل، وقوله عزَّ وجلَّ ﴿يَغْلِي فِي الْبُطُونِ﴾ خبر ثان لذلك المبتدأ، وقيل: حال من الضمير المستتر في الجار والمجرور فيكون وصفاً للطعام أيضاً؛ وقال أبو عبيد: هو حال من المهل، وقيل: صفة له لأن أل فيه للجنس نحو: أمرّ على اللئيم يسبني ويعتبر داخلاً في التشبيه وأنت تعلم أن غليان الطعام في البطن فيه مبالغة أما التشبيه بمهل يغلي في البطن فلا، وقيل كالمهل أو الكاف خبر ثان لإن وجملة «يغلي في البطون» حال من الزقوم أو الطعام. وتعقب بأنه منع مجيء الحال من المضاف إليه في غير صور مخصوصة ليس هذا منها ومنع مجيئه من الخبر ومن المبتدأ. وأجيب بأن هذا بناء على جواز مجيء الحال من الخبر ومن المبتدأ والمضاف إليه المبتدأ في حكمه وأن ما ذكر من الصور التي يجيء الحال فيها من المضاف إليه لأن المضاف كالجزء في جوز إسقاطه، ولا يخفى أنه بناء على ضعيف، وقيل: كالمهل خبر ثان والجملة حال من ضمير الشجرة المستتر فيه، والتذكير باعتبار كونها طعام الأثيم أو لاكتسابها إياه مما أضيفت إليه نظير ما سمعت في البيت آنفاً وهو تكلف مستغنى عنه، وقيل: الجملة على ذلك خبر مبتدأ محذوف هو ضمير الطعام أو الزقوم فإن كانت الجملة حينئذ مستأنفة فالبحث هين وإن كانت حالية عاد ما مر آنفاً ولا أراك تظنه هيناً، وقيل: كالمهل حال من طعام وحاله معلوم، وبالجملة الوجوه في إعراب الآية كثيرة وأنا أختار منها ما ذكرته أولاً.

وقرأ عمرو بن ميمون وأبو رزين والأعرج وأبو جعفر وشيبة وابن محيصن وطلحة والحسن في رواية وأكثر السبعة «تغلي» بالتاء الفوقية فكالمهل خبر ثان لأن وجملة «تغلي» خبر ثالث واتحاد المبتدأ والخبر متكفل باتحاد القراءتين معنى فافهم ولا تغفل.

﴿كَغَلْيِ الْحَمِيمِ﴾ صفة مصدر محذوف أي غلياً كغلي الحميم، وجوز أن يكون حالاً، والحميم ما هو في غاية الحرارة ﴿خُذُوهُ﴾ على إرادة القول والمقول له الزبانية أي ويقال لهم خذوه ﴿فَاعْتِلوهُ﴾ فجروه بقهر.

قال الراغب: العتل الأخذ بجامع الشيء وجره بقهر، وبعضهم يعبر بالثوب بدل الشيء وليس ذاك بلازم والمدار على الجر مع الإمساك بعنف.

وقال الأعمش ومجاهد: معنى ﴿اعتلوه﴾ اقصفوه كما يقصف الحطب، والظاهر عليه التضمين أو تعلق الجار بخذوه، والمعنى الأول هو المشهور. وقرأ زيد بن علي والحجازيان وابن عامر ويعقوب «فَاعْتُلُوهُ» بضم التاء وروي ذلك عن الحسن وقتادة والأعرج على أنه من باب قعد، وعلى قراءة الجمهور من باب نصر وهما لغتان ﴿إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾ أي وسطه، وسمي سواء لاستواء بعد جميع أطرافه بالنسبة إليه.

﴿ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ﴾ كأن أصله صبوا فوق رأسه الحميم، ثم قيل: صبوا فوق رأسه الحميم، ثم قيل: صبوا فوق رأسه عذاباً هو الحميم للمبالغة بجعل العذاب عين الحميم، وهو مترتب عليه ولجعله مصبوباً كالمحسوس ثم أضيف العذاب إلى الحميم للتخفيف، وزيد ﴿مِن﴾ للدلالة على أن المصبوب بعض هذا النوع فهناك إما تمثيل أو استعارة تصريحية أو مكنية أو تخييلية ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ أي ويقال: أو قولوا له ذلك استهزاء وتقريعاً على ما كان يزعمه.

أخرج عبد الرزاق وغيره عن قتادة قال: لما نزلت ﴿خذوه فاعتلوه إلى سواء الجحيم﴾ قال أبو جهل: ما بين جبليها رجل أعز ولا أكرم مني، فقال الله تعالى: ﴿ذق﴾ الخ.

وأخرج الأموي في مغازيه عن عكرمة أن أبا جهل قال للنبي ﷺ: ما تستطيع لي أنت ولا صاحبك من شيء لقد علمت أنني أمنع أهل بطحاء وأنا العزيز الكريم فقتله الله تعالى يوم بدر وأذله وعيره بكلمته ﴿ذق إنك أنت العزيز الكريم﴾ وروي أن اللعين قال يوماً: يا معشر قريش أخبروني ما اسمي فذكرت له ثلاث أسماء عمر والجلاس وأبو الحكم فقال: ما أصبتم اسمي ألا أخبركم به؟ قالوا: بلى قال: اسمي العزيز الكريم فنزلت ﴿إن شجرة الزقوم﴾ الآيات، وهذا ونحوه لا يدل أيضاً على تخصيص حكم الآية به فكل أثيم يدعي دعواه كذلك يوم القيامة، وقيل: المعنى ذق إنك أنت العزيز في قومك الكريم عليهم فما أغنى ذلك عنك ولم يفدك شيئاً، والذوق مستعار للإدراك.

وقرأ الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنهما على المنبر والكسائي «أنك» بفتح الهمزة على معنى لأنك.

﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ أي العذاب أو الأمر الذي أنتم فيه ﴿مَا كُنتُم بِهِ تَمْتَرُونَ﴾ تشكون وتمارون فيه، وهذا ابتداء كلام منه عزَّ وجلَّ أو من مقول القول والجمع باعتبار المعنى لما سمعت أن المراد جنس الأثيم.

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ﴾ في موضع قيام، والمراد بالقيام الثبات والملازمة كما في قوله تعالى: ﴿ما دمت عليه قائماً﴾ [آل عمران: ٧٥] ويكنى به عن الإقامة لأن المقيم ملازم لمكانه، وهو مراد من قال: في مقام أي موضع إقامة.

وقرأ عبد الله بن عمر رضي الله تعالى عنهما وزيد بن علي وأبو جعفر وشيبة والأعرج والحسن وقتادة ونافع وابن عامر «مُقَام» بضم الميم ومعناه موضع إقامة، وعلى ما قررنا ترجع القراءتان إلى معنى واحد.

﴿أَمِينٍ﴾ يأمن صاحبه مما يكره فهو صفة من الأمن وهو عدم الخوف عما هو من شأنه، ووصف المقام به باعتبار أمن من آمن به فهو إسناد مجازي كما في نهر جار، وظاهر كلام الزمخشري أن ذلك استعارة من الأمانة كأن المكان مؤتمن وضع عنده ما يحفظه من المكاره ففيه استعارة مكنية وتخييلية، وقال ابن عطية: فعيل بمعنى مفعول أي

مأمون فيه وليس بذاك، وجوز أن يكون للنسبة أي ذي أمن ﴿فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ بدل من «مقام» بإعادة الجار أو الجار والمجرور بدل من الجار والمجرور، وظرفية العيون للمجاورة، والظاهر أنه بدل اشتمال لا كل وبعض، وفي ذلك دلالة على نزاهة مكانهم واشتماله على ما يستلذ من المآكل والمشارب.

﴿يَلْبَسُونَ مِن سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ﴾ خبر ثان أو حال من الضمير في الجار والمجرور أو استئناف، والسندس قال ثعلب: الرقيق من الديباج والواحدة سندسة، والاستبرق غليظه، وقال الليث: هو ضرب من البزيون يتخذ من المرعز، ولم يختلف أهل اللغة في أنهما معربان كذا ذكره بعضهم.

وفي الكشاف الاستبرق ما غلظ من الديباج وهو تعريب استبر، قال الخفاجي: ومعنى استبر في لغة الفرس الغليظ مطلقاً ثم خص بغليظ الديباج وعرب، وقيل: إنه عربي من البراقة، وأيد بقراءته بوصل الهمزة وهو كما ترى.

وذكر بعضهم أن السندس أصله سندي ومعناه منسوب إلى السند المكان المعروف لأن السندس كان يجلب منه فأبدلت ياء النسبة سينا، وقد مر الكلام في ذلك فتذكر، ثم إن وقوع المعرب في القرآن العظيم لا ينافي كونه عربياً مبيناً. ونقل صاحب الكشف عن جار الله أنه قال: الكلام المنظوم مركب من الحروف المبسوطة في أي لسان كان تركي أو فارسي أو عربي ثم لا يدل على أن العربي أعجمي فكذا ههنا، ثم قال صاحب الكشف: يريد أن كون استبر أعجمياً لا يلزمه أن يكون استبرق كذلك. وقرأ ابن محيصن «واسْتَبْرَقَ» فعلاً ماضياً كما في البحر، والجملة حينئذ قيل معترضة، وقيل: حال من ﴿سندس﴾ والمعنى يلبسون من سندس وقد برق لصقالته ومزيد حسنه ﴿مُتَقَابِلِينَ﴾ في مجالسهم ليستأنس بعضهم ببعض ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي الأمر كذلك فالكاف في محل رفع على الخبرية لمبتدأ محذوف، والمراد تقرير ما مر وتحقيقه. ونقل عن جار الله أنه قال: والمعنى فيه أنه لم يستوف الوصف وأنه بمثابة ما لا يحيط به الوصف فكأنه قيل: الأمر نحو ذلك وما أشبهه.

وأراد على ما قال المدقق أن الكاف مقحم للمبالغة وذلك مطرد في عرفي العرب والعجم، وجوز أن يكون في محل نصب على معنى أثبناهم مثل ذلك، وقوله تعالى: ﴿وَزَوَّجْنَاهُم﴾ على هذا عطف على الفعل المقدر وعلى ما قبل على ﴿يلبسون﴾ والمراد على ما قال غير واحد وقرناهم ﴿بحور عين﴾ وفسر بذلك قيل لأن الجنة ليس فيها تكليف فلا عقد ولا تزويج بالمعنى المشهور، وقيل: لمكان الباء، وزوجه المرأة بمعنى أنكحه إياها متعد بنفسه، وفيه بحث فإن الأخفش جوز الباء فيه فيقال: زوجته بامرأة فتزوج بها، وأزد شنوءة يعدونه بالباء أيضاً، وفي القاموس زوجته امرأة وتزوجت امرأة وبها أو هي قليلة، ويعلم مما ذكر أن قول بعض الفقهاء زوجته بها خطأ لا وجه له، ويجوز أن يقال: إن ذلك التفسير لأن الحور العين في الجنة ملك يمين كالسراري في الدنيا فلا يحتاج الأمر إلى العقد عليهن، على أنه يمكن أن يكون في الجنة عقد وإن لم يكن فيها تكليف.

وقد أخرج ابن جرير وغيره عن مجاهد أنه قال: زوجناهم أنكحناهم. ومن الناس من قال بالتكليف فيها بمعنى الأمر والنهي لكن لا يجدون في الفعل والترك كلفة، نعم المشهور أن لا تكليف فيها، وبعض ما حرم في الدنيا كنكاح امرأة الغير ونكاح المحارم لا يفعلونه لعدم خطوره لهم ببال أصلا، والحور جمع حوراء وهي البيضاء كما روي عن ابن عباس والضحاك وغيرهما، وقيل: الشديدة سواد العين وبياضها، وقيل: الحوراء ذات الحور وهو سواد المقلة كلها كما في الظباء فلا يكون في الإنسان إلا مجازاً. وأخرج ابن المنذر. وغيره عن مجاهد أن الحوراء التي يحار فيها الطرف. والعين جمع عيناء وهي عظيمة العينين وأكثر الأخبار تدل على أنهن لسن نساء الدنيا، أخرج ابن أبي حاتم والطبراني عن أبي أمامة قال: «قال رسول الله ﷺ خلق الحور العين من زعفران» وأخرج ابن مردويه والخطيب عن أنس بن مالك

مرفوعاً نحوه، وأخرج ابن المبارك عن زيد بن أسلم قال: إن الله تعالى لم يخلق الحور العين من تراب إنما خلقهن من مسك وكافور وزعفران.

وأخرج ابن مردويه والديلمي عن عائشة قالت: «قال رسول الله ﷺ حور العين خلقهن من تسبيح الملائكة عليهم السلام» وهذا إن صح لا يعارض ما قبله إذ لا بد عليه من أن يقال بتجسد المعاني فيجوز تجسد التسبيح وجعله جزءاً مما خلقن منه، وقيل: المراد بهن هنا نساء الدنيا وهن في الجنة حور عين بالمعنى الذي سمعت بل هن أجمل من الحور العين أعني النساء المخلوقات في الجنة من زعفران أو غيره ويعطى الرجل هناك ما كان له في الدنيا من الزوجات، وقد يضم إلى ذلك ما شاء الله تعالى من نساء متن ولم يتزوجن، ومن تزوجت بأكثر من واحد فهي لآخر أزواجها أو لأولهم إن لم يكن طلقها في الدنيا أو تخير فتختار من كان أحسنهم خلقا معها أقوال صحح جمع منها الأول، وتعطى زوجة كافر دخلت الجنة لمن شاء الله تعالى. وقد ورد أن آسية امرأة فرعون تكون زوجة نبينا ﷺ.

وقرأ عكرمة «بحور عين» بالإضافة وهي على معنى من أي بالحور من العين، وفي قراءة عبد الله «بعيس عين» والعيساء البيضاء تعلوها حمرة ﴿**يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ**﴾ يطلبون ويأمرون بإحضار ما يشتهون من الفواكه ولا يتخصص شيء منها بمكان ولا زمان ﴿**آمنينَ**﴾ من الضرر أي ضرر كان، وهو حال من ضمير ﴿**يدعون**﴾ وكونه حالا من الضمير في قوله سبحانه: ﴿**في جنات**﴾ بعيد، وأبعد منه جعل ﴿**يدعون**﴾ حينئذ صفة الحور والنون فيه ضمير النسوة وزنه يفعلن لما فيه من ارتكاب خلاف الظاهر مع عدم المناسبة للسياق.

وقوله تعالى: ﴿**لا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلاَّ الْمَوْتَةَ الأُولَى**﴾ جملة مستأنفة أو حالية وكأنه أريد أن يقال: لا يذوقون فيها الموت البتة فوضع الموتة الأولى موضع ذلك لأن الموتة الماضية محال ذوقها في المستقبل فهو من باب التعليق بالمحال كأنه قيل: إن كانت الموتة الأولى يستقيم ذوقها في المستقبل فإنهم يذوقونها، ونظيره قول القائل لمن يستسقيه: لا أسقيك إلا الجمر وقد علم أن الجمر لا يسقى، ومثله قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء إلا ما قد سلف﴾ [النساء: ٢٢] فالاستثناء متصل والدخول فرضي للمبالغة، وضمير ﴿**فيها**﴾ للجنات، وقيل: هو متصل والمؤمن عند موته لمعاينة ما يعطاه في الجنة كأنه فيها فكأنه ذاق الموتة الأولى في الجنة، وقيل متصل وضمير «فيها» للآخرة والموت أول أحوالها، ولا يخفى ما فيه من التفكيك مع ارتكاب التجوز، وقيل: الاستثناء منقطع والضمير للجنات أي لكن الموتة الأولى قد ذاقوها في الدنيا، والأصل اتصال الاستثناء، وقال الطبراني: إلا بمعنى بعد، والجمهور لم يثبتوا هذا المعنى لها، وقال ابن عطية: ذهب قوم إلى أن إلا بمعنى سوى وضعفه الطبري.

وقال أبو حيان: ليس تضعيفه بصحيح بل يصح المعنى بسوى ويتسق. وفائدة الوصف تذكير حال الدنيا. والداعي لما سمعت من الأوجه دفع سؤال يورد ههنا من أن الموتة الأولى مما مضى لهم في الدنيا وما هو كذلك لا يمكن أن يذوقوه في الجنة فكيف استثنيت؟ وقيل: إن السؤال مبني على أن الاستثناء من النفي إثبات فيثبت للمستثنى الحكم المنفي عن المستثنى منه ومحال أن يثبت للموتة الأولى الماضية الذوق في الجنة، وأما على قول من جعله تكلماً بالباقي بعد الثنيا، والمعنى لا يذوقون سوى الموتة الأول من الموت فلا إشكال فتأمل. وقرأ عبيد بن عمير «لا يُذَاقُونَ» مبنياً للمفعول، وقرأ عبد الله «لا يذوقون فيها طعم الموت» وجاء في الحديث النوم لأنه أخو الموت، أخرج البزار والطبراني في الأوسط وابن مردويه والبيهقي في البعث بسند صحيح عن جابر بن عبد الله قال: «قيل يا رسول الله أينام أهل الجنة؟ قال: لا النوم أخو الموت وأهل الجنة لا يموتون ولا ينامون».

﴿**وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ**﴾ وقرأ أبو حيوة «وَوَقَّاهُم» مشدد القاف على المبالغة في التكثير في الوقاية لأن

التفعيل لزيادة المعنى لا للتعدية لأن الفعل متعد قبله ﴿فَضْلاً مِنْ رَبِّكَ﴾ أي أعطوا كل ذلك عطاء وتفضلا منه تعالى فهو نصب على المصدرية، وجوز فيه أن يكون حالا ومفعولا له، وأياً ما كان ففيه إشارة إلى نفي إيجاب أعمالهم الإثابة عليه سبحانه وتعالى. وقرىء «فَضْلٌ» بالرفع أي ذلك فضل ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ لأنه فوز بالمطالب وخلاص من المكاره ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ﴾ أي فإنما سهلنا القرآن ﴿بِلِسَانِكَ﴾ أي بلغتك، وقيل: المعنى أنزلناه على لسانك بلا كتابة لكونه أمياً، وهذا فذلكة وإجمال لما في السورة بعد تفصيل تذكيراً لما سلف مشروحاً فيها، فالمعنى ذكرهم بالكتاب المبين فإنما يسرناه بلسانك ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ أي كي يفهموه ويتذكروا به ويعملوا بموجبه ﴿فَارْتَقِبْ﴾ أي وإن لم يتذكروا فانتظر ما يحل بهم وهو تعميم بعد تخصيص بقوله تعالى: ﴿فارتقب يوم تأتي السماء﴾ [الدخان: ١٠] الخ ﴿إِنَّهُمْ مُرْتَقِبُونَ﴾ منتظرون ما يحل بك كما قالوا: ﴿نتربص به ريب المنون﴾ [الطور: ٣٠] وقيل: معناه مرتقبون ما يحل بهم تهكما، وقيل: هو مشاكلة، والمعنى أنهم صائرون للعذاب، وفي الآية من الوعد له ﷺ ما لا يخفى، وقيل: فيها الأمر بالمتاركة وهو منسوخ بآية السيف فلا تغفل.

ومن باب الإشارة في الآيات: ما ذكروه في قوله تعالى: ﴿ولقد فتنا قبلهم قوم فرعون﴾ إلى آخر القصة من تطبيق ذلك على ما في الأنفس، وهو مما يعلم مما ذكرناه في باب الإشارة من هذا الكتاب غير مرة فلا نطيل به، وقالوا في قوله تعالى: ﴿وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين ما خلقناهما إلا بالحق﴾ إنه إشارة إلى الوحدة كقوله عزَّ وجلَّ: ﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق﴾ [فصلت: ٥٣] وأفصح بعضهم فقال: الحق هو عزَّ وجلَّ والباء للسببية أي ما خلقناهما إلا بسبب أن تكون مرايا لظهور الحق جلّ وعلا، ومن جعل منهم الباء للملابسة أنشد:

رق الزجاج وراقت الخمر ... فتشاكلا وتشابه الأمر
فكأنما خمر ولا قدح ... وكأنما قدح ولا خمر

والعبارة ضيقة والأمر طور ما وراء العقل والسكوت أسلم، وقالوا في شجرة الزقوم: هي شجرة الحرص وحب الدنيا تظهر يوم القيامة على أسوأ حال وأخبث طعم، وقالوا ﴿الموتة الأولى﴾ ما كان في الدنيا بقتل النفس بسيف الصدق في الجهاد الأكبر وهو المشار إليه بموتوا قبل أن تموتوا فمن مات ذلك الموت حيي أبداً الحياة الطيبة التي لا يمازجها شيء من ماء الألم الجسماني والروحاني وذلك هو الفوز العظيم، والله تعالى يقول الحق وهو سبحانه يهدي السبيل.

(٤٥) سورة الجاثية مكية
وآياتها سبع وثلاثون

بسم الله الرحمن الرحيم

حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ
يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ
ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٥﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ
نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ حمٓ، تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم، إن فى السموات والأرض لآيات للمؤمنين، وفى خلقكم وما يبث من دابة آيات لقوم يوقنون، واختلاف الليل النهار وما أنزل الله من السماء من رزق فأحيا به الأرض بعد موتها وتصريف الرياح آيات لقوم يعقلون، تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق فبأى حديث بعد الله وآياته يؤمنون ﴾ وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ اعلم أن قوله (حم ، تنزيل الكتاب) وجوهاً (الأول) أن يكون (حم) مبتدأ (وتنزيل الكتاب) خبره وعلى هذا التقدير فلا بد من حذف مضاف ، والتقدير تنزيل حم ، تنزيل الكتاب ، و (من الله) صلة للتنزيل (الثانى) أن يكون قوله (حم) فى تقدير : هذه (حم) ثم نقول (تنزيل الكتاب) واقع من الله العزيز الحكيم (الثالث) أن يكون (حم) قسما (وتنزيل الكتاب) نعتاً له ، وجواب القسم (إن فى السموات) والتقدير : وحم الذى هو تنزيل الكتاب أن الأمر كذا وكذا .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قوله (العزيز الحكيم) يجوز جعلهما صفة للكتاب ، ويجوز جعلهما صفة لله تعالى ، إلا أن هذا الثانى أولى ، ويدل عليه وجوه (الأول) أنا إذا جعلناهما صفة لله تعالى

كان ذلك حقيقة ، وإذا جعلناهما صفة للكتاب كان ذلك مجازاً والحقيقة أولى من المجاز (الثانى) أن زيادة القرب توجب الرجحان (الثالث) أنا إذا جعلنا العزيز الحكيم صفة لله كان ذلك إشارة إلى الدليل الدال على أن القرآن حق ، لأن كونه عزيزاً يدل على كونه قادراً على كل الممكنات وكونه (حكيما) يدل على كونه عالما بجميع المعلومات غنياً عن كل الحاجات ، ويحصل لنا من مجموع كونه تعالى (عزيزاً حكيما) كونه قادراً على جميع الممكنات ، عالما بجميع المعلومات ، غنياً عن كل الحاجات ، وكل ما كان كذلك امتنع منه صدور العبث والباطل ، وإذا كان كذلك كان ظهور المعجز دليلا على الصدق ، فثبت أنا إذا جعلنا كونه (عزيزاً حكيما) صفتين لله تعالى يحصل منه هذه الفائدة ، وأما إذا جعلناهما صفتين للكتاب لم يحصل منه هذه الفائدة ، فكان الأول أولى والله أعلم .

ثم قال تعالى (إن فى السموات والأرض لآيات للمؤمنين) وفيه مباحث :

﴿ البحث الأول ﴾ أن قوله (إن فى السموات والأرض لآيات) يجوز إجراؤه على ظاهره ، لأنه حصل فى ذوات السموات والأرض أحوال دالة على وجود الله تعالى مثل مقاديرها وكيفياتها وحركاتها ، وأيضاً الشمس والقمر والنجوم والجبال والبحار موجودة فى السموات والأرض وهى آيات ، ويجوز أن يكون المعنى (إن فى خلق السموات والأرض) كما صرح به فى سورة البقرة فى قوله (إن فى خلق السموات والأرض) وهو يدل على وجود القادر المختار فى تفسير قوله (الحمد لله الذى خلق السموات والأرض)

﴿ البحث الثانى ﴾ قد ذكرنا الوجوه الكثيرة فى دلالة السموات والأرض على وجود الإله القادر المختار فى تفسير قوله (الحمد لله الذى خلق السموات والأرض) ولا بأس بإعادة بعضها فنقول إنها تدل على وجود الإله من وجوه : (الأول) أنها أجسام لا تخلو عن الحوادث ، وما لا يخلو عن الحوادث فهو حادث فهذه الأجسام حادثة وكل حادث فله محدث (الثانى) أنها مركبة من الأجزاء وتلك الأجزاء متماثلة ، لما بينا أن الأجسام متماثلة ، وتلك الأجزاء وقع بعضها فى العمق دون السطح وبعضها فى السطح دون العمق فيكون وقوع كل جزء فى الموضع الذى وقع فيه من الجائزات ، وكل جائز فلابد له من مرجح ومخصص (الثالث) أن الأفلاك والعناصر مع تماثلها فى تمام الماهية الجسمية اختص كل واحد منها بصفة معينة كالحرارة والبرودة واللطافة والكثافة الفلكية والعنصرية ، فيكون ذلك أمراً جائزاً ولا بد لها من مرجح (الرابع) أن أجرام الكواكب مختلفة فى الألوان مثل كمودة زحل ، وبياض المشترى ، وحمرة المريخ ، والضوء الباهر للشمس ، ودرية الزهرة ، وصفرة عطارد ، ومحو القمر ، وأيضاً فبعضها سعيدة ، وبعضها نحسة ، وبعضها نهارى ذكر ، وبعضها ليلى أنثى ، وقد بينا أن الأجسام فى ذواتها متماثلة ، فوجب أن يكون اختلاف الصفات لأجل أن الإله القادر المختار خصص كل واحد منها بصفته المعينة (الخامس) أن كل فلك فإنه مختص بالحركة إلى جهة معينة ومختص بمقدار واحد من السرعة والبطء ، وكل ذلك أيضاً من

الجائزات ، فلا بد من الفاعل المختار (السادس) أن كل فلك مختص بشيء معين وكل ذلك أيضاً من الجائزات ، فلابد من الفاعل المختار ، وتمام الوجوه مذكور فى تفسير تلك الآيات .

﴿ البحث الثالث ﴾ قوله (لآيات للمؤمنين) يقتضى كون هذه الآيات مختصة بالمؤمنين ، وقالت المعتزلة إنها آيات للمؤمن والكافر ، إلا أنه لما انتفع بها المؤمن دون الكافر أضيف كونها آيات إلى المؤمنين ، ونظيره قوله تعالى (هدى للمتقين) فانه هدى لكل الناس كما قال تعالى (هدى للناس) إلا أنه لما انتفع بها المؤمن خاصة لاجرم قيل (هدى للمتقين) فكذا ههنا ، وقال الأصحاب الدليل والآية هو الذى يترتب على معرفته حصول العلم ، وذلك العلم إنما يحصل بخلق الله تعالى لا بإيجاب ذلك الدليل ، والله تعالى إنما خلق ذلك العلم للمؤمن لا للكافر فكان ذلك آية دليلا فى حق المؤمن لا فى حق الكافر والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وفى خلقكم وما يبث من دابة آيات لقوم يوقنون ﴾ وفيه مباحث :

﴿ البحث الأول ﴾ قال صاحب الكشاف قوله (وما يبث) عطف على الخلق المضاف لا على الضمير المضاف إليه ، لأن المضاف ضمير متصل مجرور والعطف عليه مستقبح ، فلا يقال مررت بك وزيد ، ولهذا طعنوا فى قراءة حمزة (تساءلون به والأرحام) بالجر فى قوله (والأرحام) وكذلك إن الذين استقبحوا هذا العطف ، فلا يقولون مررت بك أنت وزيد .

﴿ البحث الثانى ﴾ قرأ حمزة والكسائى (آيات) بكسر التاء وكذلك الذى بعده (وتصريف الرياح آيات) والباقون بالرفع فيهما ، أما الرفع فمن وجهين ذكرهما المبرد والزجاج وأبو على : (أحدهما) العطف على موضع إن وما عملت فيه ، لأن موضعهما رفع بالابتداء فيحمل الرفع فيه على الموضع ، كما تقول إن زيداً منطلق وعمر ، و (أن الله برىء من المشركين ورسوله) لأن معنى قوله (أن الله برىء) أن يقول الله برىء من المشركين ورسوله ، (والوجه الثانى) أن يكون قوله (وفى خلقكم) مستأنفاً ، ويكون الكلام جملة معطوفة على جملة أخرى كما تقول إن زيداً منطلق وعمرو كاتب ، جعلت قولك وعمرو كاتب كلاماً آخر ، كما تقول زيد فى الدار وأخرج غداً إلى بلد كذ ، فإنما حدثت بحديثين ووصلت أحدهما بالآخر بالواو ، وهذا الوجه هو اختيار أبى الحسن والفراء ، وأما وجه القراءة بالنصب فهو بالعطف على قوله (إن فى السموات) على معنى (وإن فى خلقكم لآيات) ويقولون هذه القراءة إنها فى قراءة أبى وعبد الله (لآيات) ودخول اللام يدل على أن الكلام محمول على إن .

﴿البحث الثالث﴾ قوله (وفى خلقكم) معناه خلق الإنسان ، وقوله (وما يبث من دابة) إشارة إلى خلق سائر الحيوانات ، ووجه دلالتها على وجود الإله القادر المختار أن الأجسام متساوية فاختصاص كل واحد من الأعضاء بكونه المعين وصفته المعينة وشكله المعين ، لابد وأن يكون

بتخصيص القادر المختار ، ويدخل فى هذا الباب انتقاله من سن إلى سن آخر ومن حال إلى حال آخر ، والاستقصاء فى هذا الباب قد تقدم .

ثم قال تعالى (واختلاف الليل والنهار) وهذا الاختلاف يقع على وجوه : (أحدها) تبدل النهار بالليل وبالضد منه (وثانيها) أنه تارة يزداد طول النهار على طول الليل وتارة بالعكس وبمقدار ما يزداد فى النهار الصيفى يزداد فى الليل الشتوى (وثالثها) اختلاف مطالع الشمس فى أيام السنة .

ثم قال تعالى (وما أنزل الله من السماء من رزق فأحيا به الأرض بعد موتها) وهو يدل على القول بالفاعل المختار من وجوه (أحدها) إنشاء السحاب وإنزال المطر منه (وثانيها) تولد النبات من تلك الحبة الواقعة فى الأرض (وثالثها) تولد الأنواع المختلفة وهى ساق الشجرة وأغصانها وأوراقها وثمارها ثم تلك الثمرة منها ما يكون القشر محيطاً باللب كالجوز واللوز ، ومنها ما يكون اللب محيطاً بالقشر كالمشمش والخوخ ، ومنها ما يكون خالياً عن القشر كالتين ، فتولد أقسام النبات على كثرة أصنافها وتباين أقسامها يدل على صحة القول بالفاعل المختار الحكيم الرحيم .

ثم قال (وتصريف الرياح) وهى تنقسم إلى أقسام كثيرة بحسب تقسيمات مختلفة فمنها المشرقية والمغربية والشمالية والجنوبية ، ومنها الحارة والباردة ومنها الرياح النافعة والرياح الضارة ، ولما ذكر الله تعالى هذه الأنواع الكثيرة من الدلائل قال إنها (آيات لقوم يعقلون) .

واعلم أن الله تعالى جمع هذه الدلائل فى سورة البقرة فقال (إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون) فذكر الله تعالى هذه الأقسام الثمانية من الدلائل والتفاوت بين الموضعين من وجوه (الأول) أنه تعالى قال فى سورة البقرة (إن فى خلق السموات والأرض) وقال ههنا (إن فى السموات) والصحيح عند أصحابنا أن الخلق عين المخلوق ، وقد ذكر لفظ الخلق فى سورة البقرة ولم يذكره فى هذه السورة تنبيها على أنه لا يتفاوت بين أن يقال السموات وبين أن يقال خلق السموات فيكون هذا دليلا على أن الخلق عين المخلوق (الثانى) أنه ذكر هناك ثمانية أنواع من الدلائل وذكر ههنا ستة أنواع وأهمل منها الفلك والسحاب ، والسبب أن مدار حركة الفلك والسحاب على الرياح المختلفة فذكر الرياح الذى هو كالسبب يغنى عن ذكرهما (والتفاوت الثالث) أنه جمع الكل وذكر لها مقطعاً واحداً وههنا رتبها على ثلاثة مقاطع والغرض التنبيه على أنه لابد من إفراد كل واحد منها بنظر تام شاف (الرابع) أنه تعالى ذكر فى هذا الموضع ثلاثة مقاطع (أولها) يؤمنون (وثانيها) يوقنون (وثالثها) يعقلون ، وأظن أن سبب هذا الترتيب أنه قيل إن كنتم من المؤمنين فافهموا هذه الدلائل ، وإن كنتم لستم من المؤمنين بل أنتم من طلاب الحق واليقين فافهموا هذه الدلائل ، وإن كنتم لستم من المؤمنين ولا من الموقنين فلا أقل من أن

وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٨﴾ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩﴾ مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِى عَنْهُم مَّا كَسَبُوا۟ شَيْـًٔا وَلَا مَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠﴾ هَٰذَا هُدًى

تكونوا من زمرة العاقلين فاجتهدوا فى معرفة هذه الدلائل ، واعلم أن كثيراً من الفقهاء يقولون إنه ليس فى القرآن العلوم التى يبحث عنها المتكلمون ، بل ليس فيه إلا ما يتعلق بالأحكام والفقه ، وذلك غفلة عظيمة لأنه ليس فى القرآن سورة طويلة منفردة بذكر الأحكام وفيه سور كثيرة خصوصاً المكيات ليس فيها إلا ذكر دلائل التوحيد والنبوة والبعث والقيامة وكل ذلك من علوم الأصوليين ، ومن تأمل علم أنه ليس فى يد علماء الأصول إلا تفصيل ما اشتمل القرآن عليه على سبيل الإجمال .

ثم قال تعالى (تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق) والمراد من قوله (بالحق) هو أن صحتها معلومة بالدلائل العقلية وذلك لأن العلم بأنها حقة صحيحة إما أن يكون مستفاداً من النقل أو العقل والأول باطل لأن صحة الدلائل النقلية موقوفة على سبق العلم بإثبات الإله العالم القادر الحكيم وبإثبات النبوة وكيفيه دلالة المعجزات على صحتها ، فلو أثبتنا هذه الأصول بالدلائل النقلية لزم الدور وهو باطل ، ولما بطل هذا ثبت أن العلم بحقيقة هذه الدلائل لا يمكن تحصيله إلا بمحض العقل ، وإذا كان كذلك كان قوله (تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق) من أعظم الدلائل على الترغيب فى علم الأصول وتقرير المباحث العقلية .

ثم قال تعالى (فبأى حديث بعد الله وآياته يؤمنون) يعنى أن من لم ينتفع بهذه الآيات فلا شىء بعده يجوز أن ينتفع به ، وأبطل بهذا قول من يزعم أن التقليد كاف وبين أنه يجب على المكلف التأمل فى دلائل دين الله ، وقوله (يؤمنون) قرىء بالياء والتاء ، واختار أبو عبيدة الياء لأن قبله غيبة وهو قوله (لقوم يؤمنون ، ولقوم يعقلون) فإن قيل إن فى أول الكلام خطاباً وهو قوله (وفى خلقكم) قلنا الغيبة التى ذكرنا أقرب إلى الحرف المختلف فيه والأقرب أولى ، ووجه قول من قرأ على الخطاب أن قل فيه مقدر أى قل لهم فبأى حديث بعد ذلك تؤمنون .

قوله تعالى : ﴿ ويل لكل أفاك أثيم ، يسمع آيات الله تتلى عليه ثم يصر مستكبراً كأن لم يسمعها فبشره بعذاب أليم وإذا علم من آياتنا شيئاً اتخذها هزواً أولئك لهم عذاب مهين ، من ورائهم جهنم

وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ ﴿١١﴾

ولا يغنى عنهم ما كسبوا عنهم شيئاً ولا مااتخذوا من دون الله أولياء ولهم عذاب عظيم ، هذا هدى والذين كفروا بآيات ربهم لهم عذاب من رجز أليم ﴾ .

اعلم أنه تعالى لما بين الآيات للكفار وبين أنهم بأى حديث بعده يؤمنون إذا لم يؤمنوا بها مع ظهورها ، أتبعه بوعيد عظيم لهم فقال (ويل لكل أفاك أثيم) الأفاك الكذب والأثيم المبالغ فى اقتراف الآثام ، واعلم أن هذا الأثيم له مقامان :

﴿ المقام الأول ﴾ أن يبقى مصراً على الإنكار والاستكبار ، فقال تعالى (يسمع آيات الله تتلى عليه ثم يصر) أى يقيم على كفره إقامة بقوة وشدة (مستكبراً) عن الإيمان بالآيات معجباً بما عنده ، قيل نزلت فى النضر بن الحرث وماكان يشترى من أحاديث الأعاجم ويشغل بها الناس عن استماع القرآن والآية عامة فى كل من كان موصوفاً بالصفة المذكورة ، فإن قالوا ما معنى ثم فى قوله (ثم يصر مستكبراً) ؟ ، قلنا نظيره قوله تعالى (الحمد لله الذى خلق السموات والأرض) إلى قوله (ثم الذين كفروا بربهم يعدلون) ومعناه أنه تعالى لما كان خالقاً للسموات والأرض كان من المستبعد جعل هذه الأصنام مساوية له فى المعبودية ، كذا ههنا سماع آيات الله على قوتها وظهورها من المستبعد أن يقابل بالإنكار والإعراض .

قوله تعالى : ﴿ كأن لم يسمعها ﴾ الأصل كأنه لم يسمعها والضمير ضمير الشأن ومحل الجملة النصب على الحال أى يصير مثل غير السامع .

﴿ المقام الثانى ﴾ أن ينتقل من مقام الإصرار والاستكبار إلى مقام الاستهزاء فقال (وإذا علم من آياتنا شيئاً اتخذها هزواً) وكان من حق الكلام أن يقال اتخذه هزواً أى اتخذ ذلك الشىء هزواً إلا أنه تعالى قال (اتخذها) للاشعار بأن هذا الرجل إذا أحس بشىء من الكلام أنه من جملة الآيات التى أنزلها الله تعالى على محمد صلى الله عليه وسلم خاض فى الاستهزاء بجميع الآيات ولم يقتصر على الاستهزاء بذلك الواحد .

قوله تعالى : ﴿ أولئك لهم عذاب مهين ﴾ أولئك إشارة إلى (كل أفاك أثيم) لشموله جميع الأفاكين ، ثم وصف كيفية ذلك العذاب المهين فقال (من ورائهم جهنم) أى من قدامهم جهنم ، قال صاحب الكشاف الوراء اسم للجهة التى توارى بها الشخص من خلف أو قدام ، ثم بين أن ما ملكوه فى الدنيا لا ينفعهم فقال (ولا يغنى عنهم ما كسبوا شيئاً) .

ثم بين أن أصنامهم لا تنفعهم فقال (ولا ما اتخذوا من دون الله أولياء) .

ثم قال (ولهم عذاب عظيم) فان قالوا إنه قال قبل هذه الآية (لهم عذاب مهين) فما الفائدة فى قوله بعده (ولهم عذاب عظيم) قلنا كون العذاب مهيناً يدل على حصول الإهانة مع العذاب

ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ
تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى
ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾ قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ
ٱللَّهِ لِيَجْزِىَ قَوْمًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ
فَعَلَيْهَا ۖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١٥﴾

وكونه عظيما يدل على كونه بالغاً إلى أقصى الغايات فى كونه ضرراً .

ثم قال (هذا هدى) أى كامل فى كونه هدى (والذين كفروا بآيات ربهم لهم عذاب من رجز أليم) والرجز أشد العذاب بدلالة قوله تعالى (فأنزلنا على الذين ظلموا رجزاً من السماء) وقوله (لئن كشفت عنا الرجز) وقرىء أليم بالجر والرفع ، أما الجر فتقديره لهم عذاب من عذاب أليم وإذا كان عذابهم من عذاب أليم كان عذابهم أليماً ، ومن رفع كان المعنى لهم عذاب أليم ويكون المراد من الرجز الرجس الذى هو النجاسة ومعنى النجاسة فيه قوله (ويسقى من ماء صديد) وكأن المعنى لهم عذاب من تجرع رجس أو شرب رجس فتكون من تبييناً للعذاب .

قوله تعالى : ﴿ الله الذى سخر لكم البحر لتجرى الفلك فيه بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ، وسخر لكم مافى السموات ومافى الأرض جميعاً منه إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون ، قل للذين آمنوا يغفروا للذين لا يرجون أيام الله ليجزى قوماً بما كانوا يكسبون ، من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها ثم إلى ربكم ترجعون ﴾ .

اعلم أنه تعالى ذكر الاستدلال بكيفية جريان الفلك على وجه البحر وذلك لا يحصل إلا بسبب تسخير ثلاثة أشياء (أحدها) الرياح التى تجرى على وفق المراد (ثانيها) خلق وجه الماء على الملاسة التى تجرى عليها الفلك (ثالثها) خلق الخشبة على وجه تبقى طافية على وجه الماء ولا تغوص فيه ، وهذه الأحوال الثلاثة لا يقدر عليها واحد من البشر ، فلا بد من موجد قادر عليها وهو الله سبحانه وتعالى ، وقوله (ولتبتغوا من فضله) معناه إما بسبب التجارة ، أو بالغوص على اللؤلؤ والمرجان ، أو لأجل استخراج اللحم الطرى .

ثم قال تعالى (وسخر لكم مافى السموات ومافى الأرض جميعاً منه) والمعنى لولا أن الله تعالى أوقف أجرام السموات والأرض فى مقارها وأحيازها لما حصل الانتفاع ، لأن بتقدير كون

الأرض هابطة أو صاعدة لم يحصل الانتفاع بها ، وبتقدير كون الأرض من الذهب والفضة أو الحديد لم يحصل الانتفاع ، وكل ذلك قد بيناه ، فان قيل مامعنى منه فى قوله (جميعاً منه) ؟ قلنا معناه أنها واقعة موقع الحال ، والمعنى أنه سخر هـذه الأشياء كائنة منه وحاصلة من عنده يعنى أنه تعالى مكونها وموجدها بقدرته وحكمته ثم مسخرها لخلقه ، قال صاحب الكشاف قرأ سلمة بن محارب منه على أن يكون منه فاعل سخر على الإسناد المجازى أو على أنه خبر مبتدأ محذوف أى ذلك منه أو هو منه .

واعلم أنه تعالى لما علم عباده دلائل التوحيد والقدرة والحكمة ، أتبع ذلك بتعليم الأخلاق الفاضلة والأفعال الحميدة بقوله (قل للذين آمنوا يغفروا للذين لا يرجون أيام الله) والمراد بالذين لايرجون أيام الله الكفار ، واختلفوا فى سبب نزول الآية قال ابن عباس (قل للذين آمنوا) يعنى عمر (يغفروا للذين لا يرجون أيام الله) يعنى عبد الله بن أبى ، وذلك أنهم نزلوا فى غزوة بنى المصطلق على بئر يقال لها المريسيع ، فأرسل عبد الله غلامه ليستقى الماء فأبطأ عليه ، فلما أتاه قال له ماحبسك ؟ قال غلام عمر قعد على طرف البئر فما ترك أحداً يستقى حتى ملأ قرب النبى صلى الله عليه وسلم وقرب أبى بكر وملأ لمولاه ، فقال عبد الله مامثلنا ومثل هؤلاء إلا كما قيل سمن كلبك يأكلك ، فبلغ قوله عمر فاشتمل بسيفه يريد التوجه إليه ، فأنزل الله هذه الآية ، وقال مقاتل شتم رجل من كفار قريش عمر بمكة فهم أن يبطش به فأمر الله بالعفو والتجاوز وأنزل هذه الآية .

وروى ميمون بن مهران أن فنحاص اليهودى لما أنزل قوله (من ذا الذى يقرض الله قرضاً حسناً) قال احتاج رب محمد ، فسمع بذلك عمر فاشتمل على سيفه وخرج فى طلبه ، فبعث النبى صلى الله عليه وسلم فى طلبه حتى رده ، وقوله (للذين لا يرجون أيام الله) قال ابن عباس لايرجون ثواب الله ولا يخافون عقابه ولا يخشون مثل عقاب الأمم الخالية ، وذكرنا تفسير أيام الله عند قوله (وذكرهم بأيام الله) وأكثر المفسرين يقولون إنه منسوخ ، وإنما قالوا ذلك لأنه يدخل تحت الغفران أن لا يقتلوا ، فلما أمر الله بهذه المقاتلة كان نسخاً ، والأقرب أن يقال إنه محمول على ترك المنازعة فى المحقرات وعلى التجاوز عما يصدر عنهم من الكلمات المؤذية والأفعال الموحشة .

ثم قال تعالى (ليجزى قوماً بما كانوا يكسبون) أى لكى يجازى بالمغفرة قوما يعملون الخير ، فإن قيل : ماالفائدة فى التنكير فى قوله (ليجزى قوماً) مع أن المراد بهم هم المؤمنون المذكورون فى قوله (قل للذين آمنوا) ؟ ، قلنا التنكير يدل على تعظيم شأنهم كأنه قيل : ليجزى قوماً وأى قوم من شأنهم الصفح عن السيئات والتجاوز عن المؤذيات وتحمل الوحشة وتجرع المكروه ، وقال آخرون معنى الآية قل للمؤمنين يتجاوزوا عن الكفار ، ليجزى الله الكفار بما كانوا يكسبون من الإثم ، كأنه قيل لهم لاتكافئوهم أنتم حتى نكافئهم نحن ، ثم ذكر الحكم العام فقال (من عمل صالحاً

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾ هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾

فلنفسه) وهو مثل ضربه الله الذين يغفرون (ومن أساء فعليها) مثل ضربه للكفار الذين كانوا يقدمون على إيذاء الرسول والمؤمنين وعلى ما لا يحل ، فبين تعالى أن العمل الصالح يعود بالنفع العظيم على فاعله ، والعمل الردىء يعود بالضرر على فاعله ، وأنه تعالى أمر بهذا ونهى عن ذلك لحظ العبد لا لنفع يرجع إليه ، وهذا ترغيب منه في العمل الصالح وزجر عن العمل الباطل .

قوله تعالى : ﴿ ولقد آتينا بنى إسرائيل الكتاب والحكم والنبوة ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على العالمين ، وآتيناهم بينات من الأمر فما اختلفوا إلا من بعدما جاءهم العلم بغياً بينهم إن ربك يقضى بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون ، ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون ، إنهم لن يغنوا عنك من الله شيئاً وإن الظالمين بعضهم أولياء بعض والله ولى المتقين ، هذا بصائر للناس وهدى ورحمة لقوم يوقنون ، أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون ﴾ .

اعلم أنه تعالى بين أنه أنعم بنعم كثيرة على بنى إسرائيل ، مع أنه حصل بينهم الاختلاف على سبيل البغي والحسد : والمقصود أن يبين أن طريقة قومه كطريقة من تقدم .

واعلم أن النعم على قسمين : نعم الدين ، ونعم الدنيا ، ونعم الدين أفضل من نعم الدنيا ، فلهذا

بدأ الله تعالى بذكر نعم الدين ، فقال (ولقد آتينا بنى إسرائيل الكتاب والحكم والنبوة) والأقرب أن كل واحد من هذه الثلاثة يجب أن يكون مغايراً لصاحبه ، أما (الكتاب) فهو التوراة ، وأما (الحكم) ففيه وجوه ، يجوز أن يكون المراد العلم والحكمة ، ويجوز أن يكون المراد العلم بفصل الحكومات ، ويجوز أن يكون المراد معرفة أحكام الله تعالى وهو علم الفقه ، وأما النبوة فمعلومة ، وأما نعم الدنيا فهى المراد من قوله تعالى (ورزقناهم من الطيبات) وذلك لأنه تعالى وسع عليهم فى الدنيا ، فأورثهم أموال قوم فرعون وديارهم ثم أنزل عليهم المن والسلوى ، ولما بين تعالى أنه أعطاهم من نعم الدين ونعم الدنيا نصيباً وافراً ، قال (وفضلناهم على العالمين) يعنى أنهم كانوا أكبر درجة وأرفع منقبة ممن سواهم فى وقتهم ، فلهذا المعنى قال المفسرون المراد : وفضلناهم عن عالمى زمانهم .

قوله تعالى : ﴿ وآتيناهم بينات من الأمر ﴾ وفيه وجوه (الأول) أنه آتاهم بينات من الأمر ، أى أدلة على أمور الدنيا (الثانى) قال ابن عباس : يعنى بين لهم من أمر النبى ﷺ أنه يهاجر من تهامة إلى يثرب ، ويكون أنصاره أهل يثرب (الثالث) المراد (وآتيناهم بينات) أى معجزات قاهرة على صحة نبوتهم ، والمراد معجزات موسى عليه السلام .

قوله تعالى : ﴿ فما اختلفوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم ﴾ وهذا مفسر فى سورة (حم ، عسق) والمقصود من ذكر هذا الكلام التعجب من هذه الحالة ، لأن حصول العلم يوجب ارتفاع الخلاف ، وههنا صار مجىء العلم سبباً لحصول الاختلاف ، وذلك لأنهم لم يكن مقصودهم من العلم نفس العلم ، وإنما المقصود منه طلب الرياسة والتقدم ، ثم ههنا احتمالات يريد أنهم علموا ثم عاندوا ، ويجوز أن يريد بالعلم الدلالة التى توصل إلى العلم ، والمعنى أنه تعالى وضع الدلائل والبينات التى لو تأملوا فيها لعرفوا الحق ، لكنهم على وجه الحسد والعناد اختلفوا وأظهروا النزاع .

قوله تعالى : ﴿ إن ربك يقضى بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون ﴾ والمراد أنه لا ينبغى أن يغتر المبطل بنعم الدنيا ، فإنها وإن ساوت نعم المحق أو زادت عليها ، فإنه سيرى فى الآخرة ما يسوؤه ، وذلك كالزجر لهم ، ولما بين تعالى أنهم أعرضوا عن الحق لأجل البغى والحسد ، أمر رسوله ﷺ بأن يعدل عن تلك الطريقة ، وأن يتمسك بالحق ، وأن لايكون له غرض سوى إظهار الحق وتقرير الصدق ، فقال تعالى (ثم جعلناك على شريعة من الأمر) أى على طريقة ومنهاج من أمر الدين ، فاتبع شريعتك الثابتة بالدلائل والبينات ، ولا تتبع مالاحجة عليه من أهواء الجهال وأديانهم المبنية على الأهواء والجهل ، قال الكلبى : إن رؤساء قريش قالوا للنبى صلى الله عليه وسلم وهو بمكة : ارجع إلى ملة آبائك فهم كانوا أفضل منك وأسن ، فأنزل الله تعالى هذه الآية .

قوله تعالى : ﴿ إنهم لن يغنوا عنك من الله شيئاً ﴾ أى لو ملت إلى أديانهم الباطلة فصرت مستحقاً للعذاب ، فهم لايقدرون على دفع عذاب الله عنك ، ثم بين تعالى أن الظالمين يتولى بعضهم بعضاً

فى الدنيا وفى الآخرة ، لا ولى لهم ينفعهم فى إيصال الثواب وإزالة العقاب ، وأما المتقون المهتدون ، فالله وليهم وناصرهم وهم مواليه ، وما أبين الفرق بين الولايتين ، ولما بين الله تعالى هذه البيانات الباقية النافعة ، قال (هذا بصائر للناس وهدى ورحمة لقوم يوقنون) وقد فسرناه فى آخر سورة الأعراف ، والمعنى هذا القرآن بصائر للناس جعل ما فيه من البيانات الشافية ، والبينات الكافية بمنزلة البصائر فى القلوب ، كما جعل فى سائر الآيات روحاً وحياة ، وهو هدى من الضلالة ، ورحمة من العذاب لمن آمن وأيقن ، ولما بين الله تعالى الفرق بين الظالمين وبين المتقين من الوجه الذى تقدم ، بين الفرق بينهما من وجه آخر ، فقال (أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات) وفيه مباحث :

﴿ البحث الأول ﴾ (أم) كلمة وضعت للاستفهام عن شىء حال كونه معطوفاً على شىء آخر ، سواء كان ذلك المعطوف مذكوراً أو مضمراً ، والتقدير ههنا : أفيعلم المشركون هذا ، أم يحسبون أنا نتولاهم كما نتولى المتقين ؟ .

﴿البحث الثانى﴾ الاجتراح : الاكتساب ، ومنه الجوارح ، وفلان جارحة أهله ، أى كاسبهم ، قال تعالى (ويعلم ما جرحتم بالنهار) .

﴿ البحث الثالث ﴾ قال الكلبى : نزلت هذه الآية فى على وحمزة وأبى عبيدة بن الجراح رضى الله عنهم ، وفى ثلاثة من المشركين : عتبة وشيبة والوليد بن عتبة ، قالوا للمؤمنين : والله ما أنتم على شىء ، ولو كان ما تقولون حقاً لكان حالنا أفضل من حالكم فى الآخرة ، كما أنا أفضل حالا منكم فى الدنيا ، فأنكر الله عليهم هذا الكلام ، وبين أنه لا يمكن أن يكون حال المؤمن المطيع مساوياً لحال الكافر العاصى فى درجات الثواب ، ومنازل السعادات .

واعلم أن لفظ (حسب) يستدعى مفعولين (أحدهما) الضمير المذكور فى قوله (أن نجعلهم) (والثانى) الكاف فى قوله (كالذين آمنوا) والمعنى أحسب هؤلاء المجترحين أن نجعلهم أمثال الذين آمنوا ؟ ونظيره قوله تعالى (أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً لا يستوون) وقوله (إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ، ويوم يقوم الأشهاد يوم لا ينفع الظالمين ، معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار) وقوله تعالى (أفنجعل المسلمين كالمجرمين مالكم كيف تحكمون) وقوله (أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الأرض أم نجعل المتقين كالفجار) .

ثم قال تعالى (سواء محياهم ومماتهم) وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قرأ حمزة والكسائى وحفص عن عاصم (سواء) بالنصب ، والباقون بالرفع ، واختيار أبى عبيد النصب ، أما وجه القراءة بالرفع ، فهو أن قوله (محياهم ومماتهم) مبتدأ والجملة فى حكم المفرد فى محل النصب على البدل من المفعول الثانى لقوله (أم نجعل) وهو الكاف فى قوله (كالذين آمنوا) ونظيره قوله : ظننت زيداً أبوه منطلق ، وأما وجه القراءة بالنصب

وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾

فقال صاحب الكشاف : أجرى سواء مجرى مستوياً ، فارتفع (محياهم ومماتهم) على الفاعلية وكان مفرداً غير جملة ، ومن قرأ (ومماتهم) بالنصب جعل (محياهم ومماتهم) ظرفين كمقدم الحاج ، وخفوق النجم ، أى (سواء) فى (محياهم) وفى (مماتهم) ، قال أبو على من نصب سواء جعل المحيا والممات بدلا من الضمير المنصوب فى نجعلهم فيصير التقدير أن نجعل (محياهم ومماتهم) سواء ، قال ويجوز أن نجعله حالا ويكون المفعول الثانى هو الكاف فى قوله (كالذين) .

﴿ المسألة الثانية ﴾ اختلفوا فى المراد بقوله (محياهم ومماتهم) قال مجاهد عن ابن عباس يعنى أحسبوا أن حياتهم ومماتهم كحياة المؤمنين وموتهم ، كلا فإنهم يعيشون كافرين ويموتون كافرين والمؤمنون يعيشون مؤمنين ويموتون مؤمنين ، وذلك لأن المؤمن ما دام يكون فى الدنيا فإنه يكون وليه هو الله وأنصاره المؤمنون وحجة الله معه ، والكافر بالضد منه ، كما ذكره فى قوله (وإن الظالمين بعضهم أولياء بعض) وعند القرب إلى الموت ، فإن حال المؤمن ماذكره فى قوله تعالى (الذين تتوفاهم الملائكة طيبين يقولون سلام عليكم ادخلوا الجنة) وحال الكافر ما ذكره فى قوله (الذين تتوفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم) وأما فى القيامة فقال تعالى (وجوه يومئذ مسفرة ضاحكة مستبشرة ، ووجوه يومئذ عليها غبرة ، ترهقها قترة) فهذا هو الإشارة إلى بيان وقوع التفاوت بين الحالتين (والوجه الثانى) فى تأويل الآية أن يكون المعنى إنكار أن يستووا فى الممات كما استووا فى الحياة ، وذلك لأن المؤمن والكافر قد يستوى محياهم فى الصحة والرزق والكفاية بل قد يكون الكافر أرجح حالا من المؤمن ، وإنما يظهر الفرق بينهما فى الممات (والوجه الثالث) فى التأويل أن قوله (سواء محياهم ومماتهم) مستأنف على معنى أن محيا المسيئين ومماتهم سوء فكذلك محيا المحسنين ومماتهم ، أى كل يموت على حسب ماعاش عليه ، ثم إنه تعالى صرح بإنكار تلك التسوية فقال (ساء ما يحكمون) وهو ظاهر .

قوله تعالى : ﴿ وخلق الله السموات والأرض بالحق ولتجزى كل نفس بما كسبت وهم لا يظلمون ، أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه ، وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون ، وقالوا ماهى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر وما لهم بذلك من علم إن هم إلا يظنون ، وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات ما كان حجتهم إلا

وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾

أن قالوا ائتوا بآبائنا إن كنتم صادقين ، قل الله يحييكم ثم يميتكم ثم يجمعكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ .

اعلم أنه تعالى لما قدر بأن المؤمن لايساوى الكافر فى درجات السعادات ، أتبعه بالدلالة الظاهرة على صحة هذه الفتوى ، فقال (وخلق الله السموات والأرض بالحق) ولولم يوجد البعث لما كان ذلك بالحق بل كان بالباطل ، لأنه تعالى لما خلق الظالم وسلطه على المظلوم الضعيف ، ثم لا ينتقم للمظلوم من الظالم كان ظالماً ، ولو كان ظالماً لبطل أنه (خلق السموات والأرض بالحق) وتمام تقرير هذه الدلائل مذكور فى أول سورة يونس ، قال القاضى هذه الآية تدل على أن فى مقدور الله ما لو حصل لكان ظلماً ، وذلك لايصح إلا على مذهب المجبرة الذين يقولون لو فعل كل شيء أراده لم يكن ظلماً ، وعلى قول من يقول إنه لا يوصف بالقدرة على الظلم ، وأجاب الأصحاب عنه بأن المراد فعل ما لو فعله غيره لكان ظلماً كما أن المراد من الابتلاء والاختبار فعل ما لو فعله غيره لكان ابتلاء واختباراً ، وقوله تعالى (ولتجزى) فيه وجهان : (الأول) أنه معطوف على قوله (بالحق) فيكون التقدير وخلق الله السموات والأرض لأجل إظهار الحق ولتجزى كل نفس ، (الثانى) أن يكون العطف على محذوف ، والتقدير (وخلق الله السموات والأرض بالحق) ليدل بهما على قدرته (ولتجزى كل نفس) والمعنى أن المقصود من خلق هذا العلم إظهار العدل والرحمة ، وذلك لايتم إلا إذا حصل البعث والقيامة وحصل التفاوت فى الدرجات والدركات بين المحقين وبين المبطلين ، ثم عاد تعالى إلى شرح أحوال الكفار وقبائح طرائقهم ، فقال (أفرأيت من اتخذ إلهه هواه) يعنى تركوا متابعة الهدى وأقبلوا على متابعة الهوى فكانوا يعبدون الهوى كما يعبد الرجل إلهه ، وقرىء (آلهته هواه) كلما مال طبعه إلى شيء اتبعه وذهب خلفه ، فكأنه اتخذ هواه آلهة شتى يعبد كل وقت واحداً منها .

ثم قال تعالى (وأضله الله على علم) يعنى على علم بأن جوهر روحه لا يقبل الصلاح ، ونظيره فى جانب التعظيم قوله تعالى (الله أعلم حيث يجعل رسالته) وتحقيق الكلام فيه أن جواهر الأرواح البشرية مختلفة فمنها مشرقة نورانية علوية إلهية ، ومنها كدرة ظلمانية سفلية عظيمة الميل إلى الشهوات الجسمانية ، فهو تعالى يقابل كلا منهم بحسب ما يليق بجوهره وماهيته ، وهو المراد من قوله (وأضله الله على علم) فى حق المردودين وبقوله (الله أعلم حيث يجعل رسالته) فى حق المقبولين .

ثم قال (وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة) فقوله (وأضله الله على علم) هو المذكور فى قوله (إن الذين كفروا) إلى قوله (لا يؤمنون) وقوله (وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة) هو المراد من قوله (ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة) وكل ذلك قد مر تفسيره فى سورة البقرة بالاستقصاء ، والتفاوت بين الآيتين أنه فى هذه الآية قدم ذكر السمع على القلب ، وفى سورة البقرة قدم القلب على السمع ، والفرق أن الإنسان قد يسمع كلاماً فيقع فى قلبه منه أثر ، مثل أن جماعة من الكفار كانوا يلقون إلى الناس أن النبى ﷺ شاعر وكاهن وأنه يطلب الملك والرياسة ، فالسامعون إذا سمعوا ذلك أبغضوه ونفرت قلوبهم عنه ، وأما كفار مكة فهم كانوا يبغضونه بقلوبهم بسبب الحسد الشديد فكانوا يستمعون إليه ، ولو سمعوا كلامه ما فهموا منه شيئاً نافعاً ، ففى الصورة الأولى كان الأثر يصعد من البدن إلى جوهر النفس ، وفى الصورة الثانية كان الأثر ينزل من جوهر النفس إلى قرار البدن ، فلما اختلف القسمان لا جرم أرشد الله تعالى إلى كلا هذين القسمين بهذين الترتيبين اللذين نبهنا عليهما ولما ذكر الله تعالى هذا الكلام قال (فمن يهديه من بعد الله) أى من بعد أن أضله الله (أفلا تذكرون) أيها الناس ، قال الواحدى وليس يبقى للقدرية مع هذه الآية عذر ولا حيلة ، لأن الله تعالى صرح بمنعه إياهم عن الهدى حين أخبر أنه ختم على سمع هذا الكافر وقلبه وبصره ، وأقول هذه المناظرة قد سبقت بالاستقصاء فى أول سورة البقرة .

واعلم أنه تعالى حكى عنهم بعد ذلك شبهتهم فى إنكار القيامة وفى إنكار الإله القادر ، أما شبهتهم فى إنكار القيامة فهى قوله تعالى (وقالوا ما هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا) فإن قالوا الحياة مقدمة على الموت فى الدنيا فمنكروا القيامة كان يجب أن يقولوا نحيا ونموت ، فما السبب فى تقديم ذكر الموت على الحياة ؟ قلنا فيه وجوه (الأول) المراد بقوله (نموت) حال كونهم نطفاً فى أصلاب الآباء وأرحام الأمهات ، وبقوله (نحيا) ما حصل بعد ذلك فى الدنيا (الثانى) نموت نحن ونحيا بسبب بقاء أولادنا (الثالث) يموت بعض ويحيا بعض (الرابع) وهو الذى خطر بالبال عند كتابة هذا الموضع أنه تعالى قدم ذكر الحياة فقال (ما هى إلا حياتنا الدنيا) ثم قال بعده (نموت ونحيا) يعنى أن تلك الحياة منها ما يطرأ عليها الموت وذلك فى حق الذين ماتوا ، ومنها ما لم يطرأ الموت عليها ، وذلك فى حق الأحياء الذين لم يموتوا بعد ، وأما شبهتهم فى إنكار الإله الفاعل المختار ، فهو قولهم (وما يهلكنا إلا الدهر) يعنى تولد

الأشخاص إنما كان بسبب حركات الأفلاك الموجبة لامتزاجات الطبائع ، وإذا وقعت تلك الامتزاجات على وجه خاص حصلت الحياة ، وإذا وقعت على وجه آخر حصل الموت ، فالموجب للحياة والموت تأثيرات الطبائع وحركات الأفلاك ، ولا حاجة فى هذا الباب إلى إثبات الفاعل المختار ، فهذه الطائفة جمعوا بين إنكار الإله وبين إنكار البعث والقيامة .

ثم قال تعالى (وما لهم بذلك من علم إن هم إلا يظنون) والمعنى أن قبل النظر ومعرفة الدليل الاحتمالات بأسرها قائمة ، فالذى قالوه يحتمل وضده أيضاً يحتمل ، وذلك هو أن يكون القول بالبعث والقيامة حقاً ، وأن يكون القول بوجود الإله الحكيم حقاً ، فإنهم لم يذكروا شبهة ضعيفة ولا قوية فى أن هذا الاحتمال الثانى باطل ، ولكنه خطر ببالهم ذلك الاحتمال الأول فجزموا به وأصروا عليه من غير حجة ولا بينة ، فثبت أنه ليس علم ولا جزم ولا يقين فى صحة القول الذى اختاروه بسبب الظن والحسبان وميل القلب إليه من غير موجب ، وهذه الآية من أقوى الدلائل على أن القول بغير حجة وبينة قول باطل فاسد ، وأن متابعة الظن والحسبان منكر عند الله تعالى .

ثم قال تعالى (وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات ما كان حجتهم إلا أن قالوا ائتوا بآبائنا إن كنتم صادقين) وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قرىء حجتهم بالنصب والرفع على تقديم خبر كان وتأخيره .

﴿ المسألة الثانية ﴾ سمى قولهم حجة لوجوه (الأول) أنه فى زعمهم حجة (الثانى) أن يكون المراد من كان حجتهم هذا فليس لهم البتة حجة كقوله : تحية بينهم ضرب وجيع [أى ليس بينهم تحية لمنافاة الضرب للتحية] (الثالث) أنهم ذكروها فى معرض الاحتجاج بها .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ أن حجتهم على إنكار البعث أن قالوا لو صح ذلك فائتوا بآبائنا الذين ماتوا ليشهدوا لنا بصحة البعث .

واعلم أن هذه الشبهة ضعيفة جداً ، لأنه ليس كل ما لا يحصل فى الحال وجب أن يكون ممتنع الحصول ، فان حصول كل واحد منا كان معدوماً من الأزل إلى الوقت الذى حصلنا فيه ، ولو كان عدم الحصول فى وقت معين يدل على امتناع الحصول لكان عدم حصولنا كذلك ، وذلك باطل بالاتفاق .

قوله تعالى :﴿ قل الله يحييكم ثم يميتكم ثم يجمعكم إلى يوم القيامة ﴾ فإن قيل هذا الكلام مذكور لأجل جواب من يقول (ماهى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر) فهذا القائل كان منكراً لوجود الإله ولوجود يوم القيامة ، فكيف يجوز إبطال كلامه بقوله (قل الله يحييكم ثم يميتكم) وهل هذا إلا إثبات للشىء بنفسه وهو باطل ، قلنا إنه تعالى ذكر الاستدلال بحدوث الحيوان والإنسان على وجود الفاعل الحكيم فى القرآن مراراً وأطواراً ، فقوله هاهنا (قل الله يحييكم) إشارة إلى تلك الدلائل التى بينها وأوضحها مراراً ، وليس المقصود من ذكر هذا الكلام

وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ
﴿٢٧﴾ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَـٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾
هَـٰذَا كِتَـٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ
ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٠﴾
وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَـٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ
﴿٣١﴾

إثبات الإله بقول الإله ، بل المقصود منه التنبيه على ما هو الدليل الحق القاطع فى نفس الأمر .

ولما ثبت أن الإحياء من الله تعالى ، وثبت أن الإعادة مثل الإحياء الأول ، وثبت أن القادر على الشيء قادر على مثله ، ثبت أنه تعالى قادر على الإعادة ، وثبت أن الإعادة ممكنة فى نفسها ، وثبت أن القادر الحكيم أخبر عن وقت وقوعها فوجب القطع بكونها حقة .

وأما قوله تعالى (ثم يجمعكم إلى يوم القيامة لاريب فيه) فهو إشارة إلى ما تقدم ذكره فى الآية المتقدمة ، وهو أن كونه تعالى ، عادلا خالقاً بالحق منزهاً عن الجور والظلم ، يقتضى صحة البعث والقيامة .

ثم قال تعالى (ولكن أكثر الناس لا يعلمون) أى لكن أكثر الناس لا يعلمون دلالة حدوث الإنسان والحيوان والنبات على وجود الإله القادر الحكيم ، ولا يعلمون أيضاً أنه تعالى لما كان قادراً على الإيجاد ابتداء وجب أن يكون قادراً على الإعادة ثانياً .

قوله تعالى : ﴿ ولله ملك السموات والأرض ويوم تقوم الساعة يومئذ يخسر المبطلون ، وترى كل أمة جاثية كل أمة تدعى إلى كتابها اليوم تجزون ما كنتم تعملون ، هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون ، فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيدخلهم ربهم فى رحمته ذلك هو الفوز المبين ، وأما الذين كفروا أفلم تكن آياتى تتلى عليكم فاستكبرتم وكنتم قوماً مجرمين ﴾ .

واعلم أنه تعالى لما احتج بكونه قادراً على الإحياء فى المرة الأولى ، وعلى كونه قادراً على الإحياء فى المرة الثانية فى الآيات المتقدمة ، عمم الدليل فقال (ولله ملك السموات والأرض) أى

لله القدرة على جميع الممكنات سواء كانت من السموات أو من الأرض ، وإذا ثبت كونه تعالى قادراً على كل الممكنات ، وثبت أن حصول الحياة فى هذه الذات ممكن ، إذ لو لم يكن ممكناً لما حصل فى المرة الأولى فيلزم من هاتين المقدمتين كونه تعالى قادراً على الإحياء فى المرة الثانية .

ولما بين تعالى إمكان القول بالحشر والنشر بهذين الطريقين ، ذكر تفاصيل أحوال القيامة (فأولها) قوله تعالى (ويوم تقوم الساعة يومئذ يخسر المبطلون) وفيه أبحاث :

﴿ البحث الأول ﴾ عامل النصب فى يوم تقوم يخسر ، ويومئذ بدل من يوم تقوم

﴿البحث الثانى﴾ قد ذكرنا فى مواضع من هذا الكتاب أن الحياة والعقل والصحة كأنها رأس المال ، والتصرف فيها لطلب سعادة الآخرة يجرى مجرى تصرف التاجر فى رأس المال لطلب الربح ، والكفار قد أتعبوا أنفسهم فى هذه التصرفات وماوجدوا منها إلا الحرمان والخذلان فكان ذلك فى الحقيقة نهاية الخسران (وثانيها) قوله تعالى (وترى كل أمة جاثية) قال الليث الجثوا الجلوس على الركب كما يجثى بين يدى الحاكم ، قال الزجاج ومثله جذا يجذو ، قال صاحب الكشاف : وقرىء جاذية ، قال أهل اللغة والجذو أشد استيفازاً من الجثو ، لأن الجاذى هو الذى يجلس على أطراف أصابعه ، وعن ابن عباس جاثية مجتمعة مرتقبة لما يعمل بها .

ثم قال تعالى (كل أمة تدعى إلى كتابها) على الابتداء وكل أمة على الإبدال من كل أمة ، وقوله (إلى كتبها) أى إلى صحائف أعمالها ، فاكتفى باسم الجنس كقوله تعالى (ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه) والظاهر أنه يدخل فيه المؤمنون والكافرون لقوله تعالى بعد ذلك (فأما الذين آمنوا) .

ثم قال تعالى (وأما الذين كفروا) فإن قيل الجثو على الركبة إنما يليق بالخائف والمؤمنون لاخوف عليهم يوم القيامة ، قلنا إن المحق الآمن قد يشارك المبطل فى مثل هذه الحالة إلى أن يظهر كونه محقاً .

ثم قال تعالى (اليوم تجزون) والتقدير يقال لهم اليوم تجزون ، فإن قيل كيف أضيف الكتاب إليهم وإلى الله تعالى ؟ قلنا لامنافاة بين الأمرين لأنه كتابهم بمعنى أنه الكتاب المشتمل على أعمالهم وكتاب الله بمعنى أنه هو الذى أمر الملائكة بكتبه (ينطق عليكم) أى يشهد عليكم بما عملتم من غير زيادة ولا نقصان (إنا كنا نستنسخ) الملائكة (ما كنتم تعملون) أى نستكتبهم أعمالكم .

ثم بين أحوال المطيعين فقال (فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيدخلهم ربهم فى رحمته ذلك هو الفوز المبين) وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ ذكر بعد وصفهم بالإيمان كونهم عاملين للصالحات ، فوجب أن يكون عمل الصالحات مغايراً للايمان زائداً عليه .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قالت المعتزلة علق الدخول فى رحمة الله على كونه آتياً بالإيمان والأعمال

وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴿٣٢﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٣﴾ وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَـٰذَا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ﴿٣٤﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ

الصالحة ، والمعلق على مجموع أمرين يكون عدماً عند عدم أحدهما ، فعند عدم الأعمال الصالحة وجب أن لا يحصل الفوز بالجنة (وجوابنا) أن تعليق الحكم على الوصف لا يدل على عدم الحكم عند عدم الوصف .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ سمى الثواب رحمة والرحمة إنما تصح تسميتها بهذا الإسم إذا لم تكن واجبة ، فوجب أن لا يكون الثواب واجباً على الله تعالى .

ثم قال تعالى (وأما الذين كفروا أفلم تكن آياتى تتلى عليكم فاستكبرتم وكنتم قوماً مجرمين) وفيه مسائل :

(المسألة الأولى) ذكر الله المؤمنين والكافرين ولم يذكر قسما ثالثاً وهذا يدل على أن مذهب المعتزلة إثبات المنزلتين باطل .

﴿ المسألة الثانية ﴾ أنه تعالى علل أن استحقاق العقوبة بأن آياته تليت عليهم فاستكبروا عن قبولها ، وهذا يدل على استحقاق العقوبة لا يحصل إلا بعد مجىء الشرع ، وذلك يدل على أن الواجبات لا تجب إلا بالشرع ، خلافاً لما يقوله المعتزلة من أن بعض الواجبات قد يجب بالعقل .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ جواب (أما) محذوف والتقدير (وأما الذين كفروا) فيقال لهم (أفلم تكن آياتى تتلى عليكم فاستكبرتم) عن قبول الحق (وكنتم قوماً مجرمين) فإن قالوا كيف يحسن وصف الكافر بكونه مجرماً فى معرض الطعن فيه والذم له ؟ قلنا معناه أنهم مع كونهم كفاراً ماكانوا عدولا فى أديان أنفسهم ، بل كانوا فساقاً فى ذلك الدين والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وإذا قيل إن وعد الله حق والساعة لاريب فيها قلتم ماندرى ما الساعة إن ظن إلا ظناً وما نحن بمستيقنين ، وبدالهم سيئات ماعملوا وحاق بهم ماكانوا به يستهزئون ، وقيل اليوم ننسا كم كما نسيتم لقاء يومكم هـذا ومأوا كم النار وما لكم من ناصرين ، ذلكم بأنكم اتخذتم آيات

ٱلدُّنْيَا فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٣٥﴾ فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾

الله هزواً وغرتكم الحياة الدنيا فاليوم لايخرجون منها ولا هم يستعتبوا ، فلله الحمد رب السموات ورب الأرض رب العالمين ، وله الكبرياء فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم ﴾ .

وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قرىء والساعة رفعاً ونصباً قال الزجاج من نصب عطف على الوعد ومن رفع فعلى معنى وقيل (الساعة لا ريب فيها) قال الأخفش الرفع أجود فى المعنى وأكثر فى كلام العرب ، إذا جاء بعد خبر إن لأنه كلام مستقل بنفسه بعد مجىء الكلام الأول بتمامه .

﴿ المسألة الثانية ﴾ حكى الله تعالى عن الكفار أنهم إذا قيل إن وعد الله بالثواب والعقاب حق وإن الساعة آتية لاريب فيها قالوا (ما ندرى ما الساعة إن نظن إلا ظناً وما نحن بمستيقنين) .

أقول الأغلب على الظن أن القوم كانوا فى هذه المسألة على قولين منهم من كان قاطعاً بنفى البعث والقيامة ، وهم الذين ذكرهم الله فى الآية المتقدمة بقوله (وقالوا ما هى إلا حياتنا الدنيا) ومنهم من كان شاكاً متحيراً فيه ، لأنهم لكثرة ماسمعوه من الرسول ﷺ ، ولكثرة ما سمعوه من دلائل القول بصحته صاروا شاكين فيه وهم الذين أرادهم الله بهذه الآية ، والذى يدل عليه أنه تعالى حكى مذهب أولئك القاطعين ، ثم أتبعه بحكاية قول هؤلاء فوجب كون هؤلاء مغايرين للفريق الأول .

ثم قال تعالى (وبدا لهم) أى فى الآخرة (سيئات ما عملوا) وقد كانوا من قبل يعدونها حسنات فصار ذلك أول خسرانهم (وحاق بهم ماكانوا به يستهزئون) وهذا كالدليل على أن هذه الفرقة لما قالوا (إن نظن إلا ظناً) إنما ذكروه على سبيل الاستهزاء والسخرية ، وعلى هذا الوجه فهذا الفريق شر من الفريق الأول ، لأن الأولين كانوا منكرين وماكانوا مستهزئين ، وهذا الفريق ضموا إلى الإصرار على الإنكار الاستهزاء .

ثم قال تعالى (وقيل اليوم ننساكم كما نسيتم لقاء يومكم هذا) وفى تفسير هذا النسيان وجهان (الأول) نترككم فى العذاب كما تركتم الطاعة التى هى الزاد ليوم المعاد (الثانى) نجعلكم بمنزلة الشىء المنسى غير المبالى به ، كما لم تبالوا أنتم بلقاء يومكم ولم تلتفتوا إليه بل جعلتموه كالشىء الذى يطرح نسياً منسياً ، فجمع الله تعالى عليهم من وجوه العذاب الشديد ثلاثة أشياء (فأولها) قطع رحمة الله تعالى عنهم بالكلية (وثانيها) أنه يصير مأواهم النار (وثالثها) أن لايحصل لهم أجر من الأعوان

والأنصار ، ثم بين تعالى أنه يقال لهم إنكم إنما صرتم مستحقين لهذه الوجوه الثلاثة من العذاب الشديد ، لأجل أنكم أتيتم بثلاثة أنواع من الأعمال القبيحة (فأولها) الإصرار على إنكار الدين الحق (وثانيها) الاستهزاء به والسخرية منه ، وهذان الوجهان داخلان تحت قوله تعالى (ذلكم بأنكم اتخذتم آيات الله هزواً) و (ثالثها) الاستغراق فى حب الدنيا والإعراض بالكلية عن الآخرة ، وهو المراد من قوله تعالى (وغرتكم الحياة الدنيا) .

ثم قال تعالى (فاليوم لايخرجون منها) قرأ حمزة والكسائى (يخرجون) بفتح الياء ، والباقون بضمها (ولا هم يستعتبون) أى ولا يطلب منهم أن يعتبوا ربهم ، أى يرضوه ، ولما تم الكلام فى هذه المباحث الشريفة الروحانية ختم السورة بتحميد الله تعالى : فقال (فلله الحمد رب السموات ورب الأرض رب العالمين) أى فاحمدوا الله الذى هو خالق السموات والأرض ، بل خالق كل العالمين من الأجسام والأرواح والذوات والصفات ، فإن هذه الربوبية توجب الحمد والثناء على كل أحد من المخلوقين والمربوبين .

ثم قال تعالى (وله الكبرياء فى السموات والأرض) وهذا مشعر بأمرين (أحدهما) أن التكبير لابد وأن يكون بعد التحميد ، والإشارة إلى أن الحامدين إذا حمدوه وجب أن يعرفوا أنه أعلى وأكبر من أن يكون الحمد الذى ذكروه لائقاً بإنعامه ، بل هو أكبر من حمد الحامدين ، وأياديه أعلى وأجل من شكر الشاكرين (والثانى) أن هذا الكبرياء له لا لغيره ، لأن واجب الوجود لذاته ليس إلا هو .

ثم قال تعالى (وهو العزيز الحكيم) يعنى أنه لكمال قدرته يقدر على خلق أى شىء أراد ، ولكمال حكمته يخص كل نوع من مخلوقاته بآثار الحكمة والرحمة والفضل والكرم ، وقوله (وهو العزيز الحكيم) يفيد الحصر ، فهذا يفيد أن الكامل فى القدرة وفى الحكمة وفى الرحمة ليس إلا هو ، وذلك يدل على أنه لا إله للخلق إلا هو ، ولا محسن ولا متفضل إلا هو .

قال مولانا رضى الله عنه : تم تفسير هذه السورة يوم الجمعة بعد الصلاة الخامس عشر من ذى الحجة سنة ثلاث وستمائة ، والحمد لله حمداً دائماً طيباً مباركا مخلداً مؤبداً ، كما يليق بعلو شأنه وباهر برهانه وعظيم إحسانه ، والصلاة على الأرواح الطاهرة المقدسة من ساكنى أعالى السموات ، وتخوم الأرضين ، من الملائكة والأنبياء والأولياء والموحدين ، خصوصاً على سيدنا ونبينا محمد وآله وصحبه أجمعين .

تم الجزء السابع والعشرون ، ويليه الجزء الثامن والعشرون وأوله سورة الأحقاف

سورة الجاثية

مكيَّةٌ كلُّها في قول الحسن [وعطاء] وجابر وعكرمة. وقال ابن عباس وقتادة: إلَّا آية، هي: ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾ [الآية: ١٤] نزلت بالمدينة في عمرَ بن الخطاب ﷺ؛ ذكره الماوردي[١].

وقال المهدوي والنَّحَّاس عن ابن عباس: إنَّها نزلت في عمر ﷺ، شتَمه رجلٌ من المشركين بمكَّة قبل الهجرة، فأراد أنْ يبطش به، فأنزل الله عزَّ وجلَّ: ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾. ثم نُسِخت بقوله: ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾[٢] [التوبة: ٥]. فالسورةُ كلُّها مكيةٌ على هذا من غير خلاف. وهي سبعٌ وثلاثون آية. وقيل: ست[٣].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢﴾

قوله تعالى: ﴿حمٓ﴾ مبتدأ، و﴿تَنزِيلُ﴾ خبرُه. وقال بعضهم: «حم» اسم السورة، و«تَنْزِيلُ الْكِتَابِ» مبتدأ، وخبره «مِنَ اللَّهِ».

و«الكتاب»: القرآن. و«الْعَزِيزِ»: المنيع. «الحكِيم» في فعله. وقد تقدَّم جميعُ هذا[٤].

---

(١) في النكت والعيون ٥ / ٢٦٠، وما سلف بين حاصرتين منه.

(٢) أخرجه النحاس في الناسخ والمنسوخ ٢/ ٦٢٥، وسيتكلم المصنف عليه ١٩/ ١٥٠.

(٣) الكشاف ٣/ ٥٠٨.

(٤) ١/ ٤٢٩، ٢/ ٤٠٣ - ٤٠٤.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٣ وَفِي خَلۡقِكُمۡ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٞ لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ۝٤ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزۡقٖ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٞ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ۝٥﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: في خلقهما ﴿لَأٓيَٰتٖ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ . وَفِي خَلۡقِكُمۡ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٞ لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ . وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزۡقٖ﴾ يعني المطر. ﴿فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٞ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾ تقدَّم جميعه مستوفًى في «البقرة» وغيرها[١].

وقراءةُ العامَّة: ﴿وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٞ﴾ ﴿وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٞ﴾ بالرفع فيهما. وقرأ حمزةُ والكسائيّ بكسر التاء فيهما[٢].

ولا خلاف في الأوَّل أنَّه بالنصب على اسم «إنَّ»، وخبرُها «في السَّماوَاتِ». ووجه الكسر في «آيات» الثاني العطفُ على ما عملت فيه؛ التقدير: إنَّ في خلقكم وما يبثُّ منْ دابَّةٍ آياتٍ.

فأمَّا الثالث فقيل: إنَّ وجهَ النصب فيه تكريرُ «آيات» لمَّا طال الكلام؛ كما تقول: ضربتُ زيداً زيداً[٣].

وقيل: إنَّه على الحمل على ما عملَتْ فيه «إنَّ» على تقدير حذف «في»؛ التقدير: وفي اختلاف الليل والنهار آياتٍ. فَحُذِفت «في» لتقدُّم ذكرها. وأنشد سيبويه في الحذف[٤]:

---

(١) ٢/ ٤٩٠ وما بعدها، و١٦/ ٤٦٦ .

(٢) السبعة ص ٥٩٤ ، والتيسير ص ١٩٨ .

(٣) ويكون قوله تعالى: ﴿وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ معطوفاً على ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ . كما ذكر مكي في مشكل إعراب القرآن ٢/ ٦٦٠ ، ومثّل له بقوله: ما زيدٌ قائماً ولا جالساً زيدٌ، فنصب جالساً على أن زيداً الأخير هو الأول، ولكن أظهرته ثانيةً للتأكيد. ومثَّل له العكبري في الإملاء ٢/ :٢٣٢ بقوله: إن بثوبك دماً وبثوب زيد دماً. فدم الثاني مكرر؛ لأنك مستغنٍ عن ذكره.

(٤) الكتاب ١/ ٦٦ ، ونسبه لأبي دؤاد.

أَكُلَّ امرئٍ تَحْسِبِينَ امرأً ونارٍ تَوَقَّدُ بالليلِ نارا

فحذفَ «كلّ» المضاف إلى نارِ المجرورة لتقدُّمِ ذكرها.

وقيل: هو من باب العطف على عاملين. ولم يُجِزْه سيبويه، وأجازَه الأخفش وجماعةٌ من الكوفيين؛ فعطفَ «واختِلَافِ» على قوله: «وفي خَلْقِكُمْ» ثم قال: «وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٍ» فيحتاجُ إلى العطف على عاملين، والعطف على عاملين قبيحٌ من أجل أنَّ حروفَ العطف تنوب منابَ العامل، فلم تَقْوَ أنْ تنوبَ مناب عاملين مختلفين؛ إذْ لو نابَ مناب رافعٍ وناصب، لكان رافعاً ناصبًا في حال.

وأمَّا قراءةُ الرفع فحملاً على موضع «إنّ» مع ما عملت فيه.

وقد ألزم(١) النحويون في ذلك أيضاً العطفَ على عاملين؛ لأنَّه عَطَف(٢) «وَاخْتِلَافِ» على «وفِي خَلْقِكُمْ»، وعطف «آيات» على موضع «آيات» الأوَّل، ولكنَّه يقدَّر على تكرير «في».(٣)

ويجوزُ أنْ يُرفَع على القطع ممَّا قبلَه فيرفع بالابتداء، وما قبلَه خبره، ويكون عطفَ جملةٍ على جملة. وحكى الفرَّاء رفع «واختِلاف» و«آيات» جميعاً، وجعلَ الاختلاف هو الآيات(٤).

قوله تعالى: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ۝٦﴾

قوله تعالى: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ﴾ أي: هذه آياتُ الله، أي: حُجَجُه وبراهينُه الدالَّةُ على وحدانيته وقدرته.

---

(١) في (د) و(ز) و(ق): التزمت، وفي (ظ): التزم.

(٢) بعدها في النسخ الخطية: على.

(٣) ينظر معاني القرآن للزجاج ٤/ ٤٣٢، والبيان لأبي البركات ابن الأنباري ٢/ ٣٦٣.

(٤) معاني القرآن للفراء ٣/ ٤٥. ونقله عنه النحاس في إعراب القرآن له ٤/ ١٤١ وقال: وقد كفى المؤونة فيه بأن قال: ولم أسمع أحداً قرأ به.

﴿نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ﴾ أي: بالصِّدق الذي لا باطلَ ولا كذب فيه. وقُرِئ: «يَتْلُوهَا» بالياء[(١)].

﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ﴾ أي: بعدَ حديث الله، وقيل: بعدَ قرآنه[(٢)] ﴿وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾ وقراءةُ العامَّة بالياء على الخبر، وقرأ ابنُ مُحَيْصن، وأبو بكر عن عاصم، وحمزةُ، والكسائيُّ: «تُؤْمِنُونَ» بالتاء على الخطاب[(٣)].

قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ۝٧ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ اللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٨﴾

قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ «وَيْلٌ» وادٍ في جهنم[(٤)]. توعَّد من ترك الاستدلال بآياته. والأفَّاك: الكذَّاب، والإفكُ: الكذب. «أثيم» أي: مرتكبٌ للإثم[(٥)]. والمراد فيما رُوِيَ: النضرُ بن الحارث[(٦)]. وعن ابن عباس أنَّه الحارثُ بن كَلَدة[(٧)]. وحكى الثعلبيُّ أنَّه أبو جهل[(٨)] وأصحابه.

﴿يَسْمَعُ ءَايَٰتِ اللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ﴾ يعني آيات القرآن. ﴿ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا﴾ أي: يتمادى على

---

(١) ذكرها الزمخشري في الكشاف ٣/ ٥٠٩، وهي قراءة شاذة.

(٢) ينظر الكشاف ٣/ ٥٠٩.

(٣) وهي قراءة ابن عامر ـ من السبعة ـ أيضاً. السبعة ص ٥٩٤، والتيسير ص ١٩٨.

(٤) قطعة من حديث أخرجه أحمد (١١٧١٢) عن أبي سعيد الخدري. وإسناده ضعيف. وسلف ٢/ ٢٢٠ - ٢٢١.

(٥) في (ظ): الإثم.

(٦) ذكر هذا القول أبو الليث في تفسيره ٣/ ٢٢٣، ونسبه الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٢٦٣ لابن جريج.

(٧) قول ابن عباس كما في إعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٤٢: أن الآية نزلت في النضر بن كلدة، وفي زاد المسير ٧/ ٣٥٥ عن ابن عباس أيضاً أنها نزلت في النضر بن الحارث.

(٨) وذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٨١، وذكر القول الآخر في أنها نزلت في النضر بن الحارث. ثم قال: والصواب أن سببها ما كان المذكوران وغيرهما يفعل، وأنها تعم كل من دخل تحت الأوصاف المذكورة إلى يوم القيامة.

كفره متعظِّمًا في نفسه عن الانقياد(١)؛ مأخوذٌ من صرَّ الصُّرة: إذا شدَّها. قال معناه ابن عباس وغيره(٢).

وقيل: أصلُه من إصرار الحمار على العانة(٣)، وهو أنْ ينحنيَ عليها صارًّا أذنيه.

و«أنْ» من «كأَنْ» مخففةٌ من الثقيلة؛ كأنَّه لم يسمعها، والضميرُ ضميرُ الشأن؛ كما في قوله:

كأَنْ ظَبْيَةً تَعْطُو إلى ناضر السَّلَمْ(٤)

ومحل الجملة النصب [على الحال]، أي يُصِرُّ مثلَ غير السامع(٥). وقد تقدَّم في أوَّل «لقمان» القولُ في معنى هذه الآية(٦). وتقدَّم معنى ﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ في «البقرة»(٧).

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝٩ مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ ۖ وَلَا يُغْنِى عَنْهُم مَّا كَسَبُوا۟ شَيْـًٔا وَلَا مَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝١٠﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا﴾ نحو قوله في الزَّقُّوم: إنَّه الزُّبدُ

(١) مجمع البيان ٢٥/ ١٢٧ .

(٢) النكت والعيون ٥/ ٢٦١ . وفيه أن قائله ابن عيسى . بدل : ابن عباس .

(٣) العانة : الأتان . القاموس المحيط (عون) .

(٤) هو عجز بيت صدره : ويوماً توافينا بوجه مُقَسَّمٍ . نسبه سيبويه في الكتاب ٢/ ١٣٤ لابن صريم اليشكري ، ونسبه صاحب الأصمعيات ص ١٥٧ لعِلْبَاء بن أرقم . وتعطو : تناول ، يقال: عطا يعطو ، إذا تناول . ويروى : وارق السلم . بدل : ناضر . وناضر من النضارة ، وهي الحسن وأراد به خضرته . والسَلَم : ضربٌ من شجر البادية يعظم وله شوك ، واحدته سَلَمة . ينظر خزانة الآداب ١٠/ ٤١٦ .

(٥) الكشاف ٣/ ٥٠٩ . وما سلف بين حاصرتين منه، وتفسير الرازي ٢٧/ ٢٦١ .

(٦) ١٦/ ٤٦٥ .

(٧) ١/ ٣٠١ ، ٣٥٨ .

والتمر[١]، وقوله في خزنة جهنم: إنْ كانوا تسعةَ عشر فأنا ألقاهُم وحدي[٢]. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ مُذِلٌّ مخزٍ.

﴿مِّن وَرَآئِهِمۡ جَهَنَّمُۖ﴾ أي: من وراء ما هم فيه من التعزُّز في الدنيا والتكبُّر عن الحقِّ جهنمُ[٣]. وقال ابن عباس: ﴿مِّن وَرَآئِهِمۡ جَهَنَّمُۖ﴾ أي: أمامهم[٤]، نظيره: ﴿مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسۡقَىٰ مِن مَّآءٖ صَدِيدٖ﴾ [إبراهيم:١٦] أي: من أمامه. قال:

ألَيسَ ورائي إنْ تراخت منيَّتي أَدُبُّ مع الولدان أزْحَفُ كالنَّسْرِ[٥]

﴿وَلَا يُغۡنِي عَنۡهُم مَّا كَسَبُواْ شَيۡـٔٗا﴾ أي: من المال والولد؛ نظيره: ﴿لَن تُغۡنِيَ عَنۡهُمۡ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗاۖ﴾ [آل عمران:١٠][٦].

﴿وَلَا مَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡلِيَآءَۖ﴾ يعني: الأصنام. ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ أي: دائمٌ مؤلم.

قوله تعالى: ﴿هَٰذَا هُدٗىۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ لَهُمۡ عَذَابٞ مِّن رِّجۡزٍ أَلِيمٌ ١١﴾

قوله تعالى: ﴿هَٰذَا هُدٗىۖ﴾ ابتداءٌ وخبر؛ يعني القرآن. وقال ابن عباس: يعني كلَّ ما جاء به محمدٌ ﷺ. ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ﴾ أي: جحدوا دلائله.

﴿لَهُمۡ عَذَابٞ مِّن رِّجۡزٍ أَلِيمٌ﴾ الرجز: العذاب، أي: لهم عذابٌ من عذابٍ أليم؛

---

(١) القائل أبو جهل كما أخرجه الطبري ١٤/٦٤٨ عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) وهو حكاية عن استهزاء أبي جهل بالخَزَنة التسعة عشر أخرجه الطبري ٢٣/٤٣٦ عن ابن عباس وقتادة وابن زيد، ولفظ رواية ابن عباس أنَّ أبا جهل قال لقريش: أسمع ابن أبي كبشة يخبركم أنَّ خزنة النار تسعة عشر، وأنتم الدَّهم، أفيعجز كلُّ عشرة منكم أن يبطشوا برجلٍ من خزنة جهنم؟...

(٣) مجمع البيان ٢٥/١٢٧.

(٤) ذكره الواحدي في الوسيط ٤/٩٥.

(٥) ذكره الزمخشري في الكشاف ٣/٥١٠. دون نسبة. والشطر الأول صدر بيت للبيد، وعجزه: لزومُ العصا تُحنى عليها الأصابعُ. وهو في ديوانه ص ١٧٠، وسلف ١٢/١٢٠.

(٦) بعدها في (د) و(ز) و(م): أي من المال والولد.

دليله قوله تعالى: ﴿فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [البقرة: ٥٩] أي: عذاباً. وقيل: الرِّجز القذَر مثل الرِّجس؛ وهو كقوله تعالى: ﴿وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ﴾ [إبراهيم: ١٦] أي: لهم عذابٌ مِن تَجرُّع الشراب القذِر(١).

وضمَّ الراءَ من الرِّجز ابنُ محيصن حيث وقع(٢). وقرأ ابنُ كثير وابن محيصن وحفص: «أَلِيمٌ» بالرفع(٣)؛ على معنى لهم عذابٌ أليمٌ من رجز. الباقون بالخفض نعتاً للرجز.

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ ذكرَ كمالَ قدرته وتمام نعمته على عباده، وبيَّن أنَّه خلقَ ما خلقَ لمنافعهم. ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ يعني: أنَّ ذلك فعلُه وخلقُه وإحسانٌ منه وإنعام. وقرأ ابنُ عباس والجحدريُّ وغيرُهما: «جَمِيعاً مِنَّةً» بكسر الميم وتشديد النون وتنوين الهاء، منصوباً على المصدر(٤). قال أبو عمرو: وكذلك سمعتُ مَسْلَمَة يقرؤُها: «مِنَّةً»(٥) أي: تفضُّلاً وكرمًا. وعن مَسْلَمَة بن مُحارب أيضاً: «جميعًا مَنُّهُ»

(١) الكلام بنحوه في الحجة لأبي علي الفارسي ٦/ ١٧٤ - ١٧٥ ، وينظر ما سلف ٢/ ١٣٤ .

(٢) إتحاف فضلاء البشر ص ١٨٠ .

(٣) السبعة ص ٥٩٤ ، والتيسير ص ١٨٠ . وقراءة ابن محيصن في المحرر الوجيز ٥/ ٨٢ .

(٤) المحتسب ٢/ ٢٦٢ . ونقل ابن عطية في المحرر ٥/ ٨٢ عن أبي حاتم قوله: سند هذه القراءة إلى ابن عباس مظلم .

(٥) لم نقف عليها. وذكر ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٨٢ ، والسمين في الدر المصون ٩/ ٦٤٥ عن مسلمة بن محارب: مِنَّةٌ؛ بكسر الميم ، وبالرفع في التاء . ومسلمة: هو ابن عبد الله بن محارب ، أبو عبد الله الفِهري البصري النحوي ، له اختيار في القراءة . . كان مع ابن إسحاق وأبي عمرو بن العلاء ، وقال مجاهد : كان من العلماء بالعربية . غاية النهاية ٢/ ٢٩٨ .

على إضافة المنِّ إلى هاء الكناية. وهو عند أبي حاتم خبرُ ابتداءٍ محذوف، أي: ذلك، أو هو مَنُّه[(١)]. وقراءة الجماعة ظاهرة. ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجْزِىَ قَوْمًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟﴾ جزم على جواب «قُلْ» تشبيهًا بالشرط والجزاء؛ كقولك: قُمْ تُصِب خيرًا[(٢)]. وقيل: هو على حذف اللام. وقيل: على معنى قل لهم: اغفروا؛ يغفروا؛ فهو جوابُ أمرٍ محذوف؛ دلَّ الكلامُ عليه؛ قاله عليّ بن عيسى واختاره ابن العربيّ[(٣)].

ونزلت الآيةُ بسبب أنَّ رجلاً من قريش شتم عمرَ بن الخطاب، فهمَّ أنْ يبطشَ به. قال ابنُ العربيّ: وهذا لم يصح[(٤)].

وذكر الواحديُّ[(٥)] والقشيريُّ وغيرهما عن ابن عباس أنَّ الآيَةَ نزلت في عمرَ مع عبد الله بن أُبَيّ في غَزْوة بني المُصْطَلِق، فإنَّهم نزلُوا على بئرٍ يُقَال لها: المُرَيْسِيع، فأرسلَ عبدُ الله غلامه ليستقي، وأبطأ عليه فقال: ما حبسَك؟ قال: غلامُ عمرَ بن الخطاب قعد على فم البئر، فما ترك أحداً يستقي حتى ملأ قِربَ النبيِّ ﷺ وقِرَب أبي بكر، وملأ لمولاه. فقال عبد الله: ما مَثَلُنا ومثلُ هؤلاء إلَّا كما قيل: سَمِّن كلبك يأكُلْك. فبلغ عمرَ ﷺ قولُه، فاشتملَ على سيفه يريد التوجُّه إليه ليقتلَه؛ فأنزلَ الله هذه الآية. هذه روايةُ عطاء عن ابن عباس.

---

(١) المحتسب ٢/ ٢٦٢.

(٢) معاني القرآن للفراء ٣/ ٤٦، وإعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٤٣.

(٣) نقله عن علي بن عيسى النحاسُ في إعراب القرآن ٤/ ١٤٣، واختيار ابن العربي في أحكام القرآن ٤/ ١٦٨١.

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٦٨١، وسلف الخبر في سبب النزول ص١٤٣ من هذا الجزء.

(٥) في أسباب النزول ص٤٠١.

ورَوى عنه ميمونُ بن مِهران قال: لمَّا نزلت ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [البقرة: ٢٤٥] قال يهوديٌّ بالمدينة يقالُ له فِنحاص: احتاج ربُّ محمد! قال: فلمَّا سمع عمرُ بذلك اشتملَ على سيفه وخرج في طلبه، فجاءَ جبريلُ عليه السلام إلى النبيِّ ﷺ فقال: إنَّ ربّك يقول لك: ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾. واعلم أنَّ عمرَ قد اشتملَ على سيفه، وخرجَ في طلب اليهوديّ؛ فبعثَ رسولُ الله ﷺ في طلبه، فلمَّا جاء قال: «يا عمر، ضَعْ سيفك» قال: يا رسول الله، صدقت، أشهدُ أنَّك أُرسِلت بالحق. قال: «فإنَّ ربك يقول: ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾ قال: لا جرم! والذي بعثك بالحق لا ترى الغضب في وجهي»[١].

قلت: وما ذكره المهدويُّ والنَّحّاس[٢] فهو رواية الضَّحَّاك عن ابن عباس، وهو قول القُرَظيّ والسُّدِّي[٣]، وعليه يتوجَّه النسخُ في الآية. وعلى أنَّ الآيةَ نزلت بالمدينة، أو في غزوة بني المُصْطَلِق؛ فليست بمنسوخة.

ومعنى «يَغْفِرُوا»: يعفوا ويتجاوزوا. ومعنى «لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللهِ»: أي: لا يرجون ثوابَه. وقيل: أي لا يَخافون بأسَ الله ونِقَمه. وقيل: الرجاءُ بمعنى الخوف؛ كقوله: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ أي: لا تخافون له عظمةً. والمعنى: لا يَخْشَوْن[٤] مثلَ عذاب الأمم الخالية. والأيام يُعبَّر بها عن الوقائع. وقيل: لا يأمُلون نصرَ الله لأوليائه وإيقاعَه بأعدائه[٥]. وقيل: المعنى: لا يخافون البعث.

﴿لِيَجْزِىَ قَوْمًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ قراءةُ العامَّة: «لِيَجْزِيَ» بالياء على معنى: ليجزيَ اللهُ.

---

(١) أسباب النزول للواحدي ص ٤٠١ - ٤٠٢ .

(٢) سلف قولهما أول السورة.

(٣) قولهما كما ذكر البغوي في تفسيره ٤/ ١٥٨ : نزل في أناس من أصحاب رسول الله ﷺ من أهل مكة كانوا في أذىً شديد من المشركين ، من قبل أن يؤمروا بالقتال ، فشكوا ذلك إلى رسول الله ﷺ ؛ فأنزل الله هذه الآية .

(٤) في (م) لا تخشون .

(٥) ينظر الكشاف ٣/ ٥١٠ .

وقرأ حمزةُ والكسائيُّ وابنُ عامر: «لِنَجْزِيَ» بالنون على التعظيم. وقرأ أبو جعفر والأعرجُ وشيبةُ: «لِيُجْزِى» بياءٍ مضمومة، وفتحِ الزاي على الفعل المجهول، «قَوْماً» بالنصب[١]. قال أبو عمرو: وهذا لحنٌ ظاهر. وقال الكسائيُّ: معناه: لِيُجْزَى الجزاءُ قومًا[٢]، نظيره: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُجِّي الْمُؤْمِنِينَ﴾ على قراءة ابن عامر وأبي بكر في سورة الأنبياء [الآية:٨٨][٣]. قال الشاعر:

ولــو وَلَــدَتْ قُـفَـيْـرَةُ جَـرْوَ كَـلْـبٍ ... لَـسُـبَّ بـذلـك الـجَـرْوِ الـكـلابـا[٤]

أي: لَسُبَّ السَّبُّ.

قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١٥﴾﴾

تقدَّم[٥].

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ۖ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ يعني: التوراة. ﴿وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ﴾ الحكم: الفهمُ في الكتاب. وقيل: الحكم على النَّاس والقضاء[٦]. «والنُّبُوَّةَ» يعني: الأنبياء من وقت يوسفَ عليه السلام إلى زمن عيسى عليه السلام.

---

(١) السبعة ص٥٩٥، والتيسير ص١٩٨، والنشر ٢/ ٣٧٢.

(٢) تفسير البغوي ٤/ ١٥٨.

(٣) التيسير ص ١٥٥.

(٤) البيت لجرير، وسلف ١٤/ ٢٧٦.

(٥) عند تفسير الآية (٤٦) من سورة فصلت.

(٦) الكشاف ٣/ ٥١١.

﴿وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ أي: الحلال من الأقوات والثِّمار والأطعمة التي كانت بالشام. وقيل: يعني المَنَّ والسَّلْوَى في التِّيه.

﴿وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: على عالَمِي زمانِهم؛ على ما تقدَّم في «الدخان» بيانه[١].

﴿وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ﴾ قال ابن عباس: يعني أمرَ النبيِّ ﷺ، وشواهدَ نبوَّته بأنَّه يهاجر من تِهامة إلى يَثْرِب، وينصره أهلُ يثرب[٢]. وقيل: بيّناتٍ من الأمرِ: شرائعُ واضحاتٌ في الحلال والحرام ومعجزات.

﴿فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ﴾ يريد يُوشَع بن نُون؛ فآمنَ بعضهم وكفر بعضهم؛ حكاه النقاش[٣]. وقيل: ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ﴾ بنبوَّة النبيِّ ﷺ فاختلفوا فيها.

﴿بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾ أي: حسدًا على النبيِّ ﷺ؛ قال معناه الضحاك[٤]. وقيل: معنى «بَغْيًا»: أي: بَغَى بعضُهم على بعضٍ بطلبِ الفَضْل والرياسة، وقتلوا الأنبياء؛ فكذا مشركو عصرك يا محمد، قد جاءتهم البيِّناتُ، ولكنْ أعرضوا عنها للمنافسة في الرياسة.

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ﴾ أي: يحكم ويَفْصِل ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ في الدنيا.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾﴾

فيه مسألتان:

(١) ص١٢٣ من هذا الجزء.

(٢) تفسير الرازي ٢٧/ ٢٦٥ .

(٣) النكت والعيون ٥/ ٢٦٣ .

(٤) قول الضحاك كما في النكت والعيون ٥/ ٢٦٣ : بغيًا على رسول الله ﷺ في جحود ما في كتابهم من نبوة وصفته.

الأولى: قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ﴾ الشريعة في اللُّغة: المذهبُ والمِلَّة. ويقال لِمَشْرَعة الماء ـ وهي موردُ الشاربة ـ: شريعة[١]. ومنه الشارع؛ لأنَّه طريقٌ إلى المَقْصِد. فالشريعة: ما شَرَع الله لعباده من الدين، والجمعُ الشرائع[٢]. والشرائع في الدين: المذاهبُ التي شَرَعها الله لخلقه. فمعنى: ﴿جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ﴾ أي: على منهاجٍ واضحٍ من أمر الدّين يَشْرَعُ بك إلى الحقّ.

وقال ابن عباس: «عَلَى شَرِيعَةٍ» أي: على هدًى من الأمر. قتادة: الشريعةُ: الأمرُ والنهيُ والحدودُ والفرائض[٣]. مقاتل: البيِّنة؛ لأنَّها طريقٌ إلى الحقّ. الكلبيّ: السُّنَّة؛ لأنَّه يَستنُّ بطريقة مَن قبله من الأنبياء. ابن زيد: الدِّين؛ لأنَّه طريقُ النجاة[٤].

قال ابن العربيّ[٥]: والأمرُ يَرِدُ في اللُّغة بمعنيين: أحدهما: بمعنى الشأن، كقوله: ﴿فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾ [هود: ٩٧]. والثاني: أحد أقسام الكلام الذي يقابله النهي. وكلاهما يصحُّ أنْ يكونَ مرادًا هاهنا؛ وتقديرُه: ثمَّ جعلناك على طريقةٍ من الدين، وهي ملَّة الإسلام؛ كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٣].

ولا خلاف أنَّ الله تعالى لم يُغَاير بين الشرائع في التوحيد والمكارم والمصالح، وإنَّما خالفَ بينها[٦] في الفروع؛ حسبما علمه سبحانه.

الثانية: قال ابنُ العربيّ[٧]: ظنَّ بعضُ من تكلَّم[٨] في العلم أنَّ هذه الآيَةَ دليلٌ

(١) الصحاح (شرع).
(٢) معاني القرآن للنحاس ٦/ ٤٢٤ - ٤٢٥.
(٣) أخرجهما الطبري ٢١/ ٨٥.
(٤) النكت والعيون ٥/ ٢٦٤.
(٥) في أحكام القرآن ٤/ ١٦٨٢.
(٦) في النسخ: بينهما. والمثبت من أحكام القرآن لابن العربي.
(٧) في أحكام القرآن ٤/ ١٦٨٢، وما سيرد بين حاصرتين منه.
(٨) في (د) و(ز) و(ق) و(م): يتكلم.

على أنَّ شَرْعَ مَنْ قَبْلَنا ليس بشرعٍ لنا؛ لأنَّ الله تعلى أفردَ النبيَّ ﷺ وأمته في هذه الآية بشريعة، ولا ننكر[١] أنَّ النبيَّ ﷺ وأمتَه منفردان بشريعة، وإنَّما الخلافُ فيما أخبر النبيُّ ﷺ عنه مِن شرع مَن قبلَنا في مَعرض المدح والثناء [والعظة]، هل يلزمُ اتِّباعه أم لا؟

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ يعني: المشركين. وقال ابن عباس: قُريظة والنَّضِير. وعنه: نزلتْ لمَّا دعته قريشٌ إلى دين آبائه[٢].

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ أي: إنْ اتَّبعتَ أهواءَهم لا يدفعون عنك من عذاب الله شيئاً[٣]. ﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ أي: أصدقاءُ وأنصار وأحباب. قال ابن عباس[٤]: يريد أنَّ المنافقينَ أولياءُ اليهود.

﴿وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ أي: ناصرُهم ومُعِينُهم. والمتَّقون هنا: الذين اتَّقوا الشركَ والمعاصي.

قوله تعالى: ﴿هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ﴾ ابتداءٌ وخبر، أي: هذا الذي أَنْزلتُ عليك براهينُ ودلائلُ ومعالمُ للنَّاس في الحدود والأحكام[٥]. وقُرِئ: «هَذِهِ بَصَائِرُ» أي: هذه الآيات[٦]. ﴿وَهُدًى﴾ أي: رَشَدٌ وطريقٌ يؤدّي إلى الجنَّة لمن أَخَذَ به. ﴿وَرَحْمَةٌ﴾

---

(١) في (خ) و(ظ) و(ق): ينكر.

(٢) ذكره ابن الجوزي في زاد المسير ٧/ ٣٦٠.

(٣) تفسير البغوي ٤/ ١٥٩.

(٤) في (ظ): ابن زيد.

(٥) تفسير البغوي ٤/ ١٥٩.

(٦) الكشاف ٣/ ٥١١، والقراءة المذكورة شاذة.

في الآخرة ﴿لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ﴾ أي: اكتسبوها. والاجتراح: الاكتساب؛ ومنه الجوارح[١]، وقد تقدَّم في المائدة[٢].

﴿أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ قال الكلبيّ: «الَّذِينَ اجْتَرَحُوا» عُتبةُ وشَيبةُ ابنا ربيعة والوليدُ بن عُتبة. و«الَّذِينَ آمَنُوا» عليٌّ وحمزةُ وعُبيدةُ بن الحارث ﷺ حين بَرزُوا إليهم يومَ بدرٍ فقتلوهم[٣]. وقيل: نزلت في قومٍ من المشركين قالوا: إنَّهم يُعطَون في الآخرة خيرًا مما يُعطَاه المؤمن[٤]؛ كما أخبر الربُّ عنهم في قوله: ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَىٰ﴾ [فصلت: ٥٠].

وقوله: «أَمْ حَسِبَ» استفهامٌ معطوفٌ معناه الإنكار. وأهلُ العربيةُ يُجوِّزون ذلك من غير عطف إذا كان متوسطاً للخطاب. وقوم يقولون: فيه إضمار، أي: والله وليُّ المتقين؛ أفيعلمُ المشركون ذلك؛ أم حسبوا أنَّا نسوِّي بينهم.

وقيل: هي أم المنقطعة، ومعنى الهمزة فيها إنكار الحُسبان[٥]. وقراءةُ العامَّة: «سَوَاءٌ» بالرفع على أنَّه خبرُ ابتداءٍ مقدَّم، أي: محياهم ومماتهم سواء. والضمير في «مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ» يعود على الكفار[٦]، أي: محياهم محيا سوء، ومماتهم كذلك.

(١) الكشاف ٣/ ٥١١ .

(٢) ٧/ ٣٠٠ .

(٣) النكت والعيون ٥/ ٢٦٤ . وخبر المبارزة أخرجه أحمد (٩٤٨) عن علي ﷺ .

(٤) ذكر نحوه البغوي في تفسيره ٤/ ١٥٩ .

(٥) الكشاف ٣/ ٥١١ .

(٦) الكلام بنحوه في مشكل إعراب القرآن ٢/ ٦٦٢ .

وقرأ حمزةُ والكسائيُّ والأعمشُ: «سَوَاءً» بالنصب[١]، واختاره أبو عبيد قال: معناه نجعلهم سواءً[٢]. وقرأ الأعمش أيضًا وعيسى بن عمر: «وَمَمَاتَهم» بالنصب[٣]؛ على معنى سواءً في محياهم ومماتهم؛ فلما أُسقط الخافضُ انتصب. ويجوزُ أنْ يكون «مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ» بدلاً من الهاء والميم في نجعلهم؛ المعنى: أنْ نجعلَ محياهم ومماتَهم سواءً كمحيا الذين آمنوا ومماتِهم[٤]. ويجوزُ أنْ يكون الضميرُ في «مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ» للكفار والمؤمنين جميعًا[٥].

قال مجاهد: المؤمنُ يموت مؤمنًا ويُبعث مؤمنًا، والكافرُ يموت كافرًا ويُبعث كافرًا[٦]. وذكر ابنُ المبارك: أخبرنا شعبةُ، عن عمرو بن مُرَّة، عن أبي الضُّحى، عن مسروق قال: قال رجلٌ من أهل مكَّة: هذا مقامُ تميم الداري، لقد رأيتُه ذات ليلةٍ حتى أصبح أو قرب أن يُصبح يقرأُ آيةً من كتاب الله، ويركع، ويسجد، ويبكي: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ الآية كلها[٧].

وقال: نُسَير[٨]: بِتُّ عند الربيع بن خُثَيْم ذاتَ ليلةٍ، فقامَ يُصَلِّي، فمرَّ بهذه الآية، فمكث لَيلَه حتى أصبح لم يَعْدُها ببكاءٍ شديد[٩]. وقال إبراهيم بن الأشعث: كثيرًا

(١) وهي قراءة حفص عن عاصم أيضاً. السبعة ص ٥٩٥، والتيسير ص ١٩٨. وذكرها عن الأعمش ابنُ خالويه في القراءات الشاذة لابن خالويه ص ١٣٨.
(٢) بنحوه في إعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٤٥.
(٣) قراءة الأعمش في القراءات الشاذة ص ١٣٨.
(٤) الكلام بنحوه في معاني القرآن للزجاج ٤/ ٤٣٣، وإعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٤٦ - ١٤٧.
(٥) تفسير البغوي ٤/ ١٥٩.
(٦) تفسير مجاهد ٢/ ٥٩١، وأخرجه الطبري ٢١/ ٨٨ بنحوه.
(٧) الزهد لابن المبارك (٦٤)، وأخرجه الطبراني في المعجم الكبير (١٢٥٠)، وقال ابن حجر في الإصابة ١/ ٣٠٥: رواه البغوي في الجعديات بإسناد صحيح إلى مسروق.
(٨) في النسخ: بشير، والمثبت من المصادر، وهو نُسير بن ذُعْلُوق الثوري مولاهم، أبو طعمة الكوفي. تهذيب التهذيب ٤/ ٢١٦.
(٩) أخرجه ابن أبي شيبة ٢/ ٤٧٧، ١٣/ ٣٩٦.

ما رأيتُ الفُضيلَ بن عياض يردِّد من أوَّل الليل إلى آخره هذه الآية ونظيرَها، ثم يقول: ليت شعري! مِن أيِّ الفريقين أنت[١]؟ وكانت هذه الآية تُسمَّى مَبكاة العابدين[٢]، لأنَّها محكمة.

قوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي: بالأمر الحقّ. ﴿وَلِتُجْزَىٰ﴾ أي: ولكي تُجزى. ﴿كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾ أي: في الآخرة. ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾﴾

قال ابنُ عباس والحسن وقتادة: ذلك الكافر اتَّخذَ دينَه ما يهواه؛ فلا يهوى شيئًا إلَّا ركبه[٣]. وقال عكرمة: أفرأيت من جَعَل إلهه الذي يعبدُه ما يهواه أو يستحسنه؛ فإذا استحسن شيئاً وهَوِيَهُ اتَّخذه إلهًا.

قال سعيدُ بن جُبير: كان أحدُهم يَعبدُ الحجر؛ فإذا رأى ما هو أحسنُ منه رمى به، وعبد الآخر[٤].

وقال مقاتل: نزلت في الحارث بن قيس السهميّ؛ أحد المستهزئين، لأنَّه كان يعبدُ ما تهواه نفسه[٥].

وقال سفيانُ بن عيينة: إنَّما عبدوا الحجارة لأنَّ البيتَ حجارة.

---

(١) ذكرها الزمخشري في الكشاف ٣/ ٥١٢، وابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٨٥ دون نسبة.

(٢) المحرر الوجيز ٥/ ٨٥ ونسب هذا القول للثعلبي.

(٣) تفسير البغوي ٤/ ١٥٩، وينظر النكت والعيون ٥/ ٢٦٤، وأخرج قول ابن عباسٍ وقتادة الطبريُّ ٢١/ ٩٢ - ٩٣.

(٤) النكت والعيون ٥/ ٢٦٥.

(٥) ذكره ابن الجوزي في زاد المسير ٧/ ٣٦٢.

وقيل: المعنى: أفرأيتَ من يَنقادُ لهواه انقياده لإلهه[١] ومعبودِه؛ تعجيباً لذوي العقول من هذا الجهل[٢].

وقال الحسين بن الفضل: في هذه الآية تقديمٌ وتأخير، مجازه: أفرأيتَ من اتَّخذ هواه إلهه.

وقال الشَّعْبيُّ: إنَّما سُمِّي الهوى؛ لأنَّه يهوي بصاحبه في النَّار.

وقال ابنُ عباس: ما ذَكر اللهُ هَوًى في القرآن إلَّا ذمَّه[٣]، قال الله تعالى: ﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ﴾ [الأعراف:١٧٦] وقال تعالى: ﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف:٢٨]. وقال تعالى: ﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ ۖ﴾ [الروم:٢٩]. وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ﴾ [القصص:٥٠]. وقال تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ﴾ [ص:٢٦].

وقال عبد الله بن عمرو بن العاص عن النبيِّ ﷺ: «لا يُؤمن أحدُكم حتى يكون هواه تَبَعاً لما جئتُ به»[٤].

وقال أبو أمامة: سمعتُ النبيَّ ﷺ يقول: «ما عُبِد تحت السماء إلهٌ أبغض إلى الله من الهوى»[٥]. وقال شدَّادُ بن أوس عن النبيِّ ﷺ: «الكَيِّس من دَان نفسَه، وعَمِلَ لِمَا

---

(١) قوله: انقياده لإلهه. من (خ) و(ظ).

(٢) النكت والعيون ٥/ ٢٦٥.

(٣) المحرر الوجيز ٥/ ٨٦. وقول الشعبي السالف منه.

(٤) أخرجه ابن أبي عاصم في السنة (١٥)، والخطيب البغدادي في تاريخ بغداد ٤/ ٣٦٩، والبغوي في شرح السنة ١/ ٢١٣.

قال الإمام النووي: حديث حسن صحيح. وينظر كلام الحافظ ابن رجب في جامع العلوم والحكم ٢/ ٣٩٣ - ٣٩٥.

(٥) أخرجه بهذا اللفظ الواحدي في الوسيط ٤/ ٩٩. وأخرجه بنحوه ابن أبي عاصم في السنة (٣)، والطبراني في الكبير (٧٥٠٢). قال الهيثمي في مجمع الزوائد ١/ ١٨٨: وفيه الحسن بن دينار، وهو متروك الحديث. اهـ. وقال ابن الجوزي في الموضوعات ٢/ ٣٢٦: هذا حديث موضوع على رسول الله ﷺ، وفيه جماعة ضعاف، والحسن بن دينار والخصيب كذابان عند علماء النقل.

بعد الموت. والعاجز[١] من أتْبعَ نفسَه هواها، وتمنَّى على الله»[٢]. وقال عليه الصلاة والسلام: «إذا رأيتَ شُحًّا مطاعًا، وهَوًى مُتَّبَعًا، ودنيا مؤثَرة، وإعجابَ كلِّ ذي رأي برأيه؛ فعليك بخاصَّة نفسك، ودَعْ عنك أمرَ العامَّة»[٣]. وقال ﷺ: «ثلاثٌ مهلكات، وثلاثٌ منجيات، فالمهلكات: شُحٌّ مطاعٌ، وهوًى مُتَّبعٌ، وإعجابُ المرء بنفسه. والمنجياتُ: خشيةُ الله في السرِّ والعلانية، والقصدُ في الغنى والفقر، والعدلُ في الرضا والغضب»[٤]. وقال أبو الدرداء ﵁: إذا أصبحَ الرجلُ، اجتمعَ هواه وعمله وعلمه؛ فإنْ كان عمله تبعًا لهواه فيومُه يومُ سوء، وإنْ كان عملُه تبعًا لعلمه فيومه يوم صالح[٥].

وقال الأصمعي: سمعتُ رجلاً يقول:

إنَّ الـهَـوانَ هـو الـهـوى قُـلِـبَ اسـمُـه ... فـإذا هَـوِيـتَ فـقـد لـقـيـتَ هَـوانـا

وسُئِل ابن المقفَّع عن الهوى فقال: هَوَانٌ سُرقت نونه، فنظمه شاعرٌ فقال[٦]:

نُـونُ الـهَـوانِ مـن الـهَـوَى مسـروقـةٌ ... فـإذا هَـوِيـتَ فـقـد لـقـيـتَ هَـوانـا[٧]

وقال آخر:

إنَّ الـهـوى لـهـو الـهـوانُ بـعـيـنـهِ ... فـإذا هَـوِيـتَ فـقـد كَـسَـبـتَ هَـوانـا

---

(١) في (د) و(ز) و(ق) و(م): الفاجر، وفي (ظ): العاجل، والمثبت من (خ) وهو الموافق للمصادر.

(٢) أخرجه أحمد (١٧١٢٣)، وفي إسناده أبو بكر بن أبي مريم، وهو ضعيف. وسلف بعضه ١/ ٢٢١.

(٣) سلف ٨/ ٢٥٠.

(٤) أخرجه البزار (كشف الأستار) (٨٠)، والطبراني في الأوسط (٥٤٤٨) عن أنس بن مالك ﵁. قال المنذري في الترغيب والترهيب ١/ ٣٦٢: وهو مروي عن جماعة من الصحابة، وأسانيده وإن كان لا يسلم شيء منها من مقال، فهو بمجموعها حسن إن شاء الله تعالى.

(٥) ذكره ابن الجوزي في ذم الهوى ص ٢٢، وصفة الصفوة ١/ ٦٣٦ بنحوه.

(٦) في (م): فأخذه شاعر فنظمه وقال.

(٧) ذم الهوى لابن الجوزي ص٣٣. وهذا البيت نسبه الثعالبي في التمثيل والمحاضرة ص١١٣ لعبيد الله ابن عبد الله بن طاهر.

وإذا هَوِيتَ فقد تعبَّدك الهوى … فاخْضَعْ لِحبِّك كائنًا من كانا[١]

ولعبد الله بن المبارك:

ومن البلاء وللبلاء[٢] علامةٌ … ألَّا يُرى لك عن هواك نزوعُ

العبدُ عبدُ النَّفْس في شهواتها … والحرُّ يشبع تارةً ويجوعُ[٣]

ولابن دُرَيْد:

إذا طالبتك النَّفْسُ يومًا بشهوةٍ … وكان إليها للخلاف طريقُ

فَدَعْها وخالفْ ما هَوِيتَ فإنَّما … هواكَ عدوٌّ والخلافُ صديقُ[٤]

ولأبي عبيد الطُّوسيّ:

والنفسُ إنْ أعطيتَها مُناها … فاغرةٌ نحو هواها فاها[٥]

وقال أحمدُ بن أبي الحَواري: مررتُ براهبٍ فوجدته نحيفًا، فقلت له: أنت عليل؟ قال: نعم. قلت: مذْ كم؟ قال: مذْ عرفتُ نفسي! قلت: فتداوى؟ قال: قد أعياني الدواء وقد عزمتُ على الكيّ. قلت: وما الكَيّ؟ قال: مخالفةُ الهوى[٦].

وقال سهلُ بن عبد الله التُّسْتَرِيّ: هواك داؤُك، فإنْ خالفتَه فدواؤك.

وقال وَهْب: إذا شككتَ في أمرين ولم تدرِ خيرهما، فانظرْ أبعدَهما من هواك فأْته[٧].

---

(١) ذكر الثعالبي في التمثيل والمحاضرة ص ٤٥٤ البيت الثاني، وقبله البيت السالف الذي أوله: نون الهوان...

(٢) في (د) و(ز) و(م): ومن البلايا للبلاء، وفي (خ) و(ق): ومن البلاء للبلاء. والمثبت من (ظ) والمصادر.

(٣) البيتان في بهجة المجالس ٢/٣٠٦، وذم الهوى ص ٣٤.

(٤) البيتان ذكرهما الثعالبي في التمثيل والمحاضرة ص ٤٥٣ دون نسبة. وفيه: فخالف هواها ما استطعت. بدل: فدعها وخالف ما هويت.

(٥) البيت لأبي العتاهية كما في أشعاره وأخباره ص ٤٥٩، وفيه: اتبعتها. بدل: أعطيتها.

(٦) ذم الهوى ص ٢٨.

(٧) المحرر الوجيز ٥/٨٦. ونسب القول الأخير أيضاً لسهل بدل: وهب.

وللعلماء في هذا الباب في ذمِّ الهوى ومخالفته كتبٌ وأبوابٌ أشرنا إلى ما فيه كفايةٌ منه؛ وحسبُك بقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ . فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠-٤١].

قوله تعالى: ﴿وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ أي: على علمٍ قد علمَه منه. وقيل: أضلَّه عن الثواب على علمٍ منه بأنَّه لا يستحقه[١]. وقال ابن عباس: أي على علمٍ قد سبق عنده أنَّه سيَضل. مقاتل: على علمٍ منه أنَّه ضالّ[٢]. والمعنى متقارب. وقيل: على علمٍ من عابد الصنم أنَّه لا ينفع ولا يضر. ثم قيل: «عَلَى عِلْمٍ» يجوزُ أنْ يكون حالاً من الفاعل؛ المعنى: أضلَّه على علمٍ منه به، أي: أضلَّه عالماً بأنَّه من أهل الضَّلال في سابق علمه. ويجوز أنْ يكون حالاً من المفعول؛ فيكون المعنى: أضلَّه في حال علم الكافر بأنَّه ضال.

﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ﴾ أي: طبع على سمعه حتى لا يسمعَ الوعظ، وطبعَ على قلبه حتى لا يفقَه الهدى. ﴿وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً﴾ أي: غطاءً حتى لا يبصر الرشد[٣]. وقرأ حمزةُ والكسائيّ: «غَشْوة» بفتح الغين من غير ألف[٤]، وقد مضى في «البقرة»[٥]. وقال الشاعر:

أمـا والـذي أنـا عـبـدٌ لـه ... يَـمـيـنًـا ومـالَـك أُبـدي الـيـمـيـنـا
لـئـن كـنـتَ ألـبـسـتـنـي غَـشْـوةً ... لـقـد كـنـتُ أصـفـيـتُـك الـوُدَّ حـيـنـا[٦]

﴿فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ﴾ أي: من بعد أنْ أضلَّه. ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾: تتَّعظون وتعرفون

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٤٧-١٤٨.

(٢) النكت والعيون ٥/ ٢٦٥.

(٣) النكت والعيون ٥/ ٢٦٥.

(٤) السبعة ص ٥٩٥، والتيسير ص ١٩٩.

(٥) ١/ ٢٩١ - ٢٩٢.

(٦) لم نقف عليهما.

أنَّه قادرٌ على ما يشاء.

وهذه الآيةُ تردُّ على القدريَّة والإماميَّة ومن سلك سبيلَهم في الاعتقاد؛ إذْ هي مصرِّحةٌ بمنعهم من الهداية.

ثم قيل: ﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ﴾ إنَّه خارجٌ مخرجَ الخبر عن أحوالهم. وقيل: إنَّه خارجٌ مخرجَ الدُّعاء بذلك عليهم[١]؛ كما تقدَّم في أوّل «البقرة»[٢].

وحكى ابنُ جُريج أنَّها نزلت في الحارث بن قيس من الغياطلة[٣].

وحكى النَّقَاش أنَّها نزلت في الحارث بن نوفل بن عبد مناف[٤].

وقال مقاتل: نزلت في أبي جهل، وذلك أنَّه طاف بالبيت ذات ليلةٍ ومعه الوليد ابن المغيرة؛ فتحدَّثا في شأن النبيِّ ﷺ، فقال أبو جهل: والله إني لأعلم إنَّه لَصادق! فقال له: مَهْ! وما دلَّك على ذلك! قال: يا أبا عبد شمس، كنَّا نسمِّيه في صباهُ الصادقَ الأمين؛ فلما تمَّ عقلُه وكَمُل رُشْده، نسمِّيه الكذَّابَ الخائن!! والله إنِّي لأعلم إنَّه لصادق! قال: فما يمنعُك أنْ تصدِّقَهُ وتؤمنَ به؟ قال: تتحدَّثُ عني بناتُ قريش أني قد اتَّبعت يتيمَ أبي طالبٍ من أجل كِسرة، واللاتِ والعُزَّى إنْ اتَّبعتُه أبداً. فنزلت: ﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ﴾[٥].

قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ هذا إنكارٌ منهم للآخرة،

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٢٦٥.

(٢) ١/ ٢٨٤.

(٣) قال ابن دريد في الاشتقاق ١/ ١٢٠ : بنو قيس بن عدي، كانوا من رجال قريش، يلقَّبون الغياطل. وكان قيس بن عدي سيِّد قريش في دهره غير مُدافَع... والغياطل: جمع غيطلة، وهو الشجر الملتف.

(٤) النكت والعيون ٥/ ٢٦٥ ونسب القول الأخير للضحاك بدل النقاش.

(٥) لم نقف عليه.

وتكذيبٌ للبعث، وإبطالٌ للجزاء. ومعنى: «نَمُوتُ وَنَحْيَا» أي: نموتُ نحن وتحيا[١] أولادنا؛ قاله الكلبيّ. وقُرئ: «ونُحْيَا» بضم النون. وقيل: يموتُ بعضنا ويحيا بعضنا. وقيل: فيه تقديم وتأخير، أي: نحيا ونموت؛ وهي قراءة ابن مسعود[٢].

﴿وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ قال مجاهد: يعني السنين والأيام. وقال قتادة: إلّا العمر[٣]؛ والمعنى واحد. وقُرِئ: «إلا دهرٌ يمرّ»[٤].

وقال ابنُ عيينة: كان أهلُ الجاهلية يقولون: الدهرُ هو الذي يُهلكنا، وهو الذي يُحيينا ويُميتنا؛ فنزلتْ هذه الآية[٥]. وقال قُطْرب: وما يُهلكُنا إلّا الموت؛ وأنشد قولَ أبي ذُؤيب:

أَمِنَ المَنُونِ وَرَيْبِها تتوجَّعُ والدّهْرُ ليس بمعْتِبٍ مَنْ يَجْزَعُ[٦]

وقال عكرمة: أي: وما يُهلكُنا إلّا الله[٧]. وروَى أبو هريرة عن النبيِّ ﷺ قال: «كان أهلُ الجاهلية يقولون: ما يهلِكُنا إلّا الليلُ والنَّهار، وهو الذي يهلكُنا ويميتُنا ويحيينا، فيسبُّون الدهرَ. قال الله تعالى: يؤذيني ابنُ آدم يَسُبُّ الدَّهْرَ، وأنا الدَّهْرُ، بيدي الأمرُ، أُقلِّبُ الليلَ والنهار[٨]».

قلت: قوله: قال الله. إلى آخره. نَصُّ البخاريِّ ولفظُه. وخرَّجه مسلمٌ أيضاً

(١) في (د) و(م): يحيا.

(٢) الكلام بنحوه في النكت والعيون ٥/ ٢٦٦.

(٣) أخرجهما الطبري ٢١/ ٩٦.

(٤) هي قراءة ابن مسعود كما في تفسير الطبري ٢١/ ٩٦، والمحرر الوجيز ٥/ ٨٧. وقال ابن خالويه: يهلكنا إلا دهراً؛ ابن مسعود. تأويله إلا دهراً يمر.

(٥) أخرجه ابن حبان (٥٧١٥)، والحاكم ٢/ ٤٥٣.

(٦) النكت والعيون ٥/ ٢٦٦. والبيت في ديوان الهذليين ١/ ١.

(٧) النكت والعيون ٥/ ٢٦٦.

(٨) أخرجه الطبري ٢١/ ٩٧.

وأبو داود[١].

وفي الموطأ عن أبي هريرة أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «لا يقولنَّ أحدُكم: يا خيبةَ الدهر، فإنَّ الله هو الدهر»[٢].

وقد استدلَّ بهذا الحديث من قال: إنَّ الدهرَ من أسماء الله.[٣] وقال من لم يجعلهُ من العلماء اسماً: إنَّما خرج ردًّا على العرب في جاهليتها؛ فإنَّهم كانوا يعتقدونَ أنَّ الدهرَ هو الفاعل، كما أخبر اللهُ عنهم في هذه الآية؛ فكانوا إذا أصابهم ضَرٌّ أو ضَيْمٌ أو مكروه، نَسبوا ذلك إلى الدهر، فقيل لهم على ذلك: لا تسبُّوا الدهرَ؛ فإنَّ الله هو الدهر، أي: إنَّ اللهَ هو الفاعلُ لهذه الأمور التي تضيفونَها إلى الدهر، فيرجعُ السبُّ إليه سبحانه، فَنُهُوا عن ذلك. ودلَّ على صحة هذا ما ذكره من حديث أبي هريرةَ قال: قال رسول الله ﷺ: قال اللهُ تبارك وتعالى: يؤذيني ابنُ آدم ... الحديث[٤]. ولقد أحسنَ من قال، وهو أبو عليٍّ الثقفي:

يا عاتبَ الدهرِ إذا نابَهُ ... لا تَلُمِ الدهرَ على غَدْرِهِ[٥]
الدهرُ مأمورٌ، له آمرٌ ... وينتهي الدهرُ إلى أمرِهِ
كم كافرٍ أموالُه جَمَّةٌ ... تزدادُ أضعافًا على كفرِهِ[٦]
ومؤمنٍ ليس له درهمٌ ... يزداد إيمانًا على فَقْرِهِ[٧]

(١) صحيح البخاري (٤٨٢٦)، وصحيح مسلم (٢٢٤٦): (٢)، وسنن أبي داود (٥٢٧٤)، وهو عند أحمد (٧٢٤٥).
(٢) الموطأ ٢/ ٩٨٤، وأخرجه أيضاً أحمد (٩١١٦)، ومسلم (٢٢٤٦) (٤).
(٣) الصحيح أن الدهر ليس من أسماء الله عز وجل. وانظر كلام المصنف بعده.
(٤) سلف قريباً. والكلام بنحوه في المفهم ٥/ ٥٤٩.
(٥) الشطر الأول في المصادر الآتي ذكرها: يا لائم الدهر إذا ما نبا.
(٦) الشطر الأول في المصادر: كم كافرٍ بالله أمواله.
(٧) روضة العقلاء ص ٢٨٠، وشعب الإيمان ١/ ٢٣٢. ونسب فيه لأحمد بن عبيد الله الدارمي.

وروي أنَّ سالم بن عبد الله بن عمر كان كثيراً ما يذكرُ الدَّهرَ، فزجرهُ أبوه وقال: إيَّاك يا بنيَّ وذِكْرَ الدهر! وأنشد:

فما الدهرُ بالجاني لشيءٍ لحَيْنِه ... ولا جالبَ البَلْوَى فلا تشتم الدَّهْرَا
ولكنْ متى ما يبعثِ الله باعثًا ... على معشرٍ يَجعلْ مياسيرهم عُسْرا

وقال أبو عبيد[1]: ناظرتُ بعضَ المُلْحدة فقال: ألا تراه يقول: «فإنَّ الله هو الدهر»!؟ فقلتُ: وهل كان أحدٌ يسبُّ الله في آباد الدهر، بل كانوا يقولون كما قال الأعشى:

إنَّ مَحَلًّا وإنَّ مُرْتَحَلا ... وإنَّ في السَّفْرِ إذ مَضَوْا مَهَلَا
استأثر اللهُ بالوفاء وبالـ ... ـعَدْل ووَلَّى المَلامَةَ الرَّجُلَا[2]

قال أبو عبيد[3]: ومن شأن العرب أنْ يذمُّوا الدهرَ عند المصائبِ والنوائب؛ حتى ذكروه في أشعارهم، ونسبوا الأحداثَ إليه. قال عمرو بن قميئة[4]:

رمتني بناتُ الدَّهر من حيث لا أرى ... فكيف بمن يُرْمَى وليس برامِ
فلو أنَّها نَبْلٌ إذًا لاتَّقيتُها ... ولكنني أُرْمَى بغير سهامِ
على الراحتين مرَّةً وعلى العصا ... أنُوءُ ثلاثًا بعدهنَّ قيامي

ومثلُه كثيرٌ في الشعر. ينسبون ذلك إلى الدهر، ويضيفونَه إليه، واللهُ سبحانه الفاعلُ لا ربَّ سواه.

﴿وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾ أي: علمٌ. و«مِن» زائدة، أي: قالوا ما قالوا شاكِّين.

﴿إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ أي: ما هم إلَّا يتكلمون بالظَّنّ. وكان المشركونَ أصنافاً؛

---

(١) في غريب الحديث ٢/ ١٤٥ - ١٤٦.
(٢) ديوان الأعشى ص ٢٨٣. وفيه: ما مضى. بدل: إذ مضوا.
(٣) في غريب الحديث ٢/ ١٤٦ - ١٤٧.
(٤) في ديوانه ص ٤٥-٤٦.

منهم هؤلاء، ومنهم من كان يُثْبِتُ الصانعَ وينكر البعث، ومنهم من كان يَشُكُّ في البعث ولا يَقْطعُ بإنكاره.

وحَدَث في الإسلام أقوامٌ ليس يمكنهم إنكارُ البعث خوفًا من المسلمين؛ فيتأوّلون ويرون القيامةَ موتَ البدن، ويرون الثوابَ والعقابَ إلى خيالاتٍ تَقعُ للأرواح بزعمهم، فشرُّ هؤلاء أضرُّ من شرِّ جميع الكفار؛ لأنَّ هؤلاء يُلبِّسونَ على الحقّ، ويُغترُّ بتلبيسهم الظاهر. والمشركُ المجاهرُ بشركه يحذرُه المسلم.

وقيل: نموتُ وتَحيا آثارُنا؛ فهذه حياةُ الذكر. وقيل: أشاروا إلى التناسخ، أي: يموتُ الرَّجل فتجعل روحه في مواتٍ فتحيا به.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ﴾ أي: وإذ تُقرأ على هؤلاء المشركين آياتُنا المنزَّلةُ في جواز البعث، لم يكنْ ثَمَّ دَفْعٌ.

﴿مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ﴾ «حُجَّتَهُمْ» خبرُ كان، والاسم ﴿إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ﴾ الموتى؛ نسألهم عن صدق ما تقولون؛ فردَّ الله عليهم بقوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ﴾ يعني: بعد كونكم نُطَفًا أمواتًا ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ كما أحياكم في الدنيا .﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أنَّ الله يعيدُهم كما بدأهم.

الزمخشريّ: فإن قلتَ: لم سمَّى قولَهم حجةً، وليس بحجة؟ قلت: لأنَّهم أدْلَوْا به كما يُدْلي المحتجُّ بحجَّته، وساقوه مساقَها، فسُمِّيت حجةً على سبيل التَّهكُّم. أو لأنَّه في حسبانهم وتقديرهم حجَّةٌ. أو لأنَّه في أسلوب قولهم[1]:

تَحِيَّةُ بينِهم ضَرْبٌ وَجيعُ[2]

(١) في النسخ عدا (ظ): قوله. والمثبت موافق للكشاف.

(٢) عجز بيت لعمرو بن معدي كرب، وسلف ٣/ ٣٨٩.

كأنَّه قيل: ما كان حجَّتَهم إلَّا ما ليس بحُجَّة. والمراد نفيُ أنْ تكون لهم حجَّةٌ الْبَتَّةَ. فإنْ قلتَ: كيف وقع قولُه: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ﴾ جواباً [لقولهم]: «ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ»؟ قلتُ: لمَّا أنكروا البعثَ، وكذَّبوا الرسلَ، وحسبوا أنَّ ما قالوه قولٌ مُبَكِّتٌ[1]، أُلزِموا ما هم مُقِرُّون به من أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ هو الذي يحييهم ثم يميتهم، وضُمَّ إلى إلزام ذلك إلزامُ ما هو واجبٌ الإقرارُ به إنْ أنصفوا وأصغَوْا إلى داعي الحقِّ، وهو جَمْعُهم إلى[2] يوم القيامة، ومن كان قادراً على ذلك، كان قادراً على الإتيان بآبائهم، وكان أهونَ شيءٍ عليه[3].

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٢٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ﴾ خلْقًا ومُلْكًا.

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ «يَوْمَ» الأوَّل منصوبٌ بـ«يَخْسَرُ»، و«يَوْمَئِذٍ» تكريرٌ للتأكيد[4] أو بدل. وقيل: إنَّ التقدير: وله الملكُ يوم تقوم السَّاعة. والعاملُ في «يَوْمِئذٍ»: «يَخْسَر»، ومفعول «يَخسَرُ» محذوف؛ والمعنى: يخسرون منازلَهم في الجنَّة.

قوله تعالى: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَـٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ﴾ أي: من هول ذلك اليوم. والأُمَّة هنا: أهلُ كلِّ ملَّة. وفي الجاثية تأويلاتٌ خمس.

---

(١) التبكيت: الغَلَبة بالحُجَّة. القاموس (بكت).

(٢) قوله: إلى. ليس في (د) و(م).

(٣) الكشاف ٣/ ٥١٣، وما سلف بين حاصرتين منه.

(٤) مشكل إعراب القرآن ٢/ ٦٦٣.

الأوَّل: قال مجاهد: مستوفِزة. وقال سفيان: المستوفز الذي لا يُصيب الأرضَ منه إلَّا ركبتاه وأطرافُ أنامله. الضَّحَّاك: ذلك عند الحساب.

الثاني: مجتمعة؛ قاله ابن عباس. الفرَّاء: المعنى: وترى أهلَ كلِّ دينٍ مجتمعين.

الثالث: متميِّزة؛ قاله عكرمة.

الرابع: الرابع: خاضعة، بلغة قريش؛ قاله مُؤَرِّج.

الخامس: باركة على الرُّكَب؛ قاله الحسن(١).

والجَثْوُ: الجلوسُ على الركب. جثا على ركبتيه يَجْثُو ويجثي جُثُوًّا وجُثِيًّا؛ على فُعول فيهما، وقد مضى في «مريم»(٢). وأصل الجَثْوَة: الجماعةُ من كلِّ شيءٍ. قال طَرَفةُ يصف قبرين:

تـرى جُـثْـوَتَـيْـنِ مـن تـرابٍ عـلـيـهـمـا صـفـائـحُ صُـمٌّ من صـفـيـحٍ مُـنَـضَّـدِ(٣)

ثم قيل: هو خاصٌّ بالكفار؛ قاله يحيى بن سلَّام. وقيل: إنَّه عامٌّ للمؤمن والكافر انتظارًا للحساب(٤).

وقد رَوى سفيانُ بن عيينة عن عمروٍ عن عبد الله بن باباه أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «كأني أراكم بالكَوْم جاثينَ دون جهنم». ذكره الماورديُّ(٥).

وقال سلمان: إنَّ في يوم القيامة لساعةً هي عشرُ سنينَ يخِرُّ الناسُ فيها جُثاةً على

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٢٦٧ عدا قول الضحاك والفراء. وأخرج قول الضحاك الطبريُّ ٢١/ ١٠١، وقولُ الفراء في معاني القرآن ٣/ ٤٨.

(٢) ١٣/ ٤٨٧.

(٣) ديوان طرفة بن العبد ص٣٣، وسلف ١٣/ ٤٨٨.

(٤) النكت والعيون ٥/ ٢٦٧.

(٥) في النكت والعيون ٥/ ٢٦٧. والحديث أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ٢١٣، وابن أبي حاتم ١٠/ ٣٢٩٢ (١٨٥٤١)، وأبو نعيم في الحلية ٧/ ٢٩٩، عمرو: هو ابن دينار. قال ابن حجر في الفتح ١١/ ٤٠٥: أخرجه البيهقي في البعث من مرسل عبد الله بن باباه بسند رجاله ثقات رفعه. اهـ. والكوم: بالفتح: المواضع المُشرِفة، واحدها: كَومة. النهاية (كوم).

رُكَبهم، حتى إنَّ إبراهيمَ عليه السلام لَيُنادي: لا أسألُكَ اليومَ إلَّا نفسي[١].

﴿كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا﴾ قال يحيى بنُ سلَّام: إلى حسابها. وقيل: إلى كتابها الذي كان يُستنسخُ لها فيه ما عملتْ من خيرٍ وشرّ؛ قاله مقاتل. وهو معنى قول مجاهد[٢]. وقيل: «كِتابهَا»: ما كتبت الملائكةُ عليها[٣]. وقيل: كتابها المنزَّل عليها لِينظر هل عملوا بما فيه[٤]. وقيل: الكتابُ ها هنا اللوحُ المحفوظ[٥]. وقرأ يعقوب الحضرميّ: «كُلَّ أُمَّةٍ» بالنصب على البدل من «كُلّ» الأُولى لِمَا في الثانية من الإيضاح الذي ليس في الأولى؛ إذ ليس في جُثوّها شيءٌ من حال شرح الجُثوّ كما في الثانية من ذكر السبب الداعي إليه، وهو استدعاؤُها إلى كتابها. وقيل: انتصبَ بإعمال «تَرىَ» مضمراً[٦]. والرفعُ على الابتداء. ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ من خيرٍ أو شرّ.

قوله تعالى: ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا﴾ قيل: من قول الله لهم. وقيل: من قول الملائكة.

﴿يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ﴾ أي: يشهد. وهو استعارة؛ يقال: نَطَقَ الكتابُ بكذا، أي: بَيَّن. وقيل: إنَّهم يقرؤونه، فيُذكِّرهُم الكتابُ ما عملوا؛ فكأنَّه ينطق عليهم[٧]؛ دليلُه قوله: ﴿وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾ [الكهف:٤٩]. وفي «المؤمنين»: ﴿وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الآية:٦٢]،

---

(١) الوسيط للواحدي ٤/ ١٠١ .

(٢) هو قول الكلبي ، وليس بقول مقاتل ولا مجاهد . كما في النكت والعيون ٥/ ٢٦٩ . وقول مقاتل ومجاهد فيه في تفسير الآية التي بعدها. والله أعلم .

(٣) ذكره بنحوه ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٨٩ .

(٤) ذكره بنحوه الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٢٦٨ ونسبه للجاحظ .

(٥) تفسير البغوي ٤/ ١٦١ .

(٦) ينظر مجمع البيان ٢٥/ ١٣٧ ، وقراءة يعقوب في النشر ٢/ ٣٧٢ ، وهو من العشرة.

(٧) تفسير غريب القرآن لابن قتيبة ص ٤٠٥ .

وقد تقدَّم[١].

و«يَنْطِقُ» في موضع الحال من الكتاب، أو من ذا، أو خبرٌ ثانٍ لذا، أو يكون «كِتَابُنَا» بدلاً من «هَذَا»، و«يَنْطِقُ» الخبر[٢].

﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: نأمرُ بنسخ ما كنتم تعملون.

قال عليٌّ ﷺ: إنَّ لِلَّه ملائكةً ينزلون كلَّ يومٍ بشيءٍ يكتبون فيه أعمالَ بني آدم[٣].

وقال ابن عباس: إنَّ الله وكَّل ملائكةً مطهَّرين، فينسخون من أمِّ الكتاب في رمضانَ كلَّ ما يكون من أعمال بني آدم، فيُعارضون حَفَظةَ الله على العباد كلَّ خميس، فيجدون ما جاء به الحفظةُ من أعمال العباد موافقًا لما في كتابهم الذي استنسخوا من ذلك الكتاب، لا زيادةَ فيه ولا نقصان[٤]. قال ابن عباس: وهل يكون النَّسخُ إلَّا من كتاب[٥].

الحسن: نستنسخُ ما كتبته الحفظة على بني آدم؛ لأنَّ الحفَظةَ تَرفعُ إلى الخَزَنة صحائفَ الأعمال[٦].

وقيل: تَحمل الحفظةُ كلَّ يومٍ ما كتبوا على العبد، ثمَّ إذا عادوا إلى مكانهم نُسِخَ[٧] منه الحسناتُ والسيئات؛ ولا تُحَوَّلُ المباحاتُ إلى النسخة الثانية.

وقيل: إنَّ الملائكةَ إذا رفعتْ أعمالَ العباد إلى الله عزَّ وجلَّ، أمر بأنْ يُثْبَتَ عندَه منها ما فيه ثوابٌ وعقاب، ويُسقَطَ من جملتها ما لا ثواب فيه ولا عقاب[٨].

---

(١) ١٣/ ٢٩٧ - ٢٩٨ و١٥/ ٦٠ .

(٢) مشكل إعراب القرآن ٢/ ٦٦٣ .

(٣) أخرجه الطبري ٢١/ ١٠٥ .

(٤) ذكره أبو الليث في تفسيره ٣/ ٢٢٧ من رواية الضحاك عن ابن عباس .

(٥) أخرجه الطبري ٢١/ ١٠٥ .

(٦) النكت والعيون ٥/ ٢٦٨ .

(٧) في (د) و(ظ) : نسخوا .

(٨) معاني القرآن للفراء ٣/ ٤٨ - ٤٩ .

قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٠﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٣١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦ﴾ أي: الجنَّة ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ . وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ أي: فيقال لهم ذلك، وهو استفهامُ توبيخ .﴿فَٱسْتَكْبَرْتُمْ﴾ عن قبولها .﴿وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ أي: مشركين تكسِبون المعاصي. يقال: فلانٌ جريمةُ أهله. إذا كان كاسِبَهم[١]؛ فالمجرم: من أكسبَ نفسَه المعاصي. وقد قال الله تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [القلم: ٣٥] فالمجرمُ ضدُّ المسلم، فهو المذنبُ بالكفر إذاً.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴿٣٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ أي: البعث كائن .﴿وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾ وقرأ حمزةُ: «وَالسَّاعَةَ» بالنصب عطفًا على «وَعْدَ». الباقون بالرفع[٢] على الابتداء، أو العطف على موضع «إنَّ وَعْدَ اللهِ». ولا يحسُنُ على الضمير الذي في المصدر؛ لأنَّه غيرُ موكَّد، والضميرُ المرفوع إنَّما يُعطَفُ عليه بغير تأكيدٍ في الشعر[٣].

﴿قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ﴾ هل هي حقٌّ أم باطل؟!

﴿إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا﴾ تقديره عند المبرِّد: إنْ نحن إلا نظنُّ ظنًّا. وقيل: التقدير: إنْ نظنُّ إلَّا أنَّكم تظنُّون ظنًّا[٤]. وقيل: أي: وقلتم: إنْ نظنُّ إلا ظنًّا.

﴿وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾ أنَّ الساعةَ آتيةٌ.

---

(١) الصحاح (جرم) .

(٢) السبعة ص ٥٩٥ ، والتيسير ص ١٩٩ .

(٣) الكلام بنحوه في الحجة ٦/ ١٧٩ - ١٨٠ .

(٤) مشكل إعراب القرآن ٢/ ٦٦٣ .

قوله تعالى: ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا﴾ أي: ظَهر لهم جزاءُ سيئاتِ ما عملوا. ﴿وَحَاقَ بِهِم﴾ أي: نزل بهم وأحاط ﴿مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ من عذاب الله.

قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٣٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ﴾ أي: نتركُكُم في النار كما تركْتُم لقاءَ يومِكم هذا، أي: تركتم العمل له. ﴿وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ﴾ أي: مسكنُكم ومستقرُّكم. ﴿وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾: مَنْ ينصرُكم.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ۚ فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٣٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ﴾ يعني: القرآن ﴿هُزُوًا﴾: لعباً. ﴿وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ أي: خدعَتْكُم بأباطيلها وزخارفها؛ فظننتُم أنْ ليس ثَمَّ غيرُها، وأنْ لا بعث.

﴿فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا﴾ أي: من النار. ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾: يُسترْضَوْن. وقد تقدَّم[١].

وقرأ حمزةُ والكسائيّ: «فاليوم لا يخرجون» بفتح الياء وضمِّ الراء[٢]؛ لقوله تعالى: ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا﴾ [السجدة: ٢٠]. الباقون بضمِّ الياء وفتح الراء؛ لقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا﴾ [النساء: ٧٥]. ونحوه[٣].

(١) ١٢/٤٠٧ - ٤٠٨.

(٢) السبعة ص ٥٩٥، والتيسير ص ١٧٥.

(٣) الحجة للفارسي ٦/ ١٧٩.

قوله تعالى: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٣٦ وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٣٧﴾

قوله تعالى: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

قرأ مجاهد وحُميد وابن مُحَيْصِن «رَبُّ السمٰوات وربُّ الأرض ربُّ العالمين» بالرفع فيها كلِّها على معنى: هو رَبُّ[(١)].

﴿وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ﴾ أي: العَظَمَةُ والجلالُ والبقاءُ والسلطانُ والقدرةُ والكمال ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾[(٢)].

---

(١) المحرر الوجيز ٥/ ٩٠ ، وذكر القراءة فيه عن ابن محيصن ، وهي قراءة شاذة.

(٢) بعدها في (د) و(م) : والله أعلم . ختم تفسير سورة الجاثية والحمد لله .

تفسير سورة الجاثية

وهى مكية.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿حمٓ (١) تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (٢) إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ (٣) وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَابَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ (٤) وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٥)﴾ .

يُرشد تعالى خلقه إلى التفكر فى آلائه ونعمه، وقدرته العظيمة التى خلق بها السموات والأرض، وما فيهما من المخلوقات المختلفة الأجناس والأنواع، من الملائكة والجن والإنس، والدواب والطيور والوحوش والسباع والحشرات، وما فى البحر من الأصناف المتنوعة، واختلاف الليل والنهار، فى تعاقبهما دائبين لا يفتران، هذا بظلامه وهذا بضيائه، وما أنزل الله تعالى من السحاب من المطر فى وقت الحاجة إليه، وسماه رزقًا؛ لأن به يحصل الرزق، ﴿فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ أى: بعد ما كانت هامدة لا نبات فيها ولا شىء.

وقوله : ﴿ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ﴾ أى: جنوبا وشآما[١]، ودبوراً وصبًا، بحرية وبرية، ليلية ونهارية. ومنها ما هو للمطر، ومنها ما هو للقاح، ومنها ما هو غذاء الأرواح، ومنها ما هو عقيم [لا ينتج][٢].

وقال أولاً: ﴿ لآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ [٣]﴾، ثم ﴿يُوقِنُونَ﴾، ثم ﴿يَعْقِلُونَ ﴾، وهو تَرَقٍّ من حال شريف إلى ما هو أشرف منه وأعلى. وهذه الآيات شبيهة بآية «البقرة» وهى قوله: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة:١٦٤]. وقد أورد ابن أبى حاتم هاهنا عن وهب بن مُنَبِّه أثراً طويلا غريباً فى خلق الإنسان من الأخلاط الأربعة.

﴿ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ (٦) وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (٧) يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٨) وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا أُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ (٩) مِن وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ

(١) فى ت، أ: «وشمالاً».   (٢) زيادة من ت، م، أ.   (٣) فى ت، أ: «لقوم يؤمنون» وهو خطأ.

وَلا يُغْنِي عَنْهُم مَّا كَسَبُوا شَيْئًا وَلا مَا اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠) هَذَا هُدًى وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ (١١)﴾ .

يقول تعالى: هذه آيات الله ـ يعنى القرآن بما فيه من الحجج والبينات ـ ﴿ **نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ**﴾ أى: متضمنة الحق من الحق، فإذا كانوا لا يؤمنون بها ولا ينقادون لها، فبأى حديث بعد الله وآياته يؤمنون؟! ثم قال: ﴿**وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ**﴾ أى: أفاك فى قوله كذاب، حلاّف مهين أثيم فى فعله وقيله[(١)] كافر بآيات الله؛ ولهذا قال: ﴿**يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ**﴾ أى: تقرأ عليه ﴿**ثُمَّ يُصِرُّ**﴾ أى: على كفره وجحوده استكباراً وعنادا ﴿**كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا**﴾ أى: كأنه ما سمعها، ﴿ **فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ**﴾ [أى][(٢)]: فأخبره أن له عند الله يوم القيامة عذابا أليما موجعا.

﴿**وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا**﴾ أى: إذا حفظ شيئاً من القرآن كفر به واتخذه سخريا وهزوا، ﴿ **أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ**﴾ أى: فى مقابلة ما استهان بالقرآن واستهزأ به؛ ولهذا روى مسلم فى صحيحه عن ابن عمر قال: نهى رسول الله ﷺ أن يسافر بالقرآن إلى أرض العدو مخافة أن يناله العدو[(٣)].

ثم فسر العذاب الحاصل له يوم معاده[(٤)] فقال: ﴿**مِن وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ**﴾ أى: كل من اتصف بذلك سيصيرون إلى جهنم يوم القيامة، ﴿**وَلا يُغْنِي عَنْهُم مَّا كَسَبُوا شَيْئًا**﴾ أى: لا تنفعهم أموالهم ولا أولادهم، ﴿**وَلا مَا اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ**﴾ أى: ولا تغنى عنهم الآلهة التي عبدوها من دون لله شيئاً، ﴿ **وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ**﴾.

ثم قال تعالى: ﴿ **هَذَا هُدًى**﴾ يعنى القرآن، ﴿**وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ**﴾: وهو المؤلم[(٥)] الموجع.

﴿اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢) وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (١٣) قُل لِّلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٤) مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ (١٥)﴾ .

يذكر تعالى نعمه على عبيده فيما سخر لهم من البحر﴿**لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ**﴾، وهى السفن فيه بأمره تعالى، فإنه هو الذى أمر البحر أن يحملها﴿**وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ**﴾ أى: فى المتاجر والمكاسب، ﴿**وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ**﴾أى: على حصول المنافع المجلوبة إليكم من الأقاليم النائية والآفاق القاصية.

---

(١) فى ت، أ: «وقلبه». (٢) زيادة من ت،م.

(٣) صحيح مسلم برقم (١٨٦٩).

(٤) فى أ: «القيامة». (٥) فى أ: «المقلق».

ثم قال: تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ أى: من الكواكب والجبال، والبحار والأنهار، وجميع ما تنتفعون به، أى: الجميع من فضله وإحسانه وامتنانه؛ ولهذا قال: ﴿جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ أى: من عنده وحده لا شريك له فى ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ﴾ [النحل: ٥٣].

وروى ابن جرير من طريق العوفى، عن ابن عباس فى قوله: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ كل شيء هو من الله، وذلك الاسم فيه اسم من أسمائه، فذلك جميعاً منه، ولا ينازعه فيه المنازعون، واستيقن أنه كذلك.

وقال [١] ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا محمد بن خَلَف العسقلانى، حدثنا الفرْيانى، عن سفيان، عن الأعمش، عن المنْهال بن عمرو، عن أبى أراكة قال: سأل رجل عبد الله بن عمرو قال: مم خلق الخلق؟ قال: من النور والنار، والظلمة والثرى. قال: وائت ابن عباس فاسأله. فأتاه فقال له مثل ذلك، فقال: ارجع إليه فسله: مم خلق ذلك كله؟ فرجع إليه فسأله، فتلا: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ هذا أثر غريب، وفيه نكارة.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

وقوله: ﴿قُل لِّلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ﴾ أى: يصفحوا عنهم ويحملوا [٢] الأذى منهم. وهذا كان فى ابتداء الإسلام، أمروا أن يصبروا على أذى المشركين وأهل الكتاب، ليكون ذلك لتأليف قلوبهم[٣]، ثم لما أصروا على العناد شرع الله للمؤمنين الجلاد والجهاد. هكذا روى عن ابن عباس، وقتادة.

وقال مجاهد [فى قوله][٤]: ﴿لا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ﴾: لا يبالون [٥] نعم الله.

وقوله: ﴿لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ أى: إذا صفحوا [٦] عنهم فى الدنيا، فإن الله مجازيهم بأعمالهم السيئة في الآخرة؛ ولهذا قال: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ أى: تعودون إليه يوم القيامة فتعرضون بأعمالكم [عليه][٧]، فيجزيكم بأعمالكم خيرها وشرها.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (١٦) وَآتَيْنَاهُم بَيِّنَاتٍ مِّنَ الأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلاَّ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (١٧) ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ (١٨) إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ (١٩) هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ (٢٠)﴾.

(١) فى ت: «وروى».
(٢) فى أ: «ويحتملوا».
(٣) فى ت، م، أ: «كالتأليف لهم».
(٤) زيادة من أ.
(٥) فى أ: «ينالون».
(٦) فى أ: «أى اصفحوا».
(٧) زيادة من ت، م، أ.

يذكر تعالى ما أنعم به على بنى إسرائيل من إنزال الكتب عليهم وإرسال الرسل إليهم، وجعله الملك فيهم؛ ولهذا قال: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ أى: من المآكل والمشارب، ﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ أى: فى زمانهم، ﴿وَآتَيْنَاهُم بَيِّنَاتٍ مِّنَ الأَمْرِ﴾ أى: حججا وبراهين وأدلة قاطعات، فقامت [1] عليهم الحجج ثم اختلفوا بعد ذلك من بعد قيام الحجة، وإنما كان ذلك بغيا منهم على بعضهم بعضا، ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ يا محمد ﴿يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ أى: سيفصل بينهم بحكمه العدل. وهذا فيه تحذير لهذه الأمة أن تسلك مسلكهم، وأن تقصد منهجهم؛ ولهذا قال: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا﴾ أى: اتبع ما أوحى إليك من ربك لا إله إلا هو، وأعرض عن المشركين، وقال هاهنا: ﴿وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ . إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ أى: وماذا تغنى [2] عنهم ولايتهم لبعضهم بعضا، فإنهم لا يزيدونهم إلا خسارا ودمارا وهلاكا، ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ﴾، وهو تعالى يخرجهم من الظلمات إلى النور، والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات.

ثم قال: ﴿هَٰذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ﴾ يعنى: القرآن ﴿هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ .

﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (٢١) وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ (٢٢) أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلا تَذَكَّرُونَ (٢٣) ﴾ .

يقول تعالى: لا يستوى المؤمنون والكافرون، كما قال: ﴿لا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [الحشر: ٢٠]، وقال هاهنا: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ﴾ أى: عملوها وكسبوها ﴿أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ﴾ أى: نساويهم بهم فى الدنيا والآخرة! ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ أى: ساء ما ظنوا بنا وبعدلنا أن نُسَاوى بين الأبرار والفجار في الدار الآخرة، وفى هذه الدار.

قال الحافظ أبو يعلى: حدثنا مُؤمَّل بن إهابَ، حدثنا بُكَير [3] بن عثمان التَّنُوخى، حدثنا الوَضين بن عطاء، عن يزيد بن مَرْثَد الباجى[4]، عن أبى ذر، رضى الله عنه، قال: إن الله بنى دينه على أربعة أركان، فمن صبر عليهن ولم يعمل بهن لقى الله [وهو] [5] من الفاسقين. قيل: وما هن يا أبا ذر؟ قال: يسلم حلال الله لله، وحرام الله لله، وأمر الله لله، ونهى الله لله، لا يؤتمن عليهن إلا الله.

---

(١) فى ت: «فقامت به».
(٢) فى ت: «وما يغنى».
(٣) فى أ: «بكر».
(٤) فى ت: «وروى الحافظ أبو يعلى بإسناده».
(٥) زيادة من ت.

قال أبو القاسم ﷺ: «كما أنه لا يجتنى من الشوك [١] العنب، كذلك لا ينال الفجار منازل الأبرار»[٢].

هذا حديث غريب من هذا الوجه. وقد ذكر محمد بن إسحاق فى كتاب «السيرة» أنهم وجدوا حجرا بمكة فى أسِّ الكعبة مكتوب [٣] عليه: تعملون السيئات وترجون الحسنات؟ أجل، كما يجتنى من الشوك العنب[٤].

وقد روى الطبرانى من حديث شعبة، عن عمرو بن مُرَّة، عن أبى الضحى، عن مسروق[٥]؛ أن تميما الدارى قام ليلة حتى أصبح يردد هذه الآية: ﴿**أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ**﴾؛ ولهذا قال تعالى: ﴿**سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ**﴾، وقال[٦]: ﴿ **وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ**﴾أى: بالعدل، ﴿**وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ**﴾[٧].

ثم قال [تعالى][٨]: ﴿ **أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ**﴾ أى: إنما يأتمر بهواه، فمهما رآه حسنا فعله، ومهما رآه قبيحا تركه: وهذا قد يستدل به على المعتزلة فى قولهم بالتحسين والتقبيح العقليين.

وعن مالك فيما روى عنه من التفسير: لا يهوى شيئا إلا عبده.

وقوله: ﴿**وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ**﴾، يحتمل قولين.

أحدها[٩]: وأضله الله لعلمه أنه يستحق ذلك. والآخر: وأضله الله بعد بلوغ العلم إليه، وقيام الحجة عليه. والثانى يستلزم الأول، ولا ينعكس.

﴿ **وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً**﴾ أى: فلا يسمع ما ينفعه، ولايعى شيئا يهتدى به، ولا يرى حجة يستضىء بها؛ ولهذا قال: ﴿**فَمَن يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلا تَذَكَّرُونَ**﴾ كقوله: ﴿ **مَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلا هَادِيَ لَهُ** [١٠] **وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ**﴾ [الأعراف: ١٨٦].

﴿ **وَقَالُوا مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ (٢٤) وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلاَّ أَن قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٢٥) قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لا رَيْبَ فِيهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٢٦)** ﴾.

يخبر تعالى عن قول الدهرية من الكفار ومن وافقهم من مشركى العرب فى إنكار المعاد: ﴿**وَقَالُوا**

---

(١) فى ت: «الشوكة».

(٢) وذكره ابن حجر فى المطالب العالية (٣/ ١٥٤) وعزاه لأبي يعلى، وأظنه فى الكبير، ويزيد بن مرثد الهمدانى روايته عن أبى ذر مرسله. تنبيه: وقع هنا «الباجى» ولم تقع لى هذه النسبة له.

(٣) فى ت، م: «مكتوبًا» وهو الصواب.

(٤) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (١/ ١٩٦).

(٥) فى ت: «وقد روى الطبرانى بسنده». (٦) فى ت، م، أ: «وقوله».

(٧) المعجم الكبير (٢/ ٥٠).

(٨) زيادة من ت. (٩) فى أ: «أحدهما».

(١٠) فى ت، م: «ومن يضلل الله فما له من هاد» وهو خطأ.

مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ أى: ما ثم إلا هذه الدار، يموت قوم ويعيش آخرون، وما ثم معاد ولاقيامة وهذا يقوله مشركو[1] العرب المنكرون للمعاد، ويقوله الفلاسفة الإلهيون منهم، وهم ينكرون البداءة [2] والرجعة، ويقوله الفلاسفة الدهرية الدورية المنكرون للصانع المعتقدون أن فى كل ستة وثلاثين ألف سنة يعود كل شيء إلى ما كان عليه. وزعموا أن هذا قد تكرر مرات لا تتناهى، فكابروا المعقول [3] وكذبوا المنقول، ولهذا قالوا[4]: **﴿وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ﴾**، قال الله تعالى: **﴿وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ﴾**، أى: يتوهمون ويتخيلون.

فأما الحديث الذى أخرجه صاحبا الصحيح، وأبو داود، والنسائى، من رواية سفيان بن عيينة، عن الزهرى، عن سعيد بن المسيب، عن أبى هريرة، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله تعالى: يؤذينى ابن آدم؛ يسب الدهر وأنا الدهر، بيدى الأمر، أقلب ليله ونهاره»[5]. وفى رواية: «لا تسبوا الدهر، فإن الله هو الدهر»[6].

وقد أورده ابن جرير بسياق غريب جدا فقال: حدثنا أبو كُرَيْب، حدثنا سفيان بن عيينة، عن الزهرى، عن سعيد بن المسيب، عن أبى هريرة، رضى الله عنه، عن النبى ﷺ قال: «كان أهل الجاهلية يقولون: إنما يهلكنا الليل والنهار، وهو الذى يهلكنا، يميتنا ويحيينا، فقال الله فى كتابه: **﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ﴾** » قال: «ويسبون الدهر، فقال الله عز وجل: يؤذينى ابن آدم، يسب الدهر وأنا الدهر، بيدى الأمر أقلب الليل والنهار»[7].

وكذا رواه ابن أبى حاتم، عن أحمد بن منصور، عن شُرَيْح بن النعمان، عن ابن عيينة، مثله: ثم روى عن يونس، عن ابن وهب، عن الزهرى، عن أبى سلمة، عن أبى هريرة: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قال الله تعالى: يسب ابن آدم الدهر وأنا الدهر، بيدى الليل والنهار».

وأخرجه[8] صاحبا الصحيح والنسائى، من حديث يونس بن زيد، به[9].

وقال محمد بن إسحاق، عن العلاء بن عبد الرحمن، عن أبيه، عن أبى هريرة، رضى الله عنه؛ أن رسول الله ﷺ قال: «يقول الله: استقرضت عبدى فلم يعطنى، وسَبّنِى عبدى، يقول: وادهراه. وأنا الدهر»[10].

قال الشافعى وأبو عبيدة وغيرهما من الأئمة فى تفسير قوله، عليه الصلاة والسلام: «لا تسبوا الدهر؛ فإن الله هو الدهر»: كانت العرب فى جاهليتها إذا أصابهم شدة أو بلاء أو نكبة، قالوا: يا

---

(١) فى أ: «منكرو». (٢) فى أ: «البداوة». (٣) فى ت، أ: «وكابروا العقول».

(٤) فى ت، أ: «قال».

(٥) صحيح البخارى برقم (٤٨٢٦) وصحيح مسلم برقم (٢٢٤٦) وسنن أبى داود برقم (٥٢٧٤) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٦٨٧).

(٦) صحيح مسلم برقم (٢٢٤٦).

(٧) تفسير الطبرى (٢٥/ ٩٢).

(٨) فى ت: «أخرجاه» وهو خطأ، والصواب: «أخرجه» ؛حتى لا يجتمع عاملان على معمول واحد.

(٩) صحيح البخارى برقم (٦١٨١) وصحيح مسلم برقم (٢٢٤٦) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٦٨٦).

(١٠) رواه الطبرى فى تفسيره (٢٥/ ٩٢) من طريق سلمة عن محمد بن إسحاق به، وخالفه يزيد بن هارون، فرواه عن محمد ابن إسحاق، عن أبى الزناد، عن الأعرج، عن أبى هريرة ، به، وأخرجه الحاكم فى المستدرك (٢/ ٤٥٣) وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد على شرط مسلم».

خيبة الدهر. فيسندون تلك الأفعال إلى الدهر ويسبونه، وإنما فاعلها هو الله [عز وجل](١)، فكأنهم إنما سبوا، الله عز وجل؛ لأنه فاعل ذلك فى الحقيقة، فلهذا نُهى (٢) عن سب الدهر بهذا الاعتبار؛ لأن الله هو الدهر الذى يعنونه، ويسندون إليه تلك الأفعال.

هذا أحسن ما قيل فى تفسيره، وهو المراد، والله أعلم. وقد غلط ابن حزم ومن نحا نحوه من الظاهرية فى عدهم الدهر من الأسماء الحسنى، أخذا من هذا الحديث.

وقوله (٣) تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ(٤) آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ﴾ أى: إذا استدل عليهم وبين لهم الحق، وأن الله قادر على إعادة الأبدان بعد فنائها وتفرقها، ﴿مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلاَّ أَن قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾أى: أحيوهم إن كان ما تقولونه حقا. قال الله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ﴾ أى: كما تشاهدون ذلك، يخرجكم من العدم إلى الوجود، ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨] أى: الذى قدر على البداءة قادر على الإعادة بطريق الأولى والأحرى. ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾[الروم: ٢٧]، ﴿ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لا رَيْبَ فِيهِ﴾ أى: إنما يجمعكم ليوم القيامة لا يعيدكم فى الدنيا حتى تقولوا: ﴿ ائْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ(٥) ﴾ [التغابن: ٩] ﴿لأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ . لِيَوْمِ الْفَصْلِ﴾ [المرسلات: ١٢، ١٣]، ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلاَّ لأَجَلٍ مَّعْدُودٍ﴾[هود: ١٠٤]وقال هاهنا: ﴿ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لا رَيْبَ فِيهِ﴾أى: لا شك فيه، ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ أى: فلهذا ينكرون المعاد، ويستبعدون قيام الأجساد، قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا . وَنَرَاهُ قَرِيبًا﴾ [المعارج: ٦، ٧] أى: يرون وقوعه بعيدا، والمؤمنون يرون ذلك سهلا قريبا.

﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ (٢٧) وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٨) هَذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٩) ﴾ .

يخبر تعالى أنه مالك السموات والأرض، الحاكم فيهما (٦) فى الدنيا والآخرة؛ ولهذا قال: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ﴾ أى: يوم (٧) القيامة ﴿ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ﴾، وهم الكافرون بالله الجاحدون ما أنزله على رسله من الآيات البينات والدلائل الواضحات.

وقال ابن أبى حاتم: قدم سفيان الثورى المدينة، فسمع المعافرى (٨) يتكلم ببعض ما يضحك به الناس. فقال له: يا شيخ، أما علمت أن لله يوماً يخسر فيه المبطلون؟ قال: فما زالت تعرف فى المعافرى (٩) حتى لحق بالله ،عز وجل. ذكره ابن أبى حاتم.

---

(١) زيادة من ت،م.
(٢) فى أ: «أنهى».
(٣) فى ت: «وقال».
(٤) فى م: «عليه» وهو خطأ.
(٥) فى ت: «الفصل»وهو خطأ .
(٦) فى م: «فيما».
(٧) فى ت، أ: «تقوم».
(٨، ٩) فى ت، م، أ: «العاضرى».

ثم قال: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً﴾ أى: على ركبها من الشدة والعظمة، ويقال: إن هذا [يكون][١] إذا جيء بجهنم فإنها تزفر زفرة لا يبقى أحد إلا جثا لركبتيه، حتى إبراهيم الخليل، ويقول: نفسى، نفسى، نفسى، لا أسألك اليوم إلا نفسى، وحتى إن عيسى ليقول: لا أسألك اليوم إلا نفسى، لا أسألك [اليوم][٢] مريم التى ولدتنى.

قال مجاهد، وكعب الأحبار، والحسن البصرى: ﴿كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً﴾ أى: على الركب. وقال عِكْرِمة: ﴿جَاثِيَةً﴾: متميزة على ناحيتها[٣]، وليس على الركب . والأول أولى.

قال ابن أبى حاتم: حدثنا محمد بن عبد الله بن يزيد المقرئ، حدثنا سفيان بن عيينة، عن عمرو، عن عبد الله بن باباه[٤]؛ أن رسول الله [ﷺ][٥] قال: «كأنى أراكم جاثين بالكوم دون جهنم»[٦].

وقال إسماعيل بن رافع المدينى[٧]، عن محمد بن كعب، عن أبى هريرة، رضي الله عنه، مرفوعا فى حديث الصورة[٨]: فيتميز الناس، وتجثو الأمم، وهى التى يقول الله: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا﴾[٩].

وهذا فيه جمع بين القولين: ولامنافاة، والله أعلم.

وقوله: ﴿ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا﴾ يعنى: كتاب أعمالها، كقوله: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ﴾ [الزمر: ٦٩]؛ ولهذا قال: ﴿الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أى: تجازون بأعمالكم خيرها وشرها، كقوله تعالى: ﴿يُنَبَّأُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ . بَلِ الْإِنسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ . وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ﴾ [القيامة: ١٣ ـ ١٥].

ثم قال: ﴿هَٰذَا [١٠] كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ﴾ أى: يستحضر [١١] جميع أعمالكم من غير زيادة ولانقص[١٢]، كقوله تعالى: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩].

وقوله: ﴿ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أى: إنا كنا نأمر الحفظة أن تكتب أعمالكم عليكم.

قال ابن عباس وغيره: تكتب الملائكة أعمال العباد، ثم تصعد بها إلى السماء، فيقابلون الملائكة الذين فى ديوان الأعمال على ما بأيديهم مما قد أبرز لهم من اللوح المحفوظ فى كل ليلة قدر، مما كتبه[١٣] الله في القدم على العباد قبل أن يخلقهم، فلا يزيد حرفا ولا ينقص حرفا، ثم قرأ: ﴿إِنَّا كُنَّا

(١، ٢) زيادة من أ. (٣) فى أ: «ناصيتها».

(٤) فى ت: «وقال ابن أبى حاتم بإسناده». (٥) زيادة من ت.

(٦) ورواه أبو نعيم فى زوائد زهد ابن المبارك برقم (٣٦٠) وأبو نعيم فى الحلية (٧/ ٢٩٩) من طريق سفيان بن عيينة به.

(٧) فى أ: «المدنى». (٨) فى ت، م، أ: «الصور».

(٩) انظر تفسير حديث الصور عند الآية: ٧٣ من سورة الأنعام.

(١٠) فى ت، م، أ: «ولهذا» وهو خطأ.

(١١) فى أ: «سيحضر». (١٢) فى م: «نقصان». (١٣) فى أ: «مما قد كتبه».

نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ (٣٠) وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ (٣١) وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلاَّ ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ (٣٢) وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٣٣) وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ (٣٤) ذَلِكُم بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ لا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (٣٥) فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٣٦) وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٣٧) ﴾ .

يخبر تعالى عن حكمه فى خلقه يوم القيامة، فقال: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أى: آمنت قلوبهم وعملت جوارحهم الأعمال الصالحات[1]، وهى الخالصة الموافقة للشرع، ﴿ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ﴾، وهى الجنة، كما ثبت فى الصحيح أن الله قال للجنة: «أنت رحمتى، أرحم بك من أشاء»[2].

﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ﴾ أى: البين الواضح.

ثم قال: ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ﴾ أى: يقال لهم ذلك تقريعا وتوبيخا: أما[3] قرئت عليكم آيات الرحمن فاستكبرتم عن اتباعها، وأعرضتم عند[4] سماعها، ﴿وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ أى: فى أفعالكم، مع ما اشتملت عليه قلوبكم من التكذيب؟

﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لا رَيْبَ فِيهَا﴾ أى: إذا قال لكم المؤمنون ذلك، ﴿ قُلْتُم مَّا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ﴾ أى: لا نعرفها، ﴿إِن نَّظُنُّ إِلاَّ ظَنًّا ﴾ أى: إن نتوهم وقوعها إلا توهما، أى مرجوحا[5]؛ ولهذا قال: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾ أى: بمتحققين، قال الله تعالى: ﴿ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا﴾ أى: وظهر لهم عقوبة أعمالهم السيئة، ﴿وَحَاقَ بِهِم﴾ أى: أحاط بهم ﴿ مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ أى: من العذاب والنكال، ﴿وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ ﴾ أى: نعاملكم معاملة الناسى لكم فى نار جهنم ﴿كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ أى: فلم تعملوا له لأنكم لم تصدقوا به، ﴿وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾.

وقد ثبت فى الصحيح أن الله تعالى يقول لبعض العبيد يوم القيامة: «ألم أزوجك؟ ألم أكرمك؟

---

(١) فى ت، أ: «الصالحة».

(٢) صحيح البخارى برقم (٤٨٥٠) من حديث أبى هريرة، رضى الله عنه.

(٣) فى أ: «لما». (٤) فى أ: «عن». (٥) فى أ: «مرجوعًا».

ألم أسخر لك الخيل والإبل، وأذرك ترأس وتَرْبَع؟ فيقول: بلى، يارب. فيقول: أفظننت أنك مُلاقيّ؟ فيقول: لا. فيقول الله تعالى: فاليوم أنساك كما نسيتني»[1].

قال الله تعالى: ﴿ذَلِكُم بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُواً﴾ أي: إنما جازيناكم هذا الجزاء لأنكم اتخذتم حجج الله عليكم سخريا، تسخرون وتستهزئون بها، ﴿وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ أي: خدعتكم فاطمأننتم إليها، فأصبحتم من الخاسرين؛ ولهذا قال: ﴿فَالْيَوْمَ لا يُخْرَجُونَ مِنْهَا﴾ أي: من النار ﴿وَلا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ أي: لا يطلب منهم العتبى، بل يعذبون بغير حساب ولا عتاب، كما تدخل طائفة من المؤمنين الجنة بغير عذاب ولا حساب.

ثم لما ذكر حكمه في المؤمنين والكافرين قال: ﴿فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الأَرْضِ﴾ أي: المالك لهما وما فيهما؛ ولهذا قال: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

ثم قال: ﴿وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ قال مجاهد: يعني السلطان. أي: هو العظيم الممجد، الذي كل شيء خاضع لديه فقير إليه. وقد ورد في الحديث الصحيح: «يقول الله تعالى[2]: العظمة إزاري، والكبرياء ردائي، فمن نازعني واحداً منهما أسكنته ناري». ورواه مسلم من حديث الأعمش، عن أبي إسحاق، عن الأغر أبي مسلم، عن أبي هريرة وأبي سعيد، رضي الله عنهما، عن رسول الله ﷺ، بنحوه[3].

وقوله: ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ أي: الذي لا يغالب ولا يمانع، ﴿الْحَكِيمُ﴾ في أقواله وأفعاله، وشرعه وقدره، تعالى وتقدس، لا إله إلا هو[4].

آخر تفسير سورة الجاثية [ولله الحمد والمنة][5]

(١) صحيح مسلم برقم (٢٩٦٨) من حديث أبي هريرة، رضي الله عنه.
(٢) في ت: «أن الله تعالى يقول».
(٣) صحيح مسلم برقم (٢٦٢٠).
(٤) في أ: «لا إله غيره ولا رب سواه». (٥) زيادة من ت، م، أ.

٤٥ – سورة الجاثية
(مكية وهى سبع وثلاثون آية)

بسم الله الرحمن الرحيم

حم ﴿١﴾ ٤٥ الجاثية
تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ ٤٥ الجاثية
إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ ٤٥ الجاثية
وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ ٤٥ الجاثية

فانتظر مايحل بهم (إنهم مرتقبون) مايحل بك . روى عن النبى صلى الله عليه وسلم من قرأ حم الدخان *
ليلة الجمعة أصبح مغفوراً له .

﴿سورة الجاثية مكية وهى سبع وثلاثون آية﴾

١ (بسم الله الرحمن الرحيم) (حم) الكلام فيه كما مر فى فاتحة سورة المؤمن فإن جعل اسماً للسورة
فحله الرفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف أى هذا مسمى بحم والإشارة إلى السورة قبل جريان ذكرها
قد وقفت على سره مراراً وإن جعل مسروداً على نمط التعديد فلاحظ له من الإعراب وقوله تعالى
٢ (تنزيل الكتاب) على الأول خبر بعد خبر على أنه مصدر أطلق على المفعول مبالغة وعلى الثانى خبر
لمبتدأ مضمر يلوح به ماقبله أى المؤلف من جنس ماذكر تنزيل الكتاب وقيل هو خبر لحم أى
المسمى به تنزيل الخ وقد مر مراراً أن الذى يجعل عنواناً للموضوع حقه أن يكون قبل ذلك معلوم
الانتساب إليه وإذ لاعهد بالتسمية بعد فحقها الإخبار بها وأما جعله خبراً له بتقدير المضاف وإبقاء
التنزيل على أصله أى تنزيل حم تنزيل الكتاب فمع عرائه عن إفادة فائدة يعتد بها تمحل وقوله تعالى
(من الله العزيز الحكيم) كما مر فى صدر سورة الزمر على التفصيل وقيل حم مقسم به وتنزيل الكتاب *
٣ صفته وجواب القسم قوله تعالى (إن فى السموات والأرض لآيات للمؤمنين) وهو على الوجوه المتقدمة
كلام مستأنف مسوق للتنبيه على الآيات التكوينية الآفاقية والأنفسية ومحل الآيات إما نفس السموات
والأرض فإنهما منطويتان من فنون الآيات على مايقصر عنه البيان وإما خلقهما كما فى قوله تعالى إن فى
٤ خلق السموات والأرض وهو الأوفق بقوله تعالى (وفى خلقكم) أى من نطفة ثم من علقة متقلبة
فى أطوار مختلفة إلى تمام الخلق (وما يبث من دابة) عطف على المضاف دون المضاف إليه أى وفيما *
نشره وبفرقه من دابة (آيات) بالرفع على أنه مبتدأ خبره الظرف المقدم والجمل معطوفة على ماقبلها *
من الجملة المصدرة بأن وقيل آيات عطف على ما قبلها من آيات باعتبار المحل عند من يجوزه وقرىء

وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٥﴾ ٤٥ الجاثية

تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ ٤٥ الجاثية

وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾ ٤٥ الجاثية

يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٨﴾ ٤٥ الجاثية

آية بالتوحيد وقرىء آيات بالنصب عطفاً على ماقبلها من اسم إن والخبر كأنه قيل وإن فى خلقكم
٥ وما يبث من دابة آيات (لقوم يوقنون) أى من شأنهم أن يوقنوا بالأشياء على ماهى عليه (واختلاف
الليل والنهار) بالجر على إضمار الجار المذكور فى الآيتين قبله وقد قرىء بذكره والمراد باختلافهما
إما تعاقبهما أو تفاوتهما طولا وقصراً (وما أنزل الله من السماء) عطف على اختلاف (من رزق)
أى من مطر وهو سبب للرزق عبر عنه بذلك تنبيهاً على كونه آية من جهتى القدرة والرحمة (فأحيا به
الأرض) بأن أخرج منها أصناف الزروع والثمرات والنبات (بعد موتها) وعرائها عن آثار الحياة
وانتفاء قوة التنمية عنها وخلو أشجارها عن الثمار (وتصريف الرياح) من جهة إلى أخرى ومن
حال إلى حال وقرىء بتوحيد الريح وتأخيره عن إنزال المطر مع تقدمه عليه فى الوجود إما للإيذان
بأنه آية مستقلة حيث لو روعى الترتيب الوجودى لربما توهم أن مجموع تصريف الرياح وإنزال المطر
آية واحدة وإما لأن كون التصريف آية ليس لمجرد كونه مبدأ لإنشاء المطر بل له ولسائر المنافع التى
من جملتها سوق السفن فى البحار (آيات لقوم يعقلون) بالرفع على أنه مبتدأ خبره ما تقدم من الجار
والمجرور والجملة معطوفة على ماقبلها وقرىء بالنصب على الاختصاص وقيل على أنها اسم إن والمجرور
المتقدم خبرها بطريق العطف على معمولى عاملين مختلفين هما إن وفى أقيمت الواو مقامهما فعملت
الجر فى اختلاف والنصب فى آيات وتنكير آيات فى المواقع الثلاثة للتفخيم كما وكيفا واختلاف
٦ الفواصل لاختلاف مراتب الآيات فى الدقة والجلاء (تلك آيات الله) مبتدأ وخبر وقوله تعالى (نتلوها
عليك) حال عاملها معنى الإشارة وقيل هو الخبر وآيات الله بدل أو عطف بيان (بالحق) حال من
فاعل نتلو ومن مفعوله أى نتلوها محقين أو ملتبسة بالحق (فبأى حديث) من الأحاديث (بعد الله
وآياته) أى بعد آيات الله وتقديم الاسم الجليل لتعظيمها كما فى قولهم أعجبنى زيد وكرمه أو بعد حديث
الله الذى هو القرآن حسبما نطق به قوله تعالى الله نزل أحسن الحديث وهو المراد بآياته أيضاً ومناط
٧ العطف التغاير العنوانى (يؤمنون) بصيغة الغيبة وقرىء بالتاء (ويل لكل أفاك) كذاب (أثيم)
٨ كثير الآثام (يسمع آيات الله) صفة أخرى لأفاك وقيل استئناف وقيل حال من الضمير فى أثيم (تتلى
عليه) حال من آيات الله ولا مساغ لجعله مفعولا ثانياً ليسمع لأن شرطه أن يكون مابعده مما لا يسمع

وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَـٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩﴾ ٤٥ الجاثية

مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِي عَنْهُم مَّا كَسَبُواْ شَيْـًٔا وَلَا مَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠﴾ ٤٥ الجاثية

هَـٰذَا هُدًى وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ ٤٥ الجاثية

كقولك سمعت زيداً يقرأ (ثم يصر) أى يقيم على كفره وأصله من إصرار الحمار على العانة (مستكبراً) * عن الإيمان بما سمعه من آيات الله تعالى والإذعان لما تنطق مزدرياً لها معجباً بما عنده من الأباطيل وقيل نزلت فى النضر بن الحرث وكان يشترى من أحاديث الأعاجم ويشغل بها الناس عن استماع القرآن لكنها وردت بعبارة عامة ناعية عليه وعلى كل من يسير سير تهماهم فيه من الشر والفساد وكلمة ثم لاستبعاد الإصرار والاستكبار بعد سماع الآيات التى حقها أن تذعن لها القلوب وتخضع لها الرقاب كما فى قول من قال [يرى غمرات الموت ثم يزورها] (كأن لم يسمعها) أى كأنه لم يسمعها فخفف وحذف * ضمير الشأن والجملة حال من يصر أى يصر شبيهاً بغير السامع (فبشره بعذاب أليم) على إصراره واستكباره *

٩ (وإذا علم من آياتنا شيئاً) أى إذا بلغه من آياتنا شيء وعلم أنه من آياتنا لا أنه علمه كما هو عليه فإنه بمعزل من ذلك العلم وقيل إذا علم منها شيئاً يمكن أن يتشبث به المعاند ويجد له محملا فاسداً يتوصل به إلى الطعن والغميزة (اتخذها) أى الآيات كلها (هزواً) أى مهزوءاً بها لا ما سمعه فقط وقيل الضمير * للشيء والتأنيث لأنه فى معنى الآيات (أولئك) إشارة إلى كل أفاك من حيث الاتصاف بما ذكر من * القبائح والجمع باعتبار الشمول للكل كما فى قوله تعالى كل حزب بما لديهم فرحون كما أن الإفراد فيما سبق من الضمائر باعتبار كل واحد واحد (لهم) بسبب جناياتهم المذكورة (عذاب مهين) وصف * العذاب بالإهانة توفية لحق استكبارهم واستهزائهم بآيات الله سبحانه وتعالى

١٠ (من ورائهم جهنم) أى من قدامهم لأنهم متوجهون إلى ما أعد لهم أو من خلفهم لأنهم معرضون عن ذلك مقبلون على الدنيا فإن الوراء اسم للجهة التى يواريها الشخص من خلف وقدام (ولا يغنى عنهم) ولا يدفع (ما كسبوا) * من الأموال والأولاد (شيئاً) من عذاب الله تعالى أو شيئاً من الإغناء (ولا ما اتخذوا من دون * الله أولياء) أى الأصنام وتوسيط حرف النفى بين المعطوفين مع أن عدم إغناء الأصنام أظهر وأجلى من عدم إغناء الأموال والأولاد قطعاً مبنى على زعمهم الفاسد حيث كانوا يطمعون فى شفاعتهم وفيه تهكم (ولهم) فيما وراءهم من جهنم (عذاب عظيم) لا يقادر قدره

١١ (هذا) أى القرآن (هدى) فى غاية الكمال من الهداية كأنه نفسها (والذين كفروا) أى بالقرآن وإنما وضع موضع ضميره قوله تعالى * (بآيات ربهم) لزيادة تشنيع كفرهم به وتفظيع حالهم (لهم عذاب من رجز) أى من أشد العذاب * (أليم) بالرفع صفة عذاب وقرىء بالجر على أنه صفة رجز وتنوين عذاب فى المواقع الثلاثة للتفخيم * ورفعه إما على الابتداء وإما على الفاعلية .

ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ
تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ ٤٥ الجاثية

وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾ ٤٥ الجاثية

قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجْزِىَ قَوْمًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ ٤٥ الجاثية

١٢ (الله الذى سخر لكم البحر) بأن جعله أملس السطح يطفو عليه ما يتخلل كالأخشاب ولا يمنع الغوص
والخرق لميعانه (لتجرى الفلك فيه بأمره) وأنتم راكبوها (ولتبتغوا من فضله) بالتجارة والغوص
١٣ والصيد وغيرها (ولعلكم تشكرون) ولكى تشكروا النعم المترتبة على ذلك (وسخر لكم مافى السموات
وما فى الأرض) من الموجودات بأن جعلها مدار المنافع كم (جميعاً) إما حال من ما فى السموات والأرض
أو توكيد له (منه) متعلق بمحذوف هو صفة لجميعاً أو حال من ما أى جميعاً كائناً منه تعالى أو سخر
لكم هذه الأشياء كائنة منه مخلوقة له تعالى أو خبر لمحذوف أى هى جميعاً منه تعالى وقرىء منة على
المفعول له ومنه على أنه فاعل سخر على الإسناد المجازى أو خبر مبتدأ محذوف أى ذلك منه (إن
فى ذلك) أى فيما ذكر من الأمور العظائم (لآيات) عظيمة الشأن كثيرة العدد (لقوم يتفكرون)
١٤ فى بدائع صنع الله تعالى فإنهم يقفون بذلك على جلائل نعمه تعالى ودقائقها ويوفقون لشكرها (قل
للذين آمنوا) حذف المقول لدلالة (يغفروا) عليه فإنه جواب للأمر باعتبار تعلقه به لا باعتبار نفسه
فقط أى قل لهم اغفروا يغفروا (للذين لا يرجون أيام الله) أى يعفوا ويصفحوا عن الذين لا يتوقعون
وقائعه تعالى بأعدائه من قولهم أيام العرب لوقائعها وقيل لا يأملون الأوقات التى وقتها الله تعالى لثواب
المؤمنين ووعدهم الفوز فيها قيل نزلت قبل آية القتال ثم نسخت بها وقيل نزلت فى عمر رضى الله عنه
حين شتمه غفارى فهم أن يبطش به وقيل حين قال ابن أبى ماقال وذلك أنهم نزلوا فى غزوة بنى المصطلق
على بئر يقال لها المريسيع فأرسل ابن أبى غلامه يستقى فأبطأ عليه فلما أتاه قال له ماحبسك قال غلام
عمر قعد على طرف البئر فما ترك أحداً يستقى حتى ملأ قرب النبى صلى الله عليه وسلم وقرب أبى بكر
فقال ابن أبى مامثلنا ومثل هؤلاء إلا كما قيل سمن كلبك يأكلك فبلغ ذلك عمر رضى الله عنه فاشتمل
سيفه يريد التوجه إليه فأنزلها الله تعالى (ليجزى قوماً بما كانوا يكسبون) تعليل للأمر بالمغفرة والمراد
بالقوم المؤمنون والتنكير لمدحهم والثناء عليهم أى أمروا بذلك ليجزى يوم القيامة قوماً أيما قوم
قوماً مخصوصين بما كسبوا فى الدنيا من الأعمال الحسنة التى من جملتها الصبر على أذية الكفار والإغضاء
عنهم بكظم الغيظ واحتمال المكروه مايقصر عنه البيان من الثواب العظيم هذا وقد جوز أن يراد بالقوم
الكفرة وبما كانوا يكسبون سيئاتهم التى من جملتها ماحكى من الكلمة الخبيثة والتنكير للتحقير وفيه
أن مطلق الجزاء لا يصلح تعليلا للأمر بالمغفرة لتحققه على تقديرى المغفرة وعدمها فلابد من تخصيصه
بالكل بأن لا يتحقق بعض منه فى الدنيا أو بما يصدر عنه تعالى بالذات وفى ذلك من التكلف مالا

مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١٥﴾ ٤٥ الجاثية

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ ٤٥ الجاثية

وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ۖ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧﴾ ٤٥ الجاثية

ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ ٤٥ الجاثية

إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾ ٤٥ الجاثية

هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾ ٤٥ الجاثية

يخفى وأن يراد كلا الفريقين وهو أكثر تكلفاً وأشد تمحلا وقرىء ليجزى قوم وليجزى قوماً أى
ليجزى الجزاء قوماً وقرىء لنجزى بنون العظمة (من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها) لايكاد ١٥
يسرى عمل إلى غير عامله (ثم إلى ربكم) مالك أموركم (ترجعون) فيجازيكم على أعمالكم خيراً كان أو *
شراً (ولقد آتينا بنى إسرائيل الكتاب) أى التوراة (والحكم) أى الحكمة النظرية والعملية والفقه ١٦
فى الدين أو فصل الخصومات بين الناس إذ كان الملك فيهم (والنبوة) حيث كثر فيهم الأنبياء ما لم *
يكثر فى غيرهم (ورزقناهم من الطيبات) مما أحل الله تعالى من اللذائذ كالمن والسلوى (وفضلناهم على *
العالمين) حيث آتيناهم مالم يؤت من عداهم من فلق البحر وإظلال الغمام ونظائرهما وقيل على عالمى زمانهم
(وآتيناهم بينات من الأمر) دلائل ظاهرة فى أمر الدين ومعجزات قاهرة وقال ابن عباس رضى الله ١٧
عنهما هو العلم بمبعث النبى صلى الله عليه وسلم وما بين لهم من أمره وأنه يهاجر من تهامة إلى يثرب ويكون
أنصاره أهل يثرب (فما اختلفوا) فى ذلك الأمر (إلا من بعد ماجاءهم العلم) بحقيقته وحقيته فجعلوا *
مايوجب زوال الخلاف موجباً لرسوخه (بغياً بينهم) أى عداوة وحسداً لاشكا فيه (إن ربك يقضى *
بينهم يوم القيامة) بالمؤاخذة والجزاء (فيما كانوا فيه يختلفون) من أمر الدين (ثم جعلناك على شريعة) ١٨
أى سنة وطريقة عظيمة الشأن (من الأمر) أى أمر الدين (فاتبعها) بإجراء أحكامها فى نفسك وفى *
غيرك من غير إخلال بشىء منها (ولا تتبع أهواء الذين لايعلمون) أى آراء الجهلة واعتقاداتهم الزائغة *
التابعة للشهوات وهم رؤساء قريش كانوا يقولون له عليه الصلاة والسلام ارجع إلى دين آبائك (إنهم ١٩
لن يغنوا عنك من الله شيئاً) مما أراد بك إن اتبعتهم (وإن الظالمين بعضهم أولياء بعض) لايواليهم *
ولا يتبع أهواءهم إلا من كان ظالماً مثلهم (والله ولى المتقين) الذين أنت قدوتهم قدم على ما أنت عليه *
من توليه خاصة والإعراض عما سواه بالكلية (هذا) أى القرآن أو اتباع الشريعة (بصائر للناس) ٢٠

أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ (٢١) ٤٥ الجاثية

وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٢٢) ٤٥ الجاثية

* فإن ما فيه من معالم الدين وشعائر الشرائع بمنزلة البصائر فى القلوب (وهدى) من ورطة الضلالة (ورحمة)
٢١ عظيمة (لقوم يوقنون) من شأنهم الإيقان بالأمور (أم حسب الذين اجترحوا السيئات) استئناف مسوق لبيان تباين حالى المسيئين والمحسنين إثر بيان تباين حالى الظالمين والمتقين وأم منقطعة وما فيها من معنى بل للانتقال من البيان الأول إلى الثانى والهمزة لإنكار الحسبان لكن لا بطريق إنكار الوقوع ونفيه كما فى قوله تعالى أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الأرض أم نجعل
* المتقين كالفجار بل بطريق إنكار الواقع واستقباحه والتوبيخ عليه والاجتراح الاكتساب (أن
* نجعلهم) أى نصيرهم فى الحكم والاعتبار وهم على ما هم عليه من مساوى الأحوال (كالذين آمنوا وعملوا
* الصالحات) وهم فيما هم فيه من محاسن الأعمال ونعاملهم معاملتهم فى الكرامة ورفع الدرجة (سواء محياهم ومماتهم) أى محيا الفريقين جميعاً ومماتهم حال من الضمير فى الظرف والموصول معاً لاشتماله على ضميريهما على أن السواء بمعنى المستوى ومحياهم ومماتهم مرتفعان به على الفاعلية والمعنى أم حسبوا أن نجعلهم كائنين مثلهم حال كون الكل مستوياً محياهم ومماتهم كلا لايستوون فى شىء منهما فإن هؤلاء فى عز الإيمان والطاعة وشرفهما فى المحيا وفى رحمة الله تعالى ورضوانه فى الممات وأولئك فى ذل الكفر والمعاصى وهوانهما فى المحيا وفى لعنة الله والعذاب الخالد فى الممات شتان بينهما وقد قيل المراد إنكار أن يستووا فى الممات كما استووا فى الحياة لأن المسيئين والمحسنين مستو محياهم فى الرزق والصحة وإنما يفترقون فى الممات وقرىء محياهم ومماتهم بالنصب على أنهما ظرفان كمقدم الحاج وسواء حال على حاله أى حال كونهم مستوين فى محياهم ومماتهم وقد ذكر فى الآية الكريمة وجوه أخر من الإعراب والذى يليق بجزالة التنزيل هو الأول فتدبر وقرىء سواء بالرفع على أنه خبر ومحياهم مبتدأ فقيل الجملة بدل من الكاف وقيل حال وأياً ما كان فنسبة حسبان التساوى إليهم فى ضمن الإنكار التوبيخى مع أنهم بمعزل منه جازمون بفضلهم على المؤمنين للمبالغة فى الإنكار والتشديد فى التوبيخ فإن إنكار حسبان
* التساوى والتوبيخ عليه إنكار لحسبان الجزم بالفضل وتوبيخ عليه على أبلغ وجه وآكده (ساء
٢٢ مايحكمون) أى ساء حكمهم هذا أو بئس شيئاً حكموا به ذلك (وخلق الله السموات والأرض بالحق) استئناف مقرر لما سبق من الحكم فإن خلق الله تعالى لهما ولما فيهما بالحق المقتضى للعدل يستدعى لامحالة تفضيل المحسن على المسىء فى المحيا والممات وانتصار المظلوم من الظالم وإذا لم يطرد ذلك فى المحيا فهو
* بعد الممات حتما (ولتجزى كل نفس بما كسبت) عطف على بالحق لأن فيه معنى التعليل إذ معناه خلقها مقرونة بالحكمة والصواب دون البعث والباطل فحاصله خلقها لأجل ذلك ولتجزى الخ أو على علة

أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾ ٤٥ الجاثية

وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ ٤٥ الجاثية

وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ ٤٥ الجاثية

محذوفة مثل ليدل بها على قدرته أو ليعدل ولتجزى (وهم) أى النفوس المدلول عليها بكل نفس (لا يظلمون) بنقص ثواب أو بزيادة عقاب وتسمية ذلك ظلماً مع أنه ليس كذلك على ماعرف قاعدة أهل السنة لبيان غاية تنزه ساحة لطفه تعالى عما ذكر بتنزيله منزلة الظلم الذى يستحيل صدوره عنه تعالى (أفرأيت ٢٣
من اتخذ إلهه هواه) تعجيب من حال من ترك متابعة الهدى إلى مطاوعة الهوى فكأنه عبده أى أنظرت فرأيته فإن ذلك مما يقضى منه العجب وقرىء آلهة هواه لأن أحدهم كان يستحسن حجراً فيعبده فإذا رأى أحسن منه رفضه إليه فكأنه اتخذ آلهة شتى (وأضله الله) وخذله (على علم) أى عالماً بضلاله وتبديله لفطرة الله تعالى التى فطر الناس عليها (وختم على سمعه وقلبه) بحيث لا يتأثر بالمواعظ ولا يتفكر فى الآيات والنذر (وجعل على بصره غشاوة) مانعة عن الاستبصار والاعتبار وقرىء بفتح الغين وضمها وقرىء غشوة (فمن يهديه من بعد الله) أى من بعد إضلاله تعالى إياه بموجب تعاميه عن الهدى وتماديه فى الغى (أفلا تذكرون) أى ألا تلاحظون فلا تذكرون وقرىء تتذكرون على الأصل
(وقالوا) بيان لأحكام ضلالهم المحكى أى قالوا من غاية غيهم وضلالهم (ماهى) أى ما الحياة (إلا ٢٤
حياتنا الدنيا) التى نحن فيها (نموت ونحيا) أى يصيبنا الموت والحياة فيها وليس وراء ذلك حياة وقيل نكون نطفاً وما قبلها وما بعدها ونحيا بعد ذلك أو نموت بأنفسنا ونحيا ببقاء أولادنا أو يموت بعضنا ويحيا بعضنا وقد جوز أن يريدوا به التناسخ فإنه عقيدة أكثر عبدة الأوثان وقرىء نحيا (وما يهلكنا إلا الدهر) إلا مرور الزمان وهو فى الأصل مدة بقاء العالم من دهره أى غلبه وقرىء إلا دهر يمر وكانوا يزعمون أن المؤثر فى هلاك الأنفس هو مرور الأيام والليالى وينكرون ملك الموت وقبضه للأرواح بأمر الله تعالى ويضيفون الحوادث إلى الدهر والزمان ومنه قوله صلى الله عليه وسلم لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر أى فإن الله هو الآتى بالحوادث لا الدهر (وما لهم بذلك) أى بما ذكر من اقتصار الحياة على ما فى الدنيا واستناد الحياة والموت إلى الدهر (من علم) ما مستند إلى عقلى أو نقلى (إن هم إلا يظنون) ماهم إلا قوم قصارى أمرهم الظن والتقليد من غير أن يكون لهم شىء يصح أن يتمسك به فى الجملة هذا معتقدهم الفاسد فى أنفسهم (وإذا تتلى عليهم آياتنا) الناطقة بالحق الذى ٢٥
من جملته البعث (بينات) واضحات الدلالة على ما نطقت به أو مبينات له (ما كان حجتهم) بالنصب

قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ ٤٥ الجاثية

وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٢٧﴾ ٤٥ الجاثية

وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ ٤٥ الجاثية

هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾ ٤٥ الجاثية

---

* على أنه خبر كان أى ماكان متمسكا لهم شيء من الأشياء (إلا أن قالوا ائتوا بآبائنا إن كنتم صادقين)
في أنا نبعث بعد الموت أى هذا القول الباطل الذى يستحيل أن يكون من قبيل الحجة وتسمية حجة
إما لسوقهم إياه مساق الحجة على سبيل التهكم بهم أو لأنه من قبيل [تحية بينهم ضرب وجيع] وقرىء
٢٦ برفع حجتهم على أنها اسم كان فالمعنى ماكان حجتهم شيئاً من الأشياء إلا هذا القول الباطل (قل الله
* يحييكم) ابتداء (ثم يميتكم) عند انقضاء آجالكم لا كما تزعمون من أنكم تحيون وتموتون بحكم الدهر
* (ثم يجمعكم) بعد الموت (إلى يوم القيامة) للجزاء (لاريب فيه) أى فى جمعكم فإن من قدر على البدء
قدر على الإعادة والحكمة اقتضت الجمع للجزاء لامحالة والوعد المصدق بالآيات دل على وقوعها حتما
* والإتيان بآبائهم حيث كان مزاحماً للحكمة التشريعية امتنع إيقاعه (ولكن أكثر الناس لا يعلمون)
استدراك من قوله تعالى لاريب فيه وهو إما من تمام الكلام المأمور به أو كلام مسوق من جهته تعالى
تحقيقاً للحق وتنبيهاً على أن ارتيابهم لجهلهم وقصورهم فى النظر والتفكر لا لأن فيه شائبة ريب ما
٢٧ (ولله ملك السموات والأرض) بيان لاختصاص الملك المطلق والتصرف الكلى فيهما وفيما بينهما
* بالله عز وجل إثر بيان تصرفه تعالى فى الناس بالإحياء والإماتة والبعث والجمع للمجازاة (ويوم تقوم
٢٨ الساعة يومئذ يخسر المبطلون) العامل فى يوم يخسر ويومئذ بدل منه (وترى كل أمة) من الأمم المجموعة
* (جاثية) باركة على الركب مستوفزة وقرىء جاذية أى جالسة على أطراف الأصابع والجذو أشد
استيفازاً من الجثو وعن ابن عباس رضى الله عنهما جاثية مجتمعة وقيل جماعات من الجثو وهى الجماعة
* (كل أمة تدعى إلى كتابها) إلى صحيفة أعمالها وقرىء كل بالنصب على أنه بدل من الأول وتدعى
٢٩ صفة أو حال أو مفعول ثان (اليوم تجزون ماكنتم تعملون) أى يقال لهم ذلك وقوله تعالى (هذا
كتابنا) الخ من تمام مايقال حينئذ وحيث كان كتاب كل أمة مكتوباً بأمر الله تعالى أضيف إلى نون
* العظمة تفخيما لشأنه وتهويلا لأمره فهذا مبتدأ وكتابنا خبره وقوله تعالى (ينطق عليكم) أى يشهد عليكم
* (بالحق) من غير زيادة ولا نقص خبر آخر أو حال وبالحق حال من فاعل ينطق وقوله تعالى (إنا كنا
نستنسخ) الخ تعليل لنطقه عليهم بأعمالهم من غير إخلال بشيء منها أى إنا كنا فيما قبل نستكتب
* الملائكة (ماكنتم تعملون) فى الدنيا من الأعمال حسنة كانت أو سيئة.

فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٠﴾ ٤٥ الجاثية

وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٣١﴾ ٤٥ الجاثية

وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴿٣٢﴾ ٤٥ الجاثية

وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٣﴾ ٤٥ الجاثية

وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٤﴾ ٤٥ الجاثية

ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٣٥﴾ ٤٥ الجاثية

وقوله تعالى (فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيدخلهم ربهم فى رحمته) أى فى جنته تفصيل لما ٣٠
يفعل بالأمم بعد بيان ماخوطبوا به من الكلام المنطوى على الوعد و الوعيد (ذلك) أى الذى ذكر من *
الإدخال فى رحمته تعالى (هو الفوز المبين) الظاهر كونه فوزاً لافوز وراءه (وأما الذين كفروا أفلم ٣١
تكن آياتى تتلى عليكم) أى فيقال لهم بطريق التوبيخ والتقريع ألم يكن تأتيكم رسلى فلم تكن آياتى
تتلى عليكم لحذف المعطوف عليه ثقة بدلالة القرينة عليه (فاستكبرتم) عن الإيمان بها (وكنتم قوماً *
مجرمين) أى قوماً عادتهم الإجرام (وإذا قيل إن وعد الله) أى ماوعده من الأمور الآتية أو وعده ٣٢
بذلك (حق) أى واقع لامحالة أو مطابق للواقع (والساعة) التى هى أشهر ما وعده (لاريب فيها) *
أى فى وقوعها وقرىء والساعة بالنصب عطفاً على اسم إن وقراءة الرفع للعطف على محل إن واسمها
(قلتم) لغاية عتوكم (ماندرى ما الساعة) أى أى شىء هى استغراباً لها (إن نظن إلا ظناً) أى مانفعل *
إلا ظناً وقدمر تحقيقه فى قوله تعالى إن أتبع إلا مايوحى إلى وقيل مانعتقد إلا ظناً أى لاعلماً وقيل مانحن
إلا نظن ظناً وقيل مانظن إلا ظناً ضعيفاً ويرده قوله تعالى (ومانحن بمستيقنين) أى لامكانه فإن مقابل *
الإستيقان مطلق الظن لا الضعيف منه ولعل هؤلاء غير القائلين ماهى إلاحياتنا الدنيا (وبدا لهم) أى ظهر ٣٣
لهم حينئذ (سيئات ما عملوا) على ماهى عليه من الصورة المنكرة الهائلة وعاينوا وخامة عاقبتها أو جزاءها *
فإن جزاء السيئة سيئة (وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون) من الجزاء والعقاب (وقيل اليوم ننساكم) نترككم ٣٤
فى العذاب ترك المنسى (كما نسيتم) فى الدنيا (لقاء يومكم هذا) أى كما تركتم عدته ولم تبالوا به وإضافة *
اللقاء إلى اليوم إضافة المصدر إلى ظرفه (ومأواكم النار وما لكم من ناصرين) أى ما لأحد منكم *
ناصر واحد يخلصكم منها (ذلكم) العذاب (بأنكم) بسبب أنكم (اتخذتم آيات الله هزواً) مهزوءاً ٣٥

فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾ ٤٥ الجاثية

وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾ ٤٥ الجاثية

* بها ولم ترفعوا لها رأساً (وغرتكم الحياة الدنيا) فحسبتم أن لاحياة سواها (فاليوم لايخرجون منها)
أى من النار وقرىء يخرجون من الخروج والالتفات إلى الغيبة للإيذان بإسقاطهم عن رتبة الخطاب
* استهانة بهم أو بنقلهم من مقام الخطاب إلى غيابة النار (ولا هم يستعتبون) أى يطلب منهم أن يعتبوا
٣٦ ربهم أى يرضوه لفوات أوانه (فلله الحمد) خاصة (رب السموات ورب الأرض رب العالمين) فلا يستحق
الحمد أحد سواه وتكرير الرب للتأكيد والإيذان بأن ربوبيته تعالى لكل منها بطريق الأصالة وقرىء
٣٧ برفع الثلاثة على المدح بإضمار هو (وله الكبرياء فى السموات والأرض) لظهور آثارها وأحكامها
* فيهما وإظهارهما فى موقع الإضمار لتفخيم شأن الكبرياء (وهو العزيز) الذى لايغلب (الحكيم)
فى كل ماقضى وقدر فاحمدوه وكبروه وأطيعوه . عن النبى صلى الله عليه وسلم من قرأ حم الجاثية ستر
الله تعالى عورته وسكن روعته يوم الحساب .

سورة الجاثية

ترتيبها ٤٥ — آياتها ٣٧

وتسمى سورة الشريعة وسورة الدهر كما حكاه الكرماني في العجائب لذكرهما فيها، وهي مكية قال ابن عطية: بلا خلاف، وذكر الماوردي إلا ﴿قل للذين آمنوا يغفروا﴾ [الجاثية: ١٤] الآية فمدنية، وحكى هذا الاستثناء في جمال القراء عن قتادة، وسيأتي الكلام في ذلك إن شاء الله تعالى. وهي سبع وثلاثون آية في الكوفي وست وثلاثون في الباقية لاختلافهم في «حم» هل هي آية مستقلة أو لا، ومناسبة أولها لآخر ما قبلها في غاية الوضوح.

بسم الله الرحمن الرحيم

حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا
يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ
مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٥﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ
يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ
﴿٨﴾ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩﴾ مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ ۖ وَلَا يُغْنِى عَنْهُم مَّا
كَسَبُوا۟ شَيْـًٔا وَلَا مَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠﴾ هَٰذَا هُدًى ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ
عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ ۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ
تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾ قُل
لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجْزِىَ قَوْمًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾

﴿بسم الله الرَّحمَٰن الرحيم. حم﴾ إن جعل اسماً للسورة فمحله الرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف أي هذا مسمى بحم، وقوله تعالى: **﴿تنزيلُ الْكتاب﴾** خبر بعد خبر على أنه مصدر أطلق على المفعول مبالغة، وقوله سبحانه: **﴿من الله الْعَزيز الْـحَكيم﴾** صلته أو خبر ثالث أو حال من **﴿تنزيل﴾** عاملها معنى الإشارة أو من **﴿الكتاب﴾** الذي هو مفعول معنى عاملها المضاف، وقيل: **﴿حم﴾** مبتدأ وهذا خبره والكلام على المبالغة أيضاً أو تأويل **﴿تنزيل﴾** بمنزل،

والإضافة من إضافة الصفة لموصوفها، واعتبار المبالغة أولى أي المسمى به تنزيل الخ. وتعقب بأن الذي يجعل عنواناً للموضوع حقه أن يكون قبل ذلك معلوم الانتساب إليه وإذ لا عهد بالتسمية بعد فحقها الإخبار بها، وجوز جار الله جعل «حم» مبتدأ بتقدير مضاف أي تنزيل حم و ﴿تنزيل﴾ المذكور خبره و ﴿من الله﴾ صلته، وفيه إقامة الظاهر مقام المضمر إيذاناً بأنه الكتاب الكامل إن أريد بالكتاب السورة، وفيه تفخيم ليس في تنزيل حم تنزيل من الله، ولهذا لما لم يزاع في حم السجدة هذه النكتة عقب بقوله تعالى: ﴿كتاب فصلت﴾ [فصلت: ٣] ليفيد هذه الفائدة مع التفنن في العبارة، وإن أريد الكتاب كله فللإشعار بأن تنزيله كإنزال الكل في حصول الغرض من التحدي والتهدي، فدعوى عراء هذا الوجه عن فائدة يعتد بها عراء عن إنصاف يعتد به، وإن جعل تعديداً للحروف فلاحظ له من الإعراب وكان ﴿تنزيل﴾ خبر مبتدأ مضمر يلوح به ما قبله أي المؤلف من جنس ما ذكر تنزيل الكتاب أو مبتدأ خبره الظرف بعده على ما قاله جار الله، وقيل: ﴿حم﴾ مقسم به ففيه حرف جر مقدر وهو في محل جر أو نصب على الخلاف المعروف فيه و ﴿تنزيل﴾ نعت مقطوع فهو خبر مبتدأ مقدر والجملة مستأنفة وجواب القسم قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ وهو على ما تقدم استئناف للتنبيه على الآيات التكوينية، وجوز أن يكون ﴿تنزيل الكتاب من الله﴾ مبتدأ وخبراً والجملة جواب القسم، وهو خلاف الظاهر، وقيل: يقدر ﴿حم﴾ على كونه مقسماً به مبتدأ محذوف الخبر أي حم قسمي ويكون «تنزيل» نعتاً له غير مقطوع، وعلى سائر الأوجه قوله سبحانه: ﴿العزيز الحكيم﴾ نعت للاسم الجليل.

وجوز الإمام كونه صفة للكتاب إلا أنه رجح الأول بعد احتياجه إلى ارتكاب المجاز مع زيادة قرب الصفة من الموصوف فيه، وأوجبه أبو حيان لما في الثاني من الفصل بين الصفة والموصوف الغير الجائز.

وقوله عزَّ وجلَّ: «إن في السموات» الخ يجوز أن يكون بتقدير مضاف أي إن في خلق السموات كما رواه الواحدي عن الزجاج لما أنه قد صرح به في آية أخرى والقرآن يفسر بعضه بعضاً، ويناسبه قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَفِي خَلْقِكُمْ﴾ إلى آخره، ويجوز أن يكون على ظاهره وحينئذ يكون على أحد وجهين. أحدهما إن فيهما لآيات أي ما فيهما من المخلوقات كالجبال والمعادن والكواكب والنيرين وعلى هذا يكون قوله سبحانه ﴿وفي خلقكم﴾ من عطف الخاص على العام. والثاني أن أنفسهما لآيات لما فيها من فنون الدلالة على القادر الحكيم جل شأنه، وهذا أظهر وهو أبلغ من أن يقال: إن في خلقهما لآيات وإن كان المعنى آيلاً إليه، و ﴿في خلقكم﴾ خبر مقدم وقوله سبحانه: ﴿وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ﴾ عطف على خلق، وجوز في ﴿ما﴾ كونها مصدرية وكونها موصولة إما بتقدير مضاف أي وفي خلق ما ينشره ويفرقه من دابة أو بدونه.

وجوز عطفه على الضمير المتصل المجرور بالإضافة وما موصولة لا غير على الظاهر، وهو مبني على جواز العطف على الضمير المتصل المجرور من غير إعادة الجار وذلك مذهب الكوفيين ويونس والأخفش؛ قال أبو حيان: وهو الصحيح، واختاره الأستاذ أبو علي الشلوبين، ومذهب سيبويه وجمهور البصريين منع العطف المذكور سواء كان الضمير مجروراً بالحرف أو بالإضافة لشدة الاتصال فأشبه العطف على بعض الكلمة.

وذكر ابن الحاجب في شرح المفصل في باب الوقف منه أن بعض النحويين يجوزون العطف في المجرور بالإضافة دون المجرور بالحرف لأن اتصال المجرور بالمضاف ليس كاتصاله بالجار لاستقلال كل واحد منهما بمعناه فلم يشتد اتصال فيه اشتداده مع الحرف وأجاز الجرمي والزيادي العطف إذ أكد الضمير المتصل بمنفصل نحو مررت بك أنت وزيد وقوله تعالى ﴿آيَاتٌ﴾ مبتدأ مؤخر والجملة معطوفة على جملة ﴿إن في السموات﴾ الخ. وقرأ أبي

وعبد الله «لآيات» باللام كذا في البحر ولم يبين أن آيات مرفوع أو منصوب، فإن كان منصوباً فاللام زائدة في اسم إن المتقدم عليه خبرها وهو أحد مواضع زيادته المطردة الكثيرة، وإن كان مرفوعاً فهي زائدة في المبتدأ ويقل زيادتها فيه، وحسن زيادتها هنا تقدم أن في الجملة المعطوف عليها فهو كقوله:

إن الخلافة بعدهم لذميمة ... وخلائف ظرف لمما أحقر

وقرأ زيد بن علي «آية» بالإفراد. وقرأ الأعمش والجحدري وحمزة والكسائي ويعقوب «آيات» بالجمع والنصب على أنها عطف على «آيات» السابق الواقع اسماً لأن و ﴿في خلقكم﴾ معطوف على ﴿في السموات﴾ فكأنه قيل: وإن في خلقكم وما يبث من دابة آيات ﴿لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ أي من شأنهم أن يوقنوا بالأشياء على ما هي عليه ﴿وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ بالجر على إضمار في، وقد قرأ عبد الله بذكره. وجاء حذف الجار مع إبقاء عمله كما في قوله:

إذا قيل أي الناس شر قبيلة ... أشارت كليب بالأكف الأصابع

وحسن ما هنا ذكر الجار في الآيتين قبل. وقرىء بالرفع على أنه مبتدأ خبره ﴿آيات﴾ بعد والمراد باختلافهما تعاقبهما أو تفاوتهما طولاً وقصراً، وقيل: اختلافهما في أن أحدهما نور والآخرة ظلمة ﴿وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ عطف على ﴿اختلاف﴾ ﴿مِنَ السَّمَاءِ﴾ جهة العلو، وقيل: السحاب، وقيل: الجرم المعروف بضرب من التأويل.

﴿مِن رِّزْقٍ﴾ من مطر، وسمي رزقاً لأنه سببه فهو مجاز، ولو لم يؤول صح لأنه في نفسه رزق أيضاً.

﴿فَأَحيا به الأَرْضَ﴾ بأن أخرج منها أصناف الزرع والثمرات والنبات، والسببية عادية اقتضتها الحكمة ﴿بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ يبسها وعرائها عن آثار الحياة وانتفاء قوة التنمية عنها ﴿وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ﴾ من جهة إلى أخرى ومن حال إلى حال، وتأخيره عن إنزال المطر مع تقدمه عليه في الوجود إما للإيذان بأنه آية مستقلة حيث لو روعي الترتيب الوجودي لربما توهم أن مجموع تصريف الرياح وإنزال المطر آية واحدة، وإما لأن كون التصريف آية ليس بمجرد كونه مبدأ لإنشاء المطر بل له ولسائر المنافع التي من جملتها سوق السفن في البحار.

وقرأ زيد بن علي وطلحة وعيسى «وتصريف الريح» بالإفراد ﴿آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ بالرفع على أنه مبتدأ خبره ما تقدم من الجار والمجرور أعني «في اختلاف» على ما سمعت، والجملة معطوفة على ما قبلها. وقيل: إن ﴿اختلاف﴾ بالجر عطف على ﴿خلقكم﴾ المجرور بفي قبله و ﴿آيات﴾ عطف على آيات السابق المرفوع بالابتداء، وفيه العطف على معمولي عاملين مختلفين، ومن الناس من يمنعه وهم أكثر البصريين، ومنهم من يجيزه وهم أكثر الكوفيين، ومنهم من يفصل فيقول: وهو جائز في نحو قولك: في الدار زيد والحجرة عمرو وغير جائز في نحو قولك: زيد في الدار وعمرو الحجرة لأن الأول يلي المجرور فيه العاطف فقام العاطف مقام الجار، والثاني لم يل فيه المجرور العاطف فكان فيه إضمار الجار من غير عوض، وتمام الكلام في هذه المسألة في محله؛ وقيل: إن ﴿اختلاف﴾ عطف على المجرور قبله و ﴿آيات﴾ خبر مبتدأ محذوف أي هي آيات؛ واختاره من لم يجوز العطف على معمولي عاملين ويقول بضعف حذف الجار مع بقاء عمله وإن تقدمه ذكر جار.

وقال أبو البقاء: ﴿آيات﴾ مرفوع على التأكيد لآيات السابق وهم يعيدون الشيء إذا طال الكلام في الجملة للتأكيد والتذكير. وتعقب بأن ذلك إنما يكون بعين ما تقدم واختلاف الصفات يدل على تغاير الموصوفات فلا وجه للتأكيد، وأيضاً فيه الفصل بين المعطوف المجرور والمعطوف عليه وبين المؤكد والمؤكد وهو إن جاز يورث تعقيداً ينافي فصاحة القرآن العظيم. وقرأ ﴿آيات﴾ هنا بالنصب من قرأها هناك به فهي مفعول لفعل محذوف أي أعني آيات،

وقيل: العاطف في قوله تعالى ﴿واختلاف﴾ عطف اختلاف على المجرور بفي قبل وعطفها على اسم إن وهو مبني على جواز العطف على معمولي عاملين، وقال أبو البقاء: هي منصوبة على التأكيد والتكرير لاسم إن نحو بثوبك دماً وبثوب زيد دماً، ومر آنفاً ما فيه.

وقال بعضهم: إنها اسم إن مضمرة وهي قد تضمر ويبقى عملها، ذكر أبو حيان في الارتشاف في الكلام على أن من خير الناس أو خيرهم زيد أن محمد بن يحيى بن المبارك اليزيدي ذهب إلى نصب خيرهم ورفع زيد فاسم إن محذوف وأو خيرهم منصوب بإضمار إن لدلالة إن المذكورة تقديره إن من خير الناس زيداً وإن خيرهم زيد. وقد أقر الشاطبي تخريج النصب في الآية على ذلك لكن نقله السفاقسي عن أبي البقاء ورده بأن إن لا تضمر.

وقال ابن هشام في آخر الباب الرابع من المغني: إنه بعيد، والظاهر أنه لا بد عليه من إضمار الجار في ﴿اختلاف﴾ وحينئذ لا يخفى حاله، وسائر القراءات مروية هنا عمن رويت عنه فيما تقدم، وتنكير ﴿آيات﴾ في الآيات للتفخيم كماً وكيفاً، والمعنى إن المنصفين من العباد إذا نظروا في السموات والأرض النظر الصحيح علموا أنها مصنوعة وأنها لا بد لها من صانع فآمنوا بالله تعالى وأقروا، وإذا نظروا في خلق أنفسهم وتنقلها من حال إلى حال وهيئة إلى أخرى وفي خلق ما على ظهر الأرض من صنوف الحيوان ازدادوا إيماناً وأيقنوا وانتفى عنهم اللبس فإذا نظروا في سائر الحوادث التي تتجدد في كل وقت كاختلاف الليل والنهار ونزول الأمطار وحياة الأرض بعد موتها وتصريف الرياح جنوباً وشمالاً وقبولاً ودبوراً وشدة وضعفاً وحرارة وبرودة عقلوا واستحكم علمهم وخلص يقينهم كذا في الكشاف ومنه يعلم نكتة اختلاف الفواصل.

وفي الكشف أنه ذكر ما حاصله أنه على سبيل الترقي وهو يوافق ما عليه الصوفية وغيرهم من أن الإيقان مرتبة خاصة في الإيمان، ثم العقل لما كان مدارهما أي الإيمان والإيقان ونعني به العقل المؤيد بنور البصيرة جعله لخلوص الإيقان من اعتراء الشكوك من كل وجه ففي استحكامه كل خير، وروعي في ترتيب الآيات ما روعي في ترتيب المراتب الثلاث من تقديم ما هو أقدم وجوداً، ولا يلزم أن تكون الآية الثانية أعظم من الأولى ولا الثالثة من الثانية لما ذكره من أن الجامع بين النظرين موقن وبين الثلاثة عاقل على أنها كذلك في تحصيل هذا الغرض فإن كانت أعظم من وجه آخر فلا بأس فإن النظر إلى حال نفسه وما هو من نوعه ثم جنسه من سائر الأناسي والحيوان للقرب والتكرر وكثرة العدد أدخل في انتفاء الشك وحصول اليقين وإن كان النظر في السماء والأرض أتم دلالة على كمال القدرة والعلم فذلك لا يضر ولا هو المطلوب ههنا ثم النظر إلى الاختلاف المذكور أدل على استحكام ذلك اليقين من حيث إنه يتجدد حيناً فحيناً ويبعث على النظر والاعتبار كلما تجدد هذا، والتحقيق أن تمام النظر في الثاني يضطر إلى النظر في الأول لأن السموات والأرض من أسباب تكون الحيوان بوجه، وكذلك النظر في الثالث يضطر إلى النظر في الأولين، أما على الأول فظاهر وأما على الثاني فلأنه العلة الغائية فلا بد من أن يكون جامعاً انتهى، وهو كلام نفيس جداً.

وقال الإمام في ترتيب هذه الفواصل: أظن أن سببه أنه قيل إن كنتم مؤمنين فافهموا هذه الدلائل وإن كنتم لستم من المؤمنين بل كنتم من طلاب الجزم واليقين فافهموا هذه الدلائل وإن كنتم لستم من المؤمنين ولا من الموقنين فلا أقل من أن تكونوا من زمرة العاقلين فاجتهدوا في معرفة هذه الدلائل، ولا يخفى أنه فاته ذلك التحقيق ولم يختر الترقي وهو بالاختيار حقيق، والمغايرة بين ما هنا وما في سورة [البقرة: ١٦٤] ﴿إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس﴾ الآية للتفنن والكلام المعجز مملوء منه، وذكر الإمام في ذلك ما لا يهش له السامع فتأمل ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللهِ﴾ مبتدأ وخبر، وقوله تعالى: ﴿نَتْلُوهَا عَلَيْكَ﴾ حال عاملها معنى

الإشارة نحو ﴿هذا بعلي شيخا﴾ [هود: ٧٢] على المشهور، وقيل: هو الخبر و ﴿آيات الله﴾ بدل أو عطف بيان وقوله سبحانه: ﴿بالْحَقِّ﴾ حال من فاعل ﴿نتلوها﴾ أو من مفعوله أي نتلوها محقين أو ملتبسة بالحق فالباء للملابسة ويجوز أن تكون للسببية الغائية، والمراد بالآيات المشار إليها إما آيات القرآن أو السورة أو ما ذكر قبل من السموات والأرض وغيرهم فتلاوتها بتلاوة ما يدل عليها، وفسرت بالسرد أي نسردها عليك.

وقال ابن عطية: الكلام بتقدير مضاف أي نتلو شأنها وشأن العبرة بها. وقرىء «يَتْلُوهَا» بالياء على أن الفاعل ضميره تعالى والمراد على القراءتين تلاوتها عليه ﷺ بواسطة الملك عليه السلام ﴿فَبِأَيِّ حَدِيث بَعْدَ الله وَآيَاته يُؤْمنُونَ﴾ هو من باب قولهم: أعجبني زيد وكرمه يريدون أعجبني كرم زيد إلا أنهم عدلوا عنه للمبالغة في الإعجاب أي فبأي حديث بعد هذه الآيات المتلوة بالحق يؤمنون، وفيه دلالة على أنه لا بيان أزيد من هذا البيان ولا آية أدل من هذه الآية، وتفخيم شأن الآيات من اسم الإشارة وإضافتها إلى الله عز وجلّ، وجعل «نتلوها» حالاً مع ضمير التعظيم ثم تكرير الاسم الجليل للنكتة المذكورة وإضافتها إليه بواسطة الضمير مرة أخرى، وقد ذكر ذلك الزمخشري وتعقبه أبو حيان بأنه ليس بشيء لأن فيه من حيث المعنى إقحام الأسماء من غير ضرورة والعطف، والمراد غير العطف من إخراجه إلى باب البدل لأن تقدير كرم زيد إنما يكون في أعجبني زيد كرمه بغير واو على البدل وهذا قلب لحقائق النحو، وإنما المعنى في المثال إن ذات زيد أعجبته وأعجبه كرمه فهما إعجابان لا إعجاب واحد وهو مبني على عدم التعمق في فهم كلام جار الله.

ومن تعمق فيه لا يرى أنه قائل بالإقحام وإنما بيان حاصل المعنى يوهمه، وبين هذه الطريقة وطريقة البدل مغايرة تامة، فقد ذكر أن فائدة هذه الطريقة وهي طريقة إسناد الفعل إلى شيء والمقصود إسناده إلى ما عطف عليه قوة اختصاص المعطوف بالمعطوف عليه من جهة الدلالة على أنه صار من التلبس بحيث يصح أن يسند أوصافه وأفعاله وأحواله إلى الأول قصداً لأنه بمنزلته ولا كذلك البدل لأن المقصود فيه بالنسبة هو الثاني فقط وهنا هما مقصودان، فإن قلت: إذا لم يكن ذلك الوصف منسوباً للمعطوف عليه لزم إقحامه كما قال أبو حيان، وما يذكر من المبالغة لا يدفع المحذور، وعلى فرض تسليمه فدلالته على ما ذكر بأي طريق من طرق الدلالة المشهورة.

أجيب بأنه غير منسوب إليه في الواقع لكن لما كان بينهما ملابسة تامة من جهة ما ككون الآيات ههنا بإذنه تعالى أو مرضية له عز وجل جعل كأنه المقصود بالنسبة وكني بها عن ذلك الاختصاص كناية إيمائية ثم عطف عليه المنسوب إليه وجعل تابعاً فيها وبهذا غاير البدل مغايرة تامة غفل عنها المعترض فالنسبة بتمامها مجازية كذا قرره بعض المحققين.

وقال الواحدي: أي فبأي حديث بعد حديث الله أي القرآن وقد جاء إطلاقه عليه في قوله تعالى: ﴿الله نزل أحسن الحديث﴾ [الزمر: ٢٣] وحسن الإضمار لقرينة تقدم الحديث، وقوله سبحانه: ﴿وآياته﴾ عطف عليه لتغايرهما إجمالاً وتفصيلاً لأن الآيات هي ذلك الحديث ملحوظ الأجزاء، وإن أريد ما بين فيه من الآيات والدلائل فليس من عطف الخاص على العام لأن الآيات ليست من القرآن وإنما وجه دلالتها وإيرادها منه فيكون في هذا الوجه الدلالة أيضاً على حال البيان والمبين كما في الوجه الأول، وقال الضحاك: أي فبأي حديث بعد توحيد الله ولا يخفى أنه بظاهره مما لا معنى له فلعله أراد بعد حديث توحيده تعالى أي الحديث المتضمن ذلك أو هو بعد تقدير المضاف من باب أعجبني زيد وكرمه، وأياً ما كان فالفاء في جواب شرط مقدر والظرف صفة «حديث» وجوز أن يكون متعلقاً بيؤمنون قدم للفاصلة.

وقرأ ابن عامر وأبو بكر وحمزة والكسائي «تؤمنون» بالتاء الفوقانية وهو موافق لقوله تعالى: ﴿وفي خلقكم﴾ بحسب الظاهر والصورة وإلا فالمراد هنا الكفار بخلاف ذلك.

وقرأ طلحة «توقنون» بالتاء الفوقانية والقاف من الإيقان ﴿وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاك﴾ كثير الإفك أي الكذب ﴿أَثيم﴾ كثير الإثم، والآية نزلت في أبي جهل، وقيل: في النضر بن الحارث وكان يشتري حديث الأعاجم ويشغل به الناس عن استماع القرآن لكنها عامة كما هو مقتضى كل ويدخل من نزلت فيه دخولاً أولياً، و ﴿أثيم﴾ صفة ﴿أفاك﴾ وقوله تعالى: ﴿يَسْمَعُ آيَاتِ اللهِ﴾ صفة أخرى له، وقيل استئناف، وقيل حال من الضمير في ﴿أثيم﴾ وقوله سبحانه ﴿تُتْلَىٰ عَلَيْهِ﴾ حال من ﴿آيات الله﴾ ولم يجوز جعله مفعولاً ثانياً ليسمع لأن شرطه أن يكون ما بعده مما لا يسمع كسمعت زيداً يقرأ، والظاهر أن المراد بتتلى الاستمرار لأنه المناسب للاستبعاد المدلول عليه بقوله عز وجل ﴿ثُمَّ يُصِرُّ﴾ فإن ثم لاستبعاد الإصرار بعد سماع الآيات وهي للتراخي الرتبي ويمكن إبقاؤه على حقيقته إلا أن الأول أبلغ وأنسب بالمقام، ونظير ذلك في الاستبعاد قول جعفر بن علية:

لا يكشف الغماء إلا ابن حرة ... يرى غمرات الموت ثم يزورها

والإصرار على الشيء ملازمته وعدم الانفكاك عنه من الصر وهو الشد ومنه صرة الدراهم، ويقال: صر الحمار أذنيه ضمهما صراً وأصر الحمار ولا يقال أذنيه على ما في الصحاح وكأن معناه حينئذٍ صار صارّاً أذنيه.

والمراد هنا ثم يقيم على كفره وضلاله ﴿مُسْتَكْبِراً﴾ عن الإيمان بالآيات وهو حال من ضمير ﴿يصر﴾ وقوله سبحانه ﴿كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا﴾ حال بعد حال أو حال من ضمير ﴿مستكبراً﴾ وجوز الاستئناف، و ﴿كأن﴾ مخففة من كأن بحذف إحدى النونين واسمها ضمير الشأن، وقيل: لا حاجة إلى تقديره كما في أن المفتوحة، والمعنى يصر مستكبراً مثل غير السامع لها ﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ على إصراره ذلك، والبشارة في الأصل الخبر المغير للبشرة خيراً كان أو شراً، وخصها العرف بالخبر السار فإن أريد المعنى العرفي فهو استعارة تهكمية أو هو من قبيل:

تحية بينهم ضرب وجيع

﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئاً﴾ وإذا بلغه شيء من آياتنا وعلم أنه منها.

﴿اتَّخَذَهَا هُزُواً﴾ بادر إلى الاستهزاء بالآيات كلها ولم يقتصر على الاستهزاء بما بلغه، وجوز أن يكون المعنى وإذا علم من آياتنا شيئاً يمكن أن يتشبث به المعاند ويجد له محملاً يتسلق به على الطعن والغميزة افترصه واتخذ آيات الله تعالى هزواً وذلك نحو اعتراض ابن الزبعري في قوله تعالى ﴿إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم﴾ [الأنبياء: ٩٨] ومغالطته رسول الله ﷺ وقوله على ما بعض الروايات: خصمتك فضمير ﴿اتخذها﴾ على الوجهين للآيات، والفرق بينهما أن ﴿شيئاً﴾ على الثاني فيه تخصيص لقرينة ﴿اتخذها هزواً﴾ إذ لا يحتمل إلا ما يحسن أن يخيل فيه ذلك ثم يجعله دستوراً للباقي فيقول: الكل من هذا القبيل، وفرق بين الوجهين أيضاً بأن في الأول الاتخاذ قبل التأمل وفي الثاني بعده وبعد تمييز آية عن أخرى، وقيل: الاستهزاء بما علمه من الآيات إلا أنه أرجع الضمير إلى الآيات لأن الاستهزاء بواحدة منها استهزاء بكلها لما بينها من التماثل، وجوز أن يرجع الضمير إلى شيء والتأنيث لأنه بمعنى الآية كقول أبي العتاهية:

نفسي بشيء من الدنيا معلقة ... الله والقائم المهدي يكفيها

يعني الشيء وأراد به عتبة جارية للمهدي من حظاياه وكان أبو العتاهية يهواها فقال ما قال. وقرأ قتادة ومطر الوراق «عُلِّمَ» بضم العين وشد اللام مبنياً للمفعول ﴿أُولَٰئِكَ﴾ إشارة إلى كل أفاك من حيث الاتصاف بما ذكر من

القبائح، والجمع باعتبار الشمول للكل كما في قوله تعالى: ﴿كل حزب بما لديهم فرحون﴾ [الروم: ٣٢] كما أن الإفراد فيما سبق من الضمائر باعتبار كل واحد واحد، وأداة البعد للإشارة إلى بعد منزلتهم في الشر.

﴿لَهُمْ﴾ بسبب جناياتهم المذكورة ﴿عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ وصف العذاب بالإهانة توفية لحق استكبارهم واستهزائهم بآيات الله عز وجل ﴿مِنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ﴾ أي من قدامهم لأنهم متوجهون إليها أو من خلفهم لأنهم معرضون عن الالتفات إليها والاشتغال عما ينجيهم منها مقبلون على الدنيا والانهماك في شهواتها، والوراء تستعمل في هذين المعنيين لأنها اسم للجهة التي يواريها الشخص فتعم الخلف والقدام، وقيل في توجيه الخلفية: إن جهنم لما كانت تتحقق لهم بعد الأجل جعلت كأنها خلفهم ﴿وَلاَ يُغْنِي عَنْهُمْ﴾ ولا يدفع ﴿مَا كَسَبُوا﴾ أي الذي كسبوه من الأموال والأولاد ﴿شَيْئاً﴾ من عذاب الله تعالى أو شيئاً من الإغناء على أن ﴿شيئاً﴾ مفعول به أو مفعول مطلق ﴿وَلاَ مَا اتَّخَذُوا﴾ أي الذي اتخذوه ﴿مِنْ دُونِ الله أَوْلِيَاءَ﴾ أي الأصنام.

وجوز أن تفسر ﴿ما﴾ بما تعمها وسائر المعبودات الباطلة، والأول أظهر، وجوز في ﴿ما﴾ في الموضعين أن تكون مصدرية، وتوسيط حرفي النفي بين المعطوفين مع أن عدم إغناء الأصنام أظهر وأجلى من عدم إغناء الأموال والأولاد قطعاً مبني على زعمهم الفاسد حيث كانوا يطمعون في شفاعتهم، وفيه تهكم ﴿وَلَهُمْ﴾ فيما وراءهم من جهنم ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ لا يقادر قدره ﴿هَـٰذَا﴾ أي القرآن كما يدل عليه ما بعد وكذا ما قبل كـ ﴿يسمع آيات الله﴾ ﴿وإذا علم من آياتنا﴾ ﴿وتلك آيات الله نتلوها﴾ ﴿هُدًى﴾ في غاية الكمال من الهداية كأنه نفسها ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ يعني القرآن أيضاً على أن الإضافة للعهد، وكان الظاهر الإضمار لكن عدل عنه إلى ما في النظم الجليل لزيادة تشنيع كفرهم به وتفظيع حالهم؛ وجوز أن يراد بالآيات ما يشمله وغيره.

﴿لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رجزٍ﴾ من أشد العذاب ﴿أَلِيمٌ﴾ بالرفع صفة ﴿عذاب﴾ أخر للفاصلة.

وقرأ غير واحد من السبعة ﴿أليم﴾ بالجر على أنه صفة ﴿رجز﴾، وجعله صفة ﴿عذاب﴾ أيضاً والجر للمجاورة مما لا ينبغي أن يلتفت إليه، وقيل: على قراءة الرفع إن الرجز بمعنى الرجس الذي هو النجاسة، والمعنى لهم عذاب أليم من تجرع رجس أو شرب رجس والمراد به الصديد الذي يتجرعه الكافر ولا يكاد يسيغه ولا داعي لذلك كما لا يخفى، وتنوين ﴿عذابٌ﴾ في المواقع الثلاثة للتفخيم، ورفعه إما على الابتداء وإما على الفاعلية للظرف ﴿الله الَّذي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ﴾ بأن جعله أملس السطح يطفو عليه ما يتخلخل كالأخشاب ولا يمنع الغوص فيه ﴿لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فيه بأمره﴾ بتسخيره تعالى إياه وتسهيل استعمالها فيما يراد بها، وقيل: بتكوينه تعالى أو بإذنه عز وجلّ، وسياق الامتنان يقتضي أن يكون المعنى لتجري الفلك فيه وأنتم راكبوها.

﴿وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِه﴾ بالتجارة والغوص والصيد وغيرها ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ ولكي تشكروا النعم المترتبة على ذلك، وهذا أعني ﴿الله الذي سخر﴾ الخ ذكر تتميماً للتفريع ولهذا رتب عليه الأغراض العاجلة فإنه مما يستوجب الشكر غالباً للكافر أيضاً فكأنه قيل: تلك الآيات أولى بالشكر ولهذا عقب بما يعم القسمين أعني قوله سبحانه: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ أي من الموجودات بأن جعل فيها منافع لكم منها ظاهرة ومنها خفية، وعقب بالتفكر لينبه على أن التفكر هو الذي يؤدي إلى ما ذكر من الأولوية ويدل به على أن التفكر ملاك الأمر في ترتيب الغرض على ما جعل آية من الإيمان والإيقان والشكر ﴿جَمِيعاً﴾ حال من ﴿ما في السموات وما في الأرض﴾ أو توكيد له وقوله تعالى: ﴿مِنْهُ﴾ حال من ذلك أيضاً، والمعنى سخر هذه الأشياء جميعاً كائنة منه وحاصلة من عنده يعني أنه سبحانه مكونها وموجدها بقدرته وحكمته ثم مسخرها لخلقه.

وجوز فيه أوجه أخر. الأول أن يكون خبر مبتدأ محذوف فقيل ﴿جميعا﴾ حينئذٍ حال من الضمير المستتر في الجار والمجرور بناءً على جواز تقدم الحال على مثل هذا العامل أو من المبتدأ بناءً على تجويز الحال منه أي هي جميعاً منه تعالى وقيل: جميعاً على ما كان ويلاحظ في تصوير المعنى فالضمير المبتدأ يقدر بعده ويعتبر رجوعه إلى ما تقدم بقيد جميعاً، والجملة على القولين استئناف جيء به تأكيداً لقوله تعالى: ﴿سخر﴾ أي إنه عز وجل أوجدها ثم سخرها لا أنها حصلت له سبحانه من غيره كالملوك، الثاني أن يجعل ﴿ما في السموات﴾ مبتدأ ويكون هو خبره و ﴿جميعاً﴾ حال من الضمير المستتر في الجار والمجرور الواقع صلة ويكون ﴿وسخر لكم﴾ تأكيداً للأول أي سخر وسخر، وفي العطف إيماء إلى أن التسخير الثاني كأنه غير الأول دلالة على أن المتفكر كلما فكر يزداد إيماناً بكمال التسخير والمنة عليه، وجملة ﴿ما في السموات﴾ الخ مستأنفة لمزيد بيان القدرة والحكمة.

واعترض بأنه إن أريد التأكيد اللغوي فهو لا يخلو من الضعف لأن عطف مثله في الجمل غير معهود، وإن أريد التأكيد الاصطلاحي كما قيل به في قوله تعالى: ﴿كلا سوف تعلمون ثم كلا سوف تعلمون﴾ [التكوير: ٣ - ٤] فهو مخالف لما ذكره ابن مالك في التسهيل من أن عطف التأكيد يختص بثم، وقال الرضي: يكون بالفاء أيضاً وهو ههنا بالواو ولم يجوزه أحد منهم وإن لم يذكروا وجه الفرق على أنه قد تقرر في المعاني أنه لا يجري في التأكيد العطف مطلقاً لشدة الاتصال، واعترض أيضاً بأن فيه حذف مفعول «سخر» من غير قرينة وهذا كما ترى، الثالث أن يكون ﴿ما في الأرض﴾ مبتدأ و ﴿منه﴾ خبره ولا يخفى أنه ضعيف بحسب المساق.

وأخرج ابن المنذر من طريق عكرمة أن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما لم يكن يفسر هذه الآية، ولعله إن صح محمول على أنه لم يبسط الكلام فيها، فقد أخرج ابن جرير عنه أنه قال فيها كل شيء هو من الله تعالى.

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر والحاكم وصححه والبيهقي في الأسماء والصفات عن طاوس قال: جاء رجل إلى عبد الله بن عمرو بن العاص فسأله مم خلق الخلق؟ قال: من الماء والنور والظلمة والريح والتراب قال: فمم خلق هؤلاء؟ قال: لا أدري ثم أتى الرجل عبد الله بن الزبير فسأله فقال مثل قول عبد الله بن عمرو فأتى ابن عباس رضي الله تعالى عنهما فسأله مم خلق الخلق؟ قال: من الماء والنور والظلمة والريح والتراب قال: فمم خلق هؤلاء؟ فقرأ ابن عباس ﴿وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه﴾ فقال الرجل: ما كان ليأتي بهذا إلا رجل من أهل بيت النبي ﷺ.

واختلف أهل العلم فيما أراد ابن عباس رضي الله تعالى عنهما بذلك فقال البيهقي: أراد أن مصدر الجميع منه تعالى أي من خلقه وإبداعه واختراعه خلق الماء أولاً أو الماء وما شاء عز وجل من خلقه لا عن أصل ولا عن مثال سبق ثم جعله تعالى أصلاً لما خلق بعده فهو جل شأنه المبدع وهو سبحانه البارىء لا إله غيره ولا خالق سواه ا هـ، وعليه جميع المحدثين والمفسرين ومن حذا حذوهم، وقال الشيخ إبراهيم الكوراني من الصوفية: إن المخلوقات تعينات الوجود المفاض الذي هو صورة النفس الرحماني المسمى بالعماء وذلك أن العماء قد انبسط على الحقائق التي هي أمور عدمية متميزة في نفس الأمر والانبساط حادث والعماء من حيث اقترانه بالماهيات غير ذات الحق تعالى فإنه سبحانه الوجود المحض الغير المقترن بها فالموجودات صور حادثة في العماء قائمة به والله تعالى قيومها لأنه جلّ وعلا الأول الباطن الممد لتلك الصور بالبقاء ولا يلزم من ذلك قيام الحوادث بذات الحق تعالى ولا كونه سبحانه مادة لها لأن وجوده تعالى مجرد عن الماهيات غير مقترن بها والمتعين بحسبها هو العماء الذي هو الوجود المفاض منه تعالى بإيجاده جلّ شأنه، وبهذا ينطبق الجواب على السؤال من غير تكلف ولا محذور، ولو كان مراد ابن عباس مجرد ما ذكره البيهقي من أن مصدر الجميع من خلقه تعالى كان يكفي في ذلك قوله تعالى: ﴿الله خالق كل شيء﴾ [الرعد: ١٦، الزمر: ٦٢] لكن

السؤال إنما وقع بم ووقع الجواب بمنه في تلاوته الآية فالظاهر أن ما فهمه السائل من تلاوته رضي الله تعالى عنه ليس مجرد ما ذكره بقرينة مدحه بقوله: ما كان ليأتي بهذا الخ فإن ما ذكره البيهقي يعرفه كل من آمن بقوله تعالى: ﴿الله خالق كل شيء﴾ فلا يظهر حينئذٍ وجه لقول كل من ابن عمرو وابن الزبير لا أدري فإنهما من أفضل المؤمنين بأن الله تعالى خالق كل شيء بل ما فهمه هو ما أشرنا إليه ا هـ، وعليه عامة أهل الوحدة «وأجاب الأولون» بأن مراد ابن عباس قطع التسلسل في السؤال بعد ذكر مادة لبعضها بأن مرجع الأمر أن الأشياء كلها خلقت بقدرته تعالى لا من شيء وهو كلام حكيم يمدح قائله لم يهتد إليه ابن الزبير. وابن عمرو، ولا يعكر على هذا قوله تعالى: ﴿أم خلقوا من غير شيء﴾ [الطور: ٣٥] لما قاله المفسرون فيه وسيأتي إن شاء الله تعالى في محله فتأمل ذاك والله تعالى يتولى هداك، وقد أورد الحسين بن علي بن واقد في مجلس الرشيد هذه الآية رداً على بعض النصارى في زعمه أن قوله تعالى في عيسى عليه السلام: ﴿وروحٌ منه﴾ [النساء: ١٧١] يدل على ما يزعمه فيه عليه السلام من أنه ابن الله سبحانه وتعالى عما يصفون.

وحكى أبو الفتح. وصاحب اللوامح عن ابن عباس وعبد الله بن عمرو والجحدري. وعبد الله بن عبيد بن عمير أنهم قرؤوا «مِنَّةً» بكسر الميم وشد النون ونصب التاء على أنه مفعول له أي سخر لكم ذلك نعمة عليكم، وحكاها عن ابن عباس أيضاً ابن خالويه. لكن قال أبو حاتم: إن سند هذه القراءة إليه مظلم فإذا صح السند يمكن أن يقال فيما تقدم من حديث طاوس: إنه ذكر الآية على قراءة الجمهور ويحتمل أن له قراءتين فيها.

وقرأ مسلمة بن محارب كذلك إلا أنه ضم التاء على تقدير هو أو هي منة، وعنه أيضاً فتح الميم وشد النون وهاء الكتابة عائدة على الله تعالى أي انعامه وهو فاعل ﴿سخر﴾ على الإسناد المجازي كما تقول: كرم الملك العشي أو هو خبر مبتدأ محذوف أي هذا أو هو منه تعالى، وجوزت الفاعلية في قراءته الأولى، وتذكير الفعل لأن الفاعل ليس مؤنثاً حقيقياً مع وجود الفاصل، والوجه الأول أولى وإن كان فيه تقدير ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ أي فيما ذكر ﴿لَآيَاتٍ﴾ عظيمة الشأن كثيرة العدد ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ في بدائع صنعه تعالى وعظائم شأنه جلّ شأنه فإن ذلك يجرهم إلى الإيمان والإيقان والشكر.

﴿قُل لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا﴾ حذف المقول لدلالة ﴿يغفروا﴾ عليه فإنه جواب للأمر باعتبار تعلقه به لا باعتبار نفسه فقط أي قل لهم اغفروا يغفروا ﴿لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ﴾ أي يعفوا ويصفحوا عن الذين لا يتوقعون وقائعه تعالى بأعدائه ونقمته فيهم فالرجاء مجاز عن التوقع وكذا الأيام مجاز عن الوقائع من قولهم: أيام العرب لوقائعها وهو مجاز مشهور وروي ذلك عن مجاهد أولاً يأملون الأوقات التي وقتها الله تعالى لثواب المؤمنين ووعدهم الفوز فيها، والآية قيل نزلت قبل آية القتال ثم نسخت بها.

وقال بعضهم: لا نسخ لأن المراد هنا ترك النزاع في المحقرات والتجاوز عن بعض ما يؤذي ويوحش، وحكى النحاس. والمهدوي عن ابن عباس أنها نزلت في عمر رضي الله تعالى عنه شتمه مشرك[1] بمكة قبل الهجرة فهمّ أن يبطش به فنزلت وروي ذلك عن مقاتل وهذا ظاهر في كونها مكية كأخواتها. وإرادة فهم أن يبطش به بعد الهجرة لأن المسلمين بمكة قبلها عاجزون مقهورون لا يمكنهم الانتصار من المشركين والعاجز لا يؤمر بالعفو والصفح غير ظاهر محتاج إلى نقل، ودوام عجز كل من المسلمين غير معلوم بل من وقف على أحوال أبي حفص رضي الله تعالى عنه لا يتوقف في أنه قادر على ما هم به لا يبالي بما يترتب عليه.

(١) قيل هو من غفار ا هـ منه.

وهذا أولى في الجواب من أن يقال: إن الأمر بفعل ذلك بينه وبين الله تعالى بقلبه ليثاب عليه، نعم قيل: إن النبي ﷺ وأصحابه نزلوا في غزوة بني المصطلق على بئر يقال له المريسيع فأرسل ابن أبيّ غلامه ليستقي فأبطأ عليه فلما أتاه قال له: ما حسبك؟ قال: غلام عمر قعد على طرف البئر فما ترك أحداً يستقي حتى ملأ قرب النبي ﷺ وقرب أبي بكر رضي الله تعالى عنه فقال ابن أبيّ: ما مثلنا ومثل هؤلاء إلا كما قيل سمّن كلبك يأكلك فبلغ ذلك عمر رضي الله تعالى عنه فاشتمل سيفه يريد التوجه إليه فأنزل الله تعالى الآية؛ وحكاه الإمام عن ابن عباس وهو يدل على أنها مدنية، وكذا ما روي عن ميمون بن مهران قال: إن فنحاصا اليهودي قال: لما أنزل الله تعالى ﴿من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً﴾ [البقرة: ٢٤٥، الحديد: ١١] احتاج رب محمد فسمع بذلك عمر رضي الله تعالى عنه فاشتمل سيفه وخرج فبعث النبي ﷺ في طلبه حتى رده ونزلت الآية ﴿لِيَجْزِيَ قَوْماً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ تعليل للأمر بالمغفرة، وجوز أن يكون تعليلاً للأمر بالقول لأنه سبب لامتثالهم المجازي عليه، والمراد بالقوم المؤمنون الغافرون والتنكير للتعظيم، ولفظ القوم في نفسه اسم مدح على ما يرشد إليه الاشتقاق والاستعمال في نحو يا ابن القوم.

وفي هذا التنكير كمال التعريف والتنبيه على أنهم لا يخفون نكروا أو عرفوا مع العلم بأن المجزي لا يكون إلا العامل وهو الغافر هنا أي أمروا بذلك ليجزي الله تعالى يوم القيامة قوماً أيما قوم وقوماً مخصوصين بما كسبوا في الدنيا من الأعمال الحسنة التي من جملتها الصبر على أذية الكفار والإغضاء عنهم بكظم الغيظ واحتمال المكروه. ما لا يحيط به نطاق البيان من الثواب العظيم، ومنهم من خص ما كسبوه بالمغفرة والصبر على الأذية، و ﴿ما﴾ في الوجهين موصولة وجوز أن تكون مصدرية، والباء للسببية أو للمقابلة أو صلة يجزي، وجوز أن يراد بالقوم الكفرة وبما كسبوا سيئاتهم التي من جملتها إيذاؤهم المؤمنين والتنكير للتحقير: وتعقب بأن مطلق الجزاء لا يصلح تعليلاً للأمر بالمغفرة لتحققه على تقديرَي المغفرة وعدمها فلا بد من تخصيصه بالكل بأن لا يتحقق بعض منه في الدنيا أو بما يصدر عنه تعالى بالذات، وفي ذلك من التكلف ما لا يخفى، وأن يراد كلا الفريقين والتنكير للشيوع، وتعقب بأنه أكثر تكلفاً وأشد تمحلاً، والذي يشهد للوجه السابق ما روي عن سعيد بن المسيب قال: كنا بين يدي عمر رضي الله تعالى عنه فقرأ قارىء هذه الآية فقال: ليجزي عمر بما صنع، وقرأ زيد بن علي وأبو عبد الرحمن والأعمش وأبو خليد وابن عامر وحمزة والكسائي «لنجزي» بنون العظمة، وقرىء «لِيُجْزِيَ» بالياء والبناء للمفعول «قومٌ» بالرفع على أنه نائب الفاعل، وقرأ شيبة، وأبو جعفر بخلاف عنه كذلك إلا أنهما نصبا «قوماً» وروي ذلك عن عاصم، واحتج به من يجوز نيابة الجار والمجرور عن الفاعل مع وجود المفعول الصريح فيقول: ضرب بسوط زيداً فبما كسبوا نائب الفاعل ههنا ولا يجيز ذلك الجمهور، وخرجت هذه القراءة على أن القائم مقام الفاعل ضمير المصدر أي ليجزى هو أي الجزاء، ورد بأنه لا يقام مقامه عند وجود المفعول به أيضاً على الصحيح، وأجازه الكوفيون على خلاف في الإطلاق والاستحسان أو على أنه ضمير المفعول الثاني وهو الجزاء بمعنى المجزي به كما في قوله تعالى ﴿جزاؤهم عند ربهم جنات عدن﴾ [البينة: ٨] وأضمر لدلالة السياق كما في قوله سبحانه: ﴿ولأبويه﴾ [النساء: ١١] والمفعول الثاني في باب أعطى يقوم مقام الفاعل بلا خلاف وهذا من ذاك، وأبو البقاء اعتبر الخير بدل الجزاء المذكور أو على أن «قوماً» منصوب بأعني أو جزى مضمراً لدلالة المجهول على أن ثم جازياً واختاره أبو حيان و ﴿ليجزي﴾ حينئذٍ من باب يعطي ويمنع وحيل بين العير والنزوان فمعناه ليفعل الجزاء ويكون هناك جملتان.

﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١٥﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ۖ فَمَا

ٱخۡتَلَفُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقۡضِي بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ
يَخۡتَلِفُونَ ﴿١٧﴾ ثُمَّ جَعَلۡنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ فَٱتَّبِعۡهَا وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمۡ
لَن يُغۡنُواْ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗاۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۖ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾ هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ
وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾ أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجۡتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجۡعَلَهُمۡ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ
وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءٗ مَّحۡيَاهُمۡ وَمَمَاتُهُمۡۚ سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ ﴿٢١﴾ وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّ
وَلِتُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۢ بِمَا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴿٢٢﴾ أَفَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلۡمٖ
وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمۡعِهِۦ وَقَلۡبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةٗ فَمَن يَهۡدِيهِ مِنۢ بَعۡدِ ٱللَّهِۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾ وَقَالُواْ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا
ٱلدُّنۡيَا نَمُوتُ وَنَحۡيَا وَمَا يُهۡلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهۡرُۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنۡ عِلۡمٍۖ إِنۡ هُمۡ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ
مَّا كَانَ حُجَّتَهُمۡ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئۡتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُحۡيِيكُمۡ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يَجۡمَعُكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ
ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٢٦﴾ وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوۡمَئِذٖ
يَخۡسَرُ ٱلۡمُبۡطِلُونَ ﴿٢٧﴾ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٖ جَاثِيَةٗۚ كُلُّ أُمَّةٖ تُدۡعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٢٨﴾ هَٰذَا كِتَٰبُنَا
يَنطِقُ عَلَيۡكُم بِٱلۡحَقِّۚ إِنَّا كُنَّا نَسۡتَنسِخُ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدۡخِلُهُمۡ
رَبُّهُمۡ فِي رَحۡمَتِهِۦۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡمُبِينُ ﴿٣٠﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَفَلَمۡ تَكُنۡ ءَايَٰتِي تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ وَكُنتُمۡ قَوۡمٗا
مُّجۡرِمِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيۡبَ فِيهَا قُلۡتُم مَّا نَدۡرِي مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنّٗا وَمَا نَحۡنُ
بِمُسۡتَيۡقِنِينَ ﴿٣٢﴾

﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾ لا يكاد يسري عمل إلى غير عامله **﴿ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ﴾** مالك أموركم **﴿تُرْجَعُونَ﴾** فيجازيكم على أعمالكم حسبما تقتضيه الحكمة خيراً على الخير وشراً على الشر، والجملة مستأنفة لبيان كيفية الجزاء **﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ﴾** وهو التوراة على أن التعريف للعهد، وجوز جعله للجنس ليشمل الزبور والإنجيل ولا يضر في ذلك كون الزبور أدعية ومناجاة والإنجيل أحكامه قليلة جداً ومعظم أحكام عيسى عليه السلام من التوراة لأن إيتاء الكتاب مطلقاً منة **﴿وَالْحُكْمَ﴾** القضاء وفصل الأمور بين الناس لأن الملك كان فيهم واختاره أبو حيان، أو الفقه في الدين ويقال: لم يتسع فقه الأحكام على نبي ما اتسع على لسان موسى عليه السلام، أو الحكم النظرية الأصلية والعملية الفرعية **﴿وَالنُّبُوَّةَ﴾** حيث كثر فيهم الأنبياء عليهم السلام ما لم يكثر في غيرهم **﴿وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾** المستلذات الحلال وبذلك تتم النعمة وذلك كالمن والسلوى **﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾** حيث آتيناهم ما لم نؤت غيرهم من فلق البحر وإظلال الغمام ونظائرهما فالمراد تفضيلهم على العالمين مطلقاً من بعض الوجوه لا من كلها ولا من جهة المرتبة والثواب فلا ينافي ذلك تفضيل أمة محمد ﷺ عليهم من وجه آخر ومن جهة المرتبة والثواب، وقيل: المراد بالعالمين عالمو زمانهم.

﴿آتَيْنَاهُمْ بَيِّنَاتٍ مِنَ الأَمْرِ﴾ دلائل ظاهرة في أمر الدين فمن بمعنى في والبينات الدلائل ويندرج فيها معجزات موسى عليه السلام وبعضهم فسرها بها، وعن ابن عباس آيات من أمر النبي ﷺ وعلامات مبينة لصدقه عليه الصلاة والسلام ككونه يهاجر من مكة إلى يثرب ويكون أنصاره أهلها إلى غير ذلك مما ذكر في كتبهم ﴿فَمَا اخْتَلَفُوا﴾ في ذلك الأمر ﴿إِلاَّ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾ بحقيقة الحال فجعلوا ما يوجب زوال الخلاف موجباً لرسوخه ﴿بَغْياً بَيْنَهُمْ﴾ عداوة وحسداً لا شكاً فيه ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ بالمؤاخذة والجزاء ﴿فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ من أمر الدين ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ﴾ أي سنة وطريقة من شرعه إذا سنه ليسلك، وفي البحر الشريعة في كلام العرب الموضع الذي يرد منه الناس في الأنهار ونحوها فشريعة الدين من ذلك من حيث يرد الناس منها أمر الله تعالى ورحمته والقرب منه عز وجل، وقال الراغب: الشرع مصدر ثم جعل اسماً للطريق النهج فقيل له شرع وشرعة وشريعة واستعير ذلك للطريقة الإلهية من الدين ثم قال: قال بعضهم سميت الشريعة شريعة تشبيهاً بشريعة الماء من حيث إن من شرع فيها على الحقيقة والصدق روي وتطهر، وأعني بالري ما قال بعض الحكماء: كنت أشرب فلا أروى فلما عرفت الله تعالى رويت بلا شرب، وبالتطهر ما قال عز وجل: ﴿إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً﴾ [الأحزاب: ٣٣] والظاهر هنا المعنى اللغوي، والتنوين للتعظيم أي شريعة عظيمة الشأن ﴿مِنَ الأَمْرِ﴾ أي أمر الدين، وجوز أبو حيان كونه مصدر أمر، والمراد من الأمر والنهي وهو كما ترى ﴿فَاتَّبِعْهَا وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ أي آراء الجهال التابعة للشهوات، والمراد بهم ما يعم كل ضال، وقيل: وقيل: هم جهال قريظة. والنضير، وقيل: رؤساء قريش كانوا يقولون له ﷺ: ارجع إلى دين آبائك.

﴿إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللهِ شَيْئاً﴾ من الأشياء أو شيئاً من الإغناء أن اتبعتهم والجملة مستأنفة مبينة لعلة النهي ﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ لا يواليهم ولا يتبع أهواءهم إلا من كان ظالماً مثلهم.

﴿وَاللهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ﴾ الذين أنت قدوتهم فدم على ما أنت عليه من توليه سبحانه خاصة والإعراض عما سواه عز وجلّ بالكلية ﴿هَذَا﴾ أي القرآن ﴿بَصَائِرُ لِلنَّاسِ﴾ فإن ما فيه من معالم الدين وشعائر الشرائع بمنزلة البصائر في القلوب، وقيل: الإشارة إلى اتباع الشريعة والكلام من باب التشبيه البليغ، وجمع الخبر على الوجهين باعتبار تعدد ما تضمنه المبتدأ واتباع مصدر مضاف فيعم ويخبر عنه بمتعدد أيضاً، وقرىء «هذه» أي الآيات ﴿وَهُدًى﴾ جليل من ورطة الضلالة ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ عظيمة ﴿لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ من شأنهم الإيقان بالأمور ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ﴾ إلى آخره استئناف مسوق لبيان حال المسيئين والمحسنين إثر بيان حال الظالمين والمتقين، و ﴿أَمْ﴾ منقطعة وما فيها من معنى بل للانتقال من البيان الأول إلى الثاني، والهمزة لإنكار الحسبان على معنى أنه لا يليق ولا ينبغي لظهور خلافه، والاجتراح الاكتساب ومنه الجارحة للأعضاء التي يكتسب بها كالأيدي، وجاء هو جارحة أهله أي كاسبهم، وقال الراغب: الاجتراح اكتساب الإثم وأصله من الجراحة كما أن الاقتراف من قرف القرحة، والظاهر تفسيره ههنا بالاكتساب لمكان ﴿السيئات﴾ والمراد بها على ما في البحر سيئات الكفر، وقوله تعالى: ﴿أَنْ نَجْعَلَهُمْ﴾ ساد مسد مفعولي الحسبان، والجعل بمعنى التصيير وهم مفعوله الأول، وقوله سبحانه: ﴿كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ مفعوله الثاني، وقوله عز وجل: ﴿سَوَاءً﴾ بدل من الكاف بناءً على أنها اسم بمعنى مثل، وقوله تعالى: ﴿مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ﴾ فاعل سواء أجري مجرى مستو كما قالوا: مررت برجل سواء هو والعدم، وضمير الجمع للمجترحين، والمعنى على إنكار حسبان جعل محيا المجترحين ومماتهم مستويين مثلهما للمؤمنين، ومصب الإنكار استواء ذلك فإن المؤمنين تتوافق حالاهم لأنهم مرحومون في المحيا والممات وأولئك تتضاد حالاتهم فإنهم مرحومون حياة لا

موتاً؛ وجوز أن يكون ﴿سواء﴾ حالاً من الضمير في الكاف بناءً على ما سمعت من معناها.

وتعقب بأنها اسم جامد على صورة الحرف فلا يصح استتار الضمير فيها وقد صرح الفارسي بمنع ذلك، نعم يجوز أن يكون ﴿كالذين﴾ جاراً ومجروراً في موضع المفعول الثاني و ﴿سواء﴾ حالاً من الضمير المستتر فيه، وقيل: يجوز أيضاً كونه حالاً من ضمير نجعلهم وكذا يجوز كونه المفعول الثاني، وكون الكاف أو الجار والمجرور حالاً من هذا الضمير، وما ذكر أولاً أظهر وأولى، وجوز كون ضمير الجمع في ﴿محياهم ومماتهم﴾ للمؤمنين فسواء حال من الموصول الثاني ولا يجوز أن يكون حالاً من الضمير في ﴿كالذين﴾ لفساد المعنى وكون الضمير للفريقين فسواء حال من مجموع الموصول الثاني وضمير الأول، والمعنى على إنكار حسبان أن يستوي الفريقان بعد الممات في الكرامة أو ترك المؤاخذة كما استويا ظاهراً في الرزق والصحة في الحياة، وجوز أن يكون المعنى على إنكار حسبان جعل الحياتين مستويتين لأن المؤمنين على الطاعة وأولئك على المعاصي وكذلك الموتان لأنهم ملقون بالبشرى والرضوان وأولئك بالسوء والخذلان، وقيل: به على تقدير كون الضمير للمجترحين أيضاً.

ولم يجوز المدقق الإبدال من الكاف على تقدير اشتراك الضمير إذ المثل هو المشبه و ﴿سواء﴾ جار على المشبه والمشبه به.

وقرأ جمهور القراء ﴿سواء محياهم ومماتهم﴾ برفع سواء وما بعده على أن سواء خبر مقدم وما بعده مبتدأ لا العكس لأن سواء نكرة ولا مسوغ للابتداء بها والضمير للمجترحين، والجملة قيل: بدل من المفعول الثاني لنجعل بدل كل من كل أو بدل اشتمال أو بدل بعض، وأياً ما كان ففيه إبدال الجملة من المفرد وقد أجازه أبو الفتح واختاره ابن مالك، وأورد عليه شواهد، قال أبو حيان: لا يتعين فيها البدل، وقال محمد بن عبد الله الاشبيلي المعروف بابن العلج في كتابه البسيط في النحو: لا يصح أن تكون جملة معمولة للأول في موضع البدل فإن كانت غير معمولة فهل تكون جملة بدلاً من جملة لا يبعد عندي جواز ذلك كالعطف والتأكيد اللفظي.

وظاهره أنه لا يجوز الإبدال ههنا، وفي البحر يظهر لي أنه لا يجوز إبدال هذه الجملة من ذلك المفعول لأن الجعل بمعنى التصيير ولا يجوز صيرت زيداً أبوه قائم ولا صيرت زيداً غلامه منطلق لأن في ذلك انتقالاً من ذات إلى ذات أو من وصف في الذات إلى وصف آخر فيها وليس في تلك الجملة المقدرة مفعولاً ثانياً انتقال مما ذكرنا وفيه بحث لا يخفى، والزمخشري قد نص على جعل الجملة بدلاً من الكاف وهو إمام في العربية، لكن أفاد صاحب الكشف أنه أراد أنه بدل من حيث المعنى لا أنه بدل من ذاك لفظاً قال: لأنه مفرد دال على الذات باعتبار المعنى وهذا دال على المعنى وإن كان الذات يلزم من طريق الضرورة إلا أن يقدر له موصوف محذوف بأن يقدر رجالاً سواء محياهم ومماتهم مثلاً، والمعنى على البدلية كما سمعت في قراءة النصب، وجوز كون الجملة مفعولاً ثانياً و ﴿كالذين﴾ حال من ضمير ﴿نجعلهم﴾ ولا يخفى عليك ما علي وما له، وإذا كان الضمير للمؤمنين فالجملة قيل: حال من الموصول الثاني لا من الضمير في المفعول الثاني للفساد، وتعقب بأن فيه اكتفاء الإسمية الحالية بالضمير وهو غير فصيح على ما قيل: وقيل: استئناف يبين المقتضي للإنكار على حسبان التماثل وهو أن المؤمنين سواء حالهم عند الله تعالى في الدارين بهجة وكرامة فكيف يماثلهم المجترحون، وجوز أن تكون بياناً لوجه الشبه المجمل، وإذا كان الضمير للفريقين فالظاهر أن الجملة كلام مستأنف غير داخل في حكم الإنكار والتساوي حينئذٍ بين حال المؤمنين بالنسبة إليهم خاصة وحال المجترحين كذلك وتكون الجملة تعليلاً للإنكار في المعنى دالاً على عدم المماثلة لا في الدنيا ولا في الآخرة لأن المؤمنين متساوو المحيا والممات في الرحمة وأولئك متساوو المحيا

والممات في النقمة إذ المعنى كما يعيشون يموتون فلما افترق حال هؤلاء وحال هؤلاء حياة فكذلك موتاً، وأما الإبدال فقد علم حاله فتأمل.

وقرأ الأعمش «سوَاء» بالنصب «مَحْيَاهُم ومماتهم» به أيضاً، وخرج الأول على ما سمعت ونصب محياهم ومماتهم على الظرفية لأنهما اسما زمان أو مصدران أقيما مقام الزمان والعامل إما ﴿سواء﴾ أو ﴿نجعلهم﴾، هذا والآية وإن كانت في الكفار على ما نقل عن البحر وهو ظاهر ما روي عن الكلبي من أن عتبة. وشيبة. والوليد بن عتبة قالوا لعلي كرم الله تعالى وجهه. وحمزة رضي الله تعالى عنه. والمؤمنين: والله ما أنتم على شيء ولئن كان ما تقولون حقاً لحالنا أفضل من حالكم في الآخرة كما هو أفضل في الدنيا فنزلت الآية ﴿أم حسب الذين اجترحوا السيئات﴾ الخ.

وهي متضمنة للرد عليهم على جميع أوجهها كما يعرف بأدنى تدبر يستنبط منها تباين حالتي المؤمن العاصي والمؤمن الطائع؛ ولهذا كان كثير من العباد يبكون عند تلاوتها حتى أنها تسمى مبكاة العابدين لذلك، فقد أخرج عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد والطبراني وجماعة عن أبي الضحى قال: قرأ تميم الداري سورة الجاثية فلما أتى على قوله تعالى ﴿أم حسب الذين﴾ الآية لم يزل يكررها ويبكي حتى أصبح وهو عند المقام.

وأخرج ابن أبي شيبة عن بشير مولى الربيع بن خيثم أن الربيع كان يصلي فمر بهذه الآية ﴿أم حسب الذين﴾ الخ فلم يزل يرددها حتى أصبح، وكان الفضيل بن عياض يقول لنفسه إذا قرأها: ليت شعري من أي الفريقين أنت.

وقال ابن عطية: إن لفظها يعطي أن اجتراح السيئات هو اجتراح الكفر لمعادلته بالإيمان، ويحتمل أن تكون المعادلة بالاجتراح وعمل الصالحات ويكون الإيمان في الفريقين ولهذا بكى الخائفون عند تلاوتها.

ورأيت كثيراً من المغرورين المستغرقين ليلهم ونهارهم بالفسق والفجور يقولون بلسان القال والحال: نحن يوم القيامة أفضل حالاً من كثير من العابدين وهذا منهم والعياذ بالله تعالى ضلال بعيد وغرور ما عليه مزيد ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ أي ساء حكمهم هذا وهو الحكم بالتساوي فما مصدرية والكلام إخبار عن قبح حكمهم المعهود.

ويجوز أن يكون لإنشاء ذمهم على أن ﴿ساء﴾ بمعنى بئس فما فيه نكرة موصوفة وقعت تمييزاً مفسراً لضمير الفاعل المبهم والمخصوص بالذم محذوف أي بئس شيئاً حكموا به ذلك ﴿وَخَلَقَ الله السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ كأنه دليل على إنكار حسباتهم السابق أو دليل على تساوي محيا كل فريق ومماته وبيان لحكمته على تقدير كون قوله تعالى: ﴿سواء محياهم ومماتهم﴾ استئنافاً وذلك من حيث إن خلق العالم بالحق المقتضي للعدل يستدعي انتصاف المظلوم من الظالم والتفاوت بين المسيء والمحسن وإذا لم يكن في المحيا كان بعد الممات حتماً ﴿وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ عطف على ﴿بالحق﴾ لأنه في معنى العلة سواء كانت الباء للسببية الغائية أو الملابسة، أما على الأول فظاهر، وأما على الثاني فلأن المعنى خلقها ملتبسة ومقرونة بالحكمة والصواب دون العبث والباطل وحاصله خلقها لأجل ذلك أو عطف على علة محذوفة مثل ليدل سبحانه بها على قدرته أو ليعدل، وما موصولة أو مصدرية أي ليجزى كل نفس بالذي كسبته أو بكسبها ﴿وَهُمْ﴾ أي النفوس المدلول عليها بكل نفس ﴿لاَ يُظْلَمُونَ﴾ بنقص ثواب وتضعيف عذاب، والجملة في موضع الحال، وتسمية ذلك ظلماً مع أنه ليس كذلك لأنه منه سبحانه تصرف في ملكه والظلم صرف في ملك الغير بغير إذنه لأنه لو فعله غيره عز وجل كان ظلماً فالكلام على الاستعارة التمثيلية أو أنه لما كان مخالفاً لوعده سبحانه الحق سماه تعالى ظلماً.

﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾ تعجيب من حال من ترك متابعة الهدى إلى مطاوعة الهوى فكأنه يعبده فالكلام على التشبيه البليغ أو الاستعارة، والفاء للعطف على مقدر دخلت عليه الهمزة أي أنظرت من هذه حاله فرأيته فإن ذلك

مما يقضي منه العجب، وأبو حيان جعل أرأيت بمعنى أخبرني وقال: المفعول الأول من ﴿اتخذ﴾ والثاني محذوف يقدر بعد الصلات أي أيهتدي بدليل «فمن يهديه» والآية نزلت على ما روي عن مقاتل في الحارث بن قيس السهمي كان لا يهوى شيئاً إلا ركبه، وحكمها عام وفيها من ذم اتباع هوى النفس ما فيها، وعن ابن عباس ما ذكر الله تعالى هوى إلا ذمه.

وقال وهب: إذا شككت في خير أمرين فانظر أبعدهما من هواك فأته، وقال سهل التستري: هواك داؤك فإن خالفته فدواؤك، وفي الحديث «العاجز من اتبع نفسه هواها وتمنى على الله تعالى».

وقال أبو عمران موسى بن عمران الاشبيلي الزاهد:

فخالف هواها واعصها إن من يطع ... هوى نفسه ينزع به شر منزع
ومن يطع النفس اللجوجة ترده ... وترم به في مصرع أي مصرع

وقد ذم ذلك جاهلية أيضاً، ومنه قول عنترة:

إني امرؤ سمح الخليقة ماجد ... لا أتبع النفس اللجوج هواها

ولعل الأمر غني عن تكثير النقل.

وقرأ الأعرج وأبو جعفر «إلهة» بتاء التأنيث بدل هاء الضمير، وعن الأعرج أنه قرأ «آلهة» بصيغة الجمع.

قال ابن خالويه: كان أحدهم يستحسن حجراً فيعبده فإذا رأى أحسن منه رفضه مائلاً إليه، فالظاهر أن آلهة بمعناها من غير تجوز أو تشبيه والهوى بمعنى المهوى مثله في قوله: هواي مع الركب اليمانين مصعد.

﴿وَأَضَلَّهُ اللهُ﴾ أي خلقه ضالاً أو خلق فيه الضلال أو خذله وصرفه عن اللطف على ما قيل ﴿عَلَى عِلْمٍ﴾ حال من الفاعل أي أضله الله تعالى عالماً سبحانه بأنه أهل لذلك لفساد جوهر روحه.

ويجوز أن يكون حالاً من المفعول أي أضله عالماً بطريق الهدى فهو كقوله تعالى: ﴿فما اختلفوا إلا من بعد ما جاءهم العلم﴾ ﴿وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ﴾ بحيث لا يتأثر بالمواعظ ولا يتفكر في الآيات.

﴿وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً﴾ مانعة عن الاستبصار والاعتبار والكلام على التمثيل، وقرأ عبد الله. والأعمش ﴿غشاوة﴾ بفتح الغين وهي لغة ربيعة، والحسن وعكرمة وعبد الله أيضاً بضمها وهي لغة عكلية، وأبو حنيفة وحمزة والكسائي وطلحة ومسعود بن صالح والأعمش أيضاً «غَشْوَةً» بفتح الغين وسكون الشين، وابن مصرف. والأعمش أيضاً كذلك إلا أنهما كسرا الغين ﴿فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللهِ﴾ أي من بعد إضلاله تعالى إياه، وقيل: المعنى فمن يهديه غير الله سبحانه ﴿أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ﴾ أي ألا تلاحظون فلا تذكرون، وقرأ الجحدري «تَذْكُرُونَ» بالتخفيف، والأعمش «تتذكرون» بتاءين على الأصل ﴿وَقَالُوا﴾ بيان لأحكام إضلالهم والختم على سمعهم وقلوبهم وجعل غشاوة على أبصارهم فالضمير لمن باعتبار معناه أو للكفرة ﴿مَا هِيَ﴾ أي ما الحياة ﴿إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾ التي نحن فيها، ويجوز أن يكون الضمير للحال والحياة الدنيا من جملة الأحوال فيكون المستثنى من جنس المستثنى منه أيضاً لاستثناء حال الحياة الدنيا من أعم الأحوال ولا حاجة إلى تقدير حال مضافاً بعد أداة الاستثناء أي ما الحال إلا حال الحياة الدنيا ﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ حكم على النوع بجملته من غير اعتبار تقديم وتأخير إلا أن تأخير نحيي الله في النظم الجليل للفاصلة أي تموت طائفة وتحيا طائفة ولا حشر أصلاً، وقيل: في الكلام تقديم وتأخير أي نحيا ونموت وليس بذاك، وقيل: أرادوا بالموت عدم الحياة السابق على نفخ الروح فيهم أي نكون نطفاً وما قبلها وما بعدها ونحيا بعد ذلك، وقيل: أرادوا بالحياة بقاء النسل والذرية

مجازاً كأنهم قالوا: نموت بأنفسنا ونحيا ببقاء أولادنا وذرارينا، وقيل: أرادوا يموت بعضنا ويحيا بعض على أن التجوز في الإسناد، وجوز أن يريدوا بالحياة على سبيل المجاز إعادة الروح لبدن آخر بطريق التناسخ وهو اعتقاد كثير من عبدة الأصنام ولا يخفى بعد ذلك، وقرأ زيد بن علي رضي الله تعالى عنهما «وَنُحْيَا» بضم النون ﴿وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ﴾ أي طول الزمان فالدهر أخص من الزمان وهو الذي ارتضاه السعد، ولهم في ذلك كلام طويل، وقال الراغب: الدهر في الأصل اسم لمدة العالم من مبدأ وجوده إلى انقضائه ثم يعبر به عن كل مدة كثيرة، وهو خلاف الزمان فإنه يقع على المدة العالم من مبدأ وجوده إلى انقضائه ثم يعبر به عن كل مدة كثيرة، وهو خلاف الزمان فإنه يقع على المدة القليلة والكثيرة ودهر فلان مدة حياته، ويقال: دهر فلاناً نائبة دهراً أي نزلت به حكاه الخليل فالدهر ههنا مصدر.

وذكر بعض الأجلة أن الدهر بالمعنى السابق منقول من المصدر وأنه يقال: دهره دهراً أي غلبه وإسنادهم الإهلاك إلى الدهر إنكار منهم لملك الموت وقبضه الأرواح بأمر الله عز وجل وكانوا يسندون الحوادث مطلقاً إليه لجهلهم أنها مقدرة من عند الله تعالى، وإشعارهم لذلك مملوءة من شكوى الدهر وهؤلاء معترفون بوجود الله تعالى فهم غير الدهرية فإنهم مع إسنادهم الحوادث إلى الدهر لا يقولون بوجوده سبحانه وتعالى «عما يقولون علواً كبيراً» والكل يقول باستقلال الدهر بالتأثير، ولا يبعد أن يكون الزمان عندهم مقدار حركة الفلك كما ذهب إليه معظم الفلاسفة. وقد جاء النهي عن سب الدهر. أخرج مسلم «لا يسب أحدكم الدهر فإن الله هو الدهر» وأبو داود. والحاكم وقال: صحيح على شرط مسلم قال الله عز وجل: «يؤذيني ابن آدم يقول يا خيبة الدهر فلا يقل أحدكم يا خيبة الدهر أنا الدهر أقلب ليله ونهاره» والحاكم وقال: صحيح على شرط مسلم أيضاً يقول الله عز وجل: «استقرضت عبدي فلم يقرضني وشتمني عبدي وهو لا يدري يقول وادهراه وأنا الدهر» والبيهقي «لا تسبوا الدهر قال الله عز وجل: أنا الأيام والليالي أجددها وأبليها وآتي بملوك بعد ملوك» ومعنى ذلك أن الله تعالى هو الآتي بالحوادث فإذا سببتم الدهر على أنه فاعل وقع السب على الله عز وجلّ.

وعد بعضهم سبه كبيرة لأنه يؤدي إلى سبه تعالى وهو كفر، وما أدى إليه فأدنى مراتبه أن يكون كفراً[١].

وكلام الشافعية صريح بأن ذلك مكروه لا حرام فضلاً عن كونه كبيرة، والذي ينجه في ذلك تفصيل وهو أن من سبه فإن أراد به الزمن فلا كلام في الكراهة، أو الله عز وجل فلا كلام في الكفر، ومثله إذا أراد المؤثر الحقيقي فإنه ليس إلا الله سبحانه؛ وإن أطلق فهذا محل التردد لاحتمال الكفر وغيره وظاهر كلامهم هنا أيضاً الكراهة لأن المتبادر منه الزمن وإطلاقه على الله تعالى كما قال بعض الأجلة إنما هو بطريق التجوز.

ومن الناس من قال: إن سبه كبيرة إن اعتقد أن له تأثيراً فيما نزل به كما كان يعتقد جهلة العرب، وفيه نظر لأن اعتقاد ذلك كفر ولي الكلام فيه، وأنكر بعضهم كون ما في حديث أبي داود. والحاكم «فإني أنا الدهر» بضم الراء وقال: لو كان كذلك كان الدهر من أسمائه تعالى وكان يرويه «فإني أنا الدهر» بفتح الراء ظرفاً لأقلب أي فإني أنا أقلب الليل والنهار الدهر أي على طول الزمان وممره، وفيه أن رواية مسلم فإن الله هو الدهر تبطل ما زعمه، ومن ثم كان الجمهور على ضم الراء. ولا يلزم عليه أن يكون من أسمائه تعالى لما سبق أن ذلك على التجوز، وحكى الراغب عن بعضهم أن الدهر الثاني في حديث مسلم غير الأول وأنه مصدر بمعنى الفاعل، والمعنى أن الله تعالى هو الدهر أي

---

(١) قوله فأدنى مراتبه أن يكون كفراً كذا بالأصل ولعل الأولى أن يكون كبيرة.

المصرّف المدبر المفيض لما يحدث، وفيه بعد.

وقرأ عبد الله «إلاّ دهر» وتأويله إلا دهر يمر ﴿وَمَا لَهُمْ بذَلك﴾ أي بما ذكر من قصر الحياة على ما في الدنيا ونسبة الإهلاك إلى الدهر ﴿منْ علم﴾ مستند إلى عقل أو نقل ﴿إنْ هُم إلاَّ يَظُنُونَ﴾ ما هم إلا قوم قصارى أمرهم الظن والتقليد من غير أن يكون لهم ما يصح أن يتمسك به في الجملة، هذا معتقدهم الفاسد في أنفسهم ﴿وَإذَا تُتْلَى عَلَيهِمْ آيَاتُنَا﴾ الناطقة بالحق الذي من جملته البعث ﴿بَيِّنَات﴾ واضحات الدلالة على ما نطقت به مما يخالف معتقدهم أو مبينات له ﴿مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ﴾ بالنصب على أنه خبر كان واسمها قوله تعالى:

﴿إلاَّ أَن قَالُوا ائْتُوا بآبَائنَا إنْ كُنتُمْ صَادقينَ﴾ أي في أنّا نبعث بعد الموت أي ما كان متمسكاً لهم شيء من الأشياء إلا هذا القول الباطل الذي يستحيل أن يكون حجة، وتسميته حجة لسوقهم إياه مساق الحجة على سبيل التهكم بهم أو أنه من قبيل: تحية بينهم ضرب وجيع. أي ما كان حجتهم إلا ما ليس بحجة، والمراد نفي أن يكون لهم حجة فإنه لا يلزم من عدم حصول الشيء حالاً كإعادة آبائهم التي طلبوها في الدنيا امتناعه بتعد لتمتنع الإعادة إذا قامت القيامة، والخطاب في ﴿ائتوا﴾ و ﴿كنتم﴾ للرسول عليه الصلاة والسلام والمؤمنين إذ هم قائلون بمقالته ﷺ من البعث طالبون من الكفرة الإقرار به، وجوز أن يكون له عليه الصلاة والسلام وللأنبياء عليهم السلام الجائين بالبعث وغلب الخطاب على الغيبة.

وقال ابن عطية: ﴿ائتوا﴾ و ﴿كنتم﴾ من حيث المخاطبة له ﷺ والمراد هو وإلهه والملك الذي يذكر عليه الصلاة والسلام نزوله عليه بذلك وهو جبريل عليه السلام، وهو كما ترى.

وقرأ الحسن وعمرو بن عبيد وابن عامر فيما روى عنه عبد الحميد وعاصم فيما روى هارون وحسين عن أبي بكر عنه «حُجَّتُهُمْ» بالرفع على أنه اسم كان وما بعد خبر أي ما كان حجتهم شيئاً من الأشياء إلا هذا القول الباطل، وجواب ﴿إذا﴾ ما كان الخ، ولم تقترن بالفاء وإن كانت لازمة في المنفى بما إذا وقعت جواب الشرط لأنها غير جازمة ولا أصلية في الشرطية، وهو سر قول أبي حيان: إن إذا خالفت أدوات الشرط بأن جوابها إذا كان منفياً بما لم تدخل الفاء بخلاف أدوات الشرط فلا بد معها من الفاء نحو إن تزرنا فما جفوتنا فلا حاجة إلى تقدير جواب لها كعمدوا إلى الحجج الباطلة خلافاً لابن هشام. واستدل بوقوع ما ذكر جواباً على أن العمل في إذا ليس للجواب لصدارة ما المانعة منه ولا قائل بالفرق، ولعل من قال بالعمل يقول يتوسع في الظرف ما لم يتوسع في غيره، ثم إن المعنى على الاستقبال لمكان ﴿إذا﴾ أي ما تكون حجتهم إلا أن يقولوا ذلك.

﴿قُلِ اللهُ يُحْييكُمْ﴾ ابتداء ﴿ثُمَّ يُميتُكُمْ﴾ عند انقضاء آجالكم على ما دل عليه الحجج لا الدهر كما تزعمون ﴿ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إلَى يَوْم القيَامَة﴾ أي فيه وجوز كون الفعل مضمناً معنى مبعوثين أو منتهين ونحوه ومعنى في أظهر أي يجمعكم في يوم القيامة ﴿لاَ رَيْبَ فيه﴾ أي في جمعكم فإن من قدر على البدء وقدر على الإعادة والحكمة اقتضت الجمع للجزاء لا محالة في ذلك اليوم والوعد الصدق بالآيات دل على قرعها، وحاصله أن البعث أمر ممكن أخبر به الصادق وتقتضيه الحكمة وكل ما هو كذلك لا محالة واقع والإتيان بالآباء حيث كان منافياً للحكمة التشريعية امتنع إيقاعه ﴿وَلكنَّ أَكْثَرَ النَّاس لاَ يَعْلَمُونَ﴾ استدراك من قوله تعالى: ﴿لا ريب فيه﴾ وهو من تمام الكلام المأمور به أو كلام مسوق من جهته تعالى تحقيقاً للحق وتنبيهاً على أن ارتيابهم لجهلهم وقصورهم في النظر والتفكر لا لأن فيه شائبة ريب ما ﴿وَلله مُلْكُ السَّمَوَات وَالأَرْض﴾ بيان للاختصاص المطلق والتصرف الكلي فيهما وفيما بينهما بالله عز

وجلّ إثر بيان تصرفه تعالى بالإحياء والإماتة والبعث والجمع للمجازاة فهو تعميم للقدرة بعد تخصيص.

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخسرُ الْـمُبْطِلُونَ﴾ قال الزمخشري: العامل في ﴿يوم تقوم﴾ يخسر ويومئذٍ بدل من يوم تقول وحكاه ابن عطية عن جماعة، وتقديم الظرف على الفعل للحصر لأن كل خسران عند الخسران في ذلك اليوم كلا خسران، وفيه أيضاً رعاية الفواصل على ما قيل، وتعقب حديث الإبدال بأن التنوين في ﴿يومئذٍ﴾ عوض عن الجملة المضاف إليها، والظاهر أنها تقدر بقرينة ما قبل ﴿تقوم الساعة﴾ فيقال ويوم تقوم الساعة يوم إذ تقوم الساعة يخسر المبطلون فيكون تأكيداً لا بدلاً إذ لا وجه له. ولذا قيل: إنه بالتأكيد أشبه، وقول أبي حيان: إن كان بدلاً توكيدياً وهو قليل جاز وإلا فلا لا يسمن ولا يغني؛ وتكلف بعضهم فزعم أن اليوم الثاني بمعنى الوقت الذي هو جزء من يوم قيام الساعة فهو بدل بعض معه عائد مقدر ولما كان فيه ظهور خسرانهم كان هو المقصود بالنسبة، وقالت فرقة: العامل في ﴿يوم تقوم﴾ ما يدل عليه الملك قالوا: وذلك أن يوم القيامة أمر ثالث ليس بالسماء ولا بالأرض لتبدلهما فكأنه قيل. ولله ملك السموات والأرض والملك يوم تقوم الساعة، و ﴿يومئذٍ﴾ منصوب بيخسر والجملة استئناف وإن كان لها تعلق بما قبلها من جهة تنوين العوض، وقيل: يجوز أن يكون عطفاً على ظرف معمول لملك المذكور كأنه قيل: لله ملك السموات والأرض اليوم ويوم تقوم الساعة وهو كما ترى، و ﴿الـمبطلون﴾ الداخلون في الباطل، ولعل المراد به أعظم أنواعه وهو الكفر ﴿وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ﴾ من الأمم المجموعة ﴿جَاثِيَةً﴾ باركة على الركب مستوفزة وهي هيئة المذنب الخائف المنتظر لما يكره، وعن ابن عباس جاثية مجتمعة، وعن قتادة جماعات من الجثوة مثلثة الجيم وهي الجماعة تجتمع على جثى أي تراب مجتمع، وعن مؤرج السدوسي جاثية خاضعة بلغة قريش، والخطاب في ﴿ترى﴾ لمن يصح منه الرؤية أو لسيد المخاطبين عليه الصلاة والسلام وهي بصرية، و ﴿جاثية﴾ حال وجوز أن تكون صفة ولو كانت علمية كانت مفعولاً ثانياً، وقرىء «جاذية» بالذال والجذو أشد استيفازاً من الجثو لأن الجاذي هو الذي يجلس على أطراف أصابعه، وجوز أن يكون الجاذي بمعنى الجاثي أبدلت ثاؤه ذالاً فإن الثاء والذال متقارضان كما قيل شحاث وشحاذ ﴿كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا﴾ إلى صحيفة أعمالها التي كتبتها الحفظة لتحاسب، وأفرد على إرادة الجنس وإلا فلكل واحد من كل أمة صحيفة فيها أعماله، وقيل: المراد كتاب نبيها تدعى إليه لينظر هل عملت به أو لا وحكي ذلك عن يحيى بن سلام إلا أنه حمل كل أمة على كل أمة كافرة والظالم العموم، وقيل: المراد بذلك اللوح المحفوظ أي تدعى إلى ما سبق لها فيه، وقرأ يعقوب «كُلَّ» بالنصب وخرج على أنه بدل من كل الأول، وجملة ﴿تدعى﴾ صفة، وإبدال الأمة المدعوة إلى كتابها من الأمة الجاثية حسن وجاء ذلك من الوصف، ويقال مثل ذلك فيما إذا كانت الجملة حالاً، وإذا كانت الرؤية علمية وجملة ﴿تدعى﴾ مفعولاً ثانياً فالظاهر أنه تأكيد، وجعله تأكيداً مع كون الجملة صفة فيه تخلل التأكيد بين الوصفين وهو كما في الكشف غير مستحسن ﴿الْـيَوْمَ تُـجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ مقول قول مقدر وهو حال أو خبر بعد خبر.

وفي الكلام مضاف مقدر أي جزاء ما كنتم الخ أو هو من المجاز، وقوله تعالى: ﴿هَٰذَا كِتَابُنَا﴾ إلى آخره من تمام ما يقال حينئذٍ، والإشارة إلى الكتاب الذي تدعى إليه الأمة المقول لها ذلك، وهو إذا كان صحيفة الأعمال فإضافته إلى ضميره جلّ شأنه لأدنى ملابسة على التجوز في النسبة الإضافية فإنه تعالى الذي أمر الكتبة أن يكتبوا فيه أعمالهم، وإن كان الكتاب المنزل على نبي تلك الأمة أو اللوح المحفوظ فأمر الإضافة ظاهر، وضمير العظمة على سائر الأوجه لتفخيم شأن الكتاب، وجوز أن يكون الضمير للكتبة والإضافة فيه حقيقية قيل: ويأباه ﴿نستنسخ﴾ إلا أن يجعل بمعنى ننسخ ونكتب وستعلم إن شاء الله تعالى ما فيه، والأظهر عندي حمل الكتاب في الموضعين على صحيفة الأعمال

واسم الإشارة مبتدأ وما بعده خبر، وقوله سبحانه ﴿يَنطِقُ عَلَيْكُم﴾ أي يشهد عليكم ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ من غير زيادة ولا نقص خبر آخر أو حال أو مستأنف، و ﴿بالحق﴾ حال من فاعل ﴿ينطق﴾ وقوله تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ﴾ إلى آخره تعليل لنطقه عليهم بأعمالهم من غير إخلال بشيء منها أي إنا كنا فيما قبل نستنسخ الملائكة أي نجعلها تنسخ وتكتب ﴿مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ في الدنيا من الأعمال حسنة كانت أو سيئة، وحقيقة النسخ كتابة من أصل ينظر فيه فكان أفعال العباد هي الأصل على ما في البحر، وأخرج ابن جرير عن ابن عباس قال: إن الله تعالى خلق النون وهي الدواة وخلق القلم فقال: اكتب قال: ما أكتب؟ قال: اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة من عمل معمول بر أو فاجر ورزق مقسوم حلال أو حرام ثم ألزم كل شيء من ذلك بيانه دخوله في الدنيا متى ومقامه فيها كم وخروجه منها كيف ثم جعل على العباد حفظة وعلى الكتاب خزّاناً فالحفظة يستنسخون كل يوم من الخزان عمل ذلك اليوم فإذا فني الرزق وانقطع الأمر وانقضى الأجل أتت الحفظة الخزنة يطلبون عمل ذلك اليوم فتقول الخزنة ما نجد لصاحبكم عندنا شيئاً فترجع فيجدونه قد مات ثم قال ابن عباس ألستم قوماً عرباً تسمعون الحفظة يقولون إن كنا نستنسخ ما كنتم تعملون وهل يكون الاستنساخ إلا من أصل؟ وفي رواية ابن المنذر وابن أبي حاتم عنه رضي الله تعالى عنه أنه سئل عن الآية فذكر نحو ما سمعت ثم قال: هل يستنسخ الشيء إلا من كتاب، وكون الاستنساخ من اللوح قد رواه جماعة عنه، وما ذكرناه يصحح أن يكون هذا القول من الملائكة بدون تأويل ﴿نستنسخ﴾ بننسخ كما لا يخفى، وقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصالحَات فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِه﴾ إلى آخره تفصيل للمجمل المفهوم من قوله تعالى: ﴿ينطق عليكم بالحق﴾ أو يجزون من الوعد والوعيد، والمراد بالرحمة الجنة مجازاً والظرفية على ظاهرها، وقيل: المراد بالرحمة ما يشمل الجنة وغيرها والأول أظهر ﴿ذَلِكَ﴾ الذي ذكر من الإدخال في رحمته تعالى: ﴿هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ﴾ الظاهر كونه فوزاً لا فوز وراءه.

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ﴾ أي فيقال لهم بطريق التقريع والتوبيخ: ألم تكن تأتيكم رسلي فلم تكن آياتي تتلى عليكم فجواب أما القول المقدر، وحذف اكتفاء بالمقصود وهو المقول وحذفه كثير مقيس حتى قيل هو البحر حدث عنه، وحذف المعطوف عليه لقرينة الفاء العاطفة وأن تلاوة الآيات تستلزم إتيان الرسل معنى، وهذا على ما ذهب إليه الزمخشري والجمهور على أن الهمزة مقدمة من تأخير لصدارتها والفاء على نية التقدير، والتقدير فيقال لهم: ألم تكن الخ فليس هناك سوى حذف القول، وفي الكشف لو حمل على أن المحذوف فيوبخون لدلالة ما بعده عليه، وفائدة هذا الأسلوب مع أن الأصل فيدخلهم في عذابه الدلالة على أن المؤمنين يدخلون الجنة والكافرون بعد في الموقف معذبون بالتوبيخ لكان وجهاً ﴿فَاسْتَكْبَرْتُمْ﴾ عن الإيمان بها ﴿وَكُنتُمْ قَوْماً مُجْرِمِينَ﴾ قوماً عادتهم الإجرام ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللهِ﴾ أي وما وعده سبحانه من الأمور الآتية أو وعده تعالى بذلك ﴿حَقٌّ﴾ أي كائن هو أو متعلقه لا محالة ففي الكلام تجوز إما في الطرف أو في النسبة.

وقرأ الأعرج وعمرو بن قائد «وَإِذَا قِيلَ أَنَّ» بفتح الهمزة على لغة سليم ﴿وَالسَّاعَةُ لاَ رَيْبَ فِيهَا﴾ برفع «الساعة» في قراءة الجمهور على العطف على محل إن واسمها على ما ذهب إليه أبو علي وتبعه الزمخشري، ومن زعم أن لاسم إن موضعاً جوز العطف عليه هنا، وزعم أبو حيان أن الصحيح أنه لا يجوز كلا الوجهين وعليه فجملة ﴿الساعة لا ريب فيها﴾ عطف على الجملة السابقة، وقرأ حمزة ﴿وَالساعَةَ﴾ بالنصب عطفاً على اسم أن وروي ذلك عن الأعمش وأبي عمرو وأبي حيوة وعيسى والعبسي والمفضل، وذكر أمر الساعة وإنها لا ريب في وقوعها مع أنها من جملة ما وعد الله تعالى اعتناء بأمر البعث المقصود بالمقام ﴿قُلْتُمْ﴾ لغاية عتوكم: ﴿مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ﴾ أي أي شيء هي استغراباً لها جداً كما يؤذن به جمع ﴿ما ندري﴾ مع الاستفهام.

﴿إِنْ نَظُنُّ إِلاَّ ظَنًّا﴾ استشكل ذلك لما أنه استثناء مفرغ وقد قالوا: لا يجوز تفريغ العامل إلى المفعول المطلق المؤكد فلا يقال: ما ضربت إلا ضرباً لأنه بمنزلة ما ضربت إلا ضربت، وقال الرضي: إن الاستثناء المفرغ يجب أن يستثنى من متعدد مقدر معرب بإعراب المستثنى مستغرق لذلك الجنس حتى يدخل فيه المستثنى بيقين ثم يخرج بالاستثناء وليس مصدر نظن محتملاً مع الظن غيره حتى يخرج الظن منه، وكذا يقال في ما ضربت إلاّ ضرباً ونحوه وهذا مراد من قال: إنه من قبيل استثناء الشيء من نفسه. واختلفوا في حله فقيل: إن معنى ما نظن ما نفعل الظن كما في نحو قيم وقعد وحينئذٍ يصح الاستثناء ويتغاير مورد النفي والإيجاب من حيث التقدير والتجوز في الاستثناء من العام المقدر وجعل ﴿نظن﴾ في معنى نفعل الفعل لا نفعل الظن كأنه قيل: ما نفعل فعلاً إلا الظن، وكذا يقال في أمثاله ومنها قول الأعشى:

وحل به الشيب أثقاله ... وما اغتره الشيب إلا اغترارا

وارتضاه صاحب الكشف، وقيل: ما نظن بتأويل ما نعتقد ويكون ﴿ظنا﴾ مفعولاً به أي ما نعتقد شيئاً إلا ظناً، وارتضاه أبو حيان. وتعقب بأن ظاهر حالهم أنهم مترددون لا معتقدون. وأجيب بأن الاعتقاد المنفي لا ينافي ظاهر حالهم بل يقررها على أتم وجه، وقيل المستثنى ظن أمر الساعة والمستثنى منه مطلق الظن كأنه قيل لا ظن ولا تردد لنا إلا ظن أمر الساعة والتردد فيه فالكلام لنفي ظنهم فيما سوى ذلك مبالغة، وقال الرضي: إن ما ضربت إلا ضرباً يحتمل التعدد من حيث توهم المخاطب إذ ربما تقول ضربت وقد فعلت غير الضرب مما يجري مجراه من مقدماته كالتهديد فتدفع ذلك وتقول ضربت ضرباً فهو نظير جاء زيد زيد فلما كان ضربت محتملاً للضرب وغيره من حيث التوهم صار كالمتعدد الشامل للضرب وغيره، وحاصله أن الضرب لما احتمل قبل التأكيد والاستثناء فعلاً آخر حمل على العموم بقرينة الاستثناء فيكون المعنى ما فعلت شيئاً إلا ضرباً، وهكذا ﴿ما نظن إلا ظنا﴾ وهذا كالمتحد مع ما ذكرناه أولاً، ورد بأن الاستثناء يقتضي الشمول المحقق ولا يكفي فيه الاحتمال المحقق فضلاً عن المتوهم.

وتعقب بأنه ليس بشيء لأنه إذا تجرد الفعل لمعنى عام صار الشمول محققاً على أن عدم كفاية الشمول الفرضي غير مسلم كما يعرفه من يتتبع موارده، وذهب ابن يعيش. وأبو البقاء إلى أنه على القلب والتقديم والتأخير الأصل إن نحن الا نظن ظناً وحكي ذلك عن المبرد، وقد حمل عليه ما حكاه أبو عمرو بن العلاء وسيبويه من قول العرب: ليس الطيب إلا المسك بالرفع فقال: الأصل ليس إلا الطيب المسك ليكون اسم ليس ضمير الشأن وما بعد إلا مبتدأ وخبراً في موضع الخبر لها، ورده الرضي وقال: إنه تكلف لما فيه من التعقيد المخلّ بالفصاحة.

والمثال المحكي وارد على لغة بني تميم فإنهم عاملوا ليس معاملة ما فأهملوها لانتقاض النفي بإلا، وقيل ﴿ظنا﴾ مفعول مطلق لفعل محذوف والمستثنى محذوف والتقدير إن نظن إلا أنكم تظنون ظناً.

وحكي عن المبرد أيضاً وفيه حذف إن واسمها وخبرها وإبقاء المصدر وذلك لا يجوز، وفيه أيضاً من التعقيد المخل بالفصاحة ما فيه، ولا أظن صحة حكايته عن المبرد لغاية برودته، وجوز صاحب التقريب أن يكون المراد إن نظن إلا ظناً ضعيفاً فهو مصدر مبين للنوع حذفت صفته كما صرح به في البحر لا مؤكد، وهذا يوافق ما ذكره الإمام السكاكي في بحث أن التنكير قد يكون للتحقير. وتعقب بأن قوله تعالى: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾ يأباه فإن مقابل الاستيقان مطلق الظن لا الضعيف منه، وقد صرح غير واحد بأن هذه الجملة كالتأكيد لما قبلها والمراد بها استمرار النفي وتأكيده، قيل: والمعنى وما نحن بمستيقنين إمكان الساعة أي لا نتيقن إمكانها أصلاً فضلاً عن تحقق وقوعها المدلول عليه بقوله تعالى: ﴿إن وعد الله حق والساعة لا ريب فيها﴾ فقولهم ذلك رد لهذا، ولعل المثبتين لأنفسهم

الظن من غير إيقان بأمر الساعة غير القائلين إن هي إلا حياتنا الدنيا فإن ذلك ظاهر في أنهم منكرون للبعث جازمون بنفي الساعة فيكون الكفرة صنفين صنف جازمون بنفيها كأئمتهم وصنف مترددون متحيرون فيها فإذا سمعوا ما يؤثر عن آبائهم أنكروها وإذا سمعوا الآيات المتلوة تقهقر إنكارهم فترددوا.

ويحتمل اتحاد قائل ذاك وقائل هذا إلا أن كل قول في وقت وحال فهو مضطرب مختلف الحالات تارة يجزم بالنفي فيقول: إن هي إلا حياتنا الدنيا وأخرى يظن فيقول إن نظن إلا ظناً، وقيل: الجزم هناك بنفي وقوعها والظن من غير إيقان هنا بمجرد إمكانها فهم مترددون بإمكانها الذاتي جازمون بعدم وقوعها بالفعل فتأمل.

«تم الجزء الخامس والعشرون ويليه إن شاء الله تعالى الجزء السادس والعشرون وأوله (وبدا لهم)».

الجزء السادس والعشرون

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٣﴾ وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٣٤﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ۚ فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٣٥﴾ فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾

﴿وَبَدَا لَهُمْ﴾ أي ظهر لهم حينئذٍ **﴿سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا﴾** أي قبائح أعمالهم أي عقوباتها فإن العقوبة تسوء صاحبها وتقبح عنده أو سيئات أعمالهم أي أعمالهم السيئات على أن تكون الإضافة من إضافة الصفة إلى الموصوف والكلام على تقدير مضاف أي ظهر لهم جزاء ذلك أو أن يراد بالسيئات جزاؤها من باب إطلاق السبب على المسبب، وقيل: المراد ظهر لهم الجهات السيئة الغير الحسنة عقلاً لأعمالهم أي جهات قبحها العقلي التي خفيت عليهم في الدنيا بتزيين الشيطان؛ وهو قول بالحسن والقبح العقليين في الأفعال، و **﴿ما﴾** موصولة، وجوز أن تكون مصدرية فلا تغفل **﴿وَحَاقَ﴾** أي حل **﴿بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾** من الجزاء والعقاب.

﴿وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ﴾ نترككم في العذاب من باب إطلاق السبب على المسبب لأن من نسي شيئاً تركه أو نجعلكم بمنزلة الشيء المنسي غير المبالى به على أن ثم استعارة تمثيلية، وجوز أن يكون استعارة مكنية في ضمير الخطاب.

﴿كَمَا نَسِيتُمْ﴾ في الدنيا **﴿لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾** أي كما تركتم عدته وهي التقوى والإيمان به أو كما لم تبالوا أنتم بلقائه ولم تخطروه ببال كالشيء الذي يطرح نسياً منسياً، وجوز أن يكون التعبير بنسيانه لأن علمه مركوز في فطرتهم أو لتمكنهم منه بظهور دلائله ففي النسيان الأول مشاكلة، وإضافة **﴿لقاء﴾** إلى - يوم - من إضافة المصدر إلى ظرفه فهي على معنى في والمفعول مقدر أي لقاءكم الله تعالى وجزاءه سبحانه في يومكم هذا، وقال العلامة التفتازاني: **﴿لقاء يومكم﴾** كـ **﴿مكر الليل﴾** [سبأ: ٣٣] من باب المجاز الحكمي فلذا أجري المضاف إليه مجرى المفعول به، وإنما لم يجعل من إضافة المصدر إلى المفعول به حقيقة لأن التوبيخ ليس على نسيان لقاء اليوم نفسه بل نسيان ما فيه من الجزاء.

وقال بعض الأجلة: لا يخفى أن لقاء اليوم يجوز أن يكون كناية عن لقاء جميع ما فيه وهو أنسب بالمقام لأن السياق لإنكار البعث ﴿وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِّنْ نَاصِرِينَ﴾ ما لأحد منكم ناصر واحد يخلصكم منها.

﴿ذَلِكُمْ﴾ العذاب ﴿بِأَنَّكُمُ﴾ بسبب أنكم ﴿اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللهِ هُزُواً﴾ أي مهزوءاً بها ولم ترفعوا لها رأساً ﴿وَغَرَّتْكُمُ الحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ فحسبتم أن لا حياة سواها ﴿فَالْيَوْمَ لاَ يُخْرَجُونَ مِنْهَا﴾ أي النار. وقرأ الحسن وابن وثاب وحمزة والكسائي «لا يَخْرِجُونَ» مبنياً للفاعل، والالتفات إلى الغيبة للإيذان بإسقاطهم عن رتبة الخطاب استهانة بهم أو بنقلهم من مقام الخطابة إلى غيابه النار، وجوز أن يكون هذا ابتداء كلام فلا التفات.

﴿وَلاَ هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ أي يطلب منهم أن يعتبوا ربهم سبحانه أي يزيلوا عتبه جلّ وعلا، وهو كناية عن إرضائه تعالى أي لا يطلب منهم إرضاؤه عز وجل لفوات أوانه، وقد تقدم في الروم. والسجدة أوجه أخر في ذلك فتذكر ﴿فَللهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّماوات وَرَبِّ الأَرْض رَبِّ العالمينَ﴾ تفريع على ما احتوت عليه السورة الكريمة، وقد احتوت على آلاء الله تعالى وأفضاله عز وجل واشتملت على الدلائل الآفاقية والأنفسية وانطوت على البراهين الساطعة والنصوص اللامعة في المبدأ والمعاد، واللام للاختصاص، وتقديم الخبر لتأكيده، وتعريف الحمد للاستغراق أو الجنس، والجملة إخبار عن استحقاقه تعالى لما تدل عليه، وجوز أن يراد الإنشاء، وتمام الكلام قد تقدم في الفاتحة، وفي التفريع المذكور على ما قال بعض الأجلة إشارة إلى أن كفرهم لا يؤثر شيئاً في ربوبيته تعالى ولا يسد طريق إحسانه ورحمته عز وجلّ. ومن يسد طريق العارض الهطل. وإنما هم ظلموا أنفسهم، وإجراء ما جرى من الصفات الدالة على إنعامه تعالى عليه عز وجلّ كالدليل على استحقاقه تعالى الحمد واختصاصه به جلّ وعلا؛ وقوله تعالى: ﴿رب العالمين﴾ بدل مما قبل؛ وفي تكرير لفظ الرب تأكيد وإيذان بأن ربوبيته تعالى لكل بطريق الأصالة. وقرأ ابن محيصن برفعه على المدح بإضمار هو ﴿وَلَهُ الكِبْرِيَاءُ﴾ فيه من الاختصاص ما في ﴿لله الحمد﴾ والكبرياء قال ابن الأثير: العظمة والملك، وقال الراغب: الترفع عن الانقياد، وقيل: هي عبارة عن كمال الذات وكمال الوجود، وقوله تعالى: ﴿فِي السَّماوات وَالأَرْض﴾ في موضع الحال أو متعلق ـ بالكبرياء ـ والتقييد بذلك لظهور آثار الكبرياء وأحكامها فيه، والإظهار في مقام الإضمار لتفخيم شأن الكبرياء، وفي الحديث القدسي «الكبرياء ردائي والعظمة إزاري فمن نازعني واحداً منهما قذفته في النار» أخرجه الإمام أحمد ومسلم وأبو داود وابن ماجه وابن أبي شيبة والبيهقي في الأسماء والصفات عن أبي هريرة، وهو ظاهر في عدم اتحاد الكبرياء والعظمة فلا تغفل ﴿وَهُوَ العَزِيزُ﴾ الذي لا يغلب ﴿الْحَكِيمُ﴾ في كل ما قضى وقدر، وفي هذه الجمل إرشاد ـ على ما قيل ـ إلى أوامر جليلة كأنه قيل: له الحمد فاحمدوه تعالى وله الكبرياء فكبروه سبحانه وهو العزيز الحكيم فأطيعوه عز وجل، وجعلها بعضهم مجازاً أو كناية عن الأوامر المذكورة والله تعالى أعلم، هذا ولم أظفر من باب الإشارة بما يتعلق بشيء من آيات هذه السورة الكريمة يفي بمؤنة نقله غير ما يتعلق بقوله تعالى: ﴿وسخر لكم ما في السّماوات وما في الأرض جميعاً منه﴾ [الجاثية: ١٣] من جعله إشارة إلى وحدة الوجود، وقد مر ما يغني عن نقله، والله عز وجلّ ولي التوفيق.

(٤٦) سورة الأحقاف مكية وآياتها خمس وثلاثون

بسم الله الرحمن الرحيم

حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤﴾

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ حم تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم ، ما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى والذين كفروا عما أنذروا معرضون . قل أرأيتم ما تدعون من دون الله أروني ما ذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك في السموات ائتوني بكتاب من قبل هذا أو أثارة من علم إن كنتم صادقين ﴾ .

اعلم أن نظم أول هذه السورة كنظم أول سورة الجاثية، وقد ذكرنا ما فيه .

وأما قوله (ما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق) فهذا يدل على إثبات الإله بهذا العالم ، ويدل على أن ذلك الإله يجب أن يكون عادلا رحيما بعباده ، ناظراً لهم محسناً إليهم ، ويدل على أن القيامة حق .

﴿ أما المطلوب الأول ﴾ وهو إثبات الإله بهذا العالم ، وذلك لأن الخلق عبارة عن التقدير ، وآثار التقدير ظاهرة في السموات والأرض من الوجوه العشرة المذكورة في سورة الأنعام ، وقد بينا أن تلك الوجوه تدل على وجود الإله القادر المختار .

﴿وأما المطلوب الثانى﴾ وهو إثبات أن إله العالم عادل رحيم فيدل عليه قوله تعالى (إلا بالحق) لأن قوله (إلا بالحق) معناه إلا لأجل الفضل والرحمة والإحسان ، وأن الإله يجب أن يكون فضله زائداً وأن يكون إحسانه راجحاً ، وأن يكون وصول المنافع منه إلى المحتاجين أكثر من وصول المضار إليهم ، قال الجبائى هـذا يدل على أن كل مابين السموات والأرض من القبائح فهو ليس من خلقه بل هو من أفعال عباده ، وإلا لزم أن يكون خالقاً لكل باطل ، وذلك ينافى قوله (ماخلقناهما إلا بالحق) أجاب أصحابنا وقالوا : خلق الباطل غير ، والخلق بالباطل غير ، فنحن نقول إنه هو الذى خلق الباطل إلا أنه خلق ذلك الباطل بالحق لأن ذلك تصرف من الله تعالى فى ملك نفسه وتصرف المالك فى ملك نفسه يكون بالحق لا بالباطل ، قالوا والذى يقرر ما ذكرناه أن قوله تعالى (ماخلقنا السموات والأرض وما بينهما) يدل على كونه تعالى خالقاً لكل أعمال العباد ، لأن أعمال العباد من جملة مابين السموات والأرض ، فوجب كونها مخلوقة لله تعالى ووقوع التعارض فى الآية الواحدة محال فلم يبق إلا أن يكون المراد ماذكرناه ، فإن قالوا أفعال العباد أعراض ، والأعراض لا توصف بأنها حاصلة بين السموات والأرض ، فنقول فعلى هذا التقدير سقط ما ذكرتموه من الاستدلال والله أعلم .

﴿وأما المطلوب الثالث﴾ فهو دلالة الآية على صحة القول بالبعث والقيامة ، وتقريره أنه لو لم توجد القيامة لتعطل استيفاء حقوق المظلومين من الظالمين ، ولتعطل توفية الثواب على المطيعين وتوفيه العقاب على الكافرين وذلك يمنع من القول بأنه تعالى خلق السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق .

وأما قوله تعالى (وأجل مسمى) فالمراد أنه ماخلق هذه الأشياء (إلا بالحق) وإلا (لأجل مسمى) وهذا يدل على أن إله العالم ماخلق هذا العالم ليبقى مخلداً سرمداً ، بل إنما خلقه ليكون داراً للعمل ، ثم إنه سبحانه يفنيه ثم يعيده ، فيقع الجزاء فى الدار الآخرة ، فعلى هذا (الأجل المسمى) هو الوقت الذى عينه الله تعالى لإفناء الدنيا .

ثم قال تعالى (والذين كفروا عما أنذروا معرضون) والمراد أن مع نصب الله تعالى هذه الدلائل ومع إرسال الرسل وإنزال الكتب ومع مواظبة الرسل على الترغيب والترهيب والإعذار والإنذار ، بقى هؤلاء الكفار معرضين عن هذه الدلائل غير ملتفتين إليها ، وهذا يدل على وجوب النظر والاستدلال ، وعلى أن الإعراض عن الدليل مذموم فى الدين والدنيا .

واعلم أنه تعالى لما قرر هذا الأصل الدال على إثبات الإله ، وعلى إثبات كونه عادلا رحيما ، وعلى إثبات البعث والقيامة بنى عليه التفاريع .

﴿ فالفرع الأول ﴾ الرد على عبدة الأصنام فقال (قل أرأيتم ما تدعون من دون الله) وهى الأصنام أرونى أى أخبرونى ماذا خلقوا من الأرض (أم لهم شرك فى السموات) والمراد أن

هذه الاصنام ، هل يعقل أن يضاف إليها خلق جزء من أجزاء هذا العالم ؟ فإن لم يصح ذلك فهل يجوز أن يقال إنها أعانت إله العالم فى خلق جزء من أجزاء هذا العالم ، ولما كان صريح العقل حاكما بأنه لا يجوز إسناد خلق جزء من أجزاء [illegible] ، وإن كان ذلك الجزء أقل الأجزاء ، ولا يجوز أيضاً إسناد الإعانة إليها فى أقل الأفعال وأذلها ، فحينئذ صح أن الخالق الحقيقي لهذا العالم هو الله سبحانه ، وأن المنعم الحقيقي بجميع أقسام النعم هو الله سبحانه ، والعبادة عبارة عن الإتيان بأكمل وجوه التعظيم ، وذلك لا يليق إلا بمن صدر عنه أكمل وجوه الإنعام ، فلما كان الخالق الحق والمنعم الحقيقي هو الله سبحانه وتعالى ، وجب أن لا يجوز الإتيان بالعبادة والعبودية إلا له ولأجله ، بقي أن يقال إنا لا نعبدها لأنها تستحق هذه العبادة ، بل إنما نعبدها لأجل أن الإله الخالق المنعم أمرنا بعبادتها ، فعند هذا ذكر الله تعالى ما يجرى مجرى الجواب عن هذا السؤال ، فقال (ائتونى بكتاب من قبل هذا أو أثارة من علم) وتقرير هذا الجواب أن ورود هذا الأمر لا سبيل إلى معرفته إلا بالوحى والرسالة ، فنقول هذا الوحى الدال على الأمر بعبادة هذه الأوثان ، إما أن يكون على محمد أو فى سائر الكتب الإلهية المنزلة على سائر الأنبياء ، وإن لم يوجد ذلك فى الكتب الإلهية لكنه من تقابل العلوم المنقولة عنهم والكل باطل ، أما إثبات ذلك بالوحى إلى محمد ﷺ فهو معلوم البطلان ، وأما إثباته بسبب اشتمال الكتب الإلهية المنزلة على الأنبياء المتقدمين عليه ، فهو أيضاً باطل ، لأنه علم بالتواتر الضرورى إطباق جميع الكتب الإلهية على المنع من عبادة الأصنام ، وهذا هو المراد من قوله تعالى (ائتونى بكتاب من قبل هذا) ، وأما إثبات ذلك بالعلوم المنقولة عن الأنبياء سوى ما جاء فى الكتب فهذا أيضاً باطل ، لأن العلم الضرورى حاصل بأن أحداً من الأنبياء ما دعا إلى عبادة الأصنام ، وهذا هو المراد من قوله (أو أثارة من علم) ولما بطل الكل ثبت أن الاشتغال بعبادة الأصنام عمل باطل وقول فاسد وبقى فى قوله تعالى (أو أثارة من علم) نوعان من البحث .

﴿ النوع الأول ﴾ البحث اللغوى قال أبو عبيدة والفراء والزجاج (أثارة من علم) أى بقية وقال المبرد (أثارة) ما يؤثر من علم أى بقية ، وقال المبرد (أثارة) تؤثر (من علم) كقولك هذا الحديث يؤثر عن فلان ، ومن هذا المعنى سميت الأخبار بالآثار يقال جاء فى الأثر كذا وكذا ، قال الواحدى : وكلام أهل اللغة فى تفسير هذا الحرف يدور على ثلاثة أقوال : (الأول) البقية واشتقاقها من أثرت الشيء أثيره إثارة كأنها بقية تستخرج فتثار (والثانى) من الأثر الذى هو الرواية (والثالث) هو الأثر بمعنى العلامة ، قال صاحب الكشاف وقرىء (أثرة) أى من شيء أوثرتم به وخصصتم من علم لا إحاطة به لغيركم وقرىء (أثرة) بالحركات الثلاث مع سكون الثاء فالإثرة بالكسر بمعنى الأثر ، وأما الإثر فالمرأة من مصدر أثر الحديث إذا رواه ، وأما الأثرة بالضم فاسم ما يؤثر كالخطبة اسم لما يخطب به ، وههنا قول آخر فى تفسير قوله تعالى (أو أثارة من علم)

وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴿٦﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٨﴾

وهو ما روى عن ابن عباس أنه قال (أو أثارة من علم) هو علم الخط الذى يخط فى الرمل والعرب كانوا يخطونه وهو علم مشهور ، وعن النبى ﷺ أنه قال « كان نبى من الأنبياء يخط فمن وافق خطه خطه علم علمه » وعلى هذا الوجه فمعنى الآية ائتونى بعلم من قبل هـذا الخط الذى تخطونه فى الرمل يدل على صحة مذهبكم فى عبادة الأصنام ، فان صح تفسير الآية بهذا الوجه كان ذلك من باب التهكم بهم وبأقوالهم ودلائلهم والله تعالى أعلم :

قوله تعالى : ﴿ ومن أضل ممن يدعوا من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون ، وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين ، وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين كفروا للحق لما جاءهم هذا سحر مبين ، أم يقولون افتراه قل إن افتريته فلا تملكون لى من الله شيئاً هو أعلم بما تفيضون فيه كفى به شهيداً بينى وبينكم وهو الغفور الرحيم ﴾ .

اعلم أنه تعالى بين فيما سبق أن القول بعبادة الأصنام قول باطل ، من حيث إنها لا قدرة لها البتة على الخلق والفعل والإيجاد والإعدام والنفع والضر ، فأردفه بدليل آخر يدل على بطلان ذلك المذهب ، وهى أنها جمادات فلا تسمع دعاء الداعين ، ولا تعلم حاجات المحتاجين ، وبالجملة فالدليل الأول كان إشارة إلى نفى العلم من كل الوجوه ، وإذا انتفى العـلم والقدرة من كل الوجوه لم تبق عبادة معلومة ببديهة العقل فقوله (ومن أضل ممن يدعو من دون الله) استفهام على سبيل الإنكار والمعنى أنه لا أمرأ أبعد عن الحق ، وأقرب إلى الجهل ممن يدعوا من دون الله الأصنام ، فيتخذها آلهة ويعبدها وهى إذا دعيت لا تسمع ، ولا تصح منها الإجابة لا فى الحال ولا بعد ذلك اليوم إلى يوم القيامة ، وإنما جعل ذلك غاية لأن يوم القيامة قد قيل إنه تعالى يحييها وتقع بينها وبين من

قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا

يعبدها مخاطبة فلذلك جعله تعالى حداً ، وإذا قامت القيامة وحشر الناس فهذه الأصنام تعادى هؤلاء العابدين ، واختلفوا فيه فالأكثرون على أنه تعالى يحيى هذه الأصنام يوم القيامة وهى تظهر عداوة هؤلاء العابدين وتتبرأ منهم ، وقال بعضهم بل المراد عبدة الملائكة ، وعيسى فإنهم فى يوم القيامة يظهرون عداوة هؤلاء العابدين فإن قيل ما المراد بقوله تعالى (وهم عن دعائهم غافلون) وكيف يعقل وصف الأصنام وهى جمادات بالغفلة ؟ وأيضاً كيف جاز وصف الأصنام بما لايليق إلا بالعقلاء ؟ وهى لفظة من وقوله (هم غافلون) قلنا إنهم لما عبدوها ونزلوها منزلة من يضر وينفع صح أن يقال فيها إنها بمنزلة الغافل الذى لايسمع ولا يجيب . وهذا هو الجواب أيضاً عن قوله إن لفظة (من) ولفظة (هم) كيف يليق بها ، وأيضاً يجوز أن يريد كل معبود من دون الله من الملائكة وعيسى وعزير والأصنام إلا أنه غلب غير الأوثان على الأوثان

واعلم أنه تعالى لما تكلم فى تقرير التوحيد ونفى الأضداد والأنداد تكلم فى النبوة وبين أن محمداً ﷺ كلما عرض عليهم نوعاً من أنواع المعجزات زعموا أنه سحر فقال وإذا تتلى عليهم الآيات البينة وعرضت عليهم المعجزات الظاهرة سموها بالسحر ، ولما بين أنهم يسمون المعجزة بالسحر بين أنهم متى سمعوا القرآن قالوا إن محمداً افتراه واختلقه من عند نفسه ، ومعنى الهمزة فى أم للانكار والتعجب كأنه قيل دع هذا واسمع القول المنكر العجيب ، ثم إنه تعالى بين بطلان شبهتهم فقال إن افتريته على سبيل الفرض ، فإن الله تعالى يعاجلنى بعقوبة بطلان ذلك الافتراء وأنتم لاتقدرون على دفعه عن معاجلتى بالعقوبة فكيف أقدم على هذه الفرية ، وأعرض نفسى لعقابه ؟ يقال فلان لايملك نفسه إذا غضب ولا يملك عنانه إذا صمم ، ومثله (فمن يملك من الله شيئاً إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم) ، (ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئاً) ومنه قوله ﷺ « لا أملك لكم من الله شيئاً » .

ثم قال تعالى (هو أعلم بما تفيضون فيه) أى تندفعون فيه من القدح فى وحى الله تعالى والطعن فى آياته وتسميته سحراً تارة وفرية أخرى (كفى به شهيداً بينى وبينكم) يشهد لى بالصدق ويشهد عليكم بالكذب والجحود ، ومعنى ذكر العلم والشهادة وعيد لهم على إقامتهم فى الطعن والشتم .

ثم قال (وهو الغفور الرحيم) بمن رجع عن الكفر وتاب واستعان بحكم الله عليهم مع عظم ما ارتكبوه .

قوله تعالى : ﴿ قل ما كنت بدعاً من الرسل وما أدرى مايفعل بى ولا بكم أن أتبع إلا ما يوحى

يُوحَىٰٓ إِلَيَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ ۚ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا۟ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَـٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴿١١﴾ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَـٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ وَهَـٰذَا كِتَـٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾

إلى وما أنا إلا نذير مبين ، قل أرأيتم إن كان من عند الله وكفرتم به وشهد شاهد من بنى إسرائيل على مثله فآمن واستكبرتم إن الله لا يهدى القوم الظالمين ، وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيراً ما سبقونا إليه وإذ لم يهتدوا به فسيقولون هذا إفك قديم ، ومن قبله كتاب موسى إماماً ورحمة وهذا كتاب مصدق لساناً عربياً لينذر الذين ظلموا وبشرى للمحسنين ﴾ .

اعلم أنه تعالى لما حكى عنهم أنهم فى كون القرآن معجزاً ، بأن قالوا إنه يختلقه من عند نفسه ثم ينسبه إلى أنه كلام الله على سبيل الفرية ، حكى عنهم نوعاً آخر من الشبهات ، وهو أنهم كانوا يقترحون منه معجزات عجيبة قاهرة ، ويطالبونه بأن يخبرهم عن المغيبات ، فأجاب الله تعالى عنه بان قال (قل ما كنت بدعاً من الرسل) والبدع والبديع من كل شيء المبدأ ، والبدعة ما اخترع مما لم يكن موجوداً قبله بحكم السنة ، وفيه وجوه (الأول) (ما كنت بدعاً من الرسل) أى ما كنت أولهم ، فلا ينبغى أن تنكروا إخبارى بأنى رسول الله إليكم ، ولا تنكروا دعائى لكم إلى التوحيد ، ونهيى عن عبادة الأصنام ، فإن كل الرسل إنما بعثوا بهذا الطريق (الوجه الثانى) أنهم طلبوا منه معجزات عظيمة وأخباراً عن الغيوب فقال (قل ما كنت بدعاً من الرسل) والمعنى أن الإتيان بهذه المعجزات القاهرة والإخبار عن هذه الغيوب ليس فى وسع البشر ، وأنا من جنس الرسل وأحد منهم لم يقدر على ما تريدونه فكيف أقدر عليه ؟ (الوجه الثالث) أنهم كانوا يعيبونه أنه يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق وبأن أتباعه فقراء فقال (قل ما كنت بدعاً من الرسل) وكلهم كانوا على هذه الصفة وبهذه المثابة فهذه الأشياء لا تقدح فى نبوتى كما لا تقدح فى نبوتهم .

ثم قال ﴿ وما أدرى ما يفعل بى ولا بكم ﴾ وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ فى تفسير الآية وجهان (أحدهما) أن يحمل ذلك على أحوال الدنيا (والثانى) أن يحمل على أحوال الآخرة (أما الأول) ففيه وجوه (الأول) لا أدرى ما يصير إليه أمرى وأمركم ، ومن الغالب منا والمغلوب (والثانى) قال ابن عباس فى رواية الكلبى : لما اشتد البلاء بأصحاب النبى صلى الله عليه وسلم بمكة رأى فى المنام أنه يهاجر إلى أرض ذات نخل وشجر وماء ، فقصها على أصحابه فاستبشروا بذلك ورأوا أن ذلك فرج مما هم فيه من أذى المشركين ، ثم إنهم مكثوا برهة من الدهر لايرون أثر ذلك ، فقالوا يارسول الله ما رأينا الذى قلت ومتى نهاجر إلى الأرض التى رأيتها فى المنام ؟ فسكت النبى ﷺ فأنزل الله تعالى (ماأدرى مايفعل الله بى ولا بكم) وهو شىء رأيته فى المنام ، وأنا لا أتبع إلا ما أوحاه الله إلى (الثالث) قال الضحاك لاأدرى ماتؤمرون به ولا أومر به فى باب التكاليف والشرائع والجهاد ولافى الابتلاء والامتحان وإنما أنذركم بما أعلمنى الله به من أحوال الآخرة فى الثواب والعقاب (والرابع) المراد أنه يقول لا أدرى مايفعل بى فى الدنيا أأموت أم أقتل كما قتل الأنبياء قبلى ولا أدرى ما يفعل بكم أيها المكذبون ، أترمون بالحجارة من السماء ، أم يخسف بكم أم يفعل بكم مافعل بسائر الامم ، أما الذين حملوا هذه الآية على أحوال الآخرة ، فروى عن ابن عباس أنه قال : لما نزلت هذه الآية فرح المشركون والمنافقون واليهود وقالوا كيف نتبع نبياً لايدرى مايفعل به وبنا ؟ فأنزل الله تعالى (إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ليغفر لك الله ماتقدم من ذنبك) إلى قوله (وكان ذلك عند الله فوزاً عظيما) فبين تعالى مايفعل به وبمن اتبعه ونسخت هذه الآية ، وأرغم الله أنف المنافقين والمشركين . وأكثر المحققين استبعدوا هذا القول واحتجوا عليه بوجوه (الأول) أن النبى ﷺ لابد وأن يعلم من نفسه كونه نبياً ومتى علم كونه نبيا علم أنه لاتصدر عنه الكبائر وأنه مغفور له ، وإذا كان كذلك امتنع كونه شاكا فى أنه هل هو مغفور له أم لا (الثانى) لاشك أن الأنبياء أرفع حالا من الأولياء ، فلما قال فى هذا (إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا فلا خوف عليهم ولاهم يحزنون) فكيف يعقل أن يبقى الرسول الذى هو رئيس الأتقياء وقدوة الأنبياء والأولياء شاكا فى أنه هل هو من المغفورين أو من المعذبين ؟ (الثالث) أنه تعالى قال (الله أعلم حيث يجعل رسالته) والمراد منه كمال حاله ونهاية قربه من حضرة الله تعالى ، ومن هذا حاله كيف يليق به أن يبقى شاكا فى أنه من المعذبين أومن المغفورين ؟ فثبت أن هذا القول ضعيف .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال صاحب الكشاف قرىء (ما يفعل) بفتح الياء أى يفعل الله عز وجل فإن قالوا (مايفعل) مثبت وغير منفى وكان وجه الكلام أن يقال : مايفعل بى وبكم ؟ قلنا التقدير ما أدرى ما يفعل بى وما أدرى ما يفعل بكم .

ثم قال تعالى (إن أتبع إلا ما يوحى إلى) يعنى إنى لا أقول قولا ولا أعمل عملا إلا بمقتضى الوحى واحتج نفاة القياس بهذه الآية فقالوا النبى ﷺ ما قال قولا ولا عمل عملا إلا بالنص الذى أوحاه الله إليه ، فوجب أن يكون حالنا كذلك (بيان الأول) قوله تعالى (إن أتبع إلا

مايوحى إلى) (بيان الثانى) قوله تعالى (واتبعوه) وقوله تعالى (فليحذر الذين يخالفون عن أمره).
ثم قال تعالى (وما أنا إلا نذير مبين) كانوا يطالبونه بالمعجزات العجيبة وبالإخبار عن الغيوب فقال قل (وما أنا إلا نذير مبين) والقادر على تلك الأعمال الخارجة عن قدرة البشر والعالم بتلك الغيوب ليس إلا الله سبحانه.

قوله تعالى: ﴿قل أرأيتم إن كان من عند الله وكفرتم به وشهد شاهد من بنى إسرائيل على مثله فآمن واستكبرتم إن الله لايهدى القوم الظالمين﴾ وفيه مسائل:

﴿المسألة الأولى﴾ جواب الشرط محذوف والتقدير أن يقال إن كان هذا الكتاب من عند الله ثم كفرتم به وشهد شاهد من بنى إسرائيل على صحته ثم استكبرتم لكنتم من الخاسرين ثم حذف هذا الجواب، ونظيره قولك إن أحسنت إليك وأسأت إلى وأقبلت عليك وأعرضت عنى فقد ظلمتنى، فكذا ههنا التقدير أخبرونى إن ثبت أن القرآن من عند الله بسبب عجز الخلق عن معارضته ثم كفرتم به وحصل أيضاً شهادة أعلم بنى إسرائيل بكونه معجزاً من عند الله فلو استكبرتم وكفرتم ألستم أضل الناس وأظلمهم، واعلم أن جواب الشرط قد يحذف فى بعض الآيات وقد يذكر، أما الحذف فكما فى هذه الآية، وكما فى قوله تعالى (ولو أن قرآناً سيرت به الجبال أو قطعت به الأرض أو كلم به الموتى) وأما المذكور، فكما فى قوله تعالى (قل أرأيتم إن كان من عند الله ثم كفرتم به من أضل) وقوله (قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمداً إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بضياء).

﴿المسألة الثانية﴾ اختلفوا فى المراد بقوله تعالى (وشهد شاهد من بنى إسرائيل) على قولين (الأول) وهو الذى قال به الأكثرون أن هذا الشاهد عبد الله بن سلام، روى صاحب الكشاف أنه لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة نظر إلى وجهه فعلم أنه ليس بوجه كذاب وتأمله وتحقق أنه هو النبى صلى الله عليه وسلم المنتظر، فقال له إنى سائلك عن ثلاث مايعلمهن إلا نبى ماأول أشراط الساعات، وما أول طعام يأكله أهل الجنة، والولد ينزع إلى أبيه أو إلى أمه؟ فقال ﷺ «أما أول أشرط الساعة فنار تحشرهم من المشرق إلى المغرب، وأما أول طعام يأكله أهل الجنة فزيادة كبد الحوت، وأما الولد فإذا سبق ماء الرجل نزع له وإن سبق ماء المرأة نزع لها» فقال أشهد أنك لرسول الله حقاً، ثم قال يارسول الله إن اليهود قوم بهت وإن علموا بإسلامى قبل أن تسألهم عنى بهتونى عندك، فجاءت اليهود فقال لهم النبى صلى الله عليه وسلم أى رجل عبد الله فيكم؟ فقالوا خيرنا وابن خيرنا وسيدنا وابن سيدنا وأعلمنا وابن أعلمنا فقال أرأيتم إن أسلم عبد الله؟ فقالوا أعاذه الله من ذلك فخرج عبد الله فقال أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله فقالوا شرنا وابن شرنا وانتقصوه فقال هذا ما كنت أخاف يا رسول الله فقال سعد بن أبى وقاص ماسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لأحد يمشى على الأرض

إنه من أهل الجنة إلا لعبد الله بن سلام ، وفيه نزل (وشهد شاهد من بنى إسرائيل على مثله) .

واعلم أن الشعبي ومسروقاً وجماعة آخرين أنكروا أن يكون الشاهد المذكور فى هذه الآية هو عبد الله بن سلام قالوا لأن إسلامه ، كان بالمدينة قبل وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم بعامين وهذه السورة مكية فكيف يمكن حمل هذه الآية المكية على واقعة حدثت فى آخر عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة ، وأجاب الكلبي بأن السورة مكية إلا هذه الآية فإنها مدنية وكانت الآية تنزل فيؤمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن يضعها فى سورة كذا فهذه الآية نزلت بالمدينة وإن الله تعالى أمر رسوله ﷺ بأن يضعها فى هذه السورة المكية فى هذا الموضع المعين ، ولقائل أن يقول إن الحديث الذى رويتم عن عبد الله بن سلام مشكل ، وذلك لأن ظاهر الحديث يوهم أنه لما سأل النبي ﷺ عن المسائل الثلاثة ، وأجاب النبي ﷺ بتلك الجوابات من عبد الله بن سلام لأجل أن النبي ﷺ ذكر تلك الجوابات وهذا بعيد جداً لوجهين (الأول) أن الإخبار عن أول أشراط الساعة وعن أول طعام يأكله أهل الجنة إخبار عن وقوع شيء من الممكنات ، وما هذا سبيله فإنه لا يعرف كون ذلك الخبر صدقاً إلا إذا عرف أولا كون المخبر صادقاً فلو أنا عرفنا صدق المخبر بكون ذلك الخبر صدقا لزم الدور وإنه محال (الثانى) أنا نعلم بالضرورة أن الجوابات المذكورة عن هذه المسائل لا يبلغ العلم بها إلى حد الإعجاز البتة ، بل نقول الجوابات القاهرة عن المسائل الصعبة لما لم تبلغ إلى حد الإعجاز فأمثال هذه الجوابات عن هذه السؤالات كيف يمكن أن يقال إنها بلغت إلى حد الإعجاز (والجواب) يحتمل أنه جاء فى بعض كتب الأنبياء المتقدمين أن رسول آخر الزمان يسأل عن هذه المسائل وهو يجيب عنها بهذه الجوابات وكان عبد الله بن سلام عالماً بهذا المعنى فلما سأل النبي صلى الله عليه وسلم وأجاب بتلك الأجوبة عرف بهذا الطريق كونه رسولا حقاً من عند الله ، وعلى هذا الوجه فلا حاجة بنا إلى أن نقول العلم بهذه الجوابات معجز والله أعلم .

(القول الثانى) فى تفسير قوله تعالى (وشهد شاهد من بنى إسرائيل) أنه ليس المراد منه شخصاً معيناً بل المراد منه أن ذكر محمد صلى الله عليه وسلم موجود فى التوراة والبشارة بمقدمه حاصلة فيها فتقدير الكلام لو أن رجلا منصفاً عارفاً بالتوراة أقر بذلك واعترف به ، ثم إنه آمن بمحمد صلى الله عليه وسلم وأنكرتم ألستم كنتم ظالمين لأنفسكم ضالين عن الحق ؟ فهذا الكلام مقرر سواء كان المراد بذلك الشاهد شخصاً معيناً أو لم يكن كذلك لأن المقصود الأصلى من هذا الكلام أنه ثبت بالمعجزات القاهرة أن هذا الكتاب من عند الله وثبت أن التوراة مشتملة على البشارة بمقدم محمد صلى الله عليه وسلم ومع هذين الأمرين كيف يليق بالعقل إنكار نبوته .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قوله تعالى (على مثله) ذكروا فيه وجوهاً ، والأقرب أن نقول إنه صلى الله عليه وسلم قال لهم أرأيتم إن كان هذا القرآن من عند الله كما أقول وشهد شاهد من بنى إسرائيل على مثل ما قلت (فآمن واستكبرتم) ألستم كنتم ظالمين أنفسكم .

ثم قال تعالى (إن الله لايهدى القوم الظالمين) وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ أنه تهديد وهو قائم مقام الجواب المحذوف والتقدير (قل أرأيتم إن كان من عند الله ثم كفرتم به) فإنكم لاتكونون مهتدين بل تكونون ضالين .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قالت المعتزلة هذه الآية تدل على أنه تعالى إنما منعهم الهداية بناء على الفعل القبيح الذى صدر منهم أولا ، فإن قوله تعالى (إن الله لايهدى القوم الظالمين) صريح فى أنه تعالى لايهديهم لكونهم ظالمين أنفسهم فوجب أن يعتقدوا فى جميع الآيات الواردة فى المنع من الإيمان والهداية أن يكون الحال فيها كما ههنا والله أعلم .

ثم قال تعالى (وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيراً ما سبقونا إليه) وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ هذه شبهة أخرى للقوم فى إنكار نبوة محمد ﷺ ، وفى سبب نزوله وجوه : (الأول) أن هذا كلام كفار مكة قالوا إن عامة من يتبع محمداً الفقراء والأراذل مثل عمار وصهيب وابن مسعود ، ولو كان هذا الدين خيراً ما سبقنا إليه هؤلاء (الثانى) قيل لما أسلمت جهينة ومزينة وأسلم وغفار ، قالت بنو عامر وغطفان وأسد وأشجع لو كان هذا خيراً ماسبقنا إليه رعاء إلبهم (الثالث) قيل إن أمة لعمر أسلمت وكان عمر يضربها حتى يفتر ، ويقول لولا أنى فترت لزدتك ضرباً ، فكان كفار قريش يقولون لو كان ما يدعو محمد إليه حقاً ما سبقتنا إليه فلانة .

(الرابع) قيل كان اليهود يقولون هذا الكلام عند إسلام عبد الله بن سلام .

﴿ المسألة الثانية ﴾ اللام فى قوله تعالى (للذين آمنوا) ذكروا فيه وجهين : (الأول) أن يكون المعنى : وقال الذين كفروا للذين آمنوا ، على وجه الخطاب كما تقول قال زيد لعمرو ، ثم تترك الخطاب وتنتقل إلى الغيبة كقوله تعالى (حتى إذا كنتم فى الفلك وجرين بهم) (الثانى) قال صاحب الكشاف (للذين آمنوا) لأجلهم يعنى أن الكفار قالوا لأجل إيمان (الذين آمنوا) لو كان خيراً ماسبقونا إليه ، وعندى فيه وجه (ثالث) وهو أن الكفار لما سمعوا أن جماعة آمنوا برسول الله ﷺ خاطبوا جماعة من المؤمنين الحاضرين ، وقالوا لهم لو كان هذا الدين خيراً لما سبقنا إليه أولئك الغائبون الذين أسلموا .

واعلم أنه تعالى لما حكى عنهم هذا الكلام أجاب عنه بقوله (وإذ لم يهتدوا به فسيقولون هذا إفك قديم) والمعنى أنهم لما لم يقفوا على وجه كونه معجزاً ، فلا بد من عامل فى الظرف فى قوله (وإذ لم يهتدوا به) ومن متعلق لقوله (فسيقولون) وغير مستقيم أن يكون (فسيقولون) هو العامل فى الظرف لتدافع دلالتى المضى والاستقبال ، فما وجه هذا الكلام ؟ وأجاب عنه بأن العامل فى إذ محذوف لدلالة الكلام عليه ، والتقدير (وإذ لم يهتدوا به) ظهر عنادهم (فسيقولون هذا إفك قديم) .

ثم قال تعالى (ومن قبله كتاب موسى إماماً ورحمة) كتاب موسى مبتدأ ، ومن قبله ظرف

إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ

واقع خبراً مقدماً عليه ، وقوله (إماماً) نصب على الحال كقولك فى الدار زيد قائماً ، وقرىء (ومن قبله كتاب موسى) والتقدير : وآتينا الذى قبله التوراة ، ومعنى (إماماً) أى قدوة (ورحمة) يؤتم به فى دين الله وشرائعه ، كما يؤتم بالإمام (ورحمة) لمن آمن به وعمل بما فيه ، ووجه تعلق هذا الكلام بما قبله أن القوم طعنوا فى صحة القرآن ، وقالوا لو كان خيراً ما سبقنا إليه هؤلاء الصعاليك ، وكأنه تعالى قال : الذى يدل على صحة القرآن أنكم لا تنازعون فى أن الله تعالى أنزل التوراة على موسى عليه السلام ، وجعل هذا الكتاب إماماً يقتدى به ، ثم إن التوراة مشتملة على البشارة بمقدم محمد صلى الله عليه وسلم فإذا سلمتم كون التوراة إماماً يقتدى به ، فاقبلوا حكمه فى كون محمد صلى الله عليه وسلم حقاً من الله .

ثم قال تعالى (وهذا كتاب مصدق لساناً عربياً) أى هذا القرآن مصدق لكتاب موسى فى أن محمداً رسول حقاً من عند الله وقوله تعالى (لساناً عربياً) نصب على الحال ، ثم قال (لينذر الذين ظلموا) قال ابن عباس مشركى مكة ، وفى قوله (لتنذر) قراءتان التاء لكثرة ما ورد من هذا المعنى بالمخاطبة كقوله تعالى (لتنذر به وذكرى للمؤمنين) والياء لتقدم ذكر الكتاب فأسند الإنذار إلى الكتاب كما أسند إلى الرسول ، وقوله تعالى (الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب) إلى قوله (لينذر بأساً شديداً من لدنه) .

ثم قال تعالى (وبشرى للمحسنين) قال الزجاج الأجود أن يكون قوله (وبشرى) فى موضع رفع ، والمعنى وهو بشرى للمحسنين ، قال ويجوز أن يكون فى موضع نصب على معنى (لينذر الذين ظلموا وبشرى للمحسنين) وحاصل الكلام أن المقصود من إنزال هذا الكتاب إنذار المعرضين وبشارة المطيعين .

قوله تعالى : ﴿ إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا فلا خوف عليهم ولاهم يحزنون ، أولئك أصحاب الجنة خالدين فيها جزاء بما كانوا يعملون ، ووصينا الإنسان بوالديه إحساناً حملته أمه كرهاً ووضعته كرهاً وحمله وفصاله ثلاثون شهراً ، حتى إذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة قال رب

نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُواْ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾

أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت على وعلى والدى وأن أعمل صالحاً ترضيه وأصلح لى فى ذريتى إنى تبت إليك وإنى من المسلمين ، أولئك الذين نتقبل عنهم أحسن ما عملوا ونتجاوز عن سيئاتهم فى أصحاب الجنة وعد الصدق الذى كانوا يوعدون ﴾.

اعلم أنه تعالى لما قرر دلائل التوحيد والنبوة وذكر شبهات المنكرين وأجاب عنها ، ذكر بعد ذلك طريقة المحقين والمحققين فقال (إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا) وقد ذكرنا تفسير هذه الكلمة فى سورة السجدة والفرق بين الموضعين أن فى سورة السجدة ذكر أن الملائكة ينزلون ويقولون (أن لا تخافوا ولا تحزنوا) وههنا رفع الواسطة من البين وذكر أنه (لا خوف عليهم ولاهم يحزبون) فإذا جمعنا بين الآيتين حصل من مجموعهما أن الملائكة يبلغون إليهم هذه البشارة ، وأن الحق سبحانه يسمعهم هذه البشارة أيضاً من غير واسطة .

واعلم أن هذه الآيات دالة على أن من (آمن بالله وعمل صالحاً) فإنهم بعد الحشر لا ينالهم خوف ولا حزن ، ولهذا قال أهل التحقيق إنهم يوم القيامة آمنون من الأهوال ، وقال بعضهم خوف العقاب زائل عنهم ، أما خوف الجلال والهيبة فلا يزول البتة عن العبد ، ألا ترى أن الملائكة مع علو درجاتهم وكمال عصمتهم لا يزول الخوف عنهم فقال تعالى (يخافون ربهم من فوقهم) وهذه المسألة سبقت بالاستقصاء فى آيات كثيرة منها قوله تعالى (لا يحزنهم الفزع الأكبر) .

ثم قال تعالى (أولئك أصحاب الجنة خالدين فيها جزاء بما كانوا يعملون) قالت المعتزلة : هذه الآية تدل على مسائل (أولها) قوله تعالى (أولئك أصحاب الجنة) وهذا يفيد الحصر ، وهذا يدل على أن أصحاب الجنة ليسوا إلا الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا ، وهذا يدل على أن صاحب الكبيرة قبل التوبة لا يدخل الجنة (وثانيها) قوله تعالى (جزاء بما كانوا يعملون) وهذا يدل على فساد قول من يقول : الثواب فضل لا جزاء (وثالثها) أن قوله تعالى (بما كانوا يعملون) يدل على إثبات العمل للعبد (ورابعها) أن هذا يدل على أنه يجوز أن يحصل الأثر فى حال المؤثر ، أو أى أثر كان موجوداً قبل ذلك بدليل أن العمل المتقدم أوجب الثواب المتأخر (وخامسها) كون العبد

مستحقاً على الله تعالى ، وأعظم أنواع هذا النوع الإحسان إلى الوالدين ، لاجرم أردفه بهذا المعنى ، فقال تعالى ﴿ ووصينا الإنسان بوالديه حسناً ﴾ وقد تقدم الكلام فى نظير هذه الآية فى سورة العنكبوت ، وفى سورة لقمان ، وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قرأ عاصم وحمزة والكسائى (بوالديه إحساناً) والباقون (حسناً) .

واعلم أن الإحسان خلاف الاساءة والحسن خلاف القبيح ، فمن قرأ (إحساناً) فحجته قوله تعالى فى سورة بنى إسرائيل (وبالوالدين إحساناً) والمعنى أمرناه بأن يوصل إليهما إحساناً ، وحجة القراءة الثانية قوله تعالى فى العنكبوت (ووصينا الإنسان بوالديه حسناً) ولم يختلفوا فيه ، والمراد أيضاً أنا أمرناه بأن يوصل إليهما فعلا حسناً ، إلا أنه سمى ذلك الفعل الحسن بالحسن على سبيل المبالغة ،كما يقال : هذا الرجل علم وكرم ، وانتصب حسناً على المصدر ، لأن معنى (ووصينا الإنسان بوالديه) أمرناه أن يحسن إليهما (إحساناً) .

ثم قال تعالى (حملته أمه كرهاً ووضعته كرهاً) وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قرأ ابن عامر وعاصم وحمزة والكسائى (كرهاً) بضم الكاف ، والباقون بفتحها ، قيل هما لغتان : مثل الضعف والضعف ، والفقر والفقر ، ومن غير المصادر : الدف والدف ، والشهد والشهد ، قال الواحدى : الكره مصدر من كرهت الشىء أكرهه ، والكره الاسم كأنه الشىء المكروه قال تعالى (كتب عليكم القتال وهو كره لكم) فهذا بالضم ، وقال (أن ترثوا النساء كرهاً) فهذا فى موضع الحال ، ولم يقرأ الثانية بغير الفتح ، فما كان مصدراً أو فى موضع الحال فالفتح فيه أحسن ، وما كان اسماً نحو ذهبت به على كره كان الضم فيه أحسن .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال المفسرون . حملته أمه على مشقة ووضعته فى مشقة ، وليس يريد ابتداء الحمل ، فإن ذلك لايكون مشقة ، وقد قال تعالى (فلما تغشاها حملت حملا خفيفاً) يريد ابتداء الحمل ، فإن ذلك لايكون مشقة ، فالحمل نطفة وعلقة ومضغة ، فإذا أثقلت فحينئذ (حملته كرهاً ووضعته كرهاً) يريد شدة الطلق .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ دلت الاية على أن حق الأم أعظم ، لانه تعالى قال أولا (ووصينا الإنسان بوالديه حسناً) فذكرهما معاً ، ثم خص الأم بالذكر ، فقال (حملته أمه كرهاً ووضعته كرهاً) وذلك يدل على أن حقها أعظم ، وأن وصول المشاق إليها بسبب الولد أكثر ، والأخبار مذكورة فى هذا الباب .

ثم قال تعالى (وحمله وفصاله ثلاثون شهراً) وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ هذا من باب حذف المضاف ، والتقدير (ومدة حمله وفصاله ثلاثون شهراً) والفصال الفطام وهو فصله عن اللبن ، فإن قيل المراد بيان مدة الرضاعة لاالفطام ، فكيف عبر عنه بالفصال ؟ قلنا : لما كان الرضاع يليه الفصال ويلائمه ، لانه ينتهى ويتم به ، سمى فصالا .

﴿ المسألة الثانية ﴾ دلت الآية على أن أقل مدة الحمل ستة أشهر ، لأنه لما كان مجموع مدة الحمل والرضاع ثلاثون شهراً ، قال (والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين) فإذا أسقطت الحولين الكاملين وهى أربعة وعشرون شهراً من الثلاثين ، بق أقل مدة الحمل ستة أشهر . روى عن عمر أن امرأة رفعت إليه ، وكانت قد ولدت لستةأشهر ، فأمر برجمها ، فقال على : لارجم عليها ، وذكر الطريق الذى ذكرناه ، وعن عثمان أنه هم بذلك ، فقرأ ابن عباس عليه ذلك .

واعلم أن العقل والتجربة يدلان أيضاً على أن الأمر كذلك ، قال أصحاب التجارب : إن لتكوين الجنين زماناً مقدراً ، فإذا تضاعف ذلك الزمان تحرك الجنين ، فإذا انضاف إلى ذلك المجموع مثلاه انفصل الجنين عن الأم ، فلنفرض أنه يتم خلقه فى ثلاثين يوماً ، فإذا تضاعف ذلك الزمان حتى صار ستين تحرك الجنين ، فإذا تضاعف إلى هذا المجموع مثلاه وهو مائة وعشرون حتى صار المجموع مائة وثمانين وهو ستة أشهر ، فحينئذ ينفصل الجنين ، فلنفرض أنه يتم خلقه فى خمسة وثلاثين يوماً ، فيتحرك فى سبعين يوماً ، فإذا انضاف إليه مثلاه وهو مائة وأربعون يوماً صار المجموع مائة وثمانين وعشرة أيام ، وهو سبعة أشهر انفصل الولد ، ولنفرض أنه يتم خلقه فى أربعين يوماً ، فيتحرك فى ثمانين يوماً ، فينفصل عند مائتين وأربعين يوماً ، وهو ثمانية أشهر ، ولنفرض أنه تمت الخلقة فى خمسة وأربعين يوماً ، فيتحرك فى تسعين يوماً ، فينفصل عند مائتين وسبعين يوماً ، وهو تسعة أشهر ، فهذا هو الضبط الذى ذكره أصحاب التجارب . قال جالينوس : إنى كنت شديد التفحص عن مقادير أزمنة الحمل ، فرأيت امرأة ولدت فى المائة والأربع والثمانين ليلة ، وزعم أبو على بن سينا أنه شاهد ذلك ، فقد صار أقل مدة الحمل بحسب نص القرآن ، وبحسب التجارب الطبية شيئاً واحداً ، وهو ستة أشهر ، وأما أكثر مدة الحمل ، فليس فى القرآن مايدل عليه ، قال أبو على بن سينا : فى الفصل السادس من المقالة التاسعة من عنوان الشفاء ، بلغنى من حيث وثقت بهكل الثقة ، أن امرأة وضعت بعد الرابع من سنى الحمل ولداً قد نبتت أسنانه وعاش . وحكى عن ارسطاطاليس أنه قال : أزمنة الولادة ، وحبل الحيوان مضبوطةسوى الإنسان ، فربما وضعت الحبلى لسبعة أشهر ، وربما وضعت فى الثامن ، وقلما يعيش المولود فى الثامن إلا فى بلاد معينة مثل مصر ، والغالب هو الولادة بعد التاسع . قال أهل التجارب : والذى قلناه من أنه إذا تضاعف زمان التكوين تحرك الجنين ، وإذا انضم إلى المجموع مثلاه انفصل الجنين ، إنما قلناه بحسب التقريب لابحسب التحديد ، فإنه ربما زاد أو نقص بحسب الأيام ، لأنه لم يقم على هذا الضبط برهان ، إنما هو تقريب ذكروه بحسب التجربه ، والله أعلم .

ثم قال المدة التى فيها تتم خلقة الجنين تنقسم إلى أقسام (فأولها) أن الرحم إذا اشتملت على المنى ولم تقذفه إلى الخارج استدار المنى على نفسه منحصراً إلى ذاته وصار كالكرة ، ولما كان من شأن المنى أن يفسده الحركات ، لاجرم يثخن فى هذا الوقت وبالحرى أن خلق المنى من مادة تجف

بالحر إذا كان الغرض منه تكون الحيوان واستحصاف أجزائه ويصير المنى زبداً فى اليوم السادس (وثانيها) ظهور النقط الثلاثة الدموية فيه (إحداها) فى الوسط وهو الموضع الذى إذا تمت خلقته كان قلباً (والثانى) فوق وهو الدماغ (والثالث) على اليمين وهو الكبد ، ثم إن تلك النقط تتباعد ويظهر فيما بينها خيوط حمر ، وذلك يحصل بعد ثلاثة أيام أخرى فيكون المجموع تسعة أيام (وثالثها) أن تنفذ الدموية فى الجميع فيصير علقة وذلك بعد ستة أيام أخرى حتى يصير المجموع خمسة عشر يوماً (ورابعها) أن يصير لحماً وقد تميزت الأعضاء الثلاثة ، وامتدت رطوبة النخاع ، وذلك إنما يتم باثنى عشر يوماً فيكون المجموع سبعة وعشرين يوماً (وخامسها) أن ينفصل الرأس عن المنكبين والأطراف عن الضلوع والبطن يميز الحس فى بعض ويخفى فى بعض وذلك يتم فى تسعة أيام أخرى فيكون المجموع ستة وثلاثين يوماً (وسادسها) أن يتم انفصال هذه الأعضاء بعضها عن بعض ويصير بحيث يظهر ذلك الحس ظهوراً بيناً ، وذلك يتم فى أربعة أيام أخرى فيكون المجموع أربعين يوماً وقد يتأخر إلى خمسة وأربعين يوماً قال والأقل هو الثلاثون ، فصارت هذه التجارب الطبية مطابقة لما أخبر عنه الصادق المصدوق فى قوله ﷺ « يجمع خلق أحدكم فى بطن أمه أربعين يوماً » قال أصحاب التجارب إن السقط بعد الأربعين إذا شق عنه السلالة ووضع فى الماء البارد ظهر شيء صغير متميز الأطراف .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ هذه الآية دلت على أقل الحمل وعلى أكثر مدة الرضاع ، أما إنها تدل على أقل مدة الحمل فقد بيناه ، وأما إنها تدل على أكثر مدة الرضاع فلقوله تعالى (والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة) والفقهاء ربطوا بهذين الضابطين أحكاماً كثيرة فى الفقه ، وأيضاً فإذا ثبت أن أقل مدة الحمل هو الأشهر الستة ، فبتقدير أن تأتى المرأة بالولد فى هذه الأشهر يبقى جانبها مصوناً عن تهمة الزنا والفاحشة وبتقدير أن يكون أكثر مدة الرضاع ماذكرناه ، فإذا حصل الرضاع بعد هذه المدة لا يترتيب عليها أحكام الرضاع فتبقى المرأة مستورة عن الأجانب ، وعند هذا يظهر أن المقصود من تقدير أقل الحمل ستة أشهر وتقدير أكثر الرضاع حولين كاملين السعى فى دفع المضار والفواحش وأنواع التهمة عن المرأة ، فسبحان من له تحت كل كلمة من هذا الكتاب الكريم أسرار عجيبة ونفائس لطيفة ، تعجز العقول عن الإحاطة بكمالها .

وروى الواحدى فى البسيط عن عكرمة أنه قال إذا حملت تسعة أشهر أرضعته أحداً وعشرين شهراً ، وإذا حملت ستة أشهر أرضعته أربعة وعشرين شهراً ، والصحيح ما قدمناه .

ثم قال تعالى (حتى إذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة قال رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت على وعلى ولدى) وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ اختلف المفسرون فى تفسير الأشد ، قال ابن عباس فى رواية عطاء يريد ثمانى عشرة سنة والأكثرون من المفسرين على أنه ثلاثة وثلاثون سنة ، واحتج الفراء عليه

بأن قال أن الأربعين أقرب فى النسق إلى ثلاث وثلاثين منها إلى ثمانية عشر ، ألا ترى أنك تقول أخذت عامة المال أوكله ، فيكون أحسن من قولك أخذت أقل المال أوكله ، ومثله قوله تعالى (إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثى الليل ونصفه وثلثه) فبعض هذه الأقسام قريب من بعض فكذا ههنا ، وقال الزجاج الأولى حمله على ثلاث وثلاثين سنة لأن هذا الوقت الذى يكمل فيه بدن الإنسان ، وأقول تحقيق الكلام فى هذا الباب أن يقال إن مراتب سن الحيوان ثلاثة ، وذلك لأن بدن الحيوان لا يتكون إلا برطوبة غريزية وحرارة غريزية ، ولا شك أن الرطوبة الغريزية غالبة فى أول العمر وناقصة فى آخر العمر ، والانتقال من الزيادة إلى النقصان لا يعقل حصوله إلا إذا حصل الاستواء فى وسط هاتين المدتين ، فثبت أن مدة العمر منقسمة إلى ثلاثة أقسام (أولها) أن تكون الرطوبة الغريزية زائدة على الحرارة الغريزية وحينئذ تكون الأعضاء قابلة للتمدد فى ذواتها وللزيادة بحسب الطول والعرض والعمق وهذا هو سن النشو والنماء .

﴿ والمرتبة الثانية ﴾ وهى المرتبة المتوسطة أن تكون الرطوبة الغريزية وافية بحفظ الحرارة الغريزية من غير زيادة ولا نقصان وهذا هو سن الوقوف وهو سن الشباب .

﴿ والمرتبة الثالثة ﴾ وهى المرتبة الأخيرة أن تكون الرطوبة الغريزية ناقصة عن الوفاء بحفظ الحرارة الغريزية ثم هذا النقصان على قسمين (فالأول) هو النقصان الخفى وهو سن الكهولة (والثانى) هو النقصان الظاهر وهو سن الشيخوخة ، فهذا ضبط معلوم . ثم ههنا مقدمة أخرى وهى أن دور القمر إنما يكمل فى مدة ثمانية وعشرين يوماً وشىء ، فإذا قسمنا هذه المدة بأربعة أقسام كان كل قسم منها سبعة فلهذا السبب قدروا الشهر بالأسابيع الأربعة ، ولهذه الأسابيع تأثيرات عظيمة فى اختلاف أحوال هذا العالم ، إذا عرفت هذا فنقول إن المحققين من أصحاب التجارب قسموا مدة سن النماء والنشوء إلى أربعة أسابيع ويحصل الآدمى بحسب انتهاء كل سابوع من هذه السوابيع الأربعة نوع من التغير يؤدى إلى كماله ، أما عند تمام السابوع الأول من العمر فتصلب أعضاؤه بعض الصلابة ، وتقوى أفعاله أيضاً بعض القوة ، وتتبدل أسنانه الضعيفة الواهية بأسنان قوية وتكون قوة الشهوة فى هذا السابوع أقوى فى الهضم مما كان قبل ذلك ، وأما فى نهاية السابوع الثانى فتقوى الحرارة وتقل الرطوبات وتتسع المجارى وتقوى قوة الهضم وتقوى الأعضاء وتصلب قوة وصلابة كافية ويتولد فيه مادة الزرع ، وعند هذا يحكم الشرع عليه بالبلوغ على قول الشافعى رضى الله عنه ، وهذا هو الحق الذى لا محيد عنه ، لأن هذا الوقت لما قويت الحرارة الغريزية قلت الرطوبات واعتدل الدماغ فتكمل القوى النفسانية التى هى الفكر والذكر ، فلا جرم يحكم عليه بكمال العقل ، فلا جرم حكمت الشريعة بالبلوغ وتوجه التكاليف الشرعية فما أحسن قول من ضبط البلوغ الشرعى بخمس عشرة سنة .

واعلم أنه يتفرع على حصول هذه الحالة أحوال فى ظاهر البدن (أحدها) انفراق طرف الأرنبة لأن الرطوبة الغريزية التى هناك تنتقص فيظهر الانفراق (وثانيها) نتوء الحنجرة وغلظ الصوت لأن الحرارة التى تنهض فى ذلك الوقت توسع الحنجرة فتنتو ويغلظ الصوت (وثالثها) تغير ريح الإبط وهى الفضلة العفنية التى يدفعها القلب إلى ذلك الموضع وذلك لأن القلب لما قويت حرارته ، لاجرم قويت على إنضاج المادة ، ودفعها إلى اللحم الغددى الرخو الذى فى الإبط (ورابعها) نبات الشعر وحصول الاحتلام ، وكل ذلك لأن الحرارة قويت فقدرت على توليد الأبخرة المولدة للشعر وعلى توليد مادة الزرع ، وفى هذا الوقت تتحرك الشهوة فى الصبايا وينهد ثديهن وينزل حيضهن وكل ذلك بسبب أن الحرارة الغريزية التى فيهن قويت فى آخر هذا السابوع ، وأما فى السابوع الثالث فيدخل فى حد الكمال وينبت للذكر اللحية ويزداد حسنه وكماله ، وأما فى السابوع الرابع فلا تزال هذه الأحوال فيه متكاملة متزايدة ، وعند انتهاء السابوع الرابع نهاية أن لايظهر الازدياد ، أمامدة سن الشباب وهى مدة الوقوف فسابوع واحد فيكون المجموع خمسة وثلاثين سنة . ولما كانت هذه المدة إما قد تزداد ، وإما قد تنتقص بحسب الأمزجة جعل الغاية فيه مدة أربعين سنة . وهذا هو السن الذى يحصل فيه الكمال اللائق بالإنسان شرعا وطبا ، فإن فى هذا الوقت تسكن أفعال القوى الطبيعة بعض السكون وتنتهى له أفعال القوى الحيوانية غايتها ، وتبتدىء أفعال القوة النفسانية بالقوة والكمال ، وإذا عرفت هذه المقدمة ظهر لك أن بلوغ الإنسان وقت الأشد شىء وبلوغه إلى الأربعين شىء آخر ، فإن بلوغه إلى وقت الأشد عبارة عن الوصول إلى آخر سن النشوء والنماء ، وأن بلوغه إلى الأربعين عبارة عن الوصول إلى آخر مدة الشباب ، ومن ذلك الوقت تأخذ القوى الطبيعية والحيوانية فى الانتقاص ، وتأخذ القوة العقلية والنطقية فى الاستكمال وهذا أحد مايدل على أن النفس غير البدن ، فإن البدن عند الأربعين يأخذ فى الانتقاص ، والنفس من وقت الأربعين تأخذ فى الاستكمال ، ولو كانت النفس عين البدن لحصل للشىء الواحد فى الوقت الواحد الكمال والنقصان وذلك محال ، وهذا الكلام الذى ذكرناه ولخصناه مذكور فى صريح لفظ القرآن ، لأنا بينا أن عند الأربعين تنتهى الكمالات الحاصلة بسبب القوى الطبيعية والحيوانية ، وأما الكمالات الحاصلة بحسب القوى النطقية والعقلية فانها تبتدىء بالاستكمال ، والدليل عليه قوله تعالى (حتى إذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة قال رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت على وعلى والدى) فهذا يدل على أن توجه الإنسان إلى عالم العبودية والاشتغال بطاعة الله إنما يحصل من هذا الوقت ، وهذا تصريح بأن القوة النفسانية العقلية النطقية إنما تبتدىء بالاستكمال من هذا الوقت فسبحان من اودع فى هذا الكتاب الكريم هذه الأسرار الشريفة المقدسة ، قال المفسرون لم يبعث نبى قط إلا بعد أربعين سنة ، وأقول هذا مشكل بعيسى عليه السلام فإن الله جعله نبياً من اول عمره إلا أنه يجب أن يقال

الأغلب أنه ما جاءه الوحى إلا بعد الأربعين ، وهكذا كان الأمر فى حق رسولنا صلى الله عليه وسلم ويروى أن عمر بن عبد العزيز لما بلغ أربعين سنة كان يقول : اللهم أوزعنى أن أشكر نعمتك إلى تمام الدعاء ، وروى أنه جاء جبريل إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال « يؤمر الحافظان أن ارفقا بعبدى من حداثة سنه ، حتى إذا بلغ الأربعين قيل احفظا وحققا » فكان راوى هذا الحديث إذا ذكر هذا الحديث بكى حتى تبتل لحيته رواه القاضى فى التفسير .

﴿ المسألة الثانية ﴾ اعلم أن قوله (حتى إذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة) يدل على أن الإنسان كالمحتاج إلى مراعاة الوالدين له إلى قريب من هذه المدة ، ذلك لأن العقل كالناقص ، فلا بد له من رعاية الأبوين على رعاية المصالح ودفع الآفات ، وفيه تنبيه على أن نعم الوالدين على الولد بعد دخوله فى الوجود تمتد إلى هذه المدة الطويلة ، وذلك يدل على أن نعم الوالدين كأنه يخرج عن وسع الإنسان مكافأتهما إلا بالدعاء والذكر الجميل .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ حكى الواحدى عن ابن عباس وقوم كثير من متأخرى المفسرين ومتقدميهم أن هذه الآية نزلت فى أبى بكر الصديق رضى الله عنه ، قالوا والدليل عليه أن الله تعالى قد وقت الحمل والفصال ههنا بمقدار يعلم أنه قد ينقص وقد يزيد عنه بسبب اختلاف الناس فى هذه الأحوال فوجب أن يكون المقصود منه شخصاً واحداً حتى يقال إن هذا التقدير إخبار عن حاله فيمكن أن يكون أبو بكر كان حمله وفصاله هذا القدر .

ثم قال تعالى فى صفة ذلك الإنسان (حتى إذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة قال رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت على وعلى والدى) ومعلوم أنه ليس كل إنسان يقول هذا القول ، فوجب أن يكون المراد من هذه الآية إنساناً معيناً قال هذا القول ، وأما أبو بكر فقد قال هذا القول فى قريب من هذا السن ، لأنه كان أقل سناً من النبى صلى الله عليه وسلم بسنتين وشىء ، والنبى ﷺ بعث عند الأربعين وكان أبو بكر قريباً من الأربعين وهو قد صدق النبى صلى الله عليه وسلم وآمن به ، فثبت بما ذكرناه أن هذه الآيات صالحة لأن يكون المراد منها أبو بكر ، وإذا ثبت القول بهذه الصلاحية . فنقول : ندعى أنه هو المراد من هذه الآية ، ويدل عليه أنه تعالى قال فى آخر هذه الآية (أولئك الذين نتقبل عنهم أحسن ما عملوا ونتجاوز عن سيئاتهم فى أصحاب الجنة) وهذا يدل على أن المراد من هذه الآية أفضل الخلق لأن الذى يتقبل الله عنه أحسن أعماله ويتجاوز عن كل سيئاته يجب أن يكون من أفاضل الخلق وأكابرهم ، وأجمعت الأمة على أن أفضل الخلق بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم إما أبو بكر وإما على ، ولا يجوز أن يكون المراد من هذه الآية على بن أبى طالب رضى الله عنه لأن هذه الآية إنما تليق بمن أتى بهذه الكلمة عند بلوغ الأشد وعند القرب من الأربعين ، وعلى بن أبى طالب ما كان كذلك لأنه إنما آمن فى زمان الصبا أو عند القرب من الصبا ، فثبت أن المراد من هذه الآية هو أبو بكر والله أعلم .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قوله تعالى (أوزعنى) قال ابن عباس معناه ألهمنى ، قال صاحب الصحاح أوزعته بالشيء أغريته به فأوزع به فهو موزع به أى مغرى به ، واستوزعت الله شكره ، فأوزعنى أى استلهمته فألهمنى .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ اعلم أنه تعالى حكى عن هذا الداعى أنه طلب من الله تعالى ثلاثة أشياء : (أحدها) أن يوفقه الله للشكر على نعمه (والثانى) أن يوفقه للاتيان بالطاعة المرضية عند الله (الثالث) أن يصلح له فى ذريته ، وفى ترتيب هذه الأشياء الثلاثة على الوجه المذكور وجهان : (الأول) أنا بينا أن مراتب السعادات ثلاثة أكملها النفسانية وأوسطها البدنية وأدونها الخارجية والسعادات النفسانية هى اشتغال القلب بشكر آلاء الله ونعمائه ، والسعادات البدنية هى اشتغال البدن بالطاعة والخدمة ، والسعادات الخارجية هى سعادة الأهل والولد ، فلما كانت المراتب محصورة فى هذه الثلاثة لا جرم رتبها الله تعالى على هذا الوجه ،

(والسبب الثانى) لرعاية هذا الترتيب أنه تعالى قدم الشكر على العمل ، لأن الشكر من أعمال القلوب ، والعمل من أعمال الجوارح ، وعمل القلب أشرف من عمل الجارحة ، وأيضاً المقصود من الأعمال الظاهرة أحوال القلب قال تعالى (وأقم الصلاة لذكرى) بين أن الصلاة مطلوبة لأجل أنها تفيد الذكر ، فثبت أن أعمال القلوب أشرف من أعمال الجوارح ، والأشرف يجب تقديمه فى الذكر ، وأيضاً الاشتغال بالشكر اشتغال بقضاء حقوق النعم الماضية ، والاشتغال بالطاعة الظاهرة اشتغال بطلب النعم المستقبلة ، وقضاء الحقوق الماضية يجرى مجرى قضاء الدين ، وطلب المنافع المستقبلة طلب للزوائد . ومعلوم أن قضاء الدين مقدم على سائر المهمات ، فلهذا السبب قدم الشكر على سائر الطاعات ، وأيضاً أنه قدم طلب التوفيق على الشكر ، وطلب التوفيق على الطاعة على طلب أن يصلح له ذريته ، وذلك لأن المطلوبين الأولين اشتغال بالتعظيم لأمر الله ، والمطلوب الثالث اشتغال بالشفقة على خلق الله ، ومعلوم أن التعظيم لأمر الله يجب تقديمه على الشفقة على خلق الله .

﴿ المسألة السادسة ﴾ قال أصحابنا إن العبد طلب من الله تعالى أن يلهمه الشكر على نعم الله ، وهذا يدل على أنه لا يتم شيء من الطاعات والأعمال إلا بإعانة الله تعالى ، ولو كان العبد مستقلا بأفعاله لكان هذا الطلب عبثاً ، وأيضاً المفسرون قالوا المراد من قوله (أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت على) هو الإيمان أو الإيمان يكون داخلا فيه ، والدليل عليه قوله تعالى (إهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم) والمراد صراط الذين أنعمت عليهم بنعمة الإيمان وإذا ثبت هذا فنقول العبد يشكر الله على نعمة الإيمان ، فلو كان الإيمان من العبد لا من الله لكان ذلك شكراً لله تعالى على فعله لا على فعل غيره ، وذلك قبيح لقوله تعالى (ويحبون ان يحمدوا بمالم يفعلوا) فإن قيل : فهب ان يشكر الله على ما انعم به عليه فكيف يشكره على النعم التى انعم

بها على والديه ؟ وإنما يجب على الرجل أن يشكر ربه على ما يصل إليه من النعم ، قلنا كل نعمة وصلت من الله تعالى إلى والديه ، فقد وصل منها أثر إليه فلذلك وصاه الله تعالى على أن يشكر ربه على الأمرين .

﴿ وأما المطلوب الثانى ﴾ من المطالب المذكورة فى هذا الدعاء ، فهو قوله (وأن أعمل صالحاً ترضاه) .

واعلم أن الشيء الذى يعتقد أن الإنسان فيه كونه صالحاً على قسمين : (أحدهما) الذى يكون صالحاً عنده ويكون صالحاً أيضاً عند الله تعالا (والثانى) الذى يظنه صالحاً ولكنه لا يكون صالحاً عند الله تعالى ، فلما قسم الصالح فى ظنه إلى هذين القسمين طلب من الله أن يوفقه لأن يأتى بعمل صالح يكون صالحاً عند الله ويكون مرضياً عند الله .

﴿ والمطلوب الثالث ﴾ من المطالب المذكورة فى هذه الآية قوله تعالى (وأصلح لى فى ذريتى) لأن ذلك من أجل نعم الله على الوالد ، كما قال إبراهيم عليه السلام (واجنبنى وبنى أن نعبد الأصنام) فإن قيل ما معنى (فى) فى قوله (وأصلح لى فى ذريتى) ؟ قلنا تقدير الكلام هب لى الصلاح فى ذريتى وأوقعه فيهم .

واعلم أنه تعالى لما حكى عن ذلك الداعى ، أنه طلب هذه الأشياء الثلاثة ، قال بعد ذلك (إنى تبت إليك وانى من المسلمين) والمراد أن الدعاء لا يصح إلا مع التوبة ، وإلا مع كونه من المسلمين فتبين إنى إنما أقدمت على هذا الدعاء بعد أن تبت إليك من الكفر ومن كل قبيح ، وبعد أن دخلت فى الإسلام والانقياد لأمر الله تعالى ولقضائه .

واعلم أن الذين قالوا إن هذه الآية نزلت فى أبى بكر ، قالوا إن أبا بكر أسلم والداه ولم يتفق لأحد من الصحابة والمهاجرين إسلام الأبوين إلا له ، فأبوه أبو قحافة عثمان بن عمرو وأمه أم الخير بنت صخر بن عمرو ، وقوله (وأن أعمل صالحاً ترضاه) قال ابن عباس فأجابه الله إليه فأعتق تسعة من المؤمنين يعذبون فى الله منهم بلال وعامر بن فهيرة ، ولم يترك شيئاً من الخير إلا أعانه الله عليه ، وقوله تعالى (وأصلح لى فى ذريتى) قال ابن عباس لم يبق لأبى بكر ولد من الذكور والإناث إلا وقد آمنوا ، ولم يتفق لأحد من الصحابة أن أسلم أبواه وجميع أولاده الذكور والإناث إلا لأبى بكر .

ثم قال تعالى (أولئك) اى اهل هذا القول (الذين نتقبل عنهم) قرى بضم الياء على بناء الفعل للمفعول وقرىء بالنون المفتوحة ، وكذلك نتجاوز وكلاهما فى المعنى واحد ، لأن الفعل وإن كان مبنياً للمفعول فمعلوم انه لله سبحانه وتعالى ، فهو كقوله (يغفر لهم ما قد سلف) فبين تعالى بقوله (أولئك الذين نتقبل عنهم أحسن ما عملوا) أن من تقدم ذكره ممن يدعوا بهذا الدعاء ، ويسلك هذه الطريقة التى تقدم ذكرها (نتقبل عنهم) والتقبل من الله هو إيجاب الثواب له على عمله ،

وَالَّذِى قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِى وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيْلَكَ ءَامِنْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿١٨﴾ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا

فإن قيل ولم قال تعالى (أحسن ما عملوا) والله يتقبل الأحسن وما دونه ؟ قلنا الجواب من وجوه (الأول) المراد بالأحسن الحسن كقوله تعالى (واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم) كقولهم : الناقص والأشج اعدلا بنى مروان ، أى عادلا بنى مروان (الثانى) ان الحسن من الأعمال هو المباح الذى لا يتعلق به ثواب ولا عقاب والأحسن ما يغاير ذلك ، وهو وكل ما كان مندوباً او واجباً .

ثم قال تعالى (ونتجاوز عن سيئاتهم) والمعنى انه تعالى يتقبل طاعاتهم ويتجاوز عن سيئاتهم . ثم قال (فى اصحاب الجنة) قال صاحب الكشاف ومعنى هذا الكلام مثل قولك : أكرمنى الأمير فى مائتين من أصحابه ، يريد أكرمنى فى جملة من أكرم منهم وضمى فى عدادهم ، ومحله النصب على الحال على معنى كائنين (فى أصحاب الجنة)ومعدودين منهم ، وقوله (وعد الصدق) مصدر مؤكد ، لأن قوله (نتقبل ، نتجاوز) وعد من الله لهم بالتقبل والتجاوز ، والمقصود بيان أنه تعالى يعامل من صفته ما قدمناه بهذا الجزاء ، وذلك وعد من الله تعالى فبين أنه صدق ولا شك فيه .

قوله تعالى : ﴿ والذى قال لوالديه أف لكما أتعداننى أن أخرج وقد خلت القرون من قبلى وهما يستغيثان الله ويلك آمن إن وعد الله حق فيقول ما هذا إلا أساطير الأولين ، أولئك الذين حق عليهم القول فى أمم قد خلت من قبلهم من الجن والإنس إنهم كانوا خاسرين ، ولكل درجات مما عملوا وليوفيهم أعمالهم وهم لا يظلمون ، ويوم يعرض الذين كفروا على النار أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا واستمتعتم بها فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون فى

كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿٢٠﴾

الأرض بغير الحق وبما كنتم تفسقون ﴾ .

اعلم أنه تعالى لما وصف الولد البار بوالديه فى الآية المتقدمة ، وصف الولد العاق لوالديه فى هذه الآية ، فقال (والذى قال لوالديه أف لكما) وفى هذه الآية قولان (الأول) أنها نزلت فى عبد الرحمن بن أبى بكر ، قالوا كان أبواه يدعوانه إلى الإسلام فيأبى ، وهو (أف لكما) واحتج القائلون بهذا القول على صحته ، بأنه لما كتب معاوية إلى مروان يبايع الناس ليزيد ، قال عبد الرحمن بن أبى بكر : لقد جئتم بها هرقلية ، أتبايعون لأبنائكم ؟ فقال مروان : ياأيها الناس هو الذى قال الله فيه (والذى قال لوالديه أف لكما) . (والقول الثانى) أنه ليس المراد منه شخص معين ، بل المراد منه كل من كان موصوفاً بهذه الصفة ، وهو كل من دعاه أبواه إلى الدين الحق فأباه وأنكره ، وهذا القول هو الصحيح عندنا ، ويدل عليه وجوه (الأول) أنه تعالى وصف هذا الذى قال لوالديه أف لكما أتعداننى بقوله (أولئك الذين حق عليهم القول فى أمم قد خلت من قبلهم من الجن والإنس إنهم كانوا خاسرين) ولا شك أن عبد الرحمن آمن وحسن إسلامه ، وكان من سادات المسلمين ، فبطل حمل الآية عليه . فإن قالوا : روى أنه لما دعاه أبواه إلى الإسلام وأخبراه بالبعث بعد الموت ، قال (أتعداننى أن أخرج) من القبر ، يعنى أبعث بعد الموت (وقد خلت القرون من قبلى) يعنى الأمم الخالية ، فلم أر أحداً منهم بعث . فأين عبد الله بن جدعان ، وأين فلان وفلان ؟ إذا عرفت هذا فنقول قوله (أولئك الذين حق عليهم القول) المراد هؤلاء الذين ذكرهم عبد الرحمن من المشركين الذين ماتوا قبله ، وهم الذين حق عليهم القول ، وبالجملة فهو عائد إلى المشار إليهم بقوله (وقد خلت القرون من قبلى) لا إلى المشار إليه بقوله (والذى قال لوالديه أف لكما) هذا ماذكره الكلبى فى دفع ذلك الدليل ، وهو حسن (والوجه الثانى) فى إبطال ذلك القول ، ماروى أن مروان لما خاطب عبد الرحمن بن أبى بكر بذلك الكلام سمعت عائشة ذلك فغضبت وقالت : والله ماهو به ، ولكن الله لعن أباك وأنت فى صلبه (الوجه الثالث) وهو الأقوى ، أن يقال إنه تعالى وصف الولد البار بأبويه فى الآية المتقدمة ، ووصف الولد العاق لأبويه فى هذه الآية ، وذكر من صفات ذلك الولد أنه بلغ فى العقوق إلى حيث لما دعاه أبواه إلى الدين الحق ، وهو الإقرار بالبعث والقيامة أصر على الإنكار وأبى واستكبر ، وعول فى ذلك الإنكار على شبهات خسيسة وكلمات واهية ، وإذا كان كذلك كان المراد كل ولد اتصف بالصفات المذكورة ولا حاجة البتة إلى تخصيص اللفظ المطلق بشخص معين . قال صاحب الكشاف : قرىء (أف) بالفتح والكسر بغير تنوين ، وبالحركات الثلاث مع التنوين ، وهو صوت إذا صوت به الإنسان علم انه متضجر ، كما إذا قال حس ، علم انه متوجع ، واللام للبيان معناه هذا

التأفيف لكما خاصة ، ولأجلكما دون غيركما ، وقرىء (أتعداننى) بنونين ، وأتعدانى بأحدهما وأتعدانى بالإدغام ، وقرأ بعضهم : أتعدانى بفتح النون كأنه استثقل اجتماع النونين والكسرين والياء ، ففتح الأولى تحرياً للتخفيف كما تحراه من أدغم ومن طرح أحدهما .

ثم قال (أن أخرج) أى أن أبعث وأخرج من الأرض ، وقرىء (أخرج وقد خلت القرون من قبلى) يعنى ولم يبعث منهم أحد .

ثم قال (وهما يستغيثان الله) أى الوالدان يستغيثان الله ، فإن قالوا : كان الواجب أن يقال يستغيثان بالله ؟ قلنا (الجواب) من وجهين (الأول) أن المعنى أنهما يستغيثان الله من كفره وإنكاره ، فلما حذف الجار وصل الفعل (الثانى) يجوز أن يقال الباء حذف ، لأنه اريد بالاستغاثة ههنا الدعاء على ما قاله المفسرون (يدعوان الله) فلما أريد بالاستغاثة الدعاء حذف الجار ، لأن الدعاء لايقتضيه ، وقوله (ويلك) أى يقولان له ويلك (آمن) وصدق بالبعث وهو دعاء عليه بالثبور ، والمراد به الحث ، والتحريض على الإيمان لاحقيقة الهلاك .

ثم قال (إن وعد الله) بالبعث حق ، فيقول لهما ما هذا الذى تقولان من أمر البعث وتدعواننى إليه (إلا أساطير الأولين) .

ثم قال تعالى (أولئك الذين حق عليهم القول) اى حقت عليهم كلمه العذاب ، ثم ههنا قولان : فالذين يقولون المراد بنزول الآية عبد الرحمن بن أبى بكر ، قالوا المراد بهؤلاء الذين حقت عليهم كلمة العذاب هم القرون الذين خلوا من قبله ، والذين قالوا المراد به ليس عبد الرحمن ، بل كل ولد كان موصوفاً بالصفة المذكورة ؛ قالوا هذا الوعيد مختص بهم ، وقوله (فى أمم) نظير لقوله (فى أصحاب الجنة) وقد ذكرنا انه نظير لقوله : أكرمنى الأمير فى أناس من أصحابه ، يريد أكرمنى فى جملة من أكرم منهم .

ثم قال (إنهم كانوا خاسرين) وقرىء أن بالفتح على معنى آمن بأن وعد الله حق .

ثم قال (ولكل درجات مما عملوا) وفيه قولان (الأول) أن الله تعالى ذكر الولد البار ، ثم أردفه بذكر الولد العاق ، فقوله (ولكل درجات مما عملوا) خاص بالمؤمنين ، وذلك لأن المؤمن البار بوالديه له درجات متفاوتة ، ومراتب مختلفة فى هذا الباب (والقول الثانى) أن قوله (لكل درجات مما عملوا) عائد إلى الفريقين ، والمعنى ولكل واحد من الفريقين درجات فى الإيمان والكفر والطاعة والمعصية ، فإن قالوا كيف يجوز ذكر لفظ الدرجات فى أهل النار ، وقد جاء فى الأثر الجنة الدرجات ، والنار دركات ؟ قلنا فيه وجوه (الأول) يجوز أن يقال ذلك على جهة التغليب (الثانى) قال ابن زيد : درج أهل الجنة يذهب علواً ، ودرج أهل النار ينزلوا هبوطاً . (الثالث) أن المراد بالدرجات المراتب المتزايدة ، إلا أن زيادات أهل الجنة فى الخيرات والطاعات ، وزيادات اهل النار فى المعاصى والسيئات .

ثم قال تعالى (وليوفيهم) وقرىء بالنون وهذا تعليل معلله محذوف لدلالة الكلام عليه كأنه وليوفيهم أعمالهم ولا يظلمهم حقوقهم ، قدر جزاءهم على مقادير أعمالهم فجعل الثواب درجات والعقاب دركات ، ولما بين الله تعالى أنه يوصل حق كل أحد إليه بين أحوال أهل العقاب أولا ، فقال (ويوم يعرض الذين كفروا على النار) قيل يدخلون النار ، وقيل تعرض عليهم النار ليروا أهوالها (أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا) قرأ ابن كثير (آذهبتم) استفهام بهمزة ومدة ، وابن عامر إستفهام بهمزتين بلامدة والباقون (أذهبتم) بلفظ الخبر والمعنى أن كل ماقدر لكم من الطيبات والراحات فقداستوفيتموه فى الدنيا وأخذتموه ، فلم يبق لكم بعد استيفاء حظكم شىء منها ، وعن عمر لو شئت لكنت أطيبكم طعاماً وأحسنكم لباساً ، ولكنى أستبقى طيباتى ، وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه دخل على أهل الصفة وهم يرقعون ثيابهم بالأدم مايجدون لها رقاعاً فقال « أنتم اليوم خير أم يوم يغدو أحدكم فى حلة ويروح فى أخرى ، ويغدى عليه بجفنة ويراح عليه بأخرى ويستر بيته كما تستر الكعبة ، قالوا نحن يومئذ خير قال بل أنتم اليوم خير ؟ » ، رواه صاحب الكشاف قال الواحدى : إن الصالحين يؤثرون التقشف والزهد فى الدنيا رجاء أن يكون ثوابهم فى الآخرة أكمل ، إلا أن هذه الآية لاتدل على المنع من التنعم ، لأن هذه الآية وردت فى حق الكافر ، وإنما وبخ الله الكافر لأنه يتمتع بالدنيا ولم يؤد شكر المنعم بطاعته والإيمان به ، وأما المؤمن فانه يؤدي بإيمانه شكر المنعم فلا يوبخ بتمتعه ، والدليل عليه قوله تعالى (قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق) نعم لا ينكر أن الاحتراز عن التنعم أولى ، لأن النفس إذا اعتادت التنعم صعب عليها الاحتراز والإنقباض ، وحينئذ فربما حمله الميل إلى تلك الطيبات على فعل مالا ينبغى ، وذلك مما يجر بعضه إلى بعض ويقع فى البعد عن الله تعالى بسببه .

ثم قال تعالى (فاليوم تجزون عذاب الهون) أى الهوان ، وقرىء عذاب الهوان (بما كنتم تستكبرون فى الأرض بغير الحق وبما كنتم تفسقون) فعلل تعالى ذلك العذاب بأمرين : (أولها) الاستكبار والترفع وهوذنب القلب (والثانى) الفسق وهو ذنب الجوارح ، وقدم الأول على الثانى لأن أحوال القلوب أعظم وقعا من أعمال الجوارح ، ويمكن أن يكون المراد من الاستكبار أنهم يتكبرون عن قبول الدين الحق ، ويستنكفون عن الأيمان بمحمد عليه الصلاة والسلام ، وأما الفسق فهو المعاصى واحتج اصحابنا بهذه الآية على ان الكفار مخاطبون بفروع الشرائع ، قالوا لأنه تعالى علل عذابهم بأمرين : (اولها) الكفر (وثانيهما) الفسق ، وهذا الفسق لابد وأن يكون مغايراً لذلك الكفر ، لأن العطف يوجب المغايرة ، فثبت أن فسق الكفار يوجب العقاب فى حقهم ، ولامعنى للفسق إلا ترك المأمورات وفعل المنهيات ، والله اعلم .

وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ
خَلْفِهِۦٓ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا اللَّهَ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾ قَالُوٓا۟
أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ الصَّٰدِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا
الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٣﴾ فَلَمَّا
رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ
رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا
مَسَٰكِنُهُمْ كَذَٰلِكَ نَجْزِى الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ
وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ
أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ
﴿٢٦﴾

قوله تعالى : ﴿ واذكر أخا عاد إذ أنذر قومه بالأحقاف وقد خلت النذر من بين يديه ومن خلفه أن لا تعبدوا إلا الله إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم ، قالوا أجئتنا لتأفكنا عن آلهتنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين ، قال إنما العلم عند الله وأبلغكم ما أرسلت به ولكنى أراكم قوماً تجهلون .

فلما رأوه عارضاً مستقبل أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب أليم ، تدمر كل شىء بأمر ربها فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم كذلك نجزى القوم المجرمين .

ولقد مكناهم فيما إن مكناكم فيه وجعلنا لهم سمعاً وأبصاراً وأفئدة فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شىء إذ كانوا يجحدون بآيات الله وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون ﴾ .

اعلم أنه تعالى لما أورد أنواع الدلائل فى إثبات التوحيد والنبوة ، وكان أهل مكة بسبب

استغراقهم فى لذات الدنيا واشتغالهم بطلبها أعرضوا عنها ، ولم يلتفتوا إليها ، ولهذا السبب قال تعالى فى حقهم (ويوم يعرض الذين كفروا على النار أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا) فلما كان الأمر كذلك بين أن قوم عاد كانوا أكثر أموالا وقوة وجاهاً منهم ، ثم إن الله تعالى سلط العذاب عليهم بسبب شؤم كفرهم فذكر هذه القصة ههنا ليعتبر بها أهل مكة ، فيتركوا الاغترار بما وجدوه من الدنيا ويقبلوا على طلب الدين ، فلهذا المعنى ذكر الله تعالى هذه القصة فى هذا الموضع ، وهو مناسب لما تقدم لأن من أراد تقبيح طريقة عند قوم كان الطريق فيه ضرب الأمثال ، وتقديره أن من واظب على تلك الطريقة نزل به من البلاء كذا وكذا ، وقوله تعالى (واذكر أخا عاد) أى واذكر يامحمد لقومك أهل مكة هوداً عليه السلام (إذ أنذر قومه) أى حذرهم عذاب الله إن لم يؤمنوا ، وقوله (بالأحقاف) قال أبو عبيدة الحقف الرمل المعوج ، ومنه قيل للمعوج محقوف وقال الفراء (الأحقاف) واحدها حقف وهو الكثيب المكسر غير العظيم وفيه اعوجاج ، قال ابن عباس (الأحقاف) واد بين عمان ومهرة (والنذر) جمع نذير بمعنى المنذر (من بين يديه) من قبله (ومن خلفه) من بعده والمعنى أن هوداً عليه السلام قد أنذرهم وقال لهم (أن لا تعبدوا إلا الله إنى أخاف عليكم العذاب) .

واعلم أن الرسل الذين بعثوا قبله والذين سيبعثون بعده كلهم منذرون نحو إنذاره .

ثم حكى تعالى عن الكفار أنهم (قالوا أجئتنا لتأفكنا) الإفك الصرف ، يقال أفكه عن رأيه أى صرفه ، وقيل بل المراد لتزيلنا بضرب من الكذب (عن آلهتنا) وعن عبادتها (فأتنا بما تعدنا) معاجلة العذاب على الشرك (إن كنت من الصادقين) فى وعدك ، فعند هذا قال هود (إنما العلم عند الله) وإنما صلح هذا الكلام جواباً لقولهم (فأتنا بما تعدنا) لأن قولهم (فأتنا بما تعدنا) استعجال منهم لذلك العذاب ، فقال لهم هود لاعلم عندى بالوقت الذى يحصل فيه ذلك العذاب ، إنما علم ذلك عند الله تعالى (وأبلغكم ماأرسلت به) وهو التحذير عن العذاب ، وأما العلم بوقته فما أوحاه الله إلى (ولكنى أراكم قوماً تجهلون) وهذا يحتمل وجوهاً (الأول) المراد أنكم لاتعلمون أن الرسل لم يبعثوا سائلين عن غير ما أذن لهم فيه وإنما بعثوا مبلغين (الثانى) أراكم قوماً تجهلون من حيث إنكم بقيتم مصرين على كفركم وجهلكم فيغلب على ظنى أنه قرب الوقت الذى ينزل عليكم العذاب بسبب هذا الجهل المفرط والوقاحة التامة (الثالث)(إنى اراكم قوماً تجهلون) حيث تصرون على طلب العذاب وهب أنه لم يظهر لكم كونى صادقاً ، ولكن لم يظهر ايضاً لكم كونى كاذباً فالإقدام على الطلب الشديد لهذا العذاب جهل عظيم .

ثم قال تعالى (فلما راوه) ذكر المبرد فى الضمير فى رأوه قولين (أحدهما) أنه عائد إلى غير مذكور وبينه قوله (عارضاً) كما قال (ماترك على ظهرها من دابة) ولم يذكر الأرض لكونها معلومة فكذا ههنا الضمير عائد إلى السحاب ، كأنه قيل : فلما رأوا السحاب عارضاً وهذا اختيار الزجاج

ويكون من باب الإضمار لا على شريطة التفسير (والقول الثانى) أن يكون الضمير عائداً إلى ما فى قوله (فائتنا بما تعدنا) أى فلما رأوا ما يوعدون به عارضاً ، قال أبو زيد العارض السحابة التى ترى فى ناحية السماء ثم تطبق ، وقوله (مستقبل أوديتهم) قال المفسرون كانت عاد قد حبس عنهم المطر أياماً فساق الله إليهم سحابة سوداء فخرجت عليهم من واد يقال له المغيث (فلما رأوه مستقبل أوديتهم) استبشروا و (قالوا هذا عارض ممطرنا) والمعنى ممطر إيانا ، قيل كان هود قاعداً فى قومه فجاء سحاب مكثر فقالوا (هذا عارض ممطرنا) فقال (بل هو ما استعجلتم به) من العذاب ثم بين ماهيته فقال (ريح فيها عذاب أليم) . ثم وصف تلك الريح فقال (تدمر كل شىء) أى تهلك كل شىء من الناس والحيوان والنبات (بأمر ربها) والمعنى أن هذا ليس من باب تأثيرات الكواكب والقرانات ، بل هو أمر حدث ابتداء بقدرة الله تعالى لأجل تعذيبكم (فأصبحوا) يعنى عاداً (لا يرى إلا مساكنهم) وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ روى أن الريح كانت تحمل الفسطاط فترفعها فى الجو حتى يرى كأنها جرادة ، وقيل أول من أبصر العذاب امرأة منهم قالت رأيت ريحاً فيها كشهب النار ، وروى أن أول ما عرفوا به أنه عذاب أليم ، أنهم رأوا ما كان فى الصحراء من رجالهم ومواشيهم يطير به الريح بين السماء والأرض فدخلوا بيوتهم وغلقوا أبوابهم فقلعت الريح الأبواب وصرعتهم ، وأحال الله عليهم الأحقاف ، فكانوا تحتها سبع ليال وثمانية أيام لهم أنين ، ثم كشفت الريح عنهم فاحتملتهم فطرحتهم فى البحر ، وروى أن هوداً لما أحس بالريح خط على نفسه وعلى المؤمنين خطاً إلى جنب عين تنبع فكانت الريح التى تصيبهم ريحاً لينة هادئة طيبة ، والريح التى تصيب قوم عاد ترفعهم من الأرض وتطيرهم إلى السماء وتضربهم على الأرض ، وأثر المعجزة إنما ظهر فى تلك الريح من هذا الوجه ، وعن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « ما أمر الله خازن الرياح أن يرسل على عاد إلا مثل مقدار الخاتم » ثم إن ذلك القدر أهلكهم بكليتهم ، والمقصود من هذا الكلام إظهار كمال قدرة الله تعالى ، وعن النبى صلى الله عليه وسلم أنه كان إذا رأى الريح فزع وقال « اللهم إنى أسألك خيرها وخير ما أرسلت به ، وأعوذ بك من شرها ومن شر ما أرسلت به » .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قرأ عاصم وحمزة لا يرى بالياء وضمها مساكنهم بضم النون ، قال الكسائى معناه لا يرى شىء إلا مساكنهم ، وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر والكسائى لا ترى على الخطاب أى لا ترى أنت أيها المخاطب ، وفى بعض الروايات عن عاصم لا ترى بالتاء مساكنهم بضم النون وهى قراءة الحسن والتأويل لا ترى من بقايا عاد أشياء إلا مساكنهم . وقال الجمهور هذه القراءة ليست بالقوية .

قوله تعالى : ﴿ كذلك نجزى القوم المجرمين ﴾ والمقصود منه تخويف كفار مكة ، فإن قيل

وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا ٱلْآيَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾ فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةًۢ ۖ بَلْ ضَلُّوا۟ عَنْهُمْ ۚ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٨﴾

لما قال الله تعالى (وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم) فكيف يبقى التخويف حاصلا ؟ قلنا : قوله (وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم) إنما أنزل فى آخر الأمر فكان التخويف حاصلا قبل نزوله .

ثم إنه تعالى خوف كفار مكة ، وذكر فضل عاد بالقوة والجسم عليهم فقال (ولقد مكناهم فيما إن مكنا كم فيه) قال المبرد ما فى قوله (فيما) بمنزلة الذى . و(إن) بمنزلة ما والتقدير : ولقد مكناهم فى الذى ما مكنا كم فيه ، والمعنى أنهم كانوا أشد منكم قوة وأكثر منكم أموالا ، وقال ابن قتيبة كلمة إن زائدة . والتقدير ولقد مكناهم فيما إن مكنا كم فيه ، وهذا غلط لوجوه (الأول) أن الحكم بأن حرفاً من كتاب الله عبث لا يقول به عاقل (والثانى) أن المقصود من هذا الكلام أنهم كانوا أقوى منكم قوة ، ثم إنهم مع زيادة القوة ما نجوا من عقاب الله فكيف يكون حالكم ، وهذا المقصود إنما يتم لو دلت الآية على أنهم كانوا أقوى قوة من قوم مكة (الثالث) أن سائر الآيات تفيد هذا المعنى ، قال تعالى (هم أحسن أثاثاً ورئيا) وقال (كانوا أكثر منهم وأشد قوة وآثاراً فى الارض) .

قوله تعالى : ﴿ وجعلنا لهم سمعاً وأبصاراً وأفئدة ﴾ والمعنى أنا فتحنا عليهم أبواب النعم وأعطيناهم سمعاً فما استعملوه فى سماع الدلائل ، وأعطيناهم أبصاراً فما استعملوها فى تأمل العبر ، وأعطيناهم أفئدة فما استعملوها فى طلب معرفة الله تعالى ، بل صرفوا كل هذه القوى إلى طلب الدنيا ولذاتها . فلا جرم ما أغنى سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من عذاب الله شيئاً .

ثم بين تعالى أنه إنما لم يغن عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم لأجل انهم كانوا يجحدون بآيات الله ، وقوله (إذ كانوا يجحدون) بمنزلة التعليل ، ولفظ إذ قد يذكر لإفادة التعليل تقول : ضربته إذ اساء ، والمعنى ضربته لأنه اساء ، وفى هذه الآية تخويف لأهل مكة فإن قوم عاد لما اغتروا بدنياهم وأعرضوا عن قبول الدليل والحجة نزل بهم عذاب الله ، ولم تغن عنهم قوتهم ولا كثرتهم ، فأهل مكة مع عجزهم وضعفهم أولى بأن يحذروا من عذاب الله تعالى ويخافوا .

قوله تعالى : ﴿ وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون ﴾ يعنى أنهم كانوا يطلبون نزول العذاب وإنما كانوا يطلبونه على سبيل الاستهزاء والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ ولقد أهلكنا ما حولكم من القرى وصرفنا الآيات لعلهم يرجعون ، فلولا نصرهم الذين اتخذوا من دون الله قرباناً آلهة بل ضلوا عنهم وذلك إفكهم وما كانوا يفترون ﴾ .

وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ يَـٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَـٰبًا

اعلم أن المراد ولقد أهلكنا ماحولكم يا كفار مكة من القرى ، وهى قرى عاد وثمود باليمن والشام (وصرفنا الآيات) بيناها لهم (لعلهم) أى لعل أهل القرى يرجعون ، فالمراد بالتصريف الأحوال الهائلة التى وجدت قبل الإهلاك . قال الجبائى : قوله (لعلهم يرجعون) معناه لكى يرجعوا عن كفرهم ، دل بذلك على أنه تعالى أراد رجوعهم ولم يرد إصرارهم (والجواب) أنه فعل ما لو فعله غيره لكان ذلك لأجل الإرادة المذكورة ، وإنما ذهبنا إلى هذا التأويل الدلائل الدالة على أنه سبحانه مريد لجميع الكائنات .

ثم قال تعالى (فلولا نصرهم الذين اتخذوا من دون الله قرباناً آلهة) القربان مايتقرب به إلى الله تعالى ، أى اتخذوهم شفعاء متقرباً بهم إلى الله حيث قالوا (هؤلاء شفعاؤنا عند الله) وقالوا (مانعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى) وفى إعراب الآية وجوه (الأول) قال صاحب الكشاف : أحد مفعولى اتخذ الراجع إلى الذين هو محذوف (والثانى) آلهة وقرباناً حال ، وقيل عليه إن الفعل المتعدى إلى مفعولين لا يتم إلا بذكرهما لفظاً ، والحال مشعر بتمام الكلام ، ولا شك أن إتيان الحال بين المفعولين على خلاف الأصل (الثانى) قال بعضهم (قرباناً) مفعول ثان قدم على المفعول الأول وهو آلهة ، فقيل عليه إنه يؤدى إلى خلو الكلام عن الراجع إلى الذين (والثالث) قال بعض المحققين : يضمر أحد مفعولى اتخذوا وهو الراجع إلى الذين ، ويجعل قرباناً مفعولا ثانياً ، وآلهة عطف بيان ، إذا عرفت الكلام فى الإعراب ، فنقول المقصود أن يقال إن أولئك الذين أهلكهم الله هلا نصرهم الذين عبدوهم ، وزعموا أنهم متقربون بعبادتهم إلى الله ليشفعوا لهم (بل ضلوا عنهم) أى غابوا عن نصرتهم ، وذلك إشارة إلى أن كون آلهتهم ناصرين لهم أمر ممتنع .

ثم قال تعالى (وذلك إفكهم) أى وذلك الامتناع أثر إفكهم الذى هو اتخاذهم إياها آلهة ، وثمرة شركهم وافترائهم على الله الكذب فى إثبات الشركاء له . قال صاحب الكشاف : وقرىء (إفكهم) والإفك والأفك كالحذر والحذر ، وقرىء (وذلك إفكهم) بفتح الفاء والكاف ، أى ذلك الاتخاذ الذى هذا أثره وثمرته صرفهم عن الحق ، وقرى (افكهم) على التشديد للمبالغة أفكهم جعلهم آفكين وآفكهم ، أى قولهم الإفك ، أى ذو الإفك كما تقول قول كاذب .

ثم قال (وما كانوا يفترون) والتقدير وذلك إفكهم وافتراؤهم فى إثبات الشركاء لله تعالى ، والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا انصتوا

أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾

فلما قضى ولوا إلى قومهم منذرين ، قالوا يا قومنا إنا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى مصدقاً لما بين يديه يهدى إلى الحق وإلى طريق مستقيم ، يا قومنا أجيبوا داعى الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب أليم ، ومن لا يجب داعى الله فليس بمعجز فى الأرض وليس له من دونه أولياء أولئك فى ضلال مبين ﴾ فى الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ اعلم أنه تعالى لما بين أن فى الإنس من آمن وفيهم من كفر ، بين أيضاً أن الجن فيهم من آمن وفيهم من كفر ، وأن مؤمنهم معرض للثواب ، وكافرهم معرض للعقاب ، وفى كيفية هذه الواقعة قولان (الأول) قال سعيد بن جبير : كانت الجن تستمع فلما رجموا قالوا : هذا الذى حدث فى السماء إنما حدث لشىء فى الأرض فذهبوا يطلبون السبب ، وكان قد اتفق أن النبى ﷺ لما أيس من أهل مكة أن يجيبوه خرج إلى الطائف ليدعوهم إلى الإسلام ، فلما انصرف إلى مكة ، وكان ببطن نخل قام يقرأ القرآن فى صلاة الفجر ، فمر به نفر من أشراف جن نصيبين ، لأن إبليس بعثهم ليعرفوا السبب الذى أوجب حراسة السماء بالرجم ، فسمعوا القرآن وعرفوا أن ذلك هو السبب (والقول الثانى) أن الله تعالى أمر رسوله أن ينذر الجن ويدعوهم إلى الله تعالى ويقرأ عليهم القرآن ، فصرف الله إليه نفراً من الجن ليستمعوا منه القرآن وينذروا قومهم .

ويتفرع على ما ذكرناه فروع (الأول) نقل عن القاضى فى تفسيره الجن أنه قال : إنهم كانوا يهوداً . لأن فى الجن مللا كما فى الإنس من اليهود والنصارى والمجوس وعبدة الأصنام ، وأطبق المحققون على أن الجن مكلفون ، سئل ابن عباس : هل للجن ثواب ؟ فقال نعم لهم ثواب وعليهم عقاب ، يلتقون فى الجنة ويزدحمون على أبوابها (الفرع الثانى) قال صاحب الكشاف : النفر دون العشرة ويجمع على أنفار ، ثم روى محمد بن جرير الطبرى عن ابن عباس : أن اولئك الجن كانوا سبعة نفر من أهل نصيبين ، فجعلهم رسول الله ﷺ رسلا إلى قومهم ، وعن زر ابن حبيش كانوا تسعة احدهم ذوبعة ، وعن قتادة ذكر لنا انهم صرفوا إليه من ساوة (الفرع الثالث) اختلفوا فى أنه هل كان عبد الله بن مسعود مع النبى ﷺ ليلة الجن ؟ والروايات فيه مختلفة ومشهورة (الفرع

الرابع) روى القاضى فى تفسيره عن أنس قال « كنت مع رسول الله ﷺ فى جبال مكة إذ أقبل شيخ متوكىء على عكازة ، فقال النبى ﷺ مشية جنى ونغمتـه ، فقال أجل ، فقال من أى الجن أنت ؟ فقال أنا هامة بن هيم بن لاقيس بن إبليس ، فقال لا أرى بينك وبين إبليس إلا أبوين فكم أتى عليك ؟ فقال أكلت عمر الدنيا إلا أقلها ، وكنت وقت قتل قابيل هابيل أمشى بين الآكام ، وذكر كثيراً مما مر به ، وذكر فى جملته أن قال : قال لى عيسى بن مريم إن لقيت محمداً فأقرئه منى السلام ، وقد بلغت سلامه وآمنت بك ، فقال عليه السلام ، وعلى عيسى السلام ، وعليك ياهامة ماحاجتك ؟ فقال إن موسى عليه السـلام علمنى التوراة ، وعيسى علمنى الإنجيل ، فعلمنى القرآن ، فعلمه عشر سور ، وقبض صلى الله عليه وسلم ولم ينعه » قال عمر بن الخطاب ولا أراه إلا حياً . واعلم أن تمام الكلام فى قصة الجن مذكور فى سورة الجن .

﴿ المسألة الثانية ﴾ اختلفوا فى تفسير قوله (وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن) فقال بعضهم : لمـا لم يقصد الرسول صلى الله عليه وسلم قراءة القرآن عليهم ، فهو تعالى ألقى فى قلوبهم ميلا وداعية إلى استماع القرآن ، فلهذا السبب قال (وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن) .

ثم قال تعالى (فلما حضروه) الضمـير للقرآن أو لرسول الله (قالوا) أى قال بعضهم لبعض (أنصتوا) أى اسكتوا مستمعين ، يقال أنصت لـكذا واستنصت له ، فلما فرغ من القراءة (ولوا إلى قومهم منذرين) ينذرونهم ، وذلك لايكون إلا بعد إيمانهم ، لأنهم لايدعون غيرهم إلى استماع القرآن والتصديق به إلا وقد آمنوا ، فعنده (قالوا ياقومنا إنا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى) ووصفوه بوصفين (الأول) (كونه مصدقاً لما بين يديه) أى مصدقاً لـكتب الأنبياء ، والمعنى أن كتب سائر الأنبياء كانت مشتملة على الدعوة إلى التوحيد والنبوة والمعاد والأمر بتطهير الأخلاق فـكذلك هذا الـكتاب مشتمل على هذه المعانى (الثانى) قوله (يهدى إلى الحق وإلى طريق مستقيم) .

واعلم أن الوصف الأول يفيد أن هذا الـكتاب يماثل سائر الـكتاب الإلهيـة فى الدعوة إلى هذه المطالب العالية الشريفة ، والوصف الثانى يفيد أن هذه المطالب التى اشتمل القرآن عليها مطالب حقة صدق فى أنفسها ، يعلم كل أحد بصريح عقله كونها كذلك ، سواء وردت الـكتب الإلهية قبل ذلك بها أو لم ترد ، فإن قالوا كيف قالوا (من بعد موسى) ؟ قلنا قد نقلنا عن الحسن إنه قال إنهم كانوا على اليهودية ، وعن ابن عباس أن الجن ماسمعت أمر عيسى فلذلك قالوا من بعد موسى ، ثم إن الجن لمـا وصفوا القرآن بهذه الصفات الفاضلة قالوا (ياقومنا أجيبوا داعى الله) واختلفوا فى أنه هل المراد بداعى الله الرسول أو الواسطة التى تبلغ عنه ؟ والأقرب أنه هو الرسول لأنه هو الذى يطلق عليه هذا الوصف .

واعلم أن قوله ﴿ أجيبوا داعى الله ﴾ فيه مسألتان .

﴿ المسألة الأولى ﴾ هذه الآية تدل على أنه ﷺ كان مبعوثاً إلى الجن كما كان مبعوثاً إلى الإنس

أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا

قال مقاتل ، ولم يبعث الله نبياً إلى الإنس والجن قبله .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قوله (أجيبوا داعى الله) أمر بإجابته فى كل ماأمر به ، فيدخل فيه الأمر بالإيمان إلا أنه أعاد ذكر الإيمان على التعيين ، لأجل أنه أهم الأقسام وأشرفها ، وقد جرت عادة القرآن بأنه يذكر اللفظ العام ، ثم يعطف عليه أشرف أنواعه كقوله (وملائكته وجبريل) وقوله (وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح) ولما أمر بالإيمان به ذكر فائدة ذلك الإيمان وهى قوله (يغفر لكم من ذنوبكم) وفيه مسألتان :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قال بعضهم كلمة (من) ههنا زائدة والتقدير : يغفر لكم ذنوبكم ، وقيل بل الفائدة فيه أن كلمة (من) ههنا لابتداء الغاية ، فكان المعنى أنه يقع ابتداء الغفران بالذنوب ، ثم ينتهى إلى غفران ماصدر عنكم من ترك الأولى والأكمل .

﴿ المسألة الثانية ﴾ اختلفوا فى أن الجن هل لهم ثواب أم لا ؟ فقيل لاثواب لهم إلا النجاة من النار ، ثم يقال لهم (كونوا تراباً) مثل البهائم ، واحتجوا على صحة هذا المذهب بقوله تعالى (ويجركم من عذاب أليم) وهو قول أبى حنيفة ، والصحيح أنهم فى حكم بنى آدم فيستحقون الثواب على الطاعة والعقاب على المعصية ، وهذا القول قول ابن أبى ليلى ومالك ، وجرت بينه وبين أبى حنيفة فى هذا الباب مناظرة ، قال الضحاك يدخلون الجنة ويأكلون ويشربون ، والدليل على صحة هذا القول : أن كل دليل دل على أن البشر يستحقون الثواب على الطاعة فهو بعينه قائم فى حق الجن ، والفرق بين البابين بعيد جداً .

واعلم أن ذلك الجنى لما أمر قومه بإجابة الرسول والإيمان به حذرهم من ترك تلك الإجابة فقال (ومن لايجب داعى الله فليس بمعجز فى الأرض) أى لاينجى منه مهرب ولا يسبق قضاءه سابق ، ونظيره قوله تعالى (وأنا ظننا أن لن نعجز الله فى الأرض ولن نعجزه هرباً) ولا يجد له أيضاً ولياً ولا نصيراً ، ولا دافعاً من دون الله ثم بين أنهم فى ضلال مبين .

قوله تعالى : ﴿ أولم يروا أن الله الذى خلق السموات والأرض ولم يعى بخلقهن بقادر على أن يحيى الموتى بلى إنه على كل شىء قدير ويوم يعرض الذين كفروا على النار أليس هذا بالحق قالوا بلى

كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٤﴾

وربنا قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون ﴾ وفى الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ اعلم أنه تعالى ذكر فى أول السورة مايدل على وجود الإله القادر الحكيم المختار ، ثم فرع عليه فرعين : (الأول) إبطال قول عبدة الأصنام (والثانى) إثبات النبوة وذكر شبهاتهم فى الطعن فى النبوة ، وأجاب عنها ، ولما كان أكثر إعراض كفار مكة عن قبول الدلائل بسبب اغترارهم بالدنيا واستغراقهم فى استيفاء طيباتهم وشهواتها ، وبسبب أنه كان يثقل عليهم الانقياد لمحمد والاعتراف بتقدمه عليهم ضرب لذلك مثلا وهم قوم عاد فإنهم كانوا أكمل فى منافع الدنيا من قوم محمد فلما أصروا على الكفر أبادهم الله وأهلكهم ، فكان ذلك تخويفاً لأهل مكة بإصرارهم على إنكار نبوة محمد عليه الصلاة والسلام ، ثم لما قرر نبوته على الإنس أردفه باثبات نبوته فى الجن . وإلى ههنا قدتم الكلام فى التوحيد وفى النبوة ، ثم ذكر عقيبهما تقرير مسألة المعاد ومن تأمل فى هذا البيان الذى ذكرناه علم أن المقصود من كل القرآن تقرير التوحيد والنبوة والمعاد ، وأما القصص فالمراد من ذكرها ما يجرى مجرى ضرب الأمثال فى تقرير هذه الأصول .

﴿ المسألة الثانية ﴾ المقصود من هذه الآية إقامة الدلالة على كونه تعالى قادراً على البعث ، والدليل عليه أنه تعالى أقام الدلائل فى أول هذه السورة على أنه (هو الذى خلق السموات والأرض) ولاشك أن خلقها أعظم وأفخم من إعادة هذا الشخص حياً بعد أن صار ميتاً ، والقادر على الأقوى الأكمل لا بد وأن يكون قادراً على الأقل والأضعف ، ثم ختم الآية بقوله (إنه على كل شىء قدير) والمقصود منه أن تعلق الروح بالجسد أمر ممكن إذ لو لم يكن ممكناً فى نفسه لما وقع أولا ، والله تعالى قادر على كل الممكنات ، فوجب كونه قادراً على تلك الإعادة ، وهذه الدلائل يقينية ظاهرة .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ فى قوله تعالى (بقادر) إدخاله الباء على خبر إن ، وإنما جاز ذلك لدخول حرف النفى على أن وما يتعلق بها ، فكأنه قيل أليس الله بقادر ، قال الزجاج لو قلت ما ظننت أن زيداً بقائم جاز ، ولا يجوز ظننت أن زيداً بقائم والله أعلم .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ يقال عييت بالأمر إذا لم تعرف وجهه ومنه (أفعيينا بالخلق الأول) .

واعلم أنه تعالى لما أقام الدلالة على صحة القول بالحشر والنشر ذكر بعض أحوال الكفار فقال (ويوم يعرض الذين كفروا على النار أليس هذا بالحق قالوا بلى وربنا قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون) فقوله (أليس هذا بالحق) التقدير يقال لهم (أليس هذا بالحق) والمقصود التهكم بهم والتوبيخ على استهزائهم بوعد الله ووعيده ، وقولهم (وما نحن بمعذبين) .

فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٣٥﴾

قوله تعالى : ﴿ فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل ولا تستعجل لهم كأنهم يوم يرون مايوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار بلاغ فهل يهلك إلا القوم الفاسقون ﴾ .

واعلم أنه تعالى لما قرر المطالب الثلاثة وهي التوحيد والنبوة والمعاد ، وأجاب عن الشبهات أردفه بما يجرى مجرى الوعظ والنصيحة الرسول ﷺ ، وذلك لأن الكفار كانوا يؤذنه ويوحشون صدره ، فقال تعالى (فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل) أى أولوا الجد والصبر والثبات ، وفى الآية قولان .

﴿ الأول ﴾ أن تكون كلمة (من) للتبعيض ويراد بأولوا العزم بعض الأنبياء قيل هم نوح صبر على أذى قومه وكانوا يضربونه حتى يغشى عليه ، وإبراهيم على النار وذبح الولد ، وإسحق على الذبح ، ويعقوب على فقدان الولد وذهاب البصر ، ويوسف على الجب والسجن . وأيوب على الضر ، وموسى قال له قومه (إنا لمدركون) قال (كلا إن معى ربى سيهدين) وداود بكى على زلته أربعين سنة ، وعيسى لم يضع لبنة على لبنة وقال : إنها معبرة فاعبروها ولا تعمروها ، وقال الله تعالى فى آدم (ولم نجد له عزماً) وفى يونس (ولا تكن كصاحب الحوت) .

﴿ والقول الثانى ﴾ أن كل الرسل أولو عزم ولم يبعث الله رسولا إلا كان ذا عزم وحزم ، ورأى وكمال وعقل ، ولفظة من فى قوله (من الرسل) تبيين لا تبعيض كما يقال كسيته من الخز وكأنه قيل اصبر كما صبر الرسل من قبلك على أذى قومهم ، ووصفهم بالعزم لصبرهم وثباتهم .

ثم قال (ولا تستعجل لهم) ومفعول الاستعجال محذوف ، والتقدير لا تستعجل لهم بالعذاب ، قيل إن النبى ﷺ ضجر من قومه بعض الضجر ، وأحب أن ينزل الله العذاب بمن أبى من قومه فأمر بالصبر وترك الاستعجال ، ثم أخبر أن ذلك العذاب منهم قريب ، وأنه نازل بهم لا محالة وإن تأخر ، وعند نزول ذلك العذاب بهم يستقصرون مدة لبثهم فى الدنيا ، حتى يحسبونها ساعة من نهار ، والمعنى أنهم إذا عاينوا العذاب صار طول لبثهم فى الدنيا والبرزخ ، كأنه ساعة من النهار ، أو كأن لم يكن لهول ماعاينوا ، أو لأن الشىء إذا مضى صار كأنه لم يكن ، وإن كان طويلا قال الشاعر :

كأن شيئاً لم يكن إذا مضى ... كأن شيئاً لم يزل إذا أتى

سورة الأحقاف

مكيةٌ في قول جميعهم. وهي أربع وثلاثون آية، وقيل: خمسٌ[1].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَمَّآ أُنذِرُوا۟ مُعْرِضُونَ ۝٣﴾

قوله تعالى: ﴿حمٓ . تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ تقدَّم[2]. ﴿مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ تقدَّم أيضاً[3]. ﴿وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ يعني القيامة؛ في قول ابنِ عباس وغيره[4]. وهو الأجلُ الذي تنتهي إليه السماواتُ والأرض[5]. وقيل: إنه هو الأجل المقدورُ لكلِّ مخلوقٍ[6]. ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَمَّآ أُنذِرُوا۟﴾: خُوِّفُوا ﴿مُعْرِضُونَ﴾: مُوَلُّون لاهُون غير مستعدِّين له. ويجوز أن تكون «ما» مصدرية، أي: عن إنذارهم ذلك اليوم[7].

---

(١) الكشاف ٣/ ٥١٤ ، وقوله : مكية في قول الجميع، فيه نظر ؛ فقد روي عن ابن عباس وقتادة أن فيها آية مدنية كما هو في النكت والعيون ٥/ ٢٧٠ ، وزاد المسير ٧/ ٣٦٨ . وروي أيضاً عن مقاتل: نزلت بمكة غير آيتين. ذكره ابن الجوزي أيضاً . وينظر المحرر الوجيز ٥/ ٩١ .

(٢) ص١٤٣ من هذا الجزء.

(٣) ١٢/ ٢٤٩ .

(٤) النكت والعيون ٥/ ٢٧١ .

(٥) الوسيط ٤/ ١٠٢ .

(٦) النكت والعيون ٥/ ٢٧١ .

(٧) الكشاف ٣/ ٥١٥ .

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤﴾﴾

فيه خمس مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: ما تعبدون من الأصنام والأندادِ من دون الله. ﴿أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ أي: هل خَلَقوا شيئاً من الأرض؟ ﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ﴾ أي: نصيبٌ ﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ أي: في خلق السماوات مع اللهِ. ﴿ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ﴾ أي: من قبل هذا القرآن[١].

الثانية: قوله تعالى: ﴿أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ﴾ قراءة العامة: «أَوْ أثارةٍ» بألفٍ بعد الثاء.

قال ابن عباس عن النبيِّ ﷺ: «هو خطٌّ كانت تخطُّه العرب في الأرض»[٢]؛ ذكره المهدويُّ والثعلبيُّ. وقال ابن العربي[٣]: ولم يصحَّ. وفي مشهور الحديث عن النبيِّ ﷺ قال: «كان نبيٌّ من الأنبياء يَخُطُّ، فَمَنْ وافَق خطَّه فذاك» ولم يصحَّ أيضاً.

قلت: هو ثابتٌ من حديث معاوية بن الحَكَم السُّلمي؛ خَرَّجه مسلم[٤]. وأسند النحاس: حدَّثنا محمد بن أحمد ـ يعرف بالجرايحي[٥] ـ قال حدثنا محمد بن بندار قال: حدَّثنا يحيى بن سعيد، عن سفيان الثوري، عن صفوان بن سُلَيم، عن أبي سَلَمة، عن ابن عباس، عن النبي ﷺ في قوله عزَّ وجلَّ: ﴿أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ﴾ قال: «الخطّ» وهذا صحيحٌ أيضاً[٦].

---

(١) تفسير أبي الليث السمرقندي ٣/ ٢٢٩ - ٢٣٠.

(٢) أخرجه الطبري ٢١/ ١١٣، وسيذكره المصنف بلفظ: ﴿أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ﴾: الخط.

(٣) في أحكام القرآن ٤/ ١٦٨٤.

(٤) برقم (٥٣٧)، وهو عند الإمام أحمد (٢٣٧٦٢).

(٥) في (خ) و(د) بالجريحي. وفي (ظ) بالحريجي.

(٦) أخرجه الإمام أحمد (١٩٩٢)، والبغدادي في تاريخ بغداد ٤/ ٣٥٥، وعبد الرزاق ٢/ ٢١٥، والطبري ٢١/ ١١٣، وسلف آنفاً.

قال ابن العربي[١]: واختلفوا في تأويله؛ فمنهم من قال: جاء لإباحة الضربِ؛ لأن بعضَ الأنبياء كان يفعله. ومنهم من قال: جاء للنهي عنه؛ لأنه ﷺ قال: «فمَنْ وافقَ خطَّه فذاك». ولا سبيلَ إلى معرفة طريق النبيِّ المتقدِّم فيه؛ فإذاً لا سبيل إلى العمل به. قال[٢]:

لَعمرك ما تدري الضواربُ بالحصا ولازاجراتُ الطير ما اللهُ صانعُ

وحقيقتُه عند أربابه ترجع إلى صور الكواكب، فيدلُّ ما يخرج منها على ما تدل عليه تلك الكواكبُ من سعدٍ أو نحسٍ يحلُّ بهم، فصار ظنًّا مبنيًّا على ظنّ، وتعلقًا بأمرٍ غائب قد دَرَسَتْ طريقُه وفات تحقيقُه؛ وقد نهت الشريعةُ عنه، وأخبرت أن ذلك مما اختصَّ الله به، وقطَعه عن الخَلق، وإن كانت لهم قبل ذلك أسبابٌ يتعلَّقون بها في درك الأشياء المغيَّبة؛ فإن الله قد رفعَ تلك الأسبابَ، وطمسَ تيك الأبوابَ، وأفرد نفسَه بعلم الغيب؛ فلا يجوز مزاحمتُه في ذلك، ولا يَحلُّ لأحدٍ دعواه. وطلبُه عناءٌ لو لم يكن فيه نهيٌ، فإذ وقد ورد النهي؛ فطلبه معصية أو كفرٌ بحسب قصد الطالب.

قلت: ما اختاره هو قول الخطابي[٣]. قال الخطابي: قوله عليه الصلاة والسلام: «فمن وافَق خطَّه فذاك» هذا يَحتمل الزجر إذ كان ذلك عَلَماً لنبوَّته، وقد انقطعت، فنُهينا عن التعاطي لذلك. قال القاضي عياض[٤]: الأظهر من اللفظ خلافُ هذا، وتصويب خط من يوافق خطَّه؛ لكن من أين تُعلم الموافقة والشرعُ منعَ من التخرُّص وادعاءِ الغيب جملةً؟ فإنما معناه: أن من وافق خطه فذاك الذي يجدون إصابته؛ لا أنه يريد إباحةَ ذلك لفاعله على ما تأوَّله بعضُهم.

---

(١) في أحكام القرآن ٤/ ١٦٨٤ - ١٦٨٥.

(٢) لبيد بن ربيعة، ديوانه ص ٩٠.

(٣) ينظر معالم السنن ١/ ٢٢٢.

(٤) في إكمال المعلم ٢/ ٤٦٤، ونقله أبو العباس في المفهم ٢/ ١٤١ - ١٤٢، والكلام وما قبله منهما.

وحكى مكيٌّ في تفسير قوله: «كان نبيٌّ من الأنبياء يخطُّ»: أنه كان يخطُّ بأصبعه السبابة والوسطى في الرمل ثم يَزْجُر. وقال ابن عباس في تفسير قوله: «ومنَّا رجالٌ يخطُّون»[١]: هو الخطُّ الذي يَخطُّه الحازي[٢] فيعطيه[٣] حُلواناً فيقول: اقعد حتى أخطَّ لك؛ وبين يدي الحازي غلامٌ معه مِيلٌ، ثم يأتي إلى أرضٍ رَخْوةٍ، فيخطُّ الأستاذُ خطوطاً معجلةً لئلَّا يلحقَها العددُ، ثم يرْجع فيمحو على مَهَلٍ خطَّين خطَّين، فإن بقي خطَّان فهو علامة النُّجح، وإن بقي خطٌّ فهو علامة الخيبة. والعرب تسميه: الأسحم، وهو مشؤوم عندهم.

الثالثة: قال ابن العربي[٤]: إن اللهَ تعالى لم يُبْقِ من الأسباب الدالة على الغيب التي أذن في التعلُّق بها والاستدلال منها إلا الرؤيا؛ فإنه أذِن فيها، وأخبر أنها جزء من النبوة[٥] وكذلك الفأل[٦]؛ وأما الطِّيَرة والزَّجر فإنه نَهى عنهما. والفَأْلُ: هو الاستدلال بما يَسْمَع من الكلام على ما يُريد من الأمر إذا كان حسناً؛ فإذا سمِع مكروهاً فهو تطيُّر، أمرَه الشرعُ بأن يفرح بالفأل ويمضيَ على أمره مسروراً. وإذا سمع المكروه أعرَض عنه ولم يرجع لأجْله، وقد قال النبيُّ ﷺ: «اللهمَّ لا طَيْرَ إلا طيرك، ولا خيرَ إلى خيرُك، ولا إله غيرُك»[٧]. وقد روى بعضُ الأدباء:

الفَأْلُ والزَّجْرُ والكُهَّانُ كلُّهُمُ مضلِّلون ودون الغيبِ أقْفالُ[٨]

---

(١) هو قطعة من حديث معاوية بن الحكم السلمي السالف.

(٢) الحازي: هو الكاهن، ويقال له أيضاً: الحزَّاء، وهو الذي يحزر الأشياء ويُقدرها بظنه. النهاية (حزو).

(٣) في (م) و(د) و(ظ) فيعطى. والمثبت من (خ) و(ز) و(ق) والإكمال والمفهم. وهو في النهاية لابن الأثير (خطط) ذكره عن ابن عباس أيضاً.

(٤) في أحكام القرآن ٤/ ١٦٨٥.

(٥) سلف قوله ﷺ ١١/ ٢٤٧ عن الرؤيا «جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة».

(٦) سلف ٧/ ٢٩٠ - ٢٩١ حديث أبي هريرة ﷺ مرفوعاً: «لا طِيرة، وخيرها الفأل» قيل: يا رسول الله، وما الفأل؟ قال: «الكلمة الصالحة يسمعها أحدكم»، وهو في الصحيحين.

(٧) قطعة من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص، وسلف ٩/ ٣٠٧.

(٨) ذكره المبرد في الكامل ١/ ٤١٩، والبغدادي في الخزانة ١٠/ ٣٢١ دون نسبة.

وهذا كلامٌ صحيح، إلا في الفأل فإن الشرع استثناه وأقرَّبه، فلا يُقبل من هذا الشاعر ما نظَمه فيه؛ فإنه تكلم بجهل، وصاحبُ الشرع أصدقُ وأعلم وأحكم.

قلت: قد مضى في الطِّيرَة والفأل وفي الفرق بينهما ما يكفي في «المائدة»[١] وغيرها. ومضى في «الأنعام»[٢] أنَّ الله سبحانه منفرِدٌ بعلم الغيب، وأن أحداً لا يعلم من ذلك إلا ما أعلمه اللهُ، أو يجعل على ذلك دلالةً عادية يعلم بها ما يكون على جري العادة، وقد يختلف، مثاله: إذا رأى نخلةً قد أطلَعَت، فإنه يعلم أنها ستثمر، وإذا رآها قد تناثر طَلْعُها عَلِم أنها لا تثمر. وقد يجوز أن يأتي عليها آفةٌ تُهلك ثمرَها فلا تثمر؛ كما أنه جائز أن تكون النخلة التي قد تناثر طَلْعُها يُطلع اللهُ فيها طلعاً ثانياً فتثمر. وكما أنه جائز ـ أيضاً ـ ألَّا يلي شهرَه شهرٌ ولا يومَه يوم إذا أراد اللهُ إفناءَ العالَم ذلك الوقت. إلى غير ذلك مما تقدَّم في «الأنعام» بيانُه.

الرابعة: قال ابن خُوَيْزِمَنْدَاد: قوله تعالى: ﴿أَوْ أَثَـٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ﴾ يريد الخطَّ. وقد كان مالك رحمه اللهُ يحكم بالخطّ إذا عرَف الشاهدُ خطَّه. وإذا عرف الحاكم خطَّه أو خطَّ من كتب إليه حكَم به، ثم رجع عن ذلك حين ظهر في الناس ما ظهر من الحِيل والتزوير. وقد روي عنه أنه قال: يُحدِث الناس فجوراً فتحدث لهم أقضية. فأمَّا إذا شهد الشهود على الخطِّ المحكوم به؛ مثل أن يشهدوا أن هذا خطُّ الحاكم وكتابُه، أَشهدنا على ما فيه وإن لم يعلَموا ما في الكتاب. وكذلك الوصية أو خطّ الرجل باعترافه بمالٍ لغيره يشهدون أنه خطه، ونحو ذلك، فلا يختلف مذهبه أنه يحكم به[٣].

وقيل: «أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ»: أو بقية من علم؛ قاله ابن عباس والكلبي[٤] وأبو بكر

---

(١) ٧/ ٢٩٠.

(٢) ٨/ ٤٠٢ وما بعدها.

(٣) ينظر الكافي لابن عبد البرّ ٢/ ٩١٥.

(٤) تفسير البغوي ٤/ ١٦٣.

ابن عياش[١] وغيرهم. وفي الصحاح[٢] «أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ»: بقية منه. وكذلك الأَثَرَة، بالتحريك. ويقال: سَمِنت الإبل على أثارة، أي: بقية شحم كان قبل ذلك. وأنشد الماورديُّ[٣] والثعلبي قولَ الراعي:

وذاتِ أثارة أكلتْ عليها نباتاً في أكمَّته قِفارا[٤]

وقال الهَرَوي: والأثارة والأثر: البقيَّة؛ يقال: ما ثَمَّ عين ولا أثر. وقال ميمون ابن مِهران وأبو سَلَمة بن عبد الرحمن وقتادة: «أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ»: خاصة من علم[٥]. وقال مجاهد: روايَةٍ تأثرونها عمَّن كان قبلكم[٦]. وقال عكرمة ومقاتل: رواية عن الأنبياء[٧]. وقال القُرَظي: هو الإسناد[٨]. الحسن: المعنى شيء يثار أو يستخرج[٩]. وقال الزجاج[١٠]: «أَوْ أَثَارَةٍ» أي: علامة. والأثارة مصدر كالسماحة والشجاعة[١١]. وأصل الكلمة من الأَثَر، وهي الرواية؛ يقال: أثرت الحديث آثُرهُ أَثْرًا وأَثَارَةً وأُثْرة فأنا آثر؛ إذا ذكرتَه عن غيرك. ومنه قيل: حديث مأثور، أي: نقله خَلَف عن سَلَف. قال الأعشى:

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٢٧١، وأخرجه عنه الطبري ٢١/ ١١٥.

(٢) مادة: (أثر).

(٣) في النكت والعيون ٥/ ٢٧١.

(٤) ديوان الراعي النميري ص١٤٢، وجاء في النسخ الخطية: قصارا، بدل: قفارا، والمثبت من (م)، ونسب البيت أيضاً للشماخ، وهو في ديوانه ص٤٤٥.

قوله: في أكمّته أي: في غُلفه، جمع كِمام، وهو جمع كِمّ، والكِمّ: غطاء النَّور وغلافه. وقوله: قِفارا أي: خالياً من الناس. فَرَعَته الناقةُ وحدها. وقفار: وصف نبات. الخزانة ١٠/ ١٤١.

(٥) النكت والعيون ٥/ ٢٧١، وأخرجه الطبري ٢١/ ١١٤.

(٦) أخرجه الطبري ٢١/ ١١٤ - ١١٥.

(٧) تفسير البغوي ٤/ ١٦٣.

(٨) المحرر الوجيز ٥/ ٩٢.

(٩) أخرجه عبد الرزاق ٢/ ٢١٥، والطبري ٢١/ ١١٤.

(١٠) في معاني القرآن له ٤/ ٤٣٨.

(١١) معاني القرآن للفراء ٣/ ٥٠.

إن الـــذي فـــيـــه تَـــمَـــارَيْـــتُـــمَـــا بُـــيِّـــن لـــلـــســـامـــع والآثـــر

ويروى: «بَيَّنَ»[١] وقرئ: «أَوْ أُثْرَة» بضم الهمزة وسكون الثاء. ويجوز أن يكون معناه: بقية من علم. ويجوز أن يكون معناه: شيئاً مأثوراً من كتب الأوَّلين[٢]. والمأثور: ما يُتحدَّث به مما صحَّ سنده عمن تُحدِّث به عنه .

وقرأ السُّلَمِيُّ والحسن وأبو رجاء بفتح الهمزة والثاء من غير ألف[٣]، أي: خاصة من علم أُوتيتموها، أو أوثرتم بها على غيركم. وروي عن الحسن أيضاً وطائفة: «أَثْرَةٍ» مفتوحة الألف ساكنة الثاء؛ ذكر الأولى الثعلبيُّ والثانيةَ الماورديُّ[٤]. وحكى الثعلبي عن عكرمة: أو ميراث من علم[٥]. ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾.

الخامسة: قوله تعالى: ﴿ائْتُونِي بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ﴾ فيه بيان مسالك الأدلة بأسرها، فأوّلها المعقول، وهو قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ وهو احتجاجٌ بدليل العقل في أن الجمادَ لا يصحُّ أن يُدعى من دون الله؛ فإنه لا يَضرُّ ولا ينفع. ثم قال: ﴿ٱئْتُونِي بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ﴾ فيه بيان أدلة السمع ﴿أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ﴾[٦].

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ۝٥﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ﴾ أي: لا أحدَ أضلُّ وأجهل ﴿مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن

(١) الصحاح (أثر)، والبيت في ديوان الأعشى ص ١٩١، وغريب الحديث ٢/ ٥٩، والمحرر الوجيز ٥/ ٩٢، والخزانة ٣/ ٤٠٠، ورواية الديوان والخزانة: والناظر، بدل: والآثر.

(٢) زاد المسير ٧/ ٣٧٠.

(٣) القراءات الشاذة ص ١٣٩، والمحتسب ٢/ ٢٦٤.

(٤) في النكت والعيون ٥/ ٢٧١، وذكرها أيضاً ابن الجوزي في زاد المسير ٧/ ٣٦٩.

(٥) المحرر الوجيز ٥/ ٩٢.

(٦) أحكام القرآن للكيا ٤/ ٣٧١.

﴿لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ وهي الأوثان. ﴿وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ﴾ يعني لا يَسمعون ولا يفهمون؛ فأخرجها ـ وهي جمادٌ ـ مخرجَ ذكورِ بني آدم؛ إذ قد مَثَّلَتها عبدتُها بالملوك والأمراء التي تُخدم[١].

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ۝٦﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ﴾ يريد يوم القيامة. ﴿كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً﴾ أي: هؤلاء المعبودون أعداء الكفارِ يومَ القيامة. فالملائكة أعداء الكفار، والجنُّ والشياطين يتبرؤون غداً من عبدتهم، ويلْعَن بعضُهم بعضاً. ويجوز أن تكون الأصنامُ للكفار الذين عبدوها أعداءً؛ على تقدير خلق الحياة لها؛ دليلُه قوله تعالى: ﴿تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ مَا كَانُوٓا۟ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾[٢] [القصص: ٦٣]. وقيل: عادوا معبوداتهم لأنهم كانوا سبب هلاكهم، وجحد المعبودون عبادتهم؛ وهو قوله: ﴿وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٧﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ﴾ يعني القرآن. ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾.

قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ ۖ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۖ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٨﴾

قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ الميم صلةٌ، التقدير: أيقولون افتراه، أي: تقوَّله محمدٌ. وهو إضرابٌ عن ذكر تسميتهم الآيات سحراً. ومعنى الهمزة في «أم» الإنكارُ والتعجبُ، كأنه قال: دعْ هذا واسمع قولَهم المستنكَر المقضي[٣] منه العجبُ، وذلك

(١) تفسير الطبري ٢١/١١٧.

(٢) الكلام بنحوه في تفسير أبي الليث السمرقندي ٣/ ٢٣٠، والوسيط ٤/١٠٣.

(٣) في (د)، والكشاف ٣/ ٥١٦: «المفضي».

أن محمداً كان لا يقدرُ عليه حتى يقولَه ويفترِيَه على الله، ولو قدر عليه دون أُمّة العرب لكانت قدرته عليه معجزةً لخرقها العادة، وإذا كانت معجزة كانت تصديقاً من اللهِ له، والحكيم لا يصدِّق الكاذب فلا يكون مفترياً، والضمير للحق، والمراد به الآيات. ﴿قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ﴾ على سبيل الفَرْض. ﴿فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ أي: لا تقدرون على أن تردُّوا عني عذابَ الله؛ فكيف أفتري على الله لأجلكم؟![1]. ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ أي: تقولونه؛ عن مجاهد[2]. وقيل: تخوضون فيه من التكذيب[3]. والإفاضة في الشيء: الخوض فيه والاندفاع. أفاضوا في الحديث، أي: اندفعوا فيه. وأفاض البعير، أي: دفع جِرَّته من كَرِشِه فأخرجها؛ ومنه قول الشاعر:

وأفَضْنَ بعد كُظُومِهِنَّ بِجِرَّةٍ[4]

وأفاض الناس من عرفاتِ إلى مِنًى، أي: دفعوا، وكلُّ دَفْعة إفاضةٌ[5].

﴿كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا﴾ نصب على التمييز. ﴿بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ﴾ أي: هو يعلَمُ صدقي وأنكم مبطِلُون. ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ﴾ لمن تاب ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ بعباده المؤمنين.

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ أي: أوَّل من أُرسل، قد كان قبلي رسل؛ عن ابن عباس وغيره[6]. والبِدْعُ: الأوّل.

(١) الوسيط ٤/ ١٠٣، وتفسير البغوي ٤/ ١٦٣.

(٢) تفسير مجاهد ٢/ ٥٩٣، وأخرجه عنه الطبري ٢١/ ١١٨.

(٣) تفسير البغوي ٤/ ١٦٣.

(٤) صدر بيت للراعي النميري، وهو في ديوانه ص ٢٢٤، وسلف ٥/ ٣١٨، وعجزه: من ذي الأبارق إذ رَعَيْن حقيلا وقوله: كظومهن بجرة. قال الفيروز: كظم البعير كظوماً: أمسَكَ عن الجِرة. والجِرَّة: وما يفيض به البعير فيأكله ثانيةً، واللقمة يتعلل بها البعير إلى وقت عَلَفِه. القاموس (كظم وجرر).

(٥) الصحاح (فيض)، وبنحوه في تهذيب اللغة ١٢/ ٧٧ - ٧٨.

(٦) أخرجه الطبري ٢١/ ١١٩ - ١٢٠، وابن أبي حاتم كما في تغليق التعليق ٤/ ٣١١.

وقرأ عكرمة وغيره: «بِدَعًا» بفتح الدال، على تقدير حذفِ المضاف؛ والمعنى: ما كنتُ صاحبَ بِدَعٍ[(١)].

وقيل: بِدْع وبديع بمعنًى؛ مثلُ: نصف ونصيف. وأبدع الشاعر: جاء بالبديع. وشيء بِدْع ـ بالكسر ـ أي: مبتدَع. وفلان بِدْعٌ في هذا الأمر، أي: بديع. وقوم أبداع؛ عن الأخفش[(٢)]. وأنشد قُطْرُب قولَ عديٍّ بن زيد:

فلا أنا بِدْعٌ من حوادثَ تعتري رجالاً غدت من بعد بؤسي بأسعدِ[(٣)]

﴿وَمَآ أَدۡرِي مَا يُفۡعَلُ بِي وَلَا بِكُمۡۖ﴾ يريد يوم القيامة ـ ولمَّا نزلَت فَرِحَ المشركون واليهود والمنافقون، وقالوا: كيف نتبع نبيًّا لا يدري ما يُفعل به ولا بِنا، وأنه لا فضل له علينا، ولولا أنه ابتدع الذي يقوله من تلقاء نفسه لأخبره الذي بعثه بما يفعلُ به؛ فنزلَت: ﴿لِّيَغۡفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢] فنسخت هذه الآية، وأرغم اللهُ أنْفَ الكفارِ. وقالت الصحابة: هنيئًا لك يا رسولَ الله، لقد بيَّن اللهُ لك ما يَفعلُ بك يا رسولَ الله، فليت شِعرنا ما هو فاعلٌ بنا؟ فنزلت: ﴿لِّيُدۡخِلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ [الفتح: ٥] الآية. ونزلت: ﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضۡلٗا كَبِيرٗا﴾[(٤)] [الأحزاب: ٤٧] ـ قاله أنسٌ وابن عباس وقتادة والحسن وعكرمة والضحاك[(٥)].

---

(١) المحتسب ٢/ ٢٦٤، وذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص ١٣٩ عن أبي حيوة.

(٢) ينظر معاني القرآن له ٢/ ٦٩٣ ولم نقف على كلامه بتمامه ثمة، وهو بنحوه في تفسير الطبري ٢١/ ١١٩ والبغوي ٤/ ١٦٤ دون نسبة.

(٣) تفسير الطبري ٢١/ ١١٩، والمحرر الوجيز ٥/ ٩٢، والحماسة البصرية ٢/ ٤٩، وجمهرة أشعار العرب ١/ ٥٠٠، وفي بعضها: عرت، بدل: غدت، و«أسعدُ»، بدل: بأسعد، وهو بهذا اللفظ في النكت والعيون ٥/ ٢٧٢.

(٤) أخرجه الطبري ٢١/ ١٢١ عن عكرمة والحسن البصري بنحوه، وسيذكره المصنف عن عطاء عن ابن عباس أول سورة الفتح، وسيرد في الفتح أيضاً خبر قول الصحابة: هنيئاً لك يا رسول الله... الخ، وهو من حديث أنس ﷺ، وهو في الصحيح، وليس فيه ذكر لآية الأحقاف.

(٥) يعني قولهم في تفسير الآية أعلاه: يريد يوم القيامة، كما في المحرر الوجيز ٥/ ٩٤، وزاد المسير ٧/ ٣٧٣.

وقالت أمُّ العلاء ـ امرأة من الأنصار ـ: اقتسمنا المهاجرين، فطار لنا عثمان بن مَظْعُون بن حُذافة بن جُمَح، فأنزلناه أبياتنا، فَتُوفِّيَ، فقلت: رحمةُ الله عليك أبا السائب! إن الله أكْرَمك. فقال النبيُّ ﷺ: «وما يدريكِ أن الله أكرمه»؟ فقلت: بأبي وأمي يا رسولَ الله! فمن؟! قال: «أمَّا هو فقد جاءه اليقينُ، وما رأينا إلا خيراً، فواللهِ إني لَأرجو له الجَنَّة، وواللهِ إني لَرسولُ اللهِ، وما أدري ما يفعل بي ولا بكم». قالت: فواللهِ لا أزكّي بعدَه أحداً أبداً[1]. ذكره الثعلبيُّ، وقال: وإنما قال هذا حين لم يعلَم بغفران ذَنْبِه، وإنَّما غفَر اللهُ له ذنبَه في غَزْوَةِ الحُدَيْبِيَة قبل موته بأربع سنين.

قلت: حديثُ أمِّ العلاء خَرَّجه البخاريُّ، وروايتي فيه: «وما أدري ما يُفعل به» ليس فيه: «بي ولا بكم»، وهو الصحيح إن شاء اللهُ[2]، على ما يأتي بيانه. والآية ليست بمنسوخة؛ لأنها خبر.

قال النحاس[3]: محالٌ أن يكون في هذا ناسخ ولا منسوخ من جهتين: أحدهما أنه خبر، والآخر أنه من أوَّل السورة إلى هذا الموضع خطابٌ للمشركين واحتجاجُ عليهم وتوبيخ لهم؛ فوجب أن يكون هذا ـ أيضاً ـ خطاباً للمشركين كما كان قبلَه وما بعده، ومحال أن يقولَ النبيُّ ﷺ للمشركين: ما أدري ما يُفعل بي ولا بكم في

---

(١) أخرجه بنحوه الإمام أحمد (٢٧٤٥٧)، والبخاري (١٢٤٣) عن خارجة بن زيد بن ثابت، عن أمّ العلاء. وأم العلاء الأنصارية، من المبايعات، حديثها عند أهل المدينة، وقيل: هي بنت الحارث بن ثابت. الإصابة ١٣/ ٣٥٥.

(٢) رواية: «وما أدري ما يفعل به» أخرجها البخاري - كما قال المصنف رحمه الله - (٢٦٨٧)، ورواية: «ما يفعل بي ولا بكم» أخرجها البخاري - أيضاً ـ (٧٠١٨) وهي عند الإمام أحمد (٢٧٤٥٨).

وأما قول المصنف - فيما يتعلق برواية: «ما يفعل به» -: وهو الصحيح؛ فقد قال الحافظ ابن حجر في فتح الباري ٣/ ١١٥ - ١١٦: في رواية الكشميهني «به» وهو غلط منه... وإنما قال رسول الله ﷺ ذلك - أي: «ما يفعل بي ولا بكم» - موافقة لقوله تعالى في سورة الأحقاف. ﴿وَمَآ أَدۡرِى مَا يُفۡعَلُ بِى وَلَا بِكُمۡۖ﴾ وكان ذلك قبل نزول قوله تعالى: ﴿ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر﴾ ...

(٣) في الناسخ والمنسوخ ٢/ ٦٢٨ - ٦٢٩.

الآخرة، ولم يَزَل ﷺ من أوَّل مبعثه إلى مماته يخبر أنَّ مَن مات على الكفر مخلَّد في النار، ومن مات على الإيمان واتبعه وأطاعه فهو في الجنة، فقد رأى ﷺ ما يفعل به وبهم في الآخرة. وليس يَجوز أن يقول لهم: ما أدري ما يفعل بي ولا بكم في الآخرة؛ فيقولون: كيف نتبعك وأنت لا تدري أتصير إلى خفضٍ ودَعة، أم إلى عذابٍ وعقاب؟!.

والصحيح في الآية قولُ الحسن، كما قرئ على محمد[١] بن جعفر بن حفص، عن يوسف بن موسى، قال حدَّثنا وكيع قال: حدَّثنا أبو بكر الهذلي، عن الحسن: «وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ فِي الدُّنْيَا»[٢] قال أبو جعفر[٣]: وهذا أصحُّ قولٍ وأحسنه، لا يدري ﷺ ما يَلحقه وإياهم من مرضٍ وصحَّة، ورُخصٍ وغلاء، وغنًى وفقر. ومثله: ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾ [الأعراف:١٨٨]. وذكر الواحديُّ وغيره، عن الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس: لمَّا اشتد البلاءُ بأصحاب رسولِ الله ﷺ رأى في المنام أنه يهاجر إلى أرضٍ ذات نخلٍ وشجر وماء، فقصَّها على أصحابه، فاستبشروا بذلك، ورأوا فيها فَرَجاً ممَّا هم فيه من أذى المشركين، ثم إنهم مَكَثوا بُرْهةً لا يرون ذلك، فقالوا: يا رسول الله، متى نُهاجر إلى الأرض التي رأيتَ؟ فسكت النبيُّ ﷺ، فأنزَل اللهُ تعالى: ﴿وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ﴾ أي: لا أدري أَأخرجُ إلى الموضع الذي رأيته في منامي أم لا. ثم قال: «إنما هو شيء رأيتُه في منامي ما أتبع إلا ما يُوحَى إليَّ»[٤] أي: لم يوح إليَّ ما أخبرتكم به. قال القُشَيريُّ: فعلى هذا لا نسخَ في الآية. وقيل: المعنى: لا أدري ما

(١) في النسخ: كما قرأ علي بن محمد، والمثبت من الناسخ والمنسوخ للنحاس.

(٢) وأخرجه أيضاً الطبري ٢١/ ١٢٢ - ١٢٣ مطولاً، وسيأتي قريباً.

(٣) في الناسخ والمنسوخ ٢/ ٦٢٩.

(٤) أسباب النزول للواحدي ص ٤٠١. وإسناده ضعيف، وذكره عن ابن عباس - أيضاً - البغوي في تفسيره ٤/ ١٦٤، وابن الجوزي في زاد المسير ٧/ ٣٧٢، والرازي ٢٨/ ٨، وذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٩٥ عنه مختصراً، وأبو الليث السمرقندي ٣/ ٢٣٠ عن الكلبي.

يُفْرَض عليَّ وعليكم من الفرائض.

واختار الطبريُّ[(١)] أن يكون المعنى: ما أدري ما يَصيرُ إليه أمري وأمرُكم في الدنيا، أتؤمنون أم تكفرون، أم تُعاجَلون بالعذاب أم تؤخَّرون.

قلت: وهو معنى قولِ الحسن والسُّدِّيِّ وغيرِهما. قال الحسن: ما أدري ما يفعل بي ولا بكم في الدنيا، أما في الآخرة فَمَعاذَ الله! قد عُلم أنه في الجنة حين أخذ ميثاقه في الرسل، ولكن قال: ما أدري ما يفعل بي في الدنيا أأُخرج كما أُخرجت الأنبياء قبلي، أو أُقتل كما قُتلت الأنبياء قبلي؛ ولا أدري ما يفعل بكم، أأُمَّتي المصدِّقة أم المكذِّبة، أم أمتي المرمية بالحجارة من السماء قَذْفاً، أو مخسوفٌ بها خَسْفاً؛ ثم نزلت: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ [الفتح:٢٨]. يقول: سيُظهر دينَه على الأديان. ثم قال في أمته: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ [الأنفال:٣٣]. فأخبرَه تعالى بما يصنع به وبأمته[(٢)].

ولا نسخَ على هذا كلِّه، والحمدُ لله. وقال الضحاك أيضاً: «ما أدري ما يفعل بي ولا بكم» أي: ما تؤمرون به وتنهون عنه[(٣)]. وقيل: أمرَ النبيُّ ﷺ أن يقول للمؤمنين: ما أدري ما يفعل بي ولا بكم في القيامة، ثم بيَّن اللهُ تعالى ذلك في قوله: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح:٢] وبيَّن فيما بعد ذلك حالَ المؤمنين، ثم بيَّن حالَ الكافرين[(٤)].

قلت: وهذا معنى القول الأوّل، إلا أنه أطلَق فيه النسخَ بمعنى البيان، وأنه أمَرَ أن يقول ذلك للمؤمنين، والصحيحُ ما ذكرناه عن الحسن وغيرِه.

---

(١) في تفسيره ٢١/ ١٢٣، والقول الذي قبله منه.

(٢) أخرجه الطبري ٢١/ ١٢٢، وفي إسناده أبو بكر الهذلي؛ قال الحافظ ابن حجر في تقريب التهذيب: أخباري متروك الحديث.

(٣) ذكره عنه الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٢٧٣، والرازي في تفسيره ٢٨/ ٨، وذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٩٤ دون نسبة.

(٤) تفسير الطبري ٢١/ ١٢٠.

و«ما» في ﴿مَا يُفْعَلُ﴾: يَجوز أن تكون موصولةً، وأن تكون استفهامية مرفوعة. ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ وقرئ: «يُوحِي» أي: اللهُ عزَّ وجلَّ[1]. تقدَّم في غير موضع.

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ يعني القرآن. ﴿وَكَفَرْتُم بِهِۦ﴾ وقال الشعبيُّ: المرادُ محمدٌ ﷺ[2]. ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ قال ابن عباس والحسن وعكرمة وقتادة ومجاهد: هو عبدُ الله بن سَلَام، شهِدَ على اليهود أن رسولَ الله ﷺ مذكورٌ في التوراة، وأنه نبيٌّ من عند الله[3].

وفي الترمذي[4] عنه: ونَزَلت فيَّ آياتٌ من كتاب الله، نزلت فيَّ: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ وقد تقدَّم في آخر سورة الرعد[5].

وقال مسروق: هو موسى والتوراة، لا ابنُ سَلَام؛ لأنه أسلَم بالمدينة، والسورةُ مكيةٌ. وقال: وقوله: ﴿وَكَفَرْتُم بِهِۦ﴾ مخاطبة لقريش.

الشعبيُّ: هو مَن آمن مِن بني إسرائيل بموسى والتوراة؛ لأن ابن سَلَام إنما أسلَم قبل وفاة النبيِّ ﷺ بعامين، والسورةُ مكية[6].

---

(١) الكشاف ٣/ ٥١٨ ، وذكر القراءة أيضاً أبو حيان في البحر ٨/ ٧٥ ، وهي قراءة شاذة.

(٢) النكت والعيون ٥/ ٢٧٣ .

(٣) تفسير مجاهد ٢/ ٥٩٣ ، وتفسير الطبري ٢١/ ١٢٨-١٣٠ ، وتفسير عبد الرزاق ٢/ ٢١٥ ، والنكت والعيون ٥/ ٢٧٣ .

(٤) برقم (٣٢٥٦) .

(٥) ١٢/ ٩٨ .

(٦) النكت والعيون ٥/ ٢٧٣ ، وبنحوه في تفسير الطبري ٢١/ ١٢٥ - ١٢٦ .

قال القُشَيْرِيُّ: ومن قال: الشاهدُ موسى، قال: السورة مكية، وأسلَم ابنُ سَلَام قبلَ موتِ النبيِّ ﷺ بعامين[(١)]. ويجوز أن تكون الآيةُ نَزَلت بالمدينة وتوضع في سورةٍ مكية؛ فإن الآية كانت تنزل فيقول النبيُّ ﷺ ضعوها في سورة كذا[(٢)].

والآيةُ في مُحاجَّة المشركين، ووجهُ الحجَّة أنهم كانوا يراجعون اليهودَ في أشياء، أي: شهادتهم لهم وشهادة نبيِّهم لي من أوضح الحجج. ولا يبعد أن تكون السورةُ في مُحاجَّة اليهود، ولمَّا جاء ابن سَلَام مُسْلِمًا من قبل أن تعلم اليهود بإسلامه قال: يا رسولَ الله، اجعلني حَكَماً بينك وبين اليهود، فسألهم عنه: «أيُّ رجلٍ هو فيكم؟» قالوا: سَيِّدُنا وعالِمُنا. فقال: «إنه قد آمن بي» فأساؤوا القولَ فيه... الحديث، وقد تقدَّم[(٣)]. قال ابن عباس: رضيَت اليهودُ بحكم ابن سلام، وقالت للنبيِّ ﷺ: إن يشهد لك آمنَّا بك؛ فسئل فشهِد ثم أسلَم[(٤)]. ﴿عَلَىٰ مِثۡلِهِۦ﴾ أي: على مثل ما جئتكم به، فشهِد موسى على التوراة، ومحمدٌ على القرآن. وقال الجُرْجَانيُّ. «مِثْل» صلة، أي: وشهد شاهدٌ عليه أنه من عند الله. ﴿فَـَٔامَنَ﴾ أي: هذا الشاهد. ﴿وَٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡۖ﴾ أنتم عن الإيمان. وجوابُ «إنْ كَانَ» محذوفٌ تقديره: فآمن، أتؤمنون؟ قاله الزجاج[(٥)].

وقيل: «فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ» أليس قد ظلمتم؟ يبيِّنه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ وقيل: «فَآمَنَ واسْتَكْبَرْتُمْ» أفتأْمنون عذابَ الله؟[(٦)]. و«أَرَأَيْتُمْ» لفظٌ موضوع للسؤال والاستفهام؛ ولذلك لا يقتضي مفعولاً. وحكى النقاشُ وغيره: أن في الآية تقديماً وتأخيراً، وتقديره: قل أرأيتم إن كان من عند الله وشهِد شاهدٌ من بني إسرائيل فآمن هو وكفرتم، إن الله لا يهدي القوم الظالمين[(٧)].

---

(١) سلف قول القشيري هذا ١٢/ ٩٩.

(٢) ذكر هذا القول الرازيُّ في تفسيره ٢٨/ ١٠ عن الكلبي.

(٣) أخرجه الإمام أحمد (١٢٠٥٧)، والبخاري (٣٣٢٩) من حديث أنس ﷺ بنحوه.

(٤) أخرجه الطبري ٢١/ ١٢٧ - ١٢٨ بنحوه.

(٥) في معاني القرآن له ٤/ ٤٤٠، وذكر هذا الكلام البغويُّ في تفسيره ٤/ ١٦٥.

(٦) الوسيط ٤/ ١٠٤ - ١٠٥، وزاد المسير ٧/ ٣٧٤.

(٧) النكت والعيون ٥/ ٢٧٤.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِۚ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُواْ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴿١١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِۚ﴾ اختلف في سبب نزولها على ستة أقوال:

الأوّل: أنَّ أبا ذَرٍّ الغفاريَّ دعاه النبيُّ ﷺ إلى الإسلام بمكة فأجاب، واستجار به قومُه، فأتاه زعيمُهم فأسلَم، ثم دعاهم الزعيمُ فأسلَموا، فبلغَ ذلك قريشاً، فقالوا: غفارٌ الحلفاء لو كان هذا خيراً ما سَبقونا إليه؛ فنزلَت هذه الآيةُ، قاله أبو المتوكل[(١)].

الثاني: أن زِنِّيرة أسلَمت فأصيب بصرُها، فقالوا لها: أصابك اللاتُ والعزَّى؛ فردَّ اللهُ عليها بصرَها. فقال عظماء قريش: لو كان ما جاء به محمدٌ خيراً ما سبقتْنا إليه زِنِّيرة؛ فأنزَل اللهُ تعالى هذه الآية؛ قاله عروة بنُ الزبير[(٢)].

الثالث: أن الذين كفَروا هم بنو عامر، وغَطَفان، وتميم، وأسَد، وحَنْظَلة، وأشْجَع، قالوا لمن أسلَم مِن غِفار وأسلَم وجُهينة ومُزينة وخزاعة: لو كان ما جاء به محمدٌ خيراً ما سبقتنا إليه رُعَاةُ الْبَهْم؛ إذ نحن أعزُّ منهم؛ قاله الكلبيُّ والزَّجَّاج[(٣)]، وحكاه القُشَيْريُّ عن ابن عباس.

وقال قتادة: نزَلت في مشركي قريش، قالوا: لو كان ما يدعونا إليه مُحمدٌ خيراً ما

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٢٧٤، وزاد المسير ٧/ ٣٧٥.

(٢) النكت والعيون ٥/ ٢٧٤، وأخرج نحوه الواحدي في الوسيط ٤/ ١٠٥ عن أبي الزناد، عن أبيه، وذكره ابن الجوزي في زاد المسير ٧/ ٣٧٥ عن أبي الزناد، دون ذكر زِنِّيرة.

وزِنيرة هي مولاة أبي بكر الصديق ﷺ وهي أحد السبعة الذين كانوا يعذَّبون في الله، فاشتراهم أبو بكر، وأعتقهم. ينظر الاستيعاب على هامش الإصابة ١٣/ ١٤ - ١٥.

(٣) في معاني القرآن له ٤/ ٤٤٠، وذكره أيضاً الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٢٧٤، والبغوي في تفسيره ٤/ ١٦٦، وابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٩٥، وابن الجوزي في زاد المسير ٧/ ٣٧٥ دون ذكر تميم وحنظلة وخزاعة.

سبقنا إليه بِلال وصُهيب وعَمَّار وفلانٌ وفلان[1]. وهو القول الرابع.

القول الخامس: أن الذين كفروا من اليهود قالوا للذين آمنوا ـ يعني عبد الله بن سلام وأصحابه ـ: لو كان دين محمد حقًّا ما سبقونا إليه؛ قاله أكثر المفسرين، حكاه الثعلبيُّ[2].

وقال مسروقٌ: إن الكفار قالوا: لو كان خيراً ما سبقتنا إليه اليهود؛ فنزلت هذه الآية.

وهذه المعارضةُ من الكفار في قولهم: لو كان خيراً ما سبقونا إليه من أكبرِ المعارضات بانقلابها عليهم لكلِّ من خالَفهم؛ حتى يقال لهم: لو كان ما أنتم عليه خيراً ما عدلنا عنه، ولو كان تكذيبكم للرسول خيراً ما سبقتمونا إليه؛ ذكره الماورديُّ[3].

ثم قيل: قوله: ﴿مَّا سَبَقُونَآ إِلَيۡهِۚ﴾ يجوز أن يكون من قول الكفار لبعض المؤمنين، ويجوز أن يكون على الخروج من الخطاب إلى الغيبة؛ كقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَرَيۡنَ بِهِم﴾[4] [يونس: ٢٢]. ﴿وَإِذۡ لَمۡ يَهۡتَدُواْ بِهِۦ﴾ يعني الإيمان. وقيل: القرآن. وقيل: محمد ﷺ. ﴿فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفۡكٞ قَدِيمٞ﴾ أي: لمَّا لم يصيبوا الهدى بالقرآن ولا بمن جاء به؛ عادَوْه ونسبُوه إلى الكذب، وقالوا: هذا إفك قديمٌ؛ كما قالوا: أساطير الأوَّلين[5]. وقيل لبعضهم: هل في القرآن: مَن جَهِل شيئاً عاداه؟ فقال: نعم، قال الله تعالى: ﴿وَإِذۡ لَمۡ يَهۡتَدُواْ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفۡكٞ قَدِيمٞ﴾ ومثله:

---

(١) ذكره النحاس في إعراب القرآن ٤/ ١٦١ ، وابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٩٥ ، وأخرجه بنحوه عبد الرزاق ٢/ ٢١٦ ، والطبري ٢١/ ١٣٢ - ١٣٣ ، وينظر ما سلف ١٥/ ٣٩١ .

(٢) المحرر الوجيز ٥/ ٩٥ .

(٣) في النكت والعيون ٥/ ٢٧٤ - ٢٧٥ ، وقول مسروق هو القول السادس .

(٤) تفسير الرازي ٢٨/ ١١ .

(٥) تفسير البغوي ٤/ ١٦٦ بنحوه .

﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ﴾ [يونس: ٣٩].

قوله تعالى: ﴿وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمِن قَبْلِهِۦ﴾ أي: ومن قبل القرآن ﴿كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ﴾ أي: التوراة ﴿إِمَامًا﴾ يقتدى بما فيه ﴿وَرَحْمَةً﴾ من اللهِ. وفي الكلام حذفٌ؛ أي: فلم يهتدوا به. وذلك أنه كان في التوراة نعتُ النبيِّ ﷺ والإيمانُ به، فتركوا ذلك. و«إِمَامًا» نصب على الحال؛ لأن المعنى: وتقدَّمه كتابُ موسى إماماً. «وَرَحْمَةً» معطوف عليه. وقيل: انتصب بإضمار فعلٍ، أي: أنزلناه إماماً ورحمة[1]. وقال الأخفش[2]: على القطع؛ لأن كتاب موسى معرفةٌ بالإضافة؛ لأن النكرة إذا أعيدت أو أُضيفت أو أدخل عليها ألف ولام صارت معرفةً. ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ﴾ يعني القرآن ﴿مُّصَدِّقٌ﴾ يعني للتوراةِ ولِمَا قبلَه من الكتب. وقيل: مصدِّق للنبيِّ ﷺ. ﴿لِّسَانًا عَرَبِيًّا﴾ منصوب على الحال؛ أي: مصدِّق لِمَا قبلَه عربيًّا، و﴿لِّسَانًا﴾ توطئة للحال، أي: تأكيد؛ كقولهم: جاءني زيدٌ رجلاً صالحاً، فتذكر رجلاً توكيداً[3]. وقيل: نصب بإضمار فعل تقديره: وهذا كتابٌ مصدِّق؛ أعني لساناً عربيًّا. وقيل: نصب بإسقاط حرفِ الخفض تقديره: بلسانٍ عربيٍّ. وقيل: إن لساناً مفعول، والمراد به النبيُّ ﷺ، أي: وهذا كتاب مصدِّقٌ للنبيِّ ﷺ لأنه معجزته؛ والتقدير: مصدِّق ذا لسان عربيٍّ. فاللسان منصوب بمصدِّق، وهو النبيُّ ﷺ. ويبعد أن يكون اللسان القرآنَ؛ لأن المعنى يكون يصدِّق نفسَه[4]. ﴿لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ قراءة العامة: «لِيُنْذِرَ» بالياء خبرٌ عن الكتاب، أي: لينذر الذين ظلموا أنفسَهم بالكفر والمعصية.

---

(١) الكلام بنحوه في معاني القرآن للزجاج ٤/ ٤٤٠ - ٤٤١، والوسيط ٤/ ١٠٥ - ١٠٦.

(٢) ينظر كلامه في معاني القرآن له ٢/ ٦٩٣.

(٣) معاني القرآن للزجاج ٤/ ٤٤١، والوسيط ٤/ ١٠٦.

(٤) تفسير الطبري ٢١/ ١٣٤، وبنحوه في معاني القرآن للأخفش ٢/ ٦٩٣.

وقيل: هو خبرٌ عن الرسول ﷺ. وقرَأ نافعٌ وابن عامر والبَزِّيُّ: بالتاء[١]، واختاره أبو عبيد وأبو حاتم؛ على خطاب النبيِّ ﷺ، قال اللهُ تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ﴾ [الرعد: ٧]. ﴿وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ﴾ «بُشْرَى» في موضع رفع[٢]، أي: وهو بشرى. وقيل: عطفاً على الكتاب، أي: وهذا كتاب مصدِّقٌ وبشرى. ويجوز أن يكون منصوباً بإسقاط حرف الخفض، أي: لينذر الذين ظلَموا، وللبشرى؛ فلمَّا حذف الخافض نصب. وقيل: على المصدر، أي: وتبشر المحسنين بشرى، فلمَّا جعل مكان وتبشر بشرى أو بشارة؛ نصب؛ كما تقول: أتيتك لأَزورَك، وكرامةً لك وقضاءً لحقك؛ يعني لأزورك وأكرمك وأقضي حقَّك؛ فنصب الكرامة بفعلٍ مضمر[٣].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ﴾ الآية تقدَّم معناها[٤]. وقال ابن عباس: نزلت في أبي بكر الصدِّيق[٥]. والآية تعمُّ. ﴿جَزَآءً﴾ نصب على المصدر[٦].

قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾﴾

فيه سبع مسائل:

---

(١) السبعة ص٥٩٦، والتيسير ص١٩٩.
(٢) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٦٢، وينظر الكشف عن وجوه القراءات السبع ٢/ ٢٧١.
(٣) تفسير الطبري ٢١/ ١٣٥، وينظر معاني القرآن للفراء ٣/ ٥١ - ٥٢.
(٤) عند تفسير الآية (٣٠) من سورة فصلت.
(٥) تفسير أبي الليث السمرقندي ٣/ ٢٣٢، وعزاه السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٤٠ لابن عساكر.
(٦) إملاء ما من به الرحمن ٤/ ٣٢٠ على هامش الفتوحات الإلهية.

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَـٰنًا﴾ بيَّن اختلافَ حالِ الإنسان مع أبويه، فقد يُطيعهما وقد يُخالفهما، أي: فلا يَبعُد مثلُ هذا في حقِّ النبيِّ ﷺ وقومِه حتى يَستجيب له البعضُ ويَكفُر البعض. فهذا وجهُ اتصال الكلام بعضه ببعض؛ قاله القشيريُّ[1].

الثانية: قوله تعالى: ﴿حُسْنًا﴾ قراءة العامة: «حُسْنًا» وكذا هو في مصاحف أهل الحرمين والبصرة والشامِ. وقرأ ابن عباس والكوفيون: «إِحْسَاناً» وحُجتهم قوله تعالى في سورة الأنعام [الآية: ١٥١] وبني إسرائيل [الآية: ٢٣]: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا﴾ وكذا هو في مصاحف الكوفة.

وحجةُ القراءة الأولى قولُه تعالى في سورة العنكبوت: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا﴾[2] [الآية: ٨]، ولم يختلفوا فيها. والحُسْن خلاف القُبْح. والإحسان خلاف الإساءة[3]. والتوصية: الأمر. وقد مضى القول في هذا وفيمن نزلت[4].

الثالثة: قوله تعالى: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾ أي: بكرهٍ ومشقَّة[5]. وقراءة العامة بفتح الكاف. واختاره أبو عبيد، قال: وكذلك لفظ الكره في كلِّ القرآن - بالفتح - إلا التي في سورة البقرة: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ﴾ [الآية: ٢١٦] لأن ذلك اسمٌ، وهذه كلُّها مصادر. وقرأ الكوفيون: «كُرْهًا» بالضم[6]. قيل: هما لغتان مثل الضُّعْف والضَّعْف، والشُّهْد والشَّهْد[7]؛ قاله الكسائيُّ، وكذلك

(١) بعدها في (ظ) زيادة: وقتادة.

(٢) قرأ: «إحساناً» عاصم وحمزة والكسائي، وقرأ الباقون من السبعة: «حسناً» السبعة ص٥٩٦، والتيسير ص١٩٩، وينظر معاني القرآن للفراء ٣/ ٥٢، والطبري ٢١/ ١٣٦ - ١٣٧.

(٣) تفسير الرازي ٢٨/ ١٤.

(٤) ١٣/ ٣٢٨ - ٣٢٩.

(٥) تفسير الطبري ٢١/ ١٣٧.

(٦) قرأ بالضم عاصم وحمزة والكسائي وابن عامر في رواية ابن ذكوان، والباقون من السبعة؛ بالفتح. السبعة ص ٥٩٦، والتيسير ص ١٩٩.

(٧) الكلام بنحوه في تفسير الرازي ٢٨/ ١٤.

هو عند جميع البصريين. وقال الكسائيُّ أيضاً والفرَّاء في الفرْق بينهما: إن الكُره ـ بالضم ـ ما حمل الإنسان على نفسه، وبالفتح ما حمل على غيره[١]؛ أي: قهْراً وغَضَباً؛ ولهذا قال بعض أهل العربية: إن كَرهاً ـ بفتح الكاف ـ لَحنٌ[٢].

الرابعة: قوله تعالى: ﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾ قال ابن عباس: إذا حَمَلَت تسعة أشهر أرضعت إحدى وعشرين شهرًا، وإن حملَت ستة أشهر أرضعت أربعة وعشرين شهراً[٣].

وروي أن عثمان قد أتي بامرأةٍ قد ولدت لستة أشهر، فأراد أن يقضي عليها بالحدِّ؛ فقال له عليٌّ ﷺ: ليس ذلك عليها، قال الله تعالى: ﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾ وقال تعالى: ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾ [البقرة: ٢٣٣] فالرضاع أربعة وعشرون شهراً، والحمل ستة أشهر، فرجع عثمان عن قوله ولم يحدَّها[٤]، وقد مضى في «البقرة»[٥].

وقيل: لم يعدَّ ثلاثة أشهر في ابتداء الحمل؛ لأن الولد فيها نطفةٌ وعلقة ومضغة، فلا يكون له ثِقَل يُحسُّ به، وهو معنى قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ﴾[٦] [الأعراف: ١٨٩]. والفِصالُ: الفِطام. وقد تقدَّم في «لقمان» الكلامُ فيه[٧].

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٢٧٦.

(٢) وقال صاحب هذا القول: لو حملته كَرهاً لَرَمَتْ به عن نفسها، لأن الكَره القهرُ والغضبُ. وذكره النحاس في إعراب القرآن ٤/ ١٦٤، وابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٩٧. ورده أبو جعفر النحاس بأن الكَره والكُره لغتان بمعنى واحد.

(٣) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٢٧٦، والواحدي في الوسيط ٤/ ١٠٧، وسلف ٤/ ١١٠ - ١١١.

(٤) سلفت ص٩٠ من هذا الجزء.

(٥) الذي مضى الكلام عن أحكام الرضاع ٤/ ١٠٦ وما بعد.

(٦) تفسير الرازي ٢٨/ ١٤.

(٧) ١٦/ ٤٧٤.

وقرَأ الحسنُ ويعقوب وغيرهما: «وفَصْله» بفتح الفاء وسكون الصاد[١].

وروي أن الآية نَزَلت في أبي بكر الصدِّيق، وكان حملُه وفصاله في ثلاثين شهراً[٢]، حملته أمه تسعةَ أشهر، وأرضعته إحدى وعشرين شهراً.

وفي الكلام إضمارٌ، أي: ومدَّة حملِه ومدَّة فصاله ثلاثون شهراً، ولولا هذا الإضمارُ لنصب ثلاثون على الظرف وتغيَّر المعنى[٣].

الخامسة: قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ﴾ قال ابن عباس: ثماني عشرة سنة[٤]. وقال في رواية عطاء عنه: إن أبا بكر صحب النبيَّ ﷺ وهو ابن ثماني عشرة سنة، والنبيّ ﷺ ابن عشرين سنة، وهم يريدون الشامَ للتجارة، فنَزلوا منزِلاً فيه سدرة، فقعد النبيُّ ﷺ في ظلِّها، ومضى أبو بكر إلى راهبٍ هناك، فسأله عن الدِّين. فقال الراهب: مَن الرجل الذي في ظلِّ الشجرة؟ فقال: ذاك محمدُ بن عبد الله بن عبد المطلب. فقال: هذا واللهِ نبيٌّ، وما استظلَّ أحدٌ تحتَها بعد عيسى. فوقَع في قلب أبي بكر اليقينُ والتصديق؛ وكان لا يَكاد يُفارِق رسولَ الله ﷺ في أسفاره وحضَرِه. فلما نُبِّئَ رسولُ الله ﷺ وهو ابن أربعين سنة، صدَّق أبو بكر ﷺ رسولَ الله ﷺ وهو ابن ثمانية وثلاثين سنة. فلمَّا بلَغ أربعين سنة قال: ﴿رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ﴾[٥] الآية. وقال الشعبيُّ وابن زيد: الأشُدُّ: الحُلُم[٦]. وقال الحسن: هو

---

(١) ذكر قراءة الحسن النحاسُ في إعراب القرآن ٤/ ١٦٤، وابنُ عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٩٧، وقراءة يعقوب في النشر ٢/ ٢٧٩ وهي من العشرة.

(٢) ذكره الواحدي في الوسيط ٤/ ١٠٧ بنحوه، وأخرجه الفراء في معاني القرآن ٣/ ٥٣ عن الكلبي عن أبي صالح، عن ابن عباس، دون قوله: «وكان حمله وفصاله في ثلاثين شهراً..».

(٣) مشكل إعراب القرآن ٢/ ٦٦٦، وينظر إملاء ما به بن الرحمن ٤/ ٣٢٠ على هامش الفتوحات.

(٤) لم نقف عليه، وأخرج الطبري ١٣/ ٦٧ - ٦٨ عنه أنه بضع وثلاثون، ثم قال: وروي عن ابن عباس من وجه غير مرضيٍّ أنه قال: ما بين ثماني عشرة سنةً إلى ثلاثين.

(٥) أسباب النزول للواحدي ص٤٠١-٤٠٢، وزاد المسير ٧/ ٣٧٧ - ٣٧٨، وأشار الحافظ ابن حجر في الإصابة ١/ ٢٩٤ (ترجمة بحيرا) إلى ضعفه.

(٦) أخرجه الطبري في تفسيره عنهما ٩/ ٦٦٤، وابن أبي حاتم ٥/ ١٤١٩ (٨٠٨٨) عن الشعبي، وسلف ٩/ ١١٢ من قول ابن زيد.

بلوغ الأربعين[١]. وعنه: قيام الحجة عليه. وقد مضى في «الأنعام»[٢] الكلامُ في الآية. وقال السّدِّي والضحاك: نزلَت في سعد بن أبي وقاص. وقد تقدم[٣]. وقال الحسن: هي مرسَلة نزلَت على العموم[٤]. واللهُ أعلم.

السادسة: قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ﴾ أي: ألهمني .﴿أَنْ أَشْكُرَ﴾ في موضع نصب على المصدر، أي: شُكْرَ نعمتِك ﴿عَلَيَّ﴾ أي: ما أنعمتَ به عليَّ من الهداية ﴿وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ﴾ بالتحنُّن والشفقة حتى ربَّياني صغيراً. وقيل: أنعمتَ عليَّ بالصحَّة والعافية، وعلى والديَّ بالغنى والثَّروة[٥].

وقال عليٌّ ﷺ: هذه الآية نزلت في أبي بكر الصدِّيق ﷺ؛ أسلَم أبواه جميعاً، ولم يَجتمع لأحدٍ من المهاجرين [أن][٦] أسلم أبواه غيرُه، فأوصاه اللهُ بهما، ولزِم ذلك مَن بعده[٧]. ووالدُه: هو أبو قُحافة عثمانُ بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعدِ بن تَيْم[٨]. وأمُّه: أمُّ الخير، واسمها سَلْمَى بنت صخر بن عامر[٩] بن كعب بن سعد[١٠].وأم أبيه أبي قحافة : قَيْلة، بالياء المعجمة باثنتين من تحتها[١١]، وامرأة أبي

(١) أخرجه ابن أبي حاتم ٥/ ١٤١٩ (٨٠٨٧) .
(٢) ٩/ ١١١ وما بعد .
(٣) ١٦/ ٤٧٣ .
(٤) زاد المسير ٧/ ٣٧٨ .
(٥) النكت والعيون ٥/ ٢٧٧ .
(٦) لفظة أن من (م).
(٧) الوسيط ٤/ ١٠٧ ، وتفسير البغوي ٤/ ١٦٧ .
(٨) الاستيعاب ١٢/ ٩٢ على هامش الإصابة ، والتعريف والإعلام للسهيلي ص ١٥٦ .
(٩) في (د) و(ز) و(ظ) : عمرو .
(١٠) الاستيعاب على هامش الإصابة ١٣/ ٢١٦ ، وفي الإصابة ١٢/ ٣١٠ و١٣/ ٢٠٣ : بنت صخر بن عامر ابن كعب... ، وقيل: بنت صخر بن عمرو بن عامر القرشية.
(١١) ذكر ابن ماكولا في الإكمال ٧/ ١٣٠ : أن اسمها : قيلة بنت أذة بن رياح.. ، وقال ابن حجر في الإصابة ٦/ ٣٨٩ : أمه : آمنة بنت عبد العزى العدوية ، عديَ قريش ، وقيل : اسمها : قيلة ..

بكر الصديق اسمُها قَتْلَة[١] ـ بالتاء المعجمة باثنتين من فوقها ـ بنتُ عبد العُزَّى.

﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ﴾ قال ابن عباس: فأجابه اللهُ، فأعتَق تسعةً من المؤمنين يعذَّبون في الله، منهم بلال وعامر بن فُهيرة؛ ولم يدَع شيئاً من الخير إلا أعانَه اللهُ عليه[٢].

وفي الصحيح[٣] عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من أَصبَح منكم اليوم صَائماً؟» قال أبو بكر: أنا. قال: «فَمن تَبِع منكم اليوم جَنَازةً؟» قال أبو بكر: أنا. قال: «فمن أطعَم منكم اليوم مِسْكِيناً؟» قال أبو بكر: أنا. قال: «فمن عاد منكم اليوم مَريضاً؟» قال أبو بكر: أنا. قال رسولُ الله ﷺ: «ما اجتَمَعن في امرئ إلا دخَل الجَنَّةَ».

السابعة: قوله تعالى: ﴿وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ﴾ أي: اجعل ذرِّيَّتي صالحين[٤]. قال ابن عباس: فلم يبقَ له ولدٌ ولا والد ولا والدة إلا آمَنوا بالله وحدَه[٥]. ولم يكن أحدٌ من أصحابِ رسول الله ﷺ أسلَم هو وأبواه وأولادُه وبناته كلُّهم إلا أبو بكر[٦].

وقال سهل بن عبد الله: المعنى اجعلْهم لي خَلَف صِدقٍ، ولك عبيدَ حقٍّ. وقال أبو عثمان: اجعلهم أبراراً لي مطيعين لك. وقال ابن عطاء: وفقهم لصالح أعمالٍ ترضى بها عنهم. وقال محمد بن علي: لا تجعل للشيطان والنفْس والهوى عليهم سبيلاً[٧]. وقال مالك بن مِغول[٨]: اشتكى أبو معشر ابنَه إلى طلحة بن مُصَرِّف؛

(١) في (م): قتيلة، وهو صحيح أيضاً؛ توضيح المشتبه ٧/ ١٤٤ .

(٢) الوسيط للواحدي ٤/ ١٠٧-١٠٨ ، وزاد المسير ٧/ ٣٨٧ . وقد سمَّى ابن هشام في السيرة ١/ ٣١٨ - ٣١٩ سبعة ممن أعتقهم أبو بكر ﷺ.

(٣) صحيح مسلم (١٠٢٨) .

(٤) تفسير أبي الليث السمرقندي ٣/ ٢٣٢ .

(٥) الوسيط ٤/ ١٠٨ .

(٦) زاد المسير ٧/ ٣٨٧ .

(٧) النكت والعيون ٥/ ٢٧٨ .

(٨) في (م) مقول ، وهو خطأ.

فقال: استعِن عليه بهذه الآية؛ وتلا: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓۖ إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾[1].

﴿إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ﴾ قال ابن عباس: رجعْتُ عن الأمر الذي كنتُ عليه[2]. ﴿وَإِنِّي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ أي: المخلِصين بالتوحيد[3].

قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُواْ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِيٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِۖ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ ١٦﴾

قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُواْ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾ قراءة العامة بضم الياء فيهما. وقرئ: «يَتَقَبَّلُ، وَيَتَجَاوزُ» بفتح الياء[4]؛ والضمير فيهما يرجعُ لِله عزَّ وجلَّ. وقرَأ حفص وحمزة والكسائيُّ: «نَتَقَبَّلُ، ونَتَجَاوَزُ» بالنون فيهما[5]، أي: نغفرها ونصفح عنها. والتجاوزُ أصلُه من جزت الشيءَ: إذا لم تقف عليه. وهذه الآيةُ تدلُّ على أن الآية التي قبلها ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾ إلى آخرها مرسلةٌ نزلَت على العموم. وهو قول الحسن[6].

ومعنى «نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ» أي: نتقبل منهم الحسنات، ونتجاوزُ عن السيئات. قال زيد ابن أسلم ـ ويحكيه مرفوعاً ـ: إنهم إذا أسلموا قُبلت حسناتُهم وغُفرت سيئاتُهم. وقيل: الأحسن ما يَقتضي الثواب من الطاعات، وليس في الحسن المباح ثواب ولا

(١) أخرجه ابن أبي حاتم كما في الدر المنثور ٦/ ٤١، وأبو نعيم في الحلية ٥/ ١٩.

(٢) النكت والعيون ٥/ ٢٧٨.

(٣) تفسير أبي الليث السمرقندي ٣/ ٢٣٢.

(٤) هي قراءة عيسى والأعمش كما في القراءات الشاذة ص ١٣٩، ونسبها ابن الجوزي في زاد المسير ٧/ ٣٧٩ لأبي المتوكل وأبي رجاء وأبي عمران الجوني، ونسبها ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٩٨ للحسن.

(٥) وقرأ الباقون من السبعة بالياء، كما سلف، وهم نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر، وعاصم في رواية أبي بكر. السبعة ص٥٩٧، والتيسير ص١٩٩.

(٦) سلف قوله ص١٩٧ من هذا الجزء.

عقاب؛ حكاه ابن عيسى[(١)]. ﴿فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَنَّةِۖ﴾ «في» بمعنى مع[(٢)]، أي: مع أصحاب الجنة، تقول: أكرمك وأحسن إليك في جميع أهل البلد، أي: مع جميعهم[(٣)].

﴿وَعۡدَ ٱلصِّدۡقِ﴾ نصب لأنه مصدرٌ مؤكد لمَا قبله؛ أي: وعد الله أهلَ الإيمان أن يَتقبل من مُحسنهم ويتجاوزَ عن مسيئهم وعد الصدق[(٤)]. وهو من باب إضافة الشيء إلى نفسه؛ لأن الصدقَ هو ذلك الوعدُ الذي وعده اللهُ؛ وهو كقوله تعالى: ﴿حَقُّ ٱلۡيَقِينِ﴾ [الحجر:٩٩] وهذا عند الكوفيين، فأما عند البصريين فتقديره: وَعْد الكلامِ الصدق أو الكتابِ الصدق، فحذف الموصوف. وقد مضى هذا في غير موضع[(٥)]. ﴿ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ﴾ في الدنيا على ألسنة الرسل؛ وذلك الجنة[(٦)].

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِي قَالَ لِوَٰلِدَيۡهِ أُفّٖ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِيٓ أَنۡ أُخۡرَجَ وَقَدۡ خَلَتِ ٱلۡقُرُونُ مِن قَبۡلِي وَهُمَا يَسۡتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيۡلَكَ ءَامِنۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ خَٰسِرِينَ ﴿١٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِي قَالَ لِوَٰلِدَيۡهِ أُفّٖ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِيٓ أَنۡ أُخۡرَجَ﴾ أي: أن أُبعثَ[(٧)]. ﴿وَقَدۡ خَلَتِ ٱلۡقُرُونُ مِن قَبۡلِي﴾ قراءة نافعٍ وحفص وغيرِهما: «أُفٍّ» مكسور منوَّن. وقرأ ابن كثير وابن محيصن وابن عامر والمفضَّل عن عاصم: «أُفَّ» بالفتح من غير تنوين. الباقون بالكسر غير منوَّن[(٨)]؛ وكلُّها لغات، وقد مضى في «بني إسرائيل»[(٩)].

(١) النكت والعيون ٥/ ٢٧٩ ، ولم نقف على قول زيد بن أسلم مرفوعاً .
(٢) زاد المسير ٧/ ٣٧٩ .
(٣) الكلام بنحوه في الكشاف ٣/ ٥٢١ .
(٤) الكلام بنحوه في معاني القرآن للزجاج ٤/ ٤٤٣ .
(٥) ١٢/ ١٢٨ .
(٦) النكت والعيون ٥/ ٢٧٩ .
(٧) النكت والعيون ٥/ ٢٧٩ .
(٨) وقرأ عاصم في رواية حفص: أُفٍّ، بالكسر منون، وقرأ في رواية شعبة: أُفِّ. السبعة ص ٥٩٧ ، والتيسير ص ١٣٩ ، والمحرر الوجيز ٥/ ٩٩ .
(٩) ١٣/ ٥٧ .

وقراءة العامة: «أَتَعِدَانِنِي» بنونين مخففتين. وفتح ياءه أهلُ المدينة ومكة. وأسكن الباقون. وقرَأ أبو حيوة والمغيرة وهشام: «أَتَعِدَانِّي» بنون واحدة مشدَّدة، وكذلك هي في مصاحف أهل الشام[(١)]. والعامة على ضم الألف وفتح الراء من «أَنْ أُخْرَجَ». وقرأ الحسن ونصر وأبو العالية والأعمش وأبو معمر بفتح الألف وضم الراء[(٢)].

قال ابن عباس والسُّدِّي وأبو العالية ومجاهد: نزلت في عبد الله بن أبي بكر رضي الله عنهما، وكان يَدعوه أبواه إلى الإسلام فيجيبهما بما أخبر الله عزَّ وجلَّ[(٣)]. وقال قتادة والسديُّ أيضاً: هو عبد الرحمن بن أبي بكر قبل إسلامه، وكان أبوه وأمه أمُّ رومان يَدعوانه إلى الإسلام ويَعدانه بالبعث؛ فيردُّ عليهما بما حكاه الله عزَّ وجلَّ عنه؛ وكان هذا منه قبل إسلامه[(٤)].

وروي أن عائشة رضي الله عنها أنكرت أن تكون نزلت في عبد الرحمن[(٥)]. وقال الحسن وقتادة أيضاً: هي نعتُ عبدٍ كافرٍ عاقٍّ لوالديه[(٦)]. وقال الزجاج[(٧)]: كيف يقال نزلت في عبد الرحمن قبل إسلامه واللهُ عزَّ وجلَّ يقول: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ فِيٓ أُمَمٖ﴾ أي: العذاب، ومن ضرورته عدمُ الإيمان، وعبدُ الرحمن من أفاضل المؤمنين؛ فالصحيحُ أنها نزلت في عبدٍ كافر عاقٍّ لوالديه.

---

(١) التيسير ص ١٩٩ .

(٢) ذكرها عن الحسن ابنُ خالويه في القراءات الشاذة ص ١٣٩ ، وعن الأعمش ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٩٩ .

(٣) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٢٨٠ ، وابن الجوزي في زاد المسير ٧/ ٣٨٠ عن مجاهد .

(٤) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٢٧٩ - ٢٨٠ عن السدي ، وأخرجه عبد الرزاق ٢/ ٢١٩ عن قتادة والكلبي .

(٥) أخرجه عبد الرزاق ٢/ ٢١٩ . وأخرج البخاري في صحيحه (٤٨٢٧) عن يوسف بن ماهَك ... فقالت عائشة من وراء الحجاب : ما أنزل الله فينا شيئاً من القرآن ، إلا أن الله أنزل عذري .

(٦) أخرجه عنهما الطبري ٢١/ ١٤٥ .

(٧) في معاني القرآن له ٤/ ٤٤٣ - ٤٤٤ ، ونقله عنه بواسطة الواحدي في الوسيط ٤/ ١٠٩ ، وابن الجوزي في زاد المسير ٧/ ٣٨٠ .

وقال محمد بن زياد: كتب معاوية إلى مروان بن الحكم حتى يبايعَ الناسُ ليزيد؛ فقال عبد الرحمن بن أبي بكر: لقد جئتم بها هِرَقْلِيَّةً، أتبايعون لأبنائكم! فقال مروان: هو الذي يقول الله فيه: ﴿وَالَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ﴾ الآية. فقال: واللهِ ما هو بِه، ولو شئتُ لسمَّيت، ولكن الله لعن أباك وأنت في صلبه، فأنت فَضَض من لعنة الله[١].

قال المهدويُّ: ومن جعل الآيةَ في عبد الرحمن كان قوله بعد ذلك ﴿أُوْلَٰٓئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾ يراد به من اعتقد ما تقدَّم ذِكره؛ فأول الآية خاصٌّ وآخرها عام[٢].

وقيل: إن عبد الرحمن لمَّا قال: ﴿وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِن قَبْلِى﴾ قال مع ذلك: فأين عبدُ الله بن جُدْعان، وأين عثمان بن عمرو، وأين عامر بنُ كعب ومشايخ قريش حتى أسألَهم عمَّا يقولون[٣]. فقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾ يرجعُ إلى أولئك الأقوام.

قلت: قد مضى من خبر عبد الرحمن بن أبي بكر في سورة الأنعام[٤] عند قوله: ﴿لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى الْهُدَى﴾ [الآية: ٧١] ما يدلُّ على نزول هذه الآية فيه؛ إذ كان كافراً، وعند إسلامه وفضله تعيَّن أنه ليس المراد بقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾.

---

(١) أخرجه النسائي في الكبرى (١١٤٢٧)، والحاكم ٢/ ٤٨١ عن محمد بن زياد الجمحي، وقوله: لقد جئتم بها هرقلية. أراد أن البيعة لأولاد الملوك سنة ملوك الروم والعجم. وهرقل: اسم مِلِك الروم. النهاية (هرقل). وقوله: «فأنت فضض من لعنة الله» أراد قطعة وطائفة منها. النهاية (فضض).

(٢) ذكر الحافظ ابن حجر رحمه الله في الفتح ٨/ ٥٧٧ أن القول في عبد الرحمن ضعيف؛ كالقول في عبد الله، وأن نفي عائشة أن تكون نزلت في عبد الرحمن وآل بيته أصح إسناداً وأولى بالقبول.

(٣) في (د) و(ظ): فأين عبد الرحمن بن جذعان، وابن عثمان بن عمرو، وابن عامر بن كعب ..، وذكره الفراء في معاني القرآن ٣/ ٥٤، والواحدي في الوسيط ٤/ ١٠٩، والزمخشري في الكشاف ٣/ ٥٢١ - ٥٢٢ ولفظه عند الفراء: ابن جدعان بن عمرو، وعثمان بن عمرو وهما من أجداده، وبنحوه عند الزمخشري.

(٤) ٨/ ٤٢٨.

﴿وَهُمَا﴾ يعني والديه. ﴿يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ﴾ أي: يدعوان اللهَ له بالهداية[١]. أو يستغيثان بالله من كفره؛ فلمَّا حذف الجارّ وصل الفعل فنصب. وقيل: الاستغاثة: الدعاء؛ فلا حاجةَ إلى الباء[٢]. قال الفرَّاء: أجاب الله دعاءَه وغُواثه.

﴿وَيْلَكَ ءَامِنْ﴾ أي: صدِّق بالبعث. ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ أي: صِدْقٌ لا خُلْفَ فيه. ﴿فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ﴾ أي: ما يقوله والداه. ﴿إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي: أحاديثهم وما سطروه مما لا أصلَ له.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ﴾ يعني الذين أشار إليهم ابن أبي بكر في قوله: أحْيُوا لي مشايخَ قريش، وهم المعنيُّون بقوله: ﴿وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِى﴾. فأما ابن أبي بكر عبدُ الله أو عبدُ الرحمن فقد أجاب اللهُ فيه دعاءَ أبيه في قوله: ﴿وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ﴾ على ما تقدَّم[٣].

ومعنى «حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ» أي: وجب عليهم العذابُ، وهي كلمة اللهِ: «هؤلاء في الجنة ولا أبالي، وهؤلاء في النار ولا أبالي»[٤]. ﴿فِىٓ أُمَمٍ﴾ أي: مع أمم. ﴿قَدْ خَلَتْ﴾: تقدَّمت ومضت. ﴿مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ الكافرين ﴿إِنَّهُمْ﴾ أي: تلك الأممُ الكافرة ﴿كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ﴾ لأعمالهم؛ أي: ضاع سعيهم وخسِروا الجنةَ.

قوله تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ۖ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ۝١٩﴾

قوله تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ﴾ أي: ولكلٍّ واحدٍ من الفريقين المؤمنين والكافرين من الجِنِّ والإنس مراتبُ عند الله يومَ القيامة بأعمالهم. قال ابن زيد: درجاتُ أهل النار في هذه الآية تذهبُ سَفالاً، ودَرجُ أهل الجنة عُلُوًّا[٥]. ﴿وَلِيُوَفِّيَهُمْ

---

(١) الوسيط ٤/ ١٠٩ .

(٢) تفسير الرازي ٢٨/ ٢٤ .

(٣) ص١٩٨ من هذا الجزء.

(٤) سلف ٥/ ١٥ .

(٥) أخرجه الطبري ٢١/ ١٤٦ .

﴿أَعۡمَـٰلَهُمۡ﴾ قرأ ابن كثير وابن مُحَيْصِن وعاصم وأبو عمرو ويعقوب بالياء لذِكرِ اللهِ قبلَه، وهو قولُه تعالى: ﴿إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقࣱّ﴾ واختاره أبو حاتم. الباقون بالنون[١] ردًّا على قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَـٰنَ بِوَ ٰلِدَيۡهِ﴾ وهو اختيار أبي عبيد. ﴿وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾ أي: لا يزاد على مسيء ولا ينقص من محسن.

قوله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ يُعۡرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَذۡهَبۡتُمۡ طَيِّبَـٰتِكُمۡ فِي حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنۡيَا وَٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِهَا فَٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ عَذَابَ ٱلۡهُونِ بِمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَبِمَا كُنتُمۡ تَفۡسُقُونَ ۝٢٠﴾

قوله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ يُعۡرَضُ﴾ أي: ذكِّرهم يا محمد يومَ يُعرض ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ أي: يُكشَف الغطاء فيقرَّبون من النار ويَنظُرون إليها[٢]. ﴿أَذۡهَبۡتُمۡ طَيِّبَـٰتِكُمۡ﴾ أي: يقال لهم: أذهبتم[٣]؛ فالقولُ مضمر. وقرَأ الحسنُ ونصر وأبو العالية ويعقوب وابن كثير: «أَأَذْهَبْتُمْ» بهمزتين مخففتين، واختاره أبو حاتم. وقرأ أبو حيوة وهشام: «آذهبتم» بهمزة واحدة مطولة على الاستفهام. الباقون بهمزة واحدة من غير مدٍّ على الخبر[٤]، وكلُّها لغاتٌ فصيحة ومعناها التوبيخ، والعَرب توبِّخُ بالاستفهام وبغير الاستفهام[٥]؛ وقد تقدَّم. واختار أبو عبيد تركَ الاستفهام؛ لأنه قراءة أكثرِ أئمة السبعة: نافع وعاصم وأبي عمرو وحمزة والكسائي، مع مَن وافقهم: شيبة والزهري وابن مُحَيْصن والمغيرة بن أبي شهاب ويحيى بن الحارث والأعمش ويحيى بن وثَّاب وغيرهم؛ فهذه عليها جِلَّةُ الناس. وتركُ الاستفهام أحسن؛ لأن إثباته يوهم أنهم لم

(١) وقرأ بالياء أيضاً من السبعة ابن عامر في رواية هشام، وبالنون في رواية ابن ذكوان. السبعة ص ٥٩٨، والتيسير ص ١٩٩، والنشر ٢/ ٣٧٣.

(٢) تفسير أبي الليث السمرقندي ٣/ ٢٣٣ - ٢٣٤.

(٣) المحرر الوجيز ٥/ ١٠٠.

(٤) السبعة ص٥٩٨، والتيسير ص١٩٩، ومعاني القرآن للفراء ٣/ ٥٤، وإعراب القرآن النحاس ٤/ ٦٦، والنشر ١/ ٣٦٦.

(٥) معاني القرآن للنحاس ٦/ ٤٥١.

يفعلوا ذلك، كما تقول: أنا ظلمتُك؟ تريد: أنا لم أظلمك. وإثباته حسنٌ أيضاً؛ يقول القائل: ذهبت فعلت كذا؛ يُوَبِّخ ويقول: أذهبت فعلت! كلُّ ذلك جائز[1]. ومعنى «أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ» أي: تمتَّعتم بالطيبات في الدنيا واتبعتم الشهوات واللذات؛ يعني المعاصي[2]. ﴿فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾ أي: عذابَ الخِزْي والفضيحة. قال مجاهد[3]: الهُون: الهَوان. قتادة: بلغة قريش.

﴿بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ أي: تستعلُون على أهلها بغير استحقاق. ﴿وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ﴾ في أفعالكم بَغْيًا وظلماً. وقيل: «أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ» أي: أفنيتم شبابَكم في الكفر والمعاصي. قال ابنُ بحر: الطيباتُ: الشباب والقوَّةُ؛ مأخوذ من قولهم: ذهب أطيباه، أي: شبابه وقوَّتُه. قال الماورديُّ[4]: ووجدت الضحاكَ قاله أيضاً.

قلت: القول الأوّل أظهر، روى الحسن عن الأحنف بن قيس، أنه سمع عمر بنَ الخطاب ﷺ يقول: لَأَنا أعلمُ بخفض العيش، ولو شئتُ لجعلتُ أكباداً وصلاء وصِنابًا وصَلائِقَ، ولكني أستبقي حسناتي؛ فإن اللهَ عزَّ وجلَّ وصَف أقواماً فقال: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا﴾[5].

وقال أبو عبيد في حديث عمر: لو شئتُ لدعوت بصلائق وصناب وكَرَاكِرَ وأسنمة. وفي بعض الحديث: وأفلاذٍ[6]. قال أبو عمرو وغيرُه: الصِّلاءُ ـ بالمدّ

(١) الكلام بنحوه في إعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٦٦ - ١٦٧ .

(٢) الكلام بنحوه في النكت والعيون ٥/ ٢٨١ .

(٣) في تفسيره ٢/ ٥٩٤ ، وأخرجه الطبري ٢١/ ١٤٩ - ١٥٠ .

(٤) في النكت والعيون ٥/ ٢٨١ وما قبله منه سوى قوله : أي أفنيتم شبابكم ...

(٥) أخرجه ابن أبي الدنيا في إصلاح المال (٣٥٧) ، وذكره الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٢٨١ عن الحسن بن دينار عن الأحنف . وأخرجه بنحوه ابن المبارك في الزهد (٥٧٩) ، وابن سعد في الطبقات ٣/ ٢٧٩ ، وأبو نعيم في الحلية ١/ ٤٩ عن جرير بن حازم قال : سمعت الحسن يقول ... وذكره .

(٦) ذكرها الزمخشري في الفائق ٢/ ٣١١ .

والكسر ـ : الشِّواء؛ سُمِّي بذلك لأنه يُصْلَى بالنار[١]. والصِّلاء أيضاً: صِلاء النار؛ فإن فتحتَ الصاد قصرت وقلت: صَلَى النارِ. والصِّنابُ: الأصبغة المتخَذة من الخردل والزَّبيب[٢]. قال أبو عمرو: ولهذا قيل للبِرذَوْن: صِنابِيٌّ؛ وإنما شُبِّه لونه بذلك. قال: والسلائق ـ بالسين ـ هو ما يسلَق من البقول وغيرها. وقال غيره: هي الصلائق بالصاد؛ قال جرير:

تُكَلِّفُنِي مَعِيشَةَ آلِ زيدٍ ومَن لي بالصَّلائق والصِّنابِ[٣]

والصَّلائقُ: الخبزُ الرِّقاق العريض. وقد مضى هذا المعنى في «الأعراف»[٤]. وأما الكراكِرُ فكراكر الإبلِ، واحدتها كِرْكِرَة، وهي معروفة؛ هذا قول أبي عبيد[٥]. وفي الصحاح[٦]: والكِرْكِرة: رَحَى زَوْر البعير، وهي إحدى الثَّفِنات الخمس[٧]. والكِركِرة أيضاً: الجماعةُ من الناس. وأبو مالك عمرو بن كِرْكِرة رجلٌ من علماء اللغة[٨]. قال أبو عبيد: وأما الأفلاذ فإن واحدها فِلْذ، وهي القطعة من الكَبِد. قال أَعْشَى باهلة:

تَكْفِيهِ حُزَّةُ فِلْذٍ إن أَلَمَّ بها من الشِّواء ويُرْوِي شُرْبَه الغُمَرُ[٩]

---

(١) غريب الحديث لأبي عبيد ٣/ ٢٦٣ - ٢٦٤

(٢) الصحاح (صلي ـ صنب).

(٣) غريب الحديث ٣/ ٢٦٤، والبيت في ديوان جرير ٢/ ٨١٢.

(٤) ٩/ ٢٠٧.

(٥) في غريب الحديث ٣/ ٢٦٥.

(٦) مادة (كرر).

(٧) الزَّوْر: أعلى الصدر، والثَّفِنات: جمع ثَفِنة، وهي ما يقع على الأرض من أعضاء البعير إذا استناخ وغلظ، كالركبتين وغيرهما. الصحاح (زور) (ثفن).

(٨) هو أبو مالك الأعرابي، دخل الحاضرة وأخذ الناس عنه، وكان مَولى لبني سعد، ويقال: إنه كان يحفظ اللغة كلها، وكان بصري المذهب، ذكره الأزهري في التهذيب ١/ ١٢ في الطبقة الثانية من الأئمة الذين اعتمد عليهم في جمعه لكتابه ترجمته في إنباه الرواة ٢/ ٣٦٠، ومعجم الأدباء ١٦/ ١٣١ - ١٣٢.

(٩) غريب الحديث ٣/ ٢٦٥، والبيت في الأصمعيات ص ٩١، والكامل للمبرد ١/ ٤٥٩، والخزانة =

وقال قتادة: ذكر لنا أن عمر ﷺ قال: لو شئتُ كنت أطيَبَكم طعاماً، وأليَنَكم لباساً، ولكني أستبقي طيباتي للآخرة. ولمَّا قدِم عمر الشامَ صُنع له طعامٌ لم يرَ قطُّ مثلَه؛ قال: هذا لنا! فما لفقراء المسلمين الذين ماتوا وما شبِعوا من خبز الشعير! فقال خالد بنُ الوليد: لهم الجنة؛ فَاغْرَوْرَقَت عَيْنَا عمرَ بالدموع وقال: لئن كان حظُّنا من الدنيا هذا الحطام، وذهبوا هم في حظِّهم بالجنة فلقد باينونا بَوْنًا بعيداً[1].

وفي صحيح مسلم وغيرِه أن عمر ﷺ دخَل على النبيِّ ﷺ وهو في مَشْرُبَته حين هَجَرَ نساءه قال: فالتفتُّ فلم أرَ شيئاً يردُّ البصر إلا أُهُباً جلوداً معطونة قد سطَع ريحُها؛ فقلت: يا رسولَ الله، أنت رسولُ الله وخِيرته، وهذا كِسْرى وقَيْصر في الديباج والحرير؟ قال: فاستوى جالساً وقال: «أفي شَكٍّ أنت يا ابن الخطاب؟! أولئك قومٌ عُجِّلت لهم طيباتُهم في حياتهم الدنيا» فقلت: استغفر لي! فقال: «اللهم اغفر له»[2].

وقال حفص بن أبي العاص: كنت أتغدَّى عند عمر بن الخطاب رضي عنه الخبزَ والزيتَ، والخبز والخلَّ، والخبز واللبنَ، والخبز والقَدِيد، وأقلُّ ذلك اللحم الغَريض[3]. وكان يقول: لا تنخلوا الدقيقَ؛ فإنه طعامٌ كلُّه؛ فجيء بخبزٍ متفلع[4] غليظ؛ فجعل يأكل ويقول: كلوا؛ فجعلنا لا نأكل؛ فقال: ما لكم لا تأكلون؟ فقلنا: واللهِ يا أمير المؤمنين نرجع إلى طعام ألين من طعامك هذا؛ فقال: يا ابن أبي العاص، أمَا ترى بأني عالم أن لو أمرتُ بعَناق[5] سمينةٍ فيلقى عنها شَعَرها، ثم

= ١/ ١٩٨ ، وقوله : «حُزَّة» أي: قطعة من اللحم قطعت طولاً . و«ألمَّ بها» : أصابها يعني أكلها . و«الغُمَرُ» : قَدَح صغير لا يروي . كذا في الخزانة .

(١) أخرجه عبد الرزاق ٢/ ٢١٧ مختصراً ، والطبري ٢١/ ١٤٧ بتمامه .

(٢) صحيح مسلم (١٤٧٩): (٣٤) بنحوه عن ابن عباس رضي الله عنهما، وهو عند الإمام أحمد (٢٢٢) ، والبخاري (٤٩١٣)، وسلف بنحوه ١٨/ ١٩٠ .

(٣) أي: الطري.

(٤) في (خ) و(ظ) : متقطع ، وفي (د) و(ق) متقلع . والمتفلع : هو المشقق والمقطع . القاموس (فلع) .

(٥) العناق : الأنثى من أولاد المعز . القاموس (عنق) .

تُخرج مَضْلِيَّةً كأنها كذا وكذا. أما ترى بأني عالِمٌ أنْ لو أمرت بصاعٍ أو صاعين من زبيب فأجعله في سقاء ثم أشنُّ عليه من الماء فيصبح كأنه دم غَزال؛ فقلت: يا أمير المؤمنين، أجل! ما تبعتَ[1] العيش، قال: أجل! واللهِ الذي لا إله إلا هو لولا أني أخافُ أن تنقصَ حسناتي يوم القيامة لشاركناكم في العيش! ولكني سمعتُ اللهَ تعالى يقول لأقوامٍ: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا﴾[2].

﴿فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾ أي: الهوان. ﴿بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ أي: تتعظمون عن طاعة الله وعلى عباد الله. ﴿وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ﴾: تَخرجون عن طاعة الله.

وقال جابر: اشتهى أهلي لحماً فاشتريته لهم فمررتُ بعمر بن الخطاب ﷺ فقال: ما هذا يا جابر؟ فأخبرته؛ فقال: أوكلَّما اشتهى أحدُكم شيئاً جعله في بطنه! أمَا يخشى أن يكون من أهل هذه الآية: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ﴾ الآية[3].

قال ابن العربي[4]: وهذا عتابٌ منه له على التوسُّع بابتياع اللحم والخروج عن جِلْف الخبز والماء؛ فإنَّ تعاطي الطيبات من الحلال تستشْرهُ لها الطباع وتستمرئها العادةُ، فإذا فَقَدَتْها استسهلَتْ في تحصيلها بالشبهات حتى تقع في الحرام المحض بغلبة العادة واستشراهِ الهوى على النفس الأمارة بالسوء؛ فأخَذ عمر الأمرَ من أوَّله، وحماه من ابتدائه كما يفعله مثله. والذي يَضبط هذا البابَ ويحفظ قانونَه على المرء أن يأكل ما وجد، طيباً كان أو قَفاراً، ولا يتكلَّف الطيِّبَ ويتخذَه عادة؛ وقد كان

(١) في (م) و(ز) و(ق) تنعت. ولم تجود في (خ).

(٢) أخرجه بنحوه ابن سعد في الطبقات ٣/ ٢٨٠، وابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق ١٤/ ٤١٥. وحفص ابن أبي العاص بن بشر الثقفي، هو أخو عثمان بن أبي العاص الصحابي المشهور، ذكره ابن حجر في الإصابة ٢/ ٢٦٦، وقال: روى البلاذري بإسناد لا بأس به أن حفص كان يحضر طعام عمر، الحديث.

(٣) أخرجه الواحدي في الوسيط ٤/ ١١١ - ١١٢، وبنحوه الإمام مالك في الموطأ ٢/ ٩٣٦، وأحمد في الزهد ص١٥٣.

(٤) في أحكام القرآن ٤/ ١٦٨٦ - ١٦٨٧.

النبيُّ ﷺ يشبع إذا وجد، ويصبِر إذا عَدِم، ويأكل الحلوى إذا قدر عليها، ويشرب العسلَ إذا اتفق له، ويأكل اللحم إذا تيسر؛ ولا يعتمد أصلاً، ولا يجعله دَيْدَناً. ومعيشةُ النبيّ ﷺ معلومة، وطريقة الصحابة منقولة؛ فأما اليوم عند استيلاء الحرام وفساد الحطام فالخلاصُ عسيرٌ، واللهُ يَهَبُ الإخلاصَ، ويُعينُ على الخلاص برحمته.

وقيل: إن التوبيخ واقعٌ على ترك الشكر لا على تناول الطيِّبات المحللة، وهو حسن؛ فإن تناولَ الطيب الحلال مأذونٌ فيه، فإذا ترك الشكر عليه واستعان به على ما لا يَحلُّ له فقد أذهبه. واللهُ أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ﴾ هو هود بن عبد الله بن رباح عليه السلام[(١)]، كان أخاهم في النَّسَب لا في الدِّين[(٢)].

﴿إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ﴾ أي: اذكر لهؤلاء المشركين قصةَ عادٍ ليعتبروا بها. وقيل: أمرَه بأن يتذكّر في نفسه قصةَ هود ليقتديَ به، ويهون عليه تكذيب قومه له[(٣)].

والأحقاف: ديار عاد، وهي الرِّمال العظام؛ في قول الخليل وغيره[(٤)]. وكانوا قهَروا أهلَ الأرض بفضل قوَّتِهم. والأحقاف جمع حِقْف، وهو ما استطالَ من الرمل العظيم واعوجّ ولم يبلغ أن يكون جبلاً[(٥)]، والجمع حِقاف وأحقاف [وحقوف][(٦)].

---

(١) التعريف والإعلام ص ١٥٦ .

(٢) النكت والعيون ٥/ ٢٨٢ .

(٣) ينظر تفسير الرازي ٢٨/ ٢٧ .

(٤) المحرر الوجيز ٥/ ١٠١ بنحوه .

(٥) تفسير الطبري ٢١/ ١٥٠ .

(٦) من (م) ، وينظر اللسان (حقف) .

واحقوقف الرمل والهلال، أي: اعوج. وقيل: الحِقْف جمع حِقاف. والأحقاف جمع الجمع. ويقال: حِقْفٌ أحقف[١]. قال الأعشى:

بـات إلـى أرطـاةِ حِـقـفٍ أحْـقَـفَـا[٢]

أي: رمل مستطيل مشرف. والفعل منه: احقوقف. قال العجّاج:

طَـيَّ الـلـيـالـي زُلَـفـاً فـزُلَـفـا سَـمَـاوَةَ الـهـلالِ حـتـى احْـقَـوْقَـفـا[٣]

أي: انحنى واسْتَدَارَ. وقال امرؤ القيس:

كحِقف النَّقا يمشي الولِيدَانِ فوقَه بما احتسَبا من لِين مَسٍّ وتَسْهَالِ[٤]

وفيما أُريد بالأحقاف هاهنا مختلَف فيه: فقال ابن زيد: هي رمالٌ مشرفة مستطيلة كهيئة الجبال، ولم تبلغ أن تكون جبالاً؛ وشاهدُه ما ذكرناه[٥].

وقال قتادة: هي جبال مشرفة بالشِّحْر، والشِّحْرُ قريبٌ من عَدن؛ يقال: شِحْرُ عُمَان وشَحْرُ عُمان، وهو ساحل البحر بين عُمان وعدن. وعنه أيضاً: ذكر لنا أن عاداً كانوا أحياءً باليمن، أهلَ رملٍ مشرفين على البحر بأرضٍ يقال لها: الشِّحْر[٦].

---

(١) الكلام بنحوه في تهذيب اللغة ٤/ ٦٨، والصحاح (حقف).

(٢) كذا قال، والرجز للعجاج بن رؤبة، وهو في ديوانه ص٤٢٧، ومعاني القرآن لأبي عبيدة ٢/ ٢١٣، وتفسير الطبري ٢١/ ١٥٣، والنكت والعيون ٥/ ٢٨٢. وقوله: «أرطاة»؛ الأرْطَى: شجر ينبت بالرَّمل. اللسان (أرط). أما بيت الأعشى فهو:

يـلـوذ إلـى أرطـاة حـقـف تـلـفّـهُ خريـق شَـمـال يـترك الـوجـهَ أقـتـمـا

وهو في ديوانه ص ٣٤٥.

(٣) ديوان العجاج ص ٤٢٦، قال شارحه: قوله «زلفاً فزلفاً» يريد: زلفة فزلفة أي: درجة فدرجة، والزلف: الدرج. و«سماوة الهلال» هي أعلاه.

(٤) ديوان امرئ القيس ص ٣٠، قال شارحه: «النقا»: ما استدار من الرمل. «احتسبا»: اكتفيا. يقول: جسم هذه المرأة أو عجيزتها كهذا النقا في لينه وامتلائه، وهو مع لينه صلبٌ شديد ليس بمنهال متناثر...

(٥) النكت والعيون ٥/ ٢٨٢، وذكر قول ابن زيد أيضاً البغوي في تفسيره ٤/ ١٧٠، وأخرجه الطبري ٢١/ ١٥٣.

(٦) تفسير البغوي ٤/ ١٧٠، وزاد المسير ٧/ ٣٨٤، وأخرجه عبد الرزاق ٢/ ٢١٧، والطبري ٢١/ ١٥٢ - ١٥٣ بنحوه، وينظر معجم البلدان ٣/ ٣٢٧، والقاموس المحيط (شحر).

وقال مجاهد: هي أرضٌ من حِسْمَى تسمَّى بالأحقاف[١]. وحِسْمَى ـ بكسر الحاء ـ اسم أرض بالبادية، فيها جبال شواهقُ؛ مُلْسُ الجوانب، لا يَكاد القَتام يُفارقها. قال النابغةُ:

فأصبحَ عاقِلاً بجبالِ حِسْمَى دُقاقَ التُّرْبِ مُحْتَزِمَ القَتامِ

قاله الجوهريُّ[٢].

وقال ابن عباس والضحَّاك: الأحقاف جبلٌ بالشام. وعن ابن عباس أيضاً: وادٍ بين عُمان ومَهْرة[٣].

وقال مقاتل: كانت منازل عاد باليمن في حضرموت بواد يقال له: مَهَرَة[٤]، وإليه تنسب الإبل المَهْرِيَّة؛ فيقال: إبل مَهْرِيّة ومَهارِي. وكانوا أهل عُمُد سيَّارة في الربيع، فإذا هاج العودُ رجعوا إلى منازلهم؛ وكانوا من قبيلة إرم[٥].

وقال الكلبيُّ: أحقاف الجبلِ ما نضَب عنه الماءُ زمانَ الغرَق، كان يَنْضُب الماء من الأرض ويبقى أثره.

وروى [أبو] الطُّفيل عن علي بن أبي طالب ﷺ أنه قال: خيرُ وادِيَيْن في الناس وادٍ بمكة؛ ووادٍ نزَل به آدم بأرض الهند، وشرُّ وادِيَيْن في الناس وادٍ بالأحقاف؛ ووادٍ

(١) تفسير مجاهد ٢/ ٥٩٤ ، بلفظ: خساف من حسمى ، وذكر قوله الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٢٨٢ ، وأخرجه الطبري ٢١/ ١٥٢ .

(٢) في الصحاح (حسم) ومن قوله: وحِسْمى. . . إلى هذا الموضع، ليس في (ظ). ولعله حاشية في الأصل، والبيت في ديوان النابغة الذبياني ص ١١٤ وفيه: وأضحى ساطعاً. وقوله: «القَتام» ، أي: الغبار . القاموس (قتم) قال ابن بري : أي: حِسْمى قد أحاط به القتام كالحزام له . اللسان (حسم) . وحسمى أرض ببادية الشام ، ينظر معجم البلدان ٢/ ٢٥٨ - ٢٥٩ .

(٣) النكت والعيون ٥/ ٢٨٢ ، وأخرجه الطبري ٢١/ ١٥١ .

(٤) قال ياقوت الحموي في معجم البلدان ٥/ ٢٣٤ : مَهرة قبيلة، وهي مهرة بن حَيْدان بن عمرو بن الحاف بن قضاعة .

(٥) تفسير البغوي ٤/ ١٧٠ .

بحضرمَوْت يدعى بَرَهُوت تلقى فيه أرواحُ الكفار. وخير بئرٍ في الناس بئرُ زمزم، وشرُّ بئر في الناس بئر بَرَهُوت، وهو في ذلك الوادي الذي بحضرموت[١].

﴿وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ﴾ أي: مَضت الرسلُ. ﴿مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ﴾ أي: من قبل هود. ﴿وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ﴾ أي: ومن بعده؛ قاله الفرَّاء. وفي قراءة ابن مسعود: «من بين يديه ومن بعده»[٢]. ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ هذا من قول المرسَل، فهو كلام معترض[٣]. ثم قال هود: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ وقيل: «أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللهَ» من كلام هود، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا﴾ فيه وجهان:

أحدهما: لتزيلنا عن عبادتها بالإفك.

الثاني: لتصرفنا عن آلهتنا بالمنع؛ قاله الضحاك[٤]. قال عُروة بن أُذَيْنَة:

إن تك عن أحسن الصنيعة[٥] مأ فُوكاً ففي آخرين قد أفِكوا

(١) النكت والعيون ٥/ ٢٨٢ - ٢٨٣ وما بين حاصرتين منه، وهو الصواب. وأخرجه ابن أبي حاتم كما في الدر المنثور ٦/ ٤٣. وقوله: «وخير بئر في الناس زمزم... إلى قوله: بحضرموت» أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (١١١٦٧) من حديث ابن عباس مرفوعاً، بنحوه. قال الهيثمي في المجمع ٣/ ٢٨٦: رواه الطبراني في الكبير ورجاله ثقات، وصححه ابن حبان.

(٢) النكت والعيون ٥/ ٢٨٣، وذكر القراءة أيضاً الطبريُّ في تفسيره ٢١/ ١٥٤، والنحاس في إعراب القرآن ٤/ ١٦٨ - ١٦٩.

(٣) الكلام بنحوه في الوسيط ٤/ ١١٣.

(٤) النكت والعيون ٥/ ٢٨٣.

(٥) في (ظ) حسن الصنيعة. وسلف البيت عند تفسير الآية (٢٥) من سورة فصلت.

يقول: إن لم توفَّق للإحسان فأنت في قومٍ قد صُرِفوا.

﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ هذا يدلُّ على أن الوعدَ قد يوضع موضعَ الوعيد .﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ أنك نبيٌّ. ﴿قَالَ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ﴾ بوقت مجيء العذاب ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ لا عندي ﴿وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦ﴾ عن ربكم .﴿وَلَـٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾ في سؤالكم استعجالَ العذاب. ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا﴾ قال المبرِّد: الضمير في «رَأَوْهُ» يعودُ إلى غير مذكور؛ وبيَّنه قولُه: «عَارِضًا»، فالضمير يعودُ إلى السحاب؛ أي: فلمَّا رأوا السحابَ عارضاً[١]. فـ «عارضاً» نصب على التكرير؛ سُمِّي بذلك لأنه يبدو في عُرض السماء. وقيل: نصب على الحال[٢]. وقيل: يرجع الضمير إلى قوله: «فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا»[٣] فلما رأوه حسبوه سحاباً يمطرهم، وكان المطر قد أبطأ عنهم، فلما رأوه «مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ» استبشروا[٤]. وكان قد جاءهم من وادٍ جرَت العادةُ أنَّ ما جاء منه يكون غَيْثاً؛ قاله ابن عباس وغيره.

قال الجوهريُّ: والعارض السحاب يَعترض في الأفق؛ ومنه قوله تعالى: ﴿هَـٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾ أي: ممطرٌ لنا؛ لأنه معرفة لا يجوز أن يكون صفةً لعارض وهو نكرة. والعربُ إنما تفعل مثلَ هذا في الأسماء المشتقة من الأفعال دون غيرها. قال جرير:

يا رُبَّ غابِطِنا لو كان يطلبكم ... لاقى مباعدةً منكم وحِرْمَانَا[٥]

ولا يجوز أن يقال: هذا رجلٌ غلامنا. وقال أعرابيٌّ بعد الفِطر: رُبَّ صائمة لن

(١) تفسير الرازي ٢٨/ ٢٧.

(٢) الكشاف ٣/ ٥٢٤.

(٣) تفسير الرازي ٢٨/ ٢٨.

(٤) النكت والعيون ٥/ ٢٨٣، والرازي ٢٨/ ٢٨.

(٥) ديوان جرير ١/ ١٦٣، وهو في الكتاب ١/ ٤٢٧، والمقتضب للمبرد ٣/ ٢٢٧ و٤/ ١٥٠، وتحصيل عين الذهب ص ٢٤٢، وشرح المفصل لابن يعيش ٣/ ٥١. قال الشنتمري في شرحه: رُبَّ من يغبطنا ويَسرُّنا بطلب معروفنا لو طلب ما عندكم لَبُوعد وحُرم، والشاهد في البيت إضافةُ «رب» إلى غابطنا، وربَّ لا تعمل إلا في النكرة، فغابطنا في نية التنوين والانفصال.

تصومه، وقائمةٍ لن تقومه؛ فجعله نعتاً للنكرة وأضافه إلى المعرفة[١].

قلت: قوله: «لا يجوز أن يكون صفة لعارض» خلاف قول النحويين، والإضافة في تقدير الانفصال، فهي إضافة لفظية لا حقيقية؛ لأنها لم تفد الأوّل تعريفاً، بل الاسم نكرة على حاله؛ فلذلك جرى نعتاً على النكرة. هذا قول النحويين في الآية والبيت. ونعت النكرة نكرة. و«رُبّ» لا تدخل إلا على النكرة.

﴿بَلْ هُوَ﴾ أي: قال هود لهم. والدليل عليه قراءة من قرأ: «قال هود بل هو»[٢] وقرئ: «قُلْ بَلْ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ هِيَ رِيحٌ»[٣] أي: قال الله: قل بل هو ما استعجلتم به؛ يعني قولهم: «فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا» ثم بيَّن ما هو فقال: ﴿رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ والريح التي عُذِّبوا بها نشأت من ذلك السحاب الذي رأوه، وخرج هودٌ من بين أظهرهم، فجعلت تحملُ الفساطيط وتحمل الظَّعِينةَ فترفعها كأنها جرادة[٤]، ثم تضرب بها الصخور. قال ابن عباس: أول ما رأوا العارض قاموا فمدّوا أيديهم، فأوّل ما عرَفوا أنه عذاب رأوا ما كان خارجاً من ديارهم من الرجال والمواشي تطيرُ بهم الريح ما بين السماء والأرض مثل الريش، فدخَلوا بيوتهم وأغلَقوا أبوابهم، فقلعت الريحُ الأبوابَ وصرعتهم، وأمرَ اللهُ الريح؛ فأمالت عليهم الرمالَ، فكانوا تحت الرمال سبعَ ليالٍ وثمانية أيامٍ حسوماً[٥]، ولهم أنين؛ ثم أمر اللهُ الريحَ فكشفت عنهم الرمالَ واحتملتهم فرمتهم في البحر، فهي التي قال اللهُ تعالى فيها: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ أي: كل شيء مرَّت عليه من رجال عادٍ وأموالها[٦]. قال ابن عباس: أي: كل

(١) الصحاح (عرض).

(٢) هي قراءة ابن مسعود كما ذكر ابن جني في المحتسب ٢/ ٢٦٥.

(٣) هي قراءة ابن مسعود أيضاً كما ذكر ابن خالويه في القراءات الشاذة ص ١٣٩.

(٤) الكشاف ٣/ ٥٢٤.

(٥) قوله: حسوماً، ليس في المصادر الآتي ذكرها، وهو الأشبه.

(٦) تفسير البغوي ٤/ ١٧٠ - ١٧١، والكشاف ٣/ ٥٢٤، والرازي ٢٨/ ٢٨.

شيء بُعثت إليه، والتدمير: الهلاكُ. وكذلك الدمار. وقرئ: «يَدْمُرُ كُلُّ شَيْءٍ» من دَمَر دماراً[١]. يقال: دَمَّره تدميراً ودماراً ودَمَّر عليه بمعنًى. ودَمَر يَدْمُر دُموراً: دخَل بغير إذن. وفي الحديث: «مَن سَبَقَ طَرْفُه استئذانَه فقد دَمَر» مخفف الميم. وتَدْمُر: بلد بالشام. ويَرْبُوع تَدْمُري إذا كان صغيراً قصيراً[٢]. ﴿بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾: بإذن ربها[٣]. وفي البخاري[٤] عن عائشة رضي الله عنها زوجِ النبيِّ ﷺ قالت: ما رأيتُ رسولَ اللهِ ﷺ ضاحكاً حتى أرى منه لَهَواتِهِ، إنما كان يتبسَّم. قالت: وكان إذا رأى غَيْماً أو رِيحًا عُرِف في وجهه. قالت: يا رسولَ الله، الناسُ إذا رَأَوا الغَيْمَ فرِحوا رجاءَ أنْ يكونَ فيه المطرُ، وأراكَ إذا رأيتَه عُرِف في وجهك الكراهية! فقال: «يا عائشة، ما يُؤَمِّنُني أن يكونَ فيه عذابٌ، عُذِّب قومٌ بالرِّيح، وقد رأى قومٌ العذابَ فقالوا: هذا عارِضٌ مُمْطِرُنا» خَرَّجه مسلمٌ والترمذيُّ، وقال فيه: حديث حسن[٥].

وفي صحيح مسلم[٦] عن ابن عباس، عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «نُصِرتُ بالصَّبا، وأُهْلِكَتْ عادٌ بالدَّبُورِ».

وذكر الماورديُّ[٧] أن القائل: «هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا» من قوم عاد: بكر بنُ معاوية؛ ولمَّا رأى السحابَ قال: إني لأَرَى سحاباً مُرْمِداً، لا تدع من عاد أحداً.

---

(١) الكشاف ٣/ ٥٢٤، وهي قراءة شاذة.

(٢) الصحاح (دمر)، وأخرج الحديث الطبراني في المعجم الكبير (٧٥٠٧) بنحوه من حديث أبي أمامة ﷺ. وفي إسناده عبد الله بن صالح: صدوق كثير الغلط، ثبت في كتابه، وكانت فيه غفلة. والسفر بن نُسَيْر: ضعيف. كذا قال الحافظ ابن حجر في التقريب.

(٣) تفسير أبي الليث السمرقندي ٣/ ٢٣٥.

(٤) (٤٨٢٨ - ٤٨٢٩).

(٥) صحيح مسلم (٨٩٩): (١٦)، وسنن الترمذي (٣٢٥٧) بنحوه، وهو عند الإمام أحمد (٢٤٣٦٩) وسلف بنحوه ٢/ ٥٠٣.

(٦) برقم (٩٠٠)، وسلف ٢/ ٤٩٩.

(٧) في النكت والعيون ٥/ ٣٨٢ - ٢٨٤.

فذكر عمرو بنُ ميمون: أنها كانت تأتيهم بالرجل الغائب حتى تقذفه في ناديهم. قال ابنُ إسحاق: واعتَزل هود ومن معه من المؤمنين في حظيرة، ما يصيبه ومن معه منها إلا ما يلين على[1] ثيابهم. وتلتذ الأنفس به؛ وإنها لتمرُّ من عاد بالظعن بين السماء والأرض وتدْمَغُهُم بالحجارة حتى هَلكوا. وحكى الكلبيُّ أنَّ شَاعرَهم قال في ذلك:

فدعا هودٌ عليهم دعوةً أضحَوْا هُمودا
عصفت ريحٌ عليهم تركت عاداً خُمودا
سُخِّرتْ سبعَ ليالٍ لم تدع في الأرض عُودا

وعَمَّر هودٌ في قومه بعدهم مئة وخمسين سنة.

﴿فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ﴾ قرَأ عاصم وحمزة: «لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ» بالياء غير مسمى الفاعل. وكذلك روى حماد بن سلمة عن ابن كثير إلا أنه قرأ: «ترى» بالتاء. وقد رُوي ذلك عن أبي بكر عن عاصم. الباقون: «تَرى» بتاء مفتوحة. «مَسَاكِنَهُم» بالنصب[2]، أي: لا ترى يا محمد إلا مساكنَهم. قال المهدوِيُّ: ومن قرأ بالتاء غير مسمى الفاعل فعلى لفظ الظاهر الذي هو المساكن المؤنثة، وهو قليل لا يستعمل إلا في الشعر. وقال أبو حاتم: لا يَستقيم هذا في اللغة إلا أن يكون فيها إضمار؛ كما تقول في الكلام: لا تُرى النساء إلا زينب. ولا يجوز: لا تُرى إلا زينب. وقال سيبويه: معناه: لا تُرى أشخاصهم إلا مساكنهم.

واختار أبو عبيد وأبو حاتم قراءةَ عاصم وحمزة. قال الكسائيُّ: معناه لا يُرى شيء إلا مساكنهم[3]، فهو محمولٌ على المعنى؛ كما تقول: ما قام إلا هندٌ، والمعنى ما قام أحدٌ إلا هند. وقال الفرَّاءُ: لا يُرى الناسُ لأنهم كانوا تحتَ الرمل، وإنما تُرى

(١) في النسخ: أعلى. والمثبت من (د) والنكت والعيون، والعبارة فيه: إلا ما يلين على الجلود.
(٢) السبعة ص٥٩٨، والتيسير ص ٢٠٠. ولم نقف على وجهي القراءة لابن كثير وعاصم، والمتواتر عن عاصم: يُرى، وعن ابن كثير: تَرى.
(٣) تفسير الرازي ٢٨/٢٨.

مساكنُهم لأنها قائمة[١]. ﴿كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ أي: مثل هذه العقوبة نُعاقب بها المشركين.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ مَكَّنَّٰهُمۡ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمۡ فِيهِ وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ سَمۡعٗا وَأَبۡصَٰرٗا وَأَفۡـِٔدَةٗ فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُمۡ سَمۡعُهُمۡ وَلَآ أَبۡصَٰرُهُمۡ وَلَآ أَفۡـِٔدَتُهُم مِّن شَيۡءٍ إِذۡ كَانُواْ يَجۡحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ٢٦﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ مَكَّنَّٰهُمۡ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمۡ فِيهِ﴾ قيل: إنَّ «إنْ» زائدةٌ؛ تقديره: ولقد مكنَّاهم فيما مكنَّاكم فيه. وهذا قول القتبيِّ[٢].

وأنشد الأخفش:

يُـرَجِّـي الـمـرءُ مـا إنْ لا يـراهُ ... وتَـعـرِضُ دون أدنـاهُ الـخُـطـوبُ[٣]

وقال آخر:

فـمـا إنْ طِـبُّـنَـا جُـبْـن ولـكـن ... مـنـايـانـا ودَوْلَـةُ آخـريـنـا[٤]

وقيل: إن «ما» بمعنى الذي. و«إن» بمعنى ما؛ والتقدير: ولقد مكناهم في الذي ما مكناكم فيه؛ قاله المبرّدُ[٥].

وقيل: شرطية وجوابها مضمر محذوف؛ والتقدير: ولقد مكناهم في ما إن

(١) الكلام بنحوه في إعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٧٠ .

(٢) تفسير غريب القرآن ص ٤٠٨ ، وتفسير الرازي ٢٨/ ٢٩ .

(٣) النوادر في اللغة ص ٦٠ ، والصاهل والشاحج ص ٢٥٤ ، وخزانة الأدب ٨/ ٤٤٠ . وقائله ـ كما في النوادر ـ هو جابر بن رألان الطائي جاهلي .

(٤) البيت لفروة بن مُسيك كما في الكتاب ٣/ ١٥٣ ، والصاهل والشاحج ص٢٥٤-٢٥٥ ، وذكره المبرد في الكامل ١/ ٤٤١ ، والبغدادي في الخزانة ٤/ ١١٢ دون نسبة ، وقوله : «طِبُّنَا» الطِّبُّ بمعنى العلة والسبب، أي: لم يكن سبب قتلنا الجبن وإنما كان ما جرى به القدر من حضور المنية وانتقالِ الحال عنا والدُّولة. قاله في الخزانة .

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٧٠ ، والوسيط ٤/ ١١٤ ، وتفسير البغوي ٤/ ١٧١ .

مكناكم فيه كان بغيُكم أكثرَ وعنادكم أشدّ؛ وتمَّ الكلام[١]، ثم ابتدأ فقال: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَـٰرًا وَأَفْـِٔدَةً﴾ يعني قلوباً يفقهون بها[٢]. ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَـٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ﴾ من عذاب الله. ﴿إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ﴾: يكفرون. ﴿بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم﴾: أحاط بهم[٣] ﴿مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ﴾ يُريدُ حِجْرَ ثمود وقُرى لوط ونحوهما مما كان يجاورُ بلادَ الحجاز، وكانت أخبارهم متواترة عندهم. ﴿وَصَرَّفْنَا ٱلْـَٔايَـٰتِ﴾ يعني الحُجَجَ والدلالاتِ وأنواعَ البيِّنات والعِظات، أي: بيَّناها لأهل تلك القرى[٤]. ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ فلم يَرْجعوا. وقيل: أي: صرَّفنا آياتِ القرآن في الوعد والوعيد والقصص والإعجاز لعلَّ هؤلاء المشركين يَرْجِعون.

قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةًۢ ۖ بَلْ ضَلُّوا۟ عَنْهُمْ ۚ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ﴾ «لَوْلَا» بمعنى هلَّا، أي: هلَّا نصرَهم آلهتُهم التي تقرَّبوا بها ـ بزعمهم ـ إلى الله لتشفع لهم حيث قالوا: ﴿هَـٰٓؤُلَآءِ شُفَعَـٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس:١٨]، ومنعَتهم من الهلاك الواقع بهم! قال الكسائيُّ: القُرْبان كلُّ ما يُتقرَّب به إلى الله تعالى من طاعةٍ ونَسيكة، والجمعُ: قرابين؛ كالرُّهبان والرَّهابين[٥].

وأحد مفعولي «اتخذ» الراجعُ إلى «الذين» المحذوف، والثاني: «آلِهةً».

(١) النكت والعيون ٥/ ٢٨٤ - ٢٨٥ .

(٢) زاد المسير ٧/ ٣٨٦ .

(٣) معاني القرآن للفراء ٣/ ٥٦ .

(٤) الكلام بنحوه في تفسير الطبري ٢١/ ١٦١ ، ومجمع البيان ٢٦/ ٢١ .

(٥) ذكره البغوي في تفسيره ٤/ ١٧١ - ١٧٢ دون نسبة .

و«قُرْبَاناً»: حال، ولا يصحُّ أن يكون «قُرْبَانًا» مفعولاً ثانياً، و«آلِهةً» بدل منه؛ لفساد المعنى؛ قاله الزمخشري. وقرئ: «قُرُباناً»؛ بضم الراء[١].

﴿بَلْ ضَلُّواْ عَنْهُمْ﴾ أي: هَلكوا عنهم. وقيل: «بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ» أي: ضلَّت عنهم آلهتهم؛ لأنها لم يُصبها ما أصابهم؛ إذ هي جمادٌ. وقيل: «ضَلُّوا عَنْهُمْ»، أي: تركوا الأصنام وتبرؤوا منها. ﴿وَذَالِكَ إِفْكُهُمْ﴾ أي: والآلهة التي ضلَّت عنهم هي إفكهم في قولهم: إنها تقرِّبهم إلى الله زلفى[٢].

وقراءة العامة: «إِفْكُهُمْ» بكسر الهمزة وسكون الفاء، أي: كذبهم. والإفك: الكذب، وكذلك الأَفِيكة، والجمع: الأفائك. ورجل أَفَّاكٌ، أي: كَذَّاب.

وقَرأ ابن عباس ومجاهد وابن الزبير: «وَذَلِكَ أَفَكَهُمْ» بفتح الهمزة والفاء والكافِ، على الفعل، أي: ذلك القول صَرَفهم عن التوحيد[٣]. والأَفْكُ - بالفتح - مصدر قولك: أَفكَه يَأفِكه أَفْكاً، أي: قلبَه وصرَفه عن الشيء.

وقَرأ عكرمة: «أَفَّكهم» بتشديد الفاء على التأكيد والتكثير[٤]. قال أبو حاتم: يعني قَلبهم عمَّا كانوا عليه من النعيم.

وذكر المهدويُّ عن ابن عباس أيضاً: «آفِكُهم» بالمدِّ وكسر الفاء، بمعنى صارِفُهم.

---

(١) الكشاف ٤/ ٥٢٦ وقد أعرب «قرباناً» مفعول اتخذوا، وآلهة بدلاً منه: العكبري في الإملاء ٢/ ٢٣٥، وذكره مكي في مشكل إعراب القرآن ٢/ ٦٦٩. وقوله: ولا يصح أن يكون «قرباناً» مفعولاً ثانياً... إلخ، قال السمين الحلبي في الدر المصون ٩/ ٦٧٧: ووجه الفساد - والله أعلم - أن القربان اسم لما يتقرب به إلى الإله، فلو جعلناه مفعولاً ثانياً وآلهة بدلاً منه لزم أن يكون الشيء المتقَرَّبُ به آلهةً، والفرض أنه غير الآلهة، بل هو شيءٌ يتقرب به إليها فهو غيرها، فكيف تكون الآلهة بدلاً منه؟ هذا ما لا يجوز.

(٢) الكلام بنحوه في تفسير البغوي ٤/ ١٧٢.

(٣) ذكرها عنهم جميعاً ابن خالويه في القراءات الشاذة ص ١٣٩، وعن ابن عباس ابنُ جني في المحتسب ٢/ ٢٦٧، وأخرجها عنه أيضاً الطبري في تفسيره ٢١/ ١٦٣.

(٤) قراءة عكرمة في المحرر الوجيز ٥/ ١٠٤، وذكرها ابن جني في المحتسب ٢/ ٢٦٧، وابن خالويه في القراءات الشاذة ص ١٣٩ عن عياض.

وعن عبد الله بن الزُّبير باختلاف عنه: «آفَكَهم» بالمدّ[١]، فجاز أن يكون أفعلَهم، أي: أَصَارَهم إلى الإفك. وجاز أن يكون فاعلَهم، كخَادَعَهم.

ودليلُ قراءة العامة: «إِفْكُهُمْ» قوله: ﴿وَمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ أي: يكذبون.

وقيل: «إِفْكُهم» مثلُ: «أَفَكَهم». الإفْك والأَفَك كالحِذْر والحَذَر[٢]؛ قاله المهدوِيُّ.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ هذا توبيخ لمشركي قريش، أي: إن الجنَّ سمِعوا القرآن فآمنوا به، وعلموا أنه من عند الله، وأنتم معرضون مصِرُّون على الكفر[٣]. ومعنى: «صَرَفْنَا»: وجَّهنا إليك وَبَعَثنا. وذلك أنهم صُرِفوا عن استراق السمع من السماء برجوم الشُّهُب ـ على ما يأتي ـ ولم يكونوا بعدَ عيسى قد صُرِفوا عنه إلا عند مبعثِ النبيِّ ﷺ[٤].

قال المفسرون؛ ابنُ عباس وسعيد بن جبير ومجاهد وغيرهم: لمَّا مات أبو طالب خَرج النبيُّ ﷺ وحدَه إلى الطائف يَلْتمِس من ثَقيف النصرةَ، فقصد عبْدَ ياليل ومسعوداً وحبيباً وهم إخوة، بنو عمرو بن عمير، وعندهم امرأة من قريش من بني جُمَح، فدعاهم إلى الإيمان، وسألَهم أن يَنْصُروه على قومه، فقال أحدهم: هو يَمْرُط ثيابَ الكعبة[٥] إن كان اللهُ أرسلَك! وقال الآخر: ما وجَد اللهُ أحداً يرسِله غيرَك! وقال

---

(١) يعني بالمد وفتح الفاء والكاف كما في القراءات الشاذة ص١٣٩، والمحتسب ٢/ ٢٦٧، والمحرر الوجيز ٥/ ١٠٤.

(٢) المحتسب ٢/ ٢٦٧ - ٢٦٨، وذكر صاحب القاموس: أنها بكسر الهمزة وفتحها وبالتحريك.

(٣) الكلام بنحوه في تفسير الطبري ٢١/ ١٦٣.

(٤) النكت والعيون ٥/ ٢٨٥.

(٥) أي: ينزعه ويسقطه عنها. ينظر القاموس (مرط).

الثالثُ: واللهِ لا أكلمك كلمةً أبداً؛ إن كان اللهُ أرسلك كما تقول؛ فأنت أعظمُ خطراً من أن أردَّ عليك الكلامَ، وإن كنت تكذبُ؛ فما ينبغي لي أن أكلِّمَك. ثم أغرَوْا به سفهاءَهم وعبيدَهم يسبُّونه ويضحكون به، حتى اجتمع عليه الناسُ، وألجؤوه إلى حائطٍ لعتبة وشيبة ابني ربيعة. فقال لِلْجُمَحِيَّة: «ماذا لقينا من أَحمائك»؟ ثم قال: «اللهم إني أشكو إليك ضَعْفَ قوّتي وقِلَّةَ حِيلتي وهواني على الناس، يا أرحمَ الراحمين، أنت ربُّ المستضعفين، وأنت ربي، لِمن تَكِلُني! إلى عبدٍ يَتَجَهَّمُني[1]، أو إلى عدوٍّ ملَّكته أمري! إن لم يكن بك غضبٌ عليَّ فلا أبالي، ولكن عافيتُك هي أوسع لي، أعوذ بنور وجهك من أن يَنزل بي غضبك، أو يحلَّ عليَّ سخطك، لك العُتْبَى حتى ترضى، ولا حول ولا قوَّة إلا بك». فرحمه ابنا ربيعة وقالا لغلامٍ لهما نصرانيٍّ يقال له عدَّاس: خذ قِطْفاً من العنب، وضَعْه في هذا الطبق، ثم ضعْه بين يدي هذا الرجل. فلمَّا وضعَه بين يدي رسولِ الله ﷺ قال النبيُّ ﷺ: «باسم الله» ثم أكَل. فنظَر عدَّاس إلى وجهه ثم قال: واللهِ إن هذا الكلامَ ما يقوله أهلُ هذه البلدة! فقال النبيُّ ﷺ: «مِن أيِّ البلاد أنت يا عدَّاس، وما دينُك؟» قال: أنا نصرانيٌّ من أهل نِينَوَى. فقال له النبيُّ ﷺ: «أَمِن قرية الرجلِ الصالح يونس بن متَّى؟» فقال: وما يدريك ما يونس بن متَّى؟ قال: «ذاك أخي، كان نبيًّا وأنا نبيٌّ». فانكبَّ عدَّاس حتى قبَّل رأس النبيِّ ﷺ ويديه ورجليه. فقال له ابنا ربيعة: لِمَ فَعلتَ هكذا!؟ فقال: يا سَيِّدِي، ما في الأرض خيرٌ من هذا، أخبرني بأمرٍ ما يعلمه إلا نبيٌّ. ثم انصرف النبيُّ ﷺ حين يئس من خير ثَقيف، حتى إذا كان ببطن نَخْلة؛ قام من الليل يصلّي، فمرَّ به نفرٌ من جنِّ أهل نَصِيبِين[2].

---

(١) أي: يلقاني بالغلظة والوجه الكريه. النهاية (جهم).

(٢) السيرة النبوية ١/ ٤١٩ - ٤٢٢ بنحوه، وأخرجه مختصراً الطبراني في المعجم الكبير ٢٥/ ٣٤٦، والبغدادي في الجامع لأخلاق الراوي (١٩٠١) من حديث عبد الله بن جعفر رضي الله عنهما.

وذكره ابن حبان في الثقات ١/ ٧٦-٧٩، وابن حجر في الإصابة ٦/ ٣٩٩ مختصراً في ترجمة عداس ﷺ.

وكان سبب ذلك أن الجنَّ كانوا يَسترِقون السمعَ، فلما حُرست السماء ورُمُوا بالشُّهب قال إبليس: إن هذا الذي حدَث في السماء لِشيء حدث في الأرض؛ فبعث سراياه ليعرف الخبرَ - أوّلهم رَكْب نَصيبين، وهم أشراف الجنّ - إلى تِهامة، فلما بلغوا بَطْن نخلة سمعوا النبيَّ ﷺ يصلِّي صلاةَ الغداة ببطن نخلة ويتلو القرآن، فاستمعوا له وقالوا: أنصتوا(١).

وقالت طائفة: بل أُمِر النبيُّ ﷺ أن يُنذر الجنّ ويَدعوَهم إلى الله تعالى ويَقْرَأ عليهم القرآن، فصرف الله عزَّ وجلَّ إليه نفراً من الجنِّ من نِينَوى وجمعَهم له؛ فقال النبيُّ ﷺ: «إني أريد أن أَقْرَأ القرآن على الجنِّ الليلةَ فأيكم يَتْبَعني؟» فأطرَقوا، ثم قال الثانيةَ فأطرَقوا، ثم قال الثالثة فأطرقوا؛ فقال ابن مسعود: أنا يا رسول الله؛ قال ابن مسعود: ولم يحضر معه أحدٌ غيري، فانطلقنا حتى إذا كنا بأعلى مكة دخَل النبيُّ ﷺ شِعْبًا يقال له: «شِعْب الْحَجُون»(٢) وخطَّ لي خطًّا وأمرَني أن أجلس فيه وقال: «لا تخرج منه حتى أعود إليك». ثم انطلق حتى قام، فافتتح القرآن، فجعلت أرى أمثال النسور تهوي وتمشي في رفرفها(٣)، وسمعت لَغَطاً وغَمْغَمَةً حتى خِفْتُ على النبيِّ ﷺ، وغَشِيته أَسْوِدةٌ كثيرة حالَت بيني وبينه حتى ما أسمعُ صوتَه، ثم طفِقوا يتقطعون مثل قطع السحاب ذاهبين، ففرَغ النبيُّ ﷺ مع الفجْر فقال: «أَنِمْتَ»؟ قلت: لا واللهِ، ولقد هممتُ مِرَاراً أن أستغيثَ بالناس حتى سمعتُك تَقْرَعهم بعصاك تقول: اجلِسوا؛ فقال: «لو خرجتَ لم آمَن عليك أن يخطفكَ بعضُهم» ثم قال: «هل رأيتَ شيئاً؟» قلت: نعم يا رسول الله، رأيتُ رِجالاً سوداً مُسْتَثْفِري ثياباً بيضاً(٤)؛ فقال:

---

(١) أخرجه الطبري ٢١/ ١٦٤ عن ابن عباس مطولاً. وأخرجه عنه الإمام أحمد (٢٢٧١)، والبخاري (٧٧٣)، ومسلم (٤٤٩) بنحوه.

(٢) الحَجون: جبل بأعلى مكة عنده مدافن أهلها. معجم البلدان ٢/ ٢٢٥.

(٣) في (ظ) دفوفها.

(٤) كذا في النسخ، وفي تفسير الطبري ٢١/ ١٦٨: مستثفري ثياب بياض. والاستثفار: هو أن يدخل الرَّجل ثوبه بين رجليه كما يفعل الكلب بذنَبه. النهاية (ثفر).

«أولئك جِنُّ نَصِيبين سألوني المتاع والزادَ، فمتَّعتهم بكل عظم حائل[١] ورَوْثة وبعرة». فقالوا: يا رسول الله، يَقْذَرها الناس علينا. فنهى رسول الله ﷺ أن يُسْتَنْجَى بالعظم والرَّوْث. قلت: يا نبيَّ الله، وما يُغْني ذلك عنهم! قال: «إنهم لا يجدون عظماً إلا وجدوا عليه لحمه يوم أُكِل، ولا رَوْثة إلا وجدوا فيها حَبَّها يوم أُكِل» فقلت: يا رسول الله، لقد سمعت لَغَطاً شديداً؟ فقال: «إن الجِنَّ تدارأت في قتيل بينهم، فتحاكموا إليَّ فقضيت بينهم بالحقّ». ثم تبرَّز النبيُّ ﷺ ثم أتاني فقال: «هل معك ماء»؟ فقلت يا نبيَّ الله، معي إداوة فيها شيء من نبيذ التمر، فصببت على يديه فتوضأ فقال: «تمرة طيِّبة وماء طهور»[٢]. روى معناه معمر عن قتادة وشُعبة أيضاً عن ابن مسعود. وليس في حديث معمر ذكر نبيذ التمر.

ورويَ عن أبي عثمان النَّهْدِيِّ أن ابن مسعود أَبْصَرَ زُطًّا[٣] فقال: ما هؤلاء؟ قال: هؤلاء الزُّطّ. قال: ما رأيت شبههم إلا الجنّ ليلة الجنِّ، فكانوا مستفزِّين يتبع بعضهم بعضاً[٤].

وذكر الدَّارقُطْنيُّ[٥] عن عبد الله بن لَهِيعة، حدَّثني قيس بن الحجَّاج، عن حَنَش، عن ابن عباس، عن ابن مسعود أنه وضَّأ النبيَّ ﷺ ليلةَ الجنِّ بنبيذٍ، فتوضأ به وقال: «شراب وطهور». ابنُ لَهِيعة لا يحتج به. وبهذا السند عن ابن مسعود: أنه خَرج مع النبيِّ ﷺ ليلة الجنِّ، فقال له رسول الله ﷺ: «أمعك ماءٌ يا ابنَ مسعود»؟ فقال: معي

(١) أي متغير، قد غَيَّره البِلَى. النهاية (حول).

(٢) أخرجه مقطعاً الطبريُّ في تفسيره ٢١/١٦٦ - ١٦٩، وأخرجه بسياق أخصر منه الإمامُ أحمد (٤٣٨١)، وإسناده ضعيف. وسلف ١٥/٤٤١ قولُه: «تمرة طيبة وماء طهور» ومداره على أبي زيد، وهو مجهول اهـ. قال النووي في شرحه لصحيح مسلم ٤/١٦٩: وحديث النبيذ ضعيف باتفاق المحدثين.

(٣) الزط: جنس من السودان والهنود. النهاية (زطط).

(٤) عزاه الزيلعي في نصب الراية ١/١٤٠ للبيهقي، وأخرجه بنحوه عبد الرزاق ٢/٢١٨ - ١١٩، والطبري ٢١/١٦٧.

(٥) برقم (٢٤٣).

نبيذٌ في إداوةٍ؛ فقال رسول الله ﷺ: «صُبَّ عليَّ منه». فتوضأ وقال: «هو شراب وطهور» تفرَّد به ابن لَهِيعة، وهو ضعيف الحديث[١].

قال الدَّارَقُطْنِي[٢]: وقيل: إن ابن مسعود لم يشهد مع النبيِّ ﷺ ليلةَ الجنِّ. كذلك رواه علقمة بن قيس وأبو عبيدة بن عبد الله وغيرهما عنه أنه قال: ما شهدت ليلة الجنِّ. حدّثنا أبو محمد بن صاعد، حدَّثنا أبو الأشعث، حدَّثنا بشر بن المفضَّل[٣]، حدثنا داود بن أبي هند، عن عامر، عن علقمة بن قيس، قال: قلت لعبد الله بن مسعود: أشَهِدَ رسولَ الله ﷺ أحدٌ منكم ليلةَ أتاه داعي الجنِّ؟ قال: لا. قال الدَّارقُطْنِيُّ: هذا إسناد صحيح لا يُختلف في عدالة رواته[٤].

وعن عمرو بن مُرّة قال: قلت لأبي عبيدة: حضر عبد الله بن مسعود ليلةَ الجنّ؟ فقال: لا[٥]. قال ابن عباس: كان الجنُّ سبعة نفر من جنِّ نَصِيبين فجعلَهم النبيُّ ﷺ رسلاً إلى قومهم[٦].

وقال زِرُّ بن حُبيش: كانوا تسعة؛ أحدهم زَوْبعة. وقال قتادة: إنهم من أهل نِينَوَى[٧]. وقال مجاهد: من أهل نجران. وقال عكرمة: من جزيرة الموصل. وقيل: إنهم كانوا سبعة، ثلاثة من أهل نجران، وأربعة من أهل نَصِيبين[٨].

---

(١) سنن الدارقطني (٢٤٤).

(٢) إثر الحديث السالف (٢٤٣).

(٣) في (ظ) و(م) الفضل. والمثبت من باقي النسخ وسنن الدارقطني.

(٤) في (م) راويه. والمثبت من باقي النسخ وسنن الدارقطني ورقمه (٢٤٥)، وهو عند الإمام أحمد (٤١٤٩)، ومسلم (٤٥٠).

(٥) سنن الدارقطني (٢٤٦).

(٦) أخرجه الطبري ٢١/ ١٦٥، والطبراني في المعجم الكبير ١١/ ٢٥٦ (١١٦٦٠) وابن عدي في الكامل ٧/ ٢٤٨٨.

(٧) أخرج قولهما الطبري ٢١/ ١٦٥ - ١٦٦.

(٨) المثبت من (خ) وهو الموافق لما في النكت والعيون ٥/ ٢٨٦، والكلام منه، وفي غير (خ): حران.

وروى ابن أبي الدنيا أن النبيَّ ﷺ قال في هذا الحديث وذكر فيه نَصِيبين فقال: «رفعت إليَّ حتى رأيتها، فدعوتُ الله أن يكثر مطرَها وينضر شجرَها وأن يُغْزر نهرها»(١).

وقال السهيلي(٢): ويقال: كانوا سبعة، وكانوا يهوداً فأسلموا؛ ولذلك قالوا: «أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى».

وقيل في أسمائهم: شاصر وماصر ومنشى وماشى والأحقب؛ ذكر هؤلاء الخمسة ابنُ دريد. ومنهم عمرو بن جابر؛ ذكره ابن سلام من طريق أبي إسحاق السَّبِيعي عن أشياخه، عن ابن مسعود: أنه كان في نَفَرٍ من أصحاب النبيِّ ﷺ يَمشون، فرفع لهم إعصار، ثم جاء إعصارٌ أعظم منه؛ فإذا حَيَّةٌ قتيل، فعمد رجلٌ منا إلى ردائه فشقَّه وكفَّن الحيةَ ببعضه، ودفنها، فلما جَنَّ الليل إذا امرأتان تسألان: أيُّكم دفن عمرو بنَ جابر؟ فقلنا: ما ندري مَن عمرو بنُ جابر! فقالتا: إن كنتم ابتغيتم الأجرَ فقد وجدتموه، إن فَسقَةَ الجنِّ اقتتلوا مع المؤمنين فقُتل عمرو، وهو الحيَّة التي رأيتم، وهو مِن النفر الذين استمعوا القرآن من محمدٍ ﷺ ثم وَلَّوْا إلى قومهم منذِرين. وذكر ابنُ سلام رواية أخرى: أن الذي كفَّنه هو صفوان بن المُعَطَّل.

قلت: وذكر هذا الخبر الثعلبي بنحوه فقال: وقال ثابت بن قُطْبة: جاء أناس إلى ابن مسعود فقالوا: إنا كنا في سفر، فرأينا حيةً متشحِّطة في دمائها(٣)، فأخذها رجل منا فواريناها؛ فجاء أناس فقالوا: أيكم دفن عَمْرًا؟ قلنا: وما عمرو! قالوا: الحية التي دفنتم في مكان كذا؛ أمَا إنه كان من النفر الذين سمعوا القرآنَ من النبيِّ ﷺ،

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في الهواتف (٧٤) بنحوه عن حذيفة بن غانم العدوي، وفي إسناده محمد بن عباد ابن موسى العُكْلي؛ قال فيه الحافظ ابن حجر في التقريب: صدوق يخطئ. ومحمد بن زياد بن زبَّار الكلبي، قال فيه يحيى بن معين: ليس بشيء، الميزان ٣/ ٢٥٥. وحذيفة بن غانم العدوي لم نعرفه.

(٢) في التعريف والإعلام ص ١٥٦ - ١٥٧.

(٣) أي: مضرجة بالدم. ينظر القاموس (شحط).

وكان بين حَيَّيْن من الجنِّ مسلمين وكافرين قتال فقُتل(١).

ففي هذا الخبر أن ابن مسعود لم يكن في سفر ولا حَضَرَ الدفن؛ والله أعلم. وذكر ابن أبي الدنيا عن رجلٍ من التابعين سَمَّاه: أن حية دخلت عليه في خِبائه تلْهَثُ عطشاً فسقاها، ثم إنها ماتت فدفنها، فأُتي من الليل فسلَّم عليه وشكره؛ وأخبر أن تلك الحيَّةَ كانت رجلاً من جنِّ نَصِيبين اسمه: زوبعة.

قال السُّهَيْلِيُّ(٢): وبلغنا في فضائل عمر بن عبد العزيز ﷺ مما حدَّثنا به أبو بكر بن طاهر الأشبيلي، أن عمر بن عبد العزيز كان يمشي بأرض فلاة، فإذا حية ميِّتة فكفَّنها بفضلةٍ من ردائه ودفنها؛ فإذا قائل يقول: يا سرق، أشهدُ لسمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «ستموتُ بأرض فلاة، فيكفنك رجلٌ صالح». فقال: ومَن أنت يرحمك الله! فقال: رجلٌ من الجنِّ الذين استمعوا القرآن من رسول الله ﷺ لم يبق منهم إلا أنا وسرق؛ وهذا سرق قد مات(٣).

وقد قَتَلَت عائشة رضي الله عنها حيةً رأتها في حُجرتها تستمع(٤) وعائشةُ تقرَأ؛ فأُتيت في المنام فقيل لها: إنك قتلت رجلاً مؤمناً من الجنِّ الذين قدِموا على رسول الله ﷺ؛ فقالت: لو كان مؤمناً ما دخَل على حرَم رسول الله ﷺ؛ فقيل لها: ما دخل عليك إلا وأنت مقنَّعة، وما جاء إلا ليستمع الذِّكر. فأصبحت عائشةُ فزِعةً، واشترت رقابًا فأعتقتهم(٥).

(١) ذكره عن ثابت الحكيمُ الترمذي في نوادر الأصول ص٥١ بنحوه، والله أعلم بصحته.

(٢) في التعريف والإعلام ص ١٥٧ - ١٥٨ وما قبله منه.

(٣) وأخرجه ابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق ٤٥/١٤٦ عن أبي معمر الأنصاري... فذكره، والله أعلم بصحته.

(٤) بعدها في (ظ): القرآن.

(٥) ذكره الحكيم الترمذي في نوادر الأصول ص ٥١، وابن عبد البر في الاستذكار ٢٧/ ٢٥٩ عن ابن أبي مليكة وغيرِه عن عائشة رضي الله عنها. وذكره العيني في عمدة القاري ١٠/ ١٨٥ عن ابن أبي مليكة عن عائشة بنت طلحة أن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها رأت في مغتسلها حية فقتلتها... فذكره.

قال السهيليُّ[١]: وقد ذكرنا من أسماء هؤلاء الجنِّ ما حضَرَنا؛ فإن كانوا سبعةً فالأحقب منهم وَصْفٌ لأحدهم، وليس باسم عَلَم؛ فإن الأسماء التي ذكرناها آنفاً ثمانيةٌ بالأحقب. والله أعلم.

قلت: وقد ذكر الحافظ ابن عساكر في تاريخه: هامة بن الهيم بن الأقيس[٢] بن إبليس؛ قيل: إنه من مؤمني الجنِّ وممن لقي النبيَّ ﷺ وعلَّمه سورة ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ﴾ و﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ﴾ و﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ﴾ و﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ و﴿ٱلْحَمْدُ﴾ و﴿الْمُعَوِّذَتَيْنِ﴾. وذكَر أنه حضر قتلَ هابيل وشرِك في دمه وهو غلام ابن أعوام، وأنه لقي نُوحاً وتاب على يديه، وهوداً وصالحاً ويعقوب ويوسف وإلياسَ وموسى بنَ عمران وعيسى بن مريم عليهم السلام[٣]. وقد ذكر الماورديُّ أسماءهم عن مجاهد فقال: حسى ومسى ومنشى وشاصر وماصر والأرد وأنيان والأحقم[٤]. وذكرها أبو عمرو عثمان بن أحمد المعروف بابن السمَّاك قال: حدَّثنا محمد بن البراء قال: حدَّثنا الزبير بن بكار قال: كان حمزة بن عتبة بن أبي لهب يُسَمِّي جِنَّ نَصِيبين الذين قدِموا على رسول الله ﷺ فيقول: حسى ومسى وشاصر وماصر والأفخر والأرد وأنيال.

---

(١) في التعريف والإعلام ص١٥٨، وما قبله منه.

(٢) في المصادر الآتية: لاقيس، بدل: الأقيس، وقال ابن حجر في الإصابة ١٠/ ٢٢٧ في «هامة»: ذكره جعفر المستغفري في الصحابة: وقال: لا يثبت إسناد خبره.

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في الهواتف (١٠١)، والعقيلي في الضعفاء ٤/ ٩٦ - ٩٧، من حديث أنس ﷺ. وفي إسناده محمد بن عبد الله الأنصاري، منكر الحديث كما في الضعفاء وتهذيب الكمال ٢٥/ ٤٨١ - ٤٨٢.

وأخرجه - أيضاً - العقيلي في الضعفاء ١/ ٩٨ - ١٠٠، والبيهقي في الدلائل ٥/ ٤١٨ - ٤٢٠ من حديث عمر ابن الخطاب ﷺ. وقال الذهبي في الميزان ١/ ١٨٦: لا أعلم أشنع من الحديث الذي رواه العقيلي ... فذكره ثم قال: وهذا الحديث قد رواه البيهقي بإسناد أصلح من هذا.. اهـ وقال العقيلي ٣/ ٥٩٩: ... وهو باطل بالإسنادين.

(٤) النكت والعيون ٥/ ٢٨٦، وأخرجه ابن أبي حاتم ١٠/ ٣٢٩٧ (١٨٥٨٠) عن سويد بن عبد العزيز، عن رجل سماه عن ابن جريج. وسويد ضعيف كما قال الحافظ ابن حجر في التقريب. ولم يذكر في المصادر اسم «منشى»، وينظر الدر المنثور ٦/ ٤٥.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا حَضَرُوهُ﴾ أي: حضروا النبيَّ ﷺ، وهو من باب تلوين الخطاب. وقيل: لما حضروا القرآن واستماعه[١] ﴿قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ۖ﴾ أي: قال بعضهم لبعض: اسكتوا لاستماع القرآن. قال ابن مسعود: هبطوا على النبي ﷺ وهو يقرَأ القرآنَ ببطن نَخْلة، فلمَّا سمعوه ﴿قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ۖ﴾ قالوا: صه. وكانوا سبعة: أحدهم زوبعة؛ فأنزلَ اللهُ تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ۖ﴾ الآية إلى قوله: ﴿فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾[٢].

وقيل: «أَنْصِتُوا» لسماع قولِ رسول الله ﷺ؛ والمعنى متقارب. ﴿فَلَمَّا قُضِىَ﴾ وقرأ لاحق بن حُميد وخُبيب بن عبد الله بن الزبير: «فَلَمَّا قَضَى» بفتح القاف والضاد[٣]؛ يعني النبيَّ ﷺ قبل الصلاة. وذلك أنهم خرَجوا حين حُرست السماء من استراق السمع ليستخبروا ما أوجب ذلك؟ فجاؤوا وادي نخلة والنبيُّ ﷺ يقرأ في صلاة الفجر، وكانوا سبعة، فسمعوه وانصرفوا إلى قومهم منذِرين، ولم يعلم بهم النبيُّ ﷺ. وقيل: بل أُمر النبيُّ ﷺ أن ينذِر الجنَّ ويقرَأ عليهم القرآن، فصرف اللهُ إليه نفراً من الجنِّ ليستمعوا منه وينذِروا قومَهم؛ فلمَّا تلا عليهم القرآنَ وفرَغ؛ انصرفوا بأمره قاصدين مَن وراءهم من قومهم من الجنِّ، منذرين لهم مخالفةَ القرآن ومحذِّرين إياهم بأسَ الله إن لم يؤمنوا. وهذا يدلُّ على أنهم آمنوا بالنبيِّ ﷺ، وأنه أرسلهم. ويدلُّ على هذا قولُهم: «يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللهِ وَآمِنُوا بِهِ» ولولا ذلك لمَا أنذَروا قومَهم[٤]. وقد تقدَّم عن ابن عباس أنَّ النبيِّ ﷺ جعلهم رسلاً إلى قومهم[٥]؛ فعلى هذا ليلةُ الجنِّ

(١) تفسير الطبري ٢١/ ١٧٠ .

(٢) أخرجه الدارقطني في العلل ٥/ ٥٥ دون قوله : فأنزل : ﴿إذ صرفنا ...﴾ ، وأخرجه بتمامه الحاكم في المستدرك ٢/ ٤٥٦ ، وعزاه السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٤٤ لابن أبي شيبة ، وابن منيع وابن مردويه وأبي نعيم والبيهقي .

(٣) المحرر الوجيز ٥/ ١٠٥ ، والبحر المحيط ٨/ ٦٧ ، وهي قراءة شاذة.

(٤) الكلام بنحوه في تفسير الطبري ٢١/ ١٦٤ و١٧١ .

(٥) ص٢٢٤ من هذا الجزء.

ليلتان، وقد تقدَّم هذا المعنى مستوفًى. وفي صحيح مسلم(١) ما يدلُّ على ذلك؛ على ما يأتي بيانه في ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ﴾ [الجن:١].

وفي صحيح مسلم عن مَعْن قال: سمعتُ أبي قال: سألت مسروقاً: مَن آذنَ النبيَّ ﷺ بالجنِّ ليلةَ استمعوا القرآن؟ فقال: حدَّثني أبوك ـ يعني ابنَ مسعود ـ أنه آذَنَتْه بهم شَجَرةٌ(٢).

قوله تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ﴾ أي: القرآن؛ وكانوا مؤمنين بموسى. قال عطاء: كانوا يهوداً فأسلَموا، ولذلك قالوا: «أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى». وعن ابن عباس: أن الجِنَّ لم تكن سمِعتْ بأمر عيسى؛ فلذلك قالت: «أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى»(٣).

﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ يعني ما قبْلَه من التوراة. ﴿يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ﴾: دينِ الحق. ﴿وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾: دينِ اللّهِ القويم. ﴿يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِىَ ٱللَّهِ﴾ يعني محمداً ﷺ، وهذا يَدلُّ على أنه كان مبعوثاً إلى الجِنِّ والإنس. قال مقاتل: ولم يَبعث اللّهُ نبيًّا إلى الجنِّ والإنس قبلَ محمدٍ ﷺ(٤).

---

(١) برقم (٤٤٩) من حديث ابن عباس ﷺ، وسلف بنحوه ص٢٢٠-٢٢٢ من هذا الجزء.

(٢) صحيح مسلم (٤٥٠) (١٥٣)، وقوله: «آذنته بهم شجرة» أي أعلمته بهم، وظاهره أن الله تعالى خلق فيها نطقاً فهِمه النبيُّ ﷺ، كما خَلَق في الذراع المسمومة نطقاً. المفهم ٧/ ٤٢٢. ومعن: هو ابن عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود.

(٣) الكشاف ٣/ ٥٢٧، وذكر قول عطاء ابنُ الجوزي في زاد المسير ٧/ ٣٩٠، وذكر قول ابن عباس ابنُ عطية في المحرر الوجيز ٥/ ١٠٦.

(٤) الوسيط ٤/ ١١٥، والرازي ٢٨/ ٣٢ - ٣٣.

قلت: يَدلُّ على قوله ما في صحيح مسلم[١]: عن جابر بن عبد الله الأنصاريِّ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «أعطِيتُ خمساً لم يُعْطَهُنَّ أحدٌ قبلي، كان كلُّ نبيٍّ يُبعثُ إلى قومه خاصَّةً وبُعثت إلى كلِّ أحمرَ وأسْوَدَ، وأحِلَّت ليَ الغنائمُ ولم تُحَلّ لأحدٍ قبلي، وجُعلت ليَ الأرضُ طيِّبةً طهوراً ومسجداً، فأيُّمَا رَجُلٍ أدركته الصلاةُ صلَّى حيثُ كان، ونُصِرْتُ بالرُّعْبِ بين يَدَيْ مسيرةِ شَهْرٍ، وأُعطِيتُ الشفاعةَ». قال مجاهد: الأحمرُ والأسود: الجنُّ والإنس[٢]. وفي روايةٍ من حديث أبي هريرة: «وبُعثتُ إلى الخَلق كافةً، وخُتم بيَ النَّبيُّون»[٣].

﴿وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ﴾ أي: بالداعي، وهو محمدٌ ﷺ. وقيل: «به» أي: باللهِ؛ لقوله: ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾. قال ابن عباس: فاستجاب لهم من قومهم سبعون رجلاً، فرجَعوا إلى النبيِّ ﷺ فوافقوه بالبطحاء؛ فقرَأ عليهم القرآنَ وأمرَهم ونهاهم.

مسألة: هذه الآي تدلُّ على أن الجِنَّ كالإنس في الأمر والنهي والثوابِ والعقاب[٤]. وقال الحسن: ليس لمؤمني الجنِّ ثوابٌ غير نجاتهم من النار[٥]؛ يدلُّ عليه قولُه تعالى: ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾. وبه قال أبو حنيفة قال: ليس ثوابُ الجِنِّ إلا أن يُجاروا من النار[٦]، ثم يقال لهم: كونوا تراباً، مثلَ البهائم. وقال آخرون: إنهم كما يُعاقبون في الإساءة يُجازَوْن في الإحسان مثل الإنس.

---

(١) برقم (٥٢١)، وسلف ٢٥٨/٤ و٩/ ٣٢.

(٢) مسند أحمد (٢١٢٩٩).

(٣) صحيح مسلم (٥٢٣): (٥) وهو عند الإمام أحمد (٩٣٣٧).

(٤) تفسير الرازي ٢٨/ ٣١.

(٥) لم نقف عليه من قول الحسن، وأخرج البيهقي في البعث (١١٧) عن الحسن، عن أنس بن مالك ﷺ عن النبي ﷺ: «إن مؤمني الجن لهم ثواب وعليهم عقاب» فسألناه عن ثوابهم وعن مؤمنيهم؟ فقال: «على الأعراف، وليسوا في الجنة مع أمة محمد ﷺ»... وفي إسناده: يوسف بن يزيد: صدوق ربما أخطأ، وعروة بن رويم: صدوق يرسل كثيراً. كذا في تقريب التهذيب.

قال الإمام النووي في شرح صحيح مسلم ١٦٩/٤: والصحيح أنهم يدخلونها [أي: الجنة] ويتنعمون فيها بالأكل والشرب وغيرهما. وهذا قول الحسن البصري وغيره...

(٦) الكشاف ٤/ ٥٢٧.

وإليه ذَهب مالكٌ والشافعيُّ وابن أبي ليلى. وقد قال الضحاك: الجِنُّ يَدخلون الجنة ويأكلون ويشربون[١]. قال القشيريُّ: والصحيح أن هذا مما لم يُقطع فيه بشيء، والعلمُ عند الله.

قلت: قوله تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟﴾ يدلُّ على أنهم يُثابون ويَدخلون الجنةَ؛ لأنه قال في أوَّل الآية: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى﴾ إلى أن قال: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟﴾ [الأنعام: ١٣٠-١٣٢]. واللهُ أعلم؛ وسيأتي لهذا في سورة الرحمن[٢] مزيدُ بيانٍ إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: لا يَفوت اللهَ ولا يَسبقُه. ﴿وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ﴾ أي: أنصارٌ يمنعونه من عذاب الله. ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾.

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ الرؤيةُ هنا بمعنى العلْم. و«أنّ» واسمها وخبرها سدّت مسدَّ مفعولَي الرؤية. ﴿وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ احتجاجٌ على منكري البعثِ. ومعنى «لَمْ يَعْيَ»: يَعْجز ويَضْعُف عن إبداعهنّ. يقال: عَيَّ بأمره وعَيِيَ: إذا لم يهتدِ لوجهه[٣]؛ والإدغام أكثر. وتقول في الجمع: عَيُوا ـ مخففاً ـ وعَيُّوا أيضاً؛ بالتشديد. قال:

---

(١) الكلام بنحوه في تفسير الرازي ٢٨/ ٣٣ .

(٢) عند تفسير الآية (٤٦) منها.

(٣) زاد المسير ٧/ ٣٩١ بنحوه .

عَيُّوا بِأمرِهِمُ كَمَا عَيَّتْ بِبَيْضَتِها الحَمامه[(١)]

وعَيِيتُ بأمري: إذا لم تهتد لوجهه. وأعياني هو.

وقرأ الحسن: «وَلَمْ يَعِيْ» بكسر العين وإسكانِ الياء[(٢)]؛ وهو قليلٌ شاذٌّ، لم يأتِ إعلالُ العين وتصحيح اللام إلا في أسماء قليلة، نحو: غاية وآية. ولم يأت في الفعل سوى بيت أنشده الفرَّاءُ؛ وهو قول الشاعر:

فكأنها بين النساء سَبِيكَةٌ تمشِي بِسُدَّة بَيْتِها فتُعِيُّ[(٣)]

﴿بِقَـٰدِرٍ﴾ قال أبو عبيدة والأخفشُ: الباء زائدة للتوكيد كالباء في قوله: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٧٩]، وقوله: ﴿تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ﴾ [المؤمنون: ٢٠]. وقال الكسائيُّ والفرَّاءُ والزجَّاج: الباء فيه خَلَف الاستفهام والجحد في أوّل الكلام[(٤)]. قال الزجَّاج[(٥)]: والعرب تدخلها مع الجحد؛ تقول: ما ظننت أن زيداً بقائم. ولا تقول: ظننت أن زيداً بقائم. وهو لدخول «ما» ودخول «أنّ» للتوكيد. والتقديرُ: أليس اللهُ بقادر، كقوله تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَـٰدِرٍ﴾ [يس: ٨١].

وقرأ ابن مسعود والأعرجُ والجَحدرِيُّ وابن أبي إسحاق ويعقوب: «يَقدر»[(٦)]

(١) البيت لعبيد بن الأبرص كما في أدب الكاتب لابن قتيبة ص ٦٧ - ٦٨، والصحاح (عيي)، وزهر الأكم ٢/ ١٩٠، وهو في ديوان عبيد ص ١٣٨ بلفظ:

برمت بنوا أسدٍ كما بَرِمت ببيضتها الحمامه

ونسب لسلامة بن جندل، وهو في ديوانه ص٢٤٨.

(٢) القراءات الشاذة ص ١٣٩، والمحتسب ٢/ ٢٦٩.

(٣) البيت للحُطيئة كما في تاج العروس (عيي)، وذكره الأزهري في تهذيب اللغة ٣/ ٢٥٨، وابن جني في المحتسب ٢/ ٢٦٩، وقال أبو إسحاق النحوي - كما في تهذيب اللغة -: هذا غير جائز عند حذاق النحويين. وذكر أن البيت الذي استشهد به الفراء ليس بمعروف. وقال الأزهري: والقياس ما قال أبو إسحاق وكلام العرب عليه...

(٤) الوسيط ٤/ ١١٦، وينظر مجاز القرآن لأبي عبيدة ٢/ ٢١٣، ومعاني الأخفش ٢/ ٦٩٤، ومعاني القرآن للفراء ٣/ ٥٦.

(٥) في معاني القرآن له ٤/ ٤٤٧ بنحوه.

(٦) قراءة يعقوب في النشر ٢/ ٣٥٥، وهي من العشرة. وعن الأعرج والجحدري وابن أبي إسحاق في تفسير الطبري ٢١/ ١٧٥، وإعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٧٣ - ١٧٤.

واختاره أبو حاتم؛ لأن دخول الباء في خبر «أنّ» قبيحٌ. واختار أبو عبيدة قراءةَ العامة؛ لأنها في قراءة عبد الله: «خَلَقَ السَّمَاواتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ» بغير باء[١]. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ (٣٤)﴾

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ﴾ أي: ذكِّرْهم يومَ يعرضون فيقال لهم: ﴿أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا﴾ فيقول لهم المقرِّرُ: ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ أي: بكفركم.

قوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ (٣٥)﴾

قوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ قال ابن عباس: ذوو الحزمِ والصبر[٢].

قال مجاهد: هم خمسة: نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمدٌ عليهم الصلاة والسلام. وهم أصحاب الشرائع[٣].

---

(١) تفسير الطبري ٢١/ ١٧٥، والكشاف ٣/ ٥٢٨، والمحرر الوجيز ٥/ ١٠٦.

(٢) زاد المسير ٧/ ٣٩٢ دون نسبة وذكره عن ابن عباس البغويُّ في تفسيره ٤/ ١٧٦ دون قوله: والصبر. وذكره عن الضحاك بلفظ: ذوو الجد والصبر.

(٣) ذكره ابن الجوزي في زاد المسير ٧/ ٣٩٢ عن مجاهد وغيره، وذكره البغوي في تفسيره ٤/ ١٧٦ عن ابن عباس وقتادة، وأخرجه الطبري ٢١/ ١٧٧ عن عطاء الخراساني. وهؤلاء الأنبياء الخمسة: هم المذكورون في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ [الأحزاب: ٧] وأشار إلى ذلك المصنف ثمة.

وقال أبو العالية: إن أولي العزم: نوح، وهود، وإبراهيم. فأمر اللهُ عزَّ وجل نبيَّه عليه الصلاة والسلام أن يكون رابعَهم. وقال السدّيُّ: هم ستة: إبراهيم، وموسى، وداود، وسليمان، وعيسى، ومحمدٌ؛ صلوات الله عليهم أجمعين[(١)].

وقيل: نوح، وهود، وصالح، وشعيب، ولوط، وموسى، وهم المذكورون على النسق في سورة الأعراف والشعراء[(٢)].

وقال مقاتل: هم ستة: نوحٌ؛ صبرَ على أذى قومِه مدَّةً، وإبراهيم؛ صبر على النار، وإسحاق؛ صبر على الذبح، ويعقوب؛ صبر على فقد الولد وذهاب البصر. ويوسف؛ صبر على البئر والسجن. وأيوب؛ صبر على الضُّرِّ[(٣)].

وقال ابن جُريج: إن منهم إسماعيل ويعقوب وأيوب، وليس منهم يونس ولا سليمان ولا آدم[(٤)].

وقال الشعبيُّ والكلبيُّ ومجاهد أيضاً: هم الذين أُمِروا بالقتال، فأظهروا المكاشفةَ وجاهدوا الكفرة[(٥)]. وقيل: هم نجباءُ الرسل المذكورون في سورة الأنعام[(٦)]، وهم ثمانية عشر: إبراهيم، وإسحاق، ويعقوب، ونوح، وداود، وسليمان، وأيوب، ويوسف، وموسى، وهرون، وزكريا، ويحيى، وعيسى، وإلياس، وإسماعيل، واليسع، ويونس، ولوط. واختاره الحسن بن الفضل؛ لقوله في عقبه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْۗ﴾[(٧)] [الأنعام: ٩٠].

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٢٨٨، وزاد المسير ٧/ ٣٩٢.

(٢) تفسير البغوي ٤/ ١٧٦.

(٣) الوسيط ٤/ ١١٦، وتفسير البغوي ٤/ ١٧٦، والمحرر الوجيز ٥/ ١٠٧.

(٤) النكت والعيون ٥/ ٢٨٩، وزاد المسير ٧/ ٣٩٢.

(٥) ذكره الواحديُّ في الوسيط ٤/ ١١٦، والبغوي في تفسيره ٤/ ١٧٦ عن الكلبي.

(٦) تفسير البغوي ٤/ ١٧٦.

(٧) المحرر الوجيز ٥/ ١٠٧.

وقال ابن عباس أيضاً: كلُّ الرسل كانوا أولي عزم[١]. واختاره عليُّ بن مهدي الطبريُّ، قال: وإنما دخلت «من» للتجنيس لا للتبعيض[٢]؛ كما تقول: اشتريتُ أرديةً من البَزِّ وأكسيةً من الخَزِّ[٣]. أي: اصبر كما صَبَر الرسلُ. وقيل: كلُّ الأنبياء أولو عَزْمٍ إلا يونس بن متى[٤]؛ ألا ترى أن النبيَّ ﷺ نُهي أن يكون مثلَه؛ لخفَّةٍ وعَجَلةٍ ظهرت منه حين ولَّى مُغاضِباً لقومه[٥]، فابتلاه الله بثلاث: سلَّط عليه العمالقة حتى أغاروا على أهله وماله، وسلَّط الذئبَ على ولده فأكلَه، وسلَّط عليه الحوتَ فابتلعه؛ قاله أبو القاسم الحكيم.

وقال بعض العلماء: أولو العزم اثنا عشر نبيًّا أرسلوا إلى بني إسرائيل بالشام فعصَوهم، فأوحى اللهُ إلى الأنبياء: إني مرسلٌ عذابي إلى عصاة بني إسرائيل؛ فشقَّ ذلك على المرسلين، فأوحى اللهُ إليهم: اختاروا لأنفسكم، إن شئتم أنزلتُ بكم العذابَ وأنجيتُ بني إسرائيل، وإن شئتم نجَّيتكم وأنزلتُ العذابَ ببني إسرائيل؛ فتشاوروا بينهم، فاجتمع رأيُهم على أن ينزل بهم العذاب، وينجي اللهُ بني إسرائيل[٦]؛ فأنجى الله بني إسرائيل وأنزَل بأولئك العذاب. وذلك أنه سلط عليهم ملوكَ الأرض؛ فمنهم من نُشر بالمناشير، ومنه من سُلِخَ جلدة رأسه ووجهه، ومنهم من صُلب على الخشب حتى مات، ومنهم من حُرِّق بالنار. والله أعلم.

وقال الحسن: أُولو العزم أربعة: إبراهيم، وموسى، وداود، وعيسى؛ فأما

---

(١) أخرجه الطبري ٢١/١٧٧ عن ابن زيد.

(٢) المحرر الوجيز ٥/١٠٧.

(٣) تفسير البغوي ٤/١٧٦.

(٤) ذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/١٠٧ من قول أبي القاسم الحكيم، وابن الجوزي في زاد المسير ٧/٣٩٣ عن الثعلبي.

(٥) تفسير البغوي ٤/١٧٦ بنحوه.

(٦) ينظر تفسير أبي الليث ٣/٢٣٧.

إبراهيم فقيل له: ﴿أَسْلِمْۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة:١٣١]، ثم ابتلِيَ في ماله وولده ووطنه ونفسه، فوجد صادقاً وافيًا في جميع ما ابتلي به. وأما موسى فعزمُه حين قال له قومه: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ . قَالَ كَلَّآۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء:٦١-٦٢]. وأما داود فأخطأ خطيئته فنُبِّه عليها، فأقام يبكي أربعين سنةً حتى نبتت من دموعه شجرة، فقعد تحت ظلِّها. وأما عيسى فعزمُه أنه لم يضع لَبِنة على لَبِنة وقال: إنها مَعْبَرةٌ، فاعبرُوها ولا تعمرُوها[١]. فكأن اللهَ تعالى يقولُ لرسوله ﷺ: اصبر، أي: كن صادقاً فيما ابتُليتَ به مثل صدق إبراهيم؛ واثقاً بنُصرة مولاك مثل ثقة موسى، مهتمًّا بما سلَف من هفواتك مثل اهتمام داود، زاهداً في الدنيا مثل زهد عيسى.

ثم قيل: هي منسوخة بآية السيف. وقيل: محكمة؛ والأظهر أنها منسوخة؛ لأن السورة مكيَّةٌ. وذكر مقاتل: أن هذه الآية نزَلت على رسول الله ﷺ يومَ أُحُد، فأمرَه الله عزَّ وجل أن يصبر على ما أصابه كما صبرَ أولو العزم من الرسل؛ تسهيلاً عليه وتثبيتاً له[٢]. والله أعلم.

﴿وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْۚ﴾ قال مقاتل: بالدعاء عليهم[٣]. وقيل: في إحلالِ العذاب بهم، فإن أبعدَ غاياتهم يومُ القيامة. ومفعولُ الاستعجال محذوفٌ، وهو العذاب[٤].

﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ﴾ قال يحيى: من العذاب. النقَّاش: من الآخرة. ﴿لَمْ يَلْبَثُوٓاْ﴾ أي: في الدنيا حتى جاءهم العذاب، وهو مقتضى قول يحيى. وقال النقَّاش: في قبورهم حتى بُعثوا للحساب[٥]. ﴿إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭ﴾ يعني في جنْب يومِ القيامة.

(١) الكشاف ٣/ ٥٢٨، والرازي ٢٨/ ٣٥.

(٢) النكت والعيون ٥/ ٢٨٩.

(٣) المصدر السابق.

(٤) تفسير الرازي ٢٨/ ٣٥.

(٥) النكت والعيون ٥/ ٢٨٩.

وقيل: نَسَّاهم هَوْلُ ما عاينوا من العذاب طولَ لَبثهم في الدنيا. ثم قال: ﴿بَلَٰغٌ﴾ أي: هذا القرآنُ بلاغ؛ قاله الحسن[1]. فـ«بلاغ» رفع على إضمار مبتدأ[2]؛ دليله قوله تعالى: ﴿هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ﴾ [إبراهيم:٥٢]، وقوله: ﴿إِنَّ فِى هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ﴾ [الأنبياء:١٠٦]. والبلاغ بمعنى التبليغ. وقيل: أي: إن ذلك اللَّبث بلاغ؛ قاله ابن عيسى[3]، فيوقف على هذا على «بلاغ» وعلى «نَهَارٍ». وذكر أبو حاتم: أن بعضهم وقف على «وَلَا تَسْتَعْجِلْ»، ثم ابتدأ: «لَهُمْ»؛ على معنى: لهم بلاغ. قال ابن الأنباريِّ: وهذا خطأ؛ لأنك قد فصَلت بين البلاغ وبين اللام ـ وهي رافعة ـ بشيء ليس منهما.

ويجوز في العربية: بلاغاً وبلاغٍ؛ النصب على معنى إلا ساعة بلاغاً، على المصدر أو على النعت للساعة. والخفض على معنى من نهارٍ بلاغ. وبالنصب قرَأ عيسى بن عمر والحسن[4]. ورُوي عن بعض القرَّاء: «بَلِّغْ» على الأمر؛ فعلى هذه القراءة يكون الوقف على «مِنْ نَهَارٍ» ثم يبتدئ: «بَلِّغْ»[5].

﴿فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ أي: الخارجون على أمر الله[6]؛ قاله ابن عباس وغيره.

وقرَأ ابن مُحَيْصن: «فَهَلْ يَهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمُ»[7] على إسناد الفعل إلى القوم.

---

(١) المصدر السابق.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٧٥.

(٣) النكت والعيون ٥/ ٢٨٩.

(٤) المحتسب ٢/ ٢٦٨، والقراءات الشاذة ص ١٤٠.

(٥) إيضاح الوقف والابتداء ٢/ ٨٩٤ - ٨٩٥، وقراءة «بلِّغ» ذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص١٤٠، وابن جني في المحتسب ٢/ ٢٦٨ من قراءة أبي مجلز وسراج.

(٦) الوسيط ٤/ ١١٧، وتفسير البغوي ٤/ ١٧٧ دون نسبة.

(٧) القراءات الشاذة ص ١٤٠، والمحتسب ٢/ ٢٦٨.

وقال ابن عباس: إذا عَسِرَ على المرأة وَلَدُها؛ تَكتب هاتين الآيتين والكلمتين في صحيفة، ثم تُغسَل وتُسقى منها، وهي: بسم الله الرحمن الرحيم؛ لا إله إلا اللهُ العظيمُ الحليم الكريم، سبحان الله ربِّ السماوات وربِّ الأرض وربِّ العرش العظيم، ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا﴾ ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭ بَلَٰغٌۭ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾[١] صدق الله العظيم.

وعن قتادة: لا يُهلك الله إلا هالكاً مشركاً[٢]. وقيل: هذه أقوى آية في الرجاء[٣].

والله أعلم.

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة ٨/٢٧ وإسناده ضعيف.

(٢) في (د) و(ظ): لا يهلك إلا هالك مشرك. وذكره الواحدي في الوسيط ٤/١١٧، وأخرجه الطبري ٢١/١٧٨ بنحوه.

(٣) ذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/١٠٨ عن الثعلبي.

تفسير سورة الأحقاف

وهي مكية .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿حم (١) تنزيلُ الْكتَابِ منَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (٢) مَا خَلَقْنَا السَّموَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُعْرِضُونَ (٣) قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ من دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا منَ الأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شرْكٌ في السَّمَوَاتِ ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٤) وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو من دُونِ اللَّهِ مَن لاَّ يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ (٥) وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ (٦)﴾ .

يخبر تعالى أنه نَزّل الكتاب على عبده ورسوله محمد، صلوات الله وسلامه عليه دائما إلى يوم الدين، ووصف نفسه بالعزة التي لا ترام، والحكمة في الأقوال والأفعال، ثم قال: ﴿مَا خَلَقْنَا السَّموَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ﴾ أي: لا على وجه العبث والباطل، ﴿وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي: إلى مدة معينة مضروبة لا تزيد ولا تنقص.

قوله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُعْرِضُونَ﴾ أي: لاهون[١] عما يراد بهم، وقد أنزل إليهم كتاب وأرسل إليهم رسول، وهم معرضون عن ذلك كله، أي: وسيعلمون غبّ ذلك.

ثم قال: ﴿قُلْ﴾ أي: لهؤلاء المشركين العابدين مع الله غيره: ﴿أَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ من دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا منَ الأَرْضِ﴾ أي: أرشدوني إلى المكان الذي استقلوا بخلقه من الأرض، ﴿أَمْ لَهُمْ شرْكٌ في السَّمَوَاتِ﴾ أي: ولا شرك لهم في السموات ولا في الأرض، وما يملكون من قطمير، إن المُلْك والتصرّف كله إلا الله، عز جل، فكيف تعبدون معه غيره، وتشركون به؟ من أرشدكم إلى هذا؟ من دعاكم إليه؟ أهو أمركم به؟ أم هو شيء اقترحتموه من عند أنفسكم؟ ولهذا قال: ﴿ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَذَا﴾ أي: هاتوا كتابا من كتب الله المنزلة على الأنبياء[٢]، عليهم الصلاة والسلام، يأمركم بعبادة هذه الأصنام، ﴿أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ﴾ أي: دليل بيِّن على هذا المسلك الذي سلكتموه ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ أي: لا دليل لكم نقلياً ولا عقليا على ذلك؛ ولهذا قرأ آخرون: «أو أثَرَة من علم» أي: أو علم صحيح يأثرونه عن أحد ممن قبلهم، كما قال مجاهد في قوله: ﴿أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ﴾: أو أحد يأثر علما.

(١) في ت، م، أ: «لاهين».

(٢) في ت، م، أ: «هاتوا كتابا من الكتب المنزلة على أنبيائهم».

قال العَوْفى، عن ابن عباس: أو بينة من الأمر.

وقال[١] الإمام أحمد: حدثنا يحيى، عن سفيان، حدثنا صفوان بن[٢] سُلَيم، عن أبى سلمة بن عبد الرحمن، عن ابن عباس قال سفيان: لا أعلم إلا عن النبى ﷺ: «أو أثَرَة من علم» قال: «الخط»[٣].

وقال أبو بكر بن عياش: أو بقية من علم. وقال الحسن البصرى: ﴿أَوْ أَثَارَةٍ﴾: شىء يستخرجه فيثيره.

وقال ابن عباس، ومجاهد، وأبو بكر بن عياش أيضا: ﴿أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ﴾ يعنى الخط.

وقال قتادة: ﴿أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ﴾: خاصة من علم.

وكل هذه الأقوال متقاربة، وهى راجعة إلى ما قلناه، وهو اختيار ابن جرير، رحمه الله وأكرمه، وأحسن مثواه.

وقوله: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لاَّ يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ﴾ أى: لا أضل ممن يدعو أصناما، ويطلب منها ما لا تستطيعه إلى يوم القيامة، وهى غافلة عما يقول، لا تسمع ولا تبصر ولا تبطش؛ لأنها جماد، حجَارة، صُمّ.

وقوله: ﴿وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ ، كقوله تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا . كَلاَّ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ [مريم: ٨١، ٨٢] أى: سيخونونهم[٤] أحوج ما يكونون إليهم، وقال الخليل: ﴿إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٥].

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ (٧) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٨) قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٩) ﴾ .

يقول تعالى مخبرا عن المشركين فى كفرهم وعنادهم: إنهم إذا تتلى عليهم آيات الله بينات، أى: فى حال بيانها ووضوحها وجلائها، يقولون: ﴿هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ أى: سحر واضح، وقد كَذَبوا وافتروا وضَلّوا وكفروا ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾ يعنون: محمدا ﷺ. قال الله [تعالى][٥]: ﴿ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ أى: لو كذبت عليه وزعمت أنه أرسلنى ـ وليس كذلك ـ لعاقبنى أشد

---

(١) فى ت: «وروى». (٢) فى أ: «عن» وهو خطأ.
(٣) المسند (١/ ٢٢٦).
(٤) فى أ: «سيجدونهم». (٥) زيادة من ت، أ.

العقوبة، ولم يَقْدرْ أحد من أهل الأرض، لا أنتم ولا غيركم، أن يجيرنى منه، كقوله: ﴿قُلْ إِنِّى لَن يُجيرَنِى مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا . إِلاَّ بَلاغًا مِّنَ اللَّهِ وَرِسَالاتِهِ﴾ [الجن: ٢٢، ٢٣]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ . لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ . ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ . فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾ [الحاقة: ٤٤ ـ ٤٧]؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾، هذا تهديد لهم، ووعيد أكيد، وترهيب شديد.

وقوله: ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾: ترغيب لهم إلى التوبة والإنابة، أى: ومع هذا كله إن رجعتم وتبتم، تاب عليكم وعفا عنكم، وغفر [لكم] (١)ورحم. وهذه الآية كقوله فى سورة الفرقان: ﴿وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً . قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الفرقان: ٥، ٦].

وقوله: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ﴾ أى: لست بأول رسول طرق العالم، بل قد جاءت الرسل من قبلى، فما أنا بالأمر الذى لا نظير له حتى تستنكرونى وتستبعدوا (٢)بعثتى إليكم، فإنه قد أرسل الله قبلى جميع الأنبياء إلى الأمم.

قال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ﴾: ما أنا بأول رسول. ولم يحك ابن جرير ولا ابن أبى حاتم غير ذلك.

وقوله: ﴿وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلا بِكُمْ﴾: قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس فى هذه الآية: نزل بعدها ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢]. وهكذا قال عكرمة، والحسن، وقتادة: إنها منسوخة بقوله: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾، قالوا: ولما نزلت هذه الآية قال رجل من المسلمين: هذا قد بين الله ما هو فاعل بك يا رسول الله، فما هو فاعل بنا؟ فأنزل الله: ﴿لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ﴾ [الفتح: ٥].

هكذا قال، والذى هو ثابت فى الصحيح أن المؤمنين قالوا: هنيئا لك يا رسول الله، فما لنا؟ فأنزل الله هذه الآية.

وقال الضحاك: ﴿وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلا بِكُمْ﴾: ما أدرى بماذا أومر، وبماذا أنهى بعد هذا؟

وقال أبو بكر الهذلىّ، عن الحسن البصرى فى قوله: ﴿وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلا بِكُمْ﴾ قال: أما فى الآخرة فمعاذ الله، قد علم أنه فى الجنة، ولكن قال: لا أدرى ما يفعل بى ولا بكم فى الدنيا، أخرج كما أخرجت الأنبياء [من](٣) قبلى؟ أم أقتل كما قتلت الأنبياء من قبلى؟ ولا أدرى أيخسف بكم أو تُرمون بالحجارة؟

وهذا القول هو الذى عَوّل عليه ابن جرير، وأنه لا يجوز غيره، ولا شك أن هذا هو اللائق به، صلوات الله وسلامه عليه، فإنه بالنسبة إلى الآخرة جازم أنه يصير إلى الجنة هو ومن اتبعه، وأما فى الدنيا فلم يدر ما كان يؤُول إليه أمره وأمر مشركى قريش إلى ماذا: أيؤمنون أم يكفرون، فيعذبون

(١) زيادة من أ. (٢) فى ت، م، أ: «وتستبعدون». (٣) زيادة من أ.

فسيتأصلون بكفرهم[١]؟ فأما الحديث الذى رواه الإمام أحمد:

حدثنا يعقوب، حدثنا أبى، عن ابن شهاب، عن خارجة بن زيد بن ثابت، عن أم العلاء ـ وهى امرأة من نسائهم ـ أخبرته ـ وكانت بايعت رسول الله ﷺ ـ قالت: طار لهم فى السكنى حين اقترعت الأنصار على سكنى المهاجرين عثمانُ بن مظعون. فاشتكى عثمان عندنا فَمرَّضناه، حتى إذا توفى أدْرَجناه فى أثوابه، فدخل علينا رسول الله فقلت: رحمة الله عليك أبا السائب، شهادتى عليك، لقد أكرمك الله. فقال رسول الله ﷺ: «وما يدريك أن الله أكرمه؟» فقلت: لا أدرى بأبى أنت وأمى! فقال رسول الله ﷺ: «أما هو فقد جاءه[٢] اليقين من ربه، وإنى لأرجو له الخير، والله ما أدرى وأنا رسول الله ما يفعل بى!» قالت: فقلت: والله لا أزكى أحدًا بعده أبدا. وأحزننى ذلك، فنمت فرأيت لعثمان عينا تجرى، فجئت إلى رسل الله ﷺ فأخبرته بذلك، فقال رسول الله ﷺ: «ذاك[٣] عمله».

فقد انفرد بإخراجه البخارى دون مسلم[٤]، وفى لفظ له: «ما أدرى وأنا رسول الله ما يفعل به»[٥]. وهذا أشبه أن يكون هو المحفوظ، بدليل قولها: «فأحزننى ذلك». وفى هذا وأمثاله دلالة على أنه لا يقطع لمعين بالجنة إلا الذى[٦] نص الشارع على تعيينهم، كالعشرة، وابن سلام، والغُميصاء، وبلال، وسراقة، وعبد الله بن عمرو بن حرام والد[٧] جابر، والقراء السبعين الذين قتلوا ببئر معونة، وزيد بن حارثة، وجعفر، وابن رواحة، وما أشبه هؤلاء.

وقوله: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ أى: إنما أتبع ما ينزله الله علىَّ من الوحى، ﴿وَمَا أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أى: بين النّذَارة، وأمرى[٨] ظاهر لكل ذى لب وعقل.

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٠) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ (١١) وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ (١٢) إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (١٣) أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٤)﴾.

يقول تعالى: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين الكافرين بالقرآن: ﴿أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ﴾ هذا القرآن ﴿مِنْ عِندِ اللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِ﴾ أى: ما ظنكم أن الله صانع بكم إن كان هذا الكتاب الذى جئتكم به قد أنزله

(١) فى ت، أ: «كغيرهم». (٢) فى أ: «جاءه والله». (٣) فى ت: «ذلك».
(٤) المسند (٦/ ٤٣٦) وصحيح البخارى برقم (١٢٤٣).
(٥) صحيح البخارى برقم (٢٦٨٧).
(٦) فى أ: «الذين». (٧) فى ت: «أبو». (٨) فى أ: «رأى».

عليَّ لأبلغكموه وقد كَفَرتم به وكذبتموه، ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ﴾ أي: وقد شهدت بصدقه وصحته الكتب المتقدمة المنزلة على الأنبياء قبلي، بشرت به وأخبرت بمثل ما أخبر هذا القرآن به.

وقوله: ﴿فَآمَنَ﴾ أي: هذا الذي شهد بصدقه من بني إسرائيل لمعرفته بحقيته ﴿وَاسْتَكْبَرْتُمْ﴾ أنتم: عن اتباعه.

وقال مسروق: فآمن هذا الشاهد بنبيه وكتابه، وكفرتم أنتم بنبيكم وكتابكم ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾.

وهذا الشاهد اسم جنس يعم عبد الله بن سلام وغيره، فإن هذه الآية مكية نزلت قبل إسلام عبدالله بن سلام. وهذه كقوله: ﴿وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ﴾ [القصص: ٥٣]، وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّدًا . وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً﴾ [الإسراء: ١٠٧، ١٠٨].

قال مسروق، والشعبي: ليس بعبد الله بن سلام، هذه الآية مكية، وإسلام عبد الله بن سلام كان بالمدينة. رواه عنهما ابن جرير وابن أبي حاتم، واختاره ابن جرير.

وقال مالك، عن أبي النَّضْر، عن عامر بن سعد[1]، عن أبيه قال: ما سمعت رسول الله ﷺ يقول لأحد يمشي على وجه الأرض: «إنه من أهل الجنة»، إلا لعبد الله بن سلام، قال: وفيه نزلت: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ﴾.

رواه البخاري ومسلم والنسائي، من حديث مالك، به[2]. وكذا قال ابن عباس، ومجاهد، والضحاك، وقتادة، وعكرمة، ويوسف بن عبد الله بن سلام، وهلال بن يَسَاف، والسُّدِّي، والثوري، ومالك بن أنس وابن زيد؛ أنهم كلهم قالوا: إنه عبد الله بن سلام.

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾ أي: قالوا عن المؤمنين بالقرآن: لو كان القرآن خيرا ما سبقنا هؤلاء إليه[3]. يعنون بلالا وعمارا وصُهَيبا وخبابا وأشباههم وأقرانهم[4] من المستضعفين والعبيد والإماء، وما ذاك إلا لأنهم عند أنفسهم يعتقدون أن لهم عند الله وجاهة وله بهم عناية. وقد غلطوا في ذلك غلطا فاحشا، وأخطؤوا خطأ بينا، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَٰؤُلاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَا﴾ [الأنعام: ٥٣] أي: يتعجبون: كيف اهتدى هؤلاء دوننا؛ ولهذا قالوا: ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾ وأما أهل السنة[5] والجماعة فيقولون في كل فعل وقول لم يثبت عن الصحابة: هو بدعة؛ لأنه لو كان خيرا لسبقونا إليه، لأنهم

(١) في أ: «سعيد».

(٢) صحيح البخاري برقم (٣٨١٢) وصحيح مسلم برقم (٢٤٨٣) والنسائي في السنن الكبرى برقم (٨٢٥٢).

(٣) في ت: «ما سبقونا إليه هؤلاء». (٤) في أ: «وأضرابهم».

(٥) في م، ت، أ: «يعني المؤمنين، وأما أهل السنة».

لم يتركوا خصلة من خصال الخير إلا وقد بادروا إليها[١].

وقوله: ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ﴾ أى: بالقرآن ﴿فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ﴾ أى: كذب ﴿قَدِيمٌ﴾ أى: مأثور عن الأقدمين، فينتقصون القرآن وأهله، وهذا هو الكبر الذى قال رسول ﷺ: «بطر[٢] الحق، وغَمْط الناس»[٣].

ثم قال: ﴿ وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ ﴾ وهو التوراة ﴿إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ﴾ يعنى: القرآن ﴿مُّصَدِّقٌ﴾ أى: لما قبله من الكتب ﴿ لِّسَانًا عَرَبِيًّا﴾ أى: فصيحا بينا واضحا، ﴿ لِّيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ﴾ أى: مشتمل على النِّذارة للكافرين والبشارة للمؤمنين.

قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾: تقدم تفسيرها فى سورة «حم، السجدة»[٤].

وقوله: ﴿ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ أى: فيما يستقبلون، ﴿وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على ما خلفوا، ﴿أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أى: الأعمال سبب لنيل الرحمة لهم وسُبُوغها[٥] عليهم.

﴿ وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (١٥) أُوْلَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ (١٦) ﴾.

لما ذكر تعالى فى الآية الأولى التوحيد له وإخلاص العبادة والاستقامة إليه، عطف بالوصية بالوالدين، كما هو مقرون فى غير ما آية من القرآن، كقوله: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الإسراء: ٢٣] وقال: ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ [لقمان: ١٤]، إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة. وقال هاهنا: ﴿وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا﴾ أى: أمرناه بالإحسان إليهما والحنو عليهما.

وقال أبو داود الطيالسى: حدثنا شعبة، أخبرنى سِمَاك بن حرب قال: سمعت مُصْعب بن سعد[٦] يحدث عن سعد قال: قالت أم سعد لسعد: ألَيس قد أمر الله بطاعة الوالدين، فلا آكل طعاما، ولا أشرب شرابا حتى تكفر بالله. فامتنعت من الطعام الشراب، حتى جعلوا يفتحون فاها بالعصا، ونزلت هذه الآية: ﴿وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا﴾ الآية [العنكبوت: ٨] .

---

(١) فى ت، م: «إليه». (٢) فى أ: «الكبر بطر».
(٣) رواه مسلم فى صحيحه برقم (٩١) من حديث عبد الله بن مسعود ،رضى الله عنه.
(٤) راجع تفسير هذه الآية عند الآية: ٣٠ من سورة السجدة. (٥) فى أ: «وشيوعها». (٦) فى أ: «حرب».

ورواه مسلم وأهل السنن إلا ابن ماجه، من حديث شعبة بإسناده، نحوه وأطول منه[١].

﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا﴾ أي: قاست بسببه في حال حمله مشقة وتعبا، من وحَام وغشيان وثقل وكرب، إلى غير ذلك مما تنال الحوامل من التعب والمشقة، ﴿وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾ أي: بمشقة أيضا من الطلق وشدته، ﴿وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاثُونَ شَهْرًا﴾.

وقد استدل علي، رضي الله عنه، بهذه الآية مع التي في لقمان: ﴿وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ﴾ [لقمان: ١٤]، وقوله: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ﴾ [البقرة: ٢٣٣]، على أن أقل مدة الحمل ستة أشهر، وهو استنباط قوي صحيح. ووافقه عليه عثمان وجماعة من الصحابة، رضي الله عنهم.

قال محمد بن إسحاق بن يسار، عن يزيد بن عبد الله بن قُسَيْط، عن بَعْجَةَ[٢] بن عبد الله الجهني قال: تزوج رجل منا امرأة من جُهَيْنة، فولدت له لتمام ستة أشهر، فانطلق زوجها إلى عثمان فذكر ذلك له، فبعث إليها، فلما قامت لتلبس ثيابها بكت أختها، فقالت: ما يبكيك؟! فوالله ما التبس بي أحد من خلق الله غيره قط، فيقضي الله في ما شاء. فلما أتي بها عثمان أمر برجمها، فبلغ ذلك عليا فأتاه، فقال له: ما تصنع؟ قال: ولدت تماما لستة أشهر، وهل يكون ذلك؟ فقال له [علي][٣] أما تقرأ القرآن؟ قال: بلى. قال: أما سمعت الله يقول: ﴿وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاثُونَ شَهْرًا﴾. وقال: ﴿[يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ][٤] حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾، فلم نجده بقي إلا ستة أشهر، قال: فقال عثمان: والله ما فطنت لهذا، علي بالمرأة فوجدوها قد فُرِغَ منها، قال: فقال بَعْجَةُ: فوالله ما الغراب بالغراب، ولا البيضة بالبيضة بأشبه منه بأبيه. فلما رآه أبوه قال: ابني إني والله لا أشك فيه، قال: وأبلاه[٥] الله بهذه القرحة قرحة الأكلة، فما زالت تأكله حتى مات[٦].

رواه ابن أبي حاتم، وقد أوردناه من وجه آخر عند قوله: ﴿فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ [الزخرف: ٨١].

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا فَرْوَة بن أبي المَغْرَاء، حدثنا علي بن مِسْهَر، عن داود بن أبي هند، عن عِكْرِمة، عن ابن عباس[٧] قال: إذا وضعت المرأة لتسعة أشهر، كفاه من الرضاع أحد[٨] وعشرون شهرا، وإذا وضعته لسبعة أشهر كفاه من الرضاع ثلاثة وعشرون شهراً، وإذا وضعته لستة أشهر فحولين كاملين؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاثُونَ شَهْرًا﴾.

﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ﴾ أي: قوي وشب وارتجل ﴿وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ أي: تناهى عقله وكمل فهمه وحلمه. ويقال: إنه لا يتغير غالبا عما يكون عليه ابن الأربعين.

---

(١) مسند الطيالسي برقم (٢٠٨) وصحيح مسلم برقم (١٧٤٨) وسنن أبي داود برقم (٢٧٤٠) وسنن الترمذي برقم (٣٠٧٩) والنسائي في السنن الكبرى برقم (١١١٩٦) لكن النسائي لم يرو الشاهد هنا وإنما روى أوله.

(٢) في ت، أ: «معمر».

(٣) زيادة من ت، أ.

(٤) زيادة من أ.

(٥) في ت، م، أ: «وابتلاه».

(٦) ورواه ابن المنذر وابن أبي حاتم كما في الدر المنثور للسيوطي (٧/٤٤١).

(٧) في ت: «عن عكرمة وروى عن ابن عباس».

(٨) في ت: «بأحد»، وفي أ، هـ: «أحد».

قال أبو بكر بن عياش، عن الأعمش، عن القاسم بن عبد الرحمن قال: قلت لمسروق: متى يؤخذ الرجل بذنوبه؟ قال: إذا بَلَغْتَ الأربعين، فَخُذْ حذرك.

وقال الحافظ أبو يعلى الموصلى: حدثنا عُبَيد الله القواريرى، حدثنا عَزْرَة بن قيس الأزدى ـ وكان قد بلغ مائة سنة ـ حدثنا أبو الحسن السلولى[١] عنه وزادنى[٢] قال: قال محمد بن عمرو بن عثمان، عن عثمان، عن النبى ﷺ قال: «العبد المسلم إذا بلغ أربعين سنة، خفف الله حسابه، وإذا بلغ[٣] ستين سنة رزقه الله الإنابة إليه، وإذا بلغ سبعين سنة أحبّه أهل السماء، وإذا بلغ ثمانين سنة ثبت الله حسناته ومحا سيئاته، وإذا بلغ تسعين سنة غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وشفَّعه الله فى أهل بيته، وكتب فى السماء: أسير[٤] الله فى أرضه»[٥].

وقد روى هذا من غير هذا الوجه، وهو فى مسند الإمام أحمد[٦] [٧].

وقد قال الحجاج بن عبد الله الحكمى أحد أمراء بنى أمية بدمشق: تركت المعاصى والذنوب أربعين سنة حياء من الناس، ثم تركتها حياء من الله ، عز وجل.

وما أحسن قول الشاعر:

صَبَا ما صَبَا حَتى عَلا الشَّيبُ رأسَهُ فلمَّا عَلاهُ قال للباطل: ابطُل[٨]

﴿ قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي ﴾ أى: ألهمنى **﴿ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ﴾** أى: فى المستقبل، **﴿ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي﴾** أى: نسلى وعقبى، **﴿ إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾** هذا فيه إرشاد لمن بلغ الأربعين أن يجدد التوبة والإنابة إلى الله، عز وجل، ويعزم عليها.

وقد روى أبو داود فى سننه، عن ابن مسعود، رضى الله عنه، أن رسول الله ﷺ كان يعلمهم أن يقولوا فى التشهد: «اللهم، ألف بين قلوبنا، وأصلح ذات بيننا، واهدنا سبُل[٩] السلام، ونجنا من الظلمات إلى النور، وجنّبنا الفواحش ما ظهر منها وما بطن، وبارك لنا فى أسماعنا وأبصارنا وقلوبنا، وأزواجنا، وذرياتنا، وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم، واجعلنا شاكرين لنعمتك، مثنين بها قابليها، وأتمها علينا»[١٠].

قال الله تعالى: **﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَتَجَاوَزُ عَن سَيِّئَاتِهِمْ ﴾** أى: هؤلاء المتصفون بما ذكرنا، التائبون إلى الله المنيبون إليه، المستدركون ما فات بالتوبة والاستغفار، هم الذين يتقبل عنهم أحسن ما عملوا، ويتجاوز عن سيئاتهم، فيغفر لهم الكثير من الزلل، ويتقبل منهم اليسير من العمل، **﴿ فِى أَصْحَابِ الْجَنَّةِ ﴾** أى: هم فى جملة أصحاب الجنة، وهذا حكمهم عند الله كما وعد

(١) فى م، أ: «أبو الحسن الكوفى ـ عمرو بن أوس». (٢) فى ت: «وروى الحافظ».
(٣) فى ت، م: «رزقه». (٤) فى ت، م، أ: «أمين».
(٥) قال الهيثمى فى المجمع (١٠/ ٢٠٥): «رواه أبو يعلى فى الكبير وفيه عزرة بن قيس الأزدى، وهو ضعيف».
(٦) فى ت: «وهذا الحديث فى مسند الإمام أحمد».
(٧) رواه الإمام أحمد من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه، المسند (٣/ ٢١٨).
(٨) فى ت، م، أ: «أبعد». (٩) فى ت: «سبيل».
(١٠) سنن أبى داود برقم (٩٦٩).

الله من تاب إليه وأناب؛ ولهذا قال: ﴿وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾.

قال[1] ابن جرير: حدثنى يعقوب بن إبراهيم، حدثنا المُعْتَمر بن سليمان، عن الحكم بن أبان، عن الغطْرِيف، عن جابر بن زيد، عن ابن عباس[2]، عن رسول الله ﷺ، عن الروح الأمين، عليه[3] السلام، قال: «يؤتى[4] بحسنات العبد وسيئاته[5]، فيقتص[6] بعضها ببعض، فإن بقيت حسنة وسع الله له فى الجنة» قال: فدخلتُ على يزداد فَحُدِّث بمثل هذا الحديث قال: قلت: فإن ذهبت الحسنة؟ قال: ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ يَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَتَجَاوَزُ عَن سَيِّئَاتِهِمْ فِى أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِى كَانُوا يُوعَدُونَ﴾[7].

وهكذا رواه ابن أبى حاتم عن أبيه، عن محمد بن عبد الأعلى الصنعانى، عن المعتمر بن سليمان، بإسناده مثله ـ وزاد: عن الروح الأمين. قال: قال الرب، جل جلاله: يؤتى بحسنات العبد وسيئاته... فذكره، وهو حديث غريب، وإسنادٌ جيد لا بأس به.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا سليمان بن مَعْبَد، حدثنا عمرو بن عاصم الكلائى، حدثنا أبو عوانة، عن أبى بشر[8] جعفر بن أبى وَحْشية، عن يوسف بن سعد[9]، عن محمد بن حاطب قال: ونزل فى دارى حيث ظهر على على أهل البصرة، فقال لى يوما: لقد شهدتُ أمير المؤمنين عليا، وعنده عمارا وصعصعة والأشتر ومحمد بن أبى بكر، فذكروا عثمان فنالوا منه، وكان على، رضى الله عنه، على السرير، ومعه عود فى يده، فقال قائل منهم: إن عندكم من يفصل بينكم فسألوه، فقال على: كان عثمان من الذين قال الله: ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ يَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيُتَجَاوَزُ عَن سَيِّئَاتِهِمْ فِى أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِى كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ قال: والله عثمان وأصحاب عثمان ـ قالها ثلاثا ـ قال يوسف: فقلت لمحمد بن حاطب: آلله لسمعت هذا من علىّ؟ قال: آلله لسمعت هذا من على، رضى الله عنه.

﴿وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِن قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ (١٧) أُوْلَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ (١٨) وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ (١٩) وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ (٢٠)﴾.

---

(١) فى ت: «وروى». (٢) فى ت: «ابن عباس رضى الله عنه». (٣) فى م: «عليهما».
(٤) فى ت: «تؤتى». (٥) فى أ: «وسيئاته يوم القيامة». (٦) فى أ: «فيقبض».
(٧) تفسير الطبرى (٢٦/ ١٢) ورواه أبو نعيم فى الحلية (٣/ ٩١) من طريق معتمر بن سليمان به، وقال أبو نعيم: «هذا حديث غريب من حديث جابر، والغطريف تفرد به عنه الحكم بن أبان العدنى».
(٨) فى أ: «بشير». (٩) فى ت: «وروى ابن أبى حاتم بإسناده».

لما ذكر تعالى حال الداعين للوالدين البارين بهما وما لهم عنده من الفوز والنجاة، عطف بحال الأشقياء العاقين للوالدين فقال: ﴿وَالَّذِى قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا﴾ ـ وهذا عام فى كل من قال هذا، ومن زعم أنها نزلت فى عبد الرحمن بن أبى بكر فقوله ضعيف؛ لأن عبد الرحمن بن أبى بكر أسلم بعد ذلك وحسن إسلامه، وكان من خيار أهل زمانه.

وروى العَوْفى، عن ابن عباس: أنها نزلت فى ابن لأبى بكر الصديق. وفى صحة هذا نظر، والله أعلم.

وقال ابن جُرَيْج، عن مجاهد: نزلت فى عبد الله بن أبى بكر. وهذا أيضا قاله ابن جريج.

وقال آخرون: عبد الرحمن بن أبى بكر. وقاله[١] السدى. وإنما هذا عام فى كل من عق والديه وكذب بالحق، فقال لوالديه: ﴿أُفٍّ لَّكُمَا﴾ عقهما.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا على بن الحسين، حدثنا محمد بن العلاء، حدثنا يحيى بن أبى زائدة، عن إسماعيل بن أبى خالد، أخبرنى عبد الله بن المدينى قال: إنى لفى المسجد حين خطب مَرْوان، فقال: إن الله أرى[٢] أمير المؤمنين فى يزيد رأيا حسنا، وإن يستخلفه فقد استخلف أبو بكر عمر، فقال عبد الرحمن بن أبى بكر: أهرقلية؟! إن أبا بكر والله ما جعلها فى أحد من ولده، ولا أحد من أهل بيته، ولا جعلها معاوية فى ولده إلا رحمة وكرامة لولده. فقال مروان: ألست الذى قال لوالديه: أف لكما؟ فقال عبد الرحمن: ألست ابن اللعين الذى لعن رسول الله ﷺ أباك؟ قال: وسمعتهما عائشة فقالت: يا مروان، أنت القائل لعبد الرحمن كذا وكذا؟ كذبتَ، ما فيه نزلت، ولكن نزلت فى فلان بن فلان. ثم انتحب مروان، ثم نزل عن المنبر حتى أتى باب حجرتها، فجعل يكلمها حتى انصرف[٣].

وقد رواه البخارى بإسناد آخر ولفظ آخر، فقال: حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا أبو عَوانة، عن أبى بِشْر، عن يوسف بن مَاهَك قال: كان مَرْوان على الحجاز، استعمله معاوية بن أبى سفيان، فخطب وجعل يذكر يزيد بن معاوية لكى يبايع له بعد أبيه، فقال له عبد الرحمن بن أبى بكر شيئا، فقال: خذوه. فدخل بيت عائشة، رضى الله عنها، فلم يقدروا عليه، فقال[٤] مروان: إن هذا الذى أنزل فيه: ﴿وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا أَتَعِدَانِنِى أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِن قَبْلِى﴾ فقالت عائشة من وراء الحجاب: ما أنزل الله فينا شيئا من القرآن، إلا أن الله أنزل عُذرى[٥].

طريق أخرى: قال النسائى: حدثنا على بن الحسين، حدثنا أميَّة بن خالد، حدثنا شعبة، عن محمد بن زياد قال: لما بايع معاوية لابنه، قال مروان: سُنَّة أبى بكر وعمر. فقال عبد الرحمن بن أبى

---

(١) فى ت، م: «وهذا قول». (٢) فى م، أ: «الله قد رأى».

(٣) ورواه ابن مردويه فى تفسيره كما فى الدر المنثور (٧/ ٤٤٤).

(٤) فى أ: «فلم يقدر عليه فقام فقال».

(٥) صحيح البخارى برقم (٤٨٢٧).

بكر: سُنَّة هرقل وقيصر. فقال مروان: هذا الذى أنزل الله فيه: ﴿وَالَّذِى قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا﴾ الآية، فبلغ ذلك عائشة فقالت: كذب مروان! والله ما هو به، ولو شئت أن أسمى الذى أنزلت فيه لسميته، ولكن رسول الله ﷺ لعن أبا مروان ومروانُ فى صلبه، فمروان فَضَضٌ[(١)] من لعنة الله[(٢)].

وقوله: ﴿ أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ ﴾ أى: [أن][(٣)] أبعث ﴿ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِن قَبْلِي ﴾ أن[(٤)]: قد مضى الناس فلم يرجع منهم مخبر، ﴿ وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ ﴾ أى: يسألان الله فيه أن يهديه ويقولان لولدهما: ﴿وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ ﴾ قال الله [تعالى][(٥)]: ﴿ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِى أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ﴾ أى: دخلوا فى زمرة أشباههم وأضرابهم من الكافرين الخاسرين أنفسهم وأهليهم يوم القيامة.

وقوله: ﴿ أُوْلَئِكَ﴾ بعد قوله: ﴿ وَالَّذِى قَالَ﴾ دليل على ما ذكرناه من أنه جنس يعم كل من كان كذلك.

وقال الحسن، وقتادة: هو الكافر الفاجر العاق لوالديه، المكذب بالبعث.

وقد روى الحافظ ابن عساكر فى ترجمة سهل بن داود، من طريق هشام بن عمار: حدثنا حماد ابن عبد الرحمن، حدثنا خالد بن الزبرقان الحلبى، عن سليمان بن حبيب المحاربى، عن أبى أمامة الباهلى، عن النبى ﷺ قال: «أربعة لعنهم الله من فوق عرشه،وأَمَّنتْ عليهم الملائكة: مضل المساكين ـ قال خالد: الذى يهوى بيده إلى المسكين فيقول: هلم أعطيك، فإذا جاءه قال: ليس معى شىء ـ والذى يقول للمكفوف: اتق الدابة، وليس بين يديه شىء. والرجل يسأل عن دار القوم فيدلونه على غيرها، والذى يضرب الوالدين حتى يستغيثا»[(٦)] .غريب جدا.

وقوله: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا﴾ أى: لكل عذاب بحسب عمله، ﴿وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾ أى: لا يظلمهم مثقال ذرة فما دونها.

قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: درجات النار تذهب سفالا، ودرجات الجنة تذهب علوا.

وقوله: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا﴾ أى: يقال لهم ذلك تقريعا وتوبيخا. وقد تورع [أمير المؤمنين][(٧)] عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، عن[(٨)] كثير من طيبات المآكل والمشارب، وتنزه عنها، ويقول: [إنى][(٩)] أخاف أن أكون كالذين قال الله تعالى لهم وَقرَّعهم: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا﴾.

---

(١) فى أ: «بعض».

(٢) النسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٤٩١).

(٣) زيادة من ت. (٤) فى ت، أ: «أى». (٥) زيادة من ت، م.

(٦) مختصر تاريخ دمشق لابن منظور (١٠/ ٢٢١) ورواه الطبرانى فى المعجم الكبير (٤/ ٢٥١) من طريق هشام بن عمار به. قال ابن أبى حاتم فى العلل (٢/ ٤١٣): «سألت أبى عن هذا الحديث فقال: هذا حديث منكر». قال الهيثمى فى المجمع (٤/ ٢٥١): «حماد بن عبد الرحمن العكى عن خالد بن الزبرقان، وكلاهما ضعيف».

(٧) زيادة من ت، م، أ. (٨) فى أ: «على». (٩) زيادة من ت، م، أ.

وقال أبو مِجْلَز: ليتفقَّدنّ أقوامٌ حَسَنات كانت لهم فى الدنيا، فيقال لهم: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا﴾.

وقوله: ﴿فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ﴾، فجوزوا من جنس عملهم، فكما نَعَّموا أنفسهم واستكبروا عن اتباع الحق، وتعاطوا الفسق والمعاصى، جازاهم الله بعذاب الهون، وهو الإهانة والخزى والآلام الموجعة، والحسرات المتتابعة، والمنازل فى الدركات المفظعة، أجارنا الله من ذلك كله.

﴿وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٢١) قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٢) قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ (٢٣) فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٤) تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لا يُرَىٰ إِلاَّ مَسَاكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ (٢٥)﴾.

يقول تعالى مسليا لنبيه فى تكذيب من كذبه من قومه: ﴿وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ﴾ وهو هود، عليه السلام، بعثه الله إلى عاد الأولى، وكانوا يسكنون الأحقاف ـ جمع حقْف وهو: الجبل من الرمل ـ قاله ابن زيد. وقال عكرمة: الأحقاف: الجبل والغار. وقال على بن أبى طالب، رضى الله عنه: الأحقاف: واد بحضرموت، يدعى بُرْهوت، تلقى فيه أرواح الكفار. وقال قتادة: ذُكر لنا أن عادا كانوا حيا باليمن أهل رمل مشرفين على البحر بأرض يقال لها: الشِّحْر.

قال ابن ماجه: «باب إذا دعا فليبدأ بنفسه»: حدثنا الحسين بن على الخلال، حدثنا زيد بن الحباب، حدثنا سفيان، عن أبى إسحاق، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «يرحمنا الله، وأخا عاد»(١).

وقوله: ﴿وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ﴾ يعنى: وقد أرسل الله إلى من حَول بلادهم من القرى مرسلين ومنذرين، كقوله: ﴿فَجَعَلْنَاهَا نَكَالاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا﴾ [البقرة: ٦٦]، وكقوله: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا(٢) فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ. إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لأَنزَلَ مَلائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ(٣)﴾ [فصلت: ١٣، ١٤] أى: قال لهم هود ذلك، فأجابه قومه قائلين: ﴿أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا﴾ أى: لتصدنا ﴿عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن

(١) سنن ابن ماجه (٣٨٥٢) وقال البوصيرى فى الزوائد (٣/ ٢٠٤): «هذا إسناد صحيح وله شواهد فى صحيح مسلم وغيره من حديث أبى بن كعب».

(٢) فى م: «تولوا»، وهو خطأ. (٣) فى ت، م، أ، هـ: «إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم»، والصواب ما أثبتناه.

﴿كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ استعجلوا عذاب الله وعقوبته، استبعاداً منهم وقوعه، كقوله: **﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾** [الشورى: ١٨].

﴿قَالَ[١] إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ﴾ أى: الله أعلم بكم إن كنتم مستحقين لتعجيل العذاب فيفعل[٢] ذلك بكم، وأما أنا فمن شأنى أنى أبلغكم ما أرسلت به، **﴿وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾** أى: لا تعقلون ولا تفهمون.

قال الله تعالى: **﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ﴾** أى: لما رأوا العذاب مستقبلهم، اعتقدوا أنه عارض ممطر، ففرحوا به واستبشروا به[٣]، وقد كانوا ممحلين محتاجين إلى المطر، قال الله تعالى: **﴿بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾** أى: هو العذاب الذى قلتم: **﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾**.

﴿تُدَمِّرُ﴾ أى: تخرّب **﴿كُلَّ شَيْءٍ﴾** من بلادهم، مما من شأنه الخراب **﴿بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾** أى: بإذن الله لها فى ذلك، كقوله: **﴿مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلاَّ جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ﴾** [الذاريات: ٤٢] أى: كالشىء البالى. ولهذا قال: **﴿فَأَصْبَحُوا لا يُرَى إِلاَّ مَسَاكِنُهُمْ﴾** أى: قد بادوا كلهم عن آخرهم ولم تبق لهم باقية، **﴿كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾** أى: هذا حكمنا فيمن كذب رسلنا، وخالف أمرنا.

وقد ورد حديث فى قصتهم وهو غريب جداً من غرائب الحديث وأفراده، قال الإمام أحمد:

حدثنا زيد بن الحُبَاب، حدثنى أبو المنذر سلام بن سليمان النحوى قال: حدثنا عاصم بن أبى النَّجُود، عن أبى وائل، عن الحارث البكرى قال: خرجت أشكو العلاء بن الحضرمى إلى رسول الله ﷺ، فمررت بالربَذَة، فإذا عجوز من بنى تميم منقطع بها، فقالت لى: يا عبد الله، إن لى إلى رسول الله ﷺ حاجة، فهل أنت مبلغى إليه؟ قال: فحملتها فأتيت بها المدينة، فإذا المسجد غاص بأهله، وإذا راية سوداء تخفق، وإذا بلال متقلد السيف بين يدى رسول الله ﷺ، فقلت: ما شأن الناس؟ قالوا: يريد أن يبعث عمرو بن العاص وجها. قال: فجلست، فدخل منزله ـ أو قال: رحله ـ فاستأذنت عليه، فأذن لى، فدخلت فسلمت، فقال: «هل كان بينكم وبين تميم شىء؟ قلت: نعم، وكانت لنا الدبرة[٤] عليهم، ومررت بعجوز من بنى تميم منقطع بها، فسألتنى أن أحملها إليك، وها هى بالباب: فأذن لها فدخلت، فقلت: يا رسول الله، إن رأيت أن تجعل بيننا وبين تميم حاجزا فاجعل الدهناء، فحميت العجوز واستوفزت، وقالت: يا رسول الله، فإلى أين يضطر مضطرك؟ قال: قلت: إن مثلى ما قال الأول: «معزَى حَمَلَت حَتْفَهَا»، حملت هذه ولا أشعر أنها كانت لى خصما، أعوذ بالله ورسوله أن أكون كوافد عاد. قال: «هيه، وما وافد عاد؟» ـ وهو أعلم بالحديث منه، ولكن يستطعمه[٥] ـ قلت: إن عاداً قحطوا فبعثوا وافداً لهم يقال له: قَيل، فمر بمعاوية بن بكر، فأقام عنده شهرا يسقيه الخمر وتغنيه جاريتان يقال لهما «الجرادتان»ـ فلما مضى الشهر خرج إلى جبال مَهْرة فقال: اللهم،

---

(١) فى م: «وقال» وهو خطأ.
(٢) فى م، أ: «فسيفعل».
(٣) فى م، ت: «ففرحوا به واستبشروا به».
(٤) فى ت، أ: «الدائرة».
(٥) فى أ: «يستعظمه».

إنك تعلم أنى لم أجئ إلى مريض فأداويه، ولا إلى أسير فأفاديه، اللهم اسق عادا ما كنت تسقيه. فمرت به سحابات سود، فنودى منها: «اختر»، فأومأ إلى سحابة منها سوداء، فنودى منها: «خذها رماداً رمدداً[١]، لا تبقى من عاد أحداً». قال: فما بلغنى أنه أرسل عليهم من الريح إلا كقدر ما يجرى فى خاتمى هذا، حتى هلكوا ـ قال أبو وائل: وصدق ـ وكانت المرأة والرجل إذا بعثوا وافداً لهم قالوا: «لا تكن كوافد عاد».

رواه الترمذى والنسائى وابن ماجه، كما تقدم فى سورة «الأعراف»[٢].

وقال الإمام أحمد: حدثنا هارون بن معروف، أخبرنا ابن وهب، أخبرنا عمرو: أن أبا النضر حدثه عن سليمان بن يسار، عن عائشة [٣] أنها قالت: ما رأيت رسول الله ﷺ مستجمعاً ضاحكا حتى أرى منه لهواته، إنما كان يتبسم. قالت: وكان [٤] إذا رأى غيما ـ أو ريحا ـ عرف ذلك فى وجهه، قالت: يا رسول الله، الناس إذا رأوا الغيم فرحوا رجاء أن يكون فيه المطر، وأراك إذا رأيته عرفت فى وجهك الكراهية؟ فقال: «يا عائشة، ما يؤمننى أن يكون فيه عذاب، قد عذب قوم بالريح، وقد رأى قوم العذاب فقالوا: هذا عارض ممطرنا». وأخرجاه[٥] من حديث ابن وهب[٦].

طريق أخرى: قال أحمد: حدثنا عبد الرحمن، عن سفيان، عن المقدام بن شريح، عن أبيه، عن عائشة، أن رسول الله ﷺ كان إذا رأى ناشئا فى أفق من آفاق السماء، ترك عمله، وإن كان فى صلاته، ثم يقول: «اللهم، إنى أعوذ بك من شر ما فيه[٧]». فإن كشفه الله حمد الله، وإن أمطرت قال: «اللهم، صيبا نافعا»[٨].

طريق أخرى: قال مسلم فى صحيحه: حدثنا أبو الطاهر، أخبرنا ابن وهب، سمعت ابن جريج يحدث عن عطاء بن أبى رباح، عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ إذا عصفت الريح قال: «اللهم، إنى أسألك خيرها، وخير ما فيها، وخير ما أرسلت به، وأعوذ بك من شرها، وشر ما فيها، وشر ما أرسلت به». قالت: وإذا تَخَيَّلت السماء تغير لونه، وخرج ودخل، وأقبل وأدبر، فإذا مطرت سرى عنه، فعرفت ذلك عائشة، فسألته، فقال: «لعله يا عائشة كما قال قوم عاد: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾»[٩].

وقد ذكرنا قصة هلاك عاد[١٠] فى سورتى «الأعراف وهود»[١١] بما أغنى عن إعادته هاهنا، ولله

---

(١) فى ت: «رمدا».

(٢) المسند (٣/ ٤٨٢) وانظر تخريج بقية هذا الحديث عند الآية: ٧٣ من سورة الأعراف.

(٣) فى ت: «عائشة رضى الله عنها».

(٤) فى ت، م: «وكان رسول الله ﷺ». (٥) فى ت: «أخرجه».

(٦) المسند (٦/ ٦٦)، وصحيح البخارى برقم (٤٨٢٨، ٤٨٢٩)، وصحيح مسلم برقم (٨٩٩).

(٧) فى م: «من سوء عاقبته».

(٨) المسند (٦/ ١٩٠).

(٩) صحيح مسلم برقم (٨٩٩).

(١٠) فى ت، م، أ: «هلاك قوم عاد».

(١١) راجع قصة هلاك قوم عاد عند تفسير الآيات: ٦٥ـ ٧٢ من سورة الأعراف، والآيات: ٥٠ـ ٦٠ من سورة هود.

الحمد والمنة.

وقال الطبراني: حدثنا عبدان بن أحمد، حدثنا إسماعيل بن زكريا الكوفي، حدثنا أبو مالك عن مسلم الملائي، عن مجاهد وسعيد بن جبير(١)، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «ما فتح على عاد من الريح إلا مثل موضع الخاتم، ثم أرسلت عليهم [فحملتهم] البدو إلى الحضر فلما رآها أهل الحضر قالوا: هذا عارض ممطرنا مستقبل أوديتنا. وكان أهل البوادي فيها، فألقى أهل البادية على أهل الحاضرة حتى هلكوا. قال: عتت على خزانها حتى خرجت من خلال الأبواب(٢) »(٣).

﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٢٦) وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ الْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٢٧) فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٢٨) ﴾.

يقول تعالى: ولقد مكنا الأمم السالفة في الدنيا من الأموال والأولاد، وأعطيناهم منها(٤) ما لم نعطكم مثله ولا قريبا منه، **﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾** أي: وأحاط بهم العذاب والنكال الذي كانوا يكذبون به ويستبعدون وقوعه، أي: فاحذروا أيها المخاطبون أن تكونوا مثلهم، فيصيبكم مثل ما أصابهم من العذاب في الدنيا والآخرة.

وقوله: **﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ الْقُرَىٰ﴾** يعني: أهل مكة، قد أهلك الله الأمم المكذبة بالرسل مما حولها كعاد، وكانوا بالأحقاف بحضرموت عند اليمن وثمود، وكانت منازلهم بينهم وبين الشام، وكذلك سبأ وهم أهل اليمن، ومدين وكانت في طريقهم وممرهم إلى غزة، وكذلك بحيرة قوم لوط، كانوا يمرون بها أيضا.

وقوله: **﴿وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ﴾** أي: بيناها ووضحناها، **﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ. فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً﴾** أي: فهلا نصروهم عند احتياجهم إليهم، **﴿بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ﴾** أي: بل ذهبوا عنهم أحوج ما كانوا إليهم، **﴿وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ﴾** أي: كذبهم، **﴿وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾** أي: وافتراؤهم في اتخاذهم إياهم آلهة، وقد خابوا وخسروا في عبادتهم لها، واعتمادهم عليها.

---

(١) في ت: «وروى الطبراني بإسناده». (٢) في ت: «البيوت».

(٣) المعجم الكبير (١٢/ ٤٢)، قال الهيثمي في المجمع (٧/ ١١٣): «فيه مسلم الملائي وهو ضعيف».

(٤) في ت: «فيها».

﴿ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ (٢٩) قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ (٣٠) يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (٣١) وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٣٢) ﴾ .

قال الإمام أحمد: حدثنا سفيان، حدثنا عمرو: سمعت عكرمة، عن الزبير: **﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ﴾**، قال: بنخلة، ورسول الله ﷺ يصلى العشاء الآخرة، **﴿كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾** [الجن:١٩]، قال سفيان: اللبد: بعضهم على بعض، كاللبد بعضه على بعض(١).

تفرد به أحمد، وسيأتى من رواية ابن جرير، عن عكرمة، عن ابن عباس: أنهم سبعة من جن نَصيبين.

وقال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا أبو عوانة (ح) ـ وقال الحافظ (٢) أبو بكر البيهقى فى كتابه «دلائل النبوة»: أخبرنا أبو الحسن على بن أحمد بن عبدان، أخبرنا أحمد بن عبيد الصفار، حدثنا إسماعيل القاضى، أخبرنا مسدد، حدثنا أبو عوانة عن أبى بشر، عن سعيد بن جبير(٣)، عن ابن عباس قال: ما قرأ رسول الله ﷺ على الجن ولا رآهم، انطلق رسول الله ﷺ فى طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ، وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء، وأرسلت عليهم الشهب، فرجعت الشياطين إلى قومهم فقالوا: ما لكم؟ فقالوا: حيل بيننا وبين خبر السماء، وأرسلت علينا الشهب. قالوا: ما حال بينكم وبين خبر السماء إلا شىء حدث، فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها وانظروا ما هذا الذى حال بينكم وبين خبر السماء. فانطلقوا يضربون مشارق الأرض ومغاربها يبتغون ما هذا الذى حال بينهم وبين خبر السماء، فانصرف أولئك النفر الذين توجهوا نحو تهامة إلى رسول الله ﷺ، وهو بنخلة عامدا إلى سوق عكاظ، وهو يصلى بأصحابه صلاة الفجر، فلما سمعوا القرآن استمعوا له، فقالوا: هذا ـ والله ـ الذى حال بينكم وبين خبر السماء، فهنالك حين رجعوا إلى قومهم ، قالوا: ياقومنا، إنا سمعنا قرآنا عجبا، يهدى إلى الرشد فآمنا به، ولن نشرك بربنا أحدا، وأنزل الله على نبيه(٤): **﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ﴾** [الجن:١]، وإنما أوحى إليه قول الجن.

رواه البخارى عن مُسَدَّد بنحوه، وأخرجه مسلم عن شيبان بن فروخ، عن أبى عوانة، به. ورواه

(١) المسند (١/ ١٦٧).

(٢) فى م: «الحافظ الشهير».

(٣) فى ت: «وروى الإمام أحمد بإسناده».

(٤) فى ت، م، أ: «نبيه ﷺ».

الترمذى والنسائى فى التفسير، من حديث أبى عوانة[١].

وقال الإمام أحمد أيضا: حدثنا أبو أحمد، حدثنا إسرائيل، عن أبى إسحاق، عن سعيد بن جبير[٢]، عن ابن عباس، قال: كان الجن يستمعون[٣] الوحى، فيسمعون الكلمة فيزيدون فيها عشرا، فيكون ما سمعوا حقاً وما زادوا باطلا، وكانت النجوم لا يرمى بها قبل ذلك، فلما بعث رسول الله ﷺ كان أحدهم لا يأتى مقعده إلا رمى بشهاب يحرق ما أصاب، فشكوا ذلك إلى إبليس فقال: ما هذا إلا من أمر قد حدث. فبث جنوده، فإذا بالنبى ﷺ يصلى بين جبلى نخلة، فأتوه فأخبروه، فقال: هذا الحدث الذى حدث فى الأرض.

رواه الترمذى والنسائى فى كتابى التفسير من سننيهما، من حديث إسرائيل، به[٤]. وقال الترمذى: حسن صحيح.

وهكذا رواه أيوب عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس. وكذا رواه العوفى، عن ابن عباس أيضا، بمثل هذا السياق بطوله، وهكذا قال الحسن البصرى: إنه، عليه السلام، ما شعر بأمرهم حتى أنزل الله عليه بخبرهم.

وذكر محمد بن إسحاق، عن يزيد بن رومان، عن محمد بن كعب القرظى قصة خروج رسول الله ﷺ إلى الطائف ودعائه إياهم إلى الله عز وجل، وإبائهم عليه. فذكر القصة بطولها، وأورد ذلك الدعاء الحسن: «اللهم إليك أشكو ضعف قوتى وقلة حيلتى» إلى آخره. قال: فلما انصرف عنهم بات بنخلة، فقرأ تلك الليلة من القرآن فاستمعه الجن من أهل نصيبين[٥].

وهذا صحيح، ولكن قوله: «إن الجن كان استماعهم تلك الليلة». فيه نظر؛ لأن الجن كان استماعهم فى ابتداء الإيحاء، كما دل عليه حديث ابن عباس المذكور، وخروجه، عليه السلام، إلى الطائف كان بعد موت عمه، وذلك قبل الهجرة بسنة أو سنتين، كما قرره ابن إسحاق وغيره [والله أعلم][٦].

وقال أبو بكر بن أبى شيبة: حدثنا أبو أحمد الزبيرى، حدثنا سفيان، عن عاصم، عن زر[٧]، عن عبد الله بن مسعود قال: هبطوا على النبى ﷺ وهو يقرأ القرآن ببطن نخلة، فلما سمعوه قالوا: أنصتوا. قال[٨]: صه، وكانوا تسعة[٩] أحدهم زوبعة، فأنزل الله عز وجل: **﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾** إلى: **﴿ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾**[١٠].

(١) المسند (١/٢٥٢)، ودلائل النبوة للبيهقى (٢/٢٢٥).
(٢) فى ت: «وروى الإمام أحمد بإسناده». (٣) فى ت، م: «فيستمعون».
(٤) صحيح البخارى برقم (٧٧٣)، وصحيح مسلم برقم (٤٤٩)، وسنن الترمذى برقم (٣٣٢٣)، والنسائى فى السنن الكبرى برقم(١١٦٢٤).
(٥) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (١/٤١٩). (٦) زيادة من ت. (٧) فى ت: «وروى أبو بكر بن أبى شيبة بسنده».
(٨) فى ت، م، أ: «قالوا». (٩) فى أ: «سبعة».
(١٠) ورواه الحاكم فى المستدرك (٢/٤٥٦) من طريق أبى بكر بن أبى شيبة به، وقال: «صحيح الإسناد ولم يخرجاه» ووافقه الذهبى.

فهذا مع الأول من رواية ابن عباس يقتضى أن رسول الله ﷺ لم يشعر بحضورهم فى هذه المرة وإنما استمعوا قراءته، ثم رجعوا إلى قومهم، ثم بعد ذلك وفدوا إليه أرسالا قوما بعد قوم، وفوجا بعد فوج، كما سيأتى بذلك الأخبار فى موضعها والآثار، مما سنوردها[١] هاهنا إن شاء الله تعالى وبه الثقة.

فأما ما رواه البخارى ومسلم جميعا، عن أبى قدامة عبيد الله بن سعيد السرخسى، عن أبى أسامة حماد بن أسامة، عن مسعر بن كدام، عن معن بن عبد الرحمن قال: سمعت أبى قال: سألت مسروقا: من آذن النبى ﷺ ليلة استمعوا القرآن؟ فقال: حدثنى أبوك ـ يعنى ابن مسعود [٢] ـ أنه آذنته بهم شجرة[٣] ـ فيحتمل أن يكون هذا فى المرة الأولى، ويكون إثباتا مقدما على نفى ابن عباس، ويحتمل أن يكون هذا فى بعض المرات المتأخرات، والله أعلم. ويحتمل أن يكون فى الأولى ولكن لم يشعر بهم حال استماعهم حتى آذنته بهم الشجرة، أى: أعلمته باستماعهم، والله أعلم.

قال الحافظ البيهقى: وهذا الذى حكاه ابن عباس رضى الله عنهما[٤]، إنما هو فى أول ما سمعت[٥] الجن قراءة رسول الله ﷺ وعلمت حاله، وفى ذلك الوقت لم يقرأ عليهم ولم يرهم، ثم بعد ذلك أتاه داعى الجن فقرأ عليهم القرآن، ودعاهم إلى الله، عز وجل، كما رواه عبد الله بن مسعود، رضى الله عنه[٦].

ذكر الرواية عنه بذلك:

قال الإمام أحمد: حدثنا إسماعيل بن إبراهيم، حدثنا داود، عن الشعبى ـ وابن أبى زائدة، أخبرنا داود، عن الشعبى[٧] ـ عن علقمة قال: قلت لعبد الله بن مسعود: هل صحب رسول الله ﷺ ليلة الجن منكم أحد؟ فقال: ما صحبه منا أحد، ولكنا فقدناه ذات ليلة بمكة، فقلنا: اغتيل؟ استطير؟ ما فعل؟ قال: فبتنا بشر ليلة بات بها قوم، فلما كان فى وجه الصبح ـ أو قال: فى السحر ـ إذا نحن به يجىء من قبل حراء، فقلنا: يا رسول الله ـ فذكروا له الذى كانوا فيه ـ فقال: «إنه أتانى داعى الجن، فأتيتهم فقرأت عليهم». قال: فانطلق، فأرانا آثارهم وآثار نيرانهم ـ قال: وقال الشعبى: سألوه الزاد ـ قال عامر: سألوه بمكة، وكانوا من جن الجزيرة، فقال: «كل عظم ذكر اسم الله عليه يقع فى أيديكم أوفر ما كان عليه لحما، وكل بعرة أو روثة علف لدوابكم ـ قال ـ فلا تستنجوا بهما، فإنهما زاد إخوانكم من الجن».

وهكذا رواه مسلم فى صحيحه، عن على بن حجر، عن إسماعيل بن علية، به نحوه[٨].

وقال مسلم أيضا: حدثنا محمد بن المثنى، حدثنا عبد الأعلى، حدثنا داود ـ وهو ابن أبى هند ـ عن عامر قال: سألت علقمة: هل كان ابن مسعود، رضى الله عنه، شهد مع رسول الله ﷺ ليلة

(١) فى ت: «نوردها». (٢) فى ت: «ابن مسعود رضى الله عنه».
(٣) صحيح البخارى برقم (٣٨٥٩) ،وصحيح مسلم برقم (٤٥٠).
(٤) فى م، أ: «عنه». (٥) فى أ: «ما استمعت».
(٦) دلائل النبوة للبيهقى (٢/ ٢٢٧).
(٧) فى ت: «فروى الإمام أحمد بسنده».
(٨) المسند (١/ ٤٣٦)، وصحيح مسلم برقم (٤٥٠).

الجن؟ قال: فقال علقمة: أنا سألت ابن مسعود؛ فقلت: هل شهد أحد منكم مع رسول الله ﷺ ليلة الجن؟ قال: لا، ولكنا كنا مع رسول الله ﷺ ذات ليلة، ففقدناه فالتمسناه فى الأودية والشعاب، فقلنا: استطير؟ اغتيل؟ قال: فبتنا بشر ليلة بات بها قوم، فلما أصبحنا إذا هو جاء من قبل حراء، قال: فقلنا: يا رسول الله، فقدناك فطلبناك فلم نجدك، فبتنا بشر ليلة بات بها قوم. فقال: «أتانى داعى الجن، فذهبت معهم، فقرأت عليهم القرآن». قال: فانطلق بنا فأرانا آثارهم وآثار نيرانهم، وسألوه الزاد فقال: «كل عظم ذكر اسم الله عليه يقع فى أيديكم أوفر ما يكون لحما، وكل بعرة أو روثة علف لدوابكم». قال رسول الله ﷺ: «فلا تستنجوا بهما، فإنهما طعام إخوانكم»[١].

طريق أخرى عن ابن مسعود: قال أبو جعفر بن جرير: حدثنى أحمد بن عبد الرحمن، حدثنى عمى، حدثنى يونس، عن الزهرى، عن عبيد الله بن عبد الله؛ أن ابن مسعود قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «بت الليلة أقرأ على الجن ربعا[٢] بالحجون»[٣].

طريق أخرى: فيها أنه كان معه ليلة الجن، قال ابن جرير، رحمه الله: حدثنى أحمد بن عبد الرحمن بن وهب، حدثنا عمى عبد الله بن وهب، أخبرنى يونس، عن ابن شهاب، عن أبى عثمان ابن سنة الخزاعى ـ وكان من أهل الشام[٤] ـ أن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ لأصحابه وهو بمكة: «من أحب منكم أن يحضر أمر الجن الليلة فليفعل». فلم يحضر منهم أحد غيرى، قال: فانطلقنا حتى إذا كنا بأعلى مكة خط لى برجله خطا، ثم أمرنى أن أجلس فيه، ثم انطلق حتى قام، فافتتح القرآن فغشيته أسودة كثيرة حالت بينى وبينه، حتى ما أسمع صوته، ثم طفقوا يتقطعون مثل قطع السحاب ذاهبين، حتى بقى منهم رهط، ففرغ رسول الله ﷺ مع الفجر، فانطلق فتبرز، ثم أتانى فقال: «ما فعل الرهط؟» فقلت: هم أولئك يا رسول الله، فأعطاهم عظما وروثا زادا، ثم نهى أن يستطيب أحد بروث أو عظم.

ورواه ابن جرير عن محمد بن عبد الله بن عبد الحكم، عن أبى زرعة وهب الله بن راشد، عن يونس بن يزيد الأيلى، به[٥].

ورواه البيهقى فى الدلائل، من حديث عبد الله بن صالح ـ كاتب الليث ـ عن الليث، عن يونس، به[٦].

وقد روى إسحاق بن راهويه، عن جرير، عن قابوس بن أبى ظبيان، عن أبيه، عن ابن مسعود، فذكر نحو ما تقدم[٧].

---

(١) صحيح مسلم برقم (٤٥٠).

(٢) فى م: «وقفاً»، وفى أ: «رفعاً».

(٣) تفسير الطبرى (٢٦/٢١)، ورواه أحمد فى المسند (١/٤١٦) من طريق يونس عن الزهرى، به.

(٤) فى ت: «روى مسلم وروى ابن جرير بسنده».

(٥) تفسير الطبرى (٢٦/٢١).

(٦) دلائل النبوة للبيهقى (٢/ ٢٣٠)، ورواه الحاكم فى المستدرك (٢/٥٠٣) من طريق عبد الله بن صالح به، قال الذهبى: «هو صحيح عند جماعة».

(٧) وفى إسناده قابوس بن أبى ظبيان، ضعفه أبو حاتم والنسائى وأحمد، وقال ابن حبان: «ينفرد عن أبيه بما لا أصل له، فربما رفع المرسل وأسند الموقوف».

ورواه الحافظ أبو نعيم، من طريق موسى بن عبيدة، عن سعيد بن الحارث، عن أبي المعلى[(١)]، عن ابن مسعود، فذكر نحوه أيضا[(٢)].

طريق أخرى: قال أبو نعيم: حدثنا أبو بكر بن مالك، حدثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل، حدثني أبي قال: حدثنا عفان وعكرمة قالا: حدثنا معتمر قال: قال أبي: حدثني أبو تميمة، عن عمرو ـ ولعله قد يكون قال: البكالي ـ يحدثه عمرو، عن عبد الله بن مسعود، رضي الله عنه، قال: استتبعني رسول الله ﷺ فانطلقنا حتى أتينا مكان كذا وكذا، فخط لي خطاً فقال: «كن بين ظهر هذه لا تخرج منها؛ فإنك إن خرجت منها هلكت» فذكر الحديث بطوله وفيه غرابة شديدة[(٣)].

طريق أخرى: قال ابن جرير: وحدثنا ابن عبد الأعلى، حدثنا ابن ثور، عن معمر، عن يحيى ابن أبي كثير[(٤)]، عن عبد الله بن عمرو بن غيلان الثقفي؛ أنه قال لابن مسعود: حدثت أنك كنت مع رسول الله ﷺ ليلة وفد الجن؟ قال: أجل. قال: فكيف كان؟ فذكر الحديث كله، وذكر أن النبي ﷺ خط عليه خطا، وقال: «لا تبرح منها» فذكر مثل العَجَاجة السوداء غشيت رسول الله ﷺ، فذعر ثلاث مرات، حتى إذا كان قريبا من الصبح، أتاني النبي[(٥)] ﷺ فقال: «أنمت؟» فقلت: لا والله، ولقد هممت مرارا أن أستغيث بالناس حتى سمعتك تقرعهم بعصاك، تقول: «اجلسوا» فقال: «لو خرجت لم آمن أن يخطفك[(٦)] بعضهم». ثم قال: «هل رأيت شيئا؟» فقلت: نعم، رأيت رجالا سوداً مستشعرين[(٧)] ثيابا بياضا. قال: «أولئك جن نصيبين سألوني المتاع ـ والمتاع: الزاد ـ فمتعتهم بكل عظم حائل، أو بعرة، أو روثة» ـ فقلت: يا رسول الله، وما يغني ذلك عنهم؟ فقال: «إنهم لا يجدون عظما إلا وجدوا عليه لحمه يوم أكل، ولا روثا إلا وجدوا فيها حبها يوم أكلت، فلا يستنقين أحد منكم إذا خرج من الخلاء بعظم ولا بعرة ولا روثة»[(٨)].

طريق أخرى: قال الحافظ أبو بكر البيهقي: أخبرنا أبو عبد الرحمن السلمي وأبو نصر بن قتادة قالا: أخبرنا أبو محمد يحيى بن منصور القاضي، حدثنا أبو عبد الله محمد بن إبراهيم البُوشَنْجي، حدثنا روح بن صلاح، حدثنا موسى بن علي بن رباح، عن أبيه، عن عبد الله بن مسعود قال: استتبعني رسول الله ﷺ فقال: «إن نفرا من الجن ـ خمسة عشر بني إخوة وبني عم ـ يأتونني الليلة، فأقرأ عليهم القرآن»، فانطلقت معه إلى المكان الذي أراد، فخط لي خطا وأجلسني فيه، وقال لي: «لا تخرج من هذا». فبت فيه حتى أتاني رسول الله ﷺ مع السحر في يده عظم حائل وروثة حُمَمَة فقال لي: «إذا ذهبت إلى الخلاء فلا تستنجِ بشيء من هؤلاء». قال: فلما أصبحت قلت: لأعلمن علمي حيث كان رسول الله ﷺ قال، فذهبت فرأيت موضع مبرك[(٩)] ستين بعيرا[(١٠)].

طريق أخرى: قال البيهقي: أخبرنا أبو عبد الله الحافظ، أخبرنا أبو العباس الأصم، حدثنا العباس

---

(١) في أ: «إسماعيل».
(٢) ورواه الطبراني في المعجم الكبير (١٠/ ٨٠) من طريق موسى بن عبيدة الربذي، به.
(٣) لم أجده في دلائل النبوة وهو في المسند للإمام أحمد (١/ ٣٩٩).
(٤) في ت: «روى ابن جرير بسنده».
(٥) في م: «رسول الله».
(٦) في أ: «يختطفك».
(٧) في ت، أ: «مستثفرين».
(٨) تفسير الطبري (٢٦/ ٢١).
(٩) في أ: «منزل».
(١٠) دلائل النبوة للبيهقي (٢/ ٢٣١).

ابن محمد الدُّورى، حدثنا عثمان بن عمر[(١)]، عن المستمر بن الريان، عن أبى الجوزاء، عن عبد الله ابن مسعود قال: انطلقت مع رسول الله ﷺ ليلة الجن، حتى أتى الحجون، فخط لى خطاً، ثم تقدم إليهم فازدحموا عليه، فقال سيد لهم، يقال له: «وردان»: أنا أرحلهم عنك. فقال: إنى لن يجيرنى من الله أحد[(٢)].

طريق أخرى: قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا سفيان، عن أبى فزارة العبسى، حدثنا أبو زيد ـ مولى عمرو بن حريث ـ عن ابن مسعود قال: لما كان ليلة الجن قال لى النبى ﷺ: «أمعك ماء؟» قلت: ليس معى ماء، ولكن معى إداوة فيها نبيذ. فقال النبى: «تمرة طيبة، وماء طهور» فتوضأ.

ورواه أبو داود، والترمذى، وابن ماجه، من حديث أبى زيد، به[(٣)].

طريق أخرى: قال أحمد: حدثنا يحيى بن إسحاق، أخبرنا ابن لهيعة، عن قيس بن الحجاج، عن حنش الصنعانى، عن ابن عباس، عن عبد الله بن مسعود؛ أنه كان مع رسول الله ﷺ ليلة الجن، فقال رسول الله: «يا عبد الله، أمعك ماء؟» قال: معى نبيذ فى إداوة، فقال[(٤)]: «اصبب على». فتوضأ، فقال النبى ﷺ: «يا عبد الله، شراب وطهور»[(٥)].

تفرد به أحمد من هذا الوجه، وقد أورده الدارقطنى من طريق آخر، عن ابن مسعود، [به][(٦)] [(٧)].

طريق أخرى: قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، أخبرنى أبى عن ميناء، عن عبد الله قال: كنت مع رسول الله ﷺ ليلة وفد الجن، فلما انصرف تنفس، فقلت: ما شأنك؟ قال: «نعيت إلى نفسى يا ابن مسعود».

هكذا رأيته فى المسند مختصرا[(٨)]، وقد رواه الحافظ أبو نعيم فى كتابه «دلائل النبوة»، فقال: حدثنا سليمان بن أحمد بن أيوب، حدثنا إسحاق بن إبراهيم ـ وحدثنا أبو بكر بن مالك، حدثنا عبدالله بن أحمد بن حنبل، حدثنا أبى قالا: حدثنا عبد الرزاق، عن أبيه، عن ميناء، عن ابن مسعود قال: كنت مع رسول الله ﷺ ليلة وفد الجن، فتنفس، فقلت: ما لك يا رسول الله؟ قال: «نعيت إلى نفسى يا ابن مسعود». قلت: استخلف. قال: «من؟». قلت: أبو بكر. فسكت[(٩)]، ثم مضى ساعة فتنفس، فقلت: ما شأنك بأبى أنت وأمى يا رسول الله؟ قال: «نعيت إلى نفسى يا ابن مسعود». قلت: استخلف. قال: «من؟» قلت: عمر [بن الخطاب][(١٠)]. فسكت ثم مضى ساعة، ثم تنفس فقلت: ما شأنك؟ قال: «نعيت إلى نفسى». قلت: فاستخلف. قال ﷺ: «من؟» قلت: على بن أبى طالب. قال ﷺ: «أما والذى نفسى بيده، لئن أطاعوه ليدخلن الجنة أجمعين أكتعين»[(١١)].

---

(١) فى أ: «عن عمير».
(٢) دلائل النبوة للبيهقى (٢/ ٢٣١).
(٣) المسند (١/ ٤٤٩)، وسنن أبى داود برقم (٨٤)، وسنن الترمذى برقم (٨٨) وسنن ابن ماجه برقم (٣٨٤).
(٤) فى م: «قال».
(٥) المسند (١/ ٣٩٨) وقد تفرد به ابن لهيعة، وهو ضعيف.
(٦) زيادة من م.
(٧) سنن الدارقطنى (١/ ٧٧) من طريق داود بن أبى هند عن عامر بن علقمة بن قيس. قال: قلت لعبد الله بن مسعود: أشهد رسول الله ﷺ أحدٌ منكم ليلة أتاه داعى الجن؟ قال: لا، قال الدارقطنى: «هذا الصحيح عن ابن مسعود».
(٨) المسند (١/ ٤٤٩).
(٩) فى ت، م: «أبو بكر. قال: فسكت». (١٠) زيادة من م.
(١١) المعجم الكبير للطبرانى (١٠/ ٨٢) وفيه ميناء بن أبى ميناء، كذاب.

وهو حديث غريب جدا، وأحرى به ألا يكون محفوظا، وبتقدير صحته فالظاهر أن هذا بعد وفودهم إليه بالمدينة على ما سنورده، فإن فى ذلك الوقت فى آخر الأمر لما فتحت مكة، ودخل الناس والجان أيضا فى دين الله أفواجا، نزلت سورة [١]: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ. وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا. فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾، وهى السورة التى نعيت نفسه الكريمة فيها إليه، كما قد نص على ذلك ابن عباس، ووافقه عمر بن الخطاب عليه، وقد ورد فى ذلك حديث سنورده عند تفسيرها، والله أعلم. وقد رواه أبو نعيم أيضا، عن الطبرانى عن محمد بن عبدالله الحضرمى، عن على بن الحسين بن أبى بردة، عن يحيى بن سعيد[٢] الأسلمى، عن حرب بن صَبِيح، عن سعيد بن مسلمة، عن أبى مرة الصنعانى، عن أبى عبد الله الجدلى، عن ابن مسعود، فذكره وذكر فيه قصة الاستخلاف[٣]، وهذا إسناد غريب، وسياق عجيب.

طريق أخرى: قال الإمام أحمد: حدثنا أبو سعيد، حدثنا حماد بن سلمة، عن على بن زيد، عن أبى رافع، عن ابن مسعود؛ أن رسول الله ﷺ[٤] خط حوله، فكان أحدهم[٥] مثل سواد النخل، وقال لى: «لا تبرح مكانك»، فأقرأهم كتاب الله، فلما رأى الزُّط قال: كأنهم هؤلاء. وقال النبى ﷺ: «أمعك ماء؟»قلت: لا. قال: «أمعك نبيذ؟» قلت: نعم. فتوضأ به[٦].

طريق أخرى مرسلة: قال ابن أبى حاتم: حدثنا أبو عبد الله الظهرانى[٧]، أخبرنا حفص بن عمر العدنى، حدثنا الحكم بن أبان، عن عكرمة فى قوله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ﴾ قال: هم اثنا عشر ألفا جاؤوا من جزيرة الموصل، فقال النبى ﷺ لابن مسعود: «أنظرنى حتى آتيك»، وخط عليه خطا، وقال: «لا تبرح حتى آتيك». فلما خشيهم ابن مسعود كاد أن يذهب، فذكر قول رسول الله ﷺ فلم يبرح، فقال له النبى ﷺ: «لو ذهبت ما التقينا إلى يوم القيامة»[٨].

طريق أخرى مرسلة أيضا: قال سعيد بن أبى عروبة، عن قتادة فى قوله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ﴾ قال: ذكر لنا أنهم صرفوا إليه من نِينَوَى، وأن نبى الله ﷺ قال: «إنى أمرت أن أقرأ على الجن فأيكم يتبعنى؟» فأطرقوا، ثم استتبعهم فأطرقوا، ثم استتبعهم الثالثة فقال رجل: يا رسول الله، إن ذاك لذو ندبة فأتبعه ابن مسعود أخو هذيل، قال: فدخل النبى ﷺ شعبا يقال له: «شعب الحجون»، وخط عليه، وخط على ابن مسعود ليثبته بذلك، قال: فجعلت أهال وأرى أمثال النسور تمشى فى دفوفها، وسمعت لغطا شديدا، حتى خفت على نبى الله ﷺ، ثم تلا القرآن، فلما رجع رسول الله ﷺ قلت: يا رسول الله، ما اللغط الذى سمعت؟ قال: «اختصموا فى قتيل، فقضى بينهم بالحق». رواه ابن جرير، وابن أبى حاتم[٩].

---

(١) فى ت: «سورة النصر». (٢) فى أ: «يعلى».

(٣) المعجم الكبير للطبرانى (١٠/ ٨١) وفى إسناده يحيى الأسلمى وهو ضعيف.

(٤) فى م، أ: «أن رسول الله ﷺ ليلة الجن». (٥) فى أ: «فكان يجىء أحدهم».

(٦) المسند (١/ ٤٥٥).

(٧) فى م: «الطبرانى».

(٨) وفى إسناده الحكم بن أبان، وهو ضعيف.

(٩) تفسير الطبرى (٢٦/ ٢٠).

فهذه الطرق كلها تدل[١] على أنه ﷺ ذهب إلى الجن قصدا، فتلا عليهم القرآن، ودعاهم إلى الله، عز وجل، وشرع الله لهم على لسانه ما هم محتاجون إليه فى ذلك الوقت. وقد يحتمل أن أول مرة سمعوه يقرأ القرآن [و][٢]لم يشعر بهم، كما قاله ابن عباس، رضى الله عنهما[٣]. ثم بعد ذلك وفدوا إليه كما رواه ابن مسعود. وأما ابن مسعود فإنه لم يكن مع رسول الله ﷺ حال مخاطبته للجن ودعائه إياهم، وإنما كان بعيدا منه، ولم يخرج مع النبى ﷺ أحد سواه، ومع هذا لم يشهد حال المخاطبة، هذه طريقة البيهقى.

وقد يحتمل أن يكون أول مرة خرج إليهم لم يكن معه ابن مسعود ولا غيره، كما هو ظاهر سياق الرواية الأولى من طريق الإمام أحمد، وهى عند مسلم. ثم بعد ذلك خرج معه ليلة أخرى والله أعلم، كما روى ابن أبى حاتم فى تفسير: ﴿قُلْ أُوحِيَ﴾، من حديث ابن جريج قال: قال عبدالعزيز بن عمر: أما الجن الذين لقوه بنخلة فجن نينوى، وأما الجن الذين لقوه بمكة فجن نصيبين، وتأوله البيهقى على أنه يقول: «فبتنا بشر ليلة بات بها قوم»، على غير ابن مسعود ممن لم يعلم بخروجه ﷺ إلى الجن، وهو محتمل على بعد، والله أعلم.

وقد قال الحافظ أبو بكر البيهقى: أخبرنا أبو عمرو محمد بن عبد الله[٤] الأديب، أخبرنا أبو بكر الإسماعيلى، أخبرنا الحسن بن سفيان، حدثنى سويد بن سعيد، حدثنا عمرو بن يحيى، عن جده سعيد بن عمرو، قال[٥]: كان أبو هريرة يتبع رسول الله ﷺ بإداوة لوضوئه وحاجته، فأدركه يوما فقال: «من هذا؟» قال: أنا أبو هريرة. قال: «ائتنى بأحجار أستنج بها، ولا تأتنى بعظم ولا روثة». فأتيته بأحجار فى ثوبى، فوضعتها إلى جنبه حتى إذا فرغ وقام اتبعته، فقلت: يا رسول الله، ما بال العظم والروثه[٦]؟ قال: «أتانى وفد جن نصيبين، فسألونى الزاد، فدعوت الله لهم ألا يمروا بعظم ولا بروثة إلا وجدوا طعاما»[٧].

أخرجه البخارى فى صحيحه، عن موسى بن إسماعيل، عن عمرو بن يحيى، بإسناده قريبا منه[٨]. فهذا يدل مع ما تقدم على أنهم وفدوا عليه بعد ذلك. وسنذكر ما يدل على تكرار ذلك.

وقد روى عن ابن عباس غير ما ذكر[٩] عنه أولا من وجه جيد، فقال ابن جرير:

حدثنا أبو كريب، حدثنا عبد الحميد الحمانى، حدثنا النضر بن عربى، عن عكرمة، عن ابن عباس فى قوله: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ﴾ الآية، [قال][١٠]: كانوا سبعة نفر من أهل نصيبين، فجعلهم رسول الله ﷺ رسلا إلى قومهم[١١].

فهذا يدل على أنه قد روى القصتين.

---

(١) فى ت: «فهذه الأحاديث التى ذكرناها كلها تدل».
(٢) زيادة من ت.
(٣) فى ت، أ: «عنه».
(٤) فى أ: «عبد الوهاب».
(٥) فى ت: «وقال الحافظ أبو بكر البيهقى بسنده».
(٦) فى ت: «الروث».
(٧) دلائل النبوة للبيهقى (٢/ ٢٣٣).
(٨) صحيح البخارى برقم (٣٨٦٠).
(٩) فى أ: «ما روى».
(١٠) زيادة من أ.
(١١) تفسير الطبرى (٢٦/ ٢٢).

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا سويد بن عبد العزيز، حدثنا رجل سماه، عن ابن جريج، عن مجاهد: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ﴾ الآية، قال: كانوا سبعة نفر، ثلاثة من أهل حران، وأربعة من أهل نصيبين، وكانت أسماؤهم حيي وحسي ومسي، وشاصر وناصر، والأرد وإبيان والأحقم.

وذكر أبو حمزة الثمالي أن هذا الحي من الجن كان يقال لهم: بنو الشيصبان، وكانوا أكثر الجن عددا وأشرفهم نسبا، وهم كانوا عامة جنود إبليس.

وقال سفيان الثوري، عن عاصم، عن ذَرّ، عن ابن مسعود: كانوا تسعة، أحدهم زوبعة، أتوه من أصل نخلة.

وتقدم عنه أنهم كانوا خمسة عشر، وفي رواية: أنهم كانوا على ستين راحلة. وتقدم عنه أن اسم سيدهم وردان، وقيل: كانوا ثلاثمائة، وتقدم عن عكرمة أنهم كانوا اثني عشر ألفا، فلعل هذا الاختلاف دليل على تكرر وفادتهم عليه صلوات الله وسلامه عليه، ومما يدل على ذلك ما قاله[1] البخاري في صحيحه:

حدثنا يحيى بن سليمان، حدثني ابن وهب، حدثني عمر ـ هو ابن محمد ـ أن سالما حدثه، عن عبد الله بن عمر قال: ما سمعت عمر يقول لشيء قط: «إني لأظنه كذا» إلا كان كما يظن، بينما عمر بن الخطاب جالس، إذ مر به رجل جميل، فقال: لقد أخطأ ظني ـ أو: إن هذا على دينه في الجاهلية ـ أو لقد كان كاهنهم ـ علي بالرجل، فدعى له[2]، فقال له ذلك، فقال: ما رأيت كاليوم استُقْبل له رجل مسلم. قال: فإني أعزم عليك إلا ما أخبرتني. قال: كنت كاهنهم في الجاهلية. قال: فما أعجب ما جاءتك به جنِيَّتُك. قال: بينما أنا يوما في السوق جاءتني أعرف فيها الفزع، فقالت:

ألم تَرْ الجِنَّ وإبْلاسَهَا ويَأْسَهْا من بعد إنْكَاسِها
ولحُوقَها بالقلاص وأَحْلاسها

قال عمر: صدق، بينما أنا نائم عند آلهتهم، إذ جاء رجل بعجل فذبحه، فصرخ به صارخ، لم أسمع صارخا قط أشد صوتا منه، يقول: يا جليح، أمر نجيح، رجل فصيح يقول: «لا إله إلا الله» فوثب[3] القوم، فقلت: لا أبرح حتى أعلم ما وراء هذا؟ ثم نادى يا جليح، أمر نجيح، رجل فصيح يقول: «لا إله إلا الله». فقمت، فما نشبنا أن قيل: هذا نبي.

هذا سياق البخاري[4]، وقد رواه البيهقي من حديث ابن وهب، بنحوه، ثم قال: «وظاهر هذه الرواية يوهم أن عمر بنفسه سمع الصارخ يصرخ من العجل الذي ذبح، وكذلك هو صريح[5] في رواية ضعيفة عن عمر في إسلامه، وسائر الروايات تدل على أن هذا الكاهن هو الذي أخبر بذلك عن

---

(١) في م: «ما رواه». (٢) في ت، م، أ: «فدعى فجيء به له». (٣) في م، أ: «قال: فوثب».
(٤) صحيح البخاري برقم (٣٨٦٦).
(٥) في ت، م، أ: «صريحا» وهو خطأ.

رؤيته وسماعه، والله أعلم»[(١)].

وهذا الذى قاله البيهقى هو المتجه، وهذا الرجل هو سواد بن قارب، وقد ذكرت هذا[(٢)] مستقصى فى سيرة عمر، رضى الله عنه، فمن أراده فليأخذه من ثَمَّ، ولله الحمد [والمنة][(٣)].

قال البيهقى: «حديث سواد بن قارب، ويشبه أن يكون هذا هو الكاهن الذى لم يذكر اسمه فى الحديث الصحيح».

أخبرنا أبو القاسم الحسن بن محمد بن حبيب المفسر من أصل سماعه، أخبرنا أبو عبد الله محمد ابن عبد الله الصفار الأصبهانى، قراءة عليه، حدثنا أبو جعفر أحمد بن موسى الحمار الكوفى بالكوفة، حدثنا زياد بن يزيد بن بادويه أبو بكر القصرى، حدثنا محمد بن النواس الكوفى، حدثنا أبو بكر بن عياش، عن أبى إسحاق، عن البراء [رضى الله عنه][(٤)] قال: بينما عمر بن الخطاب يخطب الناس على منبر رسول الله ﷺ، إذ قال: أيها الناس، أفيكم سواد بن قارب؟ قال: فلم يجبه أحد تلك السنة، فلما كانت السنة المقبلة قال: أيها الناس، أفيكم سواد بن قارب؟ قال: فقلت: يا أمير المؤمنين، وما سواد بن قارب؟ قال: فقال له عمر: إن سواد بن قارب كان بَدءُ إسلامه شيئا عجيبا، قال: فبينا نحن كذلك إذ طلع سواد بن قارب، قال: فقال له عمر: يا سواد، حدثنا ببدء إسلامك، كيف كان؟ قال سواد: فإنى كنت نازلا بالهند، وكان لى رَئِىٌّ من الجن، قال: فبينا أنا ذات ليلة نائم، إذ جاءنى فى منامى ذلك. قال: قم فافهم واعقل إن كنت تعقل، قد بعث رسول من لؤى بن غالب، ثم أنشأ يقول:

عَجِبتُ للجِنِّ وأنْجَاسِها[(٥)] ... وشَدِّها العِيسَ بأحْلاسِهَا
تَهْوى إلى مكةَ تَبْغى الهُدَى ... مَا مُؤمنو الجِنِّ كَأرْجَاسِهَا
فَانْهَض إلى الصَّفْوةِ من هَاشمٍ ... واسْمُ بعَيْنَيْك إلى رَاسِهَا

قال: ثم أنبهنى فأفزعنى، وقال: يا سواد بن قارب، إن الله بعث نبياً فانهض إليه تهتد وترشد. فلما كان من الليلة الثانية أتانى فأنبهنى، ثم أنشأ يقول كذلك:

عَجِبتُ للجِنِّ وتَطْلابِها ... وَشَدِهَا العِيسَ بأقْتَابِهَا
تَهْوى إلى مكّةَ تَبْغى الهُدَى ... ليسَ قُدامَاها كَأذْنَابِها
فانهض إلى الصَّفْوةِ من هَاشمٍ ... واسْمُ بعَيْنَيك إلى نَابِها[(٦)]

فلما كان فى الليلة الثالثة أتانى فأنبهنى، ثم قال:

عَجِبتُ للجنّ وتَخْبارها ... وَشَدِّها العِيسَ بأكْوَارِهَا
تَهْوى إلى مكَّةَ تَبْغِى الهُدَى ... لَيْسَ ذَوُو الشَّر كَأخْيَارِهَا
فَانْهَضْ إلى الصَّفْوةِ من هَاشمٍ ... مَا مُؤمِنو الجِنِّ ككُفَّارِهَا

(١) دلائل النبوة للبيهقى (٢/ ٢٤٥).
(٢) فى ت: «ذلك». (٣) زيادة من أ. (٤) زيادة من ت.
(٥) فى أ: «وأجناسها». (٦) فى أ: «يابها».

قال: فلما سمعته تكرر ليلة بعد ليلة، وقع فى قلبى حب الإسلام من أمر رسول الله ﷺ ما شاء الله، قال: فانطلقت إلى رحلى فشددته على راحلتى، فما حللت [عليه][1] نسعة ولا عقدت أخرى حتى أتيت رسول الله ﷺ، فإذا هو بالمدينة ـ يعنى مكة ـ والناس عليه كعرف الفرس، فلما رآنى النبى ﷺ قال: «مرحبا بك يا سواد بن قارب، قد علمنا ما جاء بك». قال: قلت: يا رسول الله، قد قلت شعرا، فاسمعه منى. قال سواد: فقلت:

أَتَانِى رئِىٌّ بعد لَيْلٍ وهَجْعةٍ ... ولَم يَكُ فيما قَدْ بَلَوتُ بكَاذبِ
ثَلاثِ لَيَال قَولُه كُلَّ لَيْلَة: ... أتاك رسول[2] من لُؤَىّ بن غَالبِ
فَشَمَّرتُ عن سَاقى الإزَارَ ووسطت ... بى الدَّعلب الوَجْنَاءُ عند السَّبَاسبِ
فَأَشْهَدُ أنّ اللهَ لا شَىء غَيْرهُ ... وأَنَّكَ مَأْمُونٌ عَلَى كُلِّ غَائبِ
وأَنَّك أَدْنَى المُرْسَلِينَ شَفَاعَة ... إلى اللهِ يا ابنَ الأكرَمينَ الأَطايبِ
فَمُرْنَا بمَا يَأتيك يا خَيرَ مُرْسل[3] ... وإنْ كَانَ فِيمَا جاءَ شَيبُ الذَّوَائبِ
وكُنْ لى شَفِيْعا يَومَ لا ذُو شَفَاعةٍ ... سِوَاك بِمغْنٍ عن سَوَاد بن قَاربِ

قال: فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه، وقال لى: «أفلحت يا سواد»: فقال له عمر: هل يأتيك رئيك الآن؟ فقال: منذ قرأت القرآن لم يأتنى، ونعم العوض كتاب الله من الجن[4].

ثم أسنده البيهقى من وجهين آخرين[5]. ومما يدل على وفادتهم إليه، عليه السلام[6]، بعد ما هاجر إلى المدينة، الحديث الذى رواه الحافظ أبو نعيم فى كتاب «دلائل النبوة» [فقال][7]:

حدثنا سليمان بن أحمد، حدثنا محمد بن عبدة المصيصى، حدثنا أبو تَوْبَة الربيع بن نافع، حدثنا معاوية بن سلام، عن زيد بن أسلم: أنه سمع أبا سلام يقول: حدثنى من حدثه عمرو بن غيلان الثقفى قال: أتيت عبد الله بن مسعود فقلت له: حدثت أنك كنت مع رسول الله ﷺ ليلة وفد الجن؟ قال: أجل. قلت: حدثنى كيف كان شأنه؟ فقال: إن أهل الصفة أخذ كلَّ رجلٍ منهم رجل[8] يعشيه، وتركت فلم يأخذنى أحد منهم، فمر بى رسول الله ﷺ فقال: «من هذا؟». فقلت: أنا ابن مسعود. فقال: «ما أخذك أحد يعشيك؟» فقلت: لا. قال: «فانطلق لعلى أجد لك شيئاً». قال: فانطلقنا حتى أتى حجرة أم سلمة فتركنى [9] ودخل إلى أهله، ثم خرجت الجارية فقالت: يا ابن مسعود، إن رسول الله لم يجد لك عشاء، فارجع إلى مضجعك. قال: فرجعت إلى المسجد، فجمعت حصباء المسجد فتوسدته، والتفت بثوبى، فلم ألبث إلا قليلا حتى جاءت الجارية، فقالت:

(١) زيادة من أ. (٢) فى ت، م: «نبى». (٣) فى ت: «من مشى».
(٤) دلائل النبوة للبيهقى (١/ ٢٤٨).
(٥) دلائل النبوة للبيهقى (١/ ٢٥٢).
(٦) فى أ: «على الإسلام». (٧) زيادة من أ. (٨) فى ت، أ: «رجلا» وهو خطأ.
(٩) فى أ: «فتركنى قائما» .

أجب رسول الله (١). فاتبعتها وأنا أرجو العشاء، حتى إذا بلغت مقامى، خرج رسول الله ﷺ وفى يده عسيب من نخل، فعرض به على صدرى فقال: «أتنطلق أنت معى(٢) حيث انطلقت؟» قلت: ما شاء الله. فأعادها على ثلاث مرات، كل ذلك أقول: ما شاء الله. فانطلق وانطلقت معه، حتى أتينا بقيع الغرقد، فخط بعصاه خطا، ثم قال: «اجلس فيها، ولا تبرح حتى آتيك». ثم انطلق يمشى وأنا أنظر إليه خلال النخل، حتى إذا كان من حيث لا أراه ثارت(٣) العَجَاجة السوداء، ففرقت فقلت: ألحق برسول الله ﷺ، فإنى أظن أن(٤) هوازن مكروا برسول الله ﷺ ليقتلوه، فأسعى إلى البيوت، فأستغيث الناس. فذكرت أن رسول الله ﷺ أوصانى: ألا أبرح مكانى الذى أنا فيه، فسمعت رسول الله ﷺ يقرعهم بعصاه ويقول: «اجلسوا». فجلسوا حتى كاد ينشق عمود الصبح، ثم ثاروا وذهبوا، فأتانى رسول الله ﷺ فقال: «أنمت بعدى؟» فقلت: لا (٥)، ولقد فزعت الفزعة الأولى، حتى رأيت أن آتى البيوت فأستغيث الناس حتى سمعتك تقرعهم بعصاك، وكنت أظنها هوازن، مكروا برسول الله ﷺ ليقتلوه. فقال: «لو أنك خرجت من هذه الحلقة ما آمنهم(٦) عليك أن يختطفك بعضهم، فهل رأيت من شىء منهم؟» فقلت: رأيت رجالا سودا مستشعرين(٧) بثياب بيض. فقال رسول الله ﷺ: «أولئك وفد جن نصيبين، أتونى فسألونى الزاد والمتاع، فمتعتهم بكل عظم حائل أو روثة أو بعرة». قلت: وما يغنى عنهم ذلك؟ قال: «إنهم لا يجدون عظما إلا وجدوا عليه لحمه الذى كان عليه يوم أكل، ولا روثة إلا وجدوا فيها حبها الذى كان فيها يوم أكلت، فلا يستنقى أحد منكم بعظم ولا بعرة(٨)»(٩).

وهذا إسناد غريب جداً(١٠)، ولكن فيه رجل مبهم لم يسم [والله أعلم](١١)، وقد روى الحافظ أبو نعيم من حديث بقية بن الوليد، حدثنى نمير بن زيد القنبر(١٢)، حدثنا أبى، حدثنا قحافة بن ربيعة، حدثنى الزبير بن العوام قال: صلى بنا رسول الله ﷺ صلاة الصبح فى مسجد المدينة، فلما انصرف قال: «أيكم يتبعنى إلى وفد الجن الليلة؟» فأسكت القوم ثلاثا، فمر بى فأخذ بيدى، فجعلت أمشى معه حتى حبست عنا جبال المدينة كلها، وأفضينا إلى أرض براز فإذا برجال طوال كأنهم الرماح، مستشعرين (١٣) بثيابهم من بين أرجلهم، فلما رأيتهم غشيتنى رعدة شديدة، ثم ذكر نحو حديث ابن مسعود المتقدم(١٤)، وهذا حديث غريب، والله أعلم.

ومما يتعلق بوفود الجن ما رواه الحافظ أبو نعيم: حدثنا أبو محمد بن حيان، حدثنا أبو الطيب أحمد بن روح، حدثنا يعقوب الدَّوْرَقى، حدثنا الوليد بن بكير التميمى، حدثنا حصين بن عمر(١٥)،

(١) فى ت: «رسول الله ﷺ».
(٢) فى ت، م: «انطلق معى»، وفى أ: «انطلق أنت معى».
(٣) فى ت، م، أ: «ثارت مثل العجاجة».
(٤) فى ت، م، أ: «هذه».
(٥) فى أ: «لا والله».
(٦) فى ت، م: «ما أمنت»، وفى أ: «ما آمن».
(٧) فى ت، أ: «مستثفرين».
(٨) فى ت: «ولا روثة».
(٩) لم أجده فى دلائل النبوة المطبوعة لأبى نعيم.
(١٠) فى ت، أ: «وهذا سياق غريب».
(١١) زيادة من ت، أ.
(١٢) فى ت، أ: «حدثنى بهز بن يزيد الليثى».
(١٣) فى ت، أ: «مستثفرين».
(١٤) لم أجده فى دلائل النبوة المطبوعة لأبى نعيم.
(١٥) فى م: «عمير».

أخبرنى عبيد المُكتب، عن إبراهيم قال: خرج نفر من أصحاب عبد الله[١] يريدون الحج، حتى إذا كانوا فى بعض الطريق، إذا هم بحية تنثنى [٢]على الطريق أبيض، ينفخ منه ريح المسك، فقلت لأصحابى: امضوا، فلست ببارح حتى أنظر إلى ما يصير إليه أمر هذه الحية. قال: فما لبثت أن ماتت، فعمدت إلى خرقة بيضاء فلففتها فيها، ثم نحيتها عن الطريق فدفنتها، وأدركت أصحابى فى المتعشى. قال: فوالله إنا لقعود إذ أقبل[٣] أربع نسوة من قبل المغرب، فقالت واحدة منهن: أيكم دفن عمراً؟ قلنا: ومن عمرو، قالت: أيكم دفن الحية؟ قال: قلت: أنا. قالت: أما والله لقد دفنت صواما قواما، يأمر بما أنزل الله، ولقد آمن بنبيكم، وسمع صفته من [٤] السماء قبل أن يبعث بأربعمائة عام. قال الرجل فحمدنا[٥] الله، ثم قضينا حجتنا[٦]، ثم مررت بعمر بن الخطاب فى المدينة فأنبأته بأمر الحية، فقال: صدقت، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لقد آمن بى قبل أن أبعث بأربعمائة سنة»[٧].

وهذا حديث غريب جدا، والله أعلم.

قال أبو نعيم: وقد روى الثورى، عن أبى إسحاق، عن الشعبى، عن رجل من ثقيف، بنحوه. وروى عبد الله بن أحمد والطِّهرانى، عن صفوان بن المعطل ـ هو الذى نزل ودفن تلك الحية من بين الصحابة ـ وأنهم قالوا: أما إنه آخر التسعة موتا الذين أتوا رسول الله ﷺ يستمعون القرآن[٨].

وروى أبو نعيم من حديث الليث بن سعد، عن عبد العزيز بن أبى سلمة الماجِشُون، عن عمه[٩]، عن معاذ بن عُبَيْد الله[١٠] بن معمر قال: كنت جالسا عند عثمان بن عفان، فجاء رجل فقال: يا أمير المؤمنين، إنى كنت بفلاة من الأرض، فذكر أنه رأى ثعبانين[١١] اقتتلا ثم قتل أحدهما الآخر، قال: فذهبت إلى المعترك، فوجدت حيات كثيرة مقتولة، وإذا ينفح من بعضها ريح المسك، فجعلت أشمُّها واحدة واحدة، حتى وجدت ذلك من حية صفراء رقيقة، فلففتها فى عمامتى ودفنتها. فبينا أنا أمشى إذ نادانى[١٢] مناد: يا عبد الله، لقد هُدِيتَ! هذان حيان[١٣] من الجن بنو أشعيبان وبنو أقيش التقوا، فكان من القتلى ما رأيت، واستشهد الذى دفنته، وكان من الذين سمعوا الوحى من رسول الله ﷺ. قال: فقال عثمان لذلك الرجل: إن كنت صادقا فقد رأيت عجبا، وإن كنت كاذبا فعليك كذبك[١٤].

فقوله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ﴾ أى: طائفة من الجن، ﴿يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا

---

(١) فى م: «عبيد الله». (٢) فى أ: «تمشى». (٣) فى ت، م: «جاء».
(٤) فى ت: «فى». (٥) فى أ: «فحمدت». (٦) فى ت، م، أ: «حجنا».
(٧) دلائل النبوة لأبى نعيم (ص٣٠٦).
(٨) لم أجده فى دلائل النبوة المطبوعة لأبى نعيم. (٩) فى ت: «وروى أبو نعيم بإسناده».
(١٠) فى ت، م، أ: «عبد الله». (١١) فى ت، أ، م: «إعصارين».
(١٢) فى أ: «هذا جان». (١٣) فى ت، م: «نادى».
(١٤) دلائل النبوة لأبى نعيم (ص٣٠٥).

حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا﴾ أى: استمعوا[١] وهذا أدب منهم.

وقد قال الحافظ البيهقى: حدثنا الإمام أبو الطيب سهل بن محمد بن سليمان، أخبرنا أبو الحسن محمد بن عبد الله الدقاق، حدثنا محمد بن إبراهيم البُوشَنْجى، حدثنا هِشام بن عمار الدمشقى، حدثنا الوليد بن مسلم، عن زهير بن محمد، عن محمد بن المُنْكَدِر، عن جابر بن عبد الله قال: قرأ رسول الله ﷺ سورة «الرحمن» حتى ختمها، ثم قال: «ما لى أراكم سكوتا، لَلْجنّ كانوا أحسن منكم رداً، ما قرأت عليهم هذه الآية من مرة: ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ إلا قالوا: ولا بشىء من آلائك ـ أو نعمك ـ ربنا نكذب، فلك الحمد».

ورواه الترمذى فى التفسير، عن أبى مسلم عبد الرحمن بن واقد، عن الوليد بن مسلم، به[٢]. قال: خرج رسول الله ﷺ على أصحابه، فقرأ عليهم سورة الرحمن، فذكره، ثم قال الترمذى: «غريب لا نعرفه إلا من حديث الوليد، عن زهير» كذا قال. وقد رواه البيهقى من حديث مروان بن محمد الطاطرى، عن زهير بن محمد، به مثله[٣] [٤].

وقوله: ﴿فَلَمَّا قُضِيَ﴾ أى: فرغ. كقوله: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ﴾[الجمعة: ١٠]، ﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾ [فصلت: ١٢]، ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ﴾ [البقرة: ٢٠٠] ﴿وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾ أى: رجعوا إلى قومهم فأنذروهم ما سمعوه من رسول الله ﷺ، كقوله: ﴿لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٢].

وقد استدل بهذه الآية على أنه فى الجن نُذُرٌ، وليس فيهم رسل: ولا شك أن الجن لم يبعث الله منهم رسولا؛ لقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَى﴾ [يوسف: ١٠٩]، وقال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٢٠]، وقال عن إبراهيم الخليل: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ [العنكبوت: ٢٧].

فكل نبى بعثه الله بعد إبراهيم فمن ذريته وسلالته، فأما قوله تعالى فى [سورة][٥] الأنعام: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ [الأنعام: ١٣٠]، فالمراد من مجموع الجنسين، فيصدق على أحدهما وهو الإنس، كقوله: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن: ٢٢] أى: أحدهما. ثم إنه تعالى فسر إنذار الجن لقومهم فقال مخبراً عنهم: ﴿قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ [مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ][٦]﴾، ولم يذكروا عيسى؛ لأن عيسى، عليه السلام، أنزل عليه الإنجيل فيه مواعظ وترقيقات وقليل من التحليل والتحريم، وهو فى الحقيقة كالمتمم لشريعة التوراة، فالعمدة هو التوراة؛ فلهذا قالوا: أنزل من بعد موسى. وهكذا قال ورقة بن نوفل، حين أخبره النبى

(١) فى ت، م: «استمعوه».
(٢) دلائل النبوة للبيهقى (١/ ٢٣٢) ،وسنن الترمذى برقم (٣٢٩١).
(٣) فى ت: «بمعناه».
(٤) دلائل النبوة للبيهقى (١/ ٢٣٢).
(٥) زيادة من ت. (٦) زيادة من أ.

ﷺ بقصة نزول جبريل [عليه السلام][(١)] عليه أول مرة، فقال: بَخ بَخ، هذا الناموس الذى كان يأتى موسى، يا ليتنى أكون فيها جَذَعاً.

﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أى: من الكتب المنزلة قبلـه على الأنبياء. وقولهم: ﴿يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ﴾ أى: فى الاعتقاد والإخبار، ﴿وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾: فى الأعمال، فإن القرآن يشـتمل على شيئين[(٢)] خبر وطلب[(٣)]، فخبره صدق، وطلبه عدل، كما قال: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَاتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥]، وقال: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ﴾ [التوبة: ٣٣]، فالهدى هو: العلم النافع، ودين الحق: هو الـعمل الصالح. وهكـذا قالت الجن: ﴿يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ﴾ فى الاعتـقادات، ﴿وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أى: فى العمليات.

﴿يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ﴾: فيه دلالة على أنه تعالى أرسل محمداً صلوات الله وسلامه عليه[(٤)] إلى الثقـلين الإنس والجن حيث دعـاهم إلى الله، وقرأ عليـهم السورة التى فـيها خطاب الفـريقين، وتكليفهم ووعدهم ووعيدهم، وهى سورة الرحمن؛ ولهذا قال[(٥)]: ﴿أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ﴾.

وقوله: ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾: قيـل: إن «من» هاهنـا زائدة، وفيه نـظر؛ لأن زيادتهـا فى الإثبات قليل. وقيل: إنها علـى بابها للتبعيض، ﴿وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أى: ويقيكـم من عذابه الأليم.

وقد استدل بهـذه الآية من ذهب من العلمـاء إلى أن الجن المؤمنين لا يدخلـون الجنة، وإنما جزاء صالحيهـم أن يجاروا من عذاب النار يوم الـقيامة؛ ولهذا قالـوا هذا فى هذا المقام، وهو مقـام تبجح ومبالغة، فلو كان لهم جزاء على الإيمان أعلى من هذا لأوشك أن يذكروه.

قال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، قال: حُدثت عن جرير، عن ليث، عن مجاهد، عن ابن عباس قال: لا يدخل مؤمنو الجن الجنة؛ لأنهم من ذرية إبليس، ولا تدخل ذرية إبليس الجنة.

والحق أن مؤمنَهم كمؤمنـى الإنس يدخلون الجنة، كما هو مـذهب جماعة [(٦)]من السلف، وقد استدل بعضهم لهذا بقوله: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ﴾ [الرحمن: ٧٤]، وفى هذا الاستدلال نظر، وأحسن منه قوله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ. فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: ٤٦، ٤٧]، فقد امتن تعالى على الثقلين بأن جعل جزاء محسنهم الجنة، وقد قابلت الجنّ هذه الآية بالشكر القولى أبلغ من الإنس، فقالوا: «ولا بِشَىء من آلائك ربنا نكذبْ، فلك الحمد» فلم يكن تعالى ليمتنّ عليـهم بجزاء لا يحصـل لهم، وأيضا فإنـه إذا كان يجازى كافـرهم بالنار ـ وهو مـقام عدل ـ فَلأنْ يجازى مؤمنهم بـالجنة ـ وهو مقام فَضْل ـ بطريق الأولى والأحرى. ومما يدل أيـضا على ذلك عمومُ قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا﴾ [الكهف: ١٠٧]، وما

---

(١) زيادة من أ. (٢) فى ت: «نوعين». (٣) فى أ: «خبرًا وطلبًا».
(٤) فى ت: «ﷺ». (٥) فى م: «قالوا». (٦) فى ت، أ: «طائفة».

أشبه ذلك من الآيات. وقد أفردت هذه المسألة فى جزء على حدة، ولله الحمد والمنة. وهذه الجنة لا يزال فيها فضل حتى ينشئ الله لها خلقا، أفلا يسكنها من آمن به وعمل له صالحا؟ وما ذكروه هاهنا من الجزاء على الإيمان من تكفير الذنوب والإجارة من العذاب الأليم، هو يستلزم دخول الجنة؛ لأنه ليس فى الآخرة إلا الجنة أو النار، فمن أجير من النار دخل الجنة لا محالة. ولم يرد معنا نص صريح ولا ظاهر عن[1] الشارع أن مؤمنى الجن لا يدخلون الجنة وإن أجيروا من النار، ولو صح لقلنا به، والله أعلم. وهذا نوح، عليه السلام، يقول لقومه: ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ[2] إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [نوح: ٤]، ولا خلاف أن مؤمنى قومه فى الجنة، فكذلك هؤلاء. وقد حكى فيهم أقوال غريبة فعن عُمَر بن عبد العزيز: أنهم لا يدخلون بُحْبُوحَةَ الجنة، وإنما يكونون فى رَبَضها وحولها وفى أرجائها. ومن الناس من زعم أنهم فى الجنة يراهم بنو آدم ولا يرون هم بنى آدم عكس ما كانوا عليه فى الدار الدنيا. ومن الناس من قال: لا يأكلون فى الجنة ولا يشربون، وإنما يلهمون التسبيح والتحميد والتقديس، عِوَضاً عن الطعام والشراب كالملائكة، لأنهم من جنسهم. وكل هذه الأقوال فيها نظر، ولا دليل عليها.

ثم قال مخبرا عنه: ﴿وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ﴾ أى: بل قدرة الله شاملة له ومحيطة به، ﴿وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءُ﴾ أى: لا يجيرهم منه أحدٌ ﴿أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ وهذا مقامُ تهديد وترهيب، فَدَعَوا قومهم بالترغيب والترهيب؛ ولهذا نجع فى كثير منهم، وجاؤوا إلى رسول الله ﷺ وفودا وفودا، كما تقدم بيانه.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٣٣) وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ (٣٤) فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ (٣٥)﴾.

يقول تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ أى: هؤلاء المنكرون للبعث يوم القيامة، المستبعدون لقيام الأجساد يوم المعاد ﴿أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ﴾ أى: ولم يكرثه خَلْقهن، بل قال لها: «كونى» فكانت، بلا ممانعة ولا مخالفة، بل طائعة مجيبة خائفة وجلة، أفليس ذلك بقادر على أن يحيى الموتى؟ كما قال فى الآية الأخرى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [غافر: ٥٧]، ولهذا قال: ﴿بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

---

(١) فى أ: «من».

(٢) فى ت، أ: «ويجركم» وهو خطأ.

ثم قال متهددا ومتوعدا لمن كفر به: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ﴾ أى: يقال لهم: أما هذا حق؟ أفسحر هذا؟ أم أنتم لا تبصرون؟ ﴿قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا﴾ أى: لا يسعهم إلا الاعتراف، ﴿قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾، ثم قال تعالى آمراً رسوله[١] بالصبر على تكذيب من كذبه من قومه، ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ أى: على تكذيب قومهم لهم. وقد اختلفوا فى تعداد أولى العزم على أقوال، وأشهرها أنهم: نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، وخاتم الأنبياء كلهم محمد ﷺ، قد نص الله على أسمائهم من بين الأنبياء فى آيتين من[٢] سُورَتَى «الأحزاب» و«الشورى»، وقد يحتمل أن يكون المراد بأولى العزم جميع الرّسُل، وتكون ﴿مِنَ﴾ فى قوله: ﴿مِنَ الرُّسُلِ﴾ لبيان الجنس، والله أعلم. وقد قال ابن أبى حاتم:

حدثنا محمد بن الحجاج الحضرمى، حدثنا السرى بن حَيَّان، حدثنا عباد بن عباد، حدثنا مجالد ابن سعيد، عن الشعبى، عن مسروق قال: قالت لى عائشة [رضى الله عنها][٣]: ظل رسول الله ﷺ صائما ثم طواه، ثم ظل صائما ثم طواه، ثم ظل صائما، [ثم][٤] قال: «يا عائشة، إن الدنيا لا تنبغى لمحمد ولا لآل محمد. يا عائشة، إن الله لم يرض من أولى العزم من الرسل إلا بالصبر على مكروهها والصبر عن محبوبها، ثم لم يرض منى إلا أن يكلفنى ما كلفهم، فقال: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ وإنى ـ والله ـ لأصبرن كما صبروا جَهدى، ولا قوة إلا بالله»[٥].

﴿وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾ أى: لا تستعجل لهم حلول العقوبة بهم، كقوله: ﴿وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا﴾ [المزمل: ١١]، وكقوله: ﴿فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا﴾ [الطارق: ١٧].

﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ﴾، كقوله: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا﴾ [النازعات: ٤٦]، وكقوله: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ [يونس: ٤٥]، [وحاصل ذلك أنهم استقصروا مدة لبثهم فى الدنيا وفى البرزخ حين عاينوا يوم القيامة وشدائدها وطولها][٦]

وقوله: ﴿بَلَاغٌ﴾: قال ابن جرير: يحتمل معنيين، أحدهما: أن يكون تقديره: وذلك لبثَ بلاغ. والآخر: أن يكون تقديره: هذا القرآن بلاغ.

وقوله: ﴿فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ﴾ أى: لا يهلك على الله إلا هالك، وهذا من عدله تعالى أنه لا يعذب إلا من يستحق العذاب.

آخر تفسير سورة الأحقاف

(١) فى ت: «لرسوله». (٢) فى ت: «فى». (٣) زيادة من ت.
(٤) زيادة من ت، م، أ.
(٥) ورواه الديلمى فى مسند الفردوس برقم (٨٦٢٨) «مكرر» من طريق محمد بن حجاج الحضرمى به.
(٦) زيادة من ت، أ.

٤٦ ـ سورة الأحقاف

(مكية وهي خمس وثلاثون آية)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ ٤٦ الأحقاف

تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ ٤٦ الأحقاف

مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَمَّآ أُنذِرُوا۟ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ ٤٦ الأحقاف

قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤﴾ ٤٦ الأحقاف

﴿ سورة الأحقاف مكية وآيها خمس وثلاثون ﴾

١ ، ٢ (بسم الله الرحمن الرحيم) (حم) (تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم) الكلام فيه كالذى
٣ مر فى مطلع السورة السابقة (ماخلقنا السموات والأرض) بمافيهما من حيث الجزئية منهما ومن حيث
الاستقرار فيهما (وما بينهما) من المخلوقات (إلا بالحق) استثناء مفرغ من أعم المفاعيل أى إلا خلقاً
ملتبساً بالحق الذى تقتضيه الحكمة التكوينية والتشريعية أو من أعم الأحوال من فاعل خلقنا أو
مفعوله أى ماخلقناها فى حال من الأحوال إلا حال ملابستنا بالحق أو حال ملابستها به وفيه من
الدلالة على وجود الصانع تعالى وصفات كماله وابتناء أفعاله على حكم بالغة وانتهائها إلى غايات جليلة
مالا يخفى (وأجل مسمى) عطف على الحق بتقدير مضاف أى وبتقدير أجل مسمى ينتهى إليه أمر
الكل وهو يوم القيامة يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات وبرزوا لله الواحد القهار وقيل هو
آخر مدة البقاء المقدر لكل واحد ويأباه قوله تعالى (والذين كفروا عما أنذروا معرضون) فإن
ماأنذروه يوم القيامة ومافيه من الطامة التامة والأهوال العامة لا آخر أعمارهم وقد جوز كون مامصدرية
والجملة حالية أى ما خلقنا الخلق إلا بالحق وتقدير الأجل الذى يجاوزون عنده والحال أنهم غير مؤمنين
٤ به معرضون عنه وعن الاستعداد له (قل) توبيخاً لهم وتبكيتاً (أرأيتم) أخبرونى وقرىء أرأيتكم
(ماتدعون) ماتعبدون (من دون الله) من الأصنام (أرونى) تأكيد لأرأيتم (ماذا خلقوا من
الأرض) بيان للإبهام فى ماذا (أم لهم شرك) أى شركة مع الله تعالى (فى السموات) أى فى خلقها
أو ملكها وتدبيرها حتى يتوهم أن يكون لهم شائبة استحقاق للمعبودية فإن مالا مدخل له فى وجود

وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾ ٤٦ الأحقاف

وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴿٦﴾ ٤٦ الأحقاف

وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ ٤٦ الأحقاف

شيء من الأشياء بوجه من الوجوه فهو بمعزل من ذلك الاستحقاق بالمرة وإن كان من الأحياء العقلاء فما ظنكم بالجماد وقوله تعالى (ائتونى بكتاب) الخ تبكيت لهم بتعجيزهم عن الإتيان بسند نقلى بعد تبكيتهم بالتعجيز عن الإتيان بسند عقلى أى ائتونى بكتاب إلهى كائن (من قبل هذا) الكتاب أى القرآن الناطق بالتوحيد وإبطال الشرك دال على صحة دينكم (أو أثارة من علم) أو بقية من علم بقيت عليكم من علوم الأولين شاهدة باستحقاقهم للعبادة (إن كنتم صادقين) فى دعواكم فإنها لا تكاد تصح مالم يقم عليها برهان عقلى أو سلطان نقلى وحيث لم يقم عليها شيء منهما وقد قامت على خلافها أدلة العقل والنقل تبين بطلانها وقرىء إثارة بكسر الهمزة أى مناظرة فإنها تثير المعانى وأثرة أى شيء أوثرتم به وخصصتم من علم مطوى من غيركم وأثرة بالحركات الثلاث مع سكون الثاء أما المكسورة فبمعنى الأثرة وأما المفتوحة فهى المرة من أثر الحديث أى رواه وأما المضمومة فاسم ما يؤثر كالخطبة
٥ التى هى اسم ما يخطب به (ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له) إنكار ونفى لأن يكون أحد يساوى المشركين فى الضلال وإن كان سبك التركيب لنفى الأضل منهم من غير تعرض لنفى المساوى كما مر غير مرة أى هم أضل من كل ضال حيث تركوا عبادة خالقهم السميع القادر المجيب الخبير إلى عبادة مصنوعهم العارى عن السمع والقدرة والاستجابة (إلى يوم القيامة) غاية لنفى الاستجابة (وهم عن دعائهم) الضمير الأول لمفعول يدعو والثانى لفاعله والجمع فيهما باعتبار معنى من كما أن الإفراد فيما سبق باعتبار لفظها (غافلون) لكونهم جمادات وضمائر العقلاء لإجرائهم إياها مجرى العقلاء ووصفها بما ذكر من ترك الاستجابة والغفلة مع ظهور حالها للتهكم بها وبعبدتها كقوله تعالى إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم الآية
٦ (وإذا حشر الناس) عند قيام القيامة (كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين) أى مكذبين بلسان الحال أو المقال على ما يروى أنه تعالى يحيى الأصنام فتتبرأ عن عبادتهم وقد يجوز أن يراد بهم كل من يعبد من دون الله من الملائكة والجن والإنس وغيرهم ويبنى إرجاع الضمائر وإسناد العداوة والكفر إليهم على التغليب ويراد بذلك تبرؤهم عنهم وعن عبادتهم وقيل ضمير كانوا للعبدة وذلك قولهم والله ربنا ما كنا مشركين
٧ (وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات) واضحات أو مبينات (قال الذين كفروا للحق) أى لأجله وفى شأنه وهو عبارة عن الآيات المتلوة وضع موضع ضميرها تنصيصاً على حقيتها ووجوب الإيمان بها كما وضع الموصول موضع ضمير المتلو عليهم تسجيلا عليهم بكمال الكفر والضلالة (لما جاءهم) أى فى أول ما جاءهم من غير تدبر وتأمل (هذا سحر مبين) أى ظاهر كونه

أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَىٰ
بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٨﴾ ٤٦ الأحقاف

قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ وَمَآ أَنَا۠
إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٩﴾ ٤٦ الأحقاف

(أم يقولون افتراه) إضراب وانتقال من حكاية شناعتهم السابقة إلى حكاية ماهو أشنع منها وما فى أم ٨
من الهمزة للإنكار التوبيخى المتضمن للتعجيب أى بل أيقولون افترى القرآن (قل إن افتريته) *
على الفرض (فلا تملكون لى من الله شيئاً) إذ لاريب فى أنه تعالى يعاجلنى حينئذ بالعقوبة فكيف أجترىء *
على أن افترى عليه تعالى كذباً فأعرض نفسى للعقوبة التى لامناص عنها (هو أعلم بما تفيضون فيه) أى *
تندفعون فيه من القدح فى وحى الله والطعن فى آياته وتسميته سحراً تارة وفرية أخرى (كفى به شهيداً *
بينى وبينكم) حيث يشهد لى بالصدق والبلاغ وعليكم بالكذب والجحود وهو وعيد بجزاء إفاضتهم
وقوله تعالى (وهو الغفور الرحيم) وعد بالغفران والرحمة لمن تاب وآمن وإشعار بحلم الله تعالى عنهم *
مع عظم جرائمهم (قل ماكنت بدعا من الرسل) البدع بمعنى البديع كالخل بمعنى الخليل وهو مالا ٩
مثل له وقرىء بفتح الدال على أنه صفة كقيم وزيم أو جمع مقدر بمضاف أى ذا بدع وقد جوز ذلك
فى القراءة الأولى أيضاً على أنه مصدر كانوا يقترحون عليه عليه الصلاة والسلام آيات عجيبة ويسألونه
عن المغيبات عناداً ومكابرة فأمر عليه السلام بأن يقول لهم ماكنت بديعاً من الرسل قادراً على مالم
يقدروا عليه حتى آتيكم بكل ماتقترحونه وأخبركم بكل ماتسلون عنه من الغيوب فإن من قبلى من الرسل
عليهم الصلاة والسلام ماكانوا يأتون إلا بما آتاهم الله تعالى من الآيات ولا يخبرونهم إلا بما أوحى
إليهم (وما أدرى مايفعل بى ولا بكم) أى أى شىء يصيبنا فيما يستقبل من الزمان من أفعاله تعالى وماذا *
يقدر لنا من القضايا وعن الحسن رضى الله عنه ماأدرى مايصير إليه أمرى وأمركم فى الدنيا وعن
ابن عباس رضى الله عنهما مايفعل بى ولا بكم فى الآخرة وقال هى منسوخة بقوله تعالى ليغفر لك الله
ماتقدم من ذنبك وما تأخر وقيل يجوز أن يكون المنفى هى الدراية المفصلة والأظهر الأوفق لما ذكر
من سبب النزول أن ماعبارة عما ليس علمه من وظائف النبوة من الحوادث والواقعات الدنيوية دون
ماسيقع فى الآخرة فإن العلم بذلك من وظائف النبوة وقد ورد به الوحى الناطق بتفاصيل مايفعل
بالجانبين هذا وقد روى عن الكلبى أن أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم قالوا له عليه السلام وقد ضجروا
من أذية المشركين حتى متى نكون على هذا فقال ماأدرى مايفعل بى ولا بكم أأترك بمكة أم أومر
بالخروج إلى أرض ذات نخيل وشجر قد رفعت لى ورأيتها يعنى فى منامه وجوز أن تكون ماموصولة
والاستفهامية أقضى لحق مقام التبرؤ عن الدراية وتكرير لا لتذكير النفى المنسحب إليه وتأكيده

قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ ٤٦ الأحقاف

وقرىء مايفعل على إسناد الفعل إلى ضميره تعالى (إن أتبع إلا مايوحى إلى) أى ماأفعل إلا اتباع مايوحى إلى على معنى قصر أفعاله عليه الصلاة والسلام على اتباع الوحى لاقصر اتباعه على الوحى كما هو المتسارع إلى الأفهام وقد مر تحقيقه فى سورة الأنعام وقرىء يوحى على البناء للفاعل وهو جواب عن اقتراحهم الإخبار عما لم يوح إليه عليه السلام من الغيوب وقيل عن استعجال المسلمين أن يتخلصوا عن أذية المشركين والأول هو الأوفق لقوله تعالى (وما أنا إلا نذير) أنذركم عقاب الله تعالى حسبما يوحى إلى (مبين) بين الإنذار بالمعجزات الباهرة (قل أرأيتم إن كان) أى ما يوحى إلى من القرآن (من عند الله) لاسحراً ولامفترى كما تزعمون وقوله تعالى (وكفرتم به) حال بإضمار قد من الضمير فى الخبر وسطت بين أجزاء الشرط مسارعة إلى التسجيل عليهم بالكفر أوعطف على كان كما فى قوله تعالى قل أرأيتم إن كان من عند الله ثم كفرتم به لكن لاعلى أن نظمهفى سلك الشرط المتردد بين الوقوع وعدمه عندهم باعتبار حاله فى نفسه بل باعتبار حال المعطوف عليه عندهم فإن كفرهم به أمر محقق عندهم أيضاً وإنما ترددهم فى أن ذلك كفر بما من عند الله تعالى أم لا وكذا الحال فى قوله تعالى (وشهد شاهد من بنى إسرائيل) وما بعده من الفعلين فإن الكل أمور محققة عندهم وإنما ترددهم فى أنها شهادة وإيمان بما من عند الله تعالى واستكبار عنه أولا والمعنى أخبرونى إن كان ذلك فى الحقيقة من عند الله وكفرتم به وشهد شاهد عظيم الشأن من بنى إسرائيل الواقفين على شؤن الله تعالى وأسرار الوحى بما أوتوا من التوراة (على مثله) أى مثل القرآن من المعانى المنطوية فى التوراة المطابقة لما فى القرآن من التوحيد والوعد والوعيد وغير ذلك فإنها عين مافيه فى الحقيقة كما يعرب عنه قوله تعالى وإنه لفى زبر الأولين وقوله تعالى إن هذا لفى الصحف الأولى والمثلية باعتبار تأديتها بعبارات أخر أو على مثل ماذكر من كونه من عند الله تعالى والمثلية لما ذكر وقيل المثل صلة والفاء فى قوله تعالى (فآمن) للدلالة على أنه سارع إلى الإيمان بالقرآن لما علم أنه من جنس الوحى الناطق بالحق وهو عبد الله بن سلام لما سمع بمقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة أتاه فنظر إلى وجهه الكريم فعلم أنه ليس بوجه كذاب وتأمله فتحقق أنه النبى المنتظر فقال له إنى سائلك عن ثلاث لايعلمهن إلا نبى ما أول أشراط الساعة وما أول طعام أكله أهل الجنة والولد ينزع إلى أبيه أو إلى أمه فقال عليه الصلاة والسلام أما أول أشراط الساعة فنار تحشرهم من المشرق إلى المغرب وأما طعام أهل الجنة فزيادة كبد حوت وأما الولد فإن سبق ماء الرجل نزعه وإن سبق ماء المرأة نزعته فقال أشهد أنك رسول الله حقاً فقام ثم قال يارسول الله إن اليهود قوم بهت فإن علموا بإسلامى قبل أن تسألهم عنى بهتونى عندك فجاءت اليهود فقال لهم النبى عليه الصلاة والسلام أى رجل عبد الله فيكم فقالوا خيرنا

وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوۡ كَانَ خَيۡرٗا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيۡهِۚ وَإِذۡ لَمۡ يَهۡتَدُواْ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفۡكٞ قَدِيمٞ ﴿١١﴾ ٤٦ الأحقاف

وَمِن قَبۡلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامٗا وَرَحۡمَةٗۚ وَهَٰذَا كِتَٰبٞ مُّصَدِّقٞ لِّسَانًا عَرَبِيّٗا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٢﴾ ٤٦ الأحقاف

وابن خيرنا وسيدنا وابن سيدنا وأعلمنا وابن أعلمنا قال أرأيتم إن أسلم عبد الله قالوا أعاذه الله من ذلك فخرج إليهم عبد الله فقال أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله فقالوا شرنا وابن شرنا وانتقصوه قال هذا ما كنت أخاف يارسول الله وأحذر قال سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه ماسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لأحد يمشي على الأرض إنه من أهل الجنة إلا لعبد الله ابن سلام وفيه نزل وشهد شاهد الآية وقيل الشاهد موسى عليه السلام وشهادته بما في التوراة من بعثة النبي عليهما الصلاة والسلام وبه قال الشعبي وقال مسروق والله ما نزلت في عبد الله بن سلام فإن آل حم نزلت بمكة وإنما أسلم عبد الله بالمدينة وأجاب الكلبي بأن الآية مدنية وإن كانت السورة مكية
* (واستكبرتم) عطف على شهد شاهد وجواب الشرط محذوف والمعنى أخبروني إن كان من عند الله تعالى وشهد على ذلك أعلم بني إسرائيل فآمن به من غير تلعثم واستكبرتم عن الإيمان به بعد هذه المرتبة من أضل منكم بقرينة قوله تعالى قل أرأيتم إن كان من عند الله ثم كفرتم به من أضل ممن هو في شقاق
* بعيد وقوله تعالى (إن الله لايهدى القوم الظالمين) فإن عدم الهداية مما ينبىء عن الضلال قطعاً ووصفهم
١١ بالظلم للإشعار بعلة الحكم فإن تركه تعالى لهدايتهم لظلمهم (وقال الذين كفروا) حكاية لبعض آخر
* من أقاويلهم الباطلة في حق القرآن العظيم والمؤمنين به أي قال كفار مكة (للذين آمنوا) أي لأجلهم
* (لوكان) أي ماجاء به عليه الصلاة والسلام من القرآن والدين (خيراً ماسبقونا إليه) فإن معالي الأمور لاينالها أيدي الأراذل وهم سقاط عامتهم فقراء وموال ورعاة قالوه زعما منهم أن الرياسة الدينية مما ينال بأسباب دنيوية كما قالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم وزل عنهم أنها منوطة بكمالات نفسانية وملكات روحانية مبناها الإعراض عن زخارف الدنيا الدنية والإقبال على الآخرة بالكلية وأن من فاز بها فقد حازها بحذافيرها ومن حرمها فماله منها من خلاق وقيل قاله بنو عامر وغطفان وأسد وأشجع لما أسلم جهينة ومزينة وأسلم وغفار وقيل قالته اليهود حين أسلم عبد الله بن سلام وأصحابه ويأباه أن السورة
* مكية ولابد حينئذ من الالتجاء إلى ادعاء أن الآية نزلت بالمدينة (وإذا لم يهتدوا به) ظرف لمحذوف
* يدل عليه ماقبله ويترتب عليه مابعده أي وإذ لم يهتدوا بالقرآن قالوا ماقالوا (فسيقولون) غير مكتفين
١٢ بنفي خيريته (هذا إفك قديم) كما قالوا أساطير الأولين وقيل المحذوف ظهر عنادهم وليس بذاك (ومن
* قبله) أي من قبل القرآن وهو خبر لقوله تعالى (كتاب موسى) قيل والجملة حالية أو مستأنفة وأياً

إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ ٤٦ الأحقاف

أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَـٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ ٤٦ الأحقاف

وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَـٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَـٰلُهُۥ ثَلَـٰثُونَ
شَهْرًا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ
وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَـٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ۖ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ
ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾ ٤٦ الأحقاف

ماكان فهو لرد قولهم هذا إفك قديم وإبطاله فإن كونه مصدقا لكتاب موسى مقرر لحقيته قطعاً (إماماً ورحمة) حالان من كتاب موسى أى إماماً يقتدى به فى دين الله تعالى وشرائعه كما يقتدى بالإمام ورحمة من الله تعالى لمن آمن به وعمل بموجبه (وهذا) الذى يقولون فى حقه مايقولون (كتاب) عظيم الشأن (مصدق) أى لكتاب موسى الذى هو إمام ورحمة أو لما من بين يديه من جميع الكتب الإلهية وقد قرىء كذلك (لساناً عربياً) حال من ضمير الكتاب فى مصدق أو من نفسه لتخصصه بالصفة وعاملها معنى الإشارة وعلى الأول مصدق وقيل مفعول لمصدق أى يصدق ذا لسان عربى (لينذر الذين ظلموا) متعلق بمصدق وفيه ضمير الكتاب أو الله أو الرسول عليه الصلاة والسلام ويؤيد الأخير القراءة بتاء الخطاب (وبشرى للمحسنين) فى حيز النصب عطفاً على محل لينذر وقيل فى محل الرفع
١٣ على أنه خبر مبتدأ مضمر أى وبشرى وقيل على أنه عطف على مصدق (إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا) أى جمعوا بين التوحيد الذى هو خلاصة العلم والاستقامة فى أمور الدين التى هى منتهى العمل وثم للدلالة على تراخى رتبة العمل وتوقف الاعتداد به على التوحيد (فلا خوف عليهم) من لحوق مكروه (ولا هم يحزنون) من فوات محبوب والفاء لتضمن الاسم معنى الشرط والمراد بيان
١٤ دوام نفى الحزن لا بيان نفى دوام الحزن كما يوهمه كون الخبر مضارعا وقد مر بيانه مراراً (أولئك) الموصوفون بما ذكر من الوصفين الجليلين (أصحاب الجنة خالدين فيها) حال من المستكن فى أصحاب وقوله تعالى (جزاء) منصوب إما بعامل مقدر أى يجزون جزاء أو بمعنى ما تقدم فإن قوله تعالى أولئك
١٥ أصحاب الجنة فى معنى جازيناهم (بما كانوا يعملون) من الحسنات العلمية والعملية (ووصينا الإنسان) بأن يحسن (بوالديه إحساناً) وقرىء حسناً أى بأن يفعل بهما حسناً أى فعلا ذا حسن أو كأنه فى ذاته نفس الحسن لفرط حسنه وقرىء بضم السين أيضاً وبفتحهما أى بأن يفعل بهما فعلا حسناً أو وصيناه إيصاء حسناً (حملته أمه كرهاً ووضعته كرهاً) أى ذات كره أو حملا ذا كره وهو المشقة وقرىء بالفتح وهما لغتان كالفقر والفقر وقيل المضموم اسم والمفتوح مصدر (وحمله وفصاله) أى مدة حمله وفصاله وهو الفطام وقرىء وفصله والفصل والفصال كالفطم والفطام بناء ومعنى والمراد

أُولَٰئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾ ٤٦ الأحقاف

وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِى وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيْلَكَ ءَامِنْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾ ٤٦ الأحقاف

به الرضاع التام المنتهى به كما أراد بالأمد المدة من قال [كل حى مستكمل مدة العمر ومود إذا انتهى أمده] (ثلاثون شهراً) تمضى عليها بمعاناة المشاق ومقاساة الشدائد لأجله وهذا دليل على أن أقل مدة الحمل ستة أشهر لما أنه إذا حط عنه للفصال حولان لقوله تعالى حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة يبقى للحمل ذلك قيل ولعل تعيين أقل مدة الحمل وأكثر مدة الرضاع لانضباطهما وتحقق ارتباط النسب والرضاع بهما (حتى إذا بلغ أشده) أى اكتهل واستحكم قوته وعقله (وبلغ أربعين سنة) قيل لم يبعث نبى قبل أربعين وقرىء حتى إذا استوى وبلغ أشده (قال رب أوزعنى) أى ألهمنى وأصله أولعنى من أوزعته بكذا (أن أشكر نعمتك التى أنعمت على وعلى والدى) أى نعمة الدين أو ما يعمها وغيرها (وأن أعمل صالحاً ترضاه) التنكير للتفخيم والتكثير (وأصلح لى فى ذريتى) أى واجعل الصلاح سارياً فى ذريتى راسخاً فيهم كما فى قوله [يجرح فى عراقيبها نصلى] قال ابن عباس أجاب الله تعالى دعاء أبى بكر رضى الله عنهم فأعتق تسعة من المؤمنين منهم بلال وعامر بن فهيرة ولم يرد شيئاً من الخير إلا أعانه الله تعالى عليه ودعا أيضاً فقال وأصلح لى فى ذريتى فأجابه الله عز وجل فلم يكن له ولد إلا آمنوا جميعاً فاجتمع له إسلام أبويه وأولاده جميعاً فأدرك أبوه أبو قحافة رسول الله صلى الله عليه وسلم وابنه عبدالرحمن بن أبى بكر وابن عبد الرحمن أبو عتيق كلهم أدركوا النبى عليه الصلاة والسلام ولم يكن ذلك لأحد من الصحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين (إنى تبت إليك) عما لا ترضاه أو عما يشغلنى عن

١٦ ذكرك (وإنى من المسلمين) الذين أخلصوا لك أنفسهم (أولئك) إشارة إلى الإنسان والجمع لأن المراد به الجنس المتصف بالوصف المحكى عنه وما فيه من معنى البعد للإشعار بعلو رتبته وبعد منزلته أى أولئك المنعوتون بما ذكر من النعوت الجليلة (الذين نتقبل عنهم أحسن ماعملوا) من الطاعات فإن المباح حسن ولا يثاب عليه (ونتجاوز عن سيئاتهم) وقرىء الفعلان بالياء على إسنادهما إلى الله تعالى وعلى بنائهما للمفعول ورفع أحسن على أنه قائم مقام الفاعل وكذا الجار والمجرور (فى أصحاب الجنة) أى كائنين فى عدادهم منتظمين فى سلكهم (وعد الصدق) مصدر مؤكد لما أن قوله تعالى نتقبل ونتجاوز وعد من الله تعالى لهم بالتقبل والتجاوز (الذى كانوا يوعدون) على ألسنة الرسل

١٧ (والذى قال لوالديه) عند دعوتهما له إلى الإيمان (أف لكما) هو صوت يصدر عن المرء عند تضجره واللام لبيان المؤفف له كما فى هيت لك وقرىء أف بالفتح والكسر بغير تنوين وبالحركات الثلاث مع التنوين والموصول عبارة عن الجنس القائل ذلك القول ولذلك أخبر عنه بالمجموع كما سبق قيل هو

أُولَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَـٰسِرِينَ ﴿١٨﴾ ٤٦ الأحقاف

وَلِكُلٍّ دَرَجَـٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَـٰلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٩﴾ ٤٦ الأحقاف

وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَـٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿٢٠﴾ ٤٦ الأحقاف

فى الكافر العاق لوالديه المكذب بالبعث وعن قتادة هو نعت عبد سوء عاق لوالديه فاجر لربه وماروى من أنها نزلت فى عبد الرحمن بن أبى بكر رضى الله عنهما قبل إسلامه يرده ماسيأتى من قوله تعالى أولئك الذين حق عليهم القول الآية فإنه كان من أفاضل المسلمين وسرواتهم وقد كذبت الصديقة رضى الله عنها من قال ذلك (أتعدانى أن أخرج) أبعث من القبر بعد الموت وقرىء أخرج من الخروج (وقد خلت القرون من قبلى) ولم يبعث منهم أحد (وهما يستغيثان الله) يسألانه أن يغيثه ويوفقه للإيمان (ويلك) أى قائلين له ويلك وهو فى الأصل دعاء عليه بالثبور أريد به الحث والتحريض على الإيمان لاحقيقة الهلاك (آمن إن وعد الله حق) أى البعث أضافا إليه تعالى تحقيقاً للحق وتنبيهاً على خطئه فى إسناد الوعد إليهما وقرىء أن وعد الله أى آمن بأن وعد الله حق (فيقول) مكذباً لهما (ماهذا) الذى تسميانه وعد الله (إلا أساطير الأولين) أباطيلهم التى سطروها فى الكتب من غير أن يكون
١٨ لها حقيقة (أولئك) القائلون هذه المقالات (الذين حق عليهم القول) وهو قوله تعالى لإبليس لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين كما ينبىء عنه قوله تعالى (فى أمم قد خلت من قبلهم من الجن والإنس) وقد مر تفسيره فى سورة الم السجدة (إنهم) جميعاً (كانوا خاسرين) قد ضيعوا فطرتهم الأصلية الجارية
١٩ مجرى رؤس أموالهم باتباعهم الشيطان والجملة تعليل للحكم بطريق الاستئناف التحقيقى (ولكل) من الفريقين المذكورين (درجات مما عملوا) مراتب من أجزية ماعملوا من الخير والشر والدرجات غالبة فى مراتب المثوبة وإيرادها بطريق التغليب (وليوفيهم أعمالهم) أى أجزية أعمالهم وقرىء بنون العظمة (وهم لايظلمون) بنقص ثواب الأولين وزيادة عقاب الآخرين والجملة إما حال مؤكدة للتوفية أو استئناف مقرر لها واللام متعلقة بمحذوف مؤخر كأنه قيل وليوفيهم أعمالهم ولا يظلمهم حقوقهم
٢٠ فعل مافعل من تقدير الأجزية على مقادير أعمالهم فجعل الثواب والعقاب دركات (ويوم يعرض الذين كفروا على النار) أى يعذبون بها من قولهم عرض الأسارى على السيف أى قتلوا وقيل يعرض النار عليهم بطريق القلب مبالغة (أذهبتم طيباتكم) أى يقال لهم ذلك وهو الناصب للظرف وقرىء أأذهبتم بهمزتين وبألف بينهما على الاستفهام التوبيخى أى أصبتم أو أخذتم ماكتب لكم من حظوظ الدنيا ولذائذها (فى حياتكم الدنيا واستمتعتم بها) فلم يبق لكم بعد ذلك شىء منها (فاليوم تجزون عذاب

وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾ ٤٦ الأحقاف

قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٢﴾ ٤٦ الأحقاف

قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَٰكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٣﴾ ٤٦ الأحقاف

فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ ٤٦ الأحقاف

الهون) أى الهوان وقد قرىء كذلك (بما كنتم) فى الدنيا (تستكبرون فى الأرض بغير الحق) *
بغير استحقاق لذلك (وبما كنتم تفسقون) أى تخرجون عن طاعة الله عز وجل أى بسبب استكباركم *
وفسقكم المستمرين وقرىء تفسقون بكسر السين (واذكر) أى لكفار مكة (أخا عاد) أى هوداً عليه ٢١
السلام (إذ أنذر قومه) بدل اشتمال منه أى وقت إنذاره إياهم (بالأحقاف) جمع حقف وهو رمل *
مستطيل مرتفع فيه إنحناء من احقوقف الشىء إذا اعوج وكانت عاد أصحاب عمد يسكنون بين رمال
مشرفة على البحر بأرض يقال لها الشحر من بلاد اليمن وقيل بين عمان ومهرة (وقد خلت النذر) أى *
الرسل جمع نذير بمعنى المنذر (من بين يديه) أى من قبله (ومن خلفه) أى من بعده والجملة اعتراض *
مقرر لما قبله مؤكد لوجوب العمل بموجب الإنذار وسط بين أنذر قومه وبين قوله (أن لا تعبدوا *
إلا الله) مسارعة إلى ماذكر من التقرير والتأكيد وإيذاناً باشتراكهم فى العبارة المحكية والمعنى واذكر
لقومك إنذار هود قومه عاقبة الشرك والعذاب العظيم وقد أنذر من تقدمه من الرسل ومن تأخر عنه
قومهم مثل ذلك فاذكرهم وأما جعلها حالا من فاعل أنذر على معنى أنه عليه الصلاة والسلام أنذرهم وقال
لهم لا تعبدوا إلا الله (إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم) وقد أعلمهم أن الرسل الذين بعثوا قبله والذين *
سيبعثون بعده كلهم منذرون نحو إنذاره فمع ما فيه من تكلف تقدير الأعلام لا بد فى نسبة الخلو إلى من
بعده من الرسل من تنزيل الآتى منزلة الخالى (قالوا أجئتنا لتأفكنا) أى تصرفنا (عن آلهتنا) عن ٢٢
عبادتها (فأتنا بما تعدنا) من العذاب العظيم (إن كنت من الصادقين) فى وعدك بنزوله بنا (قال إنما ٢٣
العلم) أى بوقت نزوله أو العلم بجميع الأشياء التى من جملتها ذلك (عند الله) وحده لا علم لى بوقت *
نزوله ولا مدخل لى فى إتيانه وحلوله وإنما علمه عند الله تعالى فيأتيكم به فى وقته المقدر له (وأبلغكم *
ما أرسلت به) من مواجب الرسالة التى من جملتها بيان نزول العذاب إن لم تنتهوا عن الشرك من غير
وقوف على وقت نزوله وقرىء أبلغكم من الإبلاغ (ولكنى أراكم قوماً تجهلون) حيث تقترحون *
على ما ليس من وظائف الرسل من الإتيان بالعذاب وتعيين وقته والفاء فى قوله تعالى (فلما رأوه) فصيحة ٢٤

تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾ ٤٦ الأحقاف
وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ
سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ
يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٢٦﴾ ٤٦ الأحقاف

* والضمير إما مبهم يوضحه قوله تعالى (عارضاً) إما تمييزاً أوحالا أو راجع إلى ماستعجلوه بقولهم فأتنا
* بما تعدناأى فأتاهم فلما رأوه سحاباً يعرض فى أفق السماء (مستقبل أوديتهم) أى متوجه أوديتهم والإضافة
* فيه لفظية كما فى قوله تعالى (قالوا هذا عارض ممطرنا) ولذلك وقعا وصفين للنكرة (بل هو) أى قال
* هود وقدقرىء كذلك وقرىء قل وهو رد عليهم أى ليس الأمر كذلك بل هو (مااستعجلتم به) من
٢٥ العذاب (ريح) بدل من ما أو خبر لمبتدأ محذوف (فيها عذاب أليم) صفة لريح وكذا قوله تعالى (تدمر)
* أى تهلك (كل شىء) من نفوسهم وأموالهم (بأمر ربها) وقرىء يدمر كل شىء من دمر دماراً إذا
هلك فالعائد إلى الموصوف محذوف أو هو الهاء فى ربها ويجوز أن يكون استئنافا وارداً لبيان أن
لكل ممكن فناء مقضياً منوطاً بأمر بارئه وتكون الهاء لكل شىء لكونه بمعنى الأشياء وفى ذكر
الأمر والرب والإضافة إلى الريح من الدلالة على عظمة شأنه عز وجل مالا يخفى والفاء فى قوله تعالى
* (فأصبحوا لايرى إلا مساكنهم) فصيحة أى فجاءتهم الريح فدمرتهم فأصبحوا بحيث لايرى إلا مساكنهم
وقرىء ترى بالتاء ونصب مساكنهم خطاباً لكل أحد يتأتى منه الرؤية تنبيهاً على أن حالهم بحيث
* لوحضر كل أحد بلادهم لايرى فيها إلا مساكنهم (كذلك) أى مثل ذلك الجزاء الفظيع (نجزى القوم
المجرمين) وقد مر تفصيل القصة فى سورة الأعراف وقدروى أن الريح كانت تحمل الفسطاط والظاعنة
فترفعها فى الجو حتى ترى كأنها جرادة قيل أول من أبصر العذاب امرأة منهم قالت رأيت ريحاً فيها
كشهب النار وروى أن أول ماعرفوا به أنه عذاب مارأوا ما كان فى الصحراء من رحالهم ومواشيهم
تطير بها الريح بين السماء والأرض فدخلوا بيوتهم وغلقوا أبوابهم فقلعت الريح الأبواب وصرعتهم
فأمال الله تعالى الأحقاف فكانوا تحتها سبع ليال وثمانية أيام لهم أنين ثم كشفت الريح عنهم فاحتملتهم
فطرحتهم فى البحر وروى أن هوداً عليه السلام لما أحس بالريح خط على نفسه وعلى المؤمنين خطاً
إلى جنب عين تنبع وعن ابن عباس رضى الله عنهما اعتزل هود ومن معه فى حظيرة مايصيبهم من الريح
إلا مايلين على الجلود وتلذه الأنفس وإنها لتمر من عاد بالظعن بين السماء والأرض وتدمغهم بالحجارة
٢٦ (ولقد مكناهم) أى قررنا عاداً أو أقدرناهم وما فى قوله تعالى (فيما إن مكناكم فيه) موصولة أو موصوفة
وإن نافية أى فى الذى أو فى شىء مامكنا كم فيه من السعة والبسطة وطول الأعمار وسائر مبادى التصرفات
كما فى قوله تعالى ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن مكناهم فى الأرض مالم نمكن لكم ومما يحسن

وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا ٱلْآيَـٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾ ٤٦ الأحقاف
فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةًۢ ۖ بَلْ ضَلُّوا۟ عَنْهُمْ ۚ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا۟
يَفْتَرُونَ ﴿٢٨﴾ ٤٦ الأحقاف

موقع إن ههنا التفصى عن تكرر لفظة ما وهو الداعى إلى قلب ألفها هاء فى مهما وجعلها شرطية أو
زائدة مما لايليق بالمقام (وجعلنا لهم سمعاً وأبصاراً وأفئدة) ليستعملوها فيما خلقت له ويعرفوا بكل *
منها ما نيطت به معرفته من فنون النعم ويستدلوا بها على شؤن منعمها عز وجل ويداوموا على شكره
(فما أغنى عنهم سمعهم) حيث لم يستعملوه فى استماع الوحى ومواعظ الرسل (ولا أبصارهم) حيث *
لم يجتلوا بها الآيات التكوينية المنصوبة فى صحائف العلم (ولا أفئدتهم) حيث لم يستعملوها فى معرفة *
الله تعالى (من شىء) أى شيئاً من الإغناء ومن مزيدة للتأكيد وقوله تعالى (إذ كانوا يجحدون بآيات *
الله) متعلق بما أغنى وهو ظرف جرى مجرى التعليل من حيث إن الحكم مرتب على ما أضيف إليه
فإن قولك أكرمته إذ أكرمنى فى قوة قولك أكرمته لإكرامه إذا أكرمته وقت إكرامه فإنما أكرمته
فيه لوجود إكرامه فيه كذا الحال فى حيث (وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون) من العذاب الذى كانوا *
يستعجلونه بطريق الاستهزاء ويقولون فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين (ولقد أهلكنا ما حولكم) ٢٧
ياأهل مكة (من القرى) كحجر ثمود وقرى قوم لوط (وصرفنا الآيات) كررناها لهم (لعلهم يرجعون) *
لكى يرجعوا عما هم فيه من الكفر والمعاصى (فلولا نصرهم الذين اتخذوا من دون الله قرباناً آلهة) ٢٨
القربان ما يتقرب به إلى الله تعالى وأحد مفعولى اتخذوا ضمير الموصول المحذوف والثانى آلهة وقرباناً
حال والتقدير فهلا نصرهم وخلصهم من العذاب الذين اتخذوهم آلهة حال كونها متقرباً بها إلى الله تعالى
حيث كانوا يقولون ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى وهؤلاء شفعاؤنا عند الله وفيه تهكم بهم ولا
مساغ لجعل قرباناً مفعولا ثانياً آلهة بدلا منه لفساد المعنى فإن البدل وإن كان هو المقصود لكنه
لابد فى غير بدل الغلط من صحة المعنى بدونه ولا ريب فى أن قولنا اتخذوهم من دون الله قرباناً أى
متقرباً به مالا صحة له قطعاً لأنه تعالى متقرب إليه لامتقرب به فلا يصح أنهم اتخذوهم قرباناً متجاوزين
الله فى ذلك وقرىء قرباناً بضم الراء (بل ضلوا عنهم) أى غابوا عنهم وفيه تهكم آخر بهم كأن عدم *
نصرهم لغيبتهم أوضاعوا عنهم أى ظهر ضياعهم عنهم بالكلية وقيل امتنع نصرهم امتناع نصر الغائب
عن المنصور (وذلك) أى ضياع آلهتهم عنهم وامتناع نصرهم (إفكهم) أى إثر إفكهم الذى هو *
اتخاذهم إياها آلهة ونتيجة شركهم وقرىء إفكهم وكلاهما مصدر كالحذر والحذر وقرىء إفكهم على صيغة
الماضى فذلك إشارة حينئذ إلى الاتخاذ أى وذلك الاتخاذ الذى هو ثمرته وعاقبته صرفهم عن الحق
وقرىء إفكهم بالتشديد للمبالغة وآفكهم من الأفعال أى جعلهم آفكين وقرىء آفكهم على صيغة
اسم الفاعل مضافاً إلى ضميرهم أى قولهم الإفك كما يقال قول كاذب (وما كانوا يفترون) عطف على *

وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ ٤٦ الأحقاف

قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ ٤٦ الأحقاف

إفكهم أى وأثر افترائهم على الله أو أثر ما كانوا يفترونه عليه تعالى وقرىء وذلك إفك مما كانوا
٢٩ يفترون أى بعض ما كانوا يفترون من الإفك (وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن) أملناهم إليك وأقبلنا
بهم نحوك وقرىء صرفنا بالتشديد للتكثير لأنهم جماعة وهو السر فى جمع الضمير فى قوله تعالى (يستمعون
القرآن) وما بعده وهو حال مقدرة من نفراً لتخصصه بالصفة أو صفة أخرى له أى واذكر لقومك
وقت صرفنا إليك نفراً كائناً من الجن مقدراً استماعهم القرآن (فلما حضروه) أى القرآن عند تلاوته
أو الرسول عند تلاوته له على الالتفات والأول هو الأظهر (قالوا) أى قال بعضهم لبعض (أنصتوا)
أى اسكتوا لنسمعه (فلما قضى) أتم وفرغ عن تلاوته وقرىء على البناء للفاعل وهو ضمير الرسول
عليه الصلاة والسلام وهذا يؤيد ضمير حضروه إليه عليه الصلاة والسلام (ولوا إلى قومهم منذرين)
مقدرين إنذارهم عند رجوعهم إليهم . روى أن الجن كانت تسترق السمع فلما حرست السماء ورجموا
بالشهب قالوا ماهذا إلا لنبأ حدث فنهض سبعة نفر أو ستة نفر من أشراف جن نصيبين أو نينوى
منهم زوبعة فضربوا حتى بلغوا تهامة ثم اندفعوا إلى وادى نخلة فوافوا رسول الله صلى الله عليه وسلم
وهو قائم فى جوف الليل يصلى أو فى صلاة الفجر فاستمعوا لقراءته وذلك عند منصرفه من الطائف
وعن سعيد بن جبير ماقرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم على الجن ولا رآهم وإنما كان يتلو فى صلاته
فمروا به فوقفوا مستمعين وهو لا يشعر بهم فأنبأه الله تعالى باستماعهم وقيل بل أمره الله تعالى أن ينذر
الجن ويقرأ عليهم فصرف إليه نفراً منهم جمعهم له فقال عليه الصلاة والسلام إنى أمرت أن أقرأ على
الجن الليلة فمن يتبعنى قالها ثلاثاً فأطرقوا إلا عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال فانطلقنا حتى إذا
كنا بأعلى مكة فى شعب الحجون خط لى خطاً فقال لاتخرج منه حتى أعود إليك ثم افتتح القرآن وسمعت
لغطاً شديداً حتى خفت على رسول الله صلى الله عليه وسلم وغشيته أسودة كثيرة حالت بينى وبينه
حتى ما أسمع صوته عليه الصلاة والسلام ثم انقطعوا كقطع السحاب فقال لى رسول الله صلى الله عليه
وسلم هل رأيت شيئاً قلت نعم رجالا سوداً مستشعرى ثياب بيض فقال أولئك جن نصيبين وكانوا
٣٠ إثنى عشر ألفاً والسورة التى قرأها عليهم اقرأ باسم ربك (قالوا) أى عند رجوعهم إلى قومهم (ياقومنا
إنا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى) قيل قالوه لأنهم كانوا على اليهودية وعن ابن عباس رضى الله عنهما
أن الجن لم تكن سمعت بأمر عيسى عليه السلام (مصدقاً لما بين يديه) أرادوا به التوراة (يهدى إلى
الحق) من العقائد الصحيحة (وإلى طريق مستقيم) موصل إليه وهو الشرائع والأعمال الصالحة

يَـٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ ٤٦ الأحقاف

وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾ ٤٦ الأحقاف

أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَـٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾ ٤٦ الأحقاف

---

٣١ (ياقومنا أجيبوا داعى الله وآمنوا به) أرادوا به ماسمعوه من الكتاب وصفوه بالدعوة إلى الله تعالى
بعدماوصفوه بالهداية إلى الحق والصراط المستقيم لتلازمهمادعوهم إلى ذلك بعد بيان حقيته واستقامته
ترغيباً لهم فى الإجابة ثم أكدوه بقولهم (يغفر لكم من ذنوبكم) أى بعض ذنوبكم وهو ما كان فى *
خالص حق الله تعالى فإن حقوق العباد لا تغفر بالإيمان (ويجركم من عذاب أليم) معد للكفرة واختلف *
٣٢ فى أن لهم أجراً غير هذا أولا والأظهر أنهم فى حكم بنى آدم ثواباً وعقاباً وقوله تعالى (ومن لا يجب
داعى الله فليس بمعجز فى الأرض) إيجاب للإجابة بطريق الترهيب إثر إيجابها بطريق الترغيب وتحقيق
لكونهم منذرين وإظهار داعى الله من غير اكتفاء بأحد الضميرين للمبالغة فى الإيجاب بزيادة التقرير
وتربية المهابة وإدخال الروعة وتقييد الإعجاز بكونه فى الأرض لتوسيع الدائرة أى فليس بمعجز له
تعالى بالهرب وإن هرب كل مهرب من أقطارها أو دخل فى أعماقها وقوله تعالى (وليس له من دونه *
أولياء) بيان لاستحالة نجاته بواسطة الغير إثر بيان استحالة نجاته بنفسه وجمع الأولياء باعتبار معنى
من فيكون من باب مقابلة الجمع بالجمع لانقسام الآحاد إلى الآحاد كما أن الجمع فى قوله تعالى (أولئك) *
بذلك الاعتبار أى أولئك الموصوفون بعدم إجابة داعى الله (فى ضلال مبين) أى ظاهر كونه ضلالا *
٣٣ بحيث لا يخفى على أحد أعرضوا عن إجابة من هذا شأنه (أولم يروا) الهمزة للإنكار والواو للعطف
على مقدر يستدعيه المقام والرؤية قلبية أى ألم يتفكروا ولم يعلموا علماً جازماً متاخماً للمشاهدة والعيان
(أن الله الذى خلق السموات والأرض) ابتداء من غير مثال يحتذيه ولا قانون ينتحيه (ولم يعى *
بخلقهن) أى لم يتعب ولم ينصب بذلك أصلا أو لم يعجز عنه يقال عييت بالأمر إذا لم يعرف وجهه *
وقوله تعالى (بقادر) فى حيز الرفع لأنه خبر إن كما ينبىء عنه القراءة بغير باء ووجه دخولها فى القراءة *
الأولى اشتمال النفى الوارد فى صدر الآية على أن وما فى حيزها كأنه قيل أو ليس الله بقادر (على أن *
يحيى الموتى) ولذلك أجيب عنه بقوله تعالى (بلى إنه على كل شىء قدير) تقريراً للقدرة على وجه عام *
يكون كالبرهان على المقصود .

وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٤﴾ ٤٦ الأحقاف

فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلَٰغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٣٥﴾ ٤٦ الأحقاف

٣٤ (ويوم يعرض الذين كفروا على النار) ظرف عامله قول مضمر مقوله (أليس هذا بالحق) على أن الإشارة إلى مايشاهدونه حينئذ من حيث هو من غير أن يخطر بالبال لفظ يدل عليه فضلا عن تذكيره وتأنيثه إذ هو اللائق بتهويله وتفخيمه وقد مر فى سورة الأحزاب وقيل هى إلى العذاب وفيه تهكم بهم وتوبيخ لهم على استهزائهم بوعد الله ووعيده وقولهم وما نحن بمعذبين (قالوا بلى وربنا) أكدوا جوابهم بالقسم كأنهم يطمعون فى الخلاص بالاعتراف بحقيتها كما فى الدنيا وأنى لهم ذلك (قال فذوقوا العذاب بماكنتم تكفرون) بها فى الدنيا ومعنى الأمر الإهانة بهم والتوبيخ لهم والفاء فى قوله تعالى

٣٥ (فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل) جواب شرط محذوف أى إذا كان عاقبة أمر الكفرة ماذكر فاصبر على مايصيبك من جهتهم كما صبر أولو الثبات والحزم من الرسل فإنك من جملتهم بل من عليتهم ومن للتبيين والمراد بأولى العزم أصحاب الشرائع الذين اجتهدوا فى تأسيسها وتقريرها وصبروا على تحمل مشاقها ومعاداة الطاعنين فيها ومشاهيرهم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى عليهم الصلاة والسلام وقيل هم الصابرون على بلاء الله كنوح صبر على أذية قومه كانوا يضربونه حتى يغشى عليه وإبراهيم صبر على النار وعلى ذبح ولده والذبيح على الذبح ويعقوب على فقد الولد والبصر ويوسف على الجب والسجن وأيوب على الضر وموسى قال له قومه إنا لمدركون قال كلا إن معى ربى سيهدين وداود بكى على خطيئته أربعين سنة وعيسى لم يضع لبنة على لبنة صلوات الله تعالى عليهم أجمعين (ولا تستعجل لهم) أى لكفار مكة بالعذاب فإنه على شرف النزول بهم (كأنهم يوم يرون مايوعدون) من العذاب (لم يلبثوا) فى الدنيا (إلا ساعة) يسيرة (من نهار) لما يشاهدون من شدة العذاب وطول مدته وقوله تعالى (بلاغ) خبر مبتدأ محذوف أى هذا الذى وعظتم به كفاية فى الموعظة أو تبليغ من الرسول ويؤيده أنه قرىء بلغ وقرىء بلاغا أى بلغوا بلاغا (فهل يهلك إلا القوم الفاسقون) أى الخارجون عن الاتعاظ به أو عن الطاعة وقرىء بفتح الياء وكسر اللام وبفتحهما من هلك وهلك وبنون العظمة من الإهلاك ونصب القوم ووصفه . عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة الأحقاف كتب له عشر حسنات بعدد كل رملة فى الدنيا .

سورة الأحقاف

ترتيبها ٤٦ — آياتها ٣٥

أخرج ابن مردويه عن ابن عباس وابن الزبير أنها نزلت بمكة فأطلق غير واحد القول بمكيتها من غير استثناء، واستثنى بعضهم قوله تعالى: ﴿قل أرأيتم إن كان من عند الله﴾ [الأحقاف: ١٠] الآية، فقد أخرج الطبراني بسند صحيح عن عوف بن مالك الأشجعي أنها نزلت بالمدينة في قصة إسلام عبد الله بن سلام، وروي ذلك عن محمد بن سيرين.

وفي الدر المنثور أخرج البخاري ومسلم والنسائي وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه عن سعد بن أبي وقاص أنه قال: ما سمعت رسول الله ﷺ يقول لأحد يمشي على وجه الأرض: إنه من أهل الجنة إلا لعبد الله بن سلام وفيه نزلت ﴿وشهد شاهد من بني إسرائيل﴾ [الأحقاف: ١٠] وفي نزولها فيه رضي الله تعالى عنه أخبار كثيرة، وظاهر ذلك أنها مدنية لأن إسلامه فيها بل في الأخبار ما يدل على مدنيتها من وجه آخر، وعكرمة ينكر نزولها فيه ويقول: هي مكية كما أخرج عبد بن حميد وابن المنذر عنه وكذا مسروق، فقد أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عنه أنه قال في الآية: والله ما نزلت في عبد الله بن سلام ما نزلت إلا بمكة وإنما كان إسلام ابن سلام بالمدينة وإنما كانت خصومة خاصم بها محمد ﷺ، واستثنى بعضهم ﴿والذي قال لوالديه﴾ [الأحقاف: ١٧] الآيتين، وزعم مروان من لعن رسول الله ﷺ أباه وهو في صلبه أنهما نزلتا في عبد الرحمن بن أبي بكر رضي الله تعالى عنهما فكذبته عائشة وقالت: كذب مروان مرتين والله ما هو به ولو شئت أن أسمي الذي أنزلت فيه لسميته ولكن رسول الله ﷺ لعن أبا مروان ومروان في صلبه فمروان فضض أي قطعة من لعنة الله تعالى، وفي رواية أنها قالت: إنما نزلت في فلان بن فلان وسمت رجلاً آخر، واستثنى آخر ﴿ووصينا الإنسان﴾ [الأحقاف: ١٥] الآيات الأربع كما حكاه في جمال القراء، وحكى أيضاً استثناء ﴿فاصبر كما صبر أولو العزم﴾ [الأحقاف: ٣٥] الآية ونقله في البحر عن ابن عباس. وقتادة، وكذا نقل فيه عنهما استثناء ﴿قل أرأيتم﴾ الخ، وتمام الكلام في ذلك سيأتي إن شاء الله تعالى. وآيها خمس وثلاثون في الكوفي وأربع وثلاثون في غيره والاختلاف في «حم» وتسمى لمجاوزتها الثلاثين ثلاثين. أخرج أحمد بسند جيد عن ابن عباس قال: أقرأني رسول الله ﷺ سورة من آل حم وهي الأحقاف وكانت السورة إذا كانت أكثر من ثلاثين آية سميت ثلاثين، وروي أن رسول الله ﷺ قرأها على وجهين.

أخرج ابن الضريس والحاكم وصححه عن ابن مسعود قال: أقرأني رسول الله ﷺ سورة الأحقاف فسمعت رجلاً يقرؤها خلاف ذلك فقلت: من أقرأكها؟ قال: رسول الله ﷺ فقلت: والله لقد أقرأني رسول الله ﷺ غير ذا فأتينا رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله ألم تقرئني كذا وكذا؟ قال: بلى فقال الآخر: ألم تقرئني كذا وكذا؟ قال: بلى فتمعَّر وجه رسول الله ﷺ فقال: «ليقرأ كل واحد منكما ما سمع فإنما هلك من كان قبلكم بالاختلاف».

وأنت تعلم أن ما تواتر هو القرآن. ووجه اتصالها أنه تعالى لما ختم السورة التي قبلها بذكر التوحيد وذم أهل

الشرك والوعيد افتتح هذه بالتوحيد ثم بالتوبيخ لأهل الكفر من العبيد فقال عز وجلّ:

بسم الله الرحمن الرحيم

حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ
مُّسَمًّى ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَمَّآ أُنذِرُوا۟ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ
أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ۖ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤﴾ وَمَنْ
أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ
ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴿٦﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ
هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ ۖ
كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۖ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٨﴾ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا
بِكُمْ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ
شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ
كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ ۚ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا۟ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴿١١﴾
وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَبُشْرَىٰ
لِلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ
أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾

﴿بسم الله الرَّحْمٰن الرَّحيم حَم تَنْزِيلُ الكتاب منَ الله العَزيز الْحَكيم﴾ الكلام فيه كالذي تقدم في مطلع السورة السابقة **﴿مَا خَلَقْنَا السَّمٰوَات وَالأَرْضَ﴾** بما فيهما من حيث الجزئية منهما ومن حيث الاستقرار فيهما **﴿وَمَا بَيْنَهُمَا﴾** من المخلوقات **﴿إلاَّ بالحقِّ﴾** استثناء مفرغ من أعم المفاعيل أي لا خلقاً ملتبساً بالحق الذي تقتضيه الحكمة التكوينية والتشريعية، وفيه من الدلالة على وجود الصانع وصفات كماله وابتناء أفعاله على حكم بالغة وانتهائها إلى غايات جليلة ما لا يخفى، وجوز كونه مفرغاً من أعم الأحوال من فاعل **﴿خلقنا﴾** أو من مفعوله أي ما خلقناها في حال من الأحوال إلا حال ملابستنا بالحق أو حال ملابستها به **﴿وَأَجَل مُسَمًّى﴾** عطف على **﴿الحق﴾** بتقدير مضاف أي وبتقدير أجل مسمى، وقدر لأن الخلق إنما يلتبس به لا بالأجل نفسه والمراد بهذا الأجل. كما قال ابن عباس. يوم القيامة فإنه ينتهي إليه أمور الكل وتبدل فيه الأرض غير الأرض والسموات وبرزوا لله الواحد القهار، وقيل: مدة البقاء المقدر لكل واحد، ويؤيد الأول قوله تعالى:

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُعْرِضُونَ﴾ فإن ما أنذروه يوم القيامة وما فيه من الطامة التامة والأهوال العامة لا آخر أعمارهم. وجوز كون ﴿ما﴾ مصدرية أي عن إنذارهم بذلك الوقت على إضافة المصدر إلى مفعوله الأول القائم مقام الفاعل، والجملة حالية أي ما خلقنا الخلق إلا بالحق وتقدير الأجل الذي يجازون عنده والحال أنهم غير مؤمنين به معرضون عنه غير مستعدين لحلوله ﴿قُلْ﴾ توبيخاً لهم وتبكيتاً ﴿أَرَأَيْتُمْ﴾ أخبروني وقرىء «أرأيتكم» ﴿مَا تَدْعُونَ﴾ ما تعبدون ﴿مِنْ دُونِ اللهِ﴾ من الأصنام أو جميع المعبودات الباطلة ولعله الأظهر، والموصول مفعول أول ـ لأرأيتم ـ وقوله تعالى: ﴿أَرُونِي﴾ تأكيد له فإنه بمعنى أخبروني أيضاً، وقوله تعالى: ﴿مَاذَا خَلَقُوا﴾ جوز فيه أن تكون ﴿ما﴾ اسم استفهام مفعولاً مقدماً ـ لخلقوا ـ و ﴿إذا﴾ زائدة وأن تكون ﴿ماذا﴾ اسماً واحداً مفعولاً مقدماً أي أي شيء خلقوا وأن تكون اسم استفهام مبتدأ أو خبراً مقدماً و ﴿ذا﴾ اسم موصول خبراً أو مبتدأ مؤخراً وجملة ﴿خلقوا﴾ صلة الموصول أي ما الذي خلقوه، وعلى الأولين جملة ﴿خلقوا﴾ مفعول ثان ـ لأرأيتم ـ وعلى ما بعدهما جملة ﴿ماذا خلقوا﴾ وجوز أن يكون الكلام من باب الأعمال وقد أعمل الثاني وحذف المفعول الأول وأختاره أبو حيان، وقيل: يحتمل أن يكون ﴿أروني﴾ بدل اشتمال من ﴿أرأيتم﴾ وقال ابن عطية: يحتمل ﴿أرأيتم﴾ وجهين: كونها متعدية و ﴿ما﴾ مفعولاً لها. وكونها منبهة لا تتعدى و ﴿ما﴾ استفهامية على معنى التوبيخ، وهذا الثاني قاله الأخفش في ﴿أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة﴾ [الكهف: ٦٣].

وقوله تعالى: ﴿مِنَ الأَرْضِ﴾ تفسير للمبهم في ﴿ماذا خلقوا﴾ قيل: والظاهر أن المراد من أجزاء الأرض وبقعها، وجوز أن يكون المراد ما على وجهها من حيوان وغيره بتقدير مضاف يؤدي ذلك، ويجوز أن يراد بالأرض السفليات مطلقاً ولعله أولى ﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ﴾ أي شركة مع الله سبحانه ﴿فِي السَّماوات﴾ أي في خلقها، ولعل الأولى فيها أيضاً أن تفسر بالعلويات. و ﴿أم﴾ جوز أن تكون منقطعة وأن تكون متصلة، والمراد نفي استحقاق آلهتهم للمعبودية على أتم وجه، فقد نفى أولاً مدخليتها في خلق شيء من أجزاء العالم السفلي حقيقة واستقلالاً، وثانياً مدخليتها على سبيل الشركة في خلق شيء من أجزاء العالم العلوي، ومن المعلوم أن نفي ذلك يستلزم نفي استحقاق المعبودية؛ وتخصيص الشركة في النظم الجليل بقوله سبحانه: ﴿في السماوات﴾ مع أنه لا شركة فيها وفي الأرض أيضاً لأن القصد إلزامهم بما هو مسلم لهم ظاهر لكل أحد والشركة في الحوادث السفلين ليست كذلك لتملكهم وإيجادهم لبعضها بحسب الصورة الظاهرة. وقيل: الأظهر أن تجعل الآية من حذف معادل ﴿أم﴾ المتصلة لوجود دليله والتقدير ألهم شرك في الأرض أم لهم شرك في السموات وهو كما ترى، وقوله تعالى: ﴿ائتوني بكتاب﴾ إلى آخره تبكيت لهم بتعجيزهم عن الاتيان بسند نقلي بعد تبكيتهم بالتعجيز عن الإتيان بسند عقلي فهو من جملة القول أي ائتوني بكتاب إلهي كائن ﴿مِنْ قَبْلِ هَٰذَا﴾ الكتاب أي القرآن الناطق بالتوحيد وإبطال الشرك دال على صحة دينكم ﴿أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ﴾ أي بقية من علم بقيت عليكم من علوم الأولين شاهدة باستحقاقهم العبادة، فالاثارة مصدر كالضلالة بمعنى البقية من قولهم: سمنت الناقة على أثارة من لحم أي بقية منه. وقال القرطبي: هي بمعنى الإسناد والرواية، ومنه قول الأعشى:

إن الـــذي فـــيـــه تمـــاريـــتـــمـــا ... بـــيّـن لـــلـــســـامـــع والآثـــر

وقال أبو سلمة بن عبد الرحمن، وقتادة: المعنى أو خاصة من علم فاشتقاقها من الأثرة فكأنها قد آثر الله تعالى بها من هي عنده، وقيل: هي العلامة. وأخرج أحمد وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه من طريق أبي سلمة بن عبد الرحمن عن ابن عباس عن النبي ﷺ ﴿أو أثارة من علم﴾ قال: الخط، وروي ذلك أيضاً موقوفاً على

ابن عباس، وفسر بعلم الرمل كما في حديث أبي هريرة مرفوعاً «كان نبي من الأنبياء يخط فمن صادف مثل خطه علم». وفي رواية عن الحبر أنه قال ﴿أو أثارة من علم﴾ خط كان يخطه العرب في الأرض، وهذا ظاهر في تقوية أمر علم الرمل وأنه شيء له وجه ويرشد إلى بعض الأمور، وفي ذلك كلام يطلب من محله. وفي البحر قيل: إن صح تفسير ابن عباس الأثارة بالخط على التراب كان ذلك من باب التهكم بهم وبأقوالهم ودلائلهم، والتنوين للتقليل و ﴿من علم﴾ صفة أي أو ائتوني بأثارة قليلة كائنة من علم ﴿إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ في دعواكم فإنها لا تكاد تصح ما لم يقم عليها برهان عقلي أو دليل نقلي وحيث لم يقم عليها شيء منهما وقد قاما على خلافها تبين بطلانها، وقرىء «إثارة» بكسر الهمز وفسرت بالمناظرة فإنها تثير المعاني، قيل: وذلك من باب الاستعارة على تشبيه ما يبرز ويتحقق بالمناظرة بما يثور من الغبار الثائر من حركات الفرسان. وقرأ علي وابن عباس رضي الله تعالى عنهم بخلاف عنهما. وزيد بن علي وعكرمة وقتادة والحسن والسلمي والأعمش وعمرو بن ميمون «أثرة» بغير ألف وهي واحدة جمعها أثر كقترة وقتر، وعلي كرم الله تعالى وجهه والسلمي وقتادة أيضاً بإسكان الثاء وهي الفعلة الواحدة مما يؤثر أي قد قنعت منكم بخبر واحد أو أثر واحد يشهد بصحة قولكم؛ وعن الكسائي ضم الهمزة وإسكان الثاء فهي اسم للمقدار كالغرفة لما يغرف باليد أي ائتوني بشيء ما يؤثر من علم، وروي عنه أيضاً أنه قرأ «إثرة» بكسر الهمزة وسكون الثاء وهي بمعنى الأثرة بفتحتين ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِن دُونِ اللهِ مَنْ لا يَسْتَجِيبُ لَهُ﴾ إنكار لأن يكون أضل من المشركين، وذكر بعض الفضلاء أن المراد نفي أن يكون أحد يساويهم في الضلالة وإن كان سبك التركيب لنفي الأضل، وقد مر ما يتعلق بذلك فتذكر أي هو أضل من كل ضال حيث ترك دعاء المجيب القادر المستجمع لجميع صفات الكمال كما يشعر بذلك الاسم الجليل ودعا من ليس شأنه الاستجابة له وإسعافه بمطلوبه ﴿إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ أي ما دامت الدنيا، وظاهره أنه بعدها تقع الاستجابة وليس بمراد لتحقق ما يدل على خلافه، فهذه الغاية على ما في الانتصاف من الغايات المشعرة بأن ما بعدها وإن وافق ما قبلها إلا أنه أزيد منه زيادة بينة تلحقه بالمباين حتى كأن الحالتين وإن كانتا نوعاً واحداً لتفاوت ما بينهما كالشيء وضده، وذلك أن الحالة الأولى التي جعلت غايتها القيامة لا تزيد على عدم الاستجابة، والحالة الثانية التي في القيامة زادت على عدم الاستجابة بالعداوة وبالكفر بعبادتهم إياهم كما ينطق به ما بعد فهو من وادي قول تعالى: في سورة [الزخرف: ٢٩] ﴿بل متعت هؤلاء وآباءهم﴾ الآية، ونحوه قوله سبحانه في إبليس: ﴿إن عليك لعنتي إلى يوم الدين﴾ [ص: ٧٨] وقد يقال: المراد بهذه الغاية التأبيد كما قيل في قوله تعالى: ﴿خالدين فيها ما دامت السماوات﴾ [هود: ١٠٧] وقولهم: ما دام ثبير، وقال بعضهم: لا إشكال في الآية لأن الغاية مفهوم فلا تعارض المنطوق، وفيه بحث، ففي الدرر والينبوع عن البديع أن الغاية عندنا من قبيل إشارة النص لا المفهوم.

وقال الزركشي في شرح جمع الجوامع: ذهب القاضي أبو بكر إلى أن الحكم في الغاية منطوق وادعى أن أهل اللغة صرحوا بأن تعليق الحكم بالغاية موضوع على أن ما بعدها خلاف ما قبلها لأنهم اتفقوا على أنها ليست كلاماً مستقلاً فإن قوله تعالى: ﴿حتى تنكح زوجاً غيره﴾ [البقرة: ٢٣٠] وقوله سبحانه: ﴿حتى يطهرن﴾ [البقرة: ٢٢٢] لا بد فيه من إضمار لضرورة تتميم الكلام؛ وذلك أن المضمر إما ضد ما قبله أو لا والثاني لأنه ليس في الكلام ما يدل عليه فيقدر حتى يطهرن فاقربوهن، حتى تنكح زوجاً غيره فتحل، قال: والمضمر بمنزلة الملفوظ فإنه إنما يضمر لسبقه إلى ذهن العارف باللسان، وعليه جرى صاحب البديع من الحنفية فقال: هو عندنا من دلالة الإشارة لا من المفهوم، لكن الجمهور على أنه مفهوم ومنعوا وضع اللغة لذلك انتهى، ويعلم من هذا أن قوله في التلويح: إن مفهوم الغاية متفق عليه لا يخلو من الخلل ﴿وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ﴾ الضمير الأول لمفعول ﴿يدعو﴾ أعني ﴿من لا يستجيب﴾ والثاني

لفاعله، والجمع فيهما باعتبار معنى ﴿من﴾ كما أن الأفراد فيما سبق باعتبار لفظها أي والذين يدعون من لا يستجيبون لهم عن دعائهم إياهم ﴿غَافِلُونَ﴾ لا يسمعون ولا يدرون، أما إن كان المدعو جماداً فظاهر، وأما إن كان من ذوي العقول فإن كان من المقبولين المقربين عند الله تعالى فلاشتغاله عن ذلك بما هو فيه من الخير أو كونه في محل ليس من شأن الذي فيه أن يسمع دعاء الداعي للبعد كعيسى عليه الصلاة والسلام اليوم أو لأن الله تعالى يصون سمعه عن سماع ذلك لأنه لكونه مما لا يرضي الله تعالى يؤلمه لو سمعه، وإن كان من أعداء الله تعالى كشياطين الجن والإنس الذين عبدوا من دون الله تعالى فإن كان ميتاً فلاشتغاله بما هو فيه من الشر، وقيل: لأن الميت ليس من شأنه السماع ولا يتحقق منه سماع إلا معجزة كسماع أهل القليب، وفي هذا كلام تقدم بعضه؛ وإن كان حياً فإن كان بعيداً مثلاً فالأمر ظاهر، وإن كان قريباً سليم الحاسة فقيل: الكلام بالنسبة إليه بعد تأويل الغفلة بعدم السماع وعلى التغليب لندرة هذا الصنف.

ومن الناس من أوَّل الغفلة بعدم الفائدة وتعقب بأنه حينئذٍ لا يكون لوصفهم بالغفلة بعد وصفهم بعدم الاستجابة كثير فائدة، واعتبر بعضهم التغليب من غير تأويل بمعنى أنه غلب من يتصور منه الغفلة حقيقة على غيره، وهذا كالتغليب في التعبير عن تلك الآلهة بما هو موضوع لأن يستعمل في العقلاء، وإن كانت الآية في عبدة الأصنام ونحوها مما لا يعقل تجوز في الغفلة وكان التعبير بما هو للعاقل لإجراء العبدة إياها مجرى العقلاء.

وقال بعضهم: على جعلها في عبدة الأصنام. إن وصفها بما ذكر من ترك الاستجابة والغفلة مع ظهور حالها للتهكم بها فتدبر ولا تغفل ﴿وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ﴾ عند قيام القيامة ﴿كَانُوا﴾ أي المعبودون ﴿لَهُمْ﴾ أي العابدين ﴿أَعْدَاءً﴾ شديدي العداوة ﴿وَكَانُوا﴾ أي المعبودون أيضاً ﴿بِعِبَادَتِهِمْ﴾ أي بعبادة الكفرة إياهم ﴿كَافِرِينَ﴾ مكذبين، والأمر ظاهر في ذوي العقول. وأما في الأصنام فقد روي أن الله تعالى يخلق لها إدراكاً وينطقها فتتبرأ عن عبادتهم وكذا تكون أعداء لهم، وجوز كون تكذيب الأصنام بلسان الحال لظهور أنهم لا يصلحون للعبادة وأنهم لا نفع لهم كما توهموه أولاً حيث قالوا: ﴿ما نعبدهم إلاّ ليقربونا إلى الله﴾ [الزمر: ٣] ورجوا الشفاعة منهم. وفسرت العداوة بالضر على أنها مجاز مرسل عنه فمعنى ﴿كانوا لهم أعداء﴾ كانوا لهم ضارين، وما ذكرناه في بيان الضمائر هو الظاهر، وقيل: ضمير ﴿هم﴾ المرفوع البارز والمستتر في قوله تعالى: ﴿وهم عن دعائهم غافلون﴾ للكفرة الداعين وضمير ﴿دعائهم﴾ لهم أو للمعبودين، والمعنى أن الكفار عن ضلالهم بأنهم يدعون من لا يستجيب لهم غافلون لا يتأملون ما عليهم في ذلك، وفيه من ارتكاب خلاف الظاهر ما فيه، وفي الضمائر بعد نحو ذلك، والمعنى إذا حشر الناس كان الكفار أعداء لآلهتهم الباطلة لما يرون من ترتب العذاب على عبادتهم إياها وكانوا لذلك منكرين أنهم عبدوا غير الله تعالى كما حكى الله تعالى عنهم أنهم يقولون: ﴿والله ربنا ما كنا مشركين﴾ [الأنعام: ٢٣] وتعقب بأن السياق لبيان حال الآلهة معهم لا عكسه، ولأن كفرهم حينئذٍ إنكار لعبادتهم وتسميته كفراً خلاف الظاهر ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ﴾ أي واضحات أو مبينات ما يلزم بيانه ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ﴾ أي الآيات المتلوة، ووضع موضع ضميرها تنصيصاً على حقيتها ووجوب الإيمان بها كما وضع الموصوف موضع ضمير المتلو عليهم تسجيلاً عليهم بكمال الكفر والضلالة.

وجوز كون المراد ـ بالحق ـ النبوة أو الإسلام فليس فيه موضوعاً موضع الضمير، والأول أظهر، واللام متعلقة. بقال على أنها لام العلة أي قالوا لأجل الحق وفي شأنه وما يقال في شأن شيء مسوق لأجله، وجوز تعلقه ـ بكفروا ـ على أنه بمعنى الباء أو حمل الكفر على نقيضه وهو الإيمان فإنه يتعدى باللام نحو ﴿أنؤمن لك﴾ [الشعراء: ١١١] وهو

خلاف الظاهر كما لا يخفى ﴿لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ أي في وقت مجيئه إياهم، ويفهم منه في العرف المبادرة وتستلزم عدم التأمل والتدبر فكأنه قيل: بادروا أول سماع الحق من غير تأمل إلى أن قالوا: ﴿هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ أي ظاهر كونه سحراً، وحكمهم بذلك على الآيات لعجزهم عن الإتيان بمثلها، وعلى النبوة لما معها من الخارق للعادة، وعلى الإسلام لتفريقه بين المرء وزوجه وولده ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾ إضراب وانتقال من حكاية شناعتهم السابقة إلى حكاية ما هو أشنع منها وهو الكذب عمداً على الله تعالى فإن الكذب خصوصاً عليه عز وجل متفق على قبحه حتى ترى كل أحد يشمئز من نسبته إليه بخلاف السحر فإنه وإن قبح فليس بهذه المرتبة حتى تكاد تعد معرفته من الأمور المرغوبة، وما في ﴿أم﴾ المنقطعة من الهمزة معنى للإنكار التوبيخي المتضمن للتعجب من نسبته إلى الافتراء مع قولهم: هو سحر لعجزهم عنه، والضمير المنصوب في ﴿افتراه﴾ كما قال أبو حيان ﴿للحق﴾ الذي هو الآيات المتلوة، وقال بعضهم: للقرآن الدال عليه ما تقدم أي بل أيقولون افتراه.

﴿قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ﴾ على الفرض ﴿فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ أي عاجلني الله تعالى بعقوبة الافتراء عليه سبحانه فلا تقدرون على كفه عز وجلّ من معالجتي ولا تطيقون دفع شيء من عقابه سبحانه عني فكيف أفتريه وأتعرض لعقابه، فجواب ﴿إن﴾ في الحقيقة محذوف وهو عاجلني وما ذكر مسبب عنه أقيم مقامه أو تجوز به عنه ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ بالذي تأخذون فيه من القدح في وحي الله تعالى والطعن في آياته وتسميته سحراً تارة وافتراء أخرى، واستعمال الإفاضة في الأخذ في الشيء والشروع فيه قولاً كان أو فعلاً مجاز مشهور، وأصلها إسالة الماء يقال: أفاض الماء إذا أساله، وما أشرنا إليه من كون ﴿ما﴾ موصولة وضمير فيه عائد عليه هو الظاهر وجوز كون ﴿ما﴾ مصدرية وضمير ﴿فيه﴾ للحق أو للقرآن ﴿كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ حيث يشهد لي سبحانه بالصدق والبلاغ وعليكم بالكذب والجحود، وهو وعيد بجزاء إفاضتهم في الطعن في الآيات، واستؤنف لأنه في جواب سؤال مقدر، و ﴿به﴾ في موضع الفاعل ـ بكفى ـ على أصح الأقوال، و ﴿شهيداً﴾ حال و ﴿بيني وبينكم﴾ متعلق به أو بكفى ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ وعد بالغفران والرحمة لمن تاب وآمن وإشعار بحلم الله تعالى عليهم إذ لم يعاجلهم سبحانه بالعقوبة وأمهلهم جل شأنه ليتداركوا أمورهم ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ﴾ أي بديعاً منهم يعني لست مبتدعاً لأمر يخالف أمورهم بل جئت بما جاؤوا به من الدعوة إلى التوحيد أو فعلت نحو ما فعلوا من إظهار ما آتاني الله تعالى من المعجزات دون الإتيان بالمقترحات كلها، فقد قيل: إنهم كانوا يقترحون عليه عليه الصلاة والسلام آيات عجيبة ويسألونه عن المغيبات عناداً ومكابرة فأمر ﷺ أن يقول لهم ذلك، ونظير ﴿بدع﴾ الخف بمعنى الخفيف والخل بمعنى الخليل فهو صفة مشبهة أو مصدر مؤول بها، وجوز إبقاؤه على أصله. وقرأ عكرمة وأبو حيوة وابن أبي عبلة «بَدَعاً» بفتح الدال، وخرج علي أنه جمع بدعة كسدرة وسدر، والكلام بتقدير مضاف أي ذا بدع أو مصدر والإخبار به مبالغة أو بتقدير المضاف أيضاً.

وقال الزمخشري: يجوز أن يكون صفة على فعل كقولهم: دين قيم ولحم زيم أي متفرق. قال في البحر: ولم يثبت سيبويه صفة على هذا الوزن إلا عدي حيث قال: ولا نعلمه جاء صفة إلا في حرف معتل يوصف به الجمع وهو قوم عدي، واستدرك عليه زيم وهو استدراك صحيح، وأما قيم فمقصور من قيام ولولا ذلك لصحت عينه كما صحت في حول وعوض، وأما قول العرب: مكان سوي وماء روي ورجل رضا وماء صرى فمتأولة عند التصريفيين إما بالمصدر أو بالقصر، وعن مجاهد وأبي حيوة «بَدِعاً» بفتح الباء وكسر الدال وهو صفة كحذر.

﴿وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ﴾ أي في الدارين على التفصيل كما قيل.

وأخرج ابن جرير عن الحسن أنه قال في الآية: أما في الآخرة فمعاذ الله تعالى قد علم ﷺ أنه في الجنة حين أخذ ميثاقه في الرسل ولكن ما أدري ما يفعل بي في الدنيا أأخرج كما أخرجت الأنبياء عليهم السلام من قبلي أم أقتل كما قتلت الأنبياء عليهم السلام من قبلي ولا بكم أأمتي المكذبة أم أمتي المصدقة أم أمتي المرمية بالحجارة من السماء قذفاً أم المخسوف بها خسفاً ثم أوحى إليه ﴿وإذ قلنا لك إن ربك أحاط بالناس﴾ [الإسراء: ٦٠] يقول سبحانه: أحطت لك بالعرب أن لا يقتلوك فعرف عليه الصلاة والسلام أنه لا يقتل ثم أنزل الله تعالى ﴿هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيداً﴾ [الفتح: ٢٨] يقول: أشهد لك على نفسه أنه سيظهر دينك على الأديان ثم قال سبحانه له عليه الصلاة والسلام في أمته: ﴿وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون﴾ [الأنفال: ٣٣] فأخبره الله تعالى بما صنع به وما يصنع بأمته، وعن الكلبي أنه ﷺ قال له أصحابه وقد ضجروا من أذى المشركين: حتى متى نكون على هذا؟ فقال: وما أدري ما يفعل بي. ولا بكم أأترك بمكة أم أؤمر بالخروج إلى أرض قد رفعت لي ورأيتها يعني في منامه ذات نخل وشجر. وحكى في البحر عن مالك بن أنس وقتادة وعكرمة والحسن أيضاً. وابن عباس أن المعنى ما يفعل بي ولا بكم في الآخرة، وأخرج أبو داود في ناسخه من طريق عكرمة عن ابن عباس أنه قال في الآية: نسختها الآية التي في [الفتح: ٢] ﴿ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر﴾ فخرج ﷺ إلى الناس فبشرهم بأنه غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر فقال رجل من المؤمنين: هنيئاً لك يا نبي الله قد علمنا الآن ما يفعل بك فماذا يفعل بنا؟ فأنزل الله تعالى في سورة [الأحزاب: ٤٧] ﴿وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلاً كبيراً﴾ وقال سبحانه: ﴿ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ويكفر عنهم سيئاتهم﴾ [الفتح: ٥] فبين الله تعالى ما يفعل به وبهم. واستشكل على تقدير صحته بأن النسخ لا يجري في الخبر فلعل المنسوخ الأمر بقوله تعالى: ﴿قل﴾ إن قلنا: إنه هنا للتكرار أو المراد بالنسخ مطلق التغيير.

وقال أبو حيان: هذا القول ليس بظاهر بل قد أعلم الله تعالى نبيه عليه الصلاة والسلام من أول الرسالة بحاله وحال المؤمن وحال الكافر في الآخرة، وقال الإمام: أكثر المحققين استبعدوا هذا القول واحتجوا بأن النبي لا بد أن يعلم من نفسه كونه نبياً ومتى علم ذلك علم أنه لا يصدر عنه الكبائر وأنه مغفور وإذا كان كذلك امتنع كونه شاكاً في أنه هل هو مغفور له أم لا، وبأنه لا شك أن الأنبياء أرفع حالاً من الأولياء، وقد قال الله تعالى فيهم: ﴿ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ [يونس: ٦٢] فكيف يعتقد بقاء الرسول وهو رئيس الأنبياء وقدوة الأولياء شاكاً في أنه هل هو من المغفورين أم لا، وقد يقال: المراد أيضاً أنه عليه الصلاة والسلام ما يدري ذلك على التفصيل، وما ذكر لا يتعين فيه حصول العلم التفصيلي لجواز أن يكون عليه الصلاة والسلام قد أعلم بذلك في مبدأ الأمر إجمالاً بل في إعلامه ﷺ بعد بحال كل شخص شخص على سبيل التفصيل بأن يكون قد أعلم عليه الصلاة والسلام بأحوال زيد مثلاً في الآخرة على التفصيل وبأحوال عمرو كذلك وهكذا توقف.

وفي صحيح البخاري وأخرجه الإمام أحمد والنسائي وابن مردويه عن أم العلاء، وكانت بايعت رسول الله ﷺ أنها قالت لما مات عثمان بن مظعون: رحمة الله تعالى عليك يا أبا السائب شهادتي عليك لقد أكرمك الله تعالى فقال رسول الله عليه الصلاة والسلام: «وما يدريك أن الله تعالى أكرمه؟ أما هو فقد جاءه اليقين من ربه وإني لأرجو له الخير والله ما أدري وأنا رسول الله ما يفعل بي ولا بكم، قالت أم العلاء: فوالله ما أزكي بعده أحداً، وفي رواية ابن حبان والطبراني عن زيد بن ثابت أنها قالت لما قبض: طب أبا السائب نفساً إنك في الجنة فقال النبي ﷺ: وما يدريك؟ قالت: يا رسول الله عثمان بن مظعون قال: أجل وما رأينا إلا خيراً والله ما أدري ما يصنع بي، وفي رواية الطبراني. وابن

مردويه عن ابن عباس أنه لما مات قالت امرأته أو امرأة: هنيئاً لك ابن مظعون الجنة فنظر إليها رسول الله ﷺ نظر مغضب وقال: وما يدريك؟ والله إني لرسول الله وما أدري ما يفعل الله بي فقالت: يا رسول الله صاحبك وفارسك وأنت أعلم فقال: أرجو له رحمة ربه تعالى وأخاف عليه ذنبه، لكن في هذه الرواية أن ابن عباس قال: وذلك قبل أن ينزل ﴿ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر﴾ [الفتح: ٢] وعن الضحاك المراد لا أدري ما أومر به ولا ما تؤمرون به في باب التكاليف والشرائع والجهاد ولا في الابتلاء والامتحان، والذي أختاره أن المعنى على نفي الدراية من غير جهة الوحي سواء كان الدراية تفصيلية أو إجمالية وسواء كان ذلك في الأمور الدنيوية أو الأخروية وأعتقد أنه ﷺ لم ينتقل من الدنيا حتى أوتي من العلم بالله تعالى وصفاته وشؤونه والعلم بأشياء يعد العلم بها كمالاً ما لم يؤته أحد غيره من العالمين، ولا أعتقد فوات كمال بعدم العلم بحوادث دنيوية جزئية كعدم العلم بما يصنع زيد مثلاً في بيته وما يجري عليه في يومه أو غده، ولا أرى حسناً قول القائل: إنه عليه الصلاة والسلام يعلم الغيب وأستحسن أن يقال بدله: إنه ﷺ أطلعه الله تعالى على الغيب أو علمه سبحانه إياه أو نحو ذلك، وفي الآية رد على من ينسب لبعض الأولياء علم كل شيء من الكليات والجزئيات، وقد سمعت خطيباً على منبر المسجد الجامع المنسوب للشيخ عبد القادر الكيلاني قدس سره يوم الجمعة قال بأعلى صوت: يا باز أنت أعلم بي من نفسي، وقال لي بعض: إني لأعتقد أن الشيخ قدس سره يعلم كل شيء مني حتى منابت شعري، ومثل ذلك مما لا ينبغي أن ينسب إلى رسول الله ﷺ فكيف ينسب إلى من سواه؟ فليتق العبد مولاه، وفيما تقدم من الأخبار في شأن عثمان بن مظعون رد أيضاً على من يقول فيمن دونه في الفضل أو من لم يبشره الصادق بالجنة والكرامة نحو ما قيل فيه. نعم ينبغي الظن الحسن في المؤمنين أحياءً وأمواتاً ورجاء الخير لكل منهم فالله تعالى أرحم الراحمين، هذا والظاهر أن ﴿ما﴾ استفهامية مرفوعة المحل بالابتداء والجملة بعدها خبر وجملة المبتدأ والخبر معلق عنها الفعل القلبي وهو إما متعد لواحد أو اثنين، وجوز أن تكون ﴿ما﴾ موصولة في محل نصب على المفعولية لفعل الدراية وهو حينئذٍ متعد لواحد والجملة بعدها صلة، وأن تكون حرفاً مصدرياً فالمصدر مفعول ﴿أدري﴾ والاستفهامية أقضى لحق مقام التبري عن الدراية، و ﴿لا﴾ لتذكير النفي المنسحب على ﴿ما يفعل﴾ الخ وتأكيده، ولولا اعتبار الانسحاب لكان التركيب ما يفعل بي وبكم دون ﴿لا﴾ لأنه ليس محلاً للنفي ولا لزيادة لا ونظير ذلك زيادة ﴿من﴾ في قوله تعالى: ﴿ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن ينزل عليكم من خير﴾ [البقرة: ١٠٥] لانسحاب النفس فإنه إذا انتفت ودادة التنزيل انتفى التنزيل، وزيادة الباء في قوله سبحانه: ﴿أو لم يروا أن الله الذي خلق السماوات والأرض ولم يعي بخلقهن بقادر﴾ [الأحقاف: ٣٣] لانسحاب النفي، على أن مع ما في حيزها ولولاه ما زيدت الباء في الخبر، وقيل: الأصل ولا ما يفعل بكم فاختصر، وقيل: ولا بكم، وقرأ زيد بن علي وابن أبي عبلة «يَفْعَلُ» بالبناء للفاعل وهو ضمير الله عز وجل ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ أي ما أفعل إلا اتباع ما يوحى إلي على معنى قصر أفعاله ﷺ على اتباع الوحي، والمراد بالفعل ما يشمل القول وغيره، وهذا جواب عن اقتراحهم الإخبار عما لم يوح إليه عليه الصلاة والسلام من الغيوب، والخطاب السابق للمشركين.

وقيل: عن استعجال المسلمين أن يتخلصوا عن أذية المشركين والخطاب السابق لهم، والأول أوفق لقوله تعالى: ﴿وَمَا أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ﴾ أنذركم عقاب الله تعالى حسبما يوحى إليَّ ﴿مُّبِينٌ﴾ بين الإنذار بالمعجزات الباهرة، والحصر إضافي. وقرأ ابن عمير «يُوْحِي» على البناء للفاعل ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ﴾ أي ما يوحى إلي من القرآن، وقيل: الضمير للرسول، وفيه أن الظاهر لو كان المعنى عليه كنت ﴿مِنْ عِندِ اللهِ﴾ لا سحراً ولا مفترى كما تزعمون ﴿وَكَفَرْتُمْ

به﴾ الواو للحال والجملة حال بتقدير قد على المشهور من الضمير في الخبر وسطت بين أجزاء الشرق اهتماماً بالتسجيل عليهم بالكفر أو للعطف على ﴿كان﴾ كما في قوله تعالى: ﴿قل أرأيتم إن كان من عند الله ثم كفرتم به﴾ [فصلت: ٥٢] وكذا الواو في قوله تعالى: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ إلا أنها تعطفه بما عطف عليه على جملة ما قبله، فالجمل المذكورات بعد الواوات ليست متعاطفة على نسق واحد بل مجموع ﴿شهد﴾ ﴿فآمن﴾ و ﴿استكبرتم﴾ معطوف على مجموع ﴿كان﴾ وما معه، مثله في المفردات ﴿هو الأول والآخر والظاهر والباطن﴾ [الحديد: ٣] والمعنى إن اجتمع كونه من عند الله تعالى مع كفركم واجتمع شهادة الشاهد فإيمانه مع استكباركم عن الإيمان، وسيأتي إن شاء الله تعالى الكلام في جواب الشرط وفي مفعولي ﴿أرأيتم﴾ وضمير «به» عائد على ما عاد عليه اسم كان وهو ما يوحى من القرآن أو الرسول، وعن الشعبي أنه للرسول، ولعله يقول في ضمير ﴿كان﴾ أيضاً كذلك وكنا في ضمير ﴿عَلَى مثْله﴾ لئلا يلزم التفكيك. وأنت تعلم أن الظاهر رجوع الضمائر كلها للقرآن، وتنوين ﴿شاهدٌ﴾ للتفخيم، وكذا وصفه بالجار والمجرور أي وشهد شاهد عظيم الشأن من بني إسرائيل الواقفين على شؤون الله تعالى وأسرار الوحي بما أوتوا من التوراة على مثل القرآن من المعاني المنطوية في التوراة من التوحيد والوعد والوعيد وغير ذلك فإنها في الحقيقة عين ما فيه كما يعرب عنه قوله تعالى: ﴿وإنه لفي زبر الأولين﴾ [الشعراء: ١٩٦] على وجه، وكذا قوله سبحانه: ﴿إن هذا لفي الصحف الأولى﴾ [الأعلى: ١٨] والمثلية باعتبار تأديتها بعبارات أخرى أو على مثل ما ذكر من كونه من عند الله تعالى والمثلية لما ذكر، وقيل: على مثل شهادته أي لنفسه بأنه من عند الله تعالى كأنه لإعجازه يشهد لنفسه بذلك، وقيل مثل كناية عن القرآن نفسه للمبالغة، وعلى تقدير كون الضمير للرسول ﷺ فسر المثل بموسى عليه السلام.

والفاء في قوله تعالى: ﴿فَآمَنَ﴾ أي بالقرآن للسببية فيكون إيمانه مترتباً على شهادة له بمطابقته للوحي، ويجوز أن تكون تفصيلية فيكون إيمانه به هو الشهادة له، والمعنى على تقدير أن يراد فآمن بالرسول ﷺ ظاهر بأدنى التفات، وقوله تعالى: ﴿وَاسْتَكْبَرْتُمْ﴾ أي عن الإيمان معطوف على ما أشرنا إليه على ﴿شهد شاهد﴾ وجوز كونه معطوفاً على «آمن» لأنه قسيمه ويجعل الكل معطوفاً على الشرط، ولا تكرار في ﴿استكبرتم﴾ لأن الاستكبار بعد الشهادة والكفر قبلها، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ أي الموسومين بهذا الوصف، استئناف بياني في مقام التعليل للاستكبار عن الإيمان، ووصفهم بالظلم للإشعار بعلة الحكم فتشعر هذه الجملة بأن كفرهم به لضلالهم المسبب عن ظلمهم وهو دليل جواب الشرط ولذا حذف ومفعولاً ﴿أرأيتم﴾ محذوفان أيضاً لدلالة المعنى عليهما، والتقدير أرأيتم حالكم إن كان كذا فقد ظلمتم ألستم ظالمين، فالمفعول الأول حالكم والثاني ألستم ظالمين، والجواب فقد ظلمتم، وقال ابن عطية: في ﴿أرأيتم﴾ يحتمل أن تكون منبهة فهي لفظ موضوع للسؤال لا تقتضي مفعولاً، ويحتمل أن تكون جملة ﴿إن كان﴾ الخ سادة مسد مفعوليها، وهو خلاف ما قرره محققو النحاة في ذلك. وقدر الزمخشري الجواب ألستم ظالمين بغير فاء. ورده أبو حيان بأن الجملة الاستفهامية إذا وقعت جواباً للشرط لزمها الفاء فإن كانت الأداة الهمزة تقدم على الفاء وإلا تأخرت، ولعله تقدير معنى لا تقدير إعراب، وقدره بعضهم أفتؤمنون لدلالة ﴿فآمن﴾ وقدره الحسن فمن أضل منكم لقوله تعالى: ﴿قل أرأيتم إن كان من عند الله ثم كفرتم به من أضل ممن هو في شقاق بعيد﴾ [فصلت: ٥٢] وقوله سبحانه: ﴿إن الله لا يهدي القوم الظالمين﴾ [الأنعام: ١٤٤، القصص: ٥٠، الأحقاف: ١٠] وقيل: التقدير فمن المحقق منا ومنكم ومن المبطل؟ وقيل: تهلكون، وقيل: هو ﴿فآمن واستكبرتم﴾ أي فقد آمن محمد ﷺ به أو الشاهد واستكبرتم أنتم عن الإيمان، وأكثرها كما ترى.

والشاهد عبد الله بن سلام رضي الله تعالى عنه عند الجمهور وابن عباس والحسن ومجاهد وقتادة وابن سيرين والضحاك وعكرمة في رواية ابن سعد. وابن عساكر عنه. وفي الكشف في جعله شاهداً والسورة مكية بحث ولهذا استثنيت هذه الآية، وتحقيقه أنه نزل ما سيكون منزلة الواقع ولهذا عطف ﴿**شهد**﴾ وما بعده على قوله تعالى: ﴿**كان من عند الله وكفرتم**﴾ ليعلم أنه مثله في التحقيق فيكون على أسلوب قوله سبحانه: ﴿كما أنزلنا على المقتسمين﴾ [الحجر: ٩٠] أي أنذر قريشاً مثل ما أنزلناه على يهود بني قريظة وقد أنزل عليهم بعد سبع سنين من نزول الآية، ومصب الإلزام في قوله تعالى: ﴿**فآمن**﴾ كأنه قيل: أخبروني إن يؤمن به عالم من بني إسرائيل أي عالم لما تحقق عنده أنه مثل التوراة ألستم تكونون أضل الناس، ففيه الدلالة على أنه مثل التوراة يجب الإيمان به شهد ذلك الشاهد أو لم يشهد لأن تلك الشهادة يعقبها الإيمان من غير مهلة فلو لم يؤمن لم يكن عالماً بما في التوراة؛ وهذا يصلح جواباً مستقلاً من غير نظر إلى الأول فافهم، وقول من قال: الشاهد عبد الله على هذا بيان للواقع وأنه كان ممن شهد وآمن لا أن المراد بلفظ الآية عبد الله خصوصاً، وعلى الوجهين لا بد من تأويل قول سعد، وقد تقدم في حديث الشيخين وغيرهما وفيه نزل ﴿**وشهد شاهد**﴾ بأن المراد في شأنه الذي سيحدث على الأول أو فيه وفيمن هو على حاله كأنه قيل: هو من النازلين فيه لأنه كان من الشاهدين انتهى.

وتعقب قوله: إنه نزل ما سيكون منزلة الواقع بأنه لا حاجة إلى ذلك التنزيل على تقدير مكيتها، وكون الشاهد ابن سلام لمكان العطف على الشرط الذي يصير به الماضي مستقبلاً وحينئذٍ لا ضير في شهادة الشاهد بعد نزولها، ومع هذا فالظاهر من الأخبار أن النزول كان في المدينة وأنه بعد شهادة ابن سلام. أخرج أبو يعلى والطبراني والحاكم بسند صحيح عن عوف بن مالك الأشجعي قال: انطلق النبي ﷺ وأنا معه حتى دخلنا كنيسة اليهود يوم عيدهم فكرهوا دخولنا عليهم فقال لهم رسول الله ﷺ: أروني اثني عشر رجلاً منكم يشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله يحبط الله تعالى عن كل يهودي تحت أديم السماء الغضب الذي عليه فسكتوا فما أجابه منهم أحد ثم رد عليهم عليه الصلاة والسلام فلم يجبه أحد فثلث فلم يجبه أحد فقال: أبيتم فوالله لَأنا الحاشر وأنا العاقب وأنا المقفى آمنتم أو كذبتم ثم انصرف ﷺ وأنا معه حتى كدنا أن نخرج فإذا رجل من خلفه فقال: كما أنت يا محمد فأقبل فقال ذلك الرجل: أي رجل تعلموني فيكم يا معشر اليهود؟ قالوا: والله ما نعلم فينا رجلاً أعلم بكتاب الله تعالى ولا أفقه منك ولا من أبيك ولا من جدك قال: فإني أشهد بالله أنه النبي الذي تجدونه في التوراة والإنجيل فقالوا: كذبت ثم ردوا عليه وقالوا شراً فقام رسول الله ﷺ وأنا وابن سلام فأنزل الله تعالى: ﴿**قل أرأيتم إن كان من عند الله وكفرتم به وشهد شاهد من بني إسرائيل**﴾ الآية، وروي حديث شهادته وإيمانه على وجه آخر، ولا يظهر لي الجمع بينه وبين ما ذكر، وهو أيضاً ظاهر في كون النزول بعد الشهادة. وأخرج عبد بن حميد عن سعيد بن جبير قال: جاء ميمون بن يامين إلى النبي ﷺ وكان رأس اليهود بالمدينة فأسلم وقال: يا رسول الله ابعث إليهم ـ يعني اليهود ـ فاجعل بينك وبينهم حكماً من أنفسهم فإنهم سيرضوني فبعث عليه الصلاة والسلام إليهم وأدخله الداخل فأتوه فخاطبوه ملياً فقال لهم: اختاروا رجلاً من أنفسكم يكون حكماً بيني وبينكم قالوا: فإنا قد رضينا بميمون بن يامين فأخرجه إليهم فقال لهم ميمون: لنشهد أنه رسول الله وأنه على الحق فأبوا أن يصدقوه فأنزل الله تعالى فيه ﴿**قل أرأيتم**﴾ الآية، وهو ظاهر في مدنية الآية وأن نزولها قبل شهادة الشاهد لكنه ظاهر في أن الشاهد غير عبد الله بن سلام، وكونه كان يسمى بذلك قبل لم أره، ولا يظهر لي وجه التعبير به دون المشهود إن كان، والذي رأيته في الاستيعاب في ترجمة عبد الله أنه ابن سلام بن الحرث الإسرائيلي الأنصاري يكنى أبا يوسف وكان اسمه في الجاهلية الحصين فلما أسلم سماه رسول الله ﷺ عبد الله والله تعالى أعلم.

ومن كذب اليهود وجهلهم بالتاريخ ما يعتقدونه في عبد الله بن سلام أنه ﷺ حين سافر إلى الشام في تجارة لخديجة رضي الله تعالى عنها اجتمع بأحبار اليهود وقص عليهم أحلامه فعلموا أنه صاحب دولة فأصحبوه عبد الله بن سلام وبقي معه مدة فتعلم منه علم الشرائع والأمم السالفة وأفرطوا في الكذب إلى أن نسبوا القرآن المعجز إلى تأليف عبد الله بن سلام وعبد الله هذا مما ليس له إقامة بمكة ولا تردد إليها، ولم ير النبي ﷺ إلا في المدينة وأسلم إذ قدمها عليه الصلاة والسلام أو قبل وفاته ﷺ بعامين على ما حكاه في البحر عن الشعبي، فما أكذب اليهود وأبهتهم لعنهم الله تعالى، وناهيك من طائفة ما ذم في القرآن طائفة مثلها.

وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر عن مسروق أن الشاهد هو موسى بن عمران عليه الصلاة والسلام، وقد تقدم أنه كان يّدعي مكية الآية وينكر نزولها في ابن سلام ويقول: إنما كانت خصومة خاصم بها محمد ﷺ، وكأنه على هذا لا يحتاج إلى القول بأنها نزلت بخصوص شاهد، وأيد عدم إرادة الخصوص بأن ﴿شاهد﴾ في الآية نكرة والنكرة في سياق الشرط تعم، وأنا أقول: بكون التنوين في ﴿شاهدٌ﴾ للتعظيم وبمدنية الآية ونزولها في ابن سلام، والخطابات فيها مطلقاً لكفار مكة، وربما يظن على بعض الروايات أنها لليهود وليس كذلك، وهم المعنيون أيضاً بالذين كفروا في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ إلى آخره، وهو حكاية لبعض آخر من أقاويلهم الباطلة في حق القرآن العظيم والمؤمنين به. وفيه تحقيق لاستكبارهم أي وقال كفار مكة: ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي لأجلهم وفي شأنهم فاللام للتعليل كما سمعت في ﴿قال الذين كفروا للحق﴾ [سبأ: ٤٣].

وقيل: هي لام المشافهة والتبليغ والتفتوا في قولهم: ﴿لَوْ كَانَ﴾ أي ما جاء به ﷺ من القرآن، وقيل: الإيمان ﴿خَيْراً مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾ ولولاه لقالوا: سبقتمونا بالخطاب أو لما سمعوا أن جماعة آمنوا خاطبوا جماعة أخرى من المؤمنين أي قالوا للذين آمنوا لو كان خيراً ما سبقنا إليه أولئك الذين بلغنا إيمانهم.

وتعقب بأن هذا ليس من مواطن الالتفات، وكونهم قصدوا تحقير المؤمنين بالغيبة لا وجه له، وكون المشافهين طائفة من المؤمنين والمخبر عنهم طائفة أخرى خلاف الظاهر، فالأولى كونها للتعليل وقالوا ذلك لما رأوا أن أكثر المؤمنين كانوا فقراء ضعفاء كعمار وصهيب وبلال وكانوا يزعمون أن الخير الديني يتبع الخير الدنيوي وأنه لا يتأهل للأول إلا من كان له القدح المعلى من الثاني، ولذا قالوا: ﴿لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم﴾ [الزخرف: ٣١] وخطؤهم في ذلك مما لا يخفى.

وأخرج ابن المنذر عن عون بن أبي شداد قال: كانت لعمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه أمة أسلمت قبله يقال لها زنيرة(١) فكان رضي الله تعالى عنه يضربها على إسلامها وكان كفار قريش يقولون: لو كان خيراً ما سبقتنا إليه زنيرة فأنزل الله تعالى في شأنها ﴿وقال الذين كفروا﴾ الآية، ولعلهم لم يريدوا زنيرة بخصوصها بل من شابهها أيضاً. وفي الآية تغليب المذكر على المؤنث، وقال أبو المتوكل: أسلم أبو ذر ثم أسلمت غفار فقالت قريش ذلك، وقال الكلبي والزجاج. قال ذلك بنو عامر بن صعصعة وغطفان وأسد وأشجع لما أسلم أسلم وجهينة ومزينة وغفار وقال الثعلبي: هي مقالة اليهود حين أسلم ابن سلام، وأصحابه منهم، ويلزم عليه القول بأن الآية مدنية وعدها في المستثنيات أو كون ﴿قال﴾ فيها كنادى في قوله تعالى: ﴿ونادى أصحاب الأعراف﴾ [الأعراف: ٤٨] وهذا كما ترى والمعول عليه ما تقدم ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ﴾ أي بالقرآن، وقيل: بالرسول ﷺ، و «إذ» على ما اختاره جار الله ظرف لمقدر دل

---

(١) بالنون ووقع في أصل المؤلف «زبيرة» بالباء الموحدة وهو غلط صححناه من الإصابة.

عليه السابق واللاحق أي وإذ لم يهتدوا به ظهر عنادهم واستكبارهم، وقوله تعالى: ﴿فَسَيَقُولُونَ هَـٰذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ أي يتحقق منهم هذا القول والطعن حيناً فحيناً كما يؤذن بذلك صيغة المضارع مسبب عن العناد والاستكبار، وإذا جاز مثل حينئذٍ الآن أي كان ذلك حينئذٍ واسمع الآن بدليل قرينة الحال فهذا أجوز، والإشارة إلى القرآن العظيم، وقولهم: ذلك فيه كقولهم: ﴿أساطير الأولين﴾ [الأنعام: ٢٥ وغيرها] ولم يجوز أن يكون ﴿فسيقولون﴾ عاملاً في الظرف لتدافع دلالتي المضي والاستقبال، وإنما لم يجعله من قبيل ﴿فسوف يعلمون إذ الأغلال﴾ [غافر: ٧٠ ـ ٧١] نظماً للمستقبل في سلك المقطوع كما اختاره ابن الحاجب في الأمالي لأن المعنى ههنا ـ كما في الكشف ـ على أن عدم الهداية محقق واقع لا أنه سيقع البتة، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿وقال الذين كفروا للذين آمنوا﴾ بعد ما بين استكبارهم وعنادهم كيف ينص على أنهم مجادلون معرضون عن القرآن وتدبره غير مهتدين ببشائره ونذره.

وقال بعضهم: الظرف معمول ـ لسيقولون ـ والفاء لا تمنع عن عمل ما بعدها فيما قبلها كما ذكره الرضي، والتسبب المشعرة به عن كفرهم، و ﴿سيقولون﴾ بمعنى قالوا، والعدول إليه للإشعار بالاستمرار وتعقب بأن ذلك مع السين بعيد، وقيل: إذ تعليلية للقول. وتعقب بأنه معلل بكفرهم كما آذنت به الفاء، وقدر بعضهم العامل المحذوف قالوا ما قالوا، ورجحه على التقدير السابق وليس براجح عليه كما لا يخفى على راجح ﴿وَمِنْ قَبْلِهِ﴾ أي من قبل القرآن وهو خبر مقدم لقوله تعالى: ﴿كِتَابُ مُوسَىٰ﴾ قدم للاهتمام، وجوز الطبرسي كون ﴿كتاب﴾ معطوفاً على ﴿شاهد﴾ والظرف فاصل بين العاطف والمعطوف، والمعنى وشهد كتاب موسى من قبله، وجعل ضمير ﴿قبله﴾ للقرآن أيضاً وليس بشيء أصلاً، وقوله سبحانه: ﴿إِمَاماً وَرَحْمَةً﴾ حال من الضمير في الخبر أو من ﴿كتاب﴾ عند من جوز الحال من المبتدأ، وقيل: حال من محذوف والعامل كذلك أي أنزلناه إماماً وهو كما ترى.

والمعنى وكائن من قبله كتاب موسى يقتدى به في دين الله تعالى وشرائعه كما يقتدى بالإمام ورحمة من الله سبحانه لمن آمن به وعمل بموجبه، وقوله تعالى: ﴿وَهَـٰذَا﴾ أي القرآن الذي يقولون في شأنه ما يقولون ﴿كِتَابٌ﴾ مبتدأ خبر، وقوله عز وجل: ﴿مُصَدِّقٌ﴾ نعت ﴿كتاب﴾ وهو مصب الفائدة أي مصدق لكتاب موسى الذي هو إمام ورحمة أو لما بين يديه من جميع الكتب الإلهية، وقد قرىء «مصدق لما بين يديه» والجملة عطف على الجملة قبلها وهي حالية أو مستأنفة، وأياً ما كان فالكلام رد لقولهم: ﴿هذا إفك قديم﴾ وإبطال له، والمعنى كيف يصح كونه إفكاً قديماً وقد سلموا كتاب موسى والقرآن مصدق له متحد معه في المعنى أو لجميع الكتب الإلهية، وقوله تعالى: ﴿لِّسَاناً عَرَبِيّاً﴾ حال من ضمير ﴿كتاب﴾ المستتر في ﴿مصدق﴾ أو منه نفسه لتخصيصه بالصفة، وعامله على الأول ﴿مصدق﴾ وعلى الثاني ما في هذا من معنى الفعل، وفائدة هذه الحال مع أن عربيته أمر معلوم لكل أحد الاشعار بالدلالة على أن كونه مصدقاً كما دل على أنه حق دل على أنه وحي وتوقيف من الله تعالى.

هذا على القول بأن الكلام مع اليهود ظاهر، وأما على القول بأنه مع كفار مكة فلأنهم قد يسلمون التوراة ونحوها من الكتب الإلهية السابقة وإن كانوا أحياناً ينكرون إنزال الكتب وإرسال الرسل عليهم السلام مطلقاً. وفي الكشف وجه تقديم الخبر في قوله تعالى: ﴿ومن قبله كتاب موسى﴾ أن إرسال الرسل وإنزال الكتب أمر مستمر كائن من عند الله تعالى فمن قبل إنزال القرآن إماماً ورحمة كان إنزال التوراة كذلك، وليس من تقديم الاختصاص بل لأن العناية والاهتمام بذكره، ولما ألزم الكفار بنزول مثله وشهادة أعلم بني إسرائيل ذكر على سبيل الاعتراض من حال كتاب موسى عليه السلام ما يؤكد كونه من عند الله تعالى وأن ما يطابقه يكون من عنده سبحانه لا محالة وتوصل منه إلى أن القرآن لما كان مصدقه بل مصدق سائر الكتب السماوية وجب أن يؤمن به ويتلقى بالقبول؛ وهو بالحقيقة إعادة

للدعوى الأولى على وجه أخصر وأشمل إذ دلَّ فيه على أن كونه مصدقاً كاف شهد شاهد بني إسرائيل أو لا، وإن قيل: نزلوا لعنادهم منزلة من لا يعرف أن كتاب موسى قبله إذ لو عرفوا وقد تبين أنه مثله لأذعنوا فقيل: ﴿ومن قبله﴾ لا من بعده لكان وجهاً موفى فيه حق الاختصاص كما آثره السكاكي من أنه لازم التقديم انتهى. وهو ظاهر في أن الجملة ليست حالية.

وجوز كون ﴿لساناً﴾ مفعولاً لمصدق. والكلام بتقدير مضاف أي ذا لسان عربي وهو النبي عليه الصلاة والسلام وتصديقه إياه بموافقته كتاب موسى أو الكتب السماوية مطلقاً وإعجازه، وجوز على المفعولية كون «هذا» إشارة إلى كتاب موسى فلا يحتاج إلى تقدير مضاف، ويراد بلساناً عربياً: القرآن، ووضعت الإشارة موضع الضمير للتعظيم، والأصل وهو مصدق لساناً عربياً، وقيل: هو منصوب بنزع الخافض أي مصدق بلسان عربي والكل كما ترى. وقرأ الكلبي «ومَنْ قَبْلِهِ» بفتح الميم «كِتَابَ مُوسَى» بالنصب، وخرجت على أن من موصولة معمولة لفعل مقدر وكذا ﴿كتاب﴾ أي وآتينا الذين كانوا قبل نزول القرآن من بني إسرائيل كتاب موسى.

﴿لِيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ متعلق بمصدق. وفيه ضمير للكتاب أو لله تعالى أو للرسول عليه الصلاة والسلام، ويؤيد الأخير قراءة أبي رجاء وشيبة والأعرج وأبي جعفر وابن عامر ونافع وابن كثير في رواية «لتنذر» بتاء الخطاب فإنه لا يصلح بدون تكلف لغير الرسول، والتعليل صحيح على الكل، ولا يتوهم لزوم حذف اللام على أن الضمير للكتاب لوجود شرط النصب لأنه شرط الجواز ﴿وَبُشْرَى لِلْمُحْسِنِينَ﴾ عطف على المصدر الحاصل من أن والفعل، وقال الزمخشري: وتبعه أبو البقاء هو في محل النصب معطوف على محل ﴿لينذر﴾ لأنه مفعول له، وزعم أبو حيان أن ذلك لا يجوز على الصحيح من مذهب النحويين لأن المحل ليس بحق الأصالة وهم يشترطون في الحمل عليه ذلك إذ الأصل في المفعول له الجر، والنصب ناشىء من نزع الخافض لكنه كثر بشرطه، وحكى في إعرابه أوجهاً فقال: قيل معطوف على ﴿مصدق﴾ وقيل: خبر مبتدأ محذوف أي هو بشرى، وقيل: منصوب بفعل محذوف معطوف على ﴿ينذر﴾ أي ويبشر بشرى، وقيل: منصوب بنزع الخافض أي ولبشرى، والظاهر أن ﴿المحسنين﴾ في مقابلة ﴿الذين ظلموا﴾ والمراد بالأول الكفرة وبالثاني المؤمنون. وفي شرح الطيبي إنما عدل عن العادلين إلى ﴿المحسنين﴾ ليكون ذريعة إلى البشارة بنفي الخوف والحزن لمن قالوا: ربنا الله ثم استقاموا، وقيل: ﴿المحسنين﴾ دون الذين أحسنوا بعد قوله تعالى: ﴿الذين ظلموا﴾ ليكون المعنى لينذر الذين وجد منهم الظلم ويبشر الذين ثبتوا واستقاموا على الصراط السوي فيناسب تعليل البشارة بقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ إلى آخره أي إن الذين جمعوا بين التوحيد الذي هو خلاصة العلم والاستقامة في الدين التي هي منتهى العمل، و ﴿ثم﴾ للتراخي الرتبي فالعمل متراخي الرتبة عن التوحيد، وقد نصوا على أنه لا يعتد به بدونه ﴿فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ من لحوق مكروه ﴿وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ من فوات محبوب، والمراد استمرار النفي، والفاء لتضمن الاسم معنى الشرط مع بقاء معنى الابتداء فلا تدخل في خبر ليت ولعل وكان وإن كانت أسماؤها موصولات، وتقدم في سورة السجدة نظير هذه الآية وذكرنا في تفسير ما ذكرنا فليراجع ﴿أُولَئِكَ﴾ الموصوفون بما ذكر من الوصفين الجليلين ﴿أَصْحَابُ الجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ حال من المستكن في ﴿أصحاب﴾ وقوله تعالى: ﴿جَزَاءً﴾ منصوب إما بعامل مقدر أي يجزون جزاء، والجملة استئناف أو حال وإما بمعنى ما تقدم على ما قيل فإن قوله تعالى: ﴿أولئك أصحاب الجنة﴾ في معنى جازيناهم ﴿بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ من الحسنات القلبية والقالبية.

وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ

أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرۡبَعِينَ سَنَةٗ قَالَ رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنۡ أَعۡمَلَ صَٰلِحٗا
تَرۡضَىٰهُ وَأَصۡلِحۡ لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓۖ إِنِّي تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَإِنِّي مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنۡهُمۡ أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ
وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمۡ فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَنَّةِۖ وَعۡدَ ٱلصِّدۡقِ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِي قَالَ لِوَٰلِدَيۡهِ أُفّٖ لَّكُمَآ
أَتَعِدَانِنِيٓ أَنۡ أُخۡرَجَ وَقَدۡ خَلَتِ ٱلۡقُرُونُ مِن قَبۡلِي وَهُمَا يَسۡتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيۡلَكَ ءَامِنۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ
إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ إِنَّهُمۡ
كَانُواْ خَٰسِرِينَ ﴿١٨﴾ وَلِكُلّٖ دَرَجَٰتٞ مِّمَّا عَمِلُواْۖ وَلِيُوَفِّيَهُمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَيَوۡمَ يُعۡرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ
عَلَى ٱلنَّارِ أَذۡهَبۡتُمۡ طَيِّبَٰتِكُمۡ فِي حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنۡيَا وَٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِهَا فَٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ عَذَابَ ٱلۡهُونِ بِمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ فِي
ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَبِمَا كُنتُمۡ تَفۡسُقُونَ ﴿٢٠﴾ ۞ وَٱذۡكُرۡ أَخَا عَادٍ إِذۡ أَنذَرَ قَوۡمَهُۥ بِٱلۡأَحۡقَافِ وَقَدۡ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيۡنِ
يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦٓ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ﴿٢١﴾ قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَأۡفِكَنَا عَنۡ ءَالِهَتِنَا
فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا ٱلۡعِلۡمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ
قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ ﴿٢٣﴾ فَلَمَّا رَأَوۡهُ عَارِضٗا مُّسۡتَقۡبِلَ أَوۡدِيَتِهِمۡ قَالُواْ هَٰذَا عَارِضٞ مُّمۡطِرُنَاۚ بَلۡ هُوَ مَا ٱسۡتَعۡجَلۡتُم بِهِۦۖ رِيحٞ
فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيۡءِۭ بِأَمۡرِ رَبِّهَا فَأَصۡبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمۡۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ
﴿٢٥﴾ وَلَقَدۡ مَكَّنَّٰهُمۡ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمۡ فِيهِ وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ سَمۡعٗا وَأَبۡصَٰرٗا وَأَفۡـِٔدَةٗ فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُمۡ سَمۡعُهُمۡ وَلَآ
أَبۡصَٰرُهُمۡ وَلَآ أَفۡـِٔدَتُهُم مِّن شَيۡءٍ إِذۡ كَانُواْ يَجۡحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٢٦﴾

﴿وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا﴾ نزلت كما أخرج ابن عساكر من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس في أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه إلى قوله تعالى: **﴿وعد الصدق الذي كانوا يوعدون﴾**.

﴿وإحسانا﴾ قيل: مفعول ثان لوصينا على تضمينه معنى ألزمنا، وقيل: منصوب على المصدر على تضمين **﴿وصينا﴾** معنى أحسنا أي أحسنا بالوصية للإنسان بوالديه إحساناً، وقيل: صفة لمصدر محذوف بتقدير مضاف أي إيصاء ذا إحسان، وقيل: مفعول له أي وصيناه بهما لإحساننا إليهما، وقال ابن عطية: إنه منصوب على المصدر الصريح و **﴿بوالديه﴾** متعلق بوصينا، أو به وكأنه عنى يحسن إحساناً وهو حسن، لكن تعقب أبو حيان تجويزه تعلق الجار بإحساناً بأنه لا يصح لأنه مصدر مقدر بحرف مصدري والفعل فلا يتقدم معموله عليه ولأن أحسن لا يتعدى بالباء وإنما يتعدى باللام تقول: أحسنت لزيد ولا تقول: أحسنت بزيد على معنى أن الإحسان يصل إليه، وفيه أنا لا نسلم أن المقدر بشيء يشارك ما قدر به في جميع الأحكام لجواز أن يكون بعض أحكامه مختصاً بصريح لفظه مع أن الظرف يكفيه رائحة الفعل ولذا يعمل الاسم الجامد فيه باعتبار لمح المعنى المصدري، وقال قالوا: إنه يتصرف فيه ما لا يتصرف في غيره لاحتياج معظم الأشياء إليه.

والجار والمجرور محمول عليه، وقد كثر ما ظاهره التعلق بالمصدر المتأخر نكرة كلا تأخذكم بهما رأفة. ومعرفة نحو **﴿فلما بلغ معه السعي﴾** [الصافات: ١٠٢] وتأويل كل ذلك تكلف، وأيضاً قوله: لأن أحسن لا يتعدى

بالباء الخ فيه منع ظاهر، وقدر بعضهم الفعل قبل الجار فقال: وصينا الإنسان بأن يحسن بوالديه إحساناً، ولعل التنوين للتفخيم أي إحساناً عظيماً، والإيصاء والوصية التقدم إلى الغير بما يعمل به مقترناً بوعظ من قولهم: أرض واصية متصلة النبات، ففي الآية إشعار بأن الإحسان بهما أمر معتنى به، وقد عد في الحديث ثاني أفضل الأعمال وهو الصلاة لأول وقتها، وعد عقوقهما ثاني أكبر الكبائر وهو الإشراك بالله عز وجل، والأحاديث في الترغيب في الأول والترهيب عن الثاني كثيرة جداً، وفي الآيات ما فيه كفاية لمن ألقى السمع وهو شهيد.

وقرأ الجمهور «حُسْناً» بضم الحاء وإسكان السين أي فعلاً ذا حسن أو كأنه في ذاته نفس الحسن لفرط حسنه، وجوز أبو حيان فيه أن يكون بمعنى ﴿إحساناً﴾ فالأقوال السابقة تجري فيه. وقرأ علي كرم الله تعالى وجهه. والسلمي. وعيسى «حَسَناً» بفتح الحاء والسين، وعن عيسى «حُسُناً» بضمهما.

﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهاً وَوَضَعَتْهُ كُرْهاً﴾ أي ذات كره أو حملاً ذا كره وهو المشقة كما قال مجاهد والحسن وقتادة، وليس الكره في أول علوقها بل بعد ذلك حين تجد له ثقلاً. وقرأ شيبة وأبو جعفر والحرميان «كَرْهاً» بفتح الكاف وهما لغتان بمعنى واحد كالفقر والفقر والضعف والضعف، وقيل: المضموم اسم والمفتوح مصدر.

وقال الراغب: قيل الكره أي بالفتح المشقة التي تنال الإنسان من خارج مما يحمل عليه بإكراه والكره ما يناله من ذاته وهو ما يعافه من حيث الطبع أو من حيث العقل أو الشرع. وطعن أبو حاتم في هذه القراءة فقال: لا تحسن هذه القراءة لأن الكره بالفتح الغصب والغلبة. وأنت تعلم أنها في السبعة المتواترة فلا معنى للطعن فيها، وقد كان هذا الرجل يطعن في بعض القراءات بما لا علم له به جسارة منه عفا الله تعالى عنه ﴿وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ﴾ أي مدة حمله وفصاله، وبتقدير هذا المضاف يصح حمل قوله تعالى: ﴿ثَلاثُونَ شَهْراً﴾ على المبتدأ من غير كره.

والفصال الفطام وهو مصدر فاصل فكأن الولد فاصل أمه وأمه فاصلته. وقرأ أبو رجاء والحسن وقتادة ويعقوب والجحدري «وفصله» أي فطمه فالفصل والفصال كالفطم والفطام بناءً ومعنى؛ وقيل: الفصال بمعنى وقت الفصل أي الفطم فهو معطوف على مدة الحمل، والمراد بالفصال الرضاع التام المنتهي بالفطام ولذلك عبر بالفصال عنه أو عن وقته دون الرضاع المطلق فإنه لا يفيد ذلك، وفي الوصف تطويل، والآية بيان لما تكابده الأم وتقاسيه في تربية الولد مبالغة في التوصية لها، ولذا اعتنى الشارع ببرها فوق الاعتناء ببر الأب، فقد روي «أن رجلاً قال: يا رسول الله من أبر؟ قال: أمك قال: ثم من؟ قال: أمك قال: ثم من؟ قال: أمك قال: ثم من؟ قال: أباك» وقد أشير في الآية إلى ما يقتضي البر بها على الخصوص في ثلاث مراتب فتكون الأوامر في الخبر كالمأخوذة من ذلك. واستدل بها علي كرم الله تعالى وجهه. وابن عباس رضي الله تعالى عنهما. وجماعة من العلماء على أن أقل مدة الحمل ستة أشهر لما أنه إذا حط عن الثلاثين للفصال حولان لقوله تعالى: ﴿حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة﴾ [البقرة: ٢٣٣] يبقى للحمل ذلك وبه قال الأطباء، قال جالينوس: كنت شديد الفحص عن مقدار زمن الحمل فرأيت امرأة ولدت لمائة وأربع وثمانين ليلة. وادعى ابن سينا أنه شاهد ذلك.

وأما أكثر مدة الحمل فليس في القرآن العظيم ما يدل عليه؛ وقال ابن سينا في الشفاء: بلغني من جهة من أثق به كل الثقة أن امرأة وضعت بعد الرابع من سني الحمل ولداً نبتت أسنانه، وحكي عن أرسطو أنه قال: أزمنة الحمل لكل حيوان مضبوطة سوى الإنسان فربما وضعت المرأة لسبعة أشهر وربما وضعت لثمانية وقلما يعيش الولد في الثامن إلا في بلاد معينة مثل مصر، ولعل تخصيص أقل الحمل وأكثر الرضاع بالبيان في القرآن الكريم بطريق الصراحة والدلالة دون أكثر الحمل وأقل الرضاع وأوسطهما لانضباطهما بعدم النقص والزيادة بخلاف ما ذكر، وتحقق ارتباط حكم النسب

بأقل مدة الحمل حتى لو وضعته فيما دونه لم يثبت نسبه منه وبعده يثبت وتبرأ من الزنا، ولو أرضعت مرضعة بعد حولين لم يثبت به أحكام الرضاع في التناكح وغيره وفي هذا خلاف لا يعبأ به ﴿حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ﴾ غاية لمقدر أي فعاش أو استمرت حياته حتى إذا اكتهل واستحكم قوته وعقله ﴿وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ الظاهر أنه غير بلوغ الأشد، وقال بعضهم: إنه بلوغ الأشد والعطف للتأكيد.

وقد ذكر غير واحد أن الإنسان إذا بلغ هذا القدر يتقوى جداً خلقه الذي هو عليه فلا يكاد يزايله بعد، وفي الحديث «إن الشيطان يجر يده على وجه من زاد على الأربعين ولم يتب ويقول بأبي وجه لا يفلح» وأخرج أبو الفتح الأزدي من طريق جويبر عن الضحاك عن ابن عباس مرفوعاً «من أتى عليه الأربعون سنة فلم يغلب خيره شره فليتجهز إلى النار» وعلى ذلك قول الشاعر:

إذا المرء وافى الأربعين ولم يكن ... له دون ما يهوى حياء ولا ستر

فدعه ولا تنفس عليه الذي مضى ... وإن جر أسباب الحياة له العمر

وقيل: لم يبعث نبي إلا بعد الأربعين، وذهب الفخر إلى خلافه مستدلاً بأن عيسى ويحيى عليهما السلام أرسلا صبيين لظواهر ما حكي في الكتاب الجليل عنهما، وهو ظاهر كلام السعد حيث قال: من شروط النبوة الذكورة وكمال العقل والذكاء والفطنة وقوة الرأي ولو في الصبا كعيسى ويحيى عليهما السلام إلى آخر ما قال.

وذهب ابن العربي في آخرين إلى أنه يجوز على الله سبحانه بعث الصبي إلا أنه لم يقع وتأولوا آيتي عيسى ويحيى ﴿قال إني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبياً﴾ [مريم: ٣٠]. ﴿وآتيناه الحكم صبياً﴾ [مريم: ١٢] بأنهما اخبار عما سيحصل لهما لا عما حصل بالفعل، ومثله كثير في الآيات وغيرها، والواقع عند هؤلاء البعث بعد البلوغ. وحكى اللقاني عن بعض اشتراطه فيه ويترجح عندي اشتراطه فيه دون أصل النبوة لما أن النفوس في الأغلب تأنف عن اتباع الصغير وإن كبر فضلاً كالرقيق والأنثى، وصرح جمع بأن الأعم الأغلب كون البعثة على رأس الأربعين كما وقع لنبينا ﷺ ﴿قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي﴾ أي رغبني ووفقني من أوزعته بكذا أي جعلته مولعاً به راغباً في تحصيله. وقرأ البزي «أَوْزِعْنِيَ» بفتح الياء ﴿أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ﴾ أي نعمة الدين أو ما يعمها وغيرها، وذلك يؤيد ما روي أنها نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه لأنه لم يكن أحد أسلم هو وأبواه من المهاجرين والأنصار سواه كذا قيل، وإسلام أبيه بعد الفتح وحينئذٍ يلزم أن تكون الآية مدنية وإليه ذهب بعضهم، وقيل: إن هذا الدعاء بالنسبة إلى أبويه دعاء بتوفيقهما للإيمان وهو كما ترى. واعترض على التعليل بابن عمر. وأسامة بن زيد. وغيرهما، ونقل عن الواحدي أنه قد صحب النبي ﷺ وهو ابن ثمان عشرة سنة ورسول الله ﷺ ابن عشرين سنة في سفر للشام في التجارة فنزل تحت شجرة سمرة وقال له الراهب: إنه لم يستظل بها أحد بعد عيسى غيره ﷺ فوقع في قلبه تصديقه فلم يكن يفارقه في سفر ولا حضر فلما نبىء وهو ابن أربعين آمن به وهو ابن ثمانية وثلاثين فلما بلغ الأربعين قال: ﴿رب أوزعني﴾ الخ ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ﴾ التنوين للتفخيم والتكثير، والمراد بكونه مرضياً له تعالى مع أن الرضا على ما عليه جمهور أهل الحق الإرادة مع ترك الاعتراض وكل عمل صالح كذلك أن يكون سالماً من غوائل عدم القبول كالرياء والعجب وغيرهما، فحاصله اجعل عملي على وفق رضاك: وقيل المراد بالرضا هنا ثمرته على طريق الكناية ﴿وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي﴾ أي اجعل الصلاح سارياً في ذريتي راسخاً فيهم كما في قوله:

فإن تعتذر في المحل من ذي ضروعها ... لدى المحل يجرح في عراقيبها نصلي

على أن ﴿أصلح﴾ نزل منزلة اللازم ثم عدي بفي ليفيد ما أشرنا إليه من سريان الصلاح فيهم وكونهم كالظرف له لتمكنه فيهم وإلا فكان الظاهر وأصلح لي ذريتي، وقيل: عدي بفي لتضمنه معنى اللطف أي الطف بي في ذريتي، والأول أحسن، قال ابن عباس: أجاب الله تعالى دعاء أبي بكر فأعتق تسعة من المؤمنين منهم بلال. وعامر بن فهيرة ولم يرد شيئاً من الخير إلا أعانه الله تعالى عليه، ودعا أيضاً فقال ﴿أصلح لي في ذريتي﴾ فأجابه الله تعالى فلم يكن له ولد إلا آمنوا جميعاً فاجتمع له إسلام أبويه وأولاده جميعاً، وقد أدرك أبوه وولده عبد الرحمن وولده أبو عتيق النبي ﷺ وآمنوا به ولم يكن ذلك لأحد من الصحابة رضي الله تعالى عنهم أجمعين ﴿إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ﴾ عما لا ترضاه أو يشغل عنك ﴿وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ الذين أخلصوا أنفسهم لك ﴿أُولَٰئِكَ﴾ إشارة إلى الإنسان، والجمع لأن المراد به الجنس المتصف بالمعنى المحكي عنه، وما فيه من معنى البعد للإشعار ببعد منزلته وعلو درجته أي أولئك المنعوتون بما ذكر من النعوت الجليلة.

﴿الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا﴾ من الطاعات فإن المباح حسن لا يثاب عليه ﴿وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سيئاتهم﴾ لتوبتهم المشار إليها بأني تبت وإلا فعند أهل الحق أن مغفرة الذنب مطلقاً لا تتوقف على توبة ﴿فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ﴾ كائنين في عدادهم منتظمين في سلكهم، وقيل: ﴿في﴾ بمعنى مع وليس بذاك ﴿وَعْدَ الصِّدْقِ﴾ مصدر لفعل مقدر وهو مؤكد لمضمون الجملة قبله، فإن قوله سبحانه: ﴿نتقبل﴾ و ﴿نتجاوز﴾ وعد منه عز وجل بالتقبل والتجاوز.

﴿الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ على ألسنة الرسل عليهم السلام. وقرىء «يُتَقَبَّلُ» بالياء والبناء للمفعول و «أَحْسَنُ» بالرفع على النيابة مناب الفاعل وكذا «يُتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ».

وقرأ الحسن والأعمش وعيسى بالياء فيهما مبنيين للفاعل وهو ضميره تعالى شأنه و «أَحْسَنَ» بالنصب على المفعولية ﴿وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ﴾ عند دعوتهما إياه للإيمان ﴿أُفٍّ لَكُمَا﴾ صوت يصدر عن المرء عند تضجره وفيه قراءات ولغات نحو الأربعين، وقد نبهنا على ذلك في سورة الإسراء، واللام لبيان المؤفف له كما في ﴿هيت لك﴾ [يوسف: ٢٣] والموصول مبتدأ خبره ﴿أولئك الذين حق عليهم القول﴾ والمراد به الجنس فهو في معنى الجمع، ولذا قيل: «أولئك» وإلى ذلك أشار الحسن بقول: هو الكافر العاق لوالديه المنكر للبعث، ونزول الآية في شخص لا ينافي العموم كما قرر غير مرة، وزعم مروان عليه ما يستحق أنها نزلت في عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنهما وردت عليه عائشة رضي الله تعالى عنها. أخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن عبد الله قال: إني لفي المسجد حين خطب مروان فقال: إن الله تعالى قد أرى لأمير المؤمنين ـ يعني معاوية ـ في يزيد رأياً حسناً أن يستخلفه فقد استخلف أبو بكر وعمر فقال عبد الرحمن بن أبي بكر: أهرقلية إن أبا بكر رضي الله تعالى عنه والله ما جعلها في أحد من ولده ولا أحد من أهل بيته ولاجعلها معاوية إلا رحمة وكرامة لولده، فقال مروان: ألست الذي قال لوالديه أف لكما فقال عبد الرحمن: ألست ابن اللعين الذي لعن رسول الله ﷺ أباك فسمعت عائشة فقالت: مروان أنت القائل لعبد الرحمن كذا وكذا كذبت والله ما فيه نزلت نزلت في فلان بن فلان.

وفي رواية تقدمت رواها جماعة وصححها الحاكم عن محمد بن زياد أنها كذبته ثلاثاً ثم قالت: والله ما هو به. تعني أخاها. ولو شئت أن أسمي الذي أنزلت فيه لسميته إلى آخر ما مر، وكان ذلك من فضض اللعنة إغاظة لعبد الرحمن وتنفيراً للناس عنه لئلا يلتفتوا إلى ما قاله وما قال إلا حقاً فأين يزيد الذي تجل اللعنة عنه وأين الخلافة.

وواقف بعضهم كالسهيلي في الإعلام مروان في زعم نزولها في عبد الرحمن، وعلى تسليم ذلك لا معنى للتعيير

لا سيما من مروان فإن الرجل أسلم وكان من أفاضل الصحابة وأبطالهم وكان له في الإسلام غناء يوم اليمامة وغيره والإسلام يجب ما قبله فالكافر إذا أسلم لا ينبغي أن يعير بما كان يقول ﴿أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ﴾ أبعث من القبر بعد الموت وقرأ الحسن وعاصم وأبو عمرو في رواية وهشام «أتعداني» بإدغام نون الرفع في نون الوقاية، وقرأ نافع في رواية. وجماعة بنون واحدة، وقرأ الحسن وشيبة وأبو جعفر بخلاف عنه، وعبد الوارث عن أبي عمرو وهارون بن موسى عن الجحدري، وبسام عن هشام «أتعدانني» بنونين من غير إدغام ومع فتح الأولى كأنهم فروا من اجتماع الكسرتين والياء ففتحوا للتخفيف، وقال أبو حاتم: فتح النون باطل غلط، وقال بعضهم: فتح نون التثنية لغة رديئة وهو الأمر هنا الاجتماع، وقرأ الحسن وابن يعمر والأعمش وابن مصرف والضحاك «أَخْرُجَ» مبنياً للفاعل من الخروج ﴿وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي﴾ أي مضت ولم يخرج منها أحد ولا بعث فالمراد إنكار البعث كما قيل:

ما جاءنا أحد يخبر أنه ... في جنة لما مضى أو نار

وقال أبو سليمان الدمشقي: أراد: وقد خلت القرون من قبلي مكذبة بالبعث، فالكلام كالاستدلال على نفي البعث.

﴿وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ﴾ أي يقولان: الغياث بالله تعالى منك، والمراد إنكار قوله واستعظامه كأنهما لجآ إلى الله سبحانه في دفعه كما يقال: العياذ بالله تعالى من كذا أو يطلبان من الله عزَّ وجلَّ أن يغيثه بالتوفيق حتى يرجع عما هو عليه من إنكار البعث ﴿وَيْلَكَ آمِنْ﴾ أي قائلين أو يقولون له ذلك، وأصل «ويل» دعاء بالثبور يقام مقام الحث على الفعل أو تركه إشعاراً بأن ما هو مترکب له حقيق بأن يهلك مرتكبه وأن يطلب له الهلاك فإذا أسمع ذلك كان باعثاً على ترك ما هو فيه والأخذ بما ينجيه، وقيل: إن ذلك لأن فيه إشعاراً بأن الفعل الذي أمر به مما يحسد عليه فيدعى عليه بالثبور فإذا سمع ذلك رغب فيه، وأياً ما كان فالمراد هنا الحث والتحريض على الإيمان لا حقيقة الدعاء بالهلاك ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ أي البعث، وأضاف الوعد إليه تعالى تحقيقاً للحق وتنبهاً على خطئه في إسناد الوعد إليهما. وقرأ الأعرج. وعمرو بن فائد «أن» بفتح الهمزة على تقدير لأن أو آمن بأن وعد الله حق، ورجح الأول بأن فيه توافق القراءتين ﴿فَيَقُولُ﴾ مكذباً لهما ﴿مَا هَذَا﴾ الذي تسميانه وعد الله تعالى ﴿إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ أباطيلهم التي سطروها في الكتب من غير أن يكون لها حقيقة ﴿أُولَئِكَ﴾ القائلون ذلك، وقيل: أي صنف هذا المذكور بناء على زعم خصوص ﴿الذي﴾ وليس بشيء.

﴿الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾ وهو قوله تعالى لإبليس: ﴿لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين﴾ [ص: ٨٥] وقد مر تمام الكلام في ذلك. ورد بهذا على من زعم أن الآية في عبد الرحمن بن أبي بكر رضي الله تعالى عنه أسلم وجب عنه ما قبل وكان من أفاضل الصحابة، ومن حق عليه القول هو من علم الله تعالى أنه لا يسلم أبداً. وقيل: الحكم هنا على الجنس فلا ينافي خروج البعض من أحكامه الأخروية، وقيل غير ذلك مما لا يلتفت إليه.

﴿فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ في مقابلة ﴿في أصحاب الجنة﴾ فهو مثله إعراباً ومبالغة ومعنى، وقوله تعالى ﴿مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ﴾ بيان للأمم ﴿إِنَّهُمْ﴾ جميعا ﴿كَانُوا خَاسِرِينَ﴾ قد ضيعوا فطرتهم الأصلية الجارية مجرى رؤوس أموالهم باتباع الشيطان، والجملة تعليل للحكم بطريق الاستئناف. وقرأ العباس عن أبي عمرو «أنهم» بفتح الهمزة على تقدير لأنهم. واستدل بقوله عزَّ وجلَّ: ﴿في أمم قد خلت﴾ الخ على أن الجن يموتون قرناً بعد قرن كالأنس. وفي البحر قال الحسن في بعض مجالسه: الجن لا يموتون فاعترضه قتادة بهذه الآية فسكت ﴿وَلِكُلٍّ﴾ من

الفريقين المذكورين في قوله تعالى: ﴿**أولئك الذين نتقبل عنهم**﴾ وفي قوله سبحانه: «أولئك الذين حق عليهم القول» وإن شئت فقل في الذين قالوا ربنا الله والذي قال لوالديه أف ﴿**دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا**﴾ أي من جزاء ما عملوا، فالكلام بتقدير مضاف، والجار والمجرور صفة ﴿**درجات**﴾ و ﴿**من**﴾ بيانية أو ابتدائية و ﴿**ما**﴾ موصولة أي من الذي عملوه من الخير والشر أو مصدرية أي من عملهم الخير والشر، ويجوز أن تكون ﴿**من**﴾ تعليلية بدون تقدير مضاف والجار والمجرور كما تقدم. والدرجات جمع درجة وهي نحو المنزلة لكن يقال للمنزلة درجة إذا اعتبرت بالصعود ودركا إذا اعتبرت بالحدور، ولهذا قيل: درجات الجنة ودركات النار.

والتعبير بالدرجات كما قال غير واحد على وجه التغليب لاشتمال ﴿**كل**﴾ على الفريقين أي لكل منازل ومراتب سواء كانت درجات أو دركات، وإنما غلب أصحاب الدرجات لأنهم الأحقاء به لا سيما، وقد ذكر جزاؤهم مراراً وجزاء المقابل مرة ﴿**وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ**﴾ أي جزاء أعمالهم والفاعل ضميره تعالى. وقرأ الأعمش والأعرج وشيبة وأبو جعفر والأخوان وابن ذكوان ونافع بخلاف عنه «لنوفيهم» بنون العظمة، وقرأ السلمي بتاء فوقية على الإسناد للدرجات مجازا ﴿**وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ**﴾ بنقص ثواب وزيادة عقاب، وقد مر الكلام في مثله غير مرة. والجملة حال مؤكدة للتوفية أو استئناف مقرر لها، واللام متعلقة بمحذوف مؤخر كأنه قيل: وليوفيهم أعمالهم ولا يظلمهم فعل ما فعل من تقدير الأجزية على مقادير أعمالهم فجعل الثواب درجات والعقاب دركات.

﴿**وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ**﴾ أي يعذبون بها من قولهم: عرض بنو فلان على السيف إذا قتلوا به وهو مجاز شائع، وذهب غير واحد إلى أنه من باب القلب المعنوي والمعنى يوم تعرض النار على الذين كفروا نحو عرض الناقة على الحوض فإن معناه أيضاً كما قالوا: عرض الحوض على الناقة لأن المعروض عليه يجب أن يكون له إدراك ليميل به إلى المعروض أو يرغب عنه لكن لما كان المناسب هو أن يؤتى بالمعروض عند المعروض عليه ويحرك نحوه وههنا الأمر بالعكس لأن الحوض لم يؤت به وكذا النار قلب الكلام رعاية لهذا الاعتبار، وفي الانتصاف إن كان قولهم: عرضت الناقة على الحوض مقلوباً فليس قوله تعالى: ﴿**ويوم يعرض الذين كفروا على النار**﴾ كذلك لأن الملجىء ثم إلى اعتقاد القلب أن الحوض جماد لا إدراك له والناقة هي المدركة فهي التي يعرض عليها الخوض حقيقة، وأما النار فقد وردت النصوص بأنها حينئذ مدركة إدراك الحيوانات بل إدراك أولي العلم فالأمر في الآية على ظاهره كقولك عرضت الأسرى على الأمير، وربما يقال: لا مانع من تنزيلها منزلة المدركة إن لم تكن حينئذ مدركة وكذا تنزيل الحوض منزلته حتى كأنه يستعرض الناقة كما قال أبو العلاء المعري:

إذا اشتاقت الخيل المناهل أعرضت عن الماء فاشتاقت إليها المناهل

وبعد ذلك قد لا يحتاج إلى اعتبار القلب، وقال أبو حيان: لا ينبغي حمل القرآن على القلب إن الصحيح فيه أنه مما يضطر إليه في الشعر، وإذا كان المعنى صحيحاً واضحاً بدونه فأي ضرورة تدعو إليه؟ والمثال المذكور لا قلب فيه أيضاً، فإن عرض الناقة على الحوض وعرض الحوض على الناقة كل منهما صحيح إذ العرض أمر نسبي يصح إسناده لكل واحد من الناقة والحوض. وابن السكيت في كتاب التوسعة ذهب إلى أن عرضت الحوض على الناقة مقلوب والأصل إنما هو عرض الناقة على الحوض وهو مخالف للمشهور. وأنت تعلم مما ذكرنا أولاً أن سبب اعتبارهم القلب في المثال كون المناسب في العرض أن يؤتى بالمعروض عند المعروض عليه وإن الأمر في عرضت الحوض على الناقة بالعكس، وتفصيل الكلام في ذلك على وجه يعرف منه منشأ الخلاف إن العرض مطلقاً لا يقتضي ذلك وإنما

المقتضي له المعنى المقصود من العرض في المثال وهو الميل إلى المعروض، ومن لم ينظر إلى هذا المعنى ونظر إلى أن المعرض يتحرك إلى المعروض عليه قال إنه الأصل، ومن لم ينظر إلى الاعتبارين وقال العرض إظهار شيء لشيء قال إن كلًّا من القولين على الأصل، وهو كما قال العلامة السالكوتي الحق لأن كلا الاعتبارين خارج عن مفهوم العرض فاحفظه فإنه نفيس.

والظرف منصوب بقول محذوف مقوله قوله تعالى: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ﴾ إلى آخره أي فيقال لهم يوم يعرضون أذهبتم لذاتكم ﴿فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا﴾ باستيفائها ﴿وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا﴾ فلم يبق لكم بعد شيء منها، وهو عطف تفسير لأذهبتم، وقرأ قتادة ومجاهد وابن وثاب وأبو جعفر والحسن والأعرج وابن كثير «آذهبتم» بهمزة بعدها مدة مطولة، وابن عامر بهمزتين حققهما ابن ذكوان ولين الثانية ابن هشام. وابن كثير في رواية، وعن هشام الفصل بين المحققة والملينة بألف، والاستفهام على معنى التوبيخ فهو خبر في المعنى ولو كان استفهاماً محضاً لم تدخل الفاء في قوله سبحانه: ﴿فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ﴾ أي الهوان وكذلك قرىء ﴿بِمَا كُنْتُمْ﴾ في الدنيا ﴿تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ بغير استحقاق لذلك، وقد مر بيان سر ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ ﴿وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ﴾ أي تخرجون من طاعة الله عزَّ وجلَّ أي بسبب استكباركم وفسقكم المستمرين، وفي البحر أريد بالاستكبار الترفع عن الإيمان وبالفسق معاصي الجوارح وقدم ذنب القلب على ذنب الجوارح إذ أعمال الجوارح ناشئة عن مراد القلب، وقرىء «تَفْسِقُونَ» بكسر السين وهذه الآية محرضة على التقلل من الدنيا وترك التنعم فيها والأخذ بالتقشف، أخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر والحاكم والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن عمر أن عمر رضي الله تعالى عنه رأى في يد جابر بن عبد الله رضي الله تعالى عنه درهماً فقال ما هذا الدرهم؟ قال: أريد أن أشتري به لأهلي لحماً قرموا إليه فقال أكلما اشتهيتم شيئاً اشتريتموه أين تذهب عنكم هذه الآية ﴿أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها﴾.

وأخرج ابن المبارك وابن سعد وأحمد في الزهد وعبد بن حميد وأبو نعيم في الحلية عن الحسن قال قدم وفد أهل البصرة على عمر رضي الله تعالى عنه مع أبي موسى الأشعري فكان له في كل يوم خبز يلت فربما وافقناه مأدوما بزيت وربما وافقناه مأدوماً بسمن وربما وافقناه مأدوما بلبن وربما وافقنا القدائد اليابسة قد دقت ثم أغلي عليها وربما وافقنا اللحم الغريض ـ أي الطري ـ وهو قليل قال وقال لنا عمر رضي الله تعالى عنه: إني والله ما أجهل عن كراكر والأسنمة وعن صلاء وصناب وسلائق ولكن وجدت الله تعالى عير قوماً بأمر فعلوه فقال عزَّ وجلَّ: ﴿أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها﴾، والكراكر جمع كركرة بالكسرة زور البعير الذي إذا برك أصاب الأرض وهو من أطيب ما يؤكل منه والأسنمة جمع سنام معروف. والصلاء بالكسر والمد الشواء، والصناب ككتاب صباغ يتخذ من الخردل والزبيب، والسلائق جمع سليقة كسفينة ما سلق من البقول وغيرها ويروى بالصاد الخبز الرقاق واحدتها صليقة كسفينة أيضاً، وقيل: هي الحملان المشوية، وقيل: اللحم المشوي المنضج وأنشدوا لجرير:

يكلفني معيشة آل زيد ... ومن لي بالصلائق والصناب

وأخرج أحمد، والبيهقي في شعب الإيمان عن ثوبان رضي الله تعالى عنه قال «كان رسول الله ﷺ إذا سافر آخر عهده من أهله بفاطمة وأول من يدخل عليه منهم فاطمة رضي الله تعالى عنها فقدم من غزاة له فأتاها فإذا بمسح على بابها ورأى على الحسن والحسين قلبين من فضة فرجع ولم يدخل عليها فلما رأت ذلك ظنت أنه لم يدخل من أجل ما رأى فهتكت الستر ونزعت القلبين من الصبيين فقطعتهما فبكيا فقسمت ذلك بينهما فانطلقا إلى رسول الله ﷺ وهما يبكيان فأخذه رسول الله ﷺ منهما فقال يا ثوبان اذهب بهذا إلى بني فلان أهل بيت بالمدينة واشتر لفاطمة

قلادة من عصب وسوارين من عاج فإن هؤلاء أهل بيتي ولا أحب أن يأكلوا طيباتهم في حياتهم الدنيا» والمسح بكسر فسكون ثوب من شعر غليظ، والقلبين تثنية قلب بضم فسكون السوار، والعصب بفتح فسكون قال الخطابي إن لم يكن الثياب اليمانية فما أدري ما هو وما أدري أن القلائد تكون منها، ويحتمل أن الرواية بفتح الصاد وهو اطناب مفاصل الحيوان فلعلهم كانوا يتخذون من طاهره مثل الخرز.

قال ثم ذكر بعض أهل اليمن أن العصب سن دابة بحرية تسمى فرس فرعون يتخذ منها الخرز البيض وغيرها، وأحاديث الزهد في طيبات الحياة الدنيا كثيرة وحال رسول الله ﷺ في ذلك معروفة بين الأمة. وفي البحر بعد حكاية حال عمر رضي الله تعالى عنه على نحو مما ذكرنا، قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: وهذا من باب الزهد وإلا فالآية نزلت في كفار قريش، والمعنى أنه كانت لكم طيبات الآخرة لو آمنتم لكنكم لم تؤمنوا فاستعجلتم طيباتكم في الحياة الدنيا. فهذه كناية عن عدم الإيمان ولذلك ترتب عليه ﴿فاليوم تجزون عذاب الهون﴾ ولو أريد الظاهر ولم يكن كناية عما ذكرنا لم يترتب عليه الجزاء بالعذاب، هذا ولما كان أهل مكة مستغرقين في لذات الدنيا معرضين عن الإيمان وما جاء به الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم ناسب تذكيرهم بما جرى للعرب الأولى ممن كانوا أكثر أموالاً وأشد قوة وأعظم جاهاً منهم فسلط عليهم العذاب بسبب كفرهم وبضرب الأمثال وقصص من تقدم يعرف قبح الشيء وحسنه فقال سبحانه لرسوله ﷺ: ﴿وَاذْكُرْ﴾ لكفار مكة ﴿أَخَا عَادٍ﴾ هودا عليه السلام ﴿إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ﴾ بدل اشتمال منه أي وقت إنذاره إياهم ﴿بِالأَحْقَافِ﴾ جمع حقف رمل مستطيل فيه اعوجاج وانحناء ويقال احقوقف الشيء اعوج وكانوا بدويين أصحاب خباء وعمد يسكنون بين رمال مشرفين على البحر بأرض يقال لها الشجر من بلاد اليمن قاله ابن زيد، وقال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما بين عمان ومهرة، وفي رواية أخرى عنه الأحقاف جبل بالشام، وقال ابن إسحق: مساكنهم من عمان إلى حضرموت؛ وقال ابن عطية الصحيح أن بلاد عاد كانت باليمن ولهم كانت إرم ذات العماد وسيأتي إن شاء الله تعالى الكلام في ارم وبيان الحق فيها.

﴿وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ﴾ أي الرسل كما هو المشهور، وقيل من يعمهم والنواب عنهم جمع نذير بمعنى منذر. وجوز كون ﴿النذر﴾ جمع نذير بمعنى الأنذار فيكون مصدراً وجمع لأنه يختلف باختلاف المنذر به. وتعقب بأن جمعه على خلاف القياس ولا حاجة تدعو إليه ﴿مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ﴾ أي من قبله عليه السلام ﴿وَمِنْ خَلْفِهِ﴾ أي من بعده وقرىء به ولولا ذلك لجاز العكس، والظاهر أن المراد النذر المتقدمون عليه والمتأخرون عنه. وعن ابن عباس يعني الرسل الذين بعثوا قبله والذين بعثوا في زمانه، فمعنى ﴿من خلفه﴾ من بعد إنذاره، وعطف ﴿من خلفه﴾ أي من بعده على ما قبله إما من باب علفتها تبنا وماء بارداً وفيه أقوال فقيل عامل الثاني مقدر أي وسقيتها ماء ويقال في الآية أي خلت النذر من بين يديه وتأتي من خلفه؛ وقيل إنه مشاكلة، وقيل: إنه من قبيل الاستعارة بالكناية، وإما لادخال الآتي في سلك الماضي قطعاً بالوقوع وفيه شائبة الجمع بين الحقيقة والمجاز، وجوز أن يقال: المضي باعتبار الثبوت في علم الله تعالى أي وقد خلت النذر في علم الله تعالى يعني ثبت في علمه سبحانه خلو الماضين منهم والآتين، والجملة إما حال من فاعل ﴿أنذر﴾ أي إذ أنذر معلماً إياهم بخلو النذر أو مفعوله أي وهم عالمون بإعلامه إياهم، وهو قريب من أسلوب قوله تعالى: ﴿كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً﴾ [البقرة: ٢٨] الآية، ويجوز أن يكون المعنى أنذرهم على فترة من الرسل، وهي حال أيضاً على تفسير ابن عباس، وعلم القوم يجوز أن يكون من إعلامه ومن مشاهدتهم أحوال من كانوا في زمانه وسماعهم أحوال من قبله، وإما اعتراض بين المفسر أعني ﴿أنذر قومه﴾ وبين المفسر أعني قوله تعالى: ﴿أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللهَ﴾ فإن النهي عن الشيء إنذار عن مضرته كأنه قيل: واذكر زمان إنذار هود قومه بما أنذر به الرسل قبله

وبعده وهو أن لا تعبدوا إلا الله تنبيها على أنه إنذار ثابت قديماً وحديثاً اتفقت عليه الرسل عليهم السلام عن آخرهم فهو يؤكد قوله تعالى: ﴿واذكر﴾ ويؤكد قوله سبحانه: ﴿أنذر قومه﴾ ولذلك توسط، وهو أيضاً مقصود بالذكر بخلاف ما إذا جعل حالاً فإنه حينئذ قيد تابع، وهذا الوجه أولى مما قبله على ما قرره في الكشف، وجوز بعضهم العطف على ﴿أنذر﴾ أي واعلمهم بذلك وهو كما ترى، وجعلت ﴿أن﴾ مفسرة لتقدم معنى القول دون حروفه وهو الإنذار والمفسر معموله المقدر، وجوز كونها مصدرية وكونها مخففة من الثقيلة فقبلها حرف جر مقدر متعلق بأنذر أي أنذرهم بأن لا تعبدوا إلا الله.

﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ صفة ﴿يوم﴾ وعظمه مجاز عن كونه مهولاً لأنه لازم له، وكون اليوم مهولاً باعتبار هول ما فيه من العذاب فالإسناد فيه مجازي، ولا حاجة إلى جعله صفة للعذاب والجر للجوار والجملة استئناف تعليل للنهي، ويفهم إني أخاف عليكم ذلك بسبب شرككم ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا﴾ استفهام توبيخي ﴿لِتَأْفِكَنَا﴾ أي لتصرفنا ـ كما قال الضحاك ـ من الإفك بمعنى الصرف، وقيل: أي لتنزيلنا بالإفك وهو الكذب ﴿عَنْ آلِهَتِنَا﴾ أي عن عبادتها ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا﴾ من معاجلة العذاب على الشرك في الدنيا ﴿إِنْ كُنتَ مِنَ الصادقين﴾ في وعدك بنزوله بنا ﴿قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ﴾ أي بوقت نزوله أو العلم بجميع الأشياء التي من جملتها ذلك ﴿عِنْدَ اللهِ﴾ وحده لا علم لي بوقت نزوله، والكلام كناية عن أنه لا يقدر عليه ولا على تعجيله لأنه لو قدر عليه وأراده كان له علم به في الجملة فنفي علمه به المدلول عليه بالحصر نفي لمدخليته فيه حتى يطلب تعجيله من الله عزَّ وجلَّ ويدعو به.

وبهذا التقرير علم مطابقة جوابه عليه السلام لقولهم: ﴿ائتنا﴾ فيأتيكم به في وقته المقدر له ﴿وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ﴾ من مواجب الرسالة التي من جملتها بيان نزول العذاب إذ لم تنتهوا عن الشرك، وقرأ أبو عمرو «أُبْلِغُكُمْ» من الإبلاغ.

﴿وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ﴾ شأنكم الجهل ومن آثار ذلك أنكم تقترحون على ما ليس من وظائف الرسل من الإتيان بالعذاب، والفاء في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضاً﴾ فصيحة أي فأتاهم فلما رأوه، وضمير النصب قيل راجع إلى ﴿ما﴾ في ﴿بما تعدنا﴾ وكون المرئي هو الموعود باعتبار المآل والسببية له وإلا فليس هو المرئي حقيقة، وجوز الزمخشري أن يكون مبهماً يفسره ﴿عَارِضاً﴾ وهو إما تمييز وإما حال، ثم قال: وهذا الوجه أعرب أي أبين واظهر لما أشرنا إليه في الوجه الأول من الخفاء وأفصح لما فيه من البيان بعد الإبهام والإيضاح غب التعمية.

وتعقبه أبو حيان بأن المبهم الذي يفسره ويوضحه التمييز لا يكون إلا في باب رب نحو ربه رجلاً لقيته وفي باب نعم وبئس على مذهب البصريين نحو نعم رجلاً زيد وبئس غلاماً عمرو، وأما أن الحال توضح المبهم وتفسره فلا نعلم أحداً ذهب إليه، وقد حصر النحاة المضمر الذي يفسره ما بعده فلم يذكروا فيه مفعول رأى إذا كان ضميراً ولا إن الحال يفسر الضمير ويوضحه، وأنت تعلم جلالة جار الله وإمامته في العربية، والعارض السحاب الذي يعرض في أفق السماء، ومنه قول الشاعر:

يا من رأى عارضاً أرقت له ... بين ذراعي وجبهة الأسد

وقول الأعشى:

يا من رأى عارضاً قد بت أرمقه ... كأنما البرق في حافاته الشعل

﴿مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ﴾ أي متوجه أوديتهم وفي مقابلتها وهي جمع وادٍ وأفعلة في جمع فاعل الاسم شاذ نحو ناد

وأندية وجائز للخشبة الممتدة في أعلى السقف وأجوزة والإضافة لفظية كما في قوله تعالى: ﴿قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا﴾ ولذلك وقعا صفتين للنكرة وأطلق عليها الزمخشري مجازية ووجه التجوز أن هذه الإضافة للتوسع والتخفيف حيث لم تفد فائدة زائدة على ما كان قبل فكما أن إجراء الظرف مجرى المفعول به مجاز كذلك إجراء المفعول أو الفاعل مجرى المضاف إليه في الاختصاص ولم يرد أنها من باب الإضافة لأدنى ملابسة.

﴿بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ﴾ أي من العذاب والكلام على إضمار القول قبله أي قال هود بل هو الخ لأن الخطاب بينه وبينهم فيما سبق ويؤيده أنه قرىء كذلك وقدره بعضهم قل بل هو الخ للقراءة به أيضاً والاحتياج إلى ذلك لأنه إضراب ولا يصلح أن يكون من مقول من قال هذا عارض ممطرنا وقدر البغوي قال الله بل هو الخ وينفك النظم الجليل عليه كما لا يخفى. وقرىء «بل ما استعجلتم» أي بل هو، وقرأ قوم «ما اسْتُعْجِلْتُمْ» بضم التاء وكسر الجيم ﴿رِيحٌ﴾ بدل من ﴿ما﴾ أو من ﴿هو﴾ أو خبر لمبتدأ محذوف أي هي أو هو ريح ﴿فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ صفة ﴿ريح﴾ لكونه جملة بعد نكرة وكذا قوله تعالى ﴿تُدَمِّرُ﴾ أي تهلك ﴿كُلَّ شَيْءٍ﴾ من نفوسهم وأموالهم أو مما أمرت بتدميره ﴿بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ ويجوز أن يكون مستأنفاً، وقرأ زيد بن علي «تَدْمُرُ» بفتح التاء وسكون الدال وضم الميم، وقرىء كذلك أيضاً إلا أنه بالياء ورفع كلّ على أنه فاعل «يدمر» وهو من دمر دماراً أي هلك، والجملة صفة أيضاً والعائد محذوف أي بها أو الضمير من ﴿ربها﴾ ويجوز أن يكون استئنافاً كما في قراءة الجمهور وأراد البيان أن لكل ممكن وقتاً مقيضاً منوطاً بأمر بارئه لا يتقدم ولا يتأخر ويكون الضمير من ﴿ربها﴾ لكل شيء فإنه بمعنى الأشياء وفي ذكر الأمر والرب والإضافة إلى الريح من الدلالة على عظمة شأنه عزَّ وجلَّ ما لا يخفى والفاء في قوله تعالى: ﴿فَأَصْبَحُوا لاَ يُرَى إِلاَّ مَسَاكِنُهُمْ﴾ فصيحة أي فجأتهم الريح فدمرتهم فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم وجعلها بعضهم فاء التعقيب على القول بإضمار القول مسنداً إليه تعالى وادعى أنه ليس هناك قول حقيقة بل هو عبارة عن سرعة استئصالهم وحصول دمارهم من غير ريث وهو كما ترى، وقرأ الجمهور «لا ترى» بتاء الخطاب «إلاّ مَسَاكِنَهُمْ» بالنصب، والخطاب لكل أحد تتأتى منه الرؤية تنبيها على أن حالهم بحيث لو حضر كل أحد بلادهم لا يرى إلا مساكنهم أو لسيد المخاطبين ﷺ، وقرأ أبو رجاء ومالك بن دينار بخلاف عنهما والجحدري والأعمش وابن أبي إسحق والسلمي «لا تُرَى» بالتاء من فوق مضمومة ﴿إِلاَّ مَسَاكِنُهُمْ﴾ بالرفع وجمهور النحاة على أنه لا يجوز التأنيث مع الفصل بإلا إلا في الشعر كقول ذي الرمة:

كأنه جمل هم وما بقيت ... إلا النحيزة والألواح والعصب

وقول الآخر وعزاه ابن جني لذي الرمة أيضاً:

برى النحز والاجرال ما في غروضها ... وما بقيت إلا الضلوع الجراشع

وبعضهم يجيزه مطلقاً وتمام الكلام فيه في محله، وقرأ عيسى الهمداني «لا يُرى» بضم التحتية «إلاّ مَسْكَنُهُمْ» بالتوحيد والرفع وروي هذا عن الأعمش. ونصر بن عاصم، وقرىء «لا تَرَى» بتاء فوقية مفتوحة «إلاّ مَسْكَنَهُمْ» مفرداً منصوباً وهو الواحد الذي أريد به الجمع أو مصدر حذف مضافه أي آثار سكونهم ﴿كَذَلِكَ﴾ أي مثل ذلك الجزاء الفظيع ﴿نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ أخرج ابن أبي الدنيا في كتاب السحاب. وأبو الشيخ في العظمة عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه قال في قوله تعالى ﴿فلما رأوه﴾ الآية أول ما عرفوا أنه عذاب ما رأوا ما كان خراجاً من رحالهم ومواشيهم يطير بين السماء والأرض مثل الريش فدخلوا بيوتهم وأغلقوا أبوابهم فجاءت الريح ففتحت أبوابهم ومالت عليهم بالرمل فكانوا تحت الرمل سبع ليال وثمانية أيام حسوماً لهم أنين فأمر الله تعالى الريح فكشفت عنهم

الرمل وطرحتهم في البحر فهو قوله تعالى: ﴿فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم﴾.

وروي أن أول من أبصر العذاب امرأة منهم رأت ريحاً فيها كشهب النار، وروي أن هوداً عليه السلام لما أحس بالريح خط على نفسه وعلى المؤمنين خطاً إلى جنب عين تنبع، وعن ابن عباس أنه عليه السلام اعتزل ومن معه في حظيرة ما يصيبهم من الريح إلا ما يلين به الجلود وتلذه الأنفس، وأنها لتمر من عاد بالظعن بين السماء والأرض وتدمغهم بالحجارة، وكانت كما أخرج ابن أبي شيبة. وابن جرير عن عمرو بن ميمون تجيء بالرجل الغائب، ومر في سورة الأعراف مما يتعلق بهم ما مر فارجع إليهم إن أردته، ولما أصابهم من الريح ما أصابهم كان ﷺ يدعو إذا عصفت الريح. أخرج مسلم والترمذي والنسائي وابن ماجه وعبد بن حميد عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: «كان رسول الله ﷺ إذا عصفت الريح قال: اللهم إني أسألك خيرها وخير ما فيها وخير ما أرسلت به وأعوذ من شرها وشر ما فيها وشر ما أرسلت به فإذا أخيلت السماء تغير لونه ﷺ وخرج ودخل وأقبل وأدبر فإذا مطرت سري عنه فسألته فقال عليه الصلاة والسلام: لا أدري لعله كما قال قوم عاد هذا عارض ممطرنا» ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ﴾ أي قررنا عادا وأقدرناهم، و ﴿ما﴾ في قوله تعالى: ﴿فِيمَا إِن مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ﴾ موصولة أو موصولة و ﴿إِن﴾ نافية أي في الذي أو في شيء ما مكناكم فيه من السعة والبسطة وطول الأعمار وسائر مبادي التصرفات كما في قوله تعالى: ﴿كم أهلكنا من قبلهم من قرن مكناهم في الأرض ما لم نمكن لكم﴾ [الأنعام: ٦] ولم يكن النفي بلفظ «ما» كراهة لتكرير اللفظ وإن اختلف المعنى، ولذا قال من ذهب إلى أن أصل مهما ما ما على أن ما الشرطية مكررة للتأكيد قلبت الألف الأولى هاء فراراً من كراهة التكرار، وعابوا على المتنبي قوله:

لعمرك ما ما بأن منك لضارب ... بأقتل مما بان منك لعائب

أي ما الذي بأن الخ، يريد لسانه لا يتقاعد عن سنانه هذا للعائب وذلك للضارب، وكان يسعه أن يقول: إن ما بان، وإدخال الباء للنفي لا للعمل على أن إعمال إن قد جاء عن المبرد، وقيل: ﴿إن﴾ شرطية محذوفة الجواب والتقدير إن مكناكم فيه طغيتم، وقيل: إنها صلة بعد ما الموصولة تشبيهاً بما النافية وما التوقيتية، فهي في الآية مثلها في قوله:

يرجّي المرء ما أن لا يراه ... وتعرض دون أدناه الخطوب

أي مكناهم في مثل الذي مكناكم فيه، وكونها نافية هو الوجه لأن القرآن العظيم يدل عليه في ما وضع وهو أبلغ في التوبيخ وأدخل في الحث على الاعتبار ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعاً وَأَبْصَاراً وَأَفْئِدَةً﴾ ليستعملوها فيما خلقت له ويعرفوا بكل منها ما نيطت به معرفته من فنون النعم ويستدلوا بها على شؤون منعمها عزَّ وجلَّ ويداوموا على شكره جلّ شأنه ﴿فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ﴾ حيث لم يستعملوه في استماع الوحي ومواعظ الرسل ﴿وَلاَ أَبْصَارُهُمْ﴾ حيث لم يجتلوا بها الآيات التكوينية المرسومة في صحائف العالم ﴿وَلاَ أَفْئِدَتُهُمْ﴾ حيث لم يستعملوها في معرفة الله تعالى ﴿مِنْ شَيْءٍ﴾ أي شيئاً من الإغناء، و ﴿من﴾ مزيدة للتوكيد والتنوين للتقليل.

وجوز أن تكون تبعيضية أي ما أغنى بعض الاغناء وهو القليل، و (ما) في ﴿ما أغنى﴾ نافية وجوز كونها استفهامية. وتعقبه أبو حيان بأنه يلزم عليه زيادة ﴿من﴾ في الواجب وهو لا يجوز على الصحيح. ورد بأنهم قالوا: تزاد في غير الموجب وفسروه بالنفي والنهي والاستفهام، وإفراد السمع في النظم الجليل وجمع غيره لاتحاد المدرك به وهو الأصوات وتعدد مدركات غيره أو لأنه في الأصل مصدر، وأيضاً مسموعهم من الرسل متحد.

﴿إذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بآيَات الله﴾ ظرف متعلق بالنفي الصريح أو الضمني في قوله تعالى: ﴿ما أغنى﴾ وهو ظرف أريد به التعليل كناية أو مجازاً لاستواء مؤدى الظرف والتعليل في قولك: ضربته لإساءته وضربته إذ أساء لأنك إنما ضربته في ذلك الوقت لوجود الإساءة فيه، وهذا مما غلب في إذ وحيث من بين سائر الظروف حتى كاد يلحق بمعانيهما الوضعية ﴿وَحَاقَ بهمْ مَا كَانُوا به يَسْتَهْزِئُونَ﴾ من العذاب الذي كانوا يستعجلونه بطريق الاستهزاء ويقولون: ﴿فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين﴾ [الأعراف: ٧٠، هود: ٣٢].

وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾ فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ
ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةًۢ ۖ بَلْ ضَلُّوا۟ عَنْهُمْ ۚ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٨﴾ وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ
يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ يَـٰقَوْمَنَآ إِنَّا
سَمِعْنَا كِتَـٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾
يَـٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ
دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ
ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَـٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ
﴿٣٣﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَلَيْسَ هَـٰذَا بِٱلْحَقِّ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ
تَكْفُرُونَ ﴿٣٤﴾ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ۚ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ
يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭ ۚ بَلَـٰغٌ ۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴿٣٥﴾

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ﴾ يا أهل مكة ﴿مِّنَ القُرَى﴾ كحجر ثمود وقرى قوم صالح، والكلام بتقدير مضاف أو تجوز بالقرى عن أهلها بقوله تعالى: ﴿وَصَرَّفْنَا الآيَات﴾ أي كررناها ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ وأمر ﴿ما﴾ سهل، والترجي مصروف لغيره تعالى أو ﴿لعل﴾ للتعليل أي لكي يرجعوا عما هم فيه من الكفر والمعاصي إلى الإيمان والطاعة ﴿فَلَوْلا نَصَرَهُمُ﴾ فهلا منعهم من الهلاك الذي وقعوا فيه ﴿الَّذينَ اتَّخَذُوا﴾ أي آلهتهم الذين اتخذوهم.

﴿منْ دُون الله قُرْبَاناً آلهَةً﴾ والضمير الذي قدرناه عائداً هو المفعول الأول لاتخذوا . و ﴿آلهة﴾ هو المفعول الثاني و ﴿قرباناً﴾ بمعنى متقربا بها حال أي اتخذوهم آلهة من دون الله حال كونها متقربا بها إلى الله عزَّ وجلَّ حيث كانوا يقولون: ﴿ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى﴾ [الزمر: ٣] و ﴿هؤلاء شفعاؤنا عند الله﴾ [يونس: ١٨] وفي الكلام تهكم بهم.

وأجار الحوفي كون ﴿قرباناً﴾ مفعولاً من أجله، وأجاز هو أيضاً وابن عطية ومكي وأبو البقاء كونه المفعول الثاني لا تخذوا . وجعل ﴿آلهة﴾ بدلاً منه، وقال في الكشاف: لا يصح ذلك لفساد المعنى،ونقل عنه في بيانه أنه لا يصح أن يقال: تقربوا بها من دون الله لأن الله تعالى لا يتقرب به، وأراد كما في الكشف أنه إذا جعل مفعولاً ثانياً يكون المعنى فلولا نصرهم الذين اتخذوهم قربانا بدل الله تعالى أو متجاوزين عن أخذه تعالى قربانا إليهم وهو معنى فاسد. واعترض عليه بجعل ﴿دون﴾ بمعنى قدام كما قيل به في قوله تعالى: ﴿وادعوا شهداءكم من دون الله﴾ [البقرة: ٢٣]

وبأنه قد قيل: إن قربانا مفعول له فهو غير مختص بالمتقرب به، وجاز أن يطلق على المتقرب إليه وحينئذ يلتئم الكلام. وأجيب عن الأول بأنه غير قادح لأنه مع نزارة استعمال دون بمعنى قدام لا يصلح ظرف الاتخاذ لأنه ليس بين يدي الله تعالى وإنما التقرب بين يديه تعالى ولأجله سبحانه، واتخاذهم قربانا ليس التقرب به لأن معناه تعظيمهم بالعبادة ليشفعوا بين يدي الله عزَّ وجلَّ ويقربوهم إليه سبحانه، فزمان الاتخاذ ليس زمان التقرب البتة، وحينئذ ان كان مستقراً حالاً لزم ما لزم في الأول.

ولا يجوز أن يكون معمول ﴿قربانا﴾ لأنه اسم جامد بمعنى ما يتقرب به فلا يصلح عاملاً كالقارورة وإن كان فيها معنى القرار، وفيه نظر. وأجيب عن الثاني بأن الزمخشري بعد أن فسر القربان بما يتقرب به ذكر هذا الامتناع على أن قوله تعالى بعد. ﴿بل ضلوا﴾ الخ ينادي على فساد ذلك أرفع النداء، وقال بعضهم في امتناع كون ﴿قربانا﴾ مفعولاً ثانياً و ﴿آلهة﴾ بدلاً منه: إن البدل وإن كان هو المقصود لكن لا بد في غير بدل الغلط من صحة المعنى بدونه ولا صحة لقولهم: اتخذوهم من دون الله قرباناً أي ما يتقرب به لأن الله تعالى لا يتقرب به بل يتقرب إليه فلا يصح أنهم اتخذوهم قرباناً متجاوزين الله تعالى في ذلك، وجنح بعضهم إلى أنه يصح أن يقال: الله تعالى يتقرب به أي برضاه تعالى والتوسل به جل وعلا. وقال الطيبي: إن الزمخشري لم يرد بفساد المعنى إلا خلاف المعنى المقصود إذ لم يكن قصدهم في اتخاذهم الأصنام آلهة على زعمهم إلا أن يتقربوا بها إلى الله تعالى كما نطقت به الآيات فتأمل.

وقرىء «قُرُبَاناً» بضم الراء ﴿بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ﴾ أي غابوا عنهم، وفيه تهكم بهم أيضاً كأن عدم نصرهم لغيبتهم أو ضاعوا عنهم أي ظهر ضياعهم عنهم بالكلية وقد امتنع نصرهم الذي كانوا يؤملونه امتناع نصر الغائب عن المنصور ﴿وَذَلِكَ﴾ أي ضلال آلهتهم عنهم ﴿إِفْكُهُمْ﴾ أي أثر إفكهم أي صرفهم عن الحق واتخاذهم إياها آلهة ونتيجة شركهم ﴿وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ أي وأثر افترائهم وكذبهم على الله تعالى أو أثر ما كانوا يفترونه على الله عزَّ وجلَّ، وقيل: ذلك إشارة إلى اتخاذ الأصنام آلهة أي ذلك الاتخاذ الذي أثره ضلال آلهتهم عنهم كذبهم وافتراؤهم أو والذي كانوا يفترونه وليس بذاك وإن لم يحوج إلى تقدير مضاف. وقرأ ابن عباس في رواية «أَفْكُهُمْ» بفتح الهمزة والافك والأفك مصدران كالحذر والحذر وقرأ ابن الزبير. والصباح بن العلاء الأنصاري وأبو عياض وعكرمة وحنظلة بن النعمان بن مرة ومجاهد وهي رواية عن ابن عباس أيضاً «أَفَكَهُمْ» بثلاث فتحات على أن افك فعل ماض وحينئذ الإشارة إلى الاتخاذ أي ذلك الاتخاذ صرفهم عن الحق، ﴿وما كانوا﴾ قيل عطف على ذلك أو على الضمير المستتر وحسن للفصل أو هو مبتدأ والخبر محذوف أي كذلك، والجملة حينئذ معطوفة على الجملة قبلها.

وأبو عياض وعكرمة أيضاً كذلك إلا أنهما شددا الفاء للتكثير، وابن الزبير أيضا. وابن عباس فيما ذكر ابن خالويه «آفكهم» بالمد فاحتمل أن يكون فاعل فالهمزة أصلية وأن يكون أفعل والهمزة للتعدية أي جعلهم يأفكون، وجوز أن تكون للوجدان كأحمدته وأن يكون أفعل بمعنى فعل، وحكى في البحر أنه قرىء «أَفَكُهُمْ» بفتح الهمزة والفاء وضم الكاف وهي لغة في الإِفك. وقرأ ابن عباس فيما روى قطرب. وأبو الفضل الرازي «آفكهم» اسم فاعل من إفك أي وذلك الاتخاذ صارفهم عن الحق. وقرىء «وذلك إفك مما كانوا يفترون» والمعنى ذلك بعض ما يفترون من الإِفك أي بعض أكاذيبهم المفتريات فالافك بمعنى الاختلاف فلا تغفل.

﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَراً مِّنَ الْجِنِّ﴾ أي أملناهم إليك ووجهناهم لك، والنفر على المشهور ما بين الثلاثة والعشرة من الرجال لأنه من النفير والرجال هم الذين إذا حزبهم أمر نفروا لكفايته، والحق أن هذا باعتبار الأغلب فإنه يطلق على ما فوق العشرة في الفصيح، وقد ذكر ذلك جمع من أهل اللغة، وفي المجمل الرهط والنفر يستعمل إلى

الأربعين، وفي كلام الشعبي حدثني بضعة عشر نفراً، وسيأتي إن شاء الله تعالى تفسيره هنا بما زاد على العشرة ولا يختص بالرجال، والأخذ من النفير لا يدل على الاختصاص بهم بل ولا بالناس لإطلاقه على الجن هنا.

والجار والمجرور صفة ﴿نفراً﴾ وقوله تعالى: ﴿يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ﴾ حال مقدرة منه لتخصصه بالصفة أو صفة له أخرى وضمير الجمع لأنه اسم جمع فهو في المعنى جمع، ولذا قرىء «صَرَّفْنَا» بالتشديد للتكثير، و ﴿إذا﴾ معمولة لمقدر لا عطف على ﴿أخا عاد﴾ أي واذكر لقومك وقت صرفنا إليك نفراً من الجن مقدراً استماعهم القرآن لعلهم يتنبهون لجهلهم وغلطهم وقبح ما هم عليه من الكفر بالقرآن والإعراض عنه حيث إنهم كفروا به وجهلوا أنه من عند الله تعالى وهم أهل اللسان الذي نزل به ومن جنس الرسول الذي جاء به وأولئك استمعوه وعلموا أنه من عنده تعالى وأمنوا به وليسوا من أهل لسانه ولا من جنس رسوله ففي ذكر هذه القصة توبيخ لكفار قريش والعرب، ووقوعها أثر قصة هود وقومه واهلاك من أهلك من أهل القرى لأن أولئك كانوا ذوي شدة وقوة كما حكي عنهم في غير آية والجن توصف بذلك أيضاً كما قال تعالى: ﴿قال عفريت من الجن أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك وإني عليه لقوي أمين﴾ [النمل: ٣٩] ووصفهم بذلك معروف بين العرب فناسبت ما قبلها لذلك مع ما قيل أن قصة عاد متضمنة ذكر الريح وهذه متضمنة ذكر الجن وكلاهما من العالم الذي لا يشاهد، وسيأتي الكلام في حقيقتهم.

﴿فَلَمَّا حَضَرُوهُ﴾ أي القرآن عند تلاوته، وهو الظاهر وإن كان فيه تجوز، وقيل: الرسول الله عند تلاوته له ففيه التفات ﴿قَالُوا﴾ أي قال بعضهم لبعض ﴿أَنْصِتُوا﴾ اسكتوا لنسمعه، وفيه تأدب مع العلم وكيف يتعلم ﴿فَلَمَّا قُضِيَ﴾ اتم وفرغ عن تلاوته. وقرأ أبو مجلز وحبيب بن عبد الله «قَضَى» بالبناء للفاعل وهو ضمير الرسول الله، وأيد بذلك عود ضمير ﴿حضروه﴾ إليه عليه الصلاة والسلام.

﴿وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ﴾ مقدرين إنذارهم عند وصولهم إليهم، قيل: إنهم تفرقوا في البلاد فأنذروا من رأوه من الجن، وكان هؤلاء كما جاء في عدة روايات من جن نصيبين وهي من ديار بكر قريبة من الشام، وقيل: من نينوى وهي أيضاً من ديار بكر لكنها قريبة من الموصل، وذكر أنهم كانوا من الشيصبان وهم أكثر الجن عددا وعامة جنود إبليس منهم، وكان الحضور بوادي نخلة على نحو ليلة من مكة المكرمة. فقد أخرج أحمد وعبد بن حميد والشيخان والترمذي والنسائي وجماعة عن ابن عباس قال: انطلق النبي ﷺ في طائفة من أصحابه إلى سوق عكاظ وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء وأرسلت عليهم الشهب فرجعت الشياطين إلى قومهم فقالوا ما لكم؟ فقالوا: حيل بيننا وبين خبر السماء وأرسلت علينا الشهب قالوا ما حال بينكم وبين خبر السماء إلا شيء حدث فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها فانظروا ما هذا الذي حال بينكم وبين خبر السماء فانصرف أولئك الذين توجهوا نحو تهامة إلى النبي ﷺ وهو وأصحابه بنخلة عامدين إلى سوق عكاظ وهو عليه الصلاة والسلام يصلي بأصحابه صلاة الفجر فلما سمعوا القرآن استمعوا له فقالوا: هذا والله الذي حال بينكم وبين خبر السماء فهناك حين رجعوا إلى قومهم.

وفي رواية ابن المنذر عن عبد الملك أنهم لما حضروه قالوا: أنصتوا فلما قضى وفرغ ﷺ من صلاة الصبح ولوا إلى قومهم منذرين مؤمنين لم يشعر بهم حتى نزل ﴿قل أوحي إليّ أنه استمع نفر من الجن﴾ [الجن: ١].

وفي الصحيحين عن مسروق عن ابن مسعود أنه آذنته ﷺ بهم شجرة وكانوا على ما روي عن ابن عباس سبعة وكذا قال زر وذكر منهم زوبعة، وأخرج ابن أبي حاتم عن مجاهد أنهم كانوا سبعة. ثلاثة من أهل حران، وأربعة من نصيبين وكانت أسماؤهم حسى. ومسى. وشاصر. وماصر. والاردوانيان. وسرق. والأحقم. بميم آخره، وفي رواية عن كعب الأحقب بالباء، وذكر صاحب الروض بدل حسى. ومسى. منشىء. وناشىء.

وأخرج ابن جرير والطبراني. وابن مردويه عن ابن عباس أنه قال في هؤلاء النفر: كانوا تسعة عشر من أهل نصيبين فجعلهم رسول الله ﷺ رسلاً إلى قومهم، والخبر السابق يدل على أنه ﷺ كان حين حضر الجن مع طائفة من أصحابه، وأخرج عبد بن حميد وأحمد ومسلم والترمذي وأبو داود عن علقمة قال قلت لابن مسعود: هل صحب النبي ﷺ ليلة الجن منكم أحد؟ قال: ما صحبه منا أحد ولكنا كنا مع رسول الله ﷺ ذات ليلة ففقدناه فالتمسناه في الأودية والشعاب فقلنا: استطير أو اغتيل فبتنا بشرٍّ ليلة بات بها قوم فلما أصبحنا إذا هو جاء من قبل حراء فأخبرناه فقال أتاني داعي الجن فأتيتهم فقرأت عليهم القرآن فانطلق بنا فأرانا آثارهم وآثار نيرانهم فهذا يدل على أنه عليه الصلاة والسلام لم يكن معه أحد من أصحابه ولم يشعر به أحد منهم.

وأخرج أحمد عن ابن مسعود أنه قال: قمت مع رسول الله ﷺ ليلة الجن وأخذت إداوة ولا أحسبها إلا ماء حتى إذا كنا بأعلى مكة رأيت أسودة مجتمعة قال: فخط لي رسول الله ﷺ ثم قال: قم ههنا حتى آتيك ومضى رسول الله ﷺ إليهم فرأيتهم يتثورون إليه فسمر معهم ليلاً طويلاً حتى جاءني مع الفجر فقال لي: هل معك من وضوء قلت: نعم ففتحت الإداوة فإذا هو نبيذ فقلت: ما كنت أحسبها إلا ماء فإذا هو نبيذ فقال رسول الله ﷺ: ثمرة طيبة وماء طهور فتوضأ منها ثم قام يصلي فأدركه شخصان منهم فصفهما خلفه ثم صلى بنا فقلت: من هؤلاء يا رسول الله؟ قال: جن نصيبين فهذا يدل على خلاف ما تقدم والجمع بتعدد واقعة الجن، وقد أخرج الطبراني في الأوسط. وابن مردويه عن الحبر أنه قال: صرفت الجن إلى رسول الله ﷺ مرتين، وذكر الخفاجي أنه قد دلت الأحاديث على أن وفادة الجن كانت ست مرات ويجمع بذلك اختلاف الروايات في عددهم وفي غير ذلك، فقد أخرج أبو نعيم. والواقدي عن كعب الأحبار قال: انصرف النفر التسعة من أهل نصيبين من بطن نخلة وهم فلان وفلان وفلان والاردوانيان. والأحقب جاؤوا قومهم منذرين فخرجوا بعد وافدين إلى رسول الله ﷺ وهم ثلاثمائة فانتهوا إلى الحجون فجاء الأحقب فسلم على رسول الله ﷺ فقال: إن قومنا قد حضروا الحجون يلقونك فواعده رسول الله ﷺ لساعة من الليل بالحجون.

وأخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة أنه قال في الآية: هم اثنا عشر ألفاً من جزيرة الموصل، وفي الكشاف حكاية هذا العدد أيضاً وأن السورة التي قرأها ﷺ عليهم ﴿اقرأ باسم ربك﴾ [العلق: ١]، ونقل في البحر عن ابن عمر. وجابر ابن عبد الله رضي الله تعالى عنهم أنه عليه الصلاة والسلام قرأ عليهم سورة الرحمن فكان إذا قال: ﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾ [الرحمن] قالوا: لا بشيء من آيات ربنا نكذب ربنا لك الحمد، وأخرج أبو نعيم في الدلائل. والواقدي عن أبي جعفر قال: قدم على رسول الله ﷺ الجن في ربيع الأول سنة إحدى عشر من النبوة وفي معناه ما قيل: كانت القصة قبل الهجرة بثلاث سنين بناء على ما صح عن ابن عباس أنه ﷺ مكث بمكة يوحى إليه ثلاث عشرة سنة وفي المسألة خلاف والمشهور ما ذكر.

وقيل: كان استماع الجن في ابتداء الإيحاء ﴿**قَالُوا**﴾ أي عند رجوعهم إلى قومهم ﴿**يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَاباً**﴾ جليل الشأن ﴿**أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ**﴾ ذكروه دون عيسى عليهما السلام لأنه متفق عليه عند أهل الكتابين ولأن الكتاب المنزل عليه أجل الكتب قبل القرآن وكان عيسى عليه السلام مأموراً بالعمل بمعظم ما فيه أو بكله، وقال عطاء: لأنهم كانوا على اليهودية ويحتاج إلى نقل صحيح، وعن ابن عباس أن الجن لم تكن سمعت بأمر عيسى عليه السلام فلذا قالوا ذلك، وفيه بعد فإن اشتهار أمر عيسى عليه السلام وانتشار أمر دينه أظهر من أن يخفى لا سيما على الجن، ومن هنا قال أبو حيان: إن هذا لا يصح عن ابن عباس ﴿**مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ**﴾ من التوراة أو جميع الكتب الإلهية السابقة ﴿**يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ**﴾ من العقائد الصحيحة ﴿**وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ**﴾ من الأحكام الفرعية أو ما يعمها وغيرها من العقائد على أنه من ذكر العام بعد الخاص.

﴿يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللهِ﴾ أرادوا به ما سمعوه من الكتاب ووصفوه بالدعوة إلى الله تعالى بعدما وصفوه بالهداية إلى الحق والطريق المستقيم لتلازمهما، وفي الجمع بينهما ترغيب لهم في الإجابة أي ترغيب، وجوز أن يكون أرادوا به الرسول ﷺ ﴿وَآمِنُوا بِهِ﴾ أي بداعي الله تعالى أو بالله عز وجل ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ﴾ أي بعض ذنوبكم قيل: وهو ما كان خالص حقه عز وجل فإن حقوق العباد لا تغفر بالإيمان. وتعقبه ابن المنير بأن الحربي إذا نهب الأموال وسفك الدماء ثم حسن إسلامه جب إسلامه إثم ما تقدم بلا إشكال ثم قال ويقال: إنه لم يرد وعد المغفرة للكافرين على تقدير الإيمان في كتاب الله تعالى إلا مبعضة وهذا منه فإن لم يكن لاطراده كذلك سر فما هو إلا أن مقام الكافرين قبض لا بسط فلذلك لم يبسط رجاؤه في مغفرة جملة الذنوب، وقد ورد في حق المؤمنين كثيراً، ورده صاحب الإنصاف بأن مقام ترغيب الكافر في الإسلام بسط لا قبض وقد أمر الله تعالى أن يقول لفرعون: ﴿قولاً ليناً﴾ [طه: ٤٤] وقد قال تعالى: ﴿إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف﴾ [الأنفال: ٣٨] وهي غير مبعضة و «ما» للعموم لا سيما وقد وقعت في الشرط.

وقال بعض أجلة المحققين: إن الحربي وإن كان إذا أسلم لا تبقى عليه تبعة أصلاً لكن الذمي إذا أسلم تبقى عليه حقوق الآدميين، والقوم ـ كما نقل عن عطاء ـ كانوا يهوداً فتبقى عليهم تبعاتهم فيما بينهم إذا أسلموا جميعاً من غير حرب فلما كان الخطاب معهم جيء بما يدل على التبعيض، وقيل: جيء به لعدم علم الجن بعد بأن الإسلام يجب إثم ما قبله مطلقاً وفيه توقف، وقد يقال: أرادوا بالبعض الذنوب السالفة ولو لم يقولوا ذلك لتوهم المخاطبون أنهم إن أجابوا داعي الله تعالى وآمنوا به يغفر لهم ما تقدم من ذنوبهم وما تأخر، وقيل: من زائدة أي يغفر لكم ذنوبكم ﴿وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ معد للكفرة، وهذا ونحوه يدل على أن الجن مكلفون، ولم ينص ههنا على ثوابهم إذا أطاعوا وعمومات الآيات تدل على الثواب، وعن ابن عباس لهم ثواب وعليهم عقاب يلتقون في الجنة ويزدحمون على أبوابها، ولعل الاقتصار هنا على ما ذكر لما فيه من التذكير بالذنوب والمقام مقام الإنذار فلذا لم يذكر فيه شيء من الثواب، وقيل: لا ثواب لمطيعيهم إلا النجاة من النار فيقال لهم: كونوا تراباً فيكونون تراباً، وهذا مذهب ليث بن أبي سليم. وجماعة ونسب إلى الإمام أبي حنيفة رضي الله تعالى عنه، وقال النسفي في التيسير: توقف أبو حنيفة في ثواب الجن في الجنة ونعيمهم لأنه لا استحقاق للعبد على الله تعالى ولم يقل بطريق الوعد في حقهم إلا المغفرة والإجارة من العذاب، وأما نعيم الجنة فموقوف على الدليل.

وقال عمر بن عبد العزيز إن مؤمني الجن حول الجنة في ربض وليسوا فيها، وقيل: يدخلون الجنة ويلهمون التسبيح والذكر فيصيبون من لذة ذلك ما يصيبه بنو آدم من لذائذهم، قال النووي في شرح صحيح مسلم: والصحيح أنهم يدخلونها ويتنعمون فيها بالأكل والشرب وغيرهما، وهذا مذهب الحسن البصري. ومالك بن أنس والضحاك وابن أبي ليلى وغيرهم ﴿وَمَنْ لاَ يُجِبْ دَاعِيَ اللهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الأَرْضِ﴾ إيجاب للإجابة بطريق الترهيب إثر إيجابها بطريق الترغيب وتحقيق لكونهم منذرين وإظهار داعي الله من غير اكتفاء بأحد الضميرين بأن يقال: يجبه أو يجب داعيه للمبالغة في الإيجاب بزيادة التقرير وتربية المهابة وإدخال الروعة.

وتقييد الإعجاز بكونه في الأرض لتوسيع الدائرة أي فليس بمعجز له تعالى بالهرب وإن هرب كل مهرب من أقطارها أو دخل في أعماقها، وقوله تعالى: ﴿وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ﴾ بيان لاستحالة نجاته بواسطة الغير إثر بيان استحالة نجاته بنفسه وجمع الأولياء باعتبار معنى ﴿من﴾ فيكون من باب مقابلة الجمع بالجمع لانقسام الآحاد على الآحاد، ويؤيد ذلك ما روي عن ابن عامر أنه قرأ ﴿وليس لهم﴾ بضمير الجمع فإنه لمن باعتبار معناها، وكذا الجمع

في قوله سبحانه: ﴿أُولَٰئِكَ﴾ بذلك الاعتبار أي أولئك الموصوفون بعدم إجابة داعي الله ﴿فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ أي ظاهر كونه ضلالاً بحيث لا يخفى على أحد حيث أعرضوا عن إجابة من هذا شأنه ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ الهمزة للإنكار والواو على أحد القولين عطف على مقدر دخله الاستفهام يستدعيه المقام، والرؤية قلبية أي ألم يتفكروا ولم يعلموا ﴿أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ﴾ أي لم يتعب بذلك أصلاً من عيي كفعل بكسر العين، ويجوز فيه الإدغام بمعنى تعب كأعيا، وقال الكسائي: أعييت من التعب وعييت من انقطاع الحيلة والعجز والتحير في الأمر؛ وأنشدوا:

عيوا بأمرهم كما ... عيت ببيضتها الحمامة

أي لم يعجز عن خلقهن ولم يتحير فيه، واختار بعضهم عدم الفرق، وقرأ الحسن «ولم يَعِيْ» بكسر العين وسكون الياء، ووجهه أنه في الماضي فتح عين الكلمة كما قالوا في بقي بقى بفتح القاف وألف بعدها وهي لغة طيء، ولما بني الماضي على فعل مفتوح العين بني مضارعه على يفعل مسكورها فجاء يعي فلما دخل الجازم حذف الياء فبقي يعي بنقل حركة الياء إلى العين فسكنت الياء، وقوله تعالى: ﴿بِقَادِرٍ﴾ في حيز الرفع لأنه خبر أن والباء زائدة فيه، وحسن زيادتها كون ما قبلها في حيز النفي، وقد أجاز الزجاج ما ظننت أن أحداً بقائم قياساً على هذا، قال أبو حيان: والصحيح قصر ذلك على السماع فكأنه قيل هنا: أو ليس الله بقادر ﴿عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ﴾ ولذلك أجيب عنه بقوله تعالى: ﴿بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ تقريراً للقدرة على وجه عام يكون كالبرهان على المقصود، ولذا قيل: إن هذا مشير إلى كبرى لصغرى سهلة الحصول فكأنه قيل: إحياء الموتى شيء وكل شيء مقدور له فينتج أن إحياء الموتى مقدور له، ويلزمه أنه تعالى «قادر على أن يحيي الموتى».

وقرأ الجحدري وزيد بن علي وعمرو بن عبيد وعيسى والأعرج بخلاف عنه ويعقوب «يقدر» بدل ﴿بِقَادِرٍ﴾ بصيغة المضارع الدال على الاستمرار وهذه القراءة على ما قيل موافقة أيضاً للرسم العثماني.

﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ﴾ ظرف عامله قول مضمر مقوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ﴾ أي ويقال: ﴿يوم يعرض﴾ الخ، والظاهر أن الجملة معترضة، وقيل: هي حال، والتقدير وقد قيل، وفيه نظر، وقد مر آنفاً الكلام في العرض بطوله، والإشارة إلى ما يشاهدونه حين العرض من حيث هو من غير أن يخطر بالبال لفظ يدل عليه فضلاً عن تذكيره وتأنيثه إذ هو اللائق بتهويله وتفخيمه، وقيل: هي إلى العذاب بقرينة التصريح به بعد، وفيه تهكم بهم وتوبيخ لهم على استهزائهم بوعد الله تعالى ووعيده، وقولهم: ﴿وما نحن بمعذبين﴾ [الشعراء: ١٣٨، سبأ: ٣٥، الصافات: ٥٩].

﴿قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا﴾ تصديق بحقيته؛ وأكدوا بالقسم كأنهم يطمعون في الخلاص بالاعتراف بحقية ذلك كما في الدنيا وأنى لهم. وعن الحسن أنهم ليعذبون في النار وهم راضون بذلك لأنفسهم يعترفون أنه العدل.

﴿قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ بسبب استمراركم على الكفر في الدنيا، ومعنى الأمر الإهانة بهم فهو تهكم وتوبيخ وإلا لكان تحصيلاً للحاصل، وقيل: هو أمر تكويني؛ والمراد إيجاب عذاب غير ما هم فيه وليس بذاك، والفاء في قوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ واقعة في جواب شرط مقدر أي إذا كان عاقبة أمر الكفرة ما ذكر فاصبر على ما يصيبك من جهتهم أو إذا كان الأمر على ما تحققته من قدرته تعالى الباهرة ﴿فاصبر﴾ وجوز غير واحد كونها عاطفة لهذه الجملة على ما تقدم، والسببية فيها ظاهرة واقتصر في البحر على كونها لعطف

هذه الجملة على إخبار الكفار في الآخرة؛ وقال: المعنى بينهما مرتبط كأنه قيل: هذه حالهم فلا تستعجل أنت واصبر ولا تخف إلا الله عز وجل، والعزم يطلق على الجد والاجتهاد في الشيء وعلى الصبر عليه، و ﴿من﴾ بيانية كما في ﴿فاجتنبوا الرجس من الأوثان﴾ [الحج: ٣٠] والجار والمجرور في موضع الحال من ﴿الرسل﴾ فيكون أولو العزم صفة جميعهم، وإليه ذهب ابن زيد والجبائي وجماعة أي ﴿فاصبر كما صبر﴾ الرسل المجدون المجتهدون في تبليغ الوحي الذين لا يصرفهم عنه صارف ولا يعطفهم عنه عاطف والصابرون على أمر الله تعالى فيما عهده سبحانه إليهم أو قضاه وقدره عز وجل عليهم بواسطة أو بدونها. وعن عطاء الخراساني والحسن بن الفضل والكلبي ومقاتل وقتادة وأبي العالية وابن جريج، وإليه ذهب أكثر المفسرين أن ﴿من﴾ للتبعيض فأولو العزم بعض الرسل عليهم السلام، واختلف في عدتهم وتعيينهم على أقوال، فقال الحسن بن الفضل: ثمانية عشر وهم المذكورون في سورة الأنعام لأنه سبحانه قال بعد ذكرهم: ﴿فبهداهم اقتده﴾ [الأنعام: ٩٠] وقيل: تسعة نوح عليه السلام صبر على أذى قومه طويلاً. وإبراهيم عليه السلام صبر على الإلقاء في النار. والذبيح عليه السلام صبر على ما أريد به من الذبح. ويعقوب عليه السلام صبر على فقد ولده. ويوسف عليه السلام صبر على البئر والسجن وأيوب عليه السلام صبر على البلاء. وموسى عليه السلام قال له قومه: ﴿إنا لمدركون﴾ [الشعراء: ٦١] فقال ﴿إن معي ربي سيهدين﴾ [الشعراء: ٦٢] وداود عليه السلام بكى على خطيئته أربعين سنة وعيسى عليه السلام لم يضع لبنة على لبنة وقال: إنها يعني الدنيا معبرة فاعبروها ولا تعمروها، وقيل: سبعة آدم ونوح وإبراهيم وموسى وداود وسليمان وعيسى عليهم السلام، وقيل: ستة وهم الذين أمروا بالقتال وهم نوح وهود وصالح وموسى وداود وسليمان، وأخرجه ابن مردويه عن ابن عباس، وعن مقاتل أنهم ستة ولم يذكر حديث الأمر بالقتال وقال: هم نوح وإبراهيم وإسحق ويعقوب ويوسف وأيوب وأخرج ابن عساكر عن قتادة أنهم نوح وهود وإبراهيم وشعيب وموسى عليهم السلام وظاهره القول بأنهم خمسة وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر عنه أنهم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى وظاهره القول بأنهم أربعة وهذا أصح الأقوال. وقول الجلال السيوطي: إن أصحها القول بأنهم خمسة هؤلاء الأربعة ونبينا ﷺ وعليهم أجمعين وأخرج ذلك ابن أبي حاتم. وابن مردويه عن ابن عباس وهو المروي عن أبي جعفر، وأبي عبد الله من أئمة أهل البيت رضي الله تعالى عنهم ونظمهم بعض الأجلة فقال:

أولو العزم نوح والخليل الممجد ... وموسى وعيسى والحبيب محمد

مبني على أنهم كذلك بعد نزول الآية وتأسي نبينا عليه الصلاة والسلام بمن أمر بالتأسي به ولم يرد أن أصح الأقوال أن المراد بهم في الآية أولئك الخمسة ﷺ إذ يلزم عليه أمره عليه الصلاة والسلام أن يصبر كصبره نفسه ولا يكاد يصح ذلك، وعلى هذا قول أبي العالية فيما أخرجه عبد بن حميد وأبو الشيخ، والبيهقي في شعب الإيمان وابن عساكر عنه أنهم ثلاثة نوح وإبراهيم وهود ورسول الله ﷺ رابع لهم، ولعل الأولى في الآية القول الأول وإن صار أولو العزم بعد مختصاً بأولئك الخمسة عليهم الصلاة والسلام عند الإطلاق لاشتهارهم بذلك كما في الأعلام الغالبة فكأنه قيل: فاصبر على الدعوة إلى الحق ومكابدة الشدائد مطلقاً كما صبر إخوانك الرسل قبلك **﴿وَلاَ تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ﴾** أي لكفار مكة بالعذاب أي لا تدع بتعجيله فإنه على شرف النزول بهم **﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ﴾** من العذاب **﴿لَمْ يَلْبَثُوا﴾** في الدنيا **﴿إِلاَّ سَاعَةً﴾** يسيرة **﴿مِنْ نَهَارٍ﴾** لما يشاهدون من شدة العذاب وطول مدته. وقرأ أبي «من النهار» وقوله تعالى: **﴿بَلاغٌ﴾** خبر مبتدأ محذوف أي هذا الذي وعظتم به كفاية في الموعظة أو تبليغ من الرسول، وجعل بعضهم الإشارة إلى القرآن أو ماذكر من السورة. وأيد تفسير ﴿بلاغ﴾ بتبليغ بقراءة أبي مجلز. وأبي سراج الهذلي «بلغ» بصيغة الأمر له ﷺ، وبقراءة أبي مجلز أيضاً في رواية «بلغ» بصيغة الماضي من التفعيل، واستظهر أبو حيان كون

الإشارة إلى ما ذكر من المدة التي لبثوا فيها كأنه قيل: تلك الساعة بلاغهم كما قال تعالى: ﴿متاع قليل﴾ [آل عمران: ١٩٧، النحل: ١١٧] وقال أبو مجلز: ﴿بلاغ﴾ مبتدأ خبره قوله تعالى: ﴿لهم﴾ السابق فيوقف على ﴿ولا تستعجل﴾ ويبتدأ بقوله تعالى: ﴿لهم﴾ وتكون الجملة التشبيهية معترضة بين المبتدأ والخبر؛ والمعنى لهم انتهاء وبلوغ إلى وقت فينزل بهم العذاب؛ وهو ضعيف جداً لما فيه من الفصل ومخالفة الظاهر إذ الظاهر تعلق ﴿لهم﴾ بتستعجل. وقرأ الحسن وزيد بن علي وعيسى «بلاغاً» بالنصب بتقدير بلغ بلاغاً أو بلغنا بلاغاً أو نحو ذلك. وقرأ الحسن أيضاً «بَلاغٍ» بالجر على أنه نعت لنهار.

﴿فَهَلْ يُهْلَكُ إلاَّ القَوْمُ الفَاسقُونَ﴾ الخارجون عن الاتعاظ أو عن الطاعة، وفي الآية من الوعيد والإنذار ما فيها. وقرأ ابن محيصن فيما حكى عنه ابن خالويه «يَهْلِكُ» بفتح الياء وكسر اللام. وعنه أيضاً «يَهْلَكُ» بفتح الياء واللام وماضيه هلك بكسر اللام وهي لغة، وقال أبو الفتح: هي مرغوب عنها. وقرأ زيد بن ثابت «نهلك» بنون العظمة من الإهلاك «القومَ الفاسقين» بالنصب، وهذه الآية أعني قوله تعالى: ﴿كأنهم﴾ إلى الآخر جاء في بعض الآثار ما يعشر بأن لها خاصية من بين آي هذه السورة. أخرج الطبراني في الدعاء عن أنس عن النبي ﷺ قال: «إذا طلبت حاجة وأحببت أن تنجح فقل: لا إله إلا الله وحده لا شريك له العلي العظيم لا إله إلا الله وحده لا شريك له الحليم الكريم بسم الله الذي لا إله إلا هو الحي الحليم سبحان الله رب العرش العظيم الحمد لله رب العالمين كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها. كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار بلاغ فهل يهلك إلا القوم الفاسقون اللهم إني أسألك موجبات رحمتك وعزائم مغفرتك والسلامة من كل إثم والغنيمة من كل بر والفوز بالجنة والنجاة من النار اللهم لا تدع لي ذنباً إلا غفرته ولا هماً إلا فرجته ولا ديناً إلا قضيته ولا حاجة من حوائج الدنيا والآخرة إلا قضيتها برحمتك يا أرحم الراحمين».

(٤٧) سورة محمد مدنية
وآياتها ثمان وثلاثون

بسم الله الرحمن الرحيم

ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَـٰلَهُمْ ﴿١﴾

واعلم أنه تم الكلام ههنا ، ثم قال تعالى (بلاغ) أى هذا بلاغ ، ونظيره قوله تعالى (هذا بلاغ للناس) أى هذا الذى وعظتم به فيه كفاية فى الموعظة ، أو هذا تبليغ من الرسل ، فهل يهلك إلا الخارجون عن الاتعاظ به والعمل بموجبه والله أعلم .

قال المصنف رحمه الله تعالى تم تفسير هذه السورة يوم الأربعاء العشرين من ذى الحجة سنة ثلاث وستمائة والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وأصحابه وأزواجه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين .

باسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله اضل اعمالهم ﴾

أول هذه السورة مناسب لآخر السورة المتقدمة ، فإن آخرها قوله تعالى (فهل يهلك إلا القوم الفاسقون) فإن قال قائل كيف يهلك الفاسق وله أعمال صالحة كاطعام الطعام وصلة الأرحام وغير ذلك ؟ ، مما لايخلو عنه الإنسان فى طول عمره فيكون فى إهلاكه إهدار عمله وقد قال تعالى (فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره) وقال تعالى (الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله أضل أعمالهم) أى لم يبق لهم عمل ولم يوجد فلم يمتنع الإهلاك ، وسنبين كيف إبطال الأعمال مع تحقيق القول فيه ، وتعالى الله عن الظلم ، وفى التفسير مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ من المراد بقوله (الذين كفروا) ؟ قلنا فيه وجوه (الأول) هم الذين كانوا يطعمون الجيش يوم بدر منهم أبو جهل والحرث ابنا هشام وعتبة وشيبة ابنا ربيعة وغيرهم (الثانى) كفار قريش (الثالث) أهل الكتاب (الرابع) هو عام يدخل فيه كل كافر .

﴿ المسألة الثانية ﴾ فى الصد وجهان (أحدهما) صدوا أنفسهم معناه أنهم صدوا أنفسهم عن السبيل ومنعوا عقولهم من اتباع الدليل (وثانيهما) صدوا غيرهم ومنعوهم كما قال تعالى عن المستضعفين (قال الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا أنتم لكنا مؤمنين) وعلى هذا بحث : وهو أن إضلال الأعمال مرتب على الكفر والصد ، والمستضعفون لم يصدوا فلا يضل أعمالهم ، فنقول التخصيص بالذكر لا يدل على نفى ماعداه ، ولا سيما إذا كان المذكور أولى بالذكر من غيره

وههنا الكافر الصاد أدخل فى الفساد فصار هو أولى بالذكر ، أو نقول كل من كفر صار صاداً لغيره ، أما المستكبر فظاهر ، وأما المستضعف فلأنه بمتابعته أثبت للمستكبر ما يمنعه من اتباع الرسول فإنه بعد ما يكون متبوعاً يشق عليه بأن يصير تابعاً ، ولأن كل من كفر صار صاداً لمن بعده لأن عادة الكفار اتباع المتقدم كما قال عنهم (إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون) أو مقتدون ، فإن قيل فعلى هذا كل كافر صاد فما الفائدة فى ذكر الصد بعد الكفر نقول هو من باب ذكر السبب وعطف المسبب عليه تقول أكلت كثيراً وشبعت ، والكفر على هذا سبب الصد ، ثم إذا قلنا بأن المراد منه أنهم صدوا أنفسهم ففيه إشارة إلى أن ما فى الأنفس من الفطرة كان داعياً إلى الإيمان ، والامتناع لمانع وهو الصد لنفسه .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ فى المصدود عنه وجوه (الأول) عن الإنفاق على محمد عليه السلام وأصحابه (الثانى) عن الجهاد (الثالث) عن الإيمان (الرابع) عن كل ما فيه طاعة الله تعالى وهو اتباع محمد عليه السلام ، وذلك لأن النبى ﷺ على الصراط المستقيم هاد إليه ، وهو صراط الله قال تعالى (وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم صراط الله) فمن منع من اتباع محمد عليه السلام فقد صد عن سبيل الله .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ فى الإضلال وجوه (الأول) المراد منه الإبطال ، ووجهه هو أن المراد أنه أضله بحيث لا يجده ، فالطالب إنما يطلبه فى الوجود ، وما لا يوجد فى الوجود فهو معدوم . فإن قيل كيف يبطل الله حسنة أوجدها ؟ نقول أن الابطال على وجوه (أحدها) يوازن بسيئاتهم الحسنات التى صدرت منهم ويسقطها بالموازنة ويبقى لهم سيئات محضة ، لأن الكفر يزيد على غير الإيمان من الحسنات والإيمان يترجح على غير الكفر من السيئات (وثانيها) أبطلها لفقد شرط ثبوتها وإثباتها وهو الإيمان لأنه شرط قبول العمل قال تعالى (من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن) وإذا لم يقبل الله العمل لا يكون له وجود لأن العمل لا بقاء له فى نفسه بل هو يعدم عقيب ما يوجد فى الحقيقة غير أن الله تعالى يكتب عنده بفضله أن فلاناً عمل صالحاً وعندى جزاؤه فيبقى حكما ، وهذا البقاء حكما خير من البقاء الذى للأجسام التى هى محل الأعمال حقيقة ، فإن الأجسام وإن بقيت غير أن مآلها إلى الفناء والعمل الصالح من الباقيات عند الله أبداً ، وإذا ثبت هذا تبين أن الله بالقبول متفضل ، وقد أخبر أنى لا أقبل إلا من مؤمن فمن عمل وتعب من غير سبق الإيمان فهو المضيع تعبه لا الله تعالى (وثالثها) لم يعمل الكافر عمله لوجه الله تعالى فلم يأت بخير فلا يرد علينا قوله (فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره) وبيانه هو أن العمل لا يتميز إلا بمن له العمل لا بالعامل ولا بنفس العمل ، وذلك لأن من قام ليقتل شخصاً ولم يتفق قتله ، ثم قام ليكرمه ولم يتفق الإكرام ولا القتل ، وأخبر عن نفسه أنه قام فى اليوم الفلانى لقتله وفى اليوم الآخر لإكرامه يتميز القيامان لا بالنظر إلى القيام فإنه واحد ولا بالنظر إلى القائم

وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٖ وَهُوَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡ

فإنه حقيقة واحدة ، وإنما يتميز بما كان لأجله القيام ، وكذلك من قام وقصد بقيامه إكرام الملك وقام وقصد بقيامه إكرام بعض العوام يتميز أحدهما عن الآخر بمنزلة العمل لكن نسبة الله الكريم إلى الأصنام فوق نسبة الملوك إلى العوام فالعمل للأصنام ليس بخير. ثم إن اتفق أن يقصد واحد بعمله وجه الله تعالى ومع ذلك يعبد الأوثان لا يكون عمله خيراً ، لأن مثل ما أتى بهلوجه الله أتى به للصنم المنحوت فلا تعظيم (الوجه الثانى) الإضلال هو جعله مستهلكا وحقيقته هو أنه إذا كفر وأتى للأحجار والأخشاب بالركوع والسجود فلم يبق لنفسه حرمة وفعله لا يبق معتبراً بسبب كفره ، وهذا كمن يخدم عند الحارس والسايس إذا قام . فالسلطان لا يعمل قيامه تعظيما لخسته كذلك الكافر ، وأما المؤمن فبقدر مايتكبر على غير الله يظهر تعظيمه لله ، كالملك الذى لا ينقاد لأحد إذا انقاد فى وقت لملك من الملوك يتبين به عظمته (الوجه الثالث) (أضله) أى أهمله وتركه ، كما يقال أضل بعيره إذا تركه مسيباً فضاع .

ثم إن الله تعالى لما بين حال الكفار بين حال المؤمنين .

فقال : ﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات وآمنوا بما نزل على محمد وهو الحق من ربهم ﴾ وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قد ذكرنا مراراً أن الله تعالى كلما ذكر الإيمان والعمل الصالح ، رتب عليهما المغفرة والأجر كما قال (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة ورزق كريم) وقال (والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنكفرن عنهم سيئاتهم ولنجزينهم) وقلنا بأن المغفرة ثواب الإيمان والأجر على العمل الصالح واستوفينا البحث فيه فى سورة العنكبوت فنقول ههنا جزاء ذلك قوله (كفر عنهم سيئاتهم) إشارة إلى مايثيب على الإيمان ، وقوله (وأصلح بالهم) إشارة إلى مايثيب على العمل الصالح .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قالت المعتزلة تكفير السيئات مرتب على الإيمان والعمل الصالح فمن آمن ولم يفعل الصالحات يبقى فى العذاب خالداً . فنقول لو كان كما ذكرتم لكان الإضلال مرتباً على الكفر والصد ، فمن يكفر لا ينبغى ان تضل أعماله ، أو نقول قد ذكرنا أن الله رتب أمرين على أمرين فمن آمن كفر سيئاته ومن عمل صالحاً أصلح باله أو نقول أى مؤمن يتصور أنه غير آت بالصالحات بحيث لا يصدر عنه صلاة ولا صيام ولا صدقة ولا إطعام ، وعلى هذا فقوله (وعملوا) عطف المسبب على السبب ، كما قلنا فى قول القائل أكلت كثيراً وشبعت .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قوله (وآمنوا بما نزل على محمد) مع أن قوله آمنوا وعملوا الصالحات أفاد هذا المعنى فما الحكمة فيه وكيف وجهه ؟ فنقول : أما وجهه فبيانه من وجوه (الأول) قوله (والذين آمنوا) أي بالله ورسوله واليوم الآخر ، وقوله (وآمنوا بما نزل) أي بجميع الأشياء الواردة في كلام الله ورسوله تعميم بعد أمور خاصة وهو حسن ، تقول خالق الله السموات والأرض وكل شيء إما على معنى وكل شيء غير ما ذكرنا . وإما على العموم بعد ذكر الخصوص (الثاني) أن يكون المعنى آمنوا وآمنوا من قبل بما نزل على محمد وهو الحق المعجز الفارق بين الكاذب والصادق يعني آمنوا أولا بالمعجز وأيقنوا بأن القرآن لا يأتي به غير الله ، فآمنوا وعملوا الصالحات والواو للجمع المطلق ، ويجوز أن يكون المتأخر ذكراً متقدماً وقوعاً ، وهذا كقول القائل آمن به ، وكان الايمان به واجباً ، أو يكون بياناً لإيمانهم كأنهم (وآمنوا بما نزل على محمد) أي آمنوا وآمنوا بالحق كما يقول القائل خرجت وخرجت مصيباً أي وكان خروجي جيداً حيث نجوت من كذا وربحت كذا فكذلك لما قال آمنوا بين أن إيمانهم كان بما أمر الله وأنزل الله لا بما كان باطلا من عند غير الله (الثالث) ماقاله أهل المعرفة ، وهو أن العلم العمل والعمل العلم ، فالعلم يحصل ليعمل به لما جاء : إذا عمل العالم العمل الصالح علم مالم يكن يعلم ، فيعلم الانسان مثلا قدرة الله بالدليل وعلمه وأمره فيحمله الأمر على الفعل ويحثه عليه علمه فعلمه بحاله وقدرته على ثوابه وعقابه ، فإذا اتى بالعمل الصالح علم من أنواع مقدورات الله ومعلومات الله تعالى مالم يعلمه أحد إلا باطلاع الله عليه وبكشفه ذلك له فيؤمن ، وهذا هو المعنى في قوله (هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم) فإذا آمن المكلف بمحمد بالبرهان وبالمعجزة وعمل صالحاً حمله علمه على أن يؤمن بكل ماقاله محمد ولم يجد في نفسه شكا ، وللمؤمن في المرتبة الأولى أحوال وفي المرتبة الأخيرة أحوال ، أما في الإيمان بالله ففي الأول يجعل الله معبوداً ، وقد يقصد غيره في حوائجه فيطلب الرزق من زيد وعمرو ويجعل أمراً سبباً لأمر ، وفي الأخيرة يجعل الله مقصوداً ولا يقصد غيره ، ولا يرى إلا منه سره وجهره ، فلا ينيب إلى شيء في شيء فهذا هو الإيمان الآخر بالله وذلك الإيمان الأول ،

وأما ما في النبي صلى الله عليه وسلم فيقول أولا هو صادق فيما ينطق ، ويقول آخر الانطق له إلا بالله ، ولا كلام يسمع منه إلا وهو من الله ، فهو في الأول يقول بالصدق ووقوعه منه ، وفي الثاني يقول بعدم إمكان الكذب منه لأن حاكي كلام الغير لاينسب إليه الكذب ولا يمكن إلا في نفس الحكاية ، وقد علم هو أنه حاك عنه كما قاله ، وأما في المرتبة الأولى فيجعل الحشر مستقبلا والحياة العاجلة حالا وفي المرتبة الاخيرة يجعل الحشر حالا والحياة الدنيا ماضياً ، فيقسم حياة نفسه في كل لحظة ، ويجعل الدنيا كلها عدماً لا يلتفت إليها ولا يقبل عليها .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قوله (وآمنوا بما نزل على محمد) هو في مقابلة قوله في حق الكافر (وصدوا) لأنا بينا في وجه أن المراد بهم صدوا عن اتباع محمد ﷺ ، وهذا حث على اتباع محمد

كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴿٢﴾

ﷺ ، فهم صدوا أنفسهم عن سبيل الله ، وهو محمد عليه السلام وما أنزل عليه ، وهؤلاء حثوا أنفسهم على اتباع سبيله ، لاجرم حصل لهؤلاء ضد ماحصل لأولئك ، فأضل الله حسنات أولئك وستر على سيئات هؤلاء .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ قوله تعالى (وهو الحق من ربهم) هل يمكن أن يكون من ربهم وصفاً فارقاً ، كما يقال رأيت رجلا من بغداد ، فيصير وصفاً للرجل فارقاً بينه وبين من يكون من الموصل وغيره ؟ نقول لا ، لأن كل ماكان من الله فهو الحق ، فليس هذا هو الحق من ربهم ، بل قوله (من ربهم) خبر بعد خبر ، كأنه قال وهو الحق وهو من ربهم ، أو إن كان وصفاً فارقاً فهو على معنى أنه الحق النازل من ربهم لأن الحق قد يكون مشاهداً ، فإن كون الشمس مضيئة حق وهو ليس نازل من الرب ، بل هو علم حاصل بطريق يسره الله تعالى لنا .

قوله تعالى : ﴿ كفر عنهم سيئاتهم وأصلح بالهم ﴾ أي سترها وفيه إشارة إلى بشارة ماكانت تحصل بقوله أعدمها ومحاها ، لأن محو الشيء لاينبيء عن إثبات أمر آخر مكانه ، وأما الستر فينبيء عنه ، وذلك لأن من يريد ستر ثوب بال أو وسخ لايستره بمثله ، وإنما يستره بثوب نفيس نظيف ، ولا سيما الملك الجواد إذا ستر على عبد من عبيده ثوبه البالي أمر بإحضار ثوب من الجنس العالي لايحصل إلا بالثمن الغالي ، فيلبس هذا هو الستر بينه وبين المحبوبين ، وكذلك المغفرة ، فإن المغفرة والتكفير من باب واحد في المعنى ، وهذا هو المذكور في قوله تعالى (فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات) وقوله (وأصلح بالهم) إشارة إلى ماذكرنا من أنه يبدلها حسنة ، فإن قيل كيف تبدل السيئة حسنة ؟ نقول معناه أنه يجزيه بعد سيئاته مايجزي المحسن على إحسانه ، فإن قال الإشكال باق وباد ، وما زال بل زاد ، فإن الله تعالى لو أثاب على السيئة كما يثيب عن الحسنة ، لكان ذلك حثاً على السيئة ، نقول ماقلنا إنه يثيب على السيئة : وإنما قلنا إنه يثيب بعد السيئة بما يثيب على الحسنة ، وذلك حيث يأتي المؤمن بسيئة ، ثم يتنبه ويندم ويقف بين يدي ربه معترفاً بذنبه مستحقراً لنفسه ، فيصير أقرب إلى الرحمة من الذي لم يذنب ، ودخل على ربه مفتخراً في نفسه ، فصار الذنب شرطاً للندم ، والثواب ليس على السيئة ، وإنما هو على الندم ، وكأن الله تعالى قال عبدي أذنب ورجع إلي ، ففعله شيء لكن ظنه بي حسن حيث لم يجد ملجأ غيري فاتكل على فضلي ، والظن عمل القلب ، والفعل عمل البدن ، واعتبار عمل القلب أولى ، ألا ترى أن النائم والمغمى عليه لايلتفت إلى عمل بدنه ، والمفلوج الذي لاحركة له يعتبر قصد قلبه ، ومثال الروح والبدن راكب دابة يركض فرسه بين يدي ملك يدفع عنه العدو بسيفه وسنانه ، والفرس يلطخ ثوب الملك بركضه في استنانه ، فهل يلتفت إلى فعل الدابة مع فعل الفارس ، بل لو كان الراكب فارغاً

ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ

الفرس يؤذى بالتلويث يخاطب الفارس به ، فكذلك الروح راكب والبدن مركوب ، فإن كانت الروح مشغولة بعبادة الله وذكره ، ويصدر من البدن شيء لايلتفت إليه ، بل يستحسن منه ذلك ويزاد فى تربية الفرس الراكض ويهجر الفرس الواقف ، وإن كان غير مشغول فهو مؤاخذ بأفعال البدن .

قوله تعالى : ﴿ ذلك بأن الذين كفروا اتبعوا الباطل وأن الذين آمنوا اتبعوا الحق من ربهم ﴾ أى ذلك الإضلال والإبطال بسبب اتباعهم الباطل ، وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ فى الباطل وجوه (الأول) مالا يجوز وجوده ، وذلك لأنهم اتبعوا إلها غير الله ، وإله غير الله محال الوجود ، وهو الباطل وغاية الباطل ، لأن الباطل هو المعدوم ، يقال بطل كذا ، أى عدم ، والمعدوم الذى لايجوز وجوده ولا يمكن أن يوجد ، ولا يجوز أن يصير حقاً موجوداً ، فهو فى غاية البطلان . فعلى هذا فالحق هو الذى لا يمكن عدمه وهو الله تعالى ، وذلك لأن الحق هو الموجود ، يقال تحقق الأمر ، أى وجد وثبت ، والموجود الذى لا يجوز عدمه هو فى غاية الثبوت (الثانى) الباطل الشيطان بدليل قوله تعالى (لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين) فبين أن الشيطان متبوع وأتباعه هم الكفار والفجار ، وعلى هذا فالحق هو الله ، لأنه تعالى جعل فى مقابلة حزب الشيطان حزب الله (الثالث) الباطل ، هو قول كبرائهم ودين آبائهم ، كما قال تعالى عنهم (إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون) ومقتدون فعلى هذا الحق ما قاله النبى عليه السلام عن الله (الرابع) الباطل كل ما سوى الله تعالى ، لأن الباطل والهالك بمعنى واحد . و (كل شيء هالك إلا وجهه) وعلى هذا فالحق هو الله تعالى أيضاً .

﴿ المسألة الثانية ﴾ لوقال قائل من ربهم لايلائم إلا وجهاً واحداً من أربعة أوجه ، وهو قولنا المراد من الحق هو ماأنزل الله وما قال النبى عليه السلام من الله ، فأما على قولنا الحق هو الله فكيف يصح قوله (اتبعوا الحق من ربهم) نقول على هذا من ربهم لايكون متعلقاً بالحق ، وإنما يكون تعلقه بقوله بقوله تعالى (اتبعوا) أى اتبعوا أمر ربهم ، أى من فضل الله أوهداية ربهم اتبعوا الحق ، وهو الله سبحانه .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ إذاكان الباطل هو المعدوم الذى لايجوز وجوده ، فكيف يمكن اتباعه ؟ نقول لماكانوا يقولون إنما يفعلون للأصنام وهى آلهة وهى تؤجرهم بذلك كانوا متبعين فى زعمهم ، ولا متبع هناك .

كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ ﴿٣﴾

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قال فى حق المؤمنين (اتبعوا الحق من ربهم) وقال فى حق الكفار (اتبعوا الباطل) من آلهتهم أو الشيطان ، نقول أما آلهتهم فلأنهم لا كلام لهم ولا عقل ، وحيث ينطقهم الله ينكرون فعلهم ، كما قال تعالى (ويوم القيامة يكفرون بشرككم) وقال تعالى (وكانوا بعبادتهم كافرين) والله تعالى رضى بفعلهم وثبتهم عليه ، ويحتمل أن يقال قوله (من ربهم) عائد إلى الأمرين جميعاً ، أى من ربهم اتبع هؤلاء الباطل ، وهؤلاء الحق ، أى من حكم ربهم ، ومن عند ربهم .

قوله تعالى : ﴿ كذلك يضرب الله للناس أمثالهم ﴾ وفيه أيضاً مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ أى مثل ضربه الله تعالى حتى يقول (كذلك يضرب الله للناس أمثالهم) ؟ نقول فيه وجهان (أحدهما) إضلال أعمال الكفار وتكفير سيئات الأبرار (الثانى) كون الكافر متبعاً للباطل ، وكون المؤمن متبعاً للحق ، ويحتمل وجهين آخرين (أحدهما) على قولنا (من ربهم) أى من عند ربهم اتبع هؤلاء الباطل وهؤلاء الحق ، نقول هذا مثل يضرب عليه جميع الأمثال ، فان الكل من عند الله الإضلال وغيره والاتباع وغيره (وثانيهما) هو أن الله تعالى لما بين أن الكافر يضل الله عمله والمؤمن يكفر الله سيئاته ، وكان بين الكفر والإيمان مباينة ظاهرة فإنهما ضدان ، نبه على أن السبب كذا أى ليس الإضلال والتكفير بسبب المضادة والاختلاف بل بسبب اتباع الحق والباطل ، وإذا علم السبب فالفعلان قد يتحدان صورة وحقيقة وأحدهما يورث إبطال الأعمال والآخر يورث تكفير السيئات بسبب أن أحدهما يكون فيه اتباع الحق والآخر اتباع الباطل ، فإن من يؤمن ظاهراً وقلبه مملوء من الكفر ، ومن يؤمن بقلبه وقلبه مملوء من الإيمان اتحد فعلاهما فى الظاهر ، وهما مختلفان بسبب اتباع الحق واتباع الباطل ، لا بدع من ذلك فإن من يؤمن ظاهراً وهو يسر الكفر ، ومن يكفر ظاهراً بالإكراه وقلبه مطمئن بالإيمان اختلف الفعلان فى الظاهر ، وإبطال الأعمال لمن أظهر الإيمان بسبب أن اتباع الباطل من جانبه فكأنه تعالى قال الكفر والإيمان مثلان يثبت فيهما حكمان وعلم سببه ، وهو اتباع الحق والباطل ، فكذلك اعلموا أن كل شىء اتبع فيه الحق كان مقبولا مثاباً عليه ، وكل أمر اتبع فيه الباطل كان مردوداً معاقباً عليه فصار هذا عاماً فى الأمثال ، على أنا نقول قوله (كذلك) لا يستدعى أن يكون هناك مثل مضروب بل معناه أنه تعالى لما بين حال الكافر وإضلال أعماله وحال المؤمن وتكفير سيئاته وبين السبب فيهما ، كان ذلك غاية الإيضاح فقال (كذلك) أى مثل هذا البيان (يضرب الله للناس أمثالهم) ويبين لهم أحوالهم .

﴿ المسألة الثانية ﴾ الضمير فى قوله (أمثالهم) عائد إلى من ؟ فيه وجهان : (أحدهما) إلى الناس

فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ

كافة قال تعالى (يضرب الله للناس أمثالهم) على أنفسهم (وثانيهما) إلى الفريقين السابقين فى الذكر معناه : يضرب الله للناس أمثال الفريقين السابقين .

قوله تعالى : ﴿ فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا أثخنتموهم ﴾ .وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ الفاء فى قوله (فإذا لقيتم) يستدعى متعلقاً يتعلق به ويترتب عليه ، فما وجه التعلق بما قبله ؟ نقول هو من وجوه : (الأول) لما بين أن الذين كفروا أضل الله أعمالهم واعتبار الإنسان بالعمل ، ومن لم يكن له عمل فهو همج فإن صار مع ذلك يؤذى حسن إعدامه (فإذا لقيتم) بعد ظهور أن لا حرمة لهم وبعد إبطال أعمالهم ، فاضربوا أعناقهم (الثانى) إذا تبين تباين الفريقين وتباعد الطريقين ، وأن أحدهما يتبع الباطل وهو حزب الشيطان ، والآخر يتبع الحق وهو حزب الرحمن حق القتال عند التحزب ، فاذا لقيتموهم فاقتلوهم (الثالث) أن من الناس من يقول لضعف قلبه وقصور نظره إيلام الحيوان من الظلم والطغيان ، ولا سيما القتل الذى هو تخريب بنيان ، فيقال رداً عليهم : لما كان اعتبار الأعمال باتباع الحق والباطل فمن يقتل فى سبيل الله لتعظيم أمر الله لهم من الأجر ما للمصلى والصائم ، فإذا لقيتم الذين كفروا فاقتلوهم ولا تأخذكم بهما رأفة فإن ذلك اتباع للحق والاعتبار به لا بصورة الفعل .

﴿ المسألة الثانية ﴾ (فضرب) منصوب على المصدر ، أى فاضربوا ضرب الرقاب .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ ما الحكمة فى اختيار ضرب الرقبة على غيرها من الأعضاء نقول فيه : لما بين أن المؤمن ليس يدافع إنما هو دافع ، وذلك أن من يدفع الصائل لا ينبغى أن يقصد أولا مقتله بل يتدرج ويضرب على غير المقتل ، فان اندفع فذاك ولا يترقى إلى درجة الاهلاك ، فقال تعالى ليس المقصود إلا دفعهم عن وجه الأرض ، وتطهير الأرض منهم ، وكيف لا والأرض لكم مسجد ، والمشركون نجس ، والمسجد يطهر من النجاسة ، فإذاً ينبغى أن يكون قصدكم أولا إلى قتلهم بخلاف دفع الصائل ، والرقبة أظهر المقاتل لأن قطع الحلقوم والأوداج مستلزم للموت لكن فى الحرب لا يتهيأ ذلك ، والرقبة ظاهرة فى الحرب ففى ضربها حز العنق وهو مستلزم الموت بخلاف سائر المواضع ، ولا سيما فى الحرب ، وفى قوله (لقيتم) ما ينبىء عن مخالفتهم الصائل لأن قوله (لقيتم) يدل على أن القصد من جانبهم بخلاف قولنا لقيكم ، ولذلك قال فى غير هذا الموضع (فاقتلوهم حيث ثقفتموهم) .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قال ههنا (ضرب الرقاب) بإظهار المصدر وترك الفعل ، وقال فى الأنفال (فاضربوا فوق الأعناق) بإظهار الفعل ، وترك المصدر ، فهل فيه فائدة ؟ نقول نعم ولنبينها بتقديم مقدمة ، وهى أن المقصود أولا فى بعض السور قد يكون صدور الفعل من فاعل ويتبعه المصدر

فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً

ضمناً ، إذ لا يمكن أن يفعل فاعل إلا ويقع منه المصدر فى الوجود ، وقد يكون المقصود أولا المصدر ولكنه لا يوجد إلا من فاعل فيطلب منه أن يفعل ، مثاله من قال : إنى حلفت أن أخرج من المدينة . فيقال له : فاخرج ، صار المقصود منه صدور الفعل منه والخروج فى نفسه غير مقصود الانتفاء ، ولو أمكن أن يخرج من غير تحقق الخروج منه لما كان عليه إلا أن يخرج لكن من ضرورات الخروج أن يخرج ، فإذا قال قائل ضاق بى المكان بسبب الأعداء فيقال له مثلا الخروج يعنى الخروج فاخرج فإن الخروج هو المطلوب حتى لو أمكن الخروج من غير فاعل لحصل الغرض لكنه محال فيتبعه الفعل ، إذا عرفت هذا فنقول فى الأنفال الحكاية عن الحرب الكائنة وهم كانوا فيها والملائكة أنزلوا لنصرة من حضر فى صف القتال فصدور الفعل منه مطلوب ، وههنا الأمر وارد وليس فى وقت القتال بدليل قوله تعالى (فاذا لقيتم) والمقصود بيان كون المصدر مطلوباً لتقدم المأمور على الفعل قال (فضرب الرقاب) وفيما ذكرنا تبيين فائدة أخرى وهى أن الله تعالى قال هناك (واضربوا منهم كل بنان) وذلك لأن الوقت وقت القتال فأرشدهم إلى المقتل وغيره إن لم يصيبوا المقتل ، وههنا ليس وقت القتال فبين أن المقصود القتل وغرض المسلم ذلك .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ حتى لبيان غاية الأمر لا لبيان غاية القتل أى (حتى إذا أثخنتموهم) لا يبقى الأمر بالقتل ، ويبقى الجواز ولو كان لبيان القتل لما جاز القتل ، والقتل جائز إذا التحق المثخن بالشيخ الهرم ، والمراد كما إذا قطعت يداه ورجلاه فنهى عن قتله .

قوله تعالى : ﴿ فشدوا الوثاق ﴾ أمر إرشاد .

قوله تعالى : ﴿ فإما مناً بعد وإما فداء ﴾ وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ (إما) وإنما للحصر وحالهم بعد الأسر غير منحصر فى الأمرين ، بل يجوز القتل والاسترقاق والمن والفداء ، نقول هذا إرشاد فذكر الأمر العام الجائز فى سائر الأجناس ، والاسترقاق غير جائز فى أسر العرب ، فإن النبى ﷺ كان معهم فلم يذكر الاسترقاق ، وأما القتل فلأن الظاهر فى المثخن الإزمان ، ولأن القتل ذكره بقوله (فضرب الرقاب) فلم يبق إلا الامران .

﴿ المسألة الثانية ﴾ مناً وفداء منصوبان لكونهما مصدرين تقديره : فإما تمنون مناً وإما تفدون فداء وتقديم المن على الفداء إشارة إلى ترجيح حرمة النفس على طلب المال ، والفداء يجوز أن يكون مالا يكون وأن يكون غيره من الأسرى أو شرطاً يشرط عليهم أو عليه وحده .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ إذا قدرنا الفعل وهو تمنون أو تفدون على تقدير المفعول ، حتى نقول إما تمنون عليهم مناً أو تفدونهم فداء ، نقول لا لأن المقصود المن والفداء لا عليهم وبهم كما يقول

حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ

القائل : فلان يعطى ويمنع ولا يقال يعطى زيداً ويمنع عمراً لأن غرضه ذكر كونه فاعلا لا بيان المفعول ، وكذلك ههنا المقصود إرشاد المؤمنين إلى الفضل .

قوله تعالى : ﴿ حتى تضع الحرب أوزارها ﴾ .

وفى تعلق (حتى) وجهان (أحدهما) تعلقها بالقتل أى اقتلوهم حتى تضع (وثانيهما) بالمن والفداء ، ويحتمل أن يقال متعلقة بشدوا الوثاق وتعلقها بالقتل أظهر وإن كان ذكره أبعد ، وفى الأوزار وجهان (أحدهما) السلاح (والثانى) الآثام وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ إن كان المراد الإثم ، فكيف تضع الحرب الإثم والإثم على المحارب ؟ وكذلك السؤال فى السلاح لكنه على الأول أشد توجهاً ، فيقول تضع الحرب الأوزار لا من نفسها ، بل تضع الأوزار التى على المحاربين والسلاح الذى عليهم .

﴿ المسألة الثانية ﴾ هل هذا كقوله تعالى (واسئل القرية) حتى يكون كأنه قال حتى تضع أمة الحرب أو فرقة الحرب أوزارها ؟ نقول ذلك محتمل فى النظر الأول ، لكن إذا أمعنت فى المعنى تجد بينهما فرقاً ، وذلك لأن المقصود من قوله (حتى تضع الحرب أوزارها) الحرب بالكلية بحيث لا يبقى فى الدنيا حزب من أحزاب الكفر يحارب حزباً من أحزاب الإسلام ، ولو قلنا حتى تضع أمة الحرب جاز أن يضعوا الأسلحة ويتركوا الحرب وهى باقية بمادتها كما تقول خصومتى ما انفصلت ولكنى تركتها فى هذه الأيام ، وإذا أسندنا الوضع إلى الحرب يكون معناه إن الحرب لم يبق .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ لو قال حتى لا يبقى حرب أو ينفر من الحرب هل يحصل معنى قوله (حتى تضع الحرب أوزارها) نقول لا والتفاوت بين العبارتين مع قطع النظر عن النظم ، بل النظر إلى نفس المعنى كالتفاوت بين قولك انقرضت دولة بنى أمية ، وقولك لم يبق من دولتهم أثر ، ولا شك أن الثانى أبلغ ، فكذلك ههنا قوله تعالى (أوزارها) معناه آثارها فإن من أوزار الحرب آثارها .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ وقت وضع أوزار الحرب متى هو ؟ نقول فيه أقوال حاصلها راجع إلى أن ذلك الوقت هو الوقت الذى لا يبقى فيه حزب من أحزاب الإسلام وحزب من أحزاب الكفر وقيل ذلك عند قتال الدجال ونزول عيسى عليه السلام .

قوله تعالى : ﴿ ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم ﴾ .

فى معنى ذلك وجهان (أحدهما) الأمر ذلك والمبتدأ محذوف ويحتمل أن يقال ذلك واجب أو مقدم ، كما يقول القائل إن فعلت فذاك أى فذاك مقصود ومطلوب ، ثم بين أن قتالهم ليس طريقاً متعيناً بل الله لو أراد أهلكهم من غير جند .

وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَاْ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿٤﴾

قوله تعالى : ﴿ ولكن ليبلو بعضكم ببعض ﴾ .

أى ولكن ليكلفكم فيحصل لكم شرف باختياره إياكم لهذا الأمر . فإن قيل ما التحقيق فى قولنا التكليف ابتلاء وامتحان والله يعلم السر وأخفى ، وماذا يفهم من قوله (ولكن ليبلو بعضكم ببعض) ؟ نقول فيه وجوه (الأول) أن المراد منه يفعل ذلك فعل المبتلين أى كما يفعل المبتلى المختبر ، ومنها أن الله تعالى يبلو ليظهر الأمر لغيره إما للملائكة وإما للناس ، والتحقيق هو أن الابتلاء والامتحان والاختبار فعل يظهر بسببه أمر غير متعين عند العقلاء بالنظر إليه قصداً إلى ظهوره ، وقولنا فعل يظهر بسببه أمر ظاهر الدخول فى مفهوم الابتداء ، لأن ما لا يظهر بسببه شىء أصلا لا يسمى ابتلاء ، أما قولنا أمر غير متعين عند العقلاء ، وذلك لأن من يضرب بسيفه على القثاء والخيار لا يقال إنه يمتحن ، لأن الأمر الذى يظهر منه متعين وهو القطع والقد بقسمين ، فإذا ضرب بسيفه سبعاً يقال يمتحن بسيفه ليدفع عن نفسه وقد يقده وقد لا يقده ، وأما قولنا ليظهر منه ذلك فلأن من يضرب سبعاً بسيفه ليدفعه عن نفسه لا يقال إنه يمتحن لأن ضربه ليس لظهور أمر متعين ، إذا علم هذا فنقول الله تعالى إذا أمرنا بفعل يظهر بسببه أمر غير متعين ، وهو إما الطاعة أو المعصية فى العقول ليظهر ذلك يكون ممتحناً ، وإن كان عالماً به لكون عدم العلم مقارناً فينا لابتلائنا فاذا ابتلينا وعدم العلم فينا مستمر أمرنا وليس من ضرورات الابتلاء ، فان قيل الابتلاء فائدته حصول العلم عند المبتلى ، فإذا كان الله تعالى عالماً فأية فائدة فيه ؟ نقول ليس هذا سؤال يختص بالابتلاء ، فإن قول القائل : لم ابتلى كقول القائل لم عاقب الكافر وهو مستغن ، ولم خلق النار محرقة وهو قادر على أن يخلقها بحيث تنفع ولا تضر ؟ (وجوابه) لا يسأل عما يفعل ، ونقول حينئذ ماقاله المتقدمون إنه لظهور الامر المتعين لاله ، وبعد هذا فنقول : المبتلى لا حاجة له إلى الأمر الذى يظهر من الابتلاء ، فإن الممتحن للسيف فيما ذكرنا من الصورة لا حاجة له إلى قطع ما يجرب السيف فيه حتى أنه لو كان محتاجاً ، كما ضربنا من مثال دفع السبع بالسيف لا يقال إنه يمتحن وقوله (ليبلو بعضكم ببعض) إشارة إلى عدم الحاجة تقريراً لقوله (ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم) .

قوله تعالى : ﴿ والذين قتلوا فى سبيل الله فلن يضل أعمالهم ﴾

قرىء قتلوا وقاتلوا والكل مناسب لما تقدم ، أما من قرأ قتلوا فلأنه لما قال (فضرب الرقاب) ومعناه فاقتلوهم بين ما للقاتل بقوله (والذين قتلوا فى سبيل الله فلن يضل أعمالهم) ردا على من زعم أن القتل فساد محرم إذ هو إفناء من هو مكرم ، فقال عملهم ليس كحسنة الكافر يبطل بل هو فوق حسنات الكافر أضل الله أعمال الكفار ، ولن يضل القاتلين ، فكيف يكون القتل سيئة ، وأما من قرأ (قاتلوا) فهو أكثر فائدة وأعم تناولا ، لأنه يدخل فيه من سعى فى القتل سواء قتل أو لم يقتل ، وأما من قرأ (والذين قتلوا) على البناء للمفعول فنقول هى مناسبة لما تقدم من وجوه (أحدها) هو أنه تعالى

سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾

لما قال (فضرب الرقاب) أى اقتلوا والقتل لا يتأتى إلا بالإقدام وخوف أن يقتل المقدم يمنعه من الإقدام ، فقال لاتخافوا القتل فان من يقتل فى سبيل الله له من الأجر والثواب مالا يمنع المقاتل من القتال بل يحثه عليه (وثانيها) هو أنه تعالى لما قال (ليبلو بعضكم ببعض) والمبتلى بالشىء له على كل وجه من وجوه الأثر الظاهر بالابتلاء حال من الأحوال ، فإن السيف الممتحن تزيد قيمته على تقدير أن يقطع وتنقص على تقدير أن لا يقطع فحال المبتلين ماذا فقال إن قتل فله أن لا يضل عمله ويهدى ويكرم ويدخل الجنة ، وأما إن قتل فلا يخفى أمره عاجلا وآجلا ، وترك بيانه على تقدير كونه قاتلا لظهوره وبين حاله على تقدير كونه مقتولا (وثالثها) هو أنه تعالى لما قال (ليبلوكم) ولا يبتلى الشىء النفيس بما يخاف منه هلاكه ، فان السيف المهند العضب الكبير القيمة لا يجرب بالشىء الصلب الذى يخاف عليه منه الانكسار ، ولكن الآدمى مكرم كرمه الله وشرفه وعظمه ، فلماذا ابتلاه بالقتال وهو يفضى إلى القتل والهلاك إفضاء غير نادر ، فكيف يحسن هذا الابتلاء ؟ فنقول القتل ليس بإهلاك بالنسبة إلى المؤمن فإنه يورث الحياة الأبدية فإذا ابتلاه بالقتال فهو على تقدير أن يقتل مكرم وعلى تقدير أن لا يقتل مكرم هذا إن قاتل وإن لم يقاتل ، فالموت لابد منه وقد فوت على نفسه الأجر الكبير

وأما قوله تعالى (فلن يضل أعمالهم) قد علم معنى الإضلال ، بقى الفرق بين العبارتين فى حق الكافر والضال قال أضل وقال فى حق المؤمن الداعى لن يضل ، لأن المقاتل داع إلى الإيمان لأن قوله (حتى تضع الحرب أوزارها) قد ذكر أن معناه حتى لم يبق إثم بسبب حرب ، وذلك حيث يسلم الكافر فالمقاتل يقول إما أن تسلم وإما أن تقتل ، فهو داع والكافر صاد وبينهما تباين وتضاد فقال فى حق الكافر أضل بصيغة الماضى ، ولم يقل يضل إشارة إلى أن عمله حيث وجد عدم ، وكأنه لم يوجد من أصله ، وقال فى حق المؤمن فلن يضل ، ولم يقل ما أضل إشارة إلى أن عمله كما ثبت عليه أثبت له ، فلن يضل للتأبيد وبينهما غاية الخلاف ، كما أن بين الداعى والصاد غاية التباين والتضاد ، فإن قيل ما معنى الفاء فى قوله (فلن يضل) ؟ جوابه لأن فى قوله تعالى (والذين قتلوا) معنى الشرط .

قوله تعالى : ﴿ سيهديهم ﴾ .

إن قرىء (قتلوا) أو (قاتلوا) فالهداية محمولة على الآجلة والعاجلة ، وإن قرىء (قتلوا) فهو الآخرة (سيهديهم) طريق الجنة من غير وقفة من قبورهم إلى موضع حبورهم .

وقوله ﴿ ويصلح بالهم ﴾ .

قد تقدم تفسيره فى قوله تعالى (أصلح بالهم) والماضى والمستقبل راجع إلى أن هناك وعدهم ما وعدهم بسبب الإيمان والعمل الصالح ، وذلك كان واقعاً منهم فأخبر عن الجزاء بصيغة تدل على

وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴿٦﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾

الوقوع ، وههنا وعدهم بسبب القتال والقتل ، فكان فى اللفظ مايدل على الاستقبال ، لأن قوله تعالى (فإذا لقيتم) يدل على الاستقبال فقال (ويصلح بالهم)

قوله تعالى : ﴿ ويدخلهم الجنة ﴾ .

وكأن الله تعالى عند حشرهم يهديهم إلى طريق الجنة ويلبسهم فى الطريق خلع الكرامة ، وهو إصلاح البال (ويدخلهم الجنة) فهو على ترتيب الوقوع .

أما قوله ﴿ عرفها لهم ﴾ . ففيه وجوه : (أحدها) هو أن كل أحد يعرف منزلته ومأواه ، حتى أن أهل الجنة يكونون أعرف بمنازلهم فيها من أهل الجمعة ينتشرون فى الأرض كل أحد يأوى إلى منزله ، ومنهم من قال الملك الموكل بأعماله يهديه (الوجه الثانى) (عرفها لهم) أى طيبها يقال طعام معرف (الوجه الثالث) قال الزمخشرى يحتمل أن يقال عرفها لهم حددها من عرف الدار وأرفها أى حددها ، وتحديدها فى قوله (وجنة عرضها السموات والأرض) ويحتمل أن يقال المراد هو قوله تعالى (وتلك الجنة التى أورثتموها) مشيراً إليها معرفاً لهم بأنها هى تلك وفيه وجه آخر وهو أن يقال معناه (عرفها لهم) قبل القتل فإن الشهيد قبل وفاته تعرض عليه منزلته فى الجنة فيشتاق إليها (ووجه ثان) معناه (ويدخلهم الجنة) ولا حاجة إلى وصفها فانه تعالى (عرفها لهم) مراراً ووصفها (ووجه ثالث) وهو من باب تعريف الضالة فإن الله تعالى لما قال (إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة) فكأنه تعالى قال من يأخذ الجنة ويطلبها بماله أو بنفسه فالذى قتل سمع التعريف وبذل ماطلب منه عليها فأدخلها ، ثم إنه تعالى لما بين ماعلى القتال من الثواب والأجر وعدهم بالنصر فى الدنيا زيادة فى الحث ليزداد منهم الإقدام .

فقال ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم ﴾ وفى نصر الله تعالى وجوه : (الأول) إن تنصروا دين الله وطريقه (والثانى) إن تنصروا حزب الله وفريقه (الثالث) المراد نصرة الله حقيقة ، فنقول النصرة تحقيق مطلوب أحد المتعاديين عند الاجتهاد والأخذ فى تحقيق علامته ، فالشيطان عدو الله يجتهد فى تحقيق الكفر وغلبة أهل الإيمان ، والله يطلب قمع الكفر وإهلاك أهله وإفناء من اختار الإشراك بجهله ، فمن حقق نصرة الله حيث حقق مطلوبه لا تقول حقق مراده فإن مراد الله لا يحققه غيره ، ومطلوبه عند أهل السنة غير مراده فإنه طلب الإيمان من الكافر ولم يرده وإلا لوقع .

ثم قال (ينصركم) فإن قيل فعلام قلت إذا نصر المؤمنين الله تعالى ، فقد حقق ما طلبه ، فكيف

وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿٨﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴿٩﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ

يحقق ماطلبه العبد وهو شيء واحد ، فنقول المؤمن ينصر الله بخروجه إلى القتال وإقدامه ، والله ينصره بتقويته وتثبيت أقدامه ، وإرسال الملائكة الحافظين له من خلفه وقدامه .

قوله تعالى : ﴿ والذين كفر فتعساً لهم ﴾ .

هذا زيادة فى تقوية قلوبهم ، لأنه تعالى لما قال (ويثبت أقدامكم) جازأن يتوهم أن الكافرأيضاً يصير ويثبت للقتال فيدوم القتال والحراب والطعان والضراب ، وفيه المشقة العظيمة فقال تعالى لكم الثبات ولهم الزوال والتغير والهلاك فلا يكون الثبات ، وسببه ظاهر لأنآ لهتهم جمادات لاقدرة لها ولا ثبات عند من له قدرة ، فهى غير صالحة لدفع ماقدره الله تعالى عليهم من الدمار ، وعند هذا لابد عن زوال القدم والعثار ، وقال فى حق المؤمنين ويثبت بصيغة الوعد لأن الله تعالى لا يجب عليه شيء ، وقال فى حقهم بصيغة الدعاء ، وهى أبلغ من صيغة الإخبار من الله لأن عثارهم واجب لأن عدم النصرة من آلهتهم واجب الوقوع إذلاقدرة لها والتثبيت من الله ليس بواجب الوقوع ، لأنه قادر مختار يفعل ما يشاء .

وقوله ﴿ وأضل أعمالهم ﴾ إشارة إلى بيان مخالفة موتاهم لقتلى المسلمين ، حيث قال فى حق قبلاهم (فلن يضل أعمالهم) وقال فى موتى الكافرين (وأضل أعمالهم) .

ثم بين الله تعالى سبب ما اختلفوا فيه فقال ﴿ ذلك بأنهم كرهوا ما أنزل الله فأحبط أعمالهم ﴾ وفيه وجوه (الأول) المراد القرآن ، ووجهه هوأن كيفية العمل الصالح لاتعلم بالعقل وإنما تدرك بالشرع والشرع بالقرآن فلما أعرضوا لم يعرفوا العمل الصالح وكيفية الإتيان به ، فأتوا بالباطل فأحبط أعمالهم (الثانى) (كرهوا ما أنزل الله) من بيان التوحيد كما قال الله تعالى عنهم (أئنا لتاركوا آلهتنا) وقال تعالى (أجعل الآلهة إلهاً واحداً) إلى أن قال (إن هذا إلا اختلاق) وقال تعالى (وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة) ووجهه أن الشرك محبط للعمل ، قال الله تعالى (لئن أشركت ليحبطن عملك) وكيف لا والعمل من المشرك لا يقع لوجه الله فلا بقاء له فى نفسه ولا بقاء له ببقاء من له العمل ، لأن ماسوى وجه الله تعالى هالك محبط (الثالث) (كرهوا ما أنزل الله) من بيان أمر الآخرة فلم يعملوا لها ، والدنيا وما فيها ومآلها باطل ، فأحبط الله أعمالهم .

وقوله ﴿ أفلم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ﴾ .

دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا ﴿١٠﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿١١﴾

فيه مناسبة للوجه الثالث يعنى فينظروا إلى حالهم ويعلموا أن الدنيا فانية .

وقوله ﴿ دمر الله عليهم ﴾ أى أهلك عليهم متاع الدنيا من الأموال والأولاد والأزواج والأجساد .

قوله تعالى : ﴿ وللكافرين أمثالها ﴾ يحتمل وجهين (أحدهما) أن يكون المراد لهم أمثالها فى الدنيا ، وحينئذ يكون المراد من الكافرين هم الكافرون بمحمد عليه الصلاة والسلام (وثانيهما) أن يكون المراد لهم أمثالها فى الآخرة ، فيكون المراد من تقدم كأنه يقول : دمر الله عليهم فى الدنيا ولهم فى الآخرة أمثالها ، وفى العائد إليه ضمير المؤنث فى قوله (أمثالها) وجهان (أحدهما) هو المذكور وهو العاقبة (وثانيهما) هو المفهوم وهو العقوبة ، لأن التدمير كان عقوبة لهم ، فان قيل على قولنا المراد للكافرين بمحمد عليه السلام أمثال ما كان لمن تقدمهم من العاقبة يرد سؤال ، وهو أن الأولين أهلكوا بوقائع شديدة كالزلازل والنيران وغيرهما من الرياح والطوفان ، ولا كذلك قوم محمد صلى الله عليه وسلم ، نقول جاز أن يكون عذابهم أشد من عذاب الأولين لكون دين محمد أظهر بسبب تقدم الأنبياء عليهم السلام عليه وإخبارهم عنه وإنذارهم به على أنهم قتلوا وأسروا بأيديهم من كانوا يستخفونهم ويستضعفونهم والقتل بيد المثل آلم من الهلاك بسبب عام (وسؤال آخر) إذا كان الضمير عائداً إلى العاقبة فكيف يكون لها أمثال ؟ قلنا يجوز أن يقال المراد العذاب الذى هو مدلول العاقبة أو الألم الذى كانت العاقبة عليه .

قوله تعالى : ﴿ ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وأن الكافرين لا مولى لهم ﴾ .

(ذلك) يحتمل أن يكون إشارة إلى النصر وهو اختيار جماعة ذكره الواحدى ، ويحتمل وجهاً آخر أغرب من حيث النقل ، وأقرب من حيث العقل ، وهو أنا لما بينا أن قوله تعالى (وللكافرين أمثالها) إشارة إلى أن قوم محمد عليه الصلاة والسلام أهلكوا بأيدى أمثالهم الذين كانوا لا يرضون بمجالستهم وهو آلم من الهلاك بالسبب العام ، قال تعالى (ذلك) أى الإهلاك والهوان بسبب أن الله تعالى ناصر المؤمنين ، والكافرون اتخذوا آلهة لا تنفع ولا تضر ، وتركوا الله فلا ناصر لهم ولا شك أن من ينصره الله تعالى يقدر على القتل والأسر وإن كان له ألف ناصر فضلا عن أن يكون لا ناصر لهم ، فان قيل كيف الجمع بين قوله تعالى (لا مولى لهم) وبين قوله (مولاهم الحق) نقول المولى ورد بمعنى السيد والرب والناصر فحيث قال (لا مولى لهم) أراد لا ناصر لهم ، وحيث قال (مولاهم الحق) أى ربهم ومالكهم ، كما قال (يا أيها الناس اتقوا ربكم) وقال (ربكم ورب آبائكم الأولين)

إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴿١٢﴾

وفى الكلام تباين عظيم بين الكافر والمؤمن . لأن المؤمن ينصره الله وهو خير الناصرين ، والكافر لامولى له بصيغة نافيه للجنس ، فليس له ناصر وإنه شر الناصرين .

قوله تعالى : ﴿ إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجرى من تحتها الأنهار والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم ﴾ .

لما بين الله تعالى حال المؤمنين والكافرين فى الدنيا بين حالهم فى الآخرة . وقال إنه يدخل المؤمن الجنة والكافر النار وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ كثيراً ما يقتصر الله على ذكر الأنهار فى وصف الجنة لأن الأنهار يتبعها الأشجار والأشجار تتبعها الثمار ولأنه سبب حياة العالم ، والنار سبب الإعدام ، وللمؤمن الماء ينظر إليه وينتفع به ، وللكافر النار يتقلب فيها ويتضرر بها .

﴿ المسألة الثانية ﴾ ذكرنا مراراً أن من فى قوله من تحتها الأنهار يحتمل أن يكون صلة معناه تجرى تحتها الأنهار ، ويحتمل أن يكون المراد أن ماءها منها لا يجرى إليها من موضع آخر ، فيقال هذا النهر منبعه من أين ؟ يقال من عين كذا من تحت جبل كذا .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قال (والذين كفروا يتمتعون) خصهم بالذكر مع أن المؤمن أيضاً له التمتع بالدنيا وطيباتها ، نقول من يكون له ملك عظيم ويملك شيئاً يسيراً أيضاً لا يذكر إلا بالملك العظيم ، يقال فى حق الملك العظيم صاحب الضيعة الفلانية ومن لا يملك إلا شيئاً يسيراً فلا يذكر إلا به ، فالمؤمن له ملك الجنة فمتاع الدنيا لا يلتفت إليه فى حقه والكافر ليس له إلا الدنيا ، ووجه آخر : الدنيا للمؤمن سجن كيف كان ، ومن يأكل فى السجن لا يقال إنه يتمتع ، فإن قيل كيف تكون الدنيا سجناً مع مافيها من الطيبات ؟ نقول للمؤمن فى الآخرة طيبات معدة وإخوان مكرمون نسبتها ونسبتهم إلى الدنيا ومن فيها تتبين بمثال ، وهو أن من يكون له بستان فيه من كل الثمرات الطيبة فى غاية اللذة وأنهار جارية فى غاية الصفاء ودور وغرف فى غاية الرفعة وأولاده فيها ، وهو قد غاب عنهم سنين ثم توجه إليهم وهم فيها ، فلما قرب منهم عوق فى أجمة فيها من بعض الثمار العفصة والمياه الكدرة ، وفيها سباع وحشرات كثيرة ، فهل يكون حاله فيها كحال مسجون فى بئر مظلمة وفى بيت خراب أم لا ؟ وهل يجوز أن يقال له اترك ماهو لك وتعلل بهذه الثمار وهذه الأنهار أم لا ؟

وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴿١٣﴾ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم ﴿١٤﴾

كذلك حال المؤمن ، وأما الكافر فحاله كحال من يقدم إلى القتل فيصبر عليه أياماً فى مثل تلك الأجمة التى ذكرناها يكون فى جنة ، ونسبة الدنيا إلى الجنة والنار دون ماذكرنا من المثال ، لكنه ينبىء ذا البال ، عن حقيقة الحال .

وقوله تعالى (كما تأكل الأنعام) يحتمل وجوهاً (أحدها) أن الأنعام يهمها الأكل لا غير والكافر كذلك والمؤمن يأكل ليعمل صالحاً ويقوى عليه (وثانيها) الأنعام لا تستدل بالمأكول على خالقها والكافر كذلك (وثالثها) الأنعام تعلف لتسمن وهى غافلة عن الأمر ، لا تعلم أنها كلما كانت أسمن كانت أقرب إلى الذبح والهلاك ، وكذلك الكافر ويناسب ذلك قوله تعالى (والنار مثوى لهم) .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قال فى حق المؤمن (إن الله يدخل) بصيغة الوعد ، وقال فى حق الكافر (والنار مثوى لهم) بصيغة تنبىء عن الاستحقاق لما ذكرنا أن الإحسان لا يستدعى أن يكون عن استحقاق ، فالمحسن إلى من لم يوجد منه مايوجب الإحسان كريم ، والمعذب من غير استحقاق ظالم .

قوله تعالى : ﴿ وكأين من قرية هى أشد قوة من قريتك التى أخرجتك أهلكناهم فلا ناصر لهم ﴾ .

لما ضرب الله تعالى لهم مثلا بقوله (أفلم يسيروا فى الأرض) ولم ينفعهم مع ماتقدم من الدلائل ضرب للنبى عليه السلام مثلا تسلية له فقال (وكأين من قرية هى أشد قوة من قريتك التى أخرجتك أهلكناهم) وكانوا أشد من أهل مكة كذلك نفعل بهم ، فاصبر كما صبر رسلهم ، وقوله (فلا ناصر لهم) قال الزمخشرى كيف قوله (فلا ناصر لهم) مع أن الإهلاك ماض ، وقوله (فلا ناصر لهم) للحال والاستقبال ؟ والجواب أنه محمول على الحكاية والحكاية كالحال الحاضر ، ويحتمل أن يقال أهلكناهم فى الدنيا فلا ناصر لهم ينصرهم ويخلصهم من العذاب الذى هم فيه ، ويحتمل أن يقال قوله (فلا ناصر لهم) عائد إلى أهل قرية محمد عليه السلام كأنه قال أهلكنا من تقدم أهل قريتك ولا ناصر لأهل قريتك ينصرهم ويخلصهم مما جرى على الأولين .

ثم قال تعالى ﴿ أفمن كان على بينة من ربه كمن زين له سوء عمله واتبعوا أهواءهم ﴾ .

اعلم أن هذا إشارة إلى الفرق بين النبى عليه السلام والكفار ليعلم أن إهلاك الكفار ونصرة

مَثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ

النبي عليه السلام فى الدنيا محقق ، وأن الحال يناسب تعذيب الكافر وإثابة المؤمن ، وقوله (على بينة) فرق فارق ، وقوله (من ربه) مكمل له ، وذلك أن البينة إذا كانت نظرية تكون كافية للفرق بين المتمسك بها وبين القائل قولا لا دليل عليه ، فاذا كانت البينة منزلة من الله تعالى تكون أقوى وأظهر فتكون أعلى وأبهر ، ويحتمل أن يقال قوله (من ربه) ليس المراد إنزالها منه بل المراد كونها من الرب بمعنى قوله (يهدى من يشاء) وقولنا الهداية من الله ، وكذلك قوله تعالى (كمن زين له سوء عمله) فرق فارق ، وقوله (واتبعوا أهواءهم) تكملة . وذلك أن من زين له سوء عمله وراجت الشبهة عليه فى مقابلة من يتبين له البرهان وقبله ، لكن من راجت الشبهة عليه قد يتفكر فى الأمر ويرجع إلى الحق ، فيكون أقرب إلى من هو على البرهان ، وقد يتبع هواه ولا يتدبر فى البرهان ولا يتفكر فى البيان فيكون فى غاية البعد ، فإذن حصل النبي ﷺ والمؤمن مع الكافر فى طرفى التضاد وغاية التباعد حتى مدهم بالبينة ، والكافر له الشبهة وهو مع الله وأولئك مع الهوى وعلى قولنا (من ربه) معناه الإضافة إلى الله ، كقولنا الهداية من الله ، فقوله (اتبعوا أهواءهم) مع ذلك القول يفيد معنى قوله تعالى (ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك) وقوله (كمن زين له سوء عمله) بصيغة التوحيد محمول على لفظة من ، وقوله (واتبعوا أهواءهم) محمول على معناه فإنها للجميع والعموم ، وذلك لأن التزيين للكل على حد واحد لحمل على اللفظ لقربه منه فى الحس والذكر ، وعند اتباع الهوى كل أحد يتبع هوى نفسه ، فظهر التعدد لحمل على المعنى .

قوله تعالى : ﴿ مثل الجنة التى وعد المتقون ﴾ .

لما بين الفرق بين الفريقين فى الاهتداء والضلال . بين الفرق بينهما فى مرجعهما ومآلهما ، وكما قدم من على البينة فى الذكر على من اتبع هواه ، قدم حاله فى مآله على حال من هو بخلاف حاله ، وفى التفسير مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قوله تعالى (مثل الجنة) يستدعى أمراً يمثل به فما هو ؟ نقول فيه وجوه : (الأول) قول سيبويه حيث قال المثل هو الوصف معناه وصف الجنة ، وذلك لا يقتضى ممثلا به ، وعلى هذا ففيه احتمالان (أحدهما) أن يكون الخبر محذوفاً ويكون مثل الجنة مبتدأ تقديره فيما قصصناه مثل الجنة ، ثم يستأنف ويقول فيها أنهار ، وكذلك القول فى سورة الرعد يكون قوله تعالى (تجرى من تحتها الأنهار) ابتداء بيان (والاحتمال الثانى) أن يكون فيها أنهار وقوله (تجرى من تحتها) خبراً كما يقال صف لى زيداً ، فيقول القائل : زيد أحمر قصير ، والقول الثانى : أن المثل زيادة والتقدير : الجنة التى وعد المتقون فيها أنهار . (الوجه الثانى) ههنا الممثل به محذوف غير

فِيهَآ أَنْهَـٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَـٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَـٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّـٰرِبِينَ وَأَنْهَـٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى

مذكور وهو يحتمل قولين (أحدهما) قال الزجاج حيث قال (مثل الجنة) جنة تجرى (فيها أنهار) كما يقال مثل زيد رجل طويل أسمر فيذكر عين صفات زيد فى رجل منكر لا يكون هو فى الحقيقة إلا زيداً (الثانى) من القولين هو أن يقال معناه (مثل الجنة التى وعد المتقون) مثل عجيب ، أو شيء عظيم . أو مثل ذلك ، وعلى هذا يكون قوله (فيها أنهار) كلاماً مستأنفاً محققاً لقولنا مثل عجيب (الوجه الثالث) الممثل به مذكور وهو قول الزمخشرى حيث قال (كمن هو خالد فى النار) مشبه به على طريقة الإنكار ، وحينئذ فهذا كقول القائل حركات زيد أو أخلاقه كعمرو ، وكذلك على أحد التأويلين ، إما على تأويل لحركات عمرو أو على تأويل زيد فى حركاته كعمر ، وكذلك ههنا كأنه تعالى قال : مثل الجنة ، كمن هو خالد فى النار ، وهذا أقصى ما يمكن أن يقرر به قول الزمخشرى ، وعلى هذا فقوله تعالى (فيها أنهار) وما بعدهذا جمل اعتراضية وقعت بين المبتدأ والخبر كما يقال نظير زيد فيه مروءة وعنده علم وله أصل عمرو .

قوله تعالى : ﴿ فيها أنهار من ماء غير آسن ، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه ، وأنهار من خمر لذة للشاربين ، وأنهار من عسل مصفى ﴾ .

اختار الأنهار من الأجناس الأربعة ، وذلك لأن المشروب إما أن يشرب لطعمه ، وإما أن يشرب لأمر غير عائد إلى الطعم ، فان كان للطعم فالطعوم تسعة : المر والمالح والحريف والحامض والعفص والقابض والتفه والحلو والدسم ألذها الحلو والدسم ، لكن أحلى الأشياء العسل فذكره وأما أدسم الأشياء فالدهن ، لكن الدسومة إذا تمحضت لا تطيب للأكل ولا للشرب ، فإن الدهن لا يؤكل ولا يشرب كما هو فى الغالب ، وأما اللبن فيه الدسم الكائن فى غيره وهو طيب للأكل وبه تغذية الحيوان أولا فذكره الله تعالى ، وأما ما يشرب لا لأمر عائد إلى الطعم فالماء والخمر فان الخمر فيها أمر يشربها الشارب لأجله ، وهى كريهة الطعم باتفاق من يشربها وحصول التواتر به ثم عرى كل واحد من الأشياء الأربعة عن صفات النقص التى هى فيها وتتغير بها الدنيا فالماء يتغير يقال أسن الماء يأسن على وزن أمن يأمن فهو آسن وأسن اللبن إذا بقى زماناً تغير طعمه ، والخمر يكرهه الشارب عند الشرب . والعسل يشوبه أجزاء من الشمع ومن النحل يموت فيه كثيراً ، ثم إن الله تعالى خلط الجنسين فذكر الماء الذى يشرب لا للطعم وهو عام الشرب ، وقرن به اللبن الذى يشرب لطعمه وهو عام الشرب إذ ما من أحد إلا وكان شربه اللبن ، ثم ذكر الخمر الذى يشرب لا للطعم وهو قليل الشرب ، وقرن به العسل الذى يشرب للطعم وهو قليل الشرب ، فإن قيل العسل

وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ

لا يشرب ، نقول شراب الجلاب لم يكن إلا من العسل والسكر قريب الزمان ، ألا ترى أن السكنجبين من « سركه وانكبين » وهو الخل والعسل بالفارسية كما أن استخراجه كان أولا من الخل والعسل ولم يعرف السكر إلا فى زمان متأخر ، ولأن العسل اسم يطلق على غير عسل النحل حتى يقال عسل النحل للتمييز والله أعلم .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال فى الخمر (لذة للشاربين) ولم يقل فى اللبن لم يتغير طعمه للطاعمين ولا قال فى العسل مصفى للناظرين لأن اللذة تختلف باختلاف الأشخاص فرب طعام يلتذ به شخص ويعافه الآخر ، فقال (لذة للشاربين) بأسرهم ولأن الخمر كريهة الطعم فقال (لذة) أى لا يكون فى خمر الآخرة كراهة الطعم ، وأما الطعم واللون فلا يختلفان باختلاف الناس ، فإن الحلو والحامض وغيرهما يدركه كل أحد كذلك ، لكنه قد يعافه بعض الناس ويلتذ به البعض مع اتفاقهم على أن له طعماً واحداً وكذلك اللون فلم يكن إلى التصريح بالتعميم حاجة ، وقوله (لذة) يحتمل وجهين : (أحدهما) أن يكون تأنيث لذ يقال طعام لذ ولذيذ وأطعمة لذة ولذيذة (وثانيهما) أن يكون ذلك وصفاً بنفس المعنى لا بالمشتق منه كما يقال للحليم هو حلم كله وللعاقل كله .

ثم قال تعالى ﴿ ولهم فيها من كل الثمرات ومغفرة من ربهم ﴾ .

بعد ذكر المشروب أشار إلى المأكول ، ولما كان فى الجنة الأكل للذة لا للحاجة ذكر الثمار فإنها تؤكل للذة بخلاف الخبز واللحم ، وهذا كقوله تعالى فى سورة الرعد (مثل الجنة التى وعد المتقون تجرى من تحتها الأنهار أكلها دائم وظلها) حيث أشار إلى المأكول والمشروب ، وههنا لطيفة وهى أنه تعالى قال فيها (وظلها) ولم يقل ههنا ذلك ، نقول قال ههنا (ومغفرة) والظل فيه معنى الستر والمغفرة كذلك ، ولأن المغفور تحت نظر من رحمة الغافر يقال نحن تحت ظل الأمير ، وظلها هو رحمة الله ومغفرته حيث لا يمسهم حر ولا برد .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ المتقى لا يدخل الجنة إلا بعد المغفرة فكيف يكون لهم فيها مغفرة ؟ فنقول (الجواب) عنه من وجهين : (الأول) ليس بلازم أن يكون المعنى لهم مغفرة من ربهم فيها ، بل يكون عطفاً على قوله (لهم) كأنه تعالى قال لهم الثمرات فيها ولهم المغفرة قبل دخولها (والثانى) هو أن يكون المعنى لهم فيها مغفرة أى رفع التكليف عنهم فيأكلون من غير حساب بخلاف الدنيا فإن الثمار فيها عليها حساب أو عقاب ، ووجه آخر وهو أن الأكل فى الدنيا لا يخلو عن استتباع قبيح أو مكروه كمرض أو حاجة إلى تبرز ، فقال (لهم فيها من كل الثمرات ومغفرة) لا قبيح على الأكل بل مستور القبائح مغفور ، وهذا استفدته من المعلمين فى بلادنا فإنهم يعودون الصبيان بأن يقولون

كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴿١٥﴾

وقت حاجتهم إلى إراقة البول وغيره : يامعلم غفرالله لك ، فيفهم المعلم أنهم يطلبون الإذن فى الخروج لقضاء الحاجة فيأذن لهم ، فقلت فى نفسى معناه هو أن الله تعالى فى الجنة غفر لمن أكل ، وأما فى الدنيا ، فلأن للأكل توابع ولوازم لابد منها فيفهم من قولهم حاجتهم .

قوله تعالى : ﴿ كمن هو خالد فى النار وسقوا ماء حميما فقطع أمعاءهم ﴾ وفيه أيضاً مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ على قول من قال (مثل الجنة) معناه وصف الجنة فقوله (كمن هو) بماذا يتعلق ؟ نقول قوله (لهم فيها من كل الثمرات) يتضمن كونهم فيها فكأنه قال هو فيها كمن هو خالد فى النار ، فالمشبه يكون محذوفا مدلولا عليه بما سبق ، ويحتمل أن يقال ماقيل فى تقرير قول الزمخشرى أن المراد هذه الجنة التى مثلها ما ذكرنا كمقام من هو خالد فى النار .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال الزجاج قوله تعالى (كمن هو خالد فى النار) راجع إلى ما تقدم كأنه تعالى قال (أفمن كان على بينة من ربه كمن زين له سوء عمله) وهو خالد فى النار فهل هو صحيح أم لا ؟ نقول لنا نظر إلى اللفظ فيمكن تصحيحه بتعسف ونظر إلى المعنى لايصح إلا بأن يعود إلى ماذكرناه ، أما التصحيح فبحذف كمن فى المرة الثانية أو جعله بدلا عن المتقدم أو بإضمار عاطف يعطف (كمن هو خالد) على (كمن زين له سوء عمله) أو (كمن هو خالد فى النار) ، وأما التعسف فبين نظراً إلى الحذف وإلى الإضمار مع الفاصل الطويل بين المشبه والمشبه به ، وأما طريقة البدل ففاسدة وإلا لكان الاعتماد على الثانى فيكون كأنه قال : أفمن كان على بينة كمن هو خالد ؟ وهو سمج فى التشبيه تعالى كلام الله عن ذلك ، والقول فى إضمار العاطف كذلك لأن المعطوف أيضاً يصير مستقلا فى التشبيه ، اللهم إلا أن يقال يقابل المجموع بالمجموع كأنه يقول : أفمن كان على بينة من ربه ،وهو فى الجنة التى وعد المتقون فيها أنهار ، كمن زين له سوء عمله وهو خالد فى النار ، وعلى هذا تقع المقابلة بين من هو على بينة من ربه ، وبين من زين له سوء عمله ، وبين من فى الجنة وبين من هو خالد فى النار ، وقد ذكرناه فلاحاجة إلى خلط الآية بالآية ، وكيف وعلى ماقاله تقع المقابلة بين من هو فى النار وسقوا ماء حميما وبين من هو على بينة من ربه وأية مناسبة بينهما ، بخلاف ما ذكرناه من الوجوه الأخر فإن المقابلة بين الجنة التى فيها الأنهار وبين النار التى فيها الماء الحميم وذلك لتشبيه إنكار مناسب .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قال (كمن هو خالد) حملا على اللفظ الواحد وقال (وسقوا ماء حميما) على المعنى وهو جمع وكذلك قال من قبل (كمن زين له سوء عمله) على التوحيد والإفراد (واتبعوا أهواءهم) على الجمع فما الوجه فيه ؟ نقول المسند إلى من إذا كان متصلا فرعاية اللفظ أولى لأنه هو المسموع ، وإذا كان مع انفصال فالعود إلى المعنى أولى ، لأن اللفظ لايبقى فى السمع ، والمعنى يبقى فى ذهن

وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُواْ مِنْ عِندِكَ قَالُواْ لِلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا

السامع فالحمل فى الثانى على المعنى أولى وحمل الأول على اللفظ أولى ، فان قيل كيف قال فى سائر المواضع (من آمن وعمل صالحاً) و (من تاب وأصلح) ؟ نقول إذا كان المعطوف مفرداً أو شبيها بالمعطوف عليه فى المعنى فالأولى أن يختلفا كما ذكرت فإنه عطف مفرد على مفرد وكذلك لو قال : كمن هو خالد فى النار ومعذب فيها لأن المشابهة تنافى المخالفة ، وأما إذا لم يكن كذلك كما فى هذا الموضع ، فإن قوله (سقوا ماء) جملة غير مشابهة لقوله (هو خالد) وقوله تعالى (وسقوا ماء حميما) بيان لمخالفتهم فى سائر أحوال أهل الجنة فلهم أنهار من ماء غير آسن ، ولهم ماء حميم ، فإن قيل المشابهه الإنكارية بالمخالفة على ما ثبت ، وقد ذكرت البعض وقلت بأن قوله (على بينة) فى مقابلة (زين له سوء عمله) و (من ربه) فى مقابلة قوله (واتبعوا أهواءهم) والجنـــة فى مقابلة النار فى قوله (خالد فى النار) والماء الحميم فى مقابلة الأنهار ، فأين مايقـابل قوله (ولهم فيهـا من كل الثمرات ومغفرة) فنقول تقطع الأمعاء فى مقابلة مغفرة لأنا بينا على أحد الوجوه أن المغفرة التى فى الجنة هى تعرية أكل الثمرات عما يلزمه من قضاء الحاجة والأمراض وغيرها ، كأنه قال : للمؤمن أكل وشرب مطهر طاهر لايجتمع فى جوفهم فيؤذيهم ويحوجهم إلى قضاء حاجة ، وللكافر ماء حميم فى أول ما يصل إلى جوفهم يقطع أمعاءهم ويشتهون خروجه من جوفهم ، وأما الثمار فلم يذكر مقابلها ، لأن فى الجنة زيادة مذكوره لحققها بذكر أمر زايد .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ الماء الحار يقطع أمعاءهم لأمر آخر غير الحرارة ، وهى الحدة التى تكون فى السموم المدوفه[1] ، وإلا فمجرد الحرارة لايقطع ، فإن قيل قوله تعالى (فقطع) بالفاء يقتضى أن يكون القطع بمـا ذكر ، نقول نعم ، لكنه لايقتضى أن يقال : يقطع ، لأنه ماء حميم لحسب ، بل ماء حميم مخصوص يقطع .

قوله تعالى : ﴿ ومنهم من يستمع إليك حتى إذا خرجوا من عندك قالوا للذين أوتوا العلم ماذا قال آنفاً ﴾ .

لمـا بين الله تعالى حال الكافر ذكر حال المنافق بأنه من الكفار ، وقوله (ومنهم) يحتمل أن يكون الضمير عائداً إلى الناس ، كما قال تعالى فى سورة البقرة (ومن الناس من يقول آمنا بالله) بعد ذكر الكفار ، ويحتمل أن يكون راجعاً إلى أهل مكة ، لأن ذكرهم سبق فى قوله تعالى (هى أشد قوة من قريتك التى أخرجتك أهلكناهم) ويحتمل أن يكون راجعاً إلى معنى قوله (كمن هو خالد فى النار

(١) (المدونة) بالنون وكلاها تصحيف ومعنى المدوفة المعدة للشرب .

أُولَٰئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُمْ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾

وسقوا ماء حميما) يعنى ومن الخالدين فى النار قوم يستمعون إليك ، وقوله (حتى إذا خرجوا من عندك) على ماذكرنا حمل على المعنى الذى هو الجمع ، ويستمع حمل على اللفظ ، وقد سبق التحقيق فيه ، وقوله (حتى) للعطف فى قول المفسرين ، وعلى هذا فالعطف بحتى لا يحسن إلا إذا كان المعطوف جزءاً من المعطوف عليه إما أعلاه أو دونه ، كقول القائل : أكرمنى الناس حتى الملك ، وجاء الحاج حتى المشاة ، وفى الجملة ينبغى أن يكون المعطوف عليه من حيث المعنى ، ولا يشترط فى العطف بالواو ذلك ، فيجوز أن تقول فى الواو : جاء الحاج وما علمت ، ولا يجوز مثل ذلك فى حتى ، إذا علمت هذا فوجه التعلق ههنا هو أن قوله (حتى إذا خرجوا من عندك) يفيد معنى زائداً فى الاستماع كأنه يقول : يستمعون استماعاً بالغاً جيداً ، لأنهم يستمعون وإذا خرجوا يستعيدون من العلماء كما يفعله المجتهد فى التعلم الطالب للتفهم ، فإن قلت فعلى هذا يكون هذا صفة مدح لهم ، وهو ذكرهم فى معرض الذم ، نقول يتميز بما بعده وهو أحد أمرين : إما كونهم بذلك مستهزئين ، كالذكى يقول للبليد : أعد كلامك حتى أفهمه ، ويرى فى نفسه أنه مستمع إليه غاية الاستماع ، وكل أحد يعلم أنه مستهزىء غير مستفيد ولا مستعيد ، وإما كونهم لا يفهمون مع أنهم يستمعون ويستعيدون ، ويناسب هذا الثانى قوله تعالى (كذلك يطبع الله على قلوب المجرمين) ، والأول يؤكده قوله تعالى (وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون) والثانى يؤكده قوله تعالى (قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان فى قلوبكم) وقوله (آنفاً) قال بعض المفسرين : معناه الساعة ، ومنه الاستئناف وهو الابتداء ، فعلى هذا فالأولى أن يقال يقولون ماذا قال آنفا بمعنى أنهم يستعيدون كلامه من الابتداء ، كما يقول المستعيد للمعيد : أعد كلامك من الابتداء حتى لا يفوتنى شىء منه .

قوله تعالى : ﴿ أولئك الذين طبع الله على قلوبهم واتبعوا أهواءهم ﴾ .

أى تركوا اتباع الحق إما بسبب عدم الفهم ، أو بسبب عدم الاستماع للاستفادة واتبعوا ضده .

قوله تعالى : ﴿ والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم ﴾ .

لما بين الله تعالى أن المنافق يستمع ولا ينتفع ، ويستعيد ولا يستفيد ، بين أن حال المؤمن المهتدى بخلافه ، فإنه يستمع فيفهم ، ويعمل بما يعلم ، والمنافق يستعيد ، والمهتدى يفسر ويعيد ، وفيه فائدتان (إحداهما) ماذكرنا من بيان التباين بين الفريقين (وثانيهما) قطع عذر المنافق وإيضاح كونه مذموم الطريقة ، فإنه لو قال مافهمته لغموضه وكونه معمى ، يرد عليه ويقول ليس

كذلك ، فان المهتدى فهم واستنبط لوازمه وتوابعه ، فذلك لعماء القلوب ، لا لخفاء المطلوب .
وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ ما الفاعل للزيادة فى قوله (زادهم) ؟ نقول فيه وجوه (الأول) المسموع من النبي عليه الصلاة والسلام من كلام الله وكلام الرسول يدل عليه قوله (ومنهم من يستمع إليك) فإنه يدل على مسموع ، والمقصود بيان التباين بين الفريقين ، فكأنه قال : هم لم يفهموه ، وهؤلاء فهموه (والثانى) أن الله تعالى زادهم ويدل عليه قوله تعالى (أولئك الذين طبع الله على قلوبهم) وكأنه تعالى طبع على قلوبهم فزادهم عمى ، والمهتدى زاده هدى (والثالث) استهزاء المنافق زاد المهتدى هدى ، ووجهه أنه تعالى لما قال (واتبعوا أهواءهم) قال (والذين اهتدوا زادهم) اتباعهم الهدى هدى ، فإنهم استقبحوا فعلهم فاجتنبوه .

﴿ المسألة الثانية ﴾ مامعنى قوله (وآتاهم تقواهم) ؟ نقول فيه وجوه منقولة ومستنبطة ، أما المنقولة فنقول : قيل فيه إن المراد آتاهم ثواب تقواهم ، وقيل آتاهم نفس تقواهم من غير إضمار ، يعنى بين لهم التقوى ، وقيل آتاهم توفيق العمل بما علموا . وأما المستنبط فنقول : يحتمل أن يكون المراد به بيان حال المستمعين للقرآن الفاهمين لمعانيه المفسرين له بياناً لغاية الخلاف بين المنافق ، فإنه استمع ولم يفهمه ، واستعاد ولم يعلمه ، والمهتدى فإنه علمه وبينه لغيره ، ويدل عليه قوله تعالى (زادهم هدى) ولم يقل اهتداء ، والهدى مصدر من هدى ، قال الله تعالى (فبهداهم اقتده) أى خذ بما هدوا ، واهتد كما هدوا ، وعلى هذا فقوله تعالى (وآتاهم تقواهم) معناه جنبهم عن القول فى القرآن بغير برهان ، وحملهم على الاتقاء من التفسير بالرأى ، وعلى هذا فقوله (زادهم هدى) معناه كانوا مهتدين فزادهم على الاهتداء هدى حتى ارتقوا من درجة المهتدين إلى درجة الهادين ويحتمل أن يقال قوله (زادهم هدى) إشارة إلى العلم (وآتاهم تقواهم) إشارة إلى الأخذ بالاحتياط فيما لم يعلموه ، وهو مستنبط من قوله تعالى (فبشر عباد الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه) وقوله (والراسخون فى العلم يقولون آمنا به) .

(المعنى الثالث) يحتمل أن يكون المراد بيان أن المخلص على خطر فهو أخشى من غيره ، وتحقيقه هو أنه لما قال (زادهم هدى) أفاد أنهم ازداد علمهم ، وقال تعالى (إنما يخشى الله من عباده العلماء) فقال آتاهم خشيتهم التى يفيدها العلم .

(والمعنى الرابع) تقواهم من يوم القيامة كما قال تعالى (يا أيها الناس اتقوا ربكم واخشوا يوماً لا يجزى والد عن ولده) ويدل عليه قوله تعالى (فهل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة) كأن ذكر الساعة عقيب التقوى يدل عليه .

(المعنى الخامس) آتاهم تقواهم ، التقوى التى تليق بالمؤمن ، وهى التقوى التى لا يخاف معها لومة لائم .

فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ ﴿١٨﴾

ثم قال تعالى (الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحداً إلا الله) وكذلك قوله تعالى (ياأيها النبي اتق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين) وهذا الوجه مناسب لأن الآية لبيان تباين الفريقين ، وهذا يحقق ذلك ، من حيث إن المنافق كان يخشى الناس وهم الفريقان ، المؤمنون والكافرون فكان يتردد بينهما ويرضى الفريقين ويسخط الله فقال الله تعالى المؤمن المهتدى بخلاف المنافق حيث علم ذاك ولم يعلم ذلك واتقى الله لاغير ، واتقى ذلك غير الله .

قوله تعالى : ﴿ فهل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة فقد جاء أشراطها ﴾ .

يعنى الكافرون والمنافقون لاينظرون إلا الساعة ، وذلك لأن البراهين قد صحت والأمور قد اتضحت وهم لم يؤمنوا فلا يتوقع منهم الإيمان إلا عند قيام الساعة وهو من قبيل بدل الاشتمال على تقدير لاينظرون إلا الساعة إتيانها بغتة ، وقرىء (فهل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم) على الشرط وجزاؤه لا ينفعهم ذكراهم ، يدل عليه قوله تعالى (فأنى لهم إذا جاءتهم ذكراهم) ، وقد ذكرنا أن القيامة سميت بالساعة لساعة الأمور الواقعة فيها من البعث والحشر والحساب .

وقوله (فقد جاء أشراطها) يحتمل وجهين (أحدهما) لبيان غاية عنادهم وتحقيقه هو أن الدلائل لما ظهرت ولم يؤمنوا لم يبق إلا إيمان اليأس وهو عند قيام الساعة لكن أشراطها بانت فكان ينبغي أن يؤمنو ولم يؤمنوا فهم فى لجة الفساد وغاية العناد (ثانيهما) يكون لتسلية قلوب المؤمنين كأنه تعالى لما قال (فهل ينظرون) فهم منه تعذيبهم والساعة عند العوام مستبطأة فكأن قائلا قال متى تكون الساعة ؟ فقد جاء أشراطها كقوله تعالى (اقتربت الساعة وانشق القمر) والأشراط العلامات ، قال المفسرون هى مثل انشقاق القمر ورسالة محمد عليه السلام ، ويحتمل أن يقال معنى الأشراط البينات الموضحة لجواز الحشر ، مثل خلق الإنسان ابتداء وخلق السموات والأرض ، كما قال تعالى (أوليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم) والأول هو التفسير .

قوله تعالى : ﴿ فأنى لهم إذا جاءتهم ذكراهم ﴾ يعنى لا تنفعهم الذكرى إذ لاتقبل التوبة ولا يحسب الإيمان ، والمراد فكيف لهم الحال إذا جاءتهم ذكراهم ، ومعنى ذلك يحتمل أن يكون هو قوله تعالى (هذا يومكم الذى كنتم توعدون ، هذا يوم الفصل الذى كنتم به تكذبون) فيذكرون به للتحسر ، وكذلك قوله تعالى (ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا) .

فَاعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴿١٩﴾

قوله تعالى : ﴿ فاعلم أنه لا إله إلا الله واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات والله يعلم متقلبكم ومثواكم ﴾ ولبيان المناسبة وجوه (الأول) هو أنه تعالى لما قال (فقد جاء أشراطها) قال (فاعلم أنه لا إله إلا الله) يأتي بالساعة ، كما قال تعالى (أزفت الآزفة ليس لها من دون الله كاشفة) ، (وثانيها) (فقد جاء أشراطها) وهي آتية فكأن قائلا قال متى هذا ؟ فقال (فاعلم أنه لا إله إلا الله) فلا تشتغل به واشتغل بما عليك من الاستغفار ، وكن في أي وقت مستعداً للقائها ويناسبه قوله تعالى (واستغفر لذنبك) ، (الثالث) (فاعلم أنه لا إله إلا الله) ينفعك ، فان قيل النبي عليه الصلاة والسلام كان عالماً بذلك فما معنى الأمر ، نقول عنه من وجهين (أحدهما) فاثبت على ما أنت عليه من العلم كقول القائل لجالس يريد القيام : اجلس أي لا تقم (ثانيهما) الخطاب مع النبي عليه الصلاة والسلامة ، والمراد قومه والضمير في أنه للشأن ، وتقدير هذا هو أنه عليه السلام لما دعا القوم إلى الإيمان ولم يؤمنوا ولم يبق شيء ، يحملهم على الإيمان إلا ظهور الأمر بالبعث والنشور ، وكان ذلك مما يحزن النبي عليه الصلاة والسلام ، فسلى قلبه وقال أنت كامل في نفسك مكمل لغيرك فإن لم يكمل بك قوم لم يرد الله تعالى بهم خيراً فأنت في نفسك عامل بعلمك وعلمك حيث تعلم أن الله واحد وتستغفر وأنت بحمد الله مكمل تكمل المؤمنين والمؤمنات وأنت تستغفر لهم ، فقد حصل لك الوصفان ، فاثبت على ما أنت عليه ولا يحزنك كفرهم ، وقوله تعالى (واستغفر لذنبك) يحتمل وجهين (أحدهما) أن يكون الخطاب معه والمراد المؤمنون وهو بعيد لأفراد المؤمنين والمؤمنات بالذكر ، وقال بعض الناس (لذنبك) أي لذنب أهل بيتك وللمؤمنين والمؤمنات أي الذين ليسوا منك بأهل بيت (وثانيهما) المراد هو النبي والذنب هو ترك الأفضل الذي هو بالنسبة إليه ذنب وحاشاه من ذلك (وثالثها) وجه حسن مستنبط وهو أن المراد توفيق العمل الحسن واجتناب العمل السيء ، ووجهه أن الاستغفار طلب الغفران ، والغفران هو الستر على القبيح ومن عصم فقد ستر عليه قبائح الهوى ، ومعنى طلب الغفران أن لا تفضحنا وذلك قد يكون بالعصمة منه فلا يقع فيه كما كان للنبي صلى الله عليه وسلم وقد يكون بالستر عليه بعد الوجود كما هو في حق المؤمنين والمؤمنات ، وفي هذه الآية لطيفة وهي أن النبي صلى الله عليه وسلم له أحوال ثلاثة حال مع الله وحال مع نفسه وحال مع غيره ، فأما مع الله وحده ، وأما مع نفسك فاستغفر لذنبك واطلب العصمة من الله ، وأما مع المؤمنين فاستغفر لهم واطلب الغفران لهم من الله (والله يعلم متقلبكم ومثواكم) يعني حالكم في الدنيا وفي الآخرة وحالكم في الليل والنهار .

وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ ۖ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ ۙ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٠﴾ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ ۚ

قوله تعالى : ﴿ ويقول الذين آمنو لولا نزلت سورة فاذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال رأيت الذين فى قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المغشى عليه من الموت فأولى لهم ﴾ .

لما بين الله حال المنافق والكافر والمهتدى المؤمن عند استماع الآيات العلميـــة من التوحيد والحشر وغيرهما بقوله (ومنهم من يستمع إليك) وقوله (والذين اهتد زادهم هدى) بين حالهم فى الآيات العملية ، فإن المؤمن كان ينتظر ورودها ويطلب تنزيلها وإذا تأخر عنه التكليف كان يقول هلا أمرت بشيء من العبادة خوفاً من أن لايؤهل لهـا ، والمنافق إذا نزلت السورة أو الآية وفيها تكليف شق عليه ، ليعلم تباين الفريقين فى العلم والعمل ، حيث لا يفهم المنافق العلم ولا يريد العمل ، والمؤمن يعلم ويحب العمل وقولهم (لولا نزلت سورة) المراد منـه سورة فيها تكليف يمحن المؤمن والمنافق .

ثم إنه تعـالى أنزل سورة فيها القتال فإنه أشق تكليف وقوله (سورة محكمة) فيهـا وجوه : (أحدها) سورة لم تنسخ (ثانيها) سورة فيهـا ألفاظ أريدت حقائقها بخلاف قوله (الرحمن على العرش استوى) وقوله فى (جنب الله) فإن قوله تعالى (فضرب الرقاب) أراد القتل وهو أبلغ من قوله (اقتلوهم) وقوله (واقتلوهم حيث ثقفتموهم) صريح وكذلك غير هذا من آيات القتال وعلى الوجهين فقوله (محكمة) فيها فائدة زائدة من حيث إنهـم لا يمكنهم أن يقولوا المراد غـير مايظهر منه أو يقولوا هذه آية ، وقد نسخت فلا نقاتل ، وقوله (رأيت الذين فى قلوبهم مرض) أى المنافقين (ينظرون إليك نظر المغشى عليه من الموت) لأن عند التكليف بالقتال لا يبقى لنفاقهم فائدة ، فإنهم قبل القتال كانو يترددون إلى القبيلتين وعند الامر بالقتال لم يبق لهم إمكان ذلك (فأولى لهم) دعاء كقول القائل فويل لهم ، ويحتمل أن يكون هو خبر لمبتدأ محذوف سبق ذكره وهو الموت كأن الله تعالى لمـا قال (نظر المغشى عليه من الموت) قال فالموت أولى لهم ، لأن الحياة التى لا فى طاعة الله ورسوله الموت خير منهـا ، وقال الواحدى يجوز أن يكون المعنى فأولى لهم طاعة أى الطاعة أولى لهم .

قوله تعالى : ﴿ طاعة وقول معروف ﴾ .

كلام مستأنف محذوف الخبر تقـديره خير لهم أى أحسن وأمثـل ، لا يقال طاعة نكرة لا تصلح

فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴿٢١﴾ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾

للابتداء ، لأنا نقول هي موصوفة يدل عليه قوله (وقول معروف) فإنه موصوف فكأنه تعالى قال (طاعة) مخلصة (وقول معروف) خير ، وقيل معناه قالوا (طاعة وقول معروف) أى قولهم أمرنا (طاعة وقول معروف) ويدل عليه قراءة أبى (يقولون طاعة وقول معروف) .

وقوله ﴿ فإذا عزم الأمر فلو صدقوا الله لكان خيراً لهم ﴾ .

جوابه محذوف تقديره (فإذا عزم الأمر) خالفوا وتخلفوا ، وهو مناسب لمعنى قراءة أبى كأنه يقول فى أول الأمر قالوا سمعنا وطاعة ، وعند آخر الأمر خالفوا وأخلفوا موعدهم ، ونسب العزم إلى الأمر والعزم لصاحب الأمر معناه : فإذا عزم صاحب الأمر . هذا قول الزمخشرى ، ويحتمل أن يقال هو مجاز كقولنا جاء الأمر وولى فإن الأمر فى الأول يتوقع أن لا يقع وعند إظلاله وعجز الكاره عن إبطاله فهو واقع فقال (عزم) والوجهان متقاربان ، وقوله تعالى (فلو صدقوا) فيه وجهان على قولنا المراد من قوله طاعة أنهم قالوا طاعة فمعناه لو صدقوا فى ذلك القول وأطاعوا (لكان خيراً لهم) وعلى قولنا (طاعة وقول معروف) خير لهم وأحسن ، فمعناه (لو صدقوا) فى إيمانهم واتباعهم الرسول (لكان خيراً لهم) .

قوله تعالى : ﴿ فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا فى الارض وتقطعوا أرحامكم ﴾ .

وهذه الآية فيها إشارة إلى فساد قول قالوه ، وهو أنهم كانوا يقولون كيف نقاتل والقتل إفساد والعرب من ذوى أرحامنا وقبائلنا ؟ فقال تعالى (إن توليتم) لا يقع منكم إلا الفساد فى الأرض فإنكم تقتلون من تقدرون عليه وتنهبونه والقتال واقع بينكم ، أليس قتلكم البنات إفساداً وقطعاً للرحم ؟ فلا يصح تعللكم بذلك مع أنه خلاف ما أمر الله وهذا طاعة وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ فى استعمال عسى ثلاثة مذاهب (أحدها) الإتيان بها على صورة فعل ماض معه فاعل تقول عسى زيد وعسينا وعسوا وعسيت وعسيتما وعسيتم وعست وعستا (والثانى) أن يؤتى بها على صورة فعل معه مفعول تقول عساه وعساهما وعساك وعساكما وعساى وعسانا . (والثالث) الإتيان بها من غير أن يقرن بها شىء تقول عسى زيد يخرج وعسى أنت تخرج وعسى أنا أخرج والكل له وجه وما عليه كلام الله أوجه ، وذلك لأن عسى من الأفعال الجامدة واقتران الفاعل بالفعل أولى من اقتران المفعول لأن الفاعل كالجزء من الفعل ولهذا لم يجز فيه أربع متحركات فى مثل قول القائل نصرت وجوز فى مثل قولهم نصرك ولأن كل فعل له فاعل سواء كان لازماً أو متعدياً ولا كذلك المفعول به ، فعسيت وعساك كعصيت وعصاك فى اقتران الفاعل بالفعل

أُولَـٰئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَـٰرَهُمْ ﴿٢٣﴾

والمفعول به ، وأما قول من قال عسى أنت تقوم وعسى أن أقوم فدون ماذكرنا للتطويل الذى فيه .

﴿ المسألة الثانية ﴾ الاستفهام للتقرير المؤكد ، فإنه لو قال على سبيل الإخبار (عسيتم إن توليتم) لكان للمخاطب أن ينكره فإذا قال بصيغة الاستفهام كأنه يقول أنا أسألك عن هذا وأنت لا تقدر أن تجيب إلا بلا أو نعم فهو مقرر عندك وعندى .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ عسى للتوقيع والله تعالى عالم بكل شىء فنقول فيه ما قلنا فى لعل ، وفى قوله (لنبلوهم) إن بعض الناس قال يفعل بكم فعل المترجى والمبتلى والمتوقع ، وقال آخرون كل من ينظر إليهم يتوقع منهم ذلك ونحن قلنا محمول على الحقيقة وذلك لأن الفعل إذا كان ممكناً فى نفسه فالنظر إليه غير مستلزم لأمر ، وإنما الأمر يجوز أن يحصل منه تارة ولا يحصل منه أخرى فيكون الفعل لذلك الأمر المطلوب على سبيل الترجى سواء كان الفاعل يعلم حصول الأمر منه وسواء أن لم يكن يعلم ، مثاله من نصب شبكة لاصطياد الصيد يقال هو متوقع لذلك فان حصل له العلم بوقوعه فيه بإخبار صادق أنه سيقع فيه أو بطريق أخرى لايخرج عن التوقع ، غاية ما فى الباب أن فى الشاهد لم يحصل لنا العلم فيما نتوقعه فيظن أن عدم العلم لازم للمتوقع ، وليس كذلك بل المتوقع هو المنتظر لأمر ليس بواجب الوقوع نظراً ذلك الأمر لحسب سواء كان له به علم أولم يكن وقوله (إن توليتم) فيه وجهان : (أحدهما) أنه من الولاية يعنى إن أخذتم الولاية وصار الناس بأمركم أفسدتم وقطعتم الأرحام (وثانيهما) هو من التولى الذى هو الإعراض وهذا مناسب لما ذكرنا ، أى كنتم تتركون القتال وتقولون فيه الإفساد وقطع الأرحام لكون الكفار أقاربنا فلا يقع منكم إلا ذلك حيث تقاتلون على أدنى شىء كما كان عادة العرب (الأول) يؤكده قراءة على عليه السلام توليتم ، أى إن تولاكم ولاة ظلمة جفاة غشمة ومشيتم تحت لوائهم وأفسدتم بإفسادهم معهم وقطعتم أرحامكم ، والنبى عليه السلام لا يأمركم إلا بالإصلاح وصلة الأرحام ، فلم تتقاعدون عن القتال وتتباعدون فى الضلال .

قوله تعالى : ﴿ أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم ﴾ .

إشارة لمن سبق ذكرهم من المنافقين أبعدهم الله عنه أو عن الخير فأصمهم فلا يسمعون الكلام المستبين وأعماهم فلايتبعون الصراط المستقيم ، وفيه ترتيب حسن ، وذلك من حيث إنهم استمعوا الكلام العلمى ولم يفهموه فهم بالنسبة إليه صم أصمهم الله وعند الأمر بالعمل تركوه وعللوا بكونه إفساداً وقطعاً للرحم وهم كانوا يتعاطونه عند النهى عنه فلم يروا حالهم عليه وتركوا اتباع النبى الذى يأمرهم بالإصلاح وصلة الأرحام ولو دعاهم من يأمر بالإفساد وقطيعة الرحم لاتبعوه فهم عمى أعماهم الله ، وفيه لطيفة : وهى أن الله تعالى قال أصمهم ولم يقل أصم آذانهم ، وقال (وأعمى

أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾

أبصارهم) ولم يقل أعماهم ، وذلك لأن العين آلة الرؤية ولو أصابها آفة لا يحصل الإبصار والأذن لو أصابها آفة من قطع أو قلع تسمع الكلام ، لأن الأذن خلقت وخلق فيها تعاريج ليكثر فيها الهواء المتموج ولا يقرع الصماخ بعنف فيؤذى، كما يؤذى الصوت القوى فقال (أصمهم) من غير ذكر الأذن ، وقال (أعمى أبصارهم) مع ذكر العين لأن البصر ههنا بمعنى العين ، ولهذا جمعه بالأبصار ، ولو كان مصدراً لما جمع فلم يذكر الأذن إذ لا مدخل لها فى الإصمام ، والعين لها مدخل فى الرؤية بل هى الكل ، ويدل عليه أن الآفة فى غير هذه المواضع لما أضافها إلى الأذن سماها وقراً ، كما قال تعالى (وفى آذاننا وقر) وقال (كأن فى أذنيه وقراً) والوقر دون الصمم وكذلك الطرش .

قوله تعالى : ﴿ أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها ﴾ ولنذكر تفسيرها فى مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ لما قال الله تعالى (فأصمهم وأعمى أبصارهم) كيف يمكنهم التدبر فى القرآن قال تعالى (أفلا يتدبرون) وهو كقول القائل للأعمى أبصر وللأصم اسمع ؟ فنقول (الجواب) عنه من ثلاثة أوجه مترتبة بعضها أحسن من البعض (الأول) تكليفه ما لا يطاق جائز والله أمر من علم أنه لا يؤمن بأن يؤمن ، فكذلك جاز أن يعميهم ويذمهم على ترك التدبر (الثانى) أن قوله (أفلا يتدبرون) المراد منه الناس (الثالث) أن نقول هذه الآية وردت محققة لمعنى الآية المتقدمة ، فانه تعالى قال(أولئك الذين لعنهم الله) أى أبعدهم عنه أو عن الصدق أو عن الخير أو غير ذلك من الأمور الحسنة (فأصمهم) لا يسمعون حقيقة الكلام وأعماهم لا يتبعون طريق الإسلام فإذن هم بين أمرين ، إما لا يتدبرون القرآن فيبعدون منه ، لأن الله تعالى لعنهم وأبعدهم عن الخير والصدق ، والقرآن منهما الصنف الأعلى بل النوع الأشرف ، وأما يتدبرون لكن لا تدخل معانيه فى قلوبهم لكونها مقفلة ، تقديره (أفلا يتدبرون القرآن) لكونهم ملعونين مبعودين ، أم على قلوب أقفال فيتدبرون ولا يفهمون ، وعلى هذا لا نحتاج أن نقول أم بمعنى بل ، بل هى على حقيقتها للاستفهام واقعة فى وسط الكلام والهمزة أخذت مكانها وهو الصدر ، وأم دخلت على القلوب التى فى وسط الكلام .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قوله (على قلوب) على التنكير ما الفائدة فيه ؟ نقول قال الزمخشرى يحتمل وجهين (أحدهما) أن يكون للتنبيه على كونه موصوفاً لأن النكرة بالوصف أولى من المعرفة فكأنه قال أم على قلوب قاسية أو مظلمة (الثانى) أن يكون للتبعيض كأنه قال أم على بعض القلوب لأن النكرة لا تعم ، تقول جاءنى رجال فيفهم البعض وجاءنى الرجال فيفهم الكل ، ونحن نقول التنكير للقلوب للتنبيه على الإنكار الذى فى القلوب ، وذلك لأن القلب إذا كان عارفاً كان

إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَـٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ٱلشَّيْطَـٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ كَرِهُوا۟ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ ۖ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾

معروفاً لأن القلب خلق للمعرفة ، فاذا لم تكن فيه المعرفة فكأنه لايعرف ، وهذا كما يقول القائل فى الإنسان المؤذى : هذا ليس بإنسان هذا سبع ، ولذلك يقال هذا ليس بقلب هذا حجر . إذا علم هذا فالتعريف إما بالألف واللام وإما بالإضافة ، واللام لتعريف الجنس أو للعهد ، ولم يمكن إرادة الجنس إذ ليس على قلب قفل ، ولا تعريف العهد لأن ذلك القلب ليس ينبغى أن يقال له قلب ، وأما بالإضافة بأن نقول على قلوب أقفالها وهى لعدم عود فائدة إليهم ، كأنها ليست لهم . فإن قيل فقد قال (ختم الله على قلوبهم) وقال (فويل للقاسية قلوبهم) فنقول الأقفال أبلغ من الختم فترك الإضافة لعدم انتفاعهم رأساً .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ فى قوله (أقفالها) بالإضافة ولم يقل أقفال كما قال (قلوب) لأن الأقفال كانت من شأنها فأضافها إليها كأنها ليست إلا لها ، وفى الجلة لم يضف القلوب إليهم لعدم نفعها إياهم وأضاف الأقفال إليها لكونها مناسبة لها ، ونقول أراد به أقفالا مخصوصة هى أقفال الكفر والعناد .

قوله تعالى : ﴿ إن الذين ارتدوا على أدبارهم من بعد ما تبين لهم الهدى الشيطان سول لهم وأملى لهم ﴾ .

إشارة إلى أهل الكتاب الذين تبين لهم الحق فى التوراة بنعت محمد ﷺ وبعثه وارتدوا ، أو إلى كل من ظهرت له الدلائل وسمعها ولم يؤمن ، وهم جماعة منعهم حب الرياسة عن اتباع محمد عليه السلام وكانوا يعلمون أنه الحق (الشيطان سول لهم) سهل لهم (وأملى لهم) يعنى قالوا نعيش أياماً ثم نؤمن به ، وقرىء (وأملى لهم) فإن قيل الإملاء والإمهال وحد الآجال لايكون إلا من الله ، فكيف يصح قراءة من قرأ (وأملى لهم) فان المملى حينئذ يكون هو الشيطان نقول الجواب عنه من وجهين (أحدهما) جاز أن يكون المراد (وأملى لهم) الله فيقف على (سول لهم) (وثانيها) هو أن المسول أيضاً ليس هو الشيطان ، وإنما أسند إليه من حيث إن الله قدر على يده ولسانه ذلك ، فذلك الشيطان يمليهم ويقول لهم فى آجالكم فسحة فتمتعوا بر ياستكم ثم فى آخر الأمر تؤمنون ، وقرىء (وأملى لهم) بفتح الياء وضم الهمزة على البناء للمفعول .

قوله تعالى : ﴿ ذلك بأنهم قالوا للذين كرهوا مانزل الله سنطيعكم فى بعض الأمر والله يعلم إسرارهم ﴾

فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ﴿٢٧﴾

قال بعض المفسرين ذلك إشارة إلى الإملاء ، أى ذلك الإملاء بسبب أنهم (قالوا الذين كرهوا) وهو اختيار الواحدى ، وقال بعضهم (ذلك) إشارة إلى التسويل ، ويحتمل أن يقال ذلك الارتداد بسبب أنهم قالوا (سنطيعكم) وذلك لأنا نبين أن قوله (سنطيعكم فى بعض الأمر) هو أنهم قالوا : نوافقكم على أن محمداً ليس بمرسل ، وإنما هو كاذب ، ولكن لا نوافقكم فى إنكار الرسالة والحشر والإشراك بالله من الأصنام ، ومن لم يؤمن بمحمد صلى الله عليه وسلم فهو كافر ، وإن آمن بغيره . لا بل من لم يؤمن بمحمد صلى الله عليه وسلم ، لا يؤمن بالله ولا برسله ولا بالحشر ، لأن الله كما أخبر عن الحشر وهو جائز ، أخبر عن نبوة محمد عليه الصلاة والسلام ، وهى جائزة فاذا لم يصدق الله فى شىء لا ينفى الكذب بقول الله فى غيره ، فلا يكون مصدقاً موقناً بالحشر ، ولا برسالة أحد من الأنبياء ، لأن طريق معرفتهم واحد ، والمراد من الذين (كرهوا ما نزل الله) هم المشركون والمنافقون ، وقيل المراد اليهود ، فإن أهل مكة قالوا لهم : نوافقكم فى إخراج محمد وقتله وقتال أصحابه ، والأول أصح ، لأن قوله (كرهوا ما نزل الله) لو كان مسنداً إلى أهل الكتاب لكان مخصوصاً ببعض ما أنزل الله ، وإن قلنا بأنه مسند إلى المشركين يكون عاماً ، لأنهم (كرهوا ما نزل الله) وكذبوا الرسل بأسرهم ، وأنكروا الرسالة رأساً ، وقوله (سنطيعكم فى بعض الأمر) يعنى فيما يتعلق بمحمد من الإيمان به فلا نؤمن ، والتكذيب به فنكذبه كما تكذبونه والقتال معه ، وأما الإشراك بالله ، واتخاذ الأنداد له من الأصنام ، وإنكار الحشر والنبوة فلا ، وقوله (والله يعلم إسرارهم) قال أكثرهم : المراد منه هو أنهم قالوا ذلك سراً ، فأفشاه الله وأظهره لنبيه عليه الصلاة والسلام ، والأظهر أن يقال (والله يعلم إسرارهم) وهو ما فى قلوبهم من العلم بصدق محمد عليه الصلاة والسلام ، فإنهم كانوا مكابرين معاندين ، وكانوا يعرفون رسول الله صلى الله عليه وسلم كما يعرفون أبناءهم ، وقرىء (إسرارهم) بكسر الهمزة على المصدر ، وما ذكرنا من المعنى ظاهر على هذه القراءة ، فإنهم كانوا يسرون نبوة محمد عليه الصلاة والسلام ، وعلى قولنا المراد من الذين ارتدوا المنافقون ، فكانوا يقولون للمجاهدين من الكفار (سنطيعكم فى بعض الأمر) وكانوا يسرون أنهم إن غلبوا انقلبوا ، كما قال الله تعالى ولئن جاء نصر من ربك ليقولن إنا كنا معكم) وقال تعالى (فإذا جاء الخوف سلقوكم بألسنة حداد) .

قوله تعالى : ﴿ فكيف إذا توفتهم الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم ﴾ .

اعلم أنه لما قال الله تعالى (والله يعلم إسرارهم) قال وهب أنهم يسرون والله لا يظهره اليوم فكيف يبقى مخفياً وقت وفاتهم ، أو نقول كأنه تعالى قال (والله يعلم إسرارهم) وهب أنهم

ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ

يختارون القتال لما فيه الضراب والطعان ، مع أنه مفيد على الوجهين جميعاً ، إن غلبوا فالمال فى الحال والثواب فى المآل ، وإن غلبوا فالشهادة والسعادة ، فكيف حالهم إذا ضرب وجوههم وأدبارهم ، وعلى هذا فيه لطيفة ، وهى أن القتال فى الحال إن أقدم المبارزة فربما يهزم الخصم ويسلم وجهه وقفاه ، وإن لم يهزمه فالضرب على وجهه إن صبر وثبت وإن لم يثبت وانهزم ، فان فات القرن فقد سلم وجهه وقفاه . وإن لم يفته فالضرب على قفاه لا غير ، ويوم الوفاة لا نصرة له ولا مفر ، فوجهه وظهره مضروب مطعون ، فكيف يحترز عن الأذى ويختار العذاب الأكبر .

قوله تعالى : ﴿ ذلك بأنهم اتبعوا ما أسخط الله وكرهوا رضوانه ﴾ وفيه لطيفة ، وهى أن الله تعالى ذكر أمرين : ضرب الوجه ، وضرب الأدبار ، وذكر بعدهما أمرين آخرين : اتباع ما أسخط الله وكراهة رضوانه ، فكأنه تعالى قابل الأمرين فقال (يضربون وجوههم) حيث أقبلوا على سخط الله ، فان المتسع للشىء متوجه إليه ، ويضربون أدبارهم لأنهم تولوا عما فيه رضا الله ، فإن الكاره للشىء يتولى عنه ، وما أسخط الله يحتمل وجوهاً (الأول) إنكار الرسول عليه الصلاة والسلام ورضوانه الإقرار به والإسلام (الثانى) الكفر هو ما أسخط الله والإيمان يرضيه يدل عليه قوله تعالى (إن تكفروا فإن الله غنى عنكم ولا يرضى لعباده الكفر وإن تشكروا يرضاه لكم) وقال تعالى (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية) إلى أن قال (رضى الله عنهم ورضوا عنه) (الثالث) ما أسخط الله تسويل الشيطان ، ورضوان الله التعويل على البرهان والقرآن ، فان قيل هم ما كانوا يكرهون رضوان الله ، بل كانوا يقولون : إن ما نحن عليه فيه رضوان الله ، ولا نطلب إلا رضاء الله ، وكيف لا والمشركون بإشراكهم كانوا يقولون : إنا نطلب رضاء الله ، كما قالوا (ليقربونا إلى الله زلفى) وقالوا (ليشفعوا لنا) فنقول معناه كرهوا ما فيه رضاء الله تعالى .

(وفيه لطيفة) وهى أن الله تعالى قال (ما أسخط الله) ولم يقل : ما أرضى الله وذلك لأن رحمة الله سابقة ، فله رحمة ثابتة وهى منشأ الرضوان ، وغضب الله متأخر فهو يكون على ذنب ، فقال (رضوانه) لأنه وصف ثابت لله سابق ، ولم يقل سخط الله ، بل (ما أسخط الله) إشارة إلى أن السخط ليس ثبوته كثبوت الرضوان ، ولهذا المعنى قال فى اللعان فى حق المرأة (والخامسة أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين) يقال (غضب الله) مضافاً لأن لعانه قد سبق مظهر الزنا بقوله وأيمانه ، وقبله لم يكن لله غضب ، و (رضوان الله) أمر يكون منه الفعل ، وغضب الله أمر يكون من فعله ، ولنضرب له مثالا : الكريم الذى رسخ الكرم فى نفسه يحمله الكرم على الأفعال الحسنة ، فإذا كثر من المسيء الإساءة فغضبه لا لأمر يعود إليه ، بل غضبه عليه يكون لإصلاح

فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٢٨﴾ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٠﴾

حاله ، وزجراً لأمثاله عن مثل فعاله ، فيقال هو كان الكريم فكرمه لما فيه من الغريزة الحسنة ، لكن فلاناً أغضبه وظهر منه الغضب ، فيجعل الغضب ظاهراً من الفعل ، والفعل الحسن ظاهراً من الكرم ، فالغضب فى الكريم بعد فعل ، والفعل منه بعد كرم ، ومن هذا يعرف لطف قوله (ما أسخط الله وكرهوا رضوانه) .

قوله تعالى : ﴿ فأحبط أعمالهم ﴾ حيث لم يطلبوا رضاء الله ، وإنما طلبوا رضاء الشيطان والاصنام .

قوله تعالى : ﴿ أم حسب الذين فى قلوبهم مرض أن لن يخرج الله أضغانهم ﴾ .

هذا إشارة إلى المنافقين و (أم) تستدعى جملة أخرى استفهامية إذا كانت للاستفهام ، لأن كلمة (أم) إذا كانت متصلة استفهامية تستدعى سبق جملة أخرى استفهامية ، يقال أزيد فى الدار أم عمرو ، وإذا كانت منقطعة لا تستدعى ذلك ، يقال إن هذا لزيد أم عمرو ، وكما يقال بل عمرو ، والمفسرون على أنها منقطعة ، ويحتمل أن يقال إنها استفهامية ، والسابق مفهوم من قوله تعالى (والله يعلم إسرارهم) فكأنه تعالى قال : أحسب الذين كفروا أن لن يعلم الله إسرارهم أم حسب المنافقون أن لن يظهرها والكل قاصر ، وإنما يعلمها ويظهرها ، ويؤيد هذا أن المنقطعة لا تكاد تقع فى صدر الكلام فلا يقال ابتداء ، بل جاء زيد ، ولا أم جاء عمرو ، والإخراج بمعنى الإظهار فإنه إبراز ، والأضغان هى الحقود والأمراض ، واحدها ضغن .

قوله تعالى : ﴿ولو نشاء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم ولتعرفنهم فى لحن القول والله يعلم أعمالكم ﴾

لما كان مفهوم قوله (أم حسب الذين فى قلوبهم مرض أن لن يخرج الله أضغانهم) أن الله يظهر ضمائرهم ويبرز سرائرهم كأن قائلا قال فلم لم يظهر فقال أخرناه لمحض المشيئة لا لخوف منهم ، كما لا تفشى أسرار الأكابر خوفاً منهم (ولو نشاء لأريناكهم) أى لا مانع لنا والإراءة بمعنى التعريف ، وقوله (فلتعرفتهم) لزيادة فائدة ، وهى أن التعريف قد يطلق ولا يلزمه المعرفة ، يقال عرفته ولم يعرف وفهمته ولم يفهم فقال ههنا (فلعرفتهم) يعنى عرفناهم تعريفاً تعرفهم به ، إشارة إلى قوة التعريف ، واللام فى قوله (فلعرفتهم) هى التى تقع فى جزاء لو كما فى قوله (لأريناكهم) أدخلت على المعرفة إشارة إلى أن المعرفة كالمرتبة على المشيئة كأنه قال : ولو نشاء لعرفتهم ، ليفهم أن المعرفة غير متأخرة عن التعريف فتفيد تأكيد التعريف ، أى لو نشاء لعرفناك تعريفاً معه المعرفة

وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾

لا بعده ، وأما اللام فى قوله تعالى (ولتعرفنهم) جواب لقسم محذوف كأنه قال ولتعرفنهم والله ، وقوله (فى لحن القول) فيه وجوه (أحدها) فى معنى القول وعلى هذا فيحتمل أن يكون المراد من القول قولهم أى لتعرفنهم فى معنى قولهم حيث يقولون ما معناه النفاق كقولهم حين مجىء النصر إنا كنا معكم ، وقولهم (لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن) وقولهم (إن بيوتنا عورة) وغير ذلك ، ويحتمل أن يكون المراد قول الله عز وجل أى لتعرفنهم فى معنى قول الله تعالى حيث قال ما تعلم منه حال المنافقين كقوله تعالى (إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله وإذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا) وقوله (إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم) إلى غير ذلك ، (وثانيها) فى ميل القول عن الصواب حيث قالوا ما لم يعتقدوا ، فأمالوا كلامهم حيث قالوا (نشهد إنك لرسول الله والله يعلم إنك لرسوله والله يشهد إن المنافقين لكاذبون) وقالوا (إن بيوتنا عورة وما هى بعورة ، ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لا يولون الأدبار) إلى غير ذلك (وثالثها) فى لحن القول أى فى الوجه الخفى من القول الذى يفهمه النبى عليه السلام ولا يفهمه غيره ، وهذا يحتمل أمرين أيضاً والنبى عليه السلام كان يعرف المنافق ولم يكن يظهر أمره إلى أن أذن الله تعالى له فى إظهار أمرهم ومنع من الصلاة على جنائزهم والقيام على قبورهم ، وأما قوله (بسيماهم) فالظاهر أن المراد أن الله تعالى لو شاء لجعل على وجوههم علامة أو يمسخهم كما قال تعالى (ولو نشاء لمسخناهم) وروى أن جماعة منهم أصبحوا وعلى جباههم مكتوب هذا منافق ، وقوله تعالى (والله يعلم أعمالكم)وعد للمؤمنين ، وبيان لكون حالهم على خلاف حال المنافق ، فان المنافق كان له قول بلا عمل ، والمؤمن كان له عمل ولا يقول به ، وإنما قوله التسبيح ويدل عليه قوله تعالى (ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا) وقوله (ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا) وكانوا يعملون الصالحات ويتكلمون فى السيئات مستغفرين مشفقين ، والمنافق كان يتكلم فى الصالحات كقوله (إنا معكم) (قالت الأعرب آمنا) ، (ومن الناس من يقول آمنا) ويعمل السيء فقال تعالى الله يسمع أقوالهم الفارغة ويعلم أعمالكم الصالحة فلا يضيع .

قوله تعالى : ﴿ ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلوا أخباركم ﴾ .

أى لنأمرنكم بما لا يكون متعيناً للوقوع ، بل بما يحتمل الوقوع ويحتمل عدم الوقوع كما يفعل المختبر ، وقوله تعالى (حتى نعلم المجاهدين) أى نعلم المجاهدين من غير المجاهدين ويدخل فى علم الشهادة فانه تعالى قد علمه علم الغيب وقد ذكرنا ماهو التحقيق فى الابتلاء ، وفى قوله (حتى نعلم) وقوله (المجاهدين) أى المقدمين على الجهاد (والصابرين) أى الثابتين الذين لا يولون الأدبار وقوله (ونبلوا أخباركم) يحتمل وجوهاً (أحدها) قوله (آمنا) لأن المنافق وجد منه هذا الخبر

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّواْ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ
ٱلۡهُدَىٰ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـًٔا وَسَيُحۡبِطُ أَعۡمَٰلَهُمۡ ﴿٣٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ
ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبۡطِلُوٓاْ أَعۡمَٰلَكُمۡ ﴿٣٣﴾

والمؤمن وجد منه ذلك أيضاً ، وبالجهاد يعلم الصادق من الكاذب ، كما قال تعالى (أولئك هم الصادقون) ، (وثانيها) إخبارهم من عدم التولية فى قوله (ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لايولون الأدبار) إلى غير ذلك ، فالمؤمن وفى بعهده وقاتل مع أصحابه (فى سبيل الله كأنهم بنيان مرصوص) والمنافق كان كالهباء ينزعج بأدنى صيحة (وثالثها) المؤمن كان له أخبار صادقة مسموعة من النبي عليه السلام كقوله تعالى (لتدخلن المسجد الحرام) ، (لأغلبن أنا ورسلى ، وإن جندنا لهم الغالبون) وللمنافق أخبار أراجيف كما قال تعالى فى حقهم (والمرجفون فى المدينة) فعند تحقق الإيجاف ، يتبين الصدق من الإرجاف .

قوله تعالى : ﴿ إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله وشاقوا الرسول من بعد ما تبين لهم الهدى لن يضروا الله شيئاً وسيحبط أعمالهم ﴾ وفيه وجهان (أحدهما) هم أهل الكتاب قريظة والنضير (والثانى) كفار قريش يدل على الأول قوله تعالى (من بعد ماتبين لهم الهدى) قيل أهل الكتاب تبين لهم صدق محمد عليه السلام ، وقوله (لن يضروا الله شيئاً) تهديد معناه هم يظنون أن ذلك الشقاق مع الرسول وهم به يشاقونه وليس كذلك ، بل الشقاق مع الله فإن محمد رسول الله ماعليه إلا البلاغ فإن ضروا يضروا الرسل لكن الله منزه عن أن يتضرر بكفر كافر وفسق فاسق ، وقوله (وسيحبط أعمالهم) قد علم معناه . فإن قيل قد تقدم فى أول السورة أن الله تعالى أحبط أعمالهم فكيف يحبط فى المستقبل ؟ فنقول الجواب عنه من وجهين (أحدهما) أن المراد من قوله (الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله) فى أول السورة المشركون ، ومن أول الأمر كانوا مبطلين وأعمالهم كانت على غير شريعة ، والمراد من الذين كفروا ههنا أهل الكتاب وكانت لهم أعمال قبل الرسول فأحبطها الله تعالى بسبب تكذيبهم الرسول ولا ينفعهم إيمانهم بالحشر والرسل والتوحيد ، والكافر المشرك أحبط عمله حيث لم يكن على شرع أصلا ولا كان معترفاً بالحشر (الثانى) هو أن المراد بالأعمال ههنا مكايدهم فى القتال وذلك قد تحقق منهم والله سيبطله حيث يكون النصر للمؤمنين ، والمراد بالأعمال فى أول السورة هو ماظنوه حسنة .

قوله تعالى : ﴿ ياأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعو الرسول ولا تبطلوا أعمالكم ﴾ .
العطف ههنا من باب عطف المسبب على السبب يقال اجلس واسترح وقم وامش لأن طاعة

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ﴿٣٤﴾ فَلَا تَهِنُواْ وَتَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٥﴾

الله تحمل على طاعة الرسول ، وهذا إشارة إلى العمل بعد حصول العلم ، كأنه تعالى قال : ياأيها الذين آمنوا علمتم الحق فافعلوا الخير ، وقوله (ولا تبطلوا أعمالكم) يحتمل وجوهاً (أحدها) دوموا على ما أنتم عليه ولا تشركوا فتبطل أعمالكم ، قال تعالى (لئن أشركت ليحبطن عملك) (الوجه الثانى) (لا تبطلوا أعمالكم) بترك طاعة الرسول كما أبطل الكتاب أعمالهم بتكذيب الرسول وعصيانه ، ويؤيده قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا لاترفعوا أصواتكم) إلى أن قال (أن تحبط أعمالكم وأنتم لاتشعرون) (الثالث) (لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى) كما قال تعالى (يمنون عليك أن أسلموا قل لا تمنوا على إسلامكم) وذلك أن من يمن بالطاعة على الرسول كأنه يقول هذا فعلته لأجل قلبك ، ولولا رضاك به لما فعلت ، وهو مناف للاخلاص ، والله لا يقبل إلا العمل الخالص .

قوله تعالى : ﴿ إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله ثم ماتوا وهم كفار فلن يغفر الله لهم ﴾ .

بين أن الله لا يغفر الشرك وما دون ذلك يغفره إن شاء حتى لا يظن ظان أن أعمالهم وإن بطلت لكن فضل الله باق يغفر لهم بفضله ، وإن لم يغفر لهم بعملهم .

قوله تعالى : ﴿ فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون والله معكم ولن يتركم أعمالكم ﴾ .

لما بين أن عمل الكافر الذى له صورة الحسنات محبط ، وذنبه الذى هو أقبح السيئات غير مغفور ، بين أن لا حرمة فى الدنيا ولا فى الآخرة ، وقد أمر الله تعالى بطاعة الرسول بقوله (وأطيعوا الرسول) وأمر بالقتال بقوله (فلا تهنوا) أى لا تضعفوا بعد ما وجد السبب فى الجد فى الأمر والاجتهاد فى الجهاد فقال (فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم) وفى الآيات ترتيب فى غاية الحسن ، وذلك لأن قوله (أطيعوا الله وأطيعوا الرسول) يقتضى السعى فى القتال لأن أمر الله وأمر الرسول ورد بالجهاد وقد أمروا بالطاعة ، فذلك يقتضى أن لا يضعف المكلف ولا يكسل ولا يهن ولا يتهاون ، ثم إن بعد المقتضى قد يتحقق مانع ولا يتحقق المسبب ، والمانع من القتال إما أخروى وإما دنيوى ، فذكر الأخروى وهو أن الكافر لا حرمة له فى الدنيا والآخرة ، لأنه لا عمل له فى الدنيا ولا مغفرة له فى الآخرة ، فإذا وجد السبب ولم يوجد المانع ينبغى أن يتحقق المسبب ، ولم يقدم المانع الدنيوى على قوله (فلا تهنوا) إشارة إلى أن الأمور الدنيوية لا ينبغى أن تكون

إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ﴿٣٦﴾

مانعة من الإتيان ، فلاتهنوا فإن لكم النصر ، أو عليكم بالعزيمة على تقدير الاعتزام للهزيمة .

ثم قال تعالى بعد ذلك المانع الدنيوى مع أنه لاينبغى أن يكون مانعاً ليس بموجود أيضاً حيث ﴿أنتم الأعلون﴾ والأعلون والمصطفون فى الجمع حالة الرفع معلوم الأصل ، ومعلوم أن الأمر كيف آل إلى هذه الصيغة فى التصريف ، وذلك لأن أصله فى الجمع الموافق أعليون ومصطفيون فسكنت الياء لكونها حرف علة فتحرك ما قبلها والواو كانت ساكنة فالتقى ساكنان ولم يكن بد من حذف أحدهما أو تحريكه والتحريك كان يوقع فى المحذور الذى اجتنب منه فوجب الحذف ، والواو كانت فيه لمعنى لا يستفاد إلا منها وهو الجمع فأسقطت الياء وبقى أعلون ، وبهذا الدليل صار فى الجر أعلين ومصطفين ، وقوله تعالى (والله معكم) هداية وإرشاد يمنع المكلف من الإعجاب بنفسه ، وذلك لأنه تعالى لما قال (وأنتم الأعلون) كان ذلك سبب الافتخار فقال (والله معكم) يعنى ليس ذلك من أنفسكم بل من الله ، أو نقول لما قال (وأنتم الأعلون) فكان المؤمنون يرون ضعف أنفسهم وقلتهم مع كثرة الكفار وشوكتهم وكان يقع فى نفس بعضهم أنهم كيف يكون لهم الغلبة فقال إن الله معكم لايبقى لكم شك ولا ارتياب فى أن الغلبة لكم وهذا كقوله تعالى (لأغلبن أنا ورسلى) وقوله (وإن جندنا لهم الغالبون) وقوله (ولن يتركم أعمالكم) وعد آخر وذلك لأن الله لما قال إن الله معكم ، كان فيه أن النصرة بالله لا بكم فكان القائل يقول لم يصدر منى عمل له اعتبار فلا أستحق تعظيما ، فقال هو ينصركم ومع ذلك لا ينقص من أعمالكم شيئاً ، ويجعل كأن النصرة جعلت بكم ومنكم فكأنكم مستقلون فى ذلك ويعطيكم أجر المستبد ، والترة النقص ، ومنه الموتر كأنه نقص منه ما يشفعه ، ويقول عند القتال إن قتل من الكافرين أحد فقد وتروا فى أهلهم وعملهم حيث نقص عددهم وضاع عملهم ، والمؤمن إن قتل فانما ينقص من عدده ولم ينقص من عمله ، وكيف ولم ينقص من عدده أيضاً ، فإنه حى مرزوق ، فرح بما هو إليه مسوق .

قوله تعالى : ﴿ إنما الحياة الدنيا لعب ولهو وإن تؤمنوا وتتقوا يؤتكم أجوركم ولا يسألكم أموالكم ﴾ .

زيادة فى التسلية يعنى كيف تمنعك الدنيا من طلب الآخرة بالجهاد ، وهى لاتفوتك لكونك منصوراً غالباً ، وإن فاتتك فعملك غير موتر ، فكيف وما يفوتك ، فان فات فائت ولم يعوض لا ينبغى لك أن تلتفت إليها لكونها لعباً ولهواً ، وقد ذكرنا فى اللعب واللهو مراراً أن اللعب

إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا۟ وَيُخْرِجْ أَضْغَـٰنَكُمْ ﴿٣٧﴾

ما تشتغل به ولا يكون فيه ضرورة فى الحال ولا منفعة فى المآل ، ثم إن استعمله الإنسان ولم يشتغله عن غيره ، ولم يثنه عن أشغاله المهمة فهو لعب وإن شغله ودهشه عن مهماته فهو لهو ، ولهذا يقال ملاهي لآلات الملاهي لأنها مشغلة عن الغير ، ويقال لما دونه لعب كاللعب بالشطرنج والحمام ، وقد ذكرنا ذلك غير مرة ، وقوله (وإن تؤمنوا وتتقوا يؤتكم أجوركم) إعادة للوعد والإضافة للتعريف ، أى الأجر الذى وعدكم بقوله (أجر كريم) (وأجر كبير) (وأجر عظيم) وقوله (ولا يسئلكم أموالكم) يحتمل وجوهاً (أحدها) أن الجهاد لابد له من إنفاق ، فلو قال قائل أنا لا أنفق مالى ، فيقال له الله لا يسئلكم مالكم فى الجهات المعينة من الزكاة والغنيمة وأموال المصالح فيما تحتاجون إليه من المال لا تراعون بإخراجه (وثانيها) الأموال لله وهى فى أيديكم عارية وقد طلب منكم أو أجاز لكم فى صرفها فى جهة الجهاد فلا معنى لبخلكم بماله ، وإلى هذا أشار بقوله تعالى (وما لكم أن لا تنفقوا فى سبيل الله ولله ميراث السموات والأرض) أى الكل لله (وثالثها) لا يسألكم أموالكم كلها ، وإنما يسألكم شيئاً يسيراً منها وهو ربع العشر ، وهو قليل جداً لأن العشر هو الجزء الأقل إذ ليس دونه جزء آخر وليس اسماً مفرداً ، وأما الجزء من أحد عشر ومن اثنى عشر و [إلى] مائة جزء لما لم يكن ملتفتاً إليه لم يوضع له اسم مفرد .

ثم إن الله تعالى لم يوجب ذلك فى رأس المال بل أوجب ذلك فى الربح الذى هو من فضل الله وعطائه ، وإن كان رأس المال أيضاً كذلك لكن هذا المعنى فى الربح أظهر ، ولما كان المال منه ما ينفق للتجارة فيه ومنه مالا ينفق ، وما أنفق منه للتجارة أحد قسميه وهو يحتمل أن تكون التجارة فيه رابحة ، ويحتمل أن لا تكون رابحة فصار القسم الواحد قسمين فصار فى التقدير كان الربح فى ربعه فأوجب [ربع] عشر الذي فيه الربح وهو عشر فهو ربع العشر وهو الواجب ، فعلم أن الله لا يسألكم أموالكم ولا الكثير منه .

قوله تعالى : ﴿ إن يسألكموها فيحفكم تبخلوا ويخرج أضغانكم ﴾ .

الفاء فى قوله (فيحفكم) للاشارة إلى أن الإحفاء يتبع السؤال بياناً لشح الأنفس ، وذلك لأن العطف بالواو قد يكون للمثلين وبالفاء لا يكون إلا للمتعاقبين أو متعلقين أحدهما بالآخر فكأنه تعالى بين أن الإحفاء يقع عقيب السؤال لأن الإنسان بمجرد السؤال لا يعطى شيئاً وقوله (تبخلوا ويخرج أضغانكم) يعنى ماطلبها ولو طلبها وألح عليكم فى الطلب لبخلتم ، كيف وأنتم تبخلون باليسير لا تبخلون بالكثير وقوله (ويخرج أضغانكم) يعنى بسببه فإن الطالب وهو النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه يطلبونكم وأنتم لمحبة المال وشح الأنفس تمتنعون فيفضى إلى القتال وتظهر به الضغائن .

هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ۖ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ۚ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم ﴿٣٨﴾

قوله تعالى : ﴿ ها أنتم هؤلاء تدعون لتنفقوا فى سبيل الله فمنكم من يبخل ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه والله الغنى وأنتم الفقراء ﴾ .

[يعنى] قد طلبت منكم اليسير فبخلتم فكيف لوطلبت منكم الكل وقوله (هؤلاء) يحتمل وجهين : (أحدهما) أن تكون موصولة كأنه قال : أنتم هؤلاء الذين تدعون لتنفقوا فى سبيل الله (وثانيهما) (هؤلاء) وحدها خبر (أنتم) كما يقال أنت هذا تحقيقاً للشهرة والظهور أى ظهر أثركم بحيث لا حاجة إلى الإخبار عنكم بأمر مغاير ثم يبتدىء (تدعون) وقوله (تدعون) أى إلى الإنفاق إما فى سبيل الله تعالى بالجهاد ، وإما فى صرفه إلى المستحقين من إخوانكم ، وبالجملة فى الجهتين تخذيل الأعداء ونصرة الأولياء (فمنكم من يبخل) ، ثم بين أن ذلك البخل ضرر عائد إليه فلا تظنوا أنهم لاينفقونه على غيرهم بل لا ينفقونه على أنفسهم فإن من يبخل بأجرة الطبيب وثمن الدواء وهو مريض فلا يبخل إلا على نفسه ، ثم حقق ذلك بقوله (والله الغنى) غير محتاج إلى مالكم وأتمه بقوله (وأنتم الفقراء) حتى لاتقولوا إنا أيضاً أغنياء عن القتال ، ودفع حاجة الفقراء فإنهم لا غنى لهم عن ذلك فى الدنيا والآخرة ، أما فى الدنيا فلأنه لولا القتال لقتلوا ، فإن الكافر إن يغز يغز ، والمحتاج إن لم يدفع حاجته يقصده ، لاسيما أباح الشارع للمضطر ذلك ، وأما فى الآخرة نظاهر فكيف لايكون فقيراً وهو موقوف مسئول (يوم لاينفع مال ولا بنون) .

قوله تعالى : ﴿ وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لايكونوا أمثالكم ﴾ بيان الترتيب من وجهين : (أحدهما) أنه ذكره بياناً للاستغناء ، كما قال تعالى (إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد) وقد ذكر أن هذا تقرير بعد التسليم ، كأنه تعالى يقول : الله غنى عن العالم بأسره فلا حاجة له إليكم . فإن كان ذاهب يذهب إلى أن ملكه بالعالم وجبروته يظهر به وعظمته بعباده ، فنقول هب أن هذا الباطل حق لكنكم غير متعينين له ، بل الله قادر على أن يخلق خلقاً غيركم يفتخرون بعبادته ، وعالما غير هذا يشهد بعظمته وكبريائه (وثانيهما) أنه تعالى لما بين الأمور وأقام عليها البراهين وأوضحها بالأمثلة قال إن أطعتم فلكم أجوركم وزيادة وإن تتولوا لم يبق لكم إلا الإهلاك فإن ما من نبى أنذر قومه وأصروا على تكذيبه إلا وقد حق عليهم القول بالإهلاك وطهر الله الأرض منهم وأتى بقوم آخرين طاهرين ، وقوله (ثم لايكونوا أمثالكم) فيه مسألة نحوية يتبين منها فوائد عزيزة وهى :

أن النحاة قالوا : يجوز فى المعطوف على جواب الشرط بالواو والفاء وثم ، الجزم والرفع جميعاً ، قال الله تعالى ههنا (وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم) بالجزم ، وقال فى موضع آخر (وإن يقاتلوكم يولوكم الأدبار ثم لا ينصرون) بالرفع بإثبات النون وهو مع الجواز ، ففيه تدقيق : وهو أن ههنا لا يكون متعلقاً بالتولى لأنهم إن لم يتولوا يكونون ممن يأتى بهم الله على الطاعة وإن تولوا لا يكونون مثلهم لكونهم عاصين ، كون من يأتى بهم مطيعين ، وأما هناك سواء قاتلوا أو لم يقاتلوا لا ينصرون ، فلم يكن للتعليق هناك وجه فرفع بالابتداء ، وههنا جزم للتعليق .

وقوله (ثم لا يكونوا أمثالكم) يحتمل وجهين : (أحدهما) أن يكون المراد (ثم لا يكونوا أمثالكم) فى الوصف ولا فى الجنس وهو لائق (الوجه الثانى) وفيه وجوه (أحدها) قوم من العجم (ثانيها) قوم من فارس روى أن النبى صلى الله عليه وسلم سئل عمن يستبدل بهم إن تولوا وسلمان إلى جنبه فقال «هذا وقومه» ثم قال « لو كان الإيمان منوطاً بالثريا لناله رجال من فارس » و (ثالثها) قوم من الأنصار والله أعلم .

والحمد لله رب العالمين . وصلاته على خير خلقه محمد النبى وآله وصحبه وعترته وآل بيته أجمعين وسلم تسليما كثيراً آمين .

سورة القتال، وهي سورة محمد ﷺ

مدنية في قول ابن عباس؛ ذكره النحاس[(١)].

وقال الماوردي[(٢)]: [مدنية] في قول الجميع إلا ابن عباس وقتادة فإنَّهما قالا: إلا آيةً منها نزلت عليه بعد حَجَّة الوداع حين خرج من مكة، وجعل ينظر إلى البيت وهو يبكي حُزناً عليه؛ فنزل عليه ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ﴾ [محمد: ١٣].

وقال الثعلبيّ: إنَّها مكية؛ وحكاه ابن هبة الله عن الضحَّاك وسعيد بن جبير. وهي تسع وثلاثون آية. وقيل: ثمان[(٣)].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ۝١﴾

قال ابن عباس ومجاهد: هم أهلُ مكةَ؛ كفروا بتوحيد الله[(٤)]، وصدّوا أنفسَهم والمؤمنين عن دين الله ـ وهو الإسلام ـ بنهيهم عن الدخول فيه، وقاله السدّي. وقال الضحاك: «عَنْ سَبِيلِ اللهِ»: عن بيت الله بمنع قاصديه[(٥)].

ومعنى «أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ»: أبطلَ كيدَهم ومكرهم بالنبيّ ﷺ، وجعل الدائرة عليهم. قاله الضحاك[(٦)]. وقيل: أبطل ما عملوه في كفرهم مما كانوا يسمونه مكارم؛ من صلة الأرحام، وفَكِّ الأسارى، وقِرَى الأضياف، وحفظ الجوار[(٧)].

---

(١) في الناسخ والمنسوخ له ٣/ ٤ .

(٢) في النكت والعيون ٥/ ٢٩٠ ، وما بين حاصرتين منه .

(٣) بنحوه في الكشاف ٣/ ٥٢٩ .

(٤) تفسير أبي الليث ٣/ ٢٣٩ .

(٥) النكت والعيون ٥/ ٢٩٠ .

(٦) تفسير البغوي ٤/ ١٧٧ .

(٧) الكشاف ٣/ ٥٢٩-٥٣٠ .

وقال ابن عباس: نزلت في المُطعِمِين ببدر، وهم اثنا عشر رجلاً: أبو جهل، والحارث بن هشام، وعتبة وشيبة ابنا ربيعة، وأُبيّ وأُمَيّة ابنا خَلَف، ومُنَبِّه ونُبَيْه ابنا الحجَّاج، وأبو البَخْتَري بن هشام، وزَمْعةُ بن الأسود، وحكيمُ بن حزام، والحارثُ ابن عامر بن نوفل[١].

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُوا۟ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ۝٢﴾

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُوا۟ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ﴾ قال ابن عباس ومجاهد: هم الأنصار. وقال مقاتل: إنَّها نزلت خاصة في ناسٍ من قريش[٢]. وقيل: هما عامّتان فيمن كفر وآمن[٣].

ومعنى «أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ»: أبطلَها. وقيل: أضلَّهم عن الهدى بما صرفهم عنه من التوفيق[٤].

﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ من قال: إنَّهم الأنصار، فهي المواساة في مساكنهم وأموالهم. ومن قال: إنَّهم من قريش، فهي الهجرة[٥]. ومن قال بالعموم، فالصالحات جميع الأعمال التي ترضي الله تعالى.

﴿وَءَامَنُوا۟ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ﴾: لم يخالفوه في شيء. قاله سفيان الثوري[٦]. وقيل: صدّقوا محمداً ﷺ فيما جاء به. ﴿وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ يريد أنَّ إيمانَهم هو الحقُّ من

---

(١) بنحوه في النكت والعيون ٥/ ٢٩١، وفيه «الوليد بن عقبة وعقبة بن أبي معيط» بدل «الحارث بن هشام، وأبيّ بن خلف».

(٢) النكت والعيون ٥/ ٢٩١ دون ذكر مجاهد، وذكر قوله ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ١٠٩.

(٣) بنحوه في الكشاف ٣/ ٥٣٠.

(٤) النكت والعيون ٥/ ٢٩١.

(٥) المصدر السابق.

(٦) تفسير البغوي ٤/ ١٧٧.

ربهم. وقيل: أي: إنَّ القرآن هو الحقُّ من ربهم[١]، نَسَخَ به ما قبلَه ﴿كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ أي: ما مضى من سيئاتهم قبل الإيمان.

﴿وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ أي: شأنَهم؛ عن مجاهد وغيره. وقال قتادة: حالَهم. ابن عباس: أمورَهم. والثلاثة متقاربة، وهي متأوّلة على إصلاح ما تعلق بدنياهم. وحكى النقاشُ أنَّ المعنى: أصلح نياتِهم؛ ومنه قول الشاعر:

فإن تُقبلي بالودِّ أقبِلْ بمثله وإن تُدبري أذهبْ إلى حالِ باليا[٢]

وهو على هذا التأويل[٣] محمول على إصلاح دينهم[٤].

«والبال» كالمصدر، ولا يعرف منه فعل، ولا تجمعه العربُ إلا في ضرورة الشِّعر فيقولون فيه: بالات[٥].

المبرِّد: قد يكون البال في موضع آخر بمعنى القلب؛ يقال: ما يخطر فلان على بالي، أي: على قلبي[٦].

الجوهري[٧]: والبال رخاءُ النفس؛ يقال: فلان رخيّ البال. والبال: الحال؛ يقال: ما بالك؟ وقولهم: ليس هذا من بالي، أي: مما أباليه. والبال: الحوتُ العظيمُ من حيتان البحر، وليس بعربيّ. والبالة: وعاء الطِّيب؛ فارسي معرَّب، وأصله بالفارسية بيله. قال أبو ذؤيب:

كأنَّ عليها بالةً لَطَمِيَّةً لها من خلال الدَّأيتَيْنِ أرِيجُ[٨]

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٢٩١.

(٢) النكت والعيون ٥/ ٢٩١-٢٩٢، والبيت أيضاً في أمالي الزجاجي ص١٦١ غير منسوب.

(٣) في (م): التأول.

(٤) النكت والعيون ٥/ ٢٩٢.

(٥) المحرر الوجيز ٥/ ١١٠، وفيه: البال: مصدر، كالحال والشأن.

(٦) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٧٨.

(٧) في الصحاح (بول).

(٨) البيت في ديوان الهذليين ص٥٩. اللطميّة: أو: اللطيمة: هي العنبرة التي لُطِمت بالمسك، فتفتّقت =

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ ﴿٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْۚ﴾ «ذلِك» في موضع رفع، أي: الأمر ذلك، أو ذلك الإضلال والهدى المتقدم ذكرهما سببُه هذا[١]. فالكافر اتّبع الباطل، والمؤمن اتّبع الحقّ. والباطل: الشرك. والحقّ: التوحيد والإيمان. ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ﴾ أي: كهذا البيان الذي بُيّن؛ يُبَيّن الله للناس أمر الحسنات والسيئات[٢]. والضمير في «أَمْثَالَهُمْ» يرجع إلى الذين كفروا والذين آمنوا[٣].

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّواْ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنَّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَاۚ ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَاْ بَعْضَكُم بِبَعْضٍۗ وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٤﴾﴾

فيه أربع مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ﴾ لمّا ميّز بين الفريقين؛ أمرَ بجهاد الكفار.

قال ابن عباس: الكفار المشركون عبدةُ الأوثان. وقيل: كلُّ من خالف دينَ الإسلام من مشركٍ أو كتابيٍّ إذا لم يكن صاحبَ عهد ولا ذِمّة. ذكره الماوردي[٤]، واختاره ابن العربيّ[٥] وقال: وهو الصحيح لعموم الآية فيه.

= به حتى نشبت رائحتها. الدأي: ضلوع الصدر في ملتقاه وملتقى الجنب. الأريج: الريح الطيبة. اللسان (لطم) (دأي) (أرج).

(١) أي: تكون «ذلك» إما في موضع رفع خبر، على إضمار مبتدأ، أي: الأمر ذلك، أو في موضع رفع بالابتداء، وما بعده خبره. إعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٧٨.

(٢) معاني القرآن للنحاس ٦/ ٤٦١.

(٣) تفسير الرازي ٢٨/ ٤٣.

(٤) في النكت والعيون ٥/ ٢٩٣.

(٥) في أحكام القرآن له ٤/ ١٦٨٨.

«فَضَرْبَ الرِّقَابِ» مصدر[١]. قال الزجّاج[٢]: أي: فاضربوا الرِّقاب ضرباً.

وخصّ الرِّقاب بالذِّكر؛ لأنَّ القتلَ أكثر ما يكون بها[٣]. وقيل: نصب على الإغراء[٤]. قال أبو عبيدة[٥]: هو كقولك: يا نفسُ صبراً.

وقيل: التقدير: اقصدوا ضرب الرقاب[٦].

وقال: «فَضَرْبَ الرِّقَابِ» ولم يقل: فاقتلوهم؛ لأنَّ في العبارة بضرب الرِّقاب من الغلظة والشدة ما ليس في لفظ القتل؛ لِما فيه من تصوير القتل بأشنع صورة؛ وهو حزُّ العنق وإطارةُ العضو الذي هو رأس البدن وعُلوه وأوْجَهُ أعضائه[٧].

الثانية: قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثۡخَنتُمُوهُمۡ﴾ أي: أكثرتُم القتل. وقد مضى في «الأنفال» عند قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يُثۡخِنَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ [الأنفال: ٦٧][٨]. ﴿فَشُدُّواْ ٱلۡوَثَاقَ﴾ أي: إذا أسرتُموهم. والوَثاق اسم من الإيثاق، وقد يكون مصدراً؛ يقال: أوثقتُه إيثاقاً ووَثاقاً[٩].

وأما الوِثاق ـ بالكسر ـ فهو اسم الشيء الذي يوثَق به؛ كالرِّباط. قاله القشيري.

وقال الجوهَري[١٠]: وأوثقه في الوِثاق، أي: شدّه، وقال تعالى: «فَشُدُّوا الوَثَاقَ». والوِثاق ـ بكسر الواو ـ لغة فيه.

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٧٩ .

(٢) في معاني القرآن له ٥/ ٦ .

(٣) معاني القرآن للنحاس ٦/ ٤٦١ .

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٧٩ ـ ونسب القول فيه للفراء ـ وتفسير البغوي ٤/ ١٧٨ .

(٥) في مجاز القرآن ٢/ ٢١٤ .

(٦) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٦٨٨ .

(٧) الكشاف ٣/ ٥٣٠ .

(٨) ١٠/ ٧٤ .

(٩) الوسيط ٤/ ١١٩ ، وزاد المسير ٧/ ٣٩٧ .

(١٠) في الصحاح (وثق).

وإنما أمر بشدّ الوَثاق لئلا يُفلِتوا . ﴿فَإِمَّا مَنًّا﴾ عليهم بالإطلاق من غير فِدْية ﴿وَإِمَّا فِدَآءً﴾[١]. ولم يذكر القتل هاهنا ؛ اكتفاءً بما تقدّم من القتل في صدر الكلام.

و«مَنًّا» و«فِدَاءً» نصب بإضمار فعل. وقرئ: «فَدًى» بالقصر مع فتح الفاء، أي: فإما أن تمنُّوا عليهم مَنًّا، وإما أن تفادوهم فِداءً[٢].

روي عن بعضهم أنّه قال: كنت واقفاً على رأس الحجَّاج حين أُتيَ بالأسرى من أصحاب عبد الرحمن بن الأشعث وهم أربعة آلاف وثمانُ مئة، فقتل منهم نحواً من ثلاثة آلاف حتى قدم إليه رجل من كِندة فقال: يا حجَّاج، لا جازاك الله عن السنّة والكرم خيراً! قال: ولم ذلك؟ قال: لأنَّ الله تعالى قال: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّواْ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾ في حقّ الذين كفروا، فوالله ما مَنَنْتَ ولا فَدَيتَ! وقد قال شاعركم فيما وصف به قومَه من مكارم الأخلاق:

ولا نَقتلُ الأسرى ولكن نفكُّهم إذا أثقلَ الأعناقَ حملُ المغارمِ[٣]

فقال الحجَّاج: أفٍّ لهذه الجِيَف! أمَا كان فيهم مَنْ يحسن مثل هذا الكلام؟! خَلُّوا سبيل من بقي. فخُلِّيَ يومئذ عن بقية الأسرى ـ وهم زهاء ألفين ـ بقول ذلك الرجل[٤].

الثالثة: واختلف العلماء في تأويل هذه الآية على خمسة أقوال:

الأوّل: أنها منسوخةٌ، وهي في أهل الأوثان، لا يجوز أن يفادَوا ولا يُمَنَّ عليهم. والناسخُ لها عندهم قولُه تعالى: ﴿فَٱقْتُلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾[٥]

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ١٧٨ بنحوه.

(٢) الكشاف ٣/ ٥٣١ ، وتفسير الرازي ٢٨/ ٤٤ ، وذكر قراءة: فَدًى، الزمخشري، وهي قراءة شاذة.

(٣) البيت للفرزدق كما في طبقات فحول الشعراء ٢/ ٤٠٢ ، والأغاني ١٥/ ٣٤٣ .

(٤) القصة مختصرة في العقد الفريد ٢/ ١٧٤ ورواية البيت فيه: (القلائد) بدل: (المغارم)، وبهجة المجالس ١/ ٩٩ ، ووقع في وفيات الأعيان لابن خلّكان ٢/ ٣٩ أنّه رجل من بني تميم.

(٥) الناسخ والمنسوخ للنحاس ٣/ ٥ .

[التوبة: ٥] وقولُه: ﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ﴾ [الأنفال: ٥٧] وقولُه: ﴿وَقَـٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً﴾ [التوبة: ٣٦] الآية. قاله قتادة والضحاك والسُّدّي وابنُ جُرَيج والعَوْفي عن ابن عباس، وقاله كثير من الكوفيين(١).

وقال عبد الكريم الجَزَري(٢): كُتب إلى أبي بكر في أسير أسِر، فذكروا أنَّهم التمسوه بفداء كذا وكذا، فقال: اقتلوه، لَقَتْلُ رجلٍ من المشركين أحبّ إليّ من كذا وكذا(٣).

الثاني: أنها في الكفار جميعاً. وهي منسوخة على قول جماعة من العلماء وأهل النظر، منهم قتادة ومجاهد. قالوا: إذا أُسِر المشركُ، لم يجز أن يُمَنَّ عليه، ولا أن يفادى به فيردّ إلى المشركين، ولا يجوز أن يفادى عندهم إلا بالمرأة؛ لأنَّها لا تُقتل. والناسخ لها: ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ [التوبة: ٥] إذ كانت «براءة» آخر ما نزلت بالتوقيف؛ فوجب أن يُقتل كل مشرك إلا من قامت الدلالة على تركه من النساء والصبيان ومن تؤخذ منه الجِزية(٤) ـ وهو المشهور من مذهب أبي حنيفة(٥) ـ خيفة أن يعودوا حَرْباً للمسلمين.

ذكر عبد الرّزاق أخبرنا معمر عن قتادة ﴿فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾ قال: نسخها: ﴿فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ﴾ [الأنفال: ٥٧]. وقال مجاهد: نسخها: ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ [التوبة: ٥]. وهو قول الحكَم.(٦)

الثالث: أنها ناسخة. قاله الضحاك وغيره. روى الثوري عن جُوَيبِر عن الضحاك:

---

(١) تفسير الطبري ٢١/ ١٨٣-١٨٥ .

(٢) في (م) و(د) و(ز) و(ق): الجوزي، والمثبت من باقي النسخ، وهو الصواب.

(٣) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ٢٢٠ ، والطبري في تفسيره ٢١/ ١٨٤ ، وذكره أبو الليث في تفسيره ٣/ ٢٤٠ .

(٤) الناسخ والمنسوخ للنحاس ٢/ ٤٢٤ ، ٣/ ٧ .

(٥) ينظر أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٦٩٠ .

(٦) الناسخ والمنسوخ للنحاس ٣/ ١٠ ، وأثر قتادة في تفسير عبد الرزاق ٢/ ٢٢١ .

﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ [التوبة: ٥] قال: نسخها ﴿فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً﴾. وقال ابن المبارك عن ابن جُرَيج عن عطاء: «فَإِمَّا مَنًّا بَعدُ وإِمَّا فِدَاءً» فلا يُقتل المشرك ولكن يُمَنّ عليه ويُفادى؛ كما قال الله عزَّ وجلَّ. قال الأشعث: كان الحسن يكره أن يقتل الأسير، ويتلو: «فَإِمَّا مَنًّا بَعدُ وإِمَّا فِدَاءً»[١].

وقال الحسن أيضاً: في الآية تقديم وتأخير؛ فكأنه قال: فضرب الرِّقاب حتى تضع الحربُ أوزارَها. ثم قال: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ﴾. وزعم أنَّه ليس للإمام إذا حصل الأسير في يديه أن يقتله، لكنه بالخيار في ثلاثة منازل: إما أن يَمُنّ، أو يُفادي، أو يسترقّ[٢].

الرابع: قول سعيد بن جُبَير: لا يكون فداءٌ ولا أسر إلا بعد الإثخان والقتل بالسيف؛ لقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ﴾ [الأنفال: ٦٧]. فإذا أُسِر بعد ذلك، فللإمام أن يحكمَ بما رآه من قتل أو غيره[٣].

الخامس: أنَّ الآية محكمة، والإمام مخيَّر في كل حال[٤]؛ رواه عليُّ بن أبي طلحة عن ابن عباس[٥]، وقاله كثير من العلماء؛ منهم ابن عمرَ والحسن وعطاء، وهو مذهبُ مالك والشافعيِّ والثوريِّ والأوزاعيِّ وأبي عبيد وغيرهِم، وهو الاختيار؛ لأنَّ النبيَّ ﷺ والخلفاءَ الراشدين فعلوا كلَّ ذلك[٦]؛ قَتَل النبيُّ ﷺ عُقبة بنَ أبي مُعَيط والنضرَ بنَ الحارث يوم بدر صَبْرًا[٧]، وفادى سائر أسارى بدر، ومنَّ على أبي عروة

(١) الناسخ والمنسوخ للنحاس ٣/ ١٠-١١ .

(٢) أحكام القرآن للكيا ٤/ ٣٧٤ .

(٣) الناسخ والمنسوخ للنحاس ٣/ ٥ ، ١١ .

(٤) الناسخ والمنسوخ ٣/ ٥ .

(٥) أخرجه أبو عبيد في الأموال ص١٧٠ (٣٤٢)، والنحاس في الناسخ والمنسوخ ٣/ ١٢ .

(٦) الأوسط لابن المنذر ١١/ ٢٢٤-٢٢٧ ، وينظر تفسير البغوي ٤/ ١٧٨ .

(٧) سلف ١٠/ ٢٣ .

الجمحي[١]، وقتل بني قريظة وقد نزلوا على حكم سعد وصاروا في يده سِلْماً[٢]. ومَنَّ على ثُمامة بن أُثَال الحنفي وهو أسير في يده[٣]، وأخذ من سلمة بن الأكوع جاريةً ففدى بها أناساً من المسلمين[٤]، وهبط عليه ـ عليه الصلاة والسلام ـ قوم من أهل مكة، فأخذهم النبيُّ ﷺ وقد منّ عليهم، وقد منّ على سَبي هوازن[٥]. وهذا كلُّه ثابت في الصحيح، وقد مضى جميعه في «الأنفال»[٦] وغيرها.

قال النحاس[٧]: وهذا على أنَّ الآيتين محكمتان معمول بهما، وهو قولٌ حسن؛ لأنَّ النسخ إنما يكون لشيء قاطع، فإذا أمكن العمل بالآيتين فلا معنى للقول بالنسخ، إذ كان يجوز أن يقع التعبُّد، إذا لقينا الذين كفروا قتلناهم، فإذا كان الأسر؛ جاز القتل والاسترقاق والمفاداة والمنّ على ما فيه الصلاح للمسلمين. وهذا القول يروى عن أهل المدينة والشافعي وأبي عبيد.

وحكاه الطحاوي مذهباً عن أبي حنيفة، والمشهورُ عنه ما قدّمناه[٨]، وبالله عزَّ وجلَّ التوفيق.

الرابعة: قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَاۚ﴾ قال مجاهد وابن جبير: هو خروج عيسى عليه السلام[٩]. وعن مجاهد أيضاً: أن المعنى حتى لا يكون دينٌ إلا دين

---

(١) الكشاف ٣/ ٥٣١ وفيه (الحجبي) بدل (الجمحي).

(٢) من قوله: «ومنّ على أبي عروة» إلى قوله: «في يده سلماً». من (خ) و(د) و(ظ) و(ف). وحكم سعد في بني قريظة سلف ٦/ ٦٣ . ووقع في (د) «وقتل من قريظة» بلد «وقتل بني قريظة».

(٣) سلف ٢/ ٤٢٢ .

(٤) أخرجه أحمد (١٦٥٠٢)، ومسلم (١٧٥٥) مطولاً.

(٥) سلف ١٠/ ١١ .

(٦) ١٠/ ٧١ فما بعدها.

(٧) في الناسخ والمنسوخ ٣/ ١٢ .

(٨) الكشاف ٣/ ٥٣١ .

(٩) معاني القرآن للنحاس ٦/ ٤٦٣ ، وقول مجاهد في تفسيره ٢/ ٥٩٧ .

الإسلام، فَيُسْلِم كل يهوديّ ونصرانيّ وصاحب مِلّة، وتأمن الشاة من الذئب[١]. ونحوه عن الحسن والكلبي والفرّاء[٢] والكسائي. قال الكسائي: حتى يُسْلِم الخلق.

وقال الفرّاء: حتى يؤمنوا ويذهب الكفر. وقال الكلبي: حتى يظهر الإسلام على الدِّين كلِّه[٣]. وقال الحسن: حتى لا يعبدوا إلا الله.

وقيل: معنى الأوزار السلاح؛ فالمعنى: شدّوا الوثاق حتى تأمنوا وتضعوا السلاح[٤].

وقيل: معناه حتى تضع الحرب؛ أي: الأعداءُ المحاربون أوزارَهم[٥]؛ وهو سلاحهم بالهزيمة أو الموادعة[٦]. ويقال للكراع: أوزار. قال الأعشى:

وأعددْت للحرب أوزارَها رماحاً طِوَالاً وخَيْلاً ذُكُورا
ومِن نَسْج داودَ يحدى بها على أثر الحيِّ عِيراً فعِيرا[٧]

وقيل: «حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا» أي: أثقالها. والوِزر: الثقل، ومنه وزير الملك؛ لأنَّه يتحمّل عنه الأثقالَ. وأثقالها: السلاح؛ لثقل حملها[٨].

قال ابن العربي[٩]: قال الحسن وعطاء: في الآية تقديم وتأخير؛ المعنى:

---

(١) أحكام القرآن للكيا ٤/ ٣٧٤-٣٧٥ ، وقول مجاهد أيضاً في تفسيره ٢/ ٥٩٧ ، وأخرجه الطبري ٢١/ ١٨٨ .

(٢) في معاني القرآن له ٣/ ٥٧-٥٨ .

(٣) النكت والعيون ٥/ ٢٩٣ .

(٤) معاني القرآن للنحاس ٦/ ٤٦٤ بنحوه.

(٥) تفسير الرازي ٢٨/ ٤٥ .

(٦) النكت والعيون ٥/ ٢٩٣ .

(٧) تفسير غريب القرآن ص٤٠٩ ، والبيتان في ديوان الأعشى ص١٤٩ ، ورواية البيت الثاني فيه:
ومن نَسْجِ داودَ موضونة تُساق مع الحيِّ عيراً فعيرا

(٨) النكت والعيون ٥/ ٢٩٣ .

(٩) في أحكام القرآن ١٦٩١ - ١٦٩٢ .

فضرب الرِّقاب حتى تضع الحربُ أوزارَها، فإذا أثخنتموهم فشدّوا الوَثاق، وليس للإمام أن يقتل الأسير. وقد روي عن الحجّاج أنه دفع أسيراً إلى عبد الله بن عمر ليقتله، فأبى وقال: ليس بهذا أمرنا الله، وقرأ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثۡخَنتُمُوهُمۡ فَشُدُّواْ ٱلۡوَثَاقَ﴾. قلنا: قد قاله رسولُ الله ﷺ وفعله[١]، وليس في تفسير الله للمنّ[٢] والفداء منع من غيره، فقد بيّن الله في الزنى حكم الجلد، وبيّن النبيّ ﷺ حكم الرجم، ولعلَّ ابنَ عمر كره ذلك من يد الحجاج فاعتذر بما قال، وربك أعلم.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَلَوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنۡهُمۡ﴾ «ذَلِكَ» في موضع رفع على ما تقدّم، أي: الأمر ذلك الذي ذكرت وبينت[٣]. وقيل: هو منصوب على معنى افعلوا ذلك[٤]. ويجوز أن يكون مبتدأ، المعنى: ذلك حكمُ الكفار. وهي كلمة يستعملها الفصيح عند الخروج من كلام إلى كلام، وهو كما قال تعالى: ﴿هَٰذَاۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٖ﴾ [ص: ٥٥]. أي: هذا حقٌّ وأنا أعرّفكم أنَّ للظالمين كذا.

ومعنى: «لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ» أي: أهلكهم بغير قتال[٥]. وقال ابن عباس: لأهلكهم بجند من الملائكة[٦]. ﴿وَلَٰكِن لِّيَبۡلُوَاْ بَعۡضَكُم بِبَعۡضٖۗ﴾ أي: أمركم بالحرب ليبلُوَ ويختبرَ بعضَكم ببعض، فيعلم المجاهدِين والصابرين، كما في السورة نفسِها[٧]. ﴿وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ يريد قتلى أُحُد من المؤمنين ﴿فَلَن يُضِلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ قراءة العامة: «قاتلوا» وهي اختيار أبي عبيد. وقرأ أبو عمرو وحفص: «قُتِلوا» بضم القاف وكسر التاء[٨]،

---

(١) سلف ١٠/ ٧٣.

(٢) في النسخ الخطية (لكم) بدل (للمنّ)، وهي نسخة من أحكام القرآن كما في حواشيه، والمثبت من (م) والأحكام.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٧٩.

(٤) معاني القرآن للزجاج ٥/ ٧.

(٥) تفسير البغوي ٤/ ١٧٩.

(٦) نسب القول في النكت والعيون ٥/ ٢٩٤ للكلبي.

(٧) الآية ٣١، وينظر الكشاف ٣/ ٥٣١.

(٨) السبعة ص٦٠٠، والتيسير ص٢٠٠.

وكذلك قرأ الحسن إلا أنه شدّد التاء على التكثير[١]. وقرأ الجَحْدرِيّ وعيسى بن عمر وأبو حَيْوة: «قَتَلُوا» بفتح القاف والتاء من غير ألف[٢]؛ يعني الذين قتلوا المشركين.

قال قتادة: ذكر لنا أنَّ هذه الآية نزلت يوم أُحُد ورسولُ الله ﷺ في الشِّعب، وقد فَشَت فيهم الجراحات والقتل[٣]، وقد نادى المشركون: اعْلُ هُبَلُ. ونادى المسلمون: الله أعلى وأجلّ. وقال المشركون: يومٌ بيوم بَدر والحرب سِجال. فقال النبي ﷺ: «قولوا: لا سواء. قتلانا أحياءٌ عند ربهم يرزقون، وقتلاكم في النار يعذَّبون». فقال المشركون: إنَّ لنا العُزّى ولا عُزَّى لكم. فقال المسلمون: الله مولانا ولا مولى لكم. وقد تقدّم ذكر ذلك في «آل عمران»[٤].

قوله تعالى: ﴿سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ۝٥﴾

قال القشيري: قراءة أبي عمرو: «قُتِلوا» بعيدة؛ لقوله تعالى: «سَيَهْدِيهِم وَيُصْلِحُ بالَهُمْ» والمقتول لا يوصف بهذا. قال غيره: يكون المعنى سيهديهم إلى الجنة، أو سيهدي من بقي منهم. أي: يحقّق لهم الهداية. وقال ابن زياد: سيهديهم إلى محاجّة منكر ونكير في القبر[٥].

قال أبو المعالي: وقد ترد الهداية والمراد بها إرشادُ المؤمنين إلى مسالك الجنان والطرق المُفْضية إليها؛ من ذلك قوله تعالى في صفة المجاهدين: ﴿فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ . سَيَهْدِيهِمْ﴾ ومنه قوله تعالى: ﴿فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٢٣] معناه: فاسلكوهم إليها[٦].

---

(١) القراءات الشاذة ص١٤٠ .

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٨٠ ، والمحرر الوجيز ٥/ ١١١ .

(٣) تفسير البغوي ٤/ ١٧٩ ، وأخرجه الطبري في تفسيره ٢١/ ١٩٠-١٩١ .

(٤) ٥/ ٣٥٨ - ٣٥٩ .

(٥) النكت والعيون ٥/ ٢٩٤ .

(٦) في (م) و(ق): فاسلكوا بهم إليها، والمثبت من باقي النسخ، وهو الموافق لما في المحرر الوجيز ١/ ٧٣ وكلام أبي المعالي منه.

قوله تعالى: ﴿وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ۝٦﴾

أي: إذا دخلوها يقال لهم: تفرّقوا إلى منازلكم، فهم أعرفُ بمنازلهم من أهل الجمعة إذا انصرفوا إلى منازلهم. قال معناه مجاهد وأكثر المفسرين[١]. وفي البخاري[٢] ما يدل على صحة هذا القول عن أبي سعيد الخُدْرِيّ، قال: قال رسول الله ﷺ: «يَخْلُص المؤمنون من النار، فيُحبسون على قنطرةٍ بين الجنَّة والنار [فَيُقَصُّ لبعضهم من بعض مظالمُ كانت بينهم في الدنيا] حتى إذا هُذِّبُوا ونُقُّوا، أُذِن لهم في دخول الجنة، فوالذي نفسُ محمد بيده لَأَحدُهم أهْدى بمنزله في الجنة [منه] بمنزلِه كان[٣] في الدنيا».

وقيل: «عَرَّفَهَا لَهُمْ» أي: بيّنها لهم حتى عرفوها من غير استدلال[٤].

قال الحسن: وصف الله تعالى لهم الجنةَ في الدنيا، فلما دخلوها عرفوها بصفتها[٥]. وقيل: فيه حذف، أي: عَرَّف طرقَها ومساكنَها وبيوتَها لهم، فحذف المضاف.

وقيل: هذا التعريف بدليل، وهو المَلَك الموكَّل بعمل العبد يمشي بين يديه[٦] ويتبعه العبد حتى يأتي العبدُ منزلَه، ويعرّفه المَلَك جميع ما جُعل له في الجنة. وحديث أبي سعيد الخُدْريّ يردّه.

وقال ابن عباس: «عَرَّفَهَا لَهُمْ» أي: طيّبها لهم بأنواع الملاذّ؛ مأخوذ من العَرْف،

(١) الوسيط ٤/ ١٢١ دون ذكر مجاهد، وينظر قوله في الكشاف ٣/ ٥٣٢، وزاد المسير ٧/ ٣٩٨.

(٢) في صحيحه (٦٥٣٥) وما سيأتي بين حاصرتين منه، وسلف عند تفسير الآية (٧٣) من سورة الزمر. القنطرة: الجسر. اللسان (قنطر).

(٣) لفظة «كان» ليست في (م).

(٤) الوسيط ٤/ ١٢١.

(٥) النكت والعيون ٥/ ٢٩٤-٢٩٥.

(٦) تفسير الرازي ٢٨/ ٤٨ بنحوه.

وهو الرائحة الطيبة. وطعام مُعَرَّف، أي: مطيّب[١]، تقول العرب: عرّفت القِدر: إذا طيبتَها بالملح والأبزار[٢].

وقال الشاعر يخاطب رجلاً ويمدحه:

عَـرُفْـتَ كـإتْـبٍ عـرّفـتـه الـلَّـطـائـمُ

يقول[٣]: كما عَرُف الإتْب، وهو البَقِير والبَقِيرة، وهو قميص لا كمّينِ[٤] له، تلبسه النساء[٥].

وقيل: هو من وضع الطعام بعضه على بعض من كثرته، يقال: خزير[٦] معرّف، أي: بعضه على بعض، وهو من العُرْف المتتابع كعُرف الفرس.

وقيل: «عَرَّفَهَا لَهُمْ» أي: وفّقهم للطاعة حتى استوجبوا الجنة. وقيل: عرّف أهل السماء أنّها لهم؛ إظهاراً لكرامتهم فيها. وقيل: عرّف المطيعين أنها لهم.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ۝٧﴾

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ﴾ أي: إن تنصروا دين الله ينصركم على الكفار. نظيره: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾ [الحج: ٤٠] وقد تقدّم[٧].

وقال قُطْرُب: إن تنصروا نبيّ الله ينصركم الله، والمعنى واحد.

﴿وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ﴾ أي: عند القتال. وقيل: على الإسلام. وقيل: على الصراط.

---

(١) الوسيط ٤/ ١٢١ ، وتفسير البغوي ٤/ ١٧٩ .

(٢) المحرر الوجيز ٥/ ١١٢ بنحوه.

(٣) في (م): يقوله.

(٤) في النسخ الخطية: كمّي.

(٥) الصحاح (عرف) (بقر). اللطائم: ـ جمع لطيمة ـ قطعة مسك. اللسان (لطم).

(٦) في النسخ حرير، والمثبت من تهذيب اللغة ٢/ ٣٤٥ ، والكلام منه. والخزير: اللحم الغابّ يؤخذ فيقطع صغاراً في القدر، ثمّ يطبخ بالماء الكثير والملح. اللسان (خزر).

(٧) ١٤/ ٤١٢ .

وقيل: المراد تثبيت القلوب بالأمن[١]؛ فيكون تثبيتُ الأقدام عبارةً عن النصر والمعونة في موطن الحرب[٢].

وقد مضى في «الأنفال» هذا المعنى[٣]. وقال هناك: ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [الأنفال: ١٢] فأثبت هناك واسطة ونفاها هنا، كقوله تعالى: ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ﴾ [السجدة: ١١] ثم نفاه بقوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ [الروم: ٤٠]. ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ﴾ [الملك: ٢] ومثله كثير؛ فلا فاعل إلا الله وحدَه.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ يحتمل الرفع على الابتداء، والنصب بما يفسره «فَتَعْسًا لَّهُمْ» كأنه قال: أتْعَسَ الذين كفروا[٤].

و«تَعْسًا لهم» نصب على المصدر بسبيل الدعاء. قاله الفرّاء[٥]، مثل: سَقْيًا له ورَعيًا.

وهو نقيض: لَعًا له. قال الأعشى:

فالتَّعْس أوْلَى لها من أن أقول لَعَا[٦]

(١) النكت والعيون ٥/ ٢٩٥.

(٢) المحرر الوجيز ٢/ ٥٠٧.

(٣) ٩/ ٤٦٦.

(٤) الكشاف ٣/ ٥٣٢.

(٥) نقله عنه البغوي في تفسيره ٤/ ١٨٠.

(٦) الكشاف ٤/ ٥٣٢، والبيت في ديوان الأعشى ص١٥٣، ودرة الغواص للحريري ص١١٠ وروايتهما (أدنى) بدل (أولى) وصدره: بذات لَوْث عَفَرْناةٍ إذا عثرت. اللوث بالفتح: القوة، وناقة عفرناة، أي: قوية. اللسان (لوث) (عفر). قال في درة الغواص: العرب تقول في الدعاء على العاثر: تعساً له وفي الدعاء له: لعاً.

وفيه عشرة أقوال: الأوّل: بُعْدًا لهم. قاله ابن عباس وابن جريج[١]. الثاني: خزياً لهم[٢]. قاله السدي. الثالث: شقاء لهم. قاله ابن زيد. الرابع: شَتماً لهم من الله. قاله الحسن. الخامس: هلاكاً لهم. قاله ثعلب. السادس: خَيْبَةً لهم. قاله الضحاك وابن زيد. السابع: قبحاً لهم. حكاه النقاش. الثامن: رغماً لهم. قاله الضحاك أيضاً[٣]. التاسع: شَرًّا لهم. قاله ثعلب أيضاً[٤]. العاشر: شقوة لهم. قاله أبو العالية[٥].

وقيل: إنَّ التَّعس الانحطاطُ والعِثار[٦].

قال ابن السِّكّيت: التعس أن يَخِرّ على وجهه[٧]. والنَّكْس أن يَخِرّ على رأسه. قال: والتعس أيضاً الهلاك[٨].

قال الجوهري[٩]: وأصله الكَبّ، وهو ضدّ الانتعاش، وقد تَعَس ـ بفتح العين ـ يَتْعَس تَعْساً، وأتعسه الله. قال مُجَمّع بن هلال[١٠]:

تقول وقد أفرَدْتُها من حَلِيلها[١١] تَعَسْتَ كما أتْعَسْتَني يا مُجَمِّعُ[١٢]

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ١٨٠ .

(٢) في (م) و(ز) و(ق): حزناً لهم، والمثبت من باقي النسخ، وهو الموافق لما في النكت والعيون ٥/ ٢٩٥ والكلام منه.

(٣) النكت والعيون ٥/ ٢٩٥ ، وتفسير البغوي ٤/ ١٨٠ .

(٤) معاني القرآن للنحاس ٦/ ٤٦٧ .

(٥) تفسير البغوي ٤/ ١٨٠ وفيه: (سقوطاً) بدل (شقوة).

(٦) النكت والعيون ٥/ ٢٩٥ .

(٧) معاني القرآن للنحاس ٦/ ٤٦٧ ، والمحرر الوجيز ٥/ ١١٢ ، ونسبه في تهذيب اللغة ٢/ ٧٨ للرُّسْتُمي.

(٨) تهذيب اللغة ٢/ ٧٨ ، ومعاني القرآن للنحاس ٦/ ٤٦٨ .

(٩) في الصحاح (تعس).

(١٠) هو مجمّع بن مالك بن هلال، شاعر جاهلي. معجم الشعراء ص٤٣٨ .

(١١) في (م) و(ق) خليلها، والمثبت من باقي النسخ.

(١٢) البيت في درة الغواص ص١١٠ ، والخزانة ١٠/ ٤٠٣ .

يقال: تعساً لفلان، أي: ألزمه الله هلاكاً[١]. قال القُشَيرِي: وجوّز قوم تعِس بكسر العين.

قلت: ومنه حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «تَعِس عَبدُ الدينار والدرهم والقَطِيفة والخَمِيصة، إن أُعطيَ رَضيَ، وإنْ لم يُعْطَ لم يرض» خرّجه البخاري[٢]. في بعض طرق هذا الحديث: «تَعِس وانتكس، وإذا شِيك فلا انْتَقَش» خرّجه ابن ماجه[٣].

قوله تعالى: ﴿وَأَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ أي: أبطلها؛ لأنَّها كانت في طاعة الشيطان[٤]. ودخلت الفاء في قوله: «فَتَعْساً» لأجل الإبهام الذي في «الَّذينَ»، وجاء «وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ» على الخبر حملاً على لفظ الذين؛ لأنَّه خبر في اللفظ، فدخول الفاء حملاً على المعنى، «وأضلَّ» حَملاً على اللفظ.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ۝٩﴾

أي: ذلك الإضلال والإتعاس[٥]؛ لأنَّهم ﴿كَرِهُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ من الكتب والشرائع .﴿فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ أي: مالهم من صور الخيرات، كعمارة المسجد وقِرى الضيف وأصناف القُرَب، ولا يَقبَل الله العملَ إلا من مؤمن. وقيل: أحبط أعمالهم، أي: عبادة الصنم.

(١) الصحاح (تعس).

(٢) في صحيحه (٢٨٨٦). قوله: القطيفة كساء له خَمْل؛ والخميصة: ثوب من خزّ أو صوف مُعْلَم، وكانت من لباس الناس قديماً. النهاية (قطف) (خمص).

(٣) في سننه (٤١٣٦)، وهو في صحيح البخاري أيضاً (٢٨٨٧) قوله: «انتكس» أي: انقلب على رأسه، وهو دعاءٌ عليه بالخيبة، وقوله: «وإذا شيك فلا انتقش» أي: إذا دخلتْ فيه شوكة، لا أخرجها من موضعها وهو دعاء عليه أيضاً. النهاية (نقش) (نكس).

(٤) تفسير البغوي ٤/ ١٨٠ .

(٥) الوسيط ٤/ ١٢١ ، وتفسير البغوي ٤/ ١٨٠ .

قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۚ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْۖ وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا ۝١٠﴾

بيَّنَ أحوالَ المؤمن والكافر تنبيهاً على وجوب الإيمان، ثمَّ وصل هذا بالنظر؛ أي: ألم يَسِرْ هؤلاء في أرض عاد وثمود وقوم لوط وغيرهم ليعتبروا بهم ﴿فَيَنظُرُواْ﴾ بقلوبهم ﴿كَيْفَ كَانَ﴾ آخِرُ أمر الكافرين قبلهم ﴿دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْۖ﴾ أي: أهلكهم واستأصلهم.

يقال: دمّره تدميراً ودمّر عليه، بمعنىً[1].

ثم توعّد مشركي مكةَ فقال: ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا﴾[2] أي: أمثالُ هذه الفَعْلة[3]؛ يعني التدمير.

وقال الزَّجَّاج والطبري: الهاء تعود على العاقبة؛ أي: وللكافرين من قريش أمثالُ عاقبة تكذيب الأمم السالفة إن لم يؤمنوا[4].

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ۝١١﴾

أي: وليُّهم وناصرُهم[5].

وفي حرف ابن مسعود: «ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ وَليُّ الَّذينَ آمَنُوا». فالمولى: الناصر هاهنا. قاله ابن عباس وغيره. قال:

فَغدَت كِلاَ الفَرجَيْن تحسب أنه مَولَى المخافة خَلْفُها وأمامُها[6]

---

(١) الصحاح (دمر).

(٢) تفسير البغوي ٤/ ١٨٠ .

(٣) المحرر الوجيز ٥/ ١١٣ .

(٤) معاني القرآن للزجاج ٥/ ٨ ، وتفسير الطبري ٢١/ ١٩٥ .

(٥) تفسير البغوي ٤/ ١٨٠ .

(٦) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٨١-١٨٢ . والبيت للبيد، وهو في ديوانه ص٣١١ ، والبيت أيضاً في تهذيب اللغة ١٥/ ٦٣٩ وروايته فيه: (فعدت) بدل (فغدت) وذكر الأزهري في شرح البيت أنه يصف =

قال قتادة: نزلت يوم أُحُد والنبيّ ﷺ في الشِّعب إذ صاح المشركون: يومٌ بيوم، لنا العُزّى ولا عُزَّى لكم؛ قال النبي ﷺ: «قولوا: الله مولانا ولا مولى لكم» وقد تقدّم[١]. ﴿وَأَنَّ ٱلْكَـٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ أي: لا ينصرهم أحد من الله[٢].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَـٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴿١٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ۖ﴾ تقدّم في غير موضع.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَتَمَتَّعُونَ﴾ في الدنيا كأنّهم أنعام، ليس لهم هِمّة إلا بطونُهم وفروجُهم، ساهون عمّا في غدِهم. وقيل: المؤمن في الدنيا يتزوّد، والمنافق يتزين، والكافر يتمتع[٣]. ﴿وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ أي: مقام ومنزل[٤].

قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِىَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَـٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴿١٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ﴾ تقدّم الكلام في «كَأَيِّنْ» في «آل عمران»[٥]. وهي هاهنا بمعنى كم، أي: وكم من قرية. وأنشد الأخفش قول لبيد:

وكائنْ رأينا من ملوكٍ وسُوقةٍ ومفتاحِ قَيْدٍ للأسير المكبَّلِ[٦]

= بقرة وحشية غرها القناص فعدت، وكلا فرجيها: وهما أمامها وخلفها، وقال في اللسان (فرج): الفرج الثغرُ المخُوف، وهو موضع المخافة.

(١) ص٢٥٠ من هذا الجزء.

(٢) معاني القرآن للزجاج ٥/ ٨ .

(٣) تفسير البغوي ٤/ ١٨٠ .

(٤) الكشاف ٣/ ٥٣٢ .

(٥) ٥/ ٣٤٩-٣٥١ .

(٦) النكت والعيون ٥/ ٢٩٦ ، والبيت في ديوان لبيد ص٣ ، ورواية البيت فيه:

وكائنْ رأيتُ من ملوك وسوقة وصاحبْتُ من وفدٍ كرام وموكب

فيكون معناه: وكم من أهل قرية ﴿هِىَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَتْكَ﴾ أي: أخرجَك أهلها[١].

﴿أَهْلَكْنَٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾ قال قتادة وابن عباس: لما خرج النبيُّ ﷺ من مكة إلى الغار، التفت إلى مكة وقال: «اللَّهُمْ أنتِ أحبُّ البلاد إلى الله، وأنتِ أحبُّ البلاد إليّ، ولولا المشركون أهْلُكِ أخرجوني لَما خرجت منك». فنزلت الآية[٢]؛ ذكره الثعلبي، وهو حديث صحيح.

قوله تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم ﴿١٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ الألف ألف تقرير[٣]. ومعنى «على بينةٍ» أي: على ثبات ويقين. قاله ابن عباس.

أبو العالية: وهو محمد ﷺ. والبينة: الوَحْيُ[٤].

﴿كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾ أي: عبادة الأصنام، وهو أبو جهل والكفار[٥]. ﴿وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم﴾ أي: ما اشتهوا. وهذا التزيينُ من جهة الله خلقاً. ويجوز أن يكون من الشيطان دعاءً ووسوسة. ويجوز أن يكون من الكافر، أي: زيَّن لنفسه سوءَ عمله وأصرّ على الكفر.

وقال: «سُوءُ» على لفظ «مَن» «واتَّبَعُوا» على معناه[٦].

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٢٩٦ .

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره ٢١/ ١٩٨ عن ابن عباس، وأخرجه بنحوه الترمذي (٣٩٢٦).

(٣) معاني القرآن للزجاج ٥/ ٩ .

(٤) النكت والعيون ٥/ ٢٩٦ .

(٥) تفسير البغوي ٤/ ١٨٠ بنحوه.

(٦) الكشاف ٤/ ٥٣٣ .

قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ ﴿١٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ﴾ لما قال عزَّ وجلَّ: «إنَّ الله يُدْخِلُ الَّذين آمنُوا وعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّات» وصف تلك الجنات، أي: صفة الجنة المعدَّة للمتقين. وقد مضى الكلام في هذا في «الرعد»[١].

وقرأ علي بن أبي طالب: «مِثَالُ الجَنَّةِ الَّتي وُعِدَ المُتَّقُونَ»[٢]. ﴿فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ﴾ أي: غير متغير الرائحة. والآسِن من الماء مثل الآجِن[٣].

وقد أَسَن الماء يأسُن ويأسِن أُسُوناً: إذا تغيّرت رائحته. وكذلك أَجَن الماء يأجُن ويأجِن أَجْناً وأُجُوناً[٤].

ويقال بالكسر فيهما: أجِن وأسِن يأسَن ويأجَن أَسَناً وأَجَناً. قاله اليزيدي.

وأسِنَ الرجل أيضاً يأسَن؛ بالكسر لا غير[٥]: إذا دخل البئر فأصابته ريحٌ منتنة من ريح البئر أو غير ذلك، فغُشِي عليه أو دارَ رأسُه، قال زُهير:

قـد أتـرك الـقِـرنَ مُـصـفَـرًّا أنـامـلُـه ... يَميدُ في الرُّمح مَيدَ المائحِ الأسِنِ[٦]

---

(١) ١٢/ ٨٠-٨١ .

(٢) المحرر الوجيز ٥/ ١١٤ .

(٣) زاد المسير ٧/ ٤٠١ بنحوه.

(٤) تفسير البغوي ٤/ ١٨١ .

(٥) يعني في الماضي كما قيده صاحب القاموس على مثال: فرح.

(٦) الصحاح (أجن) (أسن)، والبيت في شرح ديوان زهير ص١٢١ ، وخزانة الأدب ١١/ ٢٥٩ ، ورواية الديوان:

يـغـادر الـقِـرْنَ مـصـفـرًّا أنـامـلُـه ... يَميلُ في الرُّمح مَيْل المائح الأسن

القِرْن: كفؤك في الشجاعة. الصحاح (قرن). قال شارح الديوان: مصفرًّا أناملُه؛ دنا موته فاصفرَّت أنامله، والمائح: الذي ينزل إلى أسفل البئر يملأ الدلو إذا قلَّ الماء.

ويروى: «الوَسِن». وتأسّن الماء: تغيّر. أبو زيد: تأسّن عليَّ تأسُّناً: اعتلّ وأبطأ. أبو عمرو: تأسّن الرجل أباه: أخذ أخلاقه. وقال اللّحيانيّ: إذا نزع إليه في الشَّبَه[١].

وقراءة العامة: «آسن» بالمدّ. وقرأ ابن كثير وحُميد: «أسِن» بالقصر، وهما لغتان[٢]، مثل حاذر وحَذِر. وقال الأخفش: أسِنَ للحال، وآسنَ مثل فاعل يراد به الاستقبال. ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ﴾ أي: لم يحمض بطول المقام كما تتغير ألبان الدنيا على الحموضة[٣].

﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ أي: لم تُدنسْها الأرجلُ ولم تُرَنِّقْها الأيدي كخمر الدنيا[٤]؛ فهي لذيذةُ الطعم، طيبةُ الشرب، لا يتكرَّهها الشاربون.

يقال: شراب لَذٌّ ولذيذ بمعنًى. واستلذّه: عدّه لذيذاً[٥].

﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ العسل ما يسيل من لُعاب النَّحل[٦]. «مُصَفًّى» أي: من الشمع والقَذَى، خلقه الله كذلك؛ لم يطبخ على نار، ولا دنّسه النَّحل.

وفي الترمذيّ عن حكيم بن معاوية، عن أبيه، عن النبي ﷺ قال: «إنَّ في الجنَّة بحرَ الماء، وبحرَ العسل، وبحرَ اللّبن، وبحرَ الخمر، ثمّ تشقّق الأنهارُ بعدُ». قال: حديث حسن صحيح[٧].

وفي صحيح مسلم[٨] عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «سَيْحانُ وجَيْحانُ والنِّيلُ والفُراتُ، كلٌّ من أنهار الجنّة». وقال كعب: نهر دجلةَ نهرُ ماء أهل

---

(١) الصحاح (أسن).

(٢) السبعة ص٦٠٠، والتيسير ص٢٠٠.

(٣) الوسيط ٤/ ١٢٢.

(٤) تفسير البغوي ٤/ ١٨١ بنحوه. وترنّق، أي: تُكدِّر.

(٥) الصحاح (لذذ).

(٦) تهذيب اللغة ٢/ ٩٣.

(٧) سنن الترمذي (٢٥٧١)، وهو في مسند أحمد (٢٠٠٥٢).

(٨) برقم (٢٨٣٩)، وسلف ١٦/ ٢٩.

الجنة، ونهر الفرات نهرُ لبنِهم، ونهر مصرَ نهرُ خمرِهم، ونهر سَيْحان نهرُ عسلِهم. وهذه الأنهار الأربعةُ تخرج من نهر الكوثر(١).

والعسل: يذكَّر ويؤنث. وقال ابن عباس: «مِن عَسَلٍ مُصَفًّى» أي: لم يخرج من بطون النَّحل(٢).

﴿وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ «مِن» زائدة للتأكيد.

﴿وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ أي: لذنوبهم. ﴿كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ﴾ قال الفرّاء: المعنى أفمن يخلد في هذا النَّعيم كمن يخلد في النَّار(٣). وقال الزجَّاج(٤): أي: أفمن كان على بيِّنة من ربِّه وأعطي هذه الأشياءَ كمن زُيِّن له سوءُ عمله وهو خالد في النار؟!

فقوله: «كَمَنْ» بدل من قوله: «أفَمَنْ زُيِّن لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ». وقال ابن كَيْسان: مَثَلُ هذه الجنة التي فيها الثمار والأنهار كَمَثَلِ النار التي فيها الحميم والزقُّوم. ومَثَلُ أهل الجنة في النعيم المقيم كَمَثَلِ أهل النار في العذاب المقيم.

﴿وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا﴾ أي: حارًّا شديدَ الغليان، إذا أُدْني(٥) منهم شَوَى وجوهَهم، ووقعت فروةُ رؤوسهم، فإذا شربوه قطَّع أمعاءَهم وأخرجها من دبورهم. والأمعاء: جمع مِعًى، والتثنية مِعْيان، وهو جميعُ ما في البطن من الحوايا(٦).

قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ أي: من هؤلاء الذين يتمتعون ويأكلون كما

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ١٨١ .
(٢) الكشاف ٣/ ٥٣٤ دون نسبة.
(٣) زاد المسير ٧/ ٤٠١ .
(٤) في معاني القرآن له ٥/ ١٠ .
(٥) في النسخ الخطية: دنى، والمثبت من (م).
(٦) تفسير البغوي ٤/ ١٨١ .

تأكل الأنعام، وُزيِّن لهم سوءُ عملهم، قومٌ يستمعون إليك. وهم المنافقون: عبدُ الله ابن أُبيّ ابن سَلُول، ورفاعةُ بن التابوت، وزيدُ بن الصليت، والحارثُ بن عمرو، ومالكُ بن دُخْشم، كانوا يحضرون الخطبةَ يوم الجمعة، فإذا سمعوا ذكرَ المنافقين فيها أعرضوا عنه، فإذا خرجوا سألوا عنه. قاله الكلبي ومقاتل. وقيل: كانوا يحضرون عندَ رسول الله ﷺ مع المؤمنين، فيستمعون منه ما يقول، فيَعيه المؤمن ولا يعيه الكافر[١]. ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُواْ مِنْ عِندِكَ﴾ أي: إذا فارقوا مجلسَك. ﴿قَالُواْ لِلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ﴾ قال عكرمة: هو عبدُ الله بن العباس[٢]. قال ابن عباس: كنت ممن يُسأل[٣]، أي: كنت من الذين أوتوا العلم.

وفي رواية عن ابن عباس: أنه يريد عبدَ الله بن مسعود[٤]. وكذا قال عبد الله بن بريدة: هو عبد الله بن مسعود. وقال القاسم بن عبد الرحمن: هو أبو الدرداء. وقال ابن زيد: إنهم الصحابة[٥].

﴿مَاذَا قَالَ ءَانِفًا﴾ أي: الآن؛ على جهة الاستهزاء، أي: أنَّا لم نلتفت[٦] إلى قوله. و«آنِفاً» يراد به الساعة التي هي أقربُ الأوقات إليك[٧]، من قولك: استأنفت الشيء: إذا ابتدأتَ به. ومنه أمْرٌ أنُف، ورَوضة أنُف؛ أي: لم يرْعها أحد[٨]. وكأس أنُف: إذا لم يُشرب منها شيء، كأنَّه استؤنف شربُها، مثل روضة أنف[٩].

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٢٩٧ وفيه: «ولا يعيه المنافق» بدل «ولا يعيه الكافر».

(٢) المصدر السابق.

(٣) تفسير البغوي ٤/ ١٨١، والكشاف ٣/ ٥٣٤، وأخرجه الطبري في تفسيره ٢١/ ٢٠٤، والحاكم في المستدرك ٢/ ٤٥٧.

(٤) تفسير البغوي ٤/ ١٨١، والمحرر الوجيز ٥/ ١١٥ دون ذكر أنه رواية عن ابن عباس.

(٥) النكت والعيون ٥/ ٢٩٨.

(٦) في النسخ عدا (د) و(ظ): ألتفت.

(٧) قوله: «إليك» من (م).

(٨) معاني القرآن للنحاس ٦/ ٤٧٥ بنحوه.

(٩) الصحاح (أنف).

قال الشاعر:

ويَحْرُم سِرُّ جارتهم عليهم ويأكل جارُهم أُنُفَ القِصاعِ[(١)]

وقال آخر:

إنّ الشِّواء والنَّشِيلَ والرُّغُفْ والقَيْنَةَ الحسناءَ والكأسَ الأُنُفْ

للطاعنين الخيلَ والخيلُ خُنُفْ[(٢)]

وقال امرؤ القيس:

قد غَدَا يحملُني في أَنْفِهِ[(٣)]

أي: في أوّله. وأنْفُ كلِّ شيء أوّله.

وقال قتادة في هؤلاء المنافقين: الناس رجلان: رجلٌ عَقَل عن الله فانتفع بما سمع، ورجلٌ لم يعقلْ ولم ينتفعْ بما سمع. وكان يقال: الناس ثلاثة: فسامعٌ عامل، وسامعٌ عاقل، وسامعٌ غافل تارك[(٤)].

قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ فلم يؤمنوا. ﴿وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُمْ﴾ في الكفر. ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ﴾ أي: للإيمان؛ زادهم الله هدًى. وقيل: زادهم النبيّ ﷺ هدى[(٥)].

---

(١) البيت للحطيئة، وقوله: أُنُف القصاع، يعني جيد الطعام وصفوته، وسلف البيت ٤/ ١٤٩ .

(٢) الرجز للقيط بن زرارة كما في الكامل ٢/ ٨٨٧ . وهو أيضاً في الشعر والشعراء ٢/ ٧١١ ، وفيه: قُطُف، بدل: خُنُف. والخنف جمع خَنُوف، وهي الدابة إذا مالت بيديها في أحد شقيها من النشاط. اللسان (خنف).

ووقع في (خ) وهو حاشية في (ق) ما نصه: النشيل لحم يطبخ بلا توابل، والرُّغف جمع رغيف، ويقال: أرغفة ورغفان. اهـ . والكلام في الصحاح (نشل).

(٣) ديوان امرئ القيس ص١٤٦ ، وعجز البيت: لاحقُ الإطلَين محبوكٌ مُمَرّ، قال شارحه: يحملني في أنفه أي: في أول هذه المطْرة، وأنف كل شيء: أوله، لاحق الإطلين: يعني فرساً ضامر الكَشحين، والمحبوك: المدمج الخَلْق الشديد، والممر نحوه في المعنى.

(٤) أخرجه الطبري في تفسيره ٢١/ ٢٠٣ .

(٥) تفسير الرازي ٢٨/ ٥٩ بنحوه.

وقيل: ما يستمعونه من القرآن هدًى، أي: يتضاعف يقينُهم. وقال الفرّاء[١]: زادهم إعراضُ المنافقين واستهزاؤهم هدًى. وقيل: زادهم نزولُ الناسخ هدًى.

وفي الهدى الذي زادهم أربعةُ أقاويل: أحدها: زادهم علماً. قاله الربيع بن أنس. الثاني: أنَّهم علموا ما سمعوا وعملوا بما علموا. قاله الضحاك. الثالث: زادهم بصيرة في دينهم وتصديقاً لنبيِّهم. قاله الكلبيّ. الرابع: شرح صدورَهم بما هم عليه من الإيمان[٢].

﴿وَءَاتَىٰهُمۡ تَقۡوَىٰهُمۡ﴾ أي: ألهمهم إياها[٣]. وقيل فيه خمسة أوجه: أحدها: آتاهم الخشيةَ. قاله الربيع. الثاني: ثوابَ تقواهم في الآخرة. قاله السدّي. الثالث: وفَّقهم للعمل الذي فرض عليهم. قاله مقاتل. الرابع: بيَّن لهم ما يتقون. قاله ابن زياد والسدّيّ أيضاً. الخامس: أنه تركُ المنسوخ والعملُ بالناسخ. قاله عطية. الماوردي[٤]. ويحتمل سادساً: أنه تركُ الرُّخَص والأخذُ بالعزائم[٥].

وقرئ: «وَأَعْطَاهُمْ» بدل: «وآتاهُمْ»[٦]. وقال عكرمة: هذه نزلت فيمن آمن من أهل الكتاب[٧].

قوله تعالى: ﴿فَهَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأۡتِيَهُم بَغۡتَةٗۖ فَقَدۡ جَآءَ أَشۡرَاطُهَاۚ فَأَنَّىٰ لَهُمۡ إِذَا جَآءَتۡهُمۡ ذِكۡرَىٰهُمۡ ١٨﴾

قوله تعالى: ﴿فَهَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأۡتِيَهُم بَغۡتَةٗۖ﴾ أي: فجأةً. وهذا وعيد

(١) في معاني القرآن له ٣/ ٦١ بنحوه، ونقله المصنف عنه بواسطة النكت والعيون ٥/ ٢٩٨ وما قبله منه.

(٢) النكت والعيون ٥/ ٢٩٨ .

(٣) معاني القرآن للزجاج ٥/ ١١ .

(٤) النكت والعيون ٥/ ٢٩٨ وما قبله منه دون قول السدي: بيَّن لهم ما يتقون، وهو في الكشاف ٣/ ٥٣٤ .

(٥) مجمع البيان ٢٦/ ٣٨ .

(٦) الكشاف ٣/ ٥٣٤ .

(٧) زاد المسير ٧/ ٤٠٣ .

للكفار. ﴿فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَاۚ﴾ أي: أماراتها وعلاماتها[١]. وكانوا قد قرؤوا في كتبهم أنَّ محمداً ﷺ آخر الأنبياء، فَبَعْثُه من أشراطها وأدلتها. قاله الضحاك والحسن[٢].

وفي الصحيح عن أنس قال: قال رسولُ الله ﷺ: «بعثت أنا والساعةَ كهاتين» وضمّ السبابة والوسطى، لفظ مسلم: وخرّجه البخاريّ والترمذيّ وابن ماجه[٣].

ويروى: «بعثتُ والساعةَ كَفَرَسَي رِهان»[٤]. وقيل: أشراطُ الساعة: أسبابُها التي هي دون معظمها، ومنه يقال للدُّون من النَّاس: الشَّرَط[٥].

وقيل: يعني علامات الساعة؛ انشقاق القمر، والدخان، قاله الحسن أيضاً[٦].

وعن الكلبي: كثرةُ المال، والتجارة، وشهادة الزور، وقطع الأرحام، وقلةُ الكرام، وكثرة اللئام[٧]. وقد أتينا على هذا الباب في كتاب «التذكرة» مستوفىً والحمد لله[٨].

وواحد الأشراط شَرَط، وأصله الأعلام. ومنه قيل: الشُّرَط؛ لأنَّهم جعلوا لأنفسهم علامةً يعرفون بها، ومنه الشَّرْط في البيع وغيره[٩].

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ١٨٢.

(٢) النكت والعيون ٥/ ٢٩٩ بنحوه عند الضحاك.

(٣) صحيح مسلم (٢٩٥١): (١٣٥)، وصحيح البخاري (٦٥٠٤)، وسنن الترمذي (٢٢١٤) وهو في مسند أحمد (١٢٢٤٥) من حديث أنس ﷺ، وأخرجه البخاري (٦٥٠٥)، وابن ماجه (٤٠٤٠) من حديث أبي هريرة ﷺ. وأخرجه أحمد (١٤٤٣١)، وابن ماجه (٤٥) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما. وسلف حديث أنس ﷺ ١٢/ ٢٦٨.

(٤) أخرجه أحمد (٢٢٨٠٩)، والبيهقي في الشعب (١٠٢٣٧)، وأبو الشيخ في الأمثال (٣٤٧) من حديث سهل بن سعد ﷺ. قوله: كفرسي رهان: أي: يتسابقان إلى غاية. النهاية (فرس).

(٥) تهذيب اللغة ١١/ ٣٠٩.

(٦) النكت والعيون ٥/ ٢٩٩ دون ذكر الدخان.

(٧) الكشاف ٣/ ٣٥٣.

(٨) ص٦٢٤ فما بعدها.

(٩) تهذيب اللغة ١١/ ٣٠٨-٣٠٩.

قال أبو الأسود:

فإن كنتَ قد أزْمَعْتَ بالصَّرْم بيننا فقد جَعَلَتْ أشراطُ أوّله تبدو[١]

ويقال: أشرطَ فلان نفسه في عمل كذا أي: أعلمها وجعلها له. قال أوس بن حجر يصف رجلاً تدلَّى بحبل من رأس جبل إلى نَبْعة ليقطعها يَتخذ[٢] منها قَوسًا:

فأشْرَطَ فيها نفسَه[٣] وهو مُعْصِمٌ وألقى بأسبابٍ له وَتَوَكَّلا[٤]

﴿أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً﴾ «أنْ» بدل اشتمال من «الساعة»، نحو قوله: ﴿أَن تَطَـُٔوهُمْ﴾ من قوله: ﴿رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ﴾.

وقرئ: «بَغَتَّةً» بوزن جَرَبَّة[٥]، وهي غريبة لم ترد في المصادر أختُها، وهي مَرْوِية عن أبي عمرو. الزمخشري[٦]: وما أخوفني أن تكون غلطةً من الراوي عن أبي عمرو، وأن يكون الصواب «بَغَتة» بفتح الغين من غير تشديد، كقراءة الحسن.

وروى أبو جعفر الرؤاسي وغيره من أهل مكة: «إن تَأْتِهِمْ بَغْتَةً»[٧].

قال المهدويّ: ومن قرأ: «إن تَأْتِهِمْ بَغْتَةً» كان الوقف على «السَّاعَة»، ثمَّ استأنف الشرط. وما يحتمله الكلام من الشكِّ مردودٌ إلى الخلق، كأنه قال: إن شكُّوا في مجيئها «فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا».

قوله تعالى: ﴿فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ﴾ «ذِكْرَاهُمْ» ابتداء، و«أَنَّى لَهُمْ» الخبر. والضمير المرفوع في «جَاءَتْهُمْ» للساعة؛ التقدير: فمن أين لهم التذكُّر إذا جاءتهم

(١) البيت في الأغاني ١٢/ ٣٣٤، والكشاف ٣/ ٥٣٥. الصَّرْم: الهجران اللسان (صرم). وهي أبيات قالها في أبي الجارود الشاعر وكان قد هجره كما في الأغاني.

(٢) في (م): يقطعها ليتخذ.

(٣) في النسخ: نفسه فيها، والمثبت من جمهرة اللغة (رشط) ـ والكلام فيه بنحوه، ومما سلف ٥/ ٢٣٧.

(٤) جاء في (خ) و(ز) بعد البيت ـ وهو في حاشية (ق) ـ ما نصه: النبع شجرٌ يتخذ منه القسيّ، الواحدة: نبعة، ويتخذ من أغصانها السهام. اهـ. وهذا الكلام في الصحاح (نبع).

(٥) أي: جماعة الحُمُر. اللسان (جرب).

(٦) في الكشاف ٣/ ٥٣٥ وما قبله منه، والقراءة أيضاً في المحرر الوجيز ٥/ ١١٦، والمحتسب ٢/ ٢٧١.

(٧) المحرر الوجيز ٥/ ١١٦، والقراءة في المحتسب ٢/ ٢٧٠، ووقع في النسخ عدا (م) و(ق) تأتيهم.

الساعة. قال معناه قتادة وغيره[١].

وقيل: فكيف لهم بالنجاة إذا جاءتهم الذكرى عند مجيء الساعة! قاله ابن زيد[٢].

وفي الذكرى وجهان: أحدهما: تذكيرُهم بما عملوه من خير أو شرّ. الثاني: هو دعاؤهم بأسمائهم تبشيراً وتخويفاً، روى أبان عن أنس، عن النبيّ ﷺ قال: «أحسنوا أسماءَكم، فإنكم تُدْعَون بها يوم القيامة: يا فلانُ قُمْ إلى نُورِك، يا فلانُ قُم لا نُور لك» ذكره الماوَرْدِي[٣].

قوله تعالى: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴿١٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ قال الماوردي[٤]: وفيه ـ وإن كان الرسول عالماً بالله ـ ثلاثة أوجه: يعني اِعلم أنَّ الله أعلمك أن لا إله إلا الله. الثاني: ما علمتَه استدلالاً فاعلمْه خبراً يقيناً. الثالث: يعني فاذكر أن لا إله إلا الله، فعبّر عن الذكر بالعلم لحدوثه عنه.

وعن سفيان بن عيينة أنه سئل عن فضْل العلم فقال: ألم تسمع قولَه حين بدأ به ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ فأمر بالعمل بعد العلم وقال: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ إلى قوله: ﴿سَابِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [الحديد: ٢٠-٢١] وقال: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [الأنفال: ٢٨]. ثم قال بعد: ﴿فَٱحْذَرُوهُمْ﴾[٥]. وقال تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ﴾ [الأنفال: ٤١]. ثم أمر

(١) مشكل إعراب القرآن ٢/ ٦٧٣ دون نسبة، وذكر معنى قول قتادة أبو الليث في تفسيره ٣/ ٢٤٣، والواحدي في الوسيط ٤/ ١٢٤.

(٢) النكت والعيون ٥/ ٢٩٩.

(٣) في النكت والعيون ٥/ ٢٩٩-٣٠٠، وذكره الديلمي في الفردوس ١/ ٩٨، وسلف ١٣/ ١٠١ بنحوه عن أبي الدرداء وإسناده منقطع.

(٤) في النكت والعيون ٥/ ٣٠٠.

(٥) كذا وقع في النسخ، والكشاف ٣/ ٥٣٥، والكلام منه، ولعله يريد الآية (١٤) من التغابن: ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ﴾.

بالعمل بعد.

قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ يحتمل وجهين: أحدهما: يعني استغفر الله إنْ يقع منك ذنب. الثاني: استغفر الله ليعصمَك من الذنوب(١).

وقيل: لما ذكر له حالَ الكافرين والمؤمنين، أمره بالثبات على الإيمان، أي: اثبُتْ على ما أنت عليه من التوحيد والإخلاص والحذَر عما تحتاج معه إلى استغفار(٢).

وقيل: الخطابُ له، والمرادُ به الأمة، وعلى هذا القول توجب الآيةُ استغفارَ الإنسان لجميع المسلمين(٣).

وقيل: كان عليه الصلاة والسلام يضيق صدرُه من كفر الكفار والمنافقين؛ فنزلت الآية. أي: فاعلم أنَّه لا كاشفَ يكشف ما بك إلا الله؛ فلا تعلِّق قلبَك بأحد سواه.

وقيل: أمر بالاستغفار لتقتديَ به الأمة(٤). ﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ أي: ولذنوبهم. وهذا أمرٌ بالشفاعة(٥).

وروى مسلم عن عاصم الأحول، عن عبد الله بن سَرْجِس المخزوميّ قال: أتيت النبيَّ ﷺ وأكلتُ من طعامه فقلت: يا رسول الله، غفر الله لك! فقال له صاحبي: هل استغفر لك النبي ﷺ؟ قال: نعم، ولك. ثمَّ تلا هذه الآية: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ ثم تحوّلت فنظرت إلى خاتم النبوة بين كتفيه، جُمعٌ(٦)؛ خِيلانٌ كأنه الثآليل(٧).

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٣٠٠ .

(٢) الكشاف ٣/ ٥٣٥ بنحوه.

(٣) المحرر الوجيز ٥/ ١١٦ .

(٤) تفسير البغوي ٤/ ١٨٢ بنحوه.

(٥) الوسيط ٤/ ١٢٥ .

(٦) كذا في (خ) و(د) و(ز) و(ف) و(ق)، وفي (ظ): جميع، وهي نسخة كما ذكر النووي في شرحه على صحيح مسلم ١٥/ ٩٩ . ووقع في (م): جمعاً.

(٧) صحيح مسلم (٢٣٤٦) بنحوه وما بين حاصرتين منه، وأخرجه أيضاً بنحوه أحمد (٢٠٧٧٨). قوله: =

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ﴾ فيه خمسة أقوال: أحدها: يعلم أعمالكم في تصرفكم وإقامتكم[١]. الثاني: «مُتَقَلَّبَكُمْ» في أعمالكم نهاراً «وَمَثْوَاكُمْ» في ليلكم نياماً[٢].

وقيل: «مُتَقَلَّبَكُمْ» في الدنيا. «وَمَثْوَاكُمْ» في الدنيا والآخرة. قاله ابن عباس والضحاك. وقال عكرمة: «مُتَقَلَّبَكُمْ» في أصلاب الآباء إلى أرحام الأمهات. «وَمَثْوَاكُمْ»: مُقامكم في الأرض. وقال ابن كَيْسان: «مُتَقَلَّبَكُمْ» من ظهر إلى بطن إلى الدنيا. «وَمَثْوَاكُمْ» في القبور[٣].

قلت: والعموم يأتي على هذا كلِّه، فلا يخفى عليه سبحانه شيءٌ من حركات بني آدمَ وسَكَناتهم، وكذا جميع خلقه. فهو عالم بجميع ذلك قبلَ كونه؛ جملةً وتفصيلاً؛ أُولَى وأُخرَى. سبحانه، لا إله إلا هو.

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٠﴾ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴿٢١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أي: المؤمنون المخلصون. ﴿لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ﴾ اشتياقاً للوَحْي وحرصاً على الجهاد وثوابه. ومعنى «لَوْلَا» هلا[٤]. ﴿فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ﴾ لا نسخ فيها. قال قتادة: كلُّ سورة ذكر فيها الجهاد فهي مُحْكمة، وهي أشدُّ

= جمع؛ يريد مثل جُمع الكف؛ وهو أن يجمع الأصابع ويضمها. خيلانٌ: جمع خال؛ وهو الشامة في الجسد. الثآليل: جمع ثؤلول: وهو هذه الحبة التي تظهر في الجلد كالحمّصة فما دونها. النهاية (جمع) (خيل) (ثأل).

(١) معاني القرآن للزجاج ٥/ ١٢ .

(٢) النكت والعيون ٥/ ٣٠٠ .

(٣) تفسير البغوي ٤/ ١٨٣ .

(٤) زاد المسير ٧/ ٤٠٥ .

القرآن على المنافقين[١]. وفي قراءة عبد الله: «فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُحْدَثَةٌ»[٢]، أي: محدَثةُ النزول. ﴿وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ﴾ أي: فُرض فيها الجهاد[٣].

وقرئ: «فَإِذَا نَزَلَتْ[٤] سُورَةٌ، وَذَكَرَ فِيهَا القِتَالَ» على البناء للفاعل ونصب القتال. ﴿رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ أي: شكٌّ ونفاق[٥]. ﴿يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ﴾ أي: نظر مغمومين[٦] مغتاظين بتحديد وتحديق، كمن يشخص بصرَه عند الموت؛ وذلك لجبنهم عن القتال جزعاً وهَلَعاً[٧]، ولميلهم في السرّ إلى الكفار.

قوله تعالى: ﴿فَأَوْلَىٰ لَهُمْ . طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾ «فأوْلَى لَهُمْ» قال الجوهريّ[٨]: وقولهم: أَوْلَى لَكَ، تهديد ووعيد. قال الشاعر:

فأَوْلَى ثمّ أَوْلَى ثمّ أَوْلَى ... وهل لِلدَّرِّ يُحْلَبُ من مَرَدِّ

قال الأصمعي: معناه قارَبَه ما يُهْلِكه؛ أي: نزل به. وأنشد:

فعادَى بين هادِيَتَيْن منها ... وأَوْلَى أن يزيدَ على الثلاثِ[٩]

أي: قارب أن يزيد. قال ثعلب: ولم يقل أحد في «أَوْلَى» أحسنَ مما قال الأصمعي[١٠].

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ١٨٣، وأخرجه الطبري في تفسيره ٢١/ ٢١٠.

(٢) النكت والعيون ٥/ ٣٠٠، والكشاف ٣/ ٥٣٥.

(٣) زاد المسير ٧/ ٤٠٥.

(٤) في (م) و(خ): أنزلت، والمثبت من باقي النسخ، وهو الموافق لما في الكشاف ٣/ ٥٣٥ والكلام منه.

(٥) تفسير أبي الليث ٣/ ٢٤٤.

(٦) في (م) و(خ): مغموصين، والمثبت من باقي النسخ.

(٧) تأويل مشكل القرآن ص٣٥٢، والكشاف ٣/ ٥٣٥ بنحوه.

(٨) في الصحاح (ولى)، والبيت الآتي لعبد الله بن الزبير الأسدي كما في الأغاني ١٤/ ٢٣٧.

(٩) البيت أيضاً في خزانة الأدب ٩/ ٣٤٥ قال البغدادي: قال ابن عقيل: عادى؛ من العِداء، وهو الموالاة بين الصيدين بصرع أحدهما على إثر الآخر في طلق واحد، والهادية: أوّل الوحش.

(١٠) الصحاح (ولى)، وتهذيب اللغة ١٥/ ٤٤٨.

وقال المُبَرِّد: يقال لمن هَمَّ بالعَطَب[١] ثم أفْلَت: أوْلى لك؛ أي: قاربت العطب[٢].

كما رُوِي أنَّ أعرابيًّا كان يوالي رَميَ الصيد، فيُفْلِت منه فيقول: أوْلى لك. ثمَّ رمى صيداً فَقَاربه ثمَّ أفلت منه فقال:

فلو كان «أوْلَى» يُطعِم القومَ صِدْتُهم ولكنّ «أوْلَى» يَتْرُكُ القومَ جُوَّعا[٣]

وقيل: هو كقول الرجل لصاحبه: يا محروم، أيُّ شيء فاتك[٤]؟

وقال الجُرْجَانيْ: هو مأخوذ من الويل، فهو أفعل، ولكن فيه قلب؛ وهو أنَّ عينَ الفعل وقع موقع اللام. وقد تمَّ الكلام على قوله: «فأوْلَى لَهُمْ».

قال قتادة: كأنه قال: العِقاب أوْلَى لهم[٥]. وقيل: أي: وَلِيَهم المكروه[٦].

ثم قال: «طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ» أي: طاعة وقول معروف أمثل وأحسن، وهو مذهب سيبويه والخليل.

وقيل: إنَّ التقدير: أمرنا طاعة وقول معروف[٧]؛ فحذف المبتدأ، فيوقف على «فأوْلَى لَهُمْ». وكذا من قدّر: يقولون مِنَّا طاعة[٨]، وهي قراءة أُبيّ: «يقولون طاعة»[٩].

---

(١) في (ظ): همَّ بالغضب.

(٢) في (ظ): قاربت الغضب.

(٣) في (د) و(ظ) و(ق) صيدهم، والمثبت من باقي النسخ، وهو الموافق لما في معاني القرآن للنحاس ٦/ ٤٧٩ والكلام منه، والبيت أيضاً في الكامل ٣/ ١٤١٦ ، والخزانة ٩/ ٣٤٦ . قال البغدادي: هو بيت لرجل يقتنص الصيد، فإذا أفلته الصيد قال: أولى لك. اهـ. وقوله: صدتُهم، أي: صدتُ لهم، قال في اللسان: صدت فلاناً صيداً: إذا صدتّه له. اللسان (صيد).

(٤) تهذيب اللغة ١٥/ ٤٤٨ .

(٥) النكت والعيون ٥/ ٣٠١ .

(٦) تفسير أبي الليث ٣/ ٢٤٤ .

(٧) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٨٧ .

(٨) مشكل إعراب القرآن ٢/ ٦٧٤ .

(٩) قوله: وهي قراءة أُبيّ. . .الخ، وقع في (ظ) في هذا الموضع، وهو الصواب، ووقع في باقي النسخ =

وقيل: إن الآية الثانية متصلةٌ بالأولى. واللام في قوله: «لَهُم» بمعنى الباء[١]؛ أي: الطاعة أولى وأليقُ بهم، وأحقُّ لهم من ترك امتثال أمر الله.

وقيل إن: «طَاعَةٌ» نعت لـ «سورة»؛ على تقدير: فإذا أنزلت سورة ذاتُ طاعة. فلا يوقف على هذا على «فَأَوْلَى لَهُمْ»[٢].

قال ابن عباس: إن قولهم: «طَاعَةٌ» إخبارٌ من الله عزَّ وجلَّ عن المنافقين. والمعنى: لهم طاعةٌ وقولٌ معروف، قيل: وجوب الفرائض عليهم، فإذا أنزلت الفرائض شقَّ عليهم نزولُها. فيوقف على هذا على «فَأَوْلَى».

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ﴾ أي: جدّ القتال، أو وجب فرض القتال[٣]، كرهوه. فكرهوه جواب «إذا» وهو محذوف.

وقيل: المعنى فإذا عزم أصحاب الأمر[٤]. ﴿فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ أي: في الإيمان والجهاد[٥]. ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ من المعصية والمخالفة.

قوله تعالى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴿٢٣﴾ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾

فيه أربع مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ اختلف في معنى «إن تَوَلَّيْتُمْ» فقيل: هو من الولاية.

= بعد قوله: «وأحقُّ لهم من ترك امتثال أمر الله». الآتي. وهي في الكشاف ٣/ ٥٣٦، والرازي ٢٨/ ٦٣.

(١) تفسير البغوي ٤/ ١٨٣.

(٢) مشكل إعراب القرآن ٢/ ٦٧٤. وقال مكي: القولان الأولان أبين وأشهر.

(٣) معاني القرآن للزجاج ٥/ ١٣، وتفسير البغوي ٤/ ١٨٣ بنحوه.

(٤) الكشاف ٣/ ٥٣٦، وتفسير الرازي ٢٨/ ٦٣.

(٥) معاني القرآن للنحاس ٦/ ٤٨١.

قال أبو العالية: المعنى فهل عسيتم إن تولَّيتم الحكمَ فجُعِلتم حكّاماً أن تفسدوا في الأرض بأخذ الرُّشَا. وقال الكلبيّ: أي: فهل عسيتم إن تولَّيتم أمرَ الأمة أن تفسدوا في الأرض بالظلم. وقال ابن جريج: المعنى: فهل عسيتم إن تولَّيتم عن الطاعة أن تفسدوا في الأرض بالمعاصي وقطعِ الأرحام[١].

وقال كعب: المعنى: فهل عسيتم إن تولَّيتم الأمرَ أن يقتلَ بعضُكم بعضاً[٢].

وقيل: من الإعراض عن الشيء.

قال قتادة: أي: فهل عسيتم إن تولَّيتم عن كتاب الله أن تفسدوا في الأرض بسفك الدماء الحرام، وتقطعوا أرحامَكم[٣].

وقيل: «فَهَلْ عَسَيْتُمْ» أي: فلعلكم إن أعرضتم عن القرآن وفارقتم أحكامَه، أن تفسدوا في الأرض فتعودوا إلى جاهليتكم[٤].

وقرىء بفتح السين وكسرها[٥]. وقد مضى في «البقرة» القول فيه مستوفًى[٦].

وقال بكر المزني: إنَّها نزلت في الحَرُوريّة والخوارج. وفيه بُعدٌ، والأظهر أنه إنما عُني بها المنافقون. وقال ابن حيان: قريش[٧].

ونحوه قال المسيّب بن شريك والفرّاء، قالا: نزلت في بني أمية وبني هاشم[٨]، ودليل هذا التأويل ما روى عبدُ الله بن مُغَفّل قال: سمعت النبيَّ ﷺ يقول: ﴿فَهَلْ

(١) النكت والعيون ٥/ ٣٠١ - ٣٠٢.

(٢) معاني القرآن للنحاس ٦/ ٤٨٢.

(٣) النكت والعيون ٥/ ٣٠٢.

(٤) تفسير البغوي ٤/ ١٨٣.

(٥) قرأ نافع بكسر السين، والباقون بالفتح. السبعة ص١٨٦، والتيسير ص٨١.

(٦) ٤/ ٢٢٩.

(٧) النكت والعيون ٥/ ٣٠٢ دون ذكر الحرورية، وذكر أنها في الحرورية النحاس في معاني القرآن له ٦/ ٤٨٢.

(٨) تفسير البغوي ٤/ ١٨٤.

عَسَيۡتُمۡ إِن تَوَلَّيۡتُمۡ أَن تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ ثمَّ قال: «هم هذا الحيّ من قريش؛ أخذ الله عليهم إن وَلُوا الناسَ ألَّا يفسدوا في الأرض ولا يقطِّعوا أرحامَهم»[١].

وقرأ عليّ بن أبي طالب: «إن تُوُلِّيْتُم أن تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ» بضم التاء والواو وكسر اللام[٢]. وهي قراءة ابن أبي إسحاق، ورواها رُوَيس عن يعقوب[٣].

يقول: إن وليتُكم ولاةً جائرةً، خرجتم معهم في الفتنة وحاربتموهم[٤]. ﴿وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرۡحَامَكُمۡ﴾ بالبغي والظلم والقتل[٥].

وقرأ يعقوب وسلام وعيسى وأبو حاتم: «وتَقْطَعُوا»[٦] بفتح التاء وتخفيف القاف، من القطع؛ اعتباراً بقوله تعالى: ﴿وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ [البقرة: ٢٧]. وروى هذه القراءةَ هارونُ عن أبي عمرو[٧]. وقرأ الحسن: «وَتَقَطَّعُوا» مفتوحةَ الحروف مشدّدة[٨]؛ اعتباراً بقوله تعالى: ﴿وَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ﴾ [الأنبياء: ٩٣]. الباقون: «وتُقَطِّعُوا» بضم التاء مشدّدة الطاء، من التقطيع على التكثير، وهو اختيار أبي عبيد. وتقدّم ذكر «عَسَيْتُمْ» في «البقرة»[٩].

وقال الزجاج[١٠] في قراءة نافع: لو جاز هذا لجاز «عَسِي» بالكسر.

قال الجوهري[١١]: ويقال عَسَيت أن أفعل ذلك، وعَسِيت بالكسر. وقرىء: «فَهَلْ عَسِيْتُمْ» بالكسر.

---

(١) أخرجه الطبري في تهذيبه كما في فتح الباري ٨/ ٥٨١ .

(٢) تفسير البغوي ٤/ ١٨٤ ، والقراءة في القراءات الشاذة ص١٤٠ ، والمحتسب ٢/ ٢٧٢ .

(٣) النشر ٢/ ٣٧٤ ، وهي من العشرة.

(٤) تفسير البغوي ٤/ ١٨٤ .

(٥) الوسيط ٤/ ١٢٧ .

(٦) قراءة يعقوب في النشر ٢/ ٣٧٤ ، وهي من العشرة، وقراءة سلام في القراءات الشاذة ص١٤٠ .

(٧) المحرر الوجيز ٥/ ١١٨ دون ذكر هارون.

(٨) البحر المحيط ٨/ ٨٢ .

(٩) ٤/ ٢٢٩ .

(١٠) في معاني القرآن له ٥/ ١٣ ، ونقله المصنف عنه بواسطة إعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٨٧ .

(١١) في الصحاح (عسا).

قلت: ويدل قوله هذا على أنَّهما لغتان. وقد مضى القول فيه في «البقرة» مستوفًى[١].

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾ أي: طَردَهم وأبعدَهم من رحمته[٢] ﴿فَأَصَمَّهُمْ﴾ عن الحقّ ﴿وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ﴾ أي: قلوبَهم عن الخير. فأتبع الأخبارَ بأنَّ مَن فعل ذلك حقّت عليه لعنته، وسلبه الانتفاعَ بسمعه وبصره حتى لا ينقاد للحق وإن سمعه، فجعله كالبهيمة التي لا تعقل. وقال: «فَهَلْ عَسَيْتُمْ» ثم قال: «أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ» فرجع من الخطاب إلى الغَيبة على عادة العرب في ذلك.

الثانية: قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ أي: يتفهمونه فيعلمون ما أعدّ الله للذين لم يتولّوا غير[٣] الإسلام. ﴿أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ أي: بل على قلوب أقفالٌ أقفلَها الله عزَّ وجلَّ عليهم فهم لا يعقلون[٤]. وهذا يردّ على القدرية والإمامية مذهبَهم.

وفي حديث مرفوع أنّ النبيّ ﷺ قال: «إنَّ عليها أقفالاً كأقفالِ الحديد حتى يكون اللهُ يفتحها»[٥]. وأصل القَفْل: اليُبْس والصلابة.

ويقال لما يبس من الشجر: القَفْل. والقفيل مثله. والقَفِيل أيضاً: نبت. والقفيل: السوط[٦]. قال الراجز:

---

(١) ٤/٢٢٩ - ٢٣٠ .

(٢) تفسير أبي الليث ٣/٢٤٥ .

(٣) في (م): عن.

(٤) تفسير الطبري ٢١/٢١٥ .

(٥) كذا ذكر المصنف رحمه الله، والذي أخرجه الطبري في تفسيره ٢١/٢١٧ ، والواحدي في الوسيط ٤/١٢٧ ، والبغوي ٤/١٨٤ ، من حديث هشام بن عروة، عن أبيه. قال: تلا رسول الله ﷺ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ فقال شابٌّ من أهل اليمن: بل على قلوب أقفالها حتى يكون الله يفتحها أو يفرِّجها. واللفظ للبغوي.

(٦) في (م) و(د) و(ز) و(ق): الصوت، والمثبت من باقي النسخ، وهو الموافق لما في الصحاح والكلام منه.

لمّا أتاك يابساً قِرْشَبّاً قمتَ إليه بالقَفِيل ضربا
كيف قَرَيْتَ شَيْخَك الأزَبّا[١]

القِرشَبُّ؛ بكسر القاف: المُسِنّ؛ عن الأصمعي. وأقفله الصوم، أي: أيبسه. قاله القشيريّ والجوهريّ[٢]. فالأقفال هاهنا إشارة إلى ارتتاج القلب وخلوّه عن الإيمان. أي: لا يدخل قلوبَهم الإيمانُ ولا يخرج منها الكفر؛ لأنَّ الله تعالى طبع على قلوبهم وقال: «عَلَى قُلُوبٍ» لأنّه لو قال: على قلوبهم، لم يدخل قلبُ غيرهم في هذه الجملة. والمراد: أم على قلوب هؤلاء وقلوبِ من كانوا بهذه الصفة أقفالُها.

الثالثة: في صحيح مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ الله خلقَ الخلْقَ، حتى إذا فرغ منهم، قامت الرَّحِم فقالت: هذا مَقامُ العائذ بك من القطيعة. قال: نَعَمْ: أما ترضَين أنْ أصِلَ من وصَلَكِ وأقطعَ من قطعكِ؟ قالت: بلى. قال: فذاك لكِ ـ ثمَّ قال رسولُ الله ﷺ ـ اقرؤوا إن شئتم: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا أَرْحَامَكُمْ . أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ . أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾[٣]

وظاهر الآية أنَّها خطاب لجميع الكفار. وقال قتادة وغيره: معنى الآية فلعلَّكم، أو يخاف عليكم، إن أعرضتم عن الإيمانِ أن تعودوا إلى الفساد في الأرض بسفك[٤] الدماء[٥].

قال قتادة: كيف رأيتم القوم حين تَوَلَّوْا عن كتاب الله تعالى! ألم يسفكوا الدماءَ

---

(١) الصحاح (قفل) (قرشب)، ونسب الرجزَ في اللسان (قفل) لأبي محمد الفقعسي، وهو أيضاً في الأصمعيات ص١٦٣ دون نسبة وباختلاف في ترتيبه، وفيه: (يائساً) بدل (يابساً)، و(ضيفك) بدل (شيخك). قوله: الأزبّ، أي: كثير شعر الذراعين والحاجبين والعينين. اللسان (زبب).

(٢) في الصحاح (قرشب) دون قوله: وأقفله الصوم أي: أيبسه. وهو في تهذيب اللغة ٩/ ١٦١ .

(٣) صحيح مسلم (٢٥٥٤)، وأخرجه أحمد (٨٣٦٧)، والبخاري (٤٨٣٠).

(٤) في (م) لسفك.

(٥) المفهم ٦/ ٥٢٦ .

الحرام ويقطعوا الأرحامَ وعصَوُا الرَّحمن(١).

فالرَّحِم على هذا رَحِمُ دين الإسلام والإيمان، التي قد سمَّاها الله أُخُوَّة بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠]، وعلى قول الفرّاء: إنَّ الآية نزلت في بني هاشم وبني أمية(٢)، والمراد: مَن أضمر منهم نفاقاً؛ فأشار بقطع الرحِم إلى ما كان بينهم وبين النبيّ ﷺ من القرابة بتكذيبهم النبيّ ﷺ. وذلك يوجب القتال.

وبالجملة؛ فالرحمُ على وجهين: عامَّة وخاصَّة. فالعامَّة رحِم الدين، ويجب مواصلتُها بملازمة الإيمان، والمحبةِ لأهله ونُصرتِهم، والنصيحةِ وتركِ مضارتهم، والعدل بينهم، والنَّصَفة في معاملتهم، والقيام بحقوقهم الواجبة؛ كتمريض المرضى، وحقوق الموتى مِن غسلهم، والصلاةِ عليهم ودفنهم، وغير ذلك من [الحقوق] المترتبة لهم.

وأما الرَّحم الخاصَّة ـ وهي رحمُ القرابة من طرفي الرجل أبيه وأمه ـ فتجب لهم الحقوقُ العامة(٣) وزيادة؛ كالنفقة، وتفقد أحوالهم، وترك التغافل عن تعاهدهم في أوقات ضروراتهم؛ وتتأكد في حقِّهم حقوقُ الرحم العامةِ، حتى إذا تزاحمت الحقوقُ بدئ بالأقرب فالأقرب.

وقال بعض أهل العلم: إنَّ الرَّحم التي تجب صلتُها هي كلُّ رَحِم مَحْرَم، وعليه فلا تجب في بني الأعمام وبني الأخوال. وقيل: بل هذا في كلِّ رحم ممن ينطلق عليه ذلك من ذوي الأرحام في المواريث، مَحْرَماً كان أو غير مَحْرَم. فيخرج من هذا أنَّ رحمَ الأمِّ التي لا يُتوارث بها لا تجب صلتُهم ولا يحرم قطعُهم. وهذا ليس بصحيح، والصواب أنَّ كلَّ ما يشمله ويعمُّه الرحم تجب صلته على كل حال، قربةً ودينية؛ على ما ذكرناه أولاً، والله أعلم(٤).

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ١٨٤ . وفيه: الدم الحرام، وقطَّعوا. . .

(٢) المفهم ٦/ ٥٢٦ .

(٣) في (م) و(د) و(ز) و(ق) الخاصة، والمثبت من (خ) و(ظ)، وهو الموافق لما في المفهم والكلام منه.

(٤) المفهم ٦/ ٥٢٤ و٥٢٧ - ٥٢٨ .

وقد روى أبو داود الطيالسي في مسنده[١] قال: حدثنا شعبة قال: أخبرني محمد ابن عبد الجبار، قال: سمعت محمد بن كعب القُرَظي يحدّث عن أبي هريرة قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «إنَّ للرَّحم لساناً يوم القيامة تحت العرش، يقول: يا ربُّ قُطعتُ، يا ربُّ ظُلمت، يا ربُّ أُسيء إليّ، فيجيبها ربُّها: ألا تَرْضَيْن أن أصلَ مَن وصلكِ وأقطعَ مَن قطعكِ».

وفي صحيح مسلم عن جُبير بن مُطعِم، عن النبيّ ﷺ قال: «لا يدخل الجنةَ قاطع». قال ابن أبي عمر: قال سفيان: يعني قاطعَ رَحِم. ورواه البخاري[٢].

الرابعة: قوله عليه الصلاة والسلام: «إنَّ الله تعالى خلق الخلْقَ حتى إذا فرغ منهم...» «خلق» بمعنى اخترع، وأصله التقدير، كما تقدم[٣]. والخلق هنا بمعنى المخلوق. ومنه قوله تعالى: ﴿هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ﴾ [لقمان: ١١] أي: مخلوقه. ومعنى «فرغ منهم»: كَمَّل خلقَهم. لا أنَّه اشتغل بهم ثمَّ فرغ من شُغْله بهم؛ إذ ليس فعلُه بمباشرة ولا مناولة، ولا خَلْقُه بآلة ولا محاولة، تعالى عن ذلك[٤].

وقوله: «قامت الرّحم فقالت» يحمل على أحد وجهين:

أحدهما: أن يكونَ اللهُ تعالى أقام من يتكلم عن الرَّحم من الملائكة فيقول ذلك، وكأنّه وكَّل بهذه العبادة من يناضل عنها ويكتب ثوابَ من وصلها ووِزْر مَن قطعَها؛ كما وكَّل الله بسائر الأعمال كراماً كاتبين، وبمشاهدة أوقات الصلوات ملائكةً متعاقبين.

وثانيهما: أنَّ ذلك على جهة التقدير والتمثيل المُفْهِم للإغياء[٥] وشدّة الاعتناء.

(١) برقم (٢٥٤٣).

(٢) صحيح مسلم (٢٥٥٦) (١٨)، وصحيح البخاري (٥٩٨٤)، وهو في مسند أحمد (١٦٧٦٣).

(٣) ١/ ٣٤١، وسلف الحديث في المسألة قبلها.

(٤) المفهم ٦/ ٥٢٤.

(٥) في النسخ عدا (خ) للاعياء، والمثبت من (خ) وهو الموافق لما في المفهم ٦/ ٥٢٥ والكلام منه.

فكأنه قال: لو كانت الرَّحم ممن يعقل ويتكلم لقالت هذا الكلام، كما قال تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ ثم قال: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[١] [الحشر: ٢١].

وقوله: «فقالت: هذا مقام العائذ بك من القطيعة» مقصود هذا الكلام: الإخبارُ بتأكّد أمر صلة الرحم، وأن الله سبحانه قد نزّلها بمنزلة من استجار به فأجاره، وأدخله في ذمَّته وخَفارته[٢]. وإذا كان كذلك فجارُ الله غيرُ مخذول، وعهدُه غيرُ منقوض. ولذلك قال مخاطباً للرَّحِم: «أمَا تَرْضَيْن أن أصلَ مَن وَصَلكِ وأقطع مَن قطعكِ». وهذا كما قال عليه الصلاة والسلام: «من صلَّى الصبحَ فهو في ذمة الله تعالى، فلا يطلبنكم اللهُ من ذمَّته بشيء، فإنه من يطلبُه بذمته بشيء يدركه، ثمَّ يَكُبّه في النار على وجهه»[٣].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾﴾

قال قتادة: هم كفار أهل الكتاب، كفروا بالنبيّ ﷺ بعد ما عرفوا نعتَه عندهم. وقاله ابن جريج[٤]. وقال ابن عباس والضحاك والسدي: هم المنافقون[٥]، قعدوا عن القتال بعد ما علموه في القرآن.

﴿ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ﴾ أي: زيّن لهم خطاياهم. قاله الحسن. ﴿وَأَمْلَىٰ لَهُمْ﴾ أي: مدّ لهم الشيطان في الأمل، ووعدهم طولَ العمر؛ عن الحسن أيضاً. وقال: إنَّ الذي

(١) المفهم ٦/ ٥٢٤ - ٥٢٥.

(٢) الخَفارة: الأمان. اللسان (خفر).

(٣) أخرجه مسلم (٦٥٧): (٢٦٢)، وأخرجه أحمد (١٨٨١٤) مختصراً، من حديث جندب البجلي، وأخرجه أحمد (٥٨٩٨) ـ مختصراً أيضاً ـ من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٤) النكت والعيون ٥/ ٣٠٢.

(٥) تفسير البغوي ٤/ ١٨٤.

أملى لهم في الأمل ومدّ في آجالهم هو الله عزّ وجلَّ. قاله الفرّاء والمفضل. وقال الكَلْبيّ ومقاتل: إنَّ معنى «أَمْلَى لَهُمْ»: أمهلهم؛ فعلى هذا يكون الله تعالى أمْلَى لهم بالإمهال في عذابهم[١].

وقرأ أبو عمرو وابن أبي إسحاق وعيسى بن عمر وأبو جعفر وشيبة: «وَأُمْلِيَ لَهُمْ»[٢] بضم الهمزة وكسر اللام وفتح الياء؛ على ما لم يسمَّ فاعله[٣]. وكذلك قرأ ابن هُرْمُز ومجاهد والجَحْدرِيُّ ويعقوب، إلا أنَّهم سكَّنوا الياء؛ على وجه الخبر من الله تعالى عن نفسه أنه يفعل ذلك بهم؛ كأنَّه قال: وأنا أملي لهم[٤]. واختاره أبو حاتم، قال: لأنَّ فتح الهمزة يُوهم أنَّ الشيطان يملي لهم، وليس كذلك؛ فلهذا عدل إلى الضم. قال المهدويّ: ومن قرأ: «وَأَمْلَى لَهُمْ» فالفاعل اسم الله تعالى. وقيل: الشيطان. واختار أبو عبيد قراءةَ العامة، قال: لأنَّ المعنى معلوم؛ لقوله: ﴿لِّتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ﴾ [الفتح:٩] ردّ التسبيحَ على اسم الله، والتوقيرَ والتعزيرَ على اسم الرسول.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا﴾ أي: ذلك الإملاء لهم حتى يتمادَوْا في الكفر بأنهم قالوا؛ يعني المنافقين واليهود ﴿لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ﴾ وهم المشركون: ﴿سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ﴾ أي: في مخالفة محمد والتظاهر على عداوته، والقعود عن الجهاد معه وتوهين أمره في السرِّ. وهم إنَّما قالوا ذلك سرًّا، فأخبر الله نبيَّه[٥].

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٣٠٣.

(٢) قراءة أبي عمرو في السبعة ص٦٠٠، والتيسير ص٢٠١، وقراءة عيسى وشيبة في المحرر الوجيز ٥/ ١١٩. وقراءة أبي جعفر المشهورة عنه: «وأَمْلَى» كقراءة العامة. النشر ٢/ ٣٧٤.

(٣) تفسير البغوي ٤/ ١٨٤.

(٤) ذكرها ابن جني في المحتسب ٢/ ٢٧٢، وقراءة يعقوب في النشر ٢/ ٣٧٤، وهي من العشرة، وينظر معاني القرآن للزجاج ٥/ ١٤.

(٥) تفسير البغوي ٤/ ١٨٤ بنحوه.

وقراءة العامة: «أَسْرَارَهُمْ» بفتح الهمزة جمع سِرّ، وهي اختيار أبي عبيد وأبي حاتم. وقرأ الكوفيون وابن وثّاب والأعمش وحمزة والكسائي وحفص عن عاصم: «إِسْرَارَهُمْ» بكسر الهمزة على المصدر[١]، نحو قوله تعالى: ﴿وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾ [نوح:٩] جُمع لاختلاف ضروب السر[٢].

قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ﴿٢٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ﴾ أي: فكيف تكون حالهم[٣]. ﴿إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ﴾ أي: ضاربين؛ فهو في موضع الحال[٤]. ومعنى الكلام التخويف والتهديد، أي: إن تأخر عنهم العذابُ فإلى انقضاء العمر. وقد مضى في «الأنفال» و«النحل»[٥].

وقال ابن عباس: لا يتوفى أحد على معصية إلا بضرب شديد لوجهه وقفاه[٦].

وقيل: ذلك عند القتال نُصْرَةً لرسول الله ﷺ، بضرب الملائكة وجوهَهم عند الطلب، وأدبارَهم عند الهرب. وقيل: ذلك في القيامة عند سَوْقهم إلى النار[٧].

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٢٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: ذلك جزاؤهم[٨]. ﴿بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ﴾

---

(١) المحرر الوجيز ٥/ ١١٩ ، والسبعة ص٦٠١ ، والتيسير ص٢٠١ ، وإعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٩٠ .

(٢) الكشف عن وجوه القراءات ٢/ ٢٧٨ .

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٩٠ .

(٤) مشكل إعراب القرآن ٢/ ٦٧٤ .

(٥) ١٠/ ٤٤ - ٤٥ و١٢/ ٣١٥ .

(٦) الكشاف ٣/ ٥٣٧ بنحوه، ووقع في (ظ): يضرب ضرباً شديداً.

(٧) النكت والعيون ٥/ ٣٠٣-٣٠٤ .

(٨) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٩٠ .

قال ابن عباس: هو كتمانُهم ما في التوراة من نعت محمد ﷺ[١]. وإن حُملت على المنافقين فهو إشارة إلى ما أضمروا عليه من الكفر. ﴿وَكَرِهُواْ رِضْوَانَهُۥ﴾ يعني: الإيمان. ﴿فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ أي: ما عملوه من صدقة وصلةِ رحم وغير ذلك؛ على ما تقدّم[٢].

قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾: نفاق وشكٌّ[٣]، يعني المنافقين. ﴿أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ﴾ الأضغان ما يُضمر من المكروه.

واختلف في معناه؛ فقال السُّدِّيّ: غِشّهم. وقال ابن عباس: حسدهم. وقال قُطْرُب: عداوتهم، وأنشد قول الشاعر:

قل لابن هندٍ ما أردتَ بمَنْطِقٍ ساء الصديقَ وشيَّدَ الأضغانا

وقيل: أحقادهم[٤]. واحدها ضِغن[٥]. قال:

وذي ضغنٍ كففتُ النفسَ عنهُ

وقد تقدم[٦].

وقال عمرو بن كلثوم:

وإنَّ الضِّغنَ بعد الضِّغنِ يَفْشُو عليك ويُخرجُ الداءَ الدفينا[٧]

(١) الوسيط ٤/ ١٢٨، وتفسير البغوي ٤/ ١٨٥.

(٢) معاني القرآن للزجاج ٥/ ١٥، وسلف ص٢٥٥ من هذا الجزء.

(٣) النكت والعيون ٥/ ٣٠٤.

(٤) المصدر السابق، وفيه: (وسرَّ ذا الأضغان) بدل (وشيد الأضغانا).

(٥) تفسير البغوي ٤/ ١٨٥.

(٦) صدر بيت للزبير بن عبد المطلب وعجزه: وكنت على مساءته مقيتا، وسلف ٦/ ٤٨٦.

(٧) شرح المعلقات للنحاس ٢/ ١٠١ ـ معلقة عمرو بن كلثوم ـ قال النحاس: الداء: يعني الحقد.

قال الجوهريّ: الضِّغن والضَّغينة: الحِقْد. وقد ضَغِنَ عليه ـ بالكسر ـ ضِغناً. وتضاغن القومُ واضْطَغَنُوا: انْطَوَوْا[١] على الأحقاد. واضْطَغَنْت الصبيَّ: إذا أخذتَه تحت حضنك. وأنشد الأحمر:

كـأنّـه مُـضْـطَـغِـنٌ صـبِـيَّـا[٢]

أي: حاملُه في حِجْره. وقال ابن مُقبل:

إذا اضطغنتُ سلاحي عند مَغْرِضِها ومِرفقٍ كرِئاس السيفِ إذْ شَسَفَا[٣]

وفرس ضاغن: لا يعطي ما عنده من الجري إلا بالضرب.

والمعنى: أم حسبوا أن لن يُظهرَ الله عداوتَهم وحقدَهم لأهل الإسلام. ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ﴾ أي: لعرَّفناكهم[٤].

قال ابن عباس: وقد عرّفه إيَّاهم في سورة براءة[٥].

تقول العرب: سأريك ما أصنع، أي: سأعلمك[٦]، ومنه قوله تعالى: ﴿بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ﴾ [النساء: ١٠٥] أي: بما أعلمك.

﴿فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ﴾ أي: بعلاماتهم. قال أنس: ما خفيَ على النبيّ ﷺ بعد هذه الآية أحدٌ من المنافقين؛ كان يعرفهم بسيماهم[٧]. وقد كنا في غَزَاة وفيها سبعة من المنافقين يشكونهم الناس[٨]، فأصبحوا ذات ليلة وعلى جبهة كلِّ واحد منهم مكتوبٌ

(١) في النسخ: أبطنوا، والمثبت من الصحاح، والكلام منه.
(٢) الصحاح (ضغن)، والرجز أيضاً في غريب الحديث لأبي عبيد ٤/ ١٩٣ .
(٣) هذه رواية الصحاح، وفي ديوان ابن مقبل ص١٨٦ : (ثم اضطبنت) بدل (إذا اضطغنت). اضطبنت: أي: احتضنت، والمغرض: جانب البطن أسفل الأضلاع، ورئاس السيف: مقبضه، وشسفَ، أي: يبس من الضمر والهزال. اللسان (ضبن) (غرض) (رأس) (شسف).
(٤) تفسير البغوي ٤/ ١٨٥ بنحوه.
(٥) أخرجه الطبري في تفسيره ٢١/ ٢٢٢ .
(٦) تفسير الطبري ٢١/ ٢٢٢ .
(٧) تفسير البغوي ٤/ ١٨٥ ، والكشاف ٣/ ٥٣٧ .
(٨) في (ف): يشكوا الناس، وفي الكشاف ٣/ ٥٣٧ والكلام منه: يشكوهم الناس.

«هذا منافق» فذلك سيماهم[(١)].

وقال ابن زيد: قدَّر الله إظهارَهم، وأمر أن يُخرجوا من المسجد، فأبَوا إلا أن يتمسكوا بلا إله إلا الله، فحُقنت دماؤهم ونكحوا وأنكحوا بها[(٢)].

﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ﴾ أي: في فحواه ومعناه. ومنه قول الشاعر:

وخيرُ الكلام ما كان لَحْنا

أي: ما عُرف بالمعنى ولم يُصَرَّح به[(٣)].

مأخوذ من اللَّحن في الإعراب، وهو الذهابُ عن الصواب، ومنه قول النبيّ ﷺ: «إنَّكم تختصمون إليَّ، ولعلَّ بعضَكم أن يكون ألحنَ بحجته من بعض» أي: أذهبَ بها في الجواب لقوّته على تصريف الكلام[(٤)].

أبو زيد: لَحَنْتُ له ـ بالفتح ـ ألْحَنُ لَحْناً: إذا قُلْتَ له قوْلاً يفهمه عنك، ويخْفَى على غيره. ولَحِنَه هو عَنِّي ـ بالكسر ـ يلحَنه لَحْناً، أي: فهمه. وألحنته أنا إياه. ولاحنْتُ الناس: فاطنتُهم، قال الفزاريّ:

وحديثٍ ألَذُّهُ هو مِمّا ... يَنْعَت الناعِتُون يُوزَن وزْنَا

منطِقٌ رائعٌ وتَلْحَنُ أحيا ... ناً وخير الحديث ما كان لحنَا[(٥)]

يريد أنَّها تتكلم وهي تريد غيرَه، وتُعَرِّض في حديثها فتزيله عن جهته من فطنتها وذكائها. وقد قال تعالى: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ﴾. وقال القتَّال الكِلابيّ:

---

(١) الكشاف ٣/ ٥٣٧، وفيه (تسعة) بدل (سبعة).

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره ٢١/ ٢٢٣.

(٣) معاني القرآن للنحاس ٦/ ٤٨٥-٤٨٦، وفيه: (وخير الحديث) بدل (وخير الكلام)، والشعر لمالك بن أسماء الفزاري وسيأتي قريباً.

(٤) النكت والعيون ٥/ ٣٠٤-٣٠٥، والحديث سلف ٢/ ٢٧٤.

(٥) الصحاح (لحن) وهذه روايته، والبيت أيضاً في الشعر والشعراء ٢/ ٧٨٢، والأغاني ١٧/ ٢٣٦ وروايتهما فيه: (صائب) بدل (رائع)، و(أحلى) بدل (خير)، ووقع في الشعر والشعراء أيضاً (يشتهي) بدل (ينعت)، والفزاري قال ابن قتيبة: هو مالك بن أسماء بن خارجة، وآباؤه سادة غَطَفان.

ولقد وَحَيْتُ لكم لكيما تفهموا ولَحَنْتُ لحنًا ليس بالمرتابِ[١]

وقال مرار الأسدي:

ولحنتِ لحنًا فيه غشٌّ ورابني صدودُكِ تُرضين الوُشاةَ الأعادِيا

قال الكلبي: فلم يتكلم بعد نزولها عند النبيّ ﷺ منافق إلا عرفه[٢].

وقيل: كان المنافقون يخاطبون النبيَّ ﷺ بكلام تواضعوه فيما بينهم، والنبيُّ ﷺ يسمع ذلك ويأخذ بالظاهر المعتاد، فنبهه الله تعالى عليه، فكان بعد هذا يعرف المنافقين إذا سمع كلامَهم.

قال أنس: فلم يَخْفَ منافقٌ بعد هذه الآية على رسول الله ﷺ؛ عَرّفه الله ذلك بوحي أو علامة عرَفها بتعريف الله إياه[٣].

﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ أي: لا يخفى عليه شيء منها.

قوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ﴾ أي: نتعبّدكم بالشرائع وإن علمنا عواقبَ الأمور، وقيل: لنعاملنّكم معاملة المختبرين[٤].

﴿حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ﴾ عليه. قال ابن عباس: «حَتَّى نَعْلَمَ»: حتى نميّز. وقال عليّ ﷺ: «حَتَّى نَعْلَمَ»: حتى نرى. وقد مضى في «البقرة»[٥].

---

(١) الصحاح (لحن) وهذه روايته، وهو في ديوان القتّال الكلابي ص٣٦ برواية:

ولقد لحنت لكم لكيما تفقهوا ووحيت وحياً ليس بالمرتاب

والقتّال الكِلابي: هو عبد الله بن مُجيب بن المضرحيّ، شاعر فارس. المؤتلف والمختلف للآمدي ص٢٥٢.

(٢) النكت والعيون ٥/ ٣٠٥، والبيت السالف فيه.

(٣) تفسير البغوي ٤/ ١٨٥، والكشاف ٣/ ٥٣٧.

(٤) تفسير البغوي ٤/ ١٨٥.

(٥) ٢/ ٤٣٧ - ٤٣٨.

وقراءة العامة بالنون في «نَبْلُونَّكُمْ» و«نعلم» «وَنَبْلُوَ». وقرأ أبو بكر عن عاصم بالياء فيهنّ. وروى رُوَيس عن يعقوب إسكانَ الواو من «نبلو» على القطع مما قبل. ونصب الباقون ردًّا على قوله: «حَتَّى نَعْلَمَ[١]».

وهذا العِلمُ هو العِلمُ الذي يقع به الجزاء؛ لأنَّه إنَّما يجازيهم بأعمالهم لا بعلمه القديم عليهم. فتأويله: حتى نعلمَ المجاهدين علمَ شهادة؛ لأنَّهم إذا أمروا بالعمل يشهد منهم ما عملوا، فالجزاءُ بالثواب والعقاب يقع على علم الشهادة[٢]. ﴿وَنَبْلُوَا أَخْبَارَكُمْ﴾: نختبرها ونظهرها.

قال إبراهيم بن الأشعث: كان الفُضيل بن عياض إذا قرأ هذه الآية بكى وقال: اللهم لا تبتلنا[٣]؛ فإنَّك إذا بلوتنا فضحْتَنا وهتكْتَ أستارَنا[٤].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّوا۟ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٣٢﴾﴾

يرجع إلى المنافقين أو إلى اليهود[٥].

وقال ابن عباس: هم المطعِمون يوم بدر. نظيرها: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الأنفال: ٣٦] الآية[٦].

﴿وَشَآقُّوا۟ ٱلرَّسُولَ﴾ أي: عادوه وخالفوه. ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ﴾ أي: علموا أنه نبيّ بالحُجج والآيات. ﴿لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾ بكفرهم. ﴿وَسَيُحْبِطُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ أي: ثوابَ ما عملوه[٧].

---

(١) السبعة ص٦٠١، والتيسير ص٢٠١، والنشر ٢/ ٣٧٥. والكلام بنحوه في المحرر الوجيز ٥/ ١٢١.
(٢) معاني القرآن للزجاج ٥/ ١٦ بنحوه.
(٣) المثبت من (ظ)، وفي غيرها: لا تبتلينا.
(٤) الكشاف ٣/ ٥٣٨، والمحرر الوجيز ٥/ ١٢١ دون ذكر إبراهيم بن الأشعث.
(٥) المحرر الوجيز ٥/ ١٢١.
(٦) تفسير البغوي ٤/ ١٨٦.
(٧) تفسير أبي الليث ٣/ ٢٤٧.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَٰلَكُمْ ٣٣﴾

فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ لمَّا بيَّن حال الكفار، أمر المؤمنين بلزوم الطاعة في أوامره، والرسولِ في سننه.

﴿وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ أي: حسناتِكم بالمعاصي. قاله الحسن. وقال الزُّهْرِي: بالكبائر. ابن جريج: بالرِّياء والسُّمعة[1]. وقال مقاتل والثُّمَاليّ: بالمَنّ[2]؛ وهو خطاب لمن كان يمنّ على النبيّ ﷺ بإسلامه. وكلُّه متقارب، وقول الحسن يجمعه.

وفيه إشارة إلى أنَّ الكبائرَ تحبط الطاعات، والمعاصي تُخرِج عن الإيمان[3].

الثانية: احتج علماؤنا وغيرُهم بهذه الآية على أنَّ التحللَ من التطوّع ـ صلاةً كان أو صوماً ـ بعد التلبس به لا يجوز؛ لأنَّ فيه إبطالَ العمل، وقد نهى الله عنه. وقال من أجاز ذلك ـ وهو الإمام الشافعي وغيرُه ـ: المراد بذلك إبطالُ ثواب العمل المفروض، فنهى الرجل عن إحباط ثوابه. فأمّا ما كان نفلاً فلا؛ لأنَّه ليس واجباً عليه. فإن زعموا أنَّ اللفظ عام، فالعامّ يجوز تخصيصه. ووجه تخصيصه أنَّ النَّفلَ تطوّع، والتطوّع يقتضي تخييراً[4].

وعن أبي العالية: كانوا يرون أنه لا يضر مع الإسلام ذنب، حتى نزلت هذه الآية فخافوا الكبائر أن تُحبط الأعمال. وقال مقاتل: يقول الله تعالى إذا عصيتم الرسول فقد أبطلتم أعمالكم[5].

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٣٠٦ .

(٢) زاد المسير ٧/ ٤١٢ دون نسبة.

(٣) الكشاف ٣/ ٥٣٨ - ٥٣٩ بنحوه، وهذا كلام المعتزلة، ومذهب أهل السنة أن المعاصي لا تبطل الحسنات، ولا تُخرج صاحبها عن الإيمان، غير أن من أصرَّ عليها خيف عليه أن يرين على قلبه، فيخرجه من الإيمان. وينظر روح المعاني ٢٦/ ٧٩ - ٨٠ ، والداء والدواء ص١٠٣-١٠٥ .

(٤) أحكام القرآن للكيا الطبري ٤/ ٣٧٥ .

(٥) لفظ قول مقاتل في تفسير البغوي ٤/ ١٨٦ : «لا تَمُنُّوا على رسول الله ﷺ؛ فتبطلوا أعمالكم». وذكر قول أبي العالية بنحوه أيضاً الواحدي في الوسيط ٤/ ١٢٩ ، وأبو الليث في تفسيره ٣/ ٢٤٧ .

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ﴿٣٤﴾﴾

بيّن أنَّ الاعتبارَ بالوفاة على الكفر يوجبُ الخلودَ في النار. وقد مضى في «البقرة» الكلام فيه[١]. وقيل: إنَّ المرادَ بالآية أصحابُ القليب. وحكمها عام[٢].

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَهِنُوا۟ وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٥﴾﴾

فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿فَلَا تَهِنُوا۟﴾ أي: تضعفوا عن القتال[٣].

والوَهْن: الضعف. وقد وَهَن الإنسانُ وَوَهَنَهُ غيره، يتعدّى ولا يتعدَّى. قال:

إنَّـنـي لـسْـتُ بـمـوهـونٍ فَـقِـرْ[٤]

ووَهِن أيضاً ـ بالكسر ـ وَهْنًا، أي: ضعف[٥].

وقرىء: «فما وَهُنُوا» بضم الهاء وكسرها. وقد مضى في «آل عمران»[٦].

الثانية: قوله تعالى: ﴿وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ﴾ أي: الصُّلح .﴿وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ﴾ أي: وأنتم أعلمُ بالله منهم. وقيل: وأنتم الأعلون في الحجة[٧]. وقيل: المعنى: وأنتم الغالبون لأنّكم مؤمنون وإن غلبوكم في الظاهر في بعض الأحوال[٨].

---

(١) ٣/ ٤٣٠ .

(٢) الكشاف ٣/ ٥٣٩ ، والقليب: البئر ، والمراد: قليب بدر. النهاية (قلب).

(٣) أحكام القرآن للجصاص ٣/ ٣٩٣ .

(٤) عجز بيت لطرفة وصدره: وإذا تلسُنُني ألسُنها، وهو في ديوانه ص٥٣ ، والكلام في الصحاح (وهن).

(٥) الصحاح (وهن).

(٦) ٥/ ٣٥٣ ، ولم نقف على من قرأ «وهُنوا» بضم الهاء.

(٧) تفسير أبي الليث ١/ ٣٠١ .

(٨) تفسير البغوي ٤/ ١٨٦ .

وقال قتادة: لا تكونوا أوّلَ الطائفتين ضرعتْ إلى صاحبتها[١].

الثالثة: واختلف العلماء في حكمها؛ فقيل: إنها ناسخة لقوله تعالى: ﴿وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا﴾ [الأنفال: ٦١] لأنَّ الله تعالى منع من المَيْل إلى الصلح إذا لم يكن بالمسلمين حاجةٌ إلى الصلح. وقيل: منسوخة بقوله تعالى: ﴿وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا﴾ [الأنفال: ٦١]. وقيل: هي محكمة. والآيتان نزلتا في وقتين مختلفي الحال. وقيل: إنَّ قوله: «وإنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا» مخصوص في قوم بأعيانهم، والأخرى عامة[٢].

فلا يجوز مهادنة الكفار إلا عند الضرورة؛ وذلك إذا عجزنا عن مقاومتهم لضعف المسلمين[٣]. وقد مضى هذا المعنى مستوفى[٤].

﴿وَٱللَّهُ مَعَكُمْ﴾ أي: بالنَّصر والمعونة[٥]؛ مثل: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

﴿وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ أي: لن ينقصَكم؛ عن ابن عباس وغيره[٦].

ومنه الموتور الذي قُتِل له قتيل فلم يدرك بدمه، تقول منه: وَتَرَه يَتِره وتْرًا وَتِرَةً[٧].

ومنه قوله عليه الصلاة والسلام: «من فاتته صلاةُ العصر فكأنَّما وُتِرَ أهلَه ومالَه» أي: ذُهب بهما[٨].

---

(١) الكشاف ٣/ ٥٣٩، وفيه: ضرعت إلى صاحبتها بالموادعة. وأخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ٢٢٤.

(٢) الناسخ والمنسوخ للنحاس ٣/ ١٣، وينظر ٢/ ٣٨٥ منه.

(٣) أحكام القرآن للكيا الطبري ٤/ ٣٧٥.

(٤) ١٠/ ٦٢ فما بعدها.

(٥) تفسير البغوي ٤/ ١٨٦.

(٦) النكت والعيون ٥/ ٣٠٦ عن مجاهد وقطرب، وقول مجاهد في تفسيره ٢/ ٥٩٩.

(٧) الصحاح (وتر).

(٨) أخرجه أحمد (٦٣٢٤)، والبخاري (٥٥٢)، ومسلم (٦٢٦): (٢٠١) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

وكذلك وَتَرَهُ حقّه أي: نقصه. وقوله تعالى: ﴿وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ أي: لن ينتقصكم في أعمالكم، كما تقول: دخلتُ البيت؛ وأنت تريد في البيت. قاله الجوهريّ[١].

الفرّاء: «وَلَنْ يَتِرَكُمْ» هو مشتقٌّ من الوتر، وهو الفرد؛ فكان المعنى: ولن يفردكم بغير ثواب[٢].

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ﴿٣٦﴾ إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا۟ وَيُخْرِجْ أَضْغَٰنَكُمْ ﴿٣٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ تقدّم في «الأنعام»[٣]. ﴿وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ﴾ شرط، وجوابه. ﴿وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ﴾ أي: لا يأمركم بإخراج جميعها في الزكاة؛ بل أمر بإخراج البعض. قاله ابن عُيينة وغيره[٤].

وقيل: «لا يَسْأَلْكم أموالَكم» لنفسه[٥] أو لحاجة منه إليها، إنَّما يأمركم بالإنفاقِ في سبيله؛ ليرجع ثوابُه إليكم.

وقيل: «لَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ» إنَّما يسألكم أمواله؛ لأنَّه أملَكُ[٦] لها، وهو المنعم بإعطائها[٧].

وقيل: ولا يسألكم محمدٌ أموالَكم أجراً على تبليغ الرسالة. نظيره: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ [الفرقان: ٥٧] الآية. ﴿إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ﴾: يلحّ عليكم.

---

(١) في الصحاح (وتر).

(٢) المحرر الوجيز ٥/ ١٢٢ دون نسبة. وقال: والأول أصح.

(٣) ٨/ ٣٦٠ - ٣٦١ .

(٤) تفسير البغوي ٤/ ١٨٦ ، والمحرر الوجيز ٥/ ١٢٣ بنحوه عن ابن عيينة.

(٥) النكت والعيون ٥/ ٣٠٦ .

(٦) في (م): المالك.

(٧) النكت والعيون ٥/ ٣٠٧ .

يقال: أحفى بالمسألة وألحف وألحّ بمعنًى واحد. والحَفيّ المستقصِي في السؤال، وكذلك الإحفاء الاستقصاء في الكلام والمنازعة. ومنه أحفى شاربَه؛ أي: استقصى في أخذه[١].

﴿تَبۡخَلُواْ وَيُخۡرِجۡ أَضۡغَٰنَكُمۡ﴾ أي: يخرج البخل أضغانَكم.

قال قتادة: قد علم الله أنّ في سؤال المال خروجَ الأضغان[٢].

وقرأ ابن عباس ومجاهد وابن مُحَيصِن وحميد: «وتَخْرُجُ» بتاء مفتوحة وراء مضمومة. «أضْغَانُكُمْ» بالرفع لكونه الفاعل[٣]. وروى الوليدُ عن يعقوب الحضرميّ «ونخرج» بالنون[٤]. وأبو معمر عن عبد الوارث عن أبي عمرو: «ويخرج» بالرفع في الجيم على القطع والاستئناف[٥]، والمشهور عنه: «ويُخْرِجْ» كسائر القرّاء، عطف على ما تقدّم.

قوله تعالى: ﴿هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ تُدۡعَوۡنَ لِتُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبۡخَلُۖ وَمَن يَبۡخَلۡ فَإِنَّمَا يَبۡخَلُ عَن نَّفۡسِهِۦۚ وَٱللَّهُ ٱلۡغَنِيُّ وَأَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُۚ وَإِن تَتَوَلَّوۡاْ يَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمۡثَٰلَكُم ٣٨﴾

قوله تعالى: ﴿هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ تُدۡعَوۡنَ﴾ أي: هأنتم هؤلاء أيُّها المؤمنون تُدعون ﴿لِتُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: في الجهاد وطريق الخير. ﴿فَمِنكُم مَّن يَبۡخَلُۖ وَمَن يَبۡخَلۡ فَإِنَّمَا يَبۡخَلُ عَن نَّفۡسِهِۦۚ﴾ أي: على نفسه؛ أي: يمنعها الأجرَ والثواب. ﴿وَٱللَّهُ ٱلۡغَنِيُّ﴾ أي: إنَّه ليس بمُحتاجٍ إلى أموالكم. ﴿وَأَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُۚ﴾ إليها.

---

(١) الصحاح (حفا).

(٢) تفسير أبي الليث ٣/٢٤٨، والوسيط ٤/١٣٠، وأخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٢/٢٢٤.

(٣) القراءات الشاذة ص١٤١، والبحر المحيط ٨/٨٦.

(٤) البحر المحيط ٨/٨٦، وذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص١٤١ عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٥) المحتسب ٢/٢٧٣، والقراءات الشاذة ص١٤١.

﴿وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ أي: أطوعَ لله منكم[١].

روى الترمذي[٢] عن أبي هريرة قال: تلا رسولُ الله ﷺ هذه الآية: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَٰلَكُم﴾ قالوا: ومن يُستبدل بنا؟ قال: فضرب رسولُ الله ﷺ على منكِب سلمان ثم قال: «هذا وقومُه. هذا وقومُه» قال: حديث غريب في إسناده مقال.

وقد روى عبد الله بن جعفر بن نجيح والد علي بن المديني أيضاً هذا الحديث عن العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبي هريرة قال: قال أناس من أصحاب رسول الله ﷺ: يا رسول الله، مَنْ هؤلاء الذين ذكر اللهُ إنْ تَوَلَّينا استُبدلوا، ثمَّ لا يكونوا أمثالَنا؟ قال: وكان سلمانُ جنبَ رسول الله ﷺ قال: فضرب رسولُ الله ﷺ فخذَ سلمان، قال: «هذا وأصحابُه. والذي نفسي بيدِه لو كان الإيمانُ مَنُوطًا بالثُّرَيَّا لتناولَه رجالٌ من فارس»[٣].

وقال الحسن: هم العجم. وقال عكرمة: هم فارس والروم[٤]. قال المحاسبيّ: فلا أحد بعد العرب من جميعِ أجناسِ الأعاجم أحسنُ دِيناً، ولا كانت العلماءُ منهم إلا الفرس.

وقيل: إنَّهم اليمن، وهم الأنصار. قاله شريح بن عبيد[٥]. وكذا قال ابن عباس:

---

(١) تفسير أبي الليث ٣/ ٢٤٨ .

(٢) في سننه (٣٢٦٠).

(٣) سنن الترمذي (٣٢٦١)، وهو في صحيح ابن حبان (٧١٢٣) من طريق مسلم بن خالد عن العلاء...

وأخرجه البخاري (٤٨٩٧)، ومسلم (٢٥٤٦) (٢٣١) بلفظ: «... فوضع يده على سلمان ثم قال: «لو كان الإيمان عند الثريا، لَنَالهُ رجال من هؤلاء».

وأخرجه أحمد (٨٠٨١)، ومسلم (٢٥٤٦) (٢٣٠) بلفظ: «لو كان الدين عند الثريا، لذهب به رجل من فارس ـ أو قال ـ من أبناء فارس».

(٤) تفسير البغوي ٤/ ١٨٧ ، والكشاف ٣/ ٥٤٠ .

(٥) النكت والعيون ٥/ ٣٠٧ .

هم الأنصار[١]. وعنه: أنَّهم الملائكة[٢]. وعنه: هم التابعون. وقال مجاهد: إنَّهم من شاء من سائر الناس[٣].

﴿ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمۡثَٰلَكُم﴾ قال الطبريّ: أي: في البُخل بالإنفاق في سبيل الله. وحُكي عن أبي موسى الأشعريّ أنَّه لمّا نزلت هذه الآيةُ، فرح بها رسولُ الله ﷺ وقال: «هي أحبُّ إليَّ من الدنيا»[٤]. والله أعلم.

ختمت السورةُ بحمد الله وعونه، وصلَّى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه الأطهار.

---

(١) نسبه ابن الجوزي في زاد المسير ٧/٤١٦ لمقاتل.

(٢) معاني القرآن للزجاج ٥/١٧ دون نسبة.

(٣) زاد المسير ٧/٤١٦ .

(٤) النكت والعيون ٥/٣٠٨ .

تفسير سورة القتال

[وهى مدنية](١) .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ (١) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ (٢) ذَٰلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ (٣)﴾ .

يقول تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أى: بآيات الله، ﴿وَصَدُّوا﴾ غيرهم ﴿عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ أى: أبطلها وأذهبها، ولم يجعل لها جزاء ولا ثوابا، كقوله تعالى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣].

ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أى: آمنت قلوبهم وسرائرهم، وانقادت جوارحهم وبواطنهم وظواهرهم، ﴿وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ﴾، عطف خاص على عام، وهو دليل على أنه شرط فى صحة الإيمان بعد بعثته صلوات الله وسلامه عليه.

وقوله: ﴿وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ جملة معترضة حسنة؛ ولهذا قال: ﴿كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ قال ابن عباس: أى أمرهم. وقال مجاهد: شأنهم. وقال قتادة وابن زيد: حالهم. والكل متقارب. وقد جاء فى حديث تشميت العاطس: «يهديكم الله، ويصلح بالكم»(٢).

ثم قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ﴾ أى: إنما أبطلنا أعمال الكفار، وتجاوزنا عن سيئات الأبرار، وأصلحنا شؤونهم؛ لأن الذين كفروا اتبعوا الباطل، أى: اختاروا الباطل على الحق، ﴿وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ﴾ أى: يبين لهم مآل أعمالهم، وما يصيرون إليه فى معادهم.

﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم

(١) زيادة من ت، م، أ.

(٢) رواه أبو داود فى السنن برقم (٥٠٣٨)، والترمذى فى السنن برقم (٢٧٣٩)، وابن ماجه فى السنن برقم (٣٧١٥)، وقال الترمذى: «هذا حديث حسن صحيح».

بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿٤﴾ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴿٦﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿٨﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴿٩﴾ ﴾.

يقول تعالى مرشدا للمؤمنين إلى ما يعتمدونه فى حروبهم مع المشركين: ﴿**فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ**﴾ أى: إذا واجهتموهم فاحصدوهم حصدا بالسيوف، ﴿**حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا**﴾ أى: أهلكتموهم قتلا ﴿**فَشُدُّوا**﴾ [وثاق][1] الأسارى الذين تأسرونهم، ثم أنتم بعد انقضاء الحرب وانفصال المعركة مخيرون فى أمرهم، إن شئتم مننتم عليهم فأطلقتم أساراهم مجانا، وإن شئتم فاديتموهم بمال تأخذونه منهم وتشارطونهم عليه. والظاهر أن هذه الآية نزلت بعد وقعة بدر، فإن الله، سبحانه، عاتب المؤمنين على الاستكثار من الأسارى يومئذ ليأخذوا منهم الفداء، والتقلّل من القتل يومئذ فقال: ﴿**مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ[2] لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ. لَّوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ**﴾ [الأنفال: ٦٧، ٦٨].

ثم قد ادعى بعض العلماء أن هذه الآية ـ المخيرة بين مفاداة الأسير والمن عليه ـ منسوخة بقوله تعالى: ﴿**فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ [وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ][3]**﴾الآية [التوبة: ٥]، رواه العوفى عن ابن عباس. وقاله قتادة، والضحاك، والسدى، وابن جُرَيْج.

وقال الآخرون ـ وهم الأكثرون ـ: ليست منسوخة.

ثم قال بعضهم: إنما الإمام مُخَيَّر بين المن على الأسير ومفاداته فقط، ولا يجوز له قتله.

وقال آخرون منهم: بل له أن يقتله إن شاء، لحديث قتل النبى ﷺ النضر بن الحارث وعقبة بن أبى مُعَيط من أسارى بدر، وقال ثمامة بن أثال لرسول الله ﷺ حين قال له: «ما عندك يا ثمامة؟» فقال: إن تَقْتُلْ تَقْتُلْ ذا دمٍ، وإن تمنن تمنن على شاكر، وإن كنت تريد المال فَسَلْ تعطَ منه ما شئت[4].

وزاد الشافعى، رحمه الله، فقال: الإمام مخير بين قتله أو المن عليه، أو مفاداته أو استرقاقه أيضا. وهذه المسألة مُحَرَّرة فى علم الفروع، وقد دللنا على ذلك فى كتابنا «الأحكام»، ولله الحمد والمنة.

وقوله: ﴿**حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا**﴾: قال مجاهد: حتى ينزل عيسى ابن مزيم [عليه

---

(١) زيادة من ت، أ. (٢) فى ت، م: «تكون». (٣) زيادة من أ.

(٤) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٤٣٧٢) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه.

السلام][١]. وكأنه أخذه من قوله ﷺ: «لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق حتى يقاتل آخرهم الدجال»[٢].

وقال الإمام أحمد: حدثنا الحكم بن نافع، حدثنا إسماعيل بن عياش، عن إبراهيم بن سليمان، عن الوليد بن عبد الرحمن الجُرَشى[٣]، عن جُبَير بن نُفَير؛ أن سلمة بن نُفَيل أخبرهم: أنه أتى رسول الله ﷺ فقال: إنّى سَيَّبْتُ الخيل، وألقيت السلاح، ووضعت الحرب أوزارها، وقلت: «لا قتال» فقال له النبى ﷺ: «الآن جاء القتال، لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الناس يُزيغ[٤] الله قلوب أقوام فيقاتلونهم: ويرزقهم الله[٥] منهم، حتى يأتى أمر الله وهم على ذلك. ألا إن عُقْرَ دار المؤمنين الشام، والخيلُ معقود فى نواصيها الخير إلى يوم القيامة».

وهكذا رواه النسائى من طريقين، عن جُبَيْر بن نُفَير، عن سلمة بن نُفَيْل السكونى، به[٦].

وقال أبو القاسم البغوى: حدثنا داود بن رُشَيْد، حدثنا الوليد بن مسلم، عن محمد بن مهاجر عن الوليد بن عبد الرحمن الجُرَشى، عن جبير بن نُفَير، عن النواس بن سمعان قال: لما فتح على رسول الله ﷺ فَتْح فقالوا: يا رسول الله، سيبت الخيل، ووضعت السلاح، ووضعت الحرب أوزارها، قالوا: لا قتال، قال: «كذبوا، الآن، جاء القتال، لا يزال الله يُرَفِّع[٧] قلوب قوم يقاتلونهم، فيرزقهم منهم، حتى يأتى أمر الله وهم على ذلك، وعُقْر دار المسلمين بالشام».

وهكذا رواه الحافظ أبو يعلى الموصلى عن داود بن رُشَيْد، به[٨]. والمحفوظ أنه من رواية سلمة ابن نُفَيْل كما تقدم. وهذا يقوى القول بعدم النسخ، كأنه شرع هذا الحكم فى الحرب إلى ألاّ يبقى حرب.

وقال قتادة: ﴿حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾: حتى لا يبقى شرك. وهذا كقوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ﴾[البقرة: ١٩٣]. ثم قال بعضهم: ﴿حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ أى: أوزار المحاربين، وهم المشركون، بأن يتوبوا إلى الله عز وجل. وقيل: أوزار أهلها[٩] بأن يبذلوا الوسع فى طاعة الله، عز وجل.

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ﴾ أى: هذا ولو شاء الله لانتقم من الكافرين بعقوبة ونكَال من عنده، ﴿وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾ أى: ولكن شرع لكم الجهاد وقتال الأعداء ليختبركم، ويبلو أخباركم. كما ذكر حكمته فى شرعية الجهاد فى سورتى «آل عمران» و«براءة» فى قوله: ﴿أَمْ

(١) زيادة من ت.
(٢) رواه أبو داود فى السنن برقم (٢٤٨٤) من حديث عمران بن حصين رضى الله عنه.
(٣) فى ت: «وروى الإمام أحمد بإسناده». (٤) فى أ: «يرفع». (٥) فى أ: «قاتلونهم ويرزقه الله».
(٦) المسند (٤/ ١٠٤) وسنن النسائى (٦/ ٢١٤).
(٧) فى أ: «يرفع».
(٨) ورواه ابن حبان فى صحيحه برقم (١٦١٧) «موارد» من طريق أبى يعلى عن داود بن رشيد به، ورواه النسائى فى السنن (٦/ ٢١٤) من طريق إبراهيم بن أبى عبلة، عن الوليد بن عبد الرحمن الجرشى، عن جبير بن نفير عن سلمة بن نفيل مرفوعًا بنحوه.
(٩) فى ت، أ: «وقيل: أوزارها».

حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٢].

وقال في سورة براءة: ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ . وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ١٤، ١٥].

ثم لما كان من شأن القتال أن يُقتل كثيرٌ من المؤمنين، قال: ﴿وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ أى: لن يذهبها بل يكثرها وينميها ويضاعفها. ومنهم من يجرى عليه عمله فى طول بَرْزَخه، كما ورد بذلك الحديث الذى رواه الإمام أحمد فى مسنده، حيث قال:

حدثنا زيد بن يحيى الدمشقى، حدثنا ابن ثَوْبان، عن أبيه، عن مكحول، عن كثير بن مُرَّة[(١)]، عن قيس الجذامى ـ رجل كانت له صحبة ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «يعطى الشهيد ست خصال عند أول قطرة من دمه: يُكَفَّر عنه كل خطيئة، ويرى مقعده من الجنة، ويزوج من الحور العين، ويُؤَمَّن من الفزع الأكبر، ومن عذاب القبر، ويحلى حُلَّة[(٢)] الإيمان»[(٣)]. تفرد[(٤)] به أحمد، رحمه الله.

حديث آخر: قال أحمد[(٥)] أيضا: حدثنا الحكم بن نافع، حدثنا إسماعيل بن عياش، عن بَحِير[(٦)] ابن سعيد، عن خالد بن مَعْدان، عن المقدام بن معد يكرب الكندى قال: قال رسول الله ﷺ: «إن للشهيد عند الله ست خصال: أن يغفر له فى أول دَفْعَة من دمه، ويرى مقعده من الجنة، ويحلى حُلَّة[(٧)] الإيمان، ويزوج من الحور العين، ويجار من عذاب القبر، ويأمَن من الفزع الأكبر، ويوضع على رأسه تاج الوقار، الياقوتة منه خير من الدنيا وما فيها، ويزوج اثنتين وسبعين زوجة من الحور العين، ويُشَفَّع فى سبعين إنسانا من أقاربه».

وقد أخرجه الترمذى وصححه ابن ماجه[(٨)].

وفى صحيح مسلم عن عبد الله بن عَمْرو، وعن أبى قتادة؛ أن رسول الله ﷺ قال: «يُغفر للشهيد كل شىء إلا الدَّيْن»[(٩)]. وروى من حديث جماعة من الصحابة، وقال أبو الدرداء: قال رسول الله ﷺ: «يشفع الشهيد فى سبعين من أهل بيته». ورواه أبو داود[(١٠)]. والأحاديث فى فضل الشهيد[(١١)] كثيرة جدا.

وقوله: ﴿سَيَهْدِيهِمْ﴾ أى: إلى الجنة، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ [يونس: ٩].

---

(١) فى ت: «أحمد بإسناده». (٢) فى أ: «بحلة».
(٣) المسند (٤/ ٢٠٠) قال الهيثمى فى المجمع (٥/ ٢٩٣): «فيه عبد الرحمن بن ثابت بن ثوبان، وثقه أبو حاتم وجماعة وضعفه جماعة».
(٤) فى ت: «انفرد». (٥) فى ت: «وروى أحمد». (٦) فى م، أ: «يحيى».
(٧) فى ت، م، أ: «حلية».
(٨) المسند (٤/ ١٣١)، وسنن الترمذى برقم (١٦٦٣)، وسنن ابن ماجه برقم (٢٧٩٩).
(٩) صحيح مسلم برقم (١٨٨٦).
(١٠) سنن أبى داود برقم (٢٥٢٢).
(١١) فى ت، م: «الشهداء».

وقوله: ﴿وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ﴾ أى: أمرهم وحالهم، ﴿وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾ أى: عرفهم بها وهداهم إليها.

قال مجاهد: يهتدى أهلها إلى بيوتهم ومساكنهم، وحيث قسم الله لهم منها، لا يخطئون كأنهم ساكنوها منذ خلقوا، لا يستدلون عليها أحدا. وروى مالك عن ابن زيد بن أسلم نحو هذا.

وقال محمد بن كعب: يعرفون بيوتهم إذا دخلوا الجنة، كما تعرفون بيوتكم إذا انصرفتم من الجمعة.

وقال مقاتل بن حَيَّان: بلغنا أن الملك الذى كان وُكِل بحفظ عمله فى الدنيا يمشى بين يديه فى الجنة، ويتبعه ابن آدم حتى يأتى أقصى منزل هو له، فيعرِّفه كلّ شىء أعطاه الله فى الجنة، فإذا انتهى إلى أقصى منزله فى الجنة دخل [إلى](١) منزله وأزواجه، وانصرف الملك عنه، ذكرهن(٢) ابن أبى حاتم، رحمه الله.

وقد ورد الحديث الصحيح بذلك أيضا، رواه البخارى من حديث قتادة، عن أبى المتوكل الناجى، عن أبى سعيد الخدرى [رضى الله عنه](٣)؛ أن رسول الله ﷺ قال: «إذا خلص المؤمنون من النار حبسوا بقنطرة بين الجنة والنار، يتقاصّون مظالم كانت بينهم فى الدنيا، حتى إذا هُذّبوا ونقوا أذن لهم فى دخول الجنة، والذى نفسى بيده، إن أحدهم بمنزله فى الجنة أهدى منه بمنزله كان فى الدنيا»(٤).

ثم قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾، كقوله: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ﴾ [الحج: ٤٠]، فإن الجزاء من جنس العمل؛ ولهذا قال: ﴿وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾، كما جاء فى الحديث: «من بَلّغ ذا سلطان حاجة مَنْ لا يستطيع إبلاغها، ثبت الله قدمه على الصراط يوم القيامة».

ثم قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَّهُمْ﴾، عكس تثبيت الأقدام للمؤمنين الناصرين لله ولرسوله ﷺ. وقد ثبت فى الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: «تَعِس عبد الدينار، تعس عبد الدرهم، تعس عبد القَطِيفة ـ [وفى رواية: تعس عبد الخميصة](٥) ـ تعِس وانتكس، وإذا شيكَ فلا انتقش»، أى: فلا شفاه الله.

وقوله: ﴿وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ أى: أحبطها وأبطلها؛ ولهذا قال: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ أى: لا يريدونه ولا يحبونه، ﴿فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾.

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ

---

(١) زيادة من ت، م، أ. (٢) فى ت: «ذكر هذا». (٣) زيادة من ت.
(٤) صحيح البخارى برقم (٦٥٣٥).
(٥) زيادة من ت، أ.

وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا (١٠) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لا مَوْلَىٰ لَهُمْ (١١) إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ (١٢) وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلا نَاصِرَ لَهُمْ (١٣)﴾ .

يقول تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا﴾ يعني: المشركين بالله المكذبين لرسوله ﴿فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ أى: عاقبهم بتكذيبهم وكفرهم، أى: ونجى المؤمنين من بين أظهرهم؛ ولهذا قال: ﴿وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا﴾، ثم قال: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾، ولهذا قال أبو سفيان صخرُ بن حرب رئيس المشركين يوم أحد حين سأل عن النبى ﷺ، وعن أبى بكر وعمر فلم يجب، وقال: أما هؤلاء فقد هلكوا، وأجابه عمر بن الخطاب فقال: كذبت يا عدو الله، بل أبقى الله لك ما يسوؤك، وإن الذين عَدَدت لأحياء [كلهم][(١)]. فقال أبو سفيان: يوم بيوم بدر، والحرب سِجال، أما إنكم ستجدون مُثْلَةً لم آمر بها ولم تسؤنى، ثم ذهب يرتجز ويقول: اعل هُبَل، اعل هُبَل. فقال رسول الله ﷺ: «ألا تجيبوه؟» قالوا: يا رسول الله، وما نقول؟ قال: «قولوا: الله أعلى وأجلّ» ثم قال أبو سفيان: لنا العزى، ولا عُزّى لكم. فقال: «ألا تجيبوه؟» قالوا: وما نقول يا رسول الله؟ قال: «قولوا: الله مولانا ولا مولى لكم»[(٢)].

ثم قال [تعالى][(٣)]: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾ أى: يوم القيامة، ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الأَنْعَامُ﴾ أى: فى دنياهم، يتمتعون بها ويأكلون منها كأكل الأنعام، خَضْما وقضما ليس لهم همة إلا فى ذلك. ولهذا ثبت فى الصحيح: «المؤمن يأكل فى معىً واحد، والكافر يأكل فى سبعة أمعاء»[(٤)].

ثم قال: ﴿وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ أى: يوم جزائهم.

وقوله: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ﴾ يعنى: مكة، ﴿أَهْلَكْنَاهُمْ فَلا نَاصِرَ لَهُمْ﴾، وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد لأهل مكة، فى تكذيبهم لرسول الله ﷺ، وهو سيد المرسلين[(٥)] وخاتم الأنبياء، فإذا كان الله، عز وجل، قد أهلك الأمم الذين كذبوا الرسل قبله، بسببهم، وقد كانوا أشد قوة من هؤلاء، فماذا ظن هؤلاء أن يفعل الله بهم فى الدنيا والأخرى؟ فإن رفع عن كثير منهم العقوبة فى الدنيا لبركة وجود الرسول نبى الرحمة، فإن العذاب يوفر على

(١) زيادة من أ.
(٢) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٤٠٤٣) من حديث البراء رضى الله عنه.
(٣) زيادة من أ.
(٤) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٥٣٩٣)، ومسلم فى صحيحه برقم (٢٠٦٠) من حديث عبد الله بن عمر رضى الله عنهما.
(٥) فى ت: «الرسل».

الكافرين به فى معادهم، ﴿يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ﴾ [هود: ٢٠].

وقوله: ﴿مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ﴾ أى: الذين أخرجوك من بين أظهرهم.

وقال ابن أبى حاتم: ذكر أبى، عن محمد بن عبد الأعلى، عن المعتمر بن سليمان، عن أبيه، عن حَنَش[١]، عن عكرمة، عن ابن عباس: أن النبى[٢] ﷺ لما خرج من مكة إلى الغار أراه قال: التفت[٣] إلى مكة ـ وقال: «أنت أحب بلاد الله إلى الله، وأنت أحبّ بلاد الله إلىّ، ولو أن المشركين لم يخرجونى لم أخرج منك»[٤]. فأعدى الأعداء من عَدَا على الله فى حرمه، أو قتل غير قاتله، أو قتل بذُحُول الجاهلية، فأنزل الله على نبيه ﷺ: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلا نَاصِرَ لَهُمْ﴾

﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ (١٤) مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ (١٥)﴾.

يقول: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ﴾ أى: على بصيرة ويقين فى أمر الله ودينه، بما أنزل الله فى كتابه من الهدى والعلم، وبما جَبَله الله عليه من الفطرة المستقيمة، ﴿كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُم﴾ أى: ليس هذا، كهذا كقوله: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ﴾ [الرعد: ١٩]، وكقوله: ﴿لا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [الحشر: ٢٠].

ثم قال: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ﴾ :قال عكرمة: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ﴾ أى: نعتها[٥]: ﴿فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ﴾ قال ابن عباس، والحسن، وقتادة: يعنى غير متغير. وقال قتادة، والضحاك، وعطاء الخراسانى: غير منتن. والعرب تقول: أسِنَ الماء، إذا تَغَيَّر ريحه.

وفى حديث مرفوع أورده ابن أبى حاتم: ﴿غَيْرِ آسِنٍ﴾ يعنى: الصافى الذى لا كَدَر فيه.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا وَكِيع، عن الأعمش، عن عبد الله بن مُرَّة[٦]، عن مسروق قال: قال عبد الله: أنهار الجنة تُفَجَّر من جبل من مسك.

---

(١) فى ت: «وروى ابن أبى حاتم بسنده». (٢) فى ت: «أن رسول الله». (٣) فى ت، م: «وداراه».
(٤) ورواه الطبرى فى تفسيره (٢٦/ ٣١).
(٥) فى ت، م، أ: «نعيمها». (٦) فى ت: «وروى ابن أبى حاتم بسنده».

﴿ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ﴾ أى: بل فى غاية البياض والحلاوة والدسومة. وفى حديث مرفوع: «لم يخرج من ضُرُوع الماشية».

﴿ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ﴾ أى: ليست كريهة الطعم والرائحة كخمر الدنيا، بل [هى][1] حسنة المنظر والطعم والرائحة والفعل، ﴿ لا فِيهَا غَوْلٌ وَلا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾ [الصافات: ٤٧]، ﴿ لا يُصَدَّعُونَ عَنهَا وَلاَ يُنْزِفُونَ﴾ [الواقعة: ١٩]، ﴿ بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ ﴾ [الصافات: ٤٦]، وفى حديث مرفوع: «لم تعصرها الرجال بأقدامها».

[قوله][2]: ﴿ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ أى: وهو فى غاية الصفاء، وحسن اللون والطعم والريح، وفى حديث مرفوع: «لم يخرج من بطون النحل».

وقال[3] الإمام أحمد: حدثنا يزيد بن هارون، أخبرنا الجُريرى، عن حكيم بن معاوية، عن أبيه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «فى الجنة بحر اللبن، وبحر الماء، وبحر العسل، وبحر الخمر، ثم تشقق الأنهار منها بعد».

ورواه الترمذى فى «صفة الجنة»، عن محمد بن بَشار، عن يزيد بن هارون، عن سعيد بن إياس الجَريرى، به[4]. وقال: حسن صحيح.

وقال أبو بكر بن مردويه[5]: حدثنا أحمد بن محمد بن عاصم، حدثنا عبد الله بن محمد بن النعمان، حدثنا مسلم بن إبراهيم، حدثنا الحارث بن عبيد أبو قدامة الإيادى، حدثنا أبو عمران الجَوْنى، عن أبى بكر بن عبد الله بن قيس، عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «هذه الأنهار تَشْخُبُ من جنة عدن فى جَوْبَة، ثم تصدع بعد أنهارا»[6].

وفى الصحيح: «إذا سألتم الله فاسألوه الفردوس، فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة، ومنه تُفَجَّر أنهار الجنة، وفوقه عرش الرحمن»[7].

وقال الحافظ أبو القاسم الطبرانى: حدثنا مصعب بن إبراهيم بن حمزة الزبيرى، وعبد الله بن الصقر السكرى قالا: حدثنا إبراهيم بن المنذر الحزامى، حدثنا عبد الرحمن بن المغيرة، حدثنى عبد الرحمن بن عياش، عن دلهم بن الأسود بن عبد الله بن حاجب بن عامر بن المنتفق العقيلى، عن أبيه، عن عمه لقيط بن عامر، قال دلهم: وحدثنيه أيضا أبو الأسود، عن عاصم بن لقيط أن لقيط

---

(١) زيادة من ت، أ.

(٢) زيادة من ت.

(٣) فى ت: «وروى».

(٤) المسند (٥/٥) وسنن الترمذى برقم (٢٥٧١) ورواه أبو نعيم فى الحلية (٦/٢٠٤) عن طريق الجريرى به، وقال: «غريب عن الجريرى تفرد به عن حكيم».

(٥) فى ت: «وروى ابن مردويه».

(٦) ورواه أبو نعيم فى صفة الجنة برقم (٣١٤) من طريق معلى بن أسد عن الحارث بن عبيد به.

(٧) سبق تخريج الحديث عند تفسير الآية: ١٣٣ من سورة آل عمران.

ابن عامر خرج وافدا إلى رسول الله ﷺ، قلت: يا رسول الله، فعلام نطلع من الجنة؟ قال: «على أنهار عسل مصفى، وأنهار من خمر[١] ما بها صداع ولا ندامة، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه، وماء غير آسن، وفاكهة، لعمر إلهك ما تعلمون وخير من مثله، وأزواج مطهرة» قلت: يا رسول الله، أو لنا فيها أزواج مصلحات؟ قال: «الصالحات للصالحين، تلذونهن مثل لذاتكم فى الدنيا ويلذونكم، غير ألا توالد»[٢].

وقال أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبى الدنيا: حدثنا يعقوب بن عبيدة[٣]، عن يزيد بن هارون، أخبرنى الجريرى، عن معاوية بن قرة، عن أبيه[٤]، عن أنس بن مالك قال: لعلكم تظنون أن أنهار الجنة تجرى فى أخدود فى الأرض، والله إنها لتجرى سائحة على وجه الأرض، حافاتها قباب اللؤلؤ، وطينها المسك الأذْفَر[٥].

وقد رواه أبو بكر ابن مَرْدُويه، من حديث مهدى بن حكيم، عن يزيد بن هارون، به مرفوعا[٦].

وقوله: ﴿ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ ﴾، كقوله: ﴿ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ﴾ [الدخان: ٥٥]. وقوله: ﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾ [الرحمن: ٥٢].

وقوله: ﴿ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ أى: مع ذلك كله.

وقوله: ﴿ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ﴾ أى: أهؤلاء الذين ذكرنا منزلتهم من الجنة كمن هو خالد فى النار؟ ليس هؤلاء كهؤلاء، أى: ليس من هو فى الدرجات كمن هو[٧] فى الدركات، ﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا﴾ أى: حارا[٨] شديد الحر، لا يستطاع. ﴿فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ أى: قطع ما فى بطونهم من الأمعاء والأحشاء، عياذا بالله من ذلك.

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ (١٦) وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى

---

(١) فى ت،م، أ: «كأس».

(٢) المعجم الكبير (١٩/ ٢١١) من حديث طويل كان الحافظ اختصره، وصورة السند فى المعجم الكبير: «حدثنا مصعب بن إبراهيم بن حمزة الزبيرى وعبد الله بن الصقر العسكرى ـ وصوابه: السكرى ـ قالا: حدثنا إبراهيم بن المنذر الحزامى، حدثنا عبد الرحمن بن المغيرة بن عبد الله بن خالد بن حزام، حدثنى عبد الرحمن بن عياش الأنصارى ثم المسعودى عن دلهم بن الأسود عن عاصم بن لقيط أن لقيط بن عامر خرج. . . . الحديث». وهناك عطف بالواو يوهم أن هناك إسنادًا آخر رواه الطبرانى، وليس عنده إلا من هذا الطريق، وقد رواه عبد الله بن الإمام أحمد فى زوائد المسند (٤/ ١٣) من طريق إبراهيم بن حمزة بن مصعب بن الزبير عن عبدالرحمن بن المغيرة الحزامى عن عبد الرحمن بن عياش عن دلهم بن الأسود بن عبد الله بن حاجب بن عامر بن المنتفق العقيلى عن أبيه عن عمه لقيط بن عامر فذكره.

(٣) فى م: «عبيد». (٤) فى ت: «وروى ابن أبى الدنيا بسنده».

(٥) وذكره المنذرى فى الترغيب والترهيب (٤/ ٥١٨) وقال: «الموقوف أشبه بالصواب».

(٦) ورواه أبو نعيم فى الحلية (٦/ ٢٠٥) من طريق محمد بن أحمد الزهرى عن مهدى بن حكيم بن مهدى به مرفوعًا.

(٧) فى م: «هو خالد». (٨) فى ت: «صار».

وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴿١٧﴾ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ ﴿١٨﴾ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ ﴿١٩﴾﴾.

يقول تعالى مخبرا عن المنافقين فى بلادتهم وقلة فهمهم، حيث كانوا يجلسون إلى رسول الله ﷺ ويستمعون كلامه ولا يفهمون منه شيئا، فإذا خرجوا من عنده ﴿قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ من الصحابة: ﴿مَاذَا قَالَ آنِفًا﴾ أى: الساعة، لا يعقلون ما يقال[1]، ولا يكترثون له.

قال الله تعالى: ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ أى: فلا فهم صحيح، ولا قصد صحيح.

ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى﴾ أى: والذين قصدوا الهداية وفقهم الله لها فهداهم إليها، وثبتهم عليها وزادهم منها، ﴿وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ أى: ألهمهم رُشْدَهم.

وقوله: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً﴾ أى: وهم غافلون عنها، ﴿فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا﴾ أى: أمارات اقترابها، كقوله تعالى: ﴿هَذَا نَذِيرٌ مِّنَ النُّذُرِ الأُولَىٰ .أَزِفَتِ الآزِفَةُ﴾ [النجم: ٥٦، ٥٧]، وكقوله: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ﴾ [القمر: ١] وقوله: ﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل: ١]، وقوله: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ١]، فبعثة رسول الله ﷺ من أشراط الساعة؛ لأنه خاتم الرسل الذى أكمل الله به الدين، وأقام به الحجة على العالمين. وقد أخبر ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ بأمارات الساعة وأشراطها، وأبان عن ذلك وأوضحه بما لم يؤته نبى قبله، كما هو مبسوط فى موضعه.

وقال الحسن البصرى: بعثة محمد ﷺ من أشراط الساعة. وهو كما قال؛ ولهذا جاء فى أسمائه، عليه السلام، أنه نبى التوبة، ونبى الملحمة، والحاشر الذى يُحشَر الناس على قدميه، والعاقب الذى ليس بعده نبى.

وقال[2] البخارى: حدثنا أحمد بن المقدام، حدثنا فضيل بن سليمان، حدثنا أبو حازم، حدثنا[3] سهل بن سعد قال: رأيتُ رسول الله ﷺ قال بأصبعيه هكذا، بالوسطى والتى تليها: «بعثت أنا والساعة كهاتين»[4].

ثم قال تعالى: ﴿فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ﴾ أى: فكيف للكافرين بالتذكر[5] إذا جاءتهم القيامة، حيث لا ينفعهم ذلك[6]، كقوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الإِنسَانُ وَأَنَّىٰ لَهُ الذِّكْرَىٰ﴾ [الفجر:

(١) فى أ: «ما يقول». (٢) فى ت: «وروى». (٣) فى ت: «عن».
(٤) صحيح البخارى برقم (٤٩٣٦).
(٥) فى أ: «بالتذكير». (٦) فى ت: «التذكير».

٢٣]، ﴿وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّىٰ لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [سبأ: ٥٢].

وقوله: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾: هذا إخبار بأنه لا إله إلا الله، ولا يتأتى[(١)] كونه آمرا بعلم ذلك؛ ولهذا عطف عليه بقوله: ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾. وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ كان يقول: «اللهم اغفر لى خطيئتى وجهلى، وإسرافى فى أمرى، وما أنت أعلم به منى. اللهم اغفر لى هَزْلى وجدّى، وخَطَئى وعَمْدى، وكل ذلك عندى»[(٢)]. وفى الصحيح أنه كان يقول فى آخر الصلاة: «اللهم اغفر لى ما قدمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت، وما أسرفت، وما أنت أعلم به منى، أنت إلهى لا إله إلا أنت»[(٣)]. وفى الصحيح أنه قال: «يأيها الناس، توبوا إلى ربكم، فإنى أستغفر الله وأتوب إليه فى اليوم أكثر من سبعين مرة»[(٤)].

وقال[(٥)] الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن عاصم الأحول قال: سمعت[(٦)] عبد الله، بن سرجس قال: أتيتُ رسول الله ﷺ فأكلت معه من طعامه، فقلت: غفر الله لك يا رسول الله فقلت: أستغفر لك[(٧)]؟ فقال: «نعم، ولكم»، وقرأ: ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾، ثم نظرت إلى نُغْض كتفه الأيمن ـ أو: كتفه الأيسر، شعبة الذى شك ـ فإذا هو كهيئة الجمع عليه الثآليل.

رواه مسلم، والترمذى، والنسائي[(٨)]، وابن جرير، وابن أبى حاتم، من طرق، عن عاصم الأحول، به[(٩)].

وفى الحديث الآخر الذى رواه أبو يعلى: حدثنا مُحَرَّز بن عون[(١٠)]، حدثنا عثمان بن مطر، حدثنا عبد الغفور، عن أبى نَصيرَة، عن أبى رجاء، عن أبى بكر الصديق، رضى الله عنه، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «عليكم بلا إله إلا الله والاستغفار، فأكثروا منهما، فإن إبليس قال: أهلكت[(١١)] الناس بالذنوب، وأهلكونى بـ «لا إله إلا الله»، والاستغفار فلما رأيت ذلك أهلكتهم بالأهواء، فهم يحسبون أنهم مهتدون»[(١٢)].

وفى الأثر المروى: «قال إبليس: وعزتك وجلالك لا أزال أغويهم ما دامت أرواحهم فى

(١) فى أ: «إلا هو ولا ينافى».
(٢) صحيح البخارى برقم (٦٣٩٨).
(٣) صحيح مسلم برقم (٧٦٩).
(٤) صحيح البخارى برقم (٦٣٠٧).
(٥) فى ت: «وروى».
(٦) فى ت: «عن».
(٧) فى ت، م، أ: «أستغفر لك رسول الله ﷺ».
(٨) فى ت: «والنسائى وابن ماجه».
(٩) المسند (٥/ ٨٢) ،وصحيح مسلم برقم (٢٣٤٦) والشمائل للترمذى برقم (٢٢) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٤٩٦).
(١٠) فى م: «محمد بن عوف» وفى هـ: «محمد بن عون». والتصويب من مسند أبى يعلى.
(١١) فى م: «قال: إنما أهلكت».
(١٢) مسند أبى يعلى (١/ ١٢٣) ، وقال الهيثمى فى المجمع (١٠/ ٢٠٧): «فيه عثمان بن مطر وهو ضعيف».

أجسادهم. فقال الله عز وجل: وعزتى وجلالى ولا أزال أغفر لهم ما استغفرونى»[١].

والأحاديث فى فضل الاستغفار كثيرة جدا.

وقوله: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ﴾ أى: يعلم تصرفكم فى نهاركم ومستقركم فى ليلكم، كقوله: ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ﴾ [الأنعام: ٦٠]، وكقوله: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ [هود: ٦]. وهذا القول ذهب إليه ابن جريج، وهو اختيار ابن جرير. وعن ابن عباس: متقلبكم فى الدنيا، ومثواكم فى الآخرة.

وقال السدى: متقلبكم فى الدنيا، ومثواكم فى قبوركم.

والأول أولى وأظهر، والله أعلم.

﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ (٢٠) طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ (٢١) فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ (٢٢) أُوْلَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ (٢٣) ﴾ .

يقول تعالى مخبرا عن المؤمنين أنهم تمنوا شرعية الجهاد، فلما فرضه الله، عز وجل[٢]، وأمر به نكل عنه كثير من الناس، كقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلا أَخَّرْتَنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ وَلا تُظْلَمُونَ فَتِيلاً ﴾ [النساء: ٧٧].

وقال هاهنا: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلا نُزِّلَتْ سُورَةٌ ﴾ أى: مشتملة على حُكْم القتال؛ ولهذا قال: ﴿ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾ أى: من فزعهم ورعبهم وجبنهم من لقاء الأعداء. ثم قال مشجعا لهم: ﴿ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ. طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾ أى: وكان الأولى بهم أن يسمعوا ويطيعوا، أى: فى الحالة الراهنة، ﴿ فَإِذَا عَزَمَ الأَمْرُ﴾ أى: جد الحال، وحضر القتال، ﴿ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ﴾ أى : أخلصوا له النية، ﴿ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ .

وقوله: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ أى: عن الجهاد ونكلتم عنه، ﴿أَن تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا

---

(١) رواه أحمد فى مسنده (٣/ ٢٩) من حديث أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه.

(٢) فى ت: «الله تعالى».

أَرْحَامَكُمْ﴾ أى: تعودوا إلى ما كنتم فيه من الجاهلية الجهلاء، تسفكون الدماء، وتقطعون الأرحام؛ ولهذا قال: ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ﴾، وهذا نهى عن الإفساد فى الأرض عموما، وعن قطع الأرحام خصوصا، بل قد أمر [الله][1] تعالى بالإصلاح فى الأرض وصلة الأرحام، وهو الإحسان إلى الأقارب فى المقال والفعال وبذل الأموال. وقد وردت الأحاديث الصحاح والحسان بذلك عن رسول الله ﷺ، من طرق عديدة، ووجوه كثيرة.

قال البخارى: حدثنا خالد بن مَخْلَد، حدثنا سليمان، حدثنى معاوية بن أبى مُزَرِّد، عن سعيد ابن يسار[2]، عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ قال: «خلق الله الخلق، فلما فرغ منه قامت الرحم فأخذت بحقو الرحمن عز وجل، فقال: مه! فقالت: هذا مقام العائذ بك من القطيعة. فقال: ألا ترضين أن أصل من وصلك، وأقطع من قطعك؟ قالت: بلى. قال: فذاك[3]». قال أبو هريرة: اقرؤوا إن شئتم: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾[4].

ثم رواه البخارى من طريقين آخرين، عن معاوية بن أبى مزرد، به.قال رسول الله ﷺ: «اقرؤوا إن شئتم: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾»[5]. ورواه مسلم من حديث معاوية بن أبى مزرد، به[6].

وقال[7] الإمام أحمد: حدثنا إسماعيل، أخبرنا عيينة بن عبد الرحمن بن جوشن، عن أبيه، عن أبى بكرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من ذنب أحرى أن يعجل الله عقوبته فى الدنيا، مع ما يدخر لصاحبه فى الآخرة، من البغى وقطيعة الرحم».

رواه أبو داود والترمذى وابن ماجه، من حديث إسماعيل ـ هو ابن عُلَيَة ـ به[8]. وقال الترمذى: هذا حديث صحيح.

وقال[9] الإمام أحمد: حدثنا محمد بن بكر، حدثنا ميمون أبو محمد المرئى، حدثنا محمد بن عباد المخزومى، عن ثوبان، عن رسول الله ﷺ قال: «من سره النِّساء فى الأجل، والزيادة فى الرزق، فليصل رحمه»[10]. تفرد به أحمد، وله شاهد فى الصحيح.

---

(١) زيادة من ت، م، أ.

(٢) فى ت: «فروى البخارى بسنده».

(٣) فى أ: «فذلك لك».

(٤) صحيح البخارى برقم (٤٨٣٠).

(٥) صحيح البخارى برقم (٤٨٣١، ٤٨٣٢) لكن زاد أبو الحباب بين معاوية وسعيد بن يسار.

(٦) صحيح مسلم برقم (٢٥٥٤) من طريق معاوية بن أبى مزرد عن عمه أبى الحباب عن سعيد بن يسار به.

(٧) فى ت: «وروى».

(٨) المسند (٥/٣٨) ،وسنن أبى داود برقم (٤٩٠٢) ،وسنن الترمذى برقم (٢٥١١) ، وسنن ابن ماجه برقم (٤٢١١)

(٩) فى ت:«وروى».

(١٠) المسند (٥/٢٧٩) وشاهده حديث أنس بن مالك رضى الله عنه مرفوعا: «من سره أن يبسط عليه رزقه، أو ينسأ فى أثره، فليصل رحمه». رواه البخارى فى صحيحه برقم (٥٩٨٦)، ومسلم فى صحيحه برقم (٢٥٥٧) واللفظ لمسلم.

وقال[١] أحمد أيضا: حدثنا يزيد بن هارون، حدثنا حجاج بن أرطاة، عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إن لى ذوى أرحام، أصل ويقطعون، وأعفو ويظلمون، وأحسن ويسيئون، أفأكافئهم؟ قال: «لا، إذن تتركون جميعا، ولكن جُدْ بالفضل وصلهم؛ فإنه لن يزال معك ظهير من الله، عز وجل، ما كنت على ذلك»[٢].

تفرد به من هذا الوجه، وله شاهد[٣] من وجه آخر.

وقال الإمام أحمد: حدثنا يَعْلَى، حدثنا فِطْر، عن مجاهد، عن عبد الله بن عمرو[٤] قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الرحم معلقة بالعرش، وليس الواصل بالمكافئ، ولكن الواصل الذى إذا قطعت رحمه وصلها»، رواه البخارى[٥] [٦].

وقال أحمد: حدثنا بهز، حدثنا حماد بن سلمة، أخبرنا قتادة، عن أبى ثمامة الثقفى، عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «توضع الرحم يوم القيامة لها حُجْنَة كحجنة المغزل، تتكلم بلسان طُلَقٍ ذُلَقٍ، فتصل من وصلها وتقطع من قطعها»[٧].

وقال[٨] الإمام أحمد: حدثنا سفيان، حدثنا عمرو، عن أبى قابوس، عن عبد الله بن عمرو ـ يبلغ به النبى ﷺ ـ قال: «الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا أهل الأرض[٩] يرحمكم أهل السماء، والرحم شُجْنَة من الرحمن، من وصلها وصلته، ومن قطعها بتته».

وقد رواه أبو داود[١٠] والترمذى، من حديث سفيان بن عيينة، عن عمرو بن دينار، به[١١]. وهذا هو الذى يروى بتسلسل الأولية[١٢]، وقال الترمذى: حسن صحيح.

وقال الإمام أحمد: حدثنا يزيد بن هارون، حدثنا هشام الدَّسْتَوائى، عن يحيى بن أبى كثير، عن إبراهيم بن عبد الله بن قارظ؛ أن أباه حدثه: أنه دخل على عبد الرحمن بن عوف وهو مريض، فقال له عبد الرحمن: وصلتك رَحِمٌ، إن رسول الله ﷺ قال: «قال الله عز وجل: أنا الرحمن، خلقت الرحم وشققت لها من اسمى، فمن يصلها أصله، ومن يقطعها أقطعه فأبته ـ أو قال: من يبتها أبته».

تفرد به من هذا الوجه[١٣]. ورواه أحمد أيضا من حديث الزهرى، عن أبى سلمة، عن الرداد ـ

---

(١) فى ت: «وروى».
(٢) المسند (٢/ ١٨١).
(٣) فى أ: «شواهد». (٤) فى ت: «عن ابن عمر».
(٥) فى ت: «انفرد به».
(٦) المسند (٢/ ١٦٣)، وصحيح البخارى برقم (٥٩٩١).
(٧) المسند (٢/ ١٨٩)، قال الهيثمى فى المجمع (٨/ ١٥٠): «رجال أحمد رجال الصحيح غير أبى ثمامة الثقفى، وثقه ابن حبان».
(٨) فى ت: «رواه». (٩) فى أ: «ارحموا من فى الأرض».
(١٠) فى ت: «وقد رواه أحمد وأبو داود».
(١١) المسند (٢/ ١٦٠)، وسنن أبى داود برقم (٤٩٤١)، وسنن الترمذى برقم (١٩٢٤).
(١٢) وأروى هذا الحديث بالإجازة مسلسلاً بأول ما سمع، إلا أن الأولية تنقطع فيما فوق سفيان، وعلى هذا فشرط المسلسل غير متحقق عند التدقيق.
(١٣) المسند (١/ ١٩١).

أو أبى الردّاد ـ عن عبد الرحمن بن عوف، به[١]. ورواه أبو داود والترمذى، من رواية أبى سلمة، عن أبيه[٢]. والأحاديث فى هذا كثيرة.

وقال الطبرانى: حدثنا على بن عبد العزيز، حدثنا محمد بن عمار الموصلى، حدثنا عيسى بن يونس، عن محمد بن عبد الله بن علاثة[٣]، عن الحجاج بن الفُرَافِصَة، عن أبى عمر البصرى، عن سلمان[٤] قال: قال رسول الله ﷺ: «الأرواح جنود مجندة، فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف»[٥].

وبه قال رسول الله ﷺ: «إذا ظهر القول، وخزن العمل، وائتلفت الألسنة، وتباغضت القلوب، وقطع كل ذى رحم رحمه، فعند ذلك لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم»[٦].

﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا (٢٤) إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِم مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ (٢٥) ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ (٢٦) فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ (٢٧) ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ (٢٨)﴾ .

يقول تعالى آمراً بتدبر القرآن وتفهمه، وناهيا عن الإعراض عنه،فقال: **﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾** أى: بل على قلوب أقفالها، فهى مُطْبَقَة لا يخلص إليها شىء من معانيه.

قال ابن جرير: حدثنا بشر، قال: حدثنا يزيد قال: حدثنا سعيد قال: حدثنا[٧] حماد بن زيد، حدثنا هشام بن عروة، عن أبيه قال: تلا رسول الله ﷺ يوما: **﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾**، فقال شاب من أهل اليمن: بل عليها[٨] أقفالها حتى يكون الله عز وجل يفتحها أو يفرجها. فما زال الشاب فى نفس عمر، رضى الله عنه، حتى ولى، فاستعان به[٩].

ثم قال تعالى: **﴿إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِم﴾** أى: فارقوا الإيمان ورجعوا إلى الكفر، **﴿مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ﴾** أى: زين لهم ذلك وحسنه، **﴿وَأَمْلَىٰ لَهُمْ﴾** أى: غرهم

(١) المسند (١/ ١٩٤) وقال الترمذى فى السنن: «روى معمر عن الزهرى هذا الحديث عن أبى سلمة عن رداد الليثى عن عبد الرحمن ابن عوف،قال محمد ـ يعنى البخارى ـ: حديث معمر خطأ» والصحيح الرواية الآتية فى السنن.

(٢) سنن أبى داود برقم (١٦٢٤) ،وسنن الترمذى برقم (١٩٠٧).

(٣) فى هـ: «الحجاج بن يونس». والتصويب من المعجم الكبير.

(٤) فى هـ:«سليمان» والتصويب من المعجم الكبير.

(٥) المعجم الكبير (٦/ ٢٦٣)، وقال الهيثمى فى المجمع (٧/ ٢٨٧): «فيه جماعة لم أعرفهم». وله شاهد من حديث أبى هريرة رواه أحمد فى المسند (٢/ ٢٩٥).

(٦) المعجم الكبير (٦/ ٢٦٣) والكلام عليه كالذى قبله.

(٧) فى ت،م: «ابن».

(٨) فى ت، م: «بل على قلوب».

(٩) تفسير الطبرى (٢٦/ ٣٧).

وخدعهم، ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الأَمْرِ﴾ أى: مالئوهم وناصحوهم فى الباطن على الباطل، وهذا شأن المنافقين يظهرون خلاف ما يبطنون؛ ولهذا قال الله عز وجل: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾ أى: [يعلم][1] ما يسرون وما يخفون، الله مطلع عليه وعالم به، كقوله: ﴿وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ﴾ [النساء: ٨١].

ثم قال: ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ﴾أى: كيف حالهم إذا جاءتهم الملائكة لقبض أرواحهم وتعصت الأرواح فى أجسادهم، واستخرجتها الملائكة بالعنف والقهر والضرب، كما قال: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ﴾ الآية [الأنفال: ٥٠]، وقال: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ﴾ أى: بالضرب ﴿أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأنعام: ٩٣]؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾.

﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ (٢٩) وَلَوْ نَشَاءُ لأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ (٣٠) وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ (٣١) ﴾ .

يقول تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ﴾ أى: اعتقد[2] المنافقون أن الله لايكشف أمرهم لعباده المؤمنين؟ بل سيوضح أمرهم ويجليه حتى يفهمهم[3] ذوو البصائر، وقد أنزل تعالى فىَ ذلك سورة «براءة»، فبين فيها فضائحهم وما يعتمدونه من الأفعال الدالة على نفاقهم؛ ولهذا إنما كانت تسمى الفاضحة. والأضغان: جمع ضغن، وهو ما فى النفوس من الحسد والحقد للإسلام وأهله والقائمين بنصره.

وقوله: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ﴾ يقول تعالى: ولو نشاء يا محمد لأريناك أشخاصهم، فعرفتهم[4] عيانا، ولكن لم يفعل تعالى ذلك فى جميع المنافقين سترا منه على خلقه، وحملا للأمور على ظاهر السلامة، ورد السرائر إلى عالمها، ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ أى: فيما يبدو من كلامهم الدال على مقاصدهم، يفهم المتكلم من أى الحزبين هو بمعانى كلامه وفحواه، وهو المراد من لحن القول، كما قال أمير المؤمنين عثمان بن عفان، رضى الله عنه: ما أسر أحد سريرة إلا أبداها الله على صفحات وجهه، وفلتات لسانه. وفى الحديث: «ما أسر أحد سريرة إلا كساه الله

---

(١) زيادة من ت.
(٢) فى م: «أيعتقد».
(٣) فى أ: «يفهمه».
(٤) فى ت: «تعرفهم».

جلبابها، إن خيرا فخير، وإن شرًا فشر»[١]. وقد ذكرنا ما يستدل به على نفاق الرجل، وتكلمنا على نفاق العمل والاعتقاد[٢] فى أول «شرح البخارى»، بما أغنى عن إعادته هاهنا. وقد ورد فى الحديث تعيين جماعة من المنافقين. قال الإمام أحمد:

حدثنا وكيع، حدثنا سفيان، عن سلمة، عن عياض بن عياض، عن أبيه، عن أبى مسعود عقبة ابن عمرو، رضى الله عنه، قال: خطبنا رسول الله ﷺ خطبة فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «إن منكم[٣] منافقين، فمن سميت فليقم». ثم قال: «قم يا فلان، قم يا فلان، قم يا فلان». حتى سمى ستة وثلاثين رجلا ثم قال: «إن فيكم ـ أو: منكم[٤] ـ فاتقوا الله». قال: فمر عمر برجل ممن سمى مقنع قد كان يعرفه، فقال: ما لك؟ فحدثه بما قال رسول الله ﷺ، فقال: بعداً لك سائر اليوم[٥].

وقوله: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ﴾ أى: ولنختبرنكم بالأوامر والنواهى، ﴿حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾. وليس فى تقدم علم الله تعالى بما هو كائن أنه سيكون شك ولا ريب، فالمراد: حتى نعلم وقوعه؛ ولهذا يقول ابن عباس فى مثل هذا: إلا لنعلم، أى: لنرى.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ (٣٢) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ (٣٣) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ (٣٤) فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ (٣٥)﴾.

يخبر تعالى عمن كفر وصد عن سبيل الله، وخالف الرسول وشاقه، وارتد عن الإيمان من بعد ما تبين له الهدى: أنه لن يضر الله شيئاً، وإنما يضر نفسه ويخسرها يوم معادها، وسيحبط الله عمله فلا يثيبه على سالف ما تقدم من عمله الذى عقبه بردته مثقال بعوضة من خير، بل يحبطه ويمحقه بالكلية، كما أن الحسنات يذهبن السيئات.

وقد قال الإمام محمد بن نصر المروزى فى كتاب الصلاة: حدثنا أبو قدامة، حدثنا وكيع، حدثنا أبو جعفر الرازى، عن الربيع بن أنس، عن أبى العالية قال[٦]: كان أصحاب رسول الله ﷺ يظنون أنه لا يضر مع «لا إله إلا الله» ذنب، كما لا ينفع مع الشرك عمل، فنزلت: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾، فخافوا أن يبطل الذنب العمل.

---

(١) سيأتى تخريج هذا الحديث عند تفسير الآية: ٢٩ من سورة الفتح.
(٢) فى أ: «النفاق العملى والاعتقادى». (٣) فى ت: «فيكم». (٤) فى ت: «ومنكم».
(٥) المسند (٥/ ٢٧٣) قال الهيثمى فى المجمع (١/ ١١٢): «فيه عياض بن أبى عياض عن أبيه ولم أر من ترجمهما».
(٦) فى ت: «روى الإمام أحمد بإسناده».

ثم روى من طريق عبد الله بن المبارك: أخبرنى بكير بن معروف، عن مقاتل بن حيان، عن نافع، عن ابن عمر قال: كنا معشر أصحاب رسول الله ﷺ نرى أنه ليس شيء من الحسنات إلا مقبول حتى نزلت: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾. فقلنا: ما هذا الذى يبطل أعمالنا؟ فقلنا: الكبائر الموجبات والفواحش، حتى نزلت: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨]، فلما نزلت كففنا عن القول فى ذلك، فكنا نخاف على من أصاب الكبائر والفواحش، ونرجو لمن لم يصيبها[١].

ثم أمر تعالى عباده المؤمنين بطاعته وطاعة رسوله التى هى سعادتهم فى الدنيا والآخرة، ونهاهم عن الارتداد الذى هو مبطل للأعمال؛ ولهذا قال: ﴿وَلا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾ أى: بالردة؛ ولهذا قال بعدها: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾، كقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ الآية .

ثم قال لعباده المؤمنين: ﴿فَلا تَهِنُوا﴾ أى: لا تضعفوا عن الأعداء، ﴿وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ﴾ أى: المهادنة والمسالمة، ووضع القتال بينكم وبين الكفار فى حال قوتكم وكثرة عَدَدكم وعُدَدكم؛ ولهذا قال: ﴿فَلا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ﴾ أى: فى حال علوكم على عدوكم، فأما إذا كان الكفار فيهم قوة وكثرة[٢] بالنسبة إلى جميع المسلمين، ورأى الإمام فى المعاهدة والمهادنة مصلحة، فله أن يفعل ذلك، كما فعل رسول الله ﷺ حين صده كفار قريش عن مكة، ودعوه إلى الصلح ووضع الحرب بينهم وبينه عشر سنين، فأجابهم إلى ذلك.

وقوله: ﴿وَاللَّهُ مَعَكُمْ﴾: فيه بشارة عظيمة بالنصر والظفر على الأعداء، ﴿وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴾ أى: ولن يحبطها ويبطلها ويسلبكم إياها، بل يوفيكم ثوابها ولا ينقصكم منها شيئا.

﴿إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ (٣٦) إِن يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ (٣٧) هَا أَنتُمْ هَؤُلاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم (٣٨)﴾ .

يقول تعالى تحقيراً لأمر الدنيا وتهوينا لشأنها: ﴿إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ أى: حاصلها ذلك إلا ما كان منها لله عز وجل؛ ولهذا قال: ﴿وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ﴾ أى: هو غنى عنكم لا يطلب منكم شيئا، وإنما فرض عليكم الصدقات من الأموال مواساة لإخوانكم

---

(١) تعظيم قدر الصلاة للمروزى برقم (٦٩٨، ٦٩٩).

(٢) فى ت: «فئة كثيرة».

الفقراء، ليعود نفع ذلك عليكم، ويرجع ثوابه إليكم.

ثم قال: ﴿ إِن يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا﴾ أي: يحرجكم[(١)] تبخلوا: ﴿ وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ ﴾.

قال قتادة: «قد علم الله أن فى إخراج الأموال إخراج الأضغان». وصدق قتادة فإن المال محبوب، ولا يصرف إلا فيما هو أحب إلى الشخص منه.

وقوله: ﴿هَا أَنتُمْ هَؤُلاء تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ﴾ أي: لا يجيب إلى ذلك ﴿وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ ﴾ أي: إنما نقص نفسه من الأجر، وإنما يعود وبال ذلك عليه، ﴿وَاللَّهُ الْغَنِيُّ﴾ أي: عن كل ما سواه، وكل شيء فقير إليه دائما؛ ولهذا قال: ﴿وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ ﴾ أي: بالذات إليه. فوصفه بالغنى وصف لازم له، ووصف الخلق بالفقر وصف لازم لهم، [أي][(٢)] لا ينفكون عنه.

وقوله: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا﴾ أي: عن طاعته واتباع شرعه[(٣)] ﴿يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾ أي: ولكن يكونون سامعين مطيعين له ولأوامره.

وقال[(٤)] ابن أبى حاتم، وابن جرير: حدثنا يونس بن عبد الأعلى، حدثنا ابن وهب، أخبرنى مسلم بن خالد، عن العلاء بن عبد الرحمن، عن أبيه، عن أبى هريرة [رضى الله عنه][(٥)] أن رسول الله ﷺ تلا هذه الآية: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ ﴾، قالوا: يا رسول الله، من هؤلاء الذين إن تولينا استبدل بنا ثم لا يكونوا أمثالنا؟ قال: فضرب بيده على كتف سلمان الفارسى ثم قال: «هذا وقومه، ولو كان الدين عند الثريا لتناوله رجال من الفرس»[(٦)].

تفرد به مسلم بن خالد الزنجى، ورواه عنه غير واحد، وقد تكلم فيه بعض الأئمة، والله أعلم.

آخر تفسير سورة القتال

(١) فى أ: «يحوجكم». (٢) زيادة من ت.

(٣) فى ت: «شرعته»، وفى أ: «شريعته».

(٤) فى ت: «وروى».

(٥) زيادة من ت.

(٦) تفسير الطبرى (٢٦/ ٤٣)، ومسلم بن خالد الزنجى ضعفه ابن معين، وقال البخارى: منكر الحديث لكنه لم ينفرد به، فقد توبع:

١ـ تابعه شيخ من أهل المدينة عن العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه به، أخرجه الترمذى برقم (٣٢٦٠) وقال: «هذا حديث غريب فى إسناده مقال».

٢ـ وتابعه عبد الله بن جعفر بن نجيح عن العلاء عن أبيه به، أخرجه الترمذى برقم(٣٢٦١) وعبد الله بن جعفر والد على بن المدينى ضعيف.

٤٧ — سورة محمد صلى الله عليه وسلم

(مكية وآياتها ثمان وثلاثون)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿١﴾ ٤٧ محمد

وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُوا۟ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴿٢﴾ ٤٧ محمد

ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ ﴿٣﴾ ٤٧ محمد

﴿سورة محمد صلى الله عليه وسلم وتسمى سورة القتال وهى مدنية وقيل مكية وآياتها ثمان وثلاثون﴾

١ (بسم الله الرحمن الرحيم) (الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله) أى أعرضوا عن الإسلام
وسلوك طريقه من صد صدوداً أو منعوا الناس عن ذلك من صده صداً كالمطعمين يوم بدر وقيل هم
إثنا عشر رجلا من أهل الشرك كانوا يصدون الناس عن الإسلام ويأمرونهم بالكفر وقيل أهل
الكتاب الذين كفروا وصدوا من أراد منهم ومن غيرهم أن يدخل فى الإسلام وقيل هو عام فى كل
* من كفر وصد (أضل أعمالهم) أى أبطلها وأحبطها وجعلها ضائعة لا أثر لها أصلا لكن لا بمعنى أنه
أبطلها وأحبطها بعد أن لم تكن كذلك بل بمعنى أنه حكم ببطلانها وضياعها فإن ما كانوا يعملون من
أعمال البر كصلة الأرحام وقرى الأضياف وفك الأسارى وغيرها من المكارم ليس لها أثر من أصلها
لعدم مقارنتها للإيمان أو أبطل ما عملوا من الكيد لرسول الله صلى الله عليه وسلم والصد عن سبيله بنصر
رسوله وإظهار دينه على الدين كله وهو الأوفق لما سيأتى قوله تعالى فتعساً لهم وأضل أعمالهم وقوله
٢ فإذا لقيتم الخ (والذين آمنوا وعملوا الصالحات) قيل هم ناس من قريش وقيل من الأنصار وقيل هم
* مؤمنوا أهل الكتاب وقيل عام للكل (وآمنوا بما نزل على محمد) خص بالذكر الإيمان بذلك مع
اندراجه فيما قبله تنويها بشأنه وتنبيهاً على سمو مكانه من بين سائر ما يجب الإيمان به وأنه الأصل فى
* الكل ولذلك أكد بقوله تعالى (وهو الحق من ربهم) بطريق حصر الحقية فيه وقيل حقيته بكونه
ناسخاً غير منسوخ فالحق على هذا مقابل الزائل وعلى الأول مقابل الباطل وأياً ما كان فقوله تعالى
* من ربهم حال من ضمير الحق وقرىء نزل على البناء للفاعل وأنزل على البناءين ونزل بالتخفيف (كفر
* عنهم سيئاتهم) أى سترها بالإيمان والعمل الصالح (وأصلح بالهم) أى حال فى الدين والدنيا بالتأييد
٣ والتوفيق (ذلك) إشارة إلى ما مر من إضلال الأعمال وتكفير السيئات وإصلاح البال وهو مبتدأ

فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّواْ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا
فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَاْ بَعْضَكُم
بِبَعْضٍ وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٤﴾ ٤٧ محمد

* خبره قوله تعالى (بأن الذين كفروا اتبعوا الباطل وأن الذين آمنوا اتبعوا الحق من ربهم) أى ذلك
كائن بسبب أن الأولين اتبعوا الشيطان كما قاله مجاهد ففعلوا مافعلوا من الكفر والصد فبيان سببية اتباعه
للإضلال المذكور متضمن لبيان سببيتهما له لكونه أصلا مستتبعاً لهما قطعاً وبسبب أن الآخرين اتبعوا
الحق الذى لامحيد عنه كائناً من ربهم ففعلوا مافعلوا من الإيمان به وبكتابه ومن الأعمال الصالحة فبيان
سببية اتباعه لما ذكر من التكفير والإصلاح بعد الإشعار بسببية الإيمان والعمل الصالح له متضمن
لبيان سببيتهما له لكونه مبدأ ومنشأ لهما حتما فلا تدافع بين الإشعار والتصريح فى شىء من الموضعين ويجوز
أن يحمل الباطل ما يقابل الحق وهو الزائل الذاهب الذى لا أصل له أصلا فالتصريح بسببية اتباعه
لإضلال أعمالهم وإبطالها لبيان أن إبطالها لبطلان مبناها وزواله وأما حمله على مالا ينتفع به فليس
كما ينبغى لما أن الكفر والصد أفحش منه فلا وجه للتصريح بسببيته لماذكر من إضلال أعمالهم بطريق
القصر بعد الإشعار بسببيتهما له فتدبر ويجوز أن يراد بالباطل نفس الكفر والصد وبالحق نفس الإيمان
والأعمال الصالحة فيكون التنصيص على سببيتهما لما ذكر من الإضلال ومن التكفير والإصلاح
* تصريحاً بالسببية المشعر بها فى الموقعين (كذلك) أى مثل ذلك الضرب البديع (يضرب الله) أى يبين
* (للناس أمثالهم) أى أحوال الفريقين وأوصافهما الجارية فى الغرابة مجرى الأمثال وهى اتباع الأولين
٤ الباطل وخيبتهم وخسرانهم واتباع الآخرين الحق وفوزهم وفلاحهم والفاء فى قوله تعالى (فإذا لقيتم
الذين كفروا) لترتيب مافى حيزها من الأمر على ماقبلها فإن ضلال أعمال الكفرة وخيبتهم وصلاح
أحوال المؤمنين وفلاحهم مما يوجب أن يرتب على كل من الجانبين ما يليق من الأحكام أى فإذا كان
* الأمر كما ذكر فإذا لقيتموهم فى المحاربة (فضرب الرقاب) أصله فاضربوا الرقاب ضرباً فحذف الفعل
وقدم المصدر وأنيب منابه مضافا إلى المفعول وفيه اختصار وتأكيد بليغ والتعبير به عن القتل تصوير
* له بأشنع صورة وتهويل لأمره وإرشاد للغزاة إلى أيسر مايكون منه (حتى إذا أثخنتموهم) أى أكثرتم
قتلهم وأغلظتموه من الثىء الثخين وهو الغليظ أو أثقلتموهم بالقتل والجراح حتى أذهبتم عنهم النهوض
* (فشدوا الوثاق) فأسروهم واحفظوهم والوثاق اسم لما يوثق به وكذا الوثاق بالكسر وقد قرىء
* بذلك (فإما مناً بعد وإما فداء) أى فإما تمنون مناً بعد ذلك أو تفدون فداء والمعنى التخيير بين القتل
والاسترقاق والمن والفداء وهذا ثابت عند الشافعى رحمه الله تعالى وعندنا منسوخ قالوا نزل ذلك يوم
بدر ثم نسخ والحكم إما القتل أو الاسترقاق وعن مجاهد ليس اليوم من ولا فداء إنما هو الإسلام
* أو ضرب العنق وقرىء فدا كعصا (حتى تضع الحرب أوزارها) أوزار الحرب آلاتها وأثقالها التى

سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾ ٤٧ محمد

وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴿٦﴾ ٤٧ محمد

يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوٓا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾ ٤٧ محمد

وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٨﴾ ٤٧ محمد

ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَآ أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٩﴾ ٤٧ محمد

لاتقوم إلا بها من السلاح والكراع وأسند وضعها إليها وهو لأهلها إسناداً مجازياً وحتى غاية عند
الشافعى لأحد الأمور الأربعة أو للمجموع والمعنى أنهم لايزالون على ذلك أبداً إلى أن لا يكون مع
المشركين حرب بأن لاتبقى لهم شوكة وقيل بأن ينزل عيسى عليه السلام وأما عند أبى حنيفة رحمه
الله تعالى فإن حمل الحرب على حرب بدر فهى غاية للمن والفداء والمعنى يمن عليهم ويفادون حتى تضع
حرب بدر أوزارها وإن حملت على الجنس فهى غاية للضرب والشد والمعنى أنهم يقتلون ويؤسرون
حتى يضع جنس الحرب أوزارها بأن لايبقى للمشركين شوكة وقيل أوزارها آثامها أى حتى يترك
المشركون شركهم ومعاصيهم بأن أسلموا (ذلك) أى الأمر ذلك أو افعلوا ذلك (ولو يشاء الله لانتصر *
منهم) لانتقم منهم ببعض أسباب الهلكة والاستئصال (ولكن) لم يشأ ذلك (ليبلو بعضكم ببعض) *
فأمركم بالقتال وبلاكم بالكافرين لتجاهدوهم فتستوجبوا الثواب العظيم بموجب الوعد والكافرين
بكم ليعاجلهم على أيديكم ببعض عذابهم كى يرتدع بعضهم عن الكفر (والذين قتلوا فى سبيل الله) أى *
استشهدوا وقرىء قاتلوا أى جاهدوا وقتلوا وقتلوا (فلن يضل أعمالهم) أى فلن يضيعها وقرىء يضل *
أعمالهم على البناء للمفعول ويضل أعمالهم من ضل وعن قتادة أنها نزلت فى يوم أحد (سيهديهم) فى ٥
الدنيا إلى أرشد الأمور وفى الآخرة إلى الثواب أو سيثبت هدايتهم (ويصلح بالهم) (ويدخلهم الجنة ٦
عرفها لهم) فى الدنيا بذكر أوصافها بحيث اشتاقوا إليها أو بينها لهم بحيث يعلم كل أحد منزله ويهتدى
إليه كأنه كان ساكنه منذ خلق وعن مقاتل أن الملك الموكل بعمله فى الدنيا يمشى بين يديه فيعرفه
كل شىء أعطاه الله تعالى أو طيبها لهم من العرف وهو طيب الرائحة أوحددها لهم وأفرزها من عرف
الدار فجنة كل منهم محددة مفرزة والجملة إما مستأنفة أو حال بإضمار قد أو بدونه (يأيها الذين آمنوا ٧
إن تنصروا الله) أى دينه ورسوله (ينصركم) على أعدائكم ويفتح لكم (ويثبت أقدمكم) فى مواطن *
الحرب ومواقفها أو على محجة الإسلام (والذين كفروا فتعساً لهم) التعس الهلاك والعثار والسقوط ٨
والشر والبعد والانحطاط ورجل تاعس وتعس وانتصابه بفعله الواجب حذفه سماعاً أى فقال تعساً
لهم أو فقضى تعساً لهم وقوله تعالى (وأضل أعمالهم) عطف عليه داخل معه فى حيز الخبرية للموصول *
(ذلك) أى ماذكر من التعس وإضلال الأعمال (بأنهم) بسبب أنهم (كرهوا ما أنزل الله) من القرآن ٩

أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا ﴿١٠﴾ ٤٧ محمد

ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿١١﴾ ٤٧ محمد

إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴿١٢﴾ ٤٧ محمد

وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴿١٣﴾ ٤٧ محمد

لما فيه من التوحيد وسائر الأحكام المخالفة لما ألفوه واشتهته أنفسهم الأمارة بالسوء (فأحبط
١٠ لأجل ذلك (أعمالهم) التي لو كانوا عملوها مع الإيمان لأثيبوا عليها (أفلم يسيروا في الأرض) أي أقعدوا
في أماكنهم فلم يسيروا فيها (فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم) من الأمم المكذبة فإن آثار ديارهم
تنبيء عن أخبارهم وقوله تعالى (دمر الله عليهم) استئناف مبني على سؤال نشأ من الكلام كأنه قيل
كيف كان عاقبتهم فقيل استأصل الله تعالى عليهم ما اختص بهم من أنفسهم وأهليهم وأموالهم يقال
دمره أهلكه ودمر عليه أهلك عليه مايختص به (وللكافرين) أي ولهؤلاء الكافرين السائرين بسيرتهم
(أمثالها) أمثال عواقبهم أو عقوباتهم لكن لا على أن لهؤلاء أمثال مالأولئك وأضعافه بل مثله وإنما
جمع باعتبار مماثلته لعواقب متعددة حسب تعدد الأمم المعذبة وقيل يجوز أن يكون عذابهم أشد من
عذاب الأولين وقد قتلوا وأسروا بأيدي من كانوا يستخفونهم ويستضعفونهم والقتل بيد المثل أشد
ألما من الهلاك بسبب عام وقيل المراد بالكافرين المتقدمون بطريق وضع الظاهر موضع الضمير كأنه
١١ قيل دمر الله عليهم في الدنيا ولهم في الآخرة أمثالها (ذلك) إشارة إلى ثبوت أمثال عقوبة الأمم
السالفة لهؤلاء (بأن الله مولى الذين آمنوا) أي ناصرهم على أعدائهم وقرىء ولي الذين (وأن الكافرين
لامولى لهم) فيدفع عنهم ما حل بهم من العقوبة والعذاب ولا يخالف هذا قوله تعالى ثم ردوا إلى الله
١٢ مولاهم الحق فإن المولى هناك بمعنى المالك (إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري
من تحتها الأنهار) بيان لحكم ولايته تعالى لهم وثمرتها الأخروية (والذين كفروا يتمتعون) أي ينتفعون
في الدنيا بمتاعها (ويأكلون كما تأكل الأنعام) غافلين عن عواقبهم (والنار مثوى لهم) أي منزل ثواء
١٣ وإقامة والجملة إما حال مقدرة من واو يأكلون أو استئناف (وكأين) كلمة مركبة من الكاف وأي
بمعنى كم الخبرية ومحلها الرفع بالابتداء وقوله تعالى (من قرية) تمييز لها وقوله تعالى (هي أشد قوة من
قريتك) صفة لقرية كما أن قوله تعالى (التي أخرجتك) صفة لقريتك وقد حذف عنهما المضاف وأجرى
أحكامه عليهما كما يفصح عنه الخبر الذي هو قوله تعالى (أهلكناهم) أي وكم من أهل قرية هم أشد

أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُم ﴿١٤﴾ ٤٧ محمد

مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴿١٥﴾ ٤٧ محمد

قوة من أهل قريتك الذين كانوا سبباً لخروجك من بينهم ووصف القرية الأولى بشدة القوة للإيذان
بأولوية الثانية منها بالإهلاك لضعف قوتها كما أن وصف الثانية بإخراجه عليه الصلاة والسلام للإيذان
بأولويتها به لقوة جنايتها وعلى طريقته قول النابغة [كليب لعمرى كان أكثر ناصراً * وأيسر جرما
منك ضرج بالدم] وقوله تعالى (فلا ناصر لهم) بيان لعدم خلاصهم من العذاب بواسطة الأعوان *
والأنصار إثر بيان عدم خلاصهم منه بأنفسهم والفاء لترتيب ذكر ما بالغير على ذكر ما بالذات وهو
١٤ حكاية حال ماضية (أفمن كان على بينة من ربه) تقرير لتباين حالى فريقى المؤمنين والكافرين وكون
الأولين فى أعلى عليين والآخرين فى أسفل سافلين وبيان لعلة مالكل منهما من الحال والهمزة للإنكار
والفاء للعطف على مقدر يقتضيه المقام وقد قرىء بدونها ومن عبارة عن المؤمنين المتمسكين بأدلة الدين
وجعلها عبارة عن النبى عليه الصلاة والسلام أو عنه وعن المؤمنين لا يساعده النظم الكريم على أن الموازنة
بينه عليه الصلاة والسلام وبينهم مما يأباه منصبه الجليل والتقدير أليس الأمر كما ذكر فمن كان مستقراً
على حجة ظاهرة وبرهان نير من مالك أمره ومربيه وهو القرآن الكريم وسائر المعجزات والحجج
العقلية (كمن زين له سوء عمله) من الشرك وسائر المعاصى مع كونه فى نفسه أقبح القبائح (واتبعوا) *
بسبب ذلك التزيين (أهواءهم) الزائغة وانهمكوا فى فنون الضلالات من غير أن يكون لهم شبهة توهم *
صحة ما هم عليه فضلا عن حجة تدل عليه وجمع الضميرين الأخيرين باعتبار معنى من كما أن إفراد الأولين
١٥ باعتبار لفظها (مثل الجنة التى وعد المتقون) استئناف مسوق لشرح محاسن الجنة الموعودة آنفاً للمؤمنين
وبيان كيفية أنهارها التى أشير إلى جريانها من تحتها وعبر عنهم بالمتقين إيذاناً بأن الإيمان والعمل الصالح
من باب التقوى الذى هو عبارة عن فعل الواجبات بأسرها وترك السيئات عن آخرها ومثلها وصفها
العجيب الشأن وهو مبتدأ محذوف الخبر فقدره النضر بن شميل مثل الجنة ما تسمعون وقوله تعالى (فيها *
أنهار) الخ مفسر له وقدره سيبويه فيما يتلى عليكم مثل الجنة والأول هو الأنسب لصدر النظم الكريم
وقيل المثل زائدة كزيادة الاسم فى قول من قال [إلى الحول ثم اسم السلام عليكما] والجنة مبتدأ خبره
فيها أنهار الخ (من ماء غير آسن) غير متغير الطعم والرائحة وقرىء غير آسن (وأنهار من لبن لم يتغير *
طعمه) بأن صار قارصاً ولا خازراً كألبان الدنيا (وأنهار من خمر لذة للشاربين) لذيذة ليس فيها كراهة *
طعم وريح ولا غائلة سكر ولا خمار وإنما هى تلذذ محض ولذة إما تأنيث لذ بمعنى لذيذ أو مصدر نعت

وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ﴿١٦﴾ ٤٧ محمد

وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾ ٤٧ محمد

فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ ﴿١٨﴾ ٤٧ محمد

* به مبالغة وقرىء لذة بالرفع على أنها صفة أنهار وبالنصب على العلة أى لأجل لذة للشاربين (وأنهار من عسل مصفى) لايخالطه الشمع وفضلات النحل وغيرها وفى هذا تمثيل لما يجرى مجرى الأشربة فى الجنة بأنواع مايستطاب منها ويستلذ فى الدنيا بالتخلية عما ينغصها وينقصها والتحلية بما يوجب غزارتها
* ودوامها (ولهم فيها) مع ماذكر من فنون الأنهار (من كل الثمرات) أى صنف من كل الثمرات (ومغفرة)
* أى ولهم مغفرة عظيمة لايقادر قدرها وقوله تعالى (من ربهم) متعلق بمحذوف هو صفة لمغفرة مؤكدة
* لما أفاده التنكير من الفخامة الذاتية بالفخامة الإضافية أى كائنة من ربهم وقوله تعالى (كمن هو خالد فى النار) خبر لمبتدأ محذوف تقديره أمن هو خالد فى هذه الجنة حسبما جرى به الوعد كمن هو خالد فى النار كما نطق به قوله تعالى والنار مثوى لهم وقيل هو خبر لمثل الجنة على أن فى الكلام حذفا تقديره أمثل الجنة كمثل جزاء من هو خالد فى النار أو أمثل أهل الجنة كمثل من هو خالد فى النار فعرى عن حرف الإنكار وحذف ماحذف تصويراً لمكابرة من يسوى بين المتمسك بالبينة وبين التابع للهوى
* بمكابرة من سوى بين الجنة الموصوفة بما فصل من الصفات الجليلة وبين النار (وسقوا ماء حميماً) مكان
* تلك الأشربة (فقطع أمعاءهم) من فرط الحرارة قيل إذا دنا منهم شوى وجوههم وانمارت فروة رؤسهم
١٦ فإذا شربوه قطع أمعاءهم (ومنهم من يستمع إليك) هم المنافقون وإفراد الضمير باعتبار لفظ من كما أن جمعه فيما سيأتى باعتبار معناها كانوا يحضرون مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم فيسمعون كلامه
* ولا يعونه ولا يراعونه حق رعايته تهاوناً منهم (حتى إذا خرجوا من عندك قالوا للذين أوتوا العلم)
* من الصحابة رضى الله عنهم (ماذا قال آنفاً) أى ما الذى قال الساعة على طريقة الاستهزاء وإن كان بصورة الاستعلام وآنفاً من قولهم أنف الشىء لما تقدم منه مستعار من الجارحة ومنه استأنف الشىء
* وائتنف وهو ظرف بمعنى وقتاً مؤتنفاً أو حال من الضمير فى قال وقرىء أنفاً (أولئك) الموصوفون
* بما ذكر (الذين طبع الله على قلوبهم) لعدم توجههم نحو الخير أصلا (واتبعوا أهواءهم) الباطلة فلذلك
١٧ فعلوا مافعلوا مما لاخير فيه (والذين اهتدوا) إلى طريق الحق (زادهم) أى الله تعالى (هدى) بالتوفيق
١٨ والإلهام (وآتاهم تقواهم) أعانهم على تقواهم أو أعطاهم جزاءها أو بين لهم مايتقون (فهل ينظرون
* إلا الساعة) أى القيامة وقوله تعالى (أن تأتيهم بغتة) أى تباغتهم بغتة وهى المفاجأة بدل اشتمال من

فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ ﴿١٩﴾ ٤٧ محمد

وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٠﴾ ٤٧ محمد

الساعة والمعنى أنهم لايتذكرون بذكر أهوال الأمم الخالية ولا بالإخبار بإتيان الساعة وما فيها من عظائم الأهوال ومايتنظرون للتذكر إلا إتيان نفس الساعة بغتة وقرىء بغتة بفتح الغين وقوله تعالى (فقد جاء أشراطها) تعليل لمفاجأتها لا لإتيانها مطلقاً على معنى أنه لم يبق من الأمور الموجبة للتذكر * أمر مترقب ينتظرونه سوى إتيان نفس الساعة إذ قد جاء أشراطها فلم يرفعوا لها رأساً ولم يعدوها من مبادى إتيانها فيكون إتيانها بطريق المفاجأة لا محالة والأشراط جمع شرط بالتحريك وهى العلامة والمراد بها مبعثه صلى الله عليه وسلم وانشقاق القمر ونحوهما وقوله تعالى (فأنى لهم إذاجاءتهم ذكراهم) * حكم بخطئهم وفساد رأيهم فى تأخير التذكر إلى إتيانها ببيان استحالة نفع التذكر حينئذ كقوله تعالى يومئذ يتذكر الإنسان وأنى له الذكرى أى وكيف لهم ذكراهم إذا جاءتهم على أن أنى خبر مقدم وذكراهم مبتدأ وإذاجاءتهم اعتراض وسط بينهما رمزاً إلى غاية سرعة مجيئها وإطلاق المجىء عن قيد البغتة لما أن مدار استحالة نفع التذكر كونه عند مجيئه مطلقاً لا مقيداً بقيد البغتة وقرىء إن تأتهم على أنه شرط مستأنف جزاؤه

١٩ فأنى لهم الخ والمعنى إن تأتهم الساعة بغتة لأنه قد ظهر أماراتها فكيف لهم تذكرهم واتعاظهم إذا جاءتهم (فاعلم أنه لا إله إلا الله) أى إذا علمت أن مدار السعادة هو التوحيد والطاعة ومناط الشقاوة هو الإشراك والعصيان فاثبت على ما أنت عليه من العلم بالوحدانية والعمل بموجبه (واستغفر لذنبك) وهو الذى ربما يصدر * عنه عليه الصلاة والسلام من ترك الأولى عبر عنه بالذنب نظراً إلى منصبه الجليل كيف لا وحسنات الأبرار سيئات المقربين وإرشاد له عليه الصلاة والسلام إلى التواضع وهضم النفس واستقصار العمل (وللمؤمنين والمؤمنات) أى لذنوبهم بالدعاء لهم وترغيبهم فيما يستدعى غفرانهم وفى إعادة صلة الاستغفار * تنبيه على اختلاف متعلقيه جنساً وفى حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه إشعار بعراقتهم فى الذنب وفرط افتقارهم إلى الاستغفار (والله يعلم متقلبكم) فى الدنيا فإنها مراحل لابد من قطعها * لامحالة (ومثواكم) فى العقبى فإنها مواطن إقامتكم فلا يأمركم إلا بما هو خير لكم فيهما فبادروا إلى الامتثال *

٢٠ بما أمركم به فإنه المهم لكم فى المقامين وقيل يعلم جميع أحوالكم فلا يخفى عليه شىء منها (ويقول الذين آمنوا) حرصاً منهم على الجهاد (لولا نزلت سورة) أى هلا نزلت سورة تؤمر فيها بالجهاد (فإذا أنزلت * سورة محكمة وذكر فيها القتال) بطريق الأمر به أى سورة مبينة لاتشابه ولا احتمال فيها لوجه آخر سوى وجوب القتال. عن قتادة كل سورة فيها ذكر القتال فهى محكمة لم تنسخ وقرىء فإذا نزلت

طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴿٢١﴾ ٤٧ محمد

فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ ٤٧ محمد

سورة وقرىء وذكر على إسناد الفعل إلى ضميره تعالى ونصب القتال (رأيت الذين فى قلوبهم مرض)
أى ضعف فى الدين وقيل نفاق وهو الأظهر الأوفق لسياق النظم الكريم (ينظرون إليك نظر المغشى
عليه من الموت) أى تشخص أبصارهم جبناً وهلعاً كدأب من أصابته غشية الموت (فأولى لهم) أى
فويل لهم وهو أفعل من الولى وهو القرب وقيل من آل ومعناه الدعاء عليهم بأن يليهم المكروه أو
٢١ يؤول إليه أمرهم وقيل هو مشتق من الويل وأصله أويل نقلت العين إلى ما بعد اللام فوزنه أفلع (طاعة
وقول معروف) كلام مستأنف أى أمرهم طاعة الخ أو طاعة وقول معروف خير لهم أو حكاية لقولهم
ويؤيده قراءة أبى يقولون طاعة وقول معروف أى أمرنا ذلك (فإذا عزم الأمر) أسند العزم وهو
الجد إلى الأمر وهو لأصحابه مجازاً كما فى قوله تعالى إن ذلك من عزم الأمور وعامل الظرف محذوف
أى خالفوا وتخلفوا وقيل ناقضوا وقيل كرهوا وقيل هو قوله تعالى (فلو صدقوا الله) على طريقة
قولك إذا حضرنى طعام فلو جئتنى لأطعمتك أى فلو صدقوه تعالى فيما قالوا من الكلام المنبىء عن الحرص
على الجهاد بالجرى على موجبه (لكان) أى الصدق (خيراً لهم) وفيه دلالة على اشتراك الكل فيما
حكى عنهم من قوله تعالى لولا نزلت سورة وقيل فلو صدقوه فى الإيمان وواطأت قلوبهم فى ذلك ألسنتهم
٢٢ وأياً ما كان فالمراد بهم الذين فى قلوبهم مرض وهم المخاطبون بقوله تعالى (فهل عسيتم) الخ بطريق
الالتفات لتأكيد التوبيخ وتشديد التقريع أى هل يتوقع منكم (إن توليتم) أمور الناس وتأمرتم عليهم
(أن تفسدوا فى الأرض وتقطعوا أرحامكم) تناحراً على الملك وتهالكاً على الدنيا فإن من شاهد أحوالكم
الدالة على الضعف فى الدين والحرص على الدنيا حين أمرتم بالجهاد الذى هو عبارة عن إحراز كل خير
وصلاح ودفع كل شر وفساد وأنتم مأمورون شأنكم الطاعة والقول المعروف يتوقع منكم إذا أطلقت
أعنتكم وصرتم آمرين ماذكر من الإفساد وقطع الأرحام وقيل إن أعرضتم عن الإسلام أن ترجعوا
إلى ما كنتم عليه فى الجاهلية من الإفساد فى الأرض بالتغاور والتناهب وقطع الأرحام بمقاتلة بعض
الأقارب بعضاً ووأد البنات وفيه أن الواقع فى حيز الشرط فى مثل هذا المقام لابد أن تكون محذوريته
باعتبار مايستتبعه من المفاسد لا باعتبار ذاته ولا ريب فى أن الإعراض عن الإسلام رأس كل شر
وفساد فحقه أن يجعل عمدة فى التوبيخ لا وسيلة للتوبيخ بما دونه من المفاسد وقرىء وليتم على البناء
للمفعول أى جعلتم ولاة وقرىء توليتم أى تولاكم ولاة جور خرجتم معهم وساعدتموهم فى الإفساد
وقطيعة الرحم وقرىء وتقطعوا من التقطع بحذف إحدى التاءين فانتصاب أرحامكم حينئذ على نزع
الجار أى فى أرحامكم وقرىء وتقطعوا من القطع وإلحاق الضمير بعسى لغة أهل الحجاز وأما بنو

أُولَٰئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴿٢٣﴾ ٤٧ محمد

أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ ٤٧ محمد

إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾ ٤٧ محمد

ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ كَرِهُوا۟ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾ ٤٧ محمد

٢٣ تمم فيقولون عسى أن تفعل وعسى أن تفعلوا (أولئك) إشارة إلى المخاطبين بطريق الالتفات إيذاناً
بأن ذكر هناتهم أوجب إسقاطهم عن رتبة الخطاب وحكاية أحوالهم الفظيعة لغيرهم وهو مبتدأ خبره
(الذين لعنهم الله) أى أبعدهم من رحمته (فأصمهم) عن استماع الحق لتصامهم عنه بسوء اختيارهم *
٢٤ (وأعمى أبصارهم) لتعاميهم عما يشاهدونه من الآيات المنصوبة فى الأنفس والآفاق (أفلا يتدبرون
القرآن) أى ألا يلاحظونه ولا يتصفحونه وما فيه من المواعظ والزواجر حتى لايقعوا فيما وقعوا فيه
من الموبقات (أم على قلوب أقفالها) فلا يكاد يصل إليها ذكر أصلا وأم منقطعة وما فيها من معنى *
بل للانتقال من التوبيخ بعدم التدبر إلى التوبيخ بكون قلوبهم مقفلة لاتقبل التدبر والتفكر والهمزة
للتقرير وتنكير القلوب إما لتهويل حالها وتفظيع شأنها بإبهام أمرها فى القساوة والجهالة كأنه قيل على
قلوب منكرة لايعرف حالها ولا يقادر قدرها فى القساوة وإما لأن المراد بها قلوب بعض منهم وهم
المنافقون وإضافة الأقفال إليها للدلالة على أنها أقفال مخصوصة بها مناسبة لها غير مجانسة لسائر الأقفال
٢٥ المعهودة وقرىء أقفلها وأقفالها على المصدر (إن الذين ارتدوا على أدبارهم) أى رجعوا إلى ما كانوا
عليه من الكفر وهم المنافقون الذين وصفوا فيما سلف بمرض القلوب وغيره من قبائح الأفعال والأحوال
فإنهم قد كفروا به عليه الصلاة والسلام (من بعد ماتبين لهم الهدى) بالدلائل الظاهرة والمعجزات *
القاهرة وقيل هم اليهود وقيل أهل الكتابين جميعاً كفروا به عليه الصلاة والسلام بعد ماوجدوا نعته
فى كتابهم وعرفوا أنه المنعوت بذلك وقوله تعالى (الشيطان سول لهم) جملة من مبتدأ وخبر وقعت *
خبراً لأن أى سهل لهم ركوب العظائم من السول وهو الاسترخاء وقيل من السول المخفف من السؤل
لاستمرار القلب فمعنى سول له أمراً حينئذ أوقعه فى أمنيته فإن السؤل الأمنية وقرىء سول مبنياً
للمفعول على حذف المضاف أى كيد الشيطان (وأملى لهم) ومد لهم فى الأمانى والآمال وقيل أمهلهم *
الله تعالى ولم يعاجلهم بالعقوبة وقرىء وأملى لهم على صيغة المتكلم فالمعنى أن الشيطان يغويهم وأنا
٢٦ أنظرهم فالواو للحال أو للاستئناف وقرىء أملى لهم على البناء للمفعول أى أمهلوا ومد فى عمرهم (ذلك)
إشارة إلى ماذكر من ارتدادهم لا إلى الإملاء كما نقل عن الواحدى ولا إلى التسويل كما قيل لأن شيئاً
منهما ليس مسبباً عن القول الآتى وهو مبتدأ خبره قوله تعالى (بأنهم) أى بسبب أنهم (قالوا) يعنى *
المنافقين المذكورين لا لليهود الكافرين به عليه الصلاة والسلام بعد ماوجدوا نعته فى التوراة كما قيل

فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَـٰئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَـٰرَهُمْ ﴿٢٧﴾ ٤٧ محمد

ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَٰنَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَـٰلَهُمْ ﴿٢٨﴾ ٤٧ محمد

أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَـٰنَهُمْ ﴿٢٩﴾ ٤٧ محمد

فإن كفرهم به ليس بسبب هذا القول ولو فرض صدوره عنهم سواء كان المقول لهم المنافقين أو المشركين
على رأى القائل بل من حين بعثته عليه الصلاة والسلام (للذين كرهوا ما نزل الله) أى لليهود الكارهين
لنزول القرآن على رسول الله صلى الله عليه وسلم مع علمهم بأنه من عند الله تعالى حسداً وطمعاً فى نزوله
عليهم لا للمشركين كما قيل فإن قوله تعالى (سنطيعكم فى بعض الأمر) عبارة قطعاً عما حكى عنهم بقوله
تعالى ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب لئن أخرجتم لنخرجن
معكم ولا نطيع فيكم أحداً أبداً وإن قوتلتم لننصرنكم وهم بنو قريظة والنضير الذين كانوا يوالونهم
ويوادونهم وأرادوا بالبعض الذى أشاروا إلى عدم إطاعتهم فيه إظهار كفرهم وإعلان أمرهم بالفعل
قبل قتالهم وإخراجهم من ديارهم فإنهم كانوا يأبون ذلك قبل مساس الحاجة الضرورية الداعية إليه
لما كان لهم فى إظهار الإيمان من المنافع الدنيوية وإنما كانوا يقولون لهم مايقولون سراً كما يعرب عنه
قوله تعالى (والله يعلم إسرارهم) أى إخفاءهم لما يقولونه لليهود وقرىء أسرارهم أى جميع أسرارهم التى
من جملتها قولهم هذا والجملة اعتراض مقرر لما قبله متضمن للإفشاء فى الدنيا والتعذيب فى الآخرة
٢٧ والفاء فى قوله تعالى (فكيف إذا توفتهم الملائكة) لترتيب مابعدها على ماقبلها وكيف منصوب بفعل
محذوف هو العامل فى الظرف كأنه قيل يفعلون فى حياتهم مايفعلون من الحيل فكيف يفعلون إذا توفتهم
الملائكة وقيل مرفوع على أنه خبر لمبتدأ محذوف أى فكيف حالهم أو حيلتهم إذا توفتهم الخ وقرىء
توفاهم على أنه إما ماض أو مضارع قد حذف إحدى تاءيه (يضربون وجوههم وأدبارهم) حال من
فاعل توفتهم أو من مفعوله وهو تصوير لتوفيهم على أهول الوجوه وأفظعها وعن ابن عباس رضى
٢٨ الله عنهما لا يتوفى أحد على معصية إلا يضرب الملائكة وجهه ودبره (ذلك) التوفى الهائل (بأنهم)
أى بسبب أنهم (اتبعوا ما أسخط الله) من الكفر والمعاصى (وكرهوا رضوانه) أى مايرضاه من
الإيمان والطاعة حيث كفروا بعد الإيمان وخرجوا عن الطاعة بما صنعوا من المعاملة مع اليهود (فأحبط)
لأجل ذلك (أعمالهم) التى عملوها حال إيمانهم من الطاعات أو بعد ذلك من أعمال البر التى لو عملوها
٢٩ حال الإيمان لانتفعوا بها (أم حسب الذين فى قلوبهم مرض) هم المنافقون الذين فصلت أحوالهم
الشنيعة وصفوا بوصفهم السابق لكونه مدار لمانعى عليهم بقوله تعالى (أن لن يخرج الله أضغانهم)
فأم منقطعة وأن مخففة من أن وضمير الشأن الذى هو اسمها محذوف ولن بما فى حيزها خبرها والأضغان
جمع ضغن وهو الحقد أى بل أحسب الذين فى قلوبهم حقداً وعداوة للمؤمنين أنه لن يخرج الله أحقادهم

وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٠﴾ ٤٧ محمد

وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾ ٤٧ محمد

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّوا۟ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٣٢﴾ ٤٧ محمد

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓا۟ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٣﴾ ٤٧ محمد

ولن يبرزها لرسوله صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين فتبقى أمورهم مستورة والمعنى أن ذلك مما لا يكاد
يدخل تحت الاحتمال (ولو نشاء) إراءتهم (لأريناكهم) لعرفناكهم بدلائل تعرفهم بأعيانهم معرفة ٣٠
متاخمة للرؤية والالتفات إلى نون العظمة لإبراز العناية بالإراءة (فلعرفتهم بسيماهم) بعلامتهم التى نسمهم *
بها وعن أنس رضى الله عنه ماخفى على رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد هذه الآية شىء من المنافقين
كان يعرفهم بسيماهم ولقد كنا فى بعض الغزوات وفيها تسعة من المنافقين يشكوهم الناس فناموا ذات
ليلة وأصبحوا وعلى كل واحد منهم مكتوب هذا منافق واللام لام الجواب كررت فى المعطوف للتأكيد
والفاء لترتيب المعرفة على الإراءة وأما مافى قوله تعالى (ولتعرفنهم فى لحن القول) فلجواب قسم *
محذوف ولحن القول نحوه وأسلوبه أو إمالته إلى جهة تعريض وتورية ومنه قيل للمخطىء لاحن لعدله
بالكلام عن سمت الصواب (والله يعلم أعمالكم) فيجازيكم بحسب قصدكم وهذا وعد للمؤمنين وإيذان *
بأن حالهم بخلاف حال المنافقين (ولنبلونكم) بالأمر بالجهاد ونحوه من التكاليف الشاقة (حتى نعلم ٣١
المجاهدين منكم والصابرين) على مشاق الجهاد علماً فعلياً يتعلق به الجزاء (ونبلوا أخباركم) مايخبر به *
عن أعمالكم فيظهر حسنها وقبيحها وقرىء ويبلو بالياء وقرىء ونبلو بسكون الواو على ونحن نبلوا (إن الذين ٣٢
كفروا وصدوا) الناس (عن سبيل الله وشاقوا الرسول) وعادوه (من بعد ماتبين لهم الهدى) بماشاهدوا *
نعته عليه الصلاة والسلام فى التوراة وبما ظهر على يديه من المعجزات ونزل عليه من الآيات وهم قريظة
والنضير أو المطعمون يوم بدر (لن يضروا الله) بكفرهم وصدهم (شيئاً) من الأشياء أو شيئاً من الضرر *
أو لن يضروا رسول الله صلى الله عليه وسلم بمشاقته شيئاً وقد حذف المضاف لتعظيمه وتفظيع مشاقته
(وسيحبط أعمالهم) أى مكايدهم التى نصبوها فى إبطال دينه تعالى ومشاقة رسوله عليه الصلاة والسلام *
فلا يصلون بها إلى ما كانوا يبغون من الغوائل ولا تثمر لهم إلا القتل والجلاء عن أوطانهم (ياأيها ٣٣
الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ولا تبطلوا أعمالكم) بما أبطل به هؤلاء أعمالهم من الكفر
والنفاق والعجب والرياء والمن والأذى ونحوها وليس فيه دليل على إحباط الطاعات بالكبائر .

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ﴿٣٤﴾ ٤٧ مد

فَلَا تَهِنُواْ وَتَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٥﴾ ٤٧ مد

إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِن تُؤْمِنُواْ وَتَتَّقُواْ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ﴿٣٦﴾ ٤٧ مد

إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُواْ وَيُخْرِجْ أَضْغَٰنَكُمْ ﴿٣٧﴾ ٤٧ مد

هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ
وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَٰلَكُم ﴿٣٨﴾ ٤٧ مد

٣٤ (إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله ثم ماتوا وهم كفار فلن يغفر الله لهم) حكم يعم كل من مات
٣٥ على الكفر وإن صح نزوله فى أصحاب القليب (فلا تهنوا) أى لا تضعفوا (وتدعوا إلى السلم) أى
ولا تدعوا الكفار إلى الصلح خوراً فإن ذلك إعطاء الدنية ويجوز أن يكون منصوباً بإضمار أن على
جواب النهى وقرىء ولا تدعوا من ادعى القوم بمعنى تداعوا نحو ارتموا الصيد وتراموه ومنه تراءوا
الهلال فإن صيغة التفاعل قد يراد بها صدور الفعل عن المتعدد من غير اعتبار وقوعه عليه ومنه قوله
تعالى عم يتساءلون على أحد الوجهين والفاء لترتيب النهى على ما سبق من الأمر بالطاعة وقوله تعالى
* (وأنتم الأعلون) جملة حالية مقررة لمعنى النهى مؤكدة لوجوب الانتهاء وكذا قوله تعالى (والله معكم)
فإن كونهم الأعلين وكونه عز وجل ناصرهم من أقوى موجبات الاجتناب عما يوهم الذل والضراعة
* وكذا توفيته تعالى لأجور الأعمال حسبما يعرب عنه قوله تعالى (ولن يتركم أعمالكم) أى ولن يضيعها
من وترت الرجل إذا قتلت له قتيلا من ولد أو أخ أو حميم فأفردته عنه من الوتر الذى هو الفرد وعبر
عن ترك الإثابة فى مقابلة الأعمال بالوتر الذى هو إضاعة شىء معتد به من الأنفس والأموال مع أن
الأعمال غير موجبة للثواب على قاعدة أهل السنة إبرازاً لغاية اللطف بتصوير الثواب بصورة الحق
المستحق وتنزيل ترك الإثابة منزلة إضاعة أعظم الحقوق وإتلافها وقدمر فى قوله تعالى فاستجاب لهم
٣٦ ربهم أنى لا أضيع عمل عامل منكم (إنما الحياة الدنيا لعب ولهو) لاثبات لها ولا اعتداد بها (وإن
تؤمنوا وتتقوا يؤتكم أجوركم) أى ثواب إيمانكم وتقواكم من الباقيات الصالحات التى يتنافس فيها
* المتنافسون (ولا يسألكم أموالكم) بحيث يخل أداؤها بمعاشكم وإنما اقتصر على نزر يسير منها هو ربع
٣٧ العشر تؤدونها إلى فقرائكم (إن يسألكموها) أى أموالكم (فيحفكم) أى يجهدكم بطلب الكل فإن
* الإحفاء والإلحاف المبالغة وبلوغ الغاية يقال أحفى شاربه إذا استأصله (تبخلوا) فلا تعطوا (ويخرج
أضغانكم) أى أحقادكم وضمير يخرج لله تعالى ويعضده القراءة بنون العظمة أو للبخل لأنه سبب الأضغان
٣٨ وقرىء يخرج من الخروج بالياء والتاء مسنداً إلى الأضغان (ها أنتم هؤلاء) أى أنتم أيها المخاطبون

سُورَةُ مُحَمَّدٍ

ترتيبها ٤٧ — آياتها ٣٨

وتسمى سورة القتال، وهي مدنية عند الأكثرين ولم يذكروا استثناء، وعن ابن عباس وقتادة أنها مدنية إلا قوله تعالى: ﴿وكأين من قرية﴾ [محمد: ١٣] إلى آخره فإنه ﷺ لما خرج من مكة إلى الغار التفت إليها وقال: «أنت أحب بلاد الله تعالى إلى الله وأنت أحب بلاد الله تعالى إليّ ولولا أن أهلك أخرجوني منك لم أخرج منك» فأنزل الله تعالى ذلك فيكون مكياً بناءً على أن ما نزل في طريق المدينة قبل أن يبلغها النبي ﷺ . أعني ما نزل في سفر الهجرة . من المكي اصطلاحاً كما يؤخذ من أثر أخرجه عثمان بن سعيد الدارمي بسنده إلى يحيى بن سلام، وعدة آيها أربعون في البصري وثمان وثلاثون في الكوفي وتسع بالتاء الفوقية وثلاثون فيما عداهما، والخلاف في قوله تعالى: ﴿حتى تضع الحرب أوزارها﴾ [محمد: ٤] وقوله تعالى: ﴿لذة للشاربين﴾ [محمد: ١٥] ولا يخفى قوة ارتباط أولها بآخر السورة قبلها واتصاله وتلاحمه بحيث لو سقطت من البين البسملة لكانا متصلاً واحداً لا تنافر فيه كالآية الواحدة آخذاً بعضه بعنق بعض، وكان ﷺ على ما أخرج الطبراني في الأوسط عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما يقرؤها في صلاة المغرب.

وأخرج ابن مردويه عن علي كرم الله تعالى وجهه أنه قال: نزلت سورة محمد آية فينا وآية في بني أمية، ولا أظن صحة الخبر. نعم لكفار بني أمية الحظ الأوفر من عمومات الآيات التي في الكفار كما أن لأهل البيت رضي الله تعالى عنهم المعلى والرقيب من عمومات الآيات التي في المؤمنين، وأكثر من هذا لا يقال سوى أني أقول: لعن الله تعالى من قطع الأرحام وآذى الآل.

بسم الله الرحمن الرحيم

ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ ﴿١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٖ
وَهُوَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡ كَفَّرَ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَأَصۡلَحَ بَالَهُمۡ ﴿٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلۡبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ
ٱتَّبَعُواْ ٱلۡحَقَّ مِن رَّبِّهِمۡۚ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمۡثَٰلَهُمۡ ﴿٣﴾ فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرۡبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ
أَثۡخَنتُمُوهُمۡ فَشُدُّواْ ٱلۡوَثَاقَ فَإِمَّا مَنَّۢا بَعۡدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلۡحَرۡبُ أَوۡزَارَهَاۚ ذَٰلِكَۖ وَلَوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنۡهُمۡ وَلَٰكِن لِّيَبۡلُوَاْ
بَعۡضَكُم بِبَعۡضٖۗ وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ ﴿٤﴾ سَيَهۡدِيهِمۡ وَيُصۡلِحُ بَالَهُمۡ ﴿٥﴾ وَيُدۡخِلُهُمُ ٱلۡجَنَّةَ

عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴿٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ
أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٨﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٩﴾ ۞ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ
عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا ﴿١٠﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ
لَهُمْ ﴿١١﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ
وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴿١٢﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِىَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَتْكَ
أَهْلَكْنَٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴿١٣﴾ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُم ﴿١٤﴾

﴿بسم الله الرَّحمٰن الرَّحيم الَّذينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبيلِ الله﴾ أي أعرضوا عن الإسلام وسلوك طريقه أو منعوا غيرهم عن ذلك على أن صد لازم أو متعد، قال في الكشف: والأول أظهر لأن الصد عن سبيل الله هو الإعراض عما أتى به محمد ﷺ لقوله تعالى: ﴿قل هذه سبيل أدعو إلى الله﴾ [يوسف: ١٠٨] فيطابق قوله تعالى: **﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات وآمنوا بما نزل على محمد﴾** وكثير من الآثار تؤيد الثاني، وفسر الضحاك **﴿سبيل الله﴾** ببيت الله عز وجل، وقال: صدهم عنه منعهم قاصديه وليس بذلك.

والآية عامة لكل من اتصف بعنوان الصلة، وقال ابن عباس: هم أي الذين كفروا وصدوا على الوجه الثاني في **﴿صدوا﴾** المطعمون يوم بدر الكبرى، وكأنه عنى من يدخل في العموم دخولاً أولياً، فإن أولئك كانوا صادين بأموالهم وأنفسهم فصدهم أعظم من صد غيرهم ممن كفر وصد عن السبيل، وأول من أطعم منهم. على ما نقل عن سيرة ابن سيد الناس. أبو جهل عليه اللعنة نحر لكفار قريش حين خرجوا من مكة عشراً من الإبل، ثم صفوان بن أمية نحر تسعاً بعسفان، ثم سهل بن عمرو نحر بقديد عشراً ثم شيبة بن ربيعة وقد ضلوا الطريق نحر تسعاً ثم عتبة بن ربيعة نحر عشراً، ثم مقيس الجمحي بالابواء نحر تسعاً، ثم العباس نحر عشراً، والحرث بن عامر نحر تسعاً، وأبو البختري على ماء بدر نحر عشراً، ومقيس تسعاً؛ ثم شغلتهم الحرب فأكلوا من أزوادهم، وقيل: كانوا ستة نفر نبيه ومنبه ابنا الحجاج وعتبة وشيبة ابنا ربيعة، وأبو جهل والحارث ابنا هشام، وضم مقاتل إليهم ستة أخرى وهم عامر بن نوفل. وحكيم بن حزام. وزمعة بن الأسود. والعباس بن عبد المطلب. وصفوان بن أمية. وأبو سفيان بن حرب أطعم كل واحد منهم يوماً الأحابيش والجنود يستظهرون بهم على حرب رسول الله ﷺ، ولا ينافي عد أبي سفيان إن صحت الرواية من أولئك كونه مع العير لأن المراد بيوم بدر زمن وقعتها فيشمل من أطعم في الطريق وفي مدتها حتى انقضت، وقال مقاتل: هم اثنا عشر رجلاً من أهل الشرك كانوا يصدون الناس عن الإسلام ويأمرونهم بالكفر، وقيل: هم شياطين من أهل الكتاب صدوا من أراد منهم أو من غيرهم عن الدخول في الإسلام.

والموصول مبتدأ خبره قوله تعالى: **﴿أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾** أي أبطلها وأحبطها وجعلها ضائعة لا أثر لها ولا نفع أصلاً لا بمعنى أنه سبحانه أبطلها وأحبطها بعد أن لم تكن كذلك بل بمعنى أنه عز وجل حكم ببطلانها وضياعها وأريد بها ما كانوا يعملونه من أعمال البر كصلة الأرحام وقرى الأضياف وفك الأسارى وغيرها من المكارم.

وجوز أن يكون المعنى جعلها ضلالاً أي غير هدى حيث لم يوفقهم سبحانه لأن يقصدوا بها وجهه سبحانه أو

جعلها ضالة أي غير مهتدية على الإسناد المجازي، ومن قال الآية في المطعمين وأضرابهم قال: المعنى أبطل جلّ وعلا ما عملوه من الكيد لرسول الله ﷺ كالإنفاق الذي أنفقوه في سفرهم إلى محاربته عليه الصلاة والسلام وغيره بنصر رسوله ﷺ وإظهار دينه على الدين كله، ولعله أوفق بما بعده، وكذا بما قيل إن الآية نزلت ببدر.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ قال ابن عباس فيما أخرجه عنه جماعة منهم الحاكم وصححه هم أهل المدينة الأنصار، وفسر رضي الله تعالى عنه ﴿الذين كفروا﴾ بأهل مكة قريش، وقال مقاتل: هم ناس من قريش، وقيل: مؤمنو أهل الكتاب، وقيل: أعم من المذكورين وغيرهم فإن الموصول من صيغ العموم ولا داعي للتخصيص ﴿وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ﴾ من القرآن، وخص بالذكر الإيمان بذلك مع اندراجه فيما قبله تنويهاً بشأنه وتنبيهاً على سمو مكانه من بين سائر ما يجب الإيمان به وانه الأصل في الكل ولذلك أكد بقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ وهو جملة معترضة بين المبتدأ والخبر مفيدة لحصر الحقية فيه على طريقة الحصر في قوله تعالى: ﴿ذلك الكتاب﴾ وقولك: حاتم الجواد فيراد بالحق ضد الباطل، وجوز أن يكون الحصر على ظاهره والحق الثابت، وحقية ما نزل عليه عليه الصلاة والسلام لكونه ناسخاً لا ينسخ وهذا يقتضي الاعتناء به ومنه جاء التأكيد، وأياً ما كان فقوله تعالى ﴿من ربهم﴾ حال من ضمير ﴿الحق﴾ وقرأ زيد بن علي. وابن مقسم «نَزَلَ» مبنياً للفاعل. والأعمش «أُنْزِل» معدى بالهمزة مبنياً للمفعول، وقرىء «أَنْزَل» بالهمز مبنياً للفاعل «ونَزَلَ» بالتخفيف ﴿كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ أي سترها بالإيمان والعمل الصالح، والمراد إزالها ولم يؤاخذهم بها ﴿وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ أي حالهم في الدين والدنيا بالتوفيق والتأييد، وتفسير البال بالحال مروي عن قتادة وعنه تفسيره بالشأن وهو الحال أيضاً أو ما له خطر، وعليه قول الراغب: البال الحال التي يكترث بها، ولذلك يقال: ما باليت بكذا بالة أي ما اكترثت به، ومنه قوله ﷺ: «كل أمر ذي بال» الحديث ويكون بمعنى الخاطر القلبي ويتجوز به عن القلب كما قال الشهاب. وفي البحر حقيقة البال الفكر والموضع الذي فيه نظر الإنسان وهو القلب ومن صلح قلبه صلحت حاله، فكأن اللفظ مشير إلى صلاح عقيدتهم وغير ذلك من الحال تابع له، وحكى عن السفاقسي تفسيره هنا بالفكر وكأنه لنحو ما أشير إليه، وهو كما في البحر أيضاً مما لا يثنى ولا يجمع وشذ قولهم في جمعه بالات ﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى ما مر من الإضلال والتكفير والإصلاح وهو مبتدأ خبره قوله تعالى: ﴿بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ أي ذلك كائن بسبب اتباع الأولين الباطل واتباع الآخرين الحق؛ والمراد بالحق والباطل معناهما المشهور.

وأخرج ابن المنذر. وغيره عن مجاهد تفسير ﴿الباطل﴾ بالشيطان. وفي البحر قال مجاهد: الباطل الشيطان وكل ما يأمر به و ﴿الحق﴾ هو الرسول والشرع، وقيل: الباطل ما لا ينتفع به، وجوز الزمخشري كون ذلك خبر مبتدأ محذوف و ﴿بأن﴾ الخ في محل نصب على الحال، والتقدير الأمر ذلك أي كما ذكر ملتبساً بهذا السبب.

والعامل في الحال إما معنى الإشارة وإما نحو أثبته وأحقه فإن الجملة تدل على ذلك لأنه مضمون كل خبر وتعقبه أبو حيان بأن فيه ارتكاباً للحذف من غير داع له، والجار والمجرور أعني ﴿من ربهم﴾ في موضع الحال على كل حال، والكلام أعني قوله تعالى: ﴿ذلك بأن﴾ إلى قوله سبحانه: ﴿من ربهم﴾ تصريح بما أشعر به الكلام السابق من السببية لما فيه من البناء على الموصول، ويسميه علماء البيان التفسير، ونظيره ما أنشده الزمخشري لنفسه:

به فجع الفرسان فوق خيولهم ... كما فجعت تحت الستور العواتق
تساقط من أيديهم البيض حيرة ... وزعزع عن أجيادهن المخانق

فإن فيه تفسيراً على طريق اللف والنشر كما في الآية وهو من محاسن الكلام ﴿كَذَلِكَ﴾ أي مثل ذلك الضرب

البديع ﴿يَضْرُب الله﴾ أي يبين ﴿للنَّاس﴾ أي لأجلهم ﴿أَمْثَالَهُمْ﴾ أي أحوال الفريقين المؤمنين والكافرين وأوصافهما الجارية في الغرابة مجرى الأمثال، وهي اتباع المؤمنين الحق وفوزهم وفلاحهم، واتباع الكافرين الباطل وخيبتهم وخسرانهم، وجوز أن يراد بضرب الأمثال التمثيل والتشبيه بأن جعل سبحانه اتباع الباطل مثلاً لعمل الكفار والإضلال مثلاً لخيبتهم واتباع الحق مثلاً لعمل المؤمنين وتكفير السيئات مثلاً لفوزهم والإشارة بذلك لما تضمنه الكلام السابق، وجوز كون ضمير ﴿أمثالهم﴾ للناس؛ والفاء في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ لترتيب ما في حيزها من الأمر على ما قبلها فإن ضلال أعمال الكفرة وخيبتهم وصلاح أحوال المؤمنين وفلاحهم مما يوجب أن يترتب على كل من الجانبين ما يليق به من الأحكام أي إذا كان الأمر كذلك فإذا لقيتموهم في المحارب ﴿فَضَرْبَ الرِّقَابِ﴾ وقال الزمخشري: ﴿لقيتم﴾ من اللقاء وهو الحرب و ﴿ضرب﴾ نصب على المصدرية لفعل محذوف والأصل اضربوا الرقاب ضرباً فحذف الفعل وقدم المصدرية وأنيب منابه مضافاً إلى المفعول، وحذف الفعل الناصب في مثل ذلك بما أضيف إلى معموله واجب، وهو أحد مواضع يجب فيها الحذف ذكرت في مطولات كتب النحو، وليس منها نحو ضربا زيداً على ما نص عليه ابن عصفور.

وذكر غير واحد أن فيما ذكر اختصاراً وتأكيداً ولا كلام في الاختصار، وأما التأكيد فظاهر القول به أن المصدر بعد حذف عامله مؤكد، وقال الحمصي في حواشي التصريح: إن المصدر في ذلك مؤكد في الأصل وأما الآن فلا لأنه صار بمنزلة الفعل الذي سد هو مسده فلا يكون مؤكداً بل كل مصدر صار بدلاً من اللفظ بالفعل لا يكون مؤكداً ولا مبيناً لنوع ولا عدد، و ﴿ضرب الرقاب﴾ مجاز مرسل عن القتل، وعبر به عنه إشعاراً بأنه ينبغي أن يكون بضرب الرقبة حيث أمكن وتصويراً له بأشنع صورة لأن ضرب الرقبة فيه إطارة الرأس الذي هو أشرف أعضاء البدن ومجمع حواسه وبقاء البدن ملقى على هيئة منكرة والعياذ بالله تعالى، وذكر أن في التعبير المذكور تشجيع المؤمنين وأنهم منهم بحيث يتمكنون من القتل بضرب أعناقهم في الحرب ﴿حَتَّى إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ﴾ أي أوقعتم القتل بهم بشدة وكثرة على أن ذلك مستعار من ثخن المائعات لمنعه عن الحركة، والمراد حتى إذا أكثرتم قتلهم وتمكنتم من أخذ من لم يقتل ﴿فَشُدُّوا الْوَثَاقَ﴾ أي فأسروهم واحفظوهم، فالشد وكذا ما بعد في حق من أسر منهم بعد اثخانهم لا للمثخن إذ هو بالمعنى السابق لا يشد ولا يمن عليه ولا يفدى لأنه قد قتل أو المعنى حتى إذا أثقلتموهم بالجراح ونحوه بحيث لا يستطيعون النهوض فأسروهم واحفظوهم؛ فالشد وكذا ما بعد في حق المثخن لأنه بهذا المعنى هو الذي لم يصل إلى حد القتل لكن ثقل عن الحركة فصار كالشيء الثخين الذي لم يسل ولم يستمر في ذهابه، والإثخان عليه مجاز أيضاً، و ﴿الوثاق﴾ في الأصل مصدر كالخلاص وأريد به هنا ما يوثق به. وقرىء «الوِثَاقِ» بالكسر وهو اسم لذلك، ومجيء فعال اسم آلة كالحزام والركاب نادر على خلاف القياس، وظاهر كلام البعض أن كلاً من المفتوح والمكسور اسم لما يوثق به، ولعل المراد بيان المراد هنا.

﴿فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً﴾ أي فإما تمنون مناً وإما تفدون فداء، والكلام تفصيل لعاقبة مضمون ما قبله من شد الوثاق، وحذف الفعل الناصب للمصدر في مثل ذلك واجب أيضاً، ومنه قوله:

لأجهدن فإما درء واقعة ... تخشى وإما بلوغ السؤل والأمل

وجوز أبو البقاء كون كل من ﴿منًّا﴾ و ﴿فداء﴾ مفعولاً به لمحذوف أي أولوهم منًّا أو اقبلوا منهم فداء، وليس كما قال أبو حيان إعراب نحوي. وقرأ ابن كثير في رواية شبل «وإمَّا فَدَى» بالفتح والقصر كعصا. وزعم أبو حاتم أنه لا يجوز قصره لأنه مصدر فأديته، قال الشهاب: ولا عبرة به فإن فيه أربع لغات الفتح والكسر مع المد والقصر ولغة

خامسة البناء مع الكسر كما حكاه الثقات انتهى، وفي الكشف نقلاً عن الصحاح الفداء إذا كسر أوله يمد ويقصر وإذا فتح فهو مقصور. ومن العرب من يكسر الهمزة أي يبنيه على الكسر إذا جاوز لام الجر خاصة لأنه اسم فعل بمعنى الدعاء، وأنشد الأصمعي بيت النابغة مهلاً فداء لك. وهذا الكسر مع التنوين كما صرح به في البحر، وظاهر الآية. على ما ذكره السيوطي في أحكام القرآن العظيم. امتناع القتل بعد الأسر وبه قال الحسن. وأخرج ابن جرير. وابن مردويه عنه أنه قال: أتى الحجاج بأسارى فدفع إلى ابن عمر رضي الله تعالى عنهما رجلاً يقتله فقال ابن عمر: ليس بهذا أمرنا إنما قال الله تعالى: ﴿**حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق فإما منًّا بعد وإما فداء**﴾ وفي حكم الأسارى خلاف فذهب الأكثرون إلى أن الإمام بالخيار إن شاء قتلهم إن لم يسلموا لأنه ﷺ قتل صبراً عقبة بن أبي معيط وطعيمة بن عدي والنضر بن الحرث التي قالت فيه أخته أبياتاً منها تخاطب النبي ﷺ:

ما كان ضرك لو مننت وربما ... منَّ الفتى وهو المغيظ المحنق

ولأن في قتلهم حسم مادة فسادهم بالكلية، وليس لواحد من الغزاة أن يقتل أسيراً بنفسه فإن فعل بلا ملجىء كخوف شر الأسير كان للإمام أن يعزره إذا وقع على خلاف مقصوده ولكن لا يضمن شيئاً، وإن شاء استرقهم لأن فيه دفع شرهم مع وفور المصلحة لأهل الإسلام، وإن شاء تركهم ذمة أحراراً للمسلمين كما فعل عمر رضي الله تعالى عنه ذلك في أهل السواد إلا أسارى مشركي العرب والمرتدين فإنهم لا تقبل منهم جزية ولا يجوز استرقاقهم بل الحكم فيهم إما الإسلام أو السيف، وإن أسلم الأسارى بعد الأسر لا يقتلهم لاندفاع شرهم بالإسلام، ولكن يجوز استرقاقهم فإن الإسلام لا ينافي الرق جزاءً على الكفر الأصلي وقد وجد بعد انعقاد سبب الملك وهو الاستيلاء على الحربي غير المشرك من العرب، بخلاف ما لو أسلموا من قبل الأخذ فإنهم يكونون أحراراً لأنه إسلام قبل انعقاد سبب الملك فيهم، ولا يفادى بالأسارى في إحدى الروايتين عن الإمام أبي جنيفة رضي الله تعالى عنه لما في ذلك من معونة الكفر لأنه يعود الأسير الكافر حرباً علينا، ودفع شر حرابته خير من استنقاذ المسلم لأنه إذا بقي في أيديهم كان ابتلاء في حقه فقط، والضرر بدفع أسيرهم إليهم يعود على جماعة المسلمين.

والرواية الأخرى عنه أنه يفادى وهو قول محمد وأبي يوسف والإمام الشافعي ومالك وأحمد إلا بالنساء فإنه لا يجوز المفاداة بهن عندهم، ومنع أحمد المفاداة بصبيانهم، وهذه رواية السير الكبير، قيل: وهو أظهر الروايتين عن الإمام أبي حنيفة، وقال أبو يوسف: تجوز المفاداة بالأسارى قبل القسمة لا بعدها، وعند محمد تجوز بكل حال. ووجه ما ذكره الأئمة من جواز المفاداة أن تخليص المسلم أولى من قتل الكافر للانتفاع به ولأن حرمته عظيمة وما ذكر من الضرر الذي يعود إلينا بدفعه إليهم يدفعه ظاهراً المسلم الذي يتخلص منهم لأنه ضرر شخص واحد فيقوم بدفعه واحد مثله ظاهراً فيتكافئان وتبقى فضيلة تخليص المسلم وتمكينه من عبادة الله تعالى فإن فيها زيادة ترجيح.

ثم إنه قد ثبت ذلك عن رسول الله ﷺ؛ أخرج مسلم وأبو داود والترمذي وعبد بن حميد وابن جرير عن عمران ابن حصين أن رسول الله ﷺ فدى رجلين من المسلمين برجل من المشركين ويحتج لمحمد بما أخرجه مسلم أيضاً عن إياس بن سلمة عن أبيه سلمة قال: خرجنا مع أبي بكر رضي الله تعالى عنه أمره علينا رسول الله ﷺ إلى أن قال فلقيني رسول الله ﷺ من الغد في السوق فقال: يا سلمة هب لي المرأة يعني التي نفله أبو بكر إياها. فقلت: يا رسول الله لقد اعجبتني وما كشفت لها ثوباً، ثم لقيني رسول الله ﷺ من الغد في السوق فقال: «يا سلمة هب لي المرأة لله أبوك» فقلت: هي لك يا رسول الله فو الله ما كشفت لها ثوباً فبعث بها رسول الله ﷺ ففدى بها ناساً من المسلمين أسروا بمكة، ولا يفادى بالأسير إذا أسلم وهو بأيدينا لأنه لا يفيد إلا إذا طابت نفسه وهو مأمون على إسلامه فيجوز لأنه

يفيد تخليص مسلم من غير اضرار بمسلم آخر، وأما المفاداة بمال فلا تجوز في المشهور من مذهب الحنفية لما بين في المفاداة بالمسلمين من ردهم حرباً علينا. وفي السير الكبير أنه لا بأس به إذا كان بالمسلمين حاجة. قيل: استدلالا بأسارى بدر فإنه لا شك في احتياج المسلمين بل في شدة حاجتهم إذ ذاك فليكن محمل المفاداة الكائنة في بدر بالمال. وأما المن على الأسارى وهو أن يطلقهم إلى دار الحرب من غير شيء فلا يجوز عند أبي حنيفة ومالك وأحمد، وأجازه الإمام الشافعي لأنه ﷺ من على جماعة من أسرى بدر منهم أبو العاص بن أبي الربيع على ما ذكره ابن اسحق بسنده. وأبو دواد من طريقه إلى عائشة لما بعث أهل مكة في فداء أسراهم بعثت بنت رسول الله ﷺ في فداء أبي العاص بمال وبعثت فيه بقلادة كانت خديجة أدخلته بها على أبي العاص حين بنائه عليها فلما رأى النبي ﷺ ذلك رق لها رقة شديدة وقال لأصحابه: «إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها وتردوا لها الذي لها» ففعلوا ذلك مغتبطين به، ورواه الحاكم وصححه وزاد «وكان النبي ﷺ قد أخذ عليه أن يخلي زينب إليه ففعل» ومنّ ﷺ على ثمامة بن اثال ابن النعمان الحنفي سيد أهل اليمامة ثم أسلم وحسن إسلامه، وحديثه في صحيح مسلم عن أبي هريرة، ويكفي ما ثبت في صحيح البخاري من قوله عليه الصلاة والسلام: «لو كان المطعم بن عدي حيا ثم كلمني في هؤلاء النتنى ـ يعني أسارى بدر ـ لتركتهم له» فإنه ﷺ أخبر وهو الصادق المصدوق بأنه يطلقهم لو سأله المطعم، والإطلاق على ذلك التقدير لا يثبت إلا وهو جائز شرعاً لمكان العصمة، وكونه لم يقع لعدم وقوع ما علق عليه لا ينفي جوازه شرعا. واستدل أيضاً بالآية التي تحت فيها فإن الله تعالى خير فيها بين المن والفداء، والظاهر إن المراد بالمن الإطلاق مجاناً؛ وكون المراد المن عليهم بترك القتل وإبقاءهم مسترقين أو تخليتهم لقبول الجزية وكونهم من أهل الذمة خلاف الظاهر، وبعض النفوس يجد طعم الالاء أحلى من هذا المن. وأجاب بعض الحنفية بأن الآية منسوحة بقوله تعالى: ﴿اقتلوا المشركين حيث وجدتموهم﴾ [التوبة: ٥] من سورة براءة فإنه يقتضي عدم جواز المن وكذا عدم جواز الفداء وهي آخر سورة نزلت في هذا الشأن، وزعم أن ما وقع من المن والفداء إنما كان في قضية بدر وهي سابقة عليها وإن كان شيء من ذلك بعد بدر فهو أيضاً قبل السورة.

والقول بالنسخ جاء عن ابن عباس وقتادة والضحاك ومجاهد في روايات ذكرها الجلال السيوطي في الدر المنثور، وقال العلامة ابن الهمام: قد يقال إن ذلك ـ يعني ما في سورة براءة ـ في حق غير الأسارى بدليل جواز الاسترقاق فيهم فيعلم أن القتل المأمور به في حق غيرهم، وما ذكره في جواز الاسترقاق ليس على إطلاقه إذ لا يجوز كما علمت استرقاق مشركي العرب ﴿حَتَّى تَضَعَ الحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ أي آلاتها وأثقالها من السلاح وغيره، قال الأعشى:

وأعددت للحرب أوزارها ... رماحاً طوالاً وخيلاً ذكورا

ومن نسج داود موضونة ... تساق إلى الحرب عيرا فعيرا

وهي في الأصل الأحمال فاستعيرت لما ذكر استعارة تصريحية، ويجوز أن يكون في ﴿الحرب﴾ استعارة مكنية بأن تشبه بإنسان يحمل حملاً على رأسه أو ظهره ويثبت لها ما أثبت تخييلاً، وكلام الكشاف أميل إليه، وقيل: هي أحمال المحارب أضيفت للحرب تجوزاً في النسبة الإضافية وتغليباً لها على الكراع، وإسناد الوضع للحرب مجاري أيضاً وليس بذاك. وعد بعض الأماثل الكلام تمثيلاً، والمراد حتى تنقضي الحرب وقال: يجوز أن يكون إرادة ذلك من باب المجاز المتفرع على الكناية كما في قوله: فألقت عصاها واستقر بها النوى. فإنه كنى به عن انقضاء السفر والإقامة، قيل: الأوزار جمع وز بمعنى إثم وهو هنا الشرك والمعاصي، و «تضع» بمعنى تترك مجازاً، وإسناده

للحرب مجاز أو بتقدير مضاف، والمعنى حتى يضع أهل الحرب شركهم ومعاصيهم، وفيه أنه لا يستحسن إضافة الأوزار بمعنى الآثام إلى الحرب، و ﴿حتى﴾ عند الشافعي عليه الرحمة ومن قال نحو قوله: غاية للضرب، والمعنى اضربوا أعناقهم حتى تنقضي الحرب، وليس هذا بدلاً من الأول ولا تأكيداً له بناء على ما قرروه من أن حتى الداخلة على إذا الشرطية ابتدائية أو غاية للشد أو للمن والفداء معا أو للمجموع من قوله تعالى: ﴿فضرب الرقاب﴾ الخ بمعنى أن هذه الأحكام جارية فيهم حتى لا يكون حرب مع المشركين بزوال شوكتهم، وقيل: بنزول عيسى عليه السلام، وروي ذلك عن سعيد بن جبير. والحسن، وفي الحديث ما يؤيده أخرج أحمد والنسائي وغيرهما عن سلمة بن نفيل قال: بينما أنا جالس عند رسول الله ﷺ إذ جاء رجل فقال: يا رسول الله إن الخيل قد سيبت ووضع السلاح وزعم أقوام أن لا قتال وإن قد وضعت الحرب أوزارها فقال رسول الله ﷺ: «كذبوا فالآن جاء القتال ولا تزال طائفة من أمتي يقاتلون في سبيل الله لا يضرهم من خالفهم يزيغ الله تعالى قلوب قوم ليرزقهم منهم وتقاتلون حتى تقوم الساعة ولا تزال الخيل معقوداً في نواصيها الخير حتى تقوم الساعة ولا تضع الحرب أوزارها حتى يخرج يأجوج ومأجوج» وهي عند من يقول: لا منّ ولا فداء اليوم غاية للمن والفداء إن حمل على الحرب على حرب بدر بجعل تعريفه للعهد، والمعنى المن عليهم ويفادون حتى تضع حرب بدر أوزارها، وغاية للضرب والشد إن حملت على الجنس، والمعنى أنهم يقتلون ويؤسرون حتى تضع جنس الحرب أوزارها بأن لا يبقى للمشركين شوكة، ولا تجعل غاية للمن والفداء مع إرادة الجنس.

وفي زعم جوازه والتزام النسخ كلام فتأمل ﴿ذَلِكَ﴾ أي الأمر ذلك أو افعلوا ذلك فهو في محل رفع خبر مبتدأ محذوف أو في محل نصب مفعول لفعل كذلك، والإشارة إلى ما دل عليه قوله تعالى: ﴿فضرب الرقاب﴾ الخ لا إلى ما تقدم من أول السورة إلى ههنا لأن افعلوا لا يقع على جميع السالف وعلى الرفع ينفك النظم الجليل إن لم يحمل عليه لأن ما بعد كلام فيهم ﴿وَلَوْ يَشَاءُ اللهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ﴾ لانتقم منهم ببعض أسباب الهلاك من خسف أو رجفة أو غرق أو موت جارف ﴿وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ﴾ ولكن أمركم سبحانه بالقتال ليبلو المؤمنين بالكافرين بأن يجاهدوهم فينالوا الثواب ويخلد في صحف الدهر ما لهم من الفضل الجسيم والكافرين بالمؤمنين بأن يعاجلهم عزّ وجلّ ببعض انتقامه سبحانه فيتعظ به بعض منهم ويكون سبباً لإسلامه؛ واللام متعلقة بالفعل المقدر الذي ذكرناه ﴿وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ﴾ أي استشهدوا.

وقرأ الجمهور «قاتلوا» أي جاهدوا، والجحدري بخلاف عنه «قَتَلُوا» بفتح القاف والتاء بلا ألف، وزيد بن ثابت والحسن وأبو رجاء وعيسى والجحدري أيضاً «قُتِّلوا» بالبناء للمفعول وشد التاء.

﴿فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ فلن يضيعها سبحانه، وقرأ علي كرم الله تعالى وجهه «يُضَلَّ» مبنياً للمفعول «أَعْمَالُهُمْ» بالرفع على النيابة عن الفاعل. وقرىء «يَضَلَّ» بفتح الياء من ضل «أَعْمَالُهُمْ» بالرفع على الفاعلية. والآية قال قتادة: كما أخرجه عنه ابن جرير. وابن أبي حاتم ذكر لنا أنها نزلت في يوم أحد ورسول الله ﷺ في الشعب وقد فشت فيهم الجراحات والقتل وقد نادى المشركون يومئذ أعل هبل ونادى المسلمون الله أعلى وأجل فنادى المشركون يوم بيوم بدر وان الحرب سجال لنا عزى ولا عزى لكم فقال رسول الله ﷺ: «الله مولانا ولا مولى لكم إن القتلى مختلفة أما قتلانا فأحياء مرزوقون وأما قتلاكم ففي النار يعذبون» ومنه يعلم وجه قراءة «قتلوا» بصيغة التفعيل ﴿سَيَهْدِيهِمْ﴾ سيوصلهم إلى ثواب تلك الأعمال من النعيم المقيم والفضل العظيم، وهذا كالبيان لقوله سبحانه: ﴿فلن يضل أعمالهم﴾ أو سيثبت جلّ شأنه في الدنيا هدايتهم، والمراد الوعد بأن يحفظهم سبحانه ويصونهم عما يورث الضلال وحبط الأعمال، وهو كالتعليل لذلك، ويجوز أن يكون كالبيان له أيضاً.

﴿وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ﴾ أي شأنهم، قال الطبرسي: المراد إصلاح ذلك في العقبى فلا يتكرر مع ما تقدم لأن المراد به إصلاح شأنهم في الدين والدنيا فلا تغفل ﴿وَيُدْخِلُهُمُ الجنة عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾ في موضع الحال بتقدير قد أو بدونه أو استئناف كما قال أبو البقاء، والتعريف في الآخرة. أخرج عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد أنه قال: يهدي أهل الجنة إلى بيوتهم ومساكنهم وحيث قسم الله تعالى لهم منها لا يخطئون كأنهم ساكنوها منذ خلقوا لا يستدلون عليها أحداً، وفي الحديث «لأحدكم بمنزله في الجنة أعرف منه بمنزله في الدنيا» وذلك بإلهام منه عزَّ وجلَّ، وأخرج ابن أبي حاتم عن مقاتل أنه قال: بلغنا أن الملك الذي كان وكل بحفظ عمل الشخص في الدنيا يمشي بين يديه في الجنة ويتبعه الشخص حتى يأتي أقصى منزل هو له فيعرفه كل شيء أعطاه الله تعالى في الجنة فإذا انتهى إلى أقصى منزله في الجنة دخل إلى منزله وأزواجه وانصرف الملك عنه.

وورد في بعض الآثار أن حسناته تكون دليلاً إلى منزله فيها، وقيل: إنه تعالى رسم على كل منزل اسم صاحبه وهو نوع من التعريف، وقيل: تعريفها تحديدها يقال: عرف الدار وأرفها أي حددها أي حددها لهم بحيث يكون لكل جنة مفرزة، وقيل: أي شرفها لهم ورفعها وعلاها على أن عرفها من الأعراف التي هي الجبال وما أشبهها، وعن ابن عباس في رواية عطاء. وروي عن مؤرج أي طيبها لهم على أنه من العرف وهو الريح الطيبة ههنا، ومنه طعام معرف أي مطيب، وعرفت القدر طيبتها بالملح والتابل، وعن الجبائي أن التعريف في الدنيا وهو بذكر أوصافها، والمراد أنه تعالى لم يزل يمدحها لهم حتى عشقوها فاجتهدوا فيما يوصلهم إليها:

والأذن تعشق قبل العين أحيانا

وعلى هذا المراد قيل:

اشتاقه من قبل رؤيته كما ... تهوى الجنان بطيّب الأخبار

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللهَ﴾ أي دينه ورسوله ﷺ لا على أن الكلام على تقدير مضاف بل على أن نصرة الله فيه تجوز في النسبة فنصرته سبحانه نصرة رسوله ودينه إذ هو جل شأنه وعلا المعين الناصر وغيره سبحانه المعان المنصور ﴿يَنْصُرْكُمْ﴾ على أعدائكم ويفتح لكم ﴿وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ في مواطن الحرب ومواقفها أو على محجة الإسلام، والمراد يقويكم أو يوفقكم للدوام على الطاعة.

وقرأ المفضل عن عاصم «ويُثْبِتُ» مخففاً ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْساً لَهُمْ﴾ من تعس الرجل بفتح العين تعسا أي سقط على وجهه، وضده انتعش أي قام من سقوطه. وقال شمر وابن شميل وأبو الهيثم وغيرهم: تعس بكسر العين، ويقال: تعساً له ونكساً على أن الأول ـ كما قال ابن السكيت ـ بمعنى السقوط على الوجه والثاني بمعنى السقوط على الرأس، وقال الحمصي في حواشيه على التصريح: تعس تعساً أي لا انتعش من عثرته ونكساً بضم النون وقد تفتح إما في لغة قليلة وإما اتباعاً لتعسا، والنكس بالضم عود المرض بعد النقه، ويراد بذلك الدعاء، وكثر في الدعاء على العاثر تعساً له، وفي الدعاء له لعاً له أي انتعاشاً وإقامة، وأنشدوا قول الأعشى يصف ناقة:

كلفت مجهولة نفسي وشايعني ... همي عليها إذا ما آلها لمعا

بذات لوث عفرناة إذا عثرت ... فالتعس أولى لها من أن أقول لعا

وقال ثعلب وابن السكيت أيضاً: التعس الهلاك، ومنه قول مجمع بن هلال:

تقول وقد أفردتها من حليلها ... تعست كما أتعستني يا مجمع

وفي القاموس التعس الهلاك والعثار والسقوط والشر والبعد والانحطاط والفعل كمنع وسمع أو إذا خاطبت قلت: تعست كمنع وإذا حكيت قلت: تعس كسمع، ويقال: تعسه الله تعالى وأتعسه ورجل تاعس وتعس، وانتصابه على المصدر بفعل من لفظه يجب اضماره لأنه للدعاء كسقيا ورعيا فيجري مجرى الأمثال إذا قصد به ذلك، والجار والمجرور بعده متعلق بمقدر للتبيين عند كثير أي أعني له مثلاً فنحو تعساً له جملتان. وذهب الكوفيون إلى أنه كلام واحد، ولابن هشام كلام في هذا الجار مذكور في بحث لام التبيين فلينظر هناك.

واختلفت العبارات في تفسير ما في الآية الكريمة، فقال ابن عباس: أي بعداً لهم. وابن جريج. والسدي أي حزنا لهم، والحسن أي شتماً لهم، وابن زيد أي شقاء لهم، والضحاك أي رغماً لهم، وحكى النقاش تفسيره بقبحا لهم، وقال غير واحد: أي عثوراً وانحطاطاً لهم، وما ألطف ذكر ذلك في حقهم بعد ذكر تثبيت الأقدام في حق المؤمنين، وفي رواية عن ابن عباس يريد في الدنيا القتل وفي الآخرة التردي في النار، وأكثر الأقوال ترجع إلى الدعاء عليهم بالهلاك.

وجوز الزمخشري في إعرابه وجهين: الأول كونه مفعولاً مطلقاً لفعل محذوف كما تقدم. والثاني مفعولاً به لمحذوف أي فقضى تعسا لهم، وقدر على الأول القول أي فقال: تعسا لهم، والذي دعاه لذلك على ما قيل جعل ﴿**الذين**﴾ مبتدأ والجملة المقرونة بالفاء خبرا له وهي لا نشاء الدعاء. والإنشاء لا يقع خبراً بدون تأويل، فإما أن يقدر معها قول أو تجعل خبراً بتقدير قضى، وجعل قوله تعالى: ﴿**وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ**﴾ عطفاً على ما قدر.

وفي الكشف المراد من قال: تعسا لهم أهلكهم الله لا أن ثم دعاء وقولاً، وذلك لأنه لا يدعي على شخص إلا وهو مستحق له فإذا أخبر تعالى أنه يدعو عليه دل على تحقق الهلاك لا سيما وظاهر اللفظ أن الدعاء منه عزَّ وجلَّ، وهذا مجاز على مجاز أعني أن القول مجاز وكذلك الدعاء بالتعس، ولم يجعل العطف على ﴿**تعسا**﴾ لأنه دعاء، و ﴿**أضل**﴾ إخبار، ولو جعل دعاء أيضاً عطفاً على ﴿**تعسا**﴾ على التجوز المذكور لكان له وجه انتهى. وأنت تعلم أن اعتبار ما اعتبره الزمخشري ليس لأجل أمر العطف فقط بل لأجل أمر الخبرية أيضاً، فإن قيل بصحة الأخبار بالجملة الإنشائية من غير تأويل استغنى عما قاله بالكلية، ودخلت الفاء في خبر الموصول لتضمنه معنى الشرط.

وجوز أن يكون الموصول في محل نصب على المفعولية لفعل مقدر يفسره الناصب ـ لتعسا ـ أي أتعس الله الذين كفروا أو تعس الله الذين كفروا تعسا لما سمعت عن القاموس وقد حكي عن أبي عبيدة، والفاء زائدة في الكلام كما في قوله تعالى: ﴿وربك فكبر﴾ [المدثر: ٣] ويزيدها العرب في مثل ذلك على توهم الشرط، وقيل: يقدر الفعل مضارعاً معطوفاً على قوله تعالى: ﴿**يثبت**﴾ أي ويتعس الذين الخ. والفاء للعطف فالمراد اتعاس بعد اتعاس، ونظيره قوله تعالى: ﴿وإياي فارهبون﴾ [البقرة: ٤٠] أو لأن حق المفسر أن يذكر عقب المفسر كالتفصيل بعد الإجمال، وفيه مقال.

﴿**ذَلِكَ**﴾ أي ما ذكر من التعس والإضلال ﴿**بِأَنَّهُمْ**﴾ بسبب أنهم ﴿**كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ**﴾ من القرآن لما فيه من التوحيد وسائر الأحكام المخالفة لما ألفوه واشتهته أنفسهم الأمارة بالسوء، وهذا تخصيص وتصريح بسببية الكفر بالقرآن للتعس والاضلال إذ قد علم من قوله تاعلى: ﴿**والذين كفروا**﴾ الخ سببية مطلق الكفر الداخل فيه الكفر بالقرآن دخولاً أولياً لذلك ﴿**فَأَحْبَطَ**﴾ لأجل ذلك ﴿**أَعْمَالَهُمْ**﴾ التي لو كانوا عملوها التي لو كانوا عملوها مع الإيمان لأثيبوا عليها، وذكر الاحباط مع ذكر الإضلال المراد هو منه إشعاراً بأنه يلزم الكفر بالقرآن ولا ينفك عنه بحال ﴿**أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ**﴾ أي أقعدوا في أماكنهم فلم يسيروا فيها ﴿**فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ**﴾ من الأمم المكذبة فإن آثار ديارهم تنبىء عن أخبارهم، وقوله تعالى: ﴿**دَمَّرَ اللهُ عَلَيْهِمْ**﴾ استئناف بياني كأنه قيل: كيف كانت

عاقبتهم؟ فقيل: أهلك ما يختص بهم من النفس والأهل والمال يقال: دمره أهلكه دمر عليه أهلك ما يختص به فدمر عليه أبلغ من دمره، وجاءت المبالغة من حذف المفعول وجعله نسيا منسياً والإتيان بكلمة الاستعلاء وهي لتضمن التدمير معنى الإيقاع أو الهجوم أو نحوه ﴿**وَلِلْكَافِرِينَ**﴾ أي لهؤلاء الكافرين السائرين سيرتهم ﴿**أَمْثَالُهَا**﴾ أمثال عاقبتهم أو عقوبتهم لدلالة ما سبق عليها لكن لا على أن لهؤلاء أمثال ما لأولئك وأضعافه بل مثله، وإنما جمع باعتبار مماثلته لعواقب متعددة حسب تعدد الأمم المعذبة، وقيل: يجوز أن يكون عذابهم أشد من عذاب الأولين وقد قتلوا وأسروا بأيدي من كانوا يستخفونهم ويستضعفونهم، والقتل بيد المثل أشد من الهلاك بسبب عام، وقيل: المراد بالكافرين المتقدمون بطريق وضع الظاهر موضع الضمير كأنه قيل: دمر الله تعالى عليهم في الدنيا ولهم الآخرة أمثالها ﴿**ذَلِكَ**﴾ إشارة إلى ثبوت أمثال عاقبة أو عقوبة الأمم السالفة لهؤلاء، وقيل: إشارة إلى النصر وهو كما ترى ﴿**بِأَنَّ اللهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا**﴾ أي ناصرهم على أعدائهم، وقرىء «ولي الذين آمنوا» ﴿**وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لاَ مَوْلَى لَهُمْ**﴾ فيدفع ما حل بهم من العقوبة والعذاب، ولا يناقض هذا قوله تعالى: ﴿ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق﴾ [يونس: ٣٠] لأن المولى هناك بمعنى المالك فلم يتوارد النفي والإثبات على معنى واحد.

﴿**إِنَّ اللهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ**﴾ بيان لحكم ولايته تعالى لهم وثمرتها الأخروية ﴿**وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ**﴾ أي ينتفعون بمتاع الدنيا أياماً قلائل ﴿**وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ**﴾ الكاف في موضع نصب إما على الحال من ضمير المصدر كما يقول سيبويه أي يأكلونه أي الأكل مشبها أكل الأنعام، وإما على أنه نعت لمصدر محذوف كما يقول أكثر المعربين أي أكلاً مثل أكل الأنعام، والمعنى أن أكلهم مجرد من الفكر والنظر كما تقول للجاهل تعيش كما تعيش البهيمة لا تريد التشبيه في مطلق العيش ولكن في خواصه ولوازمه، وحاصله أنهم يأكلون غافلين عن عواقبهم ومنتهى أمورهم، وقوله تعالى: ﴿**وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ**﴾ أي موضع إقامة لهم، حال مقدر من واو ﴿**يأكلون**﴾.

وجوز أن يكون استئنافاً وكان قوله تعالى: ﴿**يتمتعون ويأكلون**﴾ في مقابلة قوله سبحانه: ﴿**وعملوا الصالحات**﴾ لما فيه من الإيماء إلى أنهم عرفوا أن نعيم الدنيا خيال باطل وظل زائل، فتركوا الشهوات وتفرغوا للصالحات، فكان عاقبتهم النعيم المقيم في مقام كريم وهؤلاء غفلوا عن ذلك فرتعوا في دمنهم كالبهائم حتى ساقهم الخذلان إلى مقرهم من درك النيران، وهذا ما ذكره العلامة الطيبي في بيان التقابل بين الآيتين، وقال بعض الأجلة: في الكلام احتباك وذلك أنه ذكر الأعمال الصاحلة ودخول الجنة أولاً دليلاً على حذف الأعمال الفاسدة ودخول النار ثانياً وذكر التمتع والمثوى ثانياً دليلاً على حذف التقلل والمأوى أولاً والأول أحسن وأدق، وأسند إدخال الجنة إلى الله تعالى ولم يسلك نحو هذا المسلك في قوله تعالى: ﴿**والنار مثوى لهم**﴾ وخولف بين الجملتين فعلية واسمية للإيذان بسبق الرحمة والإعلام بمصير المؤمنين والوعد بأن عاقبتهم أن الله سبحانه يدخلهم جنات وأن الكافرين مثواهم النار وهم الآن حاضرون فيها ولا يدرون وكالبهائم يأكلون.

﴿**وَكَأَيِّنْ**﴾ بمعنى كم الخبرية وهي مبتدأ، وقوله تعالى: ﴿**مِنْ قَرْيَةٍ**﴾ تمييز لها، وقوله سبحانه: ﴿**هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ**﴾ صفة لقرية كما أن قوله عزَّ وجلَّ: ﴿**الَّتِي أَخْرَجَتْكَ**﴾ صفة لقريتك، وقد حذف عنهما المضاف وأجري أحكامه عليهما كما يفصح عنه الخبر الذي هو قوله تعالى: ﴿**أَهْلَكْنَاهُمْ**﴾ أي وكم من أهل قرية هم أشد قوة من أهل قريتك الذين أخرجوك أهلكناهم بأنواع العذاب، وجوز أن لا يكون هناك حذف وإنما أطلق المحل وأريد الحال مجازاً، وإسناد الاخراج إلى أهل قريته ﷺ وهي مكة المكرمة مجاز من باب الإسناد إلى السبب لأنهم عاملوه ﷺ بما عاملوه

فكانوا بذلك سبباً لإخراجه حين أذن الله تعالى عليه الصلاة والسلام بالهجرة منها، ونظير ذلك أقدمني بلدك حق لي عليك. وأنت تعلم أنه على ما حققه الأجلة يحتمل أوجهاً ثلاثة، مجازاً في الإسناد إذا كان الإقدام مستعملاً في معناه الذي وضع له وإن كان موهوماً. ومجازاً في الطرف إذا كان مستعملاً في معنى الحمل على القدوم. واستعارة بالكناية إن كان الحق مستعملاً في المقدم، والشيخ يقول في مثل ذلك: إن الفعل المتعدي موهوم لا فاعل له ليصير الإسناد إليه حقيقة فلا إقدام مثلاً في قصد المتكلم وإنما هو تصوير القدوم بصورة الإقدام، وإسناده إلى الحق المصور بصورة المقدم مبالغة في كونه داعياً للقدوم، وارتضاه السالكوتي في حواشي شرح مختصر التلخيص وذب عنه القال والقيل، وتمام الكلام هناك، والكلام في الآية على طرز ذاك، ووصف القرية الأولى بشدة القوة للإيذان بأولوية الثانية منها بالإهلاك لضعف قوتها كما أن وصف الثانية بإخراجه عليه الصلاة والسلام للإيذان بأولويتها به لقوة جنايتها، وعلى طريقته قول النابغة:

كليب لعمري كان أكثر ناصراً ... وأيسر جرماً منك ضرج بالدم

وقوله تعالى: ﴿فَلاَ نَاصِرَ لَهُمْ﴾ بيان لعدم خلاصهم بواسطة الأعوان والأنصار إثر بيان عدم خلاصهم منه بأنفسهم، والفاء لترتيب ذكر ما بالغير على ذكر ما بالذات وهو حكاية حال ماضية كما في قوله تعالى: ﴿فأغشيناهم فهم لا يبصرون﴾ ولا نسلم أن اسم الفاعل إذا لم يعمل حقيقة في الماضية، والآية تسلية له ﷺ، فقد أخرج عبد بن حميد وأبو يعلى وابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس أن النبي ﷺ لما خرج من مكة إلى الغار التفت إلى مكة وقال: «أنت أحب بلاد الله تعالى إلى الله وأنت أحب بلاد الله تعالى إلي ولولا أن أهلك أخرجوني منك لم أخرج منك» فأعدى الأعداء من عدا على الله تعالى في حرمه أو قتل غير قاتله أو قتل بدخول أهل الجاهلية فأنزل الله سبحانه ﴿وكأين من قرية﴾ الخ، وقد تقدم ما يتعلق بذلك أول السورة فتذكر.

﴿أَفَمَن كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ﴾ تقرير لتباين حال الفريقين المؤمنين والكافرين وكون الأولين في أعلى عليين والآخرين في أسفل سافلين وبيان لعلة ما لكل منهما من الحال، والهمزة لإنكار استوائهما أو لإنكار كون الأمر ليس كما ذكر، والفاء للعطف على مقدر يقتضيه المقام وقد قرىء بدونها، و ﴿من﴾ عبارة عن المؤمنين المتمسكين بأدلة الدين كما أنها في قوله تعالى: ﴿كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ﴾ عبارة عن أضدادهم من المشركين.

وأخرج جماعة عن ابن عباس أن ﴿من كان على بينة من ربه﴾ هو رسول الله ﷺ و ﴿من زين له سوء عمله﴾ هم المشركون، وروي عن قتادة نحوه وإليه ذهب الزمخشري. وتعقب بأن التخصيص لا يساعده النظم الكريم ولا داعي إليه، قيل: ومثله كون ﴿من﴾ الأول عبارة عنه ﷺ وعن المؤمنين، والمعنى أيستوي الفريقان أو أليس الأمر كما ذكر فمن كان ثابتاً على حجة ظاهرة وبرهان نير من مالك أمره ومربيه وهو القرآن العظيم وسائر المعجزات والحجج العقلية كمن زين له الشيطان عمله السيء من الشرك وسائر المعاصي كإخراجك من قريتك مع كون ذلك في نفسه أقبح القبائح ﴿وَاتَّبَعُوا﴾ في ذلك العمل السيء، وقيل: بسبب ذلك التزيين ﴿أَهْوَاءَهُمْ﴾ الزائغة من غير أن يكون لهم شبهة توهم صحة ما هم عليه فضلاً عن حجة تدلك عليها. وجمع الضميرين الأخيرين باعتبار معنى ﴿من﴾ كما أن افراد الأولين باعتبار لفظها.

مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُوا۟ مَآءً

حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴿١٥﴾ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ
ءَانِفًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾
فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً ۖ فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا ۚ فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ ﴿١٨﴾ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ
إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴿١٩﴾

﴿مَثَلُ الْجَنَّة الَّتي وُعد الْمُتَّقُونَ﴾ إلى آخره استئناف مسوق لشرح إيذاناً بأن الإيمان والعمل الصالح من باب التقوى الذي هو عبارة عن فعل الواجبات وترك السيئات، والمثل الوصف العجيب الشأن وهو مبتدأ باتفاق المعربين، واختلف في خبره فقيل محذوف فقال النضر بن شميل: تقديره ما تسمعون، وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿فيهَا أَنهَارٌ﴾ إلى آخره مفسر له، وقال سيبويه: تقديره فيما يتلى عليكم أو فيما قصصنا عليك ويقدر مقدما ﴿وفيها أنهار﴾ الخ بيان لذلك المثل، وقدره ابن عطية ظاهر في نفس من وعى هذه الأوصاف وليس بذاك، ولعل الأنسب بصدر النظم الكريم تقدير النضر، وقيل: هو مذكور فقيل هو قوله تعالى: ﴿فيها أنهار﴾ الخ على معنى مثل الجنة وصفتها مضمون هذا الكلام ولا يحتاج مثل هذا الخبر إلى رابط.

وقيل هذه الجملة هي الخبر إلا أن لفظ ﴿مثل﴾ زائد زيادة اسم في قول من قال:

إلى الحول ثم اسم السلام عليكما

فالمبتدأ في الحقيقة هو المضاف إليه فكأنه قيل: الجنة فيها أنهار الخ وليس بشيء، وقيل: الخبر قوله تعالى الآتي: ﴿كمن هو خالد في النار﴾ وسيأتي إن شاء الله تعالى بسط الكلام فيه. وقرأ علي كرم الله تعالى وجهه وابن عباس وعبد الله والسلمي «أمثال الجنة» أي صفاتها، قال ابن جني: وهذا دليل على أن قراءة العامة بالتوحيد معناها الكثرة لما في مثل من معنى المصدرية ولذا جاز مررت برجل مثل رجلين وبرجلين مثل رجال وبامرأة مثل رجل، وعن علي كرم الله تعالى وجهه أيضاً أنه قرىء «مثال الجنة» ومثال الشيء في الأصل نظيره الذي يقابل به.

﴿منْ مَّاء غَيْر آسن﴾ أي غير متغير الطعم والريح لطول مكث ونحوه، وماضيه أسن بالفتح من باب ضرب ونصر وبالكسر من باب علم حكى ذلك الخفاجي عن أهل اللغة. وفي البحر أسن الماء تغير ريحه يأسن ويأسن ذكره ثعلب في الفصيح، والمصدر أسون، وأسن بكسر السين يأسن بفتحها لغة أسنا قاله اليزيدي، وأسن الرجل بالكسر لا غير إذا دخل البئر فأصابته ريح منتنة منها فغشي عليه أو دار رأسه ومنه قول الشاعر:

قد أترك القرن مصفراً أنامله ... يميد في الريح ميد المائح الأسن

وقرأ ابن كثير. وأهل مكة «أسن» على وزن حذر فهو صفة مسبهة أو صيغة مبالغة، وقرأ «يسن» بالياء قال أبو علي: وذلك على تخفيف الهمزة ﴿وَأَنْهَارٌ منْ لَبَن لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ﴾ لم يحمض ولم يصر قارصاً ولا حاذراً كألبان الدنيا وتغير الريح لا يفارق تغير الطعم ﴿وَأَنْهَارٌ منْ خَمْر لَذَّة للشَّاربينَ﴾ أي لذيذة لهم ليس فيها كراهة طعم وريح ولا غائلة سكر وخمار كخمور الدنيا فإنها لا لذة في نفس شربها وفيها من المكاره والغوائل ما فيها وهي صفة مشبهة مؤنث لذ وصفت بها الخمر لأنها مؤنثة وقد تذكر أو مصدر نعت به بتقدير مضاف أو بجعلها عين اللذة مبالغة على ما هو المعروف في أمثال ذلك؛ وقرئت بالرفع على أنها صفة ﴿أنهار﴾ وبالنصب على أنها مفعول له أي كائنة لأجل اللذة لا لشيء آخر من الصداع وسائر آفات خمور الدنيا ﴿وَأَنْهَارٌ منْ عَسَل مُصَفًّى﴾ مما يخالفه فلا يخالطه الشمع

وفضلات النحل وغيرها، ووصفه بمصفى لأنه الغالب على العسل التذكير وهو مما يذكر ويؤنث كما نص عليه أبو حيان. وغيره، وهذا على ما قيل تمثيل لما يجري مجرى الأشربة في الجنة بأنواع ما يستطاب منها أو يستلذ في الدنيا بالتخلية عما ينقصها وينغصها والتحلية بما يوجب غزارتها ودوامها.

وبدىء بالماء لأنه في الدنيا مما لا يستغنى عنه ثم باللبن إذ كان يجري مجرى المطعم لكثير من العرب في كثير من أوقاتهم ثم بالخمر لأنه إذا حصل الري والمطعوم تشوفت النفس إلى ما يلتذ به ثم بالعسل لأن فيه الشفاء في الدنيا مما يعرض من المشروب والمطعوم فهو متأخر بالرتبة، وجاء عن ابن عباس أن لبن تلك الأنهار لم يحلب، وقال سعيد بن جبير: إنه لم يخرج من بين فرث ودم وإن خمرها لم تدسها الرجال بأرجلها وإن عسلها لم يخرج من بطون النحل. وأخرج ابن جرير عن سعد قال: سألت أبا إسحق عن قوله تعالى: ﴿**من ماء غير آسن**﴾ فقال: سألت عنه الحارث فحدثني أن ذلك الماء تسنيم وقال: بلغني أنه لا تمسه يد وأنه يجيء الماء هكذا حتى يدخل الفم.

وفي حديث أخرجه ابن مردويه عن الكلبي أن نهر دجلة نهر الخمر في الجنة وأن عليه إبراهيم عليه السلام ونهر جيحون نهر الماء فيها ويقال له نهر الرب ونهر الفرات نهر اللبن وأنه لذرية المؤمنين ونهر النيل نهر العسل.

وأخرج الحرث بن أبي أسامة في مسنده. والبيهقي عن كعب قال: نهر النيل نهر العسل ونهر دجلة نهر اللبن ونهر الفرات نهر الخمر ونهر سيحان نهر الماء في الجنة. وأنت تعلم أن المذكور في الآية لكل أنهار بالجمع والله تعالى أعلم بصحة هذه الأخبار ونحوها، ثم إنها إن صحت لا يبعد تأويلها وإن كانت القدرة الإلهية لا يتعاصاها شيء ﴿**وَلَهم فيهَا**﴾ مع ما ذكر من فنون الانهار ﴿**مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ**﴾ أي أنواع من كل الثمرات فالجار والمجرور صفة مبتدأ مقدر وقدره بعضهم زوجان وكأنه انتزعه من قوله تعالى: ﴿فيهما من كل فاكهة زوجان﴾ [الرحمن: ٥٢] وقيل: ﴿**من**﴾ زائدة أي ولهم فيها كل الثمرات ﴿**وَمَغْفِرَةٌ**﴾ مبتدأ خبره محذوف والجملة عطف على الجملة السابقة أي ولهم مغفرة، وجوز أن يكون عطفاً على المبتدأ قبل بدون قيد فيها لأن المغفرة قبل دخول الجنة أو بالقيد والكلام على حذف مضاف أي ونعيم مغفرة أو جعل المغفرة عبارة عن أثرها وهو النعيم أو مجازاً عن رضوان الله عزَّ وجلَّ، وقد يقال: المراد بالمغفرة هنا ستر ذنوبهم وعدم ذكرها لهم لئلا يستحيوا فتتنغص لذتهم والمغفرة السابقة ستر الذنوب وعدم المؤاخذة بها وحينئذ العطف على المبتدأ من غير ارتكاب شيء مما ذكر، وقد رأيت نحو هذا بعد كتابته للطبرسي مقتصراً عليه ولعله أولى مما قالوه، وتنوين ﴿**مغفرة**﴾ للتعظيم أي مغفرة عظيمة لا يقادر قدرها، وقوله تعالى: ﴿**مِنْ رَّبِّهِمْ**﴾ متعلق بمحذوف صفة لها مؤكدة لما أفاده التنكير من الفخامة الذاتية بالفخامة الإضافية أي كائنة من ربهم، وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿**كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ في النَّارِ**﴾ خبر لمبتدأ محذوف تقديره أمن هو خالد في هذه الجنة حسبما جرى به الوعد كمن هوخالد في النار كما نطق به قوله تعالى: ﴿**والنار مثوى**﴾ لهم، وجوز أن يكون بدلاً من قوله سبحانه: ﴿**كمن زين له سوء عمله**﴾ وما بينهما اعتراض لبيان ما يمتاز به من على بينة في الآخرة تقرير الإنكار المساواة وفيه بعد. وذهب جار الله إلى أنه خبر ﴿**مثل الجنة**﴾ وأن ذلك مرتب على الإنكار السابق أعني قوله تعالى: ﴿**أفمن كان**﴾ الخ، والمعنى أمثل الجنة كمثل جزاء من هو خالد في النار فالمضافان محذوفان الجزاء بقرينة مقابلة الجنة ولفظ المثل بقرينة تقدمه ومثله كثير، وفائدة التعرية عن حرف الإنكار أن من اشتبه عليه الأول أعني حال المتمسك بالبينة وحال التابع لهواه فالثاني مثله عنده وإذ ذاك لا يستحق الخطاب، ونظير ذلك قول حضرمي بن عامر:

أفـــرح أن أرزأ الـــكـــرام وأن ... أورث ذوداً شـصـائـصـا نـبـلا

فإنه كلام منكر للفرح برزية الكرام ووراثة الذود مع تعريه من حرف الإنكار لانطوائه تحت حكم من قال له:

أتفرح بموت أخيك وبوراثة إبله وذلك من التسليم الذي يقل تحته كل إنكار، وجعل قوله تعالى: ﴿فيها أنهار﴾ كالتكرير للصلة أي صلة بعد صلة يتضمن تفصيلها لأنه كالتفصيل للموعود، ولهذا لم يتخلل العاطفة بينهما، وجوز أن يكون في موضع الحال على أن الظرف في موضع ذلك و ﴿أنهار﴾ فاعله لا على أنه مبتدأ والظرف خبر مقدم والجملة الاسمية حال لعدم الواو فيها، وقد صرحوا بأن الاكتفاء فيها بالضمير غير فصيح، واعتبارها فعلية بتقدير متعلق الظرف استقر لا يخفى حاله، وقيل: في الحال ضعف من حيث المعنى لمجيئه مجيء الفضلات وهي أم الإنكار، وأيضاً هو حال من الجنة لا من ضميرها في الصلة وفي العامل تكلف، ثم الحال غير مقيدة وجعلها مؤكدة وقد علم كونها كذلك من إخباره تعالى فيه أيضاً تكلف، وأن يكون خبر متبدأ محذوف والجملة استئناف بياني، قال في الكشف: وهو الوجه، والتقدير هي فيها أنهار وكأنه قيل: أنى يكون صفة الجنة وهي كذا وكذا كصفة النار الاستئناف ههنا بمنزلة قولك: وهي كذا وكذا اعتراضاً لما في لفظ المثل من الأشعار بالوصف العجيب، وليس خبر الجملة السابقة ﴿وهو كمن هو خالد في النار﴾ مورد السؤال ليعترض بوقوع الاستئناف قبل مضيه. وأورد أنه لا حاجة إلى تقدير المبتدأ لأن ﴿فيها أنهار﴾ جملة برأسها، والجواب أن تقدير مثلها فيها أنهار فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه فصار مرفوعاً ثم حذف ولهذا قال في السؤال: كأن قائلاً قال: وما مثلها؟ ويجري ما قرر في قراءة الأمير كرم الله تعالى وجهه ومن معه ﴿أمثال﴾ بالجمع فيقال: التقدير أمثال الجنة كأمثال جزاء من هو خالد في النار، ويقدر المضاف الأول جمعاً للمطابقة، ولعمري لقد أبعد جار الله المغزى، وقد استحسن ما ذكره كثير من المحققين قال صاحب الكشف بعد تقرير جعل ﴿كمن هو خالد﴾ خبر لمثل الجنة .: هذا هو الوجه اللائح المناسب المساق.

وقال ابن المنير: في الانتصاف بعد نقله كم ذكر الناس في تأويل هذه الآية فلم أر أطلى ولا أحلى من هذه النكت التي ذكرها لا يعوزها إلا التنبيه على أن في الكلام محذوفاً ليتعادل. والتقدير مثل ساكن الجنة كمن هو خالد في النار، ومن هذا النمط قوله تعالى: ﴿أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله﴾ [التوبة: ١٩] الخ، وما قدرناه لتحصيل التعادل أولى وإن كان فيه كثرة حذف فتأمل ذاك والله تعالى يتولى هداك، والضمير المفرد. أعني «هو» . راجع إلى «من» لفظها كما إن ضمير الجمع في قوله سبحانه: ﴿وَسُقُوا مَاء حَمِيماً﴾ راجع إليها باعتبار معناها، والمراد وسقوا ماء حاراً مكان تلك الأشربة وفيه تهكم بهم ﴿فَقَطَّعَ أَمْعَاءهُمْ﴾ من فرط الحرارة.

روي أنه إذا أدني منهم شوى وجوههم وامتازت فروة رؤوسهم فإذا شربوه قطع أمعاءهم، وهي جمع معى بالفتح والكسر ما ينتقل الطعام إليه بعد المعدة ويقال له عفاج وهو مذكر وقد يؤنث ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ هم المنافقون، وإفراد الضمير باعتبار اللفظ كما أن جمعه بعد باعتبار المعنى، قال ابن جريج: كانوا يحضرون مجلس رسول الله ﷺ فيسمعون كلامه ولا يعونه ولا يراعونه حق رعايته تهاونا منهم ﴿حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ أي لأولي العلم من الصحابة رضي الله تعالى عنهم، وقيل: الواعون لكلامه عليه الصلاة والسلام الراعون له حق رعايته من الصحابة رضي الله تعالى عنهم ﴿مَاذَا قَالَ آنفاً﴾ أي ما الذي قال قبيل هذا الوقت ومقصودهم من ذلك الاستهزاء وإن كان بصورة الاستعلام، وجوز أن يكون مرادهم حقيقة الاستعلام إذا لم يلقوا له آذانهم تهاونا به ولذلك ذموا والأول أولى، قيل: ذلك لابن مسعود، وعن ابن عباس أنا منهم وقد سميت فيمن سئل وأراد رضي الله تعالى عنه أنه من الذين أوتوا العلم بنص القرآن. وما أحسن ما عبر عن ذلك، و ﴿آنفاً﴾ اسم فاعل على غير القياس أو بتجريد فعله من الزوائد لأنه لم يسمع له فعل ثلاثي بل استأنف وأتنف، وذكر الزجاج أنه من استأنفت الشيء إذا ابتدأته وكان أصل معنى هذا أخذت أنفه أي مبدأه، وأصل الأنف الجارحة المعروفة ثم يسمى به طرف

الشيء ومقدمه وأشرفه، وذكر غير واحد أن آنفاً من ذلك قالوا: إنه اسم للساعة التي قبل ساعتك التي أنت فيها من الأنف بمعنى المتقدم وقد استعير من الجارحة لتقدمها على الوقت الحاضر، وقيل: هو بمعنى زمان الحال، وهو على ما ذهب إليه الزمخشري نصب على الظرفية ولا ينافي كونه اسم فاعل كما في بادىء فإنه اسم فاعل غلب على معنى الظرفية في الاستعمال، وقال أبو حيان: الصحيح أنه ليس بظرف ولا نعلم أحداً من النحاة عده في الظروف وأوجب نصبه على الحال من فاعل ﴿قال﴾ أي ماذا قال مبتدئاً أي ما القول الذي ائتنفه الآن قبل انفصالنا عنه، وإلى ذلك يشير كلام الراغب. وقرأ ابن كثير «أنِفاً» على وزن فعل ﴿أُولئكَ﴾ الموصوفون بما ذكر ﴿الَّذينَ طَبَعَ اللهُ عَلَى قُلُوبهِمْ﴾ فعدم توجههم نحو الخير ﴿وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ فتوجهوا نحو كل ما لا خير فيه فلذلك كان منهم ما كان.

﴿وَالَّذينَ اهْتَدَوْا﴾ إلى طريق الحق ﴿زَادَهُمْ﴾ أي الله عز وجل ﴿هُدًى﴾ بالتوفيق والإلهام، والموصول يحتمل الرفع على الابتداء والنصب بفعل محذوف يفسره المذكور و ﴿هدى﴾ مفعول ثاني لأن زاد قد يتعدى لمفعولين، ويحتمل أن يكون تمييزاً والأول هو الظاهر، وتنوينه للتعظيم أي هدى عظيماً ﴿وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ أي أعطاهم تقواهم إياه جل شأنه بأن خلقها فيهم بناءً على ما يقوله الأشاعرة في أفعال العباد أو بأن خلق فيهم قدرة عليها مؤثرة في فعلها بإذنه سبحانه على ما نسبه الكوراني إلى الأشعري وسائر المحققين في أفعال العباد من أنها بقدرة خلقها الله تعالى فيهم مؤثرة بإذنه تعالى، وقول بعضهم: بأن جعلهم جل شأنه متقين له سبحانه يمكن تطبيقه على كل من القولين، وقال البيضاوي: أي بين لهم ما يتقون أو أعانهم على تقواهم أو أعطاهم جزاءها فالإيتاء عنده مجاز عن البيان أو الإعانة أو هو على حقيقته والتقوى مجاز عن جزائها لأنها سببه أو فيه مضاف مقدر وليس في شيء من ذلك ما يأباه مذهب أهل الحق، وذكر الزمخشري الثاني والثالث من ذلك، واختار الطيبي الأول من هذين الاثنين وقال: هو أوفق لتأليف النظم الكريم لأن أغلب آيات هذه السورة الكريمة روعي فيها التقابل فقوبل ﴿أولئك الذين طبع الله على قلوبهم﴾ بقوله سبحانه: ﴿والذين اهتدوا زادهم هدى﴾ لأن الطبع يحصل من تزايد الرين وترادف ما يزيد في الكفر، وقوله تعالى ﴿واتبعوا أهواءهم﴾ بقوله جل وعلا: ﴿وآتاهم تقواهم﴾ فيحمل على كمال التقوى وهو أن يتنزه العارف عما يشغل سره عن الحق ويتبتل إليه سبحانه بشر اشره وهو التقوى الحقيقية المعنية بقوله تعالى: ﴿اتقوا الله حق تقاته﴾ [آل عمران: ١٠٢] فإن المزيد على مزيد الهدى مزيد لا مزيد عليه، وفي الترفع عن متابعة الهوى النزوع إلى المولى والعزوب عن شهوات الحياة الدنيا، ثم في إسناد إيتاء التقوى إليه تعالى وإسناد متابعة الهوى إليهم إيماء إلى معنى قوله تعالى حكاية: ﴿وإذا مرضت فهو يشفين﴾ [الشعراء: ٨٠] وتلويح إلى أن متابعة الهوى مرض روحاني وملازمة التقوى دواء إلهي انتهى. وما ذكره من ا لتقابل جار فيما ذكرناه أيضاً، وكذا يجري التقابل على تفسير إيتاء التقوى ببيان ما يتقون لإشعار الكلام عليه بأن ما هم فيه ليس من ارتكاب الهوى والتشهي بل هو أمر حق مبني على أساس قوي، وتفسير ذلك بإعطاء جزاء التقوى مروي عن سعيد بن جبير وذهب إليه الجبائي، والكلام عليه أفيد وأبعد عن التأكيد من غير حاجة إلى حمل التقوى على أعلى مراتبها، وأمر التقابل هين فإنه قد يقال إن قوله تعالى: ﴿اهتدوا﴾ في مقابلة ﴿اتبعوا أهواءهم﴾ وقوله سبحانه: ﴿زادهم هدى﴾ في مقابلة ﴿طبع الله على قلوبهم﴾ فليتدبر، وقيل: فاعل ﴿زادهم﴾ ضمير قوله ﷺ المفهوم من قوله تعالى ﴿ومنهم من يستمع إليك﴾ وقوله سبحانه: ﴿ماذا قال آنفاً﴾ وكذا فاعل ﴿آتاهم﴾ أي أعانهم أو بيّن لهم، والإسناد مجازي، ولا يخفى أنه خلاف الظاهر، وأيضاً إذا كان قوله تعالى: ﴿زادهم هدى﴾ في مقابلة قوله سبحانه: ﴿طبع الله على قلوبهم﴾ فالأولى أن يتحد فاعله مع فاعله ويجري نحو ذلك على ما قاله الطيبي لئلا يلزم التفكيك، وجوز أن يكون ضميراً عائداً على قول المنافقين فإن ذلك مما يعجب منه

المؤمن فيحمد الله تعالى على إيمانه ويزيد بصيرة في دينه، وهو بعيد جداً بل لا يكاد يلتفت إليه.

﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ السَّاعَةَ﴾ أي القيامة، وقوله تعالى: ﴿أَن تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً﴾ أي تباغتهم بغتة وهي المفاجأة بدل اشتمال من الساعة أي لا يتذكرون بأحوال الأمم الخالية ولا بالأخبار بإتيان الساعة وما فيها من عظائم الأحوال فما ينتظرون للتذكر إلا إتيان الساعة نفسها، وقوله تعالى: ﴿فقد جاء أشراطها﴾ أي علاماتها وأماراتها كما في قوله أبي الأسود الدؤلي:

فإن كنت قد أزمعت بالصرم بيننا ... فقد جعلت أشراط أوله تبدو

وهي جمع شرط بالتحريك تعليل لمفاجأتها على معنى أنه لم يبق من الأمور الموجبة للتذكر أمر مترقب ينتظرونه سوى إتيان نفس الساعة إذ قد جاء أشراطها فلم يرفعوا لها رأساً ولم يعدوها من مبادىء إتيانها فيكون إتيانها بطريق المفاجأة لا محالة كذا في إرشاد العقل السليم، وظاهر كلام الكشاف أنه تعليل للإتيان مطلقاً أي ما ينتظرون إلا إتيان الساعة لأنه قد جاء أشراطها وبعد مجيئها لا بد من وقوع الساعة، وتعليل المقيد دون قيده لا يخلو عن بعد، قيل: ويقربه هنا أن انتظارهم ليس إلا لإتيان الساعة وتقييده ببغتة ليس إلا لبيان الواقع، وقال بعض المحققين: هو تعليل لانتظار الساعة لأن ظهور إمارات الشيء سبب لانتظاره، وفي جعله تعليلاً للمفاجأة خفاء لأنها لا تناسب مجيء الأشراط إلا بتأويل، وأنت تعلم أن البدل هو المقصود فالانتظار لاتيان الساعة بغتة فالتعليل المذكور تعليل للمقيد دون قيده أيضاً فكان ما في الإرشاد متعين وإن كان فيه نوع تأويل، وقوله تعالى: ﴿فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ﴾ على ما أفاده بعض الأجلة تعجيب من نفع الذكرى عند مجيء الساعة وإنكار لعدم تشمرهم لها ولانتظارهم إياها هزؤاً وجحوداً، وفي الإرشاد وقوله تعالى: ﴿فأنى لهم إذا جاءتهم ذكراهم﴾ حكم بخطئهم وفساد رأيهم في تأخير التذكر إلى إتيانها ببيان استحالة نفع التذكر حينئذٍ كقوله سبحانه: ﴿يومئذٍ يتذكر الإنسان وأنى له الذكرى﴾ [الفجر: ٢٣] أي فكيف لهم ذكراهم على أن ﴿أنى﴾ خبر مقدم و ﴿ذكراهم﴾ مبتدأ و ﴿إذا جاءتهم﴾ اعتراض وسط بينهما رمزاً إلى غاية سرعة مجيئها، وإطلاق المجيء عن قيد البغتة لما أن مدار استحالة نفع التذكر كونه عند مجيئها مطلقاً لا مقيداً بقيد البغتة، وقيل: ﴿أنى﴾ خبر مقدم لمبتدأ محذوف أي فأنى لهم الخلاص إذا جاءتهم الذكرى بما يخبرون به فينكرونه منوطة بالعذاب ولا يخفى حاله، وقرأ أبو جعفر الرؤاسي عن أهل مكة «إن تأتهم» على أنه شرط مستأنف جزاؤه ﴿فأنى لهم﴾ الخ أي إن تأتهم الساعة بغتة إذ قد جاء أشراطها فأنى تنفعهم الذكرى وقت مجيئها، ﴿وإن﴾ هنا بمعنى إذا لأن إتيان الساعة متيقن، ولعل الإتيان بها للتعريض بهم وأنهم في ريب منها أو لأنها لعدم تعيين زمانها أشبهت المشكوك فيه وإذا جاءتهم باعتبار الواقع فلا تعارض بينهما كما يتوهم في النظرة الحمقاء.

وفي الكشف «إذا» على هذه القراءة لمجرد الظرفية لئلا يلزم التمانع بين ﴿إذا جاءتهم﴾ و «إن تأتهم» وفي الإتيان بأن مع الجزم بالوقوع تقوية أمر التوبيخ والإنكار كما لا يخفى انتهى، وعلى ما ذكرنا لا يحتاج إلى جعل إذا لمجرد الظرفية.

وقرأ الجعفي. وهارون عن أبي عمرو «بَغَتَّة» بفتح الغين وشد التاء، قال صاحب اللوامح: وهي صفة وانتصابها على الحال ولا نظير لها في المصادر ولا في الصفات بل في الأسماء نحو الجربة وهي القطيع من حمر الوحش، وقد يسمى الأقوياء من الناس إذا كانوا جماعة متساوين جربة، والشربة وهي اسم موضع وكذا قال أبو العباس بن الحاج من أصحاب أبي علي الشلوبين في كتابه المصادر، وقال الزمخشري: وما أخوفني أن تكون غلطة من الراوي عن أبي عمرو وان يكون الصواب بغتة بفتح الغين من غير تشديد كقراءة الحسن فيما تقدم.

وتعقبه أبو حيان بأن هذا على عادته في تغليط الرواة، والظاهر أن المراد بأشراط الساعة هنا علاماتها التي كانت واقعة إذ ذاك وأخبروا أنها علامات لها كبعثة نبينا ﷺ، فقد أخرج أحمد والبخاري ومسلم والترمذي عن أنس قال: «قال رسول الله ﷺ بعثت أنا والساعة كهاتين وأشار بالسبابة والوسطى» وأراد عليه الصلاة والسلام مزيد القرب بين مبعثه والساعة فإن السبابة تقرب من الوسطى طولاً فينا وهكذا فيه ﷺ. وزعم بعضهم أن أمر الطول والقصر في وسطاه وسبابته عليه الصلاة والسلام على عكس ما فينا خطأ لا يلتفت إليه إلا أن يكون أراد ذلك في أصابع رجليه الشريفة ﷺ.

وأخرج أحمد عن بريدة رضي الله تعالى عنه قال: «سمعت رسول الله ﷺ يقول بعثت أنا والساعة جميعاً وإن كادت لتسبقني» وهذا أبلغ في إفادة القرب وعدوا منها انشقاق القمر الذي وقع له ﷺ والدخان الذي وقع لأهل مكة وأما أشراطها مطلقاً فكثيرة الفت فيها كتب مختصرة ومطولة وهي تنقسم إلى مضيقة لا تبقى الدنيا بعد وقوعها إلا أيسر يسير كخروج المهدي رضي الله تعالى عنه على ما يقول أهل السنة دون ما يقوله الشيعة القائلون بالرجعة فإن الدنيا عندهم بعد ظهوره تبقى مدة معتداً بها وكنزول عيسى عليه السلام وخروج الدجال وطلوع الشمس من مغربها وخروج الدابة وغير ذلك، وغير مضيقة وهي أكثر الأشراط ككون الحفاة الرعاة رؤوس الناس وتطاولهم في البنيان وفشو الغيبة وأكل الربا وشرب الخمر وتعظيم رب المال وقلة الكرام وكثرة اللئام وتباهي الناس في المساجد واتخاذها طرقاً وسوء الجوار وقطيعة الأرحام وقلة العلم وأن يوسد الأمر إلى غير أهله وأن يكون أسعد الناس بالدنيا لكع بن لكع إلى ما يطول ذكره.

ومن وقف على الكتب المؤلفة في هذا الشأن واطلع على أحوال الأزمان رأى أن أكثر هذه العلامات قد برزت للعيان وامتلأت منها البلدان، ومع هذا كله أمر الساعة مجهول ورداء الخفاء عليه مسدول. وقصارى ما ينبغي أن يقال: إن ما بقي من عمر الدنيا أقل قليل بالنسبة إلى ما مضى، وفي بعض الآثار أنه عليه الصلاة والسلام خطب أصحابه بعد العصر حين كادت الشمس تغرب ولم يبق منها إلا أسف . أي شيء . فقال «والذي نفس محمد بيده ما مثل ما مضى من الدنيا فيما بقي منها إلا مثل ما مضى من يومكم هذا فيما بقي منه وما بقي منه إلا اليسير» ولا ينبغي أن يقال: إن الألف الثانية بعد الهجرة وهي الألف التي نحن فيها هي ألف مخضرمة أي نصفها من الدنيا ونصفها الآخر من الآخرة، وقال الجلال السيوطي في رسالة سماها الكشف عن مجاوزة هذه الأمة الألف: الذي دلت عليه الآثار أن مدة هذه الأمة تزيد على ألف سنة ولا تبلغ الزيادة عليها ألف سنة وبني الأمر على ما ورد من أن مدة الدنيا سبعة آلاف سنة وأن النبي ﷺ بعث في آخر الألف السادسة وأن الدجال يخرج على رأس مائة وينزل عيسى عليه السلام فيقتله ثم يمكث في الأرض أربعين سنة وأن الناس يمكثون بعد طلوع الشمس من مغربها مائة وعشرين سنة وأن بين النفختين أربعين سنة، وذكر الأحاديث والأخبار في ذلك.

وفي بهجة الناظرين وآيات المستدلين قد احتج كثير من العلماء على تعيين قرب زمانها بأحاديث لا تخلو عن نظر فمنهم من قال: بقي منها كذا، ومنهم من قال: يخرج الدجال على رأس كذا وتطلع الشمس على رأس كذا، وأفرد الحافظ السيوطي رسالة لذلك كله وقال: تقوم الساعة في نحو الألف والخمسمائة، وكل ذلك مردود وليس للمتكلمين في ذلك إلا ظن وحسبان لا يقوم عليه من الوحي برهان انتهى، ونقله السفاريني في البحور الزاخرة في علوم الآخرة، وذكر السيوطي عدة أخبار في كون مدة الدنيا سبعة آلاف سنة، أولها ما أخرجه الحكيم الترمذي في نوادر الأصول بسنده عن أبي هريرة قال: «قال رسول الله ﷺ إنما الشفاعة يوم القيامة لمن عمل الكبائر من أمتي ثم ماتوا

عليها فهم في الباب الأول من جهنم» وساق بقية الحديث، وفيه «وأطولهم مكثاً فيه من يمكث فيها مثل الدنيا منذ خلقت إلى يوم أفنيت وذلك سبعة آلاف سنة» الحديث وتعقبه السفاريني بقوله: ذكر الحافظ ابن رجب في كتابه صفة النار أن هذا الحديث خرجه ابن أبي حاتم. وغيره، وخرجه الاسماعيلي مطولاً، وقال الدارقطني في كتاب المختلف: هو حديث منكر وذكر علله، ومما ذكره السيوطي في ذلك ما نقل هو ضعف إسناد رفعه، وقد يرد عليه بأنه قد مضى من زمن البعثة إلى يومنا هذا ألف ومئتان وثماني وستون سنة وإذا ضم إليها ما ذكره من سني مكث عيسى عليه السلام وبقاء الدنيا بعد طلوع الشمس من مغربها وما بين النفختين وهي مائتا سنة تصير ألفاً وأربعمائة وثماني وسبعين فيبقى من المدة التي ذكرها اثنتان وعشرون سنة وإلى الآن لم تطلع الشمس من مغربها ولا خرج الدجال الذي خروجه قبل طلوعها من مغربها بعدة سنين ولا ظهر المهدي الذي ظهوره قبل الدجال بسبع سنين ولا وقعت الأشراط التي قبل ظهور المهدي، ولا يكاد يقال: إنه يظهر بعد خمس عشرة سنة ويظهر الدجال بعدها بسبع سنين على رأس المائة الثالثة من الألف الثانية لأن قبل ذلك مقدمات تكون في سنين كثيرة، فالحق أنه لا يعلم ما بقي من مدة الدنيا إلا الله عز وجل وأنه وإن طال أقصر قصير وما متاع الحياة الدنيا إلا قليل، وكذا فيما أرى مبدأ خلقها لا يعلمه إلا الله تعالى وما يذكرونه في المبدأ لو صح فإنما هو في مبدأ خلق الخليفة آدم عليه السلام لا مبدأ خلق السماء والأرض والجبال ونحوها.

وحكى الشيخ محيي الدين قدس سره عن إدريس عليه السلام وقد اجتمع معه اجتماعاً روحانياً وسأله عن العالم أنه قال: نحن معاشر الأنبياء نعلم أن العالم حادث ولا نعلم متى حدث. والفلاسفة على المشهور يزعمون أن من العالم ما هو قديم بالشخص وما هو قديم بالنوع مع قولهم بالحدوث الذاتي ولا يدثر عندهم. وذهب الملا صدر الشيرازي أنهم لا يقولون إلا بقدم العقول المجردة دون عالم الأجسام مطلقاً بل هم قائلون بحدوثها ودثورها وأطال الكلام على ذلك في الأسفار وأتى بنصوص أجلتهم كأرسطو وغيره. وحكى البعض عنهم أنه خلق هذا العالم الذي نحن فيه وهو عالم الكون والفساد والطالع السنبلة ويدثر عند مضي ثمانية وسبعين ألف سنة وذلك عند مضي مدة سلطان كل من البروج الاثني عشر ووصول الأمر إلى برج الميزان وزعموا أن مدة سلطان الحمل اثنا عشر ألف سنة ومدة سلطان الثور أقل بألف وهكذا إلى الحوت.

ونقل البكري عن هرمس أنه زعم أنه لم يكن في سلطان الحمل والثور والجوزاء على الأرض حيوان فلما كان سلطان الأسد تكونت دواب الماء وهوام الأرض فلما كان سلطان الأسد تكونت الدواب ذوات الأربع فلما كان سلطان السنبلة تولد الإنسانان الأولان ادمانوس وحوانوس، وزعم بعضهم أن مدة العالم مقدار قطع الكواكب الثابتة لدرج الفلك التي هي ثلثمائة وستون درجة وقطعها لكل درجة على قول كثير منهم في مائة سنة فتكون مدته ستاً وثلاثين ألف سنة وكل ذلك خبط لا دليل عليه. ومن أعجب ما رأيت ما زعمه بعض الإسلاميين من أن الساعة تقوم بعد ألف وأربعمائة وسبع سنين أخذاً من قوله تعالى: ﴿**فهل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة**﴾ وقوله سبحانه ﴿**لا تأتيكم إلا بغتة**﴾ [الأعراف: ١٨٧] بناءً على أن عدة حروف ﴿**بغتة**﴾ بالجمل الكبير ألف وأربعمائة وسبع ويوشك أن يقول قائل: هي ألف وثمانمائة واثنان وبحسب تاء التأنيث أربعمائة لا خمسة فإنه رأى بعض أهل الحساب كما في فتاوى خير الدين الرملي ويجيء آخر ويقول: هي أكثر من ذلك أيضاً ويعتبر بسط الحروف على نحو ما قالوا في اسم محمد ﷺ إنه متضمن عدة المرسلين عليه السلام، وأنت تعلم أن مثل ذلك مما لا ينبغي لعاقل أن يعول عليه أو يلتفت إليه، والحزم الجزم بأنه لا يعلم ذلك إلا اللطيف الخبير ﴿**فَاعْلَمْ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ**﴾ مسبب عن مجموع القصة

من مفتتح السورة لا عن قوله تعالى: ﴿هل ينظرون﴾ كأنه قيل: إذا علمت أن الأمر كما ذكر من سعادة هؤلاء وشقاوة هؤلاء فاثبت على ما أنت عليه من العلم بالوحدانية فهو من موجبات السعادة، وفسر الأمر بالعلم بالثبات عليه لأن علمه ﷺ بالتوحيد لا يجوز أن يترتب على ما ذكره سبحانه من الأحوال فإنه عليه الصلاة والسلام موحد عن علم حال ما يوحى إليه ولأن المعنى فتمسك بما أنت فيه من موجبات السعادة لا بطلب السعادة، وقال بعض الأفاضل: إن الثبات أيضاً حاصل له عليه الصلاة والسلام فأمره بذلك ﷺ تذكير له بما أنعم الله تعالى عليه توطئة لما بعده، وتعقب بأن المراد بالثبات الاستمرار وهو بالنظر إلى الأزمنة الآتية وذلك وإن كان مما لا بد من حصوله له عليه الصلاة والسلام لمكان العصمة لكن المعصوم يؤمر وينهى فيأتي بالمأمور ويترك المنهي ولا بد للعصمة والأمر في قوله تعالى: ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ قيل على معنى الثبات أيضاً، وجعل الاستغفار كناية عما يلزمه من التواضع وهضم النفس والاعتراف بالتقصير لأنه ﷺ معصوم أو مغفور لا مصرّ ذاهل عن الاستغفار، وقيل: التحقيق أنه توطئة لما بعده من الاستغفار للمؤمنين والمؤمنات؛ ولعل الأولى إبقاؤه على الحقيقة من دون جعله توطئة، والنبي ﷺ كان يكثر الاستغفار، أخرج أحمد ومسلم وأبو داود والنسائي وابن حبان عن الأغر المزني رضي الله تعالى عنه قال: «قال رسول الله ﷺ إنه ليغان على قلبي وإني لأستغفر الله كل يوم مائة مرة» وأخرج النسائي وابن ماجه وغيرهما عن أبي موسى قال: «قال رسول الله ﷺ ما أصبحت غداة قط إلا استغفرت الله فيها مائة مرة» وأخرج أبو داود والترمذي وصححه والنسائي وابن ماجه وجماعة عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: «إنا كنا لنعد لرسول الله ﷺ في المجلس يقول: رب اغفر لي وتب علي إنك أنت التواب الرحيم مائة مرة» وفي لفظ «التواب الغفور» إلى غير ذلك من الأخبار الصحيحة.

والذنب بالنسبة إليه عليه الصلاة والسلام ترك ما هو الأولى بمنصبه الجليل ورب شيء حسنة من شخص سيئة من آخر كما قيل: حسنات الأبرار سيئات المقربين؛ وقد ذكروا أن لنبينا ﷺ في كل لحظة عروجاً إلى مقام أعلى مما كان فيه فيكون ما عرج منه في نظره الشريف ذنباً بالنسبة إلى ما عرج إليه فيستغفر منه، وحملوا على ذلك قوله عليه الصلاة والسلام: «إنه ليغان على قلبي» الحديث وفيه أقوال أخر، وقوله تعالى: ﴿وللمؤمنين﴾ على حذف مضاف بقرينة ما قبل أي ولذنوب المؤمنين. وأعيد الجار لأن ذنوبهم جنس آخر غير ذنبه عليه الصلاة والسلام فإنها معاص كبائر وصغائر وذنبه ﷺ ترك الأولى بالنسبة إلى منصبه الجليل، ولا يبعد أن يكون بالنسبة إليهم من أجل حسناتهم، قيل: وفي حذف المضاف وتعليق الاستغفار بذواتهم إشعار بفرط احتياجهم إليه فكأن ذواتهم عين الذنوب وكذا فيه إشعار بكثرتها، وجوز بعضهم كون الاستغفار للمؤمنين بمعنى طلب المغفرة لهم وطلب سببها كأمرهم بالتقوى، وفيه الجمع بين الحقيقة والمجاز مع أن في صحته كلاماً، فالظاهر إبقاء اللفظ على حقيقته.

وفي تقديم الأمر بالتوحيد إيذان بمزيد شرف التوحيد فإنه أساس الطاعات ونبراس العبادات، وفي الكلمة الطيبة أبحاث شريفة ولطائف منيفة لا بأس بذكر بعضها وإن تقدم شيء من ذلك فنقول: المشهور أن إلا للاستثناء والاسم الجليل بدل من محل اسم لا النافية للجنس وخبر ﴿لا﴾ محذوف، واستشكل الإبدال من جهتين أولاهما أنه بدل بعض وليس معه ضمير يعود على المبدل منه وهو شرط فيه؛ وأجيب بمنع كونه شرطاً مطلقاً بل هو شرط حيث لا تفهم البعضية بقرينة وههنا قد فهمت بقرينة الاستثناء ثانيتهما أن بين المبدل منه والبدل مخالفة فإن الأول منفي والثاني موجب.

وأجاب السيرافي بأنه بدل عن الأول في عمل العامل والتخالف نفياً وإيجاباً لا يمنع البدلية لأن مذهب البدل أن

يجعل الأول كأنه لم يذكر والثاني في موضعه وقد تتخالف الصفة والموصوف في ذلك نحو مررت برجل لا كريم ولا لبيب على أنه لو قيل: إن البدل في الاستثناء قسم على حياله مغاير لغيره من الإبدال لكان له وجه.

واستشكل أمر الخبر بأنه ان قدر ممكن يلزم عدم إثبات الوجود بالفعل للواحد الحقيقي تعالى شأنه أو موجود يلزم عدم تنزيهه تعالى عن إمكان الشركة وتقدير خاص مناسب لا قرينة عليه قيل: ولصعوبة هذا الاشكال ذهب صاحب الكشاف وأتباعه إلى أن الكلمة لا غير محتاجة إلى خبر وجعل ﴿إلا الله﴾ مبتدأ و ﴿لا إله﴾ خبره والأصل الله إله أي معبود بحق لكن لما أريد قصر الصفة على الموصوف قدم الخبر وقرن المبتدأ بإلا إذ المقصور عليه هو الذي يلي إلا والمقصود هو الواقع في سياق النفي والمبتدأ إذا اقترن بإلا وجب تقديم خبره. وتعقب بأنه مع ما فيه من التمحل يلزم منه بناء الخبر مع لا وهي لا يبني معها إلا المبتدأ، وأيضاً لو كان الأمر كذلك لم يكن لنصب الاسم الواقع بعدها وجه وقد جوزه جماعة.

وقال بعض الأفاضل: إن لا إله إلا الله على هذا المذهب قضية معدولة الطرفين بمنزلة غير الحي لا عالم بمعنى الحي عالم ولا يدفع الاعتراض كما لا يخفى، وقال بعضهم: إن الخبر هو ﴿إلا الله﴾ أعني إلا مع الاسم الجليل وأورد عليه أن الجنس مغاير لكل من أفراده فكيف يصدق حينئذٍ سلب مغايرة فرد عنه اللهم إلا أن يقال: إن ذلك بناءً على تضمين معنى من وإن المفهوم منه أنه انتفى من هذا الجنس غير هذا الفرد، والوجه كما قيل أن يقال: إن المغايرة المنفية هي المغايرة في الوجود لا المغايرة في المفهوم حتى لا يصدق، ولا شك أن المراد من الجنس المنفي بلا هذه هو المفهوم من غير اعتبار حصوله في الأفراد كلها أو بعضها فيكون محمولاً لا بمعنى اعتبار عدم حصوله فيها أصلاً حتى لا يصح حمله إذ لا يلزم من عدم اعتبار شيء اعتبار عدمه ومتى تحقق الحمل تحقق عدم المغايرة في الوجود فتدبره.

وقال بعضهم: لا خبر للا هذه أصلاً على ما قاله بنو تميم فيها، وأورد عليه أنه يلزم حينئذٍ انتفاء الحكم والعقد وهو باطل قطعاً ضرورة اقتضاء التوحيد ذلك ولا يبعد أن يقال: إن القول بعدم احتياج لا إلى الخبر لا يخرج المركب منها ومن اسمها عن العقد وذلك لأن معنى المركب نحو لا رجل على هذا التقدير انتفى هذا الجنس فإذا قلنا: لا رجل إلا حاتم كان معناه انتفى هذا الجنس في غير هذا الفرد ويخدشه ان تركب الكلام من الحرف والاسم مما ليس إليه سبيل، وربما يدفع بما قيل في النداء مثل يا زيد من أنه قائم مقام ادعوه، والشريف العلامة قدس سره صرح في بيان ما نقل عن بني تميم من عدم إثبات خبر لا هذه بأنه يحتمل أن يكون بناءً على أن المفهوم من التركيب كما ذكر آنفاً انتفاء هذا الجنس ثم إن كلمة الا على هذا التقدير بمعنى غير ولا مجال لكونها للاستثناء لا لما يتوهم من التناقض بناءً على أن سلب الجنس عن كل فرد فرد ينافي إثباته لواحد من أفراده فإنه مدفوع بنحو ما اختاره نجم الأئمة في دفع التناقض المتوهم في مثل ما قام القوم إلا زيداً لوجوب شمول القوم المنفي عنهم الفعل لزيد المثبت هو له فيما يتبادر بأن يقال: إن الجنس الخارج عنه هذا الفرد منتف في ضمن كل ما عداه ولا لما قد يتوهم من عدم تناول الجنس المنفي لما هو بعد إلا وهو شرط الاستثناء لما عرفت من الفرق بين الجنس بدون اعتبار حصوله في الأفراد وبينه مع اعتبار عدم حصوله فيها بل لأنها لو كانت للاستثناء لما أفاد الكلام التوحيد لأنه يكون حاصله حينئذٍ أن هذا الجنس على تقدير عدم دخول هذا الفرد فيه منتف فيفهم منه عدم انتفائه في افراد غير خارج عنها ذلك الفرد فأين التوحيد، فالواجب حملها على معنى غير وجعلها تابعة لمحل اسم لا بدلاً عنه أو صفة كما في قوله:

وكـــل أخ مـــفـــارقـــه أخـــوه ... لـــعـــمـــر أبـــيـــك إلا الـــفـــرقـــدان

كذا رأيته في بعض نسخ قديمة وذكره بعض شيوخ مشايخنا العلامة الطبقجلي في رسالته شرح الكلمة الطيبة ولم يتعقبه بشيء، وعندي أن ما ذكر في نفي الكون إلا للاستثناء على ذلك التقدير لا يخلو عن نظر. ثم إنه قيل: إذا كان مضمون المركب على ذلك التقدير إن هذا الجنس منتف فيما عدا هذا الفرد كانت القضية شخصية ولها لازم هو قضية كلية . أعني قولنا كل ما يعتبر فرداً له سوى هذا الفرد فهو منتف . ولا استبعاد في شيء من ذلك.

وذهب الكثير إلى تقدير الخبر موجود وأجاب عن الإشكال بأنه يلزم نفي الإمكان العام من جانب الوجود عن الآلهة غير الله تعالى وذلك مبني على مقدمة قطعية معلومة للعقلاء هي أن المعبود بالحق لا يكون إلا واجب الوجود فيصير المعنى لا معبود بحق موجود إلا الله وإذ ليس موجوداً ليس ممكناً لأنه لو كان ممكناً لكان واجباً بناءً على المقدمة القطعية فيكون موجوداً، وقد أفادت الكلمة الطيبة أنه ليس بموجود فليس بممكن لأن نفي اللازم يدل على نفي الملزوم. واعترض بأن المقدمة القطعية وإن كانت صحيحة في نفس الأمر لكنها غير مسلمة عند المشركين لأنهم يعبدون الأصنام ويعتقدونها آلهة مع اعترافهم بأنها ممكنة محتاجة إلى الصانع ﴿ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله﴾ [لقمان: ٢٥، الزمر: ٣٨] فيمكن أن يعترف المكلف بالكلمة الطيبة ويعتقد أن نفي الوجود لا يستلزم نفي الإمكان فيمكن عنده وجود آلهة غير الله تعالى فلا يكون التلفظ بالكلمة نصاً على إيمانه ولو كانت المقدمة المذكورة مسلمة عند الكل لأمكن أن يقدر الخبر من أول الأمر موجود بالذات أي لا إله موجود بالذات إلا الله وإذا لم يكن غيره تعالى موجوداً بالذات لم يكن مستحقاً للعبادة لأن المستحق لها لا يكون إلا واجباً لذاته.

وقد قرر الجواب بوجهين آخرين: الأول أن لا إله موجود قضية سالبة حملية لا بد لها من جهة وهي الإمكان العام فيكون المعنى أن الجانب المخالف للسلب وهو إثبات الوجود ليس ضرورياً للآلهة إلا الله تعالى فإنه موجود بالإمكان العام أي جانب السلب ليس ضرورياً له تعالى فيكون الوجود ضرورياً له سبحانه تحقيقاً للتناقض بين المستثنى والمستثنى منه. الثاني أن لا إله موجود بالإمكان العام سالبة كلية ممكنة عامة فيكون المتحصل بالاستثناء الذي هو نقيض موجبة جزئية ضرورية أي الله موجود بالضرورة. وأورد على التقريرين أنهما إنما يتمان إذا كان كل من طرفي المستثنى والمستثنى منه قضية مستقلة وهو ممنوع، والصحيح عند أهل العربية أنهما كلام واحد مقيد بالاستثناء فلا يجري فيهما أحكام الناقض إلا أن يؤول بالمعنى اللغوي، وأيضاً جعل الله موجود بالضرورة قضية جزئية فيه تساهل، وقيل: يمكن أن يقال الخبر المقدر هو الموجود مطلقاً سواء كان بالفعل أو بالإمكان على استعمال المشترك في كلا معنييه أو على تأويله بما يطلق عليه اسم الموجود وهو كما ترى، وقيل: يجوز تقديره ممكن ونفي الإمكان يستلزم نفي الوجود لأن الإله واجب الوجود وإمكان اتصاف شيء بوجوب الوجود يستلزم اتصافه بالفعل بالضرورة فإذا استفيد من الكلمة الطيبة إمكانه يستفاد منه وجوده أيضاً إذ كل ما لم يوجد يستحيل أن يكون واجب الوجود، ويعلم ما فيه مما مر فلا تغفل، وقال بعضهم: الخبر المقدر مستحق للعبادة، فالمعنى لا إله مستحق للعبادة إلا الله، ولا محذور فيه. واعترض بأن هذا كون خاص ولا بد في حذفه من قرينة ولا قرينة فلا يصح الحذف. وأجيب بأنها كنارٍ على علم لأن الإله بمعنى المعبود فدل على العبادة واستحقاقها، يؤيده ملاحظة المقام واعتبار حال المخاطبين لأن هذه الكلمة الطيبة واردة لرد اعتقاد المشركين الزاعمين أن الأصنام تستحق العبادة.

واعترض أيضاً بأنه لا يدل على نفي التعدد مطلقاً أي لا بالإمكان ولا بالفعل لجواز وجود إله غيره سبحانه لا يستحق العبادة، وأيضاً يمكن أن يقال: المراد إما نفي إله مستحق للعبادة غيره تعالى بالفعل أو بالإمكان فعلى الأول لا ينفي إمكان إله مستحق للعبادة أيضاً غيره عز وجل وعلى الثاني لا يدل على استحقاقه قال للعبادة بالفعل. ورد بأن

وجوب الوجود مبدأ جميع الكمالات ولذا فرعوا عليه كثيراً منها فلا ريب أنه يوجب استحقاق التعظيم التبجيل، ولا معنى لاستحقاق العبادة إلا ذلك فإذا لم يستحق غيره تعالى العبادة لم يوجد واجب وجود غيره سبحانه وإلا لاستحق العبادة قطعاً، وإذا لم يوجد لم يكن ممكناً أيضاً فثبت أن نفي استحقاق العبادة يستلزم نفي التعدد جزماً.

وتعقب بأن فيه البناء على أن الإله لا يكون إلا واجب الوجود، وقد سمعت أنها وإن كانت قطعية الصدق في نفس الأمر إلا أنها غير مسلمة عند المشركين. ومن المحققين من قال: إنه لا يلتفت إلى عدم تسليمهم لمكابرتهم ما عسى أن يكون بديهياً. نعم ربما يقال: إن الكلمة الطيبة على ذلك التقدير إنما تدل على نفي المعبود بالفعل بناءً على ما قرر في المنطق أن ذات الموضوع يجب اتصافه بالعنوان بالفعل، ويجاب بمنع وجوب ذلك بل يكفي الاتصاف بالإمكان كما صرح به الفارابي، وأما ما نقل عن الشيخ فمعناه كونه بالفعل بحسب الفرض العقلي لا بحسب نفس الأمر كما تدل عليه عبارته في الشفاء والإشارات فيرجع إلى معنى الإمكان.

والفرق بين المذهبين أن في مذهب الشيخ زيادة اعتبار ليست في مذهب الفارابي وهي أن الشيخ اعتبر مع الإمكان بحسب نفس الأمر فرض الاتصاف بالفعل ولم يعتبره الفارابي، وبالجملة إن الاتصاف بالفعل غير لازم فكل ما يمكن اتصافه بالمعبودية داخل في الحكم بأنه لا يستحق العبادة، ولما كانت القضية سالبة صدقت وإن لم يوجد الموضوع، ولعل التحقيق في هذا المقام أن الكلمة الطيبة جارية بين الناس على متفاهم اللغة والعرف لا على الاصطلاحات المنطقية والتدقيقات الفلسفية، وهي كلام ورد في رد اعتقاد المشرك الذي اعتقد أن آلهة غير الله سبحانه تستحق العبادة فإذا اعترف المشرك بمضمونه من أنه لا معبود مستحق للعبادة إلا الله تعالى علم من ظاهر حاله الإيمان، ولهذا اكتفى به الشارع عليه الصلاة والسلام، وأما الكافر الذي يعتقد إمكان وجود ذات تستحق العبادة بعد فلا تكفي هذه الكلمة الطيبة في إيمانه كما لا تكفي في إيمان من أنكر النبوة أو المعاد أو نحو ذلك مما يجب الإيمان به بل لا بد من الاعتراف بالحكم الذي أنكره ولا محذور في ذلك، ولما كان الكفرة الذين يعتقدون أن آلهة غير الله تعالى تستحق العبادة هم المشهورون دون من يعتقد إمكان وجودها بعد اعتبرت الكلمة علماً للتوحيد بالنسبة إليهم.

ويعلم من هذا أنه لو قدر الخبر المحذوف من أول الأمر موجود أمكن دفع الإشكال بهذا الطريق أعني متفاهم اللغة وعرف الناس من الأوساط، وأما أن نفي الوجود لا يستلزم نفي الإمكان فلا يلزم من الكلمة الطيبة حينئذٍ نفي إمكان آلهة غير الله تعالى فمما لا يسبق إلى الأفهام ولا يكاد يوجد كافر يعتقد نفي وجود إله غيره تعالى مع اعتقاده إمكان وجود إله غيره سبحانه بعد ذلك، ومن الناس من أيد تقدير الخبر كذلك بأن الظاهر أن لا نافية للجنس ونفي الماهية نفسها بدون اعتبار الوجود واتصافها به كنفي السواد نفسه لا نفي وجوده عنه بعيد، فكما أن جعل الشيء باعتبار الوجود إذ لا معنى لجعل الشيء وتصييره نفسه فكذلك نفيه ورفعه أيضاً باعتبار رفع الوجود عنه. وتعقب بأن هذا هو الذي يقتضيه النظر الجليل، وأما النظر الدقيق فقد يحكم بخلافه لأن نفي الماهية باعتبار الوجود ينتهي بالآخرة إلى نفي ماهية ما باعتبار نفسها، وذلك لأن نفي اتصافها بالوجود لا يكون باعتبار اتصاف ذلك الاتصاف به إلى ما لا يتناهى، فلا بد من الانتهاء إلى اتصاف منتف بنفسه لا باعتبار اتصافه بالوجود دفعاً للتسلسل، وقيل: الظاهر أن نفي الأعيان كما في الكلمة الطيبة إنما هو باعتبار ذلك، وأما غيرها فتارة وتارة فتدبر، و ﴿إلا﴾ على التقدير المذكور للاستثناء ورفع الاسم الجليل على ما سمعت من المشهور، وقيل: هي فيه بمعنى غير صفة الاسم لا باعتبار المحل أي لا إله غير الله تعالى موجود.

واعترض بأن المقصود من الكلام أمران: نفي الألوهية عن غيره تعالى وإثباتها له سبحانه، وهو إنما يتم إذا كانت لا فيه للاستثناء إذ يستفاد النفي والإثبات حينئذٍ بالمنطوق أما إن كانت بمعنى غير فلا يفيد بمنطوقه إلا نفي الألوهية عن غيره تعالى سبحانه وفي كون إثباتها له تعالى بالمفهوم ويكتفي به بحث لأن ذلك إن كان مفهوم لقب فلا عبرة عند القائلين بالمفهوم على الصحيح خلافاً للدقاق. والصيرفي من الشافعية، وابن خويز منداد من المالكية، ومنصور بن أحمد من الحنابلة، وإن كان مفهوم صفة فمن البين أنه غير مجمع عليه بل أبو حنيفة رضي الله تعالى عنه لم يقل بشيء من مفاهيم المخالفة أصلاً، وأنت تعلم أن ما ذكره من إفادة الكلمة الطيبة إثبات الإلهية لله تعالى ونفيها عما سواه عز وجل على تقدير كون إلا للاستثناء غير مجمع عليه أيضاً فإن الاستثناء من النفي ليس بإثبات عند أبي حنيفة رضي الله تعالى عنه، وجعل الإثبات في كلمة التوحيد بعرف الشرع، وفي المفرغ نحو ما قام إلا زيد بالعرف العام، وما له وما عليه في كتب الأصول فلا تغفل، وتمام الكلام فيما يتعلق بإعراب هذه الكلمة الطيبة في كتب العربية، وقد ذكرنا ذلك في تعليقاتنا على شرح السيوطي للألفية، وهي عند السادة الصوفية قدست أسرارهم جامعة لجميع مراتب التوحيد ودالة عليها إما منطوقاً أو بالاستلزام، ومراتبه أربع: الأولى توحيد الألوهية. الثانية توحيد الأفعال. الثالثة توحيد الصفات، وإن شئت قلت: توحيد الوجوب الذاتي فإنه يستلزم سائر الصفات الكمالية كما فرعها عليه بعض المحققين. الرابعة توحيد الذات وإن شئت قلت: توحيد الوجود الحقيقي فإن المآل واحد عندهم، وبيان ذلك أن لا إله إلا الله منطوقه. على ما يتبادر إلى الأذهان وذهب إليه المعظم. قصر الألوهية على الله تعالى قصراً حقيقياً أي إثباتها له تعالى بالضرورة ونفيها عن كل ما سواه سبحانه كذلك وهو يستلزم توحيد الأفعال. وتوحيد الصفات. وتوحيد الذات. أما الأول الذي هو قصر الخالقية فيه تعالى فلأن مقتضى قصر الألوهية عليه تعالى قصراً حقيقياً هو أن الله عز وجل هو الذي يستحق أن يعبده كل مخلوق فهو النافع الضار على الإطلاق فهو سبحانه وتعالى الخالق لكل شيء فإن كل من لا يكون خالقاً لكل شيء لا يكون نافعاً ضاراً على الإطلاق وكل من لا يكون كذلك لا يستحق أن يعبده كل مخلوق لأن العبادة هي الطاعة والانقياد والخضوع ومن لا يملك نفعاً ولا ضراً بالنسبة إلى بعض المخلوقين لا يستحق أن يعبده ذلك البعض ويطيعه وينقاد له، فإن من لا يقدر على إيصال نفع إلى شخص أو دفع ضر عنه لا يرجوه، ومن لا يقدر على إيصال ضر إليه لا يخافه، وكل من لا يخاف ولا يرجى أصلاً لا يستحق أن يعبد؛ وهو ظاهر لكن الذي يقتضيه قصر الألوهية عليه تعالى قصراً حقيقياً هو أن الله تعالى هو الذي يستحق أن يعبده كل مخلوق فهو النافع الضار على الإطلاق فهو الخالق لكل شيء وهو المطلوب، وأما الثاني فلأن الكلمة الطيبة تدل على أن الألوهية ثابتة له تعالى ثبوتاً مستمراً ممتنع الانفكاك ومنتفية عن غيره انتفاء كذلك، وكل ما كان كذلك فهي دالة على أنه عز وجل واجب الوجود، وأن كل موجود سواه تعالى ممكن الوجود؛ وكل ما كان كذلك كان وجوب الوجود مقصوراً عليه تعالى وهو مستلزم لسائر صفات الكمال وهو المطلوب، أما دلالتها على أنه عز وجل واجب الوجود فلأن الألوهية لا تكون إلا لموجود حقيقة اتفاقاً، وكل ما لا يكون صفة إلا لموجود إذا دل كلام على أنه ثابت لشيء ثبوتاً ممتنع الانفكاك سرمداً فقد دل على أن الوجود ثابت لذلك الشيء ثبوتاً ممتنع الانفكاك سرمداً، ولا يكون كذلك إلا إذا كان موجوداً لذاته وهو المعني بواجب الوجود لذاته، وحيث دلت على ثبوت الألوهية ثبوتاً مستمراً ممتنع الانفكاك فقد دلت على وجوب وجوده تعالى وهو مستلزم لسائر صفات الكمال وهو المطلوب.

وأما دلالتها على أن كل موجود سواه فهو ممكن الوجود فلأن موجوداً ما سواه لو كان واجب الوجود لذاته لكان مستحقاً أن يعبد لكنها قد دلت على أنه لا يستحق أن يعبد إلا الله فقد دلت على أنه لا واجباً وجوده

لذاته إلا الله تعالى فكل ما سواه فهو ممكن وهو المطلوب، أو يقال: إنها قد دلت على أنه تعالى هو النافع الضار على الإطلاق فهو الجامع لصفات الجلال والإكرام فهو سبحانه المتصف بصفات الكمال كلها وهو المطلوب. وأما الثالث فقد قال حجة الإسلام الغزالي في باب الصدق من الاحياء: كل ما تقيد العبد به فهو عبد له كما قال عيسى عليه السلام: يا عبيد الدنيا، وقال نبينا ﷺ: «تعس عبد الدينار تعس عبد الدرهم وعبد الحلة وعبد الخميصة» سمي كل من تقيد قلبه بشيء عبداً له، وقال في باب الزهد منه: من طلب غير الله تعالى فقد عبده؛ وكل مطلوب معبود، وكل طالب عبد بالإضافة إلى مطلبه، وقال في الباب الثالث من كتاب العلم منه. كل متبع هواه فقد اتخذ هواه معبوداً قال تعالى: ﴿أفرأيت من اتخذ إلهه هواه﴾ [الجاثية: ٢٣] وقال ﷺ: «أبغض إله عبد في الأرض عند الله تعالى هو الهوى» انتهى.

ومن المعلوم أنه ما في الوجود شيء إلا وهو مطلوب لطالب ما وقد صح بما مر إطلاق الإله عليه ولا إله إلا الله فما في الوجود حقيقة إلا الله ومنهم من قرر دلالة الكلمة الطيبة على توحيد الذات ونفي وجود أحد سواه عزَّ وجلَّ بوجه آخر، وهو أن ﴿إلا﴾ بمعنى غير بدل من الإله المنفي فيكون النفي في الحقيقة متوجهاً إلى الغير ونفي الغير توحيد حقيقي عندهم. وإذا تبين لك دلالتها على جميع مراتل التوحيد لاح لك أن الشارع لأمر ما جعلها مفتاح الإسلام وأساس الدين ومهداة الانام: وفي حديث أخرجه أبو نعيم عن عياض الأشعري أنه ﷺ قال: «لا إله إلا الله كلمة كريمة ولها عند الله مكان جمعت وسولت[1] من قالها صادقاً من قلبه دخل الجنة» وفي حديث أخرجه ابن النجار عن دينار عن أنس أنه عليه الصلاة والسلام قال: «لا إله إلا الله كلمة عظيمة كريمة على الله تعالى من قالها مخلصاً استوجب الجنة» وأخرج مسلم عن أبي هريرة قال: «قال رسول الله ﷺ إذهب بنعليّ هاتين فمن لقيت من وراء هذا الحائط يشهد أن لا إله إلا الله مستقيناً بها قلبه فبشره بالجنة» وحديث البطاقة أشهر من أن يذكر، وكذا الحديث القدسي المروي عن علي الرضا عن آبائه عليهم السلام، وجاء «من كان آخر كلامه من الدنيا لا إله إلا الله دخل الجنة» أي بلا حساب وإلا فما الفرق بين ذلك ومن قالها ولم تكن آخر كلامه من الدنيا، وبالجملة إن فضلها لا يحصى وإنها لتوصل قائلها إلى المقام الأقصى، وقد ألفت كتب في فضلها وكيفية النطق بها وآداب استعمالها فلا نطيل الكلام في ذلك. بقي ههنا بحث وهو أن المسلمين أجمعوا على وجوب معرفة الله تعالى وإن اختلفوا في كونه شرعياً أو عقلياً، وأما النظر في معرفته تعالى لأجل حصولها بقدر الطاقة البشرية فقد قال العلامة التفتازاني في شرح المقاصد: لا خلاف بين أهل الإسلام في وجوبه لأنه أمر مقدور يتوقف عليه الواجب المطلق الذي هو المعرفة، وكل مقدور يتوقف عليه الواجب المطلق فهو واجب شرعا أن كان وجوب الواجب المطلق شرعياً كما هو رأي الأصحاب وعقلاً إن كان عقلياً كما هو رأي المعتزلة لئلا يلزم تكليف المحال، أما كون النظر مقدوراً فظاهر، وأما توقف المعرفة عليه فلأنها ليست بضرورية بل نظرية، ولا معنى للنظري إلا ما يتوقف على النظر ويتحصل به، وظاهر كلام السند في شرح المواقف إجماع المسلمين كافة على ذلك أيضاً. والحق وقوع الخلاف في وجوب النظر كما يدل عليه كلام ابن الحاجب في مختصره، والعضد في شرحه، وكلام التاج السبكي في جمع الجوامع، والجلال المحلي في شرحه، وقول شيخ الإسلام في حاشيته عليه: محل الخلاف في وجوب النظر في أصول الدين وعدم وجوبه في غير معرفة الله تعالى منها أما النظر فيها فواجب إجماعاً كما ذكره السعد التفتازاني كغيره اعترضه المحقق ابن قاسم العبادي في حاشيته الآيات

---

(١) قوله وسولت كذا في غير نسخة بسين مهملة ولام وليراجع مستخرج أبي نعيم.

البينات بقوله: إن الظاهر أن ما نقله السعد من الإجماع على وجوب النظر في معرفة الله تعالى غير مسلم عند الشارح وغيره، ألا ترى إلى تمثيل الشارح لمحل الخلاف بقول: كحدوث العالم ووجود الباري تعالى وما يجب له جل شأنه وما يمتنع عليه سبحانه من الصفات فإن قوله: ووجود الباري تعالى الخ يتعلق بمعرفته عزَّ وجلَّ إلى آخر ما قال. نعم قال كثير ورجحه الإمام الرازي. والآمدي: إنه يجب النظر في مسائل الاعتقاد ومعرفة الله تعالى أسها فيجب فيها بالأولى، وقالوا في ذلك. لأن المطلوب اليقين لقوله تعالى لنبيه ﷺ ﴿فاعلم أنه لا إله إلا الله﴾ وقد علم ذلك، وقال تعالى للناس: ﴿واتبعوه لعلكم تهتدون﴾ [الأعراف: ١٥٨] ويقاس غير الوحدانية عليها، ولا يتم الاستدلال إلا بضم توقف حصول اليقين على النظر. وهؤلاء لم يجوزوا التقليد في الأصول وهو أحد أقوال في المسألة. ثانيها قول العنبري. إنه يجوز التقليد فيها بالعقد الجازم ولا يجب النظر لها لأنه عليه الصلاة والسلام كان يكتفي في الإيمان بالعقد الجازم ويقاس غير الإيمان عليه.

والمراد أنه عليه الصلاة والسلام كان يكتفي بذلك نظراً إلى ظاهر الحال فإن الخبر كما صرح به المحقق عيسى الصفوي في شرحه للفوائد الغياثية على ما نقله عنه تلميذه ابن قاسم العبادي في الآيات البينات دال وضعاً على صورة ذهنية على وجه الإذعان تحكي الحال الواقعية، ولا شك أن لا إلا الله محمد رسول الله من قسم الخبر فهما دالان وضعاً على أن قائلهما ولو تحت ظلال السيف معتقد لمضمونهما على وجه الإذعان، وعدم كونه معتقداً في نفس الأمر احتمال عقلي، والمطلع على ما في القلوب علام الغيوب. وثالث الأقوال إنه يجب التقليد بالعقد الجازم ويحرك النظر لأنه مظنة الوقوع في الشبه والضلال لاختلاف الأذهان بخلاف التقليد وهذا ليس بشيء أصلاً. والذي أوجب النظر من المحققين لم يرد به النظر على طريق المتكلمين بل صرح كما في الجواب العتيد للكوراني بأن المعتبر هو النظر على طريق العامة، والظاهر أنه ليس مظنة الوقوع فيما ذكر، وهل القائل بوجوبه من أولئك جاعل له شرطاً لصحة الإيمان أم لا ففيه خلاف. فيفهم من بعض عبارات شرح الأربعين لابن حجر أنه جاعل له كذلك فلا يصح إيمان المقلد عنده، بل يفهم منها أن النظر المعتبر عند ذلك هو النظر على طريق المتكلمين، وكلام الجلال المحلي في شرح جمع الجوامع صريح في أن القائلين بوجوب النظر غير أبي هاشم ليسوا جاعلين النظر شرطاً لصحة الإيمان ولا زاعمين بطلان إيمان المقلد بل هو صحيح عندهم مع الإثم بترك النظر الواجب. نعم سيأتي إن شاء الله تعالى نقل الإمام حجة الإسلام في كتابه فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة نقل الاشتراط عن طائفة من المتكلمين من رده.

وأما ما نقل عن الشيخ الأشعري من الاشتراط وأنه لا يصح إيمان المقلد فكذب عليه كما قاله الأستاذ أبو القاسم القشيري، وقال التاج السبكي: التحقيق أنه إن كان التقليد أخذاً بقول الغير بغير حجة مع احتمال شك أو وهم فلا يكفي، وإن كان جزماً فيكفي خلافاً لأبي هاشم. والظاهر أن القائل بكفاية التقليد مع الجزم يمنع القول بأن المعرفة لا تحصل إلا بالنظر ويقول: إنها قد تحصل بالإلهام أو التعليم أو التصفية فمن حصل له العقد الجازم بما يجب عليه اعتقاده فقد صح إيمانه من غير إثم لحصول المقصود، ومن لم يحصل له ذلك ابتداء أو تقليداً أو ضرورة فالنظر عليه متعين ﴿ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه ثم أعرض عنها﴾ [الكهف ٥٧].

ويكفي دليلاً للصحة اكتفاء النبي ﷺ وأصحابه رضي الله تعالى عنهم من عوام العجم كأجلاف العرب وإن أسلم أحدهم تحت ظل السيف بمجردالإقرار بلا إله إلا الله محمد رسول الله الدال بحسب ظاهر حالهم على أنهم يعتقدون مضمون ذلك ويذعنون له، ولو كان الاستدلال فرضاً لأمروا به بعد النطق بالكلمتين أو علموا الدليل ولقنوه كما لقنوهما وكما علموا سائر الواجبات، ولو وقع ذلك لنقل إلينا فإنه من أهم مهمات الدين، ولم ينقل أنهم أمروا أحداً

منهم أسلم بترديد نظر ولا سألوه عن دليل تصديقه ولا أرجؤوا أمره حتى ينظر فلو كان النظر واجباً على الأعيان ولو إجمالياً على طريق العامة لما اكتفى النبي ﷺ من أولئك العوام والاجلاف بمجرد الإقرار لأن النبي عليه الصلاة والسلام وأصحابه لا يقرون أحداً على ترك فرض العين من غير عذر، فلا يكون تاركه آثماً فضلاً عن أن يكون بتركه غير صحيح الإيمان، ويشهد لذلك ما قاله ﷺ لأسامة بن زيد عند اعتذاره عن قتل مرداس بن نهيك من أهل فدك وغيره من الأخبار الكثيرة. وما في المواقف والمقاصد وشرح المختصر العضدي وغيرها من كتب الكلام والأصول من أن النبي ﷺ وأصحابه كانوا يعلمون أنهم ـ أي العوام ـ واجلاف العرب يعلمون الأدلة إجمالاً كما قال الأعرابي: البعرة تدل على البعير وأثر الأقدام على المسير أفسماء ذات أبراج وأرض ذات فجاج لا تدل على اللطيف الخبير أي فلذلك لم يلزموهم النظر ولا سألوهم عنه ولا أرجؤوا أمرهم وكل ما كان كذلك لم يكن اكتفاؤهم بمجرد الإقرار دليلاً على أن النظر ليس واجباً على الأعيان ولا على أن تاركه غير آثم دعوى لا دليل عليها، وحكاية الأعرابي إن كانت مسوقة للاستدلال لا تدل غاية ما في الباب أن ذلك الأعرابي كان عالماً بدليل إجمالي، ولا يلزم منه أن جميع الأجلاف والعوام كانوا عالمين بالأدلة الإجمالية في عهد النبوة وغيره وإلا لكانت حجة على أنه لا مقلد في الوجود، على أن بعضهم أسند ذلك القول إلى قس بن ساعدة وكان في الفترة. والجلال المحلي ذكره لأعرابي قاله في جواب الأصمعي وكان في زمن الرشيد بل قد يقال: إن ظاهر كثير من الآيات والأخبار يدل على أن كثيراً من المشركين في عهده عليه الصلاة والسلام لم يكونوا عالمين بأدلة التوحيد مطلقاً، وذلك كقوله تعالى حكاية عنهم: ﴿أجعل الآلهة إلهاً واحداً إن هذا لشيء عجاب﴾ [ص: ٥]. ﴿إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون ويقولون أئنا لتاركو آلهتنا لشاعر مجنون﴾ [الصافات: ٣٦] وقول بعضهم في بعض الحروب: أعل هبل أعل هبل؛ وما ذكره المحقق العضد في شرح المختصر من الدليل على عدم جواز التقليد حيث قال: إن الأمة أجمعوا على وجوب معرفة الله تعالى وأنها لا تحصل بالتقليد لثلاثة أوجه: أحدها أنه يجوز الكذب على المخبر فلا يحصل بقوله العلم ثانيها أنه لو أفاد العلم لأفاده بنحو حدوث العالم من المسائل المختلف فيها فإذا قلد واحد في الحدوث والآخر في القدم كانا عالمين بهما فيلزم حقيقتهما وأنه محال. ثالثها أن التقليد لو حصل العلم فالعلم بأنه صدق فيما أخبر به إما أن يكون ضرورياً أو نظرياً لا سبيل إلا الأول بالضرورة فلا بد له من دليل والمفروض إنه لا دليل إذ لو علم صدقه بدليله لم يبق تقليداً تعقبه العلامة الكوراني فقال: فيه بحث، أما في الوجه الأول فلأن من جوز التقليد مثل المقلد بمن نشأ على شاهق جبل ولم ينظر في ملكوت السموات والأرض وأخبره غيره بما يلزمه اعتقاده وصدقه بمجرد إخباره من غير تفكر وتدبر وهو صريح في أن الكلام في مقلد أخبره غيره بما يلزمه اعتقاده وما يلزمه اعتقاده لا يكون إلا صدقاً فإن الكذب لا يلزم أحداً أعتقاده، وأما من أخبر بالأكاذيب فاعتقدها فهو لم يعتقد إلا أكاذيب والأكاذيب ليس من معرفة الله تعالى في شيء فكيف يحكم عليه أحد من العقلاء بأنه مؤمن بالله تعالى عارف به مع أنه لم يعتقد إلا الأكاذيب وهو ظاهر، وأما في الوجه الثاني فلمثل ما مر لأنا لا نقول: إن كل تقليد مفيد للعلم ولا أن كل مقلد عالم كيف وليس كل نظر مفيداً للعلم ولا كل ناظر مصيباً، فإذا لم يكن النظر موجباً للعلم مطلقاً وإنما الموجب النظر الصحيح فكذلك نقول: ليس كل تقليد مفيداً للعلم وإنما المفيد التقليد الصحيح، وهو أن يقلد عالماً بمسائل معرفة الله تعالى صادقاً فيما يخبره به فإن الكلام إنما هو في صحة إيمان مثل هذا المقلد لا مطلقاً، وأما في الثالث فلأنا نختار أن علمه بأنه صدق فيما أخبر به ضروري قولكم لا سبيل إليه بالضرورة قلنا: ممنوع لقوله تعالى: ﴿فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام﴾ [الأنعام: ١٢٥] وقد روي مرفوعاً أنه ﷺ سئل عن شرح الصدر فقال عليه الصلاة والسلام: «نور يقذفه الله في قلب المؤمن فينفسح» فصرح ﷺ بأنه نور لا يحصل من دليل وإنما يقذفه الله تعالى في قلبه فلا يقدر على دفعه من غير فكر ولا روية ولا نظر ولا

استدلال، وقد صرح بعض أكابر المحققين بأن توحيد الأنبياء عليهم الصلاة والسلام عن علم ضروري وجدوه في نفوسهم لم يقدروا على دفعه وبأن من أهل الفترة من وجد كذلك بل قد صرح بأن الإيمان علم ضروري يجده المؤمن في قلبه لا يقدر على دفعه فكم من آمن بلا دليل ومن لم يؤمن مع الدليل، وقلما يوثق بإيمان من آمن عن دليل فإنه معرض للشبه القادحة فيه.

وفي الباب المائة والاثنين والسبعين والمائة والسابع والسبعين والمائتين والسابع والسبعين من الفتوحات المكية ما يؤيد ذلك، وقال الإمام حجة الإسلام في فيصل التفرقة: من أشد الناس غلواً وانحرافاً طائفة من المتكلمين كفروا عوام المسلمين وزعموا أن من لا يعرف الكلام معرفتنا ولم يعرف الأدلة الشرعية بأدلتنا التي حررناها فهو كافر فهؤلاء ضيقوا رحمة الله تعالى الواسعة على عباده أولاً، وجعلوا الجنة وقفاً على شرذمة يسيرة من المتكلمين، ثم جهلوا ما تواترت به السنة ثانياً إذ ظهر من عصر رسول الله ﷺ وعصر الصحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين حكمهم بإسلام طوائف من أجلاف العرب كانوا مشغولين بعبادة الوثن ولم يشتغلوا بتعليم الدلائل ولو اشتغلوا بها لم يفهموها، ومن ظن أن مدرك الإيمان الكلام والأدلة المحررة والتقسيمات المرتبة فقد أبعد، لا بل الإيمان نور يقذفه الله تعالى في قلب عبده عطية وهداية من عنده، تارة بتنبه في الباطن لا يمكن التعبير عنه، وتارة بسبب رؤيا في المنام، وتارة بمشاهدة حال رجل متدين وسراية نوره إليه عند صحبته ومجالسته، وتارة بقرينة حال، فقد جاء أعرابي إلى رسول الله ﷺ جاحداً له منكراً فلما وقع بصره على طلعته البهية وغرته الغريرة السنية فرآها يتلألأ منها نور النبوة قال: والله ما هذا وجه كذاب، وسأله أن يعرض عليه الإسلام فأسلم، وجاء آخر فقال: أنشدك الله بعثك الله نبياً؟ فقال ﷺ: بلى إني والله الله بعثني نبياً فصدقه بيمينه وأسلم، فهذا وأمثاله من أن يحصى ولم يشتغل واحد منهم قط بالكلام وتعلم الأدلة بل كان تبدو أنوار الإيمان أولاً بمثل هذه القرائن في قلوبهم لمعة بيضاء ثم لا تزال تزداد وضوحاً وإشراقاً بمشاهدة تلك الأحوال العظيمة وبتلاوة القرآن وتصفية القلوب، وليت شعري من نقل عن رسول الله ﷺ وعن الصحابة إحضاره أعرابياً أسلم وقوّله الدليل على أن العالم حادث لأنه لا يخلو عن الأعراض وما لا يخلو عن الحوادث فهو حادث، وإن الله تعالى عالم بعلم وقادر بقدرة كلاهما زائد على الذات لا هو ولا غيره إلى غير ذلك من رسوم المتكلمين، ولست أقول: لم تجر هذه الألفاظ بل لم يجر أيضاً ما معناه معنى هذه الألفاظ بل كان لا تنكشف ملحمة إلا عن جماعة من الأجلاف يسلمون تحت ظلال السيوف وجماعة من الأسارى يسلمون واحداً واحداً بعد طول الزمان أو على القرب وكانوا إذا نطقوا بكلمة الشهادة علموا الصلاة والزكاة وردوا إلى صناعتهم من رعاية الغنم أو غيرها. نعم لست أنكر أنه يجوز أن يكون ذكر أدلة المتكلمين أحد أسباب الإيمان في حق بعض الناس ولكن ذلك ليس بمقصور عليه وهو نادر أيضاً وساق الكلام إلى أن قال: والحق الصريح أن كل من اعتقد أن ما جاء به الرسول ﷺ واشتمل عليه القرآن حق اعتقاداً جزماً فهو مؤمن وإن لم يعرف أدلته، فالإيمان المستعار من الدلائل الكلامية ضعيف جداً مشرف على التزلزل بكل شبهة بل الإيمان الراسخ إيمان العوام الحاصل في قلوبهم في الصبا بتواتر السماع والحاصل بعد البلوغ بقرائن لا يمكن العبارة عنها ا هـ.

وفيه فوائد شتى ولذا نقلناه بطوله، ومتى جاز أن يقذف الله تعالى في قلوب العبد نور الإيمان فيؤمن بلا نظر واستدلال جاز أن يقذف سبحانه في قلبه صدق المخبر بحيث لا يقدر على دفعه ولا يدري أنه من أين جاء لا سيما إذا كان المخبر هو النبي ﷺ، فإن من لازم قذف نور الإيمان في قلب المؤمن به عليه الصلاة والسلام أن يقذف في قلبه صدقه ﷺ لأن الإيمان لا يتم إلا بذلك، فقد ظهر أن دعوى الضرورة في أنه لا سبيل إلى العلم بصدق المخبر فيما

أخبر به علماً ضرورياً إن لم تكن مكابرة فمنعها ليس مكابرة أيضاً، فإن الدليل قد قام على جواز حصول العلم الضروري بصدقه بل على وقوعه فليست تلك الدعوى من المقدمات الضرورية التي يكون منعها مكابرة غير مسموعة، وقد اتضح من جميع ما ذكر أن ما قاله السعد في شرح المقاصد من أن الحق أن المعرفة بدليل إجمالي يرفع الناظر من حضيض التقليد فرض عين لا مخرج عنه لأحد من المكلفين وبدليل تفصيلي يتمكن معه من إزاحة الشبه وإلزام المنكرين وإرشاد المسترشدين فرض كفاية لا بد من أن يقوم به البعض لا يخلو عن نظر على ما قيل، لكن الظاهر عندي أن الحق مع السعد من جهة أن الإيمان بمعنى التصديق مكلف به وشرط المكلف به كونه اختياريا، وقد صرحوا أن التكليف بما ليس باختياري تكليف في الحقيقة بما يتوقف عليه من الأمور الاختيارية وإن التصديق نفسه لكونه غير اختياري كان التكليف به في الحقيقة تكليفاً بما يتوقف هو عليه من النظر الاختياري، فالإيمان الذي يحصل بقذفه تعالى النور في القلب من غير فكر ولا روية ولا نظر ولا استدلال ليس اختياريا بنفسه ولا باعتبار ما يحصل هو منه فكيف يكون مكلفاً به، وما مراد السعد ومن وافقه بالمعرفة إلا المعرفة من حيث إنها مكلف بها كما يشير إليه قوله: لا مخرج عنه لأحد من المكلفين، وكون ذلك مكلفاً به باعتبار أمر اختياري غير النظر كتحصيل الاستعداد لإفاضة النور وخلق العلم الضروري في قلب العبد غير ظاهر. نعم لست أنكر أن من المعرفة ما لا يتوقف على نظر في دليل إجمالي أو غيره كمعرفة الأنبياء عليهم السلام على ما سمعت عن بعضهم، وكمعرفة من شاء الله تعالى من عباده سبحانه غيرهم ولا أسمى نحو هذه المعرفة تقليدية، وكذا لا أنكر أن المعرفة الحاصلة من قذف النور فوق المعرفة الحاصلة من النظر في الدليل فإنها يخشى عليها من عواصف الشبه، وأذهب إلى النظر في الدليل مطلقاً واجب على من لم يحصل له العقد الجازم إلا به، وأما من حصل له ذلك بأي طريق كان دونه فلا يجب عليه وكذا لا يأثم بتركه، وحكاية الإجماع على إثمه به لا يخفى ما فيها، وتوجيه ذلك بأن جزم المؤمن حينئذ لا ثقة به إذ لو عرضت له شبهة فات وبقي متردداً بخلاف الجزم الناشيء عن الاستدلال فإنه لا يفوت بذلك غير ظاهر لأنه إذا سلم أن من تم جزمه من غير نظر فقد أتى بواجب الإيمان فلا وجه لتأثيمه بترك النظر بناء على مجرد احتمال عروض شبهة مشوشة لجزمه لأنه إذا سلم أن الواجب عليه ليس إلا أن يجزم وقد جزم فقد أدى واجب الوقت وما ترك منه شيئاً، وكل من لم يترك واجباً معيناً في وقت معين لا معنى لتأثيمه في ذلك الوقت من جهة ذلك الواجب، وكما يحتمل عقلاً إن تعرض له شبهة تشوش عليه الجزم لعدم الدليل كذلك يحتمل عقلاً أن يحصل له الدليل على ما جزم قبل عروض شبهة ولعل هذا الاحتمال أقوى وأقرب إلى الوقوع.

وإذا أحطت خبراً بجميع ما ذكرنا علمت أن الاستدلال بقوله تعالى: **﴿فاعلم أنه لا إله إلاّ الله﴾** على وجوب النظر فيه نظر لتوقفه على صحة قولهم: إن العلم لا يحصل إلا بالنظر وقد سمعت ما فيه. ويقوي ذلك إذا قلنا: إن علمه ﷺ بالوحدانية ضروري إذ يكون المراد الأمر بالثبات والاستمرار على ما هو ﷺ فيه من اجتناب ما يخل بالعلم، وقد يقال: يجوز أن يكون الاستدلال نظراً إلى ظاهر اللفظ من حيث إنه أمر بالعلم بالوحدانية فلا بد أن يكون مقدوراً بنفسه أو باعتبار ما يحصل هو منه، وحيث انتفى كونه مقدوراً بنفسه تعين كونه مقدوراً باعتبار ما يحصل هو منه، والظاهر أنه النظر.

وأنت تعلم أنه إن كان التقليد سبباً من أسباب العلم أيضاً لم يتم هذا وإن لم يكن سبباً تم فتأمل، ثم اعلم أن النظر الذي قالوا به في الأصول الاعتقادية أعم من النظر في الأدلة العقلية والنظر في الأدلة السمعية، فإن منها ما ثبت بالسمع كالأمور الأخروية ومدخل العقل فيها ليس إلا بأنها أمور ممكنة أخبر الصادق بوقوعها وكل ممكن أخبر

الصادق بوقوعه واقع فتلك الأمور واقعة، وأما النظر في معرفة الله تعالى . أعني التصديق بوجوده تعالى وصفاته العلا . فقيل: يتعين أن يكون المراد به النظر في الأدلة العقلية فقط، ولا يجوز أن يكون النظر في الأدلة السمعية طريقها إليه لاستلزامه الدور. وفي الجواب العتيد الدور لازم لكن لا مطلقاً بل بالنسبة إلى كل مطلوب يتوقف العلم بصدق الرسول ﷺ على العلم به، وذلك لأن النظر في الأدلة السمعية إنما يكون طريقا إلى المعرفة إذا كانت صادقة عند الناظر فيها وصدقها في علم الناظر موقوف على علمه بأن هذا الذي يدعي أنه رسول الله الذي جاء بها[1] صادقاً في دعواه الرسالة. وعلمه بذلك موقوف على العلم بأن الله تعالى قد أظهر المعجزات على يده تصديقاً له في دعواه وعلمه بذلك موقوف على العلم بأن ثمت إلهاً على صفة يمكن بها أن يبعث رسولاً ككونه حياً عالماً مريداً قادراً وهو من معرفة الإله سبحانه فلو استفدنا العلم بوجود الله تعالى وبتلك الصفات من الدلائل السمعية الموقوفة على صدق الرسول عليه الصلاة والسلام لزم الدور كما ترى. نعم إذا قيل: إن المكلف بعد ما آمن بالرسول ﷺ واعتقد اعتقاداً جازماً بصدقه في جميع ما جاء به من عند الله تعالى بأي وجه كان ذلك الجزم بالضرورة أو بالنظر أو بالتقليد فله أن يأخذ عقيدته من القرآن من غير تأويل ولا ميل من غير أن ينظر في دليل عقلي كان ذلك كلاماً صحيحاً لا غبار عليه، ولا يلزم منه تحصيل للحاصل بالنسبة إلى ما حصله أولا من المسائل التي يتوقف عليها صدق الرسول عليه الصلاة والسلام لأن التحصيل الثاني من حيث إن الجائي بدلائلها صادق فيها والتحصيل الأول كان بالنظر العقلي من غير اعتبار صدق الرسول عليه الصلاة والسلام فاختلفت الحيثية فليفهم والله تعالى أعلم.

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ﴾ في الدنيا ﴿وَمَثْوَاكُمْ﴾ في الآخرة، وخص المتقلب بالدنيا والمثوى بالآخرة لأن كل أحد متحرك في الدنيا دائماً نحو معاده غير قار وفي الآخرة مقيم لا حركة له نحو دار وراءها، والمراد من علمه تعالى بذلك تحذيرهم من جزائه وعقابه سبحانه أو الترغيب في امتثال ما يأمرهم جلّ شأنه به والترهيب عما ينهاهم عزَّ وجلَّ عنه على طريق الكناية. وقال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: متقلبكم تصرفكم في حياتكم الدنيا ومثواكم في قبوركم وآخرتكم، وقال عكرمة: متقلبكم في أصلاب الآباء إلى أرحام الأمهات ومثواكم إقامتكم في الأرض؛ وقال الطبري: وغيره: متقلبكم تصرفكم في يقظتكم ومثواكم منامكم، وقيل: متقلبكم في معايشكم ومتاجركم ومثواكم حيث تستقرون من منازلكم، وقيل: متقلبكم في أعمالكم ومثواكم من الجنة والنار.

واختار أبو حيان عمومهما في كل متقلب وفي كل إقامة، ونحوه ما قيل: المراد يعلم جميع أحوالكم فلا يخفى عليه سبحانه شيء منها.

وقرأ ابن عباس «منقلبكم» بالنون.

وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي
قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٠﴾ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا
عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴿٢١﴾ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا
أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ ﴿٢٣﴾ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ

---

(١) قوله: الذي جاء بها صادقاً كذا في النسخ.

أَقۡفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَٰرِهِم مِّنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡهُدَى ٱلشَّيۡطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمۡ وَأَمۡلَىٰ
لَهُمۡ ﴿٢٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُواْ لِلَّذِينَ كَرِهُواْ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمۡ فِي بَعۡضِ ٱلۡأَمۡرِۖ وَٱللَّهُ
يَعۡلَمُ إِسۡرَارَهُمۡ ﴿٢٦﴾ فَكَيۡفَ إِذَا تَوَفَّتۡهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَضۡرِبُونَ وُجُوهَهُمۡ وَأَدۡبَٰرَهُمۡ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ
ٱتَّبَعُواْ مَآ أَسۡخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُواْ رِضۡوَٰنَهُۥ فَأَحۡبَطَ أَعۡمَٰلَهُمۡ ﴿٢٨﴾ أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم
مَّرَضٌ أَن لَّن يُخۡرِجَ ٱللَّهُ أَضۡغَٰنَهُمۡ ﴿٢٩﴾ وَلَوۡ نَشَآءُ لَأَرَيۡنَٰكَهُمۡ فَلَعَرَفۡتَهُم بِسِيمَٰهُمۡۚ وَلَتَعۡرِفَنَّهُمۡ فِي لَحۡنِ ٱلۡقَوۡلِۚ
وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ أَعۡمَٰلَكُمۡ ﴿٣٠﴾ وَلَنَبۡلُوَنَّكُمۡ حَتَّىٰ نَعۡلَمَ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ مِنكُمۡ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبۡلُوَاْ أَخۡبَارَكُمۡ ﴿٣١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ
كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّواْ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡهُدَىٰ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـًٔا وَسَيُحۡبِطُ
أَعۡمَٰلَهُمۡ ﴿٣٢﴾ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبۡطِلُوٓاْ أَعۡمَٰلَكُمۡ ﴿٣٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ
وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٞ فَلَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡ ﴿٣٤﴾ فَلَا تَهِنُواْ وَتَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلۡمِ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ
وَٱللَّهُ مَعَكُمۡ وَلَن يَتِرَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ ﴿٣٥﴾ إِنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞۚ وَإِن تُؤۡمِنُواْ وَتَتَّقُواْ يُؤۡتِكُمۡ أُجُورَكُمۡ وَلَا
يَسۡـَٔلۡكُمۡ أَمۡوَٰلَكُمۡ ﴿٣٦﴾ إِن يَسۡـَٔلۡكُمُوهَا فَيُحۡفِكُمۡ تَبۡخَلُواْ وَيُخۡرِجۡ أَضۡغَٰنَكُمۡ ﴿٣٧﴾ هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ
تُدۡعَوۡنَ لِتُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبۡخَلُۖ وَمَن يَبۡخَلۡ فَإِنَّمَا يَبۡخَلُ عَن نَّفۡسِهِۦۚ وَٱللَّهُ ٱلۡغَنِيُّ
وَأَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُۚ وَإِن تَتَوَلَّوۡاْ يَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمۡثَٰلَكُم ﴿٣٨﴾

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ حرصاً على الجهاد لما فيه من الثواب الجزيل فالمراد بهم المؤمنون الصادقون **﴿لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ﴾** أي هلا أنزلت سورة يؤمر فيها بالجهاد. فلولا: تحضيضية، وعن ابن مالك أن **﴿لا﴾** زائدة والتقدير لو أنزلت سورة وليس بشيء.

﴿فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ﴾ أي بطريق الأمر به، والمراد. بمحكمة. مبينة لا تشابه ولا احتمال فيها لوجه آخر سوى وجوب القتال، وفسرها الزمخشري بغير منسوخة الأحكام. وعن قتادة كل سورة فيها القتال فهي محكمة وهو أشد القرآن على المنافقين وهذا أمر استقرأه قتادة من القرآن لا بخصوصية هذه الآية والمتحقق أن آيات القتال غير منسوخة وحكمها باق إلى يوم القيامة. وقيل: محكمة بالحلال والحرام.

وقرىء «نَزَلَتْ» سورة بالبناء للفاعل من نزل الثلاثي المجرد ورفع «سورَةٌ» على الفاعل.

وقرأ زيد بن علي «نَزَلَتْ» كذلك إلا أنه نصب «سُورَةً مُحْكَمَةً»، وخرج ذلك على كون الفاعل ضمير السورة، و «سورة محكمة» نصب على الحال. وقرأ هو وابن عمير «وَذَكَر» مبنياً للفاعل وهو ضمير تعالى «القِتَال» بالنصب على أنه مفعول به **﴿رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾** أي نفاق، وقيل: ضعف في الدين **﴿يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾** أي نظر المحتضر الذي لا يطرف بصره، والمراد تشخص أبصارهم جبناً وهلعاً، وقيل: يفعلون ذلك من شدة العداوة له عليه الصلاة والسلام، وقيل: من خشية الفضيحة فإنهم إن تخلفوا عن القتال افتضحوا وبان نفاقهم، وقال الزمخشري: كانوا يدعون الحرص على الجهاد ويتمنونه بألسنتهم ويقولون: لولا أنزلت سورة في معنى

الجهاد فإذا أنزلت وأمروا فيها بما تمنوا وحرصوا عليه كاعوا وشق عليهم وسقط في أيديهم كقوله تعالى: ﴿فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس﴾ [النساء: ٧٧] والظاهر ما ذكرناه أولاً من أن القائلين هم الذين أخلصوا في إيمانهم وإنما عرا المنافقين ما عرا عند نزول أمير المؤمنين بالجهاد لدخولهم فيهم بحسب ظاهر حالهم، وقد جوز هو أيضاً إرادة الخلص من الذين آمنوا لكن كلامه ظاهر في ترجح ما ذكره أولاً عنده والظاهر أن في الكلام عليه إقامة الظاهر مقام المضمر، وجوز أن يكون المطلوب في قوله تعالى: ﴿لولا أنزلت سورة﴾ إنزال سورة مطلقاً حيث كانوا يستأنسون بالوحي ويستوحشون إذا أبطأ، وروي نحوه عن ابن جريج. أخرج ابن المنذر عنه أنه قال في الآية: كان المؤمنون يشتاقون إلى كتاب الله تعالى وإلى بيان ما ينزل عليهم فيه فإذا نزلت السورة يذكر فيها القتال رأيت يا محمد المنافقين ينظرون إليك الخ.

﴿فَأَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ تهديد ووعيد على ما روي عن غير واحد، وعن أبي علي أن ﴿أولى﴾ فيه علم لعين الويل مبني على زنة أفعل من لفظ الويل على القلب وأصله أويل وهو غير منصرف للعلمية والوزن. فالكلام مبتدأ وخبر.

واعترض بأن الويل غير متصرف فيه، ومثل يوم أيوم مع أنه غير منقاس لا يفرد عن الموصوف البتة، وإن القلب خلاف الأصل لا يرتكب إلا بدليل، وإن علم الجنس شيء خارج عن القياس مشكل التعقل خاصة فيما نحن فيه، ثم قيل: إن الاشتقاق الواضح من الولي بمعنى القرب كما في قوله:

تكلفني ليلى وقد شط وليها ... وعادت عواد بيننا وخطوب

يرشد إلى أنه للتفضيل في الأصل غلب في قرب الهلاك ودعاء السوء كأنه قيل: هلاكاً أولى لهم بمعنى أهلكهم الله تعالى هلاكاً أقرب لهم من كل شر وهلاك، وهذا كما غلب بعداً وسحقاً في الهلاك، وهو على هذا منصوب على أنه صفة في الأصل لمصدر محذوف وقد أقيم مقامه والجار متعلق به. وفي الصحاح عن الأصمعي أولى له قاربه ما يهلكه أي نزل به وأنشد:

فعادى بين هاديتين منها ... وأولى أن يزيد على الثلاث

أي قارب أن يزيد، قال ثعلب: ولم يقل أحد في ﴿أولى﴾ أحسن مما قاله الأصمعي، وعلى هذا هو فعل مستتر فيه ضمير الهلاك بقرينة السياق، وقريب منه ما قيل: إنه فعل ماض وفاعله ضميره عزَّ وجلَّ واللام مزيدة أي أولاهم الله تعالى ما يكرهون أو غير مزيدة أي أدنى الله عزَّ وجلَّ الهلاك لهم، والظاهر زيادة اللام على ما سمعت عن الأصمعي، ومن فسره بقرب جوز الأمرين، وقيل: هو اسم فعل والمعنى وليهم شر بعد شر. وقيل: هو فعلى من آل بمعنى رجع لا أفعل من الولي فهو في الأصل دعاء عليهم بأن يرجع أمرهم إلى الهلاك، والمراد أهلكهم الله تعالى إلا أن التركيب مبتدأ وخبر، وقال الرضي: هو علم للوعيد من وليه الشر أي قربه، والتركيب مبتدأ وخبر أيضاً. واستدل بما حكي أبو زيد من قولهم: أولاة بتاء التأنيث على أنه ليس بأفعل تفضيل ولا أفعل فعلى وإنه علم وليس بفعل ثم قال: بل هو مثل أرمل وأرملة إذا سمي بهما ولذا لم ينصرف، وليس اسم فعل أيضاً بدليل أولاة في تأنثيه بالرفع يعني أنه معرب ولو كان اسم فعل كان مبنياً مثله. وتعقب بأنه لا مانع من كون أولاة لفظاً آخر بمعناه يرد من ذلك على قائلي ما تقدم أصلاً، وجاء أول أفعل تفضيل وظرفاً كقبل وسمع فيه أولة كما نقله أبو حيان، وقيل: الأحسن كونه أفعل تفضيل بمعنى أحق وأحرى وهو خبر لمبتدأ محذوف يقدر في كل مقام بما يليق به والتقدير ههنا العقاب أولى لهم، وروي ذلك عن قتادة ومال إلى هذا القول ابن عطية، وعلى جميع هذه الأقوال قوله تعالى: ﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾ كلام مستقل محذوف منه أحد

الجزأين أما الخبر وتقديره خير لهم أو أمثل، وهو قول مجاهد ومذهب سيبويه والخليل. وأما المبتدأ وتقديره الأمر أو أمرنا طاعة أي الأمر المرضي لله تعالى طاعة، وقيل: أي أمرهم طاعة معروفة وقول معروف أي معلوم حاله أنه خديعة، وقيل: هو حكاية قولهم قبل الأمر بالجهاد أي قالوا أمرنا طاعة ويشهد له قراءة أبي «يقولون طاعة وقول معروف» وذهب بعض إلى أن ﴿**أولى**﴾ أفعل تفضيل مبتدأ و ﴿**لهم**﴾ صلته واللام بمعنى الباء ﴿**وطاعة**﴾ خبر كأنه قيل فأولى بهم من النظر إليك نظر المغشيّ عليه من الموت طاعة وقول معروف، وعليه لا يكون كلاماً مستقلاً ولا يوقف على ﴿**لهم**﴾ ومما لا ينبغي أن يلتفت إليه ما قيل: إن ﴿**طاعة**﴾ صفة لسورة في قوله تعالى ﴿**فإذا أنزلت سورة**﴾ والمراد ذات طاعة أو مطاعة. وتعقبه أبو حيان بأنه ليس بشيء لحيلولة الفصل الكثير بين الصفة والموصوف ﴿**فَإِذَا عَزَمَ الأَمْرُ**﴾ أي جد والجد أي الاجتهاد لأصحاب الأمر إلا أنه أسند إليه مجازاً كما في قوله تعالى: ﴿**إن ذلك من عزم الأمور**﴾ [لقمان: ١٧] ومنه قول الشاعر:

قد جدت الحرب بكم فجدوا

والظاهر أن جواب «إذا» قوله تعالى: ﴿**فَلَوْ صَدَقُوا اللهَ**﴾ وهو العامل فيها ولا يضر اقترانه بالفاء ولا تمنع من عمل ما بعدها فيما قبلها في مثله كما صرحوا به، وهذا نحو إذا جاء الشتاء فلو جئتني لكسوتك، وقيل: الجواب محذوف تقديره فإذا عزم الأمر كرهوا أو نحو ذلك قاله قتادة. وفي البحر من حمل ﴿**طاعة وقول معروف**﴾ على أنهم يقولون ذلك خديعة قدر فإذا عزم الأمر ناقضوا وتعاصوا، ولعل من يجعل القول السابق للمؤمنين في ظاهر الحال وهم المنافقون جوز هذا التقدير أيضاً، وقدر بعضهم الجواب فاصدق وهو كما ترى، وأياً ما كان فالمراد فلو صدقوا الله فيما زعموا من الحرص على الجهاد ولعلهم أظهروا الحرص عليه كالمؤمنين الصادقين، وقيل: في قوله: ﴿**طاعة وقول معروف**﴾، وقيل: في إيمانهم ﴿**لَكَانَ**﴾ أي الصدق ﴿**خَيْراً لَّهُمْ**﴾ مما ارتكبوه وهذا مبني على مافي زعمهم من أن فيه خيراً وإلا فهو في نفس الأمر لا خير فيه.

﴿**فَهَلْ عَسَيْتُمْ**﴾ خطاب لأولئك الذين في قلوبهم مرض بطريق الالتفات لتأكيد التوبيخ وتشديد التقريع، وهل للاستفهام والأصل فيه أن يدخل الخبر للسؤال عن مضمونه والإنشاء الموضوع له عسى ما دل عليه بالخبر أي فهل يتوقع منكم وينتظر ﴿**إِنْ تَوَلَّيْتُمْ**﴾ أمور الناس وتأمرتم عليهم فهو من الولاية والمفعول به محذوف وروي ذلك عن محمد بن كعب وأبي العالية والكلبي ﴿**أَنْ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ**﴾ تناحراً على الولاية وتكالباً على جيفة الدنيا والمتوقع كل من يقف على حالهم إلا الله عزَّ وجلَّ إذ لا يصح منه سبحانه ذلك والاستفهام أيضاً بالنسبة إلى غيره جلّ وعلا فالمعنى إنكم لما عهد منكم من الأحوال الدالة على الحرص على الدنيا حيث أمرتم بالجهاد الذي هو وسيلة إلى ثواب الله تعالى العظيم فكرهتموه وظهر عليكم ما ظهر أحقاء بأن يقول لكم كل من ذاقكم وعرف حالكم يا هؤلاء ما ترون هل يتوقع منكم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض الخ.

وفسر بعضهم التولي بالإعراض عن الإسلام فالفعل لازم أي فهل عسيتم إن ارضتم عن الإسلام أن ترجعوا إلى ما كنتم عليه في الجاهلية من الإفساد في الأرض بالتغاور والتناهب وقطع الأرحام بمقاتلة بعض الأقارب بعضاً ووأد البنات، وتعقب بأن الواقع في حيز الشرط في مثل هذا المقام لا بد أن تكون محذوريته باعتبار ما يتبعه من المفاسد لا باعتبار ذاته ولا ريب في أن الأعراض عن الإسلام رأس كل شر وفساد فحقه أن يجعل عمدة في التوبيخ لا وسيلة للتوبيخ بما دونه من المفاسد، ويؤيد الأول قراءة بعض «وُلِّيتُم» مبنياً المفعول وكذا قراءته عليه الصلاة والسلام على ما ذكر في الحبر ورويت عن علي كرم الله تعالى وجهه. ورويس. ويعقوب «تُوُلِّيتُمْ» بالبناء للمفعول أيضاً بناء على أن

المعنى تولاكم الناس واجتمعوا على موالاتكم، والمراد كنتم فيهم حكاماً، وقيل: المعنى تولاكم ولاة غشمة خرجتم معهم ومشيتم تحت لوائهم وأفسدتم بإفسادهم واستظهر أبو حيان تفسيره بالإعراض إلا أنه قال: المعنى إن أعرضتم عن امتثال أمر الله تعالى في القتال أن تفسدوا في الأرض بعدم معونة أهل الإسلام على أعدائهم وتقطعوا أرحامكم لأن من أرحامكم كثيراً من المسلمين فإذا لم تعينوهم قطعتم ما يبينكم وبينهم من الرحم.

وتعقب بأن حمل الإفساد على الإفساد بعدم المعونة فيه خفاء، وكذا الإتيان بأن عليه دون إذا من حيث إن الإعراض عن امتثال أمر الله تعالى في القتال كالمحقق من أولئك المنافقين فتأمل، و ﴿أن تفسدوا﴾ خبر عسى. و﴿إن توليتم﴾ اعتراض، وجواب أن محذوف يدل عليه ما قبله، وزعم بعضهم أن الأظهر جعل ﴿إن توليتم﴾ حالا مقدرة، وفيه أن الشرط بدون الجواب لم يعهد وقوعه حالاً في غير أن الوصلية وهي لا تفارق الواو، والحاق الضمائر بعسى كما في سائر الأفعال المتصرفة لغة أهل الحجاز، وبنو تميم لا يلحقونها به ويلتزمون دخوله على أن والفعل فيقولون الزيدان عسى أن يقوما والزيدون عسى أن يقوموا، وذكر الإمام هاتين اللغتين ثم قال: وأما قول من قال: عسى أنت تقوم وعسى أنا أقوم فدون ما ذكرنا للتطويل الذي فيه فإن كان مقصوده حكاية لغة ثالثة هي انفصال الضمير فنحن لا نعلم أحداً من نقلة اللسان العربي ذكرها وإن كان غير ذلك فليس فيه كثير جدوى.

وقرأ نافع «عَسِيتُمْ» بكسر السين المهملة، وهو غريب. وقرأ عمرو في رواية. وسلام ويعقوب وأبان وعصمة «تَقْطَعُوا» بالتخفيف مضارع قطع، والحسن «تَقَطَّعُوا» بفتح التاء والقاف وشد الطاء وأصله تتقطعوا بتاءين حذفت أحدهما ونصبوا «أَرْحَامَكُمْ» على إسقاط الحرف أي في أرحامكم لأن تقطع لازم ﴿أُولَئِكَ﴾ إشارة إلى المخاطبين بطريق الالتفات إيذان بأن ذكر هناتهم أوجب إسقاطهم عن درجة الخطاب ولو على جهة التوبيخ وحكاية أقوالهم الفظيعة لغيرهم، وهو مبتدأ خبره قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾ أي أبعدهم من رحمته عزَّ وجلَّ ﴿فَأَصَمَّهُمْ﴾ عن استماع الحق لتصامهم عنه لسوء اختيارهم ﴿وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ﴾ لتعاميهم عما يشاهدونه من الآيات المنصوبة في الأنفس والآفاق وجاء التركيب ﴿فأصمهم﴾ ولم يأت فأصم آذانهم كما جاء ﴿وأعمى أبصارهم﴾ أو وأعماهم كما جاء فأصمهم، قيل: لأن الأذن لو أصيبت بقطع أو قلع لسمع الكلام فلم يحتج إلى ذكر الأذن والبصر وهو العين لو أصيب لامتنع الإبصار فالعين لها مدخل في الرؤية والأذن لا مدخل لها في السمع انتهى وهو كما ترى.

وقال الخفاجي: لأنه إذا ذكر الصمم لم يبق حاجة إلى ذكر الآذان، وأما العمى فلشيوعه في البصر والبصيرة حتى قيل: إنه حقيقة فيهما وهو ظاهر ما في القاموس فإذا كان المراد أحدهما حسن تقييده.

وقيل في وجه ذلك بناء على كون العمى حقيقة فيما كان في البصر إن نحو أعمى الله أبصارهم بحسب الظاهر من باب أبصرته بعيني وهو يقال في مقام يحتاج إلى التأكيد، ولما كان أولئك الذين حكى حالهم في أمر الجهاد غير ظاهر إعماؤهم ظهور إصمامهم كيف وفي الآيات السابقة ما يؤذن بعدم انتفاعهم بالمسموع من القرآن وهو من آثار إصمامهم وليس فيها ما يؤذن بعدم انتفاعهم بالآيات المرئية المنصوبة في الأنفس والآفاق الذي هو من آثار إعمائهم ناسب أن يسلك في كل من الجملتين ما سلك مع ما في سلوكه في الأخير من رعاية الفواصل وهو أدق مما قبل، هذا والأرحام جمع رحم بفتح الراء وكسر الحاء وهي على ما في القاموس القرابة أو أصلها وأسبابها، وقال الراغب: الرحم رحم المرأة أي بيت منبت ولدها ووعاؤه ومنه استعير الرحم للقرابة لكونهم خارجين من رحم واحدة، ويقال للأقارب ذوو رحم كما يقال لهم أرحام، وقد صرح ابن الأثير بأن ذا الرحم يقع على كل من يجمع بينك وبينه نسب ويطلق في الفرائض على الأقارب من جهة النساء؛ والمذكور في كتبها تفسيره بكل قريب ليس بذي سهم ولا عصبة وعدوا من

ذلك أولاد الأخوات لأبوين أو لأب وعمات الآباء وظاهر كلام الأئمة في قوله عليه الصلاة والسلام من ملك ذا رحم محرم فهو حر دخول الأبوين والولد في ذي الرحم لغة حيث أجمعوا على أنهم يعتقون على من ملكهم لهذا الخبر وإن اختلفوا في عتق غيرهم، وصرح ابن حجر الهيثمي في الزواجر بأن الأولاد من الأرحام وظاهر عطف الأقربين على الوالدين في الآية يقتضي عدم دخولهما في الأقارب فلا يدخلون في الأرحام لأنهم كما قالوا الأقارب، وكلام فقهائنا نص في عدم دخول الوالدين والولد في ذلك حيث قالوا: إذا أوصى لأقاربه أو لذوي قرابته أو لأرحامه فهي للأقرب فالأقرب من كل ذي رحم محرم ولا يدخل الوالدان والولد، وأما الجد وولد الولد فنقل أبو السعود عن العلامة قاسم عن البدائع أن الصحيح عدم دخولهما، واختاره في الاختيار وعلله بأن القريب من يتقرب إلى غيره بواسطة غيره وتكون الجزئية بينهما منعدمة، وفي شرح الحموي أن دخولهما هو الأصح. وفي متن المواهب وأدخل أي محمد الجد والحفدة وهو الظاهر عنهما، وذكر أن مثل الجد والجدة وقد يقال: إن عدم دخول الوالدين والولد في ذلك وكذا الجد والحفدة عند من يقول بعدم دخولهم ليس لأن اللفظ لا يصدق عليهم لغة بل لأنه لا يصدق عليهم عرفاً وهم اعتبروا العرف كما قال الطحطاوي في أكثر مسائل الوصية. وفي جامع الفصولين أن مطلق الكلام فيما بين الناس ينصرف إلى المتعارف، وما ذكره في المعراج من خبر من سمى والده قريباً عقه لا يدل على أنه ليس قريباً لغة بل هو بيان حكم شرعي مبناه أن في ذلك إيذاء للوالد وحطاً من قدره عرفاً، وهذا كما لو ناداه باسمه وكان يكره ذلك، وأمر العطف في الآية الكريمة سهل لجواز عطف العام على الخاص كعطف الخاص على العام، فالذي يترجح عندي أن الأرحام كما صرحوا به الأقارب بالقرابة الغير السببية والمراد ما يقابل الأجانب ويدخل فيهم الأصول والفروع والحواشي من قبل الأب أو من قبل الأم وحرمة قطع كل لا شك فيها لأنه على ما قلنا رحم، والآية ظاهرة في حرمة قطع الرحم. وحكى القرطبي في تفسيره اتفاق الأمة على حرمة قطعها ووجوب صلتها، ولا ينبغي التوقف في كون القطع كبيرة، والعجب من الرافعي عليه الرحمة كيف توقف في قول صاحب الشامل: إنه من الكبائر، وكذا تقرير النووي قدس سره له على توقفه، واختلف في المراد بالقطيعة فقال أبو زرعة: ينبغي أن تختص بالإساءة، وقال غيره: هي ترك الإحسان ولو بدون إساءة لأن الأحاديث آمرة بالصلة ناهية عن القطيعة ولا واسطة بينهما، والصلة إيصال نوع من أنواع الإحسان كما فسرها بذلك غير واحد فالقطيعة ضدها فهي ترك الإحسان. ونظر فيه الهيثمي بناءً على تفسير العقوق بأن يفعل مع أحد أبويه ما لو فعله مع أجنبي كان محرماً صغيرة فينتقل بالنسبة إلى أحدهما كبيرة وان الأبوين أعظم من بقية الأقارب ثم قال: فالذي يتجه ليوافق كلامهم وفرقهم بين العقوق وقطع الرحم أن المراد بالأول أن يفعل مع أحد الأبوين ما يتأذى به فإن كان التأذي ليس بالهين عرفاً كان كبيرة وإن لم يكن محرماً لو فعله مع الغير وبالثاني قطع ما ألف القريب منه من سابق الوصلة والإحسان بغير عذر شرعي لأن قطع ذلك يؤدي إلى إيحاش القلوب وتأذيها، فلو فرض أن قريبه لم يصل إليه إحسان ولا إساءة قط لم يفسق بذلك لأن الأبوين إذا فرض ذلك في حقهما من غير أن يفعل معهما ما يقتضي التأذي العظيم لغناهما مثلاً لم يكن كبيرة فأولى بقية الأقارب؛ ولو فرض أن الإنسان لم يقطع عن قريبه ما ألفه منه من الإحسان لكنه فعل معه محرماً صغيرة أو قطب في وجهه أو لم يقم له في ملأ ولا عبأ به لم يكن ذلك فسقاً بخلافه مع أحد الأبوين لأن تأكد حقهما اقتضى أن يتميزا على بقية الأقارب بما لا يوجد نظيره فيهم وعلى ضبط الثاني بما ذكرته فلا فرق بين أن يكون الإحسان الذي ألفه منه قريبه مالاً أو مكاتبة أو مراسلة أو زيارة أو غير ذلك فقطع ذلك كله بعد فعله لغير عذر كبيرة، وينبغي أن يراد بالعذر في المال فقد ما كان يصله به أو تجدد احتياجه إليه أو أن يندبه الشارع إلى تقديم غير القريب عليه لكونه أحوج أو أصلح، فعدم الإحسان إلى القريب أو تقديم الأجنبي عليه لهذا العذر يرفع عنه وإن انقطع بسبب ذلك ما ألفه منه القريب لأنه إنما راعى أمر الشارع بتقديم الأجنبي عليه، وواضح أن القريب لو ألف

منه قدراً معيناً من المال يعطيه إياه كل سنة مثلاً فنقصه لا يفسق بذلك بخلاف ما لو قطعه من أصله لغير عذر، وأما عذر الزيارة فينبغي ضبطه بعذر الجمعة لجامع أن كلاً فرض عين وتركه كبيرة؛ وأما عذر ترك المكاتبة والمراسلة فهو أن لا يجد من يثق به في أداء ما يرسله معه، والظاهر أنه إذا ترك الزيارة التي ألفت منه في وقت مخصوص لعذر لا يلزمه قضاؤها في غير ذلك الوقت، والأولاد والأعمام من الأرحام وكذا الخالة فيأتي فيهم وفيها ما تقرر من الفرق بين قطعهم وعقوق الوالدين، وأما قول الزركشي: صح في الحديث أن الخالة بمنزلة الأم وأن عم الرجل صنو أبيه وقضيتهما أنهما مثل الأب والأم حتى في العقوق فبعيد جداً ويكفي مشابهتهما في أمر ما كالحضانة تثبت للخالة كما تثبت للأم وكذا المحرمية وكالإكرام في العم والمحرمية وغيرهما مما ذكر انتهى المراد منه، ولو قيل: إن الصغيرة تعد كبيرة لو فعلت مع القريب لكنها دون ما لو فعلت مع أحد الأبوين لم يبعد عندي لتفاوت قبح السيئات بحسب الإضافات بل لا يبعد على هذا أن يكون قبح قطع الرحم متفاوتاً باعتبار الشخص القاطع وباعتبار الشخص المقطوع ومتى سلم التفاوت فليقل به في العقوق ويكون عقوق الأم أقبح من عقوق الأب وكذا عقوق الولد الذي يعبأ به أقبح من عقوق الولد الذي لا يعبأ به ويتفرع من ذلك ما يتفرع مما لا يخفى على فقيه. واستدل بالآية عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه على منع بيع أم الولد. روى الحاكم في المستدرك وصححه. وابن المنذر عن بريدة قال: كنت جالساً عند عمر إذ سمع صائحاً فسأل فقيل: جارية من قريش تباع أمها فأرسل يدعو المهاجرين والأنصار فلم تمض ساعة حتى امتلأت الدار والحجرة فحمد الله تعالى وأثنى عليه ثم قال: أما بعد فهل تعلمونه كان مما جاء به محمد ﷺ القطيعة قالوا: لا قال: فإنها قد أصبحت فيكم فاشية ثم قرأ ﴿**فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم**﴾ ثم قال: وأي قطيعة أقطع من أن تباع أم امرىء فيكم قالوا فاصنع ما بدا لك فكتب في الآفاق أن لا تباع أم حر فإنها قطيعة رحم وأنه لا يحل واستدل بها أيضاً على جواز لعن يزيد عليه من الله تعالى ما يستحق نقل البرزنجي في الإشاعة والهيثمي في الصواعق أن الإمام أحمد لما سأله ولده عبد الله عن لعن يزيد قال كيف لا يلعن من لعنه الله تعالى في كتابه فقال عبد الله قد قرأت كتاب الله عز وجل فلم أجد فيه لعن يزيد فقال الإمام إن الله تعالى يقول: ﴿**فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم أولئك الذين لعنهم الله**﴾ الآية وأي فساد وقطيعة أشد مما فعله يزيد انتهى.

وهو مبني على جواز لعن العاصي المعين من جماعة لعنوا بالوصف، وفي ذلك خلاف فالجمهور، على أنه لا يجوز لعن المعين فاسقاً كان أو ذمياً حياً كان أو ميتاً ولم يعلم موته على الكفر لاحتمال أن يختم له أو ختم له بالإسلام بخلاف من علم موته على الكفر كأبي جهل.

وذهب شيخ الإسلام السراج البلقيني إلى جواز لعن العاصي المعين لحديث الصحيحين «إذا دعا الرجل امرأته إلى فراشه فأبت أن تجيء فبات غضبان لعنتها الملائكة حتى تصبح» وفي رواية «إذا باتت المرأة مهاجرة فراش زوجها لعنتها الملائكة حتى تصبح» واحتمال أن يكون لعن الملائكة عليهم السلام إياها ليس بالخصوص بل بالعموم بأن يقولوا: لعن الله من باتت مهاجرة فراش زوجها بعيد وإن بحث به معه ولده الجلال البلقيني.

وفي الزواجر لو استدل لذلك بخبر مسلم «أنه ﷺ مر بحمار وسم في وجهه فقال: لعن الله من فعل هذا» لكان أظهر إذ الإشارة بهذا صريحة في لعن معين إلا أن يؤول بأن المراد الجنس وفيه ما فيه انتهى.

وعلى هذا القول لا توقف في لعن يزيد لكثرة أوصافه الخبيثة وارتكابه الكبائر في جميع أيام تكليفه ويكفي ما فعله أيام استيلائه بأهل المدينة ومكة فقد روى الطبراني بسند حسن «اللهم من ظلم أهل المدينة وأخافهم فأخفه وعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين لا يقبل منه صرف ولا عدل» والطامة الكبرى ما فعله بأهل البيت ورضاه بقتل

الحسين على جده وعليه الصلاة والسلام واستبشاره بذلك وإهانته لأهل بيته مما تواتر معناه وإن كانت تفاصيله آحاداً، وفي الحديث «ستة لعنتهم[١] وفي رواية: لعنهم الله وكل نبي مجاب الدعوة المحرف لكتاب الله ـ وفي رواية ـ : الزائد في كتاب الله والمكذب بقدر الله والمتسلط بالجبروت ليعز من أذل الله ويذل من أعز الله والمستحل من عترتي والتارك لسنتي» وقد جزم بكفره وصرح بلعنه جماعة من العلماء منهم الحافظ ناصر السنة ابن الجوزي وسبقه القاضي أبو يعلى، وقال العلامة التفتازاني: لا نتوقف في شأنه بل في إيمانه لعنة الله تعالى عليه وعلى أنصاره وأعوانه، وممن صرح بلعنه الجلال السيوطي عليه الرحمة وفي تاريخ ابن الوردي. وكتاب الوافي بالوفيات أن السبي لما ورد من العراق على يزيد خرج فلقي الأطفال والنساء من ذرية علي. والحسين رضي الله تعالى عنهما والرؤوس على أطراف الرماح وقد أشرفوا على ثنية جيرون فلما رآهم نعب غراب فأنشأ يقول:

لما بدت تلك الحمول وأشرفت ... تلك الرؤوس على شفا جيرونِ
نعب الغراب فقلت قل أو لا تقل ... فقد اقتضيت من الرسول ديوني

يعني أنه قتل بمن قتله رسول الله ﷺ يوم بدر كجده عتبة وخاله ولد عتبة وغيرهما وهذا كفر صريح فإذا صح عنه فقد كفر به ومثله تمثله بقول عبد الله بن الزبعري قبل إسلامه:

ليت أشياخي

الأبيات، وأفتى الغزالي عفا الله عنه بحرمة لعنه وتعقب السفاريني من الحنابلة نقل البرزنجي والهيثمي السابق عن أحمد رحمه الله تعالى فقال: المحفوظ عن الإمام أحمد خلاف ما نقلا، ففي الفروع ما نصه ومن أصحابنا من أخرج الحجاج عن الإسلام فيتوجه عليه يزيد ونحوه ونص أحمد خلاف ذلك وعليه الأصحاب، ولا يجوز التخصيص باللعنة خلافاً لأبي الحسين وابن الجوزي وغيرهما، وقال شيخ الإسلام: يعني والله تعالى أعلم ابن تيمية ظاهر كلام أحمد الكراهة، قلت: والمختار ما ذهب إليه ابن الجوزي. وأبو حسين القاضي. ومن وافقهما انتهى كلام السفاريني. وأبو بكر بن العربي المالكي عليه من الله تعالى ما يستحق أعظم الفرية فزعم أن الحسين قتل بسيف جده ﷺ وله من الجهلة موافقون على ذلك ﴿كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذباً﴾ [الكهف: ٥].

قال ابن الجوزي عليه الرحمة في كتابه السر المصون: من الاعتقادات العامة التي غلبت على جماعة منتسبين إلى السنة أن يقولوا: إن يزيد كان على الصواب وإن الحسين رضي الله تعالى عنه أخطأ في الخروج عليه ولو نظروا في السير لعلموا كيف عقدت له البيعة وألزم الناس بها ولقد فعل في ذلك كل قبيح ثم لو قدرنا صحة عقد البيعة فقد بدت منه بواد كلها توجب فسخ العقد ولا يميل إلى ذلك إلا كل جاهل عامي المذهب يظن أنه يغيظ بذلك الرافضة. هذا ويعلم من جميع ما ذكره اختلاف الناس في أمره فمنهم من يقول: هو مسلم عاص بما صدر منه مع العترة الطاهرة لكن لا يجوز لعنه، ومنهم من يقول: هو كذلك ويجوز لعنه مع الكراهة أو بدونها ومنهم من يقول: هو كافر ملعون، ومنهم من يقول: إنه لم يعص بذلك ولا يجوز لعنه وقائل هذا ينبغي أن ينظم في سلسلة أنصار يزيد وأنا أقول: الذي يغلب على ظني أن الخبيث لم يكن مصدقاً برسالة النبي ﷺ وأن مجموع ما فعل مع أهل حرم الله تعالى وأهل حرم نبيه عليه الصلاة والسلام وعترته الطيبين الطاهرين في الحياة وبعد الممات وما صدر منه من المخازي ليس بأضعف دلالة على

(١) قوله «ستة لعنتهم» كذا في النسخ والمعدود فيها خمس سقط منها «والمستحل لحرم الله».

عدم تصديقه من إلقاء ورقة من المصحف الشريف في قذر، ولا أظن أن أمره كان خافياً على أجلة المسلمين إذا ذاك ولكن كانوا مغلوبين مقهورين لم يسعهم إلا الصبر ليقضي الله أمراً كان مفعولاً، ولو سلم أن الخبيث كان مسلماً فهو مسلم جمع من الكبائر ما لا يحيط به نطاق البيان، وأنا أذهب إلى جواز لعن مثله على التعيين ولو لم يتصور أن يكون له مثل من الفاسقين، والظاهر أنه لم يتب، واحتمال توبته أضعف من إيمانه، ويلحق به ابن زياد وابن سعد وجماعة فلعنة الله عز وجل عليهم أجمعين، وعلى أنصارهم وأعوانهم وشيعتهم ومن مال إليهم إلى يوم الدين ما دمعت عين على أبي عبد الله الحسين، ويعجبني قول شاعر العصر ذو الفضل الجلي عبد الباقي أفندي العمري الموصل وقد سئل عن لعن يزيد اللعين:

يزيد على لعني عريض جنابه ... فأغدو به طول المدى ألعن اللعنا

ومن كان يخشى القال والقيل من التصريح بلعن ذلك الضليل فليقل: لعن الله عز وجل من رضي بقتل الحسين ومن آذى عترة النبي ﷺ بغير حق ومن غصبهم حقهم فإنه يكون لاعناً له لدخوله تحت العموم دخولاً أولياً في نفس الأمر، ولا يخالف أحد في جواز اللعن بهذه الألفاظ ونحوها سوى ابن العربي المار ذكره وموافقيه فإنهم على ظاهر ما نقل عنهم لا يجوزون لعن من رضي بقتل الحسين رضي الله تعالى عنه، وذلك لعمري هو الضلال البعيد الذي يكاد يزيد على ضلال يزيد ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْآنَ﴾ أي لا يلاحظونه ولا يتصفحونه وما فيه من المواعظ والزواجر حتى لا يقعوا فيما وقعوا فيه من الموبقات ﴿أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ تمثيل لعدم وصول الذكر إليها وانكشاف الأمر لها فكأنه قيل: أفلا يتدبرون القرآن إذ وصل إلى قلوبهم أم لم يصل إليها فتكون أم متصلة على مذهب سيبويه، وظاهر كلام بعض اختياره.

وذهب أبو حيان وجماعة إلى أنها منقطعة وما فيها من معنى بل للانتقال من التوبيخ بترك التدبر إلى التوبيخ بكون قلوبهم مقفلة لا تقبل التدبر والتفكر، والهمزة للتقرير، وتنكير القلوب لتهويل حالها وتفظيع شأنها وأمرها في القساوة والجهالة كأنه قيل: على قلوب منكرة لا يعرف حالها ولا يقادر قدرها في القساوة وقيل: لأن المراد قلوب بعض منهم وهم المنافقون فتنكيرها للتبعيض أو للتنويع كما قيل، وإضافة الأقفال إليها للدلالة على أنها أقفال مخصوصة بها مناسبة لها غير مجانسة لسائر الأقفال المعهودة، وقرى «إِقْفَالُهَا» بكسر الهمزة، وهو مصدر من الأفعال و «أَقفلها» بالجمع على أفعل.

﴿إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِم﴾ أي رجعوا إلى ما كانوا عليه من الكفر، قال ابن عباس، وغيره: نزلت في منافقين كانوا أسلموا ثم نافقت قلوبهم، وفي إرشاد العقل السليم هم المنافقون الذين وصفوا فيما سلف بمرض القلوب وغيره من قبائح الأحوال فإنهم قد كفروا به عليه الصلاة والسلام ﴿مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى﴾ بالدلائل الظاهرة والمعجزات الباهرة القاهرة.

وأخرج عبد الرزاق، وجماعة عن قتادة أنه قال: هم أعداء الله تعالى أهل الكتاب يعرفون بعث النبي ﷺ ويجدونه مكتوباً في التوراة والإنجيل ثم يكفرون به عليه الصلاة والسلام. وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج أنه قال: ﴿إن الذين ارتدوا﴾ الخ اليهود ارتدوا عن الهدى بعد أن عرفوا أن محمداً ﷺ نبي، والمختار ما تقدم، وأياً ما كان فالموصول اسم ان وجملة قوله تعالى: ﴿الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ﴾ خبرها كقولك: إن زيداً عمرو مر به أي سهل لهم ركوب العظائم من السول بفتحتين وهو الاسترخاء استعير للتسهيل أي لعده سهلاً هيناً حتى لا يبالى به كأنه شبه بإرخاء ما كان مشدوداً، وقيل: أي حملهم على الشهوات من السول وهو التمني، وأصله حملهم على سؤلهم أي ما يشتهونه

ويتمنونه فالتفعيل للحمل على المصدر كغربه إذا حمله على الغربة إلا أنهم جعلوا المصدر بمعنى اسم المفعول،.ونقل ذلك عن ابن السكيت.

واعترض بأن السول بمعنى التمني من السؤال فهو مهموز والتسويل واوي ومعناه التزيين فلا مناسبة لا لفظاً ولا معنى فالقول باشتقاق سول منه خطأ، ورد بأن السول من السؤال وله استعمالان فيكون مهموزاً وهو المعروف ومعتلاً يقال سأل يسأل كخاف يخاف وقالوا منه: يتساولان بالواو فيجوز كون التسويل من السول على هذه اللغة أو هو على المشهورة خفف بقلب الهمزة ثم التزم، ونظيره تدير من الدار لاستمرار هذا الذي أظهره سبحانه لتفضيحهم، وقال الإمام: الأظهر أن يقال المراد يعلم سبحانه ما في قلوبهم من العلم بصدق رسوله ﷺ، وفيه ما لا يخفى، والجملة اعتراض مقرر لما قبله متضمن للوعيد، والفاء في قوله سبحانه: ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ لترتيب ما بعدها على ما قبلها، «وكيف» منصوب بفعل محذوف هو العامل في الظرف كأنه قيل: يفعلون في حياتهم ما يفعلون من الحيل فكيف يفعلون إذا توفتهم الملائكة، وقيل: مرفوع على أنه خبر لمبتدأ محذوف أي فكيف حالهم أو حيلتهم إذا توفتهم الخ، وزعم الطبري أن التقدير فكيف علمه تعالى بأسرارهم إذا توفتهم الخ، وليس بشيء، ووقت التوفي هو وقت الموت، والملائكة عليهم السلام ملك الموت وأعوانه. وقرأ الأعمش «توفاهم» بالألف بدل التاء فاحتمل أن يكون ماضياً وأن يكون مضارعاً حذف منه أحد تاءيه والأصل تتوفاهم ﴿يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ﴾ حال من الملائكة، وجوز كونه حالاً من ضمير ﴿توفتهم﴾ وضعفه أبو حيان، وهو على ما قيل تصوير لتوفيهم على أهول الوجوه وأفظعها وإبراز لما يخافون منه ويجبنون عن القتال لأجله فإن ضرب الوجوه والأدبار في القتال والجهاد مما يتقى، وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنه لا يتوفى أحد على معصية إلا تضرب الملائكة في وجهه وفي دبره، والكلام على الحقيقة عنده ولا مانع من ذلك وإن لم يحس بالضرب من حضر وما ذلك إلا كسؤال الملكين وسائر أحوال البرزخ.

والمراد بالوجه والدبر قيل العضوان المعروفان. أخرج ابن المنذر عن مجاهد أنه قال: يضربون وجوههم واستاههم ولكن الله سبحانه كريم يكني، وقال الراغب وغيره: المراد القدام والخلف، وقيل: وقت التوفي وقت سوقهم في القيامة إلى النار والملائكة ملائكة العذاب يومئذ، وقيل: هو وقت القتال والملائكة ملائكة النصر تضرب وجوههم إن ثبتوا وأدبارهم إن هربوا نصرة لرسول الله ﷺ، وكلا القولين كما ترى ﴿ذَلِكَ﴾ التوفي الهائل ﴿بِأَنَّهُمُ﴾ أي بسبب أنهم ﴿اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ﴾ من الكفر والمعاصي ﴿وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ﴾ ما يرضاه عز وجل من الإيمان والطاعات حيث كفروا بعد الإيمان وخرجوا عن الطاعة بما صنعوا من المعاملة مع إخوانهم اليهود، وقيل: ما أسخط الله كتمان نعت الرسول ﷺ ورضوانه ما يرضيه سبحانه من إظهار ذلك، وهو مبني على أن ما تقدم إخبار عن اليهود وقد سمعت ما فيه، ولما كان اتباع ما أسخط الله تعالى مقتضياً للتوجه ناسب ضرب الوجه وكراهة رضوانه سبحانه مقتضياً للاعراض ناسب ضرب الدبر ففي الكلام مقابلة بما يشبه اللف والنشر ﴿فَأَحْبَطَ﴾ لذلك ﴿أَعْمَالَهُمْ﴾ التي عملوها حال إيمانهم من الطاعات، وجوز أن يراد ما كان بعد من أعمال البر التي لو عملوها حال الإيمان لانتفعوا بها.

﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ هم المنافقون الذين فصلت أحوالهم الشنيعة وصفوا بوصفهم السابق لكونه مداراً لما نعى عليهم بقوله تعالى: ﴿أَن لَّن يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ﴾ فأم منقطعة وأن مخففة من أن واسمها ضمير الشأن والجملة بعدها خبرها، والأضغان جمع ضغن وهو الحقد وقيده الراغب بالشديد وقد ضغن بالكسر وتضاغن القوم واضطغنوا أبطنوا الأحقاد، ويقال: اضطغنت الصبي إذا أخذته تحت حضنك وأنشد الأحمر:

كأنه مضطغن صبياً

وفرس ضاغن لا يعطي ما عنده من الجري إلا الضرب، وأصل الكلمة من الضغن وهو الالتواء والاعوجاج في قوائم الدابة والقناة وكل شيء، قال بشر: كذات الضغن تمشي في الرقاق. وأنشد الليث: القلب في ديار وكذلك تحيز لاستمرار القلب في حيز ويكون مآل المعنى على هذا حملهم على الشهوات.

وقرأ زيد بن علي رضي الله تعالى عنهما «سُوِّل لَهُمْ» مبنياً للمفعول وخرج ذلك على تقدير مضاف أي كيد الشيطان سول لهم، وجوز تقديره سول كيده لهم فحذف وقام الضمير المجرور مقامه فارتفع واستتر، قيل: وهو أولى لأنه تقدير في وقت الحاجة ولا يخفى أن الأول أقل تكلفاً.

﴿وَأَمْلَى لَهُمْ﴾ أي ومد لهم الشيطان في الأماني والآمال، ومعنى المد فيها توسيعها وجعلها ممدودة بنفسها أو بزمانها بأن يوسوس لهم بأنكم تنالون في الدنيا كذا وكذا مما لا أصل له حتى يعوقهم عن العمل، وأصل الإملاء الإبقاء ملاوة من الدهر أي برهة، ومنه قيل: المعنى وعدهم بالبقاء الطويل، وجعل بعضهم فاعل «أملى» ضميره تعالى، والمعنى أمهلهم ولم يعاجلهم بالعقوبة؛ وفيه تفكيك لكن أيد بقراءة مجاهد وابن هرمز والأعمش وسلام ويعقوب «وأَمْلِي» بهمزة المتكلم مضارع أملى فإن الفاعل حينئذٍ ضميره تعالى على الظاهر والأصل توافق القراءتين، وجوز أن يكون ماضياً مجهولاً من المزيد سكن آخره للتخفيف كما قالوا في بقى بقي بسكون الياء.

وعلى الظاهر جوز أن تكون الواو للاستئناف وأن تكون للحال ويقدر مبتدأ بعدها أي وأنا أملي لئلا يكون شاذاً كقمت وأصك وجهه، وجوزت الحالية في قراءة الجمهور أيضاً على جعل الفاعل ضميره تعالى فحينئذٍ تقدر قد على المشهور. وقرأ ابن سيرين والجحدري وشيبة وأبو عمرو وعيسى «وَأُمْلِيَ» بالبناء للمفعول. فلهم: نائب الفاعل أي امهلوا ومد في أعمارهم، وجوز أن يكون ضمير الشيطان والمعنى أمهل الشيطان لهم أي جعل من المنظرين إلى يوم القيامة لأجلهم ففيه بيان لاستمرار ضلالهم وتقبيح حالهم **﴿ذَلِكَ﴾** إشارة إلى ما ذكر من ارتدادهم لا إلى الإملاء كما نقل عن الواحدي ولا إلى التسويل كما قيل لأن شيئاً منهما ليس مسبباً من القول الآتي، وهو مبتدأ خبره قوله تعالى: **﴿بِأَنَّهُمْ﴾** أي بسبب أنهم **﴿قَالُوا﴾** يعني المنافقين **﴿لِلَّذِينَ كَرِهُواْ مَا نَزَّلَ اللهُ﴾** هم بنو قريظة. والنضير من اليهود الكارهين لنزول القرآن على النبي عليه الصلاة والسلام مع علمهم بأنه من عند الله تعالى حسداً وطمعاً في نزوله على أحد منهم **﴿سَنُطِيعُكُم فِي بَعضِ الأَمرِ﴾** أي في بعض أموركم وأحوالكم وهو ما حكي عنهم في قوله تعالى: ﴿ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب لئن أخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحداً أبداً وإن قوتلتم لننصرنكم﴾ [الحشر: ١١] وقيل: في بعض ما تأمرون به كالتناصر على رسول الله ﷺ، وقيل: القائلون اليهود الكافرون به ﷺ بعد ما وجدوا نعته الشريف في كتابهم والمقول لهم المنافقون كان اليهود يعدونهم النصرة إذا أعلنوا بعداوة رسول الله عليه الصلاة والسلام، وقيل: القائلون أولئك اليهود والمقول لهم المشركون كانوا يعدونهم النصرة أيضاً إذا حاربوا. وتعقب كلا القولين بأن كفر اليهود به عليه الصلاة والسلام ليس بسبب هذا القول ولو فرض صدوره عنهم على رأي القائل بل من حيث إنكارهم بعثه عليه الصلاة والسلام وقد عرفوه كما عرفوا أبناءهم وآباءهم، ومنه يعلم ما في قول بعضهم: إن القائلين هم المنافقون واليهود والمقول لهم المشركون، وما فسرنا به الآية الكريمة مروي عن الحبر رضي الله تعالى عنه **﴿واللهُ يَعلَمُ إِسرَارَهُم﴾** أي إخفاءهم ما يقولونه لليهود أو كل قبيح ويدخل ذلك دخولاً أولياً. وقرأ الجمهور «أَسْرَارَهُمْ» بفتح الهمزة أي يعلم الأشياء التي يسرونها ومنها قولهم:

إن قناتي من صليبات القنا ... ما زادها التشقيف إلا ضغنا

والحقد في القلب يشبه به: وقال الليث، وقطرب: الضغن العداوة قال الشاعر:

قل لابن هند ما أردت بمنطق ساء الصديق وشيد الأضغانا

وهذا لا ينافي الأول لأن الحقد العداوة لأمر يخفيه المرء في قلبه، والإخراج مختص بالأجسام، والمراد به هنا الإبراز أي بل أحسب الذين في قلوبهم حقد وعداوة للمؤمنين انه لن يبرز الله تعالى أحقادهم ويظهرها للرسول ﷺ والمؤمنين فتبقى مستورة، والمعنى أن ذلك مما لا يكاد يدخل تحت الاحتمال. ﴿وَلَوْ نَشَاءُ﴾ إراءتك إياهم ﴿لَأَرَيْنَاكَهُمْ﴾ أي لعرفناكهم على أن الرؤية علمية ﴿فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ﴾ تفريع لمعرفته ﷺ على تعريف الله عز وجل، ويجوز أن تكون الرؤية بصرية على أن المعنى أنه ﷺ يعرفهم معرفة متفرعة على إراءته إياهم، والالتفات إلى نون العظمة للإيماء إلى العناية بالإراءة، والسيما العلامة، والمعنى هنا على الجمع لعمومها بالإضافة لكنها أفردت للإشارة إلى أن علاماتهم متحدة الجنس فكأنها شيء واحد أي فلعرفتهم بعلامات نسمهم بها؛ ولام ﴿فلعرفتهم﴾ كلام لأريناكهم الواقعة في جواب لو لأن المعطوف على الجواب جواب، وكررت في المعطوف للتأكيد، وأما التي في قوله، تعالى: ﴿ولتعرفنّهم في لحن القول﴾ فواقعة في في جواب قسم محذوف والجملة معطوفة على الجملة الشرطية و ﴿لحن القول﴾ أسلوب من أساليبه مطلقاً، أو المائلة عن الطريق المعروفة كان يعدل عن ظاهره من التصريح إلى التعريض والإبهام، ولذا سمي خطأ الإعراب به لعدوله عن الصواب، وقال الراغب: اللحن صرف الكلام عن سننه الجاري عليه إما بإزالة الإعراب أو التصحيف وهو المذموم وذلك أكثر استعمالاً، وإما بإزالته عن التصريح وصرفه بمعناه إلى تعريض وفحوى وهو محمود من حيث البلاغة، وإليه أشار بقوله الشاعر عند أكثر الأدباء:

منطق صائب وتلحن أحيا نا وخير الحديث ما كان لحنا

وإياه قصد بقوله تعالى: ﴿ولتعرفنهم في لحن القول﴾ وفي البحر يقال: لحنت له بفتح الحاء ألحن لحناً قلت له قولاً يفهمه عنك ويخفى على غيره، ولحنه هو بالكسر فهمه والحنته أنا إياه ولاحنت الناس فاطنتهم، وقيل: لحن القول الذهاب عن الصواب، وعن ابن عباس ﴿لحن القول﴾ هنا قولهم ما لنا إن أطعنا من الثواب ولا يقولون ما علينا إن عصينا من العقاب وكان هذا الذي ينبغي منهم، وقال بعض من فسره بالأسلوب المائل عن الطريق المعروفة: إنهم كانوا يصطلحون فيما بينهم على ألفاظ يخاطبون بها الرسول ﷺ مما ظاهره حسن ويعنون به القبيح وكانوا أيضاً يتكلمون بما يشعر بالاتباع وهم بخلاف ذلك كقولهم إذا دعاهم المؤمنون إلى نصرهم: انا معكم، وبالجملة أنهم كانوا يتكلمون بكلام ذي دسائس وكان ﷺ يعرفهم بذلك، وعن أنس رضي الله تعالى عنه ما خفي بعد هذه الآية على رسول الله ﷺ شيء من المنافقين كان عليه الصلاة والسلام يعرفهم بسيماهم ولقد كنا في بعض الغزوات وفيها تسعة من المنافقين يشكوهم الناس فناموا ذات ليلة وأصبحوا وعلى جبهة كل واحد منهم مكتوب هذا منافق. وفي دعواه أنه ﷺ كان يعرفهم بسيماهم أشكال فإن ﴿لو﴾ ظاهرها عدم الوقوع بل المناسب معرفتهم من لحن القول، وكأنه حمله على أنه وعد بالوقوع دال على الامتناع فيما سلف، ولقد صدق وعده واستشهد عليه بما اتفق في بعض الغزوات، ولا تنحصر السيما بالكتابة بل تكون بغيرها أيضاً مما يعرفهم به النبي ﷺ كما يعرف القائف حال الشخص بعلامات تدل عليه، وكثيراً ما يعرف الإنسان محبه ومبغضه من النظر ويكاد النظر ينطق بما في القلب، وقد شاهدنا غير واحد يعرف السني والشيعي بسمات في الوجه، وإن صح أن بعض الأولياء قدست أسرارهم كان يعرف البر والفاجر والمؤمن والكافر ويقول اشم من فلان رائحة الطاعة ومن فلان رائحة المعصية ومن فلان رائحة الإيمان ومن فلان رائحة الكفر ويظهر الأمر حسبما أشار فرسول الله ﷺ بتلك المعرفة أولى وأولى؛ ولعلها بعلامات وراء طور عقولنا، والنور المذكور في خبر «اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله تعالى» متفاوت الظهور بحسب القابليات وللنبي ﷺ أتمه، وذكروا من علامات النفاق بغض علي كرم الله تعالى وجهه.

فقد أخرج ابن مردويه عن ابن مسعود قال: ما كنا نعرف المنافقين على عهد رسول الله ﷺ إلا ببغضهم علي ابن أبي طالب. وأخرج هو وابن عساكر عن أبي سعيد الخدري ما يؤيده، وعندي أن بغضه رضي الله تعالى عنه من أقوى علامات النفاق فإن آمنت بذلك فيا ليت شعري ماذا تقول في يزيد الطريد أكان يحب علياً كرم الله تعالى وجهه أم كان يبغضه، ولا أظنك في مرية من أنه عليه اللعنة كان يبغضه رضي الله تعالى عنه أشد البغض وكذا يبغض ولديه الحسن والحسين على جدهما وأبويهما وعليهما الصلاة والسلام كما تدل على ذلك الآثار المتواترة معنى، وحينئذٍ لا مجال لك من القول بأن اللعين كان منافقاً، وقد جاء في الأحاديث الصحيحة علامات النفاق غير ما ذكر كقوله عليه الصلاة والسلام: «علامات المنافق ثلاث» الحديث لكن قال العلماء هي علامات للنفاق العملي لا الإيماني، وقيل: الحديث خارج مخرج التنفير عن اتصاف المؤمن المخلص بشيء منها لما أنها كانت إذ ذاك من علامات المنافقين. واستدل بقوله تعالى: ﴿ولتعرفنهم في لحن القول﴾ من جعل التعريض بالقذف موجباً الحد، ولا يخفى حاله ﴿وَاللهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ﴾ فيجازيكم عليها بحسب قصدكم وهذا على ما قيل وعد للمؤمنين وإيذان بأن حالهم بخلاف حال المنافقين؛ وقيل: وعيد للمنافقين وإيذان لهم بأن المجزى عليه ما يقصدونه لا ما يعرضون أو يورون به، واستظهر أنه خطاب عام فهو وعد ووعيد، وحمل على العموم قوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ﴾ بالأمر بالجهاد ونحوه من التكاليف الشاقة ﴿حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ﴾ على مشاق التكاليف علماً فعلياً يتعلق به الجزاء، وفي معناه ما قيل: أي حتى يظهر علمنا، وقال ابن الحاجب في ذلك: العلم يطلق باعتبار الرؤية والشيء لا يرى حتى يقع يعني على المشهور وهو هنا بمعنى ذلك أو بمعنى المجازاة، والمعنى حتى نجازي المجاهدين منكم والصابرين ﴿وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾ فيظهر حسنها وقبيحها، والكلام كناية عن بلاء أعمالهم فإن الخبر حسنه وقبيحه على حسب المخبر عنه فإذا تميز الحسن عن الخبر القبيح فقد تميز المخبر عنه وهو العمل كذلك، وهذا أبلغ من نبلو أعمالكم، والظاهر عموم الأخبار، وجوز كون المراد بها اخبارهم عن إيمانهم وموالاتهم للمؤمنين على أن إضافتها للعهد أي ونبلو أخبار إيمانكم وموالاتكم فيظهر صدقها وكذبها. وقرأ أبو بكر الأفعال الثلاثة المسندة إلى ضمير العظمة بالياء، وقرأ رويس «وَنَبْلُوْ» بالنون وسكون الواو، والأعمش بسكونها وبالياء فالفعل مرفوع بضمة مقدرة بتقدير ونحن نبلو والجملة حالية، وجوز أن يكون منصوباً كما في قراءة الجمهور سكن للتخفيف كما في قوله:

أبـــى الله أن أســـمـــو بـــأم ولا أب

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا﴾ الناس ﴿عَن سَبِيلِ اللهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ﴾ صاروا في شق غير شقه، والمراد عادوه ﴿مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى﴾ لما شاهدوا من نعته عليه الصلاة والسلام في التوراة أو بما ظهر على يديه ﷺ من المعجزات ونزل عليه عليه الصلاة والسلام من الآيات وهم بنو قريظة والنضير أو المطعمون يوم بدر وقد تقدم ذكرهم، وقيل: أناس نافقوا بعد أن آمنوا ﴿لَن يَضُرُّوا اللهَ﴾ بكفرهم وصدهم ﴿شَيْئًا﴾ من الأشياء أو شيئاً من الضرر أو لن يضروا رسول الله ﷺ بمشاقته شيئاً؛ وقد حذف المضاف لتعظيمه عليه الصلاة والسلام بجعل مضرته وما يلحقه كالمنسوب إلى الله تعالى وفيه تفظيع مشاقته ﷺ.

﴿وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ﴾ في مكايدهم التي نصبوها في إبطال دينه تعالى ومشاقة رسوله عليه الصلاة والسلام فلا يصلون بها إلى ما كانوا يبغون من الغوائل ولا تثمر لهم إلا القتل والجلاء عن أوطانهم ونحو ذلك، وجوز أن يراد أعمالهم التي عملوها في دينهم يرجون بها الثواب.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلاَ تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾ قيل: إن بني أسد أسلموا وقالوا لرسول الله ﷺ: قد آثرناك وجئناك بنفوسنا وأهلنا كأنهم منوا بذلك فنزلت فيهم هذه وقوله تعالى: ﴿يمنون عليك أن اسلموا﴾

[الحجرات: ١٧] ومن هنا قيل المعنى لا تبطلوا أعمالكم بالمن بالإسلام، وعن ابن عباس بالرياء والسمعة وعنه أيضاً بالشك والنفاق، وقيل: بالعجب فإنه يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب، وقيل: المراد بالأعمال الصدقات أي تبطلوها بالمن والأذى، وقيل: لا تبطلوا طاعاتكم بمعاصيكم، أخرج عبد بن حميد وابن جرير. عن قتادة أنه قال في الآية: من استطاع منكم أن لا يبطل عملاً صالحاً بعمل سوء فليفعل ولا قوة إلا بالله تعالى، وأخرج عبد بن حميد ومحمد بن نصر المروزي في كتاب الصلاة. وابن أبي حاتم عن أبي العالية قال: كان أصحاب رسول الله ﷺ يرون أنه لا يضر مع لا إله إلا الله ذنب كما لا ينفع مع الشرك عمل حتى نزلت ﴿**أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ولا تبطلوا أعمالكم**﴾ فخافوا أن يبطل الذنب العمل، ولفظ عبد بن حميد فخافوا الكبائر أن تحبط أعمالهم، وأخرج ابن نصر وابن جرير وابن مردويه عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال كنا معاشر أصحاب محمد ﷺ نرى أنه ليس شيء من الحسنات إلا مقبولاً حتى نزلت ﴿**أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ولا تبطلوا أعمالكم**﴾ فلما نزلت هذه الآية قلنا: ما هذا الذي يبطل أعمالنا؟ فقلنا: الكبائر الموجبات والفواحش فكنا إذا رأينا من أصاب شيئاً منها قلنا: قد هلك حتى نزلت هذه الآية ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾ [النساء: ٤٨] فلما نزلت كففنا عن القول في ذلك وكنا إذا رأينا أحداً أصاب منها شيئاً خفنا عليه وإن لم يصب منها شيئاً رجونا له، واستدل المعتزلة بالآية على أن الكبائر تحبط الطاعات بل الكبيرة الواحدة تبطل مع الإصرار الأعمال ولو كانت بعدد نجوم السماء، وذكروا في ذلك من الأخبار ما ذكروا. وفي الكشف لا بد في هذا المقام من تحرير البحث بأن يقال: إن أراد المعتزلة أن نحو الزنا إذا عقب الصلاة يبطل ثوابها مثلاً فهذا لا دليل عليه نقلاً وعقلاً بل هما متعادلان على ما دل عليه صحاح الأحاديث، وكفى بقوله تعالى: ﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره﴾ [الزلزلة: ٧ ـ ٨] حجة بالغة، وإن أرادوا أن عقابه قد يكبر حتى لا يعادله صغار الحسنات فهذا صحيح والكلام حينئذٍ في تسميته إحباطاً، ولا بأس به لكن عندنا أن هذا الإحباط غير لازم وعندهم لازم، وهو مبني على جواز العفو وهي مسألة أخرى، وأما الكبيرة التي تختص بذلك العمل كالعجب ونحو المن والأذى بعد التصدق فهي محبطة لا محالة اتفاقاً، وعليه يحمل ما نقل من الآثار، ومن لا يسميه إحباطاً لأنه يجعله شرطاً للقبول والإحباط أن يصير الثواب زائلاً وهذا لا يتأتى إذا لم يثبت له ثواب فله ذلك، وهو أمر يرجع إلى الاصطلاح انتهى وهو من الحسن بمكان؛ وإعادة الفعل في «وأطيعوا الرسول» للاهتمام بشأن إطاعته عليه الصلاة والسلام ﴿**إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللهِ**﴾ امتنعوا عن الدخول في الإسلام وسلوك طريقه أوصدوا الناس عنه ﴿**ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ**﴾ نزلت في أهل القليب كما قيل، وحكمها عام كما قال غير واحد في كل من مات على كفره، وهو ظاهر على التفسير الأول لصدوا عن سبيل الله، وأما على التفسير الثاني له فقيل عليه: إن العموم مع تخصيص الكفر بصد الناس عن الإسلام محل نظر؛ ويفهم من كلام بعض الأجلة أن العموم لأن مدار عدم المغفرة هو الاستمرار على الكفر حسبما يشعر اعتباره قيداً في الكلام فتدبر. واستدل بمفهوم الآية بعض القائلين بالمفهوم على أنه تعالى قد يغفر لمن لم يمت على كفره سائر ذنوبه ﴿**فَلاَ تَهِنُوا**﴾ أي إذا علمتم أن الله تعالى مبطل أعمالهم ومعاقبهم فهو خاذلهم في الدنيا والآخرة فلا تبالوا بهم ولا تظهروا ضعفاً، فالهاء فصيحة في جواب شرط مفهوم مما قبله، وقيل: هي لترتيب النهي على ما سبق من الأمر بالطاعة ﴿**وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ**﴾ عطف على ﴿**تهنوا**﴾ داخل في حيز النهي أي ولا تدعوا الكفار إلى الصلح خوراً وإظهاراً للعجز فإن ذلك إعطاء الدنية، وجوز أن يكون منصوباً بإضمار أن فيعطف المصدر المسبوك على مصدر متصيد مما قبله كقوله: لا تنه عن خلق وتأتي مثله. واستدل الكيا بهذا النهي على منع مهادنة الكفار إلا عند الضرورة. وعلى تحريم ترك الجهاد إلا عند العجز، وقرأ السلمي «وتَدَّعُوا» بتشديد الدال من ادعى بمعنى دعا، وفي الكشاف ذكر لا في هذه القراءة، ولعلي ذلك رواية أخرى، وقرأ

الحسن وأبو رجاء والأعمش: وعيسى وطلحة وحمزة وأبو بكر «السِلْمِ» بكسر السين ﴿وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ﴾ أي الأغلبون، والعلو بمعنى الغلبة مجاز مشهور، والجملة حالية مقررة لمعنى النهي مؤكدة لوجوب الانتهاء وكذا قوله تعالى: ﴿وَاللهُ مَعَكُمْ﴾ أي ناصركم فإن كونهم الأغلبين وكونه عز وجل ناصرهم من أقوى موجبات الاجتناب عما يوهم الذل والضراعة.

وقال أبو حيان: يجوز أن يكونا جملتين مستأنفتين أخبروا أولاً أنهم الأعلون وهو إخبار بمغيب أبرزه الوجود ثم ارتقى إلى رتبة أعلى من التي قبلها وهي كون الله تعالى معهم ﴿وَلَن يَتِرَكُم أَعْمَالَكُمْ﴾ قال: ولن يظلمكم، وقيل: ولن ينقصكم، وقيل: ولن يضيعها، وهو كما قال أبو عبيد. والمبرد من وترت الرجل إذا قتلت له قتيلاً من ولد أو أخ أو حميم أو سلبته ماله وذهبت به، قال الزمخشري: وحقيقته أفردته من قريبه أو ماله من الوتر وهو الفرد، فشبه إضاعة عمل العامل وتعطيل ثوابه بوتر الواتر وهو من فصيح الكلام، وفيه هنا من الدلالة على مزيد لطف الله تعالى ما فيه، ومنه قوله ﷺ: «من فاتته صلاة العصر فكأنما وتر أهله وماله» والظاهر على ما ذكره أنه لا بد من تضمين وترته معنى السلب ونحوه ليتعدى إلى المفعول الثاني بنفسه، وفي الصحاح أنه من الترة وحمله على نزع الخافض أي جعلته موتوراً لم يدرك ثاره في ذلك كأنه نقصه فيه وجعله نظير دخلت البيت أي فيه وهو سديد أيضاً.

وجوز بعضهم ﴿يتر﴾ ههنا متعدياً لواحد و ﴿أعمالكم﴾ بدل من ضمير الخطاب أي لن يتر أعمالكم من ثوابها والجملة قيل معطوفة على قوله تعالى: ﴿معكم﴾ وهي وإن لم تقع حالاً استقلالاً لتصديرها بحرف الاستقبال المنافي للحال على ما صرح به العلامة التفتازاني وغيره لكنه يغتفر في التابع ما لا يغتفر في غيره، وقيل: المانع من وقوع المصدرة بحرف الاستقبال حالا مخالفته للسماع وإلا فلا مانع من كونها حالاً مقدرة مع أنه يجوز أن تكون ﴿لن﴾ لمجرد تأكيد النفي، والظاهر أن المانعين بنوا المنع على المنافاة وإنها إذا زالت باعتبار أحد الأمرين فلا منع لكن قيل: إن الحال المقصود منها بيان الهيئة غير الحال الذي هو أحد الأزمنة والمنافاة إنما هي بين هذا الحال والاستقبال. وهذا نظير ما قال مجوزو مجيء الجملة الماضية حالا بدون قد، وما لذلك وما عليه في كتب النحو، وإذا جعلت الجملة قبل مستأنفة لم يكن إشكال في العطف أصلاً.

﴿إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ لا ثبات لها ولا اعتداد بها ﴿وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ﴾ أي ثواب إيمانكم وتقواكم من الباقيات الصالحات التي يتنافس فيها المتنافسون ﴿وَلاَ يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ﴾ عطف على الجزاء والإضافة للاستغراق، والمعنى إن تؤمنوا لا يسألكم جميع أموالكم كما يأخذ من الكافر جميع ماله، وفيه مقابلة حسنة لقوله تعالى: ﴿يؤتكم أجوركم﴾ كأنه قيل: يعطكم كل الأجور ويسألكم بعض المال وهو ما شرعه سبحانه من الزكاة، وقول سفيان بن عيينة أي لا يسألكم كثيراً من أموالكم إنما يسألكم ربع العشر فطيبوا أنفسكم بيان لحاصل المعنى، وقيل: أي لا يسألكم ما هو ما لكم حقيقة وإنما يسألكم ماله عزَّ وجلَّ وهو المالك لها حقيقة وهو جل شأنه المنعم عليكم بالانتفاع بها، وقيل: أي لا يسألكم أموالكم لحاجته سبحانه إليها بل ليرجع إنفاقكم إليكم، وقيل: أي لا يسألكم الرسول الله ﷺ شيئاً من أموالكم أجراً على تبليغ الرسالة كما قال تعالى: ﴿قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين﴾ [ص: ٨٦] ووجه التعليق عليها غير ظاهر وفي بعضها أيضاً ما لا يخفى ﴿إِنْ يَسْأَلْكُمُوهَا﴾ أي أموالكم ﴿فَيُحْفِكُمْ﴾ فيجهدكم بطلب الكل فإن الإحفاء والإلحاف المبالغة وبلوغ الغاية في كل شيء يقال: أحفاه في المسألة إذا لم يترك شيئاً من الإلحاح وأحفى شاربه استأصله وأخذه أخذاً متناهياً، وأصل ذلك على ما قال الراغب من أحفيت الدابة جعلته حافياً أي منسحج الحافر والبعير جعلته منسحج الفرسن من المشي حتى يرق ﴿تَبْخَلُوا﴾ جواب

الشرط، والمراد بالبخل هنا ترك الإعطاء إذ هو على المعنى المشهور أمر طبيعي لا يترتب على السؤال ﴿وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ﴾ أي أحقادكم لمزيد حبكم للمال وضمير ﴿يخرج﴾ لله تعالى ويعضده قراءة يعقوب. ورويت أيضاً عن ابن عباس «ونخرج» بالنون مضمومة، وجوز أن يكون للسؤال أو للبخل فإنه سبب إخراج الأضغان والإسناد على ذلك مجازي. وقرأ عبد الوارث عن أبي عمرو «ويُخْرِجُ» بالرفع على الاستئناف، وجوز جعل الجملة حالاً بتقدير وهو يخرج وحكاها أبو حاتم عن عيسى، وفي اللوامح عن عبد الوارث عن أبي عمرو «ويَخْرُجُ» بالياء التحتية وفتحها وضم الراء والجيم «أَضْغَانُكُمْ» بالرفع على الفاعلية.

وقرأ ابن عباس ومجاهد وابن سيرين وابن محيصن وأيوب بن المتوكل واليماني «وتَخْرُجُ» بتاء التأنيث ورفع «أَضْغَانُكُمْ»، وقرىء «ويُخْرَجُ» بضم الياء التحتية وفتح الراء «أَضْغَانُكُمْ» رفعاً على النيابة عن الفاعل وهي كروية عن عيسى إلا أنه فتح الجيم بإضمار أن فالواو عاطفة على مصدر متصيد أي يكن بخلكم وإخراج أضغانكم.

﴿هَا أَنْتُمْ هَٰؤُلَاءِ﴾ أي أنتم أيها المخاطبون هؤلاء الموصوفون بما تضمنه قوله تعالى: ﴿إن يسألكموها﴾ الخ، والجملة مبتدأ وخبر وكررت ها التنبيهية للتأكيد، وقوله سبحانه: ﴿تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ الخ استئناف مقرر ومؤكد لذلك لاتحاد محصل معناهما فإن دعوتهم للإنفاق هو سؤل الأموال منهم وبخل ناس منهم هو معنى عدم الإعطاء المذكور مجملاً أولاً أو صلة لهؤلاء على أنه بمعنى الذين فإن اسم الإشارة يكون موصولاً مطلقاً عند الكوفيين وأما البصريون فلم يثبتوا اسم الإشارة موصولاً إلا إذا تقدمه ما الاستفهامية باتفاق أو من الاستفهامية باختلاف، والإنفاق في سبيل الله تعالى هو الإنفاق المرضي له تعالى شأنه مطلقاً فيشمل النفقة للعيال والأقارب والغزو وإطعام الضيوف والزكاة وغير ذلك وليس مخصوصاً بالإنفاق للغزو أو بالزكاة كما قيل.

﴿فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ﴾ أي ناس يبخلون ﴿وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ﴾ فلا يتعدى ضرر بخله إلى غيرها يقال: بخلت عليه وبخلت عنه لأن البخل فيه معنى المنع ومعنى التضييق على من منع عنه المعروف والأضرار فناسب أن يعدى بعن للأول وبعلى للثاني، وظاهر أن من منع المعروف عن نفسه فأضراره عليها فلا فرق بين اللفظين في الحاصل، وقال الطيبي: يمكن أن يقال يبخل عن نفسه على معنى يصدر البخل عن نفسه لأنها مكان البخل ومنبعه كقوله تعالى: ﴿ومن يوق شح نفسه﴾ [الحشر: ٩، التغابن: ١٦] وهو كما ترى ﴿وَاللَّهُ الْغَنِيُّ﴾ لا غيره عزَّ وجلَّ ﴿وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ﴾ الكاملون في الفقر فما يأمركم به سبحانه فهو لاحتياجكم إلى ما فيه من المنافع التي لا تقتضي الحكمة إيصالها بدون ذلك فإن امتثلتم فلكم وإن توليتم فعليكم، وقوله تعالى ﴿وَإِنْ تَتَوَلَّوْا﴾ عطف على قوله سبحانه: ﴿إن تؤمنوا﴾ أي وإن تعرضوا عن الإيمان والتقوى﴿يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ﴾ يخلق مكانكم قوماً آخرين وهو كقوله تعالى: ﴿يأت بخلق جديد﴾ [إبراهيم: ١٩] ﴿ثُمَّ لاَ يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾ في التولي عن الإيمان والتقوى بل يكونون راغبين فيهما.

وثم للتراخي حقيقة أو لبعد المرتبة عما قبل، والمراد بهؤلاء القوم أهل فارس، فقد أخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم والطبراني في الأوسط. والبيهقي في الدلائل والترمذي وهو حديث صحيح على شرط مسلم عن أبي هريرة قال: «تلا رسول الله ﷺ هذه الآية ﴿وإن تتولوا﴾ الخ فقالوا: يا رسول الله من هؤلاء الذين إن تولينا استبدلوا بنا ثم لا يكونون أمثالنا؟ فضرب رسول الله ﷺ على منكب سلمان ثم قال: هذا وقومه والذي نفسي بيده لو كان الإيمان منوطاً بالثريا لتناوله رجال من فارس».

وجاء في رواية ابن مردويه عن جابر الدين بدل الإيمان، وقيل: هم الأنصار، وقيل: أهل اليمن، وقيل: كندة.

والنخع، وقيل: العجم، وقيل: الروم، وقيل: الملائكة وحمل القوم عليهم بعيد في الاستعمال، وحيث صح الحديث فهو مذهبي.

والخطاب لقريش أو لأهل المدينة قولان والظاهر أنه للمخاطبين قبل والشرطية غير واقعة، فعن الكلبي شرط في الاستبدال توليهم لكنهم لم يتولوا فلم يستبدل سبحانه قوماً غيرهم والله تعالى أعلم. ومما قاله بعض أرباب الإشارة في بعض الآيات: **﴿يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم﴾** نصرة الله تعالى من العبد على وجهين صورة ومعنى، أما نصرته تعالى في الصورة فنصرة دينه جل شأنه بإيضاح الدليل وتبيينه وشرح فرائضه وسننه وإظهار معانيه وأسراره وحقائقه ثم بالجهاد عليه وإعلاء كلمته وقمع أعدائه؛ وأما نصرته في المعنى فبافناء الناسوت في اللاهوت، ونصرة الله سبحانه للعبد على وجهين أيضاً صورة ومعنى، أما نصرته تعالى للعبد في الصورة فبإرسال الرسل وإنزال الكتب وإظهار المعجزات والآيات وتبيين السبل إلى النعيم والجحيم، ثم بالأمر بالجهاد الأصغر والأكبر وتوفيق السعي فيهما طلباً لرضاه عزَّ وجلَّ، وأما نصرته تعالى له في المعنى فبافناء وجوده في وجوده سبحانه بتجلي صفات جماله وجلاله **﴿مثل الجنة التي وعد المتقون﴾** يشير إلى جنة قلوب أرباب الحقائق الذين اتقوا عما سواه جل وعلا **﴿فيها أنهار من ماء غير آسن﴾** هو ماء الحياة الروحانية لم يتغير بطول المكث **﴿وأنهار من لبن﴾** وهو العلم الحقاني الذي هو غذاء الأرواح أو لبن الفطرة التي فطر الناس عليها **﴿لم يتغير طعمه﴾** بحموضة الشكوك والأوهام أو الأهواء والبدع **﴿وأنهار من خمر لذة للشاربين﴾** وهي خمر الشوق والمحبة:

يقولون لي صفها فأنت بوصفها ... خبير أجل عندي بأوصافها علم
صفاء ولا ماء ولطف ولا هوى ... ونور ولا نار وروح ولا جسم

﴿وأنهار من عسل﴾ وهو عسل الوصال **﴿مصفى﴾** عن كدر الملال وخوف الزوال **﴿ولهم فيها من كل الثمرات﴾** اللذائذ الروحانية **﴿ومغفرة من ربهم﴾** ستر لذنب وجودهم كما قيل:

وجودك ذنب لا يقاس به ذنب

﴿كمن هو خالد في النار﴾ نار الجفاء **﴿وسقوا ماء حميماً﴾** وهو ماء الخذلان **﴿فقطع أمعاءهم﴾** من الحرمان **﴿ولو نشاء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم﴾** وهي ظلمة في وجوههم تدرك بالنظر الإلهي قيل: المؤمن ينظر بنور الفراسة والعارف بنور التحقيق والنبي عليه الصلاة والسلام ينظر بالله عزَّ وجلَّ، وقيل: كل من رزق قرب النوافل ينظر به تعالى لحديث «لا يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به» الحديث وحينئذ يبصر كل شيء، ومن هنا كان بعض الأولياء الكاملين يرى على ما حكي عنه أعمال العباد حين يعرج بها وسبحان السميع البصير اللطيف الخبير.

(٤٨) سورة الفتح مدنية
وآياتها تسع وعشرون

بسم الله الرحمن الرحيم

إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴿٣﴾

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ، ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ، ويتم نعمته عليك ويهديك صراطاً مستقيما ، وينصرك الله نصراً عزيزاً ﴾ وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ فى الفتح وجوه : (أحدها) فتح مكة وهو ظاهر (وثانيها) فتح الروم وغيرها (وثالثها) المراد من الفتح صلح الحديبية (ورابعها) فتح الإسلام بالحجة والبرهان ، والسيف والسنان (وخامسها) المراد منه الحكم كقوله (ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق) وقوله (ثم يفتح بيننا بالحق) والمختار من الكل وجوه : أحدها فتح مكة ، والثانى فتح الحديبية ، والثالث فتح الإسلام بالآية والبيان والحجة والبرهان . والأول مناسب لآخر ما قبلها من وجوه (أحدها) أنه تعالى لما قال (ها أنتم هؤلاء تدعون لتنفقوا فى سبيل الله) إلى أن قال (ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه) بين تعالى أنه فتح لهم مكة وغنموا ديارهم وحصل لهم أضعاف ما أنفقوا ولو بخلوا لضاع عليهم ذلك فلا يكون بخلهم إلا على أنفسهم (ثانيها) لما قال (والله معكم) وقال (وأنتم الأعلون) بين برهانه بفتح مكة ، فإنهم كانوا هم الأعلون (ثالثها) لما قال تعالى (فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم) وكان معناه لا تسألوا الصلح من عندكم ، بل اصبروا فإنهم يسألون الصلح ويجتهدون فيه كما كان يوم الحديبية وهو المراد بالفتح فى أحد الوجوه ، وكما كان فتح مكة حيث أتى صناديد قريش مستأمنين ومؤمنين ومسلمين ، فإن قيل : إن كان المراد فتح مكة ، فمكة لم تكن قد فتحت ، فكيف قال تعالى (فتحنا لك فتحاً مبيناً) بلفظ الماضى ؟ نقول : الجواب عنه من وجهين : (أحدهما) فتحنا فى حكمنا وتقديرنا (ثانيهما) ما قدره الله تعالى فهو كائن ، فأخبر بصيغة الماضى إشارة إلى أنه أمر لا دافع له ، واقع لا رافع له .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قوله (ليغفر لك الله) ينبىء عن كون الفتح سبباً للمغفرة ، والفتح لا يصلح سبباً للمغفرة ، فما الجواب عنه ؟ نقول : الجواب عنه من وجوه : (الأول) ما قيل إن الفتح لم يجعله سبباً للمغفرة وحدها ، بل هو سبب لاجتماع الأمور المذكورة وهى : المغفرة ، وإتمام النعمة والهداية والنصرة ، كأنه تعالى قال : ليغفر لك الله ويتم نعمته ويهديك وينصرك ، ولا شك أن الاجتماع لم يثبت إلا بالفتح ، فإن النعمة به تمت ، والنصرة بعده قد عمت (الثانى) هو أن فتح مكة كان سبباً لتطهير بيت الله تعالى من رجس الأوثان ، وتطهير بيته صار سبباً لتطهير عبده (الثالث) هو أن بالفتح يحصل الحج ، ثم بالحج تحصل المغفرة ، ألا ترى إلى دعاء النبى عليه الصلاة والسلام حيث قال فى الحج «اللهم اجعله حجاً مبروراً ، وسعياً مشكوراً ، وذنباً مغفوراً» (الرابع) المراد منه التعريف تقديره (إنا فتحنا لك) ليعرف أنك مغفور ، معصوم ، فإن الناس كانوا علموا بعد عام الفيل أن مكة لا يأخذها عدو الله المسخوط عليه ، وإنما يدخلها ويأخذها حبيب الله المغفور له .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ لم يكن للنبى ﷺ ذنب ، فماذا يغفر له ؟ قلنا (الجواب) عنه قد تقدم مراراً من وجوه (أحدها) المراد ذنب المؤمنين (ثانيها) المراد ترك الأفضل (ثالثها) الصغائر فإنها جائزة على الأنبياء بالسهو والعمد ، وهو يصونهم عن العجب (رابعها) المراد العصمة ، وقد بينا وجهه فى سورة القتال .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ ما معنى قوله (وما تأخر) ؟ نقول فيه وجوه (أحدها) أنه وعد النبى عليه السلام بأنه لا يذنب بعد النبوة (ثانيها) ما تقدم على الفتح ، وما تأخر عن الفتح (ثالثها) العموم يقال اضرب من لقيت ومن لا تلقاه ، مع أن من لا يلقى لا يمكن ضربه إشارة إلى العموم (رابعها) من قبل النبوة ومن بعدها ، وعلى هذا فما قبل النبوة بالعفو وما بعدها بالعصمة ، وفيه وجوه أخر ساقطة ، منها قول بعضهم : ما تقدم من أمر مارية ، وما تأخر من أمر زينب ، وهو أبعد الوجوه وأسقطها لعدم التئام الكلام ، وقوله تعالى (ويتم نعمته عليك) يحتمل وجوهاً : (أحدها) هو أن التكاليف عند الفتح تمت حيث وجب الحج ، وهو آخر التكاليف ، والتكاليف نعم (ثانيها) يتم نعمته عليك بإخلاء الأرض لك عن معانديك ، فإن يوم الفتح لم يبق للنبى عليه الصلاة والسلام عدو ذوا اعتبار ، فإن بعضهم كانوا أهلكوا يوم بدر . والباقون آمنوا واستأمنوا يوم الفتح (ثالثها) ويتم نعمته عليك فى الدنيا باستجابة دعائك فى طلب الفتح ، وفى الآخرة بقبول شفاعتك فى الذنوب ولو كانت فى غاية القبح ، وقوله تعالى (ويهديك صراطاً مستقيماً) يحتمل وجوهاً (أظهرها) يديمك على الصراط المستقيم حتى لا يبقى من يلتفت إلى قوله من المضلين ، أو ممن يقدر على الإكراه على الكفر ، وهذا يوافق قوله تعالى (ورضيت لكم الإسلام ديناً) حيث أهلكت المجادلين فيه ، وحملتهم على الإيمان) (وثانيها) أن يقال جعل الفتح سبباً للهداية إلى

الصراط المستقيم ، لأنه سهل على المؤمنين الجهاد لعلمهم بالفوائد العاجلة بالفتح والآجلة بالوعد ، والجهاد سلوك سبيل الله ، ولهذا يقال للغازى فى سبيل الله مجاهد (وثالثها) ما ذكرنا أن المراد التعريف ، أى ليعرف أنك على صراط مستقيم ، من حيث إن الفتح لا يكون إلا على يد من يكون على صراط الله بدليل حكاية الفيل ، وقوله (وينصرك الله نصراً عزيزاً) ظاهر ، لأن بالفتح ظهر النصر واشتهر الأمر ، وفيه مسألتان إحداهما لفظية والأخرى معنوية :

﴿ أما المسألة اللفظية ﴾ فهى أن الله وصف النصر بكونه عزيزاً ، والعزيز من له النصر (والجواب) من وجهين (أحدهما) ما قاله الزمخشرى ، أنه يحتمل وجوها ثلاثة (الأول) معناه نصر إذ عز ، كقوله (فى عيشة راضية) أى ذات رضى (الثانى) وصف النصر بما يوصف به المنصور إسناداً مجازياً يقال له كلام صادق ، كما يقال له متكلم صادق (الثالث) المراد نصراً عزيزاً صاحبه (الوجه الثانى) من الجواب أن نقول : إنما يلزمنا ماذكره الزمخشرى من التقديرات إذا قلنا : العزة من الغلبة ، والعزيز الغالب . وأما إذا قلنا : العزيز هو النفيس القليل النظير ، أو المحتاج إليه القليل الوجود ، يقال عز الشىء إذا قل وجوده مع أنه محتاج إليه ، فالنصر كان محتاجاً إليه ومثله لم يوجد وهو أخذ بيت الله من الكفار المتمكنين فيه من غير عدد .

﴿ أما المسألة المعنوية ﴾ وهى أن الله تعالى لما قال (ليغفر لك الله ماتقدم من ذنبك) أبرز الفاعل وهو الله ، ثم عطف عليه بقوله (ويتم) وبقوله (ويهديك) ولم يذكر لفظ الله على الوجه الحسن فى الكلام ، وهو أن الأفعال الكثيرة إذا صدرت من فاعل يظهر اسمه فى الفعل الأول ، ولا يظهر فيما بعده تقول : جاء زيد وتكلم ، وقام وراح ، ولا تقول : جاء زيد ، وقعد زيد اختصاراً للكلام بالاقتصار على الأول ، وههنا لم يقل وينصرك نصراً ، بل أعاد لفظ الله ، فنقول هذا إرشاد إلى طريق النصر ، ولهذا قلما ذكر الله النصر من غير إضافة ، فقال تعالى (بنصر الله ينصر) ولم يقل بالنصر ينصر ، وقال (هو الذى أيدك بنصره) ولم يقل بالنصر ، وقال (إذا جاء نصر الله والفتح) وقال (نصر من الله وفتح قريب) ولم يقل نصر وفتح ، وقال (وما النصر إلا من عند الله) وهذا أدل الآيات على مطلوبنا ، وتحقيقه هو إن النصر بالصبر ، والصبر بالله ، قال تعالى (واصبر وماصبرك إلا بالله) وذلك لأن الصبر سكون القلب واطمئنانه ، وذلك بذكر الله ، كما قال تعالى (ألا بذكر الله تطمئن القلوب) فلما قال ههنا وينصرك الله ، أظهر لفظ الله ذكراً للتعليم أن بذكر الله يحصل اطمئنان القلوب ، وبه يحصل الصبر ، وبه يتحقق النصر ، وههنا مسألة أخرى وهو أن الله تعالى قال (إنا فتحنا) ثم قال (ليغفر لك الله) ولم يقل إنا فتحنا لنغفر لك تعظيما لأمر الفتح ، وذلك لأن المغفرة وإن كانت عظيمه لكنها عامة لقوله تعالى (إن الله يغفر الذنوب جميعاً) وقال (ويغفر مادون ذلك لمن يشاء) ولئن قلنا بأن المراد من المغفرة فى حق النبي عليه السلام العصمة ، فذلك لم يختص بنبينا ، بل غيره من الرسل كان معصوماً ، وإتمام

هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَـٰنًا مَّعَ إِيمَـٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾

النعمة كذلك ، قال الله تعالى (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى) وقال (يابنى إسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم) وكذلك الهداية قال الله تعالى (يهدى إليه من يشاء) فعمم ، كذلك النصر قال الله تعالى (ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين ، إنهم لهم المنصورون) وأما الفتح فلم يكن لأحد غير النبى صلى الله عليه وسلم ، فعظمه بقوله تعالى (إنا فتحنا لك فتحاً) وفيه التعظيم من وجهين (أحدهما) إنا (وثانيهما) لك أى لأجلك على وجه المنة .

قوله تعالى : ﴿ هو الذى أنزل السكينة فى قلوب المؤمنين ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم ولله جنود السموات والأرض وكان الله عليما حكيما ﴾ .

لما قال تعالى (وينصرك الله) بين وجه النصر ، وذلك لأن الله تعالى قد ينصر رسله بصيحة يهلك بها أعداءهم ، أو رجفة تحكم عليهم بالفناء ، أو جند يرسله من السماء ، أو نصر وقوة وثبات قلب يرزق المؤمنين به ، ليكون لهم بذلك الثواب الجزيل فقال (هو الذى أنزل السكينة) أى تحقيقا للنصر ، وفى السكينة وجوه (أحدها) هو السكون (الثانى) الوقار لله ولرسول الله وهو من السكون (الثالث) اليقين والكل من السكون وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ السكينة هنا غير السكينة فى قوله تعالى (إن آية ملكه أن يأتيكم التابوت فيه سكينة من ربكم) فى قول أكثر المفسرين ويحتمل هى تلك المقصود منها على جميع الوجوه اليقين وثبات القلوب .

﴿ المسألة الثانية ﴾ السكينة المنزلة عليهم هى سبب ذكرهم الله كما قال تعالى (ألا بذكر الله تطمئن القلوب) .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قال الله تعالى فى حق الكافرين (وقذف فى قلوبهم) بلفظ القذف المزعج وقال فى حق المؤمنين (أنزل السكينة) بلفظ الإنزال المثبت ، وفيه معنى حكمى وهو أن من علم شيئاً من قبل وتذكره واستدام تذكره فإذا وقع لايتغير ، ومن كان غافلا عن شىء فيقع دفعة يرجف فؤاده ، ألا ترى أن من أخبر بوقوع صيحة وقيل له لا تنزعج منها فوقعت الصيحة لايرجف ، ومن لم يخبر به أو أخبر وغفل عنه يرتجف إذا وقعت ، فكذلك الكافر أتاه الله من حيث لا يحتسب وقذف فى قلبه فارتجف ، والمؤمن أتاه من حيث كان يذكره فسكن ، وقوله تعالى (ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم) فيه وجوه (أحدها) أمرهم بتكاليف شيئاً بعد شىء فآمنوا بكل واحد منها ، مثلا أمروا بالتوحيد فآمنوا وأطاعوا ، ثم أمروا بالقتال والحج فآمنوا وأطاعوا ، فازدادوا إيماناً مع إيمانهم

لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٥﴾

(ثانيها) أنزل السكينة عليهم فصبروا فرأوا عين اليقين بما علموا من النصر علم اليقين إيماناً بالغيب فازدادوا إيماناً مستفاداً من الشهادة مع إيمانهم المستفاد من الغيب (ثالثها) ازدادوا بالفروع مع إيمانهم بالأصول ، فإنهم آمنوا بأن محمداً رسول الله وأن الله واحد والحشر كائن وآمنوا بأن كل ما يقول النبي صلى الله عليه وسلم صدق وكل ما يأمر الله تعالى به واجب (رابعها) ازدادوا إيماناً استدلالياً مع إيمانهم الفطري ، وعلى هذا الوجه نبين لطيفة وهي أن الله تعالى قال في حق الكافر (إنما نملي لهم ليزدادوا إثماً) ولم يقل مع كفرهم لأن كفرهم عنادي وليس في الوجود كفر فطري لينضم إليه الكفر العنادي بل الكفر ليس إلا عنادياً وكذلك الكفر بالفروع لا يقال انضم إلى الكفر بالأصول لأن من ضرورة الكفر بالأصول الكفر بالفروع وليس من ضرورة الإيمان بالأصول الإيمان بالفروع بمعنى الطاعة والانقياد فقال (ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم) وقوله (ولله جنود السموات والأرض) فكان قادراً على إهلاك عدوه بجنوده بل بصيحة ولم يفعل (بل أنزل السكينة على المؤمنين) ليكون إهلاك أعدائهم بأيديهم فيكون لهم الثواب ، وفي جنود السموات والأرض وجوه (أحدها) ملائكة السموات والأرض (ثانيها) من في السموات من الملائكة ومن في الأرض من الحيوانات والجن (وثالثها) الأسباب السماوية والأرضية حتى يكون سقوط كسف من السماء والخسف من جنوده ، وقوله تعالى (وكان الله عليما حكيما) لما قال (ولله جنود السموات والأرض) وعددهم غير محصور ، أثبت العلم إشارة إلى أنه (لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض) وأيضاً لما ذكر أمر القلوب بقوله (هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين) والإيمان من عمل القلوب ذكر العلم إشارة إلى أنه يعلم السر وأخفى ، وقوله (حكيما) بعد قوله (عليما) إشارة إلى أنه يفعل على وفق العلم فإن الحكيم من يعمل شيئاً متقناً ويعلمه ، فإن من يقع منه صنع عجيب اتفاقاً لا يقال له حكيم . ومن يعلم ويعمل على خلاف العلم لا يقال له حكيم .

قوله تعالى : ﴿ ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من الأنهار خالدين فيها ويكفر عنهم سيئاتهم وكان ذلك عند الله فوزاً عظيما ﴾ .

يستدعي فعلا سابقاً (ليدخل) فإن من قال ابتداء لتكرمني لا يصح مالم يقل قبله جئتك أو ما يقوم مقامه وفي ذلك الفعل وجوه وضبط الأحوال فيه بأن تقول ذلك الفعل إما أن يكون مذكوراً بصريحه أو لا يكون ، وحينئذ ينبغي أن يكون مفهوماً ، فإما أن يكون مفهوماً من لفظ يدل عليه بل فهم بقرينة حالية فان كان مذكوراً فهو يحتمل وجوهاً (أحدها) قوله (ليزدادوا إيماناً) كأنه تعالى أنزل السكينة

ليزدادوا إيماناً بسبب الإنزال ليدخلهم بسبب الإيمان جنات ، فإن قيل فقوله (يعذب) عطف على قوله (ليدخل) وازدياد إيمانهم لا يصلح سبباً لتعذيبهم ، نقول بلى وذلك من وجهين (أحدهما) أن التعذيب مذكور لكونه مقصوداً للمؤمنين ، كأنه تعالى يقول بسبب ازديادكم فى الإيمان يدخلكم فى الآخرة جنات ويعذب بأيديكم فى الدنيا الكفار والمنافقين (الثانى) تقديره ويعذب بسبب مالكم من الازدياد ، يقال فعلته لأجرب به العدو والصديق أى لأعرف بوجوده الصديق وبعدمه العدو فكذلك ليزداد المؤمن إيماناً فيدخله الجنة ويزداد الكافر كفراً فيعذبه به (ووجه آخر ثالث) وهو أن سبب زيادة إيمان المؤمنين بكثرة صبرهم وثباتهم فيعيي المنافق والكافر معه ويتعذب وهو قريب مما ذكرنا (الثانى) قوله (وينصرك الله) كأنه تعالى قال وينصرك الله بالمؤمنين ليدخل المؤمنين جنات (الثالث) قوله (ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك) على قولنا المراد ذنب المؤمن كأنه تعالى قال ليغفر لك ذنب المؤمنين ، ليدخل المؤمنين جنات ، وأما إن قلنا هو مفهوم من لفظ غير صريح فيحتمل وجوهاً أيضاً (أحدها) قوله (حكيما) يدل على ذلك كأنه تعالى قال الله حكيم ، فعل ما فعل ليدخل المؤمنين جنات (وثانيها) قوله تعالى (ويتم نعمته عليك) فى الدنيا والآخرة ، فيستجيب دعاءك فى الدنيا ويقبل شفاعتك فى العقبى (ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات) (ثالثها) قوله (إنا فتحنا لك) ووجهه هو أنه روى أن المؤمنين قالوا للنبي ﷺ هنيئاً لك إن الله غفر لك فماذا لنا ؟ فنزلت هذه الآية كأنه تعالى قال : إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ليغفر لك وفتحنا للمؤمنين ليدخلهم جنات ، وأما إن قلنا إن ذلك مفهوم من غير مقال بل من قرينة الحال ، فنقول هو الأمر بالقتال لأن من ذكر الفتح والنصر علم أن الحال حال القتال ، فكأنه تعالى قال إن الله تعالى أمر بالقتال ليدخل المؤمنين ، أو نقول عرف من قرينة الحال أن الله اختار للمؤمنين ليدخلهم جنات .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قال ههنا وفى بعض المواضع (المؤمنين والمؤمنات) وفى بعض المواضع اكتفى بذكر المؤمنين ودخلت المؤمنات فيهم كما فى قوله تعالى (وبشر المؤمنين) وقوله تعالى (قد أفلح المؤمنون) فما الحكمة فيه ؟ نقول فى المواضع التى فيها مايوهم اختصاص المؤمنين بالجزاء الموعود به مع كون المؤمنات يشتركن معهم ذكرهن الله صريحاً ، وفى المواضع التى ليس فيها مايوهم ذلك اكتفى بدخولهم فى المؤمنين فقوله (وبشر المؤمنين) مع أنه علم من قوله تعالى (وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً) العموم لا يوهم خروج المؤمنات عن البشارة ، وأما ههنا فلما كان قوله تعالى (ليدخل المؤمنين) لفعل سابق وهو إما الأمر بالقتال أو الصبر فيه أو النصر للمؤمنين أو الفتح بأيديهم على ماكان يتوهم لأن إدخال المؤمنين كان للقتال ، والمرأة لا تقاتل فلا تدخل الجنة الموعود بها صرح الله بذكرهن ، وكذلك فى المنافقات والمشركات ، والمنافقة والمشركة لم تقاتل فلا تعذب فصرح الله تعالى بذكرهن ، وكذلك فى قوله تعالى (إن

وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٧﴾

المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات) لأن الموضع موضع ذكر النساء وأحوالهن لقوله (ولا تبرجن ، وأقمن ، وآتين ، وأطعن) وقوله (واذكرن ما يتلى فى بيوتكن) فكان ذكرهن هناك أصلا ، لكن الرجال لما كان لهم ما للنساء من الأجر العظيم ذكرهم وذكرهن بلفظ مفرد من غير تبعية لما بينا أن الأصل ذكرهن فى ذلك الموضع .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ قال الله تعالى (ويكفر عنهم سيئاتهم) بعد ذكر الإدخال مع أن تكفير السيئات قبل الإدخال ؟ نقول الجواب عنه من وجهين (أحدهما) الواو لا تقتضى الترتيب (الثانى) تكفير السيئات والمغفرة وغيرهما من توابع كون المكلف من أهل الجنة ، فقدم الإدخال فى الذكر بمعنى أنه من أهل الجنة (الثالث) وهو أن التكفير يكون بإلباس خلع الكرامة وهى فى الجنة ، وكان الإنسان فى الجنة تزال عنه قبائح البشرية الجرمية كالفضلات ، والمعنوية كالغضب والشهوة وهو التكفير وتثبت فيه الصفات الملكية وهى أشرف أنواع الخلع ، وقوله تعالى (وكان ذلك عند الله فوزاً عظيما) فيه وجهان (أحدهما) مشهور وهو أن الإدخال والتكفير فى الله فوز عظيم ، يقال عندى هذا الأمر على هذا الوجه ، أى فى اعتقادى (وثانيهما) أغرب منه وأقرب منه عقلا ، وهو أن يحمل عند الله كالوصف لذلك كأنه تعالى يقول ذلك عند الله ، أى بشرط أن يكون عند الله تعالى ويوصف أن يكون عند الله فوز عظيم حتى أن دخول الجنة لو لم يكن فيه قرب من الله بالعندية لما كان فوزاً .

قوله تعالى : ﴿ ويعذب المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات الظانين بالله ظن السوء عليهم دائرة السوء وغضب الله عليهم ولعنهم وأعد لهم جهنم وساءت مصيراً ، ولله جنود السموات والأرض وكان الله عزيزاً حكيما ﴾ .

واعلم أنه قدم المنافقين على المشركين فى الذكر فى كثير من المواضع لأمور (أحدها) أنهم كانوا أشد على المؤمنين من الكافر المجاهر لأن المؤمن كان يتوقى المشرك المجاهر وكان يخالط المنافق لظنه بإيمانه ، وهو كان يفشى أسراره ، وإلى هذا أشار النبى ﷺ بقوله « أعدى عدوك نفسك التى بين جنبيك » والمنافق على صورة الشيطان فإنه لا يأتى الإنسان على أنى عدوك ، وإنما

يأتيه على أنى صديقك ، والمجاهر على خلاف الشيطان من وجه ، ولأن المنافق كان يظن أن يتخلص للمخادعة ، والكافر لا يقطع بأن المؤمن إن غلب يفديه ، فأول ما أخبر الله أخبر عن المنافق وقول (الظانين بالله ظن السوء) هذا الظن يحتمل وجوهاً (أحدها) هو الظن الذى ذكره الله فى هذه السورة بقوله (بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول) (ثانيها) ظن المشركين بالله فى الإشراك كما قال تعالى (إن هى إلا أسماء سميتموها أنتم) إلى أن قال (إن يتبعون إلا الظن وإن الظن لايغنى من الحق شيئاً) (ثالثها) ظنهم أن الله لايرى ولا يعلم كما قال (ولكن ظننتم أن الله لايعلم كثيراً مما تعملون) والأول أصح أو نقول المراد جميع ظنونهم حتى يدخل فيه ظنهم الذى ظنوا أن الله لا يحيي الموتى ، وإن العالم خلقه باطل ، كما قال تعالى (ذلك ظن الذين كفروا) ويؤيد هذا الوجه الألف واللام الذى فى السوء وسنذكره فى قوله (ظن السوء) وفيه وجوه (أحدها) ما اختاره المحققون من الأدباء ، وهو أن السوء صار عبارة عن الفساد ، والصدق عبارة عن الصلاح يقال مررت برجل سوء أى فاسد ، وسئلت عن رجل صدق أى صالح ، فإذا كان مجموع قولنا رجل سوء يؤدى معنى قولنا فاسد ، فالسوء وحده يكون بمعنى الفساد ، وهذا ما اتفق عليه الخليل والزجاج واختاره الزمخشرى ، وتحقيق هذا أن السوء فى المعانى كالفساد فى الأجساد ، يقال ساء مزاجه ، وساء خلقه ، وساء ظنه ، كما يقال فسد اللحم وفسد الهواء ، بل كل ماساء فقد فسد وكل مافسد فقد ساء غير أن أحدهما كثير الاستعمال فى المعانى والآخر فى الأجرام قال الله تعالى (ظهر الفساد فى البر والبحر) وقال (ساء ماكانوا يعملون) هذا ما يظهر لى من تحقيق كلامهم .

قوله تعالى : ﴿عليهم دائرة السوء﴾ اى دائرة الفساد وحاق بهم الفساد بحيث لاخروج لهم منه .

ثم قال تعالى (وغضب الله عليهم) زيادة فى الإفادة لأن من كان به بلاء فقد يكون مبتلى به على وجه الإمتحان فيكون مصاباً لكى يصير مثاباً ، وقد يكون مصاباً على وجه التعذيب فقوله (وغضب الله عليهم) إشارة إلى أن الذى حاق بهم على وجه التعذيب وقوله (ولعنهم) زيادة إفادة لأن المغضوب عليه قد يكون بحيث يقنع الغاضب بالعتب والشتم أو الضرب ، ولا يفضى غضبه إلى إبعاد المغضوب عليه من جنابه وطرده من بابه ، وقد يكون بحيث يفضى إلى الطرد والإبعاد ، فقال (ولعنهم) لكون الغضب شديداً ، ثم لما بين حالهم فى الدنيا بين مآلهم فى العقبى قال (وأعد لهم جهنم وساءت مصيراً) وقوله (ساءت) إشارة لمكان التأنيث فى جهنم يقال هذه الدار نعم المكان ، وقوله تعالى (ولله جنود السموات والأرض) قد تقدم تفسيره ، وبقى فيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ ما الفائدة فى الإعادة ؟ نقول لله جنود الرحمة وجنود العذاب أوجنود الله إنزالهم قد يكون للرحمة ، وقد يكون للعذاب فذكرهم أولى لبيان الرحمة بالمؤمنين قال تعالى (وكان

إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ شَـٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨﴾ لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٩﴾

بالمؤمنين رحيما) وثانياً لبيان إنزال العذاب على الكافرين .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال هناك (وكان الله عليما حكيما) وهنا (وكان الله عزيزاً حكيما) لأن قوله (ولله جنود السموات والأرض) قد بينا أن المقصود من ذكرهم الإشارة إلى شدة العذاب فذكر العزة كما قال تعالى (أليس الله بعزيز ذى انتقام) وقال تعالى (فأخذناهم أخذ عزيز مقتدر) وقال تعالى (العزيز الجبار)

﴿ المسألة الثالثة ﴾ ذكر جنود السموات والأرض قبل إدخال المؤمنين الجنة ، وذكرهم ههنا بعد ذكر تعذيب الكفار وإعداد جهنم ، نقول فيه ترتيب حسن لأن الله تعالى ينزل جنود الرحمة فيدخل المؤمنين مكرمين معظمين الجنة ثم يلبسهم خلع الكرامة بقوله (ويكفر عنهم سيئاتهم) كما بينا ثم تكون لهم القربى والزلفى بقوله (وكان ذلك عند الله فوزاً عظيماً) وبعد حصول القرب والعندية لا تبقى واسطة الجنود فالجنود فى الرحمة أولا ينزلون ويقربون آخراً . وأما فى الكافر فيغضب عليه أولا فيبعد ويطرد إلى البلاد النائية عن ناحية الرحمة وهى جهنم ويسلط عليهم ملائكة العذاب وهم جنود الله كما قال تعالى (عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم) ولذلك ذكر جنود الرحمة أولا والقربة بقوله عند الله آخراً ، وقال ههنا (غضب الله عليهم ولعنهم) وهو الإبعاد أولا وجنود السموات والأرض آخراً .

قوله تعالى : ﴿ إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه وتوقروه وتسبحوه بكرة وأصيلا ﴾ .

قال المفسرون (شاهداً) على أمتك بما يفعلون كما قال تعالى (ويكون الرسول عليكم شهيداً) والأولى أن يقال إن الله تعالى قال (إنا أرسلناك شاهداً) وعليه يشهد أنه : لا إله إلا الله كما قال تعالى (شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم) وهم الأنبياء عليهم السلام ، الذين أتاهم الله علما من عنده . وعلمهم مالم يكونوا يعلمون ، ولذلك قال تعالى (فاعلم أنه لا إله إلا الله) أى فاشهد وقوله (ومبشراً) لمن قبل شهادته وعمل بها ويوافقه فيها (ونذيراً) لمن رد شهادته ويخالفه فيها ثم بين فائدة الإرسال على الوجه الذى ذكره فقال (لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه وتوقروه وتسبحوه بكرة وأصيلا) وهذا يحتمل وجهين : (أحدهما) أن تكون الأمور الأربعة المذكورة مرتبة على الأمور المذكورة من قبل فقوله (لتؤمنوا بالله ورسوله) مرتب على قوله (إنا أرسلناك)

لأن كونه مرسلا من الله يقتضى أن يؤمن المكلف بالله والمرسل وبالمرسل وقوله (شاهداً) يقتضى أن يعزر الله ويقوى دينه لأن قوله (شاهداً) على ما بينا معناه أنه يشهد أنه لا إله إلا هو فدينه هو الحق وأحق أن يتبع وقوله (مبشراً) يقتضى أن يوقر الله لأن تعظيم الله عنده على شبه تعظيم الله إياه ، وقوله (نذيراً) يقتضى أن ينزه عن السوء والفحشاء مخافة عذابه الأليم وعقابه الشديد ، وأصل الإرسال مرتب على أصل الإيمان ووصف الرسول يترتب عليه وصف المؤمن (وثانيهما) أن يكون كل واحد مقتضياً للأمور الأربعة فكونه مرسلا يقتضى أن يؤمن المكلف بالله ورسوله ويعزره ويوقره ويسبحه ، وكذلك كونه (شاهداً) بالوحدانية يقتضى الأمور المذكورة ، وكذلك كونه (مبشراً ونذيراً) لايقال إن اقتران اللام بالفعل يستدعى فعــلا مقدماً يتعلق به ولا يتعلق بالوصف وقوله (لتؤمنوا) يستدعى فعلا وهو قوله (إنا أرسلناك) فكيف تترتب الأمور على كونه (شاهداً ومبشراً) لأنا نقول يجوز الترتيب عليه معنى لا لفظاً ، كما أن القائل إذا قال بعثت إليك عالماً لتكرمه فاللفظ ينبىء عن كون البعث سبب الإكرام ، وفى المعنى كونه عالماً هو السبب للاكرام ، ولهذا لو قال بعثت إليك جاهلا لتكرمه كان حسناً ، وإذا أردنا الجمع بين اللفظ والمعنى نقول : الإرسال الذى هو إرسال حال كونه شاهداً كما تقول بعث العالم سبب جعله سبباً لا مجرد البعث ، ولا مجرد العالم ، فى الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قال فى الأحزاب (إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً) وههنا اقتصر على الثلاثة من الخمسة فما الحكمة فيه ؟ نقول الجواب عنه من وجهين (أحدهما) أن ذلك المقام كان مقام ذكره لأن أكثر السورة فى ذكر الرسول صلى الله عليه وسلم وأحواله وما تقدمه من المبايعة والوعد والدخول ففصل هنالك ، ولم يفصل ههنا (ثانيهما) أن نقول الكلام مذكور ههنا لأن قوله (شاهداً) لما لم يقتض أن يكون داعياً لجواز أن يقول مع نفسه أشهد أن لا إله إلا الله ، ولا يدعو الناس قال هناك وداعياً لذلك ، وههنا لما لم يكن كونه (شاهداً) منبئاً عن كونه داعياً قال (لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه وتوقروه وتسبحوه) دليل على كونه سراجاً لأنه أتى بما يجب من التعظيم والاجتناب عما يحرم من السوء والفحشاء بالتنزيه وهو التسبيح .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قد ذكرنا مراراً أن اختيار البكرة والأصيل يحتمل أن يكون إشارة إلى المداومة ، ويحتمل أن يكون أمراً بخلاف ما كان المشركون يعملونه فإنهم كانوا يجتمعون على عبادة الأصنام فى الكعبة بكرة وعشية فأمروا بالتسبيح فى أوقات كانوا يذكرون فيها الفحشاء والمنكر .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ الكنايات المذكور فى قوله تعالى (وتعزروه وتوقروه وتسبحوه) راجعة إلى الله تعالى أو إلى الرسول عليه الصلاة والسلام ؟ والأصح هو الأول .

إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾

قوله تعالى : ﴿ إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيماً ﴾ .

لما بين أنه مرسل ذكر أن من بايعه فقد بايع الله ، وقوله تعالى (يد الله فوق أيديهم) يحتمل وجوهاً ، وذلك أن اليد فى الموضعين إما أن تكون بمعنى واحد ، وإما أن تكون بمعنيين ، فإن قلنا إنهما بمعنى واحد ، ففيه وجهان (أحدهما) (يد الله) بمعنى نعمة الله عليهم فوق إحسانهم إلى الله كما قال تعالى (بل الله يمن عليكم أن هداكم للايمان) (وثانيهما) (يد الله فوق أيديهم) أى نصرته إياهم أقوى وأعلى من نصرتهم إياه ، يقال : اليد لفلان ، أى الغلبة والنصرة والقهر . وأما إن قلنا إنها بمعنيين ، فنقول فى حق الله تعالى بمعنى الحفظ ، وفى حق المبايعين بمعنى الجارحة ، واليد كناية عن الحفظ مأخوذ من حال المتبايعين إذا مد كل واحد منهما يده إلى صاحبه فى البيع والشراء ، وبينهما ثالث متوسط لا يريد أن يتفاسخا العقد من غير إتمام البيع ، فيضع يده على يديهما ، ويحفظ أيديهما إلى أن يتم العقد ، ولا يترك أحدهما يترك يد الآخر ، فوضع اليد فوق الأيدى صار سبباً للحفظ على البيعة ، فقال تعالى (يد الله فوق أيديهم) يحفظهم على البيعة كما يحفظ ذلك المتوسط أيدى المتبايعين ، وقوله تعالى (فمن نكث فإنما ينكث على نفسه) أما على قولنا المراد من اليد النعمة أو الغلبة والقوة ، فلأن من نكث فوت على نفسه الإحسان الجزيل فى مقابلة العمل القليل ، فقد خسر ونكثه على نفسه ، وأما على قولنا المراد الحفظ ، فهو عائد إلى قوله (إنما يبايعون الله) يعنى من يبايعك أيها النبى إذا نكث لا يكون نكثه عائداً إليك ، لأن البيعة مع الله ولا إلى الله ، لأنه لا يتضرر بشىء ، فضرره لا يعود إلا إليه . قال (ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيماً) وقد ذكرنا أن العظم فى الأجرام ، لا يقال إلا إذا اجتمع فيه الطول البالغ والعرض الواسع والسمك الغليظ ، فيقال فى الجبل الذى هو مرتفع ، ولا اتساع لعرضه جبل عال أو مرتفع أو شاهق ، فإذا انضم إليه الاتساع فى الجوانب يقال عظيم ، والأجر كذلك ، لأن مأكل الجنة تكون من أرفع الأجناس ، وتكون فى غاية الكثرة ، وتكون ممتدة إلى الأبد لانقطاع لها ، فحصل فيه ما يناسب أن يقال له عظيم والعظيم فى حق الله تعالى إشارة إلى كماله فى صفاته ، كما أنه فى الجسم إشارة إلى كماله فى جهاته .

سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١١﴾

قوله تعالى : ﴿ سيقول لك المخلفون من الأعراب شغلتنا أموالنا وأهلونا فاستغفر لنا يقولون بألسنتهم ماليس فى قلوبهم قل فمن يملك لكم من الله شيئاً إن أراد بكم ضراً أو أراد بكم نفعاً بل كان الله بما تعملون خبيراً ﴾ .

لما بين حال المنافقين ذكر المتخلفين ، فإن قوماً من الأعراب امتنعوا عن الخروج مع رسول الله ﷺ لظنهم أنه يهزم ، فإنهم قالوا أهل مكة يقاتلون عن باب المدينة ، فكيف يكون حالهم إذا دخلوا بلادهم وأحاط بهم العدو فاعتذروا ، وقولهم (شغلتنا أموالنا وأهلونا) فيه أمران يفيدان وضوح العذر (أحدهما) [قولهم] (أموالنا) ولم يقولوا شغلتنا الأموال ، وذلك لأن جمع المال لا يصلح عذراً [لأنه] لا نهاية له ، وأما حفظ ما جمع من الشتات ومنع الحاصل من الفوات يصلح عذراً ، فقالوا (شغلتنا أموالنا) أى ماصار مالا لنا لامطلق الأموال (وثانيهما) قوله تعالى (وأهلونا) وذلك لو أن قائلا قال لهم : المال لاينبغى أن يبلغ إلى درجة يمنعكم حفظه من متابعة الرسول ﷺ لكان لهم أن يقولوا : فالأهل يمنع الاشتغال بهم وحفظهم عن أهم الأمور ، ثم إنهم مع العذر تضرعوا وقالوا (فاستغفر لنا) يعنى فنحن مع إقامة العذر معترفون بالإساءة ، فاستغفر لنا واعف عنا فى أمر الخروج ، فكذبهم الله تعالى فقال (يقولون بألسنتهم ما ليس فى قلوبهم) وهذا يحتمل أمرين (أحدهما) أن يكون التكذيب راجعاً إلى قولهم (فاستغفر لنا) وتحقيقه هو أنهم أظهروا أنهم يعتقدون أنهم مسيئون بالتخلف حتى استغفروا ، ولم يكن فى اعتقادهم ذلك ، بل كانوا يعتقدون أنهم بالتخلف محسنون (ثانيهما) قالوا (شغلتنا) إشارة إلى أن امتناعنا لهذا لا لغيره ، ولم يكن ذلك فى اعتقادهم ، بل كانوا يعتقدون امتناعهم لاعتقاد أن النبى ﷺ والمؤمنين يقهرون ويغلبون ، كما قال بعده (بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهليهم أبداً) وقوله (قل فمن يملك لكم من الله شيئاً إن أراد بكم ضراً أو أراد بكم نفعاً) معناه أنكم تحترزون عن الضرر . وتتركون أمر الله ورسوله ، وتقعدون طلباً للسلامة ، ولو أراد بكم الضرر لا ينفعكم قعودكم من الله شيئاً ، أو معناه أنكم تحترزون عن ضرر القتال والمقاتلين وتعتقدون أن أهليكم وبلادكم تحفظكم من العدو ، فهب أنكم حفظتم أنفسكم عن ذلك ، فمن يدفع عنكم عذاب الله فى الآخرة ، مع أن ذلك أولى بالاحتراز ، وقد ذكرنا فى سورة يس فى قوله تعالى (إن يردن الرحمن بضر) أنه فى

بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٢﴾ وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾

صورة كون الكلام مع المؤمن أدخل الباء على الضر ، فقال (إن أردانى الله بضر) وقال (وإن يمسسك الله بضر) وفى صورة كون الكلام مع الكافر أدخل الباء على الكافر ، فقال ههنا (إن أراد بكم ضراً) وقال (من ذا الذى يعصمكم من الله إن أراد بكم سوءاً) وقد ذكرنا الفرق الفائق هناك ، ولا نعيده ليكون هذا باعثاً على مطالعة تفسير سورة يس ، فإنها درج الدرر اليتيمة ، (بل كان الله بما تعملون خبيراً) أى بما تعملون من إظهار الحرب وإضمار غيره .

قوله تعالى : ﴿ بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهليهم أبداً وزين ذلك فى قلوبكم وظننتم ظن السوء وكنتم قوماً بوراً ﴾ .

يعنى لم يكن تخلفكم لما ذكرتم (بل ظننتم أن لن ينقلب) وأن مخففة من الثقيلة ، أى ظننتم أنهم لا ينقلبون ولا يرجعون ، وقوله (وزين ذلك فى قلوبكم) يعنى ظننتم أولا ، فزين الشيطان ظنكم عندكم حتى قطعتم به ، وذلك لأن الشبهة قد يزينها الشيطان ، ويضم إليها مخايلة يقطع بها الغافل ، وإن كان لا يشك فيها العاقل ، وقوله تعالى (وظننتم ظن السوء) يحتمل وجهين (أحدهما) أن يكون هذا العطف عطفاً يفيد المغايرة ، فقوله (وظننتم ظن السوء) غير الذى فى قوله (بل ظننتم) وحينئذ يحتمل أن يكون الظن الثانى معناه : وظننتم أن الله يخلف وعده ، أوظننتم أن الرسول كاذب فى قوله (وثانيهما) أن يكون قوله (وظننتم ظن السوء) هو ماتقدم من ظن أن لاينقلبوا ، ويكون على حد قول القائل : علمت هذه المسألة وعلمت كذا ، أى هذه المسألة لا غيرها ، وذلك كأنه قال : بل ظننتم ظن أن لن ينقلب . وظنكم ذلك فاسد ، وقد بينا التحقيق فى ظن السوء ، وقوله تعالى (وكنتم قوماً بوراً) يحتمل وجهين (أحدهما) وصرتم بذلك الظن بائرين هالكين (وثانيهما) أنتم فى الأصل بائرون وظننتم ذلك الظن الفاسد .

قوله تعالى : ﴿ ومن لم يؤمن بالله ورسوله فانا أعتدنا للكافرين سعيراً ﴾ .

على قولنا (وظننتم ظن السوء) ظن آخر غير مافى قوله (بل ظننتم) ظاهر ، لأنا بينا أن ذلك ظنهم بأن الله يخلف وعده أوظنهم بأن الرسول كاذب فقال (ومن لم يؤمن بالله ورسوله) ويظن به خلفاً وبرسوله كذباً فإنا أعتدنا له سعيراً ، وفى قوله (للكافرين) بدلا عن أن يقول فإنا أعتدنا له

وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٤﴾ سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ

فائدة وهى التعميم كأنه تعالى قال : ومن لم يؤمن بالله فهو من الكافرين ، وإنا أعتدنا للكافرين سعيراً .

قوله تعالى : ﴿ ولله ملك السموات والأرض يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء وكان الله غفوراً رحيما ﴾ .

بعد ماذكر من له أجر عظيم من المبايعين ومن له عذاب أليم من الظانين الضالين ، أشار إلى أنه يغفر للأولين بمشيئته ويعذب الآخرين بمشيئته ، وغفرانه ورحمته أعم وأشمل وأتم وأكمل ، وقوله تعالى (ولله ملك السموات والأرض) يفيد عظمة الأمرين جميعاً لأن من عظم ملكه يكون أجره وهبته فى غاية العظم وعذابه وعقوبته كذلك فى غاية النكال والألم .

قوله تعالى : ﴿ سيقول المخلفون إذا انطلقتم إلى مغانم لتأخذوها ذرونا نتبعكم ﴾ .

أوضح الله كذبهم بهذا حيث كانوا عند مايكون السير إلى مغانم يتوقعونها يقولون من تلقاء أنفسهم (ذرونا نتبعكم) فاذا كان أموالهم وأهلوهم شغلتهم يوم دعوتكم إياهم إلى أهل مكة ، فما بالهم لا يشتغلون بأموالهم يوم الغنيمة ، والمراد من المغانم مغانم أهل خيبر وفتحها وغنم المسلمون ولم يكن معهم إلا من كان معه فى المدينة ، وفى قوله (سيقول المخلفون) وعد المبايعين الموافقين بالغنيمة والمتخلفين المخالفين بالحرمان .

قوله تعالى : ﴿ يريدون أن يبدلوا كلام الله قل لن تتبعونا كذلكم قال الله من قبل ﴾ .

يحتمل وجوها (أحدها) هو ما قال الله إن غنيمة خيبر لمن شهد الحديبية وعاهد بها لاغير وهو الأشهر عند المفسرين ، والأظهر نظراً إلى قوله تعالى (كذلكم قال الله من قبل) ، (ثانيها) يريدون أن يبدلوا كلام الله وهو قوله (وغضب الله عليهم) وذلك لأنهم لو اتبعوكم لكانوا فى حكم بيعه أهل الرضوان الموعودين بالغنيمة فيكونون من الذين رضى الله عنهم كما قال تعالى (لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة) فلا يكونون من الذين غضب الله عليهم فيلزم تبديل كلام الله (ثالثها) هو أن النبى صلى الله عليه وسلم لما تخلف القوم أطلعه الله على باطنهم وأظهر له نفاقهم وأنه يريد أن يعاقبهم ، وقال للنبى صلى الله عليه وسلم (فقل لن تخرجوا معى أبداً ولن تقاتلوا معى عدواً) فأرادوا أن يبدلوا ذلك الكلام بالخروج معه ، لايقال فالآية

فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾ قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ۖ فَإِن تُطِيعُوا۟ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ۖ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾

التي ذكرتم واردة في غزوة تبوك لا في هذه الواقعة ، لأنا نقول قد وجد ههنا بقوله (لن تتبعونا) على صيغة النفي بدلا عن قوله : لا تتبعونا ، على صيغة النهي معنى لطيف وهو أن النبي صلى الله عليه وسلم بنى على إخبار الله تعالى عنهم النفي لوثوقه وقطعه بصدقه لجزم وقال (لن تتبعونا) يعني لو أذنتكم ولو أردتم واخترتم لا يتم لكم ذلك لما أخبر الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ فسيقولون بل تحسدوننا ﴾ .

رداً على قوله تعالى (كذلكم قال الله من قبل) كأنهم قالوا : ما قال الله كذلك من قبل ، بل تحسدوننا ، وبل للاضراب والمضروب عنه محذوف في الموضعين ، أما ههنا فهو بتقدير ماقال الله وكذلك ، فإن قيل بما ذاكان الحسد في اعتقادهم ؟ نقول كأنهم قالوا نحن كنا مصيبين في عدم الخروج حيث رجعوا من الحديبية من غير حاصل ونحن استرحنا ، فإن خرجنا معهم ويكون فيه غنيمة يقولون هم غنموا معنا ولم يتعبوا معنا .

ثم قال تعالى رداً عليهم كما ردوا ﴿ بل كانوا لا يفقهون إلا قليلا ﴾ أى لم يفقهوا من قولك لا تخرجوا إلا ظاهر النهي ولم يفهموا من حكمه إلا قليلا لحملوه على ما أرادوه وعللوه بالحسد .

قوله تعالى : ﴿ قل للمخلفين من الأعراب ستدعون إلى قوم أولى بأس شديد تقاتلونهم أو يسلمون فإن تطيعوا يؤتكم الله أجراً حسناً وإن تتولوا كما توليتم من قبل يعذبكم عذاباً أليماً ﴾ .

لما قال النبي صلى الله عليه وسلم (قل لن تتبعونا) وقال (فقل لن تخرجوا معي أبداً) فكان المخلفون جمعاً كثيراً ، من قبائل متشعبة ، دعت الحاجة إلى بيان قبول توبتهم فإنهم لم يبقوا على ذلك ولم يكونوا من الذين مردوا على النفاق ، بل منهم من حسن حاله وصلح باله لجعل لقبول توبتهم علامة ، وهو أنهم يدعون إلى قتال قوم أولى بأس شديد ويطيعون بخلاف حال ثعلبة حيث امتنع من أداء الزكاة ثم أتى بها ولم يقبل منه النبي صلى الله عليه وسلم واستمر عليه الحال ولم يقبل منه أحد من الصحابة ، كذلك كان يستمر حال هؤلاء لولا أنه تعالى بين أنهم يدعون فإن كانوا يطيعون يؤتون الأجر الحسن وما كان أحد من الصحابة يتركهم يتبعونه ، والفرق بين حال ثعلبة

وبين حال هؤلاء من وجهين (أحدهما) أن ثعلبة جاز أن يقال حاله لم يكن يتغير فى علم الله ، فلم يبين لتوبته علامة ، والأعراب تغيرت ، فان بعد النبى صلى الله عليه وسلم لم يبق من المنافقين على النفاق أحد على مذهب أهل السنة (وثانيهما) أن الحاجة إلى بيان حال الجمع الكثير والجم الغفير أمس ، لأنه لولا البيان لكان يفضى الأمر إلى قيام الفتنة بين فرق المسلمين ، وفى قوله (ستدعون إلى قوم أولى بأس شديد) وجوه أشهرها وأظهرها أنهم بنو حنيفة حيث تابعوا مسيلمة وغزاهم أبو بكر (وثانيها) هم فارس والروم غزاهم عمر (ثالثها) هوازن وثقيف غزاهم النبى صلى الله عليه وسلم ، وأقوى الوجوه هو أن الدعاء كان من النبى صلى الله عليه وسلم وإن كان الأظهر غيره ، أما الدليل على قوة هذا الوجه هو أن أهل السنة اتفقوا على أن أمر العرب فى زمان النبى ﷺ ظهر ولم يبق إلا كافر مجاهر ، أو مؤمن تقى طاهر ، وامتنع النبى ﷺ من الصلاة على موتى المنافقين ، وترك المؤمنون مخالطتهم حتى أن عبادة بن كعب مع كونه بين المؤمنين لم يكلمه المؤمنون مدة ، وماذكره الله علامة لظهور حال من كان منافقاً ، فان كان ظهر حالهم بغير هذا ، فلا معنى لجعل هذا علامة وإن ظهر بهذا الظهور كان فى زمان النبى ﷺ ، لأن النبى عليه الصلاة والسلام لو امتنع من قبولهم لاتباعه لامتنع أبو بكر وعمر لقوله تعالى (واتبعوه) وقوله (فاتبعونى) فإن قيل هذا ضعيف لوجهين (أحدهما) أن النبى ﷺ قال (لن تتبعونا) وقال (لن تخرجوا معى أبداً) فكيف كانوا يتبعونه مع النفى ؟ (الثانى) قوله تعالى (أولى بأس شديد) ولم يبق بعد ذلك للنبى عليه الصلاة والسلام حرب قوم أولى بأس شديد فإن الرعب استولى على قلوب الناس ولم يبق الكفار بعده شدة وبأس ، واتفاق الجمهور يدل على القوة والظهور ، نقول أما الجواب عن الأول فمن وجهين (أحدهما) أن يكون ذلك مقيداً ، تقديره : لن تخرجوا معى أبدا وأنتم على ما أنتم عليه ، ويجب هذا التقييد لأنا أجمعنا على أن منهم من أسلم وحسن إسلامه بل الأكثر ذلك ، وما كان يجوز للنبى ﷺ أن يقول لهم لستم مسلمين لقوله تعالى (ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمناً) ومع القول بإسلامهم ما كان يجوز أن يمنعهم ما كان من الجهاد فى سبيل الله معوجوبه عليهم وكان ذلك مقيداً ، وقد تبين حسن حالهم ، فإن النبى ﷺ دعاهم إلى جهاد فأطاعه قوم وامتنع آخرون ، وظهر أمرهم وعلم من استمر على الكفر ممن استقر قلبه على الإيمان (الثانى) المراد من قوله (لن تتبعونا) فى هذا القتال فحسب وقوله (لن تخرجوا معى) كان فى غير هذا وهم المنافقون الذين تخلفوا فى غزوة تبوك ، وأما اتفاق الجمهور فنقول لا مخالفة بيننا وبينهم لأنا نقول النبى ﷺ دعاهم أولا ، وأبو بكر رضى الله عنه أيضاً دعاهم بعد معرفته جواز ذلك من فعل النبى صلى الله عليه وسلم ، إنما نحن نثبت أن النبى صلى الله عليه وسلم دعاهم فإن قالوا أبو بكر رضى الله عنه دعاهم لم يكن بين القولين تناف ، وإن قالوا لم يدعهم النبى صلى الله عليه وسلم فالنفى والجزم به فى غاية البعد لجواز أن يكون ذلك قد وقع ، وكيف لا والنبى عليه الصلاة والسلام قال من كلام

لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ

الله (إن كنتم تحبون الله فاتبعونى) وقال (واتبعونى هذا صراط مستقيم) ومنهم من أحب الله واختار اتباع النبي محمد ﷺ لأن بقاء جمعهم على النفاق والكفر بعد ما اتسعت دائرة الإسلام واجتمعت العرب على الإيمان بعيد ، ويوم قوله صلى الله عليه وسلم (لن تتبعونا) كان أكثر العرب على الكفر والنفاق ، لأنه كان قبل فتح مكة وقبل أخذ حصون كثيرة .

وأما قوله لم يبق للنبي صلى الله عليه وسلم حرب مع أولى بأس شديد ، قلنا لا نسلم ذلك لأن النبي صلى الله عليه وسلم عام الحديبية دعاهم إلى الحرب لأنه خرج محرماً ومعه الهدى ليعلم قريش أنه لا يطلب القتال وامتنعوا فقال ستدعون إلى الحرب ولا شك أن من يكون خصمه مسلحاً محارباً أكثر بأساً ممن يكون على خلاف ذلك فكان قد علم من حال مكة أنهم لا يوقرون حاجاً ولا معتمراً فقوله (أولى بأس شديد) يعنى أولى سلاح من آلة الحديد فيه بأس شديد ، ومن قال بأن الداعى أبو بكر وعمر تمسك بالآية على خلافتهما ودلالتها ظاهرة ، وحينئذ أتقاتلونهم (أو يسلمون) إشارة إلى أن أحدهما يقع ، وقرىء (أو يسلموا) بالنصب بإضمار أن على معنى تقاتلونهم إلى أن يسلموا ، والتحقيق فيه هو أن أو لاتجىء إلا بين المتغايرين وتنبىء عن الحصر فيقال العدد زوج أو فرد ، ولهذا لا يصح أن يقال هو زيد أو عمرو ، ولهذا يقال العدد زوج أو خمسة أو غيرهما ، إذا علم هذا فقول القائل لألزمنك أو تقضينى حتى يفهم منه أن الزمان انحصر فى قسمين : قسم يكون فيه الملازمة ، وقسم يكون فيه قضاء الحق ، فلا يكون بين الملازمة وقضاء الحق زمان لايوجد فيه الملازمة ولا قضاء الحق ، فيكون فى قوله لألزمنك أو تقضينى ، كما حكى فى قول القائل ، لألزمنك إلى أن تقضينى ، لامتداد زمان الملازمة إلى القضاء ، وهذا ما يضعف قول القائل الداعى هو عمر والقوم فارس والروم لأن الفريقين يقران بالجزية ، فالقتال معهم لا يمتد إلى الإسلام لجواز أن يؤدوا الجزية ، وقوله تعالى (فإن تطيعوا يؤتكم الله أجراً حسناً وإن تتولوا كما توليتم من قبل) فيه فائدة لأن التولى إذا كان بعذر كما قال تعالى (ليس على الأعمى حرج) لايكون للمتولى عذاب أليم ، فقال (وإن تتولوا كما توليتم) يعنى إن كان توليكم بناء على الظن الفاسد والاعتقاد الباطل كما كان حيث قلتم بألسنتكم لا بقلوبكم (شغلتنا أموالنا) فالله يعذبكم عذابا أليماً .

ثم إن الله تعالى قال ﴿ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج﴾ بين من يجوز له التخلف وترك الجهاد وما بسببه يجوز ترك الجهاد وهو ما يمنع من الكر والفر، وبين ذلك ببيان ثلاثة أصناف (الأول) (الأعمى) فإنه لايمكنه الإقدام على العدو والطلب ولا يمكنه الاحتراز والهرب ، والأعرج كذلك والمريض كذلك ، وفى معنى الأعرج الأقطع

والمقعد ، بل ذلك أولى بأن يعذر ، ومن به عرج لا يمنعه من الكر والفر لا يعذر ، وكذلك المرض القليل الذى لا يمنع من الكر والفر كالطحال والسعال إذ به يضعف وبعض أوجاع المفاصل لا يكون عذراً وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ أن هذه أعذار تكون فى نفس المجاهد ولنا أعذار خارجة كالفقر الذى لا يتمكن صاحبه من استصحاب ما يحتاج إليه والاشتغال بمن لولاه لضاع كطفل أو مريض ، والأعذار تعلم من الفقه ونحن نبحث فيما يتعلق بالتفسير فى بيان مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ ذكر الأعذار التى فى السفر ، لأن غيرها يمكن الإزالة بخلاف العرج والعمى .

﴿ المسألة الثانية ﴾ اقتصر منها على الأصناف الثلاثة ، لأن العذر إما أن يكون بإخلال فى عضو أو بإختلال فى القوة ، والذى بسبب إخلال العضو ، فإما أن يكون بسبب اختلال فى العضو الذى به الوصول إلى العدو والانتقال فى مواضع القتال ، أو فى العضو الذى تتم به فائدة الحصول فى المعركة والوصول ، والأول هو الرجل ، والثانى هو العين ، لأن بالرجل يحصل الانتقال ، وبالعين يحصل الانتفاع فى الطلب والهرب . وأما الأذن والأنف واللسان وغيرها من الأعضاء ، فلا مدخل لها فى شىء من الأمرين ، بقيت اليد ، فإن المقطوع اليدين لا يقدر على شىء ، وهو عذر واضح ولم يذكره ، نقول : لأن فائدة الرجل وهى الانتقال تبطل بالخلل فى إحداهما ، وفائدة اليد وهى الضراب والبطش لا تبطل إلا ببطلان اليدين جميعاً ، ومقطوع اليدين لا يوجد إلا نادراً ، ولعل فى جماعة النبى ﷺ لم يكن أحد مقطوع اليدين فلم يذكره ، أو لأن المقطوع ينتفع به فى الجهاد ، فإنه ينظر ولولاه لا ستقل به مقاتل فيمكن أن يقاتل ، وهو غير معذور فى التخلف ، لأن المجاهدين ينتفعون به بخلاف الأعمى ، فإن قيل كما أن مقطوع اليد الواحدة لا تبطل منفعة بطشه كذلك الأعور لا تبطل منفعة رؤيته ، وقد ذكر الأعمى ، وما ذكر الأشل وأقطع اليدين ، قلنا لما بينا أن مقطوع اليدين نادر الوجود والآفة النازلة بإحدى اليدين لا تعمهما والآفة النازلة بالعين الواحدة تعم العينين لأن منبع النور واحد وهما متجاذبان والوجود يفرق بينهما ، فإن الأعمى كثير الوجود ومقطوع اليدين نادر .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قدم الآفة فى الآلة على الآفة فى القوة ، لأن الآفة فى القوة تزول وتطرأ ، والآفة فى الآلة إذ طرأت لا تزول ، فإن الأعمى لا يعود بصيراً فالعذر فى محل الآلة أتم .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قدم الأعمى على الأعرج ، لأن عذر الأعمى يستمر ولو حضر القتال ، والأعرج إن حضر راكباً أو بطريق آخر يقدر على القتال بالرمى وغيره

وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾ لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾

قوله تعالى : ﴿ ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار ومن يتول يعذبه عذاباً أليماً ، لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما فى قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحاً قريباً ، ومغانم كثيرة يأخذونها وكان الله عزيزاً حكيما ﴾ .

اعلم أن طاعة كل واحد منهما طاعة الآخر فجمع بينهما بياناً لطاعة الله ، فإن الله تعالى لو قال : ومن يطع الله ،كان لبعض الناس أن يقول : نحن لا نرى الله ولا نسمع كلامه ، فمن أين نعلم أمره حتى نطيعه ؟ فقال طاعته فى طاعة رسوله وكلامه يسمع من رسوله .

ثم قال (ومن يتول) أى بقلبه ، ثم لما بين حال المخلفين بعد قوله (إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله) عاد إلى بيان حالهم وقال (لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما فى قلوبهم) من الصدق كما علم مافى قلوب المنافقين من المرض (فأنزل السكينة عليهم) حتى بايعوا على الموت ، وفيه معنى لطيف وهو أن الله تعالى قال قبل هذه الآية (ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات) فجعل طاعة الله والرسول علامة لإدخال الله الجنة فى تلك الآية ، وفى هذه الآية بين أن طاعة الله والرسول وجدت من أهل بيعة الرضوان ، أما طاعة الله فالإشارة إليها بقوله (لقد رضى الله عن المؤمنين) وأما طاعة الرسول فبقوله (إذ يبايعونك تحت الشجرة) بقى الموعود به وهو إدخال الجنة أشار إليه بقوله تعالى (لقد رضى الله عن المؤمنين) لأن الرضا يكون معه إدخال الجنة كما قال تعالى (ويدخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها رضى الله عنهم)

ثم قال تعالى (فعلم ما فى قلوبهم) والفاء للتعقيب وعلم الله قبل الرضا لأنه علم ما فى قلوبهم من الصدق فرضى عنهم فكيف يفهم التعقيب فى العلم ؟ نقول قوله (فعلم مافى قلوبهم) متعلق بقوله (إذ يبايعونك تحت الشجرة) كما يقول القائل فرحت أمس إذ كلمت زيداً فقام إلى ، أو إذ دخلت عليه فأكرمنى ، فيكون الفرح بعد الإكرام ترتيباً كذلك ، ههنا قال تعالى (لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم مافى قلوبهم) من الصدق إشارة إلى أن الرضا لم يكن عند المبايعة فحسب ، بل عند المبايعة التى كان معها علم الله بصدقهم ، والفاء فى قوله (فأنزل السكينة عليهم)

وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِىَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾ وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾

للتعقيب الذى ذكرته فإنه تعالى رضى عنهم فأنزل السكينة عليهم ، وفى (علم) بيان وصف المبايعة بكونها معقبة بالعلم بالصدق الذى فى قلوبهم وهذا توفيق لا يتأتى إلا لمن هداه الله تعالى إلى معانى كتابه الكريم وقوله تعالى (وأثابهم فتحاً قريباً) هو فتح خيبر (ومغانم كثيرة يأخذونها) مغانمها وقيل مغانم هجر (وكان الله عزيزاً) كامل القدرة غنياً عن إعانتكم إياه (حكيما) حيث جعل هلاك أعدائه على أيديكم ليثيبكم عليه أو لأن فى ذلك إعزاز قوم وإذلال آخرين ، فإنه يذل من يشاء بعزته ويعز من يشاء بحكمته .

قوله تعالى : ﴿ وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها فعجل لكم هذه وكف أيدى الناس عنكم ولتكون آية للمؤمنين ويهديكم صراطاً مستقيما ﴾ .

إشارة إلى أن ما أتاهم من الفتح والمغانم ليس هو كل الثواب بل الجزاء قدامهم ، وإنما هى لعاجلة عجل بها ، وفى المغانم الموعود بها أقوال ، أصحها أنه وعدهم مغانم كثيرة من غير تعيين وكل ما غنموه كان منها والله كان عالماً بها ، وهذا كما يقول الملك الجواد لمن يخدمه : يكون لك منى على ما فعلته الجزاء إن شاء الله ، ولا يريد شيئاً بعينه ، ثم كل ما يأتى به ويؤتيه يكون داخلا تحت ذلك الوعد ، غير أن الملك لا يعلم تفاصيل ما يصل إليه وقت الوعد ، والله عالم بها ، وقوله تعالى (وكف أيدى الناس عنكم) لإتمام المنة ، كأنه قال رزقتكم غنيمة باردة من غير مس حر القتال ولو تعبتم فيه لقلتم هذا جزاء تعبنا ، وقوله تعالى (ولتكون آية للمؤمنين) عطف على مفهوم لأنه لما قال الله تعالى (فعجل لكم هذه) واللام ينبىء عن النفع كما أن على ينبىء عن الضر القائل لا على ولا ليا بمعنى لا ما أتضرر به ولا ما أنتفع به ولا أضر به ولا أنفع ، فكذلك قوله (فعجل لكم هذه) لتنفعكم (ولتكون آية للمؤمنين) وفيه معنى لطيف وهو أن المغانم الموعود بها كل ما يأخذه المسلمون فقوله (ولتكون آية للمؤمنين) يعنى لينفعكم بها وليجعلها لمن بعدكم آية تدلهم على أن ما وعدهم الله يصل إليهم كما وصل إليكم ، أو نقول : معناه لتنفعكم فى الظاهر وتنفعكم فى الباطن حيث يزداد يقينكم إذا رأيتم صدق الرسول فى إخباره عن الغيوب فتجمل أخباركم ويكمل اعتقادكم ، وقوله (ويهديكم صراطاً مستقيما) وهو التوكل عليه والتفويض إليه والاعتزاز به .

قوله تعالى : ﴿ وأخرى لم تقدروا عليها قد أحاط الله بها وكان الله على كل شىء قديراً ﴾ .

وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾

سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾

قيل غنيمة هوازن ، وقيل غنائم فارس والروم وذكر الزمخشري في أخرى ثلاثة أوجه أن تكون منصوبة بفعل مضمر يفسره (قد أحاط) و (لم تقدروا عليها) صفة لأخرى كأنه يقول وغنيمة أخرى غير مقدورة (قد أحاط الله بها) (ثانيها) أن تكون مرفوعة ، وخبرها (قد أحاط الله بها) وحسن جعلها مبتدأ مع كونه نكرة لكونها موصوفة بلم تقدروا (وثالثها) الجر بإضمار رب ويحتمل أن يقال منصوبة بالعطف على منصوب وفيه وجهان (أحدهما) كأنه تعالى قال (فعجل لكم هذه) وأخرى ما قدرتم عليها وهذا ضعيف لأن أخرى لم يعجل بها (وثانيهما) على مغانم كثيرة تأخذونها ، وأخرى أي وعدكم الله أخرى ، وحينئذ كأنه قال (وعدكم الله مغانم) تأخذونها ومغانم لا تأخذونها أنتم ولا تقدرون عليها ، وإنما يأخذها من يجيء بعدكم من المؤمنين وعلى هذا تبين لقول الفراء حسن ، وذلك لأنه فسر قوله تعالى (قد أحاط الله بها) أي حفظها للمؤمنين لا يجري عليها هلاك إلى أن يأخذها المسلمون كاحاطة الحراس بالخزائن .

قوله تعالى : ﴿ ولو قاتلكم الذين كفروا لولوا الأدبار ﴾ .

وهو يصلح جواباً لمن يقول : كف الأيدي عنهم كان أمراً اتفاقياً ، ولو اجتمع عليهم العرب كما عزموا لمنعوهم من فتح خيبر واغتنام غنائمها ، فقال ليس كذلك ، بل سواء قاتلوا أو لم يقاتلوا لا ينصرون ، والغلبة واقعة للمسلمين ، فليس أمرهم أمراً اتفاقياً ، بل هو إلهي محكوم به محتوم .

قوله تعالى : ﴿ ثم لا يجدون ولياً ولا نصيراً ﴾ .

قد ذكرنا مراراً أن دفع الضرر عن الشخص إما أن يكون بولي ينفع باللطف ، أو بنصير يدفع بالعنف ، وليس للذين كفروا شيء من ذلك ، وفي قوله تعالى (ثم) لطيفة وهي أن من يولي دبره يطلب الخلاص من القتل بالالتحاق بما ينجيه ، فقال وليس إذا ولوا الأدبار يتخلصون ، بل بعد التولي الهلاك لاحق بهم .

قوله تعالى : ﴿ سنة الله التي قد خلت من قبل ﴾ .

جواب عن سؤال آخر يقوم مقام الجهاد : وهو أن الطوالع لها تأثيرات ، والاتصالات لها تغيرات ، فقال ليس كذلك [بل] سنة الله نصرة رسوله ، وإهلاك عدوه .

قوله تعالى : ﴿ ولن تجد لسنة الله تبديلا ﴾ .

بشارة ودفع وهن يقع بسبب وهم ، وهو أنه إذا قال الله تعالى ليس هذا بالتأثيرات فلا يجب وقوعه ، بل الله فاعل مختار ، ولو أراد أن يهلك العباد لأهلكهم ، بخلاف قول المنجم بأن الغلب لمن

وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾

له طالع وشواهد تقتضى غلبته قطعاً ، فقال الله تعالى (ولن تجد لسنة الله تبديلا) يعنى أن الله فاعل مختار يفعل مايشاء ويقدر على إهلاك أصدقائه ، ولكن لا يبدل سنته ولا يغير عادته .

قوله تعالى : ﴿ وهو الذى كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعدأن أظفركم عليهم ﴾ .

تبييناً لما تقدم من قوله (ولو قاتلكم الذين كفروا لولوا الأدبار) أي هو بتقدير الله ، لأنه كف أيديهم عنكم بالفرار ، وأيديكم عنهم بالرجوع عنهم وتركهم ، وقوله تعالى (ببطن مكة) إشارة إلى أمر كان هناك يقتضى عدم الكف ، ومع ذاك وجد كف الأيدى ، وذلك الأمر هو دخول المسلمين ببطن مكة ، فإن ذلك يقتضى أن يصبر المكفوف على القتال لكون العدو دخل دارهم طالبين ثأرهم ، وذلك مما يوجب اجتهاد البليد فى الذب عن الحريم ، ويقتضى أن يبالغ المسلمون فى الاجتهاد فى الجهاد لكونهم لو قصروا لكسروا وأسروا لبعد مأمنهم ، فقوله (ببطن مكة) إشارة إلى بعد الكف ، ومع ذلك وجد بمشيئة الله تعالى ، وقوله تعالى (من بعد أن أظفركم عليهم) صالح لأمرين (أحدهما) أن يكون منة على المؤمنين بأن الظفر كان لكم ، مع أن الظاهر كان يستدعى كون الظفر لهم لكون البلاد لهم ، ولكثرة عددهم (الثانى) أن يكون ذكر أمرين مانعين من الأمرين الأولين ، مع أن الله حققهما مع المنافقين ، أما كف أيدى الكفار ، فكان بعيداً لكونهم فى بلادهم ذابين عن أهليهم وأولادهم ، وإليه أشار بقوله (ببطن مكة) وأما كف أيدى المسلمين ، فلأنه كان بعد أن ظفروا بهم ، ومتى ظفر الإنسان بعدوه الذى لو ظفر هو به لاستأصله يبعد انكفافه عنه ، مع أن الله كف اليدين .

قوله تعالى : ﴿ وكان الله بما تعملون بصيراً ﴾ .

يعنى كان الله يرى فيه من المصلحة ، وإن كنتم لاترون ذلك ، وبينه بقوله تعالى (هم الذين كفروا وصدوكم عن المسجد الحرام والهدى معكوفاً) إلى أن قال (ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات) يعنى كان الكف محافظة على مافى مكة من المسلمين ليخرجوا منها ، ويدخلوها على وجه لايكون فيه ايذاء من فيها من المؤمنين والمؤمنات ، واختلف المفسرون فى ذلك الكف منهم من قال المرادما كان عام الفتح ، ومنهم من قال ماكان عام الحديبية ، فإن المسلمين هزموا جيش الكفار حتى أدخلوهم بيوتهم ، وقيل إن الحرب كان بالحجارة .

هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ

قوله تعالى : ﴿هم الذين كفروا وصدوكم عن المسجد الحرام والهدى معكوفاً أن يبلغ محله﴾.

إشارة إلى أن الكف لم يكن لأمر فيهم لأنهم كفروا وصدوا وأحصروا ، وكل ذلك يقتضى قتالهم ، فلا يقع لأحد أن الفريقين اتفقوا ، ولم يبق بينهما خلاف واصطلحوا ، ولم يبق بينهما نزاع ، بل الاختلاف باق والنزاع مستمر ، لأنهم (هم الذين كفروا وصدوكم) ومنعوا فازدادوا كفراً وعداوة ، وإنما ذلك للرجال المؤمنين والنساء المؤمنات ، وقوله (والهدى) منصوب على العطف على كم فى (صدوكم) ويجوز الجر عطفاً على المسجد ، أى وعن الهدى . و(معكوفاً) حال و(أن يبلغ) تقديره عن أن يبلغ ، ويحتمل أن يقال (أن يبلغ محله) رفع ، تقديره معكوفاً بلوغه محله ، كما يقال : رأيت زيداً شديداً بأسه ، ومعكوفاً ، أى ممنوعاً ، ولا يحتاج إلى تقدير عن على هذا الوجه .

قوله تعالى : ﴿ ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم أن تطئوهم فتصيبكم منهم معرة بغير علم ﴾ .

وصف الرجال والنساء ، يعنى لولا رجال ونساء يؤمنون غير معلومين ، وقوله تعالى (أن تطئوهم) بدل اشتمال ، كأنه قال : رجال غير معلومى الوطء فتصيبكم منهم معرة عيب أو إثم ، وذلك لأنكم ربما تقتلونهم فتلزمكم الكفارة وهى دليل الإثم ، أو يعيبكم الكفار بأنهم فعلوا بإخوانهم مافعلوا بأعدائهم ، وقوله تعالى (بغير علم) قال الزمخشرى : هو متعلق بقوله (أن تطئوهم) يعنى تطئوهم بغير علم ، وجاز أن يكون بدلا عن الضمير المنصوب فى قوله (لم تعلموهم) ولقائل أن يقول : يكون هذا تكراراً ، لأن على قولنا هو بدل من الضمير يكون التقدير : لم تعلموا أن تطئوهم بغير علم ، فيلزم تكرار بغير علم لحصوله بقوله (لم تعلموهم) فالأولى أن يقال (بغير علم) هو فى موضعه تقديره : لم تعلموا أن تطئوهم فتصيبكم منهم معرة بغير علم ، من يعركم ويعيب عليكم ، يعنى إن وطأتموهم غير عالمين يصبكم مسبة الكفار (بغير علم) أى بجهل لايعلمون أنكم معذورون فيه ، أو نقول تقديره : لم تعلموا أن تطئوهم فتصيبكم منهم معرة بغير علم ، أى فتقتلوهم بغير علم ، أو تؤذوهم بغير علم ، فيكون الوطء سبب القتل ، والوطء غير معلوم لكم ، والقتل الذى هو بسبب المعرة وهو الوطء الذى يحصل بغير علم . أو نقول : المعرة قسمان (أحدهما) مايحصل من القتل العمد ممن هو غير العالم بحال المحل (والثانى) مايحصل من القتل خطأ ، وهو

لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾

غير عدم العلم ، فقال : تصيبكم منهم معرة غير معلومة ، لا التى تكون عن العلم (وجواب) لولا محذوف تقديره : لولا ذلك لما كف أيديكم عنهم ، هذا ما قاله الزمخشرى وهو حسن ، ويحتمل أن يقال (جوابه) مايدل عليه قوله تعالى (هم الذين كفروا وصدوكم عن المسجد الحرام) يعنى قد استحقوا أن لايهملوا ، ولولا رجال مؤمنون لوقع ما استحقوه ، كما يقول القائل : هو سارق ولولا فلان لقطعت يده ، وذلك لأن لولا لا تستعمل إلا لامتناع الشيء لوجود غيره ، وامتناع الشيء لايكون إلا إذا وجد المقتضى له فمنعه الغير فذكر الله تعالى أولا المقتضى التام البالغ وهو الكفر والصد والمنع ، وذكر ماامتنع لأجله مقتضاه وهو وجود الرجال المؤمنين .

قوله تعالى : ﴿ ليدخل الله فى رحمته من يشاء لو تزيلوا لعذبنا الذين كفروا منهم عذاباً أليما ﴾ فيه أبحاث :

﴿الأول﴾ فى الفعل الذى يستدعى اللام الذى بسببه يكون الإدخال وفيه وجوه (أحدها) أن يقال هو قوله (كف أيديكم عنهم) ليدخل ، لايقال بأنك ذكرت أن المانع وجود رجال مؤمنين فيكون كأنه قال : كف أيديكم لئلا تطئوا فكيف يكون لشيء آخر ؟ نقول الجواب عنه من وجهين (أحدهما) أن نقول كف أيديكم لئلا تطئوا لتدخلوا كما يقال أطعمته ليشبع ليغفر الله لى أى الإطعام للشابع كان ليغفر (الثانى) هو أنا بينا أن لولا جوابه مادل عليه قوله (هم الذين كفروا) فيكون كأنه قال هم الذين كفروا واستحقوا التعجل فى إهلاكهم ، ولولا رجال لعجل بهم ولكن كف أيديكم ليدخل (ثانيها) أن يقال فعل مافعل ليدخل لأن هناك أفعالا من الألطاف والهداية وغيرهما ، وقوله (ليدخل الله فى رحمته من يشاء) ليؤمن منهم من علم الله تعالى أنه يؤمن فى تلك السنة أو ليخرج من مكة ويهاجر فيدخلهم فى رحمته وقوله تعالى (لو تزيلوا) أى لو تميزوا ، والضمير يحتمل أن يقال هو ضمير الرجال المؤمنين والنساء المؤمنات ، فإن قيل كيف يصح هذا وقد قلتم بأن جواب لولا محذوف وهو قوله لما كف أو لعجل ولو كان لو تزيلوا راجعاً إلى الرجال لكان لعذبنا جواب لولا ؟ نقول وقد قال به الزمخشرى فقال (لو تزيلوا) يتضمن ذكر لولا فيحتمل أن يكون لعذبنا جواب لولا ، ويحتمل أن يقال هو ضمير من يشاء ، كأنه قال ليدخل من يشاء فى رحمته لو تزيلوا هم وتميزوا وآمنوا لعذبنا الذين كتب الله عليهم أنهم لا يؤمنون ، وفيه أبحاث :

﴿ البحث الأول ﴾ وهو على تقدير نفرضه فالكلام يفيد أن العذاب الأليم اندفع عنهم ، إما بسبب عدم التزييل ، أو بسبب وجود الرجال وعلم تقدير وجود الرجال والعذاب الأليم لايندفع

إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾

عن الكافر ، نقول المراد عذاباً عاجلا بايديكم يبتدىء بالجنس إذ كانوا غير مقرنين ولا منقلبين إليهم فيظهرون ويقتدرون يكون أليما .

﴿ البحث الثانى ﴾ ما الحكمة فى ذكر المؤمنين والمؤمنات مع أن المؤنث يدخل فى ذكر المذكر عند الاجتماع ؟ قلنا الجواب عنه من وجهين (أحدهما) ما تقدم يعنى أن الموضع موضع وهم اختصاص الرجال بالحكم لأن قوله (تطئوهم فتصيبكم) معناه تهلكوهم والمراد لاتقاتل ولا تقتل فكان المانع وهو وجود الرجال المؤمنين فقال (والنساء المؤمنات) أيضاً لأن تخريب بيوتهن ويتم أولادهن بسبب رجالهن وطأة شديدة (وثانيهما) أن فى محل الشفقة تعد المواضع لترقيق القلب ، يقال لمن يعذب شخصاً لاتعذبه وارحم ذله وفقره وضعفه ، ويقال أولاده وصغاره وأهله الضعفاء العاجزين ، فكذلك ههنا قال (لولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات) لترقيق قلوب المؤمنات ورضاهم بما جرى من الكف بعد الظفر .

قوله تعالى : ﴿ إذ جعل الذين كفروا فى قلوبهم الحمية حمية الجاهلية فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وألزمهم كلمة التقوى وكانوا أحق بها وأهلها وكان الله بكل شىء عليما ﴾ .

إذ يحتمل أن يكون ظرفاً فلابد من فعل يقع فيه ويكون عاملا له ، ويحتمل أن يكون مفعولا به ، فإن قلنا إنه ظرف فالفعل الواقع فيه يحتمل أن يقال هو مذكور ، ويحتمل أن يقال هو مفهوم غير مذكور ، فإن قلنا هو مذكور ففيه وجهان (أحدهما) هو قوله تعالى (وصدوكم) أى وصدوكم حين جعلوا فى قلوبهم الحمية (وثانيها) قوله تعالى (لعذبنا الذين كفروا منهم) أى لعذبناهم حين جعلوا فى قلوبهم الحمية (والثانى) أقرب لقربه لفظاً وشدة مناسبته معنى لأنهم إذا جعلوا فى قلوبهم الحمية لايرجعون إلى الاستسلام والانقياد ، والمؤمنون لما أنزل الله عليهم السكينة لايتركون الاجتهاد فى الجهاد والله مع المؤمنين فيعذبونهم عذاباً أليماً أو غير المؤمنين ، وأما إن قلنا إن ذلك مفهوم غير مذكور ففيه وجهان (أحدهما) حفظ الله المؤمنين عن أن يطئوهم وهم الذين كفروا الذين جعل فى قلوبهم الحمية (وثانيها) أحسن الله إليكم إذ جعل الذين كفروا فى قلوبهم الحمية ، وعلى هذا فقوله تعالى (فأنزل الله سكينته) تفسير لذلك الإحسان ، وأما إن قلنا إنه مفعول به ، فالعامل مقدر تقديره اذكر ، أى اذكر ذلك الوقت ،كما تقول أتذكر إذ قام زيد ، أى أتذكر وقت قيامه

كما تقول أتذكر زيداً ، وعلى هذا يكون الظرف للفعل المضاف إليه عاملا فيه ، وفيه لطائف معنوية ولفظية : (الأولى) هو أن الله تعالى أبان غاية البون بين الكافر والمؤمن ، فأشار إلى ثلاثة أشياء (أحدها) جعل ما للكافرين بجعلهم فقال (إذ جعل الذين كفروا) وجعل ما للمؤمنين بجعل الله ، فقال (فأنزل الله) وبين الفاعلين ما لا يخفى (ثانيها) جعل للكافرين الحمية وللمؤمنين السكينة وبين المفعولين تفاوت على ما سنذكره (ثالثها) أضاف الحمية إلى الجاهلية وأضاف السكينة إلى نفسه حيث قال : حمية الجاهلية ، وقال : سكينته ، وبين الإضافتين مالا يذكر (الثانية) زاد المؤمنين خيراً بعد حصول مقابلة شيء بشيء فعلهم بفعل الله والحمية بالسكينة والإضافة إلى الجاهلية بالإضافة إلى الله تعالى (وألزمهم كلمة التقوى) وسنذكر معناه ، وأما اللفظية فثلاث لطائف (الأولى) قال في حق الكافر (جعل) وقال في حق المؤمن (أنزل) ولم يقل خلق ولا جعل سكينته إشارة إلى أن الحمية كانت مجعولة في الحال في العرض الذي لا يبقى ، وأما السكينة فكانت كالمحفوظة في خزانة الرحمة معدة لعباده فأنزلها (الثانية) قال الحمية ثم أضافها بقوله (حمية الجاهلية) لأن الحمية في نفسها صفة مذمومة وبالإضافة إلى الجاهلية تزداد قبحاً ، وللحمية في القبح درجة لا يعتبر معها قبح القبائح كالمضاف إلى الجاهلية . وأما السكينة في نفسها وإن كانت حسنة لكن الإضافة إلى الله فيها من الحسن مالا يبقى معه لحسن اعتبار ، فقال سكينته اكتفاء بحسن الإضافة (الثالثة) قوله (فأنزل) بالفاء لا بالواو إشارة إلى أن ذلك كالمقابلة تقول أكرمني فأكرمته للمجازاة والمقابلة ولو قلت أكرمني وأكرمته لا ينبيء عن ذلك ، وحينئذ يكون فيه لطيفة : وهي أن عند اشتداد غضب أحد العدوين فالعدو الآخر إما أن يكون ضعيفاً أو قوياً ، فإن كان ضعيفاً ينهزم وينقهر ، وإن كان قوياً فيورث غضبه فيه غضباً ، وهذا سبب قيام الفتن والقتال فقال في نفس الحركة عند حركتهم ما أقدمنا وما انهزمنا ، وقوله تعالى (فأنزل الله) بالفاء يدل تعلق الإنزال بالفاء على ترتيبه على شيء ، نقول فيه وجهان : (أحدهما) ما ذكرنا من أن إذ ظرف كأنه قال أحسن الله (إذ جعل الذين كفروا) وقوله (فأنزل) تفسير لذلك الإحسان كما يقال أكرمني فأعطاني لتفسير الإكرام (وثانيهما) أن تكون الفاء للدلالة على أن تعلق إنزال السكينة بجعلهم الحمية في قلوبهم على معنى المقابلة ، تقول أكرمني فأثنيت عليه ، ويجوز أن يكونا فعلين واقعين من غير مقابلة ، كما تقول جاءني زيد وخرج عمرو ، وهو هنا كذلك لأنهم لما جعلوا في قلوبهم الحمية فالمسلمون على مجرى العادة لو نظرت إليهم لزم أن يوجد منهم أحد الأمرين : إما إقدام ، وإما انهزام . لأن أحد العدوين إذا اشتد غضبه فالعدو الآخر إن كان مثله في القوة يغضب أيضاً وهذا يثير الفتن ، وإن كان أضعف منه ينهزم أو ينقاد له فالله تعالى أنزل في مقابلة حمية الكافرين على المؤمنين سكينته حتى لم يغضبوا ولم ينهزموا بل يصبروا ، وهو بعيد في العادة فهو من فضل الله تعالى ، قوله تعالى (على رسوله وعلى المؤمنين) فإنه هو الذي أجاب الكافرين إلى الصلح ، وكان في نفس المؤمنين أن لا يرجعوا إلا بأحد الثلاثة بالنحر في المنحر ، وأبوا أن

لايكتبوا محمداً رسول الله وبسم الله ، فلما سكن رسول الله صلى الله عليه وسلم سكن المؤمنون ، وقوله تعالى (وألزمهم كلمة التقوى) فيه وجوه أظهرها أنه قول لاإله إلا الله فإن بها يقع الاتقاء عن الشرك ، وقيل هو بسم الله الرحمن الرحيم ومحمد رسول الله فإن الكافرين أبوا ذلك والمؤمنون التزموه ، وقيل هي الوفاء بالعهد إلى غير ذلك ونحن نوضح فيه مايترجح بالدليل فنقول (وألزمهم) يحتمل أن يكون عائداً إلى النبي ﷺ والمؤمنين جميعاً يعني ألزم النبي والمؤمنين كلمة التقوى ، ويحتمل أن يكون عائداً إلى المؤمنين فحسب ، فإن قلنا إنه عائد إليهما جميعاً نقول هو الأمر بالتقوى فإن الله تعالى قال للنبي ﷺ (ياأيها النبي اتق ولا تطع الكافرين) وقال للمؤمنين (ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته) والأمر بتقوى الله حتى تذهله تقواه عن الالتفات إلى ماسوى الله ، كما قال في حق النبي صلى الله عليه وسلم (اتق الله ولا تطع الكافرين) وقال تعالى (وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه) ثم بين له حال من صدقه بقوله (الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولايخشون أحداً إلا الله) وأما في حق المؤمنين فقال (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته) وقال (فلا تخشوهم واخشوني) وإن قلنا بأنه راجع إلى المؤمنين فهو قوله تعالى (وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا) ألا ترى إلى قوله (واتقوا الله) وهو قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله) وفي معنى قوله تعالى (وألزمهم كلمة التقوى) على هـذا معنى لطيف وهو أنه تعالى إذا قال (اتقوا) يكون الأمر وارداً ثم إن من الناس من يقبله بتوفيق الله ويلتزمه ومنهم من لا يلتزمه ، ومن التزمه فقد التزمه بإلزام الله إياه فكأنه قال تعالى (وألزمهم كلمة التقوى) وفي هذا المعنى رجحان من حيث إن التقوى وإن كان كاملا ولكنه أقرب إلى الكلمة ، وعلى هذا فقوله (وكانو أحق بها وأهلها) معناه أنهم كانوا عند الله أكرم الناس فألزموا تقواه ، وذلك لأن قوله تعالى (إن أكرمكم عند الله أتقاكم) يحتمل وجهين (أحدهما) أن يكون معناه أن من يكون تقواه أكثر يكرمه الله أكثر (والثاني) أن يكون معناه أن من سيكون أكرم عند الله وأقرب إليه كان أتقى ، كما في قوله «والمخلصون على خطر عظيم» وقوله تعالى (وهم من خشية ربهم مشفقون) وعلى الوجه الثاني يكون معنى قوله (وكانوا أحق بها) لأنهم كانوا أعلم بالله لقوله تعالى (إنما يخشى الله من عباده العلماء) وقوله (وأهلها) يحتمل وجهين (أحدهما) أنه يفهم من معنى الأحق أنه يثبت رجحاناً على الكافرين إن لم يثبت الأهلية ، كما لو اختار الملك اثنين لشغل وكل واحد منهما غير صالح له ولكن أحدهما أبعد عن الاستحقاق فقال في الأقرب إلى الاستحقاق إذا كان ولابد فهذا أحق ، كما يقال الحبس أهون من القتل مع أنه لاهين هناك فقال (وأهلها) دفعاً لذلك (الثاني) وهو أقوى وهو أن يقال قوله تعالى (وأهلها) فيه وجوه نبينها بعد مانبين معنى الأحق ، فنقول هو يحتمل وجهين (أحدهما) أن يكون الأحق بمعنى الحق لا للتفضيل كما في قوله تعالى (خير مقاماً وأحسن ندياً) إذ لاخير في غيره (والثاني) أن يكون للتفضيل وهو يحتمل وجهين (أحدهما) أن يكون

لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾

بالنسبة إلى غيرهم أى المؤمنون أحق من الكافرين (والثانى) أن يكون بالنسبة إلى كلمة التقوى من كلمة أخرى غير تقوى ، تقول زيد أحق بالإكرام منه بالإهانة ، كما إذا سأل شخص عن زيد إنه بالطب أعلم أو بالفقه ، نقول هو بالفقه أعلم أى من الطب .

قوله تعالى : ﴿ لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رءوسكم ومقصرين لاتخافون فعلم مالم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحاً قريباً ﴾ .

بيان لفساد ما قاله المنافقون بعد إنزال الله السكينة على رسوله وعلى المؤمنين ووقوفهم عند ما أمروا به من عدم الإقبال على القتال وذلك قولهم ما دخلنا المسجد الحرام ولا حلقنا ولا قصرنا حيث كان النبى صلى الله عليه وسلم رآى فى منامه أن المؤمنين يدخلون مكة ويتمون الحج ولم يعين له وقتاً فقص رؤياه على المؤمنين ، فقطعوا بأن الأمر كما رآى النبى صلى الله عليه وسلم فى منامه وظنوا أن الدخول يكون عام الحديبية ، والله أعلم أنه لايكون إلا عام الفتح فلما صالحوا ورجعوا قال المنافقون استهزاء ما دخلنا ولا حلقنا فقال تعالى (لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق) وتعدية صدق إلى مفعولين يحتمل أن يكون بنفسه ، وكونه من الأفعال التى تتعدى إلى المفعولين ككلمة جعل وخلق ، ويحتمل أن يقال عدى إلى الرؤيا بحرف تقديره صدق الله رسوله فى الرؤيا ، وعلى الأول معناه جعلها واقعة بين صدق وعده إذ وقع الموعود به وأتى به ، وعلى الثانى معناه ما أراه الله لم يكذب فيه ، وعلى هذا فيحتمل أن يكون رآى فى منامه أن الله تعالى يقول ستدخلون المسجد الحرام فيكون قوله (صدق) ظاهراً لأن استعمال الصدق فى الكلام ظاهر ، ويحتمل أن يكون عليه الصلاة والسلام رأى أنه يدخل المسجد فيكون قوله (صدق الله) معناه أنه أتى بما يحقق المنام ويدل على كونه صادقاً يقال صدقنى سن بكره مثلا وفيما إذا حقق الأمر الذى يريه من نفسه ، مأخوذ من الإبل إذا قيل له هدع سكن فحقق كونه من صغار الإبل ، فان هدع كلمة يسكن بها صغار الإبل وقوله تعالى (بالحق) قال الزمخشرى هو حال أو قسم أو صفة صدق ، وعلى كونه حال تقديره صدقه الرؤيا ملتبسة بالحق وعلى تقدير كونه صفة تقديره صدقه صدقاً ملتبساً بالحق وعلى تقدير كونه قسما ، إما أن يكون قسما بالله فإن الحق من أسمائه ، وإما أن يكون قسما بالحق الذى هو نقيض الباطل هذا ما قاله ، ويحتمل أن يقال [إن] فيه وجهين آخرين : (أحدهما) أن يقال فيه تقديم

تأخير تقديره : صدق الله رسوله بالحق الرؤيا ، أى الرسول الذى هو رسول بالحق وفيه إشارة إلى امتناع الكذب فى الرؤيا لأنه لما كان رسولا بالحق فلا يرى فى منامه الباطل (والثانى) أن يقال أن يقال بأن قوله (لتدخلن المسجد الحرام) إن قلنا بأن الحق قسم فأمر اللام ظاهر ، وإن لم يقل به فتقديره : لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق ، والله لتدخلن ، وقوله : والله لتدخلن ، جاز أن يكون تفسيراً للرؤيا يعنى الرؤيا هى : والله لتدخلن ، وعلى هذا تبين أن قوله (صدق الله) كان فى الكلام لأن الرؤيا كانت كلاماً ، ويحتمل أن يكون تحقيقاً لقوله تعالى (صدق الله رسوله) يعنى والله ليقعن الدخول وليظهرن الصدق فلتدخلن ابتداء كلام وقوله تعالى (إن شاء الله) فيه وجوه (أحدها) أنه ذكره تعليما للعباد الأدب وتأكيداً لقول تعالى (ولا تقولن لشيء إنى فاعل ذلك غداً إلا أن يشاء الله) (الثانى) هو أن الدخول لما لم يقع عام الحديبية ، وكان المؤمنون يريدون الدخول ويأبون الصلح قال (لتدخلن) ولكن لا بجلادتكم ولا بإرادتكم ، إنما تدخلون بمشيئة الله تعالى (الثالث) هو أن الله تعالى لما قال فى الوحى المنزل على النبى ﷺ (لتدخلن) ذكر أنه بمشيئة الله تعالى ، لأن ذلك من الله وعد ليس عليه دين ولا حق واجب ، ومن وعد بشيء لا يحققه إلا بمشيئة الله تعالى وإلا فلا يلزمه به أحد ، وإذا كان هذا حال الموعود به فى الوحى المنزل صريحاً فى اليقظة فما ظنكم بالوحى بالمنام وهو يحتمل التأويل أكثر مما يحتمله الكلام ، فإذا تأخر الدخول لم يستهزئون ؟ (الرابع) هو أن ذلك تحقيقاً للدخول وذلك لأن أهل مكة قالوا لا تدخلوها إلا بإرادتنا ولا نريد دخولكم فى هذه السنة ، ونختار دخولكم فى السنة القابلة ، والمؤمنون أرادوا الدخول فى عامهم ولم يقع . فكان لقائل أن يقول بقى الأمر موقوفاً على مشيئة أهل مكة إن أرادوا فى السنة الآتية يتركوننا ندخلها . وإن كرهوا لا ندخلها فقال لا تشترط إرادتهم ومشيئتهم ، بل تمام الشرط بمشيئة الله ، وقوله (محلقين رءوسكم ومقصرين لا تخافون) إشارة إلى أنكم تتمون الحج من أوله إلى آخره ، فقوله (لتدخلن) إشارة إلى الأول وقوله (محلقين) إشارة إلى الآخر ، وفيه مسألتان :

﴿ المسألة الأولى ﴾ (محلقين) حال الداخلين . والداخل لا يكون الآن محرماً ، والمحرم لا يكون محلقاً ، فقوله (آمنين) ينبيء عن الدوام فيه إلى الحلق فكأنه قال : تدخلونها آمنين متمكنين من أن تتموا الحج محلقين .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قوله تعالى (لا تخافون) أيضا حال معناه غير خائفين ، وذلك حصل بقوله تعالى (آمنين) فما الفائدة فى إعادتها ؟ نقول : فيه بيان كمال الأمن ، وذلك لأن بعد الحلق يخرج الإنسان عن الإحرام فلا يحرم عليه القتال ، وكان عند أهل مكة يحرم قتال من أحرم ومن دخل الحرم فقال : تدخلون آمنين ، وتحلقون ، ويبقى أمنكم بعد خروجكم عن الإحرام ، وقوله تعالى (فعلم ما لم تعلموا) أى من المصلحة وكون دخولكم فى سنتكم سبباً لوطء المؤمنين والمؤمنات

هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ

أو (فعلم) للتعقيب ، (فعلم) وقع عقيب ماذا ؟ نقول إن قلنا المراد من (فعلم) وقت الدخول فهو عقيب صدق ، وإن قلنا المراد (فعلم) المصلحة فالمعنى علم الوقوع والشهادة لا علم الغيب ، والتقدير يعني حصلت المصلحة في العام القابل (فعلم مالم تعلموا) من المصلحة المتجددة (فجعل من دون ذلك فتحاً قريباً) إما صلح الحديبية ، وإما فتح خيبر ، وقد ذكرناه وقوله تعالى (وكان الله بكل شيء عليما) يدفع وهم حدوث علمه من قوله (فعلم) وذلك لأن قوله (وكان الله بكل شيء عليما) يفيد سبق علمه العام لكل علم محدث .

قوله تعالى : ﴿ هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيداً ، محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلا من الله ورضواناً ﴾ .

تأكيداً لبيان صدق الله فى رسوله الرؤيا ، وذلك لأنه لما كان مرسلا لرسوله ليهدى ، لا يريد مالا يكون مهدياً للناس فيظهر خلافه ، فيقع ذلك سبباً للضلال ، ويحتمل وجوهاً أقوى من ذلك ، وهو أن الرؤيا بحيث توافق الواقع تقع لغير الرسل ، لكن رؤية الأشياء قبل وقوعها فى اليقظة لا تقع لكل أحد فقال تعالى (هو الذى أرسل رسوله بالهدى) وحكى له ما سيكون فى اليقظة ، ولا يبعد من أن يريه فى المنام ما يقع فلا استبعاد فى صدق رؤياه ، وفيها أيضاً بيان وقوع الفتح ودخول مكة بقوله تعالى (ليظهره على الدين كله) أى من يقويه على الأديان لا يستبعد منه فتح مكة له (والهدى) يحتمل أن يكون هو القرآن كما قال تعالى (أنزل فيه القرآن هدى للناس) وعلى هذا (دين الحق) هو ما فيه من الأصول والفروع ، ويحتمل أن يكون الهدى هو المعجزة أى أرسله بالحق أى مع الحق إشارة إلى ما شرع ، ويحتمل أن يكون الهدى هو الأصول (ودين الحق) هو الأحكام ، وذلك لأن من الرسل من لم يكن له أحكام بل بين الأصول فحسب ، والألف واللام فى (الهدى) يحتمل أن تكون للاستغراق أى كل ما هو هدى ، ويحتمل أن تكون للعهد وهو قوله تعالى (ذلك هدى الله يهدى به من يشاء) وهو إما القرآن لقوله تعالى (كتاباً متشابهاً مثاني تقشعر) إلى أن قال (ذلك هدى الله يهدى به من يشاء) وإما ما اتفق عليه الرسل لقوله تعالى (أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده) والكل من باب واحد لأن ما فى القرآن موافق لما اتفق

عليه الأنبياء وقوله تعالى (ودين الحق) يحتمل وجوها : (أحدها) أن يكون الحق اسم الله تعالى فيكون كأنه قال : بالهدى ودين الله ، (وثانيها) أن يكون الحق نقيض الباطل فيكون كأنه قال (ودين) الأمر (الحق) (وثالثها) أن يكون المراد به الانقياد إلى الحق والتزامه (ليظهره) أى أرسله بالهدى وهو المعجز على أحد الوجوه (ليظهره على الدين كله) أى جنس الدين ، فينسخ الأديان دون دينه ، وأكثر المفسرين على أن الهاء فى قوله (ليظهره) راجعة إلى الرسول ، والأظهر أنه راجع إلى دين الحق أى أرسل الرسول بالدين الحق ليظهره أى ليظهر الدين الحق على الأديان ، وعلى هذا فيحتمل أن يكون الفاعل للاظهار هو الله ، ويحتمل أن يكون هو النبي أى ليظهر النبي دين الحق ، وقوله تعالى (وكفى بالله شهيداً) أى فى أنه رسول الله وهذا مما يسلى قلب المؤمنين فإنهم تأذوا من رد الكفار عليهم العهد المكتوب ، وقالوا لا نعلم أنه رسول الله فلا تكتبوا محمد رسول الله بل اكتبوا محمد بن عبد الله ، فقال تعالى (كفى بالله شهيداً) فى أنه رسول الله ، وفيه معنى لطيف وهو أن قول الله مع أنه كاف فى كل شيء ، لكنه فى الرسالة أظهر كفاية ، لأن الرسول لا يكون إلا بقول المرسل ، فإذا قال ملك هذا رسولى ، لو أنكر كل من فى الدنيا أنه رسول فلا يفيد إنكارهم فقال تعالى أى خلل فى رسالته بإنكارهم مع تصديق إياه بأنه رسولى ، وقوله (محمد رسول الله) فيه وجوه (أحدها) خبر مبتدأ محذوف تقديره هو محمد الذى سبق ذكره بقوله (أرسل رسوله) ورسول الله عطف بيان (وثانيها) أن محمداً مبتدأ خبره رسول الله وهذا تأكيد لما تقدم لأنه لما قال (هو الذى أرسل رسوله) ولا تتوقف رسالته إلا على شهادته ، وقد شهد له بها محمد رسول الله من غير نكير (وثالثها) وهو مستنبط وهو أن يقال (محمد) مبتدأ و (رسول الله) عطف بيان سيق للمدح لا للتمييز (والذين معه) عطف على محمد ، وقوله (أشداء) خبره ، كأنه تعالى قال (والذين معه) جميعهم (أشداء على الكفار رحماء بينهم) لأن وصف الشدة والرحمة وجد فى جميعهم ، أما فى المؤمنين فكما فى قوله تعالى (أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين) وأما فى حق النبي صلى الله عليه وسلم فكما فى قوله (واغلظ عليهم) وقال فى حقه (بالمؤمنين رءوف رحيم) وعلى هذا قوله (تراهم) لا يكون خطاباً مع النبي صلى الله عليه وسلم بل يكون عاماً أخرج مخرج الخطاب تقديره أيها السامع كائناً من كان ، كما قلنا إن الواعظ يقول انتبه قبل أن يقع الانتباه ولا يريد به واحداً بعينه ، وقوله تعالى (يبتغون فضلا من الله ورضواناً) لتمييز ركوعهم وسجودهم عن ركوع الكفار وسجودهم ، وركوع المرائى وسجوده ، فإنه لا يبتغى به ذلك . وفيه إشارة إلى معنى لطيف وهو أن الله تعالى قال الراكعون والساجدون (فيوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله) وقال الراكع يبتغى الفضل ولم يذكر الأجر لأن الله تعالى إذا قال لكم أجر كان ذلك منه تفضلا ، وإشارة إلى أن عملكم جاء على ما طلب الله منكم ، لأن الأجرة لا تستحق إلا على العمل الموافق للطلب من المالك ، والمؤمن إذا قال أنا أبتغى فضلك يكون منه اعترافاً

سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِي ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ

بالتقصير فقال (يبتغون فضلا من الله) ولم يقل أجراً .

قوله تعالى : ﴿ سيماهم فى وجوههم من أثر السجود ﴾ فيه وجهان (أحدهما) أن ذلك يوم القيامة .كما قال تعالى (يوم تبيض وجوه) وقال تعالى (نورهم يسعى) وعلى هذا فنقول نورهم فى وجوههم بسبب توجههم نحو الحق كما قال إبراهيم عليه السلام (إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض) ومن يحاذى الشمس يقع شعاعها على وجهه ، فيتبين على وجهه النور منبسطاً ، مع أن الشمس لها نور عارضى يقبل الزوال ، والله نور السموات والأرض فمن يتوجه إلى وجهه يظهر فى وجهه نور يبهر الأنوار (وثانيهما) أن ذلك فى الدنيا وفيه وجهان (أحدهما) أن المراد مايظهر فى الجباه بسبب كثرة السجود (والثانى) مايظهره الله تعالى فى وجوه الساجدين ليلا من الحسن نهاراً ، وهذ محقق لمن يعقل فان رجلين يسهران بالليل أحدهما قداشتغل بالشراب واللعب والآخر قد اشتغل بالصلاة والقراءة واستفادة العلم فكل أحد فى اليوم الثانى يفرق بين الساهر فى الشرب واللعب ، وبين الساهر فى الذكر والشكر .

قوله تعالى : ﴿ ذلك مثلهم فى التوراة ﴾ فيه ثلاثة أوجه مذكورة (أحدها) أن يكون (ذلك) مبتدأ ، و (مثلهم فى التوراة ومثلهم فى الإنجيل) خبراً له ، وقول تعالى (كزرع أخرج شطأه)خبراً مبتدأ محذوف تقديره ومثلهم فى التوراة ومثلهم فى الإنجيل كزرع (وثانيها)أن يكون خبر ذلك هو قوله (مثلهم فى التوراة) وقوله(ومثلهم فى الإنجيل)مبتدأ وخبره كزرع(وثالثها)أن يكون ذلك إشارة غير معينة أو ضحت بقوله تعالى (كزرع) كقوله (ذلك الأمر أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين) وفيه وجه (رابع) وهو أن يكون ذلك خبراً له مبتدأ محذوف تقديره هذا الظاهر فى وجوههم ذلك يقال ظهر فى وجهه أثر الضرب ، فنقول أى والله ذلك أى هذا ذلك الظاهر ، أو الظاهر الذى تقوله ذلك .

قوله تعالى : ﴿ ومثلهم فى الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ﴾ .

أى وصفوا فى الكتابين به ومثلوا بذلك وإنما جعلوا كالزرع لأنه أول مايخرج يكون ضعيفاً وله نمو إلى حد الكمال ، فكذلك المؤمنون ، والشطء الفرخ و (فآزره) يحتمل أن يكون المرادأخرج

لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴿٢٩﴾

الشط . وآزر الشط . ، وهو أقوى وأظهر والكلام يتم عند قوله (يعجب الزراع) .

قوله تعالى : ﴿ ليغيظ بهم الكفار ﴾ أى تنمية الله ذلك ليغيظ أو يكون الفعل المعلل هو .

قوله تعالى : ﴿ وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ أى وعد (ليغيظ بهم الكفار) يقال رغماً لأنفك أنعم عليه .

قوله تعالى : ﴿ منهم مغفرة وأجراً عظيماً ﴾ لبيان الجنس لا للتبعيض ، ويحتمل أن يقال هو للتبعيض ، ومعناه : ليغيظ الكفار والذين آمنوا من الكفار لهم الأجر العظيم ، والعظيم والمغفرة قد تقدم مراراً والله تعالى أعلم ، وههنا لطيفة وهو أنه تعالى قال فى حق الراكعين والساجدين (إنهم يبتغون فضلا من الله) وقال : لهم أجر ولم يقل لهم ما يطلبونه من ذلك الفضل وذلك لأن المؤمن عند العمل لم يلتفت إلى عمله ولم يجعل له أجراً يعتد به ، فقال لا أبتغى إلا فضلك ، فإن عملى نزر لا يكون له أجر والله تعالى آتاه ما آتاه من الفضل وسماه أجراً إشارة إلى قبول عمله ووقوعه الموقع وعدم كونه عند الله نزراً لا يستحق عليه المؤمن أجراً ، وقد علم بما ذكرنا مراراً أن قوله (وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات) لبيان ترتب المغفرة على الإيمان فإن كل مؤمن يغفر له كما قال تعالى (إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) والأجر العظيم على العمل الصالح والله أعلم .

قال المصنف رحمه الله تعالى : تم تفسير هذه السورة يوم الخميس السابع عشر من شهر ذى الحجة سنة ثلاث وستمائة من الهجرة النبوية ، على صاحبها أفضل الصلاة والسلام ، والحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد سيد المرسلين ، وعلى آله وصحبه أجمعين .

سورة الفتح

مدنيَّةٌ بإجماع، وهي تسع وعشرون آية. ونزلت ليلاً بين مكة والمدينة في شأن الحُدَيْبِية. روى محمد بن إسحاق عن الزهريّ عن عروة عن المِسْوَر بن مَخرَمة ومروان ابن الحكم، قالا: نَزلتْ سورةُ الفتح بين مكة والمدينة في شأن الحُدَيبية من أوَّلها إلى آخرها[1].

وفي الصحيحين عن زيد بن أسلم عن أبيه أنَّ رسول الله ﷺ كانَ يسيرُ في بعض أسفاره، وعمرُ بنُ الخطَّابِ يسيرُ معه ليلاً فسأله عمرُ عن شيءٍ فلم يجبه رسول الله ﷺ، ثمَّ سأله فلم يُجِبه، ثمَّ سألَه فلم يُجِبه؛ فقال عمرُ بن الخطاب: ثَكِلَتْ أمُّ عمر، نَزَرْتَ رسول الله ﷺ ثلاثَ مرَّاتٍ كُلَّ ذلك لم يجبك؛ فقال عمر: فحرَّكتُ بعيري ثمَّ تقدَّمتُ أمامَ الناس، وخشيتُ أنْ يُنزَلَ فيَّ قرآن، فما نَشِبتُ أنْ سمعتُ صارخاً يصرخ بي؛ فقلت: لقد خشيتُ أنْ يكون نَزلَ فيَّ قرآن، فجئتُ رسولَ الله ﷺ فسلَّمتُ عليه؛ فقال: «لقد أُنزِلت عليَّ الليلةَ سورةٌ لهي أحبُّ إليَّ ممّا طَلَعت عليه الشمس ثم قرأ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾». لفظ البخاريّ[2]. وقال الترمذي: حديث حسن غريب صحيح[3].

وفي صحيح مسلم[4] عن قتادة أنَّ أنس بن مالك حدَّثهم قال: لمَّا نزلت: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ إلى قوله: ﴿فَوْزًا عَظِيمًا﴾ مَرْجِعَه من الحُدَيْبِيَة وَهُم يخالطُهم الحزنُ والكآبة، وقد نَحر الهَديَ بالحُدَيْبِيَة، فقال: «لقد أُنزِلَتْ عليَّ آيةٌ هي أحبُّ إليَّ من الدنيا جميعاً».

---

(١) أسباب النزول للواحدي ص٤٠٣ .

(٢) صحيح البخاري (٤١٧٧) و(٤٨٣٣). وليس في صحيح مسلم ولم يعزه المزي إليه ٦/٨ . وهو في مسند أحمد (٢٠٩). وقوله: نزرتَ رسول الله، أي: ألححتَ عليه في المسألة إلحاحاً. ولم ينشب أن فعل كذا: أي لم يلبث. النهاية (نزر) (نشب).

(٣) سنن الترمذي (٣٢٦٢).

(٤) برقم (١٧٨٦)، وأخرجه أحمد (١٣٢٤٦).

وقال عطاء عن ابن عباس: إنَّ اليهودَ شتموا النبيَّ ﷺ والمسلمين لمَّا نَزلَ قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدۡرِى مَا يُفۡعَلُ بِى وَلَا بِكُمۡۖ﴾ [الأحقاف:٩] وقالوا: كيف نتَّبع رجلاً لا يدري ما يُفعل به! فاشتدَّ ذلك على النبيِّ ﷺ، فأنزلَ الله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحۡنَا لَكَ فَتۡحٗا مُّبِينٗا لِّيَغۡفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾[1].

ونحوه قال مقاتل بن سليمان: لمَّا نزلَ قولُه تعالى: ﴿وَمَآ أَدۡرِى مَا يُفۡعَلُ بِى وَلَا بِكُمۡۖ﴾ فَرِحَ المشركون والمنافقون، وقالوا: كيف نتَّبع رجلاً لا يدري ما يُفْعَل به ولا بأصحابه فنزلتْ بعد ما رجع من الحديبية: ﴿إِنَّا فَتَحۡنَا لَكَ فَتۡحٗا مُّبِينٗا﴾ أي: قضينا لك قضاء. فنَسخَتْ هذه الآيةُ تلك. فقال النبيُّ ﷺ: «لقد أُنزلت عليَّ سورةٌ ما يَسُرُّني بها حُمْرُ النَّعَم»[2].

وقال المسعودي: بلغني أنَّه من قرأ سورةَ الفتح في أوَّل ليلةٍ من رمضان في صلاة التطوُّع حفظَه الله ذلك العام[3].

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحۡنَا لَكَ فَتۡحٗا مُّبِينٗا ①﴾

اختُلِف في هذا الفتح ما هو؟ ففي البخاري[4]: حدّثني محمد بن بشار قال: حدّثنا غُندر قال: حدّثنا شعبة قال: سمعت قتادةَ عن أنس: ﴿إِنَّا فَتَحۡنَا لَكَ فَتۡحٗا مُّبِينٗا﴾ قال: الحُدَيْبِيَة.

---

(١) أسباب النزول للواحدي ص٤٠٣-٤٠٤ ، وسلف نحوه في موضعه من الأحقاف.

(٢) ذكره بنحوه أبو الليث في تفسيره ٣/ ٢٤٩، وليس فيه ذكر النَّسخ، ولا قول النبي ﷺ «لقد نزلت علي سورة...».

(٣) ذكر السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٧٠ وعزاه للسِّلَفي في الطيوريات، ولم يذكر المسعودي إسناده إلى من بلغه، فالخبر ضعيف. ثم إن المسعودي ـ وهو عبد الرحمن بن عبد الله بن عتبة بن عبد الله بن مسعود ـ صدوق اختلط قبل موته؛ كما ذكر الحافظ ابن حجر في التقريب.

(٤) برقم (٤٨٣٤).

وقال جابر: ما كنا نعدُّ فتح مكَّة إلا يومَ الحُدَيْبِيَة[١].

وقال البراء[٢]: تعدُّون أنتم الفتحَ فتحَ مكَّة، وقد كان فتح مكَّة فتحاً، ونحن نعدُّ الفتحَ بيعةَ الرِّضوان يومَ الحديبية، كنا نُعَدُّ مع النبي ﷺ أربع عشرة مئة، والحديبية بئر[٣].

وقال الضحاك: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ بغير قتال. وكان الصلح من الفتح[٤].

وقال مجاهد[٥]: هو مَنْحَره بالحديبية وحلقه رأسه.

وكان[٦] فتحُ الحديبية آيةً عظيمة، نُزِح ماؤُها، فمجَّ فيها، فدرَّت بالماء حتى شَرب جميعُ من كان معه[٧].

وقال موسى بن عقبة: قال رجلٌ عند مُنصَرَفهم من الحديبية: ما هذا بفتح؛ لقد صدُّونا عن البيت. فقال النبيُّ ﷺ: «بل هو أعظمُ الفتوح، قد رضيَ المشركون أنْ يدفعوكم عن بلادهم بالرَّاح، ويسألوكم القضيَّة، ويرغبوا إليكم في الأمان، وقد رأوا منكم ما كرهوا»[٨].

وقال الشعبيُّ في قوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ قال: هو فتحُ الحديبية، لقد

---

(١) أخرجه الطبري ٢١/ ٢٤٢ .

(٢) في النسخ: الفراء. وهو خطأ.

(٣) قطعة من حديث البراء أخرجه البخاري (٤١٥٠)، والطبري ٢١/ ٢٤٣ ، وأخرج بعضه أحمد (١٨٥٦٣). وفي الطبري: خمس عشرة مئة. بدل: أربع عشرة مئة. قال الحافظ ابن حجر ٧/ ٤٤٠ : والجمع بين هذا الخلاف أنهم كانوا أكثر من ألف وأربع مئة، فمن قال: ألفاً وخمس مئة جبر الكسر، ومن قال ألفاً وأربع مئة ألغاه.

(٤) ذكره البغوي في تفسيره ٤/ ١٨٨ .

(٥) تفسير مجاهد ٢/ ٦٠١ ، وأخرجه الطبري ٢١/ ٢٣٩ .

(٦) في النسخ عدا (د) و(ز): وقال: كان. بدل: وكان.

(٧) معاني القرآن للزجاج ٥/ ١٩ ، والكشاف ٣/ ٥٤٠ . وهذا المعنى هو بعض حديث البراء عند البخاري (٤١٥٠) السالف ذكره.

(٨) ذكره الزمخشري في الكشاف ٣/ ٥٤١ . وأخرجه البيهقي في دلائل النبوة ٤/ ١٦٠ .

أصاب بها ما لم يُصِب في غزوة، غفر الله له ما تقدَّم من ذنبه وما تأخَّر، وبُويع بيعةَ الرضوان، وأُطعِموا نخلَ خيبر، وبلغَ الهَدْيُ مَحِلّه، وظهرت الرومُ على فارس، ففرح المؤمنون بظهور أهل الكتاب على المجوس[١].

وقال الزهريّ: لقد كان الحديبيةُ أعظمَ الفتوح؛ وذلك أنَّ النبيَّ ﷺ جاء إليها في ألف وأربع مئة، فلما وقع الصلحُ؛ مشى الناس بعضهم في بعض وعلموا وسمعوا عن الله، فما أراد أحدٌ الإسلام إلا تمكَّن منه؛ فما مضتْ تلك السنتان إلاَّ والمسلمونَ قد جاؤوا إلى مكَّة في عشرة آلاف[٢]. وقال مجاهدٌ أيضاً والعَوْفي[٣]: هو فتح خَيبر. والأوَّل أكثر؛ وخَيبَرُ إنَّما كانت وعْدًا وُعِدُوه؛ على ما يأتي بيانه في قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ﴾ [الفتح: ١٥]، وقوله: ﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ﴾ [الفتح: ٢٠].

وقال مُجَمِّع بن جارية ـ وكان أحدَ القرَّاء الذين قرؤوا القرآن ـ: شهدنا الحديبيةَ مع النبيِّ ﷺ، فلمَّا انصرفنا عنها، إذا الناس يهزُّون الأباعر، فقال بعضُ النَّاس لبعض: ما بالُ النَّاس؟ قالوا: أوحَى الله إلى النبيِّ ﷺ. قال: فخرجنا نُوجِف فوجدنا نبيَّ الله ﷺ عند كُراع الغَمِيم، فلمَّا اجتمع الناسُ قرأ النبيُّ ﷺ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾. فقال عمرُ بن الخطاب: أوَ فتحٌ هو يا رسول الله؟ قال: «نعم، والذي نفسي بيده إنَّه لَفتح». فقُسِمت خيبرُ على أهل الحديبية، لم يُدْخَل فيها[٤] أحدٌ إلاَّ من شَهد الحديبية[٥].

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ٢٥٥، والطبري ٢١/ ٢٤٤ ، والبيهقي في الدلائل ٤/ ١٦٢-١٦٣ .

(٢) أخرجه النحاس في الناسخ والمنسوخ ٣/ ١٧ .

(٣) ذكر قولهما ابن الجوزي في زاد المسير ٧/ ٤٢٣ .

(٤) لفظة: فيها. ليست في (م).

(٥) أخرجه أحمد (١٥٤٧٠)، وأبو داود (٢٧٣٦). قال الحافظ ابن حجر في فتح الباري ٦/ ٦٨ : وفي إسناده ضعف. اهـ. قوله: يهزون الأباعر: أي يحثُّونها ويدفعونها، والوهز: شدَّة الدفع والوَطء. النهاية (وهز)، وقوله: نوجف: الإيجاف سرعة السير، النهاية (وجف). وكُراع الغميم: موضع بناحية الحجاز بين مكة والمدينة. معجم البلدان ٤/ ٤٤٣ .

وقيل: إنَّ قوله تعالى: «فَتْحاً» يدلُّ على أنَّ مكَّة فُتِحت عَنْوةً؛ لأنَّ اسم الفتح لا يقع مطلقاً إلاَّ على ما فُتِح عَنْوةً. هذا هو حقيقةُ الاسم. وقد يقال: فُتِح البلد صُلحاً، فلا يفهمُ الصُّلح إلَّا بأن يُقرن بالفتح، فصار الفتحُ في الصلح مجازاً[١]. والأخبارُ دالةٌ على أنَّها فُتِحت عَنْوة؛ وقد مضى القولُ فيها، ويأتي[٢].

قوله تعالى: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ۝٢ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ۝٣﴾

قال ابن الأنباري: «فَتحاً مُبيناً» غير تام؛ لأنَّ قولَه: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ﴾ متعلقٌ بالفتح. كأنَّه قال: إنَّا فتحنا لك فتحاً مبيناً لكي يجمعَ الله لك مع الفتح المغفرة؛ فيجمع الله لك به ما تَقَرُّ به عينُك في الدنيا والآخرة. وقال أبو حاتم السّجستانيّ: هي لام القسم. وهذا خطأ؛ لأنَّ لامَ القسم لا تُكسر ولا يُنصب بها؛ ولو جاز هذا لجاز: ليقوم زيد؛ بتأويل ليقومنَّ زيد[٣].

الزَّمَخْشَرِي[٤]: فإنْ قلتَ: كيف يجعل فتحَ مكَّة عِلَّةً للمغفرة؟ قلت: لم يُجعل علَّةً للمغفرة، ولكن لاجتماع ما عدَّد من الأمور الأربعة؛ وهي: المغفرةُ، وإتمامُ النعمة، وهدايةُ الصراط المستقيم، والنصرُ العزيز. كأنَّه قيل[٥]: يَسَّرْنا لك فتح مكَّة، ونصرناك على عدوِّك ليُجمع لك عِزُّ الدَّارين، وأغراضُ[٦] العاجل والآجل. ويجوز أنْ يكونَ فتحُ مكَّة من حيثُ إنَّه جهادٌ للعدوِّ سبباً للغفران والثواب.

وفي الترمذيّ عن أنس قال: أُنزلت على النبيّ ﷺ: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ

---

(١) ينظر أحكام القرآن للجصاص ٣/ ٣٩٣.

(٢) سلف ١٤/ ٣٥٢، وسيأتي ص٢٨٢ من هذا الجزء.

(٣) إيضاح الوقف والابتداء ٢/ ٩٠٠ و٧٠٠.

(٤) في الكشاف ٣/ ٥١٤.

(٥) في (م): قال.

(٦) في النسخ: أعراض. والمثبت من الكشاف.

﴿وَمَا تَأَخَّرَ﴾ مَرجِعَه من الحديبية؛ فقال النبي ﷺ: «لقد أُنزِلت عليَّ آيةٌ أحبُّ إليَّ ممَّا على وجه الأرض». ثم قرأها النبيُّ ﷺ عليهم؛ فقالوا: هنيئاً مريئاً يا رسولَ الله، لقد بيَّن الله لك ماذا يُفْعَل بك؛ فماذا يُفْعَل بنا؟ فنزلت عليه: ﴿لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ حتى بلغ: ﴿فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ٥]. قال: حديثٌ حسنٌ صحيح، وفيه عن مُجَمِّع بن جارية[١].

واختلف أهلُ التأويل في معنى ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ فقيل: ﴿مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ﴾ قبل الرسالة. ﴿وَمَا تَأَخَّرَ﴾ بعدها؛ قاله مجاهد[٢]. ونحوه قال الطبريُّ وسفيانُ الثوري.

قال الطبريّ: هو راجعٌ إلى قوله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾ إلى قوله: ﴿تَوَّابًۢا﴾ [النصر: ١-٣]. ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ﴾ قبل الرسالة ﴿وَمَا تَأَخَّرَ﴾ إلى وقت نزول هذه الآية[٣].

وقال سفيانُ الثوري: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ﴾: ما عملتَه في الجاهلية من قبل أنْ يوحى إليك. ﴿وَمَا تَأَخَّرَ﴾: كلَّ شيء لم تعمله؛ وقاله الواحدي[٤].

وقد مضى الكلام في جريان الصغائر على الأنبياء في سورة البقرة[٥]؛ فهذا قول.

وقيل: «مَا تَقَدَّمَ»: قبل الفتح. «ومَا تَأَخَّرَ» بعد الفتح. وقيل: «مَا تَقَدَّمَ»: قبل نزول

---

(١) سنن الترمذي (٣٢٦٣)، وهو عند أحمد (١٢٢٢٦)، وأخرجه البخاري (٤١٧٢) من طريق شعبة عن قتادة. قال شعبة: فقدمت الكوفة، فحدثت بهذا كلّه عن قتادة، ثم رجعت فذكرت له فقال: أما ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ﴾ فعن أنس، وأما هنيئاً مريئاً، فعن عكرمة. اهـ. وأخرج مسلم (١٧٨٦) الشطر الأول منه. وحديث مجمِّع بن جارية سلف قريباً.

(٢) ذكره النحاس في إعراب القرآن ٤/ ١٩٦ .

(٣) تفسير البغوي ٤/ ١٨٩ ، وعنه نقل المصنف كلام الطبري. إلا أن قول الطبري كما في تفسيره ٢١/ ٢٣٦ :... ما تقدم من ذنبك قبل فتحه لك ما فتح، وما تأخر بعد فتحه لك ذلك.

(٤) في الوسيط ٤/ ١٣٤ .

(٥) ١/ ٤٥٨-٤٦٠ .

هذه الآية. «ومَا تَأَخَّرَ» بعدها[١].

وقال عطاء الخراسانيّ: «مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ» يعني من ذنب أبويك آدم وحوّاء. «ومَا تَأَخَّرَ» من ذنوب أمتك[٢].

وقيل: من ذنب أبيك إبراهيم. «وَمَا تَأَخَّرَ» من ذنوب النبيّين.

وقيل: «مَا تَقَدَّمَ»: من ذنب يوم بدر. «ومَا تَأَخَّرَ» من ذنب يوم حُنَين. وذلك أنَّ الذنب المتقدّم يوم بدر، أنَّه جعل يدعو ويقول: «اللهم إنْ تهلك هذه العصابة لا تُعْبد في الأرض أبداً». وجعل يردِّدُ هذا القول دفعات، فأوحى الله إليه: من أين تعلم أني لو أهلكتُ هذه العصابة لا أُعبد أبداً؛ فكان هذا الذنبَ المتقدّم. وأمَّا الذنبُ المتأخر فيوم حنين، لمَّا انهزمَ النَّاسُ قال لعمه العباس ولابن عمه أبي سفيان: «ناولاني كَفًّا من حَصْباء الوادي» فناولاه، فأخذَه بيده ورمى به في وجوه المشركين وقال: «شاهت الوجوه. حَم. لا ينصرون». فانهزمَ القوم عن آخرهم، فلم يبق أحدٌ إلا امتلأت عيناه رملاً وحصباء. ثم نادى في أصحابه فرجَعوا، فقال لهم عند رجوعهم: «لو لم أرمهم لم ينهزموا». فأنزل الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: ١٧] فكان هذا هو الذنبَ المتأخِّر.

وقال أبو علي الرُّوذَباري: يقول: لو كان لك ذنبٌ قديم أو حديثٌ لغفرناه لك[٣].

قوله تعالى: ﴿وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ﴾ قال ابن عباس: في الجنة[٤]. وقيل: بالنبوّة والحكمة[٥]. وقيل: بفتح مكّة والطائف وخيبر. وقيل: بخضوع من استكبر، وطاعة من تجبَّر[٦]. ﴿وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ أي: يُثَبِّتك على الهدى إلى أنْ يقبضك إليه.

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٣١٠.

(٢) ذكره البغوي ٤/ ١٨٩، وابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ١٢٦.

(٣) ذكره الطبرسي في مجمع البيان ٢٦/ ٥٣ دون نسبة.

(٤) الوسيط ٤/ ١٣٤.

(٥) تفسير البغوي ٤/ ١٨٩.

(٦) النكت والعيون ٥/ ٣١٠.

﴿وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾ أي: غالباً منيعاً لا يَتبعُه ذلّ.

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾﴾

«ٱلسَّكِينَةَ»: السكونُ والطُّمأنينة. قال ابن عباس: كلُّ سكينةٍ في القرآن هي الطُّمأنينة إلا التي في «البقرة»[(١)]. وتقدَّم معنى زيادة الإيمان في «آل عمران»[(٢)].

وقال ابنُ عباس: بُعث النبيُّ ﷺ بشهادة أنْ لا إله إلاَّ الله، فلمَّا صدَّقوه فيها زادَهم الصَّلاة، فلما صدَّقوه زادهم الزكاة، فلما صدَّقوه زادهم الصِّيام، فلما صدَّقوه زادهم الحج، ثمَّ أكمل لهم دينَهم[(٣)]؛ فذلك قوله: ﴿لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ أي: تصديقاً بشرائع الإيمان مع تصديقهم بالإيمان. وقال الربيعُ بن أنس: خَشْيَةً مع خشيتهم[(٤)]. وقال الضَّحَّاك: يقيناً مع يقينهم[(٥)].

﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ قال ابن عباس: يريدُ الملائكةَ والجنَّ والشياطين والإنس[(٦)] ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا﴾ بأحوال خلقه ﴿حَكِيمًا﴾ فيما يريده.

قوله تعالى: ﴿لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٥﴾﴾

أي: أنزل السكينةَ ليزدادوا إيماناً. ثم تلك الزيادة سبب[(٧)] إدخالهم الجنة. وقيل:

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ١٨٩ .

(٢) ٥/ ٤٢٣ .

(٣) أخرجه الطبري ٢١/ ٢٤٦ ، والطبراني في الكبير (١٣٠٢٨).

(٤) قاله الربيع في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [الأنفال: ٢]. كما في تفسير الطبري ١١/ ٢٩-٣٠ .

(٥) ذكره البغوي في تفسيره ٤/ ١٨٩ .

(٦) ذكره الواحدي في الوسيط ٤/ ١٣٥ .

(٧) في (د) و(ز) و(ق): لسبب، وفي (م): بسبب. والمثبت من (خ) و(ظ) و(ف). وينظر تفسير الرازي ٢٨/ ٨١-٨٢ .

اللام في «لِيُدْخِلَ» يتعلق بما يتعلق به اللّام في قوله: «لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ»[١].

﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ﴾ أي: ذلك الوعدُ من دخول مكَّة وغفران الذنوب. ﴿عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ أي: نجاةً من كلِّ غمٍّ، وظفراً بكلِّ مطلوب.

وقيل: لمَّا قرأ النبيُّ ﷺ على أصحابه: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ قالوا: هنيئاً لك يا رسول الله، فماذا لنا؟ فنزل: ﴿لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ﴾. ولمَّا قرأ ﴿وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ﴾ قالوا: هنيئاً لك؛ فنزلت: ﴿وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى﴾ [المائدة: ٣] فلمَّا قرأ: ﴿وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ نزل في حقِّ الأمَّة: ﴿وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ [الفتح: ٢٠]. ولما قال: ﴿وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾ نزل: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧]. وهو كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦]. ثم قال: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ﴾ [الأحزاب: ٤٣] ذكره القشيريُّ.

قوله تعالى: ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ۝٦ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ۝٧﴾

قوله تعالى: ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ﴾ أي: بإيصال الهموم إليهم بسبب عُلُوّ كلمة المسلمين، وبأنْ يُسلِّط النبيَّ عليه الصلاة والسلام قَتْلاً وأسرًا واسترقاقاً.

﴿ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ﴾ يعني ظنّهم أنَّ النبيّ ﷺ لا يرجعُ إلى المدينة، ولا أحدٌ من أصحابه حين خرج إلى الحديبية، وأنَّ المشركين يستأصلونَهم. كما قال: ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا﴾ [الفتح: ١٢]. وقال الخليلُ وسيبويه: «السّوء» هنا الفساد[٢].

---

(١) الكلام بنحوه في تفسير الطبري ٢١/٢٤٧ .

(٢) معاني القرآن للزجاج ٥/ ٢٠ .

﴿عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ﴾ في الدنيا بالقتل والسَّبي والأسر، وفي الآخرة بجهنَّم. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو: ﴿دائرةُ السُّوء﴾ بالضم. وفتحَ الباقون[١]. قال الجوهري[٢]: ساءه يسوءه سَوْءاً؛ بالفتح، ومَسَاءة ومَسائية؛ نقيضُ سرَّه، والاسم: السُّوء؛ بالضم. وقُرِئ ﴿عليهم دائرةُ السُّوء﴾ يعني: الهزيمة والشر. ومن فَتَح فهو من المساءة.

﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا . وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾. تقدَّم في غير موضعٍ جميعه، والحمد لله.

وقيل: لمَّا جرى صُلح الحديبية قال ابن أُبيّ: أيظنُّ محمدٌ أنَّه إذا صالح أهلَ مكَّة أو فتحها لا يبقى له عدوّ، فأين فارسُ والرومُ؟ فبيَّنَ الله عزَّ وجلَّ أنَّ جنودَ السماوات والأرضِ أكثرُ من فارس والروم.

وقيل: يدخل فيه جميع المخلوقات. وقال ابن عباس: ولله جنود السماوات: الملائكة، وجنود الأرض: المؤمنون. وأعاد لأنَّ الذي سبقَ عقيبَ ذكر المشركين من قريش، وهذا عقيبَ ذكر المنافقين وسائر المشركين. والمرادُ في الموضعين التخويف والتهديد. فلو أراد إهلاكَ المنافقين والمشركين لم يُعجزه ذلك، ولكن يؤخِّرهم إلى أجلٍ مُسَمًّى.

قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨﴾ لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا﴾ قال قتادة: على أمَّتك بالبلاغ. وقيل: شاهداً عليهم بأعمالهم من طاعةٍ أو معصية. وقيل: مُبيِّنًا لهم ما أرسلناك به إليهم[٣]. وقيل:

---

(١) السبعة ص٦٠٣، والتيسير ص١١٩.

(٢) في الصحاح (سوأ).

(٣) النكت والعيون ٥/٣١٢.

شاهداً عليهم يوم القيامة. فهو شاهدُ أفعالهم اليوم، والشهيدُ عليهم يوم القيامة. وقد مضى في «النساء» عن سعيد بن المسيِّب[1] هذا المعنى مبيَّناً.

﴿وَمُبَشِّرًا﴾ لمن أطاعه بالجنة. ﴿وَنَذِيرًا﴾ من النار لمن عصى؛ قاله قتادة وغيره[2]. وقد مضى في «البقرة» اشتقاقُ البِشارة والنِّذارة ومعناهما[3]. وانتصبَ «شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا» على الحال المقدَّرة. حكى سيبويه[4]: مررتُ برجلٍ معه صقرٌ صائداً به غداً. فالمعنى: إنَّا أرسلناك مقدِّرين بشهادتك يومَ القيامة. وعلى هذا تقول: رأيت عمراً قائماً غداً.

﴿لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ قرأ ابنُ كثير وابنُ مُحَيصن وأبو عمرو: «لِيُؤْمِنُوا» بالياء، وكذلك «وَيُعَزِّرُوهُ وَيُوَقِّرُوهُ وَيُسَبِّحُوهُ» كلُّه بالياء على الخبر. واختاره أبو عبيد لذكر المؤمنين قبله وبعده؛ فأمَّا قبلَه فقولَه: ﴿لِّيُدْخِلَ﴾ وأمَّا بعدَه فقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ﴾ الباقون بالتاء على الخطاب[5]، واختارَه أبو حاتم.

﴿وَتُعَزِّرُوهُ﴾ أي: تُعظِّموه وتُفخِّموه؛ قاله الحسن والكلبي[6]. والتعزير: التعظيم والتوقير. وقال قتادة: تنصروه وتمنعوا منه[7]. ومنه التعزير في الحدّ؛ لأنَّه مانع. قال القَطاميّ[8]:

ألا بَكَرَتْ مَيٌّ بغير سَفَاهةٍ تُعاتِبُ والمَوْدُود ينفعه العَزْرُ

(١) في النسخ عدا (خ) و(ظ): سعيد بن جبير ـ وسلف هذا المعنى عن سعيد بن المسيب ٦/ ٣٢٦ .

(٢) النكت والعيون ٥/ ٣١٣ ، وأخرج قول قتادة الطبري ٢١/ ٢٥٠ .

(٣) ١/ ٢٨١ ، ٣٥٨ .

(٤) في الكتاب ٢/ ٤٩ .

(٥) قراءة ابن كثير وأبي عمرو في السبعة ص٦٠٣ ، والتيسير ص٢٠١ .

(٦) النكت والعيون ٥/ ٣١٣ .

(٧) أخرجه الطبري ٢١/ ٢٥١ .

(٨) في ديوانه ص١٢٤ . وذكره الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٣١٣ ، والكلام فيه بنحوه.

وقال ابن عباس وعكرمة: تقاتلون معه بالسيف[١]. وقال بعضُ أهل اللغة: تطيعوه. ﴿وَتُوَقِّرُوهُ﴾ أي: تسوِّدُوه؛ قاله السُّديّ[٢]. وقيل: تُعظموه. والتوقير: التعظيم والتَّرْزين أيضاً[٣]. والهاء فيهما للنبيِّ ﷺ. وهنا وقفٌ تام، ثم تبتدئ: «وتُسَبِّحُوهُ». أي: تسبحوا الله ﴿بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ أي: عَشِيًّا.

وقيل: الضمائرُ كلُّها لله تعالى؛ فعلى هذا يكون تأويل «تُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ» أي: تُثبتوا له صحةَ الربوبية وتنفوا عنه أنْ يكونَ له ولدٌ أو شريك[٤]. واختارَ هذا القول القشيريّ. والأوَّل قولُ الضَّحَّاك، وعليه يكون بعضُ الكلام راجعاً إلى الله سبحانه وتعالى، وهو: «وَتُسَبِّحُوهُ» من غير خلاف، وبعضُه راجعاً إلى رسوله ﷺ وهو «وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ» أي: تَدْعوه بالرسالة والنبوَّة لا بالاسم والكُنيَة.

وفي «تُسَبِّحُوهُ» وجهان: أحدهما: تسبيحُه بالتنزيه له سبحانه من كلِّ قبيح. والثاني: هو فعلُ الصلاة التي فيها التسبيح. «بُكْرَةً وَأَصِيلًا» أي: غُدْوة وعَشِيّاً[٥]. وقد مضى القول فيه[٦]. وقال الشاعر[٧]:

لَعَمْري لأنتَ البيتُ أُكرِمُ أهلَهُ وأجلس في أفيائه بالأصائلِ

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ﴾ بالحديبية يا محمد. ﴿إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾؛ بيَّن

---

(١) قول ابن عباس من طريق مبشر بن عبيد عن الحجاج بن أرطأة عن عكرمة عنه أخرجه الحاكم في مستدركه ٢/ ٤٦٠ وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وتعقبه الذهبي فقال: قال أحمد: مبشر بن عبيد كان يضع الحديث. وقول عكرمة أخرجه الطبري ٢١/ ٢٥٢.

(٢) النكت والعيون ٥/ ٣١٣.

(٣) الصحاح (وقر). وسلف قوله: تعظموه عن الحسن والكلبي.

(٤) النكت والعيون ٥/ ٣١٣.

(٥) النكت والعيون ٥/ ٣١٣-٣١٤.

(٦) ١٧/ ١٦٧ - ١٦٨.

(٧) هو أبو ذؤيب. والبيت في ديوان الهذليين ١/ ١٤١. وسلف ٩/ ٤٣٥.

أن بيعتهم لنبيِّه ﷺ إنَّما هي بيعةُ الله؛ كما قال تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠]. وهذه المبايعةُ هي بيعةُ الرِّضوان؛ على ما يأتي بيانها في هذه السورة إنْ شاء الله تعالى.

﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ قيل المعنى[١]: يدُه في الثواب فوق أيديهم في الوفاء، ويدُه في المِنَّة عليهم بالهداية فوق أيديهم في الطاعة[٢]. وقال الكلبيّ: معناه نعمة الله عليهم فوق ما صنعوا من البيعة[٣]. وقال ابن كَيْسان: قوَّةُ الله ونصرتُه فوق قوَّتهم ونصرتهم[٤].

﴿فَمَن نَّكَثَ﴾ بعد البيعة. ﴿فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾ أي: يَرجعُ ضررُ النَّكث عليه؛ لأنَّه حَرَمَ نفسَه الثوابَ، وألزمَها العقاب.

﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ﴾ قيل: في البيعة. وقيل: في إيمانه. ﴿فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ يعني في الجنَّة.

وقرأ حفصٌ والزُّهريّ: «عليهُ الله» بضمِّ الهاء. وجرَّها الباقون. وقرأ نافعٌ وابنُ كثير وابن عامر: «فَسَنُؤتِيهِ» بالنون. واختاره الفرّاء وأبو معاذ. وقرأ الباقون بالياء[٥]. وهو اختيارُ أبي عبيد وأبي حاتم؛ لِقُرب اسم الله منه.

قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا ۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ﴾ قال مجاهدٌ وابن عباس: يعني

(١) لفظة: المعنى. ليست في (م).

(٢) الكلام بنحوه في معاني القرآن للزجاج ٥/ ٢٢ .

(٣) ذكره البغوي في تفسيره ٤/ ١٩٠ .

(٤) ذكره الواحدي في الوسيط ٤/ ١٣٦ .

(٥) السبعة ص٦٠٣ ، والتيسير ص١٤٤ ، ٢٠١ .

أعراب غِفار ومُزَيْنة وجُهينة وأسلم وأشْجَع والدِّيل؛ وهم الأعرابُ الذين كانوا حول المدينة؛ تخلَّفوا عن رسول الله ﷺ حين أرادَ السَّفر إلى مكَّة عام الفتح، بعد أنْ كان استنفرَهم ليخرجوا معه حَذَراً من قريش، وأحرم بعُمرَةٍ وسَاق معه الهَدْيَ؛ ليعلَمَ النَّاسُ أنَّه لا يريدُ حرباً، فتثاقلوا عنه، واعتلُّوا بالشُّغل؛ فنزلت[1]. وإنما قال: «المُخَلَّفُونَ»؛ لأنَّ الله خلَّفهم عن صُحبة نبيِّه. والمخَلَّف المتروك. وقد مضى في «براءة»[2].

﴿شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا﴾ أي: ليس لنا من يقومُ بهما. ﴿فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا﴾ جاؤوا يطلبون الاستغفار واعتقادُهم بخلاف ظاهرهم؛ ففضَحَهم الله تعالى بقوله: ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ﴾ وهذا هو النِّفاقُ المحض.

﴿قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا﴾ قرأ حمزةُ والكسائيّ: «ضُرًّا» بضمِّ الضَّاد هنا فقط، أي: أمراً يضرُّكم. وقال ابنُ عباس: الهزيمة. الباقون بالفتح[3]؛ وهو مصدر ضررته ضَرًّا. وبالضَّمِّ اسمٌ لمَا ينالُ الإنسان من الهُزال وسوء الحال[4]. والمصدرُ يؤدّي عن المرّة وأكثر. واختاره أبو عبيد وأبو حاتم؛ قالا: لأنَّه قابَله بالنفع، وهو ضدُّ الضُّرِّ[5]. وقيل: هما لغتان بمعنًى؛ كالفَقْر والفُقْر، والضَّعْف والضُّعف[6]. ﴿أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا﴾ أي: نصراً وغَنيمةً. وهذا ردٌّ عليهم حين ظنُّوا أنَّ التخلُّف عن الرسول يدفعُ عنهم الضُّرَّ ويعجِّلُ لهم النفع[7].

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ١٩١ .

(٢) ١٠/ ٣١٦ .

(٣) السبعة ص٦٠٤ ، والتيسير ص٢٠١ .

(٤) ينظر الصحاح (ضرر).

(٥) ذكر قول أبي عبيد النحاس في إعراب القرآن ٤/ ١٩٩ .

(٦) حجة القراءات لابن زنجلة ص٦٧٢ ، والحجة للفارسي ٦/ ٢٠٢ .

(٧) الوسيط للواحدي ٤/ ١٣٧ .

قوله تعالى: ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا﴾ وذلك أنَّهم قالوا: إنَّ محمداً وأصحابَه أَكَلَةُ رأسٍ لا يرجعون[١]. ﴿وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ﴾ أي: النِّفاق. ﴿فِى قُلُوبِكُمْ﴾ وهذا التزيينُ من الشيطان، أو يخلقُ الله ذلك في قلوبهم.

﴿وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ﴾ أنَّ الله لا يَنْصر رسولَه. ﴿وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا﴾ أي: هَلْكَى؛ قاله مجاهد. وقال قتادة: فاسدين لا يصلحون لشيءٍ من الخير[٢]. قال الجَوهريّ[٣]: البُور: الرجلُ الفاسدُ الهالك الذي لا خير فيه. قال عبدُ الله بن الزِّبَعرى السَّهمِي[٤]:

يا رسول المليك إنَّ لساني ... راتِقٌ ما فَتَقْتُ إذْ أنا بُورُ

وامرأةٌ بُور أيضاً؛ حكاه أبو عبيد[٥]. وقوم بُورٌ هَلْكَى. قال تعالى: ﴿وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا﴾ وهو جمع بائر؛ مثل: حائل وحُول. وقد بار فلانٌ، أي: هلك. وأباره الله، أي: أهلكه.

وقيل: «بُوراً»: أشراراً؛ قاله ابن بحر[٦]. وقال حسان بن ثابت:

لا ينفع الطُّول من نُوكِ القلوبِ وقد ... يهدي الإله سبيلَ المَعْشَرِ البورِ[٧]

أي: الهالك.

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ١٩١ . وقولهم: هم أكلة رأس، أي: هم قليلٌ يشبعُهم رأسٌ واحد. الصحاح (أكل).
(٢) النكت والعيون ٥/ ٣١٤ .
(٣) في الصحاح (بور).
(٤) ديوانه ص٣٦ .
(٥) في الصحاح: أبو عبيدة.
(٦) النكت والعيون ٥/ ٣١٤ .
(٧) ديوان حسان ص١٢٣ . وفيه: الرجال. بدل: القلوب. ونقله المصنف عن الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٤١٣ ، ووقع في الديوان، والخزانة ٤/ ٧٢ : ولا يهدي. بدل: وقد يهدي. وقوله: النوك، بضم النون، أي: الحماقة.

قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾﴾

وعيدٌ لهم، وبيانُ أنَّهم كفروا بالنِّفاق.

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٤﴾﴾

أي: هو غنيٌّ عن عباده، وإنَّما ابتلاهم بالتكليف ليُثيبَ من آمن، ويعاقبَ من كفر وعصى.

قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ۖ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ ۖ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا﴾ يعني مغانمَ خيبر؛ لأنَّ الله عزَّ وجلَّ وَعَدَ أهلَ الحديبية فتحَ خَيْبر، وأنها لهم خاصَّةً من غاب منهم ومن حضر. ولم يَغِب منهم عنها غيرُ جابر بن عبد الله، فقسَم له رسولُ الله ﷺ كَسَهْمِ من حضر[1].

قال ابن إسحاق: وكان المتولِّي للقسمة بخيبر جَبّار بن صخر الأنصاري من بني سلمة[2]، وزيد بن ثابت من بني النَّجّار؛ كانا حاسبَين قاسمَين[3].

﴿ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ﴾ أي: دعونا. تقول: ذَرْه، أي: دعه. وهو يَذَرُه، أي: يَدَعُه. وأصله: وَذِرَه يَذَرُه، مثالُ: وَسِعَه يسَعُه. وقد أُمِيت مصدرُه[4]، لا يقال: وَذَره ولا

(١) سيرة ابن هشام ٢/ ٣٤٩.

(٢) جبار بن صخر ﷺ ممن شهد بدراً، وكان ابن اثنين وثلاثين سنة، ثم شهد أحداً وما بعدها من المشاهد، وكان أحد السبعين ليلة العقبة، توفي في المدينة سنة ثلاثين. الاستيعاب (بهامش الإصابة) ٢/ ١٢٥.

(٣) الدرر ص٢٣٧، ووقع في سيرة ابن هشام ٢/ ٣٥٧: يزيد بن ثابت.

(٤) في النسخ: صدره. والمثبت من الصحاح (وذر) والكلام منه. قال الزبيدي في تاج العروس (وذر): أماتوا مصدره وماضيَه.

وَاذِر، ولكنْ تركه وهو تارك .

قال مجاهد: تخلفوا عن الخروج إلى مكَّة، فلمَّا خرج النبي ﷺ، وأخذَ قوماً، ووجَّه بهم، قالوا: ذَرُونا نتَّبعكم فنقاتلَ معكم[(١)].

﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ﴾ أي: يغيِّروا. قال ابنُ زيد: هو قوله تعالى: ﴿فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَن تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا﴾ الآية [التوبة: ٨٣]. وأنكر هذا القولَ الطبريُّ[(٢)] وغيره؛ بسبب أنَّ غزوةَ تَبُوك كانت بعد فتح خَيْبَر وبعد فتح مكَّة. وقيل: المعنى يريدون أنْ يغيِّروا وعدَ الله الذي وَعَد لأهل الحُدَيبِيَة، وذلك أنَّ الله تعالى جعل لهم غنائم خيبر عِوَضاً عن فتح مكة إذ رجعوا من الحديبية على صلح؛ قاله مجاهدٌ وقتادة، واختارَه الطبريُّ[(٣)]، وعليه عامَّةُ أهل التأويل[(٤)].

وقرأ حمزةُ والكسائيُّ: «كَلِمَ» بإسقاط الألف وكسر اللام؛ جمع كلمة؛ نحو سَلِمة وسَلِم. الباقون: «كَلَامَ» على المصدر[(٥)]. واختاره أبو عبيد وأبو حاتم، اعتباراً بقوله: ﴿إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي﴾ [الأعراف: ١٤٤].

والكلام: ما استقلَّ بنفسه من الجمل. قال الجوهريّ: الكلام اسمُ جنسٍ يَقَع على القليل والكثير. والكَلِم لا يكون أقلَّ من ثلاث كلمات؛ لأنَّه جمعُ كَلِمة؛ مثل نَبِقة ونَبِق. ولهذا قال سيبويه[(٦)]: هذا بابُ عِلم مَا الكَلِمُ من العربية، ولم يقل: ما الكلام؛ لأنَّه أراد نفسَ ثلاثة أشياء: الاسمُ والفعلُ والحرف، فجاء بما لا يكون إلا جمعاً، وتركَ ما يمكن أنْ يقعَ على الواحد والجماعة. وتميمٌ تقول: هي كِلْمةٌ، بكسر

(١) معاني القرآن للنحاس ٦/ ٥٠١ ، وأخرجه الطبري ٢١/ ٢٦٢ .

(٢) في تفسيره ٢١/ ٢٦٣ .

(٣) في تفسيره ٢١/ ٢٦١-٢٦٢ ، وخرج قولي مجاهد وقتادة فيه.

(٤) ينظر تفسير البغوي ٤/ ١٩٢ .

(٥) السبعة ص٦٠٤ ، والتيسير ص٢٠١ .

(٦) في الكتاب ١/ ١٢ .

الكاف[١]، وقد مضى في «براءة» القول فيها[٢].

﴿كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ﴾ أي: مِنْ قبل رجوعنا من الحديبية: إنَّ غنيمةَ خيبر لمن شهد الحديبية خاصة. ﴿فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا﴾ أنْ نُصيبَ معكم من الغنائم[٣]. وقيل: قال رسول الله ﷺ: «إنْ خرجتُم لم أمنعكم إلا أنَّه لا سهمَ لكم». فقالوا: هذا حسد. فقال المسلمون: قد أخبرنا الله في الحديبية بما سيقولونه وهو قوله تعالى: ﴿فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا﴾ فقال الله تعالى: ﴿بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ يعني: لا يعلمون إلَّا أمر الدنيا. وقيل: لا يفقهونَ من أمر الدين إلَّا قليلاً؛ وهو ترك القتال.

قوله تعالى: ﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَـٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ۖ فَإِن تُطِيعُوا۟ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ۖ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾﴾

فيه أربع مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ﴾ أي: قل لهؤلاء الذين تخلَّفوا عن الحديبية: ﴿سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ قال ابنُ عباس وعطاءُ بن أبي رباح ومجاهدٌ وابنُ أبي لَيْلَى وعطاءُ الخراسانيّ: هم فارس. وقال كعبٌ والحسنُ وعبدُ الرحمن بن أبي لَيْلَى: الروم. وعن الحسن أيضاً: فارس والروم. وقال ابن جُبَير: هوازن وثَقِيف. وقال عكرمة: هوازن. وقال قتادة: هوازن وغَطَفان يومَ حُنين. وقال الزُّهْريُّ ومقاتل: بنو حنيفة أهلُ اليمامة أصحابُ مُسَيلِمة. وقال رافعُ بن خَديج: والله لقد كنَّا نقرأ هذه الآية فيما مضى: ﴿سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾، فلا نعلم مَن هم؛ حتى دعانا أبو بكر إلى قتال بني حنيفة؛ فعلمنا أنَّهم هم. وقال أبو هريرة: لم

(١) الصحاح (كلم).
(٢) ١٠/٢١٩-٢٢٠.
(٣) الوسيط للواحدي ٤/١٣٨، وتفسير البغوي ٤/١٩٢.

تأت هذه الآية بعدُ. وظاهر الآية يردُّه[١].

الثانية: في هذه الآية دليلٌ على صحة إمامة أبي بكرٍ وعمرَ رضي الله عنهما؛ لأنَّ أبا بكرٍ دعاهم إلى قتال بني حنيفة، وعمر دعاهم إلى قتال فارس والروم. وأمَّا قولُ عكرمة وقتادة: إنَّ ذلك في هوازن وغطفان يوم حنين. فلا؛ لأنَّه يمتنع أنْ يكون الداعي لهم الرسول عليه الصلاة والسلام، لأنَّه قال: ﴿لَّن تَخْرُجُواْ مَعِيَ أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُواْ مَعِيَ عَدُوًّا﴾. فدلَّ على أن المراد بالداعي غيرُ النبي ﷺ. ومعلومٌ أنَّه لم يدعُ هؤلاء القومَ بعد النبي ﷺ إلَّا أبو بكرٍ وعمرُ رضي الله عنهما[٢]. الزَّمَخْشَرِي[٣]: فإنْ صحَّ ذلك عن قتادة؛ فالمعنى: لنْ تخرجوا معي أبداً ما دمتم على ما أنتم عليه من مرض القلوب والاضطراب في الدِّين، أو على قول مجاهد؛ كان الموعدُ أنَّهم لا يتَّبعون رسولَ الله ﷺ إلَّا متطوِّعين لا نصيبَ لهم في المغنم. والله أعلم.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ﴾ هذا حكمُ من لا تُؤخذ منهم الجزية، وهو معطوفٌ على «تُقَاتِلُونَهُمْ». أي: يكونُ أحدُ الأمرين: إمَّا المقاتلةُ وإمَّا الإسلام، لا ثالث لهما. وفي حرف أُبَيّ: «أَوْ يُسْلِمُوا»[٤] بمعنى: حتى يُسْلِمُوا، كما تقول: كُلْ أو تشبع، أي: حتى تشبع. قال:

فقلتُ له لاتَبْكِ عَيْنُك إنَّما ... نحاوِلُ مُلْكاً أو نموتَ فنُعذَرا[٥]

وقال الزَّجَّاج: قال: «أَوْ يُسْلِمُونَ»؛ لأنَّ المعنى: أو هم يُسلِمون من غير قتال[٦]. وهذا في قتال المشركين، لا في أهل الكتاب.

---

(١) هذه الأقوال في النكت والعيون ٥/ ٣١٥-٣١٦، وتفسير البغوي ٤/ ١٩٢، وزاد المسير ٧/ ٤٣١.

(٢) أحكام القرآن للجصاص ٣/ ٣٩٣-٣٩٤.

(٣) في الكشاف ٣/ ٥٤٥.

(٤) القراءات الشاذة ص١٤٣.

(٥) البيت لامرئ القيس وهو في ديوانه ص٦٦، وسلف ٥/ ١٧٣.

(٦) كلام الزجاج بنحوه في البيان لابن الأنباري ٢/ ٣٧٧.

الرابعة: قوله تعالى: ﴿فَإِن تُطِيعُوا۟ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا﴾: الغنيمةَ والنَّصر في الدنيا، والجنَّة في الآخرة. ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ﴾: عام الحُدَيْبِيَة ﴿يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾: وهو عذابُ النار.

قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾﴾

قال ابن عباس: لمَّا نزلت ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ قال أهلُ الزَّمانة: كيف بنا يا رسول الله؟ فنزلت: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾[1] أي: لا إثمَ عليهم في التخلُّف عن الجهاد لِعَمَاهم وزمانتهم وضعفهم. وقد مضى في «براءة» وغيرها الكلام فيه مُبيَّنًا[2].

والعَرَجُ: آفةٌ تَعرِض لرِجْلٍ واحدة، وإذا كان ذلك مؤثِّرًا؛ فخللُ الرِّجْلين أولى أنْ يؤثِّر.

وقال مقاتل: هم أهلُ الزَّمانة الذين تخلَّفوا عن الحديبية وقد عذرهم[3]. أي: مَنْ شاء أنْ يسير منهم معكم إلى خَيْبَر فليفعل.

﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ فيما أمره. ﴿يُدْخِلْهُ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ﴾ قرأ نافعٌ وابنُ عامر: «نُدْخِلْهُ» بالنون على التعظيم. الباقون بالياء[4]، واختاره أبو عبيد وأبو حاتم لتقدُّم اسم الله أوّلاً. ﴿وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

---

(١) ذكره أبو الليث في تفسيره ٣/٢٥٦، ونسبه للكلبي.

(٢) ١٠/٣٣١، ١٥/٣٤٣-٣٤٤.

(٣) ذكره الواحدي في الوسيط ٤/١٣٩.

(٤) السبعة ص٦٠٤، والتيسير ص٢٠١.

قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ هذه بيعةُ الرِّضوان، وكانت بالحُديبية، وهذا خبرُ الحديبية على اختصار: وذلك أنَّ النبيَّ ﷺ أقام مُنْصَرَفَه من غَزْوة بني المُصطَلِق في رمضان وشوَّال، وخرج في ذي القَعدة مُعْتَمِرًا، واستنفر الأعرابَ الذين حول المدينة، فأبطأ عنه أكثرُهم، وخرج النبيُّ ﷺ بمن معه من المهاجرين والأنصار ومن اتَّبعه من العرب، وجميعُهم نحو ألفٍ وأربع مئة[1] وقيل: ألف وخمس مئة[2]. وقيل غير هذا، على ما يأتي. وساقَ معه الهَدْيَ، فأحرم رسول الله ﷺ لِيَعْلَم النَّاسُ أنَّه لم يخرجْ لحرب، فلمَّا بلغ خروجُه قريشاً خرج جمْعُهم صادِّين لرسول الله ﷺ عن المسجد الحرام ودخول مكة، وإنَّه إنْ قاتلهم قاتلوه دون ذلك، وقدَّموا خالدَ بن الوليد في خيل إلى كُرَاع الغَمِيم[3]. فورد الخبرُ بذلك على رسول الله ﷺ وهو بعُسفان[4] وكان المخبرَ له بشرُ بن سفيان الكَعبيّ[5]، فسلك

(١) هو قول جابر ﷺ كما في مسند أحمد (١٤٨٢٣)، وصحيح البخاري (٤١٥٤)، ومسلم (١٨٥٦): (٦٧)، وسيأتي بتمامه ص٣١٧ من هذا الجزء، وسلف من قول البراء أيضاً ص٢٩٦ من هذا الجزء.

(٢) هو قول جابر ﷺ أيضاً كما في مسند أحمد (١٤١٨١)، وسيأتي ص٣١٧ من هذا الجزء.

(٣) كذا في سيرة ابن هشام ٢/ ٣٠٩، والدرر لابن عبد البر ص٢٢٢ والكلام منه. وفي صحيح البخاري (٢٧٣١-٢٧٣٢) في حديث طويل عن المسور بن مخرمة ومروان... قال النبي ﷺ: «إن خالد بن الوليد بالغميم في خيل...» قال ابن حجر في فتح الباري ٥/ ٣٣٥: وسياق الحديث ظاهر في أنه كان قريباً من الحديبية فهو غير كراع الغميم... وهو الذي بين مكة والمدينة، وأما الغميم هذا فقال ابن حبيب: هو قريب من مكان بين رابغ والجحفة.

(٤) عُسْفان: على مرحلتين من مكة على طريق المدينة. معجم البلدان ٤/ ١٢٢.

(٥) سيرة ابن هشام ٢/ ٣٠٩. ثم قال ابن هشام: ويقال: بُسْر. اهـ. والأخير هو الذي صححه الحافظ ابن حجر في فتح الباري ٥/ ٣٣٤. وهو بُسْر بن سفيان بن عمرو بن عويمر الخزاعي. أسلم سنة ست من الهجرة. الاستيعاب (بهامش الإصابة) ١/ ٣٠٩.

طريقاً يخرجُ به في ظهورهم، وخرج إلى الحديبية من أسفل مكة، وكان دليلَه فيه[١] رجلٌ من أسلم، فلمَّا بلغ ذلك خيلَ قريشٍ التي مع خالد؛ جرتْ إلى قريشٍ تُعلمهم بذلك.

فلمّا وصل رسولُ الله ﷺ إلى الحديبية؛ بركت ناقتُه ﷺ، فقال الناس: خلأت خلأت! فقال النبيُّ ﷺ: «ما خَلأتْ؛ وما هو لها بخُلُق، ولكن حبسَها حابسُ الفيل عن مكَّة. لا تدعوني قريشٌ اليومَ إلى خُطَّةٍ يسألوني فيها صلة رَحِم إلَّا أعطيتُهم إيَّاها». ثم نزلَ ﷺ هناك؛ فقيل: يا رسول الله، ليس بهذا الوادي ماء! فأَخْرج عليه الصلاة والسلام سهماً من كِنَانته، فأعطاه رجلاً من أصحابه، فنزل في قَليبٍ من تلك القُلُب، فغرزَه في جوفه، فجاشَ بالماء الرَّواء حتى كفى جميعَ الجيش[٢].

وقيل: إنَّ الذي نزل بالسَّهم في القليب ناجية بن جُنْدب بن عمير الأسلمي، وهو سائقُ بُدْن النبيِّ ﷺ يومئذٍ. وقيل: نزل بالسَّهم في القَليب البرَاءُ بن عازب.

ثَمَّ جرت السُّفَراء بين رسول الله ﷺ وبين كفار قريش، وطال التراجع والتنازع إلى أنْ جاءه[٣] سُهيل بن عمرو العامريّ، فقاضاه على أنْ ينصرف عليه الصلاة والسلام عامَه ذلك، فإذا كان من قابل، أتى مُعْتَمِراً، ودخل هو وأصحابُه مكَّة بلا سلاح[٤]، حاشا السيوف في قُرَبها، فيقيم بها ثلاثاً ويخرج، وعلى أنْ يكون بينه

---

(١) في (ز) و(ف) و(ق) و(م): فيهم. والمثبت من (خ) و(د) و(ظ) وهو الموافق للدرر ص٢٢٢ والكلام منه.

(٢) خبر وقوف ناقته ﷺ، ونبع الماء من القليب عند أحمد (١٨٩١٠)، والبخاري (٢٧٣١ ، ٢٧٣٢) من حديث عن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم مطول.

وقوله خلأت: الخلاء للنوق كالإلحاح للجمال، والحران للدواب. النهاية (خلأ). وماء رَواء. أي: كثير مروٍ. اللسان (روي).

(٣) في (م): جاء.

(٤) في (د) و(م): بغير سلاح، وفي (خ): بالسلاح، وفي (ز): بسلاح. والمثبت من (ظ) و(ف) و(ق). وهو الموافق للدرر والكلام منه.

وبينهم صلحُ عشرة أعوام، يتداخل فيها الناس ويأمنُ بعضهم بعضاً، وعلى أنَّ من جاء من الكفَّار إلى المسلمين مسلماً من رجلٍ أو امرأةٍ رُدَّ إلى الكفار، ومن جاء من المسلمين إلى الكفار مرتداً، لم يردُّوه إلى المسلمين؛ فعَظُم ذلك على المسلمين حتى كان لبعضهم فيه كلام، وكان رسولُ الله ﷺ أعلم؛ لما[1] علَّمه الله من أنَّه سيجعل للمسلمين فرجاً، فقال لأصحابه: «اصبروا؛ فإن الله يجعلُ هذا الصلحَ سبباً إلى ظهور دينه». فأنِس الناسُ إلى قوله هذا بعد نفارٍ منهم.

وأبَى سهيلُ بن عمرو أنْ يُكْتَب في صدر صحيفة الصُّلح: من محمدٍ رسول الله، وقالوا له[2]: لو صدَّقناك بذلك ما دفعناك عمَّا تريد! فلابدَّ أنْ تكتب: باسمك اللهم. فقال لعليٍّ ـ وكان يكتب صحيفةَ الصلح ـ: «امح يا عليّ، واكتب باسمك اللهم» فأبى عليٌّ أن يمحو بيده: «محمد رسول الله». فقال له رسول الله ﷺ: «اعرضه عليَّ» فأشار إليه فمحَاه رسولُ الله ﷺ بيده، وأمره أنْ يكتب: «من محمد بن عبد الله».

وأتى أبو جَنْدل بن سهيل يومئذٍ بإثر كتاب الصلح، وهو يَرْسُفُ في قيوده، فردَّه رسولُ الله ﷺ إلى أبيه؛ فعظُم ذلك على المسلمين، فأخبرهم رسول الله ﷺ وأخبر أبا جندل أنَّ الله سيجعلُ له فرجاً ومخرجاً[3].

وكان رسول الله ﷺ قبل الصلح قد بعث عثمان بن عفان إلى مكَّةَ رسولاً، فجاء خبرٌ إلى رسول الله ﷺ بأنَّ أهل مكَّة قتلوه، فدعا رسول الله ﷺ حينئذٍ إلى المبايعة له على الحرب والقتال لأهل مكَّة؛ فرُوي أنَّه بايعَهم على الموت. ورُوي أنَّه بايعَهم على ألَّا يَفِرُّوا؛ وهي بيعةُ الرِّضوان تحت الشجرة، التي أخبرَ الله تعالى أنَّه رضيَ عن المبايعين لرسول الله ﷺ تحتَها. وأخبر رسولُ الله ﷺ أنَّهم لا يدخلون النَّار. وضربَ

---

(١) في (م) والدرر ص٢٢٤: بما.

(٢) في الدرر: وقال له.

(٣) الدرر ص٢٢٤، وقصة أبي جندل خرجها أحمد في الحديث الطويل عن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم (١٨٩١٠)، وهي في صحيح البخاري (٢٧٣١-٢٧٣٢) دون قوله: «أن الله سيجعل له فرجاً ومخرجاً».

رسولُ الله ﷺ بيمينه على شماله لعثمان، وقال: «هذه عن عثمان»[(١)]؛ فهو كمن شهدَها. وذكر وكيع عن إسماعيل بن أبي خالد عن الشعبيّ قال: أوَّلُ من بايع رسولَ الله ﷺ يوم الحديبية أبو سنان[(٢)] الأسدي[(٣)].

وفي صحيح مسلم عن أبي الزبير عن جابر قال: كنَّا يومَ الحديبية ألفاً وأربع مئة؛ فبايعناه وعمرُ آخذٌ بيده تحتَ الشجرة وهي سَمُرَة، وقال: بايعناه على ألَّا نفرَّ، ولم نبايعه على الموت[(٤)].

وعنه أنَّه سمع جابراً يُسأل: كم كانوا يومَ الحديبية؟ قال: كنَّا أربعَ عشرة مئة؛ فبايعناه وعمرُ آخذٌ بيده تحت الشجرة؛ وهي سَمُرة؛ فبايعناه، غيرَ جَدِّ بن قيس الأنصاري، اختبأ تحتَ بطن بعيره[(٥)].

وعن سالم بن أبي الجَعْد قال: سألتُ جابرَ بن عبد الله عن أصحاب الشجرة، فقال: لو كنَّا مئة ألفٍ لكفانا، كنَّا ألفاً وخمس مئة[(٦)]. وفي روايةٍ: كنَّا خمسَ عشرة مئة[(٧)].

وعن عبد الله بن أبي أوْفى قال: كان أصحابُ الشجرة ألفاً وثلاث مئة، وكانت أسلَمُ ثُمُنَ المهاجرين[(٨)].

---

(١) خبر مبايعة النبي ﷺ عن عثمان ﷺ أخرجه البخاري (٣٦٩٨) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٢) في النسخ: أبو سفيان. والمثبت من المصادر.

(٣) الدرر ص٢٢٢-٢٢٥ والكلام من أول قصة الحديبية منه. وخبر الشعبي أخرجه ابن أبي شيبة ١٢/ ٢٠٤.

(٤) صحيح مسلم (١٨٥٦): (٦٧)، وسلف طرفه ص٣١٤ من هذا الجزء. والسمرة: هي الشجرة التي كانت عندها بيعة الرضوان. النهاية (سمر).

(٥) أخرجه أحمد (١٥٢٥٩)، ومسلم (١٨٥٦): (٦٩).

(٦) أخرجه أحمد (١٤١٨١)، ومسلم (١٨٥٦): (٧٢). وقوله: لكفانا، يعني الماء الذي جعل يفور من بين أصابعه ﷺ عندما وضع يده الشريفة في الركوة، كما في رواية البخاري (٤١٥٢).

(٧) أخرجه البخاري (٣٥٧٦)، ومسلم (١٨٥٦): (٧٣).

(٨) أخرجه البخاري (٤١٥٢)، ومسلم (١٨٥٧).

وعن يزيد بن أبي عبيد قال: قلتُ لسلمة: على أيِّ شيء بايعتُم رسولَ الله ﷺ يومَ الحديبية؟ قال: على الموت[١].

وعن البَرَاء بن عازب قال: كتب عليٌّ ﷺ الصُّلح بين النبيِّ ﷺ وبين المشركين يوم الحديبية؛ فكتب: هذا ما كاتبَ عليه محمدٌ رسول الله ﷺ، فقالوا: لا تكتب رسول الله، فلو نعلمُ أنَّك رسول الله لم نقاتلك. فقال النبيّ ﷺ لعليٍّ: «امْحُه». فقال: ما أنا بالذي أمحاه؛ فمحاه النبيُّ ﷺ بيده. وكان فيما اشترطوا: أن يدخلوا مكة فيقيموا فيها ثلاثاً، ولا يدخلها بسلاح إلا جُلُبَّان السلاح؛ القِراب وما فيه[٢].

وعن أنس: أنَّ قريشاً صالحوا النبيَّ ﷺ؛ فيهم سهيل بن عمرو، فقال النبيُّ ﷺ لعليّ: «اكتب بسم الله الرحمن الرحيم» فقال سهيلُ بن عمرو: أما بسم الله، فما ندري ما بسم الله الرحمن الرحيم! ولكن اكتب ما نعرف: باسمك اللهم. فقال: «اكتب من محمدٍ رسول الله» قالوا: لو علمنا أنَّك رسوله لاتبعناك! ولكنْ اكتب اسمكَ واسمَ أبيك. فقال النبيُّ ﷺ: «اكتب: من محمد بن عبد الله». فاشترطوا على النبيِّ ﷺ أنَّ من جاء منكم لم نردَّه عليكم، ومن جاء[٣] منَّا رددتموه علينا. فقالوا: يا رسول الله، أنكتبُ هذا! قال: «نعم، إنَّه مَن ذهب[٤] منَّا إليهم فأبعدَه الله، ومن جاءنا منهم فسيجعلُ الله له فرجاً ومخرجاً»[٥].

وعن أبي وائل قال: قام سهلُ بن حُنيف يومَ صِفِّين فقال يا أيُّها الناس، اتَّهموا أنفسَكم، لقد كنَّا مع رسول الله ﷺ يوم الحديبية، ولو نرى قتالاً لقاتلنا؛ وذلك في

(١) أخرجه أحمد (١٦٥٠٩)، والبخاري (٢٩٦٠)، ومسلم (١٨٦٠).

(٢) أخرجه أحمد (١٨٥٦٧)، والبخاري (٢٦٩٨)، ومسلم (١٧٨٣): (٩٠). وقوله: القِراب وما فيه. هو من كلام أبي إسحاق؛ راوي الحديث عن البراء. كما في صحيح مسلم.

(٣) في (م): جاءكم.

(٤) في النسخ الخطية: جاء، والمثبت من (م).

(٥) أخرجه أحمد (١٣٨٢٧)، ومسلم (١٧٨٤).

الصُّلح الذي كان بين رسول الله ﷺ وبين المشركين. فجاء عمرُ بن الخطاب ﷺ، فأتى رسولَ الله ﷺ فقال: يا رسولَ الله، ألسنا على حقٍّ وهم على باطل؟ قال: «بلى»، قال: أليس قتلانا في الجنَّة، وقتلاهم في النَّار؟ قال: «بلى» قال: ففيَم نعطي الدَّنِيَّة في ديننا، ونرجعُ ولمَّا يحكم الله بيننا وبينهم؟ فقال: «يا ابن الخطاب إنِّي رسولُ الله، ولن يُضَيِّعَني الله أبداً» قال: فانطلق عمر، فلم يصبر مُتَغَيِّظاً، فأتى أبا بكر فقال: يا أبا بكر، ألسنا على حق وهم على باطل؟ قال: بلى، قال: أليس قتلانا في الجنَّة، وقتلاهم في النَّار؟ قال: بلى. قال: فعلام نعطي الدَّنيَّة في ديننا، ونرجع ولمَّا يحكم الله بيننا وبينهم؟ فقال: يا ابن الخطاب، إنَّه رسولُ الله، ولن يُضيعه الله أبداً. قال: فنَزل القرآنُ على رسول الله ﷺ بالفتح، فأرسل إلى عمر، فأقرأه إياه، فقال: يا رسول الله، أوَ فَتْحٌ هو؟ قال: «نعم». فطابتْ نفسُه ورجع[(١)].

قوله تعالى: ﴿فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ﴾ من الصدق والوفاء؛ قاله الفراء[(٢)]. وقال ابن جريج وقتادة: من الرِّضا بأمر البيعة على ألَّا يفرُّوا. وقال مقاتل: من كراهة البيعة على أن يقاتلوا معه على الموت[(٣)]. ﴿فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ﴾ حتى بايعوا.

وقيل: ﴿فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ﴾ من الكآبة بصدِّ المشركين إيَّاهم، وتخلُّفِ رؤيا النبيِّ ﷺ عنهم؛ إذ[(٤)] رأى أنَّه يدخل الكعبة، حتَّى قال رسول الله ﷺ: «إنَّما ذلك رؤيا منام». وقال الصِّدِّيق: لم يكن فيها الدخولُ في هذا العام.

والسكينة: الطُّمأنينةُ وسكونُ النفس إلى صدق الوعد. وقيل: الصبر.

﴿وَأَثَـٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ قال قتادة وابن أبي ليلى: فتحُ خيبر. وقيل: فتحُ مكة[(٥)].

---

(١) أخرجه أحمد (١٥٩٧٥)، والبخاري (٣١٨٢)، ومسلم (١٧٨٥): (٩٤).

(٢) النكت والعيون ٥/٣١٦.

(٣) ذكر قول مقاتل الماورديُّ في النكت والعيون ٥/٣١٦، وابن عطية في المحرر الوجيز ٥/١٣٤ قال ابن عطية: وهذا ضعيف: فيه مذمة للصحابة.

(٤) في (د) و(م): إذا.

(٥) النكت والعيون ٥/٣١٦، وقول قتادة وابن أبي ليلى أخرجه الطبري ٢١/٢٧٨.

وقُرِئ: «وآتاهُمْ»(١).

﴿وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا﴾ يعني: أموال خيبر، وكانت خيبرُ ذاتَ عقار وأموال، وكانت بين الحديبية ومكَّة. فـ«مَغَانِمَ» على هذا بدلٌ من «فَتْحًا قَرِيبًا»، والواو مقحمة. وقيل: «وَمَغَانِمَ» فارس والروم.

قوله تعالى: ﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِىَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا﴾ قال ابن عباس ومجاهد: إنَّها المغانمُ التي تكون إلى يوم القيامة. وقال ابن زيد: هي مغانمُ خيبر. ﴿فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ﴾ أي: خيبر؛ قاله مجاهد. وقال ابن عباس: عجَّل لكم صلحَ الحديبية.

﴿وَكَفَّ أَيْدِىَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ﴾ يعني أهلَ مكَّة؛ كفَّهُم عنكم بالصلح. وقال قتادة: كفَّ أيديَ اليهود عن المدينة بعد خروج النبيِّ ﷺ إلى الحديبية وخيبر. وهو اختيار الطبريّ(٢)؛ لأنَّ كفَّ أيدي المشركين بالحديبية مذكورٌ في قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ﴾ [الفتح: ٢٤]. وقال ابن عباس: في «كَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنكُمْ» يعني عُيَينة ابن حِصْن الفَزَارِي وعوف بن مالك النَّضْريّ ومن كان معهما؛ إذ جاؤوا لينصروا أهل خيبر والنبيُّ ﷺ محاصرٌ لهم؛ فألقى الله عزَّ وجلَّ في قلوبهم الرُّعب، وكفَّهم عن المسلمين(٣).

﴿وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: ولتكون هزيمتُهم وسلامتكم آيةً للمؤمنين؛ فيعلموا أنَّ الله يحرسهم في مشهدهم ومَغيبهم(٤). وقيل: أي: وليكون(٥) كفُّ أيديهم عنكم

(١) ذكرها أبو حيان في البحر ٨/ ٩٦، ونسبها للحسن ونوح القارئ، وهي قرءاة شاذة.
(٢) في تفسيره ٢١/ ٢٨٢، والأقوال السالفة جميعها أخرجها الطبري ٢١/ ٢٧٩-٢٨٢.
(٣) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٠١.
(٤) تفسير الطبري ٢١/ ٢٨٣.
(٥) في (ف) و(م): ولتكون.

آيةً للمؤمنين. وقيل: أي: ولتكون هذه التي عجَّلها لكم آيةً للمؤمنين على صدقك حيثُ وعدتهم أنْ يصيبوها[١].

والواو في «ولِتَكُونَ» مقحمةٌ عند الكوفيين. وقال البصريون: عاطفةٌ على مضمر، أي: وكفَّ أيديَ النَّاس عنكم لتشكروه ولتكون آيةً للمؤمنين[٢].

﴿وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ أي: يزيديكم هُدًى، أو يثبِّتكم على الهداية.

قوله تعالى: ﴿وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَأُخْرَىٰ﴾ «أُخْرَى» معطوفة على «هذِهِ»؛ أي: فعجَّل لكم هذه المغانم ومغانم أخرى[٣].

﴿لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا ۚ﴾ قال ابن عباس: هي الفتوح التي فُتحت على المسلمين؛ كأرض فارسَ والروم، وجميع ما فتحه المسلمون[٤]. وهو قول الحسن ومقاتل وابن أبي ليلى[٥].

وعن ابن عباس أيضاً والضَّحَّاك وابن زيد وابن إسحاق: هي خيبر، وَعَدَها اللهُ نبيَّه قبل أنْ يفتحها، ولم يكونوا يرجونها حتى أخبرهم الله بها[٦].

وعن الحسن أيضاً وقتادة: هو فتح مكَّة[٧]. وقال عكرمة: حُنين[٨]؛ لأنَّه قال:

---

(١) ينظر النكت والعيون ٥/ ٣١٧، وزاد المسير ٧/ ٤٣٦.

(٢) ينظر الخلاف بين الكوفيين والبصريين على زيادة الواو في الإنصاف في مسائل الخلاف لأبي البركات الأنباري ٢/ ٤٥٦.

(٣) الكشاف ٣/ ٥٤٧.

(٤) النكت والعيون ٥/ ٣١٨.

(٥) أخرج قول ابن عباس والحسن وابن أبي ليلى الطبريُّ ٢١/ ٢٨٤، وقول مقاتل في تفسير البغوي ٤/ ١٩٨.

(٦) أخرج قولهم الطبري ٢١/ ٢٨٥.

(٧) ذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ١٣٥ ورجحه. ورجحه أيضاً الطبري ٢١/ ٢٨٦.

(٨) تفسير البغوي ٤/ ١٩٨.

﴿لَمْ تَقْدِرُواْ عَلَيْهَا﴾. وهذا يدلُّ على تقدُّم محاولةٍ لها، وفواتِ دَرْكِ المطلوب في الحال، كما كان في مكَّة؛ قاله القشيريّ.

وقال مجاهد: هي ما يكون إلى يوم القيامة[١].

ومعنى ﴿قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَاۚ﴾: أي: أعدَّها لكم، فهي كالشيء الذي قد أُحيط به من جوانبه، فهو محصورٌ لا يفوت، فأنتم وإنْ لم تقدروا عليها في الحال؛ فهي محبوسةٌ عليكم لا تفوتكم.

وقيل: ﴿أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَاۚ﴾: علم أنَّها ستكون لكم، كما قال: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾ [الطلاق: ١٢].

وقيل: حفظَها الله عليكم؛ ليكون فتحُها لكم[٢]. ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوَلَّوُاْ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوَلَّوُاْ ٱلْأَدْبَٰرَ﴾ قال قتادة: يعني: كفارَ قريشٍ في الحديبية[٣]. وقيل: «وَلَوْ قَاتَلَكُم» غَطَفان وأسد، والذين أرادوا نُصرة أهل خيبر[٤]؛ لكانت الدائرة عليهم.

﴿ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا * سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُۖ﴾ يعني: طريقةُ الله وعاداتُه السالفةُ نصرُ أوليائه على أعدائه. وانتصب «سُنَّة» على المصدر. وقيل: «سُنَّةَ اللهِ» أي: كَسُنَّةِ الله[٥]. والسنة: الطريقة والسِّيرة[٦]. قال:

---

(١) معاني القرآن للنحاس ٦/ ٥٠٧ .
(٢) النكت والعيون ٥/ ٣١٨ .
(٣) أخرجه الطبري ٢١/ ٢٨٧ .
(٤) ذكره البغوي في تفسيره ٤/ ١٩٨ .
(٥) تفسير البغوي ٤/ ١٩٨ .
(٦) الصحاح (سنن).

فلا تَجْزَعَنْ من سُنَّةٍ[(١)] أنت سِرْتَها ... فأوَّلُ راضٍ سُنَّةً من يَسيرها[(٢)]

والسُّنة أيضاً: ضَرْبٌ من تمر المدينة[(٣)]. ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ﴾ وهي الحديبية[(٤)].

﴿مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ رَوى يزيدُ بن هارون قال: أخبرنا حمَّادُ بنُ سلمةَ عن ثابتٍ عن أنسٍ أنَّ ثمانينَ رجلاً من أهل مكَّةَ هبطوا على النبيِّ ﷺ من جبل التَّنعيم متسلِّحين، يريدون غِرَّةَ النبيِّ ﷺ وأصحابه؛ فأخذناهم سِلْماً فاستحييناهم؛ فأنزل الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾[(٥)].

وقال عبد الله بن مُغفَّل المُزنَيُّ: كنا مع النبيِّ ﷺ بالحديبية في أصل الشجرة التي قال الله في القرآن؛ فبينَا نحن كذلك، إذ خرجَ علينا ثلاثون شاباً عليهم السلاح، فثاروا في وجوهنا، فدعا عليهم النبيُّ ﷺ، فأخذَ الله بأبصارِهم، فقال لهم رسول الله ﷺ: «هل جئتم في عهد أحد، أو هل جَعل لكم أحدٌ أماناً». قالوا: اللهم لا، فخلَّى سبيلهم. فأنزل الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ﴾ الآية[(٦)].

---

(١) في (م): سيرة.

(٢) البيت لخالد بن زهير الهذلي، وهو في ديوان الهذليين ١/ ١٥٧ .

(٣) الصحاح (سنن).

(٤) النكت والعيون ٥/ ٣١٨ ، وهو قول أنس كما في زاد المسير ٧/ ٤٣٨ .

(٥) أخرجه أحمد (١٢٢٥٤)، ومسلم (١٨٠٨). وفيهما: فأخذهم سلماً فاستحياهم. والغِرَّة: هي الغفلة. الصحاح (غرر).

(٦) أخرجه مطولاً ـ أحمد (١٦٨٠٠)، والنسائي في الكبرى (١١٤٤٧).

وذكر ابنُ هشامٍ عن وكيع: وكانت قريشٌ قد جاء منهم نحو سبعين رجلاً أو ثمانين رجلاً للإيقاع بالمسلمين وانتهاز الفرصة في أطرافهم؛ ففطِنَ المسلمون لهم، فأخذوهم أسرى، وكان ذلك، والسفراءُ يمشونَ بينهم في الصلح، فأطلقهم رسول الله ﷺ، فهم الذين يُسَمَّونَ العُتَقاء، ومنهم معاويةُ وأبوه[1].

وقال مجاهد: أقبل النبيُّ ﷺ مُعتَمِراً، إذ أخذ أصحابُهُ ناساً من الحرم غافلين، فأرسلهم النبيُّ ﷺ؛ فذلك الإظفارُ ببطن مكة[2].

وقال قتادة: ذُكِرَ لنا أنَّ رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ يقال له: زُنيم، اطَّلعَ الثنيَّة من الحديبية، فرماه المشركون بسهمٍ فقتلوه؛ فبعث النبيُّ ﷺ خيلاً، فأتَوا باثني عشرَ فارساً من الكفار، فقال لهم النبيُّ ﷺ: «هل لكم عليَّ ذمّة؟» قالوا: لا. فأرسلَهم، فنزلت[3]. وقال ابن أبْزَى والكلبيُّ: هم أهل الحديبية، كفَّ الله أيديَهم عن المسلمين حتى وقع الصُّلح، وكانوا خرجوا بأجمعهم وقصدوا المسلمين، وكفَّ أيديَ المسلمين عنهم.

وقد تقدَّم أنَّ خالدَ بنَ الوليد كان في خيل المشركين[4]. قال القشيري: فهذه رواية، والصحيحُ أنَّه كان مع النبيِّ ﷺ في ذلك الوقت.

وقد قال سلمةُ بن الأكْوَع: كانوا في أمر الصُّلح إذ أقبل أبو سفيان، فإذا الوادي يسير بالرجال والسلاح، قال: فجئت بستَّةٍ من المشركين أسُوقُهم متسلِّحين لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضرًّا؛ فأتيتُ بهم رسولَ الله ﷺ[5].

وكان عمر قال في الطريق: يا رسولَ الله، نأتي قوماً حَرْباً وليس معنا سلاح

---

(١) الدرر لابن عبد البر ص٢٢٥ .

(٢) تفسير مجاهد ٢/ ٦٠١-٦٠٢ ، وأخرجه الطبري ٢١/ ٢٩٠ .

(٣) أخرجه الطبري ٢١/ ٢٩٠-٢٩١ .

(٤) ص٣١٤ من هذا الجزء.

(٥) أخرجه مطولاً ابن أبي شيبة في مصنفه ١٤/ ٤٤٠-٤٤١ .

ولا كُراع؟ فبعث رسولُ الله ﷺ إلى المدينة من الطريق، فأتَوه بكلِّ سلاح وكُراعٍ كان فيها، وأُخبِر رسول الله ﷺ أنَّ عكرمةَ بنَ أبي جهْلٍ خرج إليك في خمس مئة فارس؛ فقال رسول الله ﷺ لخالد بن الوليد: هذا ابنُ عمِّك أتاك في خمس مئة. فقال خالد: أنا سيفُ الله وسيفُ رسوله، فيومئذٍ سُمِّي بسيف الله، فخرج ومعه خيلٌ، وهَزم الكفارَ ودفعهم إلى حوائط مكَّة[١]. وهذه الروايةُ أصحُّ.

وكان بينهم قتالٌ بالحجارة[٢]. وقيل: بالنَّبَل والظُّفْر[٣]. وقيل: أراد بكفِّ اليد أنَّه شَرَطَ في الكتاب أنَّ من جاءنا منهم فهو رَدٌّ عليهم، فخرج أقوامٌ من مكَّةَ مسلمون، وخافوا أنْ يردَّهم الرسول عليه الصلاة والسلام إلى المشركين، فلحقوا بالسَّاحل، ومنهم أبو بصير، وجعلوا يُغيرون على الكفار ويأخذون عِيْرهم، حتى جاء كبارُ قريشٍ إلى النبيِّ ﷺ وقالوا: اضممهم إليك حتى نأمن؛ ففعل[٤].

وقيل: هَمَّت غَطَفان وأسد منع المسلمين من يهود خَيبر[٥]؛ لأنَّهم كانوا حلفاءَهم، فمنعهم الله عن ذلك؛ فهو كفُّ اليد.

﴿بِبَطْنِ مَكَّةَ﴾ فيه قولان: أحدهما: يريد به مكَّة. الثاني: الحُديبية؛ لأنَّ بعضَها مضافٌ إلى الحرم. قال الماوردي[٦]: وفي قوله: ﴿مِنۢ بَعۡدِ أَنۡ أَظۡفَرَكُمۡ عَلَيۡهِمۡۚ﴾: بفتح مكَّة[٧]. وتكون هذه نزلت بعد فتح مكَّة، وفيها دليلٌ على أنَّ مكَّة فُتحت صُلحاً؛

---

(١) أخرجه الطبري ٢١/ ٢٩١ عن ابن أبزى. والكراع: اسم يجمع الخيل. الصحاح (كرع).

(٢) هو قول ابن عباس كما في الكشاف ٣/ ٥٤٧ .

(٣) هو قول مقاتل كما في زاد المسير ٧/ ٤٣٨ . والظُّفْر: هو ما وراء معقد الوتر إلى طرف القوس، أو طرف القوس. القاموس (ظفر).

(٤) قصة أبي بصير أخرجها أحمد (١٨٩١٠)، والبخاري (٢٧٣١ ، ٢٧٣٢) في الحديث الطويل عن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم.

(٥) ذكره الإمام السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٧٥ ، وعزاه لابن المنذر عن ابن جريج.

(٦) في النكت والعيون ٥/ ٣١٨ ، وما قبله منه.

(٧) يعني أظفركم عليهم بفتح مكة، وهو أحد ثلاثة أقوال في تفسير الآية، ذكرها الماوردي، واقتصر المصنف على الأول.

لقوله عزَّ وجلَّ: ﴿كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم﴾.

قلت: الصحيحُ أنَّ هذه الآية نزلت في الحديبية قبل فتح مكَّة، حسب ما قدَّمناه عن أهل التأويل من الصحابة والتابعين.

ورَوى الترمذيُّ قال: حدَّثنا عبدُ بن حُميد، قال: حدَّثني سليمانُ بن حرب، قال: حدَّثنا حمَّاد بنُ سلمةَ عن ثابتٍ، عن أنس؛ أنَّ ثمانينَ هبطوا على رسول الله ﷺ وأصحابِهِ من جبل التنعيم، عند صلاة الصبح، وهم يريدون أنْ يقتلوه؛ فأُخذوا أخذاً، فأعتقهُمْ رسولُ الله ﷺ؛ فأنزل الله تعالى: ﴿وهُوَ الَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم﴾ الآية. قال أبو عيسى: هذا حديثٌ حسنٌ صحيح. وقد تقدَّم[1].

وأمَّا فتحُ مكَّة، فالذي تدلُّ عليه الأخبارُ أنها إنَّما فُتحت عَنوة، وقد مضى القول في ذلك في «الحج» وغيرها[2]. ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾.

قوله تعالى: ﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَـٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِّيُدْخِلَ اللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ﴾ **فيه ثلاث مسائل:**

الأولى: قوله تعالى: ﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعني: قريشاً؛ منعوكم دخولَ المسجد الحرام عامَ الحُدَيبية، حين أحرم النبيُّ ﷺ مع أصحابه بعُمْرة[3]، ومنعوا الهَدْيَ وحبسوهُ عن أنْ يبلغ مَحِلَّه. وهذا كانوا لا يعتقدونه، ولكنَّه حملتهم الأنَفة، ودَعَتْهمْ

(١) سنن الترمذي (٣٢٦٤)، وتقدم ص٣٢٣ من هذا الجزء.

(٢) ١٤/ ٣٥٢.

(٣) النكت والعيون ٥/ ٣١٩.

حَمِيَّةُ الجاهلية إلى أن يفعلوا مالا يعتقدونه دِيناً، فوَبَّخهم الله على ذلك وتوعَّدهم عليه، وأدخل الأُنس على رسول الله ﷺ ببيانه ووعده[١].

الثانية: قوله تعالى: ﴿وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا﴾ أي: محبوساً. وقيل: واقفاً[٢]. وقال أبو عمرو بن العلاء: مجموعاً.

الجوهريُّ[٣]: عَكَفَه، أي: حبسه ووَقَفه، يَعْكِفُه ويَعْكُفه عَكْفاً، ومنه قوله تعالى: ﴿وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا﴾؛ يقال: ما عَكَفَكَ عن كذا. ومنه الاعتكافُ في المسجد، وهو الاحتباس.

﴿أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ﴾ أي: مَنْحَرَه؛ قاله الفراء[٤]. وقال الشافعي ﷺ: الحَرَم[٥]. وكذا قال أبو حنيفة ﷺ: المُحصَر محلُّ هَدْيه الحرَم[٦]. والمَحِلُّ؛ بكسر الحاء: غايةُ الشيء، وبالفتح: هو الموضع الذي يَحُلُّه الناس. وكان الهَدْيُ سبعين بَدَنة[٧]، ولكنَّ الله بفضله جعل ذلك الموضع له مَحِلًّا[٨]. وقد اختلف العلماء في هذا على ما تقدَّم بيانه في «البقرة»[٩] عند قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ﴾ [الآية:١٩٦] والصحيحُ ما ذكرناه.

وفي صحيح مسلم عن أبي الزبير، عن جابر بن عبد الله قال: نَحَرنا مع رسول الله ﷺ عامَ الحديبية البدَنَةَ عن سبعة، والبقرة عن سبعة[١٠].

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٦٩٤.

(٢) في (م) موقوفاً. والمثبت من النسخ الخطية والنكت والعيون ٥/ ٣١٩ ، والكلام منه.

(٣) في الصحاح (عكف).

(٤) في معاني القرآن ٣/ ٦٨ .

(٥) النكت والعيون ٥/ ٣١٩ .

(٦) الكلام بنحوه في أحكام القرآن للكيا الطبري ٤/ ٣٧٨ .

(٧) النكت والعيون ٥/ ٣١٩ .

(٨) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٦٩٤ .

(٩) ٣/ ٢٨٣-٢٨٤ .

(١٠) صحيح مسلم (١٣١٨): (٣٥٠)، وأخرجه أيضاً أحمد (١٤١٢٧).

وعنه قال: اشتركنا مع رسول الله ﷺ في الحجِّ والعُمرة، كلُّ سبعةٍ في بدنة. فقال رجلٌ لجابر: أيُشتَرَكُ في البدَنة ما يُشترك في الجَزُور؟ قال: ما هي إلَّا من البُدْن. وحضر جابرٌ الحديبية قال: ونحرَنا يومئذٍ سبعين بَدَنة، اشتركنا كلُّ سبعةٍ في بَدَنة[١].

وفي البخاريِّ[٢] عن ابن عمرَ قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ مُعتمرين؛ فَحَال كفارُ قريشٍ دون البيت، فنحر رسولُ الله ﷺ بُدْنَه، وحَلَق رأسَه.

قيل: إنَّ الذي حلق رأسَه يومئذٍ خِراشُ بن أميَّة بن أبي العيص الخزاعي[٣]. وأمر رسول الله ﷺ المسلمين أنْ ينحروا ويَحِلُّوا؛ ففعلوا بعد توقُّفٍ كان منهم أغضبَ رسول الله ﷺ. فقالت له أمّ سلمةَ: لو نحرتَ لنحروا؛ فنحر رسولُ الله ﷺ هَدْيَه، ونحروا بِنَحْرِهِ، وحَلَق رسولُ الله ﷺ رأسَه، ودعا للمُحَلِّقين ثلاثاً وللمقصِّرين مرةً[٤]. ورأى كعبَ بن عُجرَة والقَمْلُ يسقط على وجهه؛ فقال: «أيؤذيك هوامُّك؟» قال: نعم؛ فأمره أنْ يَحلِقَ وهو بالحديبية. خرَّجه البخاريُّ والدَّارقُطنيّ[٥]. وقد مضى في «البقرة»[٦].

الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَٱلْهَدْىَ﴾ الهَديُ والهَدِيُّ لغتان. وقُرئ: ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْىُ

(١) صحيح مسلم (١٣١٨): (٣٥٣)، وأخرجه مختصراً أحمد (١٥٠٤٣).

(٢) برقم (١٨١٢).

(٣) الدرر ص٢٢٥ ، وفيه، وفي سيرة ابن هشام ٢/ ٣١٩ : ابن الفضل الخزاعي، بدل: ابن أبي العيص. وهو خراش بن أمية بن ربيعة بن الفضل الخزاعي، مدني، شهد مع رسول الله ﷺ الحديبية وخيبر وما بعدهما من المشاهد، توفي آخر خلافة معاوية. الإصابة ٣/ ٨٦ ، والاستيعاب (بهامش الإصابة) ٣/ ١٩١-١٩٢ .

(٤) الدرر ص٢٢٥ ، وقصة أم سلمة أخرجها البخاري في الحديث الطويل عن المسور بن مخرمة ومروان ابن الحكم (٢٧٣١-٢٧٣٢) وسلف بعضه ص٣٢٥ من هذا الجزء.
ودعاء النبي للمحلقين ثم للمقصرين سلف ٣/ ٢٨٧ .

(٥) صحيح البخاري (١٨١٧)، وسنن الدارقطني (٢٧٨٠)، وأخرجه أيضاً أحمد (١٨١١٣)، ومسلم (١٢٠١).

(٦) ٣/ ٢٩٠ .

مَحِلَّهُۥ﴾ [البقرة:١٩٦] بالتخفيف والتشديد[١]؛ الواحدةَ هَدْية [وهَدِيَّة][٢]. وقد مضى في «البقرة» أيضاً[٣]. وهو معطوفٌ على الكاف والميم من «صَدُّوكُمْ». و﴿مَعۡكُوفًا﴾ حال، وموضع «أنْ» من قوله: «أن يَبْلُغَ مَحِلَّه» نُصِبَ على تقدير الحَمْل على «صَدُّوكُمْ» أي: صدُّوكم وصدُّوا الهَدْي عن أن يبلغ[٤]. ويجوز أنْ يكون مفعولاً له؛ كأنه قال: وصَدُّوا الهَديَ كراهيةَ أن يبلغ مَحِلَّه. أبو علي: لا يصحُّ حمله على العَكف[٥]؛ لأنَّا لا نعلم «عكف» جاء متعدِّياً[٦]، ومجيءُ «مَعْكُوفاً» في الآية يجوز أنْ يكون محمولاً على المعنى؛ كأنه لمّا كان حَبْساً حُمِل المعنى على ذلك، كما حُمِل الرَّفَثُ على معنى الإفضاء، فَعُدِّيَ بإلى، فإنْ حُمل على ذلك كان موضعه نَصْباً على قياس قول سيبويه، وجراً على قياس قول الخليل. أو يكونُ مفعولاً له؛ كأنه قال: محبوساً كراهة[٧] أن يبلغ مَحِلَّه. ويجوز تقدير الجرِّ في «أن»؛ لأنّ «عن» تقدَّمت؛ فكأنه قال: وصدُّوكم عن المسجد الحرام، وصدُّوا الهَدْيَ عن أن يبلغَ مَحِلَّه. ومثله ما حكاه سيبويه عن يونس: مررتُ برجلٍ إنْ زيدٍ و إن عمرٍو؛ فأضمر الجارَّ لِتَقدُّم ذكره.

قوله تعالى: ﴿وَلَوۡلَا رِجَالٞ مُّؤۡمِنُونَ وَنِسَآءٞ مُّؤۡمِنَٰتٞ لَّمۡ تَعۡلَمُوهُمۡ أَن تَطَـُٔوهُمۡ فَتُصِيبَكُم مِّنۡهُم مَّعَرَّةُۢ بِغَيۡرِ عِلۡمٖۖ﴾

فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَلَوۡلَا رِجَالٞ مُّؤۡمِنُونَ﴾ يعني المستضعفين من المؤمنين بمكّة

---

(١) القراءة بالتشديد هي قراءة الأعرج كما في القراءات الشاذة ص١٢ . وبالتخفيف قراءة الجمهور.

(٢) الصحاح (هدي) وما بين حاصرتين منه.

(٣) ٣/ ٢٨٢ .

(٤) الكلام بنحوه في إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٠٢ .

(٥) المثبت من (ق) و(م)، وفي غيرهما: العطف.

(٦) الكلام بنحوه في المحرر الوجيز ٥/ ١٣٦ .

(٧) في (م): كراهية.

وسطَ الكفار[١]؛ كسلمةَ بنِ هشام، وعيَّاش بن أبي ربيعة، ، وأبي جَنْدل بن سهيل، وأشباهِهم.

﴿لَّمۡ تَعۡلَمُوهُمۡ﴾ أي: تعرفوهم. وقيل لم تعلموهم أنهم مؤمنون[٢].

﴿أَن تَطَـُٔوهُمۡ﴾ بالقتل والإيقاع بهم؛ يقال: وَطِئتُ القوم، أي: أَوقعتُ بهم. و«أنْ» يجوز أنْ يكون رفعاً على البدل من «رجالٌ، ونساءٌ» كأنَّه قال: ولولا وَطْؤكُم رجالاً مؤمنين ونساءً مؤمنات. ويجوز أنْ يكون نصباً على البدل من الهاء والميم في «تَعْلَمُوهُمْ»؛ فيكون التقدير: لم تعلموا وَطْأهم؛ وهو في الوجهين بدلُ الاشتمال. و«لَمْ تَعْلَمُوهُمْ» نعتٌ لـ«رجالٌ» و«نساءٌ». وجواب «لَوْلا» محذوف[٣]؛ والتقدير: ولولا[٤] أنْ تطؤوا رجالاً مؤمنينَ ونساءً مؤمنات لم تعلموهم، لأذِنَ الله لكم في دخول مكَّة، ولسَلَّطكم عليهم؛ ولَكِنَّا صُنَّا من كان فيها يَكتمُ إيمانَه خوفاً[٥]. وقال الضَّحَّاك: لولا مَن في أصلاب الكفار وأرحام نسائهم من رجالٍ مؤمنين ونساءٍ مؤمنات، لم تعلموهم[٦] أنْ تطؤوا آباءهم فيَهلك أبناؤهم[٧].

الثانية: قوله تعالى: ﴿فَتُصِيبَكُم مِّنۡهُم مَّعَرَّةُۢ بِغَيۡرِ عِلۡمٍۖ﴾ المَعَرَّة: العيب، وهي مَفْعَلَة من العُر، وهو الجَرَب، أي: يقول المشركون: قد قتلوا أهلَ دينهم. وقيل: المعنى: يصيبكم من قَتلهم ما يلزمُكم من أجله كفارةُ قتل الخطأ؛ لأنَّ الله تعالى إنما أوجبَ على قاتل المؤمن في دار الحرب إذا لم يكن هاجرَ منها ولم يَعلم بإيمانه، الكفارةَ دون الدِّية في قوله: ﴿فَإِن كَانَ مِن قَوۡمٍ عَدُوٍّ لَّكُمۡ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ

---

(١) الوسيط للواحدي ٤/ ١٤٣ .

(٢) الوجيز بهامش مراح لبيد ٢/ ٣٠٩ .

(٣) مشكل إعراب القرآن ٢/ ٦٧٨ .

(٤) في (م): لو.

(٥) لفظة: خوفاً. ليست في (م). وينظر تفسير الطبري ٢١/ ٣٠٦ ، وأحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٦٩٥ .

(٦) في (ز) و(ظ) و(ف): تعلموا. والمثبت من (خ) و(ق) و(م).

(٧) النكت والعيون ٥/ ٣٢٠ .

﴿مُّؤْمِنَةٍ﴾ [النساء: ٩٢] قاله الكلبي ومقاتل وغيرهما[١]. وقد مضى في «النساء» القول فيه[٢].

وقال ابن زيد: «مَعَرَّةٌ»: إثم؛ وقاله الجوهريُّ[٣]. ابن إسحاق[٤]: غُرْم الدِّيَة. قطرب: شِدَّة. وقيل: غمّ[٥].

الثالثة: قوله تعالى: ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ تفضيلٌ للصحابة، وإخبارٌ عن صفتهم الكريمة من العفَّة عن المعصية، والعصمة عن التعدِّي، حتى لو أنَّهم أصابوا من ذلك أحداً، لكان عن غير قصد. وهذا كما وصفت النملةُ عن جند سليمان عليه السلام في قولها: ﴿لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَـٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾[٦] [النمل: ١٨].

قوله تعالى: ﴿لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ لَوْ تَزَيَّلُوا۟﴾ **فيه أربع مسائل**:

الأولى: قوله تعالى: ﴿لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ لَوْ تَزَيَّلُوا۟﴾ اللام في «لِيُدْخِلَ» متعلقةٌ بمحذوف[٧]، أي: لو قتلتموهم لأدخلهم الله في رحمته[٨]. ويجوز أنْ تتعلَّقَ بالإيمان[٩]. ولا تُحملُ على مؤمنينَ دون مؤمناتٍ، ولا على مؤمناتٍ دون مؤمنين؛ لأنَّ الجميعَ يدخلون في الرحمة.

وقيل: المعنى لم يأذن الله لكم في قتال المشركين، ليُسلمَ بعد الصلح من قضى أن يُسلم من أهل مكّة؛ وكذلك كان، أسلمَ الكثيرُ منهم وحَسُنَ إسلامُهُ، ودخلوا في رحمته، أي: جنته.

---

(١) نسبه للكلبي الماورديُّ في النكت والعيون ٥/ ٣٢٠ . وهو في تفسير الطبري ٢١/ ٣٠٦ . دون نسبة.

(٢) ٧/ ٢٥ .

(٣) في الصحاح (عرر)، وقول ابن زيد أخرجه الطبري ٢١/ ٣٠٥ .

(٤) في (م): وقال الجوهري وابن إسحاق. وهو خطأ.

(٥) النكت والعيون ٥/ ٣٢٠ .

(٦) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٦٩٥ .

(٧) الوسيط للواحدي ٤/ ١٤٣ .

(٨) معاني القرآن للنحاس ٦/ ٥١٠ .

(٩) والتقدير ـ كما في المحرر الوجيز ٥/ ١٣٧ ـ : لولا قوم مؤمنون آمنوا ليدخل الله من يشاء في رحمته.

الثانية: قوله تعالى: ﴿لَوْ تَزَيَّلُوا﴾ أي: تميَّزوا؛ قاله القُتَبيّ[1]. وقيل: لو تفرقوا؛ قاله الكلبي. وقيل: لو زَال المؤمنون من بين أَظهُر الكفار، لَعذَّب الكفارَ بالسيف؛ قاله الضَّحَّاك. ولكنَّ الله يدفع بالمؤمنينَ عن الكفار[2]. وقال عليٌّ ﷺ: سألتُ النبيَّ ﷺ عن هذه الآية: ﴿لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ فقال: «هم المشركون من أجداد نبيِّ الله، ومن كان بعدهم وفي عصرهم، كان في أصلابهم قومٌ مؤمنون، فلو تزيّل المؤمنونَ عن أصلاب الكافرين، لعذَّب الله تعالى الكافرين عذاباً أليماً»[3].

الثالثة: هذه الآيةُ دليلٌ على مراعاة الكافر في حُرمة المؤمن؛ إذ لا يمكن إذايةُ الكافر إلا بإذاية[4] المؤمن. قال أبو زيد: قلت لابن القاسم: أرأيت لو أنَّ قوماً من المشركين في حصنٍ من حصونهم، حَصَرهم أهلُ الإسلام، وفيهم قومٌ من المسلمين أُسارى في أيديهم، أَيُحرقُ هذا الحصنُ أم لا؟ قال: سمعت مالكاً، وسُئلَ عن قومٍ من المشركين في مراكبهم: أنرمي في مراكبهم بالنَّار ومعهم الأُسارى في مراكبهم؟ قال: فقال مالك: لا أرى ذلك؛ لقوله تعالى لأهل مكّة: ﴿لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾[5]. وكذلك لو تَتَرَّس كافرٌ بمسلم، لم يجز رَميهُ. وإن فعل ذلك فاعلٌ فأتلفَ أحداً من المسلمين، فعليه الدِّية والكفَّارة. فإنْ لم يعلموا فلا دية ولا كفَّارة؛ وذلك أنَّهم إذا علموا فليس لهم أنْ يرموا، فإذا فعلوه صاروا قتَلَة خطأً، والدِّية على عواقلهم. فإنْ لم يعلموا، فلهم أنْ يرموا، وإذا أُبيحوا الفعل لم يجز أن يبقَى عليهم فيها تِبَاعة.

قال ابن العربي: وقد قال جماعةٌ: إنَّ معناه: لو تزيَّلوا عن بطون النساء وأصلاب

(١) في تأويل مشكل القرآن ص٢٨٥.

(٢) النكت والعيون ٥/ ٣٢٠.

(٣) ذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ١٣٧ مختصراً. وعزاه للثعلبي والنقاش. وفي رفعه نظر.

(٤) في (م): أذية الكافر إلا بأذية.

(٥) المدونة الكبرى ٣/ ٢٤، وأحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٦٩٥-١٦٩٦.

الرجال. وهذا ضعيف؛ لأنَّ مَن في الصُّلب أو في البطن لا يُوطأ، ولا تُصيبُ منه معرَّة. وهو سبحانه قد صرَّح فقال: ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ﴾ وذلك لا ينطلق على مَن في بطن المرأة وصُلب الرجال، وإنَّما ينطلق على مثل الوليد بن الوليد، وسلمةَ بن هشام، وعيَّاش بن أبي ربيعة، وأبي جندل بن سهيل، وكذلك قال مالك. وقد حاصرنا مدينةً للروم[١] فحُبس عنهم الماء، فكانوا يُنزِلون الأُسارى يستقون لهم الماء، فلا يقدرُ أحدٌ على رميهم بالنَّبل، فيحصل لهم الماء بغير اختيارنا. وقد جوَّز أبو حنيفة وأصحابهُ والثَّوريُّ الرَّميَ في حصون المشركين، وإنْ كان فيهم أُسارى من المسلمين وأطفالِهم. ولو تَتَرَّس كافرٌ بولدِ مسلم، رُميَ المشرك، وإن أُصيب أحدٌ من المسلمين فلا دية فيه ولا كفَّارة. وقال الثوري: فيه الكفَّارة ولا دية. وقال الشافعيُّ بقولنا. وهذا ظاهر؛ فإنَّ التوصُّلَ إلى المباح بالمحظور لا يجوز؛ سِيَّما بروحِ المسلم؛ فلا قولَ إلا ما قاله مالك ﷺ. والله أعلم[٢].

قلت: قد يجوز قتل التُّرس، ولا يكون فيه اختلافٌ إنْ شاء الله، وذلك إذا كانت المصلحةُ ضروريةً كليَّةً قطعيةً. فمعنى كونها ضروريةً: أنَّها لا يحصل الوصول إلى الكفار إلَّا بقتل التُّرس. ومعنى أنها كُلِّية: أنه قاطعةٌ لكلِّ الأمَّة، حتى يحصلَ من قتل التُّرس مصلحةُ كلِّ المسلمين؛ فإنْ لم يفعل، قَتَلَ الكفارُ التُّرسَ واستولوا على كلِّ الأمة. ومعنى كونها قطعيةً: أنَّ تلك المصلحةَ حاصلةٌ من قتل التُّرس قطعاً[٣].

قال[٤] علماؤنا: وهذه المصلحةُ بهذه القيود لا ينبغي أن يختلف في اعتبارها؛ لأنَّ الفَرْضَ أنَّ التُّرسَ مقتولٌ قطعاً؛ فإما بأيدي العدوِّ فتحصل المفسدة العظيمة، التي

(١) في النسخ عدا (ف): الروم. والمثبت من (ف) وهو الموافق لأحكام القرآن لابن العربي.

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٦٩٦ .

(٣) ينظر المستصفى ١/ ٤٢٠ ، والمحصول ٦/ ١٦٤ .

(٤) في (ظ): قاله.

هي استيلاءُ العدوِّ على كل المسلمين. وإما بأيدي المسلمين، فَيهلِكَ العدُّو وينجو المسلمون أجمعون. ولا يتأتى لعاقل أن يقول: لا يُقتل التُّرس في هذه الصورة بوجه؛ لأنَّه يلزم[١] منه ذهابُ التُّرس والإسلام والمسلمين، لكنْ لمَّا كانت هذه المصلحةُ غيرَ خاليةٍ من المفسدة، نفرتْ منها نفسُ من لم يمعن النظر فيها؛ فإنَّ تلك المفسدة بالنسبة إلى ما يحصل منها عدمٌ أو كالعدم. والله أعلم.

الرابعة: قراءة العامة: «لَوْ تَزَيَّلُوا» إلا أبا حَيْوَة فإنه قرأ: «تَزَايَلُوا»[٢] وهو مثل «تَزَيَّلُوا» في المعنى. والتزايل: التباين[٣]. و«تَزَيَّلُوا» تفعَّلوا، من زِلْت. وقيل: هي تَفَيْعَلُوا.

«لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا» قيل: اللام جواب لكلامين؛ أحدهما: «لَوْلاَ رِجَالٌ» والثاني: «لَوْ تَزَيَّلُوا»[٤]. وقيل جواب «لَوْلَا» محذوف؛ وقد تقدَّم[٥]. و«لَوْ تَزَيَّلُوا» ابتداء كلام.

قوله تعالى: ﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾﴾

العامل في «إِذْ» قوله تعالى: «لَعَذَّبْنَا» أي: لعذَّبناهم إذ فعلوا[٦] هذا. أو فعلٌ مضمرٌ تقديره: واذكروا[٧].

(١) في (م): تلزم.

(٢) المحرر الوجيز ٥/١٣٧ .

(٣) الصحاح (زيل).

(٤) تأويل مشكل القرآن ص٢٨٥ .

(٥) ص٣٣٠ من هذا الجزء.

(٦) في (م): جعلوا.

(٧) الكلام بنحوه في الكشاف ٣/٥٤٨-٥٤٩ ، والمحرر الوجيز ٥/١٣٩ .

﴿ٱلْحَمِيَّةَ﴾ فعِيلة، وهي الأنَفَة. يقال: حَمِيتُ عن كذا حَميَّة ـ بالتشديد ـ ومَحْمِيَّة: إذا أنِفْتَ منه وداخلك عارٌ وأَنَفةٌ أن تفعله[1]. ومنه قول المتلمِّس:

ألا إنـنـي منـهـم وعِـرْضـيَ عِـرْضُـهـم كذِي الأنْفِ يحمي أنفَه أن يُكَشَّما[2]

أي: يمنع.

قال الزهريُّ: حَمِيَّتُهم: أَنَفَتُهم من الإقرار للنبيِّ ﷺ بالرسالة والاستفتاحِ ببسم الله الرحمن الرحيم، ومنعُهم من دخول مكة[3]. وكان الذي امتنع من كتابة بسم الله الرحمن الرحيم، ومحمدٌ رسول الله: سهيلُ بن عمرو؛ على ما تقدَّم[4].

وقال ابن بحر: حمِيَّتُهم عصبيَّتُهم لآلهتهم التي كانوا يعبدونها من دون الله تعالى، والأَنَفةُ من أنْ يعبدوا غيرها[5]. وقيل: «حَمَّيةَ الجَاهِلِيَّةِ» إنَّهم قالوا: قَتلوا أبناءنا وإخواننا، ثمَّ يدخلون علينا في منازلنا؛ واللات والعُزَّى لا يدخلها أبداً[6].

﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ﴾ أي: الطمأنينةَ والوقار ﴿عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾. وقيل: ثبَّتهم على الرِّضا والتسليم، ولم يُدخِل قلوبَهم ما أدخلَ قلوبَ أولئك من الحميَّة.

﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ قيل: لا إله إلا الله. روي مرفوعاً من حديث أُبيِّ بن كعب عن النبيِّ ﷺ[7]. وهو قول عليٍّ، وابن عمر، وابن عباس، وعمرو بن ميمون،

(١) الصحاح (حمى).

(٢) في النسخ الخطية: كذا الرأس يحمي أنفه أن يهشما، والمثبت من (م) وهو الموافق لخزانة الأدب ١٠/ ٥٨ ، والبيت فيه، بلفظ: يهشما. بدل: يكشما.

(٣) النكت والعيون ٥/ ٣٢٠ .

(٤) ص٣١٦ من هذا الجزء.

(٥) النكت والعيون ٥/ ٣٢٠ .

(٦) الوسيط للواحدي ٤/ ١٤٣ ، وتفسير البغوي ٤/ ٢٠٤ .

(٧) أخرجه أحمد (٢١٢٥٥)، والترمذي (٣٦٢٥). قال أبو عيسى: هذا حديث غريب لا نعرفه مرفوعا إلا من حديث الحسن بن قَزَعة. قال: وسألت أبا زرعة عن هذا الحديث فلم يعرفه مرفوعا إلا من هذا الوجه.

ومجاهد، وقتادة، وعكرمة، والضحاك، وسلمةَ بن كُهيل، وعبيد بن عمير، وطلحة ابن مُصَرِّف، والربيع، والسُّدِّيّ، وابن زيد. وقاله عطاءٌ الخُراسانيّ، وزاد: محمدٌ رسول الله[١].

وعن عليّ وابن عمر أيضاً: هي لا إله إلا الله، والله أكبر[٢].

وقال عطاء بن أبي رباح ومجاهد أيضاً: هي لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملكُ وله الحمد وهو على كل شيء قدير[٣].

وقال الزهريُّ: بسم الله الرحمن الرحيم. يعني أنَّ المشركين لم يُقِرُّوا بهذه الكلمة؛ فخصَّ الله بها المؤمنين، وكلمةُ التَّقوَى: هي التي يُتَّقى بها من الشرك.

وعن مجاهد أيضاً: أنَّ كَلِمَةَ التَّقوى: الإخلاص[٤].

﴿وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَاۚ﴾ أي: أحقَّ بها من كفار مكَّة؛ لأنَّ الله تعالى اختارهم لدينه وصُحبة نبيِّه. ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾.

قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُواْ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾﴾

قال قتادة: كان رسولُ الله ﷺ رأى في المنام أنه يدخل مكة على هذه الصِّفة؛ فلمَّا صالح قريشاً بالحُدَيبِية ارتاب المنافقون، حتى قال رسول الله ﷺ: إنَّه يدخل

(١) أخرج هذه الأقوال الطبري ٢١/ ٣١٠-٣١٣. عدا أقوال ابن عمر، وسلمة بن كهيل، وعبيد بن عمير، وطلحة بن مصرف، والربيع، والسدي. وذكر قول ابن عمر النحاس في إعراب القرآن ٤/ ٢٠٣، وذكر قول السدي ابن الجوزي في زاد المسير ٧/ ٤٤١.

(٢) أخرجه عنهما الطبري ٢١/ ٣١٠-٣١١، ٣١٣.

(٣) أخرجه الطبري ٢١/ ٣١٤ من طريق ابن جريج عن مجاهد وعطاء. وقول مجاهد فيه: كلمة التقوى: الإخلاص وسيأتي.

(٤) أخرج القولين الطبري ٢١/ ٣١٤.

مكّة؛ فأنزل الله تعالى: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ﴾ فأعلمهم أنَّهم سيدخلون في غير ذلك العام، وأنَّ رؤياه ﷺ حقٌّ[١]. وقيل: إنَّ أبا بكر هو الذي قال: إن المنام لم يكن مؤقَّتاً بوقت، وأنه سيدخل. وروي أن الرؤيا كانت بالحديبية[٢]، ورؤيا[٣] الأنبياء حقٌّ. والرؤيا أحدُ وجوه الوحي إلى الأنبياء.

﴿لَتَدْخُلُنَّ﴾ أي: في العام القابل ﴿ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ قال ابن كيسان: إنَّه حكايةُ ما قيل للنبي ﷺ في منامه؛ خُوطِبَ في منامه بما جرت به العادة؛ فأخبر الله عن رسوله أنّه قال ذلك، ولهذا استثنى؛ تأدَّبَ بأدب الله تعالى حيث قال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ۝ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الكهف:٢٣][٤]. وقيل: خاطب الله العبادَ بما يُحبُّ[٥] أن يقولوه، كما قال: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ۝ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾. وقيل: استثنى فيما يعلم، ليستثني الخلقُ فيما لا يعلمون، قاله ثعلب[٦]. وقيل: كان الله علم أنه يُميتُ بعضَ هؤلاء الذين كانوا معه بالحديبية، فَوَقع الاستثناءُ لهذا المعنى، قاله الحسينُ بنُ الفضل[٧]. وقيل: الاستثناء من «آمِنينَ»، وذلك راجعٌ إلى مخاطبة العباد على ما جَرت به العادة[٨]. وقيل: معنى «إنْ شَاءَ اللهُ» إنْ أمرَكُم الله بالدخول[٩]. وقيل: أي: إنْ سهَّل الله. وقيل: «إن شَاءَ اللهُ» أي:

(١) القول بنحوه في النكت والعيون ٥/ ٣٢٢ ، وأخرجه مختصراً الطبري ٢١/ ٣١٦ .

(٢) هو قول مجاهد. وأخرجه الطبري ٢١/ ٣١٦ ، وذكر الألوسي ٢٦/ ١٢٠ أن قول من قال: إن الرؤيا قبل خروجه إلى الحديبية هو الأصح.

(٣) في (م): وإن رؤيا.

(٤) القول بنحوه في تفسير البغوي ٤/ ٢٠٥ .

(٥) في (ظ): يجب.

(٦) ذكره الواحدي في الوسيط ٤/ ١٤٥ ، وابن الجوزي في زاد المسير ٧/ ٤٤٣ .

(٧) ذكره البغوي في تفسيره ٤/ ٢٠٥ .

(٨) ذكره ابن الجوزي في زاد المسير ٧/ ٤٤٤ بنحوه، وعزاه للثعلبي.

(٩) هو قول الزجاج كما في معاني القرآن له ٥/ ٢٨ .

كما شاء الله. وقال أبو عبيدة: «إنْ» بمعنى «إذ»[١]، أي: إذ شاء الله، كقوله تعالى: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَوٰا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [البقرة:٢٧٨] أي: إذ كنتم. وفيه بُعْدٌ، لأنَّ «إذ» في الماضي من الفعل، و«إذا» في المستقبل، وهذا الدُّخول في المستقبل، فَوَعَدهم دخولَ المسجد الحرام وعلَّقه بشرط المشيئة، وذلك عامَ الحديبية؛ فأخبر أصحابه بذلك، فاستبشروا؛ ثم تأخَّر ذلك عن العام الذي طمعوا فيه، فساءَهم ذلك واشتدَّ عليهم، وصالحهم ورجع؛ ثم أذِنَ الله في العام المقبل، فأنزل الله: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّءْيَا بِالْحَقِّ﴾. وإنَّما قيل له في المنام: ﴿لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ﴾ فحكى في التنزيل ما قيل له في المنام؛ فليس هنا شكٌّ كما زعم بعضُهم أنَّ الاستثناءَ يدلُّ على الشك، والله تعالى لا يَشكُّ، و«لَتَدْخُلُنَّ» تحقيقٌ، فكيف يكون شك. فـ«إنْ» بمعنى «إذا»[٢].

﴿ءَامِنِينَ﴾أي: من العدوّ. ﴿مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ﴾ والتحليقُ والتقصير جميعاً للرجال، ولذلك غَلَّب المذكَّر على المؤنَّث. والحلقُ أفضل، وليس للنِّساء إلا التقصيرُ. وقد مضى القول في هذا في «البقرة»[٣]. وفي الصحيح أنَّ معاوية أخذ من شعر النبيِّ ﷺ على المَرْوَة بمِشْقَص[٤]. وهذا كان في العمرة لا في الحجّ؛ لأنَّ النبيَّ ﷺ حَلَق في حَجَّته[٥].

﴿لَا تَخَافُونَ﴾ حالٌ من المحلِّقين والمقصِّرين، والتقدير: غير خائفين[٦]. ﴿فَعَلِمَ

(١) ذكره عن أبي عبيدة الواحدي في الوسيط ٤/ ١٤٥ ، والبغوي في تفسيره ٤/ ٢٠٥ ، وأشار إليه النحاس في إعراب القرآن ٥/ ٢٠٤ ، ثم ردَّه.

(٢) في النسخ الخطية: إذ، والمثبت من (م).

(٣) ٣/ ٢٨٧ .

(٤) أخرجه أحمد (١٦٨٨٥)، والبخاري (١٧٣٠)، ومسلم (١٢٤٦). والمشقص: نصل السهم إذا كان طويلا غير عريض. النهاية (شقص).

(٥) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٦٩٧ وخبر حَلْق النبي ﷺ في حجته؛ أخرجه أحمد (٤٨٨٩)، والبخاري (١٧٢٦)، ومسلم (١٣٠٤).

(٦) مشكل إعراب القرآن ٢/ ٦٧٨ .

﴿مَا لَمْ تَعْلَمُوا﴾ أي: علم ما في تأخير الدخول من الخير والصلاح ما لم تعلموه أنتم[١]. وذلك أنَّه عليه الصلاة والسلام لما رجع، مضى منها إلى خَيْبرَ فافتتحها، ورجع بأموالِ خيبرَ، وأخذ من العُدَّة والقوَّة أضعافَ ما كان فيه في ذلك العام، وأقبلَ إلى مكة على أُهبةٍ وقوَّةٍ وعُدَّة بأضعاف ذلك.

وقال الكلبيُّ: أي علم أنَّ دخولها إلى سنةٍ، ولم تعلموه أنتم. وقيل: عَلِم أنَّ بمكَّةَ رجالاً مؤمنين ونساءً مؤمناتٍ لم تعلموهم[٢].

﴿فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ أي: من دون رؤيا النبيِّ ﷺ فتح خيبر؛ قاله ابن زيد والضحاك[٣]. وقيل: فتح مكة. وقال مجاهد: هو صلح الحديبية[٤]؛ وقاله أكثر المفسرين. قال الزُّهريُّ: ما فتحٌ[٥] في الإسلام كان أعظمَ من صلح الحديبية؛ لأنَّه إنَّما كان القتالُ حين تلتقي الناس، فلَّما كانت الهدنةُ؛ وَضعتِ الحربُ أوزارَها، وأَمِنَ الناس بعضُهم بعضاً؛ فالتقَوا وتفاوضوا الحديث والمناظرة، فلم يُكلَّمْ أحدٌ بالإسلام يعقلُ شيئاً إلَّا دخل فيه، فلقد دخل في تَينك السنتين في الإسلام مثلُ ما كان في الإسلام قبل ذلك وأكثر[٦]. يدلُّكَ على ذلك أنَّهم كانوا سنة ستٍّ يومَ الحديبية ألفاً وأربع مئة، وكانوا بعد عام الحديبية سنةَ ثمانٍ في عشرة آلاف.

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ﴾ يعني: محمداً ﷺ ﴿بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ

(١) الوسيط ٤/ ١٤٥ .

(٢) النكت والعيون ٥/ ٣٢٢ .

(٣) أخرج قول ابن زيد الطبري ٢١/ ٣١٩ .

(٤) تفسير مجاهد ٢/ ٦٠٣ ، وأخرجه الطبري ٢١/ ٣١٨ .

(٥) في (ز) و(م): ما فتح الله.

(٦) أخرجه الطبري ٢١/ ٣١٨ ، وفيه: ما فُتح في الإسلام فتحٌ.

﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ أي: يُعليه على كل الأديان. فالدينِ اسمٌ بمعنى المصدر، ويستوي لفظ الواحد والجمع فيه. وقيل: أي: لِيُظهرَ رسولَه على الدين كلِّه ـ أي: على الدين الذي هو شَرْعُهُ ـ بالحجَّة، ثمَّ باليد والسيف؛ ونسخ ما عداه.

﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ «شَهِيداً» نصبٌ على التفسير، والباء زائدة، أي: كفى اللهُ شهيداً لنبيِّه ﷺ؛ وشهادته له تبيِّن صحة نبوَّته بالمعجزات. وقيل: «شَهِيداً» على ما أُرسل به؛ لأنَّ الكفارَ أبَوا أنْ يكتبوا: «هذا ما صالح عليه محمدٌ رسولُ الله»(١).

قوله تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًاۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴿٢٩﴾﴾

فيه خمس مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ﴾ «مُحَمَّدٌ» مبتدأ، و«رَسُولُ» خبره. وقيل: «مُّحَمَّدٌ» ابتداء، و«رَسُولُ اللَّهِ» نعته، «وَالَّذِينَ مَعَهُ» عطفٌ على المبتدأ، والخبر فيما بعده؛ فلا يُوقَفُ على هذا التقدير على «رَسُولُ اللَّهِ». وعلى الأول يُوقَف على «رَسُولُ اللَّهِ»؛ لأنَّ صفاتِه عليه الصلاة والسلام تزيد على ما وَصَفَ به(٢) أصحابَه؛ فيكون «مُحَمَّدٌ» ابتداءً، و«رَسُولُ اللَّهِ» الخبر؛ «وَالَّذِينَ مَعَهُ» ابتداءٌ ثانٍ، و«أَشِدَّاءُ» خبره، و«رُحَمَاء» خبر ثان(٣).

وكونُ الصفات في جملة أصحاب النبيِّ ﷺ هو الأشبه. قال ابن عباس: أهل

---

(١) سلفت القصة ١٦/٣١٦ ، ٣١٨ .

(٢) لفظة: به. ليست في (م).

(٣) مشكل إعراب القرآن ٢/٦٧٨-٦٧٩ .

الحديبية أشدَّاءُ على الكفار، أي: غلاظٌ عليهم كالأسد على فريسته[١]. وقيل: المراد بـ«الَّذِينَ مَعَهُۥ» جميع المؤمنين.

﴿رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ أي: يرحم بعضهم بعضاً. وقيل: متعاطفون متوادُّون[٢]. وقرأ الحسن: «أَشِدَّاءَ عَلَى الكُفارِ رُحَماءَ بينهم» بالنصب على الحال[٣]، كأنَّه قال: والذين معه في حال شدَّتهم على الكفار وتراحمهم بينهم ﴿تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا﴾ إخبارٌ عن كثرة صَلاتهم. ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا﴾ أي: يطلبون الجنَّةَ ورضا الله تعالى.

الثانية: قوله تعالى: ﴿سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ﴾ السِّيما: العلامة؛ وفيها لغتان: المدُّ والقصر، أي: لاحت علاماتُ التهجُّد بالليل وأمارات السهر.

وفي سنن ابن ماجه قال: حدَّثنا إسماعيل بن محمد الطَّلحِيُّ قال: حدّثنا ثابت بن موسى أبو يزيد، عن شَريك، عن الأعمش، عن أبي سفيان، عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ كَثُرتْ صلاته بالليل، حَسُنَ وجهُه بالنهار»[٤].

وقال ابن العربي[٥]: ودَسَّه قومٌ في حديث النبيِّ ﷺ على وجه الغلط، وليس عن النبيِّ ﷺ فيه ذكرٌ بحرف.

وقد روى ابن وهب عن مالك: ﴿سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ﴾ ذلك مما يتعلَّق بجباههم من الأرض عند السجود؛ وبه قال سعيد بن جبير. وفي الحديث الصحيح عن النبيِّ ﷺ: صلَّى صبيحةَ إحدى وعشرينَ من رمضان، وقد وَكَفَ المسجدُ

---

(١) الوسيط للواحدي ٤/١٤٦.

(٢) تفسير البغوي ٤/٢٠٦.

(٣) القراءات الشاذة ص١٤٣، والمحتسب ٢/٢٧٦.

(٤) سنن ابن ماجه (١٣٣٣). قال الحافظ ابن حجر رحمه الله في الكافي الشاف ص١٥٤: واتفق أئمة الحديث وابن عدي والدارقطني والعقيلي وابن حبان والحاكم على أنه من قول شريك قاله لثابت لما دخل. وقال ابن عدي: سرقه جماعة من ثابت كعبد الله بن شبرمة الشريكي وعبد الحميد بن بحر وغيرهما.

(٥) في أحكام القرآن ٤/١٦٩٨-١٦٩٩.

وكان على عريش؛ فانصرف النبيُّ ﷺ من صلاته وعلى جبهته وأرنبته أثرُ الماء والطين[١].

وقال الحسن: هو بياضٌ يكون في الوجه يومَ القيامة[٢]. وقاله سعيد بن جبير أيضاً، ورواه العَوفيُّ عن ابن عباس[٣]، وقاله الزهري[٤].

وفي الصحيح عن رسول الله ﷺ من حديث أبي هريرة، وفيه: «حتى إذا فرغ الله من القضاء بين العباد، وأراد أنْ يُخِرجَ برحمته من أراد من أهلِ النار؛ أمر الملائكةَ أن يُخرجوا من النار مَن كان لا يشرك بالله شيئاً، ممن أراد اللهُ أن يرحمه ممن يقول لا إله إلا الله، فيعرفونهم في النار، يعرفونهم[٥] بأثر السجود، تأكل النارُ ابنَ آدمَ إلا أثرَ السجود، حرَّم الله على النار أن تأكلَ أثرَ السجود»[٦].

وقال شَهْرُ بن حَوْشَب: يكون موضعُ السجود من وجوههم كالقمر ليلةَ البدر[٧].

وقال ابنُ عباسٍ ومجاهد: السِّيما في الدنيا، وهو السَّمْتُ الحسن. وعن مجاهدٍ أيضاً: هو الخشوع والتواضع. قال منصور: سألتُ مجاهداً عن قوله تعالى: ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم﴾ أهو أثرٌ يكون بين عيني الرجل؟ قال: لا؛ ربما يكون بين عيني الرجل مثلُ رُكْبة العَنْز، وهو أقسى قلباً من الحجارة، ولكنَّه نورٌ في وجوههم من الخشوع[٨].

---

(١) صحيح البخاري (٢٠١٨)، وصحيح مسلم (١١٦٧): (٢١٣) من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ، وهو عند أحمد (١١١٨٧). ومعنى وَكف: قطر. الصحاح (وكف).

(٢) أخرجه الطبري ٢١/ ٣٢٣ .

(٣) رواية العوفي عن ابن عباس في تفسير البغوي ٤/ ٢٠٦ .

(٤) في (ز) و(ف) و(ق) و(م): قاله. دون واو. والمثبت من (خ) و(ظ) ورواية الزهري ذكرها الواحدي في الوسيط ٤/ ١٤٦ .

(٥) لفظة: يعرفونهم. ليس في (ز) و(ق) و(م).

(٦) قطعة من حديث طويل أخرجه أحمد (٧٧١٧)، والبخاري (٧٤٣٧)، ومسلم (١٨٢).

(٧) تفسير البغوي ٤/ ٢٠٦ .

(٨) أخرج أقوالهم الطبري ٢١/ ٣٢٣-٣٢٤ .

وقال ابن جُريج: هو الوقار والبهاء.

وقال شِمْر بن عطية: هو صفرةُ الوجه من قيام الليل[١].

قال الحسن: إذا رأيتَهم حسبتهم مرضى، وما هم بمرضى. وقال الضَّحَّاك: أَمَا إنَّه ليس بالنَّدْب في وجوههم، ولكنَّه الصُّفرة[٢].

وقال سفيان الثَّوريُّ: يصلُّون بالليل، فإذا أصبحوا رُؤي ذلك في وجوههم؛ بيانه قولُه ﷺ: «من كثرت صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار». وقد مضى القول فيه آنفاً.

وقال عطاء الخُراسانيُّ: دخل في هذه الآية كلُّ من حافظ على الصلوات الخمس[٣].

الثالثة: قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ﴾ قال الفرَّاء[٤]: فيه وجهان، إن شئتَ قلتَ: المعنى: ذلك مَثَلُهم في التوراة وفي الإنجيل أيضاً؛ كمثلهم في القرآن؛ فيكون الوقف على «الإنْجِيل». وإن شئت قلت: تمامُ الكلام: ذلك مَثَلهم في التوراة. ثم ابتدأ فقال: ومَثَلُهم في الإنجيل[٥]. وكذا قال ابن عباس وغيره: هما مَثَلان؛ أحدهما في التوراة، والآخر في الإنجيل؛ فيوقف على هذا على «التَّورَاةِ»[٦]. وقال مجاهد: هو مَثَل واحد[٧]؛ يعني أنَّ هذه صفتُهم في التوراة والإنجيل، فلا يوقف على «التَّورَاةِ» على هذا، ويوقف على «الإنْجِيل»، ويَبتدئ: ﴿كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ﴾ على معنى: وهُم كزرع.

(١) أخرجه الطبري ٢١/ ٣٢٥ بلفظ: تَهيُّج. بدل: صفرة.

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٢٠٦ .

(٣) تفسير البغوي ٤/ ٢٠٦ .

(٤) في معاني القرآن ٣/ ٦٩ .

(٥) إيضاح الوقف والابتداء ٢/ ٩٠١ ، وكلام الفراء السالف منه.

(٦) الكلام بنحوه في المحرر الوجيز ٥/ ١٤٢ دون نسبته إلى ابن عباس.

(٧) أخرجه الطبري ٢١/ ٣٢٩ .

و«شَطأَهُ» يعني فراخه وأولاده، قاله ابن زيد وغيره[١]. وقال مقاتل: هو نبتٌ واحد، فإذا خرج ما بعده فقد شَطَأه[٢]. قال الجوهريُّ: شَطْءُ، الزرع والنبات: فراخُهُ، والجمعُ: أشطاء. وقد أشطأ الزرعُ: خرج شَطؤه. قال الأخفش في قوله: «أخْرَجَ شَطأَهُ» أي: طَرفَه[٣]. وحكاه الثعلبي عن الكسائي. وقال الفراء: أشطأ الزرعُ فهو مُشطِئٌ، إذا خرج. قال الشاعر:

أخرج الشَّطءَ على وجه الثَّرى ومن الأشجار أفنانَ الثمر[٤]

الزَّجّاج[٥]: أخرج شطأه، أي: نباته.

وقيل: إنَّ الشَّطءَ شوكُ السُّنْبُل، والعرب أيضاً تسمِّيه: السَّفَا، والبُهْمَى[٦]، قاله قُطْرُب. وقيل: إنَّه السنبل، فيخرج من الحبة عشرُ سنبلاتٍ وتسعٌ وثمان؛ قاله الفرَّاء[٧]، حكاه الماورديُّ[٨].

وقرأ ابن كثير وابن ذَكوان: «شَطَأه» بفتح الطَّاء، وأَسكنَ الباقون[٩]. وقرأ أنسٌ ونصرُ بن عاصم وابنُ وثَّاب: «شَطَاه»، مثل: عصاه[١٠]. وقرأ الجحدريُّ وابن أبي

(١) أخرجه الطبري ٢١/ ٣٣٠.

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٢٠٦.

(٣) الصحاح (شطأ).

(٤) البيت للزبير بن العوام ﷺ. وهو في جمهرة أشعار العرب ١/ ١٣٩، وفيه: يخرج. بدل: أخرج.

(٥) في معاني القرآن ٥/ ٢٩.

(٦) في النسخ الخطية: السفا والبهم، والمثبت من النكت والعيون والكلام منه. وقال في الصحاح: السَّفا: شوك البُهْمى، ونحوه في (م). وقال في القاموس: السَّفا: كل شجر له شوك. والبُهْمَى: هو نبت (يشبه الشعير) تَجِد به الغنم وجداً شديداً ما دام أخضر، فإذا يبس هرَّ شوكه وامتنع. تهذيب اللغة ٦/ ٣٣٩.

(٧) في معاني القرآن ٣/ ٦٩.

(٨) في النكت والعيون ٥/ ٣٢٣.

(٩) السبعة ص٦٠٤، والتيسير ص٢٠٢.

(١٠) نسب هذه القراءة ابنُ جني في المحتسب ٢/ ٢٧٧ لعيسى الهمداني، ونسبها أبو حيان في البحر ٨/ ١٠٢ لزيد بن علي.

إسحاق: «شَطَه» بغير همز؛ وكلُّها لغاتٌ فيها[(١)].

وهذا مَثَلٌ ضربَه الله تعالى لأصحاب النبيِّ ﷺ؛ يعني أنَّهم يكونون قليلاً ثم يزدادون ويكثرون؛ فكان النبيُّ ﷺ حين بدأ بالدُّعاء إلى دينه ضعيفاً، فأجابه الواحدُ بعد الواحد حتى قَوِيَ أمرُه؛ كالزرع يبدو بعد البَذْر ضعيفاً، فيقوَى حالاً بعد حالٍ حتى يغلُظَ ساقُه[(٢)] وأفراخُه. فكان هذا من أصحِّ مَثَلٍ، وأوضح[(٣)] بيان.

وقال قتادة: مَثَلُ أصحاب محمدٍ ﷺ في الإنجيل مكتوبٌ أنَّه سَيَخرجُ من قومٍ ينبتون نباتَ الزَّرع يأمرون بالمعروف، وينهَوْن عن المنكر[(٤)].

﴿فَـَٔازَرَهُۥ﴾ أي: قوَّاه وأعانه وشدَّه؛ أي: قوَّى الشطءُ الزرعَ. وقيل بالعكس، أي: قوَّى الزرعُ الشطءَ[(٥)].

وقراءةُ العامة: «آزَرَهُ» بالمدِّ. وقرأ ابن ذكوانٍ وأبو حَيوةَ وحُميد بن قيس: «فَأَزَرَهُ» مقصورة، مثل: فَعَله[(٦)]. والمعروف المدُّ. قال امرؤ القيس:

بِمَحْنِيَةٍ قد آزرَ الضَّالُ نَبْتَها مَجَرَّ جيوشٍ غانمينَ وخُيَّبِ[(٧)]

﴿فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ﴾: على عوده الذي يقوم عليه، فيكون ساقاً له[(٨)]. والسُّوق: جمع الساق.

---

(١) نسبها للجحدري أبو حيان في البحر المحيط ٨/ ١٠٣ .

(٢) في (ز) و(م): نباته، وفي (ق): شانه.

(٣) في (م): وأقوى. والمثبت من النسخ الخطية وهو الموافق للنكت والعيون ٥/ ٣٢٤ والكلام منه.

(٤) أخرجه الطبري ٢١/ ٣٣٠ .

(٥) الكلام بنحوه في المحرر الوجيز ٥/ ١٤٢ .

(٦) قراءة ابن ذكوان ـ وهو راوية ابن عامر ـ في السبعة ص٦٠٥ ، والتيسير ص٢٠٢ .

(٧) ديوان امرئ القيس ص٤٥ ، قال شارحه: المحنية: حيث ينحني الوادي؛ وهو أخصب موضع فيه... وقوله: مجر جيوش. أي: هذه المحنية في موضع تمر الجيوش به من غانم أو خائب، فلا ينزلها أحدٌ ليرعاها خوفاً من الجيوش؛ فذلك أوفر لخصبها، وأتم لكلئها. اهـ. والضَّالُ: السِّدْر البَرِّي، أو ما لا يسقيه إلا المطر منه. القاموس (ضال).

(٨) النكت والعيون ٥/ ٣٢٣ .

﴿يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ﴾ أي: يعجب هذا الزرعُ زُرَّاعه. وهو مَثَلٌ كما بيَّنَّا، فالزرعُ محمدٌ ﷺ، والشطءُ أصحابه، كانوا قليلاً فكثروا، وضعفاء فَقَوُوا، قاله الضحاك وغيره.

﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ﴾ اللام متعلقة بمحذوف، أي: فَعَلَ الله هذا لمحمدٍ ﷺ وأصحابه، ليغيظ بهم الكفار[1].

الرابعة: قوله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي: وعد الله هؤلاء الذين مع محمد ﷺ وهم المؤمنون الذين أعمالهم صالحة. ﴿مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ أي: ثواباً لا ينقطع، وهو الجنَّة.

وليست «مِن» في قوله: «منهم» مبعِّضةً لقومٍ من الصحابة دون قوم، ولكنَّها عامةٌ مجنِّسة، مثل قوله تعالى: ﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَـٰنِ﴾ [الحج: ٣٠]، لا يُقصد للتبعيض؛ لكنَّه يذهب إلى الجنس، أي: فاجتنبوا الرِّجس من جنس الأوثان، إذْ كان الرِّجس يقع من أجناسٍ شتّى؛ منها الزِّنى، والرِّبا، وشربُ الخمر، والكذب. فأدخل «مِن» يفيدُ بها الجنس، وكذا «منهم»، أي: من هذا الجنس، يعني: جنسَ الصحابة. ويقال: أنفقْ نفقتَكَ من الدراهم، أي: اجعل نفقتَك هذا الجنس. وقد يُخصَّصُ أصحابُ محمدٍ ﷺ بوعد المغفرة تفضيلاً لهم، وإنْ وَعَدَ اللهُ جميعَ المؤمنين المغفرةَ.

وفي الآية جوابٌ آخر: وهو أنَّ «من» مؤكدةٌ للكلام، والمعنى وَعَدهم الله كلَّهم مغفرةً وأجراً عظيماً. فجرى مجرى [قول][2] العربي: قطعتُ من الثوب قميصاً؛ يريد قطعتُ الثوبَ كلَّه قميصاً. و«من» لم تبعِّض شيئاً. وشاهدُ هذا من القرآن: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ﴾ [الإسراء: ٨٢] معناه: وننزِّل القرآن شفاءً؛ لأنَّ كلَّ حرفٍ منه يَشفي، وليس الشِّفاءُ مختصًّا به بعضُه دون بعض. على أنَّ من اللُّغويين من يقول:

---

(١) الوجيز (بحاشية مراح لبيد) ٢/ ٣١٢.

(٢) ما بين حاصرتين زيادة يقتضيها السياق.

«من» مجنِّسة؛ تقديرها: نُنزِّل الشفاءَ من جنس القرآن، ومن جهة القرآن، ومن ناحية القرآن. قال زهير[١]:

أمِـن أُمِّ أوفَـى دِمْـنَـةٌ لـم تَـكَـلَّـمِ

أراد: من ناحية أمِّ أَوْفَى دِمْنَةٌ، أم من منازلها دِمْنَة. وقال الآخر:

أخُـو رغـائـبَ يُـعـطـيـهـا ويُـسـألُـهـا   يـأبَـى الـظُّـلامـةَ مـنـه الـنَّـوفَـلُ الـزُّفَـرُ[٢]

فـ«من» لم تُبعِّض شيئاً، إذْ كان المقصد: يأبى الظُّلامةَ؛ لأنَّه نَوفَلٌ زُفَرُ. والنَّوفَل: الكثير العطاء. والزُّفَر: حاملُ الأثقال والمؤن عن الناس.

الخامسة: روى أبو عروةَ الزبيريُّ من ولد الزبير: كنَّا عند مالك بن أنس، فذكروا رجلاً ينتقصُ أصحاب رسول الله ﷺ، فقرأ مالكُ هذه الآية: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾ حتى بلغ: ﴿يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَۗ﴾. فقال مالك: مَن أصبح من الناس في قلبه غَيظ على أحد من أصحاب رسول الله ﷺ، فقد أصابته هذه الآية؛ ذكره الخطيب أبو بكر[٣].

قلت: لقد أحسن مالكٌ في مقالته، وأصاب في تأويله. فمن نَقَصَ واحداً منهم، أو طعن عليه في روايته، فقد ردَّ على الله رَبِّ العالمين، وأبطلَ شرائعَ المسلمين؛ قال الله تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ﴾ الآية. وقال: ﴿لَّقَدۡ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ يُبَايِعُونَكَ تَحۡتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ [الفتح:١٨]. إلى غير ذلك من الآي التي تضمَّنت الثناءَ عليهم، والشهادةَ لهم بالصدق والفلاح؛ قال الله تعالى: ﴿رِجَالٞ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيۡهِۖ﴾ [الأحزاب:٢٣]. وقال: ﴿لِلۡفُقَرَآءِ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَأَمۡوَٰلِهِمۡ يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗا﴾ إلى قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾

(١) في ديوانه ص٤، وسلف ٤/ ٤٧٣.

(٢) الكلام بنحوه في كتاب الأضداد للأنباري ص٢٥٢-٢٥٣. والبيت لأعشى باهلة كما في الأصمعيات ص٩٠.

(٣) لم نقف عليه عند الخطيب، وأخرجه أبو نعيم في الحلية ٦/ ٣٢٧.

[الحشر:٨]، ثم قال عزَّ من قائل: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ إلى قوله: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر:٩].

وهذا كله مع علمه تبارك وتعالى بحالهم ومآلِ أمرهم، وقال رسول الله ﷺ: «خَيرُ الناسِ قَرنِي، ثم الذين يلونهم». وقال: «لا تَسُبُّوا أصحابي، فلو أنَّ أحدكم أنفق مثلَ أُحُدٍ ذهباً، لم يُدرك مُدّ أحدهم ولا نَصِيفه» خرَّجهما البخاري(١). وفي حديث آخر: «فلو أنَّ أحدكم أنفقَ ما في الأرض، لم يُدرك مُدَّ أحدهم ولا نَصيفه»(٢).

قال أبو عبيد(٣): معناه لم يُدرك مُدَّ أحدهم إذا تصدَّق به، ولا نصفَ المُدِّ؛ فالنصيفُ هو النصفُ هنا. وكذلك يقال للعُشر: عَشِير، وللخُمس: خميس، وللتِّسع: تَسيع، وللثُّمن: ثَمين، وللسُّبع: سَبيع، وللسُّدس: سَدِيس، وللرُّبع: رَبيع. ولم تقل العرب للثلث ثليث.

وفي البزَّار عن جابرٍ مرفوعاً صحيحاً: «إنَّ الله اختار أصحابي على العالمين سوى النبيِّين والمرسلين، واختار لي من أصحابي أربعة ـ يعني أبا بكرٍ وعمرَ وعثمانَ وعليًّا ـ فجعلهم أصحابي. وقال في أصحابي: كلُّهم خير»(٤).

وروى عُوَيم بن ساعدة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله عزَّ وجلَّ اختارني واختار لي أصحابي، فجعل لي منهم وزراءَ وأختاناً وأصهاراً، فمن سَبَّهم فعليه لعنةُ الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل الله منه يوم القيامة صَرْفاً ولا عَدْلاً»(٥).

---

(١) الحديث الأول أخرجه البخاري (٢٦٥٢)، وهو عند أحمد (٣٥٩٤)، ومسلم (٢٥٣٣) عن عبد الله بن مسعود ﷺ، والحديث الثاني أخرجه البخاري (٣٦٧٣)، وهو عند أحمد (١١٠٧٩)، ومسلم (٢٥٤١) عن أبي سعيد الخدري ﷺ.

(٢) أخرجه القزويني في التدوين في أخبار قزوين ٢/ ٣٩٧-٣٩٨.

(٣) في غريب الحديث ٢/ ١٦٤ - ١٦٥.

(٤) أخرجه البزار كما في كشف الأستار (٢٧٦٣). قال البزار: لا نعلمه يروى عن جابر إلا بهذا الإسناد، ولم يشارك عبد الله بن صالح في روايته هذه عن نافع بن يزيد أحد نعلمه. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/ ١٦ : رجاله ثقات وفي بعضهم خلاف.

(٥) أخرجه ابن أبي عاصم في السنة (١٠٠٠)، والطبراني في الأوسط (٤٥٩)، والكبير ١٧/ (٣٤٩)، قال =

والأحاديث بهذا المعنى كثير[١]، فَحذَارِ من الوقوع في أحد منهم، كما فعل مَن طعن في الدِّين فقال: إنَّ المُعَوِّذَتين ليستا من القرآن، وما صحَّ حديثٌ عن رسول الله ﷺ في تثبيتهما ودخولهما في جملة التنزيل، إلاَّ عن عقبةَ بن عامر[٢]، وعقبةُ بن عامرٍ ضعيفٌ لم يوافق غيره عليها، فروايته مُطَّرحة! وهذا ردٌّ لما ذكرناه من الكتاب والسنة، وإبطالٌ لما نقلَته لنا الصحابة من المِلَّة. فإنَّ عقبةَ بن عامر بن عيسى الجُهني، ممن رَوى لنا الشريعةَ في الصحيحين: البخاري ومسلم وغيرهما، فهو ممن مدحهم الله ووصفهم، وأثنى عليهم ووعدهم مغفرةً وأجراً عظيماً. فمن نسبَه أو واحداً من الصحابة إلى كذبٍ، فهو خارجٌ عن الشريعة، مُبطِلٌ للقرآن طاعنٌ على رسول الله ﷺ. ومتى ألحِق واحدٌ منهم تكذيباً فقد سُبَّ؛ لأنَّه لا عارٌ ولا عيبٌ بعد الكفر بالله أعظمَ من الكذب، وقد لَعن رسول الله ﷺ من سَبَّ أصحابه؛ فالمكذِّب لأصغرهم ـ ولا صغيرَ فيهم ـ داخلٌ في لعنة الله التي شهد بها رسولُ الله ﷺ، وألزمَها كلَّ مَن سبَّ واحداً من أصحابه، أو طعن عليه.

وعن عمر بن حبيب[٣] قال: حضرتُ مجلسَ هارونَ الرشيد. فجرتْ مسألةٌ تنازعها الحضور، وعلَتْ أصواتهم؛ فاحتجَّ بعضُهم بحديثٍ يرويه أبو هريرةَ عن رسول الله ﷺ؛ فرفع بعضُهم الحديث، وزادت المدافعةُ والخصام، حتى قال قائلون منهم: لا يُقبل هذا الحديث على رسول الله ﷺ؛ لأنّ أبا هريرة مُتَّهمٌ فيما يرويه،

= الطبراني في المعجم الأوسط: لا يروى عن عويم بن ساعدة إلا بهذا الإسناد، تفرد به محمد بن طلحة التيمي. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/ ١٦ : وفيه من لم أعرفه. وأخرجه ابن حجر في الأمالي المطلقة ص٧٠-٧١ وقال: هذا حديث حسن.

(١) في (م): كثيرة.

(٢) يشير إلى الحديث الذي رواه مسلم (٨١٤) عن عقبة بن عامر ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «ألم تر آيات أنزلت هذه الليلة، لم ير مثلهن قط؟ ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾.

(٣) هو العدوي البصري القاضي، قال البخاريُّ: يتكلمون فيه، وقال يحيى بن معين: ضعيف، كان يكذب. مات بالبصرة سنة سبع ومئتين. سير أعلام النبلاء ٩/ ٤٩٠-٤٩١ .

وصَرَّحوا بتكذيبه، ورأيتُ الرشيدَ قد نحا نحوهم، ونَصَر قولهم، فقلت أنا: الحديثُ صحيحٌ عن رسول الله ﷺ، وأبو هريرةَ صحيحُ النَّقل، صدوقٌ فيما يرويه عن نبيِّ الله ﷺ وغيره. فنظر إليَّ الرشيدُ نَظر مُغضَب، وقمتُ من المجلس فانصرفتُ إلى منزلي، فلم ألبثْ حتى قيل: صاحبُ البريد بالباب، فدخل فقال لي: أجبْ أميرَ المؤمنين إجابةَ مقتول، وتحنَّط وتكفَّن! فقلت: اللهُم إنَّك تعلم أنِّي دفعتُ عن صاحب نبيِّك، وأجللتُ نبيَّك أن يُطعنَ على أصحابه، فَسلِّمْني منه. فأُدخلتُ على الرشيد وهو جالسٌ على كرسيٍّ من ذهب، حاسرٌ عن ذراعيه؛ بيده السيف، وبين يديه النِّطْع[١]؛ فلما بَصُرَ بي قال لي: يا عمرَ بنَ حبيب، أتتلقَّاني من الردِّ والدفع بما تلقَّيتني به! فقلت: يا أمير المؤمنين، إنَّ الذي قُلتَه وجادلتَ عنه، فيه إزراءٌ[٢] على رسول الله ﷺ [وعلى ما جاء به]. إذا كان أصحابُه كذابين، فالشريعةُ باطلةٌ، والفرائضُ والأحكامُ في الصيام والصلاة والطلاق والنكاح والحدود؛ كلُّه مردودٌ غير مقبول! فرجع إلى نفسه ثم قال: أحييتني يا عمرَ بنَ حبيب أحياك الله، أحييتني يا عمرَ بن حبيب أحياك الله[٣]؛ وأمر لي بعشرة آلاف درهم[٤].

قلت: فالصحابة كلُّهم عدول، أولياءُ الله تعالى وأصفياؤه، وخِيرته من خلقه بعد أنبيائه ورسله. هذا مذهبُ أهل السنة، والذي عليه الجماعةُ من أئمة هذه الأمة. وقد ذهبت شِرذمةٌ لا مبالاةَ بهم إلى أنَّ حالَ الصحابة كحالِ غيرهم، فيلزمُ البحثُ عن عدالتهم.

---

(١) النطع: بساطٌ من الأديم. القاموس (نطع).

(٢) في (م) إزدراء.

(٣) قوله: أحييتني يا عمر بن حبيب أحياك الله. الثانية من (خ) وتاريخ بغداد للخطيب البغدادي ١١/ ١٩٦ - ١٩٧ . والقصة مخرجة فيه. وما سلف بين حاصرتين منه.

(٤) أخرج هذه القصة الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد ١١/١٩٦-١٩٧ ، ومن طريقه المزي في تهذيب الكمال ٢١/ ٢٩٤-٢٩٥ . ولا يخفى ما في هذه القصة من نكارة، فصاحبها عمر بن حبيب العدوي ضعيف متهم بالكذب كما تقدَّم.

ومنهم من فرَّق بين حالهم في بَداءة الأمر فقال: إنَّهم كانوا على العدالة إذ ذاك؛ ثم تغيَّرت بهمُ الأحوالُ، فظهرتْ فيهم الحروب وسفك الدماء؛ فلا بُدَّ من البحث.

وهذا مردودٌ؛ فإنَّ خيارَ الصحابة وفضلاءهم كعليٍّ وطلحةَ والزُّبير وغيرهم ﷺ ممن أثنى الله عليهم وزكَّاهم، ورضيَ عنهم وأرضاهم، ووعدهم الجنة بقوله تعالى: ﴿مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ وخاصةً العشرةَ المقطوعَ لهم بالجنة بإخبار الرسول، هم القدوةُ مع علمهم بكثيرٍ من الفتن والأمور الجارية عليهم بعد نبيِّهم بإخباره لهم بذلك. وذلك غيرُ مُسقِطٍ من مرتبتهم وفضلهم، إذ كانت تلك الأمورُ مبنيةً على الاجتهاد، وكلُّ مجتهد مصيبٌ.

وسيأتي الكلامُ في تلك الأمور في سورة الحجرات مبيَّنةً إنْ شاء الله تعالى[1].

تمَّ تفسيرُ سورة الفتح، والحمد لله.

---

(١) ١٦/٣٢١-٣٢٢.

تفسير سورة الفتح

وهى مدنية .

قال الإمام أحمد[(١)]: حدثنا وَكيع، حدثنا شُعْبَة، عن معاوية بن قرة قال: سمعت عبد الله بن مغفل يقول: قرأ رسول الله ﷺ عام الفتح فى مسيره سورة الفتح على راحلته فرجَّع فيها ـ قال معاوية: لولا أنى أكره أن يجتمع الناس علينا لحكيت لكم قراءته، أخرجاه من حديث شعبة به[(٢)].

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا (١) لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا (٢) وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا (٣)﴾ .

نزلت هذه السورة الكريمة لما رجع رسول الله ﷺ من الحديبية فى ذى القعدة من سنة ست من الهجرة، حين صده المشركون عن الوصول إلى المسجد الحرام ليقضى عمرته فيه، وحالوا بينه وبين ذلك، ثم مالوا إلى المصالحة والمهادنة، وأن يرجع عامه هذا ثم يأتى من قابل، فأجابهم إلى ذلك على تكرُّه من جماعة من الصحابة، منهم عمر بن الخطاب، رضى الله عنه،كما سيأتى تفصيله فى موضعه من تفسير هذه السورة إن شاء الله. فلما نحر هديه حيث أحصر ورجع، أنزل الله، عز وجل، هذه السورة فيما كان من أمره وأمرهم، وجعل ذلك الصلح فتحًا باعتبار ما فيه من المصلحة، وما آل الأمر إليه، كما روى عن ابن مسعود، رضى الله عنه، وغيره أنه قال: إنكم تعدون الفتح فتح مكة، ونحن نعد الفتح صلح الحديبية.

وقال الأعمش، عن أبى سفيان، عن جابر قال: ما كنا نعد الفتح إلا يوم الحديبية[(٣)].

وقال[(٤)] البخارى: حدثنا عبيد الله بن موسى، عن إسرائيل، عن أبى إسحاق، عن البراء قال: تعدون أنتم الفتح فتح مكة، وقد كان فتح مكة فتحًا، ونحن نعد الفتح بيعة الرضوان يوم الحديبية، كنا مع رسول الله ﷺ أربع عشرة مائة، والحديبية بئر. فنزحناها فلم نترك فيها قطرة، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فأتاها فجلس عل شفيرها، ثم دعا بإناء من ماء فتوضأ، ثم تمضمض ودعا، ثم صبه فيها، فتركناها غير بعيد، ثم إنها أصدرتنا ما شئنا نحن وركائبنا[(٥)].

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو نوح، حدثنا مالك بن أنس، عن زيد بن أسلم، عن أبيه[(٦)]، عن عمر بن الخطاب قال: كنا مع رسول الله ﷺ فى سفر، قال: فسألته عن شىء ـ ثلاث مرات ـ فلم

(١) فى ت: «وروى البخارى ومسلم والإمام أحمد» .
(٢) المسند (٥/ ٢٤) وصحيح البخارى برقم (٤٨٣٥) وصحيح مسلم برقم (٧٩٤).
(٣) رواه الطبرى (٢٦/ ٤٤).
(٤) فى ت: «وروى».
(٥) صحيح البخارى برقم (٤١٥٠).
(٦) فى ت: «وروى الإمام أحمد بإسناده».

يرد على، قال: فقلت لنفسى: ثكلتك أمك يا ابن الخطاب، نزرت رسول الله ﷺ ثلاث مرات فلم يرد عليك؟ قال: فركبت راحلتى فتقدمت مخافة أن يكون نزل فى شىء، قال: فإذا أنا بمناد ينادى: يا عمر، أين عمر؟ قال: فرجعت وأنا أظن أنه نزل فى شىء، قال: فقال النبى ﷺ: «نزلت[(١)] على الليلة[(٢)] سورة هى أحب إلى من الدنيا وما فيها: **﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا . لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾**».

ورواه البخارى، والترمذى، والنسائى من طرق، عن مالك، رحمه الله[(٣)]، وقال على بن المدينى: هذا إسناد مدينى [جيد][(٤)] لم نجده إلا عندهم.

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا معمر، عن قتادة، عن أنس بن مالك، رضى الله عنه، قال: نزلت على النبى ﷺ: **﴿ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾** مرجعه من الحديبية، قال النبى ﷺ: «لقد أنزلت على آية أحب إلى مما على الأرض»، ثم قرأها عليهم النبى ﷺ فقالوا: هنيئا مريئا يا نبى الله، لقد بين الله، عز وجل، ماذا يفعل بك، فماذا يفعل بنا؟ فنزلت عليه: **﴿ لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ ﴾** حتى بلغ: **﴿ فَوْزًا عَظِيمًا﴾** [الفتح: ٥]، أخرجاه فى الصحيحين من رواية قتادة به[(٥)].

وقال[(٦)] الإمام أحمد: حدثنا إسحاق بن عيسى، حدثنا مُجَمِّعُ بن يعقوب، قال: سمعت أبى يحدث عن عمه عبد الرحمن بن أبى يزيد الأنصارى عن عمه مجمع بن جارية الأنصارى ـ وكان أحد[(٧)] القراء الذين قرؤوا القرآن ـ قال: شهدنا الحديبية فلما انصرفنا عنها إذا الناس ينفرون الأباعر، فقال الناس بعضهم لبعض: ما للناس؟ قالوا: أوحى إلى رسول الله ﷺ، فخرجنا مع الناس نوجف، فإذا رسول الله ﷺ على راحلته عند كراع الغميم، فاجتمع الناس عليه، فقرأ عليهم: **﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴾**، قال: فقال رجل من أصحاب رسول الله ﷺ: أى رسول الله، وفتح هو؟ قال: «إى والذى نفس محمد بيده، إنه لفتح». فقسمت خيبر على أهل الحديبية لم يدخل معهم فيها أحد إلا من شهد الحديبية، فقسمها رسول الله ﷺ على ثمانية عشر سهما، وكان الجيش ألفا وخمسمائة فارس، فأعطى الفارس سهمين، وأعطى الراجل سهما.

رواه أبو داود فى الجهاد عن محمد بن عيسى، عن مجمع بن يعقوب، به[(٨)].

وقال[(٩)] ابن جرير: حدثنا محمد بن عبد الله بن بزيع، حدثنا أبو بحر، حدثنا شعبة، حدثنا جامع بن شداد، عن عبد الرحمن بن أبى علقمة، قال: سمعت عبد الله بن مسعود يقول[(١٠)]: لما

---

(١) فى م: «نزل». (٢) فى ت، م: «البارحة».

(٣) المسند (١/ ٣١) وصحيح البخارى برقم (٤٨٣٣) وسنن الترمذى برقم (٣٢٦٢) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٤٩٩).

(٤) زيادة من م.

(٥) المسند (٣/ ١٩٧) وصحيح البخارى برقم (٤١٤٨) وصحيح مسلم برقم (١٧٨٦).

(٦) فى ت: «وروى». (٧) فى ت: «أحب».

(٨) المسند (٣/ ٤٢٠) وسنن أبى داود برقم (٢٧٣٦).

(٩) فى ت: «وروى». (١٠) فى ت: «عن ابن مسعود قال».

أقبلنا من الحديبية أعرسنا فنمنا، فلم نستيقظ إلا بالشمس قد طلعت، فاستيقظنا ورسول الله ﷺ نائم، قال: فقلنا: «امضوا»[١]. فاستيقظ رسول الله ﷺ: فقال: «افعلوا كما كنتم تفعلون وكذلك [يفعل][٢] من نام أو نسى». قال: وفقدنا ناقة رسول الله ﷺ، فطلبنها، فوجدناها قد تعلق خطامها بشجرة، فأتيته بها فركبها[٣]، فبينا نحن نسير إذ أتاه الوحي، قال: وكان إذا أتاه [الوحى][٤] اشتد عليه، فلما سرى عنه أخبرنا أنه أنزل عليه: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾.

وقد رواه أحمد وأبو داود، والنسائى من غير وجه، عن جامع بن شداد به[٥].

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرحمن، حدثنا سفيان عن زياد بن علاقة، قال: سمعت المغيرة ابن شعبة[٦] يقول: كان النبى[٧] ﷺ يصلى حتى ترم قدماه، فقيل له: أليس قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال: «أفلا أكون عبداً شكوراً».

أخرجاه[٨] وبقية الجماعة إلا أبا داود من حديث زياد به[٩].

وقال الإمام أحمد: حدثنا هارون بن معروف، حدثنا ابن وهب، حدثنى أبو صخر، عن ابن قسيط، عن عروة بن الزبير، عن عائشة، قالت: كان رسول الله ﷺ إذا صلى قام حتى تتفطر رجلاه[١٠].

فقالت له عائشة: يا رسول الله، أتصنع هذ وقد غفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال: «يا عائشة، أفلا أكون عبداً شكوراً؟».

أخرجه مسلم فى الصحيح من رواية عبد الله بن وهب، به[١١].

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا على بن الحسين، حدثنا عبد الله بن عون الخراز ـ وكان ثقة بمكة ـ حدثنا محمد بن بشر[١٢] حدثنا مسعر، عن قتادة، عن أنس، قال: قام رسول الله ﷺ حتى تورمت قدماه ـ أو قال: ساقاه ـ فقيل له: أليس قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: «أفلا أكون عبداً شكوراً؟». غريب من هذا الوجه[١٣].

---

(١) فى م: «أنصتوا». (٢) زيادة من ت، أ.
(٣) فى ت: «فركب». (٤) زيادة من م.
(٥) تفسير الطبرى (٢٦/ ٤٣) والمسند (١/ ٤٦٤) وسنن أبى داود برقم (٤٤٧) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (٨٨٥٣).
(٦) فى ت: «وروى الإمام أحمد بسنده». (٧) فى أ: «رسول الله».
(٨) فى ت: «أخرجه البخارى ومسلم».
(٩) المسند (٤/ ٥٥) وصحيح البخارى برقم (٤٨٣٦) وصحيح مسلم برقم (٢٨١٩) وسنن الترمذى برقم (٤١٢) وسنن النسائى (٣/ ٢١٩) وسنن ابن ماجه برقم (١٤١٩).
(١٠) فى أ: «ينفطر قدماه».
(١١) المسند (٦/ ١١٥) وصحيح مسلم برقم (٢٨٢٠).
(١٢) فى أ: «بشير».
(١٣) ورواه أبو يعلى فى المسند (٥/ ٢٨٠) من طريق عبد الله بن عون الخراز به، ورواه البزار فى مسنده برقم (٢٣٨٠) «كشف الأستار» من طريق الحسين بن الأسود عن محمد بن بشر به، وقال البزار: «لا نعلم أحدا حدث بهذا الحديث بهذا الإسناد إلا الحسين بن بشر وعبد الله بن عون الخراز، وقد رواه غيرهما عن محمد بن بشر عن مسعر، عن زياد بن علاقة، عن المغيرة بن شعبة، وهو الصواب» ،فكلام الإمام البزار هنا موضح لقول الحافظ ابن كثير: «غريب من هذا الوجه».

فقوله: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ أى: بينا ظاهرا، والمراد به صلح الحديبية فإنه حصل بسببه خير جزيل، وآمن الناس واجتمع بعضهم ببعض[١]، وتكلم المؤمن مع الكافر، وانتشر العلم النافع والإيمان.

وقوله: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾: هذا من خصائصه ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ التى لا يشاركه فيها غيره. وليس صحيح فى ثواب الأعمال لغيره غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر. وهذا فيه تشريف عظيم لرسول الله ﷺ، وهو ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ فى جميع أموره على الطاعة والبر والاستقامة التى لم ينلها بشر سواه، لا من الأولين ولا من الآخرين، وهو أكمل البشر على الإطلاق، وسيدهم فى الدنيا والآخرة. ولما كان أطوع خلق الله لله، وأكثرهم[٢] تعظيما لأوامره[٣] ونواهيه، قال حين بركت به الناقة: «حبسها حابس الفيل»، ثم قال: «والذى نفسى بيده، لا يسألونى اليوم شيئا يعظمون به حرمات الله إلا أجبتهم إليها»[٤]. فلما أطاع الله فى ذلك وأجاب إلى الصلح، قال الله له: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا. لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ﴾ أى: فى الدنيا والآخرة، ﴿وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ أى: بما يشرعه لك من الشرع العظيم والدين القويم، ﴿وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾ أى: بسبب خضوعك لأمر الله يرفعك الله وينصرك على أعدائك، كما جاء فى الحديث الصحيح: «وما زاد الله عبدا بعفو إلا عزا، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله»[٥]. وعن عمر بن الخطاب [رضى الله عنه][٦] أنه قال: ما عاقبت ـ أى فى الدنيا والآخرة ـ أحدا عصى الله تعالى فيك بمثل أن تطيع الله فيه.

﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾ لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِندَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٥﴾ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٧﴾﴾.

يقول تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ﴾ أى: جعل الطمأنينة. قاله ابن عباس، وعنه: الرحمة.

وقال قتادة: الوقار فى قلوب المؤمنين. وهم الصحابة يوم الحديبية، الذين استجابوا لله ولرسوله، وانقادوا لحكم الله ورسوله، فلما اطمأنت قلوبهم لذلك، واستقرت، زادهم إيمانًا مع إيمانهم.

---

(١) فى م: «بعضا». (٢) فى ت، أ: «وأشدهم». (٣) فى ت: «لأوامر الله».
(٤) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٢٧٣١، ٢٧٣٢).
(٥) رواه مسلم فى صحيحه برقم (٢٥٨٨) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه.
(٦) زيادة من ت.

وقد استدل بها البخارى وغيره من الأئمة على تفاضل الإيمان فى القلوب.

ثم ذكر تعالى أنه لو شاء لانتصر من الكافرين، فقال: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أى: ولو أرسل عليهم ملكا واحدا لأباد خضراءهم، ولكنه تعالى شرع لعباده المؤمنين الجهاد والقتال، لما له فى ذلك من الحكمة البالغة والحجة القاطعة، والبراهين الدامغة؛ ولهذا قال: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾، ثم قال تعالى: ﴿ لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾، قد تقدم حديث أنس: قالوا: هنيئا لك يا رسول الله، هذا لك فما لنا؟ فأنزل الله: ﴿ لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أى: ماكثين فيها أبدا، ﴿ وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ أى: خطاياهم وذنوبهم، فلا يعاقبهم عليها، بل يعفو ويصفح ويغفر، ويستر ويرحم ويشكر، ﴿وَكَانَ ذَلِكَ عِندَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا﴾، كقوله: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

وقوله: ﴿وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ﴾ أى: يتهمون الله فى حكمه، ويظنون بالرسول وأصحابه أن يقتلوا ويذهبوا بالكلية؛ ولهذا قال: ﴿عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ﴾ أى: أبعدهم من رحمته، ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾.

ثم قال مؤكدا لقدرته على الانتقام من الأعداء ـ أعداء الإسلام من الكفرة والمنافقين ـ: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾.

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (٨) لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (٩) إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا (١٠) ﴾.

يقول تعالى لنبيه محمد ـ صلوات الله وسلامه عليه[1] ـ ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا﴾ أى: على الخلق، ﴿وَمُبَشِّرًا﴾ أى: للمؤمنين، ﴿وَنَذِيرًا﴾ أى: للكافرين. وقد تقدم تفسيرها فى سورة «الأحزاب»[2] ﴿لِيُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَيُعَزِّرُوهُ﴾، قال ابن عباس وغير واحد: يعظموه، ﴿وَيُوَقِّرُوهُ﴾، من التوقير وهو الاحترام والإجلال والإعظام، ﴿وَيُسَبِّحُوهُ﴾ أى: يسبحون الله، ﴿ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ أى: أول النهار وآخره.

ثم قال تعالى لرسوله ﷺ تشريفا له وتعظيما وتكريما: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾، كقوله: ﴿مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠]، ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ أى: هو حاضر معهم يسمع أقوالهم ويرى مكانهم، ويعلم ضمائرهم وظواهرهم، فهو تعالى هو المبايع بواسطة رسوله

(١) فى ت،م: «صلى الله عليه وسلم».
(٢) عند الآية الخامسة والأربعين.

ﷺ، كقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١١١].

وقد قال[١] ابن حاتم: حدثنا على بن الحسين، حدثنا الفضل بن يحيى الأنبارى، حدثنا على بن بكار، عن محمد بن عمرو، عن أبى سلمة، عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من سل سيفه فى سبيل الله، فقد بايع الله»[٢].

وحدثنا أبى، حدثنا يحيى بن المغيرة، أخبرنا جرير، عن عبد الله بن عثمان بن خثيم، عن سعيد ابن جبير عن ابن عباس، قال: قال رسول الله ﷺ فى الحجر: «والله ليبعثه الله يوم القيامة له عينان ينظر بهما، ولسان ينطق به، ويشهد على من استلمه بالحق، فمن استلمه فقد بايع الله»، ثم قرأ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾[٣].

ولهذا قال هاهنا: ﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ﴾ أى: إنما يعود وبال ذلك على الناكث، والله غنى عنه، ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ أى: ثوابا جزيلاً. وهذه البيعة هى بيعة الرضوان، وكانت تحت شجرة سَمُر بالحديبية، وكان الصحابة الذين بايعوا رسول الله ﷺ يومئذ قيل: ألف وثلثمائة. وقيل: أربعمائة. وقيل: وخمسمائة. والأوسط[٤] أصح.

ذكر الأحاديث الواردة فى ذلك:

قال البخارى: حدثنا قتيبة، حدثنا سفيان، عن عمرو، عن جابر قال: كنا يوم الحديبية ألفا وأربعمائة.

ورواه مسلم من حديث سفيان بن عيينة، به[٥]. وأخرجاه أيضا من حديث الأعمش، عن سالم ابن أبى الجعد، عن جابر قال: كنا يومئذ ألفا وأربعمائة، ووضع يده فى ذلك الماء، فنبع الماء من بين أصابعه، حتى رووا كلهم[٦].

وهذا مختصر من سياق آخر حين ذكر قصة عطشهم يوم الحديبية، وأن رسول الله ﷺ أعطاهم سهما من كنانته، فوضعوه فى بئر الحديبية، فجاشت بالماء، حتى كفتهم، فقيل لجابر: كم كنتم يومئذ؟ قال: كنا ألفا وأربعمائة، ولو كنا مائة ألف لكفانا[٧]. وفى رواية [فى][٨] الصحيحين عن جابر: أنهم كانوا خمس عشرة مائة[٩].

---

(١) فى ت: «وروى».
(٢) ورواه ابن مردويه كما فى الجامع الصغير، ورمز له السيوطى بالضعف.
(٣) ورواه الترمذى فى السنن برقم (٩٦١) من طريق قتيبة عن جرير بإسناده إلى قوله: «يشهد على من استلمه بالحق» ولم يذكر الآية، وقال الترمذى: «هذا حديث حسن».
(٤) فى ت: «والأول».
(٥) صحيح البخارى برقم (٤٨٤٠) وصحيح مسلم برقم (١٨٥٦).
(٦) صحيح البخارى برقم (٤١٥٤) وصحيح مسلم برقم (١٨٥٦).
(٧) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٥٦٣٩).
(٨) زيادة من م، أ.
(٩) صحيح البخارى برقم (٤١٥٢) وصحيح مسلم برقم (١٨٥٦).

وروى البخارى من حديث قتادة، قلت لسعيد بن المسيب: كم كان الذين شهدوا بيعة الرضوان؟ قال: خمس عشرة مائة.

قلت: فإن جابر بن عبد الله، رضى الله عنهما، قال: كانوا أربع عشرة مائة. قال رحمه الله: وهم، هو حدثنى أنهم كانوا خمس عشرة مائة[١].

قال البيهقى: هذه الرواية تدل على أنه كان فى القديم يقول: خمس عشرة مائة، ثم ذكر الوهم فقال: أربع عشرة مائة[٢].

وروى العوفى عن ابن عباس: أنهم كانوا ألفا وخمسمائة وخمسة وعشرين. والمشهور الذى رواه غير واحد عنه: أربع عشرة مائة، وهذا هو الذى رواه البيهقى، عن الحاكم، عن الأصم، عن العباس الدورى، عن يحيى بن معين، عن شبابة بن سوار، عن شعبة، عن قتادة، عن سعيد بن المسيب، عن أبيه قال: كنا مع رسول الله ﷺ تحت الشجرة ألفا وأربعمائة[٣]. وكذلك هو فى رواية سلمة بن الأكوع، ومعقل بن يسار، والبراء بن عازب. وبه يقول غير واحد من أصحاب المغازى والسير. وقد أخرج صاحبا الصحيح من حديث شعبة، عن عمرو بن مرة قال: سمعت عبد الله بن أبى أوفى يقول: كان أصحاب الشجرة ألفا وأربعمائة، وكانت أسلم يومئذ ثمن المهاجرين[٤].

وروى محمد بن إسحاق فى السيرة، عن الزهرى، عن عروة بن الزبير، عن المسور بن مخرمة، ومروان بن الحكم، أنهما حدثاه قالا: خرج رسول الله ﷺ عام الحديبية يريد زيارة البيت، لا يريد قتالا، وساق معه الهدى سبعين بدنة، وكان الناس سبعمائة رجل، كل بدنة عن عشرة نفر، وكان جابر بن عبد الله فيما بلغنى عنه يقول: كنا أصحاب الحديبية أربع عشرة مائة[٥].

كذا قال ابن إسحاق وهو معدود من أوهامه، فإن المحفوظ فى الصحيحين أنهم كانوا بضع عشرة مائة.

ذكر سبب هذه البيعة العظيمة:

قال محمد بن إسحاق بن يسار فى السيرة: ثم دعا رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب ليبعثه إلى مكة ليبلغ عنه أشراف قريش ما جاء له، فقال: يا رسول الله، إنى أخاف قريشا على نفسى، وليس بمكة من بنى عدى بن كعب من يمنعنى، وقد عرفت قريش عداوتى إياها، وغلظى[٦] عليها، ولكنى أدلك على رجل أعز بها منى، عثمان بن عفان، فبعثه إلى أبى سفيان وأشراف قريش، يخبرهم أنه لم يأت لحرب، وأنه جاء زائرا لهذا البيت ومعظما لحرمته.

(١) صحيح البخارى برقم (٤١٥٣).
(٢) دلائل النبوة للبيهقى (٤/ ٩٧).
(٣) دلائل النبوة للبيهقى (٤/ ٩٨).
(٤) صحيح البخارى برقم (٤١٥٥) ،وصحيح مسلم برقم (١٨٥٧).
(٥) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٢/ ٣٠٨).
(٦) فى ت،م: «غلظتى».

فخرج عثمان إلى مكة، فلقيه أبان بن سعيد بن العاص حين دخل مكة، أو قبل أن يدخلها، فحمله بين يديه، ثم أجاره حتى بلغ رسالة رسول الله ﷺ، فانطلق عثمان حتى أتى أبا سفيان وعظماء قريش فبلغهم عن رسول الله [ﷺ](١) ما أرسله به، فقالوا لعثمان حين فرغ من رسالة رسول الله ﷺ إليهم: إن شئت أن تطوف بالبيت فطف. فقال: ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله ﷺ. واحتبسته قريش عندها، فبلغ رسول الله ﷺ والمسلمين أن عثمان قد قتل.

قال ابن إسحاق: فحدثنى عبد الله بن أبى بكر: أن رسول الله ﷺ قال حين بلغه أن عثمان قد قتل: «لا نبرح حتى نناجز القوم». ودعا رسول الله ﷺ الناس إلى البيعة. فكانت بيعة الرضوان تحت الشجرة، فكان الناس يقولون: بايعهم رسول الله ﷺ على الموت. وكان جابر بن عبد الله يقول: إن رسول الله ﷺ لم يبايعهم على الموت، ولكن بايعنا على ألاَّ نفر.

فبايع الناس، ولم يتخلف أحد من المسلمين حضرها إلا الجد بن قيس أخو بنى سلمة، فكان جابر يقول: والله لكأنى أنظر إليه لاصقا بإبط ناقته، قد ضبأ إليها يستتر بها من الناس، ثم أتى رسول الله ﷺ أن الذى كان من أمر عثمان باطل.(٢)

وذكر ابن لهيعة، عن الأسود(٣)، عن عروة بن الزبير قريبا من هذا السياق، وزاد فى سياقه : أن قريشا بعثوا وعندهم عثمان [بن عفان](٤) سهيل بن عمرو، وحويطب بن عبد العزى، ومكرز بن حفص إلى رسول الله ﷺ، فبينما هم عندهم إذا وقع كلام بين(٥) بعض المسلمين وبعض المشركين، وترامو بالنبل والحجارة، وصاح الفريقان كلاهما، وارتهن كل من الفريقين من عنده من الرسل، ونادى منادى رسول الله ﷺ:ألا إن روح القدس قد نزل على رسول الله ﷺ، وأمر بالبيعة، فاخرجوا على اسم الله فبايعوا،فسار المسلمون إلى رسول الله ﷺ وهو تحت الشجرة فبايعوه على ألا يفروا أبدا، فأرعب ذلك المشركين(٦)، وأرسلوا من كان عندهم من المسلمين، ودعوا إلى الموادعة والصلح.

وقال الحافظ أبو بكر البيهقى: أخبرنا على بن أحمد بن عبدان، أخبرنا أحمد بن عبيد الصفار، حدثنا تمتام(٧)، حدثنا الحسن بن بشر(٨)، حدثنا الحكم بن عبد الملك، عن قتادة، عن أنس(٩) بن مالك، قال: لما أمر رسول الله ﷺ ببيعة الرضوان كان عثمان بن عفان [رضى الله عنه](١٠) رسول رسول الله ﷺ إلى أهل مكة، فبايع الناس، فقال رسول الله ﷺ: «اللهم إن عثمان فى حاجة الله وحاجة رسوله». فضرب بإحدى يديه على الأخرى، فكانت يد رسول الله ﷺ لعثمان خيرا من أيديهم لأنفسهم(١١).

---

(١) زيادة من ت،م.
(٢) السيرة النبوية لابن هشام (٢/ ٣١٥).
(٣) فى ت: «أبى الأسود».
(٤) زيادة من أ.
(٥) فى م «من».
(٦) فى ت: «المشركون» وهو خطأ.
(٧) فى أ،م: «هشام».
(٨) فى أ: «بشير».
(٩) فى ت: «وروى البيهقى بسنده».
(١٠) زيادة من ت.
(١١) لم أجده فى دلائل النبوة، ولعله فى غيره.

قال ابن هشام(١): وحدثنى من أثق به عمن حدثه بإسناد له، عن ابن أبى مليكة(٢)، عن ابن عمر قال: بايع رسول الله ﷺ لعثمان، فضرب بإحدى يديه على الأخرى.

وقال عبد الملك بن هشام النحوى: فذكر وكيع، عن إسماعيل بن أبى خالد، عن الشعبى: أن أول من بايع رسول الله ﷺ بيعة الرضوان أبو سنان الأسدى(٣).

وقال أبو بكر عبد الله بن الزبير الحميدى: حدثنا سفيان، حدثنا ابن أبى خالد، عن الشعبى، قال: لما دعا رسول الله ﷺ الناس إلى البيعة، كان أول من انتهى إليه أبو سنان [الأسدى رضى الله عنه](٤)، فقال: ابسط يدك أبايعك. فقال النبى ﷺ: «علام تبايعنى؟». فقال أبو سنان: على ما فى نفسك. هذا أبو سنان [بن](٥) وهب الأسدى [رضى الله عنه](٦) (٧).

وقال البخارى: حدثنا شجاع بن الوليد، سمع النضر بن محمد: حدثنا صخر [بن الربيع](٨)، عن نافع، قال: إن الناس يتحدثون أن ابن عمر أسلم قبل عمر، وليس كذلك، ولكن عمر يوم الحديبية أرسل عبد الله إلى فرس له عند رجل من الأنصار أن يأتى به ليقاتل عليه، ورسول الله ﷺ يبايع عند الشجرة، وعمر لا يدرى بذلك، فبايعه عبد الله، ثم ذهب إلى الفرس فجاء به إلى عمر، وعمر يستلئم للقتال، فأخبره أن رسول الله ﷺ يبايع تحت الشجرة، فانطلق، فذهب معه حتى بايع رسول الله ﷺ، وهى التى يتحدث الناس أن ابن عمر(٩) أسلم قبل عمر.

ثم قال البخارى: وقال هشام بن عمار: حدثنا الوليد بن مسلم، حدثنا عمر بن محمد العمرى، أخبرنى نافع، عن ابن عمر، أن الناس كانوا مع رسول الله ﷺ يوم الحديبية قد تفرقوا فى ظلال الشجر، فإذا الناس محدقون بالنبى ﷺ فقال ـ يعنى عمر ـ: يا عبد الله، انظر ما شأن الناس قد أحدقوا برسول الله ﷺ. فوجدهم يبايعون، فبايع ثم رجع إلى عمر فخرج فبايع.

وقد أسنده البيهقى عن أبى(١٠) عمرو الأديب، عن أبى بكر الإسماعيلى، عن الحسن بن سفيان، عن دحيم: حدثنى الوليد بن مسلم فذكره(١١).

وقال الليث، عن أبى الزبير، عن جابر، قال: كنا يوم الحديبية ألفا وأربعمائة فبايعناه، وعمر آخذ بيده تحت الشجرة وهى سمرة، وقال: بايعناه على ألا نفر، ولم نبايعه على الموت. رواه مسلم، عن قتيبة، عنه(١٢).

وروى مسلم عن يحيى بن يحيى، عن يزيد بن زريع، عن خالد، عن الحكم بن عبد الله بن الأعرج، عن معقل بن يسار، قال: لقد رأيتنى يوم الشجرة والنبى ﷺ يبايع الناس(١٣)، وأنا رافع

(١) فى أ: «شهاب».
(٢) فى أ: « عن أبى بكر بن أبى مليكة».
(٣) السيرة النبوية (٢/٣١٦).
(٤) زيادة من أ .
(٥، ٦) زيادة من م،أ.
(٧) ورواه البيهقى فى دلائل النبوة (٤/١٣٧) من طريق الحميدى به.
(٨) زيادة من ت، أ.
(٩) فى أ: «عبد الله بن عمر».
(١٠) فى أ: «ابن».
(١١) صحيح البخارى برقم (٤١٨٧).
(١٢) صحيح مسلم برقم (١٨٥٦).
(١٣) فى م: «والناس يبايعون النبى».

غصنا من أغصانها عن رأسه، ونحن أربع عشرة مائة، قال: ولم نبايعه على الموت، ولكن بايعناه على ألا نفر[١].

وقال البخارى: حدثنا المكى بن إبراهيم، عن زيد بن أبى عبيد، عن سلمة بن الأكوع، قال: بايعت رسول الله ﷺ تحت الشجرة. قال يزيد: قلت: يا أبا مسلم[٢]، على أى شىء كنتم تبايعون يومئذ؟ قال: على الموت[٣].

وقال البخارى أيضا: حدثنا أبو عاصم، حدثنا يزيد بن أبى عبيد عن سلمة، قال: بايعت رسول الله ﷺ يوم الحديبية ثم تنحيت، فقال: «ياسلمة، ألا تبايع؟» قلت: بايعت، قال: «أقبل فبايع». فدنوت فبايعته. قلت: علام بايعته ياسلمة؟ قال: على الموت. وأخرجه مسلم من وجه آخر عن يزيد ابن أبى عبيد[٤]. وكذا روى البخارى عن عباد بن تميم، أنهم بايعوه على الموت[٥].

وقال البيهقى: أخبرنا أبو عبد الله الحافظ، أخبرنا أبو الفضل بن إبراهم، حدثنا أحمد بن سلمة، حدثنا إسحاق بن إبراهم، حدثنا أبو عامر العقدى عبد الملك بن عمرو، حدثنا عكرمة بن عمار اليمامى، عن إياس بن سلمة، عن أبيه سلمة[٦] بن الأكوع قال: قدمنا الحديبية مع رسول الله ﷺ ونحن أربع عشرة مائة، وعليها خمسون شاة لا ترويها، فقعد رسول الله ﷺ على جباها ـ يعنى الركى ـ فإما دعا وإما بصق فيها، فجاشت، فسقينا واستقينا. قال: ثم إن رسول الله ﷺ دعا إلى البيعة فى أصل الشجرة. فبايعته أول الناس، ثم بايع وبايع، حتى إذا كان فى وسط الناس قال ﷺ: «بايعنى يا سلمة». قال: قلت: يا رسول الله، قد بايعتك فى أول الناس. قال: «وأيضا». قال: ورآنى رسول الله ﷺ عزلا فأعطانى حجفة ـ أو درقة ـ ثم بايع حتى إذا كان فى آخر الناس قال ﷺ: «ألا تبايع يا سلمة؟». قال: قلت: يا رسول الله، قد بايعتك[٧] فى أول الناس وأوسطهم. قال: «وأيضا». فبايعته الثالثة، فقال: «يا سلمة، أين حجفتك أو درقتك التى أعطيتك؟». قال: قلت: يا رسول الله، لقينى عامر عزلا فأعطيتها إياه: فضحك رسول الله ﷺ ثم قال: «إنك كالذى قال الأول: اللهم أبغنى حبيبا هو أحب إلى من نفسى» قال: ثم إن المشركين من أهل مكة راسلونا فى الصلح حتى مشى بعضنا فى بعض فاصطلحنا. قال: وكنت خادما لطلحة بن عبيد الله، رضى الله عنه، أسقى فرسه وأحسه[٨] وآكل من طعامه، وتركت أهلى ومالى مهاجرا إلى الله ورسوله. فلما اصطلحنا نحن وأهل مكة، واختلط بعضنا ببعض، أتيت شجرة فكسحت شوكها، ثم اضطجعت[٩] فى أصلها فى ظلها، فأتانى أربعة من مشركى أهل مكة، فجعلوا يقعون فى رسول الله ﷺ فأبغضتهم، وتحولت إلى شجرة أخرى فعلقوا سلاحهم واضطجعوا، فبينما هم كذلك إذا نادى مناد من أسفل الوادى: يا للمهاجرين، قتل ابن زنيم. فاخترطت سيفى، فشددت على أولئك الأربعة وهم

---

(١) صحيح مسلم برقم (١٨٥٨).
(٢) فى م: «سلمة».
(٣) صحيح البخارى برقم (٢٩٦٠).
(٤) صحيح مسلم برقم (١٨٦٠).
(٥) صحيح البخارى برقم (٢٩٥٩).
(٦) فى ت: «وقال البيهقى بسنده عن سلمة».
(٧) فى ت: «بايعت».
(٨) فى ت، م: «وأجنبه».
(٩) فى ت،م،أ: «واضطجعت»

رقود، فأخذت سلاحهم وجعلته ضغثا فى يدى، ثم قلت[1]: والذى كرم وجه محمد ﷺ، لايرفع أحد منكم رأسه إلا ضربت الذى فيه عيناه، قال: ثم جئت بهم أسوقهم إلى رسول الله ﷺ، قال: وجاء عمى عامر برجل من العَبَلات يقال له: «مكرز» من المشركين يقوده، حتى وقفنا بهم على رسول الله ﷺ فى سبعين من المشركين، فنظر إليهم رسول الله ﷺ وقال: «دعوهم يكن لهم بدء الفجور وثناه»، فعفا عنهم رسول الله ﷺ، وأنزل الله [عز وجل][2]: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ الآية [الفتح: ٢٤].

وهكذا رواه مسلم عن إسحاق بن إبراهيم بن راهويه بسنده نحوه، أو قريبا منه[3].

وثبت فى الصحيحين من حديث أبى عوانة، عن طارق، عن سعيد بن المسيب، قال: كان أبى ممن بايع رسول الله ﷺ تحت الشجرة. قال: فانطلقنا من قابل حاجين، فخفى علينا مكانها، فإن كان تبينت لكم، فأنتم أعلم[4].

وقال أبو بكر الحميدى: حدثنا سفيان، حدثنا أبو الزبير، حدثنا[5] جابر، قال: لما دعا رسول الله ﷺ الناس إلى البيعة، وجدنا رجلا منا يقال له «الجد بن قيس» مختبئا تحت إبط بعيره».

رواه مسلم من حديث ابن جريج، عن ابن الزبير، به[6].

وقال الحميدى أيضا: حدثنا سفيان[7]، عن عمرو، سمع جابرا، قال: كنا يوم الحديبية ألفا وأربعمائة، فقال لنا رسول الله ﷺ «أنتم خير أهل الأرض اليوم». قال جابر: لو كنت أبصر[8] لأريتكم موضع الشجرة. قال سفيان: إنهم اختلفوا فى موضعها. أخرجاه من حديث سفيان[9].

وقال الإمام أحمد: حدثنا يونس، حدثنا الليث. عن أبى الزبير، عن جابر، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لا يدخل النار أحد ممن بايع تحت الشجرة»[10].

وقال[11] ابن أبى حاتم: حدثنا محمد بن هارون الفلاس المخرمى، حدثنا سعد بن عمرو الأشعثى، حدثنا محمد بن ثابت العبدى، عن خداش بن عياش، عن أبى الزبير، عن جابر، قال: قال رسول الله ﷺ: «يدخل من بايع تحت الشجرة كلهم الجنة إلا صاحب الجمل الأحمر». قال: فانطلقنا نبتدره فإذا رجل قد أضل بعيره، فقلنا: تعال فبايع. فقال: أصيب بعيرى أحب إلى من أن أبايع[12].

---

(١) فى ت،م: «وقلت». (٢) زيادة من ت،م.

(٣) دلائل النبوة للبيهقى (٤/١٣٨)، وصحيح مسلم برقم (١٨٠٧).

(٤) صحيح البخارى برقم (٤١٦٤) ،وصحيح مسلم برقم (١٨٥٩). واللفظ لمسلم.

(٥) فى م: «عن».

(٦) مسند الحميدى (٢/ ٥٣٧) ،وصحيح مسلم برقم (١٨٥٦).

(٧) فى ت: «وفى الصحيحين من حديث سفيان». (٨) فى ت،م: «أنظر».

(٩) مسند الحميدى (٢/ ٥١٤) ،وصحيح البخارى برقم (٤١٥٤)، وصحيح مسلم برقم (١٨٥٦).

(١٠) المسند (٣/ ٣٥٠).

(١١) فى ت: «وروى».

(١٢) وفى إسناده محمد بن ثابت العبدى، ضعفه ابن معين، وشيخه خداش بن عياش وثقه ابن حبان، وقال الترمذى: «لا نعرف خداشًا هذا من هو».

وقال عبد الله بن أحمد: حدثنا عبيد الله بن معاذ، حدثنا أبى، حدثنا قرة، عن أبى الزبير[١]، عن جابر، عن النبى ﷺ أنه قال: «من يصعد الثنية، ثنية المرار، فإنه يحط عنه ما حط عن بنى إسرائيل». فكان أول من صعد خيل بنى[٢] الخزرج، ثم تبادر الناس بعد، فقال رسول الله ﷺ: «كلكم مغفور له إلا صاحب الجمل الأحمر». فقلنا: تعال يستغفر لك رسول الله [ﷺ][٣]. فقال: والله لأن أجد ضالتى أحب إلى من أن يستغفر لى صاحبكم. فإذا هو رجل ينشد ضالة[٤]. رواه مسلم عن عبيد الله، به[٥].

وقال ابن جريج: أخبرنى أبو الزبير، أنه سمع جابرا يقول: أخبرتنى أم مبشر أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول عند حفصة: «لا يدخل النار ـ إن شاء الله ـ من أصحاب الشجرة الذين بايعوا تحتها أحد». قالت: بلى يا رسول الله. فانتهرها، فقالت لحفصة: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا﴾ [مريم: ٧١]، فقال النبى ﷺ: «قد قال الله: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾» [مريم: ٧٢]، رواه مسلم[٦].

وفيه أيضا عن قتيبة، عن الليث، عن أبى الزبير، عن جابر؛ أن عبدًا لحاطب بن أبى بلتعة جاء يشكو حاطبا، فقال: يا رسول الله، ليدخلن حاطب النار، فقال رسول الله ﷺ: «كذبت، لا يدخلها؛ فإنه قد شهد بدرا والحديبية»[٧].

ولهذا قال تعالى فى الثناء عليهم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ١٠]، كما قال تعالى فى الآية الأخرى: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ١٨].

﴿سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (١١) بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا (١٢) وَمَن لَّمْ يُؤْمِن بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا (١٣) وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (١٤)﴾.

---

(١) فى ت: «وقال عبد الله بن أحمد بسنده».
(٢) فى أ: «من».
(٣) زيادة من ت.
(٤) فى أ: «ضالته».
(٥) صحيح مسلم برقم (٢٧٨٠).
(٦) صحيح مسلم برقم (٢٤٩٦).
(٧) صحيح مسلم برقم (٢٤٩٤).

يقول تعالى مخبرا رسوله[١] ـ صلوات الله وسلامه عليه[٢] ـ بما يعتذر به المخلفون من الأعراب الذين اختاروا المقام فى أهليهم وشغلهم[٣]، وتركوا المسير مع رسول الله ﷺ، فاعتذروا بشغلهم بذلك، وسألوا أن يستغفر لهم الرسول[٤] ﷺ، وذلك قول منهم لا على سبيل الاعتقاد، بل على وجه التقية والمصانعة؛ ولهذا قال تعالى: ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا﴾ أى: لا يقدر أحد أن يرد ما أراده فيكم تعالى وتقدس، وهو العليم بسرائركم وضمائركم، وإن صانعتمونا وتابعتمونا[٥]؛ ولهذا قال: ﴿بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾.

ثم قال: ﴿ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا﴾ أى: لم يكن تخلفكم تخلف معذور ولا عاص، بل تخلف نفاق، ﴿ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا﴾ أى: اعتقدتم أنهم يقتلون وتستأصل شأفتهم، وتستباد خضراؤهم، ولا يرجع منهم مخبر، ﴿وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا﴾ أى: هلكى. قاله ابن عباس، ومجاهد، وغير واحد. وقال قتادة: فاسدين. وقيل: هى بلغة عمان.

ثم قال: ﴿وَمَن لَّمْ يُؤْمِن بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أى: من لم يخلص العمل فى الظاهر والباطن لله، فإن الله تعالى سيعذبه فى السعير، وإن أظهر للناس ما يعتقدون خلاف ما هو عليه فى نفس الأمر.

ثم بين تعالى أنه الحاكم المالك المتصرف فى أهل السموات والأرض: ﴿ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ أى: لمن تاب إليه وأناب، وخضع لديه.

﴿ سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِن قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا (١٥) ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن الأعراب الذين تخلفوا عن النبى ﷺ فى غزوة[٦] الحديبية، إذ ذهب النبى ﷺ وأصحابه إلى خيبر يفتتحونها: أنهم يسألون أن يخرجوا معهم إلى المغنم، وقد تخلفوا عن وقت محاربة الأعداء ومجالدتهم ومصابرتهم، فأمر الله رسوله ﷺ ألا يأذن لهم فى ذلك، معاقبة لهم من جنس ذنبهم. فإن الله تعالى وعد أهل الحديبية بمغانم خيبر وحدهم لا يشركهم فيها غيرهم من الأعراب المتخلفين، فلا[٧] يقع غير ذلك شرعا وقدرا؛ ولهذا قال: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ﴾ . قال مجاهد، وقتادة، وجويبر: وهو الوعد الذى وعد به أهل الحديبية. واختاره ابن جرير[٨].

(١) فى ت،م: «لرسوله». (٢) فى ت: «ﷺ». (٣) فى ت،أ: «والشغل بهم».
(٤) فى م: «رسول الله». (٥) فى ت: «أو نافقتمونا». (٦) فى ت،م،أ: «عمرة».
(٧) فى ت: «ولا».
(٨) تفسير الطبرى (٢٦/ ٥٠).

وقال ابن زيد: هو قوله: ﴿ **فَإِن رَّجَعَكَ اللَّهُ إِلَىٰ طَائِفَةٍ مِّنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَن تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ** ﴾ [التوبة: ٨٣].

وهذا الذى قاله ابن زيد فيه نظر؛ لأن هذه الآية التى فى «براءة» نزلت فى غزوة تبوك، وهى متأخرة عن غزوة[1] الحديبية.

وقال ابن جريج: ﴿**يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلامَ اللَّهِ**﴾ يعنى: بتثبيطهم المسلمين عن الجهاد.

﴿ **قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِن قَبْلُ**﴾ أى: وعد الله أهل الحديبية قبل سؤالكم[2] الخروج معهم، ﴿**فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا**﴾ أى: أن نشرككم فى المغانم، ﴿**بَلْ كَانُوا لا يَفْقَهُونَ إِلاَّ قَلِيلاً**﴾ أى: ليس الأمر كما زعموا، ولكن لا فهم لهم[3].

﴿ **قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِن تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِن تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٦) لَيْسَ عَلَى الأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلا عَلَى الأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا (١٧)** ﴾ .

اختلف المفسرون فى هؤلاء القوم الذين يدعون إليهم، الذين هم أولو بأس شديد، على أقوال:

أحدها: أنهم هوازن. رواه شعبة عن أبى بِشْر، عن سعيد بن جبير ـ أو عكرمة[4]، أو جميعا ـ ورواه هُشيم عن أبى بشر، عنهما. وبه يقول قتادة فى رواية عنه.

الثانى: ثقف، قاله الضحاك.

الثالث: بنو حنيفة، قاله جويبر. ورواه محمد بن إسحاق، عن الزهرى. وروى مثله عن سعيد وعكرمة.

الرابع: هم أهل فارس. رواه على بن أبى طلحة، عن ابن عباس، وبه يقول عطاء، ومجاهد، وعكرمة ـ فى إحدى الروايات عنه.

وقال كعب الأحبار: هم الروم. وعن ابن أبى ليلى، وعطاء، والحسن، وقتادة: هم فارس والروم. وعن مجاهد: هم أهل الأوثان. وعنه أيضا: هم رجال أولو بأس شديد، ولم يعين فرقة. وبه يقول ابن جريج، وهو اختيار ابن جرير.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا الأشج، حدثنا عبد الرحمن بن الحسن القواريرى، عن مَعْمَر[5]، عن

(١) فى ت،م،أ: «عمرة». (٢) فى ت،م: «قبل أن يسألوكم». (٣) فى ت،أ: «لأنهم عدو لهم».
(٤) فى ت: «هوازن قاله عكرمة». (٥) فى ت: «وروى ابن أبى حاتم بسنده».

الزهرى، فى قوله: ﴿سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ قال: لم يأت أولئك بعد.

وحدثنا أبى، حدثنا ابن أبى عمر، حدثنا سفيان، عن ابن أبى خالد، عن أبيه، عن أبى هريرة فى قوله: ﴿سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ قال: هم البارزون.

قال: وحدثنا سفيان، عن الزهرى، عن سعيد بن المسيب، عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ قال: «لا تقوم الساعة حتى تقاتلوا قوما صغار الأعين، ذلف الآنف، كأن وجوههم المجانّ المطرقة». قال سفيان: هم الترك[١].

قال ابن أبى عمر: وجدت فى مكان[٢] آخر: ابن أبى خالد عن أبيه قال: نزل علينا أبو هريرة ففسر قول رسول الله ﷺ: «تقاتلون قومًا نعالهم الشَّعْر»، قال: هم البارزون، يعنى الأكراد[٣].

وقوله: ﴿ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ﴾ يعنى: يشرع لكم جهادهم وقتالهم، فلا يزال ذلك مستمرا عليهم، ولكم النصرة عليهم، أو يسلمون فيدخلون فى دينكم بلا قتال بل باختيار.

ثم قال: ﴿فَإِن تُطِيعُوا﴾ أى: تستجيبوا وتنفروا فى الجهاد وتؤدوا الذى عليكم فيه، ﴿يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِن تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ﴾ يعنى: زمن الحديبية، حيث دعيتم[٤] فتخلفتم، ﴿ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ .

ثم ذكر الأعذار فى ترك الجهاد، فمنها لازم كالعمى والعرج المستمر، وعارض كالمرض الذى يطرأ أياما ثم يزول، فهو فى حال مرضه ملحق بذوى الأعذار اللازمة حتى يبرأ.

ثم قال تعالى مرغبا فى الجهاد وطاعة الله ورسوله: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَن يَتَوَلَّ ﴾ أى: ينكل عن الجهاد، ويقبل على المعاش ﴿ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ فى الدنيا بالمذلة، وفى الآخرة بالنار.

﴿ لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾ ﴾ .

يخبر تعالى عن رضاه عن المؤمنين الذين بايعوا رسول الله ﷺ تحت الشجرة، وقد تقدم ذكر عدتهم، وأنهم كانوا ألفا وأربعمائة، وأن الشجرة كانت سمرة بأرض الحديبية.

---

(١) ورواه ابن أبى شيبة فى المصنف برقم (١٩١٩٩) والبخارى فى صحيحه برقم (٢٩٢٩) من طريق سفيان عن الزهرى بإسناده: «لا تقوم الساعة حتى تقاتلوا قوما كأن وجوههم المجان المطرقة» ورواه البخارى فى صحيحه برقم (٢٩٢٨) من طريق صالح، عن الأعرج عن أبى هريرة بنحوه.

(٢) فى ت: «وقال ابن أبى عمرو وحديث فى موضع».

(٣) وقد ذكر بعض المؤرخين أن أصحاب بابك المخرمى كانوا ينتعلون الشعر، فهم المقصودون بهذا الحديث.

(٤) فى ت: «ذهبتم».

قال البخارى: حدثنا محمود، حدثنا عبيد الله، عن إسرائيل، عن طارق بن عبد الرحمن قال: انطلقت حاجًا فمررت بقوم يصلون، فقلت[1]: ما هذا المسجد؟ قالوا: هذه الشجرة، حيث بايع رسول الله ﷺ بيعة الرضوان. فأتيت سعيد بن المسيب فأخبرته، فقال سعيد: حدثنى أبى أنه كان فيمن بايع رسول الله ﷺ تحت الشجرة. قال: فلما خرجنا من العام المقبل نسيناها فلم نقدر عليها، فقال سعيد: إن أصحاب محمد ﷺ لم يعلموها وعلمتموها أنتم، فأنتم أعلم[2].

وقوله: ﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ أى: من الصدق والوفاء، والسمع والطاعة، ﴿فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ﴾: وهى الطمأنينة، ﴿عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾: وهو ما أجرى الله على أيديهم من الصلح بينهم وبين أعدائهم، وما حصل بذلك من الخير العام المستمر المتصل بفتح خيبر وفتح مكة، ثم فتح سائر البلاد والأقاليم عليهم، وما حصل لهم من العز والنصر والرفعة فى الدنيا والآخرة؛ ولهذا قال: ﴿وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا[3] وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾.

قال[4] ابن أبى حاتم: حدثنا أحمد بن محمد بن يحيى بن سعيد القطان، حدثنا عبيد الله بن موسى، أخبرنا موسى ـ يعنى ابن عبيدة ـ حدثنى إياس[5] بن سلمة، عن أبيه، قال: بينما نحن قائلون. إذا نادى منادى رسول الله ﷺ: أيها الناس، البيعة البيعة، نزل روح القدس. قال: فثُرنا إلى رسول الله ﷺ وهو تحت شجرة سمرة فبايعناه، فذلك قول الله تعالى[6]: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾[قال][7]: فبايع لعثمان بإحد يديه على الأخرى، فقال الناس: هنيئا لابن عفان، طوف بالبيت ونحن[8] هاهنا. فقال رسول الله ﷺ: «لو مكث كذا كذا سنة ما طاف حتى أطوف»[9].

﴿وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾ وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِن بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾﴾.

---

(١) فى م: «وقلت».
(٢) صحيح البخارى برقم (٤١٦٣).
(٣) فى ت: «تأخذونها».
(٤) فى ت: «وروى».
(٥) فى ت: «عن أبان».
(٦) فى ت، م: «فذلك قوله تعالى».
(٧) زيادة من ت، م.
(٨) فى ت، م: «وذكر».
(٩) ورواه الطبرانى فى المعجم الكبير (١/ ٩٠) من طريق عبيد الله بن موسى به، قال الهيثمى فى المجمع (٩/ ٨٤): «فيه موسى بن عبيدة وهو ضعيف».

قال مجاهد في قوله: ﴿وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا﴾ : هي جميع المغانم إلى اليوم، ﴿فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ﴾ يعني: فتح خيبر.

وروى العوفي عن ابن عباس: ﴿ فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ﴾ يعني: صلح الحديبية.

﴿ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنكُمْ﴾ أي: لم ينلكم سوء مما كان أعداؤكم أضمروه لكم من المحاربة والقتال. وكذلك كف أيدي الناس [عنكم][1] الذين خلفتموهم وراء أظهركم عن عيالكم وحريمكم، ﴿وَلِتَكُونَ آيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾أي: يعتبرون بذلك، فإن الله حافظهم وناصرهم على سائر الأعداء، مع قلة عددهم، وليعلموا بصنيع الله هذا بهم أنه العليم بعواقب الأمور، وأن الخيرة فيما يختاره لعباده المؤمنين وإن كرهوه في الظاهر، كما قال: ﴿ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ [البقرة: ٢١٦].

﴿ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ أي: بسبب انقيادكم لأمره واتباعكم طاعته، وموافقتكم رسوله[2].

وقوله: ﴿وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ أي: وغنيمة أخرى وفتحا آخر معينا لم تكونوا تقدرون عليها، قد يَسَّرها الله عليكم، وأحاط بها لكم، فإنه تعالى يرزق عباده المتقين له من حيث لا يحتسبون.

وقد اختلف المفسرون في هذه الغنيمة، ما المراد بها؟ فقال العَوْفي عن ابن عباس: هي خيبر. وهذا على قوله في قوله تعالى: ﴿ فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ﴾: إنها صلح الحديبية. وقاله الضحاك، وابن إسحاق، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم.

وقال قتادة: هي مكة. واختاره ابن جرير.

وقال ابن أبي ليلى، والحسن البصري: هي فارس والروم.

وقال مجاهد: هي كل فتح وغنيمة إلى يوم القيامة.

وقال أبو داود الطيالسي: حدثنا شعبة، عن سِمَاك الحنَفَي، عن ابن عباس: ﴿وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا ﴾ قال: هذه الفتوح التي تفتح إلى اليوم[3].

وقوله: ﴿ وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾ يقول تعالى مبشرا لعباده المؤمنين: بأنه لو ناجزهم المشركون لنصر الله رسوله وعباده المؤمنين عليهم، ولانهزم جيش الكفار[4] فارا مدبرا لا يجدون وليا ولا نصيرا؛ لأنهم محاربون لله ولرسوله ولحزبه[5] المؤمنين.

ثم قال: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ أي: هذه سنة الله وعادته في خلقه، ما تقابل الكفر والإيمان في موطن فيصل إلى نصر الله الإيمان على الكفر، فرفع الحق ووضع الباطل، كما فعل تعالى يوم بدر بأوليائه المؤمنين نصرهم على أعدائه من المشركين، مع قلة عدد المسلمين وعُدَدهم، وكثرة المشركين وعددهم[6].

---

(١) زيادة من ت.
(٢) في ت،م: «لرسوله».
(٣) في ت: « إلى يوم القيامة».
(٤) في م: «الكفر».
(٥) في ت،أ: « ولعباده».
(٦) في ت،م: «ومددهم».

وقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾: هذا امتنان من الله على عباده المؤمنين حين كف أيدى المشركين عنهم، فلم يصل[١] إليهم منهم سوء، وكفّ أيدى المؤمنين من المشركين فلم يقاتلوهم عند المسجد الحرام، بل صان كلاًّ من الفريقين، وأوجد بينهم صلحا فيه خيَرَةٌ للمؤمنين، وعاقبة لهم فى الدنيا والآخرة. وقد تقدم فى حديث سلمة بن الأكوع حين جاؤوا بأولئك السبعين الأسارى فأوثقوهم بين يدى رسول الله ﷺ فنظر إليهم وقال: «أرسلوهم يكن لهم بدء الفجور وثناه». قال: وفى ذلك أنزل الله: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم﴾ الآية.

وقال الإمام أحمد: حدثنا يزيد بن هارون، حدثنا حماد، عن ثابت، عن أنس بن مالك قال: لما كان يوم الحديبية هبط على رسول الله ﷺ وأصحابه ثمانون رجلا من أهل مكة فى السلاح، من قبل جبل التنعيم، يريدن غرة رسول الله ﷺ، فدعا عليهم فأخذوا ـ قال عفان: فعفا عنهم ـ ونزلت هذه الآية: ﴿ وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾.

ورواه مسلم وأبو داود فى سننه، والترمذى والنسائى فى التفسير من سننيهما، من طرق، عن حماد بن سلمة، به[٢].

وقال أحمد ـ أيضا ـ: حدثنا زيد بن الحباب، حدثنا الحسين بن واقد، حدثنا ثابت البُنَانى، عن[٣] عبد الله بن مُغَفَّل المُزَنى قال: كنا مع رسول الله ﷺ فى أصل الشجرة التى قال الله تعالى فى القرآن، وكان يقع من أغصان تلك الشجرة على ظهر رسول الله ﷺ، وعلى بن أبى طالب. وسهيلُ بن عمرو بين يديه، فقال رسول الله ﷺ لعلى: «اكتب: بسم الله الرحمن الرحيم»، فأخذ سهيل بيده وقال: ما نعرف الرحمن الرحيم. اكتب فى قضيتنا ما نعرف. قال: «اكتب بسمك اللهم»، وكتب: «هذا ما صالح عليه محمد رسول الله أهل مكة». فأمسك سهيل بن عمرو بيده وقال: لقد ظلمناك إن كنت رسوله، اكتب فى قضيتنا ما نعرف. فقال: «اكتب هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله». فبينا نحن كذلك إذ خرج علينا ثلاثون شابا عليهم السلاح، فثاروا فى[٤] وجوهنا، فدعا عليهم رسول الله ﷺ، فأخذ الله بأسماعهم، فقمنا إليهم فأخذناهم، فقال رسول الله ﷺ: «هل جئتم فى عهد أحد؟ أو: هل[٥] جعل لكم أحد أمانا؟». فقالوا: لا. فخلى سبيلهم، فأنزل الله: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾. رواه النسائى من حديث حسين بن واقد، به[٦].

وقال ابن جرير: حدثنا ابن حُمَيْد، حدثنا يعقوب القُمّى، حدثنا جعفر، عن ابن أبْزَى قال: لما

(١) فى ت: «تصل».

(٢) المسند (٣/١٢٢) وصحيح مسلم برقم (١٨٠٨) وسنن أبى داود برقم (٢٦٨٨) وسنن الترمذى برقم (٣٢٦٤) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٥١٠).

(٣) فى ت: «بن». (٤) فى ت، م: «إلى». (٥) فى ت: «وهل».

(٦) المسند (٤/٨٦) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٥١١).

خرج النبى ﷺ بالهدى وانتهى إلى ذى الحليفة، قال له عمر: يا نبى الله، تدخل على قوم لك حَرْب بغير سلاح ولا كُرَاع؟ قال: فبعث إلى المدينة، فلم يدع فيها كُرَاعا ولا سلاحا إلا حمله، فلما دنا من مكة منعوه أن يدخل، فسار حتى أتى منى، فنزل بمنى، فأتاه عينه أن عكرمة بن أبى جهل قد خرج عليك فى خمسمائة، فقال لخالد بن الوليد: «يا خالد، هذا ابن عمك أتاك فى الخيل[١]»، فقال خالد: أنا سيف الله، وسيف رسوله ـ فيومئذ سمى سيف الله ـ يا رسول الله، ارم بى أين شئت. فبعثه على خيل، فلقى عكرمة فى الشعب فهزمه حتى أدخله حيطان مكة، ثم عاد فى الثانية فهزمه حتى أدخله حيطان مكة، ثم عاد فى الثالثة فهزمه حتى أدخله حيطان مكة، فأنزل الله: ﴿ **وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ [مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِم]**[٢] ﴾ إلى: ﴿**عَذَابًا أَلِيمًا**﴾. قال: فكف الله النبى عنهم من بعد أن أظفره[٣] عليهم لبقايا من المسلمين كانوا بقوا فيها كراهية أن تطأهم الخيل[٤].

ورواه ابن أبى حاتم عن ابن أبزى بنحوه. وهذا السياق فيه نظر؛ فإنه لا يجوز أن يكون عام الحديبية؛ لأن خالدا لم يكن أسلم، بل قد كان طليعة المشركين[٥] يومئذ، كما ثبت فى الصحيح. ولا يجوز أن يكون فى عمرة القضاء، لأنهم قاضوه على أن يأتى من العام المقبل[٦] فيعتمر ويقيم بمكة ثلاثة أيام، فلما قدم لم يمانعوه ولا حاربوه ولا قاتلوه. فإن قيل: فيكون يوم الفتح؟ فالجواب: ولا يجوز أن يكون يوم الفتح؛ لأنه لم يسق عام الفتح هَدياً، وإنما جاء محاربا مقاتلا فى جيش عَرَمْرَم، فهذا السياق فيه خلل، قد وقع فيه شىء فليتأمل، والله أعلم.

وقال ابن إسحاق: حدثنى من لا أتهم، عن عكرمة مولى ابن عباس: أن قريشا بعثوا أربعين رجلا منهم أو خمسين، وأمروهم أن يُطيفُوا بعسكر رسول الله ﷺ ليصيبوا من أصحابه أحداً، فأُخذُوا أخذاً، فأُتى بهم رسول الله ﷺ، فعفا عنهم وخلى سبيلهم، وقد كانوا رموا إلى[٧] عسكر رسول الله ﷺ[٨] بالحجارة والنبل. قال ابن إسحاق: وفى ذلك أنزل الله: ﴿ **وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم** ﴾ الآية[٩].

وقال قتادة: ذكر لنا أن رجلاً يقال له: «ابن زُنَيْم» اطلع على الثنية من الحديبية، فرماه المشركون بسهم فقتلوه، فبعث رسول الله ﷺ خيلا، فأتوه باثنى عشر فارسًا من الكفار، فقال لهم: «هل لكم على عهد؟ هل لكم على ذمة؟». قالوا: لا. فأرسلهم، وأنزل الله فى ذلك: ﴿ **وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم** ﴾ الآية.

---

(١) فى أ: «الجبل». (٢) زيادة من ت.
(٣) فى أ: «أظفركم».
(٤) تفسير الطبرى (٢٦/٥٩).
(٥) فى أ: «للمشركين».
(٦) فى ت: «قابل». (٧) فى أ: «فى».
(٨) فى ت، م: «عسكر المسلمين».
(٩) رواه الطبرى فى تفسيره (٢٦/٥٩).

﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِّيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (٢٥) إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (٢٦)﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن الكفار من مشركى العرب من قريش ومن مالأهم[١] على نصرتهم على رسول الله ﷺ: **﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾** أى: هم الكفار دون غيرهم، **﴿وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾** أى: وأنتم أحق به، وأنتم أهله فى نفس الأمر، **﴿وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ﴾** أى: وصدوا الهدى أن يصل[٢] إلى محله، وهذا من بغيهم وعنادهم، وكان الهدىُ سبعين بدنة، كما سيأتى بيانه.

وقوله: **﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ﴾** أى: بين أظهرهم ممن يكتم إيمانه ويخفيه منهم خيفة على أنفسهم من قومهم، لكنا سلَّطناكم عليهم فقتلتموهم وأبدتم خضراءهم، ولكن بين أفنائهم من المؤمنين والمؤمنات أقوام لا تعرفونهم حالة[٣] القتل؛ ولهذا قل: **﴿لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌ﴾** أى: إثم وغرامة **﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ لِّيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ﴾** أى: يؤخر عقوبتهم ليخلص من بين أظهرهم المؤمنين، وليرجع كثير منهم إلى الإسلام.

ثم قال: **﴿لَوْ تَزَيَّلُوا﴾** أى: لو تميز الكفار من المؤمنين الذين بين أظهرهم **﴿لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾** أى: لسلطناكم عليهم فلقتلتموهم قتلا ذريعا.

قال الحافظ أبو القاسم الطبرانى: حدثنا أبو الزِّنْباع ـ روح بن الفرج ـ حدثنا عبد الرحمن بن أبى عباد المكى، حدثنا عبد الرحمن بن عبد الله[٤] أبو سعيد ـ مولى بنى هاشم ـ حدثنا حُجْر بن خلف: سمعت عبد الله بن عوف[٥] يقول[٦]: سمعت[٧] جنيد بن سبع يقول[٨]: قاتلت رسول الله ﷺ أول النهار كافرا، وقاتلت معه آخر النهار مسلما، وفينا نزلت: **﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ﴾**. قال: كنا تسعة نفر: سبعة رجال وامرأتين[٩].

ثم رواه من طريق أخرى عن محمد بن عباد المكى به، وقال فيه: عن أبى جمعة جنيد بن سبع، فذكره[١٠] والصواب أبو جعفر: حبيب بن سباع. ورواه ابن أبى حاتم من حديث حجر بن خلف[١١]،

(١) فى ت، أ: «ولا هم». (٢) فى ت: «يبلغ». (٣) فى أ: «حال».
(٤) فى م، أ: «عبيد الله». (٥) فى أ: «عمرو». (٦) فى ت: «روى الحافظ الطبرانى بسنده».
(٧) فى ت: «عن». (٨) فى ت: «قال».
(٩) المعجم الكبير (٢/ ٢٩٠).
(١٠) المعجم الكبير (٤/ ٢٤).
(١١) فى أ: «حنيف».

به. وقال: كنا ثلاثة[١] رجال وتسع نسوة، وفينا نزلت: ﴿وَلَوْلا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ﴾.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا على بن الحسين، حدثنا محمد بن إسماعيل البخارى، حدثنا عبد الله ابن عثمان بن جبلة، عن أبى حمزة[٢]، عن عطاء، عن سعيد بن جبير[٣]، عن ابن عباس: ﴿لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ يقول: لو تزيل الكفار من المؤمنين، لعذبهم الله عذابا أليما بقتلهم إياهم.

وقوله: ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ﴾، وذلك حين أبوا أن يكتبوا «بسم الله الرحمن الرحيم»، وأبوا أن يكتبوا: «هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله»، ﴿فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ﴾، وهى قول: «لا إله إلا الله»، كما قال ابن جرير، وعبد الله ابن الإمام أحمد: حدثنا الحسن بن قزعة أبو على البصرى، حدثنا سفيان بن حبيب، حدثنا شعبة، عن ثوير[٤]، عن أبيه، عن الطفيل ـ يعنى: ابن أبى بن كعب [٥] [رضى الله عنه] [٦] ـ عن أبيه، [أنه][٧] سمع رسول الله ﷺ يقول: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ﴾، قال: «لا إله إلا الله».

وكذا رواه الترمذى عن الحسن بن قزعة، وقال: غريب لا نعرفه إلا من حديثه، وسألت أبا زُرْعَة عنه فلم يعرفه إلا من هذا الوجه[٨].

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أحمد بن منصور الرمادى، حدثنا عبد الله بن صالح، حدثنى الليث، حدثنى عبد الرحمن بن خالد، عن ابن شهاب[٩]، عن سعيد بن المسيب، أن أبا هريرة أخبره، أن رسول الله ﷺ قال: « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فمن قال: لا إله إلا الله، فقد عصم منى ماله ونفسه إلا بحقه، وحسابه على الله»، وأنزل الله فى كتابه، وذكر قوما فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لا إِلَٰهَ إِلاَّ اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾[الصافات: ٣٥]، وقال الله جل ثناؤه: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا﴾ وهى: «لا إله إلا الله، محمد رسول الله»، فاستكبروا عنها واستكبر عنها المشركون[١٠] يوم الحديبية، وكاتبهم رسول الله ﷺ على قضية المدة.

وكذا رواه بهذه الزيادات ابن جرير من حديث الزهرى[١١]، والظاهر أنها مدرجة من كلام الزهرى، والله أعلم.

وقال مجاهد: ﴿كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ﴾: الإخلاص. وقال عطاء بن أبى رباح: هى لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شىء قدير.

---

(١) فى م: «ثلاث». (٢) فى أ: «عن أبى هريرة». (٣) فى ت: «روى ابن أبى حاتم بسنده».
(٤) فى أ: «ثور». (٥) فى ت: «كما روى ابن جرير بسنده عن أبى بن كعب».
(٦) زيادة من ت. (٧) زيادة من ت، م.
(٨) تفسير الطبرى (٢٦/٦٦) وزوائد عبد الله على المسند (٥/١٣٨) وسنن الترمذى برقم (٣٢٦٥).
(٩) فى ت: «وروى بن أبى حاتم بسنده». (١٠) فى أ: «قريش».
(١١) تفسير الطبرى (٢٦/٦٦).

وقال يونس بن بكير، عن ابن إسحاق، عن الزهرى، عن عروة، عن المسور: ﴿**وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى**﴾ قال: لا إله إلا الله، وحده لا شريك له.

وقال الثورى، عن سلمة بن كهيل، عن عَبَاية بن رِبْعِى، عن على: ﴿**وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى**﴾ قال: لا إله إلا الله، والله أكبر. وكذا قال ابن عمر، رضى الله عنهما.

وقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس قوله: ﴿**وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى**﴾ قال: يقول: شهادة أن لا إله إلا الله، وهى رأس كل تقوى.

وقال سعيد بن جبير: ﴿**وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى**﴾ قال: لا إله إلا الله، والجهاد فى سبيله.

وقال عطاء الخراسانى: هى: لا إله إلا الله، محمد رسول الله.

وقال عبد الله بن المبارك، عن مَعْمَر، عن الزهرى: ﴿**وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى**﴾ قال: بسم الله الرحمن الرحيم.

وقال قتادة: ﴿**وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى**﴾ قال: لا إله إلا الله.

﴿ **وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا** ﴾: كان المسلمون أحق بها، وكانوا أهلها.

﴿**وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا**﴾ أى: هو عليم بمن يستحق الخير من يستحق الشر.

وقد قال النسائى: حدثنا إبراهيم بن سعيد، حدثنا شبابة بن سوار، عن أبى رزين، عن عبد الله ابن العلاء بن زبر، عن بسر بن عبيد الله، عن أبى إدريس، عن أبى بن كعب أنه كان يقرأ: ﴿**إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ**﴾ [الفتح:٢٦]، ولو حميتم كما حموا لفسد المسجد الحرام. فبلغ ذلك عمر فأغلظ له، فقال: إنك لتعلم أنى كنت أدخل على رسول الله ﷺ فيعلمنى مما علمه الله. فقال عمر: بل أنت رجل عندك علم وقرآن، فاقرأ وعلم مما علمك الله ورسوله[١].

وهذا ذكر الأحاديث الواردة فى قصة الحديبية وقضية الصلح:

قال الإمام أحمد: حدثنا يزيد بن هارون، أخبرنا محمد بن إسحاق بن يَسَار، عن الزهرى، عن عُرْوَة بن الزبير، عن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم قالا: خرج رسول الله ﷺ عام الحديبية يريد زيارة البيت، لا يريد قتالا، وساق معه الهدى سبعين بدنة، وكان الناس سبعمائة رجل، فكانت كل بدنة عن عشرة، وخرج رسول الله ﷺ حتى إذ كان بعسفان لقيه بشر بن سفيان الكعبى[٢]، فقال: يا رسول الله، هذه قريش قد سمعت بمسيرك فخرجت معها العُوذ المطافيل، قد لبست جلود النمور، يعاهدون الله ألا تدخلها عليهم عنوة أبداً، وهذا خالد بن الوليد فى خيلهم قد قدموه إلى كراع الغميم، فقال رسول الله ﷺ: «يا ويح قريش! قد أكلتهم الحرب، ماذا عليهم لو خلوا بينى وبين سائر

---

(١) النسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٥٠٥).

(٢) فى ت: «بشر بن كعب الكلبى».

الناس؟ فإن أصابونى كان الذى أرادوا، وإن أظهرنى الله [عليهم][١] دخلوا فى الإسلام وهم وافرون، وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة، فماذا تظن قريش؟ فوالله لا أزال أجاهدهم على الذى بعثنى الله به حتى يظهرنى الله أو تنفرد هذه السالفة». ثم أمر الناس فسلكوا ذات اليمين بين ظهرى الحمض على طريق تخرجه[٢] على ثنية المرار والحديبية من أسفل مكة. قال: فسلك بالجيش تلك الطريق، فلما رأت خيل قريش قترة الجيش قد خالفوا عن طريقهم، ركضوا راجعين إلى قريش، فخرج رسول الله ﷺ، حتى إذا سلك ثنية المرار، بركت ناقته، فقال الناس: خلأت. فقال رسول الله ﷺ: «ما خلأت، و ما ذلك[٣] لها بخلق، ولكن حبسها حابس الفيل عن مكة، والله لا تدعونى قريش اليوم إلى خطة يسألونى فيها صلة الرحم، إلا أعطيتهم إياها». [ثم][٤] قال للناس: «انزلوا». قالوا: يا رسول الله، ما بالوادى من ماء ينزل عليه الناس. فأخرج رسول الله ﷺ سهماً من كنانته فأعطاه رجلا من أصحابه، فنزل فى قليب من تلك القلب، فغرزه فيه فجاش بالماء حتى ضرب الناس عنه بعطن. فلما اطمأن رسول الله ﷺ، إذا بُدَيل بن ورقاء فى رجال من خزاعة، فقال لهم كقوله لبشر بن سفيان، فرجعوا إلى قريش فقالوا: يا معشر قريش، إنكم تعجلون على محمد، وإن محمداً لم يأت لقتال، إنما جاء زائراً لهذا البيت معظماً لحقه، فاتهموهم.

قال محمد بن إسحاق: قال الزهرى: [و][٥] كانت خزاعة فى عَيْبَة رسول الله ﷺ مشركها ومسلمها، لا يخفون على رسول الله ﷺ شيئاً كان بمكة، فقالوا: وإن كان إنما جاء لذلك فوالله لا يدخلها أبداً علينا عَنْوة، ولا يتحدث بذلك العرب. ثم بعثوا إليه مِكْرَز بن حفص، أحد بنى عامر بن لؤى، فلما رآه رسول الله ﷺ قال: «هذا رجل غادر». فلما انتهى إلى رسول الله ﷺ كلمه رسول الله ﷺ بنحو ما كَلَّم به أصحابه، ثم رجع إلى قريش فأخبرهم بما قال له رسول الله [ﷺ][٦]؛ فبعثوا إليه الحليس بن علقمة الكنانى، وهو يومئذ سيد الأحابيش، فلما رآه رسول الله ﷺ قال: «هذا من قوم يتألهون، فابعثوا الهَدْى» فى وجهه، فبعثوا الهدى، فلما رأى الهدى يسيل عليه من عُرْض الوادى فى قلائده قد أكل أوتاره من طول الحبس عن محله، رجع ولم يصل إلى رسول الله ﷺ إعظاماً لما رأى[٧]، فقال: يا معشر قريش، قد رأيت ما لا يحل صَدَّه، الهدى فى قلائده قد أكل أوتاره من طول الحبس عن محله. قالوا: اجلس، إنما أنت أعرابى لا علم لك. فبعثوا إليه عروة بن مسعود الثقفى، فقال: يا معشر قريش، إن قد رأيت ما يلقى منكم من تبعثون إلى محمد إذا جاءكم، من التعنيف وسوء اللفظ، وقد عرفتم أنكم والد وأنى ولد، وقد سمعت بالذى نابكم، فجمعت من أطاعنى من قومى، ثم جئت حتى آسيتكم بنفسى. قالوا: صدقت، ما أنت عندنا بمتهم. فخرج[٨] حتى أتى رسول الله ﷺ فجلس بين يديه، فقال: يا محمد، جمعت أوباش الناس، ثم جئت بهم لبيضتك لتفضها، إنها قريش قد خرجت معها العوذ المطافيل، قد لبسوا جلود النمور، يعاهدون الله

---

(١) زيادة من أ.
(٢) فى أ: «يحرصه».
(٣) فى ت: «وما ذاك».
(٤) زيادة من ت، م، أ.
(٥) زيادة من ت، م.
(٦) زيادة من ت، م.
(٧) فى ت: «فلما رجع إلى أصحابه».
(٨) فى أ: «ثم خرج».

ألا تدخلها عليهم عنوة أبدا، وايم الله لكأنى بهؤلاء قد انكشفوا عنك غدا. قال: وأبو بكر قاعد خلف رسول الله ﷺ، فقال: امصص بظر اللات! أنحن ننكشف عنه؟! قال: من هذا يا محمد؟ قال: «هذا ابن أبى قحافة». قال: أما والله لولا يد كانت لك عندى لكافأتك بها، ولكن هذه بها. ثم تناول لحية رسول الله ﷺ، والمغيرة بن شعبة واقف على رأس رسول الله ﷺ فى الحديد[١]، قال: فقرع يده. ثم قال: أمسك يدك عن لحية رسول الله ﷺ قبل ـ والله ـ لا تصل إليك. قال: ويحك! ما أفظعك وأغلظك! فتبسم رسول الله ﷺ. قال: من هذا يا محمد؟ قال ﷺ: «هذا ابن أخيك المغيرة ابن شعبة». قال: أغدر، وهل غسلت سوأتك إلا بالأمس؟! قال فكلمه رسول الله ﷺ بمثل ما كلم به أصحابه، وأخبره أنه لم يأت يريد حربا. قال: فقام من عند رسول الله [ﷺ][٢] وقد رأى ما يصنع به أصحابه، لا يتوضأ وضوءًا إلا ابتدروه، ولا يبصق بصاقا إلا ابتدروه، ولا يسقط من شعره شىء إلا أخذوه. فرجع إلى قريش فقال: يا معشر قريش، إنى جئت كسرى فى ملكه، وجئت قيصر والنجاشى فى ملكهما، والله ما رأيت مَلكا قط مثل محمد فى أصحابه، ولقد رأيت قوما لا يسلمونه لشىء أبدا، فروا رأيكم. قال: وقد كان رسول الله ﷺ قبل ذلك قد بعث خراش بن أمية الخزاعى إلى مكة، وحمله على جمل له يقال له: «الثعلب»، فلما دخل مكة عقرت[٣] به قرش، وأرادوا قتل خراش، فمنعتهم الأحابيش، حتى أتى رسول الله ﷺ، فدعا عمر ليبعثه إلى مكة، فقال: يا رسول الله، إنى أخاف قريشًا على نفسى، وليس بها من بنى عدى أحد يمنعنى، وقد عرفت قرش عداوتى إياها وغلظتى عليها، ولكن أدلك على رجل هو أعز منى: عثمان بن عفان. قال: فدعاه رسول الله ﷺ، فبعثه إلى قريش يخبرهم أنه لم يأت لحرب أحد، وإنما جاء زائرا لهذا البيت، معظما لحرمته. فخرج عثمان حتى أتى مكة، فلقيه أبان بن سعيد بن العاص، فنزل عن دابته وحمله بين يديه وردف خلفه، وأجاره حتى بلغ رسالة رسول الله ﷺ، فانطلق عثمان حتى أتى أبا سفيان وعظماء قريش، فبلغهم عن رسول الله ﷺ ما أرسله به، فقالوا لعثمان: إن شئت أن تطوف بالبيت فطف به، فقال: ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله [ﷺ][٤] قال: واحتبسته قريش عندها، قال: وبلغ رسول الله أن عثمان قد قتل.

قال محمد: فحدثنى الزهرى: أن قريشاً بعثوا سهيل بن عمرو، وقالوا: ائت محمداً فصالحه ولا يكون فى صلحه إلا أن يرجع عنا عامه هذا، فوالله لا تحدث العرب أنه دخلها علينا عنوة أبداً. فأتاه سهيل بن عمرو فلما رآه رسول الله ﷺ قال: «قد أراد القوم الصلح حين بعثوا هذا الرجل». فلما انتهى إلى رسول الله ﷺ تكلما وأطالا الكلام، وتراجعا حتى جرى بينهما الصلح، فلما التأم الأمر ولم يبق إلا الكتاب، وثب عمر بن الخطاب فأت أبا بكر فقال: يا أبا بكر، أو ليس برسول الله؟ أو لسنا بالمسلمين؟ أو ليسوا بالمشركين؟ قال: بلى. قال: فعلام نعطى الذلة فى ديننا؟ فقال أبو بكر: يا عمر،

---

(١) فى ت: «بالحدد».

(٢) زيادة من ت، أ.

(٣) فى ت: «عثرت».

(٤) زيادة من ت، أ.

الزم غرزه حيث كان، فإنى أشهد أنه رسول الله. [ثم][(١)] قال عمر: وأنا أشهد. ثم أتى رسول الله فقال: يا رسول الله، أو لسنا بالمسلمين أو ليسوا بالمشركين؟ قال: «بلى». قال: فعلام نعطى الذلة فى ديننا؟ فقال: «أنا عبد الله ورسوله، لن أخالف أمره ولن يضيعنى». ثم قال عمر: مازلت أصوم وأصلى وأتصدق وأعتق من[(٢)] الذى صنعت مخافة كلامى الذى تكلمت به يومئذ حتى رجوت أن يكون خيرا. قال: ثم دعا رسول الله ﷺ على بن أبى طالب [رضى الله عنه][(٣)] فقال: اكتب: «بسم الله الرحمن الرحيم». فقال سهيل بن عمرو: ولا أعرف هذا، ولكن اكتب: «باسمك اللهم، فقال رسول الله: «اكتب باسمك اللهم. هذا ما صلح[(٤)] عليه محمد رسول الله، سهل بن عمرو»، فقال سهيل بن عمرو: ولو شهدت أنك رسول الله لم أقاتلك، ولكن اكتب هذا ما اصطلح عليه محمد بن عبد الله، وسهيل ابن عمرو، على وضع الحرب عشر سنين، يأمن فيها الناس، ويكف بعضهم عن بعض، على أنه من أتى رسول الله[(٥)] من أصحابه بغير إذن وليه، رده عليهم، ومن أتى قريشا ممن مع رسول الله ﷺ[(٦)] لم يردوه عليه وأن بيننا عيبة مكفوفة، وأنه لا أسلال ولا أغلال، وكان فى شرطهم حين كتبوا الكتاب: أنه من أحب أن يدخل فى عقد محمد وعهده، دخل فيه، ومن أحب أن يدخل فى عقد قريش وعهدهم دخل فيه، فتواثبت خزاعة فقالوا: نحن فى عقد رسول الله وعهده، وتواثبت بنو بكر فقالوا: نحن فى عقد قريش وعهدهم، وأنك ترجع عنا عامنا هذا فلا تدخل علينا مكة، وأنه إذا كان عام قابل خرجنا عنك فتدخلها بأصحابك، وأقمت بها ثلاثاً معك سلاح الراكب لا تدخلها بغير السيوف فى القرب، فبينا رسول الله ﷺ يكتب الكتاب، إذا جاءه أبو جندل بن سهيل بن عمرو فى الحديد قد انفلت إلى رسول الله ﷺ[(٧)] قال: وقد كان أصحاب رسول الله خرجوا وهم لا يشكون فى الفتح، لرؤيا رآها رسول الله ﷺ فلما رأوا ما رأوا من الصلح والرجوع، وما تحمل رسول الله [ﷺ][(٨)] على نفسه، دخل الناس من ذلك أمر عظيم، حتى كادوا أن يهلكوا. فلما رأى سهيل أبا جندل قام إليه فضرب وجهه وقال: يا محمد، قد لجّت[(٩)] القضية بينى وبينك قبل أن يأتيك هذا. قال: «صدقت». فقام إليه فأخذ بتلابيبه. قال: وصرخ أبو جندل بأعلى صوته: يا معشر المسلمين، أتردوننى إلى أهل الشرك فيفتنونى فى دينى؟ قال: فزاد الناس شرا إلى ما بهم، فقال رسول الله ﷺ: «يا أبا جندل، اصبر واحتسب، فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً، إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحا فأعطيناهم على ذلك وأعطونا عليه عهدا[(١٠)]، وإنا لن نغدر بهم». قال: فوثب إليه عمر بن الخطاب فجعل يمشى مع [أبى][(١١)] جندل إلى جنبه وهو يقول: اصبر أبا جندل، فإنما هم المشركون، وإنما دم أحدهم دم كلب، قال: ويدنى قائم السيف منه، قال: يقول: رجوت أن يأخذ السيف فيضرب به أباه قال: فضن الرجل بأبيه. قال: ونفذت القضية، فلما فرغا من الكتاب،

(١) زيادة من م،أ.
(٢) فى ت: «عن».
(٣) زيادة من ت.
(٤) فى أ: «ما صالح».
(٥) فى أ: «محمداً».
(٦) زيادة من ت.
(٧) زيادة من ت.
(٨) زيادة من ت،أ.
(٩) فى ت، أ: «تمت».
(١٠) فى ت،م،أ: « عهدنا».
(١١) زيارة من ت،م، أ.

وكان رسول الله ﷺ يصلى فى الحرم، وهو مضطرب فى الحل، قال: فقام رسول الله ﷺ فقال: «يأيها الناس، انحروا[١] واحلقوا». قال: فما قام أحد. قال: ثم عاد بمثلها، فما قام رجل حتى عاد ﷺ بمثلها، فما قام رجل.

فرجع رسول الله ﷺ فدخل على أم سلمة فقال: «يا أم سلمة، ما شأن الناس؟». قالت: يا رسول الله، قد دخلهم ما رأيت، فلا تُكَلِّمهن[٢] منهم إنساناً، واعمد إلى هديك حيث كان فانحره واحلق، فلو قد فعلت ذلك فعل الناس ذلك. فخرج رسول الله ﷺ لا يكلم أحداً حتى أتى هديه فنحره، ثم جلس فحلق، قال: فقام الناس ينحرون ويحلقون. قال: حتى إذا كان بين مكة والمدينة فى وسط الطريق نزلت سورة الفتح.

هكذا ساقه أحمد من هذا الوجه، وهكذا رواه يونس بن بُكَيْر وزياد البكائى، عن ابن إسحاق، بنحوه[٣]، وفيه إغراب، وقد رواه أيضاً عن عبد الرزاق، عن مَعْمَر، عن الزهرى، به نحوه[٤] وخالفه فى أشياء وقد رواه البخارى، رحمه الله، فى صحيحه، فساقه سياقة[٥] حسنة مطولة بزيادات جيدة، فقال فى كتاب الشروط[٦] من صحيحه:

حدثنا عبد الله بن محمد، حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا مَعْمَر: أخبرنى الزهرى: أخبرنى عُرْوَة بن الزبير، عن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم، يصدق كل واحد منهما حديث صاحبه، قالا: خرج رسول الله ﷺ زمن الحديبية فى بضع عشرة مائة من أصحابه، فلما أتى ذا الحليفة قلد الهدى وأشعره، وأحرم منها بعمرة وبعث عيناً له من خزاعة، وسار حتى إذا كان بغدير الأشطاط أتاه عينه، فقال: إن قريشاً قد جمعوا لك جموعاً، وقد جمعوا لك الأحابيش وهم مقاتلوك وصادوك ومانعوك. فقال: « أشيروا أيها الناس علىّ، أترون أن نميل عل عيالهم، وذرارى هؤلاء الذين يريدون أن صدونا عن البيت؟»، وفى لفظ: «أترون أن نميل على ذرارى هؤلاء الذين أعانوهم. فإن يأتونا كان الله قد قطع عنُقا من المشركين وإلا تركناهم محزونين»، وفى لفظ: «فإن قعدوا قعدوا موتورين مجهودين محرُوبين وإن نجوا يكن عنقا قطعها الله، أم ترون أن نؤم البيت فمن صدنا عنه قاتلناه؟». فقال أبو بكر [رضى الله عنه][٧]: يا رسول الله، خرجت عامداً لهذا البيت، لا نريد قتل أحد ولا حرباً، فتوجه له، فمن صدنا عنه قاتلناه. وفى لفظ: فقال أبو بكر، رضى الله عنه: الله ورسوله علم إنما جئنا معتمرين، ولم نجئ لقتال أحد، ولكن من حال بيننا وبين البيت قاتلناه. فقال النبى ﷺ: «فروحوا إذن»، وفى لفظ: «فامضوا على اسم الله».

حتى إذا كانوا ببعض الطريق، قال النبى ﷺ: «إن خالد بن الوليد فى خيل لقريش طليعة،

---

(١) فى ت،أ: «انحروا فى الحرم». (٢) فى ت،أ: «فلا تكلمن».
(٣) المسند (٤/ ٣٢٣) والسيرة النبوية لابن هشام (٢/ ٣١٦).
(٤) رواه أحمد فى مسنده (٤/ ٣٢٨) من طريق عبد الرزاق به.
(٥) فى م: «بسياقات». (٦) فى ت،م: «الشرط». (٧) زيادة من أ.

فخذوا ذات اليمين». فوالله ما شعر بهم خالد حتى إذا هم بقَتَرة الجيش، فانطلق يركض نذيراً لقريش، وسار النبى ﷺ حتى إذا كان بالثنية التى يهبط عليهم منها، بركت به راحلته. فقال الناس: حل حل فألحت، فقالوا: خلأت القصواء، خلأت القصواء، فقال النبى ﷺ: «ما خلأت القصواء، وما ذاك لها بخلق، ولكن حبسها حابس الفيل». ثم قال: « والذى نفسى بيده، لا يسألونى خطة يعظمون فيها حرمات الله، إلا أعطيتهم إياها». ثم زجرها فوثبت، فعدل عنهم حتى نزل بأقصى الحديبية على ثمد قليل الماء، يتبرضه الناس تبرضاً، فلم يلبث[(١)] الناس حتى نزحوه، وشكى[(٢)] إلى رسول الله ﷺ العطش، فانتزع من كنانته سهماً ثم أمرهم أن يجعلوه فيه، فوالله ما زال يجيش لهم بالرى حتى صدروا عنه، فبينما هم كذلك إذ جاء بديل بن ورقاء الخزاعى فى نفر من قومه من خزاعة، وكانوا عيبة نصح رسول الله [ﷺ][(٣)] من أهل تهامة، فقال: إنى تركت كعب بن لؤى وعامر بن لؤى، نزلوا أعداد مياه الحديبية معهم العوذ المطافيل، وهم مقاتلوك وصادوك عن البيت. فقال النبى ﷺ: «إنا لم نجئ لقتال أحد، ولكن جئنا معتمرين، وإن قريشا قد نهكتهم الحرب فأضرت بهم، فإن شاؤوا ماددنهم مدة ويخلوا بينى وبين الناس، فإن أظهر فإن شاؤوا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس فعلوا، وإلا فقد جموا، وإن هم أبوا فوالذى نفسى بيده لأقاتلنهم على أمرى هذا حتى تنفرد سالفتى، ولينفذن[(٤)] الله أمره». قال بديل: سأبلغهم ما تقول، فانطلق حتى أتى قريشا فقال: إنا قد جئنا من عند هذا الرجل، وسمعناه يقول قولا، فإن شئتم أن نعرضه عليكم فعلنا، فقال سفهاؤهم: لاحاجة لنا أن تخبرنا عنه بشىء. وقال: ذوو الرأى منهم: هات ما سمعته يقول. قال: سمعته يقول كذا وكذا، فحدثهم بما قال رسول الله ﷺ، فقام عروة بن مسعود فقال: أى قوم، ألستم بالوالد؟ قالوا: بلى. قال: أولست بالولد؟ قالوا: بلى. قال: فهل تتهمونى؟ قالوا: لا. قال: ألستم تعلمون أنى استنفرت أهل عكاظ، فلما بلحوا على جئتكم بأهلى وولدى ومن أطاعنى؟ قالوا: بلى. قال: فإن هذا قد عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها ودعونى آته. قالوا: ائته. فأتاه فجعل يكلم رسول الله ﷺ، فقال النبى ﷺ له نحوا من قوله لبديل بن ورقاء. فقال عروة عند ذلك: أى محمد، أرأيت إن استأصلت أمر قومك، هل سمعت بأحد من العرب اجتاح أصله قبلك؟ وإن تك الأخرى فإنى والله لأرى وجوها، وإنى لأرى أشوابا[(٥)] من الناس خليقا أن يفروا ويدعوك، فقال أبو بكر، رضى الله عنه: امصص بَظْر اللات! أنحن نفر وندعه؟! قال: من ذا؟ قالوا: أبو بكر. قال: أما والذى نفسى بيده لو لا يد كانت لك عندى لم أجزك بها، لأجبتك. قال: وجعل يكلم النبى ﷺ فكلما كلمه أخذ بلحيته، والمغيرة بن شعبة، رضى الله عنه قائم على رأس النبى ﷺ ومعه السيف وعليه المغفر، فكلما أهوى عروة بيده إلى لحية النبى ﷺ ضرب يده بنعل السيف، وقال له: أخر يدك من لحية النبى ﷺ. فرفع عروة رأسه وقال: من هذا؟ قال: المغيرة بن شعبة. فقال: أى غدر، ألست أسعى فى غدرتك؟! وكان المغيرة بن شعبة صحب قوما فى الجاهلية فقتلهم وأخذ أموالهم، ثم جاء فأسلم، فقال النبى ﷺ: «أما الإسلام فأقبل، وأما المال فلست منه فى شى».

---

(١) فى ت، م: «يلبثه». (٢) فى أ: «شكوا». (٣) زيادة من م.
(٤) فى ت، م: « أو لينفذن». (٥) فى أ: « أوباشاً».

ثم إن عروة جعل يرمق أصحاب النبى ﷺ بعينيه[١]، قال: فوالله ما تنخم رسول الله [ﷺ][٢] نخامة إلاوقعت فى كف رجل منهم، فدلك بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده، وما يحدون النظر إليه، تعظيما له ﷺ، فرجع عروة إلى أصحابه فقال: أى قوم، والله لقد وفدت على الملوك، ووفدت على كسرى وقيصر والنجاشى، والله إن رأيت ملكا قط يعظمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمد محمداً، والله إن تنخم نخامة إلا وقعت فى كف رجل منهم، فدلك بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده، وما يُحدون النظر إليه تعظيما له، وإنه قد عرض عليكم خطة رشْد فاقبلوها. فقال رجل منهم من بنى كنانة: دعونى آته. فقالوا: ائته، فلما أشرف على النبى ﷺ وأصحابه، قال النبى ﷺ: «هذا فلان، وهو من قوم يعظمون البُدْن، فابعثوها له» فبُعِثَتْ له، واستقبله الناس يُلَبُّون، فلما رأى ذلك قال: سبحان الله! ما ينبغى لهؤلاء أن يصدوا عن البيت. فلما رجع إلى أصحابه قال: رأيت البُدْن قد قُلِّدت وأشعرت، فما أرى أن يُصَدُّوا عن البيت. فقال[٣] رجل منهم يقال له: «مِكْرَز بن حفص»، فقال: دعونى آته. فقالوا: ائته. فلما أشرف عليهم قال النبى ﷺ : «هذا مكرز [بن حفص][٤] وهو رجل فاجر»، فجعل يكلم النبى ﷺ، فبينما هو يكلمه إذ جاء سهيل بن عمرو.

وقال معمر: أخبرنى أيوب، عن عِكْرِمَةَ أنه قال: لما جاء سهيل بن عمرو قال النبى ﷺ: « قد سَهُل لكم من أمركم».

قال معمر: قال الزهرى فى حديثه: فجاء سهيل بن عمرو فقال: هات اكتب بيننا وبينك[٥] كتابا فدعا النبى ﷺ الكاتب، فقال النبى ﷺ : «[اكتب][٦]: بسم الله الرحمن الرحيم»، فقال سهيل [بن عمرو][٧]: أما «الرحمن» فوالله ما أدرى ما هو، ولكن اكتب: «باسمك اللهم»، كما كنت تكتب. فقال المسلمون: والله لا نكتبها إلا: «بسم الله الرحمن الرحيم». فقال النبى ﷺ: «اكتب: باسمك اللهم». ثم قال: «هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله». فقال سهيل: والله لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت ولاقاتلناك، ولكن اكتب: «محمد بن عبد الله»، فقال النبى ﷺ: «والله إنى لرسول الله وإن كذبتمونى. اكتب محمد بن عبد الله» قال الزهرى: وذلك لقوله: «والله لا يسألونى خطة يعظمون فيها حرمات الله إلا أعطيتهم إياها». فقال له النبى ﷺ: «على أن تخلوا بيننا وبين البيت فنطوف به». فقال سهيل: والله لا تتحدث العرب أنا أخذنا ضُغْطَةً، ولكن ذلك من العام المقبل، فكتب، فقال سهيل: «وعلى أنه لا يأتيك منا رجل وإن كان على دينك إلا رددته إلينا». فقال المسلمون: سبحان الله! كيف يُرَدُّ إلى المشركين وقد جاء مسلما؟! فبينما هم كذلك إذ جاء أبو جندل بن سهيل

---

(١) فى ت: «بعينه». (٢) زيادة من ت. (٣) فى أ: «فقام».
(٤) زيادة من أ. (٥) فى ت: «بينكم».
(٦) زيادة من أ. (٧) زيادة من ت، م.

ابن عمرو يرسُفُ فى قيوده، قد[١] خرج من أسفل مكة حتى رمى بنفسه بين أظهر المسلمين، فقال سهيل: هذا يا محمد أول من أقاضيك عليه أن تَرُدَّه إلى، فقال النبى ﷺ: « إنا لم نَقْضِ الكتاب بعد». قال: فوالله إذًا لا أصالحك على شىء أبدا. فقال النبى ﷺ: «فأجزه لى» فقال: ما أنا بمجيز ذلك لك، قال: «بلى فافعل». قال: ما أنا بفاعل. قال مكرز: بلى قد أجزناه لك. قال أبو جندل: أى معشر المسلمين، أرَدّ إلى المشركين وقد جئت مسلما؟ ألا ترون ما قد لقيت؟! وكان قد عُذِّبَ عذابا شديدا فى الله عز وجل. قال عمر [بن الخطاب][٢] رضى الله عنه: فأتيت نبى الله ﷺ، فقلت: ألست نبى الله حقا؟ قال ﷺ: «بلى». قلت: ألسنا على الحق وعدونا على الباطل؟ قال: «بلى». قلت: فلم نعطى الدنية فى ديننا إذا؟ قال: «إنى رسول الله، ولستُ أعصيه، وهو ناصرى»، قلت: أو لست كنت تحدثنا أنا سنأتى البيت ونطوف به؟ قال: «بلى، أفأخبرتك أنا نأتيه[٣] العام؟». قلت: لا، قال: «فإنك آتيه ومُطوِّف به». قال: فأتيت أبا بكر فقلت: يا أبا بكر أليس هذا نبى الله حقا؟ قال: بلى. قلت: ألسنا على الحق وعدونا على الباطل؟ قال: بلى. قلت: فلم نعطى الدنية فى ديننا إذا؟ قال: أيها الرجل، إنه رسول الله، وليس يعصى ربه، وهو ناصره، فاستمسك بغَرْزه، فوالله إنه على الحق. قلت: أو ليس كان يحدثنا أنا سنأتى البيت ونطوف به؟ قال: بلى، قال: أفأخبرك أنك تأتيه العام؟ قلت: لا. قال: فإنك تأتيه وتطوف به.

قال الزهرى: قال عمر: فعملت لذلك أعمالا. قال: فلما فرغ من قضية الكتاب قال رسول[٤] الله ﷺ لأصحابه: «قوموا فانحروا ثم احلقوا». قال: فوالله ما قام منهم رجل حتى قال ذلك ثلاث مرات!! فلما لم يقم منهم أحد دخل على أم سلمة، فذكر لها ما لقى من الناس، قالت له أم سلمة: يا نبى الله، أتحب ذلك؟ اخرج ثم لا تكلم أحدا منهم كلمة حتى تنحر بدنك وتدعو حالقك فيحلقك، فخرج فلم يكلم أحدا منهم حتى فعل ذلك، نحر بدنه، ودعا حالقه فحلقه، فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا وجعل بعضهم يحلق بعضا، حتى كاد بعضهم يقتل بعضا غما، ثم جاءه نسوة مؤمنات، فأنزل الله، عز جل: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ ﴾ حتى بلغ: ﴿بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ﴾[الممتحنة: ١٠]. فطلق عمر يومئذ امرأتين كانتا له فى الشرك، فتزوج إحداهما معاوية بن أبى سفيان، والأخرى صفوان بن أمية. ثم رجع النبى ﷺ إلى المدينة فجاءه أبو بصير ـ رجل من قريش ـ وهو مسلم، فأرسلوا فى طلبه رجلين، فقالوا: العهد الذى جعلت لنا، فدفعه إلى الرجلين فخرجا به حتى بلغا ذا الحليفة، فنزلوا يأكلون من تمر لهم، فقال أبو بصير لأحد الرجلين: والله إنى لأرى سيفك هذا يا فلان جيداً، فاستله الآخر، فقال: أجل! والله إنه لجيد، لقد جربت منه ثم جربت، فقال أبو بصير: أرنى أنظر إليه، فأمكنه منه فضربه حتى بَرَد، وفَرّ الآخر حتى أتى المدينة، فدخل المسجد يعدو، فقال رسول الله[٥] ﷺ حين رآه: «لقد رأى هذا ذُعراً»، فلما انتهى إلى النبى ﷺ قال:

---

(١) فى ت: «حتى». (٢) زيادة من ت. (٣) فى ت: «أنك تأتيه».
(٤) فى ت: «النبى». (٥) فى م: «النبى».

قتل والله صاحبى، وإنى لمقتول. فجاء أبو بصير فقال: يا رسول الله، قد ـ والله ـ أوفى الله ذمتك، قد رددتنى إليهم ثم نجانى الله منهم، فقال النبى ﷺ: «ويل أمّه مِسْعَرُ حرب! لو كان له أحد». فلما سمع ذلك عرف أنه سيرده إليهم، فخرج حتى أتى سيف البحر، قال: وتفلت منهم أبو جندل بن سهيل، فلحق بأبى بصير، فجعل لا يخرج من قريش رجل قد أسلم إلا لحق بأبى بصير، حتى اجتمعت منهم عصابة، فوالله ما يسمعون بعير خرجت لقريش إلى الشام إلا اعترضوا لها فقتلوهم، وأخذوا أموالهم. فأرسلت قريش إلى النبى ﷺ، تناشده الله والرحم لما أرسل إليهم: «فمن أتاه منهم فهو آمن». فأرسل النبى ﷺ إليهم، وأنزل الله عز جل: **﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ﴾** حتى بلغ: **﴿حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ﴾**، وكانت حميتهم أنهم لم يقروا أنه رسول الله، ولم يقروا ببسم الله الرحمن الرحيم، وحالوا بينهم وبين البيت.

هكذا ساقه البخارى هاهنا[(١)]، وقد أخرجه فى التفسير، وفى عمرة الحديبية، وفى الحج، وغير ذلك من حديث معمر وسفيان بن عيينة، كلاهما عن الزهرى، به[(٢)] ووقع فى بعض الأماكن عن الزهرى، عن عروة، عن مروان والمِسْوَر بن [مَخْرَمة][(٣)]، عن رجال من أصحاب النبى ﷺ بذلك[(٤)]. وهذا أشبه والله أعلم، ولم يسقه أبسط من هاهنا، وبينه وبين سياق ابن إسحاق تباين فى مواضع، وهناك فوائد ينبغى إضافتها إلى ما هاهنا، ولذلك سقنا تلك الرواية وهذه، والله المستعان وعليه التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بالله العزيز الحكيم.

وقال البخارى فى التفسير: حدثنا أحمد بن إسحاق السُّلَمِى، حدثنا يعلى، حدثنا عبد العزيز بن سياه، عن حبيب بن أبى ثابت، قال: أتيت أبا وائل أسأله فقال: كنا بصفين فقال رجل: ألم تر إلى الذين يدعون إلى كتاب الله؟ فقال على بن أبى طالب: نعم. فقال سهل بن حُنَيْف: اتهمُوا أنفسكم، فلقد رأيتنا يوم الحديبية ـ يعنى: الصلح الذى كان بين النبى ﷺ والمشركين ـ ولو نرى قتالا لقاتلنا، فجاء عمر فقال: ألسنا على الحق وهم على الباطل؟ أليس قتلانا فى الجنة وقتلاهم فى النار؟ فقال: «بلى». قال: ففيم نعطى الدنية فى ديننا، ونرجع ولما يحكم الله بيننا؟ فقال: «يا ابن الخطاب، إنى رسول الله، ولن يضيعنى الله أبدا»، فرجع متغيظا، فلم يصبر حتى جاء أبا بكر فقال: يا أبا بكر، ألسنا على الحق وهم على الباطل، فقال: يا ابن الخطاب، إنه رسول الله، ولن يضيعه الله أبدا، فنزلت سورة الفتح[(٥)].

وقد رواه البخارى أيضا فى مواضع أخر ومسلم والنسائى من طرق أخر عن أبى وائل سفيان[(٦)]

---

(١) صحيح البخارى برقم (٢٧٣١، ٢٧٣٢).

(٢) صحيح البخارى برقم (٤١٨٠).

(٣) زيادة من م.

(٤) رواه البخارى فى صحيحه فى أول الشروط برقم (٢٧١١).

(٥) صحيح البخارى برقم (٤٨٤٤).

(٦) فى هـ: «شقيق».

ابن سلمة، عن سهيل[١] بن حنيف به[٢]، وفى بعض ألفاظه: «يأيها الناس، اتهموا الرأى، فلقد رأيتنى يوم أبى جندل ولو أقدر على أن أرد على رسول الله ﷺ أمره لرددته» وفى رواية: فنزلت سورة الفتح، فدعا رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب فقرأها عليه.

قال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا حماد، عن ثابت، عن أنس، أن قريشا صالحوا النبى ﷺ، فيهم سهيل بن عمرو، فقال النبى ﷺ لعلى: «اكتب: بسم الله الرحمن الرحيم»، فقال سهيل: لا ندرى ما بسم الله الرحمن الرحيم، ولكن اكتب ما نعرف: «باسمك اللهم». فقال: «اكتب من محمد رسول الله». قال: لو نعلم[٣] أنك رسول الله لاتبعناك، ولكن اكتب: اسمك واسم أبيك. فقال النبى ﷺ: «اكتب: من محمد بن عبد الله». واشترطوا على النبى ﷺ أن[٤] من جاء منكم لا نرده عليكم، ومن جاءكم منا رددتموه علينا، فقال: يا رسول الله، أتكتب هذا؟ قال: «نعم، إنه من ذهب منا إليهم فأبعده الله» . رواه مسلم من حديث حماد بن سلمة، به[٥].

وقال أحمد أيضا: حدثنا عبد الرحمن بن مهدى، حدثنا عكرمة بن عمار قال: حدثنى سماك، عن عبد الله بن عباس قال: لما خرجت الحرورية اعتزلوا، فقلت لهم: إن رسول الله ﷺ يوم الحديبية صالح المشركين، فقال لعلى: «اكتب يا على: هذا ما صالح عليه محمد رسول الله» قالوا: لو نعلم أنك رسول الله ما قاتلناك، فقال رسول الله: «امح يا على، اللهم إنك تعلم أنى رسولك، امح يا على، واكتب: هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله». والله لرسول الله خير من على، وقد محا نفسه، ولم يكن محوه ذلك يمحاه من النبوة، أخرجت من هذه؟ قالوا: نعم.

ورواه أبو داود من حديث عكرمة بن عمار اليمامى، بنحوه[٦].

وروى الإمام أحمد، عن يحيى بن آدم: حدثنا زهير، عن محمد بن عبد الرحمن بن أبى ليلى، عن الحكم، عن مِقْسَم، عن ابن عباس، رضى الله عنهما، قال: نحر رسول الله ﷺ يوم الحديبية سبعين بدنة فيها جمل لأبى جهل، فلما صُدَّت عن البيت حَنَّتْ كما تَحِنُّ إلى أولادها[٧].

﴿ لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا (٢٧) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا (٢٨) ﴾ .

---

(١) فى م: «سهل».

(٢) صحيح البخارى برقم (٣١٨١، ٧٣٠٨، ٤١٨٩، ٣١٨٢) وصحيح مسلم برقم (١٧٨٥) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٥٠٤).

(٣) فى م: «علمنا». (٤) فى م: «أنه».

(٥) المسند (٣/ ٢٦٨) وصحيح مسلم برقم (١٧٨٤).

(٦) المسند (١/ ٣٤٢) وسنن أبى داود برقم (٤٠٣٧).

(٧) المسند (١/ ٣١٤).

كان رسول الله ﷺ قد أُرِىَ فى المنام أنه دخل مكة وطاف بالبيت فأخبر أصحابه بذلك وهو بالمدينة، فلما ساروا عام الحديبية لم يشك جماعة منهم أن هذه الرؤيا تتفسر[١] هذا العام، فلما قع ما وقع من قضية الصلح ورجعوا عامهم ذلك على أن يعودوا من قابل، وقع فى نفوس بعض الصحابة من ذلك شىء، حتى سأل عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، فى ذلك، فقال له فيما قال: أفلم تكن تخبرنا أنا سنأتى البيت ونطوف به؟ قال: «بلى، أفأخبرتك أنك تأتيه[٢] عامك هذا» قال: لا، قال: «فإنك آتيه ومطوف به». وبهذا أجاب الصديق، رضى الله عنه، أيضا حَذْو القُذَّة بالقُذَّة؛ ولهذا قال تعالى: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ﴾: [و][٣]هذا لتحقيق الخبر وتوكيده، وليس هذا من الاستثناء فى شىء، [وقوله][٤]: ﴿آمِنِينَ﴾ أى: فى حال دخولكم. وقوله: ﴿ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ﴾، حال مقدرة؛ لأنهم فى حال حرمهم[٥] لم يكونوا محلقين ومقصرين، وإنما كان هذا فى ثانى الحال، كان منهم من حلق رأسه ومنهم من قصره، وثبت فى الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «رحم الله المحلقين»، قالوا: والمقصرين يا رسول الله؟قال: «رحم الله المحلقين». قالوا: والمقصرين يا رسول الله ؟ قال: «رحم الله المحلقين». قالوا: والمقصرين يا رسول الله؟ قال: «والمقصرين» فى الثالثة أو الرابعة[٦].

وقوله: ﴿لا تَخَافُونَ﴾: حال مؤكدة فى المعنى، فأثبت لهم الأمن حال الدخول، ونفى عنهم الخوف حال استقرارهم فى البلد لا يخافون من أحد. وهذا كان فى عمرة القضاء فى ذى القعدة سنة سبع، فإن النبى ﷺ لما رجع من الحديبية فى ذى القعدة رجع إلى المدينة فأقام بها ذا الحجة والمحرم، وخرج فى صفر إلى خيبر ففتحها الله عليه بعضها عنوة وبعضها صلحا، وهى إقليم عظيم كثير النخل[٧] والزروع، فاستخدم[٨] من فيها من اليهود عليها على الشطر، وقسمها بين أهل الحديبية وحدهم، ولم يشهدها أحد غيرهم إلا الذين قدموا من الحبشة، جعفر بن أبى طالب وأصحابه، وأبو موسى الأشعرى وأصحابه، ولم يغب منهم أحد، قال ابن زيد: إلا أبا دجانة سمَاك بن خرَشَة، كما هو مقرر فى موضعه ثم رجع إلى المدينة، فلما كان فى ذى القعدة [فى][٩] سنة سبع خرج إلى مكة معتمرا هو وأهل الحديبية، فأحرم من ذى الحليفة، وساق معه الهدى، قيل: كان ستين بدنة، فلبى وسار وأصحابه يلبون. فلما كان قريبا من مر الظهران بعث محمد بن مسلمة بالخيل والسلاح أمامه، فلما رآه المشركون رعبوا رعبا شديدا، وظنوا أن رسول الله ﷺ يغزوهم، وأنه قد نكث العهد الذى بينه وبينهم من وضع القتال عشر سنين، وذهبوا فأخبروا أهل مكة، فلما جاء رسول الله ﷺ فنزل بمر الظهران حيث ينظر إلى أنصاب الحرم، بعث السلاح من القسى والنبل والرماح إلى بطن يأجج، وسار إلى مكة بالسيف مغمدة فى قربها، كما شارطهم عليه. فلما كان فى أثناء الطريق بعثت قريش مِكْرَز

---

(١) فى أ: «تتعين». (٢) فى ت، م: «آتيه». (٣) زيادة من ت.
(٤) زيادة من ت، م. (٥) فى م، أ: «دخولهم».
(٦) صحيح البخارى برقم (١٧٢٧) وصحيح مسلم برقم (١٣٠١) من حديث عبد الله بن عمر رضى الله عنهما.
(٧) فى أ: «النخيل». (٨) فى ت: «واستخدم». (٩) زيادة من ت.

ابن حفص فقال: يا محمد، ما عرفناك تنقض العهد. قال: «وما ذاك؟». قال[١]: دخلت: علينا بالسلاح والقسى والرماح. فقال: «لم يكن ذلك، وقد بعثنا به إلى يأجج»، فقال: بهذا عرفناك، بالبر والوفاء. وخرجت رؤوس الكفار من مكة لئلا ينظروا إلى رسول الله ﷺ و[لا][٢] إلى أصحابه غيظا وحنقا، وأما بقية أهل مكة من الرجال والنساء والولدان فجلسوا فى الطرق وعلى البيوت ينظرون إلى رسول الله ﷺ وأصحابه، فدخلها عليه الصلاة والسلام، وبين يديه أصحابه يلبون، والهدى قد بعثه إلى ذى طوى، وهو راكب ناقته القصواء التى كان راكبها يوم الحديبية، وعبد الله بن رواحة الأنصارى آخذ بزمام ناقة رسول الله ﷺ يقودها، وهو يقول:

باسم الذى لا دين إلا دينُه ... باسم الذى محمدٌ رسوله
خَلُّوا بنى الكُفَّار عَنْ سَبِيله ... اليوم نضربكم على تَأْويله
كما ضربناكم على تنزيله ... ضرباً يزيلُ الهام عَن مَقِيله
ويُذْهِل الخليل عن خليله ... قد أنزل الرحمن فى تنزيله
فى صُحف تتلى على رسُوله ... بأن خير القَتْل فى سبيله

يا رب إنى مؤمن بقيله

فهذا مجموع من روايات متفرقة.

قال يونس بن بكير، عن محمد بن إسحاق: حدثنى عبد الله بن أبى بكر[٣] بن حزم قال: لما دخل رسول الله ﷺ مكة فى عمرة القضاء، دخلها وعبد الله بن رواحة آخذ بخطام ناقته ﷺ[٤]، وهو يقول:

خلّوا بنى الكفار عن سبيله ... إنى شَهيدٌ أنه رَسُولُهُ
خلوا فكل[٥] الخير فى رسوله ... يا رب إنى مؤمن بقيله
نحن قتلناكم على تأويله ... كما قتلناكم على تنزيله
ضرباً يُزيل الهام عن مقيله ... ويذهل الخليل عن خليله[٦]

وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن الزهرى، عن أنس بن مالك قال: لما دخل رسول الله ﷺ مكة فى عمرة القضاء، مشى عبد الله بن رواحة بين يديه، وفى رواية وابن رواحة آخذ بغرزه، وهو يقول:

(١) فى ت، م: «فقال». (٢) زيادة من ت، م، أ. (٣) فى ت: «محمد».
(٤) فى ت: «مشى عبد الله بن رواحة بين يديه». (٥) فى ت: «وكل».
(٦) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٢/ ٣٧١).

خلوا بني الكفار عن سبيله قد نزل الرحمن في تنزيله
بأن خير القتل في سبيله يا رب إني مؤمن بقيله
نحن قتلناكم على تأويله كما قتلناكم على تنزيله
ضرباً يزيل الهام عن مقيله ويذهل الخليل عن خليله

وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن الصباح، حدثنا إسماعيل ـ يعني: ابن زكريا ـ عن عبد الله ـ يعني: ابن عثمان ـ عن أبي الطُّفَيْل[1]، عن ابن عباس؛ أن رسول الله ﷺ لما نزل مرّ الظهران في عمرته، بلغ أصحاب رسول الله ﷺ أن قريشا [تقول][2]: ما يتباعثون من العَجَف. فقال أصحابه: لو انتحرنا من ظهرنا، فأكلنا من لحمه، وحَسَونا من مَرَقه، أصبحنا غدا حين ندخل على القوم وبنا جَمَامَة. قال: «لا تفعلوا، ولكن اجمعوا لي[3] من أزوادكم». فجمعوا له وبسطوا الأنطاع، فأكلوا حتى تركوا وحثا كل واحد منهم في جرابه، ثم أقبل رسول الله ﷺ حتى دخل المسجد، وقعدت قريش نحو الحجر، فاضطبع بردائه، ثم قال: «لا يرى[4] القوم فيكم غميرة» فاستلم الركن ثم رَمَل، حتى إذا تغيب بالركن اليماني مشى إلى الركن الأسود، فقالت قريش: ما ترضون بالمشي أما إنكم لتنقزُون نَقْزَ الظباء، ففعل ذلك ثلاثة أشواط، فكانت سُنَّة. قال أبو الطفيل: فأخبرني ابن عباس: أن رسول الله ﷺ فعل ذلك في حجة الوداع[5].

وقال[6] أحمد أيضا: حدثنا يونس؛ حدثنا حماد بن زيد، حدثنا أيوب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: قدم رسول الله ﷺ وأصحابه مكة، وقد وهنتهم حُمّى يثرب، ولقوا منها سوءا، فقال المشركون: إنه يقدم عليكم قوم قد وهنتهم حمى يثرب، ولقوا منها شرا، وجلس المشركون من الناحية التي تلي الحجر، فأطلع الله نبيه ﷺ على ما قالوا، فأمر رسول الله ﷺ [أصحابه][7] أن يرملوا الأشواط الثلاثة؛ ليرى المشركون جلدهم، قال: فرملوا ثلاثة أشواط، وأمرهم أن يمشوا بين الركنين حيث لا يراهم المشركون، ولم يمنع النبي ﷺ أن يرملوا الأشواط كلها إلا إبقاء عليهم، فقال المشركون: أهؤلاء الذين زعمتم أن الحمى قد وهنتهم؟ هؤلاء أجلد من كذا وكذا.

أخرجاه في الصحيحين من حديث حماد بن زيد، به[8] وفي لفظ: قدم النبي ﷺ وأصحابه صبيحة رابعة، أي من ذي القعدة، فقال المشركون: إنه يقدم عليكم وفد قد وهنتهم حمى يثرب، فأمرهم النبي ﷺ أن يرملوا الأشواط الثلاثة، ولم يمنعهم أن يرملوا الأشواط كلها إلا الإبقاء عليهم.

---

(١) في ت: «وروى الإمام أحمد بسنده». (٢) زيادة من ت، أ.
(٣) في ت، أ: «إليّ». (٤) في ت: «ألا ترى».
(٥) المسند (١/ ٣٠٥).
(٦) في ت: «وروى». (٧) زيادة من ت.
(٨) المسند (١/ ٢٩٥) وصحيح البخاري برقم (٤٢٥٦) وصحيح مسلم برقم (١٢٦٦).

قال البخاري: وزاد ابن سلمة ـ يعني: حماد بن سلمة ـ عن أيوب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: لما قدم النبي ﷺ لعامه الذي استأمن قال: «ارملوا». ليرى المشركون قوتهم، والمشركون من قبل قعيقعان.

وحدثنا محمد، حدثنا سفيان بن عيينة، عن عمرو بن دينار، عن عطاء، عن ابن عباس قال: إنما سعى النبي ﷺ بالبيت وبالصفا والمروة، ليرى المشركون قوته[1].

ورواه في مواضع أخر، ومسلم والنسائي، من طرق، عن سفيان بن عيينة، به[2].

وقال أيضا: حدثنا علي بن عبد الله، حدثنا سفيان، حدثنا إسماعيل بن أبي خالد، سمع ابن أبي أوفى يقول: لما اعتمر رسول الله ﷺ سترناه من غلمان المشركين ومنهم؛ أن يؤذوا رسول الله ﷺ. انفرد به البخاري دون مسلم[3].

وقال[4] البخاري أيضا: حدثنا محمد بن رافع، حدثنا سريج بن النعمان، حدثنا فليح، وحدثني محمد بن الحسين بن إبراهيم، حدثنا أبي، حدثنا فليح بن سليمان، عن نافع، عن ابن عمر؛ أن رسول الله ﷺ خرج معتمرا، فحال كفار قريش بينه وبين البيت، فنحر هديه وحلق رأسه بالحديبية، وقاضاهم على أن يعتمر العام المقبل، ولا يحمل سلاحا عليهم إلا سيوفا، ولا يقيم بها إلا ما أحبوا. فاعتمر من العام المقبل، فدخلها كما كان صالحهم، فلما أن قام بها ثلاثا ، أمروه أن يخرج فخرج.

وهو في صحيح مسلم أيضا[5]:

وقال البخاري أيضا: حدثنا عبيد الله بن موسى، عن إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن البراء، قال: اعتمر النبي ﷺ في ذي القعدة، فأبى أهل مكة أن يَدَعوه يدخل مكة حتى قاضاهم على أن يقيم بها ثلاثة أيام، فلما كتبوا الكتاب كتبوا: «هذا ما قاضانا عليه محمد رسول الله». قالوا: لا نقر بهذا، ولو نعلم أنك رسول الله ما منعناك شيئاً، ولكن أنت محمد بن عبد الله. قال: «أنا رسول الله، وأنا محمد بن عبد الله». ثم قال لعلي بن أبي طالب: «امح رسول الله». قال: لا، والله لا أمحوك أبدا. فأخذ رسول الله ﷺ الكتاب، وليس يحسن يكتب، فكتب: «هذا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله: لا يدخل مكة السلاح إلا السيف في القراب، وألا يخرج من أهلها بأحد أراد أن يتبعه، وألا يمنع من أصحابه أحدا إن أراد أن يقيم بها» فلما دخلها ومضى الأجل، أتوا عليا فقالوا: قل لصاحبك: اخرج عنا فقد مضى الأجل، فخرج النبي ﷺ فتبعته ابنة حمزة تنادي: يا عم، يا عم. فتناولها علي فأخذ بيدها، وقال لفاطمة: دونك ابنة عمك فحملتها، فاختصم فيها علي وزيد

(١) صحيح البخاري برقم (٤٢٥٧).
(٢) صحيح البخاري برقم(١٦٤٩) وصحيح مسلم برقم (١٢٦٦) والنسائي في السنن الكبرى برقم (٣٩٧٣).
(٣) صحيح البخاري برقم (٤٢٥٥).
(٤) في ت: «روى».
(٥) صحيح البخاري برقم (٤٢٥٢).

وجعفر، فقال عليّ: أنا أخذتها وهى ابنة عمى، وقال جعفر: ابنة عمى وخالتها تحتى، وقال زيد: ابنة أخى، فقضى بها النبى ﷺ لخالتها، وقال: «الخالة بمنزلة الأم»، وقال لعلى: «أنت منى وأنا منك»، وقال لجعفر: « أشبهت خلقى وخلقى» وقال لزيد: « أنت أخونا ومولانا». قال على: ألا تتزوج ابنة حمزة؟ قال: «إنها ابنة أخى من الرضاعة» انفرد به من هذا الوجه[١].

وقوله: ﴿**فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا**﴾ أى: فعلم الله تعالى من الخيرة والمصلحة فى صرفكم عن مكة ودخولكم إليها عامكم ذلك ما لم تعلموه أنتم، ﴿**فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ**﴾ أى: قبل دخولكم الذى وعدتم به فى رؤيا النبى ﷺ، ﴿**فَتْحًا قَرِيبًا**﴾: وهو الصلح الذى كان بينكم وبين أعدائكم من المشركين.

ثم قال تعالى، مبشرا للمؤمنين بنصرة الرسول صلوات الله [وسلامه][٢] عليه على عدوه وعلى سائر أهل الأرض: ﴿**هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ**﴾ أى: بالعلم النافع والعمل الصالح؛ فإن الشريعة تشتمل على شيئين: علم وعمل، فالعلم الشرعى صحيح، والعمل الشرعى مقبول، فإخباراتها حق وإنشاءاتها عدل، ﴿**لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ**﴾ أى: على أهل جميع الأديان من سائر أهل الأرض، من عرب وعجم، ومليين[٣] ومشركين، ﴿**وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا**﴾ أى: أنه رسوله، وهو ناصره.

﴿**مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا (٢٩)**﴾.

يخبر تعالى عن محمد صلوات الله عليه[٤]، أنه رسوله حقا بلا شك ولا ريب، فقال: ﴿**مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ**﴾، وهذا مبتدأ وخبر، وهو مشتمل على كل وصف جميل، ثم ثنى بالثناء على أصحابه فقال: ﴿**وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ**﴾، كما قال تعالى: ﴿**فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ**﴾ [المائدة: ٥٤] وهذه صفة المؤمنين أن يكون أحدهم شديدا عنيفاً على الكفار، رحيما براً بالأخيار، غضوباً عبوساً فى وجه الكافر، ضحوكا بشوشاً فى وجه أخيه المؤمن، كما قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً**﴾ [التوبة: ١٢٣]، وقال النبى ﷺ: « مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد، إذا اشتكى

---

(١) صحيح البخارى برقم (٤٢٥١).

(٢) زيادة من ت.

(٣) فى أ: « مسلمين».

(٤) فى ت: «ﷺ»، وفى م: «صلوات الله وسلامه عليه».

منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمَّى والسَّهر»[١]، وقال: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا» وشبك بين أصابعه[٢] كلا الحديثين في الصحيح.

وقوله: ﴿تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا﴾: وصفهم بكثرة العمل وكثرة[٣] الصلاة، وهي خير الأعمال، ووصفهم بالإخلاص فيها لله، عز جل، والاحتساب عند الله جزيل الثواب، وهو الجنة[٤] المشتملة على فضل الله، وهو سعة الرزق عليهم، ورضاه، تعالى، عنهم وهو أكبر من الأول، كما قال: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة: ٧٢].

وقوله: ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾: قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم﴾ يعني: السمت الحسن.

وقال مجاهد وغير واحد: يعني: الخشوع والتواضع.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا علي بن محمد الطُّنَافسي، حدثنا حسين الجَعْفي، عن زائدة[٥]، عن منصور، عن مجاهد: ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾ قال: الخشوع، قلت: ما كنت أراه إلا هذا الأثر في الوجه، فقال: ربما كان بين عيني من هو أقسى قلبا من فرعون.

وقال السدي: الصلاة تحسن وجوههم.

وقال بعض السلف: من كثرت صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار.

وقد أسنده ابن ماجه في سننه، عن إسماعيل بن محمد الطَّلْحي، عن ثابت بن موسى، عن شريك، عن الأعمش، عن أبي سفيان، عن جابر قال: قال رسول الله[٦] ﷺ: «من كَثُرَتْ صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار» والصحيح أنه موقوف[٧].

وقال بعضهم: إن للحسنة نورا في القلب، وضياء في الوجه، وسعة في الرزق، ومحبة في قلوب الناس.

وقال أمير المؤمنين عثمان: ما أسر أحد سريرة إلا أبداها الله على صَفَحَات وجهه، وفَلَتَات لسانه.

والغرض أن الشيء الكامن في النفس يظهر على صفحات الوجه، فالمؤمن إذا كانت سريرته صحيحة مع الله أصلح الله ظاهره للناس، كما روى عن عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، أنه قال: من أصلح سريرته أصلح الله علانيته.

وقال أبو القاسم الطبراني: حدثنا محمود بن محمد المروزي، حدثنا حامد بن آدم المروزي،

---

(١) رواه البخاري في صحيحه برقم (٦٠١١) ومسلم في صحيحه برقم (٢٥٨٦) من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه.
(٢) رواه البخاري في صحيحه برقم (٤٨١) ومسلم في صحيحه برقم (٢٥٨٥) من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.
(٣) في ت، م: «وذكر». (٤) في م: «المحبة». (٥) في ت: «وروى ابن أبي حاتم بسنده».
(٦) في ت: «عن النبي».
(٧) سنن ابن ماجة برقم (١٣٣٣).

حدثنا الفضل بن موسى، عن محمد بن عبيد الله العَرْزَمى، عن سلمة بن كُهَيْل[١]، عن جُنْدَب بن سفيان البَجَلى قال: قال النبى ﷺ: «ما أسر أحد سريرة إلا ألبسه الله رداءها، إن خيرا فخير، وإن شرا فشر»، العرزمى متروك[٢].

وقال[٣] الإمام أحمد: حدثنا حسن بن[٤] موسى، حدثنا ابن لهيعة، حدثنا دراج، عن أبى الهيثم، عن أبى سعيد، عن رسول الله ﷺ، أنه قال: «لو أن أحدكم يعمل فى صخرة صماء ليس لها باب ولا كوة، لخرج عمله للناس كائنا ما[٥] كان»[٦].

وقال[٧] الإمام أحمد [أيضا][٨]: حدثنا حسن، حدثنا زُهَيْر، حدثنا قابوس بن أبى ظَبْيَان: أن أباه حدثه عن ابن عباس، عن النبى ﷺ، قال: «إن الهدى الصالح، والسمت الصالح، والاقتصاد جزء من خمسة وعشرين جزءا من النبوة» ورواه أبو داود عن عبد الله بن محمد النفيلى، عن زهير، به[٩].

فالصحابة [رضى الله عنهم][١٠] خلصت نياتهم وحسنت أعمالهم، فكل من نظر إليهم أعجبوه فى سمتهم وهديهم.

وقال مالك، رحمه الله: بلغنى أن النصارى كانوا إذا رأوا الصحابة الذين فتحوا الشام يقولون: «والله لهؤلاء خير من الحواريين فيما بلغنا». وصدقوا فى ذلك، فإن هذه الأمة معظمة فى الكتب المتقدمة، وأعظمها وأفضلها أصحاب رسول الله ﷺ، وقد نوه الله بذكرهم فى الكتب المنزلة والأخبار المتداولة[١١]؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاة ﴾، ثم قال: ﴿ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَه [فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِه ﴾: ﴿ أَخْرَجَ شَطْأَهُ][١٢]﴾ أى: فراخه، ﴿ فَآزَرَهُ ﴾ أى: شده ﴿ فَاسْتَغْلَظَ ﴾ أى: شب وطال، ﴿ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ ﴾ أى: فكذلك أصحاب محمد ﷺ آزروه وأيدوه ونصروه فهم معه كالشطء مع الزرع، ﴿ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ ﴾.

ومن هذه الآية انتزع الإمام مالك ـ رحمه الله، فى رواية عنه ـ بتكفير الروافض الذين يبغضون الصحابة، قال: لأنهم يغيظونهم، ومن غاظ الصحابة فهو كافر لهذه الآية. ووافقه طائفة من العلماء على ذلك. والأحاديث فى فضائل الصحابة والنهى عن التعرض لهم بمساءة كثيرة[١٣]، ويكفيهم ثناء الله عليهم، ورضاه عنهم.

---

(١) فى ت: «وروى أبو القاسم الطبرانى بإسناده».
(٢) المعجم الكبير (٢/ ١٧١) وحامد بن آدم كذاب.
(٣) فى ت: «وروى».
(٤) فى أ: «عن».
(٥) فى ت: «من».
(٦) المسند (٣/ ٢٨).
(٧) فى ت: «وروى».
(٨) زيادة من ت.
(٩) المسند (١/ ٢٩٦) وسنن أبى داود برقم (٤٧٧٦).
(١٠) زيادة من ت، م، أ.
(١١) فى م: «المقدسة».
(١٢) زيدة من م.
(١٣) فى م: «كبيرة».

ثم قال: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم﴾ «من» هذه لبيان الجنس ، ﴿مَّغْفِرَةً﴾ أى: لذنوبهم. ﴿وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ أى: ثوابا جزيلا ورزقا كريما، ووعد الله حق وصدق، لا يخلف ولايبدل، وكل من اقتفى أثر الصحابة فهو فى حكمهم، ولهم الفضل والسبق والكمال الذى لا يلحقهم فيه أحد من هذه الأمة، رضى الله عنهم وأرضاهم، وجعل جنات الفردوس مأواهم(١)، وقد فعل.

قال مسلم فى صحيحة: حدثنا يحيى بن يحيى، حدثنا أبو معاوية، عن الأعمش، عن أبى صالح، عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تسبوا أصحابى، فوالذى نفسى بيده لو أن أحدكم أنفق مثل أحدٍ ذهبا ما أدرك مد أحدهم ولا نصيفه» (٢).

آخر تفسير سورة الفتح، ولله الحمد والمنة

(١) فى ت، م، أ: «مثواهم».
(٢) صحيح مسلم برقم (٢٥٤٠).

٤٨ — سورة الفتح

نزلت فى الحديبية وآياتها تسع وعشرون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ ٤٨ الفتح

هؤلاء الموصوفون وقوله تعالى (تدعون لتنفقوا فى سبيل الله) استئناف مقرر لذلك أو صلة لهؤلاء * على أنه بمعنى الذين أى هاأنتم الذين تدعون ففيه توبيخ عظيم وتحقير من شأنهم والإنفاق فى سبيل الله يعم نفقة الغزو والزكاة وغيرهما (فمنكم من يبخل) أى ناس يبخلون وهو فى حيز الدليل على الشرطية * السابقة (ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه) فإن كلا من نفع الإنفاق وضرر البخل عائد إليه والبخل * يستعمل بعن وعلى لتضمنه معنى الإمساك والتعدى (والله الغنى) دون من عداه (وأنتم الفقراء) فما * يأمركم به فهو لاحتياجكم إلى مافيه من المنافع فإن امتثلتم فلكم وإن توليتم فعليكم وقوله تعالى (وإن * تتولوا) عطف على إن تؤمنوا أى وإن تعرضوا عن الإيمان والتقوى (يستبدل قوماً غيركم) يخلف * مكانكم قوماً آخرين (ثم لا يكونوا أمثالكم) فى التولى عن الإيمان والتقوى بل يكونوا راغبين فيهما * قيل هم الأنصار وقيل الملائكة وقيل أهل فارس لما روى أنه عليه الصلاة والسلام سئل عن القوم وكان سلمان إلى جنبه فضرب على فخذه فقال هذا وقومه والذى نفسى بيده لوكان الإيمان منوطاً بالثريا لتناوله رجال من فارس وقيل كندة والنخع وقيل العجم وقيل الروم . عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة محمد كان حقاً على الله عز وجل أن يسقيه من أنهار الجنة .

﴿سورة الفتح مدنية نزلت فى مرجع رسول الله صلى الله عليه وسلم من الحديبية وآياتها تسع وعشرون﴾

١ (بسم الله الرحمن الرحيم) (إنا فتحنا لك) فتح البلد عبارة عن الظفر به عنوة أو صلحاً بحراب أو بدونه فإنه ما لم يظفر به منغلق مأخوذ من فتح باب الدار وإسناده إلى نون العظمة لاستناد أفعال العباد إليه تعالى خلقاً وإيجاداً والمراد به فتح مكة شرفها الله وهو المروى عن أنس رضى الله عنه بشر به رسول الله صلى الله عليه وسلم عند انصرافه من الحديبية والتعبير عنه بصيغة الماضى على سنن سائر الأخبار الربانية للإيذان بتحققه لامحالة تأكيداً للتبشير كما أن تصدير الكلام بحرف التحقيق لذلك وفيه من الفخامة المنبئة عن عظمة شأن المخبر جل جلاله وعز سلطانه مالا يخفى وقيل هو ما أتيح له عليه الصلاة والسلام فى تلك السنة من فتح خيبر وهو المروى عن مجاهد وقيل هو صلح الحديبية فإنه وإن لم يكن فيه حراب شديد بل ترام بين الفريقين بسهام وحجارة لكن لما كان الظهور للمسلمين حيث سألهم المشركون الصلح كان فتحاً بلاريب وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما رموا المشركين حتى أدخلوهم ديارهم وعن الكلبى ظهروا عليهم حتى سألوا الصلح وقد روى أنه عليه الصلاة والسلام حين

لِيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ ٤٨ الفتح

وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴿٣﴾ ٤٨ الفتح

هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾ ٤٨ الفتح

بلغه أن رجلا قال ماهذا بفتح لقد صددنا عن البيت وصد هدينا قال بل هو أعظم الفتوح وقد رضى المشركون أن يدفعوكم بالراح ويسألوكم القضية ويرغبوا إليكم فى الأمان وقد رأوا منكم مايكرهون وعن الشعبي نزلت بالحديبية وأصاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى تلك الغزوة مالم يصب فى غزوة حيث أصاب أن بويع بيعة الرضوان وغفر له ما تقدم من ذنبه وماتأخر وبلغ الهدى محله وأطعموا نخل خيبر وظهرت الروم على فارس ففرح به المسلمون وكان فى فتح الحديبية آية عظيمة هى أنه نزح ماؤها حتى لم يبق فيها قطرة فتمضمض رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم مجه فيها فدرت بالماء حتى شرب جميع من كان معه وشبع وقيل فجاش الماء حتى امتلأت ولم ينفد ماؤها بعد وقيل هو جميع مافتح له عليه الصلاة والسلام من الفتوح وقيل هو مافتح الله له عليه الصلاة والسلام من الإسلام والنبوة والدعوة بالحجة والسيف ولا فتح أبين منه وأعظم وهو رأس الفتوح كافة إذ لافتح من فتوح الإسلام إلا وهو شعبة من شعبه وفرع من فروعه وقيل الفتح بمعنى القضاء ومنه الفتاحة للحكومة والمعنى قضينا لك على أهل مكة أن تدخلها من قابل وهو المروى عن قتادة رضى الله عنه وأياً ما كان فحذف المفعول للقصد إلى نفس الفعل والإيذان بأن مناط التبشير نفس الفتح الصادر عنه سبحانه لاخصوصية المفتوح

٢ (فتحاً مبيناً) بينا ظاهر الأمر مكشوف الحال أو فارقا بين الحق والباطل وقوله تعالى (ليغفر لك الله) غاية للفتح من حيث أنه مترتب على سعيه عليه الصلاة والسلام فى إعلاء كلمة الله تعالى بمكابدة مشاق الحروب واقتحام موارد الخطوب والالتفات إلى اسم الذات المستتبع لجميع الصفات للإشعار بأن كل واحد مما انتظم فى سلك الغاية من أفعاله تعالى صادر عنه تعالى من حيثية غير حيثية الآخر مترتبة على صفة من صفاته تعالى (ماتقدم من ذنبك وما تأخر) أى جميع مافرط منك من ترك الأولى وتسميته ذنبا بالنظر إلى منصبه الجليل (ويتم نعمته عليك) بإعلاء الدين وضم الملك إلى النبوة وغيرهما مما أفاضه عليه من النعم الدينية والدنيوية (ويهديك صراطا مستقيما) فى تبليغ الرسالة وإقامة مراسم الرياسة وأصل الاستقامة وإن كانت حاصلة قبل الفتح لكن حصل بعد ذلك من اتضاح سبل الحق

٣ واستقامة مناهجه مالم يكن حاصلا قبل (وينصرك الله) إظهار الاسم الجليل لكونه خاتمة الغايات ولإظهار كمال العناية بشأن النصر كما يعرب عنه تأكيده بقوله تعالى (نصراً عزيزاً) أى نصراً فيه عزة ومنعة

٤ أو قوياً منيعاً على وصف المصدر بوصف صاحبه مجازاً للمبالغة أو عزيزاً أصاحبه (هو الذى أنزل السكينة)

لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٥﴾ ٤٨ الفتح

وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾ ٤٨ الفتح

بيان لما أفاض عليهم من مبادى الفتح من الثبات والطمأنينة أى أنزلها (فى قلوب المؤمنين) بسبب الصلح والأمن إظهاراً لفضله تعالى عليهم بتيسير الأمن بعد الخوف (ليزداودوا إيماناً مع إيمانهم) أى يقيناً منضما إلى يقينهم أو أنزل فيها السكون إلى ماجاء به عليه الصلاة والسلام من الشرائع ليزدادوا إيماناً بها مقروناً مع إيمانهم بالوحدانية واليوم الآخر عن ابن عباس رضى الله عنهما أن أول ماأتاهم به النبي صلى الله عليه وسلم التوحيد ثم الصلاة والزكاة ثم الحج والجهاد فازدادوا إيمانا مع إيمانهم أو أنزل فيها الوقار والعظمة لله تعالى ولرسوله ليزدادوا باعتقاد ذلك إيمانا إلى إيمانهم (ولله جنود السموات والأرض) يدبر أمرها كيفما يريد يسلط بعضها على بعض تارة ويوقع بينهما السلم أخرى حسبما تقتضيه مشيئته المبنية على الحكم والمصالح (وكان الله عليما) مبالغا فى العلم بجميع الأمور (حكيما) فى تقديره وتدبيره وقوله تعالى (ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها) متعلق ٥
بما يدل عليه ماذكر من كون جنود السموات والأرض له تعالى من معنى التصرف والتدبير أى دبر ما دبر من تسليط المؤمنين ليعرفوا نعمة الله فى ذلك ويشكروها فيدخلهم الجنة (ويكفر عنهم سيئاتهم) أى يغطيها ولا يظهرها وتقديم الإدخال فى الذكر على التكفير مع أن الترتيب فى الوجود على العكس للمسارعة إلى بيان ماهو المطلب الأعلى (وكان ذلك) أى ماذكر من الإدخال والتكفير (عند الله فوزاً عظيما) لايقادر قدره لأنه منتهى مايمتد إليه أعناق الهمم من جلب نفع ودفع ضر وعند الله حال من فوزاً لأنه صفته فى الأصل فلما قدم عليه صار حالا أى كائنا عند الله أى فى علمه تعالى وقضائه والجملة اعتراض مقرر لما قبله (ويعذب المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات) عطف على يدخل ٦
وفى تقديم المنافقين على المشركين مالا يخفى من الدلالة على أنهم أحق منهم بالعذاب (الظانين بالله ظن السوء) أى ظن الأمر السوء وهو أن لاينصر رسوله والمؤمنين (عليهم دائرة السوء) أى مايظنونه ويتربصونه بالمؤمنين فهو حائق بهم ودائر عليهم وقرىء دائرة السوء بالضم وهما لغتان من ساء كالكره والكره خلا أن المفتوح غلب فى أن يضاف إليه مايراد ذمه من كل شيء وأما المضموم فجار مجرى الشر (وغضب الله عليهم ولعنهم وأعد لهم جهنم) عطف على مااستحقوه فى الآخرة على مااستوجبوه فى الدنيا والواو فى الأخيرين مع أن حقها الفاء المفيدة لسببية ماقبلها لما بعدها للإيذان باستقلال كل منها فى الوعيد وأصالته من غير اعتبار استتباع بعضها لبعض (وساءت مصيراً) أى جهنم .

وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٧﴾ ٤٨ الفتح

إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨﴾ ٤٨ الفتح

لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٩﴾ ٤٨ الفتح

إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ
وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾ ٤٨ الفتح

سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم
مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا بَلْ كَانَ
ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١١﴾ ٤٨ الفتح

٧ (ولله جنود السموات والأرض وكان الله عزيزاً حكيما) إعادة لما سبق قالوا فائدتها التنبيه على أن
لله تعالى جنود الرحمة وجنود العذاب وأن المراد ههنا جنود العذاب كما ينبىء عنه التعرض لوصف العزة
٨ (إنا أرسلناك شاهداً) أى على أمتك لقوله تعالى ويكون الرسول عليكم شهيداً (ومبشراً) على الطاعة
٩ (ونذيراً) على المعصية (لتؤمنوا بالله ورسوله) الخطاب للنبي عليه الصلاة والسلام ولأمته (وتعزروه)
* وتقووه بتقوية دينه ورسوله (وتوقروه) وتعظموه (وتسبحوه) وتنزهوه أو تصلوا له من السبحة
* (بكرة وأصيلا) غدوة وعشياً عن ابن عباس رضى الله عنهما صلاة الفجر وصلاة الظهر وصلاة العصر
وقرىء الأفعال الأربعة بالياء التحتانية وقرىء وتعزروه بضم التاء وتخفيف الزاى المكسورة وقرىء
١٠ بفتح التاء وضم الزاى وكسرها وتعززوه بزاءين وتوقروه من أوقره بمعنى وقره (إن الذين يبايعونك)
* أى على قتال قريش تحت الشجرة وقوله تعالى (إنما يبايعون الله) خبران يعنى أن مبايعتك هى مبايعة
* الله عز وجل لأن المقصود توثيق العهد بمراعاة أوامره ونواهيه وقوله تعالى (يد الله فوق أيديهم)
حال أو استئناف مؤكد له على طريقة التخييل والمعنى أن عقد الميثاق مع الرسول كعقده مع الله تعالى
من غير تفاوت بينهما كقوله تعالى من يطع الرسول فقد أطاع الله وقرىء إنما يبايعون الله أى لأجله
* ولوجهه (فمن نكث فإنما ينكث على نفسه) أى فمن نقض عهده فإنما يعود ضرر نكثه على نفسه
* وقرىء بكسر الكاف (ومن أوفى بما عاهد عليه الله) بضم الهاء فإنه أبقى بعد حذف الواو توسلا
* بذلك إلى تفخيم لام الجلالة وقرىء بكسرها أى ومن وفى بعهده (فسيؤتيه أجراً عظيما) هو الجنة
١١ وقرىء بما عهد وقرىء فسنؤتيه بنون العظمة (سيقول لك المخلفون من الأعراب) هم أعراب غفار
ومزينة وجهينة وأشجع وأسلم والديل تخلفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين استنفر من

بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا ﴿١٢﴾ ٤٨ الفتح

حول المدينة من الإعراب وأهل البوادى ليخرجوا معه عند إرادته المسير إلى مكة عام الحديبية معتمراً
حذراً من قريش أن يتعرضوا له بحرب أو يصدوه عن البيت وأحرم عليه الصلاة والسلام وساق
معه الهدى ليعلم أنه لايريد الحرب وتثاقلوا عن الخروج وقالوا نذهب إلى قوم قد غزوه فى عقر داره
بالمدينة وقتلوا أصحابه فنقاتلهم فأوحى الله تعالى إليه عليه الصلاة والسلام بأنهم سيعتلون ويقولون
(شغلتنا أموالنا وأهلونا) ولم يكن لنا من يخلفنا فيهم ويقوم بمصالحهم ويحميهم من الضياع وقرىء *
شغلتنا بالتشديد للتكثير (فاستغفر لنا) الله تعالى ليغفر لنا تخلفنا عنك حيث لم يكن ذلك باختيار بل عن *
اضطرار (يقولون بألسنتهم ماليس فى قلوبهم) بدل من سيقول أو استئناف لتكذيبهم فى الاعتذار *
والاستغفار (قل) رداً لهم عند اعتذارهم إليك بأباطيلهم (فمن يملك لكم من الله شيئاً) أى فمن يقدر *
لأجلكم من مشيئة الله تعالى وقضائه على شىء من النفع (إن أراد بكم ضراً) أى ما يضركم من هلاك *
الأهل والمال وضياعهما حتى تتخلفوا عن الخروج لحفظهما ودفع الضرر عنهما وقرىء ضراً
بالضم (أو أراد بكم نفعاً) أى ومن يقدر على شىء من الضرر إن أراد بكم ما ينفعكم من حفظ *
أموالكم وأهليكم فأى حاجة إلى التخلف لأجل القيام بحفظهما وهذا تحقيق للحق ورد لهم بموجب
ظاهر مقالتهم الكاذبة وتعميم الضر والنفع لما يتوقع على تقدير الخروج من القتل والهزيمة والظفر
والغنيمة يرده قوله تعالى (بل كان الله بما تعملون خبيراً) فإنه إضراب عما قالوا وبيان لكذبه بعد *
بيان فساده على تقدير صدقه أى ليس الأمر كما تقولون بل كان الله خبيراً بجميع ماتعملون من الأعمال
التى من جملتها تخلفكم وما هو من مباديه وقوله تعالى (بل ظننتم) الخ بدل من كان الله الخ مفسر لما ١٢
فيه من الإبهام أى بل ظننتم (أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهليهم أبداً) بأن يستأصلهم المشركون *
بالمرة فخشيتم إن كنتم معهم أن يصيبكم ما أصابهم فلأجل ذلك تخلفتم لا لما ذكرتم من المعاذير الباطلة
والأهلون جمع أهل وقد يجمع على أهلات كأرضات على تقدير تاء التأنيث وأما الأهالى فاسم جمع
كالليالى وقرىء إلى أهلهم (وزين ذلك فى قلوبكم) وقبلتموه واشتغلتم بشأن أنفسكم غير مبالين بهم وقرىء *
زين على البناء للفاعل بإسناده إلى الله سبحانه أو إلى الشيطان (وظننتم ظن السوء) المراد به إما الظن *
الأول والتكرير لتشديد التوبيخ والتسجيل عليه بالسوء أو مايعمه وغيره من الظنون الفاسدة التى
من جملتها الظن بعدم صحة رسالته عليه الصلاة والسلام فإن الجازم بصحتها لايحوم حول فكره ماذكر
من الاستئصال (وكنتم قوماً بوراً) أى هالكين عند الله مستوجبين لسخطه وعقابه على أنه جمع
بائر كعائذ وعوذ أو فاسدين فى أنفسكم وقلوبكم ونياتكم لاخير فيكم وقيل البور من بار كالهلك من
هلك بناء ومعنى ولذلك وصف به الواحد والجمع والمذكر والمؤنث .

وَمَن لَّمْ يُؤْمِن بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾ ٤٨ الفتح

وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٤﴾ ٤٨ الفتح

سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَٰمَ اللَّهِ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِن قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾ ٤٨ الفتح

١٣ (ومن لم يؤمن بالله ورسوله) كلام مبتدأ من جهته تعالى غير داخل فى الكلام الملقن مقرر لبوارهم ومبين لكيفيته أى ومن لم يؤمن بهما كدأب هؤلاء المخلفين (فإنا أعتدنا للكافرين سعيراً) أى لهم وإنما وضع موضع الضمير الكافرون إيذاناً بأن من لم يجمع بين الإيمان بالله وبرسوله فهو كافر وأنه

١٤ مستوجب للسعير بكفره وتنكير سعيراً للتهويل أو لأنها نار مخصوصة (ولله ملك السموات والأرض) وما فيهما يتصرف فى الكل كيف يشاء (يغفر لمن يشاء) أن يغفر له (ويعذب من يشاء) أن يعذبه من غير دخل لأحد فى شىء منهما وجوداً وعدماً وفيه حسم لأطماعهم الفارغة فى استغفاره عليه الصلاة والسلام لهم (وكان الله غفوراً رحيما) مبالغاً فى المغفرة والرحمة لمن يشاء ولا يشاء إلا لمن تقتضى

١٥ الحكمة مغفرته ممن يؤمن به وبرسوله وأما من عداه من الكافرين فهم بمعزل من ذلك قطعاً (سيقول المخلفون) أى المذكورون وقوله تعالى (إذا انطلقتم إلى مغانم لتأخذوها) ظرف لما قبله لا شرط لما بعده أى سيقولون عند انطلاقكم إلى مغانم خيبر لتحوزوها حسبما وعدكم إياها وخصكم بها عوضاً مما فاتكم من غنائم مكة (ذرونا نتبعكم) إلى خيبر ونشهد معكم قتال أهلها (يريدون أن يبدلوا كلام الله) بأن يشاركوا فى الغنائم التى خصها بأهل الحديبية فإنه عليه الصلاة والسلام رجع من الحديبية فى ذى الحجة من سنة ست وأقام بالمدينة بقيتها وأوائل المحرم من سنة سبع ثم غزا خيبر بمن شهد الحديبية ففتحها وغنم أموالاً كثيرة فخصها بهم حسبما أمره الله عز وجل وقرىء كلم الله وهو جمع كلمة وأياماً كان فالمراد ماذكر من وعده تعالى غنائم خيبر لأهل الحديبية خاصة لا قوله تعالى لن تخرجوا معى أبداً فإن ذلك فى غزوة تبوك (قل) إقناطا لهم (لن تتبعونا) أى لا تتبعونا فإنه نفى فى معنى النهى للمبالغة (كذلكم قال الله من قبل) أى عند الانصراف من الحديبية (فسيقولون) للمؤمنين عند سماع هذا النهى (بل تحسدوننا) أى ليس ذلك النهى حكم الله بل تحسدوننا أن نشارككم فى الغنائم وقرىء تحسدوننا بكسر السين وقوله تعالى (بل كانوا لا يفقهون) أى لا يفهمون (إلا قليلا) إلا فهما قليلا وهو فطنتهم لأمور الدنيا رد لقولهم الباطل ووصف لهم بما هو أعظم من الحسد وأطم من الجهل

قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِن تُطِيعُوا۟ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾ ٤٨ الفتح

لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾ ٤٨ الفتح

لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ ٤٨ الفتح

---

١٦ المفرط وسوء الفهم فى أمور الدين (قل للمخلفين من الأعراب) كرر ذكرهم بهذا العنوان مبالغة فى
ذمهم (ستدعون إلى قوم أولى بأس شديد) هم بنو حنيفة قوم مسيلمة الكذاب أو غيرهم ممن ارتدوا
بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أو المشركون لقوله تعالى (تقاتلونهم أو يسلمون) أى يكون أحد
الأمرين إما المقاتلة أبداً أو الإسلام لاغير كما يفصح عنه قراءة أو يسلموا وأما من عداهم فينتهى قتالهم
بالجزية كما ينتهى بالإسلام وفيه دليل على أمامة أبى بكر رضى الله عنه إذ لم تتفق هذه الدعوة لغيره إلا
إذا صح أنهم ثقيف وهوازن فإن ذلك كان فى عهد النبوة فيخص دوام نفى الاتباع بما فى غزوة خيبر
كما قاله محيى السنة وقيل هم فارس والروم ومعنى يسلمون ينقادون فإن الروم نصارى وفارس مجوس
يقبل منهم الجزية (فإن تطيعوا يؤتكم الله أجراً حسناً) هو الغنيمة فى الدنيا والجنة فى الآخرة (وإن
١٧ تتولوا) عن الدعوة (كما توليتم من قبل) فى الحديبية (يعذبكم عذاباً أليما) لتضاعف جرمكم (ليس
على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج) أى فى التخلف عن الغزو لما
بهم من العذر والعاهة فإن التكليف يدور على الاستطاعة وفى نفى الحرج عن كل من الطوائف المعدودة
مزيد اعتناء بأمرهم وتوسيع لدائرة الرخصة (ومن يطع الله ورسوله) فيما ذكر من الأوامر والنواهى
(يدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار) وقرىء ندخله بنون العظمة (ومن يتول) أى عن الطاعة
١٨ (يعذبه) وقرىء بالنون (عذاباً أليما) لايقدر قدره (لقد رضى الله عن المؤمنين) هم الذين ذكر شأن
مبايعتهم وبهذه الآية سميت بيعة الرضوان وقوله تعالى (إذ يبايعونك تحت الشجرة) منصوب برضى
وصيغة المضارع لاستحضار صورتها وتحت الشجرة متعلق به أو بمحذوف هو حال من مفعوله روى
أنه عليه الصلاة والسلام لما نزل الحديبية بعث خراش بن أمية الخزاعى رسولا إلى أهل مكة فهموا
به فمنعه الأحابيش فرجع فبعث عثمان بن عفان رضى الله عنه فأخبرهم أنه عليه الصلاة والسلام لم يأت
لحرب وإنما جاء زائراً لهذا البيت معظماً لحرمته فوقروه وقالوا إن شئت أن تطوف بالبيت فافعل فقال
ماكنت لأطوف قبل أن يطوف رسول الله صلى الله عليه وسلم واحتبس عندهم فأرجف بأنهم قتلوه
فقال عليه الصلاة والسلام لانبرح حتى نناجز القوم ودعا الناس إلى البيعة فبايعوه تحت الشجرة وكانت

وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾ ٤٨ الفتح

وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً
لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾ ٤٨ الفتح

وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾ ٤٨ الفتح

سمرة وقيل سدرة على أن يقاتلوا قريشاً ولا يفروا وروى على الموت دونه وأن لا يفروا فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أنتم اليوم خير أهل الأرض وكانوا ألفاً وخمسمائة وخمسة وعشرين وقيل ألفاً وأربعمائة وقيل ألفاً وثلثمائة وقوله تعالى (فعلم مافى قلوبهم) عطف على يبايعونك لما عرفت من أنه بمعنى بايعوك لا على رضى فإن رضاه تعالى عنهم مترتب على علمه تعالى بما فى قلوبهم من الصدق والإخلاص عند مبايعتهم له صلى الله عليه وسلم وقوله تعالى (فأنزل السكينة عليهم) عطف على رضى أى فأنزل عليهم الطمأنينة والأمن وسكون النفس بالربط على قلوبهم وقيل بالصلح (وأثابهم فتحاً
١٩ قريباً) هو فتح خيبر عقب انصرافهم من الحديبية كما مر تفصيله وقرىء وآتاهم (ومغانم كثيرة يأخذونها) أى مغانم خيبر والالتفات إلى الخطاب على قراءة الأعمش وطلحة ونافع لتشريفهم فى مقام الامتنان
٢٠ (وكان الله عزيزاً) غالبا (حكيما) مراعيا لمقتضى الحكمة فى أحكامه وقضاياه (وعدكم الله مغانم كثيرة) هى مايفيؤه على المؤمنين إلى يوم القيامة (تأخذونها) فى أوقاتها المقدرة لكل واحدة منها (فعجل لكم هذه) أى غنائم خيبر (وكف أيدى الناس عنكم) أى أيدى أهل خيبر وحلفائهم من بنى أسد وغطفان حيث جاءوا لنصرتهم فقذف الله فى قلوبهم الرعب فنكصوا وقيل أيدى أهل مكة بالصلح (ولتكون آية للمؤمنين) أمارة يعرفون بها صدق رسول صلى الله عليه وسلم فى وعده إياهم عند رجوعه من الحديبية ماذكر من المغانم وفتح مكة ودخول المسجد الحرام واللام متعلقة إما بمحذوف مؤخر أى ولتكون آية لهم فعل مافعل من التعجيل والكف أو بما تعلق به علة أخرى محذوفة من أحد الفعلين أى فعجل لكم هذه أو كف أيدى الناس لتغتنموها ولتكون الخ فالواو على الأول اعتراضية وعلى الثانى عاطفة (ويهديكم) بتلك الآية (صراطاً مستقيما) هو الثقة بفضل الله تعالى والتوكل عليه
٢١ فى كل ماتأتون وما تذرون (وأخرى) عطف على هذه أى فعجل لكم هذه المغانم ومغانم أخرى (لم تقدروا عليها) وهى مغانم هوازن فى غزوة حنين ووصفها بعدم القدرة عليها لما كان فيها من الجولة قبل ذلك لزيادة ترغيبهم فيها وقوله تعالى (قد أحاط الله بها) صفة أخرى لأخرى مفيدة لسهولة تأتيها بالنسبة إلى قدرته تعالى بعد بيان صعوبة منالها بالنظر إلى قدرتهم أى قد قدر الله عليها واستولى وأظهركم عليها وقيل حفظها لكم ومنعها من غيركم هذا وقد قيل إن أخرى منصوب بمضمر يفسره قد أحاط الله بها أى وقضى الله أخرى ولا ريب فى أن الإخبار بقضاء الله إياها بعد اندراجها فى جملة المغانم الموعودة بقوله تعالى وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها ليس فيه مزيد فائدة وإنما الفائدة

وَلَوْ قَـٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَـٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ ٤٨ الفتح

سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ ٤٨ الفتح

وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾ ٤٨ الفتح

هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَـٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾ ٤٨ الفتح

في بيان تعجيلها (وكان الله على كل شيء قدير) لأن قدرته تعالى ذاتية لاتختص بشيء دون شيء (ولو ٢٢
قاتلكم الذين كفروا) أى أهل مكة ولم يصالحوكم وقيل حلفاء خيبر (لولوا الأدبار) منهزمين (ثم *
لايجدون ولياً) يحرسهم (ولا نصيراً) ينصرهم (سنة الله التى قد خلت من قبل) أى سن الله غلبة ٢٣
أنبيائه سنة قديمة فيمن مضى من الأمم (ولن تجد لسنة الله تبديلا) أى تغييراً (وهو الذى كف أيديهم) ٢٤
أى أيدى سفار مكة (عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة) أى فى داخلها (من بعد أن أظفركم عليهم) وذلك *
أن عكرمة بن أبى جهل خرج فى خمسمائة إلى الحديبية فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم خالد بن
الوليد على جند فهزمهم حتى أدخلهم حيطان مكة ثم عاد وقيل كان يوم الفتح وبه استشهد أبو حنيفة
على أن مكة فتحت عنوة لاصلحاً (وكان الله بما تعملون) من مقاتلتهم وهزمهم أولا والكف عنهم *
ثانيا لتعظيم بيته الحرام وقرىء بالياء (بصيراً) فيجازيكم بذلك أو يجازيهم (هم الذين كفروا وصدوكم ٢٥
عن المسجد الحرام والهدى) بالنصب عطفا على الضمير المنصوب فى صدوركم وقرىء بالجر عطفا
على المسجد بحذف المضاف أى ونحر الهدى وبالرفع على وصد الهدى وقوله تعالى (معكوفا) حال *
من الهدى أى محبوسا وقوله تعالى (أن يبلغ محله) بدل اشتمال من الهدى أو منصوب بنزع الخافض *
أى محبوسا من أن يبلغ مكانه الذى يحل فيه نحره وبه استدل أبو حنيفة رحمه الله تعالى على أن المحصر
محل هديه الحرم قالوا بعض الحديبية من الحرم وروى أن خيامه صلى الله عليه وسلم كانت فى الحل
ومصلاه فى الحرم وهناك نحرت هداياه صلى الله عليه وسلم والمراد صدها عن محلها المعهود الذى هو
منى (ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم) لم تعرفوهم بأعيانهم لاختلاطهم وهو صفة *
لرجال ونساء وقوله تعالى (أن تطؤوهم) أى توقعوا بهم وتهلكوهم بدل اشتمال منهم أو من الضمير *
المنصوب فى تعلموهم (فتصيبكم منهم) أى من جهتهم (معرة) أى مشقة ومكروه كوجوب الدية أو *
الكفارة بقتلهم والتأسف عليهم وتعيير الكفار وسوء قالتهم والإثم بالتقصير فى البحث عنهم وهى
مفعلة من عره إذا عراه ودهاه مايكرهه (بغير علم) متعلق بأن تطؤهم أى غير عالمين بهم وجواب لولا *

إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾ ٤٨ الفتح

محذوف لدلالة الكلام عليه والمعنى لولا كراهة أن تهلكوا ناساً مؤمنين بين الكافرين غير عالمين بهم فيصيبكم بذلك مكروه لما كف أيديكم عنهم وقوله تعالى (ليدخل الله فى رحمته) متعلق بما يدل عليه الجواب المحذوف كأنه قيل عقيبه لكن كفها عنهم ليدخل بذلك الكف المؤدى إلى الفتح بلا محذور فى رحمته الواسعة بقسميها (من يشاء) وهم المؤمنون فإنهم كانوا خارجين من الرحمة الدنيوية التى من جملتها الأمن مستضعفين تحت أيدى الكفرة وأما الرحمة الأخروية فهم وإن كانوا غير محرومين منها بالمرة لكنهم كانوا قاصرين فى إقامة مراسم العبادة كما ينبغى فتوفيقهم لإقامتها على الوجه الأتم إدخال لهم فى الرحمة الأخروية وقد جوز أن يكون من يشاء عبارة عمن رغب فى الإسلام من المشركين ويأباه قوله تعالى (لو تزيلوا) الخ فإن فرض التزيل وترتيب التعذيب عليه يقتضى تحقق المباينة بين الفريقين بالإيمان والكفر قبل التزيل حتما أى لو تفرقوا وتميز بعضهم من بعض وقرىء لو تزايلوا (لعذبنا الذين كفروا منهم عذاباً أليماً) بقتل مقاتلتهم وسبى ذراريهم والجملة مستأنفة مقررة لما قبلها

٢٦ (إذ جعل الذين كفروا) منصوب باذكر على المفعولية أو بعذبنا على الظرفية وقيل بمضمر هو أحسن الله إليكم وأيا ما كان فوضع الموصول موضع ضميرهم لذمهم بما فى حيز الصلة وتعليل الحكم به والجعل إما بمعنى الإلقاء فقوله تعالى (فى قلوبهم الحمية) أى الأنفة والتكبر متعلق به أو بمعنى التصيير فهو متعلق بمحذوف هو مفعول ثان له أى جعلوها ثابتة راسخة فى قلوبهم (حمية الجاهلية) بدل من الحمية أى حمية الملة الجاهلية أو الحمية الناشئة من الجاهلية وقوله تعالى (فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين) على الأول عطف على جعل والمراد تذكير حسن صنيع الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين بتوفيق الله تعالى وسوء صنيع الكفرة وعلى الثانى على مايدل عليه الجملة الامتناعية كأنه قيل لم يتزيلوا فلم نعذب فأنزل الخ وعلى الثالث على المضمر تفسير له والسكينة الثبات والوقار يروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما نزل الحديبية بعث قريش سهيل بن عمرو القرشى وحويطب بن عبد العزى ومكرز ابن حفص بن الأحنف على أن يعرضوا على النبى صلى الله عليه وسلم أن يرجع من عامه ذلك على أن تخلى له قريش مكة من العام القابل ثلاثة أيام ففعل ذلك وكتبوا بينهم كتابا فقال عليه الصلاة والسلام لعلى رضى الله عنه اكتب بسم الله الرحمن الرحيم فقالوا ما نعرف ماهذا اكتب باسمك اللهم ثم قال اكتب هذا ماصالح عليه رسول الله أهل مكة فقالوا لوكنا نعلم أنك رسول الله ماصددناك عن البيت وما قاتلناك اكتب هذا ماصالح عليه محمد بن عبد الله أهل مكة فقال صلى الله عليه وسلم اكتب مايريدون فهم المؤمنون أن يأبوا ذلك ويبطشوا بهم فأنزل الله السكينة عليهم فتوقروا وحلموا (وألزمهم كلمة التقوى) أى كلمة الشهادة أو بسم الله الرحمن الرحيم أو محمد رسول الله وقيل كلمة التقوى هى الوفاء بالعهد والثبات عليه وإضافتها إلى التقوى لأنها سبب التقوى وأساسها أو كلمة أهلها (وكانوا

لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾ ٤٨ الفتح

هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾ ٤٨ الفتح

أحق بها) متصفين بمزيد استحقاق لها على أن صيغة التفضيل للزيادة مطلقاً وقيل أحق بها من الكفار
٢٧ (وأهلها) أى المستأهل لها (وكان الله بكل شىء عليما) فيعلم حق كل شىء فيسوقه إلى مستحقه (لقد
صدق الله رسوله الرؤيا) رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل خروجه إلى الحديبية كأنه وأصحابه
قد دخلوا مكة آمنين وقد حلقوا رؤسهم وقصروا فقص الرؤيا على أصحابه ففرحوا واستبشروا وحسبوا
أنهم داخلوها فى عامهم فلما تأخر ذلك قال عبد الله بن أبى وعبد الله بن نفيل ورفاعة بن الحرث والله
ما حلقنا ولا قصرنا ولا رأينا المسجد الحرام فنزلت أى صدقه صلى الله عليه وسلم فى رؤياه كما فى قولهم صدقنى
سن بكره وتحقيقه أراه الرؤيا الصادقة وقوله تعالى (بالحق) إما صفة لمصدر مؤكد محذوف أى صدقا *
ملتبساً بالحق أى بالغرض الصحيح والحكمة البالغة التى هى التمييز بين الراسخ فى الإيمان والمتزلزل
فيه أو حال من الرؤيا أى ملتبسة بالحق ليست من قبيل أضغاث الأحلام وقد جوز أن يكون قسما
بالحق الذى هو من أسماء الله تعالى أو بنقيض الباطل وقوله تعالى (لتدخلن المسجد الحرام) جوابه *
وهو على الأولين جواب قسم محذوف أى والله لتدخلن الخ وقوله تعالى (إن شاء الله) تعليق للعدة *
بالمشيئة لتعليم العباد أو للإشعار بأن بعضهم لا يدخلونه لموت أو غيبة أو غير ذلك أو هى حكاية لما
قاله ملك الرؤيا لرسول الله صلى الله عليه وسلم أو لما قاله عليه الصلاة والسلام لأصحابه (آمنين) *
حال من فاعل لتدخلن والشرط معترض وكذا قوله تعالى (محلقين رؤسكم ومقصرين) أى محلقاً *
بعضكم ومقصراً آخرون وقيل محلقين حال من ضمير آمنين فتكون متداخلة (لا تخافون) حال مؤكدة *
من فاعل لتدخلن أو آمنين أو محلقين أو مقصرين أو استئناف أى لا تخافون بعد ذلك (فعلم مالم تعلموا) *
عطف على صدق والمراد بعلمه تعالى العلم الفعلى المتعلق بأمر حادث بعد المعطوف عليه أى فعلم عقيب
ما أراه الرؤيا الصادقة مالم تعلموا من الحكمة الداعية إلى تقديم ما يشهد بالصدق علماً فعلياً (فجعل) *
لأجله (من دون ذلك) أى من دون تحقق مصداق ما رآه من دخول المسجد الحرام الخ (فتحاً قريباً) *
وهو فتح خيبر والمراد بجعله وعده وإنجازه من غير تسويف ليستدل به على صدق الرؤيا حسبما قال
ولتكون آية للمؤمنين وأما جعل ما فى قوله تعالى مالم تعلموا عبارة عن الحكمة فى تأخير فتح مكة إلى
٢٨ العام القابل كما جنح إليه الجمهور فتأباه الفاء فإن علمه تعالى بذلك متقدم على إراءة الرؤيا قطعا (هو الذى
أرسل رسوله بالهدى) أى ملتبسا به أو بسببه ولأجله (ودين الحق) وبدين الإسلام (ليظهره على *
الدين كله) ليعليه على جنس الدين بجميع أفراده التى هى الأديان المختلفة بنسخ ما كان حقا من بعض

مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ
فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمَثَلُهُمْ
فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ
بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴿٢٩﴾ ٤٨ الفتح

الأحكام المتبدلة بتبدل الأعصار وإظهار بطلان ما كان باطلا أو بتسليط المسلمين على أهل سائر
الأديان إذ ما من أهل دين إلا وقد قهرهم المسلمون وفيه فضل تأكيد لما وعد من الفتح وتوطين
لنفوس المؤمنين على أنه سبحانه سيفتح لهم من البلاد ويتيح لهم من الغلبة على الأقاليم مايستقلون إليه
• فتح مكة (وكفى بالله شهيداً) على أن ماوعده كائن لامحالة أو على نبوته عليه الصلاة والسلام بإظهار
٢٩ المعجزات (محمد) خبر مبتدأ محذوف وقوله تعالى (رسول الله) بدل أو بيان أو نعت أى ذلك
الرسول المرسل بالهدى ودين الحق محمد رسول الله وقيل محمد مبتدأ رسول الله خبره والجملة مبينة
• للمشهود به وقوله تعالى (والذين معه) مبتدأ خبره (أشداء على الكفار رحماء بينهم) وأشداء جمع
شديد ورحماء جمع رحيم والمعنى أنهم يظهرون لمن خالف دينهم الشدة والصلابة ولمن وافقهم فى الدين
الرحمة والرأفة كقوله تعالى أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين وقرىء أشداء ورحماء بالنصب
• على المدح أو على الحال من المستكن فى معه لوقوعه صلة فالخبر حينئذ قوله تعالى (تراهم ركعاً سجداً)
أى تشاهدهم حال كونهم راكعين ساجدين لمواظبتهم على الصلوات وهو على الأول خبر آخر أو
• استئناف وقوله تعالى (يبتغون فضلا من الله ورضواناً) أى ثواباً ورضاً إما خبر آخر أو حال من
ضمير تراهم أو من المستتر فى ركعاً سجداً أو استئناف مبنى على سؤال نشأ من بيان مواظبتهم على
• الركوع والسجود كأنه قيل ماذا يريدون بذلك فقيل يبتغون فضلا من الله الخ (سيماهم) أى سمتهم
وقرىء سيمياؤهم بالياء بعد الميم والمد وهما لغتان وفيها لغة ثالثة هى السيماء بالمد وهو مبتدأ خبره
• (فى وجوههم) أى فى جباههم وقوله تعالى (من أثر السجود) حال من المستكن فى الجار أى من
التأثير الذى يؤثره كثرة السجود وما روى عن النبى صلى الله عليه وسلم من قوله عليه الصلاة والسلام
لاتعلبوا صوركم أى لاتسموها إنما هو فيما إذا اعتمد بجبهته على الأرض ليحدث فيها تلك السمة وذلك
محض رياء ونفاق والكلام فيما حدث فى جبهة السجاد الذى لايسجد إلا خالصا لوجه الله عز وجل
وكان الإمام زين العابدين وعلى بن عبد الله بن العباس رضى الله عنهما يقال لهما ذو الثفنات لما أحدثت
كثرة سجودهما فى مواقعه منهما أشباه ثفنات البعير قال قائلهم [ديار على والحسين وجعفر * وحمزة
والسجاد ذى الثفنات] وقيل صفرة الوجه من خشية الله تعالى وقيل ندى الطهور وتراب الأرض
وقيل استنارة وجوههم من طول ما صلوا بالليل قال عليه الصلاة والسلام من كثرت صلاته بالليل
• حسن وجهه بالنهار وقرىء من آثار السجود ومن إثر السجود بكسر الهمزة (ذلك) إشارة إلى ماذكر

سورة الفتح

ترتيبها ٤٨ — آياتها ٢٩

نزلت بالمدينة على ما روي عن ابن عباس وابن الزبير رضي الله تعالى عنهم، والأخبار تدل على أنها نزلت في السفر لا في المدينة نفسها وهو الصحيح. أخرج ابن أبي شيبة وأحمد والبخاري في تاريخه وأبو داود والنسائي وجماعة عن ابن مسعود قال: «أقبلنا من الحديبية مع رسول الله ﷺ أي عام ست بعد الهجرة وكان قد خرج إليها عليه الصلاة والسلام يوم الاثنين هلال ذي القعدة فأقام بها بضعة عشر يوماً، وقيل: عشرين يوماً ثم قفل عليه الصلاة والسلام فبينما نحن نسير إذ أتاه الوحي وكان إذا أتاه اشتد عليه فسري عنه وبه من السرور ما شاء الله تعالى فأخبرنا أنه أنزل عليه ﴿إنا فتحنا لك فتحاً مبينا﴾ [الفتح: ١] وأخرج أحمد والبخار والترمذي والنسائي وابن حبان وابن مردويه عن عمر بن الخطاب قال: «كنا مع رسول الله ﷺ في سفر فسألته عن شيء ثلاث مرات فلم يرد علي فحركت بعيري ثم تقدمت أمام الناس وخشيت أن ينزل في القرآن فما نشبت إذ سمعت صارخاً يصرخ بي فوجفت وأنا أظن أنه نزل في شيء فقال النبي ﷺ: لقد أنزلت علي الليلة سورة أحب إلي من الدنيا وما فيها ﴿إنا فتحنا لك فتحنا مبيناً ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر﴾ [الفتح: ١، ٢] وفي حديث صحيح أخرجه أحمد وأبو داود. وغيرهما عن مجمع بن جارية الأنصاري ما يدل على أنها نزلت بعد منصرفه ﷺ من الحديبية أيضاً وأن ذلك عند كراع الغميم فقرأها عليه الصلاة والسلام على الناس وهو على راحلته، وفي رواية ابن سعد عنه ما يدل على أنها بضجنان، ونقل ذلك عن البقاعي، وضجنان بضاد معجمة وجيم ونونين بينهما ألف بزنة سكران كما في القاموس جبل قرب مكة، وهذا ونحوه قول بنزولها بين مكة والمدينة، ومثل ذلك يعد مدنياً على المشهور وهو أن المدني ما نزل بعد الهجرة سواء نزل بالمدينة أم بمكة أم بسفر من الأسفار، والمكي ما نزل قبل الهجرة، وأما على القول بأن المكي ما نزل ولو بعد الهجرة بمكة ويدخل فيها كما قال الجلال السيوطي نواحيها كمنى وعرفات والحديبية بل بعضها على ما في الهداية وأكثرها على ما قال المحب الطبري من حرم مكة؛ والمدني ما نزل بالمدينة ويدخل فيها كما قال أيضاً نواحيها كأحد. وبدر. وسلع فلا بل يعد على القول بأنه نزل قرب مكة مكياً، فالقول بأن السورة مدنية بلا خلاف فيه نظر ظاهر، وهي تسع وعشرون آية بالإجماع، ولا يخفى حسن وضعها هنا لأن الفتح بمعنى النصر مرتب على القتال، وفي كل من ذكر المؤمنين المخلصين والمنافقين والمشركين ما فيه، وقد ذكر أيضاً في الأول الأمر بالاستغفار وذكر هنا وقوع المغفرة، وذكرت الكلمة الطيبة هناك بلفظها الشريف وكني عنها بكلمة التقوى بناء على أشهر الأقوال فيها، وستعرفها إن شاء الله تعالى إلى غير ذلك. وفي البحر وجه مناسبتها لما قبلها أنه لما تقدم ﴿وإن تتولوا﴾ [محمد: ٣٨] الآية وهو خطاب لكفار قريش أخبر سبحانه رسوله ﷺ بالفتح العظيم وأنه بهذا الفتح حصل الاستبدال وأمن كل من كان بمكة وصارت دار إيمان وفيه ما لا يخفى. وفي الأخبار السابقة ما يدل على جلالة قدرها. وفي حديث مجمع بن جارية الذي أخرجه

عنه ابن سعد لما نزل بها جبريل عليه السلام قال: نهنيك يا رسول الله فلما هناه جبريل عليه السلام هناه المسلمون، ويحكى أنه من قرأها أول ليلة من رمضان حفظ ذلك العام ولم يثبت ذلك في خبر صحيح والله تعالى أعلم.

بسم الله الرحمن الرحيم

إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴿٣﴾ هُوَ الَّذِىٓ أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾ لِّيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٥﴾ وَيُعَذِّبَ الْمُنَٰفِقِينَ وَالْمُنَٰفِقَٰتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَٰتِ الظَّآنِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ السَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٧﴾

﴿بسم الله الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ﴾ إخبار عن صلح الحديبية عند الجمهور وروي ذلك عن ابن عباس وانس والشعبي والزهري قال ابن عطية: وهو الصحيح، وأصل الفتح إزالة الاغلاق، وفتح البلد كما في الكشاف الظفر به عنوة أو صلحاً بحرب أو بغيره لأنه منغلق ما لم يظفر به فإذا ظفر به وحصل في اليد فقد فتح، وسمي ذلك الصلح فتحاً لاشتراكهما في الظهور والغلبة على المشركين فإنهم كما قال الكلبي ما سألوا الصلح إلا بعد أن ظهر المسلمون عليهم، وعن ابن عباس أن المسلمين رموهم أي بسهام وحجارة كما قيل حتى أدخلوهم ديارهم أو لأن ذلك الصلح صار سبباً لفتح مكة، قال الزهري: لم يكن فتح أعظم من صلح الحديبية اختلط المشركون بالمسلمين وسمعوا كلامهم وتمكن الإسلام من قلوبهم وأسلم في ثلاث سنين خلق كثير وكثر بهم سواد الإسلام، قال القرطبي: فما مضت تلك السنون إلا والمسلمون قد جاؤوا إلى مكة في عشرة الآف ففتحوها، والتسمية على الأول من باب الاستعارة التبعية كيفما قررت، وعلى الثاني من باب المجاز المرسل سواء قلنا إنه في مثل ما ذكر تبعي أم لا حيث سمي السبب باسم المسبب، ولا مانع من أن يكون بين شيئين نوعان من العلاقة فيكون استعمال أحدهما في الآخر باعتبار كل نوعاً من المجاز كما في المشفر والشفة الغليظة لإنسان، وإسناد الفتح المراد به الصلح الذي هو فعل رسول الله ﷺ إليه عزَّ وجلَّ مجاز من إسناد ما للقابل للفاعل الموجود، وفي ذلك من تعظيم شأن الصلح والرسول عليه الصلاة والسلام ما فيه؛ لا يقال: قد تقرر في الكلام أن الأفعال كلها مخلوقة له تعالى فنسبة الصلح إليه سبحانه إسناد إلى ما هو له فلا مجاز لأنا نقول: ما هو له عبارة عما كان الفعل حقه أن يسند إليه في العرف سواء كان مخلوقا له تعالى أو لغيره عزَّ وجلَّ كما صرح به السعد في المطول وكيف لا ولو كان كذلك لكان إسناد جميع الأفعال إلى غيره تعالى مجازاً وإليه تعالى حقيقة كالصلاة والصيام وغيرهما.

وقال المحقق ميرزاجان: يمكن توجيه ما في الآية الكريمة على أنه استعارة مكنية أو على أن يراد خلق الصلح

وإيجاده أو على أن يكون المجاز في الهيئة التركيبية الموضوعة للإسناد إلى ما هو له فاستعملت في الإسناد إلى غيره أو على أن يكون من قبيل الاستعارة التمثيلية، والأوجه الأربعة جارية في كل ما كان من قبيل المجاز العقلي كأنبت الربيع البقل، وقد صرح القوم بالثلاثة الأول منها، وزعم بعض أن الصلح مما يسند إليه تعالى حقيقة فلا يحتاج إلى شيء من ذلك وفيه ما فيه، ويجوز أن يكون ذلك إخباراً عن جعل المشركين في الحديبية مغلوبين خائفين طالبين للصلح ويكون الفتح مجازاً عن ذلك وإسناده إليه تعالى حقيقة، وقد خفي كون ما كان في الحديبية فتحاً على بعض الصحابة حتى بينه عليه الصلاة والسلام. أخرج البيهقي عن عروة قال: «أقبل رسول الله ﷺ من الحديبية راجعاً فقال رجل من أصحاب رسول الله ﷺ: والله ما هذا بفتح لقد صددنا عن البيت وصُدّ هديُنا وعكف رسول الله ﷺ بالحديبية ورد رجلين من المسلمين خرجا فبلغ رسول الله ﷺ ذلك فقال: بئس الكلام هذا بل هو أعظم الفتح لقد رضي المشركون أن يدفعوكم بالراح عن بلادهم ويسألونكم القضية ويرغبون إليكم في الأمان وقد كرهوا منكم ما كرهوا، وقد أظفركم الله عليهم وردكم سالمين غانمين مأجورين فهذا أعظم الفتح، أنسيتم يوم أحد إذ تُصْعِدون ولا تلون على أحد وأنا أدعوكم في أخراكم؟ أنسيتم يوم الأحزاب إذ جاؤوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنون؟ قال المسلمون: صدق الله ورسوله هو أعظم الفتوح والله يا نبي الله ما فكرنا فيما ذكرت ولأنت أعلم بالله وبالأمور منا، وفائدة الخبر بالفتح على الوجهين بالنسبة إلى غيره عليه الصلاة والسلام لأنه ﷺ يعلم ذلك وكذا يعلم لازم الفائدة كذا قيل.

وحمل الغير على من لم يحضر الفتح من الصحابة وغيرهم لأن الحاضرين علموا ذلك قبل النزول، وقيل: الحاضر إنما علم وقوع الصلح أو كون المشركين بحيث طلبوه ولم يعلم كونه فتحاً كما يشعر به الخبر، وإن سلم أنه علم ذلك لكنه لم يعلم عظم شأنه على ما يشعر به إسناده إلى نون العظمة والإخبار به بذلك الاعتبار.

وقال بعض المحققين: لعل المقصود بالإفادة كون ذلك للمغفرة وما عطف عليها فيجوز أن تكون الفائدة بالنسبة إليه ﷺ أيضاً، وأقول: قد صرحوا بأنه كثيراً ما تورد الجملة الخبرية لأغراض أخر سوى إفادة الحكم أو لازمه نحو ﴿رب إني وضعتها أنثى﴾ [آل عمران: ٣٦] ﴿رب إني وهن العظم مني﴾ [مريم: ٤] ﴿لا يستوي القاعدون من المؤمنين﴾ [النساء: ٥٩] الآية إلى غير ذلك مما لا يحصى فيجوز أن يكون الغرض من إيرادها ههنا الامتنان دون إفادة الحكم أو لازمه ولا مجاز في ذلك ونحوه على ما أشار إليه العلامة عبد الحكيم السالكوتي في حواشيه على المطول.

وصرح في الرسالة الجندية بأن الهيئة التركيبية الخبرية في نحو ذلك منقولة إلى الإنشائية وان المجاز في الهيئة فقط لا في الأطراف ولا في المجموع وهو مجاز مفرد عند صاحب الرسالة والكلمة أعظم من اللفظ الحقيقي والحكمي، وبعضهم يقول: هو مجاز مركب ولا ينحصر في التمثيلية، وتحقيقه في موضعه.

والتأكيد بأن للاعتناء لا لرد الإنكار وقيل لأن الحكم لعظم شأنه مظنة للإنكار. وقيل: لأن بعض السامعين منكر كون ما وقع فتحاً، ويقال في تكرير الحكم نحو ذلك، وقال مجاهد: المراد بالفتح فتح خيبر وهي مدينة كبيرة ذات حصون ومزارع على ثمانية برد من المدينة إلى جهة الشام، وكان خروج النبي ﷺ كما قال ابن إسحق ورجحه الحافظ ابن حجر في بقية المحرم سنة سبع وأقام يحاصرها بضع عشرة ليلة إلى أن فتحها ونقل عن مالك وجزم به ابن حزم أنه كان في آخر سنة ست، وجمع بأن من أطلق سنة ست بناه على أن ابتداء السنة من شهر الهجرة الحقيقي وهو شهر ربيع الأول، وقول الشيخ أبي حامد في التعليقة: إن غزوة خيبر كانت سنة خمس وهم، وقول ابن سعد. وابن أبي شيبة رواية عن أبي سعيد الخدري، انها كانت لثمان عشرة من رمضان خطأ، ولعل الأصل كانت حنين فحرف ومع

هذا يحتاج إلى توجيه وقد فتحت على أيدي أهل الحديبية لم يشركهم أحد من المتخلفين عنها فالفتح على حقيقة وإسناده إليه تعالى على حد ما سمعت فيما تقدم، والتأكيد بأن وتكرير الحكم للاعتناء، والتعبير عن ذلك بالماضي مع أنه لم يكن واقعاً يوم النزول بناءً على ما روي عن المسور بن مخرمة من أن السورة نزلت من أولها إلى آخرها بين مكة والمدينة من باب مجاز المشارفة نحو من قتل قتيلاً على المشهور أو الأول نحو ﴿إني أراني أعصر خمراً﴾ [يوسف: ٣٦] ولا يضر اختلافهما في الفعلية والاسمية؛ وفيه وجه آخر يعلم مما سيأتي إن شاء الله تعالى. وذهب جماعة إلى أنه فتح مكة وهو كما في زاد المعاد الفتح الأعظم الذي أعز الله تعالى به دينه واستنقذ به بلده وطهر حرمه واستبشر به أهل السماء وضربت أطناب عزه على مناكب الجوزاء ودخل الناس بعده في دين الله عز وجل أفواجاً وأشرق وجه الدهر ضياءً وابتهاجاً، وكان سنة ثمان وفي رواية ونصف، وقد خرج رسول الله ﷺ على ما أخرجه أحمد بإسناد صحيح عن أبي سعيد لليلتين خلتا من شهر رمضان، وفتح مكة لثلاث عشرة خلت منه على ما روي عن الزهري، وروي عن جماعة أنه كان الفتح في عشر بقيت من شهر رمضان وقيل غير ذلك، وكان معه ﷺ من المسلمين عشرة آلاف وقيل: إثنا عشر ألفاً، والجمع ممكن، وكان الفتح عند الشافعي صلحاً وهي رواية عن أحمد للتأمين في ممر الظهران بمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن ومن دخل المسجد فهو آمن، ولعدم قسمة الدور بين الغانمين، وذهب الأكثرون إلى أنه عنوة للتصريح بالأمر بالقتال ووقوعه من خالد بن الوليد وقوله، عليه الصلاة والسلام: «أحلت لي ساعة من نهار» ولا يسمى ذلك التأمين صلحاً إلا إذا التزم من أشير إليه به الكف عن القتال، والأخبار الصحيحة ظاهرة في أن قريشاً لم يلتزموا، وترك القسمة لا يستلزم عدة العنوة فقد تفتح البلدة عنوة ويمن على أهلها وتترك لهم دورهم.

وأقام عليه الصلاة والسلام بعد الفتح خمس عشرة ليلة في رواية البخاري وسبع عشرة في رواية أبي داود وثمان عشرة في رواية الترمذي، وتسع عشرة في رواية بعض، وتمام الكلام في كتب السير، واستظهر هذا القول أبو حيان وذكر أنه المناسب لآخر السورة التي قبل لما قال سبحانه: ﴿ها أنتم هؤلاء تدعون﴾ [محمد: ٣٨] الآية فبين جل وعلا أنه فتح لهم مكة وغنموا وحصل لهم أضعاف ما أنفقوا ولو بخلوا لضاع عليهم ذلك فلا يكون بخلهم إلا على أنفسهم، وأيضاً لما قال سبحانه: ﴿وأنتم الأعلون والله معكم﴾ [محمد: ٣٥] بين تعالى برهانه بفتح مكة فإنهم كانوا هم الأعلين، وأيضاً لما قال تعالى: ﴿فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم﴾ [محمد: ٣٥] كان ذلك في فتح مكة ظاهراً حيث لم يلحقهم وهن ولا دعوا إلى الصلح بل أتى صناديد قريش مستأمنين مستسلمين وهذا ظاهر بالنسبة إلى القول بأن المراد به فتح الحديبية، وأما على القول بأن المراد به فتح خيبر فليس كذلك، ورجح بعضهم القول بأنه صلح الحديبية على القول بأنه فتح مكة بأن وعدم فتح مكة يجيء صريحاً في هذه السورة الكريمة وذلك قوله تعالى: ﴿لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين﴾ [الفتح: ٢٧] الآية فلو حمل هذا الفتح عليه لكان تأكيداً بخلاف ما إذا حمل على صلح الحديبية فإنه يكون تأسيساً والتأسيس خير من التأكيد، ورجحه بعض على القول بأنه فتح خيبر بمثل هذا لأن فتح خيبر مذكور فيما بعد أيضاً، وللبحث في ذلك مجال، وان التكرير لما تقدم، وكذا الإسناد إلى ضمير العظمة بل هذا الفتح أولى بالاعتناء وتعظيم الشأن حتى قيل: ان اسناده إليه تعالى لكونه من الأمور الغريبة العجيبة التي يخلقها الله تعالى على يد أنبيائه عليهم السلام كالرمي بالحصى المشار إليه بقوله تعالى: ﴿وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى﴾ [الأنفال: ١٧] وهذا خلاف ظاهر، والمشهور أن في الكلام مجازاً عقلياً وفيه الاحتمالات السابقة.

وقال بعض المحققين: يمكن أن يقال: لعل الإرادة ههنا معتبرة إما على سبيل الحذف أو على المجاز المرسل

كما في قوله تعالى: ﴿إذا قمتم إلى الصلاة﴾ [المائدة: ٦] الآية، وقوله تعالى: ﴿فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله﴾ [النحل: ٩٨] عند أكثر الأئمة، ومثل هذا التأويل قيل: مطرد في الأفعال الاختيارية، وزعم بعضهم أن الفتح مجاز عن تيسيره، وذكر بعض الصدور في توجيه التأكيد بأن ههنا أنه قد يجعل غير السائل بمنزلة السائل إذا قدم إليه ما يلوح له بالخبر، وصرحوا بأن الملوح لا يلزم أن يكون كلاماً، وقد ذكر غير واحد من المفسرين وغيرهم أن عليه الصلاة والسلام رأى في المنام أنه وأصحابه رضي الله تعالى عنهم دخلوا مكة آمنين فصار المقام مقام أن يتردد في الفتح فألقي إليه عليه الصلاة والسلام الكلام مؤكداً كما يلقى إلى السائل كذلك، وجوز أن يكون لرد الإنكار بناءً على تحققه من المشركين فإنهم كانوا يزعمون أنه ﷺ لا يستولي على مكة كما لم يستول عليها من أراد الاستيلاء عليها قبله عليه الصلاة والسلام وهو كما ترى، وذكر بعض أجلة القائلين بأن المراد به فتح مكة أن الكلام وعد بفتحها فقيل إن الجملة حينئذٍ إخبار، وقيل: إنها إنشاء، واستشكل بما صرح به الرضي من أن الجمل الإنشائية منحصرة بالاستقراء في الطلبية والإيقاعية والوعد ليس شيئاً منهما أما الأول فظاهر، وأما الثاني فلأن مجرد قولك لأكرمنك مثلاً لا يقع به الإكرام، وقال بعض الصدور إن كلامهم مضطرب في كون الوعد إنشاءً أو إخباراً، ويمكن التوفيق بأن يقال: أصل الوعد إنشاء لأنه إظهار أمر في النفس يوجب سرورة المخاطب وما يتعلق به الوعد وهو الموعود إخبار نظيره قول النحاة كأن لإنشاء التشبيه مع أن مدخولها جملة خبرية.

وقال الخفاجي: هذا ناشىء من عدم فهم المراد منه. فإن قيل: المراد من لأكرمنك مثلاً إكرام في المستقبل فهو خبر بلا مرية، وإن قيل: معناه العزم على إكرامه وتعجيل المسرة له بإعلامه فهو إنشاء، وأقول لا يخفى أن الإخبار أصل للإنشاء، وقد صرح بذلك العلامة التفتازاني في المطول وليست هيئة المركب دالة على أنه إنشاء وليس فيه ما يدل بمادته على ذلك فيمكن أن يقال: إنه إخبار قصد به تعجيل المسرة وإن ذلك لا يخرجه عن الإخبار نظير ما قيل في قوله تعالى: ﴿رب إني وضعتها أنثى﴾ [آل عمران: ٣٦] ونحوه فتدبر، والتعبير عن ذلك بالماضي لتحققه، وفيه من تسلية قلوب الأصحاب وتسليتهم حيث صاروا محزونين غاية الحزن من تأخير الفتح ما فيه، وهذا التعبير من قبيل الاستعارة التبعية على ما حققه السيد السند في حواشي المطول حيث قال: اعلم أن التعبير عن المضارع بالماضي وعكسه يعد من باب الاستعارة بأن يشبه غير الحاصل بالحاصل في تحقق الوقوع ويشبه الماضي بالحاضر في كونه نصب العين واجب المشاهدة ثم يستعار لفظ أحدهما للآخر فعلى هذا تكون استعارة الفعل على قسمين: أحدهما أن يشبه الضرب الشديد مثلاً بالقتل ويستعار له اسمه ثم يشتق منه قتل بمعنى ضرب ضرباً شديداً. والثاني أن يشبه الضرب المستقبل بالضرب في الماضي مثلاً في تحقق الوقوع فيستعمل فيه ضرب فيكون المعنى المصدري أعني الضرب موجوداً في كل واحد من المشبه والمشبه به لكنه قيد في كل منهما بقيد يغار الآخر فصح التشبيه لذلك. وقال المحقق ميرزاجان يمكن توجيه الاستعارة ههنا بوجه آخر وهو أن يشبه الزمان المستقبل بالزمان الماضي ووجه الشبه أنه كما أن الثاني ظرف أمر محقق الوقوع كذلك الزمان الأول واللفظ الدال على الزمان الثاني وهو لفظ الفعل الماضي من جهة الصيغة جعل دالاً على الزمان المستقبل مستعملاً فيه، ومن البيّن أن المصدر على حاله لم يتغير معناه فكانت الاستعارة في الصيغة والهيئة أولى لأنها الدالة على الزمان الماضي وبواسطتها كانت الاستعارة في الفعل كما كانت الاستعارة في الفعل بواسطة المصدر، والفرق أن هذه الاستعارة في الفعل بواسطة جوهره ومادته وفيما نحن فيه بواسطة صورته، لا يقال: الدال على الزمان هو نفس اللفظ المشتق لا جزؤه لأنا نقول: يجري هذا الاحتمال في الاستعارة التبعية المشهورة بأن يقال: الدال على المعنى الحدثي هو نفس اللفظ المشتق لا جزؤه لأن المصدر بصيغته غير متحقق في المشتق فإن الضرب غير موجود في ضارب وضرب.

فإن قلت: المصدر لفظ مستقل يمكن التعبير به عن معناه بخلاف الهيئة قلت: لفظ الزمان الماضي أيضاً كذلك فلا فرق في كل منهما: نستعير المعنى المطابقي للفظ الفعل بواسطة المعنى التضمني له، ولا يبعد أن يسمى مثل هذا استعارة تبعية، والأمر في التسمية هين لا اعتداد بشأنه، ولعلهم إنما جعلوا الاستعارة في مثل ذلك بواسطة المصدر واعتبروا التغاير الاعتباري ولم يعتبروا ما اعتبرنا من تشبيه نفس الزمان بالزمان حتى تصير الاستعارة في الفعل تبعية بلا تكلف رعاية لطي النشر بقدر الإمكان وأيضاً في كون الصيغة والهيئة جزءاً للفظ تأمل، وأيضاً الهيئة ليست جزءاً مستقلاً كالمصدر، وأيضاً الهيئة ليست لفظاً والاستعارة قسم للفظ، ولعل القوم لهذه كلها أو بعضها لم يلتفتوا إليه انتهى، وفيه بحث، وللفاضل مير صدر الدين رسالة في هذه الآية الكريمة تعرض فيها للمحقق في هذا المقام، وتعقبها الفاضل يوسف القرباغي برسالة أطال الكلام فيها وجرح وعدل وذكر عدة احتمالات في الاستعارة التبعية، ومال إلى أن الهيئة لفظ محتجاً بما نقله من شرح المختصر العضدي ومن شرح الشرح للعلامة التفتازاني وأيده بنقول أخر فليراجع ذلك فإنه وإن كان في بعضه نظر لا يخلو عن فائدة.

والذي يترجح عندي أن الهيئة ليست بلفظ ولكنها في حكمه وأنه قد يتصرف فيها بالتجوز كما في الخبر إذا استعمل في الإنشاء وإن المجاز المرسل يكون تبعياً بناءً على ما ذكروه في وجه التبعية في الاستعارة، وقول الصدر في الفرق: إن العلاقة في الاستعارة ملحوظة حين الإطلاق فإنهم صرحوا بأن اسم المشبه به لا يطلق على المشبه إلا بعد دخوله في جنس المشبه به بخلاف المرسل فإن العلاقة باعثة للانتقال وليست ملحوظة حين الاستعمال فلا ضرورة في القول بالتبعية فيه إن تم لا يجدي نفعاً فافهم، وزعم بعضهم أن التعبير بالماضي ههنا على حقيقته بناءً على أن الفتح مجاز عن تيسيره وتسهيله وهو مما لا يتوقف على حصول الفتح ووقوعه ليكون مستقبلاً بالنسبة إلى زمن النزول مثله ألا ترى أن موسى عليه الصلاة والسلام سأل ربه تعالى بقوله: ﴿ويسر لي أمري﴾ [طه: ٢٦] أن يسهل أمره وهو خلافته في أرضه وما يصحبها، وأجيب إليه في موقف السؤال بقوله تعالى: ﴿قد أوتيت سؤلك يا موسى﴾ [طه: ٣٦] ولم يباشر بعد شيئاً، وحمله على الوعد بإيتاء السؤال خلاف الظاهر، وأنت تعلم أن ما ذهب إليه الجمهور أظهر وأبلغ، وفي مجيء المستقبل بصيغة الماضي لتنزيله منزلة المحقق من الفخامة والدلالة على علو شأن المخبر ما لا يخفى كما في الكشاف، وذلك على ما قيل لأنه يدل على أن الأزمنة كلها عنده تعالى على السواء وان منتظره كمحقق غيره وأنه سبحانه إذا أراد أمراً تحقق لا محالة وأنه لجلالة شأنه إذا أخبر عن حادث فهو كالكائن لما عنده من أسبابه القريبة والبعيدة، وقيل غير ذلك. واستشكل أمر المضي في كلامه تعالى بناءً على ثبوت الكلام النفسي الأزلي للزوم الكذب لأن صدق الكلام يستدعي سبق وقوع النسبة ولا يتصور السبق على الأزل، وأجيب بأن كلامه تعالى النفسي الأزلي لا يتصف بالماضي وغيره لعدم الزمان. وتعقب بأن تحقق هذا مع القول بأن الأزلي مدلول اللفظي عسير جداً، وكذا القول بأن المتصف بالمضي وغيره إنما هو اللفظ الحادث دون المعنى القديم. وأجاب بعضهم بأن العسر لو كان دلالة اللفظي عليه دلالة الموضوع على الموضوع له وليس كذلك عندهم بل هي دلالة الأثر على المؤثر، ولا يلزم من اعتبار شيء في الأثر اعتباره في المؤثر، ولا يخفى أن كون الدلالة دلالة الأثر على المؤثر خلاف الظاهر، وقال ابن الصدر في ذلك: إن اشتمال الكلام اللفظي على المضي والحضور والاستقبال إنما هو بالنظر إلى زمان المخاطب لا إلى زمان المتكلم كما إذا أرسلت زيداً إلى عمرو تكتب في مكتوبك إليه إني أرسلت إليك زيداً مع أنه حين ما تكتبه لم يتحقق الإرسال فتلاحظ حال المخاطب، وكما تقدر في نفسك مخاطباً وتقول: لم تفعل الآن كذا وكان قبل ذلك كذا، ولا شك أن هذا المضي والحضور والاستقبال بالنسبة إلى زمان الوجود المقدر لهذا المخاطب لا بالنسبة إلى زمان

المتكلم بالكلام النفسي لكونه متوجهاً لمخاطب مقدر لا يلاحظ فيه إلا أزمنة المخاطبين المقدرين، وما اعتبره أئمة العربية من حكاية الحال الماضية واعتبار المضي والحضور والاستقبال في الجملة الحالية بالقياس إلى زمان الفعل لا زمان التكلم قريب منه جداً انتهى، وللمحقق ميرزاجان كلام في هذا المقام يطلب من حواشيه على الشرح العضدي.

وقيل: المراد بالفتح فتح الروم على إضافة المصدر إلى الفعل فإنهم غلبوا على الفرس في عام النزول، وكونه فتحاً له عليه الصلاة والسلام لأنه أخبر عن الغيب فتحقق ما أخبر به في ذلك العام ولأنه تفاءل به لغلبة أهل الكتاب المؤمنين وفي ذلك من ظهور أمره ﷺ ما هو بمنزلة الفتح، قيل: ففي الفتح استعارة لتشبيه ظهوره ﷺ بالفتح، وقيل: لا تجوز فيه وإنما التجوز في تعلقه به عليه الصلاة والسلام، وقيل: لا تجوز أصلاً والمعنى فتحنا على الروم لأجلك. وأنت تعلم أن حمل الفتح على ما ذكره في نفسه بعيد جداً.

وأورد عليه أن فتح الروم لم يكن مسبباً على الجهاد ونحوه فلا يصح ما ذكروه في توجيه التعليل الآتي، وعن قتادة أن ﴿فتحنا﴾ من الفتاحة بالضم وهي الحكومة أي إنا قضينا لك على أهل مكة أن تدخلها أنت وأصحابك من قابل لتطوفوا بالبيت وهو بعيد أيضاً، وقيل: المراد به فتح الله تعالى له ﷺ بالإسلام والنبوة والدعوة بالحجة والسيف؛ وقريب منه ما نقله الرغب من أنه فتحه عز وجل له عليه الصلاة والسلام بالعلوم والهدايات التي هي ذريعة إلى الثواب والمقامات المحمودة، وأمره في البعد كما سبق، وأياً ما كان فحذف المفعول للقصد إلى نفس الفعل والإيذان بأن مناط التبشير نفس الفتح الصادر عنه سبحانه لا خصوصية المفتوح، وتقديم ﴿لك﴾ على المفعول المطلق أعني قوله تعالى: ﴿فَتْحاً مُبيناً﴾ مع أن الأصل تقديمه على سائر المفاعيل كما صرح به العلامة التفتازاني للاهتمام بكون ذلك لنفعه عليه الصلاة والسلام، وقيل: لأنه مدار الفائدة، و «مبين» من أبان بمعنى بان اللازم أن فتحاً بيناً ظاهر الأمر مكشوف الحال أو فارقاً بين الحق والباطل.

﴿ليغفرَ لَكَ اللهُ﴾ مذهب الأشاعرة القائلين بأن أفعاله تعالى لا تعلل بالاغراض أن مثل هذه اللام للعاقبة أو لتشبيه مدخولها بالعلة الغائية في ترتبه على متعلقها وترتب المغفرة على الفتح من حيث إن فيه سعياً منه ﷺ في إعلاء كلمة الله تعالى بمكابدة مشاق الحروب واقتحام موارد الخطوب؛ والسلف كما قال ابن القيم وغيره يقولون بتعليل أفعاله عز وجل، وفي شرح المقاصد للعلامة التفتازاني أن من بعض أدلتهم ـ أي الأشاعرة ـ ومن وافقهم على هذا المطلب يفهم أنهم أرادوا عموم السلب ومن بعضها أنهم أرادوا سلب العموم، ثم قال: الحق أن بعض أفعاله تعالى معلل بالحكم والمصالح وذلك ظاهر والنصوص شاهدة به، وأما تعميم ذلك بأنه لا يخلو فعل من أفعاله سبحانه من غرض فمحل بحث، وذكر الأصفهاني في شرح الطوالع في هذه المسألة خلافاً للمعتزلة وأكثر الفقهاء، وأنا أقول: بما ذهب إليه السلف لوجود التعليل فيما يزيد على عشرة آلاف آية وحديث والتزام تأويل جميعها خروج عن الإنصاف، وما يذكره الحاضرون من الأدلة يدفع بأدنى تأمل كما لا يخفى على من طالع كتب السلفيين عليهم الرحمة. وفي الكشاف لم يجعل الفتح علة للمغفرة لكن لاجتماع ما عدد من الأمور الأربعة وهي المغفرة وإتمام النعمة وهداية الصراط المستقيم والنصر العزيز كأنه قيل: يسرنا لك فتح مكة ونصرناك على عدوك لنجمع لك بين عز الدارين واغراض العاجل والآجل، وحاصله كما قال العلامة أن الفتح لم يجعل علة لكل من المتعاطفات بعد اللام أعني المغفرة وإتمام النعمة والهداية والنصر بل لاجتماعها، ويكفي في ذلك أن يكون له دخل في حصول البعض كإتمام النعمة والنصر العزيز، وتحقيقه كما قال إن العطف على المجرور باللام قد يكون للاشتراك في متعلق اللام مثل جئتك لأفوز بلقياك وأحوز عطاياك ويكون بمنزلة تكرير اللام وعطف جار ومجرور على جار ومجرور، وقد يكون للاشتراك في معنى اللام

كجئتك لتستقر في مقامك وتفيض علي من انعامك أي لاجتماع الأمرين، ويكون من قبيل جاءني غلام زيد وعمرو أي الغلام الذي لهما. واستظهر دفعاً لتوهم أنه إذا كان المقصود البعض فذكر الباقي لغو أن يقال: لا يخلو كل منهما أن يكون مقصوداً بالذات وهو ظاهر أو المقصود البعض وحينئذٍ فذكر غيره إما لتوقفه عليه أو لشدة ارتباطه به أو ترتبه عليه فيذكر للإشعار بأنهما كشيء واحد كقوله تعالى: ﴿أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى﴾ [البقرة: ٢٨٢] وقولك: أعددت الخشب ليميل الحائط فأدعمه ولازمت غريمي لأستوفي حقي وأخليه. وظاهر كلام الزمخشري أن المقصود فيما نحن فيه تعليل الهيئة الاجتماعية فحسب فتأمل لتعرف أنه من أي الأقسام هو. واعلم أن المشهور كون العلة ما دخلته اللام لا ما تعلقت به كما هو ظاهر عبارة الكشاف؛ لكن حقق أنها إذا دخلت على الغاية صح أن يقال: إن ما بعدها علة ويراد بحسب التعقل وأن يقال: ما تعلقت به علة ويراد بحسب الوجود فلا تغفل. وزعم صاحب الغنيان أن اللام ههنا هي لام القسم وكسرت وحذف النون من الفعل تشبيهاً بلام كي. ورد بأن لام القسم لا تكسر ولا ينصب بها فإنه لم يسمع والله ليقوم زيد على معنى ليقومن زيد، وانتصر له بأن الكسر قد علل بتشبيهها بلام كي.

وأما النصف فله أن يقول فيه: بأنه ليس نصباً وإنما هو الحركة التي تكون مع وجود النون بقيت بعد حذفها دلالة على الحذف. وأنت تعلم أنه لا يجدي نفعاً مع عدم السماع، هذا والالتفات إلى اسم الذات المستتبع لجميع الصفات قيل: للإشعار بأن كل واحد مما انتظم في سلك الغاية من أفعاله تعالى صادر عنه عز وجل من حيثية غير حيثية الآخر مترتبة على صفة من صفاته جل شأنه.

وقال الصدر لا يبعد أن يقال: إن التعبير عنه تعالى في مقام المغفرة بالاسم الجليل المشعر بصفات الجمال والجلال يشعر بسبق مغفرته تعالى على عذابه. وفي البحر لما كان الغفران وما بعده يشترك في إطلاقه الرسول عليه الصلاة والسلام وغيره لقوله تعالى: ﴿ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾ [النساء: ٤٨] وقوله سبحانه: ﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي﴾ [المائدة: ٣] وقوله تعالى: ﴿يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم﴾ [البقرة: ٤، ٤٧، ١٢٢] وقوله عز وجل: ﴿يهدي من يشاء﴾ [البقرة: ١٤٢ وغيرها] وقوله تبارك وتعالى: ﴿إنهم لهم المنصورون﴾ [الصافات: ١٧٢] وكان الفتح مختصاً بالرسول ﷺ أسنده الله تعالى إلى نون العظمة تفخيماً لشأنه وأسند تلك الأشياء إلى الاسم الظاهر وضميره وهو كما ترى وإن قاله الإمام أيضاً، وأقول: يمكن أن يكون في إسناد المغفرة إليه تعالى بالاسم الأعظم بعد إسناد الفتح إليه تعالى بنون العظمة إيماءً إلى أن المغفرة مما يتولاها سبحانه بذاته وأن الفتح مما يتولاه جل شأنه بالوسائط، وقد صرح بعضهم بأن عادة العظماء أن يعبروا عن أنفسهم بصيغة المتكلم مع الغير لأن ما يصدر عنهم في الأكثر باستخدام توابعهم، ولا يعترض بأن النصر كالفتح وقد أسند إلى الاسم الجليل لما لا يخفى عليك، وتقديم ﴿لك﴾ على المفعول الصريح أعني قوله تعالى: ﴿**مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ**﴾ لما مر غير مرة، و ﴿ما﴾ للعموم والمتقدم والمتأخر للإحاطة كناية عن الكل، والمراد بالذنب ما فرط من خلاف الأولى بالنسبة إلى مقامه عليه الصلاة والسلام فهو من قبيل حسنات الأبرار سيئات المقربين، وقد يقال: المراد ما هو ذنب في نظره العالي ﷺ وإن لم يكن ذنباً ولا خلاف الأولى عنده تعالى كما يرمز إلى ذلك الإضافة.

وقال الصدر: يمكن أن يكون قوله تعالى: ﴿ليغفر﴾ الخ كناية عن عدم المؤاخذة أو من باب الاستعارة التمثيلية من غير تحقق معاني المفردات. وأخرج ابن المنذر عن عامر. وأبي جعفر أنهما قالا: ما تقدم في الجاهلية وما تأخر في الإسلام، وقيل ما تقدم من حديث مارية وما تأخر من امرأة زيد وليس بشيء مع أن العكس أولى لأن حديث امرأة زيد متقدم. وفي الآية مع ما عهد من حاله ﷺ من كثرة العبادة ما يدل على شرف مقامه إلى حيث لا تحيط به عبارة، وقد

صح أنه ﷺ لما نزلت صام وصلى حتى انتفخت قدماه وتعبد حتى صار كالشن البالي فقيل له: أتفعل هذا بنفسك وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك أو ما تأخر؟ فقال عليه الصلاة والسلام: أفلا أكون عبداً شكوراً ﴿وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ﴾ بإعلاء الدين وانتشاره في البلاد وغير ذلك مما أفاضه تعالى عليه ﷺ من النعم الدينية والدنيوية «ويهديك صراطاً مستقيماً» في تبليغ الرسالة وإقامة الحدود، قيل: إن أصل الاستقامة وإن كان حاصلاً قبل الفتح لكن حصل بعد ذلك من اتضاح سبل الحق واستقامة مناهجه ما لم يكن حاصلاً قبل ﴿وَيَنْصُرَكَ اللهُ﴾ إظهار الاسم الجليل مع النصر قيل: لكونه خاتمة العلل أو الغايات ولإظهار كمال العناية بشأنه كما يعرب عنه إردافه بقوله تعالى: ﴿نَصْراً عَزِيزاً﴾ وقال الصدر: أظهر الاسم في الصدر وهنا لأن المغفرة تتعلق بالآخرة والنصر يتعلق بالدنيا فكأنه أشير بإسناد المغفرة والنصر إلى صريح اسمه تعالى إلى أن الله عز وجل هو الذي يتولى أمرك في الدنيا والآخرة، وقال الإمام: أظهرت الجلالة هنا إشارة إلى أن النصر لا يكون إلا من عند الله تعالى كما قال تعالى: ﴿وما النصر إلا من عند الله﴾ [آل عمران: ١٢٦، الأنفال: ١٠] وذلك لأن النصر بالصبر والصبر بالله قال تعالى: ﴿وما صبرك إلا بالله﴾ [النحل: ١٢٧] لأنه سكون القلب واطمئنانه وذلك بذكر الله ﴿ألا بذكر الله تطمئن القلوب﴾ [الرعد: ٢٨] والعزيز بحسب الظاهر هو المنصور، وحيث وصف به النصر فهو إما للنسبة وإن كان المعروف فيها فاعلاً كلابن وفعالاً كبزاز أي نصراً فيه عز ومنعة، أو فيه تجوز في الإسناد من باب وصف المصدر بصيغة المفعول وهو المنصور هنا نحو ﴿عذاب أليم﴾ [البقرة: ١٠] في قول لا الفاعل وهو الناصر لما قيل من عدم مناسبته للمقام وقلة فائدته إذ الكلام في شأن المخاطب المنصور، لا المتكلم الناصر وفيه شيء، وقيل: الكلام بتقدير مضاف أي عزيز صاحبه وهو المنصور وفيه تكلف الحذف والإيصال.

وقد يقال: يحتاج إلى شيء مما ذكر إذ لا مانع من وصف النصر بالعزيز على ما هو الظاهر بناءً على أحد معاني العزة وهو قلة الوجود وصعوبة المنال، والمعنى ينصرك الله نصراً يقل وجود مثله ويصعب مناله، وقد قال الراغب بهذا في قوله تعالى: ﴿وإنه لكتاب عزيز﴾ [فصلت: ٤١] ورأيت ذلك للصدر بعد أن كتبته من الصدر فتأمل ولا تكن ذا عجز.

﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ بيان لما أفاض سبحانه عليهم من مبادىء الفتح، والمراد بالسكينة الطمأنينة والثبات من السكون أي أنزلها في قلوبهم بسبب الصلح والأمن إظهاراً لفضله تعالى عليهم بتيسير الأمن بعد الخوف، والمراد بإنزالها خلقها وإيجادها، وفي التعبير عن ذلك بالإنزال إيماء إلى علو شأنها.

وقال الراغب: إنزال الله تعالى نعمته على عبد إعطاؤه تعالى إياها وذلك إما بإنزال الشيء نفسه كإنزال القرآن أو بإنزال أسبابه والهداية إليه كإنزال الحديد ونحوه، وقيل: ﴿أنزل﴾ من نزل في مكان كذا حط رحله فيه وأنزله غيره، فالمعنى حط السكينة في قلوبهم فكان قلوبهم منزلاً لها ومأوى، وقيل: السكينة ملك يسكن قلب المؤمن ويؤمنه كما روي أن علياً رضي الله تعالى عنه وكرم وجهه قال: إن السكينة لتنطق على لسان عمر، وأمر الإنزال عليه ظاهر جداً.

وأخرج ابن جرير والبيهقي في الدلائل. وغيرهما عن ابن عباس أنه قال: السكينة هي الرحمة، وقيل: هي العقل ويقال له سكينة إذا سكن عن الميل إلى الشهوات وعن الرعب، وقيل: هي الوقار والعظمة لله تعالى ولرسوله ﷺ، وقيل: هي من سكن إلى كذا مال إليه أي أنزل في قلوبهم السكون والميل إلى ما جاء به الرسول ﷺ من الشرائع، وأرجح التفاسير هنا على ما قال الخفاجي: الأول، وما ذكره بعضهم من أن السكينة شيء له رأس كرأس الهرة فما أراه

قولاً يصح ﴿لِيَزْدَادُوا إِيمَاناً مَعَ إِيمَانِهِمْ﴾ أي يقيناً مع يقينهم برسوخ العقيدة واطمئنان النفوس عليها على أن الإيمان لما ثبت في الأزمنة نزل تجدد أزمانه منزلة تجدده وازدياده فاستعير له ذلك ورشح بكلمة مع، وقيل: ازدياد الإيمان بازدياد ما يؤمن به، وروي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن أول ما أتاهم به النبي ﷺ التوحيد ثم الصلاة والزكاة ثم الحج والجهاد فازدادوا إيماناً مع إيمانهم، ومن قال: الأعمال من الإيمان قال بأنه نفسه أي الإيمان المركب من ذلك وغيره يزيد وينقص ولم يحتج في الآية إلى تأويل بل جعلها دليلاً له، وتفصيل الكلام في هذا المقام أنه ذهب جمهور الأشاعرة والقلانسي والفقهاء والمحدثون والمعتزلة إلى أن الإيمان يزيد وينقص ونقل ذلك عن الشافعي ومالك، وقال البخاري: لقيت أكثر من ألف رجل من العلماء بالأمصار فما رأيت أحداً منهم يختلف في أن الإيمان قول وعمل ويزيد وينقص، واحتجوا على ذلك بالعقل والنقل، أما الأول فلأنه لو لم تتفاوت حقيقة الإيمان لكان إيمان آحاد الأمة المنهمكين في الفسق والمعاصي مساوياً لإيمان الأنبياء عليهم السلام مثلاً واللازم باطل فكذا الملزوم، وأما الثاني فلكثرة النصوص في هذا المعنى، منها الآية المذكورة، ومنها ما روي عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قلنا: يا رسول الله ان الإيمان يزيد وينقص قال: نعم يزيد حتى يدخل صاحبه الجنة وينقص حتى يدخل صاحبه النار، ومنها ما روي عن عمر وجابر رضي الله تعالى عنهما مرفوعاً «لو وزن إيمان أبي بكر بإيمان هذه الأمة لرجح به» واعترض بأن عدم قبول الإيمان الزيادة والنقص على تقدير كون الطاعات داخلة في مسماه أولى وأحق من عدم قبوله ذلك إذا كان مسماه التصديق وحده.

أما أولاً فلأنه لا مرتبة فوق كل الأعمال لتكون زيادة ولا إيمان دونه ليكون نقصاً، وأما ثانياً فلأن أحداً لا يستكمل من مقولة الكم وإنما قيل هو كيف أو انفعال أو إضافة وتعلق بين العالم والمعلوم أو صفة ذات إضافة؛ والأشهر أنه كيف فمتى صح ذلك وقلنا بمغايرة الشدة والضعف للزيادة والنقص فلا بأس بحملهما في النصوص وغيرها على الشدة والضعف وذلك مجاز مشهور، وإنكار اتصاف الإيمان بهما يكاد يلحق بالمكابرة فتأمل، وذكر بعضهم هنا أن الإيمان الذي هو مدخول مع هو الإيمان الفطري والإيمان المذكور قبله الإيمان الاستدلالي فكأنه قيل: ليزدادوا إيماناً استدلالياً مع إيمانهم الفطري، وفيه من الخفاء ما فيه ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ يدبر أمرها كيفما يريد فيسلط بعضها على بعض تارة ويوقع سبحانه بينها السلم أخرى حسبما تقتضيه مشيئته المبنية على الحكم والمصالح، ومن قضية ذلك ما وقع في الحديبية ﴿وَكَانَ اللهُ عَلِيماً﴾ مبالغاً في العلم بجميع الأمور ﴿حَكِيماً﴾ في تقديره وتدبيره عز وجل.

وقوله سبحانه ﴿لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ متعلق بما يدل عليه ما ذكر من كون جنود السموات والأرض له جل شأنه من معنى التصرف والتدبير، وقد صرح بعض الأفاضل بأنه كناية عنه أي دبر سبحانه ما دبر من تسليط المؤمنين ليعرفوا نعمة الله تعالى في ذلك ويشكروها فيدخلهم الجنة فالعلة في الحقيقة معرفة النعمة وشكرها لكنها لما كانت سبباً لدخول الجنة أقيم المسبب مقام السبب. وقيل: متعلق بفتحنا، وقيل: بأنزل، وتعلقه بذلك مع تعلق اللام الأخرى به مبني على تعلق الأول به مطلقاً والثاني مقيداً وتنزيل تغاير الوصفين منزلة تغاير الذاتين وإلا فلا يتعلق بعامل واحد حرفا جر بمعنى واحد من غير اتباع، وقيل: متعلق بينصرك، وقيل: بيزداد، وقيل: بجميع ما ذكر إما على التنازع والتقدير أو بتقدير ما يشمل ذلك كفعل سبحانه ما ذكر ليدخل الخ، وقيل: هو بدل من ليزداد بدل اشتمال فإن إدخال المؤمنين والمؤمنات الجنة وكذا ما عطف عليه مستلزم لزيادة الإيمان وبدل الاشتمال يعتمد على ملابسة ما بين المبدل والمبدل منه بحيث يشعر أحدهما بالآخر غير الكلية والبعضية، ولعل

الأظهر الوجه الأول، وضم المؤمنات ههنا إلى المؤمنين دفعاً لتوهم اختصاص الحكم بالذكور لأجل الجهاد والفتح على أيديهم، وكذا في كل موضع يوهم الاختصاص يصرح بذكر النساء، ويقال نحو ذلك فيما بعد كذا قيل. وأخرج ابن جرير وجماعة عن أنس قال: «أنزلت على النبي ﷺ ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر في مرجعه من الحديبية فقال: لقد أنزلت علي آية هي أحبُّ إليَّ مما على الأرض ثم قرأها عليهم فقالوا: هنيئاً مريئاً يا رسول الله قد بين الله تعالى لك ماذا يفعل بك فماذا يفعل بنا فنزلت ليدخل المؤمنين والمؤمنات حتى بلغ فوزاً عظيماً».

﴿وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ أي يغطيها ولا يظهرها، والمراد يمحوها سبحانه ولا يؤاخذهم بها، وتقديم الادخال في الذكر على التكفير مع أن الترتيب في الوجود على العكس للمسارعة إلى بيان ما هو المطلوب إلا على كذا قال غير واحد، ويجوز عندي أن يكون التفكير في الجنة على أن المعنى يدخلهم الجنة ويغطي سيئاتهم ويسترها عنهم فلا تمر لهم ببال ولا يذكرونها أصلاً لئلا يخجلوا فيتكدر صفو عيشهم، وقد مر مثل ذلك.

﴿وَكَانَ ذَلِكَ﴾ أي ما ذكر من الإدخال والتكفير ﴿عِندَ اللهِ فَوْزاً عَظِيماً﴾ لا يقادر قدره لأنه منتهى ما تمتد إليه أعناق الهمم من جلب نفع ودفع ضر، و ﴿عند الله﴾ حال من ﴿فوزا﴾ لأن صفة النكرة إذا قدمت عليها الإيمان حينئذٍ والزيادة على ما لم يكمل بعد محال. وأجيب بأن هذا إنما يتوجه على المعتزلة والخوارج القائلين بانتفاء الإيمان بانتفاء شيء من الأعمال، والجماعة إنما يقولون: إنها شرط كمال في الإيمان فلا يلزم عند الانتفاء إلا انتفاء الكمال وهو غير قادح في أصل الإيمان.

وقال النووي وجماعة محققون من علماء الكلام: إن الإيمان بمعنى التصديق القلبي يزيد وينقص أيضاً بكثرة النظر ووضوح الأدلة وعدم ذلك، ولهذا كان إيمان الصديقين أقوى من إيمان غيرهم بحيث لا تعتريه الشبه، ويؤيده أن كل واحد يعلم أن ما في قلبه يتفاضل حتى يكون في بعض الأحيان أعظم يقيناً وإخلاصاً منه في بعضها فكذلك التصديق والمعرفة بحسب ظهور البراهين وكثرتها. واعترض بأنه متى قبل ذلك كان شكاً.

ودفع بأن مراتب اليقين متفاوتة إلى علم اليقين وحق اليقين وعين اليقين مع أنها لا شك معها وممن وافق النووي على ما جزم به السعد في القسم الثاني من تهذيبه، وقال جماعة من العلماء أعظمهم الإمام أبو حنيفة وتبعه أصحابه وكثير من المتكلمين الإيمان لا يزيد ولا ينقص، واختاره إمام الحرمين، واحتجوا بأنه اسم للتصديق البالغ حد الجزم والإذعان وهذا لا يتصور فيه زيادة ولا نقصان، فالمصدق إذا ضم إليه الطاعات أو ارتكب المعاصي فتصديقه بحاله لم يتغير أصلاً وإنما يتفاوت إذا كان اسماً للطاعات المتفاوتة قلة وكثرة. وأجابوا عما تمسك به الأولون بوجوه، منها ما أشرنا إليه أولاً من أن الزيادة بحسب الدوام والثبات وكثرة الزمان والأوقات. وإيضاحه ما قاله إمام الحرمين: النبي ﷺ يفضل من عداه باستمرار تصديقه وعصمة الله تعالى إياه من مخامرة الشكوك والتصديق عرض لا يبقى بشخصه بل بتجدد أمثاله فتقع للنبي عليه الصلاة والسلام متوالية ولغيره على الفترات فثبتت للنبي ﷺ أعداد من الإيمان لا يثبت لغيره إلا بعضها فيكون إيمانه ﷺ أكثر، والزيادة بهذا المعنى قيل مما لا نزاع فيها.

واعترض بأن حصول المثل بعد انعدام الشيء لا يكون زيادة فيه كسواد الجسم، ودفع بأن المراد زيادة أعداد حصلت وعدم البقاء لا ينافي ذلك، ومنها ما أشرنا إليه ثانياً من أن المراد الزيادة بحسب زيادة ما يؤمن به، والصحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين آمنوا أولاً بما آمنوا به وكانت الشريعة لم تتم وكانت الأحكام تنزل شيئاً فشيئاً فكانوا يؤمنون بكل ما يتجدد منها ولا شك في تفاوت إيمان الناس بملاحظة التفاصيل كثرة وقلة ولا يختص ذلك بعصره ﷺ لإمكان الاطلاع على التفاصيل في غيره من العصور أيضاً، ومنها أن المراد زيادة ثمرته وإشراق نوره في القلب فإن نور

الإيمان يزيد بالطاعات وينقص بالمعاصي، قيل: وهذا إنما يحتاج إليه بعد إقامة قاطع على امتناع قبول التصديق الزيادة والنقص ومتى لم يقم قاطع على ذلك كان الأولى إبقاء الظواهر على حالها، وقال الخطابي: الإيمان قول وهو لا يزيد ولا ينقص وعمل وهو يزيد وينقص واعتقاد وهو يزيد ولا ينقص فإذا نقص ذهب واعترض أنه إذا زاد ثم عاد إلى ما كان فقد نقص ولم يذهب.

ودفع بأن مراده أن الاعتقاد باعتبار أول مراتبه يزيد ولا ينقص لا أن الاعتقاد مطلقاً كذلك، وذهب جماعة منهم الإمام الرازي. وإمام الحرمين إلى أن الخلاف لفظي وذلك بحمل قول النفي على أصل الإيمان وهو التصديق فلا يزيد ولا ينقص وحمل قول الإثبات على ما به كماله وهو الأعمال فيكون الخلاف في هذه المسألة فرع الخلاف في تفسير الإيمان، والحق أنه حقيقي لما سمعت عن الإمام النووي ومن معه من أن التصديق نفسه يزيد وينقص.

وقال بعض المحققين: إن الزيادة والنقص من خواص الكم والتصديق قسم من العلم ولم يقل أحد بأنه أعربت حالاً، وكونه يجوز فيه الحالية إذا تأخر عن ﴿عظيما﴾ لا ضير فيه كما توهم أي كائناً عند الله تعالى أي في علمه سبحانه وقضائه جل شأنه، والجملة اعتراض مقرر لما قبله، وقوله تعالى:

﴿وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ﴾ عطف على يدخل أي وليعذب المنافقين الخ لغيظهم من ذلك، وهو ظاهر على جميع الأوجه السابقة في ﴿ليدخل﴾ حتى وجه البدلية فإن بدل الاشتمال تصححه الملابسة كما مر، وازدياد الإيمان على ما ذكرنا في تفسيره مما يغيظهم بلا ريب، وقيل: إنه على هذا الوجه يكون عطفاً على المبدل منه، وتقديم المنافقين على المشركين لأنهم أكثر ضرراً على المسلمين فكان في تقديم تعذيبهم تعجيل المسرة.

﴿الظَّانِّينَ بِاللهِ ظَنَّ السَّوْءِ﴾ أي ظن الأمر الفاسد المذموم وهو أنه عز وجل لا ينصر رسوله ﷺ والمؤمنين، وقيل: المراد به ما يعم ذلك وسائر ظنونهم الفاسدة من الشرك أو غيره ﴿عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ﴾ أي ما يظنونه ويتربصونه بالمؤمنين فهو حائق بهم ودائر عليهم، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو «دَائِرَةُ السُّوءِ» بالضم، والفرق بينه وبين ﴿السَّوء﴾ بالفتح على ما في الصحاح أن المفتوح مصدر والمضموم اسم مصدر بمعنى المساءة.

وقال غير واحد: هما لغتان بمعنى كالكره والكره عند الكسائي وكلاهما في الأصل مصدر غير أن المفتوح غلب في أن يضاف إليه ما يراد ذمه والمضموم جرى مجرى الشر، ولما كانت الدائرة هنا محمودة وأضيفت إلى المفتوح في قراءة الأكثر تعين على هذا أن يقال: إن ذاك على تأويل أنها مذمومة بالنسبة إلى من دارت عليه من المنافقين والمشركين واستعمالها في المكروه أكثر وهي مصدر بزنة اسم الفاعل أو اسم فاعل، وإضافتها على ما قال الطيبي من إضافة الموصوف إلى الصفة للبيان على المبالغة، وفي الكشف الإضافة بمعنى من على نحو دائرة ذهب فتدبر.

والكلام إما إخبار عن وقوع السوء بهم أو دعاء عليهم، وقوله تعالى: ﴿وَغَضِبَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ﴾ عطف على ذلك، وكان الظاهر فلعنهم فأعد بالفاء في الموضعين لكنه عدل عنه للإشارة إلى أن كلاً من الأمرين مستقل في الوعيد به من غير اعتبار للسببية فيه ﴿وَسَاءَتْ مَصِيراً﴾ جهنم ﴿وَللهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ ذكر سابقاً على أن المراد أنه عز وجل المدبر لأمر المخلوقات بمقتضى حكمته فلذلك ذيل بقوله تعالى: ﴿عليماً حكيماً﴾ وههنا أريد به التهديد بأنهم في قبضة قدرة المنتقم ولذا ذيل بقوله تعالى: ﴿وَكَانَ اللهُ عَزِيزاً حَكِيماً﴾ فلا تكرار كما قال الشهاب، وقيل: إن الجنود جنود رحمة وجنود عذاب، والمراد به هنا الثاني كما ينبىء عنه التعرض لوصف العزة.

إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴿٨﴾ لِّتُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ
بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوۡقَ أَيۡدِيهِمۡۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ
عَلَىٰ نَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيۡهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴿١٠﴾ سَيَقُولُ لَكَ ٱلۡمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ
شَغَلَتۡنَآ أَمۡوَٰلُنَا وَأَهۡلُونَا فَٱسۡتَغۡفِرۡ لَنَاۚ يَقُولُونَ بِأَلۡسِنَتِهِم مَّا لَيۡسَ فِي قُلُوبِهِمۡۚ قُلۡ فَمَن يَمۡلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ
شَيۡـًٔا إِنۡ أَرَادَ بِكُمۡ ضَرًّا أَوۡ أَرَادَ بِكُمۡ نَفۡعَۢاۚ بَلۡ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرَۢا ﴿١١﴾ بَلۡ ظَنَنتُمۡ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ
وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهۡلِيهِمۡ أَبَدٗا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمۡ وَظَنَنتُمۡ ظَنَّ ٱلسَّوۡءِ وَكُنتُمۡ قَوۡمَۢا بُورٗا ﴿١٢﴾ وَمَن لَّمۡ
يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ سَعِيرٗا ﴿١٣﴾ وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ يَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ
وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿١٤﴾ سَيَقُولُ ٱلۡمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقۡتُمۡ إِلَىٰ مَغَانِمَ
لِتَأۡخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعۡكُمۡۖ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُواْ كَلَٰمَ ٱللَّهِۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمۡ قَالَ ٱللَّهُ مِن
قَبۡلُۖ فَسَيَقُولُونَ بَلۡ تَحۡسُدُونَنَاۚ بَلۡ كَانُواْ لَا يَفۡقَهُونَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿١٥﴾ قُل لِّلۡمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ سَتُدۡعَوۡنَ إِلَىٰ
قَوۡمٍ أُوْلِي بَأۡسٖ شَدِيدٖ تُقَٰتِلُونَهُمۡ أَوۡ يُسۡلِمُونَۖ فَإِن تُطِيعُواْ يُؤۡتِكُمُ ٱللَّهُ أَجۡرًا حَسَنٗاۖ وَإِن تَتَوَلَّوۡاْ كَمَا تَوَلَّيۡتُم مِّن
قَبۡلُ يُعَذِّبۡكُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا ﴿١٦﴾ لَّيۡسَ عَلَى ٱلۡأَعۡمَىٰ حَرَجٞ وَلَا عَلَى ٱلۡأَعۡرَجِ حَرَجٞ وَلَا عَلَى ٱلۡمَرِيضِ حَرَجٞۗ وَمَن يُطِعِ
ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبۡهُ عَذَابًا أَلِيمٗا ﴿١٧﴾ ۞ لَّقَدۡ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ
ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ يُبَايِعُونَكَ تَحۡتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمۡ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيۡهِمۡ وَأَثَٰبَهُمۡ فَتۡحٗا قَرِيبٗا ﴿١٨﴾

﴿**إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً**﴾ أي على أمتك لقوله تعالى: ﴿ويكون الرسول عليكم شهيداً﴾ [البقرة: ١٤٣] وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة شاهداً على أمتك وشاهداً على الأنبياء عليهم السلام أنهم قد بلغوا ﴿**وَمُبَشِّراً**﴾ بالثواب على الطاعة ﴿**وَنَذِيراً**﴾ بالعذاب على المعصية ﴿**لتؤمنوا بالله وَرَسُوله**﴾ الخطاب للنبي ﷺ وأمته كقوله سبحانه: ﴿يا أيها النبي إذا طلقتم النساء﴾ [الطلاق: ١] وهو من باب التغليب غلب فيه المخاطب على الغيب فيفيد أن النبي عليه الصلاة والسلام مخاطب بالإيمان برسالته كالأمة وهو كذلك، وقال الواحدي: الخطاب في ﴿**أرسلناك**﴾ للنبي ﷺ وفي ﴿**لتؤمنوا**﴾ لأمته فعلى هذا إن كان اللام للتعليل يكون المعلل محذوفاً أي لتؤمنوا بالله وكيت وكيت فعل ذلك الإرسال أو للأمر على طريقة ﴿فبذلك فلتفرحوا﴾ [يونس: ٥٨] على قراءة التاء الفوقانية فقيل هو على معنى قل لهم: لتؤمنوا الخ، وقيل: هو للأمة على أن خطابه ﷺ منزل منزلة خطابهم فهو عينه ادعاء، واللام متعلقة بأرسلنا، ولا يعترض عليه بما قرره الرضي وغيره من أنه يمتنع أن يخاطب في كلام واحد اثنان من غير عطف أو تثنية أو جمع لأنه بعد التنزيل لا تعدد، وجوز أن يكون ذلك لأنهم حينئذٍ غير مخاطبين في الحقيقة فخطابهم في حكم الغيبة، وقيل: الامتناع المذكور مشروط بأن يكون كل من المخاطبين مستقلاً أما إذا كان أحدهما داخلاً في خطاب الآخر برسالته فلا امتناع كما يعلم من تتبع كلامهم، وحينئذٍ يجوز أن يراد خطاب الأمة أيضاً من غير تغليب، والكلام في ذلك طويل وما ذكر سابقاً سالم عن القال والقيل ﴿**وَتُعَزِّرُوهُ**﴾ أي تنصروه كما روي عن جابر بن عبد الله مرفوعاً وأخرجه جماعة

عن قتادة، والضمير لله عز وجل، ونصرته سبحانه بنصرة دينه ورسوله ﷺ ﴿وَتُوَقِّرُوهُ﴾ أي تعظموه كما قال قتادة وغيره، والضمير له تعالى أيضاً، وقيل: كلا الضميرين للرسول ﷺ وروي عن ابن عباس، وزعم بعضهم أنه يتعين كون الضمير في ﴿تعزروه﴾ للرسول عليه الصلاة والسلام لتوهم أن التعزير لا يكون له سبحانه وتعالى كما يتعين عند الكل كون الضمير في قوله تعالى: ﴿وَتُسَبِّحُوهُ﴾ لله سبحانه وتعالى، ولا يخفى أن الأولى كون الضميرين فيما تقدم لله تعالى أيضاً لئلا يلزم فك الضمائر من غير ضرورة أي وتنزهوا الله تعالى أو تصلوا له سبحانه من السبحة ﴿بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾ غدوة وعشياً، والمراد ظاهرهما أو جميع النهار ويكنى عن جميع الشيء بطرفيه كما يقال شرقاً وغرباً لجميع الدنيا، وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما صلاة الفجر وصلاة الظهر وصلاة العصر، وقرأ أبو جعفر وأبو حيوة وابن كثير وأبو عمرو الأفعال الأربعة. أعني لتؤمنوا وما بعده. بياء الغيبة، وعن ابن مسعود. وابن جبير كذلك إلا أنهما قرءا «ويسبحوا الله» بالاسم الجليل مكان الضمير، وقرأ الجحدري «تَعْزُرُوهُ» بفتح التاء الفوقية وضم الزاي مخففاً، وفي رواية عنه فتح التاء وكسر الزاي مخففاً وروي هذا عن جعفر الصادق رضي الله تعالى عنه، وقرىء بضم التاء وكسر الزاي مخففاً، وقرأ ابن عباس ومحمد بن اليماني «تُعَزِّزُوهُ» بزاءين من العزة أي تجعلوه عزيزاً وذلك بالنسبة إليه سبحانه بجعل دينه ورسوله ﷺ كذلك. وقرىء «وتُؤَقِرُوهُ» من أوقره بمعنى وقره ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ﴾ يوم الحديبية على الموت في نصرتك كما روي عن سلمة بن الأكوع وغيره أو على أن لا يفروا من قريش كما روي عن ابن عمر وجابر رضي الله تعالى عنهم، وسيأتي الكلام في تفصيل ذلك إن شاء الله تعالى، والمبايعة وقعت قبل نزول الآية فالتعبير بالمضارع لاستحضار الحال الماضية، وهي مفاعلة من البيع يقال: بايع السلطان مبايعة إذا ضمن بذلك الطاعة له بما رضخ له، وكثيراً ما تقال على البيعة المعروفة للسلاطين ونحوهم وإن لم يكن رضخ، وما وقع للمؤمنين قيل يشير إلى ما في قوله تعالى: ﴿إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم﴾ [التوبة: ١١١] الآية ﴿إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللهَ﴾ لأن المقصود من بيعة الرسول عليه الصلاة والسلام وإطاعته إطاعة الله تعالى وامتثال أوامره سبحانه لقوله تعالى: ﴿من يطع الرسول فقد أطاع الله﴾ [النساء: ٨٠] فمبايعة الله تعالى بمعنى طاعته سبحانه مشاكلة أو هو صرف مجاز، وقرىء «إنما يبايعون لله» أي لأجل الله تعالى ولوجهه، والمفعول محذوف أي إنما يبايعونك لله ﴿يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ استئناف مؤكد لما قبله لأنه عبارة عن المبايعة. قال في الكشاف لما قال سبحانه: ﴿إنما يبايعون الله﴾ أكده على طريقة التخييل فقال تعالى: ﴿يد الله فوق أيديهم﴾ وأنه سبحانه منزه عن الجوارح وصفات الأجسام وإنما المعنى تقرير أن عقد الميثاق مع الرسول ﷺ كعقده مع الله تعالى من غير تفاوت بينهما. وفي المفتاح أما حسن الاستعارة التخييلية فبحسب حسن الاستعارة بالكناية متى كانت تابعة لها كما في قولك: فلان بين أنياب المنية ومخالبها ثم إذا انضم إليها المشاكلة كما في ﴿يد الله﴾ الخ كانت أحسن وأحسن، يعني أن في اسم الله تعالى استعارة بالكناية تشبيهاً له سبحانه وتعالى بالمبايع واليد استعارة تخييلية مع أن فيها أيضاً مشاكلة لذكرها مع أيدي الناس، وامتناع الاستعارة في اسم الله تعالى إنما هو في الاستعارة التصريحية دون المكنية لأنه لا يلزم إطلاق اسمه تعالى على غيره سبحانه، وروى الواحدي عن ابن كيسان اليد القوة أي قوة الله تعالى ونصرته فوق قوتهم ونصرتهم أي ثق بنصرة الله تعالى لك لا بنصرتهم وإن بايعوك.

وقال الزجاج: المعنى يد الله في الوفاء فوق أيديهم أو في الثواب فوق أيديهم في الطاعة أو يد الله سبحانه في المنة عليهم في الهداية فوق أيديهم في الطاعة، وقيل: المعنى نعمة الله تعالى عليهم بتوفيقهم لمبايعتك فوق نعمتهم وهي مبايعتهم إياك وأعظم منها، وفيه شيء من قوله تعالى: ﴿قل لا تمنوا عليَّ إسلامكم بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان﴾ [الحجرات: ١٧] وكل ذلك تأويلات ارتكبها الخلف وأحسنها ما ذكر أولاً، والسلف يمرون الآية كما جاءت

مع تنزيه الله عز وجل عن الجوارح وصفات الأجسام وكذلك يفعلون في جميع المتشابهات ويقولون: إن معرفة حقيقة ذلك فرع معرفة حقيقة الذات وأنى ذلك وهيهات هيهات، وجوز أن تكون الجملة خبراً بعد خبر لإن، وكذا جوز أن تكون حالاً من ضمير الفاعل في ﴿يبايعونك﴾ وفي جواز ذلك مع كونها اسمية غير مقترنة بالواو كلام ﴿فَمَنْ نَّكَثَ﴾ نقض العهد ﴿فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسه﴾ فلا يعود ضرر نكثه إلا عليه، وروى الزمخشري عن جابر بن عبد الله أنه ما نكث أحد البيعة إلا جد بن قيس وكان منافقاً، والذي نقله الطيبي عن مسلم يدل على أن الرجل لم يبايع لا أنه بايع ونكث قال: سئل جابر كم كانوا يوم الحديبية؟ قال: كنا أربع عشر مائة فبايعناه وعمر رضي الله تعالى عنه آخذ بيده صلوات الله تعالى وسلامه عليه تحت الشجرة وهي سمرة فبايعناه غير جد بن قيس الأنصاري اختفى تحت بطن بعيره ولم يسر مع القوم، ولعل هذا هو الأوفق لظاهر قوله تعالى ﴿لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك﴾ [الفتح: ١٨].

وقرأ زيد بن علي «يَنْكِثُ» بكسر الكاف ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللهَ فَسَيُؤْتِيه أَجْراً عَظِيماً﴾ هو الجنة وما يكون فيها مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، ويقال: وفى بالعهد وأوفى به إذا تممه وأوفى لغة تهامة، ومنه قوله تعالى: ﴿أوفوا بالعقود﴾ [المائدة: ١]. ﴿والموفون بعهدهم﴾ [البقرة: ١٧٧] وقرىء «بما عَهَدَ» ثلاثياً.

وقرأ الجمهور «عَلَيْهِ» بكسر الهاء كما هو الشائع وضمها حفص هنا، قيل: وجه الضم أنها هاء هو وهي مضمومة فاستصحب ذلك كما في له وضربه، ووجه الكسر رعاية الياء وكذا في إليه وفيه وكذا فيما إذا كان قبلها كسرة نحو به ومررت بغلامه لثقل الانتقال من الكسر إلى الضم، وحسن الضم في الآية التوصل به إلى تفخيم لفظ الجلالة الملائم لتفخيم أمر العهد المشعر به الكلام، وأيضاً إبقاء ما كان على ما كان ملائم للوفاء بالعهد وإبقائه وعدم نقضه، وقد سألت كثيراً من الأجلة وأنا قريب عهد بفتح فمي للتكلم عن وجه هذا الضم هنا فلم أجب بما يسكن إليه قلبي ثم ظفرت بما سمعت والله تعالى الهادي إلى ما هو خير منه، وقرأ ابن كثير ونافع وابن عامر وروح وزيد بن علي «فَسَنُؤْتِيهِ» بالنون.

﴿سَيَقُولُ لَكَ المخَلَّفُونَ منَ الأَعْرَاب﴾ قال مجاهد وغيره ودخل كلام بعضهم في بعض المخلفون من الاعراب هم جهينة ومزينة وغفار وأشجع والديل وأسلم استنفرهم رسول الله ﷺ حين أراد المسير إلى مكة عام الحديبية معتمراً ليخرجوا معه حذراً من قريش أن يعرضوا له بحرب أو يصدوه عن البيت وأحرم هو ﷺ وساق معه الهدي ليعلم أنه لا يريد حرباً ورأى أولئك الأعراب أنه عليه الصلاة والسلام يستقبل عدداً عظيماً من قريش. وثقيف. وكنانة. والقبائل المجاورين مكة وهم الأحابيش ولم يكن الإيمان تمكن من قلوبهم فقعدوا عن النبي ﷺ وتخلفوا وقالوا: نذهب إلى قوم قد غزوه في عقر داره بالمدينة وقتلوا أصحابه فنقاتلهم وقالوا: لن يرجع محمد عليه الصلاة والسلام ولا أصحابه من هذه السفرة ففضحهم الله تعالى في هذه الآية وأعلم رسوله ﷺ بقولهم اعتذارهم قبل أن يصل إليهم فكان كذلك، و ﴿المخلفون﴾ جمع مخلف، قال الطبرسي: هو المتروك في المكان خلف الخارجين من البلد مأخوذ من الخلف وضده المقدم، و ﴿الأعراب﴾ في المشهور سكان البادية من العرب لا واحد له أي سيقول لك المتروكون الغير الخارجين معك معتذرين إليك ﴿شَغَلَتْنَا﴾ عن الذهاب معك ﴿أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا﴾ إذ لم يكن لنا من يقوم بحفظ ذلك ويحميه عن الضياع، ولعل ذكر الأهل بعد الأموال من باب الترقي لأن حفظ الأهل عند ذوي الغيرة أهم من حفظ الأموال.

وقرأ إبراهيم بن نوح بن بازان «شَغَّلَتْنَا» بتشديد الغين المعجمة للتكثير ﴿فَاسْتَغْفِرْ لَنَا﴾ الله تعالى ليغفر لنا تخلفنا

عنك حيث لم يكن عن تكاسل في طاعتك بل لذلك الداعي ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ أي إن كلامهم من طرف اللسان غير مطابق لما في الجنان، وهو كناية عن كذبهم، فالجملة استئناف لتكذيبهم وكونها بدلاً من ﴿سيقول﴾ غير ظاهر، والكذب راجع لما تضمنه الكلام من الخبر عن تخلفهم بأنه لضرورة داعية له وهو القيام بمصالحهم التي لا بد منها وعدم من يقوم بها لو ذهبوا معه عليه الصلاة والسلام، وكذا راجع لما تضمنه ﴿استغفر﴾ الإنشاء من اعترافهم بأنهم مذنبون وأن دعاءه ﷺ لهم يفيدهم فائدة لازمة لهم، أو تسمية ذلك كذباً ليس لعدم مطابقة نسبة الاعتقاد على ما ذهب إليه النظام بل لعدم مطابقته الواقع بحسب الاعتقاد وفرق بين الأمرين ﴿قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعاً﴾ أمر له ﷺ أن يرد عليهم بذلك عند اعتذارهم بتلك الأباطيل، والملك إمساك بقوة لأنه بمعنى الضبط وهو حفظ عن حزم، ومنه لا أملك رأس البعير وملكت العجين إذا شددت عجنته، وملكت الشيء إذا دخل تحت ضبطك دخولاً تاماً، وإذا قلت: لا أملك كان نفياً للاستطاعة والطاقة إمساكاً ومنعاً، فأصل المعنى هنا فمن يستطيع لكم إمساك شيء من قدرة الله تعالى إن أراد بكم الخ، واللام من ﴿لكم﴾ إما للبيان أو من صلة الفعل لأن هذه الاستطاعة مختصة بهم ولأجلهم، و ﴿من الله﴾ حال من النكرة . أعني شيئاً . مقدمة، وتفسير الملك بالمنع بيان لحاصل المعنى لأنه إذا لم يستطع أحد الامساك والدفع فلا يمكنه المنع وليس ذلك لجعله مجازاً عنه أو مضمناً إياه واللام زائدة كما في ﴿ردف لكم﴾ [النمل: ٧٢] و ﴿من﴾ متعلقة بيملك كما قيل، والمراد بالضر والنفع ما يضر وما ينفع فهما مصدران مراد بهما الحاصل بالمصدر أو مؤولان بالوصف.

وقرأ حمزة والكسائي «ضُرًّا» بضم الضاد وهو لغة فيه، وحاصل معنى الآية قل لهم إذ لا أحد يدفع ضره ولا نفعه تعالى فليس الشغل بالأهل والمال عذراً فلا ذاك يدفع الضر ان أراده عز وجل ولا مغافصة العدو تمنع النفع إن أراد بكم نفعاً، وهذا كلام جامع في الجواب فيه تعريض بغيرهم من المبطلين وبجلالة محل المحقين ثم ترقى سبحانه منه إلى ما يتضمن تهديداً بقوله تعالى: ﴿بَلْ كَانَ اللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ أي بكل ما تعملونه ﴿خَبِيراً﴾ فيعلم سبحانه تخلفكم وقصدكم فيه ويجازيكم على ذلك، ثم ختم جل وعلا بمكنون ضمائرهم ومخزون ما أعد لهم عنده تعالى بقوله سبحانه: ﴿بَلْ ظَنَنْتُمْ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿بوراً﴾ وفي الانتصاف ان في قوله تعالى: ﴿فمن يملك﴾ الخ لفاً ونشراً والأصل فمن يملك لكم من الله شيئاً إن أراد بكم ضراً أو من يحرمكم النفع إن أراد بكم نفعاً لأن من يملك يستعمل في الضر كقوله تعالى: ﴿فمن يملك من الله إن شيئاً إن أراد أن يهلك المسيح﴾ [المائدة: ١٦] ﴿ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئاً﴾ [المائدة: ٤١] ﴿فلا تملكون لي من الله شيئاً هو أعلم بما تفيضون فيه﴾ [الأحقاف: ٨]. ومنه قوله عليه الصلاة والسلام في بعض الحديث: «إني لا أملك لكم شيئاً» يخاطب عشيرته وأمثاله كثير، وسر اختصاصه بدفع المضرة أن الملك مضاف في هذه المواضع باللام ودفع المضرة نفع يضاف للمدفوع عنه وليس كذلك حرمان المنفعة فإنه ضرر عائد عليه لا له فإذا ظهر ذلك فإنما انتظمت الآية على هذا الوجه كذلك لأن القسمين يشتركان في أن كل واحد منهما نفي لدفع المقدور من خير وشر فلما تقاربا أدرجا في عبارة واحدة، وخص عبارة دفع الضر لأنه هو المتوقع لهؤلاء إذ الآية في سياق التهديد والوعيد الشديد وهي نظير قوله تعالى: ﴿قل من ذا الذي يعصمكم من الله إن أراد بكم سوءاً أو أراد بكم رحمة﴾ [الأحزاب: ١٧] فإن العصمة إنما تكون من السوء لا من الرحمة، فهاتان الآيتان توأمتان في التقرير المذكور انتهى، والوجه ما ذكرناه أولاً في الآية، وفي تسمية مثل هذا لفاً ونشراً نظر، ثم إن الظاهر عموم الضر والنفع، وقال شيخ الإسلام أبو السعود: المراد بالضر ما يضر من هلاك الأهل والمال وضياعهما وبالنفع ما ينفع من حفظ المال والأهل وتعميمهما يرده قوله تعالى ﴿بل كان الله بما تعملون خبيراً﴾ فإنه إضراب عما قالوه وبيان

لكذبه بعد بيان فساده على تقدير صدقه انتهى، وهو كلام أوهى من بيت العنكبوت لأن في التعميم إفادة لما ذكر وزيادة تفيد قوة وبلاغة، والظاهر أن كلاً من الإِضرابات الثلاثة مقصود، وقال شيخ الإِسلام: إن قوله تعالى: ﴿بل ظننتم﴾ الخ بدل من ﴿كان الله﴾ الخ مفسر لما فيه من الإِبهام. وفي البحر أنه بيان للعلة في تخلفهم أي بل ظننتم ﴿أن لَّنْ يَنْقلبَ﴾ أي لن يرجع من ذلك السفر ﴿الرَّسُولُ وَالْمُؤْمنُونَ إلَى أَهْليهمْ﴾ أي عشائرهم وذوي قرباهم ﴿أَبَداً﴾ بأن يستأصلهم المشركون بالمرة فحسبتم إن كنتم معهم أن يصيبكم ما يصيبهم فلأجل ذلك تحلفتم لا لما ذكرتم من المعاذير الباطلة. والأهلون جمع أهل وجمعه جمع السلامة على خلاف القياس لأنه ليس بعلم ولا صفة من صفات من يعقل ويجمع على اهلات بملاحظة تاء التأنيث في مفرده تقديراً فيجمع كتمرة وتمرات ونحوه أرض وأرضات، وقد جاء على ما في الكشاف أهلة بالتاء ويجوز تحريك عينه أيضاً فيقال: اهلات بفتح الهاء، وكذا يجمع على أهال كليال، وأطلق عليه الزمخشري اسم الجمع؛ وقيل: وهو إطلاق منه في الجمع الوارد على خلاف القياس وإلا فاسم الجمع شرطه عند النحاة أن يكون على وزن المفردات سواء كان له مفرد أم لا. وقرأ عبد الله «إلى أهلهم» بغير ياء، والآية ظاهرة في أن ﴿لن﴾ ليست للتأبيد ومن زعم إفادتها إياه جعل ﴿أبداً﴾ للتأكيد ﴿وَزُيِّنَ﴾ أي حسن ﴿ذَلكَ﴾ أي الظن المفهوم من ظننتم ﴿في قُلُوبكُمْ﴾ فلم تسعوا في إزالته فتمكن فيكم فاشتغلتم بشأن أنفسكم غير مبالين بالرسول ﷺ والمؤمنين؛ وقيل: الإِشارة إلى المظنون وهو عدم انقلاب الرسول عليه الصلاة والسلام والمؤمنين إلى أهليهم أبداً أي حسن ذلك في قلوبكم فاحببتموه والمراد من ذلك تقريعهم ببغضهم الرسول ﷺ والمؤمنين والمناسب للسياق ما تقدم. وقرىء «زَيَّن» بالبناء للفاعل بإسناده إلى الله تعالى أو إلى الشيطان ﴿وَظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْء﴾ وهو ظنهم السابق فتعريفه للعهد الذكرى وأعيد لتشديد التوبيخ والتسجيل عليه بالسوء أو هو عام فيشمل ذلك الظن وسائر ظنونهم الفاسدة التي من جملتها الظن بعدم رسالته عليه الصلاة والسلام فإن الجازم بصحتها لا يحوم فكره حول ما ذكر من الاستئصال فذكر ذلك للتعميم بعد التخصيص.

﴿وَكُنْتُمْ﴾ في علم الله تعالى الأزلي ﴿قَوْماً بُوراً﴾ أي هالكين لفساد عقيدتكم وسوء نيتكم مستوجبين سخطه تعالى وعقابه جل شأنه، وقيل: أي فاسدين في أنفسكم وقلوبكم ونياتكم لا خير فيكم، والظاهر على ما في البحر أن بوراً في الأصل مصدر كالهلك ولذا وصف به المفرد المذكر في قول ابن الزبعرى:

يا رسول المليك إن لساني ... راتق ما فتقت إذ أنا بور

والمؤنث حكى أبو عبيدة امرأة بور والمثنى والمجموع، وجوز أن يكون جمع بائر كحائل وحول وعائذ وعوذ وبازل وبزل، وعلى المصدرية هو مؤول باسم الفاعل، وجوز أن تكون كان بمعنى صار أي وصرتم بذلك الظن قوماً هالكين مستوجبين السخط والعقاب والظاهر إبقاؤها على بابها والمضي باعتبار العلم كما أشرنا إليه، وقيل: أي كنتم قبل الظن فاسدين، وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ لَمْ يُؤمنْ بالله وَرَسُوله﴾ الخ كلام مبتدأ من جهته عز وجل غير داخل في الكلام الملقن مقرر لبوارهم ومبين لكيفيته أي ومن لم يصدق بالله تعالى ورسوله ﷺ كدأب هؤلاء المخلفين ﴿فإنَّا أَعْتَدْنَا﴾ هيأنا ﴿للْكَافرينَ سَعيراً﴾ ناراً مسعورة موقدة ملتهبة وكان الظاهر. لهم. فعدل عنه إلى ما ذكر إيذاناً من لم يجمع بين الإِيمان بالله تعالى ورسوله عليه الصلاة والسلام فهو كافر وأنه مستوجب للسعير بكفره لمكان التعليق بالمشتق.

وتنكير سعير للتهويل لما فيه من الإِشارة إلى أنها لا يمكن معرفتها واكتناه كنهها، وقيل: لأنها نار مخصوصة فالتنكير للتنويع و ﴿من﴾ يحتمل أن تكون موصولة وأن تكون شرطية والعائد من الخبر أو من جواب الشرط هو الظاهر القائم مقام المضمر ﴿وَلله مُلْكُ السَّمَاوَات وَالأَرْض﴾ فهو عز وجل المتصرف في الكل كما يشاء ﴿يَغْفرُ لمَنْ

يَشَاءُ﴾ أن يغفر له **﴿وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ﴾** أن يعذبه من غير دخل لأحد في شيء من غفرانه تعالى وتعذيبه جل وعلا وجوداً وعدماً **﴿وَكَانَ اللهُ غَفُوراً رَّحِيماً﴾** مبالغاً في المغفرة لمن يشاء ولا يشاء سبحانه إلا لمن تقتضي الحكمة المغفرة له ممن يؤمن به سبحانه ورسوله ﷺ وأما من عداه من الكافرين المجاهرين والمنافقين فهم بمعزل من ذلك قطعاً وفي تقديم المغفرة والتذييل بكونه تعالى غفوراً بصيغة المبالغة وضم رحيماً إليه الدال على المبالغة أيضاً دون التذيل بما يفيد كونه سبحانه معذباً مما يدل على سبق الرحمة ما فيه.

وفي الحديث كتب ربكم على نفسه بيده قبل أن يخلق الخلق رحمتي سبقت غضبي وهذا السبق على ما أشار إليه في أنوار التنزيل ذاتي وذلك لأن الغفران والرحمة بحسب الذات والتعذيب بالعرض وتبعيته للقضاء والعصيان المقتضي لذلك وقد صرح غير واحد بأن الخير هو المقضي بالذات والشر بالعرض إذ لا يوجد شر جزئي الا وهو متضمن لخير كلي، وفصل ذلك في شرح الهياكل، وقال بعض الأجلة: المراد بالسبق في الحديث كثرة الرحمة وشمولها وكذا المراد بالغلبة الواقعة في بعض الروايات، وذلك نظير ما يقال: غلب على فلان الكرم ومن جعل الرحمة والغضب من صفات الأفعال لم يشكل عليه أمر السبق ولم يحتج إلى جعلن ذاتياً كما لا يخفى والآية على ما قال أبو حيان لترجية أولئك المنافقين بعض الترجية إذا آمنوا حقيقة، وقيل: لحسم أطماعهم الفارغة في استغفاره عليه الصلاة والسلام لهم، وفسر الزمخشري **﴿من يشاء﴾** الأول بالتائب والثاني بالمصرّ ثم قال: يكفر سبحانه السيئات باجتناب الكبائر ويغفر الكبائر بالتوبة وهو اعتزال منه مخالف لظاهر الآية، وقال الطيبي يمكن أن يقال: ان قوله تعالى: **﴿ولله ملك السموات﴾** الخ موقعه موقع التذييل لقوله تعالى: **﴿ومن لم يؤمن بالله ورسوله﴾** الآية على أن يقدر له ما يقابله من قوله ومن آمن بالله ورسوله فإنا أعتدنا للمؤمنين الجنان مثلاً فلا يقيد شيء مما قيده ليؤذن بالتصرف التام والمشيئة النافذة والغفران الكامل والرحمة الشاملة فتأمل ولا تغفل **﴿سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ﴾** المذكورون من الاعراب فاللام للعهد وقوله تعالى: **﴿إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا﴾** ظرف لما قبله لا شرط لما بعده والمراد بالمغانم مغانم خيبر كما عليه عامة المفسرين ولم نقف على خلاف في ذلك وأيد بأن السين تدل على القرب وخيبر أقرب المغانم التي انطلقوا إليها من الحديبية كما علمت فإرادتها كالمتعينة، وقد جاء في الأخبار الصحيحة أن الله تعالى وعد أهل الحديبية أن يعوضهم من مغانم مكة خيبر إذا قفلوا موادعين لا يصيبون شيئاً وخص سبحانه ذلك بهم أي سيقولون عند اطلاقكم إلى مغانم خيبر لتأخذوها حسبما وعدكم الله تعالى إياها وخصكم بها طمعاً في عرض الدنيا لما أنهم يرون ضعف العدو ويتحققون النصرة **﴿ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ﴾** إلى خيبر ونشهد معكم قتال أهلها **﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللهِ﴾** بأن يشاركوا في الغنائم التي خصها سبحانه بأهل الحديبية وحاصله يريدون الشركة التي لا تحصل لهم دون نصرة الدين وإعلاء كلمة الله تعالى، والجملة استئناف لبيان مرادهم بذلك القول، وقيل: يجوز أن تكون حالاً من المخلفين وهو خلاف الظاهر ولا ينافي خبر التخصيص إعطاؤه عليه الصلاة والسلام بعض مهاجري الحبشة القادمين مع جعفر وبعض الدوسيين والأشعريين من ذلك وهم أصحاب السفينة كما في البخاري فإنه كان استنزالاً للمسلمين عن بعض حقوقهم لهم أو أن بعضها فتح صلحاً وما أعطاه عليه الصلاة والسلام فهو بعض مما صالح عليه وكل هذا مذكور في السير لكن الذي صححه المحدثون أنه لا صلح فيها.

وقال الكرماني: إنما أعطاهم ﷺ برضا أصحاب الوقعة أو أعطاهم من الخمس الذي هو حقه عليه الصلاة والسلام، وميل البخاري إلى الثاني وحمل كلام الله تعالى على وعده بتلك الغنائم لهم خاصة هو الذي عليه مجاهد وقتادة وعامة المفسرين، وقال ابن زيد: كلام الله قوله سبحانه وتعالى: **﴿قل لن تخرجوا معي أبداً﴾** [التوبة: ٨٣]

ووافقه الجبائي على ذلك وشنع عليهما غير واحد بأن ذلك نازل في المخلفين في غزوة تبوك من المنافقين وكانت تلك الغزوة يوم الخميس في رجب سنة تسع بلا خلاف كما قال القسطلاني والحديبية في سنة ست كما قاله ابن الجوزي. وغيره وهذه إنما نزلت بعيد الانصراف من الحديبية كما علمت وأيضاً قال في البحر: قد غزت مزينة وجهينة من هؤلاء المخلفين بعد هذه المدة معه عليه الصلاة والسلام وفضلهم ﷺ بعد ذلك على تميم وغطفان وغيرهم من العرب، وفي الكشف لعل القائل بذلك أراد أن هؤلاء المخلفين لما كانوا منافقين مثل المخلفين عن تبوك كان حكم الله تعالى فيهم واحداً، ألا ترى أن المعنى الموجب مشترك وهو رضاهم بالقعود أول مرة، فكلام الله تعالى أريد به حكمه السابق وهو أن المنافق لا يستصحب في الغزو، ولم يرد أن هذا الحكم منقاس على ذلك الأصل أو الآية نازلة فيهم أيضاً فهذا ما يمكن في تصحيحه انتهى، ويقال عما في البحر: إن الذين غزوا بعد لم يغزوا حتى أخلصوا ولم يبقوا منافقين والله تعالى أعلم. وقرأ حمزة. والكسائي «كلم الله» وهو اسم جنس جمعي واحده كلمة ﴿قُل﴾ إقناطاً لهم ﴿لَن تَتَّبِعُونَا﴾ أي لا تتبعونا فإنه نفي في معنى النهي للمبالغة، والمراد نهيهم عن الاتباع فيما أرادوا الاتباع فيه في قولهم: ﴿ذرونا نتبعكم﴾ وهو الانطلاق إلى خيبر كما نقل عن محيي السنة عليه الرحمة، وقيل: المراد ولا تتبعونا ما دمتم مرضى القلوب، وعن مجاهد كان الموعد أي الموعد الذي تغييره تبديل كلام الله تعالى وهو موعده سبحانه لأهل الحديبية أنهم لا يتبعون رسول الله ﷺ إلا متطوعين لا نصيب لهم في المغنم فكأنه قيل: لن تتبعونا إلا متطوعين، وقيل: المراد التأبيد، وظاهر السياق الأول ﴿كَذَٰلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِن قَبْلُ﴾ أي من قبل أن تهيأتم للخروج معنا وذلك عند الانصراف من الحديبية ﴿فَسَيَقُولُونَ﴾ للمؤمنين عند سماع هذا النهي ﴿بَلْ تَحْسُدُونَنَا﴾ أن نشارككم في الغنائم، وهو إضراب عن كونه بحكم الله تعالى أي بل إنما ذلك من عند أنفسكم حسداً. وقرأ أبو حيوة «تَحْسِدُونَنَا» بكسر السين ﴿بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ﴾ لا يفهمون ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي إلا فهماً قليلاً وهو فهمهم لأمور الدنيا، وهو رد لقولهم الباطل في المؤمنين ووصف لهم بما هو أعظم من الحسد وأطم وهو الجهل المفرط وسوء الفهم في أمور الدين، وفيه إشارة إلى ردهم حكم الله تعالى وإثباتهم الحسد لأولئك السادة من الجهل وقلة التفكر ﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ﴾ كرر ذكرهم بهذا العنوان مبالغة في الذم وإشعاراً بشناعة التخلف ﴿سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ ذوي نجدة وشدة قوية في الحرب، وهم على ما أخرج ابن المنذر والطبراني عن الزهري بنو حنيفة مسيلمة وقومه أهل اليمامة، وعليه جماعة، وفي رواية عنه زيادة أهل الردة وروي ذلك عن الكلبي، وعن رافع بن خديج إنا كنا نقرأ هذه الآية فيما مضى ولا نعلم من هم حتى دعا أبو بكر رضي الله تعالى عنه إلى قتال بني حنيفة فعلمنا أنهم أريدوا بها، وعن عطاء بن أبي رباح. ومجاهد في رواية. وعطاء الخراساني. وابن أبي ليلى هم الفرس، وأخرجه ابن جرير والبيهقي في الدلائل. وغيرهما عن ابن عباس، وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج أنه قال في الآية: دعا عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه لقتال فارس أعراب المدينة جهينة ومزينة الذين كان النبي ﷺ دعاهم للخروج إلى مكة، وقال عكرمة وابن جبير وقتادة: هم هوازن ومن حارب الرسول ﷺ في حنين، وفي رواية ابن جرير وعبد بن حميد عن قتادة التصريح بثقيف مع هوازن، وفي رواية الفريابي. وابن مردويه عن ابن عباس أنه قال: هم هوازن وبنو حنيفة، وقال كعب: هم الروم الذي خرج إليهم ﷺ عام تبوك والذين بعث إليهم في غزوة مؤتة، وأخرج سعيد بن منصور. وابن جرير. وابن المنذر عن الحسن قال: هم فارس والروم، وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي هريرة قال: البارز يعني الأكراد كما في الدر المنثور، وأخرج ابن المنذر والطبراني في الكبير عن مجاهد قال: اعراب فارس وأكراد العجم، وظاهر العطف أن أكراد العجم ليسوا من اعراب فارس، وظاهر إضافة أكراد إلى العجم يشعر بأن من الاكراد ما يقال لهم اكراد العرب، ولا نعرف هذا التقسيم وإنما نعرف جيلاً من الناس يقال لهم أكراد من غير إضافة إلى عرب أو عجم، وللعلماء اختلاف

في كونهم في الأصل عرباً أو غيرهم فقيل: ليسوا من العرب، وقيل منهم، قال القاضي شمس الدين أحمد بن محمد ابن خلكان في ترجمة المهلب بن أبي صفرة ما نصه: حكى أبو عمر بن عبد البر صاحب كتاب الاستيعاب في كتابه القصد والأمم في انساب العرب والعجم أن الأكراد من نسل عمرو مزيقيا بن عامر بن ماء السماء[1] وأنهم وقعوا إلى أرض العجم فتناسلوا بها وكثر ولدهم فسموا الأكراد، وقال بعض الشعراء في ذلك وهو يعضد ما قاله ابن عبد البر:

لعمرك ما الأكراد أبناء فارس ولكنه كرد بن عمرو بن عامر

انتهى، وفي القاموس الكرد بالضم جيل من الناس معروف والجمع أكراد وجدهم كرد بن عمرو مزيقيا بن عامر ماء السماء انتهى، وعامر هذا من العرب بلا شبهة فإنه ابن حارثة الغطريف بن امرىء القيس البطريق بن ثعلبة بن مازن بن الأزد ويقال له الأسد بن الغوث بن نبت بن مالك بن زيد بن كهلان بن سبا بن يشجب بن يعرب بن قحطان ويسمى عامراً وهو عند الأكثر ابن شالخ بن ارفخشذ بن سام بن نوح، وقيل: من ولد هود، وقيل: هو هود نفسه، وقيل: ابن أخيه، وذهب الزبير بن بكار إلى أن قحطان من ذرية إسماعيل عليه السلام وأنه قحطان بن الهميسع بن تيم بن نبت بن إسماعيل، والذي رجحه ابن حجر أن قبائل اليمن كلها ومنها قبيلة عمرو مزيقيا من ولد إسماعيل عليه السلام، ويدل له تبويب البخاري باب نسبة اليمن إلى إسماعيل عليه السلام ذكر ذلك السيد نور الدين على السمهودي في تاريخ المدينة، وفيه أن الأنصار الأوس. والخزرج من أولاد ثعلبة العنقاء بن عمرو مزيقيا المذكور وكان له ثلاثة عشر ولداً ذكوراً منهم ثعلبة المذكور. وحارثة والد خزاعة. وجفنة والد غسان. ووداعة وأبو حارثة وعوف وكعب ومالك وعمران وكرد كما في القاموس انتهى.

وفائدة الخلاف تظهر في أمور منها الكفاءة في النكاح والعامة لا يعدونهم من العرب فلا تغفل، والذي يغلب على ظني أن هؤلاء الجيل الذين يقال لهم اليوم أكراد لا يبعد أن يكون فيهم من هو من أولاد عمرو مزيقيا وكذا لا يبعد أن يكون فيهم من هو من العرب وليس من أولاد عمرو المذكور إلا أن الكثير منهم ليسوا من العرب أصلاً، وقد انتظم في سلك هذا الجيل أناس يقال: إنهم من ذرية خالد بن الوليد، وآخرون يقال: إنهم من ذرية معاذ بن جبل؛ وآخرون يقال: إنهم من ذرية العباس بن عبد المطلب، وآخرون يقال: إنهم من بني أمية ولا يصح عندي من ذلك شيء بيد أنه سكن مع الأكراد طائفة من السادة أبناء الحسين رضي الله تعالى عنهم يقال لهم البرزنجية لا شك في صحة نسبهم وكذا في جلالة حسبهم، وبالجملة الأكراد مشهورون باليأس وقد كان منهم كثير من أهل الفضل بل ثبت لبعضهم الصحبة، قال الحافظ ابن حجر في الإصابة في تمييز الصحابة في حرف الجيم: جابان والد ميمون روى ابن منده من طريق أبي سعيد مولى بني هاشم عن أبي خلدة سمعت ميمون بن جابان الكردي عن أبيه أنه سمع النبي ﷺ غير مرة حتى بلغ عشراً وذكر الحديث، وقد أخرج نحوه الطبراني في المعجم الصغير عن ميمون الكردي عن أبيه أيضاً وهو أتم منه ولفظه «سمعت رسول الله ﷺ يقول: أيما رجل تزوج امرأة على ما قل من المهر أو كثر ليس في نفسه أن يؤدي إليها حقها خدعها فمات ولم يؤد إليها حقها لقي الله يوم القيامة وهوز ان وأيما رجل استدان ديناً لا يريد أن يؤدي إلى صاحبه حقه خدعه حتى﴾[1] أخذ ماله فمات ولم يؤد إليه دينه لقي الله وهو سارق» ويكنى ميمون هذا بأبي بصير بفتح الموحدة، وقيل: بالنون، وهو كما في التقريب مقبول، هذا وأشهر الأقوال في تعيين هؤلاء القوم أنهم بنو حنيفة.

(١) قوله ابن ماء السماء قالوا الصواب إسقاط ابن لأن عامراً هو الملقب بماء السماء لا أن ماء السماء اب لعامر.

وقال أبو حيان: الذي أقوله إن هذه الأقوال تمثيلات من قائلها لا تعيين القوم، وهذا وإن حصل به الجمع بين تلك الأقوال خلاف الظاهر، وقوله تعالى: ﴿تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ﴾ على معنى يكون أحد الأمرين إما المقاتلة أو الإسلام لا ثالث لهما، فأو للتنويع والحصر لا للشك وهو كثير، ويدل لذلك قراءة أبي وزيد بن علي «أو يسلموا» بحذف النون لأن ذلك للناصب وهو يقتضي أن أو بمعنى إلا أي إلا أن يسلموا فيفيد الحصر أو بمعنى إلى أي إلى أن يسلموا، والغاية تقتضي أنه لا ينقطع القتال بغير الإسلام فيفيده أيضاً كما قيل: والجملة مستأنفة للتعليل كما في قولك: سيدعوك الأمير يكرمك أو يكبت عدوك، قال في الكشف: ولا يجوز أن تكون صفة لقوم لأنهم دعوا إلى قتال القوم لا أنهم دعوا إلى قوم موصوف بالمقاتلة أو الإسلام.

وجوز بعضهم كونها حالية وحاله كحال الوصفية، وأصل الكلام ستدعون إلى قوم أولي بأس لتقاتلوهم أو يسلموا فعدل إلى الاستئناف لأنه أعظم الوصلين، ثم فيه أنهم فعلوا ذلك وحصلوا الغرض فهو يخبر عنه واقعاً.

والاعتراض بأنه يلزم أن لا ينفك الوجود عن أحدهما لصدق إخباره تعالى ونحن نرى الانفكاك بأن يتركوا سدى أو بالهدنة فينبغي أن يؤول بأنه في معنى الأمر على ما في أمالي ابن الحاجب غير سديد لأن القوم مخصوصون لا عموم فيهم، وكان الواقع أنهم قوتلوا إلى أن أسلموا سواء فسر القوم ببني حنيفة أو بثقيف وهوازن أو فارس والروم على أن الإسلام الانقياد فما انفك الوجود عن أحدهما وقعا، وأما امتناع الانفكاك فليس من مقتضى الوضع ولا الاستعمال بل ذلك في الكلام الاستدلالي قد يتفق.

وأطال الطيبي الكلام في هذا المقام ثم قال: الذي يقتضيه المقام ما ذهب إليه صاحب التحبير من أن ﴿يسلمون﴾ عطف على ﴿تقاتلونهم﴾ إما على الظاهر أو بتقديرهم يسلمون ليكون من عطف الاسمية على الفعلية وحينئذٍ تكون المناسبة أكثر إذ تخرج الجملة إلى باب الكناية، والمعنى تقاتلونهم أو لا تقاتلونهم لأنهم يسلمون، وقد وضع فيه ﴿أو يسلمون﴾ موضع أولاً تقاتلونهم لأنهم إذا أسلموا سقط عنهم قتالهم ضرورة، والاستدعاء عليه ليس إلا للاختبار، و﴿أو﴾ للترديد على سبيل الاستعارة وفيه ما فيه، وشاع الاستدلال بالآية على صحة إمامة أبي بكر رضي الله تعالى عنه، ووجه ذلك الإمام فقال: الداعي في قوله تعالى: ﴿ستدعون﴾ لا يخلو من أن يكون رسول الله ﷺ أو الأئمة الأربعة أو من بعدهم لا يجوز الأول لقوله سبحانه ﴿قل لن تتبعونا﴾ الخ ولا أن يكون علياً رضي الله تعالى عنه وكرم وجهه لأنه إنما قاتل البغاة والخوارج وتلك المقاتلة للإسلام لقوله عز وجل: «أو يسلمون» ولا من ملك بعدهم لأنهم عندنا على الخطأ وعند الشيعة على الكفر ولما بطلت الأقسام تعين أن يكون المراد بالداعي أبا بكر وعمر وعثمان رضي الله تعالى عنهم، ثم إنه تعالى أوجب طاعته وأوعد على مخالفته وذلك يقتضي إمامته وأي الثلاثة كان ثبت المطلوب، أما إذا كان أبا بكر فظاهر، وأما إذا كان عمر أو عثمان فلأن إمامته فرع إمامته رضي الله تعالى عنه. وتعقب بأن الداعي كان رسول الله ﷺ ويشعر بذلك السين قوله: لا يجوز لقوله سبحانه: لن ﴿تتبعونا﴾ الخ فيه أن ﴿لن﴾ لا تفيد التأبيد على الصحيح وظاهر السياق يدل على أن المراد به لن تتبعونا في الانطلاق إلى خيبر كما سمعت عن محيي السنة أو هو مقيد بما روي عن مجاهد أو بما حكي عن بعض، وقال أبو حيان: القول بأنهم لم يدعوا إلى حرب في أيام الرسول ﷺ ليس بصحيح فقد حضر كثير منهم مع جعفر في مؤتة وحضروا حرب هوازن معه عليه الصلاة والسلام وحضروا معه ﷺ أيضاً في سفرة تبوك انتهى، ولا يخفى أن هذا إذا صح ينفي حمل النفي على التأبيد.

ومن الشيعة من اقتصر في رد الاستدلال على الدعوة في تبوك. وتعقب بأنه لم يقع فيها ما أخبر الله تعالى به في قوله سبحانه: ﴿تقاتلونهم أو يسلمون﴾ ومنهم من زعم أن الداعي علي كرم الله تعالى وجهه وزعم كفر البغاة

والخوارج عليه رضي الله تعالى عنه وأنه لو سلم إسلامهم يراد بالإسلام في الآية الانقياد إلى الطاعة وموالاة الأمير، وفيه ما لا يخفى، والإنصاف أن الآية لا تكاد تصح دليلاً على إمامة الصديق رضي الله تعالى عنه إلا إن صح غير مرفوع في كون المراد بالقوم بني حنيفة ونحوهم ودون ذلك خرط القتاد، ونفى بعضهم صحة كون المراد بالقوم فارساً والروم لأن المراد في قوله تعالى: ﴿تقاتلونهم أو يسلمون﴾ على ما سمعت وفارس مجوس والروم نصارى فلا يتعين فيهم أحد الأمرين من المقاتلة والإسلام إذ يقبل منهم الجزية، وكذا اليوم ومشركو العجم والصابئة عند أبي حنيفة رضي الله تعالى عنه وقال: يتعين كونهم مرتدين أو مشركي العرب لأنهم الذين لا يقبل منهم إلا الإسلام أو السيف، ومثل مشركي العرب مشركو العجم عند الشافعي رضي الله تعالى عنه فعنده لا تقبل إلا من أهل الكتاب والمجوس، وأنت تعلم ان من فسر القوم بذلك يفسر الإسلام بالانقياد وهو يكون بقبول الجزية فلا يتم له أمر النفي فلا تغفل ﴿فَإِنْ تُطِيعُوا﴾ الداعي فيما دعاكم إليه ﴿يُؤْتِكُمُ اللهُ أَجْراً حَسَناً﴾ هو على ما قيل الغنيمة في الدنيا والجنة في الأخرى ﴿وَإِنْ تَتَوَلَّوْا﴾ عن الدعوة ﴿كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّنْ قَبْلُ﴾ في الحديبية ﴿يُعَذِّبْكُمْ عَذَاباً أَلِيماً﴾ لتضاعف جرمكم، وهذا التعذيب قال في البحر: يحتمل أن يكون في الدنيا وأن يكون في الآخرة، ويحتمل عندي وهو الأوفق بما قبله على ما قيل كونه فيهما ولا بأس بكون كل من الإيتاء والتعذيب في الآخرة بل لعله المتبادر لكثرة استعمالهما في ذلك، ولا يحسن كون الأمرين في الدنيا ولا كون الأول في الآخرة أو فيها وفي الدنيا والثاني في الدنيا فقط ﴿لَيْسَ عَلَى الأَعْمَىٰ حَرَجٌ﴾ أي إثم ﴿وَلاَ عَلَى الأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلاَ على المَرِيضِ حَرَجٌ﴾ أي في التخلف عن الغزو لما بهم من العذر والعاهة، وفي نفي الحرج عن كل من الطوائف المعدودة مزيد اعتناء بأمرهم وتوسيع لدائرة الرخصة، وليس في نفي ذلك عنهم نهي لهم عن الغزو بل قالوا: إن أجرهم مضاعف في الغزو، وقد غزا ابن أم مكتوم وكان أعمى رضي الله تعالى عنه وحضر في بعض حروب القادسية وكان يمسك الراية. وفي البحر لو حصر المسلمون فالفرض متوجه بحسب الوسع في الجهاد ﴿وَمَنْ يُطِع اللهَ وَرَسُولَهُ﴾ فيما ذكر من الأوامر والنواهي.

﴿يُدْخِلْهُ جَنَّات تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَمَنْ يَتَوَلَّ﴾ عن الطاعة ﴿يُعَذِّبْهُ عَذَاباً أَلِيماً﴾ لا يقادر قدره والمعنى بالوعد والوعيد هنا أعم من المعنى بهما فيما سبق كما ينبىء عن ذلك التعبير بمن هنا وبضمير الخطاب هناك، وقيل في الوعيد ﴿يعذبه﴾ الخ دون يدخله ناراً ونحوه مما هو أظهر في المقابلة لقوله تعالى: ﴿يدخله جنات﴾ الخ اعتناء بأمره من حيث إن التعذيب يوم القيامة عذاباً أليماً يستلزم إدخال النار وإدخالها لا يستلزم ذلك، واعتنى به لأن المقام يقتضيه ولذا جيء به كالمكرر مع الوعيد السابق، ويكفي في الإشارة إلى سبق الرحمة إخراج الوعد ههنا كالتفصيل لما تقدم والتعبير هناك بإيتاء الأجر الحسن الظاهر في الاستحقاق مع إسناد الإيتاء إلى الاسم الجليل نفسه فتأمل فلمسلك الذهن اتساع. وقرأ الحسن وقتادة وأبو جعفر والأعرج وشيبة وابن عامر ونافع «ندخله» و «نعذبه» بالنون فيهما، ولما ذكر سبحانه حال من تخلف عن السفر مع رسول الله ﷺ ذكر عز وجل حال المؤمنين الخلص الذين سافروا معه عليه الصلاة والسلام بقوله تعالى: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنِ المُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحتَ الشَّجَرَةِ﴾ وهم أهل الحديبية إلا جد بن قيس فإنه كان منافقاً ولم يبايع.

وأصل هذه البيعة وتسمى بيعة الرضوان لقول الله تعالى فيها: ﴿لقد رضي﴾ الخ أن النبي ﷺ لما نزل الحديبية بعث خراشاً بكسر الخاء المعجمة وفتح الراء المهملة وألف بعدها شين معجمة ابن أمية الخزاعي رسولاً إلى أهل مكة وحمله على جمل له يقال له: الثعلب يعلمهم أنه جاء معتمراً لا يريد قتالاً فلما أتاهم وكلمهم عقروا جمله وأرادوا قتله فمنعه الأحابيش فخلوا سبيله حتى أتى الرسول ﷺ فدعا عمر رضي الله تعالى عنه ليبعثه فقال: يا رسول الله إن القوم

قد عرفوا عداوتي لهم وغلظي عليهم وإني لا آمن وليس بمكة أحد من بني عدي يغضب لي إن أوذيت فأرسل عثمان ابن عفان فإن عشيرته بها وهم يحبونه وأنه يبلغ ما أردت فدعا رسول الله ﷺ عثمان فأرسله إلى قريش وقال: أخبرهم أنّا لم نأت بقتال وإنما جئنا عماراً وادعهم إلى الإسلام وأمره عليه الصلاة والسلام أن يأتي رجالاً بمكة مؤمنين ونساء مؤمنات فيبشرهم بالفتح ويخبرهم أن الله تعالى قريباً يظهر دينه بمكة فذهب عثمان رضي الله تعالى عنه إلى قريش وكان قد لقيه أبان بن سعيد بن العاص فنزل عن دابته وحمله عليها وأجاره فأتى قريشاً فأخبرهم فقالوا له إن شئت فطف بالبيت وأما دخولكم علينا فلا سبيل إليه فقد رضي الله تعالى عنه: ما كنت لأطوف به حتى يطوف به رسول الله ﷺ فاحتبسوه فبلغ رسول الله ﷺ والمسلمين أن عثمان قد قتل فقال عليه الصلاة والسلام: لا نبرح حتى نناجز القوم ونادى مناديه عليه الصلاة والسلام إلا أن روح القدس قد نزل على رسول الله ﷺ فأمره بالبيعة فاخرجوا على اسم الله تعالى فبايعوه فثار المسلمون إلى رسول الله ﷺ وبايعوه، قال جابر كما في صحيح مسلم وغيره: بايعناه ﷺ على أن لا نفرّ ولم نبايعه على الموت. وأخرج البخاري عن سلمة بن الأكوع قال: بايعت رسول الله ﷺ تحت الشجرة، قيل: على أي شيء تبايعون يومئذٍ؟ قال: على الموت وأخرج مسلم عن معقل بن يسار أنه كان آخذاً بأغصان الشجرة عن وجه رسول الله ﷺ وهو يبايع الناس وكان أول من بايع رسول الله ﷺ يومئذٍ أبا سنان وهو وهب بن محصن أخو عكاشة بن محصن، وقيل: سنان بن أبي سنان، وروى الأول البيهقي في الدلائل عن الشعبي وأنه قال للنبي عليه الصلاة والسلام: ابسط يدك أبايعك فقال النبي ﷺ: علام تبايعني؟ قال: على ما في نفسك. وفي حديث جابر الذي أخرجه مسلم أنه قال: بايعناه عليه الصلاة والسلام وعمر رضي الله تعالى عنه آخذ بيده، ولعل ذلك ليس في مبدأ البيعة وإلا ففي صحيح البخاري عن نافع أن عمر رضي الله تعالى عنه يوم الحديبية أرسل ابنه عبد الله إلى فرس له عند رجل من الأنصار أن يأتي به ليقاتل عليه ورسول الله ﷺ يبايع عند الشجرة وعمر لا يدري بذلك فبايعه عبد الله ثم ذهب إلى الفرس فجاء به إلى عمر وعمر رضي الله تعالى عنه يستلئم للقتال فأخبره أن رسول الله ﷺ يبايع تحت الشجرة فانطلق فذهب معه حتى بايع رسول الله ﷺ.

وصح أنه ﷺ ضرب بيده اليمنى على يده الأخرى وقال: هذه بيعة عثمان ولما سمع المشركون بالبيعة خافوا وبعثوا عثمان رضي الله تعالى عنه وجماعة من المسلمين وكانت عدة المؤمنين ألفاً وأربعمائة على الأصح عند أكثر المحدثين ورواه البخاري عن جابر، وروي عن سعيد بن قتادة قال: قلت لسعيد بن المسيب بلغني أن جابر بن عبد الله كان يقول: كانوا أربع عشرة مائة فقال لي سعيد: حدثني جابر كانوا خمس عشرة مائة الذين بايعوا رسول الله ﷺ وتابعه أبو داود. وروي أيضاً عن عبد الله بن أوفى قال: كان أصحاب الشجرة ألفاً وثلاثمائة، وعند أبي شيبة من حديث سلمة بن الأكوع أنهم كانوا ألفاً وسبعمائة، وجزم موسى بن عقبة بأنهم كانوا ألفاً وستمائة، وحكى ابن سعد أنهم ألف وخمسمائة وخمسة وعشرون، وجمع بين الروايات بأنها بناءً على عد الجميع أو ترك الأصاغر والأتباع والأوساط أو نحو ذلك؛ وأما قول ابن إسحاق: إنهم كانوا سبعمائة فلم يوافقه أحد عليه لأنه قاله استنباطاً من قول جابر: تنحر البدنة عن عشرة وكانوا نحروا سبعين بدنة، وهذا لا يدل على أنهم ما كانوا نحروا غير البدن مع أن بعضهم كأبي قتادة لم يكن أحرم أصلاً، والشجرة كانت سمرة، والمشهور أن الناس كانوا يأتونها فيصلون عندها فبلغ ذلك عمر رضي الله تعالى عنه فأمر بقطعها خشية الفتنة بها لقرب الجاهلية وعبادة غير الله تعالى فيهم.

وفي الصحيحين من حديث طارق بن عبد الرحمن قال: انطلقت حاجاً فمررت بقوم يصلون قلت: ما هذا المسجد؟ قالوا: هذه الشجرة حيث بايع رسول الله ﷺ بيعة الرضوان فأتيت سعيد بن المسيب فأخبرته فقال: حدثني أبي أنه كان ممن بايع رسول الله عليه الصلاة والسلام تحت الشجرة قال: فلما كان من العام المقبل نسيناها فلم نقدر

عليها ثم قال سعيد: إن أصحاب محمد ﷺ لم يعلموها وعلمتموها أنتم فأيكم أعلم، والرضا يقابل السخط وقد يستعمل بعن والباء ويعدى بنفسه وهو مع عن إنما يدخل على العين لا المعنى ولكن باعتبار صدور معنى منه يوجب الرضا وما في الآية من هذا القسم، والمعنى الموجب للرضا فيها هو المبايعة، وإذا ذكر مع العين معنى بالباء فقيل رضيت عن زيد بإحسانه كانت الباء للسببية وجاز أن تكون صلة وتتعين للسببية مع مقابلة نحو سخطت عليه بإساءته وهو مع الباء نحو رضيت به يجب دخوله على المعنى إلا إذا دخل على الذات تمهيداً للمعنى ليكون أبلغ فتقول رضيت بقضاء الله تعالى ورضيت بالله تعالى رباً وقاضياً، وإذا عدي بنفسه جاز دخوله على الذات نحو رضيت زيداً وإن كان باعتبار المعنى تنبيهاً على أن كله مرضي بتلك الخصلة، وفيه مبالغة، وجاز دخوله على المعنى كرضيت إمارة فلان، والأول أكثر استعمالاً، وإذا استعمل مع اللام تعدى بنفسه كقولك: رضيت لك التجارة، وفيه تجوز إما لجعل الرضا مجازاً عن الاستحماد وإما لأنك جعلت كونه مرضياً له بمنزلة كونه مرضياً لك مبالغة في أنه في نفسه مرضي محمود وانك تختار له ما تختار لنفسك وهذا أبلغ، ثم هو في حق الحق تعالى شأنه محال عند الخلف قالوا: لأن سبحانه لا تحدث له صفة عقيب أمر البتة، فهو عندهم مجاز إما من أسماء الصفات إذا فسر بإرادة أن يثيبهم إثابة من رضي عمن تحت يده، وأما من أسماء الأفعال إذا فسر بالإثابة وكذا إذا أريد الاستحماد؛ وفي البحر أن العامل بإذ في الآية هو رضي وهو هنا بمعنى إظهار عليهم فهو صفة فعل لا صفة ذات ليتقيد بالزمان، وأنت تعلم أن السلف لا يؤولون مثل ذلك ويثبتونه له تعالى على الوجه اللائق به سبحانه ويصرفون الحدوث الذي يستدعيه التقييد بالزمان إلى التعلق، ثم إن تقييد الرضا بزمان المبايعة يشعر بعلّيتها له فلا حاجة إلى جعل إذ للتعليل، والتعبير بالمضارع لاستحضار صورة المبايعة، وقوله سبحانه: ﴿**تحت الشجرة**﴾ إما متعلق ببيايعونك أو بمحذوف هو حال من مفعوله، وفي التقييد بذلك إشارة إلى مزيد وقع تلك المبايعة وأنها لم تكن عن خوف منه عليه الصلاة والسلام ولذا استوجبت رضا الله تعالى الذي لا يعادله شيء ويستتبع ما لا يكاد يخطر على بال ويكفي فيما ترتب على ذلك ما أخرج أحمد عن جابر. ومسلم عن أم بشر عنه عن النبي ﷺ قال: «لا يدخل النار أحد ممن بايع تحت الشجرة» وقد قال عليه الصلاة والسلام ذلك عند حفصة فقالت: بلى يا رسول الله فانتهرها فقالت: ﴿وإن منكم إلا واردها﴾ [مريم: ٧١] فقال عليه الصلاة والسلام قد قال الله تعالى: ﴿ثم ننجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثياً﴾ [مريم: ٧٢].

وصح برواية الشيخين وغيرهما في أولئك المؤمنين من حديث جابر أنه ﷺ قال لهم: أنتم خير أهل الأرض فينبغي لكل من يدعي الإسلام حبهم وتعظيمهم والرضا عنهم وإن كان غير ذلك لا يضرهم بعد رضا الله تعالى عنهم، وعثمان منهم بل كانت يد رسول الله ﷺ له رضي الله تعالى عنه. كما قال أنس. خيراً من أيديهم لأنفسهم ﴿**فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ**﴾ أي من الصدق والإخلاص في مبايعتهم، وروي نحو ذلك عن قتادة وابن جريج وعن الفراء، وقال الطبري. ومنذر بن سعيد: من الإيمان وصحته وحب الدين والحرص عليه، وقيل: من الهم والأنفة من لين الجانب للمشركين وصلحهم، واستحسنه أبو حيان والأول عندي أحسن.

وهو عطف على ﴿**يبايعونك**﴾ لما عرفت من أنه بمعنى بايعوك، وجوز عطفه على ﴿**رضي**﴾ بتأويله بظهر علمه فيصير مسبباً عن الرضا مترتباً عليه ﴿**فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ**﴾ أي الطمأنينة والأمن وسكون النفس والربط على قلوبهم بالتشجيع، وقيل: بالصلح وليس بذاك، والظاهر أنه عطف على ﴿**علم**﴾.

وفي الإرشاد أنه عطف على ﴿**رضي**﴾ وظاهر كلام أبي حيان الأول وحيث استحسن تفسير ما في القلوب بما سمعت آنفاً قال: إن السكينة هنا تقرير قلوبهم وتذليلها لقبول أمر الله تعالى، وقال مقاتل: فعلم الله ما في قلوبهم من

كراهة البيعة على أن يقاتلوا معه ﷺ على الموت فأنزل السكينة عليهم حتى بايعوا وتفسر ﴿السكينة﴾ بتذليل قلوبهم ورفع كراهة البيعة عنها، ولعمري إن الرجل لم يعرف للصحابة رضي الله تعالى عنهم حقهم وحمل كلام الله تعالى على خلاف ظاهره ﴿وَأَثَابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً﴾ قال ابن عباس وعكرمة وقتادة وابن أبي ليلى وغيرهم: هو فتح خيبر وكان غب انصرافهم من الحديبية، وقال الحسن: فتح هجر، والمراد هجر البحرين وكان فتح في زمانه ﷺ بدليل كتابه إلى عمرو بن حزم في الصدقات والديات.

وفي صحيح البخاري أنه ﷺ صالح أهل البحرين وأخذ الجزية من مجوس هجر والفتح لا يستدعي سابقة الغزو كما علمت مما سبق في تفسيره فسقط قول الطيبي معترضاً على الحسن: إنه لم يذكر أحد من الأئمة أنه ﷺ غزا هجراً. نعم إطلاق الفتح على مثل ذلك قليل غير شائع بل قيل هو معنى مجازي له، وقيل: هو فتح مكة والقرب أمر نسبي، وقرأ الحسن. ونوح القاري «وآتاهم» أي أعطاهم.

وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾ وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ
هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾ وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا۟
عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا
يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ وَهُوَ
ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا
﴿٢٤﴾ هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ
مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ
مَن يَشَآءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾ إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ
ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ
وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾ لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ
ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟
فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى
ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ
رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ
وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ
ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴿٢٩﴾

﴿وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا﴾ هي مغانم خيبر كما قال غير واحد؛ وقسمها عليه الصلاة والسلام كما في حديث أحمد وأبي داود والحاكم وصححه عن مجمع بن جارية الأنصاري فأعطى للفارس سهمين وكان منهم ثلاثمائة فارس للراجل سهماً، وقيل: مغانم هجر، وقرأ الأعمش وطلحة ورويس عن يعقوب، ودلبة عن يونس عن ورش وأبو دحية وسقلاب عن نافع والانطاكي عن أبي جعفر «تَأْخُذُونَهَا» بالتاء الفوقية والالتفات إلى الخطاب لتشريفهم في الامتنان ﴿وَكَانَ اللهُ عَزِيزاً﴾ غالباً ﴿حَكِيماً﴾ مراعياً لمقتضى الحكمة في أحكامه تعالى وقضاياه جل شأنه ﴿وَعَدَكُمُ اللهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً﴾ هي على ما قال ابن عباس ومجاهد وجمهور المفسرين ما وعد الله تعالى المؤمنين من المغانم إلى يوم القيامة ﴿تَأْخُذُونَهَا﴾ في أوقاتها المقدرة لكل واحدة منها ﴿فَعَجَّلَ لَكُمْ هَـٰذِهِ﴾ أي مغانم خيبر ﴿وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنكُمْ﴾ أيدي أهل خيبر وحلفائهم من بني أسد وغطفان حين جاؤوا لنصرتهم فقذف الله تعالى في قلوبهم الرعب فنكصوا، وقال مجاهد: كف أيدي أهل مكة بالصلح، وقال الطبري: كف اليهود عن المدينة بعد خروج الرسول ﷺ إلى الحديبية وإلى خيبر، وقال زيد بن أسلم وابنه: المغانم الكثيرة الموعودة مغانم خيبر والمعجلة البيعة والتخلص من أمر قريش بالصلح، والجمهور على ما قدمناه، والمناسبة لما مر من ذكر النبي ﷺ بطريق الخطاب وغيره بطريق الغيبة كقوله تعالى: ﴿لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك﴾ تقتضي على ما نقل عن بعض الأفاضل أن هذا جار على نهج التغليب وإن احتمل تلوين الخطاب فيه، وذكر الجلبي في قوله تعالى: ﴿فعجل لكم هذه﴾ الخ إنه إن كان نزولها بعد فتح خيبر كما هو الظاهر لا تكون السورة بتمامها نازلة في مرجعه ﷺ من الحديبية وإن كان قبله على أنها من الإخبار عن الغيب فالإشارة بهذه لتنزيل المغانم منزلة الحاضرة المشاهدة والتعبير بالمضي للتحقق انتهى، واختير الشق الأول، وقولهم: نزلت في مرجعه عليه الصلاة والسلام من الحديبية باعتبار الأكثر أو على ظاهره لكن يجعل المرجع اسم زمان ممتد. وتعقب بأن ظاهر الأخبار يقتضي عدم الامتداد وأنها نزلت من أولها إلى آخرها بين مكة والمدينة فلعل الأولى اختيار الشق الثاني، والإشارة بهذه إلى المغانم التي أثابهم إياها المذكورة في قوله تعالى: ﴿وأثابهم فتحاً قريباً ومغانم كثيرة يأخذونها﴾ وهي مغانم خيبر، وإذا جعلت الإشارة إلى البيعة كما سمعت عن زيد وابنه وروي ذلك عن ابن عباس لم يحتج إلى تأويل نزولها في مرجعه عليه الصلاة والسلام من الحديبية ﴿وَلِتَكُونَ آيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ الضمير المستتر، قيل: للكف المفهوم من ﴿كف﴾ والتأنيث باعتبار الخبر، وقيل: للكفة فأمر التأنيث ظاهر.

وجوز أن يكون لمغانم خيبر المشار إليها بهذه والآية الامارة أي ولتكون إمارة للمؤمنين يعرفون بها أنهم من الله تعالى بمكان أو يعرفون بها صدق الرسول ﷺ في وعده إياهم فتح خيبر وما ذكر من المغانم وفتح مكة ودخول المسجد الحرام، واللام متعلقة إما بمحذوف مؤخر أي ولتكون آية لهم فعل ما فعل أو بما تعلق به علة أخرى محذوفة من أحد الفعلين السابقين أي فعجل لكم هذه أو كف أيدي الناس عنكم لتنتفعوا بذلك ولتكون آية، فالواو. كما في الإرشاد على الأول اعتراضية وعلى الثاني عاطفة، وعند الكوفيين الواو زائدة واللام متعلقة بكف أو بعجل ﴿وَيَهْدِيَكُمْ﴾ بتلك الآية ﴿صِرَاطاً مُّسْتَقِيماً﴾ هو الثقة بفضل الله تعالى والتوكل عليه في ما تأتون وتذرون.

﴿وَأُخْرَىٰ﴾ عطف على ﴿هذه﴾ في ﴿فعجل لكم هذه﴾ فكأنه قيل فعجل لكم هذه المغانم وعجل لكم مغانم أخرى وهي مغانم هوازن في غزوة حنين، والتعجيل بالنسبة إلى ما بعد فيجوز تعدد المعجل كالابتداء بشيئين، وقوله تعالى: ﴿لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا﴾ في موضع الصفة ووصفها بعدم القدرة عليها لما كان فيها من الجولة قبل ذلك لزيادة ترغيبهم فيها، وقوله تعالى: ﴿قَدْ أَحَاطَ اللهُ بِهَا﴾ في موضع صفة أخرى. لأخرى. مفيدة لسهولة تأتيها بالنسبة إلى قدرته عز وجل بعد بيان صعوبة منالها بالنظر إلى قدرتهم، والإحاطة مجاز عن الاستيلاء التام أي قد قدر الله تعالى

عليها واستولى فهي في قبض قدرته تعالى يظهر عليها من أراد، وقد أظهركم جل شأنه عليها وأظفركم بها، وقيل: مجاز عن الحفظ أي قد حفظها لكم ومنعها من غيركم، والتذييل بقوله سبحانه: ﴿وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً﴾ أوفق بالأول، وعموم قدرته تعالى لكونها مقتضى الذات فلا يمكن أن تتغير ولا أن تتخلف وتزول عن الذات بسبب ما كما تقرر في موضعه، فتكون نسبتها إلى جميع المقدورات على سواء من غير اختصاص ببعض منها دون بعض وإلا كانت متغايرة بل مختلفة، وجوز كون ﴿أخرى﴾ منصوبة بفعل يفسره قد أحاط الله بها مثل قضى.

وتعقب بأن الإخبار بقضاء الله تعالى بعد اندراجها في جملة الغنائم الموعود بها بقوله تعالى: ﴿وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها﴾ ليس فيه مزيد فائدة وإنما الفائدة في بيان تعجيلها، وأورد عليه أن المغانم الكثيرة الموعودة ليست معينة ليدخل فيها الأخرى، ولو سلم فليس المقصود بالإفادة كونها مقضية بل ما بعده فتدبر، وجوز كونها مرفوعة بالابتداء والجملة بعدها صفة وجملة قد أحاط الخ خبرها، واستظهر هذا الوجه أبو حيان، وقال بعض: الخبر محذوف تقديره ثمت أو نحوه، وجوز الزمخشري كونها مجرورة بإضمار رب كما في قوله: وليل كموج البحر أرخى سدوله. وتعقبه أبو حيان بأن فيه غرابة لأن رب لم تأت في القرآن العظيم جارة مع كثرة ورود ذلك في كلام العرب فكيف تضمر هنا، وأنت تعلم أن مثل هذه الغرابة لا تضر، هذا وتفسير الأخرى بمغانم هوازن قد أخرجه عبد بن حميد عن عكرمة عن ابن عباس واختاره غير واحد، وقال قتادة. والحسن: هي مكة وقد حاولوها عام الحديبية ولم يدركوها فأخبروا بأن الله تعالى سيظفرهم بها ويظهرهم عليها، وفي رواية أخرى عن ابن عباس والحسن، ورويت عن مقاتل أنها بلاد فارس والروم وما فتحه المسلمون، وهو غير ظاهر على تفسير المغانم الكثيرة الموعودة فيما سبق بما وعد الله تعالى به المسلمين من المغانم إلى يوم القيامة، وأيضاً تعقبه بعضهم بأن ﴿لم تقدروا عليها﴾ يشعر بتقدم محاولة لتلك البلاد وفوات دركها المطلوب مع أنه لم تتقدم محاولة.

وأخرج ابن جرير، وابن مردويه عن ابن عباس أنه قال: هي خيبر، وروي ذلك عن الضحاك وإسحق وابن زيد أيضاً، وفيه خفاء فلا تغفل ﴿وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي من أهل مكة ولم يصالحوكم كما روي عن قتادة، وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج أنهم حليفا أهل خيبر أسد: وغطفان، وقيل: اليهود وليس بذاك ﴿لَوَلّوا الأَدْبَارَ﴾ أي لانهزموا فتولية الدبر كناية عن الهزيمة ﴿ثُمَّ لاَ يَجِدُونَ وَلِيّاً﴾ يحرسهم، وذكر الخفاجي أن الحارس أحد معاني الولي، وتفسيره هنا بذلك لمناسبته للمنهزم، وقال الراغب: كل من ولي أمر آخر فهو وليه، وعليه فالحارس ولي لأنه يلي أمر المحروس، والتنكير للتعميم أي لا يجدون فرداً ما من الأولياء ﴿وَلاَ نصيراً﴾ ولا فرداً ما من الناصرين ينصرهم، وقال الإمام: أريد بالولي: من ينفع باللطف وبالنصير من ينفع بالعنف ﴿سُنَّةَ اللهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ﴾ نصب على المصدرية بفعل محذوف أي سن سبحانه غلبة أنبيائه عليهم السلام سنة قديمة فيمن مضى من الأمم كما قال سبحانه: ﴿لأغلبن أنا ورسلي﴾ [المجادلة: ٢١] على ما هو المتبادر من معناه، ولعل المراد أن سنته تعالى أن تكون العاقبة لأنبيائه عليهم السلام لا أنهم كلما قاتلوا الكفار غلبوهم وهزموهم ﴿وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً﴾ تغييراً ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ﴾ أي أيدي كفار مكة، وفي التعبير ـ بكف ـ دون منع ونحوه لطف لا يخفى ﴿وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ﴾ يعني الحديبية كما أخرج ذلك عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة. وقد تقدم أن بعضها من حرم مكة، وان لم يسلم فالقرب التام كاف ويكون إطلاق ﴿ببطن مكة﴾ عليها مبالغة ﴿مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ﴾ مظهراً لكم ﴿عَلَيْهِمْ﴾ فتعدية الفعل بعلى لتضمنه ما يتعدى به وهو الإظهار والاعلاء أي جعلكم ذوي غلبة تامة. أخرج الإمام أحمد وابن أبي شيبة وعبد بن حميد ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي في آخرين عن أنس قال: لما كان يوم الحديبية هبط على رسول الله ﷺ وأصحابه

ثمانون رجلاً من أهل مكة في السلاح من قبل جبل التنعيم يريدون غرة رسول الله ﷺ فدعا عليهم فأخذوا فعفا عنهم فنزلت هذه الآية ﴿وهو الذي كف﴾ الخ، وأخرج أحمد والنسائي والحاكم وصححه وابن مردويه وأبو نعيم في الدلائل عن عبد الله بن معقل قال: كنا مع رسول الله ﷺ في أصل الشجرة التي قال الله تعالى في القرآن إلى أن قال: فبينا نحن كذلك إذ خرج علينا ثلاثون شاباً عليهم السلاح فثاروا إلى وجوهنا فدعا عليهم رسول الله ﷺ فأخذ الله تعالى بأسماعهم ولفظ الحاكم بأبصارهم، فقمنا إليهم فأخذناهم فقال لهم رسول الله ﷺ: هل جئتم في عهد أحد أو هل جعل لكم أحد أماناً؟ فقالوا: لا فخلى سبيلهم فأنزل الله تعالى ﴿وهو الذي كف أيديهم عنكم﴾ الخ.

وأخرج أحمد وغيره عن سلمة بن الأكوع قال: قدمنا الحديبية مع رسول الله ﷺ ونحن أربع عشرة مائة ثم إن المشركين من أهل مكة راسلونا إلى الصلح فلما اصطلحنا واختلط بعضنا ببعض أتيت شجرة فاضطجعت في ظلها فأتاني أربعة من مشركي أهل مكة فجعلوا يقعون في رسول الله ﷺ فأبغضتهم وتحولت إلى شجرة أخرى فعلقوا سلاحهم واضطجعوا فبينما هم كذلك إذ نادى مناد من أسفل ما للمهاجرين قتل بن زنيم فاخترطت سيفي فاشتدت على أولئك الأربعة وهم رقود فأخذت سلاحهم وجعلته في يدي ثم قلت: والذي كرم وجه محمد لا يرفع أحد منكم رأسه إلا ضربت الذي فيه عيناه ثم جئت بهم أسوقهم إلى رسول الله ﷺ وجاء عمي عامر برجل يقال له مكرز من المشركين يقوده حتى وقفنا بهم على رسول الله ﷺ في سبعين من المشركين فنظر إليهم رسول الله ﷺ وقال: دعوهم يكون لهم بدء الفجور وثناه فعفا عنهم رسول الله ﷺ وأنزل الله تعالى: ﴿وهو الذي كف﴾ الخ، وهذا كله يؤيد ما قلناه، وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن أبزى قال: لما خرج النبي ﷺ بالهدى وانتهى إلى ذي الحليفة قال له عمي: يا نبي الله تدخل على قوم لك حرب بغير سلاح ولا كراع فبعث إلى المدينة فلم يدع فيها كراعاً ولا سلاحاً إلا حمله فلما دنا من مكة منعوه أن يدخل فسار حتى أتى منى فنزل بها فأتاه عينه أن عكرمة ابن أبي جهل قد جمع عليك في خمسمائة فقال لخالد بن الوليد: يا خالد هذا ابن عمك قد أتاك في الخيل فقال خالد: أنا سيف الله وسيف رسوله فيومئذٍ سمي سيف الله يا رسول الله ارم بي إن شئت فبعثه على خيل فلقيه عكرمة في الشعب فهزمه حتى أدخله حيطان مكة فأنزل الله تعالى ﴿وهو الذي﴾ الآية. وفي البحر أن خالداً هزمهم حتى دخلوا بيوت مكة وأسر منهم جملة فسيقوا إلى رسول الله ﷺ فمنّ عليهم وأطلقهم، والخبر غير صحيح لأن إسلام خالد رضي الله تعالى عنه بعد الحديبية قبل عمرة القضاء، وقيل بعدها وهي في السنة السابعة.

وروى ابن إسحاق وغيره أن خالداً كان يوم الحديبية على خيل قريش في مائتي فارس قدم بهم إلى كراع الغميم فدنا حتى نظر إلى أصحاب النبي ﷺ فأمر رسول الله ﷺ عباد بن بشر فتقدم بخيله فقام بإزائه وصف أصحابه وحانت صلاة الظهر فصلى رسول الله ﷺ بأصحابه صلاة الخوف، وعن ابن عباس أن أهل مكة أرسلوا جملة من الفوارس في الحديبية يريدون الوقيعة بالمسلمين فأظهرهم الله تعالى عليهم بالحجارة حتى أدخلوهم البيوت، وأنكر بعضهم ذلك والله تعالى أعلم بصحة الخبر.

وقيل: كان هذا الكف يوم فتح مكة، واستشهد الإمام أبو حنيفة بما في الآية من قوله تعالى: ﴿من بعد أن أظفركم﴾ بناءً على هذا القول لفتح مكة عنوة. واعترض القول المذكور والاستشهاد بالآية بناءً عليه، أما الأول فلأن الآية نزلت قبل فتح مكة. وتعقب بأنه إن أريد أنها نزلت بتمامها قبله فليس بثابت بل بعض الآثار يشعر بخلافه وإلا فلا يفيد مع أنه يجوز أن يكون هذا إخباراً عن الغيب كما قيل ذلك في غيره من بعض آيات السورة، وأما الثاني فلأن دلالتها على العنوة ممنوعة، فقد قال الزمخشري: الفتح هو الظفر بالشيء سواء كان عنوة أو صلحاً، والفرق بين الظفر

على الشيء والظفر به من حيث الاستعلاء وهو كائن لأنهم اصطلحوا وهم مضطرون ورسول الله ﷺ ومن معه مختارون، وفيه دغدغة لا تخفى؛ وكذا فيما تعقب به الأول. وبالجملة هذا القول وكذا الاستشهاد بما في الآية بناءً غير بعيد إلا أن أكثر الاخبار الصحيحة وكذا ما بعد يؤيد ما قلناه أولاً في تفسير الآية ﴿وَكَانَ اللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ بعملكم أو بجميع ما تعملونه ومنه العفو بعد الظفر ﴿بَصِيراً﴾ فيجازيكم عليه. وقرأ أبو عمرو «يعملون» بياء الغيبة فالكلام عليه تهديد للكفار.

﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ أن تصلوا إليه وتطوفوا به ﴿وَالْهَدْيَ﴾ بالنصب عطف على الضمير المنصوب في ﴿صدوكم﴾ أي وصدوا الهدى وهو ما يهدى إلى البيت، قال الأخفش: الواحدة هدية ويقال للأنثى هدى كأنه مصدر وصف به. وفي البحر إسكان داله لغة قريش وبها قرأ الجمهور، وقرأ ابن هرمز والحسن وعصمة عن عاصم واللؤلؤي وخارجة عن أبي عمرو بكسر الدال وتشديد الياء وذلك لغة، وهو فعيل بمعنى مفعول على ما صرح به غير واحد، وكان هذا الهدي سبعين بدنة على ما هو المشهور، وقال مقاتل: كان مائة بدنة. وقرأ الجعفي عن أبي عمرو «الهَدْيِ» بالجر على أنه عطف على المسجد الحرام بحذف المضاف أي ونحر الهدي. وقرىء بالرفع على إضمار وصد الهدي، وقوله سبحانه: ﴿مَعْكُوفاً﴾ حال من ﴿الهدي﴾ على جميع القراءات، وقيل: على قراءة الرفع يجوز أن يكون ﴿الهدي﴾ مبتدأ والكلام نحو حكمك مسمطاً، وقوله تعالى: ﴿ونحن عصبة﴾ [يوسف: ٨، ١٤] علي قراءة النصب وهو كما ترى، والمعكوف المحبوس يقال: عكفت الرجل عن حاجته حبسته عنها، وأنكر أبو علي تعدية عكف وحكاها ابن سيده. والأزهري. وغيرهما، وظاهر ما في الآية معهم، وقوله تعالى: ﴿أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ﴾ بدل اشتمال من ﴿الْهَدْيَ﴾ كأنه قيل: وصدوا بلوغ الهدي محله أو صدوا عن بلوغ الهدي أو وصد بلوغ الهدي حسب اختلاف القراءات، وجوز أن يكون مفعولاً من أجله للصد أي كراهة أن يبلغ محله، وأن يكون مفعولاً من أجله مجروراً بلام مقدرة . لمعكوفاً . أي محبوساً لأجل أن يبلغ محله ويكون الحبس من المسلمين، وأن يكون منصوباً بنزع الخافض وهو من أو عن أي محبوساً من أو عن أن يبلغ محله فيكون الحبس من المشركين على ما هو الظاهر، ومحل الهدي مكان يحل فيه نحره أي يسوغ أو مكان حلوله أي وجوبه ووقوعه كما نقل عن الزمخشري، والمراد مكانه المعهود وهو منى، أما على رأي الشافعي رضي الله تعالى عنه فلأن مكانه لمن منع حيث منع فيكون قد بلغ محله بالنسبة إلى النبي ﷺ ومن معه ولذا نحروا هناك أعني في الحديبية، وأما على رأي أبي حنيفة رضي الله تعالى عنه فلأن مكانه الحرم مطلقاً وبعض الحديبية حرم عنده؛ وقد رووا أن مضارب رسول الله ﷺ كانت في الحل منها ومصلاه في الحرم والنحر قد وقع فيما هو حرم فيكون الهدي بالغاً محله غير معكوف عن بلوغه فلا بد من إرادة المعهود ليتسنى ذلك، وزعم الزمخشري أن الآية دليل لأبي حنيفة على أن الممنوع محل هديه الحرم ثم تكلم بما لا يخفى حاله على من راجعه. ومن الناس من قرر الاستدلال بأن المسجد الحرام يكون بمعنى الحرم وهم لما صدوهم عنه ومنعوا هديهم أن يدخله فيصل إلى محله دل بحسب الظاهر على أنه محله، ثم قال: ولا ينافيه أنه عليه الصلاة والسلام نحر في طرف منه كما لا ينافي الصد عنه كون مصلاه عليه الصلاة والسلام فيه لأنهم منعوهم فلم يمتنعوا بالكلية وهو كما ترى.

والإنصاف أنه لا يتم الاستدلال بالآية على هذا المطلب أصلاً. وطعن بعض أجلة الشافعية في كون شيء من الحديبية من الحرم فقال: إنه خلاف ما عليه الجمهور وحدود الحرم مشهورة من زمن إبراهيم عليه السلام، ولا يعتد برواية شذبها الواقدي كيف وقد صرح بخلافها البخاري في صحيحه عن الثقات، والرواية عن الزهري ليست بثبت انتهى، ولعل من قال: بأن بعضها من الحرم استند في ذلك إلى خبر صحيح. ومن قواعدهم أن المثبت مقدم على

النافي والله تعالى أعلم ﴿وَلَوْلاَ رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ﴾ صفة ﴿رجال﴾ و ﴿نساء﴾ على تغليب المذكر على المؤنث. وكانوا على ما أخرج أبو نعيم بسند جيد. وغيره عن أبي جمعة جنبذ بن سبع تسعة نفر سبعة رجال وهو منهم وامرأتين، وقوله تعالى: ﴿أَن تَطَؤُهُمْ﴾ بدل اشتمال منهم وجوز كونه بدلاً من الضمير المنصوب في ﴿تعلموهم﴾ واستبعده أبو حيان، والوطء الدوس واستعير هنا للإهلاك وهي استعارة حسنة واردة في كلامهم قديماً وحديثاً، ومن ذلك قول الحارث بن وعلة الذهلي:

ووطئتنا وطأ على حنق ... وطء المقيد نابت الهرم

وقوله ﷺ من حديث: «وإن آخر وطأة وطئها الله تعالى بوج» وقوله عليه الصلاة والسلام: «اللهم اشدد وطأتك على مضر» ﴿فَتُصِيبَكُمْ مِّنْهُمْ﴾ أي من جهتهم ﴿مَّعَرَّةٌ﴾ أي مكروه ومشقة مأخوذ من العر والعرة وهو الجرب الصعب اللازم، وقال غير واحد: هي مفعلة من عره إذا عراه ودهاه ما يكره، والمراد بها هنا على ما روي عن منذر بن سعيد تعيير الكفار وقولهم في المؤمنين: إنهم قتلوا أهل دينهم، وقيل: التأسف عليهم وتألم النفس مما أصابهم.

وقال ابن زيد: المأثم بقتلهم. وقال ابن إسحق: الدية، قال ابن عطية: وكلا القولين ضعيف لأنه لا إثم ولا دية في قتل مؤمن مستور الإيمان بين أهل الحرب: وقال الطبري، هي الكفارة. وتعقب بعضهم هذا أيضاً بأن في وجوب الكفارة خلافاً بين الأئمة. وفي الفصول العمادية ذكر في تأسيس النظائر في الفقه قال أصحابنا: دار الحرب تمنع وجوب ما يندرىء بالشبهات لأن أحكامنا لا تجري في دارهم وحكم دارهم لا يجري في دارنا. وعند الشافعي دار الحرب لا تمنع وجوب ما يندرىء بالشبهات، بيان ذلك حربي أسلم في دار الحرب وقتل مسلماً دخل دارهم بأمان لا قصاص عليه عندنا ولا دية وعند الشافعي عليه القصاص وعلى هذا لو أن مسلمين متسامنين دخلا دار الحرب وقتل أحدهما صاحبه لا قصاص عليه عندنا وعند الشافعي عليه ذلك، ثم ذكر مسألة مختلفاً فيها بين أبي حنيفة وأبي يوسف ومحمد فقال: إذا قتل أحد الأسيرين صاحبه في دار الحرب لا شيء عليه عند أبي حنيفة وأبي يوسف إلا الكفارة لأنه تبع لهم فصار كواحد من أهل الحرب، وعند محمد تجب الدية لأن له حكم نفسه فاعتبر حكم نفسه على حدة انتهى.

ونقل عن الكافي أن من أسلم في دار الحرب ولم يهاجر إلينا وقتله مسلم عمداً أو خطأ وله ورثة مسلمون ثم لا يضمن شيئاً إن كان عمداً وإن كان خطأ ضمن الكفارة دون الدية انتهى وتمام الكلام في هذا المقام يطلب في محله، والزمخشري فسر المعرة بوجوب الدية والكفارة وسوء قالة المشركين والمأثم إذا جرى منهم بعض التقصير وهو كما نرى.

﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ في موضع الحال من ضمير المخاطبين في ﴿تطؤهم﴾ قيل ولا تكرار مع قوله تعالى ﴿لم تعلموهم﴾ سواء كان ﴿أن تطؤهم﴾ بدل اشتمال من ﴿رجال﴾ و ﴿نساء﴾ أو بدلاً من المنصوب في ﴿لم تعلموهم﴾ أما على الثاني فلأن حاصل المعنى ولولا مؤمنون لم تعلموا وطأتهم وإهلاكهم وأنتم غير عالمين بإيمانهم لأن احتمال أنهم يهلكون من غير شعور مع إيمانهم سبب الكف فيعتبر فيه العلماء فمتعلق العلم في الأول الوطأة وفي الثاني أنفسهم باعتبار الإيمان، وأما على الأول فلأن قوله تعالى: ﴿بغير علم﴾ لما كان حالاً من فاعل ﴿تطؤهم﴾ كان العلم بهم راجعاً إلى العلم باعتبار الإهلاك كما تقول أهلكته من غير علم فلا الإهلاك من غير شعور ولا العلم بإيمانهم حاصل والأمران لكونهما مقصودين بالذات صرح بهما وإن تقاربا أو تلازما في الجملة.

وجوز أن يجعل ﴿لم تعلموهم﴾ كناية عن الاختلاط كما يلوح إليه كلام الكشاف، وفيه ما يدفع التكرار أيضاً، وفي ذلك بحث يدفع بالتأمل وجوز أن يكون حالاً من ضمير ﴿منهم﴾ وأن يكون متعلقاً بتصيبكم. أو صفة لمعرة قيل: وهو على معنى فتصيبكم منهم معرة بغير علم من الذي يعركم ويعيب عليكم، يعني إن وطئتموهم غير عالمين لزمكم سبة من الكفار بغير علم أي لا يعلمون أنكم معزورون فيه أو على معنى لم تعلموا أن تطؤهم فتصيبكم منهم معرفة بغير علم منكم أي فتقتلوهم بغير علم منكم أو تؤذوهم بغير علم فافهم ولا تغفل. وجواب ﴿لولا﴾ محذوف لدلالة الكلام عليه، والمعنى على ما سمعت أولاً لولا كراهة أن تهلكوا أناساً مؤمنين بين ظهراني الكفار جاهلين بهم فيصيبكم بإهلاكهم مكروه لما كف أيديكم عنهم، وحاصله أنه تعالى ولو لم يكف أيديكم عنهم لا نجر الأمر إلى إهلاك مؤمنين بين ظهرانيهم فيصيبكم من ذلك مكروه وهو عز وجل يكره ذلك.

وقال ابن جريج: دفع الله تعالى عن المشركين يوم الحديبية بأناس من المسلمين بين أظهرهم، وظاهر الأول على ما قيل أن علة الكف صون المخاطبين عن إصابة المعرة، وظاهر هذا أن علته صون أولئك المؤمنين عن الوطء والأمر فيه سهل، وقوله تعالى: ﴿لِيُدْخِلَ اللهُ فِي رَحْمَتِهِ﴾ علة لما يدل عليه الجواب المحذوف على ما اختاره في الإرشاد كأنه قيل: لكنه سبحانه كفها عنهم ليدخل بذلك الكف المؤدي إلى الفتح بلا محذور في رحمته الواسعة ﴿مَنْ يَشَاءُ﴾ وهم أولئك المؤمنون وذلك بأمنهم وإزالة استضعافهم تحت أيدي المشركين وبتوفيقهم لإقامة مراسم العبادة على الوجه الأتم، والتعبير عنهم بمن يشاء دون الضمير بأن يقال: ليدخلهم الله رحمته للإشارة إلى أن علة الإدخال المشيئة المبنية على الحكم الجمة والمصالح، وجعله بعضهم علة لما يفهم من صون من بمكة من المؤمنين والرحمة توفيقهم لزيادة الخير والطاعة بإبقائهم على عملهم وطاعتهم، وجوز أن يراد بمن يشاء، بعض المشركين ويراد بالرحمة الإسلام فإن أولئك المؤمنين إذا صانهم الكف المذكور أظهروا إيمانهم لمعاينة قوة الدين فيقتدي بهم الصائرون للإسلام، واستحسن بعضهم كونه علة للكف المعلل بالصون.

وجوز أن يراد بمن يشاء، المؤمنون فيراد بالرحمة التوفيق لزيادة الخير، والمشركون فيراد بها الإسلام، وبين وجه التعليل بأنهم إذا شاهدوا منع تعذيبهم بعد الظفر عليهم لاختلاط المؤمنين بهم اعتناء بشأنهم رغبوا في الإسلام والانخراط في سلك المرحومين وان المؤمنين إذا علموا منع تعذيب المشركين بعد الظفر عليهم لاختلاطهم بهم أظهروا إيمانهم فيقتدى بهم، وقال: لا وجه لجعل اللام مستعارة من معنى التعليل لما يترتب على الشيء لأنه عدول عن الحقيقة المتبادرة من غير داع، وما يظن من أن تعليل الكف بما ذكر مع أنه معلل بالصون فاسد لما فيه من اجتماع علتين على معلول واحد شخصي فاسد لأن العلل إذا لم تكن تامة حقيقة لا يضر تعددها وما هنا كذلك.

هذا وجعل ذلك علة لما دل عليه الجواب على ما سمعت أولاً أولى عندي لما فيه من شدة التحام النظم الجليل، وحمل ﴿من يشاء﴾ على المؤمنين المستضعفين دون بعض المشركين أوفق بقوله تعالى: ﴿لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَاباً أَلِيماً﴾ والتزيل التفرق والتميز، وجوز في ضمير ﴿تزيلوا﴾ كونه للمؤمنين المذكورين فيما سبق أي لو تفرق أولئك المؤمنون والمؤمنات وتميزوا عن الكفار وخرجوا من مكة ولم يبقوا بينهم لعذبنا الخ، وكونه للمؤمنين والكفار أي لو افترق بعضهم من بعض ولم يبقوا مختلطين لعذبنا الخ.

واختار غير واحد الأول فمنهم للبيان، والمراد تعذيبهم في الدنيا بالقتل والسبي كما قال مجاهد وغيره والألم يكن ـ للو ـ موقع. والجملة مستأنفة مقررة لما قبلها، وجوز الزمخشري أن يكون قوله تعالى: ﴿لو تزيلوا﴾ كالتكرار لقوله تعالى: ﴿لولا رجال﴾ لأن مرجعهما في المعنى شيء واحد ويكون لعذبنا هو الجواب. للولا. السابقة. واعترضه

أبو حيان بأن التغاير ظاهر فلا يكون تكراراً ولا مشابهاً. وأجيب بأن كراهة وطئهم لعدم تميزهم عن الكفار الذي هو مدلول الثاني فيكون كبدل الاشتمال ويكفي ذلك في كونه كالتكرار، وقال ابن المنير: إنما كان مرجعهما واحداً وإن كانت ﴿لولا﴾ تدل على امتناع لوجود و ﴿لو﴾ تدل على امتناع لامتناع وبين هذين تناف ظاهر لأن «لولا» ههنا دخلت على وجود ولو دخلت على ﴿تزيلوا﴾ وهو راجع إلى عدم وجودهم وامتناع عدم الوجود ثبوت فآلا إلى أمر واحد من هذا الوجه قال: وكان جدي يختار هذا الوجه ويسميه تطرية وأكثر ما يكون إذا تطاول الكلام وبعد عهد أوله واحتيج إلى بناء الآخر على الأول فمرة يطري بلفظه ومرة بلفظ آخر يؤدي مؤداه انتهى.

وأنت تعلم أن في حذف الجواب دليلاً على شدة غضب الله تعالى وأنه لولا حق المؤمنين لفعل بهم ما لا يدخل تحت الوصف ولا يقاس، ومنه يعلم أن ذلك الوجه أرجح من جعل ﴿لو تزيلوا﴾ بمنزلة التكرار للتطرية فتطرية الجواب وتقويته أولى وأوفق لمقتضى المقام، واختار الطيبي الأول أيضاً معللاً له بأنه حينئذٍ يقرب من باب الطرد والعكس لأن التقدير لولا وجود مؤمنين مختلطين بالمشركين غير متميزين منهم لوقع ما كان جزاء لكفرهم وصدهم ولو حصل التمييز وارتفع الاختلاط لحصل التعذيب، ثم إن تقدير الجواب ما تقدم عند القائلين بالحذف هو الذي ذهب إليه كثير، وجوز بعضهم تقديره لعجل لهم ما يستحقون وجعل قوله تعالى[1]: ﴿هم الذين كفروا﴾ الخ فكأنه قيل: هم الذين كفروا واستحقوا التعجيل في إهلاكهم ولولا رجال مؤمنون الخ لعجل لهم ذلك وهو أيضاً أولى من حديث التكرار، وقرأ ابن أبي عبلة وابن مقسم وأبو حيوة وابن عون «لو تزايلوا» على وزن تفاعلوا.

وفي الآية على ما قال الكيا دليل على أنه لا يجوز خرق سفينة الكفار إذا كان فيها أسرى من المسلمين وكذلك رمي الحصون إذا كانوا بها والكفار إذا تترسوا بهم، وفيه كلام في كتب الفروع ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِين كَفَرُوا﴾ منصوب باذكر على المفعولية أو ـ بعذبنا ـ على الظرفية أو ـ بصدوكم ـ كذلك، وقيل: بمضمر هو أحسن الله تعالى إليكم. وأياً ما كان. فالذين. فاعل ﴿جعل﴾ ووضع الموصول موضع ضميرهم لذمهم بما في حيز الصلة وتعليل الحكم به، والجعل إما بمعنى الإلقاء فقوله تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِم الْحَمِيَّةَ﴾ متعلق به أو بمعنى التصيير فهو متعلق بمحذوف هو مفعول ثان له أي جعلوا الحمية راسخة في قلوبهم ولكونها مكتسبة لهم من وجه نسب جعلها إليهم، وقال النيسابوري: يجوز أن يكون فاعل ﴿جعل﴾ ضمير الله تعالى و ﴿في قلوبهم﴾ بيان لمكان الجعل ومآل المعنى إذ جعل الله في قلوب الذين كفروا الحمية وهو كما ترى، والحمية الآنفة يقال: حميت عن كذا حمية إذا أنفت منه وداخلك عار منه.

وقال الراغب: عبر عن القوة الغضبية إذا ثارت وكثرت بالحمية فقيل: حميت على فلان أي غضبت عليه، وقوله تعالى: ﴿حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ بدل من الحمية أي حمية الملة الجاهلية أو الحمية الناشئة من الجاهلية لأنها بغير حجة وفي غير موضعها، وقوله تعالى: ﴿فَأَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِه وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ عطف على ﴿جعل﴾ على تقدير جعل ﴿إذ﴾ معمولاً لأذكر، والمراد تذكير حسن صنيع الرسول عليه الصلاة والسلام والمؤمنين بتوفيق الله تعالى وسوء صنيع المشركين وعلى ما يدل عليه الجملة الامتناعية على تقدير جعلها ظرفاً لعذبنا. كأنه قيل: فلم يتزيلوا فلم نعذب فأنزل الخ، وعلى مضمر عامل فيها على الوجه الأخير المحكي ويكون هذا كالتفسير لذاك، وأما على جعلها ظرفاً لصدوكم. فقيل: العطف على ﴿جعل﴾ وقيل: على ﴿صدوكم﴾ وهو نظير الطائر فيغضب زيد الذباب؛ والأولى من هذه الأوجه لا يخفى، والسكينة الاطمئنان والوقار، روى غير واحد أن النبي ﷺ خرج بمن معه إلى الحديبية حتى إذا

---

(١) قوله وجعل قوله الخ كذا في أصل المؤلف ولا يخفى ما فيه.

كان بذي الحليفة قلد الهدي وأشعره وأحرم بالعمرة وبعث بين يديه عيناً من خزاعة يخبره عن قريش وسار عليه الصلاة والسلام حتى كان بغدير الأشطاط قريباً من عسفان أتاه عينه فقال: إن قريشاً جمعوا لك جموعاً وقد جمعوا لك الأحابيش وهم مقاتلوك وصادوك عن البيت فاستشار الناس في الإغارة على ذراري من أعانهم فقال أبو بكر: الله تعالى ورسوله أعلم يا نبي الله إنما جئنا معتمرين ولم نجيء لقتال أحد ولكن من حال بيننا وبين البيت قاتلناه فقال ﷺ: امضوا على اسم الله فسار حتى نزل بأقصى الحديبية فجاءه بديل بن ورقاء الخزاعي في نفر من قومه فقال له إني قد تركت كعب بن لؤي، وعامر بن لؤي نزلوا قريباً معهم كالعوذ المطافيل وهم مقاتلوك وصادوك عن البيت فقال عليه الصلاة والسلام: إنا لم نجيء لقتال أحد ولكن معتمرين وإن قريشاً قد نهكتهم الحرب وأضرت بهم فماذا عليهم لو خلوا بيني وبين سائر العرب فإن هم أصابوني كان ذلك الذي أرادوا وإن أظهرني الله تعالى عليهم دخلوا في الإسلام وافرين وإن لم يفعلوا قاتلتهم وبهم قوة فما تظن قريش فوالله لا أزال أجاهدهم على الذي بعثني الله تعالى به حتى يظهره الله تعالى أو تنفرد هذه السالفة فقال بديل: سأبلغهم ما تقول فبلغهم فقال عروة بن مسعود الثقفي لهم: دعوني آته فأتاه عليه الصلاة والسلام فقال له نحو ما قال لبديل وجرى من الكلام ما جرى ورأى من احترام الصحابة رسول الله ﷺ وتعظيمهم إياه ما رأى فرجع إلى أصحابه فأخبرهم بذلك وقال لهم: إنه قد عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها فقال رجل من بني كنانة: دعوني آته فلما أشرف على النبي ﷺ وأصحابه قال عليه الصلاة والسلام: هذا فلان وهو من قوم يعظمون البدن فابعثوها له فبعثت واستقبله القوم يلبون فلما رأى ذلك قال: سبحان الله ما ينبغي لهؤلاء أن يصدوا عن البيت فرجع وأخبر أصحابه فقال رجل يقال له مكرز بن حفص: دعوني آته فلما أشرف قال عليه الصلاة والسلام: هذا مكرز وهو رجل فاجر فجعل يكلم النبي ﷺ فبينما هو يكلمه إذ جاء سهيل بن عمرو أخو بني عامر بن لؤي فقال ﷺ: قد سهل لكم من أمركم وكان قد بعثه قريش وقالوا له: ائت محمداً فصالحه ولا يكن في صلحه إلا أن يرجع عنا عامه هذا فوالله لا تتحدث العرب أنه دخلها علينا عنوة أبداً فلما انتهى إليه عليه الصلاة والسلام تكلم فأطال وانتهى الأمر إلى الصلح وكتابة كتاب في ذلك فدعا النبي ﷺ علياً كرم الله تعالى وجهه فقال: اكتب بسم الله الرحمن الرحيم فقال سهيل: لا أعرف هذا ولكن اكتب باسمك اللهم فقال رسول الله ﷺ: اكتب باسمك اللهم فكتبها ثم قال: اكتب هذا ما صالح عليه محمد رسول الله سهيل بن عمرو فقال سهيل: لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت ولا قاتلناك ولكن اكتب اسمك واسم أبيك فقال عليه الصلاة والسلام: والله إني لرسول الله وإن كذبتموني اكتب هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو صلحاً على وضع الحرب عن الناس عشر سنين يأمن فيهن الناس ويكف بعضهم عن بعض على أنه من أتى محمداً من قريش بغير إذن وليه رده عليهم ومن جاء قريشاً ممن مع محمد لم يردوه عليه وإن بيننا عيبة مكفوفة وأنه لا إسلال ولا اغلال وأنه من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه وان محمداً يرجع عن مكة عامه هذا فلا يدخلها وانه إذا كان عام قابل خرج أهل مكة فدخلها بأصحابه فأقام بها ثلاثاً معه سلاح الراكب السيوف في القرب لا يدخلها بغيرها.

وظاهر هذا الخبر أن سهيلاً لم يرض أن يكتب محمد رسول الله قبل أن يكتب؛ وجاء في رواية أنه كتب فلم يرض فقال النبي عليه الصلاة والسلام لعلي كرم الله تعالى وجهه: امحه فقال: ما أنا بالذي أمحاه، وجاء هذا في رواية للبخاري، ولمسلم وفي رواية للبخاري في المغازي فأخذ رسول الله ﷺ الكتاب وليس يحسن يكتب فكتب هذا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله، وكذا أخرجه النسائي وأحمد ولفظه فأخذ الكتاب وليس يحسن أن يكتب فكتب مكان

رسول الله هذا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله، وتمسك بظاهر هذه الرواية كما في فتح الباري أبو الوليد الباجي على أن النبي عليه الصلاة والسلام كتب بعد أن لم يكن يحسن أن يكتب ووافقه على ذلك شيخه أبو ذر الهروي. وأبو الفتح النيسابوي وآخرون من علماء افريقية، والجمهور على أنه عليه الصلاة والسلام لم يكتب، وان قوله: وأخذ الكتاب وليس يحسن أن يكتب لبيان أنه عليه الصلاة والسلام احتاج لأن يريه علي كرم الله تعالى وجهه موضع الكلمة التي امتنع من محوها لكونه كان لا يحسن الكتابة، وقوله: فكتب بتقدير فمحاها فأعاد الكتاب لعلي فكتب أو أطلق فيه كتب علي أمر بالكتابة، وتمام الكلام في محلة فكانت حميتهم على ما في الدر المنثور عن جماعة أنهم لم يقروا أنه ﷺ رسول ولم يقروا ببسم الله الرحمن الرحيم وحالوا بين المسلمين والبيت وقد هم المؤمنون لذلك أن يبطشوا بهم فأنزل الله تعالى سكينته عليهم فتوقروا وحلموا. وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج أنه قال في حمية الجاهلية: حمت قريش أن يدخل عليهم رسول الله ﷺ وقالوا: لا يدخلها علينا أبداً، وقال ابن بحر ـ كما في البحر ـ حميتهم عصبيتهم لآلهتهم والانفة أن يعبدوا غيرها، وفي توسيط علي بين الرسول والمؤمنين إيماء إلى أنه سبحانه أنزل على كل سكينة لائقة به.

ووجه تقديم الإنزال على الرسول عليه الصلاة والسلام لا يخفى؛ وقال الإمام: في هذه الآية لطائف معنوية وهو أنه تعالى أبان غاية البون بين المؤمنين والكافرين حيث باين بين الفاعلين إذ فاعل ﴿جعل﴾ هو الكفار وفاعل ﴿انزل﴾ هو الله تعالى، وبين المفعولين إذ تلك حمية وهذه سكينة. وبين الإضافتين إضافة الحمية إلى الجاهلية وإضافة السكينة إليه تعالى، وبين الفعلين ﴿جعل﴾ و ﴿أنزل﴾ فالحمية مجعولة في الحال كالعرض الذي لا يبقى والسكينة كالمحفوظة في خزانة الرحمة فأنزلها والحمية قبيحة مذمومة في نفسها وازدادت قبحاً بالإضافة إلى الجاهلية والسكينة حسنة في نفسها وازدادت حسناً بإضافتها إلى الله عز وجل، والعطف في فأنزل بالفاء لا بالواو يدل على المقابلة والمجازاة تقول: أكرمني زيد فأكرمته فيدل على أن إنزال السكينة لجعلهم الحمية في قلوبهم حتى أن المؤمنين لم يغضبوا ولم ينهزموا بل صبروا، وهو بعيد في العادة فهو من فضل الله تعالى انتهى وهو مما لا بأس به ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى﴾ هي لا إله إلا الله كما أخرج ذلك الترمذي. وعبد الله بن أحمد. والدارقطني. وغيرهم عن أبي بن كعب مرفوعاً وكما أخرج ابن مردويه عن أبي هريرة وسلمة بن الأكوع كذلك؛ وأخرج أحمد وابن حبان والحاكم عن حرمان أن عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه قال: «سمعت رسول الله ﷺ يقول: إني لأعلم كلمة لا يقولها عبد حقاً من شيئاً قلبه الا حرم على النار فقال عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه: أنا أحدثكم ما هي كلمة الإخلاص التي ألزمها الله سبحانه محمداً وأصحابه وهي كلمة التقوى التي ألاص[1] عليها نبي الله ﷺ عمه أبا طالب عند الموت شهادة أن لا إله إلا الله» وروي ذلك أيضاً عن علي كرم الله تعالى وجهه على ما نقل أبو حيان وابن عمر وابن عباس وعكرمة ومجاهد والحسن وقتادة وسعيد بن جبير في آخرين، وأخرج ذلك عبد بن حميد وابن جرير عن عطاء الخراساني بزيادة محمد رسول الله، وأضيفت إلى التقوى لأنها بها يتقى الشرك ومن هنا قال ابن عباس فيما أخرجه ابن المنذر وغيره: هي رأس كل تقوى، وظاهر كلام عمر رضي الله تعالى عنه أن ضمير ـ هم ـ في ﴿ألزمهم﴾ للرسول عليه الصلاة والسلام ومن معه وإلزامهم إياها بالحكم والأمر بها، وأخرج عبد الرزاق. والحاكم وصححه. والبيهقي في الأسماء والصفات وجماعة عن علي كرم الله تعالى وجهه أنه قال: هي لا إله إلا الله والله أكبر، وروي عن ابن عمر أيضاً نحوه وأخرج ابن أبي حاتم والدارقطني في الأفراد عن المسور بن مخرمة قال: هي لا إله إلا الله وحده لا

(١) يقال الاصه على الشيء أراده عليه وأراده منه ا هـ منه.

شريك له؛ وأخرج ابن أبي رباح. ومجاهد أيضاً أنها لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وغيرهما عن الزهري قال: هي بسم الله الرحمن الرحيم، وضم بعضهم إلى هذا محمد رسول الله، والمراد بإلزامهم إياها اختيارها لهم دون من عدل عنها إلى باسمك اللهم ومحمد بن عبد الله، وقيل: هي الثبات والوفاء بالعهد، ونسبه الخفاجي إلى الحسن، وإلزامهم إياه آمرهم به، وإطلاق الكلمة على الثبات على العهد والوفاء به قيل: لما أن كلا يتوصل به إلى الغرض وهو نظير ما قيل في إطلاق الكلمة على عيسى عليه السلام من أن ذلك لأن كلاً منهما يهتدى به، وجعلت الإضافة على كونها بمعنى الثبات من باب إضافة السبب إلى المسبب فهي إضافة لأدنى ملابسة، وجوز أن تكون اختصاصية حقيقية بتقدير مضاف أي كلمة أهل التقوى، وأريد بالعهد على ما يقتضيه ظاهر سبب النزول عهد الصلح الذي وقع بينه ﷺ وبين أهل مكة؛ وقيل: ما يعم ذلك وسائر عهودهم معه عز وجل.

وأنت تعلم أن الوجه المذكور في نفسه غير ظاهر، ومثله ما قيل: المراد بالكلمة قولهم في الأصلاب: بلى مقرين بوحدانيته جل شأنه، وبالإلزام الأمر بالثبات والوفاء بها، وقيل: هي قول المؤمنين سمعاً وطاعة حين يؤمرون أو ينهون، والظاهر عليه كون الضمير للمؤمنين، وأرجح الأقوال في هذه الكلمة ما روي مرفوعاً وذهب إليه الجم الغفير، ولعل ما ذكر في الأخبار السابقة من باب الاكتفاء، والمراد لا إله إلا الله محمد رسول الله.

﴿وَكَانُوا﴾ عطف على ما تقدم أو حال من المنصوب في ﴿ألزمهم﴾ بتقدير قد أو بدونه والظاهر في الضمير عوده كسابقه كما اقتضاه كلام عمر رضي الله تعالى عنه على الرسول والمؤمنين، واستظهر بعضهم عوده على المؤمنين وكأنه اعتبر الأول عائداً عليهم أيضاً وهو مما لا بأس فيه، ولعله اعتبر الأقربية. فالمعنى وكان المؤمنون في علم الله تعالى ﴿أَحَقَّ بِهَا﴾ أي بكلمة التقوى، وأفعل لزيادة الحقية في نفسها أي متصفين بمزيد استحقاق لها أو على ما هو المشهور فيه والمفضل عليه محذوف أي أحق بها من كفار مكة لأن الله تعالى اختارهم لدينه وصحبة نبيه ﷺ وقيل: من اليهود والنصارى، وقيل من جميع الأمم لأنهم خير أمة أخرجت للناس.

وحكى المبرد أن الذين كانوا قبلنا لم يكن لأحد منهم أن يقول: لا إله إلا الله في اليوم والليلة إلا مرة واحدة لا يستطيع أن يقولها أكثر من ذلك، وكان قائلها يمد بها صوته إلى أن ينقطع نفسه تبركاً بذكر الله تعالى، وقد جعل الله عز وجل لهذه الأمة أن يقولوها متى شاؤوا وهو قوله تعالى: ﴿وألزمهم كلمة التقوى﴾ أي ندبهم إلى ذكرها ما استطاعوا وكانوا أحق بها، وهذا مما لم يثبت، وجوز الإمام كون التفضيل بالنسبة إلى غير كلمة التقوى أي أحق بها من كلمة غير كلمة تقوى وقال: وهذا كما تقول زيد أحق بالإكرام منه بالإهانة، وقولك إذا سئل شخص عن زيد بالطب أعلم أو بالفقه: زيد أعلم بالفقه أي من الطب، وفيه غفلة لا تخفى ﴿وَأَهْلَهَا﴾ أي المستأهل لها وهو أبلغ من الأحق حتى قيل بينه وبين الأحق كما بين الأحق والحق، وقيل: إن أحقيتهم بها من الكفار تفهم رجحانهم رجحاناً ما عليهم ولا تثبت الأهلية كما إذا اختار الملك اثنين لشغل وكل واحد منهما غير صالح له لكن أحدهما أبعد عن الاستحقاق فيقال للأقرب إليه إذا كان ولا بد فهذا أحق كما يقال: الحبس أهون من القتل، ولدفع توهم مثل هذا فيما نحن فيه قال سبحانه: ﴿وأهلها﴾ وقيل: أريد أنهم أحق بها في الدنيا وأهلها بالثواب في الآخرة، وقيل: في الآية تقديم وتأخير والأصل وكانوا أهلها وأحق بها، وكذلك هي في مصحف الحارث بن سويد صاحب ابن مسعود وهو الذي دفن مصحفه لمخالفته الإمام أيام الحجاج وكان من كبار تابعي الكوفة وثقاتهم، وقيل: ضمير ﴿كانوا﴾ عائد على كفار مكة أي وكان أولئك لكفار الذين جعلوا في قلوبهم الحمية أحق بكلمة التقوى لأنهم أهل حرم الله تعالى ومنهم رسوله

ﷺ وقد تقدم إنذارهم لولا ما سلبوا من التوفيق، وفيه ما فيه سواء رجح ضمير ﴿ألزمهم﴾ إلى كفار مكة أيضاً أم لا، وأظن في قائله نزغة رافضية دعته إلى ذلك لكنه لا يتم به غرضه، وقيل: ضمير ﴿كانوا﴾ للمؤمنين إلا أن ضميري ﴿بها وأهلها﴾ للسكينة، وفيه ارتكاب خلاف الظاهر من غير داع، وقيل: هما لمكة أي وكانوا أحق بمكة أن يدخلوها وأهلها، وأشعر بذكر مكة ذكر المسجد الحرام في قوله تعالى: ﴿وصدوكم عن المسجد الحرام﴾ وكذا محل الهدي في قوله سبحانه: ﴿والهدي معكوفاً أن يبلغ محله﴾ وفيه ما لا يخفى ﴿وَكَانَ اللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً﴾ فيعلم سبحانه حق كل شيء واستئهاله لما يستأهله فيسوق عز وجل الحق إلى مستحقه والمستأهل إلى مستأهله أو فيعلم هذا ويعلم ما تقتضيه الحكمة والمصلحة من إنزال السكينة والرضا بالصلح فيكون تذييلاً للجميع ما تقدم.

﴿لَقَدْ صَدَقَ اللهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا﴾ رأى رسول الله ﷺ في المنام قبل خروجه إلى الحديبية، وأخرج ابن المنذر وغيره عن مجاهد أنه عليه الصلاة والسلام رأى وهو في الحديبية، والأول أصح، أنه هو وأصحابه دخلوا مكة آمنين وقد حلقوا وقصروا فقص الرؤيا على أصحابه ففرحوا واستبشروا وحسبوا أنهم داخلوها في عامهم وقالوا: إن رؤيا رسول الله ﷺ حق فلما تأخر ذلك قال على طريق الاعتراض عبد الله بن أبي وعبد الله بن نفيل ورفاعة بن الحرث: والله ما حلقنا ولا قصرنا ولا رأينا المسجد الحرام فنزلت. وقد روي عن عمر رضي الله تعالى عنه أنه قال نحوه على طريق الاستكشاف ليزداد يقينه، وفي رواية أن رؤياه ﷺ إنما كانت أن ملكاً جاءه فقال له: ﴿لتدخلن﴾ الخ، والمعنى لقد صدقه سبحانه في رؤياه على أنه من باب الحذف والإيصال كما في قولهم: صدقني سن بكره، وتحقيقه أنه تعالى أراه الرؤيا الصادقة.

وقال الراغب: الصدق يكون بالقول ويكون بالفعل وما في الآية صدق بالفعل وهو التحقيق أي حقق سبحانه رؤيته. وفي شرح الكرماني كذب يعتدي إلى مفعولين يقال: كذبني الحديث وكذا صدق كما في الآية، وهو غريب لتعدي المثقل لواحد والمخفف لمفعولين انتهى. وفي البحر صدق يتعدى إلى اثنين الثاني منهما بنفسه وبحرف الجر تقول صدقت زيداً الحديث وصدقته في الحديث، وقد عدها بعضهم في أخوات استغفر وأمر والمشهور ما أشرنا إليه أولاً ﴿بالْحَقِّ﴾ صفة لمصدر محذوف أي صدقاً ملتبساً بالحق أي بالفرض الصحيح والحكمة البالغة وهو ظهور حال المتزلزل في الإيمان والراسخ فيه، ولأجل ذلك أخر وقوع الرؤيا إلى العام القابل أو حال من الرؤيا أي ملتبسة بالحق ليست من قبيل أضغاث الأحلام، وجوز كونه حالاً من الاسم الجليل وكونه حالاً من ﴿رسوله﴾ وكونه ظرفاً لغواً. لصدق . وكونه قسماً بالحق الذي هو من أسمائه عز وجل أو بنقيض الباطل، وقوله تعالى: ﴿لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ﴾ عليه جواب القسم والوقف على ﴿الرؤيا﴾ وهو على جميع ما تقدم جواب قسم مقدر والوقف على ﴿الْحق﴾ أي والله لتدخلن الخ، وقوله سبحانه: ﴿إِنْ شَاءَ اللهُ﴾ تعليق للعدة بالمشيئة لتعليم العباد، وبه ينحل ما يقال: إنه تعالى خالق للأشياء كلها وعالم بها قبل وقوعها فكيف وقع التعليق منه سبحانه بالمشيئة، وفي معنى ما ذكر قول ثعلب: استثنى سبحانه وتعالى فيما يعلم ليستثنى الخلق فيما لا يعلمون.

وفيه تعريض بأن وقوع الدخول من مشيئته تعالى لا من جلادتهم وتدبيرهم، وذكر الخفاجي أنه قد وضع فيه الظاهر موضع الضمير وأصله لتدخلنه لا محالة إلا إن شاء عدم الدخول فهو وعد لهم عدل به عن ظاهره لأجل التعريض بهم والإنكار على المعترضين على الرؤيا فيكون من باب الكناية انتهى. وقد أجيب عن السؤال بغير ذلك فقيل: الشك راجع إلى المخاطبين، وفيه شيء ستعلمه قريباً إن شاء الله تعالى؛ وقال الحسين بن الفضل: إن التعليق راجع إلى دخولهم جميعاً وحكي ذلك عن الجبائي، وقيل: إنه ناظر إلى الأمن فهو مقدم من تأخير أي لتدخلنه حال كونكم

﴿آمنينَ﴾ من العدو إن شاء الله. وردهما في الكشف فقال: أما جعله قيد دخولهم بالأسر أو الأمن ففيه أن السؤال بعد باق لأن الدخول المخصوص أيضاً خبر من الله تعالى وهو ينافي الشك، وليس نظير قول يوسف عليه السلام: ﴿ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين﴾ [يوسف: ٩٩] إذ لا يبعد أن لا يعرف عليه السلام مستقر الأمر من الأمن أو الخوف فإما أن يؤول بأن الشك راجع إلى المخاطبين أو بأنه تعليم، والثاني أولى لأن تغليب الشاكين لا يناسب هذا المساق بل الأمر بالعكس. ودفع وروده على الحسين بأن المراد أنه في معنى ليدخلنه من شاء الله دخوله منكم فيكون كناية عن أن منهم من لا يدخله لأن أجله يمنعه منه فلا يلزم الرجوع لما ذكر.

وقيل: هو حكاية لما قاله ملك الرؤيا له ﷺ وإليه ذهب ابن كيسان أو لما قاله هو عليه الصلاة والسلام لأصحابه. ورده صاحب التقريب بأنه كيف يدخل في كلامه تعالى ما ليس منه بدون حكاية. ودفع بأن المراد أن جواب القسم بيان للرؤيا وقائلها في المنام الملك وفي اليقظة الرسول ﷺ فهي في حكم المحكي في دقيق النظر كأنه قيل: وهي قول الملك أو الرسول لتدخلن الخ، وأنت تعلم أن هذا وإن صحح النظم الكريم لا يدفع البعد، وقد اعترض به على ذلك صاحب الكشف لكنه ادعى أن كونه حكاية ما قاله الرسول عليه الصلاة والسلام أقل بعداً من جعله من قول الملك، وقال أبو عبيدة. وقوم من النحاة: ﴿إن﴾ بمعنى إذ وجعلوا من ذلك قوله تعالى: ﴿وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين﴾ [آل عمران: ١٣٩] وقوله ﷺ في زيارة القبور: «أنتم السابقون وإنّا إن شاء الله بكم لاحقون» والبصريون لا يرتضون ذلك، وقوله تعالى: ﴿محلقين رؤوسكم ومقصرين﴾ حال كآمنين من الواو المحذوفة لالتقاء الساكنين من قوله تعالى: ﴿لتدخلن﴾ إلا أن آمنين حال مقارنة وهذا حال مقدرة لأن الدخول في حال الإحرام لا في حال الحلق والتقصير، وجوز أن يكون حالاً من ضمير ﴿آمنين﴾ والمراد محلقاً بعضكم رأس بعض ومقصراً آخرون ففي الكلام تقدير أو فيه نسبة ما للجزء إلى الكل، والقرينة عليه أنه لا يجتمع الحلق وهو معروف والتقصير وهو أخذ بعض الشعر فلا بد من نسبة كل منهما لبعض منهم، وقوله تعالى: ﴿لا تخافون﴾ حال من فاعل ﴿لتدخلن﴾ أيضاً لبيان الأمن بعد تمام الحج و ﴿آمنين﴾ فيما تقدم لبيان الأمن وقت الدخول فلا تكرار أو حال من الضمير المستتر في ﴿آمنين﴾ فإن أريد به معنى آمنين كان حالاً مؤكدة، وإن أريد لا تخافون تبعة في الحلق أو التقصير ولا نقص ثواب فهو حال مؤسسة، ولا يخفى الحال إذا جعل حالاً من الضمير في ﴿محلقين﴾ أو ﴿مقصرين﴾، وجوز أن يكون استئنافاً بيانياً في جواب سؤال مقدر كأنه قيل: فكيف الحال بعد الدخول؟ فقيل: لا تخافون أي بعد الدخول.

واستدل بالآية على أن الحلق غير متعين في النسك بل يجزىء عنه التقصير، وظاهر تقديمه عليه أنه أفضل منه وهو الذي دلت عليه الأخبار في غير النساء. أخرج الشيخان وأحمد وابن ماجه عن أبي هريرة قال: «قال رسول الله ﷺ اللهم اغفر للمحلقين قالوا: يا رسول الله والمقصرين قال: اللهم اغفر للمحلقين ثلاثاً قالوا: يا رسول الله والمقصرين قال: والمقصرين» وأما في النساء فقد أخرج أبو داود والبيهقي في سننه عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «ليس على النساء حلق وإنما على النساء التقصير» والسنة في الحلق أن يبدأ بالجانب الأيمن، فقد أخرج ابن أبي شيبة عن أنس أنه رأى النبي ﷺ قال للحلاق هكذا وأشار بيده إلى جانب الأيمن وإن يبلغ به إلى العظمين كما قال عطاء.

وأخرج ابن أبي شيبة أيضاً عن ابن عباس وابن عمر رضي الله تعالى عنهم أنهما كانا يقولان للحلاق ابدأ بالأيمن وابلغ بالحلق العظمين، واستدل بالآية أيضاً على أن التقصير بالرأس دون اللحية وسائر شعر البدن إذ الظاهر أن المراد ومقصرين رؤوسكم أي شعرها لظهور أن الرؤوس أنفسها لا تقصر ﴿فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا﴾ الظاهر عطفه على ﴿لقد صدق﴾ فالترتيب باعتبار التعلق الفعلي بالمعلوم أي فعلم عقيب ما أراه الرؤيا الصادقة ما لم تعلموا من الحكمة الداعية

لتقديم ما يشهد للصدق علماً فعلياً، وقيل: الفاء للترتيب الذكري ﴿فَجَعَلَ﴾ لأجل هذا العلم ﴿مِنْ دُونِ ذَلِكَ﴾ أي من دون تحقق مصداق ما أراه من دخول المسجد الحرام آمنين الخ، وقيل: أي من دون فتح مكة، والأول أظهر، وهذا أنسب بقوله تعالى: ﴿فَتْحاً قَرِيباً﴾ وهو فتح خيبر كما قال ابن زيد وغيره، والمراد بجعله وعده تعالى وإنجازه من غير تسويف ليستدل به على صدق الرؤيا وتستروح قلوب المؤمنين إلى تيسر وقوعها.

وقال في الكشاف: ﴿ما لم تعلموا﴾ أي من الحكمة في تأخير فتح مكة إلى العام القابل، وفيه أمران: الأول أن فتح مكة لم يقع في العام الذي قاله بل في السنة الثامنة، والتجوز في العام القابل أو تأويل الفتح بدخول المؤمنين مكة معتمرين لا يخفى حاله. الثاني إباء الفاء عما ذكر لأن علمه تعالى بذلك متقدم على إراءة الرؤيا قطعاً.

وأجيب عن هذا بالتزام كون الفاء للترتيب الذكري أو كون المراد فأظهر معلومه لكم وهو الحكمة فتدبر.

ونقل عن كثير من الصحابة رضي الله تعالى عنهم أن الفتح القريب في الآية هو بيعة الرضوان، وقال مجاهد، وابن إسحق: هو فتح الحديبية، ومن الغريب ما قيل: إن المراد به فتح مكة مع أنه لم يكن دخول الرسول عليه الصلاة والسلام وأصحابه دون مكة على أنه مناف للسياق كما لا يخفى.

﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى﴾ أي ملتبساً به على أن الباء للملابسة، والجار والمجرور في موضع الحال من المفعول، والتباسه بالهدى بمعنى أنه هاد، وقيل: أي مصاحباً للهدى، والمراد به الدليل الواضح والحجة الساطعة أو القرآن، وجوز أن تكون الباء للسببية أو للتعليل وهما متقاربان، والجار والمجرور متعلق بأرسل أي أرسله بسبب الهدى أو لأجله ﴿وَدِينِ الْحَقِّ﴾ وبدين الإسلام، والظاهر أن المراد به ما يعم الأصول والفروع، وجوز أن يراد بالهدى الأصول وبدين الحق الفروع فإن من الرسل عليهم السلام من لم يرسل بالفروع وإنما أرسل بالأصول وتبيانها، والظاهر أن المراد بالحق نقيض الباطل، وجوز أن يراد به ما هو من أسمائه تعالى أي ودين الله الحق، وجوز الإمام غير ذلك أيضاً ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ ليعليه على جنس الدين بجميع أفراده أي ما يدان به من الشرائع والملل فيشمل الحق والباطل، وأصل الاظهار جعل الشيء على الظهر فلذا كني به عن الإعلاء وعن جعله بادياً للرائي ثم شاع في ذلك حتى صار حقيقة عرفية، وإظهاره على الحق بنسخ بعض أحكامه المتبدلة بتبدل الاعصار، وعلى الباطل ببيان بطلانه، وجوز غير واحد، ولعله الأظهر بحسب المقام، أن يكون إظهاره على الدين بتسليط المسلمين على جميع أهل الأديان وقالوا: ما من أهل دين حاربوا المسلمين إلا وقد قهرهم المسلمون، ويكفي في ذلك استمرار ما ذكر زماناً معتداً به كما لا يخفى على الواقفين على كتب التواريخ والوقائع، وقيل: إن تمام هذا الاعلاء عند نزول عيسى عليه السلام وخروج المهدي رضي الله تعالى عنه حيث لا يبقى حينئذٍ دين سوى الإسلام، ووقوع خلاف ذلك بعد لا يضر اما لنحو ما سمعت وإما لأن الباقي من الدنيا إذ ذاك كلا شيء، وفي الجملة فضل تأكيد لما وعد الله تعالى به من الفتح وتوطين لنفوس المؤمنين على أنه تعالى سيفتح لهم من البلاد ويتيح لهم من الغلبة على الأقاليم ما يستقلون بالنسبة إليه فتح مكة ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيداً﴾ على أن ما عده عز وجل من إظهار دينه على جميع الأديان أو الفتح كائن لا محالة أو كفى بالله شهيداً على رسالته ﷺ لأنه عليه الصلاة والسلام ادعاها وأظهر الله تعالى المعجزة على يده وذلك شهادة منه تعالى عليها، واقتصر على هذا الوجه الرازي وجعل ذلك تسلية عما وقع من سهيل بن عمرو إذ لم يرض بكتابة محمد رسول الله وقال ما قال.

وجعل بعض الأفاضل إظهار المعجزة شهادة منه تعالى على تحقق وعده عز وجل أيضاً ولا يظهر إلا بضم إخباره عليه الصلاة والسلام به.

﴿مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللهِ﴾ أي هو أو ذلك الرسول المرسل بالهدى ودين الحق محمد على أن الاسم الشريف خبر مبتدأ محذوف و ﴿رسول الله﴾ عطف بيان أو نعت أو بدل، والجملة استئناف مبين لقوله تعالى: ﴿هو الذي أرسل رسوله﴾ وهذا هو الوجه الأرجح الأنسب بالمساق كما في الكشف ويؤيده نظراً إلى بعض ما يأتي من الأوجه إن شاء الله تعالى قراءة ابن عامر في رواية ﴿رَسُولَ﴾ بالنصب على المدح، وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ مبتدأ خبره قوله سبحانه: ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ وقال أبو حيان: الظاهر أن ﴿محمد رسول الله﴾ مبتدأ وخبر والجملة عليه مبينة للمشهود به، أما على كونه الرسالة فظاهر، وأما على كونه محقق الوعد فقيل: لأن كينونة ما وعده لازمة لكونه عليه الصلاة والسلام رسول الله إذ هو لا يوعد إلا بما هو محقق ولا يخبر إلا عن كل صدق.

وجوز كون ﴿محمد﴾ مبتدأ و ﴿رسول﴾ تابعاً له ﴿والذين معه﴾ عطفاً عليه والخبر عنه وعنهم قوله تعالى: ﴿أشداء﴾ الخ.

وقرأ الحسن «أشِدَّاءَ». «رُحَمَاءَ» بنصبهما فقيل على المدح وقيل على الحال، والعامل فيهما العامل في ﴿معه﴾ فيكون الخبر على هذا الوجه جملة ﴿تراهم﴾ الآتي وكذا خبر ﴿الذين﴾ على الوجه الأول، والمراد بالذين معه عند ابن عباس مَن شهد الحديبية، وقال الجمهور: جميع أصحابه ﷺ ورضي الله تعالى عنهم، و ﴿أشداء﴾ جمع شديد و ﴿رحماء﴾ جمع رحيم، والمعنى أن فيهم غلظة وشدة على أعداء الدين ورحمة ورقة على اخوانهم المؤمنين، وفي وصفهم بالرحمة بعد وصفهم بالرحمة بعد وصفهم بالشدة تكميل واحتراس فإنه لو اكتفى بالوصف الأول لربما توهم أن مفهوم القيد غير معتبر فيتوهم الفظاظة والغلظة مطلقاً فدفع بإرادف الوصف الثاني، ومآل ذلك أنهم مع كونهم أشداء على الأعداء رحماء على الاخوان، ونحوه قوله تعالى: ﴿أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين﴾ [المائدة: ٥٤] وعلى هذا قوله:

حليم إذا ما الحلم زين أهله ... على أنه عند العدو مهيب

وقد بلغ كما روي عن الحسن من تشددهم على الكفار أنهم كانوا يتحرزون من ثيابهم أن تلزق بثيابهم ومن أبدانهم أن تمس أبدانهم وبلغ من ترحمهم فيما بينهم أنه كان لا يرى مؤمن مؤمناً إلا صافحه وعانقه. والمصافحة لم يختلف فيها الفقهاء. أخرج أبو داود عن البراء قال «قال رسول الله ﷺ: إذا التقى المسلمان فتصافحا وحمدا الله واستغفراه غفر لهما» وفي رواية الترمذي «ما من مسلمين يلتقيان فيتصافحان إلا غفر لهما قبل أن يتفرقا» وفي الاذكار النووية أنها مستحبة عند كل لقاء وأما ما اعتاده الناس بعد صلاتي الصبح والعصر فلا أصل له ولكن لا بأس به، فإن أصل المصافحة سنة وكونهم محافظين عليها في بعض الأحوال ومفرطين في كثير منها لا يخرج ذلك البعض عن كونه من المصافحة التي ورد الشرع بأصلها، وجعل ذلك العز بن عبد السلام في قواعده من البدع المباحة، وأطال الشيخ إبراهيم الكوراني قدس سره الكلام في ذلك، وأما المعانقة فقال الزمخشري: كرهها أبو حنيفة رضي الله تعالى عنه وكذلك التقبيل قال: لا أحب أن يقبل الرجل من الرجل وجهه ولا يده ولا شيئاً من جسده، ورخص أبو يوسف عليه الرحمة المعانقة؛ ويؤيد ما روي عن الإمام ما أخرجه الترمذي عن أنس قال: «سمعت رجلاً يقول لرسول الله ﷺ: يا رسول الله الرجل منا يلقى أخاه أينحني له؟ قال: لا قال: أفيلتزمه ويقبله؟ قال: لا قال: أيأخذ بيده ويصافحه؟ قال: نعم» وفي الاذكار التقبيل وكذا المعانقة لا بأس به عند القدوم من سفر ونحوه، ومكروه كراهة تنزيه في غيره، وللأمرد الحسن حرام بكل حال.

أخرج الترمذي وحسنه عن عائشة قالت: قدم زيد بن خالد بن حارثة المدينة ورسول الله في بيتي فقرع الباب فقام إليه رسول الله ﷺ يجر ثوبه فاعتنقه وقبله، وزاد رزين في حديث أنس السابق بعد قوله: ويقبله قال: «لا إلا أن يأتي

من سفره» وروى أبو داود سئل أبو ذر هل كان ﷺ يصافحكم إذا لقيتموه؟ قال: ما لقيته قط إلا صافحني وبعث إلي ذات يوم ولم أكن في أهلي فجئت فأخبرت أنه ﷺ أرسل إلي فأتيته وهو على سريره فالتزمني فكانت أجود أجود، وهذا يؤيد الإطلاق المحكي عن أبي يوسف؛ وينبغي التأسي بهم رضي الله تعالى عنهم في التشدد على أعداء الدين والرحمة على المؤمنين. وقد أخرج ابن أبي شيبة وأبو داود عن عبد الله بن عمر مرفوعاً «من لم يرحم صغيرنا ويعرف حق كبيرنا فليس منا» وأخرجاهما. وأحمد وابن حبان والترمذي وحسنه عن أبي هريرة قال: «سمعت رسول الله ﷺ يقول: لا تنزع الرحمة إلا من شقي» ولا بأس بالبر والإحسان على عدو الدين إذا تضمن مصلحة شرعية كما أفاد ذلك ابن حجر في فتاويه الحديثية فليراجع. وقرأ يحيى بن يعمر «أشدا» بالقصر وهي قراءة شاذة لأن قصر الممدود في الشعر نحو قوله:

لا بـد مـن صـنـعـا وإن طـال الـسـفـر

وقوله تعالى: ﴿تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً﴾ خبر آخر ـ للذين ـ أو استئناف ويجوز فيه غير ذلك على ما لا يخفى، والرؤية بصرية، والخطاب لكل من تتأتى منه، و ﴿ركعاً سجداً﴾ حال من المفعول، والمراد تراهم مصلين، والتعبير بالركوع والسجود عن الصلاة مجاز مرسل، والتعبير بالمضارع للاستمرار وهو استمرار عرفي، ومن هنا قال في البحر: هذا دليل على كثرة الصلاة منهم ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللهِ وَرِضْوَاناً﴾ أي ثواباً ورضا، والجملة إما خبر آخر أو حال من مفعول ﴿تراهم﴾ أو من المستتر في ﴿ركعاً سجداً﴾ أو استئناف مبني على سؤال نشأ من بيان مواظبتهم على الركوع والسجود كأنه قيل: ماذا يريدون بذلك؟ فقيل: يبتغون فضلاً الخ.

وقرأ عمرو بن عبيد «ورُضْوَاناً» بضم الراء ﴿سِيمَاهُمْ﴾ أي علامتهم وقرىء «سيمياؤهم» بزيادة ياء بعد الميم والمد وهي لغة فصيحة كثيرة في الشعر قال الشاعر:

غـلام رمـاه الله بـالـحـسـن يـافـعـاً ... لـه سـيـمـيـاء لا تـشـق عـلـى الـبـصـر

وجاء سيماء بالمد واشتقاقها من السومة بالضم العلامة تجعل على الشاة والياء مبدلة من الواو، وهي مبتدأ خبره قوله تعالى: ﴿فِي وُجُوهِهِمْ﴾ أي في جباههم أو هي على ظاهرها، وقوله سبحانه: ﴿مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾ حال من المستكن في الجار والمجرور الواقع خبراً لسيماهم أو بيان لها أي سيماهم التي هي أثر السجود، ووجه إضافة الأثر إلى السجود أنه حادث من التأثير الذي يؤثره السجود، وشاع تفسير ذلك بما يحدث في جبهة السجاد مما يشبه أثر الكي وثفنة البعير وكان كل من العليين علي بن الحسين زين العابدين وعلي بن عبد الله بن عباس أبي الاملاك رضي الله تعالى عنهما يقال له ذو الثفنات لأن كثرة سجودهما أحدث في مواقعه منهما أشباه ثفنات البعير وهي ما يقع على الأرض من أعضائه إذا غلظ، وما روي من قوله ﷺ: «لا تعلبوا صوركم» أي لا تسموها من العلب بفتح العين المهملة وسكون اللام الأثر، وقول ابن عمر وقد رأى رجلاً بأنفه أثر السجود: إن صورة وجهك أنفك فلا تعلب وجهك ولا تشِن صورتك فذلك إنما هو إذا اعتمد بجبهته وأنفه على الأرض لتحدث تلك السمة وذاك محض رياء ونفاق يستعاذ بالله تعالى منه، والكلام فيما حدث في وجه السجاد الذي لا يسجد إلا خالصاً لوجه الله عز وجل، وأنكر بعضهم كون المراد بالسيما ذلك.

أخرج الطبراني والبيهقي في سننه عن حميد بن عبد الرحمن قال: كنت عند السائب بن يزيد إذ جاء رجل وفي وجهه أثر السجود فقال: لقد أفسد هذا وجهه أما والله ما هي السيما التي سمى الله تعالى ولقد صليت على وجهي منذ ثمانين سنة ما أثر السجود بين عينيّ، وربما يحمل على أنه استشعر من الرجل تعمداً لذلك فنفى أن يكون ما حصل به هو السيما التي سمى الله تعالى، ونظيره ما حكي عن بعض المتقدمين قال: كنا نصلي فلا يرى بين أعيننا شيء ونرى أحدنا الآن يصلي فترى بين عينيه ركبة البعير فما ندري أثقلت الأرؤس أم خشنت الأرض.

وأخرج ابن جرير وجماعة عن سعيد بن جبير أنه قال: هذه السيما ندى الطهور وتراب الأرض، وروي نحوه عن سعيد بن المسيب وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد أنه قال: ليس له أثر في الوجه ولكنه الخشوع، وفي رواية هي الخشوع والتواضع، وقال منصور: سألت مجاهداً أهذه السيما هي الأثر يكون بين عيني الرجل قال: لا وقد يكون مثل ركبة البعير وهو أقسى قلباً من الحجارة، وقيل: هي صفرة الوجه من سهر الليل وروي ذلك عن عكرمة والضحاك، وروى السلمي عن عبد العزيز المكي ليس ذاك هو النحول والصفرة ولكنه نور يظهر على وجوه العابدين يبدو من باطنهم على ظاهرهم يتبين ذلك للمؤمنين ولو كان في زنجي أو حبشي، وقال عطاء: والربيع ابن أنس: هو حسن يعتري وجوه المصلين، وأخرج ابن المنذر وابن جرير وابن أبي حاتم والبيهقي في سننه عن ابن عباس قال: السمت الحسن، وعن بعضهم ترى على وجوههم هيبة لقرب عهدهم بمناجاة سيدهم، والذاهبون إلى هذه الأقوال قائلون: إن المراد علامتهم في وجوههم وهم في الدنيا، وقال غير واحد: هذه السيما في الآخرة، أخرج البخاري في تاريخه. وابن نصر عن ابن عباس أنه قال في الآية: بياض يغشى وجوههم يوم القيامة. وأخرج ابن نصر وعبد بن حميد وابن جرير عن الحسن مثله، وأخرجوا عن عطية العوفي قال: موضع السجود أشد وجوههم بياضاً، وأخرج الطبراني في الأوسط والصغير وابن مردويه بسند حسن عن أبي بن كعب قال: «قال رسول الله ﷺ في قوله تعالى: ﴿**سيماهم في وجوهم من أثر السجود**﴾ النور يوم القيامة» النور يوم القيامة» ولا يبعد أن يكون النور علامة في وجوههم في الدنيا والآخرة لكنه لما كان في الآخرة أظهر وأتم خصه النبي ﷺ بالذكر، وإذا صح الحديث فهو مذهبي. وقرأ ابن هرمز «إثر» بكسر الهمزة وسكون الثاء وهو لغة في أثر. وقرأ قتادة من «آثار» بالجمع ﴿**ذَلِكَ**﴾ إشارة إلى ما ذكر من نعوتهم الجليلة؛ وما فيه من معنى البعد مع قرب العهد بالمشار إليه للإيذان بعلو شأنه وبعد منزلته في الفضل، وقيل: البعد باعتبار المبتدأ أعني ﴿**أشداء**﴾ ولو قيل هذا لتوهم أن المشار إليه هو النعت الأخير. أعني ﴿**سيماهم في وجوههم من أثر السجود**﴾. وهو مبتدأ خبره قوله تعالى: ﴿**مَثَلُهُمْ**﴾ أي وصفهم العجيب الشأن الجاري في الغرابة مجرى الأمثال، وقوله سبحانه وتعالى: ﴿**فِي التَّوْرَاةِ**﴾ حال من ﴿**مثلهم**﴾ والعامل معنى الإشارة؛ وقوله تعالى: ﴿**وَمَثَلُهُمْ فِي الانجيل**﴾ عطف على ﴿**مثلهم**﴾ الأول كأنه قيل: ذلك مثلهم في التوراة والإنجيل، وتكرير ﴿**مثلهم**﴾ لتأكيد غرابته وزيادة تقريرها، وقرىء «الأَنجيل» بفتح الهمزة، وقوله عز وجل: ﴿**كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ**﴾ الخ تمثيل مستأنف أي هم أو مثلهم كزرع الخ فالوقف على ﴿**الإنجيل**﴾ وهذا مروي عن مجاهد، وقيل: ﴿**مثلهم**﴾ الثاني مبتدأ وقوله تعالى: ﴿**كزرع**﴾ الخ خبره فالوقف على ﴿**التوراة**﴾ وهذا مروي عن الضحاك وأبي حاتم وقتادة، وجوز أن يكون ذلك إشارة مبهمة أوضحت بقوله تعالى: ﴿**كزرع**﴾ الخ كقوله تعالى: ﴿وقضينا إليه ذلك الأمر أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين﴾ [الحجر: ٦٦] فعلى الأول والثالث «مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل» شيء واحد إلا أنه على الأول ﴿**أشداء على الكفار رحماء بينهم**﴾ الخ، وعلى الثالث ﴿**كزرع أخرج شطأه**﴾ الخ وعلى الثاني ﴿**مثلهم في التوراة**﴾ شيء وهو ﴿**أشداء**﴾ الخ ومثلهم في الإنجيل شيء آخر وهو ﴿**كزرع**﴾ الخ.

واعترض الوجه الثالث بأن الأصل في الإشارة أن تكون لمتقدم وإنما يشار إلى المتأخر إذا كان نعتاً لاسم الإشارة نحو ﴿**ذلك الكتاب**﴾، وفيه أن الحصر ممنوع، والشطء فروخ الزرع كما قال غير واحد وهو ما خرج منه وتفرع في شاطئيه أي في جانبيه؛ وجمعه كما قال الراغب اشطاء، وقال قطرب: شوك السنبل يخرج من الحبة عشر سنبلات وتسع وثمان، وقال الكسائي. والأخفش: طرفه، وأنشدوا:

اخرج الشطء على وجه الثرى ... ومن الأشجار افنان الثمر

وزعم أبو الفتح أن الشطء لا يكون إلا في البِر والشعير، وقال صاحب اللوامح: شطأ الزرع وأشطأ إذا أخرج فراخه وهو في الحنطة والشعير وغيرهما، وفي البحر اشطأ الزرع افرخ والشجرة أخرجت غصونها.

وفي القاموس الشطء فراخ النخل والزرع أو ورقه جمعه شطوء، وشطأ كمنع شطأ وشطوأ أخرجها، ومن الشجر ما خرج حول أصله وجمعه اشطاء، وأشطأ أخرجها ا هـ، وفيه ما يرد به على أبي الفتح مع زيادة لا تخفى فائدتها فلا تغفل.

وقرأ ابن كثير وابن ذكوان «شَطَأَهُ» بفتح الطاء وقرأ أبو حيوة وابن أبي عبلة وعيسى الكوفي كذلك وبالمد. وقرأ زيد بن علي كذلك أيضاً وبألف بدل الهمزة فاحتمل أن يكون مقصوراً وإن يكون أصله الهمز فنقل الحركة وأبدل الهمزة ألفاً كما قالوا في المرأة والكمأة المراة والكماة، وهو تخفيف مقيس عند الكوفيين وعند البصريين شاذ لا يقاس عليه، وقرأ أبو جعفر «شطه» بحذف الهمزة وإلقاء حركتها على الطاء، ورويت عن شيبة ونافع والجحدري، وعن الجحدري أيضاً «شَطْوُهُ» بإسكان الطاء وواو بعدها، قال أبو الفتح: هي لغة أو بدل من الهمزة ﴿فَآزَرَهُ﴾ أي أعانه وقواه قاله الحسن وغيره، قال الراغب: وأصله من شد الإزار كون الكفار مستيقنين بالآخرة ومتحققين كون الوعد منه عز وجل بعيد، وضمير ﴿منهم﴾ لمن عاد عليه الضمائر السابقة، و ﴿من﴾ للبيان مثلها في قوله تعالى: ﴿فاجتنبوا الرجس من الأوثان﴾ [الحج: ٣٠] وليس مجيئها كذلك مخصوصاً بما إذا كانت داخلة على ظاهر كما توهم صاحب التحفة الاثني عشرية في الكلام على قوله تعالى: ﴿وعد الله الذي آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض﴾ [النور: ٥٥] فقال: حمل «من» للبيان إذا كان داخلاً على الضمير مخالف لاستعمال العرب، وأنكر ذلك عليه صاحب الترجمة لكن قال: لو ادعى هذا الخلاف في ضميري الخطاب والتكلم لم يبعد.

ومن مجيئها للبيان داخلة على ضمير الغائب قوله تعالى: ﴿لو تزيلوا لعذبنا الذين كفروا منهم﴾ عند القائلين بأن ضمير ﴿تزيلوا﴾ للمؤمنين لا للتبعيض كما يقوله الشيعة الزاعمون ارتداد أكثر الصحابة رضي الله تعالى عنهم من أهل بيعة الرضوان وغيرهم، فإن مدحهم السابق بما يدل على الاستمرار كقوله تعالى: ﴿تراهم ركعاً سجداً﴾ ووصفهم بما يدل على الدوام والثبات كقوله سبحانه: ﴿والذين معه أشداء على الكفار﴾ يأبى التبعيض والارتداد الذين زعموه عند من له أدنى إنصاف وشمة من دين، ويزيد زعمهم هذا سقوطاً عن درجة الاعتبار أن مدحهم ذاك قد كتبه الله تعالى في التوراة قبل أن يخلق السموات والأرض، ولا يكاد عاقل يقبل أنه تعالى أطلق المدح وكتبه لأناس لم يثبت على تلك الصفة إلا قليل منهم، وإذا قلنا: إن هؤلاء الممدوحين هم أهل بيعة الرضوان الذين بايعوه عليه الصلاة والسلام في الحديبية كما يشعر به ﴿والذين معه﴾ لا سيما على القول بأن السورة بتمامها نزلت عند منصرفه عليه الصلاة والسلام من الحديبية قبل أن يتفرقوا عنه ﷺ كان سقوط ذلك الزعم أبين وأبين لأن الارتداد الذي يزعمونه كان لترك مبايعة علي كرم الله تعالى وجهه بعد وفاة رسول الله ﷺ مع العلم بالنص على خلافته بزعمهم ومبايعة أبي بكر رضي الله تعالى عنه، وكيف يكون ذاك ارتداداً والله عز وجل حين رضي عنهم على أنهم يفعلونه، والقول بأنه سبحانه إنما رضي عن مبايعتهم أو عنهم من حيث المبايعة ولم يرض سبحانه عنهم مطلقاً لأجلها خلاف ظاهر الآية، والظاهر ما نفي، ولا يعكر عليه صدور بعض المعاصي من بعضهم بعد وإنما يعكر صدور ما لا يجامع الرضا أصلاً كالارتداد والعياذ بالله تعالى، وبالجملة جعل ﴿من﴾ للتبعيض ليتم للشيعة ما زعموه مما يأباه الكتاب والسنة وكلام العترة. وفي التحفة الاثني عشرية من ذلك ما تنشرح له الصدور وتزداد به قلوب المؤمنين نوراً على نور، ويا سبحان الله أين جعل ﴿من﴾ للتبعيض من دعوى الارتداد، ولكن من يضلل الله فما له من هاد، وتأخير ﴿منهم﴾ هنا عن ﴿عملوا الصالحات﴾

وتقديم ﴿منكم﴾ عليه في آية النور التي ذكرناها آنفاً لأن عمل الصالحات لا ينفك عنهم، وذلك ثمت لبيان الخلفاء والعمل الصالح ليس موقوفاً عليه لاستمرار صحة خلافتهم حتى لا ينعزلوا بالفسق، وقال ابن جرير: ﴿منهم﴾ يعني من الشطء الذي أخرجه الزرع وهم الداخلون في الإِسلام إلى يوم القيامة فأعاد الضمير على معنى الشطء وكذلك فعل البغوي ولا يخفى بعده.

وهذا وفي المواهب أن الإِمام مالكاً قد استنبط من هذه الآية تكفير الروافض الذين يبغضون الصحابة رضي الله تعالى عنهم، فإنهم يغيظونهم ومن غاظه الصحابة فهو كافر، ووافقه كثير من العلماء انتهى. وفي البحر ذكر عند مالك رجل ينتقص الصحابة فقرأ مالك هذه الآية فقال: من أصبح من الناس في قلبه غيظ. من أصحاب رسول الله ﷺ فقد أصابته هذه الآية، ويعلم تكفير الرافضة بخصوصهم، وفي كلام عائشة يقال: أزرته أي شددت إزاره ويقال: آزرت البناء وأزرته قويت أسافله، وتأزر النبات طال وقوي.

وذكر غير واحد أنه إما من المؤازرة بمعنى المعاونة أو من الإِيزار وهي الإِعانة. وفي البحر «آزر» أفعل كما حكي عن الأخفش، وقول مجاهد وغيره فاعل خطأ لأنه لم يسمع في مضارعه ألا يؤزر على وزن يكرم دون يوازر.

وتعقب بأن هذه الشهادة نفي غير مسموعة على أنه يجوز أن يكون ورد من بابين واستغنى بأحدهما عن الآخر ومثله كثير، مع أن السرقسطي نقله عن المازني لكنه قال: يقال آزر الشيء غيره أي ساواه وحاذاه، وأنشد لامرىء القيس:

بمحنية قد آزر الضال نبتها ... بجر جيوش غانمين وخيب

وجعل ما في الآية من ذلك، وهو مروي أيضاً عن السدي قال: آزره صار مثل الأصل في الطول، والجمهور على ما نقل أولاً، والضمير المرفوع في ﴿آزَرَهُ﴾ للشطء والمنصوب للزرع أي فقوي ذلك الشطء الزرع، والظاهر أن الإِسناد في ﴿أخرج﴾ و «آزر» مجازي وكون ذلك من الاسناد إلى الموجب، وهو حقيقة على ما ذهب إليه السالكوتي في حواشيه على المطول حيث قال في قولهم: سرتني رؤيتك. هذا القول مجاز إذا أريد منه حصول السرور عند الرؤية أما إذا أريد منه أن الرؤية موجبة للسرور فهو حقيقة لا يخفى حاله. وقرأ ابن ذكوان «فَأَزَرَهُ» ثلاثياً. وقرىء «فَأَزَّرَهُ» بشد الزاي أي فشد أزره وقواه ﴿فَاسْتَغْلَظَ﴾ فصار من الدقة إلى الغلظ وهو من باب استنوق الجمل، ويحتمل أن يراد المبالغة في الغلظ كما في استعصم ونحوه، وأوثر الأول لأن المساق ينبىء عن التدرج ﴿فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ﴾ فاستقام على قصبه وأصوله جمع ساق نحو لابة ولوب وقارة وقور. وقرأ ابن كثير «سوقه» بإبدال الواو المضموم ما قبلها همزة، قيل: وهي لغة ضعيفة، ومن ذلك قوله:

أحب المؤقدين إلي موسى

﴿يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ﴾ بقوته وكثافته وغلظه وحسن منظره، والجملة في موضع الحال أي معجباً لهم، وخصهم تعالى بالذكر لأنه إذا أعجب الزراع وهم يعرفون عيوب الزرع فهو أحرى أن يعجب غيرهم، وهنا تم المثل وهو مثل ضربه الله تعالى للصحابة رضي الله تعالى عنهم قلوا في بدء الإِسلام ثم كثروا واستحكموا فترقى أمرهم يوماً فيوماً بحيث أعجب الناس، وهذا ما اختاره بعضهم وقد أخرجه ابن جرير وابن المنذر، عن الضحاك وابن جرير وعبد بن حميد عن قتادة، وذكرا عنه أنه قال أيضاً: مكتوب في الإِنجيل سيخرج قوم ينبتون نبات الزرع يخرج منهم قوم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر. وفي الكشاف هو مثل ضربه الله تعالى لبدء ملة الإِسلام وترقيه في الزيادة إلى أن قوي

واستحكم لأن النبي ﷺ قام وحده ثم قواه الله تعالى بمن معه كما يقوي الطاقة الأولى ما يحتف بها مما يتولد منها، وظاهره أن الزرع هو النبي ﷺ والشطء أصحابه رضي الله تعالى عنهم فيكون مثلاً له عليه الصلاة والسلام وأصحابه لا لأصحابه فقط كما في الأول ولكل وجهة، وروي الثاني عن الواقدي، وفي خبر أخرجه ابن جرير. وابن مردويه عن ابن عباس ما يقتضيه.

وقوله تعالى: ﴿**لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ**﴾ علة لما يعرب عنه الكلام من إيجاده تعالى لهم على الوجه الذي تضمنه التمثيل، وظاهر كلام بعضهم أنه علة للتمثيل وليس بذاك، وقيل: علة لما بعده من قوله تعالى: ﴿**وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً**﴾ فإن الكفار إذا سمعوا بما أعد الله تعالى للمؤمنين في الآخرة مع ما لهم في الدنيا من العزة غاظهم ذلك، وهو مع توقف تماميته بحسب الظاهر علي رضي الله تعالى عنه ما يشير إليه أيضاً، فقد أخرج الحاكم وصححه عنها في قوله تعالى: ﴿**ليغيظ بهم الكفار**﴾ قالت: أصحاب محمد ﷺ أمروا بالاستغفار لهم فسبوهم، وعن بعض السلف جعل جمل الآية كل جملة مشيرة إلى معين من الصحابة رضي الله تعالى عنهم، فعن عكرمة أنه قال: ﴿**أخرج شطأه**﴾ بأبي بكر ﴿**فآزره**﴾ بعمر ﴿**فاستغلظ**﴾ بعثمان ﴿**فاستوى على سوقه**﴾ بعلي رضي الله تعالى عنهم أجمعين.

وأخرج ابن مردويه والقاضي أحمد بن محمد الزهري في فضائل الخلفاء الأربعة. والشيرازي في الألقاب عن ابن عباس ﴿**محمد رسول الله والذين معه**﴾ أبو بكر ﴿**أشداء على الكفار**﴾ عمر ﴿**رحماء بينهم**﴾ عثمان ﴿**تراهم ركعاً سجداً**﴾ علي كرم الله تعالى وجهه ﴿**يبتغون فضلاً من الله ورضواناً**﴾ طلحة والزبير ﴿**سيماهم في وجوههم من أثر السجود**﴾ عبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص وأبو عبيدة بن الجراح ﴿**ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره**﴾ بأبي بكر ﴿**فاستغلظ**﴾ بعمر ﴿**فاستوى على سوقه**﴾ بعثمان ﴿**يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار**﴾ بعلي كرم الله تعالى وجهه ﴿**وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات**﴾ جميع أصحاب محمد ﷺ.

وأخرج ابن مردويه والخطيب وابن عساكر عنه رضي الله تعالى عنه أيضاً في قوله تعالى: ﴿**كزرع**﴾ قال: أصل الزرع عبد المطلب ﴿**أخرج شطأه**﴾ محمد ﷺ ﴿**فآزره**﴾ بأبي بكر ﴿**فاستغلظ**﴾ بعمر ﴿**فاستوى على سوقه**﴾ بعثمان ﴿**ليغيظ بهم الكفار**﴾ بعلي رضي الله تعالى عنه، وكل هذه الأخبار لم تصح فيما أرى ولا ينبغي تخريج ما في الآية عليها، وأعتقد أن لكل من الخلفاء رضي الله تعالى عنهم الحظ الأوفى مما تضمنته، ومتى أريد بالزرع النبي عليه الصلاة والسلام كان حظ علي كرم الله تعالى وجهه من شطأه أوفى من حظ سائر الخلفاء رضي الله تعالى عنه، ولعل مؤازرته ومعاونته البدنية بقتل كثير من الكفرة أعدائه عليه الصلاة والسلام أكثر من مؤازرة غيره من الخلفاء أيضاً، ومع هذا لا ينخدش ما ذهب إليه محققو أهل السنة والجماعة في مسألة التفضيل كما لا يخفى على النبيه النبيل، فتأمل والله تعالى الهادي إلى سواء السبيل.

ومن باب الإشارة في بعض الآيات: ﴿**إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً**﴾ يشير عندهم إلى فتح مكة العماء بإدخال الأعيان الثابتة ظاهرة بنور الوجود فيها أي إظهارها للعيان لأجله عليه الصلاة والسلام على أن لام ﴿**لك**﴾ للتعليل، وحاصله أظهرنا العالم لأجلك وهو في معنى ما يروونه من قوله سبحانه: «لولاك لولاك ما خلقت الأفلاك» وقيل: يشير إلى فتح باب قلبه عليه الصلاة والسلام إلى حضرة ربوبيته عز وجل بتجلي صفات جماله وجلاله وفتح ما انغلق على جميع القلوب من الأسرار وتفصيل شرائع الإسلام وغير ذلك من فتوحات قلبه ﷺ ﴿**ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر**﴾ ليستر وجودك في جميع الأزمنة بوجوده جل وعلا ﴿**ويتم نعمته عليك**﴾ بإثبات جميع حسنات العالم في

صحيفتك إذ كنت العلة في إظهاره ﴿**ويهديك صراطاً مستقيماً**﴾ بدعوة الخلق على وجه الجمع والفرق ﴿**وينصرك الله**﴾ على النفوس الأمّارة ممن تدعوهم إلى الحق ﴿**نصراً عزيزاً**﴾ قلما يشبهه نصر، ومن هنا كان ﷺ أكثر الأنبياء عليهم السلام تبعاً، وكان علماء أمته كأنبياء بني إسرائيل إلى غير ذلك مما حصل لأمته بواسطة تربيته عليه الصلاة والسلام لهم وإفاضة الأنوار والأسرار على نفوسهم وأرواحهم، والمراد ليجمع لك هذه الأمور فلا تغفل ﴿**هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين**﴾ فسروها بشيء يجمع نوراً وقوة وروحاً بحيث يسكن إليه ويتسلى به الحزين والضجر ويحدث عنده القيام بالخدمة ومحاسبة النفس وملاطفة الخلق ومراقبة الحق والرضا بالقسم والمنع من الشطح الفاحش، وقالوا: لا تنزل السكينة إلا في قلب نبي أو ولي ﴿**ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم**﴾ فيحصل لهم الإيمان العياني والإيمان الاستدلالي البرهاني ﴿**إنا أرسلناك شاهداً**﴾ على جميع المخلوقات إذ كنت أول مخلوق، ومن هنا أحاط ﷺ علماً بما لم يحط به غيره من المخلوقات لأنه عليه الصلاة والسلام شاهد خلق جميعها، ومن هذا المقام قال عليه الصلاة والسلام: «كنت نبياً وآدم بين الروح والجسد» ﴿**ومبشراً ونذيراً**﴾ إذ كنت أعلم الخلق بصفات الجمال والجلال ﴿**إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله**﴾ يشير عندهم إلى كمال فناء وجوده ﷺ وبقائه بالله عز وجل، وأيد ذلك بقوله سبحانه: ﴿**يد الله فوق أيديهم**﴾ ﴿**سيقول لك المخلفون**﴾ المتخلفون عن السير إلى قتال الأنفس الأمارة ﴿**من الاعراب**﴾ من سكان بوادي الطبيعة ﴿**شغلتنا أموالنا وأهلونا**﴾ العوائق والعلائق ﴿**فاستغفر لنا**﴾ اطلب من الله عز وجل ستر ذلك عنا ليتأتى لنا السير ﴿**يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم**﴾ لتمكن حب ذلك في قلوبهم وعدم استعدادهم لدخول غيره فيها:

رضوا بالأماني وابتلوا بحظوظهم ... وخاضوا بحار الحب دعوى فما ابتلوا

﴿**قل فمن يملك لكم من الله شيئاً إن أراد بكم ضراً أو أراد بكم نفعاً**﴾ أي إن هاتيك العوائق والعلائق لا تجديكم شيئاً ﴿**بل كان الله بما تعملون خبيراً**﴾ فيجازيكم عليها حسبما تقتضي الحكمة ﴿**بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهليهم**﴾ بل حسبتم أن لا يرجع العقل والقوى الروحانية من السالكين السائرين إلى جهاد النفس وطلب مغانم التجليات والانس إلى ما كانوا عليه من إدراك المصالح وتدبير حال المعاش وما تقتضيه هذه النشأة ﴿**وظننتم ظن السوء**﴾ بالله تعالى وشؤونه عز وجل ﴿**وكنتم**﴾ في نفس الأمر ﴿**قوماً بوراً**﴾ هالكين في مهالك الطبيعة وسوء الاستعداد ﴿**سيقول المخلفون إذا انطلقتم إلى مغانم لتأخذوها**﴾ وهي مغانم التجليات ومواهب الحق لأرباب الحضرات ﴿**ذرونا نتبعكم**﴾ دعونا نسلك مسلككم لننال منالكم ﴿**يريدون أن يبدلوا كلام الله**﴾ في حقهم من حرمانهم المغانم لسوء استعدادهم ﴿**قل لن تتبعونا كذلكم قال الله**﴾ حكم وقضى ﴿**من قبل**﴾ إذ كنتم في عالم الأعيان الثابتة ﴿**فسيقولون**﴾ منكرين لذلك ﴿**بل تحسدوننا**﴾ ولهذا تمنعوننا عن الاتباع ﴿**بل كانوا لا يفقهون إلا قليلاً**﴾ ولذلك نسبوا الحسد وهو من أقبح الصفات إلى ذوي النفوس القدسية المطهرة عن جميع الصفات الردية ﴿**قل للمخلفين عن الأعراب ستدعون**﴾ ولا تتركون سدى ﴿**إلى قوم أولي بأس شديد**﴾ وهم النفس وقواها ﴿**تقاتلونهم أو يسلمون**﴾ ينقادون لحكم رسول العقل المنزه عن شوائب الوهم ﴿**فإن تطيعوا**﴾ الداعي ﴿**يؤتكم الله تعالى أجراً حسناً**﴾ من أنواع المعارف والتجليات ﴿**وإن تتولوا كما توليتم من قبل يعذبكم عذاباً أليماً**﴾ وهو عذاب الحرمان والحجاب ﴿**ليس على الأعمى**﴾ وهو من لم ير في الدار غيره دياراً ﴿**حرج**﴾ في ترك السلوك والجهاد المطلوب منكم لأنه وراء ذلك ﴿**ولا على الأعرج**﴾ وهو من فقد شيخاً كاملاً سالماً عن عيب في كيفية التسليك والإيصال ﴿**حرج**﴾ في ترك السلوك أيضاً، وهو إشارة إلى ما قالوا من أن ترك السلوك خير من السلوك على يد

ناقص ﴿**ولا على المريض**﴾ بمرض العشق والهيام ﴿**حرج**﴾ في ذاك أيضاً لأنه مجذوب والجذبة خير من السلوك ﴿**لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة**﴾ يشير إلى المعاهدين على القتل بسيف المجاهدة تحت سمرة الانفراد عن الأهل والمال، ويقال في أكثر الآيات الآتية نحو هذا ﴿**محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار**﴾ أعداء الله عز وجل في مقام الفرق ﴿**رحماء فيما بينهم**﴾ لقوة مناسبة بعضهم بعضاً فهم جامعون لصفتي الجلال والجمال ﴿**سيماهم في وجوههم من أثر السجود**﴾ له عز وجل وعدم السجود لشيء من الدنيا والأخرى وتلك السيما خلع الأنوار الإلٰهية، قال عامر بن عبد قيس: كاد وجه المؤمن يخبر عن مكنون عمله وكذلك وجه الكافر ﴿**وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة**﴾ ستراً لصفاتهم بصفاته عز وجل ﴿**وأجراً عظيماً**﴾ وهو أن يتجلى سبحانه لهم بأعظم تجلياته وإلا فكل شيء دونه جل جلاله ليس بعظيم، وسبحانه من إله رحيم وملك كريم.

(٤٩) سورة الحجرات مدنية
وآياتها ثماني عشرة

بسم الله الرحمن الرحيم

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١).

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدى الله ورسوله واتقوا الله إن الله سميع عليم ﴾ .

فى بيان حسن الترتيب وجوه : (أحدها) أن فى السورة المتقدمة لما جرى منهم ميل إلى الامتناع مما أجاز النبى ﷺ من الصلح وترك آية التسمية والرسالة وألزمهم كلمة التقوى كأن رسول الله ﷺ قال لهم على سبيل العموم : لا تقدموا بين يدى الله ورسوله ، ولا تتجاوزوا ما يأمر الله تعالى ورسوله (الثانى) هو أن الله تعالى لما بين محل النبى عليه الصلاة والسلام وعلو درجته بكونه رسوله الذى يظهر دينه وذكره بأنه رحيم بالمؤمنين بقوله (رحيما) قال لا تتركوا من احترامه شيئاً لا بالفعل ولا بالقول ، ولا تغتروا برأفته ، وانظروا إلى رفعة درجته (الثالث) هو أن الله تعالى وصف المؤمنين بكونهم : أشداء ، ورحماء فيما بينهم ، راكعين ساجدين نظراً إلى جانب الله تعالى ، وذكر أن لهم من الحرمة عند الله ما أورثهم حسن الثناء فى الكتب المتقدمة بقوله (ذلك مثلهم فى التوراة ومثلهم فى الإنجيل) فإن الملك العظيم لا يذكر أحداً فى غيبته إلا إذا كان عنده محترماً ووعدهم بالأجر العظيم ، فقال فى هذه السورة لا تفعلوا ما يوجب انحطاط درجتكم وإحباط حسناتكم (ولا تقدموا) وقيل فى سبب نزول الآية وجوه : قيل نزلت فى صوم يوم الشك ، وقيل نزلت فى التضحية قبل صلاة العيد ، وقيل نزلت فى ثلاثة قتلوا اثنين من سليم ظنوهما من بنى عامر ، وقيل نزلت فى جماعة أكثروا من السؤال وكان قد قدم على النبى ﷺ وفود والأصح أنه إرشاد عام يشمل الكل ومنع مطلق يدخل فيه كل إثبات وتقدم واستبداد بالأمر وإقدام على فعل غير ضرورى من غير مشاورة وفى التفسير مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قوله تعالى (لا تقدموا) يحتمل وجهين : (أحدهما) أن يكون من التقديم الذى هو متعد ، وعلى هذا ففيه وجهان : (أحدهما) ترك مفعوله برأسه كما فى قوله تعالى

(يحيي ويميت) وقول القائل فلان يعطي ويمنع ولا يريد بهما إعطاء شيء معين ولا منع شيء معين وإنما يريد بهما أن له منعاً وإعطاء كذلك ههنا ، كأنه تعالى يقول لا ينبغي أن يصدر منكم تقديم أصلا (والثاني) أن يكون المفعول الفعل أو الأمر كأنه يقول (لا تقدموا) يعني فعلا (بين يدي الله ورسوله) أو لا تقدموا أمراً (الثاني) أن يكون المراد (لا تقدموا) بمعنى لا تتقدموا ، وعلى هذا فهو مجاز ليس المراد هو نفس التقديم بل المراد لا تجعلوا لأنفسكم تقدماً عند النبي ﷺ يقال فلان تقدم من بين الناس إذا ارتفع أمره وعلا شأنه ، والسبب فيه أن من ارتفع يكون متقدماً في الدخول في الأمور العظام ، وفي الذكر عند ذكر الكرام ، وعلى هذا نقول سواء جعلناه متعدياً أو لازماً لا يتعدى إلى ما يتعدى إليه التقديم في قولنا قدمت زيداً ، فالمعنى واحد لأن قوله (لا تقدموا) إذا جعلناه متعدياً أو لازماً لا يتعدى إلى ما يتعدى إليه التقديم في قولنا قدمت زيداً ، فتقديره لا تقدموا أنفسكم في حضرة النبي ﷺ أي لا تجعلوا لأنفسكم تقدماً ورأياً عنده ، ولا نقول بأن المراد لا تقدموا أمراً وفعلا ، وحينئذ تتحد القراءتان في المعنى ، وهما قراءة من قرأ بفتح التاء والدال وقراءة من قرأ بضم التاء وكسر الدال ، وقوله تعالى (بين يدي الله ورسوله) أي بحضرتهما لأن ما بحضرة الإنسان فهو بين يديه وهو ناظر إليه وهو نصب عينيه وفي قوله (بين يدي الله ورسوله) فوائد:
(أحدها) أن قول القائل فلان بين يدي فلان ، إشارة إلى كون كل واحد منهما حاضراً عند الآخر مع أن لأحدهما علو الشأن وللآخر درجة العبيد والغلمان ، لأن من يجلس بجنب الإنسان يكلفه تقليب الحدقة إليه وتحريك الرأس إليه عند الكلام والأمر ، ومن يجلس بين يديه لا يكلفه ذلك ، ولأن اليدين تنبيء عن القدرة يقول القائل هو بين يدي فلان ، أي يقلبه كيف شاء في أشغاله كما يفعل الإنسان بما يكون موضوعاً بين يديه ، وذلك مما يفيد وجوب الاحتراز من التقدم ، وتقديم النفس لأن من يكون كمتاع يقلبه الإنسان بيديه كيف يكون له عنده التقدم (وثانيها) ذكر الله إشارة إلى وجوب احترام الرسول عليه الصلاة والسلام والانقياد لأوامره ، وذلك لأن احترام الرسول ﷺ قد يترك على بعد المرسل وعدم إطلاعه على ما يفعل برسوله فقال (بين يدي الله) أي أنتم بحضرة من الله تعالى وهو ناظر إليكم ، وفي مثل هذه الحالة يجب احترام رسوله (وثالثها) هو أن هذه العبارة كما تقرر النهي المتقدم تقرر معنى الأمر المتأخر وهو قوله (واتقوا) لأن من يكون بين يدي الغير كالمتاع الموضوع بين يديه يفعل به ما يشاء يكون جديراً بأن يتقيه ، وقوله تعالى (واتقوا الله) يحتمل أن يكون ذلك عطفاً يوجب مغايرة مثل المغايرة التي في قول القائل لا تنم واشتغل ، أي فائدة ذلك النهي هو ما في هذا الأمر ، وليس المطلوب به ترك النوم كيف كان ، بل المطلوب بذلك الاشتغال فكذلك لا تقدموا أنفسكم ولا تتقدموا على وجه التقوى ، ويحتمل أن يكون بينهما مغايرة أتم من ذلك ، وهي التي في قول القائل احترم زيداً واخدمه ، أي ائت بأتم الاحترام ، فكذلك ههنا معناه لا تتقدموا عنده وإذا تركتم التقدم فلا تتكلوا على ذلك فلا تنتفعوا

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَـٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾

بل مع أنكم قائمون بذلك محترمون له اتقوا الله واخشوه وإلا لم تكونوا أتيتم بواجب الاحترام وقوله تعالى (إن الله سميع عليم) يؤكد ماتقدم لأنهم قالوا آمنا ، لأن الخطاب يفهم بقوله (ياأيها الذين آمنوا) فقد يسمع قولهم ويعلم فعلهم وما فى قلوبهم من التقوى والخيانة ، فلا ينبغى أن يختلف قولكم وفعلكم وضمير قلبكم ، بل ينبغى أن يتم مافى سمعه من قولكم آمنا وسمعنا وأطعنا وما فى علمه من فعلكم الظاهر ، وهو عدم التقدم وما فى قلوبكم من الضمائر وهو التقوى .

قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لاترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لاتشعرون ﴾ .

(لا تقدموا) نهى عن فعل ينبىء عن كونهم جاعلين لأنفسهم عند الله ورسوله بالنسبة إليهما وزناً ومقداراً ومدخلا فى أمر من أو امرهما ونواهيهما ، وقوله (لا ترفعوا) نهى عن قول ينبىء عن ذلك الأمر ، لأن من يرفع صوته عند غيره يجعل لنفسه اعتباراً وعظمة وفيه مباحث :

﴿ البحث الأول ﴾ ما الفائدة فى إعادة النداء ، وما هذا النمط من الكلامين على قول القائل (يا أيها الذين آمنوا لاتقدموا بين يدى الله) ، و (لا ترفعوا أصواتكم)؟ نقول فى إعادة النداء فوائد خمسة : منها أن يكون فى ذلك بيان زيادة الشفقة على المسترشد كما فى قول لقمان لابنه (يابنى لا تشرك بالله ، يابنى إنها إن تك مثقال حبة ، يابنى أقم الصلاة) لأن النداء لتنبيه المنادى ليقبل على استماع الكلام ويجعل باله منه ، فإعادته تفيد ذلك ، ومنها أن لا يتوهم متوهم أن المخاطب ثانياً غير المخاطب أولا ، فان من الجائز أن يقول القائل يازيد افعل كذا وقل كذا يا عمرو ، فاذا أعاده مرة أخرى ، وقال يازيد قل كذا ، يعلم من أول الكلام أنه هو المخاطب ثانياً أيضاً ومنها أن يعلم أن كل واحد من الكلامين مقصود ، وليس الثانى تأكيداً للأول كما تقول يازيد لا تنطق ولا تتكلم إلا بالحق فإنه لا يحسن أن يقال يازيد لا تنطق يازيد لا تتكلم كما يحسن عند اختـــلاف المطلوبين ، وقوله تعالى (لا ترفعوا أصواتكم) يحتمل وجوها : (أحدها) أن يكون المراد حقيقته ، وذلك لأن رفع الصوت دليل قلة الاحتشام وترك الاحترام ، وهذا من مسألة حكمية وهى أن الصوت بالمخارج ومن خشى قلبه ارتجف وتضعف حركته الدافعة فلا يخرج منه الصوت بقوة ، ومن لم يخف ثبت قلبه وقوى ، فرفع الهواء دليل عدم الخشية (ثانيها) أن يكون المراد المنع من كثر الكلام لأن من يكثر الكلام يكون متكلما عن سكوت الغير فيكون فى وقت سكوت الغير لصوته ارتفاع وإن كان خائفاً إذا نظرت إلى حال غيره فلا ينبغى أن يكون لأحد عند النبى ﷺ كلام كثير بالنسبة إلى كلام النبى ﷺ

لأن النبي عليه الصلاة والسلام مبلغ ، فالمتكلم عنده إن أراد الإخبار لا يجوز ، وإن استخبر النبي عليه السلام عما وجب عليه البيان ، فهو لا يسكت عما يسأل وإن لم يسأل ، وربما يكون فى السؤال حقيدة برد جواب لا يسهل على المكلف الإتيان به فيبقى فى ورطة العقاب (ثالثها) أن يكون المراد رفع الكلام بالتعظيم أى لا تجعلوا لكلامكم ارتفاعاً على كلام النبي ﷺ فى الخطاب كما يقول القائل لغيره أمرتك مراراً بكذا عند مايقول له صاحبه مرنى بأمر مثله ، فيكون أحد الكلامين أعلى وأرفع من الآخر ، والأول أصح والكل يدخل فى حكم المراد ، لأن المنع من رفع الصوت لايكون إلا للاحترام وإظهار الاحتشام ، ومن بلغ احترامه إلى حيث تنخفض الأصوات عنده من هيبته وعلو مرتبته لايكثر عنده الكلام ، ولا يرجع المتكلم معه فى الخطاب ، وقوله تعالى (ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض) فيه فوائد :

﴿ إحداها ﴾ أن بالأول حصل المنع من أن يجعل الإنسان كلامه أو صوته أعلى من كلام النبي ﷺ وصوته ، ولقائل أن يقول فما منعت من المساواة فقال تعالى (ولا تجهروا له) كما تجهرون لأقرانكم ونظرائكم بل اجعلوا كلمته عليا .

﴿ والثانية ﴾ أن هذا أفاد أنه لاينبغى أن يتكلم المؤمن عند النبي عليه السلام كما يتكلم العبد عند سيده ، لأن العبد داخل تحت قوله (كجهر بعضكم لبعض) لأنه للعموم فلاينبغى أن يجهر المؤمن للنبي صلى الله عليه وسلم كما يجهر العبد للسيد وإلا لكان قد جهر له كما يجهر بعضكم لبعض ، لا يقال المفهوم من هذا النمط أن لاتجعلوه كما يتفق بينكم ، بل تميزوه بأن لاتجهروا عنده أبداً وفيما بينكم لاتحافظون على الإحترام ، لأنا نقول ماذكرنا أقرب إلى الحقيقة ، وفيه ما ذكرتم من المعنى وزيادة ، ويؤيد ماذكرنا قوله تعالى (النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم) والسيد ليس أولى عند عبده من نفسه حتى لوكانا فى مخمصة ووجد العبد مالو لم يأكله لمات لايجب عليه بذله لسيده ، ويجب البذل للنبي صلى الله عليه وسلم ، ولو علم العبد أن بموته ينجو سيده لايلزمه أن يلقى نفسه فى التهلكة لإنجاء سيده ، ويجب لإنجاء النبي عليه الصلاة والسلام ، وقد ذكرنا حقيقته عند تفسير الآية ، وأن الحكمة تقتضى ذلك كما أن العضوا الرئيس أولى بالرعاية من غيره ، لأن عند خلل القلب مثلا لا بقى لليدين والرجلين استقامة فلو حفظ الإنسان نفسه وترك النبي عليه الصلاة والسلام لهلك هو أيضاً بخلاف العبد والسيد .

﴿ الفائدة الثانية ﴾ أن قوله تعالى (لاترفعوا أصواتكم) لما كان من جنس (لا تجهروا) لم يستأنف النداء ، ولما كان هو يخالف التقدم لكون أحدهما فعلا والآخر قولا استأنف . كما فى قول لقمان (يابنى لاتشرك) وقوله (يا بنى أقم الصلاة) لكون الأول من عمل القلب والثانى من عمل الجوارح ، وقوله (يابنى أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر) من غير استئناف النداء لأن الكل من عمل الجوارح .

إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ

واعلم أنا إن قلنا المراد من قوله (لاترفعوا أصواتكم) أى لاتكثروا الكلام فقوله (ولا تجهروا) يكون مجازاً عن الإتيان بالكلام عن النبي صلى الله عليه وسلم بقدر مايؤتى به عند غيره ، أى لاتكثروا وقللوا غاية التقليل ، وكذلك إن قلنا المراد بالرفع الخطاب فالمراد بقوله (لاتجهروا) أى لاتخاطبوه كما تخاطبون غيره وقوله تعالى (أن تحبط أعمالكم) فيه وجهان مشهوران : (أحدهما) لئلا تحبط (والثانى) كراهة أن تحبط ، وقد ذكرنا ذلك فى قوله تعالى (يبين الله لكم أن تضلوا) وأمثاله ، ويحتمل ههنا وجهاً آخر وهو أن يقال معناه : واتقوا الله واجتنبوا أن تحبط أعمالكم ، والدليل على هذا أن الإضمار لما لم يكن منه بد فما دل عليه الكلام الذى هو فيه أولى أن يضمر والأمر بالتقوى قد سبق فى قوله تعالى (واتقوا) وأما المعنى فنقول قوله (أن تحبط) إشارة إلى أنكم إن رفعتم أصواتكم وتقدمتكم تتمكن منكم هذه الرذائل وتؤدى إلى الاستحقار ، وإنه يفضى إلى الانفراد والارتداد المحبط وقوله تعالى (وأنتم لاتشعرون) إشارة إلى أن الردة تتمكن من النفس بحيث لايشعر الإنسان ، فإن من ارتكب ذنباً لم يرتكبه فى عمره تراه نادماً غاية الندامة خائفاً غاية الخوف فإذا ارتكبه مراراً يقل الخوف والندامة ويصير عادة من حيث لايعلم أنه لايتمكن ، وهذا كان للتمكن فى المرة الأولى أو الثانية أو الثالثة أو غيرها ، وهذا كما أن من بلغه خبر فإنه لا يقطع بقول المخبر فى المرة الأولى ، فإذا تكرر عليه ذلك وبلغ حد التواتر يحصل له اليقين ويتمكن الاعتقاد ، ولا يدرى متى كان ذلك ، وعند أى خبر حصل هذا اليقين ، فقوله (وأنتم لا تشعرون) تأكيد للمنع أى لاتقولوا بأن المرة الواحدة تعفى ولا توجب ردة ، لأن الأمر غير معلوم فاحسموا الباب ، وفيه بيان آخر وهو أن المكلف إذا لم يحترم النبى ﷺ ويجعل نفسه مثله فيما يأتى به بناء على أمره يكون كما يأتى به بناء على أمر نفسه ، لكن ما تأمر به النفس لايوجب الثواب وهو محبط حابط ، كذلك ما يأتى به بغير أمر النبى ﷺ حينئذ حابط محبط والله أعلم .

واعلم أن الله تعالى لما أمر المؤمنين باحترام النبى ﷺ وإكرامه وتقديمه على أنفسهم وعلى كل من خلقه الله تعالى أمر نبيه عليه السلام بالرأفة والرحمة ، وأن يكون أرأف بهم من الوالد ، كما قال (واخفض جناحك للمؤمنين) وقال تعالى (واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم) وقال (ولا تكن كصاحب الحوت) إلى غير ذلك لئلا تكون خدمته خدمة الجبارين الذين يستعبدون الأحرار بالقهر فيكون انقيادهم لوجه الله .

قوله تعالى : ﴿ إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله أولئك الذين امتحن الله

قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ

قلوبهم للتقوى ﴾ .

وفيه الحث على ما أرشدهم إليه من وجهين (أحدهما) ظاهر لكل أحد وذلك فى قوله تعالى (امتحن الله قلوبهم للتقوى) وبيانه هو أن من يقدم نفسه ويرفع صوته يريد إكرام نفسه واحترام شخصه، فقال تعالى ترك هذا الإحترام يحصل به حقيقة الاحترام، وبالإعراض عن هذا الإكرام يكمل الإكرام، لأن به تتبين تقواكم، و (إن أكرمكم عند الله أتقاكم) ومن القبيح أن يدخل الإنسان حماماً فيتخير لنفسه فيه منصباً ويفوت بسببه منصبة عند السلطان، ويعظم نفسه فى الخلاء والمستراح وبسببه يهون فى الجمع العظيم، وقوله تعالى (امتحن الله قلوبهم للتقوى) فيه وجوه : (أحدها) امتحنها ليعلم منها التقوى فإن من يعظم واحداً من أبناء جنسه لكونه رسول مرسل يكون تعظيمه للمرسل أعظم وخوفه منه أقوى، وهذا كما فى قوله تعالى (ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب) أى تعظيم أوامر الله من تقوى الله فكذلك تعظيم رسول الله من تقواه (الثانى) امتحن أى علم وعرف، لأن الامتحان تعرف الشىء فيجوز استعماله فى معناه، وعلى هذا فاللام تتعلق بمحذوف تقديره عرف الله قلوبهم صالحة، أى كائنة للتقوى، كما يقول القائل أنت لكذا أى صالح أو كائن (الثالث) امتحن : أى أخلص يقال : للذهب ممتحن، أى مخلص فى النار وهذه الوجوه كلها مذكورة ويحتمل أن يقال معناه امتحنها للتقوى اللام للتعليل، وهو يحتمل وجهين (أحدهما) أن يكون تعليلا يجرى مجرى بيان السبب المتقدم، كما يقول القائل : جئتك لإكرامك لى أمس، أى صار ذلك الإكرام السابق سبب المجىء (وثانيها) أن يكون تعليلا يجرى مجرى بيان غاية المقصود المتوقع الذى يكون لاحقاً لا سابقاً كما يقول القائل جئتك لأداء الواجب، فإن قلنا بالأول فتحقيقه هو أن الله علم ما فى قلوبهم من تقواه، وامتحن قلوبهم للتقوى التى كانت فيها، ولولا أن قلوبهم كانت مملوءة من التقوى لما أمرهم بتعظيم رسوله وتقديم نبيه على أنفسهم، بل كان يقول لهم آمنوا برسولى ولا تؤذوه ولا تكذبوه، فإن الكافر أول ما يؤمن يؤمن بالاعتراف بكون النبى ﷺ صادقاً، وبين من قيل له لا تستهزىء برسول الله ولا تكذبه ولا تؤذه، وبين من قيل له لا ترفع صوتك عنده ولا تجعل لنفسك وزناً بين يديه ولا تجهر بكلامك الصادق بين يديه، بون عظيم :

واعلم أن بقدر تقديمك للنبى عليه الصلاة والسلام على نفسك فى الدنيا يكون تقديم النبى عليه الصلاة والسلام إياك فى العقبى، فإنه لن يدخل أحد الجنة مالم يدخل الله أمته المتقين الجنة، فان قلنا بالثانى فتحقيقه هو أن الله تعالى امتحن قلوبهم بمعرفته ومعرفة رسوله بالتقوى، أى ليرزقهم الله التقوى التى هى حق التقاة، وهى التى لا تخشى مع خشية الله أحداً فتراه آمناً من كل مخيف لا يخاف

لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾

فى الدنيا بخساً ، ولا يخاف فى الآخرة نحساً ، والناظر العاقل إذا علم أن بالخوف من السلطان يأمن جور الغلمان ، وبتجنب الأراذل ينجو من بأس السلطان فيجعل خوف السلطان جنة . فكذلك العالم لو أمعن النظر لعلم أن بخشية الله النجاة فى الدارين وبالخوف من غيره الهلاك فيهما فيجعل خشية الله جنته التى يحس بها نفسه فى الدنيا والآخرة .

قوله تعالى : ﴿ لهم مغفرة وأجر عظيم ﴾ .

وقد ذكرنا أن المغفرة إزالة السيئات التى هى فى الدنيا لازمة للنفس والأجر العظيم إشارة إلى الحياة التى هى بعد مفارقة الدنيا عن النفس ، فيزيل الله عنه القبائح البهيمية ويلبسه المحاسن الملكية .

قوله تعالى : ﴿ إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون ﴾ .

بياناً لحال من كان فى مقابلة من تقدم فان الأول غض صوته والآخر رفعه ، وفيه إشارة إلى أنه ترك لأدب الحضور بين يديه وعرض الحاجة عليه ، وأما قول القائل للملك يا فلان من سوء الأدب ، فإن قلت كل أحد يقول يا الله مع أن الله أكبر ، نقول النداء على قسمين (أحدهما) لتنبيه المنادى (وثانيهما) لإظهار حاجة المنادى (مثال الأول) قول القائل لرفيقه أو غلامه : يا فلان (ومثال الثانى) قول القائل فى الندبة : يا أمير المؤمناه أو يا زيداه ، ولقائل أن يقول : إن كان زيد بالمشرق لا تنبيه فإنه محال ، فكيف يناديه وهو ميت ؟ فنقول قولنا يا الله لإظهار حاجة الأنفس لا لتنبيه المنادى ، وإنما كان فى النداء الأمران جميعاً لأن المنادى لا ينادى إلا لحاجة فى نفسه يعرضها ولا ينادى فى الأكثر إلا معرضاً أو غافلا ، فحصل فى النداء الأمران ونداؤهم كان للتنبيه وهو سوء أدب وأما قول أحدنا للكبير ياسيدى ويامولاى فهو جار مجرى الوصف والإخبار (الثانى) النداء من وراء الحجرات فان من ينادى غيره ولا حائل بينهما لا يكلفه المشى والمجىء بل يجيبه من مكانه ويكلمه ولا يطلب المنادى إلا الالتفات المنادى إليه ومن ينادى غيره من وراء الحائل فكأنه يريد منه حضوره كمن ينادى صاحب البستان من خارج البستان (الثالث) قوله (الحجرات) إشارة إلى قول النبى صلى الله عليه وسلم فى خلوته التى لا يحسن فى الأدب إتيان المحتاج إليه فى حاجته فى ذلك الوقت ، بل الأحسن التأخير وإن كان فى ورطة الحاجة ، وقوله تعالى (أكثرهم لا يعقلون) فيه بيان المعايب بقدر ما فى سوء أدبهم من القبائح ، وذلك لأن الكلام من خواص الإنسان ، وهو أعلى مرتبة من غيره ، وليس لمن دونه كلام ، لكن النداء فى المعنى كالتنبيه ، وقد يحصل بصوت ، يضرب شىء على شىء

وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ

وفى الحيوانات العجم مايظهر لكل أحد كالنداء ، فإن الشاة تصيح وتطلب ولدها وكذلك غيرها من الحيوانات ، والسخلة كذلك فكأن النداء حصل فى المعنى لغير الآدمى ، فقال الله تعالى فى حقهم (أكثرهم لا يعقلون) يعنى النداء الصادر منهم لما لم يكن مقروناً بحسن الادب كانوا فيه خارجين عن درجة من يعقل وكان نداؤهم كصياح صدر من بعض الحيوان ، وقوله تعالى (أكثرهم) فيه وجهان (أحدهما) أن العرب تذكر الأكثر وتريد الكل ، وإنما تأتى بالأكثر احترازاً عن الكذب واحتياطاً فى الكلام ، لأن الكذب مما يحبط به عمل الإنسان فى بعض الأشياء فيقول الأكثر وفى اعتقاده الكل ، ثم إن الله تعالى مع إحاطة علمه بالأمور أتى بما يناسب كلامهم ، وفيه إشارة إلى لطيفة وهى أن الله تعالى يقول : أنا مع إحاطة علمى بكل شىء جريت على عادتكم استحساناً لتلك العادة وهى الاحتراز عن الكذب فلا تتركوها ، واجعلوا اختيارى ذلك فى كلامى دليلا قاطعاً على رضائى بذلك (وثانيهما) أن يكون المراد أنهم فى أكثر أحوالهم لا يعقلون ، وتحقيق هذا هو أن الإنسان إذا اعتبر مع وصف ثم اعتبر مع وصف آخر يكون المجموع الاول غير المجموع الثانى ، مثاله الإنسان يكون جاهلا وفقيراً فيصير عالماً وغنياً فيقال فى العرف زيد ليس هو الذى رأيته من قبل بل الآن على أحسن حال ، فيجعله كأنه ليس ذلك إشارة إلى ما ذكرنا . إذا علم هذا فهم ، فى بعض الأحوال إذا اعتبرتهم مع تلك الحالة ، مغايرون لأنفسهم إذا اعتبرتهم مع غيرها فقال تعالى (أكثرهم) إشارة إلى ماذكرناه ، وفيه وجه ثالث وهو أن يقال لعل منهم من رجع عن تلك الأهواء ، ومنهم من استمر على تلك العادة الرديئة فقال أكثرهم إخراجاً لمن ندم منهم عنهم .

قوله تعالى : ﴿ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيراً لهم﴾ إشارة إلى حسن الادب الذى على خلاف ما أتوا به من سوء الأدب فإنهم لو صبروا لما احتاجوا إلى النداء ، وإذا كنت تخرج إليهم فلا يصح إتيانهم فى وقت اختلائك بنفسك أو بأهلك أو بربك ، فإن للنفس حقاً وللأهل حقاً ، وقوله تعالى (لكان خيراً لهم) يحتمل وجهين (أحدهما) أن يكون المراد أن ذلك هو الحسن والخير كقوله تعالى (خير مستقراً) ، (وثانيهما) أن يكون المراد هو أن بالنداء وعدم الصبر يستفيدون تنجيز الشغل ودفع الحاجة فى الحال وهو مطلوب ، ولكن المحافظة على النبى صلى الله عليه وسلم وتعظيمه خير من ذلك ، لأنها تدفع الحاجة الأصلية التى فى الآخرة وحاجات الدنيافضلية ، والمرفوع الذى يقتضيه كلمة (كان) إما الصبر وتقديره لوأنهم صبروا لكان الصبر خيراً ، أو الخروج من غير نداء وتقديره لو صبروا حتى تخرج إليهم لكان خروجك من غير نداء خيراً لهم ، وذلك مناسب للحكاية ، لأنهم طلبوا خروجه عليه الصلاة والسلام ليأخذوا ذراريهم ، فخرج

وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمًۢا بِجَهَـٰلَةٍ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَـٰدِمِينَ ﴿٦﴾

وأعتق نصفهم وأخذوا نصفهم ، ولو صبروا لكان يعتق كلهم والأول أصح .

قوله تعالى : ﴿ والله غفور رحيم ﴾ تحقيقاً لأمرين (أحدهما) لسوء صنيعهم في التعجيل ، فإن الإنسان إذا أتى بقبيح ولا يعاقبه الملك أو السيد يقال ما أحلم سيده لا لبيان حلمه ، بل لبيان عظيم جناية العبد (وثانيهما) لحسن الصبر يعني بسبب إتيانهم بما هو خير ، يغفر الله لهم سيئاتهم ويجعل هذه الحسنة كفارة لكثير من السيئات ، كما يقال الآبق إذا رجع إلى باب سيده أحسنت في رجوعك وسيدك رحيم ، أي لا يعاقبك على ما تقدم من ذنبك . بسبب ما أتيت به من الحسنة ويمكن أن يقال بأن ذلك حث للنبي صلى الله عليه وسلم على الصفح ، وقوله تعالى (أكثرهم لا يعقلون) كالعذر لهم ، وقد ذكرنا أن الله تعالى ذكر في بعض المواضع الغفران قبل الرحمة ، كما في هذه السورة وذكر الرحمة قبل المغفرة في سورة سبأ في قوله (وهو الرحيم الغفور) حيث قال (غفور رحيم) أي يغفر سيئاته ثم ينظر إليه فيراه عارياً محتاجاً فيرحمه ويلبسه لباس الكرامة وقد يراه مغموراً في السيئات فيغفر سيئاته ، ثم يرحمه بعد المغفرة ، فتارة تقع الإشارة إلى الرحمة التي بعد المغفرة فيقدم المغفرة ، وتارة تقع الرحمة قبل المغفرة فيؤخرها ، ولما كانت الرحمة واسعة توجد قبل المغفرة وبعدها ذكرها قبلها وبعدها .

قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبإ فتبينوا أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين ﴾ .

هذه السورة فيها إرشاد المؤمنين إلى مكارم الأخلاق ، وهي إما مع الله تعالى أو مع الرسول صلى الله عليه وسلم أو مع غيرهما من أبناء الجنس ، وهم على صنفين ، لأنهم إما أن يكونوا على طريقة المؤمنين وداخلين في رتبة الطاعة أو خارجاً عنها وهو الفاسق . والداخل في طائفتهم السالك لطريقتهم إما أن يكون حاضراً عندهم أو غائباً عنهم فهذه خمسة أقسام (أحدها) يتعلق بجانب الله و (ثانيها) بجانب الرسول و (ثالثها) بجانب الفساق و (رابعها) بالمؤمن الحاضر و (خامسها) بالمؤمن الغائب فذكرهم الله تعالى في هذه السورة خمس مرات (يا أيها الذين آمنوا) وأرشدهم في كل مرة إلى مكرمة مع قسم من الأقسام الخمسة فقال أولا (يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله) وذكر الرسول كان لبيان طاعة الله لأنها لا تعلم إلا بقول رسول الله ، وقال ثانياً (يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي) لبيان وجوب احترام النبي ﷺ وقال ثالثاً (يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبإ) لبيان وجوب الاحتراز عن الاعتماد على أقوالهم ، فإنهم يريدون إلقاء الفتنة

بينكم وبين ذلك عند تفسير قوله (وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا) وقال رابعاً (يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم) وقال (ولا تنابزوا) لبيان وجوب ترك إيذاء المؤمنين فى حضورهم والازدراء بحالهم ومنصبهم ، وقال خامساً (يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم) وقال (ولا تجسسوا) وقال (ولا يغتب بعضكم بعضاً) لبيان وجوب الاحتراز عن إهانة جانب المؤمن حال غيبته ، وذكر مالو كان حاضراً لتأذى ، وهو فى غاية الحسن من الترتيب ، فإن قيل : لم لم يذكر المؤمن قبل الفاسق لتكون المراتب متدرجة الابتداء بالله ورسوله ، ثم بالمؤمن الحاضر ، ثم بالمؤمن الغائب ، ثم بالفاسق ؟ نقول : قدم الله ماهو الأهم على مادونه ، فذكر جانب الله ، ثم ذكر جانب الرسول ، ثم ذكر ما يفضى إلى الاقتتال بين طوائف المسلمين بسبب الإصغاء إلى كلام الفاسق والاعتماد عليه ، فإنه يذكر كل ماكان أشد نفاراً للصدور ، وأما المؤمن الحاضر أو الغائب فلا يؤذى المؤمن إلى حد يفضى إلى القتل ، ألا ترى أن الله تعالى ذكر عقيب نبأ الفاسق آية الاقتتال ، فقال (وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا) وفى التفسير مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ فى سبب نزول هذه الآية ، هو أن النبى ﷺ بعث الوليد بن عقبة ، وهو أخو عثمان لأمه إلى بنى المصطلق ولياً ومصدقاً فالتقوه ، فظنهم مقاتلين ، فرجع إلى النبى ﷺ وقال : إنهم امتنعوا ومنعوا ، فهم الرسول ﷺ بالإيقاع بهم ، فنزلت هذه الآية ، وأخبر النبى صلى الله عليه وسلم بأنهم لم يفعلوا من ذلك شيئاً ، وهذا جيد إن قالوا بأن الآية نزلت فى ذلك الوقت ، وأما إن قالوا بأنها نزلت لذلك مقتصراً عليه ومتعدياً إلى غيره فلا ، بل نقول هو نزل عاماً لبيان التثبت ، وترك الاعتماد على قول الفاسق ، ويدل على ضعف قول من يقول : إنها نزلت لكذا ، أن الله تعالى لم يقل إنى أنزلتها لكذا ، والنبى صلى الله عليه وسلم لم ينقل عنه أنه بين أن الآية وردت لبيان ذلك فحسب ، غاية مافى الباب أنها نزلت فى ذلك الوقت ، وهو مثل التاريخ لنزول الآية ، ونحن نصدق ذلك ، ويتأكد ماذكرنا أن إطلاق لفظ الفاسق على الوليد سىء بعيد ، لأنه توهم وظن فأخطأ ، والمخطىء لا يسمى فاسقاً ، وكيف والفاسق فى أكثر المواضع المراد به من خرج عن ربقة الإيمان لقوله تعالى (إن الله لايهدى القوم الفاسقين) وقوله تعالى (ففسق عن أمر ربه) وقوله تعالى (وأما الذين فسقوا فمأواهم النار كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها) إلى غير ذلك .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قوله تعالى (إن جاءكم فاسق بنبإ) إشارة إلى لطيفة ، وهى أن المؤمن كان موصوفاً بأنه شديد على الكافر غليظ عليه ، فلا يتمكن الفاسق من أن يخبره بنبأ ، فإن تمكن منه يكون نادراً ، فقال (إن جاءكم) بحرف الشرط الذى لايذكر إلا مع التوقع ، إذ لا يحسن أن يقال : إن احمر البسر ، وإن طلعت الشمس .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ النكرة فى معرض الشرط تعم إذا كانت فى جانب الثبوت ، كما أنها تعم فى

الإخبار إذا كانت فى جانب النفى ، وتخص فى معرض الشرط إذا كانت فى جانب النفى ، كما تخص فى الإخبار إذا كانت فى جانب الثبوت ، فلنذكر بيانه بالمثال ودليله ، أما بيانه بالمثال فنقول : إذا قال قائل لعبده : إن كلمت رجلا فأنت حر ، فيكون كأنه قال : لا أكلم رجلا حتى يعتق بتكلم كل رجل ، وإذا قال : إن لم أكلم اليوم رجلا فأنت حر ، يكون كأنه قال : لا أكلم اليوم رجلا حتى لايعتق العبد بترك كلام كل رجل ، كما لا يظهر الحلف فى كلامه بكلام كل رجل إذا ترك الكلام مع رجل واحد ، وأما الدليل فلأن النظر أولا إلى جانب الإثبات ، ألا ترى أنه من غير حرف لما أن الوضع للاثبات والنفى بحرف ، فقول القائل : زيد قائم ، وضع أولا ولم يحتج إلى أن يقال مع ذلك حرف يدل على ثبوت القيام لزيد ، وفى جانب النفى احتجنا إلى أن نقول : زيد ليس بقائم ، ولو كان الوضع والتركيب أولا للنفى ، لما احتجنا إلى الحرف الزائد اقتصاراً أو اختصاراً ، وإذا كان كذلك فقول القائل : رأيت رجلا ، يكفى فيه ما يصحح القول وهو رؤية واحد ، فإذا قلت : مارأيت رجلا ، وهو وضع لمقابلة قوله : رأيت رجلا ، وركب لتلك المقابلة ، والمتقابلان ينبغى أن لايصدقا ، فقول القائل : ما رأيت رجلا ، لو كفى فيه انتفاء الرؤية عن غير واحد لصح قولنا : رأيت رجلا ، وما رأيت رجلا ، فلا يكونان متقابلين ، فيلزمنا من الاصطلاح الأول الاصطلاح الثانى ، ولزم منه العموم فى جانب النفى ، إذا علم هذا فنقول : الشرطية وضعت أولا ، ثم ركبت بعد الجزمية بدليل زيادة الحرف وهو فى مقابلة الجزمية ، وكان قول القائل : إذ لم تكن أنت حراً ما كلمت رجلا يرجع إلى معنى النفى ، وكما علم عموم القول فى الفاسق علم عمومه فى النبأ فمعناه : أى فاسق جاءكم بأى نبإ ، فالتثبت فيه واجب .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ متمسك أصحابنا فى أن خبر الواحد حجة ، وشهادة الفاسق لاتقبل ، أما فى المسألة الأولى فقالوا علل الأمر بالتوقف بكونه فاسقاً ، ولو كان خبر الواحد العدل لا يقبل ، لما كان للترتيب على الفاسق فائدة ، وهو من باب التمسك بالمفهوم . وأما فى الثانية فلوجهين : (أحدهما) أمر بالتبين ، فلو قبل قوله لما كان الحاكم مأموراً بالتبين ، فلم يكن قول الفاسق مقبولا ، ثم إن الله تعالى أمر بالتبين فى الخبر والنبأ ، وباب الشهادة أضيق من باب الخبر (والثانى) هو أنه تعالى قال (أن تصيبو قوماً بجهالة) والجهل فوق الخطأ ، لأن المجتهد إذا أخطأ لا يسمى جاهلا ، والذى يبنى الحكم على قول الفاسق : إن لم يصب جهل فلا يكون البناء على قوله جائزاً .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ (أن تصيبوا) ذكرنا فيها وجهين (أحدهما) مذهب الكوفيين ، وهو أن المراد لئلا تصيبوا ، وثانيها مذهب البصريين ، وهو أن المراد كراهة أن تصيبوا ، ويحتمل أن يقال : المراد فتبينوا واتقوا ، وقوله تعالى (أن تصيبوا قوماً) يبين ما ذكرنا أن يقول الفاسق : تظهر الفتن بين أقوام ، ولا كذلك بالألفاظ المؤذية فى الوجه ، والغيبة الصادرة من المؤمنين ، لأن المؤمن يمنعه دينه من الإفحاش والمبالغة فى الإيحاش ، وقوله (بجهالة) فى تقدير حال ، أى أن

تصيبوهم جاهلين وفيـــه لطيفة ، وهى أن الإصابة تستعمل فى السيئة والحسنة ،كما فى قوله تعـالى (ما أصابك من حسنة فمن الله) لـكن الأكثر أنها تستعمل فيما يسوء ، لـكن الظن السوء يذكر معه ،كما فى قوله تعالى (وإن تصبهم سيئة) ثم حقق ذلك بقوله (فتصبحوا على ما فعلتم نادمين) بياناً لأن الجاهل لابد من أن يكون على فعله نادماً ، وقوله (فتصبحوا) معناه تصيروا ، قال النحاة : أصبح يستعمل على ثلاثة أوجه (أحدها) بمعنى دخول الرجل فى الصباح ،كما يقول القائل : أصبحنا نقضى عليه (وثانيهـا) بمعنى كان الأمر وقت الصبـاح كذا وكذا ،كما يقول : أصبح اليوم مريضنا خيراً مما كان ، غير أنه تغير ضحوة النهار ، ويريد كونه فى الصبح على حاله ،كأنه يقول : كان المريض وقت الصبح خيراً وتغير ضحوة النهار (وثالثها) بمعنى صار يقول القائل أصبح زيد غنياً ويريد به صار من غير إرادة وقت دون وقت ، والمراد ههنا هو المعنى الثالث وكذلك أمسى وأضحى ، ولـكن لهذا تحقيق وهو أن نقول لابد فى اختـلاف الألفـاظ من اختلاف المعـانى واختـلاف الفوائد ، فنقول الصيرورة قد تـكون من ابتداء أمر وتدوم ، وقد تـكون فى آخر بمعنى آل الأمر إليه ، وقد تـكون متوسطة .

﴿مثال الأول﴾ قول القائل صار الطفل فاهماً أى أخذ فيه وهو فى الزيادة .

﴿مثال الثانى﴾ قول القائل صار الحق بيناً واجباً أى انتهى حده وأخذ حقه .

﴿مثال الثالث﴾ قول القائل صار زيد عالماً وقوياً إذا لم يرد أخذه فيه ولا بلوغه نهايته بل كونه متلبساً به متصفاً به ، إذا علمت هـذا فأصل استعمال أصبح فيما يصير الشىء آخذاً فى وصف ومبتدئاً فى أمر ، وأصل أمسى فيما يصير الشىء بالغاً فى الوصف نهايته ، وأصل أضحى التوسط لا يقال أهل الاستعمال لا يفرقون بين الأمور ويستعملون الألفاظ الثلاثة بمعنى واحد ، نقول إذا تقاربت المعانى جاز الاستعمال ، وجواز الاستعمال لا ينافى الأصل ، وكثير من الألفاظ أصله مضى واستعمل استعمالا شائعاً فيما لا يشاركه ، إذا علم هذا فنقول قوله تعالى (فتصبحوا) أى فتصيروا آخذين فى الندم متلبسين به ثم تستديمونه وكذلك فى قوله تعـالى (فأصبحتم بنعمته إخواناً) أى أخذتم فى الأخوة وأنتم فيها زائدون ومستمرون ، وفى الجملة اختار فى القرآن هذه اللفظة لأن الأمر المقرون به هذه اللفظة ، إما فى الثواب أو فى العقاب وكلاهما فى الزيادة ، ولا نهاية للأمور الإلهية وقوله تعالى (نادمين) الندم هم دائم والنون والدال والميم فى تقاليبها لا تنفك عن معنى الدوام ،كما فى قول القائل : أدمن فى الشرب ومدمن أى أقام ، ومنه المدينة . وقوله تعالى (فتصبحوا على مافعلتم نادمين) فيه فائدتان :

﴿إحداهما﴾ تقرير التحذير وتأكيده ، ووجهه هو أنه تعالى لمـا قال (أن تصيبوا قوماً بجهالة) قال بعده وليس ذلك مما لا يلتفت إليه ، ولا يجوز للعاقل أن يقول : هب أنى أصبت قوماً فماذا على ؟ بل عليكم منه الهم الدائم والحزن المقيم ، ومثل هذا الشىء واجب الاحتراز منه .

وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ

﴿ والثانية ﴾ مدح المؤمنين ، أى لستم ممن إذا فعلوا سيئة لا يلتفتون إليها بل تصبحون نادمين عليها .

قوله تعالى : ﴿ واعلموا أن فيكم رسول الله لو يطيعكم فى كثير من الأمر لعنتم ولكن الله حبب إليكم الإيمان وزينه فى قلوبكم وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان ﴾ .

ولنذكر فى تفسير هذه الآية ما قيل وما يجوز أن يقال ، أما ما قيل فلنختر أحسنه وهو ما اختاره الزمخشرى فإنه بحث فى تفسير هذه الآية بحثاً طويلا ، فقال قوله تعالى (لو يطيعكم فى كثير من الأمر لعنتم) ليس كلاماً مستأنفاً لأدائه إلى تنافر النظم ، إذ لا تبقى مناسبة بين قوله (واعلموا) وبين قوله (لو يطيعكم) ثم وجه التعلق هو أن قوله (لو يطيعكم) فى تقدير حال من الضمير المرفوع فى قوله (فيكم) كان التقدير كائن فيكم ، أو موجود فيكم ، على حال تريدون أن يطيعكم أو يفعل باستصوابكم ، ولا ينبغى أن يكون فى تلك الحال ، لأنه لو فعل ذلك (لعنتم) أو لوقعتم فى شدة أو أولمتم به .

قوله تعالى : ﴿ ولكن الله حبب إليكم الإيمان ﴾ خطاباً مع بعض من المؤمنين غير المخاطبين بقوله (لو يطيعكم) قال الزمخشرى اكتفى بالتغاير فى الصفة واختصر ولم يقل حبب إلى بعضكم الإيمان ، وقال أيضاً بأن قوله تعالى (لو يطيعكم) دون أطاعكم يدل على أنهم كانوا يريدون استمرار تلك الحالة ، ودوام النبى صلى الله عليه وسلم على العمل باستصوابهم ، ولكن يكون ما بعدها على خلاف ما قبلها ، وههنا كذلك وإن لم يكن تحصل المخالفه بتصريح اللفظ لأن اختلاف المخاطبين فى الوصف يدلنا على ذلك لأن المخاطبين أولا بقوله (لو يطيعكم) هم الذين أرادوا أن يكون النبى صلى الله عليه وسلم يعمل بمرادهم ، والمخاطبين بقوله (حبب إليكم الإيمان) هم الذين أرادوا عملهم بمراد النبى صلى الله عليه وسلم ، هذا ما قاله الزمخشرى واختاره وهو حسن ، والذى يجوز أن يقال وكأنه هو الأقوى أن الله تعالى لما قال (إن جاءكم فاسق بنبإ فتبينوا) أى فتثبتوا واكشفوا قال بعده (واعلموا أن فيكم رسول الله) أى الكشف سهل عليكم بالرجوع إلى النبى صلى الله عليه وسلم فإنه فيكم مبين مرشد ، وهذا كما يقول القائل عند اختلاف تلاميذ شيخ فى مسألة : هذا الشيخ قاعد لا يريد بيان قعوده ، وإنما يريد أمرهم بالمراجعة إليه ، وذلك لأن المراد منه أنه

لا يطيعكم فى كثير من الأمر ، وذلك لأن الشيخ فيما ذكرنا من المثال لو كان يعتمد على قول التلاميذ لاتطمئن قلوبهم بالرجوع إليه ، أما إذا كان لايذكر إلا من النقل الصحيح ، ويقرره بالدليل القوى يراجعه كل أحد ، فكذلك ههنا قال استرشدوه فإنه يعلم ولا يطيع أحداً فلا يوجد فيه حيف ولا يروج عليه زيف ، والذى يدل على أن المراد من قوله (لو يطيعكم فى كثير من الأمر لعنتم) بيان أنه لا يطيعكم هو أن الجملة الشرطية فى كثير من المواضع ترد لبيان امتناع الشرط لامتناع الجزاء كما فى قوله تعالى (لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا) وقوله تعالى (ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيراً) فانه لبيان أنه ليس فيهما آلهة وأنه ليس من عند غير الله .

قوله تعالى : ﴿ ولكن الله حبب إليكم الإيمان وزينه فى قلوبكم ﴾ إشارة إلى جواب سؤال يرد على قوله (فتبينوا) وهو أن يقع لواحد أن يقول إنه لا حاجة إلى المراجعة وعقولنا كافية بها أدركنا الإيمان وتركنا العصيان فكذلك نجتهد فى أمورنا ، فقال ليس إدراك الإيمان بالاجتهاد ، بل الله بين البرهان وزين الإيمان حتى حصل اليقين ، وبعد حصول اليقين لا يجوز التوقف والله إنما أمركم بالتوقف عند تقليد قول الفاسق ، وما أمركم بالعناد بعد ظهور البرهان ، فكأنه تعالى قال توقفوا فيما يكون مشكوكا فيه لكن الإيمان حببه اليكم بالبرهان فلا تتوقفوا فى قبوله ، وعلى قولنا المخاطب بقوله (حبب اليكم) هو المخاطب بقوله (لو يطيعكم) إذا علمت معنى الآية جملة ، فاسمعه مفصلا ولنفصله فى مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ لو قال قائل إذا كان المراد بقوله (واعلموا أن فيكم رسول الله) الرجوع إليه والاعتماد على قوله ، فلم لم يقل بصريح اللفظ (فتبينوا) وراجعوا النبى صلى الله عليه وسلم ؟ وما الفائدة فى العدول إلى هذا المجاز ؟ نقول الفائدة زيادة التأكيد وذلك لأن قول القائل فيما ذكرنا من المثال هذا الشيخ قاعد آكد فى وجوب المراجعة إليه من قوله راجعوا شيخكم ، وذلك لأن القائل يجعل وجوب المراجعه إليه متفقاً عليه ، ويجعل سبب عدم الرجوع عدم علمهم بقعوده ، فكأنه يقول : إنكم لاتشكون فى أن الكاشف هو الشيخ ، وأن الواجب مراجعته فإن كنتم لاتعلمون قعوده فهو قاعد فيجعل حسن المراجعة أظهر من أمر القعود كأنه يقول خفى عليكم قعوده فتركتم مراجعته ، ولا يخفى عليكم حسن مراجعته ، فيجعل حسن المراجعته أظهر من الأمر الحسى ، بخلاف مالو قال راجعوه ، لأنه حينئذ يكون قائلا بأنكم ما علمتم أن مراجعته هو الطريق ، وبين الكلامين بون بعيد ، فكذلك قوله تعالى (واعلموا أن فيكم رسول الله) يعنى لا يخفى عليكم وجوب مراجعته ، فإن كان خفى عليكم كونه فيكم ، فاعلموا أنه فيكم فيجعل حسن المراجعة أظهر من كونه فيهم حيث ترك بيانه وأخذ فى بيان كونه فيهم ، وهذا من المعانى العزيزة التى توجد فى المجازات ولا توجد فى الصريح .

﴿ المسألة الثانية ﴾ إذا كان المراد من قوله (لو يطيعكم) بيان كونه غير مطيع لأحد بل هو

متبع للوحى فلم لم يصرح به ؟ نقول بيان نفى الشيء مع بيان دليل النفى أتم من بيانه من غير دليل ، والجملة الشرطية بيان النفى مع بيان دليله فإن قوله (ليس فيهما آلهة) لو قال قائل : لم قلت إنه ليس فيهما آلهة يجب أن يذكر الدليل فقال (لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا) فكذلك ههنا لو قال لا يطيعكم ، وقال قائل لم لا يطيع لوجب أن يقال لو أطاعكم لأطاعكم لأجل مصلحتكم ، لكن لا مصلحة لكم فيه لأنكم تعنتون وتأثمون وهو يشق عليه عنتكم ، كما قال تعالى (عزيز عليه ماعنتم) فإن طاعتكم لا تفيده شيئاً فلا يطيعكم ، فهذا نفى الطاعة بالدليل وبين نفى الشيء بدليل ونفيه بغير دليل فرق عظيم .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قال فى كثير من الأمر ليعلم أنه قد يوافقهم ويفعل بمقتضى مصلحتهم تحقيقاً لفائدة قوله تعالى (وشاورهم فى الأمر) .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ إذا كان المراد بقوله تعالى حبب إليكم الإيمان ، فلا تتوقفوا فلم لم يصرح به ؟ قلنا لما بيناه من الإشارة إلى ظهور الأمر يعنى أنتم تعلمون أن اليقين لا يتوقف فيه ، إذ ليس بعده مرتبة حتى يتوقف إلى بلوغ تلك المرتبة لأن من بلغ إلى درجة الظن فانه يتوقف إلى أن يبلغ درجة اليقين ، فلما كان عدم التوقف فى اليقين معلوماً متفقاً عليه لم يقل فلا تتوقفوا بل قال حبب إليكم الإيمان ، أى بينه وزينه بالبرهان اليقينى .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ ما المعنى فى قوله (حبب إليكم الإيمان وزينه فى قلوبكم) نقول قوله تعالى (حبب إليكم) أى قربه وأدخله فى قلوبكم ثم زينه فيها بحيث لا تفارقونه ولا يخرج من قلوبكم ، وهذا لأن من يحب أشياء فقد يمل شيئاً منها إذا حصل عنده وطال لبثه والإيمان كل يوم يزداد حسناً ، ولكن من كانت عبادته أكثر وتحمله لمشاق التكاليف أتم ، تكون العبادة والتكاليف عنده ألذ وأكمل ، ولهذا قال فى الأول (حبب إليكم) وقال ثانياً (وزينه فى قلوبكم) كأنه قربه إليهم ثم أقامه فى قلوبهم .

﴿ المسألة السادسة ﴾ ما الفرق بين الأمور الثلاثة وهى الكفر والفسوق والعصيان ؟ فنقول هذه أمور ثلاثة فى مقابلة الإيمان الكامل لأن الإيمان الكامل المزين ، هو أن يجمع التصديق بالجنان والإقرار باللسان والعمل بالأركان (أحدها) قوله تعالى (وكره إليكم الكفر) وهو التكذيب فى مقابلة التصديق بالجنان والفسوق هو الكذب (وثانيها) هو ماقبل هذه الآية وهو قوله تعالى (إن جاءكم فاسق بنبإ) سمى من كذب فاسقاً فيكون الكذب فسوقاً (ثالثها) ماذكره بعد هذه الآية ، وهو قوله تعالى (بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان) فإنه يدل على أن الفسوق أمر قولى لاقترانه بالاسم ، وسنبين تفسيره إن شاء الله تعالى (ورابعها) وجه معقول وهو أن الفسوق هو الخروج عن الطاعة على ماعلم فى قول القائل : فسقت الرطبة إذا خرجت ، وغير ذلك لأن الفسوق هو الخروج زيد فى الاستعمال كونه الخروج عن الطاعة ، لكن الخروج لا يكون

أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ﴿٧﴾ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٨﴾

له ظهور بالأمر القلبي ، إذ لا اطلاع على ما في القلوب لأحد إلا الله تعالى ، ولا يظهر بالأفعال لأن الأمر قد يترك إما لنسيان أو سهو ، فلا يعلم حال التارك والمرتكب أنه مخطىء أو متعمد ، وأما الكلام فإنه حصول العلم بما عليه حال المتكلم ، فالدخول في الإيمان والخروج منه يظهر بالكلام فتخصيص الفسوق بالأمر القولي أقرب ، وأما العصيان فترك الأمر وهو بالفعل أليق ، فإذا علم هذا ففيه ترتيب في غاية الحسن ، وهو أنه تعالى كره إليكم الكفر وهو الأمر الأعظم كما قال تعالى (إن الشرك لظلم عظيم) .

قوله تعالى : ﴿ والفسوق ﴾ يعني ما يظهر لسانكم أيضاً ، ثم قال ﴿ والعصيان ﴾ وهو دون الكل ولم يترك عليكم الأمر الأدنى وهو العصيان ، وقال بعض الناس الكفر ظاهر والفسوق هو الكبيرة ، والعصيان هو الصغيرة ، وما ذكرناه أقوى .

قوله تعالى : ﴿ أولئك هم الراشدون ﴾ .

خطاباً مع النبي صلى الله عليه وسلم وفيه معنى لطيف : وهو أن الله تعالى في أول الأمر قال (واعلموا أن فيكم رسول الله) أي هو مرشد لكم لخطاب المؤمنين للتنبيه على شفقته بالمؤمنين ، فقال في الأول كفى النبي مرشداً لكم ما تسترشدونه فأشفق عليهم وأرشدهم ، وعلى هذا قوله (الراشدون) أي الموافقون الرشد يأخذون ما يأتيهم وينتهون عما ينهاهم .

قوله تعالى : ﴿ فضلا من الله ونعمة والله عليم حكيم ﴾ وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ نصب فضلا لأجل أمور ، إما لكونه مفعولا له ، وفيه وجهان (أحدهما) أن العامل فيه هو الفعل الذي في قوله (الراشدون) فإن قيل : كيف يجوز أن يكون فضل الله الذي هو فعل الله مفعولا له بالنسبة إلى الرشد الذي هو فعل العبد ؟ نقول لما كان الرشد توفيقاً من الله كان كأنه فعل الله فكأنه تعالى أرشدهم فضلا ، أي يكون متفضلا عليهم منعماً في حقهم (والوجه الثاني) هو أن العامل فيه هو قوله (حبب إليكم الإيمان وكره إليكم الكفر) فضلا وقوله (أولئك هم الراشدون) جملة اعترضت بين الكلامين أو يكون العامل فعلا مقدراً ، فكأنه قال تعالى جرى ذلك فضلا من الله ، وإما لكونه مصدراً ، وفيه وجهان (أحدهما) أن يكون مصدراً من غير اللفظ ولأن الرشد فضل فكأنه قال أولئك هم الراشدون رشدا (وثانيهما) هو أن يكون مصدراً لفعل مضمر ، كأنه قال حبب إليكم الإيمان وكره إليكم الكفر فأفضل فضلا وأنعم نعمة ، والقول بكونه منصوباً على أنه مفعول مطلق وهو المصدر ، أو مفعول له قول الزمخشري ، وإما أن يكون فضلا مفعولا به ، والفعل مضمراً دل عليه قوله تعالى (أولئك هم الرشدون) أي يبتغون فضلا من الله ونعمة .

وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ

﴿ المسألة الثانية ﴾ ما الفرق بين الفضل والنعمة فى الآية ؟ نقول فضل الله إشارة إلى ما عنده من الخير وهو مستغن عنه ، والنعمة إشارة إلى مايصل إلى العبد وهو محتاج إليه ، لأن الفضل فى الأصل ينبىء عن الزيادة ، وعنده خزائن من الرحمة لا لحاجة إليها ، ويرسل منها على عباده مالا يبقون معه فى ورطة الحاجة بوجه من الوجوه ، والنعمة تنبىء عن الرأفة والرحمة وهو من جانب العبد ، وفيه معنى لطيف وهو تأكيد الإعطاء ، وذلك لأن المحتاج يقول للغنى : أعطنى ما فضل عنك وعندك ، وذلك غير ملتفت إليه وأنا به قيامى وبقائى ، فإذن قوله (فضل من الله) إشارة إلى ماهو من جانب الله الغنى ، والنعمة إشارة إلى ماهو من جانب العبد من اندفاع الحاجة ، وهذا مما يؤكد قولنا فضلا منصوب بفعل مضمر ، وهو الابتغاء والطلب .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ ختم الآية بقوله (والله عليم حكيم) فيه مناسبات عدة (منها) أنه تعالى لما ذكر نبأ الفاسق ، قال إن يشتبه على المؤمن كذب الفاسق فلا تعتمدوا على ترويجه عليكم الزور ، فإن الله عليم ، ولا تقولوا كما كان عادة المنافق لولا يعذبنا الله بما نقول ، فإن الله حكيم لا يفعل إلا على وفق حكمته (وثانيها) لما قال الله تعالى (واعلموا أن فيكم رسول الله لو يطيعكم) بمعنى لا يطيعكم ، بل يتبع الوحى ، قال فإن الله من كونه عليما يعلمه ، ومن كونه حكيما يأمره بما تقتضيه الحكمة فاتبعوه (ثالثها) المناسبة التى بين قوله تعالى (عليم حكيم) وبين قوله (حبب إليكم الإيمان) أى حبب بعلمه الإيمان لأهل الإيمان ، واختار له من يشاء بحكمته (رابعها) وهو الأقرب ، وهو أنه سبحانه وتعالى قال (فضلا من الله ونعمة) ولما كان الفضل هو ما عند الله من الخير المستغنى عنه ، قال تعالى هو عليم بما فى خزائن رحمته من الخير ، وكانت النعمة هو مايدفع به حاجة العبد ، قال هو حكيم ينزل الخير بقدر ما يشاء على وفق الحكمة .

قوله تعالى : ﴿ وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء إلى أمر الله ﴾ .

لما حذر الله المؤمنين من النبأ الصادر من الفاسق ، أشار إلى ما يلزم منه استدراكا لما يفوت ، فقال فإن اتفق أنكم تبنون على قول من يوقع بينكم ، وآل الأمر إلى اقتتال طائفتين من المؤمنين ، فأزيلوا ما أثبته ذلك الفاسق وأصلحوا بينهما (فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى) أى الظالم يجب عليكم دفعه عنه ، ثم إن الظالم إن كان هو الرعية ، فالواجب على الأمير دفعهم ، وإن كان هو الأمير ، فالواجب على المسلمين منعه بالنصيحة فما فوقها ، وشرطه أن لايثير فتنة مثل التى

فى اقتتال الطائفتين أو أشد منهما ، وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قوله تعالى (وإن) إشارة إلى ندرة وقوع القتال بين طوائف المسلمين ، فإن قيل فنحن نرى أكثر الاقتتال بين طوائفهم ؟ نقول قوله تعالى (وإن) إشارة إلى أنه ينبغى أن لا يقع إلا نادراً ، غاية مافى الباب أن الإمر على خلاف ما ينبغى ، وكذلك (إن جاءكم فاسق بنبأ) إشارة إلى أن مجيء الفاسق بالنبأ ينبغى أن يقع قليلا ، مع أن مجيء الفاسق بالنبأ كثير ، وقول الفاسق صار عند أولى الأمر أشد قبولا من قول الصادق الصالح .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال تعالى (وإن طائفتان) ولم يقل وإن فرقتان تحقيقاً للمعنى الذى ذكرناه وهو التقليل ، لأن الطائفة دون الفرقة ، ولهذا قال تعالى (فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة) .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قال تعالى (من المؤمنين) ولم يقل منكم ، مع أن الخطاب مع المؤمنين لسبق قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ) تنبيهاً على قبح ذلك وتبعيداً لهم عنهم ، كما يقول السيد لعبده : إن رأيت أحداً من غلمانى يفعل كذا فامنعه ، فيصير بذلك مانعاً للمخاطب عن ذلك الفعل بالطريق الحسن ، كأنه يقول : أنت حاشاك أن تفعل ذلك ، فان فعل غيرك فامنعه ، كذلك ههنا قال (وإن طائفتان من المؤمنين) ولم يقل منكم لما ذكرنا من التنبيه مع أن المعنى واحد .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قال تعالى (وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا) ولم يقل : وإن اقتتل طائفتان من المؤمنين ، مع أن كلمة (إن) اتصالها بالفعل أولى ، وذلك ليكون الابتداء بما يمنع من القتال ، فيتأكد معنى النكرة المدلول عليها بكلمة (إن) وذلك لأن كونهما طائفتين مؤمنتين يقتضى أن لا يقع القتال منهما ، فإن قيل فلم لم يقل : ياأيها الذين آمنوا إن فاسق جاءكم ، أو إن أحد من الفساق جاءكم ، ليكون الابتداء بما يمنعهم من الإصغاء إلى كلامه ، وهو كونه فاسقاً ؟ نقول المجيء بالنبأ الكاذب يورث كون الإنسان فاسقاً ، أو يزداد بسببه فسقه ، فالمجيء به سبب الفسق فقدمه . وأما الاقتتال فلا يقع سبباً للايمان أو الزيادة ، فقال (إن جاءكم فاسق) أى سواء كان فاسقاً أو لا أو جاءكم بالنبأ فصار فاسقاً به ، ولو قال : وإن أحد من الفساق جاءكم ، كان لا يتناول إلا مشهور الفسق قبل المجيء إذا جاءهم بالنبأ .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ قال تعالى (اقتتلوا) ولم يقل : يقتتلوا ، لأن صيغة الاستقبال تنبيء عن الدوام والإستمرار ، فيفهم منه أن طائفتين من المؤمنين إن تمادى الاقتتال بينهما فأصلحوا ، وهذا لأن صيغة المستقبل تنبيء عن ذلك ، يقال فلان يتهجد ويصوم .

﴿ المسألة السادسة ﴾ قال (اقتتلوا) ولم يقل اقتتلا ، وقال (فأصلحوا بينهما) ولم يقل بينهم ، ذلك لأن عند الاقتتال تكون الفتنة قائمة ، وكل أحد برأسه يكون فاعلا فعلا ، فقال (اقتتلوا) وعند العود إلى الصلح تتفق كلمة كل طائفة ، وإلا لم يكن يتحقق الصلح . فقال (بينهما) لكون

الطائفتين حينئذ كنفسين .

ثم قال تعالى (فإن بغت إحداهما) إشارة إلى نادرة أخرى وهى البغى ، لأنه غير متوقع ، فإن قيل كيف يصح فى هذا الموضع كلمة (إن) مع أنها تستعمل فى الشرط الذى لا يتوقع وقوعه ، وبغى أحدهما عند الاقتتال لا بد منه ، إذ كل واحد منهما لا يكون محسناً ، فقوله (إن) تكون من قبيل قول القائل : إن طلعت الشمس ، نقول فيه معنى لطيف ، وهو أن الله تعالى يقول : الاقتتال بين طائفتين لا يكون إلا نادر الوقوع ، وهو كما تظن كل طائفة أن الأخرى فيها الكفر والفساد ، فالقتال واجب كما سبق فى الليالى المظلمة ، أو يقع لكل واحد أن القتال جائز بالاجتهاد ، وهو خطأ ، فقال تعالى : الاقتتال لا يقع إلا كذا ، فإن بان لهما أو لأحدهما الخطأ واستمر عليه فهو نادر ، وعند ذلك يكون قد بغى فقال (فإن بغت إحداهما على الأخرى) يعنى بعد استبانة الأمر ، وحينئذ فقوله (فإن بغت) فى غاية الحسن لأنه يفيد الندرة وقلة الوقوع ، وفيه أيضاً مباحث (الأول) قال (فإن بغت) ولم يقل فإن تبغ لما ذكرنا فى قوله تعالى (اقتتلوا) ولم يقل يقتتلوا (الثانى) قال (حتى تفىء) إشارة إلى أن القتال ليس جزاء للباغى كحد الشرب الذى يقام وإن ترك الشرب ، بل القتال إلى حد الفيئة ، فإن فاءت الفئة الباغية حرم قتالهم (الثالث) هذا القتال لدفع الصائل ، فيندرج فيه وذلك لأنه لما كانت الفيئة من إحداهما ، فان حصلت من الأخرى لا يوجد البغى الذى لأجله حل القتال (الرابع) هذا دليل على أن المؤمن بالكبيرة لا يخرج عن كونه مؤمناً لأن الباغى جعله من إحدى الطائفتين وسماهما مؤمنين (الخامس) قوله تعالى (إلى أمر الله) يحتمل وجوها (أحدها) إلى طاعة الرسول وأولى الأمر لقوله تعالى (أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم) . (وثانيها) إلى أمر الله ، أى إلى الصلح فإنه مأمور به يدل عليه قوله تعالى (فأصلحوا ذات بينكم) ، (ثالثها) إلى أمر الله بالتقوى ، فان من خاف الله حق الخوف لا يبقى له عداوة إلا مع الشيطان كما قال تعالى (إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدواً) ، (السادس) لو قال قائل قد ذكرتم مايدل على كون الشرط غير متوقع الوقوع وقلتم بأن القتال والبغى من المؤمن نادر ، فإذن تكون الفئة متوقعه فكيف قال (فان فاءت) ؟ نقول قول القائل لعبده : إن مت فأنت حر ، مع أن الموت لابد من وقوعه ، لكن لما كان وقوعه بحيث يكون العبد محلا للعتق بأن يكون باقياً فى ملكه حياً يعيش بعد وفاته غير معلوم فكذلك ههنا لما كان الواقع فيئتهم من تلقاء أنفسهم فلما لم يقع دل على تأكيد الأخذ بينهم فقال تعالى (فان فاءت) بقتالكم إياهم بعد اشتداد الأمر والتحام الحرب فأصلحوا ، وفيه معنى لطيف وهو أنه تعالى أشار إلى أن من لم يخف الله وبغى لايكون رجوعه بقتالكم إلا جبراً (السابع) قال ههنا (فأصلحوا بينهما بالعدل) ولم يذكر العدل فى قوله (وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا) نقول لأن الإصلاح هناك بإزالة الاقتتال نفسه ، وذلك يكون بالنصيحة أو التهديد والزجر والتعذيب ، والإصلاح ههنا بإزالة آثار القتل

فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾

بعد اندفاعه من ضمان المتلفات وهو حكم فقال (بالعدل) فكأنه قال : واحكموا بينهما بعد تركهما القتال بالحق وأصلحوا بالعدل مما يكون بينهما ، لئلا يؤدى إلى ثوران الفتنة بينهما مرة أخرى (الثامن) إذا قال (فأصلحوا بينهما بالعدل) فأية فائدة فى قوله (وأقسطوا) نقول قوله فأصلحوا بينهما بالعدل كان فيه تخصيص بحال دون حال فعمم الأمر بقوله (وأقسطوا) أى فى كل أمر مفض إلى أشرف درجة وأرفع منزلة وهى محبة الله ، والإقساط إزالة القسط وهو الجور والقاسط هو الجائر ، والتركيب دال على كون الأمر غير مرضى من القسط والقاسط فى القلب وهو أيضاً غير مرضى ولا معتد به فكذلك القسط .

قوله تعالى : ﴿ إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم ﴾ تتميما للارشاد وذلك لأنه لما قال (وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا) كان لظان أن يظن أو لمتوهم أن يتوهم أن ذلك عند اختلاف قوم ، فأما إذا كان الاقتتال بين اثنين فلا تعم المفسدة فلا يؤمر بالإصلاح ، وكذلك الأمر بالإصلاح هناك عند الاقتتال ، وأما إذا كان دون الاقتتال كالتشاتم والتسافه فلا يجب الإصلاح فقال (بين أخويكم) وإن لم تكن الفتنة عامة وإن لم يكن الأمر عظيما كالقتال بل لو كان بين رجلين من المسلمين أدنى اختلاف فاسعوا فى الإصلاح .

وقوله ﴿ واتقوا الله لعلكم ترحمون ﴾ فيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قوله تعالى (إنما المؤمنون إخوة) قال بعض أهل اللغة الأخوة جمع الأخ من النسب والإخوان جمع الأخ من الصداقة ، فالله تعالى قال (إنما المؤمنون إخوة) تأكيداً للأمر وإشارة إلى أن ما بينهم ما بين الأخوة من النسب والإسلام كالأب ، قال قائلهم :

أبى الإسلام لا أب [لى] سواه   إذا افتخروا بقيس أو تميم

﴿ المسألة الثانية ﴾ عند إصلاح الفريقين والطائفتين لم يقل اتقوا ، وقال ههنا اتقوا مع أن ذلك أهم ؟ نقول الفائدة هو أن الاقتتال بين طائفتين يفضى إلى أن تعم المفسدة ويلحق كل مؤمن منها شىء وكل يسعى فى الاصلاح لأمر نفسه فلم يؤكد بالأمر بالتقوى ، وأما عند تخاصم رجلين لا يخاف الناس ذلك وربما يزيد بعضهم تأكد الخصام بين الخصوم لغرض فاسد فقال (فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله) أو نقول قوله (فأصلحوا) إشارة إلى الصلح ، وقوله (واتقوا الله)

إشارة إلى مايصونهم عن التشاجر ، لأن من اتقى الله شغله تقواه عن الاشتغال بغيره ، ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم « المسلم من سلم الناس من لسانه و[يده] » لأن المسلم يكون منقاداً لأمر الله مقبلا على عباد الله فيشغله عيبه عن عيوب الناس ويمنعه أن يرهب الأخ المؤمن ، وإليه أشار النبي صلى الله عليه وسلم « المؤمن من يأمن جاره بوائقه » يعنى اتق الله فلا تتفرغ لغيره .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ إنما للحصر أى لا أخوة إلا بين المؤمنين ، وأما بين المؤمن والكافر فلا ، لأن الإسلام هو الجامع ولهذا إذا مات المسلم وله أخ كافر يكون ماله للمسلمين ولا يكون لأخيه الكافر ، وأما الكافر فكذلك لأن فى النسب المعتبر الإب الذى هو أب شرعا ، حتى أن ولدى الزنا من رجل واحد لا يرث أحدهما الآخر ، فكذلك الكفر كالجامع الفاسد فهو كالجامع العاجز لايفيد الأخوة ، ولهذا من مات من الكفر وله أخ مسلم ولا وارث له من النسب لا يجعل ماله للكفار ، ولو كان الدين يجمعهم لكان مال الكافر للكفار ، كما أن مال المسلم للمسلمين عند عدم الوارث ، فان قيل قد ثبت أن الأخوة للاسلام أقوى من الأخوة النسبية ، بدليل أن المسلم يرثه المسلمون ولا يرثه الأخ الكافر من النسب ، فلم لم يقدموا الأخوة الإسلامية على الأخوة النسبية مطلقاً حتى يكون مال المسلم المسلمين لا لأخوته من النسب ؟ نقول هذا سؤال فاسد ، وذلك لأن الأخ المسلم إذا كان أخا من النسب فقد اجتمع فيه أخوتان فصار أقوى والعصوبة لمن له القوة ، ألا ترى أن الأخ من الأبوين يرث ولا يرث الأخ من الأب معه فكذلك الأخ المسلم من النسب له أخوتان فيقدم على سائر المسلمين والله أعلم .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قال النحاة (ما) فى هذا الموضع كافة تكف إن عن العمل ، ولولا ذلك لقيل : إنما المؤمنين إخوة ، وفى قوله تعالى (فبما رحمة من الله) وقوله (عما قليل) ليست كافة . والسؤال الأقوى هو أن رب من حروف الجر والباء وعن كذلك ، وما فى رب كافة وفى عما وبما ليست كافة ، والتحقيق فيه هو أن الكلام بعد ربما وإنما يكون تاماً ، ويمكن جعله مستقلا ولو حذف ربما وإنما لما ضر ، فنقول ربما قام الأمير وربما زيد فى الدار ، ولو حذفت ربما وقلت زيد فى الدار وقام الأمير لصح ، وكذلك فى إنما ولكنما ، وأما عما وبما فليست كذلك ، لأن قوله تعالى (فبما رحمة من الله لنت لهم) لو أذهبت بما وقلت رحمة من الله لنت لهم ، لما كان كلاما فالباء يعد تعلقها بما يحتاج إليها فهى باقية حقيقة ، ولكنما وإنما وربما لما استغنى عنها فكأنها لم يبق حكمها ولا عمل للمعدوم ، فان قيل إن إذا لم تكف بما فما بعده كلام تام ، فوجب أن لا يكون له عمل تقول إن زيداً قائم ولو قلت زيد قائم لكفى وتم ؟ نقول : ليس كذلك لأن ما بعد إن جاز أن يكون نكرة ، تقول إن رجلا جاءنى وأخبرنى بكذا وأخبرنى بعكسه ، وتقول جاءنى رجل وأخبرنى ، ولا يحسن إنما رجل جاءنى كالو لم تكن هناك إنما ، وكذلك القول فى بينما وأينما فإنك لو حذفتهما واقتصرت على مايكون بعدهما لايكون تاماً فلم يكف ، والكلام فى لعل قد تقدم مراراً

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِ

قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيراً منهن ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب ﴾ .

وقد بينا أن السورة للارشاد بعد إرشاد فبعد الإرشاد إلى ما ينبغي أن يكون عليه المؤمن مع الله تعالى ومع النبي صلى الله عليه وسلم ومع من يخالفهما ويعصيهما وهو الفاسق ، بين ما ينبغي أن يكون عليه المؤمن مع المؤمن ، وقدذكرنا أن المؤمن إما أن يكون حاضراً وإما أن يكون غائباً ، فإن كان حاضراً فلا ينبغي أن يسخر منه ولا يلتفت إليه بما ينافي التعظيم ، وفي الآية إشارة إلى أمور ثلاثة مرتبة بعضها دون بعض وهي السخرية واللمز والنبز ، فالسخرية هي أن لا ينظر الإنسان إلى أخيه بعين الإجلال ولا يلتفت إليه ويسقطه عن درجته ، وحينئذ لا يذكر ما فيه من المعايب ، وهذا كما قال بعض الناس تراهم إذا ذكر عندهم عدوهم يقولون هو دون أن يذكر ، وأقل من أن يلتفت إليه ، ، فقال لا تحقروا إخوانكم ولا تستصغروهم (الثاني) هو اللمز وهو ذكر ما في الرجل من العيب في غيبته وهذا دون الأول ، لأن في الأول لم يلتفت إليه ولم يرض بأن يذكره أحد وإنما جعله مثل المسخرة الذي لا يغضب له ولا عليه (الثالث) هو النبز وهو دون الثاني ، لأن في هذه المرتبة يضيف إليه وصفاً ثابتاً فيه يوجب بغضه وحط منزلته ، وأما النبز فهو مجرد التسمية وإن لم يكن فيه وذلك لأن اللقب الحسن والإسم المستحسن إذا وضع لواحد وعلق عليه لا يكون معناه موجوداً فإن من يسمى سعداً وسعيداً قد لا يكون كذلك ، وكذا من لقب إمام الدين وحسام الدين لا يفهم منه أنه كذلك وإنما هو علامة وزينة ، وكذلك النبز بالمروان ومروان الحمار لم يكن كذلك وإنما كان ذلك سمة ونسبة ، ولا يكون اللفظ مراداً إذا لم يرد به الوصف كما أن الأعلام كذلك ، فإنك إذا قلت لمن سمى بعبد الله أنت عبد الله فلا تعبد غيره ، وتريد به وصفه لا تكون قد أتيت باسم علمه إشارة ، فقال لا تتكبروا فتستحقروا إخوانكم وتستصغروهم بحيث لا تلتفتوا إليهم أصلا وإذا نزلتم عن هذا من النعم إليهم فلا تعيبو[هم] طالبين حط درجتهم والغض عن منزلتهم ، وإذا تركتم النظر في معايبهم ووصفهم بما يعيبهم فلا تسموهم بما يكرهونه ولا تقولوا هذا ليس بعيب يذكر فيه إنما هو اسم يتلفظ به من غير قصد إلى بيان صفة وذكر في الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قوله (لا يسخر قوم من قوم) القوم اسم يقع على جمع من الرجال ولا يقع

على النساء ولا على الأطفال لأنه جمع قائم كصوم جمع صائم ، والقائم بالأمور هم الرجال فعلى هذا الأقوام الرجال لا النساء (فائدة) وهى أن عدم الالتفات والاستحقار إنما يصدر فى أكثر الأمر من الرجال بالنسبة إلى الرجال ، لأن المرأة فى نفسها ضعيفة ، فاذا لم يلتفت الرجال إليها لا يكون لها أمر ، قال النبى صلى الله عليه وسلم « النساء لحم على وضم إلا ما رددت عنه » وأما المرأة فلا يوجد منها استحقار الرجل وعدم التفاتها إليه لاضطرارها فى دفع حوائجها [إليه] ، وأما الرجال بالنسبه إلى الرجال والنساء بالنسبة إلى النساء فيوجد فيهم هذا النوع من القبح وهذا أشهر .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال فى الدرجة العالية التى هى نهاية المنكر (عسى أن يكونوا خيراً منهم) كسراً له وبغضاً لنكره ، وقال فى المرتبة الثانية (لا تلمزوا أنفسكم) جعلهم كأنفسهم لما نزلوا درجة رفعهم الله درجة وفى الأول جعل المسخور منه خيراً ، وفى الثانى جعل المسخور منه مثلا ، وفى قوله (عسى أن يكونوا خيراً منهم) حكمة وهى أنه وجد منهم النكر الذى هو مفض إلى الإهمال وجعل نفسه خيراً منهم كما فعل إبليس حيث لم يلتفت إلى آدم وقال (أنا خير منه) فصارهو خيراً ، ويمكن أن يقال المراد من قوله (أن يكونوا) يصيروا فإن من استحقر إنساناً لفقره أو وحدته أو ضعفه لا يأمن أن يفتقر هو ويستغنى الفقير ، ويضعف هو ويقوى الضعيف .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قال تعالى (قوم من قوم) ولم يقل نفس من نفس ، وذلك لأن هذا فيه إشارة إلى منع التكبر والمتكبر فى أكثر الأمر يرى جبروته على رءوس الأشهاد ، وإذا اجتمع فى الخلوات مع من لا يلتفت إليه فى الجامع يجعل نفسه متواضعاً ، فذكرهم بلفظ القوم منعاً لهم عما يفعلونه .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قوله تعالى (ولا تلمزوا أنفسكم) فيه وجهان (أحدهما) أن عيب الأخ عائد إلى الأخ فإذا عاب عائب نفساً فكأنما عاب نفسه (وثانيهما) هو أنه إذا عابه وهو لا يخلو من عيب يحاربه المعيب فيعيبه فيكون هو بعيبه حاملا للغير على عيبه وكأنه هو العائب نفسه وعلى هذا يحمل قوله تعالى (ولا تقتلوا أنفسكم) أى أنكم إذا قتلتم نفساً قتلتم فتكونوا كأنكم قتلتم أنفسكم ويحتمل وجهاً آخر ثالثاً وهو أن تقول لا تعيبوا أنفسكم أى كل واحد منكم فانكم إن فعلتم فقد عبتم أنفسكم ، أى كل واحد عاب كل واحد فصرتم عائبين من وجه معيبين من وجه ، وهذا الوجه ههنا ظاهر ولا كذلك فى قوله تعالى (ولا تقتلوا أنفسكم) .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ إن قيل قد ذكرتم أن هذا إرشاد للمؤمنين إلى ما يجب أن يفعله المؤمن عند حضوره بعد الإشارة إلى مايفعله فى غيبته ، لكن قوله تعالى (ولا تلمزوا) قيل فيه بأنه العيب خلف الإنسان والهمز هو العيب فى وجه الإنسان ، نقول ليس كذلك بل العكس أولى ، وذلك لأنا إذا نظرنا إلى قلب الحروف دللن على العكس ، لأن لمز قلبه لزم وهمز قلبه هزم ، والأول يدل على القرب ، والثانى على البعد ، فإن قيل اللمز هو الطعن والعيب فى الوجه كان أولى مع أن كل واحد

بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَـٰنِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿١١﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُوا۟ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ

قيل بمعنى واحد .

﴿ المسألة السادسة ﴾ قال تعالى (ولا تنابزوا) ولم يقل لا تنبزوا ، وذلك لأن اللماز إذا لمز فالملموز قد لا يجد فيه فى الحال عيباً يلمزه به ، وإنما يبحث ويتبعه ليطلع منه على عيب. فيوجد اللمز من جانب ، وأما النبز فلا يعجزكل واحد عن الإتيان به ، فإن من نبز غيره بالحمار وهو ينبزه بالثور وغيره ، فالظاهر أن النبز يفضى فى الحال إلى التنابز ولا كذلك اللمز .

قوله تعالى : ﴿ بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان ﴾ .

قيل فيه إن المراد (بئس) أن يقول للمسلم يايهودى بعد الإيمان أى بعد ما آمن فبئس تسميته بالكافر ، ويحتمل وجهاً أحسن من هذا : وهو أن يقال هذا تمام للزجر ، كأنه تعالى قال (يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم ، ولا تلمزوا ، ولا تنابزوا) فإنه إن فعل يفسق بعد ما آمن ، والمؤمن يقبح منه أن يأتى بعد إيمانه بفسوق فيكون قوله تعالى (الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم) ويصير التقدير بئس الفسوق بعد الإيمان ، وبئس أن تسموا بالفاسق بسبب هذه الأفعال بعد ما سميتموهم مؤمنين .

قال تعالى ﴿ ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون ﴾ وهذا يحتمل وجهين (أحدهما) أن يقال هذه الأشياء من الصغائر فمن يصر عليه يصير ظالماً فاسقاً وبالمرة الواحدة لا يتصف بالظلم والفسق فقال ومن لم يترك ذلك ويجعله عادة فهو ظالم (وثانيهما) أن يقال قوله تعالى (لا يسخر قوم) (ولا تلمزوا) (ولا تنابزوا) منع لهم عن ذلك فى المستقبل ، وقوله تعالى (ومن لم يتب) أمرهم بالتوبة عما مضى وإظهار الندم عليها مبالغة فى التحذير وتشديداً فى الزجر ، والأصل فى قوله تعالى (ولا تنابزوا) لا تتنابزوا أسقطت إحدى التاءين ، كما أسقط فى الاستفهام إحدى الهمزتين فقال (سواء عليهم أنذرتهم) والحذف ههنا أولى لأن تاء الخطاب وتاء التفاعل حرفان من جنس واحد فى كلمة وهمزة الاستفهام كلمة برأسها وهمزة أنذرتهم أخرى واحتمال حرفين فى كلمتين أسهل من احتماله فى كلمة ، ولهذا وجب الإدغام فى قولنا : مد ، ولم يجب فى قولنا امدد ، و[فى] قولنا : مر ، [دون] قوله : أمر ربنا .

قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضاً أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه

وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾

واتقوا الله إن الله تواب رحيم ﴾ .

لأن الظن هو السبب فيما تقدم وعليه تبنى القبائح ، ومنه يظهر العدو المكاشح والقائل إذا أوقف أموره على اليقين فقلما يتيقن فى أحد عيباً فيلمزه به ، فإن الفعل فى الصورة قد يكون قبيحاً وفى نفس الأمر لا يكون كذلك ، لجواز أن يكون فاعله ساهياً أو يكون الرائى مخطئاً ، وقوله (كثيراً) إخراج للظنون التى عليها تبنى الخيرات قال النبى صلى الله عليه وسلم «ظنوا بالمؤمن خيراً» وبالجملة كل أمر لا يكون بناؤه على اليقين ، فالظن فيه غير مجتنب مثاله حكم الحاكم على قول الشهود وبراءة الذمة عند عدم الشهود إلى غير ذلك فقوله (اجتنبوا كثيراً) وقوله تعالى (إن بعض الظن إثم) إشارة إلى الأخذ بالأحوط كما أن الطريق المخوفة لا يتفق كل مرة فيه قاطع طريق ، لكنك لا تسلك لاتفاق ذلك فيه مرة ومرتين إلا إذا تعين فتسلكه مع رفقة كذلك الظن ينبغى بعد اجتهاد تام ووثوق بالغ .

قوله تعالى : ﴿ ولا تجسسوا ﴾ إتماماً لما سبق لأنه تعالى لما قال (اجتنبوا كثيراً من الظن) فهم منه أن المعتبر اليقين فيقول القائل أنا أكشف فلاناً يعنى أعلمه يقيناً وأطلع على عيبه مشاهدة فأعيب فأكون قد اجتنبت الظن فقال تعالى : ولا تتبعوا الظن ، ولا تجتهدوا فى طلب اليقين فى معايب الناس .

قوله تعالى : ﴿ ولا يغتب بعضكم بعضاً ﴾ إشارة إلى وجوب حفظ عرض المؤمن فى غيبته وفيه معان (أحدها) فى قوله تعالى (بعضكم بعضاً) فإنه للعموم فى الحقيقة كقوله (لا تلمزوا أنفسكم) وأما من اغتاب فالمغتاب أولا يعلم عيبه فلا يحمل فعله على أن يغتابه فلم يقل ولا تغتابوا أنفسكم لما أن الغيبة ليست حاملة للعائب على عيبه من اغتابه ، والعيب حامل على العيب (ثانيها) لو قال قائل هذا المعنى كان حاصلا بقوله تعالى : لا تغتابوا ، مع الاقتصار عليه نقول لا ، وذلك لأن الممنوع اغتياب المؤمن فقال (بعضكم بعضاً) وأما الكافر فيعلن ويذكر بما فيه وكيف لا والفاسق يجوز أن يذكر بما فيه عند الحاجة (ثالثها) قوله تعالى (أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً) دليل على أن الاغتياب الممنوع اغتياب المؤمن لا ذكر الكافر ، وذلك لأنه شبهه بأكل لحم الأخ ، وقال من قبل (إنما المؤمنون إخوة) فلا أخوة إلا بين المؤمنين ، ولا منع إلا من شىء يشبه أكل لحم الأخ ففى هذه الآية نهى عن اغتياب المؤمن دون الكافر (رابعها) ما الحكمة فى هذا التشبيه ؟ نقول هو إشارة إلى أن عرض الإنسان كدمه ولحمه ، وهذا من باب القياس الظاهر ، وذلك لأن عرض المرء أشرف من لحمه ، فإذا لم يحسن من العاقل أكل لحوم الناس لم يحسن منه قرض عرضهم بالطريق الأولى لأن ذلك آلم ، وقوله (لحم أخيه) آكد فى المنع لأن العدو يحمله الغضب على مضغ لحم العدو ، فقال أصدق الأصدقاء من ولدته أمك ، فأكل لحمه أقبح

مايكون ، وقوله تعالى (ميتاً) إشارة إلى دفع وهم ، وهو ان يقال القول فى الوجه يؤلم فيحرم ، وأما الاغتياب فلا اطلاع عليه للمغتاب فلا يؤلم ، فقال أكل لحم الأخ وهو ميت أيضاً لا يؤلم ، ومع هذا هو فى غاية القبح لما أنه لو اطلع عليه لتألم ، كما أن الميت لو أحس بأكل لحمه لآلمه ، وفيه معنى : وهو أن الاغتياب كأكل لحم الآدمى ميتاً ، ولا يحل أكله إلا للمضطر بقدر الحاجة ، والمضطر إذا وجد لحم الشاة الميتة ولحم الآدمى الميت فلا يأكل لحم الآدمى ، فكذلك المغتاب إن وجد لحاجته مدفعاً غير الغيبة فلا يباح له الاغتياب ، وقوله تعالى (ميتاً) حال عن اللحم أو عن الأخ ، فإن قيل اللحم لا يكون ميتاً ، قلنا بلى قال النبى صلى الله عليه وسلم « ما أبين من حى فهو ميت » فسمى الفلقة ميتاً ، فإن قيل إذا جعلناه حال عن الأخ ، لايكون هو الفاعل ولا المفعول فلا يجوز جعله حال ، كما يقول القائل : مررت بأخى زيد قائماً ، ويريد كون زيداً قائماً ، قلنا يجوز أن يقال من أكل لحمه فقد أكل ، فصار الأخ مأكولا مفعولا ، بخلاف المرور بأخى زيد ، فيجوز أن تقول ضربت وجهه آثماً ، أى وهو آثم ، أى صاحب الوجه ، كما أنك إذا ضربت وجهه فقد ضربته ، ولا يجوز أن تقول مزقت ثوبه آثماً ، فتجعل الآثم حالا من غيرك ، وقوله تعالى (فكرهتموه) فيه مسألتان :

﴿ المسألة الأولى ﴾ العائد إليه الضمير يحتمل وجوهاً (الأول) وهو الظاهر أن يكون هو الأكل ، لأن قوله تعالى (أيحب أحدكم أن يأكل) معناه أيحب أحدكم الأكل ، لأن أن مع الفعل تكون للمصدر ، يعنى فكرهتم الأكل (الثانى) أن يكون هو اللحم ، أى فكرهتم اللحم (الثالث) أن يكون هو الميت فى قوله (ميتاً) وتقديره : أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً متغيراً فكرهتموه ، فكأنه صفة لقوله (ميتاً) ويكون فيه زيادة مبالغة فى التحذير ، يعنى الميتة إن أكلت فى الندرة لسبب كان نادراً ، ولكن إذا أنتن وأروح وتغير لا يؤكل أصلا ، فكذلك ينبغى أن تكون الغيبة .

﴿ المسألة الثانية ﴾ الفاء فى قوله تعالى (فكرهتموه) تقتضى وجود تعلق ، فما ذلك ؟ نقول فيه وجوه (أحدها) أن يكون ذلك تقدير جواب كلام ، كأنه تعالى لما قال (أيحب) قيل فى جوابه ذلك (وثانيها) أن يكون الاستفهام فى قوله (أيحب) للانكار ، كأنه قال : لا يحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه إذاً ولا يحتاج إلى إضمار (وثالثها) أن يكون ذلك التعلق هو تعلق المسبب بالسبب ، وترتبه عليه كما تقول : جاء فلان ماشياً فتعب ، لأن المشى يورث التعب ، فكذا قوله (ميتاً) لأن الموت يورث النفرة إلى حد لايشتهى الإنسان أن يبيت فى بيت فيه ميت ، فكيف يقربه بحيث يأكل منه ، ففيه إذاً كراهة شديدة ، فكذلك ينبغى أن يكون حال الغيبة .

قوله تعالى : ﴿ واتقوا الله إن الله تواب رحيم ﴾ عطف على ما تقدم من الأوامر والنواهى ،

يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾

أى اجتنبوا واتقوا ، وفى الآية لطائف : منها أن الله تعالى ذكر فى هذه الآية أموراً ثلاثة مرتبة بيانها ، هو أنه تعالى قال (اجتنبوا كثيراً) أى لا تقولوا فى حق المؤمنين ما لم تعلموه فيهم بناء على الظن ، ثم إذا سئلتم على المظنونات ، فلا تقولوا نحن نكشف أمورهم لنستيقنها قبل ذكرها ، ثم إن علمتم منهـا شيئاً من غير تجسس ، فلا تقولوه ولا تفشوه عنهم ولا تعيبوا ، فنى الأول نهى عما لم أن يعلم ، ثم نهى عن طلب ذلك العلم ، ثم نهى عن ذكر ماعلم ، ومنها أن الله تعالى لم يقل اجتنبوا تقولوا أمراً على خلاف ماتعلمونه ، ولا قال اجتنبوا الشك ، بل أول مانهى عنه هو القول بالظن ، وذلك لأن القول على خلاف العلم كذب وافتراء ، والقول بالشك ، والرجم بالغيب سفه وهزء ، وهما فى غاية القبح ، فلم ينه عنه اكتفاء بقوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا) لأن وصفهم بالإيمان يمنعهم من الافتراء والارتياب الذى هو داب الكافر . وإنما منعهم عما يكثر وجوده فى المسلمين ، ولذلك قال فى الآية (لا يسخر) ومنهـا أنه ختم الآيتين بذكر التوبة ، فقال فى الأولى (ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون) وقال فى الأخرى (إن الله تواب) لـكن فى الآية الأولى لمـا كان الابتداء بالنهى فى قوله (لا يسخر قوم من قوم) ذكر النفى الذى هو قريب من النهى ، وفى الآية الثانية لمـا كان الابتداء بالأمر فى قوله (اجتنبوا) ذكر الارتياب الذى هو قريب من الأمر .

قوله تعالى : ﴿ يا أيها الناس إنا خلقنا كم من ذكر وأنثى وجعلنا كم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقا كم إن الله عليم خبير ﴾ .

تبييناً لمـا تقدم وتقريراً له ، وذلك لأن السخرية من الغير والعيب إن كان بسبب التفاوت فى الدين والإيمان ، فهو جائز لما بينا أن قوله (لا يغتب بعضكم بعضاً) وقوله (ولا تلمزوا أنفسكم) منع من عيب المؤمن وغيبته ، وإن لم يـكن لذلك السبب فلا يجوز ، لأن الناس بعمومهم كفاراً كانوا أو مؤمنين يشتركون فيما يفتخر به المفتخر غير الإيمان والـكفر ، والافتخار إن كان بسبب الغنى ، فالـكافر قد يكون غنياً ، والمؤمن فقيراً وبالعكس ، وإن كان بسبب النسب ، فالـكافر قد يكون نسيباً ، والمؤمن قد يكون عبداً أسود وبالعكس ، فالناس فيما ليس من الدين والتقوى متساوون متقاربون ، وشىء من ذلك لا يؤثر مع عدم التقوى ، فإن كل من يتدين بدين يعرف أن من يوافقه فى دينـه أشرف ممن يخالفـه فيـه ، وإن كان أرفع نسباً أو أكثر نشباً ، فكيف من له الدين الحق وهو فيه راسخ ، وكيف يرجح عليه من دونه فيه بسبب غيره ، وقوله تعالى (يا أيها

الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى) فيه وجهان (أحدهما) من آدم وحواء (ثانيهما) كل واحد منكم أيها الموجودون وقت النداء خلقناه من أب وأم ، فإن قلنا أن المراد هو الأول ، فذلك إشارة إلى أن لا يتفاخر البعض على البعض لكونهم أبناء رجل واحد ، وامرأة واحدة ، وإن قلنا إن المراد هو الثانى ، فذلك إشارة إلى أن الجنس واحد ، فإن كل واحد خلق كما خلق الآخر من أب وأم ، والتفاوت فى الجنس دون التفاوت فى الجنسين ، فإن من سنن التفاوت أن لا يكون تقدير التفاوت بين الذباب والذئاب ، لكن التفاوت الذى بين الناس بالكفر والإيمان كالتفاوت الذى بين الجنسين ، لأن الكافر جماد إذ هو كالأنعام ، بل أضل . والمؤمن إنسان فى المعنى الذى ينبغى أن يكون فيه ، والتفاوت فى الإنسان تفاوت فى الحس لا فى الجنس . إذ كلهم من ذكر وأنثى ، فلا يبقى لذلك عند هذا اعتبار ، وفيه مباحث :

﴿ البحث الأول ﴾ فإن قيل هذا مبنى على عدم اعتبار النسب ، وليس كذلك فإن للنسب اعتباراً عرفاً وشرعاً ، حتى لا يجوز تزويج الشريفة بالنبطى ، فنقول إذا جاء الأمر العظيم لا يبقى الأمر الحقير معتبراً ، وذلك فى الحس والشرع والعرف ، أما الحس فلأن الكواكب لا ترى عند طلوع الشمس ، ولجناح الذباب دوى ولا يسمع عند مايكون رعد قوى ، وأما فى العرف ، فلأن من جاء مع الملك لا يبقى له اعتبار ولا إليه التفات ، إذا علمت هذا فيهما ففى الشرع كذلك ، إذا جاء الشرف الدينى الإلهى ، لا يبقى لأمر هناك اعتبار ، لا لنسب ولا لنشب ، ألا ترى أن الكافر وإن كان من أعلى الناس نسباً ، والمؤمن وإن كان من أدونهم نسباً ، لا يقاس أحدهما بالآخر ، وكذلك ما هو من الدين مع غيره ، ولهذا يصلح للمناصب الدينية كالقضاء والشهادة كل شريف ووضيع إذا كان ديناً عالماً صالحاً ، ولا يصلح لشىء منها فاسق ، وإن كان قرشى النسب ، وقارونى النشب ، ولكن إذا اجتمع فى اثنين الدين المتين ، وأحدهما نسيب ترجح بالنسب عند الناس لا عند الله لأن الله تعالى يقول (وأن ليس للانسان إلا ما سعى) وشرف النسب ليس مكتسباً ولا يحصل بسعى .

﴿ البحث الثانى ﴾ ما الحكمة فى اختيار النسب من جملة أسباب التفاخر ، ولم يذكر المال ؟ نقول الأمور التى يفتخر بها فى الدنيا وإن كانت كثيرة لكن النسب أعلاها ، لأن المال قد يحصل للفقير فيبطل افتخار المفتخر به ، والحسن والسن ، وغير ذلك غير ثابت دائم ، والنسب ثابت مستمر غير مقدور التحصيل لمن ليس له فاختاره الله للذكر وأبطل اعتباره بالنسبة إلى التقوى ليعلم منه بطلان غيره بالطريق الأولى .

﴿ البحث الثالث ﴾ إذا كان ورود الآية لبيان عدم جواز الافتخار بغير التقوى فهل لقوله تعالى (إنا خلقناكم) فائدة ؟ نقول نعم ، وذلك لأن كل شىء يترجح على غيره ، فإما أن يترجح بأمر فيه يلحقه ، ويترتب عليه بعد وجوده ، وإما أن يترجح عليه بأمر هو قبله ، والذى بعده

كالحسن والقوة وغيرهما من الأوصاف المطلوبة من ذلك الشيء ، والذى قبله فإما راجع إلى الأصل الذى منه وجد ، أو إلى الفاعل الذى هو له أوجد ، كما يقال فى إناءين هذا من النحاس وهذا من الفضة ، ويقال هذا عمل فلان ، وهذا عمل فلان ، فقال تعالى لاترجيح فيما خلقتم منه لأنكم كلكم من ذكر وأنثى ، ولا بالنظر إلى جاعلين لأنكم كلكم خلقكم الله ، فإن كان بينكم تفاوت يكون بأمور تلحقكم وتحصل بعد وجودكم وأشرفها التقوى والقرب من الله تعالى .

ثم قال تعالى (وجعلنا كم شعوباً وقبائل) وفيه وجهان : (أحدهما) (جعلنا كم شعوباً) متفرقة لايدرى من يجمعكم كالعجم ، وقبائل يجمعكم واحد معلوم كالعرب وبنى إسرائيل (وثانيهما) (جعلنا كم شعوباً) داخلين فى قبائل ، فإن القبيلة تحتها الشعوب ، وتحت الشعوب البطون وتحت البطون الأفخاذ ، وتحت الأفخاذ الفصائل ، وتحت الفصائل الأقارب ، وذكر الأعم لأنه أذهب للافتخار ، لأن الأمر الأعم منها يدخله فقراء وأغنياء كثيرة غير محصورة ، وضعفاء وأقوياء كثيرة غير معدودة ، ثم بين فائدة ذلك وهى التعارف وفيه وجهان : (أحدهما) أن فائدة ذلك التناصر لا التفاخر (وثانيهما) أن فائدته التعارف لا التناكر ، واللمز والسخرية والغيبة تفضى إلى التناكر لا إلى التعارف وفيه معان لطيفة (الأولى) قال تعالى (إنا خلقنا كم) وقال (وجعلنا كم) لأن الخلق أصل تفرع عليه الجعل (شعوباً) فإن الأول هو الخلق والإيجاد ، ثم الاتصاف بما اتصفوا به ، لكن الجعل شعوباً للتعارف والخلق للعبادة كما قال تعالى (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) واعتبار الأصل متقدم على اعتبار الفرع ، فاعلم أن النسب يعتبر بعد اعتبار العبادة كما أن الجعل شعوباً يتحقق بعد ما يتحقق الخلق ، فإن كان فيكم عبادة تعتبر فيكم أنسابكم وإلا فلا (الثانية) قوله تعالى (خلقنا كم ، وجعلنا كم) إشارة إلى عدم جواز الافتخار لأن ذلك ليس بسعيكم ولا قدرة لكم على شيء من ذلك ، فكيف تفتخرون بما لامدخل لكم فيه ؟ فإن قيل الهداية والضلال كذلك لقوله تعالى (إنا هديناه السبيل ، نهدى من نشاء) فنقول أثبت الله لنا فيه كسباً مبنياً على فعل ، كما قال الله تعالى (فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا) .

ثم قال تعالى (وما تشاءون إلا أن يشاء الله) وأما فى النسب فلا (الثالثة) قوله تعالى (لتعارفوا) إشارة إلى قياس خفى ، وبيانه هو أنه تعالى قال : إنكم جعلتم قبائل لتعارفوا وأنتم إذا كنتم أقرب إلى شريف تفتخرون به فخلقكم لتعرفوا ربكم ، فإذا كنتم أقرب منه وهو أشرف الموجودات كان الأحق بالافتخار هناك من الكل الافتخار بذلك (الرابعة) فيه إرشاد إلى برهان يدل على أن الافتخار ليس بالأنساب ، وذلك لأن القبائل للتعارف بسبب الانتساب إلى شخص فإن كان ذلك الشخص شريفاً صح الافتخار فى ظنكم ، وإن لم يكن شريفاً لم يصح ، فشرف ذلك الرجل الذى تفتخرون به هو بانتسابه إلى فصيلة أو باكتساب فضيلة ، فإن كان بالانتساب لزم الانتهاء ، وإن كان بالاكتساب فالدين الفقيه الكريم المحسن صار مثل من يفتخر به المفتخر ، فكيف

يفتخر بالأب وأب الأب على من حصل له من الحظ والخير ما فضل به نفسه عن ذلك الأب والجد ؟ اللهم إلا أن يجوز شرف الانتساب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإن أحداً لا يقرب من الرسول فى الفضيلة حتى يقول أنا مثل أبيك ، ولكن فى هذا النسب أثبت النبى صلى الله عليه وسلم الشرف لمن انتسب إليه بالاكتساب ، ونفاه لمن أراد الشرف بالانتساب ، فقال « نحن معاشر الأنبياء لا نورث » . وقال « العلماء ورثة الأنبياء » أى لا نورث بالإنتساب ، وإنما نورث بالاكتساب ، سمعت أن بعض الشرفاء فى بلاد خراسان كان فى النسب أقرب الناس إلى على عليه السلام غير أنه كان فاسقاً ، وكان هناك مولى أسود تقدم بالعلم والعمل ، ومال الناس إلى التبرك به فاتفق أنه خرج يوماً من بيته يقصد المسجد ، فأتبعه خلق فلقيه الشريف سكران ، وكان الناس يطردون الشريف ويبعدونه عن طريقه ، فغلبهم وتعلق بأطراف الشيخ وقال له : يا أسود الحوافر والشوافر ، يا كافر ابن كافر ، أنا ابن رسول الله ، أذل وتجل ! وأذم وتكرم ! وأهان وتعان ! فهم الناس بضربه فقال الشيخ : لا هذا محتمل منه لجده ، وضربه معدود لحده ، ولكن يا أيها الشريف بيضت باطنى وسودت باطنك ، فيرى الناس بياض قلبى فوق سواد وجهى فحسنت ، وأخذت سيرة أبيك وأخذت سيرة أبى ، فرآنى الخلق فى سيرة أبيك ورأوك فى سيرة أبى فظنونى ابن أبيك وظنوك ابن أبى ، فعملوا معك ما يعمل مع أبى ، وعملوا معى ما يعمل مع أبيك ! .

قوله تعالى : ﴿ إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ وفيه وجهان : (أحدهما) أن المراد من يكون أتقى يكون عند الله أكرم أى التقوى تفيد الإكرام (ثانيهما) أن المراد أن من يكون أكرم عند الله يكون أتقى أى الإكرام يورث التقوى كما يقال : المخلصون على خطر عظيم ، والأول أشهر والثانى أظهر لأن المذكور ثانياً ينبغى أن يكون محمولا على المذكور أولا فى الظاهر فيقال الإكرام للتقى ، لكن ذوا العموم فى المشهور هو الأول ، يقال ألذ الأطعمة أحلاها أى اللذة بقدر الحلاوة لا أن الحلاوة بقدر اللذة ، وهى إثبات لكون التقوى متقدمة على كل فضيلة ، فإن قيل التقوى من الأعمال والعلم أشرف ، قال النبى صلى الله عليه وسلم « لفقيه واحد أشد على الشيطان من ألف عابد » نقول التقوى ثمرة العلم قال الله تعالى (إنما يخشى الله من عباده العلماء) فلا تقوى إلا للعالم . فالمتقى العالم أتم علمه ، والعالم الذى لا يتقى كشجرة لا ثمرة لها ، لكن الشجرة المثمرة أشرف من الشجرة التى لا تثمر بل هو حطب ، وكذلك العالم الذى لا يتقى حصب جهنم ، وأما العابد الذى يفضل الله عليه الفقيه فهو الذى لا علم له ، وحينئذ لا يكون عنده من خشية الله نصاب كامل ، ولعله يعبده مخافة الإلقاء فى النار ، فهو كالمكره ، أو لدخول الجنة ، فهو يعمل كالفاعل له أجرة ويرجع إلى بيته ، والمتقى هو العالم بالله ، المواظب لبابه ، أى المقرب إلى جنابه عنده يبيت . وفيه مباحث :

﴿البحث الأول﴾ الخطاب مع الناس والأكرم يقتضى اشتراك الكل فى الكرامة ولا كرامة

قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾

للكافر ، فإنه أضل من الأنعام وأذل من الهوام . نقول ذلك غير لازم مع أنه حاصل بدليل قوله تعالى (ولقد كرمنا بنى آدم) لأن كل من خلق فقد اعترف بربه ، كأنه تعالى قال من استمر عليه لو زاد زيد فى كرامته ، ومن رجع عنه أزيل عنه أثر الكرامة (الثانى) ما حد التقوى ومن الأتقى ؟ نقول أدنى مراتب التقوى أن يجتنب العبد المناهى ويأتى بالأوامر ولا يقر ولا يأمن إلا عندهما فإن اتفق أن ارتكب منهياً لا يأمن ولا يتكل له بل يتبعه بحسنة ويظهر عليه ندامة وتوبة ، ومتى ارتكب منهياً وما تاب فى الحال واتكل على المهلة فى الأجل ومنعه عن التذاكر طول الأمل فليس بمتق ، أما الأتقى فهو الذى يأتى بما أمر به ويترك ما نهى عنه ، وهو مع ذلك خاش ربه لا يشتغل بغير الله ، فينور الله قلبه ، فإن التفت لحظة إلى نفسه أو ولده جعل ذلك ذنبه ، وللأولين النجاة لقوله تعالى (ثم ننجي الذين اتقوا) وللآخرين السوق إلى الجنة لقوله تعالى (إن أكرمكم عند الله أتقاكم) فبين من أعطاه السلطان بستاناً وأسكنه فيه ، وبين من استخلصه لنفسه يستفيد كل يوم بسبب القرب منه بساتين .وضياعاً بون عظيم .

قوله تعالى : ﴿ إن الله عليم خبير ﴾ أى عليم بظواهركم ، يعلم أنسابكم خبير ببواطنكم لا تخفى عليه أسراركم ، فاجعلوا التقوى عملكم وزيدوا فى التقوى كما زادكم .

قوله تعالى : ﴿ قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان فى قلوبكم وإن تطيعوا الله ورسوله لا يلتكم من أعمالكم شيئاً إن الله غفور رحيم ﴾ .

لما قال تعالى (إن أكرمكم عند الله أتقاكم) والأتقى لا يكون إلا بعد حصول التقوى ، وأصل الإيمان هو الاتقاء من الشرك ، قالت الأعراب لنا النسب الشريف ، وإنما يكون لنا الشرف ، قال الله تعالى : ليس الإيمان بالقول ، إنما هو بالقلب . فما آمنتم لأنه خبير يعلم ما فى الصدور ، (ولكن قولوا أسلمنا) أى انقدنا واستسلمنا ، قيل إن الآية نزلت فى بنى أسد ، أظهروا الإسلام فى سنة مجدبة طالبين الصدقة ولم يكن قلبهم مطمئناً بالإيمان ، وقد بينا أن ذلك كالتاريخ للنزول لا للاختصاص بهم ، لأن كل من أظهر فعل المتقين وأراد أن يصير له ما للأتقياء من الإكرام لا يحصل له ذلك ، لأن التقوى من عمل القلب ، وقوله تعالى (قل لم تؤمنوا) فى تفسيره مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قال تعالى (ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمناً) وقال ههنا (قل لم تؤمنوا) مع أنهم ألقوا إليهم السلام ، نقول إشارة إلى أن عمل القلب غير معلوم واجتناب الظن واجب ، وإنما يحكم بالظاهر فلا يقال لمن يفعل فعلا هو مرائى ، ولا لمن أسلم هومنافق ، ولكن الله خبير بما فى الصدور ، إذا قال فلان ليس بمؤمن حصل الجزم ، وقوله تعالى (قل لم تؤمنوا) فهو الذى جوز لنا ذلك القول ، وكان معجزة للنبى ﷺ حيث أطلعه الله على الغيب وضمير قلوبهم ، فقال لنا : أنتم لا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمناً لعدم علمكم بما فى قلبه

﴿ المسألة الثانية ﴾ لم ولما حرفا نفى ، وما وإن ولا كذلك من حروف النفى ، ولم ولما يجزمان وغيرهما من حروف النفى لايجزم ، فما الفرق بينهما ؟ نقول لم ولما يفعلان بالفعل ما لا يفعل به غيرهما ، فإنهما يغيران معناه من الاستقبال إلى المضى ، تقول لم يؤمن أمس وآمن اليوم ، ولا تقول لا يؤمن أمس ، فلما فعلا بالفعل مالم يفعل به غيرهما جزم بهما ، فإن قيل مع هذا لم جزم بهما غاية مافى الباب أن الفرق حصل ، ولكن ما الدليل على وجوب الجزم بهما ؟ نقول لأن الجزم والقطع يحصل فى الأفعال الماضية ، فإن من قال قام حصل القطع بقيامه ، ولا يجوز أن يكون ما قام والأفعال المستقبلة إما متوقعة الحصول وإما ممكنة غير متوقعة ، ولا يحصل القطع والجزم فيه ، فإذا كان لم ولما يقلبان اللفظ من الاستقبال إلى المضى كانا يفيدان الجزم والقطع فى المعنى فجعل لهما تناسباً بالمعنى وهو الجزم لفظاً ، وعلى هذا نقول السبب فى الجزم ما ذكرنا ، وهذا فى الأمر يجزم كأنه جزم على المأمور أنه يفعله ولا يتركه ، فأى فائدة فى أن اللفظ يجزم مع أن الفعل فيه لابد من وقوعه وأن فى الشرط تغير ، وذلك لأن إن تغير معنى الفعل من المضى إلى الاستقبال أن لم تغيره من الاستقبال إلى المضى ، تقول : إن جئتنى جئتك ، وإن أكرمتنى أكرمتك ، فلما كان إن مثل لم فى كونه حرفاً ، وفى لزوم الدخول على الأفعال وتغييره معنى الفعل صار جازماً لشبه لفظى ، أما الجزاء فجزم لما ذكرنا من المعنى ، فإن الجزاء يجزم بوقوعه عند وجود الشرط ، فالجزم إذاً إما لمعنى أو لشبه لفظى ، كما أن الجزاء كذلك فى الإضافة وفى الجر بحرف .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قوله تعالى (ولكن قولوا) يقتضى قولا سابقاً مخالفاً لما بعده ، كقولنا (لا تقدموا آمنا ولكن قولوا أسلمنا) وفى ترك التصريح به إرشاد وتأديب كأنه تعالى لم يجز النهى عن قولهم (آمنا) فلم يقل لا تقولوا آمنا وأرشدهم إلى الامتناع عن الكذب فقال (لم تؤمنوا) فإن كنتم تقولون شيئاً فقولوا أمراً عاماً ، لا يلزم منه كذبكم وهو كقولهم (أسلمنا) فإن الإسلام بمعنى الانقياد حصل .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ المؤمن والمسلم واحد عند أهل السنة ، فكيف يفهم ذلك مع هذا ؟ نقول بين العام والخاص فرق ، فالإيمان لا يحصل إلا بالقلب وقد يحصل باللسان ، والإسلام أعم

لكن العام فى صورة الخاص متحد مع الخاص ، ولا يكون أمراً آخر غيره ، مثاله الحيوان أعم من الإنسان لكن الحيوان فى صورة الإنسان ليس أمراً ينفك عن الإنسان ولا يجوز أن يكون ذلك الحيوان حيواناً ولا يكون إنساناً ، فالعام والخاص مختلفان فى العموم متحدان فى الوجود ، فكذلك المؤمن والمسلم ، وسنبين ذلك فى تفسير قوله تعالى (فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين ، فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين) إن شاء الله تعالى .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ قوله تعالى (ولما يدخل الإيمان فى قلوبكم) هل فيه معنى قوله تعالى (قل لم تؤمنوا) ؟ نقول نعم وبيانه من وجوه (الأول) هو أنهم لما قالوا آمنا وقيل لهم (لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا) قالوا إذا أسلمنا فقد آمنا ، قيل لا فإن الإيمان من عمل القلب لا غير والإسلام قد يكون عمل اللسان ، وإذا كان ذلك عمل القلب ولم يدخل فى قلوبكم الإيمان لم تؤمنوا (الثانى) لما قالوا آمنا وقيل لهم لم تؤمنوا قالوا جدلا قد آمنا عن صدق نية مؤكدين لما أخبروا فقال (ولما يدخل الإيمان فى قلوبكم) لأن لما يفعل يقال فى مقابلة قد فعل ، ويحتمل أن يقال بأن الآية فيها إشارة إلى حال المؤلفة إذا أسلموا ويكون إيمانهم بعد ضعيفاً قال لهم (لم تؤمنوا) لأن الإيمان إيقان وذلك بعد لم يدخل فى قلوبكم وسيدخل باطلاعكم على محاسن الإسلام (وإن تطيعوا الله ورسوله) يكمل لكم الأجر ، والذى يدل على هذا هو أن لما فيها معنى التوقع والانتظار ، والإيمان إما أن يكون بفعل المؤمن واكتسابه ونظره فى الدلائل ، وإما أن يكون إلهاما يقع فى قلب المؤمن فقوله (قل لم تؤمنوا) أى ما فعلتم ذلك ، وقوله تعالى (ولما يدخل الإيمان فى قلوبكم) أى ولا دخل الإيمان فى قلبكم إلهاماً من غير فعلكم فلا إيمان لكم حينئذ . ثم إنه تعالى عند فعلهم قال (لم تؤمنوا) بحرف ليس فيه معنى الانتظار لقصور نظرهم وفتور فكرهم ، وعند فعل الإيمان قال لما يدخل بحرف فيه معنى التوقع لظهور قوة الإيمان ، كأنه يكاد يغشى القلوب بأسرها .

قوله تعالى : ﴿ وإن تطيعوا الله ورسوله لا يلتكم ﴾ أى لا ينقصكم والمراد أنكم إذا أتيتم بما يليق بضعفكم من الحسنة فهو يؤتيكم ما يليق به من الجزاء ، وهذا لأن من حمل إلى ملك فاكهة طيبة يكون ثمنها فى السوق درهما ، وأعطاه الملك درهما أو ديناراً ينسب الملك إلى قلة العطاء بل البخل ، فليس معناه أنه يعطى مثل ذلك من غير نقص ، بل المعنى يعطى ما تتوقعون بأعمالكم من غير نقص . وفيه تحريض على الإيمان الصادق ، لأن من أتى بفعل من غير صدق نية يضيع عمله ولا يعطى عليه أجراً فقال (وإن تطيعوا) وتصدقوا لا ينقص عليكم ، فلا تضيعوا أعمالكم بعدم الإخلاص ، وفيه أيضاً تسلية لقلوب من تأخر إيمانه ، كأنه يقوله غيرى سبقنى وآمن حين كان النبى وحيداً وآواه حين كان ضعيفاً ، ونحن آمنا عند ما عجزنا عن مقاومته وغلبنا بقوته ، فلا يكون لإيماننا وقع ولا لنا عليه أجر ، فقال تعالى إن أجركم لا ينقص وما تتوقعون تعطون ، غاية ما فى الباب أن المتقدم يزيد فى أجورهم ، وماذا عليكم إذا أرضاكم الله أن يعطى غيركم من خزائن رحمته

إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٦﴾ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾

رحمة واسعة ، وما حالكم فى ذلك إلا حال ملك أعطى واحداً شيئاً وقال لغيره ماذا تتمنى؟ فتمنى عليه بلدة واسعة وأموالا فأعطاه ووفاه ، ثم زاد ذلك الأول أشياء أخرى من خزائنه فإن تأذى من ذلك يكون بخلا وحسداً ، وذلك فى الآخرة لا يكون ، وفى الدنيا هو من صفة الأرازل ، وقوله تعالى (إن الله غفور رحيم) أى يغفر لكم ما قد سلف ويرحمكم بما أتيتم به .

قوله تعالى : ﴿ إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله أولئك هم الصادقون ﴾ .

إرشاداً للأعراب الذين قالوا آمنا إلى حقيقة الإيمان فقال إن كنتم تريدون الإيمان فالمؤمنون من آمن بالله ورسوله ثم لم يرتابوا ، يعنى أيقنوا بأن الإيمان إيقان ، وثم للتراخى فى الحكاية ، كأنه يقول آمنوا ، ثم أقول شيئاً آخر لم يرتابوا ، ويحتمل أن يقال هو للتراخى فى الفعل تقديره آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا فيما قال النبى صلى الله عليه وسلم من الحشر والنشر ، وقوله تعالى (وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم) يحقق ذلك ، أى أيقنوا أن بعد هذه الدار داراً فجاهدوا طالبين العقبى ، وقوله (أولئك هم الصادقون) فى إيمانهم ، لا الأعراب الذين قالوا قولا ولم يخلصوا عملا .

قوله تعالى : ﴿ قل أتعلمون الله بدينكم والله يعلم ما فى السموات وما فى الأرض والله بكل شىء عليم ﴾ .

فإنه عالم به لا يخفى عليه شىء ، وفيه إشارة إلى أن الدين ينبغى أن يكون لله وأنتم أظهرتموه لنا لا لله ، فلا يقبل منكم ذلك .

قوله تعالى : ﴿ يمنون عليك أن أسلموا قل لا تمنوا على إسلامكم بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان إن كنتم صادقين ﴾ .

يقرر ذلك ويبين أن إسلامهم لم يكن لله ، وفيه لطائف (الأولى) فى قوله تعالى (يمنون عليك)

إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾

زيادة بيان لقبيح فعلهم وذلك لأن الإيمان له شرفان (أحدهما) بالنسبة إلى الله تعالى وهو تنزيه الله عن الشرك وتوحيده فى العظمة و (ثانيهما) بالنسبة إلى المؤمن فإنه ينزه النفس عن الجهل ويزينها بالحق والصدق ، فهم لا يطلبون بإسلامهم جانب الله ولا يطلبون شرف أنفسهم بل منوا ولو علموا أن فيه شرفهم لما منوا به بل شكروا .

﴿ اللطيفة الثانية ﴾ قال (قل لاتمنوا على إسلامكم) أى الذى عندكم إسلام ، ولهذا قال تعالى (ولكن قولوا أسلمنا) ولم يقل : لم تؤمنوا ولكن أسلمتم لئلا يكون تصديقاً لهم فى الإسلام أيضاً كما لم يصدقوا فى الإيمان ، فإن قيل لم لم يجز أن يصدقوا فى إسلامهم ، والإسلام هو الانقياد ، وقد وجد منهم قولا وفعلا وإن لم يوجد اعتقاداً وعلماً وذلك القدر كاف فى صدقهم ؟ نقول التكذيب يقع على وجهين (أحدهما) أن لا يوجد نفس المخبر عنه (وثانيهما) أن لا يوجد كما أخبر فى نفسه فقد يقول ما جئتنا بل جاءت بك الحاجة ، فالله تعالى كذبهم فى قولهم آمنا على الوجه الأول ، أى ما آمنتم أصلا ولم يصدقوا فى الإسلام على الوجه الثانى فانهم انقادوا للحاجة وأخذ الصدقة .

﴿ اللطيفة الثالثة ﴾ قال (بل الله يمن عليكم) يعنى لا منة لكم ومع ذلك لاتسلمون رأساً برأس بحيث لا يكون لكم علينا ولا لنا عليكم منة ، بل المنة عليكم ، وقوله تعالى (بل الله يمن عليكم) حسن أدب حيث لم يقل لا تمنوا على بل لى المنة عليكم حيث بينت لكم الطريق المستقيم ، ثم فى مقابلة هذا الأدب قال الله تعالى (وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم) .

﴿ اللطيفة الرابعة ﴾ لم يقل يمن عليكم أن أسلمتم بل قال (أن هداكم للايمان) لأن إسلامهم كان ضلالا حيث كان نفاقاً فما من به عليهم ، فإن قيل كيف من عليهم بالهداية إلى الإيمان مع أنه بين أنهم لم يؤمنوا ؟ نقول الجواب عنه من ثلاثة أوجه (أحدها) أنه تعالى لم يقل : بل الله يمن عليكم أن رزقكم الإيمان ، بل قال (أن هداكم للايمان) وإرسال الرسل بالآيات البينات هداية (ثانيها) هو أنه تعالى يمن عليهم بما زعموا ، فكأنه قال أنتم قلتم آمنا ، فذلك نعمة فى حقكم حيث تخلصتم من النار ، فقال هداكم فى زعمكم (ثالثها) وهو الأصح ، هو أن الله تعالى بين بعد ذلك شرطاً فقال (إن كنتم صادقين) .

قوله تعالى : ﴿ إن الله يعلم غيب السموات والأرض والله بصير بما تعملون ﴾ .

إشارة إلى أنه لا يخفى عليه أسراركم ، وأعمال قلوبكم الخفية ، وقال (بصير بما تعملون) يبصر أعمال جوارحكم الظاهرة ، وآخر السورة مع التئامه بما قبله فيه تقرير ما فى أول السورة ، وهو قوله تعالى (لا تقدموا بين يدى الله ورسوله واتقوا الله) فإنه لايخفى عليه سر ، فلا تتركوا خوفه فى السر ولا يخفى عليه علن فلا تأمنوه فى العلانية ، والحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبى بعده .

تفسير سورة الحُجُرات

مدنيَّة بإجماع، وهي ثماني عشرةَ آية[1]

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ①﴾

فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ قال العلماء: كان في العرب جَفاءٌ وسوءُ أدب في خطاب النبيِّ ﷺ وتلقيبِ الناس. فالسورةُ في الأمر بمكارم الأخلاق ورعاية الآداب.

وقرأ الضحاك ويعقوب الحضرميُّ: «لا تَقَدَّمُوا» بفتح التاء والدال من التقدُّم[2]. الباقون: «تُقَدِّمُوا» بضم التاء وكسر الدال من التقديم، ومعناهما ظاهر. أي: لا تقدِّموا قولاً ولا فعلاً بين يدي الله وقولِ رسوله وفعله فيما سبيلُه أن تأخذوه عنه من أمر الدين والدنيا. ومَن قدَّم قولَه أو فعلَه على الرسول ﷺ، فقد قدَّمه على الله تعالى؛ لأن الرسول ﷺ إنما يأمر عن أمر الله عزَّ وجلَّ.

الثانية: واختلف في سبب نزولها على أقوال ستة:

الأول: ما ذكره الواحديُّ[3] من حديث ابن جُريج قال: حدَّثني ابن أبي مُليكةَ أن عبد الله بنَ الزُّبير أخبره أنه قدِم ركب من بني تميم على رسول الله ﷺ، فقال أبو بكر: أمِّر القَعْقاع بنَ مَعْبد. وقال عمر: [بل] أمِّر الأقرع بن حابس. فقال أبو بكر: ما

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ٢٠٨.

(٢) المحتسب ٢/ ٢٧٨، والنشر ٢/ ٣٧٥، وهي من العشرة.

(٣) في أسباب النزول ص٤٠٦، وما سيرد بين حاصرتين منه.

أردتَ إلا خلافي. وقال عمر: ما أردتُ خلافَك. فتماريا[١] حتى ارتفعت أصواتهما، فنزل في ذلك: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ﴾ إلى قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُواْ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ﴾. رواه البخاريُّ عن الحسن بن محمد بن الصباح[٢]؛ ذكره المهدَويُّ أيضًا.

الثاني: ما رُويَ أن النبيَّ ﷺ أراد أن يستخلف على المدينة رجلًا إذ مضى إلى خَيْبَر، فأشار عليه عمر برجل آخر؛ فنزل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ﴾. ذكره المَهْدَويُّ أيضًا.

الثالث: ما ذكره الماورديُّ عن الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن النبيَّ ﷺ أنفذ أربعةً وعشرين رجلًا من أصحابه إلى بني عامر فقتلوهم؛ إلا ثلاثةً تأخروا عنهم، فسلموا وانكفؤوا إلى المدينة، فلقُوا رجلين من بني سُليم فسألوهما عن نسبهما فقالا: مِن بني عامر، لأنهم أعزُّ من بني سُلَيم، فقتلوهما، فجاء نفر من بني سُليم إلى رسول الله ﷺ فقالوا: إن بيننا وبينك عهداً، وقد قُتِل منا رجلان، فوداهما النبيُّ ﷺ بمئة بعير، ونزلت عليه هذه الآية في قتلهم الرجلين[٣].

وقال قتادة: إن ناسًا كانوا يقولون: لو أُنزِل فيَّ كذا، لو أُنزِلَ فيَّ كذا؟ فنزلت هذه الآية.

ابن عباس: نُهُوا أن يتكلموا بين يدي كلامه[٤].

مجاهد: لا تفتاتوا على الله ورسوله حتى يقضيَ الله على لسان رسوله. ذكره

---

(١) في (م): فتماديا، وهو خطأ.

(٢) صحيح البخاري (٤٨٤٧).

(٣) النكت والعيون٥/ ٣٢٦، والأقوال الآتية منه. قال ابن حجر في تخريج أحاديث الكشاف ص١٥٤: وروي في الدلائل [٣/ ٣٤١ - ٣٤٢] من طريق ابن إسحاق، ومن طريق موسى بن عقبة هذه القصة على غير هذا السياق، وأن المقتولين من بني كلاب، وأن الثلاثة قتل منهم واحد، وهو المحفوظ والمشهور في المغازي.

(٤) أخرج قول قتادة وابن عباس الطبري ٢١/ ٣٣٦.

البخاريُّ أيضًا[١].

الحسن: نزلت في قوم ذبحوا قبل أن يصلي رسول الله ﷺ، فأمرهم أن يعيدوا الذبح[٢].

ابن جريج: لا تقدِّموا أعمال الطاعات قبل وقتها الذي أمر الله تعالى به ورسوله ﷺ[٣].

قلت: هذه الأقوال الخمسةُ المتأخرة ذكرها القاضي أبو بكر بنُ العربي[٤]، وسردها قبله الماوردي.

قال القاضي: وهي كلُّها صحيحةٌ تدخل تحت العموم، فالله أعلم ما كان السبب المثيرُ للآية منها، ولعلها نزلت دون سبب، والله أعلم.

قال القاضي: إذا قلنا: إنها نزلت في تقديم الطاعات على أوقاتها، فهو صحيح؛ لأن كلَّ عبادة مؤقَّتة بميقات لا يجوز تقديمها عليه، كالصلاة والصوم والحجّ، وذلك بيِّن. إلا أن[٥] العلماء اختلفوا في الزكاة، لمَّا كانت عبادة مالية وكانت مطلوبة لمعنًى مفهوم، وهو سدُّ خَلَّة الفقير، ولأن النبيَّ ﷺ استعجل من العباس صدقة عامين، ولِمَا جاء مِن جمع صدقة الفطر قبل يوم الفطر حتى تُعطَى لمستحقِّها[٦] يوم الوجوب، وهو

(١) علقه البخاري قبل (٤٨٤٥)، ووصله الطبري ٢١/ ٣٣٦، والبيهقي في الشعب (١٥١٦)، وهو في تفسير مجاهد ٢/ ٦٠٥.

(٢) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ٢٣٠، والطبري ٢١/ ٣٣٦.

(٣) هو قول الزجاج، وليس قول ابن جريج، وهو في معاني القرآن للزجاج ٥/ ٣١، ونقله المصنف عنه بواسطة الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٣٢٦، وابن العربي في أحكام القرآن ٤/ ١٧٠٠.

(٤) في أحكام القرآن ٤/ ١٧٠٠. والأقوال الخمسة يعني أقوال قتادة وابن عباس ومجاهد والحسن والزجاج المذكورة.

(٥) في النسخ: وذلك أن، والمثبت من أحكام القرآن لابن العربي.

(٦) في (خ): مستحقها، وفي (م): لمستحقيها.

يوم الفطر، فاقتضى ذلك كلُّه جوازَ تقديمها العام والاثنين[١]. فإن جاء رأس العام والنصابُ بحاله وقعت موقعها. وإن جاء رأس العام وقد تغيَّر النصاب تبيَّن أنها صدقةُ تطوُّع. وقال أشهب: لا يجوز تقديمها على الحول لحظة، كالصلاة، وكأنه طرَّد الأصل في العبادات، فرأى أنها إحدى دعائم الإسلام، فوفَّاها حقَّها في النظام وحسنِ الترتيب. ورأى سائر علمائنا أن التقديم اليسير فيها جائزٌ؛ لأنه معفوٌّ عنه في الشرع بخلاف الكثير. وما قاله أشهب أصحُّ، فإن مفارقة اليسير الكثيرَ في أصول الشريعة صحيحٌ، ولكنه لِمعانٍ تختص باليسير دون الكثير. فأمَّا في مسألتنا، فاليومُ فيه كالشهر، والشهرُ كالسنة. فإما تقديم كلِّيٌّ كما قال أبو حنيفة والشافعيُّ، وإمَّا حفظُ العبادة على ميقاتها كما قال أشهب.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ﴾ أصل في ترك التعرُّض لأقوال النبيِّ ﷺ، وإيجابِ اتباعه والاقتداء به، وكذلك قال النبيُّ ﷺ في مرضه: «مُرُوا أبا بكر فَلْيُصلِّ بالناس». فقالت عائشة لحفصةَ رضي الله عنهما: قولي له: إن أبا بكر رجلٌ أَسِيف، وإنه متى يَقُم مَقامَك لا يُسْمِعِ الناسَ من البكاء، فَمُرْ عمرَ[٢] فلْيصلِّ بالناس. فقال ﷺ: «إنكنَّ لأنتنَّ صواحبُ يوسف. مُرُوا أبا بكر فليصلِّ بالناس»[٣]. فمعنى

(١) في (ظ) و(ف): والعامين.

(٢) في أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧٠١ - ١٧٠٢ (والكلام منه): علياً، وهو خطأ.

(٣) أخرجه أحمد (٢٥٨٧٦)، والبخاري (٧١٣)، ومسلم (٤١٨): (٩٥) من حديث عائشة رضي الله عنها مطولاً، ولفظه لابن العربي في أحكام القرآن. ومعنى قوله: أسِيف، أي: سريع البكاء والحزن. النهاية (أسف). وقوله: صواحب يوسف كما في فتح الباري ٢/ ١٥٣: أي إنهن مثل صواحب يوسف في إظهار خلاف ما في الباطن. ثم إن هذا الخطاب وإن كان بلفظ الجمع، فالمراد به واحد وهي عائشة فقط، كما أن صواحب صيغة جمع والمراد زليخا فقط، ووجه المشابهة بينهما في ذلك أن زليخا استدعت النسوة وأظهرت لهن الإكرام بالضيافة ومرادها زيادة على ذلك، وهو أن ينظرن إلى حسن يوسف ويعذرنها في محبته، وأن عائشة أظهرت أن سبب إرادتها صرف الإمامة عن أبيها كونه لا يسمع المأمومين القراءة لبكائه، ومرادها زيادة على ذلك وهو أن لا يتشاءم الناس به. وقد صرحت هي فيما بعد ذلك فقالت: لقد راجعته وما حملني على كثرة مراجعته إلا أنه لم يقع في قلبي أن يحب الناس بعده رجلًا قام مقامه أبداً.

قوله: «صواحب يوسف» الفتنةُ بالردِّ عن الجائز إلى غير الجائز.

وربما احتجَّ نُفَاة[١] القياس بهذه الآية، وهو باطلٌ منهم، فإنَّ ما قامت دلالته فليس في فعله تقديمٌ بين يديه. وقد قامت دلالة الكتاب والسنة على وجوب القول بالقياس في فروع الشرع، فليس إذًا تقدُّمٌ بين يديه.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ يعني في التقدُّم المنهيِّ عنه. ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لقولكم ﴿عَلِيمٌ﴾ بفعلكم.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ۝٢﴾

فيه ستُّ مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾ روى البخاريُّ والترمذيُّ عن ابن أبي مُلَيكة قال: حدثني عبد الله بنُ الزُّبير أن الأقرع بنَ حابس قَدِمَ على النبيِّ ﷺ، فقال أبو بكر: يا رسول الله استعمله على قومه، فقال عمر: لا تستعمله يا رسول الله، فتكلَّما عند النبيِّ ﷺ حتى ارتفعت أصواتهما، فقال أبو بكر لعمر: ما أردتَ إلا خلافي. فقال عمر: ما أردتُ خلافك، قال: فنزلت هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾ قال: فكان عمر بعد ذلك إذا تكلم عند النبيِّ ﷺ لم يَسْمع كلامه حتى يستفهمه. قال: وما ذكر ابن الزبير جدَّه يعني أبا بكر. قال [أبو عيسى]: هذا حديث غريب حسن. وقد رواه بعضهم عن ابن أبي مُلَيكة مرسلاً[٢]، لم يذكر فيه عن عبد الله بن الزبير[٣].

---

(١) في (ز) و(ظ) و(م): بغات، وهو خطأ، والكلام في أحكام القرآن للكيا الطبري ٤/ ٣٨١.

(٢) ذكر الحافظ ابن حجر في الفتح ٨/ ٥٩٠ أن صورته الإرسال، لكن ظهر في آخره أن ابن مُليكة حمله على ابن الزبير، كما سيرد بعده، ثم إن ابن أبي مُليكة صرَّح أن ابن الزبير أخبره، كما في رواية البخاري (٤٨٤٧).

(٣) هذا لفظ حديث الترمذي (٣٢٦٦)، وهو من رواية مؤمَّل بن إسماعيل، عن نافع بن عمر، عن ابن =

قلت: هو البخاريُّ، قال عن أبي مُلَيكة: كاد الخيِّران أن يهلكا: أبو بكر وعمر، رفعا أصواتهما عند النبيِّ ﷺ حين قَدِمَ عليه رَكْب بني تميم، فأشار أحدهما بالأقرع بن حابس أخي بني مُجاشِع، وأشار الآخر برجل آخر ـ فقال نافع: لا أحفظ اسمه ـ فقال أبو بكر لعمر: ما أردتَ إلا خلافي. فقال: ما أردتُ خلافك. فارتفعت أصواتهما في ذلك؛ فأنزل الله عزَّ وجلَّ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ﴾ الآية. فقال ابن الزبير: فما كان عمر يُسمِع رسولَ الله ﷺ بعد هذه الآية حتى يستفهمه. ولم يذكر ذلك عن أبيه، يعني أبا بكر الصديق[١].

وذكر المهدويُّ عن عليٍّ ﷺ: نزل قوله: ﴿لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ﴾ فينا لمَّا ارتفعت أصواتنا أنا وجعفر وزيدُ بن حارثة، نتنازع ابنة حمزة لمَّا جاء بها زيد من مكة، فقضى بها رسول الله ﷺ لجعفر؛ لأن خالتها عنده. وقد تقدَّم هذا الحديث في «آل عمران»[٢].

وفي الصحيحين عن أنس بن مالك أن النبيَّ ﷺ افتقدَ ثابتَ بنَ قيس فقال رجل: يا رسول الله، أنا أعلم لك عِلْمَهُ، فأتاه فوجده جالساً في بيته مُنَكِّسًا رأسه؛ فقال له: ما شأنك؟ فقال: شرٌّ، كان يرفع صوته[٣] فوق صوت النبيِّ ﷺ، فقد حبِط عمله وهو من أهل النار. فأتى الرجل النبيَّ ﷺ، فأخبره أنه قال كذا وكذا. فقال موسى[٤]: فرجع

= أبي مُليكة، وقد خالف مؤملٌ ابنَ جريج ـ وروايته عند البخاري (٤٨٤٧)، وسلفت أول السورة ـ في حكايته قول أبي بكر وعمر في طلب تأمير القعقاع، وروايةُ ابنِ جُريج أثبت من رواية مؤمَّل، كما ذكر الحافظ ابن حجر في الفتح ٨/ ٥٩١ . وقوله: وما ذكر ابن الزبير جده، يعني لم يذكر عن أبي بكر مثل ما ذكره عن عمر ﷺ في أنه لم يَسمع ﷺ كلامَه حتى يستفهمَه، يوضحه قولُ ابن الزبير الآتي، وهو عند البخاري كما سيذكر المصنف.

(١) صحيح البخاري (٤٨٤٥) ، وهو عند أحمد (١٦١٣٣) ، وقوله : ولم يذكر ذلك عن أبيه ، يعني جده لأمه أسماء . ينظر عمدة القاري ١٩/ ١٨٣ .

(٢) ٥/ ١٣٤ ، وسلف أيضاً في البقرة ٤/ ١١٣ .

(٣) قال الحافظ ابن حجر في الفتح ٦/ ٦٢١ : كذا ذكره بلفظ الغيبة وهو التفات ، وكان البيان يقتضي أن يقول : كنت أرفع صوتي .

(٤) هو موسى بن أنس ، أحد رجال الإسناد .

المرة الآخرة ببشارة عظيمة؛ فقال: «اذهب إليه فقل له: إنك لستَ من أهل النار، ولكنك من أهل الجنة». لفظ البخاري[١].

وثابتٌ هذا هو ثابتُ بنُ قيس بنِ شمَّاسٍ الخزرجيُّ، يُكْنَى أبا محمد بابنه محمد. وقيل: أبا عبد الرحمن. قُتِل له يومَ الحرَّة[٢] ثلاثةٌ من الولد: محمد، ويحيى، وعبد الله. وكان خطيباً بليغًا معروفاً بذلك، كان يقال له: خطيبُ رسول الله ﷺ، كما يقال لحسان: شاعرُ رسول الله ﷺ. ولمَّا قَدِمَ وفد تميم على رسول الله ﷺ وطلبوا المفاخرة، قام خطيبهم فافتخر، ثم قام ثابت بن قيس، فخطب خطبة بليغة جَزْلة فغلبهم، وقام شاعرهم وهو الأقرع بن حابس فأنشد:

أتيناك كَيْمَا يعرفَ[٣] الناس فضلَنا ... إذا خالفونا عند ذكرِ المكارِمِ
وإنَّا رؤوسُ الناس من كل مَعشَرٍ ... وأنْ ليس في أرض الحجاز كدارِمِ
وإنَّ لنا المِرْبَاعَ في كلِّ غارة ... تكون بنجد أو بأرض التهائم[٤]

فقام حسان فقال:

(١) صحيح البخاري (٤٨٤٦)، وصحيح مسلم (١١٩): (١٨٧)، وهو عند أحمد (١٢٤٨٠) وجاء عند مسلم وأحمد أن الرجل الذي سأله النبي ﷺ عن ثابت هو سعد بن معاذ، وسعد توفي في بني قريظة سنة خمس، والآية المذكورة نزلت في زمن الوفود بسبب الأقرع بن حابس وغيره، وكان ذلك في سنة تسع. وجمع بينهما الحافظ ابن حجر في الفتح ٦/ ٦٢٠: بأن الذي نزل في قصة ثابت مجرد رفع الصوت، والذي نزل في قصة الأقرع أول السورة وهو قوله: ﴿لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾.

(٢) هي حَرَّة واقِم إحدى حَرَّتي المدينة، وهي الشرقية، وكانت بها الوقعة المشهورة أيام يزيد بن معاوية سنة ٦٣ هـ مع أهل المدينة الذين لم يرضوا أن يبايعوه. ينظر الكامل لابن الأثير ٤/ ١١١ - ١١٢، ومعجم البلدان ٢/ ٢٤٩.

(٣) بالنصب على اعتبار «ما» زائدة، وبالرفع على اعتبارها كافة. ينظر خزانة الأدب ٨/ ٤٩٨ - ٤٩٩.

(٤) أورد هذه الأبيات الواحدي في أسباب النزول ص٤١١، وأوردها دون البيت الأخير أبو العباس القرطبي في المفهم ٧/ ٣٩٩. وذكرها ابن هشام في السيرة النبوية ٢/ ٥٦٥ - ٥٦٦ باختلاف يسير ونسبها للزِّبرِقان بن بدر، وجاء فيه الشطر الثاني من البيت الأول هكذا: إذا احتفلوا عند احتضار المواسم. وقوله: كدارم، دارِم هم من بني تميم. والمِرباع: أخذ الربع من الغنيمة، يريد أنهم رؤساء. الإملاء المختصر في شرح غريب السير ٣/ ١٥٣ - ١٥٤.

بَـنـي دارمٍ لا تَـفْـخَـرُوا إنَّ فَـخْـرَكُـمْ يـعـود وَبَـالاً عـنـد ذكـر الـمـكـارم
هَـبِـلـتـم عـلـيـنـا تـفـخـرون وأنـتـمُ لـنـا خَـوَلٌ مِـن بـيـن ظِـئـرٍ وخـادمِ[1]

في أبيات لهما.

فقالوا: خطيبهم أخطبُ من خطيبنا، وشاعرهم أشعرُ من شاعرنا، فارتفعت أصواتهم فأنزل الله تعالى: ﴿لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ﴾[2].

وقال عطاءٌ الخُراساني: حدَّثتني ابنة ثابت بن قيس قالت: لمَّا نزلت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ﴾ الآية، دخل أبوها بيته وأغلق عليه بابه، ففَقَده النبيُّ ﷺ، فأرسل إليه يسأله ما خبرُه، فقال: أنا رجلٌ شديدُ الصوت، أخاف أن يكون حبِط عملي. فقال عليه الصلاة والسلام: «لست منهم، بل تعيش بخير، وتموت بخير».

قال: ثم أنزل الله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [القمان:١٨]، فأغلق بابه وطَفِق يبكي، ففقده النبيُّ ﷺ، فأرسل إليه ما خبرُه[3]، فقال: يا رسول الله، إني أحبُّ الجمال، وأحب أن أَسود قومي. فقال: «لستَ منهم، بل تعيش حميدًا، وتُقتل شهيدًا، وتدخل الجنة». قالت: فلمَّا كان يومُ اليمامة، خرج مع خالد بن الوليد إلى مُسَيْلِمَةَ، فلما التقَوْا انكشفوا، فقال ثابتٌ وسالمٌ مولى أبي حذيفة: ما هكذا كنا نقاتل مع رسول الله ﷺ. ثم حفر كلٌّ واحد منهما له حفرة، فثبتا وقاتلا حتى قُتِلا، وعلى ثابت يومئذ دِرْعٌ له نفيسة، فمرَّ به رجل من المسلمين فأخذها، فبينا رجلٌ من

(١) ديوان حسان ص٤٤٠، وأوردها أيضاً ابن هشام في السيرة النبوية ٢/ ٥٦٦، والواحدي في أسباب النزول ص٤١١ - ٤١٢، وأبو العباس القرطبي في المفهم ٧/ ٣٩٩. وجاء في السيرة النبوية: ما بين ظئر وخادم، بدل: من بين ظئر وخادم. وقوله: هَبِلتم، أي: فقدتم. والخول: هم الحَشَم. والظئر: التي ترضع ولد غيرها وقد تأخذ على ذلك أجراً. الإملاء المختصر ٣/ ١٥٤، وينظر لسان العرب (خول).

(٢) المفهم ٧/ ٣٩٨ - ٣٩٩.

(٣) في (ز) و(ظ) و(م): فأخبره، والمثبت من (خ) و(ف) و(ق)، وهو الموافق لما في المفهم ٧/ ٣٩٩ والكلام منه.

المسلمين نائم؛ أتاه ثابت في منامه فقال له: أوصيك بوصية، فإياك أن تقول: هذا حُلْم فتضيعَه، إني لمَّا قُتلت أمسِ؛ مرَّ بي رجل من المسلمين، فأخذ دِرعي ومنزلُه في أقصى الناس، وعند خِبائه فرسٌ يَسْتَنُّ في طِوَلِه[١]، وقد كفأ على الدِّرع بُرْمَةً[٢]، وفوق البُرمة رَحْلٌ، فَأْتِ خالدًا فمُرْه أن يبعث إلى درعي فيأخذَها، وإذا قدمتَ المدينة على خليفة رسول الله ﷺ - يعني أبا بكر - فقل له: إن عليَّ من الدَّين كذا وكذا، وفلانٌ من رقيقي عتيقٌ وفلان، فأتى الرجل خالدًا فأخبره، فبعث إلى الدرع فأتَى بها، وحدَّث أبا بكر برؤياه، فأجاز وصيته. قال: ولا نعلم أحدًا أُجيزتْ وصيَّته بعد موته غيرَ ثابت رحمه الله[٣]. ذكره أبو عمر في الاستيعاب[٤].

الثانية: قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ﴾ أي: لا تخاطبوه: يا محمد، ويا أحمد. ولكن: يا نبيَّ الله، ويا رسول الله؛ توقيرًا له[٥]. وقيل: كان المنافقون يرفعون أصواتهم عند النبيِّ ﷺ؛ ليقتديَ بهم ضَعَفة المسلمين، فَنُهي المسلمون عن ذلك[٦]. وقيل: «لَا تَجْهَرُوا لَهُ» أي: لا تجهروا عليه، كما يقال: سَقَط لِفِيه، أي: على فيه. ﴿كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾ الكاف كافُ التشبيه في محل النصب، أي: لا تجهروا له جهرًا مثلَ جهر بعضكم لبعض. وفي هذا دليلٌ [على] أنهم لم يُنهَوا عن الجهر مطلقًا حتى لا يسوغ لهم إلا أن يكلموه بالهمس والمخافتة، وإنما نُهُوا عن جهر مخصوص

(١) قوله: يَسْتَنُّ، أي: يعدو لِمَرَحه ونشاطه شوطاً أو شوطين ولا راكب عليه. والطِّوَل: الحبل الطويل يُشَدُّ أحد طرفيه في وتد أو غيره، والطرف الآخر في يد الفرس ليدور فيه ويرعى ولا يذهب لوجهه. النهاية (سنن) و(طول).

(٢) البُرْمة: القِدر مطلقاً، وجمعها بِرام، وهي في الأصل المتخذة من الحجر المعروف بالحجاز واليمن. النهاية (برم).

(٣) المفهم ٧/ ٣٩٩ - ٤٠٠.

(٤) الاستيعاب بهامش الإصابة ٢/ ٧٥ - ٧٨، وأخرجه ابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (١٩٢١)، والطبراني في الكبير (١٣٢٠)، والحاكم ٣/ ٢٣٥.

(٥) المفهم ٧/ ٤٠٠.

(٦) ينظر الكشاف ٣/ ٥٥٥.

مقيَّد بصفة، أعني الجهرَ المنعوتَ بمماثلةِ ما قد اعتادوه منه[١] فيما بينهم، وهو الخُلوُّ من مراعاة أُبَّهة النبوَّة وجلالةِ مقدارها وانحطاطِ سائر الرتب وإن جلَّت عن رتبتها[٢].

﴿أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ﴾ أي: من أجل أن تحبط، أي: تبطل[٣]؛ هذا قول البصريين. وقال الكوفيون: أي: لئلا تحبَطَ أعمالكم وأنتم لا تشعرون[٤].

الثالثة: معنى الآية الأمرُ بتعظيم رسول الله ﷺ وتوقيرِه، وخفضِ الصوت بحضرته وعند مخاطبته، أي: إذا نطق ونطقتم فعليكم ألا تبلغوا بأصواتكم وراء الحدِّ الذي يبلغه بصوته، وأن تغضُّوا منها بحيث يكون كلامه عاليًا[٥] لكلامكم، وجهرُه باهرًا لجهركم، حتى تكون مزيَّته[٦] عليكم لائحة، وسابقتُه واضحة، وامتيازه عن جمهوركم كشِيَة الأبلق. لا أن تغمروا صوته بلغطكم، وتَبْهَرُوا منطقه بصخَبكم[٧]. وفي قراءة ابن مسعود: «لَا تَرْفَعُوا بِأَصْوَاتِكُمْ»[٨]. وقد كره بعض العلماء رفع الصوت عند قبره عليه الصلاة والسلام. وكره بعض العلماء رفع الصوت في مجالس العلماء تشريفًا لهم، إذ هم ورثةُ الأنبياء[٩].

الرابعة: قال القاضي أبو بكر بن العربي[١٠]: حرمةُ النبيِّ ﷺ مَيّتًا كحرمته حيًّا،

---

(١) في (ز) و(م): منهم.

(٢) الكشاف ٣/ ٥٥٥، وما بين حاصرتين زيادة يقتضيها السياق.

(٣) المفهم ٧/ ٤٠٠.

(٤) قوله: وأنتم لا تشعرون، ليست في (م).

(٥) في (ز) و(ظ) و(م): غالبًا، والمثبت من (خ) و(ق) وهو الموافق لما في الكشاف ٣/ ٥٥٤ والكلام منه. وسقط هذا الموضع من (ف).

(٦) في (خ) و(ز): مرتبته، وفي (م): مزيتة.

(٧) في (ظ): بضجتكم.

(٨) أورد قراءة ابن مسعود الزمخشري في الكشاف ٣/ ٥٥٥، وابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ١٤٥.

(٩) ينظر إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٠٨، والمحرر الوجيز ٥/ ١٤٥.

(١٠) في أحكام القرآن ٤/ ١٧٠٢ - ١٧٠٣.

وكلامُه المأثورُ بعد موته في الرِّفعة مثلُ[١] كلامه المسموعِ من لفظه، فإذا قُرِئ كلامه، وجب على كلِّ حاضر ألا يرفع صوته عليه، ولا يعرض عنه، كما كان يلزمه ذلك في مجلسه عند تلفظه به. وقد نبَّه الله سبحانه على دوام الحرمة المذكورة على مرور الأزمنة بقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟﴾ [الأعراف: ٢٠٤]. وكلامُ النبيِّ ﷺ من الوحي، وله من الحكمة[٢] مثلُ ما للقرآن، إلا معانيَ مستثناة، بيانها في كتب الفقه.

الخامسة: وليس الغرض برفع الصوت ولا الجهرِ ما يُقصد به الاستخفافُ والاستهانة؛ لأن ذلك كفرٌ والمخاطبون مؤمنون. وإنما الغرضُ صوتٌ هو في نفسه والمسموع من جَرْسه[٣] غيرُ مناسب لِمَا يُهاب به العظماء ويوقَّر الكبراء، فيتكلَّفُ الغضَّ منه وردَّه إلى حدٍّ يميل به إلى ما يستبين فيه المأمور به من التعزير والتوقير. ولم يتناول النهي أيضاً رفعَ الصوت الذي لا يتأذى[٤] به رسول الله ﷺ؛ وهو ما كان منهم في حرب أو مجادلة معاندٍ أو إرهاب عدوٍّ، أو ما أشبه ذلك، ففي الحديث أنه قال عليه الصلاة والسلام للعباس بن عبد المطلب لمَّا انهزم الناس يوم حُنين: «اصرخ بالناس»[٥]، وكان العباس أجهرَ الناس صوتًا[٦]. يُروى أن غارة أتتهم يومًا فصاح العباس: يا صباحاه! فأسقطت الحوامل لشدَّة صوته[٧]، وفيه يقول نابغة بني جعدة:

---

(١) في (ز) و(خ) و(ق) و(م): مثال.

(٢) في أحكام القرآن لابن العربي: وله من الحرمة.

(٣) الجَرس: الصوت، ويكسر. القاموس (جرس).

(٤) في (ف) و(ق) و(م): الذي يتأذى، والمثبت من (خ) و(ز) و(ظ) وهو الموافق لما في الكشاف ٣/ ٥٥٥ والكلام إلى آخر المسألة منه.

(٥) أخرجه مسلم (١٧٧٥): (٧٦) بلفظ: أي عباس، ناد أصحاب السَّمُرة ... وسلف بلفظ مسلم ١٠/ ١٤٥.

(٦) قال ابن حجر في الكافي الشاف في تخريج أحاديث الكشاف ص١٥٥: لم أجده. اهـ. وسلف ١٠/ ١٤٥.

(٧) قال ابن حجر في الكافي الشاف في تخريج أحاديث الكشاف ص١٥٥: لم أجده.

زَجْــرُ أبــي عُــرْوة الــسِّــبــاعَ إذا أشـفـق أن يـخـتـلـطْـنَ بـالـغـنـمِ[١]

زعمت الرواة أنه كان يزجر السِّباع عن الغنم، فيفْتُقُ مرارةَ السبع في جوفه[٢].

السادسة: قال الزجاج: ﴿أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ﴾ التقدير: لأن تحبط، أي: فتحبط أعمالكم، فاللام المقدرةُ لامُ الصيرورة[٣]، وليس قوله: «أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ» بموجب أن يكفر الإنسان وهو لا يعلم، فكما لا يكون الكافر مؤمناً إلا باختياره الإيمانَ على الكفر، كذلك لا يكون المؤمن كافراً من حيث لا يقصد إلى الكفر ولا يختاره بإجماع. كذلك لا يكون الكافر كافراً من حيث لا يعلم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصۡوَٰتَهُمۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰۚ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٌ ③﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصۡوَٰتَهُمۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾ أي: يخفضون أصواتهم عنده إذا تكلَّموا إجلالًا له، أو كلَّموا غيره بين يديه إجلالًا له. قال أبو هريرة: لمَّا نزلت: ﴿لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ﴾، قال أبو بكر ﷺ: والله لا أرفع صوتي إلا كأخي السِّرار[٤].

وذكر سُنَيد قال: حدثنا عبَّاد بن العوام، عن محمد بن عمرو، عن أبي سلمة قال: لمَّا نزلت: ﴿لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ﴾ قال أبو بكر: والذي بعثك بالحق لا أكلِّمَك بعد هذا إلا كأخي السِّرار[٥].

وقال عبد الله بن الزبير: لمَّا نزلت: «لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ» ما حدَّث عمر عند

---

(١) ديوان النابغة الجعدي ص١٥٨، وفيه: يلتبسن، بدل: يختلطن.

(٢) قال ابن حجر في الكافي الشاف في تخريج أحاديث الكشاف ص١٥٥: لم أجده.

(٣) معاني القرآن للزجاج ٥/ ٣٢.

(٤) أخرجه الحاكم ٢/ ٤٦٢، والبيهقي في الشعب (١٥٢١).

(٥) لم نقف عليه من حديث أبي سلمة، وأخرجه البزار (٥٦)، والحاكم ٣/ ٧٤، والواحدي في أسباب النزول ص٤٠٨ من حديث أبي بكر ﷺ.

النبي ﷺ بعد ذلك فسمع كلامه حتى يستفهمه ممَّا يخفض؛ فنزلت: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ﴾(١).

قال الفراء: أي: أخلصَها للتقوى(٢). وقال الأخفش: أي: اختصها للتَّقْوَى(٣). وقال ابن عباس: «امْتَحَنَ اللهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى»: طهَّرهم من كلِّ قبيح، وجعل في قلوبهم الخوف من الله والتقوى. وقال عمر ﷺ: أذهبَ عن قلوبهم الشهوات(٤).

والامتحان افتعال من مَحَنْتُ الأدِيمَ مَحْنًا حتى أوسعته(٥). فمعنى امتحن الله قلوبهم للتقوى: وسَّعها وشرحها للتقوى. وعلى الأقوال المتقدمة: امتحن قلوبهم فأخلصها، كقولك: امتحنت الفضة، أي: اختبرتها حتى خلصت. ففي الكلام حذف يدلُّ عليه الكلام، وهو الإخلاص. وقال أبو عمرو: كلُّ شيء جَهَدته فقد محنته. وأنشد:

أتــت رذايــا بــادِيــاً كَــلالُــهــا قد مـحـنـت واضـطـربـت آطـالـهـا(٦)

﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾﴾

قال مجاهد وغيره: نزلت في أعراب بني تميم(٧)؛ قَدِم الوفد منهم على النبيِّ ﷺ، فدخلوا المسجد ونادَوُا النبيَّ ﷺ من وراء حجرته أنِ اخرج إلينا، فإنَّ مَدْحَنا زَيْنٌ وذَمَّنا

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ٢١٠، وهو بنحو حديث البخاري السالف في المسألة الأولى من الآية السابقة دون قوله: فنزلت ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ﴾.

(٢) معاني القرآن للفراء ٣/ ٧٠.

(٣) النكت والعيون ٥/ ٣٢٧.

(٤) أورد قول عمر الزمخشري في الكشاف ٣/ ٥٥٧، وابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ١٤٥.

(٥) في تهذيب اللغة ٥/ ١٢١: محنتُ الأديم محناً: إذا مددتَه حتى توسِّعَه.

(٦) أورده مع قول أبي عمرو والزمخشري في الكشاف ٣/ ٥٥٧. قوله: رذايا جمعَ رذِيَّة: وهو الضعيف من كل شيء. والآطال جمع إطل وهو الخاصرة، والكَلال: التعب. القاموس (رذي) و(أطل).

(٧) تفسير مجاهد ٢/ ٦٠٦، وأخرجه الطبري ٢١/ ٣٤٦ - ٣٤٧.

شَيْنٌ. وكانوا سبعين رجلًا قَدِمُوا لِفِداءِ ذَرارِي لهم؛ وكان النبيُّ ﷺ نام للقائلة.

ورُوِيَ أن الذي نادى الأقرعُ بن حابس، وأنه القائل: إنَّ مَدْحيَ زَيْنٌ وإنَّ ذَمِّي شَيْن؛ فقال النبيُّ ﷺ: «ذاك الله»[١]. ذكره الترمذي عن البَرَاء بن عازب أيضًا[٢].

وروى زيد بن أرقم فقال: أتى أناس النبيَّ ﷺ فقال بعضهم لبعض: انطلقوا بنا إلى هذا الرجل، فإن يكن نبيًّا فنحن أسعد الناس باتباعه، وإن يكن مَلِكًا نَعِشْ في جنابه. فأتَوا النبيَّ ﷺ، فجعلوا ينادونه وهو في حجرته: يا محمد، يا محمد، فأنزل الله تعالى هذه الآية[٣].

قيل: إنهم كانوا من بني تميم. قال مقاتل: كانوا تسعة[٤] نفر: قيس بن عاصم، والزِّبْرِقَان بن بَدْر، والأَقْرَع بن حابس، وسُويد بن هشام[٥]، وخالد بن مالك، وعطاء ابن حابس، والقَعْقاع بن مَعْبَد، ووَكِيع بن وكيع، وعُيَيْنَة بنِ حِصْن وهو الأحمق المطاع، وكان من الجرَّارين يجرُّ عشْرَة آلافِ قناة[٦]، أي: يتبعه، وكان اسمه حذيفة، وسمِّي عُيَيْنة لِشَترٍ[٧] كان في عينيه. ذكر عبد الرزاق في عُيينَة هذا: أنه الذي نزل فيه: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا﴾[٨] [الكهف:٢٨]. وقد مضى في آخر

(١) أخرجه أحمد (١٥٩٩١)، وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (١١٧٨)، والطبري ٢١/٣٤٦، والطبراني في الكبير (٨٧٨).

(٢) برقم (٣٢٦٧) وقال: هذا حديث حسن غريب. ولم يسم الرجل الذي نادى النبي ﷺ.

(٣) أخرجه الطبري ٢١/٣٤٥ - ٣٤٦، والطبراني في الكبير (٥١٢٣) وفيه داود بن راشد الطُّفاوي لين الحديث كما قال ابن حجر في التقريب. ووقع عند الطبري والطبراني: جناحه، بدل: جنابه.

(٤) في النسخ عدا (ز) و(ظ): عشر، والمثبت منهما وهو الموافق لما في النكت والعيون ٥/٣٢٨ والكلام منه.

(٥) في النسخ: وسويد بن هاشم، والمثبت من النكت والعيون، وزاد المسير ٧/٤٥٩ ونسب القول لابن إسحاق، والإصابة ٤/٣٠٤.

(٦) القناة: الرمح، يعني كان يتبعه عشرة آلاف مقاتل.

(٧) الشَّتَر: انقلاب الجَفْن من أعلى وأسفل. القاموس (شتر).

(٨) سلف ١٣/٢٦٠.

«الأعراف» من قوله لعمر ﷺ ما فيه كفاية[١]. ذكره البخاري[٢].

ورُوِيَ أنهم وَفدوا وقت الظَّهِيرة ورسولُ الله ﷺ راقد، فجعلوا ينادونه: يا محمد[٣]، اخرج إلينا. فاستيقظ وخرج، ونزلت. وسُئِل رسول الله ﷺ عنهم[٤] فقال: «هم جُفاة بني تميم، لولا أنهم من أشدِّ الناس قتالاً للأعور الدجال، لدعوت الله عليهم أن يهلكهم»[٥].

والحُجُرات جمع حُجْرة، كالغُرُفات جمع غُرْفة، والظُّلُمات جمعُ ظُلْمة. وقيل: الحُجُرات جمع الحُجَر، والحُجَر جمع حُجْرة، فهو جمع الجمع. وفيه لغتان: ضمُّ الجيم وفتحُها. قال:

ولمَّا رأونا باديًا رُكَباتُنا على موطنٍ لا نخلِط الجِدَّ بالهَزْلِ[٦]

والحجرة: الرقعة من الأرض المحجورة بحائط يُحوط عليها. وحَظيرة الإبل تسمَّى الحجرة، وهي فُعْلة بمعنى مفعولة[٧].

---

(١) ٩/ ٤٢١ - ٤٢٢. وخلاصته أن عيينة قال لأخيه الحر بن قيس بن حصن: هل لك وجه عند هذا الأمير، فتستأذن لي عليه. قال: سأستأذن لك عليه، فاستأذن لعيينة، فلما دخل قال: يا ابن الخطاب، والله ما تعطينا الجَزْل، ولا تَحكم بيننا بالعدل. قال: فغضب عمر حتى هم بأن يقع به...

(٢) برقم (٧٢٨٦).

(٣) بعدها في (م): يا محمد.

(٤) لفظة: عنهم، ليست في (ز) و(م).

(٥) الكشاف ٣/ ٥٥٨، وأخرجه الثعلبي كما في تخريج أحاديث الكشاف ص١٥٦ من طريق يعلى ابن الأشدق عن سعد بن عبد الله. ويعلى بن الأشدق، قال عنه البخاري: لا يكتب حديثه، وقال ابن حبان: وضعوا له أحاديث فحدث بها ولم يدر. الميزان ٤/ ٤٥٦ - ٤٥٧. وأخرج البخاري (٢٥٤٣) واللفظ له، ومسلم (٢٥٢٥) من حديث أبي هريرة قال: ما زلت أحب بني تميم منذ ثلاث، سمعت من رسول الله ﷺ يقول فيهم، سمعته يقول: «هم أشد أمتي على الدجَّال».

(٦) الكتاب ٣/ ٥٧٩، وتفسير غريب القرآن ص٤١٥، والمحتسب ١/ ٥٦. قوله: رُكَبات: هو جمع رُكْبة، وهو الشاهد في البيت على فتح جيم حجرات. وقال محقق الكتاب: بدوّ الركبة كناية عن التأهب للحرب.

(٧) الكشاف ٣/ ٥٥٨.

وقرأ أبو جعفر بن القَعْقَاع: «الحُجَرات» بفتح الجيم استثقالاً للضمتين[١].
وقُرِئ: «الحُجْرات» بسكون الجيم تخفيفًا[٢].

وأصل الكلمة المنع، وكلُّ ما منعت أن يوصل إليه فقد حَجَرت عليه. ثم يحتمل أن يكون المنادي بعضًا من الجملة فلهذا قال: «أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ» أي: إنَّ الذين ينادونك من جملة قوم الغالبُ عليهم الجهل.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٥﴾

أي: لو انتظروا خروجك لكان أصلحَ لهم في دينهم ودنياهم. وكان ﷺ لا يحتجبُ عن الناس إلا في أوقات يشتغل فيها بِمُهمَّات نفسه، فكان إزعاجه في تلك الحالة من سوء الأدب. وقيل: كانوا جاؤوا شفعاءَ في أُسارى بني عنبر، فأعتق رسول الله ﷺ نصفهم، وفادى على النصف، ولو صبروا لأعتق جميعهم بغير فداء[٣].
﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟ أَن تُصِيبُوا۟ قَوْمًۢا بِجَهَـٰلَةٍ فَتُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَـٰدِمِينَ ۝٦﴾

فيه سبع مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ﴾ قيل: إن هذه الآية نزلت في الوليد بن عُقبةَ بنِ أبي مُعَيْط. وسببُ ذلك ما رواه سعيد عن قتادةَ أن النبيَّ ﷺ بعث الوليد بنَ عُقبَةَ مُصَدِّقًا[٤] إلى بني المُصْطَلق، فلمَّا أبصروه أقبلوا نحوه، فهابهم ـ

(١) النشر ٢/٣٧٦، وهي من العشرة.
(٢) ذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص١٤٣ ونسبها لابن أبي عبلة.
(٣) بنحوه في تفسير البغوي ٤/٢١١.
(٤) المصدِّق: آخذ الصدقات. القاموس (صدق).

في رواية: لإِحْنَة كانت بينه وبينهم ـ، فرجع إلى النبيِّ ﷺ، فأخبره أنهم قد ارتدُّوا عن الإسلام. فبعث نبيُّ الله ﷺ خالدَ بنَ الوليد وأمره أن يتثبَّت ولا يَعْجَل، فانطلق خالد حتى أتاهم ليلًا، فبعث عُيُونَه، فلمَّا جاؤوا أخبروا خالدًا أنهم متمسكّن بالإسلام، وسمعوا أذانهم وصلاتهم، فلمَّا أصبحوا أتاهم خالد، ورأى صحة ما ذكروه، فعاد إلى نبيِّ الله ﷺ فأخبره، فنزلت هذه الآية، فكان يقول نبيُّ الله ﷺ: «التأنِّي من الله، والعجلةُ من الشيطان»[١].

وفي رواية: أن النبيَّ ﷺ بعثه إلى بني المُصْطَلِق بعد إسلامهم، فلمَّا سمعوا به ركبوا إليه، فلمَّا سمع بهم خافهم، فرجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره أن القوم قد همُّوا بقتله، ومنعوا صدقاتهم. فهمَّ رسول الله ﷺ بغزوِهم، فبينما هم كذلك إذ قَدِم وفدهم على رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله، سمعنا برسولك فخرجنا إليه لنكرمه، ونؤديَ إليه ما قِبَلَنَا من الصدقة، فاستمر راجعًا، وبلغنا أنه يزعم لرسول الله أنَّا خرجنا لنقاتله، واللهِ ما خرجنا لذلك، فأنزل الله تعالى هذه الآية[٢]؛ وسُمِّيَ الوليدُ فاسقًا، أي: كاذبًا.

قال ابن زيد ومقاتل وسهل بن عبد الله: الفاسق: الكذَّاب. وقال أبو الحسن الوراق[٣]: هو المعلِن بالذنب. وقال ابن طاهر: الذي لا يستحي من الله. وقرأ حمزة والكسائي: «فتثبتوا» من التثبُّت. الباقون: «فَتَبَيَّنُوا» من التبيُّن[٤] ﴿أَن تُصِيبُواْ﴾ أي: لئلا

(١) النكت والعيون ٥/ ٣٢٨، ٣٢٩ وأحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧٠٣، وأخرجه الطبري ٢١/ ٣٥١ - ٣٥٢، وجاء عنده: التبين من الله، بدل: التأني من الله، وهو مرسل.

(٢) أخرجه ابن إسحاق كما في السيرة النبوية ٢/ ٢٩٦، والطبري ٢١/ ٣٥٢ - ٣٥٣ عن يزيد بن رومان مرسلا، وينظر حديث أحمد (١٨٤٥٩). وقال ابن عبد البر في الاستيعاب في ترجمة الوليد بن عقبة: لا خلاف بين أهل العلم بتأويل القرآن ـ فيما علمت ـ أن قوله عز وجل: ﴿إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ﴾ نزل في الوليد بن عقبة... الخ وذكر الخبر.

(٣) هو عبد الوهاب بن عبد الحكم بن نافع أبو الحسن البغدادي الوراق، كان كبير الشأن من خواصِّ الإمام أحمد، مات في ذي القعدة سنة إحدى وخمسين ومئتين. سير أعلام النبلاء ١٢/ ٣٢٣ - ٣٢٤.

(٤) السبعة ص٢٣٦، والتيسير ص٩٧، ووقع في (ف) و(م): التبيين، بدل: التبين.

تصيبوا[١]، فـ«أن» في محل نصب بإسقاط الخافض. ﴿قَوْمًا بِجَهَٰلَةٍ﴾ أي: بخطأ. ﴿فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ﴾ على العجلة وتركِ التأنِّي.

الثانية: في هذه الآية دليلٌ على قَبول خبر الواحد إذا كان عَدْلًا[٢]، لأنه إنما أمر فيها بالتثبُّت عند نقل خبر الفاسق. ومَن ثبت فسقه بطل قوله في الأخبار إجماعًا؛ لأن الخبر أمانةٌ والفسقَ قرينةٌ يبطلها[٣]. وقد استثنى الإجماع من جملة ذلك ما يتعلَّق بالدعوى والجحود، وإثباتِ حقٍّ مقصودٍ على الغير، مثل أن يقول: هذا عبدي، فإنه يُقبَل قوله. وإذا قال: قد أنفذ فلان هذا لك هدية، فإنه يقبل ذلك. وكذلك يُقبَل في مثله خبرُ الكافر[٤]. وكذلك إذا أقرَّ لغيره بحقٍّ على نفسه فلا يبطل إجماعًا. وأمَّا في الإنشاء[٥] على غيره فقال الشافعي وغيرُه: لا يكون وليًّا في النكاح. وقال أبو حنيفة ومالك: يكون وليًّا؛ لأنه يَلي ما لها، فَيَلِي بُضْعَها؛ كالعدل، وهو وإن كان فاسقًا في دينه إلا أن غَيْرته موفَّرة، وبها يحمي الحريم، وقد يَبْذلُ المالَ ويصونُ الحرمة، وإذا وَلِيَ المال فالنكاح أوْلَى[٦].

الثالثة: قال ابن العربي[٧]: ومن العَجَب أن يجوِّز الشافعيُّ ونظراؤه إمامةَ الفاسق. ومَن لا يؤتمن على حبة مالٍ [كيف] يصحُّ أن يؤتمن على قنطار دِين؟ وهذا إنما كان أصله أن الولاة الذين كانوا يصلُّون بالناس لمَّا فسدت أديانهم ولم يمكن تركُ الصلاة وراءهم، ولا اسْتُطِيعت إزالتُهم، صُلِّيَ معهم ووراءهم، كما قال عثمان: الصلاة أحسن ما يفعل الناس، فإذا أحسنوا فأحْسِنْ [معهم]، وإذا أساؤوا فاجتنب

---

(١) الوسيط ٤/ ١٥٢.

(٢) النكت والعيون ٥/ ٣٢٩.

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧٠٣.

(٤) أحكام القرآن للكيا الطبري ٤/ ٣٨١ - ٣٨٢.

(٥) في أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧٠٣ والكلام وما سيأتي منه: وأما في الإنسان.

(٦) جاء في أحكام القرآن لابن العربي: فالبضع أولى.

(٧) في أحكام القرآن ٤/ ١٧٠٣ - ١٧٠٤، وما سيأتي بين حاصرتين منه.

إساءتهم[١]. ثم كان من الناس مَن إذا صلَّى معهم تَقِيَّةً أعاد[٢] الصلاة لله، ومنهم مَن كان يجعلها صلاته. وبوجوب الإعادة أقول، فلا ينبغي لأحد أن يترك الصلاة مع مَن لا يرضى من الأئمة، ولكنْ يعيدُ سِرًّا في نفسه، ولا يؤثِر ذلك عند غيره.

الرابعة: وأمَّا أحكامه إن كان واليًا فيَنْفُذ منها ما وافق الحقَّ، ويُردُّ ما خالفه، ولا يُنْقَض حكمُه الذي أمضاه بحال، ولا تلتفتوا إلى غير هذا القول من رواية [تؤثر]، أو قولٍ يُحكى؛ فإن الكلام كثيرٌ، والحقَّ ظاهر[٣].

الخامسة: لا خلاف في أنه يصحُّ أن يكون رسولًا عن غيره في قول يُبَلِّغه، أو شيء يُوصله، أو إذن يُعلِمه، إذا لم يخرج عن حقِّ المرسِل والمبلَّغ، فإن تعلَّق به حقٌّ لغيرهما لم يُقبَل قوله. وهذا جائزٌ للضرورة الداعية إليه، فإنه لو لم يتصرف بين الخلق في هذه المعاني إلا العدولُ لم يحصل منها[٤] شيء؛ لعدمهم في ذلك. والله أعلم.

السادسة: وفي الآية دليلٌ على فساد قول مَن قال: إن المسلمين كلَّهم عدولٌ حتى تثبت الجُرحة؛ لأن الله تعالى أمر بالتثبُّت قبل القَبول، ولا معنى للتثبُّت بعد إنفاذ الحكم، فإنْ حَكَمَ الحاكم قبل التثبُّت، فقد أصاب المحكومَ عليه بجهالة.

السابعة: فإن قضى بما يغلب على الظنِّ، لم يكن ذلك عملًا بجهالة، كالقضاء بالشاهدين العدلين، وقَبولِ قول العالم المجتهد. وإنما العملُ بالجهالة قَبولُ قولِ مَن لا يحصل غلبةُ الظنِّ بقوله[٥]. ذكر هذه المسألةَ القُشَيْريُّ، والتي قبلها المَهْدَوي.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٩٥). عن عبيد الله بن عديّ بن خِيار أنه دخل على عثمان ﷺ وهو محصور، فقال: إنك إمام عامة، ونزل بك ما نرى، ويصلي لنا إمام فتنة وتحَرَّج، فقال عثمان: الصلاةُ أحسن.... الخ.

(٢) في النسخ عدا (ف)، والأحكام: أعادوا، والمثبت من (ف).

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧٠٤ وما بين حاصرتين منه.

(٤) في أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧٠ والكلام منه: لم يحصل منهم.

(٥) في (م): بقبوله.

قوله تعالى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِۚ لَوۡ يُطِيعُكُمۡ فِي كَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ لَعَنِتُّمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ٧ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعۡمَةٗۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٨﴾

قوله تعالى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِۚ﴾ فلا تَكذِبوا، فإن الله يُعلِمه أنباءكم فَتُفْضَحون[1]. ﴿لَوۡ يُطِيعُكُمۡ فِي كَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ لَعَنِتُّمۡ﴾ أي: لو تسارع إلى ما أردتم قبل وضوح الأمر لنالكم مشقةٌ وإثم، فإنه لو قتل القومَ الذي سعى بهم الوليدُ بن عُقبة إليه، لكان خطأً، ولَعَنَتَ مَن أراد إيقاع الهلاك بأولئك القوم لعداوة كانت بينه وبينهم.

ومعنى طاعةِ الرسول لهم: الائتمارُ بما يأمرونه[2] فيما يبلِّغونه عن الناس والسماعُ منهم.

والعَنَت: الإثم، يقال: عَنِت الرجل. والعَنَت أيضاً: الفجور والزنى، كما في سورة النساء[3].

والعَنتُ أيضًا الوقوعُ في أمر شاقٍّ؛ وقد مضى في آخر «براءة»[4] القولُ في «عَنِتُّمْ» بأكثرَ من هذا.

﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ﴾ هذا خطابٌ للمؤمنين المخلِصين[5] الذين لا يكذبون النبيَّ ﷺ ولا يخبرون بالباطل، أي: جعل الإيمان أحبَّ الأديان إليكم. ﴿وَزَيَّنَهُۥ﴾ بتوفيقه ﴿فِي قُلُوبِكُمۡ﴾ أي: حسَّنه إليكم حتى اخترتموه. وفي هذا ردٌّ على القدرية والإمامية وغيرِهم، حسب ما تقدَّم في غير موضع. فهو سبحانه المنفردُ بخلق ذواتِ الخلق وخلقِ أفعالهم وصفاتِهم واختلافِ ألسنتهم وألوانهم، لا شريك له.

---

(١) في (ز) و(ظ): فتفتضحوا.

(٢) في (ز): يأمروهم، وفي (ق) و(م): يأمر به.

(٣) ٦/٢٢٨.

(٤) ١٠/٤٤١.

(٥) بعدها في (ز): الصادقين.

﴿وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ﴾ قال ابن عباس: يريد به الكذبَ خاصَّة[١]. وقاله ابن زيد[٢]. وقيل: كلُّ ما أخرج[٣] عن الطاعة، مشتقٌ من فَسَقتِ الرُّطَبَةُ: خرجت من قِشرها، والفأرة من جُحرها. وقد مضى في «البقرة»[٤] القولُ فيه مستوفًى. والعصيانُ جميع المعاصي[٥].

ثم انتقل من الخطاب إلى الخبر فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ يعني هم[٦] الذين وفَّقهم الله، فحبَّب إليهم الإيمان وكرَّه إليهم الكفر، أي: قبَّحه عندهم ﴿هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾ كقوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ﴾ [الروم: ٣٩]. قال النابغة:

يا دارَ مَيَّةَ بالعَلْياء فالسَّنَدِ أقْوَتْ وطال عليها سالِفُ الأمَدِ[٧]

والرَّشَدُ: الاستقامةُ على طريق الحقِّ مع تَصَلُّبٍ فيه، من الرَّشادة[٨] وهي الصخرة.

قال أبو الوازع: كلُّ صخرة رشادةٌ. وأنشد:

وغيرُ مُقَلَّدٍ ومُوَشَّماتٍ صَلِينَ الضَّوءَ من صُمِّ الرَّشادِ[٩]

---

(١) الوسيط ٤/ ١٥٣، وتفسير البغوي ٤/ ٢١٢.

(٢) أخرجه الطبري ٢١/ ٣٥٦ مطولًا.

(٣) في (م)، والنكت والعيون ٥/ ٣٢٩ وهذا القول منه: كل ما خرج.

(٤) ١/ ٣٦٨.

(٥) الوسيط ٤/ ١٥٣. وتفسير البغوي ٤/ ٢١٢، ووقع في (م): جمع، بدل: جميع، وهو خطأ.

(٦) كذا في النسخ، ولعل لفظة: «هم» زائدة، فسياق الكلام: أولئك ـ يعني الذين وفقهم الله، فحبب إليهم الإيمان... الخ ـ هم الراشدون.

(٧) ديوان النابغة الذبياني ص٣٠، وسلف ١٠/ ٤٧٤.

(٨) في (م): الرشاد.

(٩) الكشاف ٣/ ٥٦٢، قال شارح شواهده ص٣٧: الظاهر أن الشاعر يصف الديار بأنها لم يبق فيها غير وتد الخباء المقلَّد بالحبل، وغير المغير لونها بالنار. والوشم والتوشيم: تغيير اللون، أي التي احترقت بضوئها، أي: حرها، ومن صُمِّ الرَّشاد بيان لها، والصمّ: جمع صماء، أي: صلبة.

﴿فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً﴾ أي: فعل الله ذلك بكم فضلًا، أي: للفضل[١] والنعمة، فهو مفعول له. ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ «عَلِيمٌ» بما يُصلِحكم «حَكِيمٌ» في تدبيركم.

قوله تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَـٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾﴾

فيه عشر مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا﴾ روى المُعْتَمِرُ بن سليمان [عن أبيه] عن أنس بن مالك قال: قلت[٢]: يا نبيَّ الله، لو أتيتَ عبدَ الله بنَ أُبَيٍّ. فانطلق إليه النبيُّ ﷺ، فركب حمارًا وانطلق المسلمون يمشون، وهي أرضٌ سَبِخة، فلمَّا أتاه النبيُّ ﷺ قال: إليكَ عني! فوالله لقد أذاني نَتْن حمارك. فقال رجل من الأنصار: والله لَحمارُ رسول الله ﷺ أطيبُ ريحًا منك. فغضب لعبد الله رجلٌ من قومه، وغضب لكلٍّ واحد منهما أصحابه، فكان بينهم[٣] حربٌ بالجريد والأيدي والنعال، فبلغنا أنه أُنزِل فيهم هذه الآية[٤].

وقال مجاهد: نزلت في الأوس والخزرج. قال مجاهد: تقاتلَ حيَّان من الأنصار بالعصيِّ والنِّعال فنزلت الآية[٥]. ومثله عن سعيد بن جبير: أن الأوس والخزرج كان

(١) في النسخ: الفضل، والمثبت من معاني القرآن للزجاج ٥/ ٣٥، والكلام منه، ونقله عنه النحاس في إعراب القرآن ٤/ ٢١١.

(٢) كذا في النسخ، ووقع عند أحمد والبخاري ومسلم: قيل، قال الحافظ ابن حجر في الفتح ٥/ ٢٩٨: لم أقف على اسم القائل.

(٣) في (ز) و(ق): بينهما.

(٤) أخرجه أحمد (١٢٦٠٧)، والبخاري (٢٦٩١)، ومسلم (١٧٩٩) وما بين حاصرتين منها، وقوله: سَبِخَة؛ قال الحافظ ابن حجر في الفتح ٥/ ٢٩٨: هي الأرض التي لا تنبت، وكانت تلك صفة الأرض التي مر بها ﷺ إذ ذاك.

(٥) تفسير مجاهد ٢/ ٦٠٦، وأخرجه الطبري ٢١/ ٣٦١.

بينهم على عهد رسول الله ﷺ قتالٌ بالسَّعَف والنِّعال ونحوه؛ فأنزل الله هذه الآية فيهم[١].

وقال قتادة: نزلت في رجلين من الأنصار كانت بينهما مُدارَأة[٢] في حقٍّ بينهما؛ فقال أحدهما: لآخذنَّ حقي منك[٣] عَنوة؛ لكثرة عشيرته. ودعاه الآخر إلى أن يحاكمه إلى رسول الله ﷺ، فأبى أن يتَّبعه؛ فلم يزل الأمر بينهما حتى تواقعا[٤]، وتناول بعضهم بعضًا بالأيدي والنعال والسيوف، فنزلت هذه الآية[٥].

وقال الكلبي: نزلت في حرب سُمير وحاطب، وكان سُمير قتل حاطبًا، فاقتتل الأوس والخزرج حتى أتاهم النبيُّ ﷺ، فنزلت[٦]. وأمر الله نبيَّه ﷺ والمؤمنين أن يُصلحوا بينهما.

وقال السُّدّيُّ: كانت امرأة من الأنصار يقال لها: «أم زيد» تحت رجل من غير الأنصار، فتخاصمت مع زوجها، أرادت أن تزور قومها، فحبسها زوجها وجعلها في عُلِّيَّة لا يَدخل عليها أحدٌ من أهلها، وأن المرأة بعثت إلى أهلها[٧]، فجاء قومها فأنزلوها لينطلقوا بها، فخرج الرجل فاستغاث أهلَه، فجاء[٨] بنو عمه ليحولوا بين

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٣٣٠، وأحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧٠٤، وقوله: السَّعَف هو جمع سَعَفة - بالتحريك - وهي أغصان النخيل. النهاية (سعف).

(٢) المدارأة: المخالفة والمدافعة. اللسان (درأ). ووقع في (خ): مولاة، وفي (ز): مماراة.

(٣) لفظة: منك، ليست في (م).

(٤) في (خ) و(ز) و(ظ) و(ف): تواقعوا.

(٥) أخرجه الطبري ٢١/ ٣٦١ مطولاً.

(٦) حرب سُمَيْر وحرب حاطب: حربان وقعتا بين الأوس والخزرج، كان الظَّفَر في حرب سُمَير للأوس، وحرب حاطب للخزرج، وبينهما نحو مئة سنة على ما ذكرابن الأثير في الكامل ١/ ٦٧١ وقال: حرب حاطب آخر وقعة بينهم إلا يوم بُعاث حتى جاء الله بالإسلام.

(٧) في (ز) و(م): قومها.

(٨) في (م): فخرج.

المرأة وأهلها، فتدافعوا واجتلدوا[١] بالنعال، فنزلت الآية[٢].

والطائفة تتناول الرجلَ الواحدَ والجمع والاثنين، فهو ممَّا حُمِل على المعنى دون اللفظ؛ لأن الطائفتين في معنى القوم والناس. وفي قراءة عبد الله: «حتى يفيئوا إلى أمر الله فإن فاؤوا فخذوا بينهم بالقسط». وقرأ ابن أبي عَبْلَة: «اقتتلتا» على لفظ الطائفتين[٣]. وقد مضى في آخر «براءة» القولُ فيه[٤]. وقال ابن عباس في قوله عز وجل: ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور: ٢] قال: الواحد فما فوقه[٥]، والطائفةُ من الشيء: القطعةُ منه.

﴿فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا﴾ بالدعاء إلى كتاب الله؛ لهما أو عليهما ﴿فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ﴾: تعدَّت ولم تُجِب إلى حكم الله وكتابه. والبغيُ: التطاول والفساد. ﴿فَقَـٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ أي: ترجعَ إلى كتابه. ﴿فَإِن فَآءَتْ﴾: رجعت ﴿فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ﴾ أي: احملوها على الإنصاف. ﴿وَأَقْسِطُوٓا۟﴾ أيها الناس فلا تقتتلوا. وقيل: أقسطوا، أي: اعدلوا. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ أي: العادلين المحقِّين.

الثانية: قال العلماء: لا تخلو الفئتانِ من المسلمين في اقتتالهما؛ إمَّا أن يقتتلا على سبيل البغي منهما جميعًا أو لا.

فإن كان الأوّلُ، فالواجبُ في ذلك أن يُمْشَى بينهما بما يُصلِح ذاتَ البَيْن، ويُثمِر المكافَّة والموادعة. فإن لم يتحاجزا ولم يصطلحا وأقامتا على البغي، صِير إلى مقاتلتهما.

وأمَّا إن كان الثاني ـ وهو أن تكون إحداهما باغيةً على الأخرى ـ فالواجبُ أن

---

(١) في (م): وتجالدوا.

(٢) النكت والعيون ٥/ ٣٣٠، وأحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧٠٥، وأخرجه الطبري ٢١/ ٣٦٠ بنحوه.

(٣) الكشاف ٣/ ٥٦٣، وذكر قراءة ابن أبي عبلة أيضاً ابن الجوزي في زاد المسير ٧/ ٤٦٣.

(٤) ١٠/ ٤٢٩.

(٥) سلف ١٥/ ١١٤.

تُقاتَل فئةُ البغي إلى أن تكُفَّ وتتوب، فإن فعلتْ أُصلِح بينها وبين المبغيِّ عليها بالقسط والعدل.

فإن التحم القتال بينهما لشبهة دخلت عليهما وكلتاهما عند أنفسهما مُحِقَّة، فالواجبُ إزالةُ الشبهة بالحجَّة النيِّرة والبراهينِ القاطعة على مراشد الحقّ. فإن ركبتا متن اللَّجاج ولم تعملا على شاكلة ما هُدِيَتَا إليه ونُصِحتا به من اتّباع الحقّ بعد وضوحه لهما، فقد لحقتا بالفئتين الباغيتين. والله أعلم[١].

الثالثة: في هذه الآية دليلٌ على وجوب قتال الفئة الباغية المعلومِ بغيُها على الإمام، أو على أحد من المسلمين. وعلى فساد قول مَن منع من قتال المؤمنين، واحتجَّ بقوله عليه الصلاة والسلام: «قتالُ المؤمن كفر»[٢]. ولو كان قتال المؤمن الباغي كفراً لكان الله تعالى قد أمر بالكفر، تعالى الله عن ذلك! وقد قاتل الصدِّيق ﷺ مَن تمسك بالإسلام وامتنع من الزكاة[٣]، وأمر ألا يُتبع مُوَلٍّ، ولا يُجهَز على جريح. ولم تَحِلَّ أموالهم، بخلاف الواجب في الكفار. وقال الطبري: لو كان الواجب في كل اختلاف يكون بين الفريقين الهربَ منه ولزومَ المنازل لَمَا أقيم حدٌّ ولا أُبطِل باطل، ولَوَجد أهل النفاق والفجور سبيلاً إلى استحلال كلِّ ما حرَّم الله عليهم من أموال المسلمين وسَبْي نسائهم وسفكِ دمائهم، بأن يتحزَّبوا عليهم، ويكفّ المسلمون أيديَهم عنهم، وذلك مخالف لقوله عليه الصلاة والسلام: «خذوا على أيدي سفهائكم»[٤].

الرابعة: قال القاضي أبو بكر بن العربي[٥]: هذه الآية أصلٌ في قتال المسلمين،

---

(١) الكشاف ٣/ ٥٦٤ .

(٢) أخرجه أحمد (٣٦٤٧) ، والبخاري (٤٨) ، ومسلم (٦٤) : (١١٦) عن ابن مسعود ﷺ .

(٣) أخرجه أحمد (١١٧)، والبخاري (١٣٩٩)، ومسلم (٢٠) من حديث أبي هريرة ﷺ بلفظ: والله لأقاتلن من فرَّق بين الصلاة والزكاة.

(٤) سلف ٧/ ٢٠٤ .

(٥) في أحكام القرآن ٤/ ١٧٠٥ - ١٧٠٦ ، وما سيرد بين حاصرتين منه .

والعمدةُ في حرب المتأوِّلين، وعليها عوَّل الصحابة، وإليها لجأ الأعيان من أهل الملَّة، وإياها عنى النبيُّ ﷺ بقوله: «تَقْتلُ عَمَّارًا[١] الفئةُ الباغية». وقولِه عليه الصلاة والسلام في شأن الخوارج: «يخرجون على حينِ[٢] فُرقة» أو «على خير[٣] فِرقة»، والروايةُ الأولى أصحُّ، لقوله عليه الصلاة والسلام: «تقتلهم[٤] أَوْلَى الطائفتين إلى الحق»[٥]. وكان الذي قتلهم عليُّ بن أبي طالب ومَن كان معه. فتقرَّر عند علماء المسلمين وثبت بدليل الدِّين أن علياً ﷺ كان إمامًا، وأنَّ كلَّ مَن خرج عليه باغٍ، وأنَّ قتاله واجبٌ حتى يفيء إلى الحق وينقاد إلى الصلح؛ لأن عثمان ﷺ قُتِل والصحابةُ بُرآء من دمه، لأنه مَنع من قتال مَن ثار عليه وقال: لا أكونُ أوّل مَن خَلَف رسولَ الله ﷺ في أمته بالقتل، فصبر على البلاء، واستسلم للمحنة وفدى بنفسه الأمة. ثم لم يمكن ترك الناس سُدًى، فعُرِضت على باقي الصحابة الذين ذكرهم [عمر] في الشورى، وتدافعوها، وكان عليٌّ كرَّم الله وجهه أحقَّ بها وأهلَها، فقبلَها حَوْطةً على الأمة أن تُسفَك دماؤها بالتهارج والباطل، أو يتخرق أمرها إلى ما لا يتحصَّل. فربما تغيَّر الدِّين وانقضَّ عمود الإسلام. فلمَّا بويع له، طلب أهل الشام في شرط البيعة

(١) في النسخ الخطية: عثمان، والمثبت من (م) وهو الصواب، والحديث عند أحمد (٢٦٥٦٣)، ومسلم (١٢٩١٦): (٧٣) عن أم سلمة رضي الله عنها.

(٢) في (ق) و(م) وأحكام القرآن لابن العربي: خير، والمثبت من بقية النسخ.

(٣) في (ق) و(م) وأحكام القرآن: حين، وجاء في نسخة من أحكام القرآن: خير، والمثبت من (خ) و(ز) و(ظ) و(ف)، وهو الذي يريده المصنف كما سيرد، وهو ما رجَّحه النووي أيضاً في شرح صحيح مسلم ٧/ ١٦٦، والحافظ ابن حجر في فتح الباري ١٢/ ٢٩٥؛ لقوله في رواية أخرى: «يخرجون في فُرقة من الناس» و: «عند فُرقة». أي: في وقت افتراق المسلمين، وهو ما كان بين علي ومعاوية رضي الله عنهما. وأما رواية: خير؛ فقد نقل النووي عن القاضي عياض أن المراد به خير القرون، وهم الصدر الأول، أو أن المراد به علي وأصحابه، فعليه كان خروجهم حقيقة؛ لأنه كان الإمام حينئذ. والحديث عند أحمد (١١٠١٨) والبخاري (٣٦١٠) و(٦٩٣٣)، ومسلم (١٠٦٤) عن أبي سعيد الخدري ﷺ.

(٤) في أحكام القرآن لابن العربي والكلام منه: لقتلهم، بدل: لقوله عليه الصلاة والسلام: تقتلهم.

(٥) أخرجه أحمد (١١٠١٨)، ومسلم (١٠٦٤): (١٥٠) من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ.

التمكنَ من قَتَلة عثمان وأَخْذَ القَوَد منهم، فقال لهم عليٌّ ﷺ: ادخلوا في البيعة واطلبوا الحقَّ تصلوا إليه. فقالوا: لا تستحقُّ بيعةً وقَتَلَةُ عثمانَ معك نراهم صباحًا ومَساء. فكان عليٌّ في ذلك أسدَّ رأيًا وأصوبَ قِيلًا؛ لأن عليًّا لو تعاطى القَوَد منهم، لتعصبت لهم قبائلُ وصارت حربًا ثالثة، فانتظر بهم أن يستوثق الأمر وتنعقدَ البيعةُ، ويقعَ الطلبُ من الأولياء في مجلس الحكم؛ فيجري القضاء بالحق.

ولا خلاف بين الأمة أنه يجوز للإمام تأخيرُ القصاص إذا أدَّى ذلك إلى إثارة الفتنة أو تشتيتِ الكلمة. وكذلك جرى لطلحةَ والزبير، فإنهما ما خلعا عليًّا من ولاية، ولا اعترضا عليه في ديانة، وإنما رأَيَا[١] أن البداية[٢] بقتل أصحاب عثمانَ أولى.

قلت: فهذا قولٌ في سبب الحرب الواقع بينهم. وقال جِلَّة من أهل العلم: إن الوقعة بالبصرة بينهم كانت على غير عزيمة منهم على الحرب، بل فجأةً، وعلى سبيل دَفْع كلٍّ واحد من الفريقين عن أنفسهم؛ لظنه أن الفريق الآخر قد غدر به، لأنَّ الأمر كان قد انتظم بينهم، وتمَّ الصُّلح والتفرُّق على الرضا. فخاف قَتَلةُ عثمانَ ﷺ من التمكين منهم والإحاطةِ بهم، فاجتمعوا وتشاوروا واختلفوا، ثم اتفقت آراؤهم على أن يفترقوا فريقين، ويبدؤوا بالحرب سَحَرةً في العسكرَيْن، وتختلفَ السهام بينهم، ويصيحَ الفريق الذي في عسكر عليٍّ: غَدَر طلحة والزبير. والفريقُ الذي في عسكر طلحةَ والزبير: غدر عليٌّ. فتمَّ لهم ذلك على ما دَبَّروه، وَنشِبَت الحرب، فكان كلُّ فريق دافعًا لمَكْرته عند نفسه، ومانعًا من الإشاطة[٣] بدمه. وهذا صوابٌ من الفريقين وطاعةٌ لله تعالى، إذ وقع القتال والامتناع منهما على هذه السبيل. وهذا هو الصحيح المشهور. والله أعلم.

---

(١) في النسخ الخطية عدا (ظ) فإنها غير واضحة فيه: رأوا، والمثبت من (م) وهو الموافق لما في أحكام القرآن لابن العربي والكلام منه.

(٢) في (م): البداءة.

(٣) الإشاطة: الإهلاك، وشاط دمُه وأشاط دَمه وبدمه: أذهبه، وأشاط فلان فلاناً إذا أهلكه. اللسان (شيط).

الخامسة: قوله تعالى: ﴿فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِۚ﴾ أمرٌ بالقتال. وهو فرضٌ على الكفاية؛ إذا قام به البعض سقط عن الباقين، ولذلك تخلَّف قوم من الصحابة ﷺ عن هذه المقامات، كسعد بن أبي وَقَّاص وعبدِ الله بنِ عمر[1] ومحمدِ ابن مسلمةَ وغيرِهم. وصوَّب ذلك عليٌّ بن أبي طالب لهم، واعتذر إليه كلٌّ واحد منهم بعذر قَبِله منه.

ويُروى أن معاويةَ ﷺ لمَّا أفضى إليه الأمر، عاتب سعدًا على ما فعل، وقال له: لم تكن ممن أصلح بين الفئتين حين اقتتلا، ولا ممن قاتل الفئة الباغية. فقال له سعد: ندمتُ على تركي قتالَ الفئةِ الباغية. فتبيَّن أنه ليس على الكلِّ دَرَكٌ[2] فيما فعل، وإنما كان تصرُّفاً بحكم الاجتهاد وإعمالاً بمقتضى الشرع. والله أعلم.

السادسة: قوله تعالى: ﴿فَإِن فَآءَتۡ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا بِٱلۡعَدۡلِ﴾ ومن العدل في صلحهم ألا يُطالَبوا بما جرى بينهم من دم ولا مال، فإنه تَلَفٌ على تأويل، وفي طلبهم [له] تنفيرٌ لهم عن الصلح واستشراءٌ[3] في البغي، وهذا أصل في المصلحة[4]. وقد قال لسان الأمة[5]: إن حكمة الله تعالى في حرب الصحابة التعريفُ منهم لأحكام قتال أهل التأويل، إذ كان أحكامُ قتال أهل الشرك قد عُرِفت على لسان الرسول ﷺ وفِعله[6].

السابعة: إذا خرجت على الإمام العدل خارجةٌ باغيةٌ ولا حجة لها، قاتلهم الإمام

---

(١) في النسخ عدا (ف): عمرو، والمثبت من (ف) وهو الموافق لما في أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧٠٧ والكلام منه.

(٢) الدَّرَك: التبعة. القاموس (درك).

(٣) أي: تفاقم: القاموس (شرى).

(٤) بعدها في (ظ): وأصلح في الجملة.

(٥) هو أبو بكر ابن الطيب الباقلاني، لقَّبه بذلك القاضي عياض في ترتيب المدارك ٤/ ٥٨٥، وسلفت ترجمته ١/ ٦٤.

(٦) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧٠٨ وما بين حاصرتين منه.

بالمسلمين كافَّة، أو بمن فيه كفاية، ويدعوهم قبل ذلك إلى الطاعة والدخول في الجماعة، فإنْ أبَوا من الرجوع والصلح قوتلوا. ولا يُقتل أسيرهم، ولا يُتبع مُدْبِرُهم، ولا يُذَفَّف[١] على جريحهم، ولا تُسْبَى ذراريهم ولا أموالُهم. وإذا قَتَل العادلُ الباغيَ، أو الباغي العادلَ وهو وليُّه، لم يتوارثا. ولا يرث قاتلٌ عمداً على حال. وقد قيل: إن العادلَ يَرِث الباغي، قياسًا على القصاص[٢].

الثامنة: وما استهلكه البغاة والخوارج[٣] من دم أو مال ثم تابوا، لم يؤاخَذوا به[٤]. وقال أبو حنيفة: يضمنون. وللشافعي قولان. وجْهُ قولِ أبي حنيفةَ أنه إتلاف بعُدْوان، فيلزم الضمان. والمعوَّل في ذلك عندنا أن الصحابة ﷺ في حروبهم[٥] لم يَتبعوا مُدْبِراً، ولا ذَفَّفُوا على جريح، ولا قتلوا أسيراً، ولا ضمنوا نفساً ولا مالاً، وهم القُدْوة. وقال ابن عمر: قال النبيُّ ﷺ: «يا عبدَ الله، أتدري كيف حكم الله فيمن بَغَى من هذه الأمة»؟ قال: الله ورسوله أعلم. فقال: «لا يُجهَز على جريحها، ولا يُقتل أسيرها، ولا يُطلب هاربها، ولا يُقسم فَيْئُها»[٦]. فأمَّا ما كان قائماً رُدَّ بعينه. هذا كلُّه فيمن خرج بتأويل يسوغ له.

وذكر الزَّمَخْشري في تفسيره[٧]: إن كانت الباغية من قلة العدد بحيث لا مَنَعة لها، ضَمِنَت بعد الفيئة ما جَنَت، وإن كانت كثيرة ذاتَ مَنَعة وشوكة، لم تَضمَن؛ إلا عند محمدِ بن الحسن رحمه الله، فإنه كان يُفتي بأنَّ الضمان يَلزمها إذا فاءت. وأمَّا قبل التَّجَمُّع والتَّجَنُّد، أو حين تتفرَّق عند وضع الحرب أوزارَها، فما جنته ضمنته عند

(١) أي: لا يُجَهز.
(٢) الكافي ١/ ٤٨٦.
(٣) في (ز) و(ظ): وما استهلك البغاة من الخوارج، وفي (ف): وما استهلك الخوارج أو البغاة.
(٤) الكافي ١/ ٤٨٦.
(٥) في أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧١٠ والكلام منه: خروجهم.
(٦) أخرجه البزار كما في كشف الأستار (١٨٤٩)، والحاكم ٢/ ١٥٥، والبيهقي ٨/ ١٨٢ وفيه كوثر بن حكيم تفرد به كما قاله البزار، وقال فيه ابن معين: ليس بشيء. وقال أحمد: أحاديثه بواطيل ليس بشيء. ميزان الاعتدال ٣/ ٤١٦.
(٧) ٣/ ٥٦٤، والكلام منه إلى آخر المسألة منه.

الجميع. فَمَحْمَلُ[١] الإصلاح بالعدل في قوله: ﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ﴾ على مذهب محمد واضحٌ منطبق على لفظ التنزيل. وعلى قول غيره وجْهُه أن يُحمل على كون الفئة الباغية قليلةَ العدد. والذي[٢] ذكروا أن الغرض إماتةُ الضغائن وسلُّ الأحقاد دون ضمان الجنايات، ليس بحُسن الطباق المأمور به من أعمال العدل ومراعاة القسط.

قال الزمخشري: فإن قلتَ: فلِمَ قُرِن بالإصلاح الثاني العدلُ دون الأوّل؟ قلتُ: لأن المراد بالاقتتال في أوّل الآية أن يقتتلا باغيتين أو راكبتي شبهة، وأيتُهما كانت فالذي يجب على المسلمين أن يأخذوا به في شأنهما إصلاحُ ذات البَيْن، وتسكينُ الدِّماء[٣] بإراءة الحقِّ والمواعظِ الشافية ونفي الشبهة، إلا إذا أصرَّتا فحينئذ تجب المقاتلة، وأمَّا الضمانُ فلا يتَّجه. وليس كذلك إذا بغت إحداهما؛ فإن الضمان متَّجِهٌ على الوجهين المذكورين.

التاسعة: ولو تغلَّبوا على بلد فأخذوا الصدقاتِ وأقاموا الحدود وحكموا فيهم بالأحكام، لم تُثَنَّ عليهم الصدقات ولا الحدود، ولا يُنقض من أحكامهم إلا ما كان خلافاً للكتاب أو السنة أو الإجماع، كما تنقض [من] أحكام أهل العدل والسنة[٤]. قاله مُطَرِّف وابن الماجِشون. وقال ابن القاسم: لا تجوز بحال. ورُويَ عن أصْبَغ أنه جائز. ورُويَ عنه أيضاً أنه لا يجوز؛ كقول ابن القاسم. وبه قال أبو حنيفة؛ لأنه عمل بغير حقٍّ ممن لا تجوز تَوْليته، فلم يجز كما لو لم يكونوا بغاة[٥]. والعمدةُ لنا ما قدَّمناه من أن الصحابة ﷺ لمَّا انجلت الفتنة وارتفع الخلاف بالهدنة والصلح، لم يَعرِضوا لأحد منهم في حكم. قال ابن العربيّ[٦]: الذي عندي أن ذلك لا يصلح؛

(١) في (ز) و(م): فحمل.

(٢) في الكشاف: والذين.

(٣) في (م): الدهماء.

(٤) الكافي ١/٤٨٦، وما بين حاصرتين منه.

(٥) وقع في أحكام القرآن لابن العربي ٤/١٧١٠ والكلام منه: فلم يجز كما لو كانوا بغاة. وجاء في نسخة منه موافقاً لما ذكره المصنف.

(٦) في أحكام القرآن ٤/١٧١٠.

لأن الفتنة لمَّا انجلت كان الإمام هو الباغي، ولم يكن هناك مَن يعترضه. والله أعلم.

العاشرة: لا يجوز أن يُنسب إلى أحد من الصحابة خطأٌ مقطوعٌ به، إذ كانوا كلُّهم اجتهدوا فيما فعلوه، وأرادوا اللهَ عزَّ وجل، وهم كلُّهم لنا أئمةٌ، وقد تعبَّدَنا بالكفِّ عما شجر بينهم، وألا نذكرَهم إلَّا بأحسن الذِّكر؛ لحرمة الصحبة، ولنهي النبيِّ ﷺ عن سَبِّهم[١]، وأن الله غفر لهم، وأخبرنا بالرضا عنهم. هذا مع ما قد ورد من الأخبار من طرق مختلفةٍ عن النبيِّ ﷺ أنَّ طلحةَ شهيدٌ يمشي على وجه الأرض[٢]، فلو كان ما خرج إليه من الحرب عصياناً، لم يكن بالقتل فيه شهيداً. وكذلك لو كان ما خرج إليه خطأً في التأويل وتقصيراً في الواجب عليه؛ لأن الشهادة لا تكون إلا بقتلٍ في طاعة، فوجب حملُ أمرهم على ما بيَّنَّاه. وممَّا يدلُّ على ذلك ما قد صحَّ وانتشر من إخبار عليٍّ بأنَّ قاتل الزبير في النار. وقوله: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «بشِّر قاتل ابن صفية بالنار»[٣]. وإذا كان كذلك فقد ثبت أن طلحةَ والزبيرَ غيرُ عاصيين ولا آثمين بالقتال؛ لأن ذلك لو كان كذلك، لم يقل النبيُّ ﷺ في طلحةَ: «شهيد». ولم

---

(١) ورد النهي عن سبهم في أحاديث كثيرة، منها الحديث الذي أخرجه البخاري (٣٦٧٣)، ومسلم (٢٥٤١) عن أبي سعيد الخدري ﷺ أن النبي ﷺ قال: «لا تسبوا أصحابي، فلو أن أحدكم أنفق مثل أُحد ذهباً لم يدرك مُدَّ أحدهم ولا نصيفه» وسلف ٥/ ٢٦١، وص٣٤٨ من هذا الجزء، وينظر في الموضع الثاني الآيات والأحاديث التي ذكرها المصنف والتي تضمنت الثناء عليهم، والوعيد الشديد لمن سبَّهم وقلَّل من شأنهم.

(٢) أخرجه الترمذي (٣٧٣٩)، وابن ماجه (١٢٥) من حديث جابر ﷺ، قال الترمذي: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث الصَّلْت، وقد تكلم بعض أهل العلم في الصلت بن دينار وفي صالح بن موسى من قبل حفظهما.

(٣) أخرجه الخطيب البغدادي في الفصل للوصل المدرج في النقل ١/ ١٩٠ من طريق زيد بن أخزم عن علي مرفوعاً، وقال: جعل هذا الراوي وأظنه زيد بن أخزم قوله: بشِّر قاتل ابن صفية بالنار، من كلام النبي ﷺ وذلك وهم، إنما هو من قول علي بن أبي طالب، روى ذلك أبو سلمة التبوذكي... وكذلك رواه زائدة بن قدامة وشيبان... اهـ. وأخرجه موقوفاً على علي ﷺ أحمد (٦٨١)، وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (١٩٦)، والطبراني في الكبير (٢٤٣). لكن الحافظ ابن حجر ذكر في الفتح ٦/ ٢٢٩ أن علياً رفعه إلى النبي ﷺ كما رواه أحمد وغيره من طريق زر بن حبيش عن علي بإسناد صحيح. اهـ. ولم نقف عليه مرفوعاً عند أحمد.

يخبر أن قاتل الزبير في النار. وكذلك مَن قعد غيرُ مخطِئ في التأويل. بل صوابٌ أراهم الله الاجتهاد. وإذا كان كذلك لم يُوجِب ذلك لعنَهم والبراءةَ منهم وتفسيقَهم، وإبطالَ فضائلهم وجهادهم، وعظيمَ غنائهم في الدِّين، ﷺ.

وقد سُئل بعضُهم عن الدماء التي أُريقت فيما بينهم فقال: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ١٣٤]. وسُئِل بعضهم عنها أيضاً فقال: تلك دماءٌ قد طَهَّر الله منها يدي؛ فلا أَخْضِب بها لساني. يعني في التحرز من الوقوع في خطأ، والحكم على بعضهم بما لا يكون مصيباً فيه.

قال ابن فُورَك: ومن أصحابنا مَن قال: إن سبيل ما جرى بين الصحابة من المنازعات كسبيل ما جرى بين إخوة يوسفَ مع يوسف، ثم إنهم لم يخرجوا بذلك عن حدِّ الولاية والنبوَّة؛ فكذلك الأمرُ فيما جرى بين الصحابة.

وقال المحاسبي: فأمَّا الدِّماء فقد أشكل علينا القولُ فيها باختلافهم. وقد سُئِل الحسن البصريُّ عن قتالهم فقال: قتالٌ شهده أصحاب محمد ﷺ وغِبْنا، وعلِموا وجهلنا، واجتمعوا فاتبعنا، واختلفوا فوقفنا. قال المحاسبي: فنحن نقول كما قال الحسن، ونعلم أن القوم كانوا أعلمَ بما دخلوا فيه منا، ونتبعُ ما اجتمعوا عليه، ونقفُ عند ما اختلفوا فيه، ولا نبتدعُ رأياً منا، ونعلمُ أنهم اجتهدوا وأرادوا الله عزَّ وجلَّ، إذ كانوا غير متَّهمين في الدِّين، ونسأل الله التوفيق.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾﴾

فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ أي: في الدِّين والحُرمة لا في النسب؛ ولهذا قيل: أُخوَةُ الدِّين أثبتُ من أخوَّة النسب، فإن أُخوَّة النسب تنقطعُ بمخالفة الدين، وأُخوَّة الدِّين لا تنقطع بمخالفة النسب. وفي الصحيحين عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تحاسدوا، ولا تباغضوا، ولا تَجَسَّسُوا، ولا

تَحَسَّسُوا، ولا تناجَشُوا، وكونوا عبادَ الله إخوانًا»[(١)]. وفي رواية: «لا تَحَاسدوا، ولا تَناجَشُوا، ولا تَباغَضُوا، ولا تَدَابروا، ولا يبعْ بعضكم على بَيْع بعض، وكونوا عباد الله إخوانًا. المسلِم أخو المسلم؛ لا يَظْلِمه ولا يَخْذُلْه ولا يَحْقِره. التقوى ها هنا ويشير إلى صدره ثلاثَ مرات «بَحَسْبِ امرئ من الشِّر أن يَحْقِر أخاه المسلم. كلُّ المسلِم على المسلم حرامٌ دَمُه ومالُه وعِرْضُه» لفظ مسلم[(٢)].

وفي غير الصحيحين عن أبي هريرة؛ قال النبيُّ ﷺ: «المسلم أخو المسلم، لا يظلمه، ولا يَعِيبه، ولا يَخْذله، ولا يتطاول عليه في البنيان فيستر عليه الريح إلا بإذنه، ولا يؤذيه بقُتار قِدْره إلا أن يَغرِف له غَرْفة، ولا يشتري لبنيه الفاكهةَ فيخرجون بها إلى صبيان جاره ولا يطعمونهم منها». ثم قال النبيُّ ﷺ: «احفظوا، ولا يحفظ منكم إلا قليل»[(٣)].

الثانية: قوله تعالى: ﴿فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَ أَخَوَيۡكُمۡۚ﴾ أي: بين كلِّ مسلمَين تخاصما[(٤)]. وقيل: بين الأوس والخزرج، على ما تقدَّم[(٥)]. وقال أبو عليٍّ: أراد بالأخَوَيْن الطائفتين؛ لأن لفظ التثنية يَرِد، والمراد به الكثرة؛ كقوله تعالى: ﴿بَلۡ يَدَاهُ مَبۡسُوطَتَانِ﴾[(٦)] [المائدة: ٦٤]. وقال أبو عبيدة: أي: أصلحوا بين كلِّ أخَوَين، فهو آتٍ

---

(١) صحيح البخاري (٦٠٦٦)، وصحيح مسلم واللفظ له (٢٥٦٣): (٣٠)، وهو عند أحمد أيضاً (٧٨٥٨)، وسيرد معنى: ولا تحسسوا، عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجَسَّسُواْ﴾.

(٢) صحيح مسلم (٢٥٦٤): (٣٢)، وهو عند أحمد أيضاً (٧٧٢٧). والنَّجش: هو أن يمدح السلعة لينفقها ويروّجها، أو يزيد في ثمنها وهو لا يريد شراءها ليقع غيره فيها. النهاية (نجش). وسلف قطعة منه ١٤/ ٣٨٩.

(٣) أخرجه الثعلبي كما في الكافي الشاف في تخريج أحاديث الكشاف ص١٥٦ عن أبي هريرة ﷺ. قال ابن حجر: إسناده ضعيف .اهـ. والقُتار: هو ريح القِدر والشِّواء ونحوهما. النهاية (قتر).

(٤) الوسيط ٤/ ١٥٤.

(٥) في المسألة الأولى من الآية السابقة.

(٦) الحجة لأبي علي ٦/ ٢٠٩، وقال: قوله: ﴿بَلۡ يَدَاهُ مَبۡسُوطَتَانِ﴾ يريد بل نعمتاه، وليس هذه النعم بنعمتين اثنتين، إنما يراد نعم الدنيا ونعم الآخرة.

على الجميع. وقرأ ابن سيرين ونصرُ بن عاصم وأبو العالية والجَحدريُّ ويعقوب: «بَيْنَ إِخْوَتِكُمْ» بالتاء على الجمع[(١)]. وقرأ الحسن: «إِخْوَانِكُم»[(٢)]. الباقون: «أَخَوَيْكُمْ» بالياء على التثنية.

الثالثة: في هذه الآية والتي قبلها دليلٌ على أن البغيَ لا يزيل اسم الإيمان؛ لأن الله تعالى سماهم إخوةً مؤمنين مع كونهم باغين. قال الحارث الأعور: سُئِل عليُّ بن أبي طالب ﷺ ـ وهو القدوة ـ عن قتال أهل البغي من أهل الجمل وصِفِّين: أمشركون هم؟ قال: لا، من الشِّرك فرُّوا. فقيل له[(٣)]: أمنافقون؟ قال: لا، لأن المنافقين لا يذكرون الله إلا قليلاً. قيل له: فما حالهم؟ قال: إخوانُنا بَغَوْا علينا[(٤)].

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَٰبِ ۖ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ﴾ **فيه أربعُ مسائل**:

الأولى: قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾ قيل: عند الله. وقيل: «خَيْرًا مِنْهُمْ» أي: معتقَدًا وأسلمَ باطناً[(٥)]. والسُّخْرِية: الاستهزاء. سَخِرت منه أسْخَر سَخَرًا؛ بالتحريك، ومَسْخَرًا وسُخْرًا؛ بالضم. وحكى أبو زيد: سَخِرت به[(٦)]، وهو أردأ اللغتين. وقال الأخفش: سَخِرْتُ منه وسَخِرت به،

---

(١) قراءة يعقوب - وهو من العشرة - في النشر ٢/ ٣٧٦، وذكرها عن أبي العالية ابن الجوزي في زاد المسير ٧/ ٤٦٤.

(٢) المحتسب ٢/ ٢٧٨، وهي قراءة شاذة.

(٣) لفظة: له، ليست في (م).

(٤) تفسير البغوي ٤/ ٢١٣، وأخرجه ابن أبي شيبة ١٥/ ٢٥٦، والبيهقي ٨/ ١٧٣ عن أبي البَخْتري.

(٥) النكت والعيون ٥/ ٣٣٢.

(٦) بعدها في (ظ): وضحكت به وهزئت به.

وضَحِكت منه وضَحكت به، وهَزِئت منه وهزِئت به، كلٌّ ذلك يقال[١]. والاسم السُّخْرِية والسُّخْريّ والسِّخريّ[٢]؛ وقُرِئ بهما قوله تعالى: ﴿لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ [الزخرف: ٣٢] وقد تقدَّم[٣]. وفلان سُخْرَةٌ: يُتَسَخَّر في العمل. يقال: خادمٌ سُخْرة، ورجل سُخْرةٌ أيضًا: يُسخر منه. وسُخَرة ـ بفتح الخاء ـ يَسْخَر من الناس.

الثانية: واختلف في سبب نزولها، فقال ابن عباس: نزلت في ثابت بنِ قيس بن شماس كان في أذنه وَقْر، فإذا سبقوه إلى مجلس النبيِّ ﷺ، أوسعوا له إذا أتى حتى يجلس إلى جنبه ليسمع ما يقول، فأقبل ذات يوم وقد فاتته من صلاة الفجر ركعةٌ مع النبيِّ ﷺ، فلمَّا انصرف النبيُّ ﷺ أخذ أصحابه مجالسَهم منه؛ فَرَبَض كلُّ رجل منهم بمجلسه[٤]، وعَضُّوا فيه[٥]، فلا يكاد يوسِّع أحد لأحد حتى يَظَلَّ الرجل لا يجد مجلسًا فيظل قائمًا. فلمَّا انصرف ثابت من الصلاة، تخطَّى رقاب الناس ويقول: تفسَّحوا تفسَّحوا، ففسحوا له حتى انتهى إلى النبيِّ ﷺ وبينه وبينه رجلٌ فقال له: تفسَّح. فقال له الرجل: قد وجدتَ مجلساً فاجلس. فجلس ثابت من خلفه مُغْضَبًا، ثم قال: مَن هذا؟ قال: فلان، فقال ثابت: ابن فلانة! يعيِّره بها، يعني أُمًّا له في الجاهلية، فاستحيا الرجل، فنزلت[٦].

وقال الضحَّاك: نزلت في وفد بني تميم الذي تقدم ذكرهم في أوّل السورة[٧] استهزؤوا بفقراء الصحابة، مثل عمَّار وخبَّاب وابن فُهيرة وبلال وصُهيب وسلمان

---

(١) لفظة: ذلك، من (ظ) والصحاح (سخر)، وما سيرد منه.

(٢) في (ظ) و(م): والاسم السخرية، والسخري.

(٣) ص٣٧ من هذا الجزء.

(٤) أي: لصق به وأقام ملازماً له. ينظر اللسان (ربض).

(٥) أي: لزم كل منهم مجلسه.

(٦) تفسير البغوي ٤/ ٢١٤، وأورده الواحدي في أسباب النزول ص٤١٥ مختصراً دون نسبة. قال الحافظ ابن حجر في الكافي الشافي تخريج أحاديث الكشاف ص١٥٧: ذكره الثعلبي ومن تبعه عن ابن عباس بغير سند.

(٧) في المسألة الأولى من كل من الآيتين الأولى والثانية.

وسالم مَوْلى أبي حُذيفة وغيرِهم؛ لِمَا رأَوا من رَثاثة حالهم؛ فنزلت في الذين آمنوا منهم[١]. وقال مجاهد: هو سُخرية الغنيِّ من الفقير[٢]. وقال ابن زيد: لا يسخر مَن ستر الله عليه ذنوبه ممن كشفه الله، فلعلَّ إظهارَ ذنوبه في الدنيا خيرٌ له في الآخرة[٣]. وقيل: نزلت في عكرمةَ بن أبي جهل حين قدِم المدينة مسلماً، وكان المسلمون إذا رأَوه قالوا: ابن فرعون هذه الأمة. فشكا ذلك إلى رسول الله ﷺ، فنزلت[٤].

وبالجملة؛ فينبغي ألا يَجترئ أحد على الاستهزاء بمن يقتحمه بعينه إذا رآه رَثَّ الحال، أو ذا عاهة في بدنه، أو غير لَبِق في محادثته، فلعله أخلصُ ضميراً وأنقى[٥] قلباً ممن هو على ضدِّ صفته؛ فيظلمَ نفسه بتحقير من وقَّره الله، والاستهزاءِ بمن عظَّمه الله. ولقد بلغ بالسَّلف إفراط توقِّيهم وتصوُّنهم من ذلك أن قال عمرو بن شُرَحْبِيل: لو رأيتُ رجلاً يُرضع عنزاً، فضحكتُ منه، لخشيتُ أن أصنع مثل الذي صنع[٦].

وعن عبد الله بن مسعود: البلاء مُوَكَّل بالقول؛ لو سخرتُ من كلب، لخشيتُ أن أُحوَّل كلباً[٧].

و«قوم» في اللغة للمذكَّرين خاصة. قال زهير:

وما أدري وسوف إخالُ أدري   أقومٌ آلُ حِصن أم نساءُ[٨]

وسُمُّوا قومًا لأنهم يقومون مع داعيهم في الشدائد، وقيل: إنه جمع قائم، ثم

(١) يعني من بني تميم، والكلام في تفسير البغوي ٤/ ٢١٤.
(٢) تفسير مجاهد ٢/ ٦٠٦ - ٦٠٧ بنحوه.
(٣) أخرجه الطبري ٢١/ ٣٦٥ بنحوه.
(٤) المحرر الوجيز ٥/ ١٤٩.
(٥) في الكشاف ٣/ ٥٦٥ - ٥٦٦ والكلام منه: أتقى.
(٦) قال ابن حجر في الكافي الشاف في تخريج أحاديث الكشاف ص١٥٧: لم أره عنه، وفي ابن أبي شيبة [٨/ ٥٧٧] عن أبي موسى من قوله نحوه.
(٧) أخرجه ابن أبي شيبة ٨/ ٥٧٨.
(٨) ديوان زهير ص١٣٦، وسلف ٢/ ١٠٩.

استُعمِل في كلِّ جماعة وإن لم يكونوا قائمين. وقد يدخل في القوم النساء مجازًا، وقد مضى في «البقرة» بيانه(١).

الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ﴾ أفرد النساء بالذكر؛ لأن السُّخرية منهنَّ أكثرُ. وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ﴾ [نوح: ١] فشمل الجميع.

قال المفسرون: نزلت في امرأتين من أزواج النبيِّ ﷺ سَخِرتا من أمِّ سلمةَ، وذلك أنها ربطت خَصْرَيْها بسَبِيبَة - وهو ثوبٌ أبيضُ، ومثلُها السِّبُّ(٢) - وسدلت طرفيها خلفها، فكانت تجرُّها، فقالت عائشة لحفصةَ رضي الله عنهما: انظري [إلى] ما تجرُّ خلفها؛ كأنه لسان كلب، فهذه كان سخريتهما(٣).

وقال أنس وابن زيد: نزلت في نساء النبيِّ ﷺ، عَيَّرن أمَّ سلمةَ بالقِصَر(٤). وقيل: نزلت في عائشةَ، أشارت بيدها إلى أم سَلمة، يا نبيَّ الله، إنها لقصيرة(٥).

وقال عكرمة عن ابن عباس: إن صفيةَ بنتَ حُيَيٍّ بن أخْطب أتت رسولَ الله ﷺ فقالت: يا رسول الله، إن النساء يُعَيِّرْنَني، ويقلن(٦): يا يهوديةُ بنتَ يهوديَّين! فقال رسول الله ﷺ: «هَلَّا قلت: إن أبي هارون، وإن عمي موسى، وإن زوجي محمد»(٧). فأنزل الله هذه الآية.

---

(١) ٢/١٠٨ - ١٠٩.

(٢) وقع في هامش (ق): السِّبّ: الخمار والعمامة، وقد تقدم.

(٣) أسباب النزول للواحدي ص٤١٦، وما بين حاصرتين منه.

(٤) أورده عن أنس الواحدي في أسباب النزول ص٤١٦، والبغوي في تفسيره ٤/ ٢١٤، والزمخشري في الكشاف ٣/ ٥٦٦.

(٥) ينظر تفسير أبي الليث ٣/ ٢٦٤، وزاد المسير ٧/ ٤٦٦.

(٦) بعدها في (م): لي.

(٧) أسباب النزول ص٤١٦، والكشاف ٣/ ٥٦٦، قال ابن حجر في الكافي الشاف في تخريج أحاديث الكشاف ص١٥٧: ذكره الثعلبي عن عكرمة عن ابن عباس بغير إسناد. اهـ. وأخرجه الترمذي (٣٨٩٢) عن صفية بنت حيي بنحوه، قال الترمذي: هذا حديث غريب لا نعرفه من حديث صفية إلا من حديث هاشم الكوفي، وليس إسناده بذاك القوي.

الرابعة: في صحيح الترمذي عن عائشةَ قالت: حَكَيت للنبيِّ ﷺ رجلاً، فقال: «ما يسرُّني أني حَكَيت رجلاً وأنَّ لي كذا وكذا». قالت فقلت: يا رسول الله، إنَّ صفية امرأة؛ وقالت بيدها هكذا، يعني أنها قصيرة. فقال: «لقد مزجتِ بكلمةٍ[١] لو مُزِج بها البحر لمُزِج»[٢].

وفي البخاريِّ[٣] عن عبد الله بن زَمْعة قال: نهى النبيُّ ﷺ أن يضحك الرجل ممَّا يخرج من الأنفس. وقال: «لِمَ يضربُ أحدكم امرأته ضَرْبَ الفَحْل، ثم لعله يعانقها».

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله لا ينظر إلى صُوَركم وأموالكم، ولكن ينظرُ إلى قلوبكم وأعمالكم»[٤]. وهذا حديث عظيمٌ يترتب عليه ألَّا يقطع بمغيب[٥] أحد لِمَا يرى عليه من صور أعمال الطاعة أو المخالفة، فلعلَّ مَن يحافظ على الأعمال الظاهرة يعلم الله من قلبه وَصْفًا مذموماً لا تصحُّ معه تلك الأعمال، ولعلَّ مَن رأينا عليه تفريطاً أو معصيةً يعلم الله من قلبه وصفًا محمودًا يغفر له بسببه. فالأعمالُ أماراتٌ ظنيةٌ، لا أدلةٌ قطعية. ويترتَّبُ عليها عدمُ الغُلُوِّ في تعظيم مَن رأينا عليه أفعالاً صالحة، وعدمُ الاحتقار لمسلمٍ رأينا عليه أفعالاً سيئة. بل تُحتقر وتُذمُّ تلك الحالةُ السيئة، لا تلك الذاتُ المسيئة. فتدبَّر هذا، فإنه نظرٌ دقيق، وبالله التوفيق.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ **فيه ثلاث مسائل**:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ اللَّمْزُ: العَيْب، وقد مضى في

(١) في (ظ): لقد قلت كلمة.

(٢) سنن الترمذي (٢٥٠٢) وهو عند أحمد (٢٥٥٦٠)، وأبي داود (٤٨٧٥)، وقوله: وقالت بيدها، أي: أشارت بها. وقوله: لقد مزجت بكلمة، أي: مزجت أعمالك بكلمة. تحفة الأحوذي ٧/ ٢٠٩.

(٣) برقم (٦٠٤٢).

(٤) صحيح مسلم (٢٥٦٤): (٣٤)، وهو عند أحمد (٧٨٢٧).

(٥) في (خ) و(م): بعيب، وفي (ظ) و(ق): بمعيب، والمثبت من (خ) وهو الموافق لما في المفهم ٦/ ٥٣٩ والكلام منه.

«براءة»[١] عند قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَـٰتِ﴾ [آية:٥٨]. وقال الطبري: اللَّمْزُ باليد والعين واللِّسان والإشارة. والهَمْزُ لا يكون إلا باللِّسان.

وهذه الآية مثلُ قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ [النساء:٢٩] أي: لا يقتل بعضكم بعضًا؛ لأن المؤمنين كنفس واحدة، فكأنه بقتل أخيه قاتلٌ نفسَه. وكقوله تعالى: ﴿فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ [النور:٦١] يعني يسلِّم بعضكم على بعض[٢]. والمعنى: لا يَعِبْ بعضكم بعضًا.

وقال ابن عباس ومجاهد وقتادة وسعيد بن جُبير: لا يطعُن بعضكم على بعض[٣]. وقال الضحاك: لا يَلْعَن بعضكم بعضًا[٤]. وقُرِئ: «ولا تَلْمُزُوا» بالضم[٥].

وفي قوله: «أنفسَكُم» تنبيهٌ على أن العاقل لا يعيب نفسه، فلا ينبغي أن يعيب غيرَه لأنه كنفسه؛ قال ﷺ: «المؤمنون كجسد[٦] واحد، إن اشتكى عضو منه، تداعى له سائر الجسد بالسَّهر والحُمَّى»[٧].

وقال بكر بن عبد الله المُزَني: إذا أردت أن تنظر العيوب جَمَّةً فتأمل عَيَّابًا؛ فإنه إنما يَعيب الناس بفضل ما فيه من العيب. وقال ﷺ: «يُبصِر أحدكم القَذاة في عين أخيه ويدع الجِذْع في عينه»[٨]. وقيل: مِن سعادة المرء أن يشتغل بعيوب نفسه عن

(١) ١٠/٢٤٣.

(٢) أحكام القرآن للكيا الطبري ٤/ ٣٨٣.

(٣) أخرجه عن ابن عباس ومجاهد وقتادة الطبري ٢١/ ٣٦٧.

(٤) النكت والعيون ٥/ ٣٣٢.

(٥) قرأ بها يعقوب - وهو من العشرة - كما في النشر ٢/ ٢٧٩ - ٢٨٠.

(٦) في (ظ) و(ف) و(ق): كرجل.

(٧) أخرجه البخاري (٦٠١١)، ومسلم (٢٥٨٦) من حديث النعمان بن بشير، وسلف ١٠/ ٣٣٣.

(٨) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (٥٩٢)، وابن حبان (٥٧٦١) من حديث أبي هريرة ﷺ، والقَذاة: ما يقع في العين والماء والشراب من تراب أو تِبن أو وسخ أو غير ذلك. وهذا الحديث ضربه النبي ﷺ مثلاً لمن يرى الصغير من عيوب الناس ويعيِّرهم به، وفيه من العيوب ما نسبته إليه كنسبة الجِذْع إلى القَذاة. النهاية (جذع).

عيوب غيره، قال الشاعر:

المرءُ إن كان عاقلاً ورِعًا أشغله عن عيوبه وَرَعُهْ
كما السقيمُ المريضُ يَشغلهُ عن وجع الناس كلِّهم وَجَعُهْ[1]

وقال آخر:

لا تكشفنَّ مساوي الناس ما ستروا فيهتكَ اللهُ سترًا عن[2] مساويكا
واذكر محاسنَ ما فيهم إذا ذُكروا ولا تَعِب أحداً منهم بما فيكا[3]

الثانية: قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَٰبِ﴾ النَّبَزُ ـ بالتحريك ـ اللَّقب، والجمع الأنباز. والنَّبْزُ ـ بالتسكين ـ المصدر، تقول: نَبَزَه يَنْبِزُهُ نَبْزًا، أي: لَقبَّه. وفلان يُنَبِّز بالصبيان، أي: يلقِّبهم، شُدِّد للكثرة. ويقال: النَّبَزُ والنَّزَب لَقَبُ السوء. وتنابزوا بالألقاب، أي: لَقَّب بعضُهم بعضاً[4].

وفي الترمذيِّ عن أبي جَبيرة بن الضحَّاك قال: كان الرجل منا يكون له الاسمين[5] والثلاثة، فيُدعَى ببعضها، فعسى أن يَكره، فنزلت هذه الآية: ﴿وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَٰبِ﴾. قال: هذا حديث حسن. وأبو جَبيرة هذا هو أخو ثابت بنِ الضحاك بن

(١) أوردهما ابن عبد البر في بهجة المجالس ١/ ١٦٢ ضمن أربعة أبيات، ونسبهما لبشر بن الحارث، وجاء فيه الشطر الأول من البيت الأول: وكل من كان مسلماً ورعاً. وفيه أيضاً: عيوبهم، بدل: عيوبه.

(٢) في (ظ): من.

(٣) أوردهما ابن عبد البر في بهجة المجالس ٣/ ٢٥٦ ونسبهما لمحمود الوراق. وأوردهما دون نسبة ابن قتيبة في عيون الأخبار ٢/ ١٨، وابن عبد ربه في العقد الفريد ٢/ ٣٣٥، والماوردي في أدب الدنيا والدين ص٢٤٢، ووقع في بهجة المجالس وعيون الأخبار وأدب الدنيا والدين: لا تلتمس من، بدل: لا تكشفن. وفي العقد الفريد: لا تهتكن، بدل: لا تكشفن.

(٤) الصحاح (نبز) دون قوله: ويقال: النبز والنزب لقب السوء، وقد ذكره الزمخشري في الكشاف ٣/ ٥٦٦.

(٥) كذا في النسخ، وفي نسخة المباركفوري ٩/ ١٥٣: الاسمان.

خليفة الأنصاري. وأبو زيد سعيد بنُ الربيع صاحبُ الهَرَوي ثقة[١].

وفي مصنَّف أبي داود عنه قال: فينا نزلت هذه الآية، في بني سلمةَ: ﴿وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَٰبِ ۖ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ ۚ﴾ قال: قَدِمَ رسول الله ﷺ وليس منا رجلٌ إلا وله اسمان أو ثلاثة، فجعل رسول الله ﷺ يقول: يا فلان، فيقولون: مَهْ يا رسول الله، إنه يغضب من هذا الاسم، فنزلت هذه الآية: ﴿وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَٰبِ ۖ﴾[٢]. فهذا قول.

وقولٌ ثانٍ: قال الحسن ومجاهد: كان الرجل يُعَيَّر بعد إسلامه بكفره: يا يهوديُّ، يا نصرانيُّ، فنزلت[٣]. ورُويَ عن قَتادةَ وأبي العالية وعكرمة.

وقال قتادة: هو قول الرجل للرجل: يا فاسقُ، يا منافق. وقاله مجاهد[٤] والحسن أيضاً.

﴿بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ ۚ﴾ أي: بئس أن يُسَمَّى الرجلُ كافرًا أو زانياً بعد إسلامه وتوبته. قاله ابن زيد[٥]. وقيل: المعنى أن مَن لَقَّب أخاه أو سخِر منه، فهو فاسق. وفي الصحيح: «من قال لأخيه: يا كافر، فقد باء بها أحدُهما إن كان كما قال، وإلا رجعت عليه»[٦]. فمن فعل ما نهى الله عنه من السُّخرية والهَمْز والنَّبز، فذلك فُسوق وذلك لا يجوز.

وقد رُويَ أن أبا ذرٍّ ﷺ كان عند النبيِّ ﷺ، فنازعه رجل، فقال له أبو ذَرٍّ: يا ابن اليهودية! فقال النبيُّ ﷺ: «ما ترى ها هنا من[٧] أحمرَ وأسودَ، ما أنت بأفضلَ منه».

---

(١) سنن الترمذي (٣٢٦٨)، ووقع في مطبوعه: هذا حديث حسن صحيح، بزيادة: صحيح، ولم يذكر هذه الزيادة المزي في التحفة ٩/ ١٣٨. وأبو جَبيرة صحابي ذكره ابن حجر في الإصابة ١١/ ٥٩ في القسم الأول، وقال: قيل: ليس له صحبة.

(٢) سنن أبي داود (٤٩٦٢)، وهو عند أحمد (٨٢٨٨)، وسنن ابن ماجه (٣٧٤١).

(٣) أخرجه عن الحسن الطبري ٢١/ ٣٧١ بنحوه.

(٤) أخرجه عن قتادة ومجاهد الطبري ٢١/ ٣٧٠ بنحوه.

(٥) ينظر النكت والعيون ٥/ ٣٣٣، وزاد المسير ٧/ ٤٦٨.

(٦) أخرجه البخاري (٦١٠٤)، ومسلم (٦٠)، وأحمد (٥٠٣٥) عن ابن عمر رضي الله عنهما.

(٧) لفظة: من، ليست في (م).

يعني بالتقوى، ونزلت: ﴿وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ﴾[(١)].

وقال ابن عباس: التنابز بالألقاب: أن يكون الرجل قد عمل السيئات ثم تاب، فنهى الله أن يُعَيَّر بما سلف[(٢)]. يدلُّ عليه ما رُوِيَ أن النبيَّ ﷺ قال: «مَن عَيَّر مؤمنًا بذنب تاب منه، كان حقًّا على الله أن يَبْتَلِيَهُ به ويَفْضَحَه فيه في الدنيا والآخرة»[(٣)].

الثالثة: وقع من ذلك مستثنًى مَن غلب عليه الاستعمال، كالأعرج والأحدب، ولم يكن له فيه كسب، يَجِد في نفسه منه عليه، فجوَّزته الأمة، واتفق على قوله أهل المِلَّة[(٤)]. قال ابن العربيّ[(٥)]: وقد ورد ـ لَعَمْرُ الله ـ من ذلك في كتبهم ما لا أرضاه [كقولهم] في صالح: جَزَرة؛ لأنه صَحَّف «خرزة»[(٦)] فلُقِّب بها[(٧)]. وكذلك قولُهم في محمد بن سليمان الحضرمي: مُطَيَّن؛ لأنه وقع في طين، ونحو ذلك ممَّا غلب على المتأخرين، ولا أُراه سائغًا في الدِّين. وقد كان موسى بن عليٍّ بن رَباح المصريُّ

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧١١، وأخرجه أحمد (٢١٤٠٧) عن أبي ذر أن النبي ﷺ قال له: «انظر، فإنك ليس بخير من أحمر ولا أسود إلا أن تفضله بتقوى». وأورد الغزالي في الإحياء ٣/ ١٧٥ أن أبا ذر قال لرجل: يا ابن الحمراء ـ في خصومة بينهما ـ فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: «يا أبا ذر ارفع رأسك فانظر ثم اعلم أنك لست بأفضل من أحمر فيها ولا أسود إلا أن تفضله بعمل». قال العراقي في المغني عن حمل الأسفار في الأسفار: أخرجه ابن أبي الدنيا في العفو وذم الغضب بإسناد صحيح.

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٢١٥، وأخرجه الطبري ٢١/ ٣٧١.

(٣) أخرجه الترمذي (٢٥٠٥) عن معاذ بن جبل مرفوعاً بلفظ: من عيَّر أخاه بذنب، لم يمت حتى يعمله. قال أحمد بن منيع (هو شيخ الترمذي): من ذنب قد تاب منه. قال الترمذي: هذا حديث غريب وليس إسناده بمتصل، وخالد بن معدان لم يدرك معاذ بن جبل رضي الله عنه. اهـ. قال ابن الجوزي في الموضوعات ٢/ ٢٧٥: هذا حديث لا يصح عن رسول الله ﷺ والمتهم به محمد بن الحسن. قال أحمد بن حنبل: ما أراه يساوي شيئاً، وقال يحيى: كان كذاباً، وقال النسائي: متروك الحديث، وقال الدارقطني: لا شيء.

(٤) في (ظ) و(ف) و(ق): اللغة، والمثبت من (م) وهو الموافق لما في أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧١١ والكلام منه.

(٥) في أحكام القرآن ٤/ ١٧١١ - ١٧١٢ وما سيرد بين حاصرتين منه.

(٦) في أحكام القرآن: زجره، بدل: خرزة، وهو تحريف.

(٧) تاريخ بغداد ٩/ ٣٢٢ - ٣٢٣.

يقول: لا أجعل أحدًا صغَّر اسم أبي [في حِلٍّ][١]، وكان الغالبُ على اسمه التصغير بضمِ العين. والذي يضبط هذا كلَّه: أنَّ كلَّ ما يكرهه الإنسان إذا نُودي به، فلا يجوز لأجل الأذِيَّة. والله أعلم.

قلت: وعلى هذا المعنى ترجم البخاريُّ رحمه الله في كتاب الأدب من الجامع الصحيح في «باب ما يجوز من ذكر الناس نحو قولهم: الطويل والقصير لا يُراد به شَيْن الرجل» قال: وقال النبيُّ ﷺ: «ما يقول ذو اليَدَيْن»[٢].

قال أبو عبد الله بن خُوَيْزِمَنْدَاد: تضمنت الآية المنعَ من تلقيب الإنسان بما يكره، ويجوزُ تلقيبه بما يحب، ألا ترى أن النبيَّ ﷺ لَقَّب عمرَ بالفاروق، وأبا بكر بالصدِّيق، وعثمانَ بذي النُّورين، وخُزيمةَ بذي الشهادتين، وأبا هريرةَ بذي الشِّمالين وبذي اليدين[٣]، في أشباه ذلك.

الزَّمخشريُّ[٤]: رُوي عن النبيِّ ﷺ: «من حق المؤمن على المؤمن أن يُسَمِّيَه بأحبِّ أسمائه إليه»[٥]. ولهذا كانت التَّكْنِيَةُ من السُّنة والأدب الحسن، قال عمر ﷺ:

---

(١) أخرج قوله الترمذي إثر حديث (٧٧٣) وقال: وأهل العراق يقولون: موسى بن عُلَيٍّ بن رباح ـ بالتصغير كما في تحفة الأحوذي ٣/ ٤٨٤ ـ وأهل مصر يقولون: موسى بن عَلي.

(٢) علقه البخاري قبل حديث (٦٠٥١) وجاء فيه قوله: وما لا يراد به شين الرجل، بعد قوله: ما يقول ذو اليدين. ووصله أحمد (٧٢٠١)، والبخاري (٤٨٢)، ومسلم (٥٧٣): (٩٧) من حديث أبي هريرة ﷺ. وذو اليدين صحابي اسمه: خِرباق، وقيل: عمير، والأول هو الصواب كما في نزهة الألباب في الألقاب لابن حجر ١/ ٣١٣. وذكره أيضاً في الإصابة ٣/ ٢٢٢ قال: يقال هو الخِرباق، وفرق بينهما ابن حبان.

(٣) كذا في النسخ، ولعل هذا في الكلام سقطاً، وذكر ابن حجر في نزهة الألباب ١/ ٢٩٦ أن ذا الشِّمالين هو عمير بن عبد عمرو، صحابي استشهد ببدر، وهو غير ذي اليدين.

(٤) في الكشاف ٣/ ٥٦٦.

(٥) قال ابن حجر في الكافي الشاف في تخريج أحاديث الكشاف ص١٥٧: لم أجده هكذا، وروى البيهقي في الشعب في الحادي والستين [٨٧٧٢] عن عثمان بن طلحة رفعه: «ثلاث مصفين لك ودَّ أخيك... وتدعوه بأحب أسمائه إليه» وفيه موسى بن عبد الملك بن عمير وهو ضعيف. وروى أبو يعلى والطبراني (٣٤٩٩) عن حنظلة بن جذيم قال: كان رسول الله ﷺ يعجبه أن يدعى الرجل بأحب الأسماء إليه.

أشيعوا الكُنَى فإنها منبّهة[١]. ولقد لُقِّب أبو بكر بالعتيق والصدِّيق، وعمرُ بالفاروق، وحمزةُ بأسد الله، وخالدُ بسيف الله. وَقلَّ من المشاهير في الجاهلية والإسلام مَن ليس له لَقَب. ولم تزل هذه الألقاب الحسنة في الأمم كلِّها ـ من العرب والعجم ـ تجري في مخاطباتهم ومكاتباتهم من غير نكير.

وقال الماورديُّ[٢]: فأمَّا مستحَبُّ الألقاب ومستحسَنُها فلا يُكره. وقد وَصَف رسول الله ﷺ عددًا من أصحابه بأوصاف صارت لهم من أجلِّ الألقاب.

قلت: فأمَّا ما يكون ظاهرُها الكراهةَ، إذا أُريد بها الصفةُ لا العيبُ؛ فذلك كثير. وقد سُئِل عبد الله بنُ المبارك عن الرجل يقول: حُميدٌ الطويل، وسليمان الأعمش، وحُميدٌ الأعرج، ومروان الأصفر[٣]، فقال: إذا أردت صفته ولم تُرِد عيبه، فلا بأس به[٤]. وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن سَرْجِس قال: رأيت الأصلع ـ يعني عمر ـ يقبِّل الحجر. في رواية: الأُصَيْلِع[٥].

قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ﴾ أي عن هذه الألقاب الذي يتأذى بها السامعون. ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ لأنفسهم بارتكاب هذه المناهي.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا۟ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾

فيه عشر مسائل:

---

(١) في (ظ): فإنها سنة.

(٢) في النكت والعيون ٥/ ٣٣٣.

(٣) في (ف) و(م): الأصغر. وهو خطأ. ومروان الأصفر: هو أبو خَلَف البصري، من رجال التهذيب.

(٤) أخرجه البيهقي في الشعب (٦٧٩٧)، والخطيب البغدادي في الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع (١٢٧٣).

(٥) صحيح مسلم (١٢٧٠): (٢٥٠)، وهو عند أحمد (٢٢٩).

الأولى: قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ﴾ قيل: إنها نزلت في رجلين من أصحاب النبيِّ ﷺ اغتابا رفيقهما. وذلك أن النبيَّ ﷺ كان إذا سافر ضمَّ الرجلَ المحتاج إلى الرجلين المُوسِرَيْن فيخدمُهما. فضمَّ سلمان إلى رجلين، فتقدَّم سلمان إلى المنزل، فغلبته عيناه فنام ولم يهيئ لهما شيئاً، فجاءا فلم يجدا طعاماً وإدامًا، فقالا له: انطلق فاطلب لنا من النبيِّ ﷺ طعامًا وإدامًا، فذهب فقال له النبيُّ ﷺ: «اذهب إلى أسامةَ بنِ زيد فقل له: إن كان عندك فضلٌ من طعام فليعطك» وكان أسامةُ خازنَ النبيِّ ﷺ، فذهب إليه، فقال أسامة: ما عندي شيء، فرجع إليهما فأخبرهما، فقالا: قد كان عنده ولكنه بخل. ثم بعثا سلمان إلى طائفة من الصحابة، فلم يجد عندهم شيئًا، فقالا: لو بعثنا سلمانَ إلى بئر سُمَيحة[1]، لغار ماؤها. ثم انطلقا يتجسَّسان؛ هل عند أسامةَ شيءٌ، فرآهما النبيُّ ﷺ فقال: «ما لي أرى خضرة اللحم في أفواهكما» فقالا: يا نبيَّ الله، والله ما أكلنا في يومنا هذا لحمًا ولا غيرَه. فقال: «ولكنكما ظَلتما تأكلان لحم سلمانَ وأسامة». فنزلت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞۖ﴾[2] ذكره الثعلبيّ. أي: لا تظنوا بأهل الخير سوءًا إن كنتم تعلمون من ظاهر أمرهم الخير.

الثانية: ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة أن النبيَّ ﷺ قال: «إياكم والظنَّ، فإن الظنَّ أكذبُ الحديث، ولا تحسَّسوا، ولا تجسَّسوا، ولا تَناجشوا، ولا تحاسدوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخوانًا» لفظ البخاري[3]. قال علماؤنا: فالظنُّ هنا وفي الآية هو التُّهمة. ومحلُّ التحذيرِ والنهي إنما هو تُهْمَةٌ لا سبب لها

---

(١) هي بئر بالمدينة غزيرة. القاموس (سمح).

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٢١٥، وأورده الزمخشري في الكشاف ٣/ ٥٦٩ مختصراً عن ابن عباس رضي الله عنهما. قال ابن حجر في الكافي الشاف في تخريج أحاديث الكشاف ص١٥٨: هكذا ذكره الثعلبي وربيعة بغير سند ولا راو، وفي الترغيب لأبي القاسم الأصبهاني من طريق حماد بن سلمة، عن ثابت، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى نحوه.

(٣) برقم (٦٠٦٦)، وهو عند مسلم (٢٥٦٣): (٢٨) وسلف في المسألة الأولى من الآية العاشرة.

يوجبها، كمن يُتَّهم بالفاحشة أو بشرب الخمر مثلاً ولم يظهر عليه ما يقتضي ذلك. ودليلُ كون الظنِّ هنا بمعنى التُّهمة قولُه بعد هذا[١]: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾. وذلك أنه قد يقع له خاطرُ التهمة ابتداءً، فيريد أن يتجسَّس خبر ذلك ويبحثَ عنه، ويتبصَّر ويتسمَّع ليحقِّق[٢] ما وقع له من تلك التُّهمة. فنهى النبيُّ ﷺ عن ذلك.

وإن شئت قلت: والذي يُميِّز الظنون التي يجب اجتنابُها عمَّا سواها: أنَّ كلَّ ما لم تُعرَف له أَمارةٌ صحيحة وسببٌ ظاهر كان حراماً واجبَ الاجتناب. وذلك إذا كان المظنونُ به ممن شُوهد منه السترُ والصلاح، وأُونِسَت منه الأمانة في الظاهر، فظنُّ الفساد به والخيانةِ محرَّمٌ؛ بخلاف مَن اشتهره الناس[٣] بتعاطي الرِّيَب، والمجاهرة بالخبائث.

وعن النبيِّ ﷺ: «إن الله حَرَّم من المسلم دَمَه وعِرْضَه، وأن يَظُنَّ به ظنَّ السُّوء»[٤]. وعن الحسن: كنا في زمنِ الظنُّ بالناس فيه حرام، وأنتَ اليوم في زمن اعمل واسكُتْ وظُنَّ في الناس ما شئت.

الثالثة: للظنِّ حالتان: حالةٌ تُعرف وتَقْوَى بوجه من وجوه الأدلة، فيجوز الحكم بها، وأكثرُ أحكام الشريعة مبنيةٌ على غلبة الظن، كالقياس وخبر الواحد، وغير ذلك من قِيَم المتلَفات وأروشِ الجنايات.

---

(١) في (م): قوله تعالى، بدل: قوله بعد هذا.

(٢) في (ظ): لتحقق، وفي (م): لتحقيق، والمثبت من (ف) و(ق) وهو الموافق لما في المفهم ٦/ ٥٣٤ والكلام منه.

(٣) في الكشاف ٣/ ٥٦٧ (والكلام منه): اشتهر بين الناس.

(٤) قال ابن حجر في الكافي الشاف ص١٥٧: أخرجه ابن ماجه (٣٩٣٢) من حديث ابن عمر بإسناد فيه لين، ولفظه: رأيت رسول الله ﷺ يطوف بالكعبة ... «والذي نفس محمد بيده، لحرمة المؤمن أعظم عند الله حرمة منك: ماله ودمه وأن يظن به إلا خيراً». وروى ابن أبي شيبة عن ابن عباس أن النبي ﷺ نظر إلى الكعبة، فقال: ما أعظمك وأعظم حرمتك، والمسلم أعظم حرمة منك، حرم الله دمه وماله وعرضه، وأن يظن به ظن السوء» اهـ. وأخرج البخاري ومسلم عن أبي هريرة مرفوعاً: «كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه» وسلف في المسألة الأولى من الآية العاشرة.

والحالة الثانية: أن يقع في النفس شيءٌ من غير دلالة، فلا يكون ذلك أولى من ضده، فهذا هو الشكّ، فلا يجوز الحكم به، وهو المنهيُّ عنه على ما قررناه آنفاً.

وقد أنكرت جماعة من المبتدِعة تعبُّدَ اللهِ بالظنّ، وجوازَ العمل به؛ تحكُّماً في الدِّين ودعوى في المعقول[1]. وليس في ذلك أصلٌ يُعوَّل عليه، فإن البارئ تعالى لم يذمَّ جميعه، وإنما ورد[2] الذمُّ في بعضه. وربما تعلقوا بحديث أبي هريرة: «إياكم والظنَّ» وهذا لا حجة فيه؛ لأن الظنَّ في الشريعة قسمان: محمودٌ، ومذموم، فالمحمود منه ما سَلِم معه دينُ الظانِّ والمظنونِ به عند بلوغه. والمذمومُ ضدُّه؛ بدلالة قوله تعالى: ﴿إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾ [الحجرات: ١٢]، وقوله: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾ [النور: ١٢]، وقوله: ﴿وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا﴾ [الفتح: ١٢] وقال النبيُّ ﷺ: «إذا كان أحدكم مادحًا أخاه [لا محالة] فليقل: أحسب كذا، ولا أُزكِّي على الله أحدًا»[3]. وقال: «إذا ظننت فلا تُحقِّق، وإذا حسدتَ فلا تَبْغ، وإذا تطيّرت فامض» خرَّجه أبو داود[4].

وأكثرُ العلماء على أن الظنَّ القبيح بمن ظاهرُه الخير لا يجوز، وأنه لا حَرَج في الظن القبيح بمن ظاهره القبح، قاله المهدويّ.

الرابعة: قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا۟﴾ وقرأ أبو رجاء والحسن باختلاف وغيرهما:

---

(١) وقع في أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧١٢ والكلام منه: تحكم في الدين ودعوى في العقول.

(٢) في (م): أورد.

(٣) أخرجه أحمد (٢٠٤٢٢)، والبخاري (٦٠٦١)، ومسلم (٣٠٠٠) عن أبي بكرة ﷺ، والكلام في أحكام القرآن لابن العربي، وما بين حاصرتين منه.

(٤) لم نقف عليه عند أبي داود، وأخرجه ابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (١٩٦٢)، والطبراني في الكبير (٣٢٢٧)، وأبو الشيخ في التوبيخ والتنبيه (١٥٢) و(٢٣٧) من حديث حارثة بن النعمان ﷺ. ووقع فيها: وإذا حسدت فاستغفر، بدل: وإذا حسدت فلا تبغ. وفي الإسناد إسماعيل بن قيس الأنصاري، قال البخاري والدارقطني: منكر الحديث، وقال النسائي: ضعيف، وقال ابن عدي: عامة ما يرويه منكر. ميزان الاعتدال ١/ ٢٤٥.

«وَلَا تَحَسَّسُوا» بالحاء[١]. واختلِف هل هما بمعنى واحد أو بمعنيين؟ فقال الأخفش: ليس تبعد إحداهما من الأخرى؛ لأن التجسُّس: البحثُ عما يكتم عنك. والتحسُّس ـ بالحاء ـ: طلبُ الأخبار والبحثُ عنها[٢]. وقيل: إن التجسُّس ـ بالجيم ـ: هو البحث؛ ومنه قيل: رجلٌ جاسوس: إذا كان يبحث عن الأمور. وبالحاء: هو ما أدركه الإنسان ببعض حواسِّه. وقولٌ ثانٍ في الفرق: أنه بالحاء يطلبه[٣] لنفسه، وبالجيم أن يكون رسولاً لغيره. قاله ثعلب. والأوّل أعرف[٤]. جَسَستُ الأخبار وتجسَّستها، أي: تفحَّصت عنها، ومنه الجاسوس[٥].

ومعنى الآية: خذوا ما ظهر، ولا تتَّبعوا عوراتِ المسلمين، أي: لا يبحث أحدكم عن عيب أخيه حتى يطَّلع عليه بعد أن ستره الله.

وفي كتاب أبي داود[٦] عن معاوية قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنك إن اتبعت عورات الناس؛ أفسدتهم، أو كِدْتَ أن تفسدهم» فقال أبو الدرداء: كلمةٌ سمعها معاوية من رسول الله ﷺ نفعه الله تعالى بها.

وعن المِقدام بن مَعْدي كَرِب عن أبي أُمامة، عن النبيِّ ﷺ قال: «إن الأمير إذا ابتغى الرِّيبة في الناس أفسدهم»[٧].

وعن زيد بن وَهْب قال: أُتيَ ابنُ مسعود فقيل: هذا فلانٌ تقطر لحيته خمراً. فقال

---

(١) قراءة الحسن في القراءات الشاذة ص١٤٣، وقراءة أبي رجاء في المحرر الوجيز ٥/ ١٥١، وزاد المسير ٧/ ٤٧١.

(٢) مجمع البيان ٢٦/ ٩٥.

(٣) في (ق) و(م): تطلَّبه.

(٤) النكت والعيون ٥/ ٣٣٤، وينظر المفهم ٦/ ٥٣٥.

(٥) الصحاح (جسس).

(٦) برقم (٤٨٨٨).

(٧) أخرجه أبو داود (٤٨٨٩) عن المقدام بن معد يكرب وأبي أمامة كلاهما عن النبي ﷺ. وأخرجه أحمد (١٣٨١٥) عن المقداد بن الأسود وأبي أمامة عن النبي ﷺ.

عبد الله: إنا قد نُهينا عن التجسُّس، ولكن إن يظهر لنا نأخذ به[١].

وعن أبي بَرْزة الأسلميِّ قال: قال رسول الله ﷺ: «يا معشر مَن آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه، لا تغتابوا المسلمين، ولا تَتَّبِعوا عوراتِهم، فإنه[٢] مَن اتَّبع عوراتِهم يتَّبع الله عورته، ومن يَتَّبع الله عورته يفضحه في بيته»[٣].

وقال عبد الرحمن بن عوف: حَرَست ليلةً مع عمرَ بنِ الخطاب ﷺ بالمدينة إذ تبيَّن لنا سراج في بيت، بابُه مُجافٍ على قوم، لهم أصوات مرتفعة ولَغَط، فقال عمر: هذا بيت ربيعةَ بنِ أميةَ بنِ خلف، وهم الآن شَرْب[٤]، فما ترى؟ قلت: أرى أنَّا قد أتينا ما نهى الله عنه، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾ وقد تجسَّسنا، فانصرف عمر وتركهم[٥].

وقال أبو قِلابة: حُدِّث عمرُ بن الخطاب أن أبا مِحْجَن الثَّقَفيَّ يشرب الخمر مع أصحاب له في بيته، فانطلق عمر حتى دخل عليه، فإذا ليس عنده إلا رجلٌ، فقال أبو مِحْجن: إن هذا لا يحلُّ لك! قد نهاك الله عن التجسُّس، فخرج عمر وتركه[٦].

وقال زيد بن أسلم: خرج عمر وعبد الرحمن يَعُسَّان[٧]، إذ تبيَّنت لهما نارٌ، فاستأذنا، ففُتح الباب، فإذا رجلٌ وامرأةٌ تغني، وعلى يد الرجل قَدَح، فقال عمر: وأنت بهذا يا فلان؟ فقال: وأنت بهذا يا أمير المؤمنين! قال عمر: فَمَن هذه منك؟ قال: امرأتي، قال: فما في هذا القَدَح؟ قال: ماءٌ زلال؛ فقال للمرأة: وما الذي تغنين؟ فقالت:

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٨٩٠).

(٢) في (م): فإن.

(٣) أخرجه أحمد (١٩٧٧٦)، وأبو داود (٤٨٨٠).

(٤) الشَّرْب، بفتح الشين: القوم يشربون. القاموس (شرب).

(٥) أخرجه عبد الرزاق (١٨٩٤٣)، والطبراني في مسند الشاميين (١٨٠٦)، والحاكم ٤/ ٣٧٧، والبيهقي ٨/ ٣٣٣.

(٦) أخرجه عبد الرزاق (١٨٩٤٤).

(٧) أي: يطوفان بالليل. ينظر اللسان (عسس).

تطاول هذا الليل واسْودَّ جانِبُهْ وأرَّقني أن لا خليلَ ألَاعِبُهْ
فوالله لولا اللهُ أني أراقبهْ لزُعْزِع من هذا السرير جوانبهْ
ولكنَّ عقلي والحياء يَكُفُّني وأُكْرِم بَعْلي أن تُنال مَرَاكِبُهْ[١]

ثم قال الرجل: ما بهذا أُمِرنا يا أمير المؤمنين! قال الله تعالى: «وَلَا تَجَسَّسُوا». قال: صَدقت[٢].

قلت: لا يُفهم من هذا الخبر أن المرأة كانت غيرَ زوجة الرجل؛ لأن عمر لا يُقِرُّ على الزنى، وإنما غنَّت بتلك الأبيات تذكاراً لزوجها، وأنها قالتها في مَغِيبه عنها. والله أعلم.

وقال عمرو بن دينار: كان رجل من أهل المدينة له أختٌ فاشتكت، فكان يعودها، فماتت فدفنها. فكان هو الذي نزل في قبرها، فسقط من كُمِّه كيسٌ فيه دنانير، فاستعان ببعض أهله، فنبشوا قبرها، فأخذ الكيس ثم قال: لَأَكشفنَّ حتى أنظرَ ما آل حال أختي إليه، فكشف عنها، فإذا القبرُ مشتعلٌ ناراً، فجاء إلى أمه فقال: أخبريني ما كان عملُ أختي؟ فقالت: قد ماتت أختك، فما سؤالُك عن عملها! فلم يَزَل بها حتى قالت له: كانت من عملها أنها كانت تؤخِّر الصلاة عن مواقيتها، وكانت إذا نام الجيران قامت إلى بيوتهم، فألقمت أذنها أبوابهم، فتَجَسَّسُ عليهم وتُخرج أسرارهم، فقال: بهذا هَلَكتْ[٣]!

الخامسة: قوله تعالى: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾ نهى عزَّ وجلَّ عن الغِيبة، وهي أن تذكر الرجلَ بما فيه، فإن ذكرته بما ليس فيه، فهو البهتان. ثبت معناه في صحيح مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «أتدرون ما الغِيبة»؟ قالوا: الله ورسوله

(١) سلفت هذه الأبيات ٤/ ٣٠ باختلاف يسير عما هنا وفي سياق غير هذا.
(٢) أورده الطبرسي في مجمع البيان ٢٦/ ٩٢ - ٩٣ ولم ينسبه ولم نقف عليه في مصادر التخريج.
(٣) لم نقف عليه، وفي متنه نظر.

أعلم. قال: «ذكرك أخاك بما يكره». قال[١]: أفرأيت إن كان في أخي ما أقول؟ قال: «إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه فقد بَهَتَّه»[٢].

يقال: اغتابه اغتياباً: إذا وقع فيه، والاسم الغِيبة[٣]، وهي ذكرُ العَيْب بظَهْر الغَيْب. قال الحسن: الغِيبة ثلاثةُ أوجه كلُّها في كتاب الله تعالى: الغِيبة، والإفك، والبهتان. فأمَّا الغِيبة: فهو أن تقول في أخيك ما هو فيه. وأمَّا الإفك: فأن تقول فيه ما بلغك عنه. وأمَّا البهتان: فأن تقول فيه ما ليس فيه[٤].

وعن شعبة قال: قال لي معاوية ـ يعني ابنَ قُرَّة ـ: لو مَرَّ بك رجل أقطع، فقلت: هذا أقطع؛ كان غِيبة. قال شعبة: فذكرته لأبي إسحاق، فقال: صدق[٥].

وروى أبو هريرة أن الأسلميَّ ماعزًا جاء إلى النبيِّ ﷺ، فشهد على نفسه بالزِّنى، فرجمه رسول الله ﷺ، فسمع نبيُّ الله ﷺ رجلين من أصحابه يقول أحدهما للآخر: انظر إلى هذا الذي ستر الله عليه، فلم تدعه نفسه حتى رُجِم رَجْمَ الكلب؛ فسكت عنهما. ثم سار ساعة حتى مرَّ بجِيفةِ حمارٍ شائلٍ برجله، فقال: «أين فلان وفلان»؟ فقالا: نحن ذا يا رسول الله، قال: «انزلا فَكُلا من جِيفة هذا الحمار» فقالا: يا نبيَّ الله، ومَن يأكل من هذا! قال: «فما نلتما من عِرْض أخيكما أشدُّ من الأكل منه، والذي نفسي بيده إنه الآن لفي أنهار الجنة ينغمس فيها»[٦].

---

(١) في (م): قيل.

(٢) صحيح مسلم (٢٥٨٩)، وسلف ٧/ ١٢٢.

(٣) الصحاح (غيب).

(٤) النكت والعيون ٥/ ٣٣٤ - ٣٣٥.

(٥) أخرجه الطبري ٢١/ ٣٧٩، وأبو إسحاق هو الهمداني.

(٦) أخرجه أبو داود (٤٤٢٨)، وابن حبان (٤٣٩٩) مطولاً، وفيه عبد الرحمن بن الصامت، قال البخاري ـ كما في تهذيب التهذيب ـ: لا يعرف إلا بهذا الحديث. وقال الذهبي في الميزان ٢/ ٥٦٩ - ٥٧٠: له حديث واحد في شهادة الأسلمي على نفسه بالزنا، تفرد عنه أبو الزبير، وعنه ابن جريج، فلا يُعرف مَن هذا. اهـ.

السادسة: قوله تعالى: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا﴾ مَثَّل الله الغِيبة بأكل الميتة؛ لأن الميت لا يعلم بأكل لحمه، كما أن الحيَّ لا يعلم بِغيبة مَن اغتابه. وقال ابن عباس: إنما ضرب الله هذا المثل للغِيبة؛ لأن أكل لحم الميت حرام مستقذَر، وكذا الغيبةُ حرامٌ في الدِّين، وقبيحٌ في النفوس. وقال قتادة: كما يمتنع أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً، كذلك يجب أن يمتنع من غِيبته حيًّا. واستُعمِل أكلُ اللَّحم مكان الغِيبة؛ لأن عادة العرب بذلك جارية. قال الشاعر:

فإن أكلوا لحمي وفَرتُ لحومَهمْ　　　وإن هَدَمُوا مَجْدي بَنَيْتُ لهم مَجْداً[1]

وقال ﷺ: «ما صام مَن ظلَّ يأكل لحوم الناس»[2]. فشبَّه الوقيعة في الناس بأكل لحومهم. فمن تنقَّص مسلماً أو ثَلَمَ عِرْضَه، فهو كالآكل لحمَه حيًّا، ومَن اغتابه، فهو كالآكل لحمَه ميتاً.

وفي كتاب أبي داود عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «لمَّا عُرج بي؛ مررت بقوم لهم أظفارٌ من نحاس يَخْمِشُون وجوههم وصدورهم، فقلت: مَن هؤلاءِ يا جبريل؟ قال: هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس، ويقعون في أعراضهم»[3].

وعن المستورد أن رسول الله ﷺ قال: «مَن أكل بِرَجُلٍ مسلم أَكْلة، فإن الله يطعمه مِثلَها من جهنم، ومَن كُسي ثوباً بِرَجُلٍ مسلم، فإن الله يكسوه مثلَه من جهنم، ومَن قام[4] بِرَجُلٍ مَقام سُمْعة ورياء، فإن الله يقوم به مَقام سُمْعة ورياء يوم القيامة»[5]. وقد تقدَّم قوله ﷺ: «يا معشر مَن آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه، لا تغتابوا

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٣٣٥، وأورده أيضاً ابن قتيبة في الشعر والشعراء ٢/ ٧٣٩، وابن عبد ربه في العقد الفريد ٢/ ٣٦٨، وابن الأثير في المثل السائر ٢/ ١٧٤ ونسبوه للمُقَنَّع الكِنْدي.

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة ٣/ ٤ عن أنس بن مالك ﷺ، وفيه يزيد بن أبان؛ وهو ضعيف. والربيع بن صَبيح؛ وهو صدوق سيِّئ الحفظ. كما ذكر الحافظ ابن حجر في التقريب.

(٣) سنن أبي داود (٤٨٧٨)، وهو عند أحمد (١٣٣٤٠).

(٤) المثبت من (ق)، وهو الموافق للمصادر، وفي غيرها: أقام.

(٥) سنن أبي داود (٤٨٨١)، وهو عند أحمد (١٨٠١١).

المسلمين»[(١)]. وقولُه للرجلين: «ما لي أرى خُضرة اللحم في أفواهكما»[(٢)].

وقال أبو قِلابة الرَّقَّاشي: سمعت أبا عاصم يقول: ما اغتبت أحداً مذ عرفت ما في الغيبة[(٣)]. وكان ميمون بن سِياه لا يغتاب أحداً، ولا يَدَع أحداً يغتاب أحداً عنده، ينهاه؛ فإن انتهى؛ وإلا قام[(٤)].

وذكر الثعلبيُّ من حديث أبي هريرة قال: قام رجل من عند النبيِّ ﷺ، فرأوا في قيامه عجزاً فقالوا: يا رسول الله، ما أعجز فلاناً! فقال: «أكلتم لحم أخيكم واغتبتموه»[(٥)].

وعن سفيان الثوري قال: أدنى الغِيبة أن تقول: إن فلاناً جَعْدٌ قَطَطٌ[(٦)]، إلا أنه يكره ذلك. وقال عمر بن الخطاب ﷺ: إياكم وذِكْرَ الناس، فإنه داء، وعليكم بذكر الله، فإنه شفاء. وسمع عليُّ بن الحسين رضي الله عنهما رجلاً يغتاب آخر، فقال: إياك والغِيبةَ، فإنها إدام كلاب الناس[(٧)]. وقيل لعمرو بن عبيد: لقد وقع فيك فلان حتى رحمناك، قال: إياه فارحموا. وقال رجل للحسن: بلغني أنك تغتابني! فقال: لم يبلغ قَدْرُك عندي أن أُحكِّمكَ في حسناتي.

السابعة: ذهب قوم إلى أن الغيبة لا تكون إلا في الدِّين، ولا تكون في الخِلْقة

---

(١) تقدم في المسألة الرابعة.

(٢) تقدم في المسألة الأولى.

(٣) أخرجه البخاري في التاريخ الكبير ٤/ ٣٣٦ بنحوه عن أبي عاصم، وهو الضحَّاك بن مَخْلد؛ روى له الجماعة.

(٤) أخرجه أبو الشيخ في التوبيخ والتنبيه (١٧٧)، وأبو نعيم في الحلية ٣/ ١٠٧، وميمون بن سِيَاه البصري كنيته أبو بحر، من رجال البخاري والنسائي.

(٥) أخرجه أبو يعلى الموصلي (٦١٥١)، والطبري ٢١/ ٣٧٩، والطبراني في الأوسط (٤٦١) وفيه محمد ابن أبي حميد، ويقال له: حماد، وهو ضعيف كما في الميزان ٣/ ٥٣١، والتقريب.

(٦) القطط: القصير الجعد من الشَّعر.

(٧) أخرجه ابن أبي الدنيا في الصمت (٢٩٧)، وابن عساكر في تاريخ دمشق ٤١/ ٣٩٩.

والحَسَب. وقالوا: ذلك فعل الله به. وذهب آخرون إلى عكس هذا فقالوا: لا تكون الغِيبة إلا في الخَلْق والخُلُق والحسَب، والغِيبة في الخَلْق أشدُّ؛ لأن مَن عَيَّب صنعة فإنما عيَّب صانعها.

وهذا كلُّه مردود، أما الأوّل فيردُّه حديث عائشة حين قالت في صفيةَ: إنها امرأة قصيرةٌ، فقال لها النبيُّ ﷺ: «لقد قلت كلمة لو مُزِج بها البحر لمزجته». خرجه أبو داود. وقال فيه الترمذيُّ: حديث حسن صحيح[1]؛ وما كان في معناه حسب ما تقدم. وإجماع العلماء قديماً على أن ذلك غِيبةٌ إذا أُريد به العيب.

وأمَّا الثاني فمردودٌ أيضاً عند جميع العلماء؛ لأن العلماء مِن أوَّل الدهر من أصحاب رسول الله ﷺ والتابعين بعدهم لم تكن الغيبة عندهم في شيء أعظمَ من الغيبة في الدِّين؛ لأن عيب الدين أعظمُ العيب، فكلُّ مؤمن يَكره أن يُذكر في دينه أشدَّ ممَّا يكره في بدنه. وكفى ردًّا لمن قال هذا القولَ قولُه عليه الصلاة والسلام: «إذا قلت في أخيك ما يكره، فقد اغتبته...»[2] الحديث. فمن زعم أن ذلك ليس بغيبة، فقد ردَّ ما قال النبيُّ ﷺ نصًّا. وكفى بعموم قول النبيِّ ﷺ: «دماؤكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام»[3] وذلك عامٌّ للدِّين والدنيا. وقولِ النبيِّ ﷺ: «مَن كانت عنده لأخيه مَظْلِمَة في عِرضه أو ماله، فليتحلَّله منه»[4]. فعمَّ كلَّ عِرْض؛ فمن خصَّ من ذلك شيئاً دون شيء فقد عارض ما قال النبيُّ ﷺ.

الثامنة: لا خلاف أن الغيبة من الكبائر، وأن على مَن اغتاب أحداً التوبةَ[5] إلى الله عزَّ وجلَّ. وهل يَستحلُّ المغتابَ؟ اختلف فيه:

(١) سنن أبي داود (٤٨٧٥)، وسنن الترمذي (٢٥٠٢) و(٢٥٠٣)، وسلف في المسألة الرابعة في تفسير الآية قبلها.

(٢) سلف في المسألة الخامسة.

(٣) هو قطعة من حديث عمرو بن الأحوص أخرجه الترمذي (٢١٥٩) وقال: حديث حسن صحيح.

(٤) سيأتي في المسألة الآتية مطولاً.

(٥) في (م): وأنه من اغتاب أحداً عليه أن يتوب.

فقالت فرقة: ليس عليه استحلالُه، وإنما هي خطيئةٌ بينه وبين ربه. واحتجَّت بأنه لم يأخذ من ماله ولا أصاب من بدنه ما ينقصه، فليس ذلك بمظْلِمة يستحلُّها منه، وإنما المظلِمةُ ما يكون منه البدل والعِوض في المال والبدن.

وقالت فرقة: هي مَظْلِمة، وكفارتُها الاستغفارُ لصاحبها الذي اغتابه. واحتجَّت بحديث يُروى عن الحسن قال: كفارةُ الغيبة أن تستغفر لمن اغتبته(١).

وقالت فرقة: هي مَظْلِمةٌ، وعليه الاستحلالُ منها. واحتجَّت بقول النبيِّ ﷺ: «مَن كانت لأخيه عنده مَظْلِمة في عِرض أو مال، فليتحلَّله منه من قبل أن يأتيَ يوم ليس هناك دينارٌ ولا درهم، يؤخذ من حسناته، فإن لم يكن له حسناتٌ، أُخِذ من سيئات صاحبه، فزيد على سيئاته». خرَّجه البخاريُّ من حديث أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ كانَتْ له مَظْلِمةٌ لأخيه من عِرْضه أو شيءٍ، فليتحلَّلْه منه اليومَ قبلَ ألَّا يكون(٢) دينارٌ ولا درهم، إن كان له عملٌ صالح أُخِذَ منه بِقَدْر مَظْلِمَتِه، وإن لم يكن له حسناتٌ، أُخِذَ من سيئات صاحبه، فحُمِلَ عليه»(٣).

وقد تقدّم هذا المعنى في سورة آل عمران(٤) عند قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا بَلْ أَحْيَآءٌ﴾ [آل عمران: ١٦٩]. وقد رُوي من حديث عائشة أن امرأة دخلت عليها، فلما قامت، قالت امرأة: ما أطولَ ذيلَها! فقالت لها عائشة: لقد اغتبتيها فاستحلِّيها(٥). فدلَّت الآثار عن النبيِّ ﷺ أنها مَظْلِمة يجب على المغتاب استحلالُها.

---

(١) لم نقف عليه وقد أخرجه الحارث في مسنده (١٠٨٠ - بغية الباحث)، والخطيب البغدادي في تاريخه ٧/ ٣٠٣ من حديث أنس ﷺ. قال المناوي في فيض القدير ٥/ ٧: قال الغزالي: وهذا الحديث يحتج به للحسن في قوله: يكفيك من الغيبة الاستغفار دون الاستحلال.

(٢) بعدها في (م): له.

(٣) صحيح البخاري (٢٤٤٩)، وسلف ٢/ ٧٦.

(٤) ٥/ ٤١٣ - ٤١٤.

(٥) أخرجه أبو الشيخ في التوبيخ والتنبيه (١٩٣)، والبيهقي في الشعب (٦٧٦٨) بنحوه.

وأمَّا قول مَن قال: إنما الغيبة في المال والبدن، فقد أجمعت العلماء على أن على القاذف للمقذوف مَظْلِمةً؛ يأخذه بالحدِّ حتى يقيمه عليه، وذلك ليس في البدن ولا في المال، ففي ذلك دليلٌ على أن الظلم في العِرض والبدن والمال، وقد قال الله تعالى في القاذف: ﴿فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَٰئِكَ عِندَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ [النور: ١٣]. وقد قال رسول الله ﷺ: «مَن بَهَتَ مؤمنًا بما ليس فيه، حبسه الله في طِينة الخَبال»(١). وذلك كلُّه في غير المال والبدن.

وأمَّا مَن قال: إنها مَظْلِمة، وكفارةُ المَظْلِمة أن يستغفر لصاحبها، فقد ناقض؛ إذ سمَّاها مظلمة، ثم قال: كفارتها أن يستغفر لصاحبها؛ لأن قوله: مَظْلِمة، تُثبِت ظُلامة المظلوم، فإذا ثبتت الظُّلامة لم يُزلها عن الظالم إلا إحلالُ المظلوم له. وأمَّا قولُ الحسن فليس بحجَّة، وقد قال النبيُّ ﷺ: «مَن كانت له عند أخيه مَظْلِمةٌ في عِرْضٍ أو مالٍ، فليتحلَّلْها منه».

وقد ذهب بعضهم إلى ترك التحليل لمن سأله، ورأى أنه لا يُحلُّ له ما حرَّم الله عليه، منهم سعيدُ بن المسيّب قال: لا أحلِّلُ مَن ظلمني. وقيل لابن سيرين: يا أبا بكر، هذا رجل سألك أن تحلِّله من مَظْلِمةٍ هي لك عنده، فقال: إني لم أحرِّمها عليه فأُحلَّها، إن الله حرّم الغِيبة عليه، وما كنت لأُحلَّ ما حرّم الله عليه أبدًا(٢).

وخبرُ النبيِّ ﷺ يدلُّ على التحليل، وهو الحجة والمبيِّن. والتحليلُ يدلُّ على الرحمة، وهو من وجهِ العفو، وقد قال تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠].

التاسعة: ليس من هذا الباب غِيبةُ الفاسق المعلِن به المجاهِر، فإن في الخبر:

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (١٣٤٣٥)، وأبو نعيم في الحلية ١٠/ ٢١٩، والبيهقي في الشعب (٦٧٣٦)، والخطيب البغدادي في تاريخه ٨/ ٢٠٠ من حديث ابن عمر رضي الله عنهما مطولاً وبنحوه. والخَبال: هو عُصارة أهل النار. النهاية (خبل).

(٢) أورده النحاس في إعراب القرآن ٤/ ٢١٥.

«مَن ألقى جِلْباب الحياء، فلا غِيبة له»[١]. وقال ﷺ: «اذكروا الفاجر بما فيه كي يحذره الناس»[٢]. فالغيبة إذًا في المرء الذي يستر نفسه .

ورُوِيَ عن الحسن أنه قال: ثلاثة ليست لهم حُرْمة: صاحبُ الهوى، والفاسقُ المعلِن، والإمامِ الجائر[٣]. وقال الحسن لمَّا مات الحجَّاج: اللهم أنت أَمتَّه فاقطع عنا سنته ـ وفي رواية: شَيْنه ـ فإنه أتانا أُخَيْفِشَ أُعَيْمِش، يمدُّ بيد قصيرة البَنان، واللهِ ما عَرِق فيها غبارٌ في سبيل الله، يُرَجِّل جُمَّته، ويَخْطِر في مِشْيته، ويَصْعَد المِنبر فَيَهْذِر حتى تفوته الصلاة، لا من الله يَتَّقي، ولا من الناس يستحي، فوقه الله، وتحته مئةُ ألف أو يزيدون، لا يقول له قائل: الصلاةَ أيها الرجل. ثم يقول الحسن: هيهات! حالَ دون ذلك السيفُ والسَّوْط[٤] .

وروى الربيعُ بن صَبيح عن الحسن قال: ليس لأهل البدع غِيبة[٥].

وكذلك قولُك للقاضي تستعينُ به على أخذ حقِّك ممن ظلمك، فتقول: فلانٌ ظلمني، أو: غصبني[٦]، أو: خانني، أو: ضربني، أو: قذفني، أو: أساء إليَّ، ليس بغيبة. وعلماء الأمة على ذلك مجمِعة. وقال النبيُّ ﷺ في ذلك: «لصاحب الحقِّ

---

(١) أخرجه البيهقي ١٠/ ٢١٠ ، والخطيب البغدادي في تاريخه ٨/ ٤٣٨ من حديث أنس ﷺ. قال ابن حجر في الكافي الشاف ص ١٥٧ : إسناده ضعيف . وأخرجه ابن عدي في الكامل ١/ ٣٧٧ ، والخطيب البغدادي في تاريخه ٤/ ١٧١ من طريق الربيع بن بدر ، عن أبان، عن أنس ﷺ . قال ابن حجر : وإسناده أضعف من الأول .

(٢) أخرجه العقيلي في الضعفاء ١/ ٢٠٢ ، وابن عدي في الكامل ٢/ ٥٩٥ ، والبيهقي ١٠/ ٢١٠ ، والخطيب البغدادي في تاريخه ٣/ ٢٨٣ من طريق الجارود بن يزيد، عن بهز بن حكيم ، عن أبيه ، عن جده . قال العقيلي : ليس له من حديث بهز أصل ، ولا من حديث غيره ولا يتابع عليه . وقال البيهقي : وقد سرقه عنه ـ أي عن الجارود بن يزيد ـ جماعة من الضعفاء ، فرووه عن بهز بن حكيم، ولم يصح فيه شيء .

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في الصمت (٢٣٥) ، والبيهقي في الشعب (٩٦٦٩) .

(٤) الكشاف ٣/ ٥٦٦ ، والأخيفش هو تصغير أخفش، وهو من الخَفَش، محركة: صغر العين، وضعف البصر خِلْقة، أو فساد في الجفون بلا وجع. والأُعَيْمش هو تصغير أعمش، وهو من العمش، محركة: ضعف البصر مع سيلان الدمع في أكثر الأوقات. القاموس (خفش) و(عمش).

(٥) أخرجه اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (٢٨٠) ، والبيهقي في الشعب (٩٦٧٥) .

(٦) في (ف) و(م) : غضبني ، وفي (ق) : عطبني ، والمثبت من (ظ) .

مقال»[(١)]. وقال: «مَطْلُ الغنيِّ ظلم»[(٢)]. وقال: «لَيُّ الواجد يُحِلُّ عِرْضَه وعقُوبته»[(٣)].

ومن ذلك الاستفتاء؛ كقول هند للنبيِّ ﷺ: إن أبا سفيان رجل شحيح لا يعطيني ما يكفيني أنا وولدي، فآخذُ من غير علمه؟ فقال النبيُّ ﷺ: «نعم فخذي»[(٤)]. فذكرته بالشُّحِّ والظلم لها ولولدها، ولم يرها مغتابة؛ لأنه لم يغيِّر عليها، بل أجابها عليه الصلاة والسلام بالفُتْيا لها. وكذلك إذا كان في ذكره بالسوء فائدة؛ كقوله ﷺ: «أمَّا معاويةُ فصعلوكٌ لا مال له، وأمَّا أبو جهمٍ فلا يضع عصاه عن عاتقه»[(٥)]. فهذا جائز، وكان مقصودُه ألَّا تغترَّ فاطمة بنتُ قيس بهما. قاله جميعه المحاسبيُّ رحمه الله.

العاشرة: قوله تعالى: ﴿مَيْتًا﴾ وقُرِئ «ميِّتًا»[(٦)] وهو نصبٌ على الحال من اللَّحم. ويجوز أن يُنصب على الأخ.

ولمَّا قرَّرهم عزَّ وجلَّ بأن أحداً منهم لا يحبُّ أكل جيفة أخيه، عَقَّب ذلك بقوله تعالى: ﴿فَكَرِهْتُمُوهُ﴾[(٧)].وفيه وجهان:

أحدهما: فكرهتم أكلَ الميتة، فكذلك فاكرهوا الغِيبة، رُوي معناه عن مجاهد.

الثاني: فكرهتم أن يغتابكم الناس، فاكرهوا غِيبة الناس[(٨)].

---

(١) هو قطعة من حديث أبي هريرة ﷺ أخرجه أحمد (٩٣٩٠)، والبخاري (٢٣٠٦)، ومسلم (١٦٠١): (١٢٠).

(٢) أخرجه أحمد (٨٩٣٨)، والبخاري (٢٢٨٧)، ومسلم (١٥٦٤) من حديث أبي هريرة ﷺ، وسلف ٧/ ٢٠١.

(٣) سلف ٣/ ٢٥٦، وهو من حديث الشَّرِيد بن سويد ﷺ.

(٤) أخرجه البخاري (٥٣٦٤)، ومسلم (١٧١٤) من حديث عائشة رضي الله عنها، وسلف ٣/ ٢٤٩.

(٥) هو قطعة من حديث فاطمة بنت قيس رضي الله عنها أخرجه أحمد (٢٧٣٢٧)، ومسلم (١٤٨٠): (٣٦). وسلف الشطر الثاني منه ٦/ ٢٨٨.

(٦) قرأ من السبعة بالتشديد نافع. السبعة ص ٦٠٦، والتيسير ص ١٠٦.

(٧) الكشاف ٣/ ٥٦٨.

(٨) النكت والعيون ٥/ ٣٣٥.

وقال الفراء: أي: فقد كرهتموه فلا تفعلوه[١]. وقيل: لفظه خبر، ومعناه أمر، أي: اكرهوه.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ عطف عليه. وقيل: عطف على قوله: «اجْتَنِبُوا. وَلَا تَجَسَّسُوا». ﴿إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ﴾.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾

فيه سبع مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى﴾ يعني آدمَ وحواء. ونزلت الآية في أبي هند، ذكره أبو داود في «المراسيل»: حدثنا عمرو بن عثمان وكثير بن عبيد قالا: حدَّثنا بقيَّة بنُ الوليد [حدثني الزُّبيدي] قال: حدثني الزُّهري قال: أمر رسول الله ﷺ بني بَياضَة أن يزوِّجوا أبا هندٍ امرأةً منهم، فقالوا لرسول الله ﷺ: نزوِّج بناتِنا موالينا؟! فأنزل الله عز وجل: ﴿إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا﴾ الآية. قال الزُّهري: نزلت في أبي هندٍ خاصَّة[٢].

وقيل: إنها نزلت في ثابت بن قيس بن شَمَّاس، وقولِه في الرجل الذي لم يتفسَّح له: ابن فلانة، فقال النبيُّ ﷺ: «مَن الذاكر فلانة؟» قال ثابت: أنا يا رسول الله، فقال النبيُّ ﷺ: «انظر في وجوه القوم» فنظر، فقال: «ما رأيت؟» قال: رأيت أبيضَ وأسود وأحمر، فقال: «فإنك لا تَفْضُلهم إلا بالتقوى». فنزلت في ثابت هذه الآية[٣]. ونزلت

(١) معاني القرآن للفراء ٣/ ٧٣.

(٢) المراسيل (٢٣٠) وما بين حاصرتين منه. وسيرد في آخر المسألة السابعة من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٣) أورده الواحدي في أسباب النزول ص ٤١٧، والبغوي في تفسيره ٤/ ٢١٧ ونسباه لابن عباس رضي الله عنهما، وسلف في الآية (١١) في المسألة الثانية قصة ثابت بن قيس مع هذا الرجل مطولة، لكن دون قول النبي ﷺ.

في الرجل الذي لم يتفسَّح له: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُواْ فِى ٱلْمَجَٰلِسِ﴾ [المجادلة: ١١] الآية[١].

قال ابن عباس: لمَّا كان يوم فتح مكة، أمر النبيُّ ﷺ بلالاً حتى علا على ظهر الكعبة فأذَّن، فقال عتَّاب بن أَسِيد بنِ أبي العِيص: الحمد لله الذي قبض أبي حتى لا يرى هذا اليوم. قال الحارث بن هشام: ما وجد محمدٌ غير هذا الغراب الأسود مؤذِّنًا. وقال سهيل بن عمرو: إن يرد الله شيئاً يغيِّره. وقال أبو سفيان: إني لا أقول شيئاً، أخاف أن يُخبِرَ به ربُّ السماء، فأتى جبريلُ النبيَّ ﷺ وأخبره بما قالوا، فدعاهم وسألهم عمَّا قالوا: فأقرُّوا، فأنزل الله تعالى هذه الآية. زجرهم عن التفاخر بالأنساب، والتكاثر بالأموال، والازدراء بالفقراء، فإن المدار على التقوى[٢]. أي: الجميعُ من آدم وحوَّاء، إنما الفضل بالتقوى.

وفي الترمذي عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ خطب بمكة فقال: «يا أيها الناس، إن الله قد أذهب عنكم عُبِّيَّة[٣] الجاهلية وتعاظُمَها بآبائها. فالناس رجلان: رجلٌ بَرٌّ تَقيٌّ كريمٌ على الله، وفاجرٌ شقيٌّ هيِّن على الله. والناس بنو آدم وخلق الله آدم من تراب، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾». خرَّجه من حديث عبد الله بن جعفر والدِ عليِّ بن المديني وهو ضعيف، ضعَّفه يحيى بن معين وغيره[٤].

وقد خرَّج الطبري في كتاب «آداب النفوس»: وحدَّثني يعقوب بن إبراهيم قال:

---

(١) سيرد في تفسير الآية المذكورة في المسألة الأولى.

(٢) أورده الواحدي في أسباب النزول ص ٤١٧، والبغوي في تفسيره ٤/ ٢١٧ ونسباه لمقاتل.

(٣) في (ظ): غيبة، وفي (ق) و(م): عيبة، وهو خطأ. و«عُبِّيَّة» بضم العين المهملة وكسرها، وكسر الموحدة وفتح التحتية المشددتين، يعني الكبر. النهاية (عبب).

(٤) سنن الترمذي (٣٢٧٠) وقال: هذا حديث غريب لا نعرفه من حديث عبد الله بن دينار، عن ابن عمر إلا من هذا الوجه. اهـ. وله شاهد من حديث أبي هريرة أخرجه أحمد (٨٧٣٦)، وأبو داود (٥١١٦)، والترمذي (٣٩٥٥)، و(٣٩٥٦).

حدَّثنا إسماعيل قال: حدَّثنا سعيدٌ الجُرَيري، عن أبي نضرة قال: حدَّثني أو حدَّثنا مَن شهد خُطَب رسول الله ﷺ بمنًى في وسط أيام التشريق وهو على بعير فقال: «أيها الناس، أَلا إنَّ ربكم واحد، وإن أباكم واحد، أَلَا لا فضل لعربيٍّ على عجميٍّ، ولا لعجميٍّ[1] على عربي، ولا لأسودَ على أحمرَ، ولا لأحمر على أسود؛ إلا بالتقوى، ألا هل بلَّغت؟ قالوا: نعم. قال: ليبلِّغ الشاهدُ الغائب»[2].

وفيه عن أبي مالك[3] الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله لا ينظر إلى أحسابكم[4]، ولا إلى أجسامكم، ولا إلى أموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم، فمن كان له قلبٌ صالح، تحنَّن الله عليه، وإنما أنتم بنو آدم وأحبُّكم إليه أتقاكم»[5].

ولعليٍّ ؓ في هذا المعنى وهو مشهورٌ من شعره:

النـاس في[6] جهـة التـمـثيـل أكْـفـاءُ ... أبـــوهـــمُ آدمُ والأمُّ حـــواءُ
نـفـسٌ كـنـفـسٍ وأرواحٌ مـشـاكـلـةٌ ... وأعـظُـمٌ خُـلـقـتْ فـيـهـم وأعـضـاءُ
فإن يـكـن لـهُـم مـن أصـلـهـمْ حـسـبٌ ... يـفـاخـرون بـه فـالـطـيـنُ والـمـاءُ
مـا الـفـضـلُ إلا لأهـل الـعـلـم إنـهـمُ ... عـلـى الـهُـدَى لـمـن اسـتَـهْـدى أدِلَّاءُ
وقَـدْرُ كـلِّ امـرئ مـا كـان يـحـسـنُـه ... ولـلـرجـال عـلـى الأفـعـال سـيـمـاءُ

(١) في (م): ولا عجمي.

(٢) وأخرجه أحمد (٢٣٤٨٩)، وأبو نعيم في الحلية ٣/ ١٠٠ من طريق سعيد الجريري به.

(٣) في (م): عن مالك، وهو خطأ.

(٤) بعدها في (م): ولا إلى أنسابكم.

(٥) أخرجه الطبراني في الكبير (٣٤٥٦)، وفي مسند الشاميين (١٦٧٨) عن أبي مالك الأشعري، وفي إسناده محمد بن إسماعيل بن عباس عن أبيه. قال أبو حاتم ـ كما في تهذيب التهذيب ـ: لم يسمع من أبيه شيئاً، حملوه على أن يحدث فحدث. وقال ابن حجر في التقريب: عابوا عليه أنه حدث عن أبيه بغير سماع. اهـ وفي صحيح مسلم (٢٥٦٤) عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم» وسلف في المسألة الرابعة من تفسير الآية (١١).

(٦) في (م): من.

وضدُّ كلِّ امرئ ما كان يجهله والجاهلون لأهل العلم أعداءُ[(١)]

الثانية: بيَّن الله تعالى في هذه الآية أنه خلق الخلق من الذكر والأنثى، وكذلك في أوّل سورة النساء[(٢)]. ولو شاء لخلقه دونهما؛ كخلقه لآدمَ، أو دون ذَكَر؛ كخلقه لعيسى عليه السلام، أو دون أنثى؛ كخلقه حواءَ من إحدى الجهتين. وهذا الجائز في القدرة لم يَرِد به الوجود. وقد جاء أن آدم خلق الله منه حوّاء من ضلع انتزعها من أضلاعه، فلعله هذا القسم. قاله ابن العربي[(٣)].

الثالثة: خلق الله الخلق بين الذكر والأنثى أنساباً وأصهارًا وقبائلَ وشعوبًا، وخلق لهم منها التعارف، وجعل لهم بها التواصل؛ للحكمة التي قدَّرها وهو أعلمُ بها، فصار كلُّ أحد يحوز نسبه، فإذا نفاه رجل عنه استوجب الحدَّ بقذفه [له]، مثل أن ينفيه عن رهطه وحسبه[(٤)]، بقوله للعربي: يا أعجمي، وللعجمي: يا عربي؛ ونحو ذلك مما يقع به النفي حقيقة، انتهى.

الرابعة: ذهب قوم من الأوائل إلى أنَّ الجنين إنما يكون من ماء الرجل وحده، ويتربَّى في رحم الأم، ويستمدُّ من الدم الذي يكون فيه. واحتجوا بقوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ . فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ [المرسلات: ٢٠-٢١]. وقولِه تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ [السجدة: ٨]. وقولِه: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ﴾ [القيامة: ٣٧]. فدلَّ على أن الخَلْق من ماء واحد.

والصحيح أن الخَلْق إنما يكون من ماء الرجل والمرأة لهذه الآية، فإنها

(١) وقع في ديوان علي ص٥، البيت الأول والثالث والرابع، وبيت آخر ملفق من الشطر الأول من الخامس والشطر الثاني من السادس. وكذا ذكرها الخطيب البغدادي في تاريخه ٤/ ٣٩١ قال: أنشدها أبو عبد الرحمن مؤذن المأمون. والجرجاني في أسرار البلاغة ص٢٢٩ ونسبها لمحمد بن الربيع الموصلي.

(٢) ٦/٦.

(٣) في أحكام القرآن ٤/ ١٧١٣ وما بعده منه.

(٤) وقع في أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧١٣: وجنسه.

نصٌّ لايحتمل التأويل. وقوله تعالى: ﴿خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ . يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ﴾ [الطارق:٦-٧]. والمراد منه أصلابُ الرجال وترائبُ النساء، على ما يأتي بيانه .

وأمَّا ما احتجُّوا به فليس فيه أكثر من أن الله تعالى ذكر خلق الإنسان من الماء والسُّلالةِ والنطفةِ، ولم يُضِفها إلى أحد الأبوين دون الآخر. فدلَّ على أن الماء والسُّلالة لهما، والنطفةَ منهما بدلالة ما ذكرنا. وبأن المرأة تُمْني كما يُمْني الرجل، وعن ذلك يكون الشَّبَه، حسب ما تقدَّم بيانه في آخر «الشورى»(١). وقد قال في قصة نوح: ﴿فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ [القمر:١٢]، وإنما أراد ماءَ السماء وماء الأرض؛ لأن الالتقاء لا يكون إلا من اثنين، فلا يُنكَر أن يكون ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ [السجدة:٨] وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ [المرسلات:٢٠] ويريد ماءين. والله أعلم.

الخامسة: قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ﴾ الشعوب رؤوس القبائل، مثل ربيعة ومُضَر، والأَوْس والخَزْرَج، واحدُها شَعْب بفتح الشين، سُمُّوا به لتشعُّبهم واجتماعهم كشُعَب أغصان الشجرة. والشَّعْب من الأضداد(٢)، يقال: شعبته إذا جمعته، ومنه المِشْعَب ـ بكسر الميم ـ وهو الإِشْفَى(٣)؛ لأنه يُجمع به ويشعب. قال:

فَكَابٍ على حُرِّ الجبين ومُتَّقٍ   بمَدْرِيَةٍ كأنه ذَلْقُ مِشْعَبِ(٤)

وشَعَبْتُه: إذا فرَّقتَه، ومنه سُمِّيت المنيَّة شَعُوب(٥)، لأنها مفرِّقة. فأما الشِّعب ـ بالكسر ـ فهو الطريق في الجبل؛ والجمع الشِّعاب .

---

(١) عند تفسير الآية (٤٨) منها.

(٢) تفسير البغوي ٤/٢١٧ .

(٣) الإشفى: السِّراد، وهو ما يُحزز به. القاموس (شفى).

(٤) البيت لامرئ القيس، وهو في ديوانه ص ٥٢ ، وقوله: الكابي أي: الساقط على وجهه . والمدرية: القرن . وذلق كل شيء: حدُّه . والمعنى أن من الشيران ما قد صرع ، ومنها ما يتقى بقرن حديد كحدِّ الإشفى . شرح الديوان.

(٥) في (م): شعوباً، وهو خطأ. وشَعُوبُ: علم على المَنِيَّة، غير مصروف. ينظر القاموس (شعب).

قال الجوهري: الشَّعب: ما تشعَّب من قبائل العرب والعجم، والجمع الشعوب. والشُّعُوبية: فرقةٌ لا تفضِّل العرب على العجم. وأمَّا الذي في الحديث: أن رجلاً من الشُّعوب أسلم[١]؛ فإنه يعني من العجم. والشَّعْب: القبيلة العظيمة، وهو أبو القبائل الذي ينسبون إليه، أي: يجمعهم ويضمهم[٢].

قال ابن عباس: الشُّعوب: الجمهور، مثل مضر، والقبائل: الأفخاذ[٣]، وقال مجاهد: الشُّعوب البعيدُ من النسب، والقبائل دون ذلك[٤]. وعنه أيضاً: أن الشعوب النسب الأقرب. وقاله قتادة[٥]. ذكر الأوّل عنه المهدويُّ، والثاني الماوردي[٦]. قال الشاعر:

رأيت سعوداً من شُعوب كثيرة ... فلم أر سعداً مثلَ سعدِ بنِ مالك[٧]

وقال آخر:

قبائلُ من شُعوب ليس فيهمْ ... كريمٌ قد يُعَدُّ ولا نجيبُ[٨]

وقيل: إن الشُّعوب عَرَبُ اليمن من قحطان، والقبائل من ربيعة ومضر وسائر عدنان. وقيل: إن الشُّعوب بطونُ العجم؛ والقبائل بطونُ العرب[٩]. وقال ابن عباس

---

(١) أخرجه أبو عبيد في الأموال (١٢٢)، والبيهقي ٩/ ١٩٩ من حديث مسروق، وتمام الحديث: فكانت تؤخذ منه الجزية، فأتى عمرَ ﷺ فأخبره، فكتب أن لا يؤخذ منه الجزية.

(٢) الصحاح (شعب).

(٣) تفسير أبي الليث ٣/ ٢٦٦، ونسبه السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٩٨ لعبد بن حميد وابن مردويه. وأخرجه الطبري ٢١/ ٣٨٤ بلفظ: الشعوب الجُمَّاع... والجُمَّاع: القبائل العظام كما فسرها أحد الرواة. وأخرج البخاري (٣٤٨٩) عن ابن عباس بلفظ: الشعوب القبائل العظام، والقبائل البطون.

(٤) تفسير مجاهد ٢/ ٦٠٨.

(٥) أخرجه الطبري ٢١/ ٣٨٥.

(٦) في النكت والعيون ٥/ ٣٣٦ القول الأول عن مجاهد وقتادة لا الثاني.

(٧) البيت لطَرَفَة بن العبد وهو في ديوانه ص ٧٢، وفيه: فلم تر عيني، بدل: فلم أر سعداً.

(٨) أورده الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٣٣٦.

(٩) المصدر السابق.

في رواية: إن الشُّعوب الموالي، والقبائل العرب[١]. قال القُشَيْري: وعلى هذا؛ فالشُّعوب مَن لا يُعرف لهم أصل [ولا] نسبٌ؛ كالهند والحبش[٢] والترك، والقبائل من العرب. الماوردي: ويحتمل أن الشُّعوب هم المضافون إلى النواحي والشِّعاب، والقبائل هم المشتركون في الأنساب. قال الشاعر:

وتـفـرَّقـوا شُـعَـبًـا فـكـلُّ جـزيـرةٍ فـيـهـا أمـيـرُ الـمـؤمـنـيـن ومِـنـبـرُ[٣]

وحكى أبو عبيد عن ابن الكلبي عن أبيه: الشَّعب أكبر من القبيلة، ثم الفصيلة، ثم العِمارة، ثم البطن، ثم الفَخِذ[٤]. وقيل: الشَّعب، ثم القبِيلة، ثم العِمارة، ثم البطن، ثم الفَخِذ، ثم الفصِيلة[٥]، ثم العَشيرة، وقد نَظمها بعض الأدباء فقال:

إقـصـد الـشَّـعـب فـهـو أكـثـر حَـيٍّ عـددًا فـي الـحِـواء[٦] ثـم الـقـبِـيـلـه
ثـم تـتـلـوهـا الـعِـمـارةُ ثـم الـ ـبطـن والـفـخـذُ بـعـدهـا والـفـصـيـلـه
ثـم مِـن بـعـدهـا الـعـشـيـرةُ لـكـن هـي فـي جـنـب مـا ذكـرنـا قـلـيـلـه

وقال آخر:

قـبِـيـلـةٌ قـبـلـهـا شَـعْـبٌ وبـعـدهـمـا عِـمـارةٌ ثـم بَـطْـنٌ تِـلْـوُهُ فَـخِـذُ
ولـيـس يُـؤوي الـفـتـى إلا فـصـيـلـتُـه ولا سَـدادَ لِـسَـهْـم مـالَـه قُـذَذُ[٧]

---

(١) الوسيط ٤/ ١٥٨.

(٢) في (ظ): والخيل، وفي (ف) و(م): والجبل، وفي الوسيط للواحدي ٤/ ١٥٨ - والكلام فيه دون نسبة -: الجيل، والمثبت من (ق)، وما بين حاصرتين من الوسيط.

(٣) النكت والعيون ٥/ ٣٣٦.

(٤) الصحاح (شعب).

(٥) الكشاف ٣/ ٥٦٩، والمحرر الوجيز ٥/ ١٥٣.

(٦) الحِواء: جماعة بيوت الناس إذا تدانت، والعرب تقول لمجتمع بيوت الحي: محتوى ومَحوى وحِواء. ينظر اللسان (حوا).

(٧) أورد هذه الأبيات الخمسة الآلوسي في روح المعاني ٢٦/ ١٦٢، والقُذَذ جمع قُذَّة: وهو ريش السهم. القاموس (قذذ).

السادسة: قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ وقد تقدّم في سورة الزخرف[١] عند قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزخرف: ٤٤].

وفي هذه الآية ما يدلُّك على أن التقوى هي المُراعى عند الله تعالى وعند رسوله دون الحسب والنسب.

وقُرِئ: «أنَّ» بالفتح. كأنه قيل: لِمَ لا[٢] يُتفاخر بالأنساب؟ قيل: لأن أكرمكم عند الله أتقاكم لا أنسبكم[٣].

وفي الترمذي عن سَمُرَة، عن النبيِّ ﷺ قال: «الحَسَبُ المال، والكرم التقوى». قال: هذا حديث حسن غريب صحيح[٤]. وذلك يرجع إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾، وقد جاء منصوصًا عنه عليه الصلاة والسلام: «مَن أحبَّ أن يكون أكرمَ الناس، فليتق الله»[٥]. والتقوى: معناه مراعاةُ حدود الله تعالى أمرًا ونهيًا، والاتصافُ بما أمرك أن تتصف به، والتنزهُ عما نهاك عنه. وقد مضى هذا في غير موضع.

وفي الخبر من رواية أبي هريرة عن النبيِّ ﷺ: «إن الله تعالى يقول يوم القيامة: إني جعلت نَسَبًا وجعلتم نَسَبًا، فجعلتُ أكرمكم أتقاكم، وأبيتم إلا أن تقولوا: فلان ابن فلان، وأنا اليوم أرفع نسبي وأضع أنسابكم، أين المتقون، أين المتقون»[٦].

وروى الطبريُّ من حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إن أوليائي المتقون يوم القيامة، وإن كان نسبٌ أقربَ من نسب. [لا] يأتي الناس بالأعمال؛ وتأتون

---

(١) ص٥٣ من هذا الجزء.

(٢) لفظة: لا، من (ف) و(ق).

(٣) الكشاف ٣/ ٥٦٩.

(٤) سنن الترمذي (٣٢٧١)، وسلف ٣/ ٣٦٠.

(٥) قطعة من حديث طويل لابن عباس رضي الله عنهما أخرجه العُقيلي في الضعفاء ٤/ ٣٤٠، وأبو نعيم في الحلية ٣/ ٢١٨. قال العقيلي: ليس لهذا الحديث طريق يثبت.

(٦) أخرجه الحاكم ٢/ ٤٦٤، والبيهقي في الشعب (٥١٣٩).

بالدنيا تحملونها على رقابكم تقولون: يا محمد، فأقول هكذا وهكذا». وأعْرَض في كُلِّ عِطْفَيْه[١].

وفي صحيح مسلم من حديث عبد الله بن عمرو قال: سمعت رسول الله ﷺ جِهارًا غيرَ سِرٍّ يقول: «إن آل أبي ليسوا لي بأولياء، إنما وَلِيِّي اللهُ وصالحُ المؤمنين»[٢].

وعن أبي هريرة أن النبيَّ ﷺ سُئل: مَن أكرم الناس؟ فقال: «يوسفُ بنُ يعقوبَ بنِ إسحاقَ بن إبراهيم». قالوا: ليس عن هذا نسألُك، قال: «فأكرمهم عند الله أتقاهم» فقالوا: ليس عن هذا نسألك، فقال: «عن معادن العرب؟ خيارُهم في الجاهلية خيارُهم في الإسلام إذا فَقُهُوا»[٣]. وأنشدوا في ذلك:

ما يصنع العبد بعِزِّ الغنى والعِزُّ كلُّ العِزِّ للمُتَّقي
مَن عرف الله فلم تغنه معرفةُ الله فذاك الشَّقي[٤]

السابعة: ذكر الطبري حدَّثني عمر بن محمد قال: حدَّثنا عبيد بن إسحاق العطار قال: حدَّثنا مندل بن عليٍّ، عن ثور بن يزيد، عن سالم بن أبي الجعد قال: تزوَّج رجل من الأنصار امرأة، فطُعِن عليها في حَسَبِها، فقال الرجل: إني لم أتزوَّجها لِحَسَبها، إنما تزوَّجتها لدينها وخُلُقها، فقال النبيُّ ﷺ: «ما يضرُّك ألا تكون من آل حاجب بن زُرارة». ثم قال النبيُّ ﷺ: «إن الله تبارك وتعالى جاء بالإسلام، فرفع به الخسيسة، وأتمَّ به الناقصة، وأذهب به اللَّوم، فلا لوم على مسلم، إنما اللَّوم لَوْمُ

---

(١) لم نقف عليه عند الطبري، وأخرجه البخاري في الأدب المفرد (٨٩٧)، وابن أبي عاصم في السنة (٢١٣) وما بين حاصرتين منهما. ووقع في (ظ) و(ف): كلى (كذا)، ولعلها: كِلا (بالألف الممدودة) كما وقع في الأدب المفرد: في كلا عطفيه. والعِطف: الجانب، وعِطفا كل شيء: جانباه. القاموس (عطف).

(٢) صحيح مسلم (٢١٥)، وهو عند البخاري (٥٩٩٠)، وسلف ٢/ ٨١.

(٣) أخرجه أحمد (٩٥٦٨)، والبخاري (٣٣٥٣)، ومسلم (٢٣٧٨).

(٤) لم نقف عليهما.

الجاهلية».[١] وقال النبيُّ ﷺ: «إني لأرجو أن أكون أخشاكم لله وأعلمكم بما أتقي»[٢] ولذلك كان أكرمَ البشر على الله تعالى.

قال ابن العربي: وهذا الذي لحظ مالك في الكفاءة في النكاح. روى عبد الله عن مالك: يتزوَّج المَوْلى العربية، واحتجَّ بهذه الآية. وقال أبو حنيفة والشافعي: يُراعى الحَسَب والمال. وفي الصحيح عن عائشةَ أن أبا حذيفةَ بنَ عتبةَ بنِ ربيعة - وكان ممن شهد بدراً مع النبيِّ ﷺ - تبنَّى سالماً، وأنكحه هنداً بنتَ أخيه الوليدِ بن عتبة بن ربيعة، وهو مولًى لامرأة من الأنصار[٣]. وضُباعة بنت الزبير كانت تحت المقداد بن الأسود[٤].

قلت: وأختُ عبد الرحمن بن عوف كانت تحت بلال، وزينبُ بنتُ جحش كانت تحت زيد بن حارثة[٥]. فدلَّ على جواز نكاح الموالي العربية، وإنما تُراعى الكفاءة في الدِّين. والدليلُ عليه أيضًا ما روى سهل بن سعد في صحيح البخاري أن النبيَّ ﷺ مَرَّ عليه رجل فقال: «ما تقولون في هذا؟» فقالوا: حَريٌّ إن خطب أن يُنْكَح، وإن شَفَع أن يُشَفَّع، وإن قال أن يُسْمَع. قال: ثم سكت، فمرَّ رجل من فقراء المسلمين فقال: «ما تقولون في هذا؟» قالوا: حَريٌّ إن خطب ألَّا يُنْكَح، وإن شَفَع ألَّا يُشَفَّع، وإن قال ألَّا يُسْمع. فقال رسول الله ﷺ: «هذا خَيرٌ من مِلءِ الأرض مثلَ هذا»[٦].

وقال ﷺ: «تُنكح المرأة لمالها وجمالها ودينها - وفي رواية: ولحسبها - فعليك بذات الدِّين تَرِبَتْ يداك»[٧].

وقد خطب سلمانُ إلى أبي بكر ابنته فأجابه، وخطب إلى عمر ابنته فالتَوى عليه،

(١) لم نقف عليه.

(٢) قطعة من حديث أخرجه أحمد (٢٤٣٨٥)، ومسلم (١١١٠) عن عائشة رضي الله عنها.

(٣) صحيح البخاري (٤٠٠٠).

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧١٣ - ١٧١٤.

(٥) سلف هذا الكلام ١٧/ ١٥٢.

(٦) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧١٤، والحديث في صحيح البخاري (٥٠٩١).

(٧) أخرجه البخاري (٥٠٩٠)، ومسلم (١٤٦٦) من حديث أبي هريرة ﷺ، وسلف ٥/ ٤٥.

ثم سأله أن يَنكحها فلم يفعل سلمان. وخطب بلال بنتَ البكير فأبى إخوتها، فقال بلال: يا رسول الله، ماذا لقيت من بني البكير! خطبت إليهم أختهم فمنعوني وآذوني، فغضب رسول الله ﷺ من أجل بلال، فبلغهم الخبر، فأتَوا أختهم فقالوا: ماذا لقينا من سببك؟ فقالت أختهم: أمري بيد رسول الله ﷺ؛ فزوَّجوها [بلالاً][1].

وقال النبي ﷺ في أبي هند حين حجمه: «أنكحوا أبا هند وأنكحوا إليه». وهو مولى بني بياضة[2].

وروى الدَّارَقُطنيُّ[3] من حديث الزُّهْريِّ عن عُرْوَةَ عن عائشةَ أن أبا هند مولى بني بياضة كان حجَّاماً، فحجم النبيَّ ﷺ، فقال النبيُّ ﷺ: «مَن سرَّه أن ينظر إلى مَن صوَّر الله الإيمان في قلبه، فلينظر إلى أبي هند». وقال رسول الله ﷺ: «أنكحوه وأنكحوا إليه».

قال القشيري أبو نصر: وقد يعتبر النسب في الكفاءة في النكاح، وهو الاتصال بشجرة النبوّة، أو بالعلماء الذين هم ورثة الأنبياء، أو بالمرموقين في الزُّهد والصلاح. والتقيُّ المؤمن أفضلُ من الفاجر النسيب، فإن كانا تَقِيَّيْن؛ فحينئذ يُقدَّم النسيب منهما، كما يُقدَّم الشيخ على الشاب[4] في الصلاة إذا استويا في التقوى.

قوله تعالى: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَـٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَـٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَـٰلِكُمْ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾﴾

نزلت في أعراب من بني أسد بنِ خُزيمة؛ قَدِموا على رسول الله ﷺ في سنة جَدْبة، وأظهروا الشهادتين، ولم يكونوا مؤمنين في السرّ، وأفسدوا طرق المدينة

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧١٤، وما بين حاصرتين منه، ووقع فيه: فزوجها، بدل: فزوجوها، ولم نقف على هذا الخبر في مصادر التخريج.

(٢) المصدر السابق، وأخرجه أبو داود (٢١٠٢)، وابن حبان (٤٠٦٧) من حديث أبي هريرة ﷺ، وسلف نحوه عن الزُّهري مرسلاً. في المسألة الأولى.

(٣) في سننه (٣٧٩٣).

(٤) في (م): كما يقدم الشاب على الشيخ!

بالعَذِرات، وأغلَوا أسعارها، وكانوا يقولون لرسول الله ﷺ: أتيناك بالأثقال والعيال، ولم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان، فأعطنا من الصدقة، وجعلوا يمنُّون عليه، فأنزل الله تعالى فيهم هذه الآية(١).

وقال ابن عباس: نزلت في أعراب أرادوا أن يَتَسَمَّوْا باسم الهجرة قبل أن يهاجروا، فأعلم الله أن لهم أسماءَ الأعراب، لا أسماءَ المهاجرين(٢).

وقال السدِّي: نزلت في الأعراب المذكورين في سورة الفتح: [وهم] أعراب مُزَيْنَة وجُهَيْنة، وأسْلَمَ وغِفارَ، والدِّيل وأشجع؛ قالوا: آمنَّا؛ ليأمنوا على أنفسهم وأموالهم، فلما استُنفروا إلى الحديبية(٣)، تخلَّفوا،

فنزلت. وبالجملة؛ فالآية خاصة لبعض الأعراب؛ لأن منهم مَن يؤمن بالله واليوم الآخر كما وصف الله تعالى(٤).

ومعنى «وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا» أي: استسلمنا خوف القتل والسَّبْي، وهذه صفة المنافقين؛ لأنهم أسلموا في ظاهر إيمانهم ولم تؤمن قلوبهم، وحقيقةُ الإيمان التصديق بالقلب. وأمَّا الإسلام فقَبول ما أتى به النبيُّ ﷺ في الظاهر، وذلك يَحْقِن الدّم.

﴿وَإِن تُطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ يعني إن تُخلِصوا الإيمان ﴿لَا يَلِتۡكُم﴾ أي: لا ينقصكم ﴿مِّنۡ أَعۡمَٰلِكُمۡ شَيۡـًٔاۚ﴾. لاته يليته ويلوته: نقصه.

وقرأ أبو عمرو: «لا يألِتكم» بالهمزة(٥)، مِن أَلَت يَألِت أَلْتًا(٦)، وهو اختيار أبي

(١) أسباب النزول للواحدي ص ٤١٩.

(٢) ينظر النكت والعيون ٥/ ٣٣٧، وأخرجه الطبري ٢١/ ٣٩٠ بنحوه.

(٣) في النسخ: المدينة، والمثبت من تفسير البغوي ٤/٢١٨ والكلام وما سلف بين حاصرتين منه، وينظر زاد المسير ٧/ ٤٧٦.

(٤) يشير المصنف إلى قوله تعالى في سورة التوبة: ﴿وَمِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مَن يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ﴾ [الآية: ٩٩].

(٥) السبعة ص٦٠٦، والتيسير ص٢٠٢.

(٦) ينظر الكشف عن وجوه القراءات ٢/ ٢٨٤، والوسيط ٤/ ١٦٠.

حاتم؛ اعتبارًا بقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ﴾ [الطور: ٢١]. قال الشاعر:

أبلِغْ بني ثُعَلٍ عني مُغَلْغَلَةً جَهْدَ الرِّسالة لا أَلْتًا ولا كَذِبا[١]

واختار الأولى أبو عبيد. قال رؤبة:

وليلةٍ ذاتِ نَدًى سَرَيْتُ ولم يَلِتْني عن سُراها لَيْتُ[٢]

أي: لم يمنعني عن سُراها مانع، وكذلك ألاته عن وجهه، فَعَلَ وأَفْعَل بمعنًى. ويقال أيضًا: ما ألاته من عمله شيئًا، أي: ما نقصه، مثل أَلَتَه. قاله الفرّاء: وأنشد:

ويأكلنَ ما أغْنَى الوَلِيُّ فلم يَلِتْ كأنَّ بحافات النِّهاء المَزَارِعا[٣]

قوله: فلم يَلِتْ، أي: لم يَنقص منه شيئًا. وأَغْنَى: بمعنى أنبت؛ يقال: ما أَغْنَت الأرض شَيئًا، أي: ما أنبتت. والوليُّ: المطر بعد الوَسْميّ[٤]، سُمِّي وليًّا لأنه يلي الوَسْميّ.

ولم يقل: لا يَلِتاكم[٥]؛ لأن طاعة الله تعالى طاعةُ الرسول.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟﴾ أي: صدَّقوا

---

(١) البيت لحاتم الطائي وهو في ديوانه ص ٧٤، وفيه: لا محكاً ولا بُطْلا، بدل: لا ألتاً ولا كذبا. وأورده برواية المصنف الفراء في معاني القرآن ٣/ ٩٢، والأزهري في تهذيب اللغة ١٤/ ٣٢٠. والمُغَلْغَلة: الرسالة المحمولة من بلد إلى بلد. القاموس (غلل).

(٢) لم نقف عليه في ديوانه، وسلف ١٣/ ٦.

(٣) أورده ابن السكيت في إصلاح المنطق ص ٢٠٩ ونسبه لعدي، وفيه: يلث، بدل: يلت. وقوله: النِّهاء هو جمع نِهي ـ بالكسر والفتح ـ، أي: الغدير. القاموس (نهى).

(٤) الوسميُّ: هو مطر الربيع الأول، سمي بذلك لأنه يسم الأرض بالنبات. ينظر اللسان (وسم).

(٥) في (م): ولا يألتاكم.

ولم يشكُّوا، وحقَّقوا ذلك بالجهاد والأعمال الصالحة. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ في إيمانهم، لا مَن أسلم خوفَ القتل ورجاءَ الكسب. فلمَّا نزلت حلف الأعراب أنهم مؤمنون في السرِّ والعلانية وكذبوا، فنزلت: ﴿قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ﴾ الذي أنتم عليه. ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾[1].

قوله تعالى: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا﴾ إشارة إلى قولهم: جئناك بالأثقال والعيال. و«أن» في موضع نصب على تقدير: لأن أسلموا. ﴿قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم﴾ أي: بإسلامكم. ﴿بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ﴾ «أن» في[2] موضع نصب، تقديره: بأن. وقيل: لأن. وفي مصحف عبد الله: «إِذْ هَدَاكُمْ»[3]. ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أنكم مؤمنون. وقرأ عاصم: «إنْ هداكم»[4] بالكسر، وفيه بُعد؛ لقوله: «إنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ». ولا يقال: يَمُنُّ عليكم أن يهديكم إن صدقتم. والقراءة الظاهرة «أنْ هَدَاكُمْ». وهذا لا يدلُّ على أنهم كانوا مؤمنين، لأن تقدير الكلام: إن آمنتم فذلك مِنّة الله عليكم.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ قرأ ابن كثير وابن مُحَيْصن[5] بالياء على الخبر، ردًّا على قوله: «قَالَتِ الأَعْرَابُ». الباقون بالتاء على الخطاب.

---

(١) تفسير أبي الليث ٣/ ٢٦٧، وبنحوه في تفسير البغوي ٤/ ٢١٩، وزاد المسير ٧/ ٤٧٧.

(٢) لفظة: في، من (ف) و (ق).

(٣) القراءات الشاذة ص ١٤٤.

(٤) قراءة شاذة، وذكرها الزمخشري ٣/ ٥٧٢ دون نسبة، وقراءة عاصم كقراءة الجماعة: أن هداكم.

(٥) بعدها في (ف) و(ق) و(م): وأبو عمرو، وهو خطأ، وينظر السبعة ص ٦٠٦، والتيسير ص ٢٠٢.

تفسير سورة الحجرات

وهى مدنية[١].

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لا تَشْعُرُونَ (٢) إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ (٣)﴾.

هذه آداب[٢]، أدب بها الله عباده المؤمنين فيما يعاملون به الرسول ﷺ من التوقير والاحترام والتبجيل والإعظام، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ [وَاتَّقُوا اللَّهَ][٣]﴾، أى: لا تسرعوا فى الأشياء بين يديه، أى: قبله، بل كونوا تبعا له فى جميع الأمور، حتى يدخل فى عموم هذا الأدب الشرعى حديثُ معاذ، [إذ][٤] قال له النبى ﷺ حين بعثه إلى اليمن: «بم تحكم؟» قال: بكتاب الله. قال: «فإن لم تجد؟». قال: بسنة رسول الله. قال: «فإن لم تجد؟». قال: أجتهد رأيى، فضرب فى صدره وقال: «الحمد لله الذى وفق رسولَ رسولِ الله، لما يرضى رسول الله».

وقد رواه أحمد، وأبو داود، والترمذى، وابن ماجه[٥]. فالغرض منه أنه أخر رأيه ونظره واجتهاده إلى ما بعد الكتاب والسنة، ولو قدمه قبل البحث عنهما لكان من باب التقديم بين يدى الله ورسوله.

قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: ﴿لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾: لا تقولوا خلاف الكتاب والسنة.

وقال العَوْفى عنه: نهى[٦] أن يتكلموا بين يدى كلامه.

وقال مجاهد: لا تفتاتوا على رسول الله ﷺ بشىء، حتى يقضى الله على لسانه.

وقال الضحاك: لا تقضوا أمرا دون الله ورسوله من شرائع دينكم.

وقال سفيان الثورى: ﴿لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ بقول ولا فعل.

---

(١) فى أ: «وهى مدنية ثمان عشرة آية».
(٢) فى م: «آيات».
(٣) زيادة من م.
(٤) زيادة من ت، وفى أ: «حيث».
(٥) سبق الكلام عليه فى مقدمة الكتاب.
(٦) فى ت، م، أ: «نهوا».

وقال الحسن البصرى: ﴿لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ قال: لا تدعوا قبل الإمام.

وقال قتادة: ذكر لنا أن ناسا كانوا يقولون: لو أنزل فى كذا كذا، وكذا لو صنع كذا، فكره الله ذلك، وتقدم فيه.

﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ أى: فيما أمركم به، ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ﴾ أى: لأقوالكم ﴿ عَلِيمٌ ﴾ بنياتكم.

وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾: هذا أدب ثان أدب الله به المؤمنين ألاّ يرفعوا أصواتهم بين يدى النبى ﷺ [فوق صوته][(١)]. وقد روى أنها نزلت فى الشيخين أبى بكر وعمر، رضى الله عنهما.

وقال البخارى: حدثنا بَسْرَة بن صفوان اللَّخْمِى، حدثنا نافع بن عمر، عن ابن أبى مُلَيْكَة قال: كاد الخيِّران أن يهلكا، أبو بكر وعمر، رضى الله عنهما، رفعا أصواتهما عند النبى ﷺ حين قدم عليه ركب بنى تميم، فأشار أحدهما بالأقرع بن حابس أخى بنى مجاشع، وأشار الآخر برجل آخر ـ قال نافع: لا أحفظ اسمه ـ فقال أبو بكر لعمر: ما أردتَ إلا خلافى. قال: ما أردت خلافك. فارتفعت أصواتهما فى ذلك، فأنزل الله: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾ الآية، قال ابن الزبير: فما كان عمر يُسمعُ رسول الله ﷺ بعد هذه الآية حتى يستفهمه، ولم يذكر ذلك عن أبيه: يعنى أبا بكر، رضى الله عنه. انفرد به دون مسلم[(٢)].

ثم قال البخارى: حدثنا الحسن بن محمد، حدثنا حَجَّاج، عن ابن جُرَيْج، حدثنى ابن أبى مليكة: أن عبد الله بن الزبير أخبره: أنه قَدم ركب من بنى تميم على النبى ﷺ، فقال أبو بكر: أمِّر القعقاعَ بن مَعْبد. وقال عمر: بل أمِّر الأقرع بن حابس، فقال أبو بكر: ما أردت إلى ـ أو: إلا ـ خلافى. فقال عمر: ما أردتُ خلافَك، فتماريا حتى ارتفعت أصواتهما، فنزلت فى ذلك: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ ، حتى انقضت الآية، ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ﴾ الآية [الحجرات: ٥].

وهكذا رواه هاهنا منفردا به أيضا[(٣)].

وقال[(٤)] الحافظ أبو بكر البزار فى مسنده: حدثنا الفضل بن سهل، حدثنا إسحاق بن منصور، حدثنا حصين بن عُمَر، عن مُخَارق، عن طارق بن شهاب، عن أبى بكر الصديق قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾ ، قلت: يا رسول الله، والله لا أكلمك إلا كأخى السِّرار[(٥)].

---

(١) زيادة من ت، م، أ.

(٢) صحيح البخارى برقم (٤٨٤٥).

(٣) صحيح البخارى برقم (٤٨٤٧).

(٤) فى ت: «وروى».

(٥) مسند البزار برقم (٢٢٥٧) «كشف الأستار» وقال: «لا نعلمه يروى متصلاً إلا عن أبى بكر، وحصين حدث بأحاديث لم يتابع عليها، ومخارق مشهور، ومن عداه أجلاء».

حصين بن عمر هذا ـ وإن كان ضعيفًا ـ لكن قد رويناه من حديث عبد الرحمن بن عوف، وأبى هريرة [رضى الله عنه][(١)] بنحو ذلك، والله أعلم[(٢)].

وقال البخارى: حدثنا على بن عبد الله، حدثنا أزهر بن سعد، أخبرنا ابن عون، أنبأنى موسى ابن أنس[(٣)]، عن أنس بن مالك، رضى الله عنه، أن النبى ﷺ افتقد ثابت بن قيس، فقال رجل: يا رسول الله، أنا أعلم لك علمه. فأتاه فوجده فى بيته مُنَكِّسًا رأسه، فقال له: ما شأنك؟ فقال: شر، كان يَرْفَعُ صوته فوق صوت النبى ﷺ، فقد حبط عمله، فهو من أهل النار. فأتى الرجل النبى ﷺ فأخبره أنه قال كذا وكذا، قال موسى: فرجع إليه المرة الآخرة ببشارة عظيمة فقال: «اذهب إليه فقل له: إنك لست من أهل النار، ولكنك من أهل الجنة» تفرد به البخارى من هذا الوجه[(٤)].

وقال الإمام أحمد: حدثنا هاشم، حدثنا[(٥)] سليمان بن المغيرة، عن ثابت، عن أنس قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾ إلى: ﴿وَأَنتُمْ لا تَشْعُرُونَ﴾، وكان ثابت بن قيس بن الشماس رفيع الصوت فقال: أنا الذى كنت أرفع صوتى على رسول الله ﷺ حبط عملى، أنا من أهل النار، وجلس فى أهله حزينا، ففقده رسول الله ﷺ، فانطلق بعض القوم إليه فقالوا له: تفقدك رسول الله ﷺ،ما لك؟ قال: أنا الذى أرفع صوتى فوق صوت النبى ﷺ، وأجهر له بالقول، حبط عملى، أنا من أهل النار. فأتوا النبى ﷺ فأخبروه بما قال، فقال:«لا، بل هو من أهل الجنة». قال أنس: فكنا نراه يمشى بين أظهرنا، ونحن نعلم أنه من أهل الجنة. فلما كان يوم اليمامة كان فينا بعض الانكشاف، فجاء ثابت بن قيس بن شماس، وقد تحنط ولبس كفنه، فقال: بئسما تُعوّدون أقرانكم . فقاتلهم حتى قُتل[(٦)] [(٧)].

وقال مسلم: حدثنا أبو بكر بن أبى شيبة، حدثنا الحسن بن موسى، حدثنا حماد بن سلمة، عن ثابت البُنانى، عن أنس بن مالك قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾ إلى آخر الآية، جلس ثابت فى بيته، قال: أنا من أهل النار. واحتبس عن النبى ﷺ، فقال[(٨)] النبى ﷺ لسعد بن معاذ: «يا أبا عمرو، ما شأن ثابت؟ أشتكى؟» فقال سعد: إنه لجارى، وما علمت له بشكوى. قال: فأتاه سعد فذكر له قول رسول الله[(٩)] ﷺ، فقال ثابت: أُنْزِلَت هذه الآية، ولقد علمتم أنى من أرفعكم صوتا على رسول الله ﷺ، فأنا من أهل النار. فذكر ذلك سعد للنبى ﷺ، فقال رسول الله ﷺ:«بل، هو من أهل الجنة».

---

(١) زيادة من أ.

(٢) أما حديث أبى هريرة، فرواه الحاكم فى المستدرك (٢/ ٤٦٢) من طريق محمد بن عمرو عن أبى سلمة عنه، وقال: «صحيح الإسناد على شرط مسلم ولم يخرجاه» ووافقه الذهبى.

(٣) فى ت: «وروى البخارى بسنده».

(٤) صحيح البخارى برقم (٤٨٤٦).

(٥) فى ت: «ابن». (٦) فى ت: «حتى قتل رحمه الله».

(٧) المسند (٣/ ١٣٧).

(٨) فى م: « فسأل». (٩) فى م:«النبى».

ثم رواه مسلم عن أحمد بن سعيد[١] الدارمي، عن حَيَّان بن هلال، عن سليمان بن المغيرة، به، قال: ولم يذكر سعدَ بن معاذ. وعن قطن بن نُسَير عن جعفر بن سليمان[٢]، عن ثابت، عن أنس بنحوه. وقال: ليس فيه ذكر سعد بن معاذ.

حدثنا هُرَيم[٣] بن عبد الأعلى الأسدى، حدثنا المعتمر بن سليمان، سمعت أبى يذكر، عن ثابت، عن أنس قال: لما نزلت هذه الآية، واقتص الحديث، ولم يذكر سعد بن معاذ، وزاد: فكنا نراه يمشى بين أظهرنا رَجلٌ من أهل الجنة[٤].

فهذه الطرق الثلاث مُعَلّلة لرواية حماد بن سلمة، فيما تفرد به من ذكر سعد بن معاذ. والصحيح: أن حال نزول هذه الآية لم يكن سعد بن معاذ موجوداً؛ لأنه كان قد مات بعد بنى قريظة بأيام قلائل سنة خمس، وهذه الآية نزلت فى وفد بنى تميم، والوفود إنما تواتروا فى سنة تسع من الهجرة، والله أعلم.

وقال ابن جرير: حدثنا أبو كُرَيْب، حدثنا زيد بن الحُبَاب، حدثنا أبو ثابت بن ثابت بن قيس بن شمَّاس، حدثنى عمى إسماعيل بن محمد بن ثابت بن قيس بن شماس، عن أبيه قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿ **لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ** ﴾ قال: قعد ثابت بن قيس[٥] فى الطريق يبكى، قال: فمر به عاصم بن عدى من بنى العَجلان، فقال: ما يبكيك يا ثابت؟ قال: هذه الآية، أتخوف أن تكون نزلت فىَّ وأنا صيت، رفيع الصوت. قال: فمضى عاصم بن عدى إلى رسول الله ﷺ قال: وغلبه البكاء، فأتى امرأته جميلة ابنة عبد الله بن أبى بن سلول فقال لها: إذا دخلتُ بيت فَرَسى فشدّى عَلَىّ الضبَّة بمسمار، فضربته بمسمار حتى إذا خرج عطفه، وقال: لا أخرج حتى يتوفانى الله، عز وجل، أو يرضى عنى رسول الله ﷺ. قال: وأتى عاصم رسولَ الله ﷺ فأخبره خبره، فقال: «اذهب فادعه لى». فجاء عاصم إلى المكان فلم يجده، فجاء إلى أهله فوجده فى بيت الفَرَس، فقال له: إن رسول الله ﷺ يدعوك. فقال: اكسر الضبة. قال: فخرجا فأتيا[٦] النبى ﷺ فقال له رسول الله ﷺ: «ما يبكيك يا ثابت؟». فقال: أنا صيت وأتخوف أن تكون هذه الآية نزلت فى: ﴿ **لا تَرْفَعُوا[٧] أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ** ﴾. فقال له رسول الله ﷺ: «أما ترضى أن تَعيش حَميداً، وتقتل شهيدا، وتدخل الجنة؟». فقال: رضيت ببشرى الله ورسوله ﷺ، ولا أرفع صوتى أبدا على صوت النبى ﷺ. قال: وأنزل الله: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ**[٨] ﴾[٩].

وقد ذكر هذه القصة غير واحد من التابعين كذلك، فقد نهى الله عز وجل، عن رفع الأصوات

---

(١) فى أ: «سعد». (٢) فى م: «مسلم». (٣) فى م: «هدبة».
(٤) صحيح مسلم برقم (١١٩).
(٥) فى أ: «ثابت بن قيس بن شماس». (٦) فى أ: «حتى أتيا».
(٧) فى أ: «يأيها الذين آمنوا لاترفعوا». (٨) فى أ بعدها: ﴿لهم مغفرة وأجر عظيم﴾ بدل «الآية».
(٩) تفسير الطبرى (٢٦/ ٧٥).

بحضرة رسول الله ﷺ، وقد روينا عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب [رضى الله عنه][١] أنه سمع صَوت رجلين فى مسجد رسول الله[٢] ﷺ قد ارتفعت أصواتهما، فجاء، فقال: أتدريان أين أنتما؟ ثم قال: مِن أين أنتما؟ قالا: من أهل الطائف. فقال: لو كنتما من أهل المدينة لأوجعتكما ضربا[٣].

وقال العلماء: يكره رفع الصوت عند قبره، كما كان يكره فى حياته؛ لأنه محترم حيا وفى قبره، صلوات الله وسلامه عليه[٤]، دائما. ثم نهى عن الجهر له بالقول كما يجهر الرجل لمخاطبه ممن عداه، بل يخاطب بسكينة ووقار وتعظيم؛ ولهذا قال: ﴿وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾، كما قال: ﴿لا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾ [النور: ٦٣].

وقوله: ﴿أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لا تَشْعُرُونَ﴾ أى: إنما نهيناكم عن رفع الصوت عنده خشية أن يغضب من ذلك، فيغضب الله لغضبه، فيحبط الله عمل من أغضبه وهو لا يدرى، كما جاء فى الصحيح: «إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله لا يُلقى لها بَالاً يكتب له بها الجنة. وإن الرجل ليتكلم بالكلمة من سَخَط الله لا يُلقى لها بالا يَهْوِى بها فى النار أبعد ما بين السموات والأرض»[٥].

ثم ندب الله عز وجل[٦]، إلى خفض الصوت عنده، وحَثّ على ذلك، وأرشد إليه، ورغَّب فيه، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى﴾ أى: أخلصها لها وجعلها أهلاً ومحلا، ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾.

وقد قال[٧] الإمام أحمد فى كتاب الزهد: حدثنا عبد الرحمن، حدثنا سفيان، عن منصور، عن مجاهد، قال: كُتب إلى عمر [٨]: يا أمير المؤمنين، رجل لا يشتهى المعصية ولا يعمل بها، أفضل، أم رجل يشتهى المعصية ولا يعمل بها؟ فكتب عمر، رضى الله عنه: إن الذين يشتهون المعصية ولا يعملون بها ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾[٩].

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ (٤) وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٥)﴾.

ثم إنه تعالى ذَمّ الذين ينادونه من وراء الحجرات، وهى بيوت نسائه، كما يصنع أجلاف الأعراب، فقال: ﴿أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ﴾.

ثم أرشد إلى الأدب فى ذلك فقال: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ أى:

---

(١) زيادة من ت. (٢) فى ت، م: «النبى».
(٣) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٤٧٠) من طريق السائب بن يزيد فذكره.
(٤) فى ت: «ﷺ».
(٥) صحيح البخارى برقم (٦٤٧٨) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه.
(٦) فى ت: «سبحانه وتعالى».
(٧) فى ت: «وقد روى». (٨) فى ت: «عمر بن الخطاب رضى الله عنه».
(٩) ذكره السيوطى فى الدر المنثور (٧/ ٥٥٢) وعزاه لأحمد فى الزهد.

لكان لهم فى ذلك الخيرة والمصلحة فى الدنيا والآخرة.

ثم قال داعيا لهم إلى التوبة والإنابة: ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

وقد ذُكر أنها نزلت فى الأقرع بن حابس التميمى، فيما أورده غير واحد، قال الإمام أحمد:

حدثنا عفان، حدثنا وُهَيْب، حدثنا موسى بن عقبة، عن أبى سلمة بن عبد الرحمن، عن الأقرع ابن حابس؛ أنه نادى رسول الله ﷺ من وراء الحجرات، فقال: يا محمد، يا محمد ـ وفى رواية: يا رسول الله ـ فلم يجبه. فقال: يا رسول الله، إن حمدى لزين، وإن ذمى لشين، فقال: «ذاك الله، عز وجل»[(١)].

وقال ابن جرير: حدثنا أبو عمار الحسين بن حُرَيْث المروزى، حدثنا الفضل بن موسى، عن الحسين بن واقد، عن أبى إسحاق[(٢)]، عن البراء فى قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ﴾ قال: جاء رسول الله[(٣)] فقال: يا محمد، إن حمدى زين، وذمى شين. فقال: «ذاك الله، عز وجل»[(٤)].

وهكذا ذكره الحسن البصرى، وقتادة مرسلا.

وقال سفيان الثورى، عن حبيب بن أبى عَمْرَة قال: كان بِشْر بن غالب ولَبِيد بن عُطَارِد ـ أو بشر ابن عطارد ولبيد بن غالب ـ وهما عند الحجاج جالسان ـ فقال بشر بن غالب للبيد بن عُطَارد: نزلت فى قومك بنى تميم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ﴾ قال: فذكرت ذلك لسعيد بن جبير فقال: أما إنه لو علم بآخر الآية أجابه: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا﴾[الحجرات:١٧]، قالوا: أسلمنا، ولم يقاتلك بنو أسد[(٥)].

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا عَمرو بن على الباهلى، حدثنا المعتمر بن سليمان: سمعت داود الطفاوى يحدث عن أبى مسلم[(٦)] البجلى[(٧)]، عن زيد بن أرقم قال: اجتمع أناس من العرب فقالوا: انطلقوا بنا إلى هذا الرجل، فإن يك نبيا فنحن أسعد الناس به، وإن يك ملكا نعش بجناحه. قال: فأتيت رسول الله ﷺ فأخبرته بما قالوا، فجاؤوا إلى حجرته فجعلوا ينادونه وهو فى حجرته: يا محمد، يا محمد. فأنزل الله [عز وجل][(٨)]: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾. قال: فأخذ رسول الله ﷺ بأذنى فمدها، فجعل يقول: «لقد صدق الله قولك يا زيد، لقد صدق الله قولك يا زيد».

---

(١) المسند (٣/٤٨٨)، وقال الهيثمى فى المجمع (٧/١٠٨): «إسناد أحمد رجاله رجال الصحيح إن كان أبو سلمة سمع من الأقرع بن حابس، وإلا فهو مرسل».

(٢) فى ت: «وروى ابن جرير بسنده».

(٣) فى ت، أ: «رسول الله ﷺ».

(٤، ٥) تفسير الطبرى (٢٦/٧٧).

(٦) فى م، أ: «سلمة».

(٧) فى ت: «وروى ابن جرير بسنده».

(٨) زيادة من أ.

ورواه ابن جرير، عن الحسن بن عرفة، عن المعتمر بن سليمان، به[(١)].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ۝٦ وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ۝٧ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝٨﴾.

يأمر تعالى بالتثبت فى خبر الفاسق ليُحتَاطَ له، لئلا يحكم بقوله فيكون ـ فى نفس الأمر ـ كاذباً أو مخطئاً، فيكون الحاكم بقوله قد اقتفى وراءه، وقد نهى الله عن اتباع سبيل المفسدين، ومن هاهنا امتنع طوائف من العلماء من قبول رواية مجهول الحال لاحتمال فسقه فى نفس الأمر، وقبلها آخرون لأنا إنما أمرنا بالتثبت عند خبر الفاسق، وهذا ليس بمحقق الفسق لأنه مجهول الحال. وقد قررنا[(٢)] هذه المسألة فى كتاب العلم من شرح البخارى، ولله الحمد والمنة.

وقد ذكر كثير من المفسرين أن هذه الآية نزلت فى الوليد بن عقبة بن أبى معيط، حين بعثه رسول الله ﷺ على صدقات بنى المصطلق. وقد روى ذلك من طرق، ومن أحسنها ما رواه الإمام أحمد فى مسنده من رواية ملك بنى المصطلق، وهو الحارث بن ضِرَار، والدجُوَيْرية[(٣)] بنت الحارث أم المؤمنين، رضى الله عنها، قال الإمام أحمد:

حدثنا محمد بن سابق، حدثنا عيسى بن دينار، حدثنى أبى أنه سمع الحارث بن ضرار الخزاعى يقول: قدمت على رسول الله ﷺ، فدعانى إلى الإسلام، فدخلت فيه وأقررت به، ودعانى إلى الزكاة فأقررت بها، وقلت: يا رسول الله، أرجع إليهم فأدعوهم إلى الإسلام وأداء الزكاة، فمن استجاب لى جمعت زكاته، ويُرسل إلىَّ رسول الله رسولا لإبَّان كذا وكذا ليأتيك ما جمَعتُ من الزكاة. فلما جمع الحارث الزكاة ممن استجاب له، وبلغ الإبان الذى أراد رسول الله ﷺ أن يبعث إليه، احتبس عليه الرسول فلم يأته، فظن الحارث أنه قد حدث فيه سخْطَةٌ من الله ورسوله، فدعا بسَرَاوت قومه، فقال لهم: إن رسول الله ﷺ كان وَقَّت لى وقتا يرسل إلى رسوله ليقبض ما كان عندى من الزكاة، وليس من رسول الله ﷺ الخُلْف، ولا أرى حبس رسوله إلا من سخطة كانت، فانطلقوا فنأتى رسول الله ﷺ، وبعث رسول الله ﷺ الوليد بن عقبة إلى الحارث ليقبض ما كان عنده مما جمع من الزكاة، فلما أن سار الوليد حتى بلغ بعض الطريق فَرَق ـ أى: خاف ـ فرجع فأتى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله، إن الحارث منعنى الزكاة وأراد قتلى. فضرب رسول الله ﷺ البعث إلى الحارث. وأقبل الحارث بأصحابه حتى إذا استقبل البعث وفَصَل عن المدينة لقيهم الحارث، فقالوا: هذا الحارث، فلما

(١) تفسير الطبرى (٢٦/ ٧٧)، ورواه الطبرانى فى المعجم الكبير (٥/ ٢١٠) من طريق إسحاق بن راهويه عن معتمر بن سليمان به، قال الهيثمى فى المجمع (٧/ ١٠٨): «فيه داود الطفاوى وثقه ابن حبان، وضعفه ابن معين، وبقية رجاله ثقات».

(٢) فى ت: «قررت». (٣) فى أ: «ميمونة».

غشيهم قال لهم: إلى من بُعثتم؟ قالوا: إليك. قال: ولم؟ قالوا: إن رسول الله ﷺ كان بعث إليك الوليد بن عقبة، فزعم أنك منعته الزكاة وأردت قتله. قال: لا، والذى بعث محمدا بالحق ما رأيته بَتَّةً ولا أتانى. فلما دخل الحارث على رسول الله ﷺ قال: «منعت الزكاة وأردت قتل رسولى؟». قال: لا، والذى بعثك بالحق ما رأيته ولا أتانى، وما أقبلت إلا حين احتبس على رسول رسول الله[(١)] ﷺ، خشيت أن يكون كانت سخطة من الله ورسوله. قال: فنزلت الحجرات: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ﴾ إلى قوله: ﴿حَكِيمٌ﴾.

ورواه ابن أبى حاتم عن المنذر بن شاذان التمار، عن محمد بن سابق به. ورواه الطبرانى من حديث محمد بن سابق، به[(٢)]، غير أنه سماه الحارث بن سرار، والصواب: الحارث بن ضرار، كما تقدم.

وقال[(٣)] ابن جرير: حدثنا أبو كُرَيْب، حدثنا جعفر بن عَوْن، عن موسى بن عبيدة، عن ثابت مولى أم سلمة، عن أم سلمة قالت: بعث رسول الله ﷺ رجلا فى صدقات بنى المصطلق بعد الوقيعة[(٤)]، فسمع بذلك القوم، فتلقوه يعظمون أمر رسول الله ﷺ، قالت: فحدثه الشيطان أنهم يريدون قتله، قالت: فرجع إلى رسول الله[(٥)] فقال: إن بنى المصطلق قد منعونى[(٦)] صدقاتهم. فغضب رسول الله ﷺ والمسلمون. قالت: فبلغ القوم رجوعه فأتوا رسول الله ﷺ، فصفوا له حين صلى الظهر، فقالوا: نعوذ بالله من سخط الله وسخط رسوله، بعثت إلينا رجلاً مصدقاً، فسررنا بذلك، وقرت به أعيننا، ثم إنه رجع من بعض الطريق، فخشينا أن يكون ذلك غضبا من الله ومن رسوله، فلم يزالوا يكلمونه حتى جاء بلال فأذن بصلاة العصر، قالت: ونزلت: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾[(٧)].

وروى ابن جرير أيضا من طريق العَوْفى، عن ابن عباس فى هذه الآية قال: كان رسول الله ﷺ بعث الوليد بن عقبة بن أبى مُعَيْط إلى بنى المصطلق ليأخذ منهم الصدقات، وإنهم لما أتاهم الخبر فرحوا وخرجوا يتلقون رسول رسول الله ﷺ، وإنه لما حُدِّثَ الوليد أنهم خرجوا يتلقونه، رجع الوليد إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إن بنى المصطلق قد منعوا الصدقة. فغضب رسول الله ﷺ من ذلك غضبا شديدا، فبينا هو يحدث نفسه أن يغزوهم إذ أتاه الوفد فقالوا: يا رسول الله، إنا حدثنا أن رسولك رجع من نصف الطريق، وإنا خشينا أن ما رده كتاب جاء منك لغضب غضبته علينا، وإنا نعوذ بالله من غضبه وغضب رسوله. وإن النبى ﷺ استغشهم وهمّ بهم، فأنزل الله[(٨)] عذرهم فى الكتاب، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا﴾ إلى آخر الآية[(٩)].

(١) فى ت: «احتبس على يا رسول الله».
(٢) المسند (٤/ ٢٧٩) والمعجم الكبير (٣/ ٢٧٤)، قال الهيثمى فى المجمع (٧/ ١٠٩): «رجال أحمد ثقات»، وهذا متعقب، فإن دينار والدعيسى لم يوثقه إلا ابن حبان، ولا يعرف له راويا غير ابنه عيسى.
(٣) فى ت: «وروى». (٤) فى ت: «الوقعة». (٥) فى ت، م، أ: «رسول الله ﷺ».
(٦) فى ت، م: «منعوا».
(٧) تفسير الطبرى (٢٦/ ٧٨) وفى إسناده موسى بن عبيدة الربذى وهو ضعيف، وثابت مولى أم سلمة مجهول.
(٨) فى م: «الله عز وجل».
(٩) تفسير الطبرى (٢٦/ ٧٨).

وقال مجاهد وقتادة: أرسل رسول الله الوليد بن عقبة إلى بنى المصطلق ليُصدّقهم، فتلقوه بالصدقة، فرجع فقال: إن بنى المصطلق قد جمعت لك لتقاتلك ـ زاد قتادة: وإنهم قد ارتدوا عن الإسلام ـ فبعث رسول الله خالد بن الوليد إليهم، وأمره أن يتثبت ولا يعجل. فانطلق حتى أتاهم ليلا، فبعث عيونه، فلما جاؤوا أخبروا خالدا أنهم مستمسكون بالإسلام، وسمعوا أذانهم وصلاتهم، فلما أصبحوا أتاهم خالد فرأى الذى يعجبه، فرجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره الخبر، فأنزل الله هذه الآية. قال قتادة: فكان رسول الله ﷺ يقول: «التَّبيُّن من الله، والعَجَلَة من الشيطان».

وكذا ذكر غير واحد من السلف، منهم: ابن أبى ليلى، ويزيد بن رومان، والضحاك، ومقاتل ابن حيَّان، وغيرهم فى هذه الآية: أنها نزلت فى الوليد بن عقبة، والله أعلم(١).

وقوله: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ﴾ أى: اعلموا أن بين أظهركم رسولَ الله فعظِّموه ووقروه، وتأدبوا معه، وانقادوا لأمره، فإنه أعلم بمصالحكم، وأشفق عليكم منكم. ورأيه فيكم أتّم من رأيكم لأنفسكم، كما قال تعالى: ﴿ النبي أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ [الأحزاب: ٦].

ثم بيَّن [تعالى](٢) أن رأيهم سخيف بالنسبة إلى مراعاة مصالحهم فقال: ﴿لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الأَمْرِ لَعَنِتُّمْ ﴾ أى: لو أطاعكم فى جميع ما تختارونه لأدى ذلك إلى عنتكم وحَرَجكم، كما قال تعالى: ﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ﴾ [المؤمنون: ٧١].

وقوله: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ أى: حببه إلى نفوسكم وحسنه فى قلوبكم.

قال(٣) الإمام أحمد: حدثنا بَهْز، حدثنا على بن مَسْعَدة، حدثنا قتادة، عن أنس قال: كان رسول الله ﷺ يقول: «الإسلام علانية، والإيمان فى القلب» قال: ثم يشير بيده إلى صدره ثلاث مرات، ثم يقول: «التقوى هاهنا، التقوى هاهنا»(٤).

﴿وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ﴾ أى: وبغض إليكم الكفر والفسوق، وهى: الذنوب

---

(١) وقد ذهب إلى ذلك كثير من المفسرين، وهذا القول فيه نظر؛ فإن الروايات التى ساقت القصة معلولة، وأحسنها وهى رواية أحمد عن الحارث بن ضرار الخزاعى، فى إسنادها مجهول، وقد أنكر القاضى أبو بكر بن العربى فى كتابه «العواصم من القواصم» (ص١٠٢) هذه القصة قال: «وقد اختلف فيه، فقيل: نزلت فى ذلك ـ أى فى شأن الوليد. وقيل: فى على، والوليد فى قصة أخرى ـ وقيل: إن الوليد سيق يوم الفتح فى جملة الصبيان إلى رسول الله ﷺ فمسح رؤوسهم وبرك عليهم إلا هو فقال: إنه كان على رأسى خلوق، فامتنع ﷺ من مسه، فمن يكون فى مثل هذه السن يرسل مصدقا، وبهذا الاختلاف يسقط العلماء الأحاديث القوية، وكيف يفسق رجل هذا الكلام؟ فكيف برجل من أصحاب محمد ﷺ» وللشيخ عبد الرحمن المعلمى رحمه الله كلام على الوليد بن عقبة فى الأنوار الكاشفة (ص٢٦٣) أثبت فيه أنه لم يؤثر له رواية عن رسول الله ﷺ ومن جملة ما نفاه هذا الحديث الذى ذكره ابن العربى.

(٢) زيادة من ت. (٣) فى ت: «وروى».

(٤) المسند (٣/ ١٣٤) قال الهيثمى فى المجمع (١/ ٥٢): «رجاله رجال الصحيح ما خلا على بن مسعدة، وقد وثقه ابن حبان وأبو داود الطيالسى وأبو حاتم وابن معين وضعفه آخرون».

الكبار. والعصيان وهى جميع المعاصى. وهذا تدريج لكمال النعمة.

وقوله: ﴿أُوْلَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾ أى: المتصفون بهذه الصفة هم الراشدون، الذين قد آتاهم الله رشدهم.

قال[١] الإمام أحمد: حدثنا مروان بن معاوية الفزارى، حدثنا عبد الواحد بن أيمن المكى، عن ابن رفاعة الزرقى، عن أبيه قال: لما كان يوم أحد[٢] وانكفأ المشركون، قال رسول الله ﷺ: «استووا حتى أثنى على ربى، عز وجل» فصاروا خلفه صفوفاً، فقال: «اللهم، لك الحمد كله. اللهم، لا قابض لما بسطت، ولا باسط لما قبضت، ولا هادى لمن أضللت، ولا مُضل لمن هديت. ولا معطى لما منعت، ولا مانع لما أعطيت. ولا مقرب لما باعدت، ولا مباعد لما قربت. اللهم، ابسط علينا من بركاتك ورحمتك وفضلك ورزقك. اللهم، إنى أسألك النعيم المقيم الذى لا يحول ولا يزول. اللهم، إنى أسألك النعيم يوم العَيْلَة، والأمن يوم الخوف. اللهم، إنى عائذ بك من شر ما أعطيتنا، ومن شر ما منعتنا. اللهم، حبب إلينا الإيمان وزينه فى قلوبنا، وكره إلينا الكفر والفسوق والعصيان، واجعلنا من الراشدين. اللهم، توفنا مسلمين، وأحينا مسلمين، وألحقنا بالصالحين، غير خزايا ولا مفتونين. اللهم، قاتل الكفرة الذين يكذبون رسلك ويصدون عن سبيلك، واجعل عليهم رجزك وعذابك. اللهم، قاتل الكفرة الذين أوتوا الكتاب، إله الحق».

ورواه النسائى فى اليوم والليلة عن زياد بن أيوب، عن مَرْوَان بن معاوية، عن عبد الواحد بن أيمن، عن عُبَيْد بن رِفاعة، عن أبيه، به[٣].

وفى الحديث المرفوع: «من سرته حسنته، وساءته سيئته، فهو مؤمن»[٤].

ثم قال: ﴿فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً﴾ أى: هذا العطاء[٥] الذى منحكموه هو فضل منه عليكم ونعمة من لدنه، ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أى: عليم بمن يستحق الهداية ممن يستحق الغواية، حكيم فى أقواله وأفعاله، وشرعه وقدره.

﴿ وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٩) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (١٠) ﴾.

(١) فى ت: «روى». (٢) فى أ: «الحديبية».
(٣) المسند (٣/ ٤٢٤) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١٠٤٤٥).
(٤) رواه أحمد فى مسنده (١/ ١٨) والترمذى فى السنن برقم (٢١٦٥) من حديث عمر بن الخطاب رضى الله عنه، قال الترمذى: «هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه».
(٥) فى ت: «القضاء».

يقول تعالى آمراً بالإصلاح بين المسلمين[١] الباغين بعضهم على بعض: ﴿**وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا**﴾، فسماهم مؤمنين مع الاقتتال. وبهذا استدل البخارى وغيره على أنه لا يخرج من الإيمان بالمعصية وإن عظمت، لا كما يقوله الخوارج ومن تابعهم من المعتزلة ونحوهم. وهكذا ثبت فى صحيح البخارى من حديث الحسن، عن أبى بكرة أن رسول الله ﷺ خطب يوما ومعه على المنبر الحسن بن على، فجعل ينظر إليه مرة وإلى الناس أخرى ويقول: «إن ابنى هذا سيد ولعل الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين»[٢]. فكان كما قال، صلوات الله وسلامه عليه، أصلح الله به بين أهل الشام وأهل العراق، بعد الحروب الطويلة والواقعات المهولة.

وقوله: ﴿**فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ**﴾ أى: حتى ترجع إلى أمر الله[٣] وتسمع للحق وتطيعه، كما ثبت فى الصحيح عن أنس: أن رسول الله ﷺ قال: «انصر أخاك ظالما أو مظلوما». قلت: يا رسول الله، هذا نصرته مظلوما فكيف أنصره ظالما؟ قال: «تمنعه من الظلم، فذاك نصرك إياه»[٤].

وقال الإمام أحمد: حدثنا عارم، حدثنا معتمر قال: سمعت أبى يحدث: أن أنساً قال: قيل للنبى ﷺ، لو أتيت عبد الله بن أبى؟ فانطلق إليه نبى الله ﷺ وركب حماراً، وانطلق المسلمون يمشون، وهى أرض سبخة، فلما انطلق إليه النبى ﷺ قال: « إليك عنى، فوالله لقد آذانى ريح حمارك» فقال رجل من الأنصار: والله لحمار رسول الله أطيب ريحا منك. قال: فغضب لعبد الله رجال من قومه، فغضب لكل واحد منهما أصحابه، قال: فكان بينهم ضرب بالجريد والأيدى والنعال، فبلغنا أنه أنزلت فيهم: ﴿**وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا**﴾.

ورواه البخارى فى «الصلح» عن مُسَدَّد، ومسلم فى «المغازى» عن محمد بن عبد الأعلى، كلاهما عن المعتمر بن سليمان، عن أبيه، به نحوه[٥].

وذكر سعيد بن جبير: أن الأوس والخزرج كان بينهما قتال بالسعف والنعال، فأنزل الله هذه الآية، فأمر بالصلح بينهما.

وقال السدى: كان رجل من الأنصار يقال له: «عمران»، كانت له امرأة تدعى أم زيد[٦]، وإن المرأة أرادت أن تزور أهلها فحبسها زوجها وجعلها فى عُلِّيَّة له لا يدخل عليها أحد من أهلها. وإن المرأة بعثت إلى أهلها، فجاء قومها وأنزلوها لينطلقوا بها، وإن الرجل قد كان خرج، فاستعان أهل الرجل، فجاء بنو عمه ليحولوا بين المرأة وبين أهلها، فتدافعوا واجتلدوا بالنعال، فنزلت فيهم هذه

---

(١) فى أ: «المقتتلين».
(٢) صحيح البخارى برقم (٢٧٠٤).
(٣) فى ت، م: «إلى أمر الله ورسوله».
(٤) صحيح البخارى برقم (٢٤٤٣).
(٥) المسند (٣/١٥٧) وصحيح البخارى برقم (٢٦٩١) وصحيح مسلم برقم (١٧٩٩).
(٦) فى أ: «يزيد».

الآية. فبعث إليهم رسول الله ﷺ وأصلح بينهم، وفاؤوا إلى أمر الله.

وقوله: ﴿فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ أي: اعدلوا بينهم فيما كان أصاب بعضهم لبعض، بالقسط، وهو العدل، ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زُرْعَة، حدثنا محمد بن أبي بكر المقدمي، حدثنا عبد الأعلى، عن مَعْمَر، عن الزهري، عن سعيد بن المسيب[١]، عن عبد الله بن عمرو؛ أن رسول الله ﷺ قال: « إن المقسطين في الدنيا على منابر من لؤلؤ بين يدي الرحمن، بما أقسطوا في الدنيا».

ورواه النسائي[٢] عن محمد بن المثنى، عن عبد الأعلى، به[٣]. وهذا إسناد جيد قوي، رجاله على شرط الصحيح.

وحدثنا محمد بن عبد الله بن يزيد، حدثنا سفيان بن عيينة، عن عمرو بن دينار، عن عمرو بن أوس، عن عبد الله بن عمرو، عن النبي ﷺ قال: «المقسطون عند الله يوم القيامة على منابر من نور على يمين العرش، الذين يعدلون في حكمهم وأهاليهم وما وَلُوا».

ورواه مسلم والنسائي، من حديث سفيان بن عيينة، به[٤].

وقوله: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ أي: الجميع إخوة في الدين، كما قال رسول الله ﷺ: «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه»[٥]. وفي الصحيح: «والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه»[٦]. وفي الصحيح أيضا: «إذا دعا المسلم لأخيه بظهر الغيب قال الملك: آمين، ولك بمثله»[٧]. والأحاديث في هذا كثيرة، وفي الصحيح: « مثل المؤمنين في تَوادِّهم وتراحمهم وتواصلهم كمثل الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو، تداعى له سائر الجسد بالحُمَّى والسَّهَر». وفي الصحيح أيضا: «المؤمن للمؤمن كالبنيان، يشد بعضه بعضا» وشبك بين أصابعه[٨].

وقال أحمد: حدثنا أحمد بن الحجاج، حدثنا عبد الله، أخبرنا مصعب بن ثابت، حدثني أبو حازم قال: سمعت سهل بن سعد الساعدي يحدث عن رسول الله ﷺ قال: «إن المؤمن من أهل الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، يألم المؤمن لأهل الإيمان، كما يألم الجسد لما في الرأس»[٩]. تفرد به ولا بأس بإسناده.

---

(١) في ت: « وروى ابن أبي حاتم بسنده». (٢) في ت: «مسلم».

(٣) النسائي في السنن الكبرى برقم (٥٩١٧).

(٤) صحيح مسلم برقم (١٨٢٧) وسنن النسائي (٨/ ٣٢١).

(٥) رواه البخاري في صحيحه برقم (٢٤٤٢) ومسلم في صحيحه برقم (٢٥٨٠) من حديث عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما.

(٦) صحيح مسلم برقم (٢٦٩٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٧) صحيح مسلم برقم (٢٧٣٢) من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه.

(٨) صحيح البخاري برقم (٦٠١١) وصحيح مسلم برقم (٢٥٨٦) من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه.

(٩) المسند (٥/ ٣٤٠) وقال الهيثمي في المجمع (٨/ ١٨٧): «رجال أحمد رجال الصحيح».

وقوله: ﴿ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ﴾ يعنى: الفئتين المقتتلين، ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ أى: فى جميع أموركم ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾، وهذا تحقيق منه تعالى للرحمة لمن اتقاه.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلا تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ بِئْسَ الاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (١١) ﴾ .

ينهى تعالى عن السخرية بالناس، وهو احتقارهم والاستهزاء بهم، كما ثبت فى الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «الكِبْر بطر الحق وغَمْص الناس» ويروى: «وغمط الناس»[١]. والمراد من ذلك: احتقارهم واستصغارهم، وهذا حرام، فإنه قد يكون المحتقر أعظم قدرا عند الله وأحب إليه من الساخر منه المحتقر له؛ ولهذا قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ﴾، فنص على نهى الرجال وعطف بنهى النساء.

وقوله: ﴿وَلا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ﴾ أى: لا تلمزوا الناس. والهمَّاز اللَّماز من الرجال مذموم ملعون، كما قال [تعالى][٢]: ﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴾ [الهمزة: ١]، فالهمز بالفعل واللمز بالقول، كما قال: ﴿هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ﴾ [القلم: ١١] أى: يحتقر الناس ويهمزهم طاعناً عليهم، ويمشى بينهم بالنميمة وهى: اللمز بالمقال؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿وَلا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ﴾، كما قال: ﴿وَلا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ﴾ [النساء: ٢٩] أى: لا يقتل بعضكم بعضا[٣].

قال ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبير، وقتادة، ومقاتل بن حَيَّان: ﴿وَلا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ﴾ أى: لا يطعن بعضكم على بعض.

وقوله: ﴿وَلا تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ﴾ أى: لا تتداعوا بالألقاب، وهى التى يسوء الشخص سماعها.

قال[٤] الإمام أحمد: حدثنا إسماعيل، حدثنا داود بن أبى هند، عن الشعبى قال: حدثنى أبو جَبيرة[٥] بن الضحاك قال: فينا نزلت فى بنى سلمة: ﴿وَلا تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ﴾ قال: قدم رسول الله ﷺ المدينة وليس فينا رجل إلا وله اسمان أو ثلاثة، فكان إذا دُعِىَ أحد منهم باسم من تلك الأسماء قالوا: يا رسول الله، إنه يغضب من هذا. فنزلت: ﴿وَلا تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ﴾.

ورواه أبو داود عن موسى بن إسماعيل، عن وُهَيْب، عن داود، به[٦].

وقوله: ﴿بِئْسَ الاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ﴾ أى: بئس الصفة والاسم الفسوق وهو: التنابز بالألقاب، كما كان أهل الجاهلية يتناعتون، بعدما دخلتم[٧] فى الإسلام وعقلتموه، ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ﴾

---

(١) صحيح مسلم برقم (٩١) من حديث عبد الله بن مسعود رضى الله عنه.
(٢) زيادة من ت. (٣) فى م: «أى: لا يطعن بعضكم على بعض». (٤) فى ت: « وروى».
(٥) فى ت: «عن أبى جبيرة».
(٦) المسند (٤/ ٢٦٠)، وسنن أبى داود برقم (٤٩٦٢)، ورواه الترمذى فى السنن برقم (٣٢٦٨) من طريق داود بن أبى هند به، وقال الترمذى: «حديث حسن صحيح».
(٧) فى ت: «دخلوا».

أى: من هذا ﴿فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ (١٢) ﴾.

يقول تعالى ناهيا عباده المؤمنين عن كثير من الظن، وهو التهمة والتخون للأهل والأقارب والناس فى غير محله؛ لأن بعض ذلك يكون إثما محضا، فليجتنب كثير منه احتياطا، وروينا عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، أنه قال: ولا تظنن بكلمة خرجت من أخيك المسلم إلا خيرا، وأنت تجد لها فى الخير محملا[(١)].

وقال أبو عبد الله بن ماجه: حدثنا أبو القاسم بن أبى ضمرة نصر بن محمد بن سليمان الحمْصى، حدثنا أبى، حدثنا عبد الله بن أبى قيس النَّضرى، حدثنا[(٢)] عبد الله بن عمر[(٣)] قال: رأيت النبى ﷺ يطوف بالكعبة ويقول: «ما أطيبك وأطيب ريحك، ما أعظمك وأعظم حرمتك. والذى نفس محمد بيده، لحرمة المؤمن أعظم عند الله حرمة منك، ماله ودمه، وأن يظن به إلا خير[(٤)]». تفرد به ابن ماجه من هذا الوجه[(٥)].

وقال مالك، عن أبى الزِّناد، عن الأعرج، عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إياكم والظن فإن الظن[(٦)] أكذب الحديث، ولا تجسسوا ولا تحسسوا، ولا تنافسوا، ولا تحاسدوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخوانا».

رواه البخارى عن عبد الله بن يوسف، ومسلم عن يحيى بن يحيى، وأبو داود عن العتبى [ثلاثتهم][(٧)]، عن مالك، به[(٨)].

وقال سفيان بن عيينة، عن الزهرى، عن أنس [رضى الله عنه][(٩)] قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تقاطعوا، ولا تدابروا، ولا تباغضوا، ولا تحاسدوا، وكونوا عباد الله إخوانا، ولا يحل للمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاثة أيام».

رواه مسلم والترمذى ـ وصححه ـ من حديث سفيان بن عيينة، به[(١٠)].

---

(١) رواه أحمد فى الزهد كما فى الدر المنثور (٧/ ٥٦٥).

(٢) فى ت: «وروى ابن ماجه بسنده عن». (٣) فى ت: «بن عمر رضى الله عنه». (٤) فى ت، م: «خيرا».

(٥) سنن ابن ماجه برقم (٣٩٣٢) وقال البوصيرى فى الزوائد (٣/ ٢٢٣)، «هذا إسناد فيه مقال، نصر بن محمد ضعفه أبو حاتم وذكره ابن حبان فى الثقات، وباقى رجال الإسناد ثقات».

(٦) فى ت، م: « فإنه». (٧) زيادة من أ.

(٨) الموطأ (٢/ ٩٠٨)، وصحيح البخارى برقم (٦٠٦٦) ، وصحيح مسلم برقم (٢٥٦٣).

(٩) زيادة من ت.

(١٠) صحيح مسلم برقم (٢٥٥٩) ، وسنن الترمذى برقم (١٩٣٥).

وقال[١] الطبرانى: حدثنا محمد بن عبد الله القرْمطى العدوى، حدثنا بكر بن عبد الوهاب المدنى، حدثنا إسماعيل بن قيس الأنصارى، حدثنى عبد الرحمن بن محمد بن أبى الرجال، عن أبيه، عن جده حارثة بن النعمان قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاث لازمات لأمتى: الطِّيَرَةُ، والحسد، وسوء الظن». فقال رجل: ما يذهبهن يا رسول الله ممن هن فيه؟ قال: «إذا حسدت فاستغفر الله، وإذا ظننت فلا تحقق، وإذا تطيرت فَأمض[٢]»[٣].

وقال[٤] أبو داود: حدثنا أبو بكر بن أبى شيبة، حدثنا أبو معاوية عن الأعمش، عن زيد قال: أتى ابن مسعود، رضى الله عنه، برجل[٥]، فقيل له: هذا فلان تقطر لحيته خمرا. فقال عبد الله: إنا قد نهينا عن التجسس، ولكن إن يظهر لنا شىء نأخذ به[٦].

سماه ابن أبى حاتم فى روايته الوليد بن عقبة بن أبى معيط[٧].

وقال[٨] الإمام أحمد: حدثنا هاشم، حدثنا لَيْث، عن إبراهيم بن نَشِيط الخَوْلانى، عن كعب بن علقمة، عن أبى الهيثم، عن دُخَيْن كاتب عقبة قال: قلت لعقبة: إن لنا جيرانا يشربون الخمر، وأنا داع لهم الشرط فيأخذونهم. قال: لا تفعل، ولكن عظهم وتهددهم. قال: ففعل فلم ينتهوا. قال: فجاءه دخين فقال: إنى قد نهيتهم فلم ينتهوا، وإنى داع لهم الشرط فيأخذونهم. قال: لا تفعل، ولكن عظهم وتهددهم. قال: ففعل فلم ينتهوا. قال: فجاءه دُخَين فقال: إنى قد نهيتهم فلم ينتهوا، وإنى داع لهم الشرط فتأخذهم. فقال له عقبة: ويحك لا تفعل، فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من ستر عورة مؤمن فكأنما استحيا موءودة من قبرها».

ورواه أبو داود والنسائى من حديث الليث بن سعد، به نحوه[٩].

وقال سفيان الثورى، عن ثور، عن راشد بن سعد، عن معاوية قال: سمعت النبى ﷺ يقول: «إنك إن اتبعت عورات الناس أفسدتهم» أو: «كدت أن تفسدهم». فقال أبو الدرداء: كلمة سمعها معاوية من رسول الله ﷺ، نفعه الله بها. رواه أبو داود منفردا به من حديث الثورى، به[١٠].

وقال أبو داود أيضا: حدثنا سعيد بن عمرو الحضرمى، حدثنا إسماعيل بن عياش، حدثنا ضَمْضَم بن زُرْعَة، عن شُرَيْح بن عبيد، عن جُبَيْر بن نُفَيْر، وكثير بن مُرَّة، وعمرو بن الأسود، والمقدام بن معد يكرب[١١]، وأبى أمامة، عن النبى ﷺ قال: «إن الأمير إذا ابتغى الريبة فى الناس،

---

(١) فى ت: «وروى». (٢) فى ت: « وإذا نظرت فاغضض»، وفى م، أ: «وإذا تطيرت فاعمض».

(٣) المعجم الكبير (٣/٢٢٨) ، قال الهيثمى فى المجمع (٨/٧٨): «فيه إسماعيل بن قيس الأنصارى وهو ضعيف».

(٤) فى ت: «وروى».

(٥) لفظة «برجل» غير موجودة بسنن أبى داود.

(٦) سنن أبى داود برقم (٤٨٩٠).

(٧) وذلك لما أكثر الناس فى الوليد بن عقبة، وقد كان ابن مسعود على بيت المال فى ولاية الوليد بن عقبة فى عهد عثمان رضى الله عنه، وقصة جلد الوليد على الخمر مشهورة فى الصحيحين.

(٨) فى ت: «وروى».

(٩) المسند (٤/١٥٣) ، وسنن أبى داود برقم (٤٨٩٢) ، والنسائى فى السنن الكبرى برقم (٧٢٨٣).

(١٠) سنن أبى داود برقم (٤٨٨٨).

(١١) فى م: «معدى كرب».

أفسدهم»[١].

[وقوله][٢]: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾ أي: على بعضكم بعضا. والتجسس غالبا يطلق في الشر، ومنه الجاسوس. وأما التحسس فيكون غالبا في الخير، كما قال تعالى إخبارا عن يعقوب [عليه السلام][٣] أنه قال: ﴿يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ﴾ [يوسف:٨٧]، وقد يستعمل كل منهما في الشر، كما ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «لا تجسسوا، ولا تحسسوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخوانا»[٤].

وقال الأوزاعي: التجسس: البحث عن الشيء. والتحسس: الاستماع إلى حديث القوم وهم له كارهون، أو يتسمع على أبوابهم. والتدابر: الصَّرْم. رواه ابن أبي حاتم.

وقوله: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾: فيه نهي عن الغيبة، وقد فسرها الشارع كما جاء في الحديث الذي رواه أبو داود: حدثنا القَعْنَبي، حدثنا عبد العزيز بن محمد، عن العلاء، عن أبيه، عن أبي هريرة [٥] قال: قيل: يا رسول الله، ما الغيبة؟ قال: «ذكرك أخاك بما يكره». قيل: أفرأيت إن كان في أخي ما أقول؟ قال: «إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته».

ورواه الترمذي عن قتيبة، عن الدَّرَاوَرْدي، به[٦]. وقال: حسن صحيح. ورواه ابن جرير عن بُنْدَار، عن غُنْدَر، عن شعبة، عن العلاء[٧]. وهكذا قال ابن عمر، ومسروق، وقتادة، وأبو إسحاق، ومعاوية بن قُرَّة.

وقال[٨] أبو داود: حدثنا مُسَدَّد، حدثنا يحيى، عن سفيان، حدثني علي بن الأقمر، عن أبي حذيفة، عن عائشة قالت: قلت للنبي ﷺ: حسبك من صفية كذا وكذا !ـ قال غير مسدد: تعني قصيرة ـ فقال: «لقد قلت كلمة لو مُزِجَتْ بماء. البحر لمزجته». قالت: وحكيت له إنسانا، فقال ﷺ: «ما أحب أني حكيت إنساناً، وإن لي كذا وكذا».

ورواه الترمذي من حديث يحيى القَطَّان، وعبد الرحمن بن مَهْدِيّ، ووَكِيع، ثلاثتهم عن سفيان الثوري، عن علي بن الأقمر، عن أبي حذيفة سلمة بن صهيبة الأرحبي، عن عائشة، به. وقال: حسن صحيح[٩].

وقال ابن جرير: حدثني ابن أبي الشوارب: حدثنا عبد الواحد بن زياد، حدثنا سليمان الشيباني، حدثنا حسان بن المخارق[١٠]؛ أن امرأة دخلت على عائشة، فلما قامت لتخرج أشارت عائشة بيدها

---

(١) سنن أبي داود برقم (٤٨٨٩).
(٢، ٣) زيادة من ت.
(٤) صحيح البخاري برقم (٢٤٤٢).
(٥) في ت: «أبي هريرة رضي الله عنه».
(٦) سنن أبي داود برقم (٤٨٧٤)، وسنن الترمذي برقم (١٩٣٥).
(٧) تفسير الطبري (٢٦/٨٦).
(٨) في ت: «وروى».
(٩) سنن أبي داود برقم (٤٨٧٥)، وسنن الترمذي برقم(٢٥٠٢، ٢٥٠٣).
(١٠) في ت: « وروى ابن جرير بسنده».

إلى النبى ﷺ ـ أى: إنها قصيرة ـ فقال النبى ﷺ: «اغتبتيها»[(١)].

والغيبة محرمة بالإجماع، ولا يستثنى من ذلك إلا ما رجحت مصلحته، كما فى الجرح والتعديل والنصيحة، كقوله ﷺ[(٢)]، لما استأذن عليه ذلك الرجل الفاجر: «ائذنوا له، بئس أخو العشيرة»[(٣)]، وكقوله لفاطمة بنت قيس ـ وقد خطبها معاوية وأبو الجهم ـ: «أما معاوية فصعلوك[(٤)]، وأما أبو الجهم فلا يضع عصاه عن عاتقه»[(٥)]. وكذا ما جرى مجرى ذلك. ثم بقيتها على التحريم الشديد، وقد ورد فيها الزجر الأكيد[(٦)]؛ ولهذا شبهها تعالى بأكل اللحم من الإنسان الميت، كما قال تعالى: ﴿**أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ**﴾؟ أى: كما تكرهون هذا طبعا، فاكرهوا ذاك شرعا؛ فإن عقوبته أشد من هذا وهذا من التنفير عنها والتحذير منها، كما قال، عليه السلام، فى العائد فى هبته: «كالكلب يقىء ثم يرجع فى قيئه»، وقد قال: «ليس لنا مثل السوء». وثبت فى الصحاح[(٧)] والحسان والمسانيد من غير وجه أنه، عليه السلام، قال فى خطبة [حجة][(٨)] الوداع: «إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام، كحرمة يومكم هذا، فى شهركم هذا، فى بلدكم هذا»[(٩)].

وقال[(١٠)] أبو داود: حدثنا واصل بن عبد الأعلى، حدثنا أسباط بن محمد، عن هشام بن سعد، عن زيد بن أسلم، عن أبى صالح، عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «كل المسلم على المسلم حرام: ماله وعرضه ودمه، حسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم».

ورواه الترمذى[(١١)] عن عبيد بن أسباط بن محمد، عن أبيه، به[(١٢)]. وقال: حسن غريب.

وحدثنا عثمان بن أبى شيبة[(١٣)]، حدثنا الأسود بن عامر، حدثنا أبو بكر بن عياش، عن الأعمش، عن سعيد بن عبد الله[(١٤)] بن جريج، عن أبى برزة الأسلمى قال: قال رسول الله ﷺ: «يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه، لا تغتابوا المسلمين، ولا تتبعوا عوراتهم؛ فإنه من يتبع عوراتهم يتبع الله عورته ومن يتبع الله عورته يفضحه فى بيته».

تفرد به أبو داود[(١٥)]. وقد روى من حديث البراء بن عازب، فقال الحافظ أبو يعلى فى مسنده: حدثنا إبراهيم بن دينار، حدثنا مصعب بن سلام، عن حمزة بن حبيب الزيات، عن أبى إسحاق

---

(١) تفسير الطبرى (٢٦/ ٨٧).

(٢) فى ت: « عليه السلام».

(٣) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٣١٣٢) من حديث عائشة رضى الله عنها.

(٤) فى أ: «فصعلوك لا مال له».

(٥) رواه مسلم فى صحيحه برقم (١٤٨٠).

(٦) فى ت،م: «الشديد».

(٧) فى ت،م: «الصحيح».

(٨) زيادة من ت،م،أ.

(٩) رواه مسلم فى صحيحه برقم (١٢١٨) من حديث جابر رضى الله عنه.

(١٠) فى ت: «وروى».

(١١) فى ت: «رواه الترمذى وحسنه».

(١٢) سنن أبى داود برقم (٤٨٨٢)، وسنن الترمذى برقم (١٩٢٧).

(١٣) فى ت: « وروى أبو داود».

(١٤) فى أ: « عبيد الله».

(١٥) سنن أبى داود برقم (٤٨٨٠).

السَّبِيعى[١]، عن البراء بن عازب [٢] قال: خطبنا رسول الله ﷺ حتى أسمع العواتق فى بيوتها ـ أو قال: فى خدورها ـ فقال: « يا معشر من آمن بلسانه، لا تغتابوا المسلمين، ولا تتبعوا عوراتهم، فإنه من يتبع عورة أخيه يتبع الله عورته، ومن يتبع الله عورته يفضحه[٣] فى جوف بيته»[٤].

طريق أخرى عن ابن عمر: قال أبو بكر أحمد بن إبراهيم الإسماعيلى: أخبرنا عبد الله بن ناجية، حدثنا يحيى بن أكثم، حدثنا الفضل بن موسى الشيبانى، عن الحسين بن واقد، عن أوفى بن دَلْهَم، عن نافع، عن ابن عمر؛ أن رسول الله ﷺ قال: «يا معشر من آمن بلسانه ولم يُفْضِ الإيمانُ إلى قلبه، لا تغتابوا المسلمين، ولا تتبعوا عوراتهم؛ فإنه من يتبع عورات المسلمين يتبع الله عورته، ومن يتبع الله عورته يفضحه ولو فى جوف رحله». قال: ونظر ابن عمر يوما إلى الكعبة فقال: ما أعظمك وأعظم حرمتك، وللمؤمن أعظمُ حرمة عند الله منك[٥].

قال أبو داود: وحدثنا حَيْوَة بن شُرَيْح، حدثنا بَقِيَّة، عن ابن ثوبان، عن أبيه، عن مكحول، عن وقاص بن ربيعة، عن المستورد؛ أنه حدثه: أن النبى ﷺ قال: «من أكل برجل مسلم أكلة فإن الله يطعمه مثلها فى[٦] جهنم[٧]، ومن كُسى ثوبا برجل مسلم فإن الله يكسوه مثله فى[٨] جهنم. ومن قام برجل مقام سمعةٍ ورياء فإن الله يقوم به مقام سمعة ورياء يوم القيامة». تفرد به أبو داود[٩].

وحدثنا ابن مصفى، حدثنا بقية وأبو المغيرة قالا: حدثنا صفوان، حدثنى راشد بن سعد وعبد الرحمن بن جبير، عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «لما عُرِج بى مررت بقوم لهم أظفار من نحاس، يخمشون وجوههم وصدورهم، قلت: من هؤلاء يا جبرائيل[١٠]؟ قال: هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس، ويقعون فى أعراضهم».

تفرد به أبو داود، وهكذا رواه الإمام أحمد، عن أبى المغيرة عبد القدوس بن الحجاج الشامى، به[١١].

وقال[١٢] ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا أحمد بن عبدة، حدثنا أبو عبد الصمد عبد العزيز ابن عبد الصمد العمى، حدثنا أبو هارون العَبْدىّ، عن أبى سعيد الخدري [رضى الله عنه][١٣] قال: قلنا يا رسول الله، حَدّثنا ما رأيت ليلة أسرىَ بك؟. . . قال: «ثم انطلق بى إلى خلق من خلق الله كثير، رجال ونساء مُوَكَّل بهم رجال يعمدون إلى عُرْض جنَب أحدهم فَيَحْذُون منه الحُذْوَة من مثل النعل ثم يضعونه فى فىّ أحدهم، فيقال له: «كل كما[١٤] أكلت»، وهو يجد من أكله الموت ـ يا

(١) فى ت: «وروى الحافظ أبو يعلى فى مسنده بسنده».
(٢) فى ت: «البراء بن عازب رضى الله عنه».
(٣) فى ت: «يفضحه ولو فى».
(٤) مسند أبى يعلى (٣/ ٢٣٧) ، قال الهيثمى فى المجمع (٨/ ٩٣): «رجاله ثقات».
(٥) ورواه الترمذى فى السنن برقم (٢٠٣٢) من طريق الفضل بن موسى به، وقال: «هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث الحسين بن واقد».
(٦) فى ت، م، أ: «من».
(٧) فى ت: «فى نار جهنم».
(٨) فى أ: «من».
(٩) سنن أبى داود برقم (٤٨٨١).
(١٠) فى ت، م: «جبريل».
(١١) سنن أبى داود برقم (٤٨٧٨)، والمسند (٣/ ٢٢٤) .
(١٢) فى ت: «وروى».
(١٣) زيادة من ت.
(١٤) فى ت: «اما».

محمد ـ لو يجد الموت وهو يكره عليه فقلت: يا جبرائيل[١]، من هؤلاء: قال: هؤلاء الهمَّازون اللمَّازون أصحاب النميمة. فيقال[٢]: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾وهو يكره على أكل لحمه.

هكذا أورد هذا الحديث، وقد سقناه بطوله فى أول تفسير «سورة سبحان» ولله الحمد[٣].

وقال أبو داود الطيالسى فى مسنده: حدثنا الربيع، عن يزيد، عن أنس؛ أن رسول الله ﷺ أمر الناس أن يصوموا يوما ولا يفطرن أحدٌ حتى آذن له. فصام الناس، فلما أمسوا جعل الرجل يجىء إلى رسول الله ﷺ فيقول: ظللت منذ اليوم صائما، فائذن لى. فأفطر فيأذن له، ويجىء الرجل فيقول ذلك، فيأذن له، حتى جاء رجل فقال: يا رسول الله، إن فتاتين من أهلك ظلتا منذ اليوم صائمتين، فائذن لهما فَلْيفطرا فأعرض عنه، ثم أعاد، فقال رسول الله ﷺ: «ما صامتا، وكيف صام من ظل يأكل لحوم الناس؟ اذهب، فمر هما إن كانتا صائمتين أن يستقيئا». ففعلتا، فقاءت كل واحدة منهما عَلَقةً علقةً فأتى النبى ﷺ فأخبره، فقال رسول الله ﷺ: «لو ماتتا وهما فيهما لأكلتهما النار»[٤].

إسناد ضعيف، ومتن غريب. وقد رواه الحافظ البيهقى من حديث يزيد بن هارون: حدثنا سليمان التيمى قال: سمعت رجلا يحدث فى مجلس أبى عثمان النَّهْدى عن عبيد ـ مولى رسول الله[٥] ـ أن امرأتين صامتا على عهد رسول الله ﷺ، وأن رجلا أتى رسول الله فقال: يا رسول الله، إن هاهنا امرأتين صامتا، وإنهما كادتا تموتان من العطش ـ أرَاهُ قال: بالهاجرة ـ فأعرض عنه ـ أو: سكت عنه ـ فقال: يا نبى الله، إنهما ـ والله قد ماتتا أو كادتا تموتان[٦]. فقال: ادعهما. فجاءتا، قال: فجىء بقدح ـ أو عُسٍّ ـ فقال لإحداهما: قيئى. فقاءت من قيح ودم وصديد، حتى قاءت نصف القدح. ثم قال للأخرى: قيئى فقاءت قيحا ودما وصديدا ولحما ودما عبيطا وغيره حتى ملأت القدح. فقال: إن هاتين صامتا عما أحل الله لهما، وأفطرتا على ما حرم الله عليهما، جلست إحداهما إلى الأخرى فجعلتا تأكلان لحوم الناس.

وهكذا قد رواه الإمام أحمد عن يزيد بن هارون وابن أبى عدى، كلاهما عن سليمان بن طرْخان التيمى، به مثله أو نحوه[٧]. ثم رواه أيضا من حديث مُسَدَّد، عن يحيى القَطَّان، عن عثمان بن غياث، حدثنى رجل أظنه فى حلقة أبى عثمان، عن سعد ـ مولى رسول الله ﷺ ـ أنهم أمروا بصيام، فجاء رجل فى نصف النهار فقال: يا رسول الله، فلانة وفلانة قد بلغتا الجهد. فأعرض عنه مرتين أو ثلاثا، ثم قال: «ادعهما». فجاء بعُس ـ أو: قَدَحٍ ـ فقال لإحداهما: «قيئى»، فقاءت لَحماً ودماً عبيطا وقيحا، وقال للأخرى مثل ذلك، فقال: «إن هاتين صامتا عما أحل الله لهما، وأفطرتا على ما حرم الله عليهما، أتت إحداهما للأخرى فلم تزالا تأكلان لحوم الناس حتى امتلأت أجوافهما

(١) فى ت، م: «جبريل». (٢) فى أ: «فقال». (٣) عند الآية الأولى.
(٤) مسند الطيالسى برقم (٢١٠٧).
(٥) فى ت، م: «رسول الله ﷺ». (٦) فى ت: «أن تموتا».
(٧) المسند (٥/ ٤٣١) ورواه ابن أبى الدنيا فى الصمت برقم (١٧١) من طريق يزيد بن هارون عن سليمان التيمى به.

قيحا»(١).

وقال البيهقى: كذا قال «عن سعد»، والأول ـ وهو عبيد ـ أصح.

قال الحافظ أبو يعلى: حدثنا عمرو بن الضحاك بن مَخْلَد، حدثنا أبى أبو عاصم، حدثنا ابن جُرَيْج، أخبرنى أبو الزبير(٢) عن ابن عَمّ لأبى هريرة أن ماعزاً جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إنى قد زنيت فأعرض عنه ـ قالها أربعا ـ فلما كان فى الخامسة قال: «زنيت»؟ قال: نعم. قال: «وتدرى ما الزنا؟» قال: نعم، أتيت منها حراما ما يأتى الرجل من امرأته حلالا. قال: «ما تريد إلى هذا القول؟» قال: أريد أن تطهرنى. قال: فقال رسول الله ﷺ: «أدخلت ذلك منك فى ذلك منها كما يغيب المِيل فى المكحلة والرِّشاء(٣) فى البئر؟» قال: نعم، يا رسول الله. قال: فأمر برجمه فرجم، فسمع النبى ﷺ رجلين يقول أحدهما لصاحبه: ألم تر إلى هذا الذى ستر الله عليه فلم تدعه نفسه حتى رجُمَ رجم الكلب. ثم سار النبى ﷺ حتى مَرّ بجيفة حمار فقال: «أين فلان وفلان؟ أنزلا فكلا من جيفة هذا الحمار» قالا: غفر الله لك يا رسول الله، وهل يُؤكل هذا؟ قال: فما نلتما من أخيكما(٤) آنفا أشد أكلا من، والذى نفسى بيده، إنه الآن لفى أنهار الجنة ينغمس فيها»(٥) [إسناده صحيح](٦).

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الصمد، حدثنى أبى، حدثنا واصل ـ مولى ابن عيينة ـ حدثنى خالد بن عُرْفُطَة، عن طلحة بن نافع، عن جابر بن عبد الله قال: كنا مع النبى ﷺ فارتفعت ريح جيفة منتنة، فقال رسول الله ﷺ: «أتدرون ما هذه الريح؟ هذه ريح الذين يغتابون المؤمنين(٧)»(٨).

طريق أخرى: قال عبد بن حُميد فى مسنده: حدثنا إبراهيم بن الأشعث، حدثنا الفُضيل بن عياض، عن سليمان، عن أبى سفيان ـ وهو طلحة بن نافع ـ عن جابر قال: كنا مع النبى ﷺ فى سفر فهاجت ريح منتنة(٩)، فقال النبى ﷺ: «إن نفراً من المنافقين اغتابوا ناسا من المسلمين، فلذلك بعثت هذه الريح» وربما قال: «فلذلك هاجت هذه الريح»(١٠).

وقال السدى فى قوله: ﴿**أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً**﴾: زعم أن سلمان الفارسى كان مع رجلين من أصحاب النبى ﷺ فى سفر يخدمهما ويخف لهما، وينال من طعامهما، وأن سلمان لما سار الناس ذات يوم وبقى سلمان نائما، لم يسر معهم، فجعل صاحباه يكلمانه(١١) فلم يجداه، فضربا الخِباء فقالا: ما يريد سليمان ـ أو: هذا العبد ـ شيئا غير هذا: أن يجىء إلى طعام مقدور، وخباء مضروب! فلما جاء سلمان أرسلاه إلى رسول الله ﷺ يطلب لهما إداما، فانطلق فأتى رسول

---

(١) المسند (٥/ ٤٣١).

(٢) فى ت: «وروى الحافظ أبو يعلى بمسنده». (٣) فى ت، م، أ: «والعصا». (٤) فى ت: «من عرض أخيكما».

(٥) مسند أبى يعلى (٦/ ٥٢٤) ورواه البيهقى فى السنن الكبرى (٨/ ٢٢٧) من طريق عمرو بن الضحاك به؛ ورواه أبو داود فى السنن برقم (٤٤٢٩) من طريق الضحاك به.

(٦) زيادة من ت. (٧) فى ت، أ: «الناس».

(٨) المسند (٣/ ٣٥١) قال الهيثمى فى المجمع (٨/ ٩١): «رجاله ثقات».

(٩) فى م: «ريح شديدة منتنة»

(١٠) المنتخب برقم (١٠٢٦).

(١١) فى م: «يكلماه».

الله [ﷺ][١] ومعه قَدَح له، فقال: يا رسول الله، بعثنى أصحابى لِتؤدِمَهم إن كان عندك؟ قال: «ما يصنع أصحابك بالأُدْم؟ قد ائتدموا». فرجع سلمان يخبرهما بقول رسول الله ﷺ، فانطلقا حتى أتيا رسول الله ﷺ فقالا: لا، والذى بعثك بالحق، ما أصبنا طعاما منذ نزلنا. قال: «إنكما قد ائتدمتما بسلمان بقولكما».

قال: ونزلت: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا﴾، إنه كان نائما[٢].

وروى الحافظ الضياء المقدسى فى كتابه «المختارة» من طريق حَبَّان بن هلال، عن حماد بن سلمة، عن ثابت، عن أنس بن مالك قال: كانت العرب تخدم بعضها بعضا فى الأسفار، وكان مع أبى بكر وعمر رجل يخدمهما، فناما فاستيقظا ولم يهيىء لها طعاما، فقالا: إن هذا لنؤوم، فأيقظاه، فقالا له: ائت رسول الله فقل له: إن أبا بكر وعمر يقرئانك السلام، ويستأدمانك.

فقال: «إنهما قد ائتدما» فجاءا فقالا: يا رسول الله، بأى شىء ائتدمنا؟ فقال: «بلحم أخيكما، والذى نفسى بيده، إنى لأرى لحمه بين ثناياكما». فقالا: استغفر لنا يا رسول الله فقال: «مُرَاه فليستغفر لكما»[٣].

وقال[٤] الحافظ أبو يعلى: حدثنا الحكم بن موسى، حدثنا محمد بن مسلم، عن محمد بن إسحاق عن عمه موسى بن يَسار، عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من أكل من لحم أخيه فى الدنيا، قُرِّب له لحمه فى الآخرة، فيقال له: كله مَيْتًا كما أكلته حَيًّا. قال: فيأكله ويكْلَح ويصيح». غريب جدا[٥].

وقوله: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أى: فيما أمركم به ونهاكم عنه، فراقبوه فى ذلك واخشوا منه، ﴿إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ أى: تواب على من تاب إليه، رحيم بمن رجع إليه، واعتمد عليه.

قال الجمهور من العلماء: طريق المغتاب للناس فى توبته أن يُقلع[٦] عن ذلك، ويعزم على ألاّ يعود. وهل يشترط الندم على ما فات؟ فيه نزاع، وأن يتحلل من الذى اغتابه. وقال آخرون: لا يشترط أن يتحلله فإنه إذا[٧] أعلمه بذلك ربما تأذى أشد مما إذا لم يعلم بما كان منه، فطريقه إذاً أن يثنى عليه بما فيه فى المجالس التى كان يذمه فيها، وأن يرد عنه الغيبة بحسبه وطاقته، فتكون[٨] تلك بتلك، كما قال[٩] الإمام أحمد:

حدثنا أحمد بن الحجاج، أخبرنا عبد الله، أخبرنا يحيى بن أيوب، عن عبد الله بن سليمان؛ أن إسماعيل بن يحيى المعَافِرىّ أخبره أن سهل بن معاذ بن أنس الجُهَنىّ أخبره، عن أبيه، عن[١٠] النبى

(١) زيادة من ت.
(٢) رواه ابن أبى حاتم فى تفسيره كما فى الدر المنثور (٧/ ٥٧٠).
(٣) المختارة برقم (١٦٩٧).
(٤) فى ت: «وروى».
(٥) ورواه الطبرانى فى المعجم الأوسط برقم (٤٩٦١) «مجمع البحرين» من طريق محمد بن سلمة عن محمد بن إسحاق به، وقال: لم يروه عن ابن إسحاق إلا محمد بن سلمة، وقد وقع هنا «محمد بن مسلم» وأظنه تصحيفا، لكنى لا أستطيع الجزم بذلك، قال الهيثمى فى المجمع (٨/ ٩٢): «فيه ابن إسحاق وهو مدلس ومن لم أعرفه».
(٦) فى م: «يرجع».
(٧) فى ت: «لو».
(٨) فى ت: «لتكون».
(٩) فى ت: «روى».
(١٠) فى ت: «أن».

ﷺ قال: «من حمى مؤمنا من منافق يعيبه[١] ،بعث الله إليه ملكا يحمى لحمه يوم القيامة من نار جهنم. ومن رمى مؤمنا بشىء يريد شينه، حبسه الله على جسر جهنم حتى يخرج مما قال». وكذا رواه أبو داود من حديث عبد الله ـ وهو ابن المبارك ـ به بنحوه[٢].

وقال[٣] أبو داود أيضا: حدثنا إسحاق بن الصباح، حدثنا ابن أبى مريم، أخبرنا الليث: حدثنى يحيى بن سليم؛ أنه سمع إسماعيل بن بشير يقول: سمعت جابر بن عبد الله، وأبا طلحة بن سهل الأنصارى يقولان: قال[٤] رسول الله ﷺ: «ما من امرئ يخذل امرأ مسلما فى موضع تنتهك فيه حرمته وينتقص فيه من عرضه، إلا خذله الله فى مواطن يحب فيها نصرته. وما من امرئ ينصر امرأ مسلما فى موضع ينتقص فيه من عرضه، وينتهك فيه من حرمته[٥]، إلا نصره الله فى مواطن يحب فيها نصرته». تفرد به أبو داود[٦].

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (١٣) ﴾ .

يقول تعالى مخبراً للناس أنه خلقهم من نفس واحدة،وجعل منها زوجهاً، وهما آدم وحواء، وجعلهم شعوب،وهى أعم من القبائل، وبعد القبائل مراتب أخر كالفصائل والعشائر والعمائر والأفخاذ وغير ذلك.

وقيل: المراد بالشعوب بطون العَجَم، وبالقبائل بطون العرب، كما أن الأسباط بطون بنى إسرائيل. وقد لخصت هذا فى مقدمة مفردة جمعتها من كتاب: « الإنباه» لأبى عمر[٧] بن عبد البر، ومن كتاب «القصد والأمم، فى معرفة أنساب العرب والعجم». فجميع الناس فى الشرف بالنسبة الطينية إلى آدم وحواء سواء، وإنما يتفاضلون بالأمور الدينية، وهى طاعة الله ومتابعة رسوله ﷺ؛ ولهذا قال تعالى بعد النهى عن الغيبة واحتقار بعض الناس بعضاً، منبها على تساويهم فى البشرية: **﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُو﴾** أى: ليحصل التعارف بينهم، كلٌ يرجع إلى قبيلته.

وقال مجاهد فى قوله: **﴿لِتَعَارَفُوا﴾**، كما يقال: فلان بن فلان من كذا وكذا، أى: من قبيلة كذا وكذا.

وقال سفيان الثورى: كانت حِمْير ينتسبون إلى مُخَاليفها، وكانت عرب الحجاز ينتسبون إلى قبائلها.

وقد قال[٨] أبو عيسى الترمذى: حدثنا أحمد بن محمد، حدثنا عبد الله بن المبارك،عن عبد

---

(١) فى أ: «بغيبة».
(٢) المسند (٣/ ٤٤١) ، وسنن أبى داود برقم (٤٨٨٣).
(٣) فى ت: «وروى». (٤) فى ت: «أن». (٥) فى أ: «عرضه».
(٦) سنن أبى داود برقم (٤٨٨٤).
(٧) فى م: «عمرو». (٨) فى ت: «وروى».

الملك ابن عيسى الثقفى، عن يزيد ـ مولى المنبعث ـ عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ قال: «تعلموا من أنسابكم ما تصلون به أرحامكم؛ فإن صلة الرحم محبة فى الأهل، مثراة فى المال، منسأة فى الأثر». ثم قال: غريب، لا نعرفه إلا من هذا الوجه(١).

وقوله: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ أى: إنما تتفاضلون عند الله بالتقوى لا بالأحساب. وقد وردت الأحاديث بذلك عن رسول الله ﷺ:

قال(٢) البخارى، رحمه الله: حدثنا محمد بن سلام، حدثنا عبدة، عن عبيد الله، عن سعيد بن أبى سعيد، عن أبى هريرة قال: سئل رسول الله ﷺ: أى الناس أكرم؟ قال: «أكرمهم عند الله أتقاهم». قالوا: ليس عن هذا نسألك. قال: «فأكرم الناس يوسف نبى الله، ابن نبى الله، ابن خليل الله». قالوا: ليس عن هذا نسألك. قال: «فعن معادن العرب تسألونى؟» قالوا: نعم. قال: «فخياركم فى الجاهلية خياركم فى الإسلام إذا فَقِهُوا»(٣).

وقد رواه البخارى فى غير موضع من طرق عن عبدة بن سليمان(٤). ورواه النسائى فى التفسير من حديث عبيد الله ـ وهو ابن عمر العمرى ـ به(٥).

حديث آخر: قال مسلم(٦)، رحمه الله: حدثنا عمرو الناقد، حدثنا كَثير بن هشام، حدثنا جعفر ابن برقان، عن يزيد بن الأصم، عن أبى هريرة (٧) قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم».

ورواه ابن ماجه عن أحمد بن سنان، عن كَثير بن هشام، به(٨).

حديث آخر: وقال(٩) الإمام أحمد: حدثنا وكيع، عن أبى هلال، عن بكر، عن أبى ذر قال: إن النبى ﷺ قال له: «انظر، فإنك لست بخير من أحمر ولا أسود إلا أن تفضله بتقوى(١٠)». تفرد به أحمد(١١).

حديث آخر: وقال(١٢) الحافظ أبو القاسم الطبرانى: حدثنا أبو عبيدة عبد الوارث بن إبراهيم العسكرى، حدثنا عبد الرحمن بن عمرو بن جَبَلة، حدثنا عبيد بن حنين الطائى، سمعت محمد بن حبيب بن خِرَاش العَصَرِىّ، يحدث عن أبيه: أنه سمع رسول الله ﷺ يقول(١٣): «المسلمون إخوة، لا

---

(١) سنن الترمذى برقم (١٩٧٩).

(٢) فى ت: «فروى».

(٣) صحيح البخارى برقم (٤٦٨٩).

(٤) صحيح البخارى برقم (٣٣٧٤، ٣٣٨٣).

(٥) النسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٢٥٠).

(٦) فى ت: «وروى».

(٧) فى ت: «أبى هريرة رضى الله عنه».

(٨) صحيح مسلم برقم (٢٥٦٤)، وسنن ابن ماجه برقم (٤١٤٣).

(٩) فى ت: «وروى».

(١٠) فى ت: «بتقوى الله».

(١١) المسند (٥/١٥٨).

(١٢) فى ت: «وروى».

(١٣) فى ت: «أن رسول الله ﷺ قال».

فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى»[١].

حديث آخر: قال[٢] أبو بكر البزار فى مسنده: حدثنا أحمد بن يحيى الكوفى، حدثنا الحسن بن الحسين، حدثنا قيس ـ يعنى ابن الربيع ـ عن شبيب بن غَرْقَدَة[٣]، عن المستظل بن حصين، عن حذيفة [٤] قال: قال رسول الله ﷺ: «كلكم بنو آدم. وآدم خلق من تراب، ولينتهين قوم يفخرون بآبائهم، أو ليكونن أهون على الله من الجِعْلان».

ثم قال: لا نعرفه عن حذيفة إلا من هذا الوجه[٥].

حديث آخر: قال[٦] ابن أبى حاتم: حدثنا الربيع بن سليمان، حدثنا أسد بن موسى، حدثنا يحيى بن زكريا القطان، حدثنا موسى بن عبيدة، عن عبد الله بن دينار، عن ابن عمر قال: طاف رسول الله ﷺ يوم فتح مكة على ناقته القَصْواء يستلم الأركان[٧] بمحجن فى يده، فما وجد لها مناخاً فى المسجد حتى نزل ﷺ على أيدى الرجال، فخرج بها إلى بطن المسيل فأنيخت. ثم إن رسول الله ﷺ خطبهم على راحلته، فحمد الله وأثنى عليه بما هو له أهل[٨] ثم قال: « يا أيها الناس، إن الله قد أذهب عنكم عُبِّية الجاهلية وتعظمها بآبائها، فالناس رجلان: رجل بر تقى كريم على الله، وفاجر شقى هين على الله. إن الله يقول: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ**﴾ » ثم قال: «أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم».

هكذا[٩] رواه عبد بن حميد، عن أبى عاصم الضحاك بن مَخْلَد، عن موسى بن عبيدة، به[١٠].

حديث آخر: قال[١١] الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن إسحاق، حدثنا ابن لَهيعة، عن الحارث بن يزيد، عن على بن رباح عن عقبة بن عامر؛ أن رسول الله ﷺ قال: «إن أنسابكم هذه ليست بمسبة على أحد، كلكم بنو آدم طَفُّ الصاع لم يملؤه، ليس لأحد على أحد فضل إلا بدين وتقوى، وكفى بالرجل أن يكون بَذِيًا بخيلاً فاحشاً».

وقد رواه ابن جرير، عن يونس، عن ابن وهب، عن ابن لَهيعة، به[١٢]. ولفظه: «الناس لآدم وحواء، طف الصاع لم يلؤه، إن الله لا يسألكم عن أحسابكم ولا عن أنسابكم يوم القيامة، إن أكرمكم عند الله أتقاكم».

---

(١) المعجم الكبير (٤/ ٢٥) ،وقال الهيثمى فى المجمع (٨/ ٨٤): «فيه عبد الرحمن بن عمرو بن جبلة، وهو متروك».

(٢) فى ت:«وروى». (٣) فى أ:«عروة». (٤) فى ت: «عن حذيفة رضى الله عنه».

(٥) مسند البزار برقم (٣٥٨٤) ،وقال الهيثمى فى المجمع(٨/ ٨٦):«فيه الحسن بن الحسين العرنى،وهو ضعيف»

(٦) فى ت:«وروى».

(٧) فى ت:«الركن». (٨) فى ت، أ: «بما هو أهله». (٩) فى ت: «وهكذا».

(١٠) المنتخب لعبد بن حميد برقم (٧٩٣) وفيه موسى بن عبيدة الربذى وهو ضعيف.

(١١) فى ت: «وروى».

(١٢) المسند (٤/ ١٥٨)، وتفسير الطبرى (٢٦/ ٨٩)، قال الهيثمى فى المجمع (٨/ ٨٤): «فيه ابن لهيعة وفيه لين، وبقية رجاله وثقوا». قلت: الراوى عنه فى رواية الطبرى عبد الله بن وهب، فهذه متابعة قوية ليحيى بن إسحاق.

وليس هو فى شىء من الكتب الستة من هذا الوجه.

حديث آخر: قال[١] الإمام أحمد: حدثنا أحمد بن عبد الملك، حدثنا شريك، عن سِماك، عن عبد الله بن عَمِيرة زوج درة ابنة أبى لهب، عن درة بنت أبى لهب قالت: قام رجل إلى النبى ﷺ وهو على المنبر، فقال: يا رسول الله، أى الناس خير؟ فقال ﷺ: «خير الناس أقرؤهم، وأتقاهم لله، عز وجل، وآمرهم بالمعروف، وأنهاهم عن المنكر، وأوصلهم للرحم»[٢].

حديث آخر: قال[٣] الإمام أحمد: حدثنا حسن، حدثنا ابن لهيعة، حدثنا أبو الأسود، عن القاسم بن محمد، عن عائشة قالت: ما أعجب رسول الله ﷺ شىء من الدنيا، ولا أعجبه أحد قط، إلا ذو تقى. تفرد به أحمد رحمه الله[٤].

وقوله: ﴿**إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ**﴾ أى: عليم بكم، خبير بأموركم، فيهدى من يشاء، ويضل من يشاء، ويرحم من يشاء، ويعذب من يشاء، ويفضل من يشاء على من يشاء، وهو الحكيم العليم الخبير فى ذلك كله. وقد استدل بهذه الآية الكريمة وهذه الأحاديث الشريفة، من ذهب من العلماء إلى أن الكفاءة فى النكاح لا تشترط، ولا يشترط سوى الدين، لقوله: ﴿**إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ**﴾. وذهب الآخرون إلى أدلة أخرى مذكورة فى كتب الفقه، وقد ذكرنا طرفا من ذلك فى «كتاب الأحكام»، ولله الحمد والمنة. وقد روى الطبرانى عن عبد الرحمن أنه سمع رجلا من بنى هاشم يقول: أنا أولى الناس برسول الله. فقال: غيرك أولى به منك، ولك منه نسبه.

﴿**قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِن تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٤) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ (١٥) قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١٦) يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لاَّ تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١٧) إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٨)**﴾.

---

(١) فى ت: «وروى».

(٢) المسند (٦/ ٤٣٢)، ورواه الطبرانى فى المعجم الكبير (٢٤/ ٢٥٧) من طريق شريك به، وقال الهيثمى فى المجمع (٧/ ٢٦٣): «رجالهما ثقات، وفى بعضهم كلام لا يضر».

(٣) فى ت: «وروى».

(٤) المسند (٦/ ٦٩).

يقول تعالى منكراً على الأعراب الذين أول ما دخلوا فى الإسلام ادعوا لأنفسهم مقام الإيمان، ولم يتمكن الإيمان فى قلوبهم بعد: ﴿قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾. وقد استفيد من هذه الآية الكريمة: أن الإيمان أخص من الإسلام كما هو مذهب أهل السنة والجماعة، ويدل عليه حديث جبريل، عليه السلام، حين سأل عن الإسلام، ثم عن الإيمان، ثم عن الإحسان، فترقى من الأعم إلى الأخص، ثم للأخص منه.

قال[١] الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا مَعْمَر، عن الزهرى، عن عامر بن سعد بن أبى وقاص، عن أبيه قال: أعطى رسول الله ﷺ رجالا ولم يعط رجلا منهم شيئاً، فقال سعد: يا رسول الله، أعطيت فلاناً وفلانا ولم تُعط فلاناً شيئاً، وهو مؤمن؟ فقال النبى ﷺ: «أو مسلم» حتى أعادها سعد ثلاثا، والنبى ﷺ يقول: «أو مسلم» ثم قال النبى ﷺ: «إنى لأعطى رجالا وأدع من هو أحب إلىّ منهم فلا أعطيه شيئاً؛ مخافة أن يكبوا فى النار على وجوههم».

أخرجاه فى الصحيحين من حديث الزهرى، به[٢].

فقد فرق النبى ﷺ بين المسلم والمؤمن، فدل على أن الإيمان أخص من الإسلام. وقد قررنا ذلك بأدلته فى أول شرح كتاب الإيمان من «صحيح البخارى» ولله الحمد والمنة. ودل ذلك على أن ذاك الرجل كان مسلما ليس منافقاً؛ لأنه تركه من العطاء ووكله إلى ما هو فيه من الإسلام، فدل هذا على[٣] أن هؤلاء الأعراب المذكورين فى هذه الآية ليسوا بمنافقين، وإنما هم مسلمون لم يستحكم الإيمان فى قلوبهم، فادعوا لأنفسهم مقاماً أعلى مما وصلوا إليه، فأدبوا فى ذلك. وهذا معنى قول ابن عباس وإبراهيم النخعى، وقتادة، واختاره ابن جرير. وإنما قلنا هذا لأن البخارى، رحمه الله، ذهب إلى أن هؤلاء كانوا منافقين يُظهرون الإيمان وليسوا كذلك. وقد روى عن سعيد بن جبير، ومجاهد، وابن زيد أنهم قالوا فى قوله: ﴿وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾ أى: استسلمنا خوف القتل والسباء. قال مجاهد: نزلت فى بنى أسد بن خزيمة. وقال قتادة: نزلت فى قوم امتنوا بإيمانهم على رسول الله ﷺ.

والصحيح الأول؛ أنهم قوم ادعوا لأنفسهم مقام الإيمان، ولم يحصل لهم بعد، فأدبوا وأعلموا أن ذلك لم يصلوا إليه بعد، ولو كانوا منافقين لعنفوا وفضحوا، كما ذكر المنافقون فى سورة براءة. وإنما قيل لهؤلاء تأديباً: ﴿قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ أى: لم تصلوا إلى حقيقة الإيمان بعد.

ثم قال: ﴿وَإِن تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ [شَيْئًا][٤]﴾ أى: لا ينقصكم من أجوركم شيئا، كقوله: ﴿وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ﴾ [الطور: ٢١].

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أى: لمن تاب إليه وأناب.

---

(١) فى ت: «وروى».
(٢) المسند (١/ ١٧٦)، وصحيح البخارى برقم (٢٧)، وصحيح مسلم برقم (١٥٠).
(٣) فى ت: «إلى».
(٤) زيادة من ت.

وقوله: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ﴾ أى: إنما المؤمنون الكُمَّل ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا﴾ أى: لم يشكوا ولا تزلزلوا، بل ثبتوا[١] على حال واحدة، وهى التصديق المحض، ﴿ وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ أى: وبذلوا مهجهم[٢] ونفائس أموالهم فى طاعة الله ورضوانه، ﴿ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ أى: فى قولهم إذا قالوا: «إنهم مؤمنون»، لا كبعض الأعراب الذين ليس معهم من الدين إلا الكلمة الظاهرة.

وقال[٣] الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن غيلان، حدثنا رِشْدين، حدثنى عمرو بن الحارث، عن أبى السمح، عن أبى الهيثم، عن أبى سعيد [٤] قال: إن النبى ﷺ قال: «المؤمنون فى الدنيا على ثلاثة أجزاء: [الذين][٥] آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله. والذى يأمنه الناس على أموالهم وأنفسهم. ثم الذى إذا أشرف على طمع تركه لله، عز وجل»[٦].

وقوله: ﴿ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ﴾ أى: أتخبرونه[٧] بما فى ضمائركم، ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ أى: لا يخفى عليه من مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر، ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ .

ثم قال [تعالى][٨]: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا﴾، يعنى: الأعراب [الذين][٩] يمنون بإسلامهم ومتابعتهم ونصرتهم على الرسول، يقول الله رداً عليهم: ﴿ قُل لاَّ تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلامَكُمْ﴾ ، فإن نفع ذلك إنما يعود عليكم، ولله المنة عليكم فيه، ﴿ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ أى: فى دعواكم ذلك، كما قال النبى ﷺ للأنصار يوم حنين: «يا معشر الأنصار، ألم أجدكم ضلالا فهداكم الله بى؟ وكنتم متفرقين فألفكم الله بى؟ وعالة فأغناكم الله بى؟». كلما قال شيئاً قالوا: الله ورسوله أَمَنُّ[١٠].

وقال[١١] الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا إبراهيم بن سعيد الجوهرى، حدثنا يحيى بن سعيد الأموى، عن محمد بن قيس، عن أبى عون، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس [رضى الله عنهما][١٢] قال: جاءت بنو أسد إلى رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله، أسلمنا وقاتلتك العرب، ولم تقاتلك، فقال رسول الله ﷺ: «إن فقههم قليل، وإن الشيطان ينطلق[١٣] على ألسنتهم». و نزلت هذه الآية: ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لاَّ تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾.

سبب نزول

---

(١) فى ت: «تثبتوا». (٢) فى ت: «مهجتهم». (٣) فى ت: « وروى» .
(٤) فى ت: «أبى سعيد رضى الله عنه». (٥) زيادة من ت، أ، والمسند.
(٦) المسند (٣/٨) وفى إسناده دراج بن أبى السمح عن أبى الهيثم، وهو ضعيف .
(٧) فى ت: «أتخبرون». (٨) زيادة من ت. (٩) زيادة من ت، أ.
(١٠) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٤٣٣٠) من حديث عبد الله بن زيد بن عاصم رضى الله عنه.
(١١) فى ت: «وروى». (١٢) زيادة من ت. (١٣) فى أ: «ينطق».

ثم قال: لا نعلمه يروى إلا من هذا الوجه، ولا نعلم روى أبو عون محمد بن عبيد الله، عن سعيد بن جبير، غير[١] هذا الحديث[٢].

ثم كرر الإخبار بعلمه بجميع الكائنات، وبصره بأعمال المخلوقات فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾.

آخر تفسير الحجرات، ولله الحمد والمنة

(١) في أ: «سوى».

(٢) ورواه النسائي في السنن الكبرى برقم (١١٥١٩) من طريق يحيى بن سعيد الأموي به.

٤٩ ـــ سورة الحجرات
(مدنية وهى ثمانى عشرة آية)

بسم الله الرحمن الرحيم

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١﴾ ٤٩ الحجرات

من نعوتهم الجليلة وما فيه من معنى البعد مع قرب العهد بالمشار إليه للإيذان بعلو شأنه وبعد منزلته فى الفضل وهو مبتدأ خبره قوله تعالى (مثلهم) أى وصفهم العجيب الشأن الجارى فى الغرابة مجرى الأمثال وقوله تعالى (فى التوراة) حال من مثلهم والعامل معنى الإشارة وقوله تعالى (ومثلهم فى الإنجيل) عطف على مثلهم الأول كأنه قيل ذلك مثلهم فى التوراة والإنجيل وتكرير مثلهم لتأكيد غرابته وزيادة تقريرها وقوله تعالى (كزرع أخرج شطأه) الخ تمثيل مستأنف أى هم كزرع أخرج فراخه وقيل هو تفسير لذلك على أنه إشارة مبهمة وقيل خبر لقوله تعالى ومثلهم فى الإنجيل على أن الكلام قد تم عند قوله تعالى مثلهم فى التوراة وقرىء شطأه بفتحات وقرىء شطاه بفتح الطاء وتخفيف الهمزة وشطاءه بالمد وشطه بحذف الهمزة ونقل حركتها إلى ماقبلها وشطوه بقلبها واو (فآزره) فقواه من المؤازرة بمعنى المعاونة أو من الإيزار وهى الإعانة وقرىء فأزره بالتخفيف وأزره بالتشديد أى شد أزره وقوله تعالى (فاستغلظ) فصار غليظاً بعد ما كان دقيقاً (فاستوى على سوقه) فاستقام على قصبه جمع ساق وقرىء سؤقه بالهمزة (يعجب الزراع) بقوته وكثافته وغلظه وحسن منظره وهو مثل ضربه الله عز وجل لأصحابه عليه الصلاة والسلام قلوا فى بدء الإسلام ثم كثروا واستحكموا فترقى أمرهم يوماً فيوماً بحيث أعجب الناس وقيل مكتوب فى الإنجيل سيخرج قوم ينبتون نبات الزرع يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وقوله تعالى (ليغيظ بهم الكفار) علة لما يعرب عنه الكلام من تشبيههم بالزرع فى زكائه واستحكامه أو لما بعده من قوله تعالى (وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجراً عظيماً) فإن الكفار إذا سمعوا بما أعد للمؤمنين فى الآخرة مع مالهم فى الدنيا من العزة غاظهم ذلك أشد غيظ ومنهم للبيان . عن النبى صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة الفتح فكأنما كان ممن شهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فتح مكة .

﴿ سورة الحجرات مدنية وآياتها ثمانى عشرة ﴾

١ (بسم الله الرحمن الرحيم) (يأيها الذين آمنوا) تصدير الخطاب بالنداء لتنبيه المخاطبين على أن مافى حيزه أمر خطير يستدعى مزيد اعتنائهم بشأنه وفرط اهتمامهم بتلقيه ومراعاته ووصفهم بالإيمان لتنشيطهم والإيذان بأنه داع إلى المحافظة عليه ووازع عن الإخلال به (لاتقدموا) أى لاتفعلوا التقديم على أن ترك المفعول للقصد إلى نفس الفعل من غير اعتبار تعلقه بأمر من الأمور على طريقة قولهم

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَـٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾

٤٩ الحجرات

فلان يعطى ويمنع أى يفعل الإعطاء والمنع أو لاتقدموا أمراً من الأمور على أن حذف المفعول للقصد إلى تعميمه والأول أو فى بحق المقام لإفادته النهى عن التلبس بنفس الفعل الموجب لانتفائه بالكلية المستلزم لانتفاء تعلقه بمفعوله بالطريق البرهانى وقد جوز أن يكون التقديم بمعنى التقدم ومنه مقدمة الجيش للجماعة المتقدمة ويعضده قراءةمن قرألاتقدموا بحذف إحدى التاءين من تتقدموا
* وقرىء لا تقدموا من القدوم وقوله تعالى (بين يدى الله ورسوله) مستعار مما بين الجهتين المسامتتين ليدى الإنسان تهجينا لما نهوا عنه والمعنى لاتقطعوا أمراً قبل أن يحكما به وقيل المراد بين يدى رسول الله وذكر الله تعالى لتعظيمه والإيذان بجلالة محله عنده عز وجل قيل نزل فيما جرى بين أبى بكر وعمر رضى الله عنهما لدى النبى صلى الله عليه وسلم فى تامير الأقرع بن حابس أو القعقاع بن معبد
* (واتقوا الله) فى كل ماتأتون وما تذرون من الأقوال والأفعال التى من جملتها مانحن فيه (إن الله
٢ سميع) لأقوالكم (عليم) بأفعالكم فمن حقه أن يتقى ويراقب (ياأيهاالذين آمنوا لاترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى) شروع فى النهى عن التجاوز فى كيفية القول عند النبى عليه الصلاة والسلام بعد النهى عن التجاوز فى نفس القول والفعل وإعادة النداء مع قرب العهد به للمبالغة فى الإيقاظ والتنبيه والإشعار باستقلال كل من الكلامين باستدعاء الاعتناء بشأنه أى لا تبلغوا بأصواتكم وراء حد
* يبلغه عليه الصلاة والسلام بصوته وقرىء لاترفعوا بأصواتكم على أن الباء زائدة (ولا تجهروا له
* بالقول) إذا كلمتموه (كجهر بعضكم لبعض) أى جهراً كائناً كالجهر الجارى فيما بينكم بل اجعلوا صوتكم أخفض من صوته عليه الصلاة والسلام وتعهدوا فى مخاطبته اللين القريب من الهمس كما هو الدأب عندمخاطبة المهيب المعظم وحافظوا على مراعاة أبهة النبوة وجلالة مقدارها وقيل معنى لاتجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض لاتقولوا له يامحمد يا أحمد وخاطبوه بالنبوة قال ابن عباس رضى الله عنهما لما نزلت هذه الآية قال أبو بكر يارسول الله والله لاأكلمك إلا السرار أوأخا السرار حتى ألقى الله تعالى وعن عمر رضى الله عنه أنه كان يكلمه عليه الصلاة والسلام كأخى السرار لايسمعه حتى يستفهمه وكان أبو بكر رضى الله عنه إذا قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم الوفود أرسل إليهم من يعلمهم كيف يسلمون ويأمرهم بالسكينة والوقار عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وقوله تعالى
* (أن تحبط أعمالكم) إما علة للنهى أى لاتجهروا خشية أن تحبط أو كراهة أن تحبط كما فى قوله تعالى يبين الله لكم أن تضلوا أو للمنهى أى لاتجهروا لأجل الحبوط فإن الجهر حيث كان بصدد الأداء إلى الحبوط فكأنه فعل لأجله على طريقة التمثيل كقوله تعالى ليكون لهم عدواً وحزناً وليس المراد بما نهى عنه من الرفع والجهر ما يقارنه الاستخفاف والاستهانة فإن ذلك كفر بل مايتوهم أن يؤدى إليه مما يجرى بينهم فى أثناء المحاورة من الرفع والجهر حسبما يعرب عنه قوله تعالى كجهر بعضكم

إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾ ٤٩ الحجرات

إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ ٤٩ الحجرات

لبعض خلا أن رفع الصوت فوق صوته عليه الصلاة والسلام لما كان منكراً محضاً لم يقيد بشيء ولا مايقع منهما فى حرب أو مجادلة معاند أو إرهاب عدو أو نحو ذلك وعن ابن عباس رضى الله عنهما نزلت فى ثابت بن قيس بن شماس وكان فى أذنه وقر وكان جهورى الصوت وربما كان يكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم فيتأذى بصوته وعن أنس رضى الله عنه أنه لما نزلت الآية فقد ثابت وتفقده عليه الصلاة والسلام فأخبر بشأنه فدعاه فسأله فقال يا رسول الله لقد أنزلت إليك هذه الآية وإنى رجل جهير الصوت فأخاف أن يكون عملى قد حبط فقال له عليه الصلاة والسلام لست هناك إنك تعيش بخير وتموت بخير وإنك من أهل الجنة وأما مايروى عن الحسن من أنها نزلت فى بعض المنافقين الذين كانوا يرفعون أصواتهم فوق صوته عليه الصلاة والسلام فقد قيل محمله أن نهيهم مندرج تحت نهى المؤمنين بدلالة النص (وأنتم لاتشعرون) حال من فاعل تحبط أى والحال أنكم لاتشعرون *

٣ بحبوطها وفيه مزيد تحذير مما نهوا عنه وقوله تعالى (إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله) الخ ترغيب فى الانتهاء عما نهوا عنه بعد الترهيب عن الإخلال به أى يخفضونها مراعاة للأدب أو خشية من مخالفة النهى (أولئك) إشارة إلى الموصول باعتبار اتصافه بما فى حيز الصلة وما فيه من معنى البعد * مع قرب العهد بالمشار إليه لما مر مراراً من تفخيم شأنه وهو مبتدأ خبره (الذين امتحن الله قلوبهم * للتقوى) أى جربها للتقوى ومرنها عليها أو عرفها كائنة للتقوى خالصة لها فإن الامتحان سبب المعرفة واللام صلة لمحذوف أو للفعل باعتبار الأصل أوضرب قلوبهم بضروب المحن والتكاليف الشاقة لأجل التقوى فإنها لاتظهر إلا بالاصطبار عليها أو أخلصها للتقوى من امتحن الذهب إذا أذابه وميز إبريزه * من خبثه وعن عمر رضى الله عنه أذهب عنها الشهوات (لهم) فى الآخرة (مغفرة) عظيمة لذنوبهم * (وأجر عظيم) لايقادر قدره والجملة إما خبر آخر لأن كالجملة المصدرة باسم الإشارة أو استئناف *

٤ لبيان جزائهم إحماداً لحالهم وتعريضاً بسوء حال من ليس مثلهم (إن الذين ينادونك من وراء الحجرات) أى من خارجها من خلفها أو قدامها ومن ابتدائية دالة على أن المناداة نشأت من جهة الوراء وأن المنادى داخل الحجرة لوجوب اختلاف المبدأ والمنتهى بحسب الجهة بخلاف ما لو قيل ينادونك وراء الحجرات وقرىء الحجرات بفتح الجيم وبسكونها وثلاثتها جمع حجرة وهى القطعة من الأرض المحجورة بالحائط ولذلك يقال لحظيرة الإبل حجرة وهى فعلة من الحجر بمعنى مفعول كالغرفة والقبضة والمراد بها حجرات أمهات المؤمنين ومناداتهم من ورائها إما بأنهم أتوها حجرة حجرة فنادوه عليه الصلاة والسلام من ورائها أو بأنهم تفرقوا على الحجرات متطلبين له عليه الصلاة والسلام فناد..

وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ ٤٩ الحجرات

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟ أَن تُصِيبُوا۟ قَوْمًۢا بِجَهَـٰلَةٍ فَتُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَـٰدِمِينَ ﴿٦﴾ ٤٩ الحجرات

وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ ۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَـٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴿٧﴾ ٤٩ الحجرات

بعض من وراء هذه وبعض من وراء تلك فأسند فعل الأبعاض إلى الكل وقد جوز أن يكونوا قد
نادوه من وراء الحجرة التي كان عليه الصلاة والسلام فيها ولكنها جمعت إجلالا له عليه الصلاة
والسلام وقيل إن الذي ناداه عيينة بن حصن الفزاري والأقرع بن حابس وفدا على رسول الله
صلى الله عليه وسلم في سبعين رجلا من بني تميم وقت الظهيرة وهو راقد فقالا يا محمد اخرج إلينا وإنما
* أسند النداء إلى الكل لأنهم رضوا بذلك أو أمروا به أو لأنه وجد فيما بينهم (أكثرهم لا يعقلون)
٥ إذ لو كان لهم عقل لما تجاسروا على هذه المرتبة من سوء الأدب (ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم)
أي ولو تحقق صبرهم وانتظارهم حتى تخرج إليهم فإن أن وإن دلت بما في حيزها على المصدر لكنها
تفيد بنفسها التحقق والثبوت الفرق البين بين قولك بلغني قيامك وبلغني أنك قائم وحتى تفيد أن الصبر
ينبغي أن يكون مغيا بخروجه عليه الصلاة والسلام فإنها مختصة بما هو غاية للشيء في نفسه ولذلك تقول
أكلت السمكة حتى رأسها ولا تقول حتى نصفها أو ثلثها بخلاف إلى فإنها عامة وفي إليهم إشعار بأنه لو خرج
* لا لأجلهم ينبغي أن يصبروا حتى يفاتحهم بالكلام أو يتوجه إليهم (لكان) أي الصبر المذكور (خيراً
لهم) من الاستعجال لما فيه من رعاية حسن الأدب وتعظيم الرسول الموجبين للثناء والثواب والإسعاف
* بالمسؤل إذ روى أنهم وفدوا شافعين في أسارى بني العنبر فأطلق النصف وفادى النصف (والله غفور
٦ رحيم) بليغ المغفرة والرحمة واسعهما فلن يضيق ساحتهما عن هؤلاء إن تابوا وأصلحوا (يأيها الذين
آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا) أي فتعرفوا وتفحصوا روى أنه عليه الصلاة والسلام بعث الوليد
ابن عقبة أخا عثمان رضى الله عنه لأمه مصدقا إلى بني المصطلق وكان بينه وبينهم أحنة فلما سمعوا به
استقبلوه فحسب أنهم مقاتلوه فرجع وقال لرسول الله صلى الله عليه وسلم قد ارتدوا ومنعوا الزكاة
فهم عليه الصلاة والسلام بقتالهم فنزلت وقيل بعث إليهم خالد بن الوليد فوجدهم منادين بالصلاة متهجدين
فسلموا إليه الصدقات فرجع وفي ترتيب الأمر بالتبين على فسق المخبر إشارة إلى قبول خبر الواحد
* العدل في بعض المواد وقرىء فتثبتوا أي توقفوا إلى أن يتبين لكم الحال (أن تصيبوا) حذاراً أن
* تصيبوا (قوما بجهالة) ملتبسين بجهالة حالهم (فتصبحوا) بعد ظهور براءتهم عما أسند إليهم (على ما فعلتم) في
٧ حقهم (نادمين) مغتمين غما لازما متمنين أنه لم يقع فإن تركيب هذه الأحرف الثلاثة يدور مع الدوام (واعلموا

* أن فيكم رسول الله) أن بما فى حيزها ساد مسد مفعولى اعلموا باعتبار ما بعده من قوله تعالى (لو يطيعكم فى كثير من الأمر لعنتم) فإنه حال من أحد الضميرين فى فيكم والمعنى أن فيكم رسول الله كائناً على حالة يجب عليكم تغييرها أو كائنين على حالة الخ وهى أنكم تريدون أن يتبع عليه الصلاة والسلام رأيكم فى كثير من الحوادث ولو فعل ذلك لوقعتم فى الجهد والهلاك وفيه إيذان بأن بعضهم زينوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم الإيقاع ببنى المصطلق تصديقاً لقول الوليد وأنه عليه الصلاة والسلام لم يطع رأيهم وأما صيغة المضارع فقد قيل إنها للدلالة على أن امتناع عنتهم لامتناع استمرار طاعته عليه الصلاة والسلام لهم لأن عنتهم إنما يلزم من استمرار الطاعة فيما يعن لهم من الأمور إذ فيه اختلال أمر الإيالة وانقلاب الرئيس مرؤساً لا من إطاعته فى بعض ما يرونه نادراً بل فيها استمالتهم بلا معرة وقيل إنها للدلالة على أن امتناع عنتهم لاستمرار امتناع طاعته عليه الصلاة والسلام لهم فى ذلك فإن المضارع المنفى قد يدل على استمرار النفى بحسب المقام كما فى نظائر قوله تعالى ولا هم يحزنون والتحقيق أن الاستمرار الذى تفيده صيغة المضارع يعتبر تارة بالنسبة إلى ما يتعلق بالفعل من الأمور الزمانية المتجددة وذلك بأن يعتبر الاستمرار فى نفس الفعل على الإبهام ثم يعتبر تعلق ما يتعلق به بياناً لما فيه الاستمرار وأخرى بالنسبة إلى ما يتعلق به من نفس الزمان المتجدد وذلك إذا اعتبر تعلقه بما يتعلق به أولا ثم اعتبر استمراره فيتعين أن يكون ذلك بحسب الزمان فإن أريد باستمرار الطاعة استمرارها وتجددها بحسب تجدد مواقعها الكثيرة التى يفصح عنها قوله تعالى فى كثير من الأمر فالحق هو الأول ضرورة أن مدار امتناع العنت هو امتناع ذلك الاستمرار سواء كان ذلك الامتناع بعدم وقوع الطاعة فى أمر ما من تلك الأمور الكثيرة أصلا أو بعدم وقوعها فى كلها مع وقوعها فى بعض يسير منها حتى لو لم يمتنع ذلك الاستمرار بأحد الوجهين المذكورين بل وقعت الطاعة فيما ذكر من كثير من الأمر فى وقت من الأوقات وقع العنت قطعاً وإن أريد به استمرار الطاعة الواقعة فى الكل وتجددها بحسب تجدد الزمان واستمراره فالحق هو الثانى فإن مناط امتناع العنت حينئذ ليس امتناع استمرار الطاعة المذكورة ضرورة أنه موجب لوقوع العنت بل هو الاستمرار الزمانى لامتناع تلك الطاعة الواقعة فى تلك الأمور الكثيرة بأحد الوجهين المذكورين حتى لو لم يستمر امتناعها بأن وقعت تلك الطاعة فى وقت من الأوقات وقع العنت حتما واعلم أن الأحق بالاختيار والأولى بالاعتبار هو الوجه الأول لأنه أوفق بالقياس المقتضى لاعتبار الامتناع وارداً على الاستمرار حسب ورود كلمة لو المفيدة للأول على صيغة المضارع المفيدة للثانى على أن اعتبار الاستمرار وارداً على النفى على خلاف القياس بمعونة المقام إنما يصار إليه إذا تعذر الجريان على موجب القياس أو لم يكن فيه مزيد مزية كما فى مثل قوله تعالى ولا هم يحزنون حيث حمل على استمرار نفى الحزن عنهم إذ ليس فى نفى استمرار الحزن مزيد فائدة وأما إذا انتظم الكلام مع مراعاة موجب القياس حق الانتظام فالعدول عنه تمحل لا يخفى وقوله تعالى (ولكن الله حبب إليكم الإيمان) الخ تجريد للخطاب وتوجيه له إلى بعضهم بطريق الاستدراك بياناً لبراءتهم عن أوصاف الأولين وإحماداً لأفعالهم أى ولكنه تعالى جعل الإيمان

فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعۡمَةٗۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴿٨﴾ ٤٩ الحجرات

وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَاۖ فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِۚ فَإِن فَآءَتۡ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا بِٱلۡعَدۡلِ وَأَقۡسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ﴿٩﴾ ٤٩ الحجرات

إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَ أَخَوَيۡكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ﴿١٠﴾ ٤٩ الحجرات

* محبوباً لديكم (وزينه فى قلوبكم) حتى رسخ حبه فيها ولذلك أتيتم بما يليق به من الأقوال والأفعال
* (وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان) ولذلك اجتنبتم عما يليق بهاما لاخير فيه من آثارها وأحكامها
ولما كان فى التحبيب والتكريه معنى إنهاء المحبة والكراهة وإيصالهما إليهم استعملا بكلمة إلى وقيل
هو استدراك ببيان عذر الأولين كأنه قيل لم يكن ماصدر عنكم فى حق بنى المصطلق من خلل فى عقيدتكم
بل من فرط حبكم للإيمان وكراهتكم للكفر والفسوق والعصيان والأول هو الأظهر لقوله تعالى
* (أولئك هم الراشدون) أى السالكون إلى الطريق السوى الموصل إلى الحق والالتفات إلى الغيبة
٨ كالذى فى قوله تعالى وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون (فضلا من الله ونعمة)
أى وإنعاماً تعليل لحبب أو كره وما بينهما اعتراض وقيل نصبهما بفعل مضمر أى جرى ذلك فضلا
* وقيل يبتغون فضلا (والله عليم) مبالغ فى العلم فيعلم أحوال المؤمنين وما بينهم من التفاضل (حكيم)
٩ يفعل كل مايفعل بموجب الحكمة (وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا) أى تقاتلوا والجمع باعتبار
* المعنى (فأصلحوا بينهما) بالنصح والدعاء إلى حكم الله تعالى (فإن بغت) أى تعدت (إحداهما على
* الأخرى) ولم تتأثر بالنصيحة (فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء) أى ترجع (إلى أمر الله) إلى حكمه أو
* إلى ما أمر به (فإن فاءت) إليه وأقلعت عن القتال حذاراً من قتالكم (فأصلحوا بينهم بالعدل) بفصل
مابينهما على حكم الله تعالى ولا تكتفوا بمجرد متاركتهما عسى أن يكون بينهما قتال فى وقت آخر
* وتقييد الإصلاح بالعدل لأنه مظنة الحيف لوقوعه بعد المقاتلة وقد أكد ذلك حيث قيل (وأقسطوا)
* أى وأعدلوا فى كل ماتأتون وماتذرون (إن الله يحب المقسطين) فيجازيهم أحسن الجزاء والآية نزلت
فى قتال حدث بين الأوس والخزرج فى عهده عليه الصلاة والسلام بالعسف والنعال وفيها دلالة على
أن الباغى لايخرج بالبغى عن الإيمان وأنه إذا أمسك عن الحرب ترك لأنه فىء إلى أمر الله تعالى وأنه يجب
١٠ معاونة من بغى عليه بعد تقديم النصح والسعى فى المصالحة (إنما المؤمنون إخوة) استئناف مقرر لما
قبله من الأمر بالإصلاح أى أنهم منتسبون إلى أصل واحد هو الإيمان الموجب للحياة الأبدية والفاء
* فى قوله تعالى (فأصلحوا بين أخويكم) للإيذان بأن الأخوة الدينية موجبة للإصلاح ووضع المظهر
مقام المضمر مضافا إلى المأمورين للمبالغة فى تأكيد وجوب الإصلاح والتحضيض عليه وتخصيص

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَٰبِ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١١﴾ ٤٩ الحجرات

الإثنين بالذكر لإثبات وجوب الإصلاح فيمافوق ذلك بالطريق الأولوية لتضاعف الفتنة والفساد فيه وقيل المراد بالأخوين الأوس والخزرج وقرىء بين أخوتكم وإخوانكم (واتقوا الله) فى كل ماتأتون وما تذرون ومن الأمور التى من جملتها ماأمرتم به من الإصلاح (لعلكم ترحمون) راجين أن ترحموا على تقواكم (يأيها الذين آمنوا لايسخر قوم) أى منكم (من قوم) آخرين أيضاً منكم وقوله
١١
تعالى (عسى أن يكونوا خيراً منهم) تعليل للنهى أو لموجبه أى عسى أن يكون المسخور منهم خيراً عند الله تعالى من الساخرين والقوم مختص بالرجال لأنهم القوام على النساء وهو فى الأصل إما جمع قائم كصوم وزور فى جمع صائم وزائر أو مصدر نعت به فشاع فى الجمع وأما تعميمه للفريقين فى مثل قوم عاد وقوم فرعون فإما للتغليب أو لأنهن توابع واختيار الجمع لغلبة وقوع السخرية فى الجمع والتنكير إما للتعميم أو للقصد إلى نهى بعضهم عن سخرية بعض لما أنها مما يجرى بين بعض وبعض (ولا نساء) أى ولا تسخر نساء من المؤمنات (من نساء) منهن (عسى أن يكن) أى المسخور منهن (خيراً منهن) أى من الساخرات فإن مناط الخيرية فى الفريقين ليس مايظهر للناس من الصور والأشكال ولا الأوضاع والأطوار التى عليها يدور أمر السخرية غالباً بل إنما هو الأمور الكامنة فى القلوب فلا يجترىء أحد على استحقار أحد فلعله أجمع منه لما نيط به الخيرية عندالله تعالى فيظلم نفسه بتحقير من وقره الله تعالى والاستهانة بمن عظمه الله تعالى وقرىء عسوا أن يكونوا وعسين أن يكن فعسى حينئذ هى ذات الخبر كما فى قوله تعالى فهل عسيتم وأما على الأول فهى التى لاخبر لها (ولا تلمزوا أنفسكم) أى ولا يعب بعضكم بعضاً فإن المؤمنين كنفس واحدة أو لاتفعلوا ماتلمزون به فإن من فعل مايستحق به اللمز فقد لمز نفسه واللمز الطعن باللسان وقرىء بضم الميم (ولا تنابزوا بالألقاب) أى ولا يدع بعضكم بعضاً بلقب السوء فإن النبز مختص به عرفا (بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان) أى بئس الذكر المرتفع للمؤمنين أن يذكروا بالفسق بعد دخولهم الإيمان أو اشتهارهم به فإن الاسم ههنا بمعنى الذكر من قولهم طار اسمه فى الناس بالكرم أو باللؤم والمراد به إما تهجين نسبة الكفر والفسوق إلى المؤمنين خصوصاً إذ روى أن الآية نزلت فى صفية بنت حيي أتت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت إن النساء يقلن لى يا يهودية بنت يهوديين فقال عليه الصلاة والسلام هلا قلت إن أبى هرون وعمى موسى وزوجى محمد عليهم السلام أو الدلالة على أن التنابز فسق والجمع بينه وبين الإيمان قبيح (ومن لم يتب) عمانهى عنه (فأولئك هم الظالمون) بوضع العصيان موضع الطاعة وتعريض

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾

٤٩ الحجرات

١٢ النفس للعذاب (يأيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن) أى كونوا على جانب منه وإبهام الكثير لإيجاب الاحتياط والتأمل فى كل ظن ظن حتى يعلم أنه من أى قبيل فإن من الظن مايجب اتباعه كالظن فيما لاقاطع فيه من العمليات وحسن الظن بالله تعالى ومنه مايحرم كالظن فى الإلهيات والنبوات وحيث يخالفه قاطع وظن السوء بالمؤمنين ومنه مايباح كالظن فى الأمور المعاشية (إن بعض الظن إثم) تعليل للأمر بالاجتناب أو لموجبه بطريق الاستئناف التحقيقى والإثم الذنب الذى يستحق العقوبة عليه وهمزته منقلبة من الواو كأنه يثم الأعمال أى يكسرها (ولا تجسسوا) أى ولا تبحثوا عن عورات المسلمين تفعل من الجس لما فيه من معنى الطلب كما أن التلمس بمعنى التطلب لما فى اللمس من الطلب وقد جاء بمعنى الطلب فى قوله تعالى وأنا لمسنا السماء وقرىء بالحاء من الحس الذى هو إثر الجس وغايته ولتقاربهما يقال للمشاعر الحواس بالحاء والجيم وفى الحديث لاتتبعوا عورات المسلمين فإن من تتبع عورات المسلمين تتبع الله عورته حتى يفضحه ولو فى جوف بيته (ولا يغتب بعضكم بعضاً) أى لايذكر بعضكم بعضاً بالسوء فى غيبته وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الغيبة فقال أن تذكر أخاك بما يكره فإن كان فيه فقد اغتبته وإن لم يكن فيه فقد بهته وعن ابن عباس رضى الله عنهما الغيبة إدام كلاب الناس (أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً) تمثيل وتصوير لما يصدر عن المغتاب من حيث صدوره عنه ومن حيث تعلقه بصاحبه على أفحش وجه وأشنعه طبعاً وعقلا وشرعا مع مبالغات من فنون شتى الاستفهام التقريرى وإسناد الفعل إلى أحد إيذاناً بأن أحداً من الأحدين لايفعل ذلك وتعليق المحبة بما هو فى غاية الكراهة وتمثيل الاغتياب بأكل لحم الإنسان وجعل المأكول أخا للآكل وميتاً وإخراج تماثلها مخرج أمر بين غنى عن الإخبار به وقرىء ميتاً بالتشديد وانتصابه على الحالية من اللحم وقيل من الأخ والفاء فى قوله تعالى (فكرهتموه) لترتيب مابعدها على ماقبلها من التمثيل كأنه قيل وحيث كان الأمر كما ذكر فقد كرهتموه وقرى كرهتموه أى جبلتم على كراهته (واتقوا الله) بترك ما أمرتم باجتنابه والندم على ماصدر عنكم من قبل (إن الله تواب رحيم) مبالغ فى قبول التوبة وإفاضة الرحمة حيث يجعل التائب كمن لم يذنب ولا يخص ذلك بتائب دون تائب بل يعم الجميع وإن كثرت ذنوبهم روى أن رجلين من الصحابة رضى الله عنهم بعثا سلمان إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يبغى لهما إداماً وكان أسامة على طعامه عليه الصلاة والسلام فقال ماعندى شىء فأخبرهما سلمان فقالا لو بعثنا سليمان إلى بئر سميحة لغار ماؤها فلما راحا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لهما مالى أرى خضرة اللحم فى أفواهكما فقالا ماتناولنا لحماً فقال عليه الصلاة والسلام إنكما قد اغتبتما

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ ٤٩ الحجرات

قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ ٤٩ الحجرات

فنزلت (يأيها الذين آمنوا إنا خلقناكم من ذكر وأنثى) من آدم وحواء أو خلقنا كل واحد منكم من ١٣
أب وأم فالكل سواء فى ذلك فلا وجه للتفاخر بالنسب وقد جوز أن يكون تأكيداً للنهى السابق
بتقرير الأخوة المانعة من الاغتياب (وجعلناكم شعوباً وقبائل) الشعب الجمع العظيم المنتسبون إلى *
أصل واحد وهو يجمع القبائل والقبيلة تجمع العمائر والعمارة تجمع البطون والبطن يجمع الأفخاذ والفخذ
يجمع الفصائل فخزيمة شعب وكنانة قبيلة وقريش عمارة وقصى بطن وهاشم فخذ والعباس فصيلة وقيل
الشعوب بطون العجم والقبائل بطون العرب (لتعارفوا) ليعرف بعضكم بعضاً بحسب الأنساب فلا *
يعتزى أحد إلى غير آبائه لا لتتفاخروا بالآباء والقبائل وتدعوا التفاوت والتفاضل فى الأنساب وقرىء
لتتعارفوا على الأصل ولتعارفوا بالإدغام ولتعرفوا (إن أكرمكم عند الله أتقاكم) تعليل للنهى عن *
التفاخر بالأنساب المستفاد من الكلام بطريق الاستئناف التحقيقى كأنه قيل إن الأكرم عنده تعالى
هو الأتقى فإن فاخرتم ففاخروا بالتقوى وقرىء بأن المفتوحة على حذف لام التعليل كأنه قيل لم
لا تتفاخروا بالأنساب فقيل لأن أكرمكم عند الله أتقاكم لا أنسبكم فإن مدار كمال النفوس وتفاوت
الأشخاص هو التقوى فمن رام نيل الدرجات العلا فعليه بالتقوى قال عليه الصلاة والسلام من سره
أن يكون أكرم الناس فليتق الله وقال عليه الصلاة والسلام يأيها الناس إنما الناس رجلان مؤمن تقى
كريم على الله تعالى وفاجر شقى هين على الله تعالى وعن ابن عباس رضى الله عنهما كرم الدنيا الغنى
وكرم الآخرة التقوى (إن الله عليم) بكم وبأعمالكم (خبير) ببواطن أحوالكم (قالت الأعراب ١٤
آمنا) نزلت فى نفر من بنى أسد قدموا المدينة فى سنة جدب فأظهروا الشهادتين وكانوا يقولون لرسول
الله صلى الله عليه وسلم أتيناك بالأثقال والعيال ولم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان يريدون الصدقة ويمنون
عليه عليه الصلاة والسلام مافعلوا (قل) رداً لهم (لم تؤمنوا) إذ الإيمان هو التصديق المقارن للثقة *
وطمأنينة القلب ولم يحصل لكم ذلك وإلا لما مننتم على ماذكرتم كما ينبىء عنه آخر السورة (ولكن *
قولوا أسلمنا) فإن الإسلام انقياد ودخول فى السلم وإظهار الشهادة وترك المحاربة مشعر به وإيثار
ماعليه النظم الكريم على أن يقال لاتقولوا آمنا ولكن قولوا أسلمنا أولم تؤمنوا ولكن أسلمتم للاحتراز
من النهى عن التلفظ بالإيمان وللتفادى عن إخراج قولهم مخرج التسليم والاعتداد به مع كونه تقولا
محضاً (ولما يدخل الإيمان فى قلوبكم) حال من ضمير قولوا أى ولكن قولوا أسلمنا حال عدم مواطأة *
قلوبكم لألسنتكم وما فى لما من معنى التوقع مشعر بأن هؤلاء قد آمنوا فيما بعد (وإن تطيعوا الله ورسوله) *

إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ
أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾ ٤٩ الحجرات

قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٦﴾ ٤٩ الحجرات

يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ
إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ ٤٩ الحجرات

إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ ٤٩ الحجرات

* بالإخلاص وترك النفاق (لايلتكم من أعمالكم) لا ينقصكم (شيئاً) من أجورها من لات يليت ليتاً
* إذا نقص وقرىء لايألتكم من الألت وهى لغة غطفان أوشيئاً من النقص (إن الله غفور) لما فرط
١٥ من المطيعين (رحيم) بالتفضل عليهم (إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا) لم يشكوا
من ارتاب مطاوع رابه إذا أوقعه فى الشك مع التهمة وفيه إشارة إلى أن فيهم مايوجب نفى الإيمان
عنهم وثم للإشعار بأن اشتراط عدم الارتياب فى اعتبار الإيمان ليس فى حال إنشائه فقط بل وفيما
* يستقبل فهى كما فى قوله تعالى ثم استقاموا (وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله) فى طاعته على
* تكثر فنونها من العبادات البدنية المحضة والمالية الصرفة والمشتملة عليها معاً كالحج والجهاد (أولئك)
* الموصوفون بما ذكر من الأوصاف الجميلة (هم الصادقون) أى الذين صدقوا فى دعوى الإيمان لاغيرهم
١٦ روى أنه لما نزلت الآية جاؤا وحلفوا أنهم مؤمنون صادقون فنزل لتكذيبهم قوله تعالى (قل أتعلمون
* الله بدينكم) أى أتخبرونه بذلك بقولكم آمنا والتعبير عنه بالتعليم لغاية تشنيعهم (والله يعلم مافى
* السموات وما فى الأرض) حال من مفعول تعلمون مؤكدة لتشنيعهم وقوله تعالى (والله بكل شىء
عليم) تذييل مقرر لما قبله أى مبالغ فى العلم بجميع الأشياء التى من جملتها ما أخفوه من الكفر عند
١٧ إظهارهم الإيمان وفيه مزيد تجهيل وتوبيخ لهم (يمنون عليك أن أسلموا) أى يعدون إسلامهم منة
عليك وهى النعمة التى لايطلب موليها ثواباً ممن أنعم بها عليه من المن بمعنى القطع لأن المقصود بها
* قطع حاجته وقيل النعمة الثقيلة من المن (قل لاتمنوا على إسلامكم) أى لاتعدوا إسلامكم منة على أو
* لاتمنوا على بإسلامكم فنصب بنزع الخافض (بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان) على مازعمتم مع أن
* الهداية لاتستلزم الاهتداء وقرىء أن هداكم وإذ هداكم (إن كنتم صادقين) فى ادعاء الإيمان وجوابه
محذوف يدل عليه ماقبله أى فلله المنة عليكم وفى سياق النظم الكريم من اللطف مالا يخفى فإنهم لما سموا
ماصدر عنهم إيماناً ومنوا به فنفى كونه إيماناً وسمى إسلاماً قيل يمنون عليك بما هو فى الحقيقة إسلام
١٨ وليس بجدير بالمن بل لو صح ادعاؤهم للإيمان فلله المنة عليهم بالهداية إليه لا لهم (إن الله يعلم غيب
* السموات والأرض) أى ماغاب فيهما (والله بصير بما تعملون) فى سركم وعلانيتكم فكيف يخفى عليه

سُورَةُ الحُجُرَاتِ

ترتيبها ٤٩ — آياتها ١٨

مدنية كما قال الحسن وقتادة، وعكرمة وغيرهم وفي مجمع البيان عن ابن عباس إلا آية وهي قوله تعالى: ﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى﴾ [الحجرات: ١٣] ولعل من يعتبر ما أخرجه الحاكم في مستدركه. والبيهقي في الدلائل. والبزار في مسنده من طريق الأعمش عن علقمة عن عبد الله قال: ما كان ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ [الحجرات: ١، ٢، ٦، ١١، ١٢، ١٥] أنزل بالمدينة وما كان ﴿يا أيها الناس﴾ فبمكة يقول بمكية ما استثنى، والحق أن هذا ليس بمطرد. وذكر الخفاجي أنها في قول شاذ مكية، وهي ثماني عشرة آية بالإجماع، ولا يخفى تواخيها مع ما قبلها لكونهما مدنيتين ومشتملتين على أحكام وتلك فيها قتال الكفار وهذه فيها قتال البغاة، وتلك ختمت بالذين آمنوا وهذه افتتحت بالذين آمنوا، وتلك تضمنت تشريفات له ﷺ خصوصاً مطلعها وهذه أيضاً في مطلعها أنواع من التشريف له عليه الصلاة والسلام، وفي البحر مناسبتها لآخر ما قبلها ظاهر لأنه عز وجل ذكر رسول الله ﷺ وأصحابه ثم قال سبحانه ﴿وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ [الفتح: ٢٩] الخ فربما صدر من المؤمن عامل الصالحات بعض شيء مما ينبغي أن ينهى عنه فقال جل وعلا تعليماً للمؤمنين وتهذيباً لهم.

بسم الله الرحمن الرحيم

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَـٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰۚ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾

﴿**بسم الله الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ الله وَرَسُولِه**﴾ وتصدير الخطاب بالنداء لتنبيه المخاطبين على أن ما في حيزه أمر خطير يستدعي مزيد اعتنائهم وفرط اهتمامهم بتلقيه ومراعاته، ووصفهم بالإيمان لتنشيطهم والإيذان بأنه داع للمحافظة عليه ورادع عن الإخلال به.

و ﴿**تقدموا**﴾ من قدم المتعدي، ومعناه جعل الشيء قادماً أي متقدماً على غيره، وكان مقتضاه أن يتعدى إلى

مفعولين لكن الأكثر في الاستعمال تعديته إلى الثاني بعلى تقول: قدمت فلاناً على فلان، وهو هنا محتمل احتمالين: الأول أن يكون مفعوله نسياً والقصد فيه إلى نفس الفعل وهو التقديم من غير اعتبار تعلقه بأمر من الأمور ولا نظر إلى أن المقدم ماذا هو على طريقة قوله تعالى: ﴿هو الذي يحيي ويميت﴾ [المؤمنون: ٨٠، غافر: ٦٨] وقولهم: يعطي ويمنع، فالمعنى لا تفعلوا التقديم ولا تتلبسوا به ولا تجعلوه منكم بسبيل. والثاني أن يكون قد حذف مفعوله قصداً إلى تعميمه لأنه لاحتماله لأمور لو قدر أحدها كان ترجيحاً بلا مرجح يقدر أمراً عاماً لأنه أفيد مع الاختصار، فالمعنى لا تقدموا أمراً من الأمور، والأول قيل أوفى بحق المقام لإفادته النهي عن التلبس بنفس الفعل الموجب لانتفائه بالكلية المستلزم لانتفاء تعلقه بمفعوله بالطريق البرهاني، ورجح الثاني بأنه أكثر استعمالاً، وبأن في الأول تنزيل المتعدي منزلة اللازم وهو خلاف الأصل والثاني سالم منه، والحذف وإن كان خلاف الأصل أيضاً أهون من التنزيل المذكور لكثرته بالنسبة إليه، وبعضهم لم يفرق بينهما لتعارض الترجيح عنده وكون مآل المعنى عليهما العموم المناسب للمقام، وذكر أن في الكلام تجوزين، أحدهما في «بين» الخ فإن حقيقة قولهم بين يدي فلان ما بين العضوين فتجوز بذلك عن الجهتين المسامتتين ليمينه وشماله قريباً منه بإطلاق اليدين على ما يجاورهما ويحاذيهما فهو من المجاز المرسل. ثانيهما استعارة الجملة وهي التقدم بين اليدين استعارة تمثيلية للقطع بالحكم بلا اقتداء ومتابعة لمن يلزم متابعته تصويراً لهجنته وشناعته بصورة المحسوس فيما نهوا عنه كتقدم الخادم بين يدي سيده في سيره حيث لا مصلحة، فالمراد من ﴿لا تقدموا بين يدي الله ورسوله﴾ لا تقطعوا أمراً وتجزموا به وتجترؤوا على ارتكابه قبل أن يحكم الله تعالى ورسوله ﷺ ويأذنا فيه، وحاصله النهي عن الإقدام على أمر من الأمور دون الاحتذاء على أمثلة الكتاب والسنة.

وجوز أن يكون ﴿تقدموا﴾ من قدم اللازم بمعنى تقدم كوجه وبين، ومنه مقدمة الجيش خلاف ساقته وهي الجماعة المتقدمة منه، ويعضده قراءة ابن عباس وأبي حيوة والضحاك ويعقوب وابن مقسم «لا تَقَدموا» بفتح التاء والقاف والدال، وأصله تتقدموا فحذفت إحدى التاءين تخفيفاً لأنه من التفعل وهو المطاوع اللازم، ورجح ما تقدم بما سمعت وبأن فيه استعمال اعرف اللغتين وأشهرهما، لا يقال: الظرف إذا تعلق به العامل قد ينزل منزلة المفعول فيفيد العموم كما قرروه في «مالك يوم الدين» فليكن الظرف ههنا بمنزلة مفعول التقدم مغنياً غناءه، والتقدم بين يدي المرء خروج عن صفة المتابعة حسا فهو أوفق للاستعارة التمثيلية المقصود منها تصوير هجنة الحكم بلا اقتداء ومتابعة لمن يلزم متابعته بصورة المحسوس، فتخريج ﴿لا تقدموا﴾ على اللزوم أبلغ ولا يضره عدم الشهرة فإنه لا يقاوم الأبلغية المطابقة للمقام لما أشار إليه في الكشف من أن المراد النهي عن مخالفة الكتاب والسنة، والتعدية تفيد أن ذلك بجعل وقصد منه للمخالفة لأن التقديم بين يدي المرء أن تجعل أحداً إما نفسك أو غيرك متقدماً بين يديه وذلك أقوى في الذم وأكثر استهجاناً للدلالة على تعمد عدم المتابعة لا صدورها عنه كيفما اتفق فافهم ولا تغفل.

وجوز أن يكون ﴿بين يدي الله ورسوله﴾ من باب أعجبني زيد وكرمه فالنهي عن التقدم بين يدي الرسول عليه الصلاة والسلام فكأنه قيل: لا تقدموا بين يدي رسول الله، وذكر الله تعالى لتعظيمه عليه الصلاة والسلام والإيذان بجلالة محله عنده عز وجل ومزيد اختصاصه به سبحانه، وأمر التجوز عليه على حاله، وهو كما قال في الكشف أوفق لما يجيء بعده، فإن الكلام مسوق لإجلاله عليه الصلاة والسلام، وإذا كان استحقاق هذا الإجلال لاختصاصه بالله جل وعلا ومنزلته منه سبحانه فالتقدم بين يدي الله عز شأنه أدخل في النهي وأدخل، وإن جعل مقصوداً بنفسه على ما مر فالنهي عن الاستبداد بالعمل في أمر ديني لا مطلقاً من غير مراجعة إلى الكتاب والسنة، وعليه تفسير ابن عباس على ما أخرجه ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو نعيم في الحلية عنه أنه قال: أي لا تقولوا خلاف الكتاب والسنة، وكذا ما أخرجه

ابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه عنه قال: نهوا أن يتكلموا بين يدي كلامه بل عليهم أن يصغوا ولا يتكلموا.

ووجه الدلالة على هذا أن كلامه عليه الصلاة والسلام أريد به ما ينقله عنه تعالى ولفظه أيضاً، وما اللفظ من الرسول ﷺ وإن كان المعنى من الوحي أو أراد كلام كل واحد من الله تعالى والرسول عليه الصلاة والسلام، وما أخرج عبد بن حميد. والبيهقي في شعب الإيمان وغيرهما عن مجاهد أنه قال في ذلك: لا تفتأتوا على رسول الله ﷺ بشيء حتى يقضي الله تعالى على لسانه يخرج على نحو التخريج الأول لكلام ابن عباس ويكون مؤيداً له، وبعضهم يروى أنه قال: لا تفتاتوا على الله تعالى شيئاً حتى يقصه على لسان رسول الله ﷺ وجعل مؤيداً لكلام ابن عباس أيضاً، وفسر التقدم بين يدي الله تعالى لأن التقدم بين يدي الرسول عليه الصلاة والسلام مكشوف المعنى، ثم إن كل ذلك من باب بيان حاصل المعنى في الجملة.

وفي الدر المنثور بعد ذكر المروي عن مجاهد حسبما ذكرنا قال الحفاظ: هذا التفسير على قراءة «تَقَدَّمُوا» بفتح التاء والدال وهي قراءة لبعضهم حكاها الزمخشري وأبو حيان وغيرهما، وكأن ذلك مبني على أن ﴿تقدموا﴾ على هذه القراءة من قدم كعلم إذا مضى في الحرب ويأتي من باب نصر أيضاً إذ الافتيات وهو السبق دون ائتمار من يؤتمر أنسب بذلك.

واختار بعض الأجلة جعله من قدم من سفره من باب علم لا غير كما يقتضيه عبارة القاموس، وعليه يكون قد شبه تعجيلهم في قطع الحكم في أمر من أمور الدين بقدوم المسافر من سفره إيذاناً بشدة رغبتهم فيه نحو ﴿وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا﴾ [الفرقان: ٢٣] واختلف في سبب النزول، فأخرج البخاري وابن المنذر وابن مردويه عن عبد الله بن الزبير قال: «قدم ركب من بني تميم على النبي ﷺ فقال أبو بكر رضي الله تعالى عنه: أمِّر القعقاع بن معبد، وقال عمر رضي الله تعالى عنه: بل أمر الأقرع بن حابس، فقال أبو بكر رضي الله تعالى عنه: ما أردت إلا خلافي، فقال عمر رضي الله تعالى عنه: ما أردت خلافك فتماريا حتى ارتفعت أصواتهما فأنزل الله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله﴾ حتى انقضت الآية» وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن الحسن أن أناساً ذبحوا قبل رسول الله ﷺ يوم النحر فأمرهم عليه الصلاة والسلام أن يعيدوا ذبحاً فأنزل الله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ الخ، وفي الكشاف عنه أن أناساً ذبحوا يوم الأضحى قبل الصلاة فنزلت وأمرهم ﷺ أن يعيدوا ذبحاً آخر، والأول ظاهر في أن النزول بعد الأمر والذبح قبل الصلاة يستلزم الذبح قبل رسول الله عليه الصلاة والسلام لأنه ﷺ كان ينحر بعدها كما نطقت به الأخبار، وإلى عدم الاجزاء قبل ذهب الإمام أبو حنيفة والأخبار تؤيده، أخرج الشيخان والترمذي وأبو داود والنسائي عن البراء قال: «ذبح أبو بردة بن نيار قبل الصلاة فقال النبي ﷺ: أبدلها فقال: يا رسول الله ليس عندي إلا جذعة فقال ﷺ: اجعلها مكانها ولن تجزي عن أحد بعدك» وفي رواية أن رسول الله ﷺ قال: «أول ما نبدأ به في يومنا هذا نصلي ثم نرجع فننحر فمن فعل ذلك فقد أصاب سنتنا ومن ذبح قبل فإنما هو لحم قدمه لأهله ليس من النسك في شيء» وكان أبو بردة بن نيار قد ذبح قبل الصلاة الحديث، وفي المسألة كلام طويل محله كتب الفروع فراجعه إن أردته، وعن الحسن أيضاً لما استقر رسول الله ﷺ بالمدينة أتته الوفود من الآفاق فأكثروا عليه بالمسائل فنهوا أن يبتدئوه بالمسألة حتى يكون عليه الصلاة والسلام هو المبتدىء، وأخرج ابن جرير وغيره عن قتادة قال: ذكر لنا أن ناساً كانوا يقولون: لو أنزل في كذا وكذا لكان كذا وكذا فكره الله تعالى ذلك وقدم فيه.
وقيل: بعث رسول الله ﷺ إلى تهامة سرية سبعة وعشرين رجلاً عليهم المنذر بن عمرو الساعدي فقتلهم بنو عامر وعليهم عامر بن الطفيل إلا ثلاثة نفر نجوا فلقوا رجلين من بني سليم قرب المدينة فاعتزيا لهم إلى بني عامر لأنهم أعز

من سليم فقتلوهما وسلبوهما ثم أتوا رسول الله ﷺ فقال: بئسما صنعتم كانا من سليم أي كانا من أهل العهد لأنهم كانوا معاهدين والسلب ما كسوتهما فوداهما رسول الله ﷺ فقال: ونزلت أي لا تعملوا شيئاً من ذات أنفسكم حتى تستأمروا رسول الله ﷺ. وأخرج الطبراني في الأوسط، وابن مردويه عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: إن ناساً كانوا يتقدمون الشهر فيصومون قبل النبي ﷺ فأنزل الله تعالى ﴿**يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله**﴾ وفي رواية عن مسروق بن الأجدع بن مالك الهمداني الكوفي دخلت على عائشة رضي الله تعالى عنها وكانت قد تبنته في اليوم الذي يشك فيه فقالت للجارية: اسقيه عسلاً فقلت: إني صائم فقالت: قد نهى الله تعالى عن صوم هذا اليوم وفيه نزلت ﴿**يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا**﴾ الخ، فالمعنى كما في المعالم لا تصوموا قبل صوم نبيكم، وأول هذا صاحب الكشف فقال: الظاهر عندي أنها استدلت بالآية على أنه ينبغي أن يمتثل أمر النبي ﷺ ونهيه، وقد نهى عليه الصلاة والسلام وفيه نزلت أي في مثل هذا لدلالتها على وجوب الاتباع والنهي عن الاستبداد إذ لا يلوح ذلك التفسير على وجه ينطبق على يوم الشك وحده إلا بتكلف، وهذا نظير ما نقل عن ابن مسعود في جواب المرأة التي اعترضت عليه أنها قرأت كتاب الله وما وجدت اللعن على الواشمة كما ادعاه رضي الله تعالى عنه من قوله: لئن كنت قرأتيه لقد وجدتيه أما رأيت ﴿وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا﴾ [الحشر: ٧] قالت: بلى قال: فإنه نهى عنه. وأنت تعلم بعد الرواية الأولى عن هذا التأويل، ويعلم من هذه الروايات وغيرها أنهم اختلفوا أيضاً في تفسير التقدم، وفي كثير منها تفسيره بخاص، وقال بعضهم: إن الآية عامة في كل قول وفعل ويدخل فيها أنه إذا جرت مسألة في مجلس رسول الله ﷺ لم يسبقوه في الجواب، وأن لا يمشي بين يديه إلا للحاجة، وأن يستأني في الافتتاح بالطعام، ورجح بأنه الموافق للسياق ولما عرف في الأصول من أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، وفي الكلام عليه بناءً على ما قاله الطيبي مجاز باعتبار القدر المشترك الصادق على الحقيقة أيضاً دون التمثيل وتشبيه المعقول بالمحسوس ويسمى في الأصول بعموم المجاز وفي الصناعة بالكناية لأنها لا تنافي إرادة الحقيقة أيضاً؛ ومن هنا يجوز إرادة لا تمشوا بين يديه ﷺ؛ وذكر عليه الرحمة أنه لا يقدر على هذا القول مفعول بل يتوجه النهي إلى نفس الفعل فتأمل، ويحتج بالآية على اتباع الشرع في كل شيء وهو ظاهر مما تقدم، وربما احتج بها نفاة القياس وهو كما قال الكيا باطل منهم. نعم قال الجلال السيوطي: يحتج بها على تقديم النص على القياس، ولعله مبني على أن العمل بالنص أبعد من التقدم بين يدي الله تعالى ورسوله ﷺ ﴿**وَاتَّقُوا اللهَ**﴾ أي في كل ما تأتون وتذرون من الأقوال والأفعال التي من جملتها ما نحن فيه ﴿**إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ**﴾ لكل مسموع ومنه أقوالكم ﴿**عَلِيمٌ**﴾ بكل المعلومات ومنها أفعالكم فمن حقه أن يتقي ويراقب ﴿**يَا أَيُّهَا الذين آمَنُوا لاَ تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ**﴾ شروع في النهي عن التجاوز في كيفية القول عند النبي ﷺ بعد النهي عن التجاوز في نفس القول والفعل، وإعادة النداء مع قرب العهد به للمبالغة في الإيقاظ والتنبيه والإشعار باستقلال كل من الكلامين باستدعاء الاعتناء بشأنه أي لا تبلغوا بأصواتكم وراء حد يبلغه عليه الصلاة والسلام بصوته. وقرأ ابن مسعود ﴿**لا ترفعوا بأصواتكم**﴾ بتشديد «تُرَفِّعُوا» وزيادة الباء وقد شدد الاعلم الهذلي في قوله:

رفـعـت عـيـني بـالـحـجـا ... ز إلـى أنـاس بـالـمـنـاقـب

والتشديد فيه للمبالغة كزيادة الباء في القراءة إلا أن ليس المعنى فيها أنهم نهوا عن الرفع الشديد تخيلاً أن يكون ما دون الشديد مسوغاً لهم، ولكن المعنى نهيهم عما كانوا عليه من الجلبة واستجفاؤهم فيما كانوا يفعلون، وهو نظير قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربى أضعافاً مضاعفة﴾ [آل عمران: ١٣٠].

﴿**وَلاَ تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ**﴾ أي جهراً كائناً كالجهر الجاري فيما بينكم، فالأول نهى عن

رفع الصوت فوق صوته ﷺ وهذا نهي عن مساواة جهرهم لجهره عليه الصلاة والسلام فإنه المعتاد في مخاطبة الأقران والنظراء بعضهم لبعض، ويفهم من ذلك وجوب الغض حتى تكون أصواتهم دون صوته ﷺ، وقيل: الأول مخصوص بمكالمته ﷺ لهم وهذا بصمته عليه الصلاة والسلام كأنه قيل: لا ترفعوا أصواتكم فوق صوته إذا نطق ونطقتم ولا تجهروا له بالقول إذا سكت وتكلمتم، ويفهم أيضاً وجوب كون أصواتهم دون صوته عليه الصلاة والسلام، فأياً ما كان يكون المآل اجعلوا أصواتكم أخفض من صوته ﷺ وتعهدوا في مخاطبته اللين القريب من الهمس كما هو الدأب عند مخاطبة المهيب المعظم وحافظوا على مراعاة أبهة النبوة وجلالة مقدارها، ومن هنا قال أبو بكر الصديق رضي الله تعالى عنه بعد نزول الآية كما أخرج عبد بن حميد والحاكم وصححه من طريق أبي سلمة عن أبي هريرة: «والذي أنزل عليك الكتاب يا رسول الله لا أكلمك إلا كأخي السرار حتى ألقى الله تعالى».

وفي رواية أنه قال: يا رسول الله والله لا أكلمك إلا السرار أو أخا السرار حتى ألقى الله تعالى، وكان إذا قدم على رسول الله عليه الصلاة والسلام الوفود أرسل إليهم من يعلمهم كيف يسلمون ويأمرهم بالسكينة والوقار عند رسول الله ﷺ، وكان عمر رضي الله تعالى عنه كما في صحيح البخاري. وغيره عن ابن الزبير إذا تكلم عند النبي ﷺ لم يسمع كلامه حتى يستفهمه، وقيل: معنى ﴿**ولا تجهروا له بالقول**﴾ الخ ولا تخاطبوه باسمه وكنيته كما يخاطب بعضكم بعضاً وخاطبوه بالنبي والرسول، والكلام عليه أبعد عن توهم التكرار لكنه خلاف الظاهر لأن ذكر الجهر عليه لا يظهر له وجه، وكان الظاهر أن يقال مثلاً: ولا تجعلوا خطابه كخطاب بعضكم بعضاً.

﴿**أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ**﴾ تعليل لما قبله من النهيين على طريق التنازع بتقدير مضاف أي كراهة أن تحبط أعمالكم، والمعنى إني أنهاكم عما ذكر لكراهة حبوط أعمالكم بارتكابه أو تعليل للمنهي عنه، وهو الرفع والجهر بتقدير اللام أي لأن تحبط، والمعنى فعلكم ما ذكر لأجل الحبوط منهي عنه، ولام التعليل المقدرة مستعارة للعاقبة التي يؤدي إليها الفعل لأن الرفع والجهر ليس لأجل الحبوط لكنهما يؤديان إليه على ما تعلمه إن شاء الله تعالى، وفرق بينهما بما حاصله أن الفعل المنهي معلل في الأول والفعل المعلل منهي في الثاني وأيهما كان فمرجع المعنى إلى أن الرفع والجهر كلاهما منصوص الأداء إلى حبوط العمل، وقراءة ابن مسعود. وزيد بن علي «فتحبط» بالفاء أظهر في التنصيص على أدائه إلى الإحباط لأن ما بعد الفاء لا يكون إلا مسبباً عما قبلها، وقوله تعالى: ﴿**وَأَنْتُمْ لاَ تَشْعُرُونَ**﴾ حال من فاعل ﴿**تحبط**﴾ ومفعول ﴿**تشعرون**﴾ محذوف بقرينة ما قبله أي والحال أنتم لا تشعرون أنها محبطة، وظاهر الآية مشعر بأن الذنوب مطلقاً قد تحبط الأعمال الصالحة، ومذهب أهل السنة أن المحبط منها الكفر لا غير، والأول مذهب المعتزلة ولذا قال الزمخشري: قد دلت الآية على أمرين هائلين: أحدهما أن فيما يرتكب من الآثام يحبط عمل المؤمن، والثاني أن في أعماله ما لا يدرى أنه محبط ولعله عند الله تعالى محبط.

وأجاب عن ذلك ابن المنير عليه الرحمة بأن المراد في الآية النهي عن رفع الصوت على الإطلاق، ومعلوم أن حكم النهي الحذر مما يتوقع في ذلك من إيذاء النبي ﷺ، والقاعدة المختارة أن إيذاءه عليه الصلاة والسلام يبلغ مبلغ الكفر المحبط للعمل باتفاق فورد النهي عما هو مظنة لأذى النبي ﷺ سواء وجد هذا المعنى أو لا حماية للذريعة وحسماً للمادة، ثم لما كان هذا النهي عنه منقسماً إلى ما يبلغ مبلغ الكفر وهو المؤذي له عليه الصلاة والسلام وإلى ما لا يبلغ ذلك المبلغ ولا دليل يميز أحد القسمين عن الآخر لزم المكلف أن يكف عن ذلك مطلقاً خوف أن يقع فيما هو محبط للعمل وهو البالغ حد الأذى إذ لا دليل ظاهراً يميزه، وإن كان فلا يتفق تمييزه في كثير من الأحيان، وإلى التباس أحد القسمين بالآخر وقعت الإشارة بقوله سبحانه: ﴿**أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون**﴾ وإلا فلو كان الأمر على

ما يعتقده الزمخشري لم يكن لقوله سبحانه: ﴿**وأنتم لا تشعرون**﴾ موقع إذ الأمر منحصر بين أن يكون رفع الصوت مؤذياً فيكون كفراً محبطاً قطعاً وبين أن يكون غير مؤذ فيكون كبيرة محبطة على رأيه قطعاً، فعلى كلا حاليه الإحباط به محقق إذن فلا موقع لإدعام الكلام بعدم الشعور مع أن الشعور ثابت مطلقاً، ثم قال عليه الرحمة: وهذا التقدير يدور على مقدمتين كلتاهما صحيحة: إحداهما أن رفع الصوت من جنس ما يحصل به الأذى وهذا أمر يشهد به النقل والمشاهدة حتى أن الشيخ ليتأذى برفع التلميذ صوته بين يديه فكيف برتبة النبوة وما تستحقه من الإجلال والإعظام. ثانيتهما أن إيذاء النبي ﷺ كفر وهذا ثابت قد نص عليه أئمتنا وأفتوا بقتل من تعرض لذلك كفراً ولا تقبل توبته فما أتاه أعظم عند الله تعالى وأكبر انتهى.

وحاصل الجواب أنه لا دليل في الآية على ما ذهب إليه الزمخشري لأنه قد يؤدي إلى الإحباط إذا كان على وجه الإيذاء أو الاستهانة فنهاهم عز وجل عنه وعلله بأنه قد يحبط وهم لا يشعرون، وقيل: يمكن نظراً للمقام أن ينزل إذا همّ رسول الله ﷺ برفع الصوت منزلة الكفر تغليظاً إجلالاً لمجلسه صلوات الله تعالى عليه وسلامه ثم يرتب عليه ما يرتب على الكفر الحقيقي من الإحباط كقوله تعالى: ﴿ولله على الناس حج البيت﴾ إلى قوله سبحانه: ﴿ومن كفر فإن الله غني عن العالمين﴾ [آل عمران: ٩٧] ومعنى ﴿**وأنتم لا تشعرون**﴾ عليه وأنتم لا تشعرون أن ذلك بمنزلة الكفر المحبط وليس كسائر المعاصي، ولا يتم بدون الأول، وجاز كما في الكشف أن يكون المراد ما فيه استهانة ويكون من باب ﴿فلا تكونن ظهيراً للكافرين﴾ [القصص: ٨٦] مما الغرض منه التعريض كيف وهو قول منقول عن الحسن كما حكاه في الكشاف، وقال أبو حيان: إن كانت الآية بمن يفعل ذلك استخفافاً فذلك كفر يحبط معه العمل حقيقة، وإن كانت للمؤمن الذي يفعله غلبة وجرياً على عادته فإنما يحبط عمله البر في توقير النبي ﷺ وغض الصوت عنده ان لو فعل ذلك كأنه قيل: مخافة أن تحبط الأعمال التي هي معدة أن تعملوها فتؤجروا عليها، ولا يخفى ما في الشق الثاني من التكلف البارد، ثم إن من الجهر ما لم يتناوله النهي بالاتفاق وهو ما كان منهم في حرب أو مجادلة معانداً أو إرهاب عدو أو ما أشبه ذلك مما لا يتخيل منه تأذ أو استهانة، ففي الحديث أنه عليه الصلاة والسلام قال للعباس بن عبد المطلب لما ولى المسلمون يوم حنين: ناد أصحاب السمرة فنادى بأعلى صوته أين أصحاب السمرة، وكان رجلاً صيتاً. يروى أن غارة أتتهم يوماً فصاح العباس يا صباحاه فأسقطت الحوامل لشدة صوته، وفيه يقول نابغة بني جعدة:

زجر أبي عروة السباع إذا ... اشفق أن يختلطن بالغنم

زعمت الرواة أنه كان يزجر السباع عن الغنم فيفتق مرارة السبع في جوفه، وذكروا أنه سئل ابن عباس رضي الله تعالى عنهما فكيف لا تفتق مرارة الغنم؟ فقال: لأنها ألفت صوته، وروى البخاري ومسلم عن أنس لما نزلت هذه الآية جلس ثابت بن قيس في بيته وقال: أنا من أهل النار واحتبس فسأل النبي ﷺ سعد بن معاذ فقال: يا أبا عمرو ما شأن ثابت اشتكى؟ قال سعد: إنه جاري وما علمت له بشكوى فأتاه سعد فقال: أنزلت هذه الآية ولقد علمتم إني أرفعكم صوتاً على رسول الله ﷺ فأنا من أهل النار فذكر ذلك سعد للنبي ﷺ فقال رسول الله ﷺ: بل هو من أهل الجنة، وفي رواية أنه لما نزلت دخل بيته وأغلق عليه بابه وطفق يبكي فافتقده رسول الله ﷺ فقال: ما شأن ثابت؟ قالوا: يا رسول الله ما ندري ما شأنه غير أنه أغلق باب بيته فهو يبكي فيه فأرسل رسول الله ﷺ إليه فسأله ما شأنك؟ قال: يا رسول الله أنزل الله عليك هذه الآية وأنا شديد الصوت فأخاف أن أكون قد حبط عملي فقال ﷺ: لست منهم بل تعيش بخير وتموت بخير، والظاهر أن ذلك منه رضي الله تعالى عنه كان من غلبة الخوف عليه وإلا فلا حرمة قبل النهي، وهو أيضاً أجل من أن يكون ممن كان يقصد الاستهانة والإيذاء لرسول الله ﷺ برفع الصوت وهم المنافقون الذين

نزلت فيهم الآية على ما روي عن الحسن وإنما كان الرفع منه طبيعة لما أنه كان في أذنه صمم وعادة كثير ممن به ذلك رفع الصوت، والظاهر أنه بعد نزولها ترك هذه العادة، فقد أخرج الطبراني والحاكم وصححه أن عاصم بن عدي ابن العجلان أخبر النبي ﷺ بحاله فأرسله إليه فلما جاء قال: ما يبكيك يا ثابت؟ فقال: أنا صيت وأتخوف أن تكون هذه الآية نزلت في فقال له عليه الصلاة والسلام: أما ترضى أن تعيش حميداً وتقتل شهيداً وتدخل الجنة؟ قال: رضيت ولا أرفع صوتي أبداً على صوت رسول الله ﷺ.

واستدل العلماء بالآية على المنع من رفع الصوت عند قبره الشريف ﷺ، وعند قراءة حديثه عليه الصلاة والسلام لأن حرمته ميتاً كحرمته حياً. وذكر أبو حيان كراهة الرفع أيضاً بحضرة العالم، وغير بعيد حرمته بقصد الإيذاء والاستهانة لمن يحرم إيذاؤه والاستهانة به مطلقاً لكن للحرمة مراتب متفاوتة كما لا يخفى.

وقوله تعالى: **﴿إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله﴾** الخ ترغيب في الانتهاء عما نهوا عنه بعد الترهيب عن الإخلال به أي يحفظونها مراعاة للأدب أو خشية من مخالفة النهي **﴿أولئك﴾** إشارة إلى الموصول باعتبار اتصافه بما في حيز الصلة، وما فيه من معنى البعد مع قرب العهد بالمشار إليه لما مر مراراً من تفخيم شأنه؛ وهو مبتدأ خبره **﴿الَّذِينَ امْتَحَنَ اللهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى﴾** والجملة خبر إن، وأصل معنى الامتحان التجربة والاختبار، والمراد به هنا لاستحالة نسبته إليه تعالى التمرين بعلاقة اللزوم أي إنهم مرن الله تعالى قلوبهم للتقوى. وفي الكشف الامتحان كناية تلويحية عن صبرهم على التقوى وثباتهم عليها وعلى احتمال مشاقها لأن الممتحن جرب وعود منه الفعل مرة بعد أخرى فهو دال على التمرن الموجب للاضطلاع، والإسناد إليه تعالى للدلالة على التمكين، ففيه على ما قيل مع الكناية تجوز في الإسناد والأصل امتحنوا قلوبهم للتقوى بتمكين الله تعالى لهم، وكأنه إنما اعتبر ذلك لأنه لا يجوز إرادة المعنى الموضوع له هنا فلا يصح كونه كناية عند من يشترط فيها إرادة الحقيقة، ومن اكتفى فيها بجواز الإرادة وإن امتنعت في محل الاستعمال لم يحتج إلى ذلك الاعتبار. واختار الشهاب كون الامتحان مجازاً عن الصبر بعلاقة اللزوم، وحاصل المعنى عليه كحاصله على الكناية أي إنهم صبر على التقوى أقوياء على مشاقها أو المراد بالامتحان المعرفة كما حكي عن الجبائي مجازاً من باب إطلاق السبب وإرادة المسبب، والمعنى عرف الله قلوبهم للتقوى، وإسناد المعرفة إليه عز وجل بغير لفظها غير ممتنع وهو في القرآن الكريم شائع، على أن الصحيح جواز الإسناد مطلقاً لما في نهج البلاغة من إطلاق العارف عليه تعالى، وقد ورد في الحديث أيضاً على ما ادعاه بعض الأجلة، واللام صلة لمحذوف وقع حالاً من **﴿قلوبهم﴾** أي كائنة للتقوى مختصة بها، فهو نحو اللام في قوله:

وقصيدة رائقة ضوعتها ... أنت لها أحمد من بين البشر

وقوله:

أعداء من لليعملات على الوجى ... وأضياف ليل بيتوا للنزول

أو هي صلة لامتحن، باعتبار معنى الاعتياد أو المراد ضرب الله تعالى قلوبهم بأنواع المحن والتكاليف الشاقة لأجل التقوى أي لتظهر ويعلم أنهم متقون إذ لا تعلم حقيقة التقوى إلا عند المحن والاصطبار عليها، وعلى هذا فالامتحان هو الضرب بالمحن، واللام للتعليل على معنى أن ظهور التقوى هو الغرض والعلة وإلا فالصبر على المحنة مستفاد من التقوى لا العكس، أو المراد أخلصها للتقوى أي جعلها خالصة لأجل التقوى أو أخلصها لها فلم يبق لغير التقوى فيها حق كأن القلوب خلصت ملكاً للتقوى، وهذا أبلغ وهو استعارة من امتحان الذهب وإذابته ليخلص ابريزه من خبثه وينقى أو تمثيل، وتفسير **﴿امتحن﴾** بأخلص رواه ابن جرير وجماعة عن مجاهد، وروي ذلك أيضاً عن

الكعبي وأبي مسلم، وقال الواحدي: تقدير الكلام امتحن الله قلوبهم فأخلصها للتقوى فحذف الإخلاص لدلالة الامتحان عليه وليس بذاك. واختار صاحب الكشف ما نقل عنه أولاً فقال: الأول أرجح الوجوه لكثرة فائدته من الكناية والإسناد والدلالة على أن مثل هذا الغض لا يتأتى إلا ممن هو مدرب للتقوى صبور عليها فتأمل ﴿لَهُم﴾ في الآخرة ﴿مَّغْفِرَةٌ﴾ لذنوبهم ﴿وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ لغضهم أصواتهم عند النبي عليه الصلاة والسلام ولسائر طاعاتهم، وتنكير ﴿مغفرة﴾ و ﴿أجر﴾ للتعظيم، ففي وصف أجر بعظيم مبالغة في عظمه فإنه مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، وجملة ﴿لهم﴾ الخ مستأنفة لبيان جزاء الغاضين احماداً لحالهم كما أخبر عنهم بجملة مؤلفة من معرفتين، والمبتدأ اسم الإشارة المتضمن لما جعل عنواناً لهم، والخبر الموصول بصلة دلت على بلوغهم أقصى الكمال مبالغة في الاعتداد بعضهم والارتضاء له وتعريضاً بشناعة الرفع والجهر وإن حال المرتكب لهما على خلاف ذلك، وقيل الجملة خبر ثان لإن وليس بذاك، والآية قيل: أنزلت في الشيخين رضي الله تعالى عنهما لما كان منهما من غض الصوت والبلوغ به أخا السرار بعد نزول الآية السابقة وفي حديث الحاكم. وغيره عن محمد بن ثابت بن قيس أنه قال بعد حكاية قصة أبيه وقوله: لا أرفع صوتي أبداً على رسول الله ﷺ وأنزل الله تعالى ﴿**إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله**﴾ الآية.

وأنت تعلم أن حكمها عام ويدخل الشيخان في عمومها وكذا ثابت بن قيس. وقد أخرج ابن مردويه عن أبي هريرة قال: لما أنزل الله تعالى ﴿**أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى**﴾ قال رسول الله ﷺ: منهم ثابت بن قيس ابن شماس ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ**﴾ من خارجها خلفها أو قدامها على أن ﴿**وراء**﴾ من المواراة والاستتار فما استتر عنك فهو وراء خلفاً كان أو قداماً إذا لم تره فإذا رأيته لا يكون وراءك، فالوراء بالنسبة إلى من في الحجرات ما كان خارجها لتواريه عمن فيها، وقال بعض أهل اللغة إن وراء من الأضداد فهو مشترك لفظي عليه ومشترك معنوي على الأول وهو الذي ذهب إليه الآمدي وجماعة.

و ﴿**الحجرات**﴾ جمع حُجْرة على وزن فعلة بضم الفاء وسكون العين وهي القطعة من الأرض المحجورة أي الممنوعة عن الدخول فيها بحائط، وتسمى حظيرة الإبل وهي ما تجمع فيه وتكون محجورة بحطب ونحوه حجرة أيضاً فهي بمعنى اسم المفعول كالغرفة لما يغرف باليد من الماء، وفي جمعها هنا ثلاثة أوجه، ضم العين اتباعاً للفاء كقراءة الجمهور، وفتحها وبه قرأ أبو جعفر. وشيبة. وتسكينها للتخفيف وبه قرأ ابن أبي عبلة.

وهذه الأوجه جائزة في جمع كل اسم جامد جاء على هذا الوزن، والمراد حجرات نسائه عليه الصلاة والسلام وكانت تسعة لكل منهن حجرة، وكانت كما أخرج ابن سعد عن عطاء الخراساني من جريد النخل على أبوابها المسوح من شعر أسود. وأخرج البخاري في الأدب. وابن أبي الدنيا والبيهقي عن داود بن قيس قال: رأيت الحجرات من جريد النخل مغشى من خارج بمسوح الشعر، وأظن عرض البيت من باب الحجرة إلى باب البيت ست أو سبع أذرع، وأحزر البيت الداخل عشرة أذرع، وأظن السمك بين الثمان والسبع.

وأخرجوا عن الحسن أنه قال: كنت أدخل بيوت أزواج النبي ﷺ في خلافة عثمان بن عفان فأتناول سقفها بيدي، وقد أدخلت في عهد الوليد بن عبد الملك بأمره في مسجد الرسول عليه الصلاة والسلام وبكى الناس لذلك، وقال سعيد بن المسيب يومئذٍ: والله لوددت أنهم تركوها على حالها لينشو أناس من أهل المدينة ويقدم القادم من أهل الآفاق فيرى ما اكتفى به رسول الله ﷺ في حياته فيكون ذلك مما يزهد الناس في التكاثر والتفاخر فيها، وقال نحو ذلك أبو أمامة بن سهل بن حنيف، وفي ذكر ﴿**الحجرات**﴾ كناية عن خلوته عليه الصلاة والسلام بنسائه لأنها معدة

لها، ولم يقل: حجرات نسائك ولا حجراتك توقيراً له ﷺ وتحاشياً عما يوحشه عليه الصلاة والسلام، ومناداتهم من ورائها إما بأنهم أتوها حجرة حجرة فنادوه من ورائها فيكون القصد إلى الاستغراق العرفي أي جميع حجرات نسائه ﷺ أو بأنهم تفرقوا على الحجرات متطلبين له عليه الصلاة والسلام على أن الاستغراق إفرادي لا شمولي مجموعي ولا أنه من مقابلة الجمع بالجمع المقتضية لانقسام الآحاد على الآحاد لأن من ناداه ﷺ من وراء حجرة منها فقد ناداه من وراء الجميع على ما قيل، وعلى هذا يكون إسناد النداء من إسناد فعل الأبعاض إلى الكل، وقيل: إن الذي نادى رجل واحد كما هو ظاهر خبر أخرجه الترمذي وحسنه. وجماعة عن البراء بن عازب، وما أخرجه أحمد وابن جرير وأبو القاسم البغوي والطبراني وابن مردويه بسند صحيح من طريق أبي سلمة بن عبد الرحمن عن الأقرع بن حابس أنه أتى النبي ﷺ فقال: يا محمد اخرج إلينا فلم يجبه عليه الصلاة والسلام فقال: يا محمد إن حمدي زين وإن ذمي شين فقال: ذاك الله فأنزل الله تعالى **﴿إن الذين ينادونك﴾** الخ، وعليه يكون الإسناد إلى الكل لأنهم رضوا بذلك وأمروا به أو لأنه وجد فيما بينهم، وظاهر الآية أن المنادى جمع وكذا جمع من الأخبار، وسنذكر إن شاء الله تعالى بعضاً منها، وحمل **﴿الحجرات﴾** على الجمع الحقيقي هو الظاهر الذي عليه غير واحد من المفسرين، وجوز كون الحجرة واحدة وهي التي كان فيها الرسول عليه الصلاة والسلام وجمعت إجلالاً له ﷺ على أسلوب حرمت النساء سواكم، وأيضاً لأن حجرته عليه الصلاة والسلام لأنها أم الحجرات وأشرفها بمنزلة الكل على نحو أحد الوجهين في قوله تعالى: ﴿ومن أظلم ممن منع مساجد الله﴾ [البقرة: ١١٤].

وفرق الزمخشري بين **﴿من وراء الحجرات﴾** بإثبات **﴿من﴾** وراء الحجرات بإسقاطها بأنه على الثاني يجوز أن يجمع المنادي والمنادى الوراء، وعلى الأول لا يجوز ذلك، وعلله بأن الوراء يصير بدخول من مبتدأ الغاية ولا يجتمع على الجهة الواحدة أن تكون مبتدأ ومنتهى لفعل واحد. واعترضه في البحر بأنه قد صرح الأصحاب في معاني **﴿من﴾** أنها تكون لابتداء الغاية وانتهائها في فعل واحد وأن الشيء الواحد يكون محلاً لهما ونسبوا ذلك إلى سيبويه وقالوا: إن منه قولهم: أخذت الدرهم من زيد فزيد محل لابتداء الأخذ منه وانتهائه معاً قالوا: فمن ، تكون في أكثر المواضع لابتداء الغاية فقط، وفي بعض المواضع لابتداء الغاية وانتهائها معاً.

وصاحب التقريب بقوله فيه نظر، لأن المبدأ والمنتهى إما المنادي والمنادى على ما هو التحقيق أو الجهة، فإن كان الأول جاز أن يجمعها الوراء في إثبات **﴿من﴾** وفي إسقاطها لتغاير المبدأ والمنتهى، وإن كان الثاني فالجهة إما ذات أجزاء أو عديمتها، فإن كان الأول جاز أن يجمعهما في إثبات من أيضاً باعتبار أجزاء الجهة، وإن كان الثاني لم يجز أن يجمعهما لا في إثبات من ولا في إسقاطها لاتحاد المورد. ورد الأول بأن محل الانتهاء هو المتكلم ليس إلا كما ذكره ابن هشام في المغني، وذكر أن ابن مالك قال: إن **﴿من﴾** في المثال للمجاوزة، والثاني غير قادح في الفرق على ما ذكره صاحب الكشف قال: الحاصل أن المبدأ الجهة باعتبار تلبسها بالفاعل لأن حرف الابتداء دخل على الجهة والفعل مما ليست المسافة داخلة في مفهومه فيعتبر الأمر أن تحقيقاً لمقتضى الفعل والحرف، ولما أوقع جميع الجهة مبدأ لم يجز أن يكون منتهى سواء كان منقسماً أو لا، ثم لما كان الوراء مبهماً لم يكن مثل سرت من البصرة إلى جامعها إذ لا يتعين بعضها مبدأ وبعضها منتهى، على أن ذلك أيضاً إذا أطلق يجب أن يحمل على أن المنتهى غير البصرة، أما إذا عينت فيجوز مع تجوز والأصل عدم إلا بدليل، ثم هذا الجواز فيما كانت النهاية مكاناً أيضاً أما إذا اعتبرت باعتبار التلبس بالمفعول فلا، وإذا لم يذكر حرف الابتداء لم يؤد هذا المعنى.

فهذا فرق محقق ومنه يظهر أن المذكور في التقريب من النظر غير قادح، وما ذكر من أن التحقيق أن الفعل

يبتدىء من الفاعل وينتهي إلى المفعول ويقع في الظرف وأن ﴿من وراء الحجرات﴾ ووراءها كلاهما ظرف كصلَّيت من خلف الإمام وخلفه ومن قبل اليوم وقبله ومعنى الابتداء غير محقق والفرق تعسف ظاهر في أن من زائدة لا فرق بين دخولها وخروجها وهو خلاف الظاهر وإلا لما اختلفوا في زيادتها في الإثبات لشيوع نحو هذا الكلام فيما بينهم، ومتى لم تكن زائدة فلا بد من الفرق بين الكلامين لا سيما إذا كانا من كلامه عز وجل فتدبر. والتعبير عن النداء بصيغة المضارع مع تقدمه على النزول لاستحضار الصورة الماضية لغرابتها.

والموصول اسم إن، وجملة قوله تعالى: ﴿أكثرهم لا يعقلون﴾ خبرها وتكرار الإسناد للمبالغة، والمراد أنهم لا يجرون على مقتضى العقل من مراعاة الأدب لا سيما مع أجل خلق الله تعالى وأعظمهم عنده سبحانه ﷺ وكثيراً ما ينزل وجود الشيء منزلة عدمه لمقتض، والحكم على الأكثر دون الكل بذلك لأن منهم من لم يقصد ترك الأدب بل نادى لأمر ما على ما قيل، وجوز أن يكون المراد بالقلة التي يدل عليها نفي الكثرة للعدم فإنه يكنى بها عنه، وتعقبه أبو حيان بأن ذلك في صريح القلة لا في المفهوم من نفي الكثرة، وكان هؤلاء من بني تميم كما صرح به أكثر أهل السير. أخرج ابن إسحاق وابن مردويه عن ابن عباس قال قدم وفد بني تميم وهم سبعون رجلاً أو ثمانون رجلاً منهم الزبرقان بن بدر: وعطارد بن حاجب بن زرارة وقيس بن عاصم وقيس بن الحارث وعمرو بن الاهتم المدينة على رسول الله ﷺ فانطلق معهم عيينة بن حصن بن بدر الفزاري وكان يكون في كل سوأة حتى أتوا منزل رسول الله ﷺ فنادوه من وراء الحجرات بصوت جاف يا محمد اخرج إلينا ثلاثاً فخرج إليهم رسول الله ﷺ فقالوا: يا محمد إن مدحنا زين وإن شتمنا شين نحن أكرم العرب فقال رسول الله ﷺ: كذبتم بل مدح الله تعالى الزين وشتمه الشين وأكرم منكم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم فقالوا: إنا أتيناك لنفاخرك فذكره بطوله وقال في آخره: فقال التميميون والله إن هذا الرجل لمصنوع له لقد قام خطيبه فكان أخطب من خطيبنا وفاةَ شاعره فكان أشعر من شاعرنا وفيهم أنزل الله تعالى ﴿إن الذين ينادونك من وراء الحجرات﴾ من بني تميم ﴿أكثرهم لا يعقلون﴾ هذا في القراءة الأولى.

وذكر ابن هشام في سيرته عن ابن إسحاق الخبر بطوله وعد منهم الأقرع بن حابس وذكر أنه وعيينة شهدا مع رسول الله ﷺ فتح مكة وحنيناً والطائف، وأن عمرو بن الأهتم خلفه القوم في ظهرهم وان خطيبهم عطارد بن حاجب وخطيبه ﷺ ثابت بن قيس بن شماس وشاعرهم الزبرقان بن بدر وشاعره عليه الصلاة والسلام حسان بن ثابت وذكر الخطبتين وما قيل من الشعر وأنه لما فرغ حسان قال الأقرع: وأبي ان هذا الرجل لمؤتى له لخطيبه أخطب من خطيبنا ولشاعره أشعر من شاعرنا ولأصواتهم أعلى من أصواتنا، وأنه لما فرغوا أسلموا وجوزهم رسول الله ﷺ فأحسن جوائزهم وأرسل لعمرو جائزته كالقوم، وتعقب ابن هشام الشعر بعض التعقب. وفي البحر أيضاً ذكر الخبر بطوله مع مخالفة كلية لما ذكره ابن إسحاق، وفيه أن الأقرع قام بعد أن أنشد الزبرقان ما أنشد وأجابه حسان بما أجاب فقال: إني والله لقد جئت لأمر وقد قلت شعراً فاسمعه فقال:

أتيناك كيما يعرف الناس فضلنا ... إذا خالفونا عند ذكر المكارم
وأنا رؤوس الناس من كل معشر ... وأن ليس في أرض الحجاز كدارم
وأن لنا المرباع في كل غارة ... تكون بنجد أو بأرض التهائم

فقال النبي ﷺ لحسان: قم فأجبه فقال:

بني دارم لا تفخروا إن فخركم ... يصير وبالاً عند ذكر المكارم
هبلتم علينا تفخرون وأنتم ... لنا خول من بين ظئر وخادم

فقال النبي ﷺ: لقد كنت يا أخا دارم غنياً أن يذكر منك ما ظننت أن الناس قد نسوه فكان قوله عليه الصلاة والسلام: أشد عليهم من جميع ما قال حسان ثم رجع حسان إلى شعره فقال:

فإن كنتم جئتم لحقن دمائكم ... وأموالكم أن يقسموا في المقاسم
فلا تجعلوا لله نداً وأسلموا ... ولا تفخروا عند النبي بدارم
وإلا ورب البيت قد مالت القنا ... على هامكم بالمرهفات الصوارم

فقال الأقرع بن حابس: والله ما أدري ما هذا الأمر تكلم خطيبنا فكان خطيبهم أحسن قولاً وتكلم شاعرنا فكان شاعرهم أشعر وأحسن قولاً، ثم دنا من رسول الله ﷺ وقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله فقال النبي عليه الصلاة والسلام: ما يضرك ما كان قبل هذا انتهى، وهذا ظاهر في أن إسلام الأقرع يومئذٍ، ومعلوم أن سنة الوفود سنة تسع والطائف وحنين كانتا قبل ذلك، وتقدم عن ابن إسحق أن الأقرع شهدهما مع رسول الله ﷺ ويتوهم منه أنه كان مسلماً إذ ذاك فيتناقض مع هذا بل في أول كلام ابن إسحق وآخره ما يوهم التناقض، والمذكور في الصحاح أنه وكذا عيينة كان إذ ذاك من المؤلفة قلوبهم.

وقد روى ابن إسحاق نفسه عن محمد بن إبراهيم أن قائلاً قال لرسول الله ﷺ من أصحابه يوم قسمة ما أفاء الله تعالى عليه يوم حنين: يا رسول الله أعطيت عيينة والأقرع مائة وتركت جعيل بن سراقة الضمري فقال: أما والذي نفس محمد بيده لجعيل خير من طلاع الأرض كلهم مثل عيينة والأقرع ولكن تألفتهما ليسلما ووكلت جعيل بن سراقة إلى إسلامه، وجاء ما يدل على أنهم من بني تميم مرفوعاً.

أخرج ابن مردويه من طريق يعلى بن الأشدق عن سعد بن عبد الله أن النبي ﷺ سئل عن قوله تعالى: ﴿**إن الذين ينادونك**﴾ الخ فقال: هم الجفاة من بني تميم لولا أنهم من أشد الناس قتالاً للأعور الدجال لدعوت الله تعالى عليهم أن يهلكهم، وفي الصحيحين ما يشهد بأنهم من أشد الأمة على الدجال وجعله أبو هريرة أحد أسباب حبهم، وظاهر كثير من الأخبار أن سبب وفودهم المفاخرة، وقال الواقدي . وهو حاطب ليل .: إن سببه هو أنهم كانوا قد جهروا السلاح على خزاعة فبعث إليهم رسول الله ﷺ عيينة بن بدر في خمسين ليس فيهم أنصاري ولا مهاجري فأسر منهم أحد عشر رجلاً وإحدى عشرة امرأة وثلاثين صبياً فقد رؤساؤهم بسبب أسرائهم ويقال: قدم منهم سبعون أو ثمانون رجلاً في ذلك منهم عطارد والزبرقان وقيس بن عاصم وقيس بن الحارث ونعيم بن سعد والأقرع بن حابس ورياح بن الحارث وعمرو بن الأهتم فدخلوا المسجد وقد أذنَّ بلال الظهر والناس ينتظرون رسول الله ﷺ ليخرج إليهم فعجل هؤلاء فنادوه من وراء الحجرات فنزل فيهم ما نزل، ثم ذكر أنه ﷺ أجازهم كل رجل اثنتي عشرة أوقية وكساء ولعمرو بن الأهتم خمس أواق لحداثة سنه انتهى، ولعل زيادة جائزته لما نيل منه أيضاً فقد ذكر ابن إسحاق أن عاصم بن قيس كان يبغض عمراً فقال: يا رسول الله إنه قد كان رجل منا في رحالنا وهو غلام حدث وأزرى به فقال لما بلغه ذلك يخاطب قيساً:

ظللت مفترش الهلباء تشتمني ... عند الرسول فلم تصدق ولم تصب
سدناكم سؤدداً رهواً وسؤددكم ... باد نواجذه مقع على الذنب

وروي عن عكرمة عن ابن عباس أنهم ناس من بني العنبر أصاب النبي ﷺ من ذراريهم فأقبلوا في فدائهم فقدموا المدينة ودخلوا المسجد وعجلوا أن يخرج إليهم النبي عليه الصلاة والسلام فجعلوا يقولون: يا محمد اخرج إلينا،

وذكر الخفاجي أن النبي ﷺ بعث إلى قوم من العرب هم بنو العنبر سرية أميرها عيينة بن حصن فهربوا وتركوا النساء والذراري فسباهم وقدم بهم عليه عليه الصلاة والسلام فجاء رجالهم راجين إطلاق الأسارى فنادوا من وراء الحجرات فخرج ﷺ فأطلق النصف وفادى الباقي، وظاهر كلامه أنهم ليسوا من بني تميم وإن كانت هذه السرية متحدة مع السرية التي أشار إليها الواقدي فيما تقدم، ويقال: إن عيينة في الكلامين هو عيينة بن حصن بن بدر إلا أنه نسب هناك إلى جده وهنا إلى أبيه كان ذلك الكلام ظاهراً في أن القوم كانوا من بني تميم لا أناساً آخرين، وفي القاموس العنبر أبو حي من تميم فبنو العنبر عليه منهم فلم يخرج الأمر عنهم.

وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ
بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ﴿٦﴾ وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ ۚ لَوْ
يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ
وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ﴿٧﴾ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً ۚ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٨﴾ وَإِن
طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا ۖ فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ
إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ ۚ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا ۖ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ
فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن
يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ ۖ بِئْسَ
الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿١١﴾

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْراً لَّهُمْ﴾ أي ولو ثبت صبرهم وانتظارهم حتى تخرج لكان الصبر خيراً له من الاستعجال لما فيه من حفظ الأدب وتعظيم النبي ﷺ الموجبين للثناء والثواب أو لذلك والإسعاف بالمسؤول على أوفق وجه وأوقعه عندهم بناءً على حديث الأسارى بأن يطلق عليه الصلاة والسلام الجميع من غير فداء، فأن المفتوحة المؤولة بالمصدر هنا فاعل فعل مقدر وهو ثبت كما اختاره المبرد والقرينة عليه معنى الكلام، فإن أن تدل على الثبوت وهو إنما يكون في الماضي حقيقة ولذا يقدر الفعل ماضياً. وضمير ﴿كان﴾ للمصدر الدال عليه ﴿صبروا﴾ كما في قولك: من كذب كان شراً له أي الكذب ومذهب سيبويه أن المصدر في موضع المبتدأ فقيل: خبره مقدر أي لو صبرهم ثابت وقيل: لا خبر له؛ وأنت تعلم أن في تقدير الفعل إبقاء ﴿لو﴾ على ظاهرها من دخولها على الفعل فإنها في الأصل شرطية مختصة به، وجوز كون ضمير ﴿كان﴾ لمصدر الفعل المقدر أي لكان ثبوت صبرهم، وصنيع الزمخشري يقتضي أولويته.

وأوثرت ﴿حتى﴾ هنا على ـ إلى ـ لأنها موضوعة لما هو غاية في نفس الأمر ويقال له الغاية المضروبة أي المعينة وإلى لما هو غاية في نفس الأمر أو بجعل الجاعل، وإليه يرجع قول المغاربة وغيرهم: إن مجرور حتى دون مجرور إلى لا بد من كونه آخر جزء نحو أكلت السمكة حتى رأسها أو ملاقياً له نحو ﴿سلام هي حتى مطلع الفجر﴾ [القدر: ٥] ولا يجوز سهرت البارحة حتى ثلثيها أو نصفها فيفيد الكلام معها أن انتظارهم إلى أن يخرج ﷺ أمر لازم

ليس لهم أن يقطعوا أمراً دون الانتهاء إليه، فإن الخروج لما جعله الله تعالى غاية كان كذلك في الواقع، وإلى هذا ذهب الزمخشري، وتوهم ابن مالك أنه لم يقل به أحد غيره، واعترض عليه بقوله:

عينت ليلة فما زلت حتى ... نصفها راجياً فعدت يؤوسا

وأجيب بأنه على تسليم أنه من كلام من يعتد به مع أنه نادر شاذ لا يرد مثله نقضاً مدفوع بأن معنى عينت ليلة عينت وقتاً للزيارة وزيارة الأحباب يتعارف فيها أن تقع في أول الليل فقوله: حتى نصفها بيان لغاية الوقت المتعارف للزيارة الذي هو أول الليل والنصف ملاق له، وهو أولى من قول ابن هشام في المغني: إن هذا ليس محل الاشتراط إذ لم يقل: فما زلت في تلك الليلة حتى نصفها وإن كان المعنى عليه، وحاصله أن الاشتراط مخصوص فيما إذا صرح بذي الغاية إذ لا دليل على هذا التخصيص، وخفاء عدم الاكتفاء بتقديم ليلة في صدر البيت. نعم ما ذكر من أصله لا يخلو عن كلام كما يشير إليه كلام صاحب الكشف، ولذا قال الأظهر: إنه أوثر حتى تخرج اختصاراً لوجوب حذف أن ووجوب الإظهار في إلى مع أن حتى أظهر دلالة على الغاية المناسبة للحكم وتخالف ما بعدها وما قبلها ولهذا جاءت للتعليل دون إلى، وفي قوله تعالى: ﴿إليهم﴾ إشعار بأنه عليه الصلاة والسلام لو خرج لا لأجلهم ينبغي أن يصبروا حتى يفاتحهم بالكلام أو يتوجه إليهم فليس زائداً بل قيد لا بد منه ﴿وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ بليغ المغفرة والرحمة فلذا اقتصر سبحانه على النصح والتقريع لهؤلاء المسيئين الأدب التاركين تعظيم رسوله ﷺ، وقد كان مقتضى ذلك أن يعذبهم أو يهلكهم أو فلم تضق ساحة مغفرته ورحمته عز وجل عن هؤلاء ان تابوا وأصلحوا، ويشير إلى هذا قوله ﷺ للأقرع بعد أن دنا منه عليه الصلاة والسلام وقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله: ما يضرك ما كان قبل هذا، وفي الآيات من الدلالة على قبح سوء الأدب مع الرسول ﷺ ما لا يخفى، ومن هذا وأمثاله تقتطف ثمر الألباب وتقتبس محاسن الآداب كما يحكى عن أبي عبيد وهو في الفضل هو أنه قال: ما دققت باباً على عالم حتى يخرج في وقت خروجه، ونقله بعضهم عن القاسم بن سلام الكوفي، ورأيت في بعض الكتب أن الحبر ابن عباس كان يذهب إلى أبي في بيته لأخذ القرآن العظيم عنه فيقف عند الباب ولا يدق الباب عليه حتى يخرج فاستعظم ذلك أبي منه فقال له يوماً: هلا دققت الباب يا ابن عباس؟ فقال: العالم في قومه كالنبي في أمته وقد قال الله تعالى في حق نبيه عليه الصلاة والسلام: ﴿ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيراً لهم﴾ وقد رأيت هذه القصة صغيراً فعملت بموجبها مع مشايخي والحمد لله تعالى على ذلك.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا﴾ أخرج أحمد وابن أبي الدنيا والطبراني وابن منده وابن مردويه بسند جيد عن الحارث بن أبي ضرار الخزاعي قال: قدمت على رسول الله ﷺ فدعاني إلى الإسلام فدخلت فيه وأقررت به ودعاني إلى الزكاة فأقررت بها وقلت: يا رسول الله أرجع إلى قومي فادعوهم إلى الإسلام وأداء الزكاة فمن استجاب لي جمعت زكاته وترسل إلي يا رسول الله رسولاً لإبان كذا وكذا ليأتيك بما جمعت من الزكاة فلما جمع الحارث الزكاة ممن استجاب له وبلغ الإبان الذي أراد رسول الله ﷺ أن يبعث إليه احتبس الرسول فلم يأت فظن الحارث أن قد حدث فيه سخطة من الله تعالى ورسوله عليه الصلاة والسلام فدعا سروات قومه فقال لهم: رسول الله ﷺ كان وقت لي وقتاً يرسل إلى رسوله ليقبض ما كان عندنا من الزكاة وليس من رسول الله عليه الصلاة والسلام الخلف ولا أرى حبس رسوله إلا من سخطة فانطلقوا بنا نأتي رسول الله ﷺ وبعث رسول الله ﷺ الوليد بن عقبة بن أبي معيط وهو أخو عثمان رضي الله تعالى عنه لأمه إلى الحارث ليقبض ما كان عنده مما جمع من الزكاة فلما أن سار الوليد إلى أن بلغ بعض الطريق فَرِق فرجع فأتى رسول الله ﷺ فقال: إن الحارث منعني الزكاة وأراد قتلي فضرب

رسول الله ﷺ البعث إلى الحارث فأقبل الحارث بأصحابه حتى إذا استقبله الحارث وقد فصل عن المدينة قالوا: هذا الحارث فلما غشيهم قال لهم: إلى من بعثتم؟ قالوا: إليك قال: ولم؟ قالوا: إن رسول الله ﷺ بعث إليك الوليد بن عقبة فزعم أنك منعته الزكاة وأردت قتله قال: لا والذي بعث محمداً بالحق ما رأيته بتة ولا أتاني فلما دخل الحارث على رسول الله ﷺ قال: منعت الزكاة وأردت قتل رسولي؟ قال: لا والذي بعثك بالحق ما رأيته ولا رآني ولا أقبلت إلا حين احتبس على رسول رسول الله ﷺ خشية أن يكون سخطة من الله تعالى ورسوله ﷺ فنزل ﴿**يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم**﴾ إلى قوله سبحانه: ﴿**حكيم**﴾ وأخرج عبد بن حميد عن الحسن قال: أتى النبي ﷺ فقال: يا نبي الله إن بني فلان حياً من أحياء العرب وكان في نفسه عليهم شيء وكان حديث عهد بالإسلام قد تركوا الصلاة وارتدوا وكفروا بالله تعالى فلم يعجل رسول الله عليه الصلاة والسلام ودعا خالد بن الوليد فبعثه إليهم ثم قال: ارمقهم عند الصلوات فإن كان القوم قد تركوا الصلاة فشأنك بهم وإلا فلا تعجل عليهم فدنا منهم عند غروب الشمس فكمن حتى يسمع الصلاة فرمقهم فإذا هو بالمؤذن قد قام عند غروب الشمس فإذن ثم أقام الصلاة فصلوا صلاة المغرب فقال خالد: ما أراهم إلا يصلون فلعلهم تركوا صلاة غير هذه ثم كمن حتى إذا جنح الليل وغاب الشفق أذن مؤذنهم فصلوا فقال: لعلهم تركوا صلاة أخرى فكمن حتى إذا كان في جوف الليل تقدم حتى أطل الخيل بدورهم فإذا القوم تعلموا شيئاً من القرآن فهم يتهجدون به من الليل ويقرؤونه ثم أتاهم عند الصبح فإذا المؤذن حين طلع الفجر قد أذن وأقام فقاموا وصلوا فلما انصرفوا وأضاء لهم النهار إذا هم بنواصي الخيل في ديارهم فقالوا: ما هذا؟ قالوا: خالد بن الوليد قالوا: يا خالد ما شأنك؟ قال: أنتم والله شأني أتى النبي ﷺ فقيل له: إنكم تركتم الصلاة وكفرتم بالله تعالى فجثوا يبكون فقالوا: نعوذ بالله تعالى أن نكفر أبداً فصرف الخيل وردها عنهم حتى أتى النبي ﷺ وأنزل الله تعالى ﴿**يا أيها الذين آمنوا**﴾ الآية قال الحسن: فوالله لئن كانت نزلت في هؤلاء القوم خاصة إنها لمرسلة إلى يوم القيامة ما نسخها شيء، والرواية السابقة أصح وأشهر، وكلام صاحب الكشف مصرح بأن بعث خالد بن الوليد كان في قضية الوليد بن عقبة، وأن النبي عليه الصلاة والسلام بعثه إلى أولئك الحي من خزاعة بعد رجوع الوليد وقوله ما قال، والقائل بذلك قال: إنهم سلموا إليه الصدقات فرجع، والخطاب بقوله تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا**﴾ شامل للنبي ﷺ والمؤمنين من أمته الكاملين منهم محاسن آداب وغيرهم، وتخصيص الخطاب بحسب ما يقع من الأمر بعده إذ يليق بحال بعضهم لا يخرجه عن العموم لوجوده فيما بينهم فلا تغفل، والفاسق الخارج عن حجر الشرع من قولهم: فسق الرطب إذا خرج عن قشره، قال الراغب: والفسق أعم من الكفر ويقع بالقليل من الذنوب والكثير لكن تعورف فيما كانت كثيرة، وأكثر ما يقال الفاسق لمن التزم حكم الشرع وأقر به ثم أخل بجميع أحكامه أو ببعضها، وإذا قيل للكافر الأصلي فاسق فلأنه أخل بحكم ما ألزمه العقل واقتضته الفطرة.

ووصف الإنسان به ـ على ما قال ابن الأعرابي ـ لم يسمع في كلام العرب، والظاهر أن المراد به هنا المسلم المخل بشيء من أحكام الشرع أو المروة بناءً على مقابلته بالعدل وقد اعتبر في العدالة عدم الإخلال بالمروءة، والمشهور الاقتصار في تعريفه على الإخلال بشيء من أحكام الشرع فلا تغفل، والتبين طلب البيان والتعرف؛ وقريب منه التثبت كما في قراءة ابن مسعود وحمزة، والكسائي «فتثبتوا» وهو طلب الثبات والتأني حتى يتضح الحال وقد أخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة «أن النبي ﷺ قال يوم نزلت الآية: التثبت من الله تعالى والعجلة من الشيطان» وتنكير ﴿**فاسق**﴾ للتعميم لأنه نكرة في سياق الشرط وهي كالنكرة في سياق النفي تفيد العموم كما قرر في الأصول وكذا نبأ، وهو ـ كما في القاموس ـ الخبر، وقال الراغب: لا يقال للخبر في الأصل نبأ حتى يكون ذا فائدة عظيمة

يحصل به علم أو غلبة ظن، وقوله تعالى: ﴿**إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا**﴾ تنبيه على أنه إذا كان الخبر شيئاً عظيماً وما له قدر فحقه أن يتوقف فيه وإن علم أو غلب صحته على الظن حتى يعاد النظر فيه ويتبين فضل تبين، ولما كان رسول الله ﷺ والذين معن بالمنزلة التي لا يجسر أحد أن يخبرهم بكذب وما كان يقع مثل ما فرط من الوليد إلا في الندرة قيل: ﴿**إن جاءكم**﴾ بحرف الشك، وفي النداء بـ ﴿**يا أيها الذين آمنوا**﴾ دلالة على أن الإيمان إذا اقتضى التثبت في نبأ الفاسق فأولى أن يقتضي عدم الفسق، وفي إخراج الفاسق عن الخطاب ما يدل على تشديد الأمر عليه من باب «لا يزني الزاني وهو مؤمن» والمؤمن لا يكذب، واستدل بالآية على أن الفاسق أهل للشهادة وإلا لم يكن للأمر بالتبين فائدة، ألا ترى أن العبد إذا شهد ترد شهادته ولا يتثبت فيها خلافاً للشافعي. وعلى جواز قبول خبر العدل الواحد، وقرره الأصوليون بوجهين: أحدهما أنه لو لم يقبل خبره لما كان عدم قبوله معللاً بالفسق، وذلك لأن خبر الواحد على هذا التقدير يقتضي عدم القبول لذاته وهو كونه خبر واحد فيمتنع تعليل عدم قبوله بغيره لأن الحكم المعلل بالذات لا يكون معللاً بالغير إذ لو كان معللاً به اقتضى حصوله به مع أنه حاصل قبله لكونه معللاً بالذات وهو باطل لأنه تحصيل للحاصل أو يلزم توارد علتين على معلول واحد في خبر الفاسق، وامتناع تعليله بالفسق باطل للآية فإن ترتب الحكم على الوصف المناسب يغلب على الظن أنه علة له والظن كاف هنا لأن المقصود هو العمل فثبت أن خبر الواحد ليس مردوداً وإذا ثبت ذلك ثبت أنه مقبول يعمل به. ثانيهما أن الأمر بالتبين مشروط بمجيء الفاسق ومفهوم الشرط معتبر على الصحيح فيجب العمل به إذا لم يكن فاسقاً لأن الظن يعمل به هنا، والقول بالواسطة منتف؛ والقول بأنه يجوز اشتراك أمور في لازم واحد فيعلق بكل منهما بكلمة إن مع أنه لا يلزم من انتفاء ذلك الملزوم انتفاء اللازم غير متوجه لأن الشرط مجموع تلك الأمور وكل واحد منها لا يعد شرطاً على ما قرر في الأصول. نعم قال ابن الحاجب وعضد الدين: قد استدل من قبلنا على وجوب العمل بخبر الواحد بظواهر لا تفيد إلا الظن ولا يكفي في المسائل العلمية وذكرا من ذلك الآية المذكورة، ثم إن للقائلين بوجوب العمل به اختلافاً كثيراً مذكوراً في محله.

واستدل الحنفية بها على قبول خبر المجهول الذي لا تعلم عدالته وعدم وجوب التثبت لأنها دلت على أن الفسق شرط وجوب التثبت فإذا انتفى الفسق انتفى وجوبه وههنا قد انتفى الفسق ظاهراً ونحن نحكم به فلا يجب التثبت.

وتعقب بأنا لا نسلم أنه ههنا انتفى الفسق بل انتفى العلم به ولا يلزم من عدم العلم بالشيء عدمه والمطلوب العلم بانتفائه ولا يحصل إلا بالخبرة به أو بتزكية خبير به له، قال العضد: إن هذا مبني على أن الأصل الفسق أو العدالة والظاهر أنه الفسق لأن العدالة طارئة ولأنه أكثر. واستدل بها على أن من الصحابة رضي الله تعالى عنهم من ليس بعدل لأن الله تعالى أطلق الفاسق على الوليد بن عقبة فيها، فإن سبب النزول قطعي الدخول وهو صحابي بالاتفاق فيرد بها على من قال: إنهم كلهم عدول ولا يبحث عن عدالتهم في رواية ولا شهادة، وهذا أحد أقوال في المسألة وقد ذهب إليه الأكثر من العلماء السلف والخلف. وثانيها أنهم كغيرهم فيبحث عن العدالة فيهم في الرواية والشهادة إلا من يكون ظاهرها أو مقطوعها كالشيخين. وثالثها أنهم عدول إلى قتل عثمان رضي الله تعالى عنه ويبحث عن عدالتهم من حيث قتله لوقوع الفتن من حينئذٍ وفيهم الممسك عن خوضها. ورابعها أنهم عدول إلا من قاتل علياً كرم الله تعالى وجهه لفسقه بالخروج على الإمام الحق وإلى هذا ذهبت المعتزلة.

والحق ما ذهب إليه الأكثرون وهم يقولون: إن من طرأ له منهم قادح ككذب أو سرقة أو زنا عما بمقتضاه في حقه إلا أنه لا يصر على ما يخل بالعدالة بناءً على ما جاء في مدحهم من الآيات والأخبار وتواتر من محاسن الآثار، فلا

يسوغ لنا الحكم على من ارتكب منهم مفسقاً بأنه مات على الفسق. ولا ننكر أن منهم من ارتكب في حياته مفسقاً لعدم القول بعصمتهم وأنه كان يقال له قبل توبته فاسق لكن لا يقال باستمرار هذا الوصف فيه ثقة ببركة صحبة النبي ﷺ ومزيد ثناء الله عز وجل عليهم كقوله سبحانه ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطا﴾ [البقرة: ١٤٣] أي عدولاً وقوله سبحانه: ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس﴾ [آل عمران: ١١٠] إلى غير ذلك، وحينئذٍ إن أريد بقوله: إن من الصحابة من ليس بعدل ان منهم من ارتكب في وقت ما ما ينافي العدالة فدلالة الآية عليه مسلمة لكن ذلك ليس محل النزاع، وإن أريد به أن منهم من استمر على ما ينافي العدالة فدلالة الآية عليه غير مسلمة كما لا يخفى فتدبر فالمسألة بعد تتحمل الكلام وربما تقبل زيادة قول خامس فيها. هذا ثم اعلم أن الفاسق قسمان: فاسق غير متأول وهو ظاهر ولا خلاف في أنه لا يقبل خبره وفاسق متأول كالجبري والقدري ويقال له المبتدع بدعة واضحة، فمن الأصوليين من رد شهادته وروايته للآية ومنهم الشافعي والقاضي، ومنهم من قبلهما، أما الشهادة فلأن ردها لتهمة الكذب والفسق من حيث الاعتقاد لا يدل عليه بل هو إمارة الصدق لأن موقعه فيه تعمقه في الدين، والكذب حرام في كل الأديان لا سيما عند من يقول بكفر الكاذب أو خروجه من الإيمان وذلك يصده عنه إلا من يدين بتصديق المدعي المتحلي بحليته كالخطابية، وكذا من اعتقد بحجية الإلهام، وقد قال عليه الصلاة والسلام: نحن نحكم بالظاهر وأما الرواية فلأن من احترز عن الكذاب على غير الرسول ﷺ فاحترازه من الكذب عليه ﷺ أولى إلا من يعتقد حل وضع الأحاديث ترغيباً أو ترهيباً كالكرامية أو ترويجاً لمذهبه كابن الراوندي، وأصحابنا الحنفية قبلوا شهادتهم لما مر دون روايتهم إذا دعوا الناس إلى هواهم، وعلى هذا جمهور أئمة الفقه والحديث لأن الدعوة إلى ذلك داعية إلى النقول فلا يؤتمنون على الرواية ولا كذلك الشهادة. ورجح ما ذهب إليه الشافعي والقاضي بأن الآية تقتضيه والعمل بها أولى من العمل بالحديث لتواترها وخصوصها، والعام يحتمل التخصيص ولأنها لم تخصص إذ كل فاسق مردود، والحديث خص منه خبر الكافر. وأجيب بأن مفهومها أن الفسق هو المقتضي للتثبت فيراد به ما هو إمارة الكذب لا ما هو إمارة الصدق فافهم، وليس من الفسق نحو اللعب بالشطرنج من مجتهد يحله أو مقلد له صوبنا أو خطأنا لوجوب العمل بموجب الظن ولا تفسيق بالواجب. وحد الشافعي عليه الرحمة شارب النبيذ ليس لأنه فاسق بل لزجره لظهور التحريم عنده، ولذا قال: أحده وأقبل شهادته، وكذا الحد في شهادة الزنا لعدم تمام النصاب لا يدل على الفسق بخلافه في مقام القذف فليحفظ.

﴿أَن تُصِيبُوا﴾ تعليل للأمر بالتبين أن فتبينوا كراهة أن تصيبوا أو لئلا تصيبوا ﴿قَوْمًا﴾ أي قوم كانوا ﴿بِجَهَالَةٍ﴾ ملتبسين بجهالة لحالهم، ومآله جاهلين حالهم، ﴿فَتُصْبِحُوا﴾ فتصيروا بعد ظهور براءتهم عما رموا به ﴿عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ﴾ في حقهم ﴿نَادِمِينَ﴾ مغتمين غماً لازماً متمنين أنه لم يقع، فإن الندم الغم على وقوع شيء مع تمني عدم وقوعه، ويشعر باللزوم وكذا سائر تصاريف حروفه وتقاليبها كمدن بمعنى لزم الإقامة ومنه المدينة وأدمن الشيء أدام فعله، وزعم بعضهم أن في الآية إشارة إلى أنه يجب على الإنسان تجديد الندم كلما ذكر الذنب ونسب إلى الزمخشري وليس بشيء، وفي الكشف التحقيق أن الندم غم خاص ولزومه قد يقع لقوته في أول الأمر وقد يكون لعدم غيبة موجبه عن الخاطر، وقد يكون لكثرة تذكره ولغير ذلك من الأسباب، وان تجديد الندم لا يجب في التوبة لكن التائب الصادق لا بد له من ذلك.

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ﴾ عطف على ما قبله، و ﴿أن﴾ بما في حيزها ساد مسد مفعولي ﴿اعلموا﴾ باعتبار ما قيد به من الحال وهو قوله عز وجل: ﴿لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ﴾ أي لوقعتم في الجهد والهلاك فإنه حال من أحد الضميرين في ﴿فيكم﴾ الضمير المستتر المرفوع وهو ضمير الرسول أو البارز المجرور وهو ضمير المخاطبين، وتقديم خبر أن للحصر المستتبع زيادة التوبيخ، وصيغة المضارع للاستمرار - فلو - لامتناع استمرار طاعته

عليه الصلاة والسلام لهم في كثير مما يعن لهم من الأمور، وكون المراد استمرار الامتناع نظير قيل في قوله تعالى: ﴿ولا هم يحزنون﴾ [البقرة: ٣٨ وغيرها] من أن المراد استمرار النفي ليس بذاك، وفي الكلام إشعار بأنهم زينوا بين يدي الرسول ﷺ الإيقاع بالحرث وقومه وقد أريد أن ينعى عليهم ذلك بتنزيلهم منزلة من لا يعلم أنه عليه الصلاة والسلام بين أظهرهم فقيل: واعلموا أنه فيكم لا في غيركم كأنهم حسبوه لعدم تأدبهم وما بدر منهم الفرطة بين أظهر أقوام آخرين كائناً على حال يجب عليكم تغييرها أو وأنتم على كذلك وهو ما تريدون من استتباع رأيه لرأيكم وطاعته لكم مع أن ذلك تعكيس وموجب لوقوعكم في العنت، وفيه مبالغات من أوجه: أحدها إيثار ﴿لو﴾ ليدل على الفرض والتقدير وأن ما بدر من من التزيين كان من حقه أن يفرض كما يفرض الممتنعات، والثاني ما في العدول إلى المضارع من تصوير ما كانوا عليه وتهجينه من التوبيخ بإرادة استمرار ما حقه أن يكون مفروضاً فضلاً عن الوقوع، والثالث ما في العنت من الدلالة على أشد المحذور فإنه الكسر بعد الجبر والرمز الخفي على أنه ليس بأول بادرة. والرابع ما في تعميم الخطاب والحري به غير الكمل من التمريض ليكون أردع لمرتكبه وأزجر لغيره كأنه قيل: يا أيها الذين آمنوا تبينوا إن جاءكم فاسق ولا تكونوا أمثال هؤلاء ممن استفزه النبأ قبل تعرف صدقه ثم لا يقنعه ذلك حتى يريد أن يستتبع رأي من هو المتبوع على الإطلاق فيقع هو ويقع غيره في العنت والإرهاق واعلموا جلالة رسول الله ﷺ وتفادوا عن أشباه هذه الهنات، وقوله عز وجل:

﴿وَلَٰكِنَّ اللهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ﴾ استدراك على ما يقتضيه الكلام فان ﴿لو يطيعكم﴾ خطاب كما سمعت للبعض الغير الكمل عمم للفوائد المذكورة والمحبب إليهم الإيمان هم الكمل فكأنه قيل: ولكن الله حبب إلى بعضكم الإيمان وعدل عنه لنداء الصفة به، وعليه قول بعض المفسرين هم الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى، والإشارة بقوله تعالى ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾ إليهم، وفيه نوع من الالتفات، والخطاب فيه للرسول ﷺ كأنه تعالى يبصره عليه الصلاة والسلام ما هم فيه من سبق القدم في الرشاد أي إصابة الطريق السوي، فحاصل المعنى أنتم على الحال التي ينبغي لكم تغييرها وقد بدر منكم ما بدر ولكن ثم جمعا عما أنتم عليه من تصديق الكاذب وتزيين الإيقاع بالبريء وإرادة أن يتبع الحق أهواءكم برآء لأن الله تعالى حبب إليهم الإيمان الخ، وهذا أولى من جعل ﴿لو يطيعكم﴾ الخ في معنى ما حبب إليهم الإيمان تغليظاً لأن من تصدى للإيقاع بالبريء بين يدي الرسول ﷺ وجسر على ارتكاب تلك العظيمة لم يكن محبوباً إليه الإيمان وإن كان ذلك أيضاً سديد الشيوع التصرف في الأواخر في مثله، وجعله بعضهم استدراكاً ببيان عذرهم فيما بدر منهم، ومآل المعنى لم يحملكم على ما كان منكم اتباع الهوى ومحبة متابعة النبي ﷺ لآرائكم بل محبة الإيمان وكراهة الكفر هي الداعية لذلك، والمناسب لما بعد ما ذكرناه.

وجوز غير واحد من المعربين أن ﴿لو يطيعكم﴾ استئناف على معنى أنه لما قيل ﴿واعلموا أن فيكم رسول الله﴾ دالاً على أنهم جاهلون بمكانه عليه الصلاة والسلام مفرطون فيما يجب من تعظيم شأنه أعلى الله شأنه اتجه لهم أن يسألوا ماذا فعلوا حتى نسبوا إلى التفريط وماذا ينتج من المضرة؟ فأجيبوا بما يصرح بالنتيجة لخفائها ويومىء إلى ما فيها من المعرة من وقوعهم في العنت بسبب استتباع من هو في علو المنصب اقتداء يتخطى أعلى المجرة، وهو حسن لولا أن ﴿واعلموا﴾ كلام من تتمة الأول كما يؤذن به العطف لا وارد تفريعاً على الاستقلال فيأبى التقدير المذكور لتعين موجب التفريط، وأيضاً يفوت التعريض وإن ذلك بادرة من بعضهم في قصة ابن عقبة ويتنافر الكلام، هذا ﴿وكره﴾ يتعدى بنفسه إلى واحد وإذا شدد زاد له آخر لكنه ضمن في الآية معنى التبغيض فعومل معاملته وحسنه

مقابلته لحبب أو نزل ﴿إليكم﴾ منزلة مفعول آخر، و ﴿الكفر﴾ تغطية نعم الله تعالى بالجحود، و ﴿الفسوق﴾ الخروج عن القصد ومأخذه ما تقدم، ﴿والعصيان﴾ الامتناع عن الانقياد، وأصله من عصت النواة صلبت واشتدت، والكلام أعني قوله تعالى: ﴿ولكن الله﴾ الخ ثناء عليهم بما يردف التحبيب المذكور والتكريه من فعل الأعمال المرضية والطاعات والتجنب عن الأفعال القبيحة والسيئات على سبيل الكناية ليقع التقابل موقعه على ما سلف آنفاً، وقيل: الداعي لذلك ما يلزم على الظاهر من المدح بفعل الغير مع أن الكلام مسوق للثناء عليهم وهو في إيثارهم الإيمان وإعراضهم عن الكفر وأخويه لا في تحبيب الله تعالى الإيمان لهم وتكريهه سبحانه الكفر وما معه إليهم. وأنت تعلم أن الثناء على صفة الكمال اختيارية كانت أولا شائع في عرف العرب والعجم، والمنكر معاند على أن ذلك واقع على الجماد أيضاً، والمسلم الضروري أنه لا يمدح الرجل بما لم يفعله على أنه فعله، وإليه الإشارة في قوله تعالى: ﴿ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا﴾ [آل عمران: ١٨٨] أما أنه لا يمدح به على أنه صفة له فليس بمسلم فلا تغفل ﴿فَضْلاً مِّنَ الله ونِعْمَةً﴾ تعليل للأفعال المستندة إليه عز وجل في قوله سبحانه: ﴿ولكن الله حبب﴾ الخ وما في البين اعتراض، وجوز كونه تعليلاً للراشدين، وصح النصب على القول باشتراط اتحاد الفاعل أي من قام به الفعل وصدر عنه موجداً له أولا لما أن الرشد وقع عبارة عن التحبيب والتزيين والتكريه مسندة إلى اسمه تبارك اسمه فإنه لو قيل مثلاً حبب إليكم الإيمان فضلاً منه وجعل كناية عن الرشد لصح فيحسن أن يقال: أولئك هم الراشدون فضلاً ويكون في قوة أولئك هم المحببون فضلاً أو لأن الرشد ههنا يستلزم كونه تعالى شأنه مرشداً إذ هو مطاوع أرشد، وهذا نظير ما قالوا من أن الإراءة تستلزم رؤية في قوله سبحانه: ﴿يريكم البرق خوفاً وطمعاً﴾ [الرعد: ١٢] فيتحد الفاعل ويصح النصب، وجوز كونه مصدراً لغير فعله فهو منصوب إما بحبب أو بالراشدين فإن التحبيب والرشد من فضل الله تعالى وانعامه» وقيل: مفعول به لمحذوف أي يبتغون فضلاً ﴿وَاللهُ عَلِيمٌ﴾ مبالغ في العلم فيعلم أحوال المؤمنين وما بينهم من التفاضل ﴿حَكِيمٌ﴾ يفعل كل ما يفعل من أفضال وإنعام وغيرهما بموجب الحكمة.

﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا﴾ أي تقاتلوا، وكان الظاهر. اقتتلتا بضمير التثنية كما في قوله تعالى: ﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾ أي بالنصح وإزالة الشبهة إن كانت والدعاء إلى حكم الله عز وجل، والعدول إلى ضمير الجمع لرعاية المعنى فإن كل طائفة من الطائفتين جماعة فقد روعي في الطائفتين معناهما أولاً ولفظهما ثانياً على عكس المشهور في الاستعمال، والنكتة في ذلك ما قيل: إنهم أولاً في حال القتال مختلطون فلذا جمع أولاً ضميرهم وفي حال الصلح متميزون متفارقون فلذا ثني الضمير. وقرأ ابن أبي عبلة «اقتتلتا» بضمير التثنية والتأنيث كما هو الظاهر. وقرأ زيد بن علي، وعبيد بن عمير «اقتتلا» بالتثنية والتذكير باعتبار أن الطائفتين فريقان ﴿فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا﴾ تعدت وطلبت العلو بغير الحق ﴿عَلَى الأُخْرَى﴾ ولم تتأثر بالنصيحة ﴿فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتى تَفيءَ﴾ أي ترجع ﴿إِلَى أَمْرِ الله﴾ أي إلى حكمه أو إلى ما أمر سبحانه به وقرأ الزهري حتى «تَفِي» بغير همز وفتح الياء وهو شاذ كما قالوا في مضارع جاء يجيء بغير همز فإذا أدخلوا الناصب فتحوا الياء أجروه مجرى بفي مضارع وفي شذوذاً، وفي تعليق القتال بالموصول للإشارة إلى علية ما في حيز الصلة أي فقاتلوها لبغيها ﴿فَإِن فَاءَتْ﴾ أي رجعت إلى أمره تعالى وأقلعت عن القتال حذراً من قتالكم ﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ﴾ بفصل ما بينهما على حكم الله تعالى ولا تكتفوا بمجرد متاركتهما عسى أن يكون بينهما قتال في وقت آخر، وتقييد الإصلاح هنا بالعدل لأنه مظنة الحيف لوقوعه بعد المقاتلة وقد أكد ذلك بقوله تعالى: ﴿وَأَقْسِطُوا﴾ أي اعدلوا في كل ما تأتون وما تذرون ﴿إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ فيجازيهم أحسن الجزاء. وفي الكشاف في الإصلاح بالعدل والقسط تفاصيل، إن كانت الباغية من قلة العدد بحيث لا منعة لها ضمنت

بعد الفيئة ما جنت، وأن كانت كثيرة ذات منعة وشوكة لم تضمن إلا عند محمد بن الحسن فإنه كان يفتي بأن الضمان يلزمها إذا فاءت، وأما قبل التجمع والتجند أو حين تتفرق عند وضع الحرب أوزارها فما جنته ضمنته عند الجميع فمحمل الإصلاح بالعدل على مذهب محمد واضح منطبق على لفظ التنزيل، وعلى قول غيره وجهه أن يحمل على كون الفئة قليلة العدد، والذي ذكروا من أن الفرض إماتة الضغائن وسل الأحقاد دون ضمان الجنايات ليس بحسن الطباق للمأمور به من أعمال العدل ومراعاة القسط. قال في الكشف، لأن ما ذكروه من إماتة الأضغان داخل في قوله تعالى: ﴿فإن فاءت﴾ لأنه من ضرورات التوبة، فاعمال العدل والقسط إنما يكون في تدارك الفرطات ثم قال: والأولى على قول الجمهور أن يقال: الإصلاح بالعدل أنه لا يضمن من الطرفين فإن الباغي معصوم الدم والمال مثل العادل لا سيما وقد تاب فكما لا يضمن العادل المتلف لا يضمنه الباغي الفائي، هذا مقتضى العدل لا تخصيص الضمان بطرف دون آخر. والآية نزلت في قتال وقع بين الأوس والخزرج. أخرج أحمد والبخاري ومسلم وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه والبيهقي في سننه عن أنس قال: قيل للنبي ﷺ لو أتيت عبد الله بن أبي فانطلق إليه وركب حماراً وانطلق المسلمون يمشون وهي أرض سبخة فلما انطلق إليه قال: إليك عني فوالله لقد آذاني ريح حمارك فقال رجل من الأنصار: والله لحمار رسول الله ﷺ أطيب ريحاً منك فغضب لعبد الله رجال من قومه فغضب لكل منهما أصحابه فكان بينهم ضرب بالجريد والأيدي والنعال فأنزل الله تعالى فيهم ﴿وإن طائفتان﴾ الآية، وفي رواية أن النبي عليه الصلاة والسلام كان متوجهاً إلى زيارة سعد بن عبادة في مرضه فمر على عبد الله بن أبي بن سلول فقال ما قال فرد عليه عبد الله بن رواحة رضي الله تعالى عنه نغضب لكل أصحابه فتقاتلوا فنزلت فقرأها ﷺ عليهم فاصطلحوا وكان ابن رواحة خزرجياً وابن أبي أوسياً.

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن السدي قال: كان رجل من الأنصار يقال له عمران تحته امرأة يقال لها أم زيد وأنها أرادت أن تزور أهلها فحبسها زوجها وجعلها في علية له لا يدخل عليها أحد من أهلها وأن المرأة بعثت إلى أهلها فجاء قومها فأنزلوها لينطلقوا بها وكان الرجل قد خرج فاستعان أهله فجاء بنو عمه ليحولوا بين المرأة وأهلها فتدافعوا واجتلدوا بالنعال فنزلت فيهم هذه الآية ﴿وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا﴾ فبعث إليهم رسول الله ﷺ فأصلح بينهم وقاموا إلى أمر الله عز وجل، والخطاب فيها على ما في البحر لمن له الأمر وروي ذلك عن ابن عباس وهو للوجوب فيجب الإصلاح ويجب قتال الباغية ما قاتلت وإذا كفت وقبضت عن الحرب تركت، وجاء في حديث رواه الحاكم. وغيره حكمها إذا تولت قال عليه الصلاة والسلام: «يا ابن أم عبد هل تدري كيف حكم الله فيمن بغى من هذه الأمة؟ قال: الله تعالى ورسوله أعلم قال: لا يجهز على جريحها ولا يقتل أسيرها ولا يطلب هاربها ولا يقسم فيؤها» وذكروا أن الفئتين من المسلمين إذا اقتتلا على سبيل البغي منهما جميعاً فالواجب أن يمشي بينهما بما يصلح ذات البين ويثمر المكافة والموادعة فإن لم يتحاجزا ولم يصطلحا وأقاما على البغي صيراً إلى مقاتلتهما، وأنهما إذا التحم بينهما القتال لشبهة دخلت عليهما وكلتاهما عند أنفسهما محقة فالواجب إزالة الشبهة بالحجج النيرة والبراهين القاطعة وإطلاعهما على مراشد الحق فإن ركبتا متن اللجاج ولم تعملا على شاكلة ما هديتا إليه ونصحتا به من اتباع الحق بعد وضوحه فقد لحقتا باللتين اقتتلا على سبيل البغي منهما جميعاً، والتصدي لإزالة الشبهة في الفئة الباغية إن كانت لازم قبل المقاتلة، وقيل: الخطاب لمن يتأتى منه الإصلاح ومقاتلة الباغي فمتى تحقق البغي من طائفة كان حكم إعانة المبغي عليه حكم الجهاد، فقد أخرج الحاكم وصححه. والبيهقي عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما أنه قال: ما وجدت في نفسي من شيء ما وجدت في نفسي من هذه الآية يعني ﴿وإن طائفتان﴾ الخ إني لم أقاتل هذه

الفئة الباغية كما أمرني الله تعالى ـ يعني بها معاوية ومن معه الباغين ـ على علي كرم الله تعالى وجهه، وصرح بعض الحنابلة بأن قتال الباغين أفضل من الجهاد احتجاجاً بأن علياً كرم الله تعالى وجهه اشتغل في زمان خلافته بقتالهم دون الجهاد، والحق أن ذلك ليس على إطلاقه بل إذا خشي من ترك قتالهم مفسدة عظيمة دفعها أعظم من مصلحة الجهاد، وظاهر الآية أن الباغي مؤمن لجهل الطائفتين الباغية والمبغي عليها من المؤمنين. نعم الباغي على الإمام ولو جائراً فاسق مرتكب لكبيرة إن كان بغيه بلا تأويل أو بتأويل قطعي البطلان. والمعتزلة يقولون في مثله: إنه فاسق مخلد في النار إن مات بلا توبة، والخوارج يقولون: إنه كافر، والإمامية أكفروا الباغي على علي كرم الله تعالى وجهه المقاتل له واحتجوا بما روي من قوله ﷺ له: «حربك حربي» وفيه بحث. وقرأ ابن مسعود «حتى يفيئوا إلى أمر الله فإن فاؤوا فخذوا بينهم بالقسط» ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ استئناف مقرر لما قبله من الأمر بالإصلاح، وإطلاق الاخوة على المؤمنين من باب التشبيه البليغ وشبهوا بالاخوة من حيث انتسابهم إلى أصل واحد وهو الإيمان الموجب للحياة الأبدية، وجوز أن يكون هناك استعارة وتشبه المشاركة في الإيمان بالمشاركة في أصل التوالد لأن كلاً منهما أصل للبقاء إذ التوالد منشأ الحياة والإيمان منشأ البقاء الأبدي في الجنان، والفاء في قوله تعالى: ﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ للإيذان بأن الاخوة الدينية موجبة للإصلاح، ووضع الظاهر موضع الضمير مضافاً للمأمورين للمبالغة في تأكيد وجوب الإصلاح والتحضيض عليه، وتخصيص الاثنين بالذكر لإثبات وجوب الإصلاح فيما فوق ذلك بطريق الأولوية لتضاعف الفتنة والفساد فيه، وقيل: المراد بالاخوين الأوس والخزرج اللتان نزلت فيهما الآية سمي كلاً منهما أخاً لاجتماعهم في الجد الأعلى. وقرأ زيد بن ثابت وابن مسعود والحسن بخلاف عنه «إِخْوَانكم» جمعاً على وزن غلمان.

وقرأ ابن سيرين «إِخْوَتِكُمْ» جمعاً على وزن غلمة، وروى عبد الوارث عن أبي عمرو القراءات الثلاث، قال أبو الفتح: وقراءة الجمع تدل على أن قراءة الجمهور لفظها لفظ التثنية ومعناها الجماعة أي كل اثنين فصاعداً من المسلمين اقتتلا، والإضافة لمعنى الجنس نحو لبيك وسعديك، ويغلب الاخوان في الصداقة والاخوة في النسب وقد يستعمل كل منهما مكان الآخر ﴿وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ﴾ في كل ما تأتون وما تذرون من الأمور التي من جملتها ما أمرتم به من الإصلاح، والظاهر أن هذا عطف على ﴿فأصلحوا﴾ وقال الطيبي: هو تذييل للكلام كأنه قيل: هذا الإصلاح من جملة التقوى فإذا فعلتم التقوى دخل فيه هذا التواصل، ويجوز أن يكون عطفاً على ﴿فأصلحوا﴾ أي واصلوا بين أخويكم بالصلح واحذروا الله تعالى من أن تتهاونوا فيه ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ أي لأجل أن ترحموا على تقواكم أو راجين أن ترحموا عليها ﴿يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا لاَ يَسخَرْ قَوْمٌ﴾ أي منكم ﴿من قَوْم﴾ آخرين منكم أيضاً، فالتنكير في الموضعيه للتبعيض، والسخر الهزؤ كما في القاموس، وفي الزواجر النظر إلى المسخور منه بعين النقص، وقال القرطبي: السخرية الاستحقار والاستهانة والتنبيه على العيوب والنقائص بوجه يضحك منه وقد تكون بالمحاكاة بالفعل والقول أو الاشارة أو الإيماء أو الضحك على كلام المسخور منه إذا تخبط فيه أو غلط أو على صنعته أو قبح صورته، وقال بعض: هو ذكر الشخص بما يكره على وجه مضحك بحضرته، واختير أنه احتقاره قولاً أو فعلاً بحضرته على الوجه المذكور، وعليه ما قيل المعنى: لا يحتقر بعض المؤمنين بعضاً. والآية على ما روي عن مقاتل نزلت في قوم من بني تميم سخروا من بلال. وسلمان وعمار وخباب وصهيب وابن نهيرة وسالم مولى أبي حذيفة رضي الله تعالى عنهم، ولا يضر فيه اشتمالها على نهي النساء عن السخرية كما لا يضر اشتمالها على نهي الرجال عنها فيما روي أن عائشة وحفصة رأتا أم سلمة ربطت حقويها بثوب أبيض وسدلت طرفه خلفها فقالت عائشة لحفصة تشير إلى ما تجر خلفها: كأنه لسان كلب فنزلت، وما روي عن عائشة أنها كانت تسخر من زينب بنت خزيمة الهلالية وكانت قصيرة فنزلت، وقيل: نزلت بسبب عكرمة بن

أبي جهل كان يمشي بالمدينة فقال له قوم: هذا ابن فرعون هذه الأمة فعز ذلك عليه وشكاهم إلى رسول الله ﷺ فنزلت، وقيل غير ذلك؛ وقوله عز وجل: ﴿عَسَى أَن يَكُونُوا خَيراً مِّنْهُمْ﴾ تعليل للنهي أو لموجبه أي عسى أن يكون المسخور منهم خيراً عند الله تعالى من الساخرين فرب اشعث أغبر ذي طمرين لا يؤبه له لو أقسم على الله تعالى لأبره، وجوز أن يكون المعنى لا يحتقر بعض بعضاً عسى أن يصير المحتقر ـ اسم مفعول ـ عزيز أو يصير المحتقر ذليلاً فينتقم منه، فهو نظير قوله:

لا تهين الفقير علك أن ... تركع يوماً والدهر قد رفعه

والقوم جماعة الرجال ولذلك قال سبحانه: ﴿وَلاَ نِسَاءٌ﴾ أي ولا يسخر نساء من المؤمنات ﴿مِنْ نِّساء﴾ منهن ﴿عَسَى أَن يَكُنَّ﴾ أي المسخورات ﴿خَيْراً مِنْهُنَّ﴾ أي من الساخرات، وعلى هذا جاء قول زهير:

وما أدري وسوف إخال أدري ... أقوم آل حصن أم نساء

وهو إما مصدر كما في قول بعض العرب: إذا أكلت طعاماً أحببت نوماً وأبغضت قوماً أي قياماً نعت به فشاع في جماعة الرجال، وإما اسم جمع لقائم كصوم لصائم وزور لزائر، وأطلق عليه بعضهم الجمع مريداً به المعنى اللغوي وإلا ففعل ليس من أبنية الجموع لغلبته في المفردات، ووجه الاختصاص بالرجال أن القيام بالأمور وظيفتهم كما قال تعالى: ﴿الرجال قوامون على النساء﴾ [النساء: ٣٤] وقد يراد به الرجال والنساء تغليباً كما قيل في قوم عاد وقوم فرعون أن المراد بهم الذكور والإناث؛ وقيل: المراد بهم الذكور أيضاً ودل عليهن بالالتزام العادي لعدم الانفكاك عادة، والنساء على ما قال الراغب وغيره وكذا النسوان والنسوة جمع المرأة من غير لفظها، وجيء بما يدل على الجمع في الموضعين دون المفرد كأن يقال: لا يسخر رجل من رجل ولا امرأة من امرأة مع أنه الأصل الأشمل الأعم قيل جرياً على الأغلب من وقوع السخرية في مجامع الناس فكم من متلذذ بها وكم من متألم منها فجعل ذلك بمنزلة تعدد الساخر والمسخور منه، وقيل: لأن النهي ورد على الحالة الواقعة بين الجماعة كقوله تعالى: ﴿لا تأكلوا الربا أضعافاً مضاعفة﴾ [آل عمران: ١٣٠] وعموم الحكم لعموم علته، و ﴿عسى﴾ في نحو هذا التركيب من كل ما أسندت فيه إلى أن والفعل قيل تامة لا تحتاج إلى خبر وأن وما بعدها في محل رفع على الفاعلية، وقيل: إنها ناقصة وسد ما بعدها مسد الجزأين وله محلان باعتبارين أو محله الرفع، والتحكم مندفع بأنه الأصل في منصوبها بناءً على أنها من نواسخ المبتدأ والخبر.

وقرأ عبد الله وأبيّ «عسوا أن يكونوا». «وعسين عن أن يكن» فعسى عليها ذات خبر على المشهور من أقوال النحاة، وفيه الاخبار عن الذات بالمصدر أو يقدر مضاف مع الاسم أو الخبر، وقيل: هو في مثل ذلك بمعنى قارب وأن وما معها مفعول أو قرب وهو منصوب على إسقاط الجار ﴿وَلاَ تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ لا يعب بعضكم بعضاً بقول أو إشارة لأن المؤمنين كنفس واحدة فمتى عاب المؤمن المؤمن فكأنه عاب نفسه، فضمير ﴿تلمزوا﴾ للجميع بتقدير مضاف، و ﴿أنفسكم﴾ عبارة عن بعض آخر من جنس المخاطبين وهم المؤمنون جعل ما هو من جنسهم بمنزلة أنفسهم وأطلق الأنفس على الجنس استعارة كما في قوله تعالى: ﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم﴾ [التوبة: ١٢٨] وقوله سبحانه: ﴿ولا تقتلوا أنفسكم﴾ [النساء: ٢٩] وهذا غير النهي السابق وإن كان كل منهما مخصوصاً بالمؤمنين بناءً على أن السخرية احتقار الشخص مطلقاً على وجه مضحك بحضرته، واللمز التنبيه على معايبه سواء كان على مضحك أم لا؟ وسواء كان بحضرته أم لا كما قيل في تفسيره، وجعل عطفه عليه من قبيل عطف العام على الخاص

لإفادة الشمول كشارب الخمر وكل فاسق مذموم، ولا يتم إلا إذا كان التنبيه المذكور احتقاراً، ومنهم من يقول: السخرية الاحتقار واللمز التنبيه على المعايب أو تتبعها والعطف من قبيل عطف العلة على المعلول وقيل: اللمز مخصوص بما كان من السخرية على وجه الخفية كالإشارة فهو من قبيل عطف الخاص على العام لجعل الخاص كجنس آخر مبالغة، واختار الزمخشري أن المعنى وخصوا أنفسكم أيها المؤمنون بالانتهاء عن عيبها والطعن فيها ولا عليكم أن تعيبوا غيركم ممن لا يدين بدينكم ولا يسير بسيرتكم، ففي الحديث «اذكروا الفاجر بما فيه يحذره الناس» وتعقب بأنه لا دليل على الاختصاص.

وقال الطيبي: هو من دليل الخطاب لكن ان في هذا الوجه تعسفاً والوجه الآخر. يعني ما تقدم. أوجه لموافقته ﴿لا يسخر قوم من قوم﴾ ﴿وإنما المؤمنون إخوة﴾ ﴿ولا يغتب بعضكم بعضاً﴾ وفي الكشف أخذ الاختصاص من العدول عن الأصل وهو لا يلمز بعضكم بعضاً كأنه قيل: ولا تلمزوا من هو على صفتكم من الإيمان والطاعة فيكون من باب ترتب الحكم على الوصف، وتعقب قول الطيبي بأن الكلام عليه يفيد العلية والاختصاص معاً فيوافق ما سبق ويؤذن بالفرق بين السخرية واللمز وهو مطلوب في نفسه وكأنه قيل: لا تلمزوا المؤمنين لأنهم أنفسكم ولا تعسف فيه بوجه إلى آخر ما قال فليتأمل، والإنصاف أن المتبادر ما تقدم، وقيل: المعنى لا تفعلوا ما تلمزون به فإن من فعل ما يستحق به اللمز فقد لمز نفسه فانفسكم على ظاهره والتجوز في ﴿تلمزوا﴾ أطلق فيه المسبب على السبب والمراد لا ترتكبوا أمراً تعابون به، وهو بعيد عن السياق وغير مناسب لقوله تعالى: ﴿ولا تنابزوا﴾ وكونه من التجوز في الإسناد إذ أسند فيه ما للمسبب إلى السبب تكلف ظاهر، وكذا كونه كالتعليل للنهي السابق لا يدفع كونه مخالفاً للظاهر، وكذا كون المراد به لا تتسببوا إلى الطعن فيكم بالطعن على غيركم كما في الحديث «من الكبائر أن يشتم الرجل والديه» وفسر بأنه إن شتم والدي غيره شتم الغير والديه أيضاً.

وقرأ الحسن والأعرج وعبيد عن أبي عمرو «لا تَلْمُزُوا» بضم الميم ﴿وَلاَ تَنَابَزُوا بالأَلْقَاب﴾ أي لا يدع بعضكم بعضاً باللقب، قال في القاموس: التنابز التعاير والتداعي بالألقاب ويقال نبزه ينبزه نبزاً بالفتح والسكون لقبه كنبزه والنبز بالتحريك وكذا النزب اللقب وخص عرفاً بما يكرهه الشخص من الألقاب.

وعن الرضي أن لفظ اللقب في القديم كان في الذم أشهر منه في المدح، والنبز في الذم خاصة، وظاهر تفسير التنابز بالتداعي بالألقاب اعتبار التجريد في الآية لئلا يستدرك ذكر الألقاب، ومن الغريب ما قيل: التنابز الترامي أي لا تتراموا بالألقاب ويراد به ما تقدم، والمنهي عنه هو التلقيب بما يتداخل المدعو به كراهة لكونه تقصيراً به وذماً له وشيناً.

قال النووي: اتفق العلماء على تحريم تلقيب الإنسان بما يكره سواء كان صفة له أو لأبيه أو لأمه أو غيرهما فقد روي أن الآية نزلت في ثابت بن قيس وكان به وقر فكانوا يوسعون له في مجلس رسول الله ﷺ ليسمع فأتى يوماً وهو يقول: تفسحوا حتى انتهى إلى رسول الله عليه الصلاة والسلام فقال لرجل: تنح فلم يفعل فقال: من هذا؟ فقال الرجل: أنا فلان فقال: بل أنت ابن فلانة يريد أماً كان يعير بها في الجاهلية فخجل الرجل فنزلت فقال ثابت: لا أفخر على أحد في الحسب بعدها أبداً. وأخرج البخاري وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه وجماعة عن ابن جبير وابن الضحاك قال: فينا نزلت في بني سلمة ﴿ولا تنابزوا بالألقاب﴾ قدم رسول الله ﷺ المدينة وليس فينا رجل إلا وله اسمان أو ثلاثة فكان إذا دعا أحداً منهم باسم من تلك الأسماء قالوا: يا رسول الله انه يكرهه فنزلت ﴿ولا تنابزوا بالألقاب﴾ وأخرج ابن جرير عن ابن عباس أنه قال: التنابز بالألقاب أن يكون الرجل عمل السيئات ثم تاب منها وراجع الحق فنهى الله تعالى أن يعير بما سلف من عمله، وعن ابن مسعود هو أن يقال اليهودي أو النصراني أو المجوسي إذا أسلم يا

يهودي أو يا نصراني أو يا مجوسي، وعن الحسن نحوه، ولعل مأخذه ما روي أنها نزلت في صفية بنت حيي أتت النبي ﷺ فقالت: إن النساء يقلن لي يا يهودية بنت يهوديين فقال لها: هلا قلت: إن أبي هارون وعمي موسى وزوجي محمد ﷺ.

وأنت تعلم أن النهي عما ذكر داخل في عموم ﴿**لا تنابزوا بالألقاب**﴾ على ما سمعت فلا يختص التنابز بقول يا يهودي ويا فاسق ونحوهما، ومعنى قوله تعالى: ﴿**بِئْسَ الاسْمُ الفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَان**﴾ بئس الذكر المرتفع للمؤمنين بسبب ارتكاب التنابز أن يذكروا بالفسق بعد اتصافهم بالإيمان، وهو ذم على اجتماع الفسق وهو ارتكاب التنابز والإيمان على معنى لا ينبغي أن يجتمعا فإن الإيمان يأبى الفسق كقولهم: بئس الشأن بعد الكبرة الصبوة يريدون استقباح الجمع بين الصبوة وما يكون في حال الشباب من الميل إلى الجهل وكبر السن.

و ﴿**الاسم**﴾ هنا بمعنى الذكر من قولهم: طار اسمه في الناس بالكرم أو اللؤم فلا تأبى هذه الآية حمل ما تقدم على النهي عن التنابز مطلقاً، وفيها تسميته فسوقاً، وقيل: ﴿**بعد الإيمان**﴾ أي بدله كما في قولك للمتحول عن التجارة إلى الفلاحة: بئست الحرفة الفلاحة بعد التجارة، وفيه تغليظ بجعل التنابز فسقاً مخرجاً عن الإيمان، وهذا خلاف الظاهر. وذكر الزمخشري له مبني على مذهبه من أن مرتكب الكبيرة فاسق غير مؤمن حقيقة، وقيل: معنى النهي السابق لا ينسبن أحدكم غيره إلى فسق كان فيه بعد اتصافه بضده، ومعنى هذا بئس تشهير الناس وذكرهم بفسق كانوا فيه بعدما اتصفوا بضده، فيكون الكلام نهياً عن أن يقال ليهودي أسلم يا يهودي أو نحو ذلك، والأول أظهر لفظاً وسياقاً ومبالغة، والجملة على كل متعلقة بالنهي عن التنابز على ما هو الظاهر، وقيل: هي على الوجه السابق متعلقة بقوله تعالى: ﴿**ولا تلمزوا أنفسكم**﴾ أو بجميع ما تقدم من النهي، وعلى هذا اقتصر ابن حجر في الزواجر.

ويستثنى من النهي الأخير دعاء الرجل الرجل بلقب قبيح في نفسه لا على قصد الاستخفاف به والإيذاء له كما إذا دعت له الضرورة لتوقف معرفته كقول المحدثين: سليمان الأعمش وواصل الأحدب، وما نقل عن ابن مسعود أنه قال لعلقمة: تقول أنت ذلك يا أعور ظاهر في أن الاستثناء لا يتوقف على دعاء الضرورة ضرورة أنه لا ضرورة في حال مخاطبته علقمة لقوله يا أعور، ولعل الشهرة مع عدم التأذي وعدم قصد الاستخفاف كافية في الجواز، ويقال ما كان من ابن مسعود من ذلك، والأولى أن يقال في الرواية عمن اشتهر بذلك كسليمان المتقدم روي عن سليمان الذي يقال له الأعمش، هذا وغوير بين صيغتي ﴿**تلمزوا**﴾ و ﴿**تنابزوا**﴾ لأن الملموز قد لا يقدر في الحال على عيب يلمز به لامزه فيحتاج إلى تتبع أحواله حتى يظفر ببعض عيوبه بخلاف النبز فإن من لقب بما يكره قادر على تلقيب الآخر بنظير ذلك حالاً فوقع التفاعل كذا في الزواجر، وقيل: قيل ﴿**تنابزوا**﴾ لأن النهي ورد على الحالة الواقعة بين القوم، ويعلم من الآية أن التلقيب ليس محرماً على الإطلاق بل المحرم ما كان بلقب السوء، وقد صرحوا بأن التلقيب بالألقاب الحسنة مما لا خلاف في جوازه، وقد لقب أبو بكر رضي الله تعالى عنه بالعتيق لقوله عليه الصلاة والسلام له: «أنت عتيق الله من النار» وعمر رضي الله تعالى عنه بالفاروق لظهور الإسلام يوم إسلامه، وحمزة رضي الله تعالى عنه بأسد الله لما أن إسلامه كان حمية فاعتز الإسلام به، وخالد بسيف الله لقوله ﷺ: «نعم عبد الله خالد بن الوليد سيف من سيوف الله» إلى غير ذلك من الألقاب الحسنة وألقاب علي كرم الله وجهه أشهر من أن تذكر وما زالت الألقاب الحسنة في الأمم كلها من العرب والعجم تجري في مخاطباتهم ومكاتباتهم ويراعى فيها المعنى بخلاف العلم، ولذلك قال الشاعر: وقلما أبصرت عيناك ذا لقب. إلا ومعناه أن فتشت في لقبه بدخوله في مفهومه لكن الشائع غير ذلك، وفي الحديث «كنّوا أولادكم» قال عطاء: مخافة الألقاب وقال عمر رضي الله تعالى عنه: أشيعوا الكنى فإنها سنة، ولنا في

الكنى كلام نفيس ذكرناه في الطراز المذهب فمن أراده فليرجع ﴿وَمَنْ لَّمْ يَتُبْ﴾ عما نهى عنه من التنابز أو من الأمور الثلاثة السابقة أو مطلقاً ويدخل ما ذكر ﴿فَأُولئكَ هُمُ الظَّالمون﴾ بوضع العصيان موضع الطاعة وتعريض النفس للعذاب، والإفراد أولاً والجمع ثانياً مراعاة للفظ ومراعاة للمعنى.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ ۞ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ وَإِن تُطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٦﴾ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُواْ قُل لَّا تَمُنُّواْ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾

﴿يَا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثيراً مِنَ الظَّنِّ﴾ أي تباعدوا منه، وأصل اجتنبه كان على جانب منه ثم شاع في التباعد اللازم له، وتنكير ﴿كثيراً﴾ ليحتاط في كل ظن ويتأمل حتى يعلم أنه من أي القبيل، فإن من الظن ما يباح اتباعه كالظن في الأمور المعاشية، ومنه ما يجب كالظن حيث لا قاطع فيه من العمليات كالواجبات الثابتة بغير دليل قطعي وحسن الظن بالله عز وجل، ومنه ما يحرم كالظن في الإلهيات والنبوات وحيث يخالفه قاطع وظن السوء بالمؤمنين، ففي الحديث «أن الله تعالى حرم من المسلم دمه وعرضه وأن يظن به ظن السوء» وعن عائشة مرفوعاً من أساء بأخيه الظن فقد أساء بربه الظن إن الله تعالى يقول: ﴿اجتنبوا كثيراً من الظن﴾ ويشترط في حرمة هذا أن يكون المظنون به ممن شوهد منه التستر والصلاح وأونست منه الأمانة، وأما من يتعاطى الريب والمجاهرة بالخبائث كالدخول والخروج إلى حانات الخمر وصحبة الغواني الفاجرات وإدمان النظر إلى المرد فلا يحرم ظن السوء فيه وإن كان الظان لم يره يشرب الخمر ولا يزني ولا يعبث بالشباب. أخرج البيهقي في شعب الإيمان عن سعيد بن المسيب قال: كتب إلي بعض اخواني من أصحاب رسول الله ﷺ أن ضع أمر أخيك على أحسنه ما لم يأتك ما يغلبك، ولا تظنن بكلمة خرجت من امرىء مسلم شراً وأنت تجد لها في الخير محملاً، ومن عرض نفسه للتهم فلا يلومن إلا نفسه، ومن كتم سره كانت الخيرة في يده، وما كافيت من عصى الله تعالى فيك بمثل أن تطيع الله تعالى فيه، وعليك بإخوان الصدق فكن في اكتسابهم فإنهم زينة في الرخاء وعدة عند عظيم البلاء ولا تهاون بالحلف فيهينك الله تعالى، ولا تسألن عما لم يكن حتى يكون؛ ولا تضع حديثك إلا عند من تشتهيه، وعليك بالصدق وإن قتلك، واعتزل عدوك واحذر صديقك إلا الأمين ولا أمين إلا من خشي الله تعالى، وشاور في أمرك الذين يخشون ربهم بالغيب.

وعن الحسن كنا في زمان الظن بالناس حرام وأنت اليوم في زمان اعمل واسكت وظن بالناس ما شئت، واعلم

أن ظن السوء إن كان اختيارياً فالأمر واضح، وإذا لم يكن اختيارياً فالمنهي عنه العمل بموجبه من احتقار المظنون به وتنقيصه وذكره بما ظن فيه، وقد قيل نظير ذلك في الحسد على تقدير كونه غير اختياري، ولا يضر العمل بموجبه بالنسبة إلى الظان نفسه كما إذا ظن بشخص أنه يريد به سوءاً فتحفظ من أن يلحقه منه أذى على وجه لا يلحق ذلك الشخص به نقص، وهو محمل خبر «إن من الحزم سوء الظن» وخبر الطبراني «احترسوا من الناس بسوء الظن»، وقيل: المنهي عنه الاسترسال معه وترك إزالته بنحو تأويل سببه من خبر ونحوه، وإلا فالأمر الغير الاختياري نفسه لا يكون مورد التكليف، وفي الحديث «قال رسول الله ﷺ: ثلاث لازمات أمتي الطيرة والحسد وسوء الظن فقال رجل: ما يذهبهن يا رسول الله ممن هن فيه؟ قال: إذا حسدت فاستغفر الله وإذا ظننت فلا تحقق وإذا تطيرت فامض» اخرجه الطبراني عن حارثة بن النعمان ﴿إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ تعليل بالأمر بالاجتناب أو لموجبه بطريق الاستئناف التحقيقي، والإثم الذنب الذي يستحق العقوبة عليه، ومنه قيل لعقوبته الأثام فعال منه كالنكال، قال الشاعر:

لقد فعلت هذي النوى بي فعلة ... أصاب النوى قبل الممات أثامها

والهمزة فيه على ما قال الزمخشري بدل من الواو كأنه يثم الأعمال أي يكسرها لكونه يضربها في الجملة وإن لم يحبطها قطعاً. وتعقب بأن الهمزة ملتزمة في تصاريفه تقول: إثم يأثم فهو آثم وهذا إثم وتلك آثام، وإن أثم من باب علم، ووثم من باب ضرب، وإنه ذكره في باب الهمزة في الأساس، والواوي متعد وهذا لازم.

﴿وَلاَ تَجَسَّسُوا﴾ ولا تبحثوا عن عورات المسلمين ومعايبهم وتستكشفوا عما ستروه، تفعل من الجس باعتبار ما فيه من معنى الطلب كاللمس فإن من يطلب الشيء يجسه ويلمسه فأريد به ما يلزمه، واستعمال التفعل للمبالغة وقرأ الحسن وأبو رجاء وابن سيرين «ولا تحسسوا» بالحاء من الحس الذي هو أثر الجس وغايته، ولهذا يقال لمشاعر الإنسان الحواس والجواس بالحاء والجيم، وقيل التجسس والتحسس متحدان ومعناهما معرفة الأخبار، وقيل: التجسس بالجيم تتبع الظواهر وبالحاء تتبع البواطن، وقيل: الأول أن تفحص بغيرك والثاني أن تفحص بنفسك، وقيل: الأول في الشر والثاني في الخير، وهذا بفرض صحته غير مراد هنا والذي عليه الجمهور أن المراد على القراءتين النهي عن تتبع العورات مطلقاً وعدوه من الكبائر.

أخرج أبو داود وابن المنذر وابن مردويه عن أبي برزة الأسلمي قال: خطبنا رسول الله ﷺ فقال: «يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه لا تتبعوا عورات المسلمين فإن من تتبع عورات المسلمين فضحه الله تعالى في قعر بيته» وفي رواية البيهقي عن البراء بن عازب أنه ﷺ نادى بذلك حتى اسمع العواتق في الخدر. وأخرج أبو داود وجماعة عن زيد بن وهب قلنا لابن مسعود: هل لك في الوليد بن عقبة بن معيط تقطر لحيته خمراً؟ فقال ابن مسعود: قد نهينا عن التجسس فإن ظهر لنا شيء أخذنا به.

وقد يحمل مزيد حب النهي عن المنكر على التجسس وينسى النهي فيعذر مرتكبه كما وقع ذلك لعمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه. أخرج الخرائطي في مكارم الأخلاق عن ثور الكندي أن عمر رضي الله تعالى عنه كان يعس بالمدينة فسمع صوت رجل في بيت يتغنى فتسور عليه فوجد عنده امرأة وعنده خمر فقال: يا عدو الله أظننت أن الله تعالى يسترك وأنت على معصية؟ فقال: وأنت يا أمير المؤمنين لا تعجل علي إن كنت عصيت الله تعالى واحدة فقد عصيت الله تعالى في ثلاث قال سبحانه: ﴿ولا تجسسوا﴾ وقد تجسست وقال الله تعالى: ﴿وأتوا البيوت من أبوابها﴾ [البقرة١٨٩:] وقد تسورت وقال جل شأنه: ﴿لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها﴾ [النور: ٢٧] ودخلت علي بغير إذن قال عمر رضي الله تعالى عنه: فهل عندكم من خير ان عفوت عنك؟ قال:

نعم فعفا عنه وخرج وتركه. وفي رواية سعيد بن منصور عن الحسن أنه قال رجل لعمر رضي الله تعالى عنه: إن فلاناً لا يصحو فقال: انظر إلى الساعة التي يضع فيها شرابه فأتني فأتاه فقال: قد وضع شرابه فانطلقا حتى استأذنا عليه فعزل شرابه ثم دخلا فقال عمر: والله إني لأجد ريح شراب يا فلان أنت بهذا فقال: يا ابن الخطاب وأنت بهذا لم ينهك الله تعالى أن تتجسس؟ فعرفها عمر فانطلق وتركه، وذكر بعضهم أن انزجار شربة الخمر ونحوهم إذا توقف على التسور عليهم جاز احتجاجاً بفعل عمر رضي الله تعالى عنه السابق وفيه نظر، وقد جاء في بعض الروايات عنه ما يخالف ذلك.

أخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد والخرائطي أيضاً عن زرارة بن مصعب بن عبد الرحمن بن عوف عن المسور بن مخرمة عن عبد الرحمن بن عوف أنه حرس مع عمر رضي الله تعالى عنه ليلة المدينة فبينما هم يمشون شب لهم سراج في بيت فانطلقوا يؤمونه فلما دنوا منه إذا باب مجاف على قوم لهم فيه أصوات مرتفعة ولغط فقال عمر: وأخذ بيد عبد الرحمن أتدري بيت من هذا؟ هذا بيت ربيعة بن أمية بن خلف الآن شرب قال: أرى أن قد أتينا ما نهى الله تعالى عنه قال الله تعالى: ﴿ولا تجسسوا﴾ فقد تجسسنا فانصرف عمر رضي الله تعالى عنه عنهم وتركهم، ولعل القصة إن صحت غير واحدة، ومن التجسس على ما قال الأوزاعي الاستماع إلى حديث القوم وهم له كارهون فهو حرام أيضاً.

﴿وَلاَ يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً﴾ أي لا يذكر بعضكم بعضاً بما يكره في غيبته فقد قال ﷺ: «أتدرون ما الغيبة؟ قالوا: الله ورسوله أعلم قال: ذكرك أخاك بما يكره قيل: أفرأيت لو كان في أخي ما أقول قال: إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته» رواه مسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وغيرهم.

والمراد بالذكر الذكر صريحاً أو كناية ويدخل في الأخير الرمز والإشارة ونحوهما إذا أدت مؤدى النطق فإن علة النهي عن الغيبة الإيذاء بتفهيم الغير نقصان المغتاب وهو موجود حيث أفهمت الغير ما يكرهه المغتاب بأي وجه كان من طرق الإفهام، وهي بالفعل كان تمشي مشية أعظم الأنواع كما قاله الغزالي، والمراد بما يكره أعم من أن يكون في دينه أو دنياه أو خلقه أو خلقه أو ماله أو ولده أو زوجته أو مملوكه أو خادمه أو لباسه أو غير ذلك مما يتعلق به، وخصه القفال بالصفات التي لا تذم شرعاً فذكر الشخص بما يكره مما يذم شرعاً ليس بغيبة عنده ولا يحرم، واحتج على ذلك بقوله ﷺ: «اذكروا الفاجر بما فيه يحذره الناس» وما ذكره لا يعول، عليه والحديث ضعيف وقال أحمد منكر، وقال البيهقي: ليس بشيء ولو صح فهو محمول على فاجر معلن بفجوره. والمراد بقولنا: غيبته غيبته عن ذلك الذكر سواء كان حاضراً في مجلس الذكر أو لا، وفي الزواجر لا فرق في الغيبة بين أن تكون في غيبة المغتاب أو بحضرته هو المعتمد، وقد يقال شمول الغيبة للذكر بالحضور على نحو شمول سجود السهو لما كان عن ترك ما يسجد له عمداً ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخيه مَيْتاً﴾ تمثيل لما يصدر عن المغتاب من حيث صدوره عنه ومن حيث تعلقه بصاحبه على أفحش وجه وأشنعه طبعاً وعقلاً وشرعاً مع مبالغات من فنون شتى، الاستفهام التقريري من حيث إنه لا يقع إلا في كلام هو مسلم عند كل سامع حقيقة أو ادعاء، وإسناد الفعل إلى ـ أحد ـ إيذاناً بأن أحداً من الأحدين لا يفعل ذلك وتعليق المحبة بما هو في غاية الكراهة، وتمثيل الاغتياب بأكل لحم الإنسان، وجعل المأكول أخاً للآكل وميتاً، وتعقيب ذلك بقوله تعالى: ﴿فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ حملاً على الإقرار وتحقيقاً لعدم محبة ذلك أو لمحبته التي لا ينبغي مثلها، وفي المثل السائر كني عن الغيبة بأكل الإنسان للحم مثله لأنها ذكر المثالب وتمزيق الاعراض المماثل لأكل اللحم بعد تمزيقه في استكراه العقل والشرع له، وجعله ميتاً لأن المغتاب لا يشعر بغيبته، ووصله بالمحبة لما جبلت عليه النفوس من الميل إليها مع العلم بقبحها، وقال أبو زيد السهيلي: ضرب المثل لأخذ العرض بأكل اللحم لأن اللحم ستر على العظم والشاتم لأخيه كأنه يقشر ويكشف ما عليه وكأنه أولى مما في المثل، والفاء في ﴿فكرهتموه﴾

فصيحة في جواب شرط مقدر ويقدر معه قد أي إن صح ذلك أو عرض عليكم هذا فقد كرهتموه ولا يمكنكم إنكار كراهته، والجزائية باعتبار التبين، والضمير المنصوب للأكل وقيل: للحم، وقيل: للميت وليس بذاك، وجوز كونه للاغتياب المفهوم مما قبل، والمعنى فاكرهوه كراهيتكم لذلك الأكل، وعبر بالماضي للمبالغة، وإذا أول بما ذكر يكون إنشاء غير محتاج لتقدير قد، وانتصاب ﴿ميتا﴾ على الحال من اللحم أو الأخ لأن المضاف جزء من المضاف إليه والحال في مثل ذلك جائز خلافاً لأبي حيان.

وقرأ أبو سعيد الخدري والجحدري وأبو حيوة «فَكُرِّهتمُوُه» بضم الكاف وشد الراء، ورواها الخدري عن النبي ﷺ، وقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللهَ﴾ قيل عطف على محذوف كأنه قيل: امتثلوا ما قيل لكم واتقوا الله.

وقال الفراء التقدير ان صح ذلك فقد كرهتموه فلا تفعلوه واتقوا الله فهو عطف على النهي المقدر، وقال أبو علي الفارسي. لما قيل لهم ﴿أيحب أحدكم﴾ الخ كان الجواب لا متعيناً فكأنهم قالوا: لا نحب فقيل لهم ﴿فكرهتموه﴾ ويقدر فكذلك فاكرهوا الغيبة التي هي نظيره واتقوا الله فيكون عطفاً على فاكرهوا المقدر، وقيل: هو عطف على فكرهتموه بناءً على أنه خبر لفظاً أمر معنى كما أشير إليه سابقاً ولا يخفى الأولى من ذلك: وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ اللهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ﴾ تعليل للأمر أي لأنه تعالى تواب رحيم لمن اتقى واجتنب ما نهي عنه وتاب مما فرط منه، وتواب أي مبالغة في قبول التوبة والمبالغة إما باعتبار الكيف إذ يجعل سبحانه التائب كمن لم يذنب أو باعتبار الكم لكثرة المتوب عليهم أو لكثرة ذنوبهم.

أخرج ابن أبي حاتم عن السدي أن سلمان الفارسي رضي الله تعالى عنه كان مع رجلين في سفر يخدمهما وينال من طعامهما وأنه نام يوماً فطلبه صاحباه فلم يجداه فضربا الخباء وقالا: ما يريد سلمان شيئاً غير هذا أن يجيء إلى طعام معدود وخبار مضروب فلما جاء سلمان أرسلاه إلى رسول الله ﷺ يطلب لهما إداماً فانطلق فأتاه فقال: يا رسول الله بعثني أصحابي لتؤدمهم إن كان عندك قال: ما يصنع أصحابك بالإدام؟ لقد ائتدموا فرجع رضي الله تعالى عنه فخبرهما فانطلقا فأتيا رسول الله ﷺ فقالا: والذي بعثك بالحق ما أصبنا طعاماً منذ نزلنا قال: إنكما قد ائتدمتما بسلمان فنزلت. وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج أنه قال: زعموا أنها نزلت في سلمان الفارسي أكل ثم رقد فنفخ فذكر رجلان أكله ورقاده فنزلت.

وأخرج الضياء المقدسي في المختارة عن أنس قال: كانت العرب تخدم بعضها بعضاً في الأسفار وكان مع أبي بكر وعمر رضي الله تعالى عنهما رجل يخدمهما فناما فاستيقظا ولم يهيء لهما طعاماً فقالا: إن هذا لنؤوم فأيقظاه فقالا: ائت رسول الله ﷺ فقل له إن أبا بكر وعمر يقرآنك السلام ويستأدمانك فقال: إنهما ائتدما فجاءا فقالا: يا رسول الله بأي شيء ائتدمنا قال بلحم أخيكما والذي نفسي بيده إني لأرى لحمه بين ثناياكما فقالا: استغفر لنا يا رسول الله قال: مراه فليستغفر لكما وهذا خبر صحيح ولا طعن فيه على الشيخين سواء كان ما وقع منهما قبل النزول أو بعده حيث لم يظنا بناءً على حسن الظن فيهما ان تلك الكلمة مما يكرهها ذلك الرجل: هذا والآية دالة على حرمة الغيبة. وقد نقل القرطبي وغيره الإجماع على أنها من الكبائر، وعن الغزالي وصاحب العدة أنهما صرحا بأنها من الصغائر وهو عجيب منهما لكثرة ما يدل على أنها من الكبائر، وقصارى ما قيل في وجه القول بأنها صغيرة أنه لو لم تكن كذلك يلزم فسق الناس كلهم إلا الفذ النادر منهم وهذا حرج عظيم. وتعقب بأن فشو المعصية وارتكاب جميع الناس لها فضلاً عن الأكثر لا يوجب أن تكون صغيرة، وهذا الذي دل عليه الكلام من ارتكاب أكثر الناس لها لم يكن قبل. على أن الإصرار عليها قريب منها في كثرة الفشو في الناس وهو كبيرة بالإجماع ويلزم عليه الحرج العظيم وإن لم يكن في

عظم الحرج السابق، مع أن هذا الدليل لا يقاوم تلك الدلائل الكثيرة، ولعل الأولى في الاستدلال على ذلك ما رواه أحمد. وغيره بسند صحيح عن أبي بكرة قال: «بينما أنا أماشي رسول الله ﷺ وهو آخذ بيدي ورجل عن يساري فإذا نحن بقبرين أمامنا فقال رسول الله ﷺ: إنهما ليعذبان وما يعذبان بكبير وبكى إلى أن قال: وما يعذبان إلا في الغيبة والبول» ولا يتم أيضاً، فقد قال ابن الأثير: المعنى وما يعذبان في أمر كان يكبر عليهما ويشق فعله لو أراداه لا أنه في نفسه غير كبير، وكيف لا يكون كبيراً وهما يعذبان فيه، فالحق أنها من الكبائر. نعم لا يبعد أن يكون منها ما هو من الصغائر كالغيبة التي لا يتأذى بها كثيراً نحو عيب الملبوس والدابة، ومنها ما لا ينبغي أن يشك في أنه من أكبر الكبائر كغيبة الأولياء والعلماء بألفاظ الفسق والفجور ونحوها من الألفاظ الشديدة الإيذاء، والأشبه أن يكون حكم السكوت عليها مع القدرة على دفعها حكمها، ويجب على المغتاب أن يبادر إلى التوبة بشروطها فيقلع ويندم خوفاً من الله تعالى ليخرج من حقه ثم يستحل المغتاب خوفاً ليحله فيخرج عن مظلمته، وقال الحسن: يكفيه الاستغفار عن الاستحلال، واحتج بخبر «كفارة من اغتبته أن تستغفر له»، وأفتى الخياطي بأنها إذا لم تبلغ المغتاب كفاه الندم والاستغفار، وجزم ابن الصباغ بذلك وقال: نعم إذا كان تنقصه عند قوم رجع إليهم وأعلمهم أن ذلك لم يكن حقيقة وتبعهما كثيرون منهم النووي، واختاره ابن الصلاح في فتاويه وغيره، وقال الزركشي: هو المختار وحكاه ابن عبد البر عن ابن المبارك وأنه ناظر سفيان فيه، وما يستدل به على لزوم التحليل محمول على أنه أمر بالأفضل أو بما يمحو أثر الذنب بالكلية على الفور، وما ذكر في غير الغائب والميت أما فيهما فينبغي أن يكثر لهما الاستغفار، ولا اعتبار بتحليل الورثة على ما صرح به الخياطي وغيره، وكذا الصبي والمجنون بناءً على الصحيح من القول بحرمة غيبتهما.

قال في الخادم: الوجه أن يقال يبقى حق مطالبتهما إلى يوم القيامة أي إن تعذر الاستحلال والتحليل في الدنيا بأن مات الصبي صبياً والمجنون مجنوناً ويسقط من حق الله تعالى بالندم، وهل يكفي الاستحلال من الغيبة المجهولة أم لا؟ وجهان، والذي رجحه في الإذكار أنه لا بد من معرفتها لأن الإنسان قد يسمح عن غيبة دون غيبة، وكلام الحليمي. وغيره يقتضي الجزم بالصحة لأن من سمح بالعفو من غير كشف فقد وطن نفسه عليه مهما كانت الغيبة، ويندب لمن سئل التحليل أن يحلل ولا يلزمه لأن ذلك تبرع منه وفضل، وكان جمع من السلف واقتدى بهم والدي عليه الرحمة والرضوان يمتنعون من التحليل مخافة التهاون بأمر الغيبة، ويؤيد الأول خبر «أيعجز أحدكم أن يكون كأبي ضمضم كان إذا خرج من بيته قال: إني تصدقت بعرضي على الناس».

ومعناه لا أطلب مظلمة منهم ولا أخاصمهم لا أن الغيبة تصير حلالاً لأن فيها حقاً لله تعالى ولأنه عفو وإباحة للشيء قبل وجوبه، وسئل الغزالي عن غيبة الكافر فقال: هي في حق المسلم محذورة لثلاث علل: الإيذاء، وتنقيص خلق الله تعالى، وتضييع الوقت بما لا يعني. والأولى تقتضي التحريم، والثانية الكراهة، والثالثة خلاف الأولى. وأما الذمي فكالمسلم فيما يرجع إلى المنع عن الإيذاء لأن الشرع عصم عرضه ودمه وماله.

وقد روى ابن حبان في صحيحه أن النبي ﷺ قال: «من سمع يهودياً أو نصرانياً فله النار» ومعنى سمعه أسمعه ما يؤذيه ولا كلام بعد هذا في الحرمة. وأما الحربي فغيبته ليست بحرام على الأولى وتكره على الثانية وخلاف الأولى على الثالثة، وأما المبتدع فإن كفر فكالحربي وإلا فكالمسلم؛ وأما ذكره ببدعته فليس مكروهاً.

وقال ابن المنذر في قوله ﷺ في تفسير الغيبة: «ذكرك أخاك بما يكره»: فيه دليل على أن من ليس أخاً لك من اليهود والنصارى وسائر أهل الملل ومن أخرجته بدعته إلى غير دين الإسلام لا غيبة له ويجري نحوه في الآية، والوجه تحريم غيبة الذمي كما تقرر وهو وإن لم يعلم من الآية ولا من الخبر المذكور معلوم بدليل آخر ولا معارضة بين ما ذكر

وذلك الدليل كما لا يخفى، وقد تجب الغيبة لغرض صحيح شرعي لا يتوصل إليه إلا بها وتنحصر في ستة أسباب. الأول التظلم فلمن ظلم أن يشكو لمن يظن له قدرة على إزالة ظلمه لا تخفيفه. الثاني الاستعانة على تغيير المنكر بذكره لمن يظن قدرته على إزالته. الثالث الاستفتاء فيجوز للمستفتي أن يقول للمفتي: ظلمني فلان بكذا فهل يجوز له أو ما طريق تحصيل حقي أو نحو ذلك؛ والأفضل أن يبهمه.

الرابع تحذير المسلمين من الشر كجرح الشهود والرواة والمصنفين والمتصدين لإفتاء أو إقراء مع عدم أهلية فتجوز إجماعاً بل تحب، وكأن يشير وإن لم يستشر على مريد تزوج أو مخالطة لغيره في أمر ديني أو دنيوي ويقتصر على ما يكفي فإن كفى نحو لا يصلح لك فذاك وإن احتاج إلى ذكر عيب ذكره أو عيبين فكذلك وهكذا ولا يجوز الزيادة على ما يكفي، ومن ذلك أن يعلم من ذي ولاية قادحاً فيها كفسق أو تغفل فيجب ذكر ذلك لمن له قدرة على عزله وتولية غيره الخالي من ذلك أو على نصحه وحثه للاستقامة، والخامس أن يتجاهر بفسقه كالمكاسين وشربه الخمر ظاهراً فيجوز ذكره بما تجاهروا فيه دون غيره إلا أن يكون له سبب آخر مما مر.

السادس للتعريف بنحو لقب كالأعور، والأعمش فيجوز وإن أمكن تعريفه بغيره. نعم الأولى ذلك إن سهل ويقصد التعريف لا التنقيص، وأكثر هذه الستة مجمع عليه ويدل لها من السنة أحاديث صحيحة مذكورة في محلها كالأحاديث الدالة على قبح الغيبة وعظم آثامها وأكثر الناس بها مولعون ويقولون: هي صابون القلوب وإن لها حلاوة كحلاوة التمر وضراوة كضراوة الخمر وهي في الحقيقة كما قال ابن عباس وعلي بن الحسين رضي الله تعالى عنهم: الغيبة إدام كلاب الناس نسأل الله تعالى التوفيق لما يحب ويرضى.

وما أحسن ما جاء الترتيب في هذه الآية أعني قوله تعالى: **﴿يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن﴾** الخ كما قال أبو حيان وفصله بقوله: جاء الأمر أولاً باجتناب الطريق التي لا تؤدي إلى العلم وهو الظن ثم نهى ثانياً عن طلب تحقيق ذلك الظن ليصير علماً بقوله سبحانه: **﴿ولا تجسسوا﴾** ثم نهى ثالثاً عن ذكر ذلك إذا علم فهذه أمور ثلاثة مترتبة ظن فعلم بالتجسس فاغتياب، وقال ابن حجر عليه الرحمة: إنه تعالى ختم كلاً من الايتين بذكر التوبة رحمة بعباده وتعطفاً عليهم لكن لما بدئت الأولى بالنهي ختمت بالنفي في **﴿ومن لم يتب﴾** لتقاربهما ولما بدئت الثانية بالأمر في **﴿اجتنبوا﴾** ختمت به في **﴿فاتقوا الله﴾** إلى الخ وكان حكمة ذكر التهديد الشديد في الأولى فقط بقوله تعالى: **﴿ومن لم يتب﴾** الخ أن ما فيها أفحش لأنه إيذاء في الحضرة بالخسرية أو اللمز أو النبز بخلافه في الآية الثانية فإنه أمر خفي إذ كل من الظن والتجسس والغيبة يقتضي الإخفاء وعدم العلم به غالباً انتهى فلا تغفل.

﴿يا أيها النَّاسُ إنَّا خَلَقْنَاكُمْ منْ ذَكَر وَأُنْثَى﴾ من آدم وحواء عليهما السلام فالكل سواء في ذلك فلا وجه للتفاخر بالنسب ومن هذا قوله:

الناس في عالم التمثيل أكفاء ... أبوهم آدم والأم حواء

وجوز أن يكون المراد هنا إنا خلقنا كل واحد منكم من أب وأم، ويبعده عدم ظهور ترتب ذم التفاخر بالنسب عليه والكلام مساق له كما ينبي عنه ما بعد، وقيل: هو تقرير للاخوة المانعة عن الاغتياب وعدم ظهور الترتب عليه على حاله مع أن ملاءمة ما بعد له دون ملاءمته للوجه السابق لكن وجه تقريره للأخوة ظاهر.

﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائلَ﴾ الشعوب جمع شعب بفتح الشين وسكون العين وهم الجمع العظيم المنتسبون إلى أصل واحد، وهو يجمع القبائل، والقبيلة تجمع العمائر، والعمارة بفتح العين وقد تكسر تجمع البطون، والبطن تجمع

الأفخاذ، والفخذ تجمع الفصائل، فخزيمة شعب وكنانة قبيلة وقريش عمارة وقصي بطن وهاشم فخذ والعباس فصيلة؛ وسميت الشعوب لأن القبائل تشعبت منها، وهذا هو الذي عليه أكثر أهل النسب واللغة، ونظم ذلك بعض الأدباء فقال:

قبيلة فوقها شعب وبعدهما ... عمارة ثم بطن تلوه فخذ
وليس يؤوي الفتى إلا فصيلته ... ولا سداد لسهم ما له قذذ

وذكر بعضهم العشيرة بعد الفصيلة فقال:

اقصد الشعب فهو أكثر حي ... عدداً في الحساب ثم القبيله
ثم يتلوهما العمارة ثم البطن ... ثم الفخذ وبعد الفصيله
ثم من بعدها العشيرة لكن ... هي في جنب ما ذكرنا قليله

وحكى أبو عبيد عن ابن الكلبي عن أبيه تقديم الشعب ثم القبيلة ثم الفصيلة ثم العمارة ثم الفخذ فأقام الفصيلة مقام العمارة والعمارة مقام الفصيلة في ذكرها قبل الفخذ ولم يذكر ما يخالفه، وقيل: الشعوب في العجم والقبائل في العرب والأسباط في بني إسرائيل، وأيد كون الشعوب في العجم ما في حديث مسروق أن رجلاً من الشعوب أسلم فكانت تؤخذ منه الجزية؛ فإن الشعوب فيه فسرت بالعجم لكن قيل: وجهه على ما تقدم أن الشعب ما تشعب منه قبائل العرب والعجم فخص بأحدهما، ويجوز أن يكون جمع الشعوبي وهو الذي يصغر شأن العرب ولا يرى لهم فضلاً على غيرهم كيهود ومجوس في جمع المجوسي واليهودي، ومنهم أبو عبيدة وكان خارجياً وقد ألف كتاباً في مثالب العرب، وابن غرسية وله رسالة فصيحة في تفضيل العجم على العرب، وقد رد عليه علماء الأندلس برسائل عديدة.

وقيل: الشعوب عرب اليمن من قحطان والقبائل ربيعة ومضر وسائر عدنان، وقال قتادة ومجاهد والضحاك: الشعب النسب إلا بعد والقبيلة الأقرب، وقيل: الشعوب الموالي والقبائل العرب، وقال أبو روق: الشعوب الذين ينتسبون إلى المدائن والقرى والقبائل العرب الذين ينتسبون إلى آبائهم ﴿لِتَعَارَفُوا﴾ علة للجعل أي جعلناكم كذلك ليعرف بعضكم بعضاً فتصلوا الأرحام وتبينوا الأنساب والتوارث لا لتفاخروا بالآباء والقبائل، والحصر مأخوذ من التخصيص بالذكر والسكوت في معرض البيان. وقرأ الأعمش «لتتعارفوا» بتاءين على الأصل، ومجاهد. وابن كثير في رواية وابن محيصن بإدغام التاء في التاء، وابن عباس وأبان عن عاصم «لِتَعرِفُوا» بكسر الراء مضارع عرف، قال ابن جني: والمفعول محذوف أي لتعرفوا ما أنتم محتاجون إليه كقوله:

وما علم الإنسان إلا ليعلما

أي ليعلم ما علمه وما أعذب هذا الحذف وما أغربه لمن يعرف مذهبه.

واختير في المفعول المقدر قرابة بعضكم من بعض، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللهِ أَتْقَاكُمْ﴾ تعليل للنهي عن التفاخر بالأنساب المستفاد من الكلام بطريق الاستئناف الحقيقي كأنه قيل: إن أكرمكم عند الله تعالى والأرفع منزلة لديه عز وجل في الآخرة والدنيا هو الأتقى فإن فاخرتم ففاخروا بالتقوى. وقرأ ابن عباس «أن» بفتح الهمزة على حذف لام التعليل كأنه قيل: لم لا تتفاخروا بالأنساب؟ فقيل: لأن أكرمكم عند الله تعالى أتقاكم لا أنسبكم فإن مدار كمال النفوس وتفاوت الأشخاص هو التقوى فمن رام نيل الدرجات العلا فعليه بها.

وفي البحر أن ابن عباس قرأ «لتعرفوا وأن أكرمكم» بفتح الهمزة فاحتمل أن يكون «أن أكرمكم» الخ معمولاً ﴿لتعرفوا﴾ وتكون اللام في ﴿لتعرفوا﴾ لام الأمر وهو أجود من حيث المعنى، وأما إن كانت لام كي فلا يظهر المعنى

إذ ليس جعلهم شعوباً وقبائل لأن يعرفوا أن أكرمهم عند الله تعالى أتقاهم فإن جعلت مفعولاً ﴿لتعرفوا﴾ محذوفاً أي لتعرفوا الحق لأن أكرمكم عند الله أتقاكم ساغ في اللام ان تكون لام كي ا هـ وهو كما ترى.

﴿إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ﴾ بكم وبأعمالكم ﴿خَبِيرٌ﴾ بباطن أحوالكم. روي أنه لما كان يوم فتح مكة أذن بلال على الكعبة فغضب الحارث بن هشام. وعتاب بن أسيد وقالا: أهذا العبد الأسود يؤذن على ظهر الكعبة فنزلت.

وعن ابن عباس سبب نزولها قول ثابت بن قيس لرجل لم يفسح له عند النبي ﷺ يا ابن فلانة فوبخه النبي عليه الصلاة والسلام وقال: إنك لا تفضل أحداً إلا في الدين والتقوى ونزلت وأخرج أبو داود في مراسيله وابن مردويه وعن البيهقي في سننه عن الزهري قال: أمر رسول الله ﷺ بني بياضة أن يزوجوا أبا هند امرأة منهم فقالوا: يا رسول الله أنزوج بناتنا موالينا؟ فأنزل الله تعالى ﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى﴾ الآية.

قال الزهري: نزلت في أبي هند خاصة وكان حجام النبي ﷺ وفي رواية ابن مردويه من طريق الزهري عن عروة عن عائشة أنه عليه الصلاة والسلام قال: أنكحوا أبا هند وأنكحوا إليه ونزلت ﴿يا أيها الناس﴾ الآية في ذلك، وعن يزيد بن شجرة مر رسول الله ﷺ في سوق المدينة فرأى غلاماً أسود يقول: من اشتراني فعلى شرط لا يمنعني عن الصلوات الخمس خلف رسول الله عليه الصلاة والسلام فاشتراه رجل فكان رسول الله ﷺ يراه عند كل صلاة ففقده فسأل عنه صاحبه فقال: محموم فعاده ثم سأل عنه بعد أيام فقال: هو لما به فجاءه وهو في ذمائه فتولى غسله ودفنه فدخل على المهاجرين والأنصار أمر عظيم فنزلت، وفي القلب من صحة هذا شيء والله تعالى أعلم. وقد دلت على أنه لا ينبغي التفاخر بالأنساب وبذلك نطقت الأخبار. أخرج ابن مردويه. والبيهقي في شعب الإيمان. وعبد بن حميد. والترمذي. وغيرهم عن ابن عمر أن النبي ﷺ طاف يوم الفتح على راحلته يستلم الأركان بمحجنه فلما خرج لم يجد مناخاً فنزل على أيدي الرجال فخطبهم فحمد الله تعالى وأثنى عليه، وقال: الحمد ﷺ الذي أذهب عنكم عيبة الجاهلية وتكبرها يا أيها الناس الناس رجلان بر تقي كريم على الله وفاجر شقي هين على الله الناس كلهم بنو آدم وخلق الله آدم من تراب قال الله تعالى: ﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى﴾ إلى قوله تعالى: ﴿خبير﴾ ثم قال: أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم، وأخرج البيهقي وابن مردويه عن جابر بن عبد الله قال: خطبنا رسول الله ﷺ في وسط أيام التشريق خطبة الوداع فقال: يا أيها الناس ألا إن ربكم واحد لا فضل لعربي على عجمي ولا لعجمي على عربي ولا لأسود على أحمر ولا لأحمر على أسود إلا بالتقوى ﴿إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾ ألا هل بلغت؟ قالوا: بلى يا رسول الله قال: فليبلغ الشاهد الغائب، وأخرج البيهقي عن أبي أمامة قال «قال رسول الله ﷺ إن الله أذهب نخوة الجاهلية وتكبرها بآبائها كلكم لآدم وحواء كطف الصاع بالصاع وإن أكرمكم عند الله أتقاكم فمن أتاكم ترضون دينه وأمانته فزوجوه» وأخرج أحمد وجماعة نحوه لكن ليس فيه «فمن أتاكم» الخ.

وأخرج البزار عن حذيفة قال: «قال رسول الله ﷺ كلكم بنو آدم وآدم خلق من تراب ولينتهين قوم يفخرون بآبائهم أو ليكونن أهون على الله من الجعلان» وأخرج الطبراني وابن مردويه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «يقول الله يوم القيامة أيها الناس إني جعلت نسباً وجعلتم نسباً فجعلت أكرمكم عند الله أتقاكم فأبيتم إلا أن تقولوا: فلان بن فلان وفلان أكرم من فلان وإني اليوم أرفع نسبي واضع نسبكم ألا إن أوليائي المتقون» وأخرج الخطيب عن علي كرم الله تعالى وجهه نحوه مرفوعاً.

وأخرج أحمد والبخاري في تاريخه وأبو يعلى والبغوي وابن قانع والطبراني والبيهقي في شعب الإيمان عن أبي ريحانة أن رسول الله ﷺ قال: «من انتسب إلى تسعة آباء كفار يريد بهم عزاً وكبراً فهو عاشرهم في النار» وأخرج

البخاري والنسائي عن أبي هريرة قال: «سئل رسول الله ﷺ أي الناس أكرم؟ قال: أكرمهم عند الله أتقاهم قالوا: ليس عن هذا نسألك قال: فأكرم الناس يوسف نبي الله ابن نبي الله ابن خليل الله قالوا: ليس عن هذا نسألك قال: فعن معادن العرب تسألوني؟ قالوا: نعم قال: خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا» والأحاديث في هذا الباب أكثر من أن تحصى. وفي الآية إشارة إلى وجه رد التفاخر بالنسب حيث أفادت أن شرف النسب غير مكتسب ﴿وأن ليس للإنسان إلا ما سعى﴾ [النجم: ٣٩] وأنه لا فرق بين النسيب وغيره من جهة المادة لاتحاد ما خلقا منه، ولا من جهة الفاعل لأنه هو الله تعالى الواحد، فليس للنسب شرف يعول عليه ويكون مداراً للثواب عند الله عز وجل، ولا أحد أكرم من أحد عنده سبحانه إلا بالتقوى وبها تكمل النفس وتتفاضل الأشخاص، وهذا لا ينافي كون العرب أشرف من العجم وتفاوت كل من العرب والعجم في الشرف، فقد ذكروا أن الفرس أشرف من النبط، وبنو إسرائيل أفضل من القبط. وأخرج مسلم. وغيره عن واثلة بن الأسقع قال: «قال ﷺ إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل واصطفى قريشاً من كنانة واصطفى من قريش بني هاشم واصطفاني من بني هاشم» لأن ذلك ليس إلا باعتبار الخصال الحميدة، فشرف العرب على العجم مثلاً ليس إلا باعتبار أن الله تعالى امتازهم على من سواهم بفضائل جمة وخصال حميدة كما صحت به الأحاديث، وقد جمع الكثير منها العلامة ابن حجر الهيتمي في كتابه مبلغ الأرب في فضائل العرب، ولا نعني بذلك أن كل عربي ممتاز على كل عجمي بالخصال الحميدة بل إن المجموع ممتاز على المجموع، ثم إن أشرف العرب نسباً أولاد فاطمة رضي الله تعالى عنها لأنهم ينسبون إلى النبي ﷺ كما صرح به جمع من الفقهاء. وأخرج الطبراني عن فاطمة رضي الله تعالى عنها قالت: «قال رسول الله ﷺ كل بني آدم ينتمون إلى عصبة إلا ولد فاطمة فأنا وليهم وأنا عصبتهم» وفي رواية له عن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه «كل ابن انثى كان عصبتهم لأبيهم ما خلا ولد فاطمة فأنا عصبتهم وأنا أبوهم» ونوزع في صحة ذلك، ورمز الجلال السيوطي للأول بأنه حسن، وتعقب وليس الأمر موقوفاً على ما ذكر لظهور دليله. وقد أخرج أحمد. والحاكم في المستدرك عن المسور بن مخرمة ولا كلام فيه. قال: «قال ﷺ فاطمة بضعة مني يقبضني ما يقبضها ويبسطني ما يبسطها وإن الأنساب كلها تنقطع يوم القيامة غير نسبي وسببي وصهري» وحديث بضعية فاطمة رضي الله تعالى عنها مخرج في صحيح البخاري أيضاً، قال الشريف السمهودي: ومعلوم أن أولادها بضعة منها فيكونون بواسطتها بضعة منه ﷺ، وهذا غاية الشرف لأولادها، وعدم انقطاع نسبه ﷺ جاء أيضاً في حديث أخرجه ابن عساكر عن عمر رضي الله تعالى عنه مرفوعاً بلفظ «كل نسب وصهر ينقطع يوم القيامة الا نسبي وصهري» والذهبي وإن تعقبه بقوله فيه ابن وكيع لا يعتمد لكن استدرك ذلك بأنه ورد فيه مرسل حسن، ويعلم مما ذكر ونحوه. كما قال المناوي. عظيم نفع الانتساب إليه ﷺ، ولا يعارضه ما في أخبار أخر من حثه عليه الصلاة والسلام لأهل بيته على خشية الله تعالى واتقائه سبحانه وأنه عليه الصلاة والسلام لا يغني عنهم من الله تعالى شيئاً حرصاً على إرشادهم وتحذيراً لهم من أن يتكلوا على النسب فتقصر خطاهم عن اللحوق بالسابقين من المتقين، وليجتمع لهم الشرفان شرف التقوى وشرف النسب، ورعاية لمقام التخويف خاطبهم عليه الصلاة والسلام بقوله: «لا أغني عنكم من الله شيئاً» والمراد لا أغني عنكم شيئاً بمجرد نفسي من غير ما يكرمني الله تعالى به من نحو شفاعة فيكم ومغفرة منه تعالى لكم، وهو عليه الصلاة والسلام لا يملك لأحد نفعاً ولا ضراً إلا بتمليك الله تعالى، والله سبحانه يملكه نفع أمته والأقربون أولى بالمعروف.

فعلى هذا لا بأس بقوله الرجل: أنا من ذرية رسول الله ﷺ على وجه التحدث بالنعمة أو نحو ذلك من المقاصد الشرعية. وقد نقل المناوي عن ابن حجر أنه قال نهيه ﷺ عن التفاخر بالأنساب موضعه مفاخرة تقتضي تكبراً

واحتقار مسلم، وعلى ما ذكرناه أولاً جاء قوله عليه الصلاة والسلام «إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل» الحديث، وقوله ﷺ: «أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب» إلى غير ذلك، ومع شرف الانتساب إليه عليه الصلاة والسلام لا ينبغي لمن رزقه أن يجعله عاطلاً عن التقوى ويدنسه بمتابعة الهوى، فالحسنة في نفسها حسنة وهي من بيت النبوة أحسن، والسيئة في نفسها سيئة وهي من أهل بيت النبوة أسوأ، وقد يبلغ اتباع الهوى بذلك النسيب الشريف إلى حيث يستحي أن ينسب إلى رسول الله ﷺ وربما ينكر نسبه. وعليه قيل لشريف سيىء الأفعال:

قال النبي مقال صدق لم يزل ... يحلو لدى الاسماع والأفواه
إن فاتكم أصل امرىء ففعاله ... تنبيكم عن أصله المتناهي
وأراك تسفر عن فعال لم تزل ... بين الأنام عديمة الأشباه
وتقول إني من سلالة أحمد ... أفأنت تصدق أم رسول الله

ولا يلومن الشريف إلا نفسه إذا عومل حينئذٍ بما يكره وقدم عليه من هو دونه في النسب بمراحل، كما يحكى أن بعض الشرفاء في بلاد خراسان كان أقرب الناس إلى رسول الله ﷺ غير أنه كان فاسقاً ظاهر الفسق وكان هناك مولى أسود تقدم في العلم والعمل فأكب الناس على تعظيمه فاتفق أن خرج يوماً من بيته يقصد المسجد فاتبعه خلق كثير يتبركون به فلقيه الشريف سكران فكان الناس يطردونه عن طريقه فغلبهم وتعلق بأطراف الشيخ وقال: يا أسود الحوافر والمشافر يا كافر ابن كافر أنا ابن رسول الله ﷺ أذل وأنت تجل وأهان وأنت تعان فهم الناس بضربه فقال الشيخ: لا تفعلوا هذا محتمل منه لجده ومعفو عنه وإن خرج عن حده، ولكن أيها الشريف بيضت باطني وسودت باطنك فرؤي بياض قلبي فوق سواد وجهي فحسنت وسواد قلبك فوق بياض وجهك فقبحت؛ وأخذت سيرة أبيك وأخذت سيرة أبي فرآني الخلق في سيرة أبيك ورأوك في سيرة أبي فظنوني ابن أبيك وظنوك ابن أبي فعملوا معك ما يعمل مع أبي وعملوا معي ما يعمل مع أبيك، ولهذا ونحوه قيل:

ولا ينفع الأصل من هاشم ... إذا كانت النفس من باهله

أي لا ينفع في الامتياز على ذوي الخصال السنية إذا كانت النفس في حد ذاتها باهلية ردية ومن الكمالات عرية، فإن باهلة في الأصل اسم امرأة من همدان كانت تحت معن بن أعصر بن سعد بن قيس عيلان فنسب ولده إليها، وقيل: بنو باهلة وهم قوم معروفون بالخساسة، قيل: كانوا يأكلون بقية الطعام مرة ثانية وكانوا يأخذون عظام الميتة يطبخونها ويأخذون دسوماتها فاستنقصتهم العرب جداً حتى قيل لعربي أترضى أن تكون باهلياً وتدخل الجنة فقال: لا إلا بشرط أن لا يعلم أهل الجنة أني باهلي، وقيل:

إذا قيل للكلب يا باهلي ... عوى الكلب من شؤم هذا النسب

ولم يجعلهم الفقهاء لذلك أكفاء لغيرهم من العرب لكن لا يخلو ذلك من نظر، فإن النص أعني «إن العرب بعضهم أكفاء لبعض» لم يفصل مع أنه ﷺ كان أعلم بقبائل العرب وأخلاقهم وقد أطلق؛ وليس كل باهلي كما يقولون بل فيهم الأجواد، وكون فصيلة منهم أو بطن صعاليك فعلوا ما فعلوا لا يسري في حق الكل اللهم إلا أن يقال: مدار الكفاءة وعدمها على العار وعدمه في المعروف بين الناس. فمتى عدوا الباهلية عاراً وشاع استنقاصها فيما بينهم وأبتها نفوسهم اعتبر ذلك وإن لم يكن عن أصل أصيل، وهذا نظير ما ذكروا فيما إذا اشترى الشخص داراً فتبين أن الناس يستشئمونها أنه بالخيار مع قول الجل من العلماء بنفي الشؤم المتعارف بين الناس اعتباراً لكون ذلك مما ينقص الثمن بين الناس وإن لم يكن له أصل فتأمله، وبالجملة شرف النسب مما اعتبر جاهلية وإسلاماً، أما جاهلية فأظهر من

أن يبرهن عليه، وأما إسلاماً فيدل عليه اعتبار الكفاءة في النسب في باب النكاح على الوجه المفصل في كتب الفقه، ولم يخالف في ذلك فيما نعلم إلا الإمام مالك والثوري والكرخي من الحنفية، وبعض ما تقدم من الأخبار يؤيد كلامهم لكن أجيب عنه في محله، وكذا يدل عليه ما ذكروه في بيان شرائط الإمامة العظمى من أنه يشترطها فيها كون الإمام قرشياً، وقد أجمعوا على ذلك كما قال الماوردي، ولا اعتبار بضرار. وأبي بكر الباقلاني حيث شذا فجوزاها في جميع الناس، وقال الشافعية: فإن لم يوجد قرشي أي مستجمع لشروط الإمامة اعتبر كون الإمام كنانياً من ولد كنانة بن خزيمة، فإن تعذر اعتبر كونه من بني إسماعيل عليه السلام، فإن تعذر اعتبر كونه من جرهم لشرفهم بصهارة إسماعيل عليه السلام إلى غير ذلك، ومع هذا كله فالتقوى التقوى فالاتكال على النسب وترك النفس وهواها من ضعف الرأي وقلة العقل، ويكفي في هذا الفصل قوله تعالى لنوح عليه السلام في ابنه كنعان: ﴿إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح﴾ [هود: ٤٦] وقوله عليه الصلاة والسلام: «سلمان منا أهل البيت» فالحزم اللائق بالنسيب أن يتقي الله تعالى ويكتسب من الخصال الحميدة ما لو كانت في غير نسيب لكفته ليكون قد زاد على الزبد شهداً وعلق على جيد الحسناء عقداً؛ ولا يكتفي بمجرد الانتساب إلى جدود سلفوا ليقال له: نعم الجدود ولكن بئس ما خلفوا، وقد ابتلى كثير من الناس بذلك فترى أحدهم يفتخر بعظم بال وهو عري كالإبرة من كل كمال. ويقول: كان أبي كذا وكذا وذاك وصف أبيه فافتخاره به نحو افتخار الكوسج بلحية أخيه، ومن هنا قيل:

وأعجب شيء إلى عاقل ... أناس عن الفضل مستأخره
إذا سئلوا ما لهم من علا ... أشاروا إلى أعظم ناخره

وقال الفاضل السري عبد الباقي أفندي العمري:

أقول لمن غدا في كل وقت ... يباهينا بأسلاف عظام
أتقنع بالعظام وأنت تدري ... بأن الكلب يقنع بالعظام

وما ألطف قوله:

لم يجدك الحسب العالي بغير تقى ... مولاك شيئاً فحاذر واتق الله
وابغ الكرامة في نيل الفخار به ... فأكرم الناس عند الله أتقاها

وأكثر ما رأينا ذلك الافتخار البارد عند أولاد مشايخ الزوايا الصوفية فإنهم ارتكبوا كل رذيلة وتعروا عن كل فضيلة ومع ذلك استطالوا بآبائهم على فضلاء البرية واحتقروا أناساً فاقوهم حسباً ونسباً وشرفوهم أماً وأباً وهذا هو الضلال البعيد والحمق الذي ليس عليه مزيد، ولولا خشية السأم لأطلقنا في هذا الميدان عنان كميت القلم على أن فيما ذكرنا كفاية لمن أخذت بيده العناية والله تعالى أعلم.

﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا﴾ قال مجاهد: نزلت في بني أسد بن خزيمة قبيلة تجاور المدينة أظهروا الإسلام وقلوبهم دغلة إنما يحبون المغانم وعرض الدنيا، ويروى أنهم قدموا المدينة في سنة جدبة فأظهروا الشهادتين وكانوا يقولون لرسول الله ﷺ: جئناك بالأثقال والعيال ولم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان يريدون بذكر ذلك الصدقة ويمنون به على النبي عليه الصلاة والسلام، وقيل: هم مزينة وجهينة وأسلم وأشجع وغفار قالوا: آمنا فاستحققنا الكرامة فرد الله تعالى عليهم، وأياً ما كان فليس المراد بالأعراب العموم كما قد صرح به قتادة. وغيره، والحلق الفعل علامة التأنيث لشيوع اعتبار التأنيث في الجموع حتى قيل:

لا تبالي بجمعهم كل جمع مؤنث

والنكتة في اعتباره ههنا الإشارة على قلة عقولهم على عكس ما روعي في قوله تعالى: ﴿وقال نسوة﴾ [يوسف: ٣٠].

﴿قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا﴾ إكذاب لهم بدعوى الإيمان إذ هو تصديق مع الثقة وطمأنينة القلب ولم يحصل لهم وإلا لما منوا على الرسول ﷺ بترك المقاتلة كما دل عليه آخر السورة ﴿وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾ فإن الإسلام انقياد ودخول في السلم وهو ضد الحرب وما كان من هؤلاء مشعر به، وكان الظاهر لم تؤمنوا ولكن أسلمتم أو لا تقولوا آمنا ولكن قولوا أسلمنا لتحصل المطابقة لكن عدل عن الظاهر اكتفاء بحصولها من حيث المعنى مع إدماج فوائد زوائد، بيان ذلك أن الغرض المسوق له الكلام توبيخ هؤلاء في متّهم بإيمانهم بأنهم خلوا عنه أولاً وبأنهم الممتنون إن صدقوا ثانياً، فالأصل في الإرشاد إلى جوابهم قل كذبتم ولكن أخرج إلى ما هو عليه المنزل ليفيد عدم المكافحة بنسبة الكذب، وفيه حمل له عليه الصلاة والسلام على الأدب في شأن الكل ليصير ملكة لأتباعه وأن لا يلبسوا جلد النمر لمن يخاطبهم به وتلخيص ما كذبوا فيه.

ومن الدليل على أنه الأصل قوله تعالى في الآية التالية: ﴿أولئك هم الصادقون﴾ تعريضاً بأن الكذب منحصر فيهم، وأوثر على لا تقولوا آمنا لاستهجان ذلك لا سيما من النبي ﷺ المبعوث للدعوة إلى الإيمان، على أن إفادة ﴿لم تؤمنوا﴾ لمعنى كذبتم أظهر من إفادة لا تقولوا آمنا كما لا يخفى، ثم قوبل بقوله سبحانه: ﴿ولكن قولوا أسلمنا﴾ كأنه قيل: قل لم تؤمنوا فلا تكذبوا ولكن قولوا أسلمنا لتفوزوا بالصدق إن فاتكم الإيمان والتصديق ولو قيل: ولكن أسلمتم لم يؤد هذا المعنى، وفيه تلويح بأن إسلامهم وهو خلو عن التصديق غير معتد به ولو قيل ولكن أسلمتم لكان ذلك موهماً أن ذلك معتد به والمطلوب كماله بالإيمان ولا يحتاج هذا إلى أن يقال: القول في المنزل مستعمل في معنى الزعم، وقيل: في الآية اجتباك. والأصل لم تؤمنوا فلا تقولوا آمنا ولكن أسلمتم فقولوا أسلمنا فحذف من كل من الجملتين ما أثبت في الأخرى والأول أبلغ وألطف ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ حال من ضمير ﴿قولوا﴾ كأنه قيل: قولوا أسلمنا ما دمتم على هذه الصفة، وفيه إشارة إلى توقع دخول الإيمان في قلوبهم بعد فليس هذا النفي مكرراً مع قوله تعالى: ﴿لم تؤمنوا﴾ وقيل: الجملة مستأنفة ولا تكرار أيضاً لأن لما تفيد النفي الماضي المستمر إلى زمن الحال بالإجماع وتفيد أن منفيها متوقع خلافاً لأبي حيان و ـ لم ـ لا تفيد شيئاً من ذلك بلا خلاف فلا حاجة في دفع التكرار إلى القول بالحالية وجعل الجملة توقيتاً للقول المأمور به ﴿وَإِن تُطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ﴾ بالإخلاص وترك النفاق ﴿لاَ يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ﴾ لا ينقصكم ﴿شَيْئاً﴾ من أجورها أو شيئاً من النقص يقال لاته يليته ليتاً إذا نقصه، ومنه ما حكى الأصمعي عن أم هشام السلولية الحمد لله الذي لا يفات ولا يلات ولا تصمه الأصوات وقرأ الحسن والأعرج وأبو عمرو «لا يألتكم» من ألت يألت بضم اللام وكسرها ألتاً وهي لغة أسد وغطفان، قال الحطيئة:

أبلغ سراة بني سعد مغلغلة جهد الرسالة لا ألتاً ولا كذبا

والأولى لغة الحجاز والفعل عليها أجوف وعلى الثانية مهموز الفاء، وحكى أبو عبيدة ألات يليت ﴿إِنَّ اللهَ غَفُورٌ﴾ لما فرط من المطيعين ﴿رَّحِيمٌ﴾ بالتفضل عليهم ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِه ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا﴾ لم يشكوا من ارتاب مطاوع رابه إذا أوقعه في الشك مع التهمة وجعل عدم الارتياب متراخياً عن الإيمان مع أنه لا ينفك عنه لإفادة نفي الشك فيما بعد عند اعتراء شبهة كأنه قيل: آمنوا ثم لم يعترهم ما يعتري الضعفاء بعد حين، وهذا لا يدل على أنهم كانوا مرتابين أولاً بل يدل على أنهم كما لم يرتابوا أولاً لم يحدث لهم ارتياب ثانياً، والحاصل آمنوا ثم لم يحدث لهم ريبة فالتراخي زماني، وقال بعض الأجلة: عطف عدم الارتياب على الإيمان من باب ﴿ملائكته ورسله جبريل﴾ [البقرة: ٩٨] تنبيهاً على أنه الأصل في الإيمان فكأنه شيء آخر أعلى منه كائن فيه، وأوثر ﴿ثم﴾ على الواو

للدلالة على أن هذا الأصل حديثه وقديمه سواء في القوة والثبات فهو أبدا على طراوته لا أنه شيء واحد مستمر فيكون كالشيء الخلِق بل هو متجدد طري حيناً بعد حين، ولا بأس بأن يجعل ترشيحاً لما دل عليه معنى العطف لما جعل مغايراً نبه على أنه ليس تغاير ما بين الاستمرار والحدوث بل تغاير شيئين مختلفين ليدل على المعنى المذكور وأنهم في زيادة اليقين آناً فآناً، أما عند من يقول فيه بالقوة والضعف فظاهر، وأما من لم يقل به فلانضمام العيان إلى البيان، والفرق بين الاستمرارين أن الاستمرار على الأول استمرار المجموع نحو قوله تعالى: ﴿قالوا ربنا الله ثم استقاموا﴾ [فصلت: ٣٠، الأحقاف: ١٣] أي استمر بذلك إيمانهم مع عدم الارتياب، وعلى الثاني الاستمرار معتبر في الجزء الأخير، وهذا الوجه أوجه، وأياً ما كان ففي الكلام تعريض بأولئك الأعراب ﴿وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ﴾ في طاعته عز وجل على تكثير فنونها من العبادات البدنية المحضة والمالية الصرفة والمشتملة عليهما معاً كالحج والجهاد، وتقديم الأموال على الأنفس من باب الترقي من الأدنى إلى الأعلى، ويجوز بأن يقال: قدم الأموال لحرص الكثير عليها حتى أنهم يهلكون أنفسهم بسببها مع أنه أوفق نظراً إلى التعريض بأولئك حيث إنهم لم يكفهم أنهم لم يجاهدوا بأموالهم حتى جاؤوا أو أظهروا الإسلام حباً للمغانم وعرض الدنيا ومعنى ﴿جاهدوا﴾ بذلوا الجهد أو مفعوله مقدر أي العدو أو النفس والهوى ﴿أُولَٰئِكَ﴾ الموصوفون بما ذكر من الأوصاف الجميلة ﴿هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ أي الذين صدقوا في دعوى الإيمان لا أولئك الأعراب. روي أنه لما نزلت الآية جاؤوا وحلفوا أنهم مؤمنون صادقون فنزل لتكذيبهم قوله تعالى: ﴿قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللهَ بِدِينِكُمْ﴾ أي أتخبرونه سبحانه وتعالى بذلك بقولكم آمنا. فتعلمون. من علمت به فلذا تعدى بالتضعيف لواحد بنفسه وإلى الثاني بحرف الجر، وقيل: إنه تعدى به لتضمين معنى الإحاطة أو الشعور فيفيد مبالغة من حيث إنه جار مجرى المحسوس وقوله تعالى: ﴿وَاللهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ حال من مفعول ﴿تعلمون﴾ وفيه من تجهيلهم ما لا يخفى، وقوله سبحانه: ﴿وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ تذييل مقرر لما قبله أي مبالغ في العلم بجميع الأشياء التي من جملتها ما أخفوه من الكفر عند إظهارهم الإيمان ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا﴾ أي يعتدون إسلامهم منة عليك وهي النعمة التي لا يطلب موليها ثواباً ممن أنعم بها عليه من المن بمعنى القطع لأن المقصود بها قطع حاجته، وقال الراغب: هي النعمة الثقيلة من المن الذي يوزن به وثقلها عظمها أو المشقة في تحملها، و ﴿أن أسلموا﴾ في موضع المفعول. ليمنون. لتضمينه معنى الاعتداد أو هو بتقدير حرف الجر فيكون المصدر منصوباً بنزع الخافض أو مجروراً بالحرف المقدر أي يمنون عليك بإسلامهم، ويقال نحو ذلك في قوله تعالى: ﴿قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ﴾ فهو إما على معنى لا تعتدوا إسلامكم منة علي أو لا تمنوا علي بإسلامكم، وجوز أبو حيان أن يكون ﴿أن أسلموا﴾ مفعولاً من أجله أي يتفضلون عليك لأجل إسلامهم ﴿بَلِ اللهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ﴾ أي ما زعمتم في قولكم آمنا فلا ينافي هذا قوله تعالى: ﴿قل لم تؤمنوا﴾ أو الهداية مطلق الدلالة فلا يلزم إيمانهم وينافي نفي الإيمان السابق.

وقرأ عبد الله. وزيد بن علي «إِذْ هَدَاكُم» بإذ التعليلية، وقرىء «إِنْ هَدَاكُمْ» بإن الشرطية ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أي في ادعاء الإيمان فهو متعلق الصدق لا الهداية فلا تغفل؛ وجواب الشرط محذوف يدل عليه ما قبله أي فلله المنة عليكم، ولا يخفى ما في سياق الآية من اللطف والرشاقة، وذلك أن الكائن من أولئك الأعراب قد سماه الله تعالى إسلاماً إظهاراً لكذبهم في قولهم: آمنا أي أحدثنا الإيمان في معرض الامتنان ونفى سبحانه أن يكون كما زعموا إيماناً فلما منوا على رسول الله ﷺ ما كان منهم قال سبحانه لرسوله عليه الصلاة والسلام: يعتدون عليك بما ليس جديراً بالاعتداد به من حديثهم الذي حق تسميته أن يقال له إسلام فقل لهم: لا تعتدوا علي إسلامكم أي حديثكم المسمى

إسلاماً عندي لا إيماناً، ثم قال تعالى: بل الله يعتد عليكم أن أمدكم بتوفيقه حيث هداكم للإيمان على ما زعمتم، وفي قوله تعالى: ﴿**إسلامكم**﴾ بالإضافة ما يدل على أن ذلك غير معتد به وأنه شيء يليق بأمثالهم فأنى يخلق بالمنة، وللتنبيه على أن المراد بالإيمان الإيمان المعتد به لم يضفه عز وجل، ونبه سبحانه بقوله جل وعلا: ﴿**إن كنتم صادقين**﴾ على أن ذلك كذب منهم، واللطف في تقديم التكذيب ثم الجواب عن المن مع رعاية النكت في كل من ذلك، وتمام الحسن في التذييل بقوله تعالى: ﴿**إِنَّ اللهَ يَعلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ**﴾ أي ما غاب فيهما ﴿**وَاللهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ**﴾ أي في سركم وعلانيتكم فكيف يخفى عليه سبحانه ما في ضمائركم، وذلك ليدل على كذبهم وعلى اطلاعه عز وجل خواص عباده من النبي ﷺ وأتباعه رضي الله تعالى عنهم. وقرأ ابن كثير. وابان، عن عاصم «يعملون» بياء الغيبة والله تعالى أعلم.

ومن باب الإشارة في بعض الآية: ﴿**يا أيها آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله**﴾ الخ إشارة إلى لزوم العمل بالشرع ورعاية الأدب وترك مقتضيات الطبع، وقوله تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا**﴾ يشير إلى أنه إن سولت النفس الأمارة بالسوء وجاءت بنبأ شهوة من شهوات الدنيا ينبغي التثبت للوقوف على ربحها وخسرانها ﴿**أن تصيبوا قوماً**﴾ من القلوب وصفاتها ﴿**بجهالة فتصبحوا**﴾ صباح يوم القيامة ﴿**على ما فعلتم نادمين**﴾ فإن ما فيه شفاء النفوس وحياتها فيه مرض القلوب ومماتها ﴿**واعلموا أن فيكم رسول الله**﴾ الخ يشير إلى رسول الإلهام الرباني في الأنفس بلهم فجورها وتقواها، ويشير قوله تعالى: ﴿**فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله**﴾ إلى أن النفس إذا ظلمت القلب باستيلاء شهواتها يجب أن تقاتل حتى تثخن بالجراحة بسيوف المجاهدة فإن استجابت بالطاعة عفي عنها لأنها هي المطية إلى باب الله عز وجل ﴿**إنما المؤمنون اخوة فأصلحوا بين أخويكم**﴾ إشارة إلى رعاية حق الاخوة الدينية ومنشأ نطفها صلب النبوة وحقيقتها نور الله تعالى فإصلاح ذات بينهم برفع حجب استار البشرية عن وجوه القلوب ليتصل النور بالنور من روزنة القلب فيصيروا كنفس واحدة ﴿**يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم**﴾ يشير إلى ترك الإعجاب بالنفس والنظر إلى أحد بعين الاحتقار فإن الظاهر لا يعبأ به والباطن لا يطلع عليه فرب أشعث أغبر ذي طمرين لو أقسم على الله تعالى لأبره ﴿**قالت الأَعراب آمنا**﴾ إلى آخره فيه إشارة إلى أنه ينبغي ترك رؤية الأعمال والعلم بأن المنة في الهداية لله الملك المتعال، وفيه إرشاد إلى كيفية مخاطبة الجاهلين والرد على المحجوبين كما سلفت الإشارة إليه، هذا ونسأل الله تعالى التوفيق لما يرضاه يوم العرض عليه.

(٥٠) سُورَةُ قٓ مَكِّيَّةٌ
وَآيَاتُهَا خَمْسٌ وَأَرْبَعُونَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قٓ وَالْقُرْءَانِ الْمَجِيدِ ﴿١﴾

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ قٓ والقرآن المجيد ﴾ وقبل التفسير نقول مايتعلق بالسورة وهى أمور :

﴿ الأول ﴾ أن هذه السورة تقرأ فى صلاة العيد ، لقوله تعالى فيها (ذلك يوم الخروج) وقوله تعالى (كذلك الخروج) وقوله تعالى (ذلك حشر علينا يسير) فإن العيد يوم الزينة ، فينبغى أن لاينسى الإنسان خروجه إلى عرصات الحساب ، ولا يكون فى ذلك اليوم فرحاً فخوراً ، ولا يرتكب فسقاً ولا فجوراً ، ولما أمر النبى ﷺ بالتذكير بقوله فى آخر السورة (فذكر بالقرآن من يخاف وعيد) ذكرهم بما يناسب حالهم فى يومهم بقوله (ق والقرآن) .

﴿ الثانى ﴾ هذه السورة ، وسورة (ص) تشتركان فى افتتاح أولها بالحرف المعجم والقسم بالقرآن وقوله (بل) والتعجب ، ويشتركان فى شىء آخر ، وهو أن أول السورتين وآخرهما متناسبان ، وذلك لأن فى (ص) قال فى أولها (والقرآن ذى الذكر) وقال فى آخرها (إن هو إلا ذكر للعالمين) وفى (ق) قال فى أولها (والقرآن المجيد) وقال فى آخرها (فذكر بالقرآن من يخاف وعيد) فافتتح بما اختتم به .

﴿ والثالث ﴾ وهو أن فى تلك السورة صرف العناية إلى تقرير الأصل الأول وهو التوحيد ، بقوله تعالى (أجعل الآلهة إلهاً واحداً) وقوله تعالى (أن امشوا واصبروا على آلهتكم) وفى هذه السورة إلى تقرير الأصل الآخر وهو الحشر ، بقوله تعالى (أئذا متنا وكنا تراباً ذلك رجع بعيد) ولما كان افتتاح السورة فى (ص) فى تقرير المبدأ ، قال فى آخرها (إذ قال ربك للملائكة إنى خالق بشراً من طين) وختمه بحكاية بدء [خلق] آدم ، لأنه دليل الوحدانية . ولما كان افتتاح هذه لبيان الحشر ، قال فى آخرها (يوم تشقق الأرض عنهم سراعاً ذلك حشر علينا يسير) وأما التفسير ، ففيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قيل (ق) اسم جبل محيط بالعالم ، وقيل معناه حكمة هى قولنا : قضى

الأمر . وفى ص : صدق الله ، وقد ذكرنا أن الحروف تنبيهات قدمت على القرآن ، ليبقى السامع مقبلا على استماع مايرد عليه ، فلا يفوته شىء من الكلام الرائق ، والمعنى الفائق .

وذكرنا أيضاً أن العبادة منها قلبية ، ومنها لسانية ، ومنها خارجية ظاهرة ، ووجد فى الجارحية ما عقل معناه ، ووجد منها ما لم يعقل معناه ، كأعمال الحج من الرمى والسعى وغيرهما ، ووجد فى القلبية ماعقل بدليل ، كعلم التوحيد ، وإمكان الحشر ، وصفات الله تعالى ، وصدق الرسل ، ووجد فيها مايبعدها عن كونها معقولة المعنى أمور لا يمكن التصديق ، والجزم بما لولا السمع كالصراط الممدود الأحد من السيف الأرق من الشعر ، والميزان الذى يوزن به الأعمال ، فكذلك كان ينبغى أن تكون الأذكار التى هى العبادة اللسانية منها ما يعقل معناه كجميع القرآن إلا قليلا منه ، ومنها مالا يعقل ولا يفهم كحرف التهجى لكون التلفظ به محض الانقياد للأمر ، لا لما يكون فى الكلام من طيب الحكاية والقصد إلى غرض ، كقولنا (ربنا اغفرلنا وارحمنا) بل يكون النطق به تعبداً محضاً ؛ ويؤيد هذا وجه آخر ، وهو أن هذه الحروف مقسم بها ، وذلك لأن الله تعالى لما أقسم بالتين والزيتون كان تشريفاً لهما ، فإذا أقسم بالحروف التى هى أصل الكلام الشريف الذى هو دليل المعرفة ، وآلة التعريف كان أولى ، وإذا عرفت هذا فنقول على هذا فيه مباحث :

﴿ الأول ﴾ القسم من الله وقع بأمر واحد ، كما فى قوله تعالى (والعصر) وقوله تعالى (والنجم) وبحرف واحد ، كما فى قوله تعالى (ص و ن) ووقع بأمرين ، كما فى قوله تعالى (والضحى والليل إذا سجى) وفى قوله تعالى (والسماء والطارق) وبحرفين ، كما فى قوله تعالى (طه وطس ويس وحم) وبثلاثة أمور ، كما فى قوله تعالى (والصافات فالزاجرت فالتاليات) وبثلاثة أحرف ، كما فى (الم) وفى (طسم والر) وبأربعة أمور ، كما فى (والذاريات) وفى (والسماء ذات البروج) وفى (والتين) وبأربعة أحرف ، كما فى (المص والمر) وبخمسة أمور ، كما فى (والطور) وفى (والمرسلات) وفى (والنازعات) وفى (والفجر) وبخمسة أحرف ، كما فى (كهيعص وحمعسق) ولم يقسم بأكثر من خمسة أشياء إلا فى سورة واحدة وهى (والشمس وضحاها) ولم يقسم بأكثر من خمسة أصول ، لأنه يجمع كلمة الاستثقال ، ولما استثقل حين ركب لمعنى ، كان استثقالها حين ركب من غير إحاطة العلم بالمعنى أو لا لمعنى كان أشد .

﴿ البحث الثانى ﴾ عند القسم بالأشياء المعهودة ، ذكر حرف القسم وهى الواو ، فقال : (والطور والنجم والشمس) وعند القسم بالحروف لم يذكر حرف القسم ، فلم يقل و (ق وحم) لأن القسم لما كان بنفس الحروف كان الحرف مقسما به ، فلم يورده فى موضع كونه آلة القسم تسوية بين الحروف .

﴿ البحث الثالث ﴾ أقسم الله بالأشياء : كالتين والطور ، ولم يقسم بأصولها ، وهى الجواهر

الفردة والماء والتراب . وأقسم بالحروف من غير تركيب ، لأن الأشياء عنده بركبها على أحسن حالها ، وأما الحروف إن ركبت بمعنى ، يقع الحلف بمعناه لا باللفظ ، كقولنا (والسماء والأرض) وإن ركبت لا بمعنى ، كان المفرد أشرف ، فأقسم بمفردات الحروف .

﴿البحث الرابع﴾ أقسم بالحروف فى أول ثمانية وعشرين سورة ، وبالأشياء التى عددها عدد الحروف ، وهى غير (والشمس) فى أربع عشرة سورة ، لأن القسم بالأمور غير الحروف وقع فى أوائل السور وفى أثنائها ، كقوله تعالى (كلا والقمر ، والليل إذ أدبر) وقوله تعالى (والليل وما وسق) وقوله (والليل إذا عسعس) والقسم بالحروف لم يوجد ولم يحسن إلا فى أوائل السور ، لأن ذكر مالا يفهم معناه فى أثناء الكلام المنظوم المفهوم يخل بالفهم ، ولما كان القسم بالأشياء له موضعان والقسم بالحروف له موضع واحد جعل القسم بالأشياء فى أوائل السور على نصف القسم بالحروف فى أوائلها .

﴿البحث الخامس﴾ القسم بالحروف وقع فى النصفين جميعاً بل فى كل سبع وبالأشياء المعدودة لم يوجد إلا فى النصف الأخير بل لم يوجد إلا فى السبع الأخير غير والصافات ، وذلك لأنا بينا أن القسم بالحروف لم ينفك عن ذكر القرآن أو الكتاب أو التنزيل بعده إلا نادراً فقال تعالى (يسٓ والقرآن الحكيم ، حمٓ تنزيل الكتاب ، المٓ ذلك الكتاب) ولما كان جميع القرآن معجزة مؤداة بالحروف وجد ذلك عاماً فى جميع المواضع ولا كذلك القسم بالأشياء المعدودة ، وقد ذكرنا شيئاً من ذلك فى سورة العنكبوت ، ولنذكر ما يختص بقاف قيل إنه اسم جبل محيط بالأرض عليه أطراف السماء وهو ضعيف لوجوه : (أحدها) أن القراءة الكثيرة الوقف ، ولو كان اسم جبل لما جاز الوقف فى الإدراج ، لأن من قال ذلك قال بأن الله تعالى أقسم به (وثانيها) أنه لو كان كذلك لذكر بحرف القسم كما فى قوله تعالى (والطور) وذلك لأن حرف القسم يحذف حيث يكون المقسم به مستحقاً لأن يقسم به ، كقولنا الله لأفعلن كذا ، واستحقاقه لهذا غنى عن الدلالة عليه باللفظ ولا يحسن أن يقال زيد لأفعلن (ثالثها) هو أنه لو كان كما ذكر لكان يكتب قاف مع الألف والفاء كما يكتب (عين جارية) ويكتب (أليس الله بكاف عبده) وفى جميع المصاحف يكتب حرف (ق) ، (رابعها) هو أن الظاهر أن الأمر فيه كالأمر فى (صٓ ، ن ، حم) وهى حروف لا كلمات وكذلك فى (ق) فإن قيل هو منقول عن ابن عباس ، نقول المنقول عنه أن قاف اسم جبل ، وأما أن المراد فى هذا الموضع به ذلك فلا ، وقيل إن معناه قضى الأمر ، وفى (ص) صدق الله ، وقيل هو اسم الفاعل من قفا يقفو و (ص) من صاد من المصاداة ، وهى المعارضة ، معناه هذا قاف جميع الأشياء بالكشف ، ومعناه حينئذ هو قوله تعالى (ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين) إذا قلنا إن الكتاب هناك القرآن . هذا ماقيل فى (ق) وأما القراءة فيه فكثيرة وحصرها ببيان معناها ، فنقول إن قلنا هى مبنية على ما بينا فحقها الوقف إذ لا عامل فيها فيشبه

بناء الأصوات ويجوز الكسر حذراً من التقاء الساكنين ، و يجوز الفتح اختياراً للأخف ، فإن قيل كيف جاز اختيار الفتح ههنا ، ولم يجز عند التقاء الساكنين إذا كان أحدهما آخر كلمة والآخر أول أخرى كما فى قوله تعالى (لم يكن الذين كفروا) (ولا تطرد الذين) ؟ نقول لأن هناك إنما وجب التحريك وعين الكسر فى الفعل لشبهة تحرك الإعراب ، لأن الفعل محل يرد عليه الرفع والنصب ولا يوجد فيه الجر فاختيرت الكسرة التى لا يخفى على أحدأنها ليست بجر ، لأن الفعل لا يجوز فيه الجر ولو فتح لاشتبه بالنصب ، وأما فى أواخر الأسماء فلا اشتباه ، لأن الأسماء محل ترد عليه الحركات الثلاث فلم يكن يمكن الاحتراز فاختاروا الأخف ، وأما إن قلنا إنها حرف مقسم به فحقها الجر ويجوز النصب بجعله مفعولا بالقسم على وجه الاتصال ، وتقدير الباء كأن لم يوجد ، وإن قلنا هى اسم السورة ، فإن قلنا مقسم بها مع ذلك فحقها الفتح لأنها لاتنصرف حينئذ ففتح فى موضع الجر كما تقول وإبراهيم وأحمد فى القسم بهما ، وإن قلنا إنه ليس مقسما بها وقلنا اسم السورة ، فحقها الرفع إن جعلناها خبراً تقديره : هذه ق ، وإن قلنا هو من قفاية فوحقه التنوين كقولنا هذا داع وواع ، وإن قلنا اسم جبل فالجر والتنوين وإن كان قسما ، ولنعد إلى التفسير فنقول الوصف قد يكون للتمييز وهو الأكثر كقولنا الكلام القديم ليتميز عن الحادث والرجل الكريم ليمتاز عن اللئيم ، وقد يكون لمجرد المدح كقولنا الله الكريم إذ ليس فى الوجود إله آخر حتى نميزه عنه بالكريم ، وفى هذا الموضع يحتمل الوجهين ، والظاهر أنه لمجرد المدح ، وأما التمييز فبأن نجعل القرآن اسما للمقروء ، ويدل عليه قوله تعالى (ولو أن قرآناً سيرت به الجبال) والمجيد العظيم ، وقيل المجيد هو كثير الكرم وعلى الوجهين القرآن مجيد ، أما على قولنا (المجيد) هو العظيم ، فلأن القرآن عظيم الفائدة ، ولأنه ذكر الله العظيم ، وذكر العظيم عظيم ، ولأنه لم يقدر عليه أحد من الخلق ، وهو آية العظمة يقال ملك عظيم إذا لم يكن يغلب ويدل عليه قوله تعالى (ولقد آتيناك سبعاً من المثانى والقرآن العظيم) أى الذى لا يقدر على مثله أحد ليكون معجزة دالة على نبوتك وقوله تعالى .(بل هو قرآن مجيد فى لوح محفوظ) أى محفوظ من أن يطلع عليه أحد إلا باطلاعه تعالى فلا يبدل ولا يغير و (لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه) فهو غير مقدور عليه فهو عظيم ، وأما على قولنا (المجيد) هو كثير الكرم فالقرآن كريم كل من طلب منه مقصوده وجده ، وإنه مغن كل من لاذ به ، وإغناء المحتاج غاية الكرم ويدل عليه هو أن المجيد مقرون بالحميد فى قولنا إنك حميد مجيد ، فالحميد هو المشكور والشكر على الإنعام والمنعم كريم فالمجيد هو الكريم البالغ فى الكرم ، وفيه مباحث :

﴿الأول﴾ القرآن مقسم به فالمقسم عليه ماذا ؟ نقول فيه وجوه وضبطها بأن نقول ، ذلك إما أن يفهم بقرينة حالية أو قرينة مقالية ، والمقالية إما أن تكون متقدمة على المقسم به أو متأخرة ، فإن قلنا بأنه مفهوم من قرينة مقالية متقدمة فلا متقدم هناك لفظاً إلا (ق) فيكون التقدير : هذا (ق والقرآن المجيد) أو (ق) أنزلها الله تعالى (والقرآن) كما يقول هذا حاتم والله أى هو المشهور

بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ

بالسخاء ويقول الهلال رأيته والله ، وإن قلنا بأنه مفهوم من قرينة مقالية متأخرة ، فنقول ذلك أمران : (أحدهما) المنذر و (الثانى) الرجع ، فيكون التقدير : والقرآن المجيد إنك المنذر ، أو : والقرآن المجيد إن الرجع لكائن ، لأن الأمرين ورد القسم عليهما ظاهراً ، أما (الأول) فيدل عليه قوله تعالى (يس والقرآن الحكيم إنك لمن المرسلين) إلى أن قال (لتنذر قوماً ما أنذر آباؤهم) . وأما (الثانى) فدل عليه قوله تعالى (والطور وكتاب مسطور) إلى أن قال (إن عذاب ربك لواقع) وهــذا الوجه يظهر عليه غاية الظهور على قول من قال (ق) اسم جبل فإن القسم يكون بالجبل والقرآن ، وهناك القسم بالطور والكتاب المسطور وهو الجبل والقرآن ، فإن قيل أى الوجهين منهما أظهر عندك ؟ قلت (الأول) لأن المنذر أقرب من الرجع ، ولأن الحروف رأيناها مع القرآن والمقسم كونه مرسلا ومنذراً ، وما رأينا الحروف ذكرت وبعدها الحشر ، واعتبر ذلك فى سورمنها قوله تعالى (الم تنزيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين ، أم يقولون افتراه بل هو الحق من ربك لتنذر) ولأن القرآن معجزة دالة على كون محمد رسول الله ، فالقسم به عليه يكون إشارة إلى الدليل على طريقة القسم ، وليس هو بنفسه دليلا على الحشر ، بل فيه امارات مفيدة للجزم بالحشر بعد معرفة صدق الرسول ، وأما إن قلنا هو مفهوم بقرينه حالية ، فهو كون محمد ﷺ على الحق ولكلامه صفة الصدق ، فان الكفار كانوا ينكرون ذلك والمختار ماذكرناه (والثانى) (بل عجبوا) يقتضى أن يكون هناك أمر مضرب عنه فما ذلك ؟ نقول قال الواحدى ووافقه الزمخشرى إنه تقدير قوله ماالأمر كما يقولون ونزيده وضوحاً ، فنقول على ما اخترناه : فإن التقدير والله أعلم (ق والقرآن والقرآن المجيد) إنك لتنذر ، فكأنه قال بعده بل إنهم شكوا فيه فأضرب عنه .

وقال ﴿ بل عجبوا أن جاءهم منذر ﴾ .

يعنى لم يقتنعوا بالشك فى صدق الأمر وطرحه بالترك وبعد الإمكان ، بل جزموا بخلافه حتى جعلوا ذلك من الأمور العجيبة ، فان قيل فما الحكمة فى هذا الاختصار العظيم فى موضع واحد حذف المقسم عليه والمضرب عنه ، وأتى بأمر لا يفهم إلا بعد الفكر العظيم ولا يفهم مع الفكر إلا بالتوفيق العزيز ؟ فنقول إنما حذف المقسم عليه لأن الترك فى بعض المواضع يفهم منه ظهور لا يفهم من الذكر ، وذلك لأن من ذكر الملك العظيم فى مجلس وأثنى عليه يكون قد عظمه ، فإذا قال له غيره هو لا يذكر فى هذا المجلس يكون بالإرشاد إلى ترك الذكر دالا على عظمته فوق ما يستفيد صاحبه بذكره فالله تعالى يقول لبيان رسالتك أظهر من أن يذكر ، وأما حذف المضرب عنه ، فلأن المضرب عنه إذا ذكر وأضرب عنه بأمر آخر إنما يحسن إذا كان بين المذكورين تفاوت ما ، ، فإذا عظم التفاوت لا يحسن ذكرهما مع الإضراب ، مثاله يحسن أن يقال

مِّنۡهُمۡ فَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَيۡءٌ عَجِيبٌ ﴿٢﴾

الوزير يعظم فلاناً بل الملك يعظمه ، ولا يحسن أن يقال البواب يعظم فلاناً بل الملك يعظمه لكون البون بينهما بعيداً ، إذ الإضراب للتدرج ، فإذا ترك المتكلم المضرب عنـــه صريحاً وأتى بحرف الإضراب استفيد منه أمران (أحدهما) أنه يشير إلى أمر آخر قبله (وثانيهما) أنه يجعل الثانى تفاوتاً عظيماً مثل ما يكون وما لا يذكر ، وههنا كذلك لأن الشك بعد قيام البرهان بعيد . لكن القطع بخلافه فى غاية ما يكون من البعد .

﴿ المبحث الثالث ﴾ أن مع الفعل يكون بمثابة ذكر المصدر ، تقول أمرت بأن أقوم وأمرت بالقيام ، وتقول ما كان جوابه إلا أن قال وما كان جوابه إلا قوله كذا وكذا ، وإذا كان كذلك فلم ينزل عن الإتيان بالمصدر حيث جاز أن يقال أمرت أن أقوم من غير حرف الإلصاق ، ولا يجوز أن يقال أمرت القيام بل لابد من الباء ، ولذلك قالوا أى عجبوا من مجيئه ، نقول (أن جاءهم) وإن كان فى المعنى قائماً مقام المصدر لكنه فى الصورة فعل وحرف ، وحروف التعدية كلها حروف جارة والجار لا يدخل على الفعل ، فكان الواجب أن لا يدخل فلا أقل من أن يجوز عدم الدخول ، فجاز أن يقال (عجبوا أن جاءهم) ولا يجوز عجبوا مجيئهم لعدم المانع من إدخال الحروف عليه .

قوله تعالى : ﴿ منهم ﴾ يصلح أن يكون مذكوراً كالمقرر لتعجبهم ، ويصلح أن يكون مذكوراً لإبطال تعجبهم ، أما التقرير فلأنهم كانوا يقولون (إبشراً منا واحداً نتبعه ، وقالوا ما أنتم إلا بشر مثلنا) إشارة إلى أنه كيف يجوز اختصاصكم بهذه المنزلة الرفيعة مع اشتراكنا فى الحقيقة واللوازم وأما الإبطال فلأنه إذا كان واحداً منهم ويرى بين أظهرهم ، وظهر عليه ما عجز عنه كلهم ومن بعدهم كان يجب عليهم أن يقولوا هذا ليس من عنده ولا من عند أحد من جنسنا ، فهو من عند الله بخلاف ما لو جاءهم واحد من خلاف جنسهم وأتى بما يعجزون عنه ، فإنهم كانوا يقولون نحن لا نقدر لأن لكل نوع خاصية ، فإن خاصية النعامة بلع النار ، والطيور الطير فى الهواء ، وابن آدم لا يقدر عليه فإن قيل الإبطال جائز لأن قولهم كان إبطالا ، ولكن تقرير الباطل كيف يجوز ، نقول المبين لبطلان الكلام يجب أن يورده على أبلغ ما يمكن ويذكر فيه كل ما يتوهم أنه دليل عليه ثم يبطله ، فلذلك قال عجبتم بسبب أنه منكم ، وهو فى الحقيقة سبب لهذا التعجب ، فإن قيل النبى ﷺ كان بشيراً ونذيراً والله تعالى فى جميع المواضع قدم كونه بشيراً على كونه نذيراً ، فلم لم يذكر : عجبوا أن جاءهم بشير منهم ؟ نقول هو لما لم يتعين للبشارة موضعاً كان فى حقهم منذراً لا غير .

قوله تعالى : ﴿ فقال الكافرون هذا شيء عجيب ﴾ .

قال الزمخشرى هذا تعجب آخر من أمر آخر وهو الحشر الذى أشار إليه بقوله (أئذا متنا وكنا تراباً ، ذلك رجع بعيد) فعجبوا من كونه منذراً من وقوع الحشر ، ويدل عليه النظر فى أول

أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ﴿٣﴾

سورة ص حيث قال فيه (وعجبوا أن جاءهم منذر) وقال (أجعل الآلهة إلهاً واحداً إن هذا لشيء عجاب) ذكر تعجبهم من أمرين والظاهر أن قولهم (هذا شيء عجيب) إشارة إلى مجيء المنذر لا إلى الحشر ويدل عليه وجوه (الأول) هو أن هناك ذكر (إن هذا لشيء عجاب) بعد الاستفهام الإنكاري فقال (أجعل الآلهة إلهاً واحداً ، إن هذا لشيء عجاب) وقال ههنا (هذا شيء عجيب) ولم يكن ما يقع الإشارة إليه إلا مجيء المنذر .

ثم قالوا (أئذا متنا وكنا تراباً ذلك رجع بعيد) (الثاني) ههنا وجد بعد الاستبعاد بالاستفهام أمر يؤدي معنى التعجب وهو قولهم (ذلك رجع بعيد) فإنه استبعاد وهو كالتعجب فلو كان التعجب أيضاً عائداً إليه لكان كالتكرار ، فإن قيل التكرار الصريح يلزم من جعل قولك (هذا شيء عجيب) عائداً إلى مجيء المنذر ، فإن تعجبهم منه علم من قوله (عجبوا أن جاءهم) فقوله (هذا شيء عجيب) يكون تكراراً ، نقول ذلك ليس بتكرار بل هو تقرير ، وذلك لأنه لما قال (بل عجبوا) بصيغة الفعل وجاز أن يتعجب الإنسان مما لا يكون عجيباً كما قال تعالى (أتعجبين من أمر الله) ويقال في العرف لا وجه لتعجبك مما ليس بعجب فكأنهم لما عجبوا قيل لهم لا معنى لفعلكم وعجبكم فقالوا (هذا شيء عجيب) فكيف لا نعجب منه ، ويدل عليه أنه تعالى قال ههنا (فقال الكافرون) بحرف الفاء ، وقال في ص (وقال الكافرون هذا ساحر كذاب) لأن قولهم (ساحر كذاب) كان تعنتاً غير مرتب على ماتقدم ، و (هذا شيء عجيب) أمر مرتب على ماتقدم أي عجبوا وأنكروا عليه ذلك ، فقالوا (هذا شيء عجيب) فكيف لا نعجب منه ، ويدل عليه أيضاً قوله تعالى (ذلك رجع بعيد) بلفظ الإشارة إلى البعد ، وقوله هذا إشارة إلى الحاضر القريب ، فينبغي أن يكون المشار إليه بذلك غير المشار إليه بهذا ، وذلك لا يصح إلا على قولنا .

قوله تعالى : ﴿ أئذا متنا وكنا تراباً ذلك رجع بعيد ﴾ .

فإنهم لما أظهروا العجب من رسالته أظهروا استبعاد كلامه ، وهذا كما قال تعالى عنهم (قالوا ماهذا إلا رجل يريد أن يصدكم عما كان يعبد آباؤكم) ،(وقالوا ماهذا إلا إفك مفترى)وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قوله (أئذا متنا وكنا تراباً) إنكار منهم بقول أو بمفهوم دل عليه قوله تعالى (جاءهم منذر) لأن الإنذار لما لم يكن إلا بالعذاب المقيم والعقاب الأليم ، كان فيه الإشارة للحشر ، فقالوا (أئذا متنا وكنا تراباً) .

﴿ المسألة الثانية ﴾ ذلك إشارة إلى ماقاله وهو الإنذار ، وقوله (هذا شيء عجيب) إشارة إلى المجيء على ما قلنا ، فلما اختلفت الصفتان نقول المجيء والجائي كل واحد حاضر . وأما الإنذار وإن كان حاضراً لكن لكون المنذر به لما كان غير حاضر قالوا فيه ذلك ، والرجع مصدر رجع يرجع إذا

قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ ۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ ﴿٤﴾ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ

كان متعدياً ، والرجوع مصدره إذا كان لازماً ، وكذلك الرجعى مصدر عند لزومه ، والرجع أيضاً يصح مصدراً للازم ، فيحتمل أن يكون المراد بقوله (ذلك رجع بعيد) أى رجوع بعيد ، ويحتمل أن يكون المراد الرجع المتعدى ، ويدل على الأول قوله تعالى (أن إلى ربك الرجعى) وعلى الثانى قوله تعالى (أئنا لمردودون) أى مرجعون فإنه من الرجع المتعدى ، فإن قلنا هو من المتعدى ، فقد أنكروا كونه مقدوراً فى نفسه .

قوله تعالى : ﴿ قد علمنا ماتنقص الأرض منهم وعندنا كتاب حفيظ ﴾ .

إشارة إلى دليل جواز البعث وقدرته تعالى عليه ، وذلك لأن الله تعالى بجميع أجزاء كل واحد من الموتى لايشتبه عليه جزء أحد على الآخر ، وقادر على الجمع والتأليف ، فليس الرجوع منه ببعد ، وهذا كقوله تعالى (وهو الخلاق العليم) حيث جعل للعلم مدخلا فى الإعادة ، وقوله (قد علمنا ماتنقص الأرض) يعنى لاتخفى علينا أجزاؤهم بسبب تشتتها فى تخوم الأرضين ، وهذا جواب لما كانوا يقولون (أئذا ضللنا فى الأرض) يعنى أن ذلك إشارة إلى أنه تعالى كما يعلم أجزاءهم يعلم أعمالهم من ظلمهم ، وتعديهم بما كانوا يقولون وبما كانوا يعملون ، ويحتمل أن يقال معنى قوله تعالى (وعندنا كتاب حفيظ) هو أنه عالم بتفاصيل الأشياء ، وذلك لأن العلم إجمالى وتفصيلى ، فالإجمالى كما يكون عند الإنسان الذى يحفظ كتاباً ويفهمه ، ويعلم أنه إذا سئل عن أية مسألة تكون فى الكتاب يحضر عنده الجواب ، ولكن ذلك لا يكون نصب عينيه حرفاً بحرف ، ولا يخطر بباله فى حالة باباً باباً ، أو فصلا فصلا ، ولكن عند العرض على الذهن لا يحتاج إلى تجديد فكر وتحديد نظر ، والتفصيلى مثل الذى يعبر عن الأشياء ، والكتاب الذى كتب فيه تلك المسائل ، وهذا لايوجد عند الإنسان إلا فى مسألة ومسألتين . أما بالنسبة إلى كتاب فلا يقال (وعندنا كتاب حفيظ) يعنى العلم عندى كما يكون فى الكتاب أعلم جزءاً جزءاً وشيئاً شيئاً ، والحفيظ يحتمل أن يكون بمعنى المحفوظ ، أى محفوظ من التغيير والتبديل ، ويحتمل أن يكون بمعنى الحافظ ، أى حافظ أجزاءهم وأعمالهم بحيث لا ينسى شيئاً منها ، والثانى هو الأصح لوجهين (أحدهما) أن الحفيظ بمعنى الحافظ وارد فى القرآن ، قال تعالى (وما أنت عليهم بحفيظ) وقال تعالى (والله حفيظ عليم) ولأن الكتاب على ما ذكرنا للتمثيل فهو يحفظ الأشياء ، وهو مستغن عن أن يحفظ .

قوله تعالى : ﴿ بل كذبوا بالحق ﴾ .

رد عليهم ، فإن قيل ما المضروب عنه ، نقول فيه وجهان (أحدهما) تقديره لم يكذب المنذر ، بل كذبوا هم ، وتقديره هو أنه تعالى لما قال عنهم إنهم (قالوا هذا شىء عجيب) كان فى معنى قولهم :

إن المنذر كاذب ، فقال تعالى : لم يكذب المنذر ، بل هم كذبوا ، فإن قيل : ما الحق ؟ نقول يحتمل وجوهاً (الأول) البرهان القائم على صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم (الثانى) الفرقان المنزل وهو قريب من الأول ، لأنه برهان (الثالث) النبوة الثابتة بالمعجزة القاهرة فإنها حق (الرابع) الحشر الذى لا بد من وقوعه فهو حق ، فإن قيل بين لنا معنى الباء فى قوله تعالى (بالحق) وأية حاجة إليها ، يعنى أن التكذيب متعد بنفسه ، فهل هى للتعدية إلى مفعول ثان أو هى زائدة ، كما فى قوله تعالى (فستبصر ويبصرون بأيكم المفتون) ؟ نقول فيه بحث وتحقيق ، وهى فى هذا الموضع لإظهار معنى التعدية ، وذلك لأن التكذيب هو النسبة إلى الكذب ، لكن النسبة تارة توجد فى القائل ، وأخرى فى القول ، تقول : كذبنى فلان وكنت صادقاً ، وتقول : كذب فلان قول فلان ، ويقال كذبه ، أى جعله كاذباً ، وتقول : قلت لفلان زيد يجىء غداً ، فتأخر عمداً حتى كذبنى وكذب قولى ، والتكذيب فى القائل يستعمل بالباء وبدونها ، قال تعالى (كذبت ثمود المرسلين) وقال تعالى (كذبت ثمود بالنذر) وفى القول كذلك غير أن الاستعمال فى القائل بدون الباء أكثر ، قال تعالى (فكذبوه) وقال (وإن يكذبوك فقد كذبوك رسل من قبلك) إلى غير ذلك ، وفى القول الاستعمال بالباء أكثر ، قال الله تعالى (فكذبوا بآياتنا كلها) وقال (بل كذبوا بالحق) وقال تعالى (وكذب بالصدق إذ جاءه) والتحقيق فيه هو أن المفعول المطلق هو المصدر ، لأنه هو الذى يصدر من الفاعل ، فإن من ضرب لم يصدر منه غير الضرب ، غير أن له محلا يقع فيه فيسمى مضروباً ، ثم إذا كان ظاهراً لكونه محلا للفعل يستغنى بظهوره عن الحرف فيعدى من غير حرف ، يقال ضربت عمراً ، وشربت خمراً ، للعلم بأن الضرب لابد له من محل يقوم به ، والشرب لا يستغنى عن مشروب يتحقق فيه ، وإذا قلت مررت يحتاج إلى الحرف ، ليظهر معنى التعدية لعدم ظهوره فى نفسه ، لأن من قال : مر السحاب يفهم منه مرور ولا يفهم منه من مر به ، ثم إن الفعل قد يكون فى الظهور دون الضرب والشرب ، وفى الخفاء دون المرور ، فيجوز الإتيان فيه بدون الحرف لظهوره الذى فوق ظهور المرور ، ومع الحرف لكون الظهور دون ظهور الضرب ، ولهذا لا يجوز أن تقول : ضربت بعمرو ، إلا إذا جعلته آلة الضرب . أما إذا ضربته بسوط أو غيره ، فلا يجوز فيه زيادة الباء ، ولا يجوز مروا به إلا مع الاشتراك ، وتقول مسحته ومسحت به . وشكرته وشكرت له ، لأن المسح إمرار اليد بالشىء فصار كالمرور ، والشكر فعل جميل غير أنه يقع بمحسن ، فالأصل فى الشكر ، الفعل الجميل ، وكونه واقعاً بغيره كالبيع بخلاف الضرب ، فإنه امساس جسم بجسم بعنف ، فالمضروب داخل فى مفهوم الضرب أولا ، والمشكور داخل فى مفهوم الشكر ثانياً ، إذا عرفت هذا فالتكذيب فى القائل ظاهر لأنه هو الذى يصدق أو يكذب ، وفى القول غير ظاهر فكان الاستعمال فيه بالباء أكثر والباء فيه لظهور معنى التعدية ،

لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ﴿٥﴾ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾

وقوله ﴿ لما جاءهم ﴾ فى الجائى وجهان : (أحدهما) أنه هو المكذب تقديره : كذبوا بالحق لما جاءهم الحق ، أى لم يؤخروه إلى الفكر والتدبر (ثانيهما) الجائى ههنا هو الجائى فى قوله تعالى (بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم) تقديره : كذبوا بالحق لما جاءهم المنذر ، والأول لا يصح على قولنا الحق وهو الرجع ، لأنهم لا يكذبون به وقت المجىء بل يقولون (هذا ماوعد الرحمن) .

وقوله ﴿ فهم فى أمر مريج ﴾ أى مختلف مختلط قال الزجاج وغيره : لأنهم تارة يقولون ساحر وأخرى شاعر ، وطوراً ينسبونه إلى الكهانة ، وأخرى إلى الجنون ، والأصح أن يقال : هذا بيان الاختلاف المذكور فى الآيات ، وذلك لأن قوله تعالى (بل عجبوا) يدل على أمر سابق أضرب عنه ، وقد ذكرنا أنه الشك وتقديره : والقرآن المجيد ، إنك لمنذر ، وإنهم شكوا فيك ، بل عجبوا ، بل كذبوا . وهذه مراتب ثلاث (الأولى) الشك وفوقها التعجب ، لأن الشاك يكون الأمران عنده سيين ، والمتعجب يترجح عنده اعتقاد عدم وقوع العجيب لكنه لا يقطع به والمكذب الذى يجزم بخلاف ذلك ، فكأنهم كانوا شاكين وصاروا ظانين وصاروا جازمين فقال (فهم فى أمر مريج) ويدل عليه الفاء فى قوله (فهم) لأنه حينئذ يصير كونهم (فى أمر مريج) مرتباً على ما تقدم وفيما ذكروه لايكون مرتباً . فإن قيل : المريج ، المختلط ، وهذه أمور مرتبة متميزة على مقتضى العقل ، لأن الشاك ينتهى إلى درجة الظن ، والظان ينتهى إلى درجة القطع ، وعند القطع لا يبقى الظن ، وعند الظن لا يبقى الشك ، وأما ماذكروه ففيه يحصل الاختلاط لأنهم لم يكن لهم فى ذلك ترتيب ، بل تارة كانوا يقولون كاهن وأخرى مجنون ، ثم كانوا يعودون إلى نسبته إلى الكهانة بعد نسبته إلى الجنون وكذا إلى الشعر بعد السحر وإلى السحر بعد الشعر فهذا هو المريج . نقول كان الواجب أن ينتقلوا من الشك إلى الظن بصدقه لعلمهم بأمانته واجتنابه الكذب طول عمره بين أظهرهم ، ومن الظن إلى القطع بصدقه لظهور المعجزات القاهرة على يديه ولسانه ، فلما غيروا الترتيب حصل عليه المرج ووقع الدرك مع المرج ، وأما ماذكروه فاللائق به تفسير قول تعالى (إنكم لفى قول مختلف) لأن ما كان يصدر منهم فى حقه كان قولا مختلفاً ، وأما الشك والظن والجزم فأمور مختلفة ، وفيه لطيفة وهى أن إطلاق لفظ المريج على ظنهم وقطعهم ينبىء عن عدم كون ذلك الجزم صحيحاً لأن الجزم الصحيح لا يتغير ، وكان ذلك منهم واجب التغير فكان أمرهم مضطرباً ، بخلاف المؤمن الموفق فإنه لا يقع فى اعتقاده تردد ولا يوجد معتقده تعدد .

قوله تعالى : ﴿ أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج ﴾ .

إشارة إلى الدليـل الذى يدفع قولهم (ذلك رجع بعيد) وهذا كما فى قوله تعالى (أوليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم) وقوله تعالى (لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس) وقوله تعالى (أولم يروا أن الله الذى خلق السموات والأرض ولم يعى بخلقهن بقادر على أن يحيي الموتى بلى) وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ همزة الاستفهام تارة تدخل على الكلام ولا واو فيه ، وتارة تدخل عليه وبعدها واو ، فهل بين الحالتين فرق ؟ نقول فرق أدق مما على الفرق ، وهو أن يقول القائل : أزيد فى الدار بعد . وقد طلعت الشمس ؟ يذكره للانكار ، فإذا قال : أو زيداً فى الدار بعد ، وقد طلعت الشمس ؟ يشير بالواو إشارة خفية إلى أن قبح فعله صار بمنزلة فعلين قبيحين ، كأنه يقول بعد ماسمع ممن صدر عن زيد هو فى الدار ، أغفل وهو فى الدار بعد ، لأن الواو تنبىء عن ضيف أمر مغاير لما بعدها وإن لم يكن هناك سابق لكنه يومىء بالواو إليه زيادة فى الإنكار ، فإن قيل قال فى موضع (أولم ينظروا) وقال ههنا (أفلم ينظروا) بالفاء فما الفرق ؟ نقول ههنا سبق منهم إنكار الرجع فقال بحرف التعقيب بمخالفه ، فإن قيل فنى يس سبق ذلك بقوله قال (من يحيي العظام) نقول هناك الاستدلال بالسموات لما لم يعقب الإنكار على عقيب الإنكار استدل بدليل آخر ، وهو قوله تعالى (قل يحييها الذى أنشأها أول مرة) ثم ذكر الدليل الآخر ، وههنا الدليل كان عقيب الإنكار فذكر بالفاء ، وأما قوله ههنا بلفظ النظر ، وفى الاحقاف بلفظ الرؤية ، ففيه لطيفة وهى أنهم ههنا لما استبعدوا أمر الرجع بقولهم (ذلك رجع بعيد) استبعد استبعادهم ، وقال (أفلم ينظروا إلى السماء) لأن النظر دون الرؤية فكأن النظر كان فى حصول العلم بإنكار الرجع ولاحاجة إلى الرؤية ليقع الاستبعاد فى مقابلة الاستبعاد ، وهناك لم يوجد منهم بإنكار مذكور فأرشدهم إليه بالرؤية التى هى أتم من النظر ، ثم إنه تعالى كمل ذلك وجمله بقوله (إلى السماء) ولم يقل فى السماء لأن النظر فى الشىء ينبىء عن التأمل والمبالغة والنظر إلى الشىء ينبىء عنه ، لأن إلى للغاية فينتهى النظر عنده فى الدخول فى معنى الظرف فإذا انتهى النظر إليه ينبغى أن ينفذ فيه حتى يصح معنى الظرفية وقوله تعالى (فوقهم) تأكيد آخر أى وهو ظاهر فوق رءوسهم غير غائب عنهم ، وقوله تعالى (كيف بنيناها وزيناها ومالها من فروج) إشارة إلى وجه الدلالة وأولوية الوقوع وهى للرجع ، أما وجه الدلالة فإن الإنسان له أساس هى العظام التى هى كالدعامة وقوى وأنوار كالسمع والبصر فبناء السماء أرفع من أساس البدن ، وزينة السماء أكمل من زينة الإنسان بلحم وشحم . وأما الأولوية فإن السماء مالها من فروج فتأليفها أشد ، وللانسان فروج ومسام ، ولا شك أن التأليف الأشد كالنسج الأصفق والتأليف الأضعف كالنسج الأسخف ، والأول أصعب عند الناس وأعجب ، فكيف يستبعدون الأدون مع علمهم بوجود الأعلى من الله تعالى ؟ قالت الفلاسفة الآية دالة على أن السماء لا تقبل الخرق ، وكذلك قالوا فى قوله (هل ترى من فطور) وقوله (سبعاً شداداً) وتعسفوا فيه لأن

وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ﴿٨﴾

قوله تعالى (مالها من فروج) صريح فى عدم ذلك ، والإخبار عن عدم الشيء لا يكون إخباراً عن عدم إمكانه فإن من قال : ما لفلان قال ؟ لا يدل على نفى إمكانه ، ثم إنه تعالى بين خلاف قولهم بقوله (وإذا السماء فرجت) وقال (إذا السماء انفطرت) وقال (فهى يومئذ واهية) فى مقابلة قوله (سبعاً شداداً) وقال (فإذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان) إلى غير ذلك والكل فى الرد عليهم صريح وما ذكروه فى الدلالة ليس بظاهر ، بل وليس له دلالة خفية أيضاً ، وأما دليلهم المعقول فأضعف وأسخف من تمسكهم بالمنقول .

قوله تعالى : ﴿ والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج ﴾ .

إشارة إلى دليل آخر ووجه دلالة الأرض هو أنهم قالوا : الإنسان إذا مات وفارقته القوة الغاذية والنامية لاتعود إليه تلك القوة ، فنقول الأرض أشد جموداً وأكثر خموداً والله تعالى ينبت فيها أنواع النبات وينموا ويزيد ، فكذلك الإنسان تعود إليه الحياة وذكر فى الأرض ثلاثة أمور كما ذكر فى السماء ثلاثة أمور فى الأرض المد وإلقاء الرواسى والإنبات فيها ، وفى السماء البناء والتزيين وسد الفروج ، وكل واحد فى مقابلة واحد فالمد فى مقابلة البناء ، لأن المد وضع والبناء رفع ، والرواسى فى الأرض ثابتة والكواكب فى السماء مركوزة مزينة لها والإنبات فى الأرض شقها كما قال تعالى (أنا صببنا الماء صباً ، ثم شققنا الأرض شقاً) وهو على خلاف سد الفروج وإعدامها ، وإذا علمت هذا فى الإنسان أشياء موضوعة وأشياء مرفوعة وأشياء ثابتة كالأنف والأذن وأشياء متحركة كالمقلة واللسان ، وأشياء مسدودة الفروج كدور الرأس والأغشية المنسوجة نسجاً ضعيفاً كالصفاق ، وأشياء لها فروج وشقوق كالمناخر والصماخ والفم وغيرها ، فالقادر على الأضداد فى هذا المهاد ، فى السبع الشداد ، غير عاجز عن خلق نظيرها فى هذه الأجساد .[و]تفسير الرواسى قد ذكرناه فى سورة لقمان ، والبهيج الحسن .

قوله تعالى : ﴿ تبصرة وذكرى لكل عبد منيب ﴾ .

يحتمل أن يكون الأمران عائدين إلى الأمرين المذكورين وهما السماء والأرض ، على أن خلق السماء تبصرة وخلق الأرض ذكرى ، ويدل عليه أن السماء زينتها مستمرة غير مستجدة فى كل عام فهى كالشيء المرئى على مرور الزمان ، وأما الأرض فهى كل سنة تأخذ زخرفها فذكر السماء تبصرة والأرض تذكرة ، ويحتمل أن يكون كل واحد من الأمرين موجوداً فى كل واحد من الأمرين ، فالسماء تبصرة والأرض كذلك ، والفرق بين التبصرة والتذكرة هو أن فيها آيات

وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ

مستمرة منصوبة فى مقابلة البصائر وآيات متجددة مذكرة عند التناسى ، وقوله (لكل عبد منيب) أى راجع إلى التفكر والتذكر والنظر فى الدلائل .

قوله تعالى : ﴿ونزلنا من السماء ماء مباركا فأنبتنا به جنات وحب الحصيد والنخل باسقات﴾ . إشارة إلى دليل آخر وهو ما بين السماء والأرض ، فيكون الاستدلال بالسماء والأرض وما بينهما ، وذلك إنزال [الماء من] السماء من فوق ، وإخراج النبات من تحت وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ هذا الاستدلال قد تقدم بقوله تعالى (وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج) فما الفائدة فى إعادته بقوله (فأنبتنا به جنات وحب الحصيد) ؟ نقول قوله (فأنبتنا) استدلال بنفس النبات أى الأشجار تنمو وتزيد ، فكذلك بدن الانسان بعد الموت ينمو ويزيد بأن يرجع الله تعالى إليه قوة النشوء والنماء كما يعيدها إلى الأشجار بواسطة ماء السماء . (وحب الحصيد) فيه حذف تقديره وحب الزرع الحصيد وهو المحصود أى أنشأنا جنات يقطف ثمارها وأصولها باقية وزرعا يحصد كل سنة ويزرع فى كل عام أو عامين ، ويحتمل أن يقال التقدير ونبت الحب الحصيد والأول هو المختار ، وقوله تعالى (والنخل باسقات) إشارة إلى المختلط من جنسين ، لأن الجنات تقطف ثمارها وتثمر من غير زراعة فى كل سنة ، لكن النخل يؤبر ولولا التأبير لم يثمر ، فهو جنس مختلط من الزرع والشجر ، فكأنه تعالى خلق مايقطف كل سنة ويزرع وخلق مالا يزرع كل سنة ويقطف مع بقاء أصلها وخلق المركب من جنسين فى الأثمار ، لأن بعض الثمار فاكهة ولا قوت فيه ، وأكثر الزرع قوت والتمر فاكهة وقوت ، والباسقات الطوال من النخيل .

وقوله تعالى (باسقات) يؤكد كمال القدرة والاختيار ، وذلك من حيث إن الزرع إن قيل فيه إنه يمكن أن يقطف منه ثمرته لضعفه وضعف حجمه ، فكذلك يحتاج إلى إعادته كل سنة والجنات لكبرها وقوتها تبقى وتثمر سنة بعد سنة ، فيقال أليس النخل الباسقات أكثر ، وأقوى من الكرم الضعيف ، والنخل محتاجة كل سنة إلى عمل عامل والكرم غير محتاج ، فالله تعالى هو الذى قدر ذلك لذلك لا للكبر والصغر والطول والقصر .

قوله تعالى : ﴿لها طلع نضيد﴾ أى منضود بعضها فوق بعض فى أكمامها كما فى سنبله الزرع وهو عجيب ، فان الأشجار الطوال أثمارها بارزها متميز بعضها من بعض لكل واحد منها أصل يخرج منه كالجوز واللوز وغيرهما والطلع كالسنبلة الواحدة يكون على أصل واحد :

قوله تعالى : ﴿رزقا للعباد﴾ وفيه وجهان أحدهما نصب على المصدر لأن الإنبات رزق

وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا

فكأنه تعالى قال : أنبتناها إنباتا للعباد ، والثانى نصب على كونه مفعولا له كأنه قال : أنبتناها لرزق العباد ، وههنا مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قال فى خلق السماء والأرض (تبصرة وذكرى) وفى الثمار قال (رزقاً) والثمار أيضاً فيها تبصرة ، وفى السماء والأرض أيضاً منفعة غير التبصرة والتذكرة ، فما الحكمة فى فى اختيار الأمرين ؟ نقول فيه وجوه (أحدها) أن نقول الاستدلال وقع لوجود أمرين أحدهما الإعادة والثانى البقاء بعد الإعادة فان النبى صلى الله عليه وسلم كان يخبرهم بحشر وجمع يكون بعده الثواب الدائم والعقاب الدائم ، وأنكروا ذلك ، فأما الأول فالله القادر على خلق السموات والأرض قادر على خلق الخلق بعد الفناء ، وأما الثانى فلأن البقاء فى الدنيا بالرزق والقادر على إخراج الأرزاق من النجم والشجر ، قادر على أن يرزق العبد فى الجنة ويبقى ، فكأن الأول تبصرة وتذكرة بالخلق ، والثانى تذكرة بالبقاء بالرزق ، ويدل على هذا الفصل بينهما بقوله (تبصرة وذكرى) حيث ذكر ذلك بعد الآيتين ، ثم بدأ بذكر الماء وإنزاله وإنباته النبات (ثانيها) أن منفعة الثمار الظاهرة هى الرزق فذكرها ومنفعة السماء الظاهرة ليست أمراً عائداً إلى انتفاع العباد لبعدها عن ذهنهم ، حتى أنهم لو توهموا عدم الزرع والثمر لظنوا أن يهلكوا ، ولو توهموا عدم السماء فوقهم لقالوا لايضرنا ذلك مع أن الأمر بالعكس أولى ، لأن السماء سبب الأرزاق بتقدير الله ، وفيها غير ذلك من المنافع ، والثمار وإن لم تكن [ما] كان العيش ، كما أنزل الله على قوم المن والسلوى وعلى قوم المائدة من السماء فذكر الأظهر للناس فى هذا الموضع (ثالثها) قوله (رزقاً) إشارة إلى كونه منعماً لكون تكذيبهم فى غاية القبح فإنه يكون إشارة [للتكذيب] بالمنعم وهو أقبح مايكون .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال (تبصرة وذكرى لكل عبد منيب) فقيد العبد بكونه منيباً وجعل خلقها (تبصرة) لعباده المخلصين وقال (رزقاً للعباد) مطلقاً لأن الرزق حصل لكل أحد ، غير أن المنيب يأكل ذاكراً شاكراً للانعام ، وغيره يأكل كما تأكل الأنعام فلم يخصص الرزق بقيد .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ ذكر فى هذه الآية أمور ثلاثة أيضاً وهى إنبات الجنات والحب والنخل كما ذكر فى السماء والأرض فى كل واحدة أموراً ثلاثة ، وقد ثبت أن الأمور الثلاثة فى الآيتين المتقدمين متناسبة ، فهل هى كذلك فى هذه الآية ؟ نقول قد بينا أن الأمور الثلاثة إشارة إلى الأجناس الثلاثة ، وهى التى يبقى أصلها سنين ، ولاتحتاج إلى عمل عامل والتى لايبقى أصلها وتحتاج كل سنة إلى عمل عامل ، والتى يجتمع فيها الأمران وليس شىء من الثمار والزروع خارجاً عنها أصلا كما أن أمور الأرض منحصرة فى ثلاثة : ابتداء وهو المد ، ووسط وهو النبات بالجبال الراسية ، وثالثها هو غاية الكمال وهو الإنبات والتزيين بالزخارف .

قوله تعالى : ﴿ وأحيينا به بلدة ميتاً ﴾ عطفاً على (أنبتنا به) وفيه بحثان :

كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴿١١﴾

﴿ الأول ﴾ إن قلنا إن الاستدلال بإنبات الزرع وإنزال الماء كان لإمكان البقاء بالرزق فقوله (وأحيينا به) إشارة إلى أنه دليل على الإعادة كما أنه دليل على البقاء ، ويدل عليه قوله تعالى (كذلك الخروج) فإن قيل كيف يصح قولك استدلالا ، وإنزال الماء كان لبيان البقاء مع أنه تعالى قال بعد ذلك (وأحيينا به بلدة ميتاً) .

وقال ﴿ كذلك الخروج ﴾ فيكون الاستدلال على البقاء قبل الاستدلال على الإحياء والإحياء سابق على الإبقاء ، فينبغي أن يبين أولا أنه يحيي الموتى ، ثم يبين أنه يبقيهم ، نقول لما كان الاستدلال بالسموات والأرض على الإعادة كافياً بعد ذكر دليل الإحياء ذكر دليل الإبقاء ، ثم عاد واستدرك فقال هذا الدليل الدال على الابقاء دال على الاحياء ، وهو غير محتاج إليه لسبق دليلين قاطعين فبدأ ببيان البقاء وقال (وأنبتنا به جنات) ثم ثنى بإعادة ذكر الاحياء فقال (وأحيينا به) وإن قلنا إن الاستدلال بإنزال الماء وإنبات الزرع لا لبيان إمكان الحشر فقوله (وأحيينا به) ينبغي أن يكون مغايراً لقوله (فأنبتنا به) بخلاف ما لو قلنا بالقول الأول لأن الإحياء ، وإن كان غير الإنبات لكن الاستدلال لما كان به على أمرين متغايرين جاز العطف ، تقول خرج للتجارة وخرج للزيارة ، ولا يجوز أن يقال خرج للتجارة وذهب للتجارة إلا إذا كان الذهاب غير الخروج فنقول الإحياء غير إنبات الرزق لأن بإنزال الماء من السماء يخضر وجه الأرض ويخرج منها أنواع من الأزهار ولا يتغذى به ولا يقتات ، وإنما يكون به زينة وجه الأرض وهو أعم من الزرع والشجر لأنه يوجد في كل مكان والزرع والثمر لا يوجدان في كل مكان ، فكذلك هذا الاحياء ، فإن قيل فكان ينبغي أن يقدم في الذكر لأن اخضرار وجه الأرض يكون قبل حصول الزرع والثمر ، ولأنه يوجد في كل مكان بخلاف الزرع والثمر ، نقول لما كان إنبات الزرع والثمر أكمل نعمة قدمه في الذكر .

﴿ الثاني ﴾ في قوله (بلدة ميتاً) نقول جاز إثبات التاء في الميت وحذفها عند وصف المؤنث بها ، لأن الميت تخفيف للميت ، والميت فيعل بمعنى فاعل فيجوز فيه إثبات التاء لأن التسوية في الفعيل بمعنى المفعول كقوله (إن رحمة الله قريب من المحسنين) فإن قيل لم سوى بين المذكر والمؤنث في الفعيل بمعنى المفعول ؟ قلنا لأن الحاجة إلى التمييز بين الفاعل والمفعول أشد من الحاجة إلى التمييز المفعول المذكر والمفعول المؤنث نظراً إلى المعنى ونظراً إلى اللفظ ، فأما المعنى فظاهر ، وأما اللفظ فلأن المخالفة بين الفاعل والمفعول في الوزن والحرف أشد من المخالفة بين المفعول والمفعول له ، إذا علم هذا فنقول في الفعيل لم يتميز الفاعل بحرف فإن فعيلا جاء بمعنى الفاعل كالنصير والبصير وبمعنى المفعول كالكسير والأسير ، ولا يتميز بحرف عند المخالفة إلا الأقوى فلا يتميز عند المخالفة

كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ

الأدنى ، والتحقيق فيه أن فعيلا وضع لمعنى لفظى ، والمفعول وضع لمعنى حقيقى فكأن القائل قال استعملوا لفظ المفعول للمعنى الفلانى ، واستعملوا لفظ الفعيل مكان لفظ المفعول فصار فعيل كالموضوع للمفعول ، والمفعول كالموضوع للمعنى ، ولما كان تغير اللفظ تابعاً لتغير المعنى تغير المفعول لكونه بإزاء المعنى ، ولم يتغير الفعيل لكونه بإزاء اللفظ فى أول الأمر ، فان قيل فما الفرق بين هذا الموضع وبين قوله (وآية لهم الأرض الميتة أحييناها) حيث أثبت التاء هناك ؟ نقول الأرض أراد بها الوصف فقال (الأرض الميتة) لأن معنى الفاعلية ظاهر هناك والبلدة الأصل فيها الحياة ، لأن الأرض إذا صارت حية صارت آهلة ، وأقام بها الناس وعمروها فصارت بلدة فأسقط التاء لأن معنى الفاعلية ثبت فيها . والذى بمعنى الفاعل لا يثبت فيه التاء ، وتحقيق هذا قوله (بلدة طيبة) حيث أثبت التاء حيث ظهر بمعنى الفاعل ، ولم يثبت حيث لم يظهر وهذا بحث عزيز .

وقوله تعالى (كذلك الخروج) أى كالإحياء (الخروج) فإن قيل الإحياء يشبه به الإخراج لا الخروج فنقول تقديره (أحيينا به بلدة ميتاً) فتشققت وخرج منها النبات كذلك تشقق ويخرج منها الأموات ، وهذا يؤكد قولنا الرجع بمعنى الرجوع فى قوله (ذلك رجع بعيد) لأنه تعالى بين لهم ما استبعدوه فلو استبعدوا الرجع الذى هو من المتعدى لناسب أن يقول ، كذلك الإخراج ، ولما قال (كذلك الخروج) فهم أنهم أنكروا الرجوع فقال (كذلك الخروج) نقول فيه معنى لطيف على القول الآخر ، وذلك لأنهم استبعدوا الرجع الذى هو من المتعدى بمعنى الإخراج والله تعالى أثبت (الخروج) وفيهما مبالغة تنبيها على بلاغة القرآن مع أنها مستغنية عن البيان . ووجهها هو أن الرجع والإخراج كالسبب للرجوع والخروج ، والسبب إذا انتفى ينتفى المسبب جزماً ، وإذا وجد قد يتخلف عنه المسبب لمانع تقول كسرته فلم ينكسر وإن كان مجازاً والمسبب إذا وجد فقد وجد سببه وإذا انتفى لا ينتفى السبب لما تقدم ، إذا علم هذا فهم أنكروا وجود السبب ونفوه وينتفى المسبب عند انتفائه جزما فبالغوا وأنكروا الأمر جميعاً ، لأن نفى السبب نفى المسبب ، فأثبت الله الأمرين بالخروج كما نفوا الأمرين جميعاً بنفى الإخراج .

قوله تعالى : ﴿ كذبت قبلهم قوم نوح وأصحاب الرس وثمود وفرعون وإخوان لوط وأصحاب الأيكة وقوم تبع ﴾ .

ذكر المكذبين تذكيراً لهم بحالهم ووبالهم وأنذرهم بإهلاكهم واستئصالهم ، وتفسيره ظاهر وفيه تسلية للرسول ﷺ وتنبيه بأن حاله كحال من تقدمه من الرسل ، كذبوا وصبروا فأهلك الله

كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾

مكذبيهم ونصرهم (وأصحاب الرس) فيهم وجوه من المفسرين من قال هم قوم شعيب ومنهم من قال هم الذين جاءهم من أقصى المدينة رجل يسعى وهم قوم عيسى عليه السلام ، ومنهم من قال هم أصحاب الأخدود ، والرس موضع نسبوا إليه أو فعل وهو حفر البئر يقال رس إذا حفر بئراً . وقد تقدم فى سورة الفرقان ذلك ، وقال ههنا (إخوان لوط) وقال (قوم نوح) لأن لوطاً كان مرسلا إلى طائفة من قوم إبراهيم عليه السلام معارف لوط ، ونوح كان مرسلا إلى خلق عظيم ، وقال (فرعون) ولم يقل قوم فرعون ، وقال (وقوم تبع) لأن فرعون كان هو المغتر المستخف بقومه المستبد بأمره ، وتبع كان معتمداً بقومه فجعل الاعتبار لفرعون ، ولم يقل إلى قوم فرعون .

قوله تعالى : ﴿ كل كذب الرسل فحق وعيد ﴾ .

يحتمل وجهين (أحدهما) أن كل واحد كذب رسوله فهم كذبوا الرسل واللام حينئذ لتعريف العهد (وثانيهما) وهو الأصح هو أن كل واحد كذب جميع الرسل واللام حينئذ لتعريف الجنس وهو على وجهين (أحدهما) أن المكذب للرسول مكذب لكل رسول (وثانيهما) وهو الأصح أن المذكورين كانوا منكرين للرسالة والحشر بالكلية ، وقوله (فحق وعيد) أى ما وعد الله من نصرة الرسل عليهم وإهلاكهم .

ثم قال تعالى ﴿ أفعيينا بالخلق الأول بل هم فى لبس من خلق جديد ﴾ .

وفيه وجهان (أحدهما) أنه استدلال بدلائل الأنفس ، لأنا ذكرنا مراراً أن الدلائل آفاقية ونفسية كما قال تعالى (سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم) ولما قرن الله تعالى دلائل الآفاق عطف بعضها على بعض بحرف الواو فقال (والأرض مددناها) وفى غير ذلك ذكر الدليل النفسى ، وعلى هذا فيه لطائف لفظيه ومعنوية .

أما (اللفظية) فهى أنه تعالى فى الدلائل الآفاقية عطف بعضها على بعض بحرف الواو فقال (والأرض مددناها) وقال (وأنزلنا من السماء ماء مباركا) ثم فى الدليل النفسى ذكر حرف الاستفهام والفاء بعدها إشارة إلى أن تلك الدلائل من جنس ، وهذا من جنس ، فلم يجعل هذا تبعاً لذلك ، ومثل هذا مراعى فى أواخر يس ، حيث قال تعالى (أولم ير الإنسان أنا خلقناه) ثم لم يعطف الدليل الآفاقى ههنا ؟ نقول والله أعلم ههنا وجد منهم الاستبعاد بقول (ذلك رجع بعيد) فاستدل بالأكبر وهو خلق السموات ، ثم نزل كأنه قال لا حاجة إلى ذلك الاستدلال بل فى أنفسهم دليل جواز ذلك ، وفى سورة يس لم يذكر استبعادهم فبدأ بالأدنى وارتقى إلى الأعلى .

وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾

(والوجه الثانى) يحتمل أن يكون المراد بالخلق الأول هو خلق السموات ، لأنه هو الخلق الأول وكأنه تعالى قال (أفلم ينظروا إلى السماء) ثم قال (أفعيينا) بهذا الخلق ويدل على هذا قوله تعالى (أولم يروا أن الله الذى خلق السموات والأرض ولم يعى بخلقهن) ويؤيد هذا الوجه هو أن الله تعالى قال بعد هذه الآية (ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه) فهو كالاستدلال بخلق الإنسان وهو معطوف بحرف الواو على ماتقــدم من الخلق وهو بناء السماء ومد الأرض وتنزيل الماء وإنبات الجنات ، وفى تعريف الخلق الأول وتنكير خلق جديد وجهان (أحدهما) ما عليه الأمران لأن الأول عرفه كل واحد وعلم لنفسه ، والخلق الجديد لم يعلم لنفسه ولم يعرفه كل أحد ولأن الكلام عنهم وهم لم يكونوا عالمين بالخلق الجديد (والوجه الثانى) أن ذلك لبيان إنكارهم للخلق الثانى من كل وجه ، كأنهم قالوا أيكون لنا خلق ما على وجه الإنكار له بالكلية ؟ وقوله تعالى (بل هم فى لبس) تقديره ماعيينا بل هم فى شك من خلق جديد ، يعنى لامانع من جهة الفاعل ، فيكون من جانب المفعول وهو الخلق الجـديد ، لأنهم كانوا يقولون ذلك محال وامتناع وقوع المحال بالفاعل لايوجب عجزاً فيـه ، ويقال للمشكوك فيـه ملتبس كما يقال لليقين إنه ظاهر وواضح ، ثم إن اللبس يسند إلى الأمر كما قلنا : إنه يقال إن هذا أمر ظاهر ، وهذا أمر ملتبس وههنا أسند الأمر إليهم حيث قال (هم فى لبس) وذلك لأن الشىء يكون وراء حجاب والناظر إليه بصير فيخفى الأمر من جانب الرائى فقال ههنا (بل هم فى لبس) ومن فى قوله (من خلق جديد) يفيد فائدة وهى ابتداء الغاية كأن اللبس كان حاصلا لهم من ذلك .

قوله تعالى : ﴿ ولقد خلقنا الإنسان ﴾ فيه وجهان :

(أحدهما) أن يكون ابتداء استدلال بخلق الإنسان ، وهذا على قولنا (أفعيينا بالخلق الأول) معناه خلق السموات (وثانيهما) أن يكون تتميم بيان خلق الإنسان ، وعلى هذا قولنا (الخلق الأول) هو خلق الإنسان أول مرة ، ويحتمل أن يقال هو تنبيه على أمر يوجب عودهم عن مقالهم ، وبيانه أنه تعـالى لما قال (ولقد خلقنا الإنسـان ونعلم ما توسوس به نفسه) كان ذلك إشـارة إلى أنه لا يخفى عليه خافية ويعلم ذوات صدورهم .

وقوله ﴿ ونحن أقرب إليه من حبل الوريد ﴾ .

بيان لكمال علمه ، والوريد العرق الذى هو مجرى الدم يجرى فيه ويصل إلى كل جزء من أجزاء البدن والله أقرب من ذلك بعلمه ، لأن العرق تحجبه أجزاء اللحم ويخفى عنـه ، وعلم الله تعـالى

إِذۡ يَتَلَقَّى ٱلۡمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلۡفِظُ مِن قَوۡلٍ إِلَّا لَدَيۡهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾

لايحجب عنه شيء ، ويحتمل أن يقال و(نحن أقرب إليه من حبل الوريد) بتفرد قدرتنا فيه يجرى فيه أمرنا كما يجرى الدم فى عروقه .

قوله تعالى :﴿ إذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد ، ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد ﴾ .

(إذ) ظرف والعامل فيه مافى قوله تعالى (ونحن أقرب إليه من حبل الوريد) وفيه إشارة إلى أن المكلف غير متروك سدى ، وذلك لأن الملك إذا أقام كتاباً على أمر اتكل عليهم ، فإن كان له غفلة عنه فيكون فى ذلك الوقت يتكل عليهم ، وإذاكان عند إقامة الكتاب لا يبعد عن ذلك الأمر ولا يغفل عنه فهو عند عدم ذلك أقرب إليه وأشد إقبالا عليه ، فنقول : الله فى وقت أخذ الملكين منه فعله وقوله أقرب إليه من عرقه المخالط له ، فعند ما يخفى عليهما شيء يكون حفظنا بحاله أكمل وأتم ، ويحتمل أن يقال التلقى من الاستقبال يقال فلان يتلقى الركب وعلى هذا الوجه فيكون معناه وقت ما يتلقاه المتلقيان يكون عن يمينه وعن شماله قعيد ، فالمتلقيان على هذا الوجه هما الملكان اللذان يأخذان روحه من ملك الموت أحدهما يأخذ أرواح الصالحين وينقلها إلى السرور والحبور إلى يوم النشور والآخر يأخذ أرواح الطالحين وينقلها إلى الويل والثبور إلى يوم الحشر من القبور ، فقال تعالى وقت تلقيهما وسؤالهما إنه من أى القبيلين يكون عند الرجل قعيدعن اليمين وقعيد عن الشمال ، يعنى الملكان ينزلان وعنده ملكان آخران كاتبان لأعماله يسألانهما من أى القبيلين كان ، فإن كان من الصالحين يأخذ روحه ملك السرور ويرجع إلى الملك الآخرمسروراً حيث لم يكن مسروراً ممن يأخذها هو ، وإن كان من الطالحين يأخذها ملك العذاب ويرجع إلى الآخر محزوناً حيث لم يكن ممن يأخذها هو ، ويؤيد ما ذكرنا قوله تعالى (سائق وشهيد) فالشهيد هو القعيد والسائق هو المتلقى يتلقى أخذ روحه من ملك الموت فيسوقه إلى منزله وقت الإعادة . وهذا أعرف الوجهين وأقربهما إلى الفهم ، وقول القائل جلست عن يمين فلان فيه إنباء عن تنحٍ ما عنه احتراماً له واجتناباً منه ، وفيه لطيفة وهى أن الله تعالى قال : (ونحن أقرب إليه من حبل الوريد) المخالط لأجزائه المداخل فى أعضائه والملك متنح عنه فيكون علمنا به أكمل من علم الكاتب لكن من أجلس عنده أحدا ليكتب أفعاله وأقواله ويكون الكاتب ناءصاً خبيراً والملك الذى أجلس الرقيب يكون جباراً عظيما فنفسه أقرب إليه من الكاتب بكثير ، والقعيد هو الجليس كما أن قعد بمعنى جلس .

وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾

وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾

وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾

قوله تعالى : ﴿ وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد ﴾ .

أى شدته التى تذهب العقول وتذهل الفطن ، وقوله (بالحق) يحتمل وجوهاً (أحدها) أن يكون المراد منه الموت فإنه حق ، كأن شدة الموت تحضر الموت والباء حينئذ للتعدية ، يقال جاء فلان بكذا أى أحضره ، (وثانيها) أن يكون المراد من الحق ما أتى به من الدين لأنه حق وهو يظهر عند شدة الموت وما من أحد إلا وهو فى تلك الحالة يظهر الإيمان لكنه لا يقبل إلا ممن سبق منه ذلك وآمن بالغيب ، ومعنى المجىء به هو أنه يظهره ، كما يقال الدين الذى جاء به النبى صلى الله عليه وسلم أى أظهره ، ولما كانت شدة الموت مظهرة له قيل فيه جاء به ، والباء حينئذ يحتمل أن يكون المراد منها ملبسة يقال جئتك بأمل فسيح وقلب خاشع ، وقوله (ذلك) يحتمل أن يكون إشارة إلى الموت ويحتمل أن يكون إشارة إلى الحق ، وحاد عن الطريق أى مال عنه ، والخطاب قيل مع النبى صلى الله عليه وسلم وهو منكر ، وقيل مع الكافرين وهو أقرب . والأقوى أن يقال هو خطاب عام مع السامع كأنه يقول (ذلك ما كنت منه تحيد) أيها السامع .

قوله تعالى : ﴿ ونفخ فى الصور ذلك يوم الوعيد ﴾ .

عطف على قوله (وجاءت سكرة الموت) والمراد منه إما النفخة الأولى فيكون بياناً لما يكون عند مجىء سكرة الموت أو النفخة الثانية وهو أظهر لأن قوله تعالى (ذلك يوم الوعيد) بالنفخة الثانية أليق ويكون قوله (وجاءت سكرة الموت) إشارة إلى الإماتة ، وقوله (ونفخ فى الصور) إشارة إلى الإعادة والإحياء ، وقوله تعالى (ذلك) ذكر الزمخشرى أنه إشارة إلى المصدر الذى من قوله (ونفخ) أى وقت ذلك النفخ يوم الوعيد وهو ضعيف لأن يوم لو كان منصوباً لكان ما ذكرنا ظاهراً وأما رفع يوم فيفيد أن ذلك نفس اليوم ، والمصدر لا يكون نفس الزمان وإنما يكون فى الزمان فالأولى أن يقال ذلك إشارة إلى الزمان المفهوم من قوله (ونفخ) لأن الفعل كما يدل على المصدر يدل على الزمان فكأنه تعالى قال ذلك الزمان يوم الوعيد ، والوعيد هو الذى أوعد به من الحشر والإيتاء والمجازاة .

قوله تعالى : ﴿ وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد ﴾ قد بينا من قبل أن السائق هو الذى يسوقه إلى الموقف ومنه إلى مقعده والشهيد هو الكاتب ، والسائق لازم للبر والفاجر أما البر فيساق

لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾ وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾ أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾

إلى الجنة وأما الفاجر فإلى النار ، وقال تعالى (وسيق الذين كفروا ، وسيق الذين اتقوا ربهم) .

قوله تعالى : ﴿ لقد كنت فى غفلة من هذا ﴾ إما على تقدير يقال له أو قيل له (لقد كنت) كما قال تعالى (وقال لهم خزنتها) وقال تعالى (قيل ادخلوا أبوب جهنم) والخطاب عام أما الكافر فمعلوم الدخول فى هذا الحكم وأما المؤمن فإنه يزداد علماً ويظهر له ماكان مخفياً عنه ويرى علمه يقيناً رأى المعتبر يقيناً فيكون بالنسبة إلى تلك الأحوال وشدة الأهوال كالغافل وفيه الوجهان اللذان ذكرناهما فى قوله تعالى (ما كنت منه تحيد) والغفلة شىء من الغطاء كاللبس وأكثر منه لأن الشاك يلتبس الأمر عليه والغافل يكون الأمر بالكلية محجوباً قلبه عنه وهو الغلف .

قوله تعالى : ﴿ فكشفنا عنك غطاءك ﴾ أى أزلنا عنك غفلتك ﴿ فبصرك اليوم حديد ﴾ وكان من قبل كليلا ، وقرينك حديداً ، وكان فى الدنيا خليلا ، وإليه الإشارة .

قوله تعالى : ﴿ وقال قرينه هذا مالدى عتيد ﴾ وفى القرين وجهان أحدهما الشيطان الذى زين الكفر له والعصيان وهو الذى قال تعالى فيه (وقيضنا لهم قرناء) وقال تعالى (نقيض له شيطاناً فهو له قرين) وقال تعالى (فبئس القرين) فالإشارة بهذا المسوق إلى المرتكب الفجور والفسوق ، والعتيد معناه المعد للنار وجملة الآية معناها أن الشيطان يقول هذا العاصى شىء هو عندى معد لجهنم أعددته بالإغواء والإضلال ، والوجه الثانى (قال قرينة) أى القعيد الشهيد الذى سبق ذكره وهو الملك وهـذا إشارة إلى كتاب أعماله ، وذلك لأن الشيطان فى ذلك الوقت لا يكون له من المكانة أن يقول ذلك القول ، ولأن قوله (هذا مالدى عتيد) فيكون عتيد صفته ، وثانيهما أن تكون موصولة ، فيكون عتيد محتملا الثلاثة أوجه[1] (أحدها) أن يكون خبراً بعد خبر والخبر الأول (مالدى) معناه هذا الذى هو لدى وهو عتيد (وثانيها) أن يكون عتيد هو الخبر لاغير ، وما لدىَ يقع كالوصف المميز للعتيد عن غيره كما تقول هذا الذى عند زيد وهذا الذى يجيئنى عمرو فيكون الذى عندى والذى يجيئنى لتميز المشار إليه عن غيره ثم يخبر عنه بما بعده ثم يقال للسائق أو الشهيد ﴿ ألقيا فى جهنم ﴾ فيكون هو أمراً لواحد ، وفيه وجهان أحدهما أنه ثنى تكرار الأمر كما ألق ألق ، وثانيهما عادة العرب ذلك .

وقوله ﴿ كل كفار عنيد ﴾ الكفار يحتمل أن يكون من الكفران فيكون بمعنى كثير

(١) ولعل الوجه الثالث : أن يكون بدلا من اسم الاشارة وما لدي هو الخبر .

مَنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾

الكفران ، ويحتمل أن يكون من الكفر ، فيكون بمعنى شديد الكفر ، والتشديد فى لفظة فعال يدل على شدة فى المعنى ، والعنيد فعيل بمعنى فاعل من عند عنوداً ومنه العناد ، فإن كان الكفار من الكفران ، فهو أنكر نعم الله مع كثرتها .

قوله تعالى : ﴿ مناع للخير ﴾ .

فيه وجهان (أحدهما) كثير المنع المال الواجب ، وإن كان من الكفر ، فهو أنكر دلائل وحدانية الله مع قوتها وظهورها ، فكان شديد الكفر عنيداً حيث أنكر الأمر اللائح والحق الواضح ، وكان كثير الكفران لوجود الكفران منه عند كل نعمة (عنيد) ينكرها مع كثرتها عن المستحق الطالب ، والخير هو المال ، فيكون كقوله تعالى (وويل للمشركين الذين لا يؤتون الزكاة) حيث بدأ ببيان الشرك ، وثنى بالامتناع من إيتاء الزكاة ، وعلى هذا ففيه مناسبة شديدة إذا جعلنا الكفار من الكفران ، كأنه يقول : كفر أنعم الله تعالى ، ولم يؤد منها شيئاً لشكر أنعمه (ثانيهما) شديد المنع من الإيمان فهو (مناع للخير) وهو الإيمان الذي هو خير محض من أن يدخل فى قلوب العباد ، وعلى هذا ففيه مناسبة شديدة إذا جعلنا الكفار من الكفر ، كأنه يقول : كفر بالله ، ولم يقتنع بكفره حتى منع الخير من الغير .

قوله تعالى : ﴿ معتد ﴾ .

فيه وجهان (أحدهما) أن يكون قوله (معتد) مرتباً على (مناع) بمعنى مناع الزكاة ، فيكون معناه لم يؤد الواجب ، وتعدى ذلك حتى أخذ الحرام أيضاً بالربا والسرقه ، كما كان عادة المشركين (وثانيهما) أن يكون قوله (معتد) مرتباً على (مناع) بمعنى منع الإيمان ، كأنه يقول : منع الإيمان ولم يقنع به حتى تعداه ، وأهان من آمن وآذاه ، وأعان من كفر وآواه .

قوله تعالى : ﴿ مريب ﴾ .

فيه وجهان (أحدهما) ذو ريب ، وهذا على قولنا : الكفار كثير الكفران ، والمناع مانع الزكاة ، كأنه يقول : لا يعطى الزكاة لأنه فى ريب من الآخرة ، والثواب فيقول : لا أقرب مالا من غير عوض (وثانيهما) (مريب) يوقع الغير فى الريب بإلقاء الشبهة ، والإرابة جاءت بالمعنيين جميعاً ، وفى الآية ترتيب آخر غير ماذكرناه ، وهو أن يقال : هذا بيان أحوال الكفر بالنسبة إلى الله ، وإلى رسول الله ، وإلى اليوم الآخر ، فقوله (كفار عنيد) إشارة إلى حاله مع الله يكفر به ويعاند آياته ، وقوله (مناع للخير معتد) إشارة إلى حاله مع رسول الله ، فيمنع الناس من اتباعه ، ومن الإنفاق على من عنده ، ويتعدى بالإيذاء وكثرة الهذاء ، وقوله (مريب) إشارة إلى حاله بالنسبة إلى اليوم الآخر يريب فيه ويرتاب ، ولا يظن أن الساعة قائمة ، فإن قيل قوله تعالى (ألقيا

ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾ قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ

فى جهنم كل كفار عنيد مناع للخير) إلى غير ذلك يوجب أن يكون الإلقاء خاصاً بمن اجتمع فيه هذه الصفات بأسرها ، والكفر كاف فى إيراث الإلقاء فى جهنم والأمر به ، فنقول قوله تعالى (كل كفار عنيد) ليس المراد منه الوصف المميز ، كما يقال : أعط العالم الزاهد ، بل المراد الوصف المبين بكون الموصوف موصوفاً به إما على سبيل المدح ، أو على سبيل الذم ، كما يقال : هذا حاتم السخى ، فقوله (كل كفار عنيد) يفيد أن الكفار عنيد ومناع ، فالكفار كافر ، لأن آيات الوحدانية ظاهرة ، ونعم الله تعالى على عبده وافرة ، وعنيد ومناع للخير ، لأنه يمدح دينه ويذم دين الحق فهو يمنع ، ومريب لأنه شاك فى الحشر ، فكل كافر فهو موصوف بهذه الصفات .

قوله تعالى : ﴿ الذى جعل مع الله إلهاً آخر فألقياه فى العذاب الشديد ﴾ .

فيه ثلاثة أوجه (أحدها) أنه بدل من قوله (كل كفار عنيد) (ثانيها) أنه عطف على (كل كفار عنيد) (ثالثها) أن يكون عطفاً على قوله (ألقيا فى جهنم) كأنه قال (ألقيا فى جهنم كل كفار عنيد) أى والذى جعل مع الله إلهاً آخر فألقياه بعد ماألقيتموه فى جهنم فى عذاب شديد من عذاب جهنم .

قوله تعالى : ﴿ قال قرينه ربنا ما أطغيته ﴾ .

وهو جواب لكلام مقدر ، كأن الكافر حينما يلقى فى النار يقول : ربنا أطغانى شيطانى ، فيقول الشيطان : ربنا ما أطغيته ، يدله عليه قوله تعالى بعد هذا (قال لا تختصموا لدى) لأن الاختصام يستدعى كلاماً من الجانبين وحينئذ هذا ، كما قال الله تعالى فى هذه السورة وفى ص (قالوا بل أنتم لامرحباً بكم) وقوله تعالى (قالوا ربنا من قدم لنا هذا فزده) إلى أن قال (إن ذلك لحق تخاصم أهل النار) وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قال الزمخشرى : المراد بالقرين فى الآية المتقدمة هو الشيطان لا الملك الذى هو شهيد وقعيد ، واستدل عليه بهذا . وقال غيره ، المراد الملك لا الشيطان ، وهذا يصلح دليلا لمن قال ذلك ، وبيانه هو أنه فى الأول لو كان المراد الشيطان ، فيكون قوله (هذا ما لدى عتيد) معناه هذا الشخص عندى عتيد متعد للنار اعتدته بإغوائى ، فإن الزمخشرى صرح فى تفسير تلك بهذه ، وعلى هذا فيكون قوله (ربنا ما أطغيته) مناقضاً لقوله (اعتدته) وللزمخشرى أن يقول (الجواب) عنه من وجهين (أحدهما) أن يقول إن الشيطان يقول (اعتدته) بمعنى زينت له الأمر وما ألجأته فيصح القولان من الشيطان (وثانيهما) أن تكون الإشارة إلى حالين : فى الحالة

وَلَٰكِن كَانَ فِي ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾

الأولى إنما فعلت به ذلك إظهاراً للانتقام من بنى آدم ، وتصحيحاً لما قال (فبعزتك لأغوينهم أجمعين) ثم إذا رأى العذاب وأنه معه مشترك وله على الإغراء عذاب ، كما قال تعالى (فالحق والحق أقول لأملأن جهنم منك وممن تبعك) فيقول (ربنا ما أطغيته) فيرجع عن مقالته عند ظهور العذاب .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال ههنا (قال قرينه) من غير واو ، وقال فى الآية الأولى (وقال قرينه) بالواو العاطفة ، وذلك لأن فى الأول الإشارة وقعت إلى معنيين مجتمعين ، وأن كل نفس فى ذلك الوقت تجىء ومعها سائق ، ويقول الشهيد ذلك القول ، وفى الثانى لم يوجد هناك معنيان مجتمعان حتى يذكر بالواو ، والفاء فى قوله (فألقياه فى العذاب) لا يناسب قوله تعالى (قال قرينه ربنا ما أطغيته) مناسبة مقتضية للعطف بالواو .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ القائل ههنا واحد ، وقال (ربنا) ولم يقل رب ، وفى كثير من المواضع مع كون القائل واحداً ، قال رب ، كما فى قوله (قال رب أرنى أنظر إليك) وقول نوح (رب اغفرلى) وقوله تعالى (قال رب السجن أحب إلى) وقوله (قالت رب ابن لى عندك بيتاً فى الجنة) إلى غير ذلك ، وقوله تعالى (قال رب أنظرنى إلى يوم يبعثون) نقول فى جميع تلك المواضع القائل طالب ، ولا يحسن أن يقول الطالب : يارب عمرنى واخصصنى وأعطى كذا ، وإنما يقول : أعطنا لأن كونه رباً لا يناسب تخصيص الطالب ، وأما هذا الموضع فموضع الهيبة والعظمة وعرض الحال دون الطلب فقال (ربنا ما أطغيته) .

قوله تعالى : ﴿ ولكن كان فى ضلال بعيد ﴾ .

يعنى أن ذلك لم يكن بإطغائه ، وإنما كان ضالا متغلغلا فى الضلال فطغى ، وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ ما الوجه فى اتصاف الضلال بالبعيد ؟ نقول الضال يكون أكثر ضلالا عن الطريق ، فإذا تمادى فى الضلال وبقى فيه مدة يبعد عن المقصد كثيراً ، وإذا علم الضلال قصر فى الطريق من قريب فلا يبعد عن المقصد كثيراً ، فقوله (ضلال بعيد) وصف المصدر بما يوصف به الفاعل ، كما يقال كلام صادق وعيشة راضية أى ضلال ذو بعد ، والضلال إذا بعد مداه وامتد الضال فيه يصير بينا ويظهر الضلال ، لأن من حاد عن الطريق وأبعد عنه تتغير عليه السمات والجهات ولا يرى عين المقصد ويتبين له أنه ضل عن الطريق ، وربما يقع فى أودية ومفاوز ويظهر له أمارات الضلال بخلاف من حاد قليلا ، فالضلال وصفه الله تعالى بالوصفين فى كثير من المواضع فقال تارة فى ضلال مبين وأخرى قال (فى ضلال بعيد) .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قوله تعالى (ولكن كان فى ضلال بعيد) إشارة إلى قوله (إلا عبادك منهم

قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ

المخلصين) وقوله تعالى (إن عبادى ليس لك عليهم سلطان) أى لم يكونوا من العباد ، فجعلهم أهل العناد ، ولو كان لهم فى سبيلك قدم صدق لما كان لى عليهم من يد ، والله أعلم .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ كيف قال ما أطغيته مع أنه قال (لأغوينهم أجمعين) ؟ قلنا الجواب عنه من ثلاثة أوجه (وجهان) قد تقدما فى الاعتذار عما قاله الزمخشرى (والثالث) هو أن يكون المراد من قوله (لأغوينهم) أى لأديمنهم على الغواية كما أن الضال إذا قال له شخص أنت على الجادة ، فلا تتركها ، يقال أنه يضله كذلك ههنا ، وقوله (ما أطغيته) أى ما كان ابتداء الإطغاء منى .

قوله تعالى : ﴿ قال لا تختصموا لدى ﴾ .

قد ذكرنا أن هذا دليل على أن هناك كلاماً قبل قوله (قال قرينه ربنا ما أطغيته) وهو قول الملق فى النار ربنا أطغانى وقوله (لا تختصموا لدى) يفيد مفهومه أن الاختصام كان ينبغى أن يكون قبل الحضور والوقوف بين يدى .

قوله تعالى : ﴿ وقد قدمت إليكم بالوعيد ﴾ .

تقرير المنع من الاختصام وبيان لعدم فائدته ، كأنه يقول قد قلت إنكم إذا اتبعتم الشيطان تدخلون النار وقد اتبعتموه ، فإن قيل ماحكم الباء فى قوله تعالى (بالوعيد) ؟ قلنا فيها وجوه (أحدها) أنها مزيدة كما فى قوله تعالى تنبت بالدهن ، على قول من قال إنها هناك زائدة ، وقوله (وكفى بالله) (وثانيها) معدية فقدمت بمعنى تقدمت كما فى قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدى الله) (ثالثها) فى الكلام إضمار تقديره ، وقد قدمت إليكم مقترناً بالوعيد (ما يبدل القول لدى) فيكون المقدم هو قوله ، ما يبدل القول لدى ، (رابعها) هى المصاحبة يقول القائل : اشتريت الفرس بلجامه وسرجه أى معه فيكون كأنه تعالى قال : قدمت إليكم ما يجب مع الوعيد على تركه بالإنذار .

قوله تعالى : ﴿ ما يبدل القول لدى ﴾ يحتمل وجهين :

(أحدهما) أن يكون قوله (لدى) متعلقاً بالقول أى (مايبدل القول لدى) (وثانيهما) أن يكون ذلك متعلقاً بقوله (ما يبدل) أى لا يقع التبديل عندى ، وعلى الوجه الأول فى القول الذى لديه وجوه (أحدها) هو أنهم لما قالوا حتى يبدل ما قيل فى حقهم (ألقيا) بقول الله بعد اعتذارهم لانلقياه فقال تعالى : ما يبدل هذ القول لدى ، وكذلك قوله (وقيل ادخلو أبواب

جهنم) لا تبديل له (ثانيها) هو قوله (ولكن حق القول منى لاملأن جهنم) أى لا تبديل لهذا القول (ثالثها) لا خلف فى إيعاد الله تعالى كما لا إخلاف فى ميعاد الله ، وهذا يرد على المرجئة حيث قالوا ماورد فى القرآن من الوعيد ، فهو تخويف لايحقق الله شيئاً منه ، وقالوا الكريم إذا وعد أنجز ووفى ، وإذا أوعد أخلف وعفا (رابعها) لا يبدل القول السابق أن هذا شقى ، وهذا سعيد ، حين خلقت العباد ، قلت هذا شقى ويعمل عمل الأشقياء ، وهذا تقى ويعمل عمل الأتقياء ، وذلك القول عندى لاتبديل له بسعى ساع ولا سعادة إلا بتوفيق الله تعالى ، وأما على الوجه الثانى فى (مايبدل) وجوه أيضاً (أحدها) لايكذب لدى ولا يفترى بين يدى ، فانى عالم علمت من طغى ومن أطغى ، ومن كان طاغياً ومن كان أطغى ، فلا يفيدكم قولكم أطغانى شيطانى ، ولا قول الشيطان (ربنا ما أطغيته) (ثانيها) إشارة إلى معنى قوله تعالى (فارجعوا وراءكم فالتمسوا نوراً) كأنه تعالى قال لو أردتم أن لاأقول فألقيا فى العذاب الشديد كنتم بدلتم هذا من قبل بتبديل الكفر بالإيمان قبل أن تقفوا بين يدى ، وأما الآن فما يبدل القول لدى كما قلنا فى قوله تعالى (قال لاتختصموا لدى) المراد أن اختصامكم كان يجب أن يكون قبل هذا حيث قلت (إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا) (ثالثها) معناه لايبدل الكفر بالإيمان لدى ، فإن الإيمان عند اليأس غير مقبول فقولكم ربنا وإلهنا لا يفيدكم فمن تكلم بكلمة الكفر لايفيده قوله (ربنا ما أشركنا) وقوله (ربنا آمنا) وقوله تعالى (ما يبدل القول) إشارة إلى نفى الحال كأنه تعالى يقول مايبدل اليوم لدى القول ، لأن ما ينفى بها الحال إذا دخلت على الفعل المضارع ، يقول القائل ماذا تفعل غداً ؟ يقال ما أفعل شيئاً أى فى الحال ، وإذا قال القائل ماذا يفعل غداً ، يقال لا يفعل شيئاً أو لن يفعل شيئاً إذا أريد زيادة بيان النفى ، فإن قيل هل فيه بيان معنوى يفيد افتراق ما ولا فى المعنى . نقول : نعم ، وذلك لأن كلمة لا أدل على النفى لكونها موضوعة للنفى وما فى معناه كالنهى خاصة لا يفيد الإثبات إلا بطريق الحذف أو الإضمار وبالجملة فبطريق المجاز كما فى قوله (لا أقسم) وأما ما فغير متمحضة للنفى لأنها واردة لغيره من المعانى حيث تكون اسماً والنفى فى الحال لا يفيد النفى المطلق لجواز أن يكون مع النفى فى الحال الإثبات فى الاستقبال ، كما يقال ما يفعل الآن شيئاً وسيفعل إن شاء الله ، فاختص بما لم يتمحض نفياً حيث لم تكن متمحضة للنفى لايقال إن لا للنفى فى الاستقبال والإثبات فى الحال فاكتفى فى استقبال بما لم يتمحض نفياً لأنا نقول ليس كذلك إذ لا يجوز أن يقال لايفعل زيد ويفعل الآن نعم يجوز أن يقال لايفعل غداً ويفعل الآن لكون قولك غداً يجعل الزمان مميزاً فلم يكن قولك لا يفعل للنفى فى الاستقبال بل كان للنفى فى بعض أزمنة الاستقبال ، وفى مثالنا قلنا مايفعل وسيُفعل وما قلنا سيفعل غداً وبعد غد ، بل ههنا نفينا فى الحال وأثبتنا فى الاستقبال من غير تمييز زمان من أزمنة الاستقبال عن زمان ، ومثاله فى العكس أن يقال لايفعل زيد وهو يفعل من غير تعيين وتمييز ومعلوم أن ذلك غير جائز .

وَمَآ أَنَاْ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾

قوله تعالى : ﴿ وما أنا بظلام للعبيد ﴾ مناسب لما تقدم على الوجهين جميعاً ، أما إذا قلنا بأن المراد من قوله (لدى) أن قوله (فألقياه) وقول القائل فى قوله (قيل ادخلوا أبواب جهنم) لا تبديل له فظاهر ، لأن الله تعالى بين أن قوله (ألقيا فى جهنم) لا يكون إلا للكافر العنيد فلا يكون هو ظلاماً للعبيد . وأما إذا قلنا بأن المراد لا (يبدل القول لدى) بل كان الواجب التبديل قبل الوقوف بين يدى فكذلك لأنه أنذر من قبل ، وما عذب إلا بعد أن أرسل الرسل وبين السبل ، وفيه مباحث لفظية ومعنوية .

أما اللفظية فهى فى الباء من قوله (ليس بظلام) وفى اللام من قوله (للعبيد) أما الباء فنقول البلاء تدخل فى المفعول به حيث لا يكون تعلق الفعل به ظاهراً ولا يجوز إدخالها فيه حيث يكون فى غاية الظهور ، ويجوز الإدخال والترك حيث لا يكون فى غاية الظهور ولا فى غاية الخفاء ، فلا يقال ضربت بزيد لظهور تعلق الفعل بزيد ، ولا يقال خرجت وذهبت زيداً بدل قولنا خرجت وذهبت بزيد لخفاء تعلق الفعل بزيد فيهما ، ويقال شكرته وشكرت له للتوسط فكذلك خبرما لما كان مشبهاً بالمفعول ، وليس فى كونه فعلا غير ظاهر غاية الظهور ، لأن إلحاق الضمائر التى تلحق بالأفعال الماضية كالتاء والنون فى قولك لست ولستم ولستن ولسنا يصحح كونها فعلا كما فى قولك كنت وكنا ، لكن فى الاستقبال يبين الفرق حيث نقول يكون وتكون وكن ، ولا نقول ذلك فى ليس وما يشبه بها فصارتا كالفعل الذى لا يظهر تعلقه بالمفعول غاية الظهور ، فجاز أن يقال ليس زيد جاهلا وليس زيد بجاهل ، كما يقال مسحته ومسحت به وغير ذلك مما يعدى بنفسه وبالباء ، ولم يجز أن يقال كان زيد بخارج وصار عمرو بدارج لأن صار وكان فعل ظاهر غاية الظهور بخلاف ليس وما النافية ، وهذا يؤيد قول من قال (ما هذا بشر) وهذا ظاهر .

﴿ البحث الثانى ﴾ لو قال قائل كان ينبغى أن لا يجوز إخلاء خبر ما عن الباء ، كما لا يجوز إدخال الباء فى خبر كان وخبر ليس يجوز فيه الأمران وتقرير هذا السؤال هو أن كان لما كان فعلا ظاهراً جعلناه بمنزلة ضرب حيث منعنا دخول الباء فى خبره كما منعناه فى مفعوله ، وليس لما كان فعلا من وجه نظراً إلى قولنا لست ولسنا ولستم ، ولم يكن فعلا ظاهراً نظراً إلى صيغ الاستقبال والأمر جعلناه متوسطاً وجوزنا إدخال الباء فى خبره وتركه ، كما قلنا فى مفعول شكرته وشكرت له ، وما لما لم يكن فعلا بوجه كان ينبغى أن يكون بمنزلة الفعل الذى لا يتعدى إلى المفعول إلا بالحرف وكان ينبغى أن لا يجىء خبره إلا مع الباء كما لا يجىء مفعول ذهب إلا مع الباء ، ويؤيد هذا أنا فرقنا بين ما وليس وكان ، وجعلنا لكل واحدة مرتبة ليست للأخرى لجوزنا تأخير كان فى اللفظ حيث جوزنا أن يقول القائل زيد خارجاً كان وما جوزنا : زيد خارجاً ليس ، لأن كان فعل ظاهر وليس

دونه فى الظهور ، وما جوزنا تأخير ما عن أحد شطرى الكلام أيضاً بخلاف ليس ، حيث لا يجوز أن يقول القائل : زيد ما بظلام ، إلا أن يعيد ما يرجع إليه فيقول زيد ما هو بظلام فصار بينهما ترتيب ما يوجه ، وليس يؤخر عن أحد الشطرين ولا يؤخر فى الكلام بالكلية ، وكان يؤخر بالكلية لما ذكرنا من الظهور والخفاء ، فكذلك القول فى إلحاق الباء كان ينبغي أن لا يصح إخلاء خبر ما عن الباء ، وفى ليس يجوز الأمران ، وفى كان لا يجوز الإدخال ، وهذا هو المعتمد عليه فى لغة بنى تميم حيث قالوا إن ما بعد ما إذا جعل خبراً يجب إدخال الباء عليه فان لم تدخل عليه يكون ذلك معرباً على الابتداء أو على وجه آخر ولا يكون خبراً ، والجواب عن السؤال هو أن نقول الأكثر إدخال الباء فى خبر ما ولا سيما فى القرآن قال الله تعالى (وما أنت بهادى العمى عن ضلالتهم ، وما أنت بمسمع ، وماهم بخارجين ، وما أنا بظلام) وأما الوجوب فلا لأن ما أشبه ليس فى المعنى فى الحقيقة وخالفها فى العوارض وهو لحوق التاء والنون ، وأما فى المعنى فهما لنفى الحال فالشبه مقتض لجواز الإخلاء والمخالفة مقتضية لوجوب الإدخال ، لكن ذلك المقتضى أقوى لأنه راجع إلى الأمر الحقيقى ، وهذا راجع إلى الأمر العارضى وما بالنفس أقوى مما بالعارض ، وأما التقديم والتأخير فلا يلزم منه وجوب إدخال الباء ، وأما الكلام فى اللام فنقول اللام لتحقيق معنى الإضافة يقال غلام زيد وغلام لزيد ، وهذا فى الإضافات الحقيقية بإثبات التنوين فيه ، وأما فى الإضافات اللفظية كقولنا ضارب زيد وقاتل عمرو ، فإن الإضافة فيه غير معنوية فإذا خرج الضارب عن كونه مضافاً بإثبات التنوين فقد كان يجب أن يعاد الأصل وينصب ما كان مضافاً إليه الفاعل بالمفعول به ولا يؤتى باللام لأنه حينئذ لم تبق الإضافة فى اللفظ ، ولم تكن الإضافة فى المعنى ، غير أن اسم الفاعل منحط الدرجة عن الفعل فصار تعلقه بالمفعول أضعف من تعلق الفعل بالمفعول ، وصار من باب الأفعال الضعيفة التعلق حيث بينا جواز تعديتها إلى المفعول بحرف وغير حرف ، فلذلك جاز أن يقال ضارب زيد أو ضارب لزيد ، كما جاز : مسحته ومسحت به وشكرته وشكرت له ، وذلك إذا تقدم المفعول كما فى قوله تعالى (إن كنتم للرؤيا تعبرون) للضعف ، وأما المعنوية فمباحث :

﴿الأول﴾ الظلام مبالغة فى الظالم ويلزم من إثباته إثبات أصل الظلم إذا قال القائل هو كذاب يلزم أن يكون كاذباً كثر كذبه ، ولا يلزم من نفيه نفى أصل الكذب لجواز أن يقال فلان ليس بكذاب كثير الكذب لكنه يكذب أحياناً ففى قوله تعالى (وما أنا بظلام) لا يفهم منه نفى أصل الظلم والله ليس بظالم فما الوجه فيه ؟ نقول الجواب عنه من ثلاثة أوجه (أحدها) أن الظلام بمعنى الظالم كالتمار بمعنى التامر وحينئذ يكون اللام فى قوله (للعبيد) لتحقيق النسبة لأن الفعال حينئذ بمعنى ذى ظلم ، وهذا وجه جيد مستفاد من الإمام زين الدين أدام الله فوائده (والثانى) ما ذكره الزمخشرى وهو أن ذلك أمر تقديرى كأنه تعالى يقول لو ظلمت عبدى الضعيف الذى هو محل الرحمة لكان ذلك غاية الظلم ، وما أنا بذلك فيلزم من نفى كونه ظلاماً نفي كونه ظالماً ، ويحقق هذا الوجه

يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾

إظهار لفظ العبيد حيث يقول (ما أنا بظلام للعبيد) أى فى ذلك اليوم الذى امتلأت جهنم مع سعتها حتى تصيح وتقول لم يبق لى طاقة بهم ، ولم يبق فى موضع لهم فهل من مزيد استفهام استكثار ، فذلك اليوم مع أنى ألقى فيها عدداً لا حصر له لا أكون بسبب كثرة التعذيب كثير الظلم وهذا مناسب ، وذلك لأنه تعالى خصص النفى بالزمان حيث قال : ما أنا بظلام ، يوم نقول : أى وما أنا بظلام فى جميع الأزمان أيضاً ، وخصص بالعبيد حيث قال (وما أنا بظلام للعبيد) ولم يطلق ، فكذلك خصص النفى بنوع من أنواع الظلم ولم يطلق ، فلم يلزم منه أن يكون ظالماً فى غير ذلك الوقت ، وفى حق غير العبيد وإن خصص والفائدة فى التخصيص أنه أقرب إلى التصديق من التعميم (والثالث) هذا يدل على أن التخصيص بالذكر لا يدل على نفى ما عداه ، لأنه نفى كونه ظلاماً ولم يلزم منه نفى كونه ظالماً ، ونفى كونه ظلاماً للعبيد ، ولم يلزم منه نفى كونه ظلاماً لغيرهم ، كما قال فى حق الآدمى (ومنهم ظالم لنفسه) .

﴿ البحث الثانى ﴾ قال ههنا (وما أنا بظلام للعبيد) من غير إضافة ، وقال (ما أنت بهادى العمى ، وما أنت بمسمع من فى القبور) على وجه الإضافة ، فما الفرق بينهما ؟ نقول الكلام قد يخرج أولا مخرج العموم ، ثم يخصص لأمر ما لا لغرض التخصيص ، يقول القائل : فلان يعطى ويمنع ويكون غرضه التعميم ، فإن سأل سائل : يعطى من ، ويمنع من ؟ يقول زيداً وعمراً ، ويأتى بالمخصص لا لغرض التخصيص ، وقد يخرج أولا مخرج الخصوص ، فيقول فلان يعطى زيداً ماله إذا علمت هذا فقوله (وما أنا بظلام) كلام لو اقتصر عليه لكان للعموم ، فأتى بلفظ العبيد لا لكون عدم الظلم مختصاً بهم ، بل لكونهم أقرب إلى كونهم محل الظلم من نفسه تعالى ، وأما النبى صلى الله عليه وسلم فكان فى نفسه هادياً ، وإنما أراد نفى ذلك الخاص فقال (وما أنت بهادى العمى) وما قال : ما أنت بهاد ، وكذلك قوله تعالى (أليس الله بكاف عبده) .

﴿ البحث الثالث ﴾ العبيد يحتمل أن يكون المراد منه الكفار ، كما فى قوله تعالى (يا حسرة على العباد ما يأتيهم من رسول) يعنى أعذبهم وما أنا بظلام لهم ، ويحتمل أن يكون المراد منه المؤمنين ووجهه هو أن الله تعالى يقول : لو أبدلت القول ورحمت الكافر ، لكنت فى تكاليف العباد ظالماً لعبادى المؤمنين ، لأنى منعتهم من الشهوات لأجل هذا اليوم ، فإن كان ينال من لم يأت بما أتى المؤمن ما يناله المؤمن ، لكان إتيانه بما أتى به من الإيمان والعبادة غير مفيد فائدة ، وهذا معنى قوله تعالى (لا يستوى أصحاب النار وأصحاب الجنة أصحاب الجنة هم الفائزون) ومعنى قوله تعالى (قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون) وقوله تعالى (لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر) ويحتمل أن يكون المراد التعميم .

قوله تعالى : ﴿ يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد ﴾ .

وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾

العامل فى (يوم) ماذا ؟ فيه وجوه (الأول) ماأنا بظلام مطلقاً (والثانى) الوقت ، حيث قال ما أنا يوم كذا ، ولم يقل : ما أنا بظلام فى سائر الأزمان ، وقد تقدم بيانه ، فإن قيل فما فائدة التخصيص ؟ نقول النفى الخاص أقرب إلى التصديق من النفى العام لأن المتوهم ذلك ، فإن قاصر النظر يقول : يوم يدخل الله عبده الضعيف جهنم يكون ظالماً له ، ولا يقول : بأنه يوم خلقه برزقه وربيه يكون ظالماً ، ويتوهم أنه يظلم عبده بإدخاله النار ، ولا يتوهم أنه يظلم نفسه أو غير عبيده المذكورين ، ويتوهم أنه من يدخل خلقاً كثيراً لا يجوزه حد ، ولا يدركه عد النار ، ويتركهم فيها زماناً لانهاية له كثير الظلم ، فنفى مايتوهم دون مالا يتوهم ، وقوله (هل امتلأت) بيان لتصديق قوله تعالى (لأملأن جهنم) وقوله (هل من مزيد) فيه وجهان (أحدهما) أنه لبيان استكثارها الداخلين ، كما أن من يضرب غيره ضرباً مبرحاً ، أويشتمه شتماً قبيحاً فاحشاً ، ويقول المضروب : هل بقى شىء آخر ا ، ويدل عليه قوله تعالى (لأملأن) لأن الامتلاء لابد من أن يحصل ، فلا يبقى فى جهنم موضع خال حتى تطلب المزيد (والثانى) هو أنها تطلب الزيادة ، وحينئذ لو قال قائل فكيف يفهم مع هذا معنى قوله تعالى (لأملأن) ؟ نقول (الجواب) عنه من وجوه (أحدها) أن هذا الكلام ربما يقع قبل إدخال الكل ، وفيه لطيفة ، وهى أن جهنم تتغيظ على الكفار فتطلبهم ، ثم يبقى فيها موضع لعصاة المؤمنين ، فتطلب جهنم امتلاءها لظنها بقاء أحد من الكفار خارجاً ، فيدخل العاصى من المؤمنين ، فيبرد إيمانه حرارتها ، ويسكن إيقانه غيظها فتسكن ، وعلى هذا يحمل ماورد فى بعض الأخبار ، أن جهنم تطلب الزيادة حتى يضع الجبار قدمه ، والمؤمن جبار متكبر على ماسوى الله تعالى ذليل متواضع لله (الثانى) أن تكون جهنم تطلب أولا سعة فى نفسها ، ثم مزيداً فى الداخلين لظنها بقاء أحد من الكفار (الثالث) أن الملء له درجات ، فإن الكيل إذا ملىء ن غير كبس صح أن يقال : ملىء وامتلأ ، فإذا كبس يسع غيره ولا ينافى كونه ملآن أولا ، فكذلك فى جهنم ملأها الله ثم تطلب زيادة تضيقاً للمكان عليهم وزيادة فى التعذيب ، والمزيد جاز أن يكون بمعنى المفعول ، أى هل بقى أحد تزيد به .

قوله تعالى : ﴿ وأزلفت الجنة للمتقين غير بعيد ﴾ . بمعنى قريباً ، أو بمعنى قريب ، والأول أظهر وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ ما وجه التقريب ، مع أن الجنة مكان والأمكنة يقرب منها وهى لا تقرب ؟ نقول (الجواب) عنه من وجوه (الأول) أن الجنة لا تزال ولا تنقل ، ولا المؤمن يؤمر فى ذلك اليوم بالانتقال إليها مع بعدها ، لكن الله تعالى يطوى المسافة التى بين المؤمن والجنة فهو التقريب . فإن قيل فعلى هذا ليس إزلاف الجنة من المؤمن بأولى من إزلاف المؤمن من الجنة ، فما الفائدة فى

قوله : أزلفت الجنة ؟ نقول إكراماً للمؤمن ، كأنه تعالى أراد بيان شرف المؤمن المتقى أنه ممن يمشى إليه ويدنى منه (الثانى) قربت من الحصول فى الدخول ، لا بمعنى القرب المكانى ، يقال يطلب من الملك أمراً خطيراً ، والملك بعيد عن ذلك ، ثم إذا رأى منه مخايل إنجاز حاجته ، يقال قرب الملك وما زلت أنهى إليه حالك حتى قربته ، فكذلك الجنة كانت بعيدة الحصول ، لأنها بما فيها لا قيمة لها ، ولا قدرة للمكلف على تحصيلها لولا فضل الله تعالى ، كما قال صلى الله عليه وسلم « ما من أحد يدخل الجنة إلا بفضل الله تعالى ، فقيل ولا أنت يارسول الله ، فقال ولا أنا » وعلى هذا فقوله غير نصب على الحال ، تقديره قربت من الحصول ، ولم تكن بعيدة فى المسافة حتى يقال كيف قربت (الثالث) هو أن الله تعالى قادر على نقل الجنة من السماء إلى الأرض فيقربها للمؤمن . وأما إن قلنا أنها قربت ، فمعناه جمعت محاسنها ، كما قال تعالى (فيها ما تشتهى الأنفس) .

﴿ المسألة الثانية ﴾ على هذا الوجه وعلى قولنا قربت تقريب حصول ودخول ، فهو يحتمل وجهين (أحدهما) أن يكون قوله تعالى (وأزلفت) أى فى ذلك اليوم ولم يكن قبل ذلك ، وأما فى جمع المحاسن فربما يزيد الله فيها زينة وقت الدخول ، وأما فى الحصول فلأن الدخول قبل ذلك كان مستبعداً إذ لم يقدر الله دخول المؤمنين الجنة فى الدنيا ووعد به فى الآخرة فقربت فى ذلك اليوم (وثانيهما) أن يكون معنى قوله تعالى (وأزلفت الجنة) أى أزلفت فى الدنيا ، إما بمعنى جمع المحاسن فلأنها مخلوقة وخلق فيها كل شىء ، وإما بمعنى تقريب الحصول فلأنها تحصل بكلمة حسنة وأما على تفسير الإزلاف بالتقريب المكانى فلا يكون ذلك محمولا إلا على ذلك الوقت أى أزلفت فى ذلك اليوم للمتقين .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ إن حمل على القرب المكانى ، فما الفائدة فى الاختصاص بالمتقين مع أن المؤمن والكافر فى عرصة واحدة ؟ فنقول قد يكون شخصان فى مكان واحد وهناك مكان آخر هو إلى أحدهما فى غاية القرب ، وعن الآخر فى غاية البعد ، مثاله مقطوع الرجلين والسليم الشديد العدو إذا اجتمعا فى موضع وبحضرتهما شىء لا تصل إليه اليد بالمد فذلك بعيد عن المقطوع وهو فى غاية القرب من العادى ، أو نقول إذا اجتمع شخصان فى مكان وأحدهما أحيط به سد من حديد ووضع بقربه شىء لا تناله يده بالمد والآخر لم يحط به ذلك السد يصح أن يقال هو بعيد عن المسدود وقريب من المحظوظ والمجدود ، وقوله تعالى (غير بعيد) يحتمل أن يكون نصباً على الظرف يقال اجلس غير بعيد منى أى مكاناً غير بعيد ، وعلى هذا فقوله غير بعيد يفيد التأكيد وذلك لأن القريب قد يكون بعيداً بالنسبة إلى شىء ، فإن المكان الذى هو على مسيرة يوم قريب بالنسبة إلى البلاد النائية وبعيد بالنسبة إلى متنزهات المدينة ، فإذا قال قائل أيما أقرب المسجد الأقصى أو البلد الذى هو بأقصى المغرب أو المشرق ؟ يقال له المسجد الأقصى قريب ، وإن قال أيهما أقرب هو أو البلد ؟ يقال له هو بعيد . فقوله تعالى (وأزلفت الجنة . . . غير بعيد) أى قربت قرباً حقيقياً لا نسبياً حيث لا يقال فيها إنها بعيدة عنه مقايسة أو مناسبة ، ويحتمل أن يكون نصباً على

هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾

مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾

الحال تقديره : قربت حال كون ذلك غاية التقريب أو نقول على هذا الوجه يكون معنى أزلفت قربت وهي غير بعيد ، فيحصل المعنيان جميعاً الإقراب والاقتراب أو يكون المراد القرب والحصول لا للمكان فيحصل معنيان القرب المكانى بقوله غير بعيد والحصول بقوله (أزلفت) وقوله ، (غير بعيد) مع قوله (أزلفت) على التأنيث يحتمل وجوهاً (الأول) إذا قلنا إن غير نصب على المصدر تقديره مكاناً غير (الثانى) التذكير فيه كما فى قوله تعالى (إن رحمة الله قريب) إجراء لفعيل بمعنى فاعل مجرى فعيل بمعنى مفعول الثالث أن يقال إنه غير منصوب نصباً على المصدر على أنه صفة مصدر محذوف تقديره : أزلفت الجنة إزلافاً غير بعيد ، أى عن قدرتنا فانا قد ذكرنا أن الجنة مكان ، والمكان لا يقرب وإنما يقرب منه ، فقال الإزلاف غير بعيد عن قدرتنا فإنا نطوى المسافة بينهما .

ثم قال تعالى ﴿ هذا ما توعدون ﴾ قال الزمخشرى هى جملة معترضة بين كلامين وذلك لأن قوله تعالى (لكل أواب) بدل عن المتقين كأنه تعالى قال (أزلفت الجنة المتقين ، لكل أواب) كما فى قوله تعالى (لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم) غير أن ذلك بدل الاشتمال وهذا بدل الكل وقال (هذا) إشارة إلى الثواب أى هذا الثواب ما توعدون أو إلى الإزلاف المدلول عليه بقوله : (أزلفت) أى هذا الإزلاف ما وعدتم به ، ويحتمل أن يقال هو كلام مستقل ووجهه أن ذلك محمول على المعنى لا ما يوعد به يقال للموعود هذا لك وكأنه تعالى قال هذا ما قلت إنه لكم .

ثم قال تعالى ﴿ لكل أواب حفيظ ﴾ بدلا عن الضمير فى توعدون ، وكذلك إن قرىء بالياء يكون تقديره هذا لكل أواب بدلا عن الضمير ، والأواب الرجاع ، قيل هو الذى يرجع من الذنوب ويستغفر ، والحفيظ الحافظ الذى يحفظ توبته من النقض . ويحتمل أن يقال الأواب هو الرجاع إلى الله بفكره ، والحفيظ الذى يحفظ الله فى ذكره أى رجع إليه بالفكر فيرى كل شىء واقعاً به وموجداً منه ثم إذا انتهى إليه حفظه بحيث لا ينساه عند الرخاء والنعماء ، والأواب والحفيظ كلاهما من باب المبالغة أى يكون كثير الأوب شديد الحفظ ، وفيه وجوه أخر أدق ، وهو أن الأواب هو الذى رجع عن متابعة هواه فى الإقبال على ما سواه ، والحفيظ هو الذى إذا أدركه بأشرف قواه لا يتركه فيكمل بها تقواه ويكون هذا تفسيراً للمتقى ، لأن المتقى هو الذى اتقى الشرك والتعطيل ولم ينكره ولم يعترف بغيره ، والأواب هو الذى لا يعترف بغيره ويرجع عن كل شىء غير الله تعالى ، والحفيظ هو الذى لم يرجع عنه إلى شىء مما عداه .

قوله تعالى : ﴿ من خشى الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب ﴾ وفيه من وجوه (أحدها)

وهو أغربها أنه منادى كأنه تعالى قال : يا من خشي الرحمن ادخلوها بسلام وحذف حرف النداء شائع (وثانيها) من بدل عن كل فى قوله تعالى (لكل أواب) من غير إعادة حرف الجر تقديره أزلفت الجنة لمن خشي الرحمن بالغيب ، (ثالثها) فى قوله تعالى (أواب حفيظ) موصوف معلوم غير مذكور كأنه يقول لكل شخص أواب أو عبد أو غير ذلك ، فقوله تعالى (من خشي الرحمن بالغيب) بدل عن ذلك الموصوف هذه وجوه ثلاثة ذكرها الزمخشري ، وقال لايجوز أن يكون بدلا عن أواب أو حفيظ لأن أواب وحفيظ قدموصف به موصوف معلوم غير مذكور كما بيناه والبدل فى حكم المبدل منه ، فتكون من موصوفاً بها ومن لا يوصف بها لا يقال : الرجل من جاءنى جالسنى ، كما يقال الرجل الذى جاءنى جالسنى ، هذا تمام كلام الزمخشري ، فإن قال قائل إذا كان من والذى يشتركان فى كونهما من الموصولات فلماذا لا يشتركان فى جواز الوصف بهما ؟ نقول الأمر معقول نبينه فى ما ، ومنه يتبين الأمر فيه فنقول : ما اسم مبهم يقع على كل شيء فمفهومه هو شيء لكن الشيء هو أعم الأشياء فإن الجوهر شيء والعرض شيء والواجب شيء والممكن شيء والأعم قبل الأخص فى الفهم لأنك إذا رأيت من البعد شبحاً تقول أولا إنه شيء ثم إذا ظهر لك منه ما يختص بالناس تقول إنسان فإذا بان ذلك أنه ذكر قلت هو رجل فإذا وجدته ذاقوة تقول شجاع إلى غير ذلك ، فالأعم أعرف وهو قبل الأخص فى الفهم فمفهوم ماقبل كل شيء فلا يجوز أن يكون صفة لأن الصفة بعد الموصوف هذا من حيث المعقول ، وأما من حيث النحو فلأن الحقائق لا يوصف بها ، فلا يقال جسم رجل جاءنى كما يقال جسم ناطق جاءنى لأن الوصف يقوم بالموصوف والحقيقة تقوم بنفسها لا بغيرها وكل مايقع وصفاً للغير يكون معناه شيء له كذا ، فقولنا عالم معناه شيء له علم أو عالمية فيدخل فى مفهوم الوصف شيء مع أمر آخر وهو له كذا لكن ما لمجرد شيء فلا يوجد فيه مايتم به الوصف وهو الأمر الآخر الذى معناه ذو كذا فلم يجز أن يكون صفة وإذا بان القول فمن فى العقلاء كما فى غيرهم وفيهم فمن معناه إنسان أو ملك أو غيرهما من الحقائق العاقلة ، والحقائق لا تقع صفات ، وأما الذى يقع على الحقائق والأوصاف ويدخل فى مفهومه تعريف أكثر بما يدخل فى مجاز الوصف بما دون من .

وفى الآية لطائف معنوية (الأول) الخشية والخوف معناهما واحد عند أهل اللغة ، لكن بينهما فرق وهو أن الخشية من عظمة المخشي ، وذلك لأن تركيب حروف خ ش ى فى تقاليبها يلزمه معنى الهيبة يقال شيخ للسيد والرجل الكبير السن وهما جميعاً مهيبان ، والخوف خشية من ضعف الخاشي وذلك لأن تركيب خ و ف فى تقاليبها يدل على الضعف تدل عليه الخيفة والخفية ولولاقرب معناهما لما ورد فى القرآن (تضرعاً وخفية) و(تضرعاً وخيفة) والمختفي فيه ضعف كالخائف إذا علمت هذا تبين لك اللطيفة وهى أن الله تعالى فى كثير من المواضع ذكر لفظ الخشية حيث كان الخوف من عظمة المخشي قال تعالى (إنما يخشى الله من عباده العلماء) وقال (لو أنزلنا هذا

القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله) فإن الجبل ليس فيه ضعف يكون الخوف من ضعفه وإنما الله عظيم يخشاه كل قوى (وهم من خشية ربهم مشفقون) مع أن الملائكة أقوياء وقال تعالى (وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه) أى تخافهم إعظاماً لهم إذ لا ضعف فيك بالنسبة إليهم وقال تعالى (لاتخف ولا تحزن) أى لا تخف ضعفاً فإنهم لاعظمة لهم وقال (يخافون يوماً) حيث كان عظمة اليوم بالنسبة إلى عظمة الله ضعيفة وقال (لاتخافوا ولا تحزنوا) أى بسبب مكروه يلحقكم من الآخرة فإن المكروهات كلها مدفوعة عنكم ، وقال تعالى (خائفاً يترقب) وقال (إنى أخاف أن يقتلون) لوحدته وضعفه وقال هرون (إنى خشيت) لعظمة موسى فى عين هرون لالضعف فيه وقال (فخشينا أن يرهقهما طغياناً وكفراً) حيث لم يكن لضعف فيه ، وحاصل الكلام أنك إذا تأملت استعمال الخشية وجدتها مستعملة لخوف بسبب عظمة المخشى ، وإذا نظرت إلى استعمال الخوف وجدته مستعملا لخشية من ضعف الخائف ، وهذا فى الاكثر وربما يتخلف المدعى عنه لكن الكثرة كافية (الثانية) قال الله تعالى ههنا (خشى الرحمن) مع أن وصف الرحمة غالباً يقابل الخشية إشارة إلى مدح المتق حيث لم تمنعه الرحمة من الخوف بسبب العظمة ، وقال تعالى (لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله) إشارة إلى ذم الكافر حيث لم تحمله الألوهية التى تنبىء عنها لفظة الله وفيها العظمة على خوفه وقال (إنما يخشى الله من عباده العلماء) لأن إنما للحصر فكان فيه إشارة إلى أن الجاهل لايخشاه فذكر الله ليبين أن عدم خشيته مع قيام المقتضى وعدم المانع وهو الرحمة ، وقد ذكرنا ذلك فى سورة يس ونزيد ههنا شيئاً آخر ، وهو أن نقول لفظة الرحمن إشارة إلى مقتضى الخشية لا إلى المانع ، وذلك لأن الرحمن معناه واهب الوجود بالخلق ، والرحيم واهب البقاء بالرزق وهو فى الدنيا رحمان حيث أوجدنا بالرحمة ، ورحيم حيث أبقى بالرزق ، ولا يقال لغيره رحيم لأن البقاء بالرزق قد يظن أن مثل ذلك يأتى ممن يطعم المضطر ، فيقال فلان هو الذى أبقى فلاناً ، وهو فى الآخرة أيضاً رحمان حيث يوجدنا ، ورحيم حيث يرزقنا ، وذكرنا ذلك فى تفسير الفاتحة حيث قلنا قال (بسم الله الرحمن الرحيم) إشارة إلى كونه رحماناً فى الدنيا حيث خلقنا ، ورحيما فى الدنيا حيث رزقنا رحمة ثم قال مرة أخرى بعد قوله (الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم) أى هو رحمن مرة أخرى فى الآخرة بخلقنا ثانياً ، واستدللنا عليه بقوله بعد ذلك (مالك يوم الدين) أى يخلقنا ثانياً ، ورحيم برزقنا ويكون هو المالك فى ذلك اليوم ، إذا علمت هذا فمن يكون منه وجود الإنسان لا يكون خوفه خشية من غيره ، فإن القائل يقول لغيره أخاف منك أن تقطع رزقى أو تبدل حياتى ، فإذا كان الله تعالى رحماناً منه الوجود ينبغى أن يخشى ، فإن من بيده الوجود بيده العدم ، وقال ﷺ « خشية الله رأس كل حكمة » وذلك لأن الحكيم إذا تفكر فى غير الله وجده محل التغير يجوز عليه العدم فى كل طرفة عين ، وربما يقدر الله عدمه قبل أن تمكن من الإضرار ، لأن غير الله إن

ٱدۡخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ

لم يقدر الله أن يضر لا يقدر على الضرر وإن قدر عليه بتقدير الله فسيزول الضرر بموت المعذب أو المعذب ، وأما الله تعالى فلا راد لما أراد ولا آخر لعذابه ، وقال تعالى (بالغيب) أى كانت خشيتهم قبل ظهور الأمور حيث ترى رأى العين ، وقوله تعالى (وجاء بقلب منيب) إشارة إلى صفة مدح أخرى ، وذلك لأن الخاشى قد يهرب ويترك القرب من المخشى ولا ينتفع ، وإذا علم المخشى أنه تحت حكمه تعالى علم أنه لا ينفعه الهرب ، فيأتى المخشى وهو [غير] خاش فقال(وجاء)ولم يذهب كما يذهب الآبق ، وقوله تعالى (بقلب منيب) الباء فيه يحتمل وجوهاً ذكرناها فى قوله تعالى (وجاءت سكرة الموت بالحق)(أحدها) التعدية أى أحضر قلباً سليما ،كما يقال ذهب به إذا أذهبه (ثانيها) المصاحبة يقال اشترى فلان الفرس بسرجه أى مع سرجه ، وجاء فلان بأهله أى مع أهله (ثالثها) وهو أعرفها الباء للسبب يقال ما أخذ فلان إلا بقول فلان وجاء بالرجاء له فكأنه تعالى قال جاء وما جاء إلا بسبب إنابة فى قلبه علم أنه لا مرجع إلا إلى الله فجاء بسبب قلبه المنيب ، والقلب المنيب كالقلب السليم فى قوله تعالى (إذ جاء ربه بقلب سليم) أى سليم من الشرك ، ومن سلم من الشرك يترك غير الله ويرجع إلى الله فكان منيباً ، ومن أناب إلى الله برىء من الشرك فكان سليما .

قوله تعالى :﴿ ادخلوها بسلام ﴾ .

فالضمير عائد إلى الجنة التى فى (وأزلفت الجنة) أى لما تكامل حسنها وقربها وقيل لهم إنها منزلكم بقوله (هذا ما توعدون) أذن لهم فى دخولها وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ الخطاب مع من ؟ نقول إن قرى (ماتوعدون) بالتاء فهو ظاهر إذ لا يخفى أن الخطاب مع الموعودين ، وإن قرىء بالياء فالخطاب مع المتقين أى يقال للمتقين ادخلوها .

﴿ المسألة الثانية ﴾ هذا يدل على أن ذلك يتوقف على الإذن ، وفيه من الانتظار ما لا يليق بالإكرام ، نقول ليس كذلك ، فإن من دعا مكرماً إلى بستانه يفتح له الباب ويجلس فى موضعه ، ولا يقف على الباب من يرحبه ، ويقول إذا بلغت بستانى فادخله ، وإن لم يكن هناك أحد يكون قد أخل بإكرامه بخلاف من يقف على بابه قوم يقولون : ادخل باسم الله ، يدل على الإكرام قوله تعالى (بسلام)كما يقول المضيف : ادخل مصاحباً بالسلامة والسعادة والكرامة ، والباء للمصاحبة فى معنى الحال ، أى سالمين مقرونين بالسلامة ، أومعناه ادخلوها مسلماً عليكم ، ويسلم الله وملائكته عليكم ، ويحتمل عندى وجهاً آخر ، وهو أن يكون ذلك إرشاداً للمؤمنين إلى مكارم الأخلاق فى ذلك اليوم كما أرشدوا إليها فى الدنيا ، حيث قال تعالى (لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها) فكأنه تعالى قال : هذه داركم ومنزلكم ، ولكن لا تتركوا حسن

ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾

عادتكم ، ولا تخلوا بمكارم أخلاقكم ، فادخلوها بسلام ، ويصيحون سلاماً على من فيها ، ويسلم من فيها عليهم ، ويقولون السلام عليكم ، ويدل عليه قوله تعالى (إلا قيلا سلاماً سلاماً) أى يسلمون على من فيها ، ويسلم من فيها عليهم ، وهذ الوجه إن كان منقولا فنعم ، وإن لم يكن منقولا فهو مناسب معقول أيده دليل منقول .

قوله تعالى : ﴿ ذلك يوم الخلود ﴾ .

حتى لا يدخل فى قلبهم أن ذلك ربما ينقطع عنهم فتبقى فى قلبهم حسرته ، فإن قيل المؤمن قد علم أنه إذا دخل الجنة خلد فيها ، فما الفائدة فى التذكير ؟ (والجواب) عنه من وجهين (أحدهما) أن قوله (ذلك يوم الخلود) قول قاله الله فى الدنيا إعلاماً وإخباراً ، وليس ذلك قولا يقوله عند قوله (ادخلوها) فكأنه تعالى أخبرنا فى يومنا أن ذلك اليوم (يوم الخلود) . (ثانيهما) اطمئنان القلب بالقول أكثر ، قال الزمخشرى فى قوله (يوم الخلود) إضمار تقديره : ذلك يوم تقدير الخلود ، ويحتمل أن يقال اليوم يذكر ، ويراد الزمان المطلق سواء كان يوماً أو ليلا ، نقول : يوم يولد لفلان ابن يكون السرور العظيم ، ولو ولد له بالليل لكان السرور حاصلا ، فتريد به الزمان ، فكأنه تعالى قال : ذلك زمان الإقامة الدائمة .

قوله تعالى : ﴿ لهم ما يشاءون فيها ولدينا مزيد ﴾ .

وفى الآية ترتيب فى غاية الحسن ، وذلك لأنه تعالى بدأ ببيان إكرامهم حيث قال (وأزلفت الجنة للمتقين) ولم يقل : قرب المتقون من الجنة بياناً للاكرام حيث جعلهم ممن تنقل إليهم الجنان بما فيها من الحسان ، ثم قال لهم هذا لكم ، بقوله (هذا ما توعدون) ثم بين أنه أجر أعمالهم الصالحة بقوله (لكل أواب حفيظ) وقوله (من خشى الرحمن) فإن تصرف المالك الذى ملك شيئاً بعوض أتم فيه من تصرف من ملك بغير عوض ، لإمكان الرجوع فى التمليك بغير عوض ، ثم زاد فى الإكرام بقوله (ادخلوها) كما بينا أن ذلك إكرام ، لأن من فتح بابه للناس ، ولم يقف ببابه من يرحب الداخلين ، لا يكون قد أتى بالإكرام التام ، ثم قال (ذلك يوم الخلود) أى لا تخافوا ما لحقكم من قبل حيث أخرج أبويكم منها ، فهذا دخول لا خروج بعده منها .

ثم لما بين أنهم (فيها خالدون) قال لا تخافوا انقطاع أرزاقكم وبقاءكم فى حاجة ، كما كنتم فى الدنيا من كان يعمر ينكس ويحتاج ، بل لكم الخلود ، ولا ينفد ما تمتعون به فلكم ما تشاءون فى أى وقت تشاءون ، وإلى الله المنتهى ، وعند الوصول إليه ، والمثول بين يديه ، فلا يوصف ما لديه ، ولا يطلع أحد عليه ، وعظمة من عنده تدلك على فضيلة ما عنده ، هذا هو الترتيب ، وأما التفسير ، ففيه مسألتان .

وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ

﴿ المسألة الأولى ﴾ قال تعالى (ادخلوها بسلام) على سبيل المخاطبة ، ثم قال (لهم) ولم يقل لكم ما الحكمة فيه ؟ (الجواب) عنه من وجوه (الأول) هو أن قوله تعالى (ادخلوها) مقدر فيه يقال لهم ، أى يقال لهم (ادخلوها) فلا يكون على هذا التفاتاً (الثانى) هو أنه من باب الالتفات والحكمة الجمع بين الطرفين ، كأنه تعالى يقول : أكرمهم به فى حضورهم ، ففى حضورهم الحبور ، وفى غيبتهم الحور والقصور (والثالث) هو أن يقال قوله تعالى (لهم) جاز أن يكون كلاماً مع الملائكة ، يقول للملائكة : توكلوا بخدمتهم ، واعلموا أن لهم ما يشاءون فيها ، فأحضروا بين أيديهم ما يشاءون ، وأما أنا فعندى مالا يخطر ببالهم ، ولا تقدرون أنتم عليه .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قد ذكرنا أن لفظ (مزيد) يحتمل أن يكون معناه الزيادة ، فيكون كما فى قوله تعالى (للذين أحسنوا الحسنى وزيادة) ويحتمل أن يكون بمعنى المفعول ، أى عندنا ما نزيده على ما يرجون وما يكون مما يشتهون .

قوله تعالى : ﴿ وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أشد منهم بطشاً ﴾ .

لما أنذرهم بما بين أيديهم من اليوم العظيم والعذاب الأليم ، أنذرهم بما يعجل لهم من العذاب المهلك والإهلاك المدرك ، وبين لهم حال من تقدمهم ، وقد تقدم تفسيره فى مواضع ، والذى يختص بهذا الموضع أمور (أحدها) إذا كان ذلك للجمع بين الإنذار بالعذاب العاجل والعقاب الآجل ، فلم توسطهما قوله تعالى (وأزلفت الجنة للمتقين) إلى قوله (ولدينا مزيد) نقول ليكون ذلك دعاء بالخوف والطمع ، فذكر حال الكفور المعاند ، وحال الشكور العابد فى الآخرة ترهيباً وترغيباً ، ثم قال تعالى : إن كنتم فى شك من العذاب الأبدى الدائم ، فما أنتم فى ريب من العذاب العاجل المهلك الذى أهلك أمثالكم ، فإن قيل : فلم لم يجمع بين الترهيب والترغيب فى العاجلة ، كما جمع بينهما فى الآجلة ، ولم يذكر حال من أسلم من قبل وأنعم عليه ، كما ذكر حال من أشرك به فأهلكه ، نقول لأن النعمة كانت قد وصلت إليهم ، وكانوا متقلبين فى النعم ، فلم يذكرهم به ، وإنما كانوا غافلين عن الهلاك فأنذرهم به ، وأما فى الآخرة ، فكانوا غافلين عن الأمرين جميعاً ، فأخبرهم بهما .

(الثانى) : قوله تعالى ﴿ فنقبوا فى البلاد ﴾ .

فى معناه وجوه (أحدها) هو ماقاله تعالى فى حق ثمود (الذين جابوا الصخر بالواد) من قوتهم خرقوا الطرق ونقبوها ، وقطعوا الصخور وثقبوها (ثانيها) نقبوا ، أى ساروا فى الأسفار ولم يجدوا ملجأ ومهرباً ، وعلى هذا يحتمل أن يكون المراد أهل مكة ، أى هم ساروا فى الأسفار ، ورأوا مافيها من الآثار (ثالثها) (فنقبوا فى البلاد) أى صاروا نقباء فى الأرض أراد ما أفادهم

هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴿٣٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾

بطشهم وقوتهم ، ويدل على هذا الفاء ، لأنها تصير حينئذ مفيدة ترتب الأمر على مقتضاه ، تقول كان زيد أقوى من عمرو فغلبه ، وكان عمرو مريضاً فغلبه زيد ، كذلك ههنا قال تعالى (هم أشد منهم بطشاً) فصاروا نقباء فى الأرض ، وقرىء (فنقبوا) بالتشديد ، وهو أيضاً يدل على ما ذكرنا فى الوجه الثالث ، لأن التنقيب البحث ، وهو من نقب بمعنى صار نقيباً .

(الثالث) : قوله تعالى ﴿ هل من محيص ﴾ .

يحتمل وجوهاً ثلاثة (الأول) على قراءة من قرأ بالتشديد يحتمل أن يقال هو مفعول ، أى بحثوا عن المحيص (هل من محيص) (الثانى) على القرءآت جميعاً استفهام بمعنى الإنكار أى لم يكن لهم محيص (الثالث) هو كلام مستأنف كأنه تعالى يقول لقوم محمد ﷺ هم أهلكوا مع قوة بطشهم (فهل من محيص) لكم تعتمدون عليه (والمحيص) كالمحيد غير أن (المحيص) معدل ومهرب عن الشدة ، يدلك عليه قولهم وقعوا فى حيص بيص أى فى شدة وضيق ، والمحيد معدل وإن كان لهم بالإختيار يقال حاد عن الطريق نظراً ، ولا يقال حاص عن الأمر نظراً .

قوله تعالى : ﴿ إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب ﴾ .

الإشارة إلى الإهلاك ويحتمل أن يقال هو إشارة إلى ما قاله من إزلاف الجنة وملء جهنم وغيرهما ، والذكرى اسم مصدر هو التذكر والتذكرة وهى فى نفسها مصدر ذكره يذكره ذكراً وذكرى وقوله (لمن كان له قلب) قيل المراد قلب موصوف بالوعى ، أى (لمن كان له قلب) واع يقال لفلان مال أى كثير فالتنكير يدل على معنى فى الكمال ، والأولى أن يقال هو لبيان وضوح الأمر بعد الذكر وأن لا اخفاء فيه لمن كان له قلب ما ولو كان غير كامل ، كما يقال أعطه شيئاً ولو كان درهما ، ونقول الجنة لمن عمل خيراً ولو حسنة ، فكأنه تعالى قال : إن فى ذلك لذكرى لمن يصح أن يقال (له قلب) وحينئذ فمن لا يتذكر لاقلب له أصلا . كما فى قوله تعالى (صم بكم عمى) حيث لم تكن آذانهم وألسنتهم وأعينهم مفيدة لما يطلب منها كذلك من لايتذكر كأنه لا قلب له ، ومنه قوله تعالى (كالأنعام بل هم أضل) أى هم كالجماد وقوله تعالى (كأنهم خشب مسندة) أى لهم صور وليس لهم قلب للذكر ولا لسان للشكر .

قوله تعالى : ﴿ أو ألقى السمع وهو شهيد ﴾ أى استمع وإلقاء السمع كناية فى الاستماع ، لأن من لايسمع فكأنه حفظ سمعه وأمسكه فإذا أرسله حصل الاستماع ، فإن قيل على قول من قال التنكير فى القلب للتكثير يظهر حسن ترتيب فى قوله (أو ألقى السمع) وذلك لأنه يصير كأنه

وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾

تعالى يقول إن فى ذلك لذكرى لمن كان ذا قلب واع ذكى يستخرج الأمور بذكائه أو ألقى السمع ويستمع من المنذر فيتذكر ، وأما على قولك المراد من صح أن يقال (له قلب) ولو كان غير واع لايظهر هذا الحسن ، نقول على ماذكرنا ربما يكون الترتيب أحسن وذلك لأن التقدير يصير كأنه تعالى قال : فيه ذكرى لكل من كان له قلب ذكى يستمع ويتعلم . ونحن نقول الترتيب من الأدنى إلى الأعلى كأنه يقول : فيه ذكرى لكل واحد كيف كان له قلب لظهور الأمر ، فإن كان لايحصل لكل أحد فلمن يستمع حاصل ويؤيد ما ذكرنا قوله تعالى (أو ألقى السمع) حيث لم يقل أو استمع لأن الاستماع ينبىء عن طلب زائد ، وأما إلقاء السمع فمعناه أن الذكرى حاصلة لمن لا يمسك سمعه بل يرسله إرسالا ، وإن لم يقصد السماع كالسامع فى الصوت الهائل . فإنه يحصل عند مجرد فتح الأذن وإن لم يقصد السماع والصوت الخفى لايسمع إلا باستماع وتطلب ، فنقول الذكرى حاصلة لمن كان له قلب كيف كان قلبه لظهورها فإن لم تحصل فلمن له أذن غير مسدودة كيف كان حاله سواء استمع باجتهاد أو لم يجتهد فى سماعه ، فان قيل فقوله تعالى (وهو شهيد) للحال وهو يدل على أن إلقاء السمع بمجرده غير كاف ، نقول هذا يصحح ماذكرناه لأنا قلنا بأن الذكرى حاصلة لمن له قلب ما ، فان لم تحصل له فتحصل له إذا ألقى السمع وهو حاضر بباله من القلب ، وأما على الأول فمعناه من ليس له قلب واع يحصل له الذكر إذا ألقى السمع وهو حاضر بقلبه فيكون عند الحضور بقلبه يكون له قلب واع ، وقد فرض عدمه هذا إذا قلنا بأن قوله (وهو شهيد) بمعنى الحال ، وإذا لم نقل به فلا يرد ما ذكر وهو يحتمل غير ذلك بيانه هو أن يقال ذلك إشارة إلى القرآن وتقريره هو أن الله تعالى لما قال فى أول السورة (ق والقرآن المجيد ، بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم) وذكر مايدفع تعجبهم وبين كونه منذراً صادقاً وكون الحشر أمراً واقعاً ورغب وأرهب بالثواب والعذاب آجلا وعاجلا وأتم الكلام قال (إن فى ذلك) أى القرآن الذى سبق ذكره (لذكرى لمن كان له قلب) أو لمن يستمع ، ثم قال (وهو شهيد) أى المنذر الذى تعجبتم منه شهيد كما قال تعالى (إنا أرسلناك شاهداً) وقال تعالى (ليكون الرسول عليكم شهيداً) .

قوله تعالى : ﴿ ولقد خلقنا السموات والأرض ومابينهما فى ستة أيام وما مسنا من لغوب ﴾ أعاد الدليل مرة أخرى ، وقد ذكرنا تفسير ذلك فى (الم) السجدة وقلنا إن الأجسام ثلاثة أجناس (أحدها) السموات ، ثم حركها وخصصها بأمور ومواضع وكذلك الأرض خلقها ، ثم دحاها وكذلك مابينهما خلق أعيانها وأصنافها (فى ستة أيام) إشارة إلى ستة أطوار ، والذى يدل عليه

فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾

وبقرره هو أن المراد من الأيام لايمكن أن يكون هو المفهوم فى وضع اللغة ، لأن اليوم عبارة فى اللغة عن زمان مكث الشمس فوق الأرض من الطلوع إلى الغروب ، وقبل خلق السموات لم يكن شمس ولاقمر لكن اليوم يطلق ويراد به الوقت يقال يوم يولد للملك ابن يكون سرور عظيم ويوم يموت فلان يكون حزن شديد ، وإن اتفقت الولادة أو الموت ليلا ولا يتمين ذلك ويدخل فى مراد العاقل لأنه أراد باليوم مجرد الحين والوقت ، إذاعلمت الحال من إضافة اليوم إلى الأفعال فافهم ماعنك إطلاق اليوم فى قوله (ستة أيام) وقال بعض المفسرين المراد من الآية الرد على اليهود ، حيث قالوا بدأ الله تعالى خلق العالم يوم الأحد وفرغ منه فى ستة أيام آخرها يوم الجمعة واستراح يوم السبت واستلق على عرشه فقال تعالى (وما مسنا من لغوب) رداً عليهم ، والظاهر أن المراد الرد على المشرك والاستدلال بخلق السموات والأرض وما بينهما وقوله تعالى (وما مسنا من لغوب) أى ما تعبنا بالخلق الأول حتى لانقدر على الإعادة (ثانيا) والخلق الجديد كما قال تعالى (أفعيينا بالخلق الأول) وأما ماقاله اليهود ونقلوه من التوراة فهو إما تحريف منهم أو لم يعلموا تأويله ، وذلك لأن الأحد والإثنين أزمنة متميز بعضها عن بعض ، فلو كان خلق السموات ابتدىء يوم الأحد لكان الزمان متحققاً قبل الأجسام والزمان لا ينفك عن الأجسام فيكون قبل خلق الأجسام أجسام أخر فيلزم القول بقدم العالم وهو مذهب الفلاسفة ، ومن العجيب أن بين الفلاسفة والمشبهة غاية الخلاف ، فان الفلسفى لايثبت لله تعالى صفة أصلا ويقول بأن الله تعالى لايقبل صفة بل هو واحد من جميع الوجوه ، فعلمه وقدرته وحياته هو حقيقته وعينه وذاته ، والمشبهى يثبت لله صفة الأجسام من الحركة والسكون والاستواء والجلوس والصعود والنزول فبينهما منافاة ، ثم إن اليهود فى هذا الكلام جمعوا بين المسألتين فأخذوا بمذهب الفلاسفة فى المسألة التى هى أخص المسائل بهم وهى القدم حيث أثبتوا قبل خلق الأجسام أياماً معدودة وأزمنة محدودة ، وأخذوا بمذهب المشبهة فى المسألة التى هى أخص المسائل بهم وهى الاستواء على العرش فأخطأوا [وضلوا] وأضلوا فى الزمان والمكان جميعاً .

قوله تعالى : ﴿ فاصبر على مايقولون ﴾ قال من تقدم ذكرهم من المفسرين إن معناه اصبر على مايقولون من حديث التعب بالاستلقاء ، وعلى ماقلنا معناه (اصبر على مايقولون) إن هذا لشىء عجيب ، (وسبح بحمد ربك) وما ذكرناه أقرب لأنه مذكور ، وذكر اليهود وكلامهم لم يجر .

وقوله ﴿ وسبح بحمد ربك ﴾ يحتمل وجوها (أحدها) أن يكون الله أمر النبى صلى الله عليه وسلم بالصلاة ، فيكون كقوله تعالى (وأقم الصلاة طرفى النهار وزلفاً من الليل) .

قوله تعالى : ﴿ قبل طلوع الشمس وقبل الغروب ﴾ إشارة إلى طرفى النهار .

وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ وَأَدۡبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ﴿٤٠﴾

وقوله ﴿ ومن الليل فسبحه ﴾ إشارة إلى زلفاً من الليل ، ووجه هذا هو أن النبي صلى الله عليه وسلم له شغلان أحدهما عبادة الله ، وثانيهما هداية الخلق فاذا هداهم ولم يهتدوا ، قيل له أقبل على شغلك الآخر وهو عبادة الحق (ثانيها) سبح بحمد ربك ، أى نزهه عما يقولون ولا تسأم من امتناعهم بل ذكرهم بعظمة الله تعالى ونزهه عن الشرك والعجز عن الممكن الذى هو الحشر قبل الطلوع وقبل الغروب ، فانهما وقت اجتماعهم (ومن الليل فسبحه) أى أوائل الليل ، فانه أيضاً وقت اجتماع العرب ، ووجه هذا أنه لاينبغى أن تسأم من تكذيبهم فان الرسل من قبلك أوذوا وكذبوا وصبروا على ما كذبوا وأوذوا ، وعلى هذا .

فلقوله تعالى ﴿ وأدبار السجود ﴾ فائدة جليلة وهى الإشارة إلى ما ذكرنا أن شغل الرسول أمران العبادة والهداية فقوله (وأدبار السجود) أى عقب ما سجدت وعبدت نزه ربك بالبرهان عند اجتماع القوم ليحصل لك العبادة بالسجود والهداية أدبار السجود (ثالثها) أن يكون المراد قل سبحان الله ، وذلك لأن ألفاظاً معدودة جاءت بمعنى التلفظ بكلامهم ، فقولنا كبر يطلق ويراد به قول القائل الله أكبر ، وسلم يراد به قوله السلام عليكم ، وحمدل يقال لمن قال الحمد لله ، ويقال هلل لمن قال لا إله إلا الله ، وسبح لمن قال سبحان الله ، ووجه هذا أن هذه أمور تتكرر من الإنسان فى الكلام والحاجة تدعو إلى الإخبار عنها ، فلو قال القائل فلان قال لا إله إلا الله أو قال الله أكبر طول الكلام ، فمست الحاجة إلى استعمال لفظة واحدة مفيدة لذلك لعدم تكرر ما فى الأول ، وأما مناسبة هذا الوجه للكلام الذى هو فيه ، فهى أن تكذيبهم الرسول وتعجبهم من قوله أو استهزاءهم كان يوجب فى العادة أن يشتغل النبي صلى الله عليه وسلم بلعنهم وسبهم والدعاء عليهم فقال (فاصبر على مايقولون) واجعل كلامك بدل الدعاء عليهم التسبيح لله والحمد له (ولا تكن كصاحب الحوت) أو كنوح عليه السلام حيث قال (رب لاتذر على الأرض من الكافرين دياراً) بل ادع إلى ربك فاذا ضجرت عن ذلك بسبب إصرارهم فاشتغل بذكر ربك فى نفسك ، وفيه مباحث :

﴿البحث الأول﴾ استعمل الله التسبيح تارة مع اللام فى قوله تعالى (يسبح لله ، ويسبحون له) وأخرى مع الباء فى قوله تعالى (فسبح باسم ربك العظيم ، وسبح بحمد ربك) وثالثة من غير حرف فى قوله (وسبحـــه) وقوله (وسبحوه بكرة) وقوله (سبح اسم ربك الأعلى) فما الفرق بينها ؟ نقول أما الباء فهى الأهم وبالتقديم أولى فى هذا الموضع كقوله تعالى (وسبح بحمد ربك) فنقول أما على قولنا المراد من سبح قل سبحان الله ، فالباء للمصاحبة أى مقترناً بحمد الله ، فيكون كأنه تعالى قال قل سبحان الله والحمد لله ، وعلى قولنا المراد التنزيه لذلك أى نزهه واقرنه بحمده أى سبحه واشكره حيث وفقك الله لتسبيحه فإن السعادة الأبدية لمن سبحه ، وعلى هذا فيكون المفعول

غير مذكور لحصول العلم به من غير ذكر تقديره : سبح الله بحمد ربك ، أى ملتبساً ومقترناً بحمد ربك ، وعلى قولنا صل ، نقول يحتمل أن يكون ذلك أمراً بقراءة الفاتحة فى الصلاة يقال : صلى فلان بسورة كذا أو صلى بقل هو الله أحد ، فكأنه يقول صل بحمد الله أى مقروءاً فيها : الحمد لله رب العالمين ، وهو أبعد الوجوه ، وأما التعدية من غير حرف فنقول هو الأصل لأن التسبيح يتعدى بنفسه لأن معناه تبعيد من السوء ، وأما اللام فيحتمل وجهين (أحدهما) أن يكون كما فى قول القائل نصحته ونصحت له ، وشكرته وشكرت له (وثانيهما) أن يكون لبيان الأظهر أى يسبحون الله وقلوبهم لوجه الله خالصة .

﴿ البحث الثانى ﴾ قال ههنا (سبح بحمد ربك) ثم قال تعالى (ومن الليل فسبحه) من غير باء فما الفرق بين الموضعين ؟ نقول الأمر فى الموضعين واحد على قولنا التقدير سبح الله مقترناً بحمد ربك ، وذلك لأن سبح الله كقول القائل فسبحه غير أن المفعول لم يذكر أولا لدلالة قوله بحمد ربك عليه (وثانياً) لدلالة ما سبق عليه لم يذكر بحمد ربك ، الجواب الثانى على قولنا سبح بمعنى صل يكون الأول أمراً بالصلاة ، والثانى أمراً بالتنزيه ، أى وصل بحمد ربك فى الوقت وبالليل نزهه عما لا يليق ، وحينئذ يكون هذا إشارة إلى العمل والذكر والفكر . فقوله (سبح) إشارة إلى خير الأعمال وهو الصلاة ، وقوله (بحمد ربك) إشارة إلى الذكر ، وقوله (ومن الليل فسبحه) إشارة إلى الفكر حين هدو الأصوات ، وصفاء الباطن أى نزهه عن كل سوء بفكرك ، واعلم أنه لا يتصف إلا بصفات الكمال ونعوت الجلال ، وقوله تعالى (وأدبار السجود) قد تقدم بعض ما يقال فى تفسيره ، ووجه آخر هو أنه إشارة إلى الأمر بإدامة التسبيح ، فقوله (بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب ، ومن الليل فسبحه) إشارة إلى أوقات الصلاة ، وقوله (وأدبار السجود) يعنى بعد ما فرغت من السجود وهو الصلاة فلا تترك تسبيح الله وتنزيهه بل داوم أدبار السجود ليكون جميع أوقاتك فى التسبيح فيفيد فائدة قوله تعالى (واذكر ربك إذا نسيت) وقوله (فإذا فرغت فانصب ، وإلى ربك فارغب) وقرىء (وأدبار السجود) .

﴿ البحث الثالث ﴾ الفاء فى قوله تعالى (فسبحه) ما وجهها ؟ نقول هى تفيد تأكيد الأمر بالتسبيح من الليل ، وذلك لأنه يتضمن الشرط كأنه يقول : وأما من الليل فسبحه ، وذلك لأن الشرط يفيد أن عند وجوده يجب وجود الجزاء ، وكأنه تعالى يقول النهار محل الاشتغال وكثرة الشواغل ، فأما الليل فمحل السكون والانقطاع فهو وقت التسبيح ، أو نقول بالعكس الليل محل النوم والثبات والغفلة ، فقال أما الليل فلا تجعله للغفلة بل اذكر فيه ربك ونزهه .

﴿ البحث الرابع ﴾ (من) فى قوله ومن الليل يحتمل وجهين (أحدهما) أن يكون لابتداء الغاية أى من أول الليل فسبحه ، وعلى هذا فلم يذكر له غاية لاختلاف ذلك بغلبة النوم وعدمها ، يقال أنا من الليل أنتظرك (ثانيهما) أن يكون للتبعيض أى اصرف من الليل طرفاً إلى التسبيح يقال : من مالك منع ومن الليل انتبه ، أى بعضه .

وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾

﴿ البحث الخامس ﴾ قوله (وأدبار السجود) عطف على ماذا ؟ نقول يحتمل أن يكون عطفاً على ماقبل الغروب كأنه تعالى قال (وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب . . . وأدبار السجود) وذكر بينهما قوله (ومن الليل فسبحه) وعلى هذا ففيه ما ذكرنا من الفائدة وهى الأمر بالمداومة ، كأنه قال : سبح قبل طلوع الشمس ، وإذا جاء وقت الفراغ من السجود قبل الطلوع فسبح وسبح قبل الغروب ، وبعد الفراغ من السجود قبل الغروب سبحه فيكون ذلك إشارة إلى صرف الليل إلى التسبيح ، ويحتمل أن يكون عطفاً على (ومن الليل فسبحه) وعلى هذا يكون عطفاً على الجار والمجرور جميعاً ، تقديره وبعض الليل (فسبحه وأدبار السجود) .

قوله تعالى : ﴿ واستمع يوم يناد المناد من مكان قريب ﴾ .

هذا إشارة إلى بيان غاية التسبيح ، يعنى اشتغل بتنزيه الله وانتظر المنادى كقوله تعالى (واعبد ربك حتى يأتيك اليقين) وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ ما الذى يستمعه ؟ قلنا يحتمل وجوها ثلاثة (أحدها) أن يترك مفعوله رأساً ويكون المقصود كن مستمعاً ولا تكن مثل هؤلاء المعرضين الغافلين ، يقال هو رجل سميع مطيع ولا يراد مسموع بعينه كما يقال فلان وكاس ، وفلان يعطى ويمنع (ثانيها) استمع لما يوحى إليك (ثالثها) استمع نداء المنادى .

﴿ المسألة الثانية ﴾ (يوم يناد المنادى) منصوب بأى فعل ؟ نقول هو مبنى على المسألة الأولى ، إن قلنا استمع لا مفعول له فعامله مايدل عليه قوله تعالى (يوم الخروج) تقديره : يخرجون يوم ينادى المنادى ، وإن قلنا مفعوله لما يوحى فتقديره (واستمع) لما يوحى (يوم ينادى) ويحتمل ماذكرنا وجهاً آخر ، وهو ما يوحى أى ما يوحى (يوم ينادى المنادى) اسمعه ، فان قيل استمع عطف على فاصبر وسبح وهو فى الدنيا ، والاستماع يكون فى الدنيا ، وما يوحى (يوم ينادى المنادى) لا يستمع فى الدنيا ، نقول ليس بلازم ذلك لجواز أن يقال صل وادخل الجنة أى صل فى الدنيا وادخل الجنه فى العقبى ، فكذلك ههنا ، ويحتمل أن يقال بأن استمع بمعنى إنتظر فيحتمل الجمع فى الدنيا ، وإن قلنا استمع الصيحة وهو نداء المنادى : ياعظام انتشرى ، والسؤال الذى ذكره علم الجواب منه ، وجواب آخر نقوله حينئذ وهو أن الله تعالى قال (ونفخ فى الصور فصعق من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله) قلنا : إن من شاء الله هم الذين علموا وقوع الصيحة ، واستيقظوا لها فلم تزعجهم كمن يرى برقاً أومض ، وعلم أن عقبيه يكون رعد قوى فينظره ويستمع له ، وآخر غافل فإذا رعد بقوة ربما يغشى على الغافل ولا يتأثر منه المستمع ، فقال (استمع) ذلك كى لا تكون ممن يصعق فى ذلك اليوم .

يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾

﴿ المسألة الثالثة ﴾ ما الذي ينادي المنادي ؟ فيه وجوه محتملة منقولة معقولة وحصرها بأن نقول المنادي إما أن يكون هو الله تعالى أو الملائكة أو غيرهما وهم المكلفون من الإنس والجن في الظاهر ، وغيرهم لا ينادي ، فإن قلنا هو تعالى فيه وجوه (أحدها) ينادي (احشروا الذين ظلموا وأزواجهم) ، (ثانيها) ينادي (ألقيا في جهنم كل كفار عنيد) مع قوله (ادخلوها بسلام) ومثله قوله تعالى (خذوه فغلوه) يدل على هذا قوله تعالى (يوم يناد المنادي من مكان قريب) وقال(وأخذوا من مكان قريب) ، (ثالثها) غيرهما لقوله تعالى (يناديهم أين شركائي) وغير ذلك ، وأما على قولنا المنادي غير الله ففيه وجوه أيضاً (أحدها) قول إسرافيل : أيتها العظام البالية اجتمعوا للوصل واستمعوا للفصل (ثانيها) النداء مع النفس يقال للنفس (ارجعي إلى ربك) لتدخلي مكانك من الجنة أو النار (ثالثها) ينادي مناد هؤلاء للجنة وهؤلاء للنار ، كما قال تعالى (فريق في الجنة وفريق في السعير) وعلى قولنا المنادي هو المكلف فيحتمل أن يقال هو ما بين الله تعالى في قوله (ونادوا يا مالك) أو غير ذلك إلا أن الظاهر أن المراد أحد الوجهين الأولين ، لأن قوله المنادي للتعريف وكون الملك في ذلك اليوم منادياً معروف عرف حاله وإن لم يجر ذكره ، فيقال قال ﷺ وإن لم يكن قد سبق ذكره ، وأما أن الله تعالى مناد فقد سبق في هذه السورة في قوله (ألقيا) وهذا نداء ، وقوله (يوم نقول لجهنم) وهو نداء ، وأما المكلف ليس كذلك ، وقوله تعالى (من مكان قريب) إشارة إلى أن الصوت لا يخفى على أحد بل يستوي في استماعه كل أحد وعلى هذا فلا يبعد حمل المنادي على الله تعالى إذ ليس المراد من المكان القريب نفس المكان بل ظهور النداء وهو من الله تعالى أقرب ، وهذا كما قال في هذه السورة (ونحن أقرب إليه من حبل الوريد) وليس ذلك بالمكان ،

قوله تعالى : ﴿ يوم يسمعون الصيحة بالحق ذلك يوم الخروج ﴾ هذا تحقيق ما بينا من الفائدة في قوله واستمع أي لا تكن من الغافلين حتى لا تصعق يوم الصيحة ، وبيانه هو أنه قال استمع أي كن قبل أن تستمع مستيقظاً لوقوعه ، فإن السمع لا بد منه أنت وهم فيه سواء فهم يسمعون لكن من غير استماع فيصعقون وأنت تسمع بعد الاستماع فلا يؤثر فيك إلا ما لا بد منه (ويوم) يحتمل وجوهاً (أحدها) ما قاله الزمخشري أنه بدل من يوم في قوله (واستمع يوم يناد المنادي) والعامل فيهما الفعل الذي يدل عليه قوله تعالى (ذلك يوم الخروج) أي يخرجون يوم يسمعون (ثانيها) أن يوم يسمعون العامل فيه ما في قوله (ذلك ، يوم ينادي المنادي) العامل فيه ما ذكرنا (ثالثها) أن يقال استمع عامل في يوم ينادي كما ذكرنا وينادي عامل في يسمعون ، وذلك لأن يوم ينادي وإن لم يجز أن يكون منصوباً بالمضاف إليه وهو ينادي لكن غيره يجوز أن يكون منصوباً به ، يقال : اذكر حال زيد ومذلته يوم ضربه عمرو ، ويوم كان عمرو والياً ، إذا كان القائل يريد

إِنَّا نَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾

بيان مذلة زيد عند ما صار زيد يكرم بسبب من الأسباب ، فلا يكون يوم كان عمرو والياً منصوباً بقوله اذكر لأن غرض القائل التذكير بحال زيد ومذلته وذلك يوم الضرب ، لكن يوم كان عمرو منصوب بقوله ضربه عمرو يوم كان والياً فكذلك ههنا قال (استمع يوم ينادى المنادى) لئلا تكون ممن يفزع ويصعق ، ثم بين هذا النداء بقوله (ينادى المنادى) يوم يسمعون ، أى لايكون نداء خفياً بحيث لايسمعه بعض الناس بل يكون نداؤه بحيث تكون نسبته إلى من فى أقصى المغرب كنسبته إلى من فى المشرق ، وكلكم تسمعون ، ولا شك أن مثل هذا الصوت يجب أن يكون الإنسان متهيئاً لاستماعه ، وذلك يشغل النفس بعبادة الله تعالى وذكره والتفكر فيه فظهر فائدة جليلة من قوله (فاصبر ، وسبح ، واستمع يوم يناد المنادى ، ويوم يسمعون) واللام فى الصيحة للتعريف ، وقد عرف حالها وذكرها الله مراراً كما فى قوله تعالى (إن كان إلا صيحة واحدة) وقوله (فانما هى زجرة واحدة) وقوله (نفخة واحدة) وقوله (بالحق) جاز أن يكون متعلقاً بالصيحة أى الصيحة بالحق يسمعونها ، وعلى هذا ففيه وجوه :

(الأول) الحق الحشر أى الصيحة بالحشر وهو حق يسمعونها يقال صاح زيد ياقوم اجتمعوا على حد استعمال تكلم بهذا الكلام وتقديره حينئذ يسمعون الصيحة ياعظام اجتمعى وهو المراد بالحق (الثانى) الصيحة بالحق أى باليقين والحق هو اليقين ، يقال صاح فلان بيقين لا بظن وتخمين أى وجد منه الصياح يقيناً لا كالصدى وغيره وهو يجرى مجرى الصفة للصيحة ، يقال استمع سماعا بطلب ، وصاح صيحة بقوة أى قوية فكأنه قال الصيحة المحققة (الثالث) أن يكون معناه الصيحة المقترنة بالحق وهو الوجود ، يقال كن فيتحقق ويكون ، ويقال اذهب بالسلامة وارجع بالسعادة أى مقروناً ومصحوباً ، فإن قيل زد بياناً فإن الباء فى الحقيقة للإلصاق فكيف يفهم معنى الإلصاق فى هذه المواضع ؟ نقول التعدية قد تتحقق بالباء يقال ذهب بزيد على معنى ألصق الذهاب بزيد فوجد قائماً به فصار مفعولا ، فعلى قولنا المراد يسمعون صيحةً من صاح بياعظام اجتمعى هو تعدية المصدر بالباء يقال أعجبنى ذهاب زيد بعمرو ، وكذلك قوله (الصيحة بالحق) أى ارفع الصوت على الحق وهو الحشر ، وله موعد نبينه فى موضع آخر إن شاء الله تعالى (الوجه الثانى) أن يكون الحق متعلقاً بقوله (يسمعون) أى يسمعون الصيحة بالحق وفيه وجهان (الأول) هو قول القائل سمعته بيقين (الثانى) الباء فى يسمعون بالحق قسم أى يسمعون الصيحة بالله الحق وهو ضعيف وقوله تعالى (ذلك يوم الخروج) فيه وجهان : (أحدهما) ذلك إشارة إلى يوم أى ذلك اليوم يوم الخروج (ثانيهما) ذلك إشارة إلى نداء المنادى .

قوله تعالى : ﴿ إنا نحن نحيي ونميت وإلينا المصير ﴾ .

يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾

قد ذكرنا في سورة يس ما يتعلق بقوله (إنا نحن) ، وأما قوله (نحيي ونميت) فالمراد من الإحياء الإحياء أولا (ونميت) إشارة إلى الموتة الأولى وقوله (وإلينا) بيان للحشر فقدم (إنا نحن) لتعريف عظمته يقول القائل أنا أنا أي مشهور و (نحيي ونميت) أمور مؤكدة معنى العظمة (وإلينا المصير) بيان للمقصود .

قوله تعالى : ﴿ يوم تشقق الأرض عنهم سراعا ﴾ العامل فيه هو ما في قوله (يوم الخروج) من الفعل أي يخرجون (يوم تشقق الأرض عنهم سراعا) وقوله (سراعا) حال للخارجين لأن قوله تعالى (عنهم) يفيد كونهم مفعولين بالتشقق فكان التشقق عند الخروج من القبر كما يقال كشف عنه فهو مكشوف عنه فيصير سراعاً هيئة المفعول كأنه قال مسرعين والسراع جمع سريع كالكرام جمع كريم .

قوله ﴿ ذلك حشر ﴾ يحتمل أن يكون إشارة إلى التشقق عنهم ، ويحتمل أن يكون إشارة إلى الإخراج المدلول عليه بقوله سراعا ، ويحتمل أن يكون معناه ذلك الحشر حشر يسير ، لأن الحشر علم مما تقدم من الألفاظ .

قوله تعالى : ﴿ علينا يسير ﴾ بتقديم الظرف يدل على الاختصاص ، أي هو علينا هين لا على غيرنا وهو إعادة جواب قولهم (ذلك رجع بعيد) والحشر الجمع ويوم القيامة جمع الأجزاء بعضها إلى بعض وجمع الأرواح مع الأشباح أي يجمع بين كل روح وجسدها وجمع الأمم المتفرقة والرمم المتمزقة والكل واحد في الجمع .

قوله تعالى : ﴿ نحن أعلم بما يقولون وما أنت عليهم بجبار فذكر بالقرآن من يخاف وعيد ﴾ فيه وجوه : (أحدها) تسلية لقلب النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين وتحريض لهم على ما أمر به النبي صلى الله عليه وسلم من الصبر والتسبيح ، أي اشتغل بما قلناه ولا يشغلك الشكوى إلينا فإنا نعلم أقوالهم ونرى أعمالهم ، وعلى هذا فقوله (وما أنت عليهم بجبار) مناسب له أي لا تقل بأني أرسلت إليهم لأهديهم ، فكيف أشتغل بما يشغلني عن الهداية وهو الصلاة والتسبيح ، فإنك ما بعثت مسلطاً على دواعيهم وقدرهم ، وإنما أمرت بالتبليغ ، وقد بلغت فاصبر وسبح وانتظر اليوم الذي يفصل فيه بينكم (ثانيها) هي كلمة تهديد وتخويف لأن قوله (وإلينا المصير) ظاهر في التهديد بالعلم بعملكم لأن من يعلم أن مرجعه إلى الملك ولكنه يعتقد أن الملك لا يعلم ما يفعله لا يمتنع من القبائح ، أما إذا علم أنه يعلمه وعنده غيبه وإليه عوده يمتنع . فقال تعالى (وإلينا المصير) و(نحن أعلم)

وهو ظاهر فى التهديد ، وهذا حينئذ كقوله تعالى (ثم إلينا مرجعكم فينبئكم بما كنتم تعملون ، إنه عليم بذات الصدور) (ثالثها) تقرير الحشر وذلك لأنه لما بين أن الحشر عليه يسير لكمال قدرته ونفوذ إرادته ولكن تمام ذلك بالعلم الشامل حتى يميز بين جزء بدنين جزء بدن زيد وجزء بدن عمرو فقال (ذلك حشر علينا يسير) لكمال قدرتنا ، ولا يخفى علينا الأجزاء لمكان علمنا ، وعلى هذا فقوله (نحن أعلم بما يقولون) معناه نحن نعلم عين ما يقولون فى قولهم (أئذا متنا وكنا تراباً ، أئذا ضللنا فى الأرض) فيقول نحن نعلم الأجزاء التى يقولون فيها إنها ضالة وخفية ولا يكون المراد نحن نعلم وقولهم فى الأول جاز أن تكون ما مصدرية فيكون المراد من قوله (ما يقولون) أى قولهم ، وفى الوجه الآخر تكون خبرية ، وعلى هذا الدليل فلا يصح قوله (نحن أعلم) إذ لا عالم بتلك الأجزاء سواه حتى يقول (نحن أعلم) نقول قد علم الجواب عنه مراراً من وجوه :

(أحدها) أن أفعل لا يقتضى الاشتراك فى أصل الفعل كما فى قوله تعالى (والله أحق أن تخشاه) وفى قوله تعالى (أحسن ندياً) ، وفى قوله (وهو أهون عليه) .

(ثانيها) معناه نحن أعلم بما يقولون من كل عالم بما يعلمه ، والأول أصح وأظهر وأوضح وأشهر وقوله (وما أنت عليهم بجبار) فيه وجوه : (أحدها) أنه للتسلية أيضاً ، وذلك لأنه لما من عليه بالإقبال على الشغل الأخروى وهو العبادة أخبر بأنه لم يصرف عن الشغل الآخر وهو البعث ، كما أن الملك إذا أمر بعض عبيده بشغلين فظهر عجزه فى أحدهما يقول له أقبل على الشغل الآخر منهما ونحن نبعث من يقدر على الذى عجزت عنه منهما ، فقال (إصبر . وسبح . وما أنت . . بجبار) أى فما كان امتناعهم بسبب تجبر منك أو تكبر فاشمأزوا من سوء خلقك ، بل كنت بهم رءوفاً وعليهم عطوفاً وبالغت وبلغت وامتنعوا . فأقبل على الصبر والتسبيح غير مصروف عن الشغل الأول بسبب جبروتك ، وهذا فى معنى قوله تعالى (ما أنت بنعمة ربك بمجنون) إلى أن قال (وإنك لعلى خلق عظيم) ، (ثانيها) هو بيان أن النبى ﷺ أتى بما عليه من الهداية ، وذلك لأنه أرسله منذراً وهادياً لا ملجئاً ومجبراً ، وهذا كما فى قوله تعالى (وما أرسلناك عليهم حفيظاً) أى تحفظهم من الكفر والنار وقوله (وما أنت عليهم) فى معنى قول القائل : اليوم فلان علينا ، فى جواب من يقول : من عليكم اليوم ؟ أى من الوالى عليكم (ثالثها) هو بيان لعدم وقت نزول العذاب بعد ، وذلك لأن النبى ﷺ لما أنذر وأعذر وأظهر ولم يؤمنوا كان يقول إن هذا وقت العذاب ، فقال : نحن أعلم بما يقولون وما أنت عليهم بمسلط فذكر بعذابى إن لم يؤمنوا من بقى منهم ممن تعلم أنه يؤمن ثم تسلط ، ويؤيد هذا قول المفسرين أن الآية نزلت قبل نزول آية القتال ، وعلى هذا فقوله (فذكر بالقرآن من يخاف وعيد) أى من بقى منهم ممن يخاف يوم الوعيد ، وفيه وجوه أخر (أحدها) أنا بينا فى أحد الوجوه أن قوله تعالى (فاصبر على ما يقولون وسبح) معناه أقبل على العبادة ، ثم قال ولا تترك الهداية بالكلية بل (وذكر) المؤمنين (فإن الذكرى تنفع المؤمنين ، وأعرض عن الجاهلين)

وقوله (بالقرآن) فيه وجوه (الأول) فذكر بما فى القرآن واتل عليهم القرآن . يحصل لهم بسبب ما فيه المنفعة (الثانى) (فذكر بالقرآن) أى بين به أنك رسول لكونه معجزاً ، وإذا ثبت كونك رسولا لزمهم قبول قولك فى جميع ما تقول به (الثالث) المراد فذكر بمقتضى ما فى القرآن من الأوامر الواردة بالتبليغ والتذكير ، وحينئذ يكون ذكر القرآن لانتفاع النبى صلى الله عليه وسلم به أى اجعل القرآن إمامك ، وذكرهم بما أخبرت فيه بأن تذكرهم ، وعلى الأول معناه اتل عليهم القرآن ليتذكروا بسببه ، وقوله تعالى (من يخاف وعيد) من جملة مايبين كون الخشية دالة على عظمة المخشى أكثر مما يدل عليه الخوف ، حيث قال (يخاف) عند ما جعل المخوف عذابه ووعيده ، وقال (اخشونى) عند ما جعل المخوف نفسه العظيم ، وفى هذه الآية إشارة إلى الأصول الثلاثة ، وقوله (وذكر) إشارة إلى أنه مرسل مأمور بالتذكير منزل عليه القرآن حيث قال (بالقرآن) وقوله (وعيد) إشارة إلى اليوم الآخر وضمير المتكلم فى قوله (وعيد) يدل على الوحدانية ، فإنه لو قال من يخاف وعيد الله كان يذهب وهم الله إلى كل صوب فلذا قال (وعيد) والمتكلم أعرف المعارف وأبعد عن الإشراك به وقبول الاشتراك فيه ، وقد بينا فى أول السورة أن أول السورة وآخرها متقاربان فى المعنى حيث قال فى الأول (ق والقرآن المجيد) وقال فى آخرها (فذكر بالقرآن) .

وهذا آخر تفسير هذه السورة والحمد لله رب العالمين ، وصلاته على خاتم النبيين وسيدالمرسلين محمد النبي وآله وصحبه وأزواجه وذريته أجمعين .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة ق

وهي خمسٌ وأربعون آية

مكيةٌ كلُّها في قول الحسن وعطاء وعكرمة وجابر. قال ابن عباس وقتادة: إلا آية، وهي قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ [الآية: ٣٨][١].

وفي صحيح مسلم عن أمِّ هشام بنت حارثةَ بن النعمان قالت: لقد كان تَنُّورنا وتَنُّور رسول الله ﷺ واحداً، سنتين أو سنةً وبعضَ سنة، وما أخذتُ ﴿قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ﴾ إلَّا عن لسان رسول الله ﷺ؛ يقرؤها كلَّ يومِ جمعةٍ على المنبر، إذا خطب الناس[٢].

وعن عمر بن الخطاب ﷺ، سألَ أبا واقدٍ الليثيّ: ما كان يقرأُ به رسول الله ﷺ في الأضحى والفطر؟ فقال: كان يقرأُ فيهما بـ﴿قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ﴾ و﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾ [القمر: ١][٣].

وعن جابر بن سَمُرةَ أنَّ النبيَّ ﷺ كان يقرأ في الفجر بـ﴿قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ﴾، وكان[٤] صلاتُه بعدُ تخفيفاً[٥].

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٣٣٩ .

(٢) صحيح مسلم (٨٧٣): (٥٢)، وأخرجه أيضاً أحمد (٢٧٤٥٦).

(٣) أخرجه مسلم (٨٩١): (١٤).

(٤) في (ق) و(م): وكانت.

(٥) أخرجه أحمد (٢٠٨٥٤) (٢١٠٠٣)، ومسلم (٤٥٨).

قوله تعالى: ﴿قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ ۝١ بَلۡ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡ فَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَيۡءٌ عَجِيبٌ ۝٢ أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗاۖ ذَٰلِكَ رَجۡعُۢ بَعِيدٞ ۝٣ قَدۡ عَلِمۡنَا مَا تَنقُصُ ٱلۡأَرۡضُ مِنۡهُمۡۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظُۢ ۝٤ بَلۡ كَذَّبُواْ بِٱلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡ فَهُمۡ فِيٓ أَمۡرٖ مَّرِيجٍ ۝٥﴾

قوله تعالى: ﴿قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ﴾ قرأ العامَّةُ: «قاف» بالجزم. وقرأ الحسن وابنُ أبي إسحاق ونصر بن عاصم: «قافِ» بكسر الفاء[(١)]؛ لأنَّ الكسرَ أخو الجزم، فلمَّا سَكَنَ آخِرُهُ، حرَّكوه بحركة الخفض. وقرأ عيسى الثقفيُّ بفتح الفاء[(٢)] حرَّكه إلى أخفِّ الحركات. وقرأ هارونُ ومحمد بن السَّمَيْفَع: «قافُ» بالضم[(٣)]؛ لأنَّه في غالب الأمر حركةُ البناء، نحو: منذُ وقطُّ وقبلُ وبعدُ.

واختلف في معنى «ق» ما هو؟ فقال يزيد[(٤)] وعكرمةُ والضَّحَّاك: هو جبل محيطٌ بالأرض من زُمرُّدةٍ خضراءَ، اخضرَّتِ السماءُ منه، وعليه طَرَفا السماءِ، والسماءُ عليه مَقْبِيَّةٌ، وما أصابَ الناسُ من زُمرُّدٍ، كان مما تساقطَ من ذلك الجبل[(٥)]. ورواه أبو الجوزاء عن عبد الله بن عباس.

قال الفرَّاء: كان يجب على هذا أن يظهرَ الإعرابُ في «ق»؛ لأنَّه اسمٌ وليس بهجاء. قال: ولعلَّ القافَ وحدها ذُكرتْ من اسمه؛ كقول القائل[(٦)]:

قُلْتُ لها قِفي فقالتْ قافْ

أي: أنا واقفة[(٧)]. وهذا وجهٌ حسنٌ. وقد تقدَّم أوّل «البقرة»[(٨)].

---

(١) قراءة الحسن وابن أبي إسحاق في المحتسب ٢/ ٢٨١.

(٢) القراءات الشاذة ص١٤٤، والمحتسب ٢/ ٢٨١.

(٣) ينظر البحر المحيط ٨/ ١٢٠.

(٤) في (ف) و(ق) و(م): ابن زيد. والمثبت من (ظ)، وهو الموافق للمحرر الوجيز.

(٥) ينظر قولهم في تفسير البغوي ٤/ ٢٢٠، والمحرر الوجيز ٥/ ١٥٥.

(٦) هو الوليد بن عقبة بن أبي معيط وقد سلف ١/ ٢٣٩.

(٧) معاني القرآن للفراء ٣/ ٧٥.

(٨) ١/ ٢٣٩.

وقال وهب: أشرفَ ذو القرنين على جبلِ قاف، فرأى تحتَهُ جبالاً صغاراً، فقال له: ما أنت؟ قال: أنا قاف؛ قال: فما هذه الجبالُ حولك؟ قال: هي عروقي، وما من مدينةٍ إلا وفيها عِرقٌ من عروقي، فإذا أراد اللهُ أنْ يزلزل مدينةً، أمرني فحرَّكتُ عِرقي ذلك، فتزلزلتْ تلك الأرض؛ فقال له: يا قاف، أخبرني بشيءٍ من عظمةِ الله؛ قال: إنَّ شأن ربِّنا لعظيمٌ، وإنَّ ورائي أرضاً مسيرة خمس مئة عام في خمس مئة عام، من جبالِ ثلجٍ يحطم بعضُها بعضاً، لولا هي لاحترقتُ من حرِّ جهنَّم. قال: زدني، قال: إنَّ جبريلَ عليه السلام واقفٌ بين يدي الله تُرْعَدُ فرائصُه، يخلقُ الله من كلِّ رِعدةٍ مئةَ ألف ملك، فأولئك الملائكة وقوفٌ بين يدي الله تعالى، منكِّسو رؤوسهم، فإذا أذِنَ الله لهم في الكلام قالوا: لا إله إلَّا الله؛ وهو قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ [النبأ:٣٨] يعني قول: لا إله إلا الله(١).

وقال الزجَّاج(٢): قوله: «ق» أي: قُضِيَ الأمر، كما قيل في «حم» أي: حُمَّ الأمرُ. وقال ابن عباس: «ق» اسمٌ من أسماء الله تعالى أقسم به(٣). وعنه أيضاً: أنَّه اسمٌ من أسماء القرآن. وهو قول قتادة(٤). وقال القُرظيُّ: افتتاحُ أسماء الله تعالى قديرٌ وقاهرٌ وقريبٌ وقاضٍ وقابض(٥). وقال الشَّعبيُّ: فاتحةُ السورة(٦). وقال أبو بكر

(١) قال ابن كثير في تفسيره ٧/ ٣٩٤ : كأن هذه من خرافات بني إسرائيل التي أخذها عنهم بعض الناس، لِمَا رأى من جواز الرواية عنهم فيما لا يصدق ولا يكذب. وعندي أنّ هذا وأمثاله وأشباهه من اختلاق زنادقتهم، يلبّسون على الناس أمر دينهم... وإنما أباح الشارع الرواية عنهم... فيما قد يجوزه العقل، فأما ما تحيله العقول ويحكم عليه بالبطلان، ويغلب على الظن كذبه، فليس من هذا القبيل. والله أعلم.

(٢) في معاني القرآن ٥/ ٤١ .

(٣) أخرجه الطبري ٢١/ ٤٠٠ .

(٤) ذكره عن ابن عباس ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ١٥٥ ، وأخرجه عن قتادة الطبريُّ ٢١/ ٤٠٠ .

(٥) تفسير البغوي ٤/ ٢٢٠ ، والمحرر الوجيز ٥/ ١٥٦ .

(٦) المحرر الوجيز ٥/ ١٥٥ ، وفيه: اسم السورة.

الورَّاق: معناه: قِفْ عند أمرنا ونهينا ولا تَعْدُهما[١]. وقال محمد بن عاصم الأنطاكيُّ: هو قُرْبُ الله من عباده، بيانه ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾. وقال ابنُ عطاء: أقسم اللهُ بقوَّة قلب حبيبه محمدٍ ﷺ، حيثُ حَمَلَ الخطابَ، ولم يُؤثِّر ذلك فيه؛ لعلوِّ حاله[٢].

﴿وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ﴾ أي: الرفيع القدر. وقيل: الكريم؛ قاله الحسن. وقيل: الكثير؛ مأخوذٌ من كثرة القَدْرِ والمنزلة، لا من كثرة العدد، من قولهم: كثير فلان[٣] في النفوس؛ ومنه قول العرب في المثل السائر: لها[٤] في كلِّ شجرٍ نار، واسْتمجدَ المَرْخُ والعَفار[٥]. أي: استكثر هذان النوعان من النَّار، فزادا على سائر الشجر؛ قاله ابن بحر[٦].

وجواب القسم قيل هو: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ﴾ على إرادة اللام؛ أي: لقد علمنا. وقيل: هو ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ﴾ [ق:٣٧] وهو اختيارُ الترمذيِّ محمد بن عليٍّ قال: «ق» قَسَمٌ باسمٍ هو أعظمُ الأسماء التي خَرجتْ إلى العباد: وهو القدرة، وأقْسم أيضاً بالقرآن المجيد، ثم اقتصَّ ما خَرجَ من القدرة من خَلْقِ السماوات والأرضين وأرزاق العباد، وخَلْقِ الآدميين، وصفةِ يوم القيامة والجنة والنار، ثم قال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ [ق:٣٧] فوقع القسمُ على هذه الكلمة، كأنَّه قال: «ق» أي: بالقدرة والقرآن المجيد، أقسمتُ أنَّ فيما اقتصصتُ في هذه

---

(١) زاد المسير ٨/ ٥ .

(٢) ذكر أبو حيان في البحر ٨/ ١٢٠ أن المفسرين اختلفوا في مدلول «ق» على أحد عشر قولاً متعارضة، لا دليل على صحة شيء منها.

(٣) في النكت والعيون ـ والكلام منه ـ : فلان كثير.

(٤) لفظة: لها. ليست في (م).

(٥) المَرْخ والعَفار شجرتان من أسرع الشجر خروج نار، والاستمجاد: الاستكثار من المجد، وهو كثرة الشرف؛ وهذا المثل يضرب في تفضيل القوم على بعض إذا كانوا كلهم ذوي خير، ولبعضهم مزية وتَقَدُّمٌ ليس للآخرين. المستقصى في أمثال العرب ٢/ ١٨٣-١٨٤ .

(٦) النكت والعيون ٥/ ٣٤٠ .

السورة ﴿لَذِكۡرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلۡبٌ أَوۡ أَلۡقَى ٱلسَّمۡعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾.

وقال ابن كيسان: جوابه ﴿مَّا يَلۡفِظُ مِن قَوۡلٍ﴾. وقال أهل الكوفة: جواب هذا القسم ﴿بَلۡ عَجِبُوٓاْ﴾[1]. وقال الأخفش[2]: جوابه محذوف، كأنَّه قال: ﴿قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ﴾ لَتُبعثُنَّ، يدلُّ عليه: ﴿أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا﴾.

قوله تعالى: ﴿بَلۡ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡ﴾ «أنْ» في موضع نصبٍ على تقدير: لأن جاءهم منذرٌ منهم، يعني محمداً ﷺ. والضميرُ للكفَّار، وقيل: للمؤمنين والكفار جميعاً[3]. ثم ميَّز بينهم بقوله تعالى: ﴿فَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ ولم يقل: فقالوا، بل قبَّح حالَهم وفِعلَهم[4] وَوَصَفَهُمْ بالكفر، كما تقول: جاءني فلانٌ فأسمعني المكروهَ، وقال لي الفاسق: أنت كذا وكذا.

﴿هَٰذَا شَيۡءٌ عَجِيبٌ﴾ العجيب: الأمر الذي يُتعجَّبُ منه، وكذلك العُجابُ؛ بالضمِّ، والعُجَّابُ ـ بالتشديد ـ أكثر منه، وكذلك الأُعجوبة[5]. وقال قتادة: عجَّبهم أن دُعوا إلى إله واحد. وقيل: من إنذارهم بالبعث والنشور[6]. والذي نصَّ عليه القرآن أولى.

قوله تعالى: ﴿أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا﴾ نُبعث؛ ففيه إضمار. ﴿ذَٰلِكَ رَجۡعُۢ بَعِيدٞ﴾ الرَّجع: الرَّدُّ، أي: هو ردٌّ بعيد، أي: محال. يقال: رَجَعْته أرْجِعه رَجْعًا، ورَجَع هو يَرجِع رُجوعاً، وفيه إضمارٌ آخر، أي: وقالوا أنُبعَثُ إذا متنا. وذِكْرُ البعثِ وإنْ لم يَجْرِ هاهنا، فقد جرى في مواضع، والقرآنُ كالسورة الواحدة. وأيضاً ذِكْرُ البعثِ منطوٍ تحت قوله: ﴿بَلۡ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡ﴾ لأنَّه إنَّما يُنذر بالعقاب والحساب في الآخرة.

---

(١) المحرر الوجيز ٥/ ١٥٥ .

(٢) في معاني القرآن له ٢/ ٦٩٦ بنحوه. وينظر المحرر الوجيز ٥/ ١٥٥ .

(٣) ينظر المحرر الوجيز ٥/ ١٥٦ .

(٤) قوله: وفعلهم. من (م).

(٥) الصحاح (عجب).

(٦) النكت والعيون ٥/ ٣٤٠ .

قوله تعالى: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ﴾ أي: ما تأكلُ من أجسادهم، فلا يَضِلُّ عنَّا شيءٌ حتى تتعذَّر علينا الإعادة. وفي التنزيل: ﴿قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ . قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَـٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ [طه: ٥١-٥٢].

وفي الصحيح: «كلُّ ابنِ آدم يأكلُه التراب، إلا عَجْبَ الذَّنَبِ، منه خُلِقَ وفيه يُرَكَّبُ» وقد تقدَّم[١].

وثبت أنَّ الأنبياء والأولياء والشهداء لا تأكلُ الأرضُ أجسادهم؛ حرَّم الله على الأرض أن تأكلَ أجسادهم. وقد بيَّنَّا هذا في كتاب «التذكرة»، وتقدَّم أيضاً في هذا الكتاب[٢].

وقال السُّدِّي: النقص هنا الموت، يقول: قد علمنا منهم من يموتُ ومن يبقى[٣]؛ لأنَّ من مات دُفِنَ، فكأنَّ الأرض تَنقُصُ من الناس.

وعن ابن عباس: هو من يدخل في الإسلام من المشركين[٤].

﴿وَعِندَنَا كِتَـٰبٌ حَفِيظٌ﴾ أي: بعدَّتهم وأسمائهم، فهو فعيلٌ بمعنى فاعل. وقيل: اللوح المحفوظ[٥]، أي: محفوظٌ من الشياطين، أو محفوظٌ فيه كلُّ شيء. وقيل: الكتاب عبارةٌ عن العلم والإحصاء؛ كما تقول: كتبتُ عليك هذا، أي: حفظتُهُ. وهذا تَرْكُ الظاهر من غير ضرورة. وقيل: أي: وعندنا كتابٌ حفيظٌ لأعمال بني آدم، لنحاسبهم عليها.

قوله تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ﴾ أي: القرآن في قول الجميع؛ حكاه

---

(١) صحيح مسلم (٢٩٥٥): (١٤٢)، وسلف معناه ١٧/ ٤٩٠ .

(٢) التذكرة ١/ ١٦٣-١٦٤ ، وسلف ٥/ ٤٠٩ .

(٣) تفسير البغوي ٤/ ٢٢٠ .

(٤) ذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ١٥٧ نقلاً عن الثعلبي. ثم قال: وهذا قولٌ أجنبي من المعنى الذي قبل وبعد.

(٥) الوسيط للواحدي ٤/ ١٦٣ .

الماورديُّ[١]. وقال الثعلبيُّ: بالحقِّ: القرآن. وقيل: الإسلام. وقيل: محمدٌ ﷺ.

﴿فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴾ أي: مختلط. يقولون مرَّةً: ساحر، ومرَّةً: شاعر، ومرَّةً: كاهن؛ قاله الضَّحَّاك وابنُ زيد. وقال قتادة: مختلِف. الحسن: مُلتبِس؛ والمعنى متقارب. وقال أبو هريرة: فاسد[٢]، ومنه: مَرِجَتْ أماناتُ الناس، أي: فسدت؛ ومَرِجَ الدينُ والأمرُ: اختلط. قال أبو دؤاد:

مَـرِجَ الـدِّيـنُ فَـأَعْـدَدْتُ لـه مُـشْـرفَ الـحـارِكِ مـحـبـوكَ الـكَـتَـدْ[٣]

وقال ابن عباس: المَرِيج: الأمر المنكر[٤]. وقال عنه عمران بن أبي عطاء: «مريج»: مختلط[٥]. وأنشد:

فـجـالـتْ فـالـتـمـسـتُ بـه حَـشـاهـا فَـخـرَّ كـأنـه خُـوطٌ مَـريـجُ[٦]

الخُوطُ: الغصن.

وقال عنه العوفيُّ: في أمرِ ضلالة[٧]، وهو قولهم: ساحرٌ شاعرٌ مجنونٌ كاهن. وقيل: متغيِّر.

---

(١) في النكت والعيون ٥/ ٣٤١.

(٢) النكت والعيون ٥/ ٣٤١ دون ذكر ابن زيد، وأخرجه عنه الطبري ٢١/ ٤٠٨. وينظر إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٢٠.

(٣) الصحاح (مرج)، والبيت أيضاً في إصلاح المنطق ص٩٠، وأمالي القالي ٢/ ٣١٠. قال البكري في سمط اللآلي ٢/ ٩٥٧: الكتد: موصل العنق في الظهر، ومحبوك: مُدمج. اهـ. والحارِك: أعلى الكاهل، وقيل: الحارك منبت أدنى العُرف إلى الظهر الذي يأخذ به الفارس إذا ركب.

(٤) أخرجه الطبري ٢١/ ٤٠٦، واستدل عليه ابنُ عباس بالبيت الآتي.

(٥) أخرج الطبري من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما مريج: مختلف. وكذا ذكره النحاس في إعراب القرآن ٤/ ٢٢٠ دون إسناد.

(٦) البيت لعمرو بن الداخل الهذلي، وهو في ديوان الهذليين ٣/ ١٠٣. وفيه: فراغت، بدل: فجالت. قال شارحه: راغت، أي: البقرة، وخرَّ السهم: سقط كأنه خوطٌ، أي غصن. مريج، أي: سهل.

(٧) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٢٠ دون ذكر العوفي.

وأصل المَرَج: الاضطراب والقلق. يقال: مَرِجَ أمرُ الناس، ومَرِج الدِّين[١]، وَمرِج الخاتم في إصبعي، إذا قَلِقَ من الهزال.

وفي الحديث: «كيف بك يا عبدَ الله إذا كنتَ في قوم قد مَرِجَتْ عهودُهم وأمانَاتُهم، واختلفوا، فكانوا هكذا وهكذا». وشبَّك بين أصابعه. أخرجه أبو داود[٢]، وقد ذكرناه في كتاب «التذكرة»[٣].

قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَـٰهَا وَزَيَّنَّـٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝٦ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَـٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٧ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ۝٨ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَـٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّـٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ۝٩ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَـٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ۝١٠ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ۝١١﴾

قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ﴾ نظرَ اعتبار وتفكُّر، وأنَّ القادرَ على إيجادها قادرٌ على الإعادة. ﴿كَيْفَ بَنَيْنَـٰهَا﴾ فرفعناها بلا عَمَد ﴿وَزَيَّنَّـٰهَا﴾ بالنجوم ﴿وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾ جمع فَرْج: وهو الشَّق؛ ومنه قول امرئ القيس:

تَسُدُّ به فَرجَها من دُبُرْ[٤]

وقال الكسائي: ليس فيها تفاوت ولا اختلاف ولا فتوق[٥]. ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَـٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ﴾ تقدَّم في «الرعد» بيانه[٦]. ﴿وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ﴾ أي: من كل نوع من النبات ﴿بَهِيجٍ﴾ أي: حَسَنٍ يسرُّ الناظرين. وقد تقدَّم في «الحج» بيانه[٧].

---

(١) في (م): ومرج أمر الدين، والمثبت موافق لغريب القرآن لابن قتيبة ص٤١٧ والكلام منه.
(٢) في سننه (٤٣٤٢)، (٤٣٤٣)، وسلف ١٣/٥٨ .
(٣) ٢/٥٥١ .
(٤) ديوان امرئ القيس ص١٦٤ ، وصدره: لها ذنب مثل ذيل العروس.
(٥) مجمع البيان ٢٦/١٠٣ .
(٦) ١٢/٨ .
(٧) ١٤/٣٢٥ .

﴿تَبۡصِرَةٗ﴾ أي: جعلنا ذلك تبصرةً لِنَدُلَّ به على كمال قدرتنا. وقال أبو حاتم: نصب على المصدر؛ يعني: جعلنا ذلك تبصيراً وتنبيهاً على قدرتنا ﴿وَذِكۡرَىٰ﴾ معطوف عليه.

﴿لِكُلِّ عَبۡدٖ مُّنِيبٖ﴾: راجعٍ إلى الله تعالى، مفكِّرٍ في قدرته[١].

قوله تعالى: ﴿وَنَزَّلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: من السحاب ﴿مَآءٗ مُّبَٰرَكٗا﴾ أي: كثير البركة. ﴿فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ جَنَّٰتٖ وَحَبَّ ٱلۡحَصِيدِ﴾ التقدير: وحبَّ النبت الحصيد، وهو كلُّ ما يُحصد. هذا قول البصريين[٢]. وقال الكوفيون: هو من باب إضافة الشيء إلى نفسه، كما يقال: مسجد الجامعِ، وربيعُ الأوّلِ، وحقُّ اليقينِ، وحبل الوريد، ونحوها؛ قاله الفرّاء[٣]. والأصل: الحبُّ الحصيد، فحُذفتِ الألف واللام، وأضيف المنعوت إلى النعت.

وقال الضحاك: حبُّ الحصيد: البُرُّ والشَّعيرُ. وقيل: كلُّ حبٍّ يُحْصد ويُدَّخر ويُقتات[٤].

﴿وَٱلنَّخۡلَ بَاسِقَٰتٖ﴾ نصب[٥] ردًّا[٦] على قوله: «وَحَبَّ الحَصِيدِ» و«بَاسِقَاتٍ» حال. والباسقات: الطِّوال؛ قاله مجاهد وعكرمة وقتادة. وقال عبد الله[٧] بن شدَّاد: بُسُوقها: استقامتها في الطول[٨].

وقال سعيد بن جبير: مستويات[٩]. وقال الحسنُ وعكرمة أيضاً والفرَّاء: مواقير

(١) معاني القرآن للزجاج ٥/ ٤٣ .
(٢) ينظر إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٢١ ، ومشكل إعراب القرآن ٢/ ٦٨٣ .
(٣) في معاني القرآن ٣/ ٧٦ .
(٤) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٣٤٢ دون نسبة.
(٥) في النسخ: نصب على الحال، ولعل قوله: «على الحال» سبق قلم. والصواب حذفه.
(٦) في (ف): معطوف.
(٧) في (م): قاله مجاهد وعكرمة وقال قتادة وعبد الله.. وهو خطأ، والمثبت من النسخ الخطية، وهو الموافق لتفسير البغوي ٤/ ٢٢١ ، وغيره.
(٨) أخرجه الطبري ٢١/ ٤١٢ .
(٩) تفسير البغوي ٤/ ٢٢١ .

حوامل؛ يقال للشاة: بَسَقَتْ، إذا ولدت[١]، قال الشاعر:

فلما تَركنا الدار ظَلَّتْ[٢] مُنيفةً بِقُرَّانَ فيه الباسقاتُ المَواقرُ[٣]

والأوّل في اللغة أكثر وأشهر؛ بسَقَ النخلُ بسُوقاً: إذا طال. قال[٤]:

لنا خمرٌ وليستْ خمرَ كَرْمٍ ولكنْ من نِتاجِ الباسقاتِ

كرامٌ في السماء ذَهَبْنَ طُولاً وفاتَ ثمارُها أيدي الجُناةِ

ويقال: بسق فلانٌ على أصحابه، أي: عَلَاهم، وأبسقتِ الناقةُ: إذا وقع في ضَرْعها اللِّبَأ[٥] قبل النِّتاج، فهي مُبْسِق، ونُوقٌ مباسيق.

وقال قطبةُ بنُ مالك: سمعتُ النبيَّ ﷺ يقرأ: «بَاصِقَاتٍ» بالصاد؛ ذكره الثعلبيّ[٦].

قلت: الذي في صحيح مسلم عن قطبةَ بن مالك قال: صلَّيتُ وصلَّى بنا رسولُ الله ﷺ فقرأ: ﴿قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ﴾ حتى قرأ: ﴿وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ﴾ قال: فجعلتُ أردِّدها، ولا أدري ما قال[٧]. إلَّا أنَّه يجوز[٨] إبدالُ الصاد من السين لأجل القاف[٩].

---

(١) في النسخ الخطية: إذا بسقت ولدت، والمثبت من (م). وقول عكرمة في النكت والعيون ٥/ ٣٤٣ بنحوه، وأخرجه عنه الحربي في غريب الحديث ٣/ ١١٢٣ بلفظ: بسوقها كبسوق الشاة عند الولادة. وأخرجه بنحوه عبد بن حميد وابن المنذر ضمن قصة كما في الدر المنثور ٦/ ١٠٢ .

(٢) في (ق): طلَّت.

(٣) البيت للراعي النُّميري، وهو في ديوانه ص١١١ ، فلما تركْنَ الدار قلت منيفة، بقُرَّان منها. . . وقوله: منيفة، أي: تامة الطول والحُسن، وقُرَّان: قرية باليمامة.

(٤) هو أبو نواس، والبيتان في ديوانه ص١١٨ ، وسلفا ٨/ ١٦٩ .

(٥) في (ظ) و(م): اللبن، والمثبت من (ف) و(ق) وهو الموافق للصحاح (بسق) والكلام منه. واللِّبَأ؛ كعِنَب: أول اللبن في النِّتاج.

(٦) وأخرجه الطبراني في الأوسط (٤٧٩٧)، والصغير (٦٩٠). قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/ ١٥٦ : فيه عبد الله بن محمد بن صبيح، ولم أعرفه، وبقية رجاله ثقات. اهـ.

وقطبة بن مالك هو الثعلبي، ويقال الذبياني. قال البخاري وابن أبي حاتم: له صحبة. الإصابة ٨/ ١٦٥ .

(٧) صحيح مسلم (٤٥٧)، وأخرجه أحمد (١٨٩٠٣).

(٨) يعني في اللغة، لا في التلاوة، ووقع في (م): لا يجوز!

(٩) المحتسب ٢/ ٢٨٢-٢٨٣ والكشاف ٤/ ٥ .

﴿لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ﴾ الطَّلْعُ: هو أوَّلُ ما يخرجُ من ثمر النخل؛ يقال: طَلَع الطَّلْعُ طُلُوعاً، وأَطلعتِ النخلةُ، وطَلعها: كُفُرَّاها[١] قبل أنْ ينشقَّ.

﴿نَّضِيدٌ﴾ أي: متراكبٌ قد نُضِّد بعضُه على بعض. وفي البخاريّ: «النَّضِيدُ»: الكُفُرَّى مادام في أكمامه، ومعناه: منضودٌ بعضُه على بعض؛ فإذا خرج من أكمامه فليس بنضيد[٢].

﴿رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ﴾ أي: رزقناهم رزقاً، أو على معنى: أنبتناها رزقاً؛ لأنَّ الإنبات في معنى الرزق، أو على أنَّه مفعولٌ له، أي: أنبتناها لنرزقهم[٣]، والرزقُ: ما كان مهيَّأً للانتفاع به. وقد تقدَّم القول فيه[٤].

﴿وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ﴾ أي: من القبور، أي: كما أحيا الله هذه الأرض الميتةَ؛ فكذلك يخرجكم أحياءً بعد موتكم، فالكاف في محل رفع على الابتداء[٥]. وقد مضى هذا المعنى في غير موضع[٦]. وقال: «مَيْتًا»؛ لأنَّ المقصودَ المكانُ، ولو قال: ميتة، لجاز.

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ أي: كما كذَّب هؤلاء، فكذلك كذَّب أولئك فحلَّ بهم العقاب؛ ذكَّرهم نبأَ من كان قبلَهم من المكذِّبين وخوَّفهم ما أخذهم.

---

(١) الكُفُرَّى: هو وعاء طلع النخل. الصحاح (كفر).

(٢) صحيح البخاري قبل الحديث (٤٨٤٨).

(٣) في (م): لرزقهم. والمثبت من النسخ الخطية، وهو الموافق للكشاف ٤/ ٥ ، والكلام منه.

(٤) ١/ ٢٧٢ .

(٥) الكشاف ٤/ ٥ .

(٦) ١/ ٣٧٤ .

وقد ذكرنا قصصهم في غير موضع عند ذكرهم.

﴿كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ﴾ من هذه الأمم المكذبة. ﴿فَحَقَّ وَعِيدِ﴾ أي: فحقَّ عليهم وعيدي وعقابي.

قوله تعالى: ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ﴾ أي: أفعيينا به فنعيا بالبعث. وهذا توبيخٌ لمنكري البعث، وجوابُ قولهم: ﴿ذَٰلِكَ رَجْعُۢ بَعِيدٌ﴾. يقال: عَيِيتُ بالأمر، إذا لم تعرفْ وجهه[1].

﴿بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ أي: في حَيْرةٍ من البعث، منهم مصدِّقٌ ومنهم مكذِّب[2]؛ يقال: لَبَس عليه الأمرُ يَلْبِسه لَبْساً.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾ يعني: الناس، وقيل: آدم[3]. ﴿وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ﴾ أي: ما يختلج في سرِّه وقلبه وضميره، وفي هذا زجرٌ عن المعاصي التي يُستخفى بها. ومن قال: إنَّ المراد بالإنسان آدم؛ فالذي وسوستْ به نفسُهُ هو الأكلُ من الشجرة، ثم هو عامٌّ لولده. والوسوسةُ: حديثُ النفس بمنزلة الكلام الخفيّ. قال الأعشى:

تَسمع للحَلي وَسواساً إذا انصرفتْ ... كما استعان بريح عِشْرِقٌ زَجِلُ

وقد مضى في «الأعراف»[4].

﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ هو حبل العاتق وهو ممتدٌّ من ناحية حَلْقِهِ إلى

---

(١) معاني القرآن للزجاج ٥/ ٤٣.

(٢) هذا معنى قول قتادة الذي أخرجه عنه الطبري ٢١/ ٤٢١.

(٣) ينظر المحرر الوجيز ٥/ ١٥٩.

(٤) ٩/ ١٧٥. والبيت في ديوان الأعشى ص١٠٥. وسلف شرحه ثمة.

عاتقه، وهما وريدان عن يمينٍ وشمال. روي معناه عن ابن عباس[١] وغيره، وهو المعروف في اللغة. والحبل: هو الوريد، فأُضيف إلى نفسه؛ لاختلاف اللفظين[٢].

وقال الحسن: الوريد: الوتين وهو عِرقٌ معلَّقٌ بالقلب[٣]. وهذا تمثيل للقرب؛ أي: نحن أقربُ إليه من حبل وريده الذي هو منه، وليس على وجه قرب المسافة.

وقيل: أي: ونحن أَملك به من حبل وريده مع استيلائه عليه. وقيل: أي: ونحن أعلمُ بما توسوس به نفسه[٤] من حبل وريده الذي هو من نفسه؛ لأنَّه عِرقٌ يخالط القلب، فَعِلْمُ الربِّ أقربُ إليه من علم القلب، روي معناه عن مقاتل قال: الوريد عِرْقٌ يخالطُ القلب. وهذا القربُ قرب العلم والقدرة، وأبعاضُ الإنسان يَحجبُ البعضُ البعضَ، ولا يحجبُ علمَ الله شيء[٥].

قوله تعالى: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ أي: نحن أقربُ إليه من حبل وريده حين يتلقَّى المتلقيان، وهما الملكان الموكَّلان به[٦]، أي: نحن أعلم بأحواله؛ فلا نحتاج إلى مَلَكٍ يخبر، ولكنهما وَكِّلا به إلزاماً للحُجَّة، وتوكيداً للأمر عليه.

وقال الحسن ومجاهد وقتادة: «المُتَلَقِّيَانِ»: ملَكان يتلقيان عملك؛ أحدهما عن يمينك يكتب حسناتك، والآخر عن شمالك يكتب سيئاتك. قال الحسن: حتى إذا متَّ طُويت صحيفةُ عملك، وقيل لك يوم القيامة: ﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٤] عَدَلَ واللهِ عليك من جعلك حسيبَ نفسك[٧].

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٣٤٦.

(٢) تفسير غريب القرآن لابن قتيبة ص٤١٨، وتفسير الطبري ٢١/ ٤٢١، وتفسير البغوي ٤/ ٢٢٢.

(٣) النكت والعيون ٥/ ٣٤٦.

(٤) بعدها في (ظ): وأقرب إليه، والمثبت من باقي النسخ، وهو الموافق لما في النكت والعيون ٥/ ٣٤٦-٣٤٧، والكلام منه.

(٥) ينظر تفسير البغوي ٤/ ٢٢٢.

(٦) زاد المسير ٨/ ٩.

(٧) النكت والعيون ٥/ ٣٤٧.

وقال مجاهد: وكَّل الله بالإنسان ـ مع علمه بأحوالهِ ـ مَلَكين بالليل، ومَلَكين بالنهار يحفظانِ عمله، ويكتبان أثره إلزاماً للحجة؛ أحدهما عن يمينه يكتب الحسنات، والآخر عن شماله يكتب السيئات، فذلك قوله تعالى: ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾[1].

وقال سفيان: بلغني أنَّ كاتبَ الحسنات أمينٌ[2] على كاتب السيئات، فإذا أذنب العبد[3] قال: لا تعجل لعلَّه يستغفر الله.

وروي معناه من حديث أبي أمامة؛ قال: قال النبيُّ ﷺ: «كاتبُ الحسنات على يمين الرجل، وكاتبُ السيئات على يسار الرجل[4]، وكاتبُ الحسنات أمينٌ على كاتب السيئات، فإذا عَمِلَ حسنةً؛ كتبها صاحبُ اليمين عشراً، وإذا عَمِلَ سيئةً، قال صاحبُ اليمين لصاحب الشمال: دَعْهُ سبعَ ساعاتٍ لعله يَسبِّح أو يستغفر»[5].

وروي من حديث عليٍّ ﷺ أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «إنَّ مقعدَ مَلَكَيك على ثَنِيَّتك، لسانُك قلمهما، وريقُك مِدَادُهما، وأنت تجري فيما لا يعنيك، فلا تستحي من الله ولا منهما»[6].

وقال الضحاك: مجلسهما تحت الشعر[7] على الحنك. ورواه عوف عن الحسن

---

(١) أخرجه الطبري بنحوه مختصراً ٢١/ ٤٢٥ .

(٢) في تفسير الطبري ٢١/ ٤٢٦ ـ والقول مخرجٌ فيه ـ: أمير.

(٣) قوله: العبد، من (ف) و(م).

(٤) في (م): على يساره.

(٥) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٧٩٧١). قال الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/ ٢٠٨ : وفيه جعفر بن الزبير، وهو كذاب. اهـ. ورواه الطبراني في المعجم الكبير أيضاً (٧٧٦٥) بنحوه وضعفه العراقي في تخريج أحاديث الإحياء ٤/ ١٤٨-١٤٩ .

(٦) قال الحافظ ابن حجر في الكافي الشاف ص١٥٩ الثعلبي من رواية جميل بن الحسن عن أرطأة بن الأشعث العدوي عن جعفر بن محمد عن أبيه عن علي ﷺ عن النبي ﷺ قال: «مقعد ملكيك» فذكره. اهـ. وأرطاة بن أشعث؛ قال الذهبي في ميزان الاعتدال ١/ ١٧٠ : هالك.

(٧) في (م): الثغر.

قال: وكان الحسن يُعجبه أن ينظف عَنْفَقته[١].

وإنما قال: «قَعِيدٌ» ولم يقل: قعيدان، وهما اثنان؛ لأنَّ المراد عن اليمين قعيدٌ، وعن الشمال قعيد، فحذف الأوَّل لدلالة الثاني عليه. قاله سيبويه[٢]؛ ومنه قول الشاعر:

نحنُ بما عندنا وأنتَ بما عِندكَ راضٍ والرَّأيُ مختلفُ[٣]

وقال الفرزدق:

إنِّي ضَمِنتُ لمن أتاني ما جنى وأَبَى فكان وكنتُ غيرَ غَدورِ[٤]

ولم يقل: راضيان ولا غدورين.

ومذهب المبرِّد: أنَّ الذي في التلاوة أوَّلُ، أُخِّرَ اتِّساعاً، وحذف الثاني لدلالة الأوَّل عليه. ومذهب الأخفش والفرَّاء: أنَّ الذي في التلاوة يؤدِّي عن الاثنين والجمع، ولا حذف في الكلام[٥].

و«قَعِيدٌ» بمعنى قاعد، كالسميع والعليم والقدير والشهيد. وقيل: «قَعِيدٌ» بمعنى مُقَاعد، مثل أكيل ونديم بمعنى مُؤَاكل ومُنَادم[٦].

وقال الجوهريُّ: وفَعيلٌ وفَعولٌ؛ ممَّا يستوي فيه الواحد والاثنان والجمع؛ كقوله تعالى: ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٦] وقوله: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾ [التحريم: ٤][٧]. وقال الشاعر في الجمع، أنشده الثعلبي:

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ٢٢٣.

(٢) ينظر الكتاب ١/ ٧٥-٧٦، وإعراب القرآن للنحاس ٥/ ٢٢٤، ومشكل إعراب القرآن ٢/ ٦٨٣.

(٣) البيت لقيس بن الخطيم كما نسبه سيبويه في الكتاب ١/ ٧٥. وسلف ١٠/ ١٨٨.

(٤) الكتاب ١/ ٧٦، ولم نقف عليه في ديوان الفرزدق.

(٥) معاني القرآن للأخفش ٢/ ٦٩٦، ومعاني القرآن للفراء ٣/ ٧٧، ومشكل إعراب القرآن ٢/ ٦٨٤.

(٦) الكلام بنحوه في تفسير غريب القرآن لابن قتيبة ص٤١٨.

(٧) الصحاح (قعد).

أَلِـكْـنـي إلَـيْـهـا وخـيـرُ الـرَّسـو لِ أعـلَـمُـهُـمْ بـنـواحـي الـخـبـرْ[١]

والمراد بالقعيد هاهنا: الملازمُ الثابت، لا ضدُّ القائم[٢].

قوله تعالى: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ أي: ما يتكلَّم بشيءٍ إلَّا كُتب عليه؛ مأخوذٌ من لفظ الطعام، وهو إخراجُه من الفم.

وفي الرقيب ثلاثةُ أوجه: أحدها: أنَّه المتَّبعُ[٣] للأمور. الثاني: أنَّه الحافظ؛ قاله السُّدِّي. الثالث: أنَّه الشاهد؛ قاله الضَّحَّاك.

وفي العتيد وجهان: أحدهما: أنَّه الحاضرُ الذي لا يغيب. الثاني: أنَّه الحافظُ المُعَدُّ إمَّا للحفظ وإمَّا للشهادة[٤].

قال الجوهري[٥]: العتيدُ الشيء الحاضر المُهَيَّأ؛ وقد عَتَّدَه تعتيداً، وأعْتَدَه إعْتَاداً، أي: أعدَّه ليوم، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا﴾ [يوسف: ٣١]، وفرسٌ عَتَدٌ وَعَتِدٌ؛ بفتح التاء وكسرها: المُعَدُّ للجري.

قلت: وكلُّه يرجع إلى معنى الحضور، ومنه قول الشاعر:

لـئِـن كُـنـتَ مـنِّـي فـي الـعِـيـان مُـغَـيَّـبـاً فـذِكْـرُكَ عـنـدي فـي الـفـؤادِ عَـتـيـدُ[٦]

قال أبو الجوزاء ومجاهد: يُكتبُ على الإنسان كلُّ شيءٍ حتى الأنينُ في مرضه[٧]. وقال عكرمة: لا يُكتب عليه[٨] إلَّا ما يُؤجر به أو يُؤزر عليه[٩]. وقيل:

---

(١) البيت لأبي ذؤيب الهذلي، وهو في ديوان الهذليين ١/ ١٤٦، وقوله: أَلِكْني إليها، أي: كُنْ رسولي إليها. وسلف ١٦/ ١٥.

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٢٢٢.

(٣) في (ف): المنيع، وفي النكت والعيون ـ والكلام منه ـ: المتتبع.

(٤) النكت والعيون ٥/ ٣٤٧.

(٥) في الصحاح (عتد).

(٦) لم نقف عليه.

(٧) المحرر الوجيز ٥/ ١٦٠.

(٨) لفظة: عليه. ليست في (م).

(٩) تفسير البغوي ٤/ ٢٢٢.

يُكتب عليه كلُّ ما يتكلَّم به، فإذا كان آخر النهار مُحيَ عنه ما كان مباحاً، نحو: انطلِق، اقعد، كُلْ، مما لا يتعلَّق به أجرٌ ولا وِزر[١]، والله أعلم.

وروي عن أبي هريرة وأنس أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «ما من حافظَين يرفعان إلى الله ما حفظا، فيرى اللهُ في أوَّل الصحيفة خيراً، وفي آخرها خيراً، إلَّا قال الله تعالى لملائكته: اشهدوا أنِّي قد غفرتُ لعبدي ما بين طَرَفي الصحيفة»[٢].

وقال عليٌّ ﷺ: إنَّ لله ملائكةً معهم صحفٌ بيض، فأَمْلُوا في أوَّلها وفي آخرها خيراً، يُغفر لكم ما بين ذلك[٣].

وأخرج أبو نعيم الحافظ قال: حدَّثنا أبو طاهر محمد بن الفضل بن محمد بن إسحاق بن خزيمة، قال: حدّثنا جَدِّي محمد بن إسحاق، قال: حدَّثنا محمد بن موسى الحَرَشيُّ، قال: حدَّثنا سهيل بن عبد الله، قال: سمعتُ الأعمشَ يحدِّث عن زيد بن وهب عن ابن مسعود، قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ الحافظَين إذا نزلا على العبد أو الأمَة، معهما كتابٌ مختوم، فيكتبان ما يلفظ به العبدُ أو الأمة، فإذا أرادا أنْ ينهضا، قال أحدُهما للآخر: فُكَّ الكتاب المختومَ الذي معك، فيفكُّه له، فإذا فيه ما كتب سواء، فذلك قوله تعالى: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾» غريبٌ من حديث الأعمش عن زيد، لم يروه عنه إلَّا سهيل[٤].

وروي من حديث أنس أنَّ نبيَّ الله ﷺ قال: «إنَّ الله وكَّل بعبده مَلَكين يكتبان عمله، فإذا مات قالا: ربنا قد مات فلانٌ، فأْذَنْ لنا أنْ نصعد إلى السماء، فيقولُ الله تعالى: إنَّ سماواتي مملوءةٌ من ملائكتي يسبِّحونني، فيقولان: ربنا نقيمُ في الأرض،

(١) ذكر نحو هذا القول ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ١٦٠ عن الحسن وقتادة.

(٢) أخرجه عن أنس الترمذي (٩٨١). وفي إسناده تمام بن نجيح، وهو ضعيف. وقال ابن الجوزي في العلل المتناهية ١/ ٤٥ : هذا حديثٌ لا يصح، قال ابن حبان: تمام يروي أشياء موضوعة عن الثقات، كأنه المتعمد لها.

(٣) ذكر نحوه الإمام السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٣٦ . وعزاه للطبري.

(٤) حلية الأولياء ٤/ ١٧٣، ٥/ ٥٧ .

فيقولُ الله تعالى: إنَّ أرضي مملوءةٌ من خلقي يسبِّحونني، فيقولان: يارب، فأين نكون؟ فيقولُ الله تعالى: قوما[١] على قبر عبدي، فكبِّراني وهلِّلاني وسبِّحاني[٢]، واكتبا ذلك لعبدي إلى يوم القيامة»[٣].

قوله تعالى: ﴿وَجَآءَتۡ سَكۡرَةُ ٱلۡمَوۡتِ بِٱلۡحَقِّۖ﴾ أي: غمرتُه وشدَّتُه؛ فالإنسانُ مادام حيًّا تُكتَبُ عليه أقواله وأفعاله، ليُحاسَبَ عليها، ثم يجيئُهُ الموت، وهو ما يراه عند المعاينة من ظهور الحقِّ فيما كان الله تعالى وعدَه وأوعده. وقيل: الحقُّ هو الموت، سُمِّي حقًّا؛ إمَّا لاستحقاقه، وإمَّا لانتقاله إلى دار الحقّ، فعلى هذا يكون في الكلام تقديمٌ وتأخير، وتقديره: وجاءت سكرةُ الحقِّ بالموت[٤]، وكذلك في قراءة أبي بكر وابن مسعود رضي الله عنهما[٥]؛ لأنَّ السَّكرة هي الحقّ، فأُضيفتْ إلى نفسها لاختلاف اللفظين.

وقيل: يجوز أنْ يكون الحقُّ على هذه القراءة هو الله تعالى؛ أي: جاءت سكرةُ أمر الله تعالى بالموت. وقيل: الحقُّ هو الموتُ، والمعنى وجاءت سكرةُ الموت بالموت[٦]؛ ذكره المهدويُّ.

وقد زعم من طعن على القرآن فقال: أُخالفُ المصحفَ كما خالفه[٧] أبو بكر

(١) في (م): كونا.

(٢) في (ف) و(ق): واذكراني، وفي (ظ): وسبحاني واذكراني.

(٣) أخرجه أبو الشيخ في العظمة (٥٠٥)، والبيهقي في شعب الإيمان (٩٩٣١). وفي إسناده عثمان بن مطر. قال ابن الجوزي في الموضوعات ٤/ ٩٧ : وهذا لا يصح، وقد اتفقوا على تضعيف عثمان بن مطر، وقال ابن حبان: يروي الموضوعات عن الإثبات، لا يحلُّ الاحتجاج به.

(٤) النكت والعيون ٥/ ٣٤٧-٣٤٨ .

(٥) القراءات الشاذة ص١٤٤ ، والمحتسب ٢/ ٢٨٣ عن أبي بكر ﷺ، وهي عن ابن مسعود في إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٢٥ ، والنكت والعيون ٥/ ٣٤٨ .

(٦) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٢٥ .

(٧) في (م): خالف.

الصدِّيقُ، فقرأ: وجاءت سكرة الحقِّ بالموت. فاحتجَّ عليه بأنَّ أبا بكر رُويت عنه روايتان: إحداهما موافقةٌ للمصحف، فعليها العمل، والأخرى مرفوضةٌ، تجري مَجرى النسيان منه إنْ كان قالها، أو الغلط من بعض من نَقَل الحديث.

قال أبو بكر الأنباريّ: حدَّثنا إسماعيل بن إسحاق القاضي، حدَّثنا علي بن عبد الله، حدَّثنا جرير، عن منصور، عن أبي وائل، عن مسروق قال: لما احتُضِرَ أبو بكرٍ أرسلَ إلى عائشةَ، فلما دخلتْ عليه قالت: هذا كما قال الشاعر:

إذا حَشْرَجَتْ يوماً وضاقَ بها الصَّدْرُ[١]

فقال لها أبو بكر: هلَّا قُلتِ كما قال الله: ﴿وَجَآءَتۡ سَكۡرَةُ ٱلۡمَوۡتِ بِٱلۡحَقِّۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنۡهُ تَحِيدُ﴾ وذكر الحديث[٢]. والسَّكْرة واحدة السَّكَرات.

وفي الصحيح عن عائشة أنَّ رسول الله ﷺ كانت بين يديه رَكوةٌ ـ أو عُلْبةٌ ـ فيها ماء، فجعل يُدخل يديه في الماء، فيمسحُ بهما وجهه ويقول: «لا إله إلَّا الله، إنَّ للموت سكرات». ثم نصب يده فجعل يقول: «في الرفيق الأعلى» حتى قُبض ومالتْ يده. خرَّجه البخاري[٣].

ورُوي عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال: «إنَّ العبدَ الصالح لَيُعالجُ الموتَ وسكراته، وإنَّ مفاصله لَيُسلِّمُ بعضُها على بعض، تقول: السَّلامُ عليك، تفارقني وأفارقُك إلى يوم القيامة»[٤].

---

(١) هو عجز بيت لحاتم الطائي، وهو في ديوانه ص٥٠ ، وفيه: النفس. بدل: يوماً. وصدره: أماويَّ ما يغني الثراء عن الفتى

والحشرجة: هي الغرغرة عند الموت وتردد النفَس. الصحاح (حشرج).

(٢) وأخرجه ابن سعد في الطبقات الكبرى ٣/ ١٩٥ ، وأحمد في الزهد ص١٣٦ من طريق إسماعيل بن أبي خالد عن عبد الله البهي مولى الزبير عن عائشة رضي الله عنها.

(٣) في صحيحه (٤٤٤٩)، وسلف ٧/ ٤٠٨ .

(٤) لم نقف عليه.

وقال عيسى ابن مريم: يا معشر الحواريين، ادعوا الله أن يهوّن عليكم هذه السَّكْرة. يعني: سَكَرات الموت.

وروي: إنَّ الموتَ أشدُّ مَن ضربٍ بالسيوف، ونشرٍ بالمناشير، وقرضٍ بالمقاريض[١].

﴿ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ أي: يقال لمن جاءته سكرةُ الموت: ذلك ما كنتَ تفرُّ منه، وتميلُ عنه. يقال: حادَ عن الشيء يَحيدُ حُيُوداً وحَيْدَة وحَيْدُودَةً: مال عنه وعَدَل، وأصلُه: حَيَدَودة بتحريك الياء فسكنت؛ لأنَّه ليس في الكلام فَعْلُولٌ غير صَعْفُوق[٢]. وتقولُ في الإخبار عن نفسك: حِدْتُ عن الشيء أَحِيد حَيْداً ومَحِيداً: إذا ملتَ عنه[٣]؛ قال طَرَفة:

أبا منذرٍ رُمْتَ الوفاءَ فَهِبتَهُ وحِدْتَ كما حادَ البعيرُ عن الدَّحْضِ[٤]

قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِۚ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾ وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾ لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾ هي النفخةُ الآخرة للبعث ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ﴾: الذي وعده الله للكفار أنْ يعذِّبهم فيه. وقد مضى الكلام في النفخ في الصور مستوفًى. والحمد لله[٥].

قوله تعالى: ﴿وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ اختُلِف في السائق والشهيد؛ فقال ابن عباس: السائقُ من الملائكة، والشهيدُ من نفسه. وقال الضَّحَّاك: السائقُ من

(١) أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق ٢٢/٤١٦ من قول شداد بن أوس.

(٢) الصحاح (حيد)، والصَّعفُوق اللئيم.

(٣) تفسير البغوي ٤/ ٢٢٣.

(٤) سلف ١٣/ ٣١٢.

(٥) ٨/ ٤٣٠-٤٣١.

الملائكة، والشهيدُ[١] من أنفسهم؛ الأيدي والأرجل[٢]؛ رواه العوفيُّ عن ابن عباس[٣].

وقال أبو هريرة: السائقُ: الملَك، والشهيدُ: العمل[٤].

وقال الحسن وقتادة: المعنى: سائقٌ يسوقها، وشاهدٌ يشهدُ عليها بعملها[٥].

وقال ابنُ مسلم: السائقُ قرينها من الشياطين؛ سُمِّي سائقاً؛ لأنَّه يتبُعها وإنْ لم يحثَّها[٦].

وقال مجاهد: السائقُ والشهيدُ ملَكان[٧].

وعن عثمان بن عفان ﷺ أنَّه قال وهو على المنبر: ﴿وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ﴾؛ سائقٌ: مَلَكٌ يسوقُها إلى أمر الله، وشهيدٌ: ملكٌ[٨] يشهدُ عليها بعملها[٩].

قلت: هذا أصحُّ؛ فإنَّ في حديث جابر بن عبد الله قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إنَّ ابنَ آدم لفي غفلة ممَّا[١٠] خلقَه الله عزَّ وجلَّ له، إنَّ الله لا إله غيرُه إذا أراد خَلْقَهُ قال للملَك: اكتبْ رزقَه وأثرَه وأجلَه، واكتب[١١] شقيًّا أو سعيداً، ثم يرتفعُ ذلك المَلَك، ويَبعثُ الله ملكا آخر فيحفظه حتى يُدْرِك، ثم يبعث الله ملكين يكتبان

(١) من قوله: من نفسه. إلى هذا الموضع ساقط من (م).

(٢) أخرج القولين الطبريُّ ٢١/ ٤٣٠-٤٣١ .

(٣) تفسير البغوي ٤/ ٢٢٣ .

(٤) المحرر الوجيز ٥/ ١٦١ .

(٥) أخرج قولهما الطبري ٢١/ ٤٣٠-٤٣١ .

(٦) ذكره ابن الجوزي في زاد المسير ٨/ ١٣ دون نسبة.

(٧) تفسير مجاهد ٢/ ٦١١ ، وأخرجه الطبري ٢١/ ٤٣٠ .

(٨) لفظة: ملك. ليست في (م).

(٩) أخرجه الطبري ٢١/ ٤٢٩ .

(١٠) في (م): عما.

(١١) في (م): واكتبه.

حسناتِه وسيئاتِه، فإذا جاءه الموتُ ارتفعَ ذلك الملَكان، ثم جاءَه[1] ملك الموت عليه السلام فيقبِضُ روحَه، فإذا أُدْخِل حفرتَه ردَّ الروح في جسده، ثم يرتفعُ ملك الموت، ثم جاءه ملَكا القبر فامتحناه، ثم يرتفعان، فإذا قامت الساعة انحطَّ عليه ملَك الحسنات وملَك السيئات، فأنشطا كتاباً معقوداً في عنقه، ثم حضرا معه، واحد سائقٌ، والآخر شهيد، ثم قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾. قال رسول الله ﷺ: ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾ [الانشقاق: ١٩] قال: «حالاً بعد حال»، ثم قال النبيُّ ﷺ: «إنَّ قُدَّامكم أمراً عظيماً، فاستعينوا بالله العظيم».

خرَّجه أبو نعيم الحافظ من حديث [أبي] جعفر محمد[2] بن علي، عن جابر. وقال فيه هذا حديثٌ غريبٌ من حديث [أبي] جعفر، وحديثُ جابرٍ تفرَّد به عنه جابر الْجُعفيُّ وعنه المفضَّل[3].

ثم في الآية قولان: أحدُهما: أنَّها عامةٌ في المسلم والكافر؛ وهو قول الجمهور. الثاني: أنَّها خاصةٌ في الكافر؛ قاله الضحاك[4].

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ﴾ قال ابنُ زيد: المراد به النبيُّ ﷺ؛ أي: لقد كنتَ يا محمدُ في غفلةٍ من الرسالة في قريش في جاهليتهم[5].

وقال ابن عباس والضحاك: إنَّ المرادَ به المشركون، أي: كانوا في غفلةٍ من عواقب أمورهم[6]. وقال أكثر المفسرين: إنَّ المرادَ به البرُّ والفاجر. وهو

---

(١) في (م): جاء.

(٢) في النسخ: من حديث جعفر بن محمد بن علي. وهو خطأ، والمثبت من المصادر.

(٣) حلية الأولياء ٣/ ١٩٠ ، وأخرجه أيضاً أبي حاتم كما في تفسير ابن كثير ٨/ ٣٦١ والدر المنثور ٦/ ١٠٦ .
قال ابن كثير: هذا حديث منكر، وإسناده فيه ضعفاء، ولكن معناه صحيح.

(٤) النكت والعيون ٥/ ٣٤٩ .

(٥) أخرجه الطبري ٢١/ ٤٣٤ ، وضعَّفه ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ١٦٢ .

(٦) أخرجه عن ابن عباس الطبريُّ ٢١/ ٤٣٤ .

اختيار الطبري[١].

وقيل: أي لقد كنتَ أيُّها الإنسان في غفلةٍ عن أنَّ كلَّ نفسٍ معها سائقٌ وشهيد؛ لأنَّ هذا لا يُعرف إلا بالنصوص الإلهية[٢].

﴿فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ﴾ أي: عَمَاك؛ وفيه أربعة أوجه: أحدها: إذا كان في بطن أمه فوُلد؛ قاله السدِّيّ. الثاني: إذا كان في القبر فنُشر. وهذا معنى قول ابن عباس. الثالث: وقت العَرْض في القيامة؛ قاله مجاهد. الرابع: أنه نزول الوحي وتحمُّل الرسالة. وهذا معنى قول ابن زيد[٣].

﴿فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ قيل: يراد به بصرُ القلب، كما يقال: هو بصيرٌ بالفقه؛ فبصرُ القلب وبصيرته تبصرتُه شواهدَ الأفكار ونتائج الاعتبار، كما تُبصر العين ما قابلها من الأشخاص والأجسام. وقيل: المراد به بصرُ العين وهو الظاهر[٤]، أي: بصر عينك اليوم حديد، أي: قويٌّ نافذٌ يرى ما كان محجوباً عنك.

قال مجاهد: ﴿فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ يعني: نظرك إلى لسان ميزانك حين توزن سيئاتك وحسناتك[٥]. وقاله الضَّحَّاك.

وقيل: يعاينُ ما يصيرُ إليه من ثواب وعقاب. وهو معنى قول ابن عباس[٦]. وقيل: يعني أنَّ الكافر يُحشر وبصره حديد، ثم يزرقُّ ويَعْمَى. وقُرِئ: «لَقَدْ كُنْتِ»، «عَنْكِ»، «فَبَصَرُكِ»؛ بالكسر على خطاب النفس[٧].

---

(١) في تفسيره ٢١/ ٤٣٣ . واختاره أيضاً ابن عطية في المحرر ٥/ ١٦٢ .

(٢) النكت والعيون ٥/ ٣٤٩ .

(٣) المصدر السابق.

(٤) المصدر السابق.

(٥) تفسير البغوي ٤/ ٢٢٣ ، وزاد المسير ٨/ ١٤ .

(٦) النكت والعيون ٥/ ٣٥٠ .

(٧) القراءات الشاذة ص١٤٤ .

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ ۝٢٣ أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ۝٢٤ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ۝٢٥ ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ۝٢٦ قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِي ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ۝٢٧ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ ۝٢٨ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ۝٢٩﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ قَرِينُهُۥ﴾ يعني: الملَك الموكَّل به في قول الحسن وقتادة والضَّحَّاك[١]. ﴿هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ﴾ أي: هذا ما عندي من كتابة[٢] عمله مُعَدٌّ محفوظ. وقال مجاهد: يقول: هذا الذي وكَّلتني به من بني آدم قد أَحضرتُه، وأَحضرتُ ديوان عمله[٣]. وقيل: المعنى: هذا ما عندي من العذاب حاضر.

وعن مجاهد أيضاً: قرينه الذي قُيِّض له من الشياطين[٤]. وقال ابنُ زيد في رواية ابن وهب عنه: إنَّه قرينُه من الإنس[٥].

فيقول الله تعالى لقرينه: ﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ﴾ قال الخليلُ والأخفش: هذا كلامُ العرب الصحيح[٦]؛ أنْ تُخاطب الواحد بلفظ الاثنين فتقول: ويلك ارحَلاها وازجُراها، وخُذاه وأطلقاه؛ للواحد.

قال الفرَّاء[٧]: تقول للواحد: قُوما عنَّا، وأصلُ ذلك أنَّ أدنى أعوان الرجل في إبله وغنمه ورفقته في سفره اثنان، فجرى كلامُ الرجل على صاحبيه، ومنه قولُهم للواحد في الشعر: خليليَّ[٨]، ثم يقول: يا صاح. قال امرؤ القيس:

(١) النكت والعيون ٥/ ٣٥٠ دون ذكر الضحاك.
(٢) في (ظ): كتاب.
(٣) تفسير البغوي ٤/ ٢٢٣ .
(٤) تفسير مجاهد ٢/ ٦١١ .
(٥) النكت والعيون ٥/ ٣٥٠ .
(٦) في (م): الفصيح.
(٧) في معاني القرآن ٣/ ٧٨ .
(٨) الكلام بنحوه في تفسير البغوي ٤/ ٢٢٣-٢٢٤ .

خَلِيلَيَّ مُرَّا بي على أُمِّ جُنْدَبِ نُقَضِّ لُبَانَاتِ الفُؤادِ المُعَذَّبِ[(١)]

وقال أيضاً:

قِفَا نَبْكِ مِن ذِكْرى حَبِيبٍ ومَنْزِلِ بِسَقْطِ اللِّوَى بَيْنَ الدَّخُولِ فَحَوْمَلِ[(٢)]

وقال آخر:

فإنْ تَزْجُراني يا ابنَ عَفَّانَ أنْزَجِرْ وإنْ تَدَعاني[(٣)] أحْمِ عِرْضًا مُمنَّعَا[(٤)]

وقيل: جاء كذلك؛ لأنَّ القرين يقع للجماعة والاثنين. وقال المازنيُّ: قوله: «أَلْقِيَا» يدلُّ على أَلْقِ أَلْقِ[(٥)].

وقال المبرد: هي تثنيةٌ على التوكيد، المعنى: أَلْقِ أَلْقِ، فناب «أَلْقِيَا» مناب التكرار[(٦)].

ويجوز أن يكون «أَلْقِيَا» تثنيةً على خطاب الحقيقة من قول الله تعالى يخاطبُ به الملَكين. وقيل: هو مخاطبةٌ للسائق والحافظ[(٧)].

وقيل: إنَّ الأصل: أَلْقِينْ؛ بالنون الخفيفة؛ تُقلب في الوقف ألفاً؛ فَحُمِل الوصلُ على الوقف[(٨)]. وقرأ الحسنُ: «أَلْقِيَنْ» بالنون الخفيفة[(٩)]، نحو قوله: ﴿وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ [يوسف: ٣٢] وقوله: ﴿لَنَسْفَعًۢا﴾ [العلق: ١٥].

﴿كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ﴾ أي: معاند؛ قاله مجاهد وعكرمة[(١٠)]. وقال بعضهم: العنيدُ:

---

(١) ديوان امرئ القيس ص٤١ . واللبانات. جمع لُبانة، وهي الحاجة.

(٢) ديوان امرئ القيس ص٨ ، وسلف ١٠/ ٣٦٤ .

(٣) في النسخ الخطية: تدعواني، والمثبت من المصادر.

(٤) البيت في معاني القرآن للفراء ٣/ ٧٨ ، وتفسير الطبري ٢١/ ٤٣٧ .

(٥) الكلام بنحوه في إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٢٨ ، وينظر مشكل إعراب القرآن ٢/ ٦٨٤ .

(٦) ينظر الكشاف ٤/ ٨ ، والمحرر الوجيز ٥/ ١٦٣ .

(٧) المحرر الوجيز ٥/ ١٦٣ ، والقول الأخير اختاره الزجاج في معاني القرآن ٥/ ٤٥ .

(٨) الكشاف للزمخشري ٤/ ٨ .

(٩) المحتسب ٢/ ٢٨٤ .

(١٠) ينظر تفسير البغوي ٤/ ٢٢٤ .

المعرض عن الحق. يقال: عَنَد يَعنِد ـ بالكسر ـ عُنُوداً، أي: خالف وردَّ الحقَّ وهو يعرفه، فهو عَنِيد وعانِد، وجمع العَنِيد عُنُد[١]، مثل: رغِيف ورُغُف.

﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ﴾ يعني: الزكاة المفروضة، وكلَّ حقٍّ واجب[٢].

﴿مُعْتَدٍ﴾ في منطقه وسيرته وأمره، ظالمٍ، ﴿مُّرِيبٍ﴾: شاكٌّ في التوحيد؛ قاله الحسن وقتادة[٣]. يقال: أراب الرجلُ فهو مُرِيب: إذا جاء بالريبة[٤]؛ وهو المشرك[٥]. يدلُّ عليه قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾.

وقيل: نزلت في الوليد بن المغيرة. وأراد بقوله: «مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ» أنَّه كان يمنعُ بني أخيه من الإسلام[٦].

﴿فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ﴾ تأكيدٌ للأمر الأول.

﴿قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ﴾ يعني: الشيطان الذي قُيِّضَ لهذا الكافر العنيد؛ تبرَّأ منه وكذَّبه.

﴿وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾ عن الحقِّ وكان طاغياً باختياره، وإنما دعوتُهُ فاستجابَ لي. وقرينُه هنا هو شيطانُه بغير اختلاف. حكاه المهدويُّ.

وحكى الثعلبيُّ: قال ابنُ عباس ومقاتل: قرينُه المَلَك؛ وذلك أنَّ الوليدَ بن المغيرة يقول للملَك الذي كان يكتب سيئاته: ربِّ إنَّه أعجلني، فيقول الملَك: ربَّنا ما أطغيتُه، أي: ما أعجلتُه. وقال سعيد بن جبير: يقول الكافر: ربِّ إنَّه زاد عليَّ في الكتابة، فيقول الملَك: ربَّنا ما أطغيتُه، أي: ما زدتُ عليه في الكتابة؛ فحينئذٍ يقولُ

(١) الصحاح (عند).

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٢٢٤ .

(٣) أخرجه عن قتادة الطبري ٢١/ ٤٣٩ .

(٤) الصحاح (ريب).

(٥) في (ظ): وهذا للمشرك، وفي (ق): وهذا المشرك.

(٦) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٣٥٢ ، ونسبه للضحاك.

الله تعالى: ﴿لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ﴾ يعني: الكافرين وقرناءهم من الشياطين[١]. قال القشيريّ: وهذا يدلُّ على أنَّ القرينَ الشيطان.

﴿وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ﴾ أي: أرسلتُ الرسل. وقيل: هذا خطابٌ لكلِّ من اختصم. وقيل: هو للاثنين، وجاء بلفظ الجمع.

﴿مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ﴾ قيل: هو قوله: ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠].

وقيل: هو قوله: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: ١١٩]. وقال الفرَّاء[٢]. ما يكذَّب عندي، أي: ما يُزَاد في القول ولا يُنْقَص؛ لعلمي بالغيب.

﴿وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ أي: ما أنا بمعذِّبٍ من لم يُجرم؛ قاله ابنُ عباس[٣]. وقد مضى القولُ في معناه في «الحج» وغيرها[٤].

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾ وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ قرأ نافع وأبو بكر: «يَوْمَ يَقُولُ» بالياء اعتباراً بقوله: ﴿لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ﴾. الباقون بالنون على الخطاب من الله تعالى[٥]، وهي نون التعظيم[٦]. وقرأ الحسن: «يَوْمَ أَقُولُ». وعن ابن مسعود

---

(١) ينظر تفسير البغوي ٤/ ٢٢٤ .

(٢) في معاني القرآن ٣/ ٧٩ .

(٣) النكت والعيون ٥/ ٣٥٢ .

(٤) ١٤/ ٣٢٩ ، وعند تفسير الآية ٤٦ من سورة فصلت.

(٥) السبعة ص٦٠٧ ، والتيسير ص٢٠٢ .

(٦) في (م): العظمة.

وغيره: «يَوْمَ يُقَالُ»[(١)]. وانتصب «يَوْم» على معنى: ما يبدَّل القولُ لديَّ يومَ. وقيل: بفعلٍ مقدَّرٍ معناه: وأنذرهم يومَ نَقُولُ لِجهنَّمَ هل امتلأْتِ[(٢)]، لِما سبقَ من وعده إيَّاها أنَّه يملؤها. وهذا الاستفهام على سبيل التصديق لخبره، والتحقيق لوعده[(٣)]، والتقريع لأعدائه، والتنبيه لجميع عباده.

«وتَقُولُ» جهنم: «هَلْ مِنْ مَزِيدٍ» أي: ما بقي فيَّ موضعٌ للزيادة؛ كقوله عليه الصلاة والسلام: «هل تَرَكَ لنا عَقِيلٌ من رَبْعٍ أو منزل»[(٤)] أي: ما ترك؛ فمعنى الكلام: الجحد. ويحتمل أن يكون استفهاماً بمعنى الاستزادة[(٥)]؛ أي: هل من مزيد فأُزاد[(٦)]؟ وإنمَّا صَلَح هذا للوجهين[(٧)]؛ لأنَّ في الاستفهام ضرباً من الجَحد.

وقيل: ليس ثَمَّ قولٌ، وإنَّما هو على طريق المثل، أي: إنَّها فيما يَظهرُ من حالها، بمنزلة الناطقة بذلك؛ كما قال الشاعر:

امتلأ الحوضُ وقال قَطني مَهْلاً رويداً قد ملأتَ بطني[(٨)]

وهذا تفسيرُ مجاهد وغيره؛ أي: هل فيَّ من مسلك، قد امتلأت[(٩)]. وقيل: يُنطِقُ الله النار حتى تقول هذا؛ كما تنطق الجوارح. وهذا أصحُّ على ما بيَّنَّاه في سورة الفرقان[(١٠)].

---

(١) قراءة ابن مسعود في المحتسب ٢/ ٢٨٤، وزاد نسبتها فيه للأعمش والحسن.

(٢) ينظر معاني القرآن للزجاج ٥/ ٤٦.

(٣) تفسير البغوي ٤/ ٢٢٤.

(٤) أخرجه البخاري (٣٠٥٨) من حديث أسامة بن زيد ﷺ، وعقيل هو ابن أبي طالب.

(٥) ينظر تفسير البغوي ٤/ ٢٢٤، والمحرر الوجيز ٥/ ١٦٥.

(٦) في (م) فأزداد.

(٧) في (ظ) هذين الوجهين.

(٨) البيت في الصحاح (قطط)، وسلف ٢/ ٢٥٥.

(٩) تفسير مجاهد ٢/ ٦١٢.

(١٠) ١٥/ ٣٧٨.

وفي صحيح البخاري ومسلم والترمذي[١] عن أنس بن مالك، عن النبيِّ ﷺ قال: «لا تزال جهنم يُلقى فيها وتقول: هل من مزيد؟ حتى يضعَ ربُّ العزة فيها قَدَمه، فينزوي بعضها إلى بعض، وتقول: قَطْ قَطْ[٢]، بعزَّتك وكرمك. ولا يزال في الجنة فَضلٌ، حتى يُنشئَ الله لها خَلقاً، فيُسكِنَهُم فَضْلَ الجنة» لفظ مسلم.

وفي رواية أخرى من حديث أبي هريرة: «وأمَّا النَّار فلا تمتلئ حتى يضعَ الله عليها رِجْله تقول[٣]: قَطْ قَطْ. فهنالك تمتلئ. ويُزوى[٤] بعضُها إلى بعض، فلا يظلمُ الله من خلقه أحداً، وأما الجنة فإنَّ الله ينشئُ لها خلقاً»[٥].

قال علماؤنا رحمهم الله: أما معنى القدم هنا[٦]: قومٌ يقدِّمهم الله إلى النار، قد سبق في علمه أنَّهم من أهل النار. وكذلك الرِّجْل؛ وهو العددُ الكثير من الناس وغيرهم؛ يقال: رأيتُ رِجْلاً من النَّاس، ورِجْلاً من جَراد[٧]، قال الشاعر:

فمرَّ بنا رِجْلٌ من النَّاس وانْزَوَى إليهم من الحيِّ اليمانينَ أرْجُلُ
قبائلُ من لَخْمٍ وعُكْلٍ وحِمْيَرٍ على ابْنَيْ نِزارٍ بالعَدَاوة أحْفَلُ[٨]

ويبَيِّنُ هذا المعنى ما روي عن ابن مسعود أنَّه قال: ما في النار بيتٌ، ولا

(١) صحيح البخاري (٧٣٨٤)، وصحيح مسلم (٢٨٤٨): (٣٨)، وسنن الترمذي (٣٢٧٢)، وهو عند أحمد (١٣٤٥٧)، وسلف عند تفسير الآيتين (٤٩ - ٥٠) من سورة الشورى.

(٢) قط بمعنى حسب، فهي مبنيةٌ على السكون، وقد تكسر، وتلحقها نون الوقاية إذا أضيفت، وتقال: بالدال، ويصحُّ فيها ما يصحُّ في الطاء. المفهم ١٩٦/٧ .

(٣) في (م) و(ظ): يقول لها، والمثبت من (ف) و(ق) وهو الموافق للمصادر.

(٤) في (م) و(ظ) وينزوي.

(٥) أخرجه أحمد (٨١٦٤)، والبخاري (٤٨٥٠)، ومسلم (٢٨٤٦): (٣٦). وفي البخاري ومسلم تكرار لفظة: قط. ثلاث مرات.

(٦) بعدها في (م) لفظة: فهم.

(٧) ينظر مشكل الحديث لابن فورك ص١٢٦ ، ١٣٠ .

(٨) ذكر البيت الأول منهما ابن عطية في المحرر الوجيز ١٦٦/٥ .

سلسلةٌ، ولا مِقمَع، ولا تابوت، إلا وعليه اسمُ صاحبه، فكلٌّ واحدٍ من الخزنة ينتظرُ صاحبَه الذي قد عرفَ اسمه وصفته، فإذا استوفى كلُّ واحدٍ منهم ما أُمر[١] به وما ينتظره، ولم يبقَ منهم أحد، قال الخَزَنةُ: قَطْ قَطْ، حسبُنا حسبُنا، أي: اكتفينا اكتفينا، وحينئذٍ تنزوي جهنمُ على من فيها وتنطبق، إذ لم يبق أحدٌ ينتظر. فعبَّر عن ذلك الجمع المنتظر بالرِّجل والقَدَم؛ ويشهدُ لهذا التأويل قولُه في نفس الحديث[٢]: «ولا يزالُ في الجنَّة فضلٌ حتى ينشئَ اللهُ لها خلقاً، فيسكنَهم فضل الجنة».

وقد زدنا هذا المعنى بياناً ومهَّدناه في كتاب الأسماء والصفات من الكتاب الأسنى، والحمدُ لله.

وقال النضرُ بن شُمَيل في معنى قوله عليه الصلاة والسلام: «حتى يَضَع الجبَّار فيها قَدمَهُ» أي: مَن سَبَقَ في علمه أنَّه من أهل النار.

قوله تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ أي: قُرِّبت منهم. وقيل: هذا قبلَ الدخول في الدنيا؛ أي: قُرِّبت من قلوبهم، حين قيل لهم: اجتنبوا المعاصي. وقيل: بعد الدخول؛ قُرِّبتْ لهم مواضعُهم فيها فلا تبعد. «غَيْرَ بَعِيدٍ» أي: منهم، وهذا تأكيد.

﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ﴾ أي: ويُقال لهم: هذا الجزاء الذي وُعِدتم في الدنيا على ألسنة الرسل.

وقراءة العامة: «تُوعَدُونَ»، بالتاء على الخطاب. وقرأ ابنُ كثير بالياء على الخبر[٣]؛ لأنَّه أتى بعد ذكر المتقين.

﴿لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ﴾ أوَّاب، أي: رَجَّاع إلى الله عن المعاصي، يذنب[٤] ثم يرجع، ويذنب ثم يرجع، هكذا قاله الضَّحَّاكُ وغيره. وقال ابنُ عباس وعطاء:

(١) في (ظ): فإذا استوفى ما أمر، وفي (ف) و(ق): فإذا استوفى منهم ما أمر. والمثبت من (م)، وهو الموافق للمفهم ٧/ ١٩٥-١٩٦ . والكلام منه.

(٢) يعني حديثَ أنس ﷺ السالف قريباً.

(٣) التيسير ص٢٠٢ .

(٤) قوله: يذنب. ليس في (م).

الأوَّابُ المسبِّح؛ من قوله: ﴿يَجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ﴾[١] [سبأ: ١٠]. وقال الحَكَم بن عُتيبة: هو الذاكرُ لله تعالى في الخلوة. وقال الشعبيُّ ومجاهد: هو الذي يذكر ذنوبَه في الخلوة، فيستغفر الله منها[٢]. وهو قول ابن مسعود. وقال عُبيد بن عُمير: هو الذي لا يجلس مجلساً حتى يستغفر الله تعالى فيه[٣]. وعنه قال: كنا نحدَّث أنَّ الأوَّاب الحفيظ الذي إذا قام من مجلسه قال: سبحان الله وبحمده، اللهم إني أستغفرك مما أصبتُ في مجلسي هذا[٤].

وفي الحديث: «من قال إذا قام من مجلسه: سبحانك اللهم وبحمدك، لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك، غفر الله له ما كان في ذلك المجلس»[٥]. وهكذا كان النبيُّ ﷺ يقول.

وقال بعض العلماء: أنا أُحبُّ أن أقول: أستغفرك وأسألك التوبة، ولا أحبُّ أنْ أقول: وأتوبُ إليك، إلا على حقيقته.

قلت: هذا استحسان، واتِّباعُ الحديث أولى.

وقال أبو بكر الورَّاق: هو المتوكِّل على الله في السرَّاء والضرَّاء. وقال القاسم: هو الذي لا يَشتغلُ إلَّا بالله عزَّ وجلَّ.

﴿حَفِيظٌ﴾ قال ابن عباس: هو الذي حفظ ذنوبه حتى رجع[٦] عنها. وقال قتادة: حفيظٌ لِمَا استودَعه الله من حقِّه ونعمته وأُتَمنه عليه[٧].

---

(١) المحرر الوجيز ٥/١٦٦ ، وقول ابن عباس أخرجه الطبري ٢١/ ٤٥٠ .

(٢) أخرج أقوالهم الطبري ٢١/ ٤٥٠-٤٥١.

(٣) النكت والعيون ٥/ ٣٥٣ .

(٤) المحرر الوجيز ٥/ ١٦٦ .

(٥) أخرجه أحمد (١٠٤١٥)، والترمذي (٣٤٣٣)، والنسائي في الكبرى (١٠١٥٧) من حديث أبي هريرة. وسيرد ص٥٤٢ من هذا الجزء.

(٦) في (م): يرجع.

(٧) تفسير الطبري ٢١/ ٤٥٢ .

وعن ابن عباس أيضاً: هو الحافظُ لأمر الله[(١)].

مجاهد: هو الحافظ لِحقِّ الله تعالى بالاعتراف، ولنعمه بالشكر.

قال الضَّحَّاك: هو الحافظُ لوصيَّة الله تعالى بالقبول.

وروى مكحولٌ عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من حافظ على أربعِ ركعاتٍ من أوَّل النهار، كان أوَّاباً حفيظاً» ذكره الماوردي[(٢)].

قوله تعالى: ﴿مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ﴾ «مَنْ» في محل خفضٍ على البدل من قوله: «لِكُلِّ أوَّابٍ»، أو في موضع الصفة لـ «أوّابٍ». ويجوزُ الرفع على الاستئناف، والخبر «ادْخُلُوها» على تقدير حذف جواب الشرط، والتقدير فيقال لهم: «ادْخُلُوهَا»[(٣)]. والخشية بالغيب أن تخافه ولم تره. وقال الضحاك والسُّدِّي: يعني في الخلوة حين لا يراه أحد. وقال الحسن: إذا أرخى السترَ وأغلق الباب[(٤)].

﴿وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾: مقبلٍ على الطاعة. وقيل: مخلص. وقال أبو بكر الورَّاق: علامةُ المنيب أنْ يكون عارفاً لحرمته، موالياً له، متواضعاً لجلاله، تاركاً لهوى نفسه.

قلت: ويحتمل أنْ يكون القلبُ المنيبُ القلبَ السليم؛ كما قال تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٩] على ما تقدَّم؛ والله أعلم.

﴿ٱدْخُلُوهَا﴾ أي: يقال لأهل هذه الصفات: ﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ﴾ أي: بسلامةٍ من العذاب. وقيل: بسلامٍ من الله وملائكته عليهم. وقيل: بسلامةٍ من زوال النِّعم[(٥)].

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ٢٢٥.

(٢) في النكت والعيون ٥/ ٣٥٣-٣٥٤، ومكحول لم يسمع من أبي هريرة كما ذكر ابن حجر في تهذيب التهذيب ٤/ ١٤٩ عن البزار.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٥/ ٢٣٠-٢٣١، ومشكل إعراب القرآن ٢/ ٦٨٥.

(٤) تفسير البغوي ٤/ ٢٢٥.

(٥) تفسير البغوي ٤/ ٢٢٥.

وقال: «ادْخُلُوهَا» وفي أوَّل الكلام: «مَنْ خَشِيَ»؛ لأنَّ «مَنْ» تكون بمعنى الجمع.

قوله تعالى: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا﴾ يعني: ما تشتهي[١] أنفسهم وتلذُّ أعينهم. ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ من النعم ممَّا لم يخطر على بالهم. وقال أنس وجابر: المزيدُ: النظر إلى وجه الله تعالى بلا كيف[٢].

وقد ورد ذلك في أخبار مرفوعةٍ إلى النبيِّ ﷺ في قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس:٢٦] قال: «الزيادةُ النظر إلى وجه الله الكريم»[٣].

وذكر ابن المبارك ويحيى بن سلام قالا: أخبرنا المسعوديُّ، عن المنهال بن عمرو، عن أبي عبيدة بن عبد الله بن عتبة عن ابن مسعود قال: تسارعوا إلى الجمعة، فإنَّ الله تبارك وتعالى يَبرزُ لأهل الجنَّة كلَّ يوم جمعة، في كثيبٍ من كافور أبيض، فيكونون منه في القرب. قال ابنُ المبارك: على قدر تسارعهم إلى الجمعة في الدنيا. وقال يحيى بن سلام: كمسارعتهم[٤] إلى الجمعة[٥] في الدنيا، وزاد: «فيحدثُ الله لهم من الكرامة شيئاً لم يكونوا رأوه قبل ذلك»[٦].

قال يحيى: وسمعت غيرَ المسعودي يزيد فيه: وهو[٧] قوله تعالى: ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾.

---

(١) في (م) و(ف) و(ق): تشتهيه. والمثبت من (ظ) والنكت والعيون ٥/ ٣٥٤. والكلام منه.

(٢) المحرر الوجيز ٥/١٦٦.

(٣) أخرجه بهذا اللفظ ابن عدي في الكامل ٣/ ١١٧٣، وفيه سَلْم بن سالم البلخي، وهو ضعيف، ونوح ابن أبي مريم، وهو كذاب. ويغني عنه حديث صهيب ﷺ عند مسلم (١٨١): «إذا دخل أهل الجنة الجنة...» وفي آخره: «فيكشف الحجاب. فما أُعطوا شيئاً أحبَّ إليهم من النظر إلى ربهم عز وجل» وسلف الحديثان ١٠/ ٤٨٢-٤٨٣.

(٤) في (م) و(ق): لمسارعتهم. ولم تجود في (ف).

(٥) في النسخ عدا (ق): الجمع.

(٦) هو عند ابن المبارك في الزهد (٤٣٦ ـ زوائد نعيم). وأخرجه أيضاً الطبراني في المعجم الكبير (٩١٦٩) وأبو نعيم في صفة الجنة (٣٩٦) من قول عبد الله بن عتبة. قال ابن فورك في مشكل الحديث: تفرد به المنهال بن عمرو وهو ضعيف. اهـ. قلنا والمسعودي اختلط بأخرة. الميزان ٢/ ٥٧٤.

(٧) لفظة: وهو. ليست في (ف) و(م).

قلت: قوله: «في كَثِيب» يريدُ أهلَ الجنَّة، أي: وهُم على كثيب؛ كما في مرسل الحسن، قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ أهلَ الجنة ينظرون إلى ربِّهم في كلِّ يوم جمعة، على كَثِيبٍ من كافور» الحديث. وقد ذكرناه في كتاب «التذكرة»[١].

وقيل: إنَّ المزيدَ ما يزوَّجون به من الحور العين؛ رواه أبو سعيد الخدريّ مرفوعاً[٢].

قوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴿٣٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ﴾ أي: كم أهلكنا يا محمد قبل قومك من أمَّةٍ هم أشدُّ منهم بطشاً وقوّة. ﴿فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ﴾ أي: ساروا فيها طلباً للمهرب[٣]. وقيل: أثَّروا في البلاد؛ قاله ابنُ عباس. وقال مجاهد: ضربوا وطافوا[٤]. وقال النضر ابن شميل: دَوَّروا.

وقال قتادة: طَوَّفوا[٥]. وقال المؤرِّج: تباعدوا؛ ومنه قول امرئ القيس[٦]:

وقد نَقَّبْتُ في الآفاق حتَّى ... رَضِيتُ من الغنيمةِ بالإيابِ

ثم قيل: طافوا في أقاصي البلاد طلباً للتجارات، وهل وجدوا من الموت محيصاً؟ وقيل: طوَّفوا في البلاد يلتمسون مَحيصاً من الموت. قال الحارث بن حِلِّزة:

---

(١) ص٤٩٧-٤٩٨.

(٢) وأخرجه أحمد (١١٧١٥) مطولاً.

(٣) الصحاح (نقب).

(٤) أخرج قولي ابن عباس ومجاهد الطبريُّ ٢١/ ٤٦٠.

(٥) ينظر النكت والعيون ٥/ ٣٥٥.

(٦) ديوانه ص٩٩، وسلف ٥/ ٥٧.

نَـقَّـبـوا فـي الـبـلاد مـن حَـذَرِ الـمـو ت وجـالـوا فـي الأرض كُـلَّ مـجـالِ[١]

وقرأ الحسنُ وأبو العالية: «فَنَقَبُوا» بفتح القاف وتخفيفها[٢]. والنَّقْب: هو الخرقُ والدخول في الشيء. وقيل: النقْبُ الطريقُ في الجبل، وكذلك المَنْقَبُ والمَنْقَبة؛ عن ابن السكِّيت. ونَقَبَ الجدارَ نَقْباً، واسم تلك النَّقْبة نَقْبٌ أيضاً[٣]، وجمع النَّقب النُّقُوب، أي: خرقوا البلاد وساروا في نُقوبها. وقيل: أَثَّروا فيها كتأثير الحديد فيما ينقُب.

وقرأ السُّلَميُّ ويحيى بن يَعْمَر: «فَنَقِّبُوا» بكسر القاف والتشديد على الأمر[٤]؛ للتهديد[٥] والوعيد، أي: طَوِّفوا البلادَ وسيروا فيها فانظروا هَل مِن الموت مَحِيصٌ أو مهرب؟[٦] ذكره الثعلبي.

وحكى القشيريُّ: «فَنَقِبُوا» بكسر القاف مع التخفيف[٧]، أي: أَكثَروا السيرَ فيها، حتى نَقِبت دوابُّهم.

الجوهريّ: ونَقِب البعيرُ بالكسر: إذا رَقَّتْ أخفافُه، وأنقبَ الرجلُ، إذا نَقِبَ بعيرُه، ونَقِبَ الخُفُّ الملبوسُ، أي: تخرَّق[٨].

والمَحِيصُ مصدرُ حاص عنه يَحِيص حَيْصاً، وحُيوصًا، ومَحِيصاً، ومَحاصاً، وحَيَصاناً، أي: عَدلَ وحَادَ. يقال: ما عنه مَحِيص، أي: مَحِيدٌ ومَهْرَبٌ. والانحياصُ

---

(١) ذكره الزمخشري في الكشاف ٤/ ١١، وابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ١٦٧.

(٢) نسبها في القراءات الشاذة ص١٤٤ لابن عباس وعبيد عن أبي عمرو.

(٣) الصحاح (نقب).

(٤) ذكرها ابن جني في المحتسب ٢/ ٢٨٥ عن يحيى بن يعمر.

(٥) في (ظ) و(م): بالتهديد.

(٦) في (ظ) و(م): ومهرب.

(٧) وذكرها الزمخشري في الكشاف ٤/ ١١.

(٨) الصحاح (نقب).

مثله؛ يقال للأولياء: حاصوا عن العدوّ، وللأعداء انهزموا[١].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ﴾ أي: فيما ذكرناه في هذه السورة تذكرةٌ وموعظةٌ ﴿لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ أي: عقلٌ يتدبَّر به؛ فكنَى بالقلب عن العقل؛ لأنَّه موضِعه؛ قال معناه مجاهدٌ وغيره. وقيل: لمن كان له حياةٌ ونفسٌ مميِّزةٌ، فعبَّر عن النفس الحيَّة بالقلب؛ لأنَّه وطَنُها ومعدِنُ حياتها؛ كما قال امرؤ القيس[٢]:

أغَــرَّكِ مــنِّــي أنَّ حُــبَّــكِ قــاتــلــي وأنَّـكِ مـهـمـا تـأمُـري الـقـلـبَ يـفـعـلِ

وفي التنزيل: ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا﴾ [يس: ٧٠].

وقال يحيى بن معاذ: القلبُ قلبان؛ قلبٌ محتشٍ بأشغال الدنيا، حتى إذا حضر أمرٌ من الأمور الآخرة، لم يَدْرِ ما يصنع، وقلبٌ قد احتشى بأهوال الآخرة، حتى إذا حضر أمرٌ من أمور الدنيا، لم يَدْرِ ما يصنع، لذهاب قلبه في الآخرة.

﴿أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ﴾ أي: استمعَ القرآن. تقول العرب: ألقِ إليَّ سمعك، أي: استمع[٣]. وقد مضى في «طه» كيفية الاستماع وثمرته[٤].

﴿وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ أي: شاهد القلب؛ قال الزَّجَّاج[٥]: أي: قلبه حاضرٌ فيما يسمع. وقال سفيان: أي: لا يكون حاضراً وقلبه غائب[٦].

ثم قيل: الآية لأهل الكتاب؛ قاله مجاهد وقتادة. وقال الحسن: إنَّها في اليهود والنصارى خاصة. وقال محمد بن كعب وأبو صالح: إنَّها في أهل القرآن خاصَّة[٧].

---

(١) الصحاح (حيص).

(٢) في ديوانه ص١٣ ، والكلام في النكت والعيون ٥/ ٣٥٦ .

(٣) معاني القرآن للزجاج ٥/ ٤٩ .

(٤) ١٤/ ٢٦ .

(٥) في معاني القرآن ٥/ ٤٩ .

(٦) تفسير الطبري ٢١/ ٤٦٤ بنحوه.

(٧) النكت والعيون ٥/ ٣٥٦ دون ذكر مجاهد.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ تقدَّم في «الأعراف»[١] وغيرها. واللُّغوبُ: التعبُ والإعياء، تقول منه: لَغَب يَلْغُب بالضم لُغُوباً، ولَغِب بالكسر يَلْغَب لُغُوباً، لغةٌ ضعيفةٌ فيه. وألغبته أنا، أي: أنصبته[٢].

قال قتادة والكلبي: هذه الآية نزلت في يهود المدينة؛ زعموا أنَّ الله تعالى خلق السماوات والأرض في ستة أيام، أوَّلها يوم الأحد، وآخرها يوم الجمعة، واستراح يوم السبت؛ فجعلوه راحةً، فأكذبهم الله تعالى في ذلك[٣].

قوله تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ﴿٤٠﴾﴾

فيه خمس مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ خطابٌ للنبيِّ ﷺ؛ أمرَه بالصبر على ما يقوله المشركون، أي: هَوِّنْ أمرَهم عليك. ونزلت قبل الأمر بالقتال؛ فهي منسوخة. وقيل: هو ثابتٌ للنبيِّ ﷺ وأمته. وقيل: معناه: فاصبر على ما يقوله اليهود من قولهم: إنَّ الله استراح يوم السبت[٤].

الثانية: قوله تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ﴾ قيل: إنه أراد به الصلواتِ الخمس. قال أبو صالح: قبل طلوع الشمس: صلاةُ الصبح، وقبل الغروب: صلاة العصر. ورواه جرير بن عبد الله مرفوعاً[٥]؛ قال: كنا جلوساً عند النبيِّ ﷺ إذ نظر إلى القمر ليلةَ البدر، فقال: «أمَا إنكم سترون ربَّكم كما ترون هذا

---

(١) ٩/ ٢٣٧-٢٣٨ .

(٢) الصحاح (لغب).

(٣) النكت والعيون ٥/ ٣٥٦ .

(٤) ينظر الناسخ والمنسوخ للنحاس ٣/ ٢٠-٢١ ، والكشاف ٤/ ١٢ ، والمحرر الوجيز ٥/ ١٦٨ .

(٥) النكت والعيون ٥/ ٣٥٧ .

القمر، لا تُضامُّون في رؤيته، فإن استطعتم ألّا تُغلَبوا على صلاةٍ قبل طلوع الشمس وقبل غروبها» يعني: العصر والفجر، ثم قرأ جرير: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ [طه: ١٣٠]. متفق عليه، واللفظ لمسلم[(١)].

وقال ابن عباس: ﴿قَبْلَ ٱلْغُرُوبِ﴾: الظهر والعصر ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ﴾ يعني: صلاة العشاءين[(٢)].

وقيل: المراد تسبيحُه بالقول تنزيهاً قبل طلوع الشمس وقبل الغروب؛ قاله عطاء الخُراسانيُّ وأبو الأحوص[(٣)].

وقال بعض العلماء في قوله تعالى: ﴿قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ﴾ قال: ركعتي الفجر ﴿وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ﴾ الركعتين قبل المغرب[(٤)].

وقال ثُمامة بن عبد الله بنِ أنس[(٥)]: كان ذوو الألباب من أصحاب محمدٍ ﷺ يُصلُّون الركعتين قبل المغرب.

وفي صحيح مسلم عن أنس بن مالك قال: كنا بالمدينة، فإذا أذَّن المؤذن لصلاة المغرب، ابتدروا السَّواريَ فركعوا ركعتين، حتى إنَّ الرجل الغريبَ ليدخلُ المسجدَ فيحسب أنَّ الصلاةَ قد صُلِّيت مِن كثرة من يصلِّيهما[(٦)].

وقال قتادة: ما أدركتُ أحداً يُصلِّي الركعتينِ قبل المغرب[(٧)] إلَّا أنسًا وأبا بَرْزَة الأسلمي.

---

(١) صحيح البخاري (٥٥٤)، وصحيح مسلم (٦٣٣). وسلف ٤/ ١٨٠ .

(٢) المحرر الوجيز ٥/ ١٦٨ .

(٣) ذكره عن أبي الأحوص الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٣٥٧ .

(٤) المحرر الوجيز ٥/ ١٦٩ .

(٥) ابن مالك الأنصاري، روى عن جده أنس بن مالك والبراء بن عازب رضي الله عنهما، وكان من العلماء الصادقين، ولي قضاء البصرة، وكان يقول: صحبت جدي ثلاثين سنة. السير ٥/ ٢٠٤ . والأثر أخرجه عبد الرزاق في المصنف (٣٩٨٢).

(٦) صحيح مسلم (٨٣٧)، والقطعة الأولى منه عند أحمد (١٣٩٨٣)، والبخاري (٥٠٣) (٦٢٥).

(٧) قوله: قبل المغرب ليس في (م)، والمثبت من النسخ الخطية، وهو الموافق لما في المحرر الوجيز ٥/ ١٦٩ ، والكلام منه.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَـٰرَ ٱلسُّجُودِ﴾ فيه أربعة أقوال: الأول: هو تسبيح الله تعالى في الليل، قاله أبو الأحوص. الثاني: أنها صلاة الليل كلِّه، قاله مجاهد. الثالث: أنها ركعتا الفجر، قاله ابن عباس. الرابع: أنها صلاة العشاء الآخِرة، قاله ابن زيد(١).

قال ابن العربي: مَن قال: إنه التسبيح في الليل، فيعضده الصحيح: «مَنْ تَعارَّ من الليل فقال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر، ولا حول ولا قوَّة إلا بالله(٢)». وأما مَن قال: إنها الصلاة بالليل، فإنَّ الصلاةَ تسمَّى تسبيحاً لِمَا فيها من تسبيح الله، ومنه سُبْحةُ الضُّحى. وأما مَن قال: إنها صلاةُ الفجر والعشاء، فلأنَّهما من صلاة الليل، والعشاءُ أوضحه.

الرابعة: قوله تعالى: ﴿وَأَدْبَـٰرَ ٱلسُّجُودِ﴾ قال عمر وعليٌّ وأبو هريرة والحسن بن عليٍّ والحسن البصريُّ والنَّخَعيُّ والشعبيُّ والأوزاعيُّ والزُّهريُّ: أدبار السجود الركعتان بعد المغرب، وأدبار النجوم الركعتان قبل الفجر، ورواه العوفيُّ عن ابن عباس(٣)، وقد رفعه ابن عباس، قال: قال رسول الله ﷺ: «ركعتان بعد المغرب أدبارُ السجود» ذكره الثعلبي. ولفظ الماوردي: وروي عن ابن عباس قال: بِتُّ ليلةً عند النبيِّ ﷺ، فصلَّى ركعتين قبل الفجر، ثم خرج إلى الصلاة فقال: «يا ابن عباس، ركعتان قبل الفجر أدبار النجوم، وركعتان بعد المغرب أدبار السجود»(٤).

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٣٥٧.

(٢) بعدها في (ف) و(م): العلي العظيم. وتمام الحديث كما في أحكام القرآن ٤/ ١٧١٥: كفر عنه وغفر له. وبنحوه أخرجه أحمد (٢٢٦٧٣)، والبخاري (١١٥٤) من حديث عبادة بن الصامت ﷺ. وسيرد ص٥٤٣ من هذا الجزء.

(٣) تفسير البغوي ٤/ ٢٢٧، وينظر تفسير الطبري ٢١/ ٤٦٩-٤٧٢، ٦٠٨-٦١٠، وإعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٣٢-٢٣٣، والنكت والعيون ٥/ ٣٥٧.

(٤) النكت والعيون ٥/ ٣٥٧، وأخرجه الترمذي (٣٢٧٥)، وسيرد ص٥٤٦ من هذا الجزء.

وقال أنس: قال النبيُّ ﷺ: «مَن صلَّى ركعتين بعد المغرب قبل أن يتكلَّم، كتبت صلاتُه في عِلِّيين»(١). قال أنس: فقرأ في الركعة الأولى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ وفي الثانية: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ قال مقاتل: ووقتها ما لم يَغب الشفقُ الأحمر(٢).

وعن ابن عباس أيضاً: هو الوتر(٣). وقال ابن زيد: هو النوافل بعد الصلوات(٤)، ركعتان بعد كلِّ صلاةٍ مكتوبة، قال النَّحاس: والظاهرُ يدلُّ على هذا، إلَّا أنَّ الأَولى اتِّباع الأكثر، وهو صحيحٌ عن عليِّ بن أبي طالب ﷺ(٥).

وقال أبو الأحوص: هو التسبيحُ في أدبار السجود. قال ابن العربي: وهو الأقوى في النظر. وفي صحيح الحديث: أنَّ النبيَّ ﷺ كان يقول في دُبُر الصلاة المكتوبة: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كلِّ شيءٍ قدير، اللهمَّ لا مانع لما أعطيتَ، ولا معطيَ لما منعتَ، ولا ينفعُ ذا الجَدِّ منك الجَدُّ»(٦).

وقيل: إنه منسوخٌ بالفرائض، فلا يجبُ على أحدٍ إلَّا خمسُ صلوات، نَقَلَ ذلك الجماعة(٧).

الخامسة: قرأ نافعٌ وابن كثير وحمزة: «وَإِدْبَارَ السُّجُودِ» بكسر الهمزة على المصدر، مِن: أدبر الشيءُ إدباراً: إذا وَلَّى. الباقون بفتحها، جمع دُبُر(٨). وهي قراءة

(١) أخرجه الدارقطني في غرائب مالك وقال: هذا موضوع، قاله الحافظ ابن حجر في الكافي الشاف ص١٥٩، وقال في اللسان ٢/ ٢٤٨: خبر باطل.

(٢) قوله: الأحمر، من (م).

(٣) الكشاف ٤/ ١٢.

(٤) النكت والعيون ٥/ ٣٥٧.

(٥) الناسخ والمنسوخ ٣/ ٢٣-٢٤.

(٦) أحكام القرآن ٤/ ١٧١٦، والحديث أخرجه أحمد (١٨١٣٩)، والبخاري (٨٤٤)، ومسلم (٥٩٣) عن المغيرة بن شعبة ﷺ.

(٧) الناسخ والمنسوخ ٣/ ٢٤.

(٨) السبعة ص٦٠٧، والتيسير ص٢٠٢.

عليٍّ وابنِ عباس، ومثالُها: طُنُب وأطناب، أو دُبْر، كَقُفْل وأقفال. وقد استعملوه ظرفاً، نحو: جئتك في دبر الصلاة، وفي أدبار الصلاة.

ولا خلاف في آخر «والطُّورِ»: ﴿وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ﴾ [الآية: ٤٩] أنه بالكسر مصدر(١)، وهو ذهاب ضوئها إذا طلع الفجر الثاني، وهو البياض المنشقُّ من سواد الليل.

قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾ يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ مفعول الاستماع محذوف؛ أي: استمع النداء أو الصوت أو الصيحة، وهي صيحةُ القيامة، وهي النفخة الثانية، والمنادي جبريل. وقيل: إسرافيل.

الزمخشري(٢): وقيل: إسرافيلُ ينفخ، وجبريلُ ينادي، فينادي بالحشر ويقول: هَلُمُّوا إلى الحساب، فالنداء على هذا في المحشر. وقيل: واستمع نداءَ الكفار بالويل والثُّبور من مكان قريب، أي: يسمعُ الجميع فلا يَبْعُدُ أحدٌ عن ذلك النداء. قال عكرمة: ينادي منادي الرحمن، فكأنَّما ينادي في آذانهم. وقيل: المكانُ القريب: صخرةُ بيت المقدس. ويقال: إنَّها وسطُ الأرض، وأقرب الأرض من السماء باثني عشر ميلاً. وقال كعب: بثمانية عشر ميلاً، وذكر الأوَّلَ القشيريُّ والزمخشري(٢)، والثانيَ الماوردي(٣). فيقف جبريل أو إسرافيل على الصخرة، فينادي بالحشر: أيتها العظامُ البالية، والأوصالُ المتقطِّعة، ويا عظاماً نخرة، ويا أكفاناً فانية، ويا قلوباً خاوية، ويا أبداناً فاسدة، ويا عيوناً سائلة، قوموا لعرض ربِّ العالمين. قال قتادة:

---

(١) بنحوه في إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٣٣ .

(٢) في الكشاف ٤/ ١٢ .

(٣) في النكت والعيون ٥/ ٣٥٨ ، وأخرجه الطبري ٢١/ ٤٧٥ .

هو إسرافيل صاحب الصُّور.

﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ﴾ يعني: صيحةَ البعث. ومعنى «الخُرُوج» الاجتماعُ إلى الحساب. ﴿ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ﴾ أي: يوم الخروج من القبور.

﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ﴾: نميتُ الأحياءَ ونحيي الموتى؛ أثبت هنا الحقيقة.

﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا﴾ إلى المنادي صاحب الصُّور؛ إلى بيت المقدس ﴿ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ أي: هيِّن سهل. وقرأ الكوفيون: «تَشَقَّقُ» بتخفيف الشين على حذف التاء الأولى. الباقون بإدغام التاء في الشين. وأثبت ابن محيصن وابن كثير ويعقوب ياء «المنادي» في الحالين على الأصل، وأثبتها نافعٌ وأبو عمرو في الوصل لا غير، وحذفَ الباقون في الحالين[(١)].

قلت: وقد زادت السنَّة هذه الآية بياناً، فروى الترمذيُّ[(٢)] عن معاويةَ بن حَيْدة، عن النبيِّ ﷺ في حديث ذَكَره، قال: وأشار بيده إلى الشام فقال: «هاهنا إلى هاهنا تحشرون ركباناً ومشاةً، وتُجرُّون على وجوهكم يوم القيامة؛ على أفواهكم الفِدَام، تُوفُون سبعين أمة، أنتم خيرُهم وأكرمهم على الله، وإنَّ أوَّلَ ما يُعْرِب عن أحدكم فَخِذُه»[(٣)] في رواية أخرى[(٤)]: «فَخِذُه وكفُّه».

وخرَّج عليُّ بن معبد عن أبي هريرة، عن النبيِّ ﷺ في حديثٍ ذَكَره: ثم يقول - يعني الله تعالى - لإسرافيل: «انفخْ نفخةَ البعث، فينفخُ، فتخرجُ الأرواحُ كأمثال

---

(١) السبعة ص٦٠٧ ، والتيسير ص٢٠٢ ، والنشر ٢/ ٣٧٦ . ووافق الكوفيين في تخفيف الشين من قوله: «تشقق» أبو عمرو البصري من السبعة.

(٢) في (ق): المهدوي.

(٣) أخرجه الترمذي مفرقاً (٢٤٢٤)، (٣٠٠١)، (٣١٤٣). وأخرجه بلفظ المصنف النسائي في الكبرى (١١٣٦٧)، وأخرجه أحمد (٢٠٠١١) بنحوه. والفدام: ما يشد على فم الإبريق والكوز من خرقة لتصفية الشراب الذي فيه، أي أنهم يمنعون الكلام بأفواههم حتى تتكلم جوارحهم. النهاية (فدم). وسلف عند تفسير الآية (٦٥) من سورة يس.

(٤) أخرجها أحمد (٢٠٠٤٣).

النحل، قد ملأت ما بين السماء والأرض، فيقول الله عزَّ وجلَّ: وعزَّتي وجلالي لَيَرجعنَّ كلُّ رُوحٍ إلى جسده، فتدخل الأرواح في الأرض إلى الأجساد، ثم تدخلُ في الخياشيم، فتمشي في الأجساد مشيَ السُّمِّ في اللَّديغ، ثم تنشقُّ الأرضُ عنكم، وأنا أوَّلُ مَن تنشقُّ عنه الأرض، فتخرجون منها شباباً كلُّكم أبناء ثلاثٍ وثلاثين، واللسانُ يومئذٍ بالسُّريانيَّة» وذَكَر الحديث[١]، وقد ذكرنا جميع هذا وغيرَه في «التذكرة»[٢] مستوفى، والحمدُ لله.

قوله تعالى: ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ﴾ أي: من تكذيبك وشتمك ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ﴾ أي: بمسلَّط تُجْبرهم على الإسلام؛ فتكون الآية منسوخةً بالأمر بالقتال[٣].

والجبَّار من الجبريَّة والتسلُّط، إذ لا يقال جبَّارٌ بمعنى مُجبِر، كما لا يقال: خرَّاج بمعنى مُخرِج؛ حكاه القشيري.

النحاس[٤]: وقيل: معنى جبَّار: لست تُجبِرهم، وهو خطأ؛ لأنه لا يكون فَعَّال مِن أفعل. وحكى الثعلبيّ: وقال ثعلب: قد جاءت أحرف: فَعَّال بمعنى مُفعِل، وهي شاذَّة، جبَّار بمعنى مُجبِر، ودرَّاك بمعنى مُدرِك، وسَرَّاع بمعنى مُسرِع، وبكَّاء بمعنى مُبكٍ، وعدَّاء بمعنى مُعدٍ. وقد قُرئ: «وما أهديكم إلا سبيلَ الرَّشَّاد»[٥] [غافر:٢٩] بتشديد الشين بمعنى المرشد، وهو موسى.

وقيل: هو الله عزَّ وجلَّ[٦].

---

(١) لم نقف على رواية علي بن معبد، وأخرجه الطبراني في الأحاديث الطوال (٣٦ المعجم الكبير ٢٥/٢٦٦)، وأبو الشيخ في العظمة (٣٨٨) عن محمد بن كعب، عن أبي هريرة. وأخرجه البيهقي في البعث والنشور (٦٦٩) عن محمد بن كعب القرظي، عن رجل من الأنصار، عن أبي هريرة ﷺ. قال ابن كثير في تفسير سورة الأنعام الآية (٧٣): هذا حديث مشهور، وهو غريب جداً.

(٢) ص٢٠٢ ، ٢٠٧ فما بعد.

(٣) الوسيط للواحدي ٤/ ١٧٢ ، وزاد المسير ٨/ ٢٦ .

(٤) في إعراب القرآن ٤/ ٢٣٤ .

(٥) هي قراءة معاذ بن جبل ﷺ كما في القراءات الشاذة ص١٣٢ .

(٦) في النكت والعيون ٥/ ٣٥٨ : يعني بربّ، قاله الضحاك؛ لأن الجبار هو الله تعالى سلطانه.

وكذلك قرئ: «أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَّاكِينَ» [الكهف: ٧٩] يعني: ممسكين. وقال أبو حامد الخارْزَنجيّ: تقول العرب: سيف سَقَّاط بمعنى مُسقِط.

وقيل: «بِجَبَّارٍ»: بمسيطر كما في الغاشية: ﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ [الآية: ٢٢].

وقال الفرَّاء[١]: سمعتُ من العرب مَن يقول: جَبَره على الأمر، أي: قهره، فالجبَّار من هذه اللغة بمعنى القهر صحيح. وقيل: الجبَّار من قولهم: جبرته على الأمر، أي: أجبرته. وهي لغة كنانية، وهما لغتان.

الجوهري[٢]: وأجبرته على الأمر: أكرهته عليه، وأجبرته - أيضاً - نسبته إلى الجبر، كما تقول: أكفرتُه، إذا نسبتَه إلى الكفر.

﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ قال ابن عباس: قالوا: يا رسول الله، لو خوَّفتنا، فنزلت: ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ أي: ما أعددتُه لمن عصاني من العذاب[٣]؛ فالوعيد العذاب، والوعد الثواب، قال الشاعر[٤]:

وإنِّيَ إن[٥] أوْعَدْتُهُ أو وَعَدْتُهُ لَمُخْلِفُ إيعادي ومُنجزُ موعدي

وكان قتادةُ يقول: اللَّهمَّ اجعلْنا ممن يخافُ وعيدَكَ ويرجو موعدَكَ[٦].

وأثبت الياءَ في «وَعِيدِي» يعقوبُ في الحالين، وأثبتها ورشٌ في الوصلِ دون الوقف، وحذفَ الباقون في الحالين[٧]. والله أعلم.

تَمَّ تفسيرُ سورة «ق» والحمدُ لله.

---

(١) في معاني القرآن ٣/ ٨١.

(٢) في الصحاح (جبر).

(٣) أخرجه الطبري ٢١/ ٤٧٨.

(٤) هو عامر بن الطفيل، والبيت في ديوانه ص٥٨.

(٥) المثبت من (ق)، وهو الموافق للديوان وفي غير (ق): وإن. وسلف ٥/ ٤٧٨.

(٦) النكت والعيون ٥/ ٣٥٩.

(٧) التيسير ص٢٠٢، والنشر ٢/ ٣٧٦.

تفسير سورة ق

وهى مكية.

وهذه السورة هى أول الحزب المفصل على الصحيح، وقيل: من الحجرات. وأما ما يقوله العامة[١]: إنه من (عَمّ) فلا أصل له، ولم يقله أحد من العلماء المعتبرين[٢] فيما نعلم. والدليل على أن هذه السورة هى أول المفصل ما رواه أبو داود فى سننه، باب «تحزيب القرآن» ثم قال:

حدثنا مُسَدَّد، حدثنا قُرَّان بن تمام، (ح) وحدثنا عبد الله بن سعيد أبو سعيد الأشج، حدثنا أبو خالد سليمان بن حيان ـ وهذا لفظه ـ عن عبد الله بن عبد الرحمن بن يعلى، عن عثمان بن عبد الله ابن أوس، عن جده ـ قال عبد الله بن سعيد: حدثنيه أوس بن حذيفة ـ ثم اتفقا. قال: قدمنا على رسول الله ﷺ فى وفد ثقيف، قال: فنزلت الأحلاف على المغيرة بن شعبة، وأنزل رسول الله ﷺ بنى مالك فى قُبة له ـ قال مسَدَّد: وكان فى الوفد الذين قدموا على رسول الله ﷺ من ثقيف، قال: كان رسول الله [ﷺ][٣] كل ليلة يأتينا بعد العشاء يحدثنا ـ قال أبو سعيد: قائما على رجليه حتى يراوح بين رجليه من طول القيام ـ فأكثر ما يحدثنا ما لقى من قومه قريش، ثم يقول: لا سواء[٤] وكنا مستضعفين مستذلين ـ قال مُسدَّد: بمكة ـ فلما خرجنا إلى المدينة كانت سجال الحرب بيننا وبينهم، ندال عليهم ويدالون علينا. فلما كانت ليلة أبطأ[٥] عن الوقت الذى كان يأتينا فيه، فقلنا: لقد أبطأت عنا[٦] الليلة! قال: «إنه طرأ على حزبى من القرآن، فكرهت أن أجيء حتى أتمه». قال أوس: سألت أصحاب رسول الله ﷺ: كيف تحزبون القرآن؟ فقالوا: ثلاث، وخمس، وسبع، وتسع، وإحدى عشرة، وثلاث عشرة، وحزب المفصل وحده.

ورواه ابن ماجه عن أبى بكر بن أبى شيبة، عن أبى خالد الأحمر، به. ورواه الإمام أحمد عن عبد الرحمن بن مهدى، عن عبد الله بن عبد الرحمن، هو ابن[٧] يعلى الطائفى به[٨].

إذا علم هذا، فإذا عددت ثمانيا وأربعين سورة، فالتى بعدهن سورة «ق». بيانه: ثلاث: البقرة، وآل عمران، والنساء. وخمس: المائدة، والأنعام، والأعراف، والأنفال، وبراءة. وسبع: يونس، وهود، ويوسف، والرعد، وإبراهيم، والحجر، والنحل. وتسع: سبحان، والكهف، ومريم، وطه، والأنبياء، والحج، والمؤمنون، والنور، والفرقان. وإحدى عشرة: الشعراء، والنمل، والقصص، والعنكبوت، والروم، ولقمان، والم السجدة، والأحزاب، وسبأ، وفاطر، ويس. وثلاث عشرة: الصافات، وص، والزمر، وغافر، وحم السجدة، وحم عسق، والزخرف، والدخان، والجاثية،

(١) فى م، أ: «العوام». (٢) فى أ: «المفسرين». (٣) زيادة من م، أ.
(٤) فى م، أ: « لا أساء». (٥) فى م: «أبطأ علينا». (٦) فى أ: «علينا».
(٧) فى أ: «أبو».
(٨) سنن أبى داود برقم (١٣٩٣)، وسنن ابن ماجه برقم (١٣٤٥)، والمسند (٤/ ٩).

والأحقاف، والقتال، والفتح، والحجرات. ثم بعد ذلك الحزب المفصل كما قاله الصحابة، رضى الله عنهم. فتعين أن أوله سورة «ق» وهو الذى قلناه[١]، ولله الحمد والمنة.

قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرحمن بن مهدى، حدثنا مالك، عن ضَمْرة بن سعيد، عن عُبَيد الله[٢] بن عبد الله؛ أن عمر بن الخطاب سأل أبا واقد الليثى: ما كان رسول الله ﷺ يقرأ فى العيد؟ قال: بقاف، واقتربت.

ورواه مسلم وأهل السنن الأربعة، من حديث مالك، به[٣]. وفى رواية لمسلم عن فليح[٤] عن ضمرة، عن عبيد الله[٥]، عن أبى واقد قال: سألنى عمر، فذكره[٦].

حديث آخر: وقال أحمد: حدثنا يعقوب، حدثنا أبى، عن ابن إسحاق، حدثنى عبد الله بن محمد بن أبى بكر بن عمرو بن حزم، عن يحيى بن عبد الله بن عبد الرحمن بن سعد[٧] بن زُرَارة، عن أم هشام بنت حارثة قالت: لقد كان تَنُّورنا وتنور النبى ﷺ واحداً سنتين، أو سنة وبعض سنة، وما أخذت ﴿ قٓ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ﴾ إلا على لسان رسول الله ﷺ، كان يقرؤها كل يوم جمعة على المنبر إذا خطب الناس.

رواه مسلم [أيضا][٨] من حديث ابن إسحاق، به[٩].

وقال أبو داود: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن خبيب[١٠]، عن عبد الله بن محمد بن معن، عن ابنة الحارث بن النعمان قالت: ما حفظت «ق» إلا من فِىِّ رسول الله ﷺ، يخطب بها كل جمعة. قالت: وكان تنورنا وتنور رسول الله ﷺ واحداً.

وكذا رواه مسلم، والنسائى، وابن ماجه، من حديث شعبة، به[١١].

والقصد أن رسول الله ﷺ كان يقرأ بهذه السورة فى المجامع الكبار، كالعيد والجمع، لاشتمالها على ابتداء الخلق والبعث والنشور، والمعاد والقيام، والحساب، والجنة والنار، والثواب والعقاب، والترغيب والترهيب.

﴿ قٓ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ (١) بَلْ عَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ (٢) أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ (٣) قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ (٤) بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَّرِيجٍ (٥) ﴾.

---

(١) فى م: «قدمناه». (٢) فى م: «عبد الله».
(٣) المسند (٥/ ٢١٧)، وصحيح مسلم برقم (٨٩١)، وسنن أبى داود برقم (١١٥٤)، وسنن الترمذى برقم (٥٣٤)، وسنن النسائى(٣/ ١٨٣)، وسنن ابن ماجه برقم (١٢٨٢).
(٤) فى م، أ: «مالك». (٥) فى م: « عبد الله».
(٦) صحيح مسلم برقم (٨٩١).
(٧) فى م، أ: «أسعد». (٨) زيادة من م.
(٩) المسند (٦/ ٤٣٥) وصحيح مسلم برقم (٨٧٣).
(١٠) فى م، أ: «حبيب».
(١١) سنن أبى داود برقم (١١٠٠)، وصحيح مسلم برقم (٨٧٣)، وسنن النسائى (٢/ ١٥٧) لكنه ليس من هذا الطريق.

﴿قٓ﴾: حرف من حروف الهجاء المذكورة[١] فى أوائل السور، كقوله: (ص، ن، الم، حم، طس) ونحو ذلك، قاله مجاهد وغيره. وقد أسلفنا الكلام عليها، فى أول «سورة البقرة» بما أغنى عن إعادته.

وقد روى عن بعض السلف أنهم قالوا ﴿قٓ﴾: جبل محيط بجميع الأرض، يقال له جبل قاف. وكأن هذا ـ والله أعلم ـ من خرافات بنى إسرائيل التى أخذها عنهم بعض الناس، لما رأى من جواز الرواية عنهم فيما[٢] لا يصدق ولا يكذب. وعندى أن هذا وأمثاله وأشباهه من اختلاق بعض زنادقتهم، يلبسون به على الناس أمر دينهم، كما افترى فى هذه الأمة ـ مع جلالة قدر علمائها وحفاظها وأئمتها ـ أحاديث عن النبى ﷺ وما بالعهد من قدم، فكيف بأمة بنى إسرائيل مع طول المدى، وقلة الحفاظ النقاد فيهم، وشربهم الخمور[٣]، وتحريف علمائهم الكلم عن مواضعه، وتبديل كتب الله وآياته! وإنما أباح الشارع الرواية عنهم فى قوله: «وحدثوا عن بنى إسرائيل، ولا حرج» فيما قد يجوزه العقل، فأما فيما تُحيله العقول ويحكم عليه بالبطلان، ويغلب على الظنون كذبه، فليس من هذا القبيل ـ والله أعلم.

وقد أكثر كثير من السلف من المفسرين، وكذا طائفة كثيرة من الخلف، من الحكاية عن كتب أهل الكتاب فى تفسير القرآن المجيد، وليس بهم احتياج إلى أخبارهم، ولله الحمد والمنة، حتى إن الإمام أبا محمد عبد الرحمن بن أبى حاتم الرازى، رحمه الله، أورد هاهنا أثراً غريباً لا يصح سنده عن ابن عباس فقال:

حدثنا أبى قال: حدثت عن محمد بن إسماعيل المخزومى: حدثنا ليث بن أبى سليم، عن مجاهد، عن ابن عباس قال: خلق الله من وراء هذه الأرض بحراً محيطاً، ثم خلق من وراء ذلك جبلا يقال له «ق» السماء الدنيا مرفوفة عليه. ثم خلق الله من وراء ذلك الجبل أرضاً مثل تلك الأرض سبع مرات. ثم خلق من وراء ذلك بحرا محيطاً بها، ثم خلق من وراء ذلك جبلاً يقال له «ق» السماء الثانية مرفوفة عليه، حتى عد سبع أرضين، وسبعة أبحر، وسبعة أجبل، وسبع سموات. قال: وذلك قوله: ﴿وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ﴾[لقمان: ٢٧] .

فإسناد هذا الأثر فيه انقطاع، والذى رواه ابن أبى طلحة، عن ابن عباس فى قوله:﴿قٓ﴾ قال: هو اسم من أسماء الله، عز وجل.

والذى ثبت عن مجاهد: أنه حرف من حروف الهجاء، كقوله: (ص، ن، حم، طس، الم) ونحو ذلك. فهذه تُبْعِد ما تقدم عن ابن عباس.

وقيل: المراد «قضِى الأمر واللهِ»، وأن قوله: ﴿قٓ﴾ دلت على المحذوف من بقية الكلم[٤] كقول

---

(١) فى م: «الذى تقدم ذكرها».
(٢) فى م: «مما».
(٣) فى أ: «الخمر».
(٤) فى م، أ: «الكلمة».

الشاعر:

قلت لها: قفي فقالت: قاف

وفى هذا التفسير نظر؛ لأن الحذف فى الكلام إنما يكون إذا دل دليل عليه، ومن أين يفهم هذا من ذكر هذا الحرف؟

وقوله: ﴿وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾ أى: الكريم العظيم الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد.

واختلفوا في جواب القسم ما هو؟ فحكى ابن جرير عن بعض النحاة أنه قوله: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ﴾.

وفى هذا نظر، بل الجواب هو مضمون الكلام بعد القسم، وهو إثبات النبوة، وإثبات المعاد، وتقريره وتحقيقه وإن لم يكن القسم متلقى لفظاً، وهذا كثير فى أقسام القرآن كما تقدم فى قوله: ﴿صَ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ. بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾ [ص: ١، ٢]، وهكذا قال هاهنا: ﴿ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ. بَلْ عَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ أى: تعجبوا من إرسال رسول إليهم من البشر كقوله تعالى: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ﴾ [يونس: ٢] أى: وليس هذا بعجيب؛ فإن الله يصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس.

ثم قال مخبراً عنهم فى عجبهم أيضاً من المعاد واستبعادهم لوقوعه: ﴿أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾؟ أى: يقولون: أئذا متنا وبلينا، وتقطعت الأوصال منا، وصرنا ترابا، كيف يمكن الرجوع بعد ذلك إلى هذه البنية والتركيب؟ ﴿ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾ أى: بعيد الوقوع، ومعنى هذا: أنهم يعتقدون استحالته وعدم إمكانه، قال الله تعالى راداً عليهم: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الأَرْضُ مِنْهُمْ﴾ أى: ما تأكل من أجسادهم فى البلى، نعلم ذلك ولا يخفى علينا أين تفرقت الأبدان؟ وأين ذهبت؟ وإلى أين صارت؟ ﴿وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ﴾ أى: حافظ لذلك، فالعلم شامل، والكتاب أيضاً فيه كل الأشياء مضبوطة.

قال العوفى، عن ابن عباس فى قوله: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الأَرْضُ مِنْهُمْ﴾ أى: ما تأكل من لحومهم وأبشارهم، وعظامهم وأشعارهم. وكذا قال مجاهد، وقتادة، والضحاك، وغيرهم.

ثم بين تعالى سبب كفرهم وعنادهم واستبعادهم ما ليس ببعيد فقال: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴾ أى: وهذا حال كل من خرج عن الحق، مهما قال بعد ذلك فهو باطل. والمريج: المختلف المضطرب الملتبس المنكر خلاله، كقوله: ﴿إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ. يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ﴾ [الذاريات: ٨، ٩].

﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ⦗٦⦘ وَالأَرْضَ

مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (٧) تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ (٨) وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ (٩) وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ (١٠) رِزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ الْخُرُوجُ (١١)﴾ .

يقول تعالى منبها للعباد على قدرته العظيمة التى أظهر بها ما هو أعظم مما تعجبوا مستبعدين لوقوعه: **﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا﴾**؟ أى: بالمصابيح، **﴿وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾**. قال مجاهد: يعنى من شقوق. وقال غيره: فتوق. وقال غيره: من صدوع. والمعنى متقارب، كقوله تعالى: **﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ. ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾** [الملك: ٣، ٤] أى: كليل، أى: عن أن يرى عيباً أو نقصاً.

وقوله: **﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا﴾** أى: وسعناها وفرشناها، **﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ﴾** وهى: الجبال؛ لئلا تميد بأهلها وتضطرب؛ فإنها مُقَرة على تيار الماء المحيط بها من جميع جوانبها، **﴿وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾** أى: من جميع الزروع والثمار والنبات والأنواع، **﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾** [الذاريات: ٤٩]، وقوله: **﴿بَهِيجٍ﴾** أى: حسن نضر، **﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾** أى: ومشاهدة خلق السموات [والأرض][1] وما جعل [الله][2] فيهما من الآيات العظيمة تبصرة ودلالة وذكرى لكل عبد منيب، أى: خاضع خائف وجل رَجَّاع إلى الله عز وجل.

وقوله تعالى: **﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا﴾** أى: نافعاً، **﴿فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ﴾** أى: حدائق من بساتين ونحوها، **﴿وَحَبَّ الْحَصِيدِ﴾** وهو: الزرع الذى يراد لحبه وادخاره.

﴿وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ﴾ أى: طوالا شاهقات. وقال ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، والحسن، وقتادة، والسدى، وغيرهم: الباسقات الطوال. **﴿لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ﴾** أى: منضود. **﴿رِزْقًا لِّلْعِبَادِ﴾** أى: للخلق، **﴿وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا﴾**، وهى الأرض التى كانت هامدة، فلما نزل عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج، من أزاهير وغير ذلك، مما يحار الطرف فى[3] حسنها، وذلك بعد ما كانت لا نبات بها، فأصبحت تهتز خضراء، فهذا مثال للبعث بعد الموت والهلاك، كذلك يحيى الله الموتى. وهذا المشاهد من عظيم قدرته بالحس أعظم مما أنكره الجاحدون للبعث[4]، كقوله تعالى: **﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾** [غافر: ٥٧]، وقوله: **﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾** [الأحقاف: ٣٣]، وقال تعالى: **﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً[5] فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾** [فصلت: ٣٩].

---

(١) زيادة من م، أ.
(٢) زيادة من أ.
(٣) فى م: «من».
(٤) فى م، أ: «البعث».
(٥) فى م: «هامدة» وهو خطأ.

﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ (١٢) وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ (١٣) وَأَصْحَابُ الأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ (١٤) أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ (١٥) ﴾ .

يقول تعالى متهددا لكفار قريش بما أحله بأشباههم ونظرائهم وأمثالهم من المكذبين قبلهم، من النقمات والعذاب الأليم فى الدنيا، كقوم نوح وما عذبهم الله به من الغرق العام[1] لجميع أهل الأرض، وأصحاب الرس وقد تقدمت قصتهم فى سورة «الفرقان»[2] ﴿وَثَمُودُ. وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ﴾، وهم أمته الذين بعث إليهم من أهل سدوم ومعاملتها من الغور، وكيف خسف الله بهم الأرض، وأحال أرضهم بحيرة منتنة خبيثة؛ بكفرهم وطغيانهم ومخالفتهم الحق، ﴿وَأَصْحَابُ الأَيْكَةِ﴾ وهم قوم شعيب عليه السلام، ﴿وَقَوْمُ تُبَّعٍ﴾ وهو اليمانى. وقد ذكرنا من شأنه فى سورة الدخان بما أغنى عن إعادته هاهنا ولله الحمد.

﴿كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ﴾ أى: كل من هذه الأمم وهؤلاء القرون كذب رسوله[3]، ومن كذب رسولا[4] فكأنما كذب جميع الرسل، كقوله: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ﴾[الشعراء: ١٠٥]، وإنما جاءهم رسول واحد، فهم فى نفس الأمر لو جاءهم جميع الرسل كذبوهم، ﴿فَحَقَّ وَعِيدِ﴾ أى: فحق عليهم ما أوعدهم الله، على التكذيب من العذاب والنكال فليحذر المخاطبون أن يصيبهم ما أصابهم فإنهم قد كذبوا رسولهم كما كذب أولئك.

وقوله: ﴿أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الأَوَّلِ﴾ أى: أفأعجزنا[5] ابتداء الخلق حتى هم فى شك من الإعادة، ﴿بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ والمعنى: أن ابتداء الخلق لم يعجزنا والإعادة أسهل منه، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧] ،وقال الله تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ . قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ [يس: ٧٨، ٧٩]. وقد تقدم فى الصحيح: «يقول الله تعالى: يؤذينى ابن آدم، يقول: لن يعيدنى كما بدأنى، وليس أول الخلق بأهون على من إعادته»[6].

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ (١٦) إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ (١٧) مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ (١٨) وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ (١٩) وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ

(١) فى م: «العظيم».
(٢) تقدم ذلك فى سورة الفرقان عند الآية رقم (٣٨).
(٣) فى أ: «رسولهم». (٤) فى م: «برسول». (٥) فى م: «فأعجزنا».
(٦) صحيح البخارى برقم (٤٩٧٤) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه.

يَوْمُ الْوَعِيدِ (٢٠) وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ (٢١) لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ (٢٢)﴾ .

يخبر تعالى عن قدرته على الإنسان بأنه خالقه، وعلمه محيط بجميع أموره، حتى إنه تعالى يعلم ما توسوس به نفوس بنى آدم من الخير والشر. وقد ثبت فى الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن الله [١] تجاوز لأمتى ما حدثت به أنفسها ما لم تقل أو تعمل»[٢].

وقوله: ﴿**وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ**﴾ يعنى: ملائكته تعالى أقربُ إلى الإنسان من حبل وريده[٣] إليه. ومن تأوله على العلم فإنما فر لئلا يلزم حلول أو اتحاد، وهما منفيان بالإجماع، تعالى الله وتقدس، ولكن اللفظ لا يقتضيه فإنه لم يقل: وأنا أقرب إليه من حبل الوريد، وإنما قال: ﴿ **وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ**﴾، كما قال فى المحتضر: ﴿ **وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَكِن لاَّ تُبْصِرُونَ**﴾ [الواقعة: ٨٥]، يعنى ملائكته. وكما قال [تعالى][٤]: ﴿**إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ**﴾ [الحجر: ٩]، فالملائكة نزلت بالذكر ـ وهو القرآن ـ بإذن الله، عز وجل. وكذلك[٥] الملائكة أقرب إلى الإنسان من حبل وريده إليه بإقدار[٦] الله لهم على ذلك، فالملك لَمّة فى الإنسان كما أن للشيطان لمة وكذلك: «الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم»، كما أخبر بذلك الصادق المصدوق؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿**إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ**﴾ يعنى: الملكين اللذين يكتبان عمل الإنسان. ﴿**عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ**﴾ أى: مترصد[٧] ﴿ **مَا يَلْفِظُ** ﴾ أى: ابن آدم ﴿ **مِن قَوْلٍ** ﴾ أى: ما يتلكم بكلمة[٨] ﴿**إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ**﴾ أى: إلا ولها من يراقبها معتد[٩] لذلك يكتبها، لا يترك كلمة ولا حركة، كما قال تعالى: ﴿**وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ. كِرَامًا كَاتِبِينَ. يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ**﴾ [الانفطار: ١٠ـ ١٢].

وقد اختلف العلماء: هل يكتب الملك كل شىء من الكلام؟ وهو قول الحسن وقتادة، أو إنما يكتب ما فيه ثواب وعقاب كما هو قول ابن عباس، على قولين، وظاهر الآية الأول، لعموم قوله: ﴿**مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ**﴾.

وقد قال الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية، حدثنا محمد بن عمرو بن علقمة الليثى، عن أبيه، عن جده علقمة، عن بلال بن الحارث المزنى قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله تعالى ما يظن أن تبلغ ما بلغت، يكتب الله له بها رضوانه إلى يوم يلقاه[١٠]. وإن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله ما يظن أن تبلغ ما بلغت، يكتب الله عليه بها[١١] سخطه إلى يوم يلقاه». قال: فكان علقمة يقول: كم من كلام قد منعنيه حديث بلال بن الحارث.

ورواه الترمذى والنسائى وابن ماجه، من حديث محمد بن عمرو به[١٢]. وقال الترمذى: حسن

---

(١) فى أ: «إن الله تعالى».
(٢) صحيح البخارى برقم (٥٢٦٩)، وصحيح مسلم برقم (١٢٧).
(٣) فى أ: «الوريد». (٤) زيادة من م، أ. (٥) فى أ: «ولذلك».
(٦) فى م: «باقتدار». (٧) فى م: «مرصد». (٨) فى م: «بكلام».
(٩) فى م: «معد». (١٠) فى أ: «القيامة». (١١) فى م: «له بها عليه».
(١٢) المسند (٣/ ٤٦٩) وسنن الترمذى برقم (٢٣١٩)، والنسائى فى السنن الكبرى، كما فى تحفة الأشراف (٢/ ١٠٣)، وسنن ابن ماجه برقم (٣٩٦٩).

صحيح. وله شاهد[١] فى الصحيح[٢].

وقال الأحنف بن قيس: صاحب اليمين يكتب الخير، وهو أمير على صاحب الشمال، فإن أصاب العبد خطيئة قال له: أمسك، فإن استغفر الله تعالى نهاه أن يكتبها، وإن أبى كتبها. رواه ابن أبى حاتم.

وقال الحسن البصرى وتلا هذه الآية: ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾: يا ابن آدم، بُسطت لك صحيفة، ووكل بك ملكان كريمان أحدهما عن يمينك، والآخر عن شمالك، فأما الذى عن يمينك فيحفظ حسناتك، وأما الذى عن يسارك فيحفظ سيئاتك فاعمل[٣] ما شئت، أقلل أو أكثر حتى إذا مت طويت صحيفتك، وجعلت فى عنقك معك فى قبرك، حتى تخرج يوم القيامة، فعند ذلك يقول: ﴿ وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا. اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾. [الإسراء: ١٣، ١٤] ثم يقول: عدل ـ والله ـ فيك من جعلك حسيب نفسك.

وقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: ﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ قال: يكتب كل ما تكلم به من خير أو شر، حتى إنه ليكتب قوله: «أكلت، شربت، ذهبت، جئت، رأيت»، حتى إذا كان يوم الخميس عرض قوله وعمله، فأقر منه ما كان فيه من خير أو شربت، وألقى سائره، وذلك قوله: ﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ [الرعد: ٣٩]، وذكر عن الإمام أحمد أنه كان يئن فى مرضه، فبلغه عن طاوس أنه قال: يكتب الملك كل شىء حتى الأنين. فلم يئن أحمد حتى مات رحمه الله[٤].

وقوله: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾، يقول تعالى: وجاءت ـ أيها الإنسان ـ سكرة الموت بالحق، أى: كشفت لك عن اليقين الذى كنت تمترى فيه، ﴿ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾أى: هذا هو الذى كنت تفر منه قد جاءك، فلا محيد ولا مناص، ولا فكاك ولا خلاص.

وقد اختلف المفسرون فى المخاطب بقوله: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾، فالصحيح أن المخاطب بذلك الإنسان من حيث هو. وقيل: الكافر، وقيل :غير ذلك.

وقال أبو بكر بن أبى الدنيا: حدثنا إبراهيم بن زياد ـ سَبَلان ـ أخبرنا عَبَّاد بن عَبَّاد عن محمد بن عمرو بن علقمة، عن أبيه، عن جده علقمة بن وقاص[٥] أن عائشة، رضى الله عنها، قالت: حضرت أبى وهو يموت، وأنا جالسة عند رأسه، فأخذته غشيةٌ فتمثلت ببيت من الشعر:

من لا يزال دمعه مُقَنَّعا فإنه لابد مرةً[٦] مدقوق[٧]

---

(١) فى أ: «شواهد».
(٢) شاهده حديث أبى هريرة رضى الله عنه أخرجه البخارى فى صحيحه برقم (٦٤٧٨).
(٣) فى أ: « فاملل».
(٤) رواه صالح بن الإمام أحمد فى سيرة أبيه.
(٥) فى أ: «أبى وقاص» وهو خطأ. انظر ترجمته فى تهذيب التهذيب.
(٦) فى أ: «من دمعه».
(٧) البيت فى النهاية لابن الأثير (٤/ ١١٥) وعنده: لابد يوما أن يهراق.

قالت: فرفع رأسه فقال: يا بنية، ليس كذلك ولكن كما قال الله تعالى: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ .

وحدثنا[١] خلف بن هشام؛ حدثنا أبو شهاب [الخياط][٢]، عن إسماعيل بن أبي خالد، عن البهي قال: لما أن ثقل أبو بكر[٣]، رضي الله عنه ،جاءت عائشة، رضي الله عنها، فتمثلت بهذا البيت:

لعمرك ما يغني الثراء عن الفتى ... إذا حشرجت يوما وضاق بها الصدر[٤]

فكشف عن وجهه وقال: ليس كذلك، ولكن قولي: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ . وقد أوردت لهذا الأثر طرقا [كثيرة][٥] في سيرة الصديق عند ذكر وفاته، رضي الله عنه.

وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ: لما تغشاه الموت جعل يمسح العرق عن وجهه ويقول: «سبحان الله! إن للموت لسكرات». وفي قوله: ﴿ذَلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾قولان:

أحدهما: أن «ما» هاهنا موصولة، أي: الذي كنت منه تحيد ـ بمعنى: تبتعد وتنأى وتفر ـ قد حل بك ونزل بساحتك.

والقول الثاني: أن «ما» نافية بمعنى: ذلك ما كنت تقدر على الفرار منه ولا الحيد عنه.

وقد قال الطبراني في المعجم الكبير: حدثنا محمد بن علي الصائغ المكي، حدثنا حفص بن عمر الحدي، حدثنا معاذ بن محمد الهُذَلي، عن يونس بن عبيد، عن الحسن،عن سَمُرة قال: قال رسول الله ﷺ:«مثل الذي يفر من الموت مثل الثعلب، تطلبه الأرض يَدْين، فجاء يسعى حتى إذا أعيى وأسهر دخل جحره، فقالت له الأرض: يا ثعلب، ديني. فخرج وله حصاص، فلم يزل كذلك حتى تقطعت عنقه ومات»[٦].

ومضمون هذا المثل: كما لا انفكاك له ولا محيد عن الأرض كذلك الإنسان لا محيد له عن الموت.

وقوله: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ﴾. قد تقدم الكلام على حديث النفخ في الصور والفزع والصعق والبعث[٧]، وذلك يوم القيامة. وفي الحديث أن رسول الله ﷺ قال: «كيف أنعم وصاحب القرن قد التقم القرن وحنى جبهته، وانتظر أن يؤذن له». قالوا:يا رسول الله كيف نقول؟ قال:«قولوا: حسبنا الله ونعم الوكيل». فقال القوم: حسبنا الله ونعم الوكيل.

---

(١) في أ:«وحديث». (٢)زيادة من م،أ. (٣) في م:«أبا بكر».
(٤) البيت لحاتم الطائي، وهو في ديوانه ص (٥٠) أ.هـ مستفادا من طبعة الشعب. (٥) زيادة من م، أ.
(٦) المعجم الكبير (٧/ ٢٢٢)، وقال الهيثمي في المجمع (٢/ ٣٢٠): «فيه معاذ بن محمد الهذلي، قال العقيلي: لا يتابع على رفع حديثه».
(٧) في م:«للفزع وللصعق وللبعث».

﴿وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ أي: ملك يسوقه إلى المحشر، وملك يشهد عليه بأعماله. هذا هو الظاهر من الآية الكريمة. وهو اختيار ابن جرير، ثم روى من حديث إسماعيل بن أبي خالد عن يحيى بن رافع ـ مولى لثقيف ـ قال: سمعت عثمان بن عفان يخطب[١]، فقرأ هذه الآية: ﴿وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾، فقال: سائق يسوقها إلى الله، وشاهد يشهد عليها بما عملت. وكذا قال مجاهد، وقتادة، وابن زيد.

وقال مُطَرِّف، عن أبي جعفر ـ مولى أشجع ـ عن أبي هريرة: السائق: الملك، والشهيد: العمل. وكذا قال الضحاك والسدي.

وقال العَوْفي عن ابن عباس: السائق من الملائكة، والشهيد: الإنسان نفسه، يشهد على نفسه. وبه قال الضحاك بن مُزاحِم أيضا.

وحكى ابن جرير ثلاثة أقوال في المراد بهذا الخطاب في قوله: ﴿لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾.

أحدها: أن المراد بذلك الكافر. رواه علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس. وبه يقول الضحاك بن مزاحم وصالح بن كيسان.

والثاني: أن المراد بذلك كل أحد من بر وفاجر؛ لأن الآخرة بالنسبة إلى الدنيا كاليقظة والدنيا كالمنام. وهذا اختيار ابن جرير، ونقله عن حسين بن عبد الله بن عبيد الله بن عباس.

والثالث: أن المخاطب بذلك النبي ﷺ. وبه يقول زيد بن أسلم، وابنه. والمعنى على قولهما: لقد كنت في غفلة من هذا الشأن[٢] قبل أن يوحى إليك، فكشفنا عنك غطاءك بإنزاله إليك، فبصرك اليوم حديد.

والظاهر من السياق خلاف هذا، بل الخطاب مع الإنسان من حيث هو، والمراد بقوله: ﴿لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا﴾ يعني: من هذا اليوم، ﴿فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ أي: قوي؛ لأن كل واحد يوم القيامة يكون مستبصرا، حتى الكفار في الدنيا يكونون يوم القيامة على الاستقامة، لكن لا ينفعهم ذلك. قال الله تعالى: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾ [مريم: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ١٢].

﴿وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ (٢٣) أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ (٢٤) مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ (٢٥) الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ (٢٦) قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا

---

(١) في م: «خطب». (٢) في أ: «القرآن».

أَطْغَيْتُهُ وَلَكِن كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ (٢٧) قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ (٢٨) مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ (٢٩)﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن الملك الموكل بعمل ابن آدم: أنه يشهد عليه يوم القيامة بما فعل[١]، ويقول: ﴿**هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ**﴾ أى: معتد[٢] محضر[٣] بلا زيادة ولا نقصان.

وقال مجاهد: هذا كلام الملك السائق يقول: هذا ابن آدم الذى وكلتنى به، قد أحضرته.

وقد اختار ابن جرير أنه يعم السائق والشهيد، وله اتجاه وقوة.

فعند ذلك يحكم الله، سبحانه وتعالى، فى الخليقة بالعدل فيقول: ﴿**أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ**﴾.

وقد اختلف النحاة فى قوله: ﴿**أَلْقِيَا**﴾، فقال بعضهم: هى لغة لبعض العرب يخاطبون المفرد بالتثنية، كما روى عن الحجاج أنه كان يقول: يا حرسى، اضربا عنقه، ومما أنشد ابن جرير على هذه اللغة قول الشاعر:

فإن تزجرانى ـ يا ابن عفان ـ أنزجر ... وإن تتركانى أحم عرضا ممنعا[٤]

وقيل: بل هى نون التوكيد، سهلت إلى الألف. وهذا بعيد؛ لأن هذا إنما يكون فى الوقف، والظاهر أنها مخاطبة مع السائق والشهيد، فالسائق أحضره إلى عرصة الحساب، فلما أدى الشهيد عليه، أمرهما الله تعالى بإلقائه فى نار جهنم وبئس المصير.

﴿**أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ**﴾ أى: كثير الكفر والتكذيب بالحق، ﴿**عنيد**﴾ : معاند للحق، معارض له بالباطل مع علمه بذلك. ﴿**مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ**﴾ أى: لا يؤدى ما عليه من الحقوق، ولا بر فيه ولا صلة ولا صدقة، ﴿**مُعْتَدٍ**﴾ أى: فيما ينفقه ويصرفه، يتجاوز فيه الحد.

وقال قتادة: معتد فى منطقه وسيرته وأمره.

﴿**مُّرِيبٍ**﴾ أى: شاك فى أمره، مريب لمن نظر فى أمره ﴿**الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ**﴾ أى: أشرك بالله فعبد معه غيره، ﴿**فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ**﴾. وقد تقدم فى الحديث: أن عنقاً من النار يبرز للخلائق فينادى بصوت يسمع الخلائق: إنى وكلت بثلاثة، بكل جبار عنيد، ومن جعل مع الله إلها آخر، وبالمصورين ثم تلوى[٥] عليهم.

قال الإمام أحمد: حدثنا معاوية ـ هو ابن هشام ـ حدثنا شيبان، عن فراس، عن عطية[٦]، عن أبى سعيد الخدرى عن نبى الله ﷺ أنه قال: «يخرج عنق من النار يتكلم، يقول: وكلت اليوم بثلاثة:

---

(١) فى أ: «بما عمل». (٢) فى م، أ: «معد». (٣) فى أ: «محصى».
(٤) تفسير الطبرى (٢٦/١٠٣).
(٥) فى م، أ: «تنطوى».
(٦) فى م: «حدثنا شيبان هو ابن هشام عن فراس عن عطية».

بكل جبار، ومن جعل مع الله إلها آخر، ومن قتل نفسا بغير نفس[(١)]. فتنطوى عليهم، فتقذفهم فى غمرات جهنم»[(٢)].

﴿قَالَ قَرِينُهُ﴾: قال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، وغيرهم: هو الشيطان الذى وكل به: ﴿ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ﴾ أى: يقول عن الإنسان الذى قد وافى القيامة كافراً، يتبرأ منه شيطانه، فيقول: ﴿ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ﴾ أى: ما أضللته، ﴿وَلَكِن كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ أى: بل كان هو فى نفسه ضالا قابلا للباطل معانداً للحق. كما أخبر تعالى فى الآية الأخرى فى قوله: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٢٢].

وقوله: ﴿ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ﴾ يقول[(٣)] الرب عز وجل للإنسى وقرينه من الجن، وذلك أنهما يختصمان بين يدى الحق فيقول الإنسى: يا رب، هذا أضلنى عن الذكر بعد إذ جاءنى. ويقول الشيطان: ﴿ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِن كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ أى: عن منهج الحق. فيقول الرب عز وجل لهما: ﴿ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ﴾ أى: عندى، ﴿ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ ﴾ أى: قد أعذرت إليكم على ألسنة الرسل، وأنزلت الكتب، وقامت عليكم الحجج والبينات والبراهين.

﴿ مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ﴾: قال مجاهد: يعنى قد قضيت ما أنا قاض، ﴿وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ أى: لست أعذب أحدا بذنب أحد، ولكن لا أعذب أحداً إلا بذنبه، بعد قيام الحجة عليه.

﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ (٣٠) وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ (٣١) هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ (٣٢) مَّنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ (٣٣) ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ (٣٤) لَهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ (٣٥) ﴾.

يخبر تعالى أنه يقول لجهنم يوم القيامة: هل امتلأت؟ وذلك أنه وعدها أن سيملؤها من الجنة والناس أجمعين، فهو سبحانه يأمر بمن[(٤)] يأمر به إليها، ويلقى وهى تقول: ﴿هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ أى: هل بقى شىء تزيدونى؟ هذا هو الظاهر من سياق الآية، وعليه تدل الأحاديث:

قال البخارى عند تفسير هذه الآية: حدثنا عبد الله بن أبى الأسود، حدثنا حَرَمى بن عُمَارة حدثنا شعبة، عن قتادة، عن أنس بن مالك، عن النبى ﷺ قال: «يُلقَى فى النار، وتقول: هل من مزيد، حتى يضع قدمه فيها، فتقول: قط قط»[(٥)].

---

(١) فى م: «حق».
(٢) المسند (٣/ ٤٠).
(٣) فى م: «يقوله». (٤) فى م: «من».
(٥) صحيح البخارى برقم (٤٨٤٨).

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الوهاب، عن سعيد، عن قتادة، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تزال جهنم يلقى فيها وتقول: هل من مزيد؟ حتى يضع رب العزة فيها قدمه، فينزوى بعضها إلى بعض، وتقول: قط قط، وعزتك وكَرَمِك ولا يزال فى الجنة فضل حتى ينشئ الله لها خلقا آخر فيسكنهم فى فضول[١] الجنة»[٢].

ثم رواه مسلم من حديث قتادة، بنحوه[٣]. ورواه أبان العطار وسليمان التيمى، عن قتادة، بنحوه[٤].

حديث آخر: قال[٥] البخارى: حدثنا محمد بن موسى القطان، حدثنا أبو سفيان الحميرى سعيد ابن يحيى بن مهدى، حدثنا عَوْف، عن محمد، عن أبى هريرة ـ رفعه، وأكثر ما كان يوقفه أبو سفيان ـ: «يقال لجهنم: هل امتلأت، وتقول: هل من مزيد، فيضع الرب، عز وجل، قدمه عليها[٦]، فتقول: قط قط»[٧].

رواه أيوب وهشام بن حسان عن محمد بن سيرين، به[٨].

طريق أخرى: قال[٩] البخارى: وحدثنا عبد الله بن محمد، حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا معمر عن همام[١٠]، عن أبى هريرة قال: قال النبى ﷺ: «تحاجت الجنة والنار، فقالت النار: أوثرت بالمتكبرين والمتجبرين. وقالت الجنة: مالى لا يدخلنى إلا ضعفاء الناس وسقطهم. قال الله، عز وجل، للجنة: أنت رحمتى، أرحم بك من أشاء من عبادى. وقال للنار: إنما أنت عذابى، أعذب بك من أشاء من عبادى، ولكل واحدة منكما ملؤها، فأما النار فلا تمتلئ حتى يضع رجله، فتقول: قط قط، فهنالك تمتلئ ويزوى[١١] بعضها إلى بعض ولا يظلم الله من خلقه أحدا، وأما الجنة فإن الله ينشئ لها خلقا آخر»[١٢].

حديث آخر: قال[١٣] مسلم فى صحيحه: حدثنا عثمان بن أبى شيبة، حدثنا جرير، عن الأعمش، عن أبى صالح، عن أبى سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «احتجت الجنة والنار، فقالت النار: فىَّ الجبارون والمتكبرون. وقالت الجنة: فىّ ضعفاء الناس ومساكينهم. فقضى بينهما، فقال للجنة: إنما أنت رحمتى، أرحم بك من أشاء من عبادى. وقال للنار: إنما أنت عذابى، أعذب بك من

(١) فى أ: «فضل».
(٢) المسند (٣/ ٢٣٤).
(٣) صحيح مسلم برقم (٢٨٤٨).
(٤) أخرجه الطبرى فى تفسيره (٢٦/ ١٠٦).
(٥) فى م: «وقال».
(٦) فى م: «عليها قدمه».
(٧) صحيح البخارى برقم (٤٨٤٩).
(٨) رواه أحمد فى مسنده (٢/ ٥٠٧) من طريق هشام بن حسان به. ورواه الطبرى فى تفسيره (٢٦/ ١٠٧) من طريق أيوب وهشام بن حسان به.
(٩) فى م: «وقال».
(١٠) فى م: «همام بن منبه».
(١١) فى أ: «ينزوى».
(١٢) صحيح البخارى برقم (٤٨٥٠).
(١٣) فى م: «وقال».

أشاء من عبادى، ولكل واحدة منكما ملؤها» انفرد به مسلم دون البخارى[١] من هذا الوجه. والله، سبحانه وتعالى، أعلم.

وقد رواه الإمام أحمد من طريق أخرى، عن أبى سعيد بأبسط من هذا السياق فقال:

حدثنا حسن وروح قالا: حدثنا حماد بن سلمة، عن عطاء بن السائب، عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة، عن أبى سعيد الخدرى؛ أن رسول الله ﷺ قال: «افتخرت الجنة والنار، فقالت النار: يا رب، يدخلنى الجبابرة والمتكبرون والملوك والأشراف. وقالت الجنة: أى رب، يدخلنى الضعفاء والفقراء والمساكين. فيقول الله، عز وجل، للنار: أنت عذابى، أصيب بك من أشاء. وقال للجنة: أنت رحمتى، وسعت كل شىء، ولكل واحدة منكما ملؤها، فيلقى فى النار أهلها فتقول: هل من مزيد؟ قال: ويلقى فيها وتقول: هل من مزيد؟ ويلقى فيها وتقول: هل من مزيد؟ حتى يأتيها[٢] عز وجل، فيضع قدمه عليها، فتزوى وتقول: قدنى، قدنى. وأما الجنة فيبقى فيها ما شاء الله أن يبقى، فينشئ الله لها خلقا ما يشاء»[٣].

حديث آخر: وقال الحافظ أبو يعلى فى مسنده: حدثنا عقبة بن مُكْرَم، حدثنا يونس، حدثنا عبد الغفار بن القاسم، عن عُدى بن ثابت، عن زرِّ بن حُبَيْش، عن أبى بن كعب؛ أن رسول الله ﷺ قال: «يعرفنى الله، عز وجل، نفسه يوم القيامة، فأسجد سجدة يرضى بها عنى، ثم أمدحه مدحة يرضى بها عنى، ثم يؤذن لى فى الكلام، ثم تمر أمتى على الصراط ـ مضروب بين ظهرانى جهنم ـ فيمرون أسرع من الطرف والسهم، وأسرع من أجود الخيل، حتى يخرج الرجل منها يحبو، وهى الأعمال. وجهنم تسأل المزيد، حتى يضع فيها قدمه، فينزوى بعضها إلى بعض وتقول: قط قط! وأنا على الحوض». قيل: وما الحوض يا رسول الله؟ قال: «والذى نفسى بيده، إن شرابه أبيض من اللبن، وأحلى من العسل، وأبرد من الثلج، وأطيب ريحا من المسك. وآنيته أكثر من عدد النجوم، لا يشرب منه إنسان فيظمأ أبدا، ولا يصرف فيروى أبدا»[٤]. وهذا القول هو اختيار ابن جرير.

وقد قال ابن أبى حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا أبو يحيى الحِمَّانى[٥] عن نضر الخزاز، عن عكرمة، عن ابن عباس، ﴿ **يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ** ﴾ قال: ما امتلأت، قال: تقول: وهل فى من مكان يزاد فى.

وكذا روى الحكم بن أبان عن عكرمة: ﴿**وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ**﴾: وهل فى مدخل واحد، قد

---

(١) صحيح مسلم برقم (٢٨٤٧).

(٢) فى م: «يأتيها ربها».

(٣) المسند (٣/١٣).

(٤) ورواه ابن أبى عاصم فى السنة برقم (٧٩٠) من طريق عقبة بن مكرم به.

وقال الألبانى: «إسناده موضوع، آفته عبد الغفار بن القاسم، وهو أبو مريم الأنصارى، كان يضع الحديث كما قال ابن المدينى وأبو داود».

(٥) فى م: «الحمان».

امتلأت.

[و][(١)] قال الوليد بن مسلم، عن يزيد بن أبى مريم أنه سمع مجاهداً يقول: لا يزال يقذف فيها حتى تقول: قد امتلأت فتقول: هل [فىَّ][(٢)] من مزيد؟ وعن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم نحو هذا.

فعند هؤلاء أن قوله تعالى: ﴿هَلِ امْتَلأْتِ﴾، إنما هو بعد ما يضع عليها قدمه، فتنزوى وتقول حينئذ: هل بقى فى [من] [(٣)]مزيد؟ يسع شيئاً.

قال العوفى، عن ابن عباس: وذلك حين لا يبقى فيها موضع [يسع][(٤)] إبرة. فالله[(٥)] أعلم.

وقوله: ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾: قال قتادة، وأبو مالك، والسدى: ﴿أُزْلِفَت﴾ أدنيت وقربت من المتقين، ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾، وذلك يوم القيامة، وليس ببعيد؛ لأنه واقع لا محالة، وكل ما هو آت آت.

﴿هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ[(٦)]﴾ أى: رجاع تائب مقلع، ﴿حَفِيظٍ﴾أى: يحفظ العهد فلا ينقضه و[لا][(٧)] ينكثه.

وقال عبيد بن عمير: الأواب: الحفيظ الذى لا يجلس مجلساً [فيقوم][(٨)]حتى يستغفر الله، عز وجل.

﴿ مَّنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ ﴾ أى: من خاف الله فى سره حيث لا يراه أحد إلا الله. كقوله [عليه السلام][(٩)] :«ورجل ذكر الله خاليا، ففاضت عيناه».

﴿وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾ أى: ولقى الله يوم القيامة بقلب سليم منيب إليه خاضع لديه.

﴿ ادْخُلُوهَا﴾ أى: الجنة ﴿ بِسَلامٍ﴾، قال قتادة: سلموا من عذاب الله، وسلم عليهم ملائكة الله.

وقوله: ﴿ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ﴾ أى:يخلدون فى الجنة فلا يموتون أبداً، ولا يظعنون أبداً، ولا يبغون عنها حولا.

وقوله: ﴿لَهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا ﴾ أى: مهما اختاروا وجدوا، من أى أصناف الملاذ طلبوا أحضر لهم.

قال ابن أبى حاتم: حدثنا أبو زُرْعَة، حدثنا عمرو بن عثمان،حدثنا بَقيَّة، عن بَحِير[(١٠)] بن سعد، عن خالد بن مَعْدان، عن كثير بن مُرَّة قال: من المزيد أن تمر السحابة بأهل الجنة فتقول: ماذا تريدون فأمطره لكم؟ فلا يدعون بشىء إلا أمطرتهم. قال كثير: لئن أشهدنى الله ذلك لأقولن: أمطرينا جوارى مزينات.

(١ـ ٣) زيادة من م . (٤) زيادة من م، أ. (٥) فى م: «والله».
(٦) فى أ: ﴿أواب حفيظ﴾. (٧) زيادة من م. (٨) زيادة من م، أ.
(٩) زيادة من م، أ. (١٠) في م: «يحيى».

وفى الحديث عن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال له: «إنك لتشتهى الطير فى الجنة، فيخر بين يديك مشوياً»[١].

وقال الإمام أحمد: حدثنا على بن عبد الله، حدثنا معاذ بن هشام، حدثنى أبى، عن عامر الأحول، عن أبى الصديق[٢]، عن أبى سعيد الخدرى؛ أن رسول الله ﷺ قال: «إذا اشتهى المؤمن الولد فى الجنة، كان حمله ووضعه وسِنّه فى ساعة واحدة».

ورواه الترمذى وابن ماجه عن بُنْدار، عن معاذ بن هشام، به[٣]. وقال الترمذى: حسن غريب، وزاد «كما يشتهى».

وقوله: ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ كقوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس:٢٦]. وقد تقدم فى صحيح مسلم عن صُهَيب بن سنان الرومى: أنها النظر إلى وجه الله الكريم. وقد روى البزار وابن أبى حاتم، من حديث شريك القاضى، عن عثمان بن عمير أبى اليقظان، عن أنس بن مالك فى قوله عز وجل: ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾قال: يظهر لهم الرب، عز وجل، فى كل جمعة[٤].

وقد رواه الإمام أبو عبد الله الشافعى مرفوعاً فقال فى مسنده: أخبرنا إبراهيم بن محمد، حدثنى موسى بن عبيدة، حدثنى أبو الأزهر معاوية بن إسحاق بن طلحة، عن عبد الله بن عبيد بن عمير[٥] أنه سمع أنس بن مالك يقول: أتى جبرائيل بمرآة بيضاء فيها نكتة إلى رسول الله، فقال النبى[٦] ﷺ: «ما هذه؟». فقال: هذه الجمعة، فُضِّلتَ بها أنت وأمتك، فالناس لكم فيها تبع، اليهود والنصارى، ولكم فيها خير، ولكم فيها ساعة لا يوافقها مؤمن[٧] يدعو الله بخير إلا استجيب له، وهو عندنا يوم المزيد. قال النبى ﷺ: «يا جبريل، وما يوم المزيد؟». قال: إن ربك اتخذ فى الفردوس واديا أفيح فيه كثب المسك، فإذا كان يوم الجمعة أنزل الله ما شاء[٨] من ملائكته، وحوله منابر من نور، عليها مقاعد النبيين، وحف تلك المنابر بمنابر من ذهب، مكللة بالياقوت والزبرجد، عليها الشهداء والصديقون[٩] فجلسوا من ورائهم على تلك الكثب، فيقول الله عز وجل: أنا ربكم، قد صدقتكم وعدى، فسلونى أعطكم. فيقولون: ربنا، نسألك رضوانك، فيقول: قد رضيت عنكم، ولكم على ما تمنيتم، ولدى مزيد. فهم يحبون يوم الجمعة لما يعطيهم فيه ربهم من الخير، وهو اليوم الذى استوى فيه ربكم على العرش، وفيه خلق آدم، وفيه تقوم الساعة».

---

(١) رواه الحسن بن عرفة فى جزئه برقم (٢٢) والبزار فى مسنده برقم (٣٥٣٢) «كشف الأستار» وابن عدى فى الكامل (٦/ ٦٨٩) من طريق خلف بن خليفة عن حميد الأعرج عن عبد الله بن الحارث عن ابن مسعود مرفوعاً به.
وفيه حميد الأعرج، قال البخارى: منكر الحديث، وقال ابن حبان: أحاديثه شبه الموضوعة.

(٢) فى م: «عن أبى بكر الصديق».

(٣) المسند (٣/ ٩) وسنن الترمذى برقم (٢٥٦٣) وسنن ابن ماجة برقم (٤٣٣٨).

(٤) فى أ: «جهة».

(٥) فى م: «عن عبيد الله بن عمير»، وفى الأصل: «عبد الله عمير» والتصويب من الأم للشافعى.

(٦) فى م: «رسول الله». (٧) فى أ: «لايوافقها عبد مؤمن» (٨) فى م: «ناساً».

(٩) فى أ: «الصالحون».

[و][١]هكذا أورده الإمام الشافعى فى كتاب «الجمعة» من الأم [٢]،وله طرق على أنس بن مالك، رضى الله عنه. وقد أورد ابن جرير هذا من رواية عثمان بن عمير، عن أنس بأبسط من هذا[٣]، وذكر هاهنا أثراً مطولا عن أنس بن مالك موقوفاً وفيه غرائب كثيرة[٤].

وقال الإمام أحمد: حدثنا حسن،حدثنا ابن لَهيعة، حدثنا دَراج عن أبى الهيثم، عن أبى سعيد، عن رسول الله ﷺ قال: «إن الرجل فى الجنة ليتكئ فى الجنة سبعين سنة قبل أن يتحول ثم تأتيه امرأة فتضرب على منكبه[٥] فينظر وجهه فى خدها أصفى من المرآة، وإن أدنى لؤلؤة عليها تضىء ما بين المشرق والمغرب. فتسلم عليه، فيرد السلام، فيسألها: من أنت؟ فتقول: أنا من المزيد. وإنه ليكون عليها سبعون حلة، أدناها مثل النعمان، من طوبى، فينفذها بصره حتى يرى مخ ساقها من وراء ذلك، وإن عليها من التيجان، إن أدنى لؤلؤة منها لتضىء ما بين المشرق والمغرب»[٦].

وهكذا رواه عبد الله بن وهب عن عمرو بن الحارث، عن دراج، به[٧].

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلادِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ (٣٦) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ (٣٧) وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ (٣٨) فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ (٣٩) وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ (٤٠) ﴾.

يقول تعالى: وكم أهلكنا قبل هؤلاء المنكرين[٨]: ﴿مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا﴾ أى: كانوا أكثر منهم وأشد قوة، وأثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿فَنَقَّبُوا فِي الْبِلادِ﴾: قال ابن عباس: أثروا فيها. وقال مجاهد:﴿فَنَقَّبُوا فِي الْبِلادِ﴾:ضربوا فى الأرض .وقال قتادة: فساروا فى البلاد، أى ساروا فيها يبتغون الأرزاق والمتاجر والمكاسب أكثر مما طفتم أنتم فيها ويقال لمن طوف فى البلاد: نقب فيها. قال امرؤ القيس:

لقد نَقَّبْتُ فى الآفَاق حَتّى ... رضيتُ من الغَنِيمة بالإيَابِ[٩]

(١) زيادة من م.
(٢) الأم (١/ ١٨٥).
(٣، ٤) تفسير الطبرى (٢٦/١٠٩).
(٥) فى أ: «منكبيه».
(٦) المسند (٣/ ٧٥) وفيه: دراج عن أبى الهيثم، ضعيف.
(٧) رواه الطبرى فى تفسيره (٢٦/ ١١٠) والكلام عليه كسابقه.
(٨) فى م، أ: «المكذبين».
(٩) البيت فى تفسير الطبرى (٢٦/ ١١٠).

وقوله: ﴿ هَلْ مِن مَّحِيص﴾ أى: هل من مفر كان لهم من قضاء الله وقدره؟ وهل نفعهم ما جمعوه ورد عنهم عذاب الله إذ جاءهم لما كذبوا الرسل؟ فأنتم أيضاً لا مفر لكم ولا محيد ولا مناص ولا محيص.

وقوله: ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى﴾ أى: لعبرة ﴿ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْب﴾ أى: لُبٌّ يَعِي به. وقال مجاهد: عقل ﴿أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيد﴾ أى: استمع الكلام فوعاه، وتعقله بقلبه وتفهمه بلبه.

وقال مجاهد: ﴿أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ ﴾ يعنى: لا يحدث نفسه بغيره، ﴿وَهُوَ شَهِيد﴾ وقال: شاهد بالقلب(١).

وقال الضحاك: العرب تقول: ألقى فلان سمعه: إذا استمع بأذنيه وهو شاهد يقول غير غائب. وهكذا قال الثورى وغير واحد.

وقوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوب﴾: فيه تقرير المعاد؛ لأن من قدر على خلق السموات والأرض ولم يعى بخلقهن، قادر على أن يحيى الموتى بطريق الأولى والأحرى.

وقال قتادة: قالت اليهود ـ عليهم لعائن الله ـ:خلق الله السموات والأرض فى ستة أيام، ثم استراح فى اليوم السابع، وهو يوم السبت، وهم يسمونه يوم الراحة، فأنزل الله تكذيبهم فيما قالوه وتأولوه: ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوب﴾ أى: من إعياء ولا نصب ولا تعب، كما قال فى الآية الأخرى: ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأحقاف: ٣٣]، وكما قال: ﴿ لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ ﴾ [غافر: ٥٧] وقال: ﴿ أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا﴾ [النازعات: ٢٧].

وقوله: ﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُون﴾ يعنى: المكذبين، اصبر عليهم واهجرهم هجراً جميلا، ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوب﴾، وكانت الصلاة المفروضة قبل الإسراء ثنتين قبل طلوع الشمس فى وقت الفجر، وقبل الغروب فى وقت العصر، وقيام الليل كان واجباً على النبى ﷺ وعلى أمته حولاً، ثم نسخ فى حق الأمة وجوبه. ثم بعد ذلك نسخ الله ذلك كله ليلة الإسراء بخمس صلوات، ولكن منهن(٢) صلاة الصبح والعصر، فهما قبل طلوع الشمس وقبل الغروب.

وقد قال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، حدثنا إسماعيل بن أبى خالد، عن قيس بن أبى حازم(٣)، عن جرير بن عبد الله قال: كنا جلوسا عند النبى ﷺ فنظر إلى القمر ليلة البدر فقال: «أما إنكم ستعرضون على ربكم فترونه كما ترون هذا القمر، لا تضامون فيه، فإن استطعتم ألا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها، فافعلوا». ثم قرأ: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ﴾.

---

(١) فى م: «القلب». (٢) فى أ: «بينهن». (٣) فى أ: «حاتم».

ورواه البخارى ومسلم وبقية الجماعة، من حديث إسماعيل، به[١].

وقوله: ﴿ومنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْه﴾ أى: فصل له، كقوله: ﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء:٧٩].

﴿وَأَدْبَارَ السُّجُودِ ﴾: قال ابن أبى نَجِيح، عن مجاهد، عن ابن عباس: هو التسبيح بعد الصلاة.

ويؤيد هذا ما ثبت فى الصحيحين عن أبى هريرة أنه قال: جاء فقراء المهاجرين فقالوا: يا رسول الله، ذهب أهل الدثور بالدرجات[٢] العُلَى والنعيم المقيم. فقال:«وما ذاك؟» قالوا: يصلون كما نصلى، ويصومون كما نصوم، ويتصدقون ولا نتصدق، ويعتقون ولا نعتق! قال: «أفلا أعلمكم شيئاً إذا فعلتموه سبقتم من بعدكم، ولا يكون أحد أفضل منكم إلا من فعل مثل ما فعلتم؟ تسبحون وتحمدون وتكبرون دبر كل صلاة ثلاثاً وثلاثين». قال: فقالوا: يا رسول الله، سمع إخواننا أهل الأموال[٣] بما فعلنا، ففعلوا مثله. قال: «ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء»[٤].

والقول الثانى: أن المراد بقوله: ﴿وَأَدْبَارَ السُّجُودِ﴾: هما الركعتان بعد المغرب، روى ذلك عن عمر وعلى، وابنه الحسن وابن عباس، وأبى هريرة، وأبى أمامة،وبه يقول مجاهد، وعكرمة، والشعبى، والنَّخَعِى والحسن وقتادة، وغيرهم.

قال الإمام أحمد: حدثنا وكيع وعبد الرحمن، عن سفيان، عن أبى إسحاق، عن عاصم بن ضَمْرَة، عن على قال: كان رسول الله ﷺ يصلى على أثر كل صلاة مكتوبة ركعتين[٥] إلا الفجر والعصر. وقال عبد الرحمن: دبر كل صلاة.

ورواه أبو داود والنسائى، من حديث سفيان الثورى، به[٦] .زاد النسائى: ومطرف، عن أبى إسحاق، به[٧] .

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا هارون بن إسحاق الهمدانى، حدثنا ابن فضيل، عن رشدين بن كريب، عن أبيه عن ابن عباس قال: بت ليلة عند رسول الله ﷺ فصلى ركعتين خفيفتين، اللتين قبل الفجر. ثم خرج إلى الصلاة فقال:« يا ابن عباس، ركعتين قبل صلاة الفجر إدبار النجوم، وركعتين بعد المغرب إدبار السجود».

ورواه الترمذى عن أبى هشام الرفاعى، عن محمد بن فضيل، به[٨]. وقال: غريب لا نعرفه إلا

(١) المسند (٤/ ٣٦٥) وصحيح البخارى برقم (٤٨٥١) وصحيح مسلم برقم (٦٣٣) وسنن أبى داود برقم (٣٧٢٩) وسنن الترمذى برقم (٢٥٥١) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٣٣٠) وسنن ابن ماجه برقم (١١٧).

(٢) فى أ: «بالأجور».
(٣) فى أ:«الإيمان».

(٤) صحيح البخارى برقم (٦٣٢٩) وصحيح مسلم برقم (٥٩٥).

(٥) فى م: «ركعتين مكتوبة».

(٦) المسند (١/ ١٢٤) وسنن أبى داود برقم (١٢٧٥) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (٣٤١).

(٧) النسائى فى السنن الكبرى برقم (٣٤٦).

(٨) سنن الترمذى برقم (٣٢٧٥).

من هذا الوجه .

وحديث ابن عباس، وأنه بات في بيت خالته ميمونة وصلى تلك الليلة مع النبي ﷺ ثلاث عشرة ركعة، ثابت في الصحيحين[١] وغيرهما، فأما هذه الزيادة فغريبة [و][٢] لا تعرف إلا من هذا الوجه، ورِشْدِين بن كُرَيْب ضعيف، ولعله من كلام ابن عباس موقوفا عليه، والله أعلم.

﴿وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ (٤١) يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ (٤٢) إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ (٤٣) يَوْمَ تَشَقَّقُ الأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ (٤٤) نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ (٤٥)﴾ .

يقول تعالى: ﴿وَاسْتَمِعْ﴾ يا محمد ﴿يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ قال قتادة: قال كعب الأحبار: يأمر الله [تعالى][٣] ملكاً[٤] أن ينادي على صخرة بيت المقدس: أيتها العظام البالية، والأوصال المتقطعة، إن الله يأمركن أن تجتمعن لفصل القضاء.

﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ﴾ يعني: النفخة في الصور التي تأتي بالحق الذي كان أكثرهم فيه يمترون. ﴿ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ﴾ أي: من الأجداث، ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ﴾ أي: هو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده، وهو أهون عليه، وإليه مصير[٥] الخلائق كلهم، فيجازي كلا بعمله، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

وقوله: ﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ الأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا﴾: وذلك أن الله تعالى[٦] ينزل مطراً من السماء تنبت به أجساد الخلائق في قبورها، كما ينبت الحب في الثرى بالماء، فإذا تكاملت الأجساد أمر الله إسرافيل فينفخ في الصور، وقد أودعت الأرواح في ثقب في الصور، فإذا نفخ إسرافيل فيه خرجت الأرواح تتوهج بين السماء والأرض، فيقول الله، عز وجل: وعزتي وجلالي، لترجعن كل روح إلى الجسد الذي كانت تعمره، فترجع كل روح إلى جسدها، فتدب فيه كما يدب السم في اللديغ وتنشق[٧] الأرض عنهم، فيقومون إلى موقف الحساب سراعا، مبادرين إلى أمر الله، عز وجل، ﴿مُّهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾ [القمر: ٨]، وقال الله تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ [الإسراء: ٥٢]، وفي صحيح مسلم عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا أول من تنشق عنه الأرض»[٨].

---

(١) صحيح البخاري برقم (١١٩٨) وصحيح مسلم برقم (٧٦٣).
(٢، ٣) زيادة من م. (٤) في م: «ملكان». (٥) في م: «تصير».
(٦) في م: «عز وجل». (٧) في م: «وتتشقق».
(٨) رواه مسلم في صحيحه برقم (٢٢٧٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ولم أهتد إليه من حديث أنس.

وقوله: ﴿ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ أى: تلك إعادة سهلة علينا، يسيرة لدينا، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلاَّ وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ [القمر: ٥٠]، وقال تعالى: ﴿مَا خَلْقُكُمْ وَلا بَعْثُكُمْ إِلاَّ كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [لقمان: ٢٨].

وقوله: ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ﴾ أى: نحن علمنا محيط بما يقول لك المشركون من التكذيب فلا يهيدنك ذلك، كقوله [تعالى][1]: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ . فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ . وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٧ ـ ٩٩].

وقوله: ﴿وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ﴾ أى: ولست بالذى تجبر هؤلاء على الهدى، وليس ذلك مما كلفت به.

وقال مجاهد، وقتادة، والضحاك: ﴿وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ﴾ أى: لا تتجبر عليهم.

والقول الأول أولى، ولو أراد ما قالوه لقال: ولا تكن جباراً عليهم، وإنما قال: ﴿وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ﴾ بمعنى: وما أنت بمجبرهم على الإيمان إنما أنت مبلغ.

قال الفراء: سمعت العرب تقول: جبر فلان فلانا على كذا[2]، بمعنى أجبره[3].

ثم قال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ أى: بلغ أنت رسالة ربك، فإنما[4] يتذكر من يخاف الله ووعيده ويرجو وعده، كقوله [تعالى][5]: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ [الرعد: ٤٠]، وقوله: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ . لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُسَيْطِرٍ﴾ [الغاشية: ٢١، ٢٢]، ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٧٢]، ﴿إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ [القصص: ٥٦]، ولهذا قال هاهنا: ﴿وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ كان قتادة يقول: اللهم، اجعلنا ممن يخاف وعيدك، ويرجو موعودك، يا بار، يا رحيم.

آخر تفسير سورة (ق)، والحمد لله وحده، وحسبنا الله ونعم الوكيل

---

(١) زيادة من م. (٢) فى م: «جبر فلان على فلان كذا».
(٣) انظر تفسير الطبرى (٢٦/ ١١٥).
(٤) فى م: «فأما». (٥) زيادة من م.

٥٠ — سورة ق

(مكية وهى خمس وأربعون آية)

بسم الله الرحمن الرحيم

ق وَالْقُرْءَانِ الْمَجِيدِ ﴿١﴾ ٥٠ ق

بَلْ عَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَٰذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٢﴾ ٥٠ ق

أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ﴿٣﴾ ٥٠ ق

مافى ضمائركم وقرىء بالياء . عن النبي صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة الحجرات أعطى من الأجر بعدد من أطاع الله وعصاه .

﴿ سورة ق مكية وآياتها خمس وأربعون ﴾

١ (بسم الله الرحمن الرحيم) (ق والقرآن المجيد) أى ذى المجد والشرف على سائر الكتب أو لأنه
كلام المجيد أولأن من علم معانيه وعمل بما فيه مجد عند الله تعالى وعند الناس والكلام فيه كالذى فصل
٢ فى مطلع سورة ص وقوله تعالى (بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم) أى لأن جاءهم منذر من جنسهم لامن
جنس الملك أو من جلدتهم إضراب عما ينبىء عنه جواب القسم المحذوف كأنه قيل والقرآن المجيد
أنزلناه إليك لتنذر به الناس حسبما ورد فى صدر سورة الأعراف كأنه قيل بعد ذلك لم يؤمنوا به بل
جعلوا كلا من المنذر والمنذر به عرضة للنكير والتعجيب مع كونهما أوفق شىء لقضية العقول وأقربه
إلى التلقى بالقبول وقيل التقدير والقرآن المجيد إنك لمنذر ثم قيل بعده إنهم شكوا فيه ثم أضرب عنه
وقيل بل عجبوا أى لم يكتفوا بالشك والرد بل جزموا بالخلاف حتى جعلوا ذلك من الأمور العجيبة
وقيل هو إضراب عما يفهم من وصف القرآن بالمجيد كأنه قيل ليس سبب امتناعهم من الإيمان بالقرآن
٭ أنه لامجد له ولكن لجهلهم (فقال الكافرون هذا شىء عجيب) تفسير لتعجيبهم وبيان لكونه مقارناً
لغاية الإنكار مع زيادة تفصيل لمحل التعجب وهذا إشارة إلى كونه عليه الصلاة والسلام منذراً بالقرآن
وإضمارهم أولا للإشعار بتعينهم بما أسند إليهم وإظهارهم ثانياً للتسجيل عليهم بالكفر بموجبه أو عطف
لتعجبهم من البعثة على أن هذا إشارة إلى مبهم يفسره مابعده من الجملة الإنكارية ووضع المظهر موضع
المضمر إما لسبق اتصافهم بما يوجب كفرهم وإما للإيذان بأن تعجبهم من البعث لدلالته على استقصارهم
لقدرة الله سبحانه عنه مع معاينتهم لقدرته تعالى على ماهو أشق منه فى قياس العقل من مصنوعاته البديعة
٣ أشنع من الأول وأعرق فى كونه كفراً (أئذا متنا وكنا تراباً) تقرير للتعجيب وتأكيد للإنكار

قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ ﴿٤﴾ ٥٠ ق
بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ﴿٥﴾ ٥٠ ق
أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ ٥٠ ق
وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ ٥٠ ق
تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾ ٥٠ ق

والعامل فى إذا مضمر غنى عن البيان لغاية شهرته مع دلالة مابعده عليه أى أحين نموت ونصير تراباً
نرجع كما ينطق به النذير والمنذر به مع كمال التباين بيننا وبين الحياة حينئذ وقرىء إذا متنا على لفظ
الخبر أو على حذف أداة الإنكار (ذلك) إشارة إلى محل النزاع (رجع بعيد) أى عن الأوهام أو العادة
أو الإمكان وقيل الرجع بمعنى المرجوع الذى هو الجواب فناصب الظرف حينئذ ماينبىء عنه المنذر
٤ من البعث (قد علمنا ماتنقص الأرض منهم) رد لاستبعادهم وإزاحة له فإن من عم علمه ولطف حتى
انتهى إلى حيث علم ما تنقص الأرض من أجساد الموتى وتأكل من لحومهم وعظامهم كيف يستبعد
رجعه إياهم أحياء كما كانوا عن النبي صلى الله عليه وسلم كل ابن آدم يبلى إلا عجب الذنب وقيل ماتنقص
الأرض منهم مايموت فيدفن فى الأرض منهم (وعندنا كتاب حفيظ) حافظ لتفاصيل الأشياء كلها أو
محفوظ من التغير والمراد إما تمثيل علمه تعالى بكليات الأشياء وجزئياتها بعلم من عنده كتاب محيط يتلق
٥ منه كل شىء أو تأكيد لعلمه تعالى بها بثبوتها فى اللوح المحفوظ عنده (بل كذبوا بالحق) إضراب
وانتقال من بيان شناعتهم السابقة إلى بيان ماهو أشنع منه وأفظع وهو تكذيبهم للنبوة الثابتة بالمعجزات
الباهرة (لما جاءهم) من غير تأمل وتفكر وقرىء لما جاءهم بالكسر على أن اللام للتوقيت أى وقت
مجيئه إياهم وقيل الحق القرآن أو الإخبار بالبعث (فهم فى أمر مريج) أى مضطرب لاقرار له من
٦ مرج الخاتم فى أصبعه حيث يقولون تارة إنه شاعر وتارة ساحر وأخرى كاهن (أفلم ينظروا) أى
أغفلوا أو أعموا فلم ينظروا (إلى السماء فوقهم) بحيث يشاهدونها كل وقت (كيف بنيناها) أى رفعناها
بغير عمد (وزيناها) بمافيها من الكواكب المرتبة على نظام بديع (وما لها من فروج) من فتوق لملاستها
٧ وسلامتها من كل عيب وخلل ولعل تأخير هذا لمراعاة الفواصل (والأرض مددناها) أى بسطناها
(وألقينا فيها رواسى) جبالا ثوابت من رسا الشىء إذا ثبت والتعبير عنها بهذا الوصف للإيذان بأن
٨ إلقاءها بإرساء الأرض بها (وأنبتنا فيها من كل زوج) من كل صنف (بهيج) حسن (تبصرة وذكرى)
علتان للأفعال المذكورة معنى وإن انتصبتا بالفعل الأخير أو لفعل مقدر بطريق الاستئناف أى فعلنا
مافعلنا تبصيراً وتذكيراً (لكل عبد منيب) أى راجع إلى ربه متفكر فى بدائع صنائعه .

وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴿٩﴾ ٥٠ ق
وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ ٥٠ ق
رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴿١١﴾ ٥٠ ق
كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ ٥٠ ق
وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ ٥٠ ق

وقوله تعالى (ونزلنا من السماء ماء مباركا) أى كثير المنافع شروع فى بيان كيفية إنبات ماذكر من ٩
كل زوج بهيج وهو عطف على أنبتنا وما بينهما على الوجه الأخير اعتراض مقرر لما قبله ومنبه على
مابعده (فأنبتنا به) أى بذلك الماء (جنات) كثيرة أى أشجاراً ذوات ثمار (وحب الحصيد) أى *
حب الزرع الذى شأنه أن يحصد من البر والشعير وأمثالهما وتخصيص إنبات حبه بالذكر لأنه المقصود
بالذات (والنخل) عطف على جنات وتخصيصها بالذكر مع اندراجها فى الجنات لبيان فضلها على سائر ١٠
الأشجار وتوسيط الحب بينهما لتأكيد استقلالها وامتيازها عن البقية مع مافيها من مراعاة الفواصل
(باسقات) أى طوالا أو حوامل من أبسقت الشاة إذا حملت فيكون من باب أفعل فهو فاعل وقرىء *
باصقات لأجل القاف (لها طلع نضيد) أى منضود بعضه فوق بعض والمراد تراكم الطلع أو كثرة *
مافيه من الثمر والجملة حال من النخل كباسقات بطريق الترادف أو من ضميرها فى باسقات على التداخل
أو الحال هو الجار والمجرور وطلع مرتفع به على الفاعلية وقوله تعالى (رزقا للعباد) أى لنرزقهم علة ١١
لقوله تعالى فأنبتنا وفى تعليله بذلك بعد تعليل أنبتنا الأول بالتبصرة والتذكير تنبيه على أن الواجب
على العبد أن يكون انتفاعه بذلك من حيث التذكر والاستبصار أهم وأقدم من تمتعه به من حيث الرزق
وقيل رزقا مصدر من معنى أنبتنا لأن الإنبات رزق (وأحيينا به) أى بذلك الماء (بلدة ميتاً) أرضاً *
جدبة لانماء فيها أصلا بأن جعلناها بحيث ربت وأنبتت أنواع النبات والأزهار فصارت تهتز بها بعدما كانت
جامدة هامدة وتذكير ميتاً لأن البلدة بمعنى البلد والمكان (كذلك الخروج) جملة قدم فيها الخبر للقصد إلى *
القصر وذلك إشارة إلى الحياة المستفادة من الإحياء وما فيه من معنى البعد للإشعار ببعد رتبتها أى
مثل تلك الحياة البديعة حياتكم بالبعث من القبور لاشىء مخالف لها وفى التعبير عن إخراج النبات
من الأرض بالإحياء وعن حياة الموتى بالخروج تفخيم لشأن الإنبات وتهوين لأمر البعث وتحقيق
للمماثلة بين إخراج النبات وإحياء الموتى لتوضيح منهاج القياس وتقريبه إلى أفهام الناس وقوله
تعالى (كذبت قبلهم قوم نوح) الخ استئناف وارد لتقرير حقية البعث ببيان كافة الرسل عليهم السلام ١٢
عليها وتعذيب منكريها (وأصحاب الرس) قيل هم ممن بعث إليهم شعيب عليه السلام وقيل وقيل *
كما مر فى سورة الفرقان على التفصيل (وثمود) (وعاد وفرعون) أى هو وقومه ليلائم ماقبله وما بعده ١٣

وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ ٥٠ ق
أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾ ٥٠ ق
وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ ٥٠ ق
إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ ٥٠ ق

١٤ (وإخوان لوط) قيل كانوا من أصهاره عليه الصلاة والسلام (وأصحاب الأيكة) هم ممن بعث إليهم
شعيب عليه السلام غير أهل مدين (وقوم تبع) سبق شرح حالهم فى سورة الدخان (كل كذب الرسل)
أى فيما أرسلوا به من الشرائع التى من جملتها البعث الذى أجمعوا عليه قاطبة أى كل قوم من الأقوام
المذكورين كذبوا رسولهم أو كذب جميعهم جميع الرسل بالمعنى المذكور وإفراد الضمير باعتبار لفظ
الكل أو كل واحد منهم كذب جميع الرسل لاتفاقهم على الدعوة إلى التوحيد والإنذار بالبعث والحشر
فتكذيب واحد منهم تكذيب للكل وهذا على تقدير رسالة تبع ظاهر وأما على تقدير عدمها وهو
الأظهر فمعنى تكذيب قومه الرسل تكذيبهم بمن قبلهم من الرسل المجمعين على التوحيد والبعث وإلى
ذلك كان يدعوهم تبع (فحق وعيد) أى فوجب وحل عليهم وعيدى وهى كلمة العذاب وفيه تسلية
١٥ للرسول صلى الله عليه وسلم وتهديد لهم (أفعيينا بالخلق الأول) استئناف مقرر لصحة البعث الذى
حكيت أحوال المنكرين له من الأمم المهلكة والعى بالأمر العجز عنه يقال عى بالأمر وعيي به إذا لم
يهتد لوجه عمله والهمزة للإنكار والفاء للعطف على مقدر ينبىء عنه العى من القصد والمباشرة كأنه
قيل أقصدنا الخلق الأول فعجزنا عنه حتى يتوهم عجزنا عن الإعادة (بل هم فى لبس من خلق جديد)
عطف على مقدر يدل عليه ماقبله كأنه قيل هم غير منكرين لقدرتنا على خلق الأول بل هم فى خلط
وشبهة فى خلق مستأنف لما فيه من مخالفة العادة وتنكير خلق لتفخيم شأنه والإشعار بخروجه عن
١٦ حدود العادات والإيذان بأنه حقيق بأن يبحث عنه ويهتم بمعرفته (ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ماتوسوس
به نفسه) أى ماتحدثه به نفسه وهو يخطر بالبال والوسوسة الصوت الخفى ومنه وسواس الحلى والضمير
لما إن جعلت موصولة والباء كما فى صوت بكذا أو للإنسان وإن جعلت مصدرية والباء للتعدية (ونحن
أقرب إليه من حبل الوريد) أى أعلم بحاله ممن كان أقرب إليه من حبل الوريد عبر عن قرب العلم
بقرب الذات تجوزاً لأنه موجب له وحبل الوريد مثل فى فرط القرب والحبل العرق وإضافته بيانية
والوريدان عرقان مكتنفان بصفحتى العنق فى مقدمها متصلان بالوتين يردان من الرأس إليه وقيل
١٧ سمى وريداً لأن الروح ترده (إذ يتلقى المتلقيان) منصوب بما فى أقرب من معنى الفعل والمعنى أنه لطيف
يتوصل علمه إلى مالا شىء أخفى منه وهو أقرب من الإنسان من كل قريب حين يتلقى ويتلقن الحفيظان
ما يتلفظ به وفيه إيذان بأنه تعالى غنى عن استحفاظهما لإحاطة علمه بما يخفى عليهما وإنما ذلك لما
فى كتبتهما وحفظهما لأعمال العبد وعرض صحائفهما يوم يقوم الأشهاد وعلم العبد بذلك مع علمه

مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾
وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾

بإحاطته تعالى بتفاصيل أحواله خبراً من زيادة لطف له فى الكف عن السيئات والرغبة فى الحسنات وعنه عليه الصلاة والسلام أن مقعد ملكيك على ثنيتيك ولسانك قلمهما وريقك مدادهما وأنت تجرى فيما لا يعنيك لا تستحى من الله ولا منهما وقد جوز أن يكون تلقى الملكين بياناً للقرب على معنى أنا أقرب إليه مطلعون على أعماله لأن حفظتنا وكتبتنا موكاون به (عن اليمين وعن الشمال قعيد) أى *
عن اليمين قعيد وعن الشمال قعيد أى مقاعد كالجليس بمعنى المجالس لفظاً ومعنى فحذف الأول لدلالة الثانى عليه كما فى قول من قال [رمانى بأمر كنت منه ووالدى * بريئاً ومن أجل الطوى رمانى] وقيل
يطلق الفعيل على الواحد والمتعدد كما فى قوله تعالى والملائكة بعد ذلك ظهير (ما يلفظ من قول) ما يرمى 18
به من فيه من خير أو شر وقرىء ما يلفظ على البناء للمفعول (إلا لديه رقيب) ملك يرقب قوله ويكتبه *
فإن كان خيراً فهو صاحب اليمين بعينه وإلا فهو صاحب الشمال ووجه تغيير العنوان غنى عن البيان والإفراد مع وقوفهما معاً على ما صدر عنه لما أن كلا منهما رقيب لما فوض إليه لا لما فوض إلى صاحبه كما ينبىء عنه قوله تعالى (عتيد) أى معد مهيأ لكتابة ما أمر به من الخير أو الشر ومن لم يتنبه له توهم *
أن معناه رقيبان عتيدان وتخصيص القول بالذكر لإثبات الحكم فى الفعل بدلالة النص واختلف فيما يكتبانه فقيل يكتبان كل شىء حتى أنينه فى مرضه وقيل إنما يكتبان ما فيه من أجر أو وزر وهو الأظهر كما ينبىء عنه قوله صلى الله عليه وسلم كاتب الحسنات على يمين الرجل وكاتب السيئات على يساره وكاتب الحسنات أمير على كاتب السيئات فإذا عمل حسنة كتبها ملك اليمين عشراً وإذا عمل سيئة قال
صاحب اليمين لصاحب الشمال دعه سبع ساعات لعله يسبح أو يستغفر (وجاءت سكرة الموت بالحق) 19
بعد ما ذكر استبعادهم للبعث والجزاء وأزيح ذلك بتحقيق قدرته تعالى وعلمه وبين أن جميع أعمالهم محفوظة مكتوبة عليهم أتبع ذلك ببيان ما يلاقونه لا محالة من الموت والبعث وما يتفرع عليه من الأحوال والأهوال وقد عبر عن وقوع كل منها بصيغة الماضى إيذاناً بتحقيقها وغاية اقترابها وسكرة الموت شدته الذاهبة بالعقل والباء إما للتعدية كما فى قولك جاء الرسول بالخبر والمعنى أحضرته سكرة الموت حقيقة الأمر الذى نطقت به كتب الله ورسله أو حقيقة الأمر وجلية الحال من سعادة الميت وشقاوته وقيل الحق الذى لا بد أن يكون لا محالة من الموت أو الجزاء فإن الإنسان خلق له وإما للملابسة كالتى فى قوله تعالى تنبت بالدهن أى ملتبسة بالحق أى بحقيقة الأمر أو بالحكمة والغاية الجميلة وقرىء سكرة الحق بالموت والمعنى أنها السكرة التى كتبت على الإنسان بموجب الحكمة وأنها لشدتها توجب زهوق الروح أو تستعقبه وقيل الباء بمعنى مع وقيل سكرة الحق سكرة الله تعالى على أن الإضافة للتهويل

وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾ ٥٠ ق

وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾ ٥٠ ق

لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾ ٥٠ ق

وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾ ٥٠ ق

أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾ ٥٠ ق

* وقرىء سكرات الموت (ذلك) أي الموت (ما كنت منه تحيد) أي تميل وتنفر عنه والخطاب للإنسان
٢٠ فإن النفرة عنه شاملة لكل فرد من أفراده طبعاً (ونفخ في الصور) هي النفخة الثانية (ذلك) أي
* وقت ذلك النفخ على حذف المضاف (يوم الوعيد) أي يوم إنجاز الوعيد الواقع في الدنيا أي يوم وقوع
الوعيد على أنه عبارة عن العذاب الموعود وقيل ذلك إشارة إلى الزمان المفهوم من نفخ فإن الفعل
كما يدل على الحدث يدل على الزمان وتخصيص الوعيد بالذكر مع أنه يوم الوعد أيضاً لتهويله ولذلك
٢١ بدىء ببيان حال الكفرة (وجاءت كل نفس) من النفوس البرة والفاجرة (معها سائق وشهيد) وإن
اختلفت كيفية السوق والشهادة حسب اختلاف النفوس عملا أي معها ملكان أحدهما يسوقها إلى
المحشر والآخر يشهد بعملها أو ملك جامع بين الوصفين كأنه قيل معها ملك يسوقها ويشهد عليها وقيل
السائق كاتب السيئات والشهيد كاتب الحسنات وقيل السائق نفسه أو قرينه والشهيد جوارحه أو أعماله
ومحل معها النصب على الحالية من كل لإضافته إلى ما هو في حكم المعرفة كأنه قيل كل النفوس أو الجر
٢٢ على أنه وصف لنفس أو الرفع على أنه وصف لكل وقوله تعالى (لقد كنت في غفلة من هذا) محكي
بإضمار قول هو إما صفة أخرى لنفس أو حال أخرى منها أو استئناف مبني على سؤال نشأ مما قبله
كأنه قيل فماذا يفعل بها فقيل يقال لقد كنت في غفلة الخ وخطاب الكل بذلك لما أنه ما من أحد إلا
وله غفلة ما من الآخرة وقيل الخطاب للكافر وقرىء كنت بكسر التاء على اعتبار تأنيث النفس والتذكير
على القراءة المشهورة بتأويل الشخص كما في قول جبلة بن حريث [يا نفس إنك باللذات مسروراً *
* فاذكر فهل ينفعك اليوم تذكير] (فكشفنا عنك غطاءك) الغطاء الحجاب المغطي لأمور المعاد وهو
* الغفلة والانهماك في المحسوسات والألف بها وقصر النظر عليها (فبصرك اليوم حديد) نافذ لزوال المانع
٢٣ للإبصار وقرىء بكسر الكاف في المواضع الثلاثة (وقال قرينه) أي الشيطان المقيض له مشيراً إليه
* (هذا ما لدي عتيد) أي هذا ما عندي وفي ملكتي عتيد لجهنم قد هيأته لها بإغوائي وإضلالي وقيل
قال الملك الموكل به مشيراً إلى ما معه من كتاب عمله هذا مكتوب عندي عتيد مهيأ للعرض وما إن
جعلت موصوفة فعتيد صفتها وإن جعلت موصولة فهي بدل منها أو خبر بعد خبر أو خبر لمبتدأ
٢٤ محذوف (ألقيا في جهنم كل كفار) خطاب من الله تعالى للسائق والشهيد أو للملكين من خزنة النار

مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾ ٥٠ ق
ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾ ٥٠ ق
قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾ ٥٠ ق
قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ ٥٠ ق
مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾ ٥٠ ق

أو لواحد على تنزيل تثنية الفاعل منزلة تثنية الفعل وتكريره كقول من قال [فإن تزجرانى يا ابن عفان أنزجر * وإن تدعانى أحم عرضاً ممنعاً] أو على أن الألف بدل من نون التأكيد على إجراء الوصل
٢٥ مجرى الوقف ويؤيده أنه قرىء ألقين بالنون الخفيفة (عنيد) معاند للحق (مناع للخير) كثير المنع للمال عن حقوقه المفروضة وقيل المراد بالخير الإسلام فإن الآية نزلت فى الوليد بن المغيرة لما منع
٢٦ بنى أخيه منه (معتد) ظالم متخط للحق (مريب) شاك فى الله وفى دينه (الذى جعل مع الله إلهاً آخر) مبتدأ متضمن لمعنى الشرط خبره (فألقياه فى العذاب الشديد) أو بدل من كل كفار وقوله تعالى فألقياه تكرير *
٢٧ للتوكيد أو مفعول لمضمر يفسره فألقياه (قال قرينه) أى الشيطان المقيض له وإنما استؤنف استئناف الجمل الواقعة فى حكاية المقاولة لما أنه جواب لمحذوف دل عليه قوله تعالى (ربنا ما أطغيته) فإنه منبىء * عن سابقة كلام اعتذر به الكافر كأنه قال هو أطغانى فأجاب قرينه بتكذيبه وإسناد الطغيان إليه بخلاف الجملة الأولى فإنها واجبة العطف على ماقبلها دلالة على أن الجمع بين مفهوميهما فى الحصول أعنى مجىء كل نفس مع الملكين وقول قرينه (ولكن كان) هو بالذات (فى ضلال بعيد) من الحق فأعنته * عليه بالإغواء والدعوة إليه من غير قسر وإلجاء كما فى قوله تعالى وما كان لى عليكم من سلطان إلا أن
٢٨ دعوتكم فاستجبتم لى (قال) استئناف مبنى على سؤال نشأ مما قبله كأنه قيل فماذا قال الله تعالى فقيل قال (لاتختصموا لدى) أى فى موقف الحساب والجزاء إذ لا فائدة فى ذلك (وقد قدمت إليكم بالوعيد) * على الطغيان فى دار الكسب فى كتبى وعلى ألسنة رسلى فلا تطمعوا فى الخلاص عنه بما أنتم فيه من التعلل بالمعاذير الباطلة والجملة حال فيها تعليل للنهى على معنى لاتختصموا وقد صح عندكم أنى قدمت إليكم بالوعيد حيث قلت لإبليس لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين فاتبعتموه معرضين عن الحق فلا وجه للاختصام فى هذا الوقت والباء مزيدة أو معدية على أن قدم بمعنى تقدم وقد جوز أن يكون
٢٩ قدمت واقعاً على قوله تعالى (مايبدل القول لدى) الخ ويكون بالوعيد متعلقاً بمحذوف هو حال من المفعول أو الفاعل أى وقد قدمت إليكم هذا القول ملتبساً بالوعيد مقترناً به أو قدمته إليكم موعداً لكم به فلا تطمعوا أن أبدل وعيدى والعفو عن بعض المذنبين لأسباب داعية إليه ليس بتبديل فإن دلائل العفو تدل على تخصيص الوعيد وقوله تعالى (وما أنا بظلام للعبيد) وارد لتحقيق الحق على الوجه *

يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾ ٥٠ ق

وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ ٥٠ ق

هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ ٥٠ ق

الكلى وتبيين أن عدم تبديل القول وتحقيق موجب الوعيد ليس من جهته تعالى من غير استحقاق له منهم بل إنما ذلك بما صدر عنهم من الجنايات الموجبة له حسبما أشير إليه آنفاً أى وما أنا بمعذب العبيد بغير ذنب ليس بظلم على ماتقرر من قاعدة أهل السنة فضلا عن كونه ظلما مفرطا لبيان كال نزاهته تعالى عن ذلك بتصويره بصورة مايستحيل صدوره عنه سبحانه من الظلم وصيغة المبالغة لتأكيد هذا المعنى بإبراز ماذكر من التعذيب بغير ذنب فى معرض المبالغة فى الظلم وقيل هى لرعاية جمعية العبيد من

٣٠ قولهم فلان ظالم لعبده وظلام لعبيده على أنها مبالغة كما لا كيفا (يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد) سؤال وجواب جىء بهما على منهاج التمثيل والتخييل لتهويل أمرها والمعنى أنها مع اتساعها وتباعد أقطارها تطرح فيها من الجنة والناس فوجا بعد فوج حتى تمتلىء أو أنها من السعة بحيث يدخلها من يدخلها وفيها بعد محل فارغ أو أنها لغيظها على العصاة تطلب زيادتهم وقرىء يقول بالياء والمزيد إما مصدر كالحيد والمجيد أو مفعول كالمبيع ويوم إما منصوب باذكر أو أنذر أو ظرف لنفخ فيكون ذلك حينئذ إشارة إليه من غير حاجة إلى تقدير مضاف أو لمقدر مؤخر أى يكون من الأحوال

٣١ والأهوال مايقصر عنه المقال (وأزلفت الجنة للمتقين) شروع فى بيان حال المؤمنين بعد النفخ ومجىء النفوس إلى موقف الحساب وقد مر سر تقديم بيان حال الكفرة عليه وهو عطف على نفخ أى قربت للمتقين عن الكفر والمعاصى بحيث يشاهدونها من الموقف ويقفون على مافيها من فنون المحاسن فيبتهجون بأنهم محشورون إليها فائزون بها وقوله تعالى (غير بعيد) تأكيد للإزلاف أى مكانا غير بعيد بحيث يشاهدونها أو حال كونها غير بعيد أى شيئا غير بعيد ويجوز أن يكون التذكير لكونه على زنة المصدر

٣٢ الذى يستوى فى الوصف به المذكر والمؤنث أو لتأويل الجنة بالبستان (هذا ما توعدون) إشارة إلى الجنة والتذكير لما أن المشار إليه هو المسمى من غير أن يخطر بالبال لفظ يدل عليه فضلا عن تذكيره وتأنيثه فإنهما من أحكام اللفظ العربى كما مر فى قوله تعالى فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربى وقوله تعالى ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله ويجوز أن يكون ذلك لتذكير الخبر وقيل هو إشارة إلى ثواب وقيل إلى مصدر أزلفت وقرىء يوعدون والجملة إما اعتراض بين البدل والمبدل منه وإما مقدر بقول هو حال من المتقين أو من الجنة والعامل أزلفت أى مقولا لهم أو مقولا فى حقها هذا ما توعدون (لكل أواب) أى رجاع إلى الله تعالى بدل من المتقين بإعادة الجار (حفيظ) حافظ لتوبته من النقض وقيل هو الذى يحفظ ذنوبه حتى يرجع عنها ويستغفر منها وقيل هو الحافظ لأوامر الله تعالى وقيل لما استودعه الله تعالى من حقوقها .

مَنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ٥٠ ق

ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ ٥٠ ق

لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾ ٥٠ ق

وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِى ٱلْبِلَٰدِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴿٣٦﴾ ٥٠ ق

٣٣ (من خشي الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب) بدل بعد بدل أو بدل من موصوف أواب ولا يجوز
٣٤ أن يكون فى حكمه لأن من لا يوصف به ولا يوصف إلا بالذى أو مبتدأ خبره (ادخلوها) بتأويل
يقال لهم ادخلوها والجمع باعتبار معنى من وقوله تعالى بالغيب متعلق بمحذوف هو حال من فاعل خشى
أو مفعوله أو صفة لمصدره أى خشية ملتبسة بالغيب حيث خشى عقابه وهو غائب عن الأعين لا يراه
أحد والتعرض لعنوان الرحمانية للإشارة بأنهم مع خشيتهم عقابه راجون رحمته أو بأن علمهم بسعة
رحمته تعالى لا يصدهم عن خشيته تعالى وأنهم عاملون بموجب قوله تعالى نبيء عبادى أنى أنا الغفور
الرحيم وأن عذابى هو العذاب الأليم ووصف القلب بالإنابة لما أن العبرة برجوعه إلى الله تعالى (بسلام)
متعلق بمحذوف هو حال من فاعل ادخلوها أى ملتبسين بسلامة من العذاب وزوال النعم أو بسلام
من جهة الله تعالى وملائكته (ذلك) إشارة إلى الزمان الممتد الذى وقع فى بعض منه ماذكر من الأمور
٣٥ (يوم الخلود) إذ لا انتهاء له أبداً (لهم مايشاؤن) من فنون المطالب كائناً ما كان (فيها) متعلق
بيشاؤن وقيل بمحذوف هو حال من الموصول أو من عائده المحذوف من صلته (ولدينا مزيد) هو
مالا يخطر ببالهم ولا يندرج تحت مشيئتهم من معالى الكرامات التى لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر
على قلب بشر وقيل إن السحاب تمر بأهل الجنة فتمطرهم الحور فتقول نحن المزيد الذى قال تعالى
٣٦ ولدينا مزيد (وكم أهلكنا قبلهم) أى قبل قومك (من قرن هم أشد منهم بطشاً) أى قوة كعاد وأضرابها
(فنقبوا فى البلاد) أى خرقوا فيها ودوخوا وتصرفوا فى أقطارها أو جالوا فى أكناف الأرض كل
مجال حذار الموت وأصل التنقيب والنقب التنقير عن الأمر والبحث والطلب والفاء للدلالة على أن
شدة بطشهم أقدرتهم على التنقيب قيل هى عاطفة فى المعنى كأنه قيل اشتد بطشهم فنقبوا الخ وقرىء
بالتخفيف (هل من محيص) أى هل لهم من مخلص من أمر الله تعالى والجملة إما على إضمار قول هو
حال من واو نقبوا أى فنقبوا فى البلاد قائلين هل من محيص أو على إجراء التنقيب لما فيه من معنى التتبع
والتفتيش مجرى القول أو هو كلام مستأنف وارد لنفى أن يكون لهم محيص وقيل ضمير نقبوا لأهل
مكة أى ساروا فى مسايرهم وأسفارهم فى بلاد القرون فهل رأوا لهم محيصاً حتى يؤملوا مثله لأنفسهم
ويعضده القراءة على صيغة الأمر وقرىء فنقبوا بكسر القاف من النقب وهو أن ينتقب خف البعير
أى أكثروا السير حتى نقبت أقدامهم أو أخفاف إبلهم .

إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾ ٥٠ ق

وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾ ٥٠ ق

فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ ٥٠ ق

وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ﴿٤٠﴾ ٥٠ ق

وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾ ٥٠ ق

---

٣٧ (إن ذلك) أى فيما ذكر من قصتهم وقيل فيما ذكر فى السورة (لذكرى) لتذكرة وعظة (لمن كان له
قلب) أى قلب سليم يدرك به كنه مايشاهده من الأمور ويتفكر فيها كما ينبغى فإن من كان له ذلك يعلم
أن مدار دمارهم هو الكفر فيرتدع عنه بمجرد مشاهدة الآثار من غير تذكير (أو ألقى السمع) أى
إلى مايتلى عليه من الوحى الناطق بما جرى عليهم فإن من فعله يقف على جلية الأمر فينزجر عما يؤدى
إليه من الكفر فكلمة أو لمنع الخلو دون الجمع فإن إلقاء السمع لايجدى بدون سلامة القلب كما يلوح
به قوله تعالى (وهو شهيد) أى حاضر بفطنته لأن من لايحضر ذهنه فكأنه غائب وتجريد القلب عما
٣٨ ذكر من الصفات للإيذان بأن من عرى قلبه عنها كمن لاقلب له أصلا (ولقد خلقنا السموات والأرض
وما بينهما) من أصناف المخلوقات (فى ستة أيام وما مسنا) بذلك مع كونه مما لايفى به القوى والقدر
(من لغوب) من إعياء ما ولا تعب فى الجملة وهذا رد على جهلة اليهود فى زعمهم أنه تعالى بدأ خلق العالم
يوم الأحد وفرغ منه يوم الجمعة واستراح يوم السبت واستلقى على العرش سبحانه وتعالى عما يقولون
٣٩ علواً كبيراً (فاصبر على مايقولون) أى مايقوله المشركون فى شأن البعث من الأباطيل المبنية على الإنكار
والاستبعاد فإن من فعل هذه الأفاعيل بلا فتور قادر على بعثهم والانتقام منهم أو مايقوله اليهود من
مقالات الكفر والتشبيه (وسبح بحمد ربك) أى نزهه تعالى عن العجز عما يمكن وعن وقوع الخلف
فى إخباره التى من جملتها الإخبار بوقوع البعث وعن وصفه تعالى بما يوجب التشبيه حامداً له تعالى
على ما أنعم به عليك من إصابة الحق وغيرها (قبل طلوع الشمس وقبل الغروب) هما وقت الفجر
٤٠ والعصر وفضيلتهما مشهورة (ومن الليل فسبحه) وسبحه بعض الليل (وأدبار السجود) وأعقاب
الصلوات جمع دبر وقرىء بالكسر من أدبرت الصلاة إذا انقضت وتمت ومعناه وقت انقضاء السجود
وقيل المراد بالتسبيح الصلوات فالمراد بما قبل الطلوع صلاة الفجر وبما قبل الغروب الظهر والعصر
٤١ وبما من الليل العشاءان والتهجد وما يصلى بأدبار السجود النوافل بعد المكتوبات (واستمع) أى
لما يوحى إليك من أحوال القيامة وفيه تهويل وتفظيع للمخبر به (يوم ينادى المنادى) أى إسرافيل
أو جبريل عليهما السلام فيقول أيتها العظام البالية واللحوم المتمزقة والشعور المتفرقة إن الله يأمركن
أن تجتمعن لفصل القضاء وقيل إسرافيل ينفخ وجبريل ينادى بالحشر (من مكان قريب) بحيث يصل

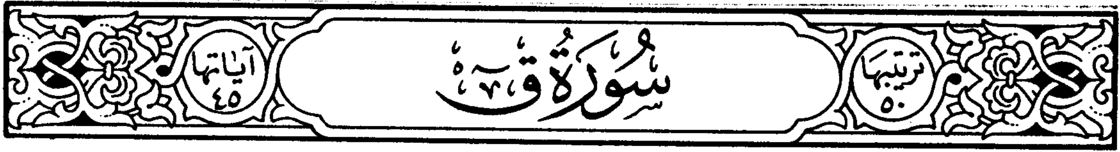
يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾ ٥٠ ق

إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾ ٥٠ ق

يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾ ٥٠ ق

نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾ ٥٠ ق

نداؤه إلى الكل على سواء وقيل من صخرة بيت المقدس وقيل من تحت أقدامهم وقيل من منابت شعورهم
٤٢ يسمع من كل شعرة ولعل ذلك فى الإعادة مثل كن فى البدء (يوم يسمعون الصيحة) بدل من يوم
ينادى الخ وهى النفخة الثانية (بالحق) متعلق بالصيحة والعامل فى الظرف مايدل عليه قوله تعالى (ذلك
٤٣ يوم الخروج) أى يوم يسمعون الصيحة ملتبسة بالحق الذى هو البعث يخرجون من القبور (إنا نحن
نحيي ونميت) فى الدنيا من غير أن يشاركنا فى ذلك أحد (وإلينا المصير) للجزاء فى الآخرة لا إلى
٤٤ غيرنا لا استقلالا ولا اشتراكا (يوم تشقق الأرض عنهم) بحذف إحدى التاءين من تتشقق وقرىء
بتشديد الشين وتشقق على البناء للمفعول من التفعيل وتنشق (سراعا) مسرعين (ذلك حشر) بعث
٤٥ وجمع وسوق (علينا يسير) أى هين وتقديم الجار والمجرور لتخصيص اليسر به تعالى (نحن أعلم بما
يقولون) من نفى البعث وتكذيب الآيات الناطقة به وغير ذلك مما لاخير فيه (وما أنت عليهم بجبار)
بمتسلط تقسرهم على الإيمان أو تفعل بهم ماتريد وإنما أنت مذكر (فذكر بالقرآن من يخاف وعيد)
وأما من عداهم فنحن نفعل بهم ماتوحيه أقوالهم وتستدعيه أعمالهم من ألوان العقاب وفنون العذاب.
عن النبى عليه الصلاة والسلام من قرأ سورة ق هون الله عليه تارات الموت وسكراته.



وهي مكية وأطلق الجمهور ذلك، وفي التحرير عن ابن عباس. وقتادة أنها مكية إلا قوله تعالى: ﴿ولقد خلقنا السموات والأرض﴾ [ق: ٣٨] الآية فهي مدنية نزلت في اليهود، وآيها خمس وأربعون بالإجماع. ولما أشار سبحانه في آخر السورة السابقة إلى أن إيمان أولئك الأعراب لم يكن إيماناً حقاً ويتضمن ذلك إنكار النبوة وإنكار البعث افتتح عز وجل هذه السورة بما يتعلق بذلك، وكان ﷺ كثيراً ما يقرؤها في صلاة الفجر كما في حديث مسلم. وغيره عن جابر ابن سمرة، وفي رواية ابن ماجه. وغيره عن قطبة بن مالك أنه عليه الصلاة والسلام كان يقرؤها في الركعة الأولى من صلاة الفجر. وأخرج أحمد ومسلم وأبو داود وابن ماجه والترمذي والنسائي عن أبي واقد الليثي أنه ﷺ كان يقرأ في العيد بقاف واقتربت، وأخرج أبو داود والبيهقي وابن ماجه وابن أبي شيبة عن أم هشام ابنة حارثة قالت: «ما أخذت ﴿ق والقرآن المجيد﴾ [ق: ١] الا من في رسول الله ﷺ كان يقرأ بها في كل جمعة على المنبر إذا خطب الناس» وفي حديث ابن مردويه عن أبي العلاء رضي الله تعالى عنه مرفوعاً «تعلموا ق والقرآن المجيد» وكل ذلك يدل على أنها من أعظم السور.

بسم الله الرحمن الرحيم

قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ﴿١﴾ بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا
تُرَابًا ۖ ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ﴿٣﴾ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ ۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ ﴿٤﴾ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا
جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ﴿٥﴾ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾
وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾
وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾
رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴿١١﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ
وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ ۚ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ ۚ بَلْ هُمْ

﴿فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ١٥ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ١٦ إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ١٧ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ١٨ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ١٩﴾

﴿بسم الله الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾ ذي المجد والشرف من باب النسب كلابن وتامر وإلا فالمعروف وصف الذات الشريفة به، وصنيع بعضهم ظاهر في اختيار هذا الوجه، وأورد عليه أن ذلك غير معروف في فعيل كما قاله ابن هشام في ﴿إن رحمة الله قريب﴾ [الأعراف: ٥٦] وأنت تعلم أن من حفظ حجة على من لم يحفظ، وشرفه على هذا بالنسبة لسائر الكتب، أما غير الإلهية فظاهر، وأما الإلهية فلإعجازه وكونه غير منسوخ بغيره واشتماله مع إيجازه على أسرار يضيق عنها كل واحد منها، وقال الراغب: المجد السعة في الكرم وأصله مجدت الإبل إذا وقعت في مرعى كثير واسع، ووصف القرآن به لكثرة ما يتضمن من المكارم الدنيوية والأخروية، ويجوز أن يكون وصفه بذلك لأنه كلام المجيد فهو وصف بصفة قائله، فالإسناد مجازي كما في القرآن الحكيم أو لأن من علم معانيه وعمل بما فيه مجد عند الله تعالى وعند الناس، فالكلام بتقدير مضاف حذف فارتفع الضمير المضاف إليه، أو فعيل فيه بمعنى مفعل كبديع بمعنى مبدع لكن في مجيء فعيل وصفاً من الإفعال كلام، وأكثر أهل اللغة والعربية لم يثبته، وأكثر ما تقدم في قوله تعالى: ﴿ص والقرآن ذي الذكر﴾ [ص: ١] يجري ههنا حتى أنه قيل: يجوز أن يكون ﴿ق﴾ أمراً من مفاعلة قفا أثره أي تبعه، والمعنى اتبع القرآن واعمل بما فيه، ولم يسمع مأثوراً، ومثله ما قيل: إنه أمر بمعنى قف أي قف عند ما شرع لك ولا تجاوزه. وأخرج ابن جرير وابن المنذر، عن ابن عباس قال: خلق الله تعالى من وراء هذه الأرض بحراً محيطاً بها ومن وراء ذلك جبلاً يقال له قاف السماء الدنيا مترفرفة عليه ثم خلق من وراء ذلك الجبل أرضاً مثل تلك الأرض سبع مرات ثم خلق من وراء ذلك بحراً محيطاً بها ثم خلق وراء ذلك جبلاً يقال له قاف السماء الثانية مترفرفة عليه حتى عد سبع أرضين وسبعة أبحر وسبعة أجبل ثم قال: وذلك قوله تعالى: ﴿والبحر يمده من بعده سبعة أبحر﴾ [لقمان: ٢٧] وأخرج ابن أبي الدنيا في العقوبات. وأبو الشيخ عنه أيضاً أنه قال: خلق الله تعالى جبلاً يقال له قاف محيطاً بالعالم وعروقه إلى الصخرة التي عليها الأرض فإذا أراد الله تعالى أن يزلزل قرية أمر ذلك الجبل فحرك العرق الذي يلي تلك القرية فيزلزلها ويحركها فمن ثم تحرك القرية دون القرية. وأخرج ابن المنذر. وأبو الشيخ في العظمة. والحاكم. وابن مردويه عن عبد الله بن بريدة أنه قال في الآية: قاف جبل من زمرد محيط بالدنيا عليه كنفا السماء. وأخرج عبد الرزاق عن مجاهد أنه أيضاً قال: هو جبل محيط بالأرض، وذهب القرافي إلى أن جبل قاف لا وجود له وبرهن عليه بما برهن ثم قال: ولا يجوز اعتقاد ما لا دليل عليه. وتعقبه ابن حجر الهيتمي فقال: «يرد ذلك ما جاء عن ابن عباس من طرق خرجها الحفاظ وجماعة منهم ممن التزموا تخريج الصحيح، وقول الصحابي ذلك ونحوه مما لا مجال للرأي فيه حكمه حكم المرفوع إلى النبي ﷺ ان وراء أرضنا بحراً محيطاً ثم جبلاً يقال له قاف إلى آخر ما تقدم، ثم قال: وكما يندفع بذلك قوله: لا وجود له يندفع قوله: ولا يجوز اعتقاد الخ لأنه إن أراد بالدليل مطلق الامارة فهذه عليه أدلة أو الامارة القطعية فهذا مما يكفي فيه الظن كما هو جلي انتهى، والذي أذهب إليه ما ذهب إليه القرافي من أنه لا وجود لهذا الجبل بشهادة الحس فقد قطعوا هذه الأرض برها وبحرها على مدار السرطان مرات فلم يشاهدوا ذلك، والطعن في صحة هذه الأخبار وإن كان جماعة من رواتها ممن التزم تخريج الصحيح أهون من تكذيب الحس، وليس ذلك من باب نفي الوجود لعدم الوجدان كما لا يخفى على ذوي العرفان، وأمر الزلزلة لا يتوقف على

ذلك الجبل بل هي من الأبخرة وطلبها الخروج مع صلابة الأرض وإنكار ذلك مكابرة عند من له أدنى عرق من الإنصاف والله تعالى أعلم.

واختلف في جواب القسم فقيل: محذوف يشعر به الكلام كأنه قيل: والقرآن المجيد إنا أنزلناه لتنذر به الناس، وقدره أبو حيان إنك جئتهم منذراً بالبعث ونحو ما قيل: هو إنك لمنذر؛ وقيل: ما ردوا أمرك بحجة.

وقال الأخفش والمبرد والزجاج: تقديره لتبعثن، وقيل: هو مذكور، فعن الأخفش ﴿قد علمنا ما تنقص الأرض منهم﴾ [ق: ٤] وحذفت اللام لطول الكلام، وعنه أيضاً. وعن ابن كيسان ﴿ما يلفظ من قول﴾ [ق: ١٨] وقيل: ﴿إن في ذلك لذكرى﴾ [ق: ٣٧] وهو اختيار محمد بن علي الترمذي، وقيل: ﴿ما يبدل القول لديّ﴾ [ق: ٢٩] وعن نحاة الكوفة هو قوله تعالى: ﴿بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ﴾ وما ذكر أولاً هو المعول عليه، و ﴿بل﴾ للإضراب عما ينبىء عنه جواب القسم المحذوف فكأنه قيل: إنا أنزلناه لتنذر به الناس فلم يؤمنوا به بل جعلوا كلاً من المنذر والمنذر به عرضة للتكبر والتعجب مع كونهما أوفق شيء لقضية العقول وأقربه إلى التلقي بالقبول، وقيل: التقدير إنك جئتهم منذراً بالبعث فلم يقبلوا بل عجبوا أو فشكوا فيه بل عجبوا على معنى لم يكتفوا بالشك والرد بل جزموا بالخلاف حتى جعلوا ذلك من الأمور العجيبة، وقيل: هو إضراب عما يفهم من وصف القرآن بالمجيد كأنه قيل: ليس سبب امتناعهم من الإيمان بالقرآن أن لا مجد له ولكن لجهلهم، ونبه بقوله تعالى: ﴿بل عجبوا﴾ عليه لأن التعجب من الشيء يقتضي الجهل بسببه.

قال في الكشف: وهو وجه حسن، و ﴿أن جاءهم﴾ بتقدير لأن جاءهم، ومعنى ﴿منهم﴾ من جنسهم أي من جنس البشر أو من العرب، وضمير الجمع في الآية عائد على الكفار، وقيل: عائد على الناس وليس بذاك.

وقوله تعالى: ﴿فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَٰذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ تفسير لتعجبهم وبيان لكونه مقارنا لغاية الإنكار مع زيادة تفصيل لمحل التعجب، وهذا إشارة إلى كونه عليه الصلاة والسلام منذراً بالقرآن وإضمارهم أولاً للإشعار بتعينهم بما أسند إليهم، وإظهارهم ثانياً للتسجيل عليهم بالكفر بموجبه أو عطف لتعجبهم من البعث على تعجبهم من البعثة، وعطفه بالفاء لوقوعه بعده وتفرعه عليه لأنه إذا أنكر المبعوث أنكر ما بعث به أيضاً، على أن هذا إشارة إلى مبهم وهو البعث يفسره ما بعده من الجملة الإنكارية، ودل عليه السياق أيضاً لأنه دل على أن ثم منذراً به، ومعلوم أن إنذار الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أول كل شيء بالبعث وما يتبعه.

ووضع المظهر موضع المضمر إما لسبق اتصافهم بما يوجب كفرهم؛ وإما للإيذان بأن تعجبهم من البعث لدلالته على استقصارهم لقدرة الله سبحانه عنه مع معاينتهم لقدرته عز وجل على ما هو أشق منه في قياس العقل من مصنوعاته البديعة أشنع من الأول وأعرق في كونه كفراً، وقوله تعالى: ﴿أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا﴾ تقرير للتعجب وتأكيد للإنكار أو بيان لموضع تعجبهم، والعامل في ﴿إذا﴾ مضمر غني عن البيان لغاية شهرته مع دلالة ما بعده عليه أي أحين نموت ونصير تراباً نرجع كما ينطق به النذير والمنذر به مع كمال التباين بيننا وبين الحياة حينئذٍ، وقوله سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى محل النزاع وهو الرجع والبعث بعد الموت أي ذلك الرجع ﴿رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾ أي عن الأوهام أو العادة أو الإمكان، وقيل: الرجع بمعنى المرجوع أي الجواب يقال هذا رجع رسالتك ومرجوعها ومرجوعتها أي جوابها، والإشارة عليه إلى ﴿أئذا متنا﴾ الخ، والجملة من كلام الله تعالى، والمعنى ذلك جواب بعيد منهم لمنذرهم، وناصب ﴿إذا﴾ حينئذٍ ما ينبىء عنه المنذر من المنذر به وهو البعث أي أئذا متنا وكنا تراباً بعثنا، وقد يقال: إنه لما تقرر أن ذلك جواب منهم لمنذرهم فقد علم أنه أنذرهم بالبعث ليصلح ذلك جواباً له فهو دليل أيضاً على المقدر، فالقول بأنه إذا كان

الرجع بمعنى المرجوع وهو الجواب لا يكون في الكلام دليل على ناصب ﴿إذا﴾ مندفع. نعم هذا الوجه في نفسه بعيد بل قال أبو حيان: إنه مفهوم عجيب ينبو عن إدراكه فهم العرب.

وقرأ الأعرج وشيبة وأبو جعفر وابن وثاب والأعمش وابن عتبة عن ابن عامر «إذا» بهمزة واحدة على صورة الخبر فجاز أن يكون استفهاماً حذفت منه الهمزة وجاز أن يكون خبراً، قال في البحر: واضمر جواب ﴿إذا﴾ أي إذا متنا وكنا تراباً رجعنا، وأجاز صاحب اللوامح أن يكون الجواب ذلك رجع بعيد على تقدير حذف الفاء، وقد أجاز ذلك بعضهم في جواب الشرط مطلقاً إذا كان جملة اسمية، وقصره أصحابنا على الشعر في الضرورة.

﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الأَرْضُ مِنْهُمْ﴾ أي ما تأكل من لحوم موتاهم وعظامهم وأشعارهم، وهو رد لاستبعادهم بإزاحة ما هو الأصل فيه وهو أن أجزاءهم تفرقت فلا تعلم حتى تعاد بزعمهم الفاسد، وقيل: ما تنقص الأرض منهم من يموت فيدفن في الأرض منهم، ووجه التعبير بما ظاهر والأول أظهر وهو المأثور عن ابن عباس. وقتادة، وقوله تعالى: ﴿وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ﴾ تعميم لعلمه تعالى أي وعندنا كتاب حافظ لتفاصيل الأشياء كلها ويدخل فيها أعمالهم أو محفوظ عن التغير، والمراد إما تمثيل علمه تعالى بكليات الأشياء وجزئياتها بعلم من عنده كتاب حفيظ يتلقى منه كل شيء أو تأكيد لعلمه تعالى بثبوتها في اللوح المحفوظ عنده سبحانه.

هذا وفي الآية إشارة إلى رد شبهة تمسك بها من يرى استحالة إعادة المعدوم وفي البعث لذلك بناءً على أن أجزاء الميت تعدم ولا تتفرق فقط، وحاصلها أن الشيء إذا عدم ولم يستمر وجوده في الزمان الثاني ثم أعيد في الزمان الثالث لزم التحكم الباطل في الحكم بأن هذا الموجود المتأخر هو بعينه الموجود السابق لا موجود آخر مثله مستأنف إذ لما فقد هوية الموجود الأول لم يبق منه شيء من الموضوع والعوارض الشخصية حتى يكون الموجود الثاني مشتملاً عليه ويكون مرجحاً للحكم المذكور ويندفع التحكم.

وحاصل الرد أن الله تعالى عليم بتفاصيل الأشياء كلها يعلم كلياتها وجزئياتها على أتم وجه وأكمله. فللمعدوم صورة جزئية عنده سبحانه فهو محفوظ بعوارضه الشخصية في علمه تعالى البليغ على وجه يتميز به عن المستأنف فلا يلزم التحكم، ويكون ذلك نظير انحفاظ وحدة الصورة الخيالية فينا بعد غيبة المحسوس عن الحس كما إذا رأينا شخصاً فغاب عن بصرنا ثم رأيناه ثانياً فإنا نحكم بأن هذا الشخص هو من رأيناه سابقاً وهو حكم مطابق للواقع مبني على انحفاظ وحدة الصورة الخيالية قطعاً ولا ينكره إلا مكابر، وقال بعض الأشاعرة: إن للمعدوم صورة جزئية حاصلة بتعلق صفة البصر من الموجد وهو الله تعالى، وليست تلك الصورة للمستأنف وجوده فإن صورته وإن كانت جزئية حقيقية أيضاً إلا أنها لم تترتب على تعلق صفة البصر ولا شك أن المترتب على تعلق صفة البصر أكمل من غير المترتب عليه فبين الصورتين تمايز واضح، وإذا انحفظ وحدة الموجود الخارجي بالصور الجزئية الخيالية لنا فانحفاظها بالصورة الجزئية الحاصلة له تعالى بواسطة تعلق صفة البصر بالطريق الأولى انتهى، وهو حسن لكن لا تشير الآية إليه.

وأيضاً لا يتم عند القائلين بعدم رؤية الله سبحانه المعدومات مطلقاً إلا أن أولئك قائلون بثبوت هويات المعدومات متمايزة تمايزاً ذاتياً حال العدم فلا ترد عليهم الشبهة السابقة، وقد يقال: إن صفة البصر ترجع إلى صفة العلم وتعلقاته مختلفة فيجوز أن يكون لعلمه تعالى تعلقاً خاصاً بالموجود الذي عدم غير تعلقه بالمستأنف في حال عدمه وبذلك يحصل الامتياز ويندفع التحكم، ويقال على مذهب الحكماء: إن صورة المعدوم السابق مرتسمة في القوى المنطبعة للأفلاك بناءً على أن صور جميع الحوادث الجسمانية منطبعة فيها عندهم فله صورة خيالية جزئية محفوظة الوحدة الشخصية بعد فنائه بخلاف المستأنف إذ ليس تلك الصورة قبل وجوده وإنما له الصور الكلية في الأذهان العالية

والسافلة فإذا أوجدت تلك الصورة الجزئية كان معاداً وإذا أوجدت هذه الصورة الكلية كان مستأنفاً وربما يدعي الإسلامي المتفلسف في قوله تعالى: ﴿وعندنا كتاب حفيظ﴾ رمزاً إلى ذلك، وللجلال الدواني كلام في هذا المقام لا يخلو عن نظر عند ذوي الأفهام، ثم إن البعث لا يتوقف على صحة إعادة المعدوم عند الأكثرين لأنهم لا يقولون إلا بتفرق أجزاء الميت دون انعدامها بالكلية، ولعل في قوله تعالى حكاية عن منكريه: «أئذا متنا وكنا تراباً» إشارة إلى ذلك، وأخرج البخاري ومسلم وأبو داود والنسائي عن أبي هريرة قال: «قال رسول الله ﷺ ليس من الإنسان شيء لا يبلى إلا عظم واحد وهو عجب الذنب منه يركب الخلق يوم القيامة» وليس نصاً في انعدام ما عدا العجب بالمرة لاحتمال أن يراد ببلا غيره من الأجزاء انحلالها إلى ما تركبت منه من العناصر وأما هو فيبقى على العظيمة وهو جزء صغير في العظم الذي في أسفل الصلب، ومن كلام الزمخشري العجب أمره عجب هو أول ما يخلق وآخر ما يخلق ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ إضراب أتبع الإضراب الأول للدلالة على أنهم جاؤوا بما هو أفظع من تعجبهم وهو التكذيب بالحق الذي هو النبوة الثابتة بالمعجزات في أول وهلة من غير تفكر ولا تدبر فكأنه بدل بداء من الأول فلا حاجة إلى تقدير ما أجادوا النظر بل كذبوا أو لم يكذب المنذر بل كذبوا، وكون التكذيب المذكور أفظع قيل: من حيث إن تكذيبهم بالنبوة تكذيب بالمنبأ به أيضاً وهو البعث وغيره، وقيل: لأن إنكار النبوة في نفسه أفظع من إنكار البعث، وربما لا يتم عند القائلين بأن العقل مستقل بإثبات أصل الجزاء، على أن من الجائز أن يكونوا قد سمعوا بالبعث من أصحاب ملل أخرى بخلاف نبوته عليه الصلاة والسلام خاصة، وقيل: المراد بالحق الإخبار بالبعث ولا شك أن التكذيب أسوأ من التعجب وأفظع فهو إضراب عن تعجبهم بالمنذر والمنذر به إلى تكذيبهم، وقيل: المراد به القرآن والمضروب عنه عليه على ما قال الطيبي قوله تعالى: ﴿ق والقرآن المجيد﴾ وجعل كبدل البداء من الإضراب الأول على أنه إضراب عن حديث القرآن ومجده إلى التعجب من مجيء من أنذرهم بالبعث الذي تضمنه وإن هذا إضراب إلى التصريح بالتكذيب به ويتضمن ذلك إنكار جميع ما تضمنه كذا قيل فتأمل. وقرأ الجحدري ﴿لما﴾ بكسر اللام وتخفيف الميم فاللام توقيتية بمعنى عند نحوها في قولك: كتبه لخمس خلون مثلاً، و ﴿ما﴾ مصدرية أي بل كذبوا بالحق عند مجيئه إياهم ﴿فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴾ مضطرب من مرج الخاتم في اصبعه إذا قلق من الهزال، والإسناد مجازي كما ﴿في عيشة راضية﴾ [الحاقة: ٢١] مبالغة بجعل المضطرب الأمر نفسه وهو في الحقيقة صاحبه، وذلك نفيهم النبوة عن البشر بالكلية تارة وزعمهم أن اللائق بها أهل الجاه والمال كما ينبىء عنه قولهم: ﴿لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم﴾ [الزخرف: ٣١] تارة أخرى وزعمهم أن النبوة سحر مرة وأنها كهانة أخرى حيث قالوا في النبي عليه الصلاة والسلام مرة ساحر ومرة كاهن أو هو اختلاف حالهم ما بين تعجب من البعث واستبعاد له وتكذيب وتردد فيه أو قولهم في القرآن هو شعر تارة وهو سحر أخرى إلى غير ذلك ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوا﴾ أي أغفلوا أو عموا فلم ينظروا حين كفروا بالبعث ﴿إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ﴾ بحيث يشاهدونها كل وقت، قيل: وهذا ظاهر على ما هو المعروف بين الناس من أن المشاهد هو السماء التي هي الجرم المخصوص الذي يطوى يوم القيامة وقد وصف في الآيات والأحاديث بما وصف. وأما على ما ذهب إليه الفلاسفة من أن المشاهد إنما هو كرة البخار أو هواء ظهر بهذا اللون ولا لون له حقيقة ودون ذلك الجرم ففيه خفاء، وقال بعض الأفاضل في هذا المقام: إن ظواهر الآيات والأخبار ناطقة بأن السماء مرئية، وما ذكره الفلاسفة المتقدمون من أن الأفلاك أجرام صلبة شفافة لا ترى غير مسلم أصلاً، وكذا كون السموات السبع هي الأفلاك السبعة غير مسلم عند المحققين، وكذا وجود كرة البخار وأن ما بين السماء والأرض هواء مختلف الأجزاء في اللطافة فكلما علا كان ألطف حتى أنه ربما لا يصلح للتعيش ولا يمنع خروج الدم من المسام الدقيقة جداً لمن وصل إليه، وإن رؤية الجو بهذا اللون لا ينافي رؤية السماء حقيقة وإن لم تكن في نفسها

ملونة به ويكون ذلك كرؤية قعر البحر أخضر من وراء مائه ونحو ذلك مما يرى بواسطة شيء على لون وهو في نفسه على غير ذلك اللون، بل قيل: إن رؤية السماء مع وجود كرة البخار على نحو رؤية الأجرام المضيئة كالقمر وغيره. وأنت تعلم أن الأصحاب مع الظواهر حتى يظهر دليل على امتناع ما يدل عليه وحينئذٍ يؤولونها، وأن التزام التطبيق بين ما نطقت به الشريعة وما قاله الفلاسفة مع إكذاب بعضه بعضاً أصعب من المشي على الماء أو العروج إلى السماء، وأنا أقول: لا بأس بتأويل ظاهر تأويلاً قريباً لشيء من الفلسفة إذا تضمن مصلحة شرعية ولم يستلزم مفسدة دينية، وأرى الإنصاف من الدين، ورد القول احتقاراً لقائله غير لائق بالعلماء المحققين، هذا وحمل بعض ﴿السماء﴾ ههنا على جنس الأجرام العلوية وهو كما ترى، والظاهر أنها الجرم المخصوص وأنها السماء الدنيا أي أفلم ينظروا إلى السماء الدنيا ﴿كَيْفَ بَنَيْنَاهَا﴾ أحكمناها ورفعناها بغير عمد ﴿وَزَيَّنَّاهَا﴾ للناظرين بالكواكب المرتبة على أبدع نظام ﴿وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ﴾ أي من فتوق وشقوق، والمراد سلامتها من كل عيب وخلل فلا ينافي القول بأن لها أبواباً. وزعم بعضهم أن المراد متلاصقة الطباق وهو ينافي ما ورد في الحديث من أن بين كل سماء وسماء مسيرة خمسمائة عام، ولعل تأخير هذا لمراعاة الفواصل.

وقيل ههنا ﴿أفلم ينظروا﴾ بالفاء وفي موضع آخر ﴿أو لم ينظروا﴾ [الأعراف: ١٨٥] بالواو لسبق إنكار الرجع فناسب التعقيب بما يشعر بالاستدلال عليه، وجيء بالنظر دون الرؤية كما في الأحقاف استبعاداً لاستبعادهم فكأنه قيل: النظر كاف في حصول العلم بإمكان الرجع ولا حاجة إلى الرؤية قاله الإمام، واحتج بقوله سبحانه ﴿ما لها من فروج﴾ للفلاسفة على امتناع الخرق، وأنت تعلم أن نفي الشيء لا يدل على امتناعه، على أنك قد سمعت المراد بذلك، ولا يضر كونه ليس معنى حقيقياً لشيوعه ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا﴾ بسطناها وهو لا ينافي كريتها التامة أو الناقصة من جهة القطبين لمكان العظم ﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ﴾ جبالاً ثوابت تمنعها من الميد كما يدل عليه قوله تعالى في آية أخرى: ﴿رواسي أن تميد بكم﴾ [النحل: ١٥، لقمان: ١٠] وهو ظاهر في عدم حركة الأرض، وخالف في ذلك بعض الفلاسفة المتقدمين وكل الفلاسفة الموجودين اليوم، ووافقهم بعض المغاربة من المسلمين فزعموا أنها تتحرك بالحركة اليومية بما فيها من العناصر وأبطلوا أدلة المتقدمين العقلية على عدم حركتها، وهل يكفر القائل بذلك الذي يغلب على الظن لا ﴿وَأَنْبَتْنَا فِيهَا من كُلِّ زَوْجٍ﴾ صنف ﴿بَهِيجٍ﴾ حسن يبهج ويسر من نظر إليه ﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ﴾ راجع إلى ربه، وهو مجاز عن التفكر في بدائع صنعه سبحانه بتنزيل التفكر في المصنوعات منزلة الرجوع إلى صانعها، و ﴿تبصرة وذكرى﴾ علتان للأفعال السابقة معنى وان انتصبا بالفعل الأخير أو لفعل مقدر بطريق الاستئناف أي فعلنا ما فعلنا تبصيراً وتذكيراً، وقال أبو حيان: منصوبان على المصدرية لفعل مقدر من لفظهما أي بصرنا وذكرنا والأول أولى.

وقرأ زيد بن علي «تَبْصِرَةٌ وذِكْرَى» بالرفع على معنى خلقهما تبصرة وذكرى، وقوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا﴾ أي كثير المنافع شروع في بيان كيفية ما ذكر من إنبات كل زوج بهيج، وهو عطف على ﴿أنبتنا﴾ وما بينهما على الوجهين الأخيرين اعتراض مقرر لما قبله ومنبه على ما بعده ﴿فَأَنْبَتْنَا بِهِ﴾ أي بذلك الماء ﴿جَنَّاتٍ﴾ كثيرة كما يقتضيه المقام أي أشجاراً ذات ثمار ﴿وَحَبَّ الْحَصِيدِ﴾ أي حب الزرع الذي من شأنه أن يحصد من البر والشعير وأمثالهما، فالإضافة لما بينهما من الملابسة، و ﴿الحصيد﴾ بمعنى المحصود صفة لموصوف مقدر كما أشرنا إليه فليس من قبيل مسجد الجامع ولا من مجاز الأول كما توهم، وتخصيص إنبات حبه بالذكر لأنه المقصود بالذات ﴿وَالنَّخْلَ﴾ عطف على ﴿جنات﴾ وهي اسم جنس تؤنث وتذكر وتجميع، وتخصيصها بالذكر مع اندراجها في

الجنات لبيان فضلها على سائر الأشجار، وتوسيط الحب بينهما لتأكيد استقلالها وامتيازها عن البقية مع ما فيه من مراعاة الفواصل ﴿بَاسِقَاتٍ﴾ أي طوالاً أو حوامل من أبسقت الشاة إذا حملت فيكون على هذا من أفعل فهو فاعل، والقياس مفعل فهو من النوادر كالطوائح واللواقح في أخوات لها شاذة ويافع من أيفع وباقل من أبقل، ونصبه على أنه حال مقدرة. وروى قطبة بن مالك عن النبي ﷺ أنه قرأ «باصقات» بالصاد وهي لغة لبني العنبر يبدلون من السين صاداً إذا وليتها أو فصل بحرف أو حرفين خاء معجمة أو عين مهملة أو طاءً كذلك أوقاف ﴿لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ﴾ منضود بعضه فوق بعض، والمراد تراكم الطلع أو كثرة ما فيه من مادة الثمر، والجملة حال من النخل كباسقات بطريق الترادف أو من ضميرها في ﴿باسقات﴾ على التداخل، وجوز أن يكون الحال هو الجار والمجرور و ﴿طلع﴾ مرتفع به على الفاعلية، وقوله تعالى: ﴿رِزْقاً لِلْعِبَادِ﴾ أي ليرزقهم علة لقوله تعالى: ﴿فأنبتنا﴾ وفي تعليله بذلك بعد تعليل ﴿أنبتنا﴾ الأول بالتبصير والتذكير تنبيه على أن اللائق بالعبد أن يكون انتفاعه بذلك من حيث التذكر والاستبصار أقدم وأهم من تمتعه به من حيث الرزق، وجوز أن يكون ﴿رزقاً﴾ مصدراً من معنى ﴿أنبتنا﴾ لأن الإنبات رزق فهو من قبيل قعدت جلوساً، وأن يكون حالاً بمعنى مرزوقاً ﴿وَأَحْيَيْنَا بِهِ﴾ أي بذلك الماء ﴿بَلْدَةً مَيْتاً﴾ أرضاً جدبة لا نماء فيها بأن جعلناها بحيث ربت أو أنبتت وتذكير ﴿ميتاً﴾ لأن البلدة بمعنى البلد والمكان، وقرأ أبو جعفر. وخالد «مَيِّتاً» بالتثقيل ﴿كَذَلِكَ الْخُرُوجُ﴾ جملة قدم فيها الخبر للقصد إلى القصر وذلك إشارة إلى الحياة المستفادة من الإحياء، وما فيه من معنى البعد إشعار ببعد الرتبة أي مثل تلك الحياة البديعة حياتكم بالبعث من القبور لا كشيء مخالف لها، وفي التعبير عن إخراج النبات من الإرض بالإحياء وعن إحياء الموتى بالخروج تفخيم لشأن الإنبات وتهوين لأمر البعث وتحقيق للمماثلة بين إخراج النبات وإحياء الموتى لتوضيح منهاج القياس وتقريبه إلى إفهام الناس، وجوز أن يكون الكاف في محل رفع على الابتداء ﴿الخروج﴾ خبر، ونقل عن الزمخشري أنه قال: ﴿كذلك﴾ الخبر وهو الظاهر، ولكونه مبتدأ وجه وهو أن يقال: ذلك الخروج مبتدأ وخبر على نحو أبو يوسف أبو حنيفة، والكاف واقع موقع مثل في قولك: مثل زيد أخوك ولا يخفى أنه تكلف.

وقوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ إلى آخره استئناف وارد لتقرير حقية البعث ببيان اتفاق كافة الرسل عليهم الصلاة والسلام عليها وتكذيب منكريها، وفي ذلك أيضاً تسلية للنبي ﷺ وتهديد للكفرة، ﴿وَأَصْحَابُ الرَّسِّ﴾ هو البئر التي لم تبن، وقيل: هو واد وأصحابه قيل: هم ممن بعث اليهم شعيب عليه السلام، وقيل: قوم حنظلة ابن صفوان ﴿وَثَمُودُ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ﴾ أريد هو وقومه ليلائم ما قبله وما بعده، وهذا كما تسمى القبيلة تميماً مثلاً باسم أبيها ﴿وَإِخْوَانُ لُوطٍ﴾ قيل: كانوا من أصهاره عليه السلام. فليس المراد الأخوة الحقيقية من النسب ﴿وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ﴾ قيل: هم قوم بعث إليهم شعيب عليه السلام غير أهل مدين كانوا يسكنون أيكة وهي الغبطة فسموا بها ﴿وَقَوْمُ تُبَّعٍ﴾ الحميري وكان مؤمناً وقومه كفرة ولذا لم يذم وهو ذم قومه، وقد سبق في الحجر. والدخان. والفرقان تمام الكلام فيما يتعلق بما في هذه الآية.

﴿كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ﴾ أي فيما أرسلوا به من الشرائع التي من جملتها البعث الذي أجمعوا عليه قاطبة أي كل قوم من الأقوام المذكورين كذبوا رسولهم أو كذب كل هؤلاء جميع رسلهم، وإفراد الضمير باعتبار لفظ الكل أو كل واحد منهم كذب جميع الرسل لاتفاقهم على الدعوة إلى التوحيد والإنذار بالبعث والحشر فتكذيب واحد منهم تكذيب للكل، والمراد بالكلية التكثير كما في قوله تعالى: ﴿وأوتيت من كل شيء﴾ [النمل: ٢٣] وإلا فقد آمن من آمن من قوم نوح وكذا من غيرهم، ثم ما ذكر على تقدير رسالة تبع ظاهر ثم على تقدير عدمها وعليه الأكثر فمعنى

تكذيب وقومه الرسل عليهم السلام تكذيبهم بما قبل من الرسل المجتمعين على التوحيد والبعث، وإلى ذلك كان يدعوهم تبع.

﴿فَحَقَّ وَعِيدِ﴾ أي فوجب وحل عليهم وعيدي وهي كلمة العذاب ﴿أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ﴾ استئناف مقرر لصحة البعث الذي حكيت أحوال المنكرين له من الأمم المهلكة، والعي بالأمر العجز عنه لا التعب، قال الكسائي: تقول أعييت من التعب وعييت من انقطاع الحيلة والعجز عن الأمر، وهذا هو المعروف والأفصح وإن لم يفرق بينهما كثير، والهمزة للإنكار والفاء للعطف على مقدر ينبىء عنه العي من القصد والمباشرة كأنه قيل: أقصدنا الخلق الأول وهو الإبداء فعجزنا عنه حتى يتوهم عجزنا من الإعادة، وجوز الإمام أن يكون المراد بالخلق الأول خلق السماء والأرض ويدل عليه قوله سبحانه: ﴿أو لم يروا أن الله الذي خلق السموات والأرض ولم يعي بخلقهن﴾ [الأحقاف: ٣٣] ويؤيده قوله تعالى بعد: ﴿ولقد خلقنا الإنسان﴾ الخ وهو كما ترى، وعن الحسن «الخلق الأول» آدم عليه السلام وليس بالحسن، وقرأ ابن أبي عبلة. والوليد بن مسلم. والقورصي عن أبي جعفر والسمسار عن شيبة وأبو بحر عن نافع «أَفَعَيِّنَا» بتشديد الياء وخرجت على لغة من أدغم الياء في الياء في الماضي فقال: عي في عي وحي في حي فلما أدغم ألحقه ضمير المتكلم المعظم نفسه ولم يفك الإدغام فقال: عينا وهي لغة لبعض بكر بن وائل في رددت ورددنا ردت وردنا فلا يفكون، وعلى هذه اللغة تكون الياء المشددة مفتوحة ولو كانت «نا» ضمير نصب فالعرب جميعهم على الإدغام نحو ردنا زيد ﴿بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ عطف على مقدر يدل عليه ما قبله كأنه قيل: إنهم معترفون بالأول غير منكرين قدرتنا عليه فلا وجه لإنكارهم الثاني بل هم في خلط وشبهة في خلق مستأنف وإنما نكر الخلق ووصف بجديد ولم يقل: من الخلق الثاني تنبيهاً على مكان شبهتهم واستبعادهم العادي بقوله سبحانه: ﴿جديد﴾ وأنه خلق عظيم يجب أن يهتم بشأنه فله نبأ أي نبأ، والتعظيم ليس راجعاً إلى الخلق من حيث هو. هو ـ حتى يقال: إنه أهون من الخلق الأول بل إلى ما يتعلق بشأن المكلف وما يلاقيه بعده وهو ـ هو ـ وقال بعض المحققين: نكر لأنه لاستبعاده عندهم كان أمراً عظيماً، وجوز أن يكون التنكير للإبهام إشارة إلى أنه خلق على وجه لا يعرفه الناس، وأورد الشيخ الأكبر قدس سره هذه الآية في معرض الاستدلال على تجدد الجواهر كالتجدد الذي يقوله الأشعري في الإعراض فكل منهما عند الشيخ لا يبقى زمانين، ويفهم من كلامه قدس سره أن ذلك مبني على القول بالوحدة وأنه سبحانه كل يوم هو في شأن، ولعمري أن الآية بمعزل عما يقول: ﴿ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه﴾ أي ما تحدثه به وهو ما يخطر بالبال، والوسوسة الصوت الخفي ومنه وسواس الحلي، وضمير ﴿به﴾ لما وهي موصولة والباء صلة ﴿توسوس﴾ وجوز أن تكون للملابسة أو زائدة وليس بذاك، ويجوز أن تكون ﴿ما﴾ مصدرية والضمير للإنسان والباء للتعدية على معنى أن النفس تجعل الإنسان قائماً به الوسوسة فالمحدث هو الإنسان لأن الوسوسة بمنزلة الحديث فيكون نظير حدث نفسه بكذا وهم يقولون ذلك كما يقولون حدثته نفسه بكذا قال لبيد:

وأكذب النفس إذا حدثتها ... إن صدق النفس يزري بالأمل

﴿ونحن أقرب إليه من حبل الوريد﴾ أي نعلم به وبأحواله لا يخفى علينا شيء من خفياته على أنه أطلق السبب وأريد المسبب لأن القرب من الشيء في العادة سبب العلم به وبأحواله أو الكلام من باب التمثيل؛ ولا مجال لحمله على القرب المكاني لتنزهه سبحانه عن ذلك، وكلام أهل الوحدة مما يشق فهمه على غير ذوي الأحوال، و ﴿حبل الوريد﴾ مثل في فرط القرب كقولهم: مقعد القابلة ومعقد الإزار قال ذو الرمة على ما في الكشاف:

والموت أدنى لي من حبل الوريد

والحبل معروف والمراد به هنا العرق لشبهه به وإضافته إلى الوريد وهو عرق مخصوص كما ستعرفه للبيان كشجر الأراك أو لامية كما في غيره من إضافة العام إلى الخاص فإن أبقى الحبل على حقيقته فإضافته كما في لجين الماء، و ﴿الوريد﴾ عرق كبير في العنق وعن الأثرم أنه نهر الجسد ويقال له في العنق الوريد وفي القلب الوتين وفي الظهر الأبهر وفي الذراع والفخذ الأكحل والنسا وفي الخنصر الأسلم.

والمشهور أن في كل صفحة من العنق عرقاً يقال له وريد. ففي الكشاف الوريدان عرقان مكتنفان لصفحتي العنق في مقدمها متصلان بالوتين يردان بحسب المشاهدة من الرأس إليه فالوريد فعيل بمعنى فاعل، وقيل: هو بمعنى مفعول لأن الروح الحيواني يرده ويشير إلى هذا قول الراغب: الوريد عرق متصل بالكبد والقلب وفيه مجاري الروح، وقال في الآية: أي نحن أقرب إليه من روحه، وحكي ذلك عن بعضهم أيضاً ﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيانِ﴾ هما الملكان الموكلان بكل إنسان يكتبان أعماله؛ والتلقي التقلن بالحفظ والكتبة، و ﴿إذ﴾ قيل: ظرف . لاقرب . وأفعل التفضيل يعمل في الظروف لأنه يكفيها رائحة الفعل وإن لم يكن عاملاً في غيرها فاعلاً أو مفعولاً به أي هو سبحانه أعلم بحال الإنسان من كل قريب حين يتلقى المتلقيان الحفيظان ما يتلفظ به، وفيه إيذان بأنه عز وجل غني عن استحفاظ الملكين فإنه تعالى شأنه أعلم منهما ومطلع على ما يخفى عليهما لكن الحكمة اقتضته، وهو ما في كتبة الملكين وحفظهما وعرض صحائفهما يوم يقوم الاشهاد، وعلم العبد بذلك مع علمه بإحاطة الله تعالى بعمله من زيادة لطف في الانتهاء عن السيئات والرغبة في الحسنات، وجوز أن تكون ﴿إذا﴾ لتعليل القرب، وفيه أن تعليل قربه عز وجل العلمي باطلاع الحفظة الكتبة بعيد، واختار بعضهم كونها مفعولاً به لأذكر مقدراً لبقاء الأقربية على إطلاقها ولأن أفعل التفضيل ضعيف في العمل وإن كان لا مانع من عمله في الظرف؛ والكلام مسوق لتقرير قدرته عز وجل وإحاطة علمه سبحانه وتعالى فتأمل ﴿عن اليمين وعن الشمال قعيد﴾ أي عن اليمين قعيد وعن الشمال قعيد فحذف من الأول لدلالة الثاني عليه، ومنه قوله:

رماني بأمر كنت منه ووالدي بريئاً ومن أجل الطويّ رماني

وقال المبرد: إن التقدير عن اليمين قعيد وعن الشمال فأخر قعيد عن موضعه، والقعيد عليهما فعيل بمعنى مفاعل كجليس بمعنى مجالس ونديم بمعنى منادم، وذهب الفراء إلى أن قعيداً يدل على الاثنين والجمع، وقد أريد منه هنا الإثنان فلا حذف ولا تقديم ولا تأخير. واعترض بأن فعيلاً يستوي فيه ذلك إذا كان بمعنى مفعول وهذا بمعنى فاعل ولا يصح فيه ذلك إلا بطريق الحمل على فعيل بمعنى مفعول، واختلف في تعيين محل قعودهما فقيل: هما على الناجذين، فقد أخرج أبو نعيم والديلمي عن معاذ بن جبل مرفوعاً «إن الله لطف بالملكين الحافظين حتى أجلسهما على الناجذين وجعل لسانه قلمهما وريقه مدادهما» وقيل: على العاتقين، وقيل: على طرفي الحنك عند العنفقة وفي البحر أنهم اختلفوا في ذلك ولا يصح فيه شيء، وأنا أقول أيضاً لم يصح عندي أكثر مما أخبر الله تعالى به من أنهما عن اليمين وعن الشمال قعيدان، وكذا لم يصح خبر قلمهما ومدادهما وأقول كما قال اللقاني بعد أن استظهر أن الكتب حقيقي: علم ذلك مفوض إلى الله عز وجل، وأقول الظاهر إنهما في سائر أحوال الإنسان عن يمينه وعن شماله.

وأخرج ابن المنذر. وغيره عن ابن عباس أنه قال: إن قعد فاحدهما عن يمينه والآخر عن يساره وإن مشى فاحدهما أمامه والآخر خلفه وإن رقد فأحدهما عند رأسه والآخر عند رجليه ﴿مَا يلْفظُ منْ قَوْلٍ﴾ ما يرمي به من فيه خيراً كان أو شراً، وقرأ محمد بن أبي معدان «ما يَلْفَظُ» بفتح الفاء ﴿إلاَّ لَدَيْه رَقيبٌ﴾ ملك يرقب قوله ويكتبه فإن كان

خيراً فهو صاحب اليمين وإن كان شراً فهو صاحب الشمال ﴿عَتِيدٌ﴾ معد مهيأ لكتابة ما أمر به من الخير أو الشر، وتخصيص القول بالذكر لإثبات الحكم في الفعل بدلالة النص واختلف فيما يكتبانه فقال الإمام مالك. وجماعة: يكتبان كل شيء حتى الأنين في المرض، وفي شرح الجوهرة للقاني مما يجب اعتقاده أن الله تعالى ملائكة يكتبون أفعال العباد من خير أو شر أو غيرهما قولاً كانت أو عملاً أو اعتقاداً هماً كانت أو عزماً أو تقريراً اختارهم سبحانه لذلك فهم لا يهملون من شأنهم شيئاً فعلوه قصداً وتعمداً أو ذهولاً ونسياناً صدر منهم في الصحة أو في المرض كما رواه علماء النقل والرواية انتهى. وفي بعض الآثار ما يدل على أن الكلام النفسي لا يكتب، أخرج البيهقي في الشعب عن حذيفة بن اليمان أن للكلام سبعة أغلاق إذا خرج منها كتب وإن لم يخرج لم يكتب القلب واللها واللسان والحنكان والشفتان، وذهب بعضهم إلى أن المباح لا يكتبه أحد منهما لأنه لا ثواب فيه ولا عقاب والكتابة للجزاء فيكون مستثنى حكماً من عموم الآية وروي ذلك عن عكرمة.

وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر والحاكم وصححه وابن مردويه من طريقه عن ابن عباس أنه قال: إنما يكتب الخير والشر لا يكتب يا غلام أسرج الفرس ويا غلام اسقني الماء، وقال بعضهم: يكتب كل ما صدر من العبد حتى المباحات فإذا عرضت أعمال يومه محي منها المباحات وكتب ثانياً ماله ثواب أو عقاب وهو معنى قوله تعالى: ﴿يمحو الله ما يشاء ويثبت﴾ [الرعد: ٣٩] وقد أشار السيوطي إلى ذلك في بعض رسائله وجعل وجهاً للجمع بين القولين القول بكتابة المباح والقول بعدمها وقد روي نحوه عن ابن عباس. أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عنه أنه قال في الآية: يكتب كل ما تكلم به من خير أو شر حتى أنه ليكتب قوله: أكلت وشربت ذهبت جئت رأيت حتى إذا كان يوم الخميس عرض قوله وعمله فأقر منه ما كان من خير أو شر وألقى سائره فذلك قوله تعالى: ﴿يمحو الله ما يشاء ويثبت﴾ ثم إن المباح على القول بكتابته يكتبه ملك الشمال على ما يشعر به. ما أخرجه ابن أبي شيبة. والبيهقي في شعب الإيمان من طريق الأوزاعي عن حسان بن عطية أن رجلاً كان على حمار فعثر به فقال: تعست فقال صاحب اليمين: ما هي بحسنة فاكتبها وقال صاحب الشمال ما هي بسيئة فاكتبها فنودي صاحب الشمال إن ما تركه صاحب اليمين فاكتبه، وجاء في بعض الأخبار أن صاحب اليمين أمين على صاحب الشمال، وقد أخرج ذلك الطبراني وابن مردويه. والبيهقي في الشعب من حديث أبي أمامة مرفوعاً، وفيه «فإذا عمل العبد حسنة كتبت له بعشر أمثالها وإذا عمل سيئة وأراد صاحب الشمال أن يكتبها قال صاحب اليمين أمسك فيمسك ست ساعات أو سبع ساعات فإن استغفر الله تعالى منها لم يكتب عليه منها شيئاً وإن لم يستغفر الله تعالى كتبت عليه سيئة واحدة» ومثل الاستغفار كما نص عليه فعل طاعة مكفرة في حديث آخر أن صاحب اليمين يقول: دعه سبع ساعات لعله يسبح أو يستغفر، وظاهر الآية عموم الحكم للكافر فمعه أيضاً ملكان يكتبان ما له وما عليه من أعماله وقد صرح بذلك غير واحد وذكروا أن ما له الطاعات التي لا تتوقف على نية كالصدقة وصلة الرحم وما عليه كثير لا سيما على القول بتكليفه بفروع الشريعة.

وفي شرح الجوهرة الصحيح كتب حسنات الصبي وإن كان المجنون لا حفظة عليه لأن حاله ليست متوجهة للتكليف بخلاف الصبي وظاهر الآية شمول الحكم له وتردد الجزولي في الجن والملائكة أعليهم حفظة أم لا ثم جزم بأن على الجن حفظة وأتبعه القول بذلك في الملائكة عليهم السلام، قال اللقاني بعد نقله: ولم أقف عليه في الجن لغيره ويفهم منه أنه وقف عليه في الملائكة لغيره ولعله ما حكي عن بعضهم أن المراد بالروح في قوله تعالى: ﴿تنزل الملائكة والروح﴾ [القدر: ٤] الحفظة على الملائكة، ويحتاج دعوى ذلك فيهم وفي الجن إلى نقل.

وأما اعتراض القول به في الملائكة بلزوم التسلسل فمدفوع بما لا يخفى على المتأمل ثم إن بعضهم استظهر في

الملكين اللذين مع الإنسان كونهما ملكين بالشخص لا بالنوع لكل إنسان يلزمانه إلى مماته فيقومان عند قبره يسبحان الله تعالى ويحمدانه ويكبرانه ويكتبان ثواب ذلك لصاحبهما إن كان مؤمناً.

أخرج أبو الشيخ في العظمة، والبيهقي في شعب الإيمان عن أنس أن النبي ﷺ قال: «إن الله تعالى وكل بعبده المؤمن ملكين يكتبان عمله فإذا مات قال الملكان اللذان وكلا به: قد مات فأذن لنا أن نصعد إلى السماء فيقول الله تعالى: سمائي مملوءة من ملائكتي يسبحوني فيقولان: أنقيم في الأرض؟ فيقول الله تعالى: أرضي مملوءة من خلقي يسبحوني فيقولان فأين؟ فيقول: قوما على قبر عبدي فسبحاني واحمداني وكبراني واكتبا ذلك لعبدي إلى يوم القيامة، وجاء أنهما يلعنانه إلى يوم القيامة إن كان كافراً.

وقال الحسن: الحفظة أربعة اثنان بالنهار واثنان بالليل وهو يحتمل التبدل بأن يكون في كل يوم وليلة أربعة غير الأربعة التي في اليوم والليلة قبلهما وعدمه.

وقال بعضهم: إن ملك الحسنات يتبدل تنويهاً بشأن الطائع وملك السيئات لا يتبدل ستراً على العاصي في الجملة، والظاهر أنهما لا يفارقان الشخص وقالوا: يفارقانه عند الجماع ودخول الخلاء، ولا يمنع ذلك من كتبهما ما يصدر عنه في تلك الحال، ولهما علامة للحسنة والسيئة بدنيتين كانتا أو قلبيتين، وبعض الأخبار ظاهرة في أن ما في النفس لا يكتب، أخرج ابن المبارك. وابن أبي الدنيا في الإخلاص. وأبو الشيخ في العظمة عن ضمرة بن حبيب قال: «قال رسول الله ﷺ: إن الملائكة يصعدون بعمل العبد من عباد الله تعالى فيكثرونه ويزكونه حتى ينتهوا به حيث شاء الله تعالى من سلطانه فيوحي الله تعالى إليهم إنكم حفظة على عمل عبدي وأنا رقيب على ما في نفسه إن عبدي هذا لم يخلص لي عمله فاجعلوه في سجين قال: ويصعدون بعمل العبد من عباد الله تعالى فيستقلونه ويحتقرونه حتى ينتهوا به حيث شاء الله تعالى من سلطانه فيوحي الله تعالى إليهم إنكم حفظة على عمل عبدي وأنا رقيب على ما في نفسه فضاعفوه له واجعلوه في عليين» وجاء من حديث عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد عن أبي عمران الجوني أنه ينادي الملك اكتب لفلان بن فلان كذا وكذا أي من العمل الصالح فيقول: يا رب انه لم يعمله فيقول: سبحانه وتعالى إنه نواه، وقد يقال: إنهما يكتبان ما في النفس ما عدا الرياء والطاعات المنوية جمعاً بين الأخبار، وجاء أنه يكتب للمريض والمسافر مثل ما كان يعمل في الصحة والإقامة من الحسنات.

أخرج ابن أبي شيبة والدارقطني في الافراد والطبراني والبيهقي في الشعب عن عبد الله بن عمرو قال: «قال رسول الله ﷺ ما من أحد من المسلمين يبتلى ببلاء في جسده إلا أمر الله تعالى الحفظة فقال: اكتبوا لعبدي ما كان يعمل وهو صحيح ما دام مشدوداً في وثاقي» وأخرج ابن أبي شيبة عن أبي موسى قال: «قال رسول الله ﷺ من مرض أو سافر كتب الله تعالى له ما كان يعمل صحيحاً مقيماً» وفي بعض الآثار ما يدل على أن بعض الطاعات يكتبها غير هذين الملكين، ثم إن الملائكة الذين مع الإنسان ليسوا محصورين بالملكين الكاتبين، فعن عثمان أنه سأل النبي ﷺ كم ملك على الإنسان؟ فذكر عشرين ملكاً قاله المهدوي في الفيصل، وذكر بعضهم أن المعقبات في قوله تعالى: ﴿له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله﴾ [الرعد: ١١] غير الكاتبين بلا خلاف، وحكى اللقاني عن ابن عطية أن كل آدمي يوكل به من حين وقوعه نطفة في الرحم إلى موته أربعمائة ملك، والله تعالى أعلم بصحة ذلك.

وروى ابن المنذر. وأبو الشيخ في العظمة عن ابن المبارك أنه قال: وكل بالعبد خمسة أملاك ملكان بالليل وملكان بالنهار يجيئان ويذهبان وملك خامس لا يفارقه لا ليلاً ولا نهاراً، وقوله تعالى:

﴿**وجاءت سكرة الموت بالحق**﴾ إلى آخره كلام وارد بعد تتميم العرض من إثبات ما أنكروه من البعث بأبين

دليل وأوضحه دال على أن هذا المنكر أنتم لاقوه فخذوا حذركم، والتعبير بالماضي هنا وفيما بعد لتحقق الوقوع، و ﴿سكرة الموت﴾ شدته مستعارة من الحالة التي تعرض بين المرء وعقله بجامع أن كلاً منهما يصيب العقل بما يصيب، وجوز أن يشبه الموت بالشراب على طريق الاستعارة المكنية ويجعل إثبات السكرة له تخييلاً، وليس بذاك، والباء إما للتعدية كما في قولك: جاء الرسول بالخبر، والمعنى أحضرت سكرة الموت حقيقة الأمر الذي نطقت به كتب الله تعالى ورسله عليهم الصلاة والسلام، وقيل: حقيقة الأمر وجلية الحال من سعادة الميت وشقاوته، وقيل: بالحق الذي ينبغي أن يكون من الموت والجزاء فإن الإنسان خلق له، وإما للملابسة كما في قوله تعالى: ﴿تنبت بالذهن﴾ [المؤمنون: ٢٠] أي ملتبسة بالحق أي بحقيقة الأمر، وقيل: بالحكمة والغاية الجميلة، وقرىء «سكرة الحق بالموت» والمعنى أنها السكرة التي كتبت على الإنسان بموجب الحكمة وأنها لشدتها توجب زهوق الروح أو تستعقبه، وقيل: الباء بمعنى مع، وقيل: سكرة الحق سكرة الله تعالى على أن ﴿الحق﴾ من أسمائه عز وجل، والإضافة للتهويل لأن ما يجيء من العظيم عظيم. وقرأ ابن مسعود ﴿سكرات الموت﴾ جمعاً، ويوافق ذلك ما أخرج البخاري. والترمذي والنسائي وابن ماجه عن عائشة «أن رسول الله ﷺ كان بين يديه ركوة أو علبة فيها ماء فجعل يدخل يديه في الماء فيمسح بهما وجهه ويقول: لا إله إلا الله إن للموت سكرات» وجاء في حديث صححه الحاكم عن القاسم بن محمد عن عائشة أيضاً قالت: «لقد رأيت رسول الله ﷺ وهو بالموت وعنده قدح فيه ماء وهو يدخل يده القدح ثم يمسح وجهه بالماء ثم يقول: اللهم أعني على سكرات الموت» ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي الحق ﴿مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ أي تميل وتعدل، فالإشارة إلى الحق والخطاب للفاجر لا للإنسان مطلقاً والإشارة إلى الموت لأن الكلام في الكفرة، وإنما جيء بقوله تعالى ﴿ولقد خلقنا الإنسان﴾ لإثبات العلم بجزئيات أحواله وتضمين شبه وعيد لهؤلاء ادماجاً والتخلص منه إلى بيان أحواله في الآخرة ولأن قوله سبحانه وتعالى: ﴿لقد كنت في غفلة﴾ الخ يناسب خطاب هؤلاء، وكذلك ما يعقبه على ما لا يخفى.

وأما حديث مقابليهم فقد أخذ فيه حيث قال عز وجل: ﴿وأزلفت الجنة﴾ [ق: ٣١] الآيات، وقال بعض الأجلة: الإشارة إلى الموت والخطاب للإنسان الشامل للبر والفاجر والنفرة عن الموت شاملة لكل من أفراده طبعاً.

وقال الطيبي: إن كان قوله تعالى: ﴿وجاءت سكرة الموت﴾ متصلاً بقوله سبحانه: ﴿بل هم في لبس من خلق جديد﴾ وقوله تعالى: ﴿كذبت قبلهم قوم نوح﴾ [القمر: ٩] فالمناسب أن يكون المشار إليه الحق والخطاب للفاجر، وإن كان متصلاً بقوله تعالى: ﴿ولقد خلقنا الإنسان﴾ فالمناسب أن يكون المشار إليه الموت والخطاب للجنس وفيه البر والفاجر، والالتفات لا يفارق الوجهين، والثاني هو الوجه لقوله تعالى بعد ذلك: ﴿وجاءت كل نفس﴾ الخ، وتفصيله بقوله تعالى: ﴿ألقيا في جهنم كل كفار عنيد﴾ [ق: ٢٤]. ﴿وأزلفت الجنة للمتقين غير بعيد﴾ وفيه ما يعلم مما قدمنا. وحكى في الكشاف عن بعضهم أنه سأل زيد بن أسلم عن ذلك فقال: الخطاب لرسول الله ﷺ فحكاه لصالح بن كيسان فقال: والله ما من عالية ولا لسان فصيح ولا معرفة بكلام العرب هو للكافر، ثم حكاهما للحسين بن عبد الله بن عبيد الله بن عباس فقال: أخالفهما جميعاً هو للبر والفاجر، وكأن هذه المخالفة لنحو ما سمعت عن الطيبي. وفي بعض الآثار ما يؤيد القول بالعموم أخرج ابن سعد عن عروة قال: لما مات الوليد بكت أم سلمة فقالت:

يا عين فابكي الوليد بن الوليد بن المغيرة ... كان الوليد بن الوليد أبو الوليد فتى العشيرة

فقال رسول الله ﷺ: لا تقولي هكذا يا أم سلمة ولكن قولي: ﴿وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت

منه تحيد﴾ وأخرج أحمد. وابن جرير عن عبد الله مولى الزبير بن العوام قال: لما حضر أبو بكر الوفاة تمثلت عائشة بهذا البيت:

أعاذل ما يغني الحذار عن الفتى ... إذا حشرجت يوماً وضاق بها الصدر

فقال أبو بكر: ليس كذلك يا بنية ولكن قولي: **﴿وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد﴾** وفي رواية لابن المنذر وأبي عبيد أنها قالت:

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ... ثمال اليتامى عصمة للأرامل

فقال رضي الله تعالى عنه: بل جاءت سكرة الموت الخ إذ التمثل بالآية على تقدير العموم أوفق بالحال كما لا يخفى.

وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾ وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾ لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا
فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾ وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَىَّ عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾ أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ
﴿٢٤﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾ ۞ قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ
أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ
وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ
﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ۖ ذَٰلِكَ
يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا۟ فِى
ٱلْبِلَٰدِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴿٣٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ
خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ
وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ﴿٤٠﴾ وَٱسْتَمِعْ
يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْىِۦ وَنُمِيتُ
وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾ يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ۚ ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ ۖ وَمَآ
أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ ۖ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾

﴿ونُفخ في الصُّور﴾ أي نفخة البعث **﴿ذلك﴾** إشارة إلى النفخ المفهوم من **﴿نفخ﴾** والكلام على حذف مضاف أي وقت ذلك النفخ **﴿يوم الوعيد﴾** أي يوم إنجاز الواقع في الدنيا أو يوم وقوع الوعيد على أنه عبارة عن العذاب الموعود، وجوز أن تكون الإشارة إلى الزمان المفهوم من **﴿نفخ﴾** فإن الفعل كما يدل على الحدث يدل على الزمان، وعليه لا حاجة إلى تقدير شيء، لكن قيل عليه: إن الإشارة إلى زمان الفعل مما لا نظير له، وتخصيص الوعيد بالذكر على تقدير كون الخطاب للإنسان مطلقاً مع أنه يوم الوعد أيضاً بالنسبة إليه للتهويل.

﴿وجاءت كل نفس﴾ من النفوس البرة والفاجر كما هو الظاهر **﴿معها سائق وشهيد﴾** وإن اختلفت كيفية السوق

والشهادة حسب اختلاف النفوس عملاً أي معها ملكان أحدهما يسوقها إلى المحشر والآخر يشهد بعملها، وروي ذلك عن عثمان رضي الله تعالى عنه وغيره، وفي حديث أخرجه أبو نعيم في الحلية عن جابر مرفوعاً تصريح بأن ملك الحسنات وملك السيئات أحدهما سائق والآخر شهيد، وعن أبي هريرة السائق ملك الموت والشهيد النبي ﷺ وفي رواية أخرى عنه السائق ملك والشهيد العمل وكلاهما كما ترى، وقيل: الشهيد الكتاب الذي يلقاه منشوراً، وعن ابن عباس. والضحاك السائق ملك والشهيد جوارح الإنسان، وتعقبه ابن عطية بقوله: وهذا بعيد عن ابن عباس لأن الجوارح إنما تشهد بالمعاصي، وقوله تعالى: ﴿كل نفس﴾ يعم الصالحين، وقيل: السائق والشهيد ملك واحد والعطف لمغايرة الوصفين أي معها ملك يسوقها ويشهد عليها، وقيل: السائق نفس الجائي والشهيد جوارحه. وتعقب بأن المعية تأباه والتجريد بعيد، وفيه أيضاً ما تقدم آنفاً عن ابن عطية، وقال أبو مسلم: السائق شيطان كان في الدنيا مع الشخص وهو قول ضعيف، وقال أبو حيان: الظاهران ﴿سائق وشهيد﴾ اسما جنس فالسائق ملائكة موكلون بذلك والشهيد الحفظة وكل من يشهد، ثم ذكر أنه يشهد بالخير الملائكة والبقاع، وفي الحديث «لا يسمع مدى صوت المؤذن انس ولا جن ولا شيء إلا شهد له يوم القيامة»؛ و ﴿معها﴾ صفة ﴿نفس﴾ أو ﴿كل﴾ وما بعده فاعل به لاعتماده أو ﴿معها﴾ خبر مقدم وما بعده مبتدأ. والجملة في موضع الصفة، واختير كونها مستأنفة استئنافاً بيانياً لأن الأخبار بعد العلم بها أوصاف ومضمون هذه الجملة غير معلوم فلا تكون صفة إلا أن يدعي العلم به. وأنت تعلم أن ما ذكر غير مسلم.

وقال الزمخشري. محل ﴿معها سائق﴾ النصب على الحال من ﴿كل﴾ لتعرفه بالإضافة إلى ما هو في حكم المعرفة، فإن أصل كل أن يضاف إلى الجمع كأفعل التفضيل فكأنه قيل: كل النفوس يعني أن هذا أصله وقد عدل عنه في الاستعمال للتفرقة بين كل الإفرادي والمجموعي، ولا يخفى أن ما ذكره تكلف لا تساعده قواعد العربية، وقد قال عليه في البحر: إنه كلام ساقط لا يصدر عن مبتدىء في النحو، ثم إنه لا يحتاج إليه فإن الإضافة للنكرة تسوغ مجيء الحال منها، وأيضاً ﴿كل﴾ تفيد العموم وهو من المسوغات كما في شرح التسهيل. وقرأ طلحة «محا سائق» بالحاء مثقلة أدغم العين في الهاء فانقلبتا حاء كما قالوا: ذهب محم يريدون معهم، وقوله تعالى: ﴿لقد كنت في غفلة مِن هذا﴾ محكي بإضمار قول، والجملة استئناف مبني على سؤال نشأ مما قبله كأنه قيل: فماذا يكون بعد النفخ ومجيء كل نفس معها سائق وشهيد؟ فقيل: يقال للكافر الغافل إذا عاين الحقائق التي لم يصدق بها في الدنيا من البعث وغيره لقد كنت في غفلة من هذا الذي تعاينه، فالخطاب للكافر كما قال ابن عباس. وصالح بن كيسان، وتنكير الغفلة وجعله فيها وهي فيه يدل على أنها غفلة تامة، وهكذا غفلة الكفرة عن الآخرة وما فيها، وقيل: الجملة محكية بإضمار قول هو صفة ـ لنفس ـ أو حال والخطاب عام أي يقال لكل نفس أو قد قيل لها: لقد كنت، والمراد بالغفلة الذهول مطلقاً سواء كان بعد العلم أم لا، وما من أحد إلا وله غفلة ما من الآخرة وما فيها، وجوز الاستئناف على عموم الخطاب أيضاً. وقرأ الجحدري «لَقَدْ كُنتِ» بكسر التاء على مخاطبة النفس وهي مؤنثة وتذكيرها في قوله: يا نفس إنك باللذات مسرور. على تأويلها بالشخص، ولا يلزم في قراءة الجمهور لأن التعبير بالنفس في الحكاية لا يستدعي اعتباره في المحكي كما لا يخفى.

﴿فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ﴾ الغطاء الحجاب المغطي لأمور المعاد وهو الغفلة والانهماك في المحسوسات والألف بها وقصر النظر عليها، وجعل ذلك غطاء مجازاً، وهو إما غطاء الجسد كله أو العينين، وعلى كليهما يصح قوله تعالى: ﴿فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ أي نافذ لزوال المانع للإبصار، أما على الثاني فظاهر، وأما على الأول فلأن غطاء الجسد كله غطاء للعينين أيضاً فكشفه عنه يستدعي كشفه عنهما. وزعم بعضهم أن الخطاب للنبي ﷺ، والمعنى

كنت في غفلة من هذا الذي ذكرناه من أمر النفخ والبعث ومجيء كل نفس معها سائق وشهيد وغير ذلك فكشفنا عنك غطاء الغفلة بالوحي وتعليم القرآن فبصرك اليوم حديد ترى ما لا يرون وتعلم ما لا يعلمون، ولعمري إنه زعم ساقط لا يوافق السباق ولا السياق. وفي البحر وعن زيد بن أسلم قول في هذه الآية يحرم نقله وهو في كتاب ابن عطية انتهى، ولعله أراد به هذا لكن في دعوى حرمة النقل بحث، وقرأ الجحدري. وطلحة بن مصرف بكسر الكافات الثلاثة أعني كاف ﴿عنك﴾ وما بعده على خطاب النفس، ولم ينقل صاحب اللوامح الكسر في الكاف إلا عن طلحة وقال: لم أجد عنه في ﴿لقد كنت﴾ الكسر فإن كسر فيه أيضاً فذاك وإن فتح يكون قد حمل ذلك على لفظ ﴿كل﴾ وحمل الكسر فيما بعده على معناه لإضافته إلى ﴿نفس﴾ وهو مثل قوله تعالى: ﴿فله أجره﴾ [البقرة: ١١٢] وقوله سبحانه بعده ﴿فلا خوف عليهم﴾ [البقرة: ١١٢] انتهى ﴿وَقَالَ قَرِينُهُ﴾ أي شيطانه المقيض له في الدنيا كما قال مجاهد، وفي الحديث «ما من أحد إلا وقد وكل به قرينه من الجن قالوا: ولا أنت يا رسول الله قال: ولا أنا إلا أن الله تعالى أعانني عليه فأسلم فلا يأمرني إلا بخير» ﴿هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ﴾ إشارة إلى الشخص الكافر نفسه أي هذا ما عندي وفي ملكتي عتيد لجهنم قد هيأته لها بإغوائي وإضلالي، ولا ينافي هذا ما حكاه سبحانه عن القرين في قوله تعالى الآتي: ﴿قال قرينه ربنا ما أطغيته﴾ لأن هذا نظير قول الشيطان: ﴿ولأضلنهم﴾ [النساء: ١١٩] وقوله: ﴿ووعدتكم فأخلفتكم﴾ [إبراهيم: ٢٢] وذاك نظير قوله: ﴿وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم﴾ [إبراهيم: ٢٢].

وقال قتادة وابن زيد: قرينه الملك الموكل بسوقه يقول مشيراً إليه: هذا ما لدي حاضر، وقال الحسن: هو كاتب سيئاته يقول مشيراً إلى ما في صحيفته أي هذا مكتوب عندي عتيد مهيأ للعرض، وقيل: قرينه هنا عمله قلباً وجوارح وليس بشيء، و ﴿ما﴾ نكرة موصوفة بالظرف وبعتيد أو موصولة والظرف صلتها و ﴿عتيد﴾ خبر بعد خبر لاسم الإشارة أو خبر لمبتدأ محذوف، وجوز أن يكون بدلاً من ﴿ما﴾ بناءً على أنه يجوز إبدال النكرة من المعرفة وإن لم توصف إذا حصلت الفائدة بإبدالها، وأما تقديره بشيء عتيد على أن البدل هو الموصوف المحذوف الذي قامت صفته مقامه أو إن ﴿ما﴾ الموصول لإبهامها أشبهت النكرة فجاز إبدالها منها فقيل عليه إنه ضعيف لما يلزم الأول من حذف البدل وقد أباه النحاة، والثاني لا يقول به من يشترط النعت فهو صلح من غير تراضي الخصمين. وقرأ عبد الله «عتيداً» بالنصب على الحال ﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ﴾ خطاب من الله تعالى للسائق والشهيد بناءً على أنهما اثنان لا واحد جامع للوصفين أو للملكين من خزنة النار أو لواحد على أن الألف بدل من نون التوكيد على إجراء الوصل مجرى الوقف، وأيد بقراءة الحسن «أَلْقِيَنّ» بنون التوكيد الخفيفة، وقيل: إن العرب كثيراً ما يرافق الرجل منهم اثنين فكثر على ألسنتهم أن يقولوا خليلي وصاحبي وقفا واسعدا حتى خاطبوا الواحد خطاب الاثنين، وما في الآية محمول على ذلك كما حكي عن الفراء أو على تنزيل تثنية الفاعل منزلة تثنية الفعل بأن يكون أصله ألق ألق ثم حذف الفعل الثاني وأبقى ضميره مع الفعل الأولى فثنى الضمير للدلالة على ما ذكر كما في قوله:

فإن تزجراني يا ابن عفان أنزجر ... وإن تدعاني أحم عرضاً ممنعا

وحكي ذلك عن المازني والمبرد، ولا يخفى بعده، ولينظر هل هو حقيقة أو مجاز والأظهر أنه خطاب لاثنين وهو المروي عن مجاهد. وجماعة، وأياً ما كان فالكلام على تقدير القول كما مر، والإلقاء طرح الشيء حيث تلقاه أي تراه ثم صار في التعارف اسماً لكل طرح أي اطرحا في جهنم كل مبالغ في الكفر للمنعم والنعمة ﴿عَنِيدٍ﴾ مبالغ في العناد وترك الانقياد للحق، وقريب منه قول الحسن: جاحد متمرد، وقال قتادة: أي منحرف عن الطاعة يقال: عند عن الطريق عدل عنه، وقال السدي: المشاق من العند وهو عظم يعرض في الحلق، وقال ابن بحر: المعجب بما عنده

﴿مَنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ﴾ مبالغ في المنع للمال عن حقوقه المفروضة، قال قتادة. ومجاهد. وعكرمة: يعني الزكاة، وقيل: المراد بالخير الإِسلام فإن الآية نزلت في الوليد بن المغيرة كان يقول لبني أخيه: من دخل منكم في الإِسلام لم أنفعه بشيء ما عشت، والمبالغة باعتبار كثرة بني أخيه أو باعتبار تكرر منعه لهم.

وضعف بأنه لو كان المراد ذلك كان مقتضى الظاهر مناع عن الخير، وفي البحر الأحسن عموم الخير في المال وغيره ﴿مُعْتَدٍ﴾ ظالم متخط للحق متجاوز له ﴿مُّرِيبٍ﴾ شاك في الله تعالى ودينه، وقيل: في البعث.

﴿الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ﴾ مبتدأ متضمن لمعنى الشرط خبره ﴿فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ﴾ بتأويل فيقال في حقه ألقياه أو لكونه في معنى جواب الشرط لا يحتاج للتأويل أو بدل من ﴿كل كفار﴾ أو من ﴿كفار﴾ وقوله تعالى: ﴿فألقياه﴾ تكرير للتوكيد فهو نظير ﴿فلا تحسبنهم﴾ [آل عمران: ١٨٨] بعد قوله تعالى: ﴿ولا تحسبن الذين يفرحون﴾ [آل عمران: ١٨٨] والفاء ههنا للإِشعار بأن الإِلقاء للصفات المذكورة أو من باب وحقك ثم حقك ينزل التغاير بين المؤكد والمفسر والمفسر منزلة التغايز بين الذاتين بوجه خطابي، ولا يدعي التغاير الحقيقي لأن التأكيد يأباه، وقول أهل المعاني: أن بين المؤكد والمؤكد شدة اتصال تمنع من العطف ليس على إطلاقه بسديد، والنحويون على خلافه، فقد قال ابن مالك في التسهيل: فصل الجملتين في التأكيد بثم أن أمن اللبس أجود من وصلهما، وذكر بعض النحاة الفاء؛ والزمخشري في الجاثية الواو أيضاً، وجعلوا ذلك من التأكيد الاصطلاحي، ولو جعل ﴿العذاب الشديد﴾ نوعاً من عذاب جهنم ومن أهوله فكان من باب ﴿ملائكته ورسله وجبريل﴾ [البقرة: ٩٨] دون تكرير لكان كما قال صاحب الكشف حسناً.

وجوز أن يكون مفعولاً بمضمر يفسره ﴿فألقياه﴾ وقال ابن عطية: أن يكون صفة ﴿كفار﴾ وجاز وصفه بالمعرفة لتخصصه بالأوصاف المذكورة. وتعقبه أبو حيان بأنه لا يجوز وصف النكرة بالمعرفة ولو وصفت بأوصاف كثيرة ﴿قَالَ قَرِينُهُ﴾ أي الشيطان المقيض له، وإنما استؤنفت هذه الجملة استئناف الجمل الواقعة في حكاية المقاولة لما أنها جواب لمحذوف دل عليه قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ﴾ فإنه مبني على سابقة كلام اعتذر به الكافر كأنه قال: هو أطغاني فأجاب قرينه بتكذيبه وإسناد الطغيان إليه بخلاف الجملة الأولى فإنها واجبة العطف على ما قبلها دلالة على الجمع بين مفهوميهما في الحصول أعني مجيء كل نفس مع الملكين، وقول قرينه: ﴿وَلَٰكِن كَانَ﴾ هو بالذات ﴿فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ من الحق فأعنته عليه بالإِغواء والدعوة إليه من غير قسر ولا الجاء، فهو كما قدمنا نظير ﴿وما كان لي عليكم من سلطان﴾ [إبراهيم: ٢٢] الخ ﴿قَالَ﴾ استئناف مبني على سؤال نشأ مما قبله كأنه قيل: فماذا قال الله تعالى؟ فقيل: قال عز وجل: ﴿لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ﴾ أي في موقف الحساب والجزاء إذ لا فائدة في ذلك ﴿وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ﴾ على الطغيان في دار الكسب في كتبي وعلى ألسنة رسلي فلا تطمعوا في الخلاص عنه بما أنتم فيه من التعلل بالمعاذير الباطلة، والجملة حال فيها تعليل للنهي ويلاحظ معنى العلم لتحصل المقارنة التي تقتضيها الحالية أي لا تختصموا لدي عالمين أني قدمت إليكم بالوعيد حيث قلت لإِبليس: ﴿لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم﴾ [ص: ٨٥] فاتبعتموه معرضين عن الحق؛ والباء مزيدة أو معدية على أن قدم بمعنى تقدم وهو لازم يعدى بالباء، وجوز أن يكون ﴿قدمت﴾ واقعاً على قوله تعالى: ﴿مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ﴾ الخ ويكون ﴿بالوعيد﴾ متعلقاً بمحذوف هو حال من المفعول قدم عليه أو الفاعل أي وقد قدمت إليكم هذا القول ملتبساً بالوعيد مقترناً به أو قدمته إليكم موعداً لكم فلا تطمعوا أن أبدل وعيدي، والأظهر استئناف هذه الجملة. وفي ﴿لديّ﴾ على ما قال الإِمام وجهان: الأول أن يكون متعلقاً بالقول أي ما يبدل القول الذي عنده.

الثاني أن يكون متعلقاً بالفعل قبل أي لا يقع التبديل عندي، قال: وعلى الأول في القول الذي لديه تعالى وجوه. أحدها قوله تعالى: ﴿أَلْقيا﴾ أرادوا باعتذارهم أن يبدل ويقول سبحانه: لا تلقيا فرد عليهم.

ثانيها قوله سبحانه لإبليس: ﴿لأملأن﴾ الخ. ثالثها الإيعاد مطلقاً. رابعها القول السابق يوم خلق العباد هذا سعيد وهذا شقي. وعلى الثاني في معنى الآية وجوه أيضاً. أحدها لا يكذب لدي فإني عالم علمت من طغى ومن أطغى فلا يفيد قولكم أطغاني شيطاني وقول الشيطان: ﴿ربنا ما أطغيته﴾ ثانيها لو أردتم أن لا أقول: ﴿فألقياه﴾ كنتم أبدلتم الكفر بالإيمان قبل أن تقفوا بين يدي وأما الآن فما يبدل القول لدي. ثالثها لا يبدل القول الكفر بالإيمان لدي فإن الإيمان عند اليأس غير مقبول فقولكم: ربنا وإلهنا لا يفيدكم فمن تكلم بكلمة الكفر لا يفيده قوله: ربنا ما أشركنا وقوله: ربنا آمنا. والمشهور أن ﴿لديّ﴾ متعلق بالفعل على أن المراد بالقول ما يشمل الوعد والوعيد.

واستدل به بعض من قال بعدم جواز تخلفهما مطلقاً. وأجاب من قال بجواز العفو عن بعض المذنبين بأن ذلك العفو ليس بتبديل فإن دلائل العفو تدل على تخصيص الوعيد، وقال بعض المحققين: المراد نفي أن يوقع أحد التبديل لديه تعالى أي في علمه سبحانه أو يبدل القول الذي علمه عز وجل، فإن ما عنده تبارك وتعالى هو ما في نفس الأمر وهو لا يقبل التبديل أصلاً، وأكثر الوعيدات معلقة بشرط المشيئة على ما يقتضيه الكرم وإن لم يذكر على ما يقتضيه الترهيب، فمتى حصل العفو لعدم مشيئته التعذيب لم يكن هناك تبديل ما في نفس الأمر فتدبره فإنه دقيق ﴿وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ وارد لتحقيق الحق على أبلغ وجه، وفيه إشارة إلى أن تعذيب من يعذب من العبيد إنما هو عن استحقاق في نفس الأمر، وقد تقدم تمام الكلام في هذه الجملة فتذكر.

﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ أي اذكر أو أنذر يوم الخ . فيوم . مفعول به لمقدر، وقيل: هو ظرف . لظلام، وقال الزمخشري: يجوز أن ينتصب . بنفخ . كأنه قيل: ونفخ في الصور يوم، وعليه يشار بذلك إلى ﴿يوم نقول﴾ لأن الإشارة إلى ما بعد جائزة لا سيما إذا كانت رتبته التقديم فكأنه قيل: ذلك اليوم أي يوم القول يوم الوعيد، ولا يحتاج إلى حذف على ما مر في الوجه الذي أشير به إلى النفخ.

وهذا الوجه كما قال في الكشف: فيه بعد لبعده عن العامل وتخلل ما لا يصلح اعتراضاً على أن زمان النفخ ليس يوم القول إلا على سبيل فرضه ممتداً واقعاً ذلك في جزء منه وهذا في جزء وكل خلاف الظاهر فكيف إذا اجتمعت.

وقال أبو حيان: هو بعيد جداً قد فصل عليه بين العامل والمعمول بجمل كثيرة فلا يناسب فصاحة القرآن الكريم وبلاغته، والظاهر إبقاء السؤال والجواب على حقيقتهما، وكذا في نظير ذلك من اشتكاء النار والإذن لها بنفسين وتحاج النار والجنة، ونحن متعبدون باعتقاد الظاهر ما لم لا يمنع مانع ولا مانع ههنا، فإن القدرة صالحة والعقل مجوز والظواهر قاضية بوقوع ما جوزه العقل، وأمور الآخرة لا ينبغي أن تقاس على أمور الدنيا.

وقال الرماني: الكلام على حذف مضاف أي نقول لخزنة جهنم، وليس بشيء.

وقال غير واحد: هو من باب التمثيل والمعنى أنها مع اتساعها وتباعد أقطارها تطرح فيها من الجِنّة والناس فوجاً بعد فوج حتى تمتلىء ولا تقبل الزيادة، فالاستفهام للإنكار أي لا مزيد على امتلائها وروي هذا عن ابن عباس ومجاهد والحسن، وجوز في نفي الزيادة أن يكون على ظاهره وأن يكون كناية أو مجازاً عن الاستكثار، وقيل: المعنى أنها من السعة بحيث يدخلها من يدخلها وفيها فراغ وخلو، فالاستفهام للتقرير أي فيها موضع للمزيد لسعتها، وجوز أن يكون ذلك كناية عن شدة غيظها على العصاة كأنها طالبة لزيادتهم.

واستشكل دعوى أن فيها فراغاً بأنه مناف لصريح قوله تعالى: ﴿لأملأن جهنم﴾ الآية. وأجيب بأنه لا منافاة لأن الامتلاء قد يراد به أنه لا يخلو طبقة منها عمن يسكنها وإن كان فيها فراغ كثير كما يقال: إن البلدة ممتلئة بأهلها ليس فيها دار خالية مع ما بينها من الأبنية والأفضية أو أن ذلك باعتبار حالين فالفراغ في أول الدخول فيها ثم يساق إليها الشياطين ونحوهم فتمتلىء، هذا ويدل غير ما حديث أنها تطلب الزيادة حقيقة إلا أنه لا يدري حقيقة ما يوضع فيها حتى تمتلىء إذ الأحاديث في ذلك من المتشابهات التي لا يراد بها ظواهرها عند الأكثرين أخرج أحمد والبخاري ومسلم والترمذي والنسائي وغيرهم عن أنس قال: «قال رسول الله ﷺ لا تزال جهنم يلقى فيها وتقول هل من مزيد حتى يضع رب العزة فيها قدمه فيزوي بعضها إلى بعض وتقول قط قط وعزتك وكرمك ولا يزال في الجنة فضل حتى ينشىء الله لها خلقاً آخر فيسكنهم في فضول الجنة».

وأخرج الشيخان. وغيرهما عن أبي هريرة قال: «قال رسول الله ﷺ: تحاجت الجنة والنار فقالت النار: أوثرت بالمتكبرين والمتجبرين وقالت الجنة: ما لي لا يدخلني إلا ضعفاء الناس وسقطهم فقال الله تعالى للجنة: أنت رحمتي أرحم بك من أشاء من عبادي وقال للنار: إنما أنت عذابي أعذب بك من أشاء من عبادي ولكل واحدة منكما ملؤها فأما النار فلا تمتلىء حتى يضع رجله فتقول قط قط فهناك تمتلىء ويزوي بعضها إلى بعض ولا يظلم الله من خلقه أحداً وأما الجنة فإن الله تعالى ينشىء لها خلقاً» وأول أهل التأويل ذلك، فقال النضر بن شميل: إن القدم الكفار الذين سبق في علمه تعالى دخولهم النار والقدم تكون بمعنى المتقدم كقوله تعالى: ﴿قدم صدق﴾ [يونس: ٢] وظاهر الحديث عليه يستدعي دخول غير الكفار قبلهم وهو في غاية البعد؛ ولعل في الأخبار ما ينافيه.

وقال ابن الأثير: قدمه أي الذين قدمهم لها من شرار خلقه فهم قدم الله تعالى للنار كما أن المسلمين قدمه للجنة والقدم كل ما قدمت من خير أو شر وهو كما ترى، ويبعده ما في حديث أحمد. وعبد بن حميد. وابن مردويه عن أبي سعيد مرفوعاً «فيلقى فيها، أي النار، أهلها فتقول: هل من مزيد ويلقى فيها وتقول هل من مزيد حتى يأتيها عز وجل فيضع قدمه عليه فتنزوي وتقول: قدني قدني» وأولوا الرجل بالجماعة ومنه ما جاء في أيوب عليه السلام أنه كان يغتسل عرياناً فخر عليه رجل من جراد، والإضافة إلى ضميره تعالى تبعد ذلك، وقيل: وضع القدم أو الرجل على الشيء مثل للردع والقمع فكأنه قيل: يأتيها أمر الله تعالى فيكفها من طلب المزيد.

وقريب منه ما ذهب إليه بعض الصوفية ان القدم يكنى بها عن صفة الجلال كما يكنى بها عن صفة الجمال، وقيل: أريد بذلك تسكين فورتها كما يقال للأمر: تريد إبطاله وضعته تحت قدمي أو تحت رجلي، وهذان القولان أولى مما تقدم والله تعالى أعلم. والمزيد إما مصدر ميمي كالمحيد أو اسم مفعول أعلّ إعلال المبيع.

وقرأ الأعرج وشيبة ونافع وأبو بكر والحسن وأبو رجاء وأبو جعفر والأعمش «يوم يقول» بياء الغيبة. وقرأ عبد الله. والحسن. والأعمش أيضاً «يُقَالُ». مبنياً للمفعول.

﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ أخذ في بيان حال المؤمنين بعد بيان حال الكافرين؛ وهو عطف على نفخ أي قربت للمتقين عن الكفر والمعاصي ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ أي في مكان غير بعيد بمرأى منهم بين يديهم وفيه مبالغة ليست في التخلية عن الظرف ـ فغير بعيد ـ صفة لظرف متعلق بأزلفت حذف فقام مقامه وانتصب انتصابه، ولذلك لم يقل غير بعيدة، وجوز أن يكون منصوباً على المصدرية والأصل وأزلفت إزلافاً غير بعيد، قال الإمام: أي عن قدرتنا وإن يكون حالاً من الجنة قصد به التوكيد كما تقول: عزيز غير ذليل لأن العزة تنافي الذل ونفي مضاد الشيء تأكيد إثباته، وفيه دفع توهم أن ثم تجوزاً أو شوباً من الضد ولم يقل: غير بعيدة عليه قيل: لتأويل الجنة بالبستان، وقيل: لأن البعيد على

زنة المصدر الذي من شأنه أن يستوي فيه المؤنث والمذكر كالزئير والصليل فعومل معاملته وأجري مجراه، وقيل: لأن فعيلاً بمعنى فاعل قد يجري مجرى فعيل بمعنى مفعول فيستوي فيه الأمران، وللإمام في تقريب الجنة أوجه. منها طي المسافة التي بينها وبين المتقين مع بقاء كل في مكانه وعدم انتقاله عنه ولكرامة المتقين قيل: ﴿أزلفت الجنة للمتقين﴾ دون وأزلف المتقون للجنة، ومنها أن المراد تقريب حصولها والدخول فيها دون التقريب المكاني، وفيه ما فيه، ومنها أن التقريب على ظاهره والله عز وجل قادر على نقل الجنة من السماء إلى الأرض أي إلى جهة السفل أو الأرض المعروفة بعد مدها، وقول بعض: إن المراد إظهارها قريبة منها على نحو إظهارها للنبي ﷺ في عرض حائط مسجده الشريف على ما فيه منزع صوفي ﴿هَذَا مَا تُوعَدُونَ﴾ إشارة إلى الجنة، والتذكير لما أن المشار إليه هو المسمى من غير قصد لفظ يدل عليه فضلاً عن تذكيره وتأنيثه فإنهما من أحكام اللفظ العربي كما في قوله تعالى: ﴿فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي﴾ [الأنعام: ٧٨] وقوله سبحانه: ﴿ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله﴾ [الأحزاب: ٢٢]؛ ويجوز أن يكون ذلك لتذكير الخبر، وقيل: هو إشارة إلى الثواب. وقيل: إلى مصدر ﴿أزلفت﴾ والجملة بتقدير قول وقع حالاً من المتقين أو من الجنة والعامل أزلفت أي مقولاً لهم أو مقولاً في حقها هذا ما توعدون، أو اعتراض بين المبدل منه أعني ﴿للمتقين﴾ والبدل أعني الجار والمجرور وفيه بعد.

وصيغة المضارع لاستحضار الصورة الماضية، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو «يُوعَدُونَ» بياء الغيبة، والجملة على هذه القراءة قيل: اعتراض أو حال من الجنة؛ وقال أبو حيان: هي اعتراض، والمراد هذا القول هو الذي وقع الوعد به وهو كما ترى، وقوله تعالى: ﴿لِكُلِّ أَوَّابٍ﴾ أي رجاع إلى الله تعالى بدل من المتقين بإعادة الجار أو من ﴿للمتقين﴾ على أن يكون الجار والمجرور بدلاً من الجار والمجرور ﴿حَفِيظٍ﴾ حفظ ذنوبه حتى رجع عنها كما روي عن ابن عباس وسعيد بن سنان، وقريب منه ما أخرج سعيد بن منصور وابن أبي شيبة وابن المنذر عن يونس بن خباب قال: قال لي مجاهد: ألا أنبئك بالأواب الحفيظ؟ هو الرجل يذكر ذنبه إذا خلا فيستغفر الله تعالى منه.

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة قال: أي حفيظ لما استودعه الله تعالى من حقه ونعمته. وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر عن عبيد بن عمير كنا نعد الأواب الحفيظ الذي يكون في المجلس فإذا أراد أن يقوم قال: اللهم اغفر لي ما أصبت في مجلسي هذا. وقيل: هو الحافظ لتوبته من النقض ولا ينافيه صيغة ﴿أواب﴾ كما لا يخفى. وقوله تعالى شأنه: ﴿مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ﴾ بدل من كل المبدل من المتقين أو بدل ثان من المتقين بناءً على جواز تعدد البدل والمبدل منه واحد. وقول أبي حيان: تكرر البدل والمبدل منه واحد لا يجوز في غير بدل البداء، وسره أنه في نية الطرح فلا يبدل منه مرة أخرى غير مسلم، وقد جوزه ابن الحاجب في أماليه، ونقله الدماميني في أول شرحه للخزرجية وأطال فيه، وكون المبدل منه في نية الطرح ليس على ظاهره، أو بدل من موصوف ﴿أواب﴾ أي لكل شخص أواب بناءً على جواز حذف المبدل منه، وقد جوزه ابن هشام في المغني لا سيما وقد قامت صفته مقامه حتى كأنه لم يحذف ولم يبدل من ﴿أواب﴾ نفسه لأن أواباً صفة لمحذوف كما سمعت فلو أبدل منه كان للبدل حكمه فيكون صفة مثله، و «من» اسم موصول والأسماء الموصولة لا يقع منها صفة إلا الذي على الأصح، وجوز بعض الوصف بمن أيضاً لكنه قول ضعيف أو مبتدأ خبره ﴿ادْخُلُوهَا﴾ بتأويل يقال لهم ادخلوها لمكان الإنشائية والجمع باعتبار معنى من وقوله تعالى ﴿بالغيب﴾ متعلق بمحذوف هو حال من فاعل ﴿خشي﴾ أو من مفعوله أو صفة لمصدره أي خشية ملتبسة بالغيب حيث خشي عقابه سبحانه وهو غائب عنه أو هو غائب عن الأعين لا يراه أحد، وقيل: الباء للآلة، والمراد بالغيب القلب لأنه مستور أي من خشي الرحمن بقلبه دون جوارحه بأن يظهر الخشية ليس في قلبه منها شيء وليس بشيء.

والتعرض لعنوان الرحمانية للإشعار بأنهم مع خشيتهم عقابه عز وجل راجون رحمته سبحانه أو بأن علمهم بسعة رحمته تبارك وتعالى لا يصدهم عن خشيته جل شأنه، وقال الإمام: يجوز أن يكون لفظ ﴿الرحمن﴾ إشارة إلى مقتضى الخشية لأن معنى الرحمن واهب الوجود بالخلق والرحيم واهب البقاء بالرزق وهو سبحانه في الدنيا رحمن حيث أوجدنا ورحيم حيث أبقانا بالرزق فمن يكون منه الوجود ينبغي أن يكون هو المخشي وما تقدم أولى.

والباء في قوله تعالى: ﴿بقلب﴾ للمصاحبة، وجوز أن تكون للتعدية أي أحضر قلباً منيباً. ووصف القلب بالإنابة مع أنها يوصف بها صاحبه لما أن العبرة رجوعه إلى الله تعالى، وأغرب الإمام فجوز كون الباء للسببية فكأنه قيل: ما جاء إلا بسبب آثار العلم في قلبه أن لا مرجع إلا الله تعالى فجاء بسبب قلبه المنيب وهو كما ترى، وقوله تعالى: ﴿بِسَلَامٍ﴾ متعلق بمحذوف هو حال من فاعل ﴿ادخلوها﴾ والباء للملابسة، والسلام إما من السلام أو من التسليم أي ادخلوها ملتبسين بسلامة من العذاب وزوال النعم أو بتسليم وتحية من الله تعالى وملائكته ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى أن الزمان الممتد الذي وقع في بعض منه ما ذكر من الأمور ﴿يَوْمُ الْخُلُودِ﴾ البقاء الذي لا انتهاء له أبداً أو إشارة إلى وقت الدخول بتقدير مضاف أي ذلك يوم ابتداء الخلود وتحققه أو يوم تقدير الخلود أو إشارة إلى وقت السلام بتقدير مضاف أيضاً أي ذلك يوم إعلام الخلود أي الإعلام به ﴿لَهُمْ مَّا يشاؤون﴾ من فنون المطالب كائناً ما كان ﴿فِيهَا﴾ متعلق بيشاؤون، وقيل: بمحذوف هو حال من الموصول أو من عائده المحذوف من صلته ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ هو ما لا يخطر ببالهم ولا يندرج تحت مشيئتهم من معالي الكرامات التي لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، ومنه كما أخرجه ابن أبي حاتم عن كثير بن مرة أن تمر السحابة بهم فتقول: ماذا تريدون فأمطره عليكم فلا يريدون شيئاً إلا أمطرته عليهم. وأخرج البيهقي في الرؤية. والديلمي عن علي كرم الله تعالى وجهه عن النبي ﷺ في قوله تعالى: ﴿ولدينا مزيد﴾ قال: «يتجلى لهم الرب عز وجل».

وأخرج ابن المنذر وجماعة عن أنس أنه قال في ذلك أيضاً: يتجلى لهم الرب تبارك وتعالى في كل جمعة، وجاء في حديث أخرجه الشافعي في الأم وغيره أن يوم الجمعة يدعى يوم المزيد، وقيل: المزيد أزواج من الحور العين عليهن تيجان أدنى لؤلؤة منها تضيء ما بين المشرق والمغرب وعلى كل سبعون حلة وان الناظر لينفذ بصره حتى يرى مخ ساقها من وراء ذلك، وقيل: هو مضاعفة الحسنة بعشر أمثالها ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ﴾ أي كثيراً أهلكنا قبل قومك ﴿مِن قَرْنٍ﴾ قوماً مقترنين في زمن واحد ﴿هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا﴾ أي قوة كما قيل أو أخذاً شديداً في كل شيء كعاد وقوم فرعون ﴿فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ﴾ ساروا في الأرض وطوفوا فيها حذار الموت، فالتنقيب السير وقطع المسافة كما ذكره الراغب. وغيره، وأنشدوا للحارث بن حلزة:

نقبوا في البلاد من حذر المو ... ت وجالوا في الأرض كل مجال

ولامرىء القيس:

وقد نقبت في الآفاق حتى ... رضيت من الغنيمة بالإياب

وروي وقد طوفت، وأخرج الطستي عن ابن عباس أن نافع بن الأزرق سأله عن ذلك فقال: هو هربوا بلغة اليمن، وأنشد له بيت الحرث المذكور لكنه نسبه لهدى بن زيد، وفسر التنقيب في البلاد بالتصرف فيها بملكها ونحوه، وشاع التنقيب في العرف بمعنى التنقير عن الشيء والبحث عن أحواله، ومنه قوله تعالى: ﴿وبعثنا منهم اثني عشر نقيباً﴾ [المائدة: ١٢] وأما قولهم: كلب نقيب فهو بمعنى منقوب أي نقبت غلصمته ليضعف صوته، والفاء على تفسير التنقيب بالسير ونحوه المروي عن ابن عباس لمجرد التعقيب، وعلى تفسيره بالتصرف للسببية لأن تصرفهم في البلاد

مسبب عن اشتداد بطشهم؛ وهي على الوجهين عاطفة على معنى ما قبلها كأنه قيل: اشتد بطشهم فنقبوا وقيل: هي على ما تقدم أيضاً للسببية والعطف على ﴿أهلكنا﴾ على أن المراد أخذنا في إهلاكهم فنقبوا في البلاد ﴿هَلْ مِن مَحيص﴾ على إضمار قول هو حال من واو ﴿نقبوا﴾ أي قائلين هل لنا مخلص من الله تعالى أو من الموت؟ أو على إجراء التنقيب لما فيه من معنى التتبع والتفتيش مجرى القول على ما قيل أو هو كلام مستأنف لنفي أن يكون لهم محيص أي هل لهم مخلص من الله عز وجل أو من الموت، وقيل: ضمير ﴿نقبوا﴾ لأهل مكة أي ساروا في مسايرهم وأسفارهم في بلاد القرون المهلكة فهل رأوا لهم محيصاً حتى يؤملوا مثله لأنفسهم.

وأيد بقراءة ابن عباس وابن يعمر وأبي العالية ونصر بن سيار وأبي حيوة والأصمعي عن أبي عمرو على صيغة الأمر لأن الأمر للحاضر وقت النزول من الكفار وهم أهل مكة لا غير، والأصل توافق القراءتين وفيه على هذه القراءة التفات من الغيبة إلى الخطاب. قرأ ابن عباس أيضاً وعبيد عن ابن عمرو «فَنَقَبُوا» بفتح القاف مخففة، والمعنى كما في المشددة، وقرىء بكسر القاف خفيفة من النقب محركاً، وهو أن ينتقب خف البعير ويرق من كثرة السير، قال الراجز:

أقسم بالله أبو حفص عمر ... ما مسها من نقب ولا دبر

والكلام بتقدير مضاف أي نقبت أقدامهم، ونقب الإقدام كناية مشهورة عن كثرة السير فيؤول المعنى إلى أنهم أكثروا السير في البلاد أو نقبت أخفاف مراكبهم والمراد كثرة السير أيضاً، وقد يستغنى عن التقدير بجعل الإسناد مجازياً ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ أي الإهلاك أو ما ذكر في السورة ﴿لَذِكْرَى﴾ لتذكرة وعظة ﴿لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾ أي قلب واع يدرك الحقائق فإن الذي لا يعي ولا يفهم بمنزلة العدم، وفي الكشف ﴿لمن كان﴾ الخ تمثيل ﴿أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ﴾ أي أصغى إلى ما يتلى عليه من الوحي ﴿وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ أي حاضر على أنه من الشهود بمعنى الحضور، والمراد به المتفطن لأن غير المتفطن منزل منزلة الغائب فهو إما استعارة أو مجاز مرسل والأول أولى، وجوز أن يكون من الشهادة وصفاً للمؤمن لأنه شاهد على صحة المنزل وكونه وحياً من الله تعالى فيبعثه على حسن الإصغاء أو وصفاً له من قوله تعالى: ﴿لتكونوا شهداء على الناس﴾ [البقرة: ١٤٣] كأنه قيل: وهو من جملة الشهداء أي المؤمنين من هذه الأمة فهو كناية على الوجهين، وجوز على الأول منهما أن لا يكون كناية على أن المراد وهو شاهد شهادة عن إيقان لا كشهادة أهل الكتاب.

وعن قتادة المعنى لمن سمع القرآن من أهل الكتاب وهو شاهد على صدقه لما يجده في كتابه من نعته، والأنسب بالمساق والاملأ بالفائدة الأخذ من الشهود، والوجه جعل ﴿وهو شهيد﴾ حالاً من ضمير الملقى لا عطفاً على ﴿ألقى﴾ كما لا يخفى على من له قلب أو القى السمع وهو شهيد، والمراد أن فيما فعل بسوالف الأمم أو في المذكور إماما من الآيات لذكرى لإحدى طائفتين من له قلب يفقه عن الله عز وجل ومن له سمع مصغ مع ذهن حاضر أي لمن له استعداد القبول عن الفقيه إن لم يكن فقيهاً في نفسه، و ﴿أو﴾ لمنع الخلو من حيث إنه يجوز أن يكون الشخص فقيهاً ومستعداً للقبول من الفقيه، وذكر بعضهم أنها لتقسيم المتذكر إلى تال وسامع أو إلى فقيه ومتعلم أو إلى عالم كامل الاستعداد لا يحتاج لغير التأمل فيما عنده وقاصر محتاج للتعلم فيتذكر إذا أقبل بكليته وأزال الموانع بأسرها فتأمل.

وقرأ السلمي وطلحة والسدي وأبو البرهسم «أو أُلْقِي» مبنياً للمفعول «السَّمْعُ» بالرفع على النيابة عن الفاعل؛ والفاعل المحذوف أما المعبر عنه بالموصول أولاً، وعلى الثاني معناه لمن ألقى غيره السمع وفتح أذنه ولم يحضر

ذهنه، وأما هو فقد ألقي وهو شاهد متفطن محضر ذهنه، فالوصف أعني الشهود معتمد الكلام، وإنما أخرج في الآية بهذه العبارة للمبالغة في تفطنه وحضوره، وعلى الأول معناه لمن ألقى سمعه وهو حاضر متفطن، ثم لو قدر موصول آخر بعد ﴿أو﴾ فذو القلب والملقى غير أن شخصاً ولو لم يقدر جاز أن يكونا شخصين وأن يكونا شخصاً باعتبار حالين حال تفطنه بنفسه وحال القائه السمع عن حضور إلى متفطن بنفسه لأن ﴿من﴾ عام يتناول كل واحد واحد ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوات وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ من أصناف المخلوقات ﴿في ستَّة أيَّام﴾ تقدم الكلام فيها ﴿وَمَا مَسَّنَا﴾ وما أصابنا بذلك مع كونه مما لا تفي به القوى والقدر ﴿منْ لُغُوب﴾ تعب ما فالتنوين للتحقير، وهذا كما قال قتادة. وغيره رد على جهلة اليهود زعموا أنه تعالى شأنه بدأ خلق العالم يوم الأحد وفرغ منه يوم الجمعة واستراح يوم السبت واستلقى على العرش سبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيراً.

وعن الضحاك أن الآية نزلت لما قالوا ذلك، ويحكى أنهم يزعمون أنه مذكور في التوراة، وجملة ﴿وما مسنا﴾ الخ تحتمل أن تكون حالية وأن تكون استئنافية، وقرأ السلمي وطلحة ويعقوب «لَغُوب» بفتح اللام بزنة القبول والولوع وهو مصدر غير مقيس بخلاف مضموم اللام ﴿فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ﴾ أي ما يقول المشركون في شأن البعث من الأباطيل المبنية على الاستبعاد والإنكار فإن من قدر على خلق العالم في تلك المدة اليسيرة بلا إعياء قادر على بعثهم والانتقام منهم، أو على ما يقول اليهود من مقالة الكفر والتشبيه.

والكلام متعلق بقوله تعالى: ﴿ولقد خلقنا﴾ الخ على الوجهين، وفي الكشف أنه على الأول متعلق بأول السورة إلى هذا الموضع وأنه أنسب من تعلقه، بلقد خلقنا، الآية لأن الكلام مرتبط بعضه ببعض إلى ههنا على ما لا يخفى على المسترشد.

وأنت تعلم أن الأقرب تعلقه على الوجهين بما ذكرنا ﴿وَسَبِّحْ بحَمْد رَبِّكَ﴾ أي نزهه تعالى عن العجز عما يمكن وعن وقوع الخلف في أخباره التي من جملتها الإخبار بوقوع البعث وعن وصفه عز وجل بما يوجب التشبيه، أو نزهه عن كل نقص ومنه ما ذكر حامداً له تعالى على ما أنعم به عليك من إصابة الحق وغيرها. ﴿قَبْلَ طُلُوع الشَّمْس وَقَبْلَ الْغُرُوب﴾ هما وقتا الفجر والعصر وفضيلتهما مشهورة ﴿وَمنَ اللَّيْل﴾ مفعول لفعل محذوف يفسره ﴿فَسَبِّحْهُ﴾ باعتبار الاتحاد النوعي، والعطف للتغاير الشخصي أي وسبحه بعض الليل فسبحه أو مفعول لقوله تعالى: «سبحه» على أن الفاء جزائية والتقدير مهما يكن من شيء فسبحه بعض الليل، وقدم المفعول للاهتمام به وليكون كالعوض عن المحذوف ولتوسط الفاء الجزائية كما هو حقها، ولعل المراد بهذا البعض السحر فإن فضله مشهور ﴿وَأَدْبَارَ السُّجُود﴾ وأعقاب الصلاة جمع دبر بضم فسكون أو دبر بضمتين.

وقرأ ابن عباس وأبو جعفر وشيبة وعيسى والأعمش وطلحة وشبل والحرميان «إدبار» بكسر الهمزة وهو مصدر تقول: أدبرت الصلاة إدباراً انقضت وتمت، والمعنى ووقت انقضاء السجود كقولهم: آتيك خفوق النجم. وذهب غير واحد إلى أن المراد بالتسبيح الصلاة على أنه من إطلاق الجزء أو اللازم على الكل أو الملزوم، وعليه فالصلاة قبل الطلوع الصبح وقبل الغروب العصر، قاله قتادة وابن زيد والجمهور، وأخرجه الطبراني في الأوسط. وابن عساكر عن جرير بن عبد الله مرفوعاً، ومن الليل صلاة العتمة وإدبار السجود النوافل بعد المكتوبات أخرجه ابن جرير عن ابن زيد، وقال ابن عباس: الصلاة قبل الطلوع الفجر وقبل الغروب الظهر والعصر ومن الليل العشاءان وإدبار السجود النوافل بعد الفرائض، وفي رواية أخرى عنه الوتر بعد العشاء، وفي أخرى عنه أيضاً وعن عمر وعلي وابنه الحسن وأبي هريرة رضي الله تعالى عنهم. والشعبي وإبراهيم ومجاهد والأوزاعي ركعتان بعد المغرب، وأخرجه مسدد في مسنده. وابن المنذر وابن مردويه عن

علي كرم الله تعالى وجهه مرفوعاً، وقال مقاتل: ركعتان بعد العشاء يقرأ في الأولى ﴿قل يا أيها الكافرون﴾ [الكافرون: ١] وفي الثانية ﴿قل هو الله أحد﴾ [الإخلاص: ١]، وقيل: من الليل صلاة العشاءين والتهجد. وعن مجاهد صلاة الليل، وفيه احتمال العموم لصلاة العشاءين والخصوص بالتهجد وهو الأظهر ﴿وَاسْتَمِعْ﴾ أمر بالاستماع، والظاهر أنه أريد به حقيقته، والمستمع له محذوف تقديره واستمع لما أخبر به من أهوال يوم القيامة، وبين ذلك بقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ﴾ إلى آخره، وسلك هذا لما في الإبهام ثم التفسير من التهويل والتعظيم لشأن المخبر به، وانتصب ﴿يوم﴾ بما دل عليه ﴿ذلك يوم الخروج﴾ أي يوم ينادي المنادي يخرجون من القبور، وقيل: المفعول محذوف تقديره نداء المنادى، وقيل: تقديره نداء الكافرين بالويل والثبور و ﴿يوم﴾ ظرف لذلك المحذوف، وقيل: لا يحتاج ذلك إلى مفعول والمعنى كن مستمعاً ولا تكن غافلاً، وقيل: معنى استمع انتظر، والخطاب لكل سامع، وقيل: للرسول عليه الصلاة والسلام و ﴿يوم﴾ منتصب على أنه مفعول به لاستمع أي انتظر يوم ينادي المنادي فإن فيه تبين صحة ما قلته كما تقول لمن تعده بورود فتح: استمع كذا وكذا. والمنادي على ما في بعض الآثار جبريل عليه السلام ينفخ إسرافيل في الصور وينادي جبريل يا أيتها العظام النخرة والجلود المتمزقة والشعور المتقطعة إن الله يأمرك بأن تجتمعي لفصل الحساب. وأخرج ابن عساكر. والواسط في فضائل بيت المقدس عن يزيد بن جابر أن إسرافيل عليه السلام ينفخ في الصور فيقول: يا أيتها العظام النخرة إلى آخره فيكون المراد بالمنادي هو عليه السلام. وفي الحواشي الشهابية الأول هو الأصح ﴿مِن مَكَانٍ قَرِيبٍ﴾ هو صخرة بيت المقدس على ما روي عن يزيد بن جابر وكعب وابن عباس وبريدة وقتادة، وهي على ما روي عن كعب أقرب الأرض إلى السماء بثمانية عشر ميلاً.

وفي الكشاف أنها أقرب إليها باثني عشر ميلاً وهي وسط الأرض، وأنت تعلم أن مثل هذا لا يقبل إلا بوحي، ثم إن كونها وسط الأرض مما تأباه القواعد في معرفة العروض والأطوال، ومن هنا قيل: المراد قريب ممن يناديهم فقيل: ينادي من تحت أقدامهم، وقيل: من منابت شعورهم فيسمع من كل شعرة يا أيتها العظام النخرة الخ، ومن الناس من قال: المراد بقربه كون النداء منه لا يخفى على أحد بل يستوي في سماعه كل أحد، والنداء في كل ذلك على حقيقته، وجوز أن يكون في الإعادة نظير كن في الابتداء على المشهور فهو تمثيل لإحياء الموتى بمجرد الإرادة ولا نداء ولا صوت حقيقة، ثم إن ما ذكرناه من أن المنادي ملك وأنه ينادي بما سمعت هو المأثور، وجوز أن يكون نداؤه بقوله للنفس: ارجعي إلى ربك لتدخلن مكانك من الجنة أو النار أو هؤلاء للجنة وهؤلاء للنار، وأن يكون المنادي هو الله تعالى ينادي ﴿احشروا الذين ظلموا وأزواجهم﴾ [الصافات: ٢٢] أو ﴿ألقيا في جهنم كل كفار عنيد﴾ [ق: ٢٤] مع قوله تعالى: ﴿ادخلوها بسلام﴾ [الحجر: ٤٦، ق: ٣٤] أو ﴿خذوه فغلوه﴾ [الحاقة: ٣٠] أو ﴿أين شركائي﴾ [النحل: ٢٧، القصص: ٦٢، ٧٤، فصلت: ٤٧] أو غير ذلك، وأن يكون غيره تعالى وغير الملك من المكلفين ينادي ﴿يا مالك ليقض علينا ربك﴾ [الزخرف: ٧٧] أو ﴿أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله﴾ [الأعراف: ٥٠] أو غير ذلك، والمعول عليه ما تقدم ﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ﴾ وهي النفخة الثانية، ﴿ويوم﴾ بدل من ﴿يوم ينادي﴾ الخ، والعامل فيهما ما دل عليه ﴿ذلك يوم الخروج﴾ كما تقدم، وجوز أن يكون ظرفاً لما دل عليه ذلك و ﴿يوم ينادي﴾ غير معمول له بل لغيره على ما مر، وأن يكون ظرفاً لينادي، وقوله تعالى: ﴿بِالْحَقِّ﴾ في موضع الحال من ﴿الصيحة﴾ أي يسمعونها ملتبسة بالحق الذي هو البعث، وجوز أن يكون ﴿الحق﴾ بمعنى اليقين والكلام نظير صاح بيقين أي وجد منه الصياح يقيناً لا كالصدى وغيره فكأنه قيل: الصيحة المحققة، وجوز أن يكون الجار متعلقاً بيسمعون على أن المعنى يسمعون بيقين، وأن يكون الباء للقسم و ﴿الحق﴾ هو الله تعالى أي يسمعون الصيحة أقسم بالله وهو كما ترى ﴿ذَلِكَ﴾ أي اليوم ﴿يَوْمُ الْخُرُوجِ﴾ من القبور وهو من أسماء يوم القيامة.

وقيل: الإشارة إلى النداء واتسع في الظرف فجعل خبراً عن المصدر، أو الكلام على حذف مضاف أي ذلك النداء نداء يوم الخروج أو وقت ذلك النداء يوم الخروج ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ﴾ في الدنيا من غير أن يشاركنا في ذلك أحد ﴿وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ﴾ الرجوع للجزاء في الآخرة لا إلى غيرنا لا استقلالاً ولا اشتراكاً.

﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ﴾ بدل بعد بدل، ويحتمل أن يكون ظرفاً للمصير أي إلينا مصيرهم في ذلك اليوم أو لما دل عليه ﴿ذلك حشر﴾ أي يحشرون يوم تشقق. وقرأ نافع وابن عامر «تَشَّقّ» بشد الشين وقرىء «تُشَقِّقُ» بضم التاء مضارع شققت على البناء للمفعول و «تَنْشَقُّ» مضارع انشقت. وقرأ زيد بن علي «تَتَشَقَّقُ» بتاءين، وقوله تعالى: ﴿سِرَاعًا﴾ مصدر وقع حالاً من الضمير في «عنهم» بتأويل مسرعين والعامل «تشقق» وقيل: التقدير يخرجون سراعاً فتكون حالاً من الواو والعامل يخرج، وحكاه أبو حيان عن الحوفي ثم قال: ويجوز أن يكون هذا المقدر عاملاً في ﴿يوم تشقق﴾ أخرج ابن المنذر عن مجاهد أنه قال في الآية: تمطر السماء عليهم حتى تنشق الأرض عنهم، وجاء إن أول من تنشق عنه الأرض رسول الله ﷺ، أخرج الترمذي وحسنه والطبراني والحاكم واللفظ له عن ابن عمر قال: «قال رسول الله ﷺ، أخرج الترمذي وحسنه. والطبراني. والحاكم واللفظ له عن ابن عمر قال: «قال رسول الله ﷺ أنا أول من تنشق عنه الأرض ثم أبو بكر وعمر ثم أهل البقيع فيحشرون معي ثم انتظر أهل مكة وتلا ابن عمر ﴿يوم تشقق الأرض عنهم سراعا﴾» ﴿ذَلِكَ حَشْرٌ﴾ بعث وجمع ﴿عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ أي هين، وتقديم الجار والمجرور لتخصيص اليسر به عز وجل فإنه سبحانه العالم القادر لذاته الذي لا يشغله شأن عن شأن ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ﴾ من نفي البعث وتكذيب الآيات الناطقة وغير ذلك مما لا خير فيه، وهذا تسلية للرسول ﷺ وتهديد لهم ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ﴾ أي ما أنت مسلط عليهم تقسرهم على الإيمان أو تفعل بهم ما تريد وإنما أنت منذر، فالباء زائدة في الخبر و ﴿عليهم﴾ متعلق به.

ويفهم من كلام بعض الأجلة جواز كون ﴿جبار﴾ من جبره على الأمر قهره عليه بمعنى أجبره لا من أجبره إذ لم يجىء فعال بمعنى مفعل من أفعل إلا فيما قل كدراك وسراع، وقال علي بن عيسى: لم يسمع ذلك إلا في دراك.

وقيل: جبار من جبر بمعنى أجبر لغة كنانة وإن «عليهم» متعلق بمحذوف وقع حال أي ما أنت جبار تجبرهم على الإيمان والياً عليهم، وهو محتمل للتضمين وعدمه فلا تغفل، وقيل: أريد التحلم عنهم وترك الغلظة عليهم، وعليه قيل: الآية منسوخة، وقيل: هي منسوخة على غيره أيضاً بآية السيف ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ﴾ فإنه لا ينتفع به غيره، وأخرج ابن جرير عن ابن عباس قال: «قالوا يا رسول الله لو خوفتنا فنزلت فذكر بالقرآن من يخاف وعيد» وما أنسب هذا الاختتام بالافتتاح بقوله سبحانه: ﴿ق والقرآن المجيد﴾ [ق: ١] هذا وللشيخ الأكبر قدس سره في قوله تعالى: ﴿بل هم في لبس من خلق جديد﴾ [ق: ١٥] ولغير واحد من الصوفية في قوله سبحانه: ﴿ونحن أقرب إليه من حبل الوريد﴾ [ق: ١٦] كلام أشرنا إليه فيما سبق، ومنهم من يجعل ﴿ق﴾ إشارة إلى الوجود الحق المحيط بجميع الموجودات والله من ورائهم محيط، وقيل: هو إشارة إلى مقامات القرب، وقيل: غير ذلك، وطبق بعضهم سائر آيات السورة على ما في الأنفس وهو مما يعلم بأدنى التفات ممن له أدنى ممارسة لكلامهم والله تعالى الهادي إلى سواء السبيل.

«تم والحمد لله الجزء السادس والعشرون ويليه إن شاء الله الجزء السابع والعشرون وأوله سورة الذاريات»

(٥١) سورة الذاريات مكية وآياتها ستون

بسم الله الرحمن الرحيم

وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا ﴿١﴾ فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا ﴿٢﴾ فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا ﴿٣﴾ فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا ﴿٤﴾

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ والذاريات ذرواً ، فالحاملات وقراً ، فالجاريات يسراً ، فالمقسمات أمراً ﴾ .

أول هذه السورة مناسب لآخر ماقبلها ، وذلك لأنه تعالى لما بين الحشر بدلائله وقال (ذلك حشر علينا يسير) وقال (وما أنت عليهم بجبار) أى تجبرهم وتلجئهم إلى الإيمان إشارة إلى إصرارهم على الكفر بعد إقامة البرهان وتلاوة القرآن عليهم لم يبق إلا اليمين فقال (والذاريات ذروا . . . إنما توعدون لصادق) وأول هذه السورة وآخرها متناسبان حيث قال فى أولها (إنما توعدون لصادق) وقال فى آخرها (فويل للذين كفروا من يومهم الذى يوعدون) وفى تفسير الآيات مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قد ذكرنا الحكمة فى القسم من المسائل الشريفة والمطالب المظيمة فى سورة والصافات ، ونعيدها ههنا وفيها وجوه (الأول) أن الكفار كانوا فى بعض الأوقات يعترفون بكون النبى ﷺ غالباً فى إقامة الدليل وكانوا ينسبونه إلى المجادلة وإلى أنه عارف فى نفسه بفساد ما يقوله ، وإنه يغلبنا بقوة الجدل لا بصدق المقال ، كما أن بعض الناس إذا أقام عليه الخصم الدليل ولم يبق له حجة ، يقول إنه غلبنى لعلمه بطريق الجدل وعجزى عن ذلك ، وهو فى نفسه يعلم أن الحق بيدى فلا يبقى للمتكلم المبرهن طريق غير اليمين ، فيقول والله إن الأمر كما أقول ، ولا أجادلك بالباطل ، وذلك لأنه لو سلك طريقاً آخر من ذكر دليل آخر ، فإذا تم الدليل الآخر يقول الخصم فيه مثل ماقال فى الأول إن ذلك تقرير بقوة علم الجدل فلا يبقى إلا السكوت أو التمسك بالأيمان وترك إقامة البرهان (الثانى) هو أن العرب كانت تحترز عن الأيمان الكاذبة وتعتقد أنها تدع الديار بلاقع ، ثم إن النبى ﷺ أكثر من الأيمان بكل شريف ولم يزده ذلك إلا رفعة وثباتاً ، وكان يحصل لهم العلم بأنه لايحلف بها كاذباً ، وإلا لأصابه شؤم الإيمان ولناله

المكروه فى بعض الأزمان (الثالث) وهو أن الأيمان التى حلف الله تعالى بها كلها دلائل أخرجها فى صورة الأيمان مثاله قول القائل لمنعمه : وحق نعمك الكثيرة إنى لا أزال أشكرك فيذكر النعم وهى سبب مفيد لدوام الشكر ويسلك مسلك القسم ، كذلك هذه الأشياء كلها دليل على قدرة الله تعالى على الإعادة ، فإن قيل فلم أخرجها مخرج الإيمان ؟ نقول لأن المتكلم إذا شرع فى أول كلامه بحلف يعلم السامع أنه يريد أن يتكلم بكلام عظيم فيصغى إليه أكثر من أن يصغى إليه حيث يعلم أن الكلام ليس بمعتبر فبدأ بالحلف وأدرج الدليل فى صورة اليمين حتى أقبل القوم على سماعه فخرج لهم البرهان المبين ، والتبيان المتين فى صورة اليمين ، وقد استوفينا الكلام فى سورة والصافات .

﴿ المسألة الثانية ﴾ فى جميع السور التى أقسم الله فى ابتدائها بغير الحروف كان القسم لإثبات أحد الأصول الثلاثة وهى : الوحدانية والرسالة والحشر ، وهى التى يتم بها الإيمان ، ثم إنه تعالى لم يقسم لإثبات الوحدانية إلا فى سورة واحدة من تلك السور وهى (والصافات) حيث قال فيها (إن إلهكم لواحد) وذلك لأنهم وإن كانوا يقولون (أجعل الآلهة إلهاً واحداً) على سبيل الإنكار ، وكانوا يبالغون فى الشرك ، لكنهم فى تضاعيف أقوالهم ، وتصاريف أحوالهم كانوا يصرحون بالتوحيد ، وكانوا يقولون (إنما نعبدهم ليقربونا إلى الله زلفى) وقال تعالى (ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله) فلم يبالغوا فى الحقيقة فى إنكار المطلوب الأول ، فاكتفى بالبرهان ، ولم يكثر من الأيمان ، وفى سورتين منها أقسم لإثبات صدق محمد صلى الله عليه وسلم ، وكونه رسولا فى إحداهما بأمر واحد ، وهو قوله تعالى (والنجم إذا هوى ماضل صاحبكم) وفى الثانية بأمرين وهو قوله تعالى (والضحى والليل إذا سجى ، ماودعك ربك وما قلى) وذلك لأن القسم على إثبات رسالته قد كثر بالحروف والقرآن ، كما فى قوله تعالى (يس ، والقرآن الحكيم ، إنك لمن المرسلين) وقد ذكرنا الحكم فيه أن معجزات النبى صلى الله عليه وسلم القرآن ، فأقسم به ليكون فى القسم الإشارة واقعة إلى البرهان ، وفى باقى السور كان المقسم عليه الحشر والجزاء وما يتعلق به لكون إنكارهم فى ذلك خارجاً عن الحد ، وعدم استيفاء ذلك فى صورة القسم بالحروف .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ أقسم الله تعالى بجموع السلامة المؤنثة فى سور خمس ، ولم يقسم بجموع السلامة المذكرة فى سورة أصلا ، فلم يقل : والصالحين من عبادى ، ولا المقربين إلى غير ذلك ، مع أن المذكر أشرف ، وذلك لأن جموع السلامة بالواو والنون فى الأمر الغالب لمن يعقل ، وقد ذكرنا أن القسم بهذه الأشياء ليس لبيان التوحيد إلا فى صورة ظهور الأمر فيه ، وحصول الاعتراف منهم به ، ولا للرسالة لحصول ذلك فى صور القسم بالحروف والقرآن .

بقى أن يكون المقصود إثبات الحشر والجزاء ، لكن إثبات الحشر لثواب الصالح ، وعذاب

الصالح . ففائدة ذلك راجع إلى من يعقل ، فكان الأمر يقتضى أن يكون القسم بغيرهم ، والله أعلم .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ فى السورة التى أقسم لإثبات الوحدانية ، أقسم فى أول الأمر بالساكنات حيث قال (والصافات) وفى السور الأربع الباقية أقسم بالمتحركات ، فقال (والذاريات) وقال (والمرسلات) وقال (والنازعات) ويؤيده قوله تعالى (والسابحات . . . فالسابقات) وقال (والعاديات) وذلك لأن الحشر فيه جمع وتفريق ، وذلك بالحركة أليق ، أو أن نقول فى جميع السور الأربع أقسم بالرياح على مابين وهى التى تجمع وتفرق ، فالقادر على تأليف السحاب المتفرق بالرياح الذارية والمرسلة ، قادر على تأليف الأجزاء المتفرقة بطريق من الطرق التى يختارها بمشيئته تعالى .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ فى الذاريات أقوال (الأول) هى الرياح تذرو التراب وغيره ، كما قال تعالى (تذروه الرياح) (الثانى) هى الكواكب من ذرا يذرو إذا أسرع (الثالث) هى الملائكة (الرابع) رب الذاريات ، والأول أصح .

﴿ المسألة السادسة ﴾ الأمور الأربعة جاز أن تكون أموراً متباينة ، وجاز أن تكون أمراً له أربع اعتبارات (والأول) هى ماروى عن على عليه السلام ، أن الذاريات هى الرياح والحاملات هى السحاب ، والجاريات هى السفن ، والمقسمات هى الملائكة الذين يقسمون الأرزاق ، (والثانى) وهو الأقراب أن هذه صفات أربع للرياح ، فالذاريات هى الرياح التى تنشىء السحاب أولا ، والحاملات هى الرياح التى تحمل السحب التى هى بخار المياه التى إذا سحت جرت السيول العظيمة ، وهى أوقار أثقل من جبال ، والجاريات هى الرياح التى تجرى بالسحب بعد حملها ، والمقسمات هى الرياح التى تفرق الأمطار على الأقطار ، ويحتمل أن يقال هذه أمور أربعة مذكورة فى مقابلة أمور أربعة بها تتم الإعادة ، وذلك لأن الأجزاء التى تفرقت بعضها فى تخوم الأرضين ، وبعضها فى قعور البحور ، وبعضها فى جو الهواء ، وهى الأجزاء اللطيفة البخارية التى تنفصل عن الأبدان ، فقوله تعالى (والذاريات) يعنى الجامع الذاريات من الأرض ، على أن الذارية هى التى تذرو التراب عن وجه الأرض ، وقوله تعالى (فالحاملات وقراً) هى التى تجمع الأجزاء من الجو وتحمله حملا ، فإن التراب لا ترفعه الرياح حملا ، بل تنقله من موضع ، وترميه فى موضع بخلاف السحاب ، فإنه يحمله وينقله فى الجو حملا لا يقع منه شىء ، وقوله (فالجاريات يسراً) إشارة إلى الجامع من الماء ، فإن من يجرى السفن الثقيلة من تيار البحار إلى السواحل يقدر على نقل الأجزاء من البحر إلى البر ، فإذا تبين أن الجمع من الأرض ، وجو الهواء ، ووسط البحار ممكن ، وإذا اجتمع يبقى نفخ الروح لكن الروح من أمر الله ، كما قال تعالى (ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى) فقال (فالمقسمات أمراً) الملائكة التى تنفخ الروح فى الجسد بأمر الله ، وإنما ذكرهم بالمقسمات ، لأن الإنسان فى الأجزاء الجسمية غير مخالف تخالفاً بيناً ، فإن لكل أحد رأساً ورجلا ، والناس متقاربة فى الأعداد والأقدار ، لكن التفاوت الكثير فى

إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ﴿٥﴾

النفوس ، فإن الشريفة والخسيسة بينهما غاية الخلاف ، وتلك القسمة المتفاوتة تتقسم بمقسم مختار ومأمور مختار فقال (فالمقسمات أمراً) .

﴿ المسألة السابعة ﴾ ما هذه المنصوبات من حيث النحو ؟ فنقول أما (ذرواً) فلا شك فى كونه منصوباً على أنه مصدر ، وأما (وقراً) فهو مفعول به ، كما يقال : حمل فلان عدلا ثقيلا ، ويحتمل أن يكون اسما أقيم مقام المصدر ، كما يقال : ضربه سوطاً يؤيده قراءة من قرأ بفتح الواو . وأما (يسراً) فهو أيضاً منصوب على أنه صفة مصدر ، تقديره جرياً ذا يسر ، وأما (المقسمات أمراً) فهو إما مفعول به ، كما يقال : فلان قسم الرزق أو المال وإما حال أتى على صورة المصدر ، كما يقال : قتلته صبراً ، أى مصبوراً ، كذلك ههنا (المقسمات أمراً) أى مأمورة ، فإن قيل : إن كان (وقراً) مفعوله به فلم لم يجمع ، وما قيل : والحاملات أوقاراً ؟ نقول لأن الحاملات على ما ذكرنا صفة الرياح ، وهى تتوارد على وقر واحد ، فإن ريحاً تهب وتسوق السحابة فتسبق السحاب ، فتهب أخرى وتسوقها ، وربما تتحول عنه يمنة ويسرة بسبب اختلاف الرياح ، وكذلك القول فى المقسمات أمراً ، إذا قلنا هو مفعول به ، لأن جماعة يكونون مأمورين تتقسم أمراً واحداً ، أو نقول هو فى تقدير التكرير كأنه قال : فالحاملات وقراً وقراً ، والمقسمات أمراً أمراً .

﴿ المسألة الثامنة ﴾ ما فائدة الفاء ؟ نقول إن قلنا إنها صفات الرياح فلبيان ترتيب الأمور فى الوجود ، فان الذاريات تنشىء السحاب فتقسم الأمطار على الأقطار ، وإن قلنا إنها أمور أربعة فالفاء للترتيب فى القسم لا للترتيب فى المقسم به ، كأنه يقول : أقسم بالرياح الذاريات ثم بالسحب الحاملات ثم بالسفن الجاريات ثم بالملائكة المقسمات ، وقوله (فالحاملات) وقوله (فالجاريات) إشارة إلى بيان مافى الرياح من الفوائد ، أما فى البر فإنشاء السحب ، وأما فى البحر فإجراء السفن ، ثم المقسمات إشارة إلى مايترتب على حمل السحب وجرى السفن من الأرزاق ، والأرباح التى تكون بقسمة الله تعالى فتجرى سفن بعض الناس كما يشتهى ولا تربح وبعضهم تربح وهو غافل عنه ، كما قال تعالى (نحن قسمنا بينهم معيشتهم) .

ثم قال تعالى ﴿ إن ما توعدون لصادق ﴾ (ما) يحتمل أن يكون مصدرية معناه الإيعاد صادق وإن تكون موصولة أى الذى توعدون صادق ، والصادق معناه ذو صدق كعيشة راضية ووصف المصدر بما يوصف به الفاعل بالمصدر فيه إفادة مبالغة ، فكما أن من قال فلان لطف محض وحلم يجب أن يكون قد بالغ كذلك من قال كلام صادق وبرهان قاهر للخصم أو غير ذلك يكون قد بالغ ، والوجه فيه هو أنه إذا قال هو لطف بدل قوله لطيف فكأنه قال اللطيف شىء له لطف ففى اللطيف لطف وشىء آخر ، فأراد أن يبين كثرة اللطف فجعله كله لطفاً ، وفى الثانى لما كان

وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ ﴿٦﴾ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ ﴿٧﴾ إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ﴿٨﴾

الصدق يقوم بالمتكلم بسبب كلامه . فكأنه قال هذا الكلام لا يحوج إلى شيء آخر حتى يصح إطلاق الصادق عليه ، بل هو كاف في إطلاق الصادق لكونه سبباً قوياً وقوله تعالى (توعدون) يحتمل أن يكون من وعد ، ويحتمل أن يكون من أوعد ، والثاني هو الحق لأن اليمين مع المنكر بوعيد لا بوعد .

- وقوله تعالى ﴿ وإن الدين لواقع ﴾ أي الجزاء كائن ، وعلى هذا فالإيعاد بالحشر في الموعد هو الحساب والجزاء هو العقاب ، فكأنه تعالى بين بقوله (إن ما توعدون لصادق ، وإن الدين لواقع) أن الحساب يستوفى والعقاب يوفى .

ثم قال ﴿ والسماء ذات الحبك ﴾ وفي تفسيره مباحث :

﴿ الأول ﴾ (والسماء ذات الحبك) قيل الطرائق ، وعلى هذا فيحتمل أن يكون المراد طرائق الكواكب وممراتها كما يقال في المحابك ، ويحتمل أن يكون المراد ما في السماء من الأشكال بسبب النجوم ، فان في سمت كواكبها طريق التنين والعقرب والنسر الذي يقول به أصحاب الصور ومنطقة الجوزاء وغير ذلك كالطرائق ، وعلى هذا فالمراد به السماء المزينة بزينة الكواكب ، ومثله قوله تعالى (والسماء ذات البروج) وقيل حبكها صفاقها يقال في الثوب الصفيق حسن الحبك وعلى هذا فهو كقوله تعالى (والسماء ذات الرجع) لشدتها وقوتها هذا ما قيل فيه .

﴿ البحث الثاني ﴾ في المقسم عليه وهو قوله تعالى ﴿ إنكم لفي قول مختلف ﴾ وفي تفسيره أقوال مختلفة كلها محكمة (الأول) إنكم لفي قول مختلف ، في حق محمد صلى الله عليه وسلم ، تارة تقولون إنه أمين وأخرى إنه كاذب ، وتارة تنسبونه إلى الجنون ، وتارة تقولون إنه كاهن وشاعر وساحر ، وهذا محتمل لكنه ضعيف إذ لا حاجة إلى اليمين على هذا ، لأنهم كانوا يقولون ذلك من غير إنكار حتى يؤكد بيمين (الثاني) (إنكم لفي قول مختلف) أي غير ثابتين على أمر ومن لا يثبت على قول لا يكون متيقنا في اعتقاده فيكون كأنه قال تعالى ، والسماء إنكم غير جازمين في اعتقادكم وإنما تظهرون الجزم لشدة عنادكم وعلى هذا القول فيه فائدة وهي أنهم لما قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم إنك تعلم أنك غير صادق في قولك ، وإنما تجادل ونحن نعجز عن الجدل قال (والذاريات ذرواً) أي إنك صادق ولست معانداً ، ثم قال تعالى : بل أنتم والله جازمون بأني صادق فعكس الأمر عليهم (الثالث) إنكم لفي قول مختلف ، أي متناقض ، أما في الحشر فلأنكم تقولون لا حشر ولا حياة بعد الموت ثم تقولون إنا وجدنا آباءنا على أمة ، فإذا كانت لا حياة بعد الموت ولا شعور للميت : فماذا يصيب آباءكم إذا خالفتموهم ؟ وإنما يصح هذا عن يقولون بأن بعد الموت عذاباً فلو

يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ﴿٩﴾ قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ ﴿١١﴾ يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ ﴿١٢﴾

علمنا شيئاً يكرهه الميت يبدى فلا معنى لقولكم إنا لا ننسب آباءنا بعد موتهم إلى الضلال ، وكيف وأنتم تربطون الركائب على قبور الأكابر ، وأما فى التوحيد فتقولون خالق السموات والأرض هو الله تعالى لا غيره ثم تقولون هو إله الآلهة وترجعون إلى الشرك ، وأما فى قول النبى صلى الله عليه وسلم فتقولون إنه مجنون ثم تقولون له إنك تغلبنا بقوة جدلك ، والمجنون كيف يقدر على الكلام المنتظم المعجز ، إلى غير ذلك من الأمور المتناقضة .

ثم قال تعالى ﴿ يؤفك عنه من أفك ﴾ وفيه وجوه (أحدها) أنه مدح للمؤمنين ، أى يؤفك عن القول المختلف ويصرف من صرف عن ذلك القول ويرشد إلى القول المستوى (وثانيها) أنه ذم معناه يؤفك عن الرسول (ثالثها) يؤفك عن القول بالحشر (رابعها) يؤفك عن القرآن ، وقرىء يؤفن عنه من أفن ، أى يحرم ، وقرىء يؤفك عنه من أفك ، أى كذب .

ثم قال تعالى ﴿ قتل الخراصون ﴾ وهذا يدل على أن المراد من قوله (لفى قول مختلف) أنهم غير ثابتين على أمر وغير جازمين بل هم يظنون ويخرصون ، ومعناه لعن الخراصون دعاء عليهم بمكروه .

ثم وصفهم فقال ﴿ الذين هم فى غمرة ساهون ﴾ وفيه مسألتان إحداهما لفظية والأخرى معنوية :

﴿ أما اللفظية ﴾ فقوله (ساهون) يحتمل أن يكون خبراً بعد خبر ، والمبتدأ هو قوله (هم) وتقديره هم كائنون فى غمرة ساهون ، كما يقال زيد جاهل جائز لا على قصد وصف الجاهل بالجائز ، بل الإخبار بالوصفين عن زيد ، ويحتمل أن يكون (ساهون) خبراً و (فى غمرة) ظرف له ، كما يقال زيد فى بيته قاعد يكون الخبر هو القاعد لا غير وفى بيته لبيان ظرف القعود كذلك (فى غمرة) لبيان ظرف السهو الذى يصحح وصف المعرفة بالجملة ، ولولاها لما جاز وصف المعرفة بالجملة .

﴿ وأما المعنوية ﴾ فهى أن وصف الخراص بالسهو والانهماك فى الباطل ، يحقق ذلك كون الخراص صفة ذم ، وذلك لأن مالا سبيل إليه إلا الظن إذا خرص الخارص وأطلق عليه الخراص لا يكون ذلك مفيد نقص ، كما يقال فى خراص الفواكه والعساكر وغير ذلك ، وأما الخرص فى محل المعرفة واليقين فهو ذم فقال (قتل الخراصون ، الذين هم) جاهلون ساهون لا الذين تعين طريقهم فى التخمين والحزر وقوله تعالى (ساهون) بعد قوله (فى غمرة) يفيد أنهم وقعوا فى جهل وباطل ونسوا أنفسهم فيه فلم يرجعوا عنه .

ثم قال تعالى ﴿ يسألون أيان يوم الدين ﴾ فإن قيل الزمان يجعل ظرف الأفعال ولا يمكن

يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾ ذُوقُواْ فِتْنَتَكُمْ هَـٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٤﴾

أن يكون الزمان ظرفاً لظرف آخر ، وههنا جعل أيان ظرف اليوم فقال (أيان يوم الدين) ويقال متى يقدم زيد ، فيقال يوم الجمعة ولا يقال متى يوم الجمعة ، فالجواب التقدير متى يكون يوم الجمعة وأيان يكون يوم الدين ، وأيان من المركبات ركب من أى التى يقع بها الاستفهام وآن التى هى الزمان أو من أى وأوان فكأنه قال أى أوان فلما ركب بنى وهذا منهم جواب لقوله (وإن الدين لواقع) فكأنهم قالوا أيان يقع استهزا وترك المسئول فى قوله (يسئلون) حيث لم يقل يسألون من ، يدل على أن غرضهم ليس الجواب وإنما يسألون استهزاء .

وقوله تعالى ﴿ يوم هم على النار يفتنون ﴾ يحتمل وجهين (أحدهما) أن يكون جوابا عن قولهم (أيان) يقع وحينئذ كما أنهم لم يسألوا سؤال مستفهم طالب لحصول العلم كذلك لم يجبهم جواب مجيب معلم مبين حيث قال (يوم هم على النار يفتنون) وجهلهم بالثانى أقوى من جهلهم بالأول ، ولا يجوز أن يكون الجواب بالأخفى ، فإذا قال قائل متى يقدم زيد فلو قال المجيب يوم يقدم رفيقه ولا يعلم يوم قدوم الرفيق ، لا يصح هـذا الجواب إلا إذا كان الكلام فى صورة جواب ، ولا يكون جواباً كما أن القائل إذا قال كم تعد عداتى وتخلفها إلى متى هذا الإخلاف فيغضب ويقول إلى أشأم يوم عليك ، الكلامان فى صورة سؤال وجواب ولا الأول يريد به السؤال ، ولا الثانى يريد به الجواب ، فكذلك ههنا قال (يوم هم على النار يفتنون) مقابلة استهزائهم بالإيعاد لا على وجه الإتيان بالبيان (والثانى) أن يكون ذلك ابتداء كلام تمامه .

فى قوله تعالى ﴿ ذوقوا فتنتكم ﴾ فإن قيل هذا يفضى إلى الإضمار ، نقول الإضمار لابد منه لأن قوله (ذوقوا فتنتكم) غير متصل بما قبله إلا بإضمار ، يقال ويفتنون قيل معناه يحرقون ، والأولى أن يقال معناه يعرضون على النار عرض المجرب الذهب على النار كلمة على تناسب ذلك ، ولو كان المراد يحرقون لكان بالنار أو فى النار أليق لأن الفتنة هى التجربة ، وأما ما يقال من اختبره ومن أنه تجربة الحجارة فمعنى بذلك المعنى مصدر الفتن ، وههنا قال (ذوقوا فتنتكم) والفتنة الامتحان ، فإن قيل فإذا جعلت (يوم هم على النار يفتنون) مقولا لهم (ذوقوا فتنتكم) .

فما قوله ﴿ هـذا الذى كنتم به تستعجلون ﴾ ؟ قلنا يحتمل أن يكون المراد كنتم تستعجلون بصريح القول كما فى قوله تعالى حكاية عنهم (ربنا عجل لنا قطنا) وقوله (فأتنا بما تعدنا) إلى غير ذلك يدله عليه ههنا قوله تعالى (يسألونك أيان يوم الدين) فإنه نوع استعجال ، ويحتمل أن يكون المراد الاستعجال بالفعل وهو الإصرار على العناد وإظهار الفساد فإنه يعجل العقوبة .

إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ

قوله تعالى : ﴿ إن المتقين فى جنات وعيون ﴾ بعد بيان حال المفترين المجرمين بين حال المحق المتق ، وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قد ذكرنا أن المتق له مقامات أدناها أن يتق الشرك ، وأعلاها أن يتق ماسوى الله ، وأدنى درجات المتق الجنة ، فما من مكلف اجتنب الكفر إلا و يدخل الجنة فيرزق نعيمها .

﴿ المسألة الثانية ﴾ الجنة تارة وحدها كما قال تعالى (مثل الجنة التى وعد المتقون) وأخرى جمعها كما فى هذا المقام قال (إن المتقين فى جنات) وتارة ثناها فقال تعالى (ولمن خاف مقام ربه جنتان) فما الحكمة فيه ؟ نقول أما الجنة عند التوحيد فلأنها لاتصال المنازل والأشجار والأنهار كجنة واحدة ، وأما حكمة الجمع فلأنها بالنسبة إلى الدنيا وبالإضافة إلى جنانها جنات لايحصرها عدد ، وأما التثنية فسنذكرها فى سورة الرحمن غير أنا نقول ههنا الله تعالى عند الوعد وحد الجنة ، وكذلك عند الشراء حيث قال (إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة) وعند الإعطاء جمعها إشارة إلى أن الزيادة فى الوعد موجودة والخلاف ما لو وعد بجنات ثم كان يقول إنه فى جنة لأنه دون الموعود (الثالثة) قوله تعالى (وعيون) يقتضى أن يكون المتق فيها ولا لذة فى كون الإنسان فى ماء أوغير ذلك من المائعات ، نقول معناه فى خلال العيون ، وذلك بين الأنهار بدليل أن قوله تعالى (فى جنات) ليس معناه إلا بين جنات وفى خلالها لأن الجنة هى الأشجار ، وإنما يكون بينها كذلك القول فى العيون والتنكير ، مع أنها معرفة للتعظيم يقال فلان رجل أى عظيم فى الرجولية .

قوله تعالى : ﴿ آخذين ما آتاهم ربهم ﴾ فيه مسائل ولطائف ، أما المسائل :

﴿ فالأولى ﴾ منها ما معنى آخذين ؟ نقول فيه وجهان (أحدهما) قابضين ما آتاهم شيئاً فشيئاً ولا يستوفونه بكماله لامتناع استيفاء مالا نهاية له (ثانيها) آخذين قابلين قبول راض كما قال تعالى (ويأخذ الصدقات) أى يقبلها ، وهذا ذكره الزمخشرى (وفيه وجه ثالث) وهو أن قوله (فى جنات) يدل على السكنى فحسب وقوله (آخذين) يدل على التملك ولذا يقال أخذ بلاد كذا وقلعة كذا إذا دخلها متملكا لها ، وكذلك يقال لمن اشترى داراً أو بستاناً أخذه بثمن قليل أى تملكه ، وإن لم يكن هناك قبض حساً ولا قبول برضاً ، وحينئذ فائدته بيان أن دخولهم فيها ليس دخول مستعير أو ضعف يسترد منه ذلك ، بل هو ملكه الذى اشتراه بماله ونفسه من الله تعالى وقوله (آتاهم) يكون لبيان أن أخذهم ذلك لم يكن عنوة وفتوحا ، وإنما كان بإعطاء الله تعالى وعلى هذا الوجه ما راجعة إلى الجنات والعيون .

نَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾

وقوله ﴿ إنهم كانوا قبل ذلك محسنين ﴾ إشار إلى ثمنها أى أخذوها وملكوها بالإحسان ، كما تعالى (للذين أحسنوا الحسنى) بلام الملك وهى الجنة .

﴿ المسألة الثانية ﴾ آخذين حال وهو فى معنى قول القائل يأخذون فكيف قال ما آتاهم ولم يقل مايؤتيهم ليتفق اللفظان ، ويوافق المعنى لأن قوله (آتاهم) ينبيء عن الانقراض وقوله (يؤتيهم) تنبيه على الدوام وإيتاء الله فى الجنة كل يوم متجدد ولا نهاية له ، ولا سيما إذا فسرنا الأخذ بالقبول ، كيف يصح أن يقال فلان يقبل اليوم ما آتاه زيد أمس ؟ نقول أما على ماذكرنا من التفسير لايرد لأن معناه يتملكون ماأعطاهم ، وقد يوجد الإعطاء امس ويتملك اليوم ، وأما على ماذكروه فنقول الله تعالى أعطى المؤمن الجنة وهو فى الدنيا غير أنه لم يكن جنى ثمارها فهو يدخلها على هيئة الآخذ وربما يأخذ خيراً مما آتاه ، ولا ينافى ذلك كونه داخلا على تلك الهيئة ، يقول القائل جئتك خائفاً فإذا أنا آمن وما ذكرتم إنما يلزم أن لو كان أخذهم مقتصراً على ما آتاهم من قبل ، وليس كذلك وإنما هم دخلوها على ذلك ولم يخطر ببالهم غيره فيؤتيهم الله ما لم يخطر ببالهم فيأخذون ما يؤتيهم الله وإن دخلوها ليأخذوا ما آتاهم ، وقوله تعالى (إن أصحاب الجنة اليوم فى شغل) هو أخذهم ما آتاهم وقد ذكرناه فى سورة يس .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ ذلك إشارة إلى ماذا ؟ نقول يحتمل وجهين (أحدهما) قبل دخولهم لأن قوله تعالى (فى جنات) فيه معنى الدخول يعنى قبل دخولهم الجنة أحسنوا (ثانيهما) قبل إيتاء الله ما آتاهم الحسنى وهى الجنة فأخذوها ، وفيه وجوه أخر ، وهو أن ذلك إشارة إلى يوم الدين وقد تقدم (وأما اللطائف) فقد سبق بعضها ، ومنها أن قوله تعالى (إن المتقين) لما كان إشارة إلى التقوى من الشرك كان كأنه قال الذين آمنوا لكن الإيمان مع العمل الصالح يفيد سعادتين ، ولذلك دلالة أتم من قول القائل أنهم أحسنوا (اللطيفة الثانية) أما التقوى فلأنه لما قال لا إله فقد اتقى الشرك ، وأما الإحسان فلأنه لما قال إلا الله فقد أتى بالإحسان ، ولهذا قيل فى معنى كلمة التقوى إنها لا إله إلا الله وفى الإحسان قال تعالى (ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله) وقيل فى تفسير (هل جزاء الإحسان إلا الإحسان) إن الإحسان هو الإتيان بكلمة لا إله إلا الله وهما حينئذ لا يتفاصلان بل هما متلازمان .

قوله تعالى : ﴿ كانوا قليلا من الليل ما يهجعون ﴾ كالتفسير لكونهم محسنين ، تقول حاتم كان سخياً كان يبذل موجوده ولا يترك مجهوده ، وفيه مباحث :

﴿ الأول ﴾ قليلا منصوب على الظرف تقديره يهجعون قليلا ، تقول قام بعض الليل فتنصب بعض على الظرف وخبر كان هو قوله يهجعون وما زائدة هذا هو المشهور وفيه وجه آخر وهو

أن يقال كانوا قليلا ، معناه نفى النوم عنهم وهذا منقول عن الضحاك ومقاتل ، وأنكر الزمخشرى كون ما نافية ، وقال لا يجوز أن تكون نافية لأن ما بعد ما لا يعمل فيما قبلها لا تقول زيداً ما ضربت ويجوز أن يعمل ما بعد لم فيما تقول زيداً لم أضرب ، وسبب ذلك هو أن الفعل المتعدى إنما يفعل فى النفى حملا له على الإثبات لأنك إذا قلت ضرب زيد عمراً ثبت تعلق فعله بعمرو فاذا قلت ما ضربه لم يوجد منه فعل حتى يتعلق به ويتعدى إليه لكن المنفى محمول على الإثبات ، فإذا ثبت هذا فالنفى بالنسبة إلى الإثبات كاسم الفاعل بالنسبة إلى الفعل فانه يعمل عمل الفعل ، لكن اسم الفاعل إذا كان بمعنى الماضى لا يعمل ، فلا تقول زيد ضارب عمراً أمس ، وتقول زيد ضارب عمراً غداً واليوم والآن ، لأن الماضى لم يبق موجوداً ولا متوقع الوجود فلا يتعلق بالمفعول حقيقة لكن الفعل لقوته يعمل واسم الفاعل لضعفه لم يعمل ، إذا عرفت هذا فنقول ما ضرب للنفى فى الماضى فاجتمع فيه النفى والمضى فضعف ، وأما لم أضرب وإن كان يقلب المستقبل إلى الماضى لكن الصيغة صيغة المستقبل فوجد فيه ما يوجد فى قول القائل زيد ضارب عمراً غداً فاعمل هذا بيان قوله غير أن القائل بذلك القول يقول قليلا ليس منصوباً بقوله (يهجعون) وإنما ذلك خبر كانوا أى كانوا قليلين ، ثم قال (من الليل ما يهجعون) أى ما يهجعون أصلا بل يحيون الليل جميعه ومن يكون لبيان الجنس لا للتبعيض ، وهذا الوجه حينئذ فيه معنى قوله تعالى (إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم) وذلك لأنا ذكرنا أن قوله (إن المتقين) فيه معنى الذين آمنوا ، وقوله (محسنين) فيه معنى الذين عملوا الصالحات ، وقوله (كانوا قليلا) فيه معنى قوله تعالى (وقليل ما هم) .

﴿ البحث الثانى ﴾ على القول المشهور وهو أن ما زائدة يحتمل أن يكون قليلا صفة مصدر تقديره يهجعون هجوعاً قليلا .

﴿ البحث الثالث ﴾ يمكن أن يقال قليلا منصوب على أنه خبر كان وما مصدرية تقديره كان هجوعهم من الليل قليلا فيكون فاعل كانوا هو الهجوع ، ويكون ذلك من باب بدل الاشتمال لأن هجوعهم متصل بهم فكأنه قال كان هجوعهم قليلا كما يقال كان زيد خلقه حسناً ، فلا يحتاج إلى القول بزيادة ، واعلم أن النحاة لا يقولون فيه إنه بدل فيفرقون بين قول القائل زيد حسن وجهه أو الوجه وبين قوله زيد وجهه حسن فيقولون فى الأول صفة وفى الثانى بدل ونحن حيث قلنا إنه من باب بدل الاشتمال أردنا به معنى لا اصطلاحاً ، وإلا فقليلا عند التقديم ليس فى النحو مثله عند التأخير حتى قولك فلان قليل هجوعه ليس ببدل ، وفلان هجوعه قليل بدل ، وعلى هذا يمكن أن تكون ما موصولة معناه كان ما يهجعون فيه قليلا من الليل ، هذا ما يتعلق باللفظ ، أما ما يتعلق بالمعنى فنقول تقديم قليلا فى الذكر ليس لمجرد السجع حتى يقع يهجعون ويستغفرون فى أواخر الآيات ، بل فيه فائدتان (الأولى) هى أن الهجوع راحة لهم ، وكان المقصود بيان اجتهادهم وتحملهم السهر لله

وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾

تعالى فلو قال كانوا يهجعون كان المذكور أولا راحتهم ثم يصفه بالقلة . وربما يغفل الإنسان السامع عما بعد الكلام فيقول إحسانهم وكونهم محسنين بسبب أنهم يهجعون وإذا قدم قوله قليلا يكون السابق إلى الفهم قلة الهجوع ، وهذه الفائدة من يراعيها يقول فلان قليل الهجوع ولا يقول هجوعه قليل ، لأن الغرض بيان قلة الهجوع لا بيان الهجوع بوصف القلة أو الكثرة ، فإن الهجوع لولم يكن لكان نفي القلة أولى ولا كذلك قلة الهجوع لأنها لو لم تكن لكان بدلها الكثرة فى الظاهر .

(الفائدة الثانية) فى قوله تعالى (من الليل) وذلك لأن النوم القليل بالنهار قد يوجد من كل أحد ، وأما الليل فهو زمان النوم لا يسهره فى الطاعة إلا متعبد مقبل ، فإن قيل الهجوع لا يكون إلا بالليل والنوم نهاراً لا يقال له الهجوع قلنا ذكر الأمر العام وإرادة التخصيص حسن فنقول : رأيت حيواناً ناطقاً فصيحاً ، وذكر الخاص وإرادة العام لا يحسن إلا فى بعض المواضع فلا نقول رأيت فصيحاً ناطقاً حيواناً ، إذا عرفت هذا فنقول فى قوله تعالى (كانوا قليلا من الليل) ذكر أمراً هو كالعام يحتمل أن يكون بعده : كانوا من الليل يسبحون ويستغفرون أو يسهرون أو غير ذلك ، فاذا قال يهجعون فكأنه خصص ذلك الأمر العام المحتمل له ولغيره فلا إشكال فيه .

ثم قال تعالى ﴿ وبالأسحار هم يستغفرون ﴾ إشارة إلى أنهم كانوا يتهجدون ويجتهدون يريدون أن يكون عملهم أكثر من ذلك وأخلص منه ويستغفرون من التقصير وهذا سيرة الكريم يأتى بأبلغ وجوه الكرم ويستقله ويعتذر من التقصير ، واللئيم يأتى بالقليل ويستكثره ويمن به .

وفيه وجه آخر ألطف منه ، وهو أنه تعالى لما بين أنهم يهجعون قليلا ، والهجوع مقتضى الطبع ، قال (يستغفرون) أى من ذلك القدر من النوم القليل ، وفيه لطيفة أخرى تنبيها فى جواب سؤال ، وهو أنه تعالى مدحهم بقلة الهجوع ، ولم يمدحهم بكثرة السهر ، وما قال : كانوا كثيرا من الليل ما يسهرون ، فما الحكمة فيه ، مع أن السهر هو الكلفة والاجتهاد لا الهجوع ؟ نقول إشارة إلى إن نومهم عبادة ، حيث مدحهم الله تعالى بكونهم هاجعين قليلا ، وذلك الهجوع أورثهم لاشتغال بعبادة أخرى ، وهو الاستغفار فى وجوه الأسحار ، ومنعهم من الإعجاب بأنفسهم والاستكبار . وفيه مباحث :

﴿ البحث الأول ﴾ فى الباء فإنها استعملت للظرف ههنا ، وهى ليست للظرف ، نقول قال بعض النحاة : إن حروف الجر ينوب بعضها مناب بعض ، يقال فى الظرف خرجت لعشر بقين وبالليل وفى شهر رمضان ، فيستعمل اللام والباء وفى ، وكذلك فى المكان ، تقول : أقمت بالمدينة كذا وفيها ، ورأيته ببلدة كذا وفيها ، فإن قيل ما التحقيق فيه ؟ نقول الحروف لها معانى مختلفة ، كما أن الأسماء والأفعال كذلك ، غير أن الحروف غير مستقلة بإفادة المعنى ، والاسم والفعل

مستقلان ، لكن بين بعض الحروف وبعضها تناف وتباعد ، كما فى الأسماء والأفعال ، فإن البيت والمسكن مختلفان متفاوتان ، وكذلك سكن ومكث ، ولا كذلك كل اسمين يفرض أو كل فعلين يوجد ، إذا عرفت هذا فنقول : بين الباء واللام وفى مشاركة ، أما الباء فإنها للالصاق ، والمتمكن فى مكان ملتصق به متصل ، وكذلك الفعل بالنسبة إلى الزمان ، فإذا قال : سار بالنهار معناه ذهب ذهاباً متصلا بالنهار ، وكذا قوله تعالى (وبالأسحار هم يستغفرون) أى استغفاراً متصلا بالأسحار مقترناً بها ، لأن الكائن فيها مقترناً بها ، فإن قيل : فهل يكون بينهما فى المعنى تفاوت ؟ نقول نعم ، وذلك لأن من قال : قمت بالليل واستغفرت بالأسحار أخبر عن الأمرين ، وذلك أدل على وجود الفعل مع أول جزء من أجزاء الوقت من قوله قمت فى الليل ، لأنه يستدعى احتواش الزمان بالفعل وكذلك قول القائل : أقمت ببلد كذا ، لا يفيد أنه كان محاطاً بالبلد ، وقوله أقمت فيها يدل على إحاطتها به ، فإذن قول القائل : أقمت بالبلدة ودعوت بالأسحار ، أعم من قوله : قمت فيه ، لأن القائم فيه قائم به ، والقائم به ليس قائماً فيه من كل بد ، إذا علمت هذا فقوله تعالى (وبالأسحار هم يستغفرون) إشارة إلى أنهم لا يخلون وقتاً عن العبادة ، فإنهم بالليل لا يهجعون ، ومع أول جزء من السحر يستغفرون ، فيكون فيه بيان كونهم مستغفرين من غير أن يسبق منهم ذنب ، لأنهم وقت الانتباه فى الأسحار لم يخلو الوقت للذنب ، فإن قيل : زدنا بياناً فإن من الأزمان أزماناً لاتجعل ظروفاً بالباء ، فلا يقال خرجت بيوم الجمعة ، ويقال بلى ، نقول : إن كل فعل جار فى زمان فهو متصل به ، فالخروج يوم الجمعة متصل مقترن بذلك الزمان ، ولم يستعمل خرجت بيوم الجمعة ، نقول الفارق بينهما الإطلاق والتقييد ، بدليل أنك إن قلت : خرجت بنهارنا وبليلة الجمعة لم يحسن ، ولو قلت : خرجت بيوم سعد ، وخرج هو بيوم نحس حسن ، فالنهار والليل لما لم يكن فيهما خصوص وتقييد جاز استعمال الباء فيهما ، فإذا قيدتهما وخصصتهما زال ذلك الجواز ، ويوم الجمعة لما كان فيه خصوص لم يجز استعمال الباء ، وحيث زال الخصوص بالتنكير ، وقلت خرجت بيوم كذا عاد الجواز ، والسر فيه أن مثل يوم الجمعة ، وهذه الساعة ، وتلك الليلة وجد فيها أمر غير الزمان وهو خصوصيات ، وخصوصية الشيء فى الحقيقة أمور كثيرة غير محصورة عند العاقل على وجه التفصيل لكنها محصورة على الإجمال ، مثاله إذا قلت هذا الرجل فالعام فيه هو الرجل ، ثم إنك لو قلت الرجل الطويل ، ماكان يصير مخصصاً ، لكنه يقرب من الخصوص ، ويخرج من القصار ، فإن قلت العالم لم يصر مخصصاً لكنه يخرج عن الجهال ، فإذا قلت الزاهد فكذلك ، فاذا قلت ابن عمرو خرج عن أبناء زيد وبكر وخالد وغيرهم ، فإذا قلت هذا يتناول تلك المخصصات التى بأجمعها لاتجتمع إلا فى ذلك ، فإذن الزمان المتعين فيه أمور غير الزمان ، والفعل حدث مقترن بزمان لا ناشىء عن الزمان ، وأما فى فصحيح ، لأن ما حصل فى العام فهو فى الخاص ، لأن العام أمر داخل فى الخاص ، وأما فى فيدخل فى الذى فيه الشيء ، فصح أن يقال : فى يوم الجمعة ، وفى

وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾

هذه الساعة ، وأما بحث اللام فنؤخره إلى موضعه ، وقد تقدم بعضه فى تفسير قوله تعالى (والشمس تجرى لمستقر لها) وقوله (هم) غير خال عن فائدة ، قال الزمخشرى : فائدته انحصار المستغفرين ، أى لكمالهم فى الاستغفار ، كأن غيرهم ليس بمستغفر ، فهم المستغفرون لا غير ، يقال فلان هو العالم الكامل فى العلم كأنه تفرد به وهو جيد ، ولكن فيه فائدة أخرى ، وهى أن الله تعالى لما عطف (وبالأسحار هم يستغفرون) على قوله (كانوا قليلا من الليل ما يهجعون) فلو لم يؤكد معنى الإثبات بكلمة (هم) لصلح أن يكون معناه : وبالأسحار قليلا ما يستغفرون ، تقول فلان قليلا ما يؤدى وإلى الناس يحسن . قد يفهم أنه قليل الإيذاء قليل الإحسان ، فإذا قلت قليلا ما يؤذى وهو يحسن زال ذلك الفهم وظهر فيه معنى قوله : قليل الإيذاء كثير الإحسان ، والاستغفار يحتمل وجوهاً (أحدها) طلب المغفرة بالذكر بقولهم (ربنا اغفر لنا) ، (الثانى) طلب المغفرة بالفعل ، أى بالأسحار يأتون بفعل آخر طلباً للغفران ، وهو الصلاة أو غيرها من العبادات (الثالث) وهو أغربها الاستغفار من باب استحصد الزرع إذا جاء أوان حصاده ، فكأنهم بالأسحار يستحقون المغفرة ويأتيهم أوان المغفرة ، فإن قيل : فالله لم يؤخر مغفرتهم إلى السحر ؟ نقول وقت السحر تجتمع ملائكة الليل والنهار ، وهو الوقت المشهود ، فيقول الله على ملأ منهم : إنى غفرت لعبدى ، والأول أظهر ، والثانى عند المفسرين أشهر .

قوله تعالى : ﴿ وفى أموالهم حق للسائل والمحروم ﴾ .

وقد ذكرنا مراراً أن الله تعالى بعد ذكر تعظيم نفسه بذكر الشفقة على خلقه ، ولا شك أن الليل المحروم المستغفر فى وجوه الأسحار وجد منه التعظيم العظيم ، فأشار إلى الشفقة بقوله (وفى أموالهم حق) وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ أضاف المال إليهم ، وقال فى مواضع (أنفقوا مما رزقكم الله) وقال (ومما رزقناهم ينفقون) نقول سببه أن فى تلك المواضع كان الذكر للحث ، فذكر معه ما يدفع الحث ويرفع المانع ، فقال هو رزق الله والله يرزقكم فلا تخافوا الفقر واعطوا ، وأما ههنا فمدح على ما فعلوه فلم يكن إلى الحرص حاجة .

﴿ المسألة الثانية ﴾ المشهور فى الحق أنه هو القدر الذى علم شرعا وهو الزكاة وحينئذ لا يبقى هذا صفة مدح ، لأن كون المسلم فى ماله حق وهو الزكاة ليس صفة مدح لأن كل مسلم كذلك ، بل الكافر إذا قلنا إنه مخاطب بفروع الإسلام فى ماله حق معلوم غير أنه إذا أسلم سقط عنه وإن مات عوقب على تركه ، وإن أدى من غير الإسلام لايقع الموقع ، فكيف يفهم كونه مدحاً ؟ نقول الجواب عنه من وجوه : (أحدها) أنا نفسر السائل بمن يطلب شرعاً ، والمحروم الذى لا مكنة له

من الطالب ومنعه الشارع من المطالبة ، ثم إن المنع قد يكون لكون الطالب غير مستحق ، وقد يكون لكون المطلوب منه لم يبق عليه حق فلا يطالب فقال تعالى فى ماله حق للطالب وهو الزكاة ولغير الطالب وهو الصدقة المتطوع بها فإن ذلك المالك لا يطالب بها ويحرم الطالب منه طلباً على سبيل الجزية والزكاة ، بل يسأل سؤالا اختيارياً فيكون حينئذ كأنه قال فى ماله زكاة وصدقة والصدقة فى المال لا تكون إلا بفرضه هو ذلك وتقديره وإفرازه للفقراء والمساكين ، الجواب الثانى هو أن قوله (وفى أموالهم حق للسائل) أى مالهم ظرف لحقوقهم فان كلمة فى للظرفية لكن الظرف لا يطلب إلا للمظروف فكأنه تعالى قال هم لا يطلبون المال ولا يجمعونه إلا ويجعلونه ظرفاً للحق ، ولا شك أن المطلوب من الظرف هو المظروف والظرف مالهم فجعل مالهم ظرفاً للحقوق ولا يكون فوق هذا مدح فإن قيل فلو قيل مالهم للسائل هل كان أبلغ ؟ قلنا لا وذلك لأن من يكون له أربعون ديناراً فتصدق بها لا تكون صدقته دائمة لكن إذا اجتهد واتجر وعاش سنين وأدى الزكاة والصدقة يكون مقدار المؤدى أكثر وهذا كما فى الصلاة والصوم لو أضعف واحد نفسه بهما حتى عجز عنهما لا يكون مثل من اقتصد فيهما ، وإليه الإشارة بقوله ﷺ « إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق فإن المنبت لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى » وفى السائل والمحروم وجوه : (أحدها) أن السائل هو الناطق وهو الآدمى والمحروم كل ذى روح غيره من الحيوانات المحرومة قال النبى ﷺ « لكل كبد حرى أجر » (وثانيها) وهو الأظهر والأشهر ، أن السائل هو الذى يسأل ، والمحروم المتعفف الذى يحسبه بعض الناس غنياً فلا يعطيه شيئاً (والأول) كقوله تعالى (كلوا وارعوا أنعامكم) (والثانى) كقوله (وأطعموا القانع والمعتر) فالقانع كالمحروم فإن قيل على الوجه الأول الترتيب فى غاية الحسن ، فإن دفع حاجة الناطق مقدم على دفع حاجة البهائم ، فما وجه الترتيب فى الوجه الثانى ؟ نقول فيه وجهان : (أحدهما) أن السائل اندفاع حاجته قبل اندفاع حاجة المحروم فى الوجود لأنه يعرف حاله بمقاله ويطلب لقلة ماله فيقدم بدفع حاجته ، والمحروم غير معلوم فلا تندفع حاجته إلا بعد الاطلاع عليه . فكان الذكر على الترتيب الواقع (وثانيهما) هو أن ذلك إشارة إلى كثرة العطاء فيقول يعطى السائل فإذا لم يجدهم يسأل هو عن المحتاجين فيكون سائلا ومسؤولا (الثالث) هو أن المحاسن اللفظية غير مهجورة فى الكلام الحكمى ، فإن قول القائل إن رجوعهم إلينا وعلينا حسابهم ليس كقوله تعالى (إن إلينا إيابهم ، ثم إن علينا حسابهم) والكلام له جسم وهو اللفظ وله روح وهو المعنى ، وكما أن الإنسان الذى نور روحه بالمعرفة ينبغى أن ينور جسمه الظاهر بالنظافة ، كذلك الكلام ورب كلمة حكمية لا تؤثر فى النفوس لركاكة لفظها ، إذا عرفت هذا فقوله (وبالأسحار هم يستغفرون وفى أموالهم حق للسائل والمحروم) أحسن من حيث اللفظ من قولنا وبالأسحار هم يستغفرون ، وفى أموالهم حق للمحروم والسائل ، فإن قيل قدم السائل على المحروم ههنا لما ذكرت من الوجوه ، ولم قدم المحروم على السائل فى قوله (القانع والمعتر) لأن (القانع)

وَفِي ٱلۡأَرۡضِ ءَايَٰتٞ لِّلۡمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾

هو الذى لا يسأل (والمعتر) السائل ؟ نقول قد قيل إن (القانع) هو (السائل) (والمعتر) الذى لايسأل ، فلا فرق بين الموضعين ، وقيل بأن (القانع والمعتر) كلاهما لايسأل لكن (القانع) لا يتعرض ولا يخرج من بيته (والمعتر) يتعرض للأخذ بالسلام والتردد ولا يسأل ، وقيل بأن (القانع) لايسأل (والمعتر) يسأل ، فعلى هذا فلحم البدنة يفرق من غير مطالبة ساع أو مستحق مطالبة جزية ، والزكاة لهـا طالب وسائل هو الساعى والإمام ، فقوله (للسائل) إشارة إلى الزكاة وقوله (والمحروم) أى الممنوع إشارة إلى الصدقة المتطوع بها واحـداهما قبل الأخرى بخلاف إعطاء اللحم .

قوله تعالى : ﴿وفى الأرض آيات للموقنين﴾ وهو يحتمل وجهين : (أحدهما) أن يكون متعلقاً بقوله (إنما توعدون لصادق ، وإن الدين لواقع ، وفى الأرض آيات للموقنين) تدلهم على أن الحشر كائن كما قال تعالى (ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة) إلى أن قال (إن الذى أحياها لمحيي الموتى) (وثانيهما) أن يكون متعلقاً بأفعال المتقين ، فإنهم خافوا الله فعظموه فأظهروا الشفقة على عباده ، وكان لهم آيات فى الأرض ، وفى أنفسهم على إصابتهم الحق فى ذلك ، فإن من يكون له فى الأرض الآيات العجيبة يكون له القدرة التامة فيخشى ويتقى ، ومن له فى أنفس الناس حكم بالغة ونعم سابغة يستحق أن يعبد ويترك الهجوع لعبادته ، وإذا قابل العبد العبادة بالنعمة يجدها دون حد الشكر فيستغفر على التقصير ، وإذا علم أن الرزق من السماء لا يبخل بماله ، فالآيات الثلاثة المتأخرة فيها تقرير ما تقدم ، وعلى هذا فقوله تعالى (فورب السماء والأرض) يكون عود الكلام بعد اعتراض الكلام الأول أقوى وأظهر ، وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ كيف خصص الموقنين بكون الآيات لهم مع أن الآيات حاصلة للكل قال تعالى (وآية لهم الأرض الميتة أحييناها) ؟ نقول قد ذكرنا أن اليمين آخر ما يأتى به المبرهن وذلك لأنه أولا يأتى بالبرهان ، فإن صدق فذلك وإن لم يصدق لابد له من أن ينسبه الخصم إلى إصرار على الباطل لأنه إذا لم يقدر على قدح فيه ولم يصدقه يعترف له بقوة الجدل وينسبه إلى المكابرة فيتعين طريقه فى اليمين ، فإذا آيات الأرض لم تفدهم لأن اليمين بقوله (والذاريات ذرواً) دلت على سبق إقامة البينات وذكر الآيات ولم يفد فقال فيها (وفى الأرض آيات للموقنين) وإن لم يحصل للبصر المعاند منها فائدة ، وأما فى سورة يس وغيرها من المواضع التى جعل فيها آيات الأرض للعامة لم يحصل فيها اليمين وذكر الآيات قبله فجاز أن يقال إن الأرض آيات لمن ينظر فيها (الجواب الثانى) وهو الأصح أن هنا الآيات بالفعل والاعتبار للمؤمنين أى حصل ذلك لهم وحيث قال لكل معناه إن فيها آيات لهم إن نظروا وتأملوا .

وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴿٢١﴾ وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثۡلَ مَآ أَنَّكُمۡ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾

﴿ المسألة الثانية ﴾ ههنا قال (وفى الأرض آيات) وقال هناك (وآية لهم الأرض) نقول لما جعل الآية (للموقنين) ذكر بلفظ الجمع لأن الموقن لا يغفل عن الله تعالى فى حال ويرى فى كل شيء آيات دالة ، وأما الغافل فلا ينتبه إلا بأمور كثيرة فيكون الكل له كالآية الواحدة .

قوله تعالى : ﴿ وفى أنفسكم أفلا تبصرون ﴾ إشارة إلى دليل الأنفس ، وهو كقوله تعالى (سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم) وإنما اختار من دلائل الآفاق مافى الأرض لظهورها لمن على ظهورها فإن فى أطرافها وأكنافها مالا يمكن عد أصنافها فدليل الأنفس فى قوله (وفى أنفسكم) عام ويحتمل أن يكون مع المؤمنين ، وإنما أتى بصيغة الخطاب لأنها أظهر لكون علم الإنسان بما فى نفسه أتم وقوله تعالى (وفى أنفسكم) يحتمل أن يكون المراد وفيكم ، يقال الحجارة فى نفسها صلبة ولا يراد بها النفس التى هى منبع الحياة والحس والحركات ، ويحتمل أن يكون المراد وفى نفوسكم التى بها حياتكم آيات وقوله (أفلا تبصرون) بالاستفهام إشارة إلى ظهورها .

قوله تعالى : ﴿ وفى السماء رزقكم ﴾ فيه وجوه : (أحدها) فى السحاب المطر (ثانيها) (فى السماء رزقكم) مكتوب (ثالثها) تقدير الأرزاق كلها من السماء ولولاه لما حصل فى الأرض حبة قوت ، وفى الآيات الثلاث ترتيب حسن وذلك لأن الإنسان له أمور يحتاج إليها لابد من سبقها حتى يوجد هو فى نفسه وأمور تقارنه فى الوجود وأمور تلحقه وتوجد بعده ليبقى بها ، فالأرض هى المكان وإليه يحتاج الإنسان ولا بد من سبقها فقال (وفى الأرض آيات) ثم فى نفس الإنسان أمور من الأجسام والأعراض فقال (وفى أنفسكم) ثم بقاؤه بالرزق فقال (وفى السماء رزقكم) ولولا السماء لما كان للناس البقاء .

قوله تعالى : ﴿ وما توعدون ﴾ فيه وجوه : (أحدها) الجنة الموعود بها لأنها فى السماء (ثانيها) هو من الإيعاد لأن البناء للمفعول من أوعد يوعد أى (وما توعدون) إما من الجنة والنار فى قوله تعالى (يوم هم على النار) وقوله (إن المتقين فى جنات) فيكون إيعاداً عاماً ، وأما من العذاب وحينئذ يكون الخطاب مع الكفار فيكون كأنه تعالى قال (وفى الأرض آيات للموقنين) كافية ، وأما أنتم أيها الكافرون ففى أنفسكم آيات هى أظهر الآيات وتكفرون بها لحطام الدنيا وحب الرياسة ، وفى السماء الأرزاق ، فلو نظرتم وتأملتم حق التأمل ، لما تركتم الحق لأجل الرزق ، فإنه واصل بكل طريق ولاجتنبتم الباطل اتقاء لما توعدون من العذاب النازل .

قوله تعالى : ﴿ فورب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون ﴾ وفى المقسم عليه وجوه

(أحدها) (ما توعدون) أى ماتوعدون لحق يؤيده قوله تعالى (إنما توعدون لصادق) وعلى هذا يعود كل ماقلناه فى وجوه (ما توعدون) إن قلنا إن ذلك هو الجنة فالمقسم عليه هو هى (ثانيها) الضمير راجع إلى القرآن أى أن القرآن حق وفيما ذكرناه فى قوله تعالى (يؤفك عنه) دليل هذه وعلى هذا فقوله (مثل ما أنكم تنطقون) معناه تكلم به الملك النازل من عند الله به مثل ما أنكم تتكلمون وسنذكره (ثالثها) أنه راجع إلى الدين كما فى قوله تعالى (وإن الدين لواقع) (رابعها) أنه راجع إلى اليوم المذكور فى قوله (أيان يوم الدين) يدل عليه وصف الله اليوم بالحق فى قوله تعالى (ذلك اليوم الحق) (خامسها) أنه راجع إلى القول الذى يقال (هذا الذى كنتم به تستعجلون) وفى التفسير مباحث :

﴿الأول﴾ الفاء تستدعى تعقيب أمر لأمر فما الأمر المتقدم ؟ نقول فيه وجهان (أحدهما) الدليل المتقدم كأنه تعالى يقول (إن ما توعدون) لحق بالبرهان المبين ، ثم بالقسم واليمين (ثانيهما) القسم المتقدم كأنه تعالى يقول (والذاريات) ثم (ورب السماء والأرض) وعلى هذا يكون الفاء حرف عطف أعيد معه حرف القسم كما يعاد الفعل إذ يصح أن يقال ومررت بعمرو ، فقوله (والذريات ذرواً ، فالحاملات وقراً) عطف من غير إعادة حرف القسم ، وقوله (فورب السماء) مع إعادة حرفه ، والسبب فيه وقوع الفصل بين القسمين ، ويحتمل أن يقال الأمر المتقدم هو بيان الثواب فى قوله (يوم هم على النار يفتنون) وقوله (إن المتقين فى جنات) وفيه فائدة ، وهو أن الفاء تكون تنبيها على أن لاحاجة إلى اليمين مع ماتقدم من الكشف المبين ، فكأنه يقول ورب السماء والأرض إنه لحق ، كما يقول القائل بعد مايظهر دعواه هذا والله إن الأمر كما ذكرت فيؤكد قوله باليمين ، ويشير إلى ثبوته من غير يمين .

﴿البحث الثانى﴾ أقسم من قبل بالأمور الأرضية وهى الرياح وبالسماء فى قوله (والسماء ذات الحبك) ولم يقسم بربها ، وههنا أقسم بربها نقول كذلك الترتيب يقسم المتكلم أولا بالأدنى فإن لم يصدق به يرتقى إلى الأعلى ، ولهذا قال بعض الناس إذا قال قائل وحياتك ، والله لايكفر وإذا قال : والله وحياتك لاشك يكفر وهذا استشهاد ، وإن كان الأمر على خلاف ما قاله ذلك القائل لأن الكفر إما بالقلب ، أو باللفظ الظاهر فى أمر القلب ، أو بالفعل الظاهر ، وماذكره ليس بظاهر فى تعظيم جانب غير الله ، والعجب من ذلك القائل أنه لايجعل التأخير فى الذكر مفيداً للترتيب فى الوضوء وغيره .

﴿البحث الثالث﴾ قرىء مثل بالرفع وحينئذ يكون وصفاً لقوله لحق ومثل وإن أضيف إلى المعرفة لا يخرجه عن جواز وصف المنكر به ، تقول رأيت رجلا مثل عمرو ، لأنه لايفيده تعريفاً لأنه فى غاية الإبهام وقرىء (مثل) بالنصب ، ويحتمل وجهين : (أحدهما) أن يكون مفتوحاً لإضافته إلى ماهو ضعيف وإلا جاز أن يقال زيد قاتل من يعرفه أوضارب من يشتمه (ثانيهما) أن يكون

هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾

منصوباً على البيان تقديره لحق حقاً مثل ، ويحتمل أن يقال إنه منصوب على أنه صفة مصدر معلوم غير مذكور ، ووجهه أنا دللنا أن المراد من الضمير فى قوله (إنه) هو القرآن فكأنه قال إن القرآن لحق نطق به الملك نطقاً (مثل ما أنكم تنطقون) وما مجرور لاشك فيه .

قوله تعالى : ﴿ هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين ﴾ إشارة إلى تسلية قلب النبي ﷺ ببيان أن غيره من الأنبياء عليهم السلام كان مثله ، واختار إبراهيم لكونه شيخ المرسلين كون النبي عليه الصلاة والسلام على سنته فى بعض الأشياء ، وإنذار لقومه بما جرى من الضيف ، ومن إنزال الحجارة على المذنبين المضلين ، وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ إذا كان المراد ماذكرت من التسلية والإنذار فأى فائدة فى حكاية الضيافة ؟ نقول ليكون ذلك إشارة إلى الفرج فى حق الأنبياء ، والبلاء على الجهلة والأغبياء ، إذا جاءهم من حيث لا يحتسب .

قال الله تعالى (فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا) فلم يكن عند إبراهيم عليه السلام خبر من إنزال العذاب مع ارتفاع مكانته .

﴿ المسألة الثانية ﴾ كيف سماهم ضيفاً ولم يكونوا ؟ نقول لما حسبهم إبراهيم عليه السلام ضيفاً لم يكذبه الله تعالى فى حسابه إكراماً له ، يقال فى كلمات المحققين الصادق يكون ما يقول ، والصديق يقول ما يكون .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ ضيف لفظ واحد والمكرمين جمع ، فكيف وصف الواحد بالجمع ؟ نقول الضيف يقع على القوم ، يقال قوم ضيف ولأنه مصدر فيكون كلفظ الرزق مصدراً ، وإنما وصفهم بالمكرمين إما لكونهم عباداً مكرمين كما قال تعالى (بل عباد مكرمون) وإما لإكرام إبراهيم عليه السلام إياهم ، فإن قيل : بماذا أكرمهم ؟ قلنا ببشاشة الوجه أولا ، وبالإجلاس فى أحسن المواضع وألطفها ثانياً ، وتعجيل القرى ثالثاً ، وبعد التكليف للضيف بالأكل والجلوس وكانوا عدة من الملائكة فى قول ثلاثة جبريل وميكائيل وثالث ، وفى قول عشرة ، وفى آخر اثنا عشرة .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ هم أرسلوا للعذاب بدليل قولهم (إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين) وهم لم يكونوا من قوم إبراهيم عليه السلام ، وإنما كانوا من قوم لوط فما الحكمة فى مجيئهم إلى إبراهيم عليه السلام ؟ نقول فيه حكمة بالغة ، وبيانها من وجهين (أحدهما) أن إبراهيم عليه السلام شيخ المرسلين وكان لوط من قومه ومن إكرام الملك للذى فى عهدته وتحت طاعته إذا كان يرسل رسول إلى غيره يقول له اعبر على فلان الملك وأخبره برسالتك وخذ فيها رأيه (وثانيهما) هو أن

إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ﴿٢٥﴾

الله تعالى لما قدر أن يهلك قوماً كثيراً وجماً غفيراً ، وكان ذلك مما يحزن إبراهيم عليه السلام شفقة منه على عباده قال لهم بشروه بغلام يخرج من صلبه أضعاف ما يهلك ، ويكون من صلبه خروج الأنبياء عليهم السلام .

قوله تعالى : ﴿إذ دخلوا عليه فقالوا سلاماً قال سلام قوم منكرون﴾ وفيه مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ ما العامل في إذ ؟ فيه وجوه (أحدها) ما في المكرمين من الإشارة إلى الفعل إن قلنا وصفهم بكونهم مكرمين بناء على أن إبراهيم عليه السلام أكرمهم فيكون كأنه تعالى يقول : أكرموا إذ دخلوا ، وهذا من شأن الكريم أن يكرم ضيفه وقت الدخول (ثانيها) ما في الضيف من الدلالة على الفعل ، لأنا قلنا إن الضيف مصدر فيكون كأنه يقول : أضافهم إذ دخلوا (وثالثها) يحتمل أن يكون العامل فيه أتاك تقديره ما أتاك حديثهم وقت دخولهم ، فاسمع الآن ذلك ، لأن هل ليس للاستفهام في هذا الموضع حقيقة بل للاعلام ، وهذا أولى لأنه فعل مصرح به ، ويحتمل أن يقال اذكر إذ دخلوا .

﴿المسألة الثانية﴾ لماذا اختلف إعراب السلامين في القراءة المشهورة ؟ نقول : نبين أولا وجوه النصب والرفع ، ثم نبين وجوه الاختلاف في الإعراب ، أما النصب فيحتمل وجوها :

(أحدها) أن يكون المراد من السلام هو التحية وهو المشهور ، ونصبه حينئذ على المصدر تقديره نسلم سلاماً (ثانيها) هو أن يكون السلام نوعاً من أنواع الكلام وهو كلام سلم به المتكلم من أن يلغو أو يأثم فكأنهم لما دخلوا عليه فقالوا حسناً سلموا من الإثم ، وحينئذ يكون مفعولا للقول لأن مفعول القول هو الكلام ، يقال قال فلان كلاماً ، ولا يكون هذا من باب ضربه سوطاً لأن المضروب هناك ليس هو السوط ، وههنا القول هو الكلام فسره قوله تعالى (وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً) وقوله تعالى (قيلا سلاماً سلاماً) .

(ثالثها) أن يكون مفعول فعل محذوف تقديره نبلغك سلاماً ، لا يقال على هذا إن المراد لو كان ذلك لعلم كونهم رسل الله عند السلام فما كان يقول (قوم منكرون) ولا كان يقرب إليهم الطعام ، ولما قال نكرهم وأوجس لأنا نقول جاز أن يقال أنهم قالوا : نبلغك سلاماً ولم يقولوا من الله تعالى إلى أن سألهم إبراهيم عليه السلام ممن تبلغون لى السلام ، وذلك لأن الحكيم لا يأتى بالأمر العظيم إلا بالتدريج فلما كانت هيبتهم عظيمة ، فلو ضموا إليه الأمر العظيم الذى هو السلام من الله تعالى لانزعج إبراهيم عليه السلام ، ثم إن إبراهيم عليه السلام اشتغل بإكرامهم عن سؤالهم وآخر السؤال إلى حين الفراغ فنكرهم بين السلام والسؤال عمن منه السلام هذا وجه النصب ، وأما الرفع فنقول يحتمل أن المراد منه السلام الذى هو التحية وهو المشهور أيضاً ، وحينئذ يكون مبتدأ

خبره محذوف تقديره سلام عليكم ، وكون المبتدأ نكرة يحتمل فى قول القائل سلام عليكم وويل له ، أوخبر مبتدأ محذوف تقديره قالجوابه سلام ، ويحتمل أن يكون المراد قولا يسلم به أو ينبىء عن السلامة فيكون خبر مبتدأ محذوف تقديره أمرى سلام بمعنى مسالمة لا تعلق بينى وبينكم لأنى لا أعرفكم ، أو يكون المبتدأ قولكم ، وتقديره قولكم سلام ينبىء عن السلامة وأنتم قوم منكرون فا خطبكم فإن الأمر أشكل على ، وهذا ما يحتمل أن يقال فى النصب والرفع ، وأما الفرق فنقول أما على التفسير المشهور وهو أن السلام فى الموضعين بمعنى التحية فنقول الفرق بينهما من حيث اللفظ ومن حيث المعنى .

(أما من حيث اللفظ) فنقول سلام عليك إنما جوز واستحسن لكونه مبتدأ وهو نكرة ، من حيث إنه كالمتروك على أصله لأن الأصل أن يكون منصوباً على تقدير أسلم سلاماً وعليك يكون لبيان من أريد بالسلام ، ولا يكون لعليك حظ من المعنى غير ذلك البيان . فيكون كالخارج عن الكلام ، والكلام التام أسلم سلاماً ، كما أنك تقول ضربت زيداً على السطح يكون على السطح خارجاً عن الفعل والفاعل والمفعول لبيان مجرد الظرفية ، فإذا كان الأمر كذلك وكان السلام والأدعية كثير الوقوع ، قالوا نعدل عن الجملة الفعلية إلى الإسمية ونجعل لعليك حظاً فى الكلام ، فنقول سلام عليك ، فتصير عليك لفائدة لا بد منها ، وهى الخبرية ، ويترك السلام نكرة كما كان حال النصب ، إذا علم هذا فالنصب أصل والرفع مأخوذ منه ، والأصل مقدم على المأخوذ منه ، فقال (قالوا سلاماً قال سلام) قدم الأصل على المتفرع منه .

(وأما من حيث المعنى) فذلك لأن إبراهيم عليه السلام أراد أن يرد عليهم بالأحسن ، فأتى بالجملة الإسمية فإنها أدل على الدوام والاستمرار ، فإن قولنا جلس زيد لا ينبىء عنه لأن الفعل لا بد فيه من الإنباء عن التجدد والحدوث . ولهذا لو قلت : الله موجود الآن لا ثبت العقل الدوام إذ لا ينبىء عن التجدد ، ولو قال قائل : وجد الله الآن لكاد ينكره العاقل لما بينا فلما قالوا : سلاماً قال : سلام عليكم مستمر دائم ، وأما على قولنا المراد القول ذو السلامة فظاهر الفرق ، فإنهم قالوا قولا ذا سلام ، وقال لهم إبراهيم عليه السلام (سلام) أى قولكم ذو سلام وأنتم قوم منكرون فالتبس الأمر على ، وإن قلنا المراد أمر مسالمة ومتاركة وهم سلموا عليه تسليما ، فنقول فيه جمع بين أمرين : تعظيم جانب الله ، ورعاية قلب عباد الله ، فانه لو قال : سلام عليكم وهو لم يعلم كونهم من عباد الله الصالحين كان يجوز أن يكونوا على غير ذلك ، فيكون الرسول قد أمنهم ، فان السلام أمان وأمان الرسول أمان المرسل فيكون فاعلا للأمر من غير إذن الله نيابة عن الله فقال أنتم سلمتم على وأنا متوقف أمرى متاركة لا تعلق بيننا إلى أن يتبين الحال ويدل على هذا هو أن الله تعالى قال (وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً) وقال فى مثل هذا المعنى للنبى صلى الله عليه وسلم (فاصفح عنهم وقل سلام) ولم يقل قل سلاماً ، وذلك لأن الأخيار المذكورين فى القرآن لو

فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٣٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٣٧﴾

سلموا على الجاهلين لا يكون ذلك سبباً لحرمة التعرض إليهم ، وأما النبى صلى الله عليه وسلم لو سلم عليهم لصار ذلك سبباً لحرمة التعرض إليهم ، فقال : قل سلام أى أمرى معكم متاركة تركناه إلى أن يأتى أمرالله بأمر ، وأما على قولنا بمعنى نبلغ سلاماً فنقولهم لما قالوا نبلغك سلاماً ولم يعلم إبراهيم عليه السلام أنه ممن قال سلام أى إن كان من الله فإن هذا منه قد ازداد به شرفى وإلا فقد بلغنى منه سلام وبه شرفى ولا أتشرف بسلام غيره ، وهذا ما يمكن أن يقال فيه . والله أعلم بمراده والأول والثانى عليهما الاعتماد فإنهما أقوى وقد قيل بهما .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قال فى سورة هود (فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم) فدل على أن إنكارهم كان حاصلا بعد تقريبه العجل منهم وقال ههنا (قال سلام قوم منكرون) .

قوله تعالى :﴿ فراغ إلى أهله فجاء بعجل سمين فقربه إليهم قال ألا تأكلون ﴾ بفاء التعقيب فدل على أن تقريب الطعام منهم بعد حصول الإنكار لهم ، فما الوجه فيه ؟ نقول جازأن يحصل أولا عنده منهم نكر ثم زاد عند إمساكهم ، والذى يدل على هذا هو أنهم كانوا على شكل وهيئة غير ما يكون عليه الناس وكانوا فى أنفسهم عند كل أحد منكرين ، واشترك إبراهيم عليه السلام وغيره فيه ولهذا لم يقل أنكرتكم بل قال (أنتم منكرون) فى أنفسكم عند كل أحد منا ، ثم إن إبراهيم عليه السلام تفرد بمشاهدة أمر منهم هو الإمساك فنكرهم فوق ماكان منهم بالنسبة إلى الكل لكن الحالة فى سورة هود محكية على وجه أبسط مما ذكره ههنا ، فإن ههنا لم يبين المبشر به ، وهناك ذكر باسمه وهو إسحاق ، ولم يقل ههنا إن القوم قوم من وهناك قال قوم لوط ، وفى الجلة من يتأمل السورتين يعلم أن الحكاية محكية هناك على وجه الإضافة أبسط ، فذكر فيها النكتة الزائدة ، ولم يذكر ههنا ولنعد إلى بيان ما أتى به من آداب الإضافة وما أتوا به من آداب الضيافة ، فالإكرام أولا ممن جاءه ضيف قبل أن يجتمع به ويسلم أحدهما على الآخر أنواع من الإكرام وهى اللقاء الحسن والخروج إليه والتهيؤ له ثم السلام من الضيف على الوجه الحسن الذى دل عليه النصب فى قوله (سلاماً) إما لكونه مؤكداً بالمصدر أو لكونه مبلغاً ممن هو أعظم منه ، ثم الرد الحسن الذى دل عليه الرفع والإمساك عن الكلام لا يكون فيه وفاء إن إبراهيم عليه السلام لم يقل سلام عليكم بل قال أمرى مسالمة أو قولكم سلام وسلامكم منكر فإن ذلك وإن كان مخلا بالإكرام ، لكن الغدر ليس من شيم الكرام ومودة أعداء الله لا تليق بالأنبياء عليهم السلام ثم تعجيل القرى الذى دل عليه قوله تعالى (فما لبث أن جاء) وقوله ههنا (فراغ) فإن الروغان يدل على السرعة والروغ الذى بمعنى النظر الخفى أو الرواح المخفى أيضاً كذلك ، ثم الإخفاء فإن المضيف إذا أحضر شيئاً ينبغى أن يخفيه عن الضيف كي لا يمنعه من الإحضار بنفسه حيث راغ هو ولم يقل هاتوا ، وغيبة المضيف لحظة

فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾

من الضيف مستحسن ليستريح ويأتى بدفع ما يحتاج إليه ويمنعه الحياء منه ثم اختيار الأجود بقوله (سمين) ثم تقديم الطعام إليهم لا نقلهم إلى الطعام بقوله (فقربه إليهم) لأن من قدم الطعام إلى قوم يكون كل واحد مستقراً فى مقره لا يختلف عليه المكان فإن نقلهم إلى مكان الطعام ربما يحصل هناك اختلاف جلوس فيقرب الأدنى ويضيق على الأعلى ثم العرض لا الأمر حيث قال (ألا تأكلون) ولم يقل كلوا ثم كون المضيف مسروراً بأكلهم غير مسرور بتركهم الطعام كما يوجد فى بعض البخلاء المتكلفين الذين يحضرون طعاماً كثيراً ويكون نظره ونظر أهل بيته فى الطعام متى يمسك الضيف يده عنه يدل عليه .

قوله تعالى : ﴿ فأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف وبشروه بغلام عليم ﴾ ثم أدب الضيف أنه إذا أكل حفظ حق المؤاكلة ، يدل عليه أنه خافهم حيث لم يأكلوا ، ثم وجوب إظهار العذر عند الإمساك يدل عليه قوله (لا تخف) ثم تحسين العبارة فى العذر وذلك لأن من يكون محتمياً وأحضر لديه الطعام فهناك أمران (أحدهما) أن الطعام لا يصلح له لكونه مضراً به (الثانى) كونه ضعيف القوة عن هضم ذلك الطعام فينبغى أن لا يقول الضيف هذا طعام غليظ لا يصلح لى بل الحسن أن يأتى بالعبارة الأخرى ويقول : لى مانع من أكل الطعام وفى بيتى لا آكل أيضاً شيئاً ، يدل عليه قوله (وبشروه بغلام) حيث فهموه أنهم ليسوا ممن يأكلون ولم يقولوا لا يصلح لنا الطعام والشراب ، ثم أدب آخر فى البشارة أن لا يخبر الإنسان بما يسره دفعة فإنه يورث مرضاً يدل عليه أنهم جلسوا واستأنس بهم إبراهيم عليه السلام ثم قالوا نبشرك ثم ذكروا أشرف النوعين وهو الذكر ولم يقتنعوا به حتى وصفوه بأحسن الأوصاف فان الإبن يكون دون البنت إذا كانت البنت كاملة الخلقة حسنة الخلق والإبن بالضد ، ثم إنهم تركوا سائر الأوصاف من الحسن والجمال والقوة والسلامة واختاروا العلم إشارة إلى أن العلم رأس الأوصاف ورئيس النعوت ، وقد ذكرنا فائدة تقديم البشارة على الإخبار عن إهلاكهم قوم لوط ، ليعلم أن الله تعالى يهلكهم إلى خلف ، ويأتى بيدلهم خيراً منهم .

قوله تعالى : ﴿ فأقبلت امرأته فى صرة فصكت وجهها وقالت عجوز عقيم ﴾ .

أى أقبلت على أهلها ، وذلك لأنها كانت فى خدمتهم ، فلما تكلموا مع زوجها بولادتها استحيت وأعرضت عنهم ، فذكر الله تعالى ذلك بلفظ الإقبال على الأهل ، ولم يقل بلفظ الإدبار عن الملائكة . وقوله تعالى (فى صرة) أى صيحة ، كما جرت عادة النساء حيث يسمعن شيئاً من أحوالهن يصحن صيحة معتادة لهن عند الاستحياء أو التعجب ، ويحتمل أن يقال تلك الصيحة

قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾

كانت بقولها ياويلتا ، تدل عليه الآية التي في سورة هود ، وصك الوجه أيضاً من عادتهن ، واستبعدت ذلك لوصفين من اجتماعهما (أحدهما) كبر السن (والثاني) العقم ، لأنها كانت لا تلد في صغر سنها ، وعنفوان شبابها ، ثم عجزت وأيست فاستبعدت ، فكأنها قالت ياليتكم دعوتم دعاء قريباً من الإجابة ، ظناً منها أن ذلك منهم ، كما يصدر من الضيف على سبيل الأخبار من الأدعية كقول الداعي : الله يعطيك مالا ويرزقك ولداً ، فقالوا هذا منا ليس بدعاء ، وإنما ذلك قول الله تعالى ﴿ قالوا كذلك قال ربك ﴾ ثم دفعوا استبعادها بقولهم ﴿ إنه هو الحكيم العليم ﴾ .

وقد ذكرنا تفسيرهما مراراً ، فإن قيل لم قال ههنا (الحكيم العليم) وقال في هود (حميد مجيد) نقول لما بينا أن الحكاية هناك أبسط ، فذكروا مايدفع الاستبعاد بقولهم (أتعجبين من أمر الله) ثم لما صدقت أرشدوهم إلى القيام بشكر نعم الله ، وذكروهم بنعمته بقولهم (حميد) فإن الحميد هو الذي يتحقق منه الأفعال الحسنة ، وقولهم (مجيد) إشارة إلى أن الفائق العالي الهمة لايحمده لفعله الجميل ، وإنما يحمده ويسبح له لنفسه ، وههنا لما لم يقولوا (أتعجبين) إشارة إلى مايدفع تعجبها من التنبيه على حكمه وعلمه ، وفيه لطيفة وهي أن هذا الترتيب مراعى في السورتين ، فالحميد يتعلق بالفعل ، والمجيد يتعلق بالقول ، وكذلك الحكيم هو الذي فعله ، كما ينبغي لعلمه قاصداً لذلك الوجه بخلاف من يتفق فعله موافقاً للمقصود اتفاقاً ، كمن ينقلب على جنبه فيقتل حية وهو نائم ، فانه لايقال له حكيم ، وأما إذا فعل فعلا قاصداً اقتلها بحيث يسلم عن نهشها ، يقال له حكيم فيه ، والعليم راجع إلى الذات إشارة إلى أنه يستحق الحمد بمجده ، وإن لم يفعل فعلا وهو قاصد لعلمه ، وإن لم يفعل على وفق القاصد .

قوله تعالى :﴿ قال فما خطبكم أيها المرسلون ﴾ وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ لما علم حالهم بدليل قوله (منكرون) لم لم يقنع بما بشروه لجواز أن يكون نزولهم للبشارة لا غير ؟ نقول إبراهيم عليه السلام أتى بما هو من آداب المضيف حيث يقول لضيفه إذا استعجل في الخروج ماهذه العجلة ، وما شغلك الذي يمنعنا من التشرف بالاجتماع بك ، ولا يسكت عند خروجهم مخافة أن يكون سكوته يوهم استثقالهم ، ثم إنهم أتوا بما هو من آداب الصديق الذي لا يسر عن الصديق الصدوق ، لاسيما وكان ذلك بإذن الله تعالى لهم في إطلاع إبراهيم عليه السلام على إهلاكهم ، وجبر قلبه بتقديم البشارة بخير البدل ، وهو أبو الأنبياء إسحق عليه السلام على الصحيح ، فإن قيل فما الذي اقتضى ذكره بالفاء ، ولو كان كما ذكرتم لقال ما هذا

قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾

الاستعجال ، وما خطبكم المعجل لكم ؟ نقول لوكان أوجس منهم خيفة وخرجوا من غير بشارة وإيناس ماكان يقول شيئاً ، فلما آنسوه قال ماخطبكم ، أى بعد هذا الأنس العظيم ، ماهذا الإيحاش الأليم .

﴿ المسألة الثانية ﴾ هل فى الخطب فائدة لاتوجد فى غيره من الألفاظ ؟ نقول نعم ، وذلك من حيث إن الألفاظ المفردة التى يقرب منها الشغل والأمر والفعل وأمثالها ، وكل ذلك لا يدل على عظم الأمر ، وأما الخطب فهو الأمر العظيم ، وعظم الشأن يدل على عظم من على يده ينقضى ، فقال (ما خطبكم) أى لعظمتكم لاترسلون إلا فى عظيم ، ولو قال بلفظ مركب بأن يقول ما شغلكم الخطير . وأمركم العظيم لزم التطويل ، فالخطب أفاد التعظيم مع الإيجاز .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ من أين عرف كونهم مرسلين ، فنقول (قالوا) له بدليل قوله تعالى (إنا أرسلنا إلى قوم لوط) وإنما لم يذكر ههنا لما بينا أن الحكاية ببسطها مذكورة فى سورة هود ، أو نقول لما قالوا لامرأته (كذلك قال ربك) علم كونهم منزلين من عند الله حيث كانوا يحكون قول الله تعالى ، يدل على هذا أن قولهم ﴿ إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين ﴾ كان جواب سؤاله منهم .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ هذه الحكاية بعينها هى المحكية فى هود ، وهناك قالوا (إنا أرسلنا) بعد ما زال عنه الروع وبشروه ، وهنا قالوا (إنا أرسلنا) بعد ما سألهم عن الخطب ، وأيضاً قالوا هناك (إنا أرسلنا إلى قوله لوط) وقالوا ههنا (إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين) والحكاية من قولهم ، فإن لم يقولوا ذلك ورد السؤال أيضاً ، فنقول إذا قال قائل حاكياً عن زيد : قال زيد عمرو خرج ، ثم يقول مرة أخرى : قال زيد إن بكراً خرج ، فإما أن يكون صدر من زيد قولان ، وإما أن لايكون حاكياً ماقاله زيد ، والجواب عن (الأول) هو أنه لما خاف جاز أنهم ماقالوا له (لاتخف إنا أسلنا إلى قوم لوط) فلما قال لهم ماذا تفعلون بهم ، كان لهم أن يقولوا (إنا أرسلنا إلى قوم لوط) لنهلكهم ، كمايقول القائل : خرجت من البيت ، فيقال لماذا خرجت ؟ فيقول خرجت لأتجر ، لكن ههنافائدة معنوية ، وهى أنهم إنما قالوا فى جواب (ماخطبكم) نهلكهم ؟ بأمر الله ، لتعلم براءتهم عن إيلام البرىء ، وإهمال الردىء ، فأعادوا لفظ الإرسال ، وأما عن (الثانى) نقول الحكاية قد تكون حكاية اللفظ ، كما تقول : قال زيد بعمرو مررت ، فيحكى لفظه المحكى ، وقد يكون حكاية لكلامه بمعناه تقول : زيد قال عمرو خرج ، ولك أن تبدل مرة أخرى فى غير تلك الحكاية بلفظة أخرى ، فتقول لما قال زيد بكر خرج ، قلت كيت وكيت ، كذلك ههنا القرآن لفظ معجز ، وما صدر ممن تقدم نبينا عليه السلام سواء كان منهم ، وسواء كان منزلا عليهم لم يكن لفظه معجزاً ، فيلزم أن لاتكون هذه الحكايات بتلك الألفاظ ، فكأنهم قالو له (إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين) وقالوا

لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾

(إنا أرسلنا إلى قوم لوط) وله أن يقول ، إنا أرسلنا إلى قوم من آمن بك ، لأنه لا يحكى لفظهم حتى يكون ذلك واحداً ، بل يحكى كلامهم بمعناه وله عبارات كثيرة ، ألا ترى أنه تعالى لما حكى لفظهم فى السلام على أحد الوجوه فى التفسير ، قال فى الموضعين : سلاماً وسلام ثم بين ما لأجله أرسلوا بقوله ﴿ لنرسل عليهم حجارة من طين ﴾ وقد فسرنا ذلك فى العنكبوت ، وقلنا إن ذلك دليل على وجوب الرمى بالحجارة على اللائط وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ أى حاجة إلى قوم من الملائكة ، وواحد منهم كان يقلب المدائن بريشة من جناحه ؟ نقول الملك القادر قد يأمر الحقير بإهلاك الرجل الخطير ، ويأمر الرجل الخطير بخدمة الشخص الحقير ، إظهاراً لنفاذ أمره ، فحيث أهلك الخلق الكثير بالقمل والجراد والبعوض بل بالريح التى بها الحياة ، كان أظهر فى القدرة وحيث أمر آلاف من الملائكة بإهلاك أهل بدر مع قلتهم كان أظهر فى نفاذ الأمر وفيه فائدة أخرى ، وهى أن من يكون تحت طاعة ملك عظيم ، ويظهر له عدو ويستعين بالملك فيعينه بأكابر عسكره ، يكون ذلك تعظيما منه له وكلما كان العدو أكثر والمدد أوفر كان التعظيم أتم ، لكن الله تعالى أعان لوطا بعشرة ونبينا عليه السلام بخمسة آلاف ، وبين العددين من التفاوت مالا يخفى وقد ذكرنا نبذاً منه فى تفسير قوله تعالى (وما أنزلنا على قومه من بعده من جند من السماء) .

﴿ المسألة الثانية ﴾ ما الفائدة فى تأكيد الحجارة بكونها (من طين) ؟ نقول لأن بعض الناس يسمى البرد حجارة فقوله (من طين) يدفع ذلك التوهم ، واعلم أن بعض من يدعى النظر يقول لا ينزل من السماء إلا حجارة من طين مدورات على هيئة البرد وهيئة البنادق التى يتخذها الرماة ، قالوا وسبب ذلك هو أن الإعصار يصعد الغبار من الفلوات العظيمة التى لا عمارة فيها والرياح تسوقها إلى بعض البلاد ، ويتفق وصول ذلك إلى هواء ندى ، فيصير طيناً رطبا ، والرطب إذا نزل وتفرق استدار ، بدليل أنك إذا رميت الماء إلى فوق ثم نظرت إليه رأيته ينزل كرات مدورات كاللآلىء الكبار ، ثم فى النزول إذا اتفق أن تضربه النيران التى فى الجو ، جعلته حجارة كالآجر المطبوخ ، فينزل فيصيب من قدر الله هلاكه ، وقد ينزل كثيراً فى المواضع التى لا عمارة بها فلا يرى ولا يدرى به ، ولهذا قال (من طين) لأن مالايكون (من طين) كالحجر الذى فى الصواعق لا يكون كثيراً بحيث يمطر وهذا تعسف ، ومن يكون كامل العقل يسند الفكر إلى ما قاله ذلك القائل ، فيقول ذلك الإعصار لما وقع فإن وقع بحادث آخر يلزم التسلسل ولابد من الانتهاء إلى محدث ليس بحادث ، فذلك المحدث لابد وأن يكون فاعلا مختاراً ، والمختار له أن يفعل ماذكر وله أن يخلق الحجارة من طين على وجه آخر من غير نار ولا غبار ، لكن العقل لاطريق له إلى الجزم

مُسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾

بطريق إحداثه وما لا يصل العقل إليه يجب أخذه بالنقل ، والنص ورد به فأخذنا به ولا نعلم الكيفية وإنما المعلوم أن الحجارة التى من طين نزولها من السماء أغرب وأعجب من غيرها ، لأنها فى العادة لابد لها من مكث فى النار .

قوله تعالى : ﴿ مسومة عند ربك للمسرفين ﴾ فيه وجوه : (أحدها) مكتوب على كل واحد اسم واحد يقتل به (ثانيها) أنها خلقت باسمهم ولتعذيبهم بخلاف سائر الاحجار فإنها مخلوقة للانتفاع فى الأبنية وغيرها (ثالثها) مرسلة للمجرمين لأن الإرسال يقال فى السوائم يقال أرسلها لترعى فيجوز أن يقول سومها بمعنى أرسلها وبهذا يفسر قوله تعالى (والخيل المسومة) إشارة إلى الاستغناء عنها وأنها ليست للركوب ليكون أدل على الغنى ، كما قال (والقناطير المقنطرة) وقوله تعالى (للمسرفين) إشارة إلى خلاف مايقول الطبيعيون إن الحجارة إذا أصابت واحداً من الناس فذلك نوع من الاتفاق فإنها تنزل بطبعها يتفق شخص لها فتصيبه فقوله (مسومة) أى فى أول ما خلق وأرسل إذا علم هذا فإنما كان ذلك على قصد إهلاك المسرفين ، فإن قيل إذا كانت الحجارة مسومة للمسرفين فكيف قالوا (إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين لنرسل عليهم) مع أن المسرف غير المجرم فى اللغة ؟ نقول المجرم هو الآتى بالذنب العظيم لأن الجرم فيه دلالة على العظم ومنه جرم الشيء لعظمة مقداره ، والمسرف هو الآتى بالكبيرة ، ومن أسرف ولو فى الصغائر يصير مجرماً لأن الصغير إلى الصغير إذا انضم صار كبيراً ، ومن أجرم فقد أسرف لأنه أتى بالكبيرة ولو دفعة واحدة فالوصفان اجتمعا فيهم . لكن فيه لطيفة معنوية ، وهي أن الله تعالى سومها للمسرف المصر الذى لا يترك الجرم والعلم بالأمور المستقبلة عند الله تعالى ، يعلم أنهم مسرفون فأمر الملائكة بإرسالها عليهم ، وأما الملائكة فعلمهم تعلق بالحاضر وهم كانوا مجرمون فقالوا (إنا أرسلنا إلى قوم) نعلمهم (مجرمين) لنرسل عليهم حجارة خلقت لمن لا يؤمن ويصر ويسرف ولزم من هذا علمنا بأنهم لو عاشوا سنين لتمادوا فى الإجرام ، فان قيل اللام لتعريف الجنس أو لتعريف العهد ؟ نقول لتعريف العهد أى مسومة لهؤلاء المسرفين إذ ليس لكل مسرف حجارة مسومة ، فان قيل ما إسرافهم ؟ نقول مادل عليه قوله تعالى (ما سبقكم بها من أحد من العالمين) أى لم يبلغ مبلغكم أحد .

قوله تعالى : ﴿ فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين ﴾ فيه فائدتان :

(أحداهما) بيان القدرة والاختيار فان من يقول بالاتفاق يقول يصيب البر والفاجر فلما ميز الله المجرم عن المحسن دل على الاختيار .

فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾ وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾

﴿ ثانيها ﴾ بيان أنه ببركة المحسن ينجو المسيء فإن القرية مادام فيها المؤمن لم تهلك ، والضمير عائد إلى القرية معلومة وإن لم تكن مذكورة .

قوله تعالى : ﴿ فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين ﴾ فيه إشارة إلى أن الكفر إذا غلب والفسق إذا فشا لا تنفع معه عبادة المؤمنين ، بخلاف مالو كان أكثر الخلق على الطريقة المستقيمة وفيهم شرذمة يسيرة يسرقون ويزنون ، وقيل فى مثاله إن العالم كبدن ووجود الصالحين كالأغذية الباردة والحارة والكفار والفساق كالسموم الواردة عليه الضارة ، ثم إن البدن إن خلا عن المنافع وفيه المضار هلك وإن خلا عن المضار وفيه المنافع طاب عيشة ونما ، وإن وجد فيه كلاهما فالحكم للغالب . فكذلك البلاد والعباد والدلالة على أن المسلم بمعنى المؤمن ظاهرة ، والحق أن المسلم أعم من المؤمن وإطلاق العام على الخاص لا مانع منه ، فإذا سمى المؤمن مسلماً لا يدل على اتحاد مفهوميهما ، فكأنه تعالى قال أخرجنا المؤمنين فما وجدنا الأعم منهم إلا بيتاً من المسلمين ويلزم من هذا أن لا يكون هناك غيرهم من المؤمنين ، وهذا كما لو قال قائل لغيره : من فى البيت من الناس ؟ فيقول له ما فى البيت من الحيوانات أحد غير زيد ، فيكون مخبراً له بخلو البيت عن كل إنسان غير زيد .

قوله تعالى : ﴿ وتركنا فيها آية للذين يخافون العذاب الأليم ﴾ .

وفى الآية خلاف ، قيل هو ماء أسود منتن انشقت أرضهم وخرج منها ذلك ، وقيل حجارة مرمية فى ديارهم وهى بين الشام والحجاز ، وقوله (للذين يخافون العذاب الأليم) أى المنتفع بها هو الخائف ، كما قال تعالى (لقوم يعقلون) فى سورة العنكبوت ، وبينهما فى اللفظ فرق قال ههنا (آية) وقال هناك (آية بينة) وقال هناك (لقوم يعقلون) وقال ههنا (للذين يخافون) فهل فى المعنى فرق ؟ نقول هناك مذكور بأبلغ وجه يدل عليه قوله تعالى (آية بينة) حيث وصفها بالظهور ، وكذلك منها وفيها فإن من للتبعيض ، فكأنه تعالى قال : من نفسها لكم آية باقية ، وكذلك قال (لقوم يعقلون) فإن العاقل أعم من الخائف ، فكانت الآية هناك أظهر ، وسببه ما ذكرنا أن القصد هناك تخويف القوم ، وههنا تسلية القلب ألا ترى إلى قوله تعالى (فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين) وقال هناك (إنا منجوك وأهلك) من غير بيان واف بنجاة المسلمين والمؤمنين بأسرهم .

وَفِي مُوسَىٰٓ إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾

قوله تعالى : ﴿ وفى موسى إذ أرسلناه إلى فرعون بسلطان مبين ﴾ .

قوله (وفى موسى) يحتمل أن يكون معطوفاً على معلوم ، ويحتمل أن يكون معطوفاً على مذكور ، أما الأول ففيه وجوه (الأول) أن يكون المراد ذلك فى إبراهيم وفى موسى ، لأن من ذكر إبراهيم يعلم ذلك (الثانى) لقومك فى لوط وقومه عبرة ، وفى موسى وفرعون (الثالث) أن يكون هناك معنى قوله تعالى : تفكروا فى إبراهيم ولوط وقومهما ، وفى موسى وفرعون ، والكل قريب بعضه من بعض ، وأما الثانى ففيه أيضاً وجوه (أحدها) أنه عطف على قوله (وفى الأرض آيات للموقنين) ، (وفى موسى) وهو بعيد لبعده فى الذكر ، ولعدم المناسبة بينهما (ثانيها) أنه عطف على قوله (وتركنا فيها آية للذين يخافون) ، (وفى موسى) أى وجعلنا فى موسى على طريقة قولهم : علفتها تبناً وماء بارداً ، وتقلدت سيفاً ورمحاً ، وهو أقرب ، ولا يخلو عن تعسف إذا قلنا بما قال به بعض المفسرين إن الضمير فى قوله تعالى (وتركنا فيها) عائد إلى القرية (ثالثها) أن تقول فيها راجع إلى الحكاية ، فيكون التقدير : وتركنا فى حكايتهم آية أو فى قصتهم ، فيكون : وفى قصة موسى آية ، وهو قريب من الاحتمال الأول ، وهو العطف على المعلوم (رابعها) أن يكون عطفاً على هل أتاك حديث ضيف إبراهيم ، وتقديره (وفى موسى) حديث إذ أرسلناه ، وهو مناسب إذ جمع الله كثيراً من ذكر إبراهيم وموسى عليهما السلام ، كما قال تعالى (أم لم ينبأ بما فى صحف موسى وإبراهيم الذى وفى) وقال تعالى (صحف إبراهيم وموسى) والسلطان القوة بالحجة والبرهان ، والمبين الفارق ، وقد ذكرنا أنه يحتمل أن يكون المراد منه ما كان معه من البراهين القاطعة التى حاج بها فرعون ، ويحتمل أن يكون المراد المعجز الفارق بين سحر الساحر وأمر المرسلين .

قوله تعالى ﴿ فتولى بركنه ﴾ فيه وجوه (الأول) الباء للمصاحبة ، والركن إشارة إلى القوم كأنه تعالى يقول : أعرض مع قومه ، يقال نزل فلان بعسكره على كذا ، ويدل على هذا الوجه قوله تعالى (فأراه الآية الكبرى ، فكذب وعصى ، ثم أدبر يسعى) قال (أدبر) وهو بمعنى تولى وقوله (لحشر فنادى) فى معنى قوله تعالى (بركنه) ، الثانى (فتولى) أى اتخذ ولياً ، والباء للتعدية حينئذ يعنى تقوى بجنده (والثالث) تولى أمر موسى بقوته ، كأنه قال : أقتل موسى لئلا يبدل دينكم ، ولا يظهر فى الأرض الفساد ، فتولى أمره بنفسه ، وحينئذ يكون المفعول غير مذكور ، وركنه هو نفسه القوية ، ويحتمل أن يكون المراد من ركنه هامان ، فإنه كان وزيره ، وعلى هذا الوجه الثانى أظهر .

﴿ وقال ساحر أو مجنون ﴾ أى هذا ساحر أو مجنون ، وقوله (ساحر) أى يأتى الجن بسحره

فَأَخَذْنَـٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَـٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿٤٠﴾ وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ﴿٤١﴾

أو يقرب منهم ، والجن يقربون منه ويقصدونه إن كان هو لا يقصدهم ، فالساحر والمجنون كلاهما أمره مع الجن ، غير أن الساحر يأتيهم باختياره ، والمجنون يأتونه من غير اختياره ، فكأنه أراد صيانة كلامه عن الكذب . فقال هو يسحر الجن أو يسحر ، فان كان ليس عنده منه خبر ولا يقصد ذلك فالجن يأتونه .

ثم قال تعالى ﴿ فأخذناه وجنوده فنبذناهم فى اليم وهو مليم ﴾ وهو إشارة إلى بعض ماأتى به ، كأنه يقول : واتخذ الأولياء فلم ينفعوه ، وأخذه الله وأخذ أركانه وألقاهم جميعاً فى اليم وهو البحر ، والحكاية مشهورة ، وقوله تعالى (وهومليم) نقول فيه شرف موسى عليه السلام وبشارة للمؤمنين ، أما شرفه فلأنه تعالى قال بأنه أتى بما يلام عليه بمجرد قوله : إنى أريد هلاك أعدائك يا إله العالمين ، فلم يكن له سبب إلا هذا ، أما فرعون فقال (أنا ربكم الأعلى) فكان سببه تلك ، وهذا كما قال القائل : فلان عيبه أنه سارق ، أو قاتل ، أويعاشر الناس فيؤذيهم ، وفلان عيبه أنه مشغول بنفسه لايعاشر ، فتكون نسبة العيبين بعضهما إلى بعض سبباً لمدح أحدهما وذم الآخر . وأما بشارة المؤمنين فهو بسبب أن من التقمه الحوت وهومليم نجاه الله تعالى بتسبيحه ، ومن أهلكه الله بتعذيبه لم ينفعه إيمانه حين قال (آمنت أنه لا إله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل) .

قوله تعالى : ﴿ وفى عاد إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم ﴾ وفيه ما ذكرنا من الوجوه التى ذكرناها فى عطف موسى عليه السلام ، وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ ذكر أن المقصود ههنا تسلية قلب النبى ﷺ وتذكيره بحال الأنبياء ، ولم يذكر فى عاد وثمود أنبياءهم ، كما ذكر إبراهيم وموسى عليهما السلام ، نقول فى ذكر الآيات ست حكايات : حكاية إبراهيم عليه السلام وبشارته ، وحكاية قوم لوط ونجاة من كان فيها من المؤمنين ، وحكاية موسى عليه السلام ، وفى هذه الحكايات الثلاث ذكر الرسل والمؤمنين ، لأن الناجين فيهم كانوا كثيرين ، أما فى حق إبراهيم وموسى عليهما السلام فظاهر ، وأما فى قوم لوط فلأن الناجين ، وإن كانوا أهل بيت واحد ، ولكن المهلكين كانوا أيضاً أهل بقعة واحدة .

وأما عاد وثمود وقوم نوح فكان عدد المهلكين بالنسبة إلى الناجين أضعاف ماكان عدد المهلكين بالنسبة إلى الناجين من قوم لوط عليه السلام .

فذكر الحكايات الثلاث الأول للتسلية بالنجاة ، وذكر الثلاث المتأخرة للتسلية بإهلاك العدو ، والكل مذكور للتسلية بدليل قوله تعالى فى آخر هذه الآيات (كذلك ما أتى الذين من قبلهم من

مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾

رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون) إلى أن قال (فتول عنهم فما أنت بملوم : وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين) .

وفى هود قال بعد الحكايات (ذلك من أنباء القرى نقصه عليك) إلى أن قال (وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد) فذكر بعدها مايؤكد التهديد ، وذكر بعد الحكايات ههنا مايفيد التسلى ، وقوله (العقيم) أى ليست من اللواقح لأنها كانت تكسر وتقلع فكيف كانت تلقح والفعيل لايلحق به تاء التأنيث إذا كان بمعنى مفعول وكذلك إذا كان بمعنى فاعل فى بعض الصور ، وقد ذكرنا سببه أن فعيل لما جاء للمفعول والفاعل جميعاً ولم يتميز المفعول عن الفاعل فأولى أن لا يتميز المؤنث عن المذكر فيه لأنه لو تميز لتميز الفاعل عن المفعول قبل تميز المؤنث والمذكر لأن الفاعل جزء من الكلام محتاج إليه فأول مايحصل فى الفعل الفاعل ثم التذكير والتأنيث يصير كالصفة للفاعل والمفعول ، تقول فاعل وفاعلة ومفعول ومفعولة ، ويدل على ذلك أيضاً أن التمييز بين الفاعل والمفعول جعل بحرف ممازج للكلمة فقيل فاعل بألف فاصلة بين الفاء والعين التى هى من أصل الكلمة ، وقيل مفعول بواو فاصلة بين العين واللام والتأنيث كان بحرف فى آخر الكلمة فالمميز فيهما غير نظم الكلمة لشدة الحاجة وفى التأنيث لم يؤثر ، ولأن التمييز فى الفاعل والمفعول كان بأمرين يختص كل واحد منهما بأحدهما فالألف بعد الفاء يختص بالفاعل والميم والواو يختص بالمفعول والتمييز فى التذكير والتأنيث بحرف عند وجوده يميز المؤنث وعند عدمه يبقى اللفظ على أصل التذكير فاذا لم يكن فعيل يمتاز فيه الفاعل عن المفعول إلا بأمر منفصل كذلك المؤنث والمذكر لا يمتاز أحدهما عن الآخر إلا بحرف غير متصل به .

قوله تعالى : ﴿ ماتذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم ﴾ وفيه مباحث :

﴿ الأول ﴾ فى إعرابه وفيه وجهان (أحدهما) نصب على أنه صفة الريح بعد صفة العقيم ذكر الواحدى أنه وصف فإن قيل كيف يكون وصفاً والمعرفة لاتوصف بالجمل وما تذر جملة ولا يوصف بها إلا النكرات ؟ نقول الجواب فيه من وجهين (أحدهما) أنه يكون بإعادة الريح تقديراً كأنه يقول : وأرسلنا عليهم الريح العقيم ريحاً ماتذر (ثانيهما) هو أن المعرف نكرة لأن تلك الريح منكرة كأنه يقول : وأرسلنا الريح التى لم تكن من الرياح التى تقع ولا وقع مثلها فهى لشدتها منكرة ، ولهذا أكثر ماذكرها فى القرآن ذكرها منكرة ووصفها بالجملة من جملتها قوله تعالى (بل هو ماأستعجلتم به ريح فيها عذاب أليم) وقوله (ريح صرصر عاتية سخرها) إلى غير ذلك (والوجه الثانى) وهو الأصح أنه نصب على الحال تقول جاءنى مايفهم شيئاً فعلمته وفهمته أى حاله كذا ، فإن قيل لم تكن حال الإرسال ماتذر والحال ينبغى أن يكون موجوداً مع ذى الحال وقت الفعل

وَفِى ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا۟ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾

فلا يجوز أن يقال جاءنى زيد أمس راكباً غداً ، والريح بعد ما أرسلت بزمان صارت ماتذر شيئاً نقول المراد به البيان بالصلاحية أى أرسلناها وهى على قوة وصلاحية أن لا تذر ، نقول لمن جاء وأقام عندك أياماً ثم سألك شيئاً ، جئتنى سائلا أى قبل السؤال بالصلاحية والإمكان ، هذا إن قلنا إنه نصب وهو المشهور ، ويحتمل أنه رفع على أنه خبر مبتدأ محذوف تقديره هى ماتذر .

﴿ البحث الثانى ﴾ ماتذر للنفى حال التكلم يقال مايخرج زيد أى الآن ، وإذا أردت المستقبل تقول لايخرج أولن يخرج ، وأما الماضى تقول ما خرج ولم يخرج ، والريح حالة الكلام مع النبى صلى الله عليه وسلم كانت ماتركت شيئاً إلا جعلته كالرميم فكيف قال بلفظ الحالة ماتذر ؟ نقول الحكاية مقدرة على أنها محكية حال الوقوع ، ولهذا قال تعالى (وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد) مع أن اسم الفاعل الماضى لايعمل وإنما يعمل ما كان منه بمعنى الحال والاستقبال .

﴿ البحث الثالث ﴾ هل فى قوله تعالى (ماتذر من شىء أتت عليه) مبالغة ودخول تخصيص كما فى قوله تعالى(تدمر كل شىء بأمر ربها)؟ نقول هو كما وقع لأن قوله(أتت عليه)وصف لقوله (شىء) كأنه قال كل شىء أتت عليه أو كل شىء تأتى عليه جعلته كالرميم ولا يدخل فيه السموات لأنها ماأتت عليها وإنما يدخل فيه الأجسام التى تهب عليها الرياح ، فإن قيل فالجبال والصخور أتت عليها وما جعلتها كالرميم ؟ نقول المراد أتت عليه قصداً وهو عاد وأبنيتهم وعروشهم وذلك لأنها كانت مأمورة بأمر من عند الله فكأنها كانت قاصدة إياهم فما تركت شيئاً من تلك الأشياء إلا جعلته كالرميم مع أن الصر الريح الباردة والمكرر لاينفك عن المعنى الذى فى اللفظ من غير تكرير ، تقول حث وحثحث وفيه مافى حث نقول فيه قولان (أحدهما) أنها كانت باردة فكانت فى أيام العجوز وهى ثمانية أيام من آخر شباط وأول أذار ، والريح الباردة من شدة بردها تحرق الأشجار والثمار وغيرهما وتسودهما (والثانى) أنها كانت حارة والصر هو الشديد لا البارد وبالشدة فسر قوله تعالى (فى صرة) أى فى شدة من الحر .

﴿ البحث الرابع ﴾ فى قوله تعالى (ماتذر من شىء أتت عليه إلا جعلته كالرميم) لأن فى قوله تعالى (ماتذر) نفى الترك مع إثبات الإتيان فكأنه تعالى قال تأتى على أشياء وما تتركها غير محرقة وقول القائل : ما أتى على شىء إلا جعله كذا يكون نفى الإتيان عما لم يجعله كذلك .

قوله تعالى ﴿ وفى ثمود ﴾ والبحث فيه وفى عاد هو ما تقدم فى قوله تعالى (وفى موسى) .

وقوله تعالى ﴿ إذ قيل لهم تمتعوا حتى حين ﴾ قال بعض المفسرين : المراد منه هو ما أمهلهم الله ثلاثة أيام بعد قتلهم الناقة وكانت فى تلك الأيام تتغير ألوانهم فتصفر وجوههم وتسود ، وهو ضعيف لأن قوله تعالى (فعتوا عن أمر ربهم) بحرف الفاء دليل على أن العتو كان بعد قوله

فَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٤٤﴾ فَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُواْ مُنتَصِرِينَ ﴿٤٥﴾

(تمتعوا) فإذن الظاهر أن المراد هو ماقدر الله للناس من الآجال ، فما من أحد إلا وهو يمهل مدة الأجل يقول له تمتع إلى آخر أجلك فان أحسنت فقد حصل لك التمتع فى الدارين . وإلا فمالك فى الآخرة من نصيب .

وقوله ﴿ فعتوا عن أمر ربهم فأخذتهم الصاعقة وهم ينظرون ﴾ فيه بحث وهو أن عتا يستعمل بعلى قال تعالى (أيهم أشد على الرحمن عتياً) وههنا استعمل مع كلمة عن فنقول فيه معنى الاستعناء بحيث قال تعالى (عن أمرهم ربهم) كان كقوله (لا يستكبرون عن عبادته) وحيث قال على كان كقول القائل . فلان يتكبر علينا . والصاعقة فيه وجهان ذكرناهما هنا (أحدهما) أنها الواقعة (والثانى) الصوت الشديد وقوله (وهم ينظرون) إشارة إلى أحد معنيين إما بمعنى تسليمهم وعدم قدرتهم على الدفع كما يقول القائل للمضروب يضربك فلان وأنت تنظر إشارة إلى أنه لا يدفع ، وأما بمعنى أن العذاب أتاهم لا على غفلة بل أنذروا به من قبل بثلاثة أيام وانتظروه ، ولو كان على غفلة لكان لمتوهم أن يتوهم أنهم أخذوا على غفلة أخذ العاجل المحتاج ، كما يقول المبارز الشجاع أخبرتك بقصدى إياك فانتظرنى .

قوله تعالى : ﴿ فما استطاعوا من قيام ﴾ يحتمل وجهين (أحدهما) أنه لبيان عجزهم عن الهرب والفرار على سبيل المبالغة ، فإن من لا يقدر على قيام كيف يمشى فضلا عن أن يهرب ، وعلى هذا فيه لطائف لفظية (إحداها) قوله تعالى (فما استطاعوا) فإن الاستطاعة دون القدرة ، لأن فى الاستطاعة دلالة الطلب وهو ينبىء عن عدم القدرة والاستقلال ، فمن استطاع شيئاً كان دون من يقدر عليه ، ولهذا يقول المتكلمون الاستطاعة مع الفعل أو قبل الفعل إشار إلى قدرة مطلوبة من الله تعالى مأخوذة منه وإليه الإشارة بقوله تعالى (هل يستطيع ربك) على قراءة من قرأ بالتاء وقوله (فما استطاعوا) أبلغ من قول القائل ماقدروا على قيام (ثانيها) قوله تعالى (من قيام) بزيادة من ، وقد عرفت مافيه من التأكيد (ثالثها) قوله (قيام) بدل قوله هرب لما بينا أن العاجز عن القيام أولى أن يعجز عن الهرب (الوجه الثانى) هو أن المراد من قيام القيام بالأمر ، أى ما استطاعوا من قيام به .

قوله تعالى : ﴿ وما كانوا منتصرين ﴾ أى ما استطاعوا الهزيمة والهرب ، ومن لا يقدر عليه يقاتل وينتصر بكل ما يمكنه لأنه يدفع عن الروح وهم مع ذلك ماكانوا منتصرين ، وقد عرفت أن قول القائل ماهو بمنتصر أبلغ من قوله ما انتصر ولا ينتصر والجواب ترك مع كونه يجب تقديره وقوله

وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٤٦﴾ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾

(ما انتصر) أى لشىء من شأنه ذلك ، كما تقول فلان لا ينصر أو فلان ليس ينصر .

قوله تعالى : ﴿ وقوم نوح من قبل إنهم كانوا قوماً فاسقين ﴾ قرىء (قوم) بالجر والنصب فما وجههما ؟ نقول أما الجر فظاهر عطفاً على ماتقدم فى قوله تعالى وفى عاد وفى موسى ، تقول لك فى فلان عبرة وفى فلان وفلان ، وأما النصب فعلى تقدير : وأهلكنا قوم نوح من قبل ، لأن ما تقدم دل على الهلاك فهو عطف على المحل ، وعلى هذا فقوله (من قبل) معناه ظاهر كأنه يقول (وأهلكنا قوم نوح من قبل) وأما على الوجه الأول فتقديره : وفى قوم نوح لكم عبرة من قبل ثمود وعاد وغيرهم .

قوله تعالى : ﴿ والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون ﴾ وهو بيان للوحدانية ، وما تقدم كان بياناً للحشر .

وأما قوله ههنا (والسماء بنيناها بأيد) وأنتم تعرفون أن ما تعبدون من دون الله ماخلقوا منها شيئاً فلا يصح الإشراك ، ويمكن أن يقال هذا عود بعد التهديد إلى إقامة الدليل ، وبناء السماء دليل على القدرة على خلق الأجسام ثانياً ، كما قال تعالى (أو ليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم) وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ النصب على شريطة التفسير يختار فى مواضع ، وإذا كان العطف على جملة فعليه فما تلك الجملة ؟ نقول فى بعض الوجوه التى ذكرناها فى قوله تعالى (وفى عاد وثمود) تقديره وهل أتاك حديث عاد وهل أتاك حديث ثمود ، عطفاً على قوله (هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين) وعلى هذا يكون ماتقدم جملة فعلية لاخفاء فيه ، وعلى غير ذلك الوجه فالجار والمجرور النصب أقرب منه إلى الرفع فكان عطفاً على ما بالنصب أولى ، ولأن قوله تعالى (فنبذناهم) وقوله (أرسلنا) وقوله تعالى (فأخذتهم الصاعقة) و (فما استطاعوا) كلها فعليات فصار النصب مختاراً .

﴿ المسألة الثانية ﴾ كرر ذكر البناء فى السموات ، قال تعالى (والسماء وما بناها) وقال تعالى (أم السماء بناها) وقال تعالى (جعل الأرض قراراً والسماء بناء) فما الحكمة فيه ؟ نقول فيه وجوه (أحدها) أن البناء باق إلى قيام القيامة لم يسقط منه شىء ولم يعدم منه جزء ، وأما الأرض فهى فى التبدل والتغير فهى كالفرش الذى يبسط ويطوى وينقل ، والسماء كالبناء المبنى الثابت ، وإليه الإشارة بقوله تعالى (سبعاً شداداً) وأما الأراضى فكم منها ماصار بحراً وعاد أرضاً من وقت

حدوثها (ثانيها) أن السماء ترى كالقبة المبنية فوق الرءوس ، والأرض مبسوطة مدحوة والبناء بالمرفوع أليق ،كما قال تعالى (رفع سمكها) (ثالثها) قال بعض الحكماء : السماء مسكن الأرواح والأرض موضع الأعمال والمسكن أليق بكونه بناء والله أعلم .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ الأصل تقديم العامل على المعمول والفعل هو العامل فقوله (بنينا) عامل فى السماء ، فما الحكمة فى تقديم المفعول على الفعل ولو قال : وبنينا السماء بأيد ،كان أوجز ؟ نقول الصانع قبل الصنع عند الناظر فى المعرفة ، فلما كان المقصود إثبات العلم بالصانع ، قدم الدليل فقال والسماء المزينة التى لاتشكون فيها بنيناها فاعرفونا بها إن كنتم لاتعرفوننا .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ إذا كان المقصود إثبات التوحيد ، فكيف قال (بنيناها) ولم يقل بنيتها أو بناها الله ؟ نقول قوله (بنينا) أدل على عدم الشريك فى التصرف والاستبداد وقوله بنيتها يمكن أن يكون فيه تشريك ، وتمام التقرير هو أن قوله تعالى (بنيناها) لا يورث إيهاماً بأن الآلهة التى كانوا يعبدونها هى التى يرجع إليها الضمير فى (بنيناها) لأن تلك إما أصنام منحوتة وإما كواكب اجعلوا الأصنام على صورها وطبائعها ، فأما الأصنام المنحوتة فلا يشكون أنها ما بنت من السماء شيئاً ، وأما الكواكب فهى فى السماء محتاجة إليها فلا تكون هى بانيتها ، وإنما يمكن أن يقال إنما بنيت لها وجعلت أماكنها ، فلما لم يتوهم ماقالوا قال بنينا نحن ونحن غير ما يقولون ويدعونه فلا يصلحون لنا شركا. لأن كل ماهو غير السماء ودون السماء فى المرتبة فلا يكون خالق السماء وبانيها . فإذن علم أن المراد جمع التعظيم وأفاد النص عظمته ، فالعظمة أنفى للشريك فثبت أن قوله (بنيناها) أدل على نفى الشريك من بنيتها وبناها الله .

فإن قيل : لم قلت إن الجمع يدل على التعظيم ؟ قلنا الجواب من الوجهين (الأول) أن الكلام على قدر فهم السامع ، والسامع هو الإنسان ، والإنسان يقيس الشاهد على الغائب ، فإن الكبير عندهم من يفعل الشيء بجنده وخدمه ولا يباشر بنفسه ، فيقول الملك فعلنا أى فعله عبادنا بأمرنا ويكون فى ذلك تعظيم ، فكذلك فى حق الغائب (الوجه الآخر) هو أن القول إذا وقع من واحد وكان الغير به راضياً يقول القائل فعلنا كذا وإذا اجتمع جمع على فعل لا يقع إلا بالبعض ، كما إذا خرج جم غفير وجمع كثير لقتل سبع وقتلوه يقال قتله أهل بلدة كذا لرضا الكل به وقصد الكل إليه ، إذا عرفت هذا فالله تعالى كيفما أمر بفعل شيء لايكون لأحد رده وكان كل واحد منقاداً له ، يقول بدل فعلت فعلنا ، ولهذا الملك العظيم أجمعنا بحيث لاينكره أحد ولا يرده نفس ، وقوله تعالى (بأيد) أى قوة والأيد القوة هذا هو المشهور وبه فسر قوله تعالى (ذا الأيد إنه أواب) يحتمل أن يقال إن المراد جمع اليد ، ودليله أنه قال تعالى (لما خلقت بيدى) وقال تعالى (مما عملت أيدينا أنعاماً) وهو راجع فى الحقيقة إلى المعنى الأول وعلى هذا فحيث قال (خلقت) قال (بيدى) وحيث قال (بنينا) قال (بأيد) لمقابلة الجمع بالجمع ، فإن قيل فلم لم يقل بنيناها بأيدينا وقال (مما عملت أيدينا) ؟ نقول لفائدة

وَٱلۡأَرۡضَ فَرَشۡنَٰهَا فَنِعۡمَ ٱلۡمَٰهِدُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِن كُلِّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَا زَوۡجَيۡنِ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾

جليلة ، وهي أن السماء لا يخطر ببال أحد أنها مخلوقة لغير الله والأنعام ليست كذلك ، فقال هناك (مما عملت أيدينا) تصريحاً بأن الحيوان مخلوق لله تعالى من غير واسطة وكذلك (خلقت بيدى) وفي السماء (بأيد) من غير إضافة للاستغناء عنها وفيه لطيفة أخرى وهي أن هناك لما أثبت الاضافة بعد حذف الضمير العائد إلى المفعول ، فلم يقل خلقته بيدى ولا قال عملته أيدينا وقال ههنا (بنيناها) لأن هناك لم يخطر ببال أحد أن الإنسان غير مخلوق وأن الحيوان غير معمول فلم يقل خلقته ولا عملته وأما السماء فبعض الجهال يزعم أنها غير مجعولة فقال (بنيناها) بعود الضمير تصريحا بأنها مخلوقة .

قوله تعالى : ﴿ وإنا لموسعون ﴾ فيه وجوه (أحدها) أنه من اسعة أى أو سعناها بحيث صارت الأرض وما يحيط بها من الماء والهواء بالنسبة إلى السماء وسعتها كحلقة في فلاة ، والبناء الواسع الفضاء عجيب فان القبة الواسعة لا يقدر عليها البناءون لأنهم يحتاجون إلى إقامة آلة يصح بها استدراتها ويثبت بها تماسك أجزائها إلى أن يتصل بعضها ببعض (ثانيها) قوله (وإنا لموسعون) أى لقادرون ومنه قوله تعالى (لا يكلف الله نفساً إلا وسعها) أى قدرتها والمناسبة حينئذ ظاهرة ، ويحتمل أن يقال بأن ذلك حينئذ إشارة إلى المقصود الآخر وهو الحشر كأنه يقول : بنينا السماء ، وإنا لقادرون على أن نخلق أمثالها ، كما في قوله تعالى (أوليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم) (ثالثها) (إنا لموسعون) الرزق على الخلق .

قوله تعالى : ﴿ والأرض فرشناها فنعم الماهدون ﴾ استدلالا بالأرض وقد علم ما في قوله (والأرض فرشناها) وفيه دليل على أن دحو الأرض بعد خلق السماء ، لأن بناء البيت يكون في العادة قبل الفرش ، وقوله تعالى (فنعم الماهدون) أى نحن أو فنعم الماهدون ماهدوها .

قوله تعالى : ﴿ ومن كل شيء خلقنا زوجين ﴾ استدلالا بما بينهما والزوجان إما الضدان فان الذكر والأنثى كالضدين والزوجان منهما كذلك ، وإما المتشاكلان فان كل شيء له شبيه ونظير وضد وند ، قال المنطقيون المراد بالشيء الجنس وأقل ما يكون تحت الجنس نوعان فمن كل جنس خلق نوعين من الجوهر مثلا المادى والمجرد ، ومن المادى النامى والجامد ومن النامى المدرك والنبات من المدرك للناطق والصامت ، وكل ذلك يدل على أنه فرد لا كثرة فيه .

قوله تعالى : ﴿ لعلكم تذكرون ﴾ أي لعلكم تذكرون أن خالق الأزواج لا يكون له زوج وإلا لكان ممكنا فيكون مخلوقا ولا يكون خالقاً ، أو (لعلكم تذكرون) أن خالق الأزواج لا يعجز عن حشر الأجسام وجمع الأرواح .

﴿ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾

ثم قال تعالى ﴿ففروا إلى الله إنى لكم منه نذير مبين﴾ أمر بالتوحيد، وفيه لطائف (الأولى) قوله تعالى (ففروا) ينبيء عن سرعة الإهلاك كأنه يقول الإهلاك والعذاب أسرع وأقرب من أن يحتمل الحال الإبطاء فى الرجوع، فافزعوا إلى الله سريعا وفروا (الثانية) قوله تعالى (إلى الله) بيان المهروب إليه ولم يذكر الذى منه الهرب لأحد وجهين، إما لكونه معلوما وهو هول العذاب أو الشيطان الذى قال فيه (إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدواً) وإما ليكون عاما كأنه يقول : كل ماعدا الله عدوكم ففروا إليه من كل ماعداه، وبيانه وهو أن كل ماعداه فانه يتلف عليك رأس مالك الذى هو العمر، ويفوت عليك ماهو الحق والخير، ومتلف رأس المال مفوت الكمال عدو، وأما إذا فررت إلى الله وأقبلت على الله فهو يأخذ عمرك ولكن يرفع أمرك ويعطيك بقاء لافناء معه (والثالثة) الفاء للترتيب معناه إذا ثبت أن خالق الزوجين فرد ففروا إليه واتركوا غيره تركا مؤبداً (الرابعة) فى تنوع الكلام فائدة وبيانها هو أن الله تعالى قال (والسماء بنيناها والأرض فرشناها) ومن كل شيء خلقنا، ثم جعل الكلام للنبى عليه السلام وقال (ففروا إلى الله إنى لكم منه نذير مبين) ولم يقل ففروا إلينا، وذلك لأن لاختلاف الكلام تأثيراً، وكذلك لاختلاف المتكلمين تأثيراً، ولهذا يكثر الإنسان من النصائح مع ولده الذى حاد عن الجادة، ويجعل الكلام مختلفا، نوعا ترغيبا ونوعا ترهيبا، وتنبيها بالحكاية، ثم يقول لغيره تكلم معه لعل كلامك ينفع، لما فى أذهان الناس أن اختلاف المتكلمين واختلاف الكلام كلاهما مؤثر، والله تعالى ذكر أنواعا من الكلام وكثيراً من الاستدلالات والآيات وذكر طرفا صالحاً من الحكايات، ثم ذكر كلاما من متكلم آخر هو النبى ﷺ، ومن المفسرين من يقول تقديره فقل لهم ففروا وقوله (إنى لكم منه نذير) إشارة إلى الرسالة.

وفيه أيضاً لطائف (إحداها) أن الله تعالى بين عظمته بقوله (والسماء بنيناها) (والأرض فرشناها) وهيبته بقوله (فنبذناهم فى اليم) وقوله تعالى (أرسلنا عليهم الريح العقيم) وقوله (فأخذتهم الصاعقة) وفيه إشارة إلى أنه تعالى إذا عذب قدر على أن يعذب بما به البقاء والوجود وهو التراب والماء والهواء والنار، فحكايات لوط تدل على أن التراب الذى منه الوجود والبقاء إذا أراد الله جعله سبب الفناء والماء كذلك فى قوم فرعون والهواء فى عاد والنار فى ثمود، ولعل ترتيب الحكايات الأربع للترتيب الذى فى العناصر الأربعة وقد ذكرنا فى سورة العنكبوت شيئا منه، ثم إذ أبان عظمته وهيبته قال لرسوله عرفهم الحال وقل أنا رسول بتقديم الآيات وسرد الحكايات فلاردافه بذكر الرسول فائدة (ثانيها) فى الرساله أمور ثلاثة المرسل والرسول والمرسل إليه وههنا ذكر الكل، فقوله (لكم) إشارة إلى المرسل إليهم وقوله (منه) إشارة إلى المرسل وقوله (نذير) بيان للرسول، وقدم المرسل إليه فى الذكر، لأن المرسل إليه أدخل فى أمر الرسالة

وَلَا تَجْعَلُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ ۖ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥١﴾ كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾

لأن عنده يتم الأمر ، والملك لو لم يكن هناك من يخالفه أو يوافقه فيرسل إليه نذيراً أو بشيراً لا يرسل وإن كان ملكا عظيما ، وإذا حصل المخالف أو الموافق يرسل وإن كان غير عظيم ، ثم المرسل لأنه متعين وهو الباعث ، وأما الرسول فباختياره ، ولولا المرسل المتعين لما تمت الرسالة ، وأما الرسول فلا يتعين ، لأن للملك اختيار من يشاء من عباده ، فقال (منه) ثم قال (نذير) تأخيراً للرسول عن المرسل (ثالثها) قوله (مبين) إشارة إلى ما به تعرف الرسالة ، لأن كل حادث له سبب وعلامة ، فالرسول هو الذى به تتم الرسالة ، ولا بد له من علامة يعرف بها ، فقوله (مبين) إشارة إليها وهى إما البرهان والمعجزة .

قوله تعالى : ﴿ ولا تجعلوا مع الله إلهاً آخر ﴾ إتماماً للتوحيد ، وذلك لأن التوحيد بين التعطيل والتشريك ، وطريقة التوحيد هى الطريقة ، فالمعطل يقول لا إله أصلا ، والمشرك يقول فى الوجود آلهة ، والموحد يقول قوله الإثنين باطل ، نفى الواحد باطل ، فقوله تعالى (ففروا إلى الله) أثبت وجود الله ، ولما قال (ولا تجعلوا مع الله إلهاً آخر) نفى الأكثر من الواحد فصح التوحيد بالآيتين ، ولهذا قال مرتين ﴿إنى لكم منه نذير مبين﴾ أى فى المقامين والموضعين ، وقد ذكرنا مراراً أن المعطل إذا قال لا واجب يجعل الكل ممكناً ، فإن كل موجود ممكن ، ولكن الله فى الحقيقة موجود ، فقد جعله فى تضاعيف قوله كالممكنات فقد أشرك ، وجعل الله كغيره ، والمشرك لما قال بأن غيره إله يلزم من قوله نفى كون الإله إلهاً لما ذكرنا فى تقرير دلالة التمانع مع أنه لو كان فيهما آلهة إلا الله الزم عجز كل واحد ، فلا يكون فى الوجود إله أصلا . فيكون نافياً للإلهية ، فيكون معطلا ، فالمعطل مشرك ، والمشرك معطل ، وكل واحد من الفريقين معترف بأن خصمه مبطل ، لكنه هو على مذهب خصمه يقول إنه نفسه مبطل وهو لا يعلم ، والحمد لله الذى هدانا ، وقوله (ولا تجعلوا) فيه لطيفة ، وهى أنه إشارة إلى أن الآلهة مجعولة ، لا يقال فالله متخذ لقوله (فاتخذه وكيلا) قلنا (الجواب) عنه الظاهر ، وقد سبق فى قوله تعالى (واتخذوا من دون الله آلهة) .

قوله تعالى : ﴿ كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون ﴾ .

والتفسير معلوم مما سبق ، وقد ذكرنا أنه يدل على أن ذكر الحكايات للتسلية ، غير أن فيه لطيفة واحدة لا نتركها ، وهى أن هذه الآية دليل على أن كل رسول كذب ، وحينئذ يرد عليه أسئلة (الأول) هو أنه من الأنبياء من قرر دين النبي الذى كان قبله ، وبقى القوم على ما كانوا عليه

أَتَوَاصَوْاْ بِهِۦ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ﴿٥٤﴾

كأنبياء بنى إسرائيل مدة ، وكيف وآدم لما أرسل لم يكذب (الثانى) ما الحكمة فى تقدير الله تكذيب الرسل ، ولم يرسل رسولا مع كثرتهم واختلاف معجزاتهم بحيث يصدقه أهل زمانه ؟ (الثالث) قوله (ما أتى . . . إلا قالوا) دليل على أنهم كلهم قالوا ساحر ، وليس كذلك لأنه ما من رسول إلا وآمن به قوم ، وهم ماقالوا ذلك (والجواب عن الأول) هو أن نقول ، أما المقرر فلا نسلم أنه رسول ، بل هو نبى على دين رسول ، ومن كذب رسوله فهو مكذبه أيضاً ضرورة . (وعن الثانى) هو أن الله لايرسل إلا عند حاجة الخلق ، وذلك عند ظهور الكفار فى العالم ، ولا يظهر الكفر إلا عند كثرة الجهل ، ثم إن الله تعالى لا يرسل رسولا مع كون الإيمان به ضروريا ، وإلا لكان الإيمان به إيمان اليأس فلا يقبل ، والجاهل إذا لم يكن المبين له فى غاية الوضوح لا يقبله فيبقى فى ورطة الضلالة ، فهذا قدر لزم بقضاء الله على الخلق على هذا الوجه ، وقد ذكرنا مرة أخرى أن بعض الناس يقول : كل ماهو قضاء الله فهو خير ، والشر فى القدر ، فالله قضى بأن النار فيها مصلحة للناس لأنها نور ، ويجعلونها متاعاً فى الأسفار وغيرها كما ذكر الله ، والماء فيه مصلحة الشرب ، لكن النار إنما تتم مصلحتها بالحرارة البالغة والماء بالسيلان القوى ، وكونهما كذلك يلزمهما بإجراء الله عادته عليهما أن يحرق ثوب الفقير ، ويغرق شاة المسكين ، فالمنفعة فى القضاء والمضرة فى القدر ، وهذا الكلام له غور ، والسنة أن نقول (يفعل الله ما يشاء ، ويحكم ما يريد) (وعن الثالث) أن ذلك ليس بعام ، فإنه لم يقل إلا قال كلهم ، وإنما قال (إلا قالوا) ولما كان كثير منهم ، بل أكثرهم قائلين به ، قال الله تعالى (إلا قالوا) فإن قيل : فلم لم يذكر المصدقين ، كما ذكر المكذبين ، وقال إلا قال بعضهم صدقت ، وبعضهم كذبت ؟ نقول لأن المقصود التسلية وهى على التكذيب ، فكأنه تعالى قال : لاتأس على تكذيب قومك ، فإن أقواماً قبلك كذبوا ، ورسلا كذبوا .

قوله تعالى : ﴿ أتواصوا به بل هم قوم طاغون ﴾ أى بذلك القول ، وهو قولهم (ساحر أو مجنون) ومعناه التعجيب ، أى كيف اتفقوا على قول واحد كأنهم تواطئوا عليه ، وقال بعضهم لبعض : لاتقولوا إلا هذا ، ثم قال : لم يكن ذلك عن التواطؤ ، وإنما كان لمعنى جامع هو أن الكل أترفوا فاستغنوا فنسوا الله وطغوا فكذبوا رسله ، كما أن الملك إذا أمهل أهل بقعة ، ولم يكلفهم بشىء ، ثم قعد بعد مدة وطلبهم إلى بابه يصعب عليهم لاتخاذهم القصور والجنان ، وتحسين بلادهم من الوجوه الحسان ، فيحملهم ذلك على العصيان ، والقول بطاعة ملك آخر .

قوله تعالى : ﴿ فتول عنهم فما أنت بملوم ﴾ هذه تسلية أخرى ، وذلك لأن النبى صلى الله عليه وسلم كان من كرم الأخلاق ينسب نفسه إلى تقصير ، ويقول إن عدم إيمانهم لتقصيرى فى التبليغ

وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾

فيجتهد فى الإنذار والتبليغ ، فقال تعالى : قد أتيت بما عليك ، ولا يضرك التولى عنهم ، وكفرهم ليس لتقصير منك ، فلا تحزن فإنك لست بملوم بسبب التقصير ، وإنما هم الملومون بالإعراض والعناد .

قوله تعالى : ﴿ وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين ﴾ يعنى ليس التولى مطلقاً ، بل تول وأقبل وأعرض وادع ، فلا التولى يضرك إذا كان عنهم ، ولا التذكير ينفع إلا إذا كان مع المؤمنين ، وفيه معنى آخر ألطف منه ، وهو أن الهادى إذا كانت هدايته نافعة يكون ثوابه أكثر ، فلما قال تعالى (فتول) كان يقع لمتوهم أن يقول ، فحينئذ لا يكون للنبى صلى الله عليه وسلم ثواب عظيم ، فقال بلى وذلك لأن فى المؤمنين كثرة ، فإذا ذكرتهم زاد هداهم ، وزيادة الهدى من قوله كزيادة القوم ، فإن قوماً كثيراً إذا صلى كل واحد ركعة أو ركعتين ، وقوماً قليلا إذا صلى كل واحد ألف ركعة تكون العبادة فى الكثرة كالعبادة عن زيادة العدد ، فالهادى له على عبادة كل مهتد أجر ، ولا ينقص أجر المهتدى ، قال تعالى (إن لك لأجراً) أى وإن توليت بسبب انتفاع المؤمنين بل وحالة إعراضك عن المعاندين ، وقوله تعالى (فإن الذكرى تنفع المؤمنين) يحتمل وجوهاً : (أحدها) أن يراد قوة يقينهم كما قال تعالى (ليزدادوا إيماناً) وقال تعالى (فأما الذين آمنوا فزادتهم إيمانا) وقال تعالى (زادهم هدى وآتاهم تقواهم) (ثانيها) تنفع المؤمنين الذين بعدك فكأنك إذا أكثرت التذكير بالتكرير نقل عنك ذلك بالتواتر فينتفع به من يجىء بعدك من المؤمنين (ثالثها) هو أن الذكرى إن أفاد إيمان كافر فقد نفع مؤمناً لأنه صار مؤمناً ، وإن لم يفد يوجد حسنة ويزاد فى حسنة المؤمنين فينتفعوا ، وهذا هو الذى قيل فى قوله تعالى (تلك الجنة التى أورثتموها) .

قوله تعالى : ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾ وهذه الآية فيها فوائد كثيرة ، ولنذكرها على وجه الاستقصاء ، فنقول أما تعلقها بما قبلها فلوجوه (أحدها) أنه تعالى لما قال (وذكر) يعنى أقصى غاية التذكير وهو أن الخلق ليس إلا للعبادة ، فالمقصود من إيجاد الإنسان العبادة فذكرهم به وأعلمهم أن كل ماعداه تضييع الزمان (الثانى) هو أنا ذكرنا مراراً أن شغل الأنبياء منحصر فى أمرين عبادة الله وهداية الخلق ، فلما قال تعالى (فتول عنهم فما أنت بملوم) بين أن الهداية قد تسقط عند اليأس وعدم المهتدى ، وأما العبادة فهى لازمة والخلق المطلق لها وليس الخلق المطلق للهداية ، فما أنت بملوم إذا أتيت بالعبادة التى هى أصل إذا تركت الهداية بعد بذل الجهد فيها (الثالث) هو أنه لما بين حال من قبله من التكذيب ، ذكر هذه الآية ليبين سوء

صنيعهم حيث تركوا عبادة الله فما كان خلقهم إلا للعبادة ، وأما التفسير ففيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ الملائكة أيضاً من أصناف المكلفين ولم يذكرهم الله مع أن المنفعة الكبرى في إيجاده لهم هي العبادة ولهذا قال (بل عباد مكرمون) وقال تعالى (لا يستكبرون عن عبادته) فما الحكمة فيه ؟ نقول : الجواب عنه من وجوه (الأول) قد ذكرنا في بعض الوجوه أن تعلق الآية بما قبلها بيان قبح ما يفعله الكفرة من ترك ما خلقوا له ، وهذا مختص بالجن والإنس لأن الكفر في الجن أكثر ، والكافر منهم أكثر من المؤمن لما بينا أن المقصود بيان قبحهم وسوء صنيعهم (الثاني) هو أن النبي ﷺ كان مبعوثاً إلى الجن ، فلما قال وذكرهم مايذكر به وهو كون الخلق للعبادة خص أمته بالذكر أي ذكر الجن والإنس (الثالث) أن عباد الأصنام كانوا يقولون بأن الله تعالى عظيم الشأن خلق الملائكة وجعلهم مقربين فهم يعبدون الله وخلقهم لعبادته ونحن لنزول درجتنا لا نصلح لعبادة الله فنعبد الملائكة وهم يعبدون الله ، فقال تعالى (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) ولم يذكر الملائكة لأن الأمر فيهم كان مسلماً بين القوم فذكر المتنازع فيه (الرابع) قيل الجن يتناول الملائكة لأن الجن أصله من الاستتار وهم مستترون عن الخلق ، وعلى هذا فتقديم الجن لدخول الملائكة فيهم وكونهم أكثر عبادة وأخلصها (الخامس) قال بعض الناس كلما ذكر الله الخلق كان فيه التقدير في الجرم والزمان قال تعالى (خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام) وقال تعالى (خلق الأرض في يومين) وقال (خلقت بيدى) إلى غير ذلك ، وما لم يكن ذكره بلفظ الأمر قال تعالى (إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون) وقال (قل الروح من أمر ربى) وقال تعالى (ألا له الخلق والأمر) والملائكة كالأرواح من عالم الأمر أوجدهم من غير مرور زمان فقوله (وما خلقت) إشارة إلى من هو من عالم الخلق فلا يدخل فيه الملائكة ، وهو باطل لقوله تعالى (خالق كل شيء) فالملك من عالم الخلق .

﴿ المسألة الثانية ﴾ تقديم الجن على الإنس لأية حكمة ؟ نقول فيه وجوه (الأول) بعضها مر في المسألة الأولى (الثاني) هو أن العبادة سرية وجهرية ، وللسرية فضل على الجهرية لكن عبادة الجن سرية لا يدخلها الرياء العظيم ، وأما عبادة الإنس فيدخلها الرياء فإنه قد يعبد الله لابناء جنسه ، وقد يعبد الله ليستخبر من الجن أو مخافة منهم ولا كذلك الجن .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ فعل الله تعالى ليس لغرض وإلا لكان بالغرض مستكملا وهو في نفسه كامل فكيف يفهم لأمر الله الغرض والعلة ؟ نقول المعتزلة تمسكوا به ، وقالوا أفعال الله تعالى لأغراض وبالغوا في الإنكار على منكرى ذلك ، ونحن نقول فيه وجوه (الأول) أن التعليل لفظي ومعنوى ، واللفظي ما يطلق الناظر إليه اللفظ عليه وإن لم يكن له في الحقيقة ، مثاله إذا خرج ملك من بلاده ودخل بلاد العدو وكان في قلبه أن يتعب عسكر نفسه لا غير ، ففي المعنى المقصود ذلك ، وفي اللفظ لا يصح ولو قال هو أنا ما سافرت إلا لابتغاء أجر أو لاستفيد حسنة يقال

هذا ليس بشيء ولا يصح عليه ، ولو قال قائل فى مثل هذه الصورة خرج ليأخذ بلاد العدو وليرهبه لصدق ، فالتعليل اللفظى هو جعل المنفعه المعتبرة علة للفعل الذى فيه المنفعة ، يقال اتجر الربح ، وإن لم يكن فى الحقيقة له ، إذا عرفت هذا ، فنقول الحقائق غير معلومة عند الناس ، والمفهوم من النصوص معانيها اللفظية لكن الشيء إذا كان فيه منفعة يصح التعليل بها لفظاً والنزاع فى الحقيقة فى اللفظ (الثانى) هو أن ذلك تقدير كالتمنى والترجى فى كلام الله تعالى وكأنه يقول العبادة عند الخلق شيء لو كان ذلك من أفعالكم لقلتم إنه لها ، كما قلنا فى قوله تعالى (لعله يتذكر) أى بحيث يصير تذكره عندكم مرجواً وقوله (عسى ربكم أن يهلك عدوكم) أى يصير إهلاكه عندكم مرجواً تقولون إنه قرب (الثانى) هو أن اللام قد تثبت فيما لا يصح غرضاً كما فى الوقت قال تعالى (أقم الصلاة لدلوك الشمس) وقوله تعالى (فطلقوهن لعدتهن) والمراد المقارنة ، وكذلك فى جميع الصور وحينئذ يكون معناه قرنت الخلق بالعبادة أى بفرض العبادة أى خلقتهم وفرضت عليهم العبادة ، والذى يدل على عدم جواز التعليل الحقيقى هو أن الله تعالى مستغن عن المنافع فلا يكون فعله لمنفعة راجعة إليه ولا إلى غيره ، لأن الله تعالى قادر على إيصال المنفعة إلى الغير من غير واسطة العمل فيكون توسط ذلك لا يكون علة ، وإذا لزم القول بأن الله تعالى يفعل فعلا هو لمتوسط لا لعلة لزمهم المسألة ، وأما النصوص فأكثر من أن تعد وهى على أنواع ، منها مايدل على أن الإضلال بفعل الله كقوله تعالى (يضل من يشاء) وأمثاله ومنها مايدل على أن الأشياء كلها بخلق الله كقوله تعالى (خالق كل شيء) ومنها الصرايح التى تدل على عدم ذلك ، كقوله تعالى (لا يسأل عما يفعل) وقوله تعالى (يفعل الله مايشاء ويحكم مايريد) والاستقصاء مفوض فيه إلى المتكلم الأصولى لا إلى المفسر .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قال تعالى (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا) وقال (ليعبدون) فهل بينها اختلاف ؟ نقول ليس كذلك فان الله تعالى علل جعلهم شعوباً بالتعارف ، وههنا علل خلقهم بالعبادة وقوله هناك (أكرمكم عند الله أتقاكم) دليل على ماذكره ههنا وموافق له ، لأنه إذا كان أتقى كان أعبد وأخلص عملا ، فيكون المطلوب منه أتم فى الوجود فيكون أكرم وأعز ، كالشيء الذى منفعته فائدة ، وبعض أفراده يكون أنفع فى تلك الفائدة ، مثاله الماء إذا كان مخلوقاً للتطهير والشرب فالصافى منه أكثر فائدة فى تلك المنفعة فيكون أشرف من ماء آخر ، فكذلك العبد الذى وجد فيه ماهو المطلوب منه على وجه أبلغ .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ ما العبادة التى خلق الجن والإنس لها ؟ قلنا : التعظيم لأمر الله والشفقة على خلق الله ، فإن هذين النوعين لم يخل شرع منهما ، وأما خصوص العبادات فالشرائع مختلفة فيها بالوضع والهيئة والقلة والكثرة والزمان والمكان والشرائط والأركان ، ولما كان التعظيم اللائق بذى الجلال والإكرام لا يعلم عقلا لزم اتباع الشرائع فيها والأخذ بقول الرسل عليهم السلام فقد أنعم

مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾

الله على عباده بإرسال الرسل وإيضاح السبل فى نوعى العبادة ، وقيل إن معناه ليعرفونى ، روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال عن ربه « كنت كنزاً مخفياً فأردت أن أعرف » .

قوله تعالى : ﴿ ماأريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون ﴾ وفيه جواب سؤال وهو أن الخلق للغرض ينبىء عن الحاجة ، فقال ماخلقتهم ليطعمون والنفع فيه لهم لا لى ، وذلك لأن منفعة العبد فى حق السيد أن يكتسب له ، إما بتحصيل المال له أو بحفظ المال عليه ، وذلك لأن العبد إن كان للكسب فغرض التحصيل فيه ظاهر ، وإن كان للشغل فلولا العبد لاحتاج السيد إلى استئجار من يفعل الشغل له فيحتاج إلى إخراج مال ، والعبد يحفظ ماله عليه ويغنيه عن الإخراج فهو نوع كسب فقال تعالى (ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون) أى لست كالسادة فى طلب العبادة بل هم الرابحون فى عبادتهم ، وفيه وجه آخر وهو أن يقال هذا تقرير لكونهم مخلوقين للعبادة ، وذلك لأن الفعل فى العرف لابد له من منفعة ، لكن العبيد على قسمين قسم منهم يكون للعظمة والجمال كمماليك الملوك يطعمهم الملك ويسقيهم ويعطيهم الأطراف من البلاد ويؤتيهم الطراف بعد التلاد ، والمراد منهم التعظيم والمثول بين يديه ، ووضع اليمين على الشمال لديه ، وقسم منهم للانتفاع بهم فى تحصيل الأرزاق أو لإصلاحها فقال تعالى إنى خلقتهم فلابد فيهم من منفعة فليتفكروا فى أنفسهم هل هم من قبيل أن يطلب منهم تحصيل رزق وليسوا كذلك ، فما أريد منهم من رزق ، أو هل هم ممن يطلب منهم إصلاح قوت كالطباخ والخوانى الذى يقرب الطعام وليسوا كذلك فما أريد أن يطعمون ، فإذن هم عبيد من القسم الأول فينبغى أن لا يتركوا التعظيم ، وفيه لطائف نذكرها فى مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ ما الفائدة فى تكرار الإرادتين ، ومن لايريد من أحد رزقاً لايريد أن يطعمه ؟ نقول هو لما ذكرناه من قبل ، وهو أن السيد قد يطلب من العبد الكسب له ، وهو طلب الرزق منه ، وقد يكون للسيد مال وافر يستغنى عن الكسب لكنه يطلب منه قضاء حوائجه بماله من المال وإحضار الطعام بين يديه من ماله ، فالسيد قال لا أريد ذلك ولا هذا .

﴿ المسألة الثانية ﴾ لم قدم طلب الرزق على طلب الإطعام ؟ نقول ذلك من باب الارتقاء كقول القائل لاأطلب منك الإعانة ولا ممن هو أقوى ولا يعكس ، ويقال فلان يكرمه الأمراء بل السلاطين ولا يعكس ، فقال ههنا لا أطلب منكم رزقاً ولا ماهو دون ذلك وهو تقديم طعام بين يدى السيد فان ذلك أمر كثير الطلب من العباد وإن كان الكسب لا يطلب منهم .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ لو قال ماأريد منهم أن يرزقون وما أريد منهم من الطعام هل تحصل هذه الفائدة ؟ نقول على ما فصل لا وذلك لأن بالتكسب يطلب الغنى لا الفعل فان من اشتغل بشغل

إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾

ولم يحصل له غنى لا يكون كمن حصل له غنى ، وإن لم يشتغل ، كالعبد المتكسب إذا ترك الشغل لحاجته ووجد مطلباً يرضى منه السيد إذا كان شغله التكسب ، وأما من يراد منه الفعل لذات الفعل ، كالجائع إذا بعث عبده لإحضار الطعام فاشتغل بأخذ المال من مطلب فربما لا يرضى به السيد فالمقصود من الرزق الغنى ، فلم يقل بلفظ الفعل والمقصود من الإطعام الفعل نفسه فذكر بلفظ الفعل ، ولم يقل وما أريد منهم من طعام هذا مع ما فى اللفظين من الفصاحة والجزالة للتنويع .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ إذا كان المعنى به ماذكرت ، فما فائدة الإطعام وتخصيصه بالذكر مع أن المقصود عدم طلب فعل منهم غير التعظيم ؟ نقول لما عمم فى المطلب الأول اكتفى بقوله (من رزق) فإنه يفيد العموم ، وأشار إلى التعظيم فذكر الإطعام ، وذلك لأن أدنى درجات الأفعال أن تستعين السيد بعبده أو جاريته فى تهيئة أمر الطعام ، ونفى الأدنى يستتبعه نفى الأعلى بطريق الأولى فصار كأنه تعالى قال (ما أريد منهم) من عين ولا عمل .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ على ما ذكرت لا تنحصر المطالب فيما ذكره ، لأن السيد قد يشترى العبد لا لطلب عمل منه ولا لطلب رزق ولا للتعظيم ، بل تشتريه للتجارة والربح فيه ، نقول عموم قوله (ما أريد منهم من رزق) يتناول ذلك فإن من اشترى عبداً ليتجر فيه فقد طلب منه رزقاً .

﴿ المسألة السادسة ﴾ ما أريد فى العربية يفيد النفى فى الحال ، والتخصيص بالذكر يوهم نفى ماعدا المذكور ، لكن الله تعالى لا يريد منهم رزقاً لا فى الحال ولا فى الاستقبال ، فلم يقل لا أريد منهم من رزق ولا أريد ؟ نقول ما للنفى فى الحال ، ولا للنفى فى الاستقبال ، فالقائل إذا قال فلان لا يفعل هذا الفعل وهو فى الفعل لا يصدق ، لكنه إذا ترك مع فراغه من قوله يصدق القائل ، ولو قال ما يفعل لما صدق فيما ذكرنا من الصورة ، مثاله إذا كان الإنسان فى الصلاة وقال قائل إنه ما يصلى فانظر إليه فإذا كان نظر إليه الناظر وقد قطع صلاة نفسه صح أن يقول إنك لا تصلى ، ولو قال القائل إنه ما يصلى فى تلك الحالة لما صدق ، فإذا علمت هذا فكل واحد من اللفظين للنافية فيه خصوص لكن النفى فى الحال أولى لأن المراد من الحال الدنيا والاستقبال هو فى أمر الآخرة فالدنيا وأمورها كلها حالية فقوله (ما أريد) أى فى هذه الحالة الراهنة التى هى ساعة الدنيا ، ومن المعلوم أن العبد بعد موته لا يصلح أن يطلب منه رزق أو عمل فكان قوله (ما أريد) مفيداً للنفى العام ولو قال لا أريد لما أفاد ذلك .

قوله تعالى : ﴿ إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين ﴾ تعليلا لما تقدم من الأمرين ، فقوله هو الرزاق تعليل لعدم طلب الرزق وقوله تعالى (ذو القوة) تعليل لعدم طلب العمل ، لأن من يطلب رزقاً يكون فقيراً محتاجاً ومن يطلب عملا من غيره يكون عاجزاً لا قوة له ، فصار كأنه يقول ما أريد منهم من رزق فإنى أنا الرزاق ولا عمل فإنى قوى وفيه مباحث (الأول) قال (ما أريد) ولم يقل إنى

رزاق بل قال على الحكاية عن الغائب (إن الله) فما الحكمة فيه ؟ نقول قد روى أن النبى ﷺ قرأ (إنى أنا الرزاق) على ما ذكرت وأما القراءة المشهورة ففيها وجوه (الأول) أن يكون المعنى قل يا محمد (إن الله هو الرزاق) (الثانى) أن يكون ذلك من باب الإلتفات والرجوع من التكلم عن النفس إلى التكلم عن الغائب ، وفيه ههنا فائدة وهى أن اسم الله يفيد كونه رزاقاً وذلك لأن الإله بمعنى المعبود كما ذكرنا مراراً وتمسكنا بقوله تعالى (ويذرك وآلهتك) أى معبوديك وإذا كان الله هو المعبود ورزق للعبد استعمله فى غير الكسب إذ رزقه على السيد وههنا لما قال (ما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) فقد بين أنه استخلصهم لنفسه وعبادته وكان عليه رزقهم فقال تعالى (إن الله هو الرزاق) بلفظ الله الدال على كونه رزاقاً ، ولو قال إنى أنا الرزاق لحصلت المناسبة التى ذكرت ولكن لا يحصل ما ذكرنا (الثالث) أن يكون قل مضمراً عند قوله تعالى (ما أريد منهم) تقديره قل يا محمد (ما أريد منهم من رزق) فيكون بمعنى قوله (قل ما أسألكم عليه من أجر) ويكون على هذا قوله تعالى (إن الله هو الرزاق) من قول النبى ﷺ ولم يقل القوى ، بل قال (ذو القوة) وذلك لأن المقصود تقرير ما تقدم من عدم إرادة الرزق وعدم الاستعانة بالغير ، ولكن فى عدم طلب الرزق لا يكفى كون المستغنى بحيث يرزق واحداً فإن كثيراً من الناس يرزق ولده وغيره ويسترزق والملك يرزق الجند ويسترزق ، فإذا كثر منه الرزق قل منه الطلب ، لأن المسترزق ممن يكثر الرزق لا يسترزق من رزقه ، فلم يكن ذلك المقصود يحصل له إلا بالمبالغة فى وصف الرزق ، فقال (الرزاق) وأما ما يغنى عن الإستعانة بالغير فدون ذلك : وذلك لأن القوى إذا كان فى غاية القوة يعين الغير فاذا كان دون ذلك لا يعين غيره ولا يستعين به ، وإذا كان دون ذلك يستعين استعانة ما وتتفاوت بعد ذلك ، ولما قال (وما أريد أن يطعمون) كفاه بيان نفس القوة فقال (ذو القوة) إفادة معنى القوة دون القوى لأن ذا لا يقال فى الوصف اللازم البين فيقال فى الآدمى ذو مال ومتمول وذو جمال وجميل وذو خلق حسن وخليق إلى غير ذلك مما لا يلزمه لزوماً بيناً ، ولا يقال فى الثلاثة ذات فردية ولا فى الأربعة ذات زوجية ، ولهذا لم يرد فى الأوصاف الحقيقية التى ليست مأخوذة من الأفعال ولذا لم يسمع ذو الوجود وذو الحياة ولا ذو العلم ويقال فى الإنسان ذو علم وذو حياة لأنها عرض فيه عارض لا لازم بين ، وفى صفات الفعل يقال الله تعالى ذو الفضل كثيراً وذو الخلق قليلا لأن ذا كذا بمعنى صاحبه وربه والصحبة لا يفهم منها اللزوم فضلا عن اللزوم البين ، والذى يؤيد هذا هو أنه تعالى قال (وفوق كل ذى علم عليم) فجعل غيره ذا علم ووصف نفسه بالفعل فبين ذى العلم والعليم فرق وكذلك بين ذى القوة والقوى ، ويؤيده أيضاً أنه تعالى قال (فأخذهم الله إنه قوى شديد العقاب) وقال تعالى (الله لطيف بعباده يرزق من يشاء وهو القوى العزيز) وقال تعالى (لأغلبن أنا ورسل إن الله لقوى عزيز) لأن فى هذه الصور كان المراد بيان القيام بالأفعال العظيمة والمراد ههنا عدم الاحتياج ومن لا يحتاج إلى الغير يكفيه من القوة قدر ما ، ومن يقوم مستبداً

فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَـٰبِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ﴿٥٩﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٦٠﴾

بالفعل لا بد له من قوة عظيمة ، لأن عدم الحاجة قد يكون بترك الفعل والاستغناء عنه ، ولو بين هذا البحث فى معرض الجواب عن سؤال سائل عن الفرق بين قوله ذو القوة ههنا وبين قوله قوى فى تلك المواضع لكان أحسن ، فإن قيل فقد قال تعالى (ليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب إن الله قوى عزيز) وفيه ما ذكرت من المعنى وذلك لأن قوله قوى لبيان أنه غير محتاج إلى النصرة وإنما يريد أن يعلم ليثيب الناصر ، لكن عدم الاحتياج إلى النصرة يكفى فيه قوة ما ، فلم لم يقل إن الله ذو القوة ؟ نقول فيه إنه تعالى قال من ينصره ورسله ، ومعناه أنه يغنى رسله عن الحاجة ولا يطلب نصرتهم من خلقه ليعجزهم وإنما يطلبها لثواب الناصرين لا لاحتياج المستنصرين . وإلا فالله تعالى وعدهم بالنصر حيث قال (ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين إنهم لهم المنصورون) ولما ذكر الرسل قال قوى يكون ذلك تقوية تقارب رسله المؤمنين ، وتسلية لصدورهم وصدور المؤمنين .

(البحث الثانى) قال (المتين) وذلك لأن (ذو القوة) كما بينا لا يدل إلا على أن له قوة ما فزاد فى الوصف بياناً وهو الذى له ثبات لا يتزلزل وهو مع المتين من باب واحد لفظاً ومعنى فإن متن الشىء هو أصله الذى عليه ثباته ، والمتن هو الظهر الذى عليه أساس البدن ، والمتانة مع القوة كالعزة مع القوة حيث ذكر الله تعالى فى مواضع ذكر القوة والعزة فقال (قوى عزيز) وقال القوى العزيز .

وفيه لطيفة تؤيد ما ذكرنا من البحث فى القوى وذى القوة ، وذلك لأن المتين هو الثابت الذى لا يتزلزل والعزيز هو الغالب ، ففى المتين أنه لا يغلب ولا يقهر ولا يهزم ، وفى العزيز أنه يغلب ويقهر ويزل الأقدام ، والعزة أكمل من المتانة ، كما أن القوى أكمل من ذى القوة ، فقرن الأكمل بالأكمل وما دونه بما دونه ، ولو نظرت حق النظر وتأملت حق التأمل لرأيت فى كتاب الله تعالى لطائف تنبهك على عناد المنكرين وقبح إنكار المعاندين .

قوله تعالى : ﴿ فإن للذين ظلموا ذنوباً مثل ذنوب أصحابهم فلا يستعجلون ، فويل للذين كفروا من يومهم الذى يوعدون ﴾ ،

وهو مناسب لما قبله وذلك لأنه تعالى بين أن من يضع نفسه فى موضع عبادة غير الله يكون وضع الشىء فى غير موضعه فيكون ظالماً ، فقال إذا ثبت أن الإنس مخلوقون للعبادة فإن الذين ظلموا بعبادة الغير لهم هلاك مثل هلاك من تقدم ، وذلك لأن الشىء إذا خرج عن الانتفاع المطلوب منـــه ، لا يحفظ وإن كان فى موضع يخلى المكان عنه ، ألا ترى أن الدابة التى لا يبقى منتفعاً بها بالموت أو بمرض يخلى عنها الإصطبل ، والطعام الذى يتعفن يبدد ويفرغ منه الإناء ، فكذلك الكافر

إذا ظلم ، ووضع نفسه فى غير موضعه ، خرج عن الانتفاع لحسن إخلاء المكان عنه وحق نزول الهلاك به ، وفى التفسير مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ فيما يتعلق به الفاء ، وقد ذكرنا لك فى وجه التعلق .

﴿ المسألة الثانية ﴾ ما مناسبة الذنوب ؟ نقول العذاب مصبوب عليهم ، كأنه قال تعالى نصب من فوق رءوسهم ذنوباً كذنوب صب فوق رءوس أولئك ، ووجه آخر وهو أن العرب يستقون من الآبار على النوبة ذنوباً فذنوباً وذلك وقت عيشهم الطيب ، فكأنه تعالى قال (فإن للذين ظلموا) من الدنيا وطيباتها (ذنوباً) أى ملاء ، ولا يكون لهم فى الآخرة من نصيب ، كما كان عليه حال أصحابهم استقوا ذنوباً وتركوها ، وعلى هذا فالذنوب ليس بعذاب ولا هلاك ، وإنما هو رغد العيش وهو أليق بالعربية ، وقوله تعالى (فلا يستعجلون) فإن الرزق مالم يفرغ لا يأتى الأجل .

ثم أعاد ماذكر فى أول السورة فقال (فويل للذين كفروا من يومهم الذى يوعدون) .

والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين .

سورة الذاريات

مكِّيةٌ في قول الجميع[1]، وهي سِتُّون آية[2]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا ۝١ فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا ۝٢ فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا ۝٣ فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا ۝٤ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ۝٥ وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ ۝٦﴾

قوله تعالى: ﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا﴾ قال أبو بكر الأنباري: حدَّثنا عبد الله بن ناجية، حدَّثنا يعقوب بن إبراهيم، حدَّثنا مكِّيّ بن إبراهيم، حدَّثنا الجُعَيد بن عبد الرحمن، عن يزيد بن خُصَيفة، عن السائب بن يزيد: أنَّ رجلاً قال لعمر ﷺ: إني مررت برجل يسأل عن تفسير مُشْكِلِ القرآن، فقال عمر: اللهم أمكِنِّي منه. فدخل الرجل على عمر يوماً وهو لابسٌ ثياباً وعِمامة، وعمرُ يقرأ القرآن، فلما فرغ، قام إليه الرجل فقال: يا أمير المؤمنين، ما «الذَّارِيَاتِ ذَرْواً»، فقام عمر، فحسر عن ذراعيه وجعل يَجلده، ثم قال: ألبسوه ثيابه واحمِلوه على قَتَب، وابلغوا به حَيَّه، ثم ليقم خطيباً فليقل: إن صَبِيغاً طَلَبَ العلم فأخطأه. فلم يزل وضيعاً في قومه بعد أن كان سيِّداً فيهم[3].

وعن عامر بن واثلة: أنَّ ابن الكوَّاءِ سأل عليّاً ﷺ فقال: يا أمير المؤمنين، ما «الذَّارِيَاتِ ذَرْواً»، فقال له: ويلَك! سَلْ تَفقُّهاً، ولا تسأل تَعنُّتاً؛ «وَالذَّارِيَاتِ ذَرْواً»: الرياح، «فَالْحَامِلَاتِ وِقْراً»: السَّحاب، «فَالْجَارِيَات يُسْراً»: السُّفُن، «فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمراً»: الملائكة[4].

---

(١) المحرر الوجيز ٥/ ١٧١ ، وزاد المسير ٨/ ٢٧ .

(٢) الوسيط للواحدي ٤/ ١٧٣ ، وتفسير البغوي ٤/ ٢٢٨ ، والكشاف ٤/ ١٣ .

(٣) ذكره ابن حجر في الإصابة ٥/ ١٦٩ . وقد سلف من وجه آخر ٥/ ٢٣ - ٢٤ .

(٤) سلف ١/ ٦١ بنحوه.

وروى الحارث عن عليٍّ ﷺ: «وَالذَّارِيَاتِ ذَرْواً» قال: الرياح، «فَالْحَامِلَاتِ وِقْراً» قال: السحاب تَحمِل الماء كما تحمل ذواتُ الأربع الوِقْر، «فَالْجارِيَاتِ يُسْراً» قال: السفن، وقوله[١]: «فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْراً» قال: الملائكة تأتي بأمرٍ مختلف؛ جبريلُ بالغلظة، وميكائيلُ صاحب الرحمة، ومَلَكُ الموت يأتي بالموت. وقاله[٢] الفراء.

وقيل: تأتي بأمر مختلف من الخِصب والجَدْب والمطر والموت والحوادث.

ويقال: ذَرَتِ الرِّيحُ الترابَ تَذْرُوه ذَرْواً، وتَذْرِيه ذَرْياً[٣].

ثم قيل: «وَالذَّارِيَاتِ» وما بعده أقسام، وإذا أقسمَ الربُّ بشيءٍ أثبتَ له شرفاً. وقيل: المعنى: وربِّ الذارياتِ[٤]، والجواب: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ﴾ أي: الذي توعدونه من الخير والشرِّ والثوابِ والعقاب ﴿لَصَادِقٌ﴾: لا كَذِبَ فيه؛ ومعنى «لَصَادِقٌ»: لَصِدْق، وقع الاسمُ موقعَ المصدر. ﴿وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ﴾ يعني: الجزاءُ نازلٌ بكم. ثم ابتدأ قَسَماً آخَرَ فقال: «وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ. إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ».

وقيل: إنّ الذارياتِ النساءُ الوَلودات؛ لأن في ترائبهنَّ[٥] ذَرْوَ الخَلْق؛ لأنهنَّ يَذرين الأولاد، فصِرنَ ذاريات، وأَقسمَ بهنَّ لِمَا في ترائبهنَّ مِن خِيرَةِ عبادِه الصالحين. وخصَّ النساءَ بذلك دون الرجال وإنْ كان كلٌّ واحدٍ منهما ذارياً؛ لأمرين: أحدهما: لأنهن أوعيةٌ دون الرجال، فلاجتماع الذَّرْوَيْن فيهنَّ خُصِّصنَ بالذِّكر. الثاني: أنَّ الذَّرْوَ فيهنَّ أطولُ زماناً[٦]، وهنَّ بالمباشرة أقربُ عهداً.

---

(١) في (ز): وقراءة، بدل: وقوله، وفي (م): موقرة. والمثبت من باقي النسخ.

(٢) في (ز) و(م): وقال. وكلام الفراء في معاني القرآن ٣/ ٨٢ دون نسبة.

(٣) في (ف) و(ق): وأذرته تذريه ذرياً، وفي (ظ): وأذرته تذريه وذرياً، وفي (ز): وأذرته ذرياً، والمثبت من (م). وقد قال الزجاج في معاني القرآن ٥/ ٥١: ذرت الريح وأذرت، بمعنى واحد وبنحوه في تفسير الطبري ٢١/ ٤٧٩، وإعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٣٥، وتفسير البغوي ٤/ ٢٢٨، وزاد المسير ٨/ ٢٧.

(٤) معاني القرآن للزجاج ٥/ ٥١، وتفسير أبي الليث ٣/ ٢٧٥.

(٥) في (ظ) و(م): ذرايتهن، والمثبت من باقي النسخ، وهو الموافق لما في النكت والعيون ٥/ ٣٦٠، والكلام منه.

(٦) في (ز) و(ف): لطول زمان، وفي (ظ) و(ق): أطول زمان. والمثبت من (م)، وهو الموافق لما في النكت والعيون ٥/ ٣٦١.

﴿فَٱلْحَٰمِلَٰتِ وِقْرًا﴾: السحاب. وقيل: الحاملات من النساء إذا ثَقُلْنَ بالحَمل. والوِقْر، بكسر الواو: ثقل الحِمل على ظهر أو في بطن[1]، يقال: جاء يحمل وِقْرَه، وقد أَوْقَرَ بعيرَه. وأكثرُ ما يستعمل الوِقْرُ في حِمْل البغلِ والحمار، والوَسْقُ في حِمْل البعير. وهذه امرأةٌ مُوقَرة ـ بفتح القاف ـ إذا حملت حَمْلاً ثقيلاً. وأوقرت النخلة: كَثُرَ حَمْلُها؛ يقال: نخلةٌ موقِرة ومُوقِر ومُوقَرة، وحُكي: مُوقَر، وهو على غير القياس، لأن الفعل [ليس] للنخلة. وإنما قيل: مُوقِر ـ بكسر القاف ـ على [قياس] قولِك: امرأةٌ حامل، لأن حمل الشجر مشَبَّهٌ بحمل النساء؛ فأما مُوقَر ـ بالفتح ـ فشاذّ، وقد روي في قول لبيدٍ يصف نخيلاً:

عُصَبٌ كَوارِعُ في خليجِ مُحَلِّمٍ حَمَلَتْ فمنها مُوقَرٌ مَكْمُومُ

والجمع: مَوَاقِر. فأما الوَقْر ـ بالفتح ـ فهو ثقل الأذن، وقد وَقِرَت أُذُنُه تَوْقَر وَقْراً، أي: صَمَّت، وقياسُ مصدرِه التحريك، إلَّا أنه جاء بالتسكين[2]. وقد تقدَّم في «الأنعام» القولُ فيه[3].

﴿فَٱلْجَٰرِيَٰتِ يُسْرًا﴾: السفن تجري بالرياح يُسراً إلى حيث سُيِّرت. وقيل: السحاب؛ وفي جريها يُسْراً على هذا القول وجهان: أحدهما: إلى حيث يسيِّرها اللهُ تعالى من البلاد والبقاع. الثاني: هو سهولة تسييرها؛ وذلك معروفٌ عند العرب، كما قال الأعشى:

كأنَّ مِشْيَتَها مِنْ بيتِ جارتِها مَشْيُ السَّحابةِ لا رَيْثٌ ولا عَجَلُ[4]

(١) المصدر السابق.

(٢) الصحاح (وقر) وما بين حاصرتين منه، والبيت في شرح ديوان لبيد ص١٢٠ ، والرواية فيه: نخل كوارع... قال شارحه: شبه الظعائن بالنخل. كوارع: أراد اللواتي في الماء. محلَّم: نهر بالبحرين، وخليجه ما اختلج منه. مكموم: مغطى بالكمامة من برد أو داء..

(٣) ٨/ ٣٤٥ .

(٤) النكت والعيون ٥/ ٣٦١ . وسلف البيت ١٦/١٦ .

قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ ۝٧ إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ۝٨ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ۝٩ قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى غَمْرَةٍ سَاهُونَ ۝١١ يَسْـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ ۝١٢ يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ ۝١٣ ذُوقُوا۟ فِتْنَتَكُمْ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ۝١٤﴾

قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ﴾ قيل: المراد بالسماء هاهنا السُّحُب[١] التي تُظِلُّ الأرض. وقيل: السماء المرفوعة[٢]. ابنُ عمر: هي السماء السابعة؛ ذكره المهدويُّ والثعلبيُّ والماورديُّ وغيرهم[٣].

وفي «الْحُبُكِ» أقوالٌ سبعة:

الأول: قال ابن عباس وقتادة ومجاهدٌ والربيع: ذات الخَلْقِ الحَسَنِ المستوي. وقاله عكرمة[٤]؛ قال: ألم ترَ إلى النَّسَّاج إذا نسج الثوب فأجاد نَسْجَه؛ يقال منه: حَبَك الثوبَ يَحبِكُه ـ بالكسر ـ حَبْكاً، أي: أجاد نَسْجَه. قال ابن الأعرابي: كلُّ شيءٍ أحكمتَه وأحسنتَ عملَه فقد احتبكتَه[٥].

الثاني: ذات الزينة؛ قاله الحسن وسعيد بنُ جبير.

وعن الحسن أيضاً: ذات النجوم. وهو الثالث.

الرابع: قال الضحاك: ذات الطرائق؛ يقال لِمَا تراه في الماء والرمل إذا أصابته الريح: حُبُك[٦]. ونحوُه قول الفراء[٧]؛ قال: الحُبُك: تَكَسُّر كلِّ شيءٍ، كالرمل إذا مرَّت به الريحُ الساكنة، والماءُ القائم إذا مرت به الريح، ودرع الحديد لها حُبُك،

(١) في النسخ الخطية: السحاب، والمثبت من (م)، والقول في النكت والعيون ٥/ ٣٦٢ . والسحاب والسحب والسحائب: جمع سحابة. الصحاح (سحب).

(٢) قال الماوردي في النكت والعيون: وهو المشهور.

(٣) قول ابن عمر أخرجه الطبري ٢١/ ٤٨٩ - ٤٩٠ .

(٤) أخرج هذه الآثار ـ عدا قول الربيع ـ الطبري ٢١/ ٤٨٦ - ٤٨٩ .

(٥) الصحاح (حبك).

(٦) أخرج هذه الآثار ـ عدا قول الحسن الأول ـ الطبري ٢١/ ٤٨٧ ، ٤٨٩ .

(٧) في معاني القرآن ٣/ ٨٢ .

والشعرة الجَعْدة تكسُّرها حُبُك. وفي حديث الدجَّال: «إنَّ شعره حُبُك حُبُك»[(١)]. قال زهير:

مُكَلَّلٌ بأصول النَّجمِ تَنسِجُهُ ريحٌ خَريقٌ لضاحي مائه حُبُكُ[(٢)]

ولكنها تَبْعُد من العباد فلا يرونها.

الخامس: ذات الشِّدَّة، قاله ابن زيد، وقرأ: ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا﴾ [النبأ: ١٢][(٣)]. والمحبوك: الشديد الخَلْق من الفرس وغيره[(٤)]، قال امرؤ القيس:

قد غدا يَحْمِلُني في أنْفِهِ لاحِقُ الإطْلَيْنِ مَحبُوكٌ مُمَرْ[(٥)]

وقال آخَر[(٦)]:

مَرِجَ الدِّينُ فأعددتُ لهُ مُشْرِفَ الحارِك مَحبُوكَ الكَتَدْ

وفي الحديث: أنَّ عائشة رضي الله عنها كانت تحتبك تحت الدِّرْع في الصلاة؛ أي: تَشُدُّ الإزار وتُحْكمه[(٧)].

السادس: ذات الصَّفَاقة؛ قاله خُصَيف[(٨)]، ومنه: ثوبٌ صَفِيق ووجه صَفِيق: بَيِّنُ الصَّفاقة[(٩)].

---

(١) الصحاح (حبك). والخبر قطعة من حديث عقبة بن عامر ﷺ أخرجه أحمد (١٦٢٦٠) عنه بلفظ: «إن راس الدجال من ورائه حُبُك حُبُك...».

(٢) شرح ديوان زهير ص ١٧٦. قال شارحه: قال الأصمعي: النجم: النبت الذي يقال له: الثِّيْل. وقال غيره: الماء مكلَّل بالنجم، وهو كل شيء من النبات ليس له ساق ينبت حول الماء كالإكليل. ويقال: نَجَمَ البقل: إذا طلع. ريح خريق، يقال: هبت الشمال خريقاً: إذا هبت هبوباً شديداً. لضاحي مائه: ما ضحا للشمس من الماء، ضحي يضحى ضحىً، وضَحَى يضحى: برز للشمس.

(٣) أخرجه الطبري ٢١/ ٤٨٩.

(٤) الصحاح (حبك).

(٥) ديوانه ص١٤٦. وهو في وصف الغيث. قال شارحه: يحملني في أنفه: أي في أول هذه المطرة. لاحق الإطلين: يعني فرساً ضامر الكشحين. والمحبوك: المدمج الخلق، الشديد. والممر نحوه في المعنى.

(٦) هو أبو دؤاد، وسلف ص٤٣٠ من هذا الجزء.

(٧) الصحاح (حبك). والحديث أخرجه البيهقي ٢/ ٢٣٥.

(٨) النكت والعيون ٥/ ٣٦٢.

(٩) الصحاح (صفق) وقوله: ثوب صَفِيق، أي: كثير الغزل. ووجه صَفِيق، أي: وقح. القاموس (صفق).

السابع: أنَّ المراد بالطُّرُق المَجرَّةُ التي في السماء؛ سمِّيت بذلك لأنها كأثر المَجَرّ[١].

و«الْحبُكُ» جمع حِبَاك، قال الراجز:

كـأنَّـمـا جَـلَّـلـهـا الـحُـوَّاكُ طِـنْـفِـسـةً فـي وَشْـيـهـا حِـبَـاكُ[٢]

والحِبَاك والحَبِيكة: الطريقة في الرَّمل ونحوه. وجمع الحِبَاك: حُبُك، وجمع الحَبِيكة: حَبائك[٣]، والحَبَكة مثل العَبَكة، وهي الحبَّة من السَّويق، عن الجوهري[٤].

وروي عن الحسن في قوله: «ذَاتِ الحُبُكِ»: «الحُبْك» و«الحِبْك» و«الحِبِك» و«الحِبُك»، و«الحُبُك» كالجماعة[٥]. وروي عن عِكرمة وأبي مِجْلَز: «الحُبَك»[٦].

و«الحُبُك» واحدتها حَبيكة؛ و«الحُبْك» مخفَّفٌ منه. و«الحَبَك» واحدتها حَبَكة[٧].
ومن قرأ: «الحُبَك» فالواحدة حُبْكَة، كبُرْقة وبُرَق، أو حُبُكة كظُلُمة وظُلَم. ومن قرأ: «الحِبِك» فهو كإِبِل وإِطِل. و«الحِبْك» مخفف منه. ومن قرأ: «الحِبُك» فهو شاذّ؛ ليس في كلام العرب فِعُلٌ، وهو محمولٌ على تداخل اللغات، كأنه كسر الحاء ليكسر

---

(١) ينظر الصحاح واللسان (جرر). والمَجَرّ: هو الخشبة المعترضة بين الحائطين توضع عليه أطراف العوارض.

(٢) تفسير الطبري ٢١/٤٨٦ ، والنكت والعيون ٥/٣٦٢ ، والمحرر الوجيز ٥/١٧٢ . والطنفسة: البساط، والنُّمْروقة فوق الرحل. المعجم الوسيط (طنفس).

(٣) وحُبُك أيضاً كما في معاني القرآن للفراء ٣/٨٢ ، وتفسير الطبري ٢١/٤٨٦ ، ومعاني القرآن للزجاج ٥/٥٢ . وسيذكره المصنف.

(٤) في الصحاح (حبك).

(٥) ضبطنا بالشكل القراءات الشاذة عن الحسن في هذا الحرف كما ذكرها ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/١٧٢ ، حيث قيَّدها بالحروف، وذكر أن كسر الحاء وضم الباء فيها لغة غير متوجهة، وأنه ليس في كلام العرب هذا البناء.

(٦) المحتسب ٢/٢٨٦ دون ذكر أبي مجلز.

(٧) نسب ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/١٧٢ قراءة «الحَبَك» بفتح الحاء والباء لابن عباس رضي الله عنهما، ونسبها ابن الجوزي في زاد المسير ٨/٢٨ لابن مسعود وعكرمة.

الباء، ثم تصوَّر «الحُبُك» فضمَّ الباء. قال جميعَه المهدوي[(١)].

قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ﴾ هذا جوابُ القسم الذي هو «والسَّمَاءِ»، أي: إنكم يا أهل مكة «فِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ» في محمد والقرآن، فمِن مصدِّق ومكذِّب[(٢)]. وقيل: نزلت في المقتسِمين[(٣)]. وقيل: اختلافهم قولُهم: ساحر، بل شاعر، بل افتراه، بل هو مجنون، بل هو كاهن، بل هو أساطير الأوَّلين[(٤)]. وقيل: اختلافهم أنَّ منهم مَن نَفَى الحشر، ومنهم مَن شكَّ فيه. وقيل: المراد عَبَدة الأوثان والأصنام؛ يُقِرُّون بأن الله خالقُهم ويعبدون غيره[(٥)].

قوله تعالى: ﴿يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ﴾ أي: يُصرف عن الإيمان بمحمد والقرآنِ مَن صُرِف؛ عن الحسن وغيره[(٦)]. وقيل: المعنى: يُصرَف عن الإيمان مَن أراده بقولهم: هو سحر وكهانة وأساطير الأوَّلين[(٧)]. وقيل: المعنى: يُصرَف عن ذلك الاختلافِ مَن عصمه الله[(٨)].

أَفَكَه يَأْفِكُه أَفْكاً، أي: قَلَبه وصرفه عن الشيء؛ ومنه قولُه تعالى: ﴿قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا﴾[(٩)] [الأحقاف: ٢٢].

وقال مجاهد: معنى «يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ»: يُؤفَن عنه من أُفِن، والأَفْن: فساد العقل[(١٠)].

---

(١) وهو بنحوه في المحتسب ٢/ ٢٨٦ - ٢٨٧، والمحرر الوجيز ٥/ ١٧٢ - ١٧٣.

(٢) أخرج هذا القول بنحوه الطبري ٢١/ ٤٩٠ عن قتادة.

(٣) سيرد في تفسير الآية بعدها، وينظر ما سلف في تفسير الآية (٩٠) من سورة الحجر ١٢/ ٢٥٥-٢٥٦.

(٤) أخرج هذا القول بنحوه الطبري ٢١/ ٤٩٠ عن ابن زيد.

(٥) النكت والعيون ٥/ ٣٦٣.

(٦) أخرجه عن الحسن الطبري ٢١/ ٤٩١.

(٧) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٣٦ بنحوه.

(٨) المحرر الوجيز ٥/ ١٧٣ بمعناه، وقال: وهذا وجه حسن لا يُخلُّ به، إلا أن عرف الاستعمال في «أفك» إنما هو في الصرف من خير إلى شر، وتأمل ذلك تجدها أبداً في المصروفين المذمومين.

(٩) الصحاح (أفك).

(١٠) النكت والعيون ٥/ ٣٦٣، وأخرجه الطبري ٢١/ ٤٩١ بنحوه.

الزمخشري[١]: وقرئ: «يُؤْفَنُ عَنْهُ مَنْ أُفِنَ» أي: يُحْرَمه من حُرم؛ مِن: أَفَنَ الضَّرْعَ، إذا أنهكه حَلْباً. وقال قُطْرُب: يُخدَع عنه من خُدِع. وقال اليزيدي: يُدفَع عنه من دُفِع[٢]. والمعنى واحد، وكلُّه راجعٌ إلى معنى الصرف.

قوله تعالى: ﴿قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ﴾ في التفسير: لُعِن الكذَّابون[٣]. وقال ابن عباس: أي: قُتِلَ المرتابون؛ يعني الكهنة[٤]. وقال الحسن: هم الذين يقولون: لسنا نبعث. ومعنى «قُتِلَ» أي: هؤلاء ممن يجب أن يُدعى عليهم بالقتل على أيدي المؤمنين.

وقال الفرَّاء: معنى «قُتِلَ»: لُعِن؛ قال: و«الخَرَّاصُوانَ»: الكذابون الذين يتخرَّصون بما لا يعلمون[٥]؛ فيقولون: إنَّ محمداً مجنون كذَّاب ساحر شاعر؛ وهذا دعاءٌ عليهم؛ لأن مَن لعنه الله فهو بمنزلة المقتول الهالك.

قال ابن الأنباري: علَّمَنا الدعاءَ عليهم، أي قولوا: «قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ». وهو جمع خارص، والخَرْص الكذب، والخَرَّاص الكذَّاب، وقد خَرَص يَخْرُص ـ بالضم ـ خَرْصاً، أي: كَذَب؛ يقال: خَرَص واختَرص، وخَلَقَ واختلَق، وبَشَك وابتَشك، وسَرَج واسترَج، ومان، بمعنى كذب؛ حكاه النحَّاس.

والخَرْص ـ أيضاً ـ حَزْر ما على النخل من الرُّطَب تمراً. وقد خَرَصتُ النخلَ، والاسم: الخِرْص، بالكسر؛ يقال: كم خِرْصُ نخلك[٦] والخَرَّاص الذي يخرُصها؛ فهو مشترك.

وأصل الخَرص القطع، على ما تقدَّم بيانُه في «الأنعام»[٧]. ومنه الخَرِيص

(١) في الكشاف ٤/ ١٥ .
(٢) النكت والعيون ٥/ ٣٦٣ .
(٣) نسبه في النكت والعيون ٥/ ٣٦٣ للحسن.
(٤) أخرجه الطبري ٢١/ ٤٩٢ بلفظ: لعن المرتابون.
(٥) معاني القرآن للفراء ٣/ ٨٣ ، وزاد المسير ٨/ ٣٠ . بنحوه.
(٦) المثبت من (ق) وهو الموافق لما في الصحاح (خرص)، والكلام منه، وفي غيرها: خَرَص.
(٧) ٩/ ٧ .

للخليج؛ لأنه ينقطع إليه الماء، والخُرْصُ: حبَّة القُرْط إذا كانت منفردة؛ لانقطاعها عن أخواتها، والخُرصْ: العود؛ لانقطاعه عن نظائره بطيب رائحته. والخَرِص: الذي به جوع وبَرْد؛ لأنه ينقطع به، يقال: خَرِص الرجلُ - بالكسر - فهو خَرِص أي: جائع مقرور، ولا يقال للجوع بلا برد: خَرِص، ويقال للبرد بلا جوع: خَصَر[١]. والخُرص - بالضمِّ والكسر - الحَلْقة من الذهب أو الفضة، والجمع الخُرصان. ويدخل في الخَرْص قولُ المنجِّمين وكلِّ مَن يدَّعي الحَدْس والتخمين.

وقال ابن عباس: هم المقتسمون الذين اقتسموا عِقَابَ[٢] مكة، واقتسموا القولَ في نبيِّ اللهِ ﷺ؛ ليصرفوا الناسَ عن الإيمان به.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي غَمۡرَةٖ سَاهُونَ﴾ الغمرة: ما سَتَرَ الشيءَ وغطَّاه. ومنه نهر غَمْر، أي: يَغْمُر مَن دخله، ومنه غَمَرات الموت. «سَاهُونَ» أي: لاهون غافلون عن أمر الآخرة.

قوله تعالى: ﴿يَسۡـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوۡمُ ٱلدِّينِ﴾ أي: متى يومُ الحساب؛ يقولون ذلك استهزاءً وشكّاً في القيامة[٣]. ﴿يَوۡمَ هُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ يُفۡتَنُونَ﴾ نصب «يَوْمَ» على تقدير الجزاء، أي: هذا الجزاءُ «يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ» أي: يُحرَقون، وهو مِن قولهم: فتنت الذهب، أي: أحرقته لتختبره؛ وأصل الفتنة الاختبار. وقيل: إنه مبنيٌّ؛ بني لإضافته إلى غير متمكِّن، وموضعه نصبٌ على التقدير المتقدِّم، أو رفعٌ على البدل من «يَوْمُ الدِّينِ»[٤]. وقال الزجَّاج[٥]: تقول: يعجبني يومُ أنت قائم ويومُ أنت تقوم، وإن شئت فتحت، وهو في موضع رفع، فإنما انتصب هذا وهو في المعنى رفع.

---

(١) الصحاح (خرص).

(٢) في (ز) و(ظ) و(م): أعقاب، والمثبت من (ف) و(ق)، وهو بنحوه في تفسير أبي الليث ٣/ ٢٧٦، وتفسير البغوي ٤/ ٢٢٩.

(٣) الوسيط للواحدي ٤/ ١٧٤، وتفسير البغوي ٤/ ٢٢٩.

(٤) قرأ بالرفع ابن أبي عبلة كما في الكشاف ٤/ ١٥.

(٥) في معاني القرآن ٥/ ٥٢. وينظر إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٣٧ - ٢٣٨، والمحرر الوجيز ٥/ ١٧٣.

وقال ابن عباس: «يُفْتَنُونَ»: يُعذَّبون[١]. ومنه قول الشاعر:

كلَّ امرِئٍ من عباد الله مُضطَهدٍ ببطن مكةَ مقهورٍ ومفتونِ[٢]

قوله تعالى: ﴿ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ﴾ أي: يقال لهم: ذوقوا عذابكم؛ قاله ابن زيد. مجاهد: حريقكم. ابن عباس: أي: تكذيبكم[٣]. يعني جزاءكم. الفرَّاء[٤]: أي: عذابكم ﴿الَّذِي كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ في الدنيا. وقال: «هَذَا»، ولم يقل: هذه؛ لأن الفتنة هنا بمعنى العذاب.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ لمَّا ذكر مآلَ الكفار؛ ذَكَرَ مآلَ المؤمنين، أي: هم في بساتينَ؛ فيها عيونٌ جارية على نهاية ما يُنتزَّه به. ﴿آخِذِينَ﴾ نصب على الحال. ﴿مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ﴾ أي: ما أعطاهم من الثواب وأنواعِ الكرامات؛ قاله الضحَّاك[٥]. وقال ابن عباس وسعيد بن جبير: «آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ» أي: عاملين بالفرائض[٦]. ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ﴾ أي: قبل دخولهم الجنةَ في الدنيا ﴿مُحْسِنِينَ﴾ بالفرائض. وقال ابن عباس: المعنى: كانوا قبل أن تُفْرَضَ[٧] عليهم الفرائض محسنين في أعمالهم[٨].

---

(١) أخرجه الطبري ٢١/ ٤٩٥.

(٢) النكت والعيون ٥/ ٣٦٤. وهو في قصيدة لعبد الله بن الحارث بن قيس بن عدي يذكر مهاجري الحبشة، كما في السيرة النبوية ١/ ٣٣٠ - ٣٣١، وقبله:

يا راكباً بلِّغَنْ عني مغلغلةً مَن كان يرجو بلاغ الله والدينِ

والمغلغلة: الرسالة المحمولة من بلد إلى بلد. الصحاح (غلل).

(٣) أخرج هذه الآثار الطبري ٢١/ ٤٩٩ - ٥٠٠.

(٤) في معاني القرآن ٣/ ٨٣.

(٥) النكت والعيون ٥/ ٣٦٥ بنحوه.

(٦) قول ابن عباس رضي الله عنهما أخرجه الطبري ٢١/ ٥٠١.

(٧) في (م): يفرض.

(٨) أخرجه الطبري ٢١/ ٥٠١.

قوله تعالى: ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ۝ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ۝ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ۝﴾

فيه خمس مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ معنى «يَهْجَعُونَ»: ينامون؛ والهُجُوع: النوم ليلاً، والتَّهْجاع: النومة الخفيفة؛ قال أبو قيس بن الأَسْلَت:

قد حصَّت البيضةُ رأسي فما أَطْعَمُ نوماً غيرَ تَهْجاعِ[1]

وقال عمرو بنُ مَعْدي كَرِب يتشوّق أختَه وكان أسرها الصِّمَّةُ أبو دُرَيد بنُ الصِّمَّة:

أَمِنْ رَيحانةَ الدَّاعي السَّميعُ يؤرِّقني وأصحابي هُجوعُ[2]

يقال: هَجَعَ يَهْجَع هُجوعاً، وهَبَغَ يَهْبَغ هُبوغاً، بالغين المعجمة: إذا نام؛ قاله الجوهريّ[3].

واختُلف في «ما»، فقيل: صلة زائدة، قاله إبراهيم النَّخَعيُّ، والتقدير: كانوا قليلاً من الليل يهجعون، أي: ينامون قليلاً من الليل ويصلُّون أكثرَه. قال عطاء: وهذا لمَّا أُمروا بقيام الليل. وكان أبو ذرٍّ يَحتجِز، ثم يأخذ العصا فيعتمد عليها، حتى نزلت الرُّخصة: ﴿قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ الآية[4].

وقيل: ليس «ما» صلة، بل الوقفُ عند قوله: «قَلِيلاً»، ثم تبتدئ «مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ». فـ «ما» للنفي، وهو نفيُ النوم عنهم البَتَّة[5]. قال الحسن: كانوا لا ينامون

(١) الصحاح (هجع). وسلف البيت ١١/ ٣٧٤.

(٢) وهناك رواية ثانية تقول: إن ريحانة امرأته المطلقة، كما في الأغاني ١٥/ ٢٢٥ - ٢٢٦، والخزانة ٨/ ١٨١ - ١٨٢. والبيت ـ أيضاً ـ في الأصمعيات ص١٧٢، والكامل ١/ ٢٦١.

(٣) في الصحاح (هبغ).

(٤) أخرج الأثرين ابن أبي شيبة ٢/ ٢٣٨.

(٥) وضعَّف هذا القول الشوكاني في فتح القدير ٥/ ٨٤، ورده ابن الأنباري في البيان ٢/ ٣٩٠ والزمخشري في الكشاف ٤/ ١٦ وقال: لأن «ما» النافية لا يعمل ما بعدها فيما قبلها، تقول: زيداً لم أضرب، ولا تقول: زيداً ما ضربت.

من الليل إلَّا أقلَّه، وربما نَشِطوا فجدُّوا إلى السَّحَر(١).

روي عن يعقوب الحضرميِّ أنه قال: اختلفوا في تفسير هذه الآية، فقال بعضهم: «كَانُوا قَلِيلاً» معناه: كان عددهم يسيراً، ثم ابتدأ فقال: «مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ»(٢). قال ابن الأنباري(٣): وهذا فاسد؛ لأن الآية إنما تدلُّ على قلَّة نومهم لا على قلَّة عددهم، وبعدُ فلو ابتدأنا «مِن اللَّيل ما يهجعون» على معنى: من الليل يهجعون، لم يكن في هذا مدحٌ لهم؛ لأن الناس كلَّهم يهجعون من الليل، إلَّا أن تكون «ما» جَحْداً.

قلت: وعلى ما تأوَّله بعضُ الناس ـ وهو قول الضحَّاك(٤) ـ من أنَّ عددهم كان يسيراً، يكون الكلام متصلاً بما قبلُ مِن قوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ﴾ أي: كان المحسنون قليلاً، ثم استأنف فقال: ﴿مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾(٥). وعلى التأويل الأوَّلِ والثاني يكون «كَانُوا قَلِيلاً مِنَ اللَّيْلِ» خطاباً مستأنفاً بعد تمام ما تقدَّمه، ويكون الوقف على «مَا يَهْجَعُونَ»، وكذلك إن جعلتَ «قَلِيلاً» خبرَ كان، وترفع «ما» بمعنى قليل(٦)؛ كأنه قال: كانوا قليلاً من الليل هجوعُهم. فـ «ما» يجوز أن تكون نافية، ويجوز أن تكون مع الفعل مصدراً، ويجوز أن تكون رفعاً على البدل من اسم كان، التقدير: كان هجوعهم قليلاً من الليل(٧). وانتصابُ قوله: «قَلِيلاً» ـ إن قدَّرت «ما» زائدةً مؤكِّدة ـ بـ«يَهْجَعُونَ»، على تقدير: كانوا وقتاً قليلاً أو هجوعاً قليلاً يهجعون، وإن لم تقدِّر «ما» زائدة، كان قولُه: «قَلِيلاً» خبرَ كان، ولم يجز نصبُه بـ«يَهْجَعُونَ»؛ لأنه إذا قدِّر نصبه

(١) أخرجه الطبري ٢١/ ٥٠٤ - ٥٠٥ .

(٢) بعدها في(م): على معنى من الليل يهجعون.

(٣) في إيضاح الوقف والابتداء ٢/ ٩٠٦ ، وما قبله منه.

(٤) أخرج قوله الطبري ٢١/ ٥٠٧ .

(٥) بعدها في النسخ الخطية: وهو قول الضحاك.

(٦) في (م): بقليل، والمثبت من النسخ الخطية، وهو الموافق لما في الإيضاح لابن الأنباري ٢/ ٩٠٥ .

(٧) وهو بدل اشتمال كما في الدر المصون ١٠/ ٤٥ .

بـ «يَهْجَعُونَ» مع تقدير «ما» مصدراً، قدَّمتَ الصِّلَةَ على الموصول[١].

وقال أنسٌ وقتادة في تأويل الآية: أي: كانوا يصلُّون بين العشاءين: المغرب والعشاء[٢]. أبو العالية: كانوا لا ينامون بين العشاءين[٣]. وقاله ابن وَهْب. وقال مجاهد[٤]: نزلت في الأنصار؛ كانوا يصلُّون العشاءين في مسجد النبيِّ ﷺ، ثم يمضون إلى قُباء. وقال محمد بن عليِّ بن الحسين: كانوا لا ينامون حتى يصلُّوا العَتَمة[٥]. قال الحسن: كأنه عَدَّ هجوعَهم قليلاً في جنب يقظتهم للصلاة. وقال ابن عباس ومُطرِّف: قَلَّ ليلةٌ لا تأتي عليهم إلَّا يصلُّون لله فيها، إمَّا مِن أوَّلها، وإما من وسطها[٦].

الثانية: رُويَ عن بعض المتهجِّدين أنه أتاه آتٍ في منامه، فأنشده:

وكيف تنامُ الليلَ عينٌ قريرةٌ ولم تَدرِ في أيِّ المجالِس تنزِلُ

ورويَ عن رجل من الأزد أنه قال: كنت لا أنام الليل، فنمت في آخر الليل، فإذا أنا بشابَّين أحسن ما رأيت، ومعهما حُلَل، فوقفا على كلِّ مصلٍّ، وكسواه حُلَّة، ثم انتهيا إلى النِّيام فلم يكسوهم، فقلت لهما: اكسواني من حُللكما هذه، فقالا لي: إنها ليست حُلَّةَ لباس، إنما هي رضوانُ الله يَحُلُّ على كل مصلٍّ.

ويُروى عن أبي خَلَّادٍ أنه قال: حدَّثني صاحبٌ لي قال: بينما أنا نائمٌ ذات ليلة إذ مُثِّلت لي القيامة، فنظرت إلى أقوام من إخواني قد أضاءت وجوهُهم، وأشرقت

(١) الكلام بنحوه في البيان ٢/ ٣٨٩ ، ومشكل إعراب القرآن ٢/ ٦٨٦ - ٦٨٧ .

(٢) أخرجه أبو داود (١٣٢١) و(١٣٢٢) من طريق قتادة عن أنس ﷺ.

(٣) أخرجه الطبري ٢١/ ٥٠٣ .

(٤) كلمة: مجاهد، ليست في النسخ الخطية.

(٥) أخرجه الطبري ٢١/ ٥٠٢ .

(٦) ذكر قولهما الواحدي في الوسيط ٤/ ١٧٥ ، والبغوي في تفسيره ٤/ ٢٣٠ . وأخرج الطبري ٢١/ ٥٠٢ قول مطرف.

ألوانهم، وعليهم الحُلَلُ من دون الخلائق، فقلت: ما بال هؤلاء مكتسون والناسُ عُراة، ووجوهُهُم مشرِقةٌ ووجوه الناس مغبرَّة! فقال لي قائل: الذين رأيتهم مكتسون[1] فهم المصلُّون بين الأذان والإقامة، والذين وجوهُهم مشرقة فأصحابُ السهر والتهجُّد، قال: ورأيت أقواماً على نجائب، فقلت: ما بال هؤلاء ركباناً والناسُ مشاة حفاة؟ فقال لي: هؤلاء الذين قاموا على أقدامهم تقرُّباً إلى الله تعالى، فأعطاهم الله بذلك خيرَ الثواب؛ قال: فصحت في منامي: واهاً للعابدين، ما أشرفَ مقامَهم! ثم استيقظت من منامي وأنا خائف.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَبِٱلۡأَسۡحَارِ هُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ﴾: مدحٌ ثان؛ أي: يستغفرون من ذنوبهم، قاله الحسن[2]. والسَّحَر وقتٌ يُرجى فيه إجابةُ الدعاء. وقد مضى في «آل عمران» القولُ فيه[3].

وقال ابن عمر ومجاهد: أي: يصلُّون وقت السَّحَر؛ فسمَّوا الصلاةَ استغفاراً. وقال الحسن في قوله تعالى: ﴿كَانُواْ قَلِيلٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مَا يَهۡجَعُونَ﴾ مَدُّوا الصلاةَ من أوَّل الليلِ إلى السَّحَر، ثم استغفروا في السحر[4].

ابن وهب: هي في الأنصار؛ يعني أنهم كانوا يغدون من قُباء، فيصلُّون في مسجد النبيِّ ﷺ. ابن وَهْب، عن ابن لَهِيعة، عن يزيد بن أبي حبيب قال: كانوا يَنْضَحون لناسٍ من الأنصار بالدِّلاء على الثمار، ثم يهجعون قليلاً، ثم يصلُّون آخرَ الليل.

الضحَّاك: صلاة الفجر.

وقال الأحنف بن قيس: عَرَضْتُ عملي على أعمال أهل الجنة؛ فإذا قومٌ قد

(١) كذا في النسخ.
(٢) النكت والعيون ٥/ ٣٦٦ بنحوه.
(٣) ٥/ ٥٩.
(٤) أخرج أقوالهم الطبري ٢١/ ٥٠٥، ٥١٠.

باينونا بَوْناً بعيداً لا نبلغ أعمالهم؛ «كانوا قليلاً من اللَّيل ما يهجعون». وعرضتُ عملي على أعمال أهل النار، فإذا قومٌ لا خير فيهم، يكذِّبون بكتاب الله، وبرسوله، وبالبعث بعد الموت، فوجدنا خيرَنا منزلةً قوماً خلطوا عملاً صالحاً وآخَرَ سيِّئاً.

الرابعة: قوله تعالى: ﴿وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾ مدحٌ ثالث. قال محمد بن سِيرين وقتادة: الحقُّ هنا الزكاةُ المفروضة. وقيل: إنه حقٌّ سوى الزكاة؛ يَصِل به رَحِماً، أو يَقري به ضيفاً، أو يَحْمل به كَلّاً، أو يُغني به محروماً. وقاله ابن عباس[١]؛ لأن السورة مكِّية، وفُرضت الزكاة بالمدينة[٢].

ابن العربي[٣]: والأقوى في هذه الآيةِ أنها الزكاة؛ لقوله تعالى في سورة «سأل سائل»: ﴿وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾ [المعارج: ٢٥] والحقُّ المعلوم هو الزكاة التي بيَّن الشرعُ قَدْرَها وجنسها ووقتها، فأمَّا غيرُها لمن يقول به، فليس بمعلوم؛ لأنه غيرُ مقدَّرٍ ولا مجنَّس ولا موقَّت.

الخامسة: قوله تعالى: «لِلسَّائِلِ وَالمَحْرُوم»؛ السائل الذي يسأل الناس لفاقته؛ قاله ابن عباس وسعيد بن المسيّب وغيرهما. والمَحرُومِ الذي حُرم المال. واختُلف في تعيينه؛ فقال ابن عباس وسعيد بن المسيّب وغيرهما: المحروم المُحارَف الذي ليس له في الإسلام سهم[٤]. وقالت عائشة رضي الله عنها: المحروم المُحارَف الذي لا يتيسَّر له مكسبُه[٥]؛ يقال: رجل مُحارَف ـ بفتح الراء ـ أي: محدود محروم، وهو خلافُ قولك: مُبارَك. وقد حورف كسبُ فلان: إذا شُدِّد عليه في معاشه؛ كأنه مِيلَ برزقه عنه[٦]. وقال قتادة والزُّهري: المحروم المتعفِّف الذي لا يسأل الناس شيئاً،

(١) النكت والعيون ٥/ ٣٦٦ .

(٢) المحرر الوجيز ٥/ ١٧٥ .

(٣) في أحكام القرآن ٤/ ١٧١٨ .

(٤) أخرج قولهم الطبري ٢١/ ٥١١ - ٥١٤ .

(٥) النكت والعيون ٥/ ٣٦٦ .

(٦) الصحاح (حرف).

ولا يُعلم بحاجته. وقال الحسن ومحمد ابن الحنفية: المحروم الذي يجيء بعد الغنيمة وليس له فيها سهم[١].

روي أنَّ النبيَّ ﷺ بعث سَرِيَّة، فأصابوا وغَنِموا، فجاء قومٌ بعد ما فرغوا، فنزلت هذه الآية: «وَفِي أَمْوَالِهِمْ»[٢].

وقال عِكرمة: المحروم الذي لا يبقى له مال[٣]. وقال زيد بن أسلم: هو الذي أُصيب ثمرُه أو زرعه أو نسل ماشيته. وقال القُرَظيّ: المحروم الذي أصابته الجائحة، ثم قرأ: ﴿إِنَّا لَمُغْرَمُونَ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾[٤] [الواقعة: ٦٧] نظيرُه في قصة أصحاب الجنةِ حيث قالوا: «بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ» [القلم: ٢٧].

وقال أبو قِلابة: كان رجلٌ من أهل اليمامة له مال، فجاء سيلٌ فذهب بماله، فقال رجل من الصحابة: هذا المحروم، فاقسموا له[٥].

وقيل: إنه الذي يطلب الدنيا وتُدبِر عنه. وهو يُروَى عن ابن عباسٍ أيضاً. وقال عبد الرحمن بن حُمَيد: المحروم المملوك. وقيل: إنه الكلب؛ روي أنَّ عمر بنَ عبد العزيز كان في طريق مكة، فجاء كلب، فانتزع عمر رحمه الله كَتِفَ شاةٍ، فرمى بها إليه وقال: يقولون إنه المحروم. وقيل: إنه من وجبت نفقته بالفقر من ذوي الأنساب؛ لأنه قد حُرِم كسبَ نفسه حتى وجبت نفقتُه في مال غيره[٦].

وروى ابن وَهْب عن مالك: أنه الذي يُحرَم الرزق[٧]، وهذا قولٌ حسن؛ لأنه

(١) النكت والعيون ٥/ ٣٦٦ دون ذكر الزهري. وأخرج قوله وقول قتادة الطبريُّ ٢١/ ٥١٤ - ٥١٥ .

(٢) أخرجه أبو عبيد في الأموال (١٧٥٦)، والطبري ٢١/ ٥١٥ - ٥١٦ عن الحسن بن محمد ابن الحنفية، وهو مرسل.

(٣) أخرجه الطبري ٢١/ ٥١٧ .

(٤) تفسير البغوي ٤/ ٢٣١ بنحوه. وقول زيد بن أسلم أخرجه الطبري ٢١/ ٥١٧ .

(٥) أخرجه الطبري ٢١/ ٥١٣ بنحوه.

(٦) ذكر هذه الأقوال الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٣٦٦ - ٣٦٧ .

(٧) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧١٨ .

يَعمُّ جميع الأقوال.

وقال الشعبي: لي اليوم سبعون سنةً منذ احتلمت أسأل عن المحروم، فما أنا اليومَ بأعلمَ مني فيه يومئذ. رواه شعبة عن عاصم الأحول، عن الشعبي[١].

وأصله في اللغة: الممنوع؛ من الحرمان وهو المنع. قال علقمة[٢]:

ومُطْعَمُ الغُنْم يومَ الغُنْم مُطْعَمُهُ ... أنَّى توجَّه والمحرومُ محرومُ

وعن أنس أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «ويلٌ للأغنياء من الفقراء يوم القيامة؛ يقولون: ربَّنا ظلمونا حقوقَنا التي فرضتَ لنا عليهم، فيقول الله تعالى: وعزَّتي وجلالي لأُقرِّبنَّكم ولأُبْعِدنَّهم». ثم تلا رسولُ الله ﷺ: ﴿وَفِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ﴾ ذكره الثعلبي[٣].

قوله تعالى: ﴿وَفِي ٱلۡأَرۡضِ ءَايَٰتٞ لِّلۡمُوقِنِينَ ٢٠ وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ٢١ وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ ٢٢ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ إِنَّهُۥ لَحَقّٞ مِّثۡلَ مَآ أَنَّكُمۡ تَنطِقُونَ ٢٣﴾

قوله تعالى: ﴿وَفِي ٱلۡأَرۡضِ ءَايَٰتٞ لِّلۡمُوقِنِينَ﴾ لمَّا ذَكَر أمر الفريقين، بيَّن أنَّ في الأرض علاماتٍ تدلُّ على قدرته على البعث والنشور، فمنها: عَوْدُ النبات بعد أن صار هشيماً، ومنها: أنه قدَّر الأقوات فيها قِواماً للحيوانات، ومنها: سيرُهم في البلدان التي يشاهدون فيها آثارَ الهلاك النازلِ بالأمم المكذِّبة. والموقنون: هم العارفون المحقِّقون وحدانيَّةَ ربِّهم، وصِدْقَ نبوَّةِ نبيِّهم؛ خصَّهم بالذِّكْر لأنهم المنتفعون بتلك الآياتِ وتدبُّرِها.

قوله تعالى: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾ قيل: التقدير: وفي الأرض وفي أنفسكم آياتٌ للموقنين. وقال قتادة: المعنى: مَن سار في الأرض رأى آياتٍ وعِبَراً، ومَن

(١) بنحوه في زاد المسير ٨/ ٣٣، وأخرج الطبري ٢١/ ٥١٨ من طريق ابن علية، عن ابن عون، عن الشعبي قال: أعياني أن أعلم ما المحروم.

(٢) هو علقمة الفحل، والبيت في ديوانه ص٦٦، وسلف ١٠/ ٥.

(٣) وأخرجه الطبراني في الصغير (٦٩٣)، والأوسط (٤٨١٠). قال الهيثمي في المجمع ٣/ ٦٢: فيه الحارث بن النعمان، وهو ضعيف.

تفكَّر في نفسه علم أنه خُلق ليعبُدَ الله. ابنُ الزبير ومجاهد: المراد سبيلُ الخلاء والبول[١]. وقال السائب بن شريك: يأكل ويشرب من مكان واحد ويخرج من مكانين؛ ولو شرب لبناً مَحْضاً لخرج منه الماءُ ومنه الغائط؛ فتلك الآيةُ في النفس. وقال ابن زيد: المعنى: أنه خلقكم من تراب، وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة ﴿ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ﴾ [الروم: ٢٠]. السدي: «وفي أَنْفُسِكُم» أي: في حياتكم وموتكم، وفيما يدخل ويخرج من طعامكم. الحسن: في الكِبَر بعد الشباب، والضَّعف بعد القوَّة، والشيبِ بعد السواد[٢]. وقيل: المعنى: وفي خلق أنفسِكم من نطفة، وعلقة، ومضغة، ولحم، وعظم، إلى نفخ الروح، وفي اختلاف الألسنة والألوان والصُّوَر، إلى غير ذلك من الآيات الباطنة والظاهرة[٣]. وحسبُك بالقلوب وما رُكز[٤] فيها من العقول، وخُصَّت به من أنواع المعاني والفنون، وبالألسن والنُّطق ومخارج الحروف والأبصار والأطراف وسائر الجوارح، وتأتِّيها لما خُلِقت له، وما سُوِّيَ في الأعضاء من المفاصل للانعطاف والتثنِّي، فإنه إذا جَسَا[٥] شيءٌ منها جاء العَجْز، وإذا استرخى أناخ الذُّلّ، ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤].

﴿أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾ يعني: بصرَ القلب ليَعرفوا كمالَ قدرته.

وقيل: إنه نُجْحُ العاجز، وحرمان الحازم[٦].

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٣٦٧، وقول ابن الزبير أخرجه الطبري ٢١/ ٥١٩.

(٢) ذكر هذه الأقوال ـ عدا قول السائب ـ الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٣٦٧. وقول ابن زيد أخرجه الطبري ٢١/ ٥١٩ - ٥٢٠.

(٣) ذكره بنحوه مختصراً البغوي في تفسيره ٤/ ٢٣١، والواحدي في الوسيط ٤/ ١٧٦ ونسباه لابن عباس رضي الله عنهما.

(٤) في النسخ الخطية: ذكر، والمثبت من (م)، وهو الموافق لما في الكشاف ٤/ ١٦ - ١٧، والكلام منه.

(٥) أي: صَلُبَ. القاموس (جسو).

(٦) هذا أحد الأقوال في تفسير قوله: وفي أنفسكم أفلا تبصرون، كما ذكر الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٣٦٧.

قلت: كلُّ ما ذُكر مرادٌ في الاعتبار. وقد قدَّمنا في آية التوحيد من سورة البقرة أنَّ ما في بدن الإنسان ـ الذي هو العالَم الصغير ـ شيءٌ إلّا وله نظيرٌ في العالَم الكبير، وذكرنا هناك من الاعتبار ما يكفي ويُغني لمن تدبَّر(١).

قوله تعالى: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ قال سعيد بن جبير والضحَّاك: الرِّزق هنا ما ينزل من السماء من مطر وثلج يَنْبت به الزرعُ ويحيا به الخلق(٢). قال سعيد بن جبير: كلُّ عين قائمةٍ فإنها من الثلج. وعن الحسن أنه كان إذا رأى السحاب قال لأصحابه: فيه واللهِ رزقُكم، ولكنكم تُحرَمونه بخطاياكم(٣).

وقال أهل المعاني: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ﴾ معناه: وفي المطر رزقكم؛ سُمِّي المطرُ سماءً؛ لأنه من السماء ينزل. قال الشاعر(٤):

إذا سقطَ السماءُ بأرض قومٍ رعيناهُ وإنْ كانوا غِضابا

وقال ابن كَيْسان: يعني: وعلى ربِّ السماءِ رزقُكم؛ نظيرُه: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا﴾ [هود:٦]. وقال سفيان الثوريّ: «وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ» أي: عند الله في السماء رزقكم. وقيل: المعنى: وفي السماء تقديرُ رزقكم، وما فيه لكم مكتوبٌ في أُمِّ الكتاب(٥).

وعن سفيان ـ أيضاً ـ قال: قرأ واصل الأحدب(٦): ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ﴾ فقال: ألَا أرى رزقي في السماء وأنا أطلبه في الأرض! فدخل خَرِبة، فمكث ثلاثاً لا يصيب

(١) ٢/ ٥٠٤ - ٥٠٦.

(٢) النكت والعيون ٥/ ٣٦٧. وأخرجه عنهما الطبري ٢١/ ٥٢٠ - ٥٢١ مختصراً.

(٣) الكشاف ٤/ ١٧. وأخرج قولهما الطبري ٢١/ ٥٢٠ -٥٢١.

(٤) هو معاوية بن مالك (معوِّد الحكماء)، وسلف البيت ١/ ٣٢٧.

(٥) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٣٦٨.

(٦) هو واصل بن حيَّان الأحدب الأسدي الكوفي. مات سنة ١٢٠ أو ١٢٩. تهذيب التهذيب ٤/ ٣٠١.

شيئاً، فإذا هو في الثالثة بدَوْخَلةِ رُطَب[١]، وكان له أخٌ أحسنُ نيَّةً منه، فدخل معه، فصارتا دوخلتين، فلم يزل ذلك دأبَهما حتى فرَّق اللهُ بالموت بينهما[٢].

وقرأ ابن محيصن ومجاهد: «وفي السَّماءِ رازِقُكُمْ» بالألف[٣]، وكذلك في آخرها: «إنَّ اللهَ هو الرَّازِقُ».

﴿وَمَا تُوعَدُونَ﴾ قال مجاهد: يعني من خير وشر. وقال غيره: من خير خاصة. وقيل: الشر خاصة. وقيل: الجنة؛ عن سفيان بن عيينة[٤]. الضحَّاك: «وَمَا تُوعَدُونَ» من الجنة والنار[٥]. وقال ابن سيرين: «وَمَا تُوعَدُونَ» من أمر الساعة. وقاله الربيع[٦].

قوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ﴾ أكَّد ما أخبرهم به من البعث وما خلق في السماء من الرزق، وأقسم عليه: إنَّه لَحقٌّ، ثم أكَّده بقوله: ﴿مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾. وخصَّ النُّطقَ من بين سائر الحواسّ؛ لأن ما سواه من الحواسِّ يدخله الشبيه[٧]، كالذي يُرى في المرآة، واستحالةِ الذوق عند غلبة الصفراء ونحوها، والدَّويِّ والطنين في الأذن، والنطقُ سالمٌ من ذلك، ولا يُعتَرض بالصَّدَى؛ لأنه لا يكون إلَّا بعد حصول الكلام من الناطق غيرَ مَشُوبٍ بما يشكل به.

وقال بعض الحكماء: كما أنَّ كلَّ إنسان ينطِق بنفسه ولا يُمْكنه أن ينطق بلسان غيره، فكذلك كلُّ إنسان يأكل رزقه، ولا يمكنه أن يأكل رزق غيره[٨].

---

(١) الدَّوْخَلة؛ بتشديد اللام وتخفيفها: ما ينسج من الخُوص ويجعل فيه الرُّطَب، الصحاح (دخل).

(٢) أخرجه الطبري ٢١/ ٥٢١ .

(٣) في القراءات الشاذة ص١٤٥ ، والمحرر الوجيز ٥/ ١٧٦ عن ابن محيصن.

(٤) أخرجه الطبري ٢١/ ٥٢٣ عن سفيان الثوري. وأخرج قول مجاهد ٢١/ ٥٢٢ ، وينظر إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٤٠ - ٢٤١ .

(٥) أخرجه الطبري ٢١/ ٥٢٢ .

(٦) ذكره عنه الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٣٦٨ ، وقول ابن سيرين ذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ١٧٦ .

(٧) في (ز) و(ف) و(م): التشبيه، والمثبت من (ظ).

(٨) تفسير البغوي ٤/ ٢٣١ .

وقال الحسن: بلغني أنَّ نبيَّ الله ﷺ قال: «قاتل الله أقواماً أقسم لهم ربُّهم بنفسه ثم لم يصدِّقوه»[١] قال الله تعالى: ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ﴾.

وقال الأصمعي: أقبلتُ ذاتَ مرَّةٍ من مسجد البصرة، إذ طلع أعرابيٌّ جِلْفٌ جافٍ على قَعُود[٢] له، متقلِّداً سيفَه، وبيده قوسُه، فدنا وسلَّم، وقال: ممَّن الرجل؟ قلت: من بني أَصْمَع، قال: أنت الأصمعي؟ قلت: نعم. قال: ومن أين أقبلت؟ قلت: من موضع يُتلَى فيه كلامُ الرحمن؛ قال: وللرحمن كلامٌ يتلوه الآدميون؟ قلت: نعم؛ قال: فاتْلُ عليَّ منه شيئاً؛ فقرأت: «وَالذَّارِيَاتِ ذَرْواً» إلى قوله: «وَفي السَّماءِ رِزْقُكُمْ» فقال: يا أصمعيُّ حسبُك!! ثم قام إلى ناقته فنحرها وقطعها بجلدها، وقال: أعنِّي على توزيعها؛ ففرَّقناها على مَن أقبل وأدبر، ثم عمد إلى سيفه وقوسه فكسرهما وجعلهما تحت الرَّحل، وولَّى نحو البادية وهو يقول: «وَفي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ»، فمقتُّ نفسي ولُمتُها. ثم حججتُ مع الرشيد، فبينما أنا أطوف، إذا أنا بصوت رقيق، فالتفت، فإذا أنا بالأعرابيِّ ناحلٌ مصفَرّ، فسلَّم عليَّ وأخذ بيدي، وقال: أتلُ عليَّ كلامَ الرحمن، وأجلسني وراء المقام، فقرأت: «وَالذَّارِيَاتِ»، حتى وصلت إلى قوله تعالى: ﴿وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ فقال الأعرابي: لقد وجدنا ما وعدنا ربُّنا حقّاً، وقال: هل غيرُ هذا؟ قلت: نعم؛ يقول الله تبارك وتعالى: ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾ فصاح الأعرابيُّ وقال: يا سبحان الله! مَن الذي أغضب الجليلَ حتى حلف! ألم يصدِّقوه في قوله حتى ألجؤوه إلى اليمين؟ فقالها ثلاثاً وخرجتْ بها نَفْسُه[٣].

وقال يزيد بن مَرْثد[٤]: إنَّ رجلاً جاع بمكان ليس فيه شيء، فقال: اللهم رزقَكَ

---

(١) أخرجه الطبري ٢١/ ٥٢٣ .

(٢) القَعُود؛ بالفتح: البعير من الإبل، وهو البَكر حين يُركب، أي: يمكّن ظهره من الركوب. وأقلُّه سنتان إلى أن يثني، فإذا أثنى سمّي جملاً. الصحاح (قعد).

(٣) أخرجه البيهقي في الشعب (١٣٣٧).

(٤) أبو عثمان الهمداني، الشامي الصنعاني، من صنعاء دمشق. تابعي، ذكره ابن حبان في الثقات. وكان كثير البكاء. تهذيب الكمال ٣٢/ ٢٣٩ .

الذي وعدتني فأتني به؛ فشبع ورَوِي من غير طعامٍ ولا شراب.

وعن أبي سعيد الخدريِّ قال: قال النبيُّ ﷺ: «لو أنَّ أحدكم فرَّ من رزقه، لتَبعه كما يَتْبعه الموت» أسنده الثعلبي رحمه الله[(١)]،

وفي سنن ابنِ ماجه عن حَبَّة وسَوَاء ابنَي خالد قالا: دخلنا على النبيِّ ﷺ وهو يعالج شيئاً، فأعنَّاه عليه، فقال: «لا تيأسا من الرزق ما تهزَّزت رؤوسكما؛ فإنَّ الإنسان تلده أُمُّه أحمرَ ليس عليه قِشر، ثم يرزقه الله»[(٢)].

وروي أنَّ قوماً من الأعراب زرعوا زرعاً فأصابته جائحة، فحزنوا لأجله، فخرجت عليهم أعرابيَّةٌ فقالت: ما لي أراكم قد نكستم رؤوسَكم، وضاقت صدورُكم، هو ربُّنا والعالم بنا، رِزْقُنا عليه، يأتينا به من حيث شاء! ثم أنشأت تقول:

لو كان في صخرةٍ في البحر راسيةٍ ... صَمّا مُلَمْلَمةٍ مُلْسٍ[(٣)] نواحيها
رِزقٌ لنفسٍ بَرَاها الله لانفلقتْ ... حتى تؤدِّي إليها كُلَّ ما فيها
أو كان بين طباق السبعِ مسلكُها ... لَسهَّلَ الله في المرقَى مَراقيها
حتى تنالَ الذي في اللوح خُطَّ لها ... إنْ لم تَنلْه وإلَّا سوف يأتيها[(٤)]

قلت: وفي هذا المعنى قِصَّةُ الأشعريين حين أرسلوا رسولَهم إلى النبيِّ ﷺ،

---

(١) وأسنده ابن عدي في الكامل ٦/ ٢٠٤٥ من طريق فضيل بن مرزوق، عن عطية، عن أبي سعيد ﷺ. وقال: لفضيل أحاديث حسان، وأرجو أن لا بأس به.

(٢) سنن ابن ماجه (٤١٦٥)، وهو عند أحمد (١٥٨٥٥). قوله: تهززت رؤوسكما، أي: تحركت؛ كناية عن الحياة. قوله: أحمر، أي: كاللحم الذي لا قشر عليه، ويحتمل أن المراد بالقشر الثوب. وفي الزوائد: إسناده صحيح، وسلَّام بن شرحبيل ذكره ابن حبان في الثقات، ولم أر من تكلم فيه، وباقي رجال الإسناد ثقات. شرح سنن ابن ماجه للسندي ٢/ ٥٤١.

(٣) في (م): ملساً. وقوله: ململمة، أي: مستديرة صلبة. الصحاح (لمم).

(٤) قال ابن حبان في روضة العقلاء ص١٥٤: أنشدني عبد العزيز بن سليمان الأبرش، فذكر الأبيات.

وقال ابن عبد البر في بهجة المجالس ١/ ١٣٨: ومما يروى لعلي بن أبي طالب ﷺ، وفيه نظر، فذكر الأبيات.

فسمع قولَه تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ فرجع ولم يكلم النبيَّ ﷺ، وقال: ليس الأشعريون بأهونَ على الله من الدوابّ؛ وقد ذكرناه في سورة هود[١].

وقال لقمان: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِي ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ﴾ [لقمان: ١٦]. وقد مضى في «لقمان»[٢].

وقد استوفينا هذا الباب في كتاب «قَمْع الحرص بالزهد والقناعة» والحمد لله.

وهذا هو التوكُّل الحقيقيُّ الذي لا يشوبه شيء، وهو فراغ القلب مع الربّ؛ رَزَقنا اللهُ إياه، ولا أحالنا على أحد سواه، بمَنِّه وكرمه.

قوله تعالى: ﴿مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾ قراءة العامة: «مِثْلَ» بالنصب، أي: كمثل ما أنَّكم، فهو منصوبٌ على تقدير حذف الكاف، أي: كمثل نطقكم، و«ما» زائدة؛ قاله بعض الكوفيِّين[٣]. وقال الزجَّاج والفرَّاء: يجوز أن ينتصب على التوكيد، أي: لَحَقٌّ حقًّا مِثْلَ نطقكم[٤]؛ فكأنه نعتٌ لمصدر محذوف. وقول سيبويه: إنه مبني؛ بُني حين أُضيف إلى غير متمكِّن[٥]، و«ما» زائدة للتوكيد. المازني: «مِثْلَ» مع «ما» بمنزلة شيءٍ واحد، فبني على الفتح لذلك[٦]. واختاره أبو عبيد وأبو حاتم؛ قال: ولأن مِن العرب مَن يجعل مِثْلاً منصوباً أبداً؛ فيقول: قال لي رجلٌ مثلَك، ومررت برجل مثلَك، نصب.

وقرأ أبو بكر وحمزة والكِسائيُّ والأعمش: «مِثْلُ» بالرفع على أنه صفةٌ لحقّ[٧]؛

---

(١) ١١/ ٧٣ - ٧٤.

(٢) ١٦/ ٤٧٦ وما بعدها.

(٣) مشكل إعراب القرآن ٢/ ٦٨٨ بنحوه. قال السمين الحلبي في الدر المصون ١٠/ ٤٩: وفي هذا نظر، أيُّ حاجة إلى دخول الكاف ومثل تفيد فائدتها؟

(٤) المثبت من (ز)، وفي غيرها: نطقك، والكلام في معاني القرآن للزجاج ٥/ ٥٤، وللفراء ٣/ ٨٥.

(٥) ذكر قوله النحاس في إعراب القرآن ٤/ ٢٤١.

(٦) ذكر قوله أبو علي في الحجة ٦/ ٢١٨، ومكي في مشكل إعراب القرآن ٢/ ٦٨٧.

(٧) السبعة ص٦٠٩، والتيسير ص٢٠٣. وهي عن الأعمش في معاني القرآن للفراء ٣/ ٨٥، والمحرر الوجيز ٥/ ١٧٦.

لأنه نكرةٌ وإن أُضيف إلى معرفة، إذ لا يختصُّ بالإضافة؛ لكثرة الأشياءِ التي يقع بعدها التماثل بين المتماثلين. و«مِثْل» مضافٌ إلى «أَنْكُمْ»، و«ما» زائدة، ولا تكون مع ما بعدها بمنزلة المصدر؛ إذ لا فعل معها تكون معه مصدراً[١]. ويجوز أن تكون بدلاً من «لَحَقٌّ».

قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ﴾ ذَكَرَ قصةَ إبراهيم عليه السلام ليبيِّنَ بها أنه أهلك المكذِّبَ بآياته كما فعل بقوم لوط.

«هَلْ أَتَاكَ» أي: ألم يأتك. وقيل: «هَلْ» بمعنى قد[٢]؛ كقوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ﴾ [الإنسان: ١]. وقد مضى الكلامُ في ضيف إبراهيم في «هود» و«الحجر»[٣].

﴿الْمُكْرَمِينَ﴾ أي: عند الله[٤]؛ دليله قوله تعالى: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٦]. قال ابن عباس: يريد جبريل وميكائيل وإسرافيل[٥]؛ زاد عثمان بنُ مُحصِن[٦]: ورفائيل، عليهم الصلاة والسلام[٧]. وقال محمد بن كعب: كان جبريل

---

(١) الكلام بنحوه في الحجة ٦/ ٢١٦ .

(٢) الوسيط للواحدي ٤/ ٧٧ عن ابن عباس ومقاتل.

(٣) ١١/ ١٥٧ فما بعد، ١٢/ ٢٢١ فما بعد.

(٤) الوسيط للواحدي ٤/ ١٧٧ ، والنكت والعيون ٥/ ٣٦٩ ، وتفسير البغوي ٤/ ٢٣٢ ، والمحرر الوجيز ٥/ ١٧٧ ، وزاد المسير ٨/ ٣٥ .

(٥) الوسيط للواحدي ٤/ ١٧٧ .

(٦) في (م): حصين، وهو خطأ. وعثمان بن محصن روى عن ابن عباس، مرسل. روى عنه نوح بن قيس الحداني. الجرح والتعديل ٦/ ١٦٧ .

(٧) النكت والعيون ٥/ ٣٦٩ ، وأخرجه ابن أبي حاتم ٦/ ٢٠٥٤ (١١٠١٢).

ومعه تسعة[١]. وقال عطاء وجماعة: كانوا ثلاثة: جبريل، وميكائيل، ومعهما مَلَكٌ آخَر[٢]. قال ابن عباس: سمَّاهم مكرَمين لأنهم غيرُ مَدْعُوِّين[٣]. وقال مجاهد: سمَّاهم مكرمين لخدمة إبراهيمَ إياهم بنفسه[٤].

قال عبد الوهَّاب: قال لي علي بن عياض[٥]: عندي هريسة، ما رأيك فيها؟ قلت: ما أحسنَ رأيي فيها! قال: امضِ بنا؛ فدخلت الدار، فنادى الغلام، فإذا هو غائب، فما راعني إلَّا به ومعه القُمْقُمة والطَّسْت، وعلى عاتقه المِنْديل، فقلت: إنا لله وإنا إليه راجعون، لو علمتُ يا أبا الحسن أنَّ الأمر هكذا. قال: هَوِّن عليك؛ فإنك عندنا مُكرم، والمُكرم إنما يُخدم بالنفس؛ انظر إلى قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ﴾.

قوله تعالى: ﴿إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾ تقدَّم في «الحجر»[٦]. ﴿قَالَ سَلَٰمٌ﴾ أي: عليكم سلام. ويجوز بمعنى: أمري سلام، أو: ردِّي لكم سلام[٧].

وقرأ أهل الكوفة إلَّا عاصماً: «سِلْمٌ» بكسر السين[٨].

﴿قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾ أي: أنتم قومٌ منكرون، أي: غرباء لا نعرفكم[٩]. وقيل: لأنه رآهم على غير صورة البشر، وعلى غير صورة الملائكة الذين كان يعرفهم، فنكِرَهم،

---

(١) مجمع البيان ٢٧/ ١٥ .

(٢) ذكره في الكشاف ٤/ ١٧ دون نسبة.

(٣) في (ظ) و(م): مذعورين، وهو خطأ، وينظر تفسير البغوي ٤/ ٢٣٢ .

(٤) النكت والعيون ٥/ ٣٦٩ ، وأخرجه الطبري ٢١/ ٥٢٥ بنحوه.

(٥) في (ز): قال لي عياض. وعلي بن عياض ذكره ابن عساكر في تاريخه ١٦/٥ فيمن روى عن أحمد بن عطاء الروذباري الصوفي، فقال: القاضي أبو الحسن علي بن عياض بن أحمد بن أيوب بن أبي عقيل الصوري.

(٦) ١٢/ ٢٢٢ .

(٧) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٤٣ بنحوه.

(٨) السبعة ص٣٣٧ ، والتيسير ص١٢٥ .

(٩) تفسير البغوي ٤/ ٢٣٢ .

فقال: «قَوْمٌ مُنْكَرُونَ»[١]. وقيل: أنكرهم لأنهم دخلوا عليه من غير استئذان. وقال أبو العالية: أنكر سلامهم في ذلك الزمانِ وفي تلك الأرض[٢]. وقيل: خافهم؛ يقال: أنكرته إذا خفته، قال الشاعر:

فأنْكَرَتْنِي وما كان الذي نَكِرَتْ   مِن الحوادث إلَّا الشَّيبَ والصَّلَعا[٣]

قوله تعالى: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ﴾ قال الزجَّاج[٤]: أي: عَدَلَ إلى أهله. وقد مضى في «والصافَّات»[٥]. ويقال: أراغ وارتاغ بمعنى طلب، وماذا تُرِيغ، أي: تريد وتطلب، وراغ[٦] إلى كذا، أي: مال إليه سِرًّا وحاد. فعلى هذا يكون راغ وأراغ لغتين بمعنى[٧].

﴿فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾ أي: جاء ضيفَه بعجل قد شواه لهم، كما في «هود»: ﴿فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾ [الآية:٦٩]. ويقال: إنَّ إبراهيم انطلق إلى منزله كالمستخفي من ضيفه، لئلَّا يظهروا على ما يريد أن يتَّخذَ لهم من الطعام.

قوله تعالى: ﴿فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ﴾ يعني العجل. ﴿قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ قال قتادة: كان عامَّةُ مالِ إبراهيم البقر. واختاره لهم سميناً زيادةً في إكرامهم[٨]. وقيل: العِجل في بعض اللغات الشاة؛ ذكره القشيري. وفي الصحاح: العِجل ولد البقرة، والعِجَّوْل مثلُه، والجمع العَجاجيل، والأنثى عِجْلة، عن أبي الجرَّاح، وبقرة مُعْجِل: ذات عِجْل، وعِجْل قبيلةٌ من ربيعة.

قوله تعالى: ﴿فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ أي: أحسَّ منهم في نفسه خوفاً. وقيل: أضمر

(١) النكت والعيون ٥/ ٣٧٠.
(٢) تفسير البغوي ٤/ ٢٣٢.
(٣) النكت والعيون ٥/ ٣٧٠، والبيت في ديوان الأعشى ص١٥١، وفيه كلام؛ سلف ١١/ ١٦٣.
(٤) في معاني القرآن ٥/ ٥٤، ونقله المصنف عنه بواسطة النكت والعيون ٥/ ٣٧٠.
(٥) ١٨/ ٥٣.
(٦) في النسخ: وأراغ، والمثبت من الصحاح وغيره.
(٧) لم نقف عليه في كتب اللغة.
(٨) النكت والعيون ٥/ ٣٧٠، وقول قتادة أخرجه الطبري ٢١/ ٥٢٦.

لمَّا لم يَتحرَّموا بطعامه[(١)]. ومن أخلاق الناس أنَّ مَن تَحرَّم بطعام إنسانٍ أَمِنَه.

وقال عمرو بن دينار: قالت الملائكة: لا نأكل إلَّا بالثمن. قال: كلوا وأدُّوا ثمنه. قالوا: وما ثمنُه؟ قال: تسمُّون اللهَ إذا أكلتم، وتحمدونه إذا فرغتم. فنظر بعضهم إلى بعض وقالوا: لهذا اتخذك الله خليلاً. وقد تقدَّم هذا في «هود»[(٢)].

ولمَّا رأوا ما بإبراهيم من الخوف ﴿قَالُوا لَا تَخَفْ﴾ وأعلموه أنهم ملائكةُ الله ورسلُه. ﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ﴾ أي: بولد يولد له مِن سارة زوجتِه. وقيل: لمَّا أخبروه أنهم ملائكةٌ لم يصدِّقهم، فدَعَوا الله، فأحيا العجلَ الذي قرَّبه إليهم. وروى عون بن أبي شدَّاد: أنَّ جبريل مسح العجل بجناحه، فقام يدرج حتى لَحِقَ بأمه، وأُمُّ العجل في الدار[(٣)]. ومعنى «عَلِيم» أي: يكون بعد بلوغه مِن أولي العلم بالله وبدينه.

والجمهور على أنَّ المبشَّر به هو إسحاق. وقال مجاهدٌ وحده: هو إسماعيل، وليس بشيء؛ فإنَّ الله تعالى: يقول: ﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ﴾ [الصافات:١١٢]. وهذا نصّ[(٤)].

قوله تعالى: ﴿ فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ﴾ أي: في صيحة وضجَّة؛ عن ابن عباس وغيره. ومنه أُخذ صريرُ الباب، وهو صوته[(٥)]. وقال عكرمة وقتادة: إنها الرَّنَّة والتأوُّه[(٦)]. ولم يكن هذا الإقبالُ من مكان إلى مكان؛ قال الفرَّاء[(٧)]: وإنما هو

---

(١) الكشاف ٤/ ١٨، وقوله: يتحرموا بطعامه، أي: يحرم عليهم بسببه ما يريدون به من سوء.

(٢) ١١/ ١٦٦. وينظر النكت والعيون ٥/ ٣٧٠، والمحرر الوجيز ٥/ ١٧٧ - ١٧٨.

(٣) النكت والعيون ٥/ ٣٧٠.

(٤) الكلام بنحوه في النكت والعيون ٥/ ٣٧١، والكشاف ٤/ ١٨، والمحرر الوجيز ٥/ ١٧٨. وقول مجاهد أخرجه الطبري ٢١/ ٥٢٧ ورجح خلافه.

(٥) النكت والعيون ٥/ ٣٧١ بنحوه، وأخرج قول ابن عباس الطبري ٢١/ ٥٢٨ - ٥٢٩ عنه وعن غيره.

(٦) ذكر قول عكرمة الزمخشري في الكشاف ٤/ ١٨، وقول قتادة الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٣٧١، وأخرجه الطبري ٢١/ ٥٢٨ - ٥٢٩ عن قتادة.

(٧) في معاني القرآن ٣/ ٨٧.

كقولك: أقبل يشتِمني، أي: أخذ في شتمي. وقيل: أقبلت في صَرَّة، أي: في جماعة من النساء تسمع كلامَ الملائكة[١].

قال الجوهري: الصَّرَّة: الضَّجَّة والصيحة، والصَّرَّة: الجماعة، والصَّرَّة: الشِّدَّة مِن كرب وغيره، قال امرؤ القيس:

فألحَقَه بالهاديات ودونَهُ جَوَاحِرُها في صَرَّة لم تَزَيَّلِ

يحتمل هذا البيتُ الوجوهَ الثلاثة. وصَرَّةُ القيظ: شِدَّة حَرِّه[٢].

فلما سمعت سارة البِشارة، صَكَّت وجهها، أي: ضربت يدها على وجهها على عادة النِّسوان عند التعجُّب؛ قاله سفيان الثوريُّ وغيره[٣]. وقال ابن عباس: صَكَّت وجهها: لطمته[٤]. وأصل الصَّك: الضرب؛ صكَّه، أي ضربه؛ قال الراجز:

يا كَرَواناً صُكَّ فاكبأَنَّا[٥]

قال الأموي: كَبَن الظَّبي: إذا لطأ بالأرض، واكبَأَنَّ: انقبض[٦].

﴿وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾ أي: أتلد عجوزٌ عقيم؟![٧].

---

(١) ذكره النحاس في إعراب القرآن ٤/ ٢٤٤ .

(٢) الصحاح (صرر). وبيت امرئ القيس في ديوانه ص٢٢ ، وروايته: فألحقنا.. قال شارحه: قوله: فألحقنا بالهاديات، أي: ألحقنا الفرس بالمتقدمات من البقر. والجواحر: ما تخلف منها. والصرة: الجماعة. ومعنى: لم تزيل: لم تفرق، أي: جمع الفرس بين أواخرها وأوائلها، فلم يفت منها شيء.

(٣) أخرجه الطبري ٢١/ ٥٣٠ عن الثوري وغيره.

(٤) أخرجه الطبري ٢١/ ٥٢٩ .

(٥) الصحاح (صكك)، وينظر (كبن). والرجز لمدرك بن حصن، وهو في إصلاح المنطق ص٩٦ ، والمعاني الكبير ١/ ٢٩٤ ، واللسان (كبن)، والخزانة ٣/ ١٨٧ (دار صادر). والكَرَوان: طائر، قيل: هو الحُبَارَى: الصحاح (كرى). والمقصود به هنا عامل الزكاة هجي به، كأنه قال: يا رجلاً كرواناً، أي: يا مثل الكروان بضعفه. الخزانة.

(٦) الصحاح (كبن).

(٧) النكت والعيون ٥/ ٣٧١ عن مجاهد والسدي.

الزجّاج[١]: أي: وقالت: أنا عجوز عقيم فكيف ألد؟! كما قالت: «يا وَيْلَتا أألد وأنا عجوزٌ» [هود: ٧٢].

﴿قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ﴾ أي: كما قلنا لكِ وأخبرناك ﴿قَالَ رَبُّكِ﴾ فلا تَشكّي فيه، وكان بين البشارة والولادة سَنَة، وكانت سارة لم تلد قبل ذلك، فولدت وهي بنت تسعٍ وتسعين سنة، وإبراهيمُ يومئذ ابن مئةِ سنة، وقد مضى هذا[٢]. ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ﴾ حكيم فيما يفعله، عليمٌ بمصالح خَلْقه.

قوله تعالى: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ۝٣١ قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ۝٣٢ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ۝٣٣ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ۝٣٤ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٣٥ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ۝٣٦ وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ۝٣٧﴾

قوله تعالى: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ لمَّا تيقَّن إبراهيم عليه السلام أنهم ملائكة بإحياء العجل والبشارة، قال لهم: «فَمَا خَطْبُكُمْ» أي: ما شأنكم وقِصّتكم «أيُّها المرسَلون» ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾ يريد قومَ لوط. ﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ﴾ أي: لنرجُمَهم بها.

﴿مُّسَوَّمَةً﴾ أي: مُعَلَّمة. قيل: كانت مخطَّطةً بسواد وبياض. وقيل: بسواد وحُمرة. وقيل: «مُسَوَّمَةً» أي: معروفة بأنها حجارة العذاب. وقيل: على كل حجر اسمُ من يَهلِك به. وقيل: عليها أمثالُ الخواتيم. وقد مضى هذا كلُّه في «هود»[٣]. فجَعلت الحجارة تتبع مسافريهم وشُذَّاذَهم[٤]، فلم يُفلت منهم مُخْبِر. ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾ أي: عند الله، وقد أعدَّها لرجم مَن قضى برجمه. ثم قيل: كانت مطبوخة طبخَ الآجُرّ، قاله

(١) في معاني القرآن ٥/ ٥٥ .

(٢) ١١/ ١٦٨ - ١٦٩ .

(٣) ١١/ ١٨٧ -١٨٩ .

(٤) المثبت من (م)، وفي غيرها: شدادهم. وفي القاموس: الشُّذَّاذ: الذين لم يكونوا في حيِّهم ومنازلهم.

ابن زيد؛ وهو معنى قولِه تعالى: ﴿حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾ [هود:٨٢] على ما تقدَّم بيانُه في «هود»[(١)]. وقيل: هي الحجارة التي نراها، وأصلها طين، وإنما تصير حجارة بإحراق الشمس إياها على مرِّ الدهور. وإنما قال: «مِنْ طِينٍ» ليعلم أنها ليست حجارةَ الماء التي هي البَرَد؛ حكاه القشيري[(٢)].

قوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: لمَّا أردنا إهلاكَ قوم لوط، أخرجنا مَن كان في قومه من المؤمنين؛ لئلا يَهلِكَ المؤمنون، وذلك قولُه تعالى: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ﴾ [هود:٨١]. ﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ يعني لوطاً وبنتيه، وفيه إضمار؛ أي: فما وجدنا فيها غيرَ أهلِ بيت. وقد يقال: بيت شريف، يراد به الأهل. وقوله: «فِيهَا» كناية عن القرية، ولم يتقدَّم لها ذِكر؛ لأن المعنى مفهوم[(٣)]. وأيضاً فقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾ يدلُّ على القرية؛ لأن القوم إنما يسكنون قرية. وقيل: الضمير فيها للجماعة[(٤)]، والمؤمنون والمسلمون هاهنا سواء، فجنَّس اللفظ لئلا يتكرر، كما قال: ﴿إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [يوسف:٨٦]. وقيل: الإيمان تصديق القلب، والإسلام الانقياد بالظاهر، فكلُّ مؤمنٍ مسلمٌ وليس كلُّ مسلم مؤمناً. فسمَّاهم في الآية الأولى مؤمنين؛ لأنه ما من مؤمن إلَّا وهو مسلم[(٥)]. وقد مضى الكلام في هذا المعنى في «البقرة» وغيرها[(٦)]. وقولُه: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ﴾ [الحجرات:١٤] يدل على الفرق بين الإيمان والإسلام، وهو مقتضى حديثِ جبريل عليه السلام في صحيح مسلم[(٧)] وغيره. وقد بيَّناه في غير موضع.

قوله تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً﴾ أي: عبرةً وعلامةً لأهل ذلك الزمانِ ومَن بعدهم؛

---

(١) ١١/١٦٨-١٦٩.

(٢) وحكاه ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/١٧٨.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٤/٢٤٥، والكشاف ٤/١٩.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٤/٢٤٥.

(٥) الوسيط للواحدي ٤/١٧٨، وتفسير البغوي ٤/٢٣٣.

(٦) ٢/٣٩٦، ٤٠٧ - ٤٠٨ و٥/٦٨.

(٧) برقم (٨) و(٩). وسلف ٥/٦٨.

نظيرُه: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٣٥]. ثم قيل: الآية المتروكة نفس القرية الخَرِبة[١]. وقيل: الحجارة المنضودة التي رُجِموا بها هي الآية. ﴿لِلَّذِينَ يَخَافُونَ﴾ لأنهم المنتفعون.

قوله تعالى: ﴿وَفِى مُوسَىٰٓ إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَفِى مُوسَىٰٓ﴾ أي: وتركنا أيضاً في قصة موسى آية. وقال الفراء: هو معطوف على قوله: «وفي الأرْض آياتٌ» «وفي مُوسَى»[٢]. ﴿إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ أي: بحجَّة بيِّنة، وهي العصا. وقيل: أي: بالمعجزات؛ من العصا وغيرها.

قوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ﴾ أي: فرعون؛ أعرض عن الإيمان «بِرُكْنِهِ» أي: بجموعه وأجناده؛ قاله ابن زيد. وهو معنى قولِ مجاهد[٣]. ومنه قولُه: «أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ» [هود: ٨٠] يعني المَنَعة والعشيرة. وقال ابن عباس وقتادة: بقوته[٤]. ومنه قول عنترة:

فما أَوْهَى مِرَاسُ الحربِ رُكْني ولكنْ ما تقادَم مِن زماني[٥]

(١) معاني القرآن للفراء ٣/ ٨٧ بنحوه.

(٢) لم نقف على كلام الفراء، وذكر الوجهين الزجاج في معاني القرآن ٥/ ٥٦، والزمخشري في الكشاف ٤/ ١٩.

(٣) أخرجه وقولَ ابن زيد الطبري ٢١/ ٥٣٤ - ٥٣٥.

(٤) في (ظ): لقومه (كذا) والأثر ذكره الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٣٧٢ عن ابن عباس رضي الله عنهما، وأخرجه عنه الطبري ٢١/ ٥٣٤ على الشك فقال: بقوته أو بقومه. أبو جعفر يشك. أي: الطبري. وأما قتادة فقد أخرج عنه ٢١/ ٥٣٥ قوله: بقومه، وكذا أخرجه عبد الرزاق ٢/ ٢٤٤، وذكره النحاس في إعراب القرآن ٤/ ٢٤٦، وابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ١٨٠.

(٥) ونسبه أيضاً لعنترة المبرِّد في الكامل ١/ ٢٨٥، وليس هو في المطبوع من ديوانه. والكلام في النكت والعيون ٥/ ٣٧٢.

وقيل: بنفسه. وقال الأخفش[١]: بجانبه؛ كقوله تعالى: ﴿أَعۡرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ﴾ [الإسراء: ٨٣] وقاله المؤرِّج.

الجوهري[٢]: ورُكْن الشيء جانبه الأقوى، وهو يأوي إلى ركن شديد، أي: عِزٍّ ومَنَعة. القشيري: والركن جانب البدن. وهذا عبارةٌ عن المبالغة في الإعراض عن الشيء.

﴿وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٞ﴾ «أو» بمعنى الواو، لأنهم قالوهما جميعاً[٣]. قاله المؤرِّج والفرَّاء، وأنشد بيت جرير[٤]:

أثعلبةَ الفوارسَ أو رِياحا عَدَلْتَ بهم طُهَيَّةَ والخِشَابا

وقد توضع «أو» بمعنى الواو؛ كقوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعۡ مِنۡهُمۡ ءَاثِمًا أَوۡ كَفُورٗا﴾ [الإنسان: ٢٤]. والواوُ بمعنى «أو»، كقوله تعالى: ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾ [النساء: ٣] وقد تقدَّم جميع هذا[٥].

﴿فَأَخَذۡنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ﴾ لكفرهم وتولِّيهم عن الإيمان. ﴿فَنَبَذۡنَٰهُمۡ﴾ أي: طرحناهم ﴿فِي ٱلۡيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٞ﴾ يعني فرعون، لأنه أتى ما يلام عليه.

قوله تعالى: ﴿وَفِي عَادٍ إِذۡ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلۡعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَيۡءٍ أَتَتۡ عَلَيۡهِ إِلَّا جَعَلَتۡهُ كَٱلرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَفِي عَادٍ﴾ أي: وتركنا في عاد آيةً لمن تأمَّل. ﴿إِذۡ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلۡعَقِيمَ﴾ وهي التي لا تُلْقح سحاباً ولا شجراً، ولا رحمةَ فيها ولا بركة ولا منفعة؛

(١) المصدر السابق.

(٢) في الصحاح (ركن).

(٣) مجاز القرآن ٢/ ٢٢٧ . وقد ضعفه النحاس في إعراب القرآن ٤/ ٢٤٦ ، وابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ١٨٠ .

(٤) أنشده أبو عبيدة في مجاز القرآن. وسلف ١٧/ ٣١٣ .

(٥) ١/ ٣٢٥ ، ٦/ ٣٣ - ٣٥ .

ومنه: امرأة عقيم لا تحمل ولا تلد. ثم قيل: هي الجَنُوب؛ روى ابن أبي ذئب عن الحارث بن عبد الرحمن، عن النبيِّ ﷺ قال[١]: «الريح العقِيم الجَنُوب». وقال مقاتل: هي الدَّبُور[٢]، كما في الصحيح عن النبيِّ ﷺ: «نُصِرت بالصَّبَا، وأُهلِكت عادٌ بالدَّبُور»[٣]. وقال ابن عباس: هي النَّكْباء[٤]. وقال عُبيد بن عُمير: مسكنها الأرض الرابعة، وما فتح على عاد منها إلا كقَدْر مَنْخِر الثور. وروى ابن أبي نَجيح عن مجاهد أنها الصَّبا[٥]؛ فالله أعلم.

قوله تعالى: ﴿مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ﴾ أي: كالشيء الهشيم؛ يقال للنبت إذا يبس وتفتَّت: رميم وهشيم. قال ابن عباس: كالشيء الهالك البالي؛ وقاله مجاهد[٦]. ومنه قول الشاعر[٧]:

تركْتَني حين كَفَّ الدَّهرُ مِن بصري ... وإذ بَقِيتُ كعَظْم الرِّمَّة البالي

وقال قتادة: إنه الذي دِيس من يابس النبات. وقال أبو العالية والسُّدِّيّ: كالتراب المدقوق. قُطْرب: الرَّمِيم: الرَّماد[٨]. وقال يمان: ما رَمَته الماشية من الكلأ بمِرَمَّتها. ويقال للشَّفَة: المِرَمَّة والمِقَمَّة، بالكسر، والمَرَمَّة ـ بالفتح ـ لغةٌ فيه. وأصل الكلمة مِن: رَمَّ العظمُ: إذا بَلي؛ تقول منه: رَمَّ العظم يَرِمُّ ـ بالكسر ـ رِمَّة، فهو رمِيم،

(١) كذا في النكت والعيون ٥/ ٣٧٣، وأخرجه الطبري ٢١/ ٥٣٨، وأبو الشيخ في العظمة (٨٥١) بهذا السند عن سعيد بن المسيب من كلامه.

(٢) النكت والعيون ٥/ ٣٧٣. والدَّبُور: الريح التي تقابل الصَّبا. النهاية (دبر).

(٣) صحيح البخاري (١٠٣٥)، وصحيح مسلم (٩٠٠). وسلف ٢/ ٤٩٩.

(٤) ذكر هذا القول الزمخشري في الكشاف ٤/ ١٩، وابن عطية في المحرر ٥/ ١٨٠ عن علي ﷺ، وكذا أخرجه الفريابي وابن المنذر كما في الدر المنثور ٦/ ١١٥.

(٥) النكت والعيون ٥/ ٣٧٣.

(٦) أخرج قولهما الطبري ٢١/ ٥٤٠. وقول مجاهد في النكت والعيون.

(٧) هو جرير، والبيت في شرح ديوانه ٢/ ٥٨٤ باختلاف يسير، وهو براوية المصنف في النكت والعيون.

(٨) النكت والعيون ٥/ ٣٧٣ دون ذكر أبي العالية، وقوله في تفسير البغوي ٤/ ٢٣٣.

قال الشاعر:

ورأى عـواقـبَ خُـلْـفِ ذاك مَـذَمَّـةً تَـبـقَـى عـلـيـه والـعِـظـامُ رَمِـيـمُ[١]

والرِّمَّة ـ بالكسر ـ العظام البالية، والجمع: رِمَم ورِمَام[٢]. ونظيرُ هذه الآية: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأحقاف: ٢٥] حسَب ما تقدَّم[٣].

قوله تعالى: ﴿وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾ فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٤٤﴾ فَمَا اسْتَطَاعُوا مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنتَصِرِينَ ﴿٤٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَفِي ثَمُودَ﴾ أي: وفيهم أيضاً عِبْرةٌ وآية حين قيل لهم: عيشوا متمتِّعين بالدنيا ﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾ أي: إلى وقت الهلاك، وهو ثلاثة أيام كما في هود: ﴿تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ﴾ [الآية: ٦٥]. وقيل: معنى «تَمَتَّعُوا» أي: أَسلِموا وتمتَّعوا إلى وقت فراغ آجالِكم. ﴿فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ أي: خالَفوا أمر الله، فعقروا الناقة ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ﴾ أي: الموت. وقيل: هي كلُّ عذاب مُهلِك[٤]. قال الحسين[٥] بن واقد: كلُّ صاعقة في القرآن فهو العذاب.

وقرأ عمر بن الخطاب وحميد وابن مُحَيْصِن ومجاهدٌ والكسائي: «الصَّعْقة»[٦]؛ يقال: صَعِق الرجلُ صَعْقةً وتَصْعاقاً، أي: غُشِي عليه. وصَعَقتهم السماء: إذا ألقت عليهم الصاعقة. والصاعقة أيضاً صيحة العذاب[٧]. وقد مضى في «البقرة»[٨] وغيرها.

(١) لم نقف عليه.
(٢) الصحاح (رمم).
(٣) ص٢١٤-٢١٥ من هذا الجزء.
(٤) الوسيط للواحدي ٤/ ١٧٩، وتفسير البغوي ٤/ ٢٣٤، والقول الأول نسباه لابن عباس.
(٥) في النسخ الخطية: الحسن.
(٦) أخرجها عن عمر الفراء في معاني القرآن ٣/ ٨٨، والطبري في تفسيره ٢١/ ٥٤٢، وهي عن الكسائي في السبعة ص٦٠٩، والتيسير ٢٠٣.
(٧) الصحاح (صعق).
(٨) ١/ ٣٣٠ - ٣٣٢.

﴿وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾ إليها نهاراً[١].

﴿فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مِن قِيَامٍ﴾ قيل: معناه: من نهوض[٢]. وقيل: ما أطاقوا أن يستقِلُّوا بعذاب الله وأن يتحمَّلوه ويقوموا به ويدفعوه عن أنفسهم؛ تقول: لا أقوم لهذا الأمر، أي: لا أطيقه[٣]. وقال ابن عباس: أي: ذهبت أجسامهم وبقيت أرواحهم في العذاب. ﴿وَمَا كَانُوا۟ مُنتَصِرِينَ﴾ أي: ممتنعين من العذاب حين أُهلكوا، أي: ما كان لهم ناصر.

قوله تعالى: ﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ﴾ قرأ حمزة والكسائيُّ وأبو عمرو: «وَقَومِ نُوحٍ» بالخفض، أي: وفي قوم نوحٍ آيةٌ أيضاً. الباقون بالنصب[٤] على معنى: وأهلكنا قوم نوح، أو يكون معطوفاً على الهاء والميم في «أَخذَتْهُمْ»، أو الهاء في«أَخذناهُ»، أي: فأخذتْهم الصاعقة وأخذتْ قومَ نوح، أو: «نَبَذناهُمْ في اليمِّ» ونبذنا قومَ نوح[٥]، أو يكون بمعنى: اذكر[٦].

قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْي۟دٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْي۟دٍ﴾ لمَّا بيَّن هذه الآيات قال: وفي السماء آياتٌ وعِبَرٌ تدلُّ على أنَّ الصانع قادر على الكمال، فعَطَفَ أمر السماء على قصة قوم نوحٍ

---

(١) الكشاف ٤/ ١٩ .

(٢) أخرج هذا القول الطبري ٢١/ ٥٤٣ عن قتادة.

(٣) ذكره بمعناه الفراء في معاني القرآن ٣/ ٨٨ .

(٤) السبعة ص٦٠٩ ، والتيسير ص٢٠٣ .

(٥) وهو الوجه الذي استحسنه الزجاج في معاني القرآن ٥/ ٥٧ وقال: لأن المعنى: فأغرقناه وجنودَه وأغرقنا قوم نوح من قبل.

(٦) كره الفراء في معانيه ٣/ ٨٨-٨٩ هذا التقدير، وكره أيضاً النصب على معنى: وأهلكنا قوم نوح، والعطفَ على الهاء والميم في «أخَذَتْهم». وذكر هذه الأوجه مكي في مشكل إعراب القرآن ٢/ ٦٨٩ .

لأنهما آيتان. ومعنى «بِأَيْدٍ» أي: بقوة وقدرة. عن ابن عباس وغيره[١].

﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ قال ابن عباس: لقادرون. وقيل: أي: وإنَّا لذو سَعة، بخلقها وخلقِ غيرها؛ لا يضيق علينا شيءٌ نريده. وقيل: أي: وإنا لموسِعون الرزقَ على خَلْقنا. عن ابن عباس أيضاً. الحسن: وإنا لمطيقون. وعنه أيضاً: وإنا لموسعون الرزقَ بالمطر. وقال الضحَّاك: أغنيناكم؛ دليلُه: ﴿عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ﴾[٢] [البقرة: ٢٣٦]. وقال القُتَبي: ذو سَعةٍ على خلقنا[٣]. والمعنى متقارب. وقيل: جعلنا بينها وبين الأرض سعة[٤]. الجوهري: وأوسعَ الرجلُ، أي: صار ذا سَعة وغِنىً، ومنه قولُه تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ أي: أغنياء قادرون[٥]. فشمل جميع الأقوال.

﴿وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا﴾ أي: بسطناها كالفِراش على وجه الماء ومددناها. ﴿فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ﴾ أي: فنعم الماهدون نحن لهم. والمعنى في الجمع التعظيمُ؛ مَهَدْت الفِراشَ مَهْداً: بَسَطْته ووطَّأته، وتمهيد الأمور: تسويتُها وإصلاحها[٦].

قوله تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ أي: صنفين ونوعين مختلفين. قال ابن زيد: أي ذكراً وأنثى[٧]، وحلواً وحامضاً، ونحو ذلك. مجاهد[٨]: يعني الذَّكَرَ والأنثى، والسماءَ والأرض، والشمس والقمر، والليل والنهار، والنور والظلام، والسهل والجبل، والجِنَّ والإنس، والخير والشرَّ، والبُكْرة والعَشيَّ، وكالأشياء المختلفة الألوان من الطُّعوم والأراييح والأصوات. أي: جعلنا هذا هكذا[٩] دَلالةً

(١) أخرجه عنه وعن غيره الطبري ٢١/ ٥٤٥ - ٥٤٦ .
(٢) هذه الأقوال في النكت والعيون ٥/ ٣٧٣ - ٣٧٤ ، وتفسير البغوي ٤/ ٢٣٤ .
(٣) تفسير غريب القرآن ص٤٢٢ ، وفي زاد المسير ٨/ ٤١ نقلاً عنه: أي لقادرون.
(٤) معاني القرآن للزجاج ٥/ ٥٧ .
(٥) الصحاح (وسع).
(٦) الصحاح (مهد).
(٧) أخرجه الطبري ٢١/ ٥٤٨ ، وينظر معاني القرآن للفراء ٣/ ٨٩ .
(٨) أخرج قوله الطبري ٢١/ ٥٤٧ بنحوه.
(٩) في (م): كهذا.

على قدرتنا، ومَن قَدَرَ على هذا فليقدر على الإعادة.

وقيل: «ومِنْ كلِّ شَيءٍ خَلَقْنا زوجَينِ» لتعلموا أنَّ خالق الأزواج فرد، فلا يقدَّر في صفته حركةٌ ولا سكون، ولا ضياء ولا ظلام، ولا قعود ولا قيام، ولا ابتداء ولا انتهاء؛ إذ هو عزَّ وجلَّ وِتر[١] «لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ» ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ وَلَا تَجْعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۖ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥١﴾ كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوْاْ بِهِۦۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ﴿٥٤﴾ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ لما تقدَّم ما جرى مِن تكذيب أممهم لأنبيائهم وإهلاكهم؛ لذلك قال الله تعالى لنبيه ﷺ: قل لهم يا محمد، أي: قل لقومك: «ففِرُّوا إلى الله إنِّي لكُمْ منه نذيرٌ مُبينٌ» أي: فِرُّوا من معاصيه إلى طاعته. وقال ابن عباس: فِرُّوا إلى الله بالتوبة من ذنوبكم. وعنه: فِرُّوا منه إليه، واعملوا بطاعته[٢]. وقال محمد بن عبد الله بنِ عمرو بن عثمان بن عفان[٣]: «ففِرُّوا إلى الله» اخرجوا إلى مكة. وقال الحسين[٤] بن الفضل: احترزوا من كل شيءٍ دون الله؛ فمَن فرَّ إلى غيره لم يمتنع منه. وقال أبو بكر الورَّاق: فِرُّوا من طاعة الشيطان إلى طاعة الرحمن. وقال الجُنَيد: الشيطان داعٍ إلى الباطل؛ ففروا إلى الله يمنعكم منه. وقال ذو النون المصري: ففِرُّوا من الجهل إلى العلم، ومن الكفر إلى الشكر. وقال عمرو بن

---

(١) قوله: هو عز وجل وتر، قطعة من حديث أبي هريرة ﷺ أخرجه عنه أحمد (٧٦٢٣)، (٨١٤٦)، والبخاري (٦٤١٠)، ومسلم (٢٦٧٧). وفي الباب عن علي ﷺ، أخرجه أحمد (٨٧٧)، وأبو داود (١٤١٦)، والترمذي (٤٥٣)، والنسائي ٣/ ٢٢٨ - ٢٢٩، وابن ماجه (١١٦٩).

(٢) ذكر قوله الثاني البغوي في تفسيره ٤/ ٢٣٤.

(٣) هو أبو عبد الله العثماني المدني، الملقب بالديباج لحسنه، كان جواداً سخياً، ذا مروءة وسؤدد وحشمة. توفي سنة ١٤٥ هـ. السير ٦/ ٢٢٤.

(٤) في (ز): الحسن.

عثمان: فِرُّوا من أنفسكم إلى ربكم. وقال أيضاً: فِرُّوا إلى ما سبق لكم من الله، ولا تعتمدوا على حركاتكم. وقال سهل بن عبد الله: فِرُّوا مما سوى الله إلى الله[١].

﴿إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أي: أُنذركم عقابَه على الكفر والمعصية.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ أَمَرَ محمداً ﷺ أن يقولَ هذا للناس وهو النذير. وقيل: هو خطابٌ من الله للخلق. ﴿إِنِّي لَكُم مِّنْهُ﴾ أي: من محمد وسيوفه ﴿نَذِيرٌ﴾ أي: أُنذركم بأسَه وسيفه إن أشركتم بي؛ قاله ابن عباس.

قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ﴾ هذا تسليةٌ للنبيِّ ﷺ، أي: كما كذَّبك قومك وقالوا: ساحر أو مجنون، كذَّب مَن قبلهم وقالوا مِثْلَ قولهم.

والكاف من «كَذَٰلِكَ» يجوز أن تكون نصباً على تقدير: أُنذركم إنذاراً كإنذار مَن تقدَّمني مِن الرسل الذين أَنذروا قومهم، أو رفعاً على تقدير: الأمرُ كذلك، أي: كالأول. والأوَّل تخويفٌ لمن عصاه من الموحِّدين، والثاني لمن أشرك به من الملحِدين[٢]. والتمام على قوله: «كَذَٰلِكَ»[٣]، عن يعقوب وغيره.

قوله تعالى: ﴿أَتَوَاصَوْا بِهِۦ﴾ أي: أوصى أوَّلُهم آخرَهم بالتكذيب. وتواطؤوا عليه! والألف للتوبيخ والتعجب. ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ أي: لم يوصِ بعضُهم بعضاً، بل جمَعهم الطغيان، وهو مجاوزة الحدِّ في الكفر.

قوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ أي: أعرِض عنهم واصفح عنهم ﴿فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ﴾ عند الله؛ لأنك أدَّيت ما عليك من تبليغ الرسالة. ثم نسخ هذا بقوله تعالى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾. وقيل: نسخ بآية السيف. والأوَّل قول الضحَّاك؛ لأنه قد أمر بالإقبال عليهم بالموعظة[٤].

---

(١) ذكر قوله البغوي في تفسيره ٤/ ٢٣٤ .

(٢) الكلام بنحوه في إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٥٠ .

(٣) المكتفى في الوقف والابتداء ص٥٣٨ .

(٤) الكلام بنحوه في الإيضاح لناسخ القرآن ومنسوخه ص٤١٩ ، والناسخ والمنسوخ للنحاس ٣/ ٢٨ ، والمحرر الوجيز ٥/ ١٨٢ .

وقال مجاهد: «فَتَوَلَّ عَنْهُمْ»: فأعرض عنهم[١]. «فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ» أي: ليس يلومك ربُّك على تقصيرٍ كان منك[٢]. «وَذَكِّرْ» أي: بالعِظة؛ فإنَّ العِظة «تَنْفَعُ المُؤْمِنِينَ». قتادة: «وَذَكِّرْ» بالقرآن[٣] «فَإِنَّ الذِّكْرَى» به «تَنْفَعُ المُؤْمِنِينَ». وقيل: ذكِّرهم بالعقوبة وأيامِ الله[٤]. وخصَّ المؤمنين؛ لأنهم المنتفعون بها.

قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ۝٥٧ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ۝٥٨ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ۝٥٩ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ۝٦٠﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ قيل: إنَّ هذا خاصٌّ فيمن سبق في علم الله أنه يعبده، فجاء بلفظ العموم ومعناه الخصوص، والمعنى: وما خلقتُ أهل السعادة من الجنِّ والإنس إلَّا ليوحِّدون. قال القشيريّ: والآية دخلها التخصيصُ على القطع؛ لأن المجانين والصبيان ما أُمروا بالعبادة حتى يقال أراد منهم العبادة، وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ [الأعراف: ١٧٩] ومن خُلق لجهنم لا يكون ممَّن خُلق للعبادة، فالآية محمولةٌ على المؤمنين منهم؛ وهو كقوله تعالى: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا﴾ [الحجرات: ١٤] وإنما قال فريق منهم. ذكره الضحاك والكلبي والفرّاء والقتبي[٥].

وفي قراءة عبدِ الله: «وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإِنْسَ مِنَ المُؤْمِنِينَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ»[٦].

---

(١) أخرجه الطبري ٢١/ ٥٥١ .

(٢) الناسخ والمنسوخ للنحاس ٣/ ٢٩ .

(٣) النكت والعيون ٥/ ٣٧٤ ، والأول ذكره عن مجاهد.

(٤) معاني القرآن للزجاج بنحوه ٥/ ٥٨ .

(٥) ذكر قولهم الواحدي في الوسيط ٤/ ١٨١ ، وقول الفراء في معاني القرآن له ٣/ ٨٩ ، وقول القتبي في تأويل مشكل القرآن له ص١١٧ - ١١٨ .

(٦) القراءات الشاذة ص١٤٥ .

وقال عليٌّ ﷺ: أي: وما خلقت الجنَّ والإنس إلَّا لآمُرَهم بالعبادة. واعتمد الزجَّاج على هذا القول(١)، ويدلُّ عليه قولُه تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ﴾ [التوبة: ٣١].

فإن قيل: كيف كفروا وقد خلقهم للإقرار بربوبيَّته والتذلُّلِ لأمره ومشيئته؟ قيل: قد تذلَّلوا لقضائه عليهم؛ لأن قضاءه جارٍ عليهم لا يقدرون على الامتناع منه، وإنما خالفه(٢) مَن كفر في العمل بما أمره به، فأما التذلُّلُ لقضائه فإنه غير ممتنع منه.

وقيل: «إِلَّا لِيَعْبُدُونِ» أي: إلَّا لِيُقرُّوا لي بالعبادة طوعاً أو كَرهاً؛ رواه عليُّ بن أبي طلحة عن ابن عباس(٣). فالكره ما يُرَى فيهم من أثر الصَّنعة. مجاهد: إلَّا ليعرفوني. الثعلبي: وهذا قولٌ حسن؛ لأنه لو لم يخلقهم لَمَا عُرف وجودُه وتوحيده. ودليلُ هذا التأويلِ قولُه تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَهُمۡ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۖ﴾(٤) [الزخرف: ٨٧] ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ [الزخرف: ٩]، وما أَشبه هذا من الآيات. وعن مجاهد أيضاً: إلَّا لآمُرهم وأنهاهم. زيد بن أسلم: هو ما جُبِلوا عليه من الشِّقوة والسعادة(٥)؛ فخَلَقَ السعداءَ من الجنِّ والإنس للعبادة، وخلق الأشقياءَ منهم للمعصية. وعن الكلبيِّ أيضاً: إلَّا ليوحِّدون، فأمَّا المؤمن فيوحِّدُه في الشِّدَّة والرَّخاء، وأما الكافر فيوحِّده في الشدَّة والبلاء دون النعمة والرَّخاء؛ يدلُّ عليه قولُه تعالى: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوۡجٞ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾(٦) [لقمان: ٣٢] الآية. وقال عِكْرمة: إلَّا ليعبدون ويطيعون، فأُثيبُ العابد وأعاقب الجاحد. وقيل: المعنى: إلَّا لأستعبدهم. والمعنى متقارب؛ تقول: عبدٌ بيِّن العُبُودة

(١) معاني القرآن للزجاج ٥/ ٥٨، وقول علي ﷺ في تفسير البغوي ٤/ ٢٣٥، والمحرر الوجيز ٥/ ١٨٢.
(٢) في (م): خالفهم، والمثبت من النسخ الخطية، وهو الموافق لما في تفسير الطبري ٢١/ ٥٥٥.
(٣) أخرجه الطبري ٢١/ ٥٥٤.
(٤) تفسير البغوي ٤/ ٢٣٥.
(٥) النكت والعيون ٥/ ٣٧٤، وقول زيد بن أسلم أخرجه الطبري ٢١/ ٥٥٣ - ٥٥٤.
(٦) تفسير البغوي ٤/ ٢٣٥ دون نسبة.

والعبوديَّة، وأصل العبودية الخضوعُ والذُّلّ. والتعبيد التذليل؛ يقال: طريق معبَّد[١]. قال[٢]:

وظِـيـفـاً وَظِـيـفـاً فـوقَ مَـوْرٍ مُـعَـبَّـدِ

والتعبيد الاستعباد، وهو أن يتَّخذَه عبداً، وكذلك الاعتباد. والعبادة: الطاعة، والتَّعبُّد التَّنسك[٣]. فمعنى «لِيَعْبُدُون»: لِيَذِلُّوا ويخضعوا ويعبدوا.

﴿مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ﴾ «مِنْ» صِلة، أي: رِزقاً، بل أنا الرزَّاق والمعطي. وقال ابن عباس وأبو الجوزاء: أي: ما أريد أن يرزقوا أنفسهم ولا أن يطعموها[٤]. وقيل: المعنى: ما أريد أن يرزقوا عبادي ولا أن يطعموهم[٥].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ﴾ وقرأ ابن مُحيصِن وغيرُه: «الرَّازِقُ»[٦]. ﴿ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ أي: الشديد القويّ.

وقرأ الأعمش ويحيى بنُ وثَّاب والنَّخَعي: «المَتِينِ» بالجرِّ على النعت لـ «القوَّةِ»[٧].

الباقون بالرفع على النعت لـ «الرزَّاق»، أو «ذُو» مِن قوله: «ذُو القُوَّةِ» أو يكون خبرَ ابتداءٍ محذوف؛ أو نعتاً لاسم «إنّ» على الموضع، أو خبراً بعد خبر[٨]. قال

---

(١) الصحاح (عبد).

(٢) هو طرفة، والبيت في ديوانه ص٢٢، وسلف ١/ ٣٤١.

(٣) الصحاح (عبد).

(٤) أخرجه بنحوه الطبري ٢١/ ٥٥٥ عن أبي الجوزاء، عن ابن عباس، ونسبه الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٣٧٥ لأبي الجوزاء.

(٥) النكت والعيون ٥/ ٣٧٥.

(٦) القراءات الشاذة ص١٤٥.

(٧) ذكرها عن الأعمش ويحيى بن وثاب ابن جني في المحتسب ٢/ ٢٨٩، وذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص١٤٥ عن يحيى بن وثاب.

(٨) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٥٢.

الفرَّاء[(١)]: كان حقه: المتينة؛ فذكَّره لأنه ذهب بها إلى الشيء المبرَم المحكَم الفَتْلِ؛ يقال: حبل متين. وأنشد الفرَّاء:

لكُلِّ دهرٍ قد لَبِسْتُ أَثْوُبا حتى اكْتَسَى الرَّأْسُ قِنَاعاً أَشْيَبَا
مِن ريطةٍ واليُمْنَةَ المُعَصَّبا[(٢)]

فذكَّر المعصَّب؛ لأن اليمنة صنفٌ من الثياب؛ ومن هذا الباب قولُه تعالى: ﴿فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ﴾ [البقرة: ٢٧٥] أي: وَعْظٌ، ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ﴾ [هود: ٦٧] أي: الصياحُ والصوت.

قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ أي: كفروا من أهل مكة[(٣)] ﴿ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ﴾ أي: نصيباً من العذاب مثلَ نصيبِ الكفار من الأمم السالفة. وقال ابن الأعرابي: يقال: يومٌ ذَنُوب، أي: طويل الشرِّ لا ينقضي. وأصل الذَّنُوب في اللغة الدَّلوُ العظيمة[(٤)]، وكانوا يستقون الماء، فيقسمون ذلك على الأنصباء؛ فقيل للذَّنُوب نصيبٌ مِن هذا[(٥)]، قال الراجز:

لنا ذَنُوبٌ ولكم ذَنُوبُ فإنْ أَبَيْتُمْ فلنا القَلِيبُ[(٦)]

وقال علقمة:

---

(١) في معاني القرآن ٣/ ٩٠ .

(٢) البيت الأول والثالث في معاني القرآن للفراء ٣/ ٩٠ ، وتفسير الطبري ٢١/ ٥٥٦ .
والأبيات ضمن أرجوزة نسبت لمعروف بن عبد الرحمن، كما ذكر محقق ديوان حميد بن ثور ص٦١ .
الريطة: المُلاءة من قطعة واحدة. واليُمْنَة، بضم الياء وفتحها: بُرد يمني. والمعصَّب: ضرب من البرود يصبغ غزله ثم ينسج. شرح الديوان.

(٣) تفسير البغوي ٤/ ٢٣٦ .

(٤) تهذيب اللغة ١٤/ ٤٤٠ ، ٤٣٩ .

(٥) الكلام بنحوه في تفسير غريب القرآن ص٤٢٣ ، والكشاف ٤/ ٢١ .

(٦) معاني القرآن للفراء ٣/ ٩٠ ، وتفسير الطبري ٢١/ ٥٥٧ ، والكشاف ٤/ ٢١ ، واللسان (ذنب) دون نسبة.

وفي كلِّ يومٍ قد خَبَطْتَ بنعْمةٍ فحُقَّ لِشَأْسٍ مِن نَدَاك ذَنُوبُ[١]

وقال آخر[٢]:

لَعَمْرُكَ والمنايا طارِقاتٌ لكلِّ بَني أبٍ منها ذَنُوبُ

الجوهري: والذَّنُوب: الفرس الطويل الذَّنب، والذَّنُوب: النصيب، والذَّنُوب: لحم أسفل المَتْن، والذَّنُوب: الدَّلو الملأى ماءً. وقال ابن السِّكِّيت: فيها ماءٌ قريب من المَلْء، يؤنَّث ويذكَّر، ولا يقال لها وهي فارغة: ذَنُوب، والجمع في أدنى العدد أَذْنِبة، والكثير ذَنائِب، مثل: قَلُوص وقَلَائص[٣].

﴿فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ﴾ أي: فلا يستعجلوا نزول العذاب بهم؛ لأنهم قالوا: يا محمد «فأْتنا بما تَعِدُنا إنْ كُنتَ مِن الصَّادقين» [الأعراف: ٧٠]. فنزل بهم يومَ بدرٍ ما حقَّق الله تعالى به وعدَه، وعجَّل به انتقامه[٤]، ثم لهم في الآخرة العذابُ الدائم، والخزيُ القائم الذي لا انقطاع له ولا نفاد، ولا غاية ولا آباد.

تم تفسير سورة الذاريات، والحمدُ لله

---

(١) ديوان علقمة الفحل ص٤٨ . وشأس أخوه.

(٢) هو أبو ذؤيب الهذلي والبيت في ديوان الهذليين ١/ ٩٢ .

(٣) الصحاح (ذنب).

(٤) النكت والعيون ٥/ ٣٧٥ .

تفسير سورة الذاريات

وهى مكية.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا ۝١ فَالْحَامِلاتِ وِقْرًا ۝٢ فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا ۝٣ فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا ۝٤ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ۝٥ وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ ۝٦ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ ۝٧ إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ۝٨ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ۝٩ قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ ۝١٠ الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ ۝١١ يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ ۝١٢ يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ ۝١٣ ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ۝١٤ ﴾.

قال شعبة(١) بن الحجاج، عن سِمَاك، عن خالد بن عَرْعَرَة أنه سمع عليا وشعبة أيضاً، عن القاسم بن أبى بزَّة، عن أبى الطُّفَيْل، سمع علياً. وثبت أيضاً من غير وجه، عن أمير المؤمنين على ابن أبى طالب: أنه صعد منبر الكوفة فقال: لا تسألونى عن آية فى كتاب الله، ولا عن سنة عن رسول الله، إلا أنبأتكم بذلك. فقام إليه ابن الكواء فقال: يا أمير المؤمنين، ما معنى قوله تعالى: ﴿ وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا﴾؟ قال: الريح [قال](٢): ﴿ فَالْحَامِلاتِ وِقْرًا﴾؟ قال: السحاب. [قال](٣): ﴿فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا ﴾؟ قال: السفن. [قال](٤): ﴿ فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا﴾؟ قال: الملائكة(٥).

وقد روى فى ذلك حديث مرفوع، فقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا إبراهيم بن هانئ، حدثنا سعيد بن سلام العطار، حدثنا أبو بكر بن أبى سَبْرَة، عن يحيى بن سعيد، عن سعيد بن المسيب قال: جاء صَبِيغ التميمى إلى عمر بن الخطاب فقال: يا أمير المؤمنين، أخبرنى عن ﴿الذَّارِيَاتِ ذَرْوًا﴾؟ فقال: هى الرياح، ولولا أنى سمعت رسول الله ﷺ يقوله ما قلته. قال: فأخبرنى عن ﴿الْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا﴾ قال: هى الملائكة، ولولا أنى سمعت رسول الله ﷺ يقوله ما قلته. قال: فأخبرنى عن ﴿ الْجَارِيَاتِ يُسْرًا ﴾ قال: هى السفن، ولولا أنى سمعت رسول الله ﷺ يقوله ما قلته. ثم أمر به فضرب مائة، وجعل فى بيت، فلما برأ(٦) [دعا به و](٧)ضربه مائة أخرى، وحمله على قَتَب، وكتب إلى أبى موسى الأشعرى: امنع الناس من مجالسته. فلم يزل كذلك حتى أتى أبا موسى فحلف بالأيمان الغليظة ما يجد فى نفسه مما كان يجد شيئا. فكتب فى ذلك إلى عمر، فكتب عمر: ما إخاله إلا صدق، فخل بينه وبين مجالسة الناس.

(١) فى أ: «سعيد». (٢-٤) زيادة من م.
(٥) رواه الطبرى فى تفسيره (٢٦/ ١١٥) عن محمد بن المثنى عن محمد بن جعفر عن شعبة به.
(٦) فى م: «برد». (٧) زيادة من م،أ.

قال أبو بكر البزار: فأبو بكر بن أبى سبرة لين، وسعيد بن سلام ليس من أصحاب الحديث(١).

قلت: فهذا الحديث ضعيف رفعه، وأقرب ما فيه أنه موقوف على عمر، فإن قصة صَبِيغ بن عسل مشهورة مع عمر(٢)، وإنما ضربه لأنه ظهر له من أمره فيما يسأل تعنتا وعنادا، والله أعلم.

وقد ذكر الحافظ ابن عساكر هذه القصة فى ترجمة صبيغ مطولة(٣). وهكذا فسرها ابن عباس، وابن عمر، ومجاهد، وسعيد بن جبير، والحسن، وقتادة، والسدى، وغير واحد. ولم يحك ابن جرير وابن أبى حاتم غير ذلك.

وقد قيل: إن المراد بالذاريات: الريح كما تقدم، وبالحاملات وقراً: السحاب كما تقدم؛ لأنها تحمل الماء، كما قال زيد بن عمرو بن نفيل:

وَأسْلَمْتُ نَفْسى لِمَنْ أسْلَمَتْ ... لَهُ المزْنُ تَحمِلُ عَذْبا زُلالا(٤)

فأما الجاريات يسراً، فالمشهور عن الجمهور ـ كما تقدم ـ: أنها السفن، تجرى ميسرة فى الماء جريا سهلا. وقال بعضهم: هى النجوم تجرى يسرا(٥) فى أفلاكها، ليكون ذلك ترقيا من الأدنى إلى الأعلى، إلى ما هو أعلى منه، فالرياح فوقها السحاب، والنجوم فوق ذلك، والمقسمات أمرا الملائكة فوق ذلك، تنزل بأوامر الله الشرعية والكونية. وهذا قسم من الله عز وجل على وقوع المعاد؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ﴾ أى: لخبر صدق، ﴿وَإِنَّ الدِّينَ﴾، وهو: الحساب ﴿لَوَاقِعٌ﴾ أى: لكائن لا محالة.

ثم قال: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ﴾، قال ابن عباس: ذات البهاء والجمال والحسن والاستواء. وكذا قال مجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جُبَيْر، وأبو مالك(٦)، وأبو صالح، والسدى، وقتادة، وعطية العوفى، والربيع بن أنس، وغيرهم.

وقال الضحاك، والمِنْهَال بن عمرو، وغيرهما: مثل تجعد الماء والرمل والزرع إذا ضربته الريح، فينسج بعضه بعضا طرائق [طرائق](٧)، فذلك الحبك.

قال ابن جرير: حدثنى يعقوب بن إبراهيم، حدثنا ابن عُلَيَّة، حدثنا أيوب، عن أبى قلابة، عن رجل من أصحاب النبى ﷺ، عن رسول الله ﷺ؛ أنه قال: «إن من ورائكم الكذاب المضل، وإن رأسه من ورائه حُبُك حُبُك» يعنى بالحبك: الجعودة(٨).

وعن أبى صالح: ﴿ذَاتِ الْحُبُكِ﴾: الشدة. وقال خصيف: ﴿ذَاتِ الْحُبُكِ﴾: ذات الصفاقة.

---

(١) مسند البزار برقم (٢٢٥٩) «كشف الأستار» وقال الهيثمى فى المجمع (٧/ ١١٢): «فيه أبو بكر بن أبى سبرة، وهو متروك».
(٢) فى م: «مع التميمى عمر».
(٣) تاريخ دمشق (٨/ ٢٣٠) «القسم المخطوط».
(٤) البيت فى سيرة ابن هشام (١/ ٢٣١). (٥) فى أ: «سيراً». (٦) فى م: «وابن مالك».
(٧) زيادة من م، أ.
(٨) تفسير الطبرى (٢٦/ ١١٨) ورواه أحمد فى مسنده (٥/ ٤١٠) من طريق إسماعيل بن علية به.

وقال الحسن بن أبى الحسن البصرى: ﴿ذَاتِ الْحُبُكِ﴾: حبكت بالنجوم.

وقال قتادة: عن سالم بن أبى الجَعْد، عن مَعْدان بن أبى طلحة، عن عمرو البكالى، عن عبدالله ابن عمرو: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ﴾ يعنى: السماء السابعة.

وكأنه ـ والله أعلم ـ أراد بذلك السماء التى فيها الكواكب الثابتة، وهى عند كثير من علماء الهيئة فى الفلك الثامن الذى فوق السابع، والله أعلم. وكل هذه الأقوال ترجع إلى شىء واحد، وهو الحسن والبهاء، كما قال ابن عباس، رضى الله عنهما[(١)]، فإنها من حسنها مرتفعة شفافة صفيقة، شديدة البناء، متسعة الأرجاء، أنيقة البهاء، مكللة بالنجوم الثوابت والسيارات، موشحة بالشمس والقمر والكواكب الزاهرات.

وقوله: ﴿إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ﴾ أى: إنكم أيها المشركون المكذبون للرسل لفى قول مختلف مضطرب، لا يلتئم ولا يجتمع.

وقال قتادة: إنكم لفى قول مختلف،[يعنى][(٢)] ما بين مصدق بالقرآن ومكذب به.

﴿ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ﴾ أى: إنما يروج على من هو ضال فى نفسه؛ لأنه قول باطل إنما ينقاد له ويضل بسببه ويؤفك عنه من هو مأفوك ضال غَمْر، لا فهم له، كما قال تعالى: ﴿ فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ. مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ .لاَّ مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ١٦١ـ ١٦٣].

قال ابن عباس، والسدى: ﴿ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ﴾: يضل عنه من ضل. وقال مجاهد: ﴿ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ﴾ يؤفن عنه من أفن. وقال الحسن البصرى: يصرف عن هذا القرآن من كذب به.

وقوله: ﴿ قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ﴾ ـ قال مجاهد: الكذابون. قال: وهى مثل التى فى عبس: ﴿قُتِلَ الإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ﴾ [عبس:١٧] ،والخراصون الذين يقولون لا نبعث ولا يوقنون.

وقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: ﴿ قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ﴾ أى: لعن المرتابون.

وهكذا كان معاذ، رضى الله عنه، يقول فى خطبه: هلك المرتابون. وقال قتادة: الخراصون أهل الغرة والظنون.

وقوله: ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ﴾: قال ابن عباس وغير واحد: فى الكفر والشك غافلون لاهون.

﴿يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ﴾: وإنما يقولون هذا تكذيبا وعنادا وشكا واستبعادا. قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ﴾.

قال ابن عباس، ومجاهد، والحسن، وغير واحد: ﴿يُفْتَنُونَ﴾: يعذبون [قال مجاهد][(٣)]: كما

---

(١) فى م،أ: «عنه». (٢) زيادة من أ. (٣) زيادة من م،أ.

يفتن الذهب على النار.

وقال جماعة آخرون كمجاهد أيضا، وعكرمة، وإبراهيم النَّخَعِى، وزيد بن أسلم، وسفيان الثورى: ﴿يُفْتَنُونَ﴾: يحرقون.

﴿ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ﴾: قال مجاهد: حريقكم. وقال غيره: عذابكم. ﴿هَذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ أى: يقال لهم ذلك تقريعاً وتوبيخاً وتحقيراً وتصغيراً.

﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٥) آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ (١٦) كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ (١٧) وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (١٨) وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (١٩) وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ (٢٠) وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ (٢١) وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ (٢٢) فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ(٢٣) ﴾.

يقول تعالى مخبرا عن المتقين لله، عز وجل: إنهم يوم معادهم يكونون فى جنات وعيون، بخلاف ما أولئك الأشقياء فيه من العذاب والنكال، والحريق والأغلال.

وقوله: ﴿آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ﴾: قال ابن جرير: أى عاملين بما آتاهم الله[١] من الفرائض. ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ﴾ أى: قبل أن يفرض[٢] عليهم الفرائض كانوا محسنين فى الأعمال أيضا. ثم روى عن ابن حميد، حدثنا مهْرَان، عن سفيان، عن أبى عمر، عن مسلم البطين، عن ابن عباس فى قوله: ﴿آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ﴾ قال: من الفرائض، ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ﴾: قبل الفرائض يعملون. وهذا الإسناد ضعيف، ولا يصح[٣] عن ابن عباس. وقد رواه عثمان بن أبى شيبة، عن معاوية بن هشام، عن سفيان، عن أبى عمر البزار، عن مسلم[٤] البطين، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، فذكره. والذى فسر به ابن جرير فيه نظر؛ لأن قوله: ﴿آخِذِينَ﴾ حال من قوله: ﴿فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾، فالمتقون فى حال كونهم فى الجنات والعيون آخذون ما آتاهم ربهم[٥]، أى: من النعيم والسرور والغبطة.

وقوله[٦]: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ﴾ أى: فى الدار الدنيا ﴿مُحْسِنِينَ﴾، كقوله: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾ [الحاقة: ٢٤] ثم إنه تعالى بَيَّن إحسانهم فى العمل فقال: ﴿كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾، اختلف المفسرون فى ذلك على قولين:

أحدهما: أن «ما» نافية، تقديره: كانوا قليلا من الليل لا يهجعونه. قال ابن عباس: لم تكن

(١) فى م: «ربهم». (٢) فى م: «تفرض». (٣) فى م: «لا يصح».
(٤) فى م: «عن أبى مسلم». (٥) فى م: «الله». (٦) فى م: «وقولهم».

تمضى عليهم ليلة إلا يأخذون منها ولو شيئا. وقال قتادة، عن مطرف بن عبد الله: قلَّ ليلة تأتى عليهم لا يصلون فيها لله، عز وجل، إما من أولها وإما من أوسطها. وقال مجاهد: قلَّ ما يرقدون ليلة حتى(١) الصباح لا يتهجدون. وكذا قال قتادة. وقال أنس بن مالك، وأبو العالية: كانوا يصلون بين المغرب والعشاء. وقال أبو جعفر الباقر، كانوا لا ينامون حتى يصلوا العتمة.

والقول الثانى: أن «ما» مصدرية، تقديره: كانوا قليلا من الليل هجوعهم ونومهم. واختاره ابن جرير. وقال الحسن البصرى: ﴿كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾: كابدوا قيام الليل، فلا ينامون من الليل إلا أقله، ونشطوا فمدّوا إلى السحر، حتى كان الاستغفار بسحر. وقال قتادة: قال الأحنف بن قيس: ﴿كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾: كانوا لا ينامون إلا قليلا، ثم يقول: لست من أهل هذه الآية. وقال الحسن البصرى: كان الأحنف بن قيس يقول: عرضت عملى على عمل أهل الجنة، فإذا قوم قد باينونا بوناً بعيدا، إذا قوم لا نبلغ أعمالهم، كانوا قليلا من الليل ما يهجعون. وعرضت عملى على عمل أهل النار فإذا قوم لا خير فيهم يكذبون (٢)بكتاب الله وبرسل الله، يكذبون بالبعث بعد الموت، فوجدت من خيرنا منزلة قوماً خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: قال رجل من بنى تميم لأبى: يا أبا أسامة، صفة لا أجدها فينا، ذكر الله قوما فقال: ﴿كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾، ونحن والله قليلا من الليل ما نقوم. فقال له أبى: طوبى لمن رقد إذا نعس، واتقى الله إذا استيقظ.

وقال عبد الله بن سلام: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة، انجفل الناس إليه، فكنت فيمن انجفل. فلما رأيت وجهه عرفت أن وجهه ليس بوجه رَجُلٍ كذاب، فكان أول ماسمعته يقول: «يأيها الناس، أطعموا الطعام، وصِلُوا الأرحام، وأفشوا السلام، وصَلُّوا بالليل والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام»(٣).

وقال الإمام أحمد: حدثنا حسن بن موسى، حدثنا ابن لَهِيعة، حدثنى حيى بن عبد الله، عن أبى عبد الرحمن الحُبُلى، عن عبد الله بن عمرو؛ أن رسول الله ﷺ قال: «إن فى الجنة غرفا يرى ظاهرها من باطنها، وباطنها من ظاهرها». فقال أبو موسى الأشعرى: لمن هى يارسول الله؟ قال: «لمن ألان الكلام، وأطعم الطعام، وبات لله قائما، والناس نيام»(٤).

وقال مَعْمَر فى قوله: ﴿كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾: كان (٥) الزهرى والحسن يقولان:

---

(١) فى م: «إلى». (٢) فى م: «فيكذبون».

(٣) رواه أحمد فى المسند (٥/٤٥١) والترمذى فى السنن برقم (٢٤٨٥) وابن ماجه فى السنن برقم (١٣٣٤). قال الترمذى: «حسن صحيح».

(٤) المسند (٢/١٧٣) وقال الهيثمى فى المجمع (١٠/١٦): «فيه ابن لهيعة وحديثه حسن، وبقية رجاله ثقات» ولعل تحسين الحافظ الهيثمى لحديث ابن لهيعة لأنه قد توبع: تابعه عبد الله بن وهب ـ روايته عن ابن لهيعة صحيحة ـ أخرجه الطبرانى فى المعجم الكبير برقم (١٠٣) «الجزء المفقود».

(٥) فى م: «قال».

كانوا كثيرا من الليل ما يصلون.

وقال ابن عباس، وإبراهيم النَّخَعي: ﴿كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾: ماينامون.

وقال الضحاك: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ. كَانُوا قَلِيلاً﴾ ثم ابتدأ فقال: ﴿مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُون. وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾.

وقوله عز وجل: ﴿وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾. قال مجاهد، وغير واحد: يصلون. وقال آخرون: قاموا الليل، وأخروا الاستغفار إلى الأسحار. كما قال تعالى: ﴿والمستَغْفِرينَ بالأَسْحَارِ﴾ [آل عمران: ١٧]، فإن كان الاستغفار فى صلاة فهو أحسن. وقد ثبت فى الصحاح وغيرها عن جماعة من الصحابة، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن الله ينزل كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الأخير، فيقول: هل من تائب فأتوب عليه؟ هل من مستغفر فأغفر له؟ هل من سائل فيعطى سؤله؟ حتى يطلع الفجر»[١].

وقال كثير من المفسرين في قوله تعالى إخبارا عن يعقوب: أنه قال لبنيه: ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي﴾ [يوسف: ٩٨] قالوا: أخرهم إلى وقت السحر.

وقوله: ﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾: لما وصفهم بالصلاة ثنى بوصفهم[٢] بالزكاة والبر والصلة، فقال: ﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ[٣]﴾ أى: جزء مقسوم قد أفرزوه ﴿لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾، أما السائل فمعروف، وهو الذى يبتدئ بالسؤال، وله حق، كما قال الإمام أحمد:

حدثنا وَكِيع وعبد الرحمن قالا: حدثنا سفيان، عن مصعب بن محمد، عن يعلى بن أبى يحيى، عن فاطمة بنت الحسين، عن أبيها الحسين بن على قال: قال رسول الله ﷺ: «للسائل حق وإن جاء على فرس».

ورواه أبو داود من حديث سفيان الثورى، به[٤] ثم أسنده من وجه آخر عن على بن أبى طالب[٥]. وروى من حديث الهِرْماس بن زياد مرفوعا[٦].

وأما ﴿الْمَحْرُومِ﴾، فقال ابن عباس، ومجاهد: هو المحارف الذى ليس له فى الإسلام سهم. يعنى: لا سهم له فى بيت المال، ولا كسب له، ولا حرفة يتقوت منها.

وقالت أم المؤمنين عائشة: هو المحارَف الذى لا يكاد يتيسر له مكسبه.

وقال الضحاك: هو الذى لا يكون له مال إلا ذهب، قضى الله له ذلك.

(١) رواه مسلم فى صحيحه برقم (٧٥٨).

(٢) فى م، أ: «وصفهم». (٣) فى م، أ: ﴿حق للسائل والمحروم﴾.

(٤) المسند (١/ ٢٠١) وسنن أبى داود برقم (١٦٦٥).

(٥) سنن أبى داود برقم (١٦٦٦).

(٦) رواه الطبرانى فى المعجم الكبير (٢٢/ ٢٠٣) من طريق سليمان الدمشقى عن عثمان بن فايد عن عكرمة بن عمار عن الهرماس مرفوعاً به وفيه عثمان بن فايد وهو ضعيف.

وقال أبو قِلاَبة: جاء سيل باليمامة فذهب بمال رجل، فقال رجل من الصحابة: هذا المحروم.

وقال ابن عباس أيضاً، وسعيد بن المسيَّب، وإبراهيم النخعى، ونافع ـ مولى ابن عمر ـ وعطاء ابن أبى رباح ﴿الْمَحْرُومِ﴾: المحارف.

وقال قتادة، والزهرى: ﴿الْمَحْرُومِ﴾: الذى لا يسأل الناس شيئاً، قال الزهرى وقد قال رسول الله ﷺ: «ليس المسكين بالطوَّاف الذى ترده اللقمة واللقمتان، والتمرة والتمرتان، ولكن المسكين الذى لا يجد غنى يغنيه، ولا يُفطن له فيتصدق عليه»(١).

وهذا الحديث قد أسنده الشيخان فى صحيحيهما من وجه آخر(٢).

وقال سعيد بن جبير: هو الذى يجىء وقد قُسِّم المغنم، فيرضخ له.

وقال محمد بن إسحاق: حدثنى بعض أصحابنا قال: كنا مع عمر بن عبد العزيز فى طريق مكة فجاء كلب فانتزع عمر كتف شاة فرمى بها إليه، وقال: يقولون: إنه المحروم.

وقال الشعبى: أعيانى أن أعلم ما المحروم.

واختار ابن جرير أن المحروم: [هو] (٣) الذى لا مال له بأى سبب كان، قد ذهب ماله، سواء كان لا يقدر على الكسب، أو قد هلك ماله أو نحوه (٤) بآفة أو نحوها.

وقال الثورى، عن قيس بن مسلم، عن الحسن بن محمد؛ أن رسول الله ﷺ بعث سرية فغنموا، فجاء قوم لم يشهدوا الغنيمة فنزلت هذه الآية: ﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾(٥).

وهذا يقتضى أن هذه مدنية، وليس كذلك، بل هى مكية شاملة لما بعدها.

وقوله: ﴿وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ﴾ أى: فيها من الآيات الدالة على عظمة خالقها وقدرته الباهرة، مما قد ذرأ فيها من صنوف النبات والحيوانات، والمهاد والجبال، والقفار والأنهار والبحار، واختلاف ألسنة الناس وألوانهم، وما جبلوا عليه من الإرادات والقوى، وما بينهم من التفاوت فى العقول والفهوم والحركات، والسعادة والشقاوة، وما فى تركيبهم من الحكم فى وضع كل عضو من أعضائهم (٦) فى المحل الذى هو محتاج إليه فيه؛ ولهذا قال: ﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ﴾: قال قتادة: من تفكر فى خلق نفسه عرف أنه إنما خلق ولينت مفاصله للعبادة.

ثم قال: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ﴾ يعنى: المطر، ﴿وَمَا تُوعَدُونَ﴾ يعنى: الجنة. قاله ابن عباس،

---

(١) تفسير الطبرى (٢٦/ ١٢٥) وسيأتى موصولاً.

(٢) صحيح البخارى برقم (٤٥٣٩) وصحيح مسلم برقم (١٠٣٩) من طريق شريك بن عبد الله عن عطاء بن يسار عن أبى هريرة مرفوعاً.

(٣) زيادة من م. (٤) فى م: «أو ثمرة».

(٥) رواه الطبرى فى تفسيره (٢٦/ ١٢٥).

(٦) فى م، أ: «أجسادهم».

ومجاهد، وغير واحد.

وقال سفيان الثورى: قرأ واصل الأحدب هذه الآية: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ فقال: ألا إنى [(١)] أرى رزقى فى السماء، وأنا أطلبه فى الأرض؟ فدخل خربة فمكث [فيها][(٢)] ثلاثا لا يصيب شيئا، فلما أن كان فى اليوم الثالث إذا هو بِدَوْخَلَة من رطب، وكان له أخ أحسن نية منه، فدخل معه فصارتا دوخلتين، فلم يزل ذلك دأبهما حتى فرق الموت بينهما[(٣)].

وقوله: ﴿فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾: يقسم تعالى بنفسه الكريمة أن ما وعدهم به من أمر القيامة والبعث والجزاء، كائن لا محالة، وهو حق لا مرية فيه، فلا تشكوا فيه كما لا تشكوا فى نطقكم حين تنطقون. وكان معاذ، رضى الله عنه، إذا حدث بالشىء يقول لصاحبه: إن هذا لحق كما أنك هاهنا.

قال مسدد، عن ابن أبى عَدِىّ، عن عَوْف، عن الحسن البصرى قال: بلغنى أن رسول الله ﷺ قال: «قاتل الله أقواماً أقسم لهم ربهم ثم لم يصدقوا».

ورواه ابن جرير، عن بُنْدَار، عن ابن أبى عدى، عن عوف، عن الحسن، فذكره مرسلاً[(٤)].

﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ (٢٤) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ (٢٥) فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ (٢٦) فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ (٢٧) فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ (٢٨) فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ (٢٩) قَالُوا كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ (٣٠)﴾.

هذه القصة قد تقدمت فى سورة «هود» و«الحجر» [(٥)] أيضا. وقوله: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ﴾ أى: الذين أرصد لهم الكرامة. وقد ذهب الإمام أحمد وطائفة من العلماء إلى وجوب الضيافة للنزيل، وقد وردت السنة بذلك كما هو ظاهر التنزيل.

وقوله: ﴿قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ﴾: الرفع أقوى وأثبت من النصب، فرده أفضل من التسليم؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا﴾ [النساء: ٨٦]، فالخليل اختار الأفضل.

وقوله: ﴿قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾: وذلك أن الملائكة وهم: جبريل وإسرافيل وميكائيل قدموا عليه فى صور شباب حسان عليهم مهابة عظيمة؛ ولهذا قال: ﴿قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾.

---

(١) فى م: «لا أرى رزقى». (٢) زيادة من م. (٣) فى م: «بينهما الموت».
(٤) تفسير الطبرى (٢٦/ ١٢٧).
(٥) تقدم تفسير ذلك فى سورة هود عند الآيات: ٦٩ ـ ٧٣، وكذلك فى سورة الحجر عند الآيات: ٥١ ـ ٥٦.

وقوله: ﴿ فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ ﴾ أي: انسل خفية في سرعة، ﴿ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴾ أي: من خيار ماله. وفي الآية الأخرى: ﴿ فَمَا لَبِثَ أَن جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴾ [هود: ٦٩] أي: مشوى على الرَّضف، ﴿ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ ﴾ أي: أدناه منهم، ﴿ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴾: تلطف في العبارة وعرض حسن.

وهذه الآية انتظمت آداب الضيافة؛ فإنه جاء بطعامه [1] من حيث لا يشعرون بسرعة، ولم يمتن عليهم أولا فقال: «نأتيكم بطعام؟» بل جاء به بسرعة [2] وخفاء، وأتى بأفضل ما وجد من ماله، وهو عجل فتى سمين مشوى، فقربه إليهم، لم يضعه، وقال: اقتربوا، بل ،وضعه بين أيديهم، ولم يأمرهم أمرا يشق على سامعه بصيغة الجزم، بل قال: ﴿ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴾، على سبيل العرض والتلطف، كما يقول القائل اليوم: إن رأيت أن تتفضل وتحسن وتتصدق، فافعل[3].

وقوله: ﴿ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ﴾: هذا محال على ما تقدم في القصة في السورة الأخرى، وهو[4] قوله: ﴿ فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ. وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ ﴾ [هود: ٧٠، ٧١] أي: استبشرت بهلاكهم؛ لتمردهم وعتوهم على الله، فعند ذلك بشرتها الملائكة بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب. ﴿ قَالَتْ يَا وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ. قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴾ [هود: ٧٢، ٧٣]؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴾، فالبشارة له هي بشارة لها؛ لأن الولد منها، فكل منهما بشر به.

وقوله: ﴿ فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ ﴾ أي: في صرخة عظيمة [5] ورنة، قاله ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، وأبو صالح، والضحاك، وزيد بن أسلم، والثوري، والسدى، وهي قولها: ﴿ يَا وَيْلَتَىٰ ﴾. ﴿ فَصَكَّتْ[6] وَجْهَهَا ﴾ أي: ضربت بيدها على جبينها، قاله مجاهد وابن [7] سابط.

وقال ابن عباس: لطمت، أي تعجبا كما تتعجب [8] النساء من الأمر الغريب، ﴿ وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴾ أي: كيف ألد وأنا عجوز [عقيم][9]، وقد كنتُ في حال الصبا عقيما لا أحبل؟ ﴿ قَالُوا كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ[10] ﴾ أي: عليم بما تستحقون من الكرامة، حكيم في أقواله وأفعاله.

﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ (٣١) قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ (٣٢) لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ (٣٣) مُسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ (٣٤) فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ

(١) في م: «بطعام». (٢) في أ: «في سرعة».
(٣) وقد توسع الإمام ابن القيم رحمه الله في كتابه «جلاء الأفهام» (ص ١٨١ ـ ١٨٤) في الكلام على آداب الضيافة في هذه الآيات.
(٤) في م: «وهي». (٥) في م، أ: «وعيطة». (٦) في م: «وصكت».
(٧) في م: «وأبو». (٨) في م: «يتعجب». (٩) زيادة من أ.
(١٠) في م: «العليم الحكيم» وهو خطأ.

الْمُؤْمِنِينَ (٣٥) فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٣٦) وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (٣٧)﴾.

قال الله مخبرا عن إبراهيم، عليه السلام: ﴿**فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَىٰ يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ. إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ. يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ**﴾ [هود: ٧٤ ـ ٧٦].

وقال هاهنا: ﴿**قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ**﴾ أى: ما شأنكم وفيم جئتم؟ ﴿**قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ**﴾ يعنون قوم لوط، ﴿**لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ. مُسَوَّمَةً**﴾ أى: معلمة ﴿**عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ**﴾ أى: مكتتبة عنده بأسمائهم، كل حجر عليه اسم صاحبه، فقال فى سورة العنكبوت: ﴿**قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ**﴾ [العنكبوت: ٣٢]. وقال هاهنا: ﴿**فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ**﴾، وهم لوط وأهل بيته إلا امرأته، ﴿**فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ**﴾. احتج بهذه [الآية][1] من ذهب إلى رأى المعتزلة، ممن لا يفرق بين مسمى الإيمان والإسلام؛ لأنه أطلق عليهم المؤمنين والمسلمين. وهذا الاستدلال ضعيف؛ لأن هؤلاء كانوا قوما مؤمنين، وعندنا أن كل مؤمن مسلم ولا ينعكس، فاتفق الاسمان هاهنا لخصوصية الحال، ولا يلزم ذلك فى كل حال.

وقوله: ﴿**وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ**﴾ أى: جعلناها عبرة، لما أنزلنا بهم من العذاب والنكال وحجارة السجيل، وجعلنا [2] محلتهم بحيرة منتنة خبيثة، ففى ذلك عبرة للمؤمنين، ﴿**الَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ**﴾.

﴿وَفِي مُوسَىٰ إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (٣٨) فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ (٣٩) فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ (٤٠) وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ (٤١) مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ (٤٢) وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ (٤٣) فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ (٤٤) فَمَا اسْتَطَاعُوا مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنتَصِرِينَ (٤٥) وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (٤٦)﴾.

يقول تعالى: ﴿**وَفِي مُوسَىٰ**﴾ [آية][3] ﴿**إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ**﴾ أى: بدليل باهر وحجة قاطعة، ﴿**فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِ**﴾ أى: فأعرض فرعون عما جاءه [4] به موسى من الحق المبين، استكبارا

(١) زيادة من م.
(٢) فى م، أ: «وجعل».
(٣) زيادة من م.
(٤) فى م: «جاء».

وعنادا .

وقال مجاهد: تعزز بأصحابه. وقال قتادة: غلب عدُو الله على قومه. وقال ابن زيد: ﴿فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِ﴾ أي: بجموعه التى معه، ثم قرأ: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾[هود: ٨٠].

والمعنى الأول قوى كقوله: ﴿ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الحج: ٩] أي: معرض عن الحق مستكبر، ﴿وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ أي: لا يخلو أمرك فيما جئتنى به من أن تكون ساحرا أو مجنونا، قال الله تعالى: ﴿فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ﴾ أي: ألقيناهم فى اليم، وهو البحر، ﴿وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ أي: وهو ملوم كافر جاحد فاجر معاند.

ثم قال : ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ﴾ أي: المفسدة التى لا تنتج شيئا. قاله الضحاك، وقتادة، وغيرهما.

ولهذا قال: ﴿مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ﴾ أي: مما تفسده الريح ﴿إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ﴾ أي: كالشىء الهالك البالى.

وقد قال ابن أبى حاتم: حدثنا أبو عبيد الله ابن أخى ابن وهب، حدثنا عمى عبد الله بن وهب، حدثنى عبد الله ـ يعنى: ابن عياش[(١)] ـ القتبانى، حدثنى عبد الله بن سليمان، عن دراج، عن عيسى بن هلال الصَّدَفى، عن عبد الله بن عمرو، قال: قال رسول الله ﷺ: «الريح مسخرة من الثانية ـ يعنى من الأرض الثانية ـ فلما أراد الله أن يهلك عاداً أمر خازن الريح أن يرسل عليهم ريحا تهلك عادا، قال: أى رَبِّ، أرسل عليهم [من] [(٢)] الريح قدر منخر الثور؟ قال له الجبار: لا، إذاً تكفأ الأرض ومن عليها، ولكن أرسل [عليهم] [(٣)] بقدر خاتم. فهى التى يقول [(٤)] الله فى كتابه: ﴿مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ﴾.

هذا الحديث رفعه منكر[(٥)]، والأقرب أن يكون موقوفا على عبد الله بن عمرو، من زاملتيه اللتين[(٦)] أصابهما يوم اليرموك ، والله أعلم.

قال سعيد بن المسيب وغيره فى قوله: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ﴾ قالوا: هى الجنوب. وقد ثبت فى الصحيح من رواية شعبة، عن الحكم، عن مجاهد، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «نصرت بالصّبا، وأهلكت عاد بالدبور»[(٧)].

﴿وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ﴾ قال ابن جرير: يعنى إلى وقت فناء آجالكم.

---

(١) فى م: «ابن عباس». (٢، ٣)زيادة من م. (٤) فى م، أ: «قال».

(٥) رواه الحاكم فى المستدرك (٤/ ٥٩٤) وابن منده فى كتاب التوحيد (١/ ١٨٦) من طريق عبد الله بن وهب بأطول منه.

وقال ابن منده: إسناده متصل مشهور ورواته مصريين. وصححه الحاكم وتعقبه الذهبى بقوله: «بل منكر، فيه عبد الله بن عياش، ضعفه أبو داود، وعند مسلم أنه ثقة، ودراج وهو كثير المناكير».

(٦) فى م: «اللذين».

(٧) صحيحه مسلم برقم (٩٠٠).

والظاهر أن هذه كقوله: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ﴾ [فصلت: ١٧].

وهكذا قال هاهنا: ﴿وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ. فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾، وذلك أنهم انتظروا العذاب ثلاثة أيام وجاءهم في صبيحة اليوم الرابع بُكْرَة النهار ﴿فَمَا اسْتَطَاعُوا مِن قِيَامٍ﴾ أي: من هَرَبٍ ولا نهوض، ﴿وَمَا كَانُوا مُنتَصِرِينَ﴾ أي: ولا يقدرون على أن ينتصروا مما هم فيه.

وقوله: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ﴾ أي: وأهلكنا قوم نوح من قبل هؤلاء ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ وكل هذه القصص قد تقدمت مبسوطة فى أماكن كثيرة، من سور متعددة.

﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ (٤٧) وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ (٤٨) وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٤٩) فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٥٠) وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٥١)﴾.

يقول تعالى منبها على خلق العالم العلوى والسفلى: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا﴾ أى: جعلناها سقفا [محفوظا][(١)] رفيعا ﴿بِأَيْدٍ﴾ أى: بقوة. قاله ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، والثورى، وغير واحد، ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾، أى: قد وسعنا أرجاءها ورفعناها بغير عمد، حتى استقلت كما هى، ﴿وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا﴾ أى: جعلناها فراشاً للمخلوقات، ﴿فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ﴾ أى: وجعلناها مهدا لأهلها، ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ أى: جميع المخلوقات أزواج: سماء وأرض، وليل ونهار، وشمس وقمر، وبر وبحر، وضياء وظلام، وإيمان وكفر، وموت وحياة، وشقاء وسعادة، وجنة ونار، حتى الحيوانات [جن وإنس، ذكور وإناث][(٢)] والنباتات؛ ولهذا قال: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ أى: لتعلموا أن الخالق واحدٌ لا شريك له، ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ﴾ أى: الجؤوا إليه، واعتمدوا فى أموركم عليه، ﴿إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾. ﴿وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ﴾ أى: [و][(٣)] لا تشركوا به شيئا، ﴿إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾.

﴿كَذَٰلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ (٥٢) أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ (٥٣) فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنتَ بِمَلُومٍ (٥٤) وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ (٥٥) وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (٥٦) مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ (٥٧) إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ (٥٨) فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ

(١) زيادة من م. (٢) زيادة من أ. (٣) زيادة من م.

أَصْحَابِهِمْ فَلا يَسْتَعْجِلُونِ (٥٩) فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ (٦٠)﴾ .

يقول تعالى مسليا نبيه ﷺ: وكما قال لك هؤلاء المشركون، قال المكذبون الأولون لرسلهم: ﴿**كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ**﴾! قال الله تعالى: ﴿**أَتَوَاصَوْا بِهِ**﴾ أى: أوصى بعضهم بعضا بهذه المقالة؟ ﴿**بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ**﴾ أى: لكن هم قوم طغاة، تشابهت قلوبهم، فقال متأخرهم كما قال متقدمهم. قال الله تعالى: ﴿**فَتَوَلَّ عَنْهُمْ**﴾ أى: فأعرض عنهم يا محمد، ﴿**فَمَا أَنتَ بِمَلُومٍ**﴾ يعنى: فما نلومك على ذلك ﴿**وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ**﴾ أى: إنما تنتفع [١] بها القلوب المؤمنة.

ثم قال: ﴿**وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ**﴾ أى: إنما خلقتهم لآمرهم بعبادتى، لا لاحتياجى إليهم.

وقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: ﴿**إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ**﴾ أى: إلا ليقروا بعبادتى طوعا أو كرها[٢] وهذا اختيار ابن جرير.

وقال ابن جُرَيْج: إلا ليعرفون. وقال الربيع بن أنس: ﴿**إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ**﴾ أى: إلا للعبادة. وقال السدى: من العبادة ما ينفع ومنها ما لا ينفع، ﴿**وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ**﴾ [لقمان: ٢٥] هذا منهم عبادة، وليس ينفعهم مع الشرك. وقال الضحاك: المراد بذلك المؤمنون.

وقوله: ﴿**مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ. إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ**﴾ قال[٣] الإمام أحمد:

حدثنا يحيى بن آدم وأبو سعيد قالا: حدثنا إسرائيل، عن أبى إسحاق، عن عبد الرحمن بن يزيد[٤]، عن عبد الله بن مسعود قال: أقرأنى رسول الله [٥] ﷺ: «إنى لأنا الرزاق ذو القوة المتين».

ورواه أبو داود، والترمذى، والنسائى، من حديث إسرائيل، وقال الترمذى: حسن صحيح[٦].

ومعنى الآية: أنه تعالى خلق العباد ليعبدوه وحده لا شريك له، فمن أطاعه جازاه أتم الجزاء، ومن عصاه عذبه أشد العذاب، وأخبر أنه غير محتاج إليهم، بل هم الفقراء إليه فى جميع أحوالهم، فهو خالقهم ورازقهم.

قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن عبد الله، حدثنا عمران ـ يعنى ابن زائدة بن نَشيط ـ عن أبيه، عن أبى خالد ـ هو الوالبى ـ عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله: «يا ابن

---

(١) فى م، أ: «فإنما ينتفع». (٢) فى م: «وكرها».
(٣) فى م: «وقال» .
(٤) فى أ: «زيد».
(٥) فى م: «النبى».
(٦) المسند (١/ ٣٩٤) وسنن أبى داود برقم (٣٩٩٣) وسنن الترمذى برقم (٢٩٤٠) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٥٢٧).

آدم، تَفَرّغ لعبادتى أملأ صدرك غِنًى، وأسدّ فقرك، وإلا تفعل ملأت صدرك شغلا ولم أسد فقرك».

ورواه الترمذى وابن ماجه، من حديث عمران بن زائدة، وقال الترمذى: حسن غريب[١].

وقد روى الإمام أحمد عن وكيع وأبى معاوية، عن الأعمش، عن سلام أبى شُرَحْبِيل، سمعت حَبَّة وسواء ابنى خالد يقولان: أتينا رسول الله ﷺ وهو يعمل عملا أو يبنى بناء ـ وقال أبو معاوية: يصلح شيئا ـ فأعناه عليه، فلما فرغ دعا لنا وقال: «لا تيأسا من الرزق ما تهززت رؤوسكما، فإن الإنسان تلده أمه أحمر ليس عليه قشرة، ثم يعطيه الله ويرزقه»[٢]. و[قد ورد][٣] فى بعض الكتب الإلهية: «يقول الله تعالى: ابن آدم، خلقتك لعبادتى فلا تلعب، وتكفلت برزقك فلا تتعب فاطلبنى تجدنى؛ فإن وجدتنى وجدت كل شىء، وإن فُتك فاتك كل شىء، وأنا أحب إليك من كل شىء».

وقوله: ﴿**فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوبًا**﴾ أى: نصيبا من العذاب، ﴿**مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلا يَسْتَعْجِلُونِ**﴾ أى: فلا يستعجلوا ذلك، فإنه واقع [بهم][٤] لا محالة ﴿**فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ**﴾ يعنى: يوم القيامة.

آخر تفسير سورة الذاريات

(١) المسند (٢/٣٥٨) وسنن الترمذى برقم (٢٤٦٦) وسنن ابن ماجه برقم (٤١٠٧).

(٢) المسند (٣/٤٦٩).

(٣) زيادة من م، أ. (٤) زيادة من أ.

٥١ ـــ سورة الذاريات

(مكية وهى ستون)

بسم الله الرحمن الرحيم

وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرۡوٗا ﴿١﴾ ٥١ الذاريات

فَٱلۡحَٰمِلَٰتِ وِقۡرٗا ﴿٢﴾ ٥١ الذاريات

فَٱلۡجَٰرِيَٰتِ يُسۡرٗا ﴿٣﴾ ٥١ الذاريات

فَٱلۡمُقَسِّمَٰتِ أَمۡرًا ﴿٤﴾ ٥١ الذاريات

إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٞ ﴿٥﴾ ٥١ الذاريات

وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٞ ﴿٦﴾ ٥١ الذاريات

﴿ سورة الذاريات مكية وآياتها ستون ﴾

١ (بسم الله الرحمن الرحيم) (والذاريات ذرواً) أى الرياح التى تذرو التراب وغيرها وقرىء
٢ بإدغام التاء فى الذال (فالحاملات وقراً) أى السحب الحاملة للمطر أو الرياح الحاملة للسحاب وقرىء
٣ وقراً على تسمية المحمول بالمصدر (فالجاريات يسراً) أى السفن الجارية فى البحر أو الرياح الجارية
فى مهابها أو السحب الجارية فى الجو بسوق الرياح أو الكواكب الجارية فى مجاريها ومنازلها ويسراً
٤ صفة لمصدر محذوف أى جرياً ذا يسر (فالمقسمات أمراً) أى الملائكة التى تقسم الأمور من الأمطار
والأرزاق وغيرها أو السحب التى يقسم الله تعالى بها أرزاق العباد وقد جوز أن يراد بالكل الرياح
تنزيلا لاختلاف العنوان منزلة اختلاف الذات فإنها كما تذر وما تذروه تثير السحاب وتحمله وتجرى
فى الجو جرياً سهلا وتقسم الأمطار بتصريف السحاب فى الأقطار فإن حملت الأمور المقسم بها على
ذوات مختلفة فالفاء لترتيب الأقسام باعتبار ما بينها من التفاوت فى الدلالة على كمال القدرة وإلا فهى
لترتيب ما صدر عن الريح من الأفاعيل فإنها تذر الأبخرة إلى الجو حتى تنعقد سحاباً فتجرى به باسطة
٥، ٦ له إلى ما أمرت به فتقسم المطر وقوله تعالى (إنما توعدون لصادق) (وإن الدين لواقع) جواب
للقسم وفى تخصيص الأمور المذكورة بالأقسام بها رمز إلى شهادتها بتحقق مضمون الجملة المقسم عليها
من حيث أنها أمور بديعة مخالفة لمقتضى الطبيعة فمن قدر عليها فهو قادر على البعث الموعود وما موصولة
أو مصدرية ووصف الوعد بالصدق كوصف العيشة بالرضا والدين الجزاء ووقوعه حصوله .

وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ ﴿٧﴾ ٥١ الذاريات

إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ﴿٨﴾ ٥١ الذاريات

يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ﴿٩﴾ ٥١ الذاريات

قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ ﴿١٠﴾ ٥١ الذاريات

ٱلَّذِينَ هُمْ فِى غَمْرَةٍ سَاهُونَ ﴿١١﴾ ٥١ الذاريات

يَسْـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٢﴾ ٥١ الذاريات

يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾ ٥١ الذاريات

(والسماء ذات الحبك) قال ابن عباس وقتادة وعكرمة ذات الخلق المستوى وقال سعيد بن جبير ذات ٧
الزينة وقال مجاهد هى المتقنة البنيان وقال مقاتل والكلبي والضحاك ذات الطرائق والمراد إما الطرائق المحسوسة التى هى مسير الكواكب أو المعقولة التى يسلكها النظار أو النجوم فإن لها طرائق وعن الحسن حبكها نجومها حيث تزينها كما تزين الموشى طرائق الوشى وهى إما جمع حباك أو حبيكة كمثال ومثل وطريقة وطرق وقرىء الحبك بوزن السلك والحبك كالجبل والحبك كالبرق والحبك كالنعم والحبك
كالإبل (إنكم لفى قول مختلف) أى متخالف متناقض وهو قولهم فى حقه عليه الصلاة والسلام تارة ٨
شاعر وأخرى ساحر وأخرى مجنون وفى شأن القرآن الكريم تارة شعر وأخرى سحر وأخرى أساطير وفى هذا الجواب تأييد لكون الحبك عبارة عن الاستواء كما يلوح به ما نقل عن الضحاك من أن قول الكفرة لا يكون مستوياً إنما هو متناقض مختلف وقيل النكتة فى هذا القسم تشبيه أقوالهم فى اختلافها
وتنافى أغراضها بطرائق السموات فى تباعدها واختلاف غاياتها وليس بذاك (يؤفك عنه من أفك) ٩
أى يصرف عن القرآن أو الرسول عليه الصلاة والسلام من صرف إذ لا صرف أفظع منه وأشد وقيل يصرف عنه من صرف فى علم الله تعالى وقضائه ويجوز أن يكون الضمير للقول المختلف على معنى يصدر إفك من أفك عن ذلك القول وقرىء من أفك عن ذلك القول وقرىء من أفك أى من أفك الناس
وهم قريش حيث كانوا يصدون الناس عن الإيمان (قتل الخراصون) دعاء عليهم كقوله تعالى قتل ١٠
الإنسان ما أكفره وأصله الدعاء بالقتل والهلاك ثم جرى مجرى لعن والخراصون الكذابون المقدرون ما لا صحة له وهم أصحاب القول المختلف كأنه قيل قتل هؤلاء الخراصون وقرىء قتل الخراصين أى
قتل الله (الذين هم فى غمرة) من الجهل والضلال (ساهون) غافلون عما أمروا به (يسألون أيان ١١،١٢
يوم الدين) أى متى وقوع يوم الجزاء لكن لا بطريق الاستعلام حقيقة بل بطريق الاستعجال استهزاء
وقرىء إيان بكسر الهمزة (يوم هم على النار يفتنون) جواب للسؤال أى يقع يوم هم على النار يحرقون ١٣

ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَٰذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٤﴾ ٥١ الذاريات

إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ٥١ الذاريات

آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ ٥١ الذاريات

كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ ٥١ الذاريات

وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ ٥١ الذاريات

وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾ ٥١ الذاريات

وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ ٥١ الذاريات

ويعذبون ويجوز أن يكون يوم خبراً لمبتدأ محذوف أي هو يوم هم الخ والفتح لإضافته إلى غير متمكن
١٤ ويؤيده أنه قرىء بالرفع (ذوقوا فتنتكم) أي مقولا لهم هذا القول وقوله تعالى (هذا الذي كنتم به
تستعجلون) جملة من مبتدأ وخبر داخلة تحت القول المضمر أي هذا ما كنتم تستعجلون به بطريق
١٥ الاستهزاء ويجوز أن يكون هذا بدلا من فتنتكم بتأويل العذاب والذي صفته (إن المتقين في جنات
١٦ وعيون) لا يبلغ كنهها ولا يقادر قدرها (آخذين ما آتاهم ربهم) أي قابلين لما أعطاهم راضين به على
معنى أن كل ما آتاهم حسن مرضي يتلقى بحسن القبول (إنهم كانوا قبل ذلك) في الدنيا (محسنين) أي
لأعمالهم الصالحة آتين بها على ما ينبغي فلذلك نالوا ما نالوا من الفوز العظيم ومعنى الإحسان بالإجمال
ما أشار إليه عليه الصلاة والسلام بقوله أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك وقد فسر
١٧ بقوله تعالى (كانوا قليلا من الليل ما يهجعون) أي كانوا يهجعون في طائفة قليلة من الليل على أن قليلا
ظرف أو كانوا يهجعون هجوعا قليلا على أنه صفة المصدر وما مزيدة في الوجهين ويجوز أن تكون
مصدرية أو موصولة مرتفعة بقليلا على الفاعلية أي كانوا قليلا من الليل هجوعهم أو ما يهجعون فيه
وفيه للمبالغات في تقليل نومهم واستراحتهم ذكر القليل والليل الذي هو وقت الراحة والهجوع
الذي هو الغرار من النوم وزيادة ما ولا مساغ لجعل ما نافية على معنى أنهم لا يهجعون من الليل قليلا
١٨ بل يحيونه كله لما أن ما النافية لا يعمل ما بعدها فيما قبلها (وبالأسحار هم يستغفرون) أي هم مع قلة
هجوعهم وكثرة تهجدهم يداومون على الاستغفار في الأسحار كأنهم أسلفوا ليلهم باقتراف الجرائم وفي
بناء الفعل على الضمير إشعار بأنهم الأحقاء بأن يوصفوا بالاستغفار كأنهم المختصون به لاستدامتهم
١٩ له وإطنابهم فيه (وفي أموالهم حق) أي نصيب وافر يستوجبونه على أنفسهم تقرباً إلى الله تعالى
وإشفاقا على الناس (للسائل والمحروم) للمستجدي والمتعفف الذي يحسبه الناس غنياً فيحرم الصادقة
٢٠ (وفي الأرض آيات للموقنين) أي دلائل واضحة على شؤونه تعالى على التفاصيل من حيث أنها مدحوة

وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ ٥١ الذاريات

وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ ٥١ الذاريات

فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾ ٥١ الذاريات

هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ ٥١ الذاريات

إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ ٥١ الذاريات

كالبساط الممهد وفيها مسالك وفجاج للمتقلبين فى أقطارها والسالكين فى مناكبها وفيها سهل وجبل
وبروبحر وقطع متجاورات وعيون متفجرة ومعادن مفتنة وأنها تلقح بألوان النبات وأنواع الأشجار
وأصناف الثمار المختلفة الألوان والطعوم والروائح وفيها دواب منبثة قد رتب كلها ودبر لمنافع ساكنها
٢١ ومصالحهم فى صحتهم واعتلالهم (وفى أنفسكم) أى وفى أنفسكم آيات إذ ليس فى العالم شىء إلا وفى
الأنفس له نظير يدل دلالته على ما انفرد به من الهيئات النافعة والمناظر البهية والتركيبات العجيبة والتمكن
من الأفعال البديعة واستنباط الصنائع المختلفة واستجماع الكمالات المتنوعة (أفلا تبصرون) أى ألا *
٢٢ تنظرون فلا تبصرون بعين البصيرة (وفى السماء رزقكم) أى أسباب رزقكم أو تقديره وقيل المراد
بالسماء السحاب وبالرزق المطر فإنه سبب الأقوات (وما توعدون) من الثواب لأن الجنة فى السماء *
٢٣ السابعة أو لأن الأعمال وثوابها مكتوبة مقدرة فى السماء وقيل إنه مبتدأ خبره قوله تعالى (فورب السماء
والأرض إنه لحق) على أن الضمير لما وأما على الأول فأماله وأما لما ذكر من أمر الآيات والرزق
على أنه مستعار لاسم الإشارة (مثل ما أنكم تنطقون) أى كما أنه لاشك لكم فى أنكم تنطقون ينبغى *
أن لاتشكوا فى حقيته ونصبه على الحالية من المستكن فى لحق أو على أنه وصف لمصدر محذوف أى
إنه لحق حقاً مثل نطقكم وقيل إنه مبنى على الفتح لإضافته إلى غير متمكن وهو ما إن كانت عبارة
٢٤ عن شىء وأن بما فى حيزها إن جعلت زائدة ومحله الرفع على أنه صفة لحق ويؤيده القراءة بالرفع (هل
أتاك حديث ضيف إبراهيم) تفخيم لشأن الحديث وتنبيه على أنه ليس مما علمه رسول الله صلى الله عليه
وسلم بغير طريق الوحى والضيف فى الأصل مصدر ضافه ولذلك يطلق على الواحد والجماعة كالزور
والصوم وكانوا اثنى عشر ملكا وقيل تسعة عاشرهم جبريل وقيل ثلاثة جبريل وميكائيل وملك آخر
معهما عليهم السلام وتسميتهم ضيفاً لأنهم كانوا فى صورة الضيف حيث أضافهم إبراهيم عليه السلام
أو لأنهم كانوا فى حسبانه كذلك (المكرمين) أى المكرمين عند الله تعالى أو عند إبراهيم حيث خدمهم *
٢٥ بنفسه وبزوجته (إذ دخلوا عليه) ظرف للحديث أو لما فى الضيف من معنى الفعل أو المكرمين
إن فسر بإكرام إبراهيم (فقالوا سلاماً) أى نسلم عليك سلاماً (قال) أى إبراهيم (سلام) أى عليكم *
سلام عدل به إلى الرفع بالابتداء للقصد إلى الثبات والدوام حتى تكون تحيته عليه الصلاة والسلام

فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ ٥١ الذاريات

فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ ٥١ الذاريات

فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا۟ لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ ٥١ الذاريات

فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ ٥١ الذاريات

قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾ ٥١ الذاريات

قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾ ٥١ الذاريات

---

* أحسن من تحيتهم وقرئا مرفوعين وقرىء سلم وقرىء منصوباً والمعنى واحد (قوم منكرون) أنكرهم عليه الصلاة والسلام للسلام الذى هو علم للإسلام أو لأنهم ليسوا ممن عهدهم من الناس أو لأن أوضاعهم وأشكالهم خلاف ما عليه الناس ولعله عليه الصلاة والسلام إنما قاله فى نفسه من غير أن يشعرهم بذلك لا أنه خاطبهم به جهراً أو سألهم أن يعرفوه أنفسهم كما قيل وإلا لكشفوا أحوالهم عند ذلك ولم
٢٦ يتصد عليه الصلاة والسلام لمقدمات الضيافة (فراغ إلى أهله) أى ذهب إليهم على خفية من ضيفه فإن من أدب المضيف أن يبادره بالقرى ويبادر به حذاراً من أن يكفه ويعذره أو يصير منتظراً
* والفاء فى قوله تعالى (فجاء بعجل سمين) فصيحة مفصحة عن جمل قد حذفت ثقة بدلالة الحال عليها وإيذاناً بكمال سرعة المجىء بالطعام كما فى قوله تعالى فقلنا اضرب بعصاك البحر فانفلق أى فذبح عجلا
٢٧ فحنذه فجاء به (فقربه إليهم) بأن وضعه لديهم حسبما هو المعتاد (فقال ألا تأكلون) إنكار لعدم تعرضهم
٢٨ للأكل (فأوجس منهم) أضمر فى نفسه (خيفة) لتوهم أنهم جاؤا للشر وقيل وقع فى قلبه أنهم ملائكة
* جاؤا للعذاب (قالوا لا تخف) قيل مسح جبريل عليه السلام العجل بجناحه فقام يتدرج حتى لحق بأمه
* فعرفهم وأمن منهم (وبشروه) وفى سورة الصافات وبشرناه أى بواسطتهم (بغلام) هو إسحاق
٢٩ عليه السلام (عليم) عند بلوغه واستوائه (فأقبلت امرأته) سارة لما سمعت بشارتهم إلى بيتها وكانت
* فى زاوية تنظر إليهم (فى صرة) فى صيحة من الصرير ومحله النصب على الحالية أو المفعولية إن جعل
* أقبلت بمعنى أخذت كما يقال أقبل يشتمنى (فصكت وجهها) أى لطمته من الحياء لما أنها وجدت حرارة دم
* الطمث وقيل ضربت بأطراف أصابعها جبينها كما يفعله المتعجب (وقالت عجوز عقيم) أى أنا عجوز عاقر
٣٠ فكيف ألد (قالوا كذلك) مثل ذلك القول الكريم (قال ربك) وإنما نحن معبرون نخبرك به عنه تعالى
* لا أنا نقوله من تلقاء أنفسنا (إنه هو الحكيم العليم) فيكون قوله حقاً وفعله متقناً لا محالة . روى أن جبريل عليه السلام قال لها انظرى إلى سقف بيتك فنظرت فإذا جذوعه مورقة مثمرة ولم تكن هذه المفاوضة مع سارة فقط بل مع إبراهيم عليه السلام أيضاً حسبما شرح فى سورة الحجر وإنما لم يذكر
٣١ ههنا اكتفاء بما ذكر هناك كما أنه لم يذكر هناك سارة اكتفاء بما ذكر ههنا وفى سورة هود (قال)

قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ ٥١ الذاريات

لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ ٥١ الذاريات

مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾ ٥١ الذاريات

فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ ٥١ الذاريات

فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾ ٥١ الذاريات

وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾ ٥١ الذاريات

وَفِى مُوسَىٰٓ إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ ٥١ الذاريات

فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾ ٥١ الذاريات

أى إبراهيم عليه السلام لما علم أنهم ملائكة أرسلوا لأمر (فما خطبكم) أى شأنكم الخطير الذى *
لأجله أرسلتم سوى البشارة (أيها المرسلون) (قالوا إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين) يعنون قوم لوط ٣٢
(لنرسل عليهم) أى بعد ماقلبنا قراهم وجعلنا عاليها سافلها حسبما فصل فى سائر السور الكريمة (حجارة ٣٣
من طين) أى طين متحجر هو السجيل (مسومة) مرسلة من أسمت الماشية أى أرسلتها أو معلمة من ٣٤
المسومة وهى العلامة وقد مر تفصيله فى سورة هود (عند ربك للمسرفين) المجاوزين الحد فى الفجور *
وقوله تعالى (فأخرجنا) الخ حكاية من جهته تعالى لما جرى على قوم لوط عليه السلام بطريق الإجمال ٣٥
بعد حكاية ماجرى بين الملائكة وبين إبراهيم عليه السلام من الكلام والفاء فصيحة مفصحة عن جمل
قد حذفت ثقة بذكرها فى مواضع أخر كأنه قيل فباشروا ما أمروا به فأخرجنا بقولنا فأسر بأهلك
الخ (من كان فيها) أى فى قرى قوم لوط وإضمارها بغير ذكر لشهرتها (من المؤمنين) ممن آمن بلوط *
(فما وجدنا فيها غير بيت) أى غير أهل بيت (من المسلمين) قيل هم لوط وابنتاه وقيل كان لوط وأهل ٣٦
بيته الذين نجوا ثلاثة عشر (وتركنا فيها) أى فى القرية (آية) أى علامة دالة على ما أصابهم من العذاب ٣٧
قيل هى تلك الأحجار أو صخر منضود فيها أو ماء منتن (للذين يخافون العذاب الأليم) أى من شأنهم *
أن يخافوه لسلامة فطرتهم ورقة قلوبهم دون من عداهم من ذوى القلوب القاسية فإنهم لا يعتدون بها
ولا يعدونها آية (وفى موسى) عطف على قوله تعالى وفى الأرض أو على قوله تعالى وتركنا فيها آية ٣٨
على معنى وجعلنا فى موسى آية كقول من قال علفتها تبناً وماء بارداً (إذ أرسلناه) قيل هو منصوب بآية *
وقيل بمحذوف أى كائنة وقت إرسالنا وقيل بتركنا (إلى فرعون بسلطان مبين) هو ما ظهر على يديه *
من المعجزات الباهرة (فتولى بركنه) أى فأعرض عن الإيمان به وازور كقوله تعالى ونأى بجانبه ٣٩

فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿٤٠﴾ ٥١ الذاريات

وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ ٥١ الذاريات

مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾ ٥١ الذاريات

وَفِى ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا۟ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾ ٥١ الذاريات

فَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٤٤﴾ ٥١ الذاريات

فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُوا۟ مُنتَصِرِينَ ﴿٤٥﴾ ٥١ الذاريات

وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٤٦﴾ ٥١ الذاريات

وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْي۟دٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ ٥١ الذاريات

وقيل فتولى بما يتقوى به من ملكه وعساكره فإن الركن اسم لما يركن إليه الشيء وقرىء بركنه بضم
* الكاف (وقال ساحر) أي هو ساحر (أو مجنون) كأنه نسب ماظهر على يديه عليه الصلاة والسلام
٤٠ من الخوارق العجيبة إلى الجن وتردد في أنه حصل باختياره وسعيه أو بغيرهما (فأخذناه وجنوده فنبذناهم
* في اليم) وفيه من الدلالة على غاية عظم شأن القدرة الربانية ونهاية قماءة فرعون وقومه (وهو مليم) أي
٤١ آت بما يلام عليه من الكفر والطغيان والجملة حال من الضمير في فأخذناه (وفي عاد إذ أرسلنا عليهم
الريح العقيم) وصفت بالعقم لأنها أهلكتهم وقطعت دابرهم أو لأنها لم تتضمن خيراً ما من إنشاء مطر
٤٢ أو إلقاح شجر وهي النكباء أو الدبور أو الجنوب (ماتذر من شيء أتت عليه) أي جرت عليه (إلا
٤٣ جعلته كالرميم) هو كل مارم وبلي وتفتت من عظم أو نبات أو غير ذلك (وفي ثمود إذ قيل لهم تمتعوا
حتى حين) وهو قوله تعالى تمتعوا في داركم ثلاثة أيام قيل قال لهم صالح عليه السلام تصبح وجوهكم
٤٤ غداً مصفرة وبعد غد محمرة واليوم الثالث مسودة ثم يصبحكم العذاب (فعتوا عن أمر ربهم) أي
* فاستكبروا عن الامتثال به (فأخذتهم الصاعقة) قيل لما رأوا العلامات التي بينها صالح عليه السلام
من اصفرار وجوههم واحمرارها واسودادها عمدوا إلى قتله عليه السلام فنجاه الله تعالى إلى أرض
فلسطين ولما كان ضحوة اليوم الرابع تحنطوا وتكفنوا بالأنطاع فأتتهم الصيحة فهلكوا وقرىء الصعقة
٤٥ وهي المرة من الصعق (وهم ينظرون) إليها ويعاينونها (فما استطاعوا من قيام) كقوله تعالى فأصبحوا
٤٦ في دارهم جاثمين (وما كانوا منتصرين) بغيرهم كما لم يمتنعوا بأنفسهم (وقوم نوح) أي وأهلكنا قوم
نوح فإن ماقبله يدل عليه أو واذكر ويجوز أن يكون معطوفا على محل عاد ويؤيده القراءة بالجر وقيل
* هو معطوف على مفعول فأخذناه (من قبل) أي من قبل هؤلاء المهلكين (إنهم كانوا قوماً فاسقين)
٤٧ خارجين عن الحدود فيما كانوا فيه من الكفر والمعاصي (والسماء بنيناها بأيد) أي بقوة (وإنا لموسعون)

وَٱلۡأَرۡضَ فَرَشۡنَـٰهَا فَنِعۡمَ ٱلۡمَـٰهِدُونَ ﴿٤٨﴾ ٥١ الذاريات

وَمِن كُلِّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَا زَوۡجَيۡنِ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ ٥١ الذاريات

فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ﴿٥٠﴾ ٥١ الذاريات

وَلَا تَجۡعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ﴿٥١﴾ ٥١ الذاريات

كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ ﴿٥٢﴾ ٥١ الذاريات

لقادرون من الوسع بمعنى الطاقة والموسع القادر على الإنفاق أولموسعون السماء أومابينها وبين الأرض
أو الرزق (والأرض فرشناها) مهدناها وبسطناها ليستقروا عليها (فنعم الماهدون) أى نحن ٤٨
(ومن كل شيء) أى من الأجناس (زوجين) أى نوعين ذكراً وأنثى وقيل متقابلين السماء والأرض ٤٩
والليل والنهار والشمس والقمر والبر والبحر ونحو ذلك (لعلكم تذكرون) أى فعلنا ذلك كله كى تتذكروا
فتعرفوا أنه خالق الكل ورازقه وأنه المستحق للعبادة وأنه قادر على إعادة الجميع فتعملوا بمقتضاه وقوله
تعالى (ففروا إلى الله) مقدر لقول خوطب به النبي صلى الله عليه وسلم بطريق التلوين والفاء إما لترتيب ٥٠
الأمر على ماحكى من آثار غضبه الموجبة للفرار منها ومن أحكام رحمته المستدعية للفرار إليها كأنه
قيل قل لهم إذا كان الأمر كذلك فاهربوا إلى الله الذى هذه شؤنه بالإيمان والطاعة كى تنجوا من عقابه
وتفوزوا بثوابه وإما للعطف على جملة مقدرة مترتبة على قوله تعالى لعلكم تذكرون كأنه قيل قل لهم
فتذكروا ففروا إلى الله الخ وقوله تعالى (إنى لكم منه نذير مبين) تعليل للأمر بالفرار إليه تعالى أ
لوجوب الامتثال به فإن كونه عليه الصلاة والسلام منذراً منه تعالى موجب عليه عليه الصلاة والسلا
أن يأمرهم بالفرار إليه وعليهم أن يمتثلوا به أى إنى لكم من جهته تعالى منذر بين كونه منذراً منه
أومظهر لما يجب إظهاره من العذاب المنذر به وفى أمره تعالى للرسول صلى الله عليه وسلم بأن يأمرهم
بالهرب إليه تعالى من عقابه وتعليله بأنه عليه الصلاة والسلام ينذرهم من جهته تعالى لا من تلقاء نفسه
وعد كريم بنجاتهم من المهروب وفوزهم بالمطلوب وقوله تعالى (ولا تجعلوا مع الله إلهاً آخر) نهى ٥١
موجب للفرار من سبب العقاب بعد الأمر بالفرار من نفسه كما يشعر به قوله تعالى (إنى لكم منه) أ
من الجعل المنهى عنه (نذير مبين) فإن تعلق كلمة من بالإنذار مع كون صلته الباء بتضمينه معنى الإفر
يقال فر منه أى هرب وأفره غيره كأنه قيل وفروا من أن تجعلوا معه تعالى اعتقاداً أو قولا إلهاً آخر
وفيه تأكيد لما قبله من الأمر بالفرار من العقاب إليه تعالى لكن لا بطريق التكرير كما قيل بل بالنهى
عن سببه وإيجاب الفرار (كذلك) أى الأمر مثل ماذكر من تكذيبهم الرسول وتسميتهم له ساحراً ٥٢
أو مجنونا وقوله تعالى (ما أتى الذين من قبلهم) الخ تفسير له أى ما أتاهم (من رسول) من رسل الله
(إلا قالوا) فى حقه (ساحر أو مجنون) ولا سبيل إلى انتصاب الكاف بأتى لامتناع عمل ما بعد

أَتَوَاصَوْا بِهِۦ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾ ٥١ الذاريات

فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ﴿٥٤﴾ ٥١ الذاريات

وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾ ٥١ الذاريات

وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ٥١ الذاريات

---

٥٣ ما النافية فيما قبلها (أتواصوا به) إنكار وتعجيب من حالهم وإجماعهم على تلك الكلمة الشنيعة التى
لاتكاد تخطر ببال أحد من العقلاء فضلا عن التفوه بها أى أوصى بهذا القول بعضهم بعضاً حتى اتفقوا
عليه وقوله تعالى (بل هم قوم طاغون) إضراب عن كون مدار اتفاقهم على الشر تواصيهم بذلك وإثبات
لكونه أمراً أقبح من التواصى وأشنع منه من الطغيان الشامل للكل الدال على أن صدور تلك الكلمة
الشنيعة عن كل واحد منهم بمقتضى جبلته الخبيثة لا بموجب وصية من قبلهم بذلك من غير أن يكون
٥٤ ذلك مقتضى طباعهم (فتول عنهم) فأعرض عن جدالهم فقد كررت عليهم الدعوة فأبوا إلا الإباء
٥٥ (فما أنت بملوم) على التولى بعد ما بذلت المجهود وجاوزت فى الإبلاغ كل حد معهود (وذكر) أى
افعل التذكير والموعظة ولا تدعهما بالمرة أو فذكرهم وقد حذف الضمير لظهور الأمر (فإن الذكرى
تنفع المؤمنين) أى الذين قدر الله تعالى إيمانهم أو الذين آمنوا بالفعل فإنها تزيدهم بصيرة وقوة فى
٥٦ اليقين (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) استئناف مؤكد للأمر مقرر لمضمون تعليله فإن
كون خلقهم مغياً بعبادته تعالى مما يدعوه عليه الصلاة والسلام إلى تذكيرهم ويوجب عليهم التذكر والاتعاظ
ولعل تقديم خلق الجن فى الذكر لتقدمه على خلق الإنس فى الوجود ومعنى خلقهم لعبادته تعالى خلقهم
مستعدين لها ومتمكنين منها أتم استعداد وأكمل تمكن مع كونها مطلوبة منهم بتنزيل ترتب الغاية
على ما هى ثمرة له منزلة ترتب الغرض على ما هو غرض له فإن استتباع أفعاله تعالى لغايات جليلة مما
لا نزاع فيه قطعاً كيف لا وهى رحمة منه تعالى وتفضل على عباده وإنما الذى لا يليق بجنابه عز وجل
تعليلها بالغرض بمعنى الباعث على الفعل بحيث لولاه لم يفعله لإفضائه إلى استكماله بفعله وهو الكامل
بالفعل من كل وجه وأما بمعنى نهاية كمالية يفضى إليها فعل الفاعل الحق فغير منفى من أفعاله تعالى بل
كلها جارية على المنهاج وعلى هذا الاعتبار يدور وصفه تعالى بالحكمة ويكفى فى تحقق معنى التعليل على
ما يقوله الفقهاء ويتعارفه أهل اللغة هذا المقدار وبه يتحقق مدلول اللام وأما إرادة الفاعل لها فليست
من مقتضيات اللام حتى يلزم من عدم صدور العبادة عن البعض تخلف المراد عن الإرادة فإن تعوق
البعض عن الوصول إلى الغاية مع تعاضد المبادى وتآخذ المقدمات الموصلة إليها لا يمنع كونها غاية كما
فى قوله تعالى كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور ونظائره وقيل المعنى إلا ليؤمروا
بعبادتى كما فى قوله تعالى وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً وقيل المراد سعداء الجنسين كما أن المراد

مَآ أُرِيدُ مِنۡهُم مِّن رِّزۡقٖ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطۡعِمُونِ ﴿٥٧﴾ ٥١ الذاريات

إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلۡقُوَّةِ ٱلۡمَتِينُ ﴿٥٨﴾ ٥١ الذاريات

فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذَنُوبٗا مِّثۡلَ ذَنُوبِ أَصۡحَٰبِهِمۡ فَلَا يَسۡتَعۡجِلُونِ ﴿٥٩﴾ ٥١ الذاريات

فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن يَوۡمِهِمُ ٱلَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٦٠﴾ ٥١ الذاريات

بقوله تعالى ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس أشقياؤهما ويعضده قراءة من قرأ وما خلقت
الجن والإنس من المؤمنين وقال مجاهد واختاره البغوى معناه إلا ليعرفوه ومداره قوله صلى الله عليه
وسلم فيما يحكيه عن رب العزة كنت كنزاً مخفياً فأحببت أن أعرف فخلقت الخلق لأعرف ولعل السر
فى التعبير عن المعرفة بالعبادة على طريق إطلاق اسم السبب على المسبب التنبيه على أن المعتبر هى
٥٧ المعرفة الحاصلة بعبادته تعالى مايحصل بغيرها كمعرفة الفلاسفة (ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون)
بيان لكون شأنه تعالى مع عباده متعالياً عن أن يكون كشأن السادة مع عبيدهم حيث يملكونهم ليستعينوا
بهم فى تحصيل معايشهم وتهيئة أرزاقهم أى ما أريد أن أصرفهم فى تحصيل رزقى ولا رزقهم بل أتفضل
٥٨ عليهم برزقهم وبما يصلحهم ويعيشهم من عندى فليشتغلوا بما خلقوا له من عبادتى (إن الله هو الرزاق)
* الذى يرزق كل مايفتقر إلى الرزق وفيه تلويح بأنه غنى عنه وقرىء إنى أنا الرزاق (ذو القوة المتين)
بالرفع على أنه نعت للرزاق أو لذو أو خبر بعد خبر أو خبر لمضمر وقرىء بالجر على أنه وصف
٥٩ للقوة على تأويل الاقتدار أو الأيد (فإن للذين ظلموا) أى ظلموا أنفسهم بتعريضها للعذاب الخالد
* بتكذيب رسول الله صلى الله عليه وسلم أو وضعوا مكان التصديق تكذيباً وهم أهل مكة (ذنوباً)
* أى نصيباً وافراً من العذاب (مثل ذنوب أصحابهم) مثل أنصباء نظرائهم من الأمم المحكية وهو مأخوذ
* من مقاسمة السقاة الماء بالذنوب وهو الدلو العظيم المملوء (فلا يستعجلون) أى لا يطلبوا منى أن أعجل
فى المجىء به يقال استعجله أى حثه على العجلة وأمره بها ويقال استعجله أى طلب وقوعه بالعجلة
٦٠ ومنه قوله تعالى أتى أمر الله فلا تستعجلوه وهو جواب لقولهم متى هذا الوعد إن كنتم صادقين (فويل
للذين كفروا) وضع الموصول موضع ضميرهم تسجيلا عليهم بما فى حيز الصلة من الكفر وإشعاراً
بعلة الحكم والفاء لترتيب ثبوت الويل لهم على أن لهم عذاباً عظيما كما أن الفاء الأولى لترتيب النهى
* عن الاستعجال على ذلك ومن فى قوله تعالى (من يومهم الذى يوعدون) للتعليل أى يوعدونه من يوم
بدر وقيل يوم القيامة وهو الأنسب بما فى صدر السورة الكريمة الآتية والأول هو الأوفق لما قبله
من حيث أنهما من العذاب الدنيوى . عن النبى صلى الله عليه وسلم من قرأ والذاريات أعطاه الله تعالى
عشر حسنات بعدد كل ريح هبت وجرت فى الدنيا .

سورة الذاريات
ترتيبها ٥١ — آياتها ٦٠

«مكية» كما روي عن ابن عباس وابن الزبير رضي الله تعالى عنهما ـ ولم يحك في ذلك خلاف ـ وهي ستون آية بالاتفاق كما في كتاب العدد، ومناسبتها لسورة «ق» أنهما لما ختمت بذكر البعث واشتملت على ذكر الجزاء والجنة والنار وغير ذلك افتتحت هذه بالإقسام على أن ما وعدوا من ذلك لصادق، وأن الجزاء لواقع، وأنه قد ذكر هناك إهلاك كثير من القرون على وجه الاجمال، وذكر هنا إهلاك بعضهم على سبيل التفصيل إلى غير ذلك مما يظهر للمتأمل.

بسم الله الرحمن الرحيم

وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرْوًا ﴿١﴾ فَٱلْحَٰمِلَٰتِ وِقْرًا ﴿٢﴾ فَٱلْجَٰرِيَٰتِ يُسْرًا ﴿٣﴾ فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا ﴿٤﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ﴿٥﴾ وَإِنَّ
ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ ﴿٦﴾ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ ﴿٧﴾ إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ﴿٨﴾ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ﴿٩﴾ قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ
هُمْ فِى غَمْرَةٍ سَاهُونَ ﴿١١﴾ يَسْـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٢﴾ يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾ ذُوقُوا۟ فِتْنَتَكُمْ هَٰذَا ٱلَّذِى
كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٤﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾
كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾

﴿**بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ وَٱلذَّارِيَاتِ ذَرْواً**﴾ أي الرياح التي تذرو التراب وغيره من ـ ذرا ـ المعتل بمعنى فرق وبدد ما رفعه عن مكانه ﴿**فَٱلْحَامِلاتِ وِقْراً**﴾ أي حملاً وهي السحب الحاملة للمطر.

﴿**فَٱلْجَارِيَاتِ يُسْراً**﴾ أي جرياً سهلا إلى حيث سيرت وهي السفن ﴿**فَٱلْمُقَسِّمَاتِ أَمْراً**﴾ هي الملائكة الذين يقسمون الأمور بين الخلق على ما أمروا به، وتفسير كل بما فسر به قد صح روايته من طرق عن علي كرم الله تعالى وجهه، وفي بعض الروايات أن ابن الكواء سأله عن ذلك وهو رضي الله تعالى عنه يخطب على المنبر فأجاب بما ذكر، وفي بعض الأخبار ما يدل على أنه تفسير مأثور عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم.

---

(١) ﴿تنبيه﴾ جرينا هنا في تقسيم هذا الجزء هكذا لما هو المشهور من تجزئة الأجزاء الأربعة الأواخر لذلك ليكون أو كل جزء منها أو سورة وإن كانت تجزئة المصاحف في هذا الجزء هي قوله «قال فما خطبكم أيها المرسلون».

أخرج البزار والدارقطني في الافراد وابن مردويه وابن عساكر عن سعيد بن المسيب قال: «جاء صبيغ التميمي إلى عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه فقال: أخبرني عن ﴿**الذاريات ذرواً**﴾ قال: هي الرياح، ولولا أني سمعت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يقوله ما قلته، قال: فأخبرني عن «الحاملات وقراً» قال: هي السحاب ولولا أني سمعت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يقوله ما قلته، قال: فأخبرني عن «الجاريات يسراً» قال: هي السفن ولولا أني سمعت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يقوله ما قلته، قال: فأخبرني عن «المقسمات أمراً» قال: هي الملائكة ولولا أني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقوله ما قلته ثم أمر به فضرب مائة وجعل في بيت فلما برأ دعاه فضربه مائة أخرى وحمله على قتب وكتب إلى أبي موسى الأشعري امنع الناس من مجالسته فلم يزالوا كذلك حتى أتى أبا موسى فحلف له بالأيمان المغلظة ما يجد في نفسه مما كان يجد شيئاً فكتب إلى عمر رضي الله تعالى عنه ما أخاله إلا قد صدق فخلى بينه وبين مجالسة الناس».

ويدل هذا أن الرجل لم يكن سليم القلب وأن سؤاله لم يكن طلباً للعلم وإلا لم يصنع به عمر رضي الله تعالى عنه ما صنع.

وفي رواية عن ابن عباس أن ـ الحاملات ـ هي السفن الموقرة بالناس وأمتعتهم، وقيل: هي الحوامل من جميع الحيوانات، وقيل: الجاريات السحب تجري وتسير إلى حيث شاء الله عز وجل، وقيل: هي الكواكب التي تجري في منازلها وكلها لها حركة وإن اختلفت سرعة وبطأ كما بين في موضعه، وقيل: هي الكواكب السبعة الشهيرة وتسمى السيارة، وقيل: ﴿**الذاريات**﴾ النساء الولود فإنهن يذرين الأولاد كأنه شبه تتابع الأولاد بما يتطاير من الرياح، وباقي المتعاطفات على ما سمعت أولاً، وقيل: ﴿**الذاريات**﴾ هي الأسباب التي تذري الخلائق على تشبيه الأسباب المعدة للبروز من العدم بالرياح المفرقة للحبوب ونحوها، وقيل: الحاملات الرياح الحاملة للسحاب، وقيل: هي الأسباب الحاملة لمسبباتها مجازاً، وقيل: الجاريات الرياح تجري في مهابها، وقيل: المقسمات السحب يقسم الله تعالى بها أرزاق العباد، وقيل: هي الكواكب السبعة السيارة ـ وهو قول باطل ـ لا يقول به إلا من زعم أنها مدبرة لعالم الكون والفساد، وفي صحيح البخاري عن قتادة «خلق الله تعالى هذه النجوم لثلاث جعلها زينة للسماء ورجوماً للشياطين. وعلامات يهتدى بها فمن تأوّل فيها بغير ذلك فقد أخطأ وأضاع نصيبه وتكلف ما لا يعلم» وزاد رزين «وما لا علم له به وما عجز عن علمه الأنبياء والملائكة» وعن الربيع مثله وزاد «والله ما جعل الله تعالى في نجم حياة أحد ولا رزقه ولا موته وإنما يفترون على الله تعالى الكذب ويتعللون بالنجوم» ذكره صاحب جامع الاصول، وقد مر الكلام في إبطال ما قاله المنجمون مفصلاً فتذكر، ولعله سيأتي إن شاء الله تعالى شيء من ذلك، وجوز أن يراد بالجميع الرياح فإنها ـ كما تذر ـ وما تذروه تثير السحاب وتحمله، وتجري في الجوّ جرياً سهلاً ـ وتقسم الأمطار بتصريف السحاب في الأقطار ـ والمعول عليه ما روي عن عمر رضي الله تعالى عنه سامعاً له من رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ـ وقاله باب مدينة العلم كرم الله تعالى وجهه على المنبر ـ وإليه كما نقل عن الزجاج ذهب جميع المفسرين أي المعتبرين، وقول الإمام بعد نقله له عن الأمير: الأقرب أن تحمل هذه الصفات الأربع على الرياح جسارة عظيمة على ما لا يسلم له، وجهل منه بما رواه ابن المسيب من الخبر الدال على أن ذلك تفسير النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فأين منه الامام عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه.

وقول صاحب الكشف: إنه شديد الطباق للمقام ولذا آثره الإمام لا أسلمه له أيضا إذا صح الحديث ثم إذا حملت هذه الصفات على أمور مختلفة متغايرة بالذات كما في المعول عليه فالفاء للترتيب في الأقسام ذكراً ورتبة باعتبار تفاوت مراتبها في الدلالة على كمال قدرته عز وجل، وهذا التفاوت إما على الترقي أو التنزل لما في كل منها

من الصفات التي تجعلها أعلى من وجه وأدنى من آخر إذا نظر لها ذو نظر صحيح، وقيل: الترتيب بالنظر إلى الأقرب فالأقرب منا، وإن حملت على واحد وهو الرياح فهي لترتيب الأفعال والصفات إذ الريح تذر الأبخرة إلى الجو أولاً حتى تنعقد سحاباً فتحمله ثانياً وتجري به ثالثاً ناشرة وسائقة له إلى حيث أمرها الله تعالى ثم تقسم أمطاره، وقيل: إذا حملت الذاريات والحاملات على النساء، فالظاهر أنها للتفاوت في الدلالة على كمال القدرة فتدبر.

ونصب ﴿ذرواً﴾ على أنه مفعول مطلق، و ﴿وقراً﴾ على أنه مفعول به، وجوز الإمام أن يكون من باب ضربته سوطاً، و ﴿يسراً﴾ على أنه صفة مصدر محذوف بتقدير مضاف أي جرياً ذا يسر، أو على أنه حال أي ميسرة كما نقل عن سيبويه، و ﴿أمراً﴾ على أنه مفعول به وهو واحد الأمور، وقد أريد به الجمع ولم يعبر به لأن الفرد أنسب برؤوس الآي مع ظهور الأمر، وقيل على أنه حال أي مأمورة، والمفعول به محذوف أو الوصف منزل منزلة اللازم أي تفعل التقسيم مأمورة، وقرأ أبو عمرو وحمزة ﴿والذاريات ذرواً﴾ بادغام التاء في الذال، وقرىء «وَقْراً» بفتح الواو على أنه مصدر وقره إذا حمله ـ كما أفاده كلام الزمخشري ـ وناهيك به إماماً في اللغة، وعلى هذا هو منصوب على أنه مفعول به أيضا على تسمية المحمول بالمصدر أو على أنه مفعول مطلق ـ لحاملات ـ من معناها كأنه قيل: فالحاملات حملاً. وقوله تعالى شأنه: ﴿إِنَّما تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ * وَإِنَّ الدِّينَ لواقعٌ﴾ جواب للقسم، و ﴿ما﴾ موصولة والعائد محذوف أي إن الذي توعدونه، أو توعدون به، ويحتمل أن تكون مصدرية أي إن وعدكم، أو وعيدكم إذ توعدون يحتمل أن يكون مضارع وعد، وأن يكون مضارع أوعد، ولعل الثاني أنسب لقوله تعالى: ﴿فذكر بالقرآن من يخاف وعيد﴾ [ق: ٤٥] ولأن المقصود التخويف والتهويل، وعن مجاهد أن الآية في الكفار وهو يؤيد الوعيد ومعنى صدقة تحقق وقوعه، وفي الكشاف وعد صادق ـ ك ﴿عيشة راضية﴾ [الحاقة: ٢١] ـ و ﴿الدّين﴾ الجزاء ووقوعه حصوله، والأكثرون على أن الموعود هو البعث، وفي تخصيص المذكورات بالإقسام بها رمز إلى شهادتها بتحقق الجملة المقسم عليها من حيث إنها أمور بديعة فمن قدر عليها فهو قادر على تحقيق البعث الموعود ﴿وَالسَّماء ذَات ٱلْحُبُك﴾ أي الطرق جمع حبيكة كطريقة، أو حباك كمثال ومثل، ويقال: حبك الماء للتكسر الجاري فيه إذ مرت عليه الريح، وعليه قول زهير يصف غديراً:

مكلل بأصول النجم تنسجه ... ريح خريق لضاحي مائه حبك(١)

وحبك الشعر لآثار تثنية وتكسره، وتفسيرها بذلك مروي عن مقاتل والكلبي والضحاك، والمراد بها إما الطرق المحسوسة التي تسير فيها الكواكب، أو المعقولة التي تدرك بالبصيرة وهي ما تدل على وحدة الصانع وقدرته وعلمه وحكمته جل شأنه إذا تأملها الناظر، وقال ابن عباس وقتادة وعكرمة ومجاهد والربيع: ذات الخلق المستوي الجيد، وفي رواية أخرى عن مجاهد المتقنة البنيان، وقيل: ذات الصفاقة وهي أقوال متقاربة وكأن الحبك عليها من قولهم: حبكت الشيء أحكمته وأحسنت عمله وحبكت العقدة أوثقتها، وفرس محبوك المعاقم ـ وهي المفاصل ـ أي محكمها، وفي الكشف أصل الحباكة الصفاقة وجودة الأثر، وعن الحسن ـ حبكها ـ نجومها، والظاهر أن إطلاق الحبك على النجوم مجاز لأنها تزين السماء كما يزين الثوب الموشى حبكه وطرائق وشيه فكأنه قيل: ذات النجوم التي هي كالحبك أي الطرائق في التزيين، واستظهر في السماء أنه جنس أريد به جميع السماوات وكون كل واحدة

---

(١) قوله: «مكلل» مجرور على الوصف في قوله: قبله ثم استعانت ـ ماء مكلل ـ ذلك الماء بأصول النبات وصارت حوله كالإكليل، «والخريق» الريح الباردة الشديدة الهبوب و «الضاحي» الظاهر، و «حبك الماء طرائقة». اهـ.

منها ذات حبك بمعنى مستوية الخلق جيدته، أو متقنة البنيان أو صفيقة، أو ذات طرق معقولة ظاهر، وأما كون كل منها كذلك بمعنى ذات طرق محسوسة فباعتبار أن الكواكب في أي سماء كانت تسير مسامتة لسائر السماوات، فممراتها باعتبار المسامتة طرق، وبمعنى ذات النجوم فباعتبار أن النجوم في أي سماء كانت تشاهد في سائر السماوات بناءً على أن السماوات شفافة لا يحجب كل منها إدراك ما وراءه، وأخرج ابن منيع عن علي كرم الله تعالى وجهه أنه قال: هي السماء السابعة، وعن عبد الله بن عمرو مثله فتدبر ولا تغفل.

وقرأ ابن عباس والحسن بخلاف عنه وأبو ممالك الغفاري وأبو حيوة وابن أبي عبلة وأبو السمال ونعيم عن أبي عمرو «الحُبْك» بإسكان الباء على زنة القفل، وعكرمة بفتحها جمع حبكة مثل طرفة وطرف وبرقة[1] وبرق، وأبو مالك الغفاري والحسن بخلاف عنه أيضا بكسر الحاء والباء ـ كالإبل ـ وهو على ما ذكر الخفاجي اسم مفرد ورد على هذا الوزن شذوذاً وليس جمعاً، وأبو مالك والحسن وأبو حيوة أيضا بكسر الحاء وإسكان الباء ـ كالسلك ـ وهو تخفيف فعل مكسور الفاء والعين وهو اسم مفرد لا جمع لأن فعلا ليس من أبنية الجموع ـ قاله في البحر ـ وابن عباس وأبو مالك أيضاً بفتحهما ـ كالجبل ـ قال أبو الفضل الرازي: فهو جمع حبكة مثل عقبة وعقب، والحسن أيضاً بكسر الحاء وفتح الباء كالنعم، وأبو مالك أيضاً بكسر الحاء وضم الباء وذكرها ابن عطية عن الحسن أيضا ثم قال: هي قراءة شاذة غير متوجهة وكأنه بعد أن كسر الحاء توهم قراءة الجمهور فضم التاء[2] وهذا من تداخل اللغات وليس في كلام العرب هذا البناء أي لأن فيه الانتقال من خفة إلى ثقل على عكس ضرب مبنياً للمفعول، وقال صاحب اللوامح: هو عديم النظير في العربية في أبنيتها وأوزانها ولا أدري ما وراءه انتهى.

وعلى التداخل تأول النحاة هذه القراءة، وقال أبو حيان: الأحسن عندي أن يكون ذلك مما أتبع فيه حركة الحياء لحركة تاء ﴿ذات﴾ في الكسر ولم يعتد باللام الساكنة لأن الساكن حاجز غير حصين.

﴿إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ﴾ أي متخالف متناقض في أمر الله عز وجل حيث تقولون: إنه جل شأنه خالق السماوات والأرض وتقولون بصحة عبادة الأصنام معه سبحانه، وفي أمر الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم فتقولون تارة: إنه مجنون، وأخرى: إنه ساحر ولا يكون الساحر إلا عاقلاً، وفي أمر الحشر فتقولون: تارة لا حشر ولا حياة بعد الموت أصلاً، وتزعمون أخرى أن أصنامكم شفعاؤكم عند الله تعالى يوم القيامة إلى غير ذلك من الأقوال المتخالفة فيما كلفوا بالإيمان به، واقتصر بعضهم على كون القول المختلف في أمره صلى الله تعالى عليه وسلم، والجملة جواب القسم ولعل النكتة في ذلك القسم تشبيه أقوالهم في اختلافها وتنافي أغراضها بطرائق السماوات في تباعدها واختلاف هيئاتها، أو الإشارة إلى أنها ليست مستوية جيدة، أو ليست قوية محكمة، أو ليس فيها ما يزينها بل فيها ما يشينها من التناقض ﴿يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ﴾ أي يصرف عن الإيمان بما كلفوا الايمان به لدلالة الكلام السابق عليه، وقال الحسن وقتادة: عن الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم، وقال غير واحد: عن القرآن، والكلام السابق مشعر بكل من صرف الصرف الذي لا أشد منه وأعظم، ووجه المبالغة من إسناد الفعل إلى من وصف به فلولا غرض المبالغة لكان من توضيح الواضح فكأنه أثبت للمصروف صرف آخر حيث قيل: ﴿يصرف عنه﴾ [الأنعام: ١٦] المصروف فجاءت المبالغة من المضاعفة ثم الاطلاق في المقام الخطابي له مدخل في تقوية أمر المضاعفة وكذلك الإبهام الذي

(١) هي أرض ذات حجارة.

(٢) هكذا بالتاء الفوقية والظاهر أنها بالباء الموحدة.

في الموصول، وهو قريب من قوله تعالى: ﴿فغشيهم من اليم ما غشيهم﴾ [طه: ٧٨] وقيل: المراد ﴿يصرف عنه﴾ في الوجود الخارجي من ﴿صرف عنه﴾ [يوسف: ٣٤] في علم الله تعالى وقضائه سبحانه، وتعقب بأنه ليس فيه كثير فائدة لأن كل ما هو كائن معلوم أنه ثابت في سابق علمه تعالى الأزلي وليس فيه المبالغة السابقة، وأجيب عن الأول بأن فيه الإشارة إلى أن الحجة البالغة لله عز وجل في صرفه وكفى بذلك فائدة وهو مبني أن العلم تابع للمعلوم فافهمه، وحكى الزهراوي أنه يجوز أن يكون الضمير لـ ﴿ما توعدون﴾ أو ـ للدين ـ أقسم سبحانه ـ بالذاريات ـ على أن وقوع أمر القيامة حق ثم أقسم بالسماء على أنهم في ﴿قول مختلف﴾ في وقوعه، فمنهم شاك، ومنهم جاحد ثم قال جل وعلا: ﴿يؤفك﴾ عن الاقرار بأمر القيامة من هو المأفوك، وذكر ذلك الزمخشري ولم يعزه، وادعى صاحب الكشف أنه أوجه لتلاؤم الكلام، وقيل: يجوز أن يكون الضمير ـ لقول مختلف ـ وعن ـ للتعليل كما في قوله تعالى: ﴿وما نحن بتاركي آلهتنا عن قولك﴾ [هود: ٥٣] وقوله:

ينهون عن أكل وعن شرب ... مثل المها يرتعن في خصب[١]

أي يصرف بسبب ذلك القول المختلف من أراد الإسلام، وقال الزمخشري: حقيقة يصدر إفكهم عن القول المختلف، وهذا محتمل لبقاء ـ عن ـ على أصلها من المجاوزة واعتبار التضمين، وفيه ارتكاب خلاف الظاهر من غير داع مع ذهاب تلك المبالغة، وجوز ابن عطية رجوع الضمير إلى القول إلا أنه قال: المعنى يصرف عن ذلك القول المختلف بتوفيق الله تعالى للإسلام من غلبت سعادته، وتعقبه بأن فيه مخالفة للعرف فإن عرف الاستعمال في الإفك الصرف من خير إلى شر فلذلك لا تجده إلا في المذمومين، ثم إن ذلك على كون الخطاب في أنكم للكفار ـ وهو الذي ذهب إليه ابن زيد وغيره ـ واستظهر أبو حيان كونه عاماً للمسلم والكافر، واستظهر العموم فيما سبق أيضا، والقول المختلف حينئذ قول المسلمين بصدق الرسول عليه الصلاة والسلام، وقول الكفار بنقيض ذلك، وقرأ ابن جبير وقتادة «مَنْ أَفَكَ» مبنياً للفاعل أي من أفك الناس عنه وهم قريش، وقرأ زيد بن علي ـ يأفك عنه من أفك ـ أي يصرف الناس عنه من هو أفاك كذاب، وقرىء «يُؤْفَنُ عَنْهُ مَنْ أَفِنَ» بالنون فيهما أي يحرمه من حرم من أفن الضرع إذا أنهكه حلباً ﴿قُتِلَ ٱلخرّاصُونَ﴾ أي الكذابون من أصحاب القول المختلف، وأصل الخرص الظن والتخمين ثم تجوز به عن الكذب لأنه في الغالب يكون منشأ له، وقال الراغب: حقيقة ذلك أن كل قول مقول عن ظن وتخمين يقال له: خرص سواء كان مطابقاً للشيء أو مخالفاً له من حيث إن صاحبه لم يقله عن علم ولا غلبة ظن ولا سماع بل اعتمد فيه على الظن والتخمين كفعل خارص الثمرة في خرصه، وكل من قال قولاً على هذا النحو قد يسمى كاذباً وإن كان قوله مطابقاً للمقول المخبر به كما في قوله تعالى: ﴿إذا جاءك المنافقون﴾ [المنافقون: ١] الآية انتهى.

وفيه بحث وحقيقة ـ القتل ـ معروفة، والمراد ـ بقتل ـ الدعاء عليهم مع قطع النظر عن المعنى الحقيقي. وعن ابن عباس تفسيره باللعن قال ابن الأنباري: وإنما كان القتل بمعنى اللعن هنا لأن من لعنه الله تعالى بمنزلة المقتول الهالك، وقرىء «قَتَلَ الخراصين» أي قتل الله الخراصين ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ﴾ في جهل عظيم يغمرهم ويشملهم شمول الماء الغامر لما فيه ﴿سَاهُونَ﴾ غافلون عما أمروا به، فالمراد بالسهو مطلق الغفلة.

---

(١) يصف الشاعر مضيافاً يصدر الاضياف عنه شباعاً بتباهون في السمن بسبب الأكل والشرب وقالوا جمل ناه اذا كان عريقاً في السمن اهـ.

﴿يُسْأَلُونَ﴾ أي بطريق الاستعجال استهزاءً ﴿أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّين﴾ معمول ليسألون على أنه جار مجرى يقولون لما فيه من معنى القول، أو لقول مقدر ـ أي فيقولون متى وقوع يوم الجزاء ـ وقدر الوقوع ليكون السؤال عن الحدث كما هو المعروف في ﴿أيان﴾ ولا ضير في جعل الزمان زمانياً فإن اليوم لما جعل موعوداً ومنتظراً في نحو قوله تعالى: ﴿فارتقب يوم تأتي السماء﴾ [الدخان: ١٠] صار ملحقاً بالزمانيات وكذلك ـ كل يوم له شأن مثل يوم العيد. والنيروز ـ وهذا جار في عرفي العرب والعجم على أنه يجوز عند الأشاعرة أن يكون للزمان زمان على ما فصل في مكانه، وقرىء «إيان» بكسر الهمزة وهي لغة ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَىٰ ٱلنَّار يُفْتَنُونَ﴾ أي يحرقون، وأصل الفتن إذابة الجوهر ليظهر غشه ثم استعمل في الإحراق والتعذيب ونحو ذلك، و ﴿يوم﴾ نصب على الظرفية لمحذوف دل عليه وقوع الكلام جواباً للسؤال مضاف للجملة الاسمية بعده ـ أي يقع يوم الدين يوم هم على النار ـ الخ، وقال الزجاج: ظرف لمحذوف وقع خبراً لمبتدأ كذلك أي هو واقع، أو كائن يوم الخ، وجوز أن يكون هو نفسه خبر مبتدأ محذوف، والفتحة فتحة بناء لإضافته إلى غير، وهي الجملة الاسمية فإن الجمل بحسب الاصل كذلك على كلام فيه بين البصريين والكوفيين مفصل في شرح التسهيل ـ أي هو يوم هم ـ الخ، والضمير قيل: راجع إلى وقت الوقوع فيكون هذا الكلام قائماً مقام الجواب على نحو ـ سيقولون لله ـ في جواب ﴿من رب السماوات والأرض﴾ [الرعد: ١٦] لأن تقدير السؤال في أي وقت يقع، وجوابه الأصلي في يوم كذا، وإذا قلت: وقت وقوعه يوم كذا كان قائماً مقامه. ويجوز أن يكون الضمير لليوم والكلام جواب بحسب المعنى، فالتقدير يوم الجزاء ـ يوم تعذيب الكفار ـ ويؤيد ـ كونه مرفوع المحل خبراً لمبتدأ محذوف ـ قراءة ابن أبي عبلة. والزعفراني «يوم هم» بالرفع، وزعم بعض النحاة أن ـ يوم ـ بدل من ﴿يوم الدين﴾ وفتحته على قراءة الجمهور فتحة بناء، و ﴿يوم﴾ وما في حيزه من جملة كلام السائلين قالوه استهزاءً، وحكي على المعنى، ولو حكي على اللفظ لقيل: يوم نحن على النار نفتن، وهو في غاية البعد كما لا يخفى، وقوله تعالى: ﴿ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ﴾ بتقدير قول وقع حالاً من ضمير ﴿يفتنون﴾ أي مقولاً لهم ﴿ذوقوا فتنتكم﴾ أي عذابكم المعدّ لكم، وقد يسمى ما يحصل عنه العذاب ـ كالكفر ـ فتنة، وجوز أن يكون منه ما هنا كأنه قيل: ذوقوا كفركم ـ أي جزاء كفركم ـ أو بجعل الكفر نفس العذاب مجازاً وهو كما ترى ﴿هَذَا ٱلَّذِي كُنتُم به تَسْتَعْجلونَ﴾ جملة من مبتدأ وخبر داخلة تحت القول المضمر ـ أي هذا العذاب الذي كنتم تستعجلون به بطريق الاستهزاء ـ وجوز أن يكون هذا بدلاً من ﴿فتنتكم﴾ بتأويل العذاب، وفيه بعد ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّات وَعُيُون﴾ لا يبلغ كنهها ولا يقادر قدرها ﴿آخذينَ مَا آتاهُمْ رَبُّهُمْ﴾ أي قابلين لكل ما أعطاهم عز وجل راضين به على معنى إن كل ما آتاهم حسن مرضي يتلقى بحسن القبول، والعموم مأخوذ من شيوع ما وإطلاقه في معرض المدح وإظهار مَنّهِ تعالى عليهم، واعتبار الرضا لأن الأخذ قبول عن قصد، ونصب ﴿آخذين﴾ على الحال من الضمير في الصرف ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلكَ﴾ في الدنيا ﴿مُحسنينَ﴾ أي لأعمالهم الصالحة آتين بها على ما ينبغي فلذلك استحقوا ما استحقوا من الفوز العظيم، وفسر إحسانهم بقوله تعالى ﴿كَانُوا قَليلاً مِّنَ ٱللَّيْل مَايَهْجَعُونَ﴾ الخ على أن الجملة في محل رفع بدل من قوله تعالى: ﴿كانوا قبل ذلك محسنين﴾ حصل بها تفسير، أو أنها جملة لا محل لها من الإعراب مفسرة كسائر الجمل التفسيرية، وأخرج الفريابي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه قال في الآية: ﴿آخذين ما آتاهم ربهم﴾ من الفرائض ﴿إنهم كانوا قبل ذلك محسنين﴾ أي كانوا قبل تنزل الفرائض يعملون، ولا أظن صحة نسبته لذلك الخبر، ولا يكاد تجعل جملة ﴿كانوا﴾ الخ عليه تفسيراً إذا صح ما نقل عنه في تفسيرها، وسيأتي إن شاء الله تعالى.

و ـ الهجوع ـ النوم، وقيده الراغب بقوله: ليلاً، وغيره بالقليل، و ﴿ما﴾ إما مزيدة ـ فقليلاً ـ معمول الفعل صفة لمصدر محذوف أي ـ هجوعاً قليلاً ـ و ﴿من الليل﴾ صفة، أو لغو متعلق ـ بيهجعون ـ و ﴿من﴾ للابتداء، وجملة ﴿يهجعون﴾ خبر ـ كان ـ أو ﴿قليلاً﴾ صفة لظرف محذوف ـ أي زماناً قليلاً ـ و ﴿من الليل﴾ صفة على نحو ـ قليل من المال عندي ـ وإما موصولة عائدها محذوف فهي فاعل ﴿قليلاً﴾ وهو خبر ـ كان ـ و ﴿من الليل﴾ حال من الموصول مقدم كأنه قيل: كانوا قد قل المقدار الذي يهجعون فيه كائناً ذلك المقدار ﴿من الليل﴾ وإما مصدرية فالمصدر فاعل ﴿قليلاً﴾ وهو خبر كان أيضاً، و ﴿من الليل﴾ بيان لا متعلق بما بعده لأن معمول المصدر لا يتقدم، أو حال من المصدر، و ﴿من﴾ الابتداء كذا في الكشف فهما من الكشاف، وذهب بعضهم إلى أن ﴿من﴾ على زيادة ـ ما ـ بمعنى في كما في قوله تعالى: ﴿إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة﴾ [الجمعة: ٩] واعترض ابن المنير احتمال مصدريتها بأنه لا يجوز في ﴿من الليل﴾ كونه صفة، أو بياناً ـ للقليل ـ لأنه فيه واقع على الهجوع ولا صلة المصدر لتقدمه، وأجيب بأنه بيان للزمان المبهم؛ وحكى الطيبي أنه إما منصوب على التبيين أو متعلق بفعل يفسره ﴿يهجعون﴾ وجوز أن يكون ﴿ما يهجعون﴾ على ذلك الاحتمال بدلاً من اسم كان فكأنه قيل: كان هجوعهم قليلاً وهو بعيد، وجوز في ﴿ما﴾ أن تكون نافية، و ﴿قليلاً﴾ منصوب ـ بيهجعون ـ والمعنى ـ كانوا لا يهجعون من الليل قليلاً ويُحيونه كله ـ ورواه ابن أبي شيبة وأبو نصر عن مجاهد، ورده الزمخشري بأن ﴿ما﴾ النافية لا يعمل ما بعدها فيما قبلها لأن لها صدر الكلام وليس فيها التصرف الذي في أخواتها كلا فإنها قد تكون كجزء مما دخلت عليه نحو ـ عوتب بلا جرم ـ ولم ولن ـ لاختصاصهما بالفعل كالجزء منه، وأنت تعلم أن منع العمل هو مذهب البصريين، وفي شرح الهادي أن بعض النحاة أجازه مطلقاً، وبعضهم أجازه في الظرف خاصة للتوسع فيه، واستدل عليه بقوله:

ونـحـن عـن فـضـلـك مـا اسـتـغـنـينا

نعم يرد على ذلك أن فيه كما في الانتصاف خللاً من حيث المعنى فإن طلب قيام الليل غير مستثنى منه جزء للهجوع وإن قيل غير ثابت في الشرع ولا معهود اللهم إلا أن يدعي أن من ذهب إلى ذلك يقول: بأنه كان ثابتاً في الشرع، فقد أخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر عن عطاء أنه قال في الآية: كان ذلك إذ أمروا بقيام الليل كله فكان أبو ذر يعتمد على العصا فمكثوا شهرين ثم نزلت الرخصة ﴿فاقرؤوا ما تيسر منه﴾ [المزمل: ٢٠] وقال الضحاك: ﴿كانوا قليلاً﴾ في عددهم، وتم الكلام عند ﴿قليلاً﴾ ثم ابتدأ ﴿من الليل ما يهجعون﴾ على أن ﴿ما﴾ نافية؛ وفيه ما تقدم مع زيادة تفكيك الكلام، ولعل أظهر الأوجه زيادة ﴿ما﴾ ونصب ﴿قليلاً﴾ على الظرفية، و ﴿من الليل﴾ صفة قيل: وفي الكلام مبالغات لفظ الهجوع بناءً على أنه القليل من النوم، وقوله تعالى: ﴿قليلاً﴾ و ﴿من الليل﴾ لأن الليل وقت السبات والراحة وزيادة ﴿ما﴾ لأنها تؤكد مضمون الجملة فتؤكد القلة وتحققها باعتبار كونها قيداً فيها.

والغرض من الآية أنهم يكابدون العبادة في أوقات الراحة وسكون النفس ولا يستريحون من مشاق النهار إلا قليلاً، قال الحسن: كابدوا قيام الليل لا ينامون منه إلا قليلاً، وعن عبد الله بن رواحة هجعوا قليلا ثم قاموا، وفسر أنس ابن مالك الآية ـ كما رواه جماعة عنه وصححه الحاكم ـ فقال: كانوا يصلون بين المغرب والعشاء وهي لا تدل على الاقتصار على ذلك.

وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾ وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾

﴿**وَبِالأَسْحارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ**﴾ أي هم مع قلة هجوعهم وكثرة تهجدهم يداومون على الاستغفار في الأسحار كأنهم أسلفوا في ليلهم الجرائم ولم يتفرغوا فيه للعبادة، وفي بناء الفعل على الضمير إشعار بأنهم الاحقاء بأن يوصفوا بالاستغفار كأنهم المختصون به لاستدامتهم له وإطنابهم فيه.

وفي الآية من الإشارة إلى مزيد خشيتهم وعدم اغترارهم بعبادتهم ما لا يخفى، وحمل الاستغفار على حقيقته المشهورة هو الظاهر ـ وبه قال الحسن ـ.

أخرج عنه ابن جرير وغيره أنه قال: صلوا فلما كان السحر استغفروا، وقيل: المراد طلبهم المغفرة بالصلاة، وعليه ما أخرج ابن المنذر وجماعة عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما أنه قال: ﴿**يستغفرون**﴾ يصلون، وأخرج ابن مردويه عنه ذلك مرفوعاً ولا أراه يصح، وأخرج أيضاً عن أنس قال: «قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم: إن آخر الليل في التهجد أحب إلي من أوله لأن الله تعالى يقول: ﴿**وبالأسحار هم يستغفرون**﴾» وهو محتمل لذلك التفسير والظاهر ﴿**وَفي أَمْوالِهِمْ حَقٌّ**﴾ أي نصيب وافر يستوجبونه على أنفسهم تقرباً إلى الله عز وجل وإشفاقاً على الناس فهو غير الزكاة كما قال ابن عباس ومجاهد وغيرهما. ﴿**لِّلسَّائِلِ**﴾ الطالب منهم ﴿**وَٱلْمَحْرُوم**﴾ وهو المتعفف الذي يحسبه الجاهل غنياً فيحرم الصدقة من أكثر الناس.

أخرج ابن جرير وابن حبان وابن مردويه عن أبي هريرة قال: «قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم: ليس المسكين الذي ترده التمرة والتمرتان والأكلة والأكلتان قيل: فمن المسكين؟ قال: الذي ليس له ما يغنيه ولا يعلم مكانه فيتصدق عليه فذلك المحروم» وفسره ابن عباس بالمحارف الذي يطلب الدنيا وتدبر عنه ولا يسأل الناس، وقيل: هو الذي يبعد منه ممكنات الرزق بعد قربها منه فيناله الحرمان، وقال زيد بن أسلم: هو الذي اجتيحت ثمرته، وقيل: من ماتت ماشيته، وقيل: من ليس له سهم في الإسلام، وقيل: الذي لا ينمو له مال، وقيل: غير ذلك ـ قال في البحر: وكل ذلك على سبيل التمثيل ويجمع الأقوال أنه الذي لا مال له لحرمان أصابه ـ وأنا بقول رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أقول ـ وقال منذر بن سعيد هذا الحق هو الزكاة المفروضة، وتعقب بأن السورة مكية وفرض الزكاة بالمدينة، وقيل: أصل فريضة الزكاة كان بمكة والذي كان بالمدينة القدر المعروف اليوم، وعن ابن عمر أن رجلاً سأله عن هذا الحق فقال الزكاة وسوى ذلك حقوق فعمم، والجمهور على الأول.

﴿**وَفي ٱلأَرْضِ آياتٌ**﴾ دلائل من أنواع المعادن والنباتات والحيوانات، أو وجوه دلالات من الدحو وارتفاع بعضها عن الماء، واختلاف أجزائها في الكيفيات والخواص، فالدليل على الأول ما في الأرض من الموجودات والظرفية حقيقية والجمع على ظاهره، وعلى الثاني الدليل نفس الأرض، والجمعية باعتبار وجوه الدلالة وأحوالها، والظرفية من ظرفية الصفة في الموصوف والدلالة على وجود الصانع جل شأنه وعلمه وقدرته وإرادته ووحدته وفرط

رحمته عز وجل ﴿لِّلْمُوقِنِينَ﴾ للموحدين الذين سلكوا الطريق السوي البرهاني الموصل إلى المعرفة فهم نظارون بعيون باصرة وأفهام نافذة، وقرأ قتادة ـ آية ـ بالإفراد ﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ﴾ أي في ذواتكم آيات إذ ليس في العالم شيء إلا وفي ذات الإنسان له نظير يدل مثل دلالته على ما انفرد به من الهيئات النافعة والمناظر البهية والتركيبات العجيبة والتمكن من الأفعال البديعة واستنباط الصنائع المختلفة واستجماع الكمالات المتنوعة، وآيات الأنفس أكثر من أن تحصى، وقيل: أريد بذلك اختلاف الألسنة والصور والألوان والطبائع، ورواه عطاء عن ابن عباس، وقيل: سبيل الطعام وسبيل الشراب والحق أن لا حصر ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ أي ألا تنظرون فلا تبصرون بعين البصيرة، وهو تعنيف على ترك النظر في الآيات الأرضية والنفسية، وقيل: في الأخير ﴿وَفِي ٱلسَّماء رِزْقُكُمْ﴾ أي تقديره وتعيينه، أو أسباب رزقكم من النيرين والكواكب والمطالع والمغارب التي تختلف بها الفصول التي هي مبادىء الرزق إلى غير ذلك، فالكلام على تقدير مضاف أو التجوز بجعل وجود الأسباب فيها كوجود المسبّب، وذهب غير واحد إلى أن السماء السحاب وهو سماء لغة، والمراد بالرزق المطر فإنه سبب الأقوات وروي تفسيره بذلك مرفوعاً وقرأ ابن محيصن ـ أرزاقكم ـ على الجمع.

﴿وَمَا تُوعَدُونَ﴾ عطف على رزقكم أي والذي توعدونه من خير وشر كما روي عن مجاهد، وفي رواية أخرى عنه وعن الضحاك ـ ماتوعدون ـ الجنة والنار وهو ظاهر في أن النار في السماء وفيه خلاف، وقال بعضهم: هو الجنة وهي على ظهر السماء السابعة تحت العرش، وقيل: أمر الساعة، وقيل: الثواب والعقاب فإنهما مقدران معينان فيها، وقيل: إنه مستأنف خبره.

﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّماء وَٱلأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ﴾ على أن ضمير ﴿إنه﴾ ﴿لما﴾ وعلى ما تقدم، فإما له أو للرزق، أو لله تعالى، أو للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم، أو للقرآن، أو للدين في ﴿إن الدين لواقع﴾ [الذاريات: ٦] أو لليوم المذكور في ﴿أيان يوم الدين﴾ [الذاريات: ١٢] أو لجميع المذكور أما ما أقوال، واستظهر أبو حيان الأخير منها وهو مروي عن ابن جرير أي إن جميع ما ذكرناه من أول السورة إلى هنا لحق ﴿مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾ أي مثل نطقكم كما أنه لا شك لكم في أنكم تنطقون ينبغي أن لا تشكوا في حقية ذلك وهذا كقول الناس: إن هذا لحق كما أنك ترى وتسمع، ونصب ﴿مثل﴾ على الحالية من المستكن في ﴿لَحَقٌّ﴾ وهو لا يتعرف بالإضافة لتوغله في التنكير، أو على الوصف لمصدر محذوف أي إنه حق حقاً مثل نطقكم، وقيل: إنه مبني على الفتح فقال المازني: لتركبه مع ﴿ما﴾ حتى صارا شيئاً واحداً نحو ـ ويحما ـ وأنشدوا لبناء الاسم معها قول الشاعر:

أثور ما أصيدكم أو ثورين ... أم هذه الجماء ذات القرنين

وقال غيره: لإضافته إلى غير متمكن وهو ﴿ما﴾ إن كانت نكرة موصوفة بمعنى شيء، أو موصولة بمعنى الذي و ﴿أنكم﴾ الخ خبر مبتدأ محذوف أي هو ﴿أنكم﴾ الخ، والجملة صفة، أو صلة، أو هو أن بما في حيزها إن جعلت ﴿ما﴾ زائدة، وهو نص الخليل ومحله على البناء الرفع على أنه صفة ﴿لحق﴾ أو خبر ثان ويؤيده قراءة حمزة والكسائي وأبي بكر والحسن وابن أبي إسحاق والأعمش بخلاف عن ثلاثتهم ﴿مثل﴾ بالرفع، وفي البحر أن الكوفيين يجعلون ـ مثلا ـ ظرفاً فينصبونه على الظرفية ويجيزون زيد مثلك بالنصب، وعليه يجوز أن يكون في قراءة الجمهور منصوباً على الظرفية ـ واستدلالهم، والرد عليهم مذكور على النحو ـ وفي الآية من تأكيد حقية المذكور ما لا يخفى، وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن الحسن أنه قال فيها: بلغني أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال: «قاتل الله قوماً أقسم لهم ربهم ثم لم يصدقوا» وعن الأصمعي أقبلت من جامع البصرة فطلع أعرابي على قعود فقال: ممن

الرجل؟ قلت: من بني أصمع قال: من أين أقبلت: من موضع يتلى فيه كلام الرحمن قال: اتل علي فتلوت ﴿والذاريات﴾ فلما بلغت ﴿وفي السماء رزقكم﴾ قال: حسبك فقام إلى ناقته فنحرها ووزعها وعمد إلى سيفه وقوسه فكسرهما وولى فلما حججت مع الرشيد طفقت أطوف فإذا أنا بمن يهتف بي بصوت رقيق فالتفت فإذا بالأعرابي قد نحل واصفر فسلم علي واستقرأ السورة فلما بلغت الآية صاح وقال: قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً ثم قال: وهل غير هذا؟ فقرأت ﴿فورب السماء والأرض إنه لحق﴾ فصاح وقال: يا سبحان الله من ذا أغضب الجليل حتى حلف لم يصدقوه بقوله حتى ألجأوه إلى اليمين قالها ثلاثاً وخرجت معها نفسه.

﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ﴾ فيه تفخيم لشأن الحديث وتنبيه على أنه ليس مما علمه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بغير طريق الوحي قاله غير واحد، وفي الكشف فيه رمز إلى أنه لما فرغ من إثبات الجزاء لفظاً للقسم ومعنى بما في المقسم به من التلويح إلى القدرة البالغة مديحاً فيه صدق المبلغ، وقضى الوطر من تفصيله مهّد لإثبات النبوة وأن هذا الآتي الصادق حقيق بالإتباع لما معه من المعجزات الباهرة فقال سبحانه: ﴿هل أتاك﴾ الخ، وضمن فيه تسليته عليه الصلاة والسلام بتكذيب قومه فله بسائر آبائه وإخوانه من الأنبياء عليهم السلام أسوة حسنة هذا إذا لم يجعل قوله تعالى: ﴿وفي موسى﴾ عطفاً على قوله سبحانه ﴿وفي الأرض آيات﴾ وأما على ذلك التقدير فوجهه أن يكون قصة الخليل ولوط عليهما السلام معترضة للتسلي بإبعاد مكذبيه وأنه مرحوم منجى مكرم بالاصطفاء مثل أبيه إبراهيم صلوات الله تعالى وسلامه عليه وعليهم ـ والترجيح مع الأول انتهى ـ وسيأتي إن شاء الله تعالى ما سيتعلق بقوله سبحانه: ﴿وفي موسى﴾، و ﴿الضيف﴾ في الأصل مصدر بمعنى الميل ولذلك يطلق على الواحد والمتعدد، قيل: كانوا اثني عشر ملكاً، وقيل: ثلاثة جبرائيل وميكائيل وإسرافيل عليهم السلام وسموا ضيفاً لأنهم كانوا في صورة الضيف ولأن إبراهيم عليه السلام حسبهم كذلك، فالتسمية على مقتضى الظاهر والحسبان، وبدأ بقصة إبراهيم وإن كانت متأخرة عن قصة عاد لأنها أقوى في غرض التسلية ﴿ٱلْمُكْرَمِينَ﴾ أي عند الله عز وجل كما قال الحسن فهو كقوله تعالى في الملائكة عليهم السلام: ﴿بل عباد مكرمون﴾ [الأنبياء: ٢٦] أو عند إبراهيم عليه السلام إذ خدمهم بنفسه وزوجته وعجل لهم القِرى ورفع مجالسهم كما في بعض الآثار، وقرأ عكرمة «المُكَرَّمِينَ» بالتشديد ﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ﴾ ظرف للحديث لأنه صفة في الأصل، أو للضيف، أو ﴿للمكرمين﴾ إن أريد إكرام إبراهيم لأن إكرام الله تعالى إياهم لا يتقيد، أو منصوب بإضمار اذكر ﴿فَقَالُوا سلاماً﴾ أي نسلم عليك سلاماً، وأوجب في البحر حذف الفعل لأن المصدر سادّ مسدّه فهو من المصادر التي يجب حذف أفعالها، وقال ابن عطية: يتجه أن يعمل في ﴿سلاماً﴾ قالوا: على أن يجعل في معنى قولاً ويكون المعنى حينئذ أنهم قالوا: تحية وقولاً معناه «سلام» ونسب إلى مجاهد وليس بذاك.

﴿قَالَ سلامٌ﴾ أي عليكم سلام عدل به إلى الرفع بالابتداء لقصد الثبات حتى يكون تحيته أحسن من تحيتهم أخذاً بمزيد الأدب والإكرام، وقيل: ﴿سلام﴾ خبر مبتدأ محذوف أي أمري ﴿سلام﴾ وقرئا مرفوعين، وقرىء ـ سلاماً قال سلما ـ بكسر السين وإسكان اللام والنصب، والسلم السلام، وقرأ ابن وثاب والنخعي وابن جبير وطلحة ـ سلاماً قال سلم ـ بالكسر والإسكان والرفع، وجعله في البحر على معنى نحن أو أنتم سلم ﴿قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾ أنكرهم عليه السلام للسلام الذي هو علم الاسلام، أو لأنهم عليهم السلام ليسوا ممن عهدهم من الناس، أو لأن أوضاعهم وأشكالهم خلاف ما عليه الناس، و ﴿قوم﴾ خبر مبتدأ محذوف والأكثر على أن التقدير أنتم قوم منكرون وأنه عليه السلام قاله لهم للتعرف كقولك لمن لقيته: أنا لا أعرفك تريد عرف لي نفسك وصفها، وذهب بعض المحققين إلى

أن الذي يظهر أن التقدير هؤلاء ﴿قوم منكرون﴾ وأنه عليه السلام قاله في نفسه، أو لمن كان معه من أتباعه وغلمانه من غير أن يشعرهم بذلك فإنه الأنسب بحاله عليه السلام لأن في خطاب الضيف بنحو ذلك إيحاشاً ما، وطلبه به أن يعرفوه حالهم لعله لا يزيل ذلك. وأيضاً لو كان مراده ذلك لكشفوا أحوالهم عند القول المذكور ولم يتصد عليه السلام لمقدمات الضيافة.

﴿فَراغَ إلى أَهْله﴾ أي ذهب إليهم على خفية من ضيفه، نقل أبو عبيدة أنه لا يقال: راغ إلا إذا ذهب على خفية، وقال: يقال روغ اللقمة إذا غمسها في السمن حتى تروى، قال ابن المنير: وهو من هذا المعنى لأنها تذهب مغموسة في السمن حتى تخفى، ومن مقلوب الروغ غور الأرض والجرح لخفائه وسائر مقلوباته قريبة من هذا المعنى، وقال الراغب: الروغ الميل على سبيل الاحتيال، ومنه راغ الثعلب، وراغ فلان إلى فلان مال نحوه لأمر يريده منه بالاحتيال، ويعلم منه أن لاعتبار قيد الخفية وجهاً وهو أمر يقتضيه المقام أيضاً لأن من يذهب إلى أهله لتدارك الطعام يذهب كذلك غالباً، وتشعر الفاء بأنه عليه السلام يبادر بالذهاب ولم يمهل وقد ذكروا أن من أدب المضيف أن يبادر بالقِرى من غير أن يشعر به الضيف حذراً من أن يمنعه الضيف، أو يصير منتظراً ﴿فَجَاءَ بعجْل﴾ هو ولد البقرة كأنه سمي بذلك لتصور عجلته التي تعدم منه إذا صار ثوراً ﴿سَمِين﴾ ممتلىء الجسد بالشحم واللحم يقال: سمن ـ كسمع ـ سمانة بالفتح وسمناً ـ كعنب ـ فهو سامن وسمين، وكحسن السمين خلقة كذا في القاموس، وفي البحر يقال: سمن سمناً فهو سمين شذوذاً في المصدر، واسم الفاعل والقياس سمن وسمن، وقالوا: سامن إذا حدث له السمن انتهى، والفاء فصيحة أفصحت عن جمل قد حذفت ثقة بدلالة الحال عليها، وإيذاناً بكمال سرعة المجيء بالطعام أي فذبح عجلاً فحنذه فجاء به، وقال بعضهم إنه كان معداً عنده حنيذاً قبل مجيئهم لمن يرد عليه من الضيوف فلا حاجة إلى تقدير ما ذكر، والمشهور اليوم أن الذبح للضيف إذا ورد أبلغ في إكرامه من الاتيان بما هيء من الطعام قبل وروده، وكان كما روي عن قتادة عامة ماله عليه السلام البقر ولو كان عنده أطيب لحماً منه لأكرمهم به.

﴿فقَرَّبَهُ إلَيْهِمْ﴾ بأن وضعه لديهم، وفيه دليل على أن من إكرام الضيف أن يقدم له أكثر مما يأكل وأن لا يوضع الطعام بموضع ويدعى الضيف إليه ﴿قَالَ ألا تَأْكُلُونَ﴾، قيل: عرض للأكل فإن في ذلك تأنيساً للضيف، وقيل: إنكار لعدم تعرضهم للأكل، وفي بعض الآثار أنهم قالوا: إنا لا نأكل إلا ما أدينا ثمنه فقال عليه السلام: إني لا أبيحه لكم إلا بثمن قالوا: وما هو؟ قال: أن تسموا الله تعالى عند الابتداء وتحمدوه عز وجل عند الفراغ فقال بعضهم لبعض: بحق اتخذه الله تعالى خليلاً ﴿فَأَوْجَسَ منْهُمْ خيفَةً﴾ فأضمر في نفسه منهم خوفاً لما رأى عليه الصلاة والسلام إعراضهم عن طعامه وظن أن ذلك لشر يريدونه فإن أكل الضيف أمنة؛ ودليل على انبساط نفسه وللطعام حرمة وذمام والامتناع منه وحشة موجبة لظن الشر. وعن ابن عباس أنه عليه السلام وقع في نفسه أنهم ملائكة أرسلوا للعذاب فخاف ﴿قَالوا لا تَخَفْ﴾ إنا رسل الله تعالى، عن يحيى بن شداد مسح جبريل عليه السلام العجل بجناحه فقام يدرج حتى لحق بأمه فعرفهم وأمن منهم، وعلى ما روي عن الحبر أن هذا لمجرد تأمينه عليه السلام، وقيل: مع تحقيق أنهم ملائكة وعلمهم بما أضمر في نفسه إما بإطلاع الله تعالى إياهم عليه، أو إطلاع ملائكته الكرام الكاتبين عليه وإخبارهم به، أو بظهور أمارته في وجهه الشريف فاستدلوا بذلك على الباطن ﴿وَبَشَّرُوهُ﴾ وفي سورة [الصافات: ١١٢] ﴿وبشرناه﴾ أي بواسطتهم ﴿بغُلام﴾ هو عند الجمهور إسحاق بن سارة وهو الحق للتنصيص على أنه المبشر به في سورة هود، والقصة واحدة، وقال مجاهد: إسماعيل بن هاجر كما رواه عنه ابن جرير وغيره ولا يكاد يصح ﴿عَليم﴾ عند بلوغه واستوائه، وفيه تبشير بحياته وكانت البشارة بذكر لأنه أسر للنفس وأبهج، ووصفه بالعلم لأنها الصفة التي

يختص بها الإنسان الكامل لا الصورة الجميلة والقوة ونحوهما، وهذا عند غير الأكثرين من أهل هذا الزمان فإن العلم عندهم لا سيما العلم الشرعي رذيلة لا تعادلها رذيلة والجهل فضيلة لا توازنها فضيلة، وفي صيغة المبالغة مع حذف المعمول ما لا يخفى مما يوجب السرور، وعن الحسن ﴿عليم﴾ نبي ووقعت البشارة بعد التأنيس، وفي ذلك إشارة إلى أن درء المفسدة أهم من جلب المصلحة، وذكر بعضهم أن علمه عليه السلام بأنهم ملائكة من حيث بشروه بغيب.

فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ
ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾ ۞ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً
مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ
ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾ وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾ وَفِى مُوسَىٰٓ إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ
مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿٤٠﴾ وَفِى عَادٍ إِذْ
أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾ وَفِى ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا۟
حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾ فَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٤٤﴾ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُوا۟
مُنتَصِرِينَ ﴿٤٥﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٤٦﴾ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْي۟دٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾
وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ فَفِرُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ إِنِّى لَكُم
مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ وَلَا تَجْعَلُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥١﴾ كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم
مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوْا۟ بِهِۦ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾

﴿فَأَقْبَلَت ٱمْرَأَتُهُ﴾ أي سارة لما سمعت بشارتهم إلى بيتها وكانت في زاوية تنظر إليهم، وفي التفسير الكبير إنها كانت في خدمتهم فلما تكلموا مع زوجها بولادتها استحيت وأعرضت عنهم فذكر الله تعالى ذلك بلفظ الاقبال على الأهل دون الإدبار عن الملائكة، وهو إن صح مثله عن نقل وأثر لا يأباه الخطاب الآتي لأنه يقتضي الإقبال دون الإدبار إذ يكفي لصحته أن يكون بمسمع منها وإن كانت مدبرة، نعم في الكلام عليه استعارة ضدية ولا قرينة ها هنا تصححها، وقيل: أقبلت بمعنى أخذت كما تقول أخذ يشتمني ﴿في صَرَّة﴾ في صيحة من الصرير قاله ابن عباس، وقال قتادة وعكرمة: صرتها رنتها، وقيل: قولها أوه، وقيل: يا ويلتي، وقيل: في شدة، وقيل: الصرة الجماعة المنضم بعضهم إلى بعض كأنهم صروا أي جمعوا في وعاء ـ وإلى هذا ذهب ابن بحر ـ قال: أي أقبلت في صرة من نسوة تبادرن نظراً إلى الملائكة عليهم السلام، والجار والمجرور في موضع الحال، أو المفعول به إن فسر ﴿أقبلت﴾ بأخذت قيل: إن ﴿في﴾ عليه زائدة كما في قوله:

يجرح في عراقيبها نصلي

والتقدير أخذت صيحة، وقيل: بل الجار والمجرور في موضع الخبر لأن الفعل حينئذ من أفعال المقاربة ﴿فَصَكَّتْ وَجْهَهَا﴾ قال مجاهد: ضربت بيدها على جبهتها وقالت: يا ويلتاه، وقيل: إنها وجدت حرارة الدم فلطمت

وجهها من الحياء، وقيل: إنها لطمته تعجباً وهو فعل النساء إذا تعجبن من شيء ﴿وَقَالَتْ عَجُوزٌ﴾ أي أنا عجوز ﴿عَقِيمٌ﴾ عاقر فكيف ألد، وعقيم فعيل قيل: بمعنى فاعل أو مفعول وأصل معنى العقم اليبس ﴿قَالُوا كَذَٰلِكَ﴾ أي مثل ذلك القول الكريم الذي أخبرنا به ﴿قَالَ رَبُّكِ﴾ وإنما نحن معبرون نخبرك به عنه عز وجل لا أنا نقوله من تلقاء أنفسنا، وروي أن جبريل عليه السلام قال لها: انظري إلى سقف بيتك فنظرت فإذا جذوعه مورقة مثمرة ﴿إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾ فيكون قوله عز وجل حقاً وفعله سبحانه متقناً لا محالة، وهذه المفاوضة لم تكن مع سارة فقط بل كانت مع إبراهيم أيضاً حسبما تقدم في سورة الحجر، وإنما لم يذكر ها هنا اكتفاءً بما ذكر هناك كما أنه لم يذكر هناك سارة اكتفاءً بما ذكر ـ ها هنا وفي سورة هود ..

﴿قَالَ﴾ أي إبراهيم عليه السلام لما علم أنهم ملائكة أرسلوا لأمر ﴿فَمَا خَطْبُكُمْ﴾ أي شأنكم الخطير الذي لأجله أُرسلتم سوى البشارة ﴿أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾ يعنون قوم لوط عليه السلام ﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ﴾ أي بعد قلب قراهم عاليها سافلها حسبما فصل في سائر السور الكريمة ﴿حِجَارَةً مِّن طِينٍ﴾ أي طين متحجر وهو السجيل؛ وفي تقييد كونها من طين رفع توهم كونها برداً فان بعض الناس يسمي البرد حجارة ﴿مُّسَوَّمَةً﴾ معلمة من السومة وهي العلامة على كل واحدة منها اسم من يهلك بها؛ وقيل: أعلمت بأنها من حجارة العذاب، وقيل: بعلامة تدل على أنها ليست من حجارة الدنيا، وقيل: مسومة مرسلة من أسمت الإبل في المرعى، ومنه قوله تعالى: ﴿ومنه شجر فيه تسيمون﴾ [النحل: ١٠] ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾ أي في محل ظهور قدرته سبحانه وعظمته عز وجل، والمراد أنها معلمة في أول خلقها، وقيل: المعنى أنها في علم الله تعالى معدّة ﴿لِلْمُسْرِفِينَ﴾ المجاوزين الحد في الفجور، و ـ أل ـ عند الإمام للعهد أي لهؤلاء المسرفين، ووضع الظاهر. موضع الضمير ذمّاً لهم بالإسراف بعد ذمّهم بالإجرام، وإشارة إلى علة الحكم، وقوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا﴾ إلى آخره حكاية من جهته تعالى لما جرى على قوم لوط عليه السلام بطريق الاجمال بعد حكاية ما جرى بين الملائكة وبين إبراهيم عليهم السلام من الكلام، والفاء فصيحة مفصحة عن جمل قد حذفت ثقة بذكرها في موضع آخر كأنه قيل: فقاموا منه وجاؤوا لوطاً فجرى بينهم وبينه ما جرى فباشروا ما أمروا به فأخرجنا بقولنا ﴿فأسر بأهلك﴾ [الحجر: ٦٥] الخ ﴿مَن كَانَ فِيهَا﴾ أي في قرى قوم لوط وإضمارها بغير ذكر لشهرتها.

﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ممن آمن بلوط عليه السلام ﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ﴾ أي غير أهل بيت للبيان بقوله تعالى: ﴿مِّنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ فالكلام بتقدير مضاف، وجوز أن يراد بالبيت نفسه الجماعة مجازاً، والمراد بهم ـ كما أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم ـ عن مجاهد لوط وابنتاه، وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير أنه قال: كانوا ثلاثة عشر، واستدل بالآية على اتحاد الإيمان والإسلام للاستثناء المعنوي فإن المعنى فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين فلم يكن المخرج إلا أهل بيت واحد وإلا لم يستقم الكلام، وأنت تعلم أن هذا يدل على أنهما صادقان على الأمر الواحد لا ينفك أحدهما عن الآخر كالناطق والإنسان إما على الإتحاد في المفهوم وهو المختلف فيه عند أهل الأصول والحديث فلا، فالاستدلال بها على اتحادهما فيه ضعيف، نعم تدل على أنهما صفتا مدح من أوجه عديدة استحقاق الإخراج واختلاف الوصفين وجعل كل مستقلاً بأن يجعل سبب النجاة وما في قوله تعالى: ﴿من كان﴾ أولاً، و ﴿غير بيت﴾ ثانياً من الدلالة على المبالغة فإن صاحبهما محفوظ ﴿من كان﴾ وأين كان إلى غير ذلك، ومعنى الوجدان منسوباً إليه تعالى العلم على ما قاله الراغب، وذهب بعض الأجلة إلى أنه لا يقال: ما وجدت كذا إلا بعد الفحص والتفتيش، وجعل عليه معنى الآية فأخرج ملائكتنا ﴿من كان فيها من المؤمنين﴾ فما وجد ملائكتنا

فيها ﴿غير بيت من المسلمين﴾ أو في الكلام ضرب آخر من المجاز فلا تغفل.

﴿وَتَرَكْنَا فيهَا﴾ أي في القرى ﴿آيةً﴾ علامة دالة على ما أصابهم من العذاب، قال ابن جريج: هي أحجار كثيرة منضودة، وقيل: تلك الأحجار التي أهلكوا بها، وقيل: ماء منتن قال الشهاب: كأنه بحيرة طبرية، وجوز أبو حيان كون ضمير ﴿فيها﴾ عائداً على الاهلاكة التي أهلكوا فإنها من أعاجيب الإهلاك بجعل أعالي القرية أسافل، وإمطار الحجارة، والظاهر هو الأول ﴿لِّلَّذينَ يَخَافُونَ العَذَابَ ٱلأليمَ﴾ أي من شأنهم أن يخافوه لسلامة فطرتهم ورقة قلوبهم دون من عداهم من ذوي القلوب القاسية فإنهم لا يعتدون بها ولا يعدونها آية ﴿وَفي مُوسَىٰ﴾ عطف على ﴿وتركنا فيها﴾ بتقدير عامل له أي وجعلنا في موسى، والجملة معطوفة على الجملة، أو هو عطف على ﴿فيها﴾ بتغليب معنى عامل الآية، أو سلوك طريق المشاكلة في عطفه على الأوجه التي ذكرها النحاة في نحو:

علفتها تبناً وماءً بارداً

لا يصح تسليط الترك بمعنى الإبقاء على قوله سبحانه: ﴿وفي موسى﴾ فقول أبي حيان: لا حاجة إلى إضمار ﴿تركنا﴾ لانه قد أمكن العامل في المجرور تركنا الاول فيه بحث، وقيل: ﴿في موسى﴾ خبر لمبتدأ محذوف أي ﴿وفي موسى﴾ آية، وجوز ابن عطية. وغيره أن يكون معطوفاً على قوله تعالى: ﴿وفي الأرض وما بينهما﴾ اعتراض لتسليته عليه الصلاة والسلام على ما مر، وتعقبه في البحر بأنه بعيد جداً ينزه القرآن الكريم عن مثله ﴿إذْ أرْسَلْناهُ﴾ قيل: بدل من ﴿موسى﴾، وقيل: هو منصوب بآية، وقيل: بمحذوف أي كائنة وقت إرسالنا، وقيل: بتركنا.

﴿إلَى فِرْعَوْنَ بسُلطان مُّبين﴾ هو ما ظهر على يديه من المعجزات الباهرة، والسلطان يطلق على ذلك مع شموله للواحد والمتعدد لأنه في الأصل مصدر ﴿فَتَوَلَّى برُكْنه﴾ فأعرض عن الإيمان بموسى عليه السلام على أن ركنه جانب بدنه وعطفه، والتولي به كناية عن الإعراض، والباء للتعدية لأن معناه ثنى عطفه، أو للملابسة، وقال قتادة: تولى بقومه على أن الركن بمعنى القوم لأنه يركن إليهم ويتقوى بهم، والباء للمصاحبة أو الملابسة وكونها للسببية غير وجيه، وقيل: تولى بقوته وسلطانه، والركن يستعار للقوة ـ كما قال الراغب ـ وقرىء بركنه بضم الكاف اتباعاً للراء ﴿وَقَالَ ساحرٌ﴾أي هو ساحر ﴿أوْ مَجْنُونٌ﴾ كان اللعين جعل ما ظهر على يديه عليه السلام من الخوارق العجيبة منسوبة إلى الجن وتردد في أنه حصل باختياره فيكون سحراً، أو بغير اختياره فيكون جنوناً، وهذا مبني على زعمه الفاسد وإلا فالسحر ليس من الجن كما بين في محله ـ فأو ـ للشك، وقيل: للإبهام، وقال أبو عبيدة: هي بمعنى الواو لأن اللعين قال الأمرين قال: ﴿إن هذا لساحر عليم﴾ [الأعراف: ١٠٩، الشعراء: ٣٤] وقال: ﴿إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون﴾ [الشعراء: ٢٧] وأنت تعلم أن اللعين يتلوَّن تلون الحرباء فلا ضرورة تدعو إلى جعلها بمعنى الواو ﴿فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ﴾ طرحناهم غير معتّدين بهم ﴿في اليَمِّ﴾ في البحر، والمراد فأغرقناهم فيه، وفي الكلام من الدلالة على غاية عظم شأن القدرة الربانية ونهاية قمأة فرعون وقومه ما لا يخفى ﴿وَهُوَ مُليمٌ﴾ أي آت بما يلام عليه من الكفر والطغيان فالافعال هنا للاتيان بما يقتضي معنى ثلاثيه كأغرب إذا أتى أمراً غريباً، وقيل: الصيغة للنسب، أو الإسناد للسبب ـ وهو كما ترى ـ وكون الملام عليه هنا الكفر والطغيان هو الذي يقتضيه حال فرعون وهو مما يختلف باعتبار من وصف به فلا يتوهم أنه كيف وصف اللعين بما وصف به ذو النون عليه السلام ﴿وَفي عَاد إذْ أرْسَلْنَا﴾ على طرز ما تقدم ﴿عَلَيْهم الرِّيحَ العَقيمَ﴾ الشديد التي لا تلقح شيئاً كما أخرجه جماعة عن ابن عباس وصححه الحاكم، وفي لفظ هي ريح لا بركة فيها ولا منفعة ولا ينزل منها غيث ولا يلقح بها شجر كأنه شبه عدم تضمن المنفعة بعقم المرأة ففعيل بمعنى فاعل من اللازم وكون هذا المعنى لا يصح هنا مكابرة، وقال بعضهم وهو

حسن: سميت عقيماً لأنها أهلكتهم وقطعت دابرهم على أن هناك استعارة تبعية شبه إهلاكهم وقطع دابرهم بعقم النساء وعدم حملهن لما فيه من إذهاب النسل ثم أطلق المشبه به على المشبه واشتق منه العقيم، وفعيل قيل: بمعنى فاعل أو مفعول، وهذه الريح كانت الدبور لما صح من قوله صلى الله تعالى عليه وسلم: «نصرت بالصبا وأهلكت عاد الدبور» وأخرج الفريابي وابن المنذر عن علي كرم الله تعالى وجهه أنها النكباء، وأخرج ابن جرير وجماعة عن ابن المسيب أنها الجنوب، وأخرج ابن المنذر عن مجاهد أنها الصبا، والمعول عليه ما ذكرنا أولاً، ولعل الخبر عن الأمير كرم الله تعالى وجهه غير صحيح ﴿مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ﴾ ما تدع شيئاً ﴿أَتَتْ عَلَيْهِ﴾ جرت عليه ﴿إِلاَّ جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ﴾ الشيء البالي من عظم، أو نبات، أو غير ذلك من رمّ الشيء بلي، ويقال للبالي: رمام كغراب، وأرم أيضاً لكن قال الراغب يختص الرم بالفتات من الخشب والتبن، والرمة بالكسر تختص بالعظم البالي، والرمة بالضم بالحبل البالي، وفسره السدي هنا بالتراب، وقتادة بالهشيم، وقطرب بالرماد، وفسره ابن عيسى بالمنسحق الذي لا يرم أي لا يصلح كأنه جعل الهمزة في أرم للسلب، والجملة بعد ﴿إِلاَّ﴾ حالية. والشيء هنا عام مخصوص أي من شيء أراد الله تعالى تدميره وإهلاكه من ناس. أو ديار. أو شجر. أو غير ذلك، روي أن الريح كانت تمر بالناس فيهم الرجل من عاد فتنتزعه من بينهم وتهلكه ﴿وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّى حِينٍ﴾أخرج البيهقي في سنة عن قتادة أنه ثلاثة أيام ـ وإليه ذهب الفراء وجماعة ـ قال: تفسيره قوله تعالى: ﴿تمتعوا في داركم ثلاثة أيام﴾ [هود: ٦٥] واستشكل بأن هذا التمتع مؤخر عن العتو لقوله تعالى: ﴿فعقروها فقال تمتعوا﴾ [هود: ٦٥]، وقوله تعالى: ﴿فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ يدل على أن العتو مؤخر، وأجيب بأن هذا مرتب على تمام القصة كأنه قيل: وجعلنا في زمان قولنا ذلك لثمود آية أو وفي زمان قولنا ذلك لثمود آية، ثم أخذ في بيان كونه آية فقيل: ﴿فعتوا عن أمر ربهم﴾ أي فاستكبروا عن الامتثال به إلى الآخر، فالفاء للتفصيل قال في الكشف. وهو الظاهر من هذا المساق، وكذلك قوله تعالى: ﴿فتولى بركنه﴾ مرتب على القصة زمان إرسال موسى عليه السلام بالسلطان؛ وإن كان هناك لا مانع من الترتب على الارسال وذلك لأنه جيء بالظرف مجيء الفضلة حيث جعل فيه الآية، والقصة من توليهم إلى هلاكهم انتهى، وقال الحسن: هذا أي ـ القول لهم تمتعوا حتى حين ـ كان حين بعث إليهم صالح أمروا بالإيمان بما جاء به، والتمتع إلى أن تأتي آجالهم ـ ثم عتوا بعد ذلك ـ قال في البحر: ولذلك جاء العطف بالفاء المقتضية تأخر العتو عما أمروا به فهو مطابق لفظاً ووجوداً واختاره الإمام فقال: قال بعض المفسرين: المراد بالحين الأيام الثلاثة التي أمهلوها بعد عقر الناقة وهو ضعيف لأن ترتب فعتوا بالفاء دليل على أن العتو كان بعد القول المذكور، فالظاهر أنه ما قدر الله تعالى من الآجال فما من أحد إلا وهو ممهل مدة الأجل كأنه يقول له. تمتع إلى آخر أجلك فإن أحسنت فقد حصل لك التمتع في الدارين وإلا فما لك في الآخرة من نصيب انتهى، وما تقدم أبعد مغزى ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصاعقةُ﴾ أي أهلكتهم، روي أن صالحاً عليه السلام وعدهم الهلاك بعد ثلاثة أيام، وقال لهم: تصبح وجوهكم غداً مصفرة. وبعد غد محمرة. واليوم الثالث مسودة ثم يصبحكم العذاب. ولما رأوا الآيات التي بينها عليه السلام عمدوا إلى قتله فنجاه الله تعالى فذهب إلى أرض فلسطين ولما كان ضحوة اليوم الرابع تحنطوا وتكفنوا بالأنطاع فأتتهم الصاعقة وهي نار من السماء، وقيل: صيحة منها فهلكوا، وقرأ عمر وعثمان رضي الله تعالى عنهما والكسائي الصعقة وهي المرة من الصعق بمعنى الصاعقة أيضاً، أو الصيحة ﴿وَهُمْ يَنْظُرُونَ﴾ إليها ويعاينونها ويحتاج إلى تنزيل المسموع منزلة المبصر على القول بأن الصاعقة الصيحة وأن المراد ينظرون إليها، وقال مجاهد: ﴿ينظرون﴾ بمعنى ينتظرون أي وهم ينتظرون الأخذ والعذاب في تلك الأيام الثلاثة التي رأوا فيها علاماته وانتظار العذاب أشد من العذاب ﴿فَمَا اسْتَطَاعُوا من قيام﴾ كقوله تعالى: ﴿فأصبحوا في دارهم جاثمين﴾ [الأعراف: ٧٨، ٩١، العنكبوت: ٣٧] وقيل: هو من قولهم: ما يقوم فلان بكذا إذا عجز عن دفعه، وروي

ذلك عن قتادة فهو معنى مجازي، أو كناية شاعت حتى التحقت بالحقيقة ﴿وَمَا كَانُوا مُنتَصِرِينَ﴾ بغيرهم كما لم يتمنعوا بأنفسهم ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ﴾ أي وأهلكنا قوم، فإن ما قبله يدل عليه، أو واذكر، وقيل: عطف على الضمير في ﴿فأخذتهم﴾، وقيل: في ﴿فنبذناهم﴾ لأن معنى كل فأهلكناهم ـ وهو كما ترى ـ وجوز أن يكون عطفاً على محل ﴿وفي عاد﴾ أو ﴿وفي ثمود﴾ وأيد بقراءة عبد الله وأبي عمرو وحمزة والكسائي وقوم بالجر، وقرأ عبد الوارث ومحبوب والأصمعي عن أبي عمرو وأبو السمال وابن مقسم. وقوم بالرفع والظاهر أنه على الابتداء، والخبر محذوف أي أهلكناهم ﴿مِّن قَبْلُ﴾ أي من قبل هؤلاء المهلكين ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ﴾ خارجين عن الحدود فيما كانوا فيه من الكفر والمعاصي ﴿وَالسَّمَاءَ﴾ أي وبنينا السماء ﴿بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ﴾ أي بقوة قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة، ومثله ـ الآد ـ وليس جمع «يد» وجوزه الامام وإن صحت التورية به ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ أي لقادرون من الوسع بمعنى الطاقة، فالجملة تذييل إثباتاً لسعة قدرته عز وجل كل شيء فضلاً عن السماء، وفيه رمز إلى التعريض الذي في قوله تعالى: ﴿وما مسنا من لغوب﴾ [ق: ٣٨]، وعن الحسن ﴿لموسعون﴾ الرزق بالمطر وكأنه أخذه من أن المساق مساق الامتنان بذلك على العباد لا إظهار القدرة فكأنه أشير في قوله تعالى: ﴿والسماء بنيناها بأيد﴾ إلى ما تقدم من قوله سبحانه: ﴿وفي السماء رزقكم﴾ [الذاريات: ٢٢] على بعض الأقوال فناسب أن يتمم بقوله تعالى: ﴿وإنا لموسعون﴾ مبالغة في المن ولا يحتاج أن يفسر الأيد بالأنعام على هذا القول لأنه يتم المقصود دونه، واليد بمعنى النعمة لا الإنعام، وقيل: أي لموسعوها بحيث إن الأرض وما يحيط بها من الماء والهواء بالنسبة إليها كحلقة في فلاة، وقيل: أي لجاعلون بينها وبين الأرض سعة، والمراد السعة المكانية، وفيه على القولين تتميم أيضا ﴿وَالْأَرْضَ﴾ أي وفرشنا الأرض ﴿فَرَشْنَاهَا﴾ أي مهدناها وبسطناها لتستقروا عليها ولا ينافي ذلك شبهها للكرة على ما يزعمه فلاسفة العصر ﴿فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ﴾ أي نحن، وقرأ أبو السمال ومجاهد وابن مقسم برفع السماء ورفع الأرض على أنهما مبتدآن وما بعدهما خبر لهما ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي من كل جنس من الحيوان ﴿خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ نوعين ذكراً وأنثى ـ قاله ابن زيد وغيره ـ وقال مجاهد: هذا إشارة إلى المتضادات والمتقابلات كالليل والنهار والشقوة والسعادة والهدى والضلال والسماء والأرض والسواد والبياض والصحة والمرض إلى غير ذلك، ورجحه الطبري بأنه أدل على القدرة، وقيل: أريد بالجنس المنطقي، وأقل ما يكون تحته نوعان فخلق سبحانه من الجوهر مثلاً المادي والمجرد، ومن المادي النامي والجامد، ومن النامي المدرك والنبات، ومن المدرك الصامت والناطق وهو كما ترى ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ أي فعلنا ذلك كله كي تتذكروا فتعرفوا أنه عز وجل الرب القادر الذي لا يعجزه شيء فتعملوا بمقتضاه ولا تعبدوا ما سواه، وقيل: خلقنا ذلك كي تتذكروا فتعلموا أن التعدد من خواص الممكنات وأن الواجب بالذات سبحانه لا يقبل التعدد والانقسام، وقيل: المراد التذكر بجميع ما ذكر لأمر الحشر والنشر لأن من قدر على إيجاد ذلك فهو قادر على إعادة الأموات يوم القيامة وله وجه، وقرأ أبي تتذكرون بتاءين وتخفيف الذال ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللهِ﴾ تفريع على قوله سبحانه: ﴿لعلكم تذكرون﴾ وهو تمثيل للاعتصام به سبحانه وتعالى وبتوحيده عز وجل، والمعنى قل يا محمد: ﴿ففروا إلى الله﴾ لمكان ﴿إِنِّي لَكُم مِّنْهُ﴾ أي من عقابه تعالى المعد لمن لم يفر إليه سبحانه ولم يوحده ﴿نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ بين كونه منذراً من الله سبحانه بالمعجزات، أو ﴿مبين﴾ ما يجب أن يحذر عنه.

﴿وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللهِ إِلَهاً آخَرَ﴾ عطف على الأمر، وهو نهي عن الإشراك صريحاً على نحو وحدوه ولا تشركوا، ومن الأذكار المأثورة: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وكرر قوله تعالى: ﴿إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ لاتصال الأول بالأمر واتصال هذا بالنهي والغرض من كل ذلك الحث على التوحيد والمبالغة في النصيحة، وقيل: إن

المراد بقوله تعالى: ﴿**ففروا إلى الله**﴾ الأمر بالإيمان وملازمة الطاعة، وذكر ﴿**ولا تجعلوا**﴾ الخ، إفراداً لأعظم ما يجب أن يفر منه، و ﴿**إني لكم**﴾ الخ، الأول مرتب على ترك الإيمان والطاعة، والثاني على الإشراك فهما متغايران لتغاير ما ترتب كل منهما عليه ووقع تعليلاً له ولا يخلو عن كدر، وقال الزمخشري: في الآية: ﴿**ففروا إلى**﴾ طاعته وثوابه من معصيته وعقابه ووحدوا ولا تشركوا به، وكرر ﴿**إني لكم**﴾ الخ عند الأمر بالطاعة والنهي عن الشرك ليعلم أن الإيمان لا ينفع إلا مع العمل كما أن العمل لا ينفع إلا مع الايمان وأنه لا يفوز عند الله تعالى إلا الجامع بينهما انتهى، وفيه أنه لا دلالة في الآية على ذلك بوجه ثم تفسير الفرار إلى الله بما فسره أيضاً لينطبق على العمل وحده غير مسلم على أنه لو سلم الإنذار بترك العمل فمن أين يلزم عدم النفع، وأهل السنة لا ينازعون في وقوع الإنذار بارتكاب المعصية، فالمنساق إلى الذهن على تقدير كون المراد بالفرار إلى الله تعالى العبادة أنه تعالى أمر بها أولاً وتوعد تاركها بالوعيد المعروف له في الشرع وهو العذاب دون خلود، ونهى جل شأنه ثانياً أن يشرك بعبادته سبحانه غيره وتوعد المشرك بالوعيد المعروف له وهو الخلود، وعلى هذا يكون الوعيدان متغايرين وتكون الآية في تقديم الأمر على النهي فيها نظير قوله تعالى: ﴿فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً﴾ [الكهف: ١١٠]، وقوله سبحانه: ﴿واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً﴾ [النساء: ٣٦] وأين هذا مما ذكره الزمخشري عامله الله تعالى بعدله.

﴿**كَذَٰلِكَ**﴾ أي الأمر مثل ذلك تقرير وتوكيد على ما مر غير مرة، ومن فصل الخطاب لأنه لما أراد سبحانه أن يستأنف قصة قولهم المختلف في الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم بعد أن تقدمت عموماً أو خصوصاً في قوله تعالى: ﴿إنكم لفي قول مختلف﴾ [الذاريات: ٨] وكان قد توسط ما توسط قال سبحانه: الأمر كذلك أي مثل ما يذكر ويأتيك خبره إشارة إلى الكلام الذي يتلوه أعني قوله عز وجل: ﴿**مَا أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم**﴾ إلى آخره فهو تفسير ما أجمل وهو مراد من قال: الإشارة إلى تكذيبهم الرسول عليه الصلاة والسلام وتسميتهم إياه وحاشاه ساحراً ومجنوناً، ويعلم مما ذكر أن كذلك خبر مبتدأ محذوف ولا يجوز نصبه يأتي على أنه صفة لمصدره، والإشارة إلى الإتيان أي ﴿**ما أتى الذين من قبلهم**﴾ من رسول إتياناً مثل إتيانهم ﴿**إلا قالوا**﴾ إلخ لأن ما بعد ﴿**ما**﴾ النافية لا يعمل فيما قبلها على المشهور، ولا يأتي مقدراً على شريطة التفسير لأن ما لا يعلم لا يفسر عاملاً في مثل ذلك كما صرح به النحاة، وجعله معمولاً لقالوا، والإشارة للقول أي إلا قالوا ساحراً أو مجنون قولاً مثل ذلك القول لا يجوز أيضاً على تعسفه لمكان ﴿**ما**﴾ وضمير قبلهم لقريش أي ما أتى الذين من قبل قريش ﴿**مِّن رَّسُولٍ**﴾ أي رسول من رسل الله تعالى ﴿**إِلَّا قَالُوا**﴾ في حقه ﴿**سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ**﴾ خبر مبتدأ محذوف أي هو ساحر، و ـ أو ـ قيل: من الحكاية أي ﴿**إلا قالوا ساحر**﴾، أو قالوا ﴿**مجنون**﴾ وهي لمنع الخلو وليست من المحكي ليكون مقول كل مجموع ﴿**ساحر أو مجنون**﴾ وفي البحر هي للتفصيل أي قال بعض: ساحر؛ وقال بعض: مجنون؛ وقال بعض: ساحر ومجنون فجمع القائلون في الضمير ودلت ـ أو ـ على التفصيل انتهى فلا تغفل.

واستشكلت الآية بأنها تدل على أنه ما من رسول إلا كذب مع أن الرسل المقررين شريعة من قبلهم كيوشع عليه السلام لم يكذبوا وكذا آدم عليه السلام أرسل ولم يكذب. وأجاب الامام بقوله: لا نسلم أن المقرر رسول بل هو نبي على دين رسول ومن كذب رسوله فهو يكذبه أيضاً وتعقب بأن الأخبار وكذا الآيات دالة على أن المقررين رسل، وأيضا يبقى الاستشكال بآدم عليه السلام وقد اعترف هو بأنه أرسل ولم يكذب وأجاب بعض عن الاستشكال بالمقررين بأن الآية إنما تدل على أن الرسل الذين أتوا من قبلهم كلهم قد قيل في حقهم ما قيل، ولا يدخل في عموم

ذلك المقررون لأن المتبادر من إتيان الرسول قوماً مجيئه إياهم مع عدم تبليغ غيره إياهم ما أتى به من قبله وذلك لم يحصل للمقرر شرع من قبله كما لا يخفى، وعن الاستشكال بآدم عليه السلام بأن المراد ـ ما أتى الذين من قبلهم من الأمم الذين كانوا موجودين على نحو وجود هؤلاء رسول إلا قالوا ـ الخ، وآدم عليه السلام لم يأت أمة كذلك إذ لم يكن في حين أرسل إلا زوجته حواء، ولعله أولى مما قيل: إن المراد من رسول من بني آدم فلا يدخل هو عليه السلام في ذلك، واستشكلت أيضاً بأن ﴿إلا قالوا﴾ يدل على أنهم كلهم كذبوا مع أنه ما من رسول إلا آمن به قوم، وأجاب الإمام بأن إسناد القول إلى ضمير الجمع على إرادة الكثير بل الأكثر، وذكر المكذب فقط لأنه الأوفق بغرض التسلية، وأخذ منه بعضهم الجواب عن الاستشكال السابق فقال: الحكم باعتبار الغالب لا أن كل أمة من الأمم أتاها رسول فكذبته ليرد آدم والمقررون حيث لم يكذبوا ـ وفيه ما فيه ـ وحمل بعضهم الذين من قبلهم على الكفار ودفع به الاستشكالين ـ وفيه ما لا يخفى ـ فتأمل جميع ذلك ولا تظن انحصار الجواب فيما سمعت فأمعن النظر والله تعالى الهادي لأحسن المسالك ﴿أَتَوَا صَوابه﴾ تعجيب من إجماعهم على تلك الكلمة الشنيعة أي كأن الأولين والآخرين منهم أوصى بعضهم بعضاً بهذا القول حتى قالوه جميعاً، وقيل: إنكار للتواصي أي ما تواصوا به.

﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ إضراب عن أن التواصي جامعهم إلى أن الجامع لهم على ذلك القول مشاركتهم في الطغيان الحامل عليه.

فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ﴿٥٤﴾ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ﴿٥٩﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٦٠﴾

﴿فَتَوَلَّ عَنهُم﴾ فأعرض عن جدالهم فقد كررت عليهم الدعوة ولم تأل جهداً في البيان فأبوا إلا إباءً وعناداً ﴿فَمَا أَنتَ بِمَلُوم﴾ على التولي بعد ما بذلت الجهود وجاوزت في الإبلاغ كل حد معهود.

﴿وَذَكِّر﴾ آدم على فعل التذكير والموعظة ولا تدع ذلك؛ فالأمر بالتذكير للدوام عليه والفعل منزل منزلة اللازم، وجوز أن يكون المفعول محذوفاً أي فذكرهم وحذف لظهور الأمر.

﴿فَإِنَّ ٱلذكْرَى تَنفَعُ ٱلمُؤمنينَ﴾ أي الذين قدر الله تعالى إيمانهم، أو المؤمنين بالفعل فإنها تزيدهم بصيرة وقوة في اليقين، وفي البحر يدل ظاهر الآية على الموادعة وهي منسوخة بآية السيف، وأخرج أبو داود في ناسخه، وابن المنذر عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿فتول عنهم﴾ الخ، وقال: أمره الله تعالى أن يتولى عنهم ليعذبهم وعذر محمداً ﷺ ثم قال سبحانه: ﴿وذكر﴾ الخ فنسختها.

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم والبيهقي في الشعب. والضياء في المختارة وجماعة من طريق مجاهد عن علي كرم الله تعالى وجهه قال: لما نزلت ﴿فتول عنهم فما أنت بملوم﴾ لم يبق منا أحد إلا أيقن بالهلكة إذ أمر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أن يتولى عنا فنزلت ﴿وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين﴾ فطابت أنفسنا، وعن قتادة أنهم ظنوا أن الوحي قد انقطع وأن العذاب قد حضر فأنزل الله تعالى ﴿وذكر﴾ الخ.

﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلجنَّ وَٱلإنسَ إلاَّ ليَعْبُدُون﴾ استئناف مؤكد للأمر مقرر لمضمون تعليله فإن خلقهم لما ذكر سبحانه وتعالى مما يدعوه صلى الله تعالى عليه وسلم إلى تذكيرهم ويوجب عليهم التذكر والاتعاظ، ولعل تقديم

الجن في الذكر لتقدم خلقهم على خلق الإنس في الوجود، والظاهر أن المراد من يقابلون بهم وبالملائكة عليهم السلام ولم يذكر هؤلاء قيل: لأن الامر فيهم مسلم، أو لأن الآية سيقت لبيان صنيع المكذبين حيث تركوا عبادة الله تعالى وقد خلقوا لها؛ وهذا الترك مما لا يكون فيهم بل هم عباد مكرمون لا يستكبرون عن عبادته عز وجل، وقيل: لأنه صلى الله تعالى عليه وسلم ليس مبعوثاً إليهم فليس ذكرهم في هذا الحكم مما يدعوه عليه الصلاة والسلام إلى تذكيرهم، وأنت تعلم أن الأصح عموم البعثة فالأولى ما قيل بدله لاستغنائهم عن التذكير والموعظة، وقيل: المراد بالجن ما يتناولهم لأنه من الاستتار وهم مستترون عن الإنس، وقيل: لا يصح ذكرهم في حيز الخلق لأنهم كالأرواح من عالم الأمر المقابل لعالم الخلق، وقد أشير إليهما بقوله تعالى: ﴿له الخلق والامر﴾ [الأعراف: ٥٤] ورد بقوله سبحانه: ﴿خالق كل شيء﴾ [الأنعام: ١٠٢، الرعد: ١٦، الزمر: ٦٢، غافر: ٦٢] ﴿وله الخلق والأمر﴾ ليس كما ظن والعبادة غاية التذلل، والظاهر أن المراد بها ما كانت بالاختيار دون التي بالتسخير الثابتة لجميع المخلوقات وهي الدلالة المنبهة على كونها مخلوقة وأنها خلق فاعل حكيم، ويعبر عنها بالسجود كما في قوله تعالى: ﴿والنجم والشجر يسجدان﴾ [الرحمن: ٦] وأل في الجن والإنس على المشهور للاستغراق، واللام قيل: للغاية والعبادة وإن لم تكن غاية مطلوبة من الخلق لقيام الدليل على أنه عز وجل لم يخلق الجن والإنس لأجلها أي لإرادتها منهم إذ لو أرادها سبحانه منهم لم يتخلف ذلك لاستلزام الإرادة الإلهية للمراد كما بين في الاصول مع أن التخلف بالمشاهدة، وأيضاً ظاهر قوله تعالى: ﴿ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس﴾ [الأعراف: ١٧٩] يدل على إرادة المعاصي من الكثير ليستحقوا بها جهنم فينافي إرادة العبادة لكن لما كان خلقهم على حالة صالحة للعبادة مستعدة لها حيث ركب سبحانه فيهم عقولاً وجعل لهم حواس ظاهرة وباطنة إلى غير ذلك من وجوه الاستعداد جعل خلقهم مغياً بها مبالغة بتشبيه المعدّ له الشيء بالغاية ومثله شائع في العرف، ألا تراهم يقولون للقويّ جسمه: هو مخلوق للمصارعة، وللبقر: هي مخلوقة للحرث.

وفي الكشف أن أفعاله تعالى تنساق إلى الغايات الكمالية واللام فيها موضوعها ذلك، وأما الارادة فليست من مقتضى اللام إلا إذا علم أن الباعث مطلوب في نفسه وعلى هذا لا يحتاج إلى تأويل فإنهم خلقوا بحيث يتأتى منهم العبادة وهدوا إليها وجعلت تلك غاية كمالية لخلقهم، وتعوّق بعضهم عن الوصول إليها لا يمنع كون الغاية غاية، وهذا معنى مكشوف انتهى. فتأمل، وقيل: المراد بالعبادة التذلل والخضوع بالتسخير، وظاهر أن الكل عابدون إياه تعالى بذلك المعنى لا فرق بين مؤمن، وكافر، وبر، وفاجر، ونحوه ما قيل: المعنى ما خلقت الجن والإنس إلا ليذلوا لقضائي، وقيل: المعنى ما خلقتهم إلا ليكونوا عباداً لي، ويراد بالعبد العبد بالإيجاد وعموم الوصف عليه ظاهر لقوله تعالى: ﴿إن كل من في السماوات والأرض إلا آتي الرحمن عبداً﴾ [مريم: ٩٣] لكن قيل عليه: إن عبد بمعنى صار عبداً ليس من اللغة في شيء، وقيل: العبادة بمعنى التوحيد بناءً على ما روي عن ابن عباس أن كل عبادة في القرآن فهو توحيد فالكل يوحدونه تعالى في الآخرة أما توحيد المؤمن في الدنيا هناك فظاهر، وأما توحيد المشرك فيدل عليه قوله تعالى: ﴿ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين﴾ [الأنعام: ٢٣] وعليه قول من قال: لا يدخل النار كافر، أو المراد كما قال الكلبي: إن المؤمن يوحده في الشدة والرخاء والكافر يوحده سبحانه في الشدة والبلاء دون النعمة والرخاء، كما قال عز وجل: ﴿فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين﴾ [العنكبوت: ٦٥] ولا يخفى بُعد ذلك عن الظاهر والسياق، ونقل عن علي كرم الله تعالى وجهه، وابن عباس رضي الله تعالى عنهما ما خلقتهم إلا لآمرهم وأدعوهم للعبادة فهو كقوله تعالى: ﴿وما أمروا إلا ليعبدوا الله﴾ [البينة: ٥] فذكر العبادة المسببة

شرعاً عن الأمر أو اللازمة له، وأريد سببها أو ملزومها فهو مجاز مرسل، وأنت تعلم أن أمر كل من أفراد الجن وكل من أفراد الإنس غير متحقق لا سيما إذا كان غير المكلفين كالأطفال الذي يموتون قبل زمان التكليف داخلين في العموم، وقال مجاهد: إن معنى ﴿**ليعبدون**﴾ ليعرفون وهو مجاز مرسل أيضاً من إطلاق اسم السبب على المسبب على ما في الإرشاد، ولعل السر فيه التنبيه على أن المعتبر هي المعرفة الحاصلة بعبادته تعالى لا ما يحصل بغيرها كمعرفة الفلاسفة قيل: وهو حسن لأنهم لو لم يخلقهم عز وجل لم يعرف وجوده وتوحيده سبحانه وتعالى، وقد جاء «كنت كنزاً مخفياً فأحببت أن أعرف فخلقت الخلق لأعرف» وتعقب بأن المعرفة الصحيحة لم تتحقق في كل بل بعض قد أنكر وجوده عز وجل كالطبيعيين اليوم فلا بد من القول السابق في توجيه التعليل ثم الخبر بهذا اللفظ ذكره سعد الدين الفرغاني في منتهى المدارك، وذكر غيره كالشيخ الأكبر في الباب المائة والثمانية والتسعين من الفتوحات بلفظ آخر وتعقبه الحفاظ فقال ابن تيمية: إنه ليس من كلام النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ولا يعرف له سند صحيح ولا ضعيف، وكذا قال الزركشي والحافظ بن حجر وغيرهما: ومن يرويه من الصوفية معترف بعدم ثبوته نقلاً لكن يقول: إنه ثابت كشفاً، وقد نص على ذلك الشيخ الأكبر قدس سره في الباب المذكور، والتصحيح الكشفي شنشنة لهم، ومع ذلك فيه إشكال معنى إلا أنه أجيب عنه ثلاث أجوبة ستأتي إن شاء الله تعالى، وقيل: أل في ﴿**الجن والإنس**﴾ للعهد، والمراد بهم المؤمنون لقوله تعالى: ﴿ولقد ذرأنا﴾ الآية أي بناءً على أن اللام فيها ليست للعاقبة، ونسب هذا القول لزيد بن أسلم وسفيان، وأيد بقوله تعالى قيل: ﴿**فإن الذكرى تنفع المؤمنين**﴾ وأيده في البحر برواية ابن عباس عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم «وما خلقت الجن والإنس من المؤمنين» ورواها بعضهم قراءة لابن عباس رضي الله تعالى عنهما، ومن الناس من جعلها للجنس، وقال: يكفي في ثبوت الحكم له ثبوته لبعض أفراده وهو هنا المؤمنين الطائعون وهو في المآل متحد مع سابقه، ولا إشكال على ذلك في جعل اللام للغاية المطلوبة حقيقة وكذا في جعلها للغرض عند من يجوز تعليل أفعاله تعالى بالأغراض مع بقاء الغنى الذاتي وعدم الاستكمال بالغير ـ كما ذهب إليه كثير من السلف، والمحدثين ـ وقد سمعت أن منهم من يقسم الارادة إلى شرعية تتعلق بالطاعات وتكوينية تتعلق بالمعاصي وغيرها، وعليه يجوز أن يبقى ﴿**الجن والإنس**﴾ على شمولهما للعاصين، ويقال: إن العبادة مرادة منهم أيضاً لكن بالإرادة الشرعية إلا أنه لا يتم إلا إذا كانت هذا الإرادة لا تستلزم وقوع المراد كالإرادة التفويضية القائل بها المعتزلة.

هذا وإذا أحطت خبراً بالأقوال في تفسير هذا الآية هان عليك دفع ما يتراءى من المنافاة بينها وبين قوله تعالى: ﴿ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم﴾ [هود: ١١٨، ١١٩] على تقدير كون الاشارة إلى الاختلاف بالتزام بعض هاتيك الأقوال فيها، ودفعه بعضهم يكون اللام في تلك الآية للعاقبة والذي ينساق إلى الذهن أن الحصر إضافي أي خلقتهم للعبادة دون ضدها أو دون طلب الرزق والإطعام على ما يشير إليه كلام بعضهم أخذاً من تعقيب ذلك بقوله سبحانه: ﴿**مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ**﴾ وهو لبيان أن شأنه تعالى شأنه مع عباده ليس كشأن السادة مع عبيدهم لأنهم إنما يملكونهم ليستعينوا بهم في تحصيل معايشهم وأرزاقهم، ومالك ملاك العبيد نفى عز وجل أن يكون ملكه إياهم لذلك فكأنه قال سبحانه: ما أريد أن أستعين بهم كما يستعين ملاك العبيد بعبيدهم فليشتغلوا بما خلقوا له من عبادتي، وذكر الإمام فيه وجهين: الأول أن يكون لدفع توهم الحاجة من خلقهم للعبادة، والثاني أن يكون لتقرير كونهم مخلوقين لها، وبين هذا بأن الفعل في العرف لا بد له من منفعة لكن العبيد على قسمين: قسم يتخذونه لإظهار العظمة بالمثول بين أيادي ساداتهم وتعظيمهم إياهم كعبيد الملوك، وقسم يتخذون للانتفاع بهم في تحصيل الأرزاق أو لإصلاحها، فكأنه قال سبحانه: إني خلقتهم ولا بد فيهم من منفعة فليتفكروا في أنفسهم هل

هم من قبيل أن يطلب منهم تحصيل رزق وليسوا كذلك فما أريد منهم من رزق، وهل هم ممن يطلب منهم إصلاح قوت كالطباخ ومن يقرب الطعام؟ وليسوا كذلك ﴿وما أريد أن يطعمون ﴾ فإذا هم عبيد من القسم الأول، فينبغي أن لا يتركوا التعظيم، والظاهر أن المعنى ما أريد منهم من رزق لي لمكان قوله سبحانه: ﴿وما أريد أن يطعمون ﴾ وإليه ذهب الامام، وذكر في الآية لطائف: الاولى أنه سبحانه كرر نفي الإرادتين لأن السيد قد يطلب من العبد التكسب له وهو طلب الرزق وقد لا يطلب حيث كان له مال وافر لكنه يطلب قضاء حوائجه من حفظ المال وإحضار الطعام من ماله بين يديه. فنفي الإرادة الأولى لا يستلزم نفي الارادة الثانية فكرر النهي على معنى لا أريد هذا ولا أريد ذلك، الثانية أن ترتيب النفيين كما تضمنه النظم الجليل من باب الترقي في بيان غناه عز وجل كأنه قال سبحانه: لا أطلب منهم رزقاً ولا ما هو دون ذلك وهو تقديم الطعام بين يدي السيد فإن ذلك أمر كثيراً ما يطلب من العبيد إذا كان التكسب لا يطلب منهم، الثالثة أنه سبحانه قال: ما أريد منهم من رزق دون ما أريد منهم أن يرزقون لأن التكسب لطلب العين لا الفعل، وقال سبحانه: ﴿ما أريد أن يطعمون ﴾ دون ما أريد من طعام لأن ذلك للإشارة إلى الاستغناء عما يفعله العبد الغير المأمور بالتكسب كعبد وافر المال والحاجة اليه للفعل نفسه، الرابعة أنه جل وعلا خص الإطعام بالذكر لأن أدنى درجات الاستعانة أن يستعين السيد بعبده في تهيئة أمر الطعام ونفي الأدنى يتبعه نفي الأعلى بطريق الأولى فكأنه قيل: ما أريد منهم من عين ولا عمل، الخامسة أن ﴿ما ﴾ لنفي الحال إلا أن المراد به الدنيا وتعرض له دون نفي الاستقبال لأن من المعلوم البين أن العبد بعد موته لا يصلح أن يطلب منه رزق أو إطعام انتهى، فتأمله.

ويفهم من ظاهر كلام الزمخشري أن المعنى ما أريد منهم من رزق لي ولهم، وفي البحر ما أريد منهم من رزق أي أن يرزقوا أنفسهم ولا غيرهم ﴿وما أريد أن يطعمون ﴾ أي أن يطعموا خلقي فهو على حذف مضاف قاله ابن عباس انتهى، ونحوه ما قيل: المعنى ما أريد أن يرزقوا أحداً من خلقي ولا أريد أن يطعموه، وأسند الإطعام إلى نفسه سبحانه لأن الخلق كلهم عيال الله تعالى. ومن أطعم عيال أحد فكأنما أطعمه، وفي الحديث «يا عبدي مرضت فلم تعدني وجعت فلم تطعمني» فإنه كما يدل عليه آخره على معنى مرض عبدي فلم تعده وجاع فلم تطعمه؛ وقيل: الآية مقدرة بقل فتكون بمعنى قوله سبحانه: ﴿قل لا أسألكم عليه أجراً ﴾ [الأنعام: ٩٠] والغيبة فيها رعاية للحكاية إذ في مثل ذلك يجوز الأمران الغيبة والخطاب، وقد قرىء بهما في قوله تعالى: ﴿قل للذين كفروا ستغلبون ﴾ [آل عمران: ١٢]، وقيل: المراد قل لهم وفي حقهم فتلائمه الغيبة في ﴿منهم ﴾ و ﴿يطعمون ﴾ ولا ينافي ذلك قراءة ـ أني أنا الرزاق ـ فيما بعد لأنه حينئذ تعليل للأمر بالقول، أو الائتمار لا لعدم الإرادة، نعم لا شك في أنه قول بعيد جداً ﴿إِنَّ اللهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ﴾ الذي يرزق كل مفتقر إلى الرزق لا غيره سبحانه استقلالاً، أو اشتراكاً ويفهم من ذلك استغناؤه عز وجل عن الرزق ﴿ذُو ٱلْقُوَّةِ﴾ أي القدرة ﴿ٱلْمَتِينُ ﴾ شديد القوة، والجملة تعليل لعدم الإرادة قال الامام: كونه تعالى هو الرزاق ناظر إلى عدم طلب الرزق لأن من يطلبه يكون فقيراً محتاجاً؛ وكونه عز وجل هو ذو القوة المتين ناظر إلى عدم طلب العمل المراد من قوله سبحانه: ﴿وما أريد أن يطعمون ﴾ لأن من يطلبه يكون عاجزاً لا قوة له فكأنه قيل: ما أريد منهم من رزق لأني أنا الرزاق وما أريد منهم من عمل لأني قوي متين، وكان الظاهر ـ أني أنا الرزاق ـ كما جاء في قراءة له ﷺ لكن التفت إلى الغيبة، والتعبير بالاسم الجليل لاشتهاره بمعنى العبودية فيكون في ذلك إشعار بعلة الحكم ولتخرج الآية مخرج المثل كما قيل ذلك في قوله تعالى: ﴿إن الباطل كان زهوقاً ﴾ [الإسراء: ٨١] والتعبير به على القول بتقدير قل فيما تقدم هو الظاهر، وتحتاج القراءة الاخرى إلى ما ذكرناه آنفاً، وآثر سبحانه ذو القوة على القوى قيل: لأن في ﴿ذو ﴾ كما قال ابن حجر الهيتمي وغيره تعظيم ما أضيف إليه، والموصوف بها والمقام يقتضيه

ولذا جيء بالمتين بعد ولم يكتف به عن الوصف بالقوة: وقال الإمام: لما كان المقصود تقرير ما تقدم من عدم إرادة الرزق وعدم الاستعانة بالغير جيء بوصف الرزق على صيغة المبالغة لأنه بدونها لا يكفي في تقرير عدم إرادة الرزق وبوصف القوة بما لا مبالغة فيه لكفايته في تقرير عدم الاستعانة فإن من له قوة دون الغاية لا يستعين بغيره لكن لما لم يدل ذو القوة على أكثر من أن له تعالى قوة ﴿ما﴾ زيد الوصف بالمتين وهو الذي له ثبات لا يتزلزل، ثم قال: إن القوي أبلغ من ذي القوة والعزة أكمل من المتانة وقد قرن الأكمل بالأكمل وما دونه بما دونه في قوله تعالى: ﴿ليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب إن الله قوي عزيز﴾ [الحديد: ٢٥] وفي قوله تعالى: ﴿إن الله هو الرزاق﴾ الخ لما اقتضى المقام ذلك، وقد أطال الكلام في هذا المقام وما أظنه يصفو عن كدر، وقرأ ابن محيصن ـ الرازق ـ بزنة الفاعل، وقرأ الأعمش وابن وثاب ـ المتين ـ بالجر، وخرج على أنه صفة القوة، وجاز ذلك مع تذكيره لتأويلها بالاقتدار أو لكونه على زنة المصادر التي يستوي فيها المذكر والمؤنث، أو لإجرائه مجرى فعيل بمعنى مفعول، وأجاز أبو الفتح أن يكون صفة ـ لذو ـ وجر على الجوار ـ كقولهم هذا جحر ضب خرب ـ وضعف ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أي إذا ثبت أن الله تعالى ما خلق الجن والإنس إلا ليعبدون وأنه سبحانه ما يريد منهم من رزق إلى آخر ما تقدم فإن للذين ظلموا أنفسهم باشتغالهم بغير ما خلقوا له من العبادة وإشراكهم بالله عز وجل وتكذيبهم رسوله عليه الصلاة والسلام وهم أهل مكة وأضرابهم من كفار العرب ﴿ذَنُوباً﴾ أي نصيباً من العذاب ﴿مِّثْلَ ذَنُوب﴾ أي نصيب ﴿أَصْحابِهِمْ﴾ أي نظرائهم من الأمم السالفة، وأصل الذنوب الدلو العظيمة الممتلئة ماء، أو القريبة من الامتلاء، قال الجوهري: ولا يقال لها ذنوب وهي فارغة، وهي تذكر وتؤنث وجمعها أذنبة وذنائب فاستعيرت للنصيب مطلقاً شراً كان كالنصيب من العذاب في الآية أو خيراً كما في العطاء في قول علقمة بن عبدة التميمي يمدح الحارث بن أبي شمر الغساني وكان أسر أخاه شأسا يوم عين أباغ:

وفي كل حي قد خبطت بنعمة ... فحق لشأس من نداك **ذنوب**

يروى أن الحارث لما سمع هذا البيت قال نعم وأذنبة[1] ومن استعمالها في النصيب قول الآخر:

لعمرك والمنايا طارقات ... لكل بني أب منها **ذنوب**

وهو استعمال شائع، وفي الكشاف هذا تمثيل أصله في السقاة يقتسمون الماء فيكون لهذا ذنوب ولهذا ذنوب قال الراجز:

إنا إذا نازلنا غريب ... له **ذنوب** ولنا **ذنوب**

وإن أبيتم فلنا القليب

﴿فَلاَ يَسْتَعْجِلون﴾ أي لا يطلبوا مني أن أعجل في الإتيان به يقال استعجله أي حثه على العجلة وطلبها منه، ويقال: استعجلت كذا إن طلبت وقوعه بالعجلة، ومنه قوله تعالى: ﴿أتى أمر الله فلا تستعجلوه﴾ [النحل: ١] وهو على ما في الإرشاد جواب لقولهم: ﴿متى هذا الوعد إن كنتم صادقين﴾ [يونس: ٤٨، الأنبياء: ٣٨، النمل: ٧١، سبأ: ٢٩، يس: ٤٨، الملك: ٢٥] ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذين كَفَرُوا﴾ أي فويل لهم، ووضع الموصول موضع ضميرهم تسجيلاً عليهم بما في حيز الصلة من الكفر وإشعاراً بعلة الحكم، والفاء لترتيب ثبوت الويل لهم على أن لهم عذاباً عظيماً كما

---

(١) «شأس» هو جد علقمة بن عبدة مدح بهذه القصيدة الحارث بن أبي شمر الغساني لما كان عنده أسيراً فأمر بإطلاقه وجميع أسرى بني تميم و «الخابط» الطالب، ومعنى البيت أنت الذي أنعمت على كل حي بنعمة واستحق من نداك ذنوباً اهـ.

أن الفاء التي قبلها لترتيب النهي عن الاستعجال على ذلك. و ﴿مِن﴾ في قوله سبحانه: ﴿من يَومِهِمُ ٱلَّذِي يُوعَدُونَ﴾ للتعليل؛ والعائد على الموصول محذوف أي يوعدونه أو يوعدون به على قول، والمراد بذلك اليوم قيل: يوم بدر، ورجح بأنه الأوفق لما قبله من حيث إنه ذنوب من العذاب الدنيوي، وقيل: يوم القيامة، ورجح بأنه الأنسب لما في صدر السورة الكريمة الآتية، والله تعالى أعلم.

ومما قاله بعض أهل الاشارة في بعض الآيات: ﴿والذاريات ذرواً﴾ إشارة إلى الرياح التي تحمل أنين المشتاقين المعرضين لنفحات الألطاف إلى ساحات العزة، ثم تأتي بنسيم نفحات الحق إلى مشام المحبين فيجدون راحة ما من غلبات اللوعة ﴿فالحاملات وقراً﴾ إشارة إلى سحائب ألطاف الألوهية تحمل أمطار مراحم الربوبية فتمطر على قلوب الصديقين ﴿فالجاريات يسراً﴾ إشارة إلى سفن أفئدة المحبين تجري برياح العناية في بحر التوحيد على أيسر حال ﴿فالمقسمات أمراً﴾ إشارة إلى الملائكة النازلين من حظائر القدس بالبشائر والمعارف على قلوب أهل الاستقامة، وإن شئت جعلت الكل إشارة إلى أنواع رياح العناية فمنها ما يطير بالقلوب في جو الغيوب، وقد قال العاشق المجازي:

خذا من صبا نجد أماناً لقلبه ... نسيم كاد رياها يطير بلبه
وإياكما ذاك النسيم فإنه ... متى هب كان الوجد أيسر خطبه

ومنها ﴿الحاملات وقراً﴾ دواء قلوب العاشقين كما قيل:

أيا جبلي نعمان بالله خليا ... نسيم الصبا يخلص إلى نسيمها
أجد بردها أو تشف مني حرارة ... على كبد لم يبق إلا صميمها
إن الصبا ريح إذا ما تنسمت ... على نفس مهموم تجلت همومها

ومنها «الجاريات» من مهاب حضرات القدس إلى أفئدة أهل الإنس بسهولة لتنعش قلوبهم، ومنها «المقسمات» ما جاءت به مما عبق بها من آثار الحضرة الإلهية على نفوس المستعدين حسب استعداداتهم وإن شئت قلت غير ذلك فالباب واسع ﴿والسماء ذات الحبك﴾ إشارة إلى سماء القلب فإنها ذات طرائق إلى الله عز وجل ﴿إن المتقين في جنات وعيون﴾ إشارة إلى جنات الوصال وعيون الحكمة ﴿وبالأسحار هم يستغفرون﴾ يطلبون غفر أي ستر وجودهم بوجود محبوبهم، أو يطلبون غفران ذنب رؤية عبادتهم من أول الليل إلى السحر ﴿ومن كل شيء خلقنا زوجين﴾ إشارة إلى أن جميع ما يرى بارزاً من الموجودات ليس واحداً وحدة حقيقية بل هو مركب ولا أقل من كونه مركباً من الامكان، وشيء آخر فليس الواحد الحقيقي إلا الله تعالى الذي حقيقته سبحانه إنيته ﴿ففروا الى الله﴾ بترك ما سواه عز وجل ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾ أي ليعرفون، وهو عندهم إشارة إلى ما صححوه كشفاً من روايته صلى الله تعالى عليه وسلم عن ربه سبحانه أنه قال: «كنت كنزاً مخفياً فأحببت أن أعرف فخلقت الخلق لأعرف» وفي كتاب الأنوار السنية للسيد نور الدين السمهودي بلفظ «كنت كنزاً مخفياً فأحببت أن أعرف فخلقت هذا الخلق ليعرفوني فبي عرفوني» وفي المقاصد الحسنة للسخاوي بلفظ «كنت كنزاً لا أعرف فخلقت خلقاً فعرفتهم بي فعرفوني» إلى غير ذلك، وهو مشكل لأن الخفاء أمر نسبي فلا بد فيه من مخفي ومخفى عنه فحيث لم يكن خلق لم يكن مخفي عنه فلا يتحقق الخفاء، وأجيب أولاً بأن الخفاء عن الأعيان الثابتة لأن الأشياء في ثبوتها لا إدراك لها وجودياً فكان الله سبحانه مخفياً عنها غير معروف لها معرفة وجودية ـ فأحب أن يعرف معرفة حادثة من موجود حادث ـ فخلق الخلق لأن معرفتهم الوجودية فرع وجودهم فتعرف سبحانه إليهم بأنواع التجليات على حسب

تفاوت الاستعدادات فعرفوا أنفسهم بالتجليات فعرفوا الله تعالى من ذلك فبه سبحانه عرفوه، وثانياً بأن المراد بالخفاء لازمه وهو عدم معرفة أحد به جل وعلا، ويؤيده ما في لفظ السخاوي من قوله: لا أعرف بدل مخفياً، وثالثاً بأن مخفياً بمعنى ظاهر من أخفاه أي أظهره على أن الهمزة للإزالة أي أزال خفاءه، وترتيب قوله سبحانه: «فأحببت أن أعرف» الخ عليه باعتبار أن الظهور متى كان قوياً أوجب الجهالة بحال الظاهر فخلق سبحانه الخلق ليكونوا كالحجاب فيتمكن معه من المعرفة، ألا يرى أن الشمس لشدة ظهورها لا تستطيع أكثر الأبصار الوقوف على حالها إلا بواسطة وضع بعض الحجب بينها وبينها وهو كما ترى لا يخلو عن بحث، وأما إطلاق الكنز عليه عز وجل فقد ورد، روى الديلمي في مسنده عن أنس مرفوعاً كنز المؤمن ربه أي فإن منه سبحانه كل ما يناله من أمر نفيس في الدارين، والشيخ محيي الدين قدس سره ذكر في معنى ـ الكنز ـ غير ذلك فقال في الباب الثلاثمائة والثمانية والخمسين من فتوحاته: لو لم يكن في العالم من هو على صورة الحق ما حصل المقصود من العلم بالحق أعني العلم بالحادث في قوله: «كنت كنزاً» الخ فجعل نفسه كنزاً، والكنز لا يكون إلا مكتنزاً في شيء فلم يكن كنز الحق نفسه إلا في صورة الإنسان الكامل في شيئية ثبوته هناك كان الحق مكنوزاً فلما لبس الحق الإنسان ثوب شيئية الوجود ظهر الكنز بظهوره فعرفه الإنسان الكامل بوجوده وعلم أنه سبحانه كان مكنوزاً فيه في شيئية ثبوته وهو لا يشعر به انتهى، وهو منطق الطير الذي لا نعرفه نسأل الله تعالى التوفيق لما يحب ويرضى بمنه وكرمه.

(٥٢) سورة الطور مكية وآياتها تسع وأربعون

بسم الله الرحمن الرحيم

وَٱلطُّورِ ﴿١﴾ وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ ﴿٢﴾ فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ ﴿٣﴾ وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ ﴿٤﴾ وَٱلسَّقْفِ ٱلْمَرْفُوعِ ﴿٥﴾ وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ ﴿٦﴾

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ والطور ، وكتاب مسطور ، فى رق منشور ، والبيت المعمور ، والسقف المرفوع ، والبحر المسجور ﴾ هذه السورة مناسبة للسورة المتقدمة من حيث الافتتاح بالقسم وبيان الحشر فيهما ، وأول هذه السورة مناسب لآخر ماقبلها ، لأن فى آخرها قوله تعالى (فويل للذين كفروا) وهذه السورة فى أولها (فويل يومئذ للمكذبين) وفى آخر تلك السورة قال (فإن للذين ظلموا ذنوباً) إشارة إلى العذاب وقال هنا (إن عذاب ربك لواقع) وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ ما الطور ، وما الكتاب المسطور ؟ نقول فيه وجوه : (الأول) الطور هو جبل معروف كلم الله تعالى موسى عليه السلام عليه (الثانى) هو الجبل الذى قال الله تعالى (وطور سينين) (الثالث) هو اسم الجنس والمراد القسم بالجبل غير أن الطور الجبل العظيم كالطود ، وأما الكتاب ففيه أيضاً وجوه : (أحدها) كتاب موسى عليه السلام (ثانيها) الكتاب الذى فى السماء (ثالثها) صحائف أعمال الخلق (رابعها) القرآن وكيفما كان فهى فى رقوق ، وسنبين فائدة قوله تعالى (فى رق منشور) وأما البيت المعمور ففيه وجوه : (الأول) هو بيت فى السماء العليا عند العرش ووصفه بالعمارة لكثرة الطائفين به من الملائكة (الثانى) هو بيت الله الحرام وهو معمور بالحاج الطائفين به العاكفين (الثالث) البيت المعمور اللام فيه لتعريف الجنس كأنه يقسم بالبيوت المعمورة والعمائر المشهورة ، والسقف المرفوع السماء ، والبحر المسجور ، قيل الموقد يقال سجرت التنور ، وقيل هو البحر المملوء ماء المتموج ، وقيل هو بحر معروف فى السماء يسمى بحر الحيوان .

﴿ المسألة الثانية ﴾ ما الحكمة فى اختيار هذه الأشياء ؟ نقول هى تحتمل وجوهاً : (أحدها) إن الأماكن الثلاثة وهى : الطور ، والبيت المعمور ، والبحر المسجور ، أماكن كانت لثلاثة أنبياء ينفردون فيها للخلوة بربهم والخلاص من الخلق والخطاب مع الله ، أما الطور فانتقل إليه موسى

عليه السلام ، والبيت محمد ﷺ ، والبحر المسجور يونس عليه السلام ، والكل خاطبوا الله هناك فقال موسى (أتهلكنا بما فعل السفهاء منا إن هى إلا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدى من تشاء) وقال (أرنى أنظر إليك) وأما محمد ﷺ فقال «السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين ، لا أحصى ثناء عليك كما أثنيت على نفسك» وأما يونس فقال (لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين) فصارت الأماكن شريفة بهذه الأسباب ، فحلف الله تعالى بها ، وأما ذكر الكتاب فإن الأنبياء كان لهم فى هذه الأماكن مع الله تعالى كلام والكلام فى الكتاب واقترانه بالطور أدل على ذلك ، لأن موسى عليه السلام كان له مكتوب ينزل عليه وهو بالطور ، وأما ذكر السقف المرفوع ومعه البيت المعمور ليعلم عظمة شأن محمد ﷺ (ثانيها) وهو أن القسم لما كان على وقوع العذاب وعلى أنه لا دافع له ، وذلك لأن لا مهرب من عذاب الله لأن من يريد دفع العذاب عن نفسه ، فى بعض الأوقات يتحصن بمثل الجبال الشاهقة التى ليس لها طرف وهى متضايقة بين أنه لا ينفع التحصن بها من أمر الله تعالى كما قال ابن نوح عليه السلام (سآوى إلى جبل يعصمنى من الماء ، قال لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم) حكاية عن نوح عليه السلام .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ ما الحكمة فى تنكير الكتاب وتعريف باقى الأشياء ؟ نقول ما يحتمل الخفاء من الأمور الملتبسة بأمثالها من الأجناس يعرف باللام ، فيقال رأيت الأمير ودخلت على الوزير ، فإذا بلغ الأمير الشهرة بحيث يؤمن الالتباس مع شهرته ، ويريد الواصف وصفه بالعظمة ، يقول : اليوم رأيت أميراً ماله نظير جالساً وعليه سيما الملوك وأنت تريد ذلك الأمير المعلوم ، والسبب فيه أنك بالتنكير تشير إلى أنه خرج عن أن يعلم ويعرف بكنه عظمته ، فيكون كقوله تعالى (الحاقة ما الحاقة وما أدراك ما الحاقة) فاللام وإن كانت معرفة لكن أخرجها عن المعرفة كون شدة هولها غير معروف ، فكذلك ههنا الطور ليس فى الشهرة بحيث يؤمن اللبس عند التنكير ، وكذلك البيت المعمور ، وأما الكتاب الكريم فقد تميز عن سائر الكتب ، بحيث لا يسبق إلى أفهام السامعين من النبى صلى الله عليه وسلم لفظ الكتاب إلا ذلك ، فلما أمن اللبس وحصلت فائدة التعريف سواء ذكر باللام أو لم يذكر قصداً للفائدة الأخرى وهى فى الذكر بالتنكير ، وفى تلك الأشياء لما لم تحصل فائدة التعريف إلا بآلة التعريف استعملها ، وهذا يؤيد كون المراد منه القرآن وكذلك اللوح المحفوظ مشهور .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ ما الفائدة فى قوله تعالى (فى رق منشور) وعظمة الكتاب بلفظه ومعناه لا بخطه ورقه ؟ نقول هو إشارة إلى الوضوح ، وذلك لأن الكتاب المطوى لا يعلم ما فيه فقال هو (فى رق منشور) وليس كالكتب المطوية وعلى هذا المراد اللوح المحفوظ فمعناه هو منشور لكم لا يمنعكم أحد من مطالعته ، وإن قلنا بأن المراد كتاب أعمال كل أحد فالتنكير لعدم المعرفة بعينه وفى رق منشور لبيان وصفه كما قال تعالى (كتاباً يلقاه منشوراً) وذلك لأن غير المعروف إذا

إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ﴿٧﴾ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ ﴿٨﴾

وصف كان إلى المعرفة أقرب شبهاً .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ فى بعض السور أقسم بجموع كما فى قوله تعالى (والذاريات) وقوله (والمرسلات) وقوله (والنازعات) وفى بعضها بأفراد كما فى هذه السورة حيث قال (والطور) ولم يقل والأطوار والبحار ، ولا سيما إذا قلنا المراد من الطور الجبل العظيم كالطود ، كما فى قوله تعالى (ورفعنا فوقهم الطور) أى الجبل فما الحكمة فيه ؟ نقول فى الجموع فى أكثرها أقسم بالمتحركات والريح الواحدة ليست بثابتة مستمرة حتى يقع القسم بها ، بل هى متبدلة بأفرادها مستمرة بأنواعها والمقصود منها لا يحصل إلا بالتبدل والتغير فقال (والذاريات) إشارة إلى النوع المستمر إلى الفرد المعين المستقر ، وأما الجبل فهو ثابت قليل التغير والواحد من الجبال دائم زماناً ودهراً ، فأقسم فى ذلك بالواحد وكذلك قوله (والنجم) والريح ماعلم القسم به وفى الطور علم .

ثم قال تعالى ﴿ إن عذاب ربك لواقع ، ماله من دافع ﴾ إشارة إلى المقسم عليه وفيه مباحث (الأول) فى حرف إن وفيه مقامات (الأول) هى تنصب الاسم وترفع الخبر والسبب فيه هو أنها شبهت بالفعل من حيث اللفظ والمعنى ، أما اللفظ فلكون الفتح لازما فيها واختصاصها بالدخول على الأسماء والمنصوب منها على وزن إن أنينا ، وأما المعنى ، فنقول اعلم أن الجملة الإثباتية قبل الجملة الانتفائية ، ولهذا استغنوا عن حرف يدل على الإثبات ، فاذا قالوا زيد منطلق فهم منه إرادة إثبات الانطلاق لزيد ، والانتفائية لما كانت بعد المثبتة زيد فيها حرف يغيرها عن الأصل وهو الإثبات فقيل ليس زيد منطلقاً ، فصار ليس زيد منطلقا بعد قول القائل زيد منطلق ، ثم إن قول القائل إن زيداً منطلق مستنبط من قوله ليس زيد منطلقا ، كأن الواضع لما وضع أولا زيد منطلق للاثبات وعند النفى يحتاج إلى ما يغيره أتى بلفظ مغير وهو فعل من وجه لأنك قد تبقى مكانه ما النافية ولهذا قيل لست وليسوا ، فألحق به ضمير الفاعل ، ولولا أنه فعل لما جاز ذلك ، ثم أراد أن يضع فى مقابلة ليس زيد منطلقاً جملة إثباتية فيها لفظ الإثبات ، كما أن فى النافية لفظ النفى فقال إن ولم يقصد أن إن فعل لأن ليس يشبه بالفعل لما فيه من معنى الفعل وهو التغيير ، فانها غيرت الجملة من أصلها الذى هو الإثبات وأما إن فلم تغيره فالجملة على ماكانت عليه إثباتية فصارت مشبهة بالمشبهة بالفعل وهى ليس ، وهذا مايقوله النحويون فى إن وأن وكأن وليت ولعل إنها حروف مشبهة بالأفعال إذا علمت هذا ، فنقول كما إن ليس لها اسم كالفاعل وخبر كالمفعول ، تقول ليس زيد لئيما بالرفع والنصب كما تقول بات زيد كريما ، فكذلك إن لها اسم وخبر ، لكن اسمها يخالف اسم ليس وخبرها خبرها فان اسم إن منصوب وخبرها مرفوع ، لأن إن لما كانت زيادة على خلاف الأصل لأنها لا تفيد إلا الإثبات الذى كان مستفاداً من غير حرف ، وليس لما كانت زيادة على الأصل لأنها تغير الأصل

يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ﴿٩﴾ وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا ﴿١٠﴾

ولولاها لما حصل المقصود جعل المرفوع والمنصوب فى ليس على الأصل ، لأن الأصل تقديم الفاعل ، وفى إن جعل ذلك على خلاف الأصل وقدم المشبه بالمفعول على المشبه بالفاعل تقديماً لازماً فلا يجوز أن يقال إن منطلق زيداً وهو فى ليس منطلقاً زيد جائز كما فى الفعل لأنها فعل .

﴿ المقام الثانى ﴾ هى لم تكسر تارة وتفتح أخرى ؟ نقول الأصل فيها الكسرة والعارض وإن كان هذا فى الظاهر يخالف قول النحاة لكن فى الحقيقة هى كذلك .

﴿ المقام الثالث ﴾ لم تدخل اللام على خبر إن المكسورة دون المفتوحة ؟ قلنا قد خرج مما سبق أن قول القائل زيد منطلق أصل ، لأن المثبتات هى المحتاجة إلى الإخبار عنها فإن التغير فى ذلك ، وأما العدميات فعلى أصولها مستمرة ، ولهذا يقال الأصل فى الأشياء البقاء ثم إن السامع له قد يحتاج إلى الرد عليه فيقول ليس زيد منطلقاً فيقول هو إن زيداً منطلق فيقول هو رداً عليه ليس زيد بمنطلق فيقول رداً عليه إن زيداً لمنطلق وأن ليست فى مقابلة ليس وإنما هى متفرعة عن المكسورة .

﴿ المبحث الثانى ﴾ قوله تعالى (عذاب ربك) فيه لطيفة عزيزة وهى أنه تعالى لو قال إن عذاب الله لواقع ، والله اسم منبىء عن العظمة والهيبة كان يخاف المؤمن بل النبى صلى الله عليه وسلم من أن يلحقه ذلك لكونه تعالى مستغنياً عن العالم بأسره ، فضلا عن واحد فيه فآمنه بقوله (ربك) فإنه حين يسمع لفظ الرب يأمن .

﴿ المبحث الثالث ﴾ قوله (لواقع) فيه إشارة إلى الشدة ، فإن الواقع والوقوع من باب واحد فالواقع أدل على الشدة من الكائن . ثم قال تعالى (ماله من دافع) والبحث فيه قد تقدم فى قوله تعالى (وما ربك بظلام للعبيد) وقد ذكرنا أن قوله (والطور . . والبيت المعمور . . والبحر المسجور) فيه دلالة على عدم الدافع فإن من يدفع عن نفسه عذاباً قد يدفع بالتحصن بقلل الجبال ولجج البحار ولا ينفع ذلك بل الوصول إلى السقف المرفوع ودخول البيت المعمور لا يدفع .

قوله تعالى : ﴿ يوم تمور السماء موراً ، وتسير الجبال سيراً ﴾ وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ ما الناصب ليوم ؟ نقول المشهور أن ذلك هو الفعل الذى يدل عليه واقع أى يقع العذاب (يوم تمور السماء موراً) والذى أظنه أنه هو الفعل المدلول عليه بقوله (ماله من دافع) وإنما قلت ذلك لأن العذاب الواقع على هذا ينبغى أن يقع فى ذلك اليوم ، لكن العذاب الذى به التخويف هو الذى بعد الحشر ، ومور السماء قبل الحشر ، وأما إذا قلنا معناه (ليس له دافع) يوم تمور فيكون فى معنى قوله (فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا) كأنه تعالى يقول : ماله من دافع فى ذلك اليوم وهو ما إذا صارت السماء تمور فى أعينكم والجبال تسير ، وتتحققون أن الأمر لا ينفع شيئاً ولا يدفع .

﴿ المسألة الثانية ﴾ ما مور السماء ؟ نقول خروجها عن مكانها تتردد وتموج ، والذى تقوله الفلاسفة قد علمت ضعفه مراراً وقوله تعالى (وتسير الجبال سيراً) يدل على خلاف قولهم ، وذلك لأنهم وافقوا على أن خروج الجبل العظيم من مكانه جائز وكيف لا وهم يقولون بأن زلزلة الأرض مع ما فيها من الجبال ببخار يجتمع تحت الأرض فيحركها ، وإذا كان كذلك فنقول السماء قابلة للحركة بإخراجها خارجة عن السمتيات والجبل ساكن يقتضى طبعه السكون ، وإذا قبل جسم الحركة مع أنها على خلاف طبعه ، فلأن يقبلها جرم آخر مع أنها على موافقته أولى ، وقولهم القابل للحركة المستديرة لا يقبل الحركة المستقيمة فى غاية الضعف ، وقوله (موراً) يفيد فائدة جليلة وهى أن قوله تعالى (وتسير الجبال) يحتمل أن يكون بياناً لكيفية مور السماء ، وذلك لأن الجبال إذا سارت وسيرت معها سكانها يظهر أن السماء كالسيارة إلى خلاف تلك الجهة كما يشاهده راكب السفينة فإنه يرى الجبل الساكن متحركا ، فكان لقائل أن يقول السماء تمور فى رأى العين بسبب سير الجبال كما يرى القمر سائراً راكب السفينة ، والسماء إذا مارت كذلك فلا يبقى مهرب ولا مفزع لا فى السماء ولا فى الأرض .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ ما السبب فى مورها وسيرها ؟ قلنا قدرة الله تعالى ، وأما الحكمة فالإيذان والإعلام بأن لا عود إلى الدنيا ، وذلك لأن الأرض والجبال والسماء والنجوم كلها لعمارة الدنيا والانتفاع لبنى آدم بها ، فان لم يتفق لهم عود لم يبق فيها نفع فأعدمها الله تعالى .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ لو قال قائل كنت وعدت ببحث فى الزمان يستفيد العاقل منه فوائد فى اللفظ والمعنى وهذا موضعه ، فإن الفعل لا يضاف إليه شىء غير الزمان فيقال يوم يخرج فلان وحين يدخل فلان ، وقال الله تعالى (يوم ينفع الصادقين) وقال (ويوم تمور السماء) وقال (يوم خلق السموات والأرض) وكذلك يضاف إلى الجملة فما السبب فى ذلك ؟

فنقول الزمان ظرف الأفعال كما أن المكان ظرف الأعيان ، وكما أن جوهراً من الجواهر لا يوجد إلا فى مكان ، فكذلك عرض من الأعراض لا يتجدد إلا فى زمان ، وفيهما تحير خلق عظيم ، فقالوا إن كان المكان جوهراً فله مكان آخر ويتسلسل الأمر ، وإن كان عرضاً فالعرض لا بد له من جوهر ، والجوهر لا بد له من مكان فيدور الأمر أو يتسلسل ، وإن لم يكن جوهراً ولا عرضاً ، فالجوهر يكون حاصلا فيما لا وجود له أو فيما لا إشارة إليه ، وليس كذلك ، وقالوا فى الزمان إن كان الزمان غير متجدد فيكون كالأمور المستمرة فلا يثبت فيه المضى والاستقبال ، وإن كان متجدداً وكل متجدد فهو فى زمان ، فللزمان زمان آخر فيتسلسل الأمر ، ثم إن الفلاسفة التزموا التسلسل فى الأزمنة ، ووقعوا بسبب هذا فى القول بقدم العالم ولم يلتزموا التسلسل فى الأمكنة وفرقوا بينهما من غير فارق وقوم التزموا التسلسل فيهما جميعاً ، وقالوا بالقدم وأزمان لا نهاية لها وبالامتداد وأبعاد لا نهاية لها ، وهم وإن خالفونا فى المسألتين جميعاً والفلاسفة وافقونا فى إحداهما دون

الآخرى لكنهم سلكوا جادة الوهم ولم يتركوا على أنفسهم سبيل الإلتزام فى الأزمان . وإن قيل فالمتجدد الأول قبله ماذا ؟ نقول ليس قبله شيء ، فإن قيل فعدمه قبله أو قبله عدمه ؟ نقول قولنا ليس قبله شيء أعم من قولك قبله عدمه ، لأنا إذا قلنا ليس قبل آدم حيوان بألف رأس ، صدقنا ولا يستلزم ذلك صدق قولنا آدم قبل حيوان بألف رأس أو حيوان بألف رأس بعد آدم ، لانتفاء ذلك الحيوان أولا وآخراً وعدم دخوله فى الوجود أزلا وأبداً ، فكذلك ما قلنا ، فإن قيل هذا لا يصح ، لأن الله تعالى شيء موجود وهو قبل العالم ، نقول قولنا ليس قبل المتجدد الأول شيء معناه ليس قبله شي بالزمان ، وأما الله تعالى فليس قبله بالزمان إذكان الله ولا زمان ، والزمان وجد مع المتجدد الأول ، فان قيل فما معنى وجود الله قبل كل شيء غيره ؟ نقول معناه كان الله ولم يكن شيء غيره لا يقال ما ذكرتم إثبات شيء بشيء ولا يثبت ذلك الشيء إلا بما ترومون إثباته ، فإن بداية الزمان غرضكم وهو مبنى على المتجدد الأول والنزاع فى المتجدد ، فإن عند الخصم ليس فى الوجود متجدد أول بل قبل كل متجدد ، لأنا نقول نحن ما ذكرنا ذلك دليلا ، وإنما ذكرناه بياناً لعدم الإلزام ، وأنه لا يرد علينا شيء إذا قلنا بالحدوث ونهاية الأبعاد واللزم والإلزام ، فيسلم الكلام الأول ، ثم يلزم ويقول : ألست تقول إن لنا متجدداً أولا فكذلك قل له عدم ، فنقول لا بل ليس قبله أمر بالزمان ، فيكون ذلك نفياً عاماً ، وإنما يكون ذلك لانتفاء الزمان ، كما ذكرنا فى المثال ، إذا علمت هذا فصار الزمان تارة موجوداً مع عرض وأخرى موجوداً بعد عرض ، لأن يومنا هذا وغيره من الأيام كلها صارت متميزة بالمتجدد الأول ، والمتجدد الأول له زمان هو معه ، إذا عرفت أن الزمان والمكان أمرهما مشكل بالنسبة إلى بعض الأفهام والأمر الخفى يعرف بالوصف والإضافة ، فإنك إذا قلت غلام لم يعرف ، فإذا وصفته أو أضفته وقلت غلام صغير أو كبير ، وأبيض أو أسود قرب من الفهم ، وكذلك إذا قلت غلام زيد قرب ، ولم يكن بد من معرفة الزمان ، ولا يعرف الشيء إلا بما يختص به ، فإنك إذا قلت فى الإنسان حيوان موجود بعدته عن الفهم ، وإذا قلت حيوان طويل القامة قربته منه ، ففى الزمان كان يجب أن يعرف بما يختص به لأن الفعل الماضى والمستقبل والحال يختص بأزمنة ، والمصدر له زمان مطلق ، فلو قلت زمان الخروج تميز عن زمان الدخول وغيره ، فإذا قلت يوم خرج أفاد ما أفاد قولك يوم الخروج مع زيادة هو أنه تميز عن يوم يخرج والإضافة إلى ماهو أشد تمييزاً أولى ، كما أنك إذا قلت غلام رجل ميزته عن غلام امرأة ، وإذا قلت غلام زيد زدت عليه فى الإفادة وكان أحسن ، كذلك قولنا يوم خرج لتعريف ذلك اليوم خير من قولك يوم الخروج ، فظهر من هذا البحث أن الزمان يضاف إلى الفعل وغيره لا يضاف لاختصاص الفعل بالزمان دون غيره إلا المكان فى قوله اجلس حيث يجلس ، فإن حيث يضاف إلى الجمل لمشابهة ظرف المكان لظرف الزمان ، وأما الجمل فهى إنما يصح بواسطة تضمنها الفعل ، فلا يقال يوم زيد أخوك ، ويقال يوم زيد فيه خارج .

فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ﴿١٢﴾

ومن جملة الفرائد اللفظية أن لات يختص استعمالها بالزمان قال الله تعالى (ولات حين مناص) ولا يقال لات الرجل سوء ، وذلك لأن الزمان تجدد بعد تجدد ولا يبق بعد الفناء حياة أخرى وبعد كل حركة حركة أخرى وبعد كل زمان زمان وإليه الإشارة بقوله تعالى (كل يوم هو فى شأن) أى قبل الخلق لم يخلق شيئاً . لكنه بعد ماخلق فهو أبداً دائماً يخلق شيئاً بعد شيء فبعد حياتنا موت وبعد موتنا حياة وبعد حياتنا حساب وبعد الحساب ثواب دائم أوعقاب لازم ولا يترك الله الفعل فلما بعد الزمان عن النفى زيد فى الحروف النافية زيادة ، فان قيل فالله تعالى أبعد عن الانتفاء فكان ينبغى أن لا تقرب التاء بكلمة لاهناك ، نقول (لات حين مناص) تأويل وعليه لا يرد ماذكرتم وهو أن لا هى المشبهة بليس تقديره ليس الحين حين مناص ، وهو المشهور ، ولذلك اختص بالحين دون اليوم والليل لأن الحين أدوم من الليل والنهار فالليل والنهار قد لا يكون والحين يكون .

قوله تعالى : ﴿ فويل يومئذ للمكذبين ، الذين هم فى خوض يلعبون ﴾ أى إذا علم أن عذاب الله واقع وأنه ليس له دافع فويل إذاً للمكذبين ، فالفاء لاتصال المعنى ، وهو الإيذان بأمان أهل الإيمان ، وذلك لأنه لما قال (إن عذاب ربك لواقع) لم يبين بأن موقعه بمن ، فلما قال (فويل يومئذ للمكذبين) علم المخصوص به وهو المكذب ، وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ إذا قلت بأن قوله (ويل يومئذ للمكذبين) بيان لمن يقع به العذاب وينزل عليه فمن لا يكذب لا يعذب ، فأهل الكبائر لا يعذبون لأنهم لا يكذبون ، نقول ذلك العذاب لا يقع على أهل الكبائر وهذا كما فى قوله تعالى (كلما ألقى فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير ، قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا) فنقول المؤمن لا يلقى فيها إلقاء بهوان ، وإنما يدخل فيها ليطهر إدخال مع نوع إكرام ، فكذلك الويل للمكذبين ، والويل ينبيء عن الشدة وتركيب حروف الواو والياء واللام لا ينفك عن نوع شدة ، منه لوى إذا دفع ولوى يلوى إذا كان قوياً والولى فيه القوة على المولى عليه ، ويدل عليه قوله تعالى (يدعون) فان المكذب يدع والمصدق لا يدع ، وقد ذكرنا جواز التنكير فى قوله (ويل) مع كونه مبتدأ لأنه فى تقدير المنصوب لأنه دعاء ومضى ، ووجهه فى قوله تعالى (قال سلام) والخوض نفسه خص فى استعمال القرآن بالاندفاع فى الأباطيل ، ولهذا قال تعالى (وخضتم كالذى خاضوا) وقال تعالى (وكنا نخوض مع الخائضين) وتنكير الخوض يحتمل وجهين (أحدهما) أن يكون للتكثير أى فى خوض كامل عظيم (ثانيهما) أن يكون التنوين تعويضاً عن المضاف إليه ، كما فى قوله تعالى (إلا) وقوله (وإن كلا) و (بعضهم ببعض) والأصل فى خوضهم المعروف منهم وقوله (الذين هم فى خوض) ليس وصفاً للمكذبين بما يميزهم ، وإنما هو الذم كما أنك تقول الشيطان الرجيم

يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾

ولا تريد فصله عن الشيطان الذى ليس برجيم بخلاف قولك أكرم الرجل العالم ، فالوصف بالرجيم للذم به لا للتعريف وتقول فى المدح : الله الذى خلق ، والله العظيم للمدح لا للتمييز ولا للتعريف عن إله لم يخلق أو إله ليس بعظيم ، فإن الله واحد لا غير .

ثم قال تعالى ﴿ يوم يدعون إلى نار جهنم دعاً ﴾ وفيه مباحث لفظية ومعنوية . أما اللفظية ففيها مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ يوم منصوب بماذا ؟ نقول الظاهر أنه منصوب بما بعده وهو ما يدل عليه قوله تعالى (هذه النار) تقديره يوم يدعون يقال لهم هذه النار التى كنتم بها تكذبون ، ويحتمل غير هذا وهو أن يكون يوم بدلا عن يوم فى يومئذ تقريره فويل يومئذ للمكذبين ويوم يدعون أى المكذبون وذلك أن قوله (يومئذ) معناه يوم يقع العذاب وذلك اليوم هو (يوم يدعون) فيه إلى النار .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قوله (يدعون إلى النار) يدل على هول نار جهنم ، لأن خزنتها لا يقربون منها وإنما يدفعون أهلها إليها من بعيد ويلقونهم فيها وهم لا يقربونها .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ (دعاً) مصدر ، وقد ذكرت فائدة ذكر المصادر وهى الإيذان بأن الدع دع معتبر يقال له دع ولا يقال فيه ليس بدع ، كما يقول القائل فى الضرب الخفيف مستحقراً له : هذا ليس بضرب والعدو المهين : هذا ليس بعدو فى غير المصادر ، والرجل الحقير ليس برجل إلا على قراءة من قرأ (يدعون إلى نار جهنم دعاء) فإن دعاء حينئذ يكون منصوباً على الحال تقديره يقال لهم هلموا إلى النار مدعوين إليها .

أما المعنوية فنقول قوله تعالى (يوم يدعون إلى نار جهنم) يدل على أن خزنتها يقذفونهم فيها وهم بعداء عنها ، وقال تعالى (يوم يسحبون فى النار) نقول الجواب عنه من وجوه (أحدها) أن الملائكة يسحبونهم فى النار ثم إذا قربوا من نار مخصوصة هى نار جهنم يقذفونهم فيها من بعيد فيكون السحب فى النار والدفع فى نار أشد وأقوى ، ويدل عليه قوله تعالى (يسحبون فى الحميم ثم النار يسجرون) أى يكون لهم سحب فى حموة النار . ثم بعد ذلك يكون لهم إدخال (الثانى) جاز أن يكون فى كل زمان يتولى أمرهم ملائكة ، فإلى النار يدفعهم ملك وفى النار يسحبهم آخر .

(الثالث) جاز أن يكون السحب بسلاسل يسحبون فى النار والساحب خارج النار .

(الرابع) يحتمل أن يكون الملائكة يدفعون أهل النار إلى النار إهانة واستخفافاً بهم ، ثم يدخلون معهم النار ويسحبونهم فيها .

قوله تعالى : ﴿ هذه النار التى كنتم بها تكذبون ﴾ على تقدير يقال .

أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾ ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓا۟ أَوْ لَا تَصْبِرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾

قوله تعالى : ﴿أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون﴾ تحقيقاً للأمر ، وذلك لأن من يرى شيئاً ولا يكون الأمر على مايراه ، فذلك الخطأ يكون لأجل أحد أمرين إما لأمر عائد إلى المرئى وأما لأمر عائد إلى الرائى فقوله (أفسحر هذا) أى هل فى المرئى شك أم هل فى بصركم خلل ؟ استفهام إنكار ، أى لا واحد منهما ثابت ، فالذى ترونه حق وقد كنتم تقولون إنه ليس بحق ، وإنما قال (أفسحر) وذلك أنهم كانوا ينسبون المرئيات إلى السحر فكانوا يقولون بأن انشقاق القمر وأمثاله سحر وفى ذلك اليوم لما تعلق بهم مع البصر الألم المدرك بحس اللمس وبلغ الإيلام الغاية لم يمكنهم أن يقولوا هذا سحر ، وإلا لما صح منهم طلب الخلاص من النار .

قوله تعالى : ﴿اصلوها فاصبروا أولا تصبروا سواء عليكم إنما تجزون ما كنتم تعملون﴾ أى إذا لم يمكنكم إنكارها وتحقق أنه ليس بسحر ولا خلل فى أبصاركم فاصلوها . وقوله تعالى (فاصبروا أو لاتصبروا) فيه فائدتان (إحداهما) بيان عدم الخلاص وانتفاء المناص فإن من لا يصبر يدفع الشيء عن نفسه إما بأن يدفع المعذب فيمنعه وإما بأن يغضبه فيقتله ويريحه ولا شيء من ذلك يفيد فى عذاب الآخرة فان من لا يغلب المعذب فيدفعه ولا يتلخص بالإعدام فانه لايقضى عليه فيموت ، فإذن الصبر كعدمه ، لأن من يصبر يدوم فيه ، ومن لا يصبر يدوم فيه (الثانية) بيان ما يتفاوت به عذاب الآخرة عن عذاب الدنيا ، فإن المعذب فى الدنيا إن صبر ربما انتفع بالصبر إما بالجزاء فى الآخرة ، وإما بالحمد فى الدنيا ، فيقال له ما أشجعه وما أقوى قلبه ، وإن جزع يذم ، فيقال يجزع كالصبيان والنسوان ، وأما فى الآخرة لا مدح ولا ثواب على الصبر ، وقوله تعالى (سواء عليكم) (سواء) خبر ، ومبتدأه مدلول عليه بقوله (فاصبروا أولا تصبروا) كأنه يقول : الصبر وعدمه سواء ، فإن قيل يلزم الزيادة فى التعذيب ، ويلزم التعذيب على المنوى الذى لم يفعله ، نقول فيه لطيفة ، وهى أن المؤمن بإيمانه استفاد أن الخير الذى ينويه يثاب عليه ، والشر الذى ينويه ولا يحققه لا يعاقب عليه ، والكافر بكفره صار على الضد ، فالخير الذى ينويه ولا يعمله لا يثاب عليه ، والشر الذى يقصده ولا يقع منه يعاقب عليه ولا ظلم ، فإن الله تعالى أخبره به ، وهو اختار ذلك ودخل فيه باختياره ، كأن الله تعالى قال : فإن من كفر ومات كافراً أعذبه أبداً فاحذروا ، ومن آمن أثيبه دائماً ، فمن ارتكب الكفر ودام عليه بعد ماسمع ذلك ، فإذا عاقبه المعاقب دائماً تحقيقاً لما أوعده به لا يكون ظالماً .

قوله تعالى : ﴿إن المتقين فى جنات ونعيم﴾ على ما هو عادة القرآن من بيان حال المؤمن

فَـٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٨﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَـٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٢٠﴾

بعد بيان حال الكافر ، وذكر الثواب عقيب ذكر العقاب ليتم أمر الترهيب والترغيب ، وقد ذكرنا تفسير (المتقين) فى مواضع ، والجنة وإن كانت موضع السرور ، لكن الناطور قد يكون فى البستان الذى هو غاية الطيبة وهو غير متنعم ، فقوله (ونعيم) يفيد أنهم فيها يتنعمون ، كما يكون المتفرج لا كما يكون الناطور .

وقوله ﴿ فاكهين ﴾ يزيد فى ذلك لأن المتنعم قد يكون آثار التنعم على ظاهره وقلبه مشغول ، فلما قال (فاكهين) يدل على غاية الطيبة ، وقوله (بما آتاهم ربهم) يفيد زيادة فى ذلك ، لأن الفكه قد يكون خسيس النفس فيسره أدنى شىء ، ويفرح بأقل سبب ، فقال (فاكهين) لا لدنو هممهم بل لعلو نعمهم حيث هى من عند ربهم .

قوله تعالى :﴿ ووقاهم ربهم عذاب الجحيم ﴾ يحتمل وجهين (أحدهما) أن يكون المراد أنهم (فاكهون) بأمرين أحدهما بما آتاهم ، والثانى بأنه وقاهم (وثانيهما) أن يكون ذلك جملة أخرى منسوقة على الجملة الأولى ، كأنه بين أنه أدخلهم جنات ونعيما (ووقاهم عذاب الجحيم) .

قوله تعالى :﴿ كلوا واشربوا هنيئاً بما كنتم تعملون ، متكئين على سرر مصفوفة وزوجناهم بحور عين ﴾ وفيه بيان أسباب التنعيم على الترتيب ، فأول مايكون المسكن وهو الجنات ثم الأكل والشرب ، ثم الفرش والبسط ثم الأزواج ، فهذه أمور أربعة ذكرها الله على الترتيب ، وذكر فى كل واحد منها مايدل على كماله قوله (جنات) إشارة إلى المسكن والمسكن للجسم ضرورى وهو المكان ، فقال (فاكهين) لأن مكان التنعيم قد يتنغص بأمور وبين سبب الفكاهة وعلو المرتبة يكون بما آتاهم الله ، وقد ذكرنا هذا ، وأما فى الأكل والشرب والأذن المطلق فترك ذكر المأكول والمشروب لتنوعهما وكثرتهما ، وقوله تعالى (هنيئاً) إشارة إلى خلوهما عما يكون فيهما من المفاسد فى الدنيا ، منها أن الآكل يخاف من المرض فلا يهنأ له الطعام ، ومنها أنه يخاف النفاد فلا يسخو بالأكل والكل منتف فى الجنة فلا مرض ولا انقطاع ، فإن كل أحد عنده ما يفضل عنه ، ولا إثم ولا تعب فى تحصيله ، فان الإنسان فى الدنيا ربما يترك لذة الأكل لما فيه من تهيئة المأكول بالطبخ والتحصيل من التعب أو المنة أو مافيه من قضاء الحاجة واستقذار مافيه ، فلا يتهنأ . وكل ذلك فى الجنة منتف . وقوله تعالى (بما كنتم تعملون) إشارة إلى أنه تعالى يقول

أى مع أنى ربكم وخالقكم وأدخلتكم بفضلى الجنة ، وإنما منتى عليكم فى الدنيا إذ هديتكم ووفقتكم للأعمال الصالحة كما قال تعالى (بل الله يمن عليكم أن هداكم للايمان) . وأما اليوم فلا من عليكم لأن هذ إنجاز الوعد فإن قيل قال فى حق الكفار (إنما تجزون ما كنتم تعملون) وقال فى حق المؤمنين (بما كنتم تعملون) فهل بينهما فرق ؟ قلت بينهما بون عظيم من وجوه (الأول) كلمة إنما للحصر أى لاتجزون إلا ذلك ، ولم يذكر هذا فى حق المؤمن فإنه يجزيه أضعاف ماعمل ويزيده من فضله ، وحينئذ إن كان يمن الله على عبده فيمن بذلك لا بالأكل والشرب (الثانى) قال هنا (بما كنتم) وقال هناك (ما كنتم) أى تجزون عين أعمالكم إشارة إلى المبالغة فى المماثلة كما تقول هذا عين ماعملت وقد تقدم بيان هذا وقال فى حق المؤمن (بما كنتم) كأن ذلك أمر ثابت مستمر بعملكم هذا (الثالث) ذكر الجزاء هناك وقال ههنا (بما كنتم تعملون) لأن الجزاء ينبىء عن الانقطاع فإن من أحسن إلى أحد فأتى بجزائه لا يتوقع المحسن منه شيئاً آخر . فان قيل فالله تعالى قال فى مواضع (جزاء بما كنتم تعملون) فى الثواب ، نقول فى تلك المواضع لما لم يخاطب المجزى لم يقل تجزى وإنما أتى بما يفيد العالم بالدوام وعدم الانقطاع . وأما فى السرر فذكر أموراً أيضاً (أحدها) الاتكاء فانه هيئة تختص بالمنعم ، والفارغ الذى لا كلفة عليه ولا تكلف لديه فان من يكون عنده من يتكلف له يجلس له ولا يتكىء عنده ، ومن يكون فى مهم لا يتفرغ للاتكاء فالهيئة دليل خير . ثم الجمع يحتمل أمرين (أحدهما) أن يكون لكل واحد سرر وهو الظاهر لأن قوله (مصفوفة) يدل على أنها لواحد لأن سرر الكل لا تكون فى موضع واحد مصطفة ولفظ السرير فيه حروف السرور بخلاف التخت وغيره ، وقوله (مصفوفة) دليل على أنه لمجرد العظم فانها لو كانت متفرقة لقيل فى كل موضع واحد ليتكىء عليه صاحبه إذا حضر فى هذا الموضع ، وقوله تعالى (وزوجناهم) إشارة إلى النعمة الرابعة وفيها أيضاً ما يدل على كمال الحال من وجوه (أحدها) أنه تعالى هو المزوج وهو يتولى الطرفين يزوج عباده بأمانه ومن يكون كذلك لا يفعل إلا مافيه راحة العباد والإماء (ثانيها) قال (وزوجناهم بحور) ولم يقل وزوجناهم حوراً مع أن لفظة التزويج يتعدى فعله إلى مفعولين بغير حرف يقال زوجتكها قال تعالى (فلما قضى زيد منها وطراً زوجناكها) وذلك إشارة إلى أن المنفعة فى التزويج لهم وإنما زوجوا للذتهم بالحور لا للذة الحور بهم وذلك لأن المفعول بغير حرف يعلق الفعل به كذلك التزويج تعلق بهم ثم بالحور ، لأن ذلك بمعنى جعلنا ازدواجهم بهذا الطريق وهو الحور (ثالثها) عدم الاقتصار على الزوجات بل وصفهن بالحسن واختار الأحسن من الأحسن ، فإن أحسن مافى صورة الآدمى وجهه وأحسن مافى الوجه العين ، ولأن الحور والعين يدلان على حسن المزاج فى الأعضاء ووفرة المادة فى الأرواح ، أما حسن المزاج فعلامته الحور ، وأما وفرة الروح فان سعة العين بسبب كثرة الروح المصوبة إليها ، فإن قيل قوله (زوجناهم) ذكره بفعل ماض و (متكئين) حال ولم يسبق ذكر فعل ماض

وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ

يعطف عليه ذلك وعطف الماضى على الماضى والمستقبل على المستقبل أحسن ، نقول الجواب من وجوه اثنان لفظيان ومعنوى (أحدها) أن ذلك حسن فى كثير من المواضع ، تقول جاء زيد ويجىء عمرو وخرج زيد (ثانيها) أن قوله تعالى (إن المتقين فى جنات ونعيم) تقديره أدخلناهم فى جنات ، وذلك لأن الكلام على تقدير أن فى اليوم الذى يدع الكافر فى النار فى ذلك الوقت يكون المؤمن قد أدخل مكانه ، فكأنه تعالى يقول فى (يوم يدعون إلى نار جهنم) إن المتقين كائنون فى جنات (والثالث) المعنوى وهو أنه تعالى ذكر مجزاة الحكم ، فهو فى هذا اليوم زوج عباده حوراً عيناً ، وهن منتظرات الزفاف يوم الآزفة .

ثم قال تعالى ﴿ والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم[1] بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم ﴾ وفيه لطائف (الأولى) أن شفقة الأبوة كما هى فى الدنيا متوفرة كذلك فى الآخرة ، ولهذا طيب الله تعالى قلوب عباده بأنه لا يولهم بأولادهم بل يجمع بينهم ، فإن قيل قد ذكرت فى تفسير بعض الآيات أن الله تعالى يسلى الآباء عن الأبناء وبالعكس ، ولا يتذكر الأب الذى هو من أهل الجنة الابن الذى هو من أهل النار ، نقول الولد الصغير وجد فى والده الأبوة الحسنة ولم يوجد لها معارض ولهذا ألحق الله الولد بالوالد فى الإسلام فى دار الدنيا عند الصغر وإذا كبر استقل ، فإن كفر ينسب إلى غير أبيه ، وذلك لأن الإسلام للمسلمين كالأب ولهذا قال تعالى (إنما المؤمنون إخوة) جمع أخ بمعنى أخوة الولادة والإخوان جمعه بمعنى أخوة الصداقة والمحبة فإذن الكفر من حيث الجنس والعرف أب ، فإن خالف دينه دين أبيه صار له من حيث الشرع أب آخر ، وفيه إرشاد الآباء إلى أن لا يشغلهم شىء عن الشفقة على الولد فيكون من القبيح الفاحش أن يشتغل الإنسان بالتفرج فى البستان مع الأحبة الإخوان وعن تحصيل قرت الولدان ، وكيف لا يشتغل أهل الجنة بما فى الجنة من الحور العين عن أولادهم حتى ذكروهم فأراح الله قلوبهم بقوله (ألحقنا بهم ذرياتهم) وإذا كان كذلك فما ظنك بالفاسق الذى يبذر ماله فى الحرام ويترك أولاده يتكففون وجوه اللئام والكرام ، نعوذ بالله منه وهذا يدل على أن من يورث أولاده مالا حلالا يكتب له به صدقة ، ولهذا لم يجوز للمريض التصرف فى أكثر من الثلث .

﴿ اللطيفة الثانية ﴾ قوله تعالى (واتبعتهم ذريتهم[1]) فهذا ينبغى أن يكون دليلا على أنا فى الآخرة نلحق بهم لأن فى دار الدنيا مراعاة الأسباب أكثر . ولهذا لم يجر الله عادته على أن يقدم بين يدى الإنسان طعاماً من السماء ، فما يتسبب له بالزراعة والطحن والعجن لا يأكله ، وفى الآخرة

(١) فى الطبعة الأميرية (وأتبعناهم ذرياتهم) فى الموضعين وهى قراءة وعليها جرى المفسر فى تفسيره ، وهى لا تفيد إيمان الذرية بخلاف قراءة حفص واتبعتهم ذريتهم فهى تفيد إيمان الذرية ، مع أن الذرية تابعة لأصلها لسقوط التكليف ، بل إن أولاد غير المؤمنين هم على فطرة الايمان بدليل الحديث « كل مولود يولد على الفطرة وأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه » .

وَمَآ أَلَتۡنَٰهُم مِّنۡ عَمَلِهِم مِّن شَيۡءٖ

يؤتيه ذلك من غير سعي جزاء له على ماسعى له من قبل فينبغي أن يجعل ذلك دليلا ظاهراً على أن الله تعالى يلحق به ولده وإن لم يعمل عملا صالحاً كما أتبعه ، وإن لم يشهد ولم يعتقد شيئاً .

﴿ اللطيفة الثالثة ﴾ فى قوله تعالى (بإيمان) فان الله تعالى أتبع الولد الوالدين فى الإيمان ولم يتبعه أباه فى الكفر بدليل أن من أسلم من الكفار حكم بإسلام أولاده ، ومن ارتد من المسلمين والعياذ بالله لا يحكم بكفر ولده .

﴿ اللطيفة الرابعة ﴾ قال فى الدنيا (أتبعناهم) وقال فى الآخرة (ألحقنا بهم) وذلك لأن فى الدنيا لايدرك الصغير التبع مساوات المتبوع ، وإنما يكون هو تبعاً والأب أصلا لفضل الساعى على غير الساعى ، وأما فى الآخرة فإذا ألحق الله بفضله ولده به جعل له من الدرجة مثل ما لأبيه .

﴿ اللطيفة الخامسة ﴾ فى قوله تعالى ﴿ وما ألتناهم ﴾ تطييب لقلبهم وإزالة وهم المتوهم أن ثواب عمل الأب يوزع على الوالد والولد بل للوالد أجر عمله بفضل السعى ولأولاده مثل ذلك فضلا من الله ورحمة .

﴿ اللطيفة السادسة ﴾ فى قوله تعالى ﴿ من عملهم ﴾ ولم يقل من أجرهم ، وذلك لأن قوله تعالى (وما ألتناهم من عملهم) دليل على بقاء عملهم كما كان والأجر على العمل مع الزيادة فيكون فيه الإشارة إلى بقاء العمل الذى له الأجر الكبير الزائد عليه العظيم العائد إليه ، ولوقال : ما ألتناهم من أجرهم ، لكان ذلك حاصلا بأدنى شيء لأن كل ما يعطى الله عبده على عمله فهو أجر كامل ولأنه لو قال تعالى ماألتناهم من أجرهم ، كان مع ذلك يحتمل أن يقال إن الله تعالى تفضل عليه بالأجر الكامل على العمل الناقص ، وأعطاه الأجر الجزيل ، مع أن عمله كان له ولولده جميعاً ، وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قوله تعالى (والذين آمنوا) عطف على ماذا ؟ نقول على قوله (إن المتقين)

﴿ المسألة الثانية ﴾ إذا كان كذلك فلم أعاد لفظ (الذين آمنوا) وكان المقصود يحصل بقوله تعالى (وألحقنا بهم ذرياتهم) بعد قوله (وزوجناهم) وكان يصير التقدير وزوجناهم وألحقنا بهم ؟ نقول فيه فائدة وهو أن المتقين هم الذين اتقوا الشرك والمعصية وهم (الذين آمنوا وعملوا الصالحات) وقال ههنا (الذين آمنوا) أى بوجود الإيمان يصير ولده من أهل الجنة ، ثم إن ارتكب الأب كبيرة أو صغيرة على صغيرة لايعاقب به ولده بل الوالد وربما يدخل الجنة الإبن قبل الأب ، وفيه لطيفة معنوية ، وهو أنه ورد فى الاخبار أن الولد الصغير يشفع لأبيه وذلك اشارة إلى الجزاء .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ هل يجوز غير ذلك ؟ نقول نعم يجوز أن يكون قوله تعالى (والذين آمنوا) عطفاً على (بحور عين) تقديره : زوجناهم بحور عين ، أى قرناهم بهن ، وبالذين آمنوا ، إشارة إلى قوله تعالى (إخواناً على سرر متقابلين) أى جمعنا شملهم بالأزواج والإخوان والأولاد بقوله تعالى (وأتبعناهم) وهذا الوجه ذكره الزمخشرى والأول أحسن وأصح ، فإن قيل كيف يصح على

كُلُّ ٱمْرِيِٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾

هذا الوجه الإخبار بلفظ الماضي مع أنه سبحانه وتعالى بعد ماقرن بينهم ؟ قلنا صح في وزوجناهم على ما ذكر الله تعالى من تزويجهن منا من يوم خلقهن وإن تأخر زمان الاقتران .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قرىء (ذرياتهم) في الموضعين بالجمع وذريتهم فيهما بالفرد ، وقرىء في الأول (ذرياتهم) وفي الثانية (ذريتهم) فهل للثالث وجه ؟ نقول نعم معنوي لالفظي وذلك لأن المؤمن تتبعه ذرياته في الإيمان ، وإن لم توجد على معنى أنه لو وجد له ألف ولد لكانوا أتباعه في الإيمان حكما ، وأما الإلحاق فلا يكون حكما إنما هو حقيقة وذلك في الموجود فالتابع أكثر من الملحوق فجمع في الأول وأفرد الثاني .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ ماالفائدة في تنكير الإيمان في قوله (وأتبعناهم ذرياتهم[1] بإيمان)؟ نقول هو إما التخصيص أو التنكير كأنه يقول : أتبعناهم ذرياتهم بإيمان مخلص كامل أو يقول أتبعناهم بإيمان ما أي شيء منه فإن الإيمان كاملا لا يوجد في الولد بدليل أن من له ولد صغير حكم بإيمانه فاذا بلغ وصرح بالكفر وأنكر التبعية قيل بأنه لا يكون مرتداً وتبين بقوله إنه لم يتبع وقيل بأنه يكون مرتداً لأنه كفر بعد ما حكم بإيمانه كالمسلم الأصلي فإذن بهذا الخلاف تبين أن إيمانه يقوى وهذان الوجهان ذكرهما الزمخشري ، ويحتمل أن يكون المراد غير هذا وهو أن يكون التنوين للعوض عن المضاف إليه كما في قوله تعالى (بعضهم ببعض) وقوله تعالى (وكلا وعد الله الحسنى) وبيانه هو أن التقدير أتبعناهم ذرياتهم بإيمان أي بسبب إيمانهم لأن الاتباع ليس بإيمان كيف كان وممن كان ، وإنما هو إيمان الآباء لكن الإضافة تنبىء عن تقييد وعدم كون الإيمان إيماناً على الإطلاق ، فإن قول القائل ماء الشجر وماء الرمان يصح وإطلاق اسم الماء من غير إضافة لا يصح فقوله (بإيمان) يوهم أنه إيمان مضاف إليهم ، كما قال تعالى (فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا) حيث أثبت الإيمان المضاف ولم يكن إيماناً ، فقطع الإضافة مع إرادتها ليعلم أنه إيمان صحيح وعوض التنوين ليعلم أنه لا يوجب الأمان في الدنيا إلا إيمان الآباء وهذا وجه حسن .

قوله تعالى : ﴿ كل امرىء بما كسب رهين ﴾ قال الواحدي : هذا عود إلى ذكر أهل النار فإنهم مرتهنون في النار ، وأما المؤمن فلا يكون مرتهنا قال تعالى (كل نفس بما كسبت رهينة إلا أصحاب اليمين) وهو قول مجاهد وقال الزمخشري (كل امرىء بما كسب رهين) عام في كل أحد مرهون عند الله بالكسب فإن كسب خيراً فك رقبته وإلا أربق بالرهن والذي يظهر منه أنه عام في حق كل أحد ، وفي الآية وجه آخر وهو أن يكون الرهين فعيلا بمعنى الفاعل ، فيكون المعنى والله أعلم كل امرىء بما كسب راهن أي دائم ، إن أحسن ففي الجنة مؤبداً ، وإن أساء ففي النار مخلداً ،

(١) كذلك رسمت في الطبعة الأميرية وهو مخالف للرسم وهو كما سبق بيان في صفحة (٢٥٠)

وَأَمْدَدْنَٰهُم بِفَٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢٢﴾ يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴿٢٣﴾

وقد ذكرنا أن فى الدنيا دوام الأعمال بدوام الأعيان فإن العرض لا يبقى إلا فى جوهر ولا يوجد إلا فيه ، وفى الآخرة دوام الأعيان بدوام الأعمال فإن الله يبقى أعمالهم لكونها عند الله تعالى من الباقيات الصالحات وما عند الله باق والباقى يبقى مع عامله .

قوله تعالى : ﴿ وأمددناهم بفاكهة ولحم مما يشتهون ﴾ أى زدناهم مأكولا ومشروباً ، أما المأكول فالفاكهة واللحم ، وأما المشروب فالكأس الذى يتنازعون فيها ، وفى تفسيرها لطائف :

﴿ اللطيفة الأولى ﴾ لما قال (ألحقنا بهم ذرياتهم) بين الزيادة ليكون ذلك جارياً على عادة الملوك فى الدنيا إذا زادوا فى حق عبد من عبيدهم يزيدون فى أقدار أخبازهم وأقطاعهم ، واختار من المأكول أرفع الأنواع وهو الفاكهة واللحم فإنهما طعام المتنعمين ، وجمع أوصافاً حسنة فى قوله مما يشتهون ، لأنه لو ذكر نوعا فربما يكون ذلك النوع غير مشتهى عند بعض الناس فقال كل أحد يعطى مايشتهى ، فإن قيل الاشتهاء كالجوع وفيه نوع ألم ، نقول ليس كذلك ، بل الاشتهاء به اللذة والله تعالى لا يتركه فى الاشتهاء بدون المشتهى حتى يتألم ، بل المشتهى حاصل مع الشهوة والإنسان فى الدنيا لا يتألم إلا بأحد أمرين ، إما باشتهاء صادق وعجزه عن الوصول إلى المشتهى ، وإما بحصول أنواع الأطعمة والأشربة عنده وسقوط شهوته وكلاهما منتف فى الآخرة .

﴿ اللطيفة الثانية ﴾ لما قال (وما ألتناهم) ونفى النقصان يصدق بحصول المساوى ، فقال ليس عدم النقصان بالاقتصار على المساوى ، بطريق آخر وهو الزيادة والإمداد ، فإن قيل أكثر الله من ذكر الأكل والشرب ، وبعض العارفين يقولون لخاصة الله بالله شغل شاغل عن الأكل والشرب وكل ماسوى الله ، نقول هذا على العمل ، ولهذا قال تعالى (جزاء بما كانوا يعملون) وقال (بما كنتم تعملو) وأما على العلم بذلك فذلك ، ولهذا قال (لهم فيها فاكهة ولهم ما يدعون سلام قولا من رب رحيم) أى للنفوس ماتتفكه به ، وللأرواح ماتتمناه من القربة والزلفى .

قوله تعالى : ﴿ يتنازعون فيها كأساً ﴾ فيكون ذلك على عادة الملوك إذا جلسوا فى مجالسهم للشرب يدخل عليهم بفواكه ولحوم وهم على الشرب ، وقوله تعالى (يتنازعون) أى يتعاطون ويحتمل أن يقال التنازع التجاذب وحينئذ يكون تجاذبهم تجاذب ملاعبة لا تجاذب منازعة ، وفيه نوع لذة وهو بيان ماهو عليه حال الشراب فى الدنيا فإنهم يتفاخرون بكثرة الشرب ولا يتفاخرون بكثرة الأكل ، ولهذا إذا شرب أحدهم يرى الآخر واجباً أن يشرب مثل ماشربه حريفه ولا يرى واجباً أن يأكل مثل ما أكل نديمه وجليسه .

قوله تعالى : ﴿ لا لغو فيها ولا تأثيم ﴾ وسواء قلنا (فيها) عائدة إلى الجنة أو إلى الكاس فذكرهما

وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ﴿٢٤﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ
بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا
وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾

لجريان ذكر الشراب وحكايته على ما فى الدنيا . فقال تعالى ليس فى الشرب فى الآخرة كل ما فيه فى الدنيا من اللغو بسبب زوال العقل ومن التأثيم الذى بسبب نهوض الشهوة والغضب عند وفور العقل والفهم ، وفيه وجه ثالث ، وهو أن يقال لا يعتريه كما يعترى الشارب بالشرب فى الدنيا فلا يؤثم أى لا ينسب إلى إثم ، وفيه وجه رابع ، وهو أن يكون المراد من التأثيم السكر ، وحينئذ يكون فيه ترتيب حسن وذلك لأن من الناس من يسكر ويكون رزين العقل عديم اعتياد العربدة فيسكن وينام ولا يؤذى ولا يتأذى ولا يهذى ولا يسمع إلى من هذى ، ومنهم من يعربد فقال (لا لغو فيها) .

قوله تعالى : ﴿ ويطوف عليهم غلمان لهم كأنهم لؤلؤ مكنون ﴾ أى بالكؤوس وقال تعالى (يطوف عليهم ولدان مخلدون بأكواب وأباريق وكأس من معين) وقوله (لهم) أى ملكهم إعلاماً لهم بقدرتهم على التصرف فيهم بالأمر والنهى والاستخدام وهذا هو المشهور ويحتمل وجهاً آخر وهو أنه تعالى لما بين امتياز خمر الآخرة عن خمر الدنيا بين امتياز غلمان الآخرة عن غلمان الدنيا ، فإن الغلمان فى الدنيا إذا طافوا على السادة الملوك يطوفون عليهم لحظ أنفسهم إما لتوقع النفع أو لتوفر الصفح ، وأما فى الآخرة فطوفهم عليهم متمخض لهم ولنفعهم ولا حاجة لهم إليهم والغلام الذى هذا شأنه له مزية على غيره وربما يبلغ درجة الأولاد . وقوله تعالى (كأنهم لؤلؤ) أى فى الصفاء ، و (مكنون) ليفيد زيادة فى صفاء ألوانهم أو لبيان أنهم كالمخدرات لا بروز لهم ولا خروج من عندهم فهم فى أكنافهم .

قوله تعالى : ﴿ وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون ، قالوا إنا كنا قبل فى أهلنا مشفقين ، فمن الله علينا ووقانا عذاب السموم ، إنا كنا من قبل ندعوه إنه هو البر الرحيم ﴾ إشارة إلى أنهم يعلمون ما جرى عليهم فى الدنيا ويذكرونه ، وكذلك الكافر لا ينسى ما كان له من النعيم فى الدنيا ، فتزداد لذة المؤمن من حيث يرى نفسه انتقلت من السجن إلى الجنة ومن الضيق إلى السعة ، ويزداد الكافر ألماً حيث يرى نفسه منتقلة من الشرف إلى التلف ومن النعيم إلى الجحيم ، ثم يتذكرون ما كانوا

فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾

عليه فى الدنيا من الخشية والخوف ، فيقولون (إنا كنا قبل فى أهلنا مشفقين) وهو أنهم يكون تساؤلهم عن سبب ماوصلوا إليه فيقولون خشية الله كنا نخاف الله (فمن الله علينا ووقانا عذاب السموم) وفيه لطيفة وهو أن يكون إشفاقهم على فوات الدنيا والخروج منها ومفارقة الإخوان ثم لما نزلوا الجنة علموا خطأهم .

قوله تعالى : ﴿ فذكر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون ، أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون ، قل تربصوا فإنى معكم من المتربصين ﴾ وتعلق الآية بما قبلها ظاهر لأنه تعالى بين أن فى الوجود قوماً يخافون الله ويشفقون فى أهليهم ، والنبى ﷺ مأمور بتذكير من يخاف الله تعالى بقوله (فذكر بالقرآن من يخاف وعيد) فحقق من يذكره فوجب التذكير . وأما الرسول عليه السلام فليس له إلا الإتيان بما أمر به ، وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ فى الفاء فى قوله (فذكر) قد علم تعلقه بما قبله فحسن ذكره بالفاء .

﴿ المسألة الثانية ﴾ معنى الفاء فى قوله (فما أنت) أيضاً قد علم أى أنك لست بكاهن فلا تتغير ولا تتبع أهواءهم ، فإن ذلك سيرة المزور (فذكر) فإنك لست بمزور ، وذلك سبب التذكير .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ ماوجه تعلق قوله (نتربص به ريب المنون) بقوله (شاعر) ؟ نقول فيه وجهان (الأول) أن العرب كانت تحترز عن إيذاء الشعراء وتتقى ألسنتهم ، فإن الشعر كان عندهم يحفظ ويدون ، وقالوا لانعارضه فى الحال مخافة أن يغلبنا بقوة شعره ، وإنما سبيلنا الصبر وتربص موته (الثانى) أنه ﷺ كان يقول إن الحق دين الله ، وإن الشرع الذى أتيت به يبقى أبد الدهر وكتابى يتلى إلى قيام الساعة ، فقالوا ليس كذلك إنما هو شاعر ، والذى يذكره فى حق آلهتنا شعر ولا ناصر له وسيصيبه من بعض آلهتنا الهلاك فنتربص به ذلك .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ مامعنى ريب المنون ؟ نقول قيل هو اسم للموت فعول من المن وهو القطع والموت قطوع ، ولهذا سمى بمنون ، وقيل المنون الدهر وريبه حوادثه ، وعلى هذا قولهم (نتربص) يحتمل وجهاً آخر ، وهو أن يكون المراد أنه إذا كان شاعراً فصروف الزمان ربما تضعف ذهنه وتورث وهنه فيتبين لكل فساد أمره وكساد شعره .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ كيف قال (تربصوا) بلفظ الأمر وأمر النبى ﷺ يوجب المأمور [به] أو يفيد جوازه ، وتربصهم ذلك كان حراماً ؟ نقول ذلك ليس بأمر وإنما هو تهديد معناه تربصوا ذلك فانا نتربص الهلاك بكم على حد مايقول السيد الغضبان لعبده افعل ماشئت فانى لست عنك

أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَـٰمُهُم بِهَـٰذَآ ۚ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٣٢﴾

بغافل وهو أمر لتهوين الأمر على النفس ، كما يقول القائل لمن يهدده برجل ويقول أشكوك إلى زيد فيقول اشكني أى لا يهمنى ذلك وفيه زيادة فائدة ، وذلك لأنه لو قال لا تشكنى لكان ذلك دليل الخوف وينافيه معناه ، فأتى بجواب تام من حيث اللفظ والمعنى ، فإن قيل لو كان كذلك لقال تربصوا أو لا تربصوا كما قال (اصبروا أولا تصبروا) نقول ليس كذلك لأنه إذا قال القائل فيما ذكرناه من المثال اشكنى أو لا تشكنى يكون ذلك مفيداً عدم خوفه منه ، فإذا قال اشكنى يكون أدل على عدم الخوف ، فكأنه يقول أنا فارغ عنه ، وإنما أنت تتوهم أنه يفيد فافعل حتى يبطل اعتقادك .

﴿ المسألة السادسة ﴾ فى قوله تعالى (فانى معكم من المتربصين) وهو يحتمل وجوهاً (أحدها) إنى معكم من المتربصين أتربص هلاككم وقد أهلكوا يوم بدر وفى غيره من الأيام هذا ما عليه الأكثرون والذى نقوله فى هذا المقام هو أن الكلام يحتمل وجوهاً وبيانها هو أن قوله تعالى (نتربص به ريب المنون) إن كان المراد من المنون الموت فقوله (إنى معكم من المتربصين) معناه إنى أخاف الموت ولا أتمناه لا لنفسى ولا لأحد ، لعدم علمى بما قدمت يداه وإنما أنا نذير وأنا أقول ما قال ربى (أفائن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم) فتربصوا موتى وأنا متربصه ولا يسركم ذلك لعدم حصول ما تتوقعون بعدى ، ويحتمل أن يكون كما قيل تربصوا موتى فإنى متربص موتكم بالعذاب ، وإن قلنا المراد من ريب المنون صروف الدهر فمعناه إنكار كون صروف الدهر مؤثرة فكأنه يقول أنا من المتربصين حتى أبصر ماذا يأتى به دهركم الذى تجعلونه مهلكا وماذا يصيبنى منه ، وعلى التقديرين فنقول النبى ﷺ يتربص ما يتربصون ، غير أن فى الأول تربصه مع اعتقاد الوقوع ، وفى الثانى تربصه مع اعتقاد عدم التأثير ، على طريقة من يقول أنا أيضاً أنتظر ما ينتظره حتى أرى ماذا يكون منكراً عليه وقوع مايتوقع وقوعه ، وإنما هذا لأن ترك المفعول فى قوله (إنى معكم من المتربصين) لكونه مذكوراً وهو ريب المنون أولى من تركه وإرادة غير المذكور وهو العذاب (الثانى) أتربص صروف الدهر ليظهر عدم تأثيرها فهو لم يتربص بهم شيئاً على الوجهين ، وعلى هذا الوجه يتربص بقاءه بعدهم وارتفاع كلمته فلم يتربص بهم شيئاً على الوجوه التى اخترناها فقال (إنى معكم من المتربصين) .

قوله تعالى : ﴿ أم تأمرهم أحلامهم بهذا أم هم قوم طاغون ﴾ وأم هذه أيضاً على ما ذكرنا متصلة تقديرها أنزل عليهم ذكر ؟ أم تأمرهم أحلامهم بهذا ؟ وذلك لأن الأشياء إما أن تثبت بسمع وإما أن تثبت بعقل فقال هل ورد أمر سمعى ؟ أم عقولهم تأمرهم بما كانوا يقولون ؟ أم هم قوم طاغون يغترون ، ويقولون ما لا دليل عليه سمعاً ولا مقتضى له عقلا ؟ والطغيان مجاوزة الحد فى العصيان وكذلك كل شىء ظاهره مكروه ، قال الله تعالى (إنا لما طغى الماء) وفيه مسائل :

أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَـٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾

﴿ المسألة الأولى ﴾ إذا كان المراد ماذكرت فلم أسقط مايصدر به ؟ نقول لأن كون ما يقولون به مسنداً إلى نقل معلوم عدمه لاينفى ، وأما كونه معقولا فهم كانوا يدعون أنه معقول ، وأما كونهم طاغين فهو حق ، فخص الله تعالى بالذكر ما قالوا به وقال الله به ، فهم قالوا نحن نتبع العقل ، والله تعالى قال هم طاغون فذكر الأمرين اللذين وقع فيهما الخلاف .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قوله (تأمرهم أحلامهم) إشارة إلى أن كل مالا يكون على وفق العقل ، لا ينبغي أن يقال ، وإنما ينبغي أن يقال مايجب قوله عقلا ، فهل صار [كل] واجب عقلا مأموراً به .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ ما الأحلام ؟ نقول جمع حلم وهو العقل وهما من باب واحد من حيث المعنى ، لأن العقل يضبط المرء فيكون كالبعير المعقول لا يتحرك من مكانه ، والحلم من الحلم وهو أيضاً سبب وقار المرء وثباته ، وكذلك يقال للعقول النهى من النهى وهو المنع ، وفيه معنى لطيف وهو أن الحلم فى أصل اللغه هو مايراه النائم فينزل ويلزمه الغسل ، وهو سبب البلوغ وعنده يصير الإنسان مكلفاً ، وكأن الله تعالى من لطيف حكمته قرن الشهوة بالعقل وعند ظهور الشهوة كمل العقل فأشار إلى العقل بالإشارة إلى مايقارنه وهو الحلم ، ليعلم أنه نذير كمال العقل ، لا العقل الذى به يحترز الإنسان تخطىء الشرك ودخول النار ، وعلى هذا ففيه تأكيد لما ذكرنا أن الإنسان لا ينبغى أن يقول كل معقول ، بل لا يقول إلا ما يأمر به العقل الرزين الذى يصحح التكليف .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ هذا إشارة إلى ماذا ؟ نقول فيه وجوه (الأول) أن يكون هذا إشارة مبهمة ، أى بهذا الذى يظهر منهم قولا وفعلا حيث يعبدون الأصنام والأوثان ويقولون الهذيان من الكلام (الثانى) هذا إشارة إلى قولهم هو كاهن هو شاعر هو مجنون (الثالث) هذا إشارة إلى التربص فانهم لما قالوا نتربص قال الله تعالى أعقولهم تأمرهم بتربص هلاكهم فإن أحداً لم يتوقع هلاك نبيه إلا وهلك .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ هل يصح أن تكون أم فى هذا الموضع بمعنى بل ؟ نقول نعم ، تقديره يقولون : إنه شاعر قولا بل يعتقدونه عقلا ويدخل فى عقولهم ذلك ، أى ليس ذلك قولا منهم من غير عقل بل يعتقدون كونه كاهناً ومجنوناً ، ويدل عليه قراءة من قرأ بل هم قوم طاغون ، لكن بل ههنا واضح وفى قوله بل تأمرهم أحلامهم خفى .

ثم قال تعالى ﴿ أم يقولون تقوله بل لا يؤمنون ﴾ وهو متصل بقوله تعالى أم يقولون شاعر نتربص به ، وتقديره على ماذكرنا أتقولون كاهن ، أم تقولون شاعر ، أم تقوله .

ثم قال لبطلان جميع الأقسام ﴿ فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين ﴾ أى إن كان هو شاعراً ففيكم الشعراء البلغاء والكهنة الأذكياء ومن يرتجل الخطب والقصائد ويقص القصص ولا يختلف

الناقص والزائد فليأتوا بمثل ماأتى به ، والتقول يراد به الكذب . وفيه إشارة إلى معنى لطيف وهو أن التفعل للتكلف وإراءة الشيء وهو ليس على مايرى يقال تمرض فلان أى لم يكون مريضاً وأرى من نفسه المرض وحينئذ كأنهم كانوا يقولون كذب وليس بقول إنما هو تقول صورة القول وليس فى الحقيقة به ليعلم أن المكذب هو الصادق ، وقوله تعالى (بل لا يؤمنون) بيان هذا أنهم كانوا فى زمان نزول الوحى وحصول المعجزة كانوا يشاهدونها وكان ذلك يقتضى أن يشهدوا له عند غيرهم ويكونوا كالنجوم للمؤمنين كما كانت الصحابة رضى الله عنهم وهم لم يكونوا كذلك بل أقل من ذلك لم يكونوا أيضاً وهو أن يكونوا من آحاد المؤمنين الذين لم يشهدوا تلك الأمور ولم يظهر الأمر عندهم ذلك الظهور .

قوله تعالى : ﴿ فليأتوا ﴾ الفاء للتعقيب أى إذا كان كذلك فيجب عليهم أن يأتوا بمثل ما أتى به ليصح كلامهم ويبطل كلامه وفيه مباحث :

﴿ الأول ﴾ قال بعض العلماء (فليأتوا) أمر تعجيز بقول القائل لمن يدعى أمراً أو فعلا ويكون غرضه إظهار عجزه ، والظاهر أن الأمر ههنا مبق على حقيقته لأنه لم يقل : ائتوا مطلقاً بل إنما قال : ائتوا إن كنتم صادقين ، وعلى هذا التقدير ووجود ذلك الشرط يجب الإتيان به وأمر التعجيز فى كلام الله تعالى قوله تعالى (إن الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذى كفر) وليس هذا بحثاً يورث خللا فى كلامهم .

﴿ الثانى ﴾ قالت المعتزلة الحديث محدث والقرآن سماه حديثاً فيكون محدثاً ، نقول الحديث اسم مشترك ، يقال المحدث والقديم ، ولهذا يصح أن يقال هذا حديث قديم بمعنى متقادم العهد لا بمعنى سلب الأولية وذلك لانزاع فيه .

﴿ الثالث ﴾ النحاة يقولون الصفة تتبع الموصوف فى التعريف والتنكير ، لكن الموصوف حديث وهو منكر ومثل مضاف إلى القرآن والمضاف إلى المعرف معرف ، فكيف هذا ؟ نقول مثل وغير لا يتعرفان بالإضافة وكذلك كل ما هو مثلهما والسبب أن غيراً أو مثلا وأمثالهما فى غاية التنكير ، فإنك إذا قلت ما رأيت شيئاً مثل زيد يتناول كل شيء فإن كل شيء مثل زيدفى كونه شيئاً ، فالجماد مثله فى الجسم والحجم والإمكان ، والنبات مثله فى النشوء والنماء والذبول والفناء ، والحيوان مثله فى الحركة والإدراك وغيرهما من الأوصاف ، وإما غير فهو عندالإضافة ينكر وعند قطع الإضافة ربما يتعرف فإنك إذا قلت غير زيد صار فى غاية الإبهام فإنه يتناول أموراً لاحصر لها ، وأما إذا قطعته عن الإضافة ربما تقول الغير والمغايرة من باب واحد وكذلك التغير فتجعل الغير كأسماء الأجناس ، أو تجعله مبتدأ وتريد به معنى معيناً .

﴿ الرابع ﴾ إن كانوا صادقين ، أى فى قولهم (تقوله) وقد ذكرنا أن ذلك راجع إلى ما سبق من أنه كاهن وأنه مجنون ، وأنه شاعر ، وأنه متقول ، ولو كانوا صادقين فى شيء من ذلك لهان عليهم الإتيان بمثل القرآن ، ولما امتنع كذبوا فى الكل .

أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴿٣٥﴾

﴿ البحث الخامس ﴾ قد ذكرنا أن القرآن معجز ولا شك فيه ، فإن الخلق عجزوا عن الإتيان بمثل ما يقرب منه عند التحدى . فإما أن يكون كونه معجزاً لفصاحته وهو مذهب أكثر أهل السنة وإما أن يكون معجزاً لصرف الله عقول العقلاء عن الإتيان بمثله ، وعقله ألسنتهم عن النطق بما يقرب منه ، ومنع القادر من الإتيان بالمقدور كإتيان الواحد بفعل لا يقدر عليه غيره فإن من قال لغيره أنا أحرك هذا الجبل يستبعد منه ، وكذا إذا قال إنى أفعل فعلا لا يقدر الخلق [معه] على حمل تفاحة من موضعها يستبعد منه على أن كل واحد فعل معجز إذا اتصل بالدعوى ، وهذا مذهب بعض المتكلمين ولا فساد فيه وعلى أن يقال هو معجز بهما جميعاً .

قوله تعالى : ﴿ أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون ﴾ ومن هنا لا خلاف أن أم ليست بمعنى بل ، لكن أكثر المفسرين على أن المراد ما يقع فى صدر الكلام من الاستفهام ، إما بالهمزة فكأنه يقول أخلقوا من غير شيء أو هل ، ويحتمل أن يقال هو على أصل الوضع للاستفهام الذى يقع فى أثناء الكلام وتقديره أما خلقوا ، أم خلقوا من غير شيء ، أم هم الخالقون ؟ وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ ما وجه تعلق الآية بما قبلها ؟ نقول لما كذبوا النبى صلى الله عليه وسلم ونسبوه إلى الكهانة والجنون والشعر وبرأه الله من ذلك ، ذكر الدليل على صدقه إبطالا لتكذيبهم وبدأ بأنفسهم ، كأنه يقول كيف يكذبونه وفى أنفسهم دليل صدقه لأن قوله فى ثلاثة أشياء . فى التوحيد والحشر والرسالة ففى أنفسهم ما يعلم به صدقه ، وبيانه هو أنهم خلقوا وذلك دليل التوحيد لما بينا أن فى كل شيء له آية ، تدل على أنه واحد ، وقد بينا وجهه مراراً فلا نعيده .

وأما الحشر فلأن الخلق الأول دليل على جواز الخلق الثانى وإمكانه ، ويدل على ما ذكرنا أن الله تعالى ختم الاستفهامات بقوله (أم لهم إله غير الله سبحان الله عما يشركون) .

﴿ المسألة الثانية ﴾ إذا كان الأمر على ما ذكرت فلم حذف قوله أما خلقوا ؟ نقول : لظهور انتفاء ذلك ظهوراً لا يبقى معه للخلاف وجه ، فإن قيل فلم لم يصدر بقوله أما خلقوا ويقول أم خلقوا من غير شيء ؟ نقول ليعلم أن قبل هذا أمراً منفياً ظاهراً ، وهذا المذكور قريب منه فى ظهور البطلان فإن قيل قوله (أم خلقوا من غير شيء) أيضاً ظاهر البطلان ، لأنهم علموا أنهم مخلوقون من تراب وماء ونطفة ، نقول الأول أظهر فى البطلان لأن كونهم غير مخلوقين أمر يكون مدعيه منكراً للضرورة فنكره منكر لأمر ضرورى .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ ما المراد من قوله تعالى (من غير شيء) ؟ نقول فيه وجوه المنقول منها أنهم

خلقوا من غير خالق وقيل إنهم خلقوا لا لشيء عبثاً ، وقيل إنهم خلقوا من غير أب وأم ، ويحتمل أن يقال أم خلقوا من غير شيء ، أي ألم يخلقوا من تراب أو من ماء ، ودليله قوله تعالى (ألم نخلقكم من ماء مهين) ويحتمل أن يقال الاستفهام الثاني ليس بمعنى النفي بل هو بمعنى الإثبات قال الله تعالى (ءأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون ، ءأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون ، ءأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون) كل ذلك في الأول منفي وفي الثاني مثبت كذلك ههنا قال الله تعالى (أم خلقوا من غير شيء) أي الصادق هو هذا الثاني حينئذ ، وهذا كما في قوله تعالى (هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً) فإن قيل كيف يكون ذلك الإثبات والآدمي خلق من تراب ؟ نقول والتراب خلق من غير شيء ، فالإنسان إذا نظرت إلى خلقه وأسندت النظر إلى ابتداء أمره وجدته خلق من غير شيء ، أو نقول المراد أم خلقوا من غير شيء مذكور أو معتبر وهو الماء المهين .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ ما الوجه في ذكر الأمور الثلاثة التي في الآية ؟ نقول هي أمور مرتبة كل واحد منها يمنع القول بالوحدانية والحشر فاستفهم بها ، وقال أما خلقوا أصلاً ، ولذلك ينكرون القول بالتوحيد لانتفاء الإيجاد وهو الخلق ، وينكرون الحشر لانتفاء الخلق الأول أم خلقوا من غير شيء ، أي أم يقولون بأنهم خلقوا لا لشيء فلا إعادة ، كما قال (أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً) . وعلى قولنا إن المراد خلقوا لا من تراب ولا من ماء فله وجه ظاهر ، وهو أن الخلق إذا لم يكن من شيء بل يكون إبداعياً يخفى كونه مخلوقاً على بعض الأغبياء ، ولهذا قال بعضهم السماء رفع اتفاقاً ووجد من غير خالق وأما الإنسان الذي يكون أولا نطفة ثم علقة ثم مضغة ثم لحماً وعظماً لا يتمكن أحد من إنكاره بعد مشاهدة تغير أحواله فقال تعالى (أم خلقوا) بحيث يخفى عليهم وجه خلقهم بأن خلقوا ابتداء من غير سبق حالة عليهم يكونون فيها تراباً ولا ماء ولا نطفة ليس كذلك بل هم كانوا شيئاً من تلك الأشياء خلقوا منه خلقاً ، فما خلقوا من غير شيء حتى ينكروا الوحدانية ولهذا قال تعالى (يخلقكم في بطون أمهاتكم خلقاً من بعد خلق) ولهذا أكثر الله من قوله (خلقنا الإنسان من نطفة) وقوله (ألم نخلقكم من ماء مهين) يتناول الأمرين المذكورين في هذا الموضع لأن قوله (ألم نخلقكم من ماء) يحتمل أن يكون نفي المجموع بنفي الخلق فيكون كأنه قال : أخلقتم لا من ماء ، وعلى قول من قال المراد منه أم خلقوا من غير شيء ، أي من غير خالق ففيه ترتيب حسن أيضاً وذلك لأن نفي الصانع ، إما أن يكون بنفي كون العالم مخلوقاً فلا يكون ممكناً ، وإما أن يكون ممكناً لكن الممكن لا يكون محتاجا فيقع الممكن من غير مؤثر وكلاهما محال . وأما قوله تعالى (أم هم الخالقون) فمعناه أهم الخالقون للخلق فيعجز الخالق بكثرة العمل ، فإن دأب الإنسان أنه يعيا بالخلق ، فما قولهم أما خلقوا فلا يثبت لهم إله البتة ، أم خلقوا وخفي عليهم وجه الخلق أم جعلوا الخالق مثلهم فنسبوا إليه العجز ، ومثله قوله تعالى (أفعيينا بالخلق الأول) هذا بالنسبة إلى الحشر وأما بالنسبة إلى التوحيد فهو رد عليهم حيث قالوا الأمور مختلفة واختلاف الآثار يدل على اختلاف المؤثرات وقالوا (أجعل الآلهة إلهاً واحداً) فقال تعالى (أم هم الخالقون) حيث لا يقدر

أَمْ خَلَقُوا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ ۖ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾

الخباز على الخياطة والخياط على البناء وكل واحد يشغله شأن عن شأن .

قوله تعالى : ﴿أم خلقوا السموات والأرض بل لا يوقنون﴾ وفيه وجوه (أحدها) مااختاره الزمخشري وهو أنهم لا يوقنون بأنهم خلقوا وهو حينئذ في معنى قوله تعالى (ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله) أي هم معترفون بأنه خالق الله وليس خالق أنفسهم (وثانيها) المراد بل لا يوقنون بأن الله واحد وتقديره ليس الأمر كذلك أي ما خلقوا وإنما لا يوقنون بوحدة الله (وثالثها) لا يوقنون أصلا من غير ذكر مفعول يقال فلان ليس بمؤمن وفلان ليس بكافر لبيان مذهبه وإن لم ينو مفعولا ، وكذلك قول القائل فلان يؤذي ويؤدي لبيان مافيه لا مع القصد إلى ذكر مفعول ، وحينئذ يكون تقديره أنهم ما خلقوا السموات والأرض ولا يوقنون بهذه الدلائل ، بل لا يوقنون أصلا وإن جئتهم بكل آية ، يدل عليه قوله تعالى بعد ذلك (وإن يروا كسفاً من السماء ساقطاً يقولوا سحاب مركوم) وهذه الآية إشارة إلى دليل الآفاق ، وقوله من قبل (أم خلقوا) دليل الأنفس .

قوله تعالى : ﴿أم عندهم خزائن ربك أم هم المسيطرون﴾ وفيه وجوه (أحدها) المراد من الخزائن خزائن الرحمة (ثانيها) خزائن الغيب (ثالثها) أنه إشارة إلى الأسرار الإلهية المخفية عن الأعيان (رابعها) خزائن المخلوقات التي لم يرها الإنسان ولم يسمع بها ، وهذه الوجوه الأول والثاني منقول ، والثالث والرابع مستنبط ، وقوله تعالى (أم هم المسيطرون) تتمة للرد عليهم ، وذلك لأنه لما قال (أم عندهم خزائن ربك) أشارة إلى أنهم ليسوا بخزنة [رحمة] الله فيعلموا خزئن الله ، وليس بمجرد انتفاء كونهم خزنة ينتفي العلم لجواز أن يكون مشرفاً على الخزانة ، فإن العلم بالخزائن عند الخازن والكاتب في الخزانة ، فقال لستم بخزنة ولا بكتبة الخزانة المسلطين عليها ، ولا يبعد تفسير المسيطرين بكتبة الخزانة ، لأن التركيب يدل على السطر وهو يستعمل في الكتاب ، وقيل المسيطر المسلط وقرىء بالصاد ، وكذلك في كثير من السينات التي مع الطاء ، كما في قوله تعالى (بمسيطر) و [قد قرىء] مصيطر .

قوله تعالى : ﴿ أم لهم سلم يستمعون فيه فليأت مستمعهم بسلطان مبين ﴾ وهو أيضاً تتميم للدليل ، فإن من لا يكون خازناً ولا كاتباً قد يطلع على الأمر بالسماع من الخازن أو الكاتب ،

أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿٣٩﴾

فقال أنتم لستم بخزنة ولا كتبة ولا اجتمعتم بهم ، لأنهم ملائكة ولا صعود لكم إليهم ، وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ المقصود نفى الصعود ، ولا يلزم من نفى السلم لهم نفى الصعود ، فما الجواب عنه ؟ نقول النفى أبلغ من نفى الصعود ، وهو نفى الاستماع وآخر الآية شامل للكل ، قال تعالى : (فليأت مستمعهم بسلطان مبين) .

﴿ المسألة الثانية ﴾ السلم لا يستمع فيه ، وإنما يستمع عليه . فما الجواب ؟ نقول من وجهين : (أحدهما) ما ذكره الزمخشرى أن المراد (يستمعون) صاعدين فيه (وثانيهما) ما ذكره الواحدى أن فى بمعنى على ، كما فى قوله تعالى (ولأصلبنكم فى جذوع النخل) أى جذوع النخل ، وكلاهما ضعيف لما فيه من الإضمار والتغيير .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ لم ترك ذكر مفعول (يستمعون) وماذا هو ؟ نقول فيه وجوه (أحدها) المستمع هو الوحى ، أى هل لهم سلم يستمعون فيه الوحى (ثانيها) يستمعون ما يقولون من أنه شاعر ، وأن لله شريكا ، وأن الحشر لا يكون (ثالثها) ترك المفعول رأساً ، كأنه يقول : هل لهم قوة الاستماع من السماء حتى يعلموا أنه ليس برسول ، وكلامه ليس برسل .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قال (فليأت مستمعهم) ولم يقل فليأتوا ، كما قال تعالى (فليأتوا بحديث مثله) نقول طلب منهم ما يكون أهون على تقدير صدقهم ، ليكون امتناعهم عليه أدل على بطلان قولهم ، فقال هناك (فليأتوا) أى اجتمعوا عليه وتعاونوا ، وأتوا بمثله ، فإن ذلك عند الاجتماع أهون ، وأما الارتقاء فى السلم بالاجتماع [فإنه] متعذر . لأنه لا يرتقى إلا واحد بعد واحد ، ولا يحصل فى الدرجة العليا إلا واحد . فقال (فليأت) ذلك الواحد الذى كان أشد رقياً بما سمعه .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ قوله (بسلطان مبين) ما المراد به ؟ نقول هو إشارة إلى لطيفة ، وهى أنه لو طلب منهم ما سمعوه ، وقيل لهم (فليأت مستمعهم) بما سمع لكان لواحد أن يقول : أنا سمعت كذا وكذا فيفترى كذباً ، فقال لا . بل الواجب أن يأتى بدليل يدل عليه .

قوله تعالى : ﴿ أم له البنات ولكم البنون ﴾ إشارة إلى نفى الشرك ، وفساد ما يقولون بطريق آخر ، وهو أن المتصرف إنما يحتاج إلى الشريك لعجزه ، والله قادر فلا شريك له ، فإنهم قالوا : نحن لا نجعل هذه الأصنام وغيرها شركاء ، وإنما نعظمها لأنها بنات الله ، فقال تعالى : كيف تجعلون لله البنات ، وخلق البنات والبنين إنما كان لجواز الفناء على الشخص ، ولولا التوالد لانقطع النسل وارتفع الأصل ، من غير أن يقوم مقامه الفصل ، فقدر الله التوالد ، ولهذا لا يكون فى الجنة ولادة ، لأن الدار دار البقاء ، لا موت فيها للآباء ، حتى تقام العمارة بحدوث الأبناء . إذا ثبت هذا فالولد إنما يكون فى صورة إمكان فناء الأب ، ولهذا قال تعالى فى أوائل سورة آل عمران

أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٠﴾

(الحى القيوم) أى حى لا يموت فيحتاج إلى ولد يرثه ، وهو قيوم لا يتغير ولا يضعف ، فيفتقر إلى ولد ليقوم مقامه ، لأنه ورد فى نصارى نجران . ثم إن الله تعالى بين هذا بأبلغ الوجوه ، وقال إنهم يجعلون له بنات ، ويجعلون لأنفسهم بنين ، مع أن جعل البنات لهم أولى ، وذلك لأن كثير البنات تعين على كثرة الأولاد ، لأن الإناث الكثيرة يمكن منهن الولادة بأولاد كثيرة من واحد . وأما الذكور الكثيرة لا يمكن منهم إحبال أنثى واحدة بأولاد ، ألا ترى أن الغنم لا يذبح منها الإناث إلا نادراً ، وذلك لما ثبت أن إبقاء النوع بالأنثى أنفع نظراً إلى التكثير ، فقال تعالى : أنا القيوم الذى لا فناء لى ، ولا حاجة لى فى بقاء النوع فى حدوث الشخص ، وأنتم معرضون للموت العاجل ، وبقاء العالم بالإناث أكثر ، وتتبرءون منهن والله تعالى مستغن عن ذلك وتجعلون له البنات ، وعلى هذا فما تقدم كان إشارة إلى نفى الشريك نظراً إلى أنه لا ابتداء لله ، وهذا إشارة إلى نفى الشريك نظراً إلى أنه لا فناء له ، فإن قيل كيف وقع لهم نسبة البنات إلى الله تعالى مع أن هذا أمر فى غاية القبح لا يخفى على عاقل ، والقوم كان لهم العقول التى هى مناط التكاليف ، وذلك القدر كاف فى العلم بفساد هذا القول ؟ نقول ذلك القول دعاهم إليه اتباع العقل ، وعدم اعتبار النقل ، ومذهبهم فى ذلك مذهب الفلاسفة حيث يقولون يجب اتباع العقل الصريح ، ويقولون النقل بمعزل لا يتبع إلا إذا وافق العقل ، وإذا وافق فلا اعتبار للنقل ، لأن العقل هناك كاف ، ثم قالوا الوالد يسمى والداً ، لأنه سبب وجود الولد ، ولهذا يقال : إذا ظهر شىء من شىء هذا تولد من ذلك ، فيقولون الحى تتولد من عفونة الخلط ، فقالوا الله تعالى سبب وجود الملائكة سبباً واجباً لا اختيار له فسموه بالوالد ، ولم يلتفتوا إلى وجوب تنزيه الله فى تسميته بذلك عن التسمية بما يوهم النقص ، ووجوب الاقتصار فى أسمائه على الأسماء الحسنى التى ورد بها الشرع لعدم اعتبارهم النقل ، فقالوا يجوز إطلاق الأسماء المجازية والحقيقية على الله تعالى وصفاته ، فسموه عاشقاً ومعشوقاً ، وسموه أباً ووالداً ، ولم يسموه ابناً ولا مولوداً باتفاقهم ، وذلك ضلالة .

قوله تعالى : ﴿ أم تسألهم أجراً فهم من مغرم مثقلون ﴾ .

وجه التعلق هو أن المشركين لما اطرحوا الشرع واتبعوا ماظنوه عقلا ، وسموا الموجود بعد العدم مولوداً ومتولداً ، والموجد والداً لزمهم الكفر بسببه والإشراك ، فقال لهم ما الذى يحملكم على اطراح الشرع ، وترك اتباع الرسول ﷺ ؟ هل ذلك لطلبه منكم شيئاً فما كان يسعهم أن يقولوا نعم ، فلم يبق لهم إلا أن يقولوا لا ، فنقول لهم : كيف اتبعتم قول الفلسفى الذى يسوغ لكم الزور ومايوجب الاستخفاف بجانب الله تعالى لفظاً إن لم يكن معنى كما تقولون ، ولا تتبعون الذى يأمركم بالعدل فى المعنى والإحسان فى اللفظ ، ويقول لكم اتبعوا المعنى الحق الواضح واستعملوا اللفظ

الحسن المؤدب ؟ وهذا فى غاية الحسن من التفسير ففيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ ما الفائدة فى سؤال النبى صلى الله عليه وسلم حيث قال أم تسألهم ولم يقل أم يسألون أجراً كما قال تعالى (أم يقولون) وقال تعالى (أم يريدون كيداً) إلى غير ذلك ؟ نقول فيه فائدتان :

﴿ إحداهما ﴾ تسلية قلب النبى صلى الله عليه وسلم ، وذلك لأنهم لما امتنعوا من الاستماع واستنكفوا من الاتباع صعب على النبى صلى الله عليه وسلم ، فقال له ربه أنت أتيت بما عليك فلا يضيق صدرك حيث لم يؤمنوا فأنت غير ملوم ، وإنما كنت تلام لو كنت طلبت منهم أجراً فهل طلبت ذلك فأثقلهم ؟ لا فلا حرج عليك إذاً .

﴿ ثانيهما ﴾ أنه لو قال أم يسألون لزم نفى أجر مطلقاً وليس كذلك ، وذلك لأنهم كانوا يشركون ويطالبون بالأجر من رؤسائهم ، وأما النبى صلى الله عليه وسلم فقال له أنت لا تسألهم أجراً فهم لا يتبعونك وغيرك يسألهم وهم يسألون ويتبعون السائلين وهذا غاية الضلال .

﴿ المسألة الثانية ﴾ إن قال قائل ألزمت أن تبين أن أم لا تقع إلا متوسطة حقيقة أو تقديراً فكيف ذلك ههنا ؟ نقول كأنه تعالى يقول أتهديهم لوجه الله أم تسألهم أجراً ، وترك الأول لعدم وقوع الإنكار عليه كما قلنا فى قوله (أم له البنات) إن المقدار هو واحد أم له البنات ، وترك ذكر الأول لعدم وقوع الإنكار عليه من الله تعالى وكونهم قائلين بأنه لا يريد وجه الله تعالى ، وإنما يريد الرياسة والأجر فى الدنيا .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ هل فى خصوص قوله تعالى أجراً فائدة لا توجد فى غيره لو قال أم تسألهم شيئاً أو مالا أو غير ذلك ؟ نقول نعم ، وقد تقدم القول منى أن كل لفظ فى القرآن فيه فائدة وإن كنا لا نعلمها ، والذى يظهر ههنا أن ذلك إشارة إلى أن ما يأتى به النبى صلى الله عليه وسلم فيه مصلحتهم وذلك لأن الأجر لا يطلب إلا عند فعل شىء يفيد المطلوب منه الأجر فقال : أنت أتيتهم بما لو طلبت عليه أجراً وعلموا كمال ما فى دعوتك من المنفعة لهم وبهم ، لأتوك بجميع أموالهم وافدوك بأنفسهم ، ومع هذا لا تطلب منهم أجراً ، ولو قال شيئاً أو مالا لما حصلت هذه الفائدة والله أعلم .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ هذا يدل على أنه لم يطلب منهم أجراً ما ، وقوله تعالى (قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة فى القربى) يدل على أنه طلب أجراً ما فكيف الجمع بينهما ؟ نقول لا تفرقة بينهما بل الكل حق وكلاهما ككلام واحد ، وبيانه هو أن المراد من قوله (إلا المودة فى القربى) هو أنى لا أسألكم عليه أجراً يعود إلى الدنيا ، وإنما أجرى المحبة فى الزلفى إلى الله تعالى ، وأن عباد الله الكاملين أقرب إلى الله تعالى من عباده الناقصين ، وعباد الله الذين كلمهم الله وكلموه وأرسلهم لتكميل عباده فكملوا أقرب إلى الله من الذين [لم يكلمهم و] لم يرسلهم الله ولم يكملوا وعلى هذا فهو فى معنى قوله (إن أجرى إلا على الله) وإليه أنتمى وقوله ﷺ « فإنى أباهى بكم الأمم يوم القيامة » وقوله (فهم

أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤١﴾

من مغرم مثقلون) وبين ماذكرنا أن قوله (أم تسألهم أجراً) المراد أجر الدنيا وقوله (قل لا أسألكم عليه أجراً) المراد العموم ثم استثنى ، ولا حاجة إلى ماقاله الواحدى إن ذلك منقطع معناه لكن المودة فى القربى ، وقد ذكرناه هناك فليطلب منه .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ قوله تعالى (فهم من مغرم مثقلون) إشارة إلى أنه صلى الله عليه وسلم ماطلب منهم شيئاً ولو طالبهم بأجر ما كان لهم أن يتركوا اتباعه بأدنى شىء ، اللهم إلا إن أثقلهم التكليف ويأخذ كل ما لهم ويمنعهم التخليف فيثقلهم الدين بعد مالا يبقى لهم العين .

قوله تعالى : ﴿ أم عندهم الغيب فهم يكتبون ﴾ وهو على الترتيب الذى ذكرناه كأنه تعالى قال لهم : بم اطرحتم الشرع ومحاسنه ، وقلتم ماقلتم بناء على اتباعكم الأوهام الفاسدة التى تسمونها المعقولات ، والنبى ﷺ لا يطلب منكم أجراً وأنتم لاتعلمون فلا عذر لكم لأن العذر إما فى الغرامة وإما فى عدم الحاجة إلى ماجاء به ولا غرامة عليكم فيه ولا غنى لكم عنه وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ كيف التقدير ؟ قلنا لاحاجة إلى التقدير بل هو استفهام متوسط على ماذكرنا كأنه قال أتهديهم لوجه الله تعالى أم تسألهم أجراً فيمتنعون أم لا حاجة لهم إلى ما تقول لكن هم عندهم الغيب فلا يتبعون .

﴿ المسألة الثانية ﴾ الألف واللام فى الغيب لتعريف ماذا ، الجنس أو لعهد ؟ نقول الظاهر أن المراد نوع الغيب كما يقول القائل اشترى اللحم يريد بيان الحقيقة لا كل لحم ولا لحماً معيناً ، والمراد فى قوله تعالى (عالم الغيب والشهادة) الجنس واستغراقه لكل غيب .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ على هذا كيف يصح عندهم الغيب وما عند الشخص لايكون غيباً ؟ نقول معناه حضر عندهم ماغاب عن غيرهم ، وقيل هذا متعلق بقوله (نتربص به ريب المنون) أى أعندكم الغيب تعلمون أنه يموت قبلكم وهو ضعيف ، لبعد ذلك ذكر ، أو لأن قوله تعالى (قل تربصوا) متصل به وذلك يمنع اتصال هذا بذلك .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ ماالفائدة فى قوله (فهم يكتبون) ؟ نقول وضوح الأمر ، وإشارة إلى أن ماعند النبى ﷺ من علم الغيب علم بالوحى أموراً وأسراراً وأحكاماً وأخباراً كثيرة كلها هو جازم بها وليس كما يقول المتفرس ، الأمر كذا وكذ ، فإن قيل اكتب به خطك أنه يكون يمتنع ويقول أنا لا أدعى فيه الجزم والقطع ولكن أذكره كذا وكذا على سبيل الظن والاستنباط وإن كان قاطعاً يقول اكتبوا هذا عنى ، وأثبتوا فى الدواوين أن فى اليوم الفلانى يقع كذا وكذا فقوله (أم عندهم الغيب فهم يكتبون) يعنى هل صاروا فى درجة محمد ﷺ حتى استغنوا عنه

أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ ﴿٤٢﴾

وأعرضوا ، ونقل عن ابن قتيبة أن المراد من الكتابة الحكم معناه يحكمون وتمسك بقوله ﷺ «واقض بيننا بكتاب الله» أي حكم الله وليس المراد ذلك ، بل هو من باب الإضمار معناه بما في كتاب الله تعالى يقال فلان يقضي بمذهب الشافعي أي بما فيه ، ويقول الرسول الذي معه كتاب الملك للرعية اعملوا بكتاب الملك .

قوله تعالى : ﴿أم يريدون كيداً فالذين كفروا هم المكيدون﴾ وفيه مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ ما وجه التعلق والمناسبة بين الكلامين ؟ قلنا يبين ذلك ببيان المراد من قوله (أم يريدون كيداً) فبعض المفسرين قال أم يريدون أن يكيدوك فهم المكيدون ، أي لا يقدرون على الكيد فإن الله يصونك بعينه وينصرك بصونه ، وعلى هذا إذا قلنا بقول من يقول (أم عندهم الغيب) متصل بقوله تعالى (نتربص به ريب المنون) فيه ترتيب في غاية الحسن وهو أنهم لما قالوا (نتربص به ريب المنون) قيل لهم أتعلمون الغيب فتعلمون أنه يموت قبلكم أم تريدون كيداً فتقولون نقتله فيموت قبلنا فإن كنتم تدعون الغيب فأنتم كاذبون ، وإن كنتم تظنون أنكم تقدرون عليه فأنتم غالطون فإن الله يصونه عنكم وينصره عليكم ، وأما على ما قلنا أن المراد منه أنه ﷺ لا يسألكم على الهداية مالا وأنتم لا تعلمون ما جاء به لولا هدايته لكونه من الغيوب ، فنقول فيه وجوه (الأول) أن المراد من قوله تعالى (أم يريدون كيداً) أي من الشيطان وإزاغته فيحصل مرادهم كأنه تعالى قال أنت لا تسألهم أجراً وهم يعلمون الغيب فهم محتاجون إليك وأعرضوا فقد اختاروا كيد الشيطان ورضوا بإزاغته ، والإرادة بمعنى الاختيار والمحبة ، كما قال تعالى (ومن كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه) وكما قال (أئفكا آلهة دون الله تريدون) وأظهر من ذلك قوله تعالى (إني أريد أن تبوء بإثمي وإثمك) (الوجه الثاني) أن يقال أن المراد والله أعلم أم يريدون كيداً لله فهو واصل إليهم وهم عن قريب مكيدون ، وترتيب الكلام هو أنهم لما لم يبق حجة في الإعراض فهم يريدون نزول العذاب بهم والله أرسل إليهم رسولا لا يسألهم أجراً ويهديهم إلى مالا علم لهم ولا كتاب عندهم وهم يعرضون ، فهم يريدون إذاً أن يهلكهم ويكيدهم ، لأن الاستدراج كيد والإملاء لازدياد الإثم ، كذلك لا يقال هو فاسد لأن الكيد والاساءة لا يطلق على فعل الله تعالى إلا بطريق المقابلة ، وكذلك المكر فلا يقال أساء الله إلى الكفار ولا اعتدى الله إلا إذا ذكر أولا فيهم شيء من ذلك ، ثم قال بعد ذلك بسببه لفظاً في حق الله تعالى كما في قوله تعالى (وجزاء سيئة سيئة مثلها) وقال (فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه) وقال (ومكروا ومكر الله) وقال (يكيدون كيداً وأكيد كيداً) لأنا نقول الكيد ما يسوء من نزل به وإن حسن ممن وجد منه ، ألا ترى أن إبراهيم عليه السلام قال (لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين) من غير مقابلة .

أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٣﴾ وَإِن يَرَوْا۟ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا يَقُولُوا۟ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴿٤٤﴾

﴿ المسألة الثانية ﴾ ما الفائدة فى قوله تعالى (فالذين كفروا هم المكيدون) ؟ وما الفرق بين معنى هذا الكلام ومعنى قول القائل : أم يريدون كيداً فهم المكيدون ؟ نقول الفائدة كون الكافر مكيداً فى مقابلة كفره لا فى مقابلة إرادته الكيد ولو قال : أم يريدون كيداً فهم المكيدون ، كان يفهم منه أنهم إن لم يريدوه لا يكونوا مكيدين ، وهذا يؤيد ما ذكرناه أن المراد من الكيد كيد الشيطان أو كيد الله ، بمعنى عذابه إياهم لأن قوله (فالذين كفروا هم المكيدون) عام فى كل كافر كاده الشيطان ويكيده الله أى يعذبه ، وصار المعنى على ماذكرناه أتهديهم لوجه الله أم تسألهم أجراً فتثقلهم فيمتنعون عن الاتباع ، أم عندهم الغيب فلا يحتاجون إليك فيعرضون عنك ، أم ليس شىء من هذين الأمرين الأخيرين فيريدون العذاب ، والعذاب غير مدفوع عنهم بوجه من الوجوه لكفرهم فالذين كفروا معذبون .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ ما الفائدة فى تنكير الكيد حيث لم يقل أم يريدون كيدك أو الكيد أو غير ذلك ليزول الإبهام ؟ نقول فيه فائدة ، وهى الإشارة إلى وقوع العذاب من حيث لا يشعرون فكأنه قال يأتيهم بغتة ولا يكون لهم به علم أو يكون إيراداً لعظمته كما ذكرنا مراراً .

قوله تعالى : ﴿ أم لهم إله غير الله سبحان الله عما يشركون ﴾ أعاد التوحيد وهو يفيد فائدة قوله تعالى (أم له البنات ولكم البنون) وفى سبحان الله بحث شريف : وهو أهل اللغة قالوا : سبحان اسم علم للتسبيح ، وقد ذكرنا ذلك فى تفسير قوله تعالى (فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون) وأكثرنا من الفوائد ، فإن قيل يجوز أن نقول سبحان الله اسم مصدر ، ونقول سبحان على وزن فعلان فنذكر سبحان فى غير مواضع الإيقاع لله كما يقال فى التسبيح ، نقول ذلك مثل قول القائل من حرف جار وفى كلمة ظرف حيث يخبر عنه مع أن الحرف لا يخبر عنه فيجاب بأن من وفى حينئذ جعلا كالإسم ولم يتركا على أصلهما المستعمل فى مثل قولك أخذت من زيد والدرهم فى الكيس ، فكذلك سبحان فيما ذكر من المواضع لم يترك على مواضع استعماله فإنه حينئذ لم يترك علماً كما يقال زيد على وزن فعل بخلاف التسبيح فيما ذكرنا .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ ما فى قوله تعالى (عما يشركون يحتمل وجهين (أحدهما) أن تكون مصدرية معناه سبحانه عن إشراكهم (ثانيهما) خبرية معناه عن الذين يشركون ، وعلى هذا فيحتمل أن يكون عن الولد لأنهم كانوا يقولون البنات لله فقال سبحان الله على البنات والبنين ، ويحتمل أن يكون عن مثل الآلهة لأنهم كانوا يقولون هو مثل ما يعبدونه فقال سبحان الله عن مثل ما يعبدونه .

قوله تعالى : ﴿ وإن يرو كسفاً من السماء ساقطاً يقولوا سحاب مركوم ﴾ .

وجه الترتيب فيه هو أنه تعالى لما بين فساد أقوالهم وسقوطها عن درجة الاعتبار أشار إلى أنه لم يبق لهم شيء من وجه الاعتذار ، فان الآيات ظهرت والحجج تميزت ولم يؤمنوا ، وبعد ذلك (يروا كسفاً من السماء ساقطاً يقولوا سحاب) أى ينكرون الآية لكن الآية إذا أظهرت فى أظهر الأشياء كانت أظهر ، وبيانه هو أن من يأتى بجسم من الأجسام من بيته وادعى فيه أنه فعل به كذا فربما يخطر ببال السامع أنه فى بيته ولما يبدعه ، فاذا قال للناس هاتوا جسما تريدون حتى أجعل لكم منه كذا يزول ذلك الوهم ، لكن أظهر الأشياء عند الإنسان الأرض التى هى مهده وفرشه ، والسماء التى هى سقفه وعرشه ، وكانت العرب على مذهب الفلاسفة فى أصل المذهب ، ولا يلتفت إلى قول الفلسفى نحن ننزه غاية التنزيه حتى لا نجوز رؤيته واتصافه بوصف زائد على ذاته ليكون واحداً فى الحقيقة ، فكيف يكون مذهبنا مذهب من يشرك بالله صنما منحوتاً ؟ نقول أنتم لما نسبتم الحوادث إلى الكواكب وشرعتم فى دعوة الكواكب أخذ الجهال عنكم ذلك واتخذوه مذهباً وإذا ثبت أن العرب فى الجاهلية كانت فى الأصل على مذهب الفلاسفة وهم يقولون بالطبائع فيقولون الأرض طبعها التكوين والسماء طبعها يمنع الانفصال والانفكاك ، فقال الله تعالى رداً عليهم فى مواضع (إن نشأ نخسف بهم الأرض أو نسقط عليهم كسفاً من السماء) إبطالا للطبائع وإيثاراً للاختيار فى الوقائع ، فقال ههنا إن أتينا بشيء غريب فى غاية الغرابة فى أظهر الأشياء وهو السماء التى يرونها أبداً ويعلمون أن أحد لا يصل إليها ليعمل بالأدوية وغيرها ما يجب سقوطها لأنكروا ذلك ، فكيف فيما دون ذلك من الأمور ، والذى يؤيد ماذكرناه وأنهم كانوا على مذهب الفلاسفة فى أمر السماء أنهم قالوا (أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً) أى ذلك فى زعمك ممكن ، فأما عندنا فلا ، والكسفة القطعة يقال كسفة من ثوب أى قطعة ، وفيه مباحث :

﴿ البحث الأول ﴾ استعمل فى السماء لفظة الكسف ، واللغويون ذكروا استعمالها فى الثوب لأن الله تعالى شبه السماء بالثوب المنشور ، ولهذا ذكره فيما مضى فقال (والسموات مطويات) وقال تعالى (يوم نطوى السماء) .

﴿ البحث الثانى ﴾ استعمل الكسف فى السماء والخسف فى الأرض فقال تعالى (نخسف بهم الأرض) وهو يدل على قول من قال يقال فى القمر خسوف وفى الشمس كسوف ووجهه أن مخرج الخاء دون مخرج الكاف ومخرج الكاف فوقه متصل به فاستعمل وصف الأسفل للأسفل والأعلا للأعلى ، فقالوا فى الشمس والسماء الكسوف والكسف ، وفى القمر والأرض الخسوف والخسف ، وهذا من قبيل قولهم فى الماتح والمايح إن ما نقطه فوق لمن فوق البئر وما نقطه من أسفل عند من يجوز نقطه من أسفل لمن تحت فى أسفل البئر .

﴿ البحث الثالث ﴾ قال فى السحاب ونجعله كسفاً مع أنه تحت القمر ، وقال فى القمر (وخسف القمر) وذلك لأن القمر عند الخسوف له نظير فوقه وهو الشمس عند الكسوف والسحاب

فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾

اعتبر فيه نسبته إلى أهل الأرض حيث ينظرون إليه ، فلم يقل فى القمر خسف بالنسبة إلى السحاب وإنما قيل ذلك بالنسبة إلى الشمس وفى السحاب قيل بالنسبة إلى الأرض .

﴿ المسألة الثانية ﴾ ساقطا يحتمل وجهين (أحدهما) أن يكون مفعولا ثانياً يقال رأيت زيداً عالما (وثانيهما) أن يكون حالا كما يقال ضربته قائما ، والثانى أولا لأن الرؤية عند التعدى إلى مفعولين فى أكثر الأمر تكون بمعنى العلم ، تقول أرى هذا المذهب صحيحاً وهذا الوجه ظاهراً وعند التعدى إلى واحد تكون بمعنى رأى العين فى الأكثر تقول رأيت زيداً . وقال تعالى (لما رأوا بأسنا) ، وقال (فإما ترين من البشر أحداً) والمراد فى الآية رؤية العين .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ فى قوله (ساقطا) فائدة لا تحصل فى غير السقوط ، وذلك لأن عندهم لا يجوز الانفصال على السموات ولا يمكن نزولها وهبوطها ، فقال ساقطاً ليكون مخالفاً لما يعتقدونه من وجهين (أحدهما) الانفصال (والآخر) السقوط ولو قال وإن يروا كسفاً منفصلا أو معلقاً لما حصلت هذه الفائدة .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ فى قوله (يقولوا) فائدة أخرى ، وذلك لأنه يفيد بيان العناد الذى هو مقصود سرد الآية ، وذلك لأنهم فى ذلك الوقت يستخرجون وجوهاً حتى لا يلزمهم التسليم فيقولون سحاب قولا من غير عقيدة ، وعلى هذا يحتمل أن يقال (وإن يروا) المراد العلم ليكون أدخل فى العناد ، أى إذا علموا وتيقنوا أن السماء ساقطة غيروا وعاندوا ، وقالوا هذا سحاب مركوم .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ قوله تعالى (يقولوا سحاب مركوم) إشارة إلى أنهم حين يعجزون عن التكذيب ولا يمكنهم أن يقولوا لم يقع شىء على الأرض يرجعون إلى التأويل والتخييل وقوله (مركوم) أى مركب بعضه على بعض كأنهم يدفعون عن أنفسهم مايورد عليهم بأن السحاب كالهواء لايمنع نفوذ الجسم فيه ، وهذا أقوى مانع فيقولون إنه ركام فصار صلباً قوياً .

﴿ المسألة السادسة ﴾ فى إسقاط كلمة الإشارة حيث لم يقل : يقولوا هذا ، إشارة إلى وضوح الأمر وظهور العناد فلا يستحسنون أن يأتوا بما لا يبقى معه مراء فيقولون (سحاب مركوم) مع حذف المبتدأ ليبقى للقائل فيه مجال فيقول عند تكذيب الخلق إياهم ، قلنا (سحاب مركوم) شبهه ومثله ، وأن يتمشى الأمر مع عوامهم استمروا ، وهذا مجال من يخاف من كلام ولا يعلم أنه يقبل منه أو لا يقبل ، فيجعله ذا وجهين ، فإن رأى النكر على أحدهما فسره بالآخر وإن رأى القبول خرج بمراده .

قوله تعالى : ﴿ فذرهم حتى يلاقوا يومهم الذى فيه يصعقون ﴾ أى إذا تبين أنهم لا يرجعون فدعهم حتى يلاقوا وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ (فذرهم) أمر وكان يجب أن يقال لم يبق للنبي صلى الله عليه وسلم جواز دعائهم إلى الإسلام وليس كذلك ، والجواب عنه من وجوه (أحدها) أن هذه الآيات مثل قوله تعالى (فأعرض ، وتول عنهم) إلى غير ذلك كلها منسوخة بآية القتال وهو ضعيف ، (ثانيها) ليس المراد الأمر وإنما المراد التهديد كما يقول سيد العبد الجاني لمن ينصحه دعه فانه سينال وبال جنايته (ثالثها) أن المراد من يعاند وهو غير معين والنبي صلى الله عليه وسلم كان يدعو الخلق على سبيل العموم ويجوز أن يكون المراد بالخطاب من لم يظهر عناده لامن ظهر عناده فلم يقل الله فى حقه (فذرهم) ويدل على هذا أنه تعالى قال من قبل (فذكر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون) وقال ههنا (فذرهم) فمن يذكرهم هم المشفقون الذين قالوا (إنا كنا قبل فى أهلنا مشفقين) ومن يذرهم الذين قالوا (شاعر نتربص به ريب المنون) إلى غير ذلك .

﴿ المسألة الثانية ﴾ حتى للغاية فيكون كأنه تعالى قال : ذرهم إلى ذلك اليوم ولا تكلمهم ثم ذلك اليوم تجدد الكلام وتقول ألم أقل لكم إن الساعة آتية وإن الحساب يقوم والعذاب يدوم فلا تكلمهم إلى ذلك اليوم ثم كلمهم لتعلمهم (ثانيها) أن المراد من حتى الغاية التي يستعمل فيها اللام كما يقول القائل لا تطعمه حتى يموت أى ليموت ، لأن اللام التى للغرض عندها ينتهى الفعل الذى للغرض فيوجد فيها معنى الغاية ومعنى التعليل ويجوز استعمال الكلمتين فيها ولعل المراد من قوله تعالى (واعبد ربك حتى يأتيك اليقين) هذا أى إلى أن يأتيك اليقين ، فان قيل فمن لا يذره أيضاً يلاقى ذلك اليوم ، نقول المراد من قوله (يصعقون) يهلكون فالمذكر المشفق لا يهلك ويكون مستثنى منهم كما قال تعالى (فصعق من فى السموات ومن الأرض إلا من شاء الله) وقد ذكرنا هناك أن من اعترف بالحق وعلم أن يوم الحساب كائن فإذا وقعت الصيحة يكون كمن يعلم أن الرعد يرعد ويستعد لسماعه ، ومن لا يعلم يكون كالغافل ، فإذا وقعت الصيحة ارتجف الغافل ولم يرتجف العالم ، وحينئذ يكون التوعد بملاقاة يومهم لأن كل أحد يلاقى يومه وإنما يكون بملاقاة يومهم الذى فيه يصعقون ، أى اليوم الموصوف بهذه الصفة ، وهذا كما قال تعالى (لولا أن تداركه نعمة من ربه لنبذ بالعراء وهو مذموم) فإن المنفى ليس النبذ بالعراء لأنه تحقق بدليل قوله تعالى (فنبذناه بالعراء وهو سقيم) وإنما المنفى النبذ الذى يكون معه مذموماً وهذا لم يوجد .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ حتى ينصب ما بعدها من الفعل المستقبل تارة ويرفع أخرى والفاصل بينهما أن الفعل إذا كان مستقبلا منتظراً لا يقع فى الحال ينصب تقول تعلمت القرآن حتى ترتفع درجتى فإنك تنتظره وإن كان حالا يرفع تقول أكرر حتى تسقط قوتى ثم أنام ، والسبب فيه هو أن حتى المستقبل للغاية ولام التعليل للغرض والغرض غاية الفعل ، تقول لم تبنى الدار يقول السكنى انصار قوله حتى ترفع كقوله لأرفع وفيهما إضمار أن ، فان قيل ما قلت شيئاً وما ذكرت السبب فى النصب عند إرادة الاستقبال والرفع عند إرادة الحال ، نقول الفعل المستقبل إذا كان منتظراً وكان

يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾

تصب العين ومنصوباً لدى الذهن يرقبه يفعل بلفظه ما كان فى معناه ، ولهذا قالوا فى الإضافة أن المضاف لما جر أمراً إلى أمر فى المعنى جزء فى اللفظ ، والذى يؤيد ما ذكرنا أن الفعل إنما ينصب بأن ولن وكى وإذن ، وخلوص الفعل للاستقبال فى هذه المواضع لازم والحرف الذى يجعل الفعل للحال يمنع النصب حيث لا يجوز أن تقول إن فلاناً ليضرب فان قيل : السين وسوف مع أنهما يخلصان الفعل للاستقبال لا ينصبان ويمنعان النصب بالناصب كما فى قوله تعالى (علم أن سيكون منكم مرضى) نقول : سوف والسين ليسا بمعنى غير اختصاص الفعل بالاستقبال وأن ولن بمعنى لا يصح إلا فى الاستقبال فلم يثبت بالسين إلا الاستقبال ولم يثبت به معنى فى الاستقبال والمنتظر هو ما فى الاستقبال لا نفس الاستقبال ، مثاله إذا قلت أعبد الله كى يغفر لى أو ليغفر لى أثبتت كى غرضاً وهو المغفرة ، وهى فى المستقبل من الزمان ، وإذا قلت : أستغفرك ربى أثبتت السين استقبال المغفرة ، وفرق بين ما يكون المقصود من الكلام بيان الاستقبال ، لكن الاستقبال لا يوجد إلا فى معنى فأتى بالمعنى ليبين به الاستقبال وبين ما يكون المقصود منه معنى فى المستقبل فتذكر الاستقبال لتبين محل مقصودك .

قوله تعالى : ﴿ يوم لا يغنى عنهم كيدهم شيئاً ولاهم ينصرون ﴾ .

لما قال (يلاقوا يومهم) وكل بر وفاجر يلاقى يومه أعاد صفة يومهم وذكر ما يتميز به يومهم عن يوم المؤمنين فقال (يوم لا يغنى) وهو يخالف يوم المؤمنين فانه تعالى قال فيه (يوم ينفع الصادقين) وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ فى يوم لا يغنى وجهان (الأول) بدل عن قوله (يومهم) (ثانيهما) ظرف يلاقوا أى يلاقو يومهم يوم ، فإن قيل هذا يلزم منه أن يكون اليوم فى يوم فيكون اليوم ظرف اليوم نقول هو على حد قول من يقول يأتى يوم قتل فلان يوم تبين جرائمه ولا مانع منه ، وقد ذكرنا بحث الزمان وجواز كونه ظرفاً فى قوله تعالى (يومئذ) وجواز إضافة اليوم إلى الزمان مع أنه زمان .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال تعالى (يوم لا يغنى عنهم كيدهم) ولم يقل يوم لا يغنيهم كيدهم مع أن الإغناء يتعدى بنفسه لفائدة جليلة وهى أن قول القائل أغنانى كذا يفهم منه أنه نفعنى ، وقوله أغنى عنى يفهم منه أنه دفع عنى الضرر وذلك لأن قوله أغنانى معناه فى الحقيقة أفادنى غير مستفيد وقوله : أغنى عنى ، أى لم يحوجنى إلى الحضور فأغنى غيرى عن حضورى يقول من يطلب لأمر : خذوا عنى ولدى ، فإنه يغنى عنى أى يغنيكم عنى فيدفع عنى أيضاً مشقة الحضور فقوله (لا يغنى عنهم) أى لا يدفع عنهم الضرر ، ولا شك أن قوله لا يدفع عنهم ضرراً أبلغ من قوله لا ينفعهم نفعاً وإنما فى المؤمن لو قال يوم يغنى عنهم صدقهم لما فهم منه نفعهم فقال (يوم ينفع) كأنه قال يوم يغنيهم

صدقهم ، فكأنه استعمل فى المؤمن يغنيهم وفى الكافر لا يغنى عنهم وهو مما لا يطلع عليه إلا من يكون عنده من علم البيان طرف ويتفكر بقريحة وقادة آيات الله ووفقه الله .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ الأصل تقديم الفاعل على المفعول والأصل تقديم المضمر على المظهر ، أما فى الأول فلأن الفاعل متصل بالفعل ولهذا قالوا فعلت فأسكنوا اللام لئلا يلزم أربع متحركات فى كلمة واحدة وقالوا ضربك ولم يسكنوا لأن الكاف ضمير المفعول وهو منفصل ، وأما تقديم المضمر فلأنه يكون أشد اختصاراً ، فإنك إذا قلت ضربنى زيد يكون أقرب إلى الاختصار من قولك ضرب زيد إياى فإن لم يكن هناك اختصار كقولك مربى زيد ومربى فالأولى تقديم الفاعل ، وههنا لو قال يوم لا يغنيهم كيدهم كان الأحسن تقديم المفعول ، فاذا قال يوم لا يغنى عنهم صار كما قلنا فى مر زيد بى فلم لم يقدم الفاعل ، نقول فيه فائدة مستفادة من علم البيان ، وهو أن تقديم الأهم أولى فلو قال يوم لا يغنى كيدهم كان السامع لهذا الكلام ربما يقول لا يغنى كيدهم غيرهم فيرجو الخير فى حقهم وإذا سمع لا يغنى عنهم انقطع رجاؤه وانتظر الأمر الذى ليس بمغن .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قد ذكرنا أن معنى الكيد هو فعل يسوء من نزل به وإن حسن ممن صدر منه ، فما الفائدة فى تخصيص العمل الذى يسوء بالذكر ولم يقل يوم لا يغنى عنهم أفعالهم على الإطلاق ؟ نقول هو قياس بالطريق الأولى لأنهم كانوا يأتون بفعل النبى ﷺ والمؤمنين وكانوا يعتقدون أنه أحسن أعمالهم فقال ما أغنى أحسن أعمالهم الذى كانوا يعتقدون فيه ليقطع رجاءهم عما دونه ، وفيه وجه آخر وهو أنه تعالى لما قال من قبل (أم يريدون كيداً) وقد قلنا إن أكثر المفسرين على أن المراد به تدبيرهم فى قتل النبى ﷺ قال (هم المكيدون) أى لا ينفعهم كيدهم فى الدنيا فإذا يفعلون يوم لا ينفعهم ذلك الكيد بل يضرهم وقوله (ولاهم ينصرون) فيه وجوه (أحدها) أنه متمم بيان وجهه هو أن الداعى أولا يرتب أموراً لدفع المكروه بحيث لا يحتاج إلى الانتصار بالغير والمنة ثم إذا لم ينفعه ذلك ينتصر بالأغيار ، فقال لا ينفعهم أفعال أنفسهم ولا ينصرهم عند اليأس وحصول اليأس عن إقبالهم (ثانيها) أن المراد منه ما هو المراد من قوله تعالى (لا تغن عنى شفاعتهم شيئاً ولا ينقذون) ، فقوله (يوم لا يغنى عنهم كيدهم شيئاً) أى عبادتهم الأصنام ، وقولهم (هؤلاء شفعاؤنا) وقولهم (ما نعبدهم إلا ليقربونا) وقوله (ولا هم ينصرون) ، أى لا نصير لهم كما لا شفيع ، ودفع العـذاب ، إما بشفاعة شفيع أو بنصر ناصر (ثالثها) أن نقول الإضافة فى كيدهم إضافة المصدر إلى المفعول ، لا إضافته إلى الفاعل ، فكأنه قال لا يغنى عنهم كيد الشيطان إياهم ، وبيانه هو أنك تقول أعجبنى ضرب زيداً عمراً ، وأعجبنى ضرب عمرو ، فإذا اقتصرت على المصدر والمضاف إليه لا يعلم إلا بالقرينة والنية ، فإذا سمعت قول القائل ، أعجبنى ضرب زيد يحتمل أن يكون زيد ضارباً ويحتمل أن يكون مضروباً فإذا سمعت قول القائل ، أعجبنى قطع اللص على سرقته دلت القرينة على أنه مضاف إلى المفعول ، فإن قيل هذا فاسد من حيث إنه إيضاح واضح

وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾

لأن كيد المكيد لا ينفع قطعا ، ولا يخفى على أحد ، فلا يحتاج إلى بيان ، لكن كيد الكائد يظن أنه ينفع فقال تعالى : ذلك لا ينفع ، نقول كيد الشيطان إياهم على عبادة الأصنام وهم كانوا يظنون أنها تنفع ، وأما كيدهم النبي ﷺ كانوا يعلمون أنه لاينفع فى الآخرة وإنما طلبوا أن ينفعهم فى الدنيا لافى الآخرة فالإشكال ينقلب على صاحب الوجه الأول ولا إشكال على الوجهين جميعاً إذا تفكرت فيما قلناه .

قوله تعالى : ﴿ وإن للذين ظلموا عذاباً دون ذلك ولكن أكثرهم لايعلمون ﴾ فى اتصال الكلام وجهان (أحدهما) متصل بقوله تعالى (فذرهم) وذلك لأنه يدل على عدم جواز القتال ، وقد قيل إنه نازل قبل شرع القتال ، وحينئذ كأنه قال فذرهم ولا تذرهم مطلقاً من غير قتال ، بل لهم قبل يوم القيامة عذاب يوم بدر حيث تؤمر بقتالهم ، فيكون بياناً وعداً ينسخ فذرهم بالعذاب يوم بدر (ثانيهما) هو متصل بقوله تعالى (لا يغنى) وذلك لأنه لما بين أن كيدهم لايغنى عنهم قال ولا يقتصر على عدم الإغناء بل لهم مع أن كيدهم لايغنى ويل آخر وهو العذاب المعد لهم ، ولو قال لايغنى عنهم كيدهم كان يوهم أنه لا ينفع ولكن لا يضر ولما قال مع ذلك (وإن للذين ظلموا عذاباً) زال ذلك ، وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ الذين ظلموا هم أهل مكة إن قلنا العذاب هو عذاب يوم بدر ، وإن قلنا العذاب هو عذاب القبر فالذين ظلموا عام فى كل ظالم .

﴿ المسألة الثانية ﴾ ما المراد من الظلم ههنا ؟ نقول فيه وجوه (الأول) هو كيدهم نبيهم ، و (الثانى) عبادتهم الأوثان ، و (الثالث) كفرهم وهذا مناسب للوجه الثانى .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ دون ذلك ، على قول أكثر المفسرين معناه قبل ويؤيده قوله تعالى (ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر) ويحتمل وجهين آخرين (أحدهما) دون ذلك ، أى أقل من ذلك فى الدوام والشدة يقال الضرب دون القتل فى الإيلام ، ولا شك أن عذاب الدنيا دون عذاب الآخرة على هذا المعنى ، وعلى هذا ففيه فائدة التنبيه على عذاب الآخرة العظيم وذلك لأنه إذا قال عذاباً دون ذلك أى قتلا وعذاباً فى القبر فيتفكر المتفكر ويقول مايكون القتل دونه لا يكون إلا عظيما ، فإن قيل فهذا المعنى لا يمكن أن يقال فى قوله تعالى (ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر) قلنا نسلم ذلك ولكن لامانع من أن يكون المراد ههنا هذا الثانى على طريقة قول القائل : تحت لجاجك مفاسد ودون غرضك متاعب ، وبيانه هو أنهم لما عبدوا غير الله ظلموا أنفسهم حيث وضعوها فى غير موضعها الذى خلقت له فقيل لهم إن لكم دون ذلك الظلم عذاباً .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ ذلك إشارة إلى ماذا ؟ نقول الظاهر إنه إشارة إلى اليوم وفيه وجهان

﴿ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴾ (٤٨)

آخران (أحدهما) فى قوله يصعقون ، وقوله (يغنى عنهم) إشارة إلى عذاب واقع فقوله ذلك إشارة إليه ، ويمكن أن يقال قد تقدم قوله (إن عذاب ربك لواقع) وقوله دون ذلك ، أى دون ذلك العذاب (ثانيهما) دون ذلك ، أى كيدهم فذاك إشارة إلى الكيد وقد بينا وجهه فى المثال الذى مثلنا وهو قول القائل : تحت لجاجك حرمانك ، والله علم .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ (ولكن أكثرهم لا يعلمون) ذكرنا فيه وجوهاً (أحدها) أنه جرى على عادة العرب حيث تعبر عن الكل بالأكثر كما قال تعالى (أكثرهم بهم مؤمنون) ثم إن الله تعالى تكلم على تلك العادة ليعلم أن الله استحسنها من المتكلم حيث يكون ذلك بعيداً عن الخلف (ثانيها) منهم من آمن فلم يكن ممن لايعلم (ثالثها) هم فى أكثر الأحوال لم يعلموا وفى بعض الأحوال علموا وأدله أنهم علموا حال الكشف وإن لم ينفعهم .

﴿ المسألة السادسة ﴾ مفعول لايعلمون جاز أن يكون هو ماتقدم من الأمر : وهو أن لهم عذاباً دون ذلك ، وجاز أن لايكون له مفعول أصلا ، فيكون المراد أكثرهم غافلون جاهلون .

قوله تعالى : ﴿ واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا وسبح بحمد ربك حين تقوم ﴾ وقد ذكرناه فى تفسير قوله تعالى (فاصبر على مايقولون وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس) ونشير إلى بعضه ههنا فإن طول العهد ينسى ، فنقول لما قال تعالى (فذرهم) كان فيه الإشارة إلى أنه لم يبق فى نصحهم نفع ولا سيما وقد تقدم قوله تعالى (وإن يروا كسفاً من السماء) وكان ذلك مما يحمل النبى صلى الله عليه وسلم على الدعا. كما قال نوح عليه السلام (رب لاتذر على الأرض من الكافرين دياراً) وكما دعا يونس عليه السلام فقال تعالى (واصبر) وبدل اللعن بالتسبيح (وسبح بحمد ربك) بدل قولك اللهم أهلكهم ألا ترى إلى قوله تعالى (فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت) وقوله تعالى (فإنك بأعيننا) فيه وجوه (الأول) أنه تعالى لما بين أنهم يكيدونه كان ذلك مما يقتضى فى العرف المبادرة إلى إهلاكهم لئلا يتم كيدهم فقال : اصبر ولا تخف ، فإنك محفوظ بأعيننا (ثانيها) أنه تعالى قال فاصبر ولا تدع عليهم فإنك بمرآى منا نراك وهذه الحالة تقتضى أن تكون على أفضل مايكون من الأحوال لكن كونك مسبحاً لنا أفضل من كونك داعياً على عباد خلقناهم ، فاختر الأفضل فإنك بمرآى منا (ثالثها) أن من يشكو حاله عند غيره يكون فيه إنباء عن عدم علم المشكو إليه بحال الشاكى فقال تعالى (اصبر) ولا تشك حالك فانك بأعيننا نراك فلافائدة فى شكواك ، وفيه مسائل مختصة بهذا الموضع لاتوجد فى قوله (فاصبر على مايقولون) .

﴿ المسألة الأولى ﴾ اللام فى قوله (واصبر لحكم) تحتمل وجوها : (الأول) هى بمعنى إلى أى اصبر إلى أن يحكم الله (الثانى) الصبر فيه معنى الثبات ، فكأنه يقول فاثبت لحكم ربك يقال

وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ﴿٤٩﴾

ثبت فلان لحمل قرنه (الثالث) هى اللام التى تستعمل بمعنى السبب يقال لم خرجت فيقال لحكم فلان على بالخروج فقال (واصبر) واجعل سبب الصبر امتثال الأمر حيث قال واصبر لهذا الحكم عليك لا لشيء آخر .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال ههنا (بأعيننا) وقال فى مواضع آخر (ولتصنع على عينى) نقول لما وحد الضمير هناك وهو ياء المتكلم وحده وحد العين ولما ذكر ههنا ضمير الجمع فى قوله (بأعيننا) وهو النون جمع العين ، وقال (بأعيننا) هذا من حيث اللفظ ، وأما من حيث المعنى فلأن الحفظ ههنا أتم لأن الصبر مطية الرحمة بالنبى ﷺ حيث اجتمع له الناس وجمعوا له مكايد وتشاوروا فى أمره ، وكذلك أمره بالفلك وأمره بالاتخاذ عند عدم الماء وحفظه من الغرق مع كون كل البقاع مغمورة تحت الماء تحتاج إلى حفظ عظيم فى نظر الخلق فقال بأعيننا .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ ماوجه تعلق الباء ههنا قلنا قد ظهر من جميع الوجوه ، أما إن قلنا بأنه للحفظ فتقديره محفوظ بأعيننا ، وإن قلنا للعلم فمعناه بمرأى منا أى بمكان نراك وتقديره فإنك بأعيننا مرئى وحينئذ هو كقول القائل رأيته بعينى كما يقال كتب بالقلم الآلة وإن كان رؤية الله ليست بآلة ، فإن قيل فما الفرق فى الموضعين حيث قال فى طه (على عينى) وقال ههنا (بأعيننا) وما الفرق بين على وبين الباء نقول معنى على هناك هو أنه يرى على مايرضاه الله تعالى ، كما يقول أفعله على عينى أى على رضاى تقديره على وجه يدخل فى عينى وألتفت إليه فإن من يفعل شيئاً لغيره ولا يرتضيه لا ينظر فيه ولا يقلب عينه إليه والباء فى قوله (وسبح بحمد ربك) قد ذكرناها وقوله (حين تقوم) فيه وجوه (الأول) تقوم من موضعك والمراد قبل القيام حين ما تعزم على القيام وحين مجيء القيام ، وقد ورد فى الخبر أن من قال « سبحان الله » من قبل أن يقوم من مجلسه يكتب ذلك كفارة لما يكون قد صدر منه من اللفظ واللغوا فى ذلك المجلس (الثانى) حين تقوم من النوم ، وقد ورد أيضاً فيه خبر يدل على أنه صلى الله عليه وسلم كان « يسبح بعد الانتباه » (الثالث) حين تقوم إلى الصلاة وقد ورد فى الخبر أنه صلى الله عليه وسلم كان يقول فى افتتاح الصلاة « سبحانك اللهم وبحمدك وتبارك اسمك وتعالى جدك ولا إله غيرك » (الرابع) حين تقوم لأمر ما ولا سيما إذا قمت منتصباً لمجاهدة قومك ومعاداتهم والدعاء عليهم (فسبح بحمد ربك) وبدل قيامك للمعاداة وانتصابك للانتقام بقيامك لذكر الله وتسبيحه (الخامس) حين تقوم أى بالنهار ، فإن الليل محل السكون والنهار محل الإبتغاء وهو بالقيام أولى ، ويكون كقوله (ومن الليل فسبحه) إشارة إلى مابقى من الزمان وكذلك (إدبار النجوم) وهو أول الصبح .

قوله تعالى : ﴿ ومن الليل فسبحه وإدبار النجوم ﴾ .

وقد تقدم تفسيره وهو كقوله تعالى (فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون) وقد ذكرنا فائدة الاختصاص بهذه الأوقات ومعناه ، ونختم هذه السورة بفائدة وهى أنه تعالى قال ههنا (وإدبار النجوم) وقال فى ق (وإدبار السجود) ، ويحتمل أن يقال المعنى واحد والمراد من السجود جمع ساجد وللنجوم سجود قال تعالى (والنجم والشجر يسجدان) وقيل المراد من النجم نجوم السماء وقيل النجم مالا ساق له من النبات قال الله تعالى (ولله يسجد من فى السموات ومن فى الأرض) أو المراد من النجوم الوظائف وكل وظيفة نجم فى اللغة أى إذا فرغت من وظائف الصلاة فقل سبحان الله ، وقد ورد فى الحديث « من قال عقيب الصلاة سبحان الله عشر مرات والحمد لله عشر مرات والله أكبر عشر مرات كتب له ألف حسنة » فيكون المعنى فى الموضعين واحد لأن السجود من الوظائف والمشهور والظاهر أن المراد من (إدبار النجوم) وقت الصبح حيث يدبر النجم ويخفى ويذهب ضياؤه بضوء الشمس ، وحينئذ تبين ما ذكرنا من الوجه الخامس فى قوله حين تقوم أن المراد منه النهار لأنه محل القيام (ومن الليل) القدر الذى يكون الإنسان فى يقظان فيه (وإدبار النجوم) وقت الصبح فلا يخرج عن التسبيح إلا وقت النوم ، وهذا آخر تفسير هذه السورة والله أعلم ، والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم .

سورة «والطور»

مكية كلُّها في قول الجميع، وهي تسعٌ[1] وأربعون آية

روى الأئمة عن جُبير بن مُطْعِم قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقرأ بالطُّور في المغرب. متفق عليه[2].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿وَٱلطُّورِ ۝١ وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ ۝٢ فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ ۝٣ وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ ۝٤ وَٱلسَّقْفِ ٱلْمَرْفُوعِ ۝٥ وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ ۝٦ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ۝٧ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ ۝٨﴾

قوله تعالى: ﴿وَٱلطُّورِ﴾ الطُّور اسمُ الجبل الذي كلَّم الله عليه موسى[3]، أقسم الله به تشريفاً له وتكريماً وتذكيراً لِمَا فيه من الآيات، وهو أَحدُ جبال الجنة.

وروى إسماعيل بن إسحاق قال: حدّثنا إسماعيل بن أبي أويس، قال: حدَّثنا كثير بنُ عبد الله بنِ عمرو بن عوف، عن أبيه، عن جدِّه أنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «أربعةُ أجْبُلٍ من جبال الجنة، وأربعةُ أنهار من أنهار الجنة، وأربعة مَلَاحم من مَلَاحم الجنة» قيل: فما الأَجْبُل؟ قال: «جَبَلُ أُحُد يحبُّنا ونحبُّه، والطُّورُ جبلٌ من جبال الجنة، ولُبْنان جبلٌ من جبال الجنة، والجوديّ جبلٌ من جبال الجنة»[4]

---

(١) في النسخ الخطية: ثمان، وذكر هذا القول الزمخشري في الكشاف ٤/ ٢٢ بصيغة التضعيف، والمثبت من (م) وهو الموافق لما في التفاسير.

(٢) صحيح البخاري (٧٦٥)، وصحيح مسلم (٤٦٣)، وهو عند أحمد (١٦٧٣٥).

(٣) معاني القرآن للزجاج ٥/ ٦١، وتفسير البغوي ٤/ ٢٣٦، والكشاف ٤/ ٢٢.

(٤) أخرجه ابن شبة في تاريخ المدينة ١/ ٨٠ - ٨١، وابن عدي في الكامل ٦/ ٢٠٨٠، والطبراني في الكبير ١٧/ ١٨ (١٩) من طريق كثير بن عبد الله، به. ولم يذكر ابن عدي والطبراني جبل الجودي، ووقع بدله عند ابن شبة: وَرْقَان، وإسناده ضعيف جداً. كثير بن عبد الله ضعفه ابن معين وأحمد =

وذكر الحديث، وقد استوفيناه في كتاب «التذكرة»[١].

قال مجاهد: الطُّور هو بالسريانية: الجبلُ[٢]، والمراد به طور سِيناء. وقاله السُّدِّي[٣]. وقال مقاتل بن حيَّان: هما طوران؛ يقال لأحدهما: طُورُ سِيناء، والآخر طورُ زيتا[٤]؛ لأنَّهما يُنبِتان التين والزيتون[٥]. وقيل: هو جبل بمَدْيَن، واسمه: زَبير.[٦] قال الجوهريُّ: والزَّبير: الجبل الذي كلَّم الله عليه موسى عليه السلام[٧].

قلت: ومدينُ بالأرض المقدَّسة، وهي قرية شعيبٍ عليه السلام.

وقيل: إن الطُّور كلُّ جبل أنبت، وما لا يُنبِت فليس بطور. قاله ابن عباس[٨]. وقد مضى في «البقرة» مستوفى[٩].

قوله تعالى: ﴿وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ﴾ أي: مكتوب، يعني القرآنَ يقرؤه المؤمنون من المصاحف، ويقرؤه الملائكة من اللَّوح المحفوظ، كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ .

= وأبو حاتم والنسائي، وقال الدارقطني وغيره: متروك، وقال ابن حبان: له عن أبيه عن جدّه نسخة موضوعة، وقال ابن عدي: عامة ما يرويه لا يتابع عليه. اهـ. وأبوه عبد الله بن عمرو مجهول، فقد تفرد بالرواية عنه ابنه كثير. ميزان الاعتدال ٢/ ٤٦٧ و٣/ ٤٠٦-٤٠٧ .

(١) ص ٤٤٥ - ٤٤٦ .

(٢) تفسير مجاهد ٢/ ٦٢٣ ، وأورده الطبري ٢١/ ٥٦١ ، وحكى ابن عطية عن الطبري إيراده قول مجاهد، ثم تعقبه بقوله: وهذا ضعيف لأن ما حكاه في العربية يقضي على هذا، ولا خلاف أن في الشام جبلاً يسمى بالطور، وهو طور سيناء.

(٣) النكت والعيون ٥/ ٣٧٧ .

(٤) طور زيتا : هو جبل بقرب رأس عين قنطرة الخابور ، على رأسه شجر زيتون ، يسقيه المطر ، ولذلك سمي طور زيتا . معجم البلدان ٤/ ٤٧ - ٤٨ .

(٥) قول مقاتل في المحرر الوجيز ٥/ ١٨٥ مختصر بلفظ : هما طوران .

(٦) مراح لبيد ٢/ ٣٢٧ ، وفي النكت والعيون عن مقاتل: يسمى هذا الطور زبير.

(٧) لم نقف عليه من كلامه، وذكره ابن الأثير في النهاية (زبر) دون نسبة. وأورده الزَّبيدي أيضاً في تاج العروس دون نسبة وقال: أجمع المفسرون على أن جبل المناجاة هو الطور.

(٨) النكت والعيون ٥/ ٣٧٦ .

(٩) ٢/ ١٦٤ .

﴿فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ﴾ [الواقعة:٧٨]. وقيل: يعني سائرَ الكتب المنزَّلة على الأنبياء.

وكان كلُّ كتاب في رَقٍّ ينشره أهله لقراءته. وقال الكلبي: هو ما كتب الله لموسى بيده من التوراة وموسى يسمع صَرِيرَ القلم[١]. وقال الفراء: هو صحائف الأعمال، فمِن آخذٍ كتابَه بيمينه، ومِن آخذٍ كتابَه بشماله[٢]، نظيره: ﴿وَنُخۡرِجُ لَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ كِتَٰبٗا يَلۡقَىٰهُ مَنشُورًا﴾ [الإسراء:١٣]، وقوله: ﴿وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتۡ﴾ [التكوير:١٠]. وقيل: إنه الكتاب الذي كتبه الله تعالى لملائكته في السماء، يقرؤون فيه ما كان وما يكون[٣]. وقيل: المراد ما كتب الله في قلوب الأولياء من المؤمنين، بيانُه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡإِيمَٰنَ﴾ [المجادلة:٢٢].

قلت: وفي هذا القول تَجوُّز؛ لأنه عبَّر بالقلوب عن الرَّق. قال المبرِّد: الرَّقُّ: ما رُقِّق من الجِلد ليُكتب فيه، والمنشور: المبسوط. وكذا قال الجوهري في الصحاح[٤]، قال: والرَّق ـ بالفتح ـ: ما يُكتب فيه وهو جلدٌ رقيق، ومنه قوله تعالى: ﴿فِي رَقّٖ مَّنشُورٖ﴾. والرَّق أيضًا: العظيم من السَّلاحِف. قال أبو عبيد[٥]: وجمعه رُقُوق. والمعنى المراد ما قاله الفراء، والله أعلم. وكلُّ صحيفة فهي رَقٌّ لرِقّة حواشيها، ومنه قول المتلمّس:

فكأنَّما هي من تَقَادُمِ عَهْدِها ... رَقٌّ أُتيح كتابُها مَسطورُ[٦]

وأمَّا الرِّق: ـ بالكسر ـ فهو المِلْك[٧]، يقال: عبدٌ مرقوق. وحكى الماورديُّ[٨]

(١) أورده البغوي في تفسيره ٤/ ٢٣٦.

(٢) معاني القرآن للفراء ٣/ ٩١، ونقله المصنف بواسطة الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٣٧٧.

(٣) النكت والعيون ٥/ ٣٧٧.

(٤) مادة (رقق).

(٥) في (د) و(م): أبو عبيدة.

(٦) النكت والعيون ٥/ ٣٧٧.

(٧) الصحاح (رقق).

(٨) في النكت والعيون ٥/ ٣٧٧.

عن ابن عباس: أن الرَّق ـ بالفتح ـ ما بين المشرق والمغرب.

قوله تعالى: ﴿وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ﴾ قال عليٌّ وابن عباس وغيرهما: هو بيت في السماء حِيَال الكعبة، يدخله كلَّ يوم سبعون ألفَ ملَك، ثم يخرجون منه، فلا يعودون إليه[١]. قال عليٌّ ﷺ: هو بيت في السماء السادسة[٢]. وقيل: في السماء الرابعة[٣]. روى أنس بن مالك، عن مالك بن صَعْصَعة قال: قال رسول الله ﷺ: «أُتيَ بي إلى السماء الرابعة، فرُفِع لنا البيتُ المعمور، فإذا هو حِيالُ الكعبة، لو خَرَّ خَرَّ عليها، يدخله كلَّ يوم سبعون ألفَ مَلَك، إذا خرجوا منه لم يعودوا إليه» ذكره الماورديُّ[٤].

وحكى القشيريُّ عن ابن عباس: إنه في السماء الدنيا. وقال أبو بكر الأنباري: سأل ابن الكَوَّاء عليًّا ﷺ قال: فما البيت المعمور؟ قال: بيتٌ فوق سبع سماوات تحت العرش يقال له: الضُّراح[٥]. وكذا في «الصحاح»: والضُّراح ـ بالضم ـ بيت في السماء، وهو البيت المعمور عن ابن عباس[٦]. وعُمْرانه: كثرةُ غاشيته من الملائكة. وقال المهدويُّ عنه: حِذاء العرش.

والذي في صحيح مسلم، عن مالك بن صعصعة عن النبيِّ ﷺ في حديث الإسراء: «ثم رُفع لي[٧] البيتُ المعمور، فقلت: يا جبريل، ما هذا؟ قال: هذا البيت

---

(١) تفسير أبي الليث ٣/ ٢٨٢ ، والنكت والعيون ٥/ ٣٧٧ ، وأخرجه عنهما الطبري ٢١/ ٥٦٤ .

(٢) أخرجه الطبري ٢١/ ٥٦٣ .

(٣) تفسير أبي الليث ٣/ ٢٨٢ وروى البخاري (٣٢٠٧) و(٣٨٨٧) ومسلم (١٦٤) من حديث أنس بن مالك عن مالك بن صعصعة أنه في السماء السابعة.

(٤) في النكت والعيون ٥/ ٣٧٧ ، وفيه : السماء السابعة : بدل : السماء الرابعة، وهي رواية عن أنس كما ذكر الحافظ في الفتح ٦/ ٣٠٩ ، وقال: أكثر الروايات أنه في السماء السابعة.

(٥) أخرجه الطبري ٢١/ ٥٦٣ ، وأورده السيوطي في الدر المنثور ٦/ ١١٧ وعزاه لابن الأنباري في المصاحف .

(٦) الصحاح (ضرح) ، وأخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٣٩٩٧) عن ابن عباس بلفظ : إن في السماء بيتاً يقال له : الضراح ، وهو فوق البيت العتيق من حياله ...

(٧) في (د) و(م) : إليّ .

المعمور، يدخله كلَّ يوم سبعون ألفَ مَلَك، إذا خرجوا منه لم يعودوا إليه آخر ما عليهم»[١] وذكر الحديث.

وفي حديث ثابت عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: «أُتيت بالبُرَاق» الحديث، وفيه: «ثم عُرِج بنا إلى السماء[٢] السابعة، فاستفتح جبريل عليه السلام، فقيل: مَن هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومَن معك؟ قال: محمدٌ ﷺ. قيل: وقد بُعِث إليه؟ قال: قد بُعِث إليه، ففتح لنا، فإذا أنا بإبراهيمَ عليه السلام مسنداً ظهرَه إلى البيت المعمور، وإذا هو يدخله كلَّ يوم سبعون ألفَ مَلَك لا يعودون إليه»[٣].

وعن ابن عباس أيضاً قال: لله في السماوات والأرضين خمسةَ عشرَ بيتاً، سبعةٌ في السماوات، وسبعة في الأرضين، والكعبة، وكلُّها مقابلة للكعبة.

وقال الحسن: البيت المعمور هو الكعبة؛ البيت الحرام؛ الذي هو معمور من الناس، يعمره الله كلَّ سنة بستِّ مئة ألف، فإن عجز الناس عن ذلك أتمَّه الله بالملائكة، وهو أوّل بيت وضعه الله للعبادة في الأرض[٤].

وقال الربيع بن أنس: إنَّ البيت المعمور كان في الأرض موضعَ الكعبة في زمان آدم عليه السلام، فلمَّا كان زمانُ نوح عليه السلام أمرهم أن يحجُّوا، فأَبَوا عليه وعصَوه، فلمَّا طغى الماء، رُفِع، فجُعل بحِذائه في السماء الدنيا، فيَعمرُه كلَّ يوم سبعونَ ألفَ ملَك، ثم لا يرجعون إليه حتى يُنفخ في الصور، قال: فبوَّأ الله جلَّ وعزَّ لإبراهيمَ مكانَ البيت حيث كان، قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ

---

(١) صحيح مسلم (١٦٤): (٢٦٤)، وعلقه البخاري (٣٢٠٧) وهو عند أحمد (١٧٨٣٦). وينظر كلام الحافظ ابن حجر ٧/ ٢١٥ على رواية قتادة. وقوله: آخر ما عليهم؛ قال النووي في شرح صحيح مسلم ٢/ ٢٢٥: روي برفع الراء ونصبها، فالنصب على الظرف، والرفع على تقدير: ذلك آخر ما عليهم من دخوله، والرفع أوجه.

(٢) لفظة: السماء، ليست في (د) و(م).

(٣) أخرجه أحمد (١٢٥٠٥)، ومسلم (١٦٢): (٢٥٩) واللفظ له.

(٤) أورده الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٣٧٨ عنه بلفظ: البيت المعمور هو البيت الحرام.

أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾[١] [الحج: ٢٦].

﴿وَٱلسَّقْفِ ٱلْمَرْفُوعِ﴾ يعني السماء؛ سمَّاها سقفاً؛ لأنها للأرض كالسقف للبيت، بيانه: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا﴾ [الأنبياء: ٣٢]. وقال ابن عباس: هو العرش، وهو سقف الجنة. ﴿وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ﴾ قال مجاهد: المُوقَد[٢]. وقد جاء في الخبر: «إن البحر يُسجَر يوم القيامة فيكون ناراً»[٣]. وقال قتادة: المملوء[٤]. وأنشد النَّحْويون للنِّمِر بن تَوْلَب:

إذا شاء طالعَ مَسْجُورةً ... تَرَى حَولَها النَّبْعَ والسَّاسَمَا[٥]

يريد وَعْلًا يطالع عيناً مسجورة مملوءة.

فيجوز أن يكون المملوءُ ناراً، فيكون كالقول المتقدِّم. وكذا قال الضحاك وشِمْر ابن عطية ومحمد بن كعب والأخفش[٦]: إنه[٧] المَوْقِد المحميُّ بمنزلة التَّنُّور المسجور. ومنه قيل: لِلْمسْعَر: مِسْجَر، ودليل هذا التأويل قولُه تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ [التكوير: ٦] أي: أُوقِدت، سَجَرتُ التَّنُّور أسجُرُه سَجْراً، أي: أحميتُه[٨].

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٣٧٨.

(٢) تفسير مجاهد ٢/ ٦٢٤، وأخرجه الطبري ٢١/ ٥٦٨.

(٣) لم نقف عليه بهذا اللفظ، وأورد الواحدي في الوسيط ٤/ ١٨٥، والبغوي في تفسيره ٤/ ٢٣٧، والزمخشري في الكشاف ٤/ ٢٢ - ٢٣ ـ واللفظ له ـ وابن الجوزي في زاد المسير ٨/ ٤٨: «إن الله تعالى يجعل يوم القيامة البحار كلها ناراً تسجر بها نار جهنم».

(٤) أخرجه الطبري ٢١/ ٥٦٨.

(٥) أورده أبو عبيدة في مجاز القرآن ٢/ ٢٣٠، والطبري ٢١/ ٥٧٠، والبغدادي في الخزانة ١١/ ٩٥. قوله: النبع: هو شجر للقِسِيِّ وللسهام. والسَّاسَم: شجر يعمل منه القِسيّ. القاموس (نبع) و(سسم). وسلف عند تفسير الآية (٧٢) من سورة غافر.

(٦) أورد قول الضحاك ومحمد بن كعب البغوي في تفسيره ٤/ ٢٣٧، وقول شمر الطبري ٢١/ ٥٦٨، وقول الأخفش الطبرسي في مجمع البيان ٢٧/ ٢٧.

(٧) في (م): بأنه.

(٨) الصحاح (سجر).

وقال سعيد بن المسيِّب: قال عليٌّ ﷺ لرجل من اليهود: أين جهنم؟ قال: البحر. قال ما أراكَ إلا صادقاً. وتلا: ﴿وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ﴾، ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِرَتْ﴾ [التكوير:٦] مخفَّفة(١). وقال عبد الله بن عمرو: لا يُتوضأ بماء البحر لأنه طبق جهنم(٢). وقال كعب: يُسجَر البحر غداً فيُزاد في نار جهنم(٣). فهذا قول.

وقال ابن عباس: المسجور الذي ذهب ماؤه. وقاله أبو العالية(٤). وروى عطية وذو الرُّمَّة الشاعر عن ابن عباس قال: خرجت أَمَة لتسقيَ فقالت: إن الحوض مسجورٌ، أي: فارغ(٥)، قال ابن أبي داود: ليس لذي الرُّمَّة حديثٌ إلا هذا. وقيل: المسجور، أي: المفجور، دليله: ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ﴾ [الانفطار:٣]، أي: تَنْشِفُها الأرض فلا يبقى فيها ماء.

وقول ثالث قاله عليٌّ ﷺ وعكرمة، قال أبو مَكين: سألت عكرمة عن البحر المسجور فقال: هو بحر دون العرش. وقال عليٌّ: تحت العرش؛ فيه ماء غليظ يقال(٦) له: بحر الحيوان يُمطر العباد منه بعد النفخة الأولى أربعين صباحاً، فينبتون في قبورهم(٧). وقال الربيع بن أنس: المسجور: المختلط العذب بالمِلْح(٨).

قلت: وإليه يرجع معنى «فُجِّرَتْ» في أحد التأويلين، أي: فُجِّرَ عذبُها في

---

(١) أخرجه الطبري ٢١/٥٦٨، وقرأ من السبعة: سُجِرت، بالتخفيف: ابن كثير وأبو عمرو. ينظر السبعة ص٦٧٣، والتيسير ص ٢٢٠.

(٢) سلف قول ابن عمرو في البحر: هو نار ١٥/ ٤٤٢ وهو عند الترمذي (٦٩).

(٣) أخرجه أبو الشيخ في العظمة (٩٣٢)، وأبو نعيم في الحلية ٥/ ٣٧٥ بنحوه.

(٤) أخرج قول ابن عباس الطبري ٢١/ ٥٦٩. وأورد قول أبي العالية البغوي في تفسيره ٤/ ٢٣٧، وابن الجوزي في زاد المسير ٨/ ٤٨.

(٥) أورده السيوطي في الدر المنثور ٦/ ١١٨ عن ذي الرمة عن ابن عباس، وعزاه للشيرازي في الألقاب.

(٦) في (م): ويقال.

(٧) الوسيط ٤/ ١٨٥، وتفسير البغوي ٤/ ٢٣٧ بنحوه، وأخرجه الطبري ٢١/ ٥٧٠ عن علي بلفظ: (والبحر المسجور) قال: بحر في السماء تحت العرش. وأبو مكين: هو نوح بن ربيعة البصري، روى له أبو داود والنسائي وابن ماجه. تهذيب الكمال.

(٨) تفسير البغوي ٤/ ٢٣٧، وزاد المسير ٨/ ٤٨.

مالحها، والله أعلم. وسيأتي[١]. وروى عليُّ بن أبي طلحة عن ابن عباس قال: المسجور: المحبوس[٢].

﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ﴾ هذا جواب القسم، أي: واقع بالمشركين. قال جُبَير بن مُطْعِم: قدمت المدينة لأسأل رسول الله ﷺ في أُسارى بدر، فوافيتُه يقرأ في صلاة المغرب: «وَالطُّورِ» إلى قوله: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ . مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ﴾ فكأنما صُدع قلبي، فأسلمت خوفاً من نزول العذاب، وما كنت أظنُّ أن أقوم من مقامي حتى يقع بي العذاب[٣].

وقال هشام بن حسان: انطلقت أنا ومالكُ بن دينار إلى الحسن وعنده رجل يقرأ: «وَالطُّورِ» حتى بلغ: «إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ، مَالَهُ مِنْ دَافِعٍ»، فبكى الحسن وبكى أصحابه، فجعل مالك يضطرب حتى غُشِي عليه.

ولمَّا وُلِّي بكَّارٌ القضاء، جاء إليه رجلان يختصمان، فتوجهتْ على أحدهما اليمين، فرغب إلى الصُّلح بينهما، وأنه يُعطي خصمه من عنده عوضاً من يمينه، فأبى إلا اليمين، فأحلفه بأوّل «وَالطُّورِ» إلى أن قال[٤] له: قل: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ﴾ إن كنتُ كاذباً، فقالها، فخرج، فكُسِر من حينه.[٥]

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ﴿٩﴾ وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا ﴿١٠﴾ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾ ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓا۟ أَوْ لَا تَصْبِرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا﴾ العامل في «يوم» قولُه: «وَاقِعٌ»، أي: يقع

---

(١) عند تفسير الآية (٦) من سورة التكوير، والآية (٣) من سورة الانفطار.
(٢) أخرجه الطبري ٢١/٥٦٩ .
(٣) تفسير البغوي ٤/٢٣٧ والنكت والعيون ٥/٣٧٩ ، والكشاف ٤/٢٣ . وسلف في أول السورة مختصراً.
(٤) في (م) : قاله .
(٥) لم نقف على الخبرين ، وبكَّار: هو ابن قتيبة، أبو بكرة، قاضي القضاة بمصر. توفي سنة (٢٧٠هـ) سير أعلام النبلاء ١٢/٥٩٩ .

العذاب بهم يوم القيامة، وهو اليوم الذي تمور فيه السماء[١]. قال أهل اللغة: مار الشيءُ يَمورُ مَوْرًا، أي: تحرَّك وجاء وذهب؛ كما تَتَكفَّأُ النخلةُ العَيْدانة، أي: الطويلة، والتموُّر مثله. وقال الضحاك: يموج بعضها في بعض. مجاهد: تدور دوراً[٢]. أبو عبيدة[٣] والأخفش: تَكَفَّأ، وأنشد للأعشى[٤]:

كأنَّ مِشْيَتَها من بيت جارتها مَوْرُ السَّحابة لا رَيْثٌ ولا عَجَلُ

وقيل: تجري جرياً، ومنه قول جرير:

وما زالتِ القَتْلَى تَمُورُ دماؤها بِدِجلَةَ حتَّى ماءُ دِجلةَ أَشْكَلُ[٥]

وقال ابن عباس: تمور السماء يومئذ بما فيها وتضطرب[٦]. وقيل: يدور أهلها فيها ويموج بعضهم في بعض.

والمَوْر أيضاً: الطريق. ومنه قول طَرَفة:

... فَوْقَ مَوْرٍ مُعَبَّدِ[٧]

والمَوْرُ: المَوْج. وناقةٌ مَوَّارة اليد، أي: سريعة. والبعير يمور عَضُداه: إذا تردَّدا في عَرْض جنبه، قال الشاعر:

على ظَهْرِ مَوَّارِ المِلَاطِ حِصَانِ

---

(١) ينظر مشكل إعراب القرآن ٢/ ٦٩٠.

(٢) أخرج قول الضحاك ومجاهد الطبري ٢١/ ٥٧٢ - ٥٧٣.

(٣) في مجاز القرآن ٢/ ٢٣١.

(٤) في (ز) و(ظ) و(ف): الأعشى، والمثبت من (د) و(م)، وهو الموافق لما في الصحاح (مور) والكلام منه، والبيت في ديوان الأعشى ص١٠٥، وفيه: مرُّ، بدل: مور.

(٥) النكت والعيون ٥/ ٣٧٩، والبيت في ديوان جرير ص ٣٦٧، والأشْكَل: ما فيه حمرة وبياض مختلط. القاموس (شكل).

(٦) أخرجه الطبري ٢١/ ٥٧٢ بلفظ: ﴿يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا﴾ قال: يقول: تحريكاً.

(٧) ديوان طرفة ص ٢٢، والبيت بتمامه: تباري عِتاقاً ناجيات وأتبعت وظيفاً وظيفاً فوق مَوْرٍ معبَّد. وسلف ١/ ٣٤١.

المِلاط: الجَنْب. وقولهم: لا أدري أغارَ أم مَارَ[١]، أي: أتى غَوراً، أم دار فرجع إلى نجد. والمُور ـ بالضم ـ الغبار بالريح[٢].

وقيل: إن السماء هاهنا الفَلَك، ومورُه اضطرابُ نُظُمه، واختلافُ سيره. قاله ابن بحر[٣].

﴿وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا﴾ قال مقاتل: تسير عن أماكنها حتى تستويَ بالأرض. وقيل: تسير كسير السحاب اليوم في الدنيا، بيانه: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِۚ﴾ [النمل:٨٨]، وقد مضى هذا المعنى في «الكهف»[٤].

﴿فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ «وَيْلٌ»: كلمة تقال للهالك، وإنما دخلت الفاء لأن في الكلام معنى المجازاة[٥]. ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِى خَوْضٍ يَلْعَبُونَ﴾ أي: في تردُّد في الباطل، وهو خوضُهم في أمر محمد بالتكذيب. وقيل: في خوض في أسباب الدنيا يلعبون، لا يذكرون حساباً ولا جزاءً. وقد مضى في «براءة»[٦].

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ﴾ «يَوْمَ» بدل من يومئذ[٧]. و«يُدَعُّونَ»: معناه يُدفعون إلى جهنم بشدَّة وعنف، يقال: دَعَعْتُه أدُعُّه دعًّا، أي: دفعته، ومنه قوله تعالى: ﴿فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ﴾[٨] [الماعون:٢]. وفي التفسير: إن خزنة جهنم يَغلُّون أيديَهم إلى أعناقهم، ويجمعون نواصيَهم إلى أقدامهم، ثم يدفعونهم في النار دفعًا

---

(١) مجمع الأمثال للميداني ٢/ ٢٩٣ .
(٢) الصحاح (مور) و(ملط) .
(٣) النكت والعيون ٥/ ٣٨٠ .
(٤) ١٣/ ٢٩٤ - ٢٩٥ .
(٥) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٥٤ .
(٦) ١٠/ ٢٩٦ .
(٧) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٥٤ ، ومشكل إعراب القرآن ٢/ ٦٩٠ .
(٨) الصحاح (دعع) .

على وجوههم، وزَخًّا[1] في أعناقهم حتى يرِدوا النار[2]. وقرأ أبو رجاء العُطاردي وابن السَّمَيْفَع: «يَوْمَ يُدعَوْنَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًا» بالتخفيف من الدعاء[3]، فإذا دنَوْا من النار، قالت لهم الخزنة: ﴿هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ في الدنيا[4].

قوله تعالى: ﴿أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ﴾ استفهام معناه التوبيخ والتقريع، أي: يقال لهم: أَفَسِحْرٌ هَذَا الذي تَرَونَ الآن بأعينكم ﴿أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾؟ وقيل: «أَمْ» بمعنى بل، أي: بل كنتم لا تبصرون في الدنيا ولا تعقلون.

قوله تعالى: ﴿ٱصْلَوْهَا﴾ أي: تقول لهم الخزنة: ذوقوا حرَّها بالدخول فيها. ﴿فَٱصْبِرُوٓاْ أَوْ لَا تَصْبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ﴾ أي: سواءٌ كان لكم فيها صبرٌ، أو لم يكن. فـ «سواء» [مبتدأ] خبرُه محذوف، أي: سواء عليكم الجزعُ والصبر[5]، فلا ينفعكم شيء، كما أخبر عنهم أنهم يقولون: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا﴾ [إبراهيم: ٢١]. ﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾ فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٨﴾ كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ هَنِيٓـًٔا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٢٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ﴾ لمَّا ذكر حال الكفار؛ ذكر حال المؤمنين أيضًا. ﴿فَٰكِهِينَ﴾ أي: ذوي فاكهةٍ كثيرة، يقال: رجلٌ فاكِهٌ، أي: ذو

---

(١) في النسخ الخطية: وزجًّا، والمثبت من (م)، ويقال: زخَّه في قفاه، أي: دفعه.

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٢٣٨، والكشاف ٤/ ٢٣، ونسب هذا الكلام لمقاتل الواحدي في الوسيط ٤/ ١٨٥، وابن الجوزي في زاد المسير ٨/ ٤٩.

(٣) ذكرها عن أبي رجاء العطاردي ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ١٨٧، وذكرها الزمخشري ٤/ ٢٣ عن زيد بن علي. قال الألوسي في روح المعاني ٢٧/ ٣٠: وتكون «دعًّا» حال، أي: ينادون إليها مدعوعين.

(٤) الوسيط ٤/ ١٨٥، وتفسير البغوي ٤/ ٢٣٨، وزاد المسير ٨/ ٤٩.

(٥) ما بين حاصرتين للإيضاح، والكلام بنحوه في إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٥٥. ومعاني القرآن للزجاج ٥/ ٦٢.

فاكهة، كما يقال: لابِنٌ وتامِرٌ، أي: ذو لبن وتمر[١]، قال:

وغَـــرَرْتَـــنِـــي وزعــمـــتَ أنـــ ـــكَ لابِـــنٌ بـــالـــصَّـــيْـــفِ تَـــامِـــرْ[٢]

أي: ذو لبن وتمر.

وقرأ الحسن وغيره: «فَكِهينَ» بغير ألف[٣]، ومعناه: معجبين ناعمين في قول ابن عباس وغيره، يقال: فَكِه الرجلُ ـ بالكسر ـ فهو فَكِهٌ: إذا كان طيِّب النفس مزَّاحًا. والفَكِه أيضًا: الأشِر البطِر[٤]. وقد مضى في «الدخان»[٥] القولُ في هذا. ﴿بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ﴾ أي: أعطاهم ﴿رَبُّهُمْ وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾.

﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟﴾ أي: يقال لهم ذلك. ﴿هَنِيٓـًٔا﴾ الهنيء ما لا تنغيص فيه ولا نَكَد ولا كَدَر. قال الزجاج[٦]: أي: لِيَهْنِكم[٧] ما صِرتُم إليه هَنِيئًا. وقيل: أي: مُتِّعتم بنعيم الجنة إمتاعًا هنيئًا. وقيل: أي: كلوا واشربوا هُنِّئتُم هَنِيئاً. فهو صفة في موضع المصدر. وقيل: هنيئاً، أي: حلالاً. وقيل: لا أذًى فيه ولا غائلة. وقيل: هَنِيئًا، أي: لا تموتون، فإن ما لا يبقى ـ أو لا يبقى الإنسانُ معه ـ منغَّصٌ غيرُ هنيء.

قوله تعالى: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ﴾ سُرُر جمع سرير، وفي الكلام حذف تقديره: متَّكِئين على نمارقَ على[٨] سُرُر. ﴿مَّصْفُوفَةٍ﴾ قال ابن بحر[٩]: أي: موصولة بعضُها إلى بعض حتى تصير صفًّا. وفي الأخبار أنها تصفُّ في السماء بطول كذا وكذا، فإذا

---

(١) بنحوه في النكت والعيون ٥/ ٣٨٠.

(٢) البيت لحطيئة، وهو في ديوانه ص ١٦٨، وفيه: أغررتني، بدل: وغررتني.

(٣) وهي قراءة أبي جعفر يزيد بن القعقاع، وهو من العشرة. النشر ٢/ ٣٥٤

(٤) الصحاح (فكه).

(٥) ص١١٨ من هذا الجزء.

(٦) في معاني القرآن ٥/ ٦٣.

(٧) في (م): ليهنئكم.

(٨) لفظة: على، ليست في (م)، والكلام بنحوه في تفسير الطبري ٢١/ ٥٧٨، وزاد المسير ٨/ ٥٠.

(٩) في (د) و(م): ابن الأعرابي، وقول ابن بحر في النكت والعيون ٥/ ٣٨١.

أراد العبد أن يجلس عليها تواضعت له، فإذا جلس عليها عادت إلى حالها[١]. قال ابن عباس: هي سُرُر من ذهب، مكلَّلةٌ بالزَّبَرْجد والدُّر والياقوت[٢]، والسريرُ ما بين مكة وأيْلة[٣].

﴿وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾ أي: قرنَّاهم بهنَّ. قال يونس بن حبيب: تقول العرب: زوجته امرأة وتزوَّجت امرأةً، وليس من كلام العرب: تزوَّجت بامرأة. قال: وقول الله عز وجل: ﴿وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾ أي: قرنَّاهم بهنَّ[٤]، مِن قول الله تعالى: ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ﴾ [الصافات: ٢٢] أي: وقرناءهم. وقال الفرّاء: تزوَّجت بامرأة، لغةٌ في أَزْدِ شنوءة[٥]. وقد مضى القول في معنى الحور العين[٦].

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾ وَأَمْدَدْنَاهُم بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢٢﴾ يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ﴿٢٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم﴾ قرأ العامة: «وَاتَّبَعَتْهُمْ» بوصل الألف وتشديد التاء وفتح العين وإسكان التاء. وقرأ أبو عمرو: «وَأَتْبَعْنَاهُمْ» بقطع الألف وإسكان التاء والعين ونون، اعتباراً بقوله: «أَلْحَقْنَا بِهِمْ»؛ ليكون الكلام على نسق واحد.

---

(١) سيرد في تفسير سورة الواقعة الآية (١٦) من قول الكلبي.

(٢) تفسير البغوي ٤/٤٧٩، وزاد المسير ٩/٩٨، وتفسير الرازي ٣١/١٥٦.

(٣) لم نقف عليه. وأيلة: جبل بين مكة والمدينة قرب يَنْبُع. وأيلة أيضاً بلد بين ينبع ومصر. القاموس (أيل).

(٤) تهذيب اللغة للأزهري ١١/١٥٢، ونسب هذا القول لابن السكيت.

(٥) المصدر السابق.

(٦) ص١٣٧ من هذا الجزء وما بعدها.

فأمَّا قوله: «ذُرِّيَّتُهُمْ» الأولى، فقرأها بالجمع ابنُ عامر وأبو عمرو ويعقوبُ ورواها عن نافع، إلا أن أبا عمرو كسر التاء على المفعول، وضمَّ باقيهم. وقرأ الباقون: «ذُرِّيَّتُهُمْ» على التوحيد وضمِّ التاء، وهو المشهور عن نافع.

فأمَّا الثانية، فقرأها نافع وابن عامر وأبو عمرو ويعقوب بكسر التاء على الجمع. الباقون: «ذُرِّيَّتَهُمْ» على التوحيد وفتح التاء[١].

واختُلِف في معناه، فقيل عن ابن عباس أربعُ روايات: الأولى أنه قال: إن الله ليرفع ذرِّيَّة المؤمن معه في درجته في الجنة[٢] وإن كانوا دونه في العمل؛ لتقَرَّ بهم عينه، وتلا هذه الآية[٣]. ورواه مرفوعًا النحاس في «الناسخ والمنسوخ» له عن سعيد ابن جبير عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله عز وجل ليرفع ذرية المؤمن معه في درجته في الجنة[٤] وإن كان لم يبلغها بعمله؛ لتقرَّ بهم عينه» ثم قرأ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ﴾ الآية[٥]. قال أبو جعفر[٦]: فصار الحديث مرفوعًا عن النبيِّ ﷺ. وكذا يجب أن يكون؛ لأن ابن عباس لا يقول هذا إلا عن رسول الله ﷺ؛ لأنه إخبار عن الله عز وجل بما يفعله، وبمعنى أنه أنزلها جل ثناؤه. الزمخشري[٧]: فيجمع الله لهم أنواع السرور بسعادتهم في أنفسهم، وبمزاوجة الحور العين،

---

(١) السبعة ص ٦١٢، والتيسير ص ٢٠٣، والنشر ٢/ ٢٧٣، ٣٧٧، ولم نقف على رواية الجمع عن نافع في اللفظة الأولى.

(٢) في النسخ الخطية: إن الله ليرفع ذريّة المؤمن إليه، والمثبت من (م) وهو الموافق للمصادر الآتية.

(٣) أخرجه الطبري ٢١/ ٥٧٩، والطحاوي في شرح مشكل الآثار ٣/ ١٠٥، والنحاس في الناسخ والمنسوخ (٨٤٨).

(٤) قوله: في الجنة، من (ف) و(م).

(٥) الناسخ والمنسوخ (٨٤٩)، وأخرجه أيضاً الطحاوي في شرح مشكل الآثار ٣/ ١٠٦ (١٠٧٥) كلاهما من طريق سفيان الثوري عن سماعة...، وهو منقطع، كما ذكر البخاري في التاريخ الكبير ٤/ ٢١٤.

(٦) في الناسخ والمنسوخ ٣/ ٣٨.

(٧) في الكشاف ٤/ ٢٤.

وبمؤانسة الإخوان المؤمنين، وباجتماعِ أولادهم ونسلهم بهم.

وعن ابن عباس أيضًا أنه قال: إن الله ليُلحِق بالمؤمن ذريَّته الصَّغار الذين لم يبلغوا الإيمان[١]. قاله المهدوي. والذريةُ تقع على الصغار والكبار، فإن جُعِلت الذرية ها هنا للصغار، كان قولُه تعالى: «بِإِيمَانٍ» في موضع الحال من المفعولين، وكان التقدير: بإيمانٍ من الآباء. وإن جُعِلت الذرية للكبار، كان قوله: بإيمانٍ، حالاً من الفاعلين[٢].

القول الثالث عن ابن عباس: أن المراد بالذين آمنوا المهاجرون والأنصار، والذريةِ التابعون.

وفي رواية عنه: إن كان الآباء أرفعَ درجةً؛ رفع الله الأبناء إلى الآباء، وإن كان الأبناء أرفعَ درجةً؛ رفع الله الآباء إلى الأبناء، فالآباء داخلون في اسم الذريَّة، كقوله تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾ [يس: ٤١].

وعن ابن عباس أيضًا يرفعه إلى النبيِّ ﷺ قال: «إذا دخل أهل الجنة الجنة، سأل أحدهم عن أبويه وعن زوجته وولده، فيقال لهم: إنهم لم يُدرِكوا ما أدركت، فيقول: يا ربِّ، إني عملت لي ولهم، فيؤمر بإلحاقهم به»[٣].

وقالت خديجة رضي الله عنها: سألتُ النبيَّ ﷺ عن ولدين لي ماتا في الجاهلية، فقال لي: «هما في النار»، فلمَّا رأى الكراهية في وجهي قال: «لو رأيتِ مكانَهما لأبغضتِهما». قالت: يا رسول الله، فولدِي منك؟ قال: «في الجنة»، ثم قال: «إن المؤمنين وأولادَهم في الجنة، والمشركين وأولادَهم في النار»، ثم قرأ: ﴿وَٱلَّذِينَ

(١) ينظر تفسير البغوي ٤/ ٢٣٩، وأخرجه الطبري ٢١/ ٥٨٠ - ٥٨١ بنحوه.

(٢) الحجة لأبي علي الفارسي ٦/ ٢٢٤ - ٢٢٥.

(٣) أخرجه الطبراني في الكبير (١٢٢٤٨)، قال الهيثمي في المجمع ٧/ ١١٤: فيه محمد بن عبد الرحمن ابن غزوان وهو ضعيف.

ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ﴾ الآية[١].

﴿وَمَآ أَلَتۡنَٰهُم مِّنۡ عَمَلِهِم مِّن شَيۡءٖ﴾ أي: ما نقصنا الأبناء من ثواب أعمالهم لِقصَر أعمارهم، وما نقصنا الآباء من ثواب أعمالهم شيئاً بإلحاق الذُّرِّيَّات بهم. والهاء والميم راجعان إلى قوله تعالى: «وَالَّذِينَ آمَنُوا».

وقال ابن زيد: المعنى: واتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ ألحقنا بالذُّرِّيَّة أبناءَهم الصغارَ الذين لم يبلغوا العمل[٢]، فالهاء والميم على هذا القول للذُّرِّيَّة.

وقرأ ابن كثير: «وَمَا أَلِتْنَاهُمْ» بكسر اللام. وفتح الباقون[٣]. وعن أبي هريرة: «آلَتْنَاهُمْ» بالمدّ[٤]، قال ابن الأعرابي: أَلَتَه يألِته أَلْتًا، وآلَته يُؤْلته إيلاتًا، ولَاتَه يَلِيته لَيْتًا، كلُّها إذا نَقَصه. وفي الصحاح: ولَاتَه عن وجهه يَلُوته ويَليته، أي: حبسه عن وجهه وصرفه، وكذلك ألاته عن وجهه، فَعَل وأَفْعل بمعنى، ويقال أيضاً: ما أَلَاته من عمله شيئًا، أي: ما نَقَصه، مثل أَلَته[٥]. وقد مضى في «الحجرات»[٦].

﴿كُلُّ ٱمۡرِيِٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٞ﴾ قيل: يرجع إلى أهل النار[٧]. قال ابن عباس: ارتهن

(١) أخرجه عبد الله بن أحمد بن حنبل في زوائد المسند (١١٣١)، وابن أبي عاصم في السنة (٢١٣) من حديث علي ﷺ، وفيه محمد بن عثمان، قال الذهبي في الميزان ٣/ ٦٤٢: لا يُدرى من هو، فتشت عنه في أماكن، وله خبر منكر. اهـ. ثم ساق هذا الحديث من طريقه. وقال ابن الجوزي في جامع المسانيد - كما في كنز العمال ٢/ ٥١٢: في إسناده محمد بن عثمان لا يقبل حديثه، ولا يصح في تعذيب الأطفال حديث.

(٢) أخرجه الطبري ٢١/ ٥٨١ بنحوه.

(٣) السبعة ص ٦١٢، والتيسير ص ٢٠٣.

(٤) في (ظ): ابن هرمز، ولقبه الأعرج، وقراءته في القراءات الشاذة ص ١٤٦، والمحتسب ٢/ ٢٩٠ ولم نقف على من نسبها لأبي هريرة، ولعله محرّف عن ابن هرمز، وقد نسب ابن الجوزي القراءة في زاد المسير ٨/ ٥١ لابن السميفع.

(٥) الصحاح (ليت).

(٦) ص ٤٢١ - ٤٢٢ من هذا الجزء.

(٧) ينظر زاد المسير ٨/ ٥١.

أهل جهنم بأعمالهم، وصار أهل الجنة إلى نعيمهم، ولهذا قال: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ . إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ﴾ [المدثر:٣٨-٣٩]. وقيل: هو عامٌّ لكلِّ إنسان مُرْتَهَن بعمله، فلا يُنقَص أحد من ثواب عمله، فأمَّا الزيادةُ على ثواب العمل فهي تفضُّلٌ من الله. ويحتمل أن يكون هذا في الذُّرِّيَّة الذين لم يؤمنوا، فلا يلحقون آباءهم المؤمنين، بل يكونون مُرْتَهنين بكفرهم.

قوله تعالى: ﴿وَأَمْدَدْنَٰهُم بِفَٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾ أي: أكثرنا لهم من ذلك زيادةً من الله، أمدَّهم بها غيرَ الذي كان لهم.

قوله تعالى: ﴿يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا﴾ أي: يتناولها بعضهم من بعض وهو المؤمن وزوجاتُه وخدمُه في الجنة. والكأس: إناءُ الخمر، وكلُّ إناء مملوء[1] من شراب وغيره، فإذا فرغ لم يسمَّ كأسًا. وشاهدُ التنازع والكأس في اللغة قولُ الأخطل:

وشاربٍ مُرْبِحٍ بالكأس نادَمَني لا بالحَصُور ولا فيها بسَوَّارِ
نازَعْتُه طَيِّبَ الرَّاحِ الشَّمُولِ وقدْ صاحَ الدَّجاجُ وحانَتْ وَقْعَةُ السَّاري[2]

وقال امرؤ القيس:

فلمَّا تَنَازَعْنَا الحديثَ وأَسْمَحَتْ هَصَرْتُ بغصنٍ ذي شَمَاريخَ مَيَّالِ[3]

وقد مضى هذا في «والصافات»[4].

﴿لَّا لَغْوٌ فِيهَا﴾ أي: في الكأس، أي: لا يجري بينهم لغوٌ ﴿وَلَا تَأْثِيمٌ﴾ ولا ما فيه

---

(١) في النكت والعيون ٥/ ٣٨٢ ـ والكلام منه ـ: والكأس إناء مملوء.

(٢) ديوان الأخطل ص١١٦، قال الشيخ محمود شاكر رحمه الله في تعليقه على طبقات فحول الشعراء ٢/ ٥٠١: مُرْبح: من قولهم: أربحه بمتاعه أو سلعته: أعطاه ربحاً. أراد الأخطل أنه لا يبالي أنه يغالي بثمنها فيصيب الخمار منها ربحاً وافراً، يمدحه بحب اللهو وبالكرم. الحصور: البخيل الممسك المنوع. والسَّوَّار: الذي تَسُور الخمر في رأسه سريعاً.

(٣) ديوان امرئ القيس ص ٣٢، قال شارح الديوان: قوله: فلما تنازعنا الحديث: أي حدثتني وحدثتها. ومعنى أسمحت: انقادت وسهلت. وقوله: هصرت: يعني جذبت ومددت.

(٤) ١٨/ ٣٠.

إثم. والتأثيم تفعيلٌ من الإثم، أي: تلك الكأس لا تجعلهم آثمين[١] لأنه مباح لهم. وقيل: «لَا لغْوٌ فِيهَا» أي: في الجنة[٢]. قال ابن عطاء: أيُّ لغوٍ يكون في مجلس محلُّه جنةُ عدن، وسقاتُهم الملائكة، وشربُهم على ذكر الله، وريحانُهم وتحيتُهم من عند الله، والقومُ أضياف الله[٣]. «وَلَا تَأْثِيمٌ» أي: ولا كذب. قاله ابن عباس[٤]. الضحاك: يعني لا يكذب بعضهم بعضًا[٥].

وقرأ ابن كثير وابن محيصن وأبو عمرو: «لَا لَغْوَ فيهَا وَلَا تَأْثِيمَ» بفتح آخره. الباقون بالرفع والتنوين[٦]. وقد مضى هذا في «البقرة»[٧] عند قوله تعالى: ﴿وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ﴾ [الآية: ٢٥٤] والحمد لله.

قوله تعالى: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيۡهِمۡ غِلۡمَانٌ لَّهُمۡ﴾ أي: بالفواكه والتُّحَف والطعام والشراب، ودليله: ﴿يُطَافُ عَلَيۡهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ﴾ [الزخرف: ٧١]، ﴿يُطَافُ عَلَيۡهِم بِكَأۡسٍ مِّن مَّعِينٍ﴾ [الصافات: ٤٥]. ثم قيل: هم الأطفال من أولادهم الذين سبقوهم، فأقرَّ الله تعالى بهم أعينَهم.وقيل: إنهم مَن أخدمَهم الله تعالى إيَّاهم من أولاد غيرهم[٨]. وقيل: هم غلمانٌ خُلِقوا في الجنة. قال الكلبي: لا يكبرون أبدًا ﴿كَأَنَّهُمۡ﴾ في الحسن والبياض ﴿لُؤۡلُؤٌ مَّكۡنُونٌ﴾ في الصَّدَف، والمكنون: المَصُون. وقوله تعالى: ﴿يَطُوفُ عَلَيۡهِمۡ وِلۡدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ﴾ [الواقعة: ١٧] قيل: هم أولاد المشركين وهم خَدَمُ أهل الجنة، وليس في الجنة نَصَب ولا حاجة إلى خدمة، ولكنه أخبر بأنهم على نهاية النعيم.

---

(١) الوسيط ٤/ ١٨٨، وزاد المسير ٨/ ٥٢.
(٢) النكت والعيون ٥/ ٣٨٣ ونسبه لابن عباس رضي الله عنهما.
(٣) نسبه الثعالبي في تفسيره ٤/ ٢١٧ للثعلبي.
(٤) أخرجه الطبري ٢١/ ٥٨٨.
(٥) أورده الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٣٨٢ بنحوه.
(٦) السبعة ص ٦١٢، والتيسير ص ٨٢.
(٧) ٤/ ٢٦١ - ٢٦٢.
(٨) نسب الماوردي القولين في النكت والعيون ٥/ ٣٨٣ لابن بحر.

وعن عائشةَ رضي الله عنها: أن نبيَّ الله ﷺ قال: «إن أدنى أهلِ الجنة منزلةً مَن ينادي الخادمُ من خدمه، فيجيبه ألفٌ؛ كلُّهم: لبَّيك لبَّيك»[(١)].

وعن عبد الله بن عمر قال: قال النبيُّ ﷺ: «ما من أحد من أهل الجنة إلا يسعى عليه ألفُ غلام، كلُّ غلام على عمل ليس عليه صاحبه»[(٢)].

وعن الحسن أنهم قالوا: يا رسول الله، إذا كان الخادم كاللؤلؤ، فكيف يكون المخدوم؟ فقال: «ما بينهما كما بين القمر ليلةَ البدر وبين أصغر الكواكب»[(٣)].

قال الكسائي: كننتُ الشيء: سترته وصُنته من الشمس، وأكننته في نفسي: أسررته. وقال أبو زيد: كننته وأكننته بمعنًى في الكِنّ وفي النفس جميعًا، تقول: كننت العلم وأكننته، فهو مكنون ومُكَنّ. وكننت الجارية وأكننتها، فهي مكنونة ومُكَنَّة[(٤)].

قوله تعالى: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ﴾ قال ابن عباس: إذا بُعِثوا من قبورهم سأل بعضهم بعضًا[(٥)]. وقيل: في الجنة يَتَسَاءَلُونَ، أي: يتذاكرون ما كانوا فيه في الدنيا من التعب والخوف من العاقبة[(٦)]، ويحمدون الله تعالى على زوال الخوف

(١) أورده الديلمي في مسند الفردوس ١/ ٢١٧، وأخرجه الثعلبي بنحوه كما في تخريج أحاديث الكشاف ص ١٦٠.

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٢٤٠، وأخرجه ابن المبارك في الزهد (١٥٨٠) كلاهما عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

(٣) أخرجه الثعلبي كما في تخريج أحاديث الكشاف ص ١٦٠.

(٤) الصحاح (كنن)، وقوله: الكِنّ، أي: السُّترة.

(٥) أخرجه الطبري ٢١/ ٥٩٠ بنحوه قال الألوسي في روح المعاني ٢٧/ ٣٥: ولا أُراه يصح عنه لبعده جداً.

(٦) أورده الواحدي في الوسيط ٤/ ١٨٨، والبغوي في تفسيره ٤/ ٢٤٠، وابن الجوزي في زاد المسير ٨/ ٥٢ - ٥٣ ونسبوه لابن عباس رضي الله عنهما.

عنهم. وقيل: يقول بعضهم لبعض: بمَ صِرت في هذه المنزلة الرفيعة[١]؟

﴿قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾ أي: قال كلٌّ مسؤول منهم لسائله: «إِنَّا كُنَّا قَبْلُ» أي: في الدنيا خائفينَ وَجِلين من عذاب الله. ﴿فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا﴾ بالجنة والمغفرة. وقيل: بالتوفيق والهداية[٢]. ﴿وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ﴾ قال الحسن: السَّمُوم: اسم من أسماء النار، وطبقةٌ من طِباق جهنم[٣]. وقيل: هو النار كما تقول: جهنم. وقيل: عذاب نار السَّمُوم[٤]. والسَّمُوم: الريحُ الحارَّةُ تؤنَّث، يقال منه: سُمَّ يومُنَا فهو مسموم، والجمع سَمَائم. قال أبو عبيدة: السَّمُوم بالنهار، وقد تكون باللَّيل، والحَرورُ باللَّيل، وقد تكون بالنهار[٥]، وقد تستعمل السَّمُوم في لَفْح البرد، وهو في لَفْح الحَرِّ والشمسِ أكثر، قال الراجز:

اليومُ يومٌ باردٌ سَمُومُهْ مَنْ جَزِعَ اليومَ فلا أَلُومُهْ[٦]

قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ﴾ أي: في الدنيا بأن يَمُنَّ علينا بالمغفرة عن تقصيرنا. وقيل: «نَدْعُوهُ» أي: نعبده[٧]. ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ﴾ وقرأ نافع والكسائي: «أَنَّه» بفتح الهمزة، أي: لأنه. الباقون بالكسر على الابتداء[٨]. و«البَرُّ»

(١) معاني القرآن للزجاج ٥/ ٦٤.

(٢) النكت والعيون ٥/ ٣٨٣.

(٣) أورده الواحدي في الوسيط ٤/ ١٨٨، وابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ١٩٠، وابن الجوزي في زاد المسير ٨/ ٥٣ عن الحسن بلفظ: السَّموم اسم من أسماء جهنم.

(٤) في (د) و(م): نار عذاب السموم، وسقط هذا الموضع من (ف)، والمثبت من (ز) و(ظ).

(٥) الصحاح (سمم).

(٦) النكت والعيون ٥/ ٣٨٣، وأورد الرجز أيضاً الأزهري في تهذيب اللغة ١٢/ ٣٢٠، والميداني في مجمع الأمثال ١/ ١٠٥.

(٧) ذكر هذا القول ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ١٩٠.

(٨) السبعة ص ٦١٣، والتيسير ص ٢٠٣.

اللَّطيف. قاله ابن عباس[١]. وعنه أيضًا: إنه الصادق فيما وعد. وقاله ابن جريج[٢].

قوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ ۚ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٣٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ﴾ أي: فذكِّر يا محمد قومَك بالقرآن. ﴿فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ﴾ يعني برسالة ربِّك[٣] ﴿بِكَاهِنٍ﴾ تبتدع القول وتخبر بما في غدٍ من غير وَحْي[٤] ﴿وَلَا مَجْنُونٍ﴾ وهذا ردٌّ لقولهم في النبيِّ ﷺ؛ فعقبة بن أبي مُعَيْط قال: إنه مجنون، وشيبة بن ربيعة[٥] قال: إنه ساحر، وغيرهما قال: كاهن؛ فأكذبهم اللهُ تعالى وردَّ عليهم. ثم قيل: إنَّ معنى «فما أنت بنعمة ربِّك» القَسَم، أي: وبنعمةِ اللهِ ما أنت بكاهن ولا مجنون. وقيل: ليس قَسَمًا، وإنما هو كما تقول: ما أنت بحمد الله بجاهل، أي: قد برَّأك الله من ذلك[٦].

قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ﴾ أي: بل يقولون: محمد شاعر. قال سيبويه: خوطب العبادُ بما جرى في كلامهم[٧]. قال أبو جعفر النحَّاس: وهذا كلامٌ حسن، إلَّا أنه غير مبيَّن ولا مشروح؛ ويريد سيبويه أنَّ «أَمْ» في كلام العرب لخروج من

---

(١) أخرجه الطبري ٢١/٥٩١.

(٢) أورد قول ابن عباس ابن الجوزي في زاد المسير ٨/٥٣، وقول ابن جريج الماوردي في النكت والعيون ٥/٣٨٣.

(٣) النكت والعيون ٥/ ٣٨٤.

(٤) الوسيط للواحدي ٤/ ١٨٩.

(٥) في النكت والعيون ٥/ ٣٨٤: عتبة بن ربيعة.

(٦) ينظر تفسير غريب القرآن لابن قتيبة ص ٤٢٥.

(٧) ينظر الكتاب ٣/ ١٧٢ - ١٧٣.

حديث إلى حديث؛ كما قال الشاعر:

أَتَـهْـجُـر غـانـيـةً أَمْ تُـلِـمّ

فتمَّ الكلام، ثم خرج إلى شيء آخر فقال:

أم الـحَـبـلُ واهٍ بـهـا مُـنْـجَـذِمْ[١]

فما جاء في كتاب الله تعالى مِن هذا، فمعناه التقريرُ والتوبيخ، والخروجُ من حديث إلى حديث، والنحويُّون يمثِّلونها بـ: بل.

﴿نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ﴾ قال قتادة: قال قوم من الكفار: تربَّصوا بمحمد الموتَ يكفيكموه كما كفى[٢] شاعرَ بني فلان. قال الضَّحاك: هؤلاء بنو عبد الدار؛ نسبوه إلى أنه شاعر[٣]؛ أي: يَهلِك عن قريب كما هلك مَنْ قبلُ من الشعراء، وأنَّ أباه مات شابًّا، فربَّما يموت كما مات أبوه[٤]. وقال الأخفش: نتربَّص به إلى رَيْبِ المَنُون، فحذف حرف الجرّ، كما تقول: قصدت زيدًا، وقصدت إلى زيد[٥]. والمَنُون: الموت في قول ابن عباس[٦]. قال أبو الغول الطُّهوي:

هـمُ مَـنـعـوا حِـمَـى الـوَقَـبَـى بـضَـربٍ يـؤلِّـف بـيـن أشـتـاتِ الـمَـنُـونِ[٧]

أي: المنايا؛ يقول: إنَّ الضرب يجمع بين قوم متفرِّقي الأمكنة؛ لو أتتهم مناياهم في أماكنهم لأتتهم متفرِّقة، فاجتمعوا في موضع واحد، فأتتهم المنايا مجتمعة.

---

(١) البيت للأعشى، وهو في ديوانه ص ٨٥ . قوله: تُلِمّ ، يقال : ألمَّ بالقوم : زارهم زيارة قصيرة قاله شارحه .

(٢) في تفسير الطبري ٢١/ ٥٩٣ ، والنكت والعيون ٥/ ٣٨٤ : كفاكم .

(٣) النكت والعيون ٥/ ٣٨٤ .

(٤) ينظر تفسير أبي الليث ٣/ ٢٨٥ ، وتفسير البغوي ٤/ ٢٤٠ .

(٥) معاني القرآن ٢/ ٦٩٧ للأخفش بنحوه .

(٦) أخرجه الطبري ٢١/ ٥٩٢ - ٥٩٣ .

(٧) كتاب الحيوان ٣/ ١٠٧ ، والشعر والشعراء ١/ ٤٢٩ ، والأمالي ١/ ٢٦٠ ، والخزانة ٦/ ٤٣٤ .
قال البغدادي : الوقبى ، بفتح الواو والقاف : موضع بقرب البصرة .

وقال السُّدِّي: عن أبي مالك، عن ابن عباس[(١)]: «رَيْبَ» في القرآن شكٌّ، إلا مَكانًا واحداً في الطور «رَيْبَ المَنون» يعني: حوادث الأمور؛ وقال الشاعر[(٢)]:

تَربَّصْ بها رَيبَ المَنون لعلها ... تُطَلَّقُ يومًا أو يموتُ حَليلُها

وقال مجاهد: «رَيْبَ المَنُونِ»: حوادث الدهر[(٣)]، والمَنُون هو الدهر؛ قال أبو ذُؤَيْب[(٤)]:

أَمِنَ المَنُونِ وَرَيْبِه تتوجَّعُ ... والدَّهرُ ليس بمُعْتِبٍ مَنْ يَجْزَعُ

وقال الأعشى[(٥)]:

أَأَنْ رأَتْ رجلًا أعشَى أضرَّ به ... رَيبُ المَنُون ودهرٌ مُتْبِلٌ خَبِلُ

قال الأصمعي: المَنُون: الليل والنهار؛ وسمِّيا بذلك لأنهما ينقصان الأعمار ويقطعان الآجال. وعنه. أنه قيل للدهر: منون؛ لأنه يذهب بمُنَّة الحيوان، أي: قوَّته، وكذلك المَنِيَّة. أبو عبيدة: قيل للدهر: منون؛ لأنه مُضْعِف، من قولهم: حبل مَنِين، أي ضعيف، والمنين: الغبار الضعيف. قال الفرَّاء: والمنون مؤنثة، وتكون واحدًا وجمعًا. الأصمعي: المَنُون واحد لا جماعة له. الأخفش: هو جماعة لا واحد له[(٦)]، والمنون يذكَّر ويؤنَّث؛ فمَن ذكَّره جعله الدهرَ أو الموت، ومَن أنَّثه فعلى الحمل على المعنى، كأنه أراد المنية.

قوله تعالى: ﴿قُلْ تَرَبَّصُواْ﴾ أي: قل لهم يا محمد: تربَّصوا، أي: انتظروا. ﴿فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ﴾ أي: من المنتظرين بكم العذاب، فعُذِّبوا يومَ بدرٍ بالسيف[(٧)].

---

(١) أخرجه عنه ابن الأنباري في الوقف والابتداء كما في الدر المنثور ٦/ ١٢٠ .

(٢) في النسخ: وقال ابن عباس، وهو خطأ، والشاعر هو فرّاص بن عتبة الأزدي، وسلف البيت ٤/ ٢٩ .

(٣) أخرجه الطبري ٢١/ ٥٩٢ .

(٤) ديوان الهذليين ١/١ ، وسلف ص١٦٤ من هذا الجزء.

(٥) ديوانه ص ١٠٥ ، وسلف ٥/ ١٧٤ .

(٦) قولا الأصمعي والأخفش في المحرر الوجيز ٥/ ١٩١ ، وقول الفراء في الصحاح (منن) .

(٧) الوسيط للواحدي ٤/ ١٨٩ ، وتفسير البغوي ٤/ ٢٤١ .

قوله تعالى: ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم﴾ أي: عقولهم ﴿بِهَٰذَا﴾ أي: بالكذب عليك. ﴿أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ أي: أم طَغَوا بغير عقول. وقيل: «أَمْ» بمعنى: بل، أي: بل كفروا طغيانًا وإن ظهر لهم الحقّ.

وقيل لعمرو بن العاص: ما بالُ قومِك لم يؤمنوا وقد وصفهم اللهُ بالعقل؟ فقال: تلك عقولٌ كادها الله، أي: لم يصحبها بالتوفيق[(١)].

وقيل: «أحلامُهُمْ» أي: أذهانهم؛ لأن العقل لا يُعطَى للكافر، ولو كان له عقلٌ لآمن. وإنما يعطى الكافرُ الذِّهنَ، فصار عليه حُجَّة. والذِّهن يَقْبل العلمَ جملةً، والعقل يميِّز العلم ويقدِّر المقادير لحدود الأمر والنهي.

وروي عن النبيِّ ﷺ أنَّ رجلاً قال: يا رسول الله، ما أعقلَ فلانًا النَّصرانيّ! فقال: «مَهْ إنَّ الكافر لا عقل له، أما سمعت قول الله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك: ١٠]؟». وفي حديث ابنِ عمر: فزجره النبيُّ ﷺ، ثم قال: «مَهْ فإنَّ العاقل مَن يعمل بطاعة الله» ذكره الترمذيُّ الحكيم أبو عبد الله بإسناده[(٢)].

﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ﴾ أي: افتعله وافتراه، يعني القرآن. والتقوُّل: تكلُّف القول، وإنما يُستعمل في الكذب في غالب الأمر. ويقال: قوَّلتَني ما لم أقل! وأَقْولتني ما لم أقل، أي: ادَّعيتَه عليّ. وتَقوَّل عليه، أي: كذب عليه. واقتال عليه: تحكَّم، قال:

ومَنزِلةٌ في دار صدقٍ وغِبْطةٍ   وما اقْتَال مِن حُكمٍ عليَّ طبيبُ[(٣)]

فـ«أم» الأولى للإنكار، والثانيةُ للإيجاب، أي: ليس كما يقولون. ﴿بَل لَّا

(١) زاد المسير ٨/ ٥٤ - ٥٥، وفيه: لم يصحبها التوفيق.

(٢) لم نقف عليه. وأخرجه الحارث في مسنده (٨٣٦ بغية الباحث). قال ابن حجر في المطالب العالية ٣/ ٢١٤ - ٢١٥: حديث موضوع.

(٣) الصحاح (قول)، والبيت لكعب بن سعد الغَنَوي، وهو في طبقات فحول الشعراء ١/ ٢٢٢، والحيوان ٣/ ٥٧.

﴿يُؤْمِنُونَ﴾ جَحداً واستكبارًا.

﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ﴾ أي: بقرآن يُشْبِهه من تلقاء أنفسهم ﴿إِن كَانُوا صَٰدِقِينَ﴾ في أنَّ محمداً افتراه.

وقرأ الجحدري: «فليأْتُوا بحديثِ مثله» بالإضافة. والهاءُ في «مثله» للنبيِّ ﷺ، وأُضيف الحديثُ الذي يراد به القرآنُ إليه؛ لأنه المبعوث به. والهاء على قراءة الجماعة للقرآن[(١)].

قوله تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَهُ الْبَنَٰتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ ﴿٣٩﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٠﴾ أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤١﴾ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَٰنَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ﴾ «أَمْ» صلةٌ زائدة، والتقدير: أَخُلقوا من غير شيء. قال ابن عباس: من غير ربٍّ خلقهم وقدَّرهم. وقيل: من غير أمٍّ ولا أب[(٢)]؛ فهم كالجماد لا يعقلون ولا تقوم لِله عليهم حُجَّة؛ ليسوا كذلك! أليس قد خُلِقوا من نطفة وعلقة ومضغة؟ قاله ابن عطاء. وقال ابن كيسان: أم خُلِقوا عبثًا وتُركوا سُدًى «مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ»[(٣)] أي: لغير شيء، فـ«من» بمعنى اللام[(٤)]. ﴿أَمْ هُمُ الْخَٰلِقُونَ﴾ أي: أيقولون إنهم خَلَقوا أنفسهم فهم لا يأتمرون لأمر الله، وهم لا يقولون[(٥)] ذلك، وإذا أقرُّوا أنَّ ثَمَّ خالقًا غيرَهم، فما الذي يمنعهم من الإقرار له بالعبادة دون الأصنام،

---

(١) الكلام بنحوه في المحتسب ٢/ ٢٩٢ ، والمحرر الوجيز ٥/ ١٩٢ .

(٢) تفسير الطبري ٢١/ ٥٩٦ بنحوه ، وقول ابن عباس في تفسير البغوي ٤/ ٢٤١ ، وينظر الكشاف ٤/ ٢٩ .

(٣) ذكر قوله الواحدي في الوسيط ٤/ ١٨٩ ، والبغوي في تفسيره ٤/ ٢٤١ .

(٤) الكلام بنحوه في تفسير الطبري ٢١/ ٥٩٦ ، ومعاني القرآن للزجاج ٥/ ٦٥ .

(٥) في (ظ): يقرون.

ومن الإقرار بأنه قادرٌ على البعث.

﴿أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ أي: ليس الأمر كذلك، فإنهم لم يخلقوا شيئاً ﴿بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾ بالحقّ.

﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ﴾ أم عندهم ذلك فيستغنوا عن الله ويُعرِضوا عن أمره. وقال ابن عباس: خزائن ربِّك: المطر والرزق[١]. وقيل: مفاتيح الرحمة[٢]. وقال عكرمة: النبوَّة. أي: أفبأيديهم مفاتيحُ ربِّك بالرسالة يضعونها حيث شاؤوا. وضَرَبَ المثلَ بالخزائن؛ لأن الخزانة بيت يُهيَّأ لجمع أنواعٍ مختلفةٍ من الذخائر؛ ومقدوراتُ الربِّ كالخزائن التي فيها من كل الأجناس، فلا نهاية لها.

﴿أَمْ هُمُ ٱلْمُصَۣيْطِرُونَ﴾ قال ابن عباس[٣]: المسلَّطون الجبَّارون. وعنه أيضًا: المبطلون. وقاله[٤] الضحاك. وعن ابن عباس أيضًا: أم هم المتولُّون. عطاء: أم هم أربابٌ قاهرون[٥]. قال عطاء[٦]: يقال: تسيطرتَ عليّ، أي: اتخذتني خَوَلًا لك. وقاله أبو عبيدة[٧].

وفي الصحاح: المسيطر والمصيطر: المسلَّط على الشيء ليُشرِف عليه ويتعهَّدَ أحوالَه ويكتب عمله، وأصله من السَّطر؛ لأن الكتاب يُسطَّر، والذي يفعله مُسطِّر ومُسَيْطِر. يقال: سيطرتَ علينا[٨].

ابن بحر: «أم هم المسيطِرون» أي: أهم الحفظة؛ مأخوذ من تسطير الكتاب

(١) زاد المسير ٨/ ٥٦ .
(٢) النكت والعيون ٥/ ٣٨٥ . وقول عكرمة الآتي في تفسير البغوي ٤/ ٢٤١ ، وزاد المسير ٨/ ٥٦ .
(٣) أخرج قوله الطبري ٢١/ ٥٩٧ .
(٤) في (ز) و(ظ) و(ف) : قاله؛ دون واو .
(٥) قول عطاء في تفسير البغوي ٤/ ٢٤١ ، وقول ابن عباس في النكت والعيون ٥/ ٣٨٥ .
(٦) كذا في النسخ، ولعل قوله: (قال عطاء) مقحم، فقول عطاء هو السالف، ولم يُذكر الكلام بعده عنه.
(٧) في مجاز القرآن ٢/ ٢٣٣ . والخَوَل: اسم يقع على العبد والأمة. (مختار الصحاح).
(٨) الصحاح (سطر) .

الذي يَحفظ ما كُتب فيه؛ فصار المسيطر هنا حافظًا ما كتبه الله في اللوح المحفوظ[١].

وفيه ثلاث لغات: الصاد، وبها قرأت العامة، والسين، وهي قراءة ابن مُحيصِن، وحُميد، ومجاهد، وقُنْبُل، وهشام، وأبي حَيْوة[٢]، وبإشمام الصاد الزاي، وهي قراءة حمزة كما تقدَّم في «الصِّراط»[٣].

قوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ﴾ أي: أيدَّعون أنَّ لهم مُرتقًى إلى السماء ومصعدًا وسببًا ﴿يَسْتَمِعُونَ فِيهِ﴾ أي: عليه الأخبارَ ويَصِلون به إلى علم الغيب، كما يصل إليه محمدٌ ﷺ بطريق الوحي. ﴿فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ أي: بحجَّة بيِّنة أنَّ هذا الذي هم عليه حقّ.

والسُّلَّم واحد السلالم التي يُرتقى عليها. وربما سُمِّي الغَرْزُ بذلك؛ قال أبو الرُّبَيْس الثعلبيُّ[٤] يصف ناقته:

مُطارةُ قَلْبٍ إنْ ثَنَى الرِّجْلَ ربُّها بسُلَّمِ غَرْزٍ في مُناخٍ تُعاجِلُهْ[٥]

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٣٨٥.

(٢) وقرأ بالسين ـ أيضاً ـ حفص بخلاف عنه. السبعة ص ٣٦٣، والتيسير ص ٢٠٤.

(٣) ١/ ٢٢٨.

(٤) هو شاعر إسلامي، وقد اضطربت المصادر في اسمه ونسبه، فقيل: عَبّاد بن طهفة، وقيل: عبادة، وقيل: هباد بن عباس، وقيل: عباد بن طَهمة. وقيل في نسبه: الثعلبي، وقيل: التغلبي، قال الزبيدي في التاج (ربس): هو من بني ثعلبة بن سعد بن ذبيان، هكذا قاله الصاغاني. وفي اللسان: وأبو الربيس التغلبي من شعراء تغلب. وهو تصحيف، والصواب مع الصاغاني. اهـ. وينظر الصحاح (سلم)، والإكمال لابن ماكولا ٤/ ١٢٣ - ١٢٤، واللسان (ربس) و(سلم) و(لوي)، والقاموس (ربس)، والخزانة ٦/ ٨٩ - ٩٠، والتاج (ربس).

(٥) الصحاح (سلم)، وشرح ديوان الحماسة للمرزوقي ٣/ ١٢٥٦، واللسان (سلم). قال المرزوقي: والمراد أنها ذكية الفؤاد، شهمة النفس، فكأن بها لنشاطها وذكائها جنوناً أطار قلبها، وأزال مُسكتها. قوله: تعاجلُهْ، أصله: تعاجلُهُ، اللام ساكنة للجزم، لكنه نقل إليها حركة الهاء، وهو ضمير يرجع إلى: ربُّها. والغرز: الرِّكاب، عاجلته فنهضت به قبل تمكنه من ركوبها، واستقراره على ظهرها.

وقال زهير[١]:

وَمَن هابَ أسبابَ المنِيَّة يَلْقَها ... ولو رام أسبابَ السَّماءِ بِسُلَّمِ

وقال آخر:

تَجنَّيتِ لي ذنبًا وما إنْ جَنَيْتُه ... لِتتَّخذي عذْرًا إلى الهَجر سُلَّما[٢]

وقال ابن مُقبِل في الجمع:

لا تُحرِزُ المرءَ أَحْجاءُ البلاد ولا ... تُبْنَى له في السَّماوات السَّلاليمُ[٣]

الأحجاء: النواحي، مثل الأرجاء، واحدها حَجًا ورَجًا، مقصور. ويُروى: أعْناءُ البلاد، والأعْناء ـ أيضاً ـ الجوانب والنواحي، واحدها: عِنْو، بالكسر. وقال ابن الأعرابي: واحدها: عَنًا، مقصور. وجاءنا أعناءٌ من الناس، واحدهم: عِنْو، بالكسر، وهم قومٌ من قبائل شتَّى[٤].

﴿يَسْتَمِعُونَ فِيهِۖ﴾ أي: عليه؛ كقوله تعالى: ﴿فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾ [طه: ٧١] أي: عليها؛ قاله الأخفش. وقال أبو عبيدة[٥]: يستمعون به. وقال الزجّاج[٦]: أي: ألهم كجبريل الذي يأتي النبيَّ ﷺ بالوحي!

قوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ﴾ سَفَّه أحلامهم توبيخًا لهم وتقريعًا، أي: أتضيفون إلى الله البناتِ مع أَنَفتكم منهن، ومَن كان عقلُه هكذا فلا يُستبعد منه إنكارُ البعث.

﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا﴾ أي: على تبليغ الرسالة. ﴿فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ﴾ أي: فهم من

(١) ديوانه ص ٣٠، وسلف ١١/ ٨٣.

(٢) النكت والعيون ٥/ ٣٨٥.

(٣) ديوان ابن مقبل ص ٢٧٣ برواية: لا تمنع المرء...، وهو براوية المصنف في الصحاح (حجا).

(٤) الصحاح (حجا)، (عنا).

(٥) في مجاز القرآن ٢/ ٢٣٣.

(٦) في معاني القرآن ٥/ ٦٧.

المغرم الذي تطلبهم به مُثْقَلون، مُجْهَدون لما كلَّفتهم به.

﴿أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾ أي: يكتبون للناس ما أرادوه من علم الغيوب. وقيل: أي: أم عندهم علمُ ما غاب عن الناس حتى علموا أنَّ ما أخبرهم به الرسول ﷺ من أمر القيامة والجنة والنار والبعث باطل. وقال قتادة: لمَّا قالوا: نتربَّص به رَيْبَ المَنُون، قال الله تعالى: «أَمْ عندهُمُ الغَيْبُ» حتى عَلِموا متى يموت محمد، أو إلى ما يؤول إليه أمرُه. وقال ابن عباس: أم عندهم اللوحُ المحفوظ، فهم يكتبون ما فيه ويخبرون الناس بما فيه. وقال القُتَبي: يكتبون: يحكمون، والكتاب: الحكم؛ ومنه قولُه تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤] أي: حكم، وقولُه عليه الصلاة والسلام: «والذي نفسي بيده لَأَحْكُمنَّ بينكم بكتاب الله» أي: بحكم الله[(١)].

قوله تعالى: ﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا﴾ أي: مكرًا بك في دار النَّدْوة. ﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ﴾ أي: الممكور بهم، ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ [فاطر: ٤٣] وذلك أنهم قُتلوا ببدر[(٢)]. ﴿أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ﴾ يخلق ويرزق ويمنع. ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ نزَّه نفسَه أنْ يكونَ له شريك.

قال الخليل: كلُّ ما في سورة الطور مِن ذِكْر «أَمْ» فكلمة استفهام وليس بعطف[(٣)].

قوله تعالى: ﴿وَإِن يَرَوْا۟ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا يَقُولُوا۟ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴿٤٤﴾ فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِى عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِن يَرَوْا۟ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا﴾ قال ذلك جوابًا لقولهم: «فأَسْقِط

---

(١) ذكر هذه الأقوال البغوي في تفسيره ٤/ ٢٤٢، والحديث أخرجه أحمد (١٧٠٣٨)، والبخاري (٢٣١٤ - ٢٣١٥)، ومسلم (١٦٩٧ - ١٦٩٨)، عن أبي هريرة وزيد بن خالد رضي الله عنهما، وهو قطعة منه، وسلف ٦/ ١٤٥.

(٢) الوسيط للواحدي ٤/ ١٩٠، وتفسير البغوي ٤/ ٢٤٢، والكشاف ٤/ ٢٦.

(٣) تفسير البغوي ٤/ ٢٤٢.

علينا كِسَفًا مِن السَّماء» [الشعراء: ١٨٧] وقولِهم: «أَوْ تُسقِطَ السَّماءَ كما زعمْت علينا كِسَفًا» [الإسراء: ٩٢] فأَعْلَمَ أنه لو فعل ذلك لقالوا: «سحابٌ مَركوم» أي: بعضه فوق بعض، سقط علينا وليس سماء؛ وهذا فِعْلُ المعاند أو فعل مَن استولى عليه التقليد، وكان في المشركين القسمان(١).

والكِسْف جمع كِسْفة، وهي القطعة من الشيء؛ يقال: أعطني كِسْفة من ثوبك، ويقال في جمعها أيضًا: كِسَف. ويقال: الكِسْف والكِسْفة واحد. وقال الأخفش: مَن قرأ: «كِسْفاً» جعله واحدًا، ومَن قرأ: «كِسَفاً» جعله جمعاً(٢). وقد تقدَّم القولُ في هذا في «سبحان» وغيرِها، والحمدُ لله(٣).

قوله تعالى: ﴿فَذَرْهُمْ﴾ منسوخٌ بآية السيف(٤). ﴿حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يَصْعَقُونَ﴾ بفتح الياء قراءةُ العامّة، وقرأ ابن عامر وعاصمٌ بضمّها(٥). قال الفرَّاء(٦): هما لغتان: صَعِق وصُعِق، مثل: سَعِد وسُعِد.

قال قتادة: يوم يموتون(٧). وقيل: هو يومُ بدر. وقيل: يوم النفخة الأولى. وقيل: يوم القيامة يأتيهم فيه من العذاب ما يُزيل عقولهم. وقيل: «يُصْعَقُون» بضم الياء، مِن: أصعقه الله.

---

(١) الكلام بنحوه في تفسير غريب القرآن ص ٤٢٦، وتفسير الطبري ٢١/ ٦٠١، وتفسير البغوي ٤/ ٢٤٢، والكشاف ٤/ ٢٩.

(٢) الصحاح (كسف). وقد اتفق العشرة في هذا الموضع على إسكان السين.

(٣) ١٣/ ١٧٥.

(٤) المحرر الوجيز ٥/ ١٩٣. قال ابن الجوزي في زاد المسير ٨/ ٥٩: ذكر المفسرون أن هذه الآية منسوخة بآية السيف، ولا يصح، لأن معنى الآية الوعيد.

(٥) السبعة ص ٦١٣، والتيسير ص ٢٠٤.

(٦) في معاني القرآن ٣/ ٩٤.

(٧) النكت والعيون ٥/ ٣٨٦، والأقوال الآتية فيه وفي الكشاف ٤/ ٢٦، والمحرر الوجيز ٥/ ١٩٤، وزاد المسير ٨/ ٥٩.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾ أي: ما كادوا به النبيَّ ﷺ في الدنيا. ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ من الله. و«يَوْمَ» منصوبٌ على البدل مِن «يومَهُم الَّذي فيه يُصْعَقون»[١].

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ ﴿٤٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أي: كفروا ﴿عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ قيل: قبل موتهم. ابن زيد: مصائب الدنيا من الأوجاع والأسقام والبلايا، وذهابِ الأموال والأولاد. مجاهد: هو الجوع والجَهْد سبعَ سنين. ابن عباس: هو القتل. وعنه: عذاب القبر. وقاله البَرَاء بنُ عازِب وعليٌّ ﷺ. فـ «دُونَ» بمعنى: غير. وقيل: عذابًا أخفَّ من عذاب الآخرة[٢]. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أنَّ العذاب نازلٌ بهم. وقيل: «ولكنَّ أكثرَهم لا يعلمون» ما يصيرون إليه.

قوله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾.

فيه مسألتان:

الأولى: ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ قيل: لقضاء ربِّك فيما حمَّلك مِن رسالته. وقيل: لبلائه فيما ابتلاك به مِن قومك[٣]؛ ثم نُسخ بآية السيف[٤].

الثانية: قوله تعالى: ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ أي: بمرأى ومنظرٍ منَّا؛ نرى ونسمع ما

(١) إعراب القرآن للنحاس ٤/٢٦٣.

(٢) هذه الأقوال في تفسير الطبري ٢١/٦٠٣ - ٦٠٤، والنكت والعيون ٥/٣٨٦، والوسيط للواحدي ٤/١٩١، وتفسير البغوي ٤/٢٤٣، والكشاف ٤/٢٦، وتفسير الرازي ٢٨/٢٧٣.

(٣) النكت والعيون ٥/٣٨٧.

(٤) قال ابن الجوزي في زاد المسير ٨/ ٦٠ : وذكر المفسرون أن معنى الصبر نسخ بآية السيف، ولا يصح؛ لأنه لا تضاد.

تقول وتفعل. وقيل: بحيث نراك ونحفظك ونحوطك ونَحرُسك ونرعاك. والمعنى واحد. ومنه قولُه تعالى لموسى عليه السلام: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ﴾ [طه:٣٩] أي: بحفظي وحراستي[١]، وقد تقدَّم[٢].

قوله تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ . وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ﴾

فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ اختُلف في تأويل قولِه: «حِينَ تَقُومُ»؛ فقال عوف بن مالك[٣] وابن مسعود وعطاء وسعيد بن جبير وسفيان الثوري[٤]: يسبِّح الله حين يقوم من مجلسه؛ فيقول: سبحان الله وبحمده، أو: سبحانك اللهم وبحمدك؛ فإن كان المجلس خيرًا ازددت ثناءً حسنًا، وإن كان غيرَ ذلك كان كفارةً له؛ ودليل هذا التأويلِ ما خرَّجه الترمذيُّ[٥] عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن جلس في مجلس فكَثُر فيه لَغَطُه، فقال قبل أن يقوم في مجلسه: سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك، إلَّا غُفِر له ما كان في مجلسه ذلك» قال: حديث حسن غريب صحيح. وفيه[٦] عن ابن عمر قال: كنَّا نَعُدُّ لرسول الله ﷺ في المجلس الواحد مئةَ مرَّةٍ من قبل أن يقوم: «ربِّ اغفر لي وتب عليّ، إنك أنت التوَّاب الغفور» قال حديث حسن صحيح غريب.

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٣٨٧ ، وينظر تفسير أبي الليث ٣/ ٢٨٧ ، وتفسير البغوي ٤/ ٢٤٣ ، ومعاني القرآن للزجاج ٥/ ٦٨ ، وإعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٦٣ .

(٢) ١٤/ ٥٨ - ٥٩ .

(٣) في (د) و(م) : عون بن مالك، وهو خطأ، والأثر أخرجه الطبري ٢١/ ٦٠٥ - ٦٠٦ عن عوف بن مالك أبي الأحوص .

(٤) بعدها في النسخ عدا (ف) : وأبو الأحوص ، وهو عوف بن مالك السالف . وقول ابن مسعود في أحكام القرآن للكيا ٤/ ٣٩١ ، وقول عطاء وسعيد بن جبير في تفسير البغوي ٤/ ٢٤٣ .

(٥) في سننه (٣٤٣٣) ، وهو عند أحمد (١٠٤١٥)، وسلف ص٤٥٤ من هذا الجزء.

(٦) برقم (٣٤٣٤) ، وهو عند أحمد (٤٧٢٦) .

وقال محمد بن كعب والضحَّاك والربيع[١]: المعنى: حين تقوم إلى الصلاة. قال الضحَّاك يقول: الله أكبر كبيرًا، والحمد لله كثيرًا، وسبحان الله بكرةً وأصيلًا[٢].

قال الكيا الطبري[٣]: وهذا فيه بُعد؛ فإنَّ قوله: «حينَ تقوم» لا يدلُّ على التسبيح بعد التكبير، فإنَّ التكبير هو الذي يكون بعد القيام، والتسبيح يكون وراءَ ذلك، فدلَّ أنَّ المراد به: حين تقوم من كل مكان، كما قال ابن مسعود ﷺ.

وقال أبو الجوزاء وحسَّان بن عطية: المعنى: حين تقوم من منامك. قال حسان: ليكون مفتتحًا لعمله بذكر الله[٤].

وقال الكلبي: واذكر الله باللسان حين تقوم من فراشك إلى أن تدخل الصلاة[٥]. وهي صلاة الفجر. وفي هذا رواياتٌ مختلفات صِحَاح؛ منها حديث عُبادةَ عن النبيِّ ﷺ قال: «مَن تَعارَّ من الليل فقال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، الحمد[٦] لله وسبحان الله [ولا إله إلا الله] والله أكبر، ولا حول ولا قوّة إلا بالله، ثم قال: اللهم اغفر لي، أو دعا، استجيب له، فإنْ توضَّأ وصلَّى، قُبلت صلاته» خرَّجه البخاري[٧]. تعارَّ الرجل من الليل: إذا هبَّ من نومه مع صوت؛ ومنه: عَارَّ الظَّلِيمُ يَعارُّ عِرَارًا، وهو صوته؛ وبعضهم يقول: عَرَّ الظَّلِيمُ يَعِرُّ عِرَارًا، كما قالوا: زَمَر النَّعامُ يَزْمِرُ زِمَارًا[٨].

وعن ابن عباس: أنَّ رسول الله ﷺ كان يقول إذا قام إلى الصلاة من جوف الليل:

---

(١) ذكر قول الضحاك والربيع البغوي في تفسيره ٤/ ٢٤٣.
(٢) أخرجه عبد الرزاق في التفسير ٢/ ٢٤٩.
(٣) في أحكام القرآن ٤/ ٣٩١.
(٤) النكت والعيون ٥/ ٣٨٧ عن حسان بن عطية.
(٥) تفسير البغوي ٤/ ٢٤٣.
(٦) المثبت من (ز) و(ظ)، وفي غيرهما: والحمد.
(٧) في صحيحه (١١٥٤) وما بين حاصرتين منه. وسلف ص٤٦٢ من هذا الجزء.
(٨) الصحاح (عرر).

«اللهم لك الحمد، أنت نور السماوات والأرض ومَن فيهنّ، ولك الحمد، أنت قَيُّوم السماوات والأرض ومن فيهنّ، ولك الحمد، أنت ربُّ السماوات والأرض ومن فيهنّ، أنت الحقّ، ووعدك الحقّ، وقولك الحقّ، ولقاؤك الحقّ، والجنة حقّ، والنار حقّ، والساعة حقّ، والنبيُّون حقّ، ومحمدٌ حقّ. اللهم لك أسلمت، وعليك توكلت، وبك آمنت، وإليك أنبت، وبك خاصمت، وإليك حاكمت، فاغفر لي ما قدَّمت وأخَّرت، وأسررت وأعلنت، أنت المقدِّم، وأنت المؤخِّر، لا إله إلا أنت، ولا إله غيرك». متفق عليه[١].

وعن ابن عباس أيضًا: أنه عليه الصلاة والسلام كان إذا استيقظ من الليل، مسح النومَ عن وجهه؛ ثم قرأ العشرَ الآياتِ الأواخر من سورة آل عمران[٢].

وقال زيد بن أسلم: المعنى: حين تقوم من نوم القائلة لصلاة الظهر[٣]. قال ابن العربي[٤]: أمَّا نوم القائلة فليس فيه أثر، وهو ملحَق بنوم الليل.

وقال الضحَّاك: إنه التسبيح في الصلاة إذا قام إليها[٥]. الماوردي[٦]: وفي هذا التسبيح قولان: أحدهما: وهو قوله: سبحان ربي العظيم؛ في الركوع، وسبحان ربي الأعلى؛ في السجود. الثاني: أنه التوجُّه في الصلاة، يقول: سبحانك اللهم وبحمدك، تبارك اسمك وتعالى جَدُّك، ولا إله غيرك.

قال ابن العربي[٧]: مَن قال: إنه التسبيح للصلاة، فهذا أفضله، والآثار في ذلك

---

(١) صحيح البخاري (١١٢٠)، وصحيح مسلم (٧٦٩)، وسلف تخريجه ١٠/ ٤٩٢.

(٢) أخرجه أحمد (٣٣٧٢)، والبخاري (١٨٣)، ومسلم (٧٦٣): (١٨٢) بنحوه مطولاً.

(٣) النكت والعيون ٥/ ٣٨٧.

(٤) في أحكام القرآن ٤/ ١٧٢١.

(٥) أخرجه الطبري ٢١/ ٦٠٦ بنحوه.

(٦) في النكت والعيون ٥/ ٣٨٧.

(٧) في أحكام القرآن ٤/ ١٧٢١.

كثيرة، أعظمُها ما ثبت عن عليِّ بن أبي طالب ﷺ عن النبيِّ ﷺ: أنه كان إذا قام إلى الصلاة قال: «وجَّهت وجهيَ» الحديث. وقد ذكرناه وغيرَه في آخر سورة الأنعام[(١)].

وفي البخاريِّ[(٢)] عن أبي بكر الصدِّيق ﷺ أنه قال: قلت: يا رسول الله، عَلِّمني دعاءً أدعو به في صلاتي؛ فقال: «قل: اللَّهم إني ظلمت نفسي ظلمًا كثيرًا، ولا يغفر الذنوبَ إلا أنت، فاغفر لي مغفرةً مِن عندك، وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم».

الثانية: قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ وَإِدۡبَٰرَ ٱلنُّجُومِ﴾ تقدَّم في «ق» مستوفًى عند قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ وَأَدۡبَٰرَ ٱلسُّجُودِ﴾ [الآية: ٤٠][(٣)].

وأما «إِدبارَ النُّجوم» فقال عليٌّ وابن عباس وجابرٌ وأنس: يعني ركعتي الفجر. فحمل بعضُ العلماء الآيةَ على هذا القول على الندب، وجَعَلَها منسوخةً بالصلوات الخمس.

وعن الضحَّاك وابنِ زيد: أنَّ قوله: «وإِدبارَ النُّجوم» يريد به صلاة الصبح، وهو اختيار الطبريّ[(٤)].

وعن ابن عباس: أنه التسبيح في أدبار[(٥)] الصلوات.

وبكسر الهمزة في «إِدبارَ النُّجوم» قرأ السبعةُ، على المصدر حسَب ما بيَّنّاه في «ق». وقرأ سالم بن أبي الجعد ومحمد بن السَّمَيْفَع: «وَأدبارَ» بالفتح[(٦)]، ومثلُه روي عن يعقوب[(٧)] وسلام وأيوب؛ وهو جمع دُبْر ودُبُر. ودُبْر الأمر ودُبُره: آخره.

---

(١) ٩/ ١٤٠ ، والحديث أخرجه أحمد (٧٢٩) ، ومسلم (٧٧١) .

(٢) برقم (٨٣٤) ، وهو عند أحمد (٨) ، ومسلم (٢٧٠٥) .

(٣) ص٤٦٢ من هذا الجزء.

(٤) في تفسيره ٢١/ ٦٠٩ ، وفيه الآثار السالفة عدا قول جابر وأنس رضي الله عنهما .

(٥) في (م) : آخر ، والأثر ذكره الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٣٨٨ .

(٦) المحتسب ٢/ ٢٩٢، والمحرر الوجيز ٥/ ١٩٤ عن سالم.

(٧) ذكرها عنه ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ١٩٤ ، والمشهور عنه كالعامة .

وروى الترمذيُّ[١] من حديث محمد بن فضيل، عن رِشْدِين بن كُرَيب، عن أبيه، عن ابن عباس، عن النبيِّ ﷺ قال: «إدبارُ النجوم الركعتان قبل الفجر، وإدبار السجود الركعتان بعد المغرب». قال: حديث غريب لا نعرفه مرفوعًا إلَّا من هذا الوجه، من حديث محمد بنِ فُضيل، عن رِشْدِين بن كُريب. وسألت محمد بن إسماعيل، عن محمد بن فُضيل، ورِشْدين بن كُريب: أيُّهما أوثق؟ فقال: ما أقرَبَهما، ومحمدٌ عندي أرجح. قال: وسألت عبد الله بنَ عبد الرحمن[٢] عن هذا، فقال: ما أقربَهما؛ ورِشْدِين بن كُريب أرجحهما عندي. قال الترمذي: والقول عندي ما قال أبو محمد، ورِشْدين بن كُريب أرجح من محمد وأقدم، وقد أدرك رِشْدِينُ ابنَ عباس ورآه.

وفي صحيح مسلم[٣] عن عائشة رضي الله عنها قالت: لم يكن النبيُّ ﷺ على شيء من النوافل أشدَّ معاهدةً منه على ركعتين قبل الصبح. وعنها[٤] عن النبيِّ ﷺ قال: «ركعتا الفجر خيرٌ من الدنيا وما فيها».

تم تفسير سورة والطور، والحمد لله.

تم الجزء التاسع عشر من تفسير القرطبي
ويليه الجزء العشرون، ويبدأ بتفسير سورة النجم

---

(١) في سننه (٣٢٧٥)، وسلف بنحوه ص٤٦٢ من هذا الجزء.

(٢) هو أبو محمد الدارمي.

(٣) برقم (٧٢٤): (٩٤)، وهو عند أحمد (٢٤١٦٧)، والبخاري (١١٦٩).

(٤) برقم (٧٢٥)، وهو عند أحمد (٢٤٢٤١) و(٢٦٢٨٦).

تفسير سورة الطـور

وهى مكية.

قال مالك، عن الزهرى، عن محمد بن جُبَير بن مطعم، عن أبيه: سمعت النبى ﷺ يقرأ فى المغرب بالطور، فما سمعت أحدا أحسن صوتا ـ أو: قراءة ـ منه.

أخرجاه من طريق مالك [(١)] وقال البخارى:

حدثنا عبد الله بن يوسف، أخبرنا مالك، عن محمد بن عبد الرحمن بن نَوْفَل، عن عُرْوَة، عن زينب بنت أبى سلمة، عن أم سلمة قالت: شكوت إلى رسول الله ﷺ أنى أشتكى، فقال: «طُوفى من وراء الناس وأنت راكبة» فطفت، ورسول الله ﷺ يصلى إلى جنب البيت يقرأ بالطور وكتاب مسطور[(٢)].

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَالطُّورِ (١) وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ (٢) فِي رَقٍّ مَّنْشُورٍ (٣) وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ (٤) وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ (٥) وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ (٦) إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ (٧) مَا لَهُ مِن دَافِعٍ (٨) يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا (٩) وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا (١٠) فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (١١) الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ (١٢) يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا (١٣) هَٰذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ (١٤) أَفَسِحْرٌ هَٰذَا أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ (١٥) اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (١٦)﴾.

يقسم تعالى بمخلوقاته الدالة على قدرته العظيمة: أن عذابه واقع بأعدائه، وأنه لا دافع له عنهم. فالطور هو: الجبل الذى يكون فيه أشجار، مثل الذى كلم الله عليه موسى، وأرسل منه عيسى، وما لم يكن فيه شجر لا يسمى طورا، إنما يقال له: جبل.

﴿وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ﴾ قيل: هو اللوح المحفوظ. وقيل: الكتب المنزلة المكتوبة التى تقرأ على الناس جهارا؛ ولهذا قال: ﴿فِي رَقٍّ مَّنْشُورٍ. وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ﴾. ثبت فى الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال فى حديث الإسراء ـ بعد مجاوزته إلى السماء السابعة ـ: «ثم رفع بى[(٣)] إلى البيت المعمور، وإذا هو يدخله فى كل يوم سبعون ألفا لا يعودون إليه آخر ما عليهم» يعنى: يتعبدون فيه ويطوفون، كما

(١) صحيح البخارى برقم (٤٨٥٤) وصحيح مسلم برقم (٤٦٣).
(٢) صحيح البخارى برقم (٤٨٥٣) وصحيح مسلم (١٢٧٦).
(٣) فى م: «لى».

يطوف أهل الأرض بكعبتهم كذلك ذاك البيت، هو كعبة أهل السماء السابعة؛ ولهذا وجد إبراهيم الخليل، عليه السلام، مسندا ظهره إلى البيت المعمور؛ لأنه بانى الكعبة الأرضية، والجزاء من جنس العمل، وهو بحيال الكعبة، وفى كل سماء بيت يتعبد فيه أهلها، ويصلون إليه، والذى فى السماء الدنيا يقال له: بيت العزة. والله أعلم.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا هشام بن عمار، حدثنا الوليد بن مسلم، حدثنا روح بن جناح، عن الزهرى، عن سعيد بن المسيب، عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ قال: « فى السماء السابعة بيت يقال له: «المعمور» بحيال الكعبة، وفى السماء الرابعة نهر يقال له: «الحيوان» يدخله جبريل كل يوم، فينغمس فيه انغماسة، ثم يخرج فينتفض انتفاضة يخر عنه سبعون ألف قطرة، يخلق الله من كل قطرة ملكا يؤمرون أن يأتوا البيت المعمور، فيصلوا [١] فيه فيفعلون، ثم يخرجون فلا يعودون إليه أبدا، ويولى عليهم أحدهم، يؤمر أن يقف بهم من السماء موقفا يسبحون الله فيه إلى أن تقوم الساعة».

هذا حديث غريب جدا، تفرد به روح بن جناح هذا، وهو القرشى الأموى مولاهم أبو سعد الدمشقى، وقد أنكر هذا الحديث عليه جماعة من الحفاظ منهم: الجوزجانى، والعقيلى، والحاكم أبوعبد الله النيسابورى، وغيرهم.

قال الحاكم: لا أصل له من حديث أبى هريرة، ولا سعيد، ولا الزهرى[٢].

وقال ابن جرير: حدثنا هَنَّاد بن السُّرِىّ، حدثنا أبو الأحوص، عن سماك بن حرب، عن خالد ابن [٣] عرعرة؛ أن رجلا قال لعلى: ما البيت المعمور؟ قال: بيت فى السماء يقال له: «الضُّراح»، وهو بحيال الكعبة من فوقها، حرمته فى السماء كحرمة البيت فى الأرض، يصلى فيه كل يوم سبعون ألفا من الملائكة، لا[٤] يعودون فيه أبدا[٥].

وكذا رواه شعبة وسفيان الثورى، عن سِمَاك وعندهما أن ابن الكواء هو السائل عن ذلك. ثم رواه ابن جرير عن أبى كُرَيب، عن طَلْق بن غنام، عن زائدة، عن عاصم، عن على بن ربيعة قال: سأل ابن الكواء عليا عن البيت المعمور، قال: مسجد فى السماء يقال له: «الضُّراح»، يدخله كل يوم سبعون ألفا من الملائكة، ثم لا يعودون فيه أبدا. ورواه من حديث أبى الطُّفَيْل، عن على بمثله.

وقال العَوْفى، عن ابن عباس: هو بيت حذاء العرش، تعمره الملائكة، يصلى فيه كل يوم سبعون

(١) فى م: «فيصلون».

(٢) ورواه ابن عدى فى الكامل (٣/ ١٤٤) من طريق هشام بن عمار به، وقال: «سمعت ابن حماد يقول: قال السعدى: روح بن جناح ذكر عن الزهرى حديثاً معضلا فى البيت المعمور» ثم ساقه بإسناده وتعقبه بقوله: «ولا يعرف هذا الحديث إلا بروح بن جناح عن الزهرى».

(٣) فى م: «عن».

(٤) فى م: «ثم لا».

(٥) تفسير الطبرى (٢٧/ ١٠).

ألفا من الملائكة ثم لا يعودون إليه. وكذا قال عكرمة، ومجاهد، والربيع بن أنس، والسدى، وغير واحد من السلف.

وقال قتادة: ذكر لنا أن رسول الله ﷺ قال يوما لأصحابه: «هل تدرون ما البيت المعمور؟» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «فإنه مسجد فى السماء بحيال الكعبة، لو خر لخر عليها، يصلى فيه كل يوم سبعون ألف ملك، إذا خرجوا منه لم يعودوا آخر ما عليهم».

وزعم الضحاك أنه يعمره طائفة من الملائكة يقال لهم: الجن[١]، من قبيلة إبليس[٢]، فالله أعلم.

وقوله: ﴿وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ﴾: قال سفيان الثورى، وشعبة، وأبو الأحوص، عن سمَاك، عن خالد بن عَرْعَرَة، عن على: ﴿وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ﴾ يعنى: السماء، قال سفيان: ثم تلا: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ﴾[الأنبياء: ٣٢]. وكذا قال مجاهد، وقتادة، والسدى، وابن جُرَيْج، وابن زيد، واختاره ابن جرير.

وقال الربيع بن أنس: هو العرش، يعنى: أنه سقف لجميع المخلوقات، وله اتجاه، وهو يُراد مع غيره كما قاله الجمهور.

وقوله: ﴿وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ﴾: قال الربيع بن أنس: هو الماء الذى تحت العرش، الذى ينزل [الله][٣] منه المطر الذى يحيى به الأجساد فى قبورها يوم معادها. وقال الجمهور: هو هذا البحر. واختلف فى معنى قوله: ﴿الْمَسْجُورِ﴾، فقال بعضهم: المراد أنه يوقد يوم القيامة نارا كقوله: ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ [التكوير: ٦] أى: أضرمت فتصير[٤] نارا تتأجج، محيطة بأهل الموقف. رواه سعيد ابن المسيب، عن على بن أبى طالب، ورُوى عن ابن عباس. وبه يقول سعيد بن جبير، ومجاهد، وعبد الله بن عبيد بن عُمير[٥]، وغيرهم.

وقال العلاء بن بدر: إنما سمى البحر المسجور لأنه لا يُشرب منه ماء، ولا يسقى به زرع، وكذلك البحار يوم القيامة. كذا رواه عنه ابن أبى حاتم.

وعن سعيد بن جُبير: ﴿وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ﴾ يعنى: المرسل. وقال قتادة: ﴿[وَالْبَحْرِ][٦] الْمَسْجُورِ﴾: المملوء. واختاره ابن جرير ووجهه بأنه ليس موقدا اليوم فهو مملوء.

وقيل: المراد به: الفارغ، قال الأصمعى، عن أبى عمرو بن العلاء، عن ذى الرمة، عن ابن عباس فى قوله: ﴿وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ﴾ قال: الفارغ؛ خرجت أمة تستسقى فرجعت فقالت: «إن الحوض مسجور»، تعنى: فارغا. رواه ابن مردويه فى مسانيد الشعراء.

---

(١) فى م، أ: «الجن».
(٢) تفسير الطبرى (٢٧/ ١١).
(٣) زيادة من م، أ.
(٤) فى م: «فصيرت».
(٥) فى م: «وعبيد الله بن عمير».
(٦) زيادة من م.

وقيل: المراد بالمسجور: الممنوع المكفوف عن الأرض؛ لئلا [١] يغمرها فيغرق أهلها. قاله [٢] على ابن أبى طلحة، عن ابن عباس، وبه يقول السدى وغيره، وعليه يدل الحديث الذى رواه الإمام أحمد، رحمه الله، فى مسنده، فإنه قال:

حدثنا يزيد، حدثنا [٣] العوام، حدثنى شيخ كان مرابطا بالساحل قال: لقيت أبا صالح مولى عمر بن الخطاب فقال: حدثنا عمر بن الخطاب، عن رسول الله ﷺ قال: «ليس من ليلة إلا والبحر يشرف فيها ثلاث مرات، يستأذن الله أن ينفضخ [٤] عليهم، فيكفه الله عز وجل» [٥].

وقال الحافظ أبو بكر الإسماعيلى: حدثنا الحسن بن سفيان، عن إسحاق بن راهويه، عن يزيد ـ وهو ابن هارون ـ عن العوام بن حوشب، حدثنى شيخ مرابط قال: خرجت ليلة لحرسى [٦] لم يخرج أحد من الحرس غيرى، فأتيت الميناء فصعدت، فجعل يخيل إلىَّ أن البحر يشرف يحاذى رؤوس الجبال، فعل ذلك مرارا وأنا مستيقظ، فلقيت أبا صالح فقال: حدثنا عمر بن الخطاب: أن رسول الله ﷺ قال: «ما من ليلة إلا والبحر يشرف ثلاث مرات، يستأذن الله أن ينفضخ عليهم، فيكفه الله عز وجل». فيه رجل مبهم لم يسم [٧].

وقوله: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ﴾: هذا هو المقسم عليه، أى: الواقع [٨] بالكافرين، كما قال فى الآية الأخرى: ﴿مَا لَهُ مِن دَافِعٍ﴾ أى: ليس له دافع يدفعه عنهم إذا أراد الله بهم ذلك.

قال الحافظ أبو بكر بن أبى الدنيا: حدثنا أبى، حدثنا موسى بن داود، عن صالح المرى، عن جعفر بن [٩] زيد العبدى قال: خرج عمر يَعسّ المدينة ذات ليلة، فمر بدار رجل من المسلمين، فوافقه قائما يصلى، فوقف يستمع قراءته فقرأ: ﴿وَالطُّورِ﴾ حتى بلغ: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ. مَا لَهُ مِن دَافِعٍ﴾ قال: قسم ـ ورب الكعبة ـ حق. فنزل عن حماره واستند إلى حائط، فمكث مليا، ثم رجع إلى منزله، فمكث شهرا يعوده الناس لا يدرون ما مرضه، رضى الله عنه [١٠].

وقال الإمام أبو عبيد فى «فضائل القرآن»: حدثنا محمد بن صالح، حدثنا هشام بن حسان، عن الحسن: أن عمر قرأ: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ. [مَا لَهُ مِن دَافِعٍ] [١١]﴾، فربا لها ربوة، عيد منها عشرين يوما [١٢].

وقوله: ﴿يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا﴾: قال ابن عباس وقتادة: تتحرك تحريكا. وعن ابن عباس: هو تشققها، وقال مجاهد: تدور دورا. وقال الضحاك: استدارتها وتحريكها لأمر الله، وموج بعضها فى

---

(١) فى م: «لا». (٢) فى م: «وقال». (٣) فى م: «بن». (٤) فى م: «ينفضح».
(٥) المسند (١/ ٤٣) ورواه من طريق ابن الجوزى فى العلل المتناهية (١/ ٥٢) وقال: «العوام ضعيف. والشيخ مجهول».
(٦) فى م: «لمحرثى».
(٧) وذكره المؤلف فى مسند عمر (٢/ ٦٠٨) من رواية الإسماعيلى، وقال: « فيه رجل مبهم لم يسم، والله أعلم بحاله» .
(٨) فى م: «واقع». (٩) فى أ: «عن» .
(١٠) وذكره المؤلف فى مسند عمر (٢/ ٦٠٧) من رواية ابن أبى الدنيا وفى إسناده صالح المرى، ووقع فى مسند عمر «المدنى» فإن كان المرى فهو ضعيف. (١١) زيادة من م.
(١٢) فضائل القرآن لأبى عبيد (ص٦٤).

بعض. وهذا اختيار ابن جرير أنه التحرك[١] فى استدارة. قال: وأنشد أبو عبيدة معمر بن المثنى بيت الأعشى:

كأن مشْيَتَها من بيتِ جَارتها ... مَورُ السحابة، لا رَيْثٌ ولا عجل[٢]

﴿وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا﴾ أى: تذهب فتصير هباء منبثا، وتنسف نسفا، ﴿فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ أى: ويل لهم ذلك اليوم من عذاب الله ونكاله بهم، وعقابة لهم، ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ﴾ أى: هم فى الدنيا يخوضون فى الباطل، ويتخذون دينهم هزوا ولعبا، ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ﴾ أى: يدفعون ويساقون، ﴿إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا﴾: وقال مجاهد، والشعبى، ومحمد بن كعب، والضحاك، والسدى، والثورى: يدفعون فيها دفعا ﴿هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ أى: تقول لهم الزبانية ذلك تقريعا وتوبيخا، ﴿أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنتُمْ لا تُبْصِرُونَ. اصْلَوْهَا﴾ أى: ادخلوها دخول من تغمره من جميع جهاته ﴿فَاصْبِرُوا أَوْ لا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ﴾ أى: سواء صبرتم على عذابها ونكالها أم لم تصبروا، لا محيد لكم عنها ولا خلاص لكم منها[٣]، ﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أى: ولا يظلم الله أحدا، بل يجازى كلا بعمله.

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ (١٧) فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (١٨) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (١٩) مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ (٢٠)﴾ .

يخبر تعالى عن حال السعداء فقال: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ﴾، وذلك بضد ما أولئك فيه من العذاب والنكال، ﴿فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ﴾ أى: يتفكهون بما آتاهم الله من النعيم، من أصناف الملاذ، من مآكل ومشارب وملابس ومساكن ومراكب وغير ذلك، ﴿وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ أى: وقد نجاهم من عذاب النار، وتلك نعمة مستقلة بذاتها على حدتها مع ما أضيف إليها من دخول الجنة، التى فيها من السرور ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

وقوله: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، كقوله: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾ [الحاقة: ٢٤]. أى: هذا بذاك، تفضلا منه وإحسانا.

وقوله: ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ﴾ قال الثورى، عن حصين، عن مجاهد، عن ابن عباس: السرر فى الحجال.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا أبو اليمان، حدثنا صفوان بن عمرو؛ أنه سمع الهيثم بن

---

(١) فى م، أ: «المتحرك».

(٢) البيت فى تفسير الطبرى (٢٧/ ١٣).

(٣) فى أ: «فيها».

مالك الطائى يقول: إن رسول الله ﷺ قال: «إن الرجل ليتكئ المتكأ مقدار أربعين سنة ما يتحول عنه ولا يمله، يأتيه ما اشتهت نفسه ولذت عينه»[١].

وحدثنا أبى، حدثنا هُدْبَة بن خالد، عن سليمان بن المغيرة، عن ثابت قال: بلغنا أن الرجل ليتكئ فى الجنة سبعين سنة، عنده من أزواجه وخدمه وما أعطاه الله من الكرامة والنعيم، فإذا حانت منه نظرة فإذا أزواج له لم يكن رآهن قبل ذلك، فيقلن: قد آن لك أن تجعل لنا منك نصيبا.

ومعنى ﴿ **مَّصْفُوفَةٍ** ﴾ أى: وجوه بعضهم إلى بعض، كقوله: ﴿ **عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ** ﴾ [الصافات: ٤٤]. ﴿ **وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ** ﴾ أى: وجعلناهم قرينات صالحات، وزوجات حسانا من الحور العين.

وقال مجاهد: ﴿ **وَزَوَّجْنَاهُم** ﴾: أنكحناهم بحور عين، وقد تقدم وصفهن فى غير موضع بما أغنى عن إعادته.

﴿ **وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ (٢١) وَأَمْدَدْنَاهُم بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ (٢٢) يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ (٢٣) وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ (٢٤) وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٢٥) قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ (٢٦) فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ (٢٧) إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ (٢٨)** ﴾ .

يخبر تعالى عن فضله وكرمه، وامتنانه ولطفه بخلقه وإحسانه: أن المؤمنين إذا اتبعتهم ذرياتهم فى الإيمان يُلحقهم بآبائهم فى المنزلة وإن لم يبلغوا عملهم، لتقر أعين الآباء بالأبناء عندهم فى منازلهم، فيجمع بينهم على أحسن الوجوه، بأن يرفع الناقص العمل بكامل العمل، ولا ينقص ذلك من عمله ومنزلته، للتساوى بينه وبين ذاك؛ ولهذا قال: ﴿ **أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ** ﴾.

قال الثورى، عن عمرو بن مُرَّة، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: إن الله ليرفع ذرية المؤمن فى درجته، وإن كانوا دونه فى العمل، لتقر بهم عينه ثم قرأ: ﴿ **وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ** ﴾.

رواه ابن جرير وابن أبى حاتم من حديث سفيان الثورى، به. وكذا رواه ابن جرير من حديث شعبة عن عمرو بن مُرَّة به[٢]. ورواه البزار، عن سهل بن بحر[٣]، عن الحسن بن حماد الوراق، عن قيس بن الربيع، عن عمرو بن مُرّة، عن سعيد، عن ابن عباس مرفوعا، فذكره، ثم قال: وقد رواه

---

(١) وإسناده منقطع .الهيثم بن مالك لم يدرك النبى ﷺ.
(٢) تفسير الطبرى (٢٧/ ١٥).
(٣) فى أ: «يحيى».

الثورى، عن عمرو بن مرة، عن سعيد، عن ابن عباس موقوفا[(١)].

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا العباس بن الوليد بن مزيد[(٢)] البيروتى، أخبرنى محمد بن شعيب[(٣)] أخبرنى شيبان، أخبرنى ليث، عن حبيب بن أبى ثابت الأسدى، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس فى قول الله، عز وجل: ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَأَتْبَعْنَاهُمْ ذُرِّيَّاتِهِم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّاتِهِم﴾ قال: هم ذرية المؤمن، يموتون على الإيمان: فإن كانت منازل آبائهم أرفع من منازلهم ألحقوا بآبائهم، ولم ينقصوا من أعمالهم التى عملوا شيئا.

وقال الحافظ الطبرانى: حدثنا الحسين بن إسحاق التُّسْتَرِى، حدثنا محمد بن عبد الرحمن بن غَزْوان، حدثنا شريك، عن سالم الأفطس، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس ـ أظنه عن النبى ﷺ ـ قال: «إذا دخل الرجل الجنة سأل عن أبويه وزوجته وولده، فيقال: إنهم لم يبلغوا درجتك. فيقول: يا رب، قد عملت لى ولهم. فيؤمر بإلحاقهم به، وقرأ ابن عباس: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ﴾ الآية[(٤)].

وقال العَوْفى، عن ابن عباس فى هذه الآية: يقول: والذين أدرك ذريتهم الإيمان فعملوا بطاعتى، ألحقتهم بإيمانهم إلى الجنة، وأولادهم الصغار تلحق بهم.

وهذا راجع إلى التفسير الأول، فإن ذاك مفسر أصرح من هذا. وهكذا يقول الشعبى، وسعيد بن جبير، وإبراهيم، وقتادة، وأبو صالح، والربيع بن أنس، والضحاك، وابن زيد. وهو اختيار ابن جرير. وقد قال عبد الله بن الإمام أحمد:

حدثنا عثمان بن أبى شيبة، حدثنا حمد بن فُضَيْل، عن محمد بن عثمان، عن زاذان، عن على قال: سألتْ خديجة النبى ﷺ عن ولدين ماتا لها فى الجاهلية، فقال رسول الله ﷺ: «هما فى النار». فلما رأى الكراهة فى وجهها قال: «لو رأيت مكانهما لأبغضتهما». قالت: يا رسول الله، فولدى منك. قال: «فى الجنة». قال: ثم قال رسول الله ﷺ: «إن المؤمنين وأولادهم فى الجنة، وإن المشركين وأولادهم في النار». ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَأَتْبَعْنَاهُمْ ذُرِّيَّاتِهِم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّاتِهِم﴾[الآية][(٥)] [(٦)] .

هذا فضله تعالى على الأبناء ببركة عمل الآباء، وأما فضله على الآباء ببركة دعاء الأبناء، فقد

(١) مسند البزار برقم (٢٢٦٠) «كشف الأستار» وقال الهيثمى فى المجمع (٧/ ١١٤): «فيه قيس بن الربيع وثقه شعبة والثورى، وفيه ضعف».

(٢) فى م، أ: «يزيد». (٣) فى م: «شعبة».

(٤) رواه الطبرانى فى المعجم الكبير (١١/ ٤٤٠) حدثنا محمد بن عبد الله الحضرمى حدثنا محمد بن عبد الرحمن بن غزوان به.
ورواه فى المعجم الصغير برقم (٦٤٠) حدثنا عبد الله بن يزيد الدقيقى حدثنا محمد بن عبد الرحمن بن غزوان به.
ولم أجد رواية الحسين بن إبراهيم التسترى.

(٥) زيادة من م.

(٦) زوائد عبد الله على المسند (١/ ١٣٤) وقال الهيثمى فى المجمع (٧/ ٢١٧): «فيه محمد بن عثمان ولم أعرفه وبقية رجاله رجال الصحيح».

قال الإمام أحمد:

حدثنا يزيد، حدثنا حماد بن سلمة، عن عاصم بن أبى النَّجُود، عن أبى صالح، عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله ليرفع الدرجة للعبد الصالح فى الجنة فيقول: يا رب، أنى لى هذه؟ فيقول: باستغفار ولدك لك»[(١)].

إسناده[(٢)] صحيح، ولم يخرجوه من هذا الوجه، ولكن له شاهد فى صحيح مسلم، عن أبى هريرة، عن رسول الله ﷺ: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له»[(٣)].

وقوله: ﴿كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ لما أخبر عن مقام الفضل، وهو رفع درجة الذرية إلى منزلة الآباء من غير عمل يقتضى ذلك، أخبر عن مقام العدل، وهو أنه لا يؤاخذ أحدا بذنب أحد، بل ﴿كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ أى: مرتهن بعمله، لا يحمل عليه ذنب غيره من الناس، سواء كان أبا أو ابنا، كما قال: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ . إِلاَّ أَصْحَابَ الْيَمِينِ. فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ . عَنِ الْمُجْرِمِينَ﴾ [المدثر: ٣٨ ـ ٤١].

وقوله: ﴿وَأَمْدَدْنَاهُم بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾ أى: وألحقناهم بفواكه ولحوم من أنواع شتى، مما يستطاب ويشتهى.

وقوله: ﴿يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا﴾ أى: يتعاطون فيها كأسا، أى: من الخمر. قاله الضحاك.

﴿لاَّ لَغْوٌ فِيهَا وَلا تَأْثِيمٌ﴾ أى: لا يتكلمون عنها[(٤)] بكلام لاغ، أى: هَذَيَان، ولا إثم، أى: فُحْش، كما تتكلم به الشربة من أهل الدنيا.

وقال ابن عباس: اللغو: الباطل. والتأثيم: الكذب.

وقال مجاهد: لا يستبون ولا يؤثمون.

وقال قتادة: كان ذلك فى الدنيا مع الشيطان.

فنزه الله خمر الآخرة عن قاذورات خمر الدنيا وأذاها، فنفى عنها ـ كما تقدم ـ صداع الرأس، ووجع البطن، وإزالة العقل بالكلية، وأخبر أنها لا تحملهم على الكلام السيئ الفارغ عن الفائدة المتضمن هَذَيَانا وفُحشا، وأخبر بحسن منظرها، وطيب طعمها ومخبرها فقال: ﴿بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ.لا فِيهَا غَوْلٌ وَلا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾ [الصافات: ٤٦، ٤٧]، وقال: ﴿لا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلاَ يُنزِفُونَ﴾ [الواقعة: ١٩]، وقال هاهنا: ﴿يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لاَّ لَغْوٌ فِيهَا وَلا تَأْثِيمٌ﴾.

---

(١) المسند (٢/ ٥٠٩).

(٢) فى م: «إسناد».

(٣) صحيح مسلم برقم (١٦٣١).

(٤) فى م: «فيها».

وقوله: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ﴾: إخبار عن خدمهم وحشمهم في الجنة كأنهم اللؤلؤ الرطب، المكنون في حسنهم وبهائهم[1] ونظافتهم وحسن ملابسهم، كما قال: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ . بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ﴾ [الواقعة: ١٧، ١٨].

وقوله: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ أي: أقبلوا يتحادثون ويتساءلون عن أعمالهم وأحوالهم في الدنيا، وهذا كما يتحادث أهل الشراب على شرابهم إذا أخذ فيهم الشراب بما كان من أمرهم، ﴿قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾ أي: قد كنا في الدار الدنيا ونحن بين أهلنا خائفين من ربنا مشفقين من عذابه وعقابه، ﴿فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ﴾ أي: فتصدق علينا وأجارنا مما نخاف، ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ﴾ أي: نتضرع إليه، فاستجاب [الله] [2]لنا وأعطانا سؤلنا، ﴿إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ﴾.

وقد ورد في هذا المقام حديث، رواه الحافظ أبو بكر البزار في مسنده فقال: حدثنا سلمة بن شبيب، حدثنا سعيد بن دينار، حدثنا الربيع بن صبيح، عن الحسن، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا دخل أهل الجنة الجنة اشتاقوا إلى الإخوان، فيجيء سرير هذا حتى يحاذي سرير هذا، فيتحدثان، فيتكئ هذا ويتكئ هذا، فيتحدثان بما كان في الدنيا، فيقول أحدهما لصاحبه: يا فلان، تدري أي يوم غفر الله لنا؟ يوم كنا في موضع كذا وكذا، فدعونا الله ـ عز وجل ـ فغفر لنا».

ثم قال البزار: لا نعرفه يُرْوَى إلا بهذا الإسناد[3].

قلت: وسعيد بن دينار الدمشقي قال أبو حاتم: هو مجهول، وشيخه الربيع بن صبيح قد تكلم فيه غير واحد من جهة حفظه، وهو رجل صالح ثقة في نفسه.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا عمرو بن عبد الله الأوْديّ، حدثنا وكيع، عن الأعمش، عن أبي الضحى، عن مسروق، عن عائشة؛ أنها قرأت هذه الآية: ﴿فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ. إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ﴾، فقالت: اللهم مُنَّ علينا وقنا عذاب السموم، إنك أنت البر الرحيم. قيل للأعمش: في الصلاة؟ قال: نعم[4].

﴿فَذَكِّرْ فَمَا أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُم بِهَٰذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٣٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ ﴿٣٤﴾﴾.

---

(١) في م: «وبياضهم». (٢) زيادة من أ.

(٣) مسند البزار برقم (٣٥٥٣) «كشف الأستار» وقال الهيثمي في المجمع (١٠/ ٤٢١): «رجاله رجال الصحيح غير سعيد بن دينار، والربيع بن صبيح وهما ضعيفان وقد وثقا».

(٤) ورواه عبد الرزاق وابن أبي شيبة وابن المنذر والبيهقي في شعب الإيمان كما في الدر المنثور للسيوطي (٧/ ٦٣٤).

يقول[١] تعالى آمراً رسوله، صلوات الله وسلامه عليه، بأن يبلغ رسالته إلى عباده، وأن يذكرهم بما أنزل الله عليه. ثم نفى عنه ما يرميه به أهل البهتان والفجور فقال: ﴿فَذَكِّرْ فَمَا أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾ أي: لست بحمد الله بكاهن كما تقوله[٢] الجهلة من كفار قريش. والكاهن: الذي يأتيه الرَّئِي من الجان بالكلمة يتلقاها من خبر السماء، ﴿وَلَا مَجْنُونٍ﴾: وهو الذي يتخبطه الشيطان من المس.

ثم قال تعالى منكرا عليهم في قولهم في الرسول، صلوات الله وسلامه عليه: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ﴾ أي: قوارع الدهر. والمنون: الموت: يقولون: ننظره ونصبر عليه حتى يأتيه الموت فنستريح منه ومن شأنه، قال الله تعالى: ﴿قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُتَرَبِّصِينَ﴾ أي: انتظروا فإني منتظر معكم، وستعلمون لمن تكون العاقبة والنّصرة في الدنيا والآخرة.

قال محمد بن إسحاق، عن عبد الله بن أبي نَجيح، عن مجاهد، عن ابن عباس: إن قريشا لما اجتمعوا في دار الندوة في أمر النبي ﷺ قال قائل منهم: احتبسوه[٣] في وثاق، ثم تربصوا به ريب المنون حتى يهلك، كما هلك من هلك قبله من الشعراء: زهير والنابغة، إنما هو كأحدهم. فأنزل الله في ذلك من قولهم: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ﴾[٤].

ثم قال تعالى: ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُم بِهَذَا﴾ أي: عقولهم تأمرهم بهذا الذي يقولونه فيك من الأقوال الباطلة التي يعلمون في أنفسهم أنها كذب وزور؟ ﴿أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ أي: ولكن هم قوم ضلال معاندون، فهذا هو الذي يحملهم على ما قالوه فيك.

وقوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ﴾ أي: اختلقه وافتراه من عند نفسه، يعنون القرآن: قال الله: ﴿بَل لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ أي: كفرهم هو الذي يحملهم[٥] على هذه المقالة. ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ﴾ أي: إن كانوا صادقين في قولهم: «تَقَوَّله وافتراه» فليأتوا بمثل ما جاء به محمد [ﷺ][٦] من هذا القرآن، فإنهم لو اجتمعوا هم وجميع أهل الأرض من الجن والإنس، ما جاؤوا بمثله، ولا بعشر سور [من][٧] مثله، ولا بسورة من مثله.

﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُسَيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ ﴿٣٩﴾ أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٠﴾ أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤١﴾ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ

---

(١) في م: «قال». (٢) في م: «يقوله». (٣) في أ: «احبسوه».
(٤) رواه الطبري في تفسيره (٢٧/١٩) من طريق ابن إسحاق به.
(٥) في م: «حملهم». (٦) زيادة من أ. (٧) زيادة من م.

الْمَكِيدُونَ (٤٢) أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٤٣)﴾ .

هذا المقام فى إثبات الربوبية وتوحيد الألوهية، فقال تعالى: ﴿**أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ**﴾ أى: أوجدوا من غير موجد؟ أم هم أوجدوا أنفسهم؟ أى: لا هذا ولا هذا، بل الله هو الذى خلقهم وأنشأهم بعد أن لم يكونوا شيئا مذكورا.

قال البخارى: حدثنا الحُمَيدىّ، حدثنا سفيان قال: حدثونى عن الزهرى، عن محمد بن جبير ابن مطعم، عن أبيه قال: سمعت النبى ﷺ يقرأ فى المغرب بالطور، فلما بلغ هذه الآية: ﴿**أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ . أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بَل لاَّ يُوقِنُونَ . أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُسَيْطِرُونَ**﴾ كاد قلبى أن يطير[١].

وهذا الحديث مخرج فى الصحيحين من طرق، عن الزهرى، به[٢]. وجبير بن مطعم كان قد قدم على النبى ﷺ بعد وقعة بدر فى فداء الأسارى، وكان إذ ذاك مشركا، وكان سماعه هذه الآية من هذه السورة من جملة ما حمله على الدخول فى الإسلام بعد ذلك.

ثم قال تعالى: ﴿**أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بَل لاَّ يُوقِنُونَ**﴾ أى: أهم خلقوا السموات والأرض؟ وهذا إنكار عليهم فى شركهم بالله، وهم يعلمون أنه الخالق وحده، لا شريك له. ولكن عدم إيقانهم هو الذى يحملهم على ذلك، ﴿ **أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُسَيْطِرُونَ**﴾ أى: أهم يتصرفون فى الملك وبيدهم مفاتيح الخزائن، ﴿**أَمْ هُمُ الْمُسَيْطِرُونَ**﴾ أى: المحاسبون للخلائق، ليس الأمر كذلك، بل الله، عز وجل، هو المالك المتصرف الفعال لما يريد.

وقوله: ﴿**أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ** ﴾ أى: مرقاة إلى الملأ الأعلى، ﴿ **فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ**﴾ أى: فليأت الذى يستمع لهم بحجة ظاهرة على صحة ما هم فيه من الفعال والمقال، أى: وليس لهم سبيل إلى ذلك، فليسوا على شىء، ولا لهم دليل.

ثم قال منكرا عليهم فيما نسبوه إليه من البنات، وجعلهم الملائكة إناثا، واختيارهم لأنفسهم الذكور على الإناث، بحيث إذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم. هذا وقد جعلوا الملائكة بنات الله، وعبدوهم مع الله، فقال: ﴿**أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ**﴾، وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد، ﴿ **أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا**﴾ أى: أجرة على إبلاغك إياهم رسالة الله؟ أى: لست تسألهم على ذلك شيئا، ﴿ **فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ**﴾ أى: فهم[٣] من أدنى شىء يتبرمون منه، ويثقلهم ويشق عليهم، ﴿**أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ**﴾ أى: ليس الأمر كذلك، فإنه لا يعلم أحد من أهل السموات والأرض الغيب إلا الله، ﴿ **أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ**﴾ يقول تعالى: أم يريد هؤلاء بقولهم

(١) صحيح البخارى برقم (٤٨٥٤).

(٢) صحيح البخارى برقم (٧٦٥)، (٤٠٢٣) وصحيح مسلم برقم (٤٦٣).

(٣) فى م، أ: «فإنهم».

هذا فى الرسول وفى الدين غرور الناس وكيد الرسول وأصحابه، فكيدهم إنما يرجع وباله على أنفسهم، فالذين كفروا هم المكيدون، ﴿أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾. وهذا إنكار شديد على المشركين في عبادتهم الأصنام والأنداد مع الله. ثم نزه نفسه الكريمة عما يقولون ويفترون ويشركون، فقال: ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

﴿وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ (٤٤) فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ (٤٥) يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ (٤٦) وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٤٧) وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ (٤٨) وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ (٤٩)﴾ .

يقول تعالى مخبرا عن المشركين بالعناد والمكابرة للمحسوس: ﴿وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا﴾ أى: عليهم يعذبون به، لما صدقوا ولما [(١)] أيقنوا، بل يقولون: هذا ﴿سَحَابٌ مَّرْكُومٌ﴾ أى: متراكم. وهذه كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ . لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾ [الحجر: ١٤، ١٥]. قال الله تعالى: ﴿فَذَرْهُمْ﴾ أى: دعهم ـ يا محمد ـ ﴿حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ﴾، وذلك يوم القيامة، ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾ أى: لا ينفعهم كيدهم ومكرهم الذى استعملوه فى الدنيا، لا يُجدى عنهم يوم القيامة شيئا، ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾.

ثم قال: ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ أى: قبل ذلك فى الدار الدنيا، كقوله: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [السجدة: ٢١]، ولهذا قال: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أى: نعذبهم فى الدنيا، ونبتليهم فيها بالمصائب، لعلهم يرجعون وينيبون[(٢)]، فلا يفهمون ما يراد بهم، بل إذا جلى عنهم مما كانوا فيه، عادوا إلى أسوأ[(٣)] ما كانوا عليه، كما جاء فى بعض الأحاديث: «إن المنافق إذا مرض وعوفى مثله فى ذلك كمثل البعير، لا يدرى فيما عقلوه ولا فيما أرسلوه»[(٤)]. وفى الأثر الإلهى: كم أعصيك ولا تعاقبنى؟ قال الله: يا عبدى، كم أعافيك[(٥)] وأنت لا تدرى؟

وقوله: ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ أى: اصبر على أذاهم ولا تبالهم، فإنك بمرأى منا وتحت كلاءتنا، والله يعصمك من الناس.

وقوله: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾: قال الضحاك: أى إلى الصلاة: سبحانك اللهم

---

(١) فى م: «ولا». (٢) فى أ: «ينسون». (٣) فى أ: «أشر».
(٤) رواه أبو داود فى السنن برقم (٣٠٨٩) من حديث عامر الرام رضى الله عنه.
(٥) فى م، أ: «أعاقبك».

وبحمدك، وتبارك اسمك، وتعالى جدك، ولا إله غيرك.

وقد روى مثله عن الربيع بن أنس، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وغيرهما.

وروى مسلم فى صحيحه، عن عمر أنه كان يقول هذا فى ابتداء الصلاة[(١)]. ورواه أحمد وأهل السنن، عن أبى سعيد وغيره، عن النبى ﷺ أنه كان يقول ذلك[(٢)].

وقال أبو الجوزاء: ﴿**وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ**﴾ أى: من نومك من فراشك. واختاره ابن جرير: ويتأيد هذا القول بما رواه الإمام أحمد:

حدثنا الوليد بن مسلم، حدثنا الأوزاعى، حدثنى عُمَير[(٣)] بن هانئ، حدثنى جنادة بن أبى أمية، حدثنا عبادة بن الصامت عن رسول الله ﷺ قال: «من تعار من الليل فقال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شىء قدير. سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله، ثم قال: رب اغفر لى ـ أو قال: ثم دعا ـ استجيب له، فإن عزم فتوضأ، ثم صلى تقبلت صلاته».

وأخرجه البخارى فى صحيحه، وأهل السنن، من حديث الوليد بن مسلم، به[(٤)].

وقال ابن أبى نَجيح، عن مجاهد: ﴿**وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ**﴾ قال: من كل مجلس.

وقال الثورى، عن أبى إسحاق، عن أبى الأحوص: ﴿**وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ**﴾ قال: إذا أراد الرجل أن يقوم من مجلسه قال: سبحانك اللهم وبحمدك.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا أبو النضر إسحاق بن إبراهيم الدمشقى، حدثنا محمد ابن شعيب، أخبرنى طلحة بن عمرو الحضرمى، عن عطاء بن أبى رباح؛ أنه حدثه عن قول الله: ﴿**وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ**﴾، يقول: حين تقوم من كل مجلس، إن كنت أحسنت ازددت خيرا، وإن كان غير ذلك كان هذا كفارة له.

وقد قال عبد الرزاق فى جامعه: أخبرنا مَعْمَر، عن عبد الكريم الجَزَرى، عن أبى عثمان الفقير؛ أن جبريل علم النبى ﷺ إذا قام من مجلسه أن يقول: سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك. قال مَعْمَر: وسمعت غيره يقول: هذا القول كفارة المجالس[(٥)].

وهذا مرسل، وقد وردت أحاديث مسندة من طرق ـ يقوى بعضها بعضا ـ بذلك، فمن ذلك حديث ابن جُرَيْج، عن سُهَيْل بن[(٦)] أبى صالح، عن أبيه، عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ أنه قال:

---

(١) صحيح مسلم برقم (٣٩٩).

(٢) المسند (٣/ ٥٠) وسنن أبى داود برقم (٧٧٥) وسنن الترمذى برقم (٢٤٢) وسنن النسائى (٢/ ١٣٢) وسنن ابن ماجه برقم (٨٠٤).

(٣) فى أ: «عمر».

(٤) المسند (٥/ ٣١٣) وصحيح البخارى برقم (١١٥٤) وسنن أبى داود برقم (٥٠٦٠) وسنن الترمذى برقم (٣٤١٤) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١٠٦٩٧) وسنن ابن ماجه برقم (٣٨٧٨).

(٥) المصنف برقم (١٩٧٩٦).

(٦) فى م: «عن».

«من جلس فى مجلس فكثر[١] فيه لغطه فقال قبل أن يقوم من مجلسه: سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك، إلا غفر[٢] له ما كان فى مجلسه ذلك».

رواه الترمذى ـ وهذا لفظه ـ والنسائى فى اليوم والليلة، من حديث ابن جريج. وقال الترمذى: حسن صحيح. وأخرجه الحاكم فى مستدركه وقال: إسناد على شرط مسلم، إلا أن البخارى علله[٣].

قلت: علله الإمام أحمد، والبخارى، ومسلم، وأبو حاتم، وأبو زُرَعة، والدارقطنى، وغيرهم. ونسبوا الوهم فيه إلى ابن جُرَيْج. على أن أبا داود قد رواه فى سننه من طريق غير[٤] ابن جريج إلى أبى هريرة، رضى الله عنه، عن النبى ﷺ بنحوه[٥]. ورواه أبو داود ـ واللفظ له ـ والنسائى، والحاكم فى المستدرك، من طريق الحجاج بن دينار، عن هاشم[٦]، عن أبى العالية، عن أبى بَرْزَة الأسلمى قال: كان رسول الله ﷺ يقول بأخرة إذا أراد أن يقوم من المجلس: «سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك». فقال رجل: يا رسول الله، إنك لتقول قولا ما كنت تقوله فيما مضى؟! قال: «كفارة لما يكون فى المجلس»[٧].

وقد روى مرسلا عن أبى العالية، والله[٨] أعلم. وهكذا رواه النسائى والحاكم، من حديث الربيع بن أنس، عن أبى العالية، عن رافع بن خَدِيج، عن النبى ﷺ مثله سواء[٩]. وروى مرسلا أيضا، والله أعلم. وكذا رواه أبو داود عن عبد الله بن عمرو؛ أنه قال: «كلمات لا يتلكم بهن أحد فى مجلسه عند قيامه ثلاث مرات، إلا كفر بهن عنه، ولا يقولهن فى مجلس خير ومجلس ذكر، إلا ختم له بهن كما يختم بالخاتم على الصحيفة: سبحانك اللهم وبحمدك، لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك»[١٠]، وأخرجه الحاكم من حديث أم المؤمنين عائشة، وصححه، ومن رواية جُبَير بن مطعم[١١]. ورواه أبو بكر الإسماعيلى عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، كلهم عن النبى ﷺ. وقد أفردت لذلك جزءا على حدة بذكر طرقه وألفاظه وعلله، وما يتعلق به، ولله الحمد والمنة[١٢].

وقوله: ﴿**وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ**﴾ أى: اذكره واعبده بالتلاوة والصلاة فى الليل، كما قال: ﴿**وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا**﴾ [الإسراء: ٧٩].

---

(١) فى : «فأكثر». (٢) فى م، أ: «إلا غفر الله له».
(٣) سنن الترمذى برقم (٣٤٣٣) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١٠٢٣٠) والمستدرك (١/ ٥٣٦).
(٤) فى أ: «عن».
(٥) سنن أبى داود برقم (٤٨٥٨).
(٦) فى أ: «عن أبى هاشم».
(٧) سنن أبى داود برقم (٤٨٥٩) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١٠٢٥٩) والمستدرك (١/ ٥٣٧).
(٨) فى م: «فالله».
(٩) النسائى فى السنن الكبرى برقم (١٠٢٦٠) والمستدرك (١/ ٥٣٧).
(١٠) سنن أبى داود برقم (٤٨٥٧).
(١١) المستدرك (١/ ٥٣٧).
(١٢) وقد ذكرت أحاديث كفارة المجلس عند تفسير الصافات فى خاتمتها.

وقوله: ﴿وَإِدْبَارَ النُّجُومِ﴾: قد تقدم فى حديث ابن عباس أنهما الركعتان اللتان قبل صلاة الفجر، فإنهما مشروعتان عند إدبار النجوم، أى: عند جنوحها للغيبوبة. وقد روى[١] [فى حديث][٢] ابن سيلان، عن أبى هريرة مرفوعا: «لا تَدَعُوهما، وإن طردتكم الخيل». يعنى: ركعتى الفجر[٣]، رواه أبو داود. ومن هذا الحديث حكى عن بعض أصحاب الإمام أحمد القول بوجوبهما، وهو ضعيف لحديث: «خمس صلوات فى اليوم والليلة». قال: هل على غيرها[٤]؟ قال: «لا إلا أن تطوع»[٥]. وقد ثبت فى الصحيحين عن عائشة، رضى الله عنها، أنها قالت: لم يكن رسول الله ﷺ على شيء من النوافل أشد تعاهداً منه على ركعتى الفجر[٦]. وفى لفظ لمسلم: «ركعتا الفجر خير من الدنيا وما فيها»[٧].

آخر تفسير سورة الطور [والله أعلم][٨]

(١) فى م، أ: «ورد».
(٢) زيادة من م، أ.
(٣) رواه أبو داود فى السنن برقم (١٢٥٨).
(٤) فى أ: «غيرهن».
(٥) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٤٦) ومسلم فى صحيحه برقم (١١) من حديث طلحة بن عبيد الله رضى الله عنه.
(٦) صحيح البخارى برقم (١١٦٩) وصحيح مسلم برقم (٧٢٤).
(٧) صحيح مسلم برقم (٧٢٥).
(٨) زيادة من أ.

٥٢ ــ سورة الطور

(مكية وهى تسع وأربعون آية)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلطُّورِ ﴿١﴾ ٥٢ الطور

وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ ﴿٢﴾ ٥٢ الطور

فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ ﴿٣﴾ ٥٢ الطور

وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ ﴿٤﴾ ٥٢ الطور

وَٱلسَّقْفِ ٱلْمَرْفُوعِ ﴿٥﴾ ٥٢ الطور

وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ ﴿٦﴾ ٥٢ الطور

إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ﴿٧﴾ ٥٢ الطور

مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ ﴿٨﴾ ٥٢ الطور

﴿سورة الطور مكية وأياتها تسع وأربعون﴾

١ (بسم الله الرحمن الرحيم) (والطور) الطور بالسريانية الجبل والمراد به طور سينين وهو جبل
٢ بمدين سمع فيه موسى عليه السلام كلام الله تعالى (وكتاب مسطور) مكتوب على وجه الانتظام فإن
السطر ترتيب الحروف المكتوبة والمراد به القرآن أو ألواح موسى عليه السلام وهو الأنسب بالطور
٣ أو مايكتب فى اللوح أو مايكتبه الحفظة (فى رق منشور) الرق الجلد الذى يكتب فيه استعير لما
٤ يكتب فيه الكتاب من الصحيفة وتنكيرهما للتفخيم أو للإشعار بأنهما ليسا مما يتعارفه الناس (والبيت
المعمور) أى الكعبة وعمارتها بالحجاج والعمار والمجاورين أو الضراح وهو فى السماء الرابعة وعمرانه
٥ كثرة غاشيته من الملائكة (والسقف المرفوع) أى السماء ولا يخفى حسن موقع العنوان المذكور
٦ (والبحر المسجور) أى المملوء وهو البحر المحيط أو الموقد من قوله تعالى وإذا البحار سجرت فالمراد
٧ به الجنس روى أن الله تعالى يجعل البحار يوم القيامة ناراً يسجر بها نار جهنم (إن عذاب ربك لواقع)
٨ أى لنازل حتما جواب للقسم وقوله تعالى (ماله من دافع) إما خبر ثان لأن أو صفة لواقع ومن دافع
إما مبتدأ للظرف أو مرتفع به على الفاعلية ومن مزيدة للتأكيد وتخصيص هذه الأمور بالإقسام بها
لما أنها أمور عظام تنبىء عن عظم قدرة الله تعالى وكمال علمه وحكمته الدالة على إحاطته تعالى بتفاصيل

يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ﴿٩﴾ ٥٢ الطور

وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا ﴿١٠﴾ ٥٢ الطور

فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ ٥٢ الطور

ٱلَّذِينَ هُمْ فِى خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ﴿١٢﴾ ٥٢ الطور

يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾ ٥٢ الطور

هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ ٥٢ الطور

أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾ ٥٢ الطور

ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓاْ أَوْ لَا تَصْبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ ٥٢ الطور

---

٩ أعمال العباد وضبطها الشاهدة بصدق أخباره التى من جملتها الجملة المقسم عليها وقوله تعالى (يوم تمور
السماء موراً) ظرف لواقع مبين لكيفية الوقوع منبيء عن كال هوله وفظاعته والمور الاضطراب
والتردد فى المجيء والذهاب وقيل هو تحرك فى تموج قيل تدور السماء كما تدور الرحا وتتكفأ بأهلها
١٠ تكفؤ السفينة وقيل تختلف أجزاؤها (وتسير الجبال سيراً) أى تزول عن وجه الأرض فتصير هباء
وتأكيد الفعلين بمصدريهما للإيذان بغرابتهما وخروجهما عن الحدود المعهودة أى موراً عجيباً وسيراً
١١ بديعاً لايدرك كنههما (فويل يومئذ للمكذبين) أى إذا وقع ذلك أو إذا كان الأمر كما ذكر فويل
١٢ يوم إذ يقع ذلك لهم (الذين هم فى خوض) أى اندفاع عجيب فى الأباطيل والأكاذيب (يلعبون)
١٣ يلهون (يوم يدعون إلى نار جهنم دعا) أى يدفعون إليها دفعاً عنيفاً شديداً بأن تغل أيديهم إلى أعناقهم
وتجمع نواصيهم إلى أقدامهم فيدفعون إلى النار وقرىء يدعون من الدعاء فيكون دعا حالا بمعنى مدعوعين
١٤ ويوم إما بدل من يوم تمور أو ظرف لقول مقدر قبل قوله تعالى (هذه النار التى كنتم بها تكذبون)
١٥ أى يقال لهم ذلك ومعنى التكذيب بها تكذيبهم بالوحى الناطق بها وقوله تعالى (أفسحر هذا) توبيخ
وتقريع لهم حيث كانوا يسمونه سحراً كأنه قيل كنتم تقولون للقرآن الناطق بهذا سحر فهذا أيضاً
* سحر وتقديم الخبر لأنه محط الإنكار ومدار التوبيخ (أم أنتم لاتبصرون) أى أم أنتم عمى عن المخبر
عنه كما كنتم عمياً عن الخبر أو أم سدت أبصاركم كما سدت فى الدنيا على زعمكم حيث كنتم تقولون إنما
١٦ سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون (اصلوها فاصبروا أولا تصبروا) أى ادخلوها وقاسوا شدائدها
* فافعلوا ماشئتم من الصبر وعدمه (سواء عليكم) أى الأمران فى عدم النفع لا بدفع العذاب ولا بتخفيفه
* وقوله تعالى (إنما تجزون ماكنتم تعملون) تعليل للاستواء فإن الجزاء حيث كان واجب الوقوع

إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾ ٥٢ الطور

فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٨﴾ ٥٢ الطور

كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ ٥٢ الطور

مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٢٠﴾ ٥٢ الطور

وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن
شَىْءٍ كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾ ٥٢ الطور

١٧ حتماكان الصبر وعدمه سواء فى عدم النفع (إن المتقين فى جنات ونعيم) أى فى أية جنات وأى نعيم
١٨ على أن التنوين للتفخيم أو فى جنات ونعيم مخصوصة بالمتقين على أنه للتنويع (فاكهين) ناعمين متلذذين
* (بما آتاهم ربهم) وقرىء فكهين وفاكهون على أنه الخبر والظرف لغو متعلق بالخبر أو خبر آخر
* (ووقاهم ربهم عذاب الجحيم) عطف على آتاهم على أن ما مصدرية أو على خبر إن أو حال بإضمار قد
إما من المستكن فى الخبر أو فى الحال وإما من فاعل آتى أو من مفعوله أو منهما وإظهار الرب فى
١٩ موقع الإضمار مضافا إلى ضميرهم للتشريف والتعليل (كلوا وأشربوا) أى يقال لهم كلوا واشربوا
* أكلا وشرابا (هنيئاً) أو طعاماً وشراباً هنيئاً وهو الذى لاتنغيص فيه (بما كنتم تعملون) بسببه
٢٠ أو بمقابلته وقيل الباء زائدة وما فاعل هنيئاً أى هنا كم ماكنتم تعملون أى جزاؤه (متكئين على سرر
* مصفوفة) مصطفة (وزوجناهم بحور عين) وقرىء بحور عين على إضافة الموصوف إلى صفته بالتأويل
المشهور وقرىء بعين عين والباء مع أن التزويج مما يتعدى إلى مفعولين لما فيه من معنى الوصل والإلصاق
٢١ أو للسببية إذ المعنى صيرناهم أزواجا بسببهن فإن الزوجية لاتتحقق بدون انضمامهن إليهم وقوله تعالى (والذين
آمنوا) الخ كلام مستأنف مسوق لبيان حال طائفة من أهل الجنة إثر بيان حال الكل وهم الذين شاركتهم
* ذريتهم فى الإيمان وهو مبتدأ خبره ألحقنا بهم وقوله تعالى (واتبعتهم ذريتهم) عطف على آمنوا وقيل
* اعتراض وقوله تعالى (بإيمان) متعلق بالاتباع أى اتبعتهم ذريتهم بإيمان فى الجملة قاصر عن رتبة
إيمان الآباء واعتبار هذا القيد للإيذان بثبوت الحكم فى الإيمان الكامل أصالة لا إلحاقاً وقرىء
ذرياتهم للمبالغة فى الكثرة وذرياتهم بكسر الذال وقرىء وأتبعناهم ذرياتهم أى جعلناهم تابعين لهم
* فى الإيمان وقرىء اتبعتهم (ألحقنا بهم ذريتهم) أى فى الدرجة كما روى أنه عليه الصلاة والسلام قال
* إنه تعالى يرفع ذرية المؤمن فى درجته وإن كانوا دونه لتقربهم عينه ثم تلا هذه الآية (وما ألتناهم)
* وما نقصنا الآباء بهذا الإلحاق (من عملهم) من ثواب عملهم (من شىء) بأن أعطينا بعض مثوباتهم
أبناءهم فتنقص مثوبتهم وتنحط درجتهم وإنما رفعناهم إلى منزلتهم بمحض التفضل والإحسان وقرىء

وَأَمْدَدْنَـٰهُم بِفَـٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢٢﴾ ٥٢ الطور

يَتَنَـٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴿٢٣﴾ ٥٢ الطور

وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ﴿٢٤﴾ ٥٢ الطور

وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٥﴾ ٥٢ الطور

ألتناهم بكسر اللام من ألت يألت كعلم يعلم والأول كضرب يضرب ولتناهم من لات يليت وآلتناهم
من آلت يؤلت وولتناهم من ولت يلت والكل بمعنى واحد هذا وقد قيل الموصول معطوف على حور
والمعنى قرناهم بالحور وبالذين آمنوا أى بالرفقاء والجلساء منهم فيتمتعون تارة بملاعبة الحور وأخرى
بمؤانسة الإخوان المؤمنين وقوله تعالى واتبعتهم عطف على زوجناهم وقوله تعالى بإيمان متعلق بما بعده
أى بسبب إيمان عظيم رفيع المحل وهو إيمان الآباء ألحقنا بدرجاتهم ذريتهم وإن كانوا لا يستأهلونها
تفضلا عليهم وعلى آبائهم ليتم سرورهم ويكمل نعيمهم أو بسبب إيمان دانى المنزلة وهو إيمان الذرية كأنه
قيل بشىء من الإيمان لا يؤهلهم لدرجة الآباء ألحقناهم بهم (كل امرىء بما كسب رهين) قيل هو فعيل *
بمعنى مفعول والمعنى كل امرىء مرهون عند الله تعالى بالعمل الصالح فإن عمله فكه وإلا أهلكه وقيل
بمعنى الفاعل والمعنى كل امرىء بما كسب راهن أى دائم ثابت وهذا أنسب بالمقام فإن الدوام يقتضى
عدم المفارقة بين المرء وعمله ومن ضرورته أن لا ينقص من ثواب الآباء شىء فالجملة تعليل لما قبلها
٢٢ (وأمددناهم بفاكهة ولحم مما يشتهون) وزدناهم على ما كان لهم من مبادى التنعم وقتاً فوقتاً ما يشتهون
٢٣ من فنون النعماء وألوان الآلاء (يتنازعون فيها) أى يتعاطون فيها هم وجلساؤهم بكمال رغبة واشتياق
كما ينبىء عنه التعبير عن ذلك بالتنازع (كأساً) أى خمراً تسمية لها باسم محلها (لا لغو فيها) أى فى *
شربها حيث لا يتكلمون فى أثناء الشرب بلغو الحديث وسقط الكلام (ولا تأثيم) ولا يفعلون ما يؤثم *
به فاعله أى ينسب إلى الإثم لو فعله فى دار التكليف كما هو ديدن المنادمين فى الدنيا وإنما يتكلمون
٢٤ بالحكم وأحاسن الكلام ويفعلون ما يفعله الكرام وقرىء لا لغو فيها ولا تأثيم بالفتح (ويطوف عليهم)
أى بالكأس (غلمان لهم) أى مماليك مخصوصون بهم وقيل هم أولادهم الذين سبقوهم (كأنهم لؤلؤ *
مكنون) مصون فى الصدف من بياضهم وصفائهم أو مخزون لأنه لا يخزن إلا الثمين الغالى القيمة قيل
لقتادة هذا الخادم فكيف المخدوم فقال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم والذى نفسى بيده إن فضل
المخدوم على الخادم كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب وعنه عليه الصلاة والسلام إن أدنى
٢٥ أهل الجنة منزلة من ينادى الخادم من خدامه فيجيبه ألف ببابه لبيك لبيك (وأقبل بعضهم على بعض
يتساءلون) أى يسأل كل بعض منهم بعضاً آخر عن أحواله وأعماله فيكون كل بعض سائلا ومسؤلا
لا أنه يسأل بعض معين منهم بعضاً آخر معيناً .

قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبۡلُ فِيٓ أَهۡلِنَا مُشۡفِقِينَ ﴿٢٦﴾ ٥٢ الطور

فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ ٥٢ الطور

إِنَّا كُنَّا مِن قَبۡلُ نَدۡعُوهُۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾ ٥٢ الطور

فَذَكِّرۡ فَمَآ أَنتَ بِنِعۡمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٖ وَلَا مَجۡنُونٍ ﴿٢٩﴾ ٥٢ الطور

أَمۡ يَقُولُونَ شَاعِرٞ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيۡبَ ٱلۡمَنُونِ ﴿٣٠﴾ ٥٢ الطور

قُلۡ تَرَبَّصُواْ فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾ ٥٢ الطور

أَمۡ تَأۡمُرُهُمۡ أَحۡلَٰمُهُم بِهَٰذَآۚ أَمۡ هُمۡ قَوۡمٞ طَاغُونَ ﴿٣٢﴾ ٥٢ الطور

أَمۡ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥۚ بَل لَّا يُؤۡمِنُونَ ﴿٣٣﴾ ٥٢ الطور

---

٢٦ (قالوا) أى المسئولون وهم كل واحد منهم فى الحقيقة (إنا كنا قبل) أى فى الدنيا (فى أهلنا مشفقين)
٢٧ أرقاء القلوب خائفين من عصيان الله تعالى معتنين بطاعته أووجلين من العاقبة (فمن الله علينا) بالرحمة
* أو التوفيق للحق (ووقانا عذاب السموم) عذاب النار النافذة فى المسام نفوذ السموم وقرىء ووقانا
٢٨ بالتشديد (إنا كنا من قبل) أى نعبده أو نسأله الوقاية (إنه هو البر) المحسن (الرحيم) الكثير الرحمة
٢٩ الذى إذا عبد أثاب وإذا سئل أجاب وقرىء أنه بالفتح بمعنى لأنه (فذكر) فاثبت على ما أنت عليه
من التذكير بما أنزل إليك من الآيات والذكر الحكيم ولا تكترث بما يقولون مما لا خير فيه من
* الأباطيل (فما أنت بنعمة ربك) بحمده وإنعامه بصدق النبوة ورجاحة العقل (بكاهن ولا مجنون) كما
٣٠ يقولون قاتلهم الله أنى يؤفكون (أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون) وهو مايقلق النفوس
ويشخص بها من حوادث الدهر وقيل المنون الموت وهو فى الأصل فعول من منه إذا قطعه لأن
٣١ الموت قطوع أى بل أيقولون ننتظر به نوائب الدهر (قل تربصوا فإنى معكم من المتربصين) أتربص
٣٢ هلاككم كما تتربصون هلاكى وفيه عدة كريمة بإهلاكهم (أم تأمرهم أحلامهم) أى عقولهم (بهذا)
أى بهذا التناقض فى المقال فإن الكاهن يكون ذا فطنة ودقة نظر فى الأمور والمجنون المغطى عقله
مختل فكره والشاعر ذو كلام موزون متسق مخيل فكيف يجتمع أوصاف هؤلاء فى واحد وأمر
* الأحلام بذلك مجاز عن أدائها إليه (أم هم قوم طاغون) مجاوزون الحدود فى المكابرة والعناد لايحرمون
الرشد والسداد ولذلك يقولون مايقولون من الأكاذيب الخارجة عن دائرة العقول والظنون وقرىء
٣٣ بل هم (أم يقولون تقوله) أى اختلقه من تلقاء نفسه (بل لايؤمنون) فلكفرهم وعنادهم يرمون
بهذه الأباطيل التى لايخفى على أحد بطلانها كيف لا وما رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا واحد من
العرب فكيف أتى بما عجز عنه كافة الأمم من العرب والعجم .

فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ ﴿٣٤﴾ ٥٢ الطور

أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴿٣٥﴾ ٥٢ الطور

أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ ٥٢ الطور

أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾ ٥٢ الطور

أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ ٥٢ الطور

أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ ﴿٣٩﴾ ٥٢ الطور

أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٠﴾ ٥٢ الطور

(فليأتوا بحديث مثله) مثل القرآن فى النعوت التى استقل بها من حيث النظم ومن حيث المعنى (إن ٣٤
كانوا صادقين) فيما زعموا فإن صدقهم فى ذلك يستدعى قدرتهم على الإتيان بمثله بقضية مشاركتهم له
عليه الصلاة والسلام فى البشرية والعربية مع مابهم من طول الممارسة للخطب والأشعار وكثرة المزاولة
لأساليب النظم والنثر والمبالغة فى حفظ الوقائع والأيام ولا ريب فى أن القدرة على الشىء من موجبات
الإتيان به ودواعى الأمر بذلك (أم خلقوا من غير شىء) أى أم أحدثوا وقدروا هذا التقدير البديع ٣٥
من غير محدث ومقدر وقيل أم خلقوا من أجل لا شىء من عبادة وجزاء (أم هم الخالقون) لأنفسهم *
فلذلك لايعبدون الله سبحانه (أم خلقوا السموات والأرض بل لايوقنون) أى إذا سئلوا من خلقكم ٣٦
وخلق السموات والأرض قالوا الله وهم غير موقنين بما قالوا وإلا لما أعرضوا عن عبادته (أم عندهم ٣٧
خزائن ربك) أى خزائن رزقه ورحمته حتى يرزقوا النبوة من شاؤا ويمسكوها عمن شاؤا أو عندهم
خزائن علمه وحكمته حتى يختاروا لها من اقتضت الحكمة اختياره (أم هم المسيطرون) أى الغالبون *
على الأمور يدبرونها كيفما شاؤا حتى يدبروا أمر الربوبية ويبنوا الأمور على إرادتهم ومشيئتهم وقرىء
المصيطرون بالصاد لمكان الطاء (أم لهم سلم) منصوب إلى السماء (يستمعون فيه) صاعدين إلى كلام ٣٨
الملائكة وما يوحى إليهم من علم الغيب حتى يعلموا ماهو كائن من الأمور التى يتقولون فيها رجماً بالغيب
ويعلقون بها أطماعهم الفارغة (فليأت مستمعهم بسلطان مبين) بحجة واضحة تصدق استماعه (أم له البنات ٣٩
ولكم البنون) تسفيه لهم وتركيك لعقولهم وإيذان بأن من هذا رأيه لايكاد يعد من العقلاء فضلا
عن الترقى إلى عالم الملكوت والتطلع على الأسرار الغيبية والالتفات إلى الخطاب لتشديد مافى أم
المنقطعة من الإنكار والتوبيخ (أم تسألهم أجراً) رجوع إلى خطابه عليه الصلاة والسلام وإعراض ٤٠
عنهم أى بل أتسألهم أجراً على تبليغ الرسالة (فهم) لذلك (من مغرم) من التزام غرامة فادحة (مثقلون) *
محملون الثقل فلذلك لايتبعونك .

أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤١﴾ ٥٢ الطور

أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ ﴿٤٢﴾ ٥٢ الطور

أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٣﴾ ٥٢ الطور

وَإِن يَرَوْا۟ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا يَقُولُوا۟ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴿٤٤﴾ ٥٢ الطور

فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾ ٥٢ الطور

يَوْمَ لَا يُغْنِى عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾ ٥٢ الطور

وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ «٤٧» ٥٢ الطور

٤١ (أم عندهم الغيب) أى اللوح المحفوظ المثبت فيه الغيوب (فهم يكتبون) ما فيه حتى يتكلموا فى ذلك
٤٢ بنفى أو إثبات (أم يريدون كيداً) هو كيدهم برسول الله صلى الله عليه وسلم فى دار الندوة (فالذين
كفروا) هم المذكورون ووضع الموصول موضع ضميرهم للتسجيل عليهم بما فى حيز الصلة من الكفر
* وتعليل الحكم به أو جميع الكفرة وهم داخلون فيهم دخولا أولياً (هم المكيدون) أى هم الذين يحيق
بهم كيدهم أو يعود عليهم وباله لامن أرادوا أن يكيدوه وهو ما أصابهم يوم بدر أو هم المغلوبون فى
٤٣ الكيد من كايدته فكدته (أم لهم إله غير الله) يعينهم ويحرسهم من عذابه (سبحان الله عما يشركون)
٤٤ أى عن إشراكهم أو عن شركة مايشركونه (وإن يروا كسفاً) قطعة (من السماء ساقطاً) لتعذيبهم
* (يقولوا) من فرط طغيانهم وعنادهم (سحاب مركوم) أى هم فى الطغيان بحيث لو أسقطناه عليهم حسبما
قالوا أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً لقالوا هذا سحاب تراكم بعضه على بعض يمطرنا ولم يصدقوا
٤٥ أنه كسف ساقطاً للعذاب (فذرهم حتى يلاقوا) وقرىء حتى يلقوا (يومهم الذى فيه يصعقون) على
البناء للمفعول من صعقته الصاعقة أومن أصعقته وقرىء يصعقون بفتح الياء والعين وهو يوم يصيبهم
الصعقة بالقتل يوم بدر لا النفخة الأولى كما قيل إذ لا يصعق بها إلا من كان حياً حينئذ ولأن قوله
٤٦ تعالى (يوم لايغنى عنهم كيدهم شيئاً) أى شيئاً من الإغناء بدل من يومهم ولا يخفى أن التعرض لبيان
عدم نفع كيدهم يستدعى استعمالهم له طمعاً فى الانتفاع به وليس ذلك إلا ما دبروه فى أمره صلى الله
عليه وسلم من الكيد الذى من جملته مناصبتهم يوم بدر وأما النفخة الأولى فليست مما يجرى فى مدافعته
* الكيد والحيل وقيل هو يوم موتهم وفيه ما فيه مع ماتأباه الإضافة المنبئة عن اختصاصه بهم (ولا هم
٤٧ ينصرون) من جهة الغير فى دفع العذاب عنهم (وإن للذين ظلموا) أى لهم ووضع الموصول
* موضع الضمير لما ذكر من قبل أى وإن لهؤلاء الظلمة (عذاباً) آخر (دون ذلك) دون مالاقوه
من القتل أى قبله وهو القحط الذي أصابهم سبع سنين أو وراءه كما فى قوله [تريك القذى من دونها

وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ « ٤٨ » ٥٢ الطور

وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ « ٤٩ » ٥٢ الطور

وهو دونها] وهو عذاب القبر وما بعده من فنون عذاب الآخرة وقرىء دون ذلك قريباً (ولكن *
أكثرهم لايعلمون) أن الأمر كما ذكر وفيه إشارة إلى أن فيهم من يعلم ذلك وإنما يصر على الكفر
عناداً أولا يعلمون شيئاً أصلا (واصبر لحكم ربك) بإمهالهم إلى يومهم الموعود وإبقائك فيما بينهم ٤٨
مع مقاساة الأحزان ومعاناة الهموم (فإنك بأعيننا) أى فى حفظنا وحمايتنا بحيث نراقبك ونكلؤك *
وجمع العين لجمع الضمير والإيذان بغاية الاعتناء بالحفظ (وسبح) أى نزهه تعالى عما لايليق به ملتبساً *
(بحمد ربك) على نعمائه الفائتة للحصر (حين تقوم) من أى مكان قمت قال سعيد بن جبير وعطاء أى *
قل حين تقوم من مجلسك سبحانك اللهم وبحمدك وقال ابن عباس رضى الله عنهما معناه صل لله حين
تقوم من منامك وقال الضحاك والربيع إذا قمت إلى الصلاة فقل سبحانك اللهم وبحمدك وتبارك اسمك
وتعالى جدك ولا إله غيرك وقوله تعالى (ومن الليل فسبحه) إفراد لبعض الليل بالتسبيح لما أن ٤٩
العبادة فيه أشق على النفس وأبعد عن الرياء كما يلوح به تقديمه على الفعل (وإدبار النجوم) أى وقت *
إدبارها من آخر الليل أى غيبتها بضوء الصباح وقيل التسبيح من الليل صلاة العشاءين وإدبار النجوم
صلاة الفجر وقرىء وأدبار النجوم بالفتح أى فى أعقابها إذا غربت أوخفيت . عن النبى عليه الصلاة
والسلام من قرأ سورة الطور كان حقاً على الله تعالى أن يؤمنه من عذابه وأن ينعمه فى جنته .

سورة الطور

آياتها ٤٩ — ترتيبها ٥٢

«مكية» كما روي عن ابن عباس وابن الزبير رضي الله تعالى عنهم ولم نقف على استثناء شيء منها، وهي تسع وأربعون آية في الكوفي والشامي، وثمان وأربعون في البصري، وسبع وأربعون في الحجازي، ومناسبة أولها لآخر ما قبلها اشتمال كل على الوعيد، وقال الجلال السيوطي: وجه وضعها بعد الذاريات تشابههما في المطلع والمقطع فإن في مطلع كل منهما صفة حال المتقين، وفي مقطع كل منهما صفة حال الكفار، ولا يخفى ما بين السورتين الكريمتين من الاشتراك في غير ذلك.

بسم الله الرحمن الرحيم

وَٱلطُّورِ ﴿١﴾ وَكِتَٰبٍ مَّسۡطُورٍ ﴿٢﴾ فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ ﴿٣﴾ وَٱلۡبَيۡتِ ٱلۡمَعۡمُورِ ﴿٤﴾ وَٱلسَّقۡفِ ٱلۡمَرۡفُوعِ ﴿٥﴾ وَٱلۡبَحۡرِ
ٱلۡمَسۡجُورِ ﴿٦﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٞ ﴿٧﴾ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٖ ﴿٨﴾ يَوۡمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوۡرٗا ﴿٩﴾ وَتَسِيرُ ٱلۡجِبَالُ سَيۡرٗا
﴿١٠﴾ فَوَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي خَوۡضٖ يَلۡعَبُونَ ﴿١٢﴾ يَوۡمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾ هَٰذِهِ
ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ أَفَسِحۡرٌ هَٰذَآ أَمۡ أَنتُمۡ لَا تُبۡصِرُونَ ﴿١٥﴾ ٱصۡلَوۡهَا فَٱصۡبِرُوٓاْ أَوۡ لَا تَصۡبِرُواْ
سَوَآءٌ عَلَيۡكُمۡۖ إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَنَعِيمٖ ﴿١٧﴾ فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡ
وَوَقَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ﴿١٨﴾ كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿١٩﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٖ مَّصۡفُوفَةٖۖ
وَزَوَّجۡنَٰهُم بِحُورٍ عِينٖ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَمَآ أَلَتۡنَٰهُم مِّنۡ عَمَلِهِم
مِّن شَيۡءٖۚ كُلُّ ٱمۡرِيِٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٞ ﴿٢١﴾

﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ وَٱلطُّورِ﴾ الطور اسم لكل جبل على ما قيل: في اللغة العربية عند الجمهور، وفي اللغة السريانية عند بعض، ورواه ابن المنذر وابن جرير عن مجاهد والمراد به هنا ﴿طور سنين﴾ [التين: ٢] الذي كلم الله تعالى موسى عليه السلام عنده، ويقال له: طور سيناء أيضاً، والمعروف اليوم بذلك ما هو بقرب التيه بين مصر والعقبة، وقال أبو حيان في تفسير سورة «التين»: لم يختلف في طور سيناء أنه جبل بالشام وهو الذي كلم الله تعالى عليه موسى عليه السلام، وقال في تفسيره: هذه السورة في الشام جبل يسمى الطور وهو طور سيناء فقال نوف

البكالي: إنه الذي أقسم الله سبحانه به لفضله على الجبال، قيل: وهو الذي كلم الله تعالى عليه موسى عليه السلام انتهى فلا تغفل، وحكى الراغب أنه جبل محيط بالأرض ولا يصح عندي، وقيل: جبل من جبال الجنة، وروى فيه ابن مردويه عن أبي هريرة، وعن كثير بن عبد الله حديثاً مرفوعاً ولا أظن صحته، واستظهر أبو حيان أن المراد الجنس لا جبل معين، وروي ذلك عن مجاهد والكلبي والذي أعول عليه ما قدمته.

﴿وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ﴾ مكتوب على وجه الانتظام فإن السطر ترتيب الحروف المكتوبة، والمراد به على ما قال الفراء الكتاب الذي يكتب فيه الاعمال ويعطاه العبد يوم القيامة بيمينه أو بشماله وهو المذكور في قوله تعالى: ﴿ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً﴾ [الإسراء: ١٣]، وقال الكلبي: هو التوراة، وقيل: هي. والإنجيل. والزبور وقيل: القرآن، وقيل: اللوح المحفوظ، وفي البحر لا ينبغي أن يحمل شيء من هذه الأقوال على التعيين وإنما تورد على الاحتمال، والتنكير قيل: للإفراد نوعاً، وذلك على القول بتعدده، أو للإفراد شخصاً، وذلك على القول المقابل، وفائدته الدلالة على اختصاصه من جنس الكتب بأمر يتميز به عن سائرها، والأولى على وجهي التنكير إذا حمل على أحد الكتابين أعني القرآن والتوارة أن يكون من باب ﴿ليجزي قوماً﴾ [الجاثية: ١٤] ففي التنكير كمال التعريف، والتنبيه على أن ذلك الكتاب لا يخفى نكّر أو عرف، ومن هذا القبيل التنكير في قوله تعالى: ﴿فِي رَقٍّ مَّنْشُورٍ﴾ والرق بالفتح ويكسر، وبه قرأ أبو السمال جلد رقيق يكتب فيه وجمعه رقوق وأصله على ما في مجمع البيان من اللمعان يقال: ترقرق الشيء إذا لمع. أو من الرقة ضد الصفاقة على ما قيل، وقد تجوز فيه عما يكتب فيه الكتاب من ألواح وغيرها. والمنشور المبسوط والوصف به قيل: للإشارة إلى صحة الكتاب وسلامته من الخطأ حيث جعل معرضاً لنظر كل ناظر آمناً عليه من الاعتراض لسلامته عما يوجبه، وقيل: هو لبيان حاله التي تضمنتها الآية المذكورة آنفاً بناءً على أن المراد به صحائف الأعمال ولبيان أنه ظهر للملائكة عليهم السلام يرجعون إليه بسهولة في أمورهم بناءً على أنه اللوح، أو للناس لا يمنعهم مانع عن مطالعته والاهتداء بهديه بناءً على الأقوال الأخر، وفي البحر ﴿منشور﴾ منسوخ ما بين المشرق والمغرب ﴿وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ﴾ هو بيت في السماء السابعة يدخله كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون اليه حتى تقوم الساعة كما أخرج ذلك ابن جرير وابن المنذر والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في الشعب عن أنس مرفوعاً.

وأخرج عبد الرزاق وجماعة عن أبي الطفيل أن ابن الكواء سأل علياً كرم الله تعالى وجهه فقال: ذلك الضرَاحُ بيت فوق سبع سماوات تحت العرش يدخله كل يوم سبعون ألف ملك الخ، وجاء في رواية عنه كرم الله تعالى وجهه، وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه حيال الكعبة بحيث لو سقط سقط عليها.

وروي عن مجاهد وقتادة وابن زيد أن في كل سماء بحيال الكعبة بيتاً حرمته كحرمتها وعمارته بكثرة الواردين عليه من الملائكة عليهم السلام كما سمعت، وقال الحسن: هو الكعبة يعمره الله تعالى كل سنة بستمائة ألف من الناس فإن نقصوا أتم سبحانه العدد من الملائكة، وأنت تعلم أن من المجاز المشهور ـ مكان معمور ـ بمعنى مأهول مسكون يحل الناس في محل هو فيه، فعمارة الكعبة بالمجاورين عندها وبحجاجها صح خبر الحسن المذكور أم لا ﴿وَٱلسَّقْفِ ٱلْمَرْفُوعِ﴾ أي السماء كما رواه جماعة، وصححه الحاكم عن الأمير كرم الله تعالى وجهه، وعن ابن عباس هو العرش وهو سقف الجنة، وأخرجه أبو الشيخ عن الربيع بن أنس، وعليه لا بأس في تفسير البيت المعمور بالسماء كما روي عن مجاهد، وعمارتها بالملائكة أيضاً فما فيها موضع إهاب إلا وعليه ملك ساجد أو قائم ﴿وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ﴾ أي الموقد ناراً.

أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم. وأبو الشيخ في العظمة عن سعيد بن المسيب قال: قال علي كرم الله تعالى وجهه لرجل من اليهود: أين موضع النار في كتابكم؟ قال: البحر فقال كرم الله تعالى وجهه: ما أراه إلا صادقاً، وقرأ ﴿**والبحر المسجور**﴾ ﴿وإذا البحار سجرت﴾ [التكوير: ٦] وبذلك قال مجاهد وشمر بن عطية والضحاك ومحمد بن كعب والأخفش، وقال قتادة: المسجور المملوء يقال: سجره أي ملأه، والمراد به عند جمع البحر المحيط، وقيل: بحر في السماء تحت العرش، وأخرج ذلك ابن أبي حاتم وغيره عن علي كرم الله تعالى وجهه وابن جرير عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما، وفي البحر أنهما قالا فيه ماء غليظ، ويقال له: بحر الحياة يمطر العباد منه بعد النفخة الأولى أربعين صباحاً فينبتون في قبورهم، وأخرج أبو الشيخ عن الربيع أنه الملأ الأعلى الذي تحت العرش وكأنه أراد به القضاء الواسع المملوء ملائكة، وعن ابن عباس «المسجور» الذي ذهب ماؤه، وروى ذو الرمة الشاعر، وليس له كما قيل حديث غير هذا عن الحبر قال: خرجت أمة لتستقي فقالت: إن الحوض مسجور أي فارغ فيكون من الاضداد، وحمل كلامه رضي الله تعالى عنه على إرادة البحر المعروف، وأن ذهاب مائه يوم القيامة، وفي رواية عنه أنه فسره بالمحبوس، ومنه ساجور الكلب وهي القلادة التي تمسكه وكأنه عنى المحبوس من أن يفيض فيغرق جميع الأرض، أو يغيض فتبقى الأرض خالية منه، وقيل ﴿**المسجور**﴾ المختلط، وهو نحو قولهم للخليل المخالط: سجير، وجعله الراغب من سجرت التنور لأنه سجير في مودّة صاحبه، والمراد بهذا الاختلاط تلاقي البحار بمياهها واختلاط بعضها ببعض، وعن الربيع اختلاط عذبها بملحها، وقيل: اختلاطها بحيوانات الماء، وقيل: المفجور أخذاً من قوله تعالى: ﴿وإذا البحار فجرت﴾ [الانفطار: ٣] ويحتمله ما أخرجه ابن المنذر عن ابن عباس من تفسيره بالمرسل، وإذا اعتبر هذا مع ما تقدم عنه آنفاً من تفسيره بالمحبوس يكون من الاضداد أيضاً، وقال منبه بن سعيد، هو جهنم سميت بحراً لسعتها وتموأها، والجمهور على أن المراد به بحر الدنيا ـ وبه أقول ـ وبأن المسجور بمعنى الموقد، ووجه التناسب بين القرائن بعد تعين ما سيق له الكلام لائح، وهو ها هنا إثبات تأكيد عذاب الآخرة وتحقيق كينونته ووقوعه، فأقسم سبحانه له بأمور كلها دالة على كمال قدرته عز وجل مع كونها متعلقة بالمبدأ والمعاد، فالطور لأنه محل مكالمة موسى عليه السلام، ومهبط آيات البدء والمعاد يناسب حديث إثبات المعاد وكتاب الأعمال كذلك مع الإيماء إلى أن إيقاع العذاب عدل منه تعالى فقد تحقق، ودون في ﴿**الكتاب**﴾ ما يجر إليه قبل، ﴿**والبيت المعمور**﴾ لأنه مطاف الرسل السماوية، ومظهر لعظمته تعالى، ومحل لتقديسهم وتسبيحهم إياه جل وعلا، ﴿**والسقف المرفوع**﴾ لأنه مستقرهم ومنه تنزل الآيات، وفيه الجنة: ﴿**والبحر المسجور**﴾ لأنه محل النار، وإذا حمل الكتاب على التوراة كان التناسب مع ما قبله حسب النظر الجليل أظهر ولم يحمله عليها كثير لزعم أن ـ الرق المنشور ـ لا يناسبها لأنها كانت في الألواح، ولا يخفى عليك أن شيوع الرق فيما يكتب فيه الكتاب مطلقاً يضعف هذا الزعم في الجملة، ثم إن المعروف أن التوراة لا يكتبها اليهود اليوم إلا في ـ رق ـ وكأنهم أخذوا ذلك من أسلافهم، وقال الإمام: يحتمل أن تكون الحكمة في القسم ـ بالطور والبيت المعمور والبحر المسجور ـ أنها أماكن خلوة لثلاثة أنبياء مع ربهم سبحانه، أما الطور فلموسى عليه السلام وقد خاطب عنده ربه عز وجل بما خاطب، وأما البيت المعمور فلرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وقد قال عنده: «سلام علينا وعلى عباد الله الصالحين لا أحصي ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك»؛ وأما البحر فليونس عليه السلام قال فيه: ﴿لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين﴾ [الأنبياء: ٨٧] فلشرفها بذلك أقسم الله تعالى بها، وأما ذكر ﴿**الكتاب**﴾ فلأن الأنبياء كان لهم في هذه الأماكن كلام والكلام في الكتاب، وأما ذكر السقف المرفوع فلبيان رفعة البيت المعمور ليعلم عظمة شأن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم، ثم ذكر وجهاً آخر، ولَعمري إنه لم يأت بشيء فيهما، والواو الاولى للقسم وما بعدها على

ما قال أبو حيان للعطف، والجملة المقسم عليها قوله تعالى: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ﴾ أي لكائن على شدّة كأنه مهيأ في مكان مرتفع فيقع على من يحل به من الكفار؛ وفي إضافته إلى الرب مع إضافة الرب إلى ضميره عليه الصلاة والسلام أمان له صلى الله تعالى عليه وسلم وإشارة إلى أن العذاب واقع بمن كذبه، وقرأ زيد بن علي رضي الله تعالى عنهما ـ واقع ـ بدون لام، وقوله تعالى: ﴿مَّا لَهُ مِن دَافِعٍ﴾ خبر ثان ـ لأن ـ أو صفة ﴿لواقع﴾ أو هو جملة معترضة، و ﴿من دافع﴾ إما مبتدأ للظرف أم مرتفع به على الفاعلية، و ﴿من﴾ مزيدة للتأكيد ولا يخفى ما في الكلام من تأكيد الحكم وتقريره؛ وقد روي أن عمر رضي الله تعالى عنه قرأ من أول السورة إلى هنا فبكى ثم بكى حتى عيد من وجعه وكان عشرين يوماً، وأخرج أحمد وسعيد بن منصور وابن سعد عن جبير بن مطعم قال: قدمت المدينة على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لأكلمه في أسارى بدر فدفعت إليه وهو يصلي بأصحابه صلاة المغرب فسمعته يقرأ ﴿والطور﴾ إلى ﴿إن عذاب ربك لواقع ماله من دافع﴾ فكأنما صدع قلبي، وفي رواية فأسلمت خوفاً من نزول العذاب وما كنت أظن أن أقوم من مقامي حتى يقع بي العذاب، وهو لا يأتي أن يكون المراد الوقوع يوم القيامة «ومن غريب ما يحكى» أن شخصاً رأى مكتوباً في كفه خمس واوات فعبرت له بخير فسأل ابن سيرين فقال: تهيأ لما لا يسر فقال له: من أين أخذت هذا؟ فقال: من قوله عز وجل: ﴿والطور﴾ إلى ﴿إن عذاب ربك لواقع﴾ فما مضى يومان أو ثلاثة حتى أحيط بذلك الشخص، وقوله سبحانه: ﴿يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَاءُ مَوْراً﴾ منصوب على الظرفية[١] وناصبه ﴿واقع﴾ أو ﴿دافع﴾ أو معنى النفي وإبهام أنه لا ينتفي دفعه غير ذلك اليوم بناءً على اعتبار المفهوم لا ضير فيه لعدم مخالفته للواقع لأنه تعالى أمهلهم في الدنيا وما أهملهم، ومنع مكي أن يعمل فيه ـ واقع ـ ولم يذكر دليل المنع ولا دليل له فيما يظهر، ومعنى ﴿تمور﴾ تضطرب كما قال ابن عباس أي ترتج وهي في مكانها، وفي رواية عنه تشقق، وقال مجاهد: تدور، وأصل المور التردد في المجيء والذهاب، وقيل: التحرك في تموج، وقيل: الجريان السريع، ويقال للجري مطلقاً وأنشدوا للأعشى:

كأن مشيتها من بيت جارتها ... مور السحابة لا ريث ولا عجل

﴿وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْراً﴾ عن وجه الارض فتكون هباءً منبثّاً، والإتيان بالمصدرين الإيذان بغرابتهما وخروجهما عن الحدود المعهودة أي موراً عجيباً وسيراً بديعاً لا يدرك كنههما ﴿فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ﴾ أي إذا وقع ذلك[٢] أو إذا كان الامر كما ذكر فويل يوم إذ يقع ذلك ﴿لِّلْمُكَذِّبِينَ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ﴾ أي في اندفاع عجيب في الأباطيل والأكاذيب يلهون، وأصل الخوض المشي في الماء ثم تجوز فيه عن الشروع في كل شيء وغلب في الخوض في الباطر كالإحضار عام في كل شيء ثم غلب استعماله في الاحضار للعذاب.

﴿يَوْمَ يُدعونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دعّاً﴾ أي يدفعون دفعاً عنيفاً شديداً بأن تغل أيديهم إلى أعناقهم وتجمع نواصيهم إلى أقدامهم فيدفعون إلى النار ويطرحون فيها، وقرأ زيد بن علي والسيلمي وأبو رجاء «يُدْعَوْنَ» بسكون الدال وفتح العين من الدعاء فيكون ﴿دعاً﴾ حالاً أي ينادون إليها مدعوعين[٣] و ﴿يوم﴾ إما بدل من يوم ﴿تمور﴾ أو ظرف لقول مقدر محكي به قوله تعالى: ﴿هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بها تُكَذِّبُونَ﴾ أي فيقال لهم ذلك ﴿يوم﴾ الخ،

---

(١) لأنه مفعول فيه.

(٢) يشير إلى أن الفاء فصيحة في جواب شرط مقدر. اهـ.

(٣) الحال مقدرة لأن الدفع بعد الدعوة، وقيل: إنها مقارنة بإجراء قرب الوقوع مجرى المقارنة؛ وفيه نظر.

ومعنى التكذيب بها تكذيبهم بالوحي الناطق بها، وقوله تعالى: ﴿أَفَسِحْرٌ هَٰذَا﴾ توبيخ وتقريع لهم حيث كانوا يسمونه سحراً كأنه قيل: كنتم تقولون للوحي الذي أنذركم بهذا سحراً أفهذا المصدق له سحر أيضاً وتقديم الخبر لأنه المقصود بالإنكار والمدار للتوبيخ.

﴿أَمْ أَنتُمْ لا تُبصِرُونَ﴾ أي أم أنتم عمي عن المخبر به كما كنتم في الدنيا عمياً عن الخبر والفاء مؤذنة بما ذكر وذلك لأنها لما كانت تقتضي معطوفاً عليه يصح ترتب الجملة أعني سحر هذا عليه وكانت هذا جملة واردة تقريعاً مثل هذا النار الخ لم يكن بد من تقدير ذلك على وجه يصح الترتب ويكون مدلولاً عليه من السياق فقدّر كنتم تقولون إلى آخره، ودل عليه قوله تعالى: ﴿في خوض يلعبون﴾ وقوله سبحانه: ﴿هذه النار التي كنتم بها تكذبون﴾ وفي الكشف إن هذا نظير ما تستدل بحجة فيقول الخصم: هذا باطل فتأتي بحجة أوضح من الأول مسكتة وتقول: أفباطل هذا؟! تعيره بالإلزام بأن مقالته الأولى كانت باطلة، وفي مثله جاز أن يقدر القول على معنى أفتقول باطل هذا وأن لا يقدر لابتنائه على كلام الخصم وهذا أبلغ، و ﴿أم﴾ كما هو الظاهر منقطعة، وفي البحر لما قيل لهم: هذه النار وقفوا على الجهتين اللتين يمكن منهما دخول الشك في أنها النار وهي إما أن يكون ثمّ سحر يلبس ذات المرأى، وإما أن يكون في ناظر الناظر اختلال، والظاهر أنه جعل ﴿أم﴾ معادلة والأول أبعد مغزى.

﴿ٱصلَوْهَا فَٱصْبِرُوا أَوْ لا تَصْبِرُوا﴾ أي ادخلوها وقاسوا شدائدها فافعلوا ما شئتم من الصبر وعدمه.

﴿سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ﴾ أي الأمران سواء عليكم في عدم النفع إذ كل لا يدفع العذاب ولا يخففه ـ فسواء ـ خبر مبتدأ محذوف وصح الإخبار به عن المثنى لأنه مصدر في الأصل، وجوز كونه مبتدأ محذوف الخبر وليس بذاك، وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعمَلُونَ﴾ تعليل للاستواء فإن الجزاء حيث كان متحتم الوقوع لسبق الوعيد به وقضائه سبحانه إياه بمقتضى عدله كان الصبر وعدمه مستويين في عدم النفع.

﴿إِنَّ ٱلمُتَّقِينَ فِي جَنَّات وَنَعِيم﴾ شروع في ذكر حال المؤمنين بعد ذكر حال الكافرين كما هو عادة القرآن الجليل في الترهيب والترغيب، وجوز أن يكون من جملة المقبول للكفار إذ ذاك زيادة في غمهم وتنكيدهم والأول أظهر، والتنوين في الموضعين للتعظيم أي في جنات عظيمة ونعيم عظيم، وجوز أن يكون للنوعية أي نوع من الجنات ونوع من النعيم مخصوصين بهم وكونه عوضاً عن المضاف إليه أي جناتهم ونعيمهم ليس بالقوي كما لا يخفى.

﴿فَاكِهِين﴾ متلذذين ﴿بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ﴾ من الإحسان، وقرىء ـ فكهين ـ بلا ألف، ونصبه في القراءتين على الحال من الضمير المستتر في الجار والمجرور أعني من جنات الواقع خبراً لأن، وقرأ خالد ـ فاكهون ـ بالرفع على أنه الخبر، وفي جنات متعلق به لكنه قدم عليه للاهتمام، ومن أجاز بعدد الخبر أجاز أن يكون خبراً بعد خبر ﴿وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلجَحِيم﴾ عطف على «في جنات» على تقدير كونه خبراً كأنه قيل: استقروا ﴿في جنات﴾ ﴿ووقاهم ربهم﴾ الخ، أو على ﴿أتاهم﴾ إن جعلت ﴿ما﴾ مصدرية أي فاكهين بإيتائهم ربهم ووقايتهم عذاب الجحيم، ولم يجوز كثير عطفه عليه إن جعلت موصولة إذ يكون التقدير فاكهين بالذي وقاهم ربهم فلا يكون راجع إلى الموصول، وجوزه بعض بتقدير الراجع أي وقاهم به على أن الباء للملابسة، وفي الكشف لم يحمل على حذف الراجع لكثرة الحذف ولو درج نصاً. والفعل من المتعدي إلى ثلاثة مفاعيل وهو مسموع عند بعضهم، ولا يخفى أنه وجه سديد أيضاً، والمعنى عليه أسد لأن الفكاهة تلذذ يشتغل به صاحبه والتلذذ بالإيتاء يحتمل التجدد باعتبار تعدد المؤتى إما بالوقاية أي على تقدير المصدرية فلا، وأقول لعله هو المنساق إلى الذهن، وجوز أن يكون حالاً بتقدير قد أو بدونه إما من المستكن في الخبر أو في الحال. وإما من فاعل آتى أو من مفعوله. أو منهما، وإظهار الرب في موقع

الإضمار مضافاً إلى ضميرهم للتشريف والتعليل. وقرأ أبو حيوة «وَقَّاهُمْ» بتشديد القاف ﴿كُلوا وآشْرَبُوا هنيئاً﴾ أي يقال لهم ﴿كلوا واشربوا﴾ أكلاً وشرباً هنيئاً، أو طعاماً وشراباً هنيئاً، فالكلام بتقدير القول: و ﴿هنيئاً﴾ نصب على المصدرية لأنه صفة مصدر. أو على أنه مفعول به، وأياً مّا كان فقد تنازعه الفعلان، والهنيء كل ما لا يلحق فيه مشقة ولا يعقب وخامه ﴿بِمَا كُنتُم تعمَلُونَ﴾ أي بسببه أو بمقابلته والباء عليهما متعلق ـ بكلوا واشربوا، على التنازع، وجوز الزمخشري كونها زائدة وما بعدها فاعل هنيئاً كما في قول كثير:

هنيئاً مريئاً غير داء مخامر لعزة من أعراضنا ما استحلت(١)

فإن ما فيه فاعل هنيئاً على أنه صفة في الأصل بمعنى المصدر المحذوف فعله وجوباً لكثرة الاستعمال كأنه قيل: هنؤ لعزة المستحل من أعراضنا، وحينئذ كما يجوز أن يجعل ما هنا فاعلاً على زيادة الباء على معنى هنأكم ما كنتم تعملون يجوز أن يجعل الفاعل مضمراً راجعاً إلى الأكل أو الشرب المدلول عليه بفعله، وفيه أن الزيادة في الفاعل لم تثبت سماعاً في السعة في غير فاعل كفى على خلاف ولا هي قياسية في مثل هذا ومع ذلك يحتاج الكلام إلى تقدير مضاف أي جزاء ما كنتم الخ، وفيه نوع تكلف ﴿مُتَّكِئِين﴾ نصب على الحال قال أبو البقاء: من الضمير في ﴿كلوا﴾ أو في ﴿وقاهم﴾ أو في ﴿آتاهم﴾ أو في ﴿فاكهين﴾ أو في الظرف يعني في جنات، واستظهر أبو حيان الأخير ﴿عَلَىٰ سرُر﴾ جمع سرير معروف، ويجمع على أسرّة وهو من السرور إذ كان لأولي النعمة، وتسمية سرير الميت به للتفاؤل بالسرور الذي يلحق الميت برجوعه إلى جوار الله تعالى وخلاصه من سجن الدنيا، وقرأ أبو السمال سرر بفتح الراء وهي لغة لكلب في المضعف فراراً من توالي ضمتين مع التضعيف.

﴿مَّصْفُوفَة﴾ مجعولة على صف وخط مستو ﴿وَزَوَّجْناهُم بحُور عين﴾ أي قرناهم بهن ـ قاله الراغب ـ ثم قال: ولم يجيء في القرآن زوجناهم حوراً كما يقال زوجته امرأة تنبيهاً على أن ذلك لا يكون على حسب المتعارف فيما بيننا من المناكحة، وقال الفراء: تزوجت بامرأة لغة أزد شنوءة، والمشهور أن التزوج متعد إلى مفعول واحد بنفسه والتزويج متعد بنفسه إلى مفعولين، وقيل: فيما هنا أن الباء لتضمين الفعل معنى القرآن أو الإلصاق، واعترض بأنه يقتضي معنى التزويج بالعقد وهو لا يناسب المقام إذ العقد لا يكون في الجنة لأنها ليست دار تكليف أو أنها للسببية والتزويج ليس بمعنى الإنكاح بل بمعنى تصييرهم زوجين زوجين أي صيرناهم كذلك بسبب حور عين، وقرأ عكرمة بحور عين على إضافة الموصوف إلى صفته بالتأويل المشهور، وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ آمنوا﴾ الخ كلام مستأنف مسوق لبيان حال طائفة من أهل الجنة إثر بيان حال الكل وهم الذين شاركتهم ذريتهم في الإيمان، والموصول مبتدأ خبره ألحقنا بهم، وقوله تعالى: ﴿وَٱتَّبَعَتْهُم ذُرِّيَّتُهُم﴾ عطف على آمنوا، وقيل اعتراض للتعليل، وقوله تعالى: ﴿بِإيمان﴾ متعلق بالاتباع أي أتبعتهم ذريتهم بإيمان في الجملة قاصر عن رتبة إيمان الآباء إما بنفسه بناءً على تفاوت مراتب نفس الإيمان، وإما باعتبار عدم انضمام أعمال مثل أعمال الآباء اليه، واعتبار هذا القيد للإيذان بثبوت الحكم في الإيمان الكامل أصالة لا إلحاقاً قيل: هو حال من الذرية، وقيل: من الضمير وتنوينه للتعظيم، وقيل: منهما وتنوينه للتنكير

---

(١) هذا البيت من قصيدة مشهورة لكثير أولها

خليلي هذا ربع عزة فاعقلا قلوصيكما ثم احللا حيث حلت

قيل كان كثير في حلقة البصرة ينشد أشعاره فمرت به عزة مع زوجها فقال لها: أغضبيه فاستحيت من ذلك فقال لتغضبنه أو لأضربنك فدنت من الحلقة فأغضبته، وذلك أن قالت: هذا وهذا بفم الشاعر فقال ذلك.

والمعول عليه ما قدمنا ﴿ألحقنا بهم ذُرِّيَّتهم﴾ في الدرجة. أخرج سعيد بن منصور وهناد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم والبيهقي في سننه عن ابن عباس قال: «إن الله تعالى ليرفع ذرية المؤمن معه في درجته في الجنة وإن كانوا دونه في العمل لتقر بهم عينه ثم قرأ الآية» وأخرجه البزار وابن مردويه عنه مرفوعاً إلى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم، وفي رواية ابن مردويه والطبرائي عنه أنه قال: «إن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قال: إذا دخل الرجل الجنة سأل عن أبويه وزوجته وولده فيقال له: إنهم لم يبلغوا درجتك وعملك فيقول: يا رب قد عملت لي ولهم فيؤمر بإلحاقهم به» وقرأ ابن عباس الآية، وظاهر الاخبار أن المراد بإلحاقهم بهم إسكانهم معهم لا مجرد رفعهم إليهم واتصاله بهم أحياناً ولو للزيارة. وثبوت ذلك على العموم لا يبعد من فضل الله عز وجل، وما قيل: لعله مخصوص ببعض دون بعض تحجير لإحسانه الواسع جل شأنه، وقد يستأنس للتخصيص بما روي عن ابن عباس إن الذين آمنوا المهاجرون والأنصار، والذرية التابعون لكن لا أظن صحته ﴿وَمَا أَلَتْنَاهُم﴾ أي وما نقصنا الآباء بهذا الإلحاق ﴿مِّنْ عَمَلِهِم﴾ أي من ثواب عملهم ﴿من شَيء﴾ أي شيئاً بأن أعطينا بعض مثوباتهم أبناءهم فتنقص مثوباتهم وتنحط درجتهم وإنما رفعناهم إلى منزلتهم بمحض التفضل والإحسان، وقال ابن زيد ـ الضمير عائد على الأبناء أي وما نقصنا الأبناء الملحقين من جزاء عملهم الحسن والقبيح شيئاً بل فعلنا ذلك بهم بعد مجازاتهم بأعمالهم كملاً ـ وليس بشيء وإن قال أبو حيان يحسن هذا الاحتمال قوله تعالى: ﴿كل امرىء بما كسب رهين﴾ وإلى الأول ذهب ابن عباس وابن جبير والجمهور والآية على ما ذهب إليه المعظم في الكبار من الذرية، وقال منذر بن سعيد: هي في الصغار.

وروي عن الحبر والضحاك أنهما قالا: إن الله تعالى يلحق الأبناء الصغار وإن لم يبلغوا زمن الإيمان بآبائهم المؤمنين، وجعل بإيمان عليه متعلقاً بألحقنا أي ألحقنا بسبب إيمان الآباء بهم ذريتهم الصغار الذين ماتوا ولم يبلغوا التكليف فهم في الجنة مع آبائهم قيل: وكأن من يقول بذلك يفسر ﴿اتبعتهم ذريتهم﴾ بماتوا ودرجوا على أثرهم قبل أن يبلغوا الحلم، وجوز أن يتعلق بإيمان باتبعتهم على معنى اتبعوهم بهذا الوصف بأن حكم لهم به تبعاً لآبائهم فكانوا مؤمنين حكماً لصغرهم وإيمان آبائهم، والصغير يحكم بإيمانه تبعاً لأحد أبويه المؤمن والكل كما ترى، وقيل: الموصول معطوف على حور، والمعنى قرنّاهم بالحور وبالذين آمنوا أي بالرفقاء والجلساء منهم فيتمتعون تارة بملاعبة الحور؛ وأخرى بمؤانسة الإخوان المؤمنين، وقوله تعالى: ﴿واتبعتهم﴾ عطف على ﴿زوجناهم﴾ وقوله سبحانه: ﴿بإيمان﴾ متعلق بما بعده أي بسبب إيمان عظيم رفيع المحل، وهو إيمان الآباء ألحقنا بدرجاتهم ذريتهم وإن كانوا لا يستأهلونها تفضلاً عليهم وعلى آبائهم ليتم سرورهم ويكمل نعيمهم، أو بسبب إيمان داني المنزلة وهو إيمان الذرية كأنه قيل: بشيء من الإيمان لا يؤهلهم لدرجة الآباء ألحقناهم بهم، وصنيع الزمخشري ظاهر في اختيار العطف على حور فقد ذكره وجهاً أول، وتعقبه أبو حيان بأنه لا يتخيل ذلك أحد غير هذا الرجل، وهو تخيل أعجمي مخالف لفهم العربي القح كابن عباس وغيره، وقيل عليه: إنه تعصب منه، والإنصاف أن المتبادر الاستئناف، وإن أحسن الأوجه في الآية وأوفقه للمقام ما تقدم.

وقرأ أبو عمرو «وأَتْبَعْناهُمْ» بقطع الهمزة وفتحها، وإسكان التاء، ونون بعد العين وألف بعدها أي جعلناهم تابعين لهم في الإيمان، وقرأ أيضاً ذرياتهم جمعاً نصباً، وابن عامر كذلك رفعاً، وقرأ «ذِرِّيَّاتِهِم» بكسر الذال «واتبعتهم ذريتهم» بتاء الفاعل، ونصب ذريتهم على المفعولية، وقرأ الحسن وابن كثير «أَلِتْنَاهُم» بكسر اللام من ألت يألت كعلم يعلم، وعلى قراءة الجمهور من باب ضرب يضرب، وابن هرمز آلتناهم بالمدمن آلت يؤلت، وابن مسعود وأبيّ لتناهم من لات يليت وهي قراءة طلحة والأعمش، ورويت عن شبل وابن كثير، وعن طلحة والأعمش أيضاً ـ لتناهم ـ بفتح

اللام، قال سهل: لا يجوز فتح اللام من غير ألف بحال وأنكر أيضاً آلتناهم بالمد، وقال: لا يروى عن أحد ولا يدل عليه تفسير ولا عربية ـ وليس كما قال ـ بل نقل أهل اللغة آلت بالمد كما قرأ هرمز، وقرىء وما ولتناهم من ولت يلت، ومعنى الكل واحد، وجاء ألت بمعنى غلظ يروى أن رجلاً قام إلى عمر رضي الله تعالى عنه فوعظه فقال: لا تألت على أمير المؤمنين أي لا تغلظ عليه ﴿**كُلُّ ٱمْرِىءٍ بِمَا كَسَبَ**﴾ أي بكسبه وعمله ﴿**رَهِينٌ**﴾ أي مرهون عند الله كأن الكسب بمنزلة الدين ونفس العبد بمنزلة الرهن ولا ينفك الرهن ما لم يؤد الدين فإن كان العمل صالحاً فقد أدى لأن العمل الصالح يقبله ربه سبحانه ويصعد إليه عز وجل وإن كان غير ذلك فلا أداء فلا خلاص إذ لا يصعد إليه سبحانه غير الطيب، ولذا قال جل وعلا: ﴿كل نفس بما كسبت رهينة إلا أصحاب اليمين﴾ [المدثر: ٣٨، ٣٩] فإن المراد كل نفس رهن بكسبها عند الله تعالى غير مفكوك إلا أصحاب اليمين فإنهم فكوا عنه رقابهم بما أطابوه من كسبهم.

ووجه الاتصال على هذا أنه سبحانه لما ذكر حال المتقين وأنه عز وجل وفر عليهم ما أعده لهم من الثواب والتفضل عقب بذلك الكلام ليدل على أنهم فكوا رقابهم وخلصوها وغيرهم بقي معذباً لأنه لم يفك رقبته، وكان موضعه من حيث الظاهر أن يكون عقيب قوله تعالى: ﴿هو البرّ الرحيم﴾ [الطور: ٢٨] ليكون كلاماً راجعاً إلى حال الفريقين ـ المدعوين. والمتقين ـ وإنما جعل متخللاً بين أجزية المتقين عقيب ذكر توفير ما أعدّ لهم، قال في الكشف: ليدل على أن الخلاص من بعض أجزيتهم أيضاً ويلزم أن عدم الخلاص جزاء المقابلين من طريق الإيماء وموقعه موقع الاعتراض تحقيقاً لتوفير ما عدد لأنه إنما يكون بعد الخلاص، وفيه إيماء إلى أن إلحاق الأبناء إنما كان تفضلاً على الآباء لا على الأبناء ابتداءً لأن التفضل فرع الفك وهؤلاء هم الذين فكوا فاستحقوا التفضل، وجعله استئنافاً بيانياً لهذا المعنى كما فعل الطيبي بعيد، وقيل: ﴿**رهين**﴾ فعيل بمعنى الفاعل والمعنى كل امرىء بما كسب راهن أي دائم ثابت، وفي الإرشاد أنه أنسب بالمقام فإن الدوام يقتضي عدم المفارقة بين المرء وعمله، ومن ضرورته أن لا ينقص من ثواب الآباء شيء، فالجملة تعليل لما قبلها، وأنت تعلم أن فعيلا بمعنى المفعول أسرع تبادراً إلى الذهن فاعتباره أولى ووجه الاتصال عليه أوفق وألطف كما لا يخفى.

وَأَمْدَدْنَٰهُم بِفَٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢٢﴾ يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴿٢٣﴾ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ
غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ﴿٢٤﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا
مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ
ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾ فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ
﴿٣٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ ۚ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٣٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ
تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ
ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ
ٱلْمُصَۣيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ ۖ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿٣٩﴾
أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٠﴾ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤١﴾ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هُمُ

ٱلْمَكِيدُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٣﴾ وَإِن يَرَوْا۟ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا يَقُولُوا۟ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴿٤٤﴾ فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِى عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ﴿٤٩﴾

﴿**وَأَمْدَدْناهُم بِفاكِهة وَلَحم مِّمَّا يَشْتَهُونَ**﴾ أي وزدناهم على ما كان لهم من مبادي التنعم وقتاً فوقتاً مما يشتهون من فنون النعماء وألوان الآلاء، وأصل المدّ الجر، ومنه المدّة للوقت الممتد ثم شاعر في الزيادة، وغلب الإمداد في المحبوب، والمدّ في المكروه وكونه وقتاً بعد وقت مفهوم المدّ نفسه ﴿**يَتَنازَعُونَ فِيها كَأْساً**﴾ أي يتجاذبونها في الجنة هم وجلساؤهم تجاذب ملاعبة كما يفعل ذلك الندامى بينهم في الدنيا لشدة سرورهم قال الأخطل:

نازعته طيب الراح الشمول وقد ... صاح الدجاج وحانت وقعة الساري

وقيل: التنازع مجاز عن التعاطي، والكأس مؤنث سماعي كالخمر، ولا تسمى كأساً على المشهور إلا إذا امتلأت خمراً أو كانت قريبة من الامتلاء، وقد تطلق على الخمر نفسها مجازاً لعلاقة المجاورة، وقال الراغب: الكأس الإناء بما فيه من الشراب ويسمى كل واحد منهما بانفراده كأساً، وفسرها بعضهم هنا بالإناء بما فيه من الخمر، وبعضهم بالخمر، والاول أوفق بالتجاذب، والثاني بقوله سبحانه: ﴿**لا لَغْوٌ فِيهَا**﴾ أي في شربها حيث لا يتكلمون في أثناء الشرب بلغو الحديث وسقط الكلام ﴿**وَلا تَأْثِيمٌ**﴾ ولا يفعلون ما يؤثم به فاعله أي ينسب إلى الإثم لو فعله في دار التكليف كما هو ديدن الندامى في الدنيا وإنما يتكلمون بالحكم وأحاسن الكلام ويفعلون ما يفعله الكرام، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو «لا لَغْوَ» «ولا تَأْثِيمَ» بفتحهما ﴿**وَيَطُوفُ عَلَيهِم**﴾ أي بالكأس ﴿**غِلْمَانٌ لَّهُمْ**﴾ أي مماليك مختصون بهم كما يؤذن به اللام ولم يقل غلمانهم بالإضافة لئلا يتوهم أنهم الذين كانوا يخدمونهم في الدنيا فيشفق كل من خدم أحداً في الدنيا أن يكون خادماً له في الجنة فيحزن بكونه لا يزال تابعاً، وقيل: أولادهم الذين سبقوهم فالاختصاص بالولادة لا بالملك، وفيه أن التعبير عنهم بالغلمان غير مناسب وكذا نسبة الخدمة إلى الاولاد لا تناسب مقام الامتنان ﴿**كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ**﴾ مصون في الصدف لم تنله الأيدي ـ كما قال ابن جبير ـ ووجه الشبه البياض والصفاء، وجوز أن يراد بمكنون مخزون لأنه لا يخزن إلا الحسن الغالي الثمن، أخرج عبد الرزاق ابن جرير وابن المنذر عن قتادة قال: «بلغني أنه قيل: يا رسول الله هذا الخادم مثل اللؤلؤ فكيف بالمخدوم؟ فقال عليه الصلاة والسلام: «والذي نفسي بيده إن فضل ما بينهم كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب» وروي «أن أدنى أهل الجنة منزلة من ينادي الخادم من خدامه فيجيء ألف ببابه لبيك لبيك».

﴿**وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلىٰ بَعض يَتَسَاءلونَ**﴾ أي يسأل كل بعض منهم بعضاً آخر عن أحواله وأعماله فيكون كل بعض سائلاً ومسؤولاً لا أنه يسأل بعض معين منهم بعضاً آخر معيناً ثم هذا التساؤل في الجنة كما هو الظاهر. وحكى الطبري عن ابن عباس أنه إذا بعثوا في النفخة الثانية ولا أراه يصح عنه لبعده جداً ﴿**قَالوا**﴾ أي المسؤولون وهم كل واحد منهم في الحقيقة ﴿**إِنّا كُنّا قَبْلُ**﴾ أي قبل هذا الحال ﴿**فِي أَهْلنَا مُشْفِقِين**﴾ أرقاء القلوب خائفين من عصيان الله عز وجل معتنين بطاعته سبحانه، أو وجلين من العاقبة، و ﴿**فِي أَهلنا**﴾ قيل: يحتمل أنه كناية عن كون ذلك في الدنيا، ويحتمل أن يكون بياناً لكون إشفاقهم كان فيهم وفي أهلهم لتبعيتهم لهم في العادة ويكون قوله تعالى: ﴿**فَمَنَّ**

الله عَلَيْنَا ﴾ أي بالرحمة والتوفيق ﴿وَوَقَانَا عَذَابَ ٱلسَّموم ﴾ أي عذاب النار النافذة في المسام نفوذ السموم وهو الريح الحارة المعروفة، ووجه الشبه وإن كان في النار أقوى لكنه في ريح السموم لمشاهدته في الدنيا أعرف فلذا جعل مشبهاً به، وقال الحسن: ﴿السموم ﴾ اسم من أسماء جهنم عاماً لهم ولأهلهم، فالمراد بيان ما منّ الله تعالى به عليهم من اتباع أهلهم لهم، وقيل: ذكر ﴿في أهلنا ﴾ لإثبات خوفهم في سائر الأوقات والأحوال بطريق الأولى فإن كونهم بين أهليهم مظنة الأمن ولا أرى فيه بأساً، نعم كون ذلك لأن السؤال عما اختصوا به من الكرامة دون أهليهم ليست بشيء، وقيل: لعل الاولى أن يجعل ذلك إشارة إلى الشفقة على خلق الله تعالى كما أن قوله عز وجل: ﴿إِنَّا كُنَّا من قَبْلُ نَدْعوهُ﴾ إلى آخره إشارة إلى التعظيم لأمر الله تعالى وترك العاطف بجعل الثاني بياناً للأول ادعاءً للمبالغة في وجوب عدم انفكاك كل منهما للآخر ولا يخفى ما فيه، والذي يظهر أن هذا إشارة إلى الرجاء وترك العطف لقصد تعداد ما كانوا عليه أي إنا كنا من قبل ذلك نعبده تعالى ونسأله الوقاية ﴿إِنَّه هُوَ ٱلبَرُّ ﴾ أي المحسن ما يدل عليه اشتقاقه من البر بسائر مواده لأنها ترجع إلى الإحسان ـ كبرّ في يمينه ـ أي صدق لأن الصدق إحسان في ذاته ويلزمه الإحسان للغير، وأبرّ الله تعالى حجه أي قبله لأن القبول إحسان وزيادة، وأبرّ فلان على أصحابه أي علاهم لأنه غالباً ينشأ عن الإحسان لهم فتفسيره باللطيف كما روي عن ابن عباس، أو العالي في صفاته، أو خالق البرّ، أو الصادق فيما وعد أولياءه كما روي عن ابن جريج بعيد إلا أن يراد بعض ما صدقات، أو غايات ذلك البر؟ ﴿ٱلرَّحِيمُ ﴾ الكثير الرحمة الذي إذا عبد أثاب وإذا سئل أجاب، وقرأ أبو حيوة «وَوَقَّانا» بتشديد القاف، والحسن وأبو جعفر ونافع والكسائي «أَنَّهُ» بفتح الهمزة لتقدير لام الجر التعليلية قبلها أي لأنه ﴿فَذَكِّرْ﴾ فاثبت على ما أنت عليه من التذكير بما أنزل عليك من الآيات والذكر الحكيم ولا تكترث بما يقولون مما لا خير فيه من الأباطيل.

﴿فَمَا أَنتَ بنعمة رَبِّكَ بِكاهن ﴾ هو الذي يخبر بالغيب بضرب من الظن، وخص الراغب الكاهن بمن يخبر بالأخبار الماضية الخفية كذلك، والعرّاف بمن يخبر بالأخبار المستقبله كذلك، والمشهور في الكهانة الاستمداد من الجن في الإخبار عن الغيب، والباء في ﴿بكاهن ﴾ مزيدة للتأكيد أي ما أنت كاهن ﴿وَلا مَجْنُون ﴾ واختلف في باء ﴿بنعمة ﴾ فقال أبو البقاء: للملابسة، والجار والمجرور في موضع الحال والعامل فيه كاهن، أو مجنون، والتقدير ما أنت كاهن ولا مجنون ملتبساً بنعمة ربك وهي حال لازمة لأنه عليه الصلاة والسلام ما زال ملتبساً بنعمة ربه عز وجل، وقيل: للقسم فنعمة ربك مقسم به، وجواب القسم ما علم من الكلام وهو ـ ما أنت بكاهن ولا مجنون ـ وهذا كما تقول: ما زيد والله بقائم وهو بعيد، والأقرب عندي أن الباء للسببية وهو متعلق بمضمون الكلام، والمعنى انتفى عنك الكهانة والجنون بسبب نعمة الله تعالى عليك، وهذا كما تقول ما أنا معسر بحمد الله تعالى وإغنائه، والمراد الرد على قائل ذلك، وإبطال مقالتهم فيه عليه الصلاة والسلام وإلا فلا امتنان عليه صلى الله تعالى عليه وسلم بانتفاء ما ذكر مع انتفائه عن أكثر الناس، وقيل: الامتنان بانتفاء ذلك بسبب النعمة المراد بها ما أوتيه صلى الله تعالى عليه وسلم من صدق النبوة ورجاحة العقل التي لم يؤتَها أحد قبله، والقائلون بذلك هم الكفرة قاتلهم الله تعالى أنى يؤفكون، وممن قال كاهن: شيبة بن ربيعة، وممن قال مجنون: عقبة بن أبي معيط ﴿أَمْ يَقُولُونَ ﴾ أي بل أيقولون ﴿شَاعِرٌ ﴾ أي هو شاعر ﴿نَّتَرَبَّصُ ﴾ أي ننتظر ﴿به رَيْبَ ٱلـمَنُون ﴾ أي الدهر، وهو فعول من المنّ بمعنى القطع لأنه يقطع الأعمار وغيرها، ومنه حبل منين أي مقطوع، والريب مصدر رابه إذا أقلقه أريد به حوادث الدهر وصروفه لأنها تقلق النفوس وعبر عنها بالمصدر مبالغة، وجوز أن يكون من راب عليه الدهر أي نزل، والمراد بنزوله إهلاكه، وتفسير المنون بالدهر مروي عن مجاهد وعليه قول الشاعر:

تربص بها ريب المنون لعلها تطلق يوماً أو يموت حليلها

وبيت أبي ذؤيب

أمن المنون وريبه يتوجع والدهر ليس بمعتب من يجزع

قيل: ظاهره ذلك، وكذلك قول الأعشى:

أإن رأت رجلاً أعشى أضرّ به ريب المنون ودهر متبل خبل

ولهذا أنشده الجوهري شاهداً له، وأخرج ابن جرير وغيره عن ابن عباس تفسيره بالموت وهو مشترك بين المعنيين فقد قال المرزوقي في شرح بيت أبي ذؤيب المار آنفاً: المنون قد يراد به الدهر فيذكر وتكون الرواية ريبه، وقد يراد به المنية فيؤنث، وقد روي ريبها، وقد يرجع له ضمير الجمع لقصد أنواع المنايا وريبها نزولها انتهى فلا تغفل، وهو أيضاً من المنّ بمعنى القطع فإنها قاطعة الأماني واللذات، ولذا قيل: المنية تقطع الأمنية، وريب المنون عليه نزول المنية، وجوز أن يكون معنى حادث الموت على أن الإضافة بيانية، روي أن قريشاً اجتمعت في دار الندوة وكثرت آراؤهم فيه عليه الصلاة والسلام حتى قال قائل منهم وهم بنو عبد الدار ـ كما قال الضحاك ـ تربصوا به ريب المنون فإنه شاعر سيهلك ما هلك زهير والنابغة والاعشى فافترقوا على هذه المقالة فنزلت، وقرأ زيد بن علي «يُتَرَبَّصُ» بالياء مبنياً للمفعول، وقرىء «رَيْبُ» بالرفع على النيابة.

﴿قُلْ تَرَبَّصُوا﴾ تهكم بهم، وتهديد لهم ﴿فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ﴾ أتربص هلاككم كما تتربصون هلاكي، وفيه عدة كريمة بإهلاكهم ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلامُهُم﴾ أي عقولهم وكانت قريش يدعون أهل الأحلام والنهى ـ وذلك على ما قال الجاحظ ـ لأن جميع العالم يأتونهم ويخالطونهم وبذلك يكمل العقل وهو يكمل بالمسافرة وزيادة رؤية البلاد المختلفة والأماكن المتباينة ومصاحبة ذوي الأخلاق المتفاوتة وقد حصل لهم الغرض بدون مشقة، وقيل لعمرو بن العاص: ما بال قومك لم يؤمنوا وقد وصفهم الله تعالى بالعقل؟! فقال: تلك عقول كادها الله عز وجل أي لم يصحبها التوفيق فلذا لم يؤمنوا وكفروا ـ وأنا لا أرى في الآية دلالة على رجحان عقولهم ـ ولعلها تدل على ضد ذلك ﴿بِهَٰذَا﴾ التناقض في المقال فإن الكاهن والشاعر يكونان ذا عقل تام وفطنة وقادة والمجنون مغطى عقله مختل فكره وهذا يعرب عن أن القوم لتحيرهم وعصبيتهم وقعوا في حيص بيص حتى اضطربت عقولهم وتناقضت أقوالهم وكذبوا أنفسهم من حيث لا يشعرون، وأمر الاحلام بذلك مجاز عن التأدية إليه بعلاقة السببية كما قيل، وقيل: جعلت الأحلام آمرة على الاستعارة المكنية فتشبه الاحلام بسلطان مطاع تشبيهاً مضمراً في النفس، وتثبت له الأمر على طريق التخييل ﴿أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ مجاوزون الحدود في المكابرة والعناد لا يحومون حول الرشد والسداد ولذلك يقولون ما يقولون من الأكاذيب المحصنة الخارجة عن دائرة العقول، وقرأ مجاهد «بل هم» ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ﴾ أي اختلقه من تلقاء نفسه.

وقال ابن عطية: معناه قال عن الغير إنه قاله فهو عبارة عن كذب مخصوص، وضمير المفعول للقرآن ﴿بَل لَا يُؤْمِنُونَ﴾ فلكفرهم وعنادهم يرمون بهذه الأباطيل كيف لا وما رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم إلا واحد من العرب فكيف أتى بما عجز عنه كافة الأمم من العرب والعجم ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ﴾ مماثل القرآن في النعوت التي استقل بها من حيث النظم ومن حيث المعنى ﴿إِن كَانُوا صَادِقِينَ﴾ فيما زعموا فإن صدقهم في ذلك يستدعي قدرتهم على الإتيان بمثله بقضية مشاركتهم له عليه الصلاة والسلام في البشرية والعربية مع ما بهم من طول الممارسة للخطب والأشعار، وكثرة المزاولة لأساليب النظم والنثر، والمبالغة في حفظ الوقائع والأيام؛ ولا ريب في أن القدرة

على الشيء من موجبات الإتيان به ودواعي الأمر بذلك، فالكلام ردّ للأقوال المذكورة في حقه عليه الصلاة والسلام، والقرآن بالتحدي فإذا تحدوا وعجزوا علم رد ما قالوه وصحة المدّعى، وجوز أن يكون ردّاً لزعمهم التقول خاصة فإن غيره مما تقدم حتى الكهانة كما لا يخفى أظهر فساداً منه ومع ذلك إذا ظهر فساد زعم التقول ظهر فساد غيره بطريق اللزوم، وقرأ الجحدري، وأبو السمال بحديث مثله على الاضافة أي بحديث رجل مثل الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم في كونه أمياً لم يصحب أهل العلم ولا رحل عن بلده، أو مثله في كونه واحداً منهم فلا يعوز أن يكون في العرب مثله في الفصاحة فليأت بمثل ما أتى به ولن يقدر على ذلك أبداً ﴿أَمْ خُلقوا من غَيْر شَيْء ﴾ أي أم أحدثوا وقدروا هذا التقدير البديع من غير مقدر وخالق، وقال الطبري: المراد أم خلقوا من غير شيء حي فهم لا يؤمرون ولا ينهون كالجمادات، وقيل: المعنى أم خلقوا من غير علة ولا لغاية ثواب وعقاب فهم لذلك لا يسمعون، و ﴿من ﴾ عليه للسببية، وعلى ما تقدم لابتداء الغاية والمعول عليه من الأقوال ما قدمنا، وسيأتي إن شاء الله تعالى زيادة إيضاح له، ويؤيده قوله سبحانه: ﴿أَمْ هُمُ ٱلْخالقُونَ ﴾ أي الذين خلقوا أنفسهم فلذلك لا يعبدون الله عز وجل ولا يلتفتون إلى رسوله صلى الله تعالى عليه وسلم إذ على القولين لا يظهر حسن المقابلة، وإرادة خلقوا أنفسهم يشعر به قوله تعالى: ﴿أم خلقوا السماوات والأرض ﴾ [الطور: ٣٦] إذ لو أريد العموم لعدم ذكر المفعول لم يظهر حسن المقابلة أيضاً، وقال ابن عطية: المراد أهم الذين خلقوا الأشياء فهم لذلك يتكبرون ثم خص من تلك الأشياء السماوات والأرض لعظمهما وشرفهما في المخلوقات وفيه ما سمعته ﴿بَل لا يُوقنونَ ﴾ أي إذا سئلوا من خلقكم وخلق السماوات والأرض؟ قالوا: الله وهم غير موقنين بما قالوا إذ لو كانوا موقنين لما أعرضوا عن عبادته تعالى فإن من عرف خالقه وأيقن به امتثل وانقاد له ﴿أَمْ عندَهُمْ خَزَائنُ رَبِّكَ ﴾ أي خزائن رزقه تعالى ورحمته حتى يرزقوا النبوة من شاؤوا، ويمسكوها عمن شاؤوا، وقال الرماني: خزائنه تعالى مقدوراته سبحانه، وقال ابن عطية: المعنى أم عندهم الاستغناء عن الله تعالى في جميع الامور لأن المال والصحة والعزة وغير ذلك من الاشياء من خزائن الله تعالى، وقال الزهري: يريد بالخزائن العلم واستحسنه أبو حيان، وسيأتي إن شاء الله تعالى ما يعلم حاله منه ﴿أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ ﴾ الأرباب الغالبون حتى يدبروا أمر الربوبية ويبنوا الامور على إرادتهم ومشيئتهم فالمسيطر الغالب، وفي معناه قول ابن عباس: المسلط القاهر وهو من سيطر على كذا إذا راقبه وأقام عليه وليس مصغراً كما يتوهم ولم يأت على هذه الزنة إلا خمسة ألفاظ أربعة من الصفات، وهي مهيمن ومسيطر ومبيقر ومبيطر، وواحد من الاسماء وهو مجيمر اسم جبل، وقرأ الأكثر ﴿المصيطرون ﴾ بالصاد لمكان حرف الاستعلاء وهو الطاء، وأشم خلف عن حمزة وخلاد عنه بخلاف الزاي ﴿أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ ﴾ هو ما يتوصل به إلى الأمكنة العالية فيرجى به السلامة ثم جعل اسماً لكل ما يتوصل به إلى شيء رفيع كالسبب أي أم لهم سلم منصوب إلى السماء ﴿يَسْتَمعُونَ فيه ﴾ أي صاعدين فيه على أن الجار والمجرور متعلق بكون خاص محذوف وقع حالاً والظرفية على حقيقتها، وقيل: هو متعلق ـ بيستمعون ـ على تضمينه معنى الصعود.

وقال أبو حيان: أي يستمعون عليه أو منه إذ حروف الجر قد يسدّ بعضها مسدّ بعض ومفعول ﴿يستمعون ﴾ محذوف أي كلام الله تعالى، قيل: ولو نزل منزلة اللازم جاز ﴿فَلْيَأت مُسْتَمعُهُم بسُلْطان مُّبين﴾ أي بحجة واضحة تصدق استماعه ﴿أَم لَهُ البَنَاتُ وَلَكُمُ البَنُونَ ﴾ تسفيه لهم وتركيك لعقولهم، وفيه إيذان بأن من هذا رأيه لا يكاد يعدّ من العقلاء فضلاً عن الترقي إلى عالم الملكوت وسماع كلام ذي العزة والجبروت والالتفات إلى الخطاب لتشديد الإنكار والتوبيخ ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْراً ﴾ أي على تبليغ الرسالة وهو رجوع إلى خطابه صلى الله تعالى عليه وسلم وإعراض عنهم ﴿فَهُم ﴾ لأجل ذلك ﴿مِّن مَّغْرَم ﴾ مصدر ميمي

من الغرم والغرامة وهو ـ كما قال الراغب ـ ما ينوب الإنسان في ماله من ضرر لغير جناية منه، فالكلام بتقدير مضاف أي من التزام مغرم، وفسره الزمخشري بالتزام الإنسان ما ليس عليه فلا حاجة إلى تقدير ـ لكن الذي تقتضيه اللغة هو الأول ـ ﴿مُّثْقَلُونَ﴾ أي محملون الثقل فلذلك لا يتبعونك ﴿أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ﴾ أي اللوح المحفوظ المثبت فيه الغيوب ﴿فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾ منه ويخبرون به الناس ـ قاله ابن عباس ـ وقال ابن عطية: أم عندهم علم الغيب فهم يثبتون ما يزعمون للناس شرعاً، وذلك عبادة الأوثان وتسييب السوائب وغير ذلك من سيرهم، وقال قتادة: ﴿أم عندهم الغيب﴾ فهم يعلمون متى يموت محمد صلى الله تعالى عليه وسلم الذي يتربصون به، وفسر بعضهم ﴿يكتبون﴾ بيحكمون ﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْداً﴾ بك وبشرعك وهو ما كان منهم في حقه ﷺ بدار الندوة مما هو معلوم من السير، وهذا من الإخبار بالغيب فإن قصة دار الندوة وقعت في وقت الهجرة وكان نزول السورة قبلها كما تدل عليه الآثار ﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ هم المذكورون المريدون كيده عليه الصلاة والسلام، ووضع الموصول موضع ضميرهم للتسجيل عليهم بما في حيز الصلة من الكفر وتعليل الحكم به، وجوز أن يراد جميع الكفرة وهم داخلون فيه دخولاً أولياً ﴿هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ﴾ أي الذين يحيق بهم كيدهم ويعود عليهم وباله لا من أرادوا أن يكيدوه وكان وباله في حق أولئك قتلهم يوم بدر في السنة الخامسة عشر من النبوة قيل: ولذا وقعت كلمة ﴿أم﴾ مكررة هنا خمس عشرة مرة للإشارة لما ذكر، ومثله على ما قال الشهاب: لا يستبعد من المعجزات القرآنية وإن كان الانتقال لمثله خفي ومناسبته أخفى، وجوز أن يكون المعنى هم المغلوبون في الكيد من كايدته فكدته ﴿أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللهِ﴾ يعينهم ويحرسهم من عذابه عز وجل.

﴿سُبْحَانَ ٱللهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي عن إشراكهم على أن ما مصدرية، أو عن شركة الذي يشركونه على أنها موصولة وقبلها مضاف مقدر والعائد محذوف ﴿وَإِن يَرَوْا كِسْفاً﴾ قطعة فهو مفرد وقد قرىء في جميع القرآن كسفاً وكسفاً جمعاً وإفراداً إلا هنا فإنه على الإفراد وحده، وتنوينه للتفخيم أي وإن يروا كسفاً عظيماً ﴿مِّنَ ٱلسَّمَاءِ سَاقِطاً﴾ لتعذيبهم ﴿يقولوا﴾ من فرط طغيانهم وعنادهم ﴿سَحَابٌ﴾ أي هو سحاب ﴿مَّرْكُومٌ﴾ متراكم ملقى بعضه على بعض أي هم في الطغيان بحيث لو أسقطنا عليهم حسبما قالوا، أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً لقالوا هو سحاب متراكم يمطرنا ولم يصدقوا أنه كسف ساقط لعذابهم ﴿فَذَرْهُمْ﴾ فدعهم غير مكترث بهم وهو على ما في البحر أمر موادعة منسوخ بآية السيف ﴿حَتَّىٰ يُلاقُوا﴾ وقرأ أبو حيوة يلقوا مضارع لقى ﴿يَوْمَهُمُ ٱلَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ﴾ على البناء للمفعول وهي قراءة عاصم وابن عامر وزيد بن علي وأهل مكة في قول شبل بن عباد: من صعقته الصاعقة، أو من أصعقته، وقرأ الجمهور وأهل مكة في قول إسماعيل: يصعقون بفتح الياء والعين، والسلمي بضم الياء وكسر العين من أصعق رباعياً والمراد بذلك اليوم يوم بدر، وقيل: وقت النفخة الأولى فإنه يصعق فيه من في السماوات ومن في الأرض، وتعقب بأنه لا يصعق فيه إلا من كان حياً حينئذ وهؤلاء ليسوا كذلك وبأن قوله تعالى: ﴿يَوْمَ لا يُغْنِي عَنْهُم كَيْدُهُم شيئاً﴾ أي شيئاً من الإغناء بدل من يومهم، ولا يخفى أن التعرّض لبيان عدم نفع كيدهم يستدعي استعمالهم له طمعاً بالانتفاع به وليس ذلك إلا ما دبروه في أمره صلى الله تعالى عليه وسلم من الكيد الذي من جملته مناصبتهم يوم بدر، وأما النفخة الأولى فليست مما يجرى في مدافعته الكيد والحيل، وأجيب عن الأول بمنع اختصاص الصعق بالحي فالموتى أيضاً يصعقون وهم داخلون في عموم «من» وإن لم يكن صعقهم مثل صعق الأحياء من كل وجه وهو خلاف الظاهر فيحتاج إلى نقل صحيح، عن الثاني بأن الكلام على نهج قوله:

على لاحب لا يهتدى بمناره

فالمعنى يوم لا يكون لهم كيد ولا إغناء وهو كثير في القرآن وباب من أبواب البلاغة والإحسان، وقيل: هو يوم القيامة ـ وعليه الجمهور ـ وفيه بحث، وقيل: هو يوم موتهم، وتعقب بأن فيه ما فيه مع أنه تأباه الإضافة المنبئة عن اختصاصه بهم فلا تغفل ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ من جهة الغير في دفع العذاب عنهم ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أي لهم ووضع الموصول موضع الضمير لما ذكر قبل وجوز العموم وهم داخلون دخولاً أولياً ﴿عذاباً﴾ آخر ﴿دونَ ذَٰلكَ﴾ دون ما لاقوه من القتل أي قبله وهو ـ كما قال مجاهد ـ القحط الذي أصابهم سبع سنين.

وعن ابن عباس هو ما كان عليهم يوم بدر والفتح، وفسر ﴿بدون ذلك﴾ بقبل يوم القيامة بناءً على كون يومهم الذي فيه يصعقون ذلك، وعنه أيضاً. وعن البراء بن عازب أنه عذاب القبر وهو مبني على نحو ذلك التفسير، وذهب إليه بعضهم بناءً على أن ﴿دون ذلك﴾ بمعنى وراء ذلك كما في قوله:

يريك القذى من دونها وهو دونها

وإذا فسر اليوم بيوم القيامة ونحوه، و ﴿دون ذلك﴾ بقبله، وأريد العموم من الموصول فهذا العذاب عذاب القبر، أو المصائب الدنيوية، وفي مصحف عبد الله ـ دون ذلك تقريباً ـ ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُم لَا يَعْلَمُونَ﴾ إن الأمر كما ذكر، وفيه إشارة إلى أن فيهم من يعلم ذلك وإنما يصر على الكفر عناداً، أو لا يعملون شيئاً.

﴿وَٱصْبِر لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ بإمهالهم إلى يومهم الموعود وإبقائك فيما بينهم مع مقاساة الأحزان ومعاناة الهموم ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ أي في حفظنا وحراستنا، فالعين مجاز عن الحفظ، ويتجوز بها أيضاً عن الحافظ وهو مجاز مشهور، وفي الكشاف هو مثل أي بحيث نراك ونكلؤك، وجمع العين هنا لإضافته إلى ضمير الجمع ووحد في «طه» لإضافته إلى ضمير الواحد، ولوح الزمخشري ـ في سورة المؤمنين ـ إلى أن فائدة الجمع الدلالة على المبالغة في الحفظ كأن معه من الله تعالى حفاظاً يكلؤونه بأعينهم، وقال العلامة الطيبي: إنه أفرد هنالك لإفراد الفعل وهو كلاءة موسى عليه السلام، وها هنا لما كان لتصبير الحبيب على المكايد ومشاق التكاليف والطاعات ناسب الجمع لأنها أفعال كثيرة كل منها يحتاج إلى حراسة منه عز وجل انتهى، ومن نظر بعين بصيرته علم من الآيتين الفرق بين الحبيب والكليم عليهما أفضل الصلاة وأكمل التسليم، ثم إن الكلام في نظير هذا على مذهب السلف مشهور، وقرأ أبو السمال «بِأَعْيُنَّا» بنون مشددة ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ أي قل سبحان الله ملتبساً بحمده تعالى على نعمائه الفائتة الحصر، والمراد سبحه تعالى واحمده ﴿حِينَ تَقُومُ﴾ من كل مجلس قاله عطاء ومجاهد وابن جبير، وقد صح من رواية أبي داود والنسائي وغيرهما عن أبي برزة الأسلمي «أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم كان يقول إذا أراد أن يقوم من المجلس: سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب اليك فسئل عن ذلك فقال: كفارة لما يكون في المجلس» والآثار في ذلك كثيرة، وقيل: حين تقوم إلى الصلاة، أخرج أبو عبيد وابن المنذر عن سعيد بن المسيب قال: «حق على كل مسلم حين يقوم إلى الصلاة أن يقول: سبحان الله وبحمده لأن الله تعالى يقول لنبيه صلى الله تعالى عليه وسلم: ﴿وسبح بحمد ربك حين تقوم﴾» وأخرج سعيد بن منصور وغيره عن الضحاك أنه قال في الآية: حين تقوم إلى صلاة تقول هؤلاء الكلمات «سبحانك اللهم وبحمدك وتبارك اسمك وتعالى جدك ولا إله غيرك» وحكاه في البحر عن ابن عباس؛ وأخرج عنه ابن مردويه أنه قال: «سبح بحمد ربك حين تقوم من فراشك إلى أن تدخل في الصلاة» وروي نحوه عن ابن السائب، وقال زيد أسلم: «حين تقوم من القائلة والتسبيح إذ ذاك هو صلاة الظهر» وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ﴾ إفراد لبعض الليل بالتسبيح لما أن العبادة فيه أشق على النفس وأبعد عن الرياء كما

يلوح به تقديمه على الفعل ﴿وَإِدبَارَ ٱلنُّجُوم﴾ أي وقت إدبارها من آخر الليل أي غيبتها بضوء الصباح، وقيل: التسبيح من الليل صلاة المغرب والعشاء، ﴿وإدبار النجوم﴾ ركعتا الفجر، وعن عمر رضي الله تعالى عنه وعلي كرم الله تعالى وجهه وأبي هريرة والحسن رضي الله تعالى عنهما التسبيح من الليل النوافل: و ﴿إدبار النجوم﴾ ركعتا الفجر، وقرأ سالم بن أبي الجعد والمنهال بن عمرو ويعقوب ـ أدبار ـ بفتح الهمزة جمع دبر بمعنى عقد أي في أعقابها إذا غربت، أو خفيت بشعاع الشمس.

هذا ونظم الآيات من قوله تعالى: ﴿أم يقولون شاعر﴾ [الطور: ٣٠] إلى قوله سبحانه: ﴿أم لهم إله غير الله﴾ الخ فيه غرابة ولم أر أحداً كشف عن لثامه كصاحب الكشف جزاه الله تعالى خيراً، ولغاية حسنه ـ وكونه مما لا مزيد عليه ـ أحببت نقله بحذافيره لكن مع اختصار مّا، فأقول: قال: أومأ الزمخشري إلى وجهين في ذلك في قوله تعالى: ﴿بل قالوا أضغاث أحلام بل افتراه بل هو شاعر﴾ [الأنبياء: ٥]: أحدهما أنه حكاية قولهم المضطرب على وجهه، والثاني أنه تدرج منه سبحانه في حكاية ما قالوه من المنكر إلى ما هو أدخل فيه، والأول ضعيف فيما نحن فيه لأن ما سيق له الكلام ليس اضطراب أقوالهم فتحكى على ما هي عليه بل تسليته عليه الصلاة والسلام وأنه لا محالة ينتقم له منهم وأن العذاب المكذب به واقع بهم جزاءً لتكذيبهم بالمنبىء والنبأ والمنبأ به، فالمتعين هو الثاني، ووجهه ـ والله تعالى أعلم ـ أن قوله: ﴿فذكر﴾ معناه إذ ثبت كون العذاب واقعاً وكون الفريقين المصدقين والمكذبين مجزيين بأعمالهم، وإنك على الحق المبين الذي من كذب به استحق الهوان، ومن صدق استحق الرضوان فدم على التذكير ولا تبال بما تكايد فإنك أنت الغالب حجة وسيفاً في هذه الدار، ومنزلة ورفعة في دار القرار، ومن قوله تعالى: ﴿فما أنت﴾ إلى قوله سبحانه: ﴿هم المكيدون﴾ تفصيل هذا المجمل مع التعريض بفساد مقالاتهم الحمقاء وأنهم بمرأى من الله تعالى ومسمع فلا محالة ينتقم لنبيه عليه الصلاة والسلام منهم، وفيه أن النبي ﷺ من الله تعالى بمكان لا يقادَر قدره فهو شدّ من عضد التسلي، وقوله سبحانه: ﴿فما أنت بنعمة ربك﴾ [الطور: ٢٩] الخ فيه أن من أنعم عليه بالنبوة يستحيل أن يكون أحد هذين، وبدأ بقولهم المتناقض لينبه أولاً على فساد آرائهم ويجعله دستوراً في إعراضهم عن الحق وإيثار اتباع أهوائهم فما أبعد حال من كان أتقنهم رأياً وأرجحهم عقلاً وأبينهم آياً منذ ترعرع الى أن بلغ الأشدّ عن الجنون والكهانة على أنهما متناقضان لأن الكهان كانوا عندهم من كامليهم وكان قولهم إماماً متبعاً عندهم فأين الكهانة من الجنون، ثم ترقى مضرباً إلى قولهم فيه وحاشاه صلى الله تعالى عليه وسلم أنه شاعر لأنه أدخل في الكذب من الكاهن والمجنون وقديماً قيل: أحسن الشعر أكذبه ليبين حال تلجلجهم واضطرابهم، وقوله تعالى: ﴿قال تربصوا﴾ [الطور: ٣١] من باب المجازاة بمثل صنيعهم وفيه تتميم للوعيد، فهذا باب من إنكارهم هدمه سبحانه أولاً تلويحاً بقوله تعالى: ﴿بنعمة ربك﴾ وثانياً تصريحاً بقوله جل وعلا. ﴿أم تأمرهم أحلامهم﴾ [الطور: ٣٢] كأنه قيل دعهم وتلك المقالة وما فيها من الاضطراب ففيها عبرة، ثم قيل: لا بل ذلك من طغيانهم لأنه أدخل في الذم من نقصان العقل وأبلغ في التسلية لأن من طغى على الله عز وجل فقد باء بغضبه، ثم أخذ في باب أوغل في الإنكار وهو نسبة الافتراء إليه صلى الله تعالى عليه وسلم وذلك لأن الافتراء أبعد شيء من حاله لاشتهاره بالصدق على أن كونه افتراءً وعجزهم عن الأتيان بأقصر سورة من هذا المفتري متنافيان لدلالته على الصدق على ما مر ـ في الأحقاف ـ ولأن الشاعر لا يتعمد الكذب لذاته، ثم قد يكون شعره حكماً ومواعظ وهو لا ينسب فيه إلى عار، والتدرج عن الشعر ها هنا عكس التدرج اليه في الأنبياء لأن بناء الكلام ها هنا على التدرج في المناقضة والتوغل في القدح فيه عليه الصلاة والسلام ونفي رسالته، وهنالك عن القدح في بعض من الذكر متجدد النزول فقيل: إن افتراءه لا

يبعد ممن هو شاعر ذو افتراءات كثيرة، وأين هذا من ذاك؟ وللتنبيه على التوغل جيء بصريح حرف الاضراب في الردّ فقيل: ﴿بل لا يؤمنون ﴾ [الطور: ٣٣] وعقب بقوله تعالى: ﴿فليأتوا ﴾ [الطور: ٣٤] ثم من لا يؤمن أشد إنكاراً له من الطاغي كما أن المفتري أدخلُ في الكذب من الشاعر، ثم أخذ في أسلوب أبلغ في الرد على مقالاتهم الجنون والكهانة لتقاربهما، ثم الشعر، ثم الافتراء حيث نزل القائلين منزلة من يدعي أنه خلق من غير شيء أي مقدر وخالق وإلا لأهمهم البحث عن صفاته وأفعاله فلم ينكروا منك ما أنكروا، ومن حسب أنه مستغن عن الموجد نسب رسوله إلى الجنون والكهانة لا بل كمن يدعي أنه خالق نفسه فلا خالق له ليبحث عن صفاته فهو ينسبه إلى الشعر إذ لا يرسل إليه البتة، والشعر أدخل في الكذب لا بل كمن يدعي أنه خلق السماوات والأرض وما بينهما فهو ينسبه الى الافتراء حيث لم يرسله، ثم أضرب صريحاً عنه بقوله تعالى: ﴿بل لا يوقنون ﴾ [الطور: ٣٦] ومن لا إيقان له بمثل هذا البديهي لا يبعد أن يزنك بمازن، فكأنه قيل: مقالتهم تلك تؤدي إلى هذه لا أنهم كانوا قائلين بها إظهاراً لتماديهم في العناد، ثم بولغ فيه فجيء بما يدل على أن الرسول لا بد أن يكون مفترياً غير صالح للنبوة في زعمهم، فالأول لما لم يمنع تعدد الآلهة إنما يدل على افترائه من حيث إن أحد الخالقين لا يدعو الآخر إلى عبادته، والثاني يمنعه بالكلية لأنه إذا كان عندهم جميع خزائن ربه وهم ما أرسلوه لزم أن يكون مفتريا ألبتة، وأدمج فيه إنكارهم للمعاد، ونسبتهم إياه صلى الله تعالى عليه وسلم في ذلك أيضاً خاصة إلى الافتراء، والحمل على خزائن القدرة أظهر لأن ﴿أم عندهم الغيب ﴾ [الطور: ٤١] إشارة إلى خزائن العلم ولما كان المقصود هنالك أمر البعث على ما سيحقق إن شاء الله تعالى كان هذا القول أيضاً من القبول بمكان ولا يخفى ما في قوله تعالى: ﴿أم هو المسيطرون ﴾ [الطور: ٣٧] من الترقي ثم لما فرغ من ذلك وبيَّن فساد ما بنوا عليه أمر الإنكار بدليل العقل قيل: لم يبق إلا المشاهدة والسماع منه تعالى وهو أظهر استحالة فتهكم بهم، وقيل: ﴿بل لهم سلم يستمعون ﴾ [الطور: ٣٨] وذيل بقوله تعالى: ﴿أو له البنات ﴾ [الطور: ٣٩] إشعاراً بأنه من جعل خالقه أدون حالاً منه لم يستبعد منه تلك المقالات الخرقاء كأنه سلى صلى الله تعالى عليه وسلم؛ وقيل: ناهيك بتساوي الطعنين في البطلان وبما يلقون من سوء مغبتهما، ثم قيل: ﴿أن تسألهم أجراً ﴾ [الطور: ٤٠] أي إن القوم أرباب ألبابٍ وليسوا من تلك الأوصاف في شيء بل الذي زهدهم فيك أنك تسألهم أجراً مالاً، أو جاهاً، أو ذكراً، وفيه تهكم بهم وذم لهم بالحسد واللؤم وأنهم مع قصور نظرهم عن أمر الميعاد لا ينبون الأمر على المتعارف المعتاد إذ لا أحد من أهل الدنيا وذوي الأخطار يجبه الناصح المبرأ ساحته عن لوث الطمع بتلك المقالات على أنه حسد لا موقع له عند ذويه فليسوا في أن يحصل لهم نعمة النبوة ولا هو ممن يطمع في نعمهم إحدى الثلاث، ثم قيل ﴿أم عندهم الغيب ﴾ على معنى بل أعندهم اللوح فيعلمون كل ما هو كائن ويكتبون فيه تلك المعلومات وقد علموا أن ما تدعيه من المعاد ليس من الكائن المكتوب، والمقصود من هذا نفي المنبأ به أعني البعث على وجه يتضمن دفع النبوة أيضاً إدماجاً عكس الأول ولهذا أخره عن قوله تعالى: ﴿أم لهم سلم ﴾ فقد سلف أن مصب الغرض حديث النبأ والمنبأ والمنبأ به فقضى الوطر من الأولين مع الرمز الى الأخير: ثم أخذ فيه مع الرمز إليهما قضاء لحق الإعجاز، ففي الغيب إشارة إلى الغيب أعني الساعة أول كل شيء وفيه ترق في الدفع من وجه أيضاً لأن العلم أشمل موردا من القدرة ولأن الأول إنكار من حيث إنهم لم يرسلوه، وهذا من تلك الحيثية، ومن حيث إنهم ما علموا بإرسال غيره إياه أيضاً مع إحاطة علمهم لكنه غير مقصود قصداً أولياً، ثم ختم الكلام بالإضراب عن الإنكار إلى الأخبار عن حالهم بأنهم يريدون بك كيداً فهم ينصبون لك الحبائل قولاً وفعلاً لا يقفون على هذا المقالة وحدها وهم المكيدون لا أنت قولاً وفعلاً وحجة وسيفاً، وحقق ما ضمنه من الوعيد بقوله سبحانه: ﴿**أم لهم إله غير الله** ﴾ فينجيهم من كيده وعذابه لا والله سبحان الله عن أن يكون إله غيره، ومنه يظهر أن حمل الذين كفروا على المريدين به كيداً

أظهر في هذا المساق انتهى، وكأن ما بعد تأكيداً لأمر(١) طغيانهم ومزيد تحقيق للوعيد ومبالغة في التسلية، ويعلم مما ذكره ـ لا زالت رحمة الله تعالى عليه متصلة ـ أن ﴿أم﴾ في كل ذلك منقطعة وهي مقدرة ببل الإضرابية، والإضراب ها هنا واقع على سبيل الترقي وبالهمزة وهي للإنكار وهو ما اختاره أبو البقاء وكثير من المفسرين، وحكى الثعلبي عن الخليل أنها متصلة والمراد بها الاستفهام، وعليك بما أفاده كلام ذلك الهمام والله تعالى أعلم.

ومما ذكروه من باب الاشارة في بعض الآيات ﴿والطور﴾ إشارة إلى قالب الإنسان ﴿وكتاب مسطور﴾ إشارة إلى سره ﴿في رق منشور﴾ إشارة إلى قلبه ﴿والبيت المعمور﴾ إشارة إلى روحه ﴿والسقف المرفوع﴾ إشارة إلى صفته ﴿والبحر المسجور﴾ إشارة إلى نفسه المسجورة بنيران الشهوة والغضب والكبر، وقيل: ـ الطور ـ إشارة إلى ما طار من الأرواح من عالم القدس والملكوت حتى وقع في شباك عالم الملك ـ والكتاب المسطور في الرق المنشور ـ إشارة إلى النقوش الإلهية المدركة بأبصار البصائر القدسية المكتوبة في صحائف الآفاق ﴿والبيت المعمور﴾ إشارة إلى قلب المؤمن المعمور بالمعرفة والإخلاص ﴿والسقف المرفوع﴾ إشارة إلى العالم العلوي المرفوع عن أرض الطبيعة ﴿والبحر المسجور﴾ إشارة إلى بحر القدرة المملوء من أنواع المقدورات التي لا تتناهى، وقيل: إشارة إلى الفضاء الذي فيه الملائكة المهيمون، ووصفه ـ بالمسجور ـ إما لأنه مملوء منهم، وإما لأنه سجر بنيران الهيام ولذا لا يعلم أحدهم بسوى الله عز وجل، وقيل: غير ذلك ﴿فويل يومئذ للمكذبين الذين هم في خوض يلعبون﴾ أي يخوضون في غمرات البحر اللجى الدنيوي ويلعبون فيها بزبدها الباطل ومتاعها القليل ويكذبون المستخلصين عن الأكدار المتحلين بالأنوار إذ أنذروهم أن المتقين هم أضداد أولئك ﴿فاكهين بما آتاهم ربهم﴾ مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ﴿ووقاهم ربهم عذاب الجحيم﴾ وهو عذاب الحجاب ﴿كلوا﴾ من ثمرات المعارف المختصة باللطيفة النفسية ﴿واشربوا﴾ من مياه العيون المختصة باللطيفة القلبية ﴿وسبح بحمد ربك حين تقوم﴾ أي مقام العبودية ﴿ومن الليل فسبحه﴾ أي عند نزول السكينة عليك ﴿وإدبار النجوم﴾ أي عند ظهور نور شمس الوجه، وتسبيحة سبحانه عند ذلك بالاحتراز عن إثبات وجود غير وجوده تعالى الحق فإن إثبات ذلك شرك مطلق في ذلك المقام أعاذنا الله تعالى وإياكم من الشرك بحرمة الحبيب عليه الصلاة والسلام.

---

(١) هكذا الأصل وصوابه «تأكيد لأمر طغيانهم» برفع تأكيد.

(٥٣) سُورَةُ النَّجْمِ مَكِّيَّةٌ
وَآيَاتُهَا ثِنْتَانِ وَسِتُّونَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿والنجم إذا هوى﴾ وقبل الشروع فى التفسير نقدم مسائل ثم نتفرغ للتفسير وإن لم تكن منه :

﴿الأولى﴾ أول هذه السورة مناسب لآخر ما قبلها لفظاً ومعنى ، أما اللفظ فلأن ختم والطور بالنجم ، وافتتاح هذه بالنجم مع واو القسم ، وأما المعنى فنقول : الله تعالى لما قال لنبيه صلى الله عليه وسلم (ومن الليل فسبحه وإدبار النجوم) بين له أنه جزاءه فى أجزاء مكايدة النبى صلى الله عليه وسلم ، بالنجم و بعده فقال (ما ضل صاحبكم وما غوى) .

﴿المسألة الثانية﴾ السورة التى تقدمت وافتتاحها بالقسم بالأسماء دون الحروف وهى الصافات والذاريات ، والطور ، وهذه السورة بعدها بالأولى فيها القسم لإثبات الوحدانية كما قال تعالى (إن إلهكم لواحد) وفى الثانية لوقوع الحشر والجزاء كما قال تعالى (إنما توعدون لصادق وإن الدين لواقع) وفى الثالثة لدوام العذاب بعد وقوعه كما قال تعالى (إن عذاب ربك لواقع ماله من دافع) وفى هذه السورة لنبوة النبى ﷺ لتكمل الأصول الثلاثة : الوحدانية ، والحشر ، والنبوة .

﴿المسألة الثالثة﴾ لم يقسم الله على الوحدانية ولا على النبوة كثيراً ، أما على الوحدانية فلأنه أقسم بأمر واحد فى سورة الصافات ، وأما على النبوة فلأنه أقسم بأمر واحد فى هذه السورة وبأمرين فى سورة الضحى وأكثر من القسم على الحشر وما يتعلق به فإن قوله تعالى (والليل إذا يغشى) وقوله تعالى (والشمس وضحاها) وقوله تعالى (والسماء ذات البروج) إلى غير ذلك ، كلها فيها الحشر أو ما يتعلق به ، وذلك لأن دلائل الوحدانية كثيرة كلها عقلية كما قيل :

وفى كل شىء له آية تدل على أنه واحد

ودلائل النبوة أيضاً كثيرة وهى المعجزات المشهورة والمتواترة ، وأما الحشر فإمكانه يثبت بالعقل ، وأما وقوعه فلا يمكن إثباته إلا بالسمع فأكثر القسم ليقطع به المكلف ويعتقده اعتقاداً جازماً ، وأما التفسير ففيه مسائل :

﴿الأولى﴾ الواو للقسم بالنجم أو برب النجم ففيه خلاف قدمناه ، والأظهر أنه قسم بالنجم

يقال ليس للقسم فى الأصل حرف أصلا لكن الباء والواو استعملنا فيه لمعنى عارض ، وذلك لأن الباء فى أصل القسم هى الباء التى للالصاق والاستعانة فكما يقول القائل : استعنت بالله ، يقول : أقسمت بالله ، وكما يقول : أقوم بعون الله على العدو ، يقول : أقسم بحق الله . فالباء فيهما بمعنى كما تقول : كتب بالقلم ، فالباء فى الحقيقة ليست للقسم غير أن القسم كثر فى الكلام فاستغنى عن ذكره وغيره لم يكثر فلم يستغن عنه ، فإذا قال القائل : بحق زيد فهم منه القسم لأن المراد لو كان هو مثل قوله : ادخل زيد ، أو اذهب بحق زيد ، أولم يقسم بحق زيد لذكر كما ذكر فى هذه الأشياء لعدم الاستغناء فلما لم يذكر شىء علم أن الحذف للشهرة والاستغناء ، وذلك ليس فى غير القسم فعلم أن المحذوف فعل القسم ، فكأنه قال : أقسم بحق زيد ، فالباء فى الأصل ليس للقسم لكن لما عرض ما ذكرنا من الكثرة والاشتهار قيل الباء للقسم ، ثم إن المتكلم نظر فيه فقال هذا لايخلو عن التباس فإنى إذا قلت بالله توقف السامع فإن سمع بعده فعلا غير القسم كقوله : بالله استعنت وبالله قدرت وبالله مشيت وأخذت ، لا يحمله على القسم ، وإن لم يسمع حمله على القسم إن لم يتوهم وجود فعل ما ذكرته ولم يسمعه ، أما إن توهم أنى ذكرت مع قولى بالله شيئاً آخر وما سمعه هو أيضاً يتوقف فيه فنى الفهم توقف ، فإذا أراد المتكلم الحكيم إذهاب ذلك مع الاختصار وترك ما استغنى عنه ، وهو فعل القسم أبدل الباء بالتاء ، وقال : تالله ، فتكلم بها فى كلمة الله لاشتهار كلمة الله والأمن من الإلتباس فإن التاء فى أوائل الكلمات قد تكون أصلية ، وقد تكون للخطاب والتأنيث ، فلو أقسم بحرف التاء بمن إسمه داعى أو راع أو هادى أو عادى يقول تداعى أو تراعى أو تهادى أو تعادى فيلتبس ، وكذلك فيمن اسمه رومان أو توران إذا قلت : ترومان أو تتوران على أنك تقسم بالتاء تلتبس بتاء الخطاب والتأنيث فى الاستقبال ، فأبدلوها واواً لا يقال عليه إشكالان (الأول) مع الواو لم يؤمن الالتباس ، نقول ولى فتلتبس الواو الأصلية بالتى للقسم لأنا نقول ذلك لم يلزم فيما ذهبنا إليه ، وإنما كان ذلك فى الواو حيث يدل وينبىء عن العطف وإن لم يستعمل الواو للقسم ، كيف وذلك فى الباء التى هى كالأصل متحقق تقول برام فى جمع برمة ، وبهام فى جمع بهمة ، وبغال للبسية الباء الأصلية التى فى البغال والبرام بالباء التى تلصقها بقولك مال ورأى فتقول بمال ، وأما التاء لما استعملت للقسم لزم من ذلك الاستعمال الالتباس حيث لم يكن من قبل حرفاً من الأدوات كالباء والواو (الإشكال الثانى) لم تركت مما لا التباس فيه كقولك : تالرحيم وتالعظيم ؟ نقول : لما كانت كلمة الله تعالى فى غاية الشهرة والظهور استعملت التاء فيها على خلاف الأصل ، بمعنى لم يجز أن يقاس عليها إلا ما يكون فى شهرتها ، وأما غيرها فربما يخفى عند البعض ، فإن من يسمع الرحيم وسمع فى الندرة تر بمعنى قطع ربما يقول ترحيم فعل وفاعل أوفعل ومفعول وإن كان ذلك فى غاية البعد لكن الاستواء فى الشهرة فى المنقول منه والمنقول إليه لازم ، ولا مشهور مثل كلمة الله ، على أنا نقول لم قلت إن عند الأمن لا تستعمل ألا ترى أنه نقل عن العرب برب الكعبة

والذى يؤيد ماذكرنا أنت تقول أقسم بالله ولا تقول أقسم تالله لأن التاء فيه مخافة الالتباس عند حذف الفعل من القسم وعند الإتيان به لم يخف ذلك فلم يجز .

﴿ المسألة الثانية ﴾ اللام فى قوله تعالى (والنجم) لتعريف العهد فى قول ولتعريف الجنس فى قول ، والأول قول من قال (والنجم) المراد منه الثريا ، قال قائلهم :

إن بدا النجم عشياً ابتغى الراعى كسيا

والثانى فيه وجوه (أحدها) النجم هو نجم السماء التى هى ثابتة فيها للاهتداء وقيل لا بل النجم المنقضة فيها التى هى رجوم للشياطين (ثانيها) نجوم الأرض وهى من النبات مالا ساق له (ثالثها) نجوم القرآن ولنذكر مناسبة كل وجه ونبين فيه المختار منها ، أما على قولنا المراد الثريا فهو أظهر النجوم عند الرائى لأن له علامة لا يلتبس بغيره فى السماء ويظهر لكل أحد والنبى ﷺ تميز عن الكل بآيات بينات فأقسم به ، ولأن الثريا إذا ظهرت من المشرق بالبكر حان إدراك الثمار ، وإذا ظهرت بالعشاء أو اخر الخريف تقل الأمراض والنبى صلى الله عليه وسلم لما ظهر قل الشك والأمراض القلبية وأدركت الثمار الحكمية والحلمية ، وعلى قولنا المراد هى النجوم التى فى السماء للاهتداء نقول النجوم بها الاهتداء فى البرارى فأقسم الله بها لما بينهما من المشابهة والمناسبة ، وعلى قولنا المراد الرجوم من النجوم ، فالنجوم تبعد الشياطين عن أهل السماء والأنبياء يبعدون الشياطين عن أهل الأرض ، وعلى قولنا المراد القرآن فهو استدل بمعجزة النبى صلى الله عليه وسلم على صدقه وبراءته فهو كقوله تعالى (يس ، والقرآن الحكيم إنك لمن المرسلين على صراط مستقيم) ما ضللت ولا غويت ، وعلى قولنا النجم هو النبات ، فنقول النبات به ثبات القوى الجسمانية وصلاحها والقوة العقلية أولى بالإصلاح ، وذلك بالرسل وإيضاح السبل ، ومن هذا يظهر أن المختار هو النجوم التى هى فى السماء لأنها أظهر عند السامع وقوله (إذا هوى) أدل عليه ، ثم بعد ذلك القرآن أيضاً فيه ظهور ثم الثريا .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ القول فى (والنجم) كالقول فى (والطور) حيث لم يقل والنجوم ولا الأطوار ، وقال (والذاريات ، والمرسلات) وقد تقدم ذكره .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ ما الفائدة فى تقييد القسم به بوقت هو به ؟ نقول النجم إذا كان فى وسط السماء يكون بعيداً عن الأرض لا يهتدى به السارى لأنه لا يعلم به المشرق من المغرب ولا الجنوب من الشمال ، فإذا زال تبين بزواله جانب المغرب من المشرق والجنوب من الشمال كذلك النبى صلى الله عليه وسلم خفض جناحه للمؤمنين وكان على خلق عظيم كما قال تعالى (وإنك لعلى خلق عظيم) وكما قال تعالى (فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك) فإن قيل الاهتداء بالنجم إذا كان على أفق المشرق كالاهتداء به إذا كان على أفق المغرب فلم يبق ما ذكرت جواباً عن السؤال ، نقول الاهتداء بالنجم وهو مائل إلى المغرب أكثر لأنه يهدى فى

مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣﴾

الطريقين الدنيوى والدينى ، أما الدنيوى فلما ذكرنا ، وأما الدينى فكما قال الخليل (لا أحب الآفلين) وفيه لطيفة ، وهى أن الله لما أقسم بالنجم شرفه وعظمه ، وكان من المشركين من يعبده فقرن بتعظيمه وصفاً يدل على أنه لم يبلغ درجة العبادة ، فإنه هاو آفل .

قوله تعالى : ﴿ ماضل صاحبكم وما غوى ﴾ أكثر المفسرين لم يفرقوا بين الضلال والغى ، والذى قاله بعضهم عند محاولة الفرق : أن الضلال فى مقابلة الهدى ، والغى فى مقابلة الرشد ، قال تعالى (وإن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلا ، وإن يروا سبيل الغى يتخذوه سبيلا) وقال تعالى (قد تبين الرشد من الغى) وتحقيق القول فيه أن الضلال أعم استعمالا فى الوضع ، تقول ضل بعيرى ورحلى ، ولا تقول غوى ، فالمراد من الضلال أن لا يجد السالك إلى مقصده طريقاً أصلا ، والغواية أن لا يكون له طريق إلى المقصد مستقيم يدلك على هذا أنك تقول للمؤمن الذى ليس على طريق السداد إنه سفيه غير رشيد ، ولا تقول إنه ضال ، والضال كالكافر ، والغاوى كالفاسق ، فكأنه تعالى قال (ما ضل) أى ما كفر ، ولا أقل من ذلك فما فسق ، ويؤيد ما ذكرنا قوله تعالى (فإن آنستم منهم رشداً فادفعوا إليهم أموالهم) أو نقول الضلال كالعدم ، والغواية كالوجود الفاسد فى الدرجة والمرتبة ، وقوله (صاحبكم) فيه وجهان (الأول) سيدكم (والآخر) مصاحبكم ، يقال صاحب البيت ورب البيت ، ويحتمل أن يكون المراد من قوله (ما ضل) أى ما جن ، فإن المجنون ضال ، وعلى هذا فهو كقوله تعالى (ن ، والقلم وما يسطرون ، ما أنت بنعمة ربك بمجنون ، وإن لك لأجراً غير ممنون) فيكون إشارة إلى أنه ماغوى ، بل هو رشيد مرشد دال على الله بإرشاد آخر ، كما قال تعالى (قل ماأسألكم عليه من أجر) وقال (إن أجرى إلا على الله) وقوله تعالى (وإنك لعلى خلق عظيم) إشارة إلى قوله ههنا ﴿ وما ينطق عن الهوى ﴾ فإن هذا خلق عظيم ، ولنبين الترتيب فنقول : قال أولا (ماضل) أى هو على الطريق (وما غوى) أى طريقه الذى هو عليه مستقيم (وما ينطق عن الهوى) أى هو راكب متنه آخذ سمت المقصود ، وذلك لأن من يسلك طريقاً ليصل إلى مقصده فربما يبقى بلا طريق ، وربما يجد إليه طريقاً بعيداً فيه متاعب ومهالك ، وربما يجد طريقاً واسعاً آمناً ، ولكنه يميل يمنة ويسرة فيبعد عنه المقصد ، ويتأخر عليه الوصول ، فإذا سلك الجادة وركب متنها كان أسرع وصولا ، ويمكن أن يقال (وما ينطق عن الهوى) دليل على أنه ماضل وما غوى ، تقديره : كيف يضل أو يغوى وهو لا ينطق عن الهوى ، وإنما يضل من يتبع الهوى ، ويدل عليه قوله تعالى (ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله) فإن قيل ما ذكرت من الترتيب الأول على صيغة الماضى فى قوله (ما ضل) وصيغة المستقبل فى قوله (وما ينطق) فى غاية الحسن ، أى ماضل حين اعتزلكم وما تعبدون فى صغره (وما غوى) حين

إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾

اختلى بنفسه ورأى منامه (ما رأى) (وما ينطق عن الهوى) الآن حيث أرسل إليكم وجعل رسولا شاهداً عليكم ، فلم يكن أولا ضالا ولا غاوياً ، وصار الآن منقذاً من الضلالة ومرشداً وهادياً . وأما على ماذكرت أن تقديره كيف يضل وهو لا ينطق عن الهوى فلا توافقه الصيغة ؟ نقول بلى ، وبيانه أن الله تعالى يصون من يريد إرساله فى صغره عن الكفر ، والمعايب القبيحة كالسرقة والزنا واعتياد الكذب ، فقال تعالى (ماضل) فى صغره ، لأنه لا ينطق عن الهوى ، وأحسن مايقال فى تفسير (الهوى) أنها المحبة ، لكن من النفس يقال هويته بمعنى أحببته لكن الحروف التى فى هوى تدل على الدنو والنزول والسقوط ومنه الهاوية ، فالنفس إذا كانت دنيئة ، وتركت المعالى وتعلقت بالسفاسف فقد هوت فاختص الهوى بالنفس الأمارة بالسوء ، ولو قلت أهواه بقلبى لزال مافيه من السفالة ، لكن الاستعمال بعد استبعاد استعمال القرآن حيث لم يستعمل الهوى إلا فى المواضع الذى يخالف المحبة ، فانها مستعملة فى موضع المدح ، والذى يدل على ما ذكرنا قوله تعالى (فأما من طغى وآثر الحياة الدنيا) إلى قوله (ونهى النفس عن الهوى) إشارة إلى علو مرتبة النفس .

قوله تعالى : ﴿ إن هو إلا وحي يوحى ﴾ بكلمة البيان ، وذلك لأنه تعالى لما قال (وما ينطق عن الهوى) كأن قائلا قال : فبماذا ينطق أعن الدليل أو الاجتهاد ؟ فقال لا ، وإنما ينطق عن الله بالوحي ، وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ (إن) استعملت مكان ما للنفى ، كما استعملت ما للشرط مكان إن ، قال تعالى (ماننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها) والمشابهة بينهما من حيث اللفظ والمعنى ، أما اللفظ فلأن إن من الهمزة والنون ، وما من الميم والألف ، والألف كالهمزة والنون كالميم ، أما الأول فبدليل جواز القلب ، وأما الثانى فبدليل جواز الادغام ووجوبه ، وأما المعنى فلأن إن تدل على النفى من وجه ، وعلى الإثبات من وجه ، ولكن دلالتها على النفى أقوى وأبلغ ، لأن الشرط والجزاء فى صورة استعمال لفظة إن يجب أن يكون فى الحالة معدوما إذا كان المقصود الحث أو المنع ، تقول إن تحسن فلك الثواب ، وإن تسيء فلك العذاب ، وإن كان المراد بيان حال القسمين المشكوك فيهما كقولك : إن كان هذا الفص زجاجاً فقيمته نصف ، وإن كان جوهراً فقيمته ألف ، فههنا وجود شيء منهما غير معلوم وعدم العلم حاصل ، وعدم العلم ههنا كعدم الحصول فى الحث والمنع ، فلا بد فى صور استعمال إن عدم ، إما فى الأمر ، وإما فى العلم ، وإما الوجود فذلك عند وجود الشرط فى بيان الحال ، ولهذا قال النحاة : لا يحسن أن يقال إن احمر البسر آتيك ، لأن ذلك أمر سيوجد لامحالة ، وجوزوا استعمال إن فيما لا يوجد أصلا ، يقال فى قطع الرجاء

إن ابيض القار تغلبني ، قال الله تعالى (فإن استقر مكانه فسوف تراني) ولم يوجد الاستقرار ولا الرؤية ، فعلم أن دلالته على النفي أتم ، فإن مدلوله إلى مدلول ما أقرب فاستعمل أحدهما مكان الآخر هذا هو الظاهر ، وما يقال إن وما ، حرفان نافيان في الأصل ، فلا حاجة إلى الترادف .

﴿ المسألة الثانية ﴾ هو ضمير معلوم أو ضمير مذكور ، نقول فيه وجهان (أشهرهما) أنه ضمير معلوم وهو القرآن ، كأنه يقول : ما القرآن إلا وحي ، وهذا على قول من قال النجم ليس المراد منه القرآن ، وأما على قول من يقول هو القرآن فهو عائد إلى مذكور (والوجه الثاني) أنه عائد إلى مذكور ضمناً وهو قول النبي ﷺ وكلامه وذلك لأن قوله تعالى (وما ينطق عن الهوى) في ضمنه النطق وهو كلام وقول فكأنه تعالى يقول وما كلامه وهو نطقه إلا وحي وفيه وجه آخر أبعد وأدق ، وهو أن يقال قوله تعالى (ماضل صاحبكم) قد ذكر أن المراد منه في وجه أنه ما جن وما مسه الجن فليس بكاهن ، وقوله (وما غوى) أي ليس بينه وبين الغواية تعلق ، فليس بشاعر ، (فإن الشعراء يتبعهم الغاوون) ، وحينئذ يكون قوله . (وما ينطق عن الهوى) ردا عليهم حيث قالوا قوله (قوله كاهن) وقالوا قوله (قول شاعر) فقال ما قوله (إلا وحي) وليس بقول (كاهن) ولا (شاعر) كما قال تعالى (وما هو بقول شاعر قليلا ماتؤمنون ، ولا بقول كاهن قليلا ماتذكرون) .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ الوحي اسم أو مصدر ، نقول يحتمل الوجهين ، فإن الوحي اسم معناه الكتاب ومصدر وله معان منها الإرسال والإلهام ، والكتابة والكلام والاشارة والإفهام فإن قلنا هو ضمير القرآن ، فالوحي اسم معناه الكتاب كأنه يقول ، ما القرآن إلا كتاب ويوحى بمعنى يرسل ، ويحتمل على هذا أيضاً أن يقال هو مصدر ، أي ما القرآن إلا إرسال وإلهام ، بمعنى المفعول أي مرسل ، وإن قلنا المراد من قوله (إن هو) قوله وكلامه فالوحي حينئذ هو الإلهام ماهم من الله ، أو مرسل وفيه مباحث :

﴿ البحث الأول ﴾ الظاهر خلاف ما هو المشهور عند بعض المفسرين وهو أن النبي ﷺ ماكان ينطق إلا عن وحي ، ولا حجة لمن توهم هذا في الآية ، لأن قوله تعالى (إن هو إلا وحي يوحى) إن كان ضمير القرآن فظاهر وإن كان ضميراً عائداً إلى قوله فالمراد من قوله هو القول الذي كانوا يقولون فيه إنه قول شاعر ، ورد الله عليهم فقال (ولا بقول شاعر) وذلك القول هو القرآن ، وإن قلنا بما قالوا به فينبغي أن يفسر الوحي بالإلهام .

﴿ البحث الثاني ﴾ هذا يدل على أنه ﷺ لم يجتهد وهو خلاف الظاهر ، فإنه في الحروب اجتهد وحرم ما قال الله لم يحرم وأذن لمن قال تعالى (عفا الله عنك لم أذنت لهم) ، نقول على ما ثبت لاتدل الآية عليه .

﴿ البحث الثالث ﴾ يوحى يحتمل أن يكون من وحي يوحي ويحتمل أن يكون من أوحى يوحي ، تقول عدم يعدم ، وأعدم يعدم وكذلك علم يعلم وأعلم يعلم فنقول يوحى من أوحى لامن وحي ، وإن كان وحي وأوحى كلاهما جاء بمعنى ولكن الله في القرآن عند ذكر المصدر لم يذكر

الإيحاء الذى هو مصدر أوحى ، وعند ذكر الفعل لم يذكر وحى ، الذى مصدره وحى ، بل قال عند ذكر المصدر الوحى ، وقال عند ذكر الفعل (أوحى) وكذلك القول فى أحب وحب فإن حب وأحب بمعنى واحد ، والله تعالى عند ذكر المصدر لم يذكر فى القرآن الإحباب ، وذكر الحب الى (أو أشد حباً) وعند الفعل لم يقل حبه الله بل قال (يحبهم ويحبونه) ، وقال (أيحب أحدكم) وقال (لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون) إلى غير ذلك وفيه سر من علم الصرف وهو أن المصدر والفعل الماضى الثلاثى فيهما خلاف قال بعض علماء الصرف المصدر مشتق من الفعل الماضى ، والماضى هو الأصل ، والدليل عليه وجهان ، لفظى ومعنوى :

أما اللفظى فإنهم يقولون مصدر فعل يفعل إذا كان متعدياً فعلا بسكون العين ، وإذا كان لازماً فعول فى الأكثر ، ولا يقولون الفعل الماضى من فعول فعل ، وهذا دليل ما ذكرنا .

وأما المعنوى فلأن مايوجد من الأمور لايوجد إلا وهوخاص وفى ضمنه العام مثاله الإنسان الذى يوجد ويتحقق يكون زيداً أن عمراً أو غيرهما ، ويكون فى ضمنه أنه هندى أوتركى وفى ضمن ذلك أنه حيوان وناطق ، ولا يوجد أولا إنسان ثم يصير تركياً ثم يصير زيداً أو عمراً .

إذا علمت هذا فالفعل الذى يتحقق لاينفك من أن يكون ماضياً أو مستقبلا وفى ضمنه أنه فعل مع قطع النظر عن مضيه واستقباله مثاله الضرب إذا وجد فأما أن يكون قد مضى أو بعد لم يمض ، والأول ماض والثانى حاضر أومستقبل ، ولا يوجد الضرب من حيث أنه ضرب خالياً عن المضى والحضور والاستقبال ، غير أن العاقل يدرك من فعل وهو يفعل الآن وسيفعل غداً أمراً مشتركا فيسميه فعلا ، كذلك يدرك فى ضرب ، وهو يضرب الآن وسيضرب غداً أمراً مشتركافيسميه ضرباً فضرب يوجد أولا ويستخرج منه الضرب ، والألفاظ وضعت لأمور تتحقق فيها فيعبر بها عنها والأمور المشتركة لا تتحقق إلا فى ضمن أشياء أخر ، فالوضع أولا لما يوجد منه لايدرك منه قبل الضرب ، وهذا ما يمكن أن يقال لمن يقول الماضى أصل والمصدر مأخوذ منه . وأما الذى يقول المصدر أصل والماضى مأخوذ منه فله دلائل منها أن الاسم أصل ، والفعل متفرع ، والمصد اسم ، ولأن المصدر معرب والماضى مبنى ، والإعراب قبل البناء ولأن قال وقال ، وراع وراع ، إذا أردنا الفرق بينهما نرد أبنيتهما إلى المصدر فنقول قال الألف منقلبة من واو بدليل القول ، وقال ألفه منقلبة من ياء بدليل القيل وكذلك الروع والريع . وأما المعقول فلأن الألفاظ وضعت للأمور التى فى الأذهان ، والعام قبل الخاص فى الذهن ، فان الموجود إذا أدرك يقول المدرك هذا الموجود جوهر أو عرض فاذا أدرك أنه جوهر يقول إنه جسم أو غير جسم عند من يجعل الجسم جوهراً وهوالأصح الأظهر ، ثم إذا أدرك كونه جسما يقول هوتام وكذلك الامرإلى أن ينتهى إلى أخص الأشياء إن أمكن الانتهاء إليه بالتقسيم ، فالوضع الأول الفعل وهو المصدر من غير زيادة ، ثم إذا انضم إليه زمان تقول : ضرب أو سيضرب فالمصدر قبل الماضى ، وهذا هو الأصح ، إذا علمت هذا فنقول على مذهب من يقول المصدر فى الثلاثى من الماضى فالحب وأحب كلاهما فى درجة

عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴿٥﴾

واحدة لأن كليهما من حب يحب والمصدر من الثلاثى قبل مصدر المنشعبة بمرتبة ، وعلى مذهب من يقول الماضى فى الثلاثى مأخوذ من المصدر فالمصدر الثلاثى قبل المصدر فى المنشعبة بمرتبتين ثم استعمل مصدر الثلاثى لأنه قبل مصدر المنشعبة ، وأما الفعل فى أحب وأوحى فلأن الألف فيهما تفيد فائدة لا يفيدها الثلاثى المجرد لأن أحب أدخل فى التعدية وأبعد عن توهم اللزوم فاستعمله .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ (إن هو إلا وحى) أبلغ من قول القائل هو وحى ، وفيه فائدة غير المبالغة وهى أنهم كانوا يقولون هو قول كاهن ، هو قول شاعر فأراد نفى قولهم . وذلك يحصل بصيغة النفى فقال ما هو كما يقولون وزاد فقال : بل هو وحى ، وفيه زيادة فائدة أخرى وهو قوله (يوحى) ذلك كقوله تعالى (ولا طائر يطير بجناحيه) وفيه تحقيق الحقيقة فان الفرس الشديد العدو ربما يقال هو طائر فاذا قال يطير بجناحيه يزيل جواز المجاز ، كذلك يقول بعض من لا يحترز فى الكلام ويبالغ فى المبالغة كلام فلان وحى ، كما يقول شعره سحر ، وكما يقول قوله معجزة ، فإذا قال يوحى يزول ذلك المجاز أو يبعد .

ثم قال تعالى ﴿ علمه شديد القوى ﴾ وفيه وجهان أشهرهما عند المفسرين أن الضمير فى علمه عائداً إلى الوحى أى الوحى علمه شديد القوى والوحى إن كان هو الكتاب فظاهر وإن كان الإلهام فهو كقوله تعالى (نزل به الروح الأمين) والأولى أن يقال الضمير عائد إلى محمد صلى الله عليه وسلم تقديره علم محمد شديد القوى جبريل وحينئذ يكون عائداً إلى صاحبكم ، تقديره علم صاحبكم وشديد القوى هو جبريل ، أى قواه العلمية والعملية كلها شديدة فيعلم ويعمل ، وقوله (شديد القوى) فيه فوائد (الأولى) أن مدح المعلم مدح المتعلم فلو قال علمه جبريل ولم يصفه ما كان يحصل للنبى صلى الله عليه وسلم فضيلة ظاهرة (الثانية) هى أن فيه رداً عليهم حيث قالوا أساطير الأولين سمعها وقت سفره إلى الشام ، فقال لم يعلمه أحد من الناس بل معلمه شديد القوى ، والإنسان خلق ضعيفاً وما أوتى من العلم إلا قليلا (الثالثة) فيه وثوق بقول جبريل عليه السلام فقوله تعالى (علمه شديد القوى) جمع ما يوجب الوثوق لأن قوة الإدراك شرط الوثوق بقول القائل لأنا إن ظننا بواحد فساد ذهن ثم نقل إلينا عن بعض الأكابر مسألة مشكلة لا نثق بقوله ونقول هو مافهم ماقال ، وكذلك قوة الحفظ حتى لا نقول أدركها لكن نسيها وكذلك قوة الأمانة حتى لا نقول حرفها وغيرها فقال (شديد القوى) ليجمع هذه الشرائط فيصير كقوله تعالى (ذى قوة عند ذى العرش مكين) إلى أن قال (أمين) ، (الرابعة) فى تسلية النبى ﷺ وهى من حيث إن الله تعالى لم يكن مختصاً بمكان فنسبته إلى جبريل كنسبته إلى محمد صلى الله عليه وسلم فاذا علم بواسطته يكون نقصاً عن درجته فقال ليس كذلك لأنه شديد القوى يثبت لمكالمتنا وأنت

ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ﴿٦﴾ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٧﴾

بعد ما استويت فتكون كموسى حيث خر فكأنه تعالى قد علمه بواسطة ثم علمه من غير واسطة كما قال تعالى (وعلمك مالم تكن تعلم) وقال صلى الله عليه وسلم « أدبني ربي فأحسن تأديبي » .

ثم قال تعالى ﴿ ذو مرة فاستوى ﴾ وفي قوله تعالى (ذو مرة) وجوه : (أحدها) ذو قوة (ثانيها) ذو كمال في العقل والدين جميعاً (ثالثها) ذو منظر وهيبة عظيمة (رابعها) ذوخلق حسن فإن قيل على قولنا المراد ذو قوة قد تقدم بيان كونه ذا قوى في قوله (شديد القوى) فكيف نقول قواه شديدة وله قوة؟ نقول ذلك لا يحسن إن جاء وصفاً بعد وصف ، وأما إن جاء بدلا لا يجوز كأنه قال : علمه ذوقوة وترك شديد القوى فليس وصفاً له . وتقديره : ذو قوة عظيمة أوكاملة وهو حينئذ كقوله تعالى (إنه لقول رسول كريم ، ذي قوة عند ذي العرش مكين) فكأنه قال : علمه ذو قوة فاستوى ، والوجه الآخر في الجواب هو أن إفراد قوة بالذكر ربما يكون لبيان أن قواه المشهورة شديدة وله قوة أخرى خصه الله بها ، يقال : فلان كثير المال ، وله مال لا يعرفه أحد أي أمواله الظاهرة كثيرة وله مال باطن ، على أنا نقول المراد ذو شدة وتقديره : علمه من قواه شديدة وفي ذاته أيضاً شدة ، فإن الإنسان ربما تكون قواه شديدة وفي جسمه صغر وحقارة ورخاوة ، وفيه لطيفة وهي أنه تعالى أراد بقوله (شديد القوى) قوته في العلم .

ثم قال تعالى (ذو مرة) أي شدة في جسمه فقدم العلمية على الجسمية كما قال تعالى (وزاده بسطة في العلم والجسم) وفي قوله (فاستوى) وجهان المشهور أن المراد جبريل أي فاستوى جبريل في خلقه .

ثم قال تعالى ﴿ وهو بالأفق الأعلى ﴾ والمشهور أن هو ضمير جبريل وتقديره استوى كما خلقه الله تعالى بالأفق الشرقي ، فسد المشرق لعظمته ، والظاهر أن المراد محمد صلى الله عليه وسلم معناه استوى بمكان وهو بالمكان العالي رتبة ومنزلة في رفعة القدر لا حقيقة في الحصول في المكان ، فإن قيل كيف يجوز هذا والله تعالى يقول (ولقد رآه بالأفق المبين) إشارة إلى أنه رأى جبريل بالأفق المبين؟ نقول وفي ذلك الموضع أيضاً نقول كما قلنا ههنا إنه صلى الله عليه وسلم رأى جبريل وهو بالأفق المبين يقول القائل رأيت الهلال فيقال له أين رأيته فيقول فوق السطح أي أن الرائي فوق السطح لا المرئي و (المبين) هو الفارق من أبان أي فرق ، أي هو بالأفق الفارق بين درجة الإنسان ومنزلة الملك فإنه صلى الله عليه وسلم انتهى وبلغ الغاية وصار نبياً كما صار بعض الأنبياء نبياً يأتيه الوحي في نومه وعلى هيئته وهو واصل إلى الأفق الأعلى والأفق الفارق بين المنزلتين ، فإن قيل ما بعده يدل على خلاف ماتذهب إليه ، فإن قوله (ثم دنا فتدلى) إلى غيرذلك ، وقوله تعالى (ولقد رآه نزلة أخرى عند سدرة المنتهى) كل ذلك يدل على خلاف ما ذكرته؟ نقول سنبين موافقته لما

ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾

ذكرنا إن شاء الله فى مواضعه عند ذكر تفسيره ، فان قيل الأحاديث تدل على خلاف ما ذكرته حيث ورد فى الأخبار أن جبريل صلى الله عليه وسلم أرى النبى ﷺ نفسه على صورته فسد المشرق فنقول نحن ما قلنا إنه لم يكن وليس فى الحديث أن الله تعالى أراد بهذه الآية تلك الحكاية حتى يلزم مخالفة الحديث ، وإنما نقول أن جبريل أرى النبى ﷺ نفسه مرتين وبسط جناحيه وقد ستر الجانب الشرقى وسده ، لكن الآية لم ترد لبيان ذلك .

ثم قال تعالى ﴿ ثم دنا فتدلى ﴾ وفيه وجوه مشهورة (أحدها) أن جبريل دنا من النبى صلى الله عليه وسلم أى بعد ما مد جناحه وهو بالأفق عاد إلى الصورة التى كان يعتاد النزول عليها وقرب من النبى صلى الله عليه وسلم وعلى هذا ففى (تدلى) ثلاثة وجوه (أحدها) فيه تقديم وتأخير تقديره ثم تدلى من الأفق الأعلى فدنا من النبى ﷺ (الثانى) الدنو والتدلى بمعنى واحد كأنه قال دنا فقرب (الثالث) دنا أى قصد القرب من محمد ﷺ وتحرك عن المكان الذى كان فيه فتدلى فنزل إلى النبى ﷺ (الثانى) على ما ذكرنا من الوجه الأخير فى قوله (وهو بالأفق الأعلى) أن محمداً ﷺ دنا من الخلق والأمة ولان لهم وصار كواحد منهم (فتدلى) أى فتدلى إليهم بالقول اللين والدعاء الرفيق فقال (أنا بشر مثلكم يوحى إلى) وعلى هذا ففى الكلام كمالان كأنه تعالى قال إلا وحى يوحى جبريل على محمد ، فاستوى محمد وكمل فدنا من الخلق بعد علوه وتدلى إليهم وبلغ الرسالة (الثالث) وهو ضعيف سخيف ، وهو أن المراد منه هو ربه تعالى وهو مذهب القائلين بالجهة والمكان ، اللهم إلا أن يريد القرب بالمنزلة ، وعلى هذا يكون فيه ما فى قوله صلى الله عليه وسلم حكاية عن ربه تعالى «من تقرب إلى شبراً تقربت إليه ذراعاً ، ومن تقرب إلى ذراعاً تقربت إليه باعاً ، ومن مشى إلى أتيته هرولة» إشارة إلى المعنى المجازى ، وههنا لما بين أن النبى صلى الله عليه وسلم استوى وعلا فى المنزلة العقلية لا فى المكان الحسى . قال وقرب الله منه تحقيقاً لما فى قوله «من تقرب إلى ذراعا تقربت إليه باعا» .

ثم قال تعالى ﴿ فكان قاب قوسين أو أدنى ﴾ أى بين جبرائيل ومحمد عليهما السلام مقدار قوسين أو أقل ، ورد هذا على استعمال العرب وعادتهم ، فان الأميرين منهم أو الكبيرين إذا اصطلحا وتعاهدا خرجا بقوسيهما ووتر كل واحد منهما طرف قوسه بطرف قوس صاحبه ومن دونهما من الرعية يكون كفه بكفه فينهيان باعيهما ، ولذلك تسمى مسايعة ، وعلى هذا ففيه لطيفة وهى أن قوله (قاب قوسين) على جعل كونهما كبيرين ، وقوله (أو أدنى) لفضل أحدهما على الآخر ، فإن الأمير إذا بايعه الرعية لا يكون مع المبايع قوس فيصافحه الأمير فكأنه تعالى أخبر أنهما كأميرين كبيرين فكان بينهما مقدار قوسين أو كان جبرائيل عليه السلام سفيراً بين الله تعالى

ومحمد صلى الله عليه وسلم فكان كالتبع لمحمد صلى الله عليه وسلم فصار كالمبايع الذى يمد الباع لا القوس ، هذا على قول من يفضل النبي صلى الله عليه وسلم على جبرائيل عليه السلام وهومذهب أهل السنة إلا قليلا منهم إذكان جبرائيل رسولا من الله واجب التعظيم والاتباع فصار النبي صلى الله عليه وسلم عنده كالتبع له على قول من يفضل جبريل على النبي صلى الله عليه وسلم ، وفيه وجه آخر على ماذكرنا ، وهو أن يكون القوس عبارة عن بعد من قاس يقوس ، وعلى هذا فنقول ذلك البعد هو البعد النوعى الذى كان للنبي صلى الله عليه وسلم ، فإنه على كل حال كان بشراً ، وجبريل على كل حال كان ملكا ، فالنبي صلى الله عليه وسلم وإن زال عن الصفات التى تخالف صفات الملك من الشهوة والغضب والجهل والهوى لكن بشريته كانت باقية ، وكذلك جبريل وإن ترك الكمال واللطف الذى يمنع الرؤية والاحتجاب ، لكن لم يخرج عن كونه ملكا فلم يبق بينهما إلا اختلاف حقيقتهما ، وأما سائر الصفات الممكنة الزوال فزالت عنهما فارتفع النبي صلى الله عليه وسلم حتى بلغ الأفق الأعلى من البشرية وتدلى جبريل عليه السلام حتى بلغ الأفق الأدنى من الملكية فتقاربا ولم يبق بينهما إلا حقيقتهما ، وعلى هذا ففى فاعل أوحى الأول وجهان (أحدهما) أن الله تعالى أوحى ، وعلى هذا ففى عبده وجهان (أحدهما) أنه جبريل عليه السلام ومعناه أوحى الله إلى جبريل ، وعلى هذا ففى فاعل أوحى الأخير وجهان (أحدهما) الله تعالى أيضاً ، والمعنى حينئذ أوحى الله تعالى إلى جبريل عليه السلام الذى أوحاه إليه تفخيما وتعظيما للموحى (ثانيهما) فاعل أوحى ثانياً جبريل ، والمعنى أوحى الله إلى جبريل ما أوحى جبريل إلى كل رسول ، وفيه بيان أن جبرائيل أمين لم يخن فى شىء مما أوحى إليه ، وهذا كقوله تعالى (نزل به الروح الأمين) وقوله (مطاع ثم أمين) (الوجه الثانى) فى عبده على قولنا الموحى هو الله أنه محمد صلى الله عليه وسلم معناه أوحى الله إلى محمد ماأوحى إليه للتفخيم والتعظيم ، وهذا على ماذكرنا من التفسير ورد على ترتيب فى غاية الحسن ، وذلك لأن محمداً صلى الله عليه وسلم فى الأول حصل فى الأفق الأعلى من مراتب الإنسان وهو النبوة ثم دنا من جبريل وهو فى مرتبة النبوة فصار رسولا فاستوى وتكامل ودنا من الأمة باللطف وتدلى إليهم بالقول الرفيق وجعل يتردد مراراً بين أمته وربه ، فأوحى الله إليه من غير واسطة جبريل ما أوحى (والوجه الثانى) فى فاعل أوحى أولا هو أنه جبريل أوحى أى عبده إلى عبد الله والله معلوم وإن لم يكن مذكوراً وفى قوله تعالى (ويوم نحشرهم جميعاً ثم نقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون ، قالوا سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن) مايوجب القطع بعدم جواز إطلاق هذا اللفظ على النبي صلى الله عليه وسلم ، وعلى هذا ففاعل أوحى ثانياً يحتمل وجهين (أحدهما) أنه جبريل أى أوحى جبريل إلى عبد الله ما أوحاه جبريل للتفخيم (وثانيهما) أن يكون هو الله تعالى أى أوحى جبريل إلى محمد صلى الله عليه وسلم ماأوحى الله إليه وفى الذى وجوه . ﴿ أولها ﴾ الذى أوحى الصلاة .

فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾

﴿ ثانيها ﴾ أن أحداً من الأنبياء لا يدخل الجنة قبلك وأمة من الأمم لا تدخل الجنة قبل أمتك .
﴿ ثالثها ﴾ أن ما للعموم والمراد كل ما جاء به جبريل ، وهذا على قولنا بأن المراد جبريل صحيح ، والوجهان المتقدمان على قولنا المراد محمد عليه الصلاة والسلام أظهر ، وفيه وجه غريب من حيث العربية مشهور معناه عند الأصوليين ، ولنبين ذلك فى معرض الجواب عن سؤال ، وهو أن يقال بم عرف محمد صلى الله عليه وسلم أن جبريل ملك من عند الله وليس أحداً من الجن ، والذى يقال أن خديجة كشفت رأسها امتحاناً فى غاية الضعف إن ادعى ذلك القائل أن المعرفة حصلت بأمثال ذلك ، وهذا إن أراد القصة والحكاية ، وإن خديجة فعلت هذا لأن فعل خديجة غير منكر وإنما المنكر دعوى حصول المعرفة بفعلها وأمثالها ، وذلك لأن الشيطان وربما تستر عند كشف رأسها أصلا فكان يشتبه بالملائكة فيحصل اللبس والإبهام ؟ والجواب الصحيح من وجهين (أحدهما) أن الله أظهر على يد جبريل معجزة عرفه النبي صلى الله عليه وسلم بها كما أظهر على يد محمد معجزات عرفناه بها (وثانيهما) أن الله تعالى خلق فى محمد صلى الله عليه وسلم علماً ضرورياً بأن جبريل من عند الله ملك لا جنى ولا شيطان كما أن الله تعالى خلق فى جبريل علماً ضرورياً أن المتكلم معه هو الله تعالى وأن المرسل له ربه لا غيره . إذا علم الجوابان فنقول :

قوله تعالى ﴿ فأوحى إلى عبده ما أوحى ﴾ فيه وجهان (أحدهما) أوحى إلى محمد ﷺ ما أوحاه إلى جبريل أى كلمه الله أنه وحى أو خلق فيه علماً ضرورياً (ثانيهما) أوحى إلى جبريل ما أوحى إلى محمد دليله الذى به يعرف أنه وحى ، فعلى هذا يمكن أن يقال ما مصدرية تقديره فأوحى إلى محمد صلى الله عليه وسلم الإيحاء أى العلم بالإيحاء ، ليفرق بين الملك والجن .

قوله تعالى : ﴿ ما كذب الفؤاد ما رأى ﴾ وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ الفؤاد فؤاد من ؟ نقول المشهور أنه فؤاد محمد صلى الله عليه وسلم معناه أنه ما كذب فؤاده واللام لتعريف ما علم حاله لسبق ذكر محمد عليه الصلاة والسلام فى قوله (إلى عبده) وفى قوله (وهو بالأفق الأعلى) وقوله تعالى (ما ضل صاحبكم) ويحتمل أن يقال (ما كذب الفؤاد) أى جنس الفؤاد لأن المكذب هو الوهم والخيال يقول كيف يرى الله أو كيف يرى جبريل مع أنه ألطف من الهوى والهواء لا يرى ، وكذلك يقول الوهم والخيال إن رأى ربه رآى فى جهة ومكان وعلى هيئة والكل ينافى كون المرئى إلهاً ، ولو رأى جبريل عليه السلام مع أنه صار على صورة دحية أو غيره فقد انقلبت حقيقته ولو جاز ذلك لارتفع الأمان عن المرئيات ، فنقول رؤية الله تعالى ورؤية جبريل عليه السلام على ما رآه محمد عليه الصلاة والسلام جائزة عند من له قلب فالفؤاد لا ينكر ذلك ، وإن كانت النفس المتوهمة والمتخيلة تنكره .

﴿ المسألة الثانية ﴾ ما معنى (ما كذب) ؟ نقول فيه وجوه : (الوجه الأول) ماقاله الزمخشري وهو أن قلبه لم يكذب وما قال إن ما رآه بصرك ليس بصحيح ، ولو قال فؤاده ذلك لكان كاذباً فيما قاله وهو قريب مما قاله المبرد حيث قال : معناه صدق الفؤاد ، فيما رأى ، [رأى] شيئاً فصدق فيه (الثاني) قرىء (ما كذّب الفؤاد) بالتشديد ومعناه ماقال إن المرئي خيال لا حقيقة له (الثالث) هو أن هذا مقرر لما ذكرنا من أن محمداً صلى الله عليه وسلم ، لما رأى جبريل عليه السلام خلق الله له علماً ضرورياً علم أنه ليس بخيال وليس هو على ماذكرنا قصد الحق ، وتقديره ما جوز أن يكون كاذباً وفي الوقوع وإرادة نفي الجواز كثير قال الله تعالى (لا يخفى على الله منهم شيء) وقال (لا تدركه الأبصار) وقال (وما ربك بغافل) والكل لنفي الجواز بخلاف قوله تعالى (لا نضيع أجر المحسنين) (ولا نضيع أجر من أحسن عملا) ، (ولا يغفر أن يشرك به) فإنه لنفي الوقوع .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ الرائي في قوله (ما رأى) هو الفؤاد أو البصر أو غيرهما ؟ نقول فيه وجوه (الأول) الفؤاد كأنه تعالى قال (ما كذب الفؤاد) ما رآه الفؤاد أي لم يقل إنه جني أو شيطان بل تيقن أن ما رآه بفؤاده صدق صحيح (الثاني) البصر أي (ما كذب الفؤاد) ما رآه البصر ، ولم يقل إن ما رآه البصر خيال (الثالث) ما كذب الفؤاد ما رأى محمد عليه الصلاة والسلام ، وهذا على قولنا الفؤاد للجنس ظاهر أي القلوب تشهد بصحة ما رآه محمد صلى الله عليه وسلم [من الرؤيا] وإن كانت ، الأوهام لا تعترف بها .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ ما المرئي في قوله (ما رأى) ؟ نقول على الاختلاف السابق والذي يحتمل الكلام وجوه ثلاثة : (الأول) الرب تعالى (والثاني) جبريل عليه السلام (والثالث) الآيات العجيبة الإلهية ، فإن قيل كيف تمكن رؤية الله تعالى بحيث لا يقدح فيه ولا يلزم منه كونه جسماً في جهة ؟ نقول ، اعلم أن العاقل إذا تأمل وتفكر في رجل موجود في مكان ، وقال هذا مرئي الله تعالى يراه الله ، و[إذا] تفكر في أمر لا يوجد أصلا وقال هذا مرئي الله تعالى يراه الله تعالى . يجد بينهما فرقاً وعقله يصحح الكلام الأول ويكذب الكلام الثاني ، فذلك ليس بمعنى كونه معلوماً لأنه لو قال الموجود معلوم الله والمعدوم معلوم الله لما وجد في كلامه خللا واستبعاداً فالله راء بمعنى كونه عالماً ، ثم إن الله يكون رائياً ولا يصير مقابلا للمرئي ، ولا يحصل في جهة ولا يكون مقابلا له ، وإنما يصعب على الوهم ذلك من حيث إنه لم ير شيئاً إلا في جهة فيقول إن ذلك واجب ، ومما يصحح هذا أنك ترى في الماء قمراً وفي الحقيقة ما رأيت القمر حالة نظرك إلى الماء إلا في مكانه فوق السماء فرأيت القمر في الماء ، لأن الشعاع الخارج من البصر اتصل به فرد الماء ذلك الشعاع إلى السماء ، لكن وهمك لما رأى أكثر ما رآه في المقابلة لم يعهد رؤية شيء يكون خلفه إلا بالتوجه إليه ، قال إني أرى القمر ، ولا رؤية إلا إذا كان المرئي في مقابلة الحدقة ولا مقابل للحدقة إلا الماء ، فحكم إذن بناء على هذا أنه يرى القمر في الماء ، فالوهم يغلب العقل في العالم لكون الأمور العاجلة أكثرها وهمية

أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾

حسية ، وفى الآخرة تزول الأوهام وتنجلى الأفهام فترى الأشياء لوجودها لا لتحيزها ، واعلم أن من ينكر جواز رؤية الله تعالى ، يلزمه أن ينكر جواز رؤية جبريل عليه السلام ، وفيه إنكار الرسالة وهو كفر ، وفيه ما يكاد أن يكون كفراً ، وذلك لأن من شك فى رؤية الله تعالى يقول لو كان الله تعالى جائز الرؤية لكان واجب الرؤية لأن حواسنا سليمة ، والله تعالى ليس من وراء حجاب ولا هو فى غاية البعد عنا لعدم كونه فى جهة ولا مكان فلو جاز أن يرى ولا نراه ، للزم القدح فى المحسوسات المشاهدات ، إذ يجوز حينئذ أن يكون عندنا جبل ولا نراه ، فيقال لذلك القائل قد صح أن جبريل عليه السلام كان ينزل على محمد صلى الله عليه وسلم وعنده غيره وهو يراه ولو وجب ما يجوز لرآه كل أحد ، فان قيل إن هناك حجاباً نقول وجب أن يرى هناك حجاباً فإن الحجاب لا يحجب إذا كان مرئياً على مذهبهم ، ثم إن النصوص وردت أن محمداً صلى الله عليه وسلم رأى ربه بفؤاده فجعل بصره فى فؤاده أو رآه ببصره فجعل فؤاده فى بصره ، وكيف لا ، وعلى مذهب أهل السنة الرؤية بالإرادة لا بقدرة العبد ، فاذا حصل الله تعالى العلم بالشىء من طريق البصر كان رؤية ، وإن حصله من طريق القلب كان معرفة . والله قادر على أن يحصل العلم بخلق مدرك للمعلوم فى البصر كما قدر على أن يحصله بخلق مدرك فى القلب ، والمسألة مختلف فيها بين الصحابة فى الوقوع واختلاف الوقوع مما ينبىء عن الاتفاق على الجواز والمسألة مذكورة فى الأصول فلا نطولها .

قوله تعالى : ﴿ أفتمارونه على ما يرى ﴾ أى كيف تجادلونه وتوردون شكوككم عليه مع أنه رأى ما رأى عين اليقين ؟ ولا شك بعد الرؤية فهو جازم متيقن وأنتم تقولون أصابه الجن ويمكن أن يقال هو مؤكد للمعنى الذى تقدم ، وذلك لأن من تيقن شيئاً قد يكون بحيث لا يزول عن نفسه تشكيك .

وأكده بقوله تعالى ﴿ ولقد رآه نزلة أخرى عند سدرة المنتهى ﴾ وذلك لأنه صلى الله عليه وسلم لما رآه وهو على بسيط الأرض كان يحتمل أن يقال أنه من الجن احتمالا فى غاية البعد ، لما بينا أنه ﷺ حصل له العلم الضرورى بأنه ملك مرسل واحتمال البعيد لا يقدح فى الجزم واليقين ، ألا ترى أنا إذا نمنا بالليل وانتبهنا بالنهار نجزم بأن البحار وقت نومنا ما نشفت ولا غارت ، والجبال ما عدمت ولا سارت ، مع احتمال ذلك فإن الله قادر على ذلك وقت نومنا ، ويعيدها إلى ما كانت عليه فى يومنا ، فلما رآه عند سدرة المنتهى وهو فوق السماء السادسة لم يحتمل أن يكون هناك جن ولا إنس ، فنفى ذلك الاحتمال أيضاً فقال تعالى (أفتمارونه على ما يرى) رأى العين ، وكيف وهو

قد رآه فى السماء فماذا تقدون فيه وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ الواو يحتمل أن تكون عاطفة ، ويحتمل أن تكون للحال على ما بيناه ، أى كيف تجادلونه فيما رآه ، على وجه لا يشك فيه ؟ ومع ذلك لا يحتمل إيراد الشكوك عليه ، فان كثيراً ما يشك المعتقد لشىء فيه . ولكن تردد عليه الشكوك ولا يمكنه الجواب عنها ، ولا تثريب مع ذلك فى أن الأمر كما ذكرنا من المثال ، لأنا لا نشك فى أن البحار ما صارت ذهباً والجبال ما صارت عهناً ، وإذا أورد علينا مورد شكا ، وقال وقت نومك يحتمل أن الله تعالى قلبها ثم أعادها لا يمكننا الجواب عنه مع أنا لا نشك فى استمرارها على ما هى عليه ، لا يقال اللام تنافى كون الواو للحال ، فإن المستعمل يقال أفتمارونه ، وقد رأى من غير لام ، لأنا نقول الواو التى للحال تدخل على جملة والجملة تتركب من مبتدأ وخبر ، أو من فعل وفاعل ، وكلاهما يجوز فيه اللام .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قوله (نزلة) فعلة من النزول فهى كجلسة من الجلوس ، فلا بد من نزول ، فذلك النزول لمن كان ؟ نقول فيه وجوه ، وهى مرتبة على أن الضمير فى رآه عائد إلى من وفيه قولان (الأول) عائد إلى الله تعالى أى رأى الله نزلة أخرى ، وهذا على قول من قال (ما رأى) فى قوله (ما كذب الفؤاد ما رأى) هو الله تعالى . وقد قيل بأن النبى صلى الله عليه وسلم رأى ربه بقلبه مرتين ، وعلى هذا فالنزلة تحتمل وجهين (أحدهما) أنها لله . وعلى هذا فوجهان (أحدهما) قول من يجوز على الله تعالى الحركة والانتقال وهو باطل (وثانيهما) النزول بالقرب المعنوى لا الحسى فان الله تعالى قد يقرب بالرحمة والفضل من عبده ولا يراه العبد ، ولهذا قال موسى عليه السلام (رب أرنى) أى أزل بعض حجب العظمة والجلال ، وادن من العبد بالرحمة والإفضال لأراك .

(الوجه الثانى) أن محمداً صلى الله عليه وسلم رأى الله نزلة أخرى ، وحينئذ يحتمل ذلك وجهين (أحدهما) أن النبى صلى الله عليه وسلم نزل على متن الهوى ومركب النفس . ولهذا يقال لمن ركب متن هواه إنه علا فى الأرض واستكبر ، قال تعالى (علا فى الأرض) (ثانيهما) أن المراد من النزلة ضدها . وهى العرجة كأنه قال رآه عرجة أخرى ، وإنما اختار النزلة ، لأن العرجة التى فى الآخرة لا نزلة لها فقال نزلة ليعلم أنها من الذى كان فى الدنيا (والقول الثانى) أنه عائد إلى جبريل عليه السلام أى رأى جبريل نزلة أخرى ، والنزلة حينئذ يحتمل أن تكون لمحمد صلى الله عليه وسلم كما ذكرناه ، لأن النبى صلى الله عليه وسلم على ما ورد فى بعض أخبار ليلة المعراج ، جاوز جبريل عليه السلام ، وقال له جبريل عليه السلام لو دنوت أنملة لاحترقت ، ثم عاد إليه فذلك نزلة . فان قيل فكيف قال (أخرى) ؟ نقول لأن النبى صلى الله عليه وسلم فى أمر الصلاة تردد مراراً فربما كان يجاوز كل مرة ، وينزل إلى جبريل ، ويحتمل أن تكون لجبريل عليه السلام وكلاهما منقول وعلى هذا الوجه فنزلة أخرى ظاهر ، لأن جبريل كان له نزلات وكان له نزلتان عليه وهو على صورته ، وقوله تعالى (عند سدرة المنتهى) المشهور أن السدرة شجرة فى السماء السابعة وعليها

عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾

مثل النبق وقيل فى السماء السادسة ، وورد فى الخبر أنه صلى الله عليه وسلم قال « نبقها كقلال هجر وورقها كآذان الفيلة » وقيل سدرة المنتهى هى الحيرة القصوى من السدرة ، والسدرة كالركبة من الراكب عند ما يحار العقل حيرة لا حيرة فوقها ، ما حار النبى صلى الله عليه وسلم وما غاب ورأى ما رأى ، وقوله (عند) ظرف مكان ، أو ظرف زمان فى هذا الموضع ؟ نقول المشهور أنه ظرف مكان تقديره رأى جبريل أو غيره بقرب (سدرة المنتهى) وقيل ظرف زمان ، كما يقال صليت عند طلوع الفجر ، وتقديره رآه عند الحيرة القصوى ، أى فى الزمان الذى تحار فيه عقول العقلاء ، والرؤية من أتم العلوم وذلك الوقت من أشد أوقات الجهل والحيرة ، فهو عليه الصلاة والسلام ماحار وقتاً من شأنه أن يحار العاقل فيه ، والله أعلم .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ إن قلنا معناه رأى الله كيف يفهم (عند سدرة المنتهى) ؟ قلنا فيه أقوال : (الأول) قول من يجعل الله فى مكان وهو باطل ، وقد بالغنا فى بيان بطلانه فى سورة السجدة (الثانى) رآه محمد صلى الله عليه وسلم وهو (عند سدرة المنتهى) لأن الظرف قد يكون ظرفاً للرائى كما ذكرنا من المثال يقال رأيت الهلال ، فيقاله لقائلة أين رأيته ؟ فيقول على السطح وربما يقول عند الشجرة الفلانية ، وأما إن قلنا أن المراد جبريل عليه السلام فالوجهان ظاهران وكون النبى صلى الله عليه وسلم مع جبريل (عند سدرة المنتهى) أظهر .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ إضافة السدرة إلى المنتهى من أى[أنواع] الإضافة ؟ نقول يحتمل وجوهاً (أحدها) إضافة الشىء إلى مكانه يقال أشجار بلدة كذا لا تطول من البرد ويقال أشجار الجنة لا تيبس ولا تخلوا من الثمار ، فالمنتهى حينئذ موضع لا يتعداه ملك ، وقيل لا يتعداه روح من الأرواح (وثانيها) إضافة المحل إلى الحال فيه ، يقال : كتاب الفقه ، ومحل السواد ، وعلى هذا فالمنتهى عند (السدرة) تقديره سدرة عند منتهى العلوم (ثالثها) إضافة الملك إلى مالكه يقال دار زيد وأشجار زيد وحينئذ فالمنتهى إليه محذوف تقديره (سدرة المنتهى) إليه ، قال الله تعالى (إلى ربك المنتهى) فالمنتهى إليه هو الله وإضافة السدرة إليه حينئذ كإضافة البيت إليه للتشريف والتعظيم ، ويقال فى التسبيح : يا غاية مناه ، ويامنتهى أملاه .

ثم قال تعالى ﴿ عندها جنة المأوى ﴾ وفى الجنة خلاف قال بعضهم جنة المأوى هى الجنة التى وعد بها المتقون ، وحينئذ الإضافة كما فى قوله تعالى (دار المقامة) وقيل هى جنة أخرى عندها يكون أرواح الشهداء وقيل هى جنة للملائكة وقرىء (جنه) بالهاء من جن بمعنى أجن يقال جن الليل وأجن ، وعلى هذه القراءة يحتمل أن يكون الضمير فى قوله (عندها) عائداً إلى النزلة ، أى عند النزلة جن محمداً المأوى ، والظاهر أنه عائد إلى السدرة وهى الأصح ، وقيل إن عائشة أنكرت

إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾

هذه القراءة ، وقيل أنها أجازتها .

قوله تعالى : ﴿ إذ يغشى السدرة مايغشى ﴾ فيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ العامل فى (إذ) ما قبلها أو ما بعدها فيه وجهان ، فإن قلنا ما قبلها ففيه احتمالان : أظهرهما (رآه) أى رآه وقت مايغشى السدرة الذى يغشى ، والاحتمال الآخر العامل فيه الفعل الذى فى النزلة ، تقديره (رآه نزلة أخرى) تلك النزلة وقت ما يغشى السدرة ما يغشى ، أى نزوله لم يكن إلا بعد ماظهرت العجائب عند السدرة (وغشيها ما غشى) فحينئذ نزل محمد نزلة إشارة إلى أنه لم يرجع من غير فائدة ، وإن قلنا ما بعده ، فالعامل فيه (ما زاغ البصر) أى ما زاغ بصره وقت غشيان السدرة ما غشيها ، وسنذكره عند تفسير الآية .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قد ذكرت أن فى بعض الوجوه (سدرة المنتهى) هى الحيرة القصوى ، وقوله (يغشى السدرة) على ذلك الوجه ينادى بالبطلان ، فهل يمكن تصحيحه ؟ نقول يمكن أن يقال المراد من الغشيان غشيان حالة على حالة ، أى ورد على حالة الحيرة حالة الرؤية واليقين ، ورأى محمد ﷺ عند ما حار العقل ما رآه وقت ما طرأ على تلك الحالة ما طرأ من فضل الله تعالى ورحمته ، والأول هو الصحيح ، فإن النقل الذى ذكرنا من أن السدرة نبقها كقلال هجر يدل على أنها شجرة .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ ما الذى غشى السدرة ؟ نقول فيه وجوه (الأول) فراش أو جراد من ذهب وهو ضعيف ، لأن ذلك لا يثبت إلا بدليل سمعى ، فإن صح فيه خبر فلا يبعد من جواز التأويل ، وإن لم يصح فلا وجه له (الثانى) الذى يغشى السدرة ملائكة يغشونها كأنهم طيور ، وهو قريب ، لأن المكان مكان لايتعداه الملك ، فهم يرتقون إليه متشرفين به متبركين زائرين ، كما يزور الناس الكعبة فيجتمعون عليها (الثالث) أنوار الله تعالى ، وهو ظاهر ، لأن النبى ﷺ لما وصل إليها تجلى ربه لها ، كما تجلى للجبل ، وظهرت الأنوار ، لكن السدرة كانت أقوى من الجبل وأثبت ، فجعل الجبل دكاً ، ولم تتحرك الشجرة ، وخر موسى صعقاً ، ولم يتزلزل محمد (الرابع) هو مبهم للتعظيم ، يقول القائل : رأيت ما رأيت عند الملك ، يشير إلى الإظهار من وجه ، وإلى الإخفاء من وجه .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ (يغشى) يستر ، ومنه الغواشى أو من معنى الإتيان ، يقال فلان يغشانى كل وقت ، أى يأتينى ، والوجهان محتملان ، وعلى قول من يقول : الله يأتى ويذهب ، فالإتيان أقرب .

مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾

قوله تعالى : ﴿ما زاغ البصر وما طغى﴾ وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ اللام فى (البصر) يحتمل وجهين (أحدهما) المعروف وهو بصر محمد صلى الله عليه وسلم ، أى ما زاغ بصر محمد ، وعلى هذا فعدم الزيغ على وجوه ، إن قلنا الغاشى للسدرة هو الجراد والفراش ، فمعناه لم يلتفت إليه ولم يشتغل به ، ولم يقطع نظره عن المقصود ، وعلى هذا فغشيان الجراد والفراش يكون ابتلاء ، وامتحاناً لمحمد صلى الله عليه وسلم . وإن قلنا أنوار الله ، ففيه وجهان (أحدهما) لم يلتفت يمنة ويسرة ، واشتغل بمطالعتها (وثانيهما) مازاغ البصر بصعقة بخلاف موسى عليه السلام ، فإنه قطع النظر وغشى عليه ، وفى الأول بيان أدب محمد صلى الله عليه وسلم ، وفى الثانى بيان قوته (الوجه الثانى) فى اللام أنه لتعريف الجنس ، أى ما زاغ بصر أصلا فى ذلك الموضع لعظمة الهيبة ، فإن قيل لو كان كذلك لقال ما زاغ بصر ، لأنه أدل على العموم ، لأن النكرة فى معرض النفى تعم ، نقول هو كقوله (لا تدركه الأبصار) ولم يقل لا يدركه بصر .

﴿ المسألة الثانية ﴾ إن كان المراد محمداً ، فلو قال ما زاغ قلبه كان يحصل به فائدة قوله (ما زاغ البصر) ؟ نقول لا ، وذلك لأن من يحضر عند ملك عظيم يرى من نفسه أنه يهابه ويرتجف إظهاراً لعظمته مع أن قلبه قوى ، فإذا قال (ما زاغ البصر) يحصل منه فائدة أن الأمر كان عظيماً ، ولم يزغ بصره من غير اختيار من صاحب البصر .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ (وما طغى) عطف جملة مستقلة على جملة أخرى ، أو عطف جملة مقدرة على جملة ، مثال المستقلة : خرج زيد ودخل عمرو ، ومثال مقدرة : خرج زيد ودخل ، فنقول الوجهان جائزان (أما الأول) فكأنه تعالى قال عند ظهور النور : ما زاغ بصر محمد صلى الله عليه وسلم ، وما طغى محمد بسبب الالتفات ، ولو التفت لكان طاغياً (وأما الثانى) فظاهر على الأوجه ، أما على قولنا : غشى السدرة جراد فلم يلتفت إليه (وما طغى) أى ما التفت إلى غير الله ، فلم يلتفت إلى الجراد ، ولا إلى غير الجراد سوى الله . وأما على قولنا غشيها نور ، فقوله (ما زاغ) أى ما مال عن الأنوار (وما طغى) أى ما طلب شيئاً وراءها (وفيه لطيفة) وهى أن الله تعالى قال : ما زاغ وما طغى ، ولم يقل : ما مال وما جاوز ، لأن الميل فى ذلك الموضع والمجاوزة مذمومان ، فاستعمل الزيغ والطغيان فيه ، وفيه وجه آخر . وهو أن يكون ذلك بياناً لوصول محمد صلى الله عليه وسلم إلى سدرة اليقين الذى لا يقين فوقه ، ووجه ذلك أن بصر محمد صلى الله عليه وسلم (مازاغ) أى ما مال عن الطريق ، فلم ير الشىء على خلاف ما هو عليه ، بخلاف من ينظر إلى عين الشمس مثلا ، ثم ينظر إلى شىء أبيض ، فإنه يراه أصفر أو أخضر يزيغ بصره عن جادة الأبصار (وما طغى) ماتخيل المعدوم موجوداً فرأى المعدوم مجاوزاً الحد .

لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾

قوله تعالى : ﴿ لقد رأى من آيات ربه الكبرى ﴾ وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ فيه دليل على أن النبي صلى الله عليه وسلم ، رأى ليلة المعراج آيات الله ، ولم ير الله ، وفيه خلاف ووجهه : هو أن الله تعالى ختم قصة المعراج ههنا برؤية الآيات ، وقال (سبحان الذى أسرى بعبده ليلا) إلى أن قال (لنريه من آياتنا) ولو كان رأى ربه لكان ذلك أعظم ما يمكن ، فكانت الآية الرؤية ، وكان أكبر شيء هو الرؤية ، ألا ترى أن من له مال يقال له : سافر لتربح ، ولا يقال : سافر لتتفرج ، لما أن الربح أعظم من التفرج .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال بعض المفسرين (لقد رأى من آيات ربه الكبرى) وهى أنه رأى جبريل عليه السلام فى صورته ، فهل هو على ما قاله ؟ نقول الظاهر أن هذه الآيات غير تلك ، وذلك لأن جبريل عليه السلام وإن كان عظيما ، لكن ورد فى الأخبار أن لله ملائكة أعظم منه ، والكبرى تأنيث الأكبر ، فكأنه تعالى يقول : رأى من آيات ربه آيات هن أكبر الآيات ، فإن قيل قال الله تعالى (إنها لإحدى الكبر) مع أن أكبر من سقر عجائب الله ، فكذلك الآيات الكبرى تكون جبريل وما فيه ، وإن كان لله آيات أكبر منه نقول سقر إحدى الكبر أى إحدى الدواهى الكبر ، ولا شك أن فى الدواهى سقر عظيمة كبيرة ، وأما آيات الله فليس جبريل أكبرها ولأن سقر فى نفسها أعظم وأعجب من جبريل عليه السلام فلا يلزم من صفتها بالكبر صفتها بالكبرى .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ الكبرى صفة ماذا ؟ نقول فيه وجهان (أحدهما) صفة محذوف تقديره : لقد رأى من آيات ربه الآية الكبرى ، (ثانيهما) صفة آيات ربه وعلى هذا يكون مفعول رأى محذوفاً تقديره رأى من الآيات الكبرى آية أو شيئاً .

ثم قال تعالى ﴿ أفرأيتم اللات والعزى ، ومناة الثالثة الأخرى ﴾ لما قرر الرسالة ذكر ما ينبغى أن يبتدىء به الرسول وهو التوحيد ومنع الخلق عن الإشراك ، فقوله تعالى (أفرأيتم) إشارة إلى إبطال قولهم بنفس القول كما أن ضعيفاً إذا ادعى الملك ثم رآه العقلاء فى غاية البعد عما يدعيه يقولون انظروا إلى هذا الذى يدعى الملك ، منكرين عليه غير مستدلين بدليل لظهور أمره ، فلذلك قال (أفرأيتم اللات والعزى) أى كما هما فكيف تشركونهما بالله ، والتاء فى اللات تاء تأنيث كما فى المناة لكنها تكتب مطولة لئلا يوقف عليها فتصير هاء فيشتبه باسم الله تعالى ، فإن الهاء فى الله أصلية ليست تاء تأنيث وقف عليها فانقلبت هاء ، وهى صنم كانت لثقيف بالطائف ، قال الزمخشرى هى فعله من لوى يلوى ، وذلك لأنهم كانوا يلوون عليها ، وعلى ما قال فأصله لوية أسكنت الياء

وحذفت لالتقاء الساكنين فبقيت لوه قلبت الواو ألفاً لفتح ما قبلها فصارت لات ، وقرىء اللات بالتشديد من لت ، قيل إنه مأخوذ من رجل كان يلت بالسمن الطعام ويطعم الناس فعبد واتخذ على صورته وثن وسموه باللات ، وعلى هذا فاللات ذكر ، وأما العزى فتأنيث الأعز وهى شجرة كانت تعبد ، فبعث النبي صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد رضى الله عنه فقطعها وخرجت منها شيطانة مكشوفة الرأس منشورة الشعر تضرب رأسها وتدعوا بالويل والثبور فقتلها خالد وهو يقول :

ياعز كفرانك لا سبحانك إنى رأيت الله قد أهانك

ورجع إلى النبي ﷺ وأخبره بما رأى وفعل فقال تلك العزى ولن تعبد أبداً ، وأما مناة فهى فعلة صنم الصفا ، وهى صخرة كانت لهذيل وخزاعة ، وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ الآخر لايصح أن يقال إلا إذا كان الأول مشاركا للثانى فلا يقال رأيت امرأة ورجلا آخر ، ويقال رأيت رجلا ورجلا آخر لاشتراك الأول والثانى فى كونهما من الرجال وههنا قوله (الثالثة الأخرى) يقتضى على ماذكرنا أن تكون العزى ثالثة أولى ومناة ثالثة أخرى وليس كذلك ، والجواب عنه من وجوه (الأول) الأخرى كما هى تستعمل الذم ، قال الله تعالى (قالت أولاهم لأخراهم) أى لمتأخرتهم وهم الأتباع ويقال لهم الأذناب لتأخرهم فى المراتب فهى صفة ذم كأنه تعالى يقول ومناة الثالثة المتأخرة الذليلة ، ونقول على هذا للأصنام الثلاثة ترتيب ، وذلك لأن الأول كان وثناً على صورة آدمى والعزى صورتها صورة نبات ومناة صورتها صورة صخرة هى جماد ، فالآدمى أشرف من النبات ، والنبات أشرف من الجماد ، فالجماد متأخر والمناة جماد فهى فى الأخريات من المراتب (الجواب الثانى) فيه محذوف تقديره (أفرأيتم اللات والعزى) المعبودين بالباطل (ومناة الثالثة) المعبودة الأخرى (والجواب الثالث) هو أن الأصنام كان فيها كثرة واللات والعزى إذا أخذتا متقدمتين فكل صنمة توجد فهى ثالثة ، فهناك ثوالث فكأنه يقول لهما ثوالث كثيرة وهذه ثالثة أخرى ، وهذا كقول القائل يوماً ويوماً (والجوب الرابع) فيه تقديم وتأخير تقديره ومناة الأخرى الثالثة ، ويحتمل أن يقال الأخرى تستعمل لموهوم أو مفهوم وإن لم يكن مشهوراً ولا مذكوراً يقول من يكثر تأذيه من الناس إذا آذاه إنسان الآخر جاء يؤذينا ، وربما يسكت على قوله أنت الآخر فيفهم غرضه كذلك ههنا .

﴿ المسألة الثانية ﴾ وهى فى الترتيب أولى ما فائدة الفاء فى قوله (أفرأيتم اللات والعزى) وقد استعمل فى مواضع بغير الفاء ؟ قال تعالى (أريتم ماتدعون من دون الله أريتم شركاءكم) ، نقول لما قدم من عظمة آيات الله فى ملكوته أن رسول الله إلى الرسل الذى يسد الآفاق ببعض أجنحته ويهلك المدائن بشدته وقوته لايمكنه أن يتعدى السدرة فى مقام جلال الله وعزته ، قال أفرأيتم هذه الأصنام مع ذلتها وحقارتها شركاء الله مع ماتقدم ، فقال بالفاء أى عقيب ما سمعتم من عظمة آيات

أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ ﴿٢٢﴾

الله تعالى الكبرى ونفاذ أمره فى الملأ الأعلى وما تحت الثرى ، فانظروا إلى اللات والعزى تعلموا فساد ماذهبتم إليه وعولتم عليه .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ أين تتمة الكلام الذى يفيد فائدة ما ؟ نقول قد تقدم بيانه وهو أنه يقول هل رأيتم هذه حق الرؤية ، فإن رأيتموها علمتم أنها لاتصلح شركاء ، نظيره ما ذكرنا فيمن ينكر كون ضعيف يدعى ملكا ، يقول لصاحبه أما تعرف فلاناً مقتصراً عليه مشيراً إلى بطلان ما يذهب إليه .

قوله تعالى : ﴿ ألكم الذكر وله الأنثى ﴾ وقد ذكرنا مايجب ذكره فى سورة والطور فى قوله (أم له البنات ولكم البنون) ونعيد ههنا بعض ذلك أو ما يقرب منه ، فنقول لما ذكر اللات والعزى ومناة ولم يذكر شيئاً آخر قال إن هذه الأشياء التى رأيتموها وعرفتموها تجعلونها شركاء لله وقد سمعتم جلال الله وعظمته وإن الملائكة مع رفعتهم وعلوهم ينتهون إلى السدرة ويقفون هناك لا يبقى شك فى كونهم بعيدين عن طريقة المعقول أكثر مما بعدوا عن طريقة المنقول ، فكأنهم قالوا نحن لانشك أن شيئاً منها ليس مثلا لله تعالى ولا قريباً من أن يماثله ، وإنما صورنا هذه الأشياء على صور الملائكة المعظمين الذين اعترف بهم الأنبياء ، وقالوا إنهم يرتقون ويقفون عند سدرة المنتهى ويرد عليهم الأمر والنهى وينهون إلى الله مايصدر من عباده فى أرضه وهم بنات الله ، فاتخذنا صوراً على صور الإناث وسميناها أسماء الإناث ، فاللات تأنيث اللوة وكان أصله أن يقال اللاهة لكن فى التأنيث يوقف عليها فتصير اللاهة فأسقط إحدى الهاءين وبقيت الكلمة على حرفين أصليين وتاء التأنيث فجعلناها كالأصلية كما فعلنا بذات مال وذا مال والعزى تأنيث الأعز ، فقال لهم كيف جعلتم لله بنات وقد اعترفتم فى أنفسكم أن البنات ناقصات والبنين كاملون ، والله كامل العظمة فالمنسوب إليه كيف جعلتموه ناقصاً وأنتم فى غاية الحقارة والذلة حيث جعلتم أنفسكم أذل من حمار وعبد ثم صخرة وشجرة ثم نسبتم إلى أنفسكم الكامل ، فهذه القسمة جائزة على طريقكم أيضاً حيث أذللتم أنفسكم ونسبتم إليها الأعظم من الثقلين وأبغضتم البنات ونسبتموهن إلى الأعظم وهو الله تعالى وكان على عادتكم أن تجعلوا الأعظم للعظيم والأنقص للحقير ، فإذن أنتم خالفتم الفكر والعقل والعادة التى لكم .

قوله تعالى : ﴿ تلك إذاً قسمة ضيزى ﴾ فيه مسائل .

﴿ المسألة الأولى ﴾ تلك إشارة إلى ماذا ؟ نقول إلى محذوف تقديره تلك القسمة قسمة ضيزى أى غير عادلة ، ويحتمل أن يقال معناه تلك النسبة قسمة وذلك لأنهم ماقسموا وما قالوا لنا البنون وله البنات ، وإنما نسبوا إلى الله البنات وكانوا يكرهونهن كما قال تعالى (ويجعلون لله مايكرهون)

إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ج

فلما نسبوا إلى الله البنات حصل من تلك النسبة قسمة جائزة وهذا الخلاف لا يرهق .

﴿ المسألة الثانية ﴾ إذاً جواب ماذا ؟ نقول يحتمل وجوهاً (الأول) نسبتكم البنات إلى الله تعالى إذا كان لكم البنون قسمة ضيزى (الثاني) نسبتكم البنات إلى الله تعالى مع اعتقادكم أنهن ناقصات واختياركم البنين مع اعتقادكم أنهم كاملون إذا كنتم في غاية الحقارة والله تعالى في نهاية العظمة قسمة ضيزى ، فإن قيل ما أصل إذاً ؟ قلنا هو إذا التي للظرف قطعت الإضافة عنها فحصل فيها تنوين وبيانه هو أنك تقول آتيك إذا طلعت الشمس فكأنك أضفت إذاً لطلوع الشمس وقلت آتيك وقت طلوع الشمس ، فإذا قال قائل آتيك فتقول له إذن أكرمك أي إذا أتيتني أكرمك فلما حذفت الإتيان لسبق ذكره في قول القائل أتيت بدله بتنوين وقلت إذن كما تقول : وكلا آتيناه .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ (ضيزى) قرىء بالهمزة وبغير همزة وعلى الأولى هي فعلى بكسر الفاء كذكرى على أنه مصدر وصف به كرجل عدل أي قسمة ضائزة وعلى القراءة الثانية هي فعلى وكان أصلها ضوزى لكن عين الكلمة كانت يائية فكسرت الفاء لتسلم العين عن القلب كذلك فعل ببيض . فإن جمع أفعل فعل تقول أسود وسود وأحمر وحمر وتقول أبيض وبيض وكان الوزن بيض وكان يلزم منه قلب العين فكسرت الباء وتركت الياء على حالها ، وعلى هذا ضيزى للمبالغة من ضائزة ، تقول فاضل وأفضل وفاضلة وفضلى وكبير وأكبر وكبيرى وكبرى كذلك ضائز وضوز وضائزة وضوزى وعلى هذا تقول أضوز من ضائز وضيزى من ضائزة ، فإن قيل قد قلت من قبل إن قوله (أم له البنات ولكم البنون) ليس بمعنى إنكار الأمرين بل بمعنى إنكار الأول وإظهار النكر بالأمر الثاني ، كما تقول أتجعلون لله أنداداً وتعلمون أنه خلق كل ما سواه فإنه لا ينكر الثاني ، وههنا قوله (تلك إذاً قسمة ضيزى) دل على أنه أنكر الأمرين جميعاً نقول قد ذكرنا هناك أن الأمرين محتملان : أما إنكار الأمرين فظاهر في المشهور ، أما إنكار الأول فثابت بوجوه ، وأما الثاني فلما ذكرنا أنه تعالى قال كيف تجعلون لله البنات وقد صار لكم البنون بقدرته كما قال تعالى (يهب لمن يشاء إناثاً ويهب لمن يشاء الذكور) خالق البنين لكم لا يكون له بنات ، وأما قوله (تلك إذاً قسمة ضيزى) فنقول قد بينا أن تلك عائدة إلى النسبة أي نسبتكم البنات إلى الله تعالى مع أن لكم البنين قسمة ضائزة فالمنكر تلك النسبة وإن كان المنكر القسمة نقول يجوز أن يكون تقديره أيجوز جعل البنات لله تعالى كما أن واحداً إذا كان بينه وبين شريكه شيء مشترك على السوية فيأخذ نصفه لنفسه ويعطي من النصف الباقي نصفه لظالمه ونصفه لصاحبه فقال هذه قسمة ضائزة لا لكونه أخذ النصف فذلك حقه بل لكونه لم يوصل إليه النصف الباقي .

قوله تعالى : ﴿ إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان ﴾ وفيه

مباحث تدق عن إدراك اللغوى إن يكن عنده من العلوم حظ عظيم ، ولنذكر ما قيل فيه أولا فنقول قيل معناه : إن هى إلا أسماء ، أى كونها إناثا وكونها معبودات أسماء لامسمى لها فانها ليست بإناث حقيقة ولا معبودات ، وقيل أسماء أى قلتم بعضها عزى ولا عزة لها ، وقيل قلتم إنها آلهة وليست بآلهة ، والذى نقوله هو أن هذا جواب عن كلامهم ، وذلك على ما بينا أنهم قالوا نحن لا نشك فى أن الله تعالى لم يلد كما تلد النساء ولم يولد كما تولد الرجال بالمجامعة والإحبال ، غير أنا رأينا لفظ الولد مستعملا عند العرب فى المسبب تقول : بنت الجبل وبنت الشفة لما يظهر منهما ويوجد ، لكن الملائكة أولاد الله بمعنى أنهم وجدوا بسببه من غير واسطة فقلنا إنهم أولاده ، ثم إن الملائكة فيها تاء التأنيث فقلنا هم أولاد مؤنثة ، والولد المؤنث بنت ، فقلنا لهم بنات الله . أى لا واسطة بينهم وبين الله تعالى فى الإيجاد كما تقول الفلاسفة ، فقال تعالى هذه الأسماء استنبطتموها أنتم بهوى أنفسكم وأطلقتم على الله ما يوهم النقص وذلك غير جائز ، وقوله تعالى (يا حسرتا على ما فرطت فى جنب الله) وقوله (بيده الخير) أسماء موهمة غير أنه تعالى أنزلها ، وله أن يسمى نفسه بما اختار وليس لأحد أن يسمى بما يوهم النقص من غير ورود الشرع به ، ولنبين التفسير فى مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ (هى) ضمير عائد إلى ماذا ؟ نقول الظاهر أنها عائدة إلى أمر معلوم وهو الأسماء كأنه قال ماهذه الأسماء التى وضعتموها أنتم وهو المشهور ، ويحتمل أن يقال هى عائدة إلى الأصنام بأنفسها أى ما هذه الأصنام إلا أسماء ، وعلى هذا فهو على سبيل المبالغة والتجوز ، يقال لتحقير إنسان ما زيد إلا اسم وما الملك إلا اسم إذا لم يكن مشتملا على صفة تعتبر فى الكلام بين الناس ، ويؤيد هذا القول قوله تعالى (ما تعبدون من دونه إلا أسماء) أى ماهذه الأصنام إلا أسماء .

﴿ المسألة الثانية ﴾ ما الفائدة فى قوله (سميتموها) مع أن جميع الأسماء وضعوها أو بعضها هم وضعوها ولم ينكر عليهم ؟ نقول المسألة مختلف فيها ولا يتم الذم إلا بقوله تعالى (ما أنزل الله بها من سلطان) وبيانه هو أن الأسماء أن أنزلها الله تعالى فلا كلام فيها ، وأن وضعها للتفاهم فينبغى أن لا يكون فى ضمن تلك الفائدة مفسدة أعظم منها لكن إيهام النقص فى صفات الله تعالى أعظم منها ، فالله تعالى ما جوز وضع الأسماء للحقائق إلا حيث تسلم عن المحرم ، فلم يوجد فى هذه الأسماء دليل نقلى ولا وجه عقلى ، لأن ارتكاب المفسدة العظيمة لأجل المنفعة القليلة لا يجوزه العاقل ، فإذاً (ما أنزل الله بها من سلطان) . ووضع الإسم لا يكون إلا بدليل نقلى أو عقلى ، وهو أنه يقع خالياً عن وجوه المضار الراجحة .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ كيف قال (سميتموها أنتم) مع أن هذه الأسامى لأصنامهم كانت قبلهم ؟ نقول فيه لطيفة وهى أنهم لو قالوا ما سميناها ، وإنما هى موضوعة قبلنا ، قيل لهم كل من يطلق هذه الألفاظ فهو كالمبتدىء الواضع ، وذلك لأن الواضع الأول لهذه الأسماء لما لم يكن واضعاً بدليل

إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ

عقلي لم يجب اتباعه فمن يطلق اللفظ لأن فلاناً أطلقه لا يصح منه كما لا يصح أن يقول أضلني الأعمى ولو قاله لقيل له بل أنت أضللت نفسك حيث اتبعت من عرفت أنه لا يصلح للاقتداء به .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ الأسماء لا تسمى ، وإنما يسمى بها فكيف قال (سميتموها) ؟ نقول عنه جوابان (أحدهما) لغوى وهو أن التسمية وضع الإسم فكأنه قال أسماء وضعتموها فاستعمل سميتموها استعمال وضعتموها ، ويقال سميته زيداً وسميته بزيد فسميتموها بمعنى سميتم بها (وثانيهما) معنوى وهو أنه لو قال أسماء سميتم بها لكان هناك غير الإسم شىء يتعلق به الباء فى قوله (بها) لأن قول القائل سميت به يستدعى مفعولا آخر تقول سميت بزيد إبنى أو عبدى أو غير ذلك فيكون قد جعل للأصنام اعتباراً وراء أسمائها ، وإذا قال (إن هى إلا أسماء سميتموها) أى وضعتموها فى أنفسها لا مسميات لها لم يكن ذلك فإن قيل هذا باطل بقوله تعالى (وإنى سميتها مريم) حيث لم يقل وإنى سميتها بمريم ولم يكن ما ذكرت مقصوداً وإلا لكانت مريم غير ملتفت إليها كما قلت فى الأصنام ؟ نقول بينهما بون عظيم وذلك لأن هناك قال (سميتها مريم) فذكر المفعولين فاعتبر حقيقة مريم بقوله (سميتها) واسمها بقوله (مريم) وأما ههنا فقال (إن هى إلا أسماء سميتموها) أى ماهناك إلا أسماء موضوعة فلم تعتبر الحقيقة ههنا واعتبرت فى مريم .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ (ما أنزل الله بها من سلطان) على أى وجه استعملت الباء فى قوله (بها من سلطان) ؟ نقول كما يستعمل القائل ارتحل فلان بأهله ومتاعه ، أى ارتحل ومعه الأهل والمتاع كذا ههنا .

قوله تعالى : ﴿ إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى ﴾ . وفيه مسائل :

﴿ الأولى ﴾ قرىء (إن تتبعون) بالتاء على الخطاب ، وهو ظاهر مناسب لقوله تعالى (أنتم وآباؤكم) على المغايبة وفيه وجهان : (أحدهما) أن يكون الخطاب معهم لكنه يكون التفاتاً كأنه قطع الكلام معهم ، وقال لنبيه : إنهم لا يتبعون إلا الظن ، فلا تلتفت إلى قولهم (ثانيهما) أن يكون المراد غيرهم وفيه احتمالان (أحدهما) أن يكون المراد آباءهم وتقديره هو أنه لما قال (سميتموها أنتم) كأنهم قالوا هذه ليست أسماء وضعناها نحن ، وإنما هى كسائر الأسماء تلقيناها ممن قبلنا من آبائنا فقال وسماها آباؤكم وما يتبعون إلا الظن ، فإن قيل كان ينبغى أن يكون بصيغة الماضى ، نقول وبصيغة المستقبل أيضاً كأنه يفرض الزمان بعد زمان الكلام كما فى قوله تعالى (وكلبهم باسط ذراعيه) . (ثانيهما) أن يكون المراد عامة الكفار كأنه قال : إن يتبع الكافرون إلا الظن .

﴿ المسألة الثانية ﴾ ما معنى (الظن) وكيف ذمهم به وقد وجب علينا اتباعه فى الفقه وقال

صلى الله عليه وسلم عن الله تعالى « أنا عند ظن عبدى بى » ؟ نقول أما الظن فهو خلاف العلم وقد استعمل مجازاً مكان العلم والعلم مكانه ، وأصل العلم الظهور ومنه العلم والعالم وقد بينا فى تفسير العالمين أن حروف ع ل م فى تقاليبها فيها معنى الظهور ، ومنها لمع الآل إذا ظهر وميض السراب ولمع الغزال إذا عدا وكذا النعام وفيه الظهور وكذلك علمت ، والظن إذا كان فى مقابلة العلم ففيه الخفاء ومنه بئر ظنون لايدرى أنبها ماء أم لا . ومنه الظنين المتهم لايدرى مايظن ، نقول يجوز بناء الأمر على الظن الغالب عند العجز عن درك اليقين والاعتقاد ليس كذلك لأن اليقين لم يتعذر علينا وإلى هذا إشارة بقول (ولقد جاءهم من ربهم الهدى) أى اتبعوا الظن ، وقد أمكنهم الأخذ باليقين وفى العمل يمتنع ذلك أيضاً .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ ما فى قوله تعالى (وما تهوى الأنفس) خبرية أو مصدرية ؟ نقول فيه وجهان (أحدهما) مصدرية كأنه قال (إن يتبعون إلا الظن) وهوى الأنفس ، فان قيل ما الفائدة فى العدول عن صريح المصدر إلى الفعل مع زيادة ما وفيه تطويل ؟ نقول فيه فائدة ، وإنها فى أصل الوضع ثم نذكرها هنا فنقول إذا قال القائل أعجبنى صنعك يعلم من الصيغة أن الإعجاب من مصدر قد تحقق وكذلك إذا قال أعجبنى ماتصنع يعلم أن الإعجاب من مصدر هو فيه فلو قال أعجبنى صنعك وله صنع أمس وصنع اليوم لا يعلم أن المعجب أى صنع هو إذا علمت هذا فنقول ههنا قوله (وما تهوى الأنفس) يعلم منه أن المراد أنهم يتبعون ماتهوى أنفسهم فى الحال والاستقبال إشارة إلى أنهم ليسوا بثابتين على ضلال واحد وما هوت أنفسهم فى الماضى شيئاً من أنواع العبادة فالتزموا به وداموا عليه بل كل يوم هم يستخرجون عبادة ، وإذا انكسرت أصنامهم اليوم أتوا بغيرها غداً ويغيرون وضع عبادتهم بمقتضى شهوتهم اليوم (ثانيهما) أنها خبرية تقديره ، والذى تشتهيه أنفسهم والفرق بين المصدرية والخبرية أن المتبع على الأول الهوى وعلى الثانى مقتضى الهوى كما إذا قلت أعجبنى مصنوعك .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ كيف قال (وما تهوى الأنفس) بلفظ الجمع مع أنهم لايتبعون ماتهواه كل نفس فإن من النفوس مالاتهوى ماتهواه غيرها ؟ نقول هو من باب مقابلة الجمع بالجمع معناه اتبع كل واحد منهم ما تهواه نفسه يقال خرج الناس بأهليهم أى كل واحد بأهله لا كل واحد بأهل الجمع .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ بين لنا معنى الكلام جملة ، نقول قوله تعالى (إن يتبعون إلا الظن وماتهوى الأنفس) أمران مذكوران يحتمل أن يكون ذكرهما لأمرين تقدير بين يتبعون الظن فى الاعتقاد ويتبعون ماتهوى الأنفس فى العمل والعبادة وكلاهما فاسد ، لأن الاعتقاد ينبغى أن يكون مبناه على اليقين ، وكيف يجوز اتباع الظن فى الأمر العظيم ، وكلما كان الأمر أشرف وأخطر كان الاحتياط فيه أوجب واحذر ، وأما العمل فالعبادة مخالفة الهوى فكيف تنبىء على متابعته ، ويحتمل أن يكون فى أمر واحد على طريقة النزول درجة درجة فقال (إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس) أى ومادون الظن لأن القرونة تهوى مالايظن به خير وقوله تعالى (ولقد جاءهم من ربهم الهدى) إشارة

أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾ فَلِلَّهِ ٱلْـَٔاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾

إلى أنهم على حال لايعتد به لأن اليقين مقدور عليه وتحقق بمجيء الرسل (والهدى) فيه وجوه ثلاثة (الأولى) القرآن (الثانى) الرسل (الثالث) المعجزات .

قوله تعالى : ﴿ أم للانسان ماتمنى ﴾ المشهور أن أم منقطعة معناه : أللانسان ما اختاره واشتهاه ؟ وفى ما تمنى وجوه (الأولى) الشفاعة تمنوها وليس لهم شفاعة (الثانى) قولهم (ولئن رجعت إلى ربى إن لى عنده للحسنى) (الثالث) قول الوليد بن المغيرة (لأوتين مالا وولداً) (الرابع) تمنى جماعة أن يكونوا أنبياء ولم تحصل لهم تلك الدرجة الرفيعة ، فإن قلت هل يمكن أن تكون أم ههنا متصلة ؟ نقول نعم والجملة الأولى حينئذ تحتمل وجهين (أحدهما) أنها مذكورة فى قوله تعالى (ألكم الذكر وله الأنثى) كأنه قال ألكم الذكر وله الأنثى على الحقيقة أو تجعلون لأنفسكم ماتشتهون وتتمنون وعلى هذا فقوله تلك (إذا قسمة ضيزى) وغيرها جمل اعترضت بين كلا بين متصلين (ثانيهما) أنها محذوفة وتقرير ذلك هو أنا بينا أن قوله (أفرأيتم) لبيان فساد قولهم ، والإشارة إلى ظهور ذلك من غير دليل ، كما إذا قال قائل فلان يصلح للملك فيقول آخر لثالث ، أما رأيت هذا الذى يقوله فلان ولا يذكر أنه لا يصلح للملك ، ويكون مراده ذلك فيذكره وحده منبهاً على عدم صلاحه ، فههنا قال تعالى (أفرأيتم اللات والعزى) أى يستحقان العبادة أم للانسان أن يعبد مايشتهيه طبعه وإن لم يكن يستحق العبادة ، وعلى هذا فقوله أم للانسان أى هل له أن يعبد بالتمنى والاشتهاء ، ويؤيد هذا قوله تعالى (وما تهوى الأنفس) أى عبدتم بهوى أنفسكم ما لا يستحق العبادة فهل لكم ذلك .

قوله تعالى : ﴿ فلله الآخرة والأولى ﴾ وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ فى تعلق الفاء بالكلام وفيه وجوه (الأولى) أن تقديره الإنسان إذا اختار معبوداً فى دنياه على ماتمناه واشتهاه فلله الآخرة والأولى يعاقبه على فعله فى الدنيا وإن لم يعاقبه فى الدنيا فيعاقبه فى الآخرة ، وقوله تعالى (وكم من ملك) إلى قوله تعالى (لا تغنى شفاعتهم) يكون مؤكداً لهذا المعنى أى عقابهم يقع ولا يشفع فيهم أحد ولا يغنيهم شفاعة شافع (الثانى) أنه تعالى لما بين أن اتخاذ اللات والعزى باتباع الظن وهوى الأنفس كأنه قرره وقال إن لم تعلموا هذا فلله الآخرة والأولى ، وهذه الأصنام ليس لها من الأمر شيء فكيف يجوز الإشراك وقوله تعالى (وكم من ملك) على هذا الوجه جواب كلام كأنهم قالوا لانشرك بالله شيئاً ، وإنما هذه الأصنام شفعاؤنا فإنها صورة ملائكة مقربين ، فقال (وكم من ملك فى السموات لاتغنى شفاعتهم شيئاً) (الثالث) هذه تسلية كأنه تعالى قال ذلك لنبيه حيث بين رسالته ووحدانية الله ولم يؤمنوا فقال لاتأس (فلله الآخرة والأولى) أى لا يعجزون الله (الرابع) هو ترتيب حق على دليله

بيانه هو أنه تعالى لما بين رسالة النبي ﷺ بقوله (إن هو إلا وحي يوحى) إلى آخره وبين بعض ما جاء به محمد ﷺ وهو التوحيد ، قال إذا علمتم صدق محمد ببيان رسالة الله تعالى (فلله الآخرة والأولى) لأنه صلى الله عليه وسلم أخبركم عن الحشر فهو صادق (الخامس) هو أن الكفار كانوا يقولون المؤمنين أهؤلاء أهدى منا ؟ وقالوا (لو كان خيراً ما سبقونا إليه) فقال تعالى : إن الله اختار لكم الدنيا وأعطاكم الأموال ولم يعط المؤمنين بعض ذلك الأمر بل قلتم : لو شاء الله لأغناهم وتحققتم هذه القضية (فلله الآخرة والأولى) قولوا في الآخرة ما قلتم في الدنيا (يهدي الله من يشاء) كما يغني الله ما يشاء .

﴿ المسألة الثانية ﴾ (الآخرة) صفة ماذا ؟ نقول صفة الحياة أو صفة الدار وهي اسم فاعل من فعل غير مستعمل ، تقول أخرته فتأخر وكان من حقه أن تقول فأخر كما تقول غبرته فغبر فنعت منه سماعا ، ولهذا البحث فائدة ستأتي إن شاء الله .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ (الأولى) فعلى للتأنيث ، فالأول إذن أفعل صفة . وفيه مباحث :

﴿البحث الأول﴾ لابد من فاعل أخذ منه الأفعل والفعلى فإن كل فعلى وأفعل للتأنيث والتذكير له أصل فايؤخذ منه كالفضلى والافضل من الفاضلة والفاضل ، فما ذلك ؟ نقول ههنا أخذ من أصل غير مستعمل كما قلنا إن الآخر فاعل من فعل غير مستعمل ، وسبب ذلك هو أن كل فعل مستعمل فله آخر ، وذلك لأن له ماضياً فإذا استعملت ماضيه لزم فراغ الفعل وإلا لكان الفاعل بعد في الفعل فلا يكون ماضياً فإنك لا تقول لمن هو بعد الأكل أكل إلا متجوزاً عند ما يبقى له قليل ، فيقول أكل إشارة إلى أن مابقي غير معتد به . وتقول لمن قرب من الفراغ فرغت فيقول فرغت بمعنى أن ما بقي قليل لا يعتد به فكأني فرغت ، وأما الماضي في الحقيقة لا يصح إلا عند تمام الشيء والفراغ عنه فإذاً للفعل المستعمل آخر فلو كان لقولنا آخر على وزن فاعل فعل هو آخر يأخر كأمر يأمر لكان معناه صدر مصدره كجالس معناه صدر الجلوس منه بالتمام والكمال فكان ينبغي أن القائل إذا قال فلان آخر كان معناه وجد منه تمام الآخرية وفرغ منها فلا يكون بعد ما يكون آخر لكن تقدم أن كل فعل فله آخر بعده لا يقال يشكل بقولنا تأخر فإن معناه صار آخراً لأنا نقول وزن الفعل ينادي على صحة ما ذكرنا فإنه من باب التكلف والتكبر إذا استعمل في غير المتكبر . أي يرى أنه آخر ، وليس في الحقيقة كذلك ، إذا علمت هذا فنقول الآخر فاعل ليس له فعل ، ومبالغته بأفعل وهو كقولنا أأخر ، فنقلت الهمزة إلى مكان الألف ، والألف إلى مكان الهمزة ، فصارت الألف همزة والهمزة ألفاً ، ويدل عليه التأويل في المعنى ، فإن آخر الشيء جزء منه متصل به والآخر مباين عنه منفصل والمنفصل بعد المتصل ، والآخر أشد تأخراً عن الشيء من آخره ، والأول أفعل ليس له فاعل ، وليس له فعل ، والأول أبعد عن الفعل من الآخر ، وذلك لأن الفعل الماضي علم له آخر من وصفه بالماضي ولولا ذلك الوصف لما علم له آخر ، وأما الفعل لتفسير كونه فعلا علم له أول

لأن الفعل لا بد له من فاعل يقوم به ، أو يوجد منه فإذا الفاعل أولا ثم الفعل ، فإذا كان الفاعل أول الفعل كيف يكون الأول له فعل يوجد منه فلا فعل له ولا فاعل فلا يقال آل الشيء بمعنى سبق كما يقال قال من القول ، أو نال من النيل ، لا يقال إن قولنا سبق أخذ منه السابق ومن السابق الأسبق مع أن الفاعل يسبق الفعل ، وكذلك يقال تقدم الشيء مع أن الفاعل متقدم على الفعل إلى غير ذلك ، نقول أما تقدم قد مضى الجواب عنه فى تأخر ، وأما سبق يقول القائل سابقته فسبقته فتجيب عنه بأن ذلك مفتقر إلى أمر يصدر من فاعل فالسابق إن استعمل فى الأول فهو بطريق المشابهة لا بطريق الحقيقة ، والفاعل أول الفعل بمعنى قبل الفعل ، وليس سابق الفعل لأن الفاعل والفعل لا يتسابقان فالفاعل لا يسبقه ، والذى يوضح ماذكرنا أن الآخر أبعد من الأول عن الفعل بخلاف الآخر ، وما يقال إن أول بمعنى جعل الآخر أولا لاستخراج معنى من الكلام فبعيد وإلا لم يكن آخر دونه فى إفادة ذلك ، بل التأويل من آل شيء إذا رجع أى رجعه إلى المعنى المراد وأبعد من اللفظين قبل ، وبعد فإن الآخر فاعل من غير فعل والأول أفعل من غير فاعل ولا فعل ، وقبل وبعد لا فاعل ولا أفعل فلا يفهم من فعل أصلا لأن الأول أول لما فيه من معنى قبل وليس قبل قبلا لما فيه من معنى الأول والآخر آخر لما فيه من معنى بعد ، وليس بعد بعداً لما فيه من معنى الآخر يدلك عليه أنك تعلل أحدهما بالآخر ولا تعكسه فتقول هذا آخر من جاء لأنه جاء بعد الكل ولا تقول هو جاء بعد الكل لأنه آخر من جاء ، ويؤيده أن الآخر لا يتحقق إلا ببعدية مخصوصة وهى التى لا بعدية بعدها وبعد ليس لا يتحقق إلا بالآخر فإن المتوسط بعد الأول ليس بآخر . وهذا البحث من أبحاث الزمان ومنه يعلم معنى قوله ﷺ «لا تسبوا الدهر [فإن الدهر هو الله] » أى الدهر هو الذى يفهم منه القبلية والبعدية والله تعالى هو الذى يفهم منه ذلك والبعدية والقبلية حقيقة لإثبات الله ولا مفهوم للزمان إلا ما به القبلية والبعدية فلا تسبوا الدهر فإن ما تفهمونه منه لا يتحقق إلا فى الله وبالله ولولاه لما كان قبل ولا بعد .

﴿ البحث الثانى ﴾ ورد فى كلام العرب الأولة تأنيث الأول وهو ينافيه صحة استعمال الأولى لأن الأولى تدل على أن الأول أفعل للتفصيل ، وأفعل للتفضيل لا يلحقه تاء التانيث فلا يقال زيد أعلم وزينب أعلمة لسبب يطول ذكره ، وسنذكره فى موضع آخر إن شاء الله تعالى ، نقول الجواب عنه هو أن أول لما كان أفعل وليس له فاعل شابه الأربع والأرنب لجاز إلحاق التاء به ولما كان صفة شابه الأكبر والأصغر فقيل أولى .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ أولى تدل على أن أول لا ينصرف فكيف يقال أفعله أولا ويقال جاء زيد أولا وعمرو ثانياً فإن قيل جاز فيه الأمران بناء على أولة وأولى فمن قال بأن تأنيث أول أولة فهو كالأربع والأربعة لجاز التنوين ، ومن قال أولى لا يجوز ، نقول إذا كان كذلك كان الأشهر ترك التنوين لأن الأشهر أن تأنيثه أولى وعليه استعمال القرآن ، فاذن الجواب إن عند التأنيث الأولى أن

وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴿٢٦﴾

يقال أولى نظراً إلى المعنى ، وعند العرب أولة لأنه هو الأصل ودل عليه دليل ، وإن كان أضعف من الغير وربما يقال بأن منع الصرف من أفعل لايكون إلا إذا لم يكن تأنيثه إلا فعلى ، وأما إذا كان تأنيثه بالتاء أو جاز ذلك فيه لا يكون غير منصرف .

قوله تعالى : ﴿ وكم من ملك فى السموات لاتغنى شفاعتهم شيئاً إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى ﴾ .

وقد علم وجه تعلقها بما قبلها فى الوجوه المتقدمة فى قوله تعالى (فلله الآخرة) إن قلنا إن معناه أن اللات والعزى وغيرهما ليس لهم من الأمر شيء (فلله الآخرة والأولى) فلايجوز إشراكهم فيقولون نحن لانشرك بالله شيئاً ، وإنما نقول هؤلاء شفعاؤنا . فقال كيف تشفع هذه ومن فى السموات لايملك الشفاعة ، وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ كم كلمة تستعمل فى المقادير ، إما لاستبانتها فتكون استفهامية كقولك كم ذراعاً طوله وكم رجلا جاءك أى كم عدد الجائين تستبين المقدار وهى مثل كيف لاستبانة الأحوال وأى لاستبانة الأفراد ، وما لاستبانة الحقائق ، وإما لبيانها على الإجمال فتكون خبرية كقولك كم رجل أكرمنى أى كثير منهم أكرمونى غير أن عليه أسئلة (الأول) لم لم يجز إدخال من على الإستفهامية وجاز على الخبرية (الثانى) لم نصب مميز الاستفهامية وجر الذى للخبرية (الثالث) هى تستعمل فى الخبرية فى مقابلة رب فلم جعل اسماً مع أن رب حرف ، أما الجواب عن الأول فهو أن من يستعمل فى الموضع المتعين بالإضافة تقول خاتم من فضة كما تقول خاتم فضة ، ولما لم تضف فى الاستفهامية لم يجز استعمال ما يضاهيه وسنبين هذا الجواب ، والجواب عن السؤال الثانى هو أن نقول إن الأصل فى المميز الإضافة ، وعن الثالث هو أن كم يدخل عليه حرف الجر فتقول إلى كم تصبر ، وفى كم يوم جئته ، وبكم رجل مررت ومن حيث المعنى إن كم إذا قرن بها من وجعل مميزه جمعاً كما فى قول القائل كم من رجال خدمتهم ويكون معناه كثير من الرجال خدمتهم ورب وإن كانت للتقليل لكن لاتقوم مقام القليل ، فلايمكن أن يقال فى رب إنها عبارة عن قليل كما قلنا فى كم إنه عبارة عن كثير .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال شفاعتهم على عود الضمير إلى المعنى ، ولو قال شفاعته لكان العود إلى اللفظ فيجوز أن يقال كم من رجل رأيته ، وكم من رجل رأيتهم ، فإن قلت هل بينهما فرق معنوى ؟ قلت نعم ، وهو أنه تعالى لما قال (لاتغنى شفاعتهم) يعنى شفاعة الكل ، ولو قال شفاعته

لكان معناه كثير من الملائكة كل واحد لا تغنى شفاعته فربما كان يخطر ببال أحد أن شفاعتهم تغنى إذا جمعت ، وعلى هذا فى الكلام أمور كلها تشير إلى عظم الأمر (أحدها) كم فإنه للتكثير (ثانيها) لفظ الملك فإنه أشرف أجناس المخلوقات (ثالثها) فى السموات فإنها إشارة إلى علو منزلتهم ودنو مرتبتهم من مقر السعادة (رابعها) اجتماعهم على الأمر فى قوله (شفاعتهم) وكل ذلك لبيان فساد قولهم إن الأصنام يشفعون أى كيف تشفع مع حقارتها وضعفها ودناءة منزلتها فإن الجماد أخس الأجناس والملائكة أشرفها وهم فى أعلى السموات ولا تقبل شفاعة الملائكة فكيف تقبل شفاعة الجمادات .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ ما الفائدة فى قوله تعالى (كم من ملك) بمعنى كثير من الملائكة مع أن كل من فى السموات منهم لا يملك الشفاعة ؟ نقول المقصود الرد عليهم فى قولهم هذه الأصنام تشفع ، وذلك لا يحصل ببيان أن ملكاً من الملائكة لا تقبل شفاعته فاكتفى بذكر الكثيرة ، ولم يقل ما منهم أحد يملك الشفاعة لأنه أقرب إلى المنازعة فيه من قوله كثير مع أن المقصود حاصل به ، ثم ههنا بحث وهو أن فى بعض الصور يستعمل صيغة العموم والمراد الكثير ، وفى البعض يستعمل الكثير والمراد الكل وكلاهما على طريقة واحد ، وهو استقلال الباقى وعدم الاعتداد ، فنى قوله تعالى (تدمر كل شىء) كأنه يجعل الخارج عن الحكم غير ملتفت إليه ، وفى قوله تعالى (وكم من ملك) وقوله (بل أكثرهم لا يعلمون) وقوله (أكثرهم بهم مؤمنون) يجعل المخرج غير ملتفت إليه فيجعل كأنه ما أخرجه كالأمر الخارج عن الحكم كأنه ما خرج ، وذلك يختلف باختلاف المقصود من الكلام ، فإن كان الكلام مذكوراً لأمر فيه يبالغ يستعمل الكل ، مثاله يقال للملك كل الناس يدعون لك إذا كان الغرض بيان كثرة الدعاء له لا غير ، وإن كان الكلام مذكوراً لأمر خارج عنه لا يبالغ فيه لأن المقصود غيره فلا يستعمل الكل ، مثاله إذا قال الملك لمن قال له اغتنم دعائى كثير من الناس يدعون لى ، إشارة إلى عدم احتياجه إلى دعائه لا لبيان كثرة الدعاء له ، فكذلك ههنا .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قال (لا تغنى شفاعتهم) ولم يقل لا يشفعون مع أن دعواهم أن هؤلاء شفعاؤنا لا أن شفاعتهم تنفع أو تغنى وقال تعالى فى مواضع أخرى (من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه) فنفى الشفاعة بدون الإذن وقال (مالهم من ولى ولا شفيع) نفى الشفيع وههنا نفى الإغناء ؟ نقول هم كانوا يقولون هؤلاء شفعاؤنا وكانوا يعتقدون نفع شفاعتهم ، كما قال تعالى (ليقربونا إلى الله زلفى) ثم نقول نفى دعواهم يشتمل على فائدة عظيمة ، أما نفى دعواهم لأنهم قالوا الأصنام تشفع لنا شفاعة مقربة مغنية فقال (لا تغنى شفاعتهم) بدليل أن شفاعة الملائكة لا تغنى ، وأما الفائدة فلأنه لما استثنى بقوله (إلا من بعد أن يأذن الله) أى فيشفع ولكن لا يكون فيه بيان أنها تقبل وتغنى أو لا تقبل ، فإذا قال (لا تغنى شفاعتهم) ثم قال (إلا من بعد أن يأذن الله)

إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢٧﴾

فيكون معناه تغني فيحصل البشارة ، لأنه تعالى قال (الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا) وقال تعالى (ويستغفرون لمن فى الأرض) والاستغفار شفاعة .

وأما قوله (من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه) فليس المراد نفي الشفاعة وقبولها كما فى هذه الآية حيث رد عليهم قولهم وإنما المراد عظمة الله تعالى ، وأنه لا ينطق فى حضرته أحد ولا يتكلم كما فى قوله تعالى (لا يتكلمون إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء) .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ اللام فى قوله (لمن يشاء ويرضى) تحتمل وجهين (أحدهما) أن تتعلق بالإذن وهو على طريقين (أحدهما) إن يقال (إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء) من الملائكة فى الشفاعة لمن يشاء الشفاعة ويرضى (الثانى) أن يكون الإذن فى المشفوع له لأن الإذن حاصل للكل فى الشفاعة للمؤمنين لأنهم جميعهم يستغفرون لهم فلا معنى للتخصيص ، ويمكن أن ينازع فيه (وثانيهما) أن تتعلق بالإغناء يعنى إلا من بعد أن يأذن الله لهم فى الشفاعة فتغنى شفاعتهم لمن يشاء ويمكن أن يقال بأن هذا بعيد ، لأن ذلك يقتضى أن تشفع الملائكة ، والإغناء لا يحصل إلا لمن يشاء ، فيجاب عنه بأن التنبيه على معنى عظمة الله تعالى فإن الملك إذا شفع فالله تعالى على مشيئته بعد شفاعتهم يغفر لمن يشاء .

﴿ المسألة السادسة ﴾ ما الفائدة فى قوله تعالى (ويرضى) ؟ نقول فيه فائدة الإرشاد ، وذلك لأنه لما قال (لمن يشاء) كان المكلف متردداً لا يعلم مشيئته فقال (ويرضى) ليعلم أنه العابد الشاكر لا المعاند الكافر ، فإنه تعالى قال (إن تكفروا فإن الله غنى عنكم ولا يرضى لعباده الكفر وإن تشكروا يرضه لكم) فكأنه قال (لمن يشاء) ثم قال (ويرضى) بياناً لمن يشاء ، وجواب آخر على قولنا : لا تغنى شفاعتهم شيئاً عمن يشاء ، هو أن فاعل يرضى المدلول عليه لمن يشاء كأنه قال ويرضى هو أى تغنيه الشفاعة شيئاً صالحاً فيحصل به رضاه كما قال (ويرضى) هو أى تغنيه الشفاعة وحينئذ يكون يرضى للبيان لأنه لما قال (لا تغنى شفاعتهم) إشارة إلى نفي كل قليل وكثير كان اللازم عنده بالاستثناء أن شفاعتهم تغنى شيئاً ولو كان قليلا ويرضى المشفوع له ليعلم أنها تغنى أكثر من اللازم بالاستثناء ، ويمكن أن يقال (ويرضى) لتبيين أن قوله (يشاء) ليس المراد المشيئة التى هى الرضا ، فإن الله تعالى إذا شاء الضلالة بعبد لم يرض به ، وإذا شاء الهداية رضى فقال (لمن يشاء ويرضى) ليعلم أن المشيئة ليست هى المشيئة العامة ، إنما هى الخاصة .

قوله تعالى : ﴿ إن الذين لا يؤمنون بالآخرة ليسمون الملائكة تسمية الأنثى ﴾ وقد بينا ذلك فى سورة الطور واستدللنا بهذه الآية ونذكر ما يقرب منه ههنا فنقول (الذين لا يؤمنون بالآخرة)

هم الذين لا يؤمنون بالرسل ولا يتبعون الشرع ، وإنما يتبعون ما يدعون أنه عقل فيقولون أسماء الله تعالى ليست توقيفية ، ويقولون الولد هو الموجود من الغير ويستدلون عليه بقول أهل اللغة : كذا يتولد منه كذا ، يقال الزاج يتولد من الآجر بمعنى يوجد منه ، وكذا القول فى بنت الكرم وبنت الجبل ، ثم قالوا الملائكة وجدوا من الله تعالى فهم أولاده بمعنى الإيجاد ثم إنهم رأوا فى الملائكة تاء التأنيث وصح عندهم أن يقال سجدت الملائكة فقالوا : بنات الله ، فقال (إن الذين لا يؤمنون بالآخرة ليسمون الملائكة تسمية الأنثى) أى كما سمى الإناث بنات . وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ كيف يصح أن يقال إنهم (لا يؤمنون بالآخرة) مع أنهم كانوا يقولون : هؤلاء شفعاؤنا عند الله ، وكان من عادتهم أن يربطوا مركوباً على قبر من يموت ويعتقدون أنه يحشر عليه ؟ فنقول الجواب عنه من وجهين (أحدهما) أنهم لما كانوا لا يجزمون به كانوا يقولون لا حشر ، فإن كان فلنا شفعاء يدل عليه قوله تعالى (وما أظن الساعة قائمة ولئن رجعت إلى ربى إن لى عنده للحسنى) (ثانيهما) أنهم ما كانوا يعترفون بالآخرة على الوجه [الحق] وهو ما ورد به الرسل.

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال بعض الناس أنثى فعلى من أفعل يقال فى فعلها آنث ويقال فى فاعلها أنيث يقال حديد ذكر وحديد أنيث ، والحق أن الأنثى يستعمل فى الأكثر على خلاف ذلك بدليل جمعها على إناث .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ كيف قال تسمية الأنثى ولم يقل تسمية الإناث ؟ نقول عنه جوابان (أحدهما) ظاهر والآخر دقيق , أما الظاهر فهو أن المراد بيان الجنس ، وهذا اللفظ أليق بهذا الموضع لما جاء على وفقه آخر الآيات . والدقيق هو أنه لو قال يسمونهم تسمية الإناث كان يحتمل وجهين : (أحدهما) البنات (وثانيهما) الأعلام المعتادة للاناث كعائشة وحفصة ، فإن تسمية الإناث كذلك تكون فإذا قال تسمية الأنثى تعين إن تكون للجنس وهى البنت والبنات ، ومناسبة هذه الآية لما قبلها هى أنهم لما قيل لهم إن الصنم جماد لا يشفع وبين لهم إن أعظم أجناس الخلق لا شفاعة لهم إلا بالإذن قالوا نحن لا نعبد الأصنام لأنها جمادات وإنما نعبد الملائكة بعبادتها فإنها على صورها ونصبها بين أيدينا ليذكرنا الشاهد والغائب ، فنعظم الملك الذى ثبت أنه مقرب عظيم الشأن رفيع المكان . فقال تعالى رداً عليهم كيف تعظمونهم وأنتم تسمونهم تسمية الأنثى ، ثم ذكر فيه مستندهم فى ذلك وهو لفظ الملائكة ، ولم يقل إن الذين لا يؤمنون بالآخرة ليسمون الملائك تسمية الأنثى بل قال (ليسمون الملائكة) فإنهم اغتروا بالتاء واغترارهم باطل لأن التاء تجىء لمعان غير التأنيث الحقيقى والبنت لا تطلق إلا على المؤنث الحقيقى بالإطلاق والتاء فيها لتأكيد معنى الجمع كما فى صياقلة وهى تشبه تلك التاء ، وذلك لأن الملائكة فى المشهور جمع ملك ، والملك اختصار من الملأك بحذف الهمزة ، والملأك قلب المألك من الألوكة وهى الرسالة ، فالملائكة على هذا القول مفاعلة ، والأصل مفاعل ورد إلى ملائكة فى الجمع فهى تشبه فعائل وفعائلة ، والظاهر أن الملائكة فعائل جمع مليكى

منسوب إلى المليك بدليل قوله تعالى (عند مليك مقتدر) فى وعد المؤمن ، وقال فى وصف الملائكة (فالذين عند ربك) وقال أيضاً فى الوعد (وإن له عندنا لزلفى) وقال فى وصف الملائكة (ولا الملائكة المقربون) فهم إذن عباد مكرمون اختصهم الله بمزيد قربه (ويفعلون ما يؤمرون) كأمر الملوك والمستخدمين عند السلاطين الواقفين بأبوابهم منتظرين لورود أمر عليهم ، فهم منتسبون إلى المليك المقتدر فى الحال فهم مليكيون وملائكة فالتاء للنسبة فى الجمع كما فى الصيارفة والبياطرة .

فان قيل هذا باطل من وجوه (الأول) أن أحداً لم يستعمل لواحد منهم مليكي كما استعمل صير فى (والثانى) أن الانسان عند مايصير عند الله تعالى يجب أن يكون من الملائكة ، وليس كذلك لأن المفهوم من الملائكة جنس غير الآدمى (الثالث) هو أن فعائلة فى جمع فعيلى لم يسمع وإنما يقال فعيلة كما يقال جاء بالنميمة والحقيبة (الرابع) لو كان كذلك لما جمع ملك ؟ نقول :

﴿ الجواب عن الأول ﴾ أما عدم استعمال واحده فمسلم وهو لسبب وهو أن الملك كلما كان أعظم كان حكمه وخدمه وحشمه أكثر ، فاذا وصف بالعظمة وصف بالجمع فيقال صاحب العسكر الكثير ولا يوصف بواحد وصف تعظيم ، وأما ذلك الواحد فان نسب إلى المليك عين للخبر بأن يقال هذا مليكي وذلك عند ما تعرف عينه فتجعله مبتدأ وتخبر بالمليكي عنه ، والملائكة لم يعرفوا بأعيانهم إلا قليلا منهم كجبريل وميكائيل ، وحينئذ لافائدة فى قولنا جبريل مليكي ، لأن من عرف الخبر ولا يصاغ الحمل إلا لبيان ثبوت الخبر المبتدأ فلا يقال للانسان حيوان أو جسم لأنه إيضاح واضح ، اللهم إلا أن يستعمل ذلك فى ضرب مثال أو فى صورة نادرة لغرض ، وأما أن ينسب إلى المليك وهو مبتدأ فلا ، لأن العظمة فى أن يقول واحد من الملائكة فنبه على كثرة المقربين إليه كما تقول واحد من أصحاب الملك ولا تقول صاحب الملك ، فاذا أردت التعظيم البالغ فعند الواحد استعمل اسم الملك غير منسوب بل هو موضوع لشدته وقوته كما قال تعالى (ذو مرة ، وذو قوة) فقال (شديد القوى) و م ل ك تدل على الشدة فى تقاليبها على ماعرف وعند الجمع استعمل الملائكة للتعظيم ، كما قاله تعالى (وما يعلم جنود ربك إلا هو) .

﴿ الجواب عن الثانى ﴾ نقول قد يكون الإسم فى الأول لوصف يختص ببعض من يتصف به وغيره لو صار متصفاً بذلك الوصف لايسمى بذلك الإسم كالدابة فاعلة من دب ، ولا يقال للمرأة ذات الدب دابة اسما وربما يقال لها صفة عند حالة ماتدب بدب مخصوص غير الدب العام الذى فى الكل كما لو دبت بليل لأخذ شىء أو غيره ، أو يقال إنما سميت الملائكة ملائكة لطول انتسابهم من قبل خلق الآدمى بسنين لايعلم عددها إلا الله ، فمن لم يصل إلى الله ويقوم ببابه لايحصل له العهد والانتساب فلا يسمى بذلك الإسم .

﴿ الجواب عن الثالث ﴾ نقول الجموع القياسية لامانع لها كفعال فى جمع فعل كجال وثمار وأفعال كأثقال وأشجار وفعلان وغيرها ، وأما السماع وإن لم يرد إلا قليلا فا كتفى بما فيه من التعظيم من نسبة الجمع إلا باب الله ويكون من باب المرأة والنساء .

وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ

﴿ الجوب عن الرابع ﴾ فالمنع ولعل هـذا منه أو نقول حمل فعيلى على فعيل فى الجمع كما حمل فيعل فى الجمع على فعيل فقيل فى جمع جيد جياد ولا يقال فى فعيل أفاعل ، ويؤيد ما ذكرنا أن إبليس عند ماكان واقفاً بالباب كان داخلا فى جملة الملائكة . فنقول قوله تعالى (وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس) عند ماصرف وأبعد خرج عنهم وصار من الجن .

وأما ما قاله بعض أهل اللغة من أن الملائكة جمع ملأك ، وأصل ملأك مألك من الألوكة وهى الرسالة ففيه تعسفات أكثر مما ذكرنا بكثير ، منها أن الملك لايكون فعل بل هو مفعل وهو خلاف الظاهر ، ولم لم يستعمل مألك على أصله كمآرب ومآثم ومآكل وغيرهما مما لا يعد إلا بتعسف ؟ ومنها أن ملكا لم جعل ملأك ولم يفعل ذلك بأخواته التى ذكرناها ؟ ومنها أن التاء لم ألحقت بجمعه ولم لم يقل ملائك كما فى جمع كل مفعل ؟ والذى يرد قولهم قوله تعالى (جاعل الملائكة رسلا) فهى غير الرسل فلا يصح أن يقال جعلت الملائكة رسلا كما لا يصح جعلت الرسل مرسلين وجعل المقترب قريباً ، لأن الجعل لابد فيه من تغيير . ومما يدل على خلاف ما ذكروا أن الكل منسوبون إليه موقوفون بين يديه منتظرون أمره لورود الأوامر عليهم .

قوله تعالى :﴿ وما لهم به من علم إن يتبعون إلا الظن ﴾ وفيما يعود إليه الضمير فى (به) وجوه (أحدها) مانقله الزمخشرى وهو أنه عائد إلى ماكانوا يقولون من غـير علم (ثانيها) أنه عائد إلى ماتقدم فى الآية المتقدمة من علم ، أى مالهم بالله من علم فيشركون وقرىء ما لهم بها . وفيه وجوه أيضاً (أحدها) مالهم بالآخرة (وثانيها) مالهم بالتسمية (ثالثها) مالهم بالملائكة ، فإن قلنا (مالهم بالآخرة) فهو جواب لما قلنا إنهم وإن كانوا يقولون الاصنام شفعاؤنا عند الله وكانوا يربطون الإبل على قبور الموتى ليركبوها لكن ماكانوا يقولون به عن علم ، وإن قلنا بالتسمية قد تكون وهو أن العلم بالتسمية حاصل لهم ، فإنهم يعلمون أنهم ليسوا فى شك ، إذ التسمية قد تكون وضعاً أولياً وهو لايكون بالظن بل بالعلم بأنه وضع ، وقد يكون استعمالا معنوياً ويتطرق إليه الكذب والصدق والعلم ، مثال الأول : من وضع أولا اسم السماء لموضوعها وقال هذا سماء ، مثال الثانى : إذا قلنا بعد ذلك للماء والحجر هذا سماء ، فإنه كذب ، ومن يعتقده فهو جاهل ، وكذلك قولهم فى الملائكة إنها بنات الله ، لم تكن تسمية وضعية ، وإنما أرادوا به أنهم موصوفون بأمر يجب استعمال لفظ البنات فيهم ، وذلك كذب ومعتقده جاهل ، فهذا هو المراد بما ذكرنا أن الظن يتبع فى الأمور المصلحية ، والأفعال العرفية أو الشرعية عند عدم الوصول إلى اليقين ، وأما فى الاعتقادات فلا يغنى الظن شيئاً من الحق ، فإن قيل : أليس الظن قد يصيب ، فكيف يحكم عليه بأنه لا يغنى أصلا ؟ نقول المكلف يحتاج إلى يقين يميز الحق من الباطل ، ليعتقد الحق ويميز الخير

وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ﴿٢٨﴾ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٢٩﴾

من الشر ليفعل الخير ، لكن فى الحق ينبغى أن يكون جازماً لاعتقاد مطابقه ، والظان لا يكون جازماً ، وفى الخير ربما يعتبر الظن فى مواضع ، ويحتمل أن يقال المراد من الحق هو الله تعالى ، ومعناه أن الظن لا يفيد شيئاً من الله تعالى ، أى الأوصاف الإلهية لا تستخرج بالظنون يدل عليه قوله تعالى (ذلك بأن الله هو الحق) وفيه لطيفة ، وهى أن الله تعالى فى ثلاثة مواضع منع من الظن ، وفى جميع تلك المواضع كان المنع عقيب التسمية ، والدعاء باسم موضعان منها فى هذه السورة (أحدهما) قوله تعالى (إن هى إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان إن يتبعون إلا الظن) . (والثانى) قوله تعالى (إن يتبعون إلا الظن وإن الظن لا يغنى من الحق شيئاً) ، (والثالث) فى الحجرات ، قال الله تعالى (ولا تنابزوا بالألقاب بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان ومن لم يتب فأولئـــك هم الظالمون ، يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن) عقيب الدعاء بالقلب ، وكل ذلك دليل على أن حفظ اللسان أولى من حفظ غيره من الأركان ، وأن الكذب أقبح من السيئات الظاهرة من الأيدى والأرجل ، وهذه المواضع الثلاثة (أحدها) مدح من لا يستحق المدح كاللات والعزى من العز (وثانيها) ذم من لا يستحق الذم ، وهم الملائكة الذين هم عباد الرحمن يسمونهم تسمية الأنثى (وثالثها) ذم من لم يعلم حاله ، وأما مدح من حاله لا يعلم ، فلم يقل فيه : لا يتبعون إلا الظن ، بل الظن فيه معتبر ، والأخذ بظاهر حال العاقل واجب .

قوله تعالى : ﴿ فأعرض عمن تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا ﴾ أى اترك مجادلتهم فقد بلغت وأتيت بما كان عليك ، وأكثر المفسرين يقولون : بأن كل ما فى القرآن من قوله تعالى (فأعرض) منسوخ بآية القتل وهو باطل ، فان الأمر بالإعراض موافق لآية القتال ، فكيف ينسخ به ؟ وذلك لأن النبى صلى الله عليه وسلم كان مأموراً بالدعاء بالحكمة والموعظة الحسنة ، فلما عارضوه بأباطيلهم قيل له (وجادلهم بالتى هى أحسن) ثم لما لم ينفع ، قال له ربه : فأعرض عنهم ولا تقابلهم بالدليل والبرهان ، فانهم لا يتبعون إلا الظن ، ولا يتبعون الحق ، وقابلهم بالإعراض عن المناظرة بشرط جواز المقاتلة ، فكيف يكون منسوخاً ، والإعراض من باب أشكاه والهمزة فيه للسلب ، كأنه قال : أزل العرض ، ولا تعرض عليهم بعد هذا أمراً ، وقوله تعالى (عمن تولى عن ذكرنا) لبيان تقديم فائدة العرض والمناظرة ، لأن من لا يصغى إلى القول كيف يفهم معناه ؟ وفى (ذكرنا) وجوه (الأول) القرآن (الثانى) الدليل والبرهان (الثالث) ذكر الله تعالى ، فان من

لا ينظر فى الشىء كيف يعرف صفاته ؟ وهم كانوا يقولون : نحن لا نتفكر فى آلاء الله لعدم تعلقنا بالله ، وإنما أمرنا مع من خلقنا ، وهم الملائكة أو الدهر على اختلاف أقاويلهم وتباين أباطيلهم ، وقوله تعالى (ولم يرد إلا الحياة الدنيا) إشارة إلى إنكارهم الحشر ، كما قالوا (إن هى إلا حياتنا الدنيا) وقال تعالى (أرضيتم بالحياة الدنيا) يعنى لم يثبتوا وراءها شيئاً آخر يعملون له ، فقوله (عمن تولى عن ذكرنا) إشارة إلى إنكارهم الحشر ، لأنه إذا ترك النظر فى آلاء الله تعالى لا يعرفه فلا يتبع رسوله فلا ينفعه كلامه . وإذا لم يقل بالحشر والحساب لا يخاف فلا يرجع عما هو عليه ، فلا يبقى إذن فائدة فى الدعاء ، واعلم أن النبى ﷺ كان طبيب القلوب ، فأتى على ترتيب الأطباء ، وترتيبهم أن الحال إذا أمكن إصلاحه بالغذاء لا يستعملون الدواء ، وما أمكن إصلاحه بالدواء الضعيف لا يستعملون الدواء القوى ، ثم إذا عجزوا عن المداواة بالمشروبات وغيرها عدلوا إلى الحديد والكى وقيل آخر الدواء الكى ، فالنبى ﷺ أولا أمر القلوب بذكر الله فحسب فإن (بذكر الله تطمئن القلوب) كما أن بالغذاء تطمئن النفوس ، فالذكر غذاء القلب ، ولهذا قال أولا : قولوا لا إله إلا الله أمر بالذكر لمن انتفع مثل أبى بكر وغيره ممن انتفع ، ومن لم ينتفع ذكر لهم الدليل ، وقال (أولم يتفكروا ، قل انظروا ، أفلا ينظرون) إلى غير ذلك ، ثم أتى بالوعيد والتهديد ، فلما لم ينفعهم قال : أعرض عن المعالجة ، واقطع الفاسد لئلا يفسد الصالح .

﴿تم الجزء الثامن والعشرون ، ويليه الجزء التاسع والعشرون﴾
﴿وأوله تفسير قوله تعالى (ذلك مبلغهم من العلم)﴾

بسم الله الرحمن الرحيم

ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿٣٠﴾

ثم قال تعالى ﴿ ذلك مبلغهم من العلم ﴾ ذلك فيه وجوه (الأول) أظهرها أنه عائد إلى الظن ، أى غاية ما يبلغون به أنهم يأخذون بالظن (وثانيها) إيثار الحياة الدنيا مبلغهم من العلم ، أى ذلك الإيثار غاية ما بلغوه من العلم (ثالثها) (فأعرض عمن تولى) وذلك الإعراض غاية مابلغوه من العلم ، والعلم على هذا يكون المراد منه العلم بالمعلوم ، وتكون الألف واللام للتعريف ، والعلم بالمعلوم هو مافى القرآن ، وتقرير هذا أن القرآن لما ورد بعضهم تلقاه بالقبول وانشرح صدره فبلغ الغاية القصوى ، وبعضهم قبله من حيث إنه معجزة ، واتبع الرسول فبلغ الدرجة الوسطى ، وبعضهم توقف فيه كأبى طالب ، وذلك أدنى المراتب ، وبعضهم رده وعابه ، فالأولون لم يجز الإعراض عنهم ، والآخرون وجب الإعراض عنهم ، وكان موضع بلوغه من العلم أنه قطع الكلام معه الإعراض عنه ، وعليه سؤال وهو : أن الله تعالى بين أن غايتهم ذلك (ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها) والمجنون الذى لا علم له ، والصبى لا يؤمر بما فوق احتماله فكيف يعاقبهم الله ؟

نقول ذكر قبل ذلك أنهم تولوا عن ذكر الله ، فكأن عدم علمهم لعدم قبولهم العلم ، وإنما قدر الله توليهم ليضاف الجهل إلى ذلك فيحقق العقاب ، قال الزمخشرى : ذلك مبلغهم من العلم كلام معترض بين كلامين ، والمتصل قوله تعالى (فأعرض عمن تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله) وعلى ما ذكرنا المقصود لايتم إلا به ، يكون كأنه تعالى قال : أعرض عنهم فإن ذلك غايتهم ، ولا يوجد وراء ماظهر منهم شىء ، وكأن قوله (عمن تولى) إشارة إلى قطع عذرهم بسبب الجهل ، فإن الجهل كان بالتولى وإيثار العاجل .

ثم ابتدأ وقال ﴿ إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بمن اهتدى ﴾ وفى المناسبة وجوه (الأول) أنه تعالى لما قال للنبى صلى الله عليه وسلم ، أعرض وكان النبى ﷺ شديد الميل إلى إيمان قومه وكان ربما هجس فى خاطره ، أن فى الذكرى بعد منفعة ، وربما يؤمن من الكافرين قوم آخرون من غير قتال فقال له (إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله) علم أنه يؤمن بمجرد الدعاء أحد من المكلفين ، وإنما ينفع فيهم أن يقع السيف والقتال فأعرض عن الجدال وأقبل على

القتال ، وعلى هذا فقوله (بمن اهتدى) أى علم فى الأزل ، من ضل فى تقديره ومن اهتدى ، فلا يشتبه عليه الأمران ، ولا يأس فى الإعراض ويعد فى العرف مصلحة (ثانيها) هو على معنى قوله تعالى (وإنا أو إياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين) ، وقوله تعالى (الله يحكم بيننا) ووجهه أنهم كانوا يقولون نحن على الهدى وأنتم مبطلون وأقام النبى ﷺ الحجة عليهم فلم ينفعهم ، فقال تعالى أعرض عنهم وأجرك وقع على الله ، فإنه يعلم أنكم مهتدون ، ويعلم أنهم ضالون ، والمتناظران إذا تناظرا عند ملك قادر مقصودهم ظهور الأمر عند الملك فإن اعترف الخصم بالحق فذاك ، وإلا فغرض المصيب يظهر عند الملك . فقال تعالى جادلت وأحسنت والله أعلم بالمحق من المبطل (ثالثها) أنه تعالى لما أمر نبيه بالإعراض وكان قد صدر منهم إيذاء عظيم وكان النبى ﷺ يتحمله رجاء أن يؤمنوا ، فنسخ جميع ذلك فلما لم يؤمنوا فكأنه قال سعيي وتحملي لإيذائهم وقع هباء ، فقال الله تعالى إن الله يعلم حال المضلين والمهتدين (لله مافى السموات والأرض ليجزى الذين أساؤا بما عملوا ويجزى الذين أحسنوا) من المهتدين . وفيه مسائل .

﴿ المسألة الأولى ﴾ (هو) يسمى عماداً وفصلا ، ولو قال إن ربك أعلم لتم الكلام ، غير أن عند خلو الكلام عن هذا العماد ربما يتوقف السامع على سماع مابعده ، ليعلم أن (أعلم) خبر (ربك) أو هو مع شيء آخر خبر ، مثاله لو قال إن زيداً أعلم منه عمرو يكون خبر زيد الجملة التى بعده ، فإن قال (هو أعلم) انتفى ذلك التوهم .

﴿ المسألة الثانية ﴾ أعلم يقتضى مفضلا عليه . يقال زيد أعلم من عمرو والله أعلم ممن ؟ نقول أفعل يجىء كثيراً بمعنى عالم لاعالم مثله ، وحينئذ إن كان هناك عالم فذلك مفضل عليه وإن لم يكن ففى الحقيقة هو العالم لاغير ، وفى كثير من المواضع أفعل فى صفات الله بذلك المعنى يقال الله أكبر وفى الحقيقة لا كبير مثله ولا أكبر إلا هو ، والذى يناسب هذا أنه ورد فى الدعوات يا أكرم الأكرمين كأنه قال لاأكرم مثلك ، وفى الحقيقة لاأكرم إلا هو وهذا معنى قول من يقول (أعلم) بمعنى عالم بالمهتدى والضال ، ويمكن أن يقال أعلم من كل عالم بفرض عالم غيره .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ علمته وعلمت به مستعملان ، قال الله تعالى فى الأنعام (هو أعلم من يضل عن سبيله) ثم ينبغى أن يكون المراد من المعلوم العلم إذا كان تعلقه بالمعلوم أقوى . إما لقوة العلم وإما لظهور المعلوم وإما لتأكيد وجوب العلم به ، وإما لكون الفعل له قوة ، أما قوة العلم فكما فى قوله تعالى (إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثى الليل ونصفه) وقال (ألم يعلم بأن الله يرى) لما كان علم الله تعالى تاما شاملا علقه بالمفعول الذى هو حال من أحوال عبده الذى هو بمرأى منه من غير حرف . ولما كان علم العبد ضعيفا حادثاً علقه بالمفعول الذى هو صفة من صفات الله تعالى الذى لا يحيط به علم البشر بالحرف أو لما كان كون الله رائياً لم يكن محسوساً به مشاهداً علق الفعل به بنفسه وبالآخر بالحرف . وأما ظهور المعلوم فكما قال تعالى (أو لم يعلموا أن الله يبسط الرزق

لمن يشاء) وهو معلوم ظاهر وأما تأكيد وجوب العلم به كما فى قوله تعالى فاعلم (أنه لا إله إلا الله) ويمكن أن يقال هو من قبيل الظاهر ، وكذلك قوله تعالى (واعلموا أنكم غير معجزى الله) وأما قوة الفعل فقال تعالى (علم أن لن تحصوه) وقال تعالى (إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى) لما كان المستعمل صفة الفعل علقه بالمفعول بغير حرف وقال تعالى (إن ربك هو أعلم بمن) كما كان المستعمل اسماً دالا على فعل ضعف عمله لتعلقه بالمفعول .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قدم العلم بمن ضل على العلم بالمهتدى فى كثير من المواضع منها فى سورة الأنعام ومنها فى سورة (ن) ومنها فى السورة ، لأن فى المواضع كلها المذكور نبيه صلى الله عليه وسلم والمعاندون ، فذكرهم أولا تهديداً لهم وتسلية لقلب نبيه عليه الصلاة والسلام .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ قال فى موضع واحد من المواضع (هو أعلم من يضل عن سبيله) وفى غيره قال (بمن ضل) فهل عندك فيه شيء ؟ قلت نعم ، ونبين ذلك ببحث عقلى وآخر نقلى (أما العقلى) فهو أن العلم القديم يتعلق بالمعلوم على ماهو عليه ، إن وجد أمس علم أنه وجد أمس فى نهار أمس ، وليس مثل علمنا حيث يجوز أن يتحقق الشيء أمس ، ونحن لا نعلمه إلا فى يومنا هذا بل (لا يعزب عنه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض) ولا يتأخر الواقع عن علمه طرفة عين (وأما النقلى) فهو أن اسم الفاعل يعمل عمل الفعل إذا كان بمعنى المستقبل ولا يعمل عمله إذا كان ماضياً فلا تقول أنا ضارب زيداً أمس ، والواجب إن كنت تنصب أن تقول ضربت زيداً وإن كنت تستعمل اسم الفاعل فالواجب الإضافة تقول ضارب زيد أمس أنا ويجوز أن يقال أنا غداً ضارب زيداً والسبب فيه أن الفعل إذا وجد فلا تجدد له فى [غير] الاستقبال ، ولا تحقق له فى الحال فهو عدم وضعف عن أن يعمل ، وأما الحال وما يتوقع فله وجود فيمكن إعماله . إذا ثبت هذا فنقول لما قال ضل كان الأمر ماضياً وعلمه تعلق به وقت وجوده فعلم ، وقوله أعلم بمعنى عالم فيصير كأنه قال عالم بمن ضل فلو ترك الباء لكان إعمالا للفاعل بمعنى الماضى ، ولما قال يضل كان يعلم الضلال عند الوقوع وإن كان قد علم فى الأزل أنه سيضل لكن للعلم بعد ذلك تعلق آخر سيوجد ، وهو تعلقه بكون الضلال قد وقع وحصل ولم يكن ذلك فى الأزل ، فإنه لا يقال إنه تعالى علم أن فلانا ضل فى الأزل ، وإنما الصحيح أن يقال علم فى الأزل ، فإنه سيضل ، فيكون كأنه يعلم أنه يضل فيكون اسم الفاعل بمعنى المستقبل وهو يعمل عمل الفعل ، فلا يقال زيد أعلم مسألتنا من عمرو ، وإنما الواجب أن يقال زيد أعلم بمسألتنا من عمرو ، ولهذا قالت النحاة فى سورة الأنعام (إن ربك هو أعلم من يضل) يعلم من يضل وقالوا أعلم للتفضيل لا يبنى إلا من فعل لازم غير متعد ، فإن كان متعدياً يرد إلى لازم . وقولنا علم كأنه من باب علم بالضم وكذا فى التعجب إذا قلنا ما أعلمه بكذا كأنه من فعل لازم . وأما أنا فقد أجبت عن هذا بأن قوله (أعلم من يضل) معناه عالم ، وقد قدمنا ما يجب أن يعتقد فى أوصاف الله فى أكثر الأمر أن معناه أنه عالم ولا عالم مثله فيكون أعلم على حقيقته وهو أحسن من أن يقال هو بمعنى عالم لا غير ، فإن قيل فلم قال ههنا (بمن ضل) وقال هناك (يضل) ؟ قلنا لأن

وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِٱلْحُسْنَى ﴿٣١﴾

ههنا حصل الضلال فى الماضى وتأكد حيث حصل يأس الرسول صلى الله عليه وسلم وأمر بالإعراض ، وأما هناك فقال تعالى من قبل (وإن تطع أكثر من فى الأرض يضلوك عن سبيله) .

ثم قال تعالى ﴿ إن ربك هو أعلم من يضل ﴾ بمعنى إن ضللت يعلمك الله فكان الضلال غير حاصل فيه فلم يستعمل صيغة الماضى .

﴿ المسألة السادسة ﴾ قال فى الضلال عن سبيله ولم يقل فى الاهتداء إلى سبيله ، لأن الضلال عن السبيل هو الضلال وهو كاف فى الضلال . لأن الضلال لا يكون إلا فى السبيل ، وأما بعد الوصول فلا ضلال أو لأن من ضل عن سبيله لا يصل إلى المقصود سواء سلك سبيلا أو [لم] يسلك وأما من اهتدى إلى سبيل فلا وصول إن لم يسلكه ، ويصحح هذا أن من ضل فى غير سبيله فهو ضال ومن أهتدى إليها لا يكون مهتدياً إلا إذا اهتدى إلى كل مسألة يضر الجهل بها بالإيمان فكان الاهتداء اليقيني هو الاهتداء المطلق فقال (بمن اهتدى) وقال (بالمهتدين) .

ثم قال تعالى ﴿ ولله مافى السموات وما فى الأرض ليجزى الذين أساؤا بما عملوا ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى ﴾ إشارة إلى كمال غناه وقدرته ليذكر بعد ذلك ويقول : إن ربك هو أعلم من الغنى القادر لأن من علم ولم يقدر لا يتحقق منه الجزاء فقال (ولله مافى السموات ومافى الأرض) وفى الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قال الزمخشرى ما يدل على أنه يعتقد أن اللام فى قوله (ليجزى) كاللام فى قوله تعالى (والخيل والبغال والحمير لتركبوها) وهو جرى فى ذلك على مذهبه فقال (ولله ما فى السموات وما فى الأرض) معناه خلق مافيهما لغرض الجزاء وهو لا يتحاشى بما ذكره لما عرف من مذهب الاعتزال ، وقال الواحدى : اللام للعاقبة . كما فى قوله تعالى (ليكون لهم عدواً) أى أخذوه وعاقبته أنه يكون لهم عدواً ، والتحقيق فيه وهو أن حتى ولام الغرض متقاربان فى المعنى ، لأن الغرض نهاية الفعل ، وحتى للغاية المطلقة فبينهما مقاربة فيستعمل أحدهما مكان الآخر ، يقال سرت حتى أدخلها ولكى أدخلها ، فلام العاقبة هى التى تستعمل فى موضع حتى للغاية ، ويمكن أن يقال هنا وجه أقرب من الوجهين وإن كان أخفى منهما وهو أن يقال إن قوله (ليجزى) متعلق بقوله ضل واهتدى لا بالعلم ولا بخلق مافى السموات ، تقديره كأنه قال هو أعلم بمن ضل واهتدى (ليجزى) أن من ضل واهتدى يجزى الجزاء والله أعلم به ، فيصير قوله (ولله ما فى

الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ

السموات وما فى الأرض) كلاماً معترضاً ، ويحتمل أن يقال هو متعلق بقوله تعالى (فأعرض) أى أعرض عنهم ليقع الجزاء ، كما يقول المريد فعلا لمن يمنعه منه زرنى لأفعله ، وذلك لأن مادام النبى صلى الله عليه وسلم لم ييأس ما كان العذاب ينزل والإعراض وقت اليأس ، وقوله تعالى (ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى) حينئذ يكون مذكوراً ليعلم أن العذاب الذى عند إعراضه يتحقق ليس مثل الذى قال تعالى فيه (واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة) بل هو مختص بالذين ظلموا وغيرهم لهم الحسنى ، وقوله تعالى فى حق المسيء (بما عملوا) وفى حق المحسن (بالحسنى) فيه لطيفة لأن جزاء المسيء عذاب فنبه على ما يدفع الظلم فقال لا يعذب إلا عن ذنب ، وأما فى الحسنى فلم يقل بما عملوا لأن الثواب إن كان لا على حسنة يكون فى غاية الفضل فلا يخل بالمعنى هـذا إذا قلنا الحسنى هى المثوبة بالحسنى ، وأما إذا قلنا الأعمال الحسنى ففيه لطيفة غير ذلك ، وهى أن أعمالهم لم يذكر فيها التساوى ، وقال فى أعمال المحسنين (الحسنى) إشارة إلى الكرم والصفح حيث ذكر أحسن الإسمين . والحسنى صفة أقيمت مقام الموصوف كأنه تعالى قال بالأعمال الحسنى كقوله تعالى (الأسماء الحسنى) وحينئذ هو كقوله تعالى (لنكفرن عنهم سيئاتهم ولنجزينهم أحسن الذى كانوا يعملون) أى يأخذ أحسن أعمالهم ويجعل ثواب كل ما وجد منهم لجزاء ذلك الأحسن أوهى صفة المثوبة ، كأنه قال : ويجزى الذين أحسنوا بالمثوبة الحسنى أو بالعاقبة الحسنى أى جزاؤهم حسن العاقبة وهذا جزاء فحسب ، وأما الزيادة التى هى الفضل بعد الفضل فغير داخلة فيه .

ثم قال تعالى ﴿ الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم ﴾ الذين يحتمل أن يكون بدلا عن الذين أحسنوا وهو الظاهر ، وكأنه تعالى قال ليجزى الذين أساءوا ويجزى الذين أحسنوا ، ويتبين به أن المحسن ليس ينفع الله بإحسانه شيئاً وهو الذى لا يسيء ولا يرتكب القبيح الذى هو سيئة فى نفسه عند ربه فالذين أحسنوا هم الذين اجتنبوا ولهم الحسنى ، وبهذا يتبين المسيء والمحسن لأن من لا يجتنب كبائر الإثم يكون مسيئاً والذى يجتنبها يكون محسناً ، وعلى هذا ففيه لطيفة وهو أن المحسن لما كان هو من يجتنب الآثام فالذى يأتى بالنوافل يكون فوق المحسن ، لكن الله تعالى وعد المحسن بالزيادة فالذى فوقه يكون له زيادات فوقها وهم الذين لهم جزاء الضعف ، ويحتمل أن يكون ابتداء كلام تقديره الذين يجتنبون كبائر الإثم يغفر الله لهم والذى يدل عليه قوله تعالى (إن ربك واسع المغفرة) وعلى هذا تكون هذه الآية مع ما قبلها مبينة لحال المسيء والمحسن وحال من لم يحسن ولم يسيء وهم الذين لم يرتكبوا سيئة وإن لم تصدر منهم الحسنات ، وهم كالصبيان الذين لم يوجد فيهم شرائط التكليف ولهم الغفران وهو دون الحسنى ، ويظهر هذا بقوله تعالى بعده (هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض وإذ أنتم أجنة) أى يعلم الحالة التى لا إحسان فيها ولا

إساءة ، كما علم من أساء وضل ومن أحسن واهتدى ، وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ إذا كان بدلا عن الذين أحسنوا فلم خالف ما بعده بالمضى والاستقبال حيث قال تعالى (الذين أحسنوا) وقال (الذين يجتنبون) ولم يقل اجتنبوا ؟ نقول هو كما يقول القائل الذين سألونى أعطيتهم ، الذين يترددون إلى سائلين أى الذين عادتهم التردد والسؤال سألونى وأعطيتهم فكذلك ههنا قال (الذين يجتنبون) أى الذين عادتهم ودأبهم الاجتناب لا الذين اجتنبوا مرة وقدموا عليها أخرى ، فإن قيل فى كثير من المواضع قال فى الكبائر (والذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش ، وإذا ما غضبوا هم يغفرون) وقال فى عباد الطاغوت (والذين اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها وأنابوا إلى الله) فما الفرق ؟ نقول عبادة الطاغوت راجعة إلى الاعتقاد والاعتقاد إذا وجد دام ظاهراً فمن اجتنبها اعتقد بطلانها فيستمر ، وأما مثل الشرب والزنا أمر يختلف أحوال الناس فيه فيتركه زماناً ويعود إليه ولهذا يستبرأ الفاسق إذا تاب ولا يستبرأ الكافر إذا أسلم ، فقال فى الآثام (الذين يجتنبون) دائماً ، ويثابرون على الترك أبداً ، وفى عبادة الأصنام (اجتنبوا) بصيغة الماضى ليكون أدل على الحصول ، ولأن كبائر الإثم لها عدد أنواع فينبغى أن يجتنب عن نوع ويجتنب عن آخر ويجتنب عن ثالث ففيه تكرر وتجدد فاستعمل فيه صيغة الاستقبال ، وعبادة الصنم أمر واحد متحد ، فترك فيه ذلك الاستعمال وأتى بصيغة الماضى الدالة على وقوع الاجتناب لها دفعة .

﴿ المسألة الثانية ﴾ الكبائر جمع كبيرة وهى صفة فما الموصوف ؟ نقول هى صفة الفعلة كأنه يقول الفعلات الكبائر من الإثم ، فإن قيل فما بال اختصاص الكبيرة بالذنوب فى الاستعمال ، ولو قال قائل الفعلة الكبيرة الحسنة لا يمنعه مانع ؟ نقول الحسنة لا تكون كبيرة لأنها إذا قوبلت بما يجب أن يوجد من العبد فى مقابلة نعم الله تعالى تكون فى غاية الصغر ، ولولا أن الله يقبلها لكانت هباء لكن السيئة من العبد الذى أنعم الله عليه بأنواع النعم كبيرة ، ولولا فضل الله لكان الاشتغال بالأكل والشرب والإعراض عن عبادته سيئة ، ولكن الله غفر بعض السيئات وخفف بعضها .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ إذا ذكر الكبائر فما الفواحش بعدها ؟ نقول الكبائر إشارة إلى ما فيها من مقدار السيئة ، والفواحش إشارة إلى ما فيها من وصف القبح كأنه قال عظيمة المقادير قبيحة الصور ، والفاحش فى اللغة مختص بالقبيح الخارج قبحه عن حد الخفاء وتركيب الحروف فى التقاليب يدل عليه فإنك إذا قلبتها وقلت حشف كان فيه معنى الرداءة الخارجة عن الحد ، ويقال فشحت الناقة إذا وقفت على هيئة مخصوصة للبول فالفحش يلازمه القبح ، ولهذا لم يقل الفواحش من الإثم وقال فى الكبائر (كبائر الإثم) لأن الكبائر إن لم يميزها بالإضافة إلى الإثم لما حصل المقصود بخلاف الفواحش .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ كثرت الأقاويل فى الكبائر والفواحش ، فقيل الكبائر ما أوعد الله عليه بالنار

صريحاً وظاهراً ، والفواحش ماأوجب عليه حداً فى الدنيا ، وقيل الكبائر ما يكفر مستحله ، وقيل الكبائر مالا يغفر الله لفاعله إلا بعد التوبة وهو على مذهب المعتزلة ، وكل هذه التعريفات تعريف الشيء بما هو مثله فى الخفاء أو فوقه ، وقد ذكرنا أن الكبائر هى التى مقدارها عظيم ، والفواحش هى التى قبحها واضح فالكبيرة صفة عائدة إلى المقدار ، والفاحشة صفة عائدة إلى الكيفية ، كما يقال مثلا فى الأبرص علته بياض لطخة كبيرة ظاهرة اللون فالكبيرة لبيان الكمية والظهور لبيان الكيفية .
وعلى هذا فنقول على ما قلنا إن الأصل فى كل معصية أن تكون كبيرة ، لأن نعم الله كثيرة ومخالفة المنعم سيئة عظيمة ، غير أن الله تعالى حط عن عباده الخطأ والنسيان لأنهما لا يدلان على ترك التعظيم ، إما لعمومه فى العباد أو لكثرة وجوده منهم كالكذبة والغيبة مرة أو مرتين والنظرة والقبائح التى فيها شبهة ، فان المجتنب عنها قليل فى جميع الأعصار ، ولهذا قال أصحابنا إن استماع الغناء الذى مع الأوتار يفسق به ، وإن استمعه من أهل بلدة لا يعتدون أمر ذلك لا يفسق فعادت الصغيرة إلى ماذكرنا من أن العقلاء إن لم يعدوه تاركا للتعظيم لا يكون مرتكباً للكبيرة ، وعلى هذا تختلف الأمور باختلاف الأوقات والأشخاص فالعالم المتقى إذا كان يتبع النساء أو يكثر من اللعب يكون مرتكباً للكبيرة ، والدلال والباعة والمتفرغ الذى لا شغل له لا يكون كذلك ، وكذلك اللعب وقت الصلاة ، واللعب فى غير ذلك الوقت ، وعلى هذا كل ذنب كبيرة إلا ما علم المكلف أو ظن خروجه بفضل الله وعفوه عن الكبائر .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ فى اللمم وفيه أقوال : (أحدها) مايقصده المؤمن ولا يحققه وهو على هذا القول من لم يلم إذا جمع فكأنه جمع عزمه وأجمع عليه (وثانيها) ما يأتى به المؤمن ويندم فى الحال وهو من اللمم الذى هو مس من الجنون كأنه مسه وفارقه ويؤيد هذا قوله تعالى (والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم) ، (ثالثها) اللمم الصغير من الذنب من ألم إذا نزل نزولا من غير لبث طويل ، ويقال ألم بالطعام إذا قلل من أكله ، وعلى هذا فقوله إلا اللمم يحتمل وجوهاً : (أحدها) أن يكون ذلك استثناء من الفواحش وحينئذ فيه وجهان: (أحدهما) استثناء منقطع لأن اللمم ليس من الفواحش (وثانيهما) غير منقطع لما بينا أن كل معصية إذا نظرت إلى جانب الله تعالى وما يجب أن يكون عليه فهى كبيرة وفاحشة ، ولهذا قال الله تعالى (وإذا فعلو فاحشة) غير أن الله تعالى استثنى منها أموراً يقال الفواحش كل معصية إلا ما استثناه الله تعالى منها ووعدنا بالعفو عنه (ثانيها) إلا بمعنى غير وتقديره والفواحش غير اللمم . وهذا للوصف إن كان للتمييز كما يقال : الرجال غير أولى الإربة فاللمم عين الفاحشة ، وإن كان لغيره كما يقال الرجال غير النساء جاؤونى لتأكيد وبيان فلا (وثالثها) هو استثناء من الفعل الذى يدل عليه قوله تعالى (الذين يجتنبون) لأن ذلك يدل على أنهم لا يقربونه فكأنه قال لا يقربونه إلا مقاربة من غير مواقعة وهو اللمم .

إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ ﴿٣٢﴾

ثم قال تعالى ﴿إن ربك واسع المغفرة﴾ وذلك على قولنا (الذين يجتنبون) ابتداء الكلام فى غاية الظهور ، لأن المحسن مجزى وذنبه مغفور ، ومجتنب الكبائر كذلك ذنبه الصغير مغفور ، والمقدم على الكبائر إذا تاب مغفور الذنب ، فلم يبق بمن لم تصل إليهم مغفرة إلا الذين أساؤا وأصروا عليها ، فالمغفرة واسعة وفيه معنى آخر لطيف ، وهو أنه تعالى لما أخرج المسىء عن المغفرة بين أن ذلك ليس لضيق فيها ، بل ذلك بمشيئة الله تعالى ، ولو أراد الله مغفرة كل من أحسن وأساء لفعل ، وما كان يضيق عنهم مغفرته ، والمغفرة من الستر ، وهو لا يكون إلا على قبيح ، وكل من خلقه الله إذا نظرت فى فعله ، ونسبته إلى نعم الله تجده مقصراً مسيئاً ، فإن من جازى المنعم بنعم لا تحصى مع استغنائه الظاهر ، وعظمته الواضحة بدرهم أو أقل منه يحتاج إلى ستر ما فعله .

ثم قال تعالى ﴿هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض وإذ أنتم أجنة فى بطون أمهاتكم فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى﴾ وفى المناسبة وجوه (أحدها) هو تقرير لما مر من قوله (هو أعلم بمن ضل) كأن العامل من الكفار يقول : نحن نعمل أموراً فى جوف الليل المظلم ، وفى البيت الخالى فكيف يعلمه الله تعالى ؟ فقال : ليس عملكم أخفى من أحوالكم وأنتم أجنة فى بطون أمهاتكم ، والله عالم بتلك الأحوال (ثانيها) هو إشارة إلى الضال والمهتدى حصلا على ما هما عليه بتقدير الله ، فإن الحق علم أحوالهم وهم فى بطون الأمهات ، فكتب على البعض أنه ضال ، والبعض أنه مهتد (ثالثها) تأكيد وبيان للجزاء ، وذلك لأنه لما قال (ليجزى الذين أساءوا بما عملوا) قال الكافرون : هذا الجزاء لا يتحقق إلا بالحشر ، وجمع الأجزاء بعد تفرقها وإعادة ما كان لزيد من الأجزاء فى بدنه من غير اختلاط غير ممكن ، فقال تعالى (هو أعلم بكم إذ أنشأكم) فيجمعها بقدرته على وفق علمه كما أنشأكم ، وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ العامل فى (إذ) يحتمل أن يكون ما يدل عليه (أعلم) أى علمكم وقت الإنشاء ، ويحتمل أن يكون اذكروا فيكون تقريراً لكونه عالماً . ويكون تقديره (هو أعلم بكم) وقد تم الكلام ، ثم يقول : إن كنتم فى شك من علمه بكم فاذكروا حال إنشائكم من التراب .

﴿ المسألة الثانية ﴾ ذكرنا مراراً أن قوله (من الأرض) من الناس من قال آدم فإنه من تراب ، وقررنا أن كل أحد أصله من التراب ، فإنه يصير غذاء ، ثم يصير نطفة .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ لو قال قائل : لابد من صرف (إذ أنشأكم من الأرض) إلى آدم ، لأن (وإذ أنتم أجنة فى بطون أمهاتكم) عائد إلى غيره ، فإنه لم يكن جنيناً ، ولو قلت بأن قوله تعالى

أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ ﴿٣٤﴾ أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ

(إذ أنشأكم) عائد إلى جميع الناس ، فينبغى أن يكون جميع الناس أجنة فى بطون الأمهات ، وهو قول الفلاسفة ؟ نقول ليس كذلك ، لأنا نقول الخطاب مع الموجودين حالة الخطاب ، وقوله تعالى (هو أعلم بكم) خطاب مع كل من بعد الإنزال على قول ، ومع من حضر وقت الإنزال على قول ، ولا شك أن كل هؤلاء من الأرض وهم كانوا أجنة .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ الأجنة هم الذين فى بطون الأمهات ، وبعد الخروج لا يسمى إلا ولداً أو سقطاً ، فما فائدة قوله تعالى (فى بطون أمهاتكم) ؟ نقول التنبيه على كمال العلم والقدرة ، فإن بطن الأم فى غاية الظلمة ، ومن علم بحال الجنين فيها لا يخفى عليه ما ظهر من حال العباد .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ لقائل أن يقول : إذا قلنا إن قوله (هو أعلم بكم) تقرير لكونه عالماً بمن ضل ، فقوله تعالى (فلا تزكوا أنفسكم) تعلقه به ظاهر ، وأما إن قلنا إنه تأكيد وبيان للجزاء ، فإنه يعلم الأجزاء فيعيدها إلى أبدان أشخاصها ، فكيف يتعلق به (فلا تزكوا أنفسكم) ؟ نقول معناه حينئذ فلا تبرئوا أنفسكم من العذاب ، ولا تقولوا تفرقت الأجزاء فلا يقع العذاب ، لأن العالم بكم عند الإنشاء عالم بكم عند الإعادة ، وعلى هذا قوله (أعلم بمن اتقى) أى يعلم أجزاءه فيعيدها إليه ، ويثيبه بما أقدم عليه .

﴿ المسألة السادسة ﴾ الخطاب مع من ؟ فيه ثلاثة احتمالات (الأول) مع الكفار ، وهذا على قولنا إنهم قالوا كيف يعلمه الله ، فرد عليهم قولهم (الثانى) كل من كان زمان الخطاب وبعده من المؤمنين والكفار (الثالث) هو مع المؤمنين ، وتقريره : هو أن الله تعالى لما قال (فأعرض عمن تولى عن ذكرنا) قال لنبيه صلى الله عليه وسلم : قد علم كونك ومن معك على الحق ، وكون المشركين على الباطل ، فأعرض عنهم . ولا تقولوا نحن على الحق وأنتم على الضلال ، لأنهم يقابلونكم بمثل ذلك ، وفوض الأمر إلى الله تعالى ، فهو أعلم بمن اتقى ومن طغى ، وعلى هذا فقول من قال (وأعرض) منسوخ أظهر ، وهو كقوله تعالى (وإنا أو إياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين) والله أعلم بجملة الأمور ، ويحتمل أن يقال على هذا الوجه الثالث : إنه إرشاد للمؤمنين ، فخاطبهم الله وقال : هو أعلم بكم أيها المؤمنون ، علم ما لكم من أول خلقكم إلى آخر يومكم ، فلا تزكوا أنفسكم رياء وخيلاء ، ولا تقولوا لآخر : أنا خير منك . وأنا أزكى منك وأتقى ، فإن الأمر عند الله ، ووجه آخر وهو إشارة إلى وجوب الخوف من العاقبة ، أى لا تقطعوا بخلاصكم أيها المؤمنون ، فإن الله يعلم عاقبة من يكون على التقى ، وهذا يؤيد قول من يقول : أنا مؤمن إن شاء الله للصرف إلى العاقبة .

ثم قال تعالى ﴿ أفرأيت الذى تولى ، وأعطى قليلا وأكدى ، أعنده علم الغيب

يرى ﴿٣٥﴾

فهو يرى ﴾ وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قال بعض المفسرين : نزلت الآية فى الوليد بن المغيرة جلس عند النبى ﷺ وسمع وعظه ، وأثرت الحكمة فيه تأثيراً قوياً ، فقال له رجل : لم تترك دين آبائك ، ثم قال له لا تخف واعطى كذا وأنا أتحمل عنك أوزارك ، فأعطاه بعض ما التزمه ، وتولى عن الوعظ وسماع الكلام من النبى صلى الله عليه وسلم ، وقال بعضهم : نزلت فى عثمان رضى الله عنه ، كان يعطى ماله عطاء كثيراً ، فقال له أخوه من أمه عبد الله بن سعد بن أبى سرح : يوشك أن يفنى مالك فأمسك ، فقال له عثمان : إن لى ذنوباً أرجو أن يغفر الله لى بسبب العطاء ، فقال له أخوه : أنا أتحمل عنك ذنوبك إن تعطى ناقتك مع كذا ، فأعطاه ما طلب وأمسك يده عن العطاء ، فنزلت الآية ، وهذا قول باطل لا يجوز ذكره ، لأنه لم يتواتر ذلك ولا اشتهر ، وظاهر حال عثمان رضى الله عنه يأبى ذلك ، بل الحق أن يقال إن الله تعالى لما قال لنبيه صلى الله عليه وسلم من قبل : (فأعرض عمن تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا) وكان التولى من جملة أنواعه تولى المستغنى ، فإن العالم بالشىء لايحضر مجالس ذكر ذلك الشىء ، ويسعى فى تحصيل غيره ، فقال (أفرأيت الذى تولى) عن استغناء ، أعلم بالغيب ؟ .

﴿ المسألة الثانية ﴾ الفاء تقتضى كلاماً يترتب هذا عليه ، فماذا هو ؟ نقول هو ما تقدم من بيان علم الله وقدرته ، ووعده المسىء والمحسن بالجزاء وتقديره : هو أن الله تعالى لما بين أن الجزاء لابد من وقوعه على الإساءة والإحسان ، وأن المحسن هو الذى يجتنب كبائر الإثم ، فلم يكن الإنسان مستغنياً عن سماع كلام النبى صلى الله عليه وسلم وأتباعه . فبعد هذا من تولى لايكون توليه إلا بعد غاية الحاجة ، ونهاية الافتقار .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ الذى على ما قال بعض المفسرين عائد إلى معلوم ، وهو ذلك الرجل وهو الوليد ، والظاهر أنه عائد إلى مذكور . فإن الله تعالى قال من قبل (فأعرض عمن تولى عن ذكرنا) وهو المعلوم لأن الأمر بالإعراض غير مختص بواحد من المعاندين فقال (أفرأيت الذى تولى) أى الذى سبق ذكره ، فإن قيل كان ينبغى أن يقول الذين تولوا ، لأن من فى قوله (عمن تولى) للعموم ؟ نقول العود إلى اللفظ كثير شائع قال تعالى (من جاء بالحسنة فله) ولم يقل فلهم .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قوله تعالى (وأعطى قليلا) ما المراد منه ؟ نقول على ما تقدم هو المقدار الذى أعطاه الوليد ، وقوله (وأكدى) هو ما أمسك عنه ولم يعط الكل ، وعلى هذا لو قال قائل إن الإكداء لا يكون مذموماً لأن الإعطاء كان بغير حق . فالامتناع لايذم عليه ، وأيضاً فلا يبقى لقوله قليلا فائدة ، لأن الإعطاء حينئذ نفسه يكون مذموماً ، نقول فيه بيان خروجهم عن العقل والعرف

أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾

أما العقل فلأنه منع من الإعطاء لأجل حمل الوزر ، فإنه لا يحصل به ، وأما العرف فلأن عادة الكرام من العرب الوفاء بالعهد ، وهو لم يف به حيث التزم الإعطاء وامتنع ، والذى يليق بما ذكرنا هو أن نقول ، تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا ، يعنى إعطاء ما وجب إعطاؤه فى مقابلة مايجب لإصلاح أمور الآخرة ، ويقع فى قوله تعالى (أعنده علم الغيب) فى مقابلة قوله تعالى (ذلك مبلغهم من العلم) أى لم يعلم الغيب وما فى الآخرة وقوله تعالى (أم لم ينبأ بما فى صحف موسى ، وإبراهيم الذى وفى ، ألا تزر وازرة وزر أخرى) فى مقابلة قوله (هو أعلم بمن ضل) إلى قوله (ليجزى الذين أساؤا) لأن الكلامين جميعاً لبيان الجزاء ، ويمكن أن يقال إن الله تعالى لما بين حال المشركين المعاندين العابدين للات والعزى والقائلين بأن الملائكة بنات الله شرع فى بيان أهل الكتاب ، وقال بعد ما رأيت حال المشرك الذى تولى عن ذكرنا ، أفرأيت حال من تولى وله كتاب وأعطى قليلا من الزمان حقوق الله تعالى ، ولما بلغ زمان محمد أكدى فهل علم الغيب فقال شيئاً لم يرد فى كتبهم ولم ينزل عليهم فى الصحف المتقدمة ، ووجد فيها بأن كل واحد يؤاخذ بفعله ويجازى بعمله . وقوله تعالى (أم لم ينبأ بما فى صحف موسى وإبراهيم الذى وفى) يخبر أن المتولى المذكور من أهل الكتاب .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ أكدى قيل هو من بلغ الكدية وهى الأرض الصلبة لا تحفر ، وحافر البئر إذا وصل إليها فامتنع عليه الحفر أو تعسر يقال أكدى الحافر ، والأظهر أنه الرد والمنع يقال أكديته أى رددته وقوله تعالى (أعنده علم الغيب فهو يرى) قد علم تفسيره جملة أن المراد جهل المتولى وحاجته وبيان قبح التولى مع الحاجة إلى الإقبال وعلم الغيب ، أى العلم بالغيب ، أى علم ما هو غائب عن الخلق وقوله (فهو يرى) تتمة بيان وقت جواز التولى وهو حصول الرؤية وهو الوقت الذى لا ينفع الإيمان فيه ، وهناك لا يبقى وجوب متابعة أحد فيما رآه ، لأن الهادى يهدى إلى الطريق فإذا رأى المهتدى مقصده بعينه لا ينفعه السماع ، فقال تعالى هل علم الغيب بحيث رآه فلا يكون علمه علماً نظرياً بل علماً بصرياً فعصى فتولى وقوله تعالى (فهو يرى) يحتمل أن يكون مفعول يرى هو احتمال الواحد وزر الآخر كأنه قال فهو يرى أن وزره محمول ألم يسمع أن وزره غير محمول فهو عالم بالحمل وغافل عن عدم الحمل ليكون معذوراً ، ويحتمل أن لا يكون له مفعول تقديره فهو يرى رأى نظر غير محتاج إلى هاد ونذير .

وقوله تعالى ﴿ أم لم ينبأ بما فى صحف موسى وإبراهيم الذى وفى ﴾ حال أخرى مضادة للأولى يعذر فيها المتولى وهو الجهل المطلق فإن من علم الشىء علماً تاماً لا يؤمر بتعلمه ، والذى جهله جهلا مطلقاً وهو الغافل على الإطلاق كالنائم أيضاً لا يؤمر فقال هذا المتولى هل علم الكل فجاز له التولى

أولم يسمع شيئاً مما بلغه دعوة أصلا فيعذر ، ولا واحد من الأمرين بكائن فهو فى التولى غير معذور ، وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قوله تعالى (بما فى) يحتمل وجهين (أحدهما) أن يكون المراد ما فيها لا بصفة كونه فيها ، فكأنه تعالى يقول أم لم ينبأ بالتوحيد والحشر وغير ذلك ، وهذه أمور مذكورة فى صحف موسى ، مثاله : يقول القائل لمن توضأ بغير الماء توضأ بما توضأ به النبى ﷺ وعلى هذا فالكلام مع الكل لأن المشرك وأهل الكتاب نبأهم النبى ﷺ بما فى صحف موسى (ثانيهما) أن المراد بما فى الصحف مع كونه فيها ، كما يقول القائل فيما ذكرنا من المثال توضأ بما فى القربة لا بما فى الجرة فيريد عين ذلك لا جنسه وعلى هذا فالكلام مع أهل الكتاب لأنهم الذين نبئوا به

﴿ المسألة الثانية ﴾ صحف موسى وإبراهيم ، هل جمعها لكونها صحفاً كثيرة أو لكونها مضافة إلى اثنين كما قال تعالى (فقد صغت قلوبكما) ؟ الظاهر أنها كثيرة ، قال الله تعالى (وأخذ الألواح) وقال تعالى (وألقى الألواح) وكل لوح صحيفة .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ ما المراد بالذى فيها ؟ نقول قوله تعالى (ألا تزر وازرة وزر أخرى ، وأن ليس للانسان إلا ما سعى) وما بعده من الأمور المذكورة على قراءة من قرأ أن بالفتح وعلى قراءة من يكسر ويقول (وأن إلى ربك المنتهى) ففيه وجوه (أحدها) هو ما ذكره بقوله (ألا تزر وازرة وزر أخرى) وهو الظاهر ، وإنما احتمل غيره ، لأن صحف موسى وإبراهيم ليس فيها هذا فقط ، وليس هذا معظم المقصود بخلاف قراءة الفتح ، فإن فيها تكون جميع الأصول على ما بين (ثانيها) هو أن الآخرة خير من الأولى يدل عليه قوله تعالى (إن هذا لفى الصحف الأولى ، صحف إبراهيم وموسى) (ثالثها) أصول الدين كلها مذكورة فى الكتب بأسرها ، ولم يخل الله كتاباً عنها ، ولهذا قال لنبيه ﷺ (فبهداهم اقتده) وليس المراد فى الفروع ، لأن فروع دينه مغايرة لفروع دينهم من غير شك .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قدم موسى ههنا ولم يقل كما قال فى (سبح اسم ربك الأعلى) فهل فيه فائدة ؟ نقول مثل هذا فى كلام الفصحاء لا يطلب له فائدة ، بل التقديم والتأخير سواء فى كلامهم . فيصح أن يقتصر على هذا الجواب ، ويمكن أن يقال إن الذكر هناك لمجرد الإخبار والإنذار وههنا المقصود بيان انتفاء الأعذار ، فذكر هناك على ترتيب الوجود صحف إبراهيم قبل صحف موسى فى الإنزال ، وأما ههنا فقد قلنا إن الكلام مع أهل الكتاب وهم اليهود فقدم كتابهم ، وإن قلنا الخطاب عام فصحف موسى عليه السلام كانت كثيرة الوجود ، فكأنه قيل لهم انظروا فيها تعلموا أن الرسالة حق ، وأرسل من قبل موسى رسل ، والتوحيد صدق والحشر واقع فلما كانت صحف موسى عند اليهود كثيرة الوجود قدمها ، وأما صحف إبراهيم فكانت بعيدة وكانت المواعظ التى فيها غير مشهورة فيما بينهم كصحف موسى فأخر ذكرها .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ كثيراً ما ذكر الله موسى فأخر ذكره عليه السلام . لأنه كان مبتلى فى

أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾

أكثر الأمر بمن حواليه وهم كانوا مشركين ومتهودين والمشركون كانوا يعظمون إبراهيم عليه السلام لكونه أباهم ، وأما قوله تعالى (وفى) ففيه وجهان (أحدهما) أنه الوفاء الذى يذكر فى العهود ، وعلى هذا فالتشديد للمبالغة يقال وفى ووفى كقطع وقطع وقتل وقتل ، وهو ظاهر لأنه وفى بالنذر وأضجع ابنه للذبح ، وورد فى حقه (قد صدقت الرؤيا) وقال تعالى (إن هذا لهو البلاء المبين) ، (وثانيهما) أنه من التوفية التى من الوفاء وهو التمام والتوفية الإتمام يقال وفاه أى أعطاه تاماً ، وعلى هذا فهو من قوله (وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن) وقيل وفى أى أعطى حقوق الله فى بدنه ، وعلى هذا فهو على ضد من قال تعالى فيه (وأعطى قليلا وأكدى) مدح إبراهيم ولم يصف موسى عليه السلام ، نقول أما بيان توفيته ففيه لطيفة وهى أنه لم يعهد عهداً إلا وفى به ، وقال لأبيه (سأستغفرلك ربى) فاستغفر ووفى بالعهد ولم يغفر الله له ، فعلم (أن ليس للانسان إلا ماسعى) وأن وزره لا تزره نفس أخرى ، وأما مدح إبراهيم عليه السلام فلأنه كان متفقاً عليه بين اليهود والمشركين والمسلمين ولم ينكر أحد كونه وفياً ، وموفياً . وربما كان المشركون يتوقفون فى وصف موسى عليه السلام ، ثم قال تعالى ﴿ألا تزر وازرة وزر أخرى﴾ وقد تقدم تفسيره فى سورة الملائكة ، والذى يحسن بهذا الموضع مسائل :

﴿الأولى﴾ أنا بينا أن الظاهر أن المراد من قوله (بما فى صحف موسى) هو ما بينه بقوله (ألا تزر) فيكون هذا بدلا عن ما وتقديره : أم لم ينبأ بألا تزر . وذكرنا هناك وجهين (أحدهما) المراد أن الآخرة خير وأبقى (وثانيهما) الأصول .

﴿المسألة الثانية﴾ (ألا تزر) أن خفيفة من الثقيلة كأنه قال أنه لاتزر وتخفيف الثقيلة لازم وغير لازم جائز وغير جائز ، فاللازم عند ما يكون بعدها فعل أو حرف داخل على فعل ، ولزم فيها التخفيف ، لأنها مشبهة بالفعل فى اللفظ والمعنى ، والفعل لا يمكن إدخاله على فعل فأخرج عن شبه الفعل إلى صورة تكون حرفاً مختصاً بالفعل فتناسب الفعل فتدخل عليه .

﴿المسألة الثالثة﴾ إن قال قائل الآية مذكورة لبيان أن وزر المسيء لا يحمل عنه وبهذا الكلام لا تحصل هذه الفائدة لأن الوازرة تكون مثقلة بوزرها فيعلم كل أحد أنها لا تحمل شيئاً ولو قال لاتحمل فارغة وزر أخرى كان أبلغ تقول ليس كما ظننت ، وذلك لأن المراد من الوازرة هى التى يتوقع منها الوزر والحمل لا التى وزرت وحملت كما يقال شقانى الحمل ، وإن لم يكن عليه فى الحال حمل ، وإذا لم تزر تلك النفس التى يتوقع منها ذلك فكيف تتحمل وزر غيرها فتكون الفائدة كاملة .

وقوله تعالى ﴿وأن ليس للانسان إلا ماسعى﴾ تتمة بيان أحوال المكلف فانه لما بين له

أن سيئته لا يتحملها عنه أحد بين له أن حسنة الغير لا تجدى نفعاً ومن لم يعمل صالحاً لا ينال خيراً فيكمل بها ويظهر أن المسيء لا يجد بسبب حسنة الغير ثواباً ولا يتحمل عنه أحد عقاباً ، وفيه أيضاً مسائل :

﴿ الأولى ﴾ (ليس للانسان) فيه وجهان (أحدهما) أنه عام وهو الحق وقيل عليه بأن فى الأخبار أن ما يأتى به القريب من الصدقة والصوم يصل إلى الميت والدعاء أيضاً نافع فللانسان شيء لم يسع فيه ، وأيضاً قال الله تعالى (من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها) وهى فوق ماسعى ، الجواب عنه أن الإنسان إن لم يسع فى أن يكون له صدقة القريب بالإيمان لا يكون له صدقته فليس له إلا ما سعى ، وأما الزيادة فنقول : الله تعالى لما وعد المحسن بالأمثال والعشرة وبالأضعاف المضاعفة فإذا أتى بحسنة راجياً أن يؤتيه الله ما يتفضل به فقد سعى فى الأمثال ، فإن قيل أنتم إذن حملتم السعى على المبادرة إلى الشيء ، يقال : سعى فى كذا إذا أسرع إليه . والسعى فى قوله تعالى (إلاماسعى) معناه العمل يقال سعى فلان أى عمل ، ولو كان كما ذكرتم لقال إلا ماسعى فيه نقول على الوجهين جميعاً لا بد من زيادة فإن قوله تعالى (ليس للانسان إلا ماسعى) ليس المراد منه أن له عين ماسعى ، بل المراد على ماذكرت ليس له إلا ثواب ماسعى ، أو إلا أجر ماسعى ، أو يقال بأن المراد أن ماسعى محفوظ له مصون عن الإحباط فإذن له فعله يوم القيامة (الوجه الثانى) أن المراد من الإنسان الكافر دون المؤمن وهو ضعيف ، وقيل بأن قوله (ليس للانسان إلا ماسعى) كان فى شرع من تقدم ، ثم إن الله تعالى نسخه فى شرع محمد صلى الله عليه وسلم وجعل للانسان ماسعى ومالم يسع وهو باطل إذ لا حاجة إلى هذا التكلف بعد ما بان الحق ، وعلى ماذكر فقوله (ما سعى)مبق على حقيقته معناه له عين ما سعى محفوظ عند الله تعالى ولا نقصان يدخله ثم يجزى به كما قال تعالى (فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره) .

﴿ المسألة الثانية ﴾ أن ما خبرية أو مصدرية ؟ نقول كونها مصدرية أظهر بدليل قوله تعالى (وأن سعيه سوف يرى) أى سوف يرى المسعى ، والمصدر للمفعول يجيء كثيراً يقال هذا خلق الله أى مخلوقه .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ المراد من الآية بيان ثواب الأعمال الصالحة أو بيان كل عمل ، نقول المشهور أنها لكل عمل فالخير مثاب عليه والشر معاقب به والظاهر أنه لبيان الخيرات يدل عليه اللام فى قوله تعالى (للانسان) فإن اللام لعود المنافع وعلى لعود المضار تقول هذا له . وهذا عليه ، ويشهد له ويشهد عليه فى المنافع والمضار ، وللقائل الأول أن يقول بأن الأمرين إذا اجتمعا غلب الأفضل كجموع السلامة تذكر إذا اجتمعت الإناث مع الذكور ، وأيضاً يدل عليه قوله تعالى (ثم يجزيه الجزاء الأوفى) والأوفى لايكون إلا فى مقابلة الحسنة ، وأما فى السيئة فالمثل أو دونه العفو بالكلية .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ (إلا ما سعى) بصيغة الماضى دون المستقبل لزياد الحث على السعى فى العمل الصالح وتقريره هو أنه تعالى لو قال : ليس للانسان إلا ما يسعى ، تقول النفس إنى أصلى غداً

وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾

كذا ركعة وأتصدق بكذا درهما ، ثم يجعل مثبتاً فى صحيفتى الآن لأنه أمر يسعى وله فيه ما يسعى فيه ، فقال ليس له إلا ما قد سعى وحصل وفرغ منه ، وأما تسويلات الشيطان وعداته فلا اعتماد عليها .

ثم قال تعالى ﴿ وأن سعيه سوف يرى ، ثم يجزيه الجزاء الأوفى ﴾ أى يعرض عليه ويكشف له من أريته الشىء ، وفيه بشارة للمؤمنين على ما ذكرنا ، وذلك أن الله يريه أعماله الصالحة ليفرح بها ، أو يكون يرى ملائكته وسائر خلقه ليفتخر العامل به على ما هو المشهور وهو مذكور لفرح المسلم ولحزن الكافر ، فإن سعيه يرى للخلق ، ويرى لنفسه . ويحتمل أن يقال هو من رأى يرى فيكون كقوله تعالى (وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله) وفيها وفى الآية التى بعدها مسائل :

﴿ الأولى ﴾ العمل كيف يرى بعد وجوده ومضيه ؟ نقول فيه وجهان : (أحدهما) يراه على صورة جميلة إن كان العمل صالحاً (ثانيهما) هو على مذهبنا غير بعيد فان كل موجود يرى ، والله قادر على إعادة كل معدوم فبعد الفعل يرى(١) وفيه (وجه ثالث) وهو أن ذلك مجاز عن الثواب يقال سترى إحسانك عند الملك أى جزاءه عليه وهو بعيد لما قال بعده (ثم يجزاه الجزاء الأوفى) .

﴿ المسألة الثانية ﴾ الهاء ضمير السعى أى ثم يجزى الإنسان سعيه بالجزاء ، والجزاء يتعدى إلى مفعولين قال تعالى (وجزاهم بما صبروا جنة وحريراً) ويقال : جزاك الله خيراً ، ويتعدى إلى ثلاثة مفاعيل بحرف يقال جزاه الله على عمله الخير الجنة ، ويحذف الجار ويوصل الفعل فيقال : جزاه الله عمله الخير الجنة . هذا وجه ، وفيه وجه آخر وهو أن الضمير للجزاء ، وتقديره ثم يجزى جزاء ويكون قوله (الجزاء الأوفى) تفسيراً أو بدلا مثل قوله تعالى (وأسروا النجوى الذين ظلموا) فإن التقدير والذين ظلموا أسروا النجوى ، الذين ظلموا ، والجزاء الأوفى على ما ذكرنا يليق بالمؤمنين الصالحين لأنه جزاء الصالح ، وإن قال تعالى (فإن جهنم جزاؤكم جزاء موفوراً) وعلى ما قيل يجاب أن الأوفى بالنظر إليه فإن جهنم ضررها أكثر بكثير مع نفع الآثام فهى فى نفسها أوفى .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ ثم لتراخى الجزاء أو لتراخى الكلام أى ثم نقول يجزاه فإن كان لتراخى الجزاء فكيف يؤخر الجزاء عن الصالح ، وقد ثبت أن الظاهر أن المراد منه الصالح ؟ نقول الوجهان محتملان وجواب السؤال هو أن الوصف بالأوفى يدفع ما ذكرت لأن الله تعالى من أول زمان يموت الصالح يجزيه جزاء على خيره ويؤخر له الجزاء الأوفى ، وهى الجنة أو نقول الأوفى إشارة إلى الزيادة فصار كقوله تعالى (للذين أحسنوا الحسنى) وهى الجنة (وزيادة) وهى الرؤية فكأنه

(١) ثبت علماً أن أعمال الانسان وغيره مثبتة كما هى على لوحات الأثير كالصورة الفوتوغرافية تماماً وكذلك الأصوات فانها تسجل فى الموجات الأثيرية غير أنها تبتعد عنا بتقدم الزمان وقد استطاع العلماء سماع تلك الأصوات بمكبرات صوتية . والراديو والتليفزيون أمثلة مصغرة لذلك وهذا من أدلة القدرة الباهرة ومن الأدلة على البعث والحساب ، فمحال أن يكون حفظها عبثاً .

وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾

تعالى قال (وأن سعيه سوف يرى) ثم يرزق الرؤية ، وهذا الوجه يليق بتفسير اللفظ فإن الأوفى مطلق غير مبين فلم يقل أوفى من كذا ، فينبغى أن يكون أوفى من كل واف ولا يتصف به غير رؤية الله تعالى.

﴿ المسألة الرابعة ﴾ فى بيان لطائف فى الآيات (الأولى) قال فى حق المسىء (لاتزر وازرة وزر أخرى) وهو لا يدل إلا على عدم الحمل عن الوازرة وهذا لا يلزم منه بقاء الوزر عليها من ضرورة اللفظ ، لجواز أن يسقط عنها ويمحو الله ذلك الوزر فلا يبقى عليها ولا يتحمل عنها غيرها ولو قال لاتزر وازرة إلا وزر نفسها كان من ضرورة الاستثناء أنها تزر ، وقال فى حق المحسن ليس للانسان إلا ما سعى ، ولم يقل ليس له ما لم يسع لأن العبارة الثانية ليس فيها أن له ما سعى ، وفى العبارة الأولى أن له ماسعى ، نظراً إلى الاستثناء ، وقال فى حق المسىء بعبارة لاتقطع رجاءه ، وفى حق المحسن بعبارة تقطع خوفه ، كل ذلك إشارة إلى سبق الرحمة الغضب.

ثم قال تعالى ﴿ وأن إلى ربك المنتهى ﴾ القراءة المشهورة فتح الهمزة على العطف على ما ، يعنى أن هذا أيضاً فى الصحف وهو الحق ، وقرىء بالكسر على الاستئناف ، وفيه مسائل :

﴿ الأولى ﴾ ما المراد من الآية ؟ قلنا فيه وجهان : (أحدهما) وهو المشهور بيان المعاد أى للناس بين يدى الله وقوف ، وعلى هذا فهو يتصل بما تقدم لأنه تعالى لما قال ثم يجزاه كأن قائلا قال لاترى الجزاء ، ومتى يكون ، فقال إن المرجع إلى الله ، وعند ذلك يجزى الشكور ويجزى الكفور (وثانيهما) المراد التوحيد ، وقد فسر الحكماء أكثر الآيات التى فيها الانتهاء والرجوع بما سنذكره غير أن فى بعضها تفسيرهم غير ظاهر ، وفى هذا الموضع ظاهر ، فنقول هو بيان وجود الله تعالى ووحدانيته ، وذلك لأنك إذا نظرت إلى الموجودات الممكنة لا تجد لها بدأ من موجد ، ثم إن موجدها ربما يظن أنه ممكن آخر كالحرارة التى تكون على وجه يظن أنها من إشراق الشمس أو من النار فيقال الشمس والنار ممكنتان فمم وجودهما ؟ فإن استندتا إلى ممكن آخر لم يجد العقل بدأ من الانتهاء إلى غير ممكن فهو واجب الوجود فاليه ينتهى الأمر فالرب هو المنتهى ، وهذا فى هذا الموضع ظاهر معقول موافق للمنقول ، فان المروى عن أبى بن كعب أنه قال عن النبى ﷺ أنه قال «وأن إلى ربك المنتهى ، لافكرة فى الرب» أى انتهى الأمر إلى واجب الوجود ، وهو الذى لا يكون وجوده بموجد ومنه كل وجود ، وقال أنس عن النبى ﷺ أنه قال « اذا ذكر الرب فانتهوا » وهو محتمل لما ذكرنا ، وأما بعض النـــاس فيبالغ ويفسر كل آية فيها الرجعى والمنتهى وغيرهما بهذا التفسير حتى قيل (إليه يصعد الكلم الطيب) بهذا المعنى ، هذا دليل الوجود ، وأما دليل الوحدانية فمن حيث إن العقل انتهى إلى واجب الوجود من حيث إنه واجب الوجود ، لأنه لو لم يكن واجب

وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾

الوجود لما كان منتهى بل يكون له موجد ، فالمنتهى هو الواجب من حيث إنه واجب ، وهذا المعنى واحد فى الحقيقة والعقل ، لأنه لا بد من الانتهاء إلى هـذا الواجب أو إلى ذلك الواجب فلا يثبت الواجب معنى غير أنه واجب فيبعد إذاً وجوبه ، فلو كان واجبان فى الوجود لكان كل واحد قبل المنتهى لأن المجموع قبله الواجب فهو المنتهى وهذان دليلان ذكرتهما على وجه الاختصار .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قوله تعالى (إلى ربك المنتهى) فى المخاطب وجهان : (أحدهما) أنه عام تقديره إلى ربك أيها السامع أو العاقل (ثانيهما) الخطاب مع النبى صلى الله عليه وسلم وفيه بيان صحة دينه فإن كل أحد كان يدعى رباً أو إلهاً ، لكنه صلى الله عليه وسلم لما قال « ربى الذى هو أحد وصمد » يحتاج إليه كل ممكن فإذاً ربك هو المنتهى ، وهو رب الأرباب ومسبب الأسباب ، وعلى هذا القول الكاف أحسن موقعاً ، أما على قولنا إن الخطاب عام فهو تهديد بليغ للمسىء وحث شديد للمحسن ، لأن قوله أيها السامع كائناً من كان إلى ربك المنتهى يفيد الأمرين إفادة بالغة حد الكمال ، وأما على قولنا الخطاب مع النبى صلى الله عليه وسلم فهو تسلية لقلبه كأنه يقول لا تحزن فإن المنتهى إلى الله فيكون كقوله تعالى (فلا يحزنك قولهم ، إنا نعلم ما يسرون وما يعلنون) إلى أن قال تعالى فى آخر السورة (وإليه ترجعون) وأمثاله كثيرة فى القرآن .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ اللام على الوجه الأول للعهد لأن النبى صلى الله عليه وسلم كان يقول أبداً إن مرجعكم إلى الله فقال (وأن إلى ربك المنتهى) الموعود المذكور فى القرآن وكلام النبى صلى الله عليه وسلم ، وعلى الوجه الثانى للعموم أى إلى الرب كل منتهى وهو مبدأ ، وعلى هذا الوجه نقول : منتهى الإدراكات المدركات ، فإن الإنسان أولا يدرك الأشياء الظاهرة ثم يمعن النظر فينتهى إلى الله فيقف عنده .

ثم قال تعالى ﴿ وأنه هو أضحك وأبكى ﴾ وفيه مسائل :

﴿ الأولى ﴾ على قولنا إليه المنتهى المراد منه إثبات الوحدانية ، هذه الآيات مثبتات لمسائل يتوقف عليها الإسلام من جملتها قدرة الله تعالى ، فإن من الفلاسفة من يعترف بأن الله المنتهى وأنه واحد لكن يقول هو موجب لا قادر ، فقال تعالى هو أوجد ضدين الضحك والبكاء فى محل واحد والموت والحياة والذكورة والأنوثة فى مادة واحدة ، وإن ذلك لا يكون إلا من قادر واعترف به كل عاقل ، وعلى قولنا إن قوله تعالى (وأن إلى ربك المنتهى) بيان المعاد فهو إشارة إلى بيان أمره فهو كما يكون فى بعضها ضاحكا فرحاً وفى بعضها باكياً محزوناً كذلك يفعل به فى الآخرة .

﴿ المسألة الثانية ﴾ (أضحك وأبكى) لا مفعول لهما فى هذا الموضع لأنهما مسوقتان لقدرة الله لا لبيان المقدور ، فلا حاجة إلى المفعول . يقول القائل فلان بيده الأخذ والعطاء يعطى ويمنع ولا يريد ممنوعاً ومعطى .

وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾

﴿ المسألة الثالثة ﴾ اختار هذين الوصفين للذكر والأنثى لأنهما أمران لا يعللان فلا يقدر أحد من الطبيعيين أن يبدى فى اختصاص الإنسان بالضحك والبكاء وجهاً وسبباً ، وإذا لم يعلل بأمر ولابد له من موجد فهو الله تعالى ، بخلاف الصحة والسقم فإنهم يقولون سببهما اختلال المزاج وخروجه عن الاعتدال ، ويدلك على هذا أنهم إذا ذكروا فى الضحك أمراً له الضحك قالوا قوة التعجب وهو فى غاية البطلان لأن الإنسان ربما يبهت عند رؤية الأمور العجيبة ولا يضحك ، وقيل قوة الفرح ، وليس كذلك لأن الإنسان يفرح كثيراً ولا يضحك ، والحزين الذى عند غاية الحزن يضحكه المضحك ، وكذلك الأمر فى البكاء ، وإن قيل لأكثرهم علماً بالأمور التى يدعيها الطبيعيون إن خروج الدمع من العين عند أمور مخصوصة لماذا ؟ لا يقدر على تعليل صحيح ، وعند الخواص كالتى فى المغناطيس وغيرها ينقطع الطبيعى ، كما أن عند أوضاع الكواكب ينقطع هو والمهندس الذى لا يفوض أمره إلى قدرة الله تعالى وإرادته .

ثم قال تعالى ﴿ وأنه هو أمات وأحيا ﴾ والبحث فيه كما فى الضحك والبكاء ، غير أن الله تعالى فى الأول بين خاصة النوع الذى هو أخص من الجنس ، فإنه أظهر وعن التعليل أبعد ثم عطف عليه ما هو أعم منه ودونه فى البعد عن التعليل وهى الإماتة والإحياء وهما صفتان متضادتان أى الموت والحياة كالضحك والبكاء والموت على هذا ليس بمجرد العدم وإلا لكان الممتنع ميتاً ، وكيفما كان فالإماتة والإحياء أمر وجودى وهما من خواص الحيوان ، ويقول الطبيعى فى الحياة لاعتدال المزاج ، والمزاج من أركان متضادة هى النار والهواء والماء والتراب وهى متداعية إلى الانفكاك وما لا تركيب فيه من المتضادات لا موت له ، لأن المتضادات كل أحد يطلب مفارقة مجاوره ، فقال تعالى الذى خلق ومزج العناصر وحفظها مدة قادر على أن يحفظها أكثر من ذلك فإذا مات فليس عن ضرورة فهو بفعل فاعل مختار وهو الله تعالى (فهو الذى أمات وأحيا) فإن قيل متى أمات وأحيا حتى يعلم ذلك بل مشاهدة الإحياء والإماتة بناء على الحياة والموت ؟ نقول فيه وجوه (أحدها) أنه على التقديم والتأخير كأنه قال أحيا وأمات (ثانيها) هو بمعنى المستقبل ، فإن الأمر قريب يقال فلان وصل والليل دخل إذا قرب مكانه وزمانه ، فكذلك الإحياء والإماتة (ثالثها) أمات أى خلق الموت والجمود فى العناصر ، ثم ركبها وأحيا أى خلق الحس والحركة فيها .

ثم قال تعالى ﴿ وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى ﴾ وهو أيضاً من جملة المتضادات التى تتوارد على النطفة فبعضها يخلق ذكراً ، وبعضها أنثى ولا يصل إليه فهم الطبيعى الذى يقول إنه من البرد والرطوبة فى الأنثى ، فرب امرأة أيبس مزاجاً من الرجل ، وكيف وإذا نظرت فى المميزات

بين الصغير والكبير تجدها أموراً عجيبة منها نبات اللحية ، وأقوى ما قالوا فى نبات اللحية أنهم قالوا الشعور مكونة من بخار دخانى ينحدر إلى المسام ، فإذا كانت المسام فى غاية الرطوبة والتحلل كما فى مزاج الصبي والمرأة ، لاينبت الشعر لخروج تلك الأدخنة من المسام الرطبة بسهولة قبل أن يتكون شعراً ، وإذا كانت فى غاية اليبوسة والتكاثف ينبت الشعر لعسر خروجه من المخرج الضيق ، ثم إن تلك المواد تنجذب إلى مواضع مخصوصة فتندفع ، إما إلى الرأس فتندفع إليه لأنه مخلوق كقبة فوق الأبخرة والأدخنة فتتصاعد إليه تلك المواد ، فلهذا يكون شعر الرأس أكثر وأطول ، ولهذا فى الرجل مواضع تنجذب إليها الأبخرة والأدخنة ، منها الصدر لحرارة القلب والحرارة تجذب الرطوبة كالسراج للزيت ، ومنها بقرب آلة التناسل لأن حرارة الشهوة تجذب أيضاً ، ومنها اللحيان فإنها كثيرة الحركة بسبب الأكل ، والكلام والحركة أيضاً جاذبة ، فإذا قيل لهم . فما السبب الموجب لتلازم نبات شعر اللحية وآلة التناسل فانها إذا قطعت لم تنبت اللحية ؟ وما الفرق بين سن الصبا وسن الشباب وبين المرأة والرجل ؟ ففى بعضها يبهت وفى بعضها يتكلم بأمور واهية ، ولو فوضها إلى حكمة إلهية لكان أولى ، وفيه مسألتان :

﴿ الأول ﴾ قال تعالى (وأنه خلق) ولم يقل وأنه هو خلق كما قال (وأنه هوأضحك وأبكى) وذلك لأن الضحك والبكاء ربما يتوهم متوهم أنه بفعل الإنسان ، وفى الإماتة والإحياء وإن كان ذلك التوهم بعيداً ، لكن ربما يقول به جاهل ، كما قال من حاج إبراهيم الخليل عليه السلام حيث قال (أنا أحيي أميت) فأكد ذلك بذكر الفصل ، وأما خلق الذكر والأنثى من النطفة فلا يتوهم أحد أن يفعل أحد من الناس فلم يؤكد بالفصل ألا ترى إلى قوله تعالى (وأنه هو أغنى وأقنى) حيث كان الإغناء عندهم غير مستند إلى الله تعالى وكان فى معتقدهم أن ذلك بفعلهم كما قال قارون (إنما أوتيته على علم عندى) ولذلك قال (وأنه هو رب الشعرى) لأنهم كانوا يستبعدون أن يكون رب محمد هو رب الشعرى . فأكد فى مواضع استبعادهم النسبة إلى الله تعالى الإسناد ولم يؤكده فى غيره .

﴿ المسألة الثانية ﴾ الذكر والأنثى اسمان هما صفة أو إسمان ليسا بصفة ؟ المشهور عند أهل اللغة الثانى والظاهر أنهما من الأسماء التى هى صفات ، فالذكر كالحسن والعزب والأنثى كالحبلى والكبرى وإنما قلنا إنها كالحبلى فى رأى لأنها حيالها أنثئت لا كالكبرى ، وإن قلنا إنها كالكبرى فى رأى ، وإنما قلنا إن الظاهر أنهما صفتان ، لأن الصفة مايطلق على شىء ثبت له أمر كالعالم يطلق على شىء له علم والمتحرك يقال لشىء له حركة بخلاف الشجر والحجر ، فان الشجر لا يقال لشىء بشرط أن يثبت له أمر بل هو اسم موضوع لشىء معين ، والذكر اسم يقال لشىء له أمر ، ولهذا يوصف به ، ولا يوصف بالشجر ، يقال جاءنى شخص ذكر ، أو إنسان ذكر ، ولا يقال جسم شجر . والذى ذهب إلى أنه اسم غير صفة إنما ذهب إليه ، لأنه لم يرد له فعل ، والصفة فى الغالب له فعل كالعالم والجاهل

مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾ وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ﴿٤٧﴾

والعزب والكبرى والحبلى ، وذلك لا يدل على ما ذهب إليه ، لأن الذكورة والأنوثة من الصفات التي لا يتبدل بعضها ببعض ، فلا يصاغ لها أفعال لأن الفعل لما يتوقع له تجدد في صورة الغالب ، ولهذا لم يوجد للاضافيات أفعال كالأبوة والبنوة والأخوة إذلم تكن من الذي يتبدل ، ووجد للاضافيات المتبدلة أفعال يقال واخاه وتبناه لما لم يكن مثبتاً بتكلف فقبل التبدل .

قوله تعالى : ﴿ من نطفة ﴾ أي قطعة من الماء .

قوله تعالى : ﴿ إذا تمنى ﴾ من أمنى المنى إذا نزل أو منى يمنى إذا قدر وقوله تعالى (من نطفة) تنبيه على كمال القدرة لأن النطفة جسم متناسب الأجزاء ، ويخلق الله تعالى منه أعضاء مختلفة وطباعاً متباينة وخلق (الذكر والأنثى) منها أعجب ما يكون على ما بينا ، ولهذا لم يقدر أحد على أن يدعيه كما لم يقدر أحد على أن يدعى خلق السموات ، ولهذا قال تعالى (ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله) كما قال (ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله) .

ثم قال تعالى ﴿ وأن عليه النشأة الأخرى ﴾ وهي في قول أكثر المفسرين إشارة إلى الحشر ، والذي ظهر لي بعد طول التفكر والسؤال من فضل الله تعالى الهداية فيه إلى الحق ، أنه يحتمل أن يكون المراد نفخ الروح الإنسانية فيه ، وذلك لأن النفس الشريفة لا الأمارة تخالط الأجسام الكثيفة المظلمة ، وبها كرم الله بني آدم ، وإليه الإشارة في قوله تعالى (فكسونا العظام لحماً ثم أنشأناه خلقاً آخر) غير خلق النطفة علقة ، والعلقة مضغة ، والمضغة عظاماً ، وبهذا الخلق الآخر تميز الإنسان عن أنواع الحيوانات ، وشارك الملك في الإدراكات فكما قال هنالك (أنشأناه خلقاً آخر) بعد خلق النطفة قال ههنا (وأن عليه النشأة الأخرى) فجعل نفخ الروح نشأة أخرى كما جعله هنالك إنشاء آخر ، والذي أوجب القول بهذا هو أن قوله تعالى (وأن إلى ربك المنتهى) عند الأكثرين لبيان الإعادة ، وقوله تعالى (ثم يجزاه الجزاء الأوفى) كذلك فيكون ذكر النشأة الأخرى إعادة ، ولأنه تعالى قال بعد هذا (وأنه هو أغنى وأقنى) وهذا من أحوال الدنيا ، وعلى ماذكرنا يكون الترتيب في غاية الحسن فإنه تعالى يقول (خلق الذكر والأنثى) ونفخ فيهما الروح الإنسانية الشريفة ثم أغناه بلبن الأم وبنفقة الأب في صغره ، ثم أقناه بالكسب بعد كبره ، فإن قيل فقد وردت النشأة الأخرى للحشر في قوله تعالى (فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشيء النشأة الآخرة) نقول الآخرة من الآخر لا من الآخر لأن الآخر أفعل ، وقد تقدم على أن هناك لما ذكر البدء حمل على الإعادة وههنا ذكر خلقه من نطفة ، كما في قوله (ثم خلقنا النطفة علقة) ثم قال (أنشأناه خلقاً آخر) وفي الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ على للوجوب ، ولا يجب على الله الإعادة ، فما معنى قوله تعالى (وأن عليه)

﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغۡنَىٰ وَأَقۡنَىٰ ۝٤٨ وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعۡرَىٰ ۝٤٩﴾

قال الزمخشرى على ما هو مذهبه عليه عقلا ، فإن من الحكمة الجزاء ، وذلك لا يتم إلا بالحشر ، فيجب عليه عقلا الإعادة ، ونحن لا نقول بهذا القول ، ونقول فيه وجهان (الأول) عليه بحكم الوعد فإنه تعالى قال (إنا نحن نحيي الموتى) فعليه بحكم الوعد لا بالعقل ولا بالشرع (الثانى) عليه للتعيين . فإن من حضر بين جمع وحاولوا أمراً وعجزوا عنه ، يقال وجب عليك إذن أن تفعله . أى تعينت له .

﴿المسألة الثانية﴾ قرىء (النشأة) على أنه مصدر كالضربة على وزن فعلة وهى للمرة ، تقول ضربته ضربتين ، أى مرة بعد مرة ، يعنى النشأة مرة أخرى عليه ، وقرىء النشاءة بالمد على أنه مصدر على وزن فعالة كالكفالة ، وكيفما قرىء فهى من نشأ ، وهو لازم وكان الواجب أن يقال عليه الإنشاء لا النشأة ، نقول فيه فائدة وهى أن الجزم يحصل من هذا بوجود الخلق مرة أخرى ، ولو قال عليه الإنشاء ربما يقول قائل الإنشاء من باب الإجلاس ، حيث يقال فى السعة أجلسته فما جلس ، وأقمته فما قام . فيقال أنشاء وما نشأ أى قصده لينشأ ولم يوجد ، فاذا قال عليه النشأة أى يوجد النشء ويحققه بحيث يوجد جزماً .

﴿المسألة الثالثة﴾ هل بين قول القائل عليه النشأة مرة أخرى ، وبين قوله عليه النشأة الأخرى فرق ؟ نقول نعم إذا قال : عليه النشأة مرة أخرى لا يكون النشء قد علم أولا ، وإذا قال (عليه النشأة الأخرى) يكون قد علم حقيقة النشأة الأخرى ، فنقول ذلك المعلوم عليه .

ثم قال تعالى ﴿وأنه هو أغنى وأقنى﴾ وقد ذكرنا تفسيره فنقول أغنى يعنى دفع حاجته ولم يتركه محتاجا لأن الفقير فى مقابلة الغنى ، فمن لم يبق فقيراً بوجه من الوجوه فهو غنى مطلقاً ، ومن لم يبق فقيراً من وجه فهو غنى من ذلك الوجه ، قال ﷺ «أغنوهم عن المسألة فى هذا اليوم» وحمل ذلك على زكاة الفطر ، ومعناه إذا أتاه ما احتاج إليه ، وقوله تعالى (أقنى) معناه وزاد عليه الإقناء فوق الإغناء ، والذى عندى أن الحروف متناسبة فى المعنى ، فنقول لما كان مخرج القاف فوق مخرج الغين جعل الإقناء لحالة فوق الإغناء ، وعلى هذا فالإغناء هو ما آتاه الله من العين واللسان ، وهداه إلى الارتضاع فى صباه أو هو ما أعطاه الله تعالى من القوت واللباس المحتاج إليهما وفى الجملة كل ما دفع الله به الحاجة فهو إغناء ، وكل ما زاد عليه فهو إقناء .

ثم قال تعالى ﴿وأنه هو رب الشعرى﴾ إشارة إلى فساد قول قوم آخرين ، وذلك لأن بعض الناس يذهب إلى أن الفقر والغنى بكسب الإنسان واجتهاده فمن كسب استغنى ، ومن كسل افتقر . وبعضهم يذهب إلى أن ذلك بالبخت ، وذلك بالنجوم ، فقال (هو أغنى وأقنى) وإن قائل الغنى بالنجوم غالط ، فنقول هو رب النجوم وهو محركها ، كما قال تعالى (وهو رب الشعرى) وقوله (هو

وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَا۟ فَمَآ أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴿٥٢﴾

رب الشعرى) لإنكارهم ذلك أكد بالفصل ، والشعرى نجم مضيء ، وفى النجوم شعريان إحداهما شامية والأخرى يمانية ، والظاهر أن المراد اليمانية لأنهم كانوا يعبدونها .

ثم قال تعالى ﴿ وأنه أهلك عاداً الاولى ﴾ لما ذكر أنه (أغنى وأقنى) وكان ذلك بفضل الله لا بعطاء الشعرى وجب الشكر لمن قد أهلك وكفى لهم دليلا حال عاد وثمود وغيرهم (وعاداً الأولى) قيل بالأولى تميزت من قوم كانوا بمكة هم عاد الآخرة ، وقيل الأولى لبيان تقدمهم لا لتمييزهم ، تقول زيد العالم جاءنى فتصفه لا لتميزه ولكن لتبين علمه ، وفيه قراءات عاداً الأولى بكسر نون التنوين لالتقاء الساكنين ، وعاد الأولى باسقاط نون التنوين أيضاً لالتقاء الساكنين كقراءة عزير بن الله (وقل هو الله أحد الله الصمد) وعاداً لولى بإدغام النون فى اللام ونقل ضمة الهمزة إلى اللام وعاد الؤلى بهمزة الواو وقرأ هذا القارىء على سؤقه ودليله ضعيف وهو يحتمل هذا فى موضع المؤقدة والمؤصدة للضمة والواو فهى فى هذا الموضع تجزى على الهمزة ، وكذا فى سؤقه لوجود الهمزة فى الأصل ، وفى موسى وقوله لا يحسن .

ثم قال تعالى ﴿ وثمود فما أبقى ﴾ يعنى وأهلك ثمود وقوله (فما أبقى) عائد إلى عاد وثمود أى فما أبقى عليهم ، ومن المفسرين من قال فما أبقاهم أى فما أبقى منهم أحداً ويؤيد هذا قوله تعالى (فهل ترى لهم من باقية) وتمسك الحجاج على من قال إن ثقيفاً من ثمود بقوله تعالى (فما أبقى) .

﴿ وقوم نوح ﴾ أى أهلكهم ﴿ من قبل ﴾ والمسألة مشهورة فى قبل وبعد تقطع عن الإضافة فتصير كالغاية فتبنى على الضمة . أما البناء فلتضمنه الإضافة ، وأما على الضمة فلأنها لو بنيت على الفتحة لكان قد أثبت فيه ما يستحقه بالإعراب من حيث إنها ظروف زمان فتستحق النصب والفتح مثله ، ولو بنيت على الكسر لكان الأمر على ما يقتضيه الإعراب وهو الجر بالجار فبنى على ما يخالف حالتى إعرابها .

وقوله تعالى ﴿ إنهم كانوا هم أظلم وأطغى ﴾ أما الظلم فلأنهم هم البادئون به المتقدمون فيه « ومن سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها » والبادىء أظلم ، وأما أطغى فلأنهم سمعوا المواعظ وطال عليهم الأمد ولم يرتدعوا حتى دعا عليهم نبيهم ، ولا يدعو نبى على قومه إلا بعد الإصرار العظيم ، والظالم واضع الشىء فى غير موضعه ، والطاغى المجاوز الحد . فالطاغى أدخل فى الظلم فهو كالمغاير والمخالف فإن المخالف مغاير مع وصف آخر زائد ، وكذا المغاير والمضاد وكل ضد غير وليس كل غير ضداً ، وعليه سؤال وهو أن قوله (وقوم نوح) المقصود منه تخويف الظالم

وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾

بالهلاك ، فاذا قال هم كانوا فى غاية الظلم والطغيان فأهلكوا يقول الظالم هم كانوا أظلم فأهلكوا لمبالغتهم فى الظلم ، ونحن ما بالغنا فلا نهلك ، وأما لو قال أهلكوا لأنهم ظلمة لخاف كل ظالم فما الفائدة فى قوله (أظلم) ؟ نقول المقصود بيان شدتهم وقوة أجسامهم فإنهم لم يقدموا على الظلم والطغيان الشديد إلا بتمادیهم وطول أعمارهم ، ومع ذلك ما نجا أحد منهم فما حال من هو دونهم من العمر والقوة فهو كقوله تعالى (أشد منهم بطشاً) .

قوله تعالى : ﴿ والمؤتفكة أهوى ﴾ المؤتفكة المنقلبة ، وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قرىء (والمؤتفكات) والمشهور فيه أنها قرى قوم لوط لكن كانت لهم مواضع ائتفكت فهى مؤتفكات ، ويحتمل أن يقال المراد كل من انقلبت مساكنه ودثرت أماكنه ولهذا ختم المهلكين بالمؤتفكات كمن يقول مات فلان وفلان وكل من كان من أمثالهم وأشكالهم .

﴿ المسألة الثانية ﴾ (أهوى) أى أهواها بمعنى أسقطها ، فقيل أهواها من الهوى إلى الأرض من حيث حملها جبريل عليه السلام على جناحه ، ثم قلبها ، وقيل كانت عمارتهم مرتفعة فأهواها بالزلزلة وجعل عليها سافلها .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قوله تعالى (والمؤتفكة أهوى) على ماقلت كقول القائل والمنقلبة قلبها وقلب المنقلب تحصيل الحاصل ، نقول ليس معناه المنقلبة ما انقلبت بنفسها بل الله قلبها فانقلبت .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ ما الحكمة فى اختصاص المؤتفكة باسم الموضع فى الذكر ، وقال فى عاد وثمود ، وقوم نوح اسم القوم ؟ نقول الجواب عنه من وجهين : (أحدهما) أن ثمود اسم الموضع فذكر عاداً باسم القوم ، وثمود باسم الموضع ، وقوم نوح باسم القوم والمؤتفكة باسم الموضع ليعلم أن القوم لا يمكنهم صون أماكنهم عن عذاب الله تعالى ولا الموضع يحصن القوم عنه فإن فى العادة تارة يقوى الساكن فيذب عن مسكنه وأخرى يقوى المسكن فيرد عن ساكنه وعذاب الله لا يمنعه مانع ، وهذا المعنى حصل المؤمنين فى آيتين : (أحدهما) قوله تعالى (وكف أيدى الناس عنكم) وقوله تعالى (وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله) فى الأول لم يقدر الساكن على حفظ مسكنه وفى الثانى لم يقو الحصن على حفظ الساكن (والوجه الثانى) هو أن عاداً وثمود وقوم نوح ، كان أمرهم متقدماً ، وأماكنهم كانت قد دثرت ، ولكن أمرهم كان مشهوراً متواتراً ، وقوم لوط كانت مساكنهم وآثار الانقلاب فيها ظاهرة ، فذكر الأظهر من الأمرين فى كل قوم .

ثم قال تعالى ﴿ فغشاها ما غشى ﴾ يحتمل أن يكون ما مفعولا وهو الظاهر ، ويحتمل أن يكون فاعلا يقال ضربه من ضربه ، وعلى هذا نقول يحتمل أن يكون الذى غشى هو الله تعالى فيكون كقوله تعالى (والسماء وما بناها) ويحتمل أن يكون ذلك إشارة إلى سبب غضب الله عليهم أى

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ﴿٥٦﴾ ﴾

غشاها عليهم السبب ، بمعنى أن الله غضب عليهم بسببه ، يقال لمن أغضب ملكا بكلام فضربه الملك كلامك الذي ضربك .

ثم قال تعالى ﴿ فبأى آلاء ربك تتمارى ﴾ قيل هذا أيضاً مما فى الصحف ، وقيل هو ابتداء كلام والخطاب عام ، كأنه يقول بأى النعم أيها السامع تشك أو تجادل ، وقيل هو خطاب مع الكافر ، ويحتمل أن يقال مع النبى صلى الله عليه وسلم ، ولا يقال كيف يجوز أن يقول للنبى صلى الله عليه وسلم (تتمارى) لأنا نقول هو من باب (لئن أشركت ليحبطن عملك) يعنى لم يبق فيه إمكان الشك ، حتى أن فارضاً لو فرض النبى صلى الله عليه وسلم ممن يشك أو يجادل فى بعض الأمور الخفية لما كان يمكنه المراء فى نعم الله والعموم هو الصحيح كأنه يقول : بأى آلاء ربك تتمارى أيها الإنسان ، كما قال (يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم) وقال تعالى (وكان الإنسان أكثر شىء جدلا) فإن قيل المذكور من قبل نعم والالاء نعم ، فكيف آلاء ربك ؟ نقول لما عد من قبل النعم وهو الخلق من النطفة ونفخ الروح الشريفة فيه والإغناء والإقناء ، وذكر أن الكافر بنعمه أهلك قال (فبأى آلاء ربك تتمارى) فيصيبك مثل ما أصاب الذين تماروا من قبل ، أو تقول لما ذكر الإهلاك ، قال للشاك : أنت ما أصابك الذى أصابهم وذلك بحفظ الله إياك (فبأى آلاء ربك تتمارى) وسنزيده بياناً فى قوله تعالى (فبأى آلاء ربكما تكذبان) فى مواضع .

ثم قال تعالى ﴿ هذا نذير من النذر الأولى ﴾ وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ المشار إليه بهذا ماذا ؟ نقول فيه وجوه (أحدها) محمد صلى الله عليه وسلم من جنس النذر الأولى (ثانيها) القرآن (ثالثها) ماذكره من أخبار المهلكين ، ومعناه حينئذ هذا بعض الأمور التى هى منذرة ، وعلى قولنا المراد محمد صلى الله عليه وسلم فالنذير هو المنذر ومن لبيان الجنس ، وعلى قولنا المراد هو القرآن يحتمل أن يكون النذير بمعنى المصدر ، ويحتمل أن يكون بمعنى الفاعل ، وكون الاشارة إلى القرآن بعيد لفظاً ومعنى . أما معنى : فلأن القرآن ليس من جنس الصحف الأولى لأنه معجز وتلك لم تكن معجزة ، وذلك لأنه تعالى لما بين الوحدانية وقال (فبأى آلاء ربك تتمارى) قال (هذا نذير) إشارة إلى محمد صلى الله عليه وسلم وإثباتاً للرسالة ، وقال بعد ذلك (أزفت الآزفة) إشارة إلى القيامة ليكون فى الآيات الثلاث المرتبة إثبات أصول ثلاث مرتبة ، فإن الأصل الأول هو الله ووحدانيته ثم الرسول ورسالته ثم الحشر والقيامة ، وأما لفظاً فلأن النذير إن كان كاملا ، فما ذكره من حكاية المهلكين أولى لأنه أقرب ويكون

أَزِفَتِ ٱلْآزِفَةُ ﴿٥٧﴾ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾

على هذا من بقى على حقيقة التبعيض أى هذا الذى ذكرنا بعض ماجرى ونبذ مما وقع ، أو يكون لابتداء الغاية ، بمعنى هذا إنذار من المنذرين المتقدمين ، يقال هذا الكتاب ، وهذا الكلام من فلان . وعلى الأقوال كلها ليس ذكر الأولى لبيان الموصوف بالوصف وتمييزه عن النذر الآخرة كما يقال الفرقة الأولى احترازاً عن الفرقة الأخيرة ، وإنما هو لبيان الوصف للموصوف ، كما يقال زيد العالم جاءنى . فيذكر العالم ، إما لبيان أن زيداً عالم غير أنك لاتذكره بلفظ الخبر فتأتى به على طريقة الوصف ، وإما لمدح زيد به ، وإما لأمر آخر ، والأولى على العود إلى لفظ الجمع وهو النذر ولو كان لمعنى الجمع لقال : من النذر الأولين يقال من الأقوام المتقدمة والمتقدمين على اللفظ والمعنى .

ثم قال تعالى ﴿ أزفت الآزفة ﴾ وهو كقوله تعالى (وقعت الواقعة) ويقال كانت الكائنة . وهذا الاستعمال يقع على وجوه منها ما إذا كان الفاعل صار فاعلا لمثل ذلك الفعل من قبل ، ثم صدر منه مرة أخرى مثل الفعل ، فيقال فعل الفاعل أى الذى كان فاعلا صار فاعلا مرة أخرى ، يقال حاكه الحائك أى من شغله ذلك من قبل فعله ، ومنها ما يصير الفاعل فاعلا بذلك الفعل ، ومنه يقال : « إذا مات الميت انقطع عمله » وإذا غصب العين غاصب ضمنه ، فقوله (أزفت الآزفة) يحتمل أن يكون من القبيل الأول أى قربت الساعة التى كل يوم يزداد قربها فهى كائنة قريبة وازدادت فى القرب ، ويحتمل أن يكون كقوله تعالى (وقعت الواقعة) أى قرب وقوعها وأزفت فاعلها فى الحقيقة القيامة أو الساعة ، فكأنه قال : أزفت القيامة الآزفة أو الساعة أو مثلها .

قوله تعالى : ﴿ ليس لها من دون الله كاشفة ﴾ فيه وجوه (أحدها) لامظهر لها إلا الله فمن يعلمها لا يعلم إلا بإعلام الله تعالى إياه وإظهاره إياها له ، فهو كقوله تعالى (إن الله عنده علم الساعة) وقوله تعالى (لا يجليها لوقتها إلا هو) . (ثانيها) لا يأتى بها إلا الله ، كقوله تعالى (وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو) وفيه مسائل :

﴿ الأولى ﴾ من زائدة تقديره ليس لها غير الله كاشفة ، وهى تدخل على النفى فتؤكد معناه ، تقول ما جاءنى أحد وما جاءنى من أحد ، وعلى هذا يحتمل أن يكون فيه تقديم وتأخير ، تقديره ليس لها من كاشفة دون الله ، فيكون نفياً عاماً بالنسبة إلى الكواشف ، ويحتمل أن يقال ليست بزائدة بل معنى الكلام أنه ليس فى الوجود نفس تكشفها أى تخبر عنها كما هى ومتى وقتها من غير الله تعالى يعنى من يكشفها فإنما يكشفها من الله لا من غير الله يقال كشف الأمر من زيد ، ودون يكون بمعنى غير كما فى قوله تعالى (أئفكا آلهة دون الله تريدون) أى غير الله .

﴿ المسألة الثانية ﴾ كاشفة صفة لمؤنث أى نفس كاشفة ، وقيل هى للمبالغة كما فى العلامة وعلى هذا لا يقال بأنه نفى أن يكون لها كاشفة بصيغة المبالغة ولا يلزم من الكاشف الفائق نفى

أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ﴿٦١﴾ فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟ ﴿٦٢﴾

نفس الكاشف، لأنا نقول لو كشفها أحد لكان كاشفاً بالوجه الكامل، فلا كاشف لها ولا يكشفها أحد وهو كقوله تعالى (وما أنا بظلام للعبيد) من حيث نفى كونه ظالماً مبالغاً، ولا يلزم منه نفى كونه ظالماً، وقلنا هناك إنه لو ظلم عبيده الضعفاء بغير حق لكان فى غاية الظلم وليس فى غاية الظلم فلا يظلمهم أصلا.

﴿ المسألة الثالثة ﴾ إذا قلت إن معناه ليس لها نفس كاشفة، فقوله (من دون الله) استثناء على الأشهر من الأقوال، فيكون الله تعالى نفساً لها كاشفة؟ نقول الجواب عنه من وجوه (الأول) لافساد فى ذلك قال الله تعالى (ولا أعلم مافى نفسك) حكاية عن عيسى عليه السلام والمعنى الحقيقة. (الثانى) ليس هو صريح الاستثناء فيجوز فيه أن لايكون نفساً (الثالث) الاستثناء الكاشف المبالغ.

ثم قال تعالى ﴿ أفمن هذا الحديث تعجبون ﴾ قيل من القرآن، ويحتمل أن يقال هذا إشارة إلى حديث (أزفت الآزفة) فإنهم كانوا يتعجبون من حشر الأجساد وجمع العظام بعد الفساد.

قوله تعالى: ﴿ وتضحكون ﴾ يحتمل أن يكون المعنى وتضحكون من هذا الحديث، كما قال تعالى (فلما جاءهم بآياتنا إذا هم منها يضحكون) فى حق موسى عليه السلام، وكانوا هم أيضاً يضحكون من حديث النبى والقرآن، ويحتمل أن يكون إنكاراً على مطلق الضحك مع سماع حديث القيامة، أى أتضحكون وقد سمعتم أن القيامة قربت، فكان حقاً أن لا تضحكوا حينئذ.

قوله تعالى: ﴿ ولا تبكون ﴾ أى كان حقاً لكم أن تبكوا منه فتتركون ذلك وتأتون بضده.

قوله تعالى: ﴿ وأنتم سامدون ﴾ أى غافلون، وذكر باسم الفاعل، لأن الغفلة دائمة، وأما الضحك والعجب فهما أمران يتجددان ويعدمان.

قوله تعالى: ﴿ فاسجدوا لله واعبدوا ﴾ يحتمل أن يكون الأمر عاماً، ويحتمل أن يكون التفاتاً، فيكون كأنه قال: أيها المؤمنون اسجدوا شكراً على الهداية واشتغلوا بالعبادة، ولم يقل اعبدوا الله إما لكونه معلوماً، وإما لأن العبادة فى الحقيقة لا تكون إلا لله، فقال (واعبدوا) أى ائتوا بالمأمور، ولا تعبدوا غير الله، لأنها ليست بعبادة، وهذا يناسب السجدة عند قراءته مناسبة أشد وأتم مما إذا حملناه على العموم.

والحمد لله رب العالمين، وصلاته على سيدنا محمد سيد المرسلين، وخاتم النبيين، وعلى آله وصحبه أجمعين.

سورة «والنَّجْم»

مكِّيّة، وهي إحدى وستون آية

مكِّيَّة كلُّها في قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر. وقال ابن عباس وقتادة: إلا آية منها وهي قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ﴾[1] الآية [٣٢]. وقيل: اثنتان وستون آية[2]. وقيل: إنَّ السورة كلَّها مدنيَّةٌ. والصحيح أنَّها مكيَّة؛ لما روى ابن مسعود ﷺ أنَّه قال: هي أوَّل سورة أعلنها رسول الله ﷺ بمكَّة[3]. وفي «البخاري»[4] عن ابن عباس: أنَّ النبيَّ ﷺ سجد بالنَّجم، وسجد معه المسلمون والمشركون والجنُّ والإنس. وعن عبد الله أنَّ النبيَّ ﷺ قرأ سورةَ النجم فسجد لها، فما بقي أحدٌ من القوم إلا سجد، فأخذ رجل من القوم كفًّا من حصباء أو تراب فرفعه إلى وجهه وقال: يكفيني هذا. قال عبد الله: فلقد رأيته بَعْدُ قُتِل كافراً. متفق عليه[5]. الرجل يقال له: أميَّة بن خَلَف[6]. وفي «الصحيحين» عن زيد بن ثابت ﷺ أنَّه قرأ على النبيِّ ﷺ سورةَ «وَالنَّجْمِ إِذَا هَوى» فلم يسجد. وقد مضى في آخر «الأعراف»[7] القول في هذا، والحمد لله.

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٣٨٩ .

(٢) الوسيط ٤/ ١٩٢ .

(٣) أخرجه عنه ابن مردويه كما في الدر المنثور ٦/ ١٢١ ، وأورده ابن الجوزي في زاد المسير ٨/ ٦٢ ، وعزاه لمقاتل.

(٤) في صحيحه (١٠٧١).

(٥) البخاري (١٠٧٠)، ومسلم (٥٧٦)، وهو عند أحمد (٣٦٨٢).

(٦) كذا صرَّح به بعض رواة الحديث كما في البخاري (٤٨٦٣)، وقيل هو: الوليد بن المغيرة. وقيل هو: سعيد بن العاص بن أمية. فتح الباري ٨/ ٦١٥ .

(٧) ٩/ ٤٣٦ ، والحديث عند البخاري (١٠٧٢)، ومسلم (٥٧٧)، وأحمد (٢١٥٩١).

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ① مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ② وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ③ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ④ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ⑤ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ⑥ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ⑦ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ⑧ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ⑨ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ⑩﴾

قوله تعالى: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ قال ابن عباس ومجاهد: معنى «وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى»: والثُّرَيَّا إذَا سقطت مع الفجر[1]. والعرب تسمي الثُّريَّا نجماً[2] وإن كانت في العدد نجوماً، يقال: إنَّها سبعةُ أنجم، ستَّة منها ظاهرةٌ، وواحدٌ خَفِيٌّ يَمتحِن الناسُ به أبصارَهم[3].

وفي «الشِّفا»[4] للقاضي عياض: أنَّ النبيَّ ﷺ كان يرى في الثُّريا أَحَدَ عشَر نجماً.
وعن مجاهد أيضاً أنَّ المعنى: والقرآنِ إذا نزل؛ لأنه كان يَنزِل نجوماً. وقاله الفراء[5].

وعنه أيضاً: يعني نجومَ السماء كلّها حين تَغرُب[6]. وهو قول الحسن[7] قال: أَقسم اللهُ بالنجوم إذا غابت. وليس يمتنع أن يعبر عنها بلفظ واحد ومعناه جَمْع، كقول الراعي:

---

(١) أخرجه عنهما الطبري ٢٢/ ٥، وابن أبي حاتم ١٠/ ٣٣١٨ (١٨٦٩٣)، وقول مجاهد في تفسيره ٢/ ٦٢٧، وأخرجه عنه عبد الرزاق في التفسير ٢/ ٢٥٠.

(٢) غريب القرآن لابن قتيبة ص٤٢٧.

(٣) زاد المسير ٨/ ٦٢.

(٤) ١/ ١٦٤.

(٥) في معاني القرآن له ٣/ ٩٤، وأخرجه عن مجاهد الطبريُّ ٢٢/ ٦.

(٦) تفسير البغوي ٤/ ٢٤٤.

(٧) النكت والعيون ٥/ ٣٨٩.

فَبَاتَتْ تَعُدُّ النَّجْمَ في مُسْتَحِيرةٍ ... سَرِيعٍ بِأيدي الآكِلين جُمُودُها[١]

وقال عمر بن أبي ربيعة:

أَحْسَنُ النَّجْمِ في السماءِ الثُّريَّا ... وَالثُّرَيَّا في الأرضِ زَيْنُ النِّساءِ[٢]

وقال الحسن أيضاً: المراد بالنجم النجوم إذا سقطَت يومَ القيامة. وقال السُّدِّيُّ: إنَّ النجم ههنا الزُّهرةُ؛ لأنَّ قوماً من العرب كانوا يعبدونها.

وقيل: المراد به النجوم التي تُرجَم بها الشياطين، وسببه أنَّ الله تعالى لما أرَاد بعثة محمَّد ﷺ رسولاً كَثُرَ انقضاض الكواكب قبل مولده، فذُعر أكثرُ العرب منها، وفزعوا إلى كاهن كان لهم ضريراً، كان يُخبِرهم بالحوادث فسألوه عنها فقال: انظروا البروج الاثني عشَر، فإن انقضَّ منها شيءٌ فهو ذهاب الدنيا، فإن لم ينقضَّ منها شيء فسيحدث في الدنيا أمرٌ عظيم، فاستشعروا ذلك، فلما بُعِث رسولُ الله ﷺ كان هو الأمرَ العظيمَ الذي استشعروه، فأنزل اللهُ تعالى: «وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى» أي: ذلك النجم الذي هوى هو لهذه النبوَّة التي حدثت[٣]. وقيل: النجم هنا هو النبت الذي ليس له ساق[٤].

و«هَوَى» أي: سقط على الأرض[٥]. وقال جعفر بن محمد بن علي بن الحسين ﷺ: «وَالنَّجْمِ» يعني محمَّداً ﷺ، «إِذَا هَوَى» إذا نزل من السماء ليلةَ المعراج[٦]. وعن عروة

(١) مجاز القرآن لأبي عبيدة ٢/ ٢٣٥، والبيت للراعي النميري عبيد بن حصين، وهو في ديوانه ص٩٢. قال الزجاج في معاني القرآن ٥/ ٦٩ بعد أن أورد البيت: يصف قدراً كثيرة الدسم، ومعنى: تعدُّ النجم. أي: من صفاء دسمها ترى النجوم فيه، والمستحيرة: القدر، فقال: يجمد على الأيدي الدسم من كثرته.

(٢) لم نقف عليه في ديوانه، وهو في النكت والعيون ٥/ ٣٨٩.

(٣) النكت والعيون ٥/ ٣٨٩-٣٩٠.

(٤) تفسير البغوي ٤/ ٢٤٤ وعزاه إلى الأخفش.

(٥) الكشاف ٤/ ٢٧.

(٦) تفسير البغوي ٤/ ٢٤٤-٢٤٥.

ابنِ الزبير رضي الله عنهما أنَّ عُتَيْبَةَ[١] بنَ أبي لهبٍ وكان تحته بنتُ رسولِ الله ﷺ أراد الخروجَ إلى الشام فقال: لآتينَّ محمَّداً فلأُوذِينَّه، فأتاه فقال: يا محمَّد هو كافر بالنجم إذا هوى، وبالذي دنا فتدلَّى. ثم تَفَلَ في وجه رسول الله ﷺ، وردَّ عليه ابنتَه وطَلَّقها، فقال رسول الله ﷺ: «اللَّهمَّ سَلِّط عليه كلباً من كلابك» وكان أبو طالب حاضراً فوجَم لها وقال: ما كان أغناكَ يا بنَ أخي عن هذه الدعوة، فرجع عتيبةُ إلى أبيه فأخبره، ثم خرجوا إلى الشام، فنزلوا منزلاً، فأشرف عليهم راهبٌ من الدَّيْر فقال لهم: إنَّ هذه أرضٌ مُسْبِعةٌ. فقال أبو لهب لأصحابه: أغيثونا يا معشرَ قريش هذه الليلة! فإنِّي أخاف على ابني من دعوة محمَّد. فجمعوا جِمالهم وأَنَاخوها حولهم، وأَحدقوا بعتيبة، فجاء الأَسَدُ يَتَشمَّم وجوهَهم حتى ضرب عُتيبةَ فقتله، وقال حسان:

مَنْ يَرْجِعِ العامَ إلى أَهْلِهِ   فَمَا أَكِيلُ السَّبْعِ بالرَّاجِعِ[٢]

وأصل النَّجْم: الطلوع، يقال: نَجَم السنُّ، ونَجَم فلانٌ ببلاد كذا، أي: خرج على السلطان.

والهُوِيُّ: النزول والسقوط، يقال: هَوَى يَهْوِي هُوِيّاً، مثل مَضَى يَمْضِي مُضِيّاً[٣]، قال زهير:

---

(١) في النسخ: عتبة. وكذا في المواضع الآتية، والتصويب من تصحيفات المحدثين للعسكري ٢/ ٧٠٨، والروض الأنف للسهيلي ٣/ ٦٨، وبعض مصادر التخريج.

(٢) الكشاف ٤/ ٢٧-٢٨، والحديث أخرجه أبو نعيم في دلائل النبوة (٣٨١) عن محمد بن كعب القرظي، عن عثمان بن عروة بن الزبير، عن رجال من أهل بيته، والدولابي في الذرية الطاهرة (٧٤) عن محمد ابن كعب القرظي وعثمان بن عروة بن الزبير بنحوه، مع ذكر قصيدة مطولة لحسان وفيها البيت الآنف الذكر، والحاكم في المستدرك ٢/ ٥٣٩ من طريق أبي نوفل بن أبي عقرب، عن أبيه قال: كان لهب بن أبي لهب يسبُّ النبي ﷺ .. فذكره بنحوه مختصراً، وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وأخرجه أيضاً ابن قانع في معجم الصحابة ٣/ ٢٠٧، وأبو نعيم في دلائل النبوة (٣٨٠)، وابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق ٣٨/ ٣٠٢ من طريق عروة بن الزبير، عن هبار بن أسود قال: كان أبو لهب وابنه عتبة بن أبي لهب تجهزا إلى الشام، فتجهزت معهما فقال ابنه عتبة: والله لأنطلقن إلى محمد ولأوذينه... الخبر بنحوه دون ذكر البيت.

(٣) الصحاح (نجم) و (هوي) بنحوه.

فَشَجَّ بِهَا الأماعِزَ وَهْيَ تَهْوي هُوِيَّ الدَّلْوِ أَسْلَمَها الرِّشاءُ[١]

وقال آخر:

بَيْنَما نَحْنُ بالبَلاكِثِ فالْقَا عِ سِراعاً والعِيسُ تَهْوِي هُوِيّا
خَطَرتْ خَطْرَةٌ على القَلْبِ مِن ذِكْـ ـراكِ وَهْناً فما استطعْتُ مُضيّاً[٢]

الأصمعي: هَوَى ـ بالفتح ـ يَهْوِي هَوِيّاً، أي: سقط إلى أسفل. قال: وكذلك انهوى في السير إذا مضى فيه، وهَوَى وانْهَوى فيه لغتان بمعنًى، وقد جمعهما الشاعر في قوله:

وكَمْ مَنْزِلٍ لولايَ طِحْتَ كما هَوَى بأجرامِهِ مَنْ قُلَّةِ النِّيقِ منْهَوِي[٣]

ويقال في الحُبِّ: هَوِيَ ـ بالكسر ـ يَهْوَى هَوًى، أي: أحبَّ.

قوله تعالى: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ﴾ هذا جواب القَسَم، أي: ما ضلَّ محمَّد ﷺ عن الحقِّ وما حادَ عنه[٤]. ﴿وَمَا غَوَىٰ﴾ الغَيُّ: ضدُّ الرشد، أي: ما صار غاوياً[٥]. وقيل: أي: ما تكلَّم بالباطل[٦]. وقيل: أي: ما خاب مما طلب، والغَيُّ: الخيبة، قال الشاعر:

فمن يَلْقَ خيراً يَحْمَدِ النَّاسُ أَمْرَهُ وَمَنْ يَغْوَ لا يَعْدَمْ على الغَيِّ لائِمَا[٧]

---

(١) شرح ديوان زهير ص٦٧ ، وفيه: شجَّ: علا. بها: بالأُتُن، والأماعز: المكان الغليظ الكثير الحصى. فشبَّه هُوِيَّ الحبل إذا انقطع بهُوِيِّ الأُتُن.

(٢) القائل مجنون ليلى قيس بن الملوَّح، والبيتان في ديوانه ص٢٩١ ، والبلاكث والقاع: موضعان من المدينة. معجم البلدان ١/ ٤٧٨ و ٤/ ٢٩٨ ونسب البيتين فيه إلى كُثيِّر.

(٣) الصحاح (هوي) وما بعده منه، والبيت ليزيد بن الحكم، وهو في الكامل ٣/ ١٢٧٧ ، وعيون الأخبار ٣/ ٨٣ ، وقُلَّة كل شيء: أعلاه. والنِّيق: أرفع موضع في الجبل. لسان العرب (قلل) و (نوق).

(٤) الوسيط ٤/ ١٩٢-١٩٣ .

(٥) الكشاف ٤/ ٢٨ .

(٦) تفسير البغوي ٤/ ٢٤٥ .

(٧) النكت والعيون ٥/ ٣٩٠ ،وما بعده منه، والبيت للمرقِّش، وسلف ١٣/ ٤٧٧ .

أي: مَن خاب في طلبه لامه الناس.

ثم يجوز أن يكون هذا إخباراً عما بعد الوحي. ويجوز أن يكون إخباراً عن أحواله على التعميم، أي: كان أبداً موحِّداً لله. وهو الصحيح على ما بيَّنَّاه في «الشورى»[١] عند قوله: ﴿مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ﴾ [الآية: ٥٢].

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ﴾:

فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ﴾ قال قتادة: وما ينطق بالقرآن عن هواه، ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ﴾ إليه[٢]. وقيل: «عَنِ الْهَوَى» أي: بالهوى، قاله أبو عبيدة[٣] كقوله تعالى: ﴿فَسۡـَٔلۡ بِهِۦ خَبِيرٗا﴾ [الفرقان: ٢٥] أي: فاسأل عنه. النحَّاس[٤]: قول قتادة أولى، وتكون «عن» على بابِها، أي: ما يخرج نُطْقه عن رأيه، إنَّما هو بوحْيٍ من الله عزَّ وجلَّ؛ لأنَّ بعده: «إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى».

الثانية: قد يحتجُّ بهذه الآية من لا يجوِّز لرسول الله ﷺ الاجتهادَ في الحوادث[٥]. وفيها أيضاً دلالة على أنَّ السُّنَّةَ كالوحي المنزل في العمل. وقد تقدَّم في مقدَّمة الكتاب[٦] حديث المِقدام بن معدي كرب في ذلك، والحمد لله.

قال السجستانيُّ: إن شئتَ أَبدلتَ «إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى» مِن «مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ». قال ابن الأنباري[٧]: وهذا غَلَط؛ لأنَّ «إِنْ» الخفيفة لا تكون مبدلة من «ما»، الدليل على هذا أنَّك لا تقول: واللهِ ما قمتُ، إنْ أنا لقاعد.

---

(١) ١٨/٥٠٩ - ٥١٠ .

(٢) أخرجه عنه الطبري ٢٢/٨ .

(٣) في مجاز القرآن له ٢/٢٣٦ .

(٤) في معاني القرآن له ٤/٢٦٥ بنحوه.

(٥) أحكام القرآن للهراسي ٤/٣٩٣ .

(٦) ١/٦٥ .

(٧) في إيضاح الوقف والابتداء ٢/٩١٠ ، وما قبله منه.

قوله تعالى: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾ يعني: جبريل عليه السلام، في قول سائر المفسرين[١] سوى الحسن، فإنَّه قال: هو الله عزَّ وجلَّ[٢]. ويكون قوله تعالى: ﴿ذُو مِرَّةٍ﴾ على قول الحسن تمام الكلام، ومعناه: ذو قوَّة، والقوَّة من صفات الله تعالى، وأصله من شدَّة فَتْل الحبل[٣]، كأنَّه استمرَّ به الفَتْل حتى بلغ إلى غاية يَصعُب معها الحَلُّ.

ثم قال: ﴿فَٱسْتَوَىٰ﴾ يعني: الله عزَّ وجلَّ، أي: استوى على العرش. روي معناه عن الحسن[٤]. وقال الربيع بن أنس والفرَّاء: ﴿فَٱسْتَوَىٰ . وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ أي: استوى جبريل ومحمَّد عليهما الصلاة والسلام[٥]. وهذا على العطف على المضمر المرفوع بـ « هو ». وأكثر العرب إذا أرادوا العطف في مثل هذا الموضع أَظهروا كنايةَ المعطوف عليه، فيقولون: استوى هو وفلان، وقلَّما يقولون: استوى وفلان[٦]. وأنشد الفرَّاء:

أَلَـمْ تَـرَ أَنَّ الـنَّـبْـعَ يَـصـلُـبُ عُـودُهُ ... ولا يَسْتوِي والخِرْوَعُ المتقصِّفُ[٧]

أي: لا يستوي هو والخِرْوَع، ونظير هذا: ﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ﴾ [النمل: ٦٧] والمعنى: أئذا كنَّا تراباً نحن وآباؤنا. ومعنى الآية: استوى جبريل هو ومحمَّد عليهما السلام ليلةَ الإسراء بالأُفُق الأعلى.

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٣٩١ .

(٢) المحرر الوجيز ٥/ ١٩٦ .

(٣) المحرر الوجيز ٥/ ١٩٦-١٩٧ .

(٤) المحرر الوجيز ٥/ ١٩٧ .

(٥) أخرجه عن الربيع الطبري ٢٢/ ١١ ، وأبو الشيخ في العظمة (٣٦٨)، وقول الفراء في معاني القرآن له ٣/ ٩٥ .

(٦) تفسير الطبري ٢٢/ ١١-١٢ .

(٧) معاني القرآن للفراء ٣/ ٩٥ ، والبيت لجرير، وهو في شرح ديوانه ٢/ ٩٣٢ ، والنبع: شجر من أشجار الجبال تتخذ منه القسي. والخروع: كل نبات قصيف ريان من شجر أو عنب. لسان العرب (نبع) و(خرع). ووقع عند الفراء: يخلق، بدل: يصلب.

وأجاز[١] العطف على الضمير؛ لئلا يتكرَّر. وأنكر ذلك الزَّجَّاج[٢] إلا في ضرورة الشعر، وقيل: المعنى فاستوى جبريل بالأفق الأعلى، وهو أجود. وإذا كان المستوي جبريل فمعنى «ذُو مِرَّةٍ» في وَصْفه: ذو منطق حسَن، قاله ابن عباس. وقال قتادة: ذو خَلْق طويل حَسن[٣].

وقيل: معناه: ذو صحَّة جسم، وسلامة من الآفات، ومنه قول النبيِّ ﷺ: «لا تحلُّ الصدقة لغنيٍّ ولا لِذِي مِرَّةٍ سَوِيٍّ»[٤]. وقال امرؤ القيس:

كـنـتُ فـيـهـم أبـداً ذا حـيـلـة مُـحْـكَـمَ الـمِـرَّة مـأمُـونَ الْـعُـقَـد[٥]

وقد قيل: «ذُو مِرَّةٍ»: ذو قوَّة. قال الكلبيُّ: وكان من شدَّة جبريل عليه السلام: أنَّه اقتلعَ مدائنَ قومِ لوطٍ من الأرض السفلى، فحملها على جناحه حتى رفعَها إلى السماء، حتى سمع أهلُ السماء نَبْحَ كلابهم وصياح ديكتهم، ثم قَلَبَها. وكان من شدَّته أيضاً: أنَّه أبصر إبليسَ يكلِّم عيسى عليه السلام على بعض عقاب من الأرض المقدَّسة، فنفحه بجناحه نفحةً ألقاه بأقصى جبل في الهند. وكان من شدَّته: صيحته بثمود في عددهم وكثرته، فأصبحوا جاثمين خامدين. وكان من شدَّته: هبوطه من السماء على الأنبياء وصعودهُ إليها في أسرع من الطَّرْف[٦].

وقال قُطْرُب: تقول العرب لكل جَزل الرأي حصيف العقل: ذُو مِرَّةٍ. قال الشاعر:

---

(١) أي: الفراء في معاني القرآن له ٣/ ٩٥ .

(٢) في معاني القرآن له ٥/ ٧٠ وما بعده منه.

(٣) تفسير البغوي ٤/ ٢٤٥ ، وأخرجه عنهما الطبري ٢٢/ ١٠ .

(٤) تفسير الطبري ٢٢/ ١١ ، والحديث سلف ١٠/ ٢٥٣ .

(٥) كذا أورده الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٣٩١ ، والبيت في ديوان امرئ القيس ص٢١٩ إلا أن صدره هكذا:

ولـبـيـبٌ أيِّـد ذو حـيـلـة

قال شارحه: الأيِّد: الشديد. ومأمون العُقَد: يؤمن انحلالها.

(٦) الكشاف ٤/ ٢٨ دون عزو، وخبر تعذيب قوم لوط في عرائس المجالس ص١٠٧ .

قَـد كُـنـتُ قـبـلَ لِـقـائِـكُـمْ ذا مِـرَّةٍ عِـنـدي لِـكـلِّ مُـخـاصِـمٍ مِـيـزانُـهُ[(١)]

وكان من جزالة رأيه وحصَافة عقله: أنَّ الله ائتمنه على وَحْيه إلى جميع رسله.

قال الجوهريُّ[(٢)]: والمِرَّة: إحدى الطبائع الأربع، والمِرَّة: القوَّة، وشدَّة العقل أيضاً. ورجل مرير: أي: قويٌّ ذو مِرةٍ. قال:

تَـرى الـرَّجُـل الـنَّـحـيـفَ فـتـزدريـه وحَـشْـوُ ثِـيـابِـه أسـدٌ مَـرِيـرٌ[(٣)]

وقال لَقِيط:

حتـى استـمرَّت عـلـى شَـزْرٍ مَـريـرتُـه مُـرُّ الـعـزِيـمـةِ لا رَتّـاً ولا ضَـرَعَـا[(٤)]

وقال مجاهد وقتادة: «ذُو مِرَّةٍ»: ذو قوَّة، ومنه قول خُفَاف بن نَدْبة:

إنِّـي امـرؤٌ ذو مِـرّةٍ فـاسـتـبـقِـنـي فِـيـمـا يَـنُـوبُ مِـن الـخُـطُـوبِ صَـلِـيـبُ[(٥)]

فالقوَّة تكون من صفة الله عزَّ وجلَّ، ومن صفة المخلوق.

«فاستوى» يعني: جبريل على ما بيَّنَّا، أي: ارتفع وعلا إلى مكانه في السماء بعد أن علَّم محمَّداً ﷺ، قاله سعيد بن المسيَّب وابن جبير[(٦)].

وقيل: «فَاسْتَوَى» أي: قام في صورته التي خَلَقه الله تعالى عليها؛ لأنه كان يأتي

---

(١) سلف ١٢/ ١٩١ .

(٢) في الصحاح (مرر).

(٣) القائل العباس بن مرداس، وهو في الحماسة البصرية ٢/ ٧ ، ورواية عجزه هكذا:

وفـي أثـوابـه أسـد مـزيـر

والمزير: الشديد القلب القوي. اللسان (مزر).

(٤) الكامل ٢/ ٦٨٢ ، والرتُّ: الرئيس من الرجال في الشرف والعطاء. والضَّرَع: الصغير السنّ الضعيف. اللسان (رتت) و(ضرع).

(٥) النكت والعيون ٥/ ٣٩١ ، وقول مجاهد في تفسيره ٢/ ٦٢٧ ، وأخرجه عنه الطبري ٢٢/ ١٠ . والبيت في الأصمعيات ص٢٧ ، وورد فيه هكذا:

فـتـعـلَّـمـي أنـي امـرؤ ذو مـرَّة فيـمـا ألـمَّ مـن الـخـطـوب صـلـيـبُ

(٦) النكت والعيون ٥/ ٣٩٢ وعزاه إلى ابن جبير.

إلى النبيِّ ﷺ في صورة الآدميين كما كان يأتي إلى الأنبياء، فسأله النبيُّ ﷺ أن يُرِيَه نفسَه التي جَبَله الله عليها، فأراه نفسه مرَّتين، مرَّة في الأرض، ومرَّة في السماء، فأما في الأرض ففي الأفُق الأعلى، وكان النبيُّ ﷺ بحراء، فطلع له جبريل من المشرق فسدَّ الأرض إلى المغرب، فخرَّ النبيُّ ﷺ مغشياً عليه، فنزل إليه في صورة الآدميين وضمَّه إلى صدره، وجعل يمسح الغبار عن وجهه، فلما أفاق النبيُّ ﷺ قال: «يا جبريل ما ظننتُ أنَّ الله خلَق أحداً على مثل هذه الصورة». فقال: يا محمَّد إنَّما نَشرتُ جناحَيْن من أجنحتي، وإنَّ لي ستَّ مئة جناح، سَعة كلِّ جناح ما بين المشرق والمغرب. فقال: «إنَّ هذا لعظيم» فقال: وما أنا في جَنْب ما خلقَه الله إلا يسيراً، ولقد خلَق الله إسرافيلَ له ستُّ مئة جناح، كلُّ جناح منها قَدْر جميع أجنحتي، وإنَّه ليتضاءل أحياناً من مخافة الله تعالى حتى يكون بقَدْر الوصَع. يعني: العصفور الصغير، دليله قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ﴾ وأما في السماء فعند سِدرة المنتهى، ولم يَرَهُ أحد من الأنبياء على تلك الصورة إلا محمَّداً ﷺ[(١)].

وقول ثالث أنَّ معنى «فَاسْتَوَى»: أي: استوى القرآن في صدره. وفيه على هذا وجهان: أحدهما في صدر جبريل حين نزل به عليه. الثاني: في صدر محمَّد ﷺ حين نزل عليه. وقول رابع أنَّ معنى «فَاسْتَوَى»: فاعتدل، يعني: محمَّداً ﷺ. وفيه على هذا وجهان: أحدهما: فاعتدل في قوَّته. الثاني: في رسالته. ذكرهما الماورديُّ[(٢)].

قلت: وعلى الأوَّل يكون تمام الكلام «ذُو مِرَّةٍ»، وعلى الثاني «شَدِيدُ الْقُوَى».

وقول خامس أنَّ معناه: فارتفع. وفيه على هذا وجهان: أحدهما: أنَّه جبريل عليه

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ٢٤٥ دون قوله: فلما أفاق النبي ﷺ... إلى قوله: يعني العصفور الصغير. حيث أخرجه ابن المبارك في الزهد (٢٢١) عن ابن شهاب مرسلاً بنحوه.

ورؤية النبي ﷺ جبريلَ مرتين أخرجها البخاري (٤٨٥٥)، ومسلم (١٧٧) عن عائشة رضي الله عنها.

وقول جبريل: إن لي ست مئة جناح. أخرجه البخاري (٣٢٣٢)، ومسلم (١٧٤) عن ابن مسعود ﷺ.

(٢) في النكت والعيون ٥/ ٣٩٢.

السلام ارتفع إلى مكانه على ما ذكرنا آنفاً. الثاني: أنَّه النبيُّ ﷺ ارتفع بالمعراج[(١)]. وقول سادس: «فَاسْتَوَى»: يعني الله عزَّ وجلَّ، أي: استوى على العرش، على قول الحسن[(٢)]. وقد مضى القول فيه في «الأعراف»[(٣)].

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ جملة في موضع الحال، والمعنى: فاستوى عالياً[(٤)]، أي: استوى جبريل عالياً على صورته، ولم يكن النبيُّ ﷺ قبل ذلك يراه عليها حتى سأله إيَّاها على ما ذكرنا.

والأُفُق: ناحية السماء، وجمعه: آفاق[(٥)]. وقال قتادة: هو الموضع الذي تأتي منه الشمس[(٦)]. وكذا قال سفيان: هو الموضع الذي تطلع منه الشمس، ونحوه عن مجاهد. ويقال: أُفْق وأُفُق، مثل عُسْر وعُسُر. وقد مضى في «حم السجدة»[(٧)]. وفرس أُفُق ـ بالضمِّ ـ أي: رائع، وكذلك الأنثى، قال الشاعر:

أرجِّلُ لِمَّتِي وَأَجُرُّ ذَيْلِي ... وتَحمِلُ شِكَّتي أُفُقٌ كُمَيْتُ[(٨)]

وقيل: «وَهُوَ» أي: النبيُّ ﷺ «بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى» يعني: ليلةَ الإسراء، وهذا ضعيف، لأنَّه يقال: استوى هو وفلان، ولا يقال: استوى وفلان، إلا في ضرورة الشعر.

والصحيح استوى جبريلُ عليه السلام، وجبريلُ بالأُفق الأعلى على صورته الأصليَّة؛ لأنَّه كان يتمثَّل للنبيِّ ﷺ إذا نزل بالوحي في صورة رجل، فأحبَّ النبيُّ ﷺ

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٣٩٢ .

(٢) المحرر الوجيز ٥/ ١٩٧ .

(٣) ٩/ ٢٣٨ .

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٦٦ .

(٥) الصحاح (أفق).

(٦) النكت والعيون ٥/ ٣٩٢ عن قتادة ومجاهد، وأخرجه الطبري ٢٢/ ١٣ عن قتادة بنحوه.

(٧) عند الآية (٥٣).

(٨) الصحاح (أفق)، والبيت لعمرو بن قعاسٍ بن عبد يغوث المرادي، وهو في منتهى الطلب لابن ميمون ٨/ ٢٤٥ ، وفيه: ذمَّتي، بدل: لمَّتي، واللِّمَّة: شعر الرأس إذا كان فوق الوفرة. والشِّكَّة: السلاح. لسان العرب (لمم) و (شكك).

أن يراه على صورته الحقيقيَّة، فاستوى في أفق المشرق، فملأَ الأُفق.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ﴾ أي: دنا جبريلُ بعد استوائه بالأُفق الأعلى من الأرض «فَتَدَلَّى» فنزل على النبيِّ ﷺ بالوحي[١]. المعنى: أنَّه لما رأى النبيُّ ﷺ من عظمته ما رأَى، وهالَه ذلك، ردَّه الله إلى صورة آدميٍّ حين قَرُبَ من النبيِّ ﷺ بالوحي، وذلك قوله تعالى: «فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ» يعني أوحى الله إلى جبريلَ، وكان جبريل «قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى» قاله ابن عباس والحسن وقتادة والربيع وغيرهم[٢]. وعن ابن عباس أيضاً في قوله تعالى: «ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى» أنَّ معناه: أنَّ الله تبارك وتعالى «دَنَا» من محمَّد ﷺ «فَتَدَلَّى»[٣]. وروى نحوه أنس بن مالك عن النبيِّ ﷺ[٤]. والمعنى: دنا منه أَمْرُه وحُكْمه[٥]. وأصل التدلِّي: النزول إلى الشيء حتى يَقرُب منه، فوضِعَ موضعَ القُرب، قال لبيد:

فَتَدَلَّيْتُ عليه قافِلاً وعلى الأرض غيَابَات الطَّفَل[٦]

وذهب الفرَّاء[٧] إلى أنَ الفاء في «فَتَدَلَّى» بمعنى الواو، والتقدير: ثم تدلَّى جبريل عليه السلام ودنا. ولكنه جائز إذا كان معنى الفعلين واحداً، أو كالواحد، قدَّمت أيَّهما شئت، فقلت: فدنا فقرب وقرب فدنا، وشتمني فأَساء وأساء فشتمني؛ لأنَّ

---

(١) الوسيط ٤/ ١٩٣ .

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٢٤٦ عن ابن عباس والحسن وقتادة، وأخرجه عبد الرزاق في التفسير ٢/ ٢٥٠ ، ومن طريقه أبو الشيخ في العظمة (٣٦٩)، والطبري ٢٢/ ١٤ عن الحسن وقتادة، والطبري ٢٢/ ١٤ ، وأبو الشيخ في العظمة (٣٦٨) عن الربيع.

(٣) أخرجه الطبري ٢٢/ ١٤ ، والطبراني في الكبير (١١٣٢٨).

(٤) أخرجه البخاري (٧٥١٧)، وينظر كلام ابن حجر حول الحديث في فتح الباري ١٣/ ٤٨٣ وما بعدها.

(٥) الشفا ١/ ٣٩٤ .

(٦) شرح ديوان لبيد ص١٨٩ ، قال شارحه: الغيابة: ظل الشمس، أو كل شيء أظل الإنسان. والطَّفَل: حين تهمُّ الشمس بالوجوب وتدنو للغروب.

(٧) في معاني القرآن له ٣/ ٩٥-٩٦ .

الشتم والإساءة شيء واحد. وكذلك قوله تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾ [القمر: ١] المعنى ـ والله أعلم ـ: انشقَّ القمر واقتربت الساعة.

وقال الجرجانيُّ: في الكلام تقديم وتأخير، أي: تدلَّى فدنا؛ لأنَّ التدلِّي سبب الدنوِّ.

وقال ابنُ الأنباري: ثم تدلَّى جبريلُ، أي: نزل من السماء فدنا من محمَّد ﷺ[١].

وقال ابن عباس: تدلَّى الرفرفُ لمحمَّد ﷺ ليلةَ المعراج، فجلس عليه، ثم رُفع فدنا من ربِّه[٢]، وسيأتي.

ومن قال: المعنى: فاستوى جبريلُ ومحمَّد بالأُفق الأعلى، قد يقول: ثم دنا محمَّد من ربِّه دنوَّ كرامةٍ، فتدلَّى، أي: هَوَى للسجود. وهذا قول الضحاك. قال القشيريُّ: وقيل على هذا تدلَّى، أي: تَدلَّلَ، كقولك: تَظَنَّى، بمعنى تَظَنَّنَ. وهذا بعيد؛ لأنَّ الدَّلال غيرُ مرضيٍّ في صفة العبودية.

قوله تعالى: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾ أي: كان محمَّد من ربِّه أو من جبريل «قَابَ قَوْسَيْنِ» أي: قَدْرَ قوسين عربيَّتين[٣]. قاله ابن عباس وعطاء[٤] والفرَّاء[٥]. الزمخشريُّ[٦]: فإن قلتَ: كيف تقدير قوله: «فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ»؟ قلت: تقديره:

(١) النكت والعيون ٥/ ٣٩٣.

(٢) الشفا ١/ ٣٩٤، والرفرف: البساط. النهاية ٢/ ٢٤٣.

(٣) غريب القرآن لابن قتيبة ص٤٢٨.

(٤) تفسير البغوي ٤/ ٢٤٦.

(٥) في معاني القرآن له ٣/ ٩٥.

(٦) الكشاف ٤/ ٢٩، والبيت الآتي نسب للأسود بن يعفر، وهو في شرح المفصل لابن يعيش ٣/ ٣١. وللكلحبة هبيرة بن عبد مناف العُرَني، وهو في المفضليات ص٣٢، ورواية صدره:

فأدرك إبقاءَ العرادة ظَلْعها

قال محققه: المبقية من الخيل: التي تبقي بعض جريها تدخره. الظلع: العرج والغمز في المشي. يقول: إن شرب العرادة أضعف جريها، فغلب ظلعها إبقاءها، ففاتها حزيمة وهو قيد إصبع منها.

فكان مقدارُ مسافة قُربه مثلَ قاب قوسين، فحذفت هذه المضافات، كما قال أبو عليٍّ في قوله:

وَقَدْ جَعَلَتْنِي مِن خَزِيمَةَ إِصْبَعَا

أي: ذا مقدار مسافة إصبع. «أَوْ أَدْنَى» أي: على تقديركم، كقوله تعالى: ﴿أَوْ يَزِيدُونَ﴾ [الصافات: ١٤٧]. وفي «الصحاح»[١]: وتقول: بينهما قابُ قَوْس، وقِيبُ قَوْس، وقادُ قَوْس، وقِيدُ قَوْس، أي: قَدْر قَوْسٍ.

وقرأ زيد بن علي: «قَادَ»، وقرئ: «قِيدَ» و «قَدْرَ». ذكره الزمخشريُّ[٢].

والقابُ: ما بين المَقْبِض والسِّيَة. ولكلِّ قوس قابان. وقال بعضهم في قوله تعالى: «قَابَ قَوْسَيْنِ»: أراد قابي قوس، فقلبه[٣]. وفي الحديث: «ولَقاب قوسِ أحدِكم من الجنة وموضع قِدِّه خيرٌ من الدنيا وما فيها» والقِدُّ: السَّوط[٤]. و في «الصحيح» عن أبي هريرة قال: قال النبيُّ ﷺ: «ولَقَابُ قوسِ أحدكم في الجنة خيرٌ من الدنيا وما فيها»[٥]. وإنَّما ضُرب المثل بالقوس؛ لأنَّها لا تختلف في القاب. والله أعلم.

قال القاضي عِياض[٦]: اعلم أنَّ ما وقعَ من إضافة الدنوِّ والقُرب من الله، أو إلى الله، فليس بدنوِّ مكانٍ، ولا قُرب مَدًى، وإنَّما دنوُّ النبيِّ ﷺ من ربِّه وقُرْبه منه، إبانةُ عظيمِ منزلته، وتشريف رتبته، وإشراق أنوار معرفتِهِ، ومشاهدة أسرار غيبه وقُدْرته. ومِنَ الله تعالى له: مبرَّةٌ وتأنيس وبَسْط وإكرام.

---

(١) مادة (قوب).

(٢) في الكشاف ٤/ ٢٨ .

(٣) الصحاح (قوب)، والسِّيَة: ما عطف من طرفي القوس. الصحاح (سيا).

(٤) غريب القرآن لابن قتيبة ص٤٢٨ ، والكشاف ٤/ ٢٨ .

(٥) أخرجه بهذا اللفظ أحمد (١٠٢٧٠)، وهو عند البخاري (٢٧٩٣) بلفظ: لقاب قوس في الجنة خير مما تطلع عليه الشمس وتغرب.

(٦) في الشفا ١/ ٣٩٦-٣٩٧ ، وفيه: وشريف، بدل: وتشريف.

ويتأوَّل فيه ما يتأوَّل في قوله عليه السلام: «يَنزِل ربُّنا إلى سماء الدنيا»(١) على أحد الوجوه: نزول إجمال وقبولُ إحسان.(٢) قال القاضي: وقوله: «فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى» فمن جعَل الضميرَ عائداً إلى الله تعالى لا إلى جبريل، كان عبارة عن نهاية القُرب، ولطف المحلِّ، وإيضاح المعرفة، والإشراف على الحقيقة من محمَّد ﷺ، وعبارةً عن إجابة الرغبة، وقضاء المطالب، وإظهار التحفِّي، وإنافة المنزلة والقُرب من الله، ويتأوَّل فيه ما يتأوَّل في قوله عليه السلام: «مَن تقرَّب منِّي شبراً تقرَّبت منه ذراعاً، ومن أتاني يمشي أتيته هرولةً» قربٌ بالإجابة والقَبول، وإتيان بالإحسان وتعجيل المأمول(٣).

وقد قيل: «ثُمَّ دَنَا» جبريل من ربِّه «فَكَان قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى» قاله مجاهد(٤). ويدلُّ عليه ما رُويَ في الحديث: «إنَّ أقربَ الملائكة من الله جبريلُ عليه السلام»(٥).

وقيل: «أو» بمعنى الواو، أي: قاب قوسين وأدنى. وقيل: بمعنى «بل»، أي: بل أدنى(٦).

وقال سعيد بن المسيّب: القاب: صدر القوس العربية حيث يشدُّ عليه السير الذي يتنكَّبه صاحبه، ولكلِّ قوس قاب واحد. فأخبر أنَّ جبريل قَرُبَ من محمَّد ﷺ كقُرب قاب قوسين.

وقال سعيد بن جبير وعطاء وأبو إسحاق الهَمْداني وأبو وائل شقيق بن سلمة: «فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ» أي: قدر ذراعين، والقوس: الذراع يُقاس بها كلُّ شيء(٧)، وهي

(١) أخرجه البخاري (١١٤٥)، ومسلم (٧٥٨)، وهو عند أحمد (٧٥٩٢) عن أبي هريرة ﷺ.

(٢) الصواب إثبات صفة الدنو والقرب والنزول لله تعالى بلا تشبيه ولا تمثيل ولا تأويل على ما يليق بجلال الله وعظمته.

(٣) الشفا ١/ ٣٩٦-٣٩٧، والحديث سلف ٧/ ٢٩٠.

(٤) في تفسيره ٢/ ٦٢٧ ، وأخرجه عنه الطبري ٢٢/ ١٩ .

(٥) أخرجه أبو الشيخ في العظمة (٢٧٧)، وفي إسناده الأحوص بن حكيم، وهو ضعيف. تهذيب التهذيب ١/ ٩٩-١٠٠ .

(٦) تفسير أبي الليث ٣/ ٢٨٩ ، وينظر تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة ص٤١٤-٤١٥ .

لغةُ بعض الحجازيين[١]. وقيل: هي لغةُ أزد شَنُوءة أيضاً. وقال الكسائيُّ: قوله: «فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى» أراد: قوساً واحداً، كقول الشاعر:

ومَهْمَهَيْنِ قَذَفَيْنِ مَرْتَيْن قَطَعْتُهُ بالسَّمْتِ لا بالسَّمْتَيْن[٢]

أراد: مَهْمَهاً واحداً.

والقوس تذكَّر وتؤنَّث، فمن أنَّث قال في تصغيرها: قويسة، ومن ذكَّر قال: قُويس، وفي المثل: هو من خيرِ قُوَيْسٍ سَهْماً. والجمع قِسِيٌّ وقُسِيٌّ وأقواس وقِياس، وأنشد أبو عبيدة:

ووَتَّرَ الأساورَ القِياسَا[٣]

والقَوْس أيضاً: بقية التَّمْر في الجُلَّة، أي: الوعاء. والقَوْس: برج في السماء. فأما القُوسُ بالضمِّ: فصومعة الراهب، قال الشاعر وذكر امرأةً:

لا سْتَفْتَنَتْنِي وذَا المسْحَينِ في القُوسِ[٤]

قوله تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ﴾ تفخيم للوحي الذي أُوحيَ إليه[٥]. وتقدَّم

(١) المحرر الوجيز ٥/١٩٨ وحكاه عن الثعلبي.

(٢) هكذا ذكره الأزهري في تهذيب اللغة ٨/٣٠٢ ولم ينسبه، وفيه: بالأمِّ، بدل: بالسمت. وذكره الزجاجي في الجمل ص٣١٣، والجاحظ في البيان والتبيين ١/١٥٦ ولم ينسباه، ونسبه ابن السِّيْد البطليوسي في الحلل ص٣٦٤ إلى خطام المجاشعي، وجاءت رواية الرجز في البيان والتبيين هكذا:

ومهمهين قذفين مرتين جبتهما بالنعت لا بالنعتين

ظهراهما مثل ظهور الترسين قطعته بالأمِّ لا بالسمتين

وقول الراجز:

ظهراهما مثل ظهور الترسين

ذكره سيبويه في الكتاب ٢/٤٨ ونسبه لخطام، و ٣/٦٢٢ ونسبه لهميان بن قحافة. والمهمه: القَفْر المخوف. والقَذَف: ما ارتفع من الأرض. والمرت: التي لا ماء بها ولا نبات فيها. والظهر: ما ارتفع من الأرض، يشبهه بظهر الترس في ارتفاعه. الحلل ص٣٦٥. والسمت: الطريق. لسان العرب (سمت).

(٣) الصحاح (قوس) وما بعده منه، والمثل في جمهرة الأمثال للعسكري ١/٤٢٠ وهو من أرجوزة لخالد ابن معاوية، وقصته ثمة.

(٤) القائل جرير، وهو في ديوانه ١/١٢٥، وصدره: لا وصل إذا صرمت هند ولو وقفت.

(٥) الكشاف ٤/٢٩.

معنى الوحي[١]، وهو إلقاء الشيء بسرعة، ومنه: «الوحَى الوحَى». والمعنى: فأوحى الله تعالى إلى عبده محمَّد ﷺ ما أوحى. وقيل: المعنى: «فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ» جبريلَ عليه السلام «مَا أَوْحَى». وقيل: المعنى: فأوحى جبريلُ إلى عبد الله محمَّد ﷺ ما أوحى إليه ربُّه[٢]. قاله الربيع والحسن وابن زيد وقتادة[٣]. قال قتادة: أوحى الله إلى جبريل، وأوحى جبريل إلى محمَّد[٤].

ثم قيل: هذا الوحي هل هو مبهم، لا نَطَّلِع عليه نحن وتُعُبِّدْنَا بالإيمان به على الجملة، أو هو معلوم مفسَّر؟ قولان، وبالثاني قال سعيد بن جبير، قال: أوحى الله إلى محمَّد: أَلَم أَجِدْكَ يتيماً فآويتك! أَلَم أجدْك ضالًّا فهديتك! أَلَم أجدْك عائلاً فأغنيتك! ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ . وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ . ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ . وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾[٥] [الشرح: ١-٤]. وقيل: أوحى الله إليه أنَّ الجنَّة حرام على الأنبياء حتى تدخلَها يا محمَّد، وعلى الأُمم حتى تدخلها أُمَّتُك[٦].

قوله تعالى: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ⑪ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ⑫ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ⑬ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ⑭ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ⑮ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ⑯ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ⑰ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ⑱﴾

قوله تعالى: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ﴾ أي: لم يكذب قلبُ محمَّد ﷺ ليلةَ المعراج، وذلك أنَّ الله تعالى جعل بصره في فؤاده حتى رأى ربَّه تعالى، وجعل الله

---

(١) ٥/ ١٣١، وسلف تخريج الحديث هناك.

(٢) زاد المسير ٨/ ٦٧.

(٣) أخرجه عن الربيع: الطبري ٢٢/ ٢١، وأبو الشيخ في العظمة (٣٦٨)، وعن ابن زيد وقتادة: الطبري ٢٢/ ٢١، وعن الحسن: أخرجه أبو الشيخ في العظمة (٣٦٣)، وذكره الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٣٩٣.

(٤) الوسيط ٤/ ١٩٥.

(٥) تفسير البغوي ٤/ ٢٤٦ بنحوه.

(٦) لطائف الإشارات ٣/ ٤٨٢.

تلك رؤية. وقيل: كانت رؤية حقيقة بالبصر[١]. والأوَّل مرويٌّ عن ابن عباس[٢]، وفي «صحيح مسلم»[٣] أنَّه رآه بقلبه. وهو قول أبي ذرٍّ وجماعة من الصحابة[٤]. والثاني قول أنس وجماعة[٥]. وروي عن ابن عباس أيضاً أنَّه قال: أتعجبونَ أن تكون الخُلَّة لإبراهيم، والكلام لموسى، والرؤية لمحمَّد ﷺ[٦]. وروي عن ابن عباس أيضاً أنَّه قال: أمَّا نحن بني هاشم فنقول: إنَّ محمَّداً رأى ربَّه مرَّتين[٧]. وقد مضى القول في هذا في «الأنعام»[٨] عند قوله: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾ [الأنعام:١٠٣]. وروى محمَّد بن كعب قال: قلنا: يا رسول الله صلى الله عليك، رأيتَ ربَّك؟ قال: «رأيته بفؤادي مرَّتين» ثم قرأ: «مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى»[٩].

وقول ثالث: أنَّه رأى جلالَه وعظمته، قاله الحسن. وروى أبو العالية قال: سُئلَ رسول الله ﷺ هل رأيتَ ربَّك؟ قال: «رأيتُ نهراً، ورأيتُ وراء النهر حجاباً، ورأيت وراءَ الحجاب نوراً، لم أَرَ غيرَ ذلك»[١٠]. وفي «صحيح مسلم»[١١] عن أبي ذرٍّ قال: سألتُ رسولَ الله ﷺ هل رأيتَ ربَّك؟ قال: «نورٌ أَنَّى أراه» المعنى: غلبني من النور

---

(١) الوسيط ٤/ ١٩٥ .

(٢) أخرجه الترمذي (٣٢٨١)، والطبري ٢٢/ ٢٢ . قال الترمذي: هذا حديث حسن.

(٣) برقم (١٧٦)، وهو عند أحمد (١٩٥٦).

(٤) المحرر الوجيز ٥/ ١٩٨ ، وأخرجه عن أبي ذر: النسائي في الكبرى (١١٤٧٢).

(٥) الوسيط ٤/ ١٩٥ ونسبه إلى أنس وعكرمة والحسن.

(٦) أخرجه النسائي في الكبرى (١١٤٧٥)، وابن خزيمة في التوحيد ص١٩٧ ، وصحَّحه ابن حجر في فتح الباري ٨/ ٦٠٨ .

(٧) أخرجه الترمذي (٣٢٧٨) بنحوه، وسلف ٨/ ٤٨٤ .

(٨) ٨/ ٤٨٣ .

(٩) النكت والعيون ٥/ ٣٩٤ وما بعده منه، وأخرجه الطبري ٢٢/ ١٩ عن محمد بن كعب القرظي، عن بعض أصحاب النبي ﷺ بنحوه.

(١٠) النكت والعيون ٥/ ٣٩٤ ، وأخرجه عنهما ابن أبي حاتم ١٠/ ٣٣١٨-٣٣١٩ (١٨٦٩٧) و (١٨٦٩٨).

(١١) برقم (١٧٨).

وبهرني منه ما منعني من رؤيته. ودلَّ على هذا الرواية الأخرى: «رأيت نوراً»[١]. وقال ابن مسعود: رأى جبريلَ على صورته مرَّتين[٢].

وقرأ هشام عن ابن عامر وأهل الشام: «مَا كَذَّبَ» بالتشديد[٣]، أي: ما كذَّب قلبُ محمَّد ما رأى بعينه تلك الليلة بل صدَّقه. ف «ما» مفعوله بغير حرف مقدَّر؛ لأنه يتعدّى مشدَّداً بغير حرف. ويجوز أن تكون «ما» بمعنى «الذي» والعائد محذوف، ويجوز أن يكون مع الفعل مصدراً[٤]. الباقون مخففاً، أي: ما كذب فؤادُ محمَّد فيما رأى، فأسقط حرف الصفة. قال حسان ﷺ[٥]:

لـو كـنـتِ صـادقـة الـذي حـدَّثـتـنـي لـنـجـوتِ مَـنْـجَـا الـحـارثِ بـنِ هِـشـامِ

أي: في الذي حدَّثتني. ويجوز أن يكون مع الفعل مصدراً. ويجوز أن يكون بمعنى «الذي»، أي: ما كذب فؤادُ محمَّد ﷺ الذي رأى.

قوله تعالى: ﴿أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ﴾ قرأ حمزة والكسائي: «أَفَتَمْرُونَهُ» بفتح التاء من غير ألف[٦] على معنى: أفتجحدونه. واختاره أبو عبيد؛ لأنه قال: لم يُماروه، وإنَّما جحدوه. يقال: مراه حقَّه، أي: جحده[٧]، ومريته أنا، قال الشاعر:

لـئِـن هـجـرتَ أخـا صِـدقٍ ومَـكْـرُمَـةٍ لـقـد مَـرَيْـتَ أخـاً مـا كـان يَـمْـرِيـكَـا[٨]

(١) مسلم (١٧٨): (٢٩٢).

(٢) أخرجه أحمد (٣٨٦٤)، والطبراني في الكبير (١٠٥٤٧)، وأبو الشيخ في العظمة (٣٦٦). وفي إسناده: إسحاق بن أبي الكهتلة، ذكره البخاري في التاريخ الكبير ١/ ٤٠٠-٤٠١ ، وابن أبي حاتم في الجرح والتعديل ٢/ ٢٣٢ ولم يذكرا فيه جرحاً ولا تعديلاً، وذكره ابن حبان في الثقات ٤/ ٢٥ .

(٣) السبعة ص٦١٤ ، والتيسير ص٢٠٤ .

(٤) مشكل إعراب القرآن لمكي ٢/ ٦٩٢-٦٩٣ ، والبيان لابن الأنباري ٢/ ٣٩٧ .

(٥) ديوانه ص٤١٩ ، وورد فيه هكذا:

إن كـنـت كـاذبـة الـذي حـدَّثـتـنـي فـنـجـوت ....

(٦) السبعة ص٦١٤ ، والتيسير ص٢٠٤ .

(٧) الصحاح (مرا).

(٨) الكشاف ٤/ ٢٩ ولم ينسبه.

أي: جحدته. وقال المبرِّد: يقال: مراه عن حقِّه، وعلى حقه: إذا منعَه منه ودفعَه عنه. قال: ومثل «على» بمعنى «عن» قول بني كعب بن ربيعة: رضي الله عليك، أي: رضي عنك[1].

وقرأ الأعرج ومجاهد: «أَفَتُمْرُونَهُ» بضمِّ التاء من غير ألف[2]، من أمريت، أي: تريبونه وتشكِّكونه. الباقون: «أَفَتُمَارُونَهُ» بألف، أي: أتجادلونه وتدافعونه في أنَّه رأى الله، والمعنيان متداخلان؛ لأنَّ مجادلتهم جحود. وقيل: إنَّ الجحودَ كان دائماً منهم، وهذا جدال جديد، قالوا: صِفْ لنا بيتَ المقدس وأخبِرنا عن عِيرنا التي في طريق الشام[3]. على ما تقدّم[4].

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ «نَزْلَةً»: مصدر في موضع الحال، كأنَّه قال: ولقد رآه نازلاً نزلةً أخرى[5].

قال ابن عباس: رأى محمَّد ﷺ ربَّه مرَّة أُخرى بقلبه[6]. روى مسلم[7] عن أبي العالية عنه قال: «مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى»، «وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى» قال: رآه بفؤادِه مرَّتين. فقوله: «نَزْلَةً أُخْرَى» يعود إلى محمَّد ﷺ؛ فإنه كان له صعود ونزول مراراً بحسَب أعداد الصلوات المفروضة، فلكلِّ عَرْجة نَزْلة[8]. وعلى هذا قوله تعالى: «عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى» أي: ومحمَّد ﷺ عند سدرة المنتهى، وفي بعض تلك النزلات.

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٦٩.

(٢) البحر المحيط ٨/ ١٥٩، وأوردها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص١٤٦ وعزاها إلى ابن مسعود والشعبي، وابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ١٩٩ وعزاها إلى النخعي.

(٣) الوسيط ٤/ ١٩٧.

(٤) في سورة الإسراء، عند الآية الأولى.

(٥) مشكل إعراب القرآن لمكي ٢/ ٦٩٣.

(٦) زاد المسير ٨/ ٦٨، وأخرجه عنه الطبري ٢٢/ ٣٢، واللالكائي في اعتقاد أهل السنة (٩١٠).

(٧) في صحيحه برقم (١٧٦): (٢٨٥).

(٨) تفسير البغوي ٤/ ٢٤٧.

وقال ابن مسعود وأبو هريرة في تفسير قوله تعالى: «وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى» أنَّه جبريل. ثبت هذا أيضاً في «صحيح مسلم»[١]. وقال ابن مسعود: قال النبيُّ ﷺ: «رأيتُ جبريلَ بالأُفُق الأعلى له ستُّ مئة جناح، يتناثر من ريشه الدُّرُّ والياقوت» ذكره المهدويُّ[٢].

قوله تعالى: ﴿عِندَ سِدۡرَةِ ٱلۡمُنتَهَىٰ﴾ «عِنْدَ» من صلة «رَآهُ» على ما بيَّنَّا[٣]. والسِّدْر: شجر النَّبِق[٤]، وهي في السماء السادسة، وجاء في السماء السابعة. والحديث بهذا في «صحيح مسلم»؛ الأوّل: ما رواه مُرَّة عن عبد الله قال: لما أُسِريَ برسول الله ﷺ انتُهي به إلى سِدرة المنتهى، وهي في السماء السادسة، إليها ينتهي ما يُعرَج به من الأرض فيُقبَض منها، وإليها ينتهي ما يُهبَط به من فوقِها فيُقبَض منها، قال: «إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى» قال: فَرَاش من ذهب، قال: فأُعطيَ رسولُ الله ﷺ ثلاثاً: أُعطيَ الصلواتِ الخمسَ، وأُعطيَ خواتيمَ سورة البقرة، وغُفِر لمن لم يُشرِك بالله من أمَّته شيئاً المقحِمَاتُ[٥].

الحديث الثاني: رواه قتادة عن أنس أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «لما رُفِعْتُ إلى سِدرة المنتهى في السماء السابعة، نَبِقها مثلُ قِلال هَجَر، وورقها مثل آذانِ الفِيَلة، يخرج من ساقها نهران ظاهران ونهران باطنان، قلتُ: يا جبريل ما هذا؟ قال: أما الباطنان ففي الجنَّة، وأما الظاهران فالنيل والفرات» لفظ الدارقطني[٦].

والنَّبِق، بكسر الباء: ثمر السِّدْر، الواحد: نَبِقة[٧]. ويقال: نَبْق، بفتح النون

---

(١) أثر ابن مسعود أخرجه النسائي في الكبرى (١١٤٧٦)، والطبري ٢٢/ ٣٠، وأبو الشيخ في العظمة (٣٥٠)، وأما أثر أبي هريرة فهو عند مسلم (١٧٥).

(٢) وأخرجه أحمد (٣٩١٥)، والنسائي في الكبرى (١١٤٧٨).

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٧٠.

(٤) تفسير الطبري ٢٢/ ٣٣.

(٥) مسلم (١٧٣)، والمقحمات: الذنوب العظام التي تقحم أصحابها في النار. النهاية ٤/ ١٩.

(٦) في سننه (٣٣)، وهو عند البخاري (٣٨٨٧)، ومسلم (١٦٢)، وأحمد (١٢٥٠٥).

(٧) النهاية ٥/ ١٠.

وسكون الباء، ذكرهما يعقوب في «الإصلاح»[١]، وهي لغة المصريين، والأولى أفصح وهي التي ثبتت عن النبيِّ ﷺ.

وروى الترمذي عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول ـ وقد ذُكِر له سِدْرة المنتهى ـ قال: «يسير الراكب في ظلِّ الغصن منها مئةَ سنة، أو يستظلُّ بظلِّها مئةُ راكب ـ شكَّ يحيى ـ فيها فَرَاش الذهب، كأنَّ ثمرها القِلال» قال أبو عيسى: هذا حديث حسن[٢].

قلت: وكذا لفظ مسلم[٣] من حديث ثابت عن أنس: «ثم ذُهِب بي إلى سِدْرة المنتَهى، وإذا ورقها كآذانِ الفيَلة، وإذا ثمرها كالقِلال، فلما غشيها من أمر الله عزَّ وجلَّ ما غشِي، تغيَّرت، فما أحد من خَلْق الله يستطيع أن ينعتها من حُسْنها».

واختلف لم سُمِّيت سِدْرة المنتهى على أقوال تسعة:

الأوَّل: ما تقدَّم عن ابن مسعود أنَّه ينتهي إليها كلُّ ما يهبط من فوقها ويصعد من تحتها.

الثاني: أنَّه ينتهي عِلْم الأنبياء إليها ويَعزُب عِلْمهم عما وراءها، قاله ابن عباس.

الثالث: أنَّ الأعمال تنتهي إليها وتقبض منها، قاله الضحاك.

الرابع: لانتهاء الملائكة والأنبياء إليها ووقوفهم عندها، قاله كعب[٤].

الخامس: سمِّيت سِدْرة المنتهَى؛ لأنَّها ينتهي إليها أرواح الشهداء، قاله الربيع ابن أنس[٥].

---

(١) إصلاح المنطق ليعقوب بن إسحاق المعروف بابن السكيت ص١٩١ .

(٢) الترمذي (٢٥٤١)، وفيه: هذا حديث حسن غريب اهـ. وفيه أيضاً: الفنن، بدل: الغصن.

(٣) برقم (١٦٢).

(٤) الأقوال الأربعة ذكرها الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٣٩٦ ، وأثر ابن مسعود أخرجه مسلم (١٧٣)، وأحمد (٣٦٦٥)، وأثر الضحاك أخرجه ابن أبي شيبة ١٣/ ٤٢٦ ، والطبري ٢٢/ ٣٤ ، وأثر كعب أخرجه ابن أبي شيبة ١٣/ ١٥٠ ، والطبري ٢٢/ ٣٣ .

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٧٠ ، وفيه المؤمنين، بدل: الشهداء.

السادس: لأنَّه تنتهي إليها أرواح المؤمنين، قاله قتادة(١).

السابع: لأنه ينتهي إليها كلُّ من كان على سنة محمَّد ﷺ ومنهاجه، قاله عليٌّ ﷺ والربيع بن أنس أيضاً(٢).

الثامن: هي شجرة على رؤوس حملة العرش إليها ينتهي عِلْم الخلائق، قاله كعب أيضاً(٣).

قلت: يريد ـ والله أعلم ـ أنَّ ارتفاعَها وأعالي أغصانها قد جاوزت رؤوسَ حملة العرش، ودليله ما تقدَّم من أنَّ أصلها في السماء السادسة، وأعلاها في السماء السابعة، ثم عَلَت فوق ذلك حتى جاوزت رؤوس حملة العرش. والله أعلم.

التاسع: سُمِّيت بذلك؛ لأنَّ من رُفعَ إليها فقد انتهى في الكرامة. وعن أبي هريرة لما أُسريَ برسول الله ﷺ انتهى به إلى سِدرة المنتهى، فقيل له: هذه سِدرة المنتهى ينتهي إليها كلُّ أحد خَلَا من أمَّتك على سنّتك، فإذا هي شجرة يخرج من أصلها أنهار من ماءٍ غيرِ آسِنٍ، وأنهار من لبنٍ لم يتغيَّر طعمه، وأنهار من خمر لذَّة للشاربين، وأنهار من عسل مُصَفًّى، وإذا هي شجرة يسير الرّاكب المسرع في ظلِّها مئة عام لا يقطعها، والورقة منها تغطي الأمَّة كلَّها، ذكره الثعلبيُّ(٤).

قوله تعالى: ﴿عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ﴾ تعريف بموضع جنَّة المأوى، وأنَّها عند سِدرة المنتهى(٥). وقرأ عليٌّ وأبو هريرة وأنس وأبو سَبرة الجهنيُّ وعبد الله بن الزبير ومجاهد: «عِنْدَهَا جَنَّهُ الْمَأْوَى»(٦). يعني: جَنَّهُ المبيتُ. قال مجاهد: يريد أجنَّه(٧).

(١) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٧١ .

(٢) النكت والعيون ٥/ ٣٩٥ دون عزوه إلى علي ﷺ.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٧٠ ، وأخرجه الطبري ٢٢/ ٣٣ .

(٤) وأخرجه الطبري ٢٢/ ٣٧-٣٨ .

(٥) النكت والعيون ٥/ ٣٩٦ .

(٦) المحتسب ٢/ ٢٩٣ ، والقراءات الشاذة ص١٤٦ ، ولم يذكرا أبا سبرة الجهني ومجاهداً، وزادا زرَّ بن حبيش ومحمد بن كعب، وزاد ابنُ جني ـ أيضاً ـ قتادةَ، ووقع في مطبوع القراءات الشاذة: «عنده»، بدل: «عندها».

(٧) في (ظ) و (د): الجنة.

والهاء للنبيِّ ﷺ[١]. وقال الأخفش: أدركه، كما تقول: جنَّه الليلُ، أي: ستَره وأدركه. وقراءة العامة: «جَنَّةُ الْمَأْوَى»، قال الحسن: هي التي يصير إليها المتَّقون[٢]. وقيل: إنَّها الجنَّة التي تصير إليها أرواح الشهداء، قاله ابن عباس. وهي عن يمين العرش[٣]. وقيل: هي الجنَّة التي آوى إليها آدم عليه الصلاة والسلام إلى أن أُخرج منها، وهي في السماء السابعة[٤]. وقيل: إنَّ أرواحَ[٥] المؤمنين كلَّهم في جنَّة المأوى. وإنَّما قيل لها: جنة المأوى؛ لأنَّها تأوي إليها أرواح المؤمنين، وهي تحت العرش فيتنعَّمون بنعيمها، ويتنسَّمون بطيب رِيْحها. وقيل: لأنَّ جبريل وميكائيل عليهما السلام يأويان إليها[٦]. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ﴾ قال ابن عباس والضحَّاك وابن مسعود وأصحابه: فَرَاش من ذهب[٧]. ورواه مرفوعاً ابن مسعود وابنُ عباس إلى النبيِّ ﷺ[٨]. وقد تقدَّم في «صحيح مسلم»[٩] عن ابن مسعود قوله.

وقال الحسن: غشيها نورُ ربِّ العالمين، فاستنارت[١٠]. قال القشيريُّ: وسُئل رسولُ الله ﷺ ما غشيها؟ قال: «فَرَاش من ذهب»[١١]. وفي خبر آخر: «غشيها نورٌ

---

(١) المحرر الوجيز ٥/١٩٩.

(٢) زاد المسير ٨/٦٩، وذكره الرازي ٢٨/٢٩٢ دون عزو.

(٣) النكت والعيون ٥/٣٩٦، وأخرجه عنه الطبري ٢٢/٤٠.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٤/٢٧١، وأشار محققه إلى أن لفظة: السابعة. جاءت في إحدى النسخ: الرابعة. وكذا وردت في النسخة (ظ) عندنا.

(٥) في (م): أزواح.

(٦) الوسيط ٤/١٩٨ بنحوه.

(٧) أثر ابن مسعود ذكره البغوي في التفسير ٤/٢٤٨، وهو جزء من الحديث المتقدم قريباً، وسلف تخريجه هناك.

(٨) حديث ابن عباس أخرجه أبو يعلى (٢٦٥٦)، والطبري ٢٢/٤١.

(٩) برقم (١٧٣)، وسلف قريباً.

(١٠) تفسير البغوي ٤/٢٤٨.

(١١) أخرجه الطبري ٢٢/٤٢ عن يعقوب بن زيد.

من الله حتى ما يستطيع أحدٌ أن ينظر إليها»[١]. وقال الربيع بن أنس: غشيها نورُ الربِّ، والملائكة تقع عليها كما يقع الغِربان على الشجرة[٢]. وعن النبي ﷺ قال: «رأيت السِّدرةَ يغشاها فَرَاش من ذهب، ورأيت على كلِّ وَرَقةٍ مَلَكاً قائماً يسبِّح الله تعالى» وذلك قوله: «إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى» ذكره المهدويُّ والثعلبيُّ[٣]. وقال أنس ابن مالك: «إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى» قال: جراد من ذهب. وقد رواه مرفوعاً[٤]. وقال مجاهد: إنَّه رَفْرَف أخضرُ. وعنه عليه الصلاة والسلام: «يغشاها رَفْرَف من طير خضر»[٥]. وعن ابن عباس: يغشاها ربُّ العزة[٦]، أي: أَمْرُه، كما في «صحيح مسلم»[٧] مرفوعاً: «فلما غشيها من أمر الله ما غشي». وقيل: هو تعظيم الأمر، كأنَّه قال: إذ يغشى السِّدْرة ما أعلم الله به من دلائل ملكوته. وهكذا قوله تعالى: «فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى»، «وَالمؤتفكةَ أهوى . فغشاها ما غشى» [النجم:٥٣] ومثله: ﴿ٱلْحَاقَّةُ . مَا ٱلْحَاقَّةُ﴾ [الحاقة:١-٢].

وقال الماورديُّ في «معاني القرآن» له[٨]: فإن قيل: لم اختيرت السِّدْرة لهذا الأمر دون غيرها من الشجر؟ قيل: لأنَّ السِّدْرَةَ تختصُّ بثلاثة أوصاف: ظلّ مديد،

---

(١) أخرجه مسلم (١٦٢) عن أنس بن مالك ﷺ بنحوه.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٧١ ، وأخرجه عنه الطبري ٢٢/ ٤٣ .

(٣) وأخرجه الطبري ٢٢/ ٤٢ عن عبد الرحمن بن زيد. قال ابن حجر في الكافي الشاف ص١٦٠-١٦١ : وعبد الرحمن ضعيف، وهذا معضل.

(٤) أخرجه ابن مردويه كما في الدر المنثور ٦/ ١٢٦ .

(٥) الكشاف ٤/ ٢٩ ، ولطائف الإشارات ٣/ ٤٨٣ ، قال ابن حجر في الكافي الشاف ص١٦١ : لم أجده.

(٦) أخرجه الطبري ٢٢/ ٤٢ .

(٧) برقم (١٦٢) عن أنس بن مالك ﷺ، وتقدم.

(٨) النكت والعيون ٥/ ٣٩٦ ، والعبارة من قوله: قال الماوردي... إلى قوله: صوب الله رأسه في النار. جاءت في النسخ الخطية قبل تفسير قوله تعالى: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾، والمثبت من (م) وهو الصواب.

وطعم لذيذ، ورائحة ذكيَّة، فشابهت الإيمانَ الذي يَجمع قولاً وعملاً ونيّةً، فظلُّها من الإيمان بمنزلة العمل؛ لتجاوزه، وطعمها بمنزلة النيَّة؛ لكمونه، ورائحتها بمنزلة القول؛ لظهوره.

وروى أبو داود في «سننه»[١] قال: حدَّثنا نصر بن علي قال: حدَّثنا أبو أسامة، عن ابن جريج، عن عثمان بنِ أبي سليمان، عن سعيد بن محمد بن جُبَير بن مُطْعِم، عن عبد الله بن حُبْشي، قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن قَطَعَ سِدْرةً صَوَّب اللهُ رأسَه في النار» وسئل أبو داود عن معنى هذا الحديث فقال: هذا الحديث مختصر، يعني: من قطع سِدْرة في فلاة ـ يستظلُّ بها ابنُ السبيل والبهائم ـ عَبَثاً وظلماً بغير حقٍّ يكون له فيها، صَوَّب اللهُ رأسَه في النار.

قوله تعالى: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾ قال ابن عباس: أي: ما عَدل يميناً ولا شمالاً، ولا تجاوز الحدَّ الذي رأى[٢]. وقيل: ما جاوز ما أُمر به. وقيل: لم يمدَّ بصرَه إلى غير ما رأى من الآيات. وهذا وصف أدب للنبيِّ ﷺ في ذلك المقام، إذ لم يلتفت يميناً ولا شمالاً[٣].

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ قال ابن عباس: رأى رَفْرَفاً سدَّ الأفق[٤]. وذكر البيهقي عن عبد الله قال: «رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى»[٥]: رأى رَفْرَفاً

(١) برقم (٥٢٣٩)، وأخرجه أيضاً النسائي في الكبرى (٨٥٥٧)، من طريق مخلد بن يزيد، عن ابن جريج، به. قال المنذري في مختصر السنن ٨/ ٩٩ : وحبشي: بضم الحاء المهملة، وسكون الباء الموحدة، وكسر الشين المعجمة، وياء النسب. اهـ وأخرجه أيضاً أبو داود (٥٢٤٠) عن عروة بن الزبير مرسلاً.

(٢) أخرجه الطبري ٢٢/ ٤٤، والحاكم ٢/ ٤٦٩ وقال: هذا حديث صحيح على شرط البخاري ولم يخرجاه. وقال الذهبي في التلخيص: على شرط البخاري ومسلم.

(٣) تفسير البغوي ٤/ ٢٤٩ .

(٤) المحرر الوجيز ٥/ ٢٠٠ .

(٥) بعدها في (م) و (د): قال ابن عباس. ولم ترد هذه العبارة في (ظ) وهو الصواب، وهي كذا في دلائل النبوة للبيهقي ٢/ ٣٧٢ والنقل منه، والحديث عند البخاري (٤٨٥٨).

أخضرَ سدَّ أفق السماء. وعنه قال: رأى رسولُ الله ﷺ جبريلَ عليه السلام في حُلَّة رفرف أخضر، قد ملأ ما بين السماء والأرض. قال البيهقيُّ[١]: قوله في الحديث: «رأى رَفْرَفاً» يريد جبريلَ عليه السلام في صورته على رفرف. والرفرف: البساط. ويقال: فِراش[٢]. ويقال: بل هو ثوب كان لباساً له، فقد روي أنَّه رآه في حُلَّةٍ رفرفٍ.

قلت: خرَّجه الترمذيُّ[٣] عن عبد الله قال: «مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى» قال: رأى رسول الله ﷺ جبريلَ عليه السلام في حُلَّة من رفرف، قد مَلأَ ما بين السماء والأرض قال: هذا حديث حسن صحيح.

قلت: وقد روي عن ابن عباس في قوله تعالى: «دَنَا فَتَدَلَّى» أنَّه على التقديم والتأخير، أي: تدلَّى الرفرفُ لمحمَّد ﷺ ليلةَ المعراج فجلس عليه، ثم رُفع فدنا من ربِّه. قال: «فارقني جبريلُ، وانقطعت عنِّي الأصواتُ، وسمعتُ كلامَ ربِّي» فعلى هذا الرَّفْرَفُ: ما يُقْعَد ويُجلَس عليه كالبساط وغيره. وهو بالمعنى الأوَّل: جبريل. قال عبد الرحمن بن زيد ومقاتل بنُ حيَّان: رأى جبريلَ عليه السلام في صورته التي يكون فيها في السماوات[٤]. وكذا في «صحيح مسلم» عن عبد الله قال: «لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى» قال: رأى جبريلَ في صورته له ستُّ مئة جناح[٥]. ولا يبعد مع هذا أن يكون في حُلَّةِ رفرفٍ، وعلى رفرفٍ، والله أعلم.

وقال الضحَّاك: رأى سِدْرةَ المنتهى. وعن ابن مسعود: رأى ما غشيَ السِّدرة من فَرَاش الذهب، حكاه الماورديُّ[٦]. وقيل: رأى المعراج. وقيل: هو ما رأى تلك

---

(١) في دلائل النبوة ٢/ ٣٧٢ .

(٢) النهاية ٢/ ٢٤٢-٢٤٣ .

(٣) برقم (٣٢٨٣)، وأخرجه أيضاً النسائي في الكبرى (١١٤٦٧)، وأحمد (٣٧٤٠).

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٧١ ونسبه لابن زيد، وأخرجه عنه الطبري ٢٢/ ٤٦ .

(٥) سلف ص٢٥ من هذا الجزء.

(٦) في النكت والعيون ٥/ ٣٩٧ ، وسلف تخريجه عنه ١٧/ ٩٦ .

الليلة في مَسْراه في عوده وبدئه[١]. وهو أحسن، دليله: ﴿لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ﴾ [الإسراء: ١]، و«مِن» يجوز أن تكون للتبعيض، وتكون «الْكُبْرَى» مفعولة لـ «رأى» وهي في الأصل صفة الآيات، ووحّدت لرؤوس الآيات. وأيضاً يجوز نعت الجماعة بنعت الأنثى[٢]، كقوله تعالى: ﴿وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ﴾ [طه: ١٨] وقيل: «الْكُبْرَى» نعت لمحذوف، أي: رأى من آيات ربّه الكبرى[٣]. ويجوز أن تكون «مِن» زائدة، أي: رأى آيات ربّه الكبرى. وقيل: فيه تقديم وتأخير، أي: رأى الكبرى من آيات ربّه.

قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ۝١٩ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ۝٢٠ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ۝٢١ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ۝٢٢﴾

قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ . وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ لما ذكر الوحي إلى النبيّ ﷺ، وذكر من آثار قُدرته ما ذكر، حاجَّ المشركين إذ عبدوا ما لا يعقِل وقال: أفرأيتم هذه الآلهة التي تعبدونها أَوْحَيْنَ إليكم شيئاً كما أُوحِيَ إلى محمَّد[٤]، وكانت اللّاتُ لثَقِيف، والعُزَّى لقريش وبني كنانة، ومنَاةُ لبني هلال. وقال هشام[٥]: فكانت مناة لِهُذَيْل وَخُزَاعة، فبعث رسول الله ﷺ عليّاً ﷺ فهدمها عام الفتح. ثم اتخذوا اللّاتَ بالطائف، وهي أحدث من مَنَاة، وكانت صخرةً مُربَّعة، وكان سَدَنتها من ثَقِيف، وكانوا قد بَنَوْا عليها بناءً، فكانت قريش وجميع العرب تُعظِّمها. وبها كانت العرب تسمِّي: زيدَ اللّات، وتيمَ اللّات. وكانت في موضع منارة[٦] مسجد الطائف

(١) في (د): وتدنيه.

(٢) المحرر الوجيز ٥/ ٢٠٠ بنحوه.

(٣) تفسير الرازي ٢٨/ ٢٩٥ .

(٤) المحرر الوجيز ٥/ ٢٠٠ بنحوه.

(٥) في النسخ الخطية: ابن هشام. والمثبت من (م) وهو الصواب، وهو أبو المنذر هشام بن محمد بن السائب الكلبي، وكلامه في كتابه «الأصنام» ص١٤-١٥ .

(٦) ليست في النسخ الخطية، وهي زيادة من (م) والأصنام ص١٦ .

اليسرى، فلم تَزَلْ كذلك إلى أن أسلمت ثَقِيفٌ، فبعث رسولُ الله ﷺ المغيرةَ بنَ شعبة فهدمها، وحرقها بالنار. ثم اتخذوا العُزَّى وهي أحدث من اللَّات، اتخذها ظالم بن أسعد[(١)]، وكانت بوادي نَخْلة الشاميَّة فوق ذات عِرْق، فبنوا عليها بيتاً[(٢)]، وكانوا يسمعون منها الصوت.

قال هشام[(٣)]: وحدَّثني أبي، عن أبي صالح، عن ابنِ عباس قال: كانت العُزَّى شيطانةً تأتي ثلاثَ سَمُرات ببطن نَخْلة، فلما افتتح رسولُ الله ﷺ مكَّةَ، بعث خالدَ بنَ الوليد ﷺ فقال: «إيتِ بَطْنَ نخلة فإنَّك تجد ثلاثَ سَمُرات، فاعْضِد الأولى» فأتاها فَعضَدها، فلما جاء إليه قال: «هل رأيتَ شيئاً» قال: لا. قال: «فاعضِد الثانية» فأتاها فَعضَدها، ثم أتى النبيَّ ﷺ فقال: «هل رأيت شيئاً»؟ قال: لا. قال: «فاعضد الثالثة» فأتاها فإذا هو بحبشيَّة نافشةٍ شعرها، واضعةٍ يَدَيْها[(٤)] على عاتقها تصرفُ[(٥)] بأنيابها، وخلفها دُبَيَّةالسُّلَمِيُّ وكان سادِنَها فقال:

يــا عُــزُّ كُــفْــرَانَــك لا سُــبْــحَــانَــك ... إنِّــي رَأَيْــتُ الــلــهَ قَــد أهــانَــكِ[(٦)]

ثم ضربها ففلق رأسها، فإذا هي حُمَمَة[(٧)]، ثم عَضَد الشجرة، وقتل دُبَيَّة السادن، ثم أتى النبيَّ ﷺ فأخبره فقال: «تلك العُزَّى»[(٨)].

---

(١) في النسخ الخطية، سعد، والمثبت من (م) وكتاب الأصنام ص١٨.

(٢) في الأصنام: بسأ.

(٣) في النسخ: ابن هشام. والمثبت من الأصنام ص٢٥-٢٨، وهو الصواب، والكلام منه.

(٤) في النسخ الخطية: يدها. والمثبت من (م) وهو الموافق لما جاء في الأصنام.

(٥) في النسخ الخطية: تضرب. والمثبت من (م) وهو الموافق لما جاء في الأصنام، وصَرَف النابُ: صوَّت، معجم متن اللغة (صرف).

(٦) القائل: خالد بن الوليد كما في الأصنام ص٢٦، والكلام منه، والبيت أخرجه عنه الطبراني في الكبير(٣٨١١) عن أبي عبد الرحمن السلمي مرسلاً. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٦/ ١٧٦: رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح إلا أنه مرسل.

(٧) في النسخ الخطية: جمجمة. والمثبت من (م) والأصنام، والحممة، الفحم البارد. لسان (حمم).

(٨) وأخرجه الفراء في معاني القرآن له ٣/ ٩٨ من طريق الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس =

وقال ابن جُبير: العُزَّى: حجر أبيض كانوا يعبدونه[١]. قتادة: بيت[٢] كان ببطن نَخْلة.

ومَنَاة: صنم لخزاعة[٣]. وقيل: إنَّ «اللَّات» فيما ذكر بعض المفسرين أخذَه المشركون من لفظ «الله»، و«العُزَّى» من العزيز، و«مَنَاة» مِن مَنَى اللهُ الشيءَ: إذا قدَّره[٤].

وقرأ ابن عباس وابن الزبير ومجاهد وحُميد وأبو صالح: «اللَّاتّ» بتشديد التاء[٥]، وقالوا: كان رجلاً يَلُتُّ السَّوِيق للحاجِّ ـ ذكره البخاري[٦] عن ابن عباس ـ فلما مات عكفوا على قبره فعبدوه. ابن عباس: كان يبيع السَّوِيق والسَّمْن عند صخرة ويصبه عليها، فلما مات ذلك الرجل، عَبَدَتْ ثَقِيفُ تلك الصخرة؛ إعظاماً لصاحب السَّوِيق[٧].

أبو صالح: إنَّما كان رجلاً بالطائف فكان يقوم على آلهتهم، ويَلُتُّ لهم السَّوِيق، فلما مات عبدوه[٨].

= مختصراً، وأخرجه أيضاً النسائي في الكبرى (١١٤٨٣)، وأبو يعلى (٩٠٢) عن أبي الطفيل بنحوه. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٦/ ١٧٦: رواه الطبراني، وفيه يحيى بن المنذر، وهو ضعيف. اهـ. والواقدي في المغازي ٣/ ٨٧٣-٨٧٤، ومن طريقه الأزرقي في أخبار مكة ١/ ١٢٧-١٢٨ عن سعيد بن عمرو الهذلي بنحوه.

(١) أخرجه الطبري ٢٢/ ٤٩.

(٢) في (م): نبت. وأخرجه عنه الطبري ٢٢/ ٥٠.

(٣) تفسير البغوي ٤/ ٢٥٠، ونسبه للضحاك.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٧٢.

(٥) القراءات الشاذة ص١٤٧، والمحتسب ٢/ ٢٩٤.

(٦) في صحيحه (٤٨٥٩)، ولتَّ السويقَ، أي: بَلَّه بالماء ونحوه. والسويق: ما يتخذ من الحنطة والشعير. لسان العرب (لتت) و (سوق).

(٧) أخرجه الفراء في معاني القرآن له ٣/ ٩٨، والطبري ٢٢/ ٤٨ بنحوه، وينظر التعليق السابق.

(٨) أخرجه عنه الطبري ٢٢/ ٤٨.

مجاهد: كان رجل في رأس جبل له غُنَيْمة يَسْلي منها السَّمْن، ويأخذ منها الأَقِط، ويجمع رِسْلَها، ثم يتَّخذ منها حَيْساً فيطعم الحاجَّ، وكان ببطن نَخْلة، فلما مات عبدوه وهو اللَّات[١]. وقال الكلبيُّ: كان رجلاً من ثَقِيف يقال له: صِرمة بن غنم[٢].

وقيل: إنَّه عامر بن ظَرِب العَدْوانيّ. قال الشاعر:

لا تَنْصُروا الّلات إنَّ الله مُهْلِكُهَا وكيف يَنْصُرُكُمْ مَنْ ليس يَنْتَصِرُ[٣]

والقراءة الصحيحة «اللَّاتَ» بالتخفيف، اسم صنم، والوقوف عليها بالتاء، وهو اختيار الفرَّاء. قال الفرَّاء[٤]: وقد رأيت الكسائيَّ سأل أبا فَقْعَس الأَسَديَّ فقال: ذاه لذات، وقال: «أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاهَ». وكذا قرأ الدُّورِيُّ عن الكسائيِّ، والبَزِّيُّ عن ابن كثير «اللَّاه» بالهاء في الوقف[٥]، ومن قال: إنَّ «اللَّات» من الله، وقَف بالهاء أيضاً.

وقيل: أصلها لاه، مثل شاه، وهي من لَاهَت، أي: اختفت، قال الشاعر:

لَاهَتْ فما عُرِفت يوماً بخارجةٍ يا ليتها خَرجتْ حتَّى رأيناها

وفي «الصحاح»[٦]: اللات: اسم صنم كان لِثَقيف وكان بالطائف. وبعض العرب يقف عليه بالتاء، وبعضهم بالهاء، قال الأخفش: سمعنا من العرب من يقول: اللَّات

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ٢٤٩ ، وذكره الفاكهي في أخبار مكة ٥/ ١٦٤ ، وسَلأَ السَّمْنَ: طبخه وعالجه فأذاب زبده. والأقط: شيء يتخذ من اللبن المخيض، يطبخ ثم يترك حتى يمصل. والرِّسل: اللبن ما كان. والحَيْس: الطعام المتخذ من التمر والأقط والسمن. لسان العرب (سلأ) و (أقط) و (رسل) و (حيس).

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٢٤٩ .

(٣) النكت والعيون ٥/ ٣٩٨ ، وذكر البيت هشام الكلبي في الأصنام ص١٧ ، ونسبه لشداد بن عارض الجشمي.

(٤) في معاني القرآن له ٣/ ٩٧ .

(٥) الحجة في القراءات السبع لابن خالويه ص٣٣٦ ، والنشر في القراءات العشر ٢/ ١٣٢ عن الكسائي وحده.

(٦) مادة: (ليه).

والعُزَّى، ويقول: هي اللَّات، فيجعلها تاء في السّكوت، وهي اللَّاتِ فاعلم أنَّه جرّ في موضع الرفع، فهذا مثل: أمسِ، مكسورٌ على كلِّ حال، وهو أجودُ منه؛ لأنَّ الألف واللام اللَّتين في اللّات لا تسقطان وإن كانتا زائدتين. وأمَّا ما سمعنا من الأكثر في اللَّاتِ والعُزَّى في السّكوت عليها فاللّاه؛ لأنَّها هاءٌ فصارت تاءً في الوصل، وهي في تلك اللغة مثل: كان من الأمر كَيْتِ وكَيْتِ، وكذلك هيهاتِ في لغة من كسر[1]؛ إلا أنَّه يجوز في هيهاتِ أن تكون جماعة، ولا يجوز ذلك في اللَّاتِ؛ لأنَّ التاء لا تزاد في الجماعة إلا مع الألف، وإن جعلت الألف والتاء[2] زائدتين بقي الاسم على حرف واحد.

قوله تعالى: ﴿وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ قرأ ابن كثير وابن مُحيْصن وحُميد ومجاهد والسُّلَميُّ والأعشى عن أبي بكر: «وَمَنَاءَةَ» بالمدِّ والهمز. والباقون: بترك الهمز[3]، لغتان. وقيل: سُمِّيَ بذلك؛ لأنَّهم كانوا يريقون عنده الدماء؛ يتقرَّبون بذلك إليه. وبذلك سُمِّيت منًى؛ لكثرة ما يُراق فيها من الدماء[4]. وكان الكسائيُّ وابن كثير وابن مُحَيْصن يقفون بالهاء على الأصل[5]. الباقون: بالتاء؛ اتِّباعاً لخطِّ المصحف[6].

وفي «الصحاح»[7]: ومناة: اسم صنم كان [لهذيل وخزاعة] بين مكَّة والمدينة، والهاء للتأنيث، ويسكت عليها بالتاء، وهي لغة، والنسبة إليها: مَنَوِيٌّ. وعبدُ مَناةَ بنُ

---

(١) في (م): كسرها.

(٢) في (د) و(ظ): واللام.

(٣) قراءة ابن كثير في السبعة ص٦١٥، والتيسير ص٢٠٤.

(٤) تهذيب اللغة ١٥/ ٥٣١، والكشاف ٤/ ٣٠.

(٥) قال ابن الجزري في النشر في القراءات العشر ٢/ ١٣٣: وشذَّ جماعة من العراقيين فرووا عن الكسائي وحده الوقف على مناة بالهاء، وعن الباقين بالتاء، ذكر ذلك ابن سوار وأبو العز وسبط الخياط، وهو غلط... وأكَّد ذلك في ٢/ ٣٧٩ بقوله: وما وقع في كتب بعضهم من أن الكسائي وحده يقف بالهاء والباقون بالتاء، فوهم لعله انقلب عليهم من اللات كما قدمناه في بابه.

(٦) معاني القرآن للزجاج ٥/ ٧٣.

(٧) مادة: (منا)، وما بين حاصرتين منه.

أُدٌّ بن طابِخة، وزيدُ مناةَ بن تميم بن مُرٍّ، يُمَدُّ ويقصر، قال هَوْبَر الحارثيُّ:

أَلَا هـلْ أتـى الـتَّـيْـمَ بـنَ عـبـدِ مَـنَـاءةٍ عـلى الـشَّـنْءِ فيما بيننا ابْنُ تَـمِيمِ(١)

قوله تعالى: ﴿ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ العرب [لا](٢) تقول للثالثة: أخرى، وإنَّما الأخرى نعت للثانية، واختلفوا في وجهها فقال الخليل: إنَّما قال ذلك؛ لوفاق رؤوس الآي، كقوله: ﴿مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ﴾ [طه:١٨] ولم يقل: أُخَر. وقال الحسين بن الفضل: في الآية تقديم وتأخير، مجازها: أفرأيتم اللّات والعُزَّى الأخرى ومَنَاة الثالثة(٣).

وقيل: إنَّما قال: «ومَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى» لأنَّها كانت مرتَّبة عند المشركين في التعظيم بعد اللّات والعُزَّى(٤)، فالكلام على نسقه. وقد ذكرنا عن هشام(٥): أن مَنَاةَ كانت أولاً في التقديم، فلذلك كانت مقدَّمة عندهم في التعظيم، والله أعلم. وفي الآية حذف دلَّ عليه الكلام، أي: أفرأيتم هذه الآلهة هل نفعت أو ضرَّت حتى تكون شركاءَ لله.

ثم قال على جهة التقريع والتوبيخ: ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ﴾ ردًّا عليهم قولهم: الملائكة بناتُ الله، والأصنام بناتُ الله(٦).

قوله تعالى: ﴿تِلْكَ إِذًا﴾ يعني: هذه القسمة ﴿قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ﴾ أي: جائرة عن العدل، خارجة عن الصواب، مائلة عن الحقِّ.

يقال: ضَازَ في الحكم، أي: جَارَ، وضَازَه حقَّه يَضِيزه ضَيْزاً ـ عن الأخفش ـ

(١) ذكره أيضاً أبو العلاء المعري في الفصول والغايات في تمجيد الله والمواعظ ص٦٣، والشَّنْءُ: البغض. لسان العرب (شنأ).

(٢) ليست في النسخ الخطية، والمثبت من (م)، وهو الصواب.

(٣) زاد المسير ٨/ ٧٢ - ٧٣.

(٤) النكت والعيون ٥/ ٣٩٨.

(٥) في النسخ: ابن هشام، والصواب ما أثبتناه، وكما أسلفنا، وهو هشام بن محمد بن السائب، واشتهر بابن الكلبي، وكلامه في الأصنام ص١٣.

(٦) المحرر الوجيز ٥/ ٢٠١.

أي: نقصه وبخَسَه. قال: وقد يهمز فيقال: ضأزه يَضْأَزُه ضَأْزاً وأنشد:

فَإنْ تَنْأَ عنَّا نَنْتَقِصْكَ وإنْ تُقِمْ فقِسْمُكَ مَضْؤوزٌ وأنفُكَ رَاغِمُ[١]

وقال الكسائيُّ: يقال: ضازَ يَضِيز ضَيْزاً، وضازَ يَضُوز ضَوْزاً، وضَأَز يَضْأز ضأزاً: إذا ظلم وتعدَّى وبخَس وانتقص[٢]. قال الشاعر:

ضَازَتْ بنو أسدٍ بِحُكمِهِمُ إذ يجعلون الرأسَ كالذَّنَبِ[٣]

قوله تعالى: «قِسْمَةٌ ضِيزَى» أي: جائرة، وهي فُعْلى، مِثل: طُوبَى وحُبْلى، وإنَّما كسروا الضاد؛ لتسلم الياء؛ لأنه ليس في الكلام «فِعْلى» صفةٌ، وإنَّما هو من بناء الأسماء كالشِّعْرى والدِّفْلى. قال الفرَّاء: وبعض العرب تقول: ضُؤْزى وضِئْزى بالهمز. وحكى أبو حاتم عن أبي زيد: أنَّه سمع العرب تهمز «ضِيزى»[٤].

قال غيره: وبها قرأ ابن كثير، جعله مصدراً، مثل ذِكرى[٥]، وليس بصفة، إذ ليس في الصفات «فِعْلى»، ولا يكون أصلها «فُعْلى»، إذ ليس فيها ما يوجب القلب، وهي من قولهم: ضأزته، أي: ظلمته. فالمعنى: قسمة ذات ظلم. وقد قيل: هما لغتان بمعنًى. وحكى فيها أيضاً سواهما: ضَيْزَى وضَأْزى، وضُوزَى وضُؤْزى[٦]. وقال المؤرِّج: كرهوا ضمَّ الضاد في ضِيزى، وخافوا انقلاب الياء واواً، وهي من بنات الواو، فكسروا الضاد لهذه العلَّة، كما قالوا في جمع أبيض: بِيضٌ، والأصل بُوضٌ،

---

(١) الصحاح (ضيز)، وذكر البيت أيضاً الأزهري في تهذيب اللغة ١٢/ ٥٢، والماوردي في النكت والعيون ٥/ ٣٩٩، وجاء في الصحاح: فحقك، وفي التهذيب: فحظك، بدل: فقسمك، وفي النسخ الخطية: تغب، بدل: تقم.

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٢٥٠.

(٣) القائل امرؤ القيس كما ذكر ذلك السيوطي في الدر المنثور ٦/ ١٢٧ وعزاه إلى الطستي في مسائله عن ابن عباس رضي الله عنهما، وورد في الدر: يعدلون، بدل: يجعلون.

(٤) الصحاح (ضيز)، وكلام الفراء في معاني القرآن له ٣/ ٩٨.

(٥) المحرر الوجيز ٥/ ٢٠١، والقراءة في السبعة ص٦١٥، والتيسير ص٢٠٤.

(٦) معاني القرآن للزجاج ٥/ ٧٣.

مثل: حُمْر وصُفْر وخُضْر. فأمَّا من قال: ضاز يَضُوز، فالاسم منه: ضُوزَى مثل شُورَى[١].

قوله تعالى: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾ أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾ فَلِلَّهِ ٱلْءَاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴿٢٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ﴾ أي: ما هي ـ يعني هذه الأوثان ـ «إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا» يعني: نَحتُّموها وسمَّيتموها آلهةً. ﴿أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم﴾ أي: قلَّدتموهم في ذلك. ﴿مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾ أي: ما أنزل الله بها من حجَّة ولا برهان. ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ عاد من الخطاب إلى الخبر[٢]، أي: ما يتَّبع هؤلاء إلَّا الظَّنَّ. ﴿وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ﴾ أي: تميل إليه.

وقراءة العامة: «يَتَّبِعُونَ» بالياء. وقرأ عيسى بن عمر وأيوب وابن السَّمَيْفَع «تَتَّبِعُونَ» بالتاء على الخطاب. وهي قراءة ابن مسعود وابن عباس[٣]. ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ أي: البيان من جهة الرسول أنَّها ليست بآلهة[٤]. ﴿أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ﴾ أي: اشتهى، أي: ليس ذلك له[٥]. وقيل: «لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى» [من البنين، أي: يكون له دون البنات[٦]. وقيل: «أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى» من غير جزاء! ليس الأمر كذلك. وقيل: «أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى» من النبوّة أن تكون فيه دون غيره[٧]. وقيل: «أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ٢٥٠ ولم ينسبه للمؤرِّج.

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٢٥١ .

(٣) الكشاف ٤/ ٣١ ، وتفسير الرازي ٢٨/ ٣٠٠ دون عزو، والبحر المحيط ٨/ ١٦٢-١٦٣ .

(٤) تفسير البغوي ٤/ ٢٥١ .

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٧٣ .

(٦) النكت والعيون ٥/ ٣٩٩ .

(٧) النكت والعيون ٥/ ٣٩٩ ، وما بين حاصرتين ليست في (د).

تَمَنَّى»] من شفاعة الأصنام[١]، نزلت في النضر بن الحارث. وقيل: في الوليد بن المغيرة[٢]. وقيل: في سائر الكفار.

﴿فَلِلَّهِ ٱلْآخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ﴾ يعطي من يشاء، ويمنع من يشاء، لا ما تمنَّى أحد[٣]. قوله تعالى: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِي شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ﴾ هذا توبيخ من الله تعالى لمن عَبَدَ الملائكة والأصنام، وزعم أنَّ ذلك يقرِّبه إلى الله تعالى، فأعلم أنَّ الملائكة مع كثرة عبادتها وكرامتهم على الله لا تشفع إلا لمن أذنَ أن يشفع له[٤]. قال الأخفش: الملَك واحد، ومعناه جمع، وهو كقوله تعالى: ﴿فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ﴾ [الحاقة:٤٧]. وقيل: إنَّما ذكر ملكاً واحداً؛ لأنَّ «كَمْ» تدلُّ على الجمع[٥].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢٧﴾ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴿٢٨﴾ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿٣٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ﴾ هم الكفار الذين قالوا: الملائكة بنات الله، والأصنام بنات الله. ﴿لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ﴾ أي: كتسمية الأنثى، أي: يعتقدون أنَّ الملائكة إناث، وأنَّهم بناتُ الله[٦]. ﴿وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ﴾ أي: إنَّهم لم يشاهدوا خلقَه الملائكةَ، ولم يسمعوا ما قالوه من رسول الله ﷺ، ولم يَرَوْهُ في كتاب.

---

(١) الوسيط ٤/ ٢٠٠ .

(٢) الكشاف ٤/ ٣١ .

(٣) الكشاف ٤/ ٣١ .

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٧٣.

(٥) معاني القرآن للفراء ٣/ ٩٩ .

(٦) الوسيط ٤/ ٢٠٠ .

﴿إِن يَتَّبِعُونَ﴾ أي: ما يتَّبعونَ ﴿إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ في أنَّ الملائكةَ إناث. ﴿وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغۡنِي مِنَ ٱلۡحَقِّ شَيۡـٔٗا﴾.

قوله تعالى: ﴿فَأَعۡرِضۡ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكۡرِنَا﴾ يعني: القرآن والإيمان[1]، وهذا منسوخ بآية السيف[2]. ﴿وَلَمۡ يُرِدۡ إِلَّا ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا﴾ نزلت في النَّضر. وقيل: في الوليد. ﴿ذَٰلِكَ مَبۡلَغُهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِۚ﴾ أي: إنَّما يُبصرون أمر دنياهم، ويَجهلون أمر دينهم. قال الفرَّاء[3]: صغَّرهم وازدرى بهم، أي: ذلك قَدْر عقولهم ونهاية عِلْمهم أن آثروا الدنيا على الآخرة. وقيل: أن جعلوا الملائكةَ والأصنامَ بناتِ الله. ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ أي: حاد عن دينه ﴿وَهُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱهۡتَدَىٰ﴾ فيجازي كُلًّا بأعمالهم.

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ بِٱلۡحُسۡنَى (٣١) ٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلۡمَغۡفِرَةِۚ هُوَ أَعۡلَمُ بِكُمۡ إِذۡ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ وَإِذۡ أَنتُمۡ أَجِنَّةٞ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡۖ فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ (٣٢)﴾

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ بِٱلۡحُسۡنَى﴾ اللام متعلِّقة بالمعنى الذي دلَّ عليه: «وَلِلهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ» كأنَّه قال: هو مالك ذلك، يهدي من يشاء، ويضلُّ من يشاء؛ ليجزيَ المحسنَ بإحسانه، والمسيءَ بإساءته[4]. وقيل: «لِلهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ» معترض في الكلام، والمعنى: إنَّ ربَّك هو أعلم بمن ضلَّ عن سبيله، وهو أعلم بمن اهتدى؛ ليجزي[5]. وقيل: هي لام العاقبة[6]، أي: ولله ما في السماوات وما في الأرض،

(١) تفسير البغوي ٤/ ٢٥١.

(٢) الوسيط ٤/ ٢٠١.

(٣) في معاني القرآن له ٣/ ١٠٠.

(٤) مشكل إعراب القرآن لمكي ٢/ ٦٩٣ - ٦٩٤.

(٥) المحرر الوجيز ٥/ ٢٠٣.

(٦) زاد المسير ٨/ ٧٥.

أي: وعاقبة أَمْرِ الخَلْق أن يكون فيهم مسيْء ومحسن؛ فللمسِيْء السُّوأى وهي جهنَّم، وللمحسن الحسنى وهي الجنة.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَۚ﴾ **فيه ثلاث مسائل:**

الأولى: قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ﴾ هذا نعت للمحسنين[١]، أي: هم لا يرتكبون كبائر الإثم وهو الشِّرك؛ لأنَّه أكبر الآثام، وقرأ الأعمش ويحيى بن وثَّاب وحمزة والكسائيُّ: «كَبيرَ» على التوحيد[٢]، وفسَّره ابن عباس بالشِّرك. «وَالْفَوَاحِشَ» الزنى[٣]. وقال مقاتل: «كَبَائِرَ الْإِثْمِ»: كلُّ ذنب خُتمَ بالنار. «وَالْفَوَاحِشَ»: كلُّ ذنب فيه الحدُّ[٤]. وقد مضى في «النساء»[٥] القول في هذا. ثم استثنى استثناءً منقطعاً وهي:

المسألة الثانية: فقال: «إِلَّا اللَّمَمَ»: وهي الصغائر التي لا يَسلم من الوقوع فيها إلا من عصمه الله وحفظه.

وقد اختلف في معناها، فقال أبو هريرة وابن عباس والشعبيُّ: «اللَّمَمُ»: كلُّ ما دون الزنى[٦]. وذكر مقاتل بن سليمان: أنَّ هذه الآيَةَ نزلت في رجل كان يُسمَّى نبهان التمَّار، كان له حانوت يبيع فيه تمراً، فجاءته امرأة تشتري منه تمراً فقال لها: إنَّ داخل الدكان ما هو خيرٌ من هذا، فلما دخلت راودها، فأبت وانصرفت، فندم نبهان، فأتى رسولَ الله ﷺ فقال: يا رسولَ الله! ما من شيء يصنعه الرجل إلا وقد

---

(١) المحرر الوجيز ٥/ ٢٠٣.

(٢) قراءة حمزة والكسائي في السبعة ص٦١٥، والتيسير ص١٩٥، وقراءة الأعمش ويحيى بن وثاب في المحرر الوجيز ٥/ ٢٠٣.

(٣) تفسير الطبري ٢٢/ ٦٠.

(٤) زاد المسير ٨/ ٧٥ ولم ينسبه.

(٥) ٦/ ٢٦٢.

(٦) الوسيط ٤/ ٢٠١.

فعلته إلا الجماع. فقال: «لعلَّ زوجَها غازٍ» فنزلت هذه الآية[١]، وقد مضى في آخر «هود»[٢].

وكذا قال ابن مسعود وأبو سعيد الخُدريُّ وحذيفة ومسروق: إنَّ اللمم ما دون الوطء من القُبلة والغَمْزة والنظرة والمضاجعة[٣].

وروى مسروق عن عبد الله بنِ مسعود قال: زنى العينين النظر، وزنى اليدين البطش، وزنى الرِّجلين المشي، وإنَّما يصدِّق ذلك أو يكذِّبه الفَرْجُ، فإن تقدَّم كان زنًى، وإن تأخَّر كان لَمَماً[٤]. وفي «صحيح البخاري ومسلم»[٥] عن ابنِ عباس قال: ما رأيتُ شيئاً أشبه باللَّمم مما قال أبو هريرة: إنَّ النبيَّ ﷺ قال: «إنَّ اللهَ كتب على ابن آدَم حظَّه من الزنى، أدرك ذلك لا محالةَ، فزنى العينين النظر، وزنى اللسان النطق، والنفس تمنَّى وتشتهي، والفرج يصدِّق ذلك أو يكذِّبه». والمعنى: أنَّ الفاحشة العظيمة والزنى التامَّ الموجِب للحدِّ في الدنيا والعقوبة في الآخرة، هو في الفَرْج، وغيرُه له حظٌّ من الإثم[٦]. والله أعلم.

وفي رواية أبي صالح، عن أبي هريرة، عن النبيِّ ﷺ قال: «كُتِب على ابن آدَمَ نصيبه من الزنى، مُدْرِكٌ ذلك لا محالةَ، فالعينان زناهما النظر، والأذنان زناهما الاستماع، واللسان زناه الكلام، واليد زناها البطش، والرِّجل زناها الخُطَا، والقلب

(١) سلف ٥/ ٣٢٢.

(٢) ١١/ ٢٣٠.

(٣) تفسير البغوي ٤/ ٢٥٢.

(٤) أخرجه عبد الرزاق في التفسير ٢/ ٢٥٥، والطبري ٢٢/ ٦٢، والحاكم في المستدرك ٢/ ٤٧٠، والبيهقي في شعب الإيمان (٧٠٦٠) من طريق أبي الضحى، عن مسروق، عن ابن مسعود به، ولم يرد: مسروق، في إسناد عبد الرزاق والطبري. قال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

(٥) البخاري (٦٦١٢)، ومسلم (٢٦٥٧) واللفظ له، وهو عند أحمد (٧٧١٩).

(٦) إكمال المعلم ٨/ ١٤٥.

يَهْوَى ويتمنَّى، ويصدِّق ذلك الفَرْجُ ويكذِّبه». خرَّجه مسلم(١). وقد ذكر الثعلبيُّ حديثَ طاوس عن ابن عباس، فذكر فيه الأُذن واليد والرِّجل، وزاد فيه بعد العينين واللسان: «وزنى الشفتين القُبلة»(٢). فهذا قول.

وقال ابن عباس أيضاً: هو الرجل يُلِمُّ بذنب ثم يتوب. قال: أَلَم تسمع النبيَّ ﷺ كان يقول:

إن تَـغـفـر الـلَّـهُـمَّ تَـغـفـر جَـمَّـا وأيُّ عـبـدٍ لـكَ لا أَلَـمَّـا

رواه عمرو بن دينار، عن عطاء، عن ابن عباس(٣). قال النحَّاس: هذا أصحُّ ما قيل فيه وأجلُّها إسناداً.

وروى شعبة، عن منصور، عن مجاهد، عن ابن عباس في قول الله عزَّ وجلَّ: «إِلَّا اللَّمَمَ» قال: هو أن يُلِمَّ العبدُ بالذنب ثم لا يعاوده، قال الشاعر:

إن تَـغـفِـرِ الـلَّـهـمَّ تـغـفـر جَـمَّـا وأيُّ عـبـدٍ لـكَ لا أَلَـمَّـا(٤)

وكذا قال مجاهد والحسن: هو الذي يأتي الذنب ثم لا يعاوده(٥). ونحوه عن

---

(١) في صحيحه (٢٦٥٧): (٢١).

(٢) وقد وردت هذه الزيادة في حديث ابن مسعود السالف الذكر، وثمة تخريجه هناك.

(٣) أخرجه الترمذي (٣٢٨٤) من طريق زكريا بن إسحاق، عن عمرو بن دينار، به. وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب لا نعرفه إلا من حديث زكريا بن إسحاق. اهـ. والبيت لأمية بن أبي الصلت، وهو في ديوانه ص٥٨ ، ونسبه بعضهم لأبي خِراش الهذلي كما في أمالي ابن الشجري ٢/ ٥٣٦ ، وشرح أشعار الهذليين ٣/ ١٣٤٦ وغيرها من المصادر، لكن قال البغدادي في خزانة الأدب ٢/ ٢٩٥: وزعم العيني أنه لأبي خراش الهذلي، وهذا خطأ، وإنما هو لأمية بن أبي الصلت، قاله عند موته، وقد أخذه أبو خراش منه. وينظر التعليق الآتي.

(٤) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى ١٠/ ١٨٥ ، وفي شعب الإيمان (٧٠٥٧) من طريق آدم بن أبي إياس، عن شعبة، به. وقال: هذا هو المحفوظ موقوف. اهـ. وأخرجه أيضاً الطبري ٢٢/ ٦٤ من طريق محمد ابن جعفر، عن شعبة، به. إلا أنه لم يذكر ابن عباس في إسناده.

(٥) النكت والعيون ٥/ ٤٠٠ ، وأخرجه الطبري ٢٢/ ٦٤ عن مجاهد بنحو قول ابن عباس الآنف الذكر، وأخرجه مجاهد في التفسير ٢/ ٦٣١ ، والطبري ٢٢/ ٦٤ - ٦٥ عن الحسن بنحوه.

الزهري، قال: اللَّمم: أن يزنيَ ثم يتوب فلا يعود، وأن يسرقَ أو يشرب الخمر ثم يتوب فلا يعود. ودليل هذا التأويل قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ﴾ الآية [١٣٥ من آل عمران]. ثم قال: ﴿أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ [آل عمران: ١٣٦] فضمن لهم المغفرة، كما قال عقيبَ اللَّمم: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ﴾ فعلى هذا التأويل يكون «إِلَّا اللَّمَمَ» استثناء متصل. قال عبد الله بن عمرو بن العاص: اللَّمم: ما دون الشرك[1]. وقيل: اللَّمم: الذنب بين الحدَّين، وهو ما لم يأتِ عليه حدٌّ في الدنيا، ولا تُوعِّد عليه بعذاب في الآخرة، تكفِّره الصلوات الخمس. قاله ابن زيد وعكرمة والضحاك وقتادة[2]. ورواه العوفيُّ والحكم بن عتيبة عن ابن عباس[3].

وقال الكلبيُّ: اللَّمم على وجهين: كلُّ ذنب لم يَذكر اللهُ عليه حدًّا في الدنيا ولا عذاباً في الآخرة، فذلك الذي تكفِّره الصلوات الخمس، ما لم يبلغ الكبائرَ والفواحشَ. والوجه الآخر: هو الذنب العظيم يُلِمُّ به الإنسان المرَّة بعد المرَّة فيتوب منه[4].

وعن ابن عباس أيضاً وأبي هريرة وزيد بن ثابت: هو ما سلف في الجاهلية فلا يؤاخذهم به. وذلك أنَّ المشركين قالوا للمسلمين: إنَّما كنتم بالأمسِ تعملون معنا، فنزلت، وقاله زيد بن أسلم وابنه، وهو كقوله تعالى: ﴿وَأَن تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾[5] [النساء: ٢٣].

(١) تفسير البغوي ٤/ ٢٥٢، وأخرجه عنه الطبري ٢٢/ ٦٦.

(٢) المحرر الوجيز ٥/ ٢٠٤ وعزاه إلى أبي هريرة وابن عباس، والنكت والعيون ٥/ ٤٠١ وعزاه إلى ابن عباس وقتادة، وأخرجه الطبري ٢٢/ ٦٧ - ٦٨ عن ابن عباس وابن الزبير وعكرمة وقتادة والضحاك.

(٣) أورده ابن كثير في التفسير ٧/ ٤٦٢ عن العوفي عن ابن عباس، وأخرجه الطبري ٢٢/ ٦٧ عن الحكم بن عتيبة، عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٤) تفسير البغوي ٤/ ٢٥٢ - ٢٥٣.

(٥) المحرر الوجيز ٥/ ٢٠٤ ولم ينسبه لأبي هريرة، وذكره عنه أبو الليث السمرقندي في التفسير ٣/ ٢٩٣.

وقيل: اللَّمم: هو أن يأتيَ بذنب لم يكن له بعادة، قاله نفطويه[١]. قال: والعرب تقول: ما يأتينا إلَّا لِمَاماً؛ أي: في الحين بعد الحين. قال: ولا يكون أن يُلِمَّ ولا يفعل؛ لأنَّ العرب لا تقول: ألمَّ بنا، إلا إذا فعل الإنسان، لا إذا همَّ ولم يفعله. وفي «الصحاح»[٢]: وألمَّ الرجل، من اللَّمم: وهو صغائر الذنوب، ويقال: هو مقاربة المعصية من غير مواقعة. وأنشد غير الجوهريِّ:

بِزينَب أَلْمِمْ قبل أن يَرْحَلَ الرَّكبُ وقُلْ إنْ تَمَلِّينا فما مَلَّكِ الْقَلْبُ[٣]

أي: اقرب.

وقال عطاء بن أبي رباح: اللَّمم: عادة النفس الحين بعد الحين[٤]. وقال سعيد ابن المسيّب: هو ما ألمَّ على القلب، أي: خطر[٥]. وقال محمد ابن الحنفيَّة: كلُّ ما هممتَ به من خير أو شرٍّ، فهو لمَمَ[٦]. ودليل هذا التأويل قوله عليه الصلاة والسلام: «إنَّ للشيطان لَمَّة، وللملَك لَمَّة» الحديث. وقد مضى في «البقرة»[٧] عند قوله تعالى: ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ﴾ [الآية:٢٣٨].

وقال أبو إسحاق الزجَّاج: أصل اللَّمم والإلمام: ما يعمله الإنسان المرَّة بعد المرَّة ولا يتعمَّق فيه ولا يقيم عليه[٨]. يقال: ألممت به، إذا زرته وانصرفت عنه، ويقال: ما فعلته إلا لَمماً وإلماماً، أي: الحين بعد الحين. وإنَّما زيارتك إلمام[٩]،

(١) المحرر الوجيز ٥/ ٢٠٤.

(٢) مادة: (لمم).

(٣) القائل نُصَيْب بن رباح، والبيت في ديوانه ص٦٠.

(٤) الكشاف ٤/ ٣٢.

(٥) المحرر الوجيز ٥/ ٢٠٤.

(٦) زاد المسير ٨/ ٧٦.

(٧) ٤/ ٣٥٥.

(٨) معاني القرآن للزجاج ٥/ ٧٤، والوسيط ٤/ ٢٠٢ بنحوه.

(٩) لسان العرب (لمم) بنحوه.

ومنه إلمام الخيال، قال الأعشى[١]:

أَلَـمّ خَـيَـالٌ مِـن قُـتَـيْـلَـةَ بَـعْـدَ مَـا وَهَـى حَبْـلُـها مِـن حَـبْـلِنَـا فَـتَـصَـرَّمَـا

وقيل: «إلا» بمعنى الواو[٢]. وأنكر هذا الفرَّاء[٣] وقال: المعنى إلا المتقارب من صغار الذنوب. وقيل: اللَّمم: النظرة التي تكون فجأة[٤].

قلت: هذا فيه بعدٌ، إذ هو معفوٌّ عنه ابتداءً، غير مؤاخذ به؛ لأنه يقع من غير قصد واختيار، وقد مضى في «النور» بيانه[٥].

واللَّمم أيضاً: طَرَفٌ من الجنون، ورجل ملموم، أي: به لَمَمٌ. ويقال أيضاً: أصابت فلاناً لَمَّةٌ من الجنّ، وهي المسُّ، والشيء القليل، قال الشاعر:

فـإذا وذَلِـك يـا كُـبَـيْـشَـةُ لَـمْ يَـكُـنْ إِلَّا كَـلَـمَّـةِ حـالِـمٍ بِـخَـيَـالِ[٦]

الثالثة: قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِۚ﴾ لمن تاب من ذنبه واستغفر، قاله ابن عباس[٧]. وقال أبو ميسرة عمرو بن شَرَحْبيل وكان من أفاضل أصحاب ابنِ مسعود: رأيتُ في المنام كأنّي دخلتُ الجنَّة، فإذا قِباب مضروبة، فقلت: لمن هذه؟ فقالوا: لذي الكَلَاع وحَوْشَب ـ وكانا ممن قَتل بعضهم بعضاً ـ فقلت: وكيف ذلك؟ فقالوا: إنَّهما لقيا اللهَ فوجداه واسعَ المغفرة. فقال أبو خالد: بلغني أنَّ ذا الكَلَاع أعتق اثني عشَر ألف بيت[٨].

---

(١) في ديوانه ص٥٥ .

(٢) تفسير أبي الليث ٣/ ٢٩٣ .

(٣) في معاني القرآن له ٣/ ١٠٠ .

(٤) المحرر الوجيز ٥/ ٢٠٤ ونسبه للحسين بن الفضل.

(٥) ١٥/ ٢٠٩ - ٢١٠ .

(٦) الصحاح (لمم) ولم ينسب البيت فيه، ونسب في لسان العرب (لمم) إلى ابن مقبل، ولم نقف عليه في ديوانه.

(٧) الوسيط ٤/ ٢٠٢ .

(٨) أخرجه سعيد بن منصور في السنن ٢/ ٣٤٠ ، وابن أبي شيبة ١٥/ ٢٩٠ ، وأبو نعيم في الحلية =

قوله تعالى: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ﴾ من أنفسكم ﴿إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ يعني: أباكم آدم من الطين[١]، وخرج اللفظ على الجمع.

قال الترمذيُّ أبو عبد الله: وليس هو كذلك عندنا، بل وقع الإنشاء على التربة التي رفعت من الأرض، وكنَّا جميعاً في تلك التربة وفي تلك الطينة، ثم خرجت من الطينة المياه إلى الأصلاب مع ذَرْوِ النفوس على اختلاف هيئتها، ثم استخرجها من صُلْبها على اختلاف الهيئات، منهم كالدُّرِّ يتلألأ، وبعضهم أنور من بعض، وبعضهم أسود كالحُمَمَة، وبعضهم أشدُّ سواداً من بعض، فكان الإنشاء واقعاً علينا وعليه. حدَّثنا عيسى بن حماد العسقلانيُّ قال: حدَّثنا بِشر بنُ بَكرٍ، قال: حدَّثنا الأوزاعيُّ، قال: قال رسول الله ﷺ: «عُرِض عليَّ الأوَّلون والآخرون بين يدي حجرتي هذه الليلة» فقال قائل: يا رسولَ الله! ومَن مضى من الخَلْق؟ قال: «نعم، عُرِض عليَّ آدم فمن دونه، فهل كان خُلِقَ أحد» قالوا: ومن في أصلاب الرجال وبطون الأُمَّهات؟ قال: «نعم، مثلوا في الطين فعرفتهم، كما علم آدم الأسماء كلَّها»[٢].

قلت: وقد تقدَّم في أوَّل «الأنعام»[٣] أنَّ كلَّ إنسان يُخلَق من طين البقعة التي يدفن فيها.

﴿وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ﴾ جمع جَنِين: وهو الولد ما دام في البطن، سُمِّيَ جنيناً؛ لاجتنانه واستتاره[٤]. قال عمرو بن كُلْثوم:

هِجانِ اللَّوْنِ لَمْ تَقْرَأْ جَنِينَا[٥]

= ٤/ ١٤٣ ، والبيهقي في السنن الكبرى ٨/ ١٧٤ . وقول أبي خالد ـ وهو يزيد بن هارون من رجال الإسناد ـ جاء عقب رواية البيهقي هكذا: ...فإن ذا الكلاع وحوشب أعتقا اثني عشر ألف أهل بيت، وذكر من محاسنهم أشياء. اهـ وجاء في (م) و(د): بنت، بدل: بيت.

(١) تفسير البغوي ٤/ ٢٥٣ .

(٢) لم نقف عليه.

(٣) ٨/ ٣١٩ .

(٤) تفسير البغوي ٤/ ٢٥٣ .

(٥) سلف ٤/ ٣٨ .

وقال مكحول: كنَّا أجنَّة في بطون أمهاتنا، فسقط منَّا من سقط، وكنَّا فيمن بقي، ثم صرنا رُضَّعاً، فهلك منَّا من هلك، وكنا فيمن بقي، ثم صرنا يَفَعةً، فهلك منَّا من هلك، وكنَّا فيمن بقي، ثم صرنا شباباً، فهلك منَّا من هلك، وكنَّا فيمن بقي، ثم صرنا شيوخاً ـ لا أبَا لك! ـ فما بعد هذا ننتظر(١)؟!.

وروى ابنُ لهيعة، عن الحارث بن يزيد، عن ثابت بن الحارث الأنصاري قال: كانت اليهود تقول إذا هلك لهم صبيٌّ صغير: هو صِدِّيق. فبلغ ذلك النبيَّ ﷺ فقال: «كذبت يهود، ما من نَسَمة يخلقها الله في بطن أمِّه إلا أنَّه شقيٌّ أو سعيد» فأنزل الله تعالى عند ذلك هذه الآية: «هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ» إلى آخرها(٢). ونحوه عن عائشة: «كان اليهود». بمثله(٣).

﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ﴾ أي: لا تمدحوها ولا تثنُوا عليها(٤)، فإنَّه أبعد من الرياء، وأقرب إلى الخشوع. ﴿هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ أي: أَخْلَصَ العمل، واتَّقى عقوبةَ الله، عن الحسن وغيره(٥). قال الحسن: قد عَلِمَ اللهُ سبحانه كلَّ نفس ما هي عاملة، وما هي صانعة، وإلى ما هي صائرة(٦). وقد مضى في «النساء»(٧) الكلام في معنى هذه الآية عند قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمۚ﴾ [الآية:٤٩] فتأمَّله هناك. وقال ابن عباس: ما من أحد من هذه الأمَّة أزكِّيه غير رسول الله ﷺ(٨). والله تعالى أعلم.

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٤٠٢ .

(٢) أسباب النزول للواحدي ص٤٢٢ ، وأخرجه الطبراني في الكبير (١٣٦٨) من طريق يحيى بن بكير، عن ابن لهيعة، به.

(٣) المحرر الوجيز ٥/ ٢٠٤ .

(٤) تفسير أبي الليث ٣/ ٢٩٣ .

(٥) زاد المسير ٨/ ٧٧ .

(٦) النكت والعيون ٥/ ٤٠٢ .

(٧) ٦/ ٤٠٧ .

(٨) أخرجه عبد الرزاق (٢٠٥٢٥)، والطبراني في الكبير (١١٠٢٤).

قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ ﴿٣٤﴾ أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ ﴿٣٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ﴾ الآيات، لما بيَّن جهل المشركين في عبادة الأصنام، ذكر واحداً منهم معيَّناً بسوء فعله. قال مجاهد وابن زيد ومقاتل: نزلت في الوليد بن المغيرة، وكان قد اتَّبع رسولَ الله ﷺ على دينه، فعيَّره بعض المشركين، وقال: لِمَ تركتَ دينَ الأشياخ وضَلَّلتهم[١] وزعمت أنَّهم في النار؟! قال: إنِّي خشيتُ عذاب الله، فضمن له إن هو أعطاه شيئاً من ماله، ورجع إلى شركه أن يتحمَّل عنه عذاب الله[٢]، فأعطى الذي عاتبه بعض ما كان ضمن [له] ثم بَخِلَ ومنعَه، فأنزل الله تعالى هذه الآية.

وقال مقاتل: كان[٣] الوليد مدح القرآن ثم أمسك عنه فنزل: «وَأَعْطَى قَلِيلاً» أي: من الخير بلسانه «وَأَكْدَى» أي: قطع ذلك وأمسك عنه[٤]. وعنه: أنَّه أعطى رسولَ الله ﷺ عقد الإيمان ثم تولَّى، فنزلت: «أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى» الآية.

وقال ابن عباس والسُّدِّيُّ والكلبيُّ والمسيّب بن شريك: نزلت في عثمان بن عفان ﷺ كان يتصدَّق وينفق في الخير، فقال له أخوه من الرضاعة عبد الله بن أبي سَرْح: ما هذا الذي تصنع؟ يوشك ألَّا يبقى لك شيء. فقال عثمان: إنَّ لي ذنوباً وخطايا، وإنِّي أطلب بما أصنع رضا الله تعالى، وأرجو عفوه! فقال له عبد الله: أعطني ناقتك برَحْلها وأنا أتحمَّل عنك ذنوبك كلّها. فأعطاه وأشهد عليه، وأمسك عن

(١) في (ظ): وملكهم، وفي (د): وملتهم، وفي (ف): وملله‍م، والمثبت من (م)، وأسباب النزول للواحدي ص٤٢٣ ، والكلام منه دون نسبته إلى مقاتل، وما بين حاصرتين منه أيضاً، والخبر أخرجه الطبري ٢٢/ ٧٢ عن ابن زيد بتمامه، وعن مجاهد مختصراً، وهو في تفسير مجاهد ٢/ ٦٣١ .

(٢) بعدها في (د) و(ظ) و(ف): ففعل. ولم ترد في أسباب النزول.

(٣) في (م): كال. وهو خطأ.

(٤) تفسير البغوي ٤/ ٢٥٣ .

بعض ما كان يصنع [من الصدقة] فأنزل الله تعالى: «أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى. وَأَعْطَى قَلِيلاً وَأَكْدَى» فعاد عثمان إلى أحسن ذلك وأجمله. ذكر ذلك الواحديُّ[(١)] والثعلبيُّ.

وقال السُّدِّيُّ أيضاً: نزلت في العاص بن وائل السَّهْميّ، وذلك أنَّه كان ربَّما يوافق النبيَّ ﷺ في بعض الأمور[(٢)]. وقال محمد بن كعب القرظيُّ: نزلت في أبي جهل ابن هشام، قال: واللهِ ما يأمر محمدٌ إلا بمكارم الأخلاق، فذلك قوله تعالى: «وَأَعْطَى قَلِيلاً وَأَكْدَى»[(٣)]. وقال الضحَّاك: هو النَّضْر بن الحارث أعطى خمس قلائص لفقير من المهاجرين حتى[(٤)] ارتدَّ عن دينه، وضمن له أن يتحمَّل عنه مأثم رجوعه.

وأصل «أَكْدَى» من الكُدْية، يقال لمن حَفَر بئراً ثم بلغ إلى حَجَرٍ لا يتهيَّأ له فيه حَفْر: قد أَكْدَى، ثم استعملته العرب لمن أعطى ولم يُتمِّم، ولمن طلب شيئاً ولم يبلغ آخره[(٥)]. وقال الحُطَيْئة[(٦)]:

فأعطى قليلاً ثم أَكْدَى عطاءَه ومن يَبْذُلِ المعروفَ في الناسِ يُحمَدِ

قال الكسائيُّ وغيره: أَكْدَى الحافرُ وأَجْبل: إذا بلغ في حَفْره كُدْية أو جبلاً، فلا يمكنه أن يَحفِر. وحفر فأَكْدَى: إذا بلغ إلى الصُّلْب. ويقال: كدِيت أصابعه: إذا كَلَّتْ من الحفر[(٧)].

---

(١) في أسباب النزول ص٤٢٢-٤٢٣، وما بين حاصرتين منه، وذكر الخبر أيضاً الزمخشري في الكشاف ٤/ ٣٣، وابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٢٠٥ ونسبه للثعلبي، ولكنَّ ابن عطية ردَّ الخبرَ بقوله: وذلك كله عندي باطل، وعثمان منزَّه عن مثله.

(٢) قوله: في بعض الأمور. لم يرد في (م).

(٣) تفسير البغوي ٤/ ٢٥٣، وزاد المسير ٨/ ٧٨.

(٤) في (م): حين. والمثبت من النسخ الخطية وزاد المسير ٨/ ٧٨، والكلام منه.

(٥) غريب القرآن لابن قتيبة ص٤٢٩.

(٦) لم نقف عليه في ديوانه.

(٧) الصحاح (كدي).

وكَدِيت يدهُ: إذا كَلَّتْ، فلم تعمل شيئاً. وأَكْدَى النَّبتُ: إذا قلَّ رَيْعه. وكَدَتِ الأرض تَكْدُو كَدْواً فهي كَادِيَةٌ: إذا أبطأ نباتها، عن أبي زيد[١]. وأَكْدَيْتُ الرجلَ عن الشيء: رددتُه عنه. وأَكْدَى الرجلُ: إذا قلَّ خيره. وقوله: «وَأَعْطَى قَلِيلاً وَأَكْدَى» أي: قطع القليل[٢].

قوله تعالى: ﴿أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ﴾ أي: أعند هذا المكدِي علمُ ما غاب عنه من أمر العذاب؟! «فَهُوَ يَرَى» أي: يعلم ما غاب عنه من أمر الآخرة، وما يكون من أمره حتى يضمن حَمْلَ العذاب عن غيره[٣]؟! وكفى بهذا جهلاً وحمقاً. وهذه الرؤية هي المتعدِّية إلى مفعولين، والمفعولان محذوفان، كأنَّه قال: فهو يرى الغيبَ مثلَ الشهادة.

قوله تعالى: ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ . وَإِبْرَٰهِيمَ﴾ أي: وصحف إِبْراهيمَ ﴿ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ﴾ كما في سورة «الأعلى»: ﴿صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾ [الآية:١٩] أي: لا تؤخذ نفس بدلاً عن أخرى، كما قال: ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ وخصَّ صحف إبراهيم وموسى بالذِّكْر؛ لأنَّه كان ما بين نوح وإبراهيم يؤخذ الرجل بجريرة ابنه وأبيه[٤]، قاله الهذيل بن شرحبيل.

---

(١) تهذيب اللغة ١٥/ ٣٢٥.

(٢) الصحاح (كدي).

(٣) غريب القرآن لابن قتيبة ص٤٢٩.

(٤) في (د) و(م): أخيه وابنه وأبيه. والمثبت من (ظ) و(ف) وهو الموافق لما في النكت والعيون ٥/ ٤٠٣ والكلام منه.

و «أنْ» هذه المخفَّفة من الثقيلة، وموضعها جرٌّ بدلاً من «ما»، أو يكون في موضع رفع على إضمار «هو»(١).

وقرأ سعيد بن جبير وقتادة: «وَفَى» خفيفة(٢)، ومعناها: صَدَق في قوله وعمله، وهي راجعة إلى معنى قراءة الجماعة: «وَفَّى» بالتشديد، أي: قام بجميع ما فُرض عليه فلم يَخْرم منه شيئاً. وقد مضى في «البقرة»(٣) عند قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ [الآية: ١٢٤] والتوفية: الإتمام. وقال أبو بكر الورَّاق: قام بشرط ما ادَّعى، وذلك أنَّ الله تعالى قال له: ﴿أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة: ١٣١] فطالبه الله بصحَّة دعواه، فابتلاه في ماله وولده ونفسه، فوجده وافياً بذلك، فذلك قوله: «وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى» أي: ادَّعى الإسلام، ثم صحَّح دعواه.

وقيل: «وفَّى عمله كلَّ يوم بأربع ركعات في صدر النهار» رواه الهيثم عن أبي أُمامة عن النبي ﷺ(٤). وروى سهل بن سعد الساعدي عن أبيه: «أَلَا أُخبركم لم سَمَّى الله تعالى خليلَه إبراهيمَ: «الَّذِي وَفَّى»؛ لأنَّه كان يقول كلما أصبح وأمسى: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾(٥) الآية [١٧ من سورة الروم]. ورواه سهل بن معاذ بن(٦) أنس، عن أبيه، عن النبيِّ ﷺ(٧).

---

(١) الكشاف ٤/ ٣٣.

(٢) القراءات الشاذة ص١٤٧ ونسبها إلى ابن جبير واليماني، والمحتسب ٢/ ٢٩٤ ونسبها إلى ما نسبه ابن خالويه في القراءات الشاذة، وزاد: أبا أمامة وأبا مالك. البحر المحيط ٨/ ١٦٧.

(٣) ٢/ ٣٥١.

(٤) النكت والعيون ٥/ ٤٠٣، وأخرجه أيضاً الدوري في جزء فيه قراءات النبي ﷺ (١٠٩)، والطبري ٢٢/ ٧٨، والبغوي في التفسير ٤/ ٢٥٤، من طريق القاسم، عن أبي أمامة، به. وفي إسناده: جعفر ابن الزبير، قال عنه ابن حجر في التقريب ١/ ٢١٧: متروك الحديث، وكان صالحاً في نفسه.

(٥) لم نقف عليه، وينظر الحديث الآتي.

(٦) في النسخ عدا (ف): عن: والمثبت من (ف) ومصادر التخريج.

(٧) أخرجه أحمد (١٥٦٢٤)، والطبري ٢٢/ ٧٧-٧٨، والطبراني في الكبير ٢٠/ (٤٢٧) و(٤٢٨)، وابن عدي في الكامل ٣/ ١٠١١. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/ ١١٧: رواه الطبراني، وفيه ضعفاء وثقوا.

وقيل: «وفَّى» أي: وَفَّى ما أُرسل به[(١)]، وهو قوله: «أَنْ لَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى» قال ابن عباس: كانوا قبل إبراهيم عليه السلام يأخذون الرجل بذَنْب غيره، ويأخذون الوليَّ بالولِيِّ في القتل والجراحة، فيُقتَل الرجل بأبيه وابنه وأخيه وعمه وخاله وابن عمه وقريبه وزوجته وزوجها وعبده، فبلَّغهم إبراهيم عليه الصلاة والسلام عن الله تعالى: «أَنْ لَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى»[(٢)]. وقال الحسن وقتادة وسعيد بن جبير في قوله تعالى «وَفَّى»: عمل بما أُمر به، وبلَّغ رسالات ربِّه[(٣)]. وهذا أحسن؛ لأنه عام. وكذا قال مجاهد: «وَفَّى» بما فُرض عليه[(٤)]. وقال أبو مالك الغفاريُّ: قوله تعالى: «أَنْ لَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى» إلى قوله: «فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَى» في صحف إبراهيم وموسى[(٥)]. وقد مضى في آخر «الأنعام»[(٦)] القول في: «وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى» مستوفًى.

قوله تعالى: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ روي عن ابن عباس[(٧)] أنَّها منسوخة بقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ [الطور: ٢١] فيحصل الولد الطفل يوم القيامة في ميزان أبيه، ويشفِّع اللهُ تعالى الآباءَ في الأبناء، والأبناءَ في الآباء، يدلُّ ذلك على قوله تعالى: ﴿ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا﴾ [النساء: ١١].

---

(١) زاد المسير ٨/ ٨٠ وعزاه إلى ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٢٥٤ بنحوه.

(٣) تفسير البغوي ٤/ ٢٥٣.

(٤) تفسير البغوي ٤/ ٢٥٣.

(٥) أخرجه الطبري ٢٢/ ٧٩ إلا أن فيه: إلى قوله: ﴿هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ النُّذُرِ الْأُولَىٰ﴾.

(٦) ٩/ ١٤٥.

(٧) أخرجه الطبري ٢٢/ ٨٠، والنحاس في الناسخ والمنسوخ ٣/ ٣٦، قال ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٢٠٦ بعد أن أورد الخبر: وهذا لا يصح عندي على ابن عباس، لأنه خبر لا ينسخ، ولأن شروط النسخ ليست هنا، اللهم إلا أن يتجوز في لفظة النسخ ليفهم سائلاً.

وقال أكثر أهل التأويل: هي محكمة، ولا ينفع أحداً عملُ أحدٍ، وأجمعوا أنَّه لا يُصلِّي أحد عن أحد. ولم يُجِز مالك الصيام والحجَّ والصدقة عن الميت، إلا أنَّه قال: إن أوصى بالحجِّ ومات، جاز أن يُحجَّ عنه. وأجاز الشافعيُّ وغيره الحجَّ التطوَّع عن الميِّت[١]. وروي عن عائشة رضي الله عنها أنَّها اعتكفت عن أخيها عبد الرحمن وأعتقت عنه[٢]. وروي أنَّ سعد بنَ عبادة قال للنبيِّ ﷺ: إنَّ أمِّي توفيت أفأتصدَّقُ عنها؟ قال: «نعم» قال: فأيُّ الصدقة أفضل؟ قال: «سقي الماء»[٣]. وقد مضى جميع هذا مستوفًّى في «البقرة»[٤] و «آل عمران»[٥] و«الأعراف»[٦].

وقد قيل: إنَّ الله عز وجل إنَّما قال: «وَأَنْ لَيْسَ للإِنْسَانِ إِلَّا ما سعى» ولام الخفض معناها في العربية المِلْكُ والإيجاب، فليس يجب للإنسان إلا ما سعى، فإذا تصدَّق عنه غيرُه، فليس يجب له شيء، إلا أنَّ الله عزَّ وجلَّ يتفضَّل عليه بما لا يجب له، كما يتفضَّل على الأطفال بإدخالهم الجنة بغير عمل[٧]. وقال الربيع بن أنس: «وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى» يعني: الكافر، وأما المؤمن فله ما سَعَى، وما سعى له غيرُه[٨].

قلت: وكثير من الأحاديث يدلُّ على هذا القول، وأنَّ المؤمن يصل إليه ثواب العمل الصالح من غيره، وقد تقدَّم كثير منها لمن تأملها، وليس في الصدقة اختلاف، كما في صدر «كتاب مسلم»[٩] عن عبد الله بن المبارك. وفي «الصحيح»[١٠]: «إذا

(١) قول مالك في المدونة ٦/ ٥٨ ، وقول الشافعي في الأم ٤/ ٤٦ .
(٢) أخرجه سعيد بن منصور في السنن ١/ ١٢٥ ، وابن أبي شيبة ٣/ ٩٤ .
(٣) سلف ٩/ ٢٣٣ .
(٤) ٤/ ٥٠٠ .
(٥) ٥/ ٢٢٧ .
(٦) ٩/ ٢٣٣ .
(٧) المحرر الوجيز ٥/ ٢٠٦-٢٠٧ بنحوه.
(٨) المحرر الوجيز ٥/ ٢٠٦ .
(٩) في مقدمة كتابه ١/ ١٦ .
(١٠) مسلم (١٦٣١)، وسلف ١/ ٨ .

مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث» وفيه: «أو ولد صالح يدعو له» وهذا كلُّه تفضُّل من الله عزَّ وجلَّ، كما أنَّ زيادة الأضعاف فَضْلٌ منه؛ كتب لهم بالحسنة الواحدة عَشْراً إلى سبع مئة ضعف إلى ألف ألف حسنة، كما قيل لأبي هريرة: أسمعتَ رسولَ الله ﷺ يقول: «إنَّ الله ليجزي على الحسنة الواحدة ألف ألف حسنة»؟ فقال سمعته يقول: «إنَّ الله ليجزي على الحسنة الواحدة ألفي ألف حسنة»(١) فهذا تفضُّل. وطريق العدل: «أَنْ لَيسَ لِلإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَى».

قلت: ويحتمل أن يكون قوله: «وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى» خاصٌّ في السيئة؛ بدليل ما في «صحيح مسلم» عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ قال: «قال الله عزَّ وجلَّ: إذا همَّ عبدي بحسنة ولم يعملها، كتبتها له حسنة، فإن عملها كتبتها له عَشْر حسنات إلى سبع مئة ضِعف، وإذا همَّ بسيئة ولم يعملها، لم أكتبها عليه، فإن علمها كتبتها سيئةً واحدة»(٢).

وقال أبو بكر الورَّاق: «إِلَّا مَا سَعَى» إلا ما نوى(٣). بيانه قوله ﷺ: «يُبعَث الناس يوم القيامة على نيَّاتهم»(٤).

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ﴾ أي: يُريه الله تعالى جزاءه يوم القيامة(٥) ﴿ثُمَّ يُجْزَىٰهُ﴾ أي: يُجزَى به ﴿ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ﴾. قال الأخفش: يقال: جزيته الجزاء، وجزيته بالجزاء، سواء لا فَرْقَ بينهما، قال الشاعر:

إنْ أجْزِ عَلْقَمَةَ بنَ سعْدٍ سَعْيَه ... لم أجْزِهِ بِبَلاءِ يَوْمٍ واحِدِ

(١) سلف ٦/ ٣٢٤.

(٢) سلف ١١/ ٣١٥.

(٣) زاد المسير ٨/ ٨١.

(٤) أخرجه ابن ماجه (٤٢٢٩) عن أبي هريرة ﷺ، قال البوصيري في الزوائد: في إسناده ليث بن سليم، وهو ضعيف، ويشهد له حديث جابر، وقد رواه مسلم [(٢٨٧٨)] .اهـ. وأخرجه أيضاً مسلم (٢٨٨٤) عن عائشة رضي الله عنها بنحوه.

(٥) معاني القرآن للزجاج ٥/ ٧٦.

فجمع بين اللغتين[١].

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ أي: المرجع والمردّ والمصير، فيعاقب ويثيب. وقيل: منه ابتداء المِنَّة، وإليه انتهاء الأمان. وعن أبيّ بن كعب قال: قال النبيُّ ﷺ في قوله: «وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى» قال: «لا فكرة في الربِّ»[٢]. وعن أنس: قال النبيُّ ﷺ: «إذا ذُكِرَ اللهُ تعالى فانْتَهِ»[٣].

قلت: ومن هذا المعنى قوله عليه الصلاة والسلام: «يأتي الشيطانُ أحدَكم فيقول: من خَلَق كذا وكذا، حتى يقول له: مَن خَلَق ربَّك. فإذا بلغ ذلك، فلْيستعِذْ بالله ولْيَنْتَهِ» وقد تقدَّم في آخر «الأعراف»[٤]. ولقد أحسن من قال:

ولا تُفْكِرنْ في ذِي العُلَا عَزَّ وجهُهُ ... فإنَّكَ تردَى إنْ فعلتَ وتُخذَلُ
ودونَك مصنوعَاتِه فاعتَبِرْ بِها ... وقُلْ مِثْل ما قال الخلِيلُ المبَجَّلُ

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ﴾ ذهبت الوسائط وبقيت الحقائق لله سبحانه وتعالى فلا فاعلَ إلا هو. وفي «صحيح مسلم»[٥] عن عائشة رضي الله عنها قالت:

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ٢٥٤-٢٥٥ بنحوه، والبيت لرجل من بهراء اسمه فدكى كما في شرح ديوان الحماسة للتبريزي ٤/ ٧٠، وسماه المرزبانيُّ في معجم الشعراء ص٤٤٦ المرفاقَ الطائيَّ وقال: وأحسبه لقباً .اهـ. وجاء فيهما: سيف، بدل: سعد.

(٢) أخرجه البغوي في التفسير ٤/ ٢٥٥، وأخرجه أيضاً أبو الشيخ في العظمة (٦) عن سفيان، قوله.

(٣) أخرجه ابن عدي في الكامل ٣/ ١١٩٣ عن أنس، وفي إسناده: سنان بن سعد، ويقال: سعد بن سنان، وقد اختلف فيه فقال النسائي عنه: منكر الحديث. وقال أحمد بن حنبل: روى خمسة عشر حديثاً منكرة كلها، ما أعرف منها واحداً. تهذيب التهذيب ١/ ٦٩٢ - ٦٩٣. وأخرجه أيضاً إسحاق بن راهويه في المسند (٣٩٥)، والطبراني في مسند الشاميين (٢٣٥٠) من طريق عطاء الخراساني، عن أبي هريرة مرفوعاً. وإسناده منقطع، لأن عطاء لم يسمع من أبي هريرة.

(٤) ٩/ ٤٢٣.

(٥) برقم (٩٢٩)، وهو عند أحمد (٢٨٨).

لا والله ما قال رسولُ الله قطُّ: إنَّ الميِّتَ يعذَّب ببكاء أحدٍ، ولكنَّه قال: «إنَّ الكافرَ يزيدُه اللهُ ببكاء أهله عذاباً، وإنَّ اللهَ لهو أضحك وأبْكى، وما تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى».

وعنها قالت: مَرَّ النبيُّ ﷺ على قوم من أصحابه وهم يضحكون، فقال: «لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً» فنزل عليه جبريلُ فقال: يا محمد! إنَّ الله يقول لك: «وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى». فرجع إليهم فقال: «ما خطوتُ أربعين خطوةً حتى أتاني جبريلُ فقال: إيتِ هؤلاء فقل لهم: إنَّ اللهَ تعالى يقول: هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى»[1]. أي: قضى أسبابَ الضحك والبكاء. وقال عطاء بن أبي مسلم: يعني: أفرح وأحزن؛ لأنَّ الفرح يجلب الضحك، والحزن يجلب البكاء[2]. وقيل لعمر: هل كان أصحابُ رسولِ الله ﷺ يضحكون؟ قال: نعم! والإيمان واللهِ أثبتُ في قلوبهم من الجبال الرواسي[3]. وقد تقدّم هذا المعنى في «النمل»[4] و «براءة»[5].

قال الحسن: أضحك اللهُ أهلَ الجنة في الجنة، وأبكى أهلَ النار في النار[6]. وقيل: أضحك من شاء في الدنيا بأن سَرَّه، وأبكى من شاء بأن غَمَّه[7]. الضحَّاك: أَضحك الأرض بالنبات، وأَبكى السماء بالمطر[8]. وقيل: أَضحك الأشجار بالنُّوَّار، وأَبكى السحاب بالأمطار[9]. وقال ذو النون: أَضحك قلوبَ المؤمنين والعارفين بشمس معرفته، وأَبكى قلوبَ الكافرين والعاصين بظلمة نكرته ومعصيته. وقال سهل

---

(١) زاد المسير ٨/ ٨٣ ، وأخرجه ابن مردويه كما في الدر المنثور ٦/ ١٣٠ .

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٢٥٥ .

(٣) تفسير البغوي ٤/ ٢٥٥ عن ابن عمر بنحوه.

(٤) عند الآية (١٩).

(٥) ١٠/ ٣١٨ .

(٦) تفسير البغوي ٤/ ٢٥٥ لكن عزاه إلى مجاهد والكلبي.

(٧) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٧٨ .

(٨) تفسير البغوي ٤/ ٢٥٥ .

(٩) مجمع البيان للطبرسي ٢٧/ ٥٩ ، والنُّوَّار: الزهر. اللسان (نور).

ابن عبد الله: أضحك اللهُ المطيعين بالرحمة، وأبكى العاصين بالسخط. وقال محمد ابن علي الترمذيُّ: أضحك المؤمنَ في الآخرة، وأبكاه في الدنيا. وقال بسام بن عبد الله(١): أضحك اللهُ أسنانهم وأبكى قلوبهم. وأنشد:

السِّنُّ تَضحَكُ والأحشاءُ تَحْتَرِقُ وإنَّما ضِحْكُها زُورٌ ومُخْتَلَقُ
يا رُبَّ باكٍ بِعيْنٍ لا دموعَ لها ورُبَّ ضاحِكِ سِنٍّ ما بِهِ رَمَقُ

وقيل: إنَّ الله خصَّ الإنسان بالضحك والبكاء من بين سائر الحيوان، وليس في سائر الحيوان من يضحك ويبكي غير الإنسان. وقد قيل: إنَّ القِرْدَ وحده يضحك ولا يبكي، وإنَّ الإبل وحدها تبكي ولا تضحك(٢). وقال يوسف بن الحسين: سئل طاهر المقدسيُّ: أتضحك الملائكة؟ فقال: ما ضحكوا ولا كلُّ مَن دون العرش منذ خُلِقت جهنَّم.

﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا﴾ أي: قضى أسباب الموت والحياة. وقيل: خَلَق الموت والحياة كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ﴾ [تبارك: ٢] قاله ابن بحر(٣). وقيل: أمات الكافر بالكفر، وأحيا المؤمن بالإيمان(٤)، قال الله تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ﴾ الآية [١٢٢ من سورة الأنعام]. وقال: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام: ٣٦] على ما تقدّم، وإليه يرجع قول عطاء: أمات بِعَدْله، وأحيا بفضله. وقول من قال: أمات بالمَنْع والبخل، وأحيا بالجود والبذل. وقيل: أمات النطفة، وأحيا النَّسَمة. وقيل: أمات الآباء، وأحيا الأبناء. وقيل: يريد بالحياة: الخصب،

---

(١) هو: بسام بن عبد الله الأسدي الكوفي الصيرفي، سمع عكرمة وأبا جعفر محمد بن علي، روى عنه أبو أحمد الزبيري وأهل الكوفة، وعنده مراسيل. التاريخ الكبير ٢/ ١٤٤، والثقات لابن حبان ٦/ ١١٩.

(٢) النكت والعيون ٥/ ٤٠٤.

(٣) النكت والعيون ٥/ ٤٠٤.

(٤) المحرر الوجيز ٥/ ٢٠٧ وعزاه إلى الثعلبي.

وبالموت: الجدب. وقيل: أنام وأيقظ[١]. وقيل: أمات في الدنيا وأحيا للبعث[٢].

﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ﴾ أي: من أولاد آدم، ولم يُرِدْ آدم وحوَّاء بأنهما خُلقا من نُطْفة.

والنطفة: الماء القليل، مشتقٌّ من نطفَ الماءُ: إذا قَطَر[٣]. ﴿تُمْنَىٰ﴾ تُصبُّ في الرحم وتُراق، قاله الكلبيُّ والضحَّاك وعطاء بن أبي رباح[٤]، يقال: مَنَى الرجل وأمْنى من الْمَنِيّ. وسُمِّيت مِنًى بهذا الاسم؛ لما يُمْنَى فيها من الدماء، أي: يُراق[٥]. وقيل: «تُمْنَى» تُقدَّر، قاله أبو عبيدة[٦]. يقال: مَنَيت الشيء: إذا قَدَّرته، ومُنِي له، أي: قُدِّر له، قال الشاعر:

حَتّى تُلَاقِيَ ما يَمْنِي لَكَ الْمَانِي

أي: ما يُقدِّر لك القادر[٧].

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ﴿٤٧﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴿٤٨﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَا فَمَآ أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴿٥٢﴾ وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ﴾ أي: إعادة الأرواح في الأشباح للبعث

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٤٠٤ .

(٢) تفسير أبي الليث ٣/ ٢٩٤ .

(٣) تهذيب اللغة ١٣/ ٣٦٦ .

(٤) تفسير البغوي ٤/ ٢٥٥ ، ولم يعزه للكلبي، وعزاه إليه الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٤٠٥ .

(٥) تهذيب اللغة ١٥/ ٥٣١ .

(٦) في مجاز القرآن له ٢/ ٢٣٨ .

(٧) الصحاح (مني)، والبيت سلف ٢/ ٢١٩ .

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو: «النَّشَاءَةَ» بفتح الشين والمدّ[١]، أي: وعد ذلك، ووَعْده صِدْق. ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ﴾ قال ابن زيد: أغنى من شاء، وأفقر من شاء[٢]، ثم قرأ: ﴿يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ﴾ [العنكبوت: ٦٢] وقرأ: ﴿يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ﴾ [البقرة: ٢٤٥] واختاره الطبريُّ[٣].

وعن ابن زيد أيضاً ومجاهد وقتادة والحسن: «أَغْنَى»: مَوَّلَ، «وأَقْنَى»: أَخْدم[٤].

وقيل: «أَقْنَى» جعل لكم قِنْيَة تقتنونها[٥]، وهو معنى أخدم أيضاً[٦].

وقيل: معناه: أرضى بما أعطى، أي: أغناه ثم رضَّاه بما أعطاه، قاله ابن عباس[٧].

وقال الجوهريُّ[٨]: قَنِيَ الرجل يَقْنَى قِنًى، مثل غَنِيَ يَغْنَى غِنًى، وأقناه اللهُ، أي: أعطاه الله ما يُقتنَى من القُنْية والنَّشَب. وأقناه أيضاً، أي: أرضاه. والقِنَى: الرضا، عن أبي زيد، قال: وتقول العرب: من أُعطِي مئةً من المعز، فقد أُعطِيَ القِنَى، ومن أُعطِي مئةً من الضأن، فقد أُعطِيَ الغنى، ومن أعطي مئة من الإبل، فقد أُعطِيَ المُنى. ويقال: أغناه الله وأقناه، أي: أعطاه ما يَسكُن إليه.

وقيل: «أغنى وأَقْنَى» أي: أغْنَى نفسه، وأفقر خَلْقه إليه، قاله سليمان التيميُّ[٩].

---

(١) السبعة ص٤٩٨، والتيسير ص١٧٣.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٧٩.

(٣) في التفسير ٢٢/ ٨٥ دون ذكر آية البقرة.

(٤) أخرجه الطبري ٢٢/ ٨٣ عن مجاهد وقتادة والحسن.

(٥) غريب القرآن لابن قتيبة ص٤٣٠.

(٦) تفسير البغوي ٤/ ٢٥٦ وعزاه إلى قتادة والحسن، وأخرجه عنهما الطبري ٢٢/ ٨٣.

(٧) تفسير البغوي ٤/ ٢٥٦، وأخرجه عنه الطبري ٢٢/ ٨٣.

(٨) في الصحاح (قني).

(٩) أخرجه الطبري ٢٢/ ٨٤، وأبو الشيخ في العظمة (١٧٦).

وقال سفيان: أغنى بالقناعة، وأقنى بالرضا[(١)]. وقال الأخفش: أقنى: أفقر. قال ابن كيسان: أولد[(٢)]. وهذا راجع لما تقدَّم.

﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعۡرَىٰ﴾ «الشِّعْرَى»: الكوكب المضيء الذي يطلع بعد الجوزاء[(٣)]، وطلوعه في شدَّة الحرِّ، وهما الشِّعريان: العَبُور التي في الجوزاء، والشِّعرى الغُمَيْصَاءُ التي في الذراع[(٤)]، وتزعم العرب أنَّهما أختا سُهَيل.

وإنَّما ذكر أنَّه رَبُّ الشِّعْرى وإن كان ربًّا لغيره؛ لأنَّ العرب كانت تعبده، فأعلمهم اللهُ جلَّ وعزَّ أنَّ الشِّعْرى مربوب وليس بربٍّ. واختلف فيمن كان يعبده، فقال السديُّ: كانت تعبده حِمْيَر وخُزَاعة. وقال غيره: أوَّل من عبَده أبو كبشة ـ أحدُ أجداد النبيِّ ﷺ من قِبَلِ أمَّهاته، ولذلك كان مشركو قريش يسمُّون النبيَّ ﷺ: ابنَ أبي كبشة، حين دعا إلى الله وخالف أديانَهم، وقالوا: ما لقينا من ابنِ أبي كبشة! وقال أبو سفيان يوم الفتح وقد وقف في بعض المضايق وعساكرُ رسول الله ﷺ تمرُّ عليه: لقد أَمِرَ أَمْرُ ابنِ أبي كبشة ـ وقد كان من لا يعبد الشِّعْرى من العرب يعظِّمها ويعتقد تأثيرها في العالم، قال الشاعر:

مضى أَيْلُولُ وارتفع الحَرُورُ ... وأخْبَتْ نارَها الشِّعرى العَبُورُ[(٥)]

وقيل: إنَّ العرب تقول في خرافاتها: إن سُهيْلاً والشِّعرى كانا زوجين، فانحدر

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٤٠٥ .

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٢٥٦ .

(٣) غريب القرآن لابن قتيبة ص٤٣٠ .

(٤) تفسير البغوي ٤/ ٢٥٦ .

(٥) النكت والعيون ٥/ ٤٠٥ عدا ما بين معترضتين فمن النهاية (كبش)، وشرح مشكل الآثار ٢/ ١٨٥ بنحوه، وقول أبي سفيان أخرجه البخاري (٧)، ومسلم (١٧٧٢)، وأحمد (٢٣٧٠) عن ابن عباس رضي الله عنهما. قال ابن الأثير في النهاية (أمر): ومنه حديث أبي سفيان: لقد أَمِرَ أَمْرُ ابن أبي كبشة: أي: كثر وارتفع شأنه، يعني النبي ﷺ. اهـ. والبيت لأبي نواس وهو في ديوانه ص٣٢١ .

سُهَيل فصار يمانيًّا، فاتبعته الشِّعرى العَبُور فعبرت المجرَّة فسمِّيت العبور، وأقامت الغُمَيْصاء فبكت لفقد سُهَيل حتى غَمِصت عيناه فسمِّيت غميصاء؛ لأنَّها أخفى من الأخرى[١].

﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ﴾ سمَّاها الأولى؛ لأنَّهم كانوا مِن قبل ثمود. وقيل: إنَّ ثمود مِن قبل[٢] عاد. وقال ابن زيد: قيل لها: عاد الأولى؛ لأنَّها أوَّل أمَّة أُهلِكت بعد نوح عليه السلام[٣]. وقال ابن إسحاق: هما عادان، فالأُولى أُهلِكت بالريح الصَّرصر، ثم كانت الأُخرى فأهلكت بالصيحة. وقيل: عاد الأولى هو: عاد بن إرَمَ ابنِ عَوْصِ بنِ سامِ بنِ نوحٍ، وعاد الثانية من ولد عادٍ الأولى[٤]. والمعنى متقارب. وقيل: إنَّ عاداً الآخرة الجبَّارون، وهم قوم هود[٥].

وقراءة العامَّة: «عَاداً الأُولَى» ببيان التنوين والهمز. وقرأ نافع وابن مُحَيصِن وأبو عمرو: «عَاداً لُّوْلَى»[٦] بنقل حركة الهمزة إلى اللام وإدغام التنوين فيها، إلا أنَّ قالون والسوسيَّ يُظهِران الهمزة الساكنة. وقلبها الباقون واواً على أصلها، والعرب تقلب هذا القلب فتقول: قُمْ لَانَ عنَّا، وصُمْ لثْنَين، أي: قُمِ الآنَ، وصُمِ الاثنين[٧].

﴿وَثَمُودَا۟ فَمَآ أَبْقَىٰ﴾ ثمود: هم قوم صالح أهلكوا بالصيحة[٨]. قُرِئَ: «ثمُوداً» و«ثَمُود» وقد تقدَّم[٩]. وانتصب على العطف على عاد[١٠].

---

(١) مجمع الأمثال للميداني ٢/ ٣٥٤ بنحوه.

(٢) في (ظ): نسل.

(٣) الكشاف ٤/ ١٢٠ ولم يعزه.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٨٠ وعزاه إلى ابن إسحاق.

(٥) المحرر الوجيز ٥/٢٠٨ .

(٦) السبعة ص٦١٥ ، والتيسير ص٢٠٤ – ٢٠٥ ، والنشر ١/ ٤١٠ ، وحجة القراءات لابن زنجلة ص٦٨٧ .

(٧) معاني القرآن للفراء ٣/ ١٠٢ .

(٨) الوسيط ٤/ ٢٠٥ .

(٩) ٩/ ٢٦٦ .

(١٠) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٨١ .

﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ﴾ أي: وأهلك قوم نوح من قبل عاد وثمود ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ﴾ وذلك لطول مدَّة نوح فيهم[١]، حتى كان الرجل فيهم يأخذ بيد ابنه فينطلق إلى نوح عليه السلام فيقول: احذر هذا؛ فإنه كذَّاب، وإنَّ أبي قد مشى بي إلى هذا وقال لي مثلَ ما قلتُ لك[٢]. فيموت الكبير على الكفر، وينشأ الصغير على وصيَّة أبيه.

وقيل: إنَّ الكناية ترجع إلى كلِّ مَن ذُكر من عاد وثمود وقوم نوح، أي: كانوا أكفرَ من مشركي العرب وأطغى. فيكون فيه تسلية وتعزية للنبيِّ ﷺ، فكأنَّه يقول له: فاصبر أنت أيضاً، فالعاقبة الحميدة لك.

﴿وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ﴾ يعني: مدائن قوم لوط عليه السلام ائتفكت بهم، أي: انقلبت[٣]، وصار عالِيَها سافلها. يقال: أَفَكْته، أي: قلبته وصرفته[٤]. «أَهْوَى» أي: خسف بهم بعد رَفْعها إلى السماء، رفعها جبريل ثم أهوى بها إلى الأرض[٥]. وقال المبرِّد: جعلها تهوي. ويقال: هَوَى ـ بالفتح ـ يَهْوِي هُوِيًّا، أي: سقط[٦]. و«أَهْوَى» أي: أسقط[٧].

﴿فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ﴾ أي: ألبسها ما ألبسها من الحجارة، قال الله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾[٨] [الحجر: ٧٤]، وقيل: إنَّ الكناية ترجع إلى جميع هذه الأمم، أي: غَشَّاها من العذاب ما غشَّاهم، وأُبهم؛ لأنَّ كلًّا منهم أهلِك بضرب غير ما أُهْلِك به الآخر. وقيل: هذا تعظيم الأمر.

---

(١) الوسيط ٤/ ٢٠٥ .

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٨١ ، والمحرر الوجيز ٥/ ٢٠٩ بنحوه، وأخرجه الطبري ٢٢/ ٨٩ عن قتادة.

(٣) غريب القرآن لابن قتيبة ص٤٣٠ .

(٤) الصحاح (أفك).

(٥) تفسير أبي الليث ٣/ ٢٩٥ .

(٦) الصحاح (هوي).

(٧) تهذيب اللغة ٦/ ٤٨٩ .

(٨) تفسير أبي الليث ٣/ ٢٩٥ .

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ﴾ أي: فبأيِّ نِعَمِ ربِّك تشكُّ، والمخاطبة للإنسان المكذِّب، والآلاء: النِّعَم، واحدها: أَلَى وإِلَى وإِلْيٌ[1]. وقرأ يعقوب: «تَمَّارَى» بإدغام إحدى التاءين في الأخرى والتشديد[2].

قوله تعالى: ﴿هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ۝٥٦ أَزِفَتِ ٱلْآزِفَةُ ۝٥٧ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ۝٥٨ أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ۝٥٩ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ۝٦٠ وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ۝٦١ فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟ ۝٦٢﴾

قوله تعالى: ﴿هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ﴾ قال ابن جُرَيج ومحمد بن كعب: يريد أنَّ محمداً ﷺ نذيرٌ بالحقِّ الذي أنذر به الأنبياء قبله[3]، فإن أطعتموه أفلحتم، وإلَّا حلَّ بكم ما حلَّ بمكذِّبي الرسل السالفة.

وقال قتادة: يريد القرآن، وأنَّه نذير بما أنذرت به الكتب الأولى[4].

وقيل: أي: هذا الذي أخبرنا به من أخبار الأمم الماضية الذين هلكوا تخويفٌ لهذه الأمَّة من أن ينزل بهم ما نزل بأولئك من النذر، أي: مثل النذر[5]، والنذر في قول العرب بمعنى الإنذار[6]، كالنُّكُر بمعنى الإنكار، أي: هذا إنذار لكم. وقال أبو مالك: هذا الذي أنذرتكم به من وقائع الأمم الخالية هو في صحف إبراهيم وموسى[7]. وقال السديُّ: أخبرني أبو صالح قال: هذه الحروف التي ذكر الله تعالى من قوله تعالى: «أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى. وَإِبْرَاهِيمَ» إلى قوله: «هَذَا نَذِيرٌ مِنَ

(١) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٨٢ .

(٢) النشر ١/ ٣٠٠ ، وذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص١٤٧ ونسبها إلى ابن محيصن.

(٣) النكت والعيون ٥/ ٤٠٦ ، والمحرر الوجيز ٥/ ٢٠٩ .

(٤) النكت والعيون ٥/ ٤٠٦ .

(٥) معاني القرآن للزجاج ٥/ ٧٨ .

(٦) لسان العرب (نذر).

(٧) أخرجه الطبري ٢٢/ ٩٤ .

النُّذُرِ الْأُولَى» كل هذه في صحف إبراهيم وموسى[(١)].

قوله تعالى: ﴿أَزِفَتِ ٱلْآزِفَةُ﴾ أي: قربت الساعة ودَنَت القيامة. وسمَّاها آزفة؛ لقرب قيامها عنده[(٢)]، كما قال: ﴿يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا . وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا﴾ [المعارج:٦-٧]. وقيل: سماها آزفة؛ لدنوِّها من الناس وقربها منهم[(٣)]؛ ليستعدُّوا لها؛ لأنَّ كلَّ ما هو آتٍ قريب. قال:

أَزِفَ التَّرَحُّلُ غيرَ أنَّ رِكَابَنَا لَمَّا تَزَلْ بِرِحالِنا وكأنْ قَدِ[(٤)]

وفي «الصحاح»[(٥)]: أَزِف الترحُّل يَأْزَف أَزَفاً، أي: دنا وأَفِد، ومنه قوله تعالى: «أَزِفَتِ الْآزِفَةُ» يعني القيامة، وأَزِفَ الرجلُ، أي: عَجِل، فهو آزِف على فاعل، والمتآزِف: القصير وهو المتداني. قال أبو زيد: قلت لأعرابيٍّ ما الْمُحْبَنْطِئُ؟ قال: المتَكَأْكِئُ. قلت: ما الْمُتَكأْكِئُ؟ قال: المتآزِف. قلت: ما المتآزف؟ قال: أنت أحمق! وتركني ومَرَّ.

﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾ أي: ليس لها من دون الله من يؤخِّرها أو يقدِّمها. وقيل: كاشفة، أي: انكشاف، أي: لا يكشف عنها ولا يبديها إلا الله، فالكاشفة اسم بمعنى المصدر، والهاء فيه كالهاءِ في العاقبة والعافية والداهية والباقية[(٦)]، كقولهم: ما لفلان من باقية، أي: من بقاء[(٧)]. وقيل: أي: لا أحد يردُّ ذلك[(٨)]، أي:

(١) سلف ص٥٤ من هذا الجزء عن أبي مالك الغفاري بنحوه.

(٢) النكت والعيون ٥/ ٤٠٦ .

(٣) معاني القرآن للزجاج ٥/ ٧٨ .

(٤) القائل النابغة الذبياني، وهو في ديوانه ص٣٨ ، وفيه: أفد، بدل: أزف، وهما بمعنى. وجاء البيت في البيان والتبيين ٢/ ٢٨٠ كما في الرواية هنا.

(٥) مادة (أزف)، وحكاية أبي زيد الآتية ذكرها أبو طاهر المقرئ في كتابه أخبار النحويين، في ترجمة أبي زيد.

(٦) تفسير البغوي ٤/ ٢٥٧ .

(٧) معاني القرآن للفراء ٣/ ١٠٣ .

(٨) تفسير البغوي ٤/ ٢٥٧ .

إنَّ القيامة إذا قامت لا يكشفها أحدٌ من آلهتهم، ولا ينجِّيهم غير الله تعالى. وقد سمِّيت القيامةُ غاشيةً، فإذا كانت غاشية، كان ردُّها كشفاً، فالكاشفة على هذا نعت مؤنث محذوف، أي: نفس كاشفة، أو: فرقة كاشفة، أو: حال كاشفة. وقيل: إنَّ «كاشِفة» بمعنى كاشف، والهاء للمبالغة، مثل راوية وداهية(١).

قوله تعالى: ﴿أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾ يعني: القرآن. وهذا استفهام توبيخ(٢) ﴿تَعْجَبُونَ﴾ تكذيباً به ﴿وَتَضْحَكُونَ﴾ استهزاءً ﴿وَلَا تَبْكُونَ﴾ انزجاراً وخوفاً من الوعيد(٣). وروي أنَّ النبيَّ ﷺ ما رُئيَ بعد نزول هذه الآية ضاحكاً إلا تبسُّماً(٤).

وقال أبو هريرة: لما نزلت: «أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ» قال أهل الصُّفَّة: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٦] ثم بكوا حتى جرت دموعهم على خدودهم، فلما سمع النبيُّ ﷺ بكاءَهم، بكى معهم، فبكينا لبكائه، فقال النبيُّ ﷺ: «لا يَلِجُ النارَ مَن بكى من خشية الله، ولا يدخل الجنَّة مُصِرٌّ على معصيةِ الله، ولو لم تُذنبوا لذهب اللهُ بكم، ولجاء بقوم يُذنبون، فيغفر لهم ويرحمهم، إنَّه هو الغفور الرحيم»(٥).

وقال أبو حازم: نزل جبريلُ على النبيِّ ﷺ وعنده رجل يبكي، فقال له: من هذا؟ قال: «هذا فلان». فقال جبريل: إنَّا نَزِنُ أعمالَ بني آدم كلَّها إلا البكاء، فإنَّ الله تعالى ليطفئ بالدمعة الواحدة بحوراً من جهنَّم(٦).

قوله تعالى: ﴿وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ﴾ أي: لاهون معرضون. عن ابن عباس، رواه الوالبيُّ والعوفيُّ عنه. وقال عكرمة عنه: هو الغناء بلغة حِمْيَر ـ يقال: سمِّد لنا، أي: غنِّ لنا ـ

(١) المحرر الوجيز ٥/ ٢١٠.

(٢) المحرر الوجيز ٥/ ٢١٠.

(٣) تفسير أبي الليث ٣/ ٢٩٦.

(٤) الكشاف ٤/ ٣٥.

(٥) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان ١/ ٤٨٩ بنحوه.

(٦) أخرجه أحمد في الزهد ص٣٥ عن رجل يقال له: خازم.

فكانوا إذا سمعوا القرآنَ يتلى، تغنوا ولعبوا حتى لا يسمعوا[١]. وقال الضحَّاك: سامدون: شامخون متكبِّرون[٢]. وفي «الصحاح»[٣]: سمَدَ سُمُوداً: رفع رأسه تكبُّراً، وكلُّ رافع رأسه، فهو سامد، قال:

سَــوَامِــدَ الــلَّــيْــلِ خِــفَــافَ الْأَزْوَادْ[٤]

يقول: ليس في بطونها عَلَف. وقال ابن الأعرابيّ: سَمَدْتُ سُمُوداً: علوتُ. وسَمَدتِ الإبلُ في سيرها: جدَّتْ. والسُّمُود: اللَّهو، والسامد: اللَّاهي، يقال للقَيْنة: أسمِدينا، أي: ألهينا بالغناء. وتسميد الأرض: أن يجعل فيها السماد، وهو سِرْجين ورَماد. وتسميد الرأس: استئصال شعره، لغة في التَّسبِيد. واسمأدَّ الرجلُ ـ بالهمز ـ اسْمِئْداداً، أي: وَرِم غضباً.

وروي عن عليٍّ ﷺ أنَّ معنى «سَامِدُونَ»: أن يجلسوا غير مصلِّين ولا منتظرين الصلاة. وقال الحسن: واقفون للصلاة قبل وقوف الإمام، ومنه ما روي عن النبيِّ ﷺ أنَّه خرج والناس ينتظرونه قياماً فقال: «ما لي أراكم سامدين» حكاه الماورديُّ[٥]. وذكره المهدويُّ عن عليٍّ، وأنَّه خرج إلى الصلاة فرأى الناسَ قياماً فقال: «ما لكم سامدون» قاله المهدويُّ[٦].

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ٢٥٧ عدا ما بين معترضتين فمن غريب الحديث لأبي عبيد ٣/ ٤٨١ ، وقول عكرمة أخرجه الطبري ٢٢/ ٩٧ عنه عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه الطبري ٢٢/ ٩٨ ، وأبو يعلى (٢٦٨٥) عن الضحاك، عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) مادة (سمد).

(٤) الراجز رؤبة بن العجاج، وهو في ديوانه ص٣٩ ، وقبله:

قـلَّـصـن تـقـلـيـص الـنـعـام الـوخَّـاد

(٥) في النكت والعيون ٥/ ٤٠٧ ، وفيه قول علي والحسن، والحديث أخرجه أبو عبيد في غريب الحديث ٣/ ٤٨٠ مرفوعاً، وذكر محققه أن في بعض النسخ الخطية: عن علي رحمة الله عليه. اهـ. ولم نقف عليه مرفوعاً، وسيأتي من قول علي في التعليق الآتي.

(٦) وأخرجه ابن أبي شيبة ١/ ٤٠٥ ، والطبري ٢٢/ ١٠٠ .

والمعروف في اللغة: سَمَد يَسْمُد سُمُوداً: إذا لَهَا وأعرض. وقال المبرِّد: سامدون خامدون، قال الشاعر:

أَتَى الحدثَانُ نِسوةَ آلِ حَرْبٍ   بِمَقْدورٍ سَمَدْنَ له سُمُودَا[١]

وقال صالح أبو الخليل: لما قرأ النبيُّ ﷺ: «أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ. وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ. وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ» لم يُرَ ضاحكاً إلا مبتسِّماً حتى مات ﷺ. ذكره النحَّاس[٢].

قوله تعالى: ﴿فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا۩﴾ قيل: المراد به سجود تلاوة القرآن. وهو قولُ ابن مسعود[٣]. وبه قال أبو حنيفة والشافعيُّ[٤]. وقد تقدَّم أوّل السورة[٥] من حديث ابن عباس أنَّ النبيَّ ﷺ سجد فيها، وسجد معه المشركون. وقيل: إنَّما سجد معه المشركون؛ لأنَّهم سمعوا أصواتَ الشياطين في أثناء قراءةِ رسول الله ﷺ عند قوله: «أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى. وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى» وأنَّه قال: تلك الغَرَانِيقُ الْعُلَا وشفاعتهنَّ تُرْتَجَى.كذا في رواية سعيد بن جُبير: ترتجى. وفي رواية أبي العالية: وشفاعتهنَّ ترتضى، ومثلهنَّ لا يُنسى. ففرح المشركون وظنُّوا أنَّه من قول محمد ﷺ، على ما تقدَّم بيانه في «الحج»[٦]. فلما بلغ الخبرُ بالحبشة مَن كان بها من أصحاب النبيِّ ﷺ رجعوا ظنًّا منهم أنَّ أهل مكة آمنوا، فكان أهل مكة أشدَّ عليهم، وأخذوا في

(١) النكت والعيون ٥/ ٤٠٧ ، والبيت اختلف في نسبته، فنسبه المرزباني في معجم الشعراء ص١٧٧ ، وابن قتيبة في عيون الأخبار ٣/ ٦٧ إلى فضالة بن شريك، ونسبه القالي في ذيل الأمالي ٣/ ١١٥ إلى الكميت الأسدي، ونسبه المرزوقي في شرح ديوان الحماسة ٢/ ٩٤١ لعبد الله بن الزبير الأسدي.

(٢) لم نقف عليه عند النحاس، وسلف ص٦٧ من هذا الجزء.

(٣) النكت والعيون ٥/ ٤٠٧ .

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٧٢٣ .

(٥) ص٥ من هذا الجزء.

(٦) ١٤/ ٤٢٥ .

تعذيبهم إلى أن كشف الله عنهم.

وقيل: المراد سجود الفرض في الصلاة، وهو قول ابن عمر، كان لا يراها من عزائم السجود[١]. وبه قال مالك.

وروى أبيٌّ بن كعب ﷺ: كان آخر فِعْلِ النبيِّ ﷺ ترك السجود في المفصَّل. والأوَّل أصحُّ، وقد مضى القول فيه آخر «الأعراف»[٢] مبيناً، والحمد لله ربِّ العالمين.

تم تفسير سورة «والنجم»

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٧٢٣ .

(٢) ٩/ ٤٣٦ .

تفسير سورة النَّجم

وهى مكية.

قال البخارى: حدثنا نصر بن على، أخبرنى أبو أحمد، حدثنا إسرائيل، عن أبى إسحاق، عن الأسود بن يزيد، عن عبد الله قال: أولُ سورة أنزلت فيها سَجْدَة: ﴿ والنَّجم﴾، قال: فسجد رسول الله ﷺ وسجد من خلفه، إلا رجلا رأيته أخذ كفاً من تُرَاب فسجد عليه، فرأيته بعد ذلك قُتِل كافراً، وهو أمية بن خَلَف(١).

وقد رواه البخارى أيضا فى مواضع، ومسلم وأبو داود والنسائى، من طرق، عن أبى إسحاق، به(٢). وقوله فى الممتنع: إنه أمية بن خلف فى هذه الرواية مشكل، فإنه قد جاء من غير هذه الطريق أنه عتبة بن ربيعة.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ (١) مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ (٢) وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ (٣) إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَىٰ (٤) ﴾.

قال الشعبى وغيره: الخالق يُقسِم بما شاء من خَلْقه، والمخلوق لا ينبغى له أن يقسم إلا بالخالق. رواه ابن أبى حاتم.

واختلف المفسرون فى معنى قوله تعالى: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى﴾ فقال ابن أبى نَجِيح، عن مجاهد: يعنى بالنجم: الثُّريَّا إذا سقطت مع الفجر. وكذا رُوى عن ابن عباس، وسفيان الثورى. واختاره ابن جرير. وزعم السدى أنها الزهرة.

وقال الضحاك: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى﴾: إذا رُمى به الشياطين. وهذا القول له اتجاه.

وروى الأعمش، عن مجاهد فى قوله: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى﴾ يعني: القرآن إذا نزل. وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿ فَلا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ . وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ . إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ . فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ .لا يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ .تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الواقعة: ٧٥ ـ ٨٠].

وقوله: ﴿ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى﴾: هذا هو المقسم عليه، وهو الشهادة للرسول، صلوات الله وسلامه عليه، بأنه بار راشد تابع للحق، ليس بضال، وهو: الجاهل الذى يسلك على غير طريق

---

(١) صحيح البخارى برقم (٤٨٦٣).

(٢) صحيح البخارى برقم (١٠٧٠، ٣٨٥٣، ٣٩٧٢) وصحيح مسلم برقم (٥٧٦) وسنن أبى داود برقم (١٤٠٦) وسنن النسائى (٢/ ١٦٠).

بغير علم، والغاوى: هو العالم بالحق العادل عنه قصداً إلى غيره، فنزه الله [سبحانه وتعالى][١] رسوله وشَرْعَه عن مشابهة أهل[٢] الضلال كالنصارى وطرائق اليهود، وعن[٣] علم الشىء وكتمانه والعمل بخلافه، بل هو، صلوات الله وسلامه عليه، وما بعثه الله به من الشرع العظيم فى غاية الاستقامة والاعتدال والسداد؛ ولهذا قال: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ أى: ما يقول قولا عن هوى وغرض، ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ أى: إنما يقول ما أمر به، يبلغه إلى الناس كاملا موفَّراً من غير زيادة ولا نقصان، كما رواه الإمام أحمد.

حدثنا يزيد، حدثنا حَرِيز بن عثمان، عن عبد الرحمن بن مَيْسَرَة، عن أبى أمامة؛ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «ليدخلنّ الجنة بشفاعة رجل ليس بنبى مثلُ الحيين ـ أو: مثل أحد الحيين ـ: رَبِيعة ومُضَر». فقال رجل: يا رسول الله، أو ما ربيعة من مضر؟ قال: «إنما أقول ما أقول»[٤].

وقال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن سعيد، عن عُبَيد الله بن الأخنس، أخبرنا الوليد بن عبد الله، عن يوسف بن مَاهَك، عن عبد الله بن عمرو قال: كنت أكتب كل شىء أسمعه من رسول الله ﷺ أريد حفظه، فنهتنى قريش فقالوا: إنك تكتب كل شىء تسمعه من رسول الله، ورسول الله ﷺ بشر، يتكلم فى الغضب. فأمسكتُ عن الكتاب، فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ، فقال: «اكتب، فوالذى نفسى بيده، ما خرج منى إلا حق».

ورواه أبو داود عن مُسَدَّد وأبى بكر بن أبى شيبة، كلاهما عن يحيى بن سعيد القَطَّان، به[٥].

وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا أحمد بن منصور، حدثنا عبد الله بن صالح، حدثنا الليث، عن ابن عَجْلان، عن زيد بن أسلم، عن أبى صالح، عن أبى هُرَيرة، عن النبى ﷺ قال: «ما أخبرتكم أنه الذى من عند الله، فهو الذى لا شَكّ فيه». ثم قال: لا نعلمه يُروَى إلا بهذا الإسناد[٦].

وقال الإمام أحمد: حدثنا يونس، حدثنا ليث، عن محمد، عن سعيد بن أبى سعيد، عن أبى هريرة، عن رسول الله ﷺ، أنه قال: «لا أقول إلا حقا». قال بعض أصحابه: فإنك تداعبنا يا رسول الله؟ قال: «إنى لا أقول إلا حقا»[٧].

﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ۝٥ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ ۝٦ وَهُوَ بِالأُفُقِ الأَعْلَىٰ ۝٧ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ۝١٠ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا

---

(١) زيادة من م. (٢) فى م: «أصحاب». (٣) فى م: «وهى».

(٤) المسند (٥/٢٥٧) وقال الهيثمى فى المجمع (١٠/٣٨١): «رجال أحمد رجال الصحيح غير عبد الرحمن بن ميسرة وهو ثقة».

(٥) المسند (٢/١٦٢) وسنن أبى داود برقم (٣٦٤٦).

(٦) مسند البزار برقم (٢٠٣) «كشف الأستار» وقال الهيثمى فى المجمع (١/١٧٩): «فيه أحمد بن منصور الرمادى وهو ثقة، وفيه كلام لا يضر وبقية رجاله رجال الصحيح، وعبد الله بن صالح مختلف فيه».

(٧) المسند (٢/٣٤٠) ورواه الترمذى فى السنن برقم (١٩٩٠) من طريق المقبرى به وقال: «هذا حديث حسن صحيح».

رأَىٰ (١١) أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ (١٢) وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ (١٣) عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ (١٤) عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ (١٥) إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ (١٦) مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ (١٧) لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ (١٨)﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن عبده ورسوله محمد ﷺ أنه عَلَّمه الذى جاء به إلى الناس ﴿**شَدِيدُ الْقُوَىٰ**﴾، وهو جبريل، عليه السلام، كما قال: ﴿ **إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ . ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ .مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ** ﴾ [التكوير: ١٩ ـ ٢١].

وقال هاهنا: ﴿**ذُو مِرَّةٍ**﴾ أى: ذو قوة. قاله مجاهد، والحسن، وابن زيد. وقال ابن عباس: ذو منظر حسن.

وقال قتادة: ذو خَلْق طويل حسن.

ولا منافاة بين القولين؛ فإنه، عليه السلام، ذو منظر حسن، وقوة شديدة. وقد ورد الحديث الصحيح من رواية أبى هريرة وابن عمرو[1] أن النبى ﷺ قال: «لا تحل الصدقة لغنيٍّ، ولا لِذِي مرّة سَوِيّ»[2].

وقوله: ﴿**فَاسْتَوَىٰ**﴾ يعنى: جبريل، عليه السلام. قاله مجاهد والحسن وقتادة، والربيع بن أنس ﴿ **وَهُوَ بِالأُفُقِ الأَعْلَىٰ**﴾ يعنى: جبريل، استوى فى الأفق الأعلى. قاله عكرمة وغير واحد. قال عكرمة: والأفق الأعلى: الذى يأتى منه الصبح. وقال مجاهد: هو مطلع الشمس. وقال قتادة: هو الذى يأتى منه النهار. وكذا قال ابن زيد، وغيرهم.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبو زُرْعَة، حدثنا مُصَرِّف بن عمرو اليامى أبو القاسم، حدثنا عبد الرحمن بن محمد بن طلحة بن مصرف، حدثنى أبى، عن الوليد ـ هو ابن قيس ـ عن إسحاق بن أبى الكَهْتَلَة أظنه ذكره عن عبد الله بن مسعود أن رسول الله ﷺ لم ير جبريل فى صورته إلا مرتين، أما واحدة فإنه سأله أن يراه فى صورته فسد الأفق. وأما الثانية فإنه كان معه حيث صعد، فذلك[3] قوله: ﴿ **وَهُوَ بِالأُفُقِ الأَعْلَىٰ**﴾.

وقد قال ابن جرير هاهنا قولا لم أره لغيره، ولا حكاه هو عن أحد، وحاصله: أنه ذهب إلى أن المعنى: ﴿**فَاسْتَوَىٰ**﴾ أى: هذا الشديد القوى ذو المرة هو ومحمد صلى الله عليهما وسلم ﴿ **بِالأُفُقِ الأَعْلَىٰ**﴾ أى: استويا جميعا بالأفق، وذلك ليلة الإسراء كذا قال، ولم يوافقه أحد على ذلك. ثم

(١) فى م: «ابن عمرو وأبى هريرة».

(٢) حديث عبد الله بن عمرو: رواه أبو داود فى السنن برقم (١٦٣٤) والترمذى فى السنن برقم (٦٥٢) عن ريحان بن يزيد عنه وحديث أبى هريرة: رواه النسائى فى السنن (٥/ ٩٩) وبن ماجه فى السنن برقم (١٨٣٩) عن سالم بن أبى الجعد عنه.

(٣) فى م: «فكذلك».

شرع يوجه ما قال من حيث العربية فقال: وهذا كقوله تعالى: ﴿أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاؤُنَا﴾ [النمل: ٦٧]، فعطف بالآباء على المكنّى فى ﴿كنا﴾ من غير إظهار «نحن»، فكذلك قوله: ﴿فَاسْتَوَىٰ. وَهُوَ﴾ قال: وذكر الفراء عن بعض العرب أنه أنشده:

ألم تَرَ أنّ النبعَ يَصْلُبُ عُودُه ... ولا يَسْتَوى والخِرْوعُ المُتَقصِّفُ[١]

وهذا الذى قاله من جهة العربية متجه، ولكن لا يساعده المعنى على ذلك؛ فإن هذه الرؤية لجبريل لم تكن ليلة الإسراء، بل قبلها، ورسولُ الله ﷺ فى الأرض، فهبط عليه جبريل، عليه السلام، وتدلى إليه، فاقترب منه وهو على الصورة التى خلقه الله عليها، له ستمائة جناح، ثم رآه بعد ذلك نزلة أخرى عند سدرة المنتهى، يعنى ليلة الإسراء، وكانت هذه الرؤية الأولى فى أوائل البعثة بعد ما جاءه جبريل، عليه السلام، أول مرة، فأوحى الله إليه صدر سورة «اقرأ»، ثم فتر الوحى فترة ذهب النبى ﷺ فيها مرارا ليتردى من رؤوس الجبال، فكلما هَمّ بذلك ناداه جبريل من الهواء: «يا محمد، أنت رسول الله حقا، وأنا جبريل». فيسكن لذلك جأشه، وتقر عينه، وكلما طال عليه الأمر عاد لمثلها، حتى تَبَدّى له جبريل ورسول الله ﷺ فى الأبطح فى صورته التى خلقه الله عليها، له ستمائة جناح قد سد عُظْم خلقه الأفق، فاقترب منه[٢]، وأوحى إليه عن الله، عز وجل، ما أمره به، فعرف عند ذلك عظمة المَلَك الذى جاءه بالرسالة، وجلالة قَدْره، وعلوّ مكانته عند خالقه الذى بعثه إليه. فأما الحديث الذى رواه الحافظ أبو بكر البزار فى مسنده حيث قال:

حدثنا سلمة بن شَبِيب، حدثنا سعيد بن منصور، حدثنا الحارث بن عبيد، عن أبى عمران الجَوْنى، عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «بينا أنا قاعد إذ جاء جبريل، عليه السلام، فوكَزَ بين كتفى، فقمت إلى شجرة فيها كَوَكْرَى الطير، فقعد فى أحدهما وقعدت فى الآخر. فَسَمَت وارتفعت حتى سَدّت الخافقين وأنا أقلب طرفى، ولو شئت أن أمس السماء لمسست، فالتفت إلى جبريل كأنه حِلْس لاط[٣] فعرفتُ فضل علْمه بالله على. وفُتِح لى بابٌ من أبواب السماء ورأيت النور الأعظم، وإذا دونَ الحجاب رفرفة الدر والياقوت. وأوحى إلى ما شاء الله أن يوحى».

ثم قال البزار: لا يرويه إلا الحارث بن عبيد، وكان رجلا مشهورا من أهل البصرة[٤].

قلت: الحارث بن عُبَيد هذا هو أبو قدامة الإيادى، أخرج له مسلم فى صحيحه إلا أن ابن معين ضعَّفه، وقال: ليس هو بشىء. وقال الإمام أحمد: مضطرب الحديث. وقال أبو حاتم الرازى: كتب حديثه ولا يحتج به. وقال ابن حبان: كَثُر وَهَمه فلا يجوز الاحتجاج به إذا انفرد. فهذا الحديث من غرائب رواياته، فإن فيه نكارة وغرابة ألفاظ وسياقاً عجيبا، ولعله منام، والله أعلم.

وقال الإمام أحمد: حدثنا حجاج، حدثنا شريك، عن عاصم، عن أبى وائل، عن عبد الله

(١) البيت فى تفسير الطبرى (٢٧/ ٢٥) وهو لجرير بن عطية.
(٢) فى م: «وأقرب منه».
(٣) فى م: «لاطى».
(٤) مسند البزار برقم (٥٨).

قال: رأى رسول الله ﷺ جبريل فى صورته وله ستمائة جناح، كل جناح منها قد سَدّ الأفق، يسقط من جناحه من التهاويل والدر والياقوت ما الله به عليم[١]. انفرد به أحمد[٢].

وقال أحمد: حدثنا يحيى بن آدم، حدثنا أبو بكر بن عياش، عن إدريس بن مُنَبِّه، عن وهب بن منبه، عن ابن عباس قال: سأل النبى ﷺ جبريل أن يراه فى صورته، فقال: ادع ربك. فدعا ربه، عز وجل، فطلع عليه سواد من قبل المشرق، فجعل يرتفع وينتشر، فلما رآه النبى ﷺ صعِق، فأتاه فَنَعَشَه ومسح البزاق عن شِدْقه.

انفرد به أحمد[٣]. وقد رواه ابن عساكر فى ترجمة «عتبة بن أبى لهب»، من طريق محمد بن إسحاق، عن عثمان بن عروة بن الزبير، عن أبيه، عن هَبَّار بن الأسود قال: كان أبو لهب وابنه عتبة قد تجهزا إلى الشام، فتجهزت معهما، فقال ابنه عتبة: والله لأنطلقن إلى محمد ولأوذينه فى ربه، سبحانه، فانطلق حتى أتى النبى ﷺ، فقال: يا محمد، هو يكفر بالذى دنى فتدلى، فكان قاب قوسين أو أدنى. فقال النبى ﷺ: «اللهم ابعث إليه كلبا من كلابك». ثم انصرف عنه فرجع إلى أبيه فقال: يا بنى، ما قلت له؟ فذكر له ما قال له، قال: فما قال لك؟ قال: قال: «اللهم سلط عليه كلبا من كلابك» قال: يا بنى، والله ما آمنُ عليك دُعاءه فسرنا حتى نزلنا الشراة، وهى مأْسَدَة، ونزلنا إلى صَوْمَعة راهب، فقال الراهب: يا معشر العرب، ما أنزلكم هذه البلاد، فإنها تسرح الأُسْدُ فيها كما تسرح الغنم؟ فقال لنا أبو لهب: إنكم قد عرفتم كبر سنى وحقى، وإن هذا الرجل قد دعا على ابنى دعوةً ـ والله ـ ما آمنها عليه، فاجمعوا متاعكم إلى هذه الصومعة، وافرشوا لابنى عليها، ثم افرشوا حولها. ففعلنا، فجاء الأسد فَشَمّ وجوهنا، فلما لم يجد ما يريد تَقَبّض، فوثب، فإذا هو فوق المتاع، فشم وجهه ثم هزمه هَزْمة فَفَضخ رأسه. فقال أبو لهب: قد عرفت أنه لا ينفلت عن دعوة محمد[٤].

وقوله: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾ أى: فاقترب جبريل إلى محمد لما هبط عليه إلى الأرض، حتى كان بينه وبين محمد ﷺ قاب قوسين، أى: بقدرهما إذا مُدّا. قاله[٥] مجاهد، وقتادة.

وقد قيل: إن المراد بذلك بُعدُ ما بين وتر القوس إلى كبدها.

وقوله: ﴿أَوْ أَدْنَى﴾، قد تقدم أن هذه الصيغة تستعمل فى اللغة لإثبات المخبر عنه ونفى ما زاد عليه، كقوله: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ [البقرة: ٧٤]، أى: ما هى بألين من الحجارة، بل هى مثلها أو تزيد عليها فى الشدة والقسوة. وكذا قوله: ﴿يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾ [النساء: ٧٧]، وقوله: ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ [الصافات:

---

(١) فى أ: «أعلم».
(٢) المسند (١/ ٣٩٥).
(٣) المسند (١/ ٣٢٢).
(٤) لم أجد ترجمة عتبة بن أبى لهب فى تاريخ دمشق المخطوط ولا فى مختصره لابن منظور.
وقد روى الأثر أبو نعيم فى دلائل النبوة ص (٣٨٩) من طريق محمد بن إسحاق به.
(٥) فى م: «قال».

١٤٧]، أى: ليسوا أقل منها بل هم مائة ألف حقيقة، أو يزيدون عليها. فهذا تحقيق للمخبر به لا شك ولا تردد[١]، فإن هذا ممتنع هاهنا، وهكذا هذه الآية: ﴿ **فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى**﴾.

وهذا الذى قلناه، من أن هذا المقترب الدانى الذى صار بينه وبين محمد ﷺ، إنما هو جبريل، عليه السلام، هو قول أم المؤمنين عائشة، وابن مسعود، وأبى ذر، وأبى هريرة، كما سنورد أحاديثهم قريبا إن شاء الله. وروى مسلم فى صحيحه، عن ابن عباس أنه قال: «رأى محمد ربه بفؤاده مرتين»[٢]. فجعل هذه إحداهما. وجاء فى حديث شريك بن أبى نمر، عن أنس فى حديث الإسراء: «ثم دنا الجبار رب العزة فتدلى» ولهذا تكلم[٣] كثير من الناس فى متن هذه الرواية، وذكروا أشياء فيها من الغرابة، فإن صح فهو محمول على وقت آخر وقصة أخرى، لا أنها تفسير لهذه الآية؛ فإن هذه كانت ورسول الله ﷺ فى الأرض لا ليلة الإسراء؛ ولهذا قال بعده: ﴿**وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ .عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ**﴾، فهذه هى ليلة الإسراء، والأولى كانت فى الأرض.

وقد قال ابن جرير: حدثنا محمد بن عبد الملك بن أبى الشوارب، حدثنا عبد الواحد بن زياد، حدثنا سليمان الشيبانى، حدثنا زر بن حبيش قال: قال عبد الله بن مسعود فى هذه الآية: ﴿ **فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى**﴾، قال: قال رسول الله ﷺ: «رأيت جبريل له ستمائة جناح»[٤].

وقال ابن وهب: حدثنا ابن لَهيعة، عن أبى الأسود، عن عُرْوَة، عن عائشة قالت: كان أولَ شأن رسول الله ﷺ أنه رأى فى منامه جبريل بأجياد، ثم إنه خرج ليقضى حاجته فصرخ به جبريل: يا محمد، يا محمد. فنظر رسول الله ﷺ يمينا وشمالا فلم ير شيئاً[٥] ـ ثلاثاً ـ ثم رفع بصره فإذا هو ثان إحدى رجليه مع[٦] الأخرى على أفق السماء فقال: يا محمد، جبريل، جبريلُ ـ يُسكنّه ـ فهرب النبى ﷺ حتى دخل فى الناس، فنظر فلم ير شيئا، ثم خرج من الناس، ثم نظر فرآه، فدخل فى الناس فلم ير شيئاً، ثم خرج فنظر فرآه، فذلك قول الله عز وجل: ﴿**وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ . [مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ]**[٧]﴾، إلى قوله: ﴿ **ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ** ﴾، يعنى جبريل إلى محمد، ﴿**فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ**﴾: ويقولون: القاب نصف الإصبع. وقال بعضهم: ذراعين كان بينهما.

رواه ابن جرير وابن أبى حاتم، من حديث ابن وهب[٨]. وفى حديث الزهرى عن أبى سلمة، عن جابر شاهد لهذا.

وروى البخارى عن طَلْق بن غنام، عن زائدة، عن الشيبانى قال: سألت زراً عن قوله: ﴿ **فَكَانَ**

(١) فى م، أ: «ولا ترديد».
(٢) صحيح مسلم برقم (١٧٦).
(٣) فى م:«ولهذا قد تكلم».
(٤) تفسير الطبرى (٢٧/٢٧).
(٥) فى م: «أحداً». (٦) فى م، أ: «على». (٧) زيادة من م.
(٨) تفسير الطبرى (٢٧/٢٧).

قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ . فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَى﴾ قال: حدثنا عبد الله أن محمداً ﷺ رأى جبريل له ستمائة جناح[١].

وقال ابن جرير: حدثنى ابن بَزِيع البغدادى، حدثنا إسحاق بن منصور، حدثنا إسرائيل، عن أبى إسحاق، عن عبد الرحمن بن يزيد، عن عبد الله: **﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾** قال: رأى رسول الله ﷺ جبريل عليه حلتا[٢] رفرف، قد ملأ ما بين السماء والأرض[٣].

فعلى ما ذكرناه يكون قوله: **﴿ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَى﴾** معناه: فأوحى جبريل إلى عبد الله محمد ما أوحى. أو: فأوحى الله إلى عبده محمد ما أوحى بواسطة جبريل وكلا المعنيين صحيح، وقد ذُكر عن سعيد بن جبير فى قوله: **﴿ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَى﴾**، قال: أوحى إليه: «ألم أجدك يتيما»، **﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾**[الشرح: ٤].

وقال غيره: أوحى [الله][٤] إليه أن الجنة محرمة على الأنبياء حتى تدخلها، وعلى الأمم حتى تدخلها أمتك.

وقوله: **﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ . أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ﴾**: قال مسلم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا وَكِيع، حدثنا الأعمش، عن زياد بن حُصَين، عن أبى العالية، عن ابن عباس: **﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾**، **﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى﴾** قال: رآه بفؤاده مرتين[٥].

وكذا رواه سِمَاك، عن عكرمة، عن ابن عباس، مثله. وكذا قال أبو صالح والسّدى وغيرهما: إنه رآه بفؤاده مرتين [أو مرة][٦]، وقد خالفه ابن مسعود وغيره[٧]، وفى رواية عنه أنه أطلق الرؤية، وهى محمولة على المقيدة بالفؤاد. ومن روى عنه بالبصر فقد أغرب، فإنه لا يصح فى ذلك شىء عن الصحابة، رضى الله عنهم، وقولُ البغوى فى تفسيره: وذهب جماعة إلى أنه رآه بعينه، وهو قول أنس والحسنُ وعكرمة. فيه نظر، والله أعلم[٨].

وقال الترمذى: حدثنا محمد بن عمرو بن نَبْهان[٩] بن صفوان، حدثنا يحيى بن كثير العنبرى، عن سَلْم بن جعفر، عن الحكم بن أبان، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: رأى محمد ربه قلت: أليس الله يقول: **﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾**؟ [الأنعام: ١٠٣] قال: ويحك! ذاك إذا تَجَلى بنوره الذى هو نُورُه، وقد رأى ربه مرتين.

---

(١) صحيح البخارى برقم (٤٨٥٧).
(٢) فى م، أ: «ليا».
(٣) تفسير الطبرى (٢٧/ ٢٩).
(٤) زيادة من أ.
(٥) صحيح مسلم برقم (١٧٦).
(٦) زيادة من م .
(٧) فى م: «ابن عمرو عنه».
(٨) انظر تفسير البغوى (٧/ ٤٠٣).
(٩) فى م: «منهال».

ثم قال: حسن غريب[١].

وقال أيضا: حدثنا ابن أبى عمر، حدثنا سفيان، عن مجالد، عن الشعبى قال: لقى ابن عباس كعباً بعرفة، فسأله عن شىء فكَبَّر حتى جاوبته الجبال، فقال ابن عباس: إنا بنو هاشم فقال كعب: إن الله قسم رؤيته وكلامه بين محمد وموسى، فكلم موسى مرتين ورآه محمد مرتين. وقال مسروق: دخلتُ على عائشة فقلت: هل رأى محمد ربه؟ فقالت: لقد تكلمت بشىء قَفَّ له شعرى. فقلت: رُوَيداً، ثم قرأتُ: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ﴾.

فقالت: أين يُذهَبُ بك؟ إنما هو جبريل، من أخبرك أن محمدا رأى ربه أو كتم شيئا مما أُمرَ به، أو يعلم الخمس التى قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ﴾ [لقمان: ٣٤]، فقد أعظم الفرية[٢]، ولكنه رأى جبريل، لم يره فى صورته إلا مرتين، مرة عند سدرة المنتهى ومرة فى جياد[٣]، وله ستمائة جناح قد سد الأفق[٤].

وقال النسائى: حدثنا إسحاق بن إبراهيم، حدثنا معاذ بن هشام، حدثنى أبى، عن قتادة، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: أتعجبون أن تكون الخُلَّة لإبراهيم، والكلام لموسى، والرؤية لمحمد، عليهم السلام؟!‏[٥].

وفى صحيح مسلم، عن أبى ذر قال: سألت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: هل رأيتَ ربك؟ فقال: «نور أنى أراه». وفى رواية: «رأيت نورا»[٦].

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا أبو خالد، عن موسى بن عُبيدةَ، عن محمد ابن كعب قال: قالوا: يا رسول الله، رأيت[٧] ربك؟ قال: «رأيته بفؤادى مرتين» ثم قرأ: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ﴾.

ورواه ابنُ جرير، عن ابن حُمَيد، عن مِهْرَان، عن موسى بن عبيدة، عن محمد بن كعب، عن بعض أصحاب النبى ﷺ قال: قلنا: يا رسول الله، هل رأيت ربك؟ قال: «لم أره بعينى، ورأيته بفؤادى مرتين» ثم تلا: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ﴾[٨].

---

(١) سنن الترمذى برقم (٣٢٧٩).
(٢) فى م: «أعظم على الله الفرية».
(٣) فى م: «أجنادين».
(٤) سنن الترمذى برقم (٣٢٧٨).
(٥) النسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٥٣٩).
(٦) صحيح مسلم برقم (١٧٨).
(٧) فى أ: «هل رأيت».
(٨) تفسير الطبرى (٢٧/٢٧).

ثم قال ابن أبى حاتم: وحدثنا الحسن بن محمد بن الصباح، حدثنا محمد بن عبد الله الأنصارى، أخبرنى عبّاد بن منصور قال: سألت عكرمة: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾، فقال عكرمة: تريد أن أخبرك أنه قد رآه؟ قلت: نعم. قال: قد رآه، ثم قد رآه. قال: فسألت عنه الحسن فقال: رأى جلاله وعَظَمته ورِداءَه.

وحدثنا أبى، حدثنا محمد بن مجاهد، حدثنا أبو عامر العَقَدى، أخبرنا أبو خلدة، عن أبى العالية قال: سُئِل رسولُ الله ﷺ: هل رأيت ربك؟ قال: «رأيت نهرا، ورأيت وراء النهر حجابا، ورأيت وراء الحجاب نورا لم أر غير»[١].

وذلك غريب جدا، فأما الحديث الذى رواه الإمام أحمد:

حدثنا أسود بن عامر، حدثنا حماد بن سلمة، عن قتادة، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «رأيت ربى عز وجل»[٢].

فإنه حديث إسناده على شرط الصحيح، لكنه مختصر من حديث المنام كما رواه الإمام أحمد أيضا:

حدثنا عبد الرزاق، حدثنا مَعْمَر، عن أيوب، عن أبى قِلاَبة عن ابن عباس؛ أن رسول الله ﷺ قال: «أتانى ربى الليلة فى أحسن صورة ـ أحسبه يعنى فى النوم ـ فقال: يا محمد، أتدرى فيم يختصم الملأ الأعلى؟» قال: «قلت: لا. فوضع يده بين كتفى حتى وجدت بَرْدَها بين ثديىّ ـ أو قال: نَحْرِى ـ فعلمت ما فى السموات وما فى الأرض، ثم قال: يا محمد، هل تدرى فيم يختصم الملأ الأعلى؟» قال: «قلت: نعم، يختصمون فى الكفارات والدرجات». قال: «وما الكفارات والدرجات؟» قال: «قلت: المكث فى المساجد بعد الصلوات، والمشى على الأقدام إلى الجُمُعات[٣]، وإبلاغ الوضوء فى المكاره، من فعل ذلك عاش بخير ومات بخير، وكان من خطيئته كيوم ولدته أمه. وقال: قل يا محمد إذا صليت: اللهم، إنى أسألك الخيرات[٤] وترك المنكرات، وحبّ المساكين، وإذا أردت بعبادك فتنة أن تقبضنى إليك غير مفتون». قال: «والدرجات بَذْلُ الطعام، وإفشاء السلام، والصلاة بالليل والناس نيام»[٥].

وقد تقدم فى آخر سورة «ص»، عن معاذ، نحوه[٦]. وقد رواه ابن جرير من وجه آخر عن ابن عباس، وفيه سياق آخر وزيادة غريبة فقال:

حدثنى أحمد بن عيسى التميمى، حدثنى سليمان بن عُمَر بن سَيَّار، حدثنى أبى، عن سعيد بن زَرْبِى، عن عمر بن سليمان[٧]، عن عطاء، عن ابن عباس قال: قال النبى ﷺ: «رأيت ربى فى

(١) ورواه ابن المنذر كما فى الدر المنثور (٧/ ٦٤٨) وهو مرسل.
(٢) المسند (١/ ٢٨٥).
(٣) فى هـ، أ: «الجماعات».
(٤) فى م: «إنى أسألك فعل الخيرات».
(٥) المسند (١/ ٣٦٨).
(٦) انظر تفسير الآية: ٦٩ من سورة «ص».
(٧) فى أ: «سليم».

أحسن صورة فقال لى: يا محمد، هل تدرى فيم يختصم الملأ الأعلى؟ فقلت: لا يارب. فوضع يده بين كتفى فوجدت بَرْدَها بين ثديىّ، فعلمت ما فى السموات والأرض، فقلت: يارب، فى الدرجات والكفارات، ونقل الأقدام إلى الجُمُعات[١]، وانتظار الصلاة بعد الصلاة. فقلت: يارب، إنك اتخذت إبراهيم خليلا، وكلمتَ موسى تكليما، وفعلت وفعلت، فقال: ألم أشرح لك صدرك؟ ألم أضع عنك وِزْرَك؟ ألم أفعل بك؟ ألم أفعل؟» قال: «فأفضى إلى بأشياء لم يؤذن لى أن أحدثكموها» قال: «فذاك قوله فى كتابه: ﴿ **ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ . فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ . فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ . مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ**﴾، فجعل نور بصرى فى فؤادى، فنظرت إليه بفؤادى» . إسناده ضعيف[٢].

وقد ذكر الحافظ ابن عساكر بسنده إلى هَبَّار بن الأسود، رضى الله عنه؛ أن عتبة بن أبى لهب لما خرج فى تجارة إلى الشام قال لأهل مكة: اعلموا أنى كافر بالذى دنا فتدلى. فبلغ قوله رسولَ الله ﷺ، فقال: «سَلَّطَ الله عليه كلبا من كلابه». قال هبار: فكنت معهم، فنزلنا بأرض كثيرة الأسد، قال: فلقد رأيت الأسد جاء فجعل يَشَمّ رؤوس القوم واحدا واحدا، حتى تخطى إلى عتبة فاقتطع رأسه من بينهم[٣].

وذكر ابن إسحاق وغيره فى السيرة: أن ذلك كان بأرض الزرقاء، وقيل: بالسراة، وأنه خاف ليلتئذ، وأنهم جعلوه بينهم وناموا من حوله، فجاء الأسد فجعل يزأر، ثم تخطاهم إليه فضغم رأسه، لعنه الله.

وقوله: ﴿**وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ . عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ . عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ**﴾، هذه هى المرة الثانية التى رأى رسول الله ﷺ فيها جبريل على صورته التى خلقه الله عليها، وكانت ليلة الإسراء. وقد قدمنا الأحاديث الواردة فى الإسراء بطرقها وألفاظها فى أول سورة «سبحان» بما أغنى عن إعادته هاهنا، وتقدم أن ابن عباس، رضى الله عنهما، كان يثبت الرؤية ليلة الإسراء، ويستشهد بهذه الآية. وتابعه جماعة من السلف والخلف، وقد خالفه جماعات من الصحابة، رضى الله عنهم، والتابعين وغيرهم.

وقال الإمام أحمد: حدثنا حسن بن موسى، حدثنا حماد بن سلمة، عن عاصم بن بَهْدَلَة، عن زر بن حُبَيْش، عن ابن مسعود فى هذه الآية: ﴿**وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ . عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ**﴾، قال: قال رسول الله ﷺ: «رأيت جبريل وله ستمائة جناح، ينتثر من ريشه التهاويل: الدرّ والياقوت»[٤]. وهذا إسناد جيد قوى.

وقال أحمد أيضا: حدثنا يحيى بن آدم، حدثنا شَرِيك، عن جامع بن أبى راشد، عن أبى وائل،

---

(١) فى أ: «الجماعات».
(٢) تفسير الطبرى (٢٧/ ٢٨).
(٣) مختصر تاريخ دمشق لابن منظور (٢٧/ ٦٣) ولم يقع لى فى ترجمته فيما بين يدى من مخطوطات تاريخ دمشق.
(٤) المسند (١/ ٤٦٠).

عن عبد الله قال: رأى رسول الله ﷺ جبريل فى صورته وله ستمائة جناح، كل جناح منها قد سد الأفق: يسقط من جناحه من التهاويل والدر والياقوت ما الله به عليم»[١] . إسناده حسن أيضا.

وقال أحمد أيضا: حدثنا زيد بن الحُبَاب، حدثنى حسين، حدثنى عاصم بن بَهْدَلَة قال: سمعت شَقِيق بن سلمة يقول: سمعت ابن مسعود يقول: قال: رسول الله ﷺ: «رأيت جبريل على سدرة[٢] المنتهى، وله ستمائة جناح» سألت عاصما عن الأجنحة، فأبى أن يخبرنى، قال: فأخبرنى بعض أصحابه أن الجناح ما بين المشرق والمغرب[٣] . وهذا أيضا إسناد جيد.

وقال أحمد: حدثنا زيد بن الحباب، حدثنى حسين، حدثنى عاصم بن بَهْدلة[٤]، حدثنى[٥] شقيق[٦] قال[٧]: سمعت ابن مسعود يقول: قال رسول الله ﷺ: «أتانى جبريل،عليه السلام، فى خُضر معلق به الدر[٨]»[٩] . إسناد جيد أيضا.

وقال الإمام أحمد: حدثنى يحيى، عن إسماعيل، حدثنا عامر قال: أتى مسروقُ عائشة فقال: يا أم المؤمنين، هل رأى محمد ﷺ ربه عز وجل؟ قالت: سبحان الله لقد قَفّ شعرى لما قلت، أين أنت من ثلاث من حَدّثكهن فقد كذب: من حدثك أن محمداً رأى ربه فقد كذب، ثم قرأت: ﴿ **لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ** ﴾ [الأنعام: ١٠٣]، ﴿ **وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ** ﴾ [الشورى: ٥١]، ومن أخبرك أنه يعلم ما في غد فقد كذب، ثم قرأت: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ** ﴾الآية [لقمان: ٣٤] ، ومن أخبرك أن محمدا قد كتم[١٠]، فقد كذب، ثم قرأت: ﴿ **يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ** ﴾ [المائدة: ٦٧] ولكنه رأى جبريل فى صورته مرتين[١١] .

وقال أحمد أيضا: حدثنا محمد بن أبى عدى، عن داود، عن الشعبى، عن مسروق قال: كنت عند عائشة فقلت: أليس الله يقول: ﴿ **وَلَقَدْ رَآهُ بِالأُفُقِ الْمُبِينِ** ﴾ [التكوير: ٢٣]، ﴿ **وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى** ﴾؟ فقالت: أنا أول هذه الأمة سأل[١٢] رسول الله ﷺ عنها، فقال: «إنما ذاك جبريل». لم يره فى صورته التى خلق عليها إلا مرتين، رآه منهبطا من السماء إلى الأرض، ساداً عُظْمُ خلقه ما بين السماء والأرض.

أخرجاه فى الصحيحين، من حديث الشعبى، به[١٣] .

رواية أبى ذر، قال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا همام، حدثنا قتادة، عن عبد الله بن شقيق

(١) لم أجده فى المسند وذكره الحافظ ابن حجر فى أطرف المسند (٤/١٥٨) .
(٢) فى م: «السدرة».
(٣) المسند (١/٤٠٧).
(٤) فى أ: «حصين».
(٥) فى م: «قال سمعت». (٦) فى م: «شقيق بن سلمة». (٧) فى م، أ: «يقول».
(٨) فى م: «الدر، به».
(٩) المسند (١/٤٠٧).
(١٠) فى أ: «كتم شيئا من الوحى».
(١١) المسند (٦/٤٩).
(١٢) فى أ: «سألت».
(١٣) المسند (٦/٢٤١) وصحيح البخارى برقم (٤٨٥٥) وصحيح مسلم برقم (١٧٧) بنحوه.

قال: قلت لأبى ذر: لو رأيتُ رسول الله ﷺ لسألته. قال: وما كنت تسأله؟ قال: كنت أسأله: هل رأى ربه، عز وجل؟ فقال: إنى قد سألته فقال: «قد رأيته، نورا أنى أراه»[١].

هكذا وقع فى رواية الإمام أحمد، وقد أخرجه مسلم من طريقين بلفظين فقال: حدثنا أبو بكر ابن أبى شيبة، حدثنا وَكيع، عن يزيد بن إبراهيم، عن قتادة، عن عبد الله بن شقيق، عن أبى ذر قال: سألت رسول الله ﷺ: هل رأيت ربك؟ فقال: «نور أنى أراه».

وقال: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا معاذ بن هشام، حدثنا أبى، عن قتادة، عن عبد الله بن شقيق قال: قلت لأبى ذر: لو رأيت رسول الله ﷺ لسألته. فقال: عن أى شىء كنت تسأله؟ قال: قلت: كنت أسأله: هل رأيت ربك؟ قال أبو ذر: قد سألت فقال: «رأيت نورا»[٢].

وقد حكى الخلال فى «علله» أن الإمام أحمد سُئل عن هذا الحديث فقال: ما زلتُ منكراً له، وما أدرى ما وجهه[٣].

وقد قال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا عمرو بن عون الواسطى، أخبرنا هُشَيْم، عن منصور، عن الحكم، عن إبراهيم، عن أبيه، عن أبى ذر قال: رآه بقلبه، ولم يره بعينه.

وحاول ابن خُزَيمة أن يدعى انقطاعه بين عبد الله بن شَقيق وبين أبى ذر، وأما ابن الجوزى فتأوله على أن أبا ذر لعله سأل رسول الله ﷺ قبل الإسراء، فأجابه بما أجابه به، ولو سأله بعد الإسراء لأجابه بالإثبات. وهذا ضعيف جدا، فإن عائشة أم المؤمنين، رضى الله عنها، قد سألت عن ذلك بعد الإسراء، ولم يثبت لها الرؤية. ومن قال: إنه خاطبها على قدر عقلها، أو حاول تخطئتها فيما ذهبت إليه ـ كابن خُزيمة فى كتاب التوحيد[٤] ـ فإنه هو المخطئ، والله أعلم.

وقال النسائى: حدثنا يعقوب بن إبراهيم، حدثنا هشام[٥] عن منصور، عن الحكم، عن يزيد بن شريك، عن أبى ذر قال: رأى رسول الله ﷺ ربه بقلبه، ولم يره ببصره[٦].

وقد ثبت فى صحيح مسلم، عن أبى بكر بن أبى شيبة، عن على بن مُسْهِر، عن عبد الملك بن أبى سليمان، عن عطاء بن أبى رباح، عن أبى هريرة، رضى الله عنه؛ أنه قال فى قوله: ﴿**وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ**﴾، قال: رأى جبريل[٧]، عليه السلام[٨].

وقال مجاهد فى قوله: ﴿**وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ**﴾ قال: رأى رسولُ الله ﷺ جبريل فى صورته مرتين .وكذا قال قتادة، والربيع بن أنس، وغيرهم.

---

(١) المسند (٥/١٤٧).

(٢) صحيح مسلم برقم (١٧٨).

(٣) ووجه الإنكار لا محل له فى المتن، فإن له شواهد وهو دليل على نفى الرؤية فى الدنيا.

(٤) التوحيد لابن خزيمة (ص٢٠٥، ٢٠٦)، (ص٢٢٥).

(٥) فى م، أ: «هشيم».

(٦) النسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٥٣٦).

(٧) فى أ: «رأى رسول الله ﷺ جبريل».

(٨) صحيح مسلم برقم (١٧٥).

وقوله تعالى: ﴿إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى﴾: قد تقدم فى أحاديث الإسراء أنه غشيتها الملائكة مثل الغربان، وغشيها نور الرب، وغشيها ألوان ما أدرى ما هى .

وقال الإمام أحمد: حدثنا مالك بن مِغْوَل، حدثنا الزبير بن عدى، عن[1] طلحة، عن مرة، عن عبد الله ـ هو ابن مسعود ـ قال: لما أسرى برسول الله ﷺ انتهى به إلى سدرة المنتهى، وهى فى السماء السابعة[2]، إليها ينتهى ما يعرج به من الأرض فيقبض منها، وإليها ينتهى ما يهبط من فوقها فيقبض منها، ﴿إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى﴾ قال: فراش من ذهب، قال: وأُعطى رسول الله ﷺ ثلاثا: أُعطى الصلوات الخمس، وأعطى خواتيم سورة البقرة، وغُفر لمن لا يشرك بالله شيئاً من أمته المُقحمات . انفرد به مسلم[3].

وقال أبو جعفر الرازى، عن الربيع، عن أبى العالية، عن أبى هريرة أو غيره ـ شك أبو جعفر ـ قال: لما أسرى برسول الله انتهى إلى السدرة، فقيل له: هذه السدرة [قال][4]: فغشيها نور الخلاق، وغشيتها الملائكة مثل الغربان حين يقعن على الشجر، قال: فكلمه عند ذلك، فقال له: سل.

وقال[5] ابن أبى نَجيح، عن مجاهد: ﴿ إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى﴾ قال: كان أغصان السدرة لؤلؤا وياقوتا وزبرجدا، فرآها محمد، ورأى ربه بقلبه.

وقال ابن زيد: قيل: يا رسول الله، أىّ شىء رأيت يغشى تلك السدرة؟ قال: «رأيتُ يغشاها فَرَاشٌ من ذهب، ورأيت على كل ورقة من ورقها مَلَكا قائما يسبح الله، عز وجل»[6].

وقوله: ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى﴾ قال ابن عباس: ما ذهب يمينا ولا شمالا، ﴿ وَمَا طَغَى﴾: ما جاوز ما أمر به.

وهذه صفة عظيمة فى الثبات والطاعة، فإنه ما فعل إلا ما أمر به، ولا سأل فوق ما أعطى. وما أحسن ما قال الناظم:

رأى جَنَّةَ المَأوَى وَمَا فَوْقَها، ولَو رأى غَيرُه ما قد رآه لتَاهَا

وقوله: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾، كقوله: ﴿لِنُرِيَكَ[7] مِنْ آيَاتِنَا﴾ [طه: ٢٣] أى: الدالة على قدرتنا وعظمتنا. وبهاتين الآيتين استدل من ذهب من أهل السنة أن الرؤية تلك الليلة لم تقع؛ لأنه قال: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾، ولو كان رأى ربه لأخبر بذلك ولقال ذلك للناس، وقد تقدم تقرير ذلك فى سورة «سبحان» وقد قال الإمام أحمد:

حدثنا أبو النضر، حدثنا محمد بن طلحة، عن الوليد بن قيس، عن إسحاق بن أبى الكَهْتَلة[8]

(١) فى أ: «بن». (٢) فى م: «السادسة».
(٣) المسند (١/ ٤٢٢) وصحيح مسلم برقم (١٧٣).
(٤) زيادة من أ. (٥) فى م: «فقال».
(٦) وهذا من مراسيل عبد الرحمن بن زيد بن أسلم وهو ضعيف.
(٧) فى م: «لنريه». (٨) فى م، أ: «الكهبلة».

قال محمد: أظنه عن ابن مسعود ـ أنه قال: إن محمدا لم ير جبريل فى صورته إلا مرتين، أما مرة فإنه سأله أن يُريه نفسه فى صورته، فأراه صورته فسد الأفق. وأما الأخرى فإنه صَعد معه حين صعد به. وقوله: ﴿**وَهُوَ بِالأُفُقِ الأَعْلَىٰ . ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ . فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ . فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ**﴾ قال: فلما أحسّ[1] جبريل ربه، عز وجل، عاد فى صورته وسجد. فقوله: ﴿**وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ . عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ . عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ . إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ . مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ . لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ**﴾ قال: خَلْقَ جبريل، عليه السلام.

هكذا رواه الإمام أحمد، وهو غريب[2].

﴿**أَفَرَأَيْتُمُ اللاتَ وَالْعُزَّىٰ (١٩) وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَىٰ (٢٠) أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنثَىٰ (٢١) تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ (٢٢) إِنْ هِيَ إِلاَّ أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأَنفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَىٰ (٢٣) أَمْ لِلإِنسَانِ مَا تَمَنَّىٰ (٢٤) فَلِلَّهِ الآخِرَةُ وَالأُولَىٰ (٢٥) وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلاَّ مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَىٰ (٢٦)**﴾.

يقول تعالى مُقَرِّعا للمشركين فى عبادتهم الأصنام والأنداد والأوثان، واتخاذهم لها البيوت مضاهاة للكعبة التى بناها خليل الرحمن، عليه [الصلاة و][3] السلام: ﴿**أَفَرَأَيْتُمُ اللاتَ**﴾؟ وكانت «اللات»[4] صخرةً بيضاء منقوشة، وعليها بيت بالطائف له أستار وسَدَنة، وحوله فناء معظّم عند أهل الطائف، وهم ثقيف ومن تابعها، يفتخرون بها على من عداهم من أحياء العرب بعد قريش.

قال ابن جرير: وكانوا قد اشتقوا اسمها من اسم الله [تعالى][5]، فقالوا: اللات، يعنون مؤنثة منه، تعالى الله عن قولهم علوا كبيرا. وحكى عن ابن عباس، ومجاهد، والربيع بن أنس: أنهم قرؤوا «اللاتّ» بتشديد التاء، وفسروه بأنه كان رجلا يَلُتُّ للحجيج فى الجاهلية السويق، فلما مات عكفوا على قبره فعبدوه.

وقال البخارى: حدثنا مسلم ـ هو ابن إبراهيم ـ حدثنا أبو الأشهب، حدثنا أبو الجوزاء، عن ابن عباس[6]: ﴿**اللاتَ وَالْعُزَّىٰ**﴾ قال: كان اللات رجلا يلت السَّويق، سويق الحاج[7].

قال ابن جرير: وكذا العُزَّى من العزيز.

وكانت شجرة عليها بناء وأستار بنخلة، وهى بين مكة والطائف، كانت قريش يعظمونها، كما

(١) فى أ: «أخبر».
(٢) المسند (١/٤٠٧).
(٣) زيادة من م.
(٤) فى م: «العزى».
(٥) زيادة من م.
(٦) فى م: «عن ابن عباس عن».
(٧) صحيح البخارى برقم (٤٨٥٩).

قال أبو سفيان يوم أحد: لنا العزى ولا عزَّى لكم فقال رسول الله ﷺ: «قولوا: الله مولانا، ولا مولى لكم»[١].

وروى البخارى من حديث الزهرى، عن حُمَيد بن عبد الرحمن، عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من حلف فقال فى حلفه: واللات والعزى، فليقل: لا إله إلا الله. ومن قال لصاحبه: تعال أقَامِرْك، فليتصدق»[٢].

وهذا محمول على من سبق لسانه فى[٣] ذلك، كما كانت ألسنتهم قد اعتادته فى زمن الجاهلية، كما قال النسائى: أخبرنا أحمد بن بكَّار وعبد الحميد بن محمد قالا: حدثنا مَخْلَد، حدثنا يونس، عن أبيه، حدثنى مصعب بن سعد بن أبى وقاص، عن أبيه قال: حلفت باللات والعزى، فقال لى أصحابى: بئس ما قلت ! قلت هجرا! فأتيت رسول الله ﷺ، فذكرت ذلك له، فقال: «قل: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير. وانفث عن شمالك ثلاثا، وتعوَّذ بالله من الشيطان الرجيم، ثم لا تعد»[٤].

وأما «مناة» فكانت بالْمُشَلَّل[٥] ـ عند قُدَيد، بين مكة والمدينة ـ وكانت خزاعة والأوس والخزرج فى جاهليتها يعظمونها، ويُهلّون منها للحج إلى الكعبة. وروى البخارى عن عائشة نحوه[٦]. وقد كانت بجزيرة العرب وغيرها طواغيت أخر تعظمها العرب كتعظيم الكعبة غير هذه الثلاثة التى نص عليها فى كتابه العزيز، وإنما أفرد هذه بالذكر لأنها أشهر من غيرها.

قال ابن إسحاق فى السيرة: وقد كانت العرب اتخذت مع الكعبة طواغيت، وهى بيوت تعظمها كتعظيم الكعبة، بها[٧] سدنة وحجاب، وتهدى لها كما يهدى[٨] للكعبة، وتطوف بها كطَوْفَاتها بها، وتنحر عندها، وهى تعرف فضل الكعبة عليها؛ لأنها كانت قد عرفت أنها بيت إبراهيم، عليه السلام، ومسجده. فكانت لقريش وبنى كنانة العُزّى بنخلة، وكانت سدنتها وحجابها[٩] بنى شيبان من سليم حلفاء بنى هاشم[١٠].

قلت: بعث إليها رسول الله ﷺ خالد بن الوليد فهدمها، وجعل يقول:

يَا عُزّ، كُفْرَانَك لا سُبْحَانَك ... إنى رأيت الله قَدْ أهَانَك

وقال النسائى: أخبرنا على بن المنذر، أخبرنا ابن فُضَيْل، حدثنا الوليد بن جُمَيْع، عن أبى الطُّفَيْلِ قال: لما فتح رسول الله ﷺ مكة بعث خالد بن الوليد إلى نخلة، وكانت بها العزى، فأتاها خالد وكانت على ثلاث سَمُرات، فقطع السَّمُرات، وهدم البيت الذى كان عليها. ثم أتى النبى ﷺ

(١) تقدم تخريج الحديث عند تفسير سورة «محمد» الآية: ١١.
(٢) صحيح البخارى برقم (٤٨٦٠).
(٣) فى م: «إلى».
(٤) سنن النسائى (٧/ ٨).
(٥) فى أ: «بالمنال».
(٦) صحيح البخارى برقم (٤٨٦١).
(٧) فى م: «لها».
(٨) فى م: «تهدى».
(٩) فى م: «وحجبتها».
(١٠) السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٨٣).

فأخبره، فقال: «ارجع فإنك لم تصنع شيئاً». فرجع خالد، فلما أبصرته السَّدَنة ـ وهم حَجَبتها ـ أمعنوا فى الحِيَل وهم يقولون: «يا عزى، يا عزى». فأتاها خالد فإذا امرأة عريانة ناشرة شعرها تحفن(١) التراب على رأسها، فغمسها بالسيف حتى قتلها، ثم رجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره، فقال: «تلك العزى»(٢).

قال ابن إسحاق: وكانت اللات لثقيف بالطائف، وكان سَدَنتها وحجابها بنى مُعَتّب(٣).

قلت: وقد بعث إليها رسول الله ﷺ المغيرة بن شعبة وأبا سفيان صخر بن حرب، فهدماها وجعلا مكانها مسجد الطائف.

قال ابن إسحاق: وكانت مناة للأوس والخزرج ومن دان بدينهم من أهل يثرب على ساحل البحر من ناحية المُشلَلّ بقديد، فبعث رسول الله ﷺ [إليها](٤) أبا سفيان صخر بن حرب، فهدمها. ويقال: على بن أبى طالب.

قال: وكانت ذو الخَلَصة(٥) لدَوس وخثعم وبَجيله، ومن كان ببلادهم من العرب بِتَبَالة.

قلت: وكان يقال لها: الكعبة اليمانية، وللكعبة التى بمكة الكعبة الشامية.

فبعث إليه رسول الله ﷺ جرير بن عبد الله البجلى فهدمه.

قال: وكانت فَلْس(٦) لطيئ ولمن يليها بجبلى طيئ من(٧) سَلمى وأجا.

قال ابن هشام: فحدثنى بعض أهل العلم أن رسول الله ﷺ بعث إليه على بن أبى طالب فهدمه، واصطفى منه سيفين: الرَّسُوب والمِخْذَم، فَنفَّله إياهما رسول الله ﷺ، فهما سيفا على(٨).

قال ابن إسحاق: وكان لحمير وأهل اليمن بيت بصنعاء يقال له: ريام. وذكر أنه كان به كلب أسود، وأن الحبرين اللذين ذهبا مع تبع استخرجاه وقتلاه، وهدما البيت.

قال ابن إسحاق: وكانت «رُضَاء» بيتا لبنى ربيعة بن كعب بن سعد بن زيد مناة بن تميم، ولها يقول المستوغر بن ربيعة بن كعب بن سعد حين هدمها فى الإسلام:

ولقد شَدَدْتُ عَلَى رُضَاء شَدّةً ... فَتَرَكْتُها قَفْراً بِقَاع أسحَمَا

قال ابن هشام: إنه عاش ثلاثمائة وثلاثين(٩) سنة، وهو القائل:

وَلَقَد سَئِمْتُ مِنَ الحَيَاة وَطُولِهَا ... وَعُمّرْتُ مِنْ عَدَد السِّنينَ مئينَا
مائَةً حَدّتْها بَعْدَها مئتَان لِى ... وازددت(١٠) منَ عَدَد الشّهور سَنينَا
هَلْ مَا بَقِى إلاّ كَمَا قَدْ فَاتَنَا ... يَومٌ يَمُرُّ وَلَيلَةٌ تَحْدُونَا

---

(١) فى م: «تحثو».
(٢) النسائى فى السنن الكبرى رقم (١١٥٦٧).
(٣) فى م: «مغيث». (٤) زيادة من أ. (٥) فى أ: «الخليفة». (٦) فى م: «قيس».
(٧) فى م،أ: «بين».
(٧) السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٨٧).
(٩) فى أ: «وستون». (١٠) فى م، أ: «وعمرت».

قال ابن إسحاق: وكان ذو الكَعَبَات لبكر وتغلب ابنى وائل، وإياد بِسَنْداد وله يقول أعشى بنى قيس بن ثعلبة:

بَيْنَ الخَوَرْنَق والسَّدير وبَارقٍ والبيت ذى الكَعَبَات من سَنْدَاد[١]

ولهذا قال [تعالى][٢]: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللاَّتَ وَالْعُزَّىٰ . وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَىٰ﴾؟.

ثم قال: ﴿أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنثَىٰ﴾؟ أى: أتجعلون له ولدا، وتجعلون ولده أنثى، وتختارون لأنفسكم الذكور، فلو اقتسمتم أنتم ومخلوق مثلكم هذه القسمة لكانت ﴿قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ﴾ أى: جورا باطلة، فكيف تقاسمون ربكم هذه القسمة التى لو كانت بين مخلوقين كانت جورا وسفها.

ثم قال منكرا عليهم فيما ابتدعوه وأحدثوه من الكذب والافتراء والكفر، من عبادة الأصنام وتسميتها آلهة: ﴿إِنْ هِيَ إِلاَّ أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم﴾ أى: من تلقاء أنفسكم ﴿ مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ ﴾ أى: من حجة، ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأَنفُسُ ﴾ أى: ليس لهم مستند إلا حسن ظنهم بآبائهم الذين سلكوا هذا المسلك الباطل قبلهم، وإلا حظ نفوسهم فى رياستهم وتعظيم آبائهم الأقدمين، ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَىٰ﴾ أى: ولقد أرسل الله إليهم الرسل بالحق المنير والحجة القاطعة، ومع هذا ما اتبعوا ما جاؤوهم به، ولا انقادوا له.

ثم قال: ﴿أَمْ لِلإِنسَانِ مَا تَمَنَّىٰ﴾ أى: ليس كل من تمنى خيرا حصل له، ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ [النساء:١٢٣]، ما كل من زعم أنه مهتد يكون كما قال، ولا كل من ود[٣] شيئا يحصل له.

قال الإمام أحمد: حدثنا إسحاق، حدثنا أبو عَوَانة، عن عمر[٤] بن أبى سلمة، عن أبيه، عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا تمنى أحدكم فلينظر ما يتمنى، فإنه لا يدرى ما يكتب له من أمنيته». تفرد به أحمد[٥].

وقوله: ﴿فَلِلَّهِ الآخِرَةُ وَالأُولَىٰ﴾ أى: إنما الأمر كله لله، مالك الدنيا والآخرة، والمتصرف فى الدنيا والآخرة ،فهو الذى ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن.

وقوله: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلاَّ مِنْ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَىٰ﴾، كقوله: ﴿مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، ﴿وَلا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلاَّ لِمَنْ أَذِنَ لَهُ ﴾ [سبأ:٢٣]، فإذا كان هذا فى حق الملائكة المقربين، فكيف ترجون أيها الجاهلون شفاعة هذه الأصنام والأنداد عند الله، وهم لم يشرع عبادتها ولا أذن فيها، بل قد نهى عنها على ألسنة جميع رسله، وأنزل بالنهى عن ذلك جميع كتبه؟

(١) انظر السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٨٧، ٨٨). (٢) زيادة من م.
(٣) فى م: «رد». (٤) فى أ: «عمرو».
(٥) المسند (١/ ٣٥٧) وقال الهيثمى فى المجمع (١٠/ ١٥١): «رجاله رجال الصحيح».

﴿إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلائِكَةَ تَسْمِيَةَ الأُنثَىٰ (٢٧) وَمَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا (٢٨) فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلاَّ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٢٩) ذَلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَىٰ (٣٠)﴾.

يقول تعالى منكرا على المشركين فى تسميتهم الملائكة تسمية الأنثى، وجعلهم لها أنها بنات الله، كما قال: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ﴾ [الزخرف: ١٩]؛ ولهذا قال: ﴿وَمَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ﴾ أى: ليس لهم علم صحيح يصدق ما قالوه، بل هو كذب وزور وافتراء، وكفر شنيع. ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ أى: لا يجدى شيئا، ولا يقوم أبدا مقام الحق. وقد ثبت فى الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «إياكم والظن، فإن الظن أكذب الحديث»(١).

وقوله: ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا﴾ أى: أعرض عن الذى أعرض عن الحق واهجره.

وقوله: ﴿وَلَمْ يُرِدْ إِلاَّ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾أى: وإنما(٢) أكثر(٣) همه ومبلغ علمه الدنيا، فذاك هو غاية ما لا خير فيه. ولذلك(٤) قال: ﴿ذَلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ﴾ أى: طلب الدنيا والسعى لها هو غاية ما وصلوا إليه.

وقد روى الإمام أحمد عن أم المؤمنين عائشة [رضى الله عنها](٥) قالت: قال رسول الله ﷺ: «الدنيا دار من لا دار له، ومال من لا مال له،ولها يجمع من لا عقل له»(٦) وفى الدعاء المأثور: «اللهم لا تجعل الدنيا أكبر همِّنا، ولا مَبْلَغَ علمنا».

وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَىٰ﴾ أى: هو الخالق لجميع المخلوقات، والعالم بمصالح عباده، وهو الذى يهدى من يشاء، ويضل من يشاء، وذلك كله عن قدرته وعلمه وحكمته، وهو العادل الذى لا يجور أبداً، لا فى شرعه ولا فى قَدَره.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاؤُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى (٣١) الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلاَّ اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلا تُزَكُّوا

(١) صحيح البخارى برقم (٥١٤٣) وصحيح مسلم برقم (٢٥٦٣) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه.
(٢) فى م: «وإنا». (٣) فى أ: «أكبر». (٤) فى م، أ: «ولهذا».
(٥) زيادة من م.
(٦) المسند (٦/ ٧١).

أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ (٣٢)﴾.

يخبر تعالى أنه مالك السموات والأرض، وأنه الغنى عما سواه، الحاكم في خلقه بالعدل، وخلق الخلق بالحق، ﴿**لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاؤُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى**﴾ أى: يجازى كلا بعمله، إن خيرا فخير، وإن شرا فشر، ثم فسر المحسنين بأنهم الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش، أى: لا يتعاطون المحرمات والكبائر، وإن وقع منهم بعض الصغائر فإنه يغفر لهم ويستر عليهم، كما قال فى الآية الأخرى: ﴿**إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلاً كَرِيمًا**﴾ [النساء: ٣١]. وقال هاهنا: ﴿**الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلاَّ اللَّمَمَ**﴾. وهذا استثناء منقطع؛ لأن اللمم من صغائر الذنوب ومحقرات الأعمال.

قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا مَعْمَر[١]، عن ابن طاوس، عن أبيه، عن ابن عباس قال: ما رأيت شيئاً أشبه باللمَم مما قال أبو هريرة عن النبى ﷺ، قال: «إن الله تعالى كتب على ابن آدم حظه من الزنا، أدرك ذلك لا محالة، فَزِنَا العين النظر، وزنا اللسان النطق، والنفس تَمنَّى وتَشْتَهِى، والفرج يُصدِّق ذلك أو يُكَذِّبه».

أخرجاه فى الصحيحين، من حديث عبد الرزاق، به[٢].

وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن عبد الأعلى، أخبرنا ابن[٣] ثور، حدثنا مَعْمَر، عن الأعمش، عن أبى الضُّحَى؛ أن ابن مسعود قال: «زنا العينين النظر، وزنا الشفتين التقبيل، وزنا اليدين البطش، وزنا الرجلين المشى، ويُصدّق ذلك الفرج أو يُكَذِّبه، فإن تقدم بفرجه كان زانيا، وإلا فهو اللَّمَم»[٤]. وكذا قال مسروق، والشعبى.

وقال عبد الرحمن بن نافع ـ الذى يقال له: ابن لبابة الطائفى ـ قال: سألت أبا هريرة عن قول الله: ﴿**إِلاَّ اللَّمَمَ**﴾ قال: القُبلة، والغمزة، والنظرة، والمباشرة، فإذا مس الختانُ الختانَ فقد وجب الغسل، وهو الزنا.

وقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: ﴿**إِلاَّ اللَّمَمَ**﴾: إلا ما سلف. وكذا قال زيد بن أسلم.

وقال ابن جرير: حدثنا ابن المثنى، حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن منصور، عن مجاهد أنه قال: فى هذه الآية: ﴿**إِلاَّ اللَّمَمَ**﴾قال: الذى يلم بالذنب ثم يَدَعه، قال الشاعر:

إنْ تَغْفِرِ اللهُمّ تغفر جَمّا ... وأىّ عَبْد لَكَ مَا أَلَمَّا؟!

---

(١) فى م: «معمر بن أرطاة» وزيادة «ابن أرطاة» خطأ. انظر: تعليق أحمد شاكر على المسند حديث رقم (٧٧٠٥).

(٢) المسند (٢/٢٧٦) وصحيح البخارى برقم (٦٦١٢) وصحيح مسلم برقم (٢٦٥٧).

(٣) فى أ: «أبو».

(٤) تفسير الطبرى (٢٧/٣٩).

وقال ابن جرير: حدثنا ابن حميد، حدثنا جرير، عن منصور، عن مجاهد فى قول الله: ﴿إِلاَّ اللَّمَمَ﴾ قال: الرجل يلم بالذنب ثم ينزع عنه، قال: وكان أهل الجاهلية يطوفون بالبيت وهم يقولون:

إن تغفر اللهم تغفر جما وأى عبد لك ما ألما؟!

وقد رواه ابن جرير وغيره مرفوعا(١).

قال ابن جرير: حدثنى سليمان بن عبد الجبار، حدثنا أبو عاصم، حدثنا زكريا بن إسحاق، عن عمرو بن دينار، عن عطاء، عن ابن عباس: ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلاَّ اللَّمَمَ﴾ قال: هو الرجل يلم بالفاحشة ثم يتوب وقال: قال رسول الله ﷺ:

إن تغفر اللهم تغفر جما وأى عبد لك ما ألما؟!

وهكذا رواه الترمذى، عن أحمد بن عثمان أبى(٢) عثمان البصرى، عن أبى عاصم النبيل. ثم قال: هذا حديث حسن صحيح غريب، لا نعرفه إلا من حديث زكريا بن إسحاق. وكذا قال البزار: لا نعلمه يُروى متصلا إلا من هذا الوجه. وساقه ابن أبى حاتم والبغوى من حديث أبى عاصم النبيل، وإنما ذكره البغوى فى تفسير سورة «تنزيل»، وفى صحته مرفوعا نظر(٣).

ثم قال ابن جرير: حدثنا محمد بن عبد الله بن بَزِيع، حدثنا يزيد بن زُرَيْع، حدثنا يونس، عن الحسن، عن أبى هريرة ـ أراه رفعه ـ: ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلاَّ اللَّمَمَ﴾ قال: «اللمة من الزنا ثم يتوب ولا يعود، واللمة من السرقة ثم يتوب ولا يعود، واللمة من شرب الخمر ثم يتوب ولا يعود»، قال: «ذلك(٤) الإلمام»(٥).

وحدثنا ابن بشار، حدثنا ابن أبى عَدِىّ، عن عوف، عن الحسن، فى قول الله: ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلاَّ اللَّمَمَ﴾ قال: اللمم من الزنا أو السرقة أو شرب الخمر، ثم لا يعود.

وحدثنى يعقوب، حدثنا ابن عُلَيَّةَ، عن أبى رَجاء، عن الحسن فى قول الله: ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلاَّ اللَّمَمَ﴾ قال: كان أصحاب رسول الله ﷺ يقولون: هو الرجل يصيب اللمة من الزنا، واللمة من شرب الخمر، فيجتنبها ويتوب منها.

وقال ابن جرير(٦)، عن عطاء، عن ابن عباس: ﴿إِلاَّ اللَّمَمَ﴾: يلم بها فى الحين. قلت: الزنا؟ قال: الزنا ثم يتوب.

وقال ابن جرير أيضا: حدثنا أبو كُرَيْب، حدثنا ابن عُيَيْنَةَ، عن عمرو، عن عطاء، عن ابن

(١) تفسير الطبرى (٢٧/ ٣٩).

(٢) فى م: «أى».

(٣) سنن الترمذى برقم (٣٢٨٤) وتفسير البغوى (٧/ ١٢٨).

(٤) فى م: «فتلك» وفى أ: «فعلك».

(٥) تفسير الطبرى (٢٧/ ٣٩).

(٦) فى أ: «جريج».

عباس قال: ﴿**اللَّمَم**﴾: الذى يلم المرَّةَ.

وقال السدى: قال أبو صالح: سئلت عن ﴿**اللَّمَم**﴾ فقلت: هو الرجل يصيب الذنب ثم يتوب. وأخبرت بذلك ابن عباس فقال: لقد أعانك عليها مَلَك كريم. حكاه البغوى.

وروى ابن جرير من طريق المثنى بن الصباح ـ وهو ضعيف ـ عن عمرو بن شعيب؛ أن عبد الله ابن عمرو قال: ﴿**اللَّمَم**﴾: ما دون الشرك.

وقال سفيان الثورى، عن جابر الجُعفى، عن عطاء، عن ابن الزبير: ﴿**إِلاَّ اللَّمَم**﴾ قال: ما بين الحدين: حد الدنيا[1] وعذاب الآخرة. وكذا رواه شعبة، عن الحكم، عن ابن عباس، مثله سواء.

وقال العَوْفِىّ، عن ابن عباس فى قوله: ﴿**إِلاَّ اللَّمَم**﴾: كل شىء بين[2] الحدين: حد الدنيا[3] وحد الآخرة، تكفره الصلوات، وهو[4] اللمم، وهو دون كل موجب، فأما حد الدنيا فكل حد فرض الله عقوبته فى الدنيا، وأما حد الآخرة فكل شىء ختمه الله بالنار، وأخَّر عقوبته إلى الآخرة. وكذا قال عكرمة، وقتادة، والضحاك.

وقوله: ﴿**إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ**﴾ أى: رحمته وَسِعَت كل شىء، ومغفرته تَسَع الذنوب كلها لمن تاب منها، كقوله: ﴿**قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ**﴾ [الزمر:٥٣].

وقوله: ﴿**هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ**﴾ أى: هو بصير بكم، عليم بأحوالكم وأفعالكم وأقوالكم التى تصدر[5] عنكم وتقع منكم، حين أنشأ أباكم آدم من الأرض، واستخرج ذريته من صلبه أمثال الذَّر، ثم قسمهم فريقين: فريقا للجنة، وفريقا للسعير[6]. وكذا قوله: ﴿**وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ**﴾: قد كتب الملك الذى يُوكَّل به رزقَه وأجَلَه وعمله، وشقى أم سعيد .

قال مكحول: كنا أجنة فى بطون أمهاتنا، فسقط منا من سقط، وكنا فيمن بقى ثم كنا مراضع فهلك منا من هلك. وكنا فيمن بقى ثم صرنا يَفَعَةً، فهلك منا من هلك. وكنا فيمن بقى ثم صرنا شباباً فهلك منا من هلك. وكنا فيمن بقى ثم صرنا شيوخا ـ لا أبا لك ـ فماذا بعد هذا ننتظر؟[7] رواه ابن أبى حاتم عنه.

وقوله: ﴿**فَلا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ**﴾ أى: تمدحوها وتشكروها وتمنوا بأعمالكم، ﴿**هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ**﴾، كما قال: ﴿**أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَلا يُظْلَمُونَ فَتِيلاً**﴾ [النساء:٤٩].

وقال مسلم فى صحيحه: حدثنا عَمْرو الناقد، حدثنا هاشم بن القاسم، حدثنا الليث، عن يزيد

---

(١) فى م، أ: «الزنا». (٢) فى م: «من». (٣) فى أ: «الزنا».
(٤) فى م: «فهو». (٥) فى م ،أ: «ستصدر». (٦) فى أ: «فريقا فى الجنة وفريقا فى السعير».
(٧) فى م، أ: «ينتظر».

ابن أبى حبيب، عن محمد بن عمرو بن عطاء، قال: سميت ابنتى بَرّةَ، فقالت لى زينب بنت أبى سلمة: إن رسول الله ﷺ نهى عن هذا الاسم، وسميت بَرَّة، فقال رسول الله ﷺ: «لا تزكوا أنفسكم، إن الله أعلم بأهل البر منكم». فقالوا: بم نسميها؟ قال: «سموها زينب»(١).

وقد ثبت أيضا فى الحديث الذى رواه الإمام أحمد حيث قال: حدثنا عفان، حدثنا وهيب، حدثنا خالد الحَذَّاء، عن عبد الرحمن بن أبى بكْرَة، عن أبيه قال: مدح رَجُلٌ رجلاً عند النبى ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «ويلك! قطعت عُنُقَ صاحبك ـ مراراً ـ إذا كان أحدكم مادحا صاحبه لا محالة فليقل: أحسب فلانا ـ والله حسيبه، ولا أزكى على الله أحدا ـ أحسبه كذا وكذا، إن كان يعلم ذلك»(٢).

ثم رواه عن غُنْدَر، عن شعبة، عن خالد الحذاء، به. وكذا رواه البخارى، ومسلم، وأبو داود، وابن ماجه، من طرق، عن خالد الحذاء، به(٣).

وقال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، وعبد الرحمن قالا: حدثنا سفيان، عن منصور، عن إبراهيم، عن همام بن الحارث قال: جاء رجل إلى عثمان فأثنى عليه فى وجهه، قال: فجعل المقداد بن الأسود يحثو فى وجهه التراب ويقول: أمرنا رسول الله ﷺ إذا لقينا المداحين أن نحثو فى وجوههم التراب.

ورواه مسلم وأبو داود، من حديث الثورى، عن منصور، به(٤).

﴿ أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّىٰ (٣٣) وَأَعْطَىٰ قَلِيلاً وَأَكْدَىٰ (٣٤) أَعِندَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰ (٣٥) أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ (٣٦) وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ (٣٧) أَلاَّ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ (٣٨) وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَىٰ (٣٩) وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ (٤٠) ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الأَوْفَىٰ (٤١) ﴾ .

يقول تعالى ذامًّا لمن تولى عن طاعة الله : ﴿فَلا صَدَّقَ وَلا صَلَّىٰ. وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ [القيامة: ٣١، ٣٢] ، ﴿وَأَعْطَىٰ قَلِيلاً وَأَكْدَىٰ﴾ قال ابن عباس: أطاع قليلا ثم قطعه. وكذا قال مجاهد، وسعيد بن جبير، وعكرمة، وقتادة، وغير واحد. قال عكرمة، وسعيد: كمثل القوم إذا كانوا يحفرون بئراً، فيجدون فى أثناء الحفر صخرة تمنعهم من تمام العمل، فيقولون: «أكدينا»، ويتركون العمل.

وقوله: ﴿أَعِندَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰ﴾ أى: أعند هذا الذى قد أمسك يده خشية الإنفاق، وقطع

---

(١) صحيح مسلم برقم (٢١٤٢).

(٢) المسند (٥/ ٤٥).

(٣) المسند (٥/ ٤١) وصحيح البخارى برقم (٢٦٦٢) وصحيح مسلم برقم (٣٠٠٠) وسنن أبى داود برقم (٤٨٠٥) وسنن ابن ماجه برقم (٣٧٤٤).

(٤) صحيح مسلم برقم (٣٠٠٢) وسنن أبى داود برقم (٤٨٠٤).

معروفه، أعنده علم الغيب أنه سينفد ما فى يده، حتى قد أمسك عن معروفه، فهو يرى ذلك عيانا؟! أى: ليس الأمر كذلك، وإنما أمسك عن الصدقة والمعروف والبر والصلة بخلا وشحا وهلعا؛ ولهذا جاء فى الحديث: «أنفق بلالا، ولا تَخْشَ من ذى العرش إقلالا»[(١)]، وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ [سبأ: ٣٩].

وقوله: ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ. وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ﴾ قال سعيد بن جبير، والثورى: أى بلغ جميع ما أمر به.

وقال ابن عباس: ﴿وَفَّىٰ﴾ لله بالبلاغ. وقال سعيد بن جُبَير: ﴿وَفَّىٰ﴾ ما أُمر به. وقال قتادة: ﴿وَفَّىٰ﴾ طاعة الله، وأدى رسالته إلى خلقه. وهذا القول هو اختيار ابن جرير، وهو يشمل الذى قبله، ويشهد له قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ [البقرة: ١٢٤]، فقام بجميع الأوامر، وترك جميع النواهى، وبلغ الرسالة على التمام والكمال، فاستحق بهذا أن يكون للناس إماما يُقتَدى به فى جميع أحواله وأفعاله وأقواله، قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٣].

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا محمد بن عوف الحِمْصى، حدثنا آدم بن أبى إياس العسقلانى، حدثنا حماد بن سلمة، حدثنا جعفر بن الزبير، عن القاسم، عن أبى أمامة قال: تلا رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ﴾، قال: «أتدرى ما وفى؟» قلت: الله ورسوله أعلم. قال: «وفى عمل يومه بأربع ركعات من أول النهار».

ورواه ابن جرير من حديث جعفر بن الزبير، وهو ضعيف[(٢)].

وقال الترمذى فى جامعه: حدثنا أبو جعفر السِّمْنانى، حدثنا أبو مُسْهِر، حدثنا إسماعيل بن عياش، عن بحير بن سعد[(٣)]، عن خالد بن مَعْدان، عن جبير بن نُفَير، عن أبى الدرداء وأبى ذر، عن رسول الله ﷺ عن الله، عز وجل، أنه قال: «ابن آدم، اركع لى أربع ركعات من أول النهار، أكفك آخره»[(٤)].

قال ابن أبى حاتم، رحمه الله: حدثنا أبى، حدثنا الربيع بن سليمان، حدثنا أسد بن موسى، حدثنا ابن لَهِيعَة، حدثنا زَبَّان بن قائد، عن سهل بن معاذ بن أنس، عن أبيه، عن رسول الله ﷺ؛ أنه قال: «ألا أخبركم لم سمى الله إبراهيم خليله الذى وفى؟ إنه كان يقول كلما أصبح وأمسى:

---

(١) جاء من حديث أبى هريرة وبلال وابن مسعود. أما حديث أبى هريرة: فرواه أبو نعيم فى الحلية (٢/ ٢٨٠) والطبرانى فى المعجم الكبير (١/ ٣٤١) من طريقين عن محمد بن سيرين عنه به.

وأما حديث بلال: فرواه الطبرانى فى المعجم الكبير (١/ ٣٥٩) من طريق أبى إسحاق عن مسروق عنه به.

وأما حديث ابن مسعود: فرواه الطبرانى فى المعجم الكبير (١٠/ ١٩١) من طريق يحيى بن وثاب عن مسروق عنه به.

(٢) تفسير الطبرى (٢٧/ ٤٣).

(٣) فى م، أ: «يحيى بن سعيد».

(٤) سنن الترمذى برقم (٤٧٥) وقال: «هذا حديث حسن غريب».

﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ [الروم: ١٧]» حتى ختم الآية. ورواه ابن جرير عن أبى كُرَيْب، عن رِشْدِين بن سعد، عن[1] زبَّان، به[2].

ثم شرع تعالى يبين ما كان أوحاه فى صحف إبراهيم وموسى فقال: ﴿أَلاَّ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ أى: كل نفس ظلمت نفسها بكفر أو شيء من الذنوب فإنما عليها وزرها، لا يحمله عنها أحد كما قال: ﴿وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾[فاطر: ١٨]، ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَىٰ﴾ أى: كما لا يحمل عليه وزر غيره، كذلك لا يحصل من الأجر إلا ما كسب هو لنفسه. ومن هذه الآية الكريمة استنبط الشافعى، رحمه الله، ومن اتبعه أن القراءة لا يصل إهداء ثوابها إلى الموتى؛ لأنه ليس من عملهم ولا كسبهم؛ ولهذا لم يندب إليه رسول الله ﷺ أمته ولا حثهم عليه، ولا أرشدهم إليه بنص ولا إيماء، ولم ينقل ذلك عن أحد من الصحابة، رضى الله عنهم، ولو كان خيرا لسبقونا إليه، وباب القربات يقتصر فيه على النصوص، ولا يتصرف فيه بأنواع الأقيسة والآراء، فأما الدعاء والصدقة فذاك مجمع على وصولهما، ومنصوص من الشارع عليهما

وأما الحديث الذى رواه مسلم فى صحيحه، عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث: من ولد صالح يدعو له، أو صدقة جارية من بعده، أو علم ينتفع به»[3]، فهذه الثلاثة فى الحقيقة هى من سعيه وكده وعمله، كما جاء فى الحديث: «إن أطيب ما أكل الرجل من كسبه، وإن ولده من كسبه»[4]. والصدقة الجارية كالوقف ونحوه هى من آثار عمله ووقفه، وقد قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ[5]﴾ الآية [يس: ١٢]. والعلم الذى نشره فى الناس فاقتدى به الناس بعده، هو أيضا من سعيه وعمله، وثبت فى الصحيح: «من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه، من غير أن ينقص من أجورهم شيئا».

وقوله: ﴿وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ﴾ أى: يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: ١٠٥] أى: فيخبركم به، ويجزيكم عليه أتم الجزاء، إن خيراً فخير، وإن شرا فشر، وهكذا قال هاهنا: ﴿ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الأَوْفَىٰ﴾ أى: الأوفر.

---

(١) فى م: «بن».

(٢) تفسير الطبرى (٢٧/ ٤٣)ورواه الطبرانى فى المعجم الكبير (٢٠/ ١٩٢) من كلا الطريقين. وقال الهيثمى فى المجمع (١٠/ ١١٧): «فيه ضعفاء وثقوا».

قلت فى الأولى: ابن لهيعة وهو ضعيف.

وفى الثانية: رشدين بن سعد وهو ضعيف.

وفيهما: زيان بن فائد وهو ضعيف.

(٣) صحيح مسلم برقم (١٦٣١).

(٤) رواه أحمد فى المسند (٦/ ٣١) وأبو داود فى السنن برقم (٣٥٢٨) والترمذى فى السنن برقم(١٣٥٨) والنسائى فى السنن (٧/ ٢٤٠) من حديث عائشة رضى الله عنها، وقال الترمذى: «هذا حديث حسن صحيح».

(٥) فى م: ﴿وآثارهم وكل شيء أحصيناه﴾.

﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ (٤٢) وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ (٤٣) وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا (٤٤) وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ (٤٥) مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ (٤٦) وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَىٰ (٤٧) وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ (٤٨) وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَىٰ (٤٩) وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَىٰ (٥٠) وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَىٰ (٥١) وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ (٥٢) وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ (٥٣) فَغَشَّاهَا مَا غَشَّىٰ (٥٤) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ (٥٥)﴾ .

يقول تعالى [مخبرا][1]: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ﴾ أى: المعاد يوم القيامة.

قال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا سُوَيد بن سَعيد، حدثنا مسلم بن خالد، عن عبد الرحمن ابن سابط، عن عمرو بن ميمون الأَوْدىّ قال: قام فينا معاذ بن جبل فقال: يا بنى أود، إنى رسول الله إليكم، تعلمون أن المعاد إلى الله، إلى الجنة أو إلى النار.

وذكر البغوى من رواية أبى جعفر الرازى، عن الربيع بن أنس، عن أبى العالية، عن أُبى بن كعب، عن النبى ﷺ فى قوله: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ﴾، قال: لا فكرةَ فى الرب[2].

قال البغوى: وهذا مثل ما رُوى عن أبى هريرة مرفوعا: «تفكَّروا فى الخلق ولا تفكروا فى الخالق، فإنه لا تحيط[3] به الفِكْرة».

كذا أورده، وليس بمحفوظ بهذا اللفظ[4]، وإنما الذى فى الصحيح: «يأتى الشيطان أحدكم فيقول: من خلق كذا ؟ من خلق كذا ؟ حتى يقول: من خلق ربك ؟ فإذا بلغ أحدكم ذلك فليستعذ بالله ولْيَنْتَه»[5]. وفى الحديث الآخر الذى فى السنن: «تفكروا فى مخلوقات الله، ولا تفكروا[6] فى ذات الله ، فإن الله خلق ملكا ما بين شحمة أذنه إلى عاتقه مَسِيرة ثلاثمائة سنة» أو كما قال[7].

وقوله: ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ﴾ أى: خلق فى عباده الضحك والبكاء وسببهما وهما مختلفان ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا﴾، كقوله: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ﴾ [الملك: ٢]، ﴿وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ

(١) زيادة من أ.
(٢) معالم التنزيل للبغوى (٧/ ٤١٧).
(٣) فى م: «يحيط».
(٤) معالم التنزيل للبغوى (٧/ ٤١٧) ورواه ابن عساكر فى المجلس التاسع والثلاثون ومائة من الأمالى (٥٠/ ١) كما فى السلسلة الصحيحة (٤/ ٣٩٥) من طريق محمد بن سلمة البلخى عن بشر بن الوليد عن عبد العزيز بن أبى سلمة عن الزهرى عن أبى سلمة عن أبى هريرة به، وفيه بشر بن الوليد وهو ضعيف.
(٥) صحيح البخارى برقم (٣٢٧٦) وصحيح مسلم برقم (١٣٤).
(٦) فى أ: «ولا تتفكروا».
(٧) لم أجده بهذا اللفظ، وقد روى أبو داود القطعة الثانية فى سننه برقم (٤٧٢٧) من حديث جابر رضى الله عنه، مرفوعا بلفظ: «أذن لى أن أحدث عن ملك من ملائكة الله من حملة العرش، وإن ما بين شحمة أذنه إلى عاتقه مسيرة سبعمائة عام».
والقطعة الأولى: رويت مِنَ حديث أبى ذر مرفوعا: «تفكروا فى خلق الله، ولا تتفكروا فى الله فتهلكوا».
أخرجه أبو الشيخ فى العظمة برقم (٤).

الذَّكَرَ وَالأُنثَىٰ . مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ﴾، كقوله: **﴿أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى. أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ** (١) . **ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ. فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنثَىٰ. أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ﴾** [القيامة: ٣٦ ـ ٤٠] .

وقوله: **﴿وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الأُخْرَىٰ﴾** أى: كما خلق البداءة هو قادر على الإعادة، وهى النشأة الآخرة يوم القيامة. **﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ﴾** أى: مَلَّك عباده المال، وجعله لهم قُنْيَة مقيما عندهم، لا يحتاجون إلى بيعه، فهذا تمام النعمة عليهم. وعلى هذا يدور كلام كثير من المفسرين، منهم أبو صالح، وابن جرير، وغيرهما. وعن مجاهد: **﴿أَغْنَىٰ﴾**: موَّل، **﴿وَأَقْنَىٰ﴾**: أخدم. وكذا قال قتادة.

وقال ابن عباس، ومجاهد أيضا: **﴿أَغْنَىٰ﴾**: أعطى، **﴿وَأَقْنَىٰ﴾**: رَضّى.

وقيل: معناه: أغنى نفسه وأفقر الخلائق إليه، قاله الحضرمى بن لاحق.

وقيل: **﴿أَغْنَىٰ﴾** من شاء من خلقه و **﴿أَقْنَىٰ﴾**: أفقر من شاء منهم، قاله ابن زيد. حكاهما ابن جرير(٢)، وهما بعيدان من حيث اللفظ.

وقوله: **﴿وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَىٰ﴾** قال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، وابن زيد وغيرهم: هو هذا النجم الوقاد الذى يقال له: «مرزَم الجوزاء»، كانت طائفة من العرب يعبدونه.

﴿وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الأُولَىٰ﴾ وهم: قوم هود. ويقال لهم: عاد بن إرم بن سام بن نوح، كما قال تعالى: **﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ. إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ. الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ﴾** [الفجر: ٦ـ ٨]، فكانوا من أشد الناس وأقواهم وأعتاهم على الله وعلى رسوله، فأهلكهم الله **﴿بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ. سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾** [الحاقة: ٦، ٧].

وقوله: **﴿وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَىٰ﴾** أى: دمرهم فلم يبق منهم أحدا، **﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ﴾** أى: من قبل هؤلاء، **﴿إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ﴾** أى: أشد تمردا من الذين من بعدهم، **﴿وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ﴾** يعنى: مدائن لوط، قَلَبها عليهم فجعل عاليها سافلها، وأمطر عليها حجارة من سجيل منضود؛ ولهذا قال: **﴿فَغَشَّاهَا مَا غَشَّىٰ﴾** يعنى: من الحجارة التى أرسلها عليهم **﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ﴾** [الشعراء: ١٧٣].

قال قتادة: كان فى مدائن لوط أربعة آلاف ألف إنسان، فانضرم عليهم الوادى شيئا من نار ونفط وقَطِران كفم الأتون(٣). رواه(٤) ابن أبى حاتم، عن أبيه، عن محمد بن وهب بن عطية، عن الوليد ابن مسلم، عن خليد، عنه به. وهو غريب جدا.

---

(١) فى م: «تمنى».

(٢) تفسير الطبرى (٢٧/ ٤٤).

(٣) فى أ: «كتم الأنوف». (٤) فى م: «ورواه».

﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَى﴾ أي: ففى أى نعم الله عليك أيها الإنسان تمترى؟ قاهل قتادة.

وقال ابن جُرَيْج: ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَى﴾ يا محمد. والأول أولى، وهو اختيار ابن جرير.

﴿هَذَا نَذِيرٌ مِّنَ النُّذُرِ الأُولَىٰ (٥٦) أَزِفَتِ الآزِفَةُ (٥٧) لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ (٥٨) أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ (٥٩) وَتَضْحَكُونَ وَلا تَبْكُونَ (٦٠) وَأَنتُمْ سَامِدُونَ (٦١) فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا (٦٢)﴾ .

﴿هَذَا نَذِيرٌ﴾ يعنى: محمدا ﷺ ﴿مِّنَ النُّذُرِ الأُولَى﴾ أى: من جنسهم، أرسل كما أرسلوا، كما قال تعالى: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٩].

﴿أَزِفَتِ الآزِفَةُ﴾ أى: اقتربت القريبة، وهى القيامة، ﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾ أى: لا يدفعها إذاً من دون الله أحد، ولا يطلع على علمها سواه.

ثم قال تعالى منكرا على المشركين فى استماعهم القرآن وإعراضهم عنه وتلهيهم: ﴿تَعْجَبُونَ[1]﴾ من أن يكون صحيحا، ﴿وَتَضْحَكُونَ[2]﴾ منه استهزاء وسخرية، ﴿وَلا تَبْكُونَ﴾ أى: كما يفعل الموقنون به، كما أخبر عنهم: ﴿وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ [الإسراء: ١٠٩].

وقوله: ﴿وَأَنتُمْ سَامِدُونَ﴾ قال سفيان الثورى، عن أبيه، عن ابن عباس قال: الغناء، هى يمانية، اسمِدْ لنا: غَنِّ[3] لنا. وكذا قال عكرمة.

وفى رواية عن ابن عباس: ﴿سَامِدُونَ﴾: معرضون. وكذا قال مجاهد، وعكرمة. وقال الحسن: غافلون. وهو رواية عن أمير المؤمنين على بن أبى طالب. وفى رواية عن ابن عباس: تستكبرون. وبه يقول السدى.

ثم قال آمرا لعباده بالسجود له والعبادة المتابعة لرسوله ﷺ والتوحيد والإخلاص: ﴿فَاسْجُدُوا[4] لِلَّهِ وَاعْبُدُوا﴾ أى: فاخضعوا له وأخلصوا ووحدوا.

قال البخارى: حدثنا أبو مَعْمَر، حدثنا عبد الوارث، حدثنا أيوب، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: سجد النبى ﷺ بالنجم، وسجد معه المسلمون والمشركون والجن والإنس. انفرد به دون مسلم[5].

وقال الإمام أحمد: حدثنا إبراهيم بن خالد، حدثنا رباح، عن مَعْمَر، عن ابن طاوس، عن عكرمة بن خالد، عن جعفر بن المطلب بن أبى وَدَاعة، عن أبيه قال: قرأ رسول الله ﷺ بمكة سورة النجم، فسجد وسَجَدَ من عنده، فرفعتُ رأسى وأبيتُ أن أسجد، ولم يكن أسلم يومئذ المطلب،

(١) فى م: «يعجبون».
(٢) فى م: «يضحكون».
(٣) فى م، أ: «تغنى».
(٤) فى م: «فليسجدوا» وهو خطأ.
(٥) صحيح البخارى برقم (٤٨٦٢).

فكان بعد ذلك لا يسمع أحدا يقرؤها[١] إلا سجد معه.

وقد رواه النسائى فى الصلاة، عن عبد الملك بن عبد الحميد، عن أحمد بن حنبل، به[٢].

ذكر حديث له مناسبة بما تقدم من قوله تعالى: ﴿هَذَا نَذِيرٌ مِّنَ النُّذُرِ الأُولَىٰ. أَزِفَتِ الآزِفَةُ﴾، فإن النذير هو: الحذر لما يعاين من الشر، الذى يخشى وقوعه فيمن أنذرهم، كما قال: ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [سبأ:٤٦]. وفى الحديث: «أنا النذير العُريان». أى: الذى أعجله شدة ما عاين من الشر عن أن يلبس عليه شيئاً، بل بادر إلى إنذار قومه قبل ذلك، فجاءهم عُريانا مسرعا، مناسب لقوله: ﴿أَزِفَتِ الآزِفَةُ﴾ أى: اقتربت القريبة، يعنى: يوم القيامة، كما قال فى أول السورة التى بعدها: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ﴾ [القمر:١]، قال الإمام أحمد:

حدثنا أنس بن عياض، حدثنى أبو حازم ـ لا أعلم إلا عن سهل بن سعد ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «إياكم ومحقرات الذنوب، فإنما مثل محقرات الذنوب كمثل قوم نزلوا بطن واد، فجاء ذا بعود، وجاء ذا بعود حتى أنضجوا خُبْزَتهم، وإن محقرات الذنوب متى يؤخذ بها صاحبها تهلكه». وقال أبو حازم: قال رسول الله ﷺ ـ قال أبو ضَمْرَة: لا أعلم إلا عن سهل بن سعد ـ قال: «مثلى ومثل الساعة كهاتين» وفرق بين أصبعيه الوسطى والتى تلى الإبهام، ثم قال: «مثلى ومثل الساعة كمثل فَرَسَى رِهَان»، ثم قال: «مثلى مثل الساعة كمثل رجل بعثه قومه طليعة، فلما خشى أن يسبق ألاح بثوبه: أتيتم أتيتم». ثم يقول رسول الله ﷺ: «أنا ذلك»[٣]. وله شواهد من وجوه أخر من صحاح وحسان، ولله الحمد والمنة، وبه الثقة والعصمة.

آخر [تفسير][٤] سورة النجم ولله الحمد والمنة

---

(١) فى م، أ: «يقرأ بها».

(٢) المسند (٦/ ٣٩٩) وسنن النسائى (٢/ ١٦٠).

(٣) المسند (٥/ ٣٣١).

(٤) زيادة من م، أ.

٥٣ ـــ سورة النجم
(مكية وهى إثنتان وستون)

بسم الله الرحمن الرحيم

وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ ٥٣ النجم

مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ ٥٣ النجم

﴿ سورة النجم مكية وآياتها إثنتان وستون ﴾

١ (بسم الله الرحمن الرحيم) (والنجم إذاهوى) المراد بالنجم إما الثريا فإنه اسم غالب له أو جنس
النجوم وبهويه غروبه وقيل طلوعه يقال هوى هوياً بوزن قبول إذا غرب وهوياً بوزن دخول إذا
علا وصعد وأماالنجم من نجوم القرآن فهويه نزوله والعامل فى إذا فعل القسم فإنه بمعنى مطلق الوقت
منسلخ من معنى الاستقبال كما فى قولك آتيك إذا حمر البسر وفى الإقسام بذلك على نزاهته عليه
الصلاة والسلام عن شائبة الضلال والغواية من البراعة البديعة وحسن الموقع مالا غاية وراءه أما
على الأولين فلأن النجم شأنه أن يهتدى به السارى إلى مسالك الدنيا كأنه قيل والنجم الذى يهتدى به
٢ السابلة إلى سواء السبيل (ماضل صاحبكم) أى ماعدل عن طريق الحق الذى هو مسلك الآخرة (وما
غوى) أى وما اعتقدباطلا قط أى هو فى غاية الهدى والرشد وليس مما تتوهمونه من الضلال والغواية
فى شىء أصلا وأما على الثالث فلأنه تنويه بشأن القرآن كما أشير إليه فى مطلع سورة يس وسورة الزخرف
وتنبيه على مناط اهتدائه عليه الصلاة والسلام ومدار رشاده كأنه قيل والقرآن الذى هو علم فى الهداية
إلى مناهج الدين ومسالك الحق ماضل عنها محمد عليه الصلاة والسلام وما غوى والخطاب لقريش
وإيراده عليه الصلاة والسلام بعنوان صاحبيته لهم وللإيذان بوقوفهم على تفاصيل أحواله الشريفة
وإحاطتهم خبراً ببراءته عليه الصلاة والسلام مما نفى عنه بالكلية واتصافه عليه الصلاة والسلام بغاية
الهدى والرشاد فإن طول صحبتهم له عليه الصلاة والسلام ومشاهدتهم لمحاسن شؤنه العظيمة مقتضية
لذلك حتما وتقييد القسم بوقت الهوى على الوجه الأخير ظاهر وأما على الأولين فلأن النجم لا يهتدى
به السارى عند كونه فى وسط السماء ولا يعلم المشرق من المغرب ولا الشمال من الجنوب وإنما يهتدى
به عند هبوطه أو صعوده مع مافيه من كمال المناسبة لما سيحكى من تدلى جبريل من الأفق الأعلى ودنوه
منه عليهما السلام هذا هو اللائق بشأن التنزيل الجليل وأما حمل هويه على انتثاره يوم القيامة أو على
انقضاض النجم الذى يرجم به أو حمل النجم على النبات وحمل هويه على سقوطه على الأرض أو

وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ ٥٣ النجم

إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ ٥٣ النجم

عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴿٥﴾ ٥٣ النجم

ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ﴿٦﴾ ٥٣ النجم

وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٧﴾ ٥٣ النجم

ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ ٥٣ النجم

فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾ ٥٣ النجم

على ظهوره منها فما لايناسب المقام (وما ينطق عن الهوى) أى وما يصدر نطقه بالقرآن عن هواه ٣
ورأيه أصلا فإن المراد استمرار نفى النطق عن الهوى لانفى استمرار النطق عنه كما مراراً (إن هو) ٤
أى ما الذى ينطق به من القرآن (إلا وحى) من الله تعالى وقوله تعالى (يوحى) صفة مؤكدة لوحى *
رافعة لاحتمال المجاز مفيدة للاستمرار التجددى (علمه شديد القوى) أى ملك شديد قواه وهو جبريل ٥
عليه السلام فإنه الواسطة فى إبداء الخوارق وناهيك دليلا على شدة قوته أنه قلع قرى قوم لوط من
الماء الأسود الذى هو تحت الثرى وحملها على جناحه ورفعها إلى السماء ثم قلبها وصاح بثمود صيحة
فأصبحوا جاثمين وكان هبوطه على الأنبياء وصعوده فى أسرع من رجعة الطرف (ذو مرة) أى حصافة ٦
فى عقله ورأيه ومتانة فى دينه (فاستوى) عطف على علمه بطريق التفسير فإنه إلى قوله تعالى ما أوحى *
بيان لكيفية التعليم أى فاستقام على صورته التى خلقه الله تعالى عليها دون الصورة التى كان يتمثل بها
كلما هبط بالوحى وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أحب أن يراه فى صورته التى جبل عليها
وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم بحراء فطلع له جبريل عليه السلام من المشرق فسد الأرض
من المغرب وملأ الأفق فخر رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزل جبريل عليه السلام فى صورة الآدميين
فضمه إلى نفسه وجعل يمسح الغبار عن وجهه قيل ما رآه أحد من الأنبياء فى صورته غير النبى عليه
الصلاة والسلام فإنه رآه فيها مرتين مرة فى الأرض ومرة فى السماء وقيل استوى بقوته على ما جعل
له من الأمر وقوله تعالى (وهو بالأفق الأعلى) أى أفق الشمس حال من فاعل استوى (ثم دنا) ٧، ٨
أى أراد الدنو من النبى عليهما الصلاة والسلام (فتدلى) أى استرسل من الأفق الأعلى مع تعلق به *
فدنا من النبى يقال تدلت الثمرة ودلى رجليه من السرير وأدلى دلوه والدوالى الثمر المعلق (فكان) ٩
أى مقدار امتداد ما بينهما (قاب قوسين) أى مقدارهما فإن القاب والقيب والقادر والقيد والقيس *

فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾ ٥٣ النجم

مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾ ٥٣ النجم

أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ ٥٣ النجم

وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ ٥٣ النجم

عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ ٥٣ النجم

المقدار وقيل فكان جبريل عليه السلام كما فى قولك هو منى معقد الإزار (أو أدنى) أى على تقديركم
كما فى قوله تعالى أو يزيدون والمراد تمثيل ملكة الاتصال وتحقق استماعه لما أوحى إليه بنفى البعد
١٠ الملبس (فأوحى) أى جبريل عليه السلام (إلى عبده) عبد الله تعالى وإضماره قبل الذكر لغاية ظهوره
كما فى قوله تعالى ماترك على ظهرها (ما أوحى) أى من الأمور العظيمة التى لاتفى بهاالعبارة أوفأوحى
الله تعالى حينئذ بواسطة جبريل ما أوحى قيل أوحى إليه أن الجنة محرمة على الأنبياء حتى تدخلها وعلى
١١ الأمم حتى تدخلها أمتك (ما كذب الفؤاد) أى فؤاد محمد عليه الصلاة والسلام (مارأى) أى مارآه
ببصره من صورة جبريل عليهما السلام أى ماقال فؤاده لما رآه لم أعرفك ولو قال ذلك لكان كاذباً
١٢ لأنه عرفه بقلبه كما رآه ببصره وقرىء ماكذب أى صدقه ولم يشك أنه جبريل بصورته (أفتمارونه على
مايرى) أى أتكذبونه فتجادلونه على مايراه معاينة أو أبعد ماذكر من أحواله المنافية للمماراة تمارونه
من المراء وهو الملاحاة والمجادلة واشتقاقه من مرى الناقة كأن كلا من المتجادلين يمرى ماعند صاحبه
وقرىء أفتمرونه أى أفتغلبونه فى المراء من ماريته فمريته ولما فيه من معنى الغلبة عدى بعلى كما يقال
١٣ غلبته على كذا وقيل أفتمرونه أفتجحدونه من مراه حقه إذا جحده (ولقد رآه نزلة أخرى) أى وبالله
لقد رأى جبريل فى صورته مرة أخرى من النزول نصبت النزلة نصب الظرف الذى هو مرة لأن الفعلة
اسم للمرة من الفعل فكانت فى حكمها وقيل تقديره ولقد رآه نازلا نزلة أخرى فنصبها على المصدر
١٤ (عند سدرة المنتهى) هى شجرة نبق فى السماء السابعة عن يمين العرش ثمرها كقلال هجر وورقها كآذان
الفيول تنبع من أصلها الأنهار التى ذكرها الله تعالى فى كتابه يسير الراكب فى ظلها سبعين عاماً لا يقطعها
والمنتهى موضع الانتهاء أو الانتهاء كأنها فى منتهى الجنة وقيل إليها ينتهى علم الخلائق وأعمالهم ولا
يعلم أحد ماوراءها وقيل ينتهى إليها أرواح الشهداء وقيل ينتهى إليها مايهبط من فوقها ويصعد من
تحتها قيل إضافة السدرة إلى المنتهى إما إضافة الشىء إلى مكانه كقولك أشجار البستان أو إضافة المحل
إلى الحال كقولك كتاب الفقه والتقدير سدرة عندها منتهى علوم الخلائق أو إضافة الملك إلى المالك
على حذف الجار والمجرور أى سدرة المنتهى إليه وهو الله عز وجل قال تعالى إلى ربك المنتهى .

عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾ ٥٣ النجم

إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ ٥٣ النجم

مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ ٥٣ النجم

لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾ ٥٣ النجم

أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ ٥٣ النجم

وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ ٥٣ النجم

(عندها جنة المأوى) أى الجنة التى يأوى إليها المتقون أو أرواح الشهداء والجملة حالية وقيل الأحسن ١٥
أن يكون الحال هو الظرف وجنة المأوى مرتفع به على الفاعلية وقوله تعالى (إذ يغشى السدرة مايغشى) ١٦
ظرف زمان لرآه لا لما بعده من الجملة المنفية كما قيل فإن ما النافية لايعمل بعدها فيما قبلها والغشيان
بمعنى التغطية والستر ومنه الغواشى أو بمعنى الإتيان يقال فلان يغشانى كل حين أى يأتينى والأول هو
الأليق بالمقام وفى إبهام مايغشى من التفخيم مالا يخفى وتأخيره عن المفعول للتشويق إليه أى ولقد رآه
عند السدرة وقت ماغشيها مما لا يكتنهه الوصف ولا يفى به البيان كيفاً ولا كما وصيغة المضارع لحكاية
الحال الماضية استحضاراً لصورتها البديعة وللإيذان باستمرار الغشيان بطريق التجدد وقيل يغشاها
الجم الغفير من الملائكة يعبدون الله تعالى عندها وقيل يزورونها متبركين بها كما يزور الناس الكعبة
وقيل يغشاها سبحات أنوار الله عز وجل حين يتجلى لها كما يتجلى للجبل لكنها أقوى من الجبل وأثبت
حيث لم يصبها ما أصابه من الدك وقيل يغشاها فراش أو جراد من ذهب وهو قول ابن عباس
وابن مسعود والضحاك وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال رأيت السدرة يغشاها فراش من
ذهب ورأيت على كل ورقة ملكا قائماً يسبح الله تعالى وعنه عليه الصلاة والسلام يغشاها رفرف من
طير خضر (مازاغ البصر) أى ما مال بصر رسول الله صلى الله عليه وسلم عما رآه (وما طغى) وما ١٧
تجاوزه مع ماشاهد هناك من الأمور العجيبة المذهلة مالا يحصى بل أثبته إثباتاً صحيحاً متيقناً أوماعدل
عن رؤية العجائب التى أمر برؤيتها ومكن منها وما جاوزها (لقد رأى من آيات ربه الكبرى) أى والله ١٨
لقد رأى الآيات التى هى كبراها وعظامها حين عرج به إلى السماء فأرى عجائب الملك والملكوت مالا
يحيط به نطاق العبارة ويجوز أن تكون الكبرى صفة للآيات والمفعول محذوف أى شيئاً عظيما من
آيات ربه وأن تكون من مزيدة (أفرأيتم اللات والعزى) (ومناة الثالثة الأخرى) هى أصنام ١٩، ٢٠
كانت لهم فاللات كانت لثقيف بالطائف وقيل لقريش بنخلة وهى فعلة من لوى لأنهم كانوا يلوون
عليها ويطوفون بها وقرىء بتشديد التاء على أنه اسم فاعل اشتهر به رجل كان يلت السمن بالزيت ويطعمه

أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ ٥٣ النجم

تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ ﴿٢٢﴾ ٥٣ النجم

الحاج وقيل كان يلت السويق بالطائف ويطعمه الحاج فلما مات عكفوا على قبره يعبدونه وقيل كان
يجلس على حجر فلما مات سمى الحجر باسمه وعبد من دون الله وقيل كان الحجر على صورته والعزى
تأنيث الأعز كانت لغطفان وهى سمرة كانوا يعبدونها فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم خالد بن
الوليد فقطعها فخرجت منها شيطانة ناشرة شعرها واضعة يدها على رأسها وهى تولول فجعل خالد يضربها
بالسيف حتى قتلها فأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال تلك العزى ولن تعبد أبداً ومناة صخرة
لهذيل وخزاعة وقيل لثقيف وكأنها سميت مناة لأن دماء النسائك تمنى عندها أى تراق وقرىء ومناءة
وهى مفعلة من النوء كأنهم كانوا يستمطرون عندها الأنواء تبركا بها والأخرى صفة ذم لها وهى
المتأخرة الوضيعة المقدار وقد جوز أن تكون الأولية والتقدم عندهم للات والعزى ثم أنهم كانوا
مع ماذكر من عبادتهم لها يقولون إن الملائكة وتلك الأصنام بنات الله تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً
فقيل لهم توبيخاً وتبكيتاً أفرأيتم الخ والهمزة للإنكار والفاء لتوجيهه إلى ترتيب الرؤية على ماذكر
من شؤن الله تعالى المنافية لها غاية المنافاة وهى قلبية ومفعولها الثانى محذوف لدلالة الحال عليه فالمعنى
أعقيب ماسمعتم من آثار كمال عظمة الله عز وجل فى ملكه وملكوته وجلاله وجبروته وأحكام قدرته
ونفاذ أمره فى الملأ الأعلى وما تحت الثرى ومابينهما رأيتم هذه الأصنام مع غاية حقارتها وقماءتها بنات
له تعالى وقيل المعنى أفرأيتم هذه الأصنام مع حقارتها وذلتها شركاء الله تعالى مع ماتقدم من عظمته
وقيل أخبرونى عن آلهتكم هل لها شىء من القدرة والعظمة التى وصف بها رب العزة فى الآى السابقة
وقيل المعنى أظننتم أن هذه الأصنام التى تعبدونها تنفعكم وقيل أظننتم أنها تشفع لكم فى الآخرة وقيل
أفرأيتم إلى هذه الأصنام إن عبدتموها لاتنفعكم وإن تركتموها لاتضركم والأول هو الحق كما يشهد
٢١ به قوله تعالى (ألكم الذكر وله الأنثى) شهادة بينة فإنه توبيخ مبنى على التوبيخ الأول وحيث كان
مداره تفضيل جانب أنفسهم على جنابه تعالى بنسبتهم إليه تعالى الإناث مع اختيارهم لأنفسهم الذكور
وجب أن يكون مناط الأول نفس تلك النسبة حتى يتسنى بناء التوبيخ الثانى عليه وظاهر أن ليس فى
شىء من التقديرات المذكورة من تلك النسبة عين ولا أثر وأما ماقيل من أن هذه الجملة مفعول ثان
للرؤية وخلوها عن العائد إلى المفعول الأول لما أن الأصل أخبرونى أن اللات والعزى ومناة ألكم
الذكر وله هن أى تلك الأصنام فوضع موضع الأنثى لمراعاة الفواصل وتحقيق مناط التوبيخ فمع مافيه
من التمحلات التى ينبغى تنزيه ساحة التنزيل عن أمثالها يقتضى اقتصار التوبيخ على ترجيح جانبهم الحقير
٢٢ على جناب الله العزيز الجليل من غير تعرض للتوبيخ على نسبة الولد إليه سبحانه (تلك) إشارة إلى
٥ القسمة المنفهمة من الجملة الاستفهامية (إذاً قسمة ضيزى) أى جائرة حيث جعلتم له تعالى ماتستنكرون

إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ
وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾ ٥٣ النجم

أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾ ٥٣ النجم

فَلِلَّهِ ٱلْءَاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾ ٥٣ النجم

منه وهى فعلى من الضيز وهو الجور لكنه كسر فاؤه لتسلم الياء كما فعل فى بيض فإن فعلى بالكسر
لم يأت فى الوصف وقرىء ضئزى بالهمزة من ضأزه إذا ظلمه على أنه مصدر نعت به وقرىء ضيزى
٢٣ إما على أنه مصدر وصف به كدعوى أو على أنه صفة كسكرى وعطشى (إن هى) الضمير للأصنام
* أى ما الأصنام باعتبار الألوهية التى يدعونها (إلا أسماء) محضة ليس تحتها مما تنبىء هى عنه من معنى
* الألوهية شىء ما أصلا وقوله تعالى (سميتموها) صفة لأسماء وضميرها لها لا للأصنام والمعنى جعلتموها
أسماء لا جعلتم لها أسماء فإن التسمية نسبة بين الاسم والمسمى فإذا قيست إلى الاسم فمعناها جعله اسماً
للمسمى وإن قيست إلى المسمى فمعناها جعله مسمى للاسم وإنما اختير ههنا المعنى الأول من غير تعرض
للمسمى لتحقيق أن تلك الأصنام التى يسمونها آلهة أسماء مجردة ليس لها مسميات قطعاً كما فى قوله تعالى
ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها الآية لا أن هناك مسميات لكنها لا تستحق التسمية وقيل هى
للأسماء الثلاثة المذكورة حيث كانوا يطلقونها على تلك الأصنام لاعتقادهم أنها تستحق العكوف على
عبادتها والإعزاز والتقرب إليها بالقرابين وأنت خبير بأنه لو سلم دلالة الأسماء المذكورة على ثبوت
تلك المعانى الخاصة للأصنام فليس فى سلبها عنها مزيد فائدة بل إنما هى فى سلب الألوهية عنها كما هو
زعمهم المشهور فى حق جميع الأصنام على وجه برهانى فإن انتفاء الموصوف يقتضى انتفاء الوصف
* بطريق الأولوية أى ما هى إلا أسماء خالية عن المسميات وضعتموها (أنتم ولا آباؤكم) بمقتضى أهوائكم
* الباطلة (ما أنزل الله بها من سلطان) برهان تتعلقون به (إن يتبعون) التفات إلى الغيبة للإيذان بأن
تعداد قبائحهم اقتضى الإعراض عنهم وحكاية جناياتهم لغيرهم أى ما يتبعون فيما ذكر من التسمية والعمل
* بموجبها (إلا الظن) إلا توهم أن ما هم عليه حق توهما باطلا (وما تهوى الأنفس) أى تشتهيه أنفسهم
* الأمارة بالسوء (ولقد جاءهم من ربهم الهدى) قيل هى حال من فاعل يتبعون أو اعتراض وأياما كان
ففيه تأكيد لبطلان اتباع الظن وهوى النفس وزيادة تقبيح لحالهم فإن اتباعهما من أى شخص كان
٢٤ قبيح وممن هداه الله تعالى بإرسال الرسول صلى الله عليه وسلم وإنزال الكتاب أقبح (أم للإنسان
ما تمنى) أم منقطعة وما فيها من بل للانتقال من بيان أن ما هم عليه غير مستند إلا إلى توهمهم وهوى
أنفسهم إلى بيان أن ذلك مما لا يجدى نفعاً أصلا والهمزة للإنكار والنفى أى ليس للإنسان كل ما يتمناه
وتشتهيه نفسه من الأمور التى من جملتها أطماعهم الفارغة فى شفاعة الآلهة ونظائرها التى لا تكاد تدخل
٢٥ تحت الوجود (فلله الآخرة والأولى) تعليل لانتفاء أن يكون للإنسان ما يتمناه حتما فإن اختصاص

وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغۡنِي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ أَن يَأۡذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرۡضَىٰٓ ﴿٢٦﴾ ٥٣ النجم

إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ تَسۡمِيَةَ ٱلۡأُنثَىٰ ﴿٢٧﴾ ٥٣ النجم

وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٍۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغۡنِي مِنَ ٱلۡحَقِّ شَيۡـًٔا ﴿٢٨﴾ ٥٣ النجم

فَأَعۡرِضۡ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكۡرِنَا وَلَمۡ يُرِدۡ إِلَّا ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ﴿٢٩﴾ ٥٣ النجم

٢٦ أمور الآخرة والأولى جميعاً به تعالى مقتض لانتفاء أن يكون له أمر من الأمور وقوله تعالى (وكم
من ملك فى السموات لاتغنى شفاعتهم شيئاً) إقناط لهم عما علقوا به أطماعهم من شفاعة الملائكة لهم
موجب لإقناطهم من شفاعة الأصنام بطريق الأولوية وكم خبرية مفيدة للتكثير محلها الرفع على الابتداء
والخبر هى الجملة المنفية وجمع الضمير فى شفاعتهم مع إفراد الملك باعتبار المعنى أى وكثير من الملائكة
* لاتغنى شفاعتهم عند الله تعالى شيئاً من الإغناء فى وقت من الأوقات (إلا من بعد أن يأذن الله) لهم
* فى الشفاعة (لمن يشاء) أن يشفعوا له (ويرضى) ويراه أهلا للشفاعة من أهل التوحيد والإيمان وأما
من عداهم من أهل الكفر والطغيان فهم من إذن الله تعالى بمعزل ومن الشفاعة ألف منزل فإذا كان
٢٧ حال الملائكة فى باب الشفاعة كما ذكر فما ظنهم بحال الأصنام (إن الذين لا يؤمنون بالآخرة) وبما
* فيها من العقاب على مايتعاطونه من الكفر والمعاصى (ليسمون الملائكة) المنزهين عن سمات النقصان
* على الإطلاق يسمون كل واحد منهم (تسمية الأنثى) فإن قولهم الملائكة بنات الله قول منهم بأن
كلا منهم بنته سبحانه وهى التسمية بالأنثى وفى تعليقها بعدم الإيمان بالآخرة إشعار بأنها فى الشناعة
والفظاعة واستتباع العقوبة فى الآخرة بحيث لايجترىء عليها إلا من لايؤمن بها رأساً وقوله تعالى
٢٨ (وما لهم به من علم) حال من فاعل يسمون أى يسمونهم والحال أنه لا علم لهم بما يقولون أصلا
* وقرىء بها أى بالملائكة أو بالتسمية (أن يتبعون) فى ذلك (إلا الظن) الفاسد (وإن الظن) أى
* جنس الظن كما يلوح به الإظهار فى موقع الإضمار (لايغنى من الحق شيئاً) من الإغناء فإن الحق الذى
هو عبارة عن حقيقة الشىء لايدرك إلا بالعلم والظن لااعتداد به فى شأن المعارف الحقيقية وإنما يعتد
٢٩ به فى العمليات وما يؤدى إليها (فأعرض عمن تولى عن ذكرنا) أى عنهم ووضع الموصول موضع
ضميرهم للتوسل به إلى وصفهم بما فى حيز صلته من الأوصاف القبيحة وتعليل الحكم بها أى فأعرض
عمن أعرض عن ذكرنا المفيد للعلم اليقينى وهو القرآن المنطوى على علوم الأولين والآخرين المذكر
لأمور الآخرة أو عن ذكرنا كما ينبغى فإن ذلك مستتبع لذكر الآخرة وما فيها من الأمور المرغوب
* فيها والمرهوب عنها (ولم يرد إلا الحياة الدنيا) راضياً بها قاصراً نظره عليها والمراد النهى عن دعوته
والاعتناء بشأنه فإن من أعرض عما ذكر وانهمك فى الدنيا بحيث كانت هى منتهى همته وقصارى سعيه

ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿٣٠﴾ ٥٣ النجم

وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى ﴿٣١﴾ ٥٣ النجم

لاتزيده الدعوة إلى خلافها إلا عناداً وإصراراً على الباطل (ذلك) أى ما أداهم إلى ماهم فيه من التولى ٣٠
وقصر الإرادة على الحياة الدنيا (مبلغهم من العلم) لا يكادون يجاوزونه إلى غيره حتى تجديهم الدعوة *
والإرشاد وجمع الضمير فى مبلغهم باعتبار معنى من كما أن إفراده فيما سبق باعتبار لفظها والمراد بالعلم مطلق
الإدراك المنتظم للظن الفاسد والجملة اعتراض مقرر لمضمون ماقبلها من قصر الإرادة على الحياة الدنيا
وقوله تعالى (إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بمن اهتدى) تعليل للأمر بالإعراض *
وتكرير قوله تعالى هو أعلم لزيادة التقرير والإيذان بكمال تباين المعلومين والمراد بمن ضل من أصر
عليه ولم يرجع إلى الهدى أصلا وبمن اهتدى من من شأنه الاهتداء فى الجملة أى هو المبالغ فى العلم
بمن لا يرعوى عن الضلال أبداً وبمن يقبل الاهتداء فى الجملة لاغيره فلا تتعب نفسك فى دعوتهم فإنهم
من القبيل الأول وفى تعليل الأمر بإعراضه عليه السلام عن الاعتناء بأمرهم باقتصار العلم بأحوال
الفريقين عليه تعالى رمز إلى أنه تعالى يعاملهم بموجب علمه بهم فيجزى كلا منهم بما يليق به من الجزاء
فقيه وعيد ووعد ضمناً كما سيأتى صريحاً (ولله ما فى السموات وما فى الأرض) أى خلقاً وملكا لا ٣١
لغيره أصلا لا استقلالا ولا اشتراكا وقوله تعالى (ليجزى) الخ متعلق بما دل عليه أعلم الخ وما بينهما *
اعتراض مقرر لما قبله فإن كون الكل مخلوقا له تعالى مما يقرر علمه تعالى بأحوالهم ألا يعلم من خلق
كأنه قيل فيعلم ضلال من ضل واهتداء من اهتدى ويحفظهما ليجزى (الذين أساؤا بما عملوا) أى *
بعقاب ما عملوا من الضلال الذى عبر عنه بالإساءة بياناً لحاله أو بسبب ما عملوا (ويجزى الذين أحسنوا) *
أى اهتدوا (بالحسنى) أى بالمثوبة الحسنى التى هى الجنة أو بسبب أعمالهم الحسنى وقيل متعلق بما دل *
عليه قوله تعالى ولله مافى السموات وما فى الأرض كأنه قيل خلق مافيهما ليجزى الخ وقيل متعلق
بضل واهتدى على أن اللام للعاقبة أى هو أعلم بمن ضل ليؤول أمره إلى أن يجزيه الله تعالى بعمله
وبمن اهتدى ليؤول أمره إلى أن يجزيه بالحسنى وفيه من البعد مالا يخفى وتكرير الفعل لإبراز كمال
الاعتناء بأمر الجزاء والتنبيه على تباين الجزاءين .

ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴿٣٢﴾ ٥٣ النجم

أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾ ٥٣ النجم

وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ ﴿٣٤﴾ ٥٣ النجم

٣٢ (الذين يجتنبون كبائر الإثم) بدل من الموصول الثانى وصيغة الاستقبال فى صلتـه للدلالة على تجدد الاجتناب واستمراره أو بيان أو نعت أو منصوب على المدح وكبائر الإثم ما يكبر عقابه من الذنوب وهو مارتب عليه الوعيد بخصوصه وقرىء كبير الإثم على إرادة الجنس أوالشرك (والفواحش) وما فحش من الكبائر خصوصاً (إلا اللمم) أى إلا ما قل وصغر فإنه مغفور ممن يجتنب الكبائر قيل هى النظرة والغمزة والقبلة وقيل هى الخطرة من الذنب وقيل كل ذنب لم يذكر الله عليه حداً ولا عذاباً وقيل عادة النفس الحين بعد الحين والاستثناء منقطع (إن ربك واسع المغفرة) حيث يغفر الصغائر باجتناب الكبائر فالجملة تعليل لاستثناء اللمم وتنبيه على أن إخراجه عن حكم المؤاخذة به ليس لخلوه عن الذنب فى نفسه بل لسعة المغفرة الربانيـة وقيل المعنى له أن يغفر لمن يشاء من المؤمنين ما يشاء من الذنوب صغيرها وكبيرها لعل تعقيب وعد المسيئين ووعد المحسنين بذلك حينئذ لئلا ييأس صاحب الكبيرة من رحمته تعالى ولا يتوهم وجوب العقاب عليـه تعالى (هو أعلم بكم) أى بأحوالكم يعلمها (إذ أنشأكم) فى ضمن إنشاء أبيكم آدم عليـه السلام (من الأرض) إنشاء إجمالياً حسبما مر تقريره مراراً (وإذ أنتم أجنة) أى وقت كونكم أجنة (فى بطون أمهاتكم) على أطوار مختلفة مترتبة لايخفى عليه حال من أحوالكم وعمل من أعمالكم التى من جملتها اللمم الذى لولا المغفرة الواسعة لأصابكم وباله فالجملة استئناف مقرر لما قبلها والفاء فى قوله تعالى (فلا تزكوا أنفسكم) لترتيب النهى عن تزكية النفس على ماسبق من أن عدم المؤاخذة باللمم ليس لعدم كونه من قبيل الذنوب بل لمحض مغفرته تعالى مع علمه بصدوره عنكم أى إذا كان الأمر كذلك فلا تثنوا عليها بالطهارة عن المعاصى بالكلية أو بما يستلزمها من زكاء العمل ونماء الخير بل اشكروا الله تعالى على فضله ومغفرته (هو أعلم بمن اتقى) المعاصى جميعاً وهو استئناف مقرر للنهى ومشعر بأن فيهم من يتقيها بأسرها وقيل كان ناس يعملون أعمالا حسنة ثم يقولون صلاتنا وصيامنا وحجنا فنزلت وهـذا إذا كان بطريق الإعجاب أو الرياء فأمامن اعتقدأن ماعمله من الأعمال الصالحة من الله تعالى وبتوفيقه وتأييده ولم يقصد به التمدح

٣٣ لم يكن من المزكين أنفسهم فإن المسرة بالطاعة طاعة وذكرها شكر (أفرأيت الذى تولى) أى عن

٣٤ اتباع الحق والثبات عليه (وأعطى قليلا) أى شيئاً قليلا أو إعطاء قليلا (وأكدى) أى قطع العطاء

أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ ﴿٣٥﴾ ٥٣ النجم

أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ ٥٣ النجم

وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ ٥٣ النجم

أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ ٥٣ النجم

وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ ٥٣ النجم

من قولهم أكدى الحافر إذا بلغ الكدية أى الصلابة كالصخرة فلا يمكنه أن يحفر قالوا نزلت فى الوليد ابن المغيرة كان يتبع رسول الله صلى الله عليه وسلم فعيره بعض المشركين وقال له تركت دين الأشياخ وضللتهم فقال أخشى عذاب الله فضمن أن يتحمل عنه العذاب إن أعطاه بعض ماله فارتد وأعطاه بعض المشروط وبخل بالباقى وقيل نزلت فى العاص بن وائل السهمى لما كان يوافق النبى عليه الصلاة والسلام فى بعض الأمور وقيل فى أبى جهل كان ربما يوافق الرسول عليه الصلاة والسلام فى بعض الأمور وكان يقول والله ما يأمرنا محمد إلا بمكارم الأخلاق وذلك قوله تعالى وأعطى قليلا وأكدى

٣٥ والأول هو الأشهر المناسب لما بعده من قوله تعالى (أعنده علم الغيب فهو يرى) الخ أى أعنده علم

٣٦، ٣٧ بالأمور الغيبية التى من جملتها تحمل صاحبه عنه يوم القيامة (أم لم ينبأ بما فى صحف موسى) (وإبراهيم الذى وفى) أى وفر وأتم ما ابتلى به من الكلمات أو أمر به أو بالغ فى الوفاء بما عاهد الله وتخصيصه بذلك لاحتماله مالم يحتمله غيره كالصبر على نار نمروذ حتى إذا أنه أتاه جبريل عليه السلام حين يلقى فى النار فقال ألك حاجة فقال أما إليك فلا وعلى ذبح الولد ويروى أنه كان يمشى كل يوم فرسخاً يرتاد ضيفاً فإن وافقه أكرمه وإلا نوى الصوم وتقديم موسى لما أن صحفه التى هى التوراة أشهر عندهم

٣٨ وأكثر (ألا تزر وازرة وزر أخرى) أى أنه لاتحمل نفس من شأنها الحمل حمل نفس أخرى على أن أن هى المخففة من الثقيلة وضمير الشأن الذى هو اسمها محذوف والجملة المنفية خبرها ومحل الجملة الجر على أنها بدل بما فى صحف موسى أو الرفع على أنها خبر مبتدأ محذوف كأنه قيل ما فى صحفهما فقيل هو أن لاتزر الخ والمعنى أنه لا يؤاخذ أحد بذنب غيره ليتخلص الثانى عن عقابه ولا يقدح فى ذلك قوله عليه الصلاة والسلام من سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة فإن ذلك وزر

٣٩ الإضلال الذى هو وزره وقوله تعالى (وأن ليس للإنسان إلا ما سعى) بيان لعدم انتفاع الإنسان بعمل غيره من حيث جلب النفع إليه إثر بيان عدم انتفاعه به من حيث دفع الضرر عنه وأما شفاعة الأنبياء عليهم السلام واستغفار الملائكة عليهم السلام ودعاء الأحياء للأموات وصدقتهم عنهم وغير ذلك مما لايكاد يحصى من الأمور النافعة للإنسان مع أنها ليست من عمله قطعاً فحيث كان مناط منفعة كل منها عمله الذى هو الإيمان والصلاح ولم يكن لشىء منها نفع مابدونه جعل النافع نفس عمله وإن

وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ٥٣ النجم

ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾ ٥٣ النجم

وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾ ٥٣ النجم

وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ ٥٣ النجم

وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾ ٥٣ النجم

وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ ٥٣ النجم

مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾ ٥٣ النجم

وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ﴿٤٧﴾ ٥٣ النجم

وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴿٤٨﴾ ٥٣ النجم

وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ ﴿٤٩﴾ ٥٣ النجم

وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ ٥٣ النجم

٤٠ كان بانضمام عمل غيره إليه وأن مخففة كأختها معطوفة عليها وكذا قوله تعالى (وأن سعيه سوف يرى)
٤١ أى يعرض عليه ويكشف له يوم القيامة فى صحيفته وميزانه من أريته الشىء (ثم يجزاه) أى يجزى
الإنسان سعيه يقال جزاه الله بعمله وجزاه على عمله وجزاه عمله بحذف الجار وإيصال الفعل ويجوز
* أن يجعل الضمير للجزاء ثم يفسر بقوله تعالى (الجزاء الأوفى) أو يبدل هو عنه كما فى قوله تعالى وأسروا
٤٢ النجوى الذين ظلموا (وأن إلى ربك المنتهى) أى انتهاء الخلق ورجوعهم إليه تعالى لا إلى غيره استقلالا
٤٣ ولا اشتراكا وقرىء بكسر إن على الابتداء (وأنه هو أضحك وأبكى) أى هو خلق قوتى الضحك والبكاء
٤٤ (وأنه هو أمات وأحيا) لا يقدر على الإماتة والإحياء غيره فإن أثر القاتل نقض البنية وتفريق الاتصال
٤٥،٤٦ وإنما يحصل الموت عنده بفعل الله تعالى على العادة (وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى) (من
٤٧ نطفة إذا تمنى) تدفق فى الرحم أو تخلق أو يقدر منها الولد من منى بمعنى قدر (وأن عليه النشأة الأخرى)
٤٨ أى الإحياء بعد الموت وفاء بوعده وقرىء النشاءة بالمد وهى أيضاً مصدر نشأه (وأنه هو أغنى وأقنى)
وأعطى القنية وهى مايتأثل من الأموال وإفرادها بالذكر لأنها أشرف الأموال أو أرضى وتحقيقه
٤٩ جعل الرضا له قنية (وأنه هو رب الشعرى) أى رب معبودهم وهى العبور وهى أشد ضياء من الغميصاء
وكانت خزاعة تعبدها سن لهم ذلك أبو كبشة رجل من أشرافهم وكانت قريش تقول لرسول الله
٥٠ صلى الله عليه وسلم أبو كبشة تشبيهاً له عليه الصلاة والسلام به لمخالفته إياهم فى دينهم (وأنه أهلك

وَثَمُودَاْ فَمَآ أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾ ٥٣ النجم

وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُواْ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴿٥٢﴾ ٥٣ النجم

وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ ٥٣ النجم

فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾ ٥٣ النجم

فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾ ٥٣ النجم

هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ﴿٥٦﴾ ٥٣ النجم

عاد الأولى) هي قوم هود عليه السلام وعاد الأخرى إرم وقيل الأولى القدماء لأنهم أولى الأمم هلاكا
بعد قوم نوح وقرىء عاداً لولى بحذف الهمزة ونقل ضمتها إلى اللام وعاد لولى بادغام التنوين فى اللام
٥١ وطرح همزة أولى ونقل حركتها إلى لام التعريف (وثمود) عطف على عاداً لأن ما بعده لا يعمل
٥٢ فيه وقرىء وثموداً بالتنوين (فما أبقى) أى أحداً من الفريقين (وقوم نوح) عطف عليه أيضاً (من
* قبل) أى من قبل إهلاك عاد وثمود (إنهم كانوا هم أظلم وأطغى) من الفريقين حيث كانوا يؤذونه
وينفرون الناس عنه وكانوا يحذرون صبيانهم أن يسمعوا منه وكانوا يضربونه عليه الصلاة والسلام
٥٣ حتى لا يكون به حراك وما أثر فيهم دعاؤه قريباً من ألف سنة (والمؤتفكة) هي قرى قوم لوط ائتفكت
* بأهلها أى انقلبت بهم (أهوى) أى أسقطها إلى الأرض بعد أن رفعها على جناح جبريل عليه السلام
٥٤، ٥٥ إلى السماء (فغشاها ما غشى) من فنون العذاب وفيه من التهويل والتفظيع ما لا غاية وراءه (فبأى آلاء
ربك تتمارى) تتشكك والخطاب للرسول عليه الصلاة والسلام على طريقة قوله تعالى لئن أشركت
ليحبطن عملك أو لكل أحد وإسناد فعل التمارى إلى الواحد باعتبار تعدده بحسب تعدد متعلقه فإن
صيغة التفاعل وإن كانت موضوعة لإفادة صدور الفعل عن المتعدد ووقوعه عليه بحيث يكون كل من
ذلك فاعلا ومفعولا معاً لكنها قد تجرد عن المعنى الثانى فيراد بها المعنى الأول فقط كما فى يتداعونهم
أى يدعونهم وقد تجرد عنهم أيضاً فيكتفى بتعدد الفعل بتعدد متعلقه كما فيما نحن فيه فإن المراء متعدد
بتعدد الآلاء فتدبر وتسمية الأمور المعدودة آلاء مع أن بعضها نقم لما أنها أيضاً نعم من حيث إنها
٥٦ نصرة للأنبياء والمؤمنين وانتقام لهم وفيها عظات وعبر للمعتبرين (هذا نذير من النذر الأولى) هذا
إما إشارة إلى القرآن والنذير مصدر أو إلى الرسول عليه الصلاة والسلام والنذير بمعنى المنذر وأياً
ما كان فالتنوين للتفخيم ومن متعلقة بمحذوف هو نعت لنذير مقرر له ومتضمن للوعيد أى هذا القرآن
الذى تشاهدونه نذير من قبيل الإنذارات المتقدمة التى سمعتم عاقبتها أو هذا الرسول منذر من جنس
المنذرين الأولين والأولى على تأويل الجماعة لمراعاة الفواصل وقد علمتم أحوال قومهم المنذرين وفى

أَزِفَتِ ٱلْآزِفَةُ ﴿٥٧﴾ ٥٣ النجم

لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾ ٥٣ النجم

أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ ٥٣ النجم

وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ ٥٣ النجم

وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ﴿٦١﴾ ٥٣ النجم

فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟ ﴿٦٢﴾ ٥٣ النجم

٥٧ تعقيبه بقوله تعالى (أزفت الآزفة) إشعاربأن تعذيبهم مؤخر إلى يوم القيامة أي دنت الساعة الموصوفة
٥٨ بالدنو في نحو قوله تعالى اقتربت الساعة (ليس لها من دون الله كاشفة) أي ليس لها نفس قادرة على
كشفها عند وقوعها إلا الله تعالى لكنه لا يكشفها أو ليس لها الآن نفس كاشفة بتأخيرها إلا الله تعالى
فإنه المؤخر لها أو ليس لها كاشفة لوقتها إلا الله تعالى كقوله تعالى لايجليها لوقتها إلا هو أو ليس لها
٥٩ من غير الله تعالى كشف على أن كاشفة مصدر كالعافية (أفمن هذا الحديث) أي القرآن (تعجبون)
٦٠ إنكاراً (وتضحكون) استهزاء مع كونه أبعد شيء من ذلك (ولا تبكون) حزناً على مافرطتم في
٦١ شأنه وخوفاً من أن يحيق بكم ماحاق بالأمم المذكورة (وأنتم سامدون) أي لاهون أو مستكبرون
من سمد البعير إذا رفع رأسه أو مغنون لتشغلوا الناس عن استماعه من السمود بمعنى الغناء على لغة حمير
أو خاشعون جامدون من السمود بمعنى الجمود والخشوع كما في قول من قال [رمى الحدثان نسوة آل
سعد * بمقدار سمدن له سمودا] [فرد شعورهن السود بيضاً * ورد وجوههن البيض سودا] والجملة
حال من فاعل لاتبكون خلا أن مضمونها على الوجه الأخير قيد للنفي والإنكار وارد على نفي البكاء
والسمود معاً وعلى الوجوه الأول قيد للنفي والإنكار متوجه إلى نفي البكاء ووجود السمود والأول
٦٢ أوفى بحق المقام فتدبر والفاء في قوله تعالى (فاسجدوا لله واعبدوا) لترتيب الأمر أو موجبه على ماتقرر
من بطلان مقابلة القرآن بالإنكار والاستهزاء ووجوب تلقيه بالإيمان مع كمال الخضوع والخشوع
أي وإذا كان الأمر كذلك فاسجدوا لله الذي أنزله واعبدوا . عن النبي عليه الصلاة والسلام من قرأ
سورة النجم أعطاه الله تعالى عشر حسنات بعدد من صدق بمحمد وجحد به بمكة شرفها الله تعالى .

سورة النجم

ترتيبها ٥٣ — آياتها ٦٢

وتسمى أيضا سورة ـ النجم ـ بدون واو وهي «مكية» على الإطلاق، وفي الإتقان استثنى منها ﴿الذين يجتنبون﴾ إلى ﴿أتقى﴾ [النجم: ٣٢]، وقيل: ﴿أفرأيت الذي تولى﴾ [النجم: ٣٣] الآيات التسع، ومن الغريب حكاية الطبرسي عن الحسن أنها مدنية. ولا أرى صحة ذلك عنه أصلاً، وآيها اثنتان وستون آية في الكوفي، وإحدى وستون في غيره، وهي كما أخرج ابن مردويه عن ابن مسعود أول سورة أعلن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بقراءتها فقرأها في الحرم والمشركون يسمعون، وأخرج البخاري ومسلم وأبو داود والنسائي عنه قال: «أول سورة أنزلت فيها سجدة «والنجم» فسجد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وسجد الناس كلهم إلا رجلاً رأيته أخذ كفاً من تراب فسجد عليه فرأيته بعد ذلك قتل كافراً» وهو أمية بن خلف، وفي البحر أنه عليه الصلاة والسلام سجد وسجد معه المؤمنون والمشركون والجن والإنس غير أبي لهب فإنه رفع حفنة من تراب وقال: يكفي هذا، فيحتمل أنه وأمية فعلا كذلك، وهي شديدة المناسبة لما قبلها فإن الطور ختمت بقوله تعالى: ﴿إدبار النجوم﴾ [الطور: ٤٩] وافتتحت هذه بقوله سبحانه: «والنجم» وأيضاً في مفتتحها ما يؤكد رد الكفرة فيما نسبوه إليه صلى الله تعالى عليه وسلم من التقول والشعر والكهانة والجنون، وذكر أبو حيان أن سبب نزولها قول المشركين: إن محمداً عليه الصلاة والسلام يختلق القرآن، وذكر الجلال السيوطي في وجه مناسبتها أن الطور فيها ذكر ذرية المؤمنين وأنهم تبع لآبائهم وهذه فيها ذكر ذرية اليهود في قوله تعالى: ﴿هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض وإذ أنتم أجنة في بطون أمهاتكم﴾ [النجم: ٣٢] الآية فقد أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم والطبري وأبو نعيم في المعرفة والواحدي عن ثابت بن الحارث الأنصاري «قال: كانت اليهود إذا هلك لهم صبي صغير قالوا هو صديق فبلغ ذلك النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فقال: كذبت يهود ما من نسمة يخلقها الله في بطن أمها إلا أنه شقي أو سعيد فأنزل الله تعالى عند ذلك ﴿وهو أعلم بكم﴾ الآية كلها» وأنه تعالى لما قال هناك في المؤمنين: ﴿ألحقنا بهم ذريتهم﴾ [الطور: ٢١] الخ قال سبحانه هنا في الكفار، أو في الكبار: ﴿وأن ليس للإنسان إلا ما سعى﴾ [النجم: ٣٩] خلاف ما دخل في المؤمنين الصغار، ثم قال: وهذا وجه بديع في المناسبة من وادي التضاد، وفي صحة كون قوله تعالى: ﴿هو أعلم بكم﴾ الآية نزل لما ذكر نظر عندي، وكون قوله تعالى ﴿ألحقنا بهم ذريتهم﴾ في الصغار لم يتفق عليه المفسرون كما سمعت غير بعيد، نعم من تأمل ظهر له وجوه من المناسبات غير ما ذكر فتأمل.

بسم الله الرحمن الرحيم

وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ عَلَّمَهُ

شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴿٥﴾ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ﴿٦﴾ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٧﴾ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾
فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾
عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾

﴿بسم الله ٱلرَّحْمٰن ٱلرَّحِيم وَٱلنَّجْم إِذَا هَوَىٰ﴾ أقسم سبحانه بجنس النجم المعروف على ما روي عن الحسن ومعمر بن المثنى، ومنه قوله:

فباتت تعد النجم في مستحيرة ... سريع بأيدي الآكلين جمودها

ومعنى **﴿هوى﴾** غرب، وقيل: طلع يقال هوى يهوي كرمى يرمي هوياً بالفتح في السقوط والغروب لمشابهته له؛ وهوياً بالضم للعلو، والطلوع، وقيل: الهوى بالفتح للإصعاد والهوى بالضم للانحدار؛ وقيل: الهوى بالفتح والضم للسقوط ويقال أهوى بمعنى هوى، وفرق بعض اللغويين بينهما بأن هوى إذا انقض لغير صيد، وأهوى إذا انقض له، وقال الحسن وأبو حمزة الثمالي: أقسم سبحانه بالنجوم إذا انتثرت في القيامة، وعن ابن عباس في رواية أقسم عز وجل بالنجوم إذا انقضت في إثر الشياطين، وقيل: المراد بالنجم معين فقال مجاهد وسفيان: هو الثريا فإن النجم صار علماً بالغلبة لها، ومنه قوله صلى الله تعالى عليه وسلم: «إذا طلع النجم صباحاً ارتفعت العاهة» وقول العرب: ـ طلع النجم عشاءً فابتغى الراعي كساء، طلع النجم غدية فابتغى الراعي كسية ـ وفسر هويها بسقوطها مع الفجر، وقيل: هو الشعرى المرادة بقوله تعالى: **﴿وأنه هو رب الشعرى﴾** [النجم: ٤٩] والكهان يتكلمون على المغيبات عند طلوعها، وقيل: الزهرة وكانت تعبد، وقال ابن عباس ومجاهد والفراء ومنذر بن سعيد: **﴿النجم﴾** المقدار النازل من القرآن على النبي صلى الله تعالى عليه وسلم، و **﴿إذا هوى﴾** بمعنى إذا نزل عليه مع ملك الوحي جبريل عليه السلام، وقال جعفر الصادق رضي الله تعالى عنه: هو النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وهويه نزوله من السماء ليلة المعراج، وجوز على هذا أن يراد بهويه صعوده وعروجه عليه الصلاة والسلام إلى منقطع الأين، وقيل: هو الصحابة رضي الله تعالى عنهم، وقيل: العلماء على إرادة الجنس، والمراد بهويهم قيل: عروجهم في معارج التوفيق إلى حظائر التحقيق. وقيل: غوصهم في بحار الافكار لاستخراج درر الأسرار. وأظهر الأقوال القول بأن المراد بالنجم جنس النجم المعروف بأن أصله اسم جنس لكل كوكب، وعلى القول بالتعيين فالأظهر القول بأنه الثريا، ووراء هذين القولين القول بأن المراد به المقدار النازل من القرآن، وفي الإقسام بذلك على نزاهته عليه الصلاة والسلام عن شائبه الضلال والغواية من البراعة البديعة وحسن الموقع ما لا غاية وراءه، أما على الأولين فلأن النجم شأنه أن يهتدي به الساري إلى مسالك الدنيا كأنه قيل: **﴿والنجم﴾** الذي تهتدي به السابلة إلى سواء السبيل **﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ﴾** أي ما عدل عن طريق الحق الذي هو مسلك الآخرة فهو استعارة وتمثيل لكونه عليه الصلاة والسلام على الصواب في أقواله وأفعاله **﴿وَمَا غَوَىٰ﴾** أي وما اعتقد باطلاً قط لأن الغي الجهل مع اعتقاد فاسد وهو خلاف الرشد فيكون عطف هذا على **﴿ما ضل﴾** من عطف الخاص على العام اعتناءً بالاعتقاد، وإشارة إلى أنه المدار.

وأما على الثالث فلأنه تنويه بشأن القرآن وتنبيه على مناط اهتدائه عليه الصلاة والسلام ومدار رشاده كأنه قيل: وما أنزل عليك من القرآن الذي هو علم في الهداية إلى مناهج الدين ومسالك الحق واليقين **﴿ما ضَلَّ﴾** عنها محمد صلى الله تعالى عليه وسلم **﴿وما غوى﴾** فهو من باب:

وثناياك إنها إغريض

والخطاب لقريش وإيراده عليه الصلاة والسلام بعنوان المصاحبة لهم للإيذان بوقوفهم على تفاصيل أحواله الشريفة وإحاطتهم خبراً ببراءته صلى الله تعالى عليه وسلم مما نفي عنه بالكلية وباتصافه عليه الصلاة والسلام بغاية الهدى والرشاد فإن طول صحبتهم له عليه الصلاة والسلام ومشاهدتهم لمحاسن شؤونه العظيمة مقتضية لذلك حتماً ففي ذلك تأكيد لإقامة الحجة عليهم، واختلف في متعلق إذا قال بعضهم: فاوضت جار الله في قوله تعالى: **﴿والنجم إذا هوى﴾** فقال: العامل فيه ما تعلق به الواو فقلت: كيف يعمل فعل الحال في المستقبل؟! وهذا لأن معناه أقسم الآن لا أقسم بعد هذا، فرجع وقال: العامل فيه مصدر محذوف، والتقدير ـ وهوى النجم اذا هوى ـ فعرضته على بعض المشايخ فلم يستحسن قوله الثاني، والوجه تعلقه بأقسم وهو قد انسلخ عنه معنى الاستقبال وصار للوقت المجرد ونحوه آتيك إذا احمر البسر أي وقت احمراره، وقال عبد القاهر: إخبار الله تعالى بالمتوقع يقام مقام الإخبار بالواقع إذا لا خلف فيه فيجري المستقبل مجرى المحقق الماضي، وقيل: إنه متعلق بعامل هو حال من النجم، وأورد عليه أن الزمان لا يكون خبراً ولا حالاً عن جثة كما هنا، وأن **﴿إذا﴾** للمستقبل فكيف يكون حالاً إلا أن تكون حالاً مقدرة أو تجرد **﴿إذا﴾** لمطلق الوقت كما يقال بصحية الحالية إذا أفادت معنى معتداً به، فمجيء الزمان خبراً أو حالاً عن جثة ليس ممنوعاً على الاطلاق كما ذكره النحاة، أو النجم لتغيره طلوعاً وغروباً أشبه الحدث، والإنصاف أن جعله حالاً كتعلقه بمصدر محذوف ليس بالوجه، وإنما الوجه، ـ على ما قيل ـ ما سمعت من تعلقه بأقسم منسلخاً عنه معنى الاستقبال وهو الذي اختاره في المغني، وتخصيص القسم بوقت الهوي ظاهر على الأخير من الأقوال الثلاثة، وأما على الأولين فقيل: لأن النجم لا يهتدي به الساري عند كونه في وسط السماء ولا يعلم المشرق من المغرب ولا الشمال من الجنوب، وإنما يهتدي به عند هبوطه، أو صعوده مع ما فيه من كمال المناسبة لما سيحكى من التدلي والدنو، وقيل: لدلالته على حدوثه الدال على الصانع وعظيم قدرته عز وجل كما قال الخليل على نبينا وعليه أفضل الصلاة وأكمل السلام **﴿لا أحب الآفلين﴾** [الأنعام: ٧٦] وسيأتي إن شاء الله تعالى آخر الكتاب تمام الكلام في تحقيق إعراب مثل هذا التركيب فلا تغفل **﴿وَمَا يَنطِقُ﴾** أي النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لتقدم ذكره في قوله سبحانه: **﴿صاحبكم﴾** والنطق مضمن معنى الصدور فلذا عدي بعن في قوله تعالى: **﴿عَنِ ٱلْهَوَىٰ﴾** وقيل: هي بمعنى الباء وليس بذاك أي ما يصدر نطقه فيما آتاكم به من جهته عز وجل كالقرآن، أو من القرآن عن هوى نفسه ورأيه أصلاً فإن المراد استمرار النفي كما مر مراراً في نظائره **﴿إِنْ هُوَ﴾** أي ما الذي ينطق به من ذلك أو القرآن وكل ذلك مفهوم من السياق **﴿إِلاَّ وَحْيٌ﴾** من الله عز وجل **﴿يُوحَىٰ﴾** يوحيه سبحانه إليه، والجملة صفة مؤكدة لوحي رافعة لاحتمال المجاز مفيدة للاستمرار التجددي، وقيل: ضمير **﴿ينطق﴾** للقرآن فالآية كقوله تعالى: **﴿هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق﴾** [الجاثية: ٢٩] وهو خلاف الظاهر، وقيل: المراد ما يصدر نطقه عليه الصلاة والسلام مطلقاً عن هوى وهو عائد لما ينطق به مطلقاً أيضاً.

واحتج بالآية على هذا التفسير من لم ير الاجتهاد له عليه الصلاة والسلام كأبي علي الجبائي وابنه أبي هاشم، ووجه الاحتجاج أن الله تعالى أخبر بأن جميع ما ينطق به وحي وما كان عن اجتهاد ليس بوحي فليس مما ينطق، وأجيب بأن الله تعالى إذا سوغ له عليه الصلاة والسلام الاجتهاد كان الاجتهاد وما يسند إليه وحياً لا نطقاً عن الهوى، وحاصله منع كبر القياس، واعترض عليه بأنه يلزم أن تكون الأحكام التي يستنبطها المجتهدون بالقياس وحياً، وأجيب بأن النبي عليه الصلاة والسلام أوحي إليه أن يجتهد بخلاف غيره من المجتهدين، وقال القاضي البيضاوي: إنه حينئذ

بالوحي لا وحي، وتعقبه صاحب الكشف بأنه غير قادح لأنه بمنزلة أن يقول الله تعالى لنبيه عليه الصلاة والسلام: متى ما ظننت بكذا فهو حكمي أي كل ما ألقيته في قلبك فهو مرادي فيكون وحياً حقيقة، والظاهر أن الآية واردة في أمر التنزيل بخصوصه وإن كان مثله الأحاديث القدسية والاستدلال بها على أنه عليه الصلاة والسلام غير متعبد بالوحي محوج لارتكاب خلاف الظاهر وتكلف في دفع نظر البيضاوي عليه الرحمة كما لا يخفى على المنصف، ولا يبعد عندي أن يحمل قوله تعالى:﴿وما ينطق عن الهوى﴾ على العموم فإن من يرى الاجتهاد له عليه الصلاة والسلام كالإمام أحمد وأبي يوسف عليهما الرحمة لا يقول بأن ما ينطق به صلى الله عليه وسلم مما أدى إليه اجتهاده صادر عن هوى النفس وشهوتها حاشا حضرة الرسالة عن ذلك وإنما يقول هو واسطة بين ذلك وبين الوحي ويجعل الضمير في قوله سبحانه: ﴿إن هو إلا وحي﴾ للقرآن على أن الكلام جواب سؤال مقدر كأنه قيل: إذا كان شأنه عليه الصلاة والسلام أنه ما ينطق عن الهوى فما هذا القرآن الذي جاء به وخالف فيه ما عليه قومه استمال به قلوب كثير من الناس وكثرت فيه الأقاويل؟ فقيل: ما هو إلا وحي يوحيه الله عز وجل إليه صلى الله تعالى عليه وسلم فتأمل، وفي الكشف أن في قوله تعالى: ﴿ما ينطق﴾ مضارعاً مع قوله سبحانه: ﴿ما ضل﴾ ﴿وما غوى﴾ ما يدل على أنه عليه الصلاة والسلام حيث لم يكن له سابقة غواية وضلال منذ تميز وقبل تحنكه واستنبائه لم يكن له نطق عن الهوى كيف وقد تحنك ونبىء، وفيه حث لهم على أن يشاهدوا منطقه الحكيم ﴿عَلَّمَهُ﴾ الضمير للرسول صلى الله تعالى عليه وسلم والمفعول الثاني محذوف أي القرآن، أو الوحي، وجوز أبو حيان كون الضمير للقرآن، وأن المفعول الأول محذوف أي علمه الرسول عليه الصلاة والسلام ﴿شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾ هو جبريل عليه السلام كما قال ابن عباس وقتادة والربيع ـ فإنه الواسطة في إبداء الخوارق وناهيك دليلا على شدة قوته أنه قلع قرى قوم لوط من الماء الأسود الذي تحت الثرى وحملها على جناحه ورفعها إلى السماء ثم قلبها، وصاح بثمود صيحة فأصبحوا جاثمين وكان هبوطه على الأنبياء عليهم السلام وصعوده في أسرع من رجعة الطرف، فهو لعمري أسرع من حركة ضياء الشمس على ما قرروه في الحكمة الجديدة ﴿ذُو مِرَّةٍ﴾ ذو حصافة واستحكام في العقل كما قال بعضهم، فكأن الأول وصف بقوّة الفعل، وهذا وصف بقوّة النظر والعقل لكن قيل: إن ذاك بيان لما وضع له اللفظ فإن العرب تقول لكل قوي العقل والرأي ﴿ذو مرّة﴾ من أمررت الحبل إذا أحكمت فتله وإلا فوصف الملك بمثله غير ظاهر فهو كناية عن ظهور الآثار البديعة، وعن سعيد بن المسيب ذو حكمة لأن كلام الحكماء متين، وروي الطستي أن نافع بن الأزرق سأل ابن عباس عنه فقال: ذو شدة في أمر الله عز وجل واستشهد له، وحكى الطيبي عنه أنه قال: ذو منظر حسن واستصوبه الطبري، وفي معناه قول مجاهد ذو خلق حسن: وهو في قوله صلى الله تعالى عليه وسلم: «لا تحل الصدقة لغني ولا لذي مرة سوى» بمعنى ذي قوة، وفي الكشف إن المِرّة لأنها في الأصل تدل على المرة بعد المرة تدل على زيادة القوة فلا تغفل ﴿فَاسْتَوَىٰ﴾ أي فاستقام على صورته الحقيقية التي خلقه الله تعالى عليها وذلك عند حراء في مبادىء النبوة وكان له عليه الصلاة والسلام ـ كما في حديث أخرجه الإمام أحمد وعبد بن حميد وجماعة عن ابن مسعود ـ ستمائة جناح كل جناح منها يسد الأفق فالاستواء ها هنا بمعنى اعتدال الشيء في ذاته كما قال الراغب، وهو المراد بالاستقامة لا ضد الاعوجاج، ومنه استوى الثمر إذا نضج، وفي كلام على ما قال الخفاجي: طي لأن وصفه عليه السلام بالقوة وبعض صفات البشر يدل على أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم رآه في غير هيئته الحقيقية وهذا تفصيل لجواب سؤال مقدر كأنه قيل: فهل رآه على صورته الحقيقية؟ فقيل: نعم رآه فاستوى الخ، وفي الارشاد أنه عطف على علمه بطريق التفسير فإنه إلى قوله تعالى: ﴿ما أوحى﴾ بيان لكيفية التعليم، وتعقب بأن الكيفية غير منحصرة فيما ذكر، ومن هنا قيل: إن الفاء للسببية فإن تشكله عليه السلام بشكله يتسبب عن قوته وقدرته على الخوارق أو عاطفة على ﴿علمه﴾ على معنى

علمه على غير صورته الأصلية، ثم استوى على صورته الأصلية وتعقب بأنه لا يتم به التئام الكلام ويحسن به النظام، وقيل: استوى بمعنى ارتفع والعطف على علم، والمعنى ارتفع إلى السماء بعد أن علمه وأكثر الآثار تقتضي ما تقدم.

﴿وَهُوَ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ أي الجهة العليا من السماء المقابلة للناظر، وأصله الناحية وما ذكره أهل الهيئة معنى اصطلاحي وينقسم عندهم إلى حقيقي وغيره كما فصل في محله، وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس أن المراد به هنا مطلع الشمس وفي معناه قول الحسن: هو أفق المشرق، والجملة في موضع الحال من فاعل استوى، وقال الفراء والطبري: إن هو عطف على الضمير المستتر في استوى وهو عائد إلى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم كما أن ذلك عائد لجبرائيل عليه السلام، وجوز العكس، والجار متعلق باستوى وفيه العطف على الضمير المرفوع من غير فصل، وهو مذهب الكوفيين مع أن المعنى ليس عليه عند الأكثرين ﴿ثُمَّ دَنَا﴾ أي ثم قرب جبريل عليه السلام من النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ﴿فَتَدَلَّىٰ﴾ فتعلق جبريل عليه عليه الصلاة والسلام في الهواء، ومنه تدلت الثمرة ودلى رجليه من السرير. والدوالي الثمر المعلق كعناقيد العنب وأنشدوا لأبي ذؤيب يصف مشتار عسل:

تدلى عليها بين سب وخيطة ... بجرداء مثل الوكف يكبو غرابها

ومن أسجاع ابنة الخس ـ كن حذراً كالقرلى إن رأى خيراً تدلى، وإن رأى شراً تولى ـ فالمراد بالتدلي دنو خاص فلا قلب ولا تأويل بإرادة الدنو كما في الإيضاح، نعم إن جعل بمعنى التنزل من علو كما يرشد إليه الاشتقاق كان له وجه ﴿فَكَانَ﴾ أي جبريل عليه السلام من النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ﴿قَابَ قَوۡسَيۡنِ﴾ أي من قسي العرب لأن الاطلاق ينصرف إلى متعارفهم، والقاب، وكذا القيب والقاد والقيد، والقيس المقدار، وقرأ زيد بن علي قاد، وقرىء قيد وقدر، وقد جاء التقدير بالقوس كالرمح والذراع وغيرهما، ويقال على ما بين مقبض القوس وسيتها، وهي ما عطف من طرفيها فلكل قوس قابان، وفسر به هنا قيل: وفي الكلام عليه قلب أي فكان قابي قوس، وفي الكشف لك أن تقول قابا قوس وقاب قوسين واحد دون قلب، وعن مجاهد والحسن أن قاب القوس ما بين وترها ومقبضها ولا حاجة إلى القلب عليه أيضاً فإن هذا على ما قال الخفاجي: إشارة إلى ما كانت العرب في الجاهلية تفعله إذا تحالفوا فإنهم كانوا يخرجون قوسين ويلصقون إحداهما بالأخرى فيكون القاب ملاصقاً للآخر حتى كأنهما ذا قاب واحد ثم ينزعونهما معا ويرمون بهما سهماً واحداً فيكون ذلك إشارة إلى أن رضا أحدهم رضا الآخر وسخطه سخطه لا يمكن خلافه، وعن ابن عباس القوس هنا ذراع يقاس به الأطوال وإليه ذهب أبو رزين، وذكر الثعلبي أنه من لغة الحجاز، وأياً مّا كان فالمعنى على حذف مضاف ـ أي فكان ذا قاب قوسين ـ ونحوه قوله:

فأدرك إبقاء العرادة ظلعها ... وقد جعلتني من **خزيمة أصبعا**

فإنه على معنى ذا مقدار أصبع وهو القرب فكأنه قيل فكان قريباً منه، وجوز أن يكون ضمير كان للمسافة بتأويلها بالبعد ونحوه فلا حاجة الى اعتبار الحذف وليس بذاك ﴿أَوۡ أَدۡنَىٰ﴾ أي أو أقرب من ذلك، و ﴿أَوۡ﴾ للشك من جهة العباد على معنى إذا رآه الرائي يقول: هو قاب قوسين أو أدنى، والمراد إفادة شدة القرب ﴿فَأَوۡحَىٰ﴾ أي جبريل عليه السلام ﴿إِلَىٰ عَبۡدِهِۦ﴾ أي عبد الله وهو النبي ﷺ، والإضمار ولم يجر له تعالى ذكر لكونه في غاية الظهور ومثله كثير في الكلام، ومنه ﴿ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة﴾ [فاطر: ٤٥] وقوله سبحانه: ﴿إنا أنزلناه في ليلة القدر﴾ [القدر: ١] ﴿مَآ أَوۡحَىٰ﴾ أي الذي أوحاه والضمير المستتر لجبريل عليه السلام أيضاً، وإبهام الموحى به للتفخيم فهذا نظير قوله تعالى: ﴿فغشيهم من اليم ما غشيهم﴾ [طه: ٧٨] وقال أبو زيد: الضمير المستتر لله عز وجل أي أوحى جبريل إلى عبد الله ما أوحاه الله إلى جبريل، والأول مروي عن الحسن

وهو الأحسن، وقيل: ضمير ﴿أوحى﴾ الأول والثاني لله تعالى والمراد بالعبد جبريل عليه السلام وهو كما ترى ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ﴾ أي فؤاد محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ﴿مَا رَأَىٰ﴾ ما رآه ببصره من صورة جبريل عليه السلام أي ما قال فؤاده صلى الله تعالى عليه وسلم لما رآه ببصره لم أعرفك ولو قال ذلك لكان كاذباً لأنه عرفه بقلبه كما رآه ببصره فهو من قولهم كذب إذا قال كذباً فما كذب بمعنى ما قال الكذب، وقيل: أي ﴿ما كذب الفؤاد﴾ البصر فيما حكاه له من صورة جبريل عليه السلام وما في عالم الملكوت تدرك أولاً بالقلب ثم تنتقل منه إلى البصر. قرأ أبو رجاء وأبو جعفر وقتادة والجحدري وخالد بن الياس وهشام عن ابن عامر ﴿ما كذب﴾ مشدداً أي صدقه ولم يشك أنه جبريل عليه السلام بصورته، وفي الآيات من تحقيق أمر الوحي ما فيها، وفي الكشف أنه لما قال سبحانه: ﴿إن هو إلا وحي﴾ أي من عند الله تعالى ﴿يوحى﴾ ذكر جل وعلا ما يصور هذا المعنى ويفصله ليتأكد أنه وحي وأنه ليس من الشعر وحديث الكهان في شيء فقال تعالى علم صاحبكم هذا الوحي من هو على هذه الصفات، وقوله تعالى: ﴿فاستوى﴾ وحديث قيامه بصورته الحقيقية ليؤكد أن ما يأتيه في صورة دحية هو هو فقد رآه بصورة نفسه وعرفه حق معرفته فلا يشتبه عليه بوجه، وقوله تعالى: ﴿ثم دنا فتدلى﴾ تتميم لحديث نزوله إليه عليه الصلاة والسلام وإتيانه بالمنزل، وقوله سبحانه: ﴿فأوحى﴾ أي جبريل ذلك الوحي الذي مر أنه من عند الله تعالى إلى عبد الله وإنما قال سبحانه: ـ ما أوحى ـ ولم يأت بالضمير تفخيماً لشأن المنزل وأنه شيء يجل عن الوصف فأنى يستجيز أحد من نفسه أن يقول إنه شعر أو حديث كاهن، وإيثار عبده بدل إليه أي إلى صاحبكم لإضافة الاختصاص وإيثار الضمير على الاسم العلم في هذا المقام لترشيحه وأنه ليس عبداً إلا له عز وجل فلا لبس لشهرته بأنه عبد الله لا غير، وجاز أن يكون التقدير فأوحى الله تعالى بسببه أي بسبب هذا المعلم إلى عبده ففي الفاء دلالة على هذا المعنى وهذا وجه أيضاً سديد، ثم قال سبحانه: ﴿ما كذب الفؤاد ما رأى﴾ على معنى أنه لما عرفه وحققه لم يكذبه فؤاده بعد ذلك ولو تصور بغير تلك الصورة إنه جبريل، فهذا نظم سري مرعي فيه النكت حق الرعاية مطابق للوجود لم يعدل به عن واجب الوفاق بين البداية والنهاية انتهى.

وهو كلام نفيس يرجح به ما روي عن عائشة رضي الله تعالى عنه وسيأتي ذلك إن شاء الله عز وجل بما له وعليه ﴿أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ﴾ أي أتكذبونه فتجادلونه على ما يراه معاينة فتمارونه عطف على محذوف على ما ذهب إليه الزمخشري من المراء وهو المجادلة واشتقاقه من مرى الناقة إذا مسح ظهرها وضرعها ليخرج لبنها وتدرّ به فشبه به الجدال لأن كلا من المتجادلين يطلب الوقوف على ما عند الآخر ليلزمه الحجة فكأنه يستخرج درّه.

وقرأ علي كرم الله تعالى وجهه وعبد الله وابن عباس والجحدري ويعقوب وابن سعدان وحمزة والكسال وخلف «أَفَتَمْرُونَه» بفتح التاء وسكون الميم مضارع مريت أي جحدت يقال: مريته حقه إذا جحدته، وأنشدوا لذلك قول الشاعر:

لئن هجرت أخا صدق ومكرمة ... لقد **مريت** أخاً ما كان يمريكا

أو مضارع مريته إذا غلبته في المراء على أنه من باب المغالبة، ويجوز حمل ما في البيت عليه وعدي الفعل بعلى وكان حقه أن يعدى بفي لتضمينه معنى المغالبة فإن المجادل والجاحد يقصدان بفعلهما غلبة الخصم، وقرأ عبد الله فيما حكى ابن خالويه والشعبي فيما ذكر شعبة «أَفَتُمْرونَهُ» بضم التاء وسكون الميم مضارع أمريت قال أبو حاتم: وهو غلط، والمراد بما يرى ما رآه من صورة جبريل عليه السلام، وعبر بالمضارع استحضاراً للصورة الماضية لما فيها من الغرابة، وفي البحر جيء بصيغة المضارع وإن كانت الرؤية قد مضت إشارة إلى ما يمكن حدوثه بعد، وقيل: المراد

﴿أفتمارونه على ما يرى﴾ من الصور التي يظهر بها جبريل عليه السلام بعد ما رآه قبل وحققه بحيث لا يشتبه عليه بأي صورة ظهر فالتعبير بالمضارع على ظاهره ﴿وَلَقَدْ رَآهُ﴾ أي رأى النبي جبريل ﷺ في صورته التي خلقه الله تعالى عليها ﴿نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ أي مرة أخرى من النزول وهي فعلة من النزول أقيمت مقام المرة ونصب نصبها على الظرفية لأن أصل المرة مصدر مرّ يمر ولشدة اتصال الفعل بالزمان يعبر به عنه ولم يقل مرة بدلها ليفيد أن الرؤية في هذه المرة كانت بنزول ودنو كالرؤية في المرة الأولى الدال عليها ما مر، وقال الحوفي وابن عطية: إن نزلة منصوب على المصدرية للحال المقدرة أي نازلاً نزلة، وجوز أبو البقاء كونه منصوباً على المصدرية ـ لرأى ـ من معناه أي رؤية أخرى وفيه نظر، والمراد من الجملة القسمية نفي الريبة والشك عن المرة الأخيرة وكانت ليلة الإسراء ﴿عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ هي شجرة نبق عن يمين العرش في السماء السابعة على المشهور، وفي حديث أخرجه أحمد ومسلم والترمذي وغيرهم في السماء السادسة نبقها كقلال هجر وأوراقها مثل آذان الفيلة يسير الراكب في ظلها سبعين عاماً لا يقطعها، وأخرج الحاكم وصححه عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله تعالى عنهما مرفوعاً «يسير الراكب في الفنن منها مائة سنة» والأحاديث ظاهرة في أنها شجرة نبق حقيقية.

والنبات في الشاهد يكون ترابياً ومائياً وهوائياً؛ ولا يبعد من الله تعالى أن يخلقه في أي مكان شاء وقد أخبر سبحانه عن شجرة الزقوم أنها تنبت في أصل الجحيم، ويقيل: إطلاق السدرة عليها مجاز لأنها تجتمع عندها الملائكة عليهم السلام كما يجتمع الناس في ظل السدرة، و ﴿المنتهى﴾ اسم مكان وجوز كونه مصدراً ميمياً، وقيل: لها ﴿سدرة المنتهى﴾ لأنها كما أخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن ابن عباس إليها ينتهي علم كل عالم وما وراءها لا يعلمه إلا الله تعالى، أو لأنها ينتهي إليها علم الانبياء عليهم السلام ويعزب علمهم عما وراءها. أو لأنها تنتهي إليها أعمال الخلائق بأن تعرض على الله تعالى عندها؛ أو لأنها ينتهي إليها ما ينزل من فوقها وما يصعد من تحتها. أو لأنها تنتهي إليها أرواح الشهداء أو أرواح المؤمنين مطلقاً. أو لانتهاء من رفع إليها في الكرامة، وفي الكشاف كأنها منتهى الجنة وآخرها، وإضافة ﴿سدرة﴾ إلى ﴿المنتهى﴾ من إضافة الشيء لمحله كما في أشجار البستان، وجوز أن تكون من إضافة المحل إلى الحال كما في قولك كتاب الفقه، وقيل: يجوز أن يكون المراد بالمنتهى الله عز وجل فالإضافة من إضافة الملك إلى المالك أي ﴿سدرة﴾ الله الذي إليه ﴿المنتهى﴾ كما قال سبحانه: ﴿وأن إلى ربك المنتهى﴾ [النجم: ٤٢] وعد ذلك من باب الحذف والايصال ولا يخفى أن هذا القول يكاد يكون المنتهى في البعد ﴿عِندَهَا﴾ أي عند السدرة، وجوز أن يكون الضمير للنزلة وهو نازل عن رتبة القبول ﴿جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ التي يأوي إليها المتقون يوم القيامة كما روي عن الحسن، واستدل به على أن الجنة في السماء، وقال ابن عباس بخلاف عنه وقتادة: هي جنة تأوي إليها أرواح الشهداء وليست بالتي وعد المتقون، وقيل: هي جنة تأوي إليها الملائكة عليهم السلام والأول أظهر، والمأوى على ما نص عليه الجمهور اسم مكان وإضافة الجنة إليه بيانية، وقيل: من إضافة الموصوف إلى الصفة كما في مسجد الجامع، وتعقب بأن اسم المكان لا يوصف به، والجملة حالية، وقيل: الحال هو الظرف، و ﴿جنة﴾ مرتفع به على الفاعلية، وقرأ علي كرم الله تعالى وجهه وأبو الدرداء وأبو هريرة وابن الزبير وأنس وزر ومحمد بن كعب وقتادة: «جنه» بهاء الضمير وهو ضمير النبي صلى الله تعالى عليه وسلم، وجن فعل ماض أي عندها ستره إيواء الله تعالى: وجميل صنعه به، أو ستره المأوى بظلاله ودخل فيه على أن ﴿المأوى﴾ مصدر ميمي، أو اسم مكان، وجنه بمعنى ستره، قال أبو البقاء: شاذ والمستعمل أجنه، ولهذا قالت عائشة رضي الله تعالى عنها وكذا جمع الصحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين: من قرأ به فأجنه الله تعالى أي جعله مجنوناً أو أدخله الجنن وهو القبر،

وأنت تعلم أنه إذا صح أنه قرأ به الأمير كرم الله تعالى وجهه ومن معه من أكابر الصحابة فليس لأحد رده من حيث الشذوذ في الاستعمال، وعائشة قد حكي عنها الاجازة أيضاً.

﴿إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ﴾ متعلق برآه: وقيل: بما بعد من الجملة المنفية ولا يضر التقدم على ﴿ما﴾ النافية للتوسع في الظرف. والغشيان بمعنى التغطية والستر، ومنه الغواشي أو بمعنى الإتيان يقال فلان يغشى زيداً كل حين أي يأتيه. والأول هو الأليق بالمقام، وفي إبهام ﴿ما يغشى﴾ من التفخيم ما لا يخفى فكأن الغاشي أمر لا يحيط به نطاق البيان ولا تسعه أردان الأذهان، وصيغة المضارع لحكاية الحال الماضية استحضاراً لصورتها البديعة، وجوز أن يكون للإيذان باستمرار الغشيان بطريق التجدد، وورد في بعض الأخبار تعيين هذا الغاشي، فعن الحسن غشيها نور رب العزة جل شأنه فاستنارت. ونحوه ما روي عن أبي هريرة يغشاها نور الخلاق سبحانه، وعن ابن عباس غشيها رب العزة وجل وهو من المتشابه، وقال ابن مسعود ومجاهد وإبراهيم: يغشاها جراد من ذهب، وروي عن مجاهد أن ذلك تبدل أغصانها لؤلؤاً وياقوتاً وزبرجداً.

وأخرج عبد بن حميد عن سلمة قال: استأذنت الملائكة الرب تبارك وتعالى أن ينظروا إلى النبي ﷺ فأذن له فغشيت الملائكة السدرة لينظروا إليه عليه الصلاة والسلام، وفي حديث «رأت على كل ورقة من ورقها ملكاً قائماً يسبح الله تعالى» وقيل: يغشاها رفرف من طير خضر، والإبهام على هذا كله على نحو ما تقدم.

﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ﴾ أي ما مال بصر رسول الله صلى الله تعالى عليه عما رآه ﴿وَمَا طَغَىٰ﴾ وما تجاوزه بل أثبته إثباتاً صحيحاً مستيقناً، وهذا تحقيق للأمر ونفي للريب عنه، أو ما عدل عن رؤية العجائب التي أمر برؤيتها وما جاوزها إلى ما لم يؤمر برؤيته.

لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾ أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾ فَلِلَّهِ ٱلْءَاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾ ۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢٧﴾ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴿٢٨﴾ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿٣٠﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى ﴿٣١﴾ ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ ۚ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ ۖ فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴿٣٢﴾

﴿لَقَدْ رَأَىٰ من آيات رَبِّه ٱلْكُبْرَىٰ﴾ أي والله رأى الآيات الكبرى من آياته تعالى وعجائبه الملكية والملكوتية ليلة المعراج ـ فالكبرى ـ صفة موصوف محذوف مفعول لرأى أقيمت مقامه معد حذفه وقدر مجموعاً ليطابق الواقع،

وجوّز أن تكون ﴿**الكبرى**﴾ صفة المذكور على معنى، و ﴿**لقد رأى**﴾ بعضاً من الآيات الكبرى، ورجح الأول بأن المقام يقتضي التعظيم والمبالغة فينبغي أن يصرح بأن المرأي الآيات الكبرى وجوزت الوصفية المذكورة مع كون من مزيدة، وأنت تعلم أن زيادة من في الإثبات ليس مجمعاً على جوازه، وجاء في بعض الأخبار تعيين ما رأى عليه الصلاة والسلام، أخرج البخاري، وابن جرير وابن المنذر وجماعة عن ابن مسعود أنه قال في الآية رأى رفرفاً أخضر من الجنة قد سد الأفق. وعن ابن زيد رأى جبريل عليه السلام في الصورة التي هو بها، والذي ينبغي أن لا يحمل ذلك على الحصر كما لا يخفى فقد رأى عليه الصلاة والسلام آيات كبرى ليلة المعراج لا تحصى ولا تكاد تستقصى «هذا وفي الآيات» أقوال غير ما تقدم، فعن الحسن أن ﴿**شديد القوى**﴾ هو الله تعالى، وجمع ﴿**القوى**﴾ للتعظيم ويفسر ﴿**ذو مرة**﴾ عليه بذي حكمة ونحوه مما يليق أن يكون وصفاً له عز وجل، وجعل أبو حيان الضميرين في قوله تعالى: ﴿**فاستوى وهو بالأفق الأعلى**﴾ عليه له سبحانه أيضاً. وقال: إن ذلك على معنى العظمة والقدرة السلطان، ولعل الحسن يجعل الضمائر في قوله سبحانه: ﴿**ثم دنا فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى فأوحى إلى عبده ما أوحى**﴾ له عز وجل أيضاً، وكذا الضمير المنصوب في قوله تعالى: ﴿**ولقد رآه نزلة أخرى**﴾ فقد كان عليه الرحمة يحلف بالله تعالى، لقد رأى محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ربه وفسر دنوه تعالى من النبي صلى الله تعالى عليه وسلم برفع مكانته ﷺ عنده سبحانه وتدليه جل وعلا بجذبه بشراشره إلى جانب القدس، ويقال لهذا الجذب: الفناء في الله تعالى عند المتألهين، وأريد بنزوله سبحانه نوع من دنوه المعنوي جل شأنه.

ومذهب السلف في مثل ذلك إرجاع علمه إلى الله تعالى بعد نفي التشبيه، وجوز أن تكون الضمائر في ﴿**دنا فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى**﴾ على ما روي عن الحسن للنبي ﷺ، والمراد ثم دنا النبي عليه الصلاة والسلام من ربه سبحانه فكان منه عز وجل ﴿**قاب قوسين أو أدنى**﴾ والضمائر في ﴿**فأوحى**﴾ الخ لله تعالى، وقيل: ﴿**إلى عبده**﴾ ولم يقل إليه للتفخيم، وأمر المتشابه قد علم، وذهب غير واحد في قوله تعالى: ﴿**علمه شديد القوى**﴾ إلى قوله سبحانه: ﴿**وهو بالأفق الأعلى**﴾ إلى أنه في أمر الوحي وتلقيه من جبريل عليه السلام على ما سمعت فيما تقدم، وفي قوله تعالى: ﴿**ثم دنا فتدلى**﴾ الخ إلى أنه في أمر العروج إلى الجناب الأقدس ودنوه سبحانه منه صلى الله تعالى عليه وسلم ورؤيته عليه السلام إياه جل وعلا فالضمائر في ﴿**دنا**﴾ و ﴿**تدلى**﴾ وكان و ﴿**أوحى**﴾ وكذا الضمير المنصوب في ﴿**رآه**﴾ لله عز وجل، ويشهد لهذا ما في حديث أنس عند البخاري من طريق شريك بن عبد الله ثم علا به فوق ذلك بما لا يعلمه إلا الله حتى جاء سدرة المنتهى ودنا الجبار رب العزة فتدلى حتى كان منه قاب قوسين أو أدنى فأوحى إليه فيما أوحى خمسين صلاة» الحديث، فإنه ظاهر فيما ذكر.

واستدل بذلك مثبتو الرؤية كحبر الأمة ابن عباس رضي الله تعالى عنهما وغيره، وادعت عائشة رضي الله تعالى عنها خلاف ذلك، أخرج مسلم عن مسروق قال: «كنت متكئاً عند عائشة فقالت: يا أبا عائشة ثلاث من تكلم بواحدة منهن فقد أعظم على الله تعالى الفرية قلت ما هن؟ قالت: من زعم أن محمداً رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية، قال: وكنت متكئاً فجلست فقلت: يا أم المؤمنين أنظريني ولا تعجليني ألم يقل الله تعالى: ﴿ولقد رآه بالأفق المبين﴾ [التكوير: ٢٣] ﴿**ولقد رآه نزلة أخرى**﴾؟ فقالت: أنا أول هذه الأمة سأل عن ذلك رسول الله ﷺ، فقال: لا إنما هو جبريل لم أره على صورته الذي خلق عليها غير هاتين المرتين رأيته منهبطاً من السماء ساداً عظم خلقه ما بين السماء إلى الأرض، الحديث، وفي رواية ابن مردويه من طريق أخرى عن داود بن أبي هند عن الشعبي عن مسروق «فقالت: أنا أول من سأل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم عن هذا فقلت: يا رسول الله هل رأيت ربك؟ فقال: إنما رأيت

جبريل منهبطاً» ولا يخفى أن جواب رسول الله عليه الصلاة والسلام ظاهر في أن الضمير المنصوب في ﴿رآه﴾ ليس راجعاً إليه تعالى بل إلى جبريل عليه السلام، وشاعر أنها تنفي أن يكون صلى الله تعالى عليه وسلم رأى ربه سبحانه مطلقاً، وتستدل لذلك بقوله تعالى: ﴿لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار﴾ [الأنعام: ١٠٣] وقوله سبحانه ﴿وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولاً﴾ [الشورى: ٥١] وهو ظاهر ما ذكره البخاري في صحيحه في تفسير هذه السورة، وقال بعضهم: إنها إنما تنفي رؤية تدل عليها الآية التي نحن فيها وهي التي احتج بها مسروق.

وحاصل ما روي عنها نفي صحة الاحتجاج بالآية المذكورة على رؤيته عليه الصلاة والسلام ربه سبحانه ببيان أن مرجع الضمير فيها إنما هو جبريل عليه السلام على ما يدل عليه جواب رسول الله صلى الله عليه وسلم إياها، وحمل قوله صلى الله تعالى عليه وسلم في جوابها «لا» على أنه نفي للرؤية المخصوصة وهي التي يظن دلالة الآية عليها ويرجع إلى نفي الدلالة ولا يلزم من انتفاء الخاص انتفاء المطلق، والإنصاف أن الاخبار ظاهرة في أنها تنفي الرؤية مطلقاً، وتستدل عليه بالآيتين السابقتين، وقد أجاب عنهما مثبتو الرؤية بما هو مذكور في محله، والظاهر أن ابن عباس لم يقل بالرؤية إلا عن سماع، وقد أخرج عنه أحمد أنه قال: «قال رسول الله ﷺ: رأيت ربي» ذكره الشيخ محمد الصالحي الشامي تلميذ الحافظ السيوطي في الآيات البينات وصححه، وجمع بعضهم بين قولي ابن عباس وعائشة بأن قول عائشة محمول على نفي رؤيته تعالى في نوره الذي هو نوره المنعوت بأنه لا يقوم له بصر، وقول ابن عباس محمول على ثبوت رؤيته تعالى في نوره الذي لا يذهب بالأبصار بقرينة قوله في جواب عكرمة عن قوله تعالى: ﴿لا تدركه الأبصار﴾: ويحك ذاك إذا تجلى بنوره الذي هو نوره، وبه يظهر الجمع بين حديثي أبي ذر، أخرج مسلم من طريق يزيد بن إبراهيم عن قتادة عن عبد الله بن شقيق عن ابن ذر قال: سألت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم هل رأيت ربك؟ قال: «نوراني أراه» ومن طريق هشام وهمام كلاهما عن قتادة عن عبد الله قال: قلت لأبي ذر لو رأيت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لسألته فقال: عن أي شيء كنت تسأله؟ قال: كنت أسأله هل رأيت ربك؟ فقال أبو ذر: قد سألته فقال: «رأيت نوراً» فيحمل النور في الحديث الأول على النور القاهر للأبصار بجعل التنوين للنوعية أو للتعظيم، والنور في الثاني على ما لا يقوم له البصر والتنوين للنوعية، وإن صحت رواية الأول كما حكاه أبو عبد الله المازري بلفظ «نوراني» بفتح الراء وكسر النون وتشديد الياء لم يكن اختلاف بين الحديثين ويكون نوراني بمعنى المنسوب إلى النور على خلاف القياس ويكون المنسوب إليه هو نوره الذي هو نوره، والمنسوب هو النور المحمول على الحجاب حمل مواطأة في حديث السبحات في قوله عليه الصلاة والسلام: «حجابه النور» وهو النور المانع من الإحراق الذي يقوم له البصر.

ثم إن القائلين بالرؤية اختلفوا، فمنهم من قال: إنه عليه الصلاة والسلام رأى ربه سبحانه بعينه، وروى ذلك ابن مردويه عن ابن عباس، وهو مروي أيضاً عن ابن مسعود وأبي هريرة وأحمد بن حنبل، ومنهم من قال: رآه عز وجل بقلبه، وروي ذلك عن أبي ذر، أخرج النسائي عنه أنه قال: «رأى رسول الله ﷺ ربه بقلبه ولم يره ببصره» وكذا روي عن محمد بن كعب القرظي بل أخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عنه أنه قال قالوا: يا رسول الله رأيت ربك؟ قال: «رأيته بفؤادي مرتين ولم أره بعيني ثم قرأ ما كذب الفؤاد ما رأى» وفي حديث عن ابن عباس يرفعه «فجعل نور بصري في فؤادي فنظرت اليه بفؤادي» وكأن التقدير في الآية على هذا ﴿ما كذب الفؤاد فيما رأى﴾، ومنهم من ذهب إلى أن إحدى الرؤيتين كانت بالعين والأخرى بالفؤاد وهي رواية عن ابن عباس، أخرج الطبراني وابن مردويه

عنه أنه قال: إن محمداً صلى الله تعالى عليه وسلم رأى ربه عز وجل مرتين مرة ببصره ومرة بفؤاده؛ ونقل القاضي عياض عن بعض مشايخه أنه توقف أي في الرؤية بالعين، وقال: إنه ليس عليه دليل واضح قال في الكشف: لأن الروايات مصرحة بالرؤية أما أنها بالعين فلا، وعن الإمام أحمد أنه كان يقول: إذا سئل عن الرؤية رآه رآه حتى ينقطع نفسه ولا يزيد على ذلك وكأنه لم يثبت عنده ما ذكرناه، واختلف فيما يقتضيه ظاهر النظم الجليل فجزم صاحب الكشف بأنه ما عليه الأكثرون من أن الدنو والتدلي مقسم ما بين النبي وجبريل صلاة الله تعالى وسلامه عليهما أي وأن المرئي هو جبريل عليه السلام، وإذا صح خبر جوابه عليه الصلاة والسلام لعائشة رضي الله تعالى عنها لم يكن لأحد محيص عن القول به، وقال العلامة الطيبي: الذي يقتضيه النظم إجراء الكلام إلى قوله تعالى: ﴿**وهو بالأفق الأعلى**﴾ على أمر الوحي وتلقيه من الملك ورفع شبه الخصوم، ومن قوله سبحانه: ﴿**ثم دنا فتدلى**﴾ إلى قوله سبحانه: ﴿**من آيات ربه الكبرى**﴾ على أمر العروج إلى الجناب الأقدس، ثم قال: ولا يخفى على كل ذي لب إباء مقام ﴿**فأوحى**﴾ الحمل على أن جبريل أوحى إلى عبد الله ﴿**ما أوحى**﴾ إذ لا يذوق منه أرباب القلوب إلا معنى المناغاة بين المتسارين وما يضيق عنه بساط الوهم ولا يطيقه نطاق الفهم، وكلمة ﴿**ثم**﴾ على هذا للتراخي الرتبي والفرق بين الوحيين أن أحدهما وحي بواسطة وتعليم، والآخر بغير واسطة بجهة التكريم فيحصل عنه عنده الترقي من مقام ﴿**وما منا إلا له مقام معلوم**﴾ [الصافات: ١٦٤] إلى مخدع ﴿**قاب قوسين أو أدنى**﴾ وعن جعفر الصادق عليه الرضا أنه قال: لما قرب الحبيب غاية القرب نالته غاية الهيبة فلاطفه الحق سبحانه بغاية اللطف لأنه لا تتحمل غاية الهيبة إلا بغاية اللطف، وذلك قوله تعالى: ﴿**فأوحى إلى عبده ما أوحى**﴾ أي كان ما كان وجرى ما جرى قال الحبيب للحبيب ما يقول الحبيب لحبيبه وألطف به إلطاف الحبيب بحبيبه وأسر إليه ما يسر الحبيب إلى حبيبه فأخفيا ولم يطلعا على سرهما أحداً وإلى نحو هذا يشير ابن الفارض بقوله:

ولقد خلوت مع الحبيب وبيننا ... سرّ أرق من النسيم إذا سرى

ومعظم الصوفية على هذا فيقولون بدنو الله عز وجل من النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ودنوه منه سبحانه على الوجه اللائق وكذا يقولون بالرؤية كذلك، وقال بعضهم في قوله تعالى: ﴿**ما زاغ البصر وما طغى**﴾: ما زاغ بصر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وما التفت إلى الجنة ومزخرفاتها ولا إلى الجحيم وزفراتها بل كان شاخصاً إلى الحق ﴿**وما طغى**﴾ عن الصراط المستقيم، وقال أبو حفص السهروردي: ما زاغ البصر حيث لم يختلف عن البصيرة ولم يتقاصر ﴿**وما طغى**﴾ لم يسبق البصر البصيرة ويتعدى مقامه، وقال سهل بن عبد الله التستري: لم يرجع رسول الله عليه الصلاة والسلام إلى شاهد نفسه وإلى مشاهدتها وإنما كان مشاهداً لربه تعالى يشاهد ما يظهر عليه من الصفات التي أوجبت الثبوت في ذلك المحل، وأرجع بعضهم الضمير في قوله تعالى: ﴿**وهو بالأفق الأعلى**﴾ إلى النبي عليه الصلاة والسلام وهو منتهى وصول اللطائف، وفسر ﴿**سدرة المنتهى**﴾ بما يكون منتهى سير السالكين إليه ولا يمكن لهم مجاوزته إلا بجذبة من جذبات الحق، وقالوا في ﴿**قاب قوسين**﴾ ما قالوا وأنا أقول برؤيته صلى الله تعالى عليه وسلم ربه سبحانه وبدنوه منه سبحانه على الوجه اللائق ذهب فيما اقتضاه ظاهر النظم الجليل إلى ما قاله صاحب الكشف أم ذهبت فيه إلى ما قاله الطيبي فتأمل والله تعالى الموفق.

﴿**أَفَرَأَيْتُمُ ٱللَّاتَ وَٱلْعُزَّىٰ وَمَنَاةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰ**﴾ هي أصنام كانت لهم فاللات كما قال قتادة: لثقيف بالطائف، وأنشدوا:

وفرت ثقيف إلى لاتها ... بمنقلب الخائب الخاسر

وقال أبو عبيدة وغيره: كان بالكعبة، وقال ابن زيد: كان بنخلة عند سوق عكاظ يعبده قريش، ورجح ابن عطية قول قتادة، وقال أبو حيان: يمكن الجمع بأن يكون المسمى بذلك أصناماً فأخبر عن كل صنم بمكانه، والتاء فيه قيل: أصلية وهي لام الكلمة كالباء في باب، وألفه منقلبة فيما يظهر من ياء لأن مادة «ل ي ت» موجودة فإن وجدت مادة «ل و ت» جاز أن تكون منقلبة من واو، وقيل: تاء العوض، والاصل لوية بزنة فعلة من لوى لأنهم كانوا يلوون عليه ويعتكفون للعبادة، أو يلتوون عليه أي يطوفون فخفف بحذف الياء وأبدلت واوه ألفاً، وعوض عن الياء تاءً فصارت كتاء أخت وبنت، ولذا وقف عليها بالتاء، وقرأ ابن عباس ومجاهد ومنصور بن المعتمر وأبو صالح وطلحة وأبو الجوزاء ويعقوب وابن كثير في رواية بتشديد التاء على أنه اسم فاعل من لت يلت إذا عجن قيل: كان رجل يلت السويق للحاج على حجر فلما مات عبدوا ذلك الحجر إجلالاً له وسموه بذلك، وعن مجاهد أنه كان على صخرة في الطائف يصنع حيساً ويطعم من يمرّ من الناس فلما مات عبدوه، وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس أنه كان يلت السويق على الحجر فلا يشرب منه أحد إلا سمن فعبدوه، وأخرج الفاكهي عنه أنه لما مات قال لهم عمرو بن لحي: إنه لم يمت ولكنه دخل الصخرة فعبدوها وبنوا عليها بيتاً، وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج أنه قال: كان رجل من ثقيف يلت السويق بالزيت فلما توفي جعلوا قبره وثناً، وزعم الناس أنه عامر بن الظرب أحد عدوان، وقيل: غير ذلك ﴿**والعزّى**﴾ لغطفان وهي على المشهور سمرة بنخلة ـ كما قال قتادة ـ وأصلها تأنيث الأعز، وأخرج النسائي وابن مردويه عن أبي الطفيل قال: «لما فتح رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم مكة بعث خالد بن الوليد إلى نخلة وكانت بها العزى فأتاها خالد وكانت ثلاث سمرات فقطع السمرات وهدم البيت الذي كان عليها ثم أتى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فأخبره فقال: ارجع فإنك لم تصنع شيئاً فرجع خالد فلما أبصرته السدنة مضوا وهم يقولون يا عزى يا عزى فأتاها فإذا امرأة عريانة ناشرة شعرها تحثو التراب على رأسها فجعل يضربها بالسيف حتى قتلها ثم رجع إلى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فأخبره فقال عليه الصلاة والسلام: تلك العزى» وفي رواية أنه صلى الله تعالى عليه وسلم بعث إليها خالداً فقطعها فخرجت منه شيطانة ناشرة شعرها داعية ويلها واضعة يدها على رأسها فضربها بالسيف حتى قتلها وهو يقول:

يا عز كفرانك لا سبحانك ... إني رأيت الله قد أهانك

ورجع فأخبر رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فقال عليه الصلاة والسلام: «تلك العزى ولن تعبد أبداً» وقال ابن زيد: كانت العزى بالطائف، وقال أبو عبيدة: كان بالكعبة، وأيده في البحر بقول أبي سفيان في بعض الحروب للمسلمين لنا العزى ولا عزى لكم، وذكر فيه أنه صنم وجمع بمثل ما تقدم، ﴿**ومناة**﴾ قيل: صخرة كانت لهذيل وخزاعة، وعن ابن عباس لثقيف، وعن قتادة للأنصار بقديد، وقال أبو عبيدة: كانت بالكعبة أيضاً، واستظهر أبو حيان أنها ثلاثتها كانت فيها قال: لأن المخاطب في قوله تعالى: أفرأيتم قريش؟ وفيه بحث، ومناة مقصورة قيل: وزنها فعلة، وسميت بذلك لأن دماء النسائك كانت تمنى عندها أي تراق، وقرأ ابن كثير على ما في البحر مناءة بالمد والهمزة كما في قوله:

ألا هل أتى تيم بن عبد **مناءة** ... على النأي فيما بيننا ابن تميم

ووزنها مفعلة فالألف منقلبة عن واو كما في مقالة، والهمزة أصل وهي مشتقة من النوء كأنهم كانوا يستمطرون عندها الأنواء تبركاً بها، والظاهر أن ﴿**الثالثة الأخرى**﴾ صفتان لمناة وهما على ما قيل: للتأكيد فإن كونها ثالثة وأخرى مغايرة لما تقدمها معلوم غير محتاج للبيان، وقال بعض الأجلة: ﴿**الثالثة**﴾ للتأكيد، و ﴿**الأخرى**﴾ للذم بأنها

متأخرة في الرتبة وضيعة المقدار، وتعقبه أبو حيان بأن آخر ومؤنثه أخرى لم يوضعا لذم ولا لمدح وإنما يدلان على معنى غير، والحق أن ذلك باعتبار المفهوم الأصلي وهي تدل على ذم السابقتين أيضاً قال في الكشف: هي اسم ذم يدل على وضاعة السابقتين بوجه أيضاً لأن «أخرى» تأنيث آخر تستدعي المشاركة مع السابق فإذا أتى بها لقصد التأخر في الرتبة عملاً بمفهومها الأصلي إذ لا يمكن العمل بالمفهوم العرفي لأن السابقتين ليستا ثالثة أيضاً استدعت المشاركة فضاءً لحق التفضيل، وكأنه قيل: ﴿الاخرى﴾ في التأخر انتهى وهو حسن، وذكر في نكتة ذم مناة بهذا الذم أن الكفرة كانوا يزعمون أنها أعظم الثلاثة فأكذبهم الله تعالى بذلك.

وقال الإمام: ﴿الأخرى﴾ صفة ذم كأنه قال سبحانه: ﴿ومناة الثالثة﴾ الذليلة وذلك لأن اللات كان على صورة آدمي ﴿والعزى﴾ صورة نبات ﴿ومناة﴾ صورة صخرة، فالآدمي أشرف من النبات، والنبات أشرف من الجماد ـ فالجماد متأخر ـ ومناة جماد فهي أخريات المراتب، وأنت تعلم أنه لا يتأتى على كل الأقوال، وقيل: ﴿الأخرى﴾ صفة للعزى لأنها ثانية اللات، والثانية يقال لها ﴿الأخرى﴾ وأخرت لموافقة رؤوس الآي، وقال الحسن بن المفضل: في الكلام تقديم وتأخير، والتقدير والعزى الأخرى ﴿ومناة الثالثة﴾ ولَعمري إنه ليس بشيء، والكلام خطاب لعبدة هذه المذكورات وقد كانوا مع عبادتهم لها يقولون: إن الملائكة عليهم السلام وتلك المعبودات الباطلة بنات الله تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً فقيل لهم توبيخاً وتبكيتاً: ﴿أفرأيتم﴾ الخ والهمزة للإنكار والفاء لتوجيهه إلى ترتيب الرؤية على ما ذكر من شؤون الله تعالى المنافية لها غاية المنافاة وهي علمية عند كثير، ومفعولها الثاني على ما اختاره بعضهم محذوف لدلالة الحال عليه، فالمعنى أعقيب ما سمعتم من آثار كمال عظمة الله عز وجل في ملكه وملكوته وجلاله وجبروته وإحكام قدرته ونفاذ أمره رأيتم هذا الأصنام مع غاية حقارتها بنات الله سبحانه وتعالى.

وقوله تعالى: ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلأُنثَى﴾ توبيخ مبني على ذلك التوبيخ ومداره تفضيل جانب أنفسهم على جنابه عز وجل حيث جعلوا له تعالى الإناث واختاروا لأنفسهم الذكور، ومناط الأول نفس تلك النسبة، وقيل: المعنى ﴿أرأيتم﴾ هذه الأصنام مع حقارتها وذلتها شركاء لله سبحانه مع ما تقدم من عظمته. وقيل: المعنى أخبروني عن آلهتكم هل لها شيء من القدرة والعظمة التي وصف بها رب العزة في الآي السابقة، وقيل: المعنى أظننتم أن هذه الأصنام التي تعبدونها تنفعكم؛ وقيل المعنى ﴿أفرأيتم﴾ هذه الأصنام إن عبدتموها لا تنفعكم وإن تركتموها لا تضركم، ولا يخفى أن قوله تعالى: ﴿ألكم﴾ الخ لا يلتئم مع ما قبله على جميع هذه الاقوال التئامه على القول السابق، وقيل: إن قوله سبحانه: ﴿ألكم﴾ الخ في موضع المفعول الثاني للرؤية وخلوها عن العائد إلى المفعول الأول لما أن الأصل أخبروني أن اللات والعزى ومناة ألكم الذكر وله هن أي تلك الأصنام فوضع موضعها الانثى لمراعاة الفواصل وتحقيق مناط التوبيخ وهو على تكلفه يقتضي اقتصار التوبيخ على ترجيح جانبهم الحقير الذليل على جناب الله تعالى العزيز الجليل من غير تعرض للتوبيخ على نسبة الولد إليه سبحانه، وفي الكشف وجه النظم الجليل أنه بعدما صور أمر الوحي تصويراً تاماً وحققه بأن ما يستمعه وحي لا شبهة فيه لأنه رأى الآتي به وعرفه حق المعرفة قال سبحانه: ﴿أفتمارونه على ما يرى﴾ [النجم: ١٢] على معنى أتلاحونه بعد هذه البيانات على ما يرى من الآيات المحققة لأنه على بينة من ربه سبحانه هادياً مهدياً، وأنى يبقى للمراء مجال ـ وقد رآه نزلة أخرى .؟! وعرفه حق المعرفة، ثم قيل: ﴿لقد رأى من آيات﴾ الخ تنبيها على أن ما عدّ منها فهو أيضاً نفي للضلالة والغواية وتحقيق للدراية والهداية.

وقوله تعالى: ﴿أفرأيتم﴾ عطف على تمارونه وإدخال الهمزة لزيادة الإنكار والفاء لأن القول بأمثاله مسبب عن الطبع والعناد وعدم الإصغاء لداعي الحق، والمعنى أبعد هذا البيان تستمرون على ما أنتم عليه من المراء فترون اللات

والعزى ومناة أولاداً له تعالى ثم أخسها وسد مسد المفعول الثاني قوله تعالى: ﴿أَلكم﴾ الخ زيادة الإنكار فعلى هذا ليس ﴿أفرأيتم﴾ في معنى الاستخبار وجاز أن يكون في معناه على معنى ﴿أفتمارونه﴾ فأخبروني هل لكم الذكر وله الأنثى، والقول مقدر أي فقل لهم أخبروني والمعنى هو كذا تهكماً وتنبيهاً على أنه نتيجة مرائهم وأن من كان هذا معتقده فهو على الضلال الذي لا ضلال بعده ولا يعد عن أمثاله نسبة الهادين المهديين إلى ما هو فيه من النقص انتهى، وما ذكره أولاً أولى وهو ليس بالبعيد عما ذكرنا ﴿تلْكَ﴾ إشارة إلى القسمة المنفهمة من الجملة الاستفهامية ﴿إِذاً قسْمَةٌ ضيزَى﴾ أي جائرة حيث جعلتم له سبحانه ما تستنكفون منه وبذلك فسر ضيزى ابن عباس وقتادة، وفي معناه قول سفيان منقوصة، وابن زيد مخالفة، ومجاهد ومقاتل عوجاء، والحسن غير معتدلة، والظاهر أنه صفة، واختلف في يائه فقيل: منقلبة عن واو، وقيل: أصيلة، ووزنه فعلى بضم الفاء كحبلى وأنثى، ثم كسرت لتسلم الياء كما فعل ذلك في بيض جمع أبيض فإن وزنه فعل بضم الفاء كحمر ثم كسرت الفاء لما ذكر ومثله شائع، ولم يجعل وزنه فعلى بالكسر ابتداءً لما ذهب إليه سيبويه من أن فعلى بالكسر لم يجيء عن العرب في الصفات وجعله بعضهم كذلك متمسكاً بورود ذلك. فقد حكى ثعلب مشية حيكى، ورجل كيصى، وغيره امرأة عزهى وامرأة سعلى، ورد بأنه من النوادر والحمل على الكثير المطرد في بابه أولى، وأيضاً يمكن أن يقال في حيكى وكيصى ما قيل في ضيزى؛ ويمنع ورود عزهى وسعلى فإن المعروف عزهاة وسعلاة، وجوز أن يكون ضيزى فعلى بالكسر ابتداءً على أنه مصدر كذكرى ووصف به مبالغة، ومجيء هذا الوصف في المصادر كما ذكر، والاسماء الجامدة كدفلى وشعرى، والجموع كحجلى كثير، وقرأ ابن كثير ضئزى بالهمز على أنه مصدر وصف به، وجوز أن يكون وصفا وهو مضموم عومل معاملة المعتل لانه يؤول إليه. وقرأ ابن زيد ضيزي بفتح الضاد وبالياء على أنه كدعوى أو كسكرى، ويقال ضؤزى بالواو والهمز وضم الفاء؛ وقد حكى الكسائي ضاز يضأز ضأزاً بالهمز وأنشد الأخفش:

فإن تنأ عنها تقتنصك وإن تغب ... فسهمك **مضؤوز** وأنفك راغم

والأكثر ضاز بلا همز في قول امرىء القيس:

ضازت بنو أسد بحكمهم ... إذ يجعلون الرأس كالذنب

وأنشده ابن عباس على تفسيره السابق ﴿إِنْ هيَ﴾ الضمير للأصنام أي ما الاصنام باعتبار الألوهية التي تدعونها ﴿إلا أَسمَاءٌ﴾ محضة ليس فيها شيء مّا أصلاً من معنى الألوهية؛ وقوله تعالى: ﴿سَمَّيْتُمُوهَا﴾ صفة للأسماء وضميرها لها لا للأصنام، والمعنى جعلتموها أسماء فان التسمية نسبة بين الاسم والمسمى فإذا قيست إلى الاسم فمعناها جعله اسماً للمسمى وإن قيست إلى المسمى فمعناها جعله مسمى للاسم وإنما اختير ها هنا المعنى الاول من غير تعرض للمسمى لتحقيق أن تلك الاصنام التي يسمونها آلهة أسماء مجردة ليس لها مسميات قطعاً كما في قوله سبحانه: ﴿ما تعبدون من دونه إلا أسماء﴾ [يوسف: ٤٠] الآية لا أن هناك مسميات لكنها لا تستحق التسمية، وقيل: هي للأسماء الثلاثة المذكورة حيث كانوا يطلقونها على تلك الأصنام لاعتقادهم أنها تستحق العكوف على عبادتها والإعزاز والتقرب إليها بالقرابين، وتعقب بأنه لو سلم دلالة الأسماء المذكورة على ثبوت تلك المعاني الخالصة للأصنام فليس في سلبها عنهامزيد فائدة بل إنما هي في سلب الألوهية عنها كما هو زعمهم المشهور في حق جميع الأصنام على وجه برهاني فإن انتفاء الوصف بطريق الأولوية أي ما هي شيء من الاشياء إلا أسماء خالية عن المسميات وضعتموها ﴿أَنتُمْ وآباءكُم﴾ بمقتضى الاهواء الباطلة ﴿مَا أَنزَلَ آللهُ بها من سُلطان﴾ برهان يتعلقون به ﴿إن يَتَّبعُونَ﴾ أي ما يتبعون فيما ذكر من التسمية والعمل بها ﴿إلاَّ آلظَّنَّ﴾ إلا توهم أن ما هم عليه حق توهماً باطلاً،

فالظن هنا مراد به التوهم وشاع استعماله فيه، ويفهم من كلام الراغب أن التوهم من أفراد الظن ﴿وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ﴾ أي والذي تشتهيه أنفسهم الأمارة بالسوء على أن ﴿ما ﴾ موصولة وعائدها مقدر ـ وأل ـ في الانفس للعهد، أو عوض عن المضاف إليه، وجوز كون ﴿ما ﴾ مصدرية وكذا جوز كون ـ أل ـ للجنس والنفس من حيث هي إنما تهوى غير الأفضل لأنها مجبولة على حب الملاذ وإنما يسوقها إلى حسن العاقبة العقل، والالتفات في ﴿يتبعون ﴾ إلى الغيبة للإيذان بأن تعداد قبائحهم اقتضى الاعراض عنهم، وحكاية جناياتهم لغيرهم، وقرأ ابن عباس وابن مسعود وابن وثاب وطلحة والأعمش وعيسى بن عمر ـ تتبعون ـ بتاء الخطاب ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰ﴾ حال من ضمير ﴿يَتَّبِعُونَ ﴾ مقررة لبطلان ما هم عليه من اتباع الظن والهوى، والمراد بالهدى الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم أو القرآن العظيم على أنه بمعنى الهادي أو جعله هدى مبالغة أي ما يتبعون إلا ذلك، والحال لقد جاءهم من ربهم جل شأنه ما ينبغي لهم معه تركه واتباع سبيل الحق.

وحاصله ﴿يتبعون ﴾ ذلك في حال ينافيه، وجوز أن تكون الجملة معترضة وهي أيضاً مؤكدة لبطلان ذلك ﴿أَمْ للإنسان مَا تَـمَنَّىٰ ﴾ ﴿أم ﴾ منقطعة مقدرة ـ ببل ـ وهي للانتقال من بيان أن ما هم عليه غير مستند إلا إلى توهمهم وهوى أنفسهم إلى بيان أن ذلك مما لا يجدي نفعاً أصلاً؛ والهمزة وهي للإنكار والنفي أي بل ليس للإنسان كل ما يتمناه وتشتهيه نفسه، ومفاده قيل: رفع الإيجاب الكلي ومرجعه إلى سالبه جزئية، وإليه يشير قول بعضهم: المراد نفي أن يكون للكفرة ما كانوا يطمعون فيه من شفاعة الآلهة والظفر بالحسنى عند الله تعالى يوم القيامة وما كانوا يشتهونه من نزول القرآن على رجل من إحدى القريتين عظيم ونحو ذلك، ويفهم من كلام بعض المحققين أن المراد السلب الكلي، والمعنى لا شيء مما يتمناه الانسان مملوكاً له مختصاً به يتصرف فيه حسب إرادته ويتضمن ذلك نفي أن يكون للكفرة ما ذكر وليس الإنسان خاصاً بهم كما قيل، وقوله تعالى: ﴿فَلِلَّه ٱلآخِرَةُ وَٱلأُولَـىٰ ﴾ تعليل لانتفاء ذلك فإن اختصاص ملك أمور الآخرة والأولى جميعاً به تعالى مقتض لانتفاء أن يكون للإنسان أمر من الأمور بل ما شاء الله تعالى له كان وما لم يشأ لم يكن، وقدمت الآخرة اهتماماً برد ما هو أهمّ أطماعهم عندهم من الفوز فيها، ولذا أردف ذلك بقوله تعالى: ﴿وَكَم مِّن مَّلَك فِـي ٱلسَّماوات لا تُغنـي شَفَـاعَتُهُم شَيْئاً ﴾ وإقناطهم عما طمعوا به من شفاعة الملائكة عليهم السلام موجب لاقناطهم عن شفاعة الاصنام بطريق الاولوية ﴿وكم ﴾ خبرية مفيدة للتكثير محلها الرفع على الابتداء، والخبر الجملة المنفية، وجمع الضمير في شفاعتهم مع إفراد الملك باعتبار المعنى أي وكثير من الملائكة لا تغني شفاعتهم عند الله تعالى شيئاً من الإغناء في وقت من الأوقات ﴿إلا من بَعْد أَن يَأْذَنَ الله ﴾ لهم في الشفاعة.

﴿لِـمَن يَشَاءُ ﴾ أن يشفعوا له ﴿وَيَرْضَىٰ ﴾ ويراه سبحانه أهلاً للشفاعة من أهل التوحيد والإيمان، وأما من عداهم من أهل الكفر والطغيان فهم من إذن الله تعالى بمعزل. وعنه بألف ألف منزل، وجوز أن يكون المراد إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء من الملائكة بالشفاعة ويراه عز وجل أهلاً لها، وأياً مّا كان فالمعنى على أنه إذا كان حال الملائكة في باب الشفاعة كما ذكر فما ظنهم بحال الأصنام، والكلام قيل من باب:

على لاحب لا يهتدى بمناره

فحاصله لا شفاعة لهم ولا غناء بدون أن يأذن الله سبحانه الخ، وقيل: هو وارد على سبيل الفرض فلا يخالف قوله تعالى: ﴿من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقرأ زيد بن علي شفاعته بإفراد الشفاعة والضمير، وابن مقسم شفاعاتهم بجمعهما وهو اختيار صاحب الكامل أبي القاسم الهذلي، وأفردت

الشفاعة في قراءة الجمهور قال أبو حيان: لأنها مصدر ولأنهم لو شفع جميعهم لواحد لم تغن شفاعتهم عنه شيئاً ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِٱلآخِرَةِ﴾ وبما فيها من العقاب على ما يتعاطونه من الكفر والمعاصي ﴿لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلائِكَةَ﴾ المنزهين عن سمات النقصان على الإطلاق ﴿تَسمِيَةَ ٱلأُنثَى﴾ فإنهم كانوا يقولون الملائكة بنات الله سبحانه وتعالى عما يقولون، ﴿والملائكة﴾ في معنى استغراق المفرد فيكون التقدير ليسمون كل واحد من ﴿الملائكة تسمية الأنثى﴾ أي يسمونه بنتاً لأنهم إذا قالوا ذلك فقد جعلوا كل واحد منهم بنتاً، فالكلام على وزان كسانا الأمير حلة أي كسا كل واحد منا حلة، والإفراد لعدم اللبس، ولذا لم يقل تسمية الإناث فلا حاجة إلى تأويل الأنثى بالإناث ولا إلى كون المراد الطائفة الأنثى، وما ذكر أولاً قيل: مبني على أن تسمية الأنثى في النظم الجليل ليس نصباً على التشبيه وإلا فلا حاجة إليه أيضاً، وفي تعليق التسمية بعدم الإيمان بالآخرة إشعار بأنها في الشناعة والفظاعة واستتباع العقوبة في الآخرة بحيث لا يجترىء عليها إلا من لا يؤمن بها رأساً، وقوله تعالى: ﴿وَمَا لَهُم به منْ علْم﴾ حال من فاعل ﴿يسمون﴾ وضمير به للمذكور من التسمية وبهذا الاعتبار ذكر، أو باعتبار القول أي يسمونهم إناثاً، والحال أنهم لا علم لهم بما يقولون أصلاً، وقرأ أبيّ بها أي بالتسمية، أو بالملائكة ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ﴾ أي ما يتبعون في ذلك ﴿إِلاَّ ٱلظَّنَّ﴾ أي التوهم الباطل ﴿وَإِنَّ ٱلظَّنَّ﴾ أي جنس الظن كما يلوح به الإظهار في موقع الإضمار، وقيل: الإظهار ليستقل الكلام استقلال المثل.

﴿لا يُغْنِي مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْئاً﴾ من الإغناء فإن الحق الذي هو عبارة عن حقيقة الشيء وما هو عليه إنما يدرك إدراكاً معتداً به إذا كان عن يقين لا عن ظن وتوهم فلا يعتدّ بالظن في شأن المعارف الحقيقية أعني المطالب الاعتقادية التي يلزم فيها الجزم ولو لم يكن عن دليل، وإنما يعتدّ به في العمليات وما يؤدي إليها.

وفسر بعضهم الحق بالله عز وجل لقوله سبحانه: ﴿ذلك بأن الله هو الحق﴾ [الحج: ٦، ٦٢، لقمان: ٣٠]، واستدل بالآية من لم يعتبر التقليد في الاعتقاديات ـ وفيه بحث ـ والظاهرية على إبطاله مطلقاً، وإبطال القياس ورده على أتم وجه في الأصول، وما أخرج ابن أبي حاتم عن أيوب قال: قال عمر بن الخطاب: احذروا هذا الرأي على الدّين فإنما كان الرأي من رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم مصيباً لأن الله تعالى كان يريه وإنما هو منا تكلف وظن ﴿وإن الظن لا يغني من الحق شيئاً﴾ هو أحد أدلتهم على إبطال القياس أيضاً، وقد حكى الآمدي في الأحكام نحوه عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما فقال: قال ابن عمر: اتهموا الرأي عن الدّين فإن الرأي منا تكلف وظن ﴿وإن الظن لا يغني من الحق شيئاً﴾ وأجاب عنه بأن غايته الدلالة على احتمال الخطأ فيه وليس فيه ما يدل على إبطاله، وأن المراد بقوله: ﴿إن الظن﴾ الخ استعمال الظن في مواضع اليقين وليس المراد به إبطال الظن بدليل صحة العمل بظواهر الكتاب والسنة، ويقال نحو هذا في كلام عمر رضي الله تعالى عنه، وقد ذكر جملة من الآثار استدل بها المبطل على ما زعمه وردها كلها فمن أراد ذلك ليراجعه ﴿فَأَعْرِضْ عن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذكْرِنا﴾ أي عنهم ووضع الموصول موضع ضميرهم للتوسل به إلى وصفهم بما في حيز صلته من الأوصاف القبيحة، وتعليل الحكم بها أي فأعرض عمن أعرض عن ذكرنا المفيد للعلم الحق وهو القرآن العظيم. المنطوي على بيان الاعتقادات الحقة. المشتمل على علوم الأولين والآخرين. المذكر الآخرة وما فيها من الأمور المرغوب فيها والمرهوب عنها، والمراد بالإعراض عنه ترك الأخذ بما فيه وعدم الاعتناء به، وقيل: المراد بالذكر الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم وبالإعراض عنه ترك الأخذ بما جاء به، وقيل: المراد به الإيمان، وقيل: هو على ظاهره والإعراض عنه كناية عن الغفلة عنه عز وجل ﴿وَلَمْ يُرِدْ إِلاَّ ٱلْحَيَاةَ ٱلدُّنيا﴾ راضياً بها قاصراً نظره عليها جاهداً فيما يصلحها كالنضر بن الحارث.

والوليد بن المغيرة، والمراد من الأمر المذكور النهي عن المبالغة في الحرص على هداهم كأنه قيل: لا تبالغ في الحرص على هدى من تولى عن ذكرنا وانهمك في الدنيا بحيث كانت منتهى همته وقصارى سعيه، وقوله تعالى: ﴿ذلكَ﴾ أي أمر الحياة الدنيا المفهوم من الكلام ولذا ذكر اسم الإشارة، وقيل: أي ما أداهم إلى ما هم فيه من التولي وقصر الإرادة على الحياة الدنيا، وقيل: ذلك إشارة إلى الظن الذي يتبعونه، وقيل: إلى جعلهم الملائكة بنات الله سبحانه وكلا القولين كما ترى ﴿مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلعِلْـم﴾ أي منتهى علمهم لا علم لهم فوقه اعتراض مقرر لمضمون ما قبلها من قصر الإرادة على الحياة الدنيا.

والمراد بالعلم مطلق الإدراك المنتظم للظن الفاسد، وضمير ﴿مبلغهم﴾ ـ لمن ـ وجمع باعتبار معناه كما أن إفراده قبل باعتبار لفظه، وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَـمُ بِـمَن ضَلَّ عن سَبيـله وَهُوَ أَعلَـمُ بِـمَن ٱهتَدَىٰ﴾ تعليل للأمر بالإعراض، وتكرير قوله تعالى: ﴿هو أعلـم﴾ لزيادة التقرير والإيذان بكمال تباين المعلومين، والمراد ﴿بمن ضل﴾ من أصر على الضلال ولم يرجع إلى الهدى أصلاً، و ﴿بـمن اهتدى﴾ من شأنه الاهتداء في الجملة، أي هو جل شأنه المبالغ في العلم بمن لا يرعوي عن الضلال أبداً، وبمن يقبل الاهتداء في الجملة لا غيره سبحانه فلا تتعب نفسك في دعوتهم ولا تبالغ في الحرص عليها فإنهم من القبيل الأول: وقوله تعالى: ﴿وَلله مَا فـي ٱلسَّماوات وَمَا فـي ٱلأرض﴾ أي له ذلك على الوجه الأتم أي خلقاً وملكاً لا لغيره عز وجل أصلا لا استقلالاً ولا اشتراكاً، ويشعر بفعل يتعلق به قوله تعالى: ﴿لـيَجْزي ٱلَّذينَ أساؤوا بـمَا عَملوا﴾ أي خلق ما فيهما ليجزي الضالين بعقاب ما عملوا من الضلال الذي عبر عنه بالإساءة بياناً لحاله؛ أو بمثل ما عملوا، أو بسبب ما عملوا على أن الباء صلة الجزاء بتقدير مضاف أو للسببية بلا تقدير ﴿وَيَجزي ٱلَّذينَ أحسَنوا﴾ أي اهتدوا ﴿بِٱلحُسْنَى﴾ أي بالمثوبة الحسنى التي هي الجنة، أو بأحسن من أعمالهم أو بسبب الأعمال الحسنى تكميل لما قبل لأنه سبحانه لما أمره عليه الصلاة والسلام بالإعراض نفي توهم أن ذلك لأنهم يتركون سدى، وفي العدول عن ضمير ربك إلى الاسم الجامع ما ينبيء عن زيادة القدرة وأن الكلام مسوق لوعيد المعرضين وأن تسوية هذا الملك العظيم لهذه الحكمة فلا بدّ من ضال ومهتد، ومن أن يلقى كلٌّ ما يستحقه، وفيه أنه صلى الله تعالى عليه وسلم يلقى الحسنى جزاءً لتبليغه وهم يلقون السوء أي جزاءً لتكذيبهم، وكرر فعل الجزاء لإبراز كمال الاعتناء به والتنبيه على تباين الجزاءين.

وجوز أن يكون معنى ﴿فأعرض﴾ الخ لا تقابلهم بصنيعهم وكلهم إلى ربك إنه أعلم بك وبهم فيجزي كلاً ما يستحقه، ولا يخفى ما في العدول عن الضميرين في «بمن ضل» «وبمن اهتدى» وجعل قوله تعالى: ﴿ليجزي﴾ على هذا متعلقاً بما يدل عليه قوله تعالى: ﴿إن ربك هو أعلـم﴾ الخ أي ميز الضال عن المهتدي وحفظ أحوالهم ﴿لـيجزي﴾ الخ، وقوله سبحانه: ﴿ولله ملك السماوات﴾ جملة معترضة تؤكد حدث أنهم يجزون البتة ولا يهملون كأنه قيل: هو سبحانه أعلم بهم وهم تحت ملكه وقدرته، وجوز على ذلك المعنى أن يتعلق ﴿لـيجزي﴾ بقوله تعالى: ﴿ولله ما فـي السماوات﴾ كما تقدم على تأكيد أمر الوعيد، أي ـ هو أعلم بهم ـ وإنما سوي هذا الملك للجزاء، ورجح بعضهم ذلك المعنى بالوجهين المذكورين على ما مرّ، وجوز في جملة ﴿لله ما فـي السماوات﴾ كونها حالاً من فاعل أعلم سواء كان بمعنى عالم أو لا، وفي ﴿لـيجزي﴾ تعلقه ـ بضل. واهتدى ـ على أن اللام للعاقبة أي هو تعالى ﴿أعلـم بـمن ضل﴾ ليؤول أمره إلى أن يجزيه الله تعالى بعمله، و ﴿بـمن اهتدى﴾ ليؤول أمره إلى أن يجزيه بالحسنى، ولا يخفى بعده، وأبعد منه بمراحل تعلقه بقوله سبحانه: ﴿لا تغني شفـاعتهم﴾ كما ذكره مكي، وقرأ زيد ابن علي ـ لنجزي ـ ونجزي ـ بالنون فيهما ﴿ٱلَّذينَ يَجتَنبُونَ كَبَـائر ٱلإثم﴾ بدل من الموصول الثاني وصيغة الاستقبال

في صلته للدلالة على تجدد الاجتناب واستمراره أو بيان أو نعت أو منصوب على المدح أو مرفوع على أنه خبر محذوف؛ و ﴿الإثم﴾ الفعل المبطىء عن الثواب وهو الذنب. وكبائره ما يكبر عقابه، وقرأ حمزة والكسائي وخلف ـ كبير الإثم ـ على إرادة الجنس، أو الشرك ﴿وَٱلْفَوَاحِشَ﴾ ما عظم قبحه من الكبائر فعطفه على ما تقدم من عطف الخاص على العام، وقيل: الفواحش والكبائر مترادفان ﴿إِلاَّ ٱللَّمَمَ﴾ ما صغر من الذنوب وأصله ما قل قدره، ومنه لِمَةُ الشعر لأنها دون الوفرة، وفسره أبو سعيد الخدري بالنظرة والغمزة والقبلة وهو من باب التمثيل، وقيل: معناه الدنو من الشيء دون ارتكاب له من ألممت بكذا أي نزلت به وقاربته من غير مواقعة ـ وعليه قول الرماني ـ هو الهمّ بالذنب وحديث النفس دون أن يواقع، وقول ابن المسيب: ما خطر على القلب، وعن ابن عباس وابن زيد هو ما ألموا به من الشرك والمعاصي في الجاهلية قبل الإسلام، والآية نزلت لقول الكفار للمسلمين قد كنتم بالأمس تعملون أعمالنا فهي مثل قوله تعالى: ﴿وأن تجمعوا بين الأختين إلا ما قد سلف﴾ [النساء: ٢٣] على ما في البحر، وقيل: هو مطلق الذنب.

وفي رواية عن ابن عباس أنه ما يلم به المرء في الحين من الذنوب ثم يتوب، والمعظم على تفسيره بالصغائر والاستثناء منقطع، وقيل: إنه لا استثناء فيه أصلاً، و﴿إلا﴾ صفة بمعنى غير إما لجعل المضاف إلى المعرف باللام الجنسية أعني كبائر الإثم في حكم النكرة، أو لأن غير و ﴿إلا﴾ التي بمعناها قد يتعرفان بالإضافة كما في ﴿غير المغضوب﴾ [الفاتحة: ٧] وتعقبه بعضهم بأن شرط جواز وقوع ﴿إلا﴾ صفة كونها تابعة لجمع منكر غير محصور ولم يوجد هنا، ورد بأن هذا ما ذهب إليه ابن الحاجب، وسيبويه يرى جواز وقوعها صفة مع جواز الاستثناء فهو لا يشترط ذلك، وتبعه أكثر المتأخرين، نعم كونها هنا صفة خلاف الظاهر ولا داعي إلى ارتكابه، والآية عند الأكثرين دليل على أن المعاصي منها كبائر ومنها صغائر وأنكر جماعة من الأئمة هذا الانقسام وقالوا: سائر المعاصي كبائر، منهم الأستاذ أبو إسحاق الأسفرايني، والقاضي أبو بكر الباقلاني، وإمام الحرمين في الارشاد، وتقي الدين السبكي وابن القشيري في المرشد بل حكاه ابن فورك عن الاشاعرة. واختاره في تفسيره فقال معاصي الله تعالى كلها عندنا كبائر وإنما يقال لبعضها صغيرة وكبيرة بالإضافة، وحكي الانقسام عند المعتزلة، وقال: إنه ليس بصحيح، وقال القاضي عبد الوهاب: لا يمكن أن يقال في معصية إنها صغيرة إلا على معنى أنها تصغر باجتناب الكبائر ويوافق ذلك ما رواه الطبراني عن ابن عباس لكنه منقطع أنه ذكر عنده الكبائر فقال: كل ما نهى الله تعالى عنه فهو كبيرة، وفي رواية كل شيء عصى الله تعالى فيه فهو كبيرة، والجمهور على الانقسام قيل: ولا خلاف في المعنى، وإنما الخلاف في التسمية، والإطلاق لإجماع الكل على أن من المعاصي ما يقدح في العدالة ومنها ما لا يقدح فيها وإنما الأولون فروا من التسمية فكرهوا تسمية معصية صغيرة لأنها بالنظر إلى باهر عظمته كبيرة أي كبيرة ولم ينظر الجمهور إلى ذلك لأنه معلوم؛ وقسموها إلى ما ذكر لظواهر الآيات والأحاديث ولذلك قال الغزالي: لا يليق إنكار الفرق بين الكبائر والصغائر وقد عرفنا من مدارك الشرع، ثم القائلون بالفرق اختلفوا في حدّ الكبيرة فقيل: هي ما لحق صاحبها عليها بخصوصها وعيد شديد بنص كتاب أو سنة وهي عبارة كثير من الفقهاء، وقيل: كل معصية أوجبت الحدّ ـ وبه قال البغوي وغيره ـ والأول أوفق لما ذكروه في تفصيل الكبائر إذ عدوا الغيبة والنميمة والعقوق وغير ذلك منها ولا حدّ فيه فهو أصح من الثاني وإن قال الرافعي: إنهم إلى ترجيحه أميل، وقد يقال: يرد على الأول أيضاً أنهم عدوا من الكبائر ما لم يرد فيه بخصوصه وعيد شديد.

وقيل: هي كل ما نص الكتاب على تحريمه أو وجب في جنسه حدّ وترك فريضة تجب فوراً والكذب في

الشهادة والرواية واليمين، زاد الهروي وشريح وكل قول خالف الإجماع العام، وقيل: كل جريمة تؤذن بقلة اكتراث مرتكبها بالدين ورقة الديانة وهو المحكي عن إمام الحرمين، ورجحه جمع لما فيه من حسن الضبط، وتعقب بأنه بظاهره يتناول صغيرة الخسة، والإمام ـ كما قال الاذرعي ـ إنما ضبط به ما يبطل العدالة من المعاصي الشاملة لذلك لا الكبيرة فقط، نعم هو أشمل من التعريفين الأولين، وقيل: هي ما أوجب الحدّ أو توجه إليه الوعيد ذكره الماوردي في فتاويه، وقيل: كل محرم لعينه منهي عنه لمعنى في نفسه فإن فعله على وجه يجمع وجهين أو وجوها من التحريم كان فاحشة، فالزنا كبيرة وبحليلة الجار فاحشة والصغيرة تعاطي ما تنقص عن رتبته عن رتبته المنصوص عليه. أو تعاطيه على وجه دون المنصوص عليه فإن تعاطاه على وجه يجمع وجهين أو أكثر من التحريم كان كبيرة فالقبلة واللمس والمفاخذة صغيرة، ومع حليلة الجار كبيرة كذا نقله ابن الرفعة وغيره عن القاضي حسين عن الحليمي، وقيل: هي كل فعل نص الكتاب على تحريمه أي بلفظ التحريم وهو أربعة أشياء: أكل الميتة، ولحم الخنزير، ومال اليتيم، والفرار من الزحف ورد بمنع الحصر، وقيل: إنها كل ذنب قرن به حدّ، أو وعيد أو لعن بنص كتاب أو سنة أو علم أن مفسدته كمفسدة ما قرن به ذلك أو أكثر أو أشعر بتهاون مرتكبه في دينه إشعاراً صغر الكبائر المنصوص عليها بذلك كما لو قتل من يعتقده معصوماً فظهر أنه مستحق لدمه أو وطىء امرأة ظانا أنه زان بها فإذا هي زوجته أو أمته، وإليه ذهب شيخ الإسلام البارزي وقال: هو التحقيق؛ وقيل: غير ذلك، واعتمد الواحدي أنها لا حدّ لها يحصرها فقال الصحيح أن الكبيرة ليس لها حدّ يعرفها العباد به وإلا لاقتحم الناس الصغائر واستباحوها ولكن الله تعالى أخفى ذلك عنهم ليجتهدوا في اجتناب المنهي عنه رجاء أن تجتنب الكبائر. ونظير ذلك إخفاء الاسم الاعظم والصلاة الوسطى وليلة القدر وساعة الإجابة، وقال العلامة ابن حجر الهيتمي: كل ما ذكر من الحدود إنما قصد به التقريب فقط وإلا فهي ليست بحدود جامعة، وكيف يمكن ضبط ما لا مطمع في ضبطه؟ وذهب جمع إلى تعريفها بالعدّ، فعن ابن عباس أنها ما ذكره الله تعالى في أول سورة النساء إلى قوله سبحانه: ﴿إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه﴾ [النساء: ٣١].

وقيل: هي سبع وروي ذلك عن علي كرم الله تعلى وجهه وعطاء وعبيد بن عمير، واستدل له بما في الصحيحين «اجتنبوا السبع الموبقات: الإشراك بالله تعالى والسحر وقتل النفس التي حرم الله تعالى إلا بالحق وأكل مال اليتيم وأكل الربا والتولي يوم الزحف وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات» وقيل: خمس عشرة، وقيل: أربع عشرة، وقيل: أربع، وعن ابن مسعود ثلاث، وفي رواية أخرى عشرة، وقال شيخ الاسلام العلائي: المنصوص عليه في الاحاديث أنه كبيرة خمس وعشرون، وتعقبه ابن حجر بزيادة على ذلك، وقال أبو طالب المكي: هي سبع عشرة أربع في القلب الشرك والاصرار على المعصية والقنوط والأمن من المكر، وأربع في اللسان القذف وشهادة الزور والسحر، وهو كل كلام يغير الإنسان أو شيئا من أعضائه. واليمين الغموس وهي التي تبطل بها حقاً أو تثبت بها باطلاً، وثلاث في البطن أكل مال اليتيم ظلماً وأكل الربا وشرب كل مسكر، واثنان في الفرج: الزنا واللواط، واثنتان في اليد القتلة والسرقة، وواحدة في الرجل الفرار من الزحف، وواحدة في جميع الجسد عقوق الوالدين، وفيه ما فيه، وروى الطبراني عن سعيد بن جبير عن ابن عباس أن رجلاً قال له: كم الكبائر سبع هي؟ فقال هي إلى سبعمائة أقرب منها إلى سبع غير أنه لا كبيرة مع الاستغفار ولا صغيرة مع الإصرار، وقد ألف فيها غير واحد من العلماء، وفي كتاب الزواجر تأليف العلامة ابن حجر ما فيه كفاية فليراجع، والله تعالى الموفق وإنا لنستغفره ونتوب إليه ﴿**إِنَّ رَبَّكَ واسع ٱلمغفرة**﴾ حيث يغفر الصغائر باجتناب

الكبائر، فالجملة تعليل لاستثناء اللمم، وتنبيه على أن إخراجه عن حكم المؤاخذة ليس لخلوه عن الذنب في نفسه بل لسعة المغفرة الربانية، وجوز أن يكون المعنى له سبحانه أن يغفر لمن يشاء من المؤمنين ما يشاء من الذنوب صغيرها وكبيرها، ولعل تعقيب وعيد المسيئين ووعد المحسنين بذلك حينئذ لئلا ييأس صاحب الكبيرة من رحمته تعالى ولا يتوهم وجوب العقاب عليه عز وجل، وزعم بعض جواز كون الموصول مبتدأ وهذه الجملة خبره والرابط محذوف أي ﴿**واسع المغفرة**﴾ لهم ليس بشيء كما لا يخفى.

﴿**هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ**﴾ أي بأحوالكم من كل أحد ﴿**إِذْ أَنشَأَكُم**﴾ في ضمن إنشاء أبيكم آدم عليه السلام.

﴿**مِّنَ ٱلْأَرْضِ**﴾ إنشاء إجمالياً حسبما مر تحقيقه، وقيل: إنشاؤهم من الأرض باعتبار أن المني الذي يتكونون منه في الأغذية التى منشؤها الأرض، وأياً مّا كان ـ فإذا ـ ظرف ـ لأعلم ـ وهو على بابه من التفصيل.

وقال مكي: هو بمعنى عالم إذ تعلق علمه تعالى بأحوالهم في ذلك الوقت لا مشارك له تعالى فيه، وتعقب بأنه قد يتعلق علم من أطلعه الله تعالى من الملائكة عليه، وقيل: ﴿**إذ**﴾ منصوب بمحذوف، والتقدير اذكروا ﴿**إذ أنشأكم**﴾ وهو كما ترى ﴿**وَإِذْ أَنتُم أَجِنَّةٌ**﴾ ووقت كونكم أجنة ﴿**فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ**﴾ على أطوار مختلفة مترتبة لا يخفى عليه سبحانه حال من أحوالكم وعمل من أعمالكم التي من جملتها اللمم الذي لولا المغفرة الواسعة لأصابكم وباله. فالجملة استئناف مقرر لما قبلها وذكر ﴿**في بطون أمهاتكم**﴾ مع أن الجنين ما كان في البطن للإشارة إلى الأطوار كما أشرنا إليه، وقيل: لتأكيد شأن العلم لما أن بطن الأم في غاية الظلمة، والفاء في قوله تعالى: ﴿**فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ**﴾ لترتيب النهي عن تزكية النفس على ما سبق من أن عدم المؤاخذة باللمم ليس لعدم كونه من قبيل الذنوب بل لمحض مغفرته تعالى مع علمه سبحانه بصدوره عنكم أي إذا كان الأمر كذلك فلا تثنوا على أنفسكم بالطهارة عن المعاصي بالكلية أو بزكاء العمل وزيادة الخير بل اشكروا الله تعالى على فضله ومغفرته جل شأنه ﴿**هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰ**﴾ المعاصي جميعاً وهو استئناف مقرر للنهي ومشعر بأن فيهم من يتقيها بأسرها كذا في الإرشاد، وقيل: اتقى الشرك، وقيل: اتقى شيئاً من المعاصي، والآية نزلت على ما قيل: في قوم من المؤمنين كانوا يعملون أعمالاً حسنة ثم يقولون صلاتنا وصيامنا وحجنا وهذا مذموم منهي عنه إذا كان بطريق الإعجاب، أو الرياء أما إذا لم يكن كذلك فلا بأس به ولا يعد فاعله من المزكين أنفسهم، ولذا قيل: المسرة بالطاعة طاعة وذكرها شكر، ولا فرق في التزكية بين أن تكون عبارة وأن تكون إشارة وعدّ منها التسمية بنحو برّة، أخرج أحمد ومسلم وأبو داود وابن مردويه وابن سعد عن زينب بنت أبي سلمة أنها سميت برّة فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم: «لا تزكوا أنفسكم الله أعلم بأهل البر منكم سموها زينب» وكذا غير عليه الصلاة والسلام إلى ذلك اسم برة بنت جحش، وتغيير مثل ذلك مستحب وكذا ما يوقع نفيه بعض الناس في شيء من الطيرة كبركة ويسار، والنهي عن التسمية به للتنزيه وقوله صلى الله تعالى عليه وسلم كما روى جابر: «إن عشت إن شاء الله أنهى أمتي أن يسمعوا نافعاً وأفلح وبركة» محمول كما قال النووي على إرادة أنهى نهي تحريم، والظاهر أن كراهة ما يشعر بالتزكية مخصوصة بما إذا كان الاشعار قوياً كما إذا كان الاسم قبل النقل ظاهر الدلالة على التسمية مستعملاً فيها فلا كراهة في التسمية بما يشعر بالمدح إذا لم يكن كذلك كسعيد وحسن، وقد كان لعمر رضي الله تعالى عنه ابنة يقال لها: عاصية فسماها رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم جميلة كذا قيل، والمقام بعد لا يخلو عن بحث

فليراجع، وقيل: معنى ـ لا تزكوا أنفسكم ـ لا يزكي بعضكم بعضاً، والمراد النهي عن تزكية السمعة أو المدح للدنيا، أو تزكية على سبيل القطع، وأما التزكية لإثبات الحقوق ونحوه فهي جائزة، وذهب بعضهم إلى أن الآية نزلت في اليهود.

أخرج الواحدي وابن المنذر وغيرهما عن ثابت بن الحارث الأنصاري قال: «كانت اليهود إذا هلك لهم صبي صغير قالوا: هو صديق فبلغ ذلك النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فقال: كذبت يهود ما من نسمة يخلقها الله تعالى في بطن أمها إلا يعلم سعادتها أو شقاوتها» فأنزل الله سبحانه عند ذلك ﴿هو أعلم بكم﴾ الآية.

أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ ﴿٣٤﴾ أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ ﴿٣٥﴾ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ
مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ
سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾
وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾ وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ
﴿٤٧﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴿٤٨﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَا۟ فَمَآ أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾ وَقَوْمَ
نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴿٥٢﴾ وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ
تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ﴿٥٦﴾ أَزِفَتِ ٱلْءَازِفَةُ ﴿٥٧﴾ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾ أَفَمِنْ هَٰذَا
ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ﴿٦١﴾ فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟ ۩ ﴿٦٢﴾

﴿أَفَرَأَيْتَ ٱلَّذِي تَوَلَّىٰ﴾ أي عن اتباع الحق والثبات عليه ﴿وَأَعْطَىٰ قَلِيلاً﴾ أي شيئاً قليلاً، أو إعطاءً قليلاً ﴿وَأَكْدَىٰ﴾ أي قطع العطاء من قولهم حفر فأكدى إذا بلغ إلى كدية أي صلابة في الأرض فلم يمكنه الحفر، قال مجاهد وابن زيد: نزلت في الوليد بن المغيرة كان قد سمع قراءة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وجلس إليه ووعظه فقرب من الإسلام وطمع فيه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ثم إنه عاتبه رجل من المشركين، وقال له: أتترك ملة آبائك؟! ارجع إلى دينك واثبت عليه وأنا أتحمل عنك كل شيء تخافه في الآخرة لكن على أن تعطيني كذا وكذا من المال فوافقه الوليد على ذلك ورجع عما همّ به من الإسلام وضل ضلالاً بعيداً، وأعطى بعض المال لذلك الرجل ثم أمسك عنه وشح، وقال الضحاك: هو النضر بن الحارث أعطى خمس قلائص لفقير من المهاجرين حتى ارتد عن دينه وضمن له أن يحمل عنه مأثم رجوعه، وقال السدي: نزلت في العاص بن وائل السهمي كان يوافق النبي صلى الله تعالى عليه وسلم في بعض الأمور، وقال محمد بن كعب: في أبي جهل قال: والله ما يأمر محمد إلا بمكارم الأخلاق، والأول هو الأشهر الأنسب لما بعده من قوله سبحانه: ﴿أَعِندَهُ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ﴾ إلى آخره، وأما ما في الكشاف من أنها نزلت في عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه كان يعطي ماله في الخير فقال له عبد الله بن سعيد بن أبي سرح: يوشك أن لا يبقى لك شيء فقال عثمان: إن لي ذنوباً وخطايا وإني أطلب بما أصنع رضا الله تعالى وأرجو عفوه فقال عبد الله: أعطني ناقتك برحلها وأنا أحمل عنك ذنوبك كلها فأعطاه وأشهد عليه وأمسك عن العطاء فباطل ـ كما قال ابن عطية ـ ولا أصل له، وعثمان رضي الله تعالى عنه منزه عن مثل ذلك، و ﴿أفرأيت﴾ هنا على ما في البحر بمعنى أخبرني ومفعولها الأول الموصول، والثاني الجملة الاستفهامية، والفاء في قوله تعالى: ﴿فَهُوَ يَرَىٰ﴾ للتسبب

عما قبله أي عنده علم بالأمور الغيبية فهو بسبب ذلك يعلم أن صاحبه يتحمل عنه يوم القيامة ما يخافه، وقيل: يرى أن ما سمعه من القرآن باطل: وقال الكلبي: المعنى أأنزل عليه قرآن فرأى أن ما صنعه حق، وأياً مّا كان ـ فيرى ـ من الرؤية القلبية، وجوز أن تكون من الرؤية البصرية أي فهو يبصر ما خفي عن غيره مما هو غيب ﴿أَم لَـمْ يُنَبَّأْ﴾ أي بل ألم يخبر.

﴿بما فـي صُحُف موسَىٰ﴾ وهي التوراة ﴿وَإبراهيـمَ﴾ وبما في صحف إبراهيم التي نزلت عليه ﴿ٱلَّذي وَفَّىٰ﴾ أي وفر وأتم ما أمر به، أو بالغ في الوفاء بما عاهد عليه الله تعالى، وقال ابن عباس: وفى بسهام الإسلام كلها ولم يوفها أحد غيره وهي ثلاثون سهماً منها عشرة في براءة ﴿إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم﴾ [التوبة: ١١١] الآيات، وعشرة في الأحزاب ﴿إن المسلمين والمسلمات﴾ [الأحزاب: ٣٥] الآيات، وست في ـ قد أفلح المؤمنون ـ الآيات التي في أولها، وأربع في سأل سائل ﴿والذين يصدقون بيوم الدين﴾ [المعارج: ٢٦] الآيات، وفي حديث ضعيف عن أبي أمامة يرفعه، وَفّى بأربع ركعات كان يصليهن في كل يوم، وفي رواية يصليهن أول النهار.

وأخرج أحمد من حديث معاذ بن أنس مرفوعاً أيضاً «ألا أخبركم لم سمى الله تعالى إبراهيم خليله الذي وفى لأنه كان يقول كلما أصبح وأمسى سبحان الله حين تمسون وحين تصبحون الآية» وقال عكرمة: ﴿وفـى﴾ بتبليغ هذه العشرة أن لا تزر إلى آخره «وقيل، وقيل:» والأولى العموم وهو مروي عن الحسن قال: ما أمره الله تعالى بشيء إلا وفى به وتخصيصه عليه السلام بهذا الوصف لاحتماله ما لا يحتمله غيره، وفي قصة الذبح ما فيه كفاية وخص هذان النبيان عليهما السلام بالذكر قيل: لأنه فيما بين نوح وإبراهيم كانوا يأخذون الرجل بابنه وبأبيه وعمه وخاله، والزوج بامرأته، والعبد بسيده فأول من خالفهم إبراهيم وقرر ذلك موسى ولم يأت قبله مقرر مثله عليه السلام، وتقديمه لما أن صحفه أشهر عندهم وأكثر، وقرأ أبو أمامة الباهلي وسعيد بن جبير وأبو مالك الغفاري وابن السميفع وزيد بن علي «وَفَى» بتخفيف الفاء ﴿أَلَا تَزرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخرَىٰ﴾ أي إنه لا تحمل نفس من شأنها الحمل حمل نفس أخرى على أن ﴿أن﴾ هي المخففة من الثقيلة وضمير الشأن الذي هو اسمها محذوف، والجملة المنفية خبرها ومحل الجملة الجر على أنها بدل مما في صحف موسى، أو الرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف والاستئناف بياني كأنه قيل: ما في صحفهما؟ فقيل: هو ﴿أن لا تزر﴾ الخ، والمعنى أنه لا يؤاخذ أحد بذنب غيره ليتخلص الثاني عن عقابه، ولا يقدح في ذلك قوله صلى الله تعالى عليه وسلم: «من سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من علم بها إلى يوم القيامة» فإن ذلك وزر الإضلال الذي هو وزره لا وزر غيره، وقوله تعالى: ﴿وَأَن لَّيسَ للإنسان إلاَّ مَا سَعىٰ﴾ بيان لعدم إثابة الإنسان بعمل غيره إثر بيان عدم مؤاخذته بذنب غيره ﴿وأن﴾ كأختها السابقة، و ﴿ما﴾ مصدرية وجوز كونها موصولة أي ليس له إلا سعيه، أو إلا الذي سعى به وفعله، واستشكل بأنه وردت أخبار صحيحة بنفع الصدقة عن الميت، منها ما أخرجه مسلم والبخاري وأبو داود والنسائي عن عائشة «أن رجلاً قال لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم: إن أمي افتلتت نفسها وأظنها لو تكلمت تصدقت فهل لها أجر إن تصدقت عنها؟ قال: نعم» وكذا بنفع الحج.

أخرج البخاري ومسلم والنسائي عن ابن عباس قال: «أتى رجل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فقال: إن أختي نذرت لأن تحج وأنها ماتت فقال النبي عليه الصلاة والسلام: لو كان عليها دين أكنت قاضيه؟ قال: نعم قال: فحق الله أحق بالقضاء» وأجيب بأن الغير لما نوى ذلك الفعل له صار بمنزلة الوكيل عنه القائم مقامه شرعاً فكأنه بسعيه، وهذا لا يتأتى إلا بطريق عموم المجاز، أو الجمع بين الحقيقة والمجاز عند من يجوزه، وأجيب أيضاً بأن سعي غيره لما لم ينفعه إلا مبنياً على سعي نفسه من الإيمان فكأنه سعيه، ودل على بنائه على ذلك ما أخرجه أحمد عن

عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن العاص بن وائل نذر في الجاهلية أن ينحر مائة بدنة وأن هشاماً ابنه نحر حصته خمسين وأن عمراً سأل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم عن ذلك فقال: «وأما أبوك فلو كان أقرّ بالتوحيد فصمت وتصدقت عنه نفعه ذلك» وأجيب بهذا عما قيل: إن تضعيف الثواب الوارد في الآيات ينافي أيضاً القصر على سعيه وحده، وأنت تعلم ما في الجواب من النظر، وقال بعض أجلة المحققين إنه ورد في الكتاب والسنة ما هو قطعي في حصول الانتفاع بعمل الغير وهو ينافي ظاهر الآية فتقيد بما لا يهبه العامل، وسأل والي خراسان عبد الله بن طاهر الحسين بن الفضل عن هذه الآية مع قوله تعالى: ﴿والله يضاعف لمن يشاء﴾ [البقرة: ٢٦١] فقال: ليس له بالعدل إلا ما سعى وله بالفضل ما شاء الله تعالى فقبل عبد الله رأس الحسين؛ وقال عكرمة: كان هذا الحكم في قوم إبراهيم وموسى عليهما السلام، وأما هذه الأمة فللإنسان منها سعي غيره يدل عليه حديث سعد بن عبادة «هل لأمي إذا تطوعت عنها؟ قال صلى الله تعالى عليه وسلم: نعم» وقال الربيع: الإنسان هنا الكافر، وأما المؤمن فله ما سعى وما سعى له غيره، وعن ابن عباس أن الآية منسوخة بقوله تعالى: ﴿والذين آمنوا واتبعتهم ذرياتهم بإيمان ألحقنا بهم ذرياتهم﴾ [الطور: ٢١] وقد أخرج عنه ما يشعر به أبو داود والنحاس كلاهما في الناسخ، وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه، وتعقب أبو حيان رواية النسخ بأنها لا تصح لأن الآية خبر لم تتضمن تكليفاً ولا نسخ في الأخبار. وما يتوهم جواباً من أنه تعالى أخبر في شريعة موسى وإبراهيم عليهما السلام أن لا يجعل الثواب لغير العامل ثم جعله لمن بعدهم من أهل شريعتنا مرجعه إلى تقييد الأخبار لا إلى النسخ إذ حقيقته أن يراد المعنى، ثم من بعد ذلك ترتفع إرادته، وهذا تخصيص الإرادة بالنسبة إلى أهل الشرائع فافهمه، وقيل: اللام بمعنى على أي ليس على الإنسان غير سعيه، وهو بعيد من ظاهرها ومن سياق الآية أيضاً فإنها وعظ للذي تولى وأعطى قليلا وأكدا، والذي أميل إليه كلام الحسين، ونحوه كلام ابن عطية قال: والتحرير عندي في هذا الآية أن ملاك المعنى هو اللام من قوله سبحانه: ﴿**للإنسان**﴾ فإذا حققت الشيء الذي حق الإنسان أن يقول فيه لي كذا لم تجده إلا سعيه وما يكون من رحمة بشفاعة، أو رعاية أب صالح، أو أبن صالح، أو تضعيف حسنات، أو نحو ذلك فليس هو للإنسان ولا يسعه أن يقول لي كذا وكذا إلا على تجوّز، وإلحاق بما هو حقيقة انتهى.

ويعلم من مجموع ما تقدم أن استدلال المعتزلة بالآية على أن العبد إذا جعل ثواب عمله أي عمل كان لغيره لا ينجعل ويلغو جعله غير تام؛ وكذا استدلال الإمام الشافعي بها على أن ثواب القراءة لا تلحق الأموات ـ وهو مذهب الإمام مالك ـ بل قال الامام ابن الهمام: إن مالكاً والشافعي لا يقولان بوصول العبادات البدنية المحضة كالصلاة والتلاوة بل غيرها كالصدقة والحج، وفي الإذكار للنووي عليه الرحمة المشهور من مذهب الشافعي رضي الله تعالى عنه وجماعة أنها لا تصل، وذهب أحمد بن حنبل وجماعة من العلماء ومن أصحاب الشافعي إلى أنه تصل، فالاختيار أن يقول القارىء بعد فراغه اللهم أوصل ثواب ما قرأته إلى فلان، والظاهر أنه إذا قال ذلك ونحوه كوهبت ثواب ما قرأته لفلان بقلبه كفى، وعن بعضهم اشتراط نية النيابة أول القراءة وفي القلب منه شيء، ثم الظاهر أن ذلك إذا لم تكن القراءة بأجرة أما إذا كانت بها كما يفعله أكثر الناس اليوم فإنهم يعطون حفظة القرآن أجرة ليقرؤوا لموتاهم فيقرؤون لتلك الأجرة فلا يصل ثوابها إذ لا ثواب لها ليصل لحرمة أخذ الاجرة على قراءة القرآن وإن لم يحرم على تعليمه كما حققه خاتمة الفقهاء المحققين الشيخ محمد الأمين بن عابدين الدمشقي رحمه الله تعالى، وفي الهداية من كتاب الحج عن الغير إطلاق صحة جعل الإنسان عمله لغيره ولو صلاة وصوماً عند أهل السنة والجماعة، وفيه ما علمت ما مرّ آنفاً.

وقال الخفاجي: هو محتاج إلى التحرير وتحريره أن محل الخلاف العبادة البدنية هل تقبل النيابة فتسقط عمن لزمته فعل غيره سواء كان بإذنه أو لا بعد حياته أم لا فهذا وقع في الحج كما ورد في الأحاديث الصحيحة، أما الصوم فلا، وما ورد في حديث «من مات وعليه صيام صام عنه وليه» وكذا غيره من العبادات فقال الطحاوي: إنه كان في صدر الإسلام ثم نسخ وليس الكلام في الفدية وإطعام الطعام فإنه بدل وكذا إهداء الثواب سواء كان بعينه أو مثله فإنه دعاء وقبوله بفضله عز وجل كالصدقة عن الغير فأعرفه انتهى فلا تغفل.

﴿**وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوفَ يُرَىٰ**﴾ أي يعرض عليه ويكشف له يوم القيامة في صحيفته وميزانه من أريته الشيء، وفي البحر يراه حاضرو القيامة ويطلعون عليه تشريفاً للمحسن وتوبيخاً للمسيء ﴿**ثُمَّ يُجْزَاهُ**﴾ أي يجزى الإنسان سعيه، يقال: جزاه الله عز وجل بعمله وجزاه على عمله وجزاه عمله بحذف الجار وإيصال الفعل، وقوله تعالى: ﴿**ٱلْـجَزَاءَ ٱلأوفَـىٰ**﴾ مصدر مبين للنوع وإذا جاز وصف المجزي به بالأوفى جاز وصف الحدث عن الجزاء لملابسته له، وجوز كونه مفعولاً به بمعنى المجزي به وحينئذ يكون الفعل في حكم المتعدي إلى ثلاثة مفاعيل. ولا بأس لأن الثاني بالحذف والإيصال لا التوسع فيجيء فيه الخلاف، وبعضهم يجعل الجزاء منصوباً بنزع الخافض، وجوز أن يكون الضمير المنصوب في ﴿**يجزاه**﴾ للجزاء لا للسعي، و ﴿**الـجزاء الأوفـى**﴾ عليه عطف بيان، أو بدل كما في قوله تعالى: ﴿وأسروا النجوى الذين ظلموا﴾ [الأنبياء: ٣] وتعقبه أبو حيان بأن فيه إبدال الظاهر من الضمير وهي مسألة خلافية والصحيح المنع ﴿**وَأَنَّ إلـى ربِّكَ الـمُنتَهىٰ**﴾ أي إن انتهاء الخلق ورجوعهم إليه تعالى لا إلى غيره سبحانه استقلالاً ولا اشتراكاً، والمراد بذلك رجوعهم إليه سبحانه يوم القيامة حين يحشرون ولهذا قال غير واحد: أي إلى حساب ربك أو إلى ثوابه تعالى من الجنة وعقابه من النار الانتهاء، وقيل: المعنى أنه عز وجل منتهى الأفكار فلا تزال الأفكار تسير في بيداء حقائق الأشياء وماهياتها والإحاطة بما فيها حتى إذا وجهت إلى حرم ذات الله عز وجل وحقائق صفاته سبحانه وقفت وحرنت وانتهى سيرها، وأيد بما أخرجه البغوي عن أبي بن كعب عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال في الآية: «لا فكرة في الرب» وأخرجه أبو الشيخ في العظمة عن سفيان الثوري، وروي عنه عليه الصلاة والسلام «إذا ذكر الرب فانتهوا»، وأخرج ابن ماجة عن ابن عباس قال: «مر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم على قوم يتفكرون في الله فقال: تفكروا في الخلق ولا تفكروا في الخالق فإنكم لن تقدروه» وأخرج أبو الشيخ عن أبي ذر قال: «قال رسول الله ﷺ: تفكروا في خلق الله ولا تفكروا في الله فتهلكوا».

واستدل بذلك من قال باستحالة معرفته عز وجل بالكنه، والبحث في ذلك طويل، وأكثر الأدلة النقلية على عدم الوقوع، وقرأ أبو السمال، وإن بالكسر هنا وفيما بعد على أن الجمل منقطعة عما قبلها فلا تكون مما في الصحف ﴿**وَأَنَّهُ هُوَ أَضحَكَ وَأَبكَىٰ**﴾ خلق فعلي الضحك والبكاء، وقال الزمخشري: خلق قوتي الضحك والبكاء، وفيه دسيسة اعتزال، وقال الطيبي: المراد خلق السرور والحزن أو ما يسر ويحزن من الأعمال الصالحة والطالحة، ولذا قرن بقوله تعالى: ﴿**وَأَنَّهُ هو أَماتَ وأَحيا**﴾ وعليه فهو مجاز ولا يخفى أن الحقيقة أيضاً تناسب الإماتة والإحياء لا سيما والموت يعقبه البكاء غالباً والإحياء عند الولادة الضحك وما أحسن قوله:

ولـدتـك أمـك يـا ابـن آدم بـاكـيـاً	والـنـاس حـولـك يـضـحـكـون سـروراً
فـاجـهـد لـنـفـسـك أن تـكـون إذا بـكـوا	فـي يـوم مـوتـك ضـاحـكـاً مـسـروراً

وقال مجاهد الكلبي: ﴿**أضحك**﴾ أهل الجنة ﴿**وأبكى**﴾ أهل النار، وقيل: ﴿**أضحك**﴾ الأرض بالنبات ﴿**وأبكى**﴾ السماء بالمطر، وتقديم الضمير وتكرير الإسناد للحصر أي إنه تعالى فعل ذلك لا غيره سبحانه، وكذا في

أنه ﴿**هو أمات وأحيا**﴾ فلا يقدر على الإماتة والإحياء غير عز وجل، والقاتل إنما ينقض البنية الإنسانية ويفرق أجزاءها والموت الحاصل بذلك فعل الله تعالى على سبيل العادة في مثله فلا إشكال في الحصر ﴿**وَأَنَّهُ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ**﴾ من نوع الإنسان وغيره من أنواع الحيوانات ولم يذكر الضمير على طرز ما تقدم لأنه لا يتوهم نسبة خلق الزوجين إلى غيره عز وجل ﴿**من نُّطفة إذا تُمْنَىٰ**﴾ أي تدفق في الرحم يقال: أمنى الرجل ومنى بمعنى، وقال الأخفش: أي تقدر يقال منى لك الماني أي قدر لك المقدر، ومنه المنا الذي يوزن به فيما قبل، والمنية وهي الأجل المقدر للحيوان ﴿**وَأَنَّ عَلَيه النَّشأَةَ ٱلأخرَىٰ**﴾ أي الإحياء بعد الإماتة وفاءً بوعده جل شأنه: وفي البحر لما كانت هذه النشأة ينكرها الكفار بولغ بقوله تعالى عليه كأنه تعالى أوجب ذلك على نفسه، وفي الكشاف قال سبحانه: ﴿**عليه**﴾ لأنها واجبة في الحكمة ليجازي على الإحسان والإساءة وفيه مع كونه على طريق الاعتزال نظر، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ـ النشاءة ـ بالمد وهي أيضاً مصدر نشأة الثلاثي ﴿**وَأَنَّه هُوَ أغنَىٰ وَأقنَىٰ**﴾ وأعطى القنية وهو ما يبقى ويدوم من الأموال ببقاء نفسه أو أصله كالرياض والحيوان والبناء، وإفراد ذلك بالذكر مع دخوله في قوله تعالى: ﴿**أغنى**﴾ لأن القنية أنفس الأموال وأشرفها، وفي البحر يقال: قنيت المال أي كسبته ويعدى أيضاً بالهمزة والتضعيف فيقال: أقناه الله تعالى مالاً وقناه الله تعالى مالاً، وقال الشاعر:

كم من غني أصاب الدهر ثروته ... ومن فقير **يقني** بعد إقلال

أي يقني المال، وعن ابن عباس ﴿**أغنى**﴾ مول، ﴿**وأقنى**﴾ أرضى. وهو بهذا المعنى مجاز من القنية قال الراغب: وتحقيق ذلك أنه جعل له قنية من الرضا والطاعة وذلك أعظم القنائن، ولله تعالى در من قال:

هل هي إلا مدة وتنقضي ... ما يغلب الأيام إلا من رضي

وعن ابن زيد والأخفش ﴿**أقنى**﴾ أفقر، ووجه بأنهما جعلا الهمزة فيه للسلب والإزالة كما في أشكى، وقيل: إنهما جعلا ﴿**أقنى**﴾ بمعنى جعل له الرضا والصبر قنية كناية عن ذلك ليظهر فيه الطباق كما في ﴿**أمات وأحيا**﴾ ﴿**وأضحك**﴾ ﴿**وأبكى**﴾ وفسره بأفقر أيضاً الحضرمي إلا أنه كما أخرج عنه ابن جرير وأبو الشيخ قال ﴿**أغنى**﴾ نفسه سبحانه و «أفقر» الخلائق إليه عز وجل، والظاهر على تقدير اعتبار المفعول في جميع الأفعال المتقدمة أن يكون من المحدثات الصالحة لتعلق الفعل، وعندي أن ﴿**أغنى**﴾ سبحانه نفسه كأوجد جل شأنه نفسه لا يخلو عن سماجة وإيهام محذور، وإنما لم يذكر مفعول لأن القصد إلى الفعل نفسه ﴿**وَأَنَّه هوَ رَبُّ الشعرَى**﴾ هي ﴿**الشعرى**﴾ العبور بفتح العين المهملة والباء الموحدة والراء المهملة بعد الواو، وتقال ﴿**الشعرى**﴾ أيضا على الغميصاء بغين معجمة مضمومة وميم مفتوحة بعدها ياء مثناه تحتية وصاد مهملة ومد، والأولى في الجوزاء، وإنما قيل لها العبور لأنها عبرت المجرة فلقيت سهيلاً ولأنها تراه إذا طلع كأنها ستعبر وتسمى أيضاً كلب الجبار لأنها تتبع الجوزاء المسماة بالجبار كما تتبع الكلب الصائد أو الصيد، والثانية في ذراع الأسد المبسوطة، وإنما قيل لها الغميصاء لانها بكت من فراق سهيل فغمصت عينها، والغمص ما سال من الرمص وهو وسخ أبيض يجتمع في الموق، وذلك من زعم العرب أنهما أختا سهيل، وفي القاموس من أحاديثهم أن الشعرى العبور قطعت المجرة فسميت عبوراً وبكت الأخرى على أثرها حتى غمصت ويقال لها الغموص أيضاً، وقيل: زعموا أن سهيلا و ﴿**الشعرى**﴾ كانا زوجين فانحدر سهيل وصار يمانياً فاتبعه الشعرى فعبرت المجرة فسميت العبور وأقامت الغميصاء وسميت بذلك لأنها دون الأولى ضياءً، وكل ذلك من تخيلاتهم الكاذبة التي لا حقيقة لها، والمتبادر عند الاطلاق وعدم الوصف العبور لأنها أكبر جرماً وأكثر ضياءً وهي التي عبدت من دون الله سبحانه في الجاهلية.

قال السدي: عبدتها حمير وخزاعة، وقال غيره: أول من عبدها أبو كبشة رجل من خزاعة، أو هو سيدهم واسمه وخز بن غالب وكان المشركون يقولون للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم: ابن أبي كبشه شبهوه به لمخالفته قومه في عبادة الأصنام، وذكر بعضهم أنه أحد أجداده عليه الصلاة والسلام من قبل أمه وأنهم كانوا يزعمون أن كل صفة في المرء تسري إليه من أحد أصوله فيقولون نزع إليه عرق كذا، وعرق الخال نزاع، وقيل: هو كنية وهب بن عبد مناف جده صلى الله تعالى عليه وسلم من قبل أمه، وقولهم له عليه الصلاة والسلام ذلك على ما يقتضيه ظاهر القاموس لأنه صلى الله تعالى عليه وسلم في الشبه الخلقي دون المخالفة، وقيل: كنية زوج حليمة السعدية مرضعته عليه الصلاة والسلام، وقيل: كنية عم ولدها ولكونها عبدت من دونه عز وجل خصت بالذكر ليكون ذلك تجهيلاً لهم بجعل المربوب رباً، ولمزيد الاعتناء بذلك جيء بالجملة على ما نطق به النظم الجليل.

ومن العرب من كان يعظمها ويعتقد تأثيرها في العالم ويزعمون أنها تقطع السماء عرضاً وسائر النجوم تقطعها طولاً ويتكلمون على المغيبات عند طلوعها ففي قوله تعالى: ﴿**وأنه هو رب الشعرى**﴾ إشارة إلى نفي تأثيرها.

﴿**وَأَنَّه أَهلَكَ عَاداً الأُولَىٰ**﴾ أي القدماء لأنهم أولى الأمم هلاكاً بعد قوم نوح كما قاله ابن زيد والجمهور، وقال الطبري: وصفت الأولى لأن في القبائل ﴿**عاداً**﴾ أخرى وهي قبيلة كانت بمكة مع العماليق وهم بنو لقيم بن هزال، وقال المبرد: عاد الأخرى هي ثمود، وقيل: الجبارون، وقيل: عاد الأولى ولد عاد بن إرم بن عوف بن سام بن نوح، وعاد الأخرى من ولد عاد الأولى، وفي الكشاف ﴿**الأولى**﴾ قوم هود والأخرى إرم والله تعالى أعلم.

وجوز أن يراد بالأولى المتقدمون الأشراف: وقرأ قوم عاد الولي بحذف الهمزة ونقل ضمها إلى اللام قبلها، وقرأ نافع وأبو عمرو عاد الولي بإدغام التنوين في اللام المنقول إليها حركة الهمزة المحذوفة، وعاب هذه القراء المازني والمبرد، وقالت العرب: في الابتداء بعد النقل ـ الحمر، ولحمر ـ فهده القراءة جاءت على لحمر فلا عيب فيها، وأتى قالون بعد ضمة اللام بهمزة ساكنة في موضع الواو كما في قوله:

أحب الموقدين إليَّ مؤسى

وكما قرأ بعضهم ـ على سؤقه ـ وفيه شذوذ، وفي حرف أبيّ عاد غير مصروف للعلمية والتأنيث ومن صرفه فباعتبار الحي، أو عامله معاملة هند لكونه ثلاثياً ساكن الوسط ﴿**وَثَمُودَ**﴾ عطف على ﴿**عاداً**﴾ ولا يجوز أن يكون مفعولاً ـ لأبقى ـ في قوله تعالى: ﴿**فَمَا أَبْقَىٰ**﴾ لأن ـ ما ـ النافيه لها صدر الكلام والفاء على ما قيل: مانعة أيضاً فلا يتقدم معمول ما بعدها، وقيل: هو معمول ـ لأهلك ـ مقدر ولا حاجة إليه، وقرأ عاصم وحمزة ـ ثمود ـ بلا تنوين ويقفان بغير ألف والباقون بالتنوين ويقفون بالألف، والظاهر أن متعلق ﴿**أبقى**﴾ يرجع إلى عاد وثمود معاً أي فما أبقى عليهم، أي أخذهم بذنوبهم، وقيل: أي ما أبقى منهم أحداً، والمراد ما أبقى من كفارهم ﴿**وَقَوْمَ نُوحٍ**﴾ عطف على ﴿**عاداً**﴾ أيضاً ﴿**مِّن قَبْلُ**﴾ أي من قبل إهلاك عاد وثمود، وصرح بالقبلية لأن نوحاً عليه السلام آدم الثاني وقومه أول الطاغين والهالكين ﴿**إِنَّهُمْ كَانُوا هُم أَظْلَمَ وَأَطغَىٰ**﴾ أي من الفريقين حيث كانوا يؤذونه ويضربونه حتى لا يكاد يتحرك وكان الرجل منهم يأخذ بيد ابنه يتمشى به إليه يحذره منه ويقول: يا بني إن أبي مشى بي إلى هذا وأنا مثلك يومئذ فإياك أن تصدقه فيموت الكبير على الكفر وينشأ الصغير على وصية أبيه ولم يتأثروا من دعائه وقد دعاهم ألف سنة إلا خمسين عاماً، وقيل: ضمير ﴿**إنهم**﴾ يعود على جميع من تقدم عاد وثمود وقوم نوح أي كانوا أظلم من قريش وأطغى منهم، وفيه من التسلية للنبي عليه الصلاة والسلام ما لا يخفى، و ﴿**هم**﴾ يجوز أن يكون تأكيداً للضمير المنصوب ويجوز أن يكون فصلاً لأنه واقع بين معرفة وأفعل التفضيل، وحذف المفضول مع الواقع خبراً لكان لأنه جار مجرى خبر المبتدأ

وحذفه فصيح فيه فكذلك في خبر كان ﴿وَٱلۡمُؤۡتَفِكَةَ﴾ هي قرى قوم لوط سميت بذلك لأنها ائتفكت بأهلها أي انقلبت بهم، ومنه الإفك لأنه قلب الحق، وجوز أن يراد بالمؤتفكة كل ما انقلبت مساكنه ودثرت أماكنه.

وقرأ الحسن «والمؤتفكات» جمعاً ﴿أَهۡوَىٰ﴾ أي أسقطها إلى الأرض بعد أن رفعها على جناح جبريل عليه السلام إلى السماء، وقال المبرد: جعلها تهوي.

والظاهر أن أهوى ناصب للمؤتفكة وأخر العامل لكونه فاصلة، وجوز أن يكون ـ المؤتفكة ـ معطوفا على ما قبله و ﴿أهوى﴾ مع فاعله جملة في موضع الحال بتقدير قد، أو بدونه توضح كيفية إهلاكهم.

﴿فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ﴾ فيه تهويل للعذاب وتعميم لما أصابهم منه لأن الموصول من صيغ العموم والتضعيف في غشاها يحتمل أن يكون للتعدية فيكون ﴿ما﴾ مفعولاً ثانياً والفاعل ضميره تعالى: ويحتمل أن يكون للتكثير والمبالغة ف ﴿ما﴾ هي الفاعل ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ﴾ تتشكك والتفاعل هنا مجرد عن التعدد في الفاعل والمفعول للمبالغة في الفعل، وقيل: إن فعل التماري للواحد باعتبار تعدد متعلقه وهو الآلاء المتمارى فيها، والخطاب قيل: لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم على أنه من باب الإلهاب والتعريض بالغير، وقيل: للإنسان على الاطلاق وهو أظهر والاستفهام للإنكار، والآلاء جمع إلى النعم، والمراد بها ما عد في الآيات قبل وسمي الكل بذلك مع أن منه نقما لما في النقم من العبر والمواعظ للمعتبرين والانتفاع للأنبياء والمؤمنين فهي نعم بذلك الاعتبار أيضا، وقيل: التعبير بالآلاء للتغليب وتعقب بأن المقام غير مناسب له، وقرأ يعقوب وابن محيصن ـ ربك تمارى ـ بتاء مشددة ﴿هَٰذَا نَذِيرٞ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلۡأُولَىٰٓ﴾ الإشارة إلى القرآن. وقال أبو مالك: إلى الأخبار عن الأمم، أو الإشارة إلى الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم. والنذير يجيء مصدراً ووصفاً، والنذر جمعه مطلقاً وكل من الامرين محتمل هنا، ووصف ﴿النذر﴾ جمعاً للوصف بالأولى على تأويل الفرقة، أو الجماعة، واختير على غيره رعاية للفاصلة، وأياً مّا كان فالمراد ﴿هذا نذير من﴾ جنس ﴿النذر الأولى﴾.

وفي الكشف أن قوله تعالى: ﴿هذا نذير﴾ الخ فذلكة للكلام إما لما عدد من المشتمل عليه الصحف وإما لجميع الكلام من مفتتح السورة فتدبر ولا تغفل ﴿أزفت الآزفة﴾ أي قربت الساعة الموصوفة بالقرب في غير آية من القرآن، فأل في ﴿الآزفة﴾ كاللعهد لا للجنس، وقيل: ﴿الآزفة﴾ علم بالغلبة للساعة هنا، وقيل: لابأس بإرادة الجنس ووصف القريب بالقرب للمبالغة ﴿لَيۡسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي غير الله تعالى أو إلا الله عز وجل ﴿كَاشِفَةٌ﴾ نفس قادرة على كشفها إذا وقعت لكنه سبحانه لا يكشفها؛ والمراد بالكشف الإزالة، وقريب من هذا ما روي عن قتادة وعطاء والضحاك أي إذا غشيت الخلق أهوالها وشدائدها لم يكشفها ولم يردها عنهم أحد، أوليس لها الآن نفس كاشفة أي مزيلة للخوف منها فإنه باق إلى أن يأتي الله سبحانه بها وهو مراد الزمخشري بقوله: أوليس لها الآن نفس كاشفة بالتأخير، وقيل: معناه لو وقعت الآن لم يردّها إلى وقتها أحد إلا الله تعالى، فالكشف بمعنى التأخير وهو إزالة مخصوصة، وقال الطبري والزجاج: المعنى ليس لها من دون الله تعالى نفس كاشفة تكشف وقت وقوعها وتبينه لأنها من أخفى المغيبات، فالكشف بمعنى التبيين والآية كقوله تعالى: ﴿لا يجليها لوقتها إلا هو﴾ [الأعراف: ١٨٧] والتاء في ﴿كاشفة﴾ على جميع الأوجه للتأنيث، وهو لتأنيث الموصوف المحذوف كما سمعت، وبعضهم يقدر الموصوف حالاً، والأول أولى؛ وجوز أن تكون للمبالغة مثلها في علامة، وتعقب بأن المقام يأباه لإيهامه ثبوت أصل الكشف لغيره عز وجل وفيه نظر، وقال الرماني وجماعة: يحتمل أن يكون ﴿كاشفة﴾ مصدراً كالعافية، وخائنة الأعين أي ليس لها كشف من دون الله تعالى ﴿أَفَمِنۡ هَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ﴾ أي القرآن ﴿تَعۡجَبُونَ﴾ إنكاراً ﴿وَتَضۡحَكُونَ﴾

استهزاءً مع كونه أبعد شيء من ذلك ﴿وَلا تَبْكُونَ﴾ حزناً على ما فرطتم في شأنه وخوفاً من أن يحيق بكم ما حاق بالأمم المذكورة ﴿وَأَنتُمْ سامِدُونَ﴾ أي لاهون كما روي عن ابن عباس جواباً لنافع بن الازرق، وأنشد عليه قول هزيلة بنت بكر وهي تبكي قوم عاد:

ليت عاداً قبلوا الحق ... ولم يبدوا جحودا
قيل: قم فانظر إليهم ... ثم دع عنك السمودا

وفي رواية أنه رضي الله تعالى عنه سئل عن السمود، فقال: البرطمة وهي رفع الرأس تكبراً أي وأنتم رافعون رؤوسكم تكبراً، وروي تفسيره بالبرطمة عن مجاهد أيضاً، وقال الراغب: السامد اللاهي الرافع رأسه ـ من سمد البعير في سيره ـ إذا رفع رأسه، وقال أبو عبيدة: السمود الغناء بلغة حمير يقولون: يا جارية اسمدي لنا أي غني لنا، وروي نحوه عن عكرمة، وأخرج عبد الرازق. والبزار وابن جرير والبيهقي في سننه. وجماعة عن ابن عباس أنه قال: هو الغناء باليمانية وكانوا إذا سمعوا القرآن غنوا تشاغلاً عنه، وقيل: يفعلون ذلك ليشغلوا الناس عن استماعه، والجملة الاسمية على جميع ذلك حال من فاعل ـ لا تبكون ـ ومضمونها قيد للنفي والإنكار متوجه إلى نفي البكاء ووجود السمود، وقال المبرد: السمود الجمود والخشوع كما في قوله:

رمى الحدثان نسوة آل سعد ... بمقدار سمدن له سمودا
فرد شعورهن السود بيضاً ... ورد وجوههن البيض سودا

والجملة عليه حال من فاعل ـ تبكون ـ أيضاً إلا أن مضمونها قيد للمنفى، والإنكار وارد على نفي البكاء والسمود معاً فلا تغفل، وفي حرف أبيّ وعبد الله ـ تضحكون ـ بغير واو، وقرأ الحسن ـ تعجبون تضحكون ـ بغير واو وضم التاءين وكسر الجيم والحاء، واستدل بالآية كما في أحكام القرآن على استحباب البكاء عند سماع بكى أصحاب الصفة حتى جرت دموعهم على خدودهم فلما سمع رسول الله ﷺ حنينهم بكى معهم فبكينا ببكائه فقال عليه الصلاة والسلام: لا يلج النار من بكى من خشية الله تعالى ولا يدخل الجنة مصرّ على معصيته ولو لم تذنبوا لجاء الله تعالى بقوم يذنبون فيستغفرون فيغفر لهم» وأخرج أحمد في الزهد وابن أبي شيبة وهناد وغيرهم بمن صالح أبي الخليل قال: «لما نزلت هذه الآية ﴿أفمن هذا الحديث تعجبون وتضحكون ولا تبكون﴾ ما ضحك النبي ﷺ بعد ذلك إلا أن يتبسم» ولفظ عبد بن حميد «فما رُئي النبي عليه الصلاة والسلام ضاحكاً ولا مبتسماً حتى ذهب من الدنيا» وفيه سد باب الضحك عند قراء القرآن ولو لم يكن استهزاءً والعياذ بالله عز وجل.

﴿فَأَسْجُدُوا للهِ وَأَعبُدُوا﴾ الفاء لترتيب الأمر أو موجبه على ما تقرر من بطلان مقابلة القرآن بالتعجب والضحك وحقية مقابلته بما يليق به، ويدل على عظم شأنه أي وإذا كان الأمر كذلك فاسجدوا لله تعالى الذي أنزله واعبدوه جل جلاله، وهذه آية سجدة عند أكثر أهل العلم، وقد سجد النبي صلى الله تعالى عليه وسلم عندها.

أخرج الشيخان وأبو داود والنسائي وابن مردويه عن ابن مسعود قال: «أول سورة أنزلت فيها سجدة ﴿والنجم﴾ فسجد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وسجد الناس كلهم إلا رجلاً» الحديث.

وأخرج ابن مردويه والبيهقي في السنن عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما «قال: صلى بنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فقرأ النجم فسجد بنا فأطال السجود» وكذا عمر رضي الله تعالى عنه، أخرج سعيد بن منصور عن سبرة قال: صلى بنا عمر بن الخطاب الفجر فقرأ في الركعة الأولى سورة يوسف، ثم قرأ في الثانية سورة النجم فسجد، ثم قام فقرأ إذا زلزلت ثم ركع، ولا يرى مالك السجود هنا، واستدل له بما أخرجه أحمد والشيخان وأبو داود والترمذي

والنسائي والطبراني وغيرهم عن زيد بن ثابت قال: قرأت النجم عند النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فلم يسجد فيها، وأجيب بأن الترك إنما ينافي وجوب السجود وليس بمجمع عليه وهو عند القائل به على التراخي في مثل ذلك على المختار وليس في الحديث ما يدل على نفيه بالكلية فيحتمل أنه عليه الصلاة والسلام سجد بعد، وكذا زيد رضي الله تعالى عنه، نعم التأخير مكروه تنزيهاً ولعله فعل لبيان الجواز، أو لعذر لم نطلع عليه، وما أخرجه ابن مردويه عن ابن عباس من قوله: «إن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لم يسجد في شيء من المفصل منذ تحول إلى المدينة» ناف وضعيف، وكذا قوله فيما رواه أيضاً عنه «كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يسجد في النجم بمكة فلما هاجر إلى المدينة تركها» على أن الترك إنما ينافي ـ كما سمعت ـ الوجوب، والله تعالى أعلم.

(٥٤) سورة القمر مكية
وآياتها خمس وخمسون

بسم الله الرحمن الرحيم

اقتربت الساعة وانشق القمر ﴿١﴾ وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر ﴿٢﴾

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ اقتربت الساعة وانشق القمر ﴾ أول السورة مناسب لآخر ما قبلها ، وهو قوله (أزفت الازفة) فكأنه أعاد ذلك مع الدليل ، وقال قلت (أزفت الآزفة) وهو حق ، إذ القمر انشق ، والمفسرون بأسرهم على أن المراد أن القمر انشق ، وحصل فيه الانشقاق ، ودلت الأخبار على حديث الانشقاق ، وفي الصحيح خبر مشهور رواه جمع من الصحابة ، وقالوا سئل رسول الله ﷺ آية الانشقاق بعينها معجزة ، فسأل ربه فشقه ومضى ، وقال بعض المفسرين : المراد سينشق ، وهو بعد ، ولا معنى له ، لأن من منع ذلك وهو الفلسفي يمنعه في الماضي والمستقبل ، ومن يجوزه لا حاجة إلى التأويل ، وإنما ذهب إليه ذلك الذاهب ، لأن الانشقاق أمر هائل ، فلو وقع لعم وجه الأرض وكان ينبغي أن يبلغ حد التواتر ، نقول النبي ﷺ لما كان يتحدى بالقرآن ، وكانوا يقولون : إنا نأتي بأفصح مايكون من الكلام ، وعجزوا عنه ، فكان القرآن معجزة باقية إلى قيام القيامة لا يتمسك بمعجزة أخرى فلم ينقله العلماء بحيث يبلغ حد التواتر . وأما المؤرخون فتركوه ، لأن التواريخ في أكثر الأمر يستعملها المنجم ، وهو لما وقع الأمر قالوا بأنه مثل خسوف القمر ، وظهور شيء في الجو على شكل نصف القمر في موضع آخر فتركوا حكايته في تواريخهم ، والقرآن أدل دليل وأقوى مثبت له ، وإمكانه لا يشك فيه ، وقد أخبر عنه الصادق فيجب اعتقاد وقوعه ، وحديث امتناع الخرق والالتئام حديث اللئام ، وقد ثبت جواز الخرق والتخريب على السموات ، وذكرناه مراراً فلا نعيده .

قوله تعالى : ﴿ وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر ﴾ تقديره : وبعد هذا إن يروا آية يقولوا سحر ، فإنهم رأوا آيات أرضية ، وآيات سماوية ، ولم يؤمنوا ، ولم يتركوا عنادهم ، فإن يروا ما يرون بعد هذا لا يؤمنون ، وفيه وجه آخر وهو أن يقال : المعنى أن عادتهم أنهم إن يروا آية يعرضوا ، فلما رأوا انشقاق القمر أعرضوا لتلك العادة ، وفيه مسائل :

﴿ الأولى ﴾ قوله (آية) ماذا ؟ نقول آية اقتراب الساعة ، فإن انشقاق القمر من آياته ، وقد ردوا وكذبوا ، فإن يروا غيرها أيضاً يعرضوا ، أو آية الانشقاق فإنها معجزة ، أما كونها معجزة ففي غاية الظهور ، وأما كونها آية الساعة ، فلأن منكر خراب العالم ينكر انشقاق السماء وانفطارها وكذلك قوله في كل جسم سماوي من الكواكب ، فإذا انشق بعضها ثبت خلاف ما يقول به ، وبان جواز خراب العالم ، وقال أكثر المفسرين : معناه أن من علامات قيام الساعة انشقاق القمر عن قريب ، وهذا ضعيف حملهم على هذا القول ضيق المكان ، وخفاء الأمر على الأذهان ، وبيان ضعفه هو أن الله تعالى لو أخبر في كتابه أن القمر ينشق ، وهو علامة قيام الساعة ، لكان ذلك أمراً لابد من وقوعه مثل خروج دابة الأرض ، وطلوع الشمس من المغرب ، فلا يكون معجزة النبي ﷺ ، كما أن هذه الأشياء عجائب ، وليست بمعجزة للنبي ، لا يقال الإخبار عنها قبل وقوعها معجزة ، لأنا نقول فحينئذ يكون هذا من قبيل الإخبار عن الغيوب ، فلا يكون هو معجزة برأسه وذلك فاسد ، ولا يقال بأن ذلك كان معجزة وعلامة ، فأخبر الله في الصحف والكتب السالفة أن ذلك يكون معجزة للنبي ﷺ وتكون الساعة قريبة حينئذ ، وذلك لأن بعثة النبي ﷺ علامة كائنة حيث قال « بعثت أنا والساعة كهاتين » ولهذا يحكى عن سطيح أنه لما أخبر بوجود النبي صلى الله عليه وسلم قال عن أمور تكون ، فكان وجوده دليل أمور ، وأيضاً القمر لما انشق كان انشقاقه عند استدلال النبي صلى الله عليه وسلم على المشركين ، وهم كانوا غافلين عما في الكتب ، وأما أصحاب الكتب فلم يفتقروا إلى بيان علامة الساعة ، لأنهم كانوا يقولون بها وبقربها ، فهي إذن آية دالة على جواز تخريب السموات وهو العمدة الكبرى ، لأن السموات إذا طويت وجوز ذلك ، فالأرض ومن عليها لا يستبعد فناؤهما ، إذا ثبت هذا فنقول : معنى (اقتربت الساعة) يحتمل أن يكون في العقول والأذهان ، يقول من يسمع أمراً لا يقع هذا بعيد مستبعد ، وهذا وجه حسن ، وإن كان بعض ضعفاء الأذهان ينكره ، وذلك لأن حمله على قرب الوقوع زماناً لا إمكاناً يمكن الكافر من مجادلة فاسدة ، فيقول قال الله تعالى في زمان النبي ﷺ (اقتربت) ويقولون بأن من قبل أيضاً في الكتب [السابقة] كان يقول (اقترب الوعد) ثم مضى مائة سنة ولم يقع ، ولا يبعد أن يمضي ألف آخر ولا يقع ، ولو صح إطلاق لفظ القرب زماناً على مثل هذا لا يبقى وثوق بالإخبارات ، وأيضاً قوله (اقتربت) لانتهاز الفرصة ، والإيمان قبل أن لا يصح الإيمان ، فللكافر أن يقول ، إذا كان القرب بهذا المعنى فلا خوف منها ، لأنها لا تدركني ، ولا تدرك أولادي ، ولا أولاد أولادي ، وإذا كان إمكانها قريباً في العقول يكون ذلك رداً بالغاً على المشركين والفلاسفة ، والله سبحانه وتعالى أول ما كلف الاعتراف بالوحدانية واليوم الآخر ، وقال اعلموا أن الحشر كائن فخالف المشرك والفلسفي ، ولم يقنع بمجرد الإنكار ما ورد الشرع ببيانه ،

ولم يقل : لا يقع أو ليس بكائن ، بل قال ذلك بعيد ، ولم يقنع بهذا أيضاً ، بل قال ذلك : غير ممكن ، ولم يقنع به أيضاً ، بل قال : فإن امتناعه ضروري ، فإن مذهبهم أن إعادة المعدوم وإحياء الموتى محال بالضرورة ، ولهذا قالوا (أئذا متنا ، أئذا كنا عظاماً ، أئذا ضللنا في الأرض) بلفظ الاستفهام بمعنى الإنكار مع ظهور الأمر ، فلما استبعدوا لم يكتف الله ورسوله ببيان وقوعه ، بل قال (إن الساعة آتية لا ريب فيها) ولم يقتصر عليه بل قال (وما يدريك لعل الساعة تكون قريباً) ولم يتركها حتى قال (اقتربت الساعة ، واقترب الوعد الحق ، اقترب للناس حسابهم) اقتراباً عقلياً لا يجوز أن ينكر مايقع في زمان طرفة عين ، لأنه على الله يسير ، كما أن تقليب الحدقة علينا يسير ، بل هو أقرب منه بكثير ، والذي يقويه قول العامة إن زمان وجود العالم زمان مديد ، والباقي بالنسبة إلى الماضي شيء يسير ، فلهذا قال (اقتربت الساعة) .

وأما قوله ﷺ « بعثت أنا والساعة كهاتين » فمعناه لا نبي بعدي فإن زماني يمتد إلى قيام الساعة ، فزماني والساعة متلاصقان كهاتين ، ولا شك أن الزمان زمان النبي صلى الله عليه وسلم ، وما دامت أوامره نافذة فالزمان زمانه وإن كان ليس هو فيه ، كما أن المكان الذي تنفذ فيه أوامر الملك مكان الملك يقال له بلاد فلان ، فإن قيل كيف يصح حمله على القرب بالمعقول مع أنه مقطوع به ؟ قلت كما صح قوله تعالى (لعل الساعة تكون قريباً) فإن لعل للترجي والأمر عند الله معلوم ، وفائدته أن قيام الساعة ممكن لا إمكاناً بعيداً عن العادات كحمل الآدمي في زماننا حملا في غاية الثقل أو قطعه مسافة بعيدة في زمان يسير ، فإن ذلك ممكن إمكاناً بعيداً ، وأما تقليب الحدقة فممكن إمكاناً في غاية القرب .

﴿ المسألة الثانية ﴾ الجمع الذين تكون الواو ضميرهم في قوله (يروا) و(يعرضوا) غير مذكور فمن هم ؟ نقول هم معلومون وهم الكفار تقديره : وهؤلاء الكفار إن يروا آية يعرضوا .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ التنكير في الآية للتعظيم أي إن يروا آية قوية أو عظيمة يعرضوا .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قوله تعالى ﴿ ويقولوا سحر مستمر ﴾ ما الفائدة فيه ؟ نقول فائدته بيان كون الآية خالية عن شوائب الشبه ، وأن الإعتراف لزمهم لأنهم لم يقدروا أن يقولوا نحن نأتي بمثلها وبيان كونهم معرضين لا إعراض معذور ، فإن من يعرض إعراض مشغول بأمر مهم فلم ينظر في الآية لا يستقبح منه الاعراض مثل ما يستقبح لمن ينظر فيها إلى آخرها ويعجز عن نسبتها إلى أحد ودعوى الإتيان بمثلها ، ثم يقول هذا ليس بشيء هذا سحر لأن ما من آية إلا ويمكن المعاند أن يقول فيها هذا القول .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ ما المستمر ؟ نقول فيه وجوه (أحدها) دائم فإن محمداً صلى الله عليه

وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌّ ﴿٣﴾ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّنَ الْأَنبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴿٤﴾

وثلاثة ويعجز عن غيرها وهو قادر على الكل (وثانيها) مستمر أى قوى من حبل مرير الفتل من المرة وهى الشدة (وثالثها) من المرارة أى سحر مر مستبشع (ورابعها) مستمر أى مار ذاهب ، فإن السحر لا بقاء له .

ثم قال تعالى ﴿ وكذبوا واتبعوا أهواءهم ﴾ وهو يحتمل أمرين (أحدهما) وكذبوا محمداً المخبر عن اقتراب الساعة (وثانيهما) كذبوا بالآية وهى انشقاق القمر ، فإن قلنا كذبوا محمداً ﷺ فقوله (واتبعوا أهواءهم) أى تركوا الحجة وأولوا الآيات وقالوا هو مجنون تعينه الجن وكاهن يقول عن النجوم ويختار الأوقات للأفعال وساحر ، فهذه أهواءهم ، وإن قلنا كذبوا بانشقاق القمر ، فقوله (واتبعوا أهواءهم) فى أنه سحر القمر ، وأنه خسوف والقمر لم يصبه شيء فهذه أهواءهم ، وكذلك قولهم فى كل آية .

قوله تعالى : ﴿ وكل أمر مستقر ﴾ فيه وجوه (أحدها) كل أمر مستقر على سنن الحق يثبت والباطل يزهق ، وحينئذ يكون تهديداً لهم ، وتسلية للنبى صلى الله عليه وسلم ، وهو كقوله تعالى (ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم) أى بأنها حق (ثانيها) وكل أمر مستقر فى علم الله تعالى (لا يخفى عليه شيء) فهم كذبوا واتبعوا أهواءهم ، والأنبياء صدقوا وبلغوا ماجاءهم ، كقوله تعالى (لا يخفى على الله منهم شيء) ، وكما قال تعالى ، فى هذه السورة (وكل شيء فعلوه فى الزبر ، وكل صغير وكبير مستطر) ، (ثالثها) هو جواب قولهم (سحر مستمر) أى ليس أمره بذاهب بل كل أمر من أموره مستقر .

ثم قال تعالى ﴿ ولقد جاءهم من الأنباء ما فيه مزدجر ﴾ إشارة إلى أن كل ما هو لطف بالعباد قد وجد ، فأخبرهم الرسول باقتراب الساعة ، وأقام الدليل على صدقه ، وإمكان قيام الساعة عقيب دعواه بانشقاق القمر الذى هو آية لأن من يكذب بها لا يصدق بشيء من الآيات فكذبوا بها واتبعوا الأباطيل الذاهبة ، وذكروا الأقاويل الكاذبة فذكر لهم أنباء المهلكين بالآيتين تخويفاً لهم ، وهذا هو الترتيب الحكمى . ولهذا قال بعد الآيات (حكمة بالغة) أى هذه حكمة بالغة ، والأنباء هى الأخبار العظام ، ويدلك على صدقه أن فى القرآن لم يرد النبأ والأنباء إلا لما له وقع قال (وجئتك من سبأ بنبأ يقين) لأنه كان خبراً عظيما . وقال (إن جاءكم فاسق بنبأ) أى محاربة أو مسالمة وما يشبهه من الأمور العرفية ، وإنما يجب التثبت فيما يتعلق به حكم ويترتب عليه أمر ذو بال ، وكذلك قال تعالى (ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك) فكذلك الأنباء ههنا ، وقال تعالى عن موسى (لعلى آتيكم منها بخبر أو جذوة) حيث لم يكن يعلم أنه يظهر له شيء عظيم يصلح أن يقال له نبأ

حِكْمَةٌ بَـٰلِغَةٌ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ﴿٥﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَىْءٍ نُّكُرٍ ﴿٦﴾

ولم يقصده ، والظاهر أن المراد أنباء المهلكين بسبب التكذيب وقال بعضهم المراد القرآن ، وتقديره جاء فيه الأنباء ، وقيل قوله (جاءكم من الأنباء) يتناول جميع ماورد فى القرآن من الزواجر والمواعظ وماذكرناه أظهر لقوله (فيه مزدجر) وفى (ما) وجهان (أحدهما) أنها موصولة أى جاءكم الذى فيه مزدجر (ثانيهما) موصوفة تقديره (جاءكم من الأنباء) شىء موصوف بأن فيه (مزدجر) وهذا أظهر والمزدجر فيه وجهان أحدهما ازدجار وثانيهما موضع ازدجار ، كالمرتقى ، ولفظ المفعول بمعنى المصدر كثير . لأن المصدر هو المفعول الحقيقى .

ثم قال تعالى ﴿ حكمة بالغة ﴾ وفيه وجوه (الأول) على قول من قال (ولقد جاءهم من الأنباء) المراد منه القرآن ، قال (حكمة بالغة) بدل كأنه قال ولقد جاءهم حكمة بالغة (ثانيها) أن يكون بدلا عن ما فى قوله (ما فيه مزدجر) (الثانى) حكمة بالغة خبر مبتدأ محذوف تقديره هذه حكمة بالغة والإشارة حينئذ تحتمل وجوها (أحدها) هذا الترتيب الذى فى إرسال الرسول وإيضاح الدليل والإنذار بمن مضى من القرون وانقضى حكمة بالغة (ثانيها) إنزال ما فيه الأنباء (حكمة بالغة) (ثالثها) هذه الساعة المقتربة والآية الدالة عليها حكمة (الثالث) قرىء بالنصب فيكون حالا وذو الحال ما فى قوله (ما فيه مزدجر) أى جاءكم ذلك حكمة ، فإن قيل إن كان ما موصولة تكون معرفة فيحسن كونه ذا الحال فأما إن كانت بمعنى جاءهم من الأنباء شىء فيه ازدجار يكون منكراً وتنكير ذى الحال قبيح نقول كونه موصوفاً يحسن ذلك .

وقوله ﴿ فما تغنى النذر ﴾ فيه وجهان (أحدهما) أن ما نافية ، ومعناه أن النذر لم يبعثوا ليغنوا ويلجئوا قومهم إلى الحق ، وإنما أرسلوا مبلغين وهو كقوله تعالى (فإن أعرضوا فما أرسلناك عليهم حفيظاً) ويؤيد هذا قوله تعالى (فتولى عنهم) أى ليس عليك ولا على الأنبياء الإغناء والإلجاء ، فإذا بلغت فقد أتيت بما عليك من الحكمة البالغة التى أمرت بها بقوله تعالى (ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة) وتول إذا لم تقدر (ثانيهما) ما استفهامية ، ومعنى الآيات حينئذ أنك أتيت بما عليك من الدعوى وإظهار الآية عليها وكذبوا فأنذرتهم بما جرى على المكذبين فلم يفدهم فهذه حكمة بالغة وما الذى تغنى النذر غير هذا فلم يبق عليك شىء آخر .

قوله تعالى ﴿ فتولى عنهم ﴾ قد ذكرنا أن المفسرين يقولون إلى قوله (تولى) منسوخ وليس كذلك ، بل المراد منه لا تناظرهم بالكلام .

ثم قال تعالى ﴿ يوم يدع الداع إلى شىء نكر ﴾ قد ذكرنا أيضاً أن من ينصح شخصاً ولا يؤثر فيه النصح يعرض عنه ويقول مع غيره ما فيه نصح المعرض عنه ، ويكون فيه قصد إرشاده أيضاً فقال بعد ما قال (فتول عنهم يوم يدع الداع) (يخرجون من الأجداث) للتخويف ، والعامل

خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴿٧﴾

فى (يوم) هو ما بعده ، وهو قوله (يخرجون من الأجداث) والداعى معرف كالمنادى فى قوله (يوم ينادى المناد) لأنه معلوم قد أخبر عنه ، فقيل إن مناديا ينادى وداعياً يدعو وفى الداعى وجوه أحدها أنه إسرافيل (وثانيها) أنه جبريل (وثالثها) أنه ملك موكل بذلك والتعريف حينئذ لا يقطع حد العلمية ، وإنما يكون ذلك كقولنا جاء رجل فقال الرجل ، وقوله تعالى (إلى شىء نكر) أى منكر وهو يحتمل وجوهاً (أحدها) إلى شىء نكر فى يومنا هذا لأنهم أنكروه أى يوم يدعو الداعى إلى الشىء الذى أنكروه يخرجون (ثانيها) نكر أى منكر يقول ذلك القائل كان ينبغى أن لا يكون أى من شأنه أن لا يوجد يقال فلان ينهى عن المنكر ، وعلى هذا فهو عندهم كان ينبغى أن لا يقع لأنه يرديهم فى الهاوية ، فان قيل ماذلك الشىء النكر ؟ نقول الحساب أو الجمع له أو النشر للجمع ، وهذا أقرب ، فان قيل النشر لا يكون منكراً فإنه إحياء ولأن الكافر من أين يعرف وقت النشر وما يجرى عليه لينكره ؟ نقول يعرف ويعلم بدليل قوله تعالى عنهم (يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا) .

ثم قال تعالى ﴿ خشعاً أبصارهم يخرجون من الأجداث كأنهم جراد منتشر ﴾ وفيه قراءات خاشعاً وخاشعة وخشعاً . فمن قرأ خاشعاً على قول القائل : يخشع أبصارهم على ترك التأنيت لتقدم الفعل ومن قرأ خاشعة على قوله (تخشع أبصارهم) ومن قرأ خشعاً فله وجوه (أحدها) على قول من يقول يخشعن أبصارهم على طريقة من يقول : أكلونى البراغيث (ثانيها) فى (خشعاً) ضمير أبصارهم بدل عنه ، تقديره يخشعون أبصارهم على بدل الاشتمال كقول القائل : أعجبونى حسنهم . (ثالثها) فيه فعل مضمر يفسره يخرجون تقديره يخرجون خشعاً أبصارهم على بدل الاشتمال والصحيح خاشعاً ، روى أن مجاهداً رأى النبى صلى الله عليه وسلم فى منامه فقال له يانبى الله خشعاً أبصارهم أو خاشعاً أبصارهم ؟ فقال عليه السلام خاشعاً ، ولهذه القراءة وجه آخر أظهر مما قالوه وهو أن يكون خشعاً منصوباً على أنه مفعول بقوله (يوم يدع الداع) خشعاً أى يدعو هؤلاء ، فان قيل هذا فاسد من وجوه (أحدها) أن التخصيص لا فائدة فيه لأن الداعى يدعو كل أحد ، (ثانيها) قوله (يخرجون من الأجداث) بعد الدعاء فيكونون خشعاً قبل الخروج وإنه باطل ، (ثالثها) قراءة خاشعاً تبطل هذا ، نقول أما الجواب عن الأول فهو أن يقال قوله (إلى شىء نكر) يدفع ذلك لأن كل أحد لا يدعى إلى شىء نكر وعن الثانى المراد (من شىء نكر) الحساب العسر يعنى يوم يدع الداع إلى الحساب العسر خشعاً ولا يكون العامل فى (يوم يدعو) يخرجون بل اذكروا ، أو (فما تغنى النذر) كما قال تعالى (فما تنفعهم شفاعة الشافعين) ويكون يخرجون ابتداء كلام ، وعن الثالث أنه لامنافاة بين القراءتين ، وخاشعاً نصب على الحال أو على أنه مفعول يدعو

مُهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴿٨﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ ﴿٩﴾

كأنه يقول يدعو الداعى قوماً خاشعة أبصارهم والخشوع السكون قال تعالى (وخشعت الأصوات) وخشوع الأبصار سكونها على كل حال لا تنفلت يمنة ولا يسرة كما فى قوله تعالى (لا يرتد إليهم طرفهم) وقوله تعالى (يخرجون من الأجداث كأنهم جراد منتشر) مثلهم بالجراد المنتشر فى الكثرة والتموج ، ويحتمل أن يقال : المنتشر مطاوع نشره إذا أحياه فكأنهم جراد يتحرك من الأرض ويدب إشارة إلى كيفية خروجهم من الأجداث وضعفهم .

ثم قال تعالى ﴿ مهطعين إلى الداع ﴾ أى مسرعين إليه انقياداً ﴿ يقول الكافرون هذا يوم عسر ﴾ يحتمل أن يكون العامل الناصب ليوم فى قوله تعالى (يوم يدع الداع) أى يوم يدعو الداعى (يقول الكافرون هذا يوم عسر) ، وفيه فائدتان (إحداهما) تنبيه المؤمن أن ذلك اليوم على الكافر عسير فحسب ، كما قال تعالى (فذلك يوم عسير ، على الكافرين غير يسير) يعنى له عسر لا يسر معه (ثانيتهما) هى أن الأمرين متفقان مشتركان بين المؤمن والكافر ، فان الخروج من الأجداث كأنهم جراد والانقطاع إلى الداعى يكون للمؤمن فانه يخاف ولا يأمن العذاب إلا بإيمان الله تعالى إياه فيؤتيه الله الثواب فيبقى الكافر فيقول (هذا يوم عسر) .

ثم إنه تعالى أعاد بعض الأنباء فقال ﴿ كذبت قبلهم قوم نوح فكذبوا عبدنا وقالوا مجنون وازدجر ﴾ فيها تهوين وتسلية لقلب محمد صلى الله عليه وسلم فإن حاله كحال من تقدمه وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ إلحاق ضمير المؤنث بالفعل قبل ذكر الفاعل جائز بالاتفاق وحسن ، وإلحاق ضمير الجمع به قبيح عند الأكثرين ، فلا يجوزون كذبوا قوم نوح ، ويجوزون كذبت فما الفرق ؟ نقول التأنيث قبل الجمع لأن الأنوثة والذكورة للفاعل أمر لا يتبدل ولم تحصل الأنوثة للفاعل بسبب فعلها الذى هو فاعله فليس إذا قلنا ضربت هذه كانت هذه أنثى لأجل الضرب بخلاف الجمع ، لأن الجمع للفاعلين بسبب فعلهم الذى هم فاعلوه ، فإنا إذا قلنا جمع ضربوا وهم ضاربون ليس بمجرد اجتماعهم فى الوجود يصح قولنا ضربوا وهم ضاربون ، لأنهم إن اجتمعوا فى مكان فهم جمع ، ولكن إن لم يضرب الكل لا يصح قولنا ضربوا . فضمير الجمع من الفعل فاعلون جمعهم بسبب الاجتماع فى الفعل والفاعلية ، وليس بسبب الفعل ، فلم يجز أن يقال ضربوا جمع ، لأن الجمع لم يفهم إلا بسبب أنهم ضربوا جميعهم ، فينبغى أن يعلم أولا اجتماعهم فى الفعل ، فيقول الضاربون ضربوا ، وأما ضربت هند فصحيح ، لأنه لا يصح أن يقال التأنيث لم يفهم إلا بسبب أنها ضربت ، بل هى كانت أنثى فوجد منها ضرب فصارت ضاربة . وليس الجمع كانوا جمعاً فضربوا

فصاروا ضاربين ، بل صاروا ضاربين لاجتماعهم فى الفعل. ولهذا ورد الجمع على اللفظ بعد ورود التأنيث عليه فقيل ضاربة وضاربات ولم يجمع اللفظ أولا لأنثى ولا لذكر ، ولهذا لم يحسن أن يقال ضرب هند ، وحسن بالإجماع ضرب قوم والمسلمون .

﴿ المسألة الثانية ﴾ لما قال تعالى(كذبت) ماالفائدة فى قوله تعالى (فكذبوا عبدنا) ؟نقول الجواب عنه من وجوه (الأول) أن قوله (كذبت قبلهم قوم نوح) أى بآياتنا وآية الانشقاق فكذبوا (الثانى) (كذبت قوم نوح الرسل) وقالوا لم يبعث الله رسولا و كذبوهم فى التوحيد (فكذبوا عبدنا) كما كذبوا غيره وذلك لأن قوم نوح مشركون يعبدون الأصنام ومن يعبد الأصنام يكذب كل رسول وينكر الرسالة لأنه يقول لا تعلق لله بالعالم السفلى وإنما أمره إلى الكواكب فكان مذهبهم التكذيب فكذبوا (الثالث) قوله تعالى (فكذبوا عبدنا) للتصديق والرد عليهم تقديره (كذبت قوم نوح) وكان تكذيبهم عبدنا أى لم يكن تكذيباً بحق كما يقول القائل كذبنى فكذب صادقاً .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ كثيراً مايخص الله الصالحين بالإضافة إلى نفسه كما فى قوله تعالى (إن عبادي، يا عبادى ، واذكر عبدنا ، إنه من عبادنا) وكل واحد عبده فما السرفيه ؟ نقول الجواب عنه من وجوه (الأول) ما قيل فى المشهور أن الإضافة إليه تشريف منه فمن خصصه بكونه عبده شرف وهذا كقوله تعالى (أن طهرا بيتى) وقوله تعالى (ناقة الله) (الثانى) المراد من عبدنا أى الذى عبدنا فالكل عباد لأنهم مخلوقون للعبادة لقوله (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) لكن منهم من عبد فحقق المقصود فصار عبده ، ويؤيد هذا قوله تعالى (كونوا عباداً لى) أى حققوا المقصود (الثالث) الإضافة تفيد الحصر فمعنى عبدنا هو الذى لم يقل بمعبود سوانا ، ومن اتبع هواه فقد اتخذ إلهاً فالعبد المضاف هو الذى بكليته فى كل وقت لله فأكله وشربه وجميع أموره لوجه الله تعالى وقليل ماهم .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ ماالفائدة فى اختيار لفظ العبد مع أنه لو قال رسولنا لكان أدل على قبح فعلهم ؟ نقول قوله عبدنا أدل على صدقه وقبح تكذيبهم من قوله رسولنا لو قاله لأن العبد أقل تحريفاً لكلام السيد من الرسول ، فيكون كقوله تعالى (ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين)

﴿ المسألة الخامسة ﴾ قوله تعالى وقالوا (مجنون) إشارة إلى أنه أتى بالآيات الدالة على صدقه حيث رأوا ما عجزوا منه ، وقالوا هو مصاب الجن أو هو لزيادة بيان قبح صنعهم حيث لم يقنعوا بقولهم إنه كاذب ، بل قالوا مجنون ، أى يقول مالا يقبله عاقل ، والكاذب العاقل يقول ما يظن به أنه صادق فقالوا (مجنون) أى يقول مالم يقل به عاقل فبين مبالغتهم فى التكذيب .

﴿ المسألة السادسة ﴾ (وازدجر) إخبار من الله تعالى أو حكاية قولهم ، نقول فيه خلاف منهم من قال إخبار من الله تعالى وهو عطف على كذبوا ، وقالوا أى هم كذبوا وهو (ازدجر) أى أوذى وزجر ، وهو كقوله تعالى (كذبوا وأوذوا) وعلى هذا إن قيل لو قال كذبوا عبدنا وزجروه

فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾

كان الكلام أكثر مناسبة ، نقول لا بل هذا أبلغ لأن المقصود تقوية قلب النبي صلى الله عليه وسلم بذكر من تقدمه فقال وازدجر أي فعلوا ما يوجب الانزجار من دعائهم حتى ترك دعوتهم وعدل عن الدعاء إلى الإيمان ، إلى الدعاء عليهم ، ولو قال زجروه ما كان يفيد أنه تأذى منهم لأن في السعة يقال آذوني ولكن ما تأذيت ، وأما أوذيت فهو كاللازم لا يقال إلا عند حصول الفعل لا قبله ، ومنهم من قال (وازدجر) حكاية قولهم أي هم قالوا ازدجر ، تقديره قالوا مجنون مزدجر ، ومعناه : ازدجره الجن أو كأنهم قالوا جن وازدجر ، والأول أصح ويترتب عليه :

قوله تعالى : ﴿ فدعا ربه أني مغلوب فانتصر ﴾ ترتيباً في غاية الحسن لأنهم لما زجروه وانزجر هو عن دعائهم دعا ربه أني مغلوب وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قرىء إني بكسر الهمزة على أنه دعاء ، فكأنه قال إني مغلوب ، وبالفتح على معنى بأني .

﴿ المسألة الثانية ﴾ مامعنى مغلوب؟ نقول فيه وجوه (الأول) غلبني الكفار فانتصر لي منهم (الثاني) غلبتني نفسي وحملتني على الدعاء عليهم فانتصر لي من نفسي ، وهذا الوجه نقله ابن عطية وهو ضعيف (الثالث) وجه مركب من الوجهين وهو أحسن منهما وهو أن يقال إن النبي صلى الله عليه وسلم لا يدعو على قومه مادام في نفسه احتمال وحلم ، واحتمال نفسه يمتد ما دام الإيمان منهم محتملا ، ثم إن يأسه يحصل والاحتمال يفر بعد اليأس بمدة ، بدليل قوله تعالى لمحمد صلى الله عليه وسلم (لعلك باخع نفسك) ، (فلا تذهب نفسك عليهم حسرات) وقال تعالى (ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون) فقال نوح يا إلهي إن نفسي غلبتني وقد أمرتني بالدعاء عليهم فأهلكهم . فيكون معناه [إني] مغلوب بحكم البشرية أي غلبت وعيل صبري فانتصر لي منهم لا من نفسي .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ فانتصر معناه انتصر لي أو لنفسك فإنهم كفروا بك وفيه وجوه (أحدها) فانتصر لي مناسب لقوله مغلوب (ثانيها) فانتصر لك ولدينك فإني غلبت وعجزت عن الانتصار لدينك (ثالثها) فانتصر للحق ، لا يكون فيه ذكره ولا ذكر ربه ، وهذا يقوله قوي النفس بكون الحق معه ، يقول القائل اللهم أهلك الكاذب منا ، وانصر المحق منا .

قوله تعالى : ﴿ ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر ﴾ عقيب دعائه . وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ المراد من الفتح والأبواب والسماء حقائقها أو هو مجاز؟ نقول فيه قولان (أحدهما) حقائقها وللسماء أبواب تفتح وتغلق ولا استبعاد فيه (وثانيهما) هو على طريق الاستعارة ، فإن الظاهر أن الماء كان من السحاب ، وعلى هذا فهو كما يقول القائل في المطر الوابل جرت ميازيب السماء وفتح أفواه القرب أي كأنه ذلك ، فالمطر في الطوفان كان بحيث يقول القائل :

وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾

فتحت أبواب السماء ، ولا شك أن المطر من فوق كان فى غاية الهطلان .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قوله تعالى (ففتحنا) بيان أن الله انتصر منهم وانتقم بماء لا بجند أنزله ، كما قال تعالى (وما أنزلنا على قومه من بعده من جند من السماء وما كنا منزلين ، إن كانت إلا صيحة واحدة) بياناً لكمال القدرة ، ومن العجيب أنهم كانوا يطلبون المطر سنين فأهلكهم بمطلوبهم .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ الباء فى قوله (بماء منهمر) ما وجهه ، وكيف موقعه ؟ نقول فيه وجهان : (أحدهما) كما هى فى قول القائل : فتحت الباب بالمفتاح ، وتقديره : هو أن يجعل كأن الماء جاء وفتح الباب . وعلى هذا تفسير قول من يقول : يفتح الله لك بخير . أى يقدر خيراً يأتى ويفتح الباب ، وعلى هذا ففيه لطيفة وهى من بدائع المعانى ، وهى أن يجعل المقصود مقدماً فى الوجود ، ويقول كأن مقصودك جاء إلى باب مغلق ففتحه وجاءك ، وكذلك قول القائل : لعل الله يفتح برزق ، أى يقدر رزقاً يأتى إلى الباب الذى كالمغلق فيدفعه ويفتحه ، فيكون الله قد فتحه بالرزق (ثانيهما) (فتحنا أبواب السماء) مقرونة (بماء منهمر) والانهمار الانسكاب والانصباب صباً شديداً ، والتحقيق فيه أن المطر يخرج من السماء التى هى السحاب خروج مترشح من ظرفه ، وفى ذلك اليوم كان يخرج خروج مرسل خارج من باب .

قوله تعالى : ﴿ وفجرنا الأرض عيوناً فالتقى الماء على أمر قد قدر ﴾ وفيه من البلاغة ما ليس فى قول القائل : وفجرنا عيون الأرض ، وهذا بيان التمييز فى كثير من المواضع ، إذا قلت ضاق زيد ذرعاً ، أثبت مالا يثبته قولك ضاق ذرع زيد ، وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قال (وفجرنا الأرض عيوناً) ولم يقل ففتحنا السماء أبواباً ، لأن السماء أعظم من الأرض وهى للمبالغة ، ولهذا قال (أبواب السماء) ولم يقل أنابيب ولا منافذ ولا مجارى أو غيرها .

وأما قوله تعالى (وفجرنا الأرض عيوناً) فهو أبلغ من قوله : وفجرنا عيون الأرض ، لأنه يكون حقيقة لا مبالغة فيه ، ويكفى فى صحة ذلك القول أن يجعل فى الأرض عيوناً ثلاثة ، ولا يصلح مع هذا فى السماء إلا قول القائل : فأنزلنا من السماء ماء أو مياهاً ، ومثل هذا الذى ذكرناه فى المعنى لا فى المعجزة ، والحكمة قوله تعالى (ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فسلكه ينابيع فى الأرض) حيث لا مبالغة فيه ، وكلامه لا يماثل كلام الله ولا يقرب منه ، غير أنى ذكرته مثلا (ولله المثل الأعلى) .

﴿ المسألة الثانية ﴾ العيون فى عيون الماء حقيقة أو مجاز ؟ نقول المشهور أن لفظ العين

وَحَمَلْنَـٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا

مشترك ، والظاهر أنها حقيقة فى العين التى هى آلة الأبصار ومجاز فى غيرها ، أما فى عيون الماء فلأنها تشبه العين الباصرة التى يخرج منها الدمع ، أو لأن الماء الذى فى العين كالنور الذى فى العين غير أنها مجاز مشهور صار غالباً حتى لا يفتقر إلى القرينة عند الاستعمال إلا للتمييز بين العينين ، فكما لا يحمل اللفظ على العين الباصرة إلا بقرينة ، كذلك لا يحمل على الفوارة إلا بقرينة مثل : شربت من العين واغتسلت منها ، وغير ذلك من الأمور التى توجد فى الينبوع ، ويقال عانه يعينه إذا أصابه بالعين ، وعينه تعييناً ، حقيقته جعله بحيث تقع عليه العين ، وعاينه معاينة وعياناً ، وعين أى صار بحيث تقع عليه العين .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قوله تعالى (فالتقى الماء) قرىء فالتقى الماءان ، أى النوعان ، منه ماء السماء وماء الأرض ، فتثنى أسماء الأجناس على تأويل صنف ، تجمع أيضاً ، يقال عندى تمران وتمور وأتمار على تأويل نوعين وأنواع منه . والصحيح المشهور (فالتقى الماء) وله معنى لطيف ، وذلك أنه تعالى لما قال ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر) ذكر الماء وذكر الانهمار وهو النزول بقوة ، فلما قال (وفجرنا الأرض عيوناً)كان من الحسن البديع أن يقول ما يفيد أن الماء نبع منها بقوة ، فقال (فالتقى الماء) أى من العين فار الماء بقوة حتى ارتفع والتقى بماء السماء ، ولو جرى جرياً ضعيفاً لما كان هو يلتقى مع ماء السماء بل كان ماء السماء يرد عليه ويتصل به ، ولعل المراد من قوله (وفار التنور) مثل هذا .

وقوله تعالى (على أمر قد قدر) فيه وجوه (الأول) على حال قد قدرها الله تعالى كما شاء (الثانى) على حال قدر أحد الماءين بقدر الآخر (الثالث) على سائر المقادير ، وذلك لأن الناس اختلفوا ، فمنهم من قال : ماء السماء كان أكثر ، ومنهم من قال : ماء الأرض ، ومنهم من قال كانا متساويين ، فقال على أى مقدار كان ، والأول إشارة إلى عظمة أمر الطوفان ، فإن تنكير الأمر يفيد ذلك ، يقول القائل : جرى على فلان شيء لا يمكن أن يقال ، إشارة إلى عظمته ، وفيه احتمال آخر ، وهو أن يقال التقى الماء ، أى اجتمع على أمر هلاكهم ، وهو كان مقدوراً مقدراً ، وفيه رد على المنجمين الذين يقولون : إن الطوفان كان بسبب اجتماع الكواكب السبعة حول برج مائى ، والغرق لم يكن مقصوداً بالذات ، وإنما ذلك أمر لزم من الطوفان الواجب وقوعه ، فقال لم يكن ذلك إلا لأمر قد قدر ، ويدل عليه أن الله تعالى أوحى إلى نوح بأنهم من المغرقين .

وقوله تعالى ﴿ وحملناه على ذات ألواح ودسر تجرى بأعيننا ﴾ أى سفينة ، حذف الموصوف وأقام الصفة مقامه ، إشارة إلى أنها كانت من ألواح مركبة موثقة بدسر ، وكان انفكاكها فى غاية السهولة ، ولم يقع فهو بفضل الله ، والدسر المسامير .

جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾

وقوله تعالى (تجرى) أى سفينة ذات ألواح جارية ، وقوله تعالى (بأعيننا) أى بمرأى منا أو بحفظنا ، لأن العين آلة ذلك فتستعمل فيه .

قوله تعالى : ﴿ جزاء لمن كان كفر ﴾ يحتمل وجوهاً (أحدها) أن يكون نصبه بقوله (حملناه) أى حملناه جزاء ، أى ليكون ذلك الحمل جزاء الصبر على كفرانهم (وثانيها) أن يكون بقوله (تجرى بأعيننا) لأن فيه معنى حفظنا ، أى ماتركناه عن أعيننا وعوننا جزاء له (ثالثها) أن يكون بفعل حاصل من مجموع ما ذكره كأنه قال . فتحنا أبواب السماء وفجرنا الأرض عيوناً وحملناه ، وكل ذلك فعلناه جزاء له ، وإنما ذكرنا هذا ، لأن الجزاء ماكان يحصل إلا بحفظه وإنجائه لهم ، فوجب أن يكون جزاء منصوباً بكونه مفعولا له بهذه الأفعال ، ولنذكرما فيه من اللطائف فى مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قال فى السماء (ففتحنا أبواب السماء) لأن السماء ذات الرجع وما لها فطور ، ولم يقل : وشققنا السماء ، وقال فى الأرض (وفجرنا الأرض) لأنها ذات الصدع .

﴿ الثانية ﴾ لما جعل المطر كالماء الخارج من أبواب مفتوحة واسعة ، ولم يقل فى الأرض وأجرينا من الأرض بحاراً وأنهاراً ، بل قال (عيوناً) والخارج من العين دون الخارج من الباب ذكر فى الأرض أنه تعالى فجرها كلها ، فقال (وفجرنا الأرض) لتقابل كثرة عيون الأرض سعة أبواب السماء فيحصل بالكثرة ههنا ماحصل بالسعة ههنا .

﴿ الثالثة ﴾ ذكر عند الغضب سبب الإهلاك وهو فتح أبواب السماء وفجر الأرض بالعيون ، وأشار إلى الإهلاك بقوله تعالى (على أمر قد قدر) أى أمر الإهلاك ولم يصرح وعند الرحمة ذكر الإنجاء صريحاً بقوله تعالى (وحملناه) وأشار إلى طريق النجاة بقوله (ذات ألواح) وكذلك قال فى موضع آخر فأخذهم الطوفان ، ولم يقل فأهلكوا ، وقال فأنجيناه وأصحاب السفينة فصرح بالإنجاء ولم يصرح بالإهلاك إشارة إلى سعة الرحمة وغاية الكرم أى خلقنا سبب الهلاك ولو رجعوا لما ضرهم ذلك السبب كما قال صلى الله عليه وسلم (يابنى اركب معنا) وعند الإنجاء أنجاه وجعل للنجاة طريقاً وهو اتخاذ السفينة ولو انكسرت لما ضره بل كان ينجيه فالمقصود عند الإنجاء هو النجاة فذكر المحل والمقصود عند الإهلاك إظهار البأس فذكر السبب صريحاً .

﴿ الرابعة ﴾ قوله تعالى (تجرى بأعيننا) أبلغ من حفظنا ، يقول القائل اجعل هذا نصب عينك ولا يقول احفظه طلباً للمبالغة .

﴿ الخامسة ﴾ (بأعيننا) يحتمل أن يكون المراد بحفظنا ، ولهذا يقال الرؤية لسان العين .

﴿ السادسة ﴾ قال كان ذلك جزاء على ما كفروا به لا على إيمانه وشكره فما جوزى به كان جزاء صبره على كفرهم ، وأما جزاء شكره لنا فباق ، وقرىء (جزاء) بكسر الجيم أى مجازاة كقتال

وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٥﴾

ومقاتلة وقرىء (لمن كان كفر) بفتح الكاف ، وأما (كفر) ففيه وجهان : (أحدهما) أن يكون كفر مثل شكر يعدى بالحرف وبغير حرف يقال شكرته وشكرت له ، قال تعالى (واشكروا لى ولا تكفرون) وقال تعالى (فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله) . (ثانيهما) أن يكون من الكفر لامن الكفران أى جزاء لمن ستر أمره وأنكر شأنه ويحتمل أن يقال كفربه وترك اظهور المراد .

ثم قال تعالى ﴿ ولقد تركناها آية ﴾ وفى العائد إليه الضمير وجهان : (أحدهما) عائد إلى مذكور وهو السفينة التى فيها ألواح وعلى هذا ففيه وجهان (أحدهما) ترك الله عينها مدة حتى رؤيت وعلمت وكانت على الجودى بالجزيرة وقيل بأرض الهند (وثانيهما) ترك مثلها فى الناس يذكر (وثانى) الوجهين الأولين ، أنه عائد إلى معلوم أى تركنا السفينة آية ، والأول أظهر وعلى هذا الوجه يحتمل أن يقال (تركناها) أى جعلناها آية لأنها بعد الفراغ منها صارت متروكة ومجعولة يقول القائل تركت فلاناً مثلة أى جعلته، لما بينا أنه من فرغ من أمر تركه وجعله فذكر أحد الفعلين بدلا عن الآخر .

وقوله تعالى ﴿ فهل من مدكر ﴾ إشارة إلى أن الأمر من جانب الرسل قدتم ولم يبق إلا جانب المرسل إليهم بأن كانوا منذرين متفكرين يهتدون بفضل الله (فهل من مدكر) مهتد ، وهذا الكلام يصلح حثاً ويصلح تخويفاً وزجراً ، وفيه مسائل :

﴿ الأولى ﴾ قال ههنا (ولقد تركناها) وقال فى العنكبوت (وجعلناها آية) قلنا هما وإن كانا فى المعنى واحداً على ماتقدم بيانه لكن لفظ الترك يدل على الجعل والفراغ بالأيام فكأنها هنا مذكورة بالتفصيل حيث بين الإمطار من السماء وتفجير الأرض وذكر السفينة بقوله (ذات ألواح ودسر) وذكر جريها فقال (تركناها) إشارة إلى تمام الفعل المقدور وقال هناك (وجعلناها) إشارة إلى بعض ذلك فان قيل إن كان الأمر كذلك فكيف قال ههنا (وحملناه) ولم يقل وأصحابه وقال هناك (وأنجيناه وأصحاب السيفنة) ؟ نقول النجاة ههنا مذكورة على وجه أبلغ مما ذكره هناك لأنه قال (تجرى بأعيننا) أى حفظنا وحفظ السفينة حفظ لأصحابه وحفظ لأموالهم ودوابهم والحيوانات التى معهم فقوله (وأنجيناه وأصحاب السفينة) لا يلزم منه إنجاء الأموال إلا ببيان آخر والحكاية فى سورة هود أشد تفصيلا وأتم فلهذا قال (قلنا احمل فيهامن كل زوجين اثنين) يعنى المحمول ثم قال تعالى (واستوت على الجودى) تصريحاً بخلاص السفينة وإشارة إلى خلاص كل من فيها وقوله (آية) منصوبة على أنها مفعول ثان للترك لأنه بمعنى الجعل على ما تقدم بيانه وهو الظاهر ، ويحتمل أن يقال حال فإنك تقول تركتها وهى آية وهى إن لم تكن على وزن الفاعل والمفعول

فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٦﴾

فهي في معناه كأنه قال تركناها دالة ، ويحتمل أن يقال نصبها على التمييز لأنها بعض وجوه الترك كقوله ضربته سوطاً .

﴿ المسألة الثانية ﴾ (مدكر) مفتعل من ذكر يذكر وأصله مذتكر [لما] كان مخرج الذال قريباً من مخرج التاء ، والحروف المتقاربة المخرج يصعب النطق بها على التوالي ولهذا إذا نظرت إلى الذال مع التاء عند النطق تقرب الذال من أن تصير تاء والتاء تقرب من أن تصير دالا فجعل التاء دالا ثم أدغمت الدال فيها ومنهم من قرأ على الأصل مذتكر ومنهم من قلب التاء دالا وقرأ مذدكر ومن اللغويين من يقول في مدكر مذدكر فيقلب التاء ولا يدغم ولكل وجهة ، والمدكر المعتبر المتفكر ، وفي قوله (مدكر) إما إشارة إلى ما في قوله (ألست بربكم ؟ قالوا بلى) أي هل من يتذكر تلك الحالة وإما إلى وضوح الأمر كأنه حصل للكل آيات الله ونسوها (فهل من مدكر) يتذكر شيئاً منها .

ثم قال تعالى ﴿ فكيف كان عذابي ونذر ﴾ وفيه وجهان : (أحدهما) أن يكون ذلك استفهاماً من النبي صلى الله عليه وسلم تنبيها له ووعداً بالعاقبة (وثانيهما) أن يكون عاماً تنبيهاً للخلق ونذر أسقط منه ياء الإضافة كما حذف ياء يسري في قوله تعالى (والليل إذا يسر) وذلك عند الوقف ومثله كثير كما في قوله تعالى (فإياي فاعبدون ولا ينقذون) وقوله تعالى (ياعباد فاتقون) وقوله تعالى (ولا تكفرون) وقرىء بإثبات الياء (عذابي ونذري) وفيه مسائل :

﴿الأولى﴾ ما الذي اقتضى الفاء في قوله تعالى (فكيف كان) ؟ نقول : أما إن قلنا إن الاستفهام من النبي صلى الله عليه وسلم ، فكأنه تعالى قال له قد علمت أخبار من كان قبلك فكيف كان أي بعدما أحاط بهم علمك بنقلها إليك ، وأما إن قلنا الاستفهام عام فنقول لما قال (هل من مدكر) فرض وجودهم وقال يا من يتذكر ، وعلم الحال بالتذكير (فكيف كان عذابي) ويحتمل أن يقال هو متصل بقوله (فهل من مدكر) تقديره مدكر كيف كان عذابي .

﴿ المسألة الثانية ﴾ ما رأوا العذاب ولا النذر فكيف استفهم منهم ؟ نقول ، أما على قولنا الاستفهام من النبي صلى الله عليه وسلم فقد علم لما علم ، وأما على قولنا عام فهو على تقدير الادكار وعلى تقدير الادكار يعلم الحال ، ويحتمل أن يقال إنه ليس باستفهام وإنما هو إخبار عن عظمة الأمر كما في قوله تعالى (الحاقة ماالحاقة) و (القارعة ما القارعة) وهذا لأن الاستفهام يذكر للاخبار كما أن صيغة هل تذكر للاستفهام فيقال زيد في الدار ؟ بمعنى هل زيد في الدار ، ويقول المنجز وعده هل صدقت ؟ فكأنه تعالى قال : عذابي وقع وكيف كان أي كان عظيما وحينئذ لا يحتاج إلى علم من يستفهم منه .

وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قال تعالى من قبل . (ففتحنا ، وفجرنا ، وبأعيننا) ولم يقل كيف كان عذابنا نقول لوجهين (أحدهما) لفظى وهو أن ياء المتكلم يمكن حذفها لأنها فى اللفظ تسقط كثيراً فيما إذا التقى ساكنان ، تقول غلامى الذى ، ودارى التى ، وهنا حذفت لتواخى آخر الآيات ، وأما النون والألف فى ضمير الجمع فلا تحذف (وأما الثانى) وهو المعنوى فنقول إن كان الاستفهام من النبى صلى الله عليه وسلم فتوحيد الضمير للأنباء ، وفى فتحنا وفجرنا لترهيب العصاة ، ونقول قد ذكرنا أن قوله (مدكر) فيه إشارة إلى قوله (ألست بربكم) فلما وحد الضمير بقوله (ألست بربكم) قال فكيف كان .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ النذر جمع نذير فهل هو مصدر كالنذيب والنحيب أو فاعل كالكبير والصغير ؟ نقول أكثر المفسرين على أنه مصدر ههنا ، أى كيف كان عاقبة عذابى وعاقبة إنذارى والظاهر أن المراد الأنبياء ، أى كيف كان عاقبة أعداء الله ورسله ؟ هل أصاب العذاب من كذب الرسل أم لا ؟ فاذا علمت الحال يا محمد فاصبر فإن عاقبة أمرك كعاقبة أولئك النذر ولم يجمع العذاب لأنه مصدر ولو جمع لكان فى جمعه تقدير وفرض ولا حاجة إليه ، فإن قيل قوله تعالى (كذبت ثمود بالنذر) أى بالإنذارات لأن الإنذارات جاءتهم ، وأما الرسل فقد جاءهم واحد ، نقول كل من تقدم من الأمم الذين أشركوا بالله كذبوا بالرسل وقالوا ما أنزل الله من شىء وكان المشركون مكذبين بالكل ما خلا إبراهيم عليه السلام فكانوا يعتقدون فيه الخير لكونه شيخ المرسلين فلا يقال : كذبت ثمود بالنذر ، أى بالأنبياء بأسرهم ، كما أنكم أيها المشركون تكذبونهم .

ثم قال تعالى ﴿ ولقد يسرنا القرآن للذكر ﴾ وفيه وجوه (الأول) للحفظ فيمكن حفظه ويسهل ، ولم يكن شىء من كتب الله تعالى يحفظ على ظهر القلب غير القرآن .

قوله تعالى : ﴿ فهل من مدكر ﴾ أى هل من يحفظ ويتلوه (الثانى) سهلناه للاتعاظ حيث أتينا فيه بكل حكمة (الثالث) جعلناه بحيث يعلق بالقلوب ويستلذ سماعه ومن لا يفهم يتفهمه ولا يسأم من سمعه وفهمه ولا يقول قد علمت فلا أسمعه بل كل ساعة يزداد منه لذة وعلماً . (الرابع) وهو الأظهر أن النبى صلى الله عليه وسلم لما ذكر بحال نوح عليه السلام وكان له معجزة قيل له إن معجزتك القرآن (ولقد يسرنا القرآن للذكر) تذكرة لكل أحد وتتحدى به فى العالم ويبقى على مرور الدهور ، ولا يحتاج كل من يحضرك إلى دعاء ومسألة فى إظهار معجزة ، وبعدك لا ينكر أحد وقوع ما وقع كما ينكر البعض انشقاق القمر ، وقوله تعالى (فهل من مدكر) أى متذكر لأن الافتعال والتفعل كثيراً ما يجىء بمعنى ، وعلى هذا فلو قال قائل هذا يقتضى وجود أمر سابق فنسى ، نقول ما فى الفطرة من الانقياد للحق هو كالمنسى فهل من مدكر يرجع إلى ما فطر عليه

كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٨﴾

وقيل فهل من مدكر أى حافظ أو متعظ على ما فسرنا به قوله تعالى (يسرنا القرآن للذكر) وقوله (فهل من مدكر) وعلى قولنا المراد متذكر إشارة إلى ظهور الأمر فكأنه لا يحتاج إلى نكر ، بل هو أمر حاصل عنده لا يحتاج إلى معاودة ما عند غيره .

قوله تعالى : ﴿ كذبت عاد فكيف كان عذابى ونذر ﴾ وفيه مسائل :

﴿ الأولى ﴾ قال فى قوم نوح (كذبت قوم نوح) ولم يقل فى عاد كذبت قوم هود وذلك لأن التعريف كلما أمكن أن يؤتى به على وجه أبلغ فالأولى أن يؤتى به والتعريف بالاسم العلم أولى من التعريف بالإضافة إليه ، فإنك إذا قلت بيت الله لا يفيد ما يفيد قولك الكعبة ، فكذلك إذا قلت رسول الله لا يفيد ما يفيد قولك محمد فعاد اسم علم للقوم لا يقال قوم هود أعرف لوجهين (أحدهما) أن الله تعالى وصف عاداً بقوم هود حيث قال (ألا بعداً لعاد قوم هود) ولا يوصف الأظهر بالأخفى والأخص بالأعم (ثانيهما) أن قوم هود واحد وعاد ، قيل إنه لفظ يقع على أقوام ولهذا قال تعالى (عاداً الأولى) لأنا نقول : أما قوله تعالى (لعاد قوم هود) فليس ذلك صفة وإنما هو بدل ويجوز فى البدل أن يكون دون المبدل فى المعرفة ، ويجوز أن يبدل عن المعرفة بالنكرة ، وأما عاداً الأولى فقد قدمنا أن ذلك لبيان تقدمهم أى عاداً الذين تقدموا وليس ذلك للتمييز والتعريف كما تقول محمد النبى شفيعى والله الكريم ربى ورب الكعبة المشرفة لبيان الشرف لا لبيانها وتعريفها كما تقول دخلت الدار المعمورة من الدارين وخدمت الرجل الزاهد من الرجلين فتبين المقصود بالوصف .

﴿ المسألة الثانية ﴾ لم يقل كذبوا هوداً كما قال (فكذبوا عبدنا) وذلك لوجهين (أحدهما) أن تكذيب نوح كان أبلغ وأشد حيث دعاهم قريباً من ألف سنة وأصروا على التكذيب ، ولهذا ذكر الله تعالى تكذيب نوح فى مواضع ولم يذكر تكذيب غير نوح صريحاً وإن نبه عليه [فى] واحد منها فى الأعراف قال (فنجيناه والذين معه فى الفلك) وقال حكاية عن نوح (قال رب إن قومى كذبون) وقال (إنهم عصونى) وفى هذه المواضع لم يصرح بتكذيب قوم غيره منهم إلا قليلا ولذلك قال تعالى فى مواضع ذكر شعيب فكذبوه (وقال الذين كذبوا شعيباً) وقال تعالى عن قومه (وإنا لنظنك من الكاذبين) لأنه دعا قومه زماناً مديداً (وثانيهما) أن حكاية عاد مذكورة ههنا على سبيل الاختصار فلم يذكر إلا تكذيبهم وتعذيبهم فقال (كذبت عاد) كما قال (كذبت قوم نوح) ولم يذكر دعاءه عليهم وإجابته كما قال فى نوح .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قال تعالى (فكيف كان عذابى ونذر) قبل أن بين العذاب . وفى حكاية نوح بين العذاب ، ثم قال (فكيف كان) فما الحكمة فيه ؟ نقول الاستفهام الذى ذكره فى حكاية نوح

إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِى يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾

مذكور ههنا ، وهو قوله تعالى (فكيف كان عذابى ونذر) كما قال من قبل ومن بعد فى حكاية ثمود غير أنه تعالى حكى فى حكاية عاد فكيف كان مرتين ، المرة الأولى استفهم ليبين، كما يقول المعلم لمن لا يعرف كيف المسألة الفلانية ليصير المسئول سائلا ، فيقول كيف هى فيقول إنها كذا وكذا فكذلك ههنا قال كذبت عاد فكيف كان عذابى ، فقال السامع بين أنت فإنى لا أعلم فقال (إنا أرسلنا) وأما المرة الثانية فاستفهم للتعظيم كما يقول القائل للعارف المشاهد كيف فعلت وصنعت فيقول نعم ما فعلت ويقول أتيت بعجيبة فيحقق عظمة الفعل بالاستفهام ، وإنما ذكر ههنا المرة الأولى ولم يذكر فى موضع آخر لأن الحكاية ذكرها مختصرة فكان يفوت الاعتبار بسبب الاختصار فقال (كيف كان عذابى) حثاً على التدبر والتفكر ، وأما الاختصار فى حكايتهم فلأن أكثر أمرهم الاستكبار والاعتماد على القوة وعدم الالتفات إلى قول النبى صلى الله عليه وسلم ، ويدل عليه قوله تعالى (فأما عاد فاستكبروا فى الأرض بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة) وذكر استكبارهم كثيراً ، وما كان قوم محمد صلى الله عليه وسلم مبالغين فى الاستكبار وإنما كانت مبالغتهم فى التكذيب ونسبته إلى الجنون ، وذكر حالة نوح على التفصيل فإن قومه جمعوا بين التكذيب والاستكبار ، وكذلك حال صالح عليه السلام ذكرها على التفصيل لشدة مناسبتها بحال محمد صلى الله عليه وسلم .

قوله تعالى : ﴿ إنا أرسلنا عليهم ريحاً صرصراً فى يوم نحس مستمر ﴾ وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قال تعالى (فكيف كان عذابى) بتوحيد الضمير هناك ولم يقل عذابنا ، وقال ههنا إنا ولم يقل إنى ، والجواب ما ذكرناه فى قوله تعالى (ففتحنا أبواب السماء) .

﴿ المسألة الثانية ﴾ الصرصر فيها وجوه (أحدها) الريح الشديدة الصوت من الصرير والصرة شدة الصياح (ثانيها) دائمة الهبوب من أصر على الشىء إذا دام وثبت ، وفيه بحث وهو أن الأسماء المشتقة هى التى تصلح لأن يوصف بها ، وأما أسماء الأجناس فلا يوصف بها سواء كانت أجراماً أو معانى ، فلا يقال إنسان رجل جاء ولا يقال لون أبيض وإنما يقال إنسان عالم وجسم أبيض . وقولنا أبيض معناه شىء له بياض ، ولا يكون الجسم مأخوذاً فيه ، ويظهر ذلك فى قولنا رجل عالم فإن العالم شىء له علم حتى الحداد والخباز ولو أمكن قيام العلم بهما لكان عالماً ولا يدخل الحى فى المعنى من حيث المفهوم فإنا إذا قلنا عالم يفهم أن ذلك حى لأن اللفظ ما وضع لحى يعلم بل اللفظ وضع لشىء يعلم ويزيده ظهوراً قولنا معلوم فإنه شىء يعلم أو أمر يعلم وإن لم يكن شيئاً ، ولو دخل الجسم فى الأبيض لكان قولنا جسم أبيض كقولنا جسم له بياض فيقع الوصف بالجثة ، إذا علمت هذا فن المستفاد بالجنس شىء دون شىء ، فإن قولنا الهندى يقع على كل منسوب إلى الهند وأما المهند فهو سيف منسوب إلى الهند فيصح أن يقال عبد هندى وتمر هندى ولا يصح أن يقال مهند وكذا الأبلق ولون آخر

فى فرس ولا يقال للثوب أبلق ، كذلك الافطس أنف فيه تقعير إذا قال لقائل أنف أفطس فيكون كأنه قال أنف به فطس فيكون وصفه بالجثة وكان ينبغى أن لا يقال فرس أبلق ولا أنف أفطس ولا سيف مهند وهم يقولون ، فما الجواب ؟ وهذا السؤال يرد على الصرصر لأنها الريح الباردة ، فإذا قال ريح صرصر فليس ذلك كقولنا ريح باردة فان الصرصر هى الريح الباردة فحسب ، فكأنه قال ريح باردة فنقول الألفاظ التى فى معانيها أمران فصاعداً ، كقولنا عالم فإنه يدل على شىء له علم ففيه شىء وعلم هى على ثلاثة أقسام (أحدها) أن يكون الحال هو المقصود والمحل تبع كما فى العالم والضارب والأبيض فإن المقاصد فى هذه الألفاظ العلم والضرب والبياض بخصوصها ، وأما المحل فمقصود من حيث إنه على عمومه حتى أن البياض لو كان يبدل بلون غيره اختل مقصوده كالأسود. وأما الجسم الذى هو محل البياض إن أمكن أن يبدل وأمكن قيام البياض بجوهر غير جسم لما اختل الغرض (ثانيها) أن يكون المحل هو المقصود كقولنا الحيوان لأنه اسم لجنس ما له الحياة لا كالحى الذى هو اسم لشىء له الحياة ، فالمقصود هنا المحل وهو الجسم حتى لو وجد حى ليس بجسم لا يحصل مقصود من قال الحيوان ولو حمل اللفظ على الله الحى الذى لا يموت لحصل غرض المتكلم ولو حمل لفظ الحيوان على فرس قائم أو إنسان نائم لم تفارقه الحياة لم يبق للسامع نفع ولم يحصل للمتكلم غرض فان القائل إذا قال لإنسان قائم وهو ميت هذا حيوان ثم بان موته لا يرجع عما قال بل يقول : ما قلت إنه حى بل قلت إنه حيوان فهو حيوان فارقته الحياة (ثالثها) ما يكون الأمران مقصودين كقولنا رجل وامرأة وناقة وجمل فإن الرجل اسم موضوع لإنسان ذكر والمرأة لإنسان أنثى والناقة لبعير أنثى والجمل لبعير ذكر فالناقة إن أطلقت على حيوان فظهر فرساً أو ثوراً اختل الغرض وإن بان جملا كذلك ، إذا علمت هذا فى كل صورة كان المحل مقصوداً إما وحده وإما مع الحال فلا يوصف به فلا يقال جسم حيوان ولا يقال بعير ناقة وإنما يجعل ذلك جملة ، فيوصف بالجملة ، فيقال جسم هو حيوان وبعير هو ناقة ، ثم إن الأبلق والأفطس شأنه الحيوان من وجه وشأنه العالم من وجه وكذلك المهند لكن دليل ترجيح الحال فيه ظاهر ، لأن المهند لا يذكر إلا لمدح السيف ، والأفطس لا يقال إلا لوصف الأنف لا لحقيقته ، وكذلك الأبلق بخلاف الحيوان فإنه لا يقال لوصفه ، وكذلك الناقة ، إذا علمت هذا فالصرصر يقال لشدة الريح أو لبردها فوجب أن يعمل به ما يعمل بالبارد والشديد لجاز الوصف وهذا بحث عزيز .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قال تعالى ههنا (إنا أرسلنا عليهم ريحاً صرصراً) وقال فى الطور (وفى عاد إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم) فعرف الريح هناك ونكرها هنا لأن العقم فى الريح أظهر من البرد الذى يضر النبات أو الشدة التى تعصف الأشجار لأن الريح العقيم هى التى لا تنشىء سحاباً ولا تلقح شجراً وهى كثيرة الوقوع ، وأما الريح المهلكة الباردة فقلما توجد ، فقال الريح العقيم أى هذا الجنس المعروف ، ثم زاده بياناً بقوله (ما تذر من شىء أتت عليه إلا جعلته كالرميم) فتميزت عن

تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾

الرياح العقم ، وأما الصرصر فقليلة الوقوع فلا تكون مشهورة فنكرها .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قال هنا (فى يوم نحس مستمر) وقال فى السجدة (فى أيام نحسات) وقال فى الحاقة (سبع ليال وثمانية أيام حسوما) والمراد من اليوم هنا الوقت والزمان كما فى قوله تعالى (يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حياً) وقوله (مستمر) يفيد مايفيده الأيام لأن الاستمرار ينبىء عن إمرار الزمان كما ينبىء عنه الأيام ، وإنما اختلف اللفظ مع اتحاد المعنى ، لأن الحكاية هنا مذكورة على سبيل الاختصار ، فذكر الزمان ولم يذكر مقداره ولذلك لم يصفها ، ثم إن فيه قراءتين : إحداهما (يوم نحس) بإضافة يوم ، وتسكين نحس على وزن نفس، وثانيتهما (يوم نحس) بتنوين الميم وكسر الحاء على وصف اليوم بالنحس ، كما فى قوله تعالى (فى أيام نحسات) فإن قيل أيتهما أقرب ؟ قلنا الإضافة أصح ، وذلك لأن من يقرأ (يوم نحس مستمر) يجعل المستمر صفة ليوم ، ومن يقرأ يوم نحس مستمر يكون المستمر وصفاً لنحس ، فيحصل منه استمرار النحوسة فالأول أظهر وأليق ، فإن قيل من يقرأ يوم نحس بسكون الحاء ، فماذا يقول فى النحس ؟ نقول يحتمل أن يقول هو تخفيف نحس كفخذ وفخذ فى غير الصفات ، ونصر ونصر ورعد ورعد ، وعلى هذا يلزمه أن يقول تقديره : يوم كائن نحس ، كما تقول فى قوله تعالى (بجانب الغربى) ويحتمل أن يقول نحس ليس بنعت ، بل هو اسم معنى أو مصدر ، فيكون كقولهم يوم برد وحر ، وهو أقرب وأصح .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ مامعنى مستمر ؟ نقول فيه وجوه (الأول) ممتد ثابت مدة مديدة من استمر الأمر إذا دام ، وهذا كقوله تعالى (فى أيام نحسات) لأن الجمع يفيد معنى الاستمرار والامتداد ، وكذلك قوله (حسوماً) (الثانى) شديد من المرة كما قلنا من قبل فى قوله (سحر مستمر) وهذا كقولهم أيام الشدائد ، وإليه الإشارة بقوله تعالى (فى أيام نحسات لنذيقهم بعض الذى) فإنه يذيقهم المر المضر من العذاب .

ثم قال تعالى ﴿ تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر ﴾ فيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ (تنزع الناس) وصف أو حال ؟ نقول يحتمل الأمرين جميعاً ، إذ يصح أن يقال : أرسل ريحاً صرصراً نازعة للناس ، ويصح أن يقال : أرسل الريح نازعة ، فإن قيل كيف يمكن جعلها حالا ، وذو الحال نكرة ؟ نقول الأمر هنا أهون منه فى قوله تعالى (ولقد جاءهم من الأنباء ما فيه مزدجر) فإنه نكرة ، وأجابوا عنه بأن (ما) موصوفة فتخصصت فحسن جعلها ذات الحال . فكذلك نقول ههنا الريح موصوفة بالصرصر ، والتنكير فيه للتعظيم ، وإلا فهى ثلاثة فلا يبعد جعلها ذات حال ، وفيه وجه آخر ، وهو أنه كلام مستأنف على فعل وفاعل ، كما تقول : جاء زيد جذبنى ، وتقديره : جاء فجذبنى . كذلك ههنا قال (إنا أرسلنا عليهم ريحاً)

فأصبحت (تنزع الناس) ويدل عليه قوله تعالى (فترى القوم فيها صرعى) فالتاء فى قوله (تنزع الناس) إشارة إلى ما أشار إليه بقوله (صرعى وقوله تعالى (كأنهم أعجاز نخل منقعر) فيه وجوه (أحدها) نزعتهم فصرعتهم (كأنهم أعجاز نخل) كما قال (صرعى كأنهم أعجاز نخل) (ثانيها) نزعتهم فهم بعد النزع (كأنهم أعجاز نخل) وهذا أقرب ، لأن الانقعار قبل الوقوع ، فكأن الريح تنزع [الواحد] وتقعر[ه] فينقعر فيقع فيكون صريعاً ، فيخلوا الموضع عنه فيخوى ، وقوله الحاقة (فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية) إشارة إلى حالة بعد الانقعار الذى هو بعد النزع ، وهذا يفيد أن الحكاية ههنا مختصرة حيث لم يشر إلى صرعهم وخلو منازلهم عنهم بالكلية ، فإن حال الانقعار لا يحصل الخلو التام إذ هو مثل الشروع فى الخروج والأخذ فيه (ثالثها) تنزعهم نزعا بعنف كأنهم أعجاز نخل تقعرهم فينقعروا إشارة إلى قوتهم وثباتهم على الأرض ، وفى المعنى وجوه (أحدها) أنه ذكر ذلك إشارة إلى عظمة أجسادهم وطول أقدامهم (ثانيها) ذكره إشارة إلى ثباتهم فى الأرض ، فكأنهم كانوا يعملون أرجلهم فى الأرض ويقصدون المنع به على الريح و (ثالثها) ذكره إشارة إلى يبسهم وجفافهم بالريح ، فكانت تقتلهم وتحرقهم ببردها المفرط فيقعون كأنهم أخشاب يابسة .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال ههنا (منقعر) فذكر النخل ، وقال فى الحاقة (كأنهم أعجاز نخل خاوية) فأنثها ، قال المفسرون : فى تلك السورة كانت أواخر الآيات تقتضى ذلك لقوله (مستمر ، ومنهمر ، ومنتشر) وهو جواب حسن ، فإن الكلام كما يزين بحسن المعنى يزين بحسن اللفظ ، ويمكن أن يقال النخل لفظه لفظ الواحد ، كالبقل والنمل ومعناه معنى الجمع ، فيجوز أن يقال فيه نخل منقعر ومنقعرة ومنقعرات ، ونخل : خاو وخاوية وخاويات . ونخل : باسق وباسقة وباسقات ، فإذا قال قائل منقعر أو خاو أو باسق جرد النظر إلى اللفظ ولم يراع جانب المعنى ، وإذا قال منقعرات أو خاويات أو باسقات جرد النظر إلى المعنى ولم يراع جانب اللفظ ، وإذا قال منقعرة أو خاوية أو باسقة جمع بين الاعتبارين من حيث وحدة اللفظ ، وربما قال منقعرة على الإفراد من حيث اللفظ ، وألحق به تاء التأنيث التى فى الجماعة إذا عرفت هذا فنقول : ذكر الله تعالى لفظ النخل فى مواضع ثلاثة ، ووصفها على الوجوه الثلاثة ، فقال (والنخل باسقات) فإنها حال منها وهى كالوصف ، وقال (نخل خاوية) وقال (نخل منقعر) فحيث قال (منقعر) كان المختار ذلك لأن المنقعر فى حقيقة الأمر كالمفعول ، لأنه الذى ورد عليه القعر فهو مقعور ، والخاو والباسق فاعل ومعناه إخلاء ما هو مفعول من علامة التأنيث أولا ، كما تقول : امرأة كفيل ، وامرأة كفيلة ، وامرأة كبير ، وامرأة كبيرة . وأما الباسقات ، فهى فاعلات حقيقة ، لأن البسوق أمر قام بها ، وأما الخاوية ، فهى من باب حسن الوجه ، لأن الخاوى موضعها ، فكأنه قال : نخل خاوية المواضع ، وهذا غاية الإعجاز حيث أتى بلفظ مناسب للألفاظ السابقة واللاحقة من حيث

فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٢١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٢٢﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ ﴿٢٣﴾

اللفظ ، فكان الدليل يقتضى ذلك ، بخلاف الشاعر الذى يختار اللفظ على المذهب الضعيف لأجل الوزن والقافية .

قوله تعالى : ﴿ فكيف كان عذابى نذر ، ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر ﴾ وتفسيره قد تقدم والتكرير للتقرير ، وفى قوله (عذابى ونذر) لطيفة ما ذكرناها ، وهى تثبت بسؤال وجواب لو قال القائل أكثر المفسرين على أن النذر فى هذا الموضع جمع نذير الذى هو مصدر معناه إنذار ، فما الحكمة فى توحيد العذاب حيث لم يقل : فكيف كان أنواع عذابى . ووبال إنذارى ؟ نقول فيه إشارة إلى غلبة الرحمة الغضب ، وذلك لأن الإنذار إشفاق ورحمة ، فقال الإنذارات التى هى نعم ورحمة تواترت ، فلما لم تنفع وقع العذاب دفعة واحدة ، فكانت النعم كثيرة ، والنقمة واحدة . وسنبين هذا زيادة بيان حين نفسر قوله تعالى (فبأى آلاء ربكما تكذبان) حيث جمع الآلاء وكثر ذكرها وكررها ثلاثين مرة ، ثم بين الله تعالى حال قوم آخرين فقال ﴿ كذبت ثمود بالنذر ﴾ وقد تقدم تفسيره غير أنه فى قصة عاد قال (كذبت) ولم يقل بالنذر ، وفى قصة نوح قال (كذبت قوم نوح بالنذر) فنقول هذا يؤيد ما ذكرنا من أن المراد بقوله (كذبت قبلهم قوم نوح) إن عادتهم ومذهبهم إنكار الرسل وتكذيبهم فكذبوا نوحا بناء على مذهبهم وإنما صرح ههنا لأن كل قوم يأتون بعد قوم وأتاهما رسولان فالمكذب المتأخر يكذب المرسلين جميعاً حقيقة والأولون يكذبون رسولا واحداً حقيقة ويلزمهم تكذيب من بعده بناء على ذلك لأنهم لما كذبوا من تقدم فى قوله : الله تعالى واحد ، والحشر كائن ، ومن أرسل بعده كذلك قوله ومذهبه لزم منه أن يكذبوه ويدل على هذا أن الله تعالى قال فى قوم نوح (فكذبوه فأنجيناه) وقال فى عاد (وتلك عاد جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسله) وأما قوله تعالى (كذبت قوم نوح المرسلين) فإشارة إلى أنهم كذبوا وقالوا ما يفضى إلى تكذيب جميع المرسلين . ولهذا ذكره بلفظ الجمع المعرف للاستغراق ، ثم إنه تعالى قال هناك عن نوح (رب إن قومى كذبون) ولم يقل كذبوا رسلك إشارة إلى ما صدر منهم حقيقة لا أن ما ألزمهم لزمه . إذا عرفت هذا فلما سبق قصة ثمود ذكر رسولين ورسولهم ثالثهم قال (كذبت ثمود بالنذر) هذا كله إذا قلنا أن النذر جمع نذير بمعنى منذر ، أما إذا قلنا إنها الإنذارات فنقول قوم نوح وعاد لم تستمر المعجزات التى ظهرت فى زمانهم ، وأما ثمود فأنذروا وأخرج لهم ناقة من صخرة وكانت تدور بينهم وكذبوا فكان تكذيبهم بإنذارات وآيات ظاهرة فصرح بها ، وقوله (فقالوا أبشراً منا

فَقَالُوٓاْ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥ

واحداً نتبعه يؤيد الوجه الأول ، لأن من يقول لاأتبع بشراً مثلي وجميع المرسلين من البشر يكون مكذباً الرسل والباء فى قوله بالنذر يؤيد الوجه الثانى لأنا بينا أن الله تعالى فى تكذيب الرسل عدى التكذيب بغير حرف فقال : كذبوه وكذبوا رسلنا وكذبوا عبدنا وكذبونى وقال (وكذبوا بآيات ربهم ، وبآياتنا) فعدى بحرف لأن التكذيب هو النسبة إلى الكذب والقائل هو الذى يكون كاذباً حقيقة والكلام والقول يقال فيه كاذب مجازاً وتعلق التكذيب بالقائل أظهر فيستغنى عن الحرف بخلاف القول ، وقد ذكرنا ذلك وبيناه بياناً شافياً .

قوله تعالى : ﴿ فقالوا أبشراً منا واحداً نتبعه ﴾ مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ زيداً ضربته وزيد ضربته كلاهما جائز والنصب مختار فى مواضع منها هذا الموضع وهو الذى يكون مايرد عليه النصب والرفع بعد حرف الاستفهام ، والسبب فى اختيار النصب أمر معقول وهو أن المستفهم يطلب من المسئول أن يجعل ما ذكره بعد حرف الاستفهام مبدأ لكلامه ويخبر عنه ، فاذا قال أزيد عندك معناه أخبرنى عن زيد واذكر لى حاله ، فاذا انضم إلى هذه الحالة فعل مذكور ترجح جانب النصب فيجوز أن يقال أزيداً ضربته وإن لم يجب فالأحسن ذلك فان قيل من قرأ (أبشر منا واحداً نتبعه) كيف ترك الأجود ؟ نقول نظرا إلى قوله تعالى (فقالوا) إذ مابعد القول لا يكون إلا جملة والاسمية أولى والأولى أقوى وأظهر .

﴿ المسألة الثانية ﴾ إذا كان بشراً منصوباً بفعل ، فما الحكمة فى تأخر الفعل فى الظاهر ؟ نقول قد تقدم مراراً أن البليغ يقدم فى الكلام ما يكون تعلق غرضه به أكثروهم كانوا يريدون تبيين كونهم محقين فى ترك الاتباع فلو قالوا أنتبع بشراً يمكن أن يقال نعم اتبعوه وماذا يمنعكم من اتباعه ، فاذا قدموا حاله وقالوا هو نوعنا بشر ومن صنفنا رجل ليس غريبا نعتقد فيه أنه يعلم مالا نعلم أو يقدر ما لا نقدر وهو واحد وحيد وليس له جند وحشم وخيل وخدم فكيف نتبعه ، فيكونون قد قدموا الموجب لجواز الامتناع من الاتباع ، واعلم أن فى هذه الآية إشارات إلى ذلك (أحدها) نكروه حيث قالوا (أبشراً) ولم يقولوا أنتبع صالحاً أو الرجل المدعى النبوة أو غير ذلك من المعرفات والتنكير تحقير (ثانيها) قالوا أبشراً ولم يقولوا أرجلا (ثالثها) قالوا منا وهو يحتمل أمرين أحدهما من صنفنا ليس غريباً ، وثانيهما (منا) أى تبعنا يقول القائل لغيره أنت منا فيتأذى السامع ويقول لا بل أنت منا ولست أنا منكم ، وتحقيقه أن من للتبعيض والبعض تتبع الكل لا الكل يتبع البعض (رابعها) واحداً يحتمل أمرين أيضاً (أحدهما) وحيداً إلى ضعفه (وثانيهما) واحداً أى هو من الآحاد لامن الأكابر المشهورين ، وتحقيق القول فى استعمال الآحاد فى الأصاغر حيث يقال هو من آحاد الناس هو أن من لايكون مشهوداً بحسب ولا نسب إذا حدث عنه

إِنَّا إِذًا لَّفِي ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ أَءُلْقِيَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾

من لا يعرفه فلا يمكن أن يقول عنه قال فلان أو ابن فلان فيقول قال واحد وفعل واحد فيكون ذلك غاية الخمول، لأن الأرذل لاينضم إليه أحد فيبقى فى أكثر أوقاته واحداً فيقال للأرذال آحاد.

وقوله تعالى عنهم ﴿إنا إذاً لفى ضلال وسعر﴾ يحتمل وجهين (أحدهما) أن يكونوا قد قالوا فى جواب من يقول لهم إن لم تتبعوه تكونوا فى ضلال، فيقولون له لا بل إن تبعناه نكون فى ضلال (ثانيهما) أن يكون ذلك ترتيباً على ما مضى أى حاله ما ذكرنا من الضعف والوحدة فإن اتبعناه نكون فى ضلال وسعر أى جنون على هذا الوجه، فإن قلنا إن ذلك قالوه على سبيل الجواب فيكون القائل قال لهم إن لم تتبعوه فإنا إذاً فى الحال فى ضلال وفى سعر فى العقبى فقالوا لا بل لو اتبعناه فإنا إذاً فى الحال فى ضلال وفى سعر من الذل والعبودية مجازاً فإنهم ماكانوا يعترفون بالسعير .

﴿المسألة الثالثة﴾ السعير فى الآخرة واحد فكيف جمع ؟ نقول الجواب عنه من وجوه (أحدها) فى جهنم دركات يحتمل أن تكون كل واحدة سعيراً أو فيها سعير (ثانيها) لدوام العذاب عليهم فانه كلما نضجت جلودهم يبدلهم جلوداً كأنهم فى كل زمان فى سعير آخر وعذاب آخر (ثالثها) لسعة السعير الواحد كأنها سعر يقال للرجل الواحد فلان ليس برجل واحد بل هو رجال .

قوله تعالى : ﴿أألقى الذكر عليه من بيننا بل هو كذاب أشر﴾ وقد تقدم أن النفى بطريق الاستفهام أبلغ لأن من قال ما أنزل عليه الذكر ربما يعلم أو يظن أو يتوهم أن السامع يكذبه فيه فاذا ذكر بطريق الاستفهام يكون معناه أن السامع يجيبنى بقوله ماأنزل فيجعل الأمر حينئذ منفياً ظاهراً لايخفى على أحد بل كل أحد يقول ما أنزل ، والذكر الرسالة أو الكتاب إن كان ويحتمل أن يراد به مايذكره من الله تعالى كما يقال الحق ويراد به ما يحل من الله وفيه مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ قولهم أألقى بدل أأنزل وفيه إشارة إلى ماكانوا ينكرونه من طريق المبالغة وذلك لأن الإلقاء إنزال بسرعة والنبى كان يقول جاءنى الوحى مع الملك فى لحظة يسيرة فكأنهم قالوا الملك جسم والسماء بعيدة فكيف ينزل فى لحظة فقالوا أألقى وما قالوا أأنزل ، وقولهم عليه إنكار آخر كأنهم قالوا ما ألقى ذكر أصلا ، قالوا إن ألقى فلا يكون عليه من بيننا وفينا من هو فوقه فى الشرف والذكاء ، وقولهم أألقى بدل عن قولهم أألقى الله للاشارة إلى أن الإلقاء من السماء غير ممكن فضلا عن أن يكون من الله تعالى .

﴿المسألة الثانية﴾ عرفوا الذكر ولم يقولوا أألقى عليه ذكر ، وذلك لأن الله تعالى حكى إنكارهم

سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ ﴿٢٦﴾

لما لا ينبغي أن ينكر فقال أنكروا الذكر الظاهر المبين الذى لا ينبغى أن ينكر فهو كقول القائل أنكروا المعلوم .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ بل يستدعى أمراً مضروباً عنه سابقاً فماذاك ؟ نقول قولهم أألقى للانكار فهم قالوا ماألقى ، ثم إن قولهم أألقى عليه الذكر لا يقتضى إلا أنه ليس بنبى ، ثم قالوا بل هو ليس بصادق .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ الكذاب فعال من فاعل للمبالغة أو يقال بل من فاعل كخياط وتمار ؟ نقول الأول هو الصحيح الأظهر على أن الثانى من باب الأولى لأن المنسوب إلى الشىء لابد له من أن يكثر من مزاولة الشىء فان من خاط يوماً ثوبه مرة لايقال له خياط ، إذا عرفت هذا فنقول المبالغة ، إما فى الكثرة ، وإما فى الشدة فالكذاب ، إما شديد الكذب يقول مالا يقبله العقل أو كثير الكذب ، ويحتمل أن يكونوا وصفوه به لاعتقادهم الأمرين فيه وقولهم (أشر) إشارة إلى أنه كذب لا لضرورة وحاجه إلى خلاص كما يكذب الضعيف ، وإنما هو استغنى وبطر وطلب الرياسة عليكم وأراد اتباعكم له فكان كل وصف مانعاً من الاتباع لأن الكاذب لا يلتفت إليه ، ولاسيما إذاكان كذبه لا لضرورة ، وقرىء (اشر) فقال المفسرون هذا على الأصل المرفوض فى الأشر والأخير على وزن أفعل التفضيل ، وإنما رفض الأصل فيه لأن أفعل إذا فسر قد يفسر بأفعل أيضاً والثانى بأفعل ثالث ، مثاله إذا قال مامعنى الأعلم ؟ يقال هو الأكثر علما فإذا قيل الأكثر ماذا ؟ فيقال الأزيد عدداً أو شىء مثله فلابد من أمر يفسر به الأفعل لامن بابه فقالوا أفعل التفضيل والفضيلة أصلها الخير والخير أصل فى باب أفعل فلا يقال فيه أخير ، ثم إن الشر فى مقابلة الخير يفعل به ما يفعل بالخير فيقال هو شر من كذا وخير من كذا والأشر فى مقابلة الأخير ، ثم إن خيراً يستعمل فى موضعين : (أحدهما) مبالغة الخير بفعل أو أفعل على اختلاف يقال هذا خير وهذا أخير ويستعمل فى مبالغة خير على المشابهة لا على الأصل فمن يقول (أشر) يكون قد ترك الأصل المستعمل لأنه أخذ فى الأصل المرفوض بمعنى هو شر من غيره وكذا معنى الأعلم أن علمه خير من علم غيره ، أو هو خير من غرة الجهل كذلك القول فى الأضعف وغيره .

ثم قال تعالى ﴿ سيعلمون غداً من الكذاب الأشر ﴾ فإن قال قائل سيعلم للاستقبال ووقت إنزال القرآن على محمد صلى الله عليه وسلم كانوا قد علموا ، لأن بعد الموت تتبين الأمور وقد عاينوا ماعاينوا فكيف القول فيه ؟ نقول فيه وجهان (أحدهما) ان يكون هذا القول مفروض الوقوع فى وقت قولهم بل هو كذاب أشر ، فكأنه تعالى قال يوم قالوا بل هو كذاب أشر (سيعلمون غداً) (وثانيهما) أن هذا التهديد بالتعذيب لا بحصول العلم بالعذاب الأليم وهو عذاب جهنم لاعذاب القبر فهم سيعذبون يوم القيامة وهو مستقبل وقوله تعالى (غداً) لقرب الزمان فى الإمكان والأذهان

إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾

ثم إن قلنا إن ذلك للتهديد بالتعذيب لا للتكذيب فلا حاجة إلى تفسيره بل يكون ذلك إعادة لقولهم من غير قصد إلى معناه ، وإن قلنا هو للرد والوعد ببيان انكشاف الأمر فقوله تعالى (سيعلمون غداً) معناه سيعلمون غداً أنهم الكاذبون الذين كذبوا لا لحاجة وضرورة ، بل بطروا وأشروا لما استغنوا ، وقوله تعالى (غداً) يحتمل أن يكون المراد يوم القيامة ، ويحتمل أن يكون المراد يوم العذاب وهذا على الوجه الأول .

قوله تعالى : ﴿ إنا مرسلوا الناقة فتنة لهم فارتقبهم واصطبر ﴾ وفيه مسائل :

﴿ **المسألة الأولى** ﴾ قوله (إنا مرسلوا الناقة) بمعنى الماضي أو بمعنى المستقبل ، إن كان بمعنى الماضي فكيف يقول (فارتقبهم واصطبر) وإن كان بمعنى المستقبل فما الفرق بين حكاية عاد وحكاية ثمود حيث قال هناك (إنا أرسلنا) وقال ههنا (إنا مرسلوا الناقة) بمعنى إنا نرسل ؟ نقول هو بمعنى المستقبل ، وما قبله وهو قوله (سيعلمون غداً) يدل عليه ، فان قوله (إنا مرسلوا الناقة) كالبيان له ، كأنه قال : (سيعلمون) حيث (نرسل الناقة) وما بعده من قوله (فارتقبهم) ونبئهم أيضاً يقتضي ذلك ، فإن قيل قوله تعالى (فنادوا) دليل على أن المراد الماضي قلنا سنجيب عنه في موضعه ، وأما الفارق فنقول حكاية ثمود مستقصاة في هذا الموضع حيث ذكر تكذيب القوم بالنذر وقولهم لرسولهم وتصديق الرسل بقوله (سيعلمون) وذكر المعجزة وهي الناقة وما فعلوه بها والعذاب والهلاك بذكر حكاية على وجه الماضي والمستقبل ليكون وصفه للنبي ﷺ كأنه حاضرها فيقتدي بصالح في الصبر والدعاء إلى الحق ويثق بربه في النصر على الأعداء بالحق فقال إني مؤيدك بالمعجزة القاطعة ، واعلم أن الله تعالى ذكر في هذه السورة خمس قصص ، وجعل القصة المتوسطة مذكورة على أتم وجه لأن حال صالح كان أكثر مشابهة بحال محمد صلى الله عليه وسلم ، لأنه أتى بأمر عجيب أرضي كان أعجب مما جاء به الأنبياء ، لأن عيسى عليه السلام أحيا الميت لكن الميت كان محلا للحياة فأثبت بإذن الله الحياة في محل كان قابلا لها ، وموسى عليه السلام انقلبت عصاه ثعباناً فأثبت الله له في الخشبة الحياة لكن الخشبة نبات كان له قوة في النماء يشبه الحيوان في النمو فهو أعجب ، وصالح عليه السلام كان الظاهر في يده خروج الناقة من الحجر والحجر جماد لا محل للحياة ولا محل للنمو فيه والنبي ﷺ أتى بأعجب من الكل وهو التصرف في جرم السماء الذي يقول المشرك لا وصول لأحد إلى السماء ولا إمكان لشقه وخرقه ، وأما الأرضيات فقالوا إنها أجسام مشتركة المواد يقبل كل واحد منها صورة الأخرى ، والسموات لا تقبل ذلك فلما أتى بما عرفوا فيه أنه لا يقدر على مثله آدمي كان أتم وأبلغ من معجزة صالح عليه السلام التي هي أتم معجزة من معجزات من كان من الأنبياء غير محمد ﷺ (وفيه لطيفة) وهو أن اسم الفاعل إذا كان بمعنى

الماضى . وذكر معه مفعوله فالواجب الإضافة تقول وحشى قاتل عم النبى صلى الله عليه وسلم . فإن قلنا قاتل عم النبى بالإعمال فلا بد من تقدير الحكاية فى الحال كما فى قوله تعالى (وكلبهم باسط ذراعيه) على أنه يحكى القصة فى حال وقوعها تقول خرجت أمس فإذا زيد ضارب عمراً كما تقول يضرب عمراً ، وإن كان الضرب قد مضى ، وإذا كان بمعنى المستقبل فالأحسن الإعمال تقول إنى ضارب عمراً غداً ، فإن قلت إنى ضارب عمرو غداً حيث كان الأمر وقع وكان جاز لكنه غير الأحسن ، والتحقيق فيه أن قولنا ضارب وسارق وقاتل أسماء فى الحقيقة غير أن لها دلالة على الفعل فإذا كان الفعل تحقق فى الماضى فهو قد عدم حقيقة فلا وجود للفعل فى الحقيقة ولا فى التوقع فيجب الحمل على ما للاسم من الإضافة وترك ما للفعل من الأعمال لغلبة الإسمية وفقدان الفعل بالماضى ، وإذا كان الفعل حاضراً أو متوقعاً فى الاستقبال فله وجود حقيقة أو فى التوقع فتجوز الإضافة لصورة الاسم ، والإعمال لتوقع الفعل أو لوجوده ولكن الإعمال أولى لأن فى الاستقبال لن يضرب يفيد لا يكون ضارباً فلا ينبغى أن يضاف ، أما الإعمال فهو ينبىء عن توقع الفعل أو وجوده ، لأنه إذا قال زيد ضارب عمراً فالسامع إذا سمع بضرب عمرو علم أنه يفعل فإذا لم يره فى الحال يتوقعه فى الاستقبال غير أن الإضافة تفيد تخفيفاً حيث سقط بها التنوين والنون فتختار لفظاً لا معنى ، إذا عرفت هذا فنقول (مرسلوا الناقة) مع ما فيه من التخفيف فيه تحقيق الأمر وتقديره كأنه وقع وكان بخلاف ما لو قيل إنا نرسل الناقة .

﴿ المسألة الثانية ﴾ فتنة مفعول له فتكون الفتنة هى المقصودة من الإرسال لكن المقصود منه تصديق النبى صلى الله عليه وسلم ، وهو صالح عليه السلام لأنه معجزة فما التحقيق فى تفسيره ؟ نقول فيه وجهان (أحدهما) أن المعجزة فتنة لأن بها يتميز حال من يثاب ممن يعذب ، لأن الله تعالى بالمعجزة لا يعذب الكفار إلا إذا كان ينبئهم بصدقه من حيث نبوته فالمعجزة ابتلاء لأنها تصديق ، وبعد التصديق يتميز المصدق عن المكذب (وثانيهما) وهو أدق أن إخراج الناقة من الصخرة كان معجزة وإرسالها إليهم ودورانها فيما بينهم وقسمة الماء كان فتنة ولهذا قال (إنا مرسلوا الناقة فتنة) ولم يقل إنا مخرجوا الناقة فتنة ، والتحقيق فى الفتنة والابتلاء والامتحان قد تقدم مراراً وإليه إشارة خفية وهى أن الله تعالى يهدى من يشاء وللهداية طرق ، منها ما يكون على وجه يكون للانسان مدخل فيه بالكسب ، مثاله يخلق شيئاً دالا ويقع تفكر الإنسان فيه ونظره إليه على وجه يترجح عنده الحق فيتبعه وتارة يلجئه إليه ابتداء ويصونه عن الخطأ من صغره فإظهار المعجز على يد الرسول أمر يهدى به من يشاء اهتداء مع الكسب وهداية الأنبياء من غير كسب منهم بل يخلق فيهم علوماً غير كسبية فقوله (إنا مرسلوا الناقة فتنة) إشارة إليهم ، ولهذا قال لهم ومعناه على وجه يصلح لأن يكون فتنة وعلى هذا كل من كانت معجزته أظهر يكون ثواب قومه أقل ، وقوله تعالى (فارتقبهم) أى فارتقبهم بالعذاب ، ولم يقل فارتقب العذاب إشارة إلى حسن الأدب والاجتناب عن طلب الشر وقوله تعالى

وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾ فَنَادَوْا۟ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾

(واصطبر) يؤيد ذلك بمعنى إن كانوا يؤذونك فلا تستعجل لهم العذاب ، ويحتمل أن يكون ذلك إشارة إلى قرب الوقت إلى أمرهما والأمر بحيث يعجز عن الصبر .

ثم قال تعالى ﴿ ونبئهم أن الماء قسمة بينهم كل شرب محتضر ﴾ أى مقسوم وصف بالمصدر مراداً به المشتق منه كقوله ماء ملح وقول زور وفيه ضرب من المبالغة يقال للكريم كرم كأنه هو عين الكرم ويقال فلان لطف محض ، ويحتمل أن تكون القسمة وقعت بينهما لأن الناقة كانت عظيمة وكانت حيوانات القوم تنفر منها ولا ترد الماء وهى على الماء ، فصعب عليهم ذلك فجعل الماء بينهما يوماً للناقة ويوماً للقوم ، ويحتمل أن تكون لقلة الماء فشربه يوما للناقة ويوماً للحيونات ، ويحتمل أن يكون الماء كانَ بينهم قسمة يوم لقوم ويوم لقوم ولما خلق الله الناقة كانت ترد الماء يوم فكان الذين لهم الماء فى غير يوم ورودها يقولون الماء كله لنا فى هذا اليوم ويومكم كان أمس والناقة ما أخرت شيئاً فلا نمكنكم من الورود أيضاً فى هذا اليوم فيكون النقصان وارداً على الكل وكانت الناقة تشرب الماء بأسره وهذا أيضاً ظاهر ومنقول والمشهور هنا الوجه الأوسط ، ونقول إن قوماً كانوا يكتفون بلبنها يوم ورودها الماء والكل ممكن ولم يرد فى شىء خبر متواتر (والثالث) قطع وهو من القسمة لأنها مثبتة بكتاب الله تعالى أما كيفية القسمة والسبب فلا وقوله تعالى(كل شرب محتضر مما يؤيد الوجه الثالث أى كل شرب محتضر للقوم بأسرهم لأنه لو كان ذلك لبيان كون الشرب محتضراً للقوم أو الناقة فهو معلوم لأن الماء ما كان يترك من غير حضور وإن كان لبيان أنه تحضره الناقة يوماً والقوم يوماً فلا دلالة فى اللفظ عليه ، وأما إذا كانت العادة قبل الناقة على أن يرد الماء قوم فى يوم وآخرون فى يوم آخر ، ثم لما خلقت الناقة كانت تنقص شرب البعض وتترك شرب الباقين من غير نقصان ، فقال (كل شرب محتضر) كم أيها القوم فردوا كل يوم الماء وكل شرب ناقص تقاسموه وكل شرب كامل تقاسموه .

ثم قال تعالى ﴿ فنادوا صاحبهم ﴾ نداء المستغيث كأنهم قالوا يالقدار للقوم ،كما يقول القائل بالله المسلمين وصاحبهم قدار وكان أشجع وأهجم على الأمور ويحتمل أن يكون رئيسهم .

وقوله تعالى ﴿ فتعاطى فعقر ﴾ يحتمل وجوها (الأول) تعاطى آلة العقر فعقر (الثانى) تعاطى الناقة فعقرها وهو أضعف (الثالث) التعاطى يطلق ويراد به الإقدام على الفعـــل العظيم والتحقيق هو أن الفعل العظيم يقدم كل أحد فيه صاحبه ويبرىء نفسه منه فمن يقبله ويقدم عليه يقال تعاطاه كأنه كان فيه تدافع فأخذه هو بعد التدافع (الرابع) أن القوم جعلوا له على عمله جعلا فتعاطاه وعقر الناقة

فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ ﴿٣١﴾

ثم قال تعالى ﴿فكيف كان عذابي ونذر﴾ وقد تقدم بيانه وتفسيره غير أن هذه الآية ذكرها في ثلاثة مواضع ذكرها في حكاية نوح بعد بيان العذاب ، وذكرها ههنا قبل بيان العذاب ، وذكرها في حكاية عاد قبل بيانه وبعد بيانه ، فحيث ذكر قبل بيان العذاب ذكرها للبيان كما تقول ضربت فلاناً أي ضرب وأيما ضرب ، وتقول ضربته وكيف ضربته أي قوياً ، وفي حكاية عاد ذكرها مرتين للبيان والاستفهام وقد ذكرنا السبب فيه ، ففي حكاية نوح ذكر الذي للتعظيم وفي حكاية ثمود ذكر الذي للبيان لأن عذاب قوم نوح كان بأمر عظيم عام وهو الطوفان الذي عم العالم ولا كذلك عذاب قوم هود فإنه كان مختصاً بهم .

قوله تعالى : ﴿إنا أرسلنا عليهم صيحة واحدة فكانوا كهشيم المحتظر﴾ سمعوا صيحة فماتوا وفيه مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ كان في قوله فكانوا من أي الأقسام ؟ نقول قال النحاة تجيء تارة بمعنى صار وتمسكوا بقول القائل :

بتيهاء قفــر والمطي كأنها قطا الحزن قد كانت فراخا بيوضها

بمعنى صارت فقال بعض المفسرين في هذا موضع إنها بمعنى صار . والتحقيق أن كان لا تخالف غيرها من الأفعال الماضية اللازمة التي لا تتعدى والذي يقال إن كان تامة وناقصة وزائدة وبمعنى صار فليس ذلك يوجب اختلاف أحوالها اختلافاً يفارق غيرها من الأفعال وذلك لأن كان بمعنى وجد أو حصل أو تحقق غير أن الذي وجد تارة يكون حقيقة الشيء وأخرى صفة من صفاته فإذا قلت كانت الكائنة وكن فيكون جعلت الوجود والحصول للشيء في نفسه فكأنك قلت وجدت الحقيقة الكائنة وكن أي احصل فيوجد في نفسه وإذا قلت كان زيد عالماً أي وجد علم زيد ، غير أنا نقول في وجد زيد عالماً إن عالماً حال . وفي كان زيد عالماً نقول إنه خبر كقولنا حصل زيد عالماً غير أن قولنا وجد زيد عالماً ربما يفهم منه أن الوجود والحصول لزيد في تلك الحال كما تقول قام زيد منتحياً حيث يكون القيام لزيد في تلك الحال ، وقولنا كان زيد عالماً ليس معناه كان زيد وفي تلك الحال هو عالم . لكن هذا لا يوجب أن كان على خلاف غيره من الأفعال اللازمة التي لها بالحال تعلق شديد ، لأن من يفهم من قولنا حصل زيد اليوم على أحسن حال ما نفهمه من قولنا خرج زيد اليوم في أحسن زي لا يمنعه مانع من أن يفهم من قولنا كان زيد على أحسن حال مثل ما فهم هناك ، إذا عرفت هذا فنقول الفعل الماضي يطلق تارة على ما يوجد في الزمان المتصل

وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٣٢﴾ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍۭ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ ۖ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾

بالحاضر ، كقولنا قام زيد فى صباه ، ويطلق تارة على مايوجد فى الزمان الحاضر كقولنا قام زيد فقم وقم فان زيداً قام ، وكذلك القول فى كان ربما يقال كان زيد قائماً عام كذا وربما يقال كان زيد قائماً الآن كما فى قام زيد فقوله تعالى (فكانوا) فيه استعمال الماضى فيما اتصل بالحال فهو كقولك أرسل عليهم صيحة فماتوا أى متصلا بتلك الحال ، نعم لو استعمل فى هذا الموضع صار يجوز لكن كان وصار كل واحد بمعنى فى نفسه وليس وإنما يلزم حمل كان على صار إذا لم يمكن أن يقال هو كذا كما فى البيت حيث لا يمكن أن يقال البيوض فراخ ، وأما هنا يمكن أن يقال هم كهشيم ولولا الكاف لأمكن أن يقال يجب حمل كان على صار إذا كان المراد أنهم انقلبوا هشيما كما يقلب الممسوخ وليس المراد ذلك .

﴿ المسألة الثانية ﴾ ما الهشيم ؟ نقول هو المهشوم أى المكسور وسمى هاشم هاشما لهشمه الثريد فى الجفان غير أن الهشيم استعمل كثيراً فى الحطب المتكسر اليابس ، فقال المفسرون كانوا كالحشيش الذى يخرج من الحظائر بعد البلا بتفتت ، واستدلوا عليه بقوله تعالى (هشيما تذروه الرياح) وهو من باب إقامة الصفة مقام الموصوف كما يقال رأيت جريحاً ومثله السعير .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ لماذا شبههم به ؟ قلنا يحتمل أن يكون التشبيه بكونهم يابسين كالحشيش بين الموتى الذين ماتوا من زمان وكأنه يقول سمعوا الصيحة فكانوا كأنهم ماتوا من أيام ، ويحتمل أن يكون لأنهم انضموا بعضهم إلى بعض كما ينضم الرفقاء عند الخوف داخلين بعضهم فى بعض فاجتمعوا بعضهم فوق بعض كحطب الحاطب الذى يصفه شيئاً فوق شيء منتظراً حضور من يشترى منه شيئاً فان الحطاب الذى عنده الحطب الكثير يجعل منه كالحظيرة ، ويحتمل أن يكون ذلك لبيان كونهم فى الجحيم أى كانوا كالحطب اليابس الذى الوقيد فهو محقق لقوله تعالى (إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم) وقوله تعالى (فكانوا لجهنم حطباً) وقوله (أغرقوا فأدخلوا ناراً) كذلك ماتوا فصاروا كالحطب الذى لا يكون إلا للاحراق لأن الهشيم لا يصلح للبناء .

ثم قال تعالى ﴿ ولقد يسرنا القرآن الذكر فهل من مدكر ﴾ والتكرار للتذكار .

ثم بين حال قوم آخرون وهم قوم لوط فقال ﴿ كذبت قوم لوط بالنذر ﴾ .

ثم بين عذابهم وإهلاكهم ، فقال ﴿ إنا أرسلنا عليهم حاصباً إلا آل لوط نجيناهم بسحر ﴾ وفيه مسائل :

﴿ الأولى ﴾ الحاصب فاعل من حصب إذا رمى الحصباء وهى اسم الحجارة والمرسل عليهم

هو نفس الحجارة قال الله تعالى (وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل) وقال تعالى عن الملائكة (لنرسل عليهم حجارة من طين) فالمرسل عليهم ليس بحاصب فكيف الجواب عنه ؟ نقول الجواب من وجوه (الأول) أرسلنا عليهم ريحاً حاصباً بالحجارة التي هي الحصباء وكثر استعمال الحاصب في الريح الشديدة فأقام الصفة مقام الموصوف ، فان قيل : هذا ضعيف من حيث اللفظ والمعنى ، أما اللفظ فلأن الريح مؤنثة قال تعالى (بريح صرصر عاتية ، بريح طيبة) وقال تعالى (إنا سخرنا له الريح تجري بأمره) وقال تعالى (غدوها شهر) وقال تعالى في ([وأرسلنا] الرياح لواقح) وما قال لقاحا ولا لقحة ، وأما المعنى فلأن الله تعالى بين أنه أرسل عليهم حجارة من سجيل مسومة عليها علامة كل واحد وهي لا تسمى حصباء ، وكان ذلك بأيدي الملائكة لا بالريح ، نقول : تأنيث الريح ليس حقيقة ولها أصناف الغالب فيها التذكير كالإعصار ، قال تعالى (فأصابها إعصار فيه نار) ولما كان حاصب حجارة كان كالذي فيه نار ، وأما قوله كان الرمي بالسجيل لا بالحصباء ، وبأيدي الملائكة لا بالريح ، فنقول كل ريح يرمى بحجارة يسمى حاصباً ، وكيف لا والسحاب الذي يأتي بالبرد يسمى حاصباً تشبيهاً للبرد بالحصباء ، فكيف لا يقال في السجيل . وأما الملائكة فإنهم حركوا الريح وهي حصبت الحجارة عليهم (الجواب الثاني) المراد عذاب حاصب وهذا أقرب لتناوله الملك والحساب والريح وكل ما يفرض (الجواب الثالث) قوله (حاصباً) هو أقرب من الكل لأن قوله (إنا أرسلنا) يدل على مرسل هو مرسل الحجارة وحاصبها ، فان قيل كان ينبغي أن يقول حاصبين ، نقول لما لم يذكر الموصوف رجح جانب اللفظ كأنه قال شيئاً حاصباً إذ المقصود بيان جنس العذاب لا بيان من على يده العذاب ، وهذا وارد على من قال الريح مؤنث لأن ترك التأنيث هناك كترك علامة الجمع هنا .

﴿ المسألة الثانية ﴾ ما رتب الإرسال على التكذيب بالفاء فلم يقل (كذبت قوم لوط بالنذر) فأرسلنا كما قال (ففتحنا أبواب السماء) لأن الحكاية مسوقة على مساق ما تقدم من الحكايات ، فكأنه قال (فكيف كان عذابي ونذر) كما قال من قبل ثم قيل لا علم لنا به وإنما أنت العليم فأخبرنا ، فقال (إنا أرسلنا) .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ ما الحكمة في ترك العذاب حيث لم يقل (فكيف كان عذابي) كما قال في الحكايات الثلاث ، نقول لأن التكرار ثلاث مرات بالغ ، ولهذا قال صلى الله عليه وسلم « ألا هل بلغت ثلاثاً » وقال صلى الله عليه وسلم « فنكاحها باطل باطل باطل » والإذكار تكرر ثلاث مرات فبثلاث مرار حصل التأكيد وقد بينا أنه تعالى ذكر (فكيف كان عذابي) في حكاية نوح للتعظيم . وفي حكاية ثمود للبيان وفي حكاية عاد أعادها مرتين للتعظيم والبيان جميعا واعلم أنه تعالى ذكر (فكيف كان عذابي) في ثلاث حكايات أربع مرات فالمرة الواحدة للانذار ، والمرات الثلاث للاذكار ، لأن المقصود حصل بالمرة الواحدة ، وقوله تعالى (فبأي آلاء ربكما تكذبان) ذكره مرة للبيان وأعادها ثلاثين مرة غير المرة الأولى كما أعاد (فكيف كان عذابي ونذر) ثلاث مرات غير المرة

الأولى فكان ذكر الآلاء عشرة أمثال ذكر العذاب إشارة إلى الرحمة التي قال في بيانها (من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ، ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها) وسنبين ذلك في سورة (الرحمن).

﴿ المسألة الرابعة ﴾ (إلا آل لوط) استثناء مما ذا ؟ إن كان من الذين قال فيهم (إنا أرسلنا عليهم حاصباً) فالضمير في عليهم عائد إلى قوم لوط وهم الذين قال فيهم (كذبت قوم لوط) ثم قال (إنا أرسلنا عليهم) لكن لم يستثن عند قوله (كذبت قوم لوط) وآله من قومه فيكون آله قد كذبوا ولم يكن كذلك ؟ الجواب عنه من وجهين (أحدهما) أن الاستثناء ممن عاد إليهم الضمير في عليهم وهم القوم بأسرهم غير أن قوله كذبت قوم لوط لا يوجب كون آله مكذبين ، لأن قول القائل عصى أهل بلدة كذا يصح وإن كان فيها شرذمة قليلة يطيعون فكيف إذا كان فيهم واحد أو اثنان من المطيعين لا غير ، فإن قيل ماله حاجة إلى الاستثناء لأن قوله (إنا أرسلنا عليهم) يصح وإن نجا منهم طائفة يسيرة نقول الفائدة لما كانت لا تحصل إلا ببيان إهلاك من كذب وإنجاء من آمن فكان ذكر الإنجاء مقصودا ، وحيث يكون القليل من الجمع الكثير مقصوداً لا يجوز التعميم والاطلاق من غير بيان حال ذلك المقصود بالاستثناء أو بكلام منفصل مثاله (فسجد الملائكة كلهم أجمعون إلا إبليس) استثنى الواحد لأنه كان مقصوداً ، وقال تعالى (وأوتيت من كل شيء) ولم يستثن إذ المقصود بيان أنها أوتيت ، لا بيان أنها ما أوتيت ، وفي حكاية إبليس كلاهما مراد ليعلم أن من تكبر على آدم عوقب ومن تواضع أثيب كذلك القول ههنا ، وأما عند التكذيب فكأن المقصود ذكر المكذبين فلم يستثن (الجواب الثاني) أن الاستثناء من كلام مدلول عليه ، كأنه قال (إنا أرسلنا عليهم حاصباً) فما أنجينا من الحاصب إلا آل لوط ، وجاز أن يكون الإرسال عليهم والإهلاك يكون عاما كما في قوله تعالى (واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة) فكان الحاصب أهلك من كان الإرسال عليه مقصوداً ومن لم يكن كذلك كأطفالهم ودوابهم ومساكنهم فما نجا منهم أحد إلا آل لوط . فان قيل إذا لم يكن الاستثناء من قوم لوط بل كان من أمر عام فيجب أن يكن لوط أيضاً مستثنى ؟ نقول هو مستثنى عقلا لأن من المعلوم أنه لا يجوز تركه وإنجاء أتباعه والذي يدل عليه أنه مستثنى قوله تعالى عن الملائكة (نحن أعلم بمن فيها لننجينه وأهله إلا امرأته) في جوابهم لإبراهيم عليه السلام حيث قال (إن فيها لوطاً) فإن قيل قوله في سورة الحجر (إلا آل لوط إنا لمنجوهم) استثناء من المجرمين وآل لوط لم يكونوا مجرمين فكيف استثنى منهم ؟ والجواب مثل ماذكرنا فأحد الجوابين إنا أرسلنا إلى قوم يصدق عليهم إنهم مجرمون وإن كان فيهم من لم يجرم (ثانيهما) إلى قوم مجرمين بإهلاك يعم الكل إلا آل لوط ، وقوله تعالى (نجيناهم بسحر) كلام مستأنف لبيان وقت الإنجاء أو لبيان كيفية الاستثناء لأن آل لوط كان يمكن أن يكونوا فيهم ولا يصيبهم الحاصب كما في عاد كانت الريح تقلع الكافر ولا يصيب المؤمن منها مكروه أو يجعل لهم مدفعاً كما في قوم نوح ، فقال (نجيناهم بسحر) أي أمرناهم بالخروج من القرية في آخر الليل والسحر قبيل الصبح وقيل هو السدس الأخير من الليل

نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي مَن شَكَرَ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ ﴿٣٦﴾

ثم قال تعالى ﴿ نعمة من عندنا كذلك نجزى من شكر ﴾ أى ذلك الإنجاء كان فضلا منا؛ أن ذلك الإهلاك كان عدلا ولو أهلكوا لكان ذلك عدلا ، قال تعالى (واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة) قال الحكماء العضو الفاسد يقطع ولا بد أن يقطع معه جزء من الصحيح ليحصل استئصال الفساد ، غير أن الله تعالى قادر على التمييز التام فهو مختار إن شاء أهلك من آمن وكذب ، ثم يثبت الذين أهلكهم من المصدقين فى دار الجزاء وإن شاء أهلك من كذب ، فقال نعمة من عندنا إشارة إلى ذلك وفى نصبها وجهان (أحدهما) أنه مفعول له كأنه قال : نجيناهم نعمة منا (ثانيهما) على أنه مصدر ، لأن الإنجاء منه إنعام فكأنه تعالى قال أنعمنا عليهم بالإنجاء إنعاما وقوله تعالى (كذلك نجزى من شكر) فيه وجهان (أحدهما) ظاهر وعليه أكثر المفسرين وهو أنه من آمن كذلك ننجيه من عذاب الدنيا ولا نهلكه وعداً لأمة محمد صلى الله عليه وسلم المؤمنين بأنه يصونهم عن الإهلاكات العامة والسيئات المطبقة الشاملة (وثانيهما) وهو الأصح أن ذلك وعدلهم وجزاؤهم بالثواب فى دار الآخرة كأنه قال كما نجيناهم فى الدنيا ، أى كما أنعمنا عليهم ننعم عليهم يوم الحساب والذى يؤيد هذا أن النجاة من الإهلاكات فى الدنيا ليس بلازم ، ومن عذاب الله فى الآخرة لازم بحكم الوعيد ، وكذلك ينجى الله الشاكرين من عذاب النار ويذر الظالمين فيه ، ويدل عليه قوله تعالى (من يرد ثواب الدنيا نؤته منها ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها وسنجزى الشاكرين) وقوله تعالى (فأثابهم الله بما قالوا جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك جزاء المحسنين) والشاكر محسن فعلم أن المراد جزاؤهم فى الآخرة .

ثم قال تعالى ﴿ ولقد أنذرهم بطشتنا فتماروا بالنذر ﴾ وفيه تبرئة لوط عليه السلام وبيان أنه أتى بما عليه فانه تعالى لما رتب التعذيب على التكذيب وكان من الرحمة أن يؤخره ويقدم عليه الإنذارات البالغة بين ذلك فقال أهلكناهم وكان قد أنذرهم من قبل ، وفى قوله (بطشتنا) وجهان (أحدهما) المراد البطشة التى وقعت وكان يخوفهم بها ، ويدل عليه قوله تعالى (إنا أرسلنا عليهم حاصباً) فكأنه قال : إنا أرسلنا عليهم ماسبق ، ذكرها للانذار بها والتخويف (وثانيهما) المراد بها ما فى الآخرة كما فى قوله تعالى (يوم نبطش البطشة الكبرى) وذلك لأن الرسل كلهم كانوا ينذرون قومهم بعذاب الآخرة كما قال تعالى (فأنذرتكم ناراً تلظى) وقال (وأنذرهم يوم الآزفة) وقال تعالى (إنا أنذرناكم عذاباً قريباً) إلى غير ذلك ، وعلى ذلك ففيه لطيفة وهى أن الله تعالى قال (إن بطش ربك لشديد) وقال ههنا (بطشتنا) ولم يقل بطشنا وذلك لأن قوله تعالى (إن بطش

وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾

ربك لشديد) بيان لجنس بطشه ، فاذا كان جنسه شديداً فكيف الكبرى منه ، وأما لوط عليه السلام فذكر لهم البطشة الكبرى لئلا يكون مقصراً فى التبليغ ، وقوله تعالى (فتماروا بالنذر) يدل على أن النذر هى الإنذارات .

ثم قال تعالى ﴿ ولقد راودوه عن ضيفه فطمسنا أعينهم فذوقوا عذابى ونذر ﴾ والمراودة من الرود ، ومنه الإرادة وهى قريبة من المطالبة غير أن المطالبة تستعمل فى العين يقال طالب زيد عمراً بالدراهم ، والمراودة لاتستعمل إلا فى العمل يقال راوده عن المساعدة ، ولهذا تعدى المراودة إلى مفعول ثان بعن ، والمطالبة بالباء ، وذلك لأن الشغل منوط باختيار الفاعل ، والعين قد توجد من غير اختيار منه وهذا فرق الحال ، فاذا قلت أخبرنى بأمره تعين عليه الخبر العين ، بخلاف ما إذا قيل عن كذا ، ويزيد هذا ظهوراً قول القائل أخبرنى زيد عن مجىء فلان ، وقوله أخبرنى بمجيئه فان من قال عن مجيئه ربما يكون الإخبار عن كيفية المجىء لا عن نفسه وأخبرنى بمجيئه لا يكون إلا عن نفس المجىء والضيف يقع على الواحد والجماعة ، وقد ذكرناه فى سورة الذاريات وكيفية المراودة مذكورة فيما تقدم ، وهى أنهم كانوا مفسدين وسمعوا بضيف دخلوا على لوط فراودوه عنهم . وقوله (فطمسنا أعينهم) نقول إن جبريل كان فيهم فضرب ببعض جناحه على وجوههم فأعماهم ، وفى الآية مسائل :

﴿ الأولى ﴾ الضمير فى راودوه إن كان عائداً إلى قوم لوط فما فى قوله (أعينهم) أيضاً عائداً إليهم فيكون قد طمس أعين قوم ولم يطمس إلا أعين قليل منهم وهم الذين دخلوا دار لوط ، وإن كان عائداً إلى الذين دخلوا الدار فلا ذكر لهم فكيف القول فيه ؟ نقول المراودة حقيقة حصلت من جمع منهم لكن لما كان الأمر من القوم وكان غيرهم ذلك مذهبه أسندها إلى الكل ثم بقوله راودوه حصل قوم هم المراودون حقيقة فعاد الضمير فى أعينهم إليهم مثاله قول القائل الذين آمنوا صلوا فصحت صلاتهم فيكون هم فى صلاتهم عائداً إلى الذين صلوا بعد ما آمنوا ولا يعود إلى مجرد الذين آمنوا لأنك لو اقتصرت على الذين آمنوا فصحت صلاتهم لم يكن كلاماً منظوماً ولو قلت الذين صلوا فصحت صلاتهم صح الكلام ، فعلم أن الضمير عائد إلى ما حصل بعد قوله (راودوه) والضمير فى راودوه عائد إلى المنذرين المتمارين بالنذر .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال ههنا (فطمسنا أعينهم) وقال فى يس (ولو نشاء لطمسنا على أعينهم) فما الفرق ؟ نقول هذا مما يؤيد قول ابن عباس فإنه نقل عنه أنه قال المراد من الطمس الحجب عن الإدراك فما جعل على بصرهم شىء غير أنهم دخلوا ولم يروا هناك شيئاً فكانوا كالمطموسين ، وفى يس أراد أنه لو شاء لجعل على بصرهم غشاوة ، أى ألزق أحد الجفنين بالآخر فيكون على

العين جلدة فيكون قد طمس عليها ، وقال غيره إنهم عموا وصارت عينهم مع وجههم كالصفحة الواحدة ، ويؤيده قوله تعالى (فذوقوا عذابى) لأنهم إن بقوا مصرين ولم يروا شيئاً هناك لا يكون ذلك عذاباً والطمس بالمعنى الذى قاله غير ابن عباس عذاب ، فنقول الأولى أن يقال إنه تعالى حكى ههنا ما وقع وهو طمس العين وإذهاب ضوئها وصورتها بالكلية حتى صارت وجوههم كالصفحة الملساء ولم يمكنهم الإنكار لأنه أمر وقع ، وأما هناك فقد خوفهم بالممكن المقدور عليه فاختار ما يصدقه كل أحد ويعرف به وهو الطمس على العين ، لأن إطباق الجفن على العين أمر كثير الوقوع وهو بقدرة الله تعالى وإرادته فقال (ولو نشاء لطمسنا على أعينهم) وما شققنا جفنهم عن عينهم وهو أمر ظاهر الإمكان كثير الوقوع والطمس على ماوقع لقوم لوط نادر ، فقال هناك على أعينهم ليكون أقرب إلى القبول .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قوله تعالى (فذوقوا عذابى ونذر) خطاب بمن وقع ومع من وقع ؟ قلنا فيه وجوه (أحدها) فيه إضمار تقديره فقلت على لسان الملائكة ذوقوا عذابى (ثانيها) هذا خطاب مع كل مكذب تقديره كنتم تكذبون فذوقوا عذابى فإنهم لما كذبوا ذاقوه (ثالثها) أن هذا الكلام خرج مخرج كلام الناس فإن الواحد من الملوك إذا أمر بضرب مجرم وهو شديد الغضب فإذا ضرب ضرباً مبرحا وهو يصرخ والملك يسمع صراخه يقول عند سماع صراخه ذق إنك مجرم مستأهل ويعلم الملك أن المعذب لا يسمع كلامه ويخاطب بكلامه المستغيث الصارخ . وهذا كثير فكذلك لما كان كل أحد بمرآى من الله تعالى يسمع إذا عذب معانداً كان قد سخط الله عليه يقول (ذق إنك أنت العزيز الكريم) (ذوقوا لقاء يومكم هذا) (فذوقوا عذابى) ولا يكون به مخاطباً لمن يسمع ويجيب ، وذلك إظهار العدل أى لست بغافل عن تعذيبك فتتخلص بالصراخ والضراعة ، وإنما أنا بك عالم وأنت له أهل لما قد صدر منك ، فان قيل هذا وقع بغير الفاء ، وأما بالفاء فلا تقول وبالفاء فإنه ربما يقول كنتم تكذبون فذوقوا .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ النذر كيف يذاق ؟ نقول معناه ذق فعلك أى مجازاة فعلك وموجبه ويقال ذق الألم على فعلك وقوله (فذوقوا عذابى) كقولهم ذق الألم ، وقوله (ونذر) كقولهم ذق فعلك أى ذق مالزم من إنذارى ، فان قيل فعلى هذا لا يصح العطف لأن قوله (فذوقوا عذابى) ومالزم من إنذارى وهو العذاب يكون كقول القائل ذوقوا عذابى وعذابى ؟ نقول قوله تعالى (فذوقوا عذابى) أى العاجل منه ، وما لزم من إنذارى وهو العذاب الآجل ، لأن الإنذار كان به على ماتقدم بيانه ، فكأنه قال : ذوقوا عذابى العاجل وعذابى الآجل ، فإن قيل هما لم يكونا فى زمان واحد ، فكيف يقال ذوقوا ، نقول العذاب الآجل أوله متصل بآخر العذاب العاجل ، فهما كالواقع فى زمان واحد وهو كقوله تعالى (أغرقوا فأدخلوا ناراً) .

وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾

ثم قال تعالى ﴿ ولقد صبحهم بكرة عذاب مستقر ﴾ أى العذاب الذى عم القوم بعد الخاص الذى طمس أعين البعض ، وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ (صبحهم) فيه دلالة على الصبح ، فما معنى (بكرة) ؟ نقول فائدته تبيين انطراقه فيه ، فقوله (بكرة) يحتمل وجهين (أحدهما) أنها منصوبة على أنها ظرف ، ومثله نقول فى قوله تعالى (أسرى بعبده ليلا) وفيه بحث ، وهو أن الزمخشرى قال : ما الفائدة فى قوله (ليلا) وقال جواباً فى التنكير دلالة على أنه كان فى بعض الليل ، وتمسك بقراءة من قرأ (من الليل) وهو غير ظاهر ، والأظهر فيه أن يقال بأن الوقت المبهم يذكر لبيان أن تعيين الوقت ليس بمقصود المتكلم وأنه لايريد بيانه ، كما يقول : خرجنا فى بعض الأوقات ، مع أن الخروج لا بد من أن يكون فى بعض الأوقات ، فإنه لايريد بيان الوقت المعين ، ولو قال خرجنا ، فربما يقول السامع متى خرجتم ، فإذا قال فى بعض الأوقات أشار إلى أن غرضه بيان الخروج لا تعيين وقته ، فكذلك قوله تعالى (صبحهم بكرة) أى بكرة من البكر (وأسرى بعبده ليلا) أى ليلا من الليالى فلا أبينه ، فإن المقصود نفس الإسراء ، ولو قال أسرى بعبده من المسجد الحرام ، لكان للسامع أن يقول إيما ليلة ؟ فإذا قال ليلة من الليالى قطع سؤاله وصار كأنه قال لا أبينه ، وإن كان القائل ممن يجوز عليه الجهل ، فإنه يقول لا أعلم الوقت ، فهذا أقرب فإذا علمت هذا فى أسرى ليلا ، فاعلم مثله فى (صبحهم بكرة) ويحتمل أن يقال على هذا الوجه (صبحهم) بمعنى قال لهم . عموا صباحاً استهزاء بهم ، كما قال (فبشرهم بعذاب أليم) فكأنه قال : جاءهم العذاب بكرة كالمصبح ، والأول أصح ، ويحتمل فى قوله تعالى (صبحهم بكرة) على قولنا إنها منصوبة على الظرف ما لا يحتمله قوله تعالى (أسرى بعبده ليلا) وهو أن (صبحهم) معناه أتاهم وقت الصبح ، لكن التصبيح يطلق على الإتيان فى أزمنة كثيرة من أول الصبح إلى ما بعد الإسفار ، فإذا قال (بكرة) أفاد أنه كان أول جزء منه ، وما أخر إلى الإسفار ، وهذا أوجه وأليق . لأن الله تعالى أوعدهم به وقت الصبح ، بقوله (إن موعدهم الصبح) وكان من الواجب بحكم الإخبار تحققه بمجيء العذاب فى أول الصبح ، ومجرد قراءة (صبحهم) ما كان يفيد ذلك ، وهذا أقوى لأنك تقول : صبيحة أمس بكرة واليوم بكرة ، فيأتى فيه ماذكرنا من أن المراد بكرة من البكر (الوجه الثانى) أنها منصوبة على المصدر من باب ضربته سوطاً ضرباً فإن المنصوب فى ضربته ضرباً على المصدر ، وقد يكون غير المصدر كما فى ضربته سوطاً ضرباً ، لا يقال ضرباً سوطاً بين أحد أنواع الضرب ، لأن الضرب قد يكون بسوط وقد يكون بغيره ، وأما (بكرة) فلا يبين ذلك ، لأنا نقول قد بينا أن بكرة تبين ذلك ، لأن الصبح قد يكون بالإتيان وقت الإسفار ، وقد يكون بالإتيان بالأبكار ، فإن قيل مثله يمكن أن يقال فى

فَذُوقُواْ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٤٠﴾ وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ ﴿٤١﴾ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَـٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾

(أسرى بعبده ليلا) قلنا نعم ، فإن قيل ليس هناك بيان نوع من أنواع الإسراء ، نقول هو كقول القائل : ضربته شيئاً ، فإن شيئاً لا بد منه فى كل ضرب ، ويصح ذلك على أنه نصب على المصدر ، وفائدته ما ذكرنا من بيان عدم تعلق الغرض بأنواعه ، وكأن القائل يقول . إنى لا أبين ما ضربته به ، ولا أحتاج إلى بيانه لعدم تعلق المقصود به ليقطع سؤال السائل : بماذا ضربه بسوط أو بعصا ، فكذلك القول فى (أسرى بعبده ليلا) يقطع سؤال السائل عن الإسراء ، لأن الإسراء هو السير أول الليل ، والسرى هو السير آخر الليل أو غير ذلك .

﴿ المسألة الثانية ﴾ (مستقر) يحتمل وجوهاً (أحدها) عذاب لا مدفع له ، أى يستقر عليهم ويثبت ، ولا يقدر أحد على إزالته ورفعه . أو إحالته ودفعه (ثانيها) دائم ، فإنهم لما أهلكوا نقلوا إلى الجحيم ، فكأن ما أتاهم عذاب لا يندفع بموتهم ، فإن الموت يخلص من الألم الذى يجده المضروب من الضرب والمحبوس من الحبس ، وموتهم ما خلصهم (ثالثها) عذاب مستقر عليهم لا يتعدى غيرهم ، أى هو أمر قد قدره الله عليهم وقرره فاستقر ، وليس كما يقال إنه أمر أصابهم إتفاقاً كالبرد الذى يضر زرع قوم دون قوم ، ويظن به أنه أمر اتفاقى ، وليس لو خرجوا من أماكنهم لنجوا كما نجا آل لوط ، بل كان ذلك يتبعهم ، لأنه كان أمراً قد استقر .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ الضمير فى (صبحهم) عائد إلى الذين عاد إليهم الضمير فى أعينهم فيعود لفظاً إليهم للقرب ، ومعنى إلى الذين تماروا بالنذر ، أو الذين عاد إليهم الضمير فى قوله (ولقد أنذرهم بطشتنا) .

ثم قال تعالى ﴿ فذوقوا عذابى ونذر ﴾ مرة أخرى ، لأن العذاب كان مرتين (أحدهما) خاص بالمراودين ، والآخر عام .

وقوله تعالى ﴿ ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر ﴾ قد فسرناه مراراً وبينا ما لأجله تكراراً

ثم قال تعالى ﴿ ولقد جاء آل فرعون النذر ، كذبوا بآياتنا كلها فأخذناهم أخذ عزيز مقتدر ﴾ وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ ما الفائدة فى لفظ (آل فرعون) بدل قوم فرعون ؟ نقول القوم أعم من الآل ، فالقوم كل من يقوم الرئيس بأمرهم أو يقومون بأمره ، والآل كل من يؤول إلى

الرئيس خيرهم وشرهم أو يؤول إليهم خيره وشره ، فالبعيد الذى لا يعرفه الرئيس ولا يعرف هو عين الرئيس وإنما يسمع اسمه ، فليس هو بآله ، إذا عرفت الفرق ، نقول قوم الأنبياء الذين هم غير موسى عليهم السلام ، لم يكن فيهم قاهر يقهر الكل ويجمعهم على كلمة واحدة ، وإنما كانوا هم رؤساء وأتباعاً ، والرؤساء إذا كثروا لا يبقى لأحد منهم حكم نافذ على أحد ، أما على من هو مثله فظاهر ، وأما على الأراذل فلأنهم يلجئون إلى واحد منهم ويدفعون به الآخر ، فيصير كل واحد برأسه ، فكأن الإرسال إليهم جميعاً ، وأما فرعون فكان قاهراً يقهر الكل ، وجعلهم بحيث لا يخالفونه فى قليل ولا كثير ، فأرسل الله إليه الرسول وحده ، غير أنه كان عنده جماعة من التابعين المقربين مثل قارون تقدم عنده لماله العظيم ، وهامان لدهائه ، فاعتبرهم الله فى الإرسال ، حيث قال فى مواضع (ولقد أرسلنا موسى بآياتنا إلى فرعون وملائه) وقال تعالى (بآياتنا إلى فرعون وهامان وقارون) وقال فى العنكبوت (وقارون وفرعون وهامان ولقد جاءهم موسى) لأنهم إن آمنوا آمن الكل بخلاف الأقوام الذين كانوا قبلهم وبعدهم ، فقال (ولقد جاء آل فرعون النذر) وقال كثيراً مثل هذا كما فى قوله (أدخلوا آل فرعون أشد العذاب) ، (وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه) وقال بلفظ الملأ أيضاً كثيراً .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال (ولقد جاء) ولم يقل فى غيرهم جاء لأن موسى عليه السلام ما جاءهم ، كما جاء المرسلون أقوامهم ، بل جاءهم حقيقة حيث كان غائباً عن القوم فقدم عليهم ، ولهذا قال تعالى (فلما جاء آل لوط المرسلون) وقوله تعالى (لقد جاءكم رسول من أنفسكم) حقيقة أيضاً لأنه جاءهم من الله من السموات بعد المعراج ، كما جاء موسى قومه من الطور حقيقة .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ النذر إن كان المراد منها الإنذارات وهو الظاهر ، فالكلام الذى جاءهم على لسان موسى ويده تلك ، وإن كان المراد الرسل فهو لأن موسى وهرون عليهما السلام جاءه وكل مرسل تقدمهما جاء لأنهم كلهم قالوا ما قالا من التوحيد وعبادة الله وقوله بعد ذلك (كذبوا بآياتنا) من غير فاء تقتضى ترتب التكذيب على المجىء فيه وجهان (أحدهما) أن الكلام تم عند قوله (ولقد جاء آل فرعون النذر) وقوله (كذبوا) كلام مستأنف والضمير عائد إلى كل من تقدم ذكرهم من قوم نوح إلى آل فرعون (ثانيهما) أن الحكاية مسوقة على سياق ما تقدم ، فكأنه قال : (فكيف كان عذابى ونذر) وقد كذبوا بآياتنا كلها فأخذناهم ، وعلى الوجه الأول آياتنا كلها ظاهرة ، وعلى الوجه الثانى المراد آياته التى كانت مع موسى عليه السلام وهى التسع فى قول أكثر المفسرين ، ويحتمل أن يقال المراد أنهم كذبوا بآيات الله كلها السمعية والعقلية فإن فى كل شىء له آية تدل على أنه واحد .

وقوله تعالى (فأخذناهم) إشارة إلى أنهم كانوا كالآبقين أو إلى أنهم عاصون يقال أخذ الأمير فلاناً إذا حبسه ، وفى قوله (عزيز مقتدر) لطيفة وهى أن العزيز المراد منه الغالب لكن العزيز قد يكون [الذى] يغلب على العدو ويظفر به وفى الأول يكون غير متمكن من أخذه لبعده إن كان هارباً ولمنعته إن

أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُولَٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٤٣﴾

كان محارباً ، فقال أحد غالب لم يكن عاجزاً وإنما كان ممهلا .

ثم قال تعالى ﴿ أكفاركم خير من أولئكم أم لكم براءة فى الزبر ﴾ تنبيهاً لهم لئلا أمنوا العذاب فإنهم ليسوا بخير من أولئك الذين أهلكوا وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ الخطاب مع أهل مكة فينبغي أن يكون كفارهم بعضهم وإلا لقال أنتم خير من أولئكم ، وإذا كان كفارهم بعضهم فكيف قال (أم لكم براءة) ولم يقل أم لهم كما يقول القائل جاءنا الكرماء فأكرمناهم ، ولا يقول فأكرمناكم ؟ نقول الجواب عنه من وجهين (أحدهما) أن المراد منه أكفاركم المستمرون على الكفر الذين لا يرجعون وذلك لأن جمعاً عظيما ممن كان كافراً من أهل مكة يوم الخطاب أيقنوا بوقوع ذلك ، والعذاب لا يقع إلا بعد العلم بأنه لم يبق من القوم من يؤمن فقال : الذين يصرون منكم على الكفر بأهل مكة خير ، أم الذين أصروا من قبل ؟ فيصح كون التهديد مع بعضهم ، وأما قوله تعالى (أم لكم براءة) ففيه وجهان (أحدهما) أم لكم لعمومكم براءة فلا يخاف المصر منكم لكونه فى قوم لهم براءة (وثانيهما) أم لكم براءة إن أصررتم فيكون الخطاب عاما والتهديد كذلك ، فالشرط غير مذكور وهو الإصرار .

﴿ المسألة الثانية ﴾ ما المراد بقوله خير ، وقول القائل خير يقتضى اشتراك أمرين فى صفة محمودة مع رجحان أحدهما على الآخر ولم يكن فيهم خير ولا صفة محمودة ؟ نقول : الجواب عنه من وجوه (أحدها) منع اقتضاء الاشتراك يدل عليه قول حسان :

[أتهجوه ولست له بكفء] فشركما لخيركما الفداء

مع اختصاص الخير بالنبى عليه السلام والشر بمن هجاه وعدم اشتراكهما فى شىء منهما (ثانيها) أن ذلك عائد إلى ما فى زعمهم أى . أيزعم كفاركم أنهم خير من الكفار المتقدمين الذين أهلكوا وهم كانوا يزعمون فى أنفسهم الخير ، وكذا فيمن تقدمهم من عبدة الأوثان ومكذبى الرسل وكانوا يقولون إن الهلاك كان بأسباب سماوية من اجتماع الكواكب على هيئة مذمومة (ثالثها) المراد : أكفاركم أشد قوة ، فكأنه قال أكفاركم خير فى القوة ؟ والقوة محمودة فى العرف (رابعها) أن كل موجود ممكن ففيه صفات محمودة وأخرى غير محمودة فاذا نظرت إلى المحمودة فى الموضعين وقابلت إحداهما بالأخرى ، تستعمل فيها لفظ الخير ، وكذلك فى الصفات المذمومة تستعمل فيها لفظ الشر ؟ فاذا نظرت إلى كافرين وقلت أحدهما خير من الآخر فلك حينئذ أن تريد أحدهما خير من الآخر فى الحسن والجمال ، وإذا نظرت إلى مؤمنين بؤذيانك قلت أحدهما شر من الآخر ، أى فى الأذية لا الإيمان فكذلك ههنا أكفاركم خير لأن النظر وقع على ما يصلح خلاصاً لهم من العذاب ، فهو كما يقال أكفاركم فيهم شىء مما يخلصهم لم يكن فى غيرهم فهم خير أم لا شىء فيهم يخلصهم لكن الله بفضله أمنهم لاخلاصا منهم .

أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ ﴿٤٤﴾

﴿ المسألة الثالثة ﴾ أم لكم براءة إشارة إلى سبب آخر من أسباب الخلاص ، وذلك لأن الخلاص إما أن يكون بسبب أمر فيهم أو لا يكون كذلك ، فإن كان بسبب أمر فيهم وذلك السبب لم يكن فى غيرهم من الذين تقدموهم فيكونون خيراً منهم وإن كان لا بسبب أمر فيهم فيكون بفضل الله ومسامحته إياهم وإيمانه إياهم من العذاب فقال لهم أنتم خير منهم فلا تهلكون أم لستم بخير منهم لكن الله آمنكم وأهلكهم وكل واحد منهما منتف فلا تأمنوا ، وقوله تعالى (أم لكم براءة فى الزبر) إشارة إلى لطيفة وهى أن العاقل لا يأمن إلا إذا حصل له الجزم بالأمن أو صار له آيات تقرب الأمر من القطع ، فقال لكم براءة يوثق بها وتكون متكررة فى الكتب ، فإن الحاصل فى بعض الكتب ربما يحتمل التأويل أو يكون قد تطرق إليه التحريف والتبديل كما فى التوراة والإنجيل ، فقال هل حصل لكم براءة متكررة فى كتب تأمنون بسببها العذاب فإن لم يكن كذلك لا يجوز الأمن لكن البراءة لم تحصل فى كتب ولا كتاب واحد ولا شبه كتاب ، فيكون أمنهم من غاية الغفلة . وعند هذا تبين فضل المؤمن ، فإنه مع ما فى كتاب الله الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، من الوعد لا يأمن وإن بلغ درجة الأولياء والأنبياء ، لما فى آيات الوعيد من احتمال التخصيص ، وكون كل واحد ممن يستثنى من الأمة ويخرج عنها فالمؤمن خائف والكافر آمن فى الدنيا ، وفى الآخرة الأمر على العكس .

ثم قال تعالى ﴿ أم يقولون نحن جميع منتصر ﴾ تتميما لبيان أقسام الخلاص وحصره فيها ، وذلك لأن الخلاص إما أن يكون لاستحقاق من يخلص عن العذاب كما أن الملك إذا عذب جماعة ورأى فيهم من أحسن إليه فلا يعذبه ، وإما أن يكون لأمر فى المخلص كما إذا رأى فيهم من له ولد صغير أو أم ضعيفة فيرحمه وإن لم يستحق ويكتب له الخلاص ، وإما أن لا يكون فيه ما يستحق الخلاص بسببه ولا فى نفس المعذب مما يوجب الرحمة لكنه لا يقدر عليه بسبب كثرة أعوانه وتعصب إخوانه ، كما إذا هرب واحد من الملك والتجأ إلى عسكر يمنعون الملك عنه ، فكما نفى القسمين الأولين كذلك نفى القسم الثالث وهو التمنع بالأعوان وتحزب الإخوان ، وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ فى حسن الترتيب وذلك لأن المستحق لذاته أقرب إلى الخلاص من المرحوم ، فإن المستحق لم يوجد فيه سبب العذاب والمرحوم وجد فيه ذلك ، ووجد المانع من العذاب . وما لا سبب له لا يتحقق أصلا ، وماله مانع ربما لا يقوى المانع على دفع السبب ، وما فى نفس المعذب من المانع أقوى من الذى بسبب الغير ، لأن الذى من عنده يمنع الداعيه ولا يتحقق الفعل عند عدم الداعيه ، والذى من الغير بسبب التمنع لا يقطع قصده بل يجتهد وربما يغلب فيكون تعذيبه أضعاف ما كان من قبل ، بخلاف من يرق له قلبه وتمنعه الرحمة فإنها وإن لم تمنعه

سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾

لكن لا يزيد فى حمله وحبسه وزيادته فى التعذيب عند القدرة ، فهذا ترتيب فى غاية الحسن .

﴿ المسألة الثانية ﴾ جميع فيه فائدتان إحداهما الكثرة والأخرى الاتفاق . كأنه قال نحن كثير متفقون فلنا الانتصار ولا يقوم غير هذه اللفظة مقامها من الألفاظ المفردة ، إنما قلنا إن فيه فائدتين لأن الجمع يدل على الجماعة بحروفه الأصلية من ج م ع وبوزنه وهو فعيل بمعنى مفعول على أنهم جمعوا جمعيتهم العصبية ، ويحتمل أن يقال معناه نحن الكل لا خارج عنا إشارة إلى أن من اتبع النبى صلى الله عليه وسلم لا اعتداد به قال تعالى فى نوح (أنؤمن لك واتبعك الأرذلون) (إلا الذين هم أراذلنا بادى الرأى) وعلى هذا جميع يكون التنوين فيه لقطع الإضافة كأنهم قالوا نحن جمع الناس .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ ما وجه إفراد المنتصر مع أن نحن ضمير الجمع ؟ نقول على الوجه الأول ظاهر لأنه وصف الجزء الآخر الواقع خبراً فهو كقول القائل : أنتم جنس منتصر وهم عسكر غالب والجميع كالجنس لفظه لفظ واحد ، ومعناه جمع فيه الكثرة ، وأما على الوجه الثانى فالجواب عنه من وجهين (أحدهما) أن المعنى وإن كان جميع الناس لا خارج عنهم إلا من لا يعتد به ، لكن لما قطع ونون صار كالمنكر فى الأصل فجاز وصفه بالمنكر نظراً إلى اللفظ فعاد إلى الوجه الأول (وثانيهما) أنه خبر بعد خبر ، ويجوز أن يكون أحد الخبرين معرفة والآخرين نكرة ، قال تعالى (وهو الغفور الودود ، ذو العرش المجيد ، فعال لما يريد) وعلى هذا فقوله (نحن جميع منتصر) أفرده لمجاورته جميع ، ويحتمل أن يقال معنى (نحن جميع منتصر) أن جميعاً بمعنى كل واحد كأنه قال نحن كل واحد منا منتصر ، كما تقول هم جميعهم أقوياء بمعنى أن كل واحد منهم قوى ، وهم كلهم علماء أى كل واحد عالم فترك الجمع واختار الإفراد لعود الخبر إلى كل واحد فإنهم كانوا يقولون كل واحد منا يغلب محمداً صلى الله عليه وسلم كما قال أبى بن خلف الجمحى . وهذا فيه معنى لطيف وهو أنهم ادعوا أن كل واحد غالب ، والله رد عليهم بأجمعهم بقوله :

﴿ سيهزم الجمع ويولون الدبر ﴾ وهو أنهم ادعوا القوة العامة بحيث يغلب كل واحد منهم محمداً صلى الله عليه وسلم والله تعالى بين ضعفهم الظاهر الذى يعمهم جميعهم بقوله (ويولون الدبر) وحينئذ يظهر سؤال وهو أنه قال (يولون الدبر) ولم يقل : يولون الأدبار . وقال فى موضع آخر (يولوكم الأدبار ثم لا ينصرون) وقال (ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لا يولون الأدبار) وقال فى موضع آخر (فلا تولوهم الأدبار) فكيف تصحيح الإفراد وما الفرق بين المواضع ؟ نقول أما التصحيح فظاهر لأن قول القائل فعلوا كقوله فعل هذا وفعل ذاك وفعل الآخر . قالوا وفى الجمع تنوب مناب الواوات التى فى العطف ، وقوله (يولون) بمثابة يولى هذا

﴿بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾﴾

الدبر ، ويولى ذاك ويولى الآخر أى كل واحد يولى دبره ، وأما الفرق فنقول اقتضاء أواخر الآيات حسن الإفراد ، فقوله (يولون الدبر) إفراده إشارة إلى أنهم فى التولية كنفس واحدة ، فلا يتخلف أحد عن الجمع ولا يثبت أحد للزحف فهم كانوا فى التولية كدبر واحد ، وأما فى قوله (فلا تولوهم الأدبار) أى كل واحد يوجد به ينبغى أن يثبت ولا يولى دبره ، فليس المنهى هناك توليتهم بأجمعهم بل المنهى أن يولى واحد منهم دبره ، فكل أحد منهى عن تولية دبره ، فجعل كل واحد برأسه فى الخطاب ثم جمع الفعل بقوله (فلا تولوهم) ولا يتم إلا بقوله (الأدبار) وكذلك فى قوله (ولقد كانوا عاهدوا الله) أى كل واحد قال أنا أثبت ولا أولى دبرى ، وأما فى قوله (ليولن الأدبار) فإن المراد المنافقون الذين وعدوا اليهود وهم متفرقون بدليل قوله تعالى (تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى) ، وأما فى هذا الموضع فهم كانوا يداً واحدة على من سواهم .

ثم قال تعالى ﴿بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر﴾ إشارة إلى أن الأمر غير مقتصر على انهزامهم وإدبارهم بل الأمر أعظم منه فإن الساعة موعدهم فإنه ذكر ما يصيبهم فى الدنيا من الدبر ، ثم بين ما هو منه على طريقة الإصرار ، هذا قول أكثر المفسرين ، والظاهر أن الانذار بالساعة عام لكل من تقدم ، كأنه قال أهلكنا الذين كفروا من قبلك وأصروا وقوم محمد عليه السلام ليسوا بخير منهم فيصيبهم ما أصابهم إن أصروا ، ثم إن عذاب الدنيا ليس لإتمام المجازاة فإتمام المجازاة بالأليم الدائم . وفيه مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ ما الحكمة فى كون اختصاص الساعة موعدهم مع أنها موعد كل أحد ؟ نقول الموعد الزمان الذى فيه الوعد والوعيد والمؤمن موعود بالخير ومأمور بالصبر فلا يقول هو متى يكون ، بل يفوض الأمر إلى الله ، وأما الكافر فغير مصدق فيقول متى يكون العذاب ؟ فيقال له اصبر فإنه آت يوم القيامة ، ولهذا كانوا يقولون (عجل لنا قطنا) وقال (ويستعجلونك بالعذاب)

﴿المسألة الثانية﴾ أدهى من أى شىء ؟ نقول يحتمل وجهين (أحدهما) ما مضى من أنواع عذاب الدنيا (ثانيهما) أدهى الدواهى فلا داهية مثلها .

﴿المسألة الثالثة﴾ ما المراد من قوله (وأمر) ؟ قلنا فيه وجهان (أحدهما) هو مبالغة من المر وهو مناسب لقوله تعالى (فذوقوا عذابى) وقوله (ذوقوا مس سقر) وعلى هذا فأدهى أى أشد وأمر أى آلم ، والفرق بين الشديد والأليم أن الشديد يكون إشارة إلى أنه لا يطيقه أحد لقوته ولا يدفعه أحد بقوته ، مثاله ضعيف ألقى فى ماء يغلبه أو نار لا يقدر على الخلاص منها ، وقوى ألقى فى بحر أو نار عظيمة يستويان فى الألم والعذاب ويتساويان فى الإيلام لكن يفترقان فى الشدة فان نجاة الضعيف من الماء الضعيف بإعانة معين ممكن ، ونجاة القوى من البحر العظيم غير ممكن (ثانيهما) أمر مبالغة

إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَـٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾

فى النار إذ هى أكثر مروراً بهم إشارة إلى الدوام ، فكأنه يقول أشد وأدوم ، وهذا مختص بعذاب الآخرة ، فان عذاب الدنيا إن اشتد قتل المعذب وزال فلا يدوم وإن دام بحيث لا يقتل فلا يكون شديداً (ثالثها) أنه المرير وهو من المرة التى هى الشدة . وعلى هذا فإما أن يكون الكلام كما يقول القائل فلان نحيف نحيل وقوى شديد ، فيأتى بلفظين مترادفين إشارة إلى التأكيد وهو ضعيف ، وإما أن يكون أدهى مبالغة من الداهية التى هى اسم الفاعل من دهاه أمر كذا إذا أصابه ، وهو أمر صعب لأن الداهية صارت كالإسم الموضوع للشديد على وزن الباطية والسائبة التى لا تكون من أسماء الفاعلين ، وإن كانت الداهية أصلها ذلك ، غير أنها استعملت استعمال الأسماء وكتبت فى أبوابها وعلى هذا يكون معناه ألزم وأضيق ، أى هى بحيث لا تدفع .

ثم قال تعالى ﴿ إن المجرمين فى ضلال وسعر ﴾ وفى الآية مسائل :

﴿ الأولى ﴾ فيمن نزلت الآية فى حقهم ؟ أكثر المفسرين اتفقوا على انها نازلة فى القدرية روى الواحدى فى تفسيره . قال سمعت الشيخ رضى الدين المؤيد الطوسى بنيسابور ، قال سمعت عبد الجبار قال أخبرنا الواحدى قال أخبرنا أبو القاسم عبد الرحمن بن محمد السراج قال أخبرنا أبو محمد عبد الله الكعبى ، قال حدثنا حمدان بن صالح الأشج حدثنا عبد الله بن عبد العزيز بن أبى داود ، حدثنا سفيان الثورى عن زياد بن اسماعيل المخزومى عن محمد بن عباد بن جعفر عن أبى هريرة قال جاء مشركوا قريش يخاصمون رسول الله صلى الله عليه وسلم فى القدر ، فأنزل الله تعالى (إن المجرمين فى ضلال وسعر) إلى قوله (إنا كل شىء خلقناه بقدر) وكذلك نقل عن النبى صلى الله عليه وسلم أن هذه الآية نزلت فى القدرية . وروى عن عائشة عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « مجوس هذه الأمة القدرية » وهم المجرمون الذين سماهم الله تعالى فى قوله (إن المجرمين فى ضلال وسعر) وكثرت الأحاديث فى القدرية . وفيها مباحث (الأول) فى معنى القدرية الذين قال النبى صلى الله عليه وسلم نزلت الآية فيهم ، فنقول كل فريق فى خلق الأعمال يذهب إلى أن القدرى خصمه ، فالجبرى يقول القدرى من يقول الطاعة والمعصية ليستا بخلق الله وقضائه وقدره ، فهم قدرية لأنهم ينكرون القدر . والمعتزلى يقول ، القدرى هو الجبرى الذى يقول حين يزنى ويسرق الله قدرنى فهو قدرى لإثباته القدر ، وهما جميعاً يقولان لأهل السنة الذى يعترف بخلق الله وليس من العبد إنه قدرى ، والحق أن القدرى الذى نزل فيه الآية هو الذى ينكر القدر ويقول بأن الحوادث كلها حادثة بالكواكب واتصالاتها ويدل عليه قوله جاء مشركوا قريش يحاجون رسول الله صلى

الله عليه وسلم فى القدر فإن مذهبهم ذلك ، وما كانوا يقولون مثل مايقول المعتزلة إن الله خلق لى سلامة الأعضاء وقوة الإدراك ومكننى من الطاعة والمعصية ، والله قادر على أن يخلق فى الطاعة إلجاء والمعصية إلجاء ، وقادر على أن يطعم الفقير الذى أطعمه أنا بفضل الله ، والمشركون كانوا يقولون (أنطعم من لو يشاء الله أطعمه) منكرين لقدرة الله تعالى على الإطعام ، وأما قوله صلى الله عليه وسلم « مجوس هذه الأمة هم القدرية » فنقول المراد من هذه الأمة ، إما الأمة التى كان محمد صلى الله عليه وسلم مرسلا إليهم سواء آمنوا به أو لم يؤمنوا كلفظ القوم ، وإما أمته الذين آمنوا به فإن كان المراد الأول فالقدرية فى زمانه هم المشركون الذين أنكروا قدرة الله على الحوادث فلا يدخل فيهم المعتزلة ، وإن كان المراد هو الثانى فقوله «مجوس هذه الأمة» يكون معناه الذين نسبتهم إلى هذه الأمة كنسبة المجوس إلى الأمة المتقدمة ، لكن الأمة المتقدمة أكثرهم كفرة . والمجوس نوع منهم أضعف شبهة وأشد مخالفة للعقل فكذلك القدرية فى هذه الأمة تكون نوعاً منهم أضعف دليلا ولا يقتضى ذلك الجزم بكونهم فى النار فالحق أن القدرى هو الذى ينكر قدرة الله تعالى ، إن قلنا إن النسبة للنفى أو الذى يثبت قدرة غير الله تعالى على الحوادث إن قلنا إن النسبة للاثبات وحينئذ يقطع بكونه (فى ضلال وسعر) وإنه ذائق مس سقر .

﴿ البحث الثانى ﴾ فى بيان من يدخل فى القدرية التى فى النص ممن هو منتسب إلى أنه من أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، إن قلنا القدرية سموا بهذا الاسم لنفيهم قدرة الله تعالى فالذى يقول لاقدرة لله على تحريك العبد بحركة هى الصلاة وحركة هى الزنا مع أن ذلك أمر ممكن لا يبعد دخوله فيهم ، وأما الذى يقول بأن الله قادر غير أنه لم يجبره وتركه مع داعية العبد كالوالد الذى يجرب الصبى فى حمل شىء تركه معه لا لعجز الوالد بل للابتلاء والامتحان ، لا كالمفلوج الذى لاقوة له إذا قال لغيره احمل هذا فلا يدخل فيهم ظاهراً وإن كان مخطئاً ، وإن قلنا أن القدرية سموا بهذا الاسم لإثباتهم القدرة على الحوادث لغير الله من الكواكب ، والجبرى الذى قال هو الحائط الساقط الذى لا يجوز تكليفه بشىء لصدور الفعل من غيره وهم أهل الإباحة ، فلا شك فى دخوله فى القدرية فإنه يكفر بنفيه التكليف . وأما الذى يقول خلق الله تعالى فينا الأفعال وقدرها وكائنا ، و (لا يسأل عما يفعل) فما هو منهم .

﴿البحث الثالث﴾ اختلف القائلون فى التعصب أن الاسم بالمعتزلة أحق أم بالأشاعرة ؟ فقالت المعتزلة الاسم بكم أحق لأن النسبة تكون للاثبات لا للنفى ، يقال للدهرى دهرى لقوله بالدهر ، وإثباته ، وللمباحى إباحى لإثباته الإباحة وللثنوية ثنوية لإثباتهم الإثنين ، هما النور والظلمة ، وكذلك أمثاله وأنتم تثبتون القدر ، وقالت الأشاعرة النصوص تدل على أن القدرى من ينفى قدرة الله تعالى ومشركوا قريش ماكانوا قدرية إلا لإثباتهم قدرة لغير الله ، قالت المعتزلة إنما سمى المشركون قدرية لأنهم قالوا إن كان قادرا على الحوادث كما تقول يا محمد فلو شاء الله لهدانا ولو شاء

لأطعم الفقير ، فاعتقدوا أن من لوازم قدرة الله تعالى على الحوادث خلقه الهداية فيهم إن شاء ، وهذا مذهبكم أيها الأشاعرة ، والحق الصراح أن كل واحد من المسلمين الذين ذهبوا إلى المذهبين خارج عن القدرية ، ولا يصير واحد منهم قدرياً إلا إذا صار النافى نافياً للقدرة والمثبت منكراً للتكليف .

﴿ المسألة الثانية ﴾ المجرمون هم المشركون ههنا كما فى قوله تعالى (ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رؤوسهم) وقوله (يود المجرم لو يفتدى) وفى قوله (يعرف المجرمون بسيماهم) فالآية عامة ، وإن نزلت فى قوم خاص . وجرمهم تكذيب الرسل والنذر بالإشراك وإنكار الحشر وإنكار قدرة الله تعالى على الإحياء بعد الإماتة ، وعلى غيره من الحوادث .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ (فى ضلال وسعر) يحتمل وجوهاً ثلاثة (أحدها) الجمع بين الأمرين فى الدنيا أى هم فى الدنيا فى ضلال وجنون لا يعقلون ولا يهتدون ، وعلى هذا فقوله (يسحبون) بيان حالهم فى تلك الصورة وهو أقرب (ثانيها) الجمع فى الآخرة أى هم فى ضلال الآخرة وسعر أيضاً . أما السعر فكونهم فيها ظاهر ، وأما الضلال فلا يجدون إلى مقصدهم أو إلى ما يصلح مقصداً وهم متحيرون سبيلا ، فإن قيل الصحيح هو الوجه الأخير لا غير لأن قوله تعالى (يوم يسحبون) ظرف القول أى يوم يسحبون يقال لهم ذوقوا ، وسنبين ذلك فنقول (يوم يسحبون) يحتمل أن يكون منصوباً بعامل مذكور أو مفهوم غير مذكور ، والاحتمال الأول له وجهان (أحدهما) العامل سابق وهو معنى كائن ومستقر غير أن ذلك صار نسياً منسياً (ثانيهما) العامل متأخر وهو قوله (ذوقوا) تقديره : ذوقوا مس سقر يوم يسحب المجرمون ، والخطاب حينئذ مع من خوطب بقوله (أكفاركم خير من أولئكم أم لكم براءة) (والاحتمال الثانى) أن المفهوم هو أن يقال لهم يوم يسحبون ذوقوا ، وهذا هو المشهور ، وقوله تعالى (ذوقوا) استعارة وفيه حكمة وهو أن الذوق من جملة الإدراكات فإن المذوق إذا لاقى اللسان يدرك أيضاً حرارته وبرودته وخشونته وملاسته ، كما يدرك سائر أعضائه الحسية ويدرك أيضاً طعمه ولا يدركه غير اللسان ، فإدراك اللسان أتم ، فإذا تأذى من نار تأذى بحرارته ومرارته إن كان الحار أو غيره لا يتأذى إلا بحرارته . فإذن الذوق إدراك لمسى أتم من غيره فى الملموسات فقال (ذوقوا) إشارة إلى أن إدراكهم بالذوق أتم الإدراكات فيجتمع فى العذاب شدته وإيلامه بطول مدته ودوامه ، ويكون المدرك له لا عذر له يشغله وإنما هو على أتم ما يكون من الإدراك فيحصل الألم العظيم . وقد ذكرنا أن على قول الأكثرين يقال لهم أو نقول مضمر . وقد ذكرنا أنه لا حاجة إلى الإضمار إذا كان الخطاب مع غير من قيل فى حقهم (إن المجرمين فى ضلال) فإنه يصير كأنه قال : ذوقوا أيها المكذبون بمحمد صلى الله عليه وسلم مس سقر يوم يسحب المجرمون المتقدمون فى النار .

إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾

ثم قال تعالى ﴿ إنا كل شيء خلقناه بقدر ﴾ وفيه مسائل :

﴿ الأولى ﴾ المشهور أن قوله (إنا كل شيء) متعلق بما قبله كأنه قال ذوقوا فإنا كل شيء خلقناه بقدر ، أى هو جزاء لمن أنكر ذلك ، وهو كقوله تعالى (ذق إنك أنت العزيز الكريم) والظاهر أنه ابتداء كلام وتم الكلام عند قوله (ذوقوا مس سقر) ثم ذكر بيان العذاب لأن عطف (وما أمرنا إلا واحدة) يدل على أن قوله (إنا كل شيء خلقناه بقدر) ليس آخر الكلام . ويدل عليه قوله تعالى (ألا له الخلق والأمر) وقد ذكر فى الآية الأولى الخلق بقوله (إنا كل شيء خلقناه) فيكون من اللائق أن يذكر الأمر فقال (وما أمرنا إلا واحدة) وأما ما ذكر من الجدل فنقول النبى صلى الله عليه وسلم تمسك عليهم بقوله (إن المجرمين فى ضلال) إلى قوله (ذوقوا مس سقر) وتلا آية أخرى على قصد التلاوة ، ولم يقرأ الآية الآخيرة اكتفاء بعلم من علم الآية كما تقول فى الاستدلالات (لا تأكلوا أموالكم) الآية (ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه) الآية (وإذا تداينتم) الآية إلى غير ذلك .

﴿ المسألة الثانية ﴾ كل قرىء بالنصب وهو الأصح المشهور ، وبالرفع فمن قرأ بالنصب فنصبه بفعل مضمر يفسره الظاهر كقوله (والقمر قدرناه) وقوله (والظالمين أعد لهم) وذلك الفعل هو خلقناه وقد فسره قوله (خلقناه) كأنه قال : إنا خلقنا كل شيء بقدر ، وخلقناه على هذا لا يكون صفة لشيء كما فى قوله تعالى (ومن كل شيء خلقنا زوجين) غير أن هناك يمنع من أن يكون صفة كونه خالياً عن ضمير عائد إلى الموصوف ، وههنا لم يوجد ذلك المانع ، وعلى هذا فالآية حجة على المعتزلة لأن أفعالنا شيء فتكون داخلة فى كل شيء فتكون مخلوقة لله تعالى ، ومن قرأ بالرفع لم يمكنه أن يقول كما يقول فى قوله (وأما ثمود فهديناهم) حيث قرىء بالرفع لأن كل شيء نكرة فلا يصح مبتدأ فيلزمه أن يقول كل شيء خلقناه فهو بقدر ، كقوله تعالى (وكل شيء عنده بمقدار) فى المعنى ، وهذان الوجهان ذكرهما ابن عطية فى تفسيره وذكر أن المعتزلى يتمسك بقراءة الرفع ويحتمل أن يقال القراءة الأولى وهو النصب له وجه آخر ، وهو أن يقال نصبه بفعل معلوم لا بمضمر مفسر وهو قدرنا أو خلقنا ، كأنه قال إنا خلقنا كل شيء خلقناه بقدر ، أو قدرنا كل شيء خلقناه بقدر ، وإنما قلنا إنه معلوم لأن قوله (ذلكم الله ربكم خالق كل شيء) دل عليه ، وقوله (وكل شيء بمقدار) دل على أنه قدر وحينئذ لا يكون فى الآية دلالة على بطلان قول المعتزلى وإنما يدل على بطلان قوله (الله خالق كل شيء) وأما على القراءة الثانية وهى الرفع ، فنقول جاز أن يكون كل شيء مبتدأ وخلقناه بقدر خبره وحينئذ تكون الحجة قائمة عليهم بأبلغ وجه ، وقوله (كل شيء) نكرة فلا يصلح مبتدأ ضعيف لأن قوله كل شيء عم الأشياء كلها بأسرها ، فليس فيه

المحذور الذى فى قولنا رجل قائم ، لأنه لا يفيد فائدة ظاهرة ، وقوله كل شيء يفيد ما يفيد زيد خلقناه وعمرو خلقناه مع زيادة فائدة ، ولهذا جرزوا ما أحد خير منك لأنه أفاد العموم ولم يحسن قول القائل أحد خير منك حيث لم يفد العموم .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ ما معنى القدر ؟ قلنا فيه وجوه (أحدها) المقدار كما قال تعالى (وكل شيء عنده بمقدار) وعلى هذا فكل شيء مقدر فى ذاته وفى صفاته . أما المقدر فى الذات فالجسم وذلك ظاهر فيه وكذلك القائم بالجسم من المحسوسات كالبياض والسواد ، وأما الجوهر الفرد مالا مقدار له والقائم بالجوهر مالا مقدار له بمعنى الامتداد كالعلم والجهل وغيرهما ، فنقول ههنا مقادير لا بمعنى الامتداد ، أما الجواهر الفرد فإن الإثنين منه أصغر من الثلاثة ، ولولا أن حجماً يزداد به الامتداد ، وإلا لما حصل دون الامتداد فيه . وأما القائم بالجوهر فله نهاية وبداية ، فمقدار العلوم الحادثة والقدر المخلوقة متناهية ، وأما الصفة ولأن لكل شيء ابتدىء زماناً فله مقدار فى البقاء لكون كل شيء حادثاً . فإن قيل الله تعالى وصف به ، ولا مقدار له ولا ابتداء لوجوده ، نقول المتكلم إذا كان موصوفاً بصفة أو مسمى باسم ، ثم ذكر الأشياء المسماه بذلك الإسم أو الأشياء الموصوفة بتلك الصفة ، وأسند فعلا من أفعاله إليه يخرج هو عنه ، كما يقول القائل : رأيت جميع من فى هذا البيت فرأيتهم كلهم أكرمنى ، ويقول ما فى البيت أحد إلا وضربنى أو ضربته يخرج هو عنه لا لعدم كونه مقتضى الاسم ، بل بما فى التركيب من الدليل على خروجه عن الإرادة ، فكذلك قوله (خلقناه) و (خالق كل شيء) يخرج عنه لا بطريق التخصيص ، بل بطريق الحقيقة إذا قلنا إن التركيب وضعى ، فإن هذا التركيب لم يوضع حينئذ إلا لغير المتكلم (ثانيها) القدر التقدير ، قال الله تعالى (فقدرنا فنعم القادرون) وقال الشاعر :

وقد قدر الرحمن ما هو قادر

أى قدر ماهو مقدر ، وعلى هذا فالمعنى أن الله تعالى لم يخلق شيئاً من غير تقدير ، كما يرمى الرامى السهم فيقع فى موضع لم يكن قد قدره ، بل خلق الله كما قدر بخلاف قول الفلاسفة إنه فاعل لذاته والاختلاف للقوابل ، فالذى جاء قصيراً أو صغيراً فلاستعداد مادته ، والذى جاء طويلا أو كبيراً فلاستعداد آخر ، فقال تعالى (كل شيء خلقناه بقدر) منا فالصغير جاز أن يكون كبيراً ، والكبير جاز خلقه صغيراً (ثالثها) (بقدر) هو مايقال مع القضاء ، يقال بقضاء الله وقدره ، وقالت الفلاسفة فى القدر الذى مع القضاء : إن مايقصد إليه فقضاء وما يلزمه فقدر ، فيقولون خلق النار حارة بقضاء وهو مقضى به لأنها ينبغى أن تكون كذلك ، لكن من لوازمها أنها إذا تعلقت بقطن عجوز أو وقعت فى قصب صعلوك تحرقه ، فهو (بقدر) لا بقضاء ، وهو كلام فاسد ، بل القضاء ما فى العلم والقدر ما فى الإرادة فقوله (كل شيء خلقناه بقدر) أى بقدره مع إرادته ، لا على ما يقولون إنه موجب ، رداً على المشركين .

وَمَآ أَمۡرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٞ كَلَمۡحِۭ بِٱلۡبَصَرِ ﴿٥٠﴾

ثم قال تعالى ﴿ وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر ﴾

أى إلا كلمة واحدة ، وهو قوله له (كن) هذا هو المشهور الظاهر ، وعلى هذا فالله إذا أراد شيئاً قال له (كن) فهناك شيئان : الإرادة والقول ، فالإرادة قدر ، والقول قضاء ، وقوله (واحدة) يحتمل أمرين (أحدهما) بيان أنه لا حاجة إلى تكرير القول إشارة إلى نفاذ الأمر (ثانيهما) بيان عدم اختلاف الحال ، فأمره عند خالق العرش العظيم كأمره عند خالق النمل الصغير ، فأمره عند الكل واحد وقوله (كلمح بالبصر) تشبيه الكون لا تشبيه الأمر ، فكأنه قال : أمرنا واحدة ، فإذن المأمور كائن كلمح بالبصر ، لأنه لو كان راجعاً إلى الأمر لا يكون ذلك صفة مدح يليق به ، فإن كلمة (كن) شىء أيضاً يوجد (كلمح بالبصر) هذا هو التفسير الظاهر المشهور ، وفيه وجه ظاهر ذهب إليه الحكماء ، وهى أن مقدورات الله تعالى هى الممكنات يوجدها بقدرته ، وفى عدمها خلاف لا يليق بيانه بهذا الموضع لطوله لا لسبب غيره ، ثم إن الممكنات التى يوجدها الله تعالى قسمان (أحدهما) أمور لها أجزاء ملتئمة عند التئامها يتم وجودها ، كالإنسان والحيوان والأجسام النباتية والمعدنية . وكذلك الأركان الأربعة ، والسموات ، وسائر الأجسام . وسائر مايقوم بالأجسام من الأعراض ، فهى كلها مقدرة له وحوادث ، فإن أجزاءها توجد أولا ، ثم يوجد فيها التركيب والالتئام بعينها ، ففيها تقديرات نظراً إلى الأجزاء والتركيب والأعراض (وثانيهما) أمور ليس لها أجزاء ومفاصل ومقادير امتدادية ، وهى الأرواح الشريفة المنورة للأجسام ، وقد أثبتها جميع الفلاسفة إلا قليلا منهم ، ووافقهم جمع من المتكلمين ، وقطع بها كثير ممن له قلب من أصحاب الرياضات وأرباب المجاهدات ، فتلك الأمور وجودها واحد ليس يوجد أولا أجزاء ، وثانياً تتحقق تلك الأجزاء بخلاف الأجسام والأعراض القائمة بها ، إذا عرفت هذا قالوا . الأجسام خلقية قدرية ، والأرواح إبداعية أمرية ، وقالوا إليه الإشارة بقوله تعالى (ألا له الخلق والأمر) فالخلق فى الأجسام والأمر فى الأرواح ثم قالوا لا ينبغى أن يظن بهذا الكلام أنه على خلاف الأخبار فإنه صلى الله عليه وسلم قال أول ماخلق الله العقل ، وروى عنه عليه السلام أنه قال « خلق الله الأرواح قبل الأجسام بألفى عام » وقال تعالى (الله خالق كل شىء) فالخلق أطلق على إيجاد الأرواح والعقل لأن إطلاق الخلق على مايطلق عليه الامر جائز ، وإن العالم بالكلية حادث وإطلاق الخلق بمعنى الإحداث جائز ، وإن كان فى حقيقة الخلق تقدير فى أصل اللغة ولا كذلك فى الأحداث ، ولولا الفرق بين العبارتين وإلا لاستقبح الفلسفى من أن يقول المخلوق قديم كما يستقبح من أن المحدث قديم ، فإذن قوله صلى الله عليه وسلم خلق الله الأرواح بمعنى أحدثها بأمره ، وفى هذا الإطلاق فائدة عظيمة وهى أنه صلى الله عليه وسلم لو غير العبارة وقال فى الأرواح أنها موجودة

والأمر والأجسام بالخلق لظن الذى لم يرزقه الله العلم الكثير أن الروح ليست بمخلوقة بمعنى ليست بحدثة فكان يضل والنبى صلى الله عليه وسلم بعث رحمة ، وقالوا إذا نظرت إلى قوله تعالى (ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى) وإلى قوله تعالى (خلق السموات والأرض فى ستة أيام) وإلى قوله تعالى (خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما) تجد التفاوت بين الأمر والخلق والأرواح والأشباح حيث جعل لخلق بعض الأجسام زماناً ممتداً هو ستة أيام وجعل لبعضها تراخياً وترتيباً بقوله (ثم خلقنا) وبقوله (فخلقنا) ولم يجعل للروح ذلك ، ثم قالوا ينبغى أن لا يظن بقولنا هذا أن الأجسام لابد لها من زمان ممتد وأيام حتى يوجدها الله تعالى فيه ، بل الله مختار إن أراد خلق السموات والأرض والإنسان والدواب والشجر والنبات فى أسرع من لمح البصر لخلقها كذلك ، ولكن مع هذا لا تخرج عن كونها موجودات حصلت لها أجزاء ووجود أجزائها قبل وجود التركيب فيها ووجودها بعد وجود الأجزاء والتركيب فيها فهى ستة ثلاثة فى ثلاثة كما يخلق الله الكسر والانكسار فى زمان واحد ولهما ترتيب عقلى . فالجسم إذن كيفما فرضت خلقه ففيه تقدير وجودات كلها بإيجاد الله على الترتيب والروح لها وجود واحد بإيجاد الله تعالى . هذا قولهم . ولنذكر مافى الخلق والأمر من الوجود المنقولة والمعقولة (أحدها) ماذكرنا أن الأمر هو كلمة (كن) والخلق هو مابالقدرة والإرادة (ثانيها) ماذكروا فى الأجسام أن منها الأرواح (ثالثها) هو أن الله له قدرة بها الإيجاد وإرادة بها التخصيص ، وذلك لأن المحدث له وجود مختص بزمان وله مقدار معين فوجوده بالقدرة واختصاصه بالزمان بالإرادة فالذى بقدرته خلق والذى بالإرادة أمر حيث يخصصه بأمره بزمان ويدل عليه المنقول والمعقول ، أما المنقول فقوله تعالى (إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون) جعل كن لتعلق الإرادة ، واعلم أن المراد من (كن) ليس هو الحرف والكلمة التى من الكاف والنون ، لأن الحصول أسرع من كلمة كن إذا حملتها على حقيقة اللفظ فان الكاف والنون لا يوجد من متكلم واحد إلا الترتيب فى كن لفظ زمان والكون بعد بدليل قوله تعالى (فيكون) بالفاء فإذن لو كان المراد بكن حقيقة الحرف والصوت لكان الحصول بعده بزمان وليس كذلك ، فان قال قائل يمكن أن يوجد الحرفان معاً وليس كلام الله تعالى ككلامنا يحتاج إلى الزمان قلنا قد جعل له معنى غير ما نفهمه من اللفظ . وأما المعقول فلأن الاختصاص بالزمان ليس لمعنى وعلة وإن كان بعض الناس ذهب إلى أن الخلق والإيجاد لحكمة وقال بأن الله خلق الأرض لتكون مقر الناس أو مثل هذا من الحكم ولم يمكنه أن يقول خلق الأرض فى الزمان المخصوص لتكون مقراً لهم لأنه لو خلقها فى غير ذلك لكانت أيضاً مقراً لهم فإذن التخصيص ليس لمعنى فهو لمحض الحكمة فهو يشبه أمر الملك الجبار الذى يأمر ولا يقال له لم أمرت ولم فعلت ولا يعلم مقصود الآمر إلا منه (رابعها) هو أن الأشياء المخلوقة لا تنفك عن أوصاف ثلاثة أو عن وصفين متقابلين ، مثاله الجسم لابد له بعد خلقه أن يكون متحيزاً ولا بد له من أن يكون

سا كناً أو متحركا فإيجاده أولا بخلقه وما هو عليه بأمره يدل عليه قوله تعالى (إن ربكم الله الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام) إلى أن قال(مسخرات بأمره) فجعل مالها بعدخلقهامن الحركة والسكون وغيرهما بأمره . ويدل عليه قوله صلى الله عليه وسلم «أول ماخلق الله تعالى العقل فقال له أقبل فأقبل ثم قال له أدبر فأدبر» جعل الخلق فى الحقيقة والأمر فى الوصف ، وكذلك قوله تعالى (خلق السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام) ثم قال (يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه فى يوم كان مقداره) وقد ذكرنا تفسيره (خامسها) مخلوقات الله تعالى على قسمين (أحدهما) خلقه الله تعالى فى أسرع ما يكون كالعقل وغيره (وثانيهما) خلقه بمهلة كالسموات والإنسان والحيوان والنبات ، فالمخلوق سريعاً أطلق عليه الأمر والمخلوق بمهلة أطلق عليه الخلق ، وهذا مثل الوجه الثانى (سادسها) ماقاله فخر الدين الرازى فى تفسير قوله تعالى (فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً) وهو أن الخلق هو التقدير والإيجاد بعده بعدية ترتيبية لازمانية ففى علم الله تعالى أن السموات تكون سبع سموات فى يومين تقديرية فهو قدر خلقه كما علم وهو إيجاد فالأول خلق والثانى وهو الإيجاد أمر وأخذ هذا من المفهوم اللغوى قال الشاعر :

وبعض الناس يخلق ثم لا يفرى

أى يقدر ولا يقطع ولا يفصل كالخياط الذى يقدر أولا وقطع ثانياً وهو قريب إلى اللغة لكنه بعيد الاستعمال فى القرآن ، لأن الله تعالى حيث ذكر الخلق أراد الإيجاد منه قوله تعالى (ولئن سألتهم من خلق) ومنه قوله تعالى (أو لم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة) وليس المراد أنا قدرنا أنه سيوجد منها إلى غير ذلك (سابعها) الخلق هو الإيجاد ابتداء والأمر هو مابه الإعادة فان الله خلق الخلق أولا بمهلة ثم يوم القيامة يبعثهم فى أسرع من لحظة ، فيكون قوله (وما أمرنا إلا واحدة) كقوله تعالى (فإنما هى زجرة واحدة) وقوله (صيحة واحدة) ، (ونفخة واحدة) وعلى هذا فقوله (إنا كل شىء خلقناه بقدر) إشارة إلى الوحدانية . وقوله تعالى (وما أمرنا إلا واحدة) إلى الحشر فكأنه بين الأصل الأول والأصل الآخر بالآيات (ثامنها) الإيجاد خلق والإعدام أمر ، يعنى يقول الملائكة الغلاظ الشداد أهلكوا وافعلوا فلا يعصون الله ما أمرهم ولا يوقفون الامتثال على إعادة الأمر مرة أخرى فأمره مرة واحدة يعقبه العدم والهلاك .

﴿ وفيه لطيفة ﴾ وهى أن الله تعالى جعل الإيجاد الذى هو من الرحمة بيده ، والإهلاك يسلط عليه رسله وملائكته ، وجعل الموت بيد ملك الموت ولم يجعل الحياة بيد ملك ، وهذا مناسب لهذا الموضع لأنه بين النعمة بقوله (إنا كل شىء خلقناه بقدر) وبين قدرته على النقمة فقال (وما أمرنا إلا واحدة) . (وإنا على ذهاب به لقادرون) وهو كقوله (إذا جاء أمرنا وفار التنور) عند العذاب ، وقوله تعالى (فلما جاء أمرنا نجينا صالحاً) وقوله تعالى (فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها) وكما ذكر فى هذه الحكايات العذاب بلفظ الأمر وبين الإهلاك به كذلك هنا

وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٥١﴾ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي ٱلزُّبُرِ ﴿٥٢﴾ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴿٥٣﴾

ولا سيما إذا نظرت إلى ما تقدم من الحكايات ووجدتها عين تلك الحكايات يقوي هذا القول وكذلك قوله تعالى (ولقد أهلكنا أشياعكم فهل من مدكر) يدل على صحة هذا القول (تاسعها) فى معنى اللمح بالبصر وجهان (أحدهما) النظر بالعين يقال لمحته ببصرى كما يقال نظرت إليه بعينى والباء حينئذ كما يذكر فى الآيات فيقال كتبت بالقلم ، واختار هذا المثال لأن النظر بالعين أسرع حركة توجد فى الإنسان لأن العين وجد فيها أمور تعين على سرعة الحركة (أحدها) قرب المحرك منها فإن المحرك العصبية ومنبتها الدماغ والعين فى غاية القرب منه (ثانيها) صغر حجمها فإنها لا تعصى على المحرك ولا تثقل عليه بخلاف العظام (ثالثها) استدارة شكلها فإن دحرجة الكرة أسهل من دحرجة المربع والمثلث (رابعها) كونها فى رطوبة مخلوقة فى العضو الذى هو موضعها وهذه الحكمة فى أن المرئيات فى غاية الكثرة بخلاف المأكولات والمسموعات والمقاصد التى تقصد بالأرجل والمذوقات ، فلولا سرعة حركة الآلة التى بها إدراك المبصرات لما وصل إلى الكل إلا بعد طول زمان (وثانيهما) اللمح بالبصر معناه البرق يخطف بالبصر ويمر به سريعاً والباء حينئذ للالصاق لا للاستعانة كقوله مررت به وذلك فى غاية السرعة ، وقوله (بالبصر) فيه فائدة وهى غاية السرعة فإنه لو قال كلمح البرق حين برق ويبتدىء حركته من مكان وينتهى إلى مكان آخر فى أقل زمان يفرض لصح ، لكن مع هذا فالقدر الذى مروره يكون بالبصر أقل من الذى يكون من مبتداه إلى منتهاه ، فقال (كلمح) لا كما قيل من المبدأ إلى المنتهى بل القدر الذى يمر بالبصر وهو غاية القلة ونهاية السرعة .

ثم قال تعالى ﴿ ولقد أهلكنا أشياعكم فهل من مدكر ﴾ والأشياع الأشكال ، وقد ذكرنا أن هذا يدل على أن قوله (وما أمرنا إلا واحدة) تهديد بالإهلاك والثانى ظاهر .

وقوله تعالى ﴿ وكل شىء فعلوه فى الزبر ﴾ إشارة إلى أن الأمر غير مقتصر على إهلاكهم بل الإهلاك هو العاجل والعذاب الآجل الذى هو معد لهم على ما فعلوه ، مكتوب عليهم ، والزبر هى كتب الكتبة الذين قال تعالى فيهم (كلا بل تكذبون بالدين ، وإن عليكم لحافظين ، كراماً كاتبين) و (فعلوه) صفة شىء والنكرة توصف بالجمل .

وقوله تعالى ﴿ وكل صغير وكبير مستطر ﴾ تعميم للحكم أى ليست الكتابة مقتصرة على ما فعلوه بل ما فعله غيرهم أيضاً مسطور فلا يخرج عن الكتب صغيرة ولا كبيرة ، وقد ذكرنا فى قوله تعالى (لايعزب عنه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر

إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾

إلا فى كتاب) أن فى قوله أكبر فائدة عظيمة وهى أن من يكتب حساب إنسان فإنما يكتبه فى غالب الأمر لئلا ينسى فإذا جاء بالجملة العظيمة التى يأمن نسيانها ربما يترك كتابتها ويشتغل بكتابة ما يخاف نسيانه ، فلما قال (ولا أكبر من ذلك) أشار إلى الأمور العظام التى يؤمن من نسيانها أنها مكتوبة أى ليست كتابتنا مثل كتابتكم التى يكون المقصود منها الأمن من النسيان ، فكذلك نقول ههنا وفى قوله تعالى (مالهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها) وفى جميع هذه المواضع قدم الصغيرة لأنها أليق بالتثبت عند الكتابة فيبتدىء بها حفظاً عن النسيان فى عادة الخلق فأجرى الله الذكر على عادتهم ، وهذا يؤيد ما ذكرنا من قبل أن كلا وإن كان نكرة يحسن الابتداء به للعموم وعدم الإبهام .

ثم قال تعالى ﴿ إن المتقين فى جنات ونهر ﴾ قد ذكرنا تفسير المتقين والجنات فى سور منها (الطور) وأما النهر ففيه قراءات فتح النون والهاء كحجر وهو اسم جنس ويقوم مقام الأنهار . وهذا هو الظاهر الأصح . وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ لا شك أن كان اللذة بالبستان أن يكون الإنسان فيه ، وليس من اللذة بالنهر أن يكون الإنسان فيه ، بل لذته أن يكون فى الجنة عند النهر ، فما معنى قوله تعالى (ونهر) ؟ نقول قد أجبنا عن هذا فى تفسير قوله تعالى (إن المتقين فى جنات وعيون) فى سورة الذاريات ، وقلنا المراد فى خلال العيون ، وفيما بينها من المكان وكذلك فى جنات لأن الجنة هى الأشجار التى تستر شعاع الشمس ، ولهذا قال تعالى (فى ظلال وعيون) . وإذا كانت الجنة هى الأشجار الساترة فالإنسان لا يكون فى الأشجار وإنما يكون بينها أو خلالها ، فكذلك النهر ، ونزيد ههنا (وجها آخر) وهو أن المراد فى جنات وعند نهر لكون المجاورة تحسن إطلاق اللفظ الذى لا يحسن إطلاقه عند عدم المجاورة كما قال : « علفتها تبناً وماء بارداً »

وقالوا : تقلدت سيفاً ورمحاً ، والماء لا يعلف والرمح لا يتقلد ولكن لمجاورة التبن والسيف حسن الإطلاق فكذلك هنا لم يأت فى الثانى بما أتى به فى الأول من كلمة فى .

﴿ المسألة الثانية ﴾ وحد النهر مع جمع الجنات وجمع الأنهار وفى كثير من المواضع كما فى قوله تعالى (تجرى من تحتها الأنهار) إلى غيره من المواضع فما الحكمة فيه ؟ نقول أما على الجواب الأول فنقول لما بين أن معنى فى نهر فى خلال فلم يكن للسامع حاجة إلى سماع الأنهار ، لعلمه بأن النهر الواحد لا يكون له خلال . وأما فى قوله تعالى (تجرى من تحتها الأنهار) فلو لم يجمع الأنهار لجاز أن يفهم أن فى الجنات كلها نهراً واحداً كما فى الدنيا فقد يكون نهر واحد ممتد جار فى جنات كثيرة وأما على الثانى فنقول : الإنسان يكون فى جنات لأنا بينا أن الجمع فى جنات إشارة إلى سعتها وكثرة

أشجارها وتنوعها والتوحيد عند ما قال (مثل الجنة) وقال (إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة) لاتصال أشجارها ولعدم وقوع القيعان الخربة بينها ، وإذا علمت هذا فالإنسان فى الدنيا إذا كان فى بيت فى دار وتلك الدار فى محلة ، وتلك المحلة فى مدينة ، يقال إنه فى بلدة كذا ، وأما القرب فإذا كان الإنسان فى الدنيا بين نهرين بحيث يكون قربه منهما على السواء يقال إنه جالس عند نهرين ، فإذا قرب من أحدهما يقال من عند أحد نهرين دون الآخر ، لكن فى دار الدنيا لا يمكن أن يكون عند ثلاثة أنهار وإنما يمكن أن يكون عند نهرين ، والثالث منه أبعد من النهرين ، فهو فى الحقيقة ليس يكون فى زمان واحد عند أنهار والله تعالى يذكر أمر الآخرة على ما نفهمه فى الدنيا ، فقال عند نهر لما بينا أن قوله (ونهر) وإن كان يقتضى فى نهر لكن ذلك المجاورة كما فى : تقلدت سيفاً ورمحاً ، وأما قوله (تجرى من تحتها الأنهار) فحقيقته مفهومة عندنا لأن الجنة الواحدة قد يجرى فيها أنهار كثيرة أكثر من ثلاثة وأربعة ، فهذا ما فيه مع أن أواخر الآيات يحسن فيها التوحيد دون الجمع ، ويحتمل أن يقال ونهر التنكير للتعظيم ، وفى الجنة نهر وهو أعظم الأنهر وأحسنها ، وهو الذى من الكوثر ، ومن عين الرضوان وكان الحصول عنده شرفاً وغبطة وكل أحد يكون له مقعد عنده وسائر الأنهار تجرى فى الجنة ويراها أهلها ولا يرون القاعد عندها فقال (فى جنات ونهر) أى ذلك النهر الذى عنده مقاعد المؤمنين ، وفى قوله تعالى (إن الله مبتليكم بنهر) لكونه غير معلوم لهم ، وفى هذا وجه حسن أيضاً ولا يحتاج على الوجهين أن نقول نهر فى معنى الجمع لكونه اسم جنس .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قال ههنا (فى نهر) وقال فى الذاريات (وعيون) فما الفرق بينهما ؟ نقول إنا إن قلنا فى نهر معناه فى خلال فالإنسان يمكن أن يكون فى الدنيا فى خلال عيون كثيرة تحيط به إذا كان على موضع مرتفع من الأرض والعيون تنفجر منه وتجرى فتصير أنهاراً عند الامتداد ولا يمكن أن يكون وفى خلال أنهار وإنما هى نهران فحسب ، وأما إن قلنا أن المراد عند نهر فكذلك وإن قلنا : رأى عظيم عليه مقاعد ، فنقول يكون ذلك النهر ممتداً واصلا إلى كل واحد وله عنده مقعد عيون كثيرة تابعة ، فالنهر للتشريف والعيون للتفرج والتنزه مع أن النهر العظيم يجتمع مع العيون الكثيرة فكان النهر مع وحدته يقوم مقام العيون مع كثرتها وهذا كله مع النظر إلى أواخر الآيات ههنا وهناك يحسن ذكر لفظ الواحد ههنا والجمع هناك .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قرىء (فى جنات ونهر) على أنها جمع نهار إذ لاليل هناك وعلى هذا فكلمة فى حقيقة فيه فقوله (فى جنات) ظرف مكان ، وقوله (ونهر) أى وفى نهر إشارة إلى ظرف زمان ، وقرىء ونهر بسكون الهاء وضم النون على أنه جمع نهر كأسد فى جمع أسد نقله الزمخشرى ، ويحتمل أن يقال نهر بضم الهاء جمع نهر كثمر فى جمع ثمر .

﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٥٥﴾﴾

قوله تعالى : ﴿ فى مقعد صدق عند مليك مقتدر ﴾ فيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ فى مقعد صدق ، كيف مخرجه ؟ نقول يحتمل وجهين (أحدهما) أن يكون على صورة بدل كما يقول القائل فلان فى بلدة كذا فى دار كذا . وعلى هذا يكون مقعد من جملة الجنات موضعاً مختاراً له مزية على مافى الجنات من المواضع وعلى هذا قوله (عند مليك) لأنا بينا فى أحد الوجوه أن المراد من قوله (فى جنات ونهر) فى جنات عند نهر فقال (فى مقعد صدق عند مليك مقتدر) ويحتمل أن يقال (عند مليك) صفة مقعد صدق تقول درهم فى ذمة ملىء خير من دينار فى ذمة معسر ، وقليل عند أمين أفضل من كثير عند خائن فيكون صفة وإلا لما حسن جعله مبتدأ (ثانيهما) أن يكون (فى مقعد صدق) كالصفة لجنات ونهر أى فى جنات ونهر موصوفين بأنهما فى مقعد صدق ، تقول : وقفة فى سبيل الله أفضل من كذا و (عند مليك) صفة بعد صفة .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قوله (فى مقعد صدق) يدل على لبث لا يدل عليه المجلس ، وذلك لأن قعد وجلس ليسا على ما يظن أنهما بمعنى واحد لا فرق بينهما بل بينهما فرق ولكن لا يظهر إلا للبارع ، والفرق هو أن القعود جلوس فيه مكث حقيقة واقتضاء ، ويدل عليه وجوه (الأول) هو أن الزمن يسمى مقعداً ولا يسمى مجلساً لطول المكث حقيقة . ومنه سمى قواعد البيت . والقواعد من النساء قواعد ولا يقال لهن جوالس لعدم دلالة الجلوس على المكث الطويل فذكر القواعد فى الموضعين لكونه مستقراً بين الدوام والثبات على حالة واحدة ويقال للمركوب من الإبل قعود لدوام اقتعاده اقتضاء ، وإن لم يكن حقيقة فهو لصونه عن الحمل واتخاذه للركوب كأنه وجد فيه نوع قعود دائم اقتضى ذلك ولم يرد للاجلاس (الثانى) النظر إلى تقاليب الحروف فإنك إذا نظرت إلى ق ع د وقلبتها تجد معنى المكث فى الكل فإذا قدمت القاف رأيت قعد وقدع بمعنى ومنه تقادع الفراش بمعنى تهافت ، وإذا قدمت العين رأيت عقد وعدق بمعنى المكث فى غاية الظهور وفى عدق لخفاء يقال أعدق بيدك الدلو فى البئر إذا أمره بطلبه بعد وقوعه فيها والعودقة خشبة عليها كلاب يخرج معه الدلو الواقع فى البئر ، وإذا قدمت الدال رأيت دقع ودعق والمكث فى الدقع ظاهر والدقعاء هى التراب الملتصق بالأرض والفقر المدقع هو الذى يلصق صاحبه بالتراب . وفى دعق أيضاً إذ الدعق مكان تطؤه الدواب بحوافرها فيكون صلباً أجزاؤه متداخل بعضها ببعض لا يتحرك شىء منها عن موضعه (الوجه الثالث) الاستعمالات فى القعود إذا اعتبرت ظهر ما ذكرنا قال تعالى (لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر) والمراد الذى لا يكون بعده اتباع وقال تعالى (مقاعد للقتال) مع أنه تعالى قال (إن الله

يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص) فأشار إلى الثبات العظيم . وقال تعالى (إذا لقيتم فئة فاثبتوا) فالمقاعد إذن هى المواضع التى يكون فيها المقاتل بثبات ومكث و إطلاق مقعدة على العضو الذى عليه القعود أيضاً يدل عليه ، إذا عرفت هذا الفرق بين الجلوس و القعود حصل لك فوائد منها ههنا فإنه يدل على دوام المكث وطول اللبث ، ومنها فى قوله تعالى (عن اليمين وعن الشمال قعيد) فإن القعيد بمعنى الجليس و النديم ، ثم إذا عرف هذا و قيل للمفسرين الظاهرين فما الفائدة فى اختيار لفظ القعيد بدل لفظ الجليس مع أن الجليس أشهر ؟ يكون جوابهم أن آخر الآيات من قوله (حبل الوريد) (ولدى عتيد) وقوله (بجبار عنيد) يناسب القعيد ، ولا الجليس وإعجاز القرآن ليس فى السجع ، وإذا نظرت إلى ماذكر تبين لك فائدة جليلة معنوية حكمية فى وضع اللفظ المناسب لأن القعيد دل على أنهما لا يفارقانه ويداومان الجلوس معه ، وهذا هو المعجز وذلك لأن الشاعر يختار اللفظ الفاسد لضرورة الشعر والسجع ويجعل المعنى تبعاً للفظ ، والله تعالى بين الحكمة على ما ينبغى وجاء باللفظ على أحسن ماينبغى ، وفائدة أخرى فى قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا إذا قيل لكم تفسحوا فى المجالس فافسحوا يفسح الله لكم وإذا قيل انشزوا فانشزوا) فإن قوله (فافسحوا) إشارة إلى الحركة ، وقوله (فانشزوا) إشارة إلى ترك الجلوس فذكر المجلس إشارة إلى أن ذلك موضع جلوس فلا يجب ملازمته وليس بمقعد حتى لا يفارقونه .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ فى مقعد صدق وجهان (أحدهما) مقعد صدق ، أى صالح يقال رجل صدق للصالح ورجل سوء للفاسد . وقد ذكرناه فى سورة (إنا فتحنا) فى قوله تعالى (وظننتم ظن السوء) ، (وثانيهما) الصدق المراد منه ضد الكذب ، وعلى هذا ففيه وجهان (الأول) مقعد صدق من أخبر عنه وهو الله ورسوله (الثانى) مقعد ناله من صدق فقال بأن الله واحد وأن محمداً رسوله ، ويحتمل أن يقال المراد أنه مقعد لا يوجد فيه كذب لأن الله تعالى صادق ويستحيل عليه الكذب ومن وصل إليه امتنع عليه الكذب لأن مظنة الكذب الجهل والواصل إليه ، يعلم الأشياء كما هى ويستغنى بفضل الله عن أن يكذب ليستفيد بكذبه شيئاً فهو مقعد صدق وكلمة (عند) قد عرفت معناها والمراد منه قرب المنزلة والشأن لا قرب المعنى والمكان ، وقوله تعالى (مليك مقتدر) لأن القربة من الملوك لذيذة كلما كان الملك أشد اقتداراً كان المتقرب منه أشد التذاذاً وفيه إشارة إلى مخالفة معنى القرب منه من معنى القرب من الملوك ، فإن الملوك يقربون من يكون ممن يحبونه وممن يرهبونه ، مخافة أن يعصوا عليه وينحازوا إلى عدوه فيغلبونه ، والله تعالى قال (مقتدر) لا يقرب أحداً إلا بفضله .

والحمد لله وصلاته على سيدنا محمد خير خلقه وآله وصحبه وسلامه .

سورة القمر

مكيَّة كلُّها في قول الجمهور. وقال مقاتل: إلا ثلاثَ آيات من قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ﴾ [الآية: ٤٤] إلى قوله: ﴿وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ﴾[١] [الآية: ٤٦] ولا يصحُّ على ما يأتي[٢]. وهي خمس وخمسون آية[٣].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ﴿١﴾ وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴿٢﴾ وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣﴾ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّنَ الْأَنبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴿٤﴾ حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ ۖ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ ﴿٥﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ۘ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ ﴿٦﴾ خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴿٧﴾ مُّهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ ۖ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴿٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ﴾ «اقْتَرَبَت»: أي: قربت، مثل ﴿أَزِفَتِ الْآزِفَةُ﴾ [النجم: ٥٧] على ما بيَّنَّاه. فهي بالإضافة إلى ما مضى قريبة؛ لأنَّه قد مضى أكثرُ الدنيا، كما روى قتادة عن أنس قال: خطب رسولُ الله ﷺ وقد كادتِ الشمسُ تغيب فقال: «ما بقي من دنياكم فيما مضى إلّا مثل ما بقي من هذا اليوم فيما مضى» وما نرى من الشمس إلا يسيراً[٤]. وقال كعب ووهب: الدنيا ستَّة آلاف سنة. قال وهب: قد

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٤٠٨ .

(٢) عند الآية (٤٥) من هذه السورة.

(٣) الوسيط ٤/ ٢٠٦ .

(٤) أخرجه بهذا اللفظ الضياء المقدسي في الأحاديث المختارة ٧/ ١٢١ ، وأخرجه أيضاً ابن عدي في الكامل ٦/ ٢٣٤٤ بنحوه، قال ابن عدي: ولموسى بن خلف عن قتادة، عن أنس غير هذا يرويه عن موسى ابنه خلف وغير ابنه، ولا أرى بروايته بأساً.

وأخرجه أيضاً الحاكم في المستدرك ٢/ ٤٤٤ عن ابن عمر رضي الله عنه بنحوه، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وقال الذهبي في التلخيص: كُثَيِّر [من رجال الإسناد] ضعَّفه النسائي، ومشَّاه غيره.

مضى منها خمسة آلاف سنة، وستُّ مئة سنة. ذكره النحّاس.

ثم قال تعالى: «وَانْشَقَّ الْقَمَرُ» أي: وقد انشقَّ القمر. وكذا قرأ حُذيفة: «اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَقَدِ انْشَقَّ الْقَمَرُ»[(١)] بزيادة «قد»، وعلى هذا الجمهور من العلماء، ثبت ذلك في «صحيح البخاري» وغيره من حديث ابن مسعود[(٢)] وابن عمر[(٣)] وأنس[(٤)] وجبير ابن مُطْعِم[(٥)] وابن عباس[(٦)] ﷺ. وعن أنس قال: سأل أهلُ مكّة النبيَّ ﷺ آيةً، فانشقَّ القمر بمكّة مرَّتين فنزلت: «اقْتَرَبَتِ السّاعَةُ وانْشَقَّ الْقَمَرُ» إلى قوله: «سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ» يقول: ذاهب. قال أبو عيسى الترمذيُّ: هذا حديث حسن صحيح[(٧)].

ولفظ البخاريِّ[(٨)] عن أنس قال: انشقَّ القمر فرقتين. وقال قوم: لم يقع انشقاق القمر بعدُ وهو منتظر، أي: اقترب قيام الساعة وانشقاق القمر، وأنَّ الساعة إذا قامت انشقت السماء بما فيها من القمر وغيره[(٩)]. وكذا قال القشيريُّ. وذكر الماورديُّ[(١٠)]: أنَّ هذا قول الجمهور، وقال: لأنَّه إذا انشقَّ ما بقي أحد إلا رآه؛ لأنه آية، والناس في الآيات سواء. وقال الحسن: اقتربت الساعة، فإذا جاءت انشقَّ القمر بعد النفخة الثانية. وقيل: «وَانْشَقَّ الْقَمَرُ» أي: وضح الأمر وظهر، والعرب تضرب بالقمر مثلاً فيما وَضَح، قال:

أقيمُوا بَنِي أمِّي صُدُورَ مَطِيِّكُمْ   فإنِّي إلى حَيٍّ سواكم لَأَمْيَلُ

(١) القراءات الشاذة ص١٤٧ ، والمحتسب ٢/ ٢٩٧ .
(٢) البخاري (٣٦٣٦)، ومسلم (٢٨٠٠)، وأحمد (٣٥٨٣).
(٣) مسلم (٢٨٠١).
(٤) البخاري (٣٦٣٧)، ومسلم (٢٨٠٢)، وأحمد (١٢٦٨٨).
(٥) الترمذي (٣٢٨٩)، وأحمد (١٦٧٥٠).
(٦) البخاري (٣٦٣٨)، ومسلم (٢٨٠٣).
(٧) الترمذي (٣٢٨٦)، وهو عند أحمد (١٢٦٨٨)، ومسلم (٢٨٠٢)، ولم يرد ذكر الآيتين عند مسلم.
(٨) برقم (٤٨٦٨)، وهو عند مسلم (٢٨٠٢): (٤٧)، وأحمد (١٣٩١٨).
(٩) المفهم ٧/ ٤٠٥ وعزاه للحسن البصري.
(١٠) في النكت والعيون ٥/ ٤٠٩ .

فقد حُمَّتِ الحاجاتُ والليلُ مُقْمِرٌ   وشُدَّت لِطيَّاتٍ مَطايا وأَرْحُلُ[(١)]

وقيل: انشقاق القمر: هو انشقاق الظلمة عنه بطلوعه في أثنائها، كما يُسمَّى الصبح فَلَقاً؛ لانفلاق الظلمة عنه. وقد يعبَّر عن انفلاقه بانشقاقه، كما قال النابغة:

فلمَّا أدْبَروا ولَهُم دَوِيٌّ   دعانا عِند شَقِّ الصُّبحِ داعِ[(٢)]

قلت: وقد ثبت بنقل الآحاد العدول أنَّ القمر انشقَّ بمكَّة، وهو ظاهر التنزيل، ولا يلزم أن يستوي الناس فيها؛ لأنَّها كانت آيةً ليليَّة، وأنَّها كانت باستدعاء النبيِّ ﷺ من الله تعالى عند التحدِّي[(٣)]. فروي أنَّ حمزة بن عبد المطلب ـ حين أسلم غضباً من سبِّ أبي جهلٍ الرسولَ ﷺ ـ طلب أن يُريَه آيةً يزداد بها يقيناً في إيمانه[(٤)]. وقد تقدَّم في «الصحيح» أنَّ أهل مكَّة هم الذين سألوا وطلبوا أن يُرِيَهم آيةً، فأراهم انشقاق القمر فلقتين كما في حديث ابن مسعود وغيره.

وعن حذيفة أنَّه خطب بالمدائن ثم قال: ألا إنَّ الساعة قد اقتربت، وإنَّ القمر قد انشقَّ على عهد نبيِّكم ﷺ[(٥)].

وقد قيل: هو على التقديم والتأخير، وتقديره: انشقَّ القمر واقتربت الساعة، قاله ابن كيسان. وقد مرَّ عن الفرَّاء أنَّ الفعلين إذا كانا متقاربي المعنى، فلك أن تقدِّم وتؤخِّر، عند قوله تعالى: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ﴾[(٦)].

قوله تعالى: ﴿وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟﴾ هذا يدلُّ على أنَّهم رأوا انشقاق القمر[(٧)].

---

(١) القائل الشنفرى الأزدي، وهو في ذيل أمالي القالي ص٢٠٣، وخزانة الأدب ٣/ ٤٣٠، وقوله: أقيموا بني أمِّي... إلخ، يقال: أقام صدر مطيَّته: إذا جدَّ في السير، يؤذن قومه بالرحيل. وقوله: حمَّت الحاجات... إلخ، يريد: تنبَّهوا من رقدتكم فهذا وقت الحاجة. والطِّيَّة: النِّيَّة. الخزانة ٣/ ٣٤١.

(٢) النكت والعيون ٥/ ٤٠٩، ونسبه للنابغة الجعدي، ولم نقف عليه في ديوانه.

(٣) المفهم ٧/ ٤٠٤.

(٤) النكت والعيون ٥/ ٤٠٩.

(٥) أخرجه بهذا اللفظ الزجَّاج في معاني القرآن له ٥/ ٨٤، وأخرجه أيضاً عبد الرزاق (٥٢٨٥)، وابن أبي شيبة ٢/ ١١٥، و١٣/ ٣٧٨، والطبري ٢٢/ ١٠٧ - ١٠٨، والطحاوي في شرح مشكل الآثار (٧٠٦) و(٧٠٧) عن أبي عبد الرحمن السلمي.

(٦) الآية (٨) من سورة النجم، وسلفت ص١٦ من هذا الجزء.

(٧) الوسيط ٤/ ٢٠٧.

قال ابن عباس: اجتمع المشركون إلى رسول الله ﷺ، وقالوا: إن كنتَ صادقاً فاشقق لنا القمر فرقتين، نصف على أبي قُبَيس ونصف على قُعَيْقِعَان، فقال لهم رسول الله ﷺ: «إن فعلتُ تؤمنون»؟ قالوا: نعم؟ وكانت ليلةَ بدر، فسأل رسولُ الله ﷺ ربَّه أن يعطيَه ما قالوا، فانشقَّ القمر فرقتين، ورسولُ الله ﷺ ينادي المشركين: «يا فلان يا فلان اشهدوا»(١).

وفي حديث ابن مسعود: انشقَّ القمر على عهد رسولِ الله ﷺ، فقالت قريش: هذا من سحر ابن أبي كبشة، سَحَرَكم فاسألوا السُّفَّار. فسَألوهم فقالوا: قد رأينا القمر انشقَّ، فنزلت: «اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ القَمَرُ. وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا»(٢). أي: إن يروا آيةً على صِدْقِ محمَّد ﷺ أعرضوا عن الإيمان(٣).

﴿وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ أي: ذاهب، من قولهم: مَرَّ الشيءُ واستمرَّ: إذا ذهب(٤)، قاله أنس وقتادة ومجاهد والفرَّاء والكسائيُّ وأبو عبيدة(٥)، واختاره النحَّاس. وقال أبو العالية والضحَّاك: محكَم قويٌّ شديد(٦). وهو من المِرَّة: وهي القوَّة(٧)، كما قال لقيط:

حتى استمرَّتْ عَلَى شَزْرٍ مَرِيرَتهُ مُرُّ العَزِيمَةِ لَا رتّاً(٨) ولا ضَرَعا

(١) زاد المسير ٨/ ٢٨٧ ، وأخرجه أبو نعيم في دلائل النبوة (٢٠٩) بتمامه، وضعَّفه ابن حجر في فتح الباري ٧/ ١٨٣ . وأخرجه أيضاً الزجَّاج في معاني القرآن له ٥/ ٨٤-٨٥ عن ابن زيد مختصراً. وأبو قبيس وقعيقعان: جبلان بمكة. معجم البلدان ١/ ٨٠ و ٤/ ٣٧٩ .

(٢) أخرجه الطيالسي (٢٩٥)، والطبري ٢٢/ ١٠٦ - ١٠٧ ، وأبو نعيم في دلائل النبوة (٢١١).

(٣) الوسيط ٤/ ٢٠٧ .

(٤) الصحاح (مرر).

(٥) النكت والعيون ٥/ ٤١٠ عن أنس وأبي عبيدة، والمحرر الوجيز ٥/ ٢١٢ عن قتادة ومجاهد والكسائي، وأما قول الفراء فهو في معاني القرآن له ٣/ ١٠٤ ، وقول مجاهد في تفسيره ٢/ ٦٣٥ ، وأخرجه عنه ـ وعن قتادة أيضاً ـ الطبري ٢٢/ ١١٣ .

(٦) تفسير البغوي ٤/ ٢٥٨ ، وزاد المسير ٨/ ٨٩ .

(٧) الصحاح (مرر).

(٨) في (م): لا قحماً. وكذا جاءت الرواية في الكامل للمبرد ٣/ ١٣٥٠ ، والقحم: الكبير المسنّ. اللسان (قحم)، والبيت سلف ص١٣ من هذا الجزء.

وقال الأخفش: هو مأخوذ من إمرار الحبل، وهو شدَّة فَتْله[١].

وقيل: معناه: مُرٌّ من المرَارة. يقال: أَمَرَّ الشيءُ: صار مُرّاً، وكذلك مَرَّ الشيءُ [يَمَرُّ] بالفتح مرارةً، فهو مُرٌّ، وأمَرَّه غيرُه ومرَّرَه[٢]. وقال الربيع: مستمرٌّ: نافذ. يمان: ماضٍ. أبو عبيدة: باطل.

وقيل: دائم. قال:

وليس على شيء قويم بمُسْتمِرّ[٣]

أي: بدائم. وقيل: يُشبِه بعضه بعضاً[٤]، أي: قد استمرَّت أفعال محمد على هذا الوجه فلا يأتي بشيء له حقيقة، بل الجميع تخييلات. وقيل: معناه: قد مرَّ من الأرض إلى السماء[٥].

﴿وَكَذَّبُوا۟﴾ نبيَّنا ﴿وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ﴾ أي: ضلالاتهم واختياراتهم. ﴿وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ﴾ أي: يستقرُّ بكلِّ عامل عمله، فالخير مستقرٌّ بأهله في الجنة، والشَّرُّ مستقرٌّ بأهله في النار[٦].

وقرأ شيبة: «مُسْتَقَر» بفتح القاف[٧]، أي: لكلِّ شيء وقت يقع فيه من غير تقدُّم وتأخُّر. وقد روي عن أبي جعفر بن القَعْقاع: «وَكُلُّ أَمْرٍ مسْتَقِرٌّ» بكسر القاف والراء[٨]، جعله نعتاً لـ «أمرٍ»، و «كُلٌّ» على هذا يجوز أن يرتفع بالابتداء، والخبر

(١) النكت والعيون ٥/ ٤١٠ .

(٢) الصحاح (مرر)، وما بين حاصرتين منه.

(٣) القائل امرؤ القيس، وهو في ديوانه ص١٠٩، وصدره:

ألا إنَّما الدنيا ليالٍ وأعْصُرٌ

(٤) النكت والعيون ٥/ ٤١٠ .

(٥) النكت والعيون ٥/ ٤١٠ وعزاه إلى مجاهد.

(٦) النكت والعيون ٥/ ٤١٠ وعزاه إلى قتادة، وأخرجه عنه الطبري ٢٢/ ١١٤- ١١٥ .

(٧) الكشاف ٤/ ٣٦ ولم يعزها، وعزاها ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٢١٢ إلى نافع وابن نصاح.

(٨) القراءات الشاذة ص١٤٧ ، والمحتسب ٢/ ٢٩٧ ، والنشر ٢/ ٣٨٠ .

محذوف، كأنَّه قال: وكلُّ أمر مستقر في أمِّ الكتاب كائن[١]. ويجوز أن يرتفع بالعطف على الساعة، المعنى: اقتربت الساعة وكلُّ أمرٍ مستقر[٢]، أي: اقترب استقرار الأمور يوم القيامة[٣]. ومن رفعَه جعله خبراً عن «كلّ».

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ﴾ أي: من بعض الأنباء، فذكر سبحانه من ذلك ما علم أنَّهم يحتاجون إليه، وأنَّ لهم فيه شفاء. وقد كان هناك أمور أكثر من ذلك، وإنَّما اقتصَّ علينا ما عَلِمَ أنَّ بنا إليه حاجة، وسكت عمَّا سوى ذلك، وذلك قوله تعالى: «وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ» أي: جاء هؤلاء الكفار من أنباء الأمم الخالية[٤] ﴿مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ﴾ أي: ما يزجرهم عن الكفر لو قبلوه[٥]. وأصله: مُزْتَجَر، فقلبت التاء دالاً؛ لأنَّ التاء حرف مهموس، والزاي حرف مجهور، فأبدل من التاء دالاً توافقها في المخرج، وتوافق الزاي في الجهر[٦]. و «مُزْدجَر» من الزجر: وهو الانتهاء[٧]، يقال: زَجَره وازدَجَره، فانزجَر وازدَجَر[٨]، وزجرته أنا فانزجر، أي: كففته فكفَّ، كما قال:

فأصبحَ ما يطلبُ الغانيا ... تُ مُزْدَجَراً عن هواه ازدجارا[٩]

وقرئ: «مُزَّجَرٌ» بقلب تاء الافتعال زاياً، وإدغام الزايِّ فيها، حكاه الزمخشريُّ[١٠].

(١) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٨٦ .
(٢) الكشاف ٤/ ٣٦ .
(٣) المحتسب ٢/ ٢٩٧ .
(٤) النكت والعيون ٥/ ٤١٠ .
(٥) تفسير أبي الليث ٣/ ٢٩٨ .
(٦) البيان لابن الأنباري ٢/ ٤٠٣ ، ومشكل إعراب القرآن لمكي ٢/ ٦٩٧ .
(٧) المحرر الوجيز ٥/ ٢١٢ .
(٨) الصحاح (زجر).
(٩) القائل الأعشى ميمون بن قيس، وهو في ديوانه ص٩٥ بنحوه.
(١٠) في الكشاف ٤/ ٣٦ .

﴿حِكْمَةٌ بَٰلِغَةٌ﴾ يعني: القرآن[١]، وهو بدل من «ما» من قوله: «مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ». ويجوز أن يكون خبر ابتداء محذوف، أي: هو حكمة[٢].

﴿فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ﴾ إذا كذَّبوا وخالفوا، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا تُغْنِي ٱلْأَيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾[٣] [يونس: ١٠١] فـ «مَا» نفي، أي: ليست تغني عنهم النذر. ويجوز أن يكون استفهاماً بمعنى التوبيخ، أي: فأيُّ شيء تغني النذر عنهم وهم معرضون عنها[٤]. و«النُّذُرُ» يجوز أن تكون بمعنى الإنذار، ويجوز أن تكون جمع نذير[٥].

قوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ أي: أعرِض عنهم[٦]. قيل: هذا منسوخ بآية السيف[٧]. وقيل: هو تمام الكلام.

ثم قال: ﴿يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ﴾ العامل في «يَوْمَ»: «يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ»، أو «خُشَّعاً»[٨]، أو فعل مضمر تقديره: واذكر يوم. وقيل: على حذف حرف الفاء وما عملت فيه من جواب الأمر، تقديره: فتولَّ عنهم فإنَّ لهم يوم يدعو الداعي. وقيل: تَوَلَّ عنهم يا محمَّد، فقد أقمت الحجَّة، وأبصرهم يوم يدعو الداعي. وقيل: أي أعرض عنهم يوم القيامة ولا تسأل عنهم وعن أحوالهم، فإنَّهم يدعون ﴿إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ﴾ وينالهم عذاب شديد. وهو كما تقول: لا تسأل عما جرى على فلان: إذا أخبرته بأمر عظيم. وقيل: أي: وكلّ أمر مستقرّ يوم يدعو الداعي.

وقرأ ابن كثير: «نُكْرٍ» بإسكان الكاف[٩]، وضمَّها الباقون، وهما لغتان، كعُسْر

(١) تفسير أبي الليث ٣/ ٢٩٨ .

(٢) الكشاف ٤/ ٣٦ .

(٣) تفسير البغوي ٤/ ٢٥٩ .

(٤) معاني القرآن للزجاج ٥/ ٨٥ .

(٥) تفسير البغوي ٤/ ٢٥٩ .

(٦) تفسير أبي الليث ٣/ ٢٩٨ .

(٧) زاد المسير ٨/ ٩٠ .

(٨) إعراب القرآن لمكي ٢/ ٦٩٨ .

(٩) السبعة ص٦١٧ ، والتيسير ص٢٠٥ .

وعُسُر، وشُغْل وشُغُل[١]، ومعناه: الأمر الفظيع العظيم، وهو يوم القيامة[٢]. والداعي هو: إسرافيل عليه السلام[٣]. وقد روي عن مجاهد وقتادة أنَّهما قرأا: «إِلَى شَيْءٍ نُكِرَ» بكسر الكاف وفتح الراء على الفعل المجهول[٤].

﴿خُشَّعًا أَبْصَـٰرُهُمْ﴾ الخشوع في البصر: الخضوع والذِّلَّة، وأضاف الخشوع إلى الأبصار؛ لأنَّ أثر العزِّ والذُّل يتبيَّن في ناظر الإنسان[٥]، قال الله تعالى: ﴿أَبْصَـٰرُهَا خَـٰشِعَةٌ﴾ [النازعات: ٩] وقال تعالى: ﴿خَـٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ [الشورى: ٤٥]. ويقال: خَشَع واختَشَع: إذا ذلَّ. وخَشَع ببصره، أي: غضَّه[٦].

وقرأ حمزة والكسائيُّ وأبو عمرو: «خَاشِعاً» بالألف[٧]، ويجوز في أسماء الفاعلين إذا تقدَّمت على الجماعة التوحيدُ، نحو: «خَاشِعاً أَبْصَارُهُم» والتأنيث نحو: «خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ»[٨] ويجوز الجمع نحو: «خُشَّعاً أَبْصَارُهُمْ» قال:

وَشَبَابٍ حَسَنٍ أَوْجُهُهُمْ ... مِنْ إِيَادِ بنِ نِزَارِ بنِ مَعَدْ[٩]

و «خُشَّعاً» جمع خاشع، والنصب فيه على الحال من الهاء والميم في «عَنْهُمْ» فيقبح الوقف على هذا التقدير على «عَنْهُمْ». ويجوز أن يكون حالاً من المضمر في

---

(١) حجة القراءات لابن زنجلة ص٦٨٨ .

(٢) الكشاف ٤/ ٣٦ .

(٣) تفسير أبي الليث ٣/ ٢٩٨ .

(٤) القراءات الشاذة ص١٤٧ ، والمحتسب ٢/ ٢٩٨ ، ونسباه إلى مجاهد والجحدري وأبي قلابة. وينظر البحر المحيط ٨/ ١٧٥ .

(٥) الكشاف ٤/ ٣٦ .

(٦) الصحاح (خشي).

(٧) السبعة ص٦١٨ ، والتيسير ص٢٠٥ .

(٨) معاني القرآن للزجاج ٥/ ٨٦ ، وما بعده منه، و«خاشعة» قراءة أُبيٍّ وابن مسعود. القراءات الشاذة ص١٤٧ .

(٩) القائل: أبو دؤاد الإيادي، وهو في ديوانه ص٣٠٥ .

«يَخْرُجُونَ» فيوقف على «عَنْهُمْ»[(١)]. وقُرِئَ: «خُشَّعٌ أَبْصَارُهُمْ» على الابتداء والخبر، ومحلُّ الجملة النصب على الحال، كقوله:

حَــاضِــرَاه الــجــودُ والْــكَــرَمُ[(٢)]

﴿يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ﴾ أي: القبور، واحدها: جَدَث. ﴿كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ * مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ﴾. وقال في موضع آخر: ﴿يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ﴾ [القارعة: ٤] صفتان في وقتين مختلفين، أحدهما: عند الخروج من القبور، يخرجون فزِعين لا يهتدون أين يتوجَّهون، فيدخل بعضُهم في بعض، فهم حينئذٍ كالفراش المبثوث بعضه في بعض لا جهة له يقصدها. فإذا سمعوا المنادي قصدوه فصاروا كالجراد المنتشر؛ لأنَّ الجراد له وجه يقصدها[(٣)].

و«مُهْطِعِينَ» معناه: مسرعين، قاله أبو عبيدة. ومنه قول الشاعر:

بــدِجْــلَــةَ دَارُهــمْ ولــقــد أراهــم بدِجْلَةَ مُهْطِعِينَ إلى السَّماعِ[(٤)]

الضحاك: مقبلين. قتادة: عامدين. ابن عباس: ناظرين. عكرمة: فاتحين آذانهم إلى الصوت[(٥)]. والمعنى متقارب.

يقال: هَطَع الرجلُ يَهْطَعُ هُطوعاً: إذا أقبل على الشيء ببصره لا يُقلِع عنه، وأهطع: إذا مدَّ عنقه وصوَّب رأسه. قال الشاعر:

---

(١) مشكل إعراب القرآن لمكي ٢/ ٦٩٨، وذكر الأنباري في إيضاح الوقف والابتداء ٢/ ٩١٣ أن الوقف على «فتولَّى عنهم»: وقف غير تامٌّ.

(٢) الكشاف ٤/ ٣٦، والقراءة في البحر المحيط ٨/ ١٧٦، والبيت للأخطل، وهو في ديوانه ص٣٩، وروايته هكذا:

إذا أتـيـتَ أبـا مـروان تـسـألـه وجدتَه حاضراه الجود والحَسَبُ

(٣) المحرر الوجيز ٥/ ٢١٣.

(٤) النكت والعيون ٥/ ٤١١، وقول أبي عبيدة في مجاز القرآن له ٢/ ٢٤٠، والبيت ليزيد بن مفرِّغ. وسلف ١٢/ ١٥٨.

(٥) النكت والعيون ٥/ ٤١١.

تَـعَـبَّـدَنِـي نِـمْـرُ بـنُ سَـعْـدٍ وقـد أرَى ونِـمْـرُ بـنُ سَـعْـد لِـي مُـطِـيـعٌ ومُـهْـطِـعُ

وبعير مُهْطِع: في عنقه تصويبٌ خِلْقةً. وأهطع في عَدْوه، أي: أسرَع[١].

﴿يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾ يعني: يوم القيامة؛ لما ينالهم فيه من الشِّدَّة[٢].

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ ﴿٩﴾ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٥﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ ذكر جملاً من وقائع الأمم الماضية؛ تأنيساً للنبيِّ ﷺ، وتعزيةً له. «قَبْلَهُمْ» أي: قبل قومك. ﴿فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا﴾ يعني: نوحاً[٣]. الزَّمخشَري[٤]: فإن قلتَ: ما معنى قوله: «فَكَذَّبُوا» بعد قوله: «كَذَّبَتْ»؟ قلت: معناه: كَذَّبوا فكَذَّبوا عبدنا، أي: كذَّبوه تكذيباً على عقب تكذيب، كلما مضى منهم قَرْن مكذِّب تبعه قَرْن مكذِّب، أو كذَّبت قومُ نوح الرسلَ فكذَّبوا عبدنا، أي: لما كانوا مكذِّبين بالرسل جاحدين للنبوة رأساً، كذَّبوا نوحاً؛ لأنَّه من جملة الرسل.

﴿وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ﴾ أي: هو مجنون ﴿وَٱزْدُجِرَ﴾ أي: زجر عن دعوى النبوَّة بالسبِّ والوعيد بالقتل[٥]. وقيل: إنَّما قال: «وَازْدُجِرَ» بلفظ ما لم يُسَمَّ فاعله؛ لأنَّه رأس آية.

﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ﴾ أي: دعا عليهم حينئذٍ نوح وقال: رَبِّ ﴿أَنِّى مَغْلُوبٌ﴾ أي: غلبوني

(١) الصحاح (هطع)، والبيت ذكره الزمخشري في الكشاف ٤/ ٣٧، ولم ينسبه، ولم نقف على قائله.

(٢) النكت والعيون ٥/ ٤١١.

(٣) تفسير أبي الليث ٣/ ٢٩٨.

(٤) الكشاف ٤/ ٣٧.

(٥) تفسير البغوي ٤/ ٢٦٠.

بتمرُّدهم ﴿فَٱنتَصِرۡ﴾ أي: فانتصر لي[١]. وقيل: إنَّ الأنبياء كانوا لا يَدْعُون على قومهم بالهلاك إلا بإذن الله عزَّ وجلَّ لهم فيه.

﴿فَفَتَحۡنَآ أَبۡوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: فأجبنا دعاءَه، وأمرناه باتخاذ السفينة، وفتحنا أبواب السماء ﴿بِمَآءٖ مُّنۡهَمِرٖ﴾ أي: كثير، قاله السُّدِّيُّ. قال الشاعر:

أعـيـنـيَّ جُـودَا بـالـدُّمـوعِ الـهَـوَامـرِ عـلـى خيـرِ بـادٍ من مَـعَـدٍّ وحـاضِـرِ[٢]

وقيل: إنَّه المنصبُّ المتدفِّق. ومنه قول امرئ القيس يصف غَيثاً:

رَاحَ تَـمْـرِيـهِ الـصَّـبَـا ثـم انْـتَـحَـى فـيـه شُـؤْبُـوبُ جَـنُـوبٍ مُـنْـهَـمِـرْ[٣]

الهَمْر: الصَّبُّ. وقد هَمَر الماءُ والدَّمْعُ يَهْمِرُ هَمْراً. وهَمَر أيضاً: إذا أكثر الكلام وأسرع. وهَمَر له من ماله، أي: أعطاه[٤]. قال ابن عباس: ففتحنا أبواب السماء بماء [مُنْهَمِرٍ] من غير سحاب لم يقلع أربعين يوماً[٥].

وقرأ ابن عامر ويعقوب: «فَفَتَّحْنَا» مشدَّدة على التكثير. الباقون: «فَفَتَحْنَا» مخفَّفاً[٦]. ثم قيل: إنَّه فتح رتاجها وسعة مسالكها. وقيل: إنَّه المجرة، وهي شَرَج السماء، ومنها فتحت بماء منهمر، قاله عليٌّ ﷺ[٧].

﴿وَفَجَّرۡنَا ٱلۡأَرۡضَ عُيُونٗا﴾ قال عُبَيد بن عُمير: أوحى الله إلى الأرض أن تُخرِج

---

(١) المحرر الوجيز ٥/ ٢١٤ .

(٢) النكت والعيون ٥/ ٤١٢ ، وما بعده منه أيضاً، ولم نقف على قائل البيت.

(٣) ديوان امرئ القيس ص١٤٥ ، قال شارحه: راح: يعني السحاب. وتمريه: تحركه وتديره. والصبا: أحمد الرياح عند العرب وأجلبها للخير. والشؤبوب: دفعة المطر وشدته.

(٤) الصحاح (همر) دون قوله: وهمر أيضاً: إذا أكثر الكلام وأسرع. فهو من تفسير أبي الليث ٣/ ٢٩٩ .

(٥) عرائس المجالس ص٥٨ بنحوه، وما بين حاصرتين لم يرد في النسخ الخطية.

(٦) تفسير أبي الليث ٣/ ٢٩٩ ، وقراءة ابن عامر في السبعة ص٦١٨ ، والتيسير ص١٠٢ ، وقراءة يعقوب في النشر ٢/ ٢٥٨ .

(٧) النكت والعيون ٥/ ٤١٢ ، وأخرجه عنه ابن أبي حاتم ١٠/ ٣٣٢٠ (١٨٧٠٤) والشَّرَج: العُروة. الصحاح (شرج).

ماءَها، فتفجَّرت بالعيون، وإنَّ عيناً تأخَّرت، فغضب عليها فجعل ماءها مُرّاً أُجاجاً إلى يوم القيامة.

﴿فَالْتَقَى الْمَاءُ﴾ أي: ماء السماء وماء الأرض ﴿عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ أي: على مقدار لم يزد أحدهما على الآخر، حكاه ابن قتيبة[1]. أي: كان ماء السماء والأرض سواء. وقيل: «قُدِرَ» بمعنى: قُضي عليهم. قال قتادة: قدّر لهم إذا كفروا أن يَغْرَقُوا.

وقال محمد بن كعب: كانت الأقوات قبل الأجساد، وكان القَدَر قبل البلاء، وتلا هذه الآية[2]. وقال: «الْتَقَى الْمَاءُ» والالتقاء إنَّما يكون في اثنين فصاعداً؛ لأنَّ الماء يكون جمعاً وواحداً[3]. وقيل: لأنَّهما لما اجتمعا صارا ماء واحداً[4].

وقرأ الجَحْدريُّ: «فَالْتَقَى الْمَاءَانِ». وقرأ الحسن: «فَالْتَقَى الْمَاوَانِ»[5]. وهما خلاف المرسوم. القُشيريُّ: وفي بعض المصاحف: «فَالْتَقَى الْمَاوَانِ» وهي لغة طيِّء. وقيل: كان ماء السماء بارداً مثل الثلج، وماء الأرض حارّاً مثل الحميم.

﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ﴾ أي: على سفينة ذات ألواحٍ[6]. ﴿وَدُسُرٍ﴾ قال قتادة: يعني: المسامير التي دُسِرت بها السفينة، أي: شُدَّت، وقاله القُرَظِيُّ وابن زيد وابن جبير[7]، ورواه الوالبيُّ عن ابن عباس[8]. وقال الحسن وشَهْر بن حَوْشَب وعكرمة:

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٤١٢، وما بعده منه، وكلام ابن قتيبة في غريب القرآن له ص٤٣٢.

(٢) أخرجه الطبري ٢٢/ ١٢٣.

(٣) تفسير البغوي ٤/ ٢٦٠.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٨٨.

(٥) القراءات الشاذة ص١٤٧.

(٦) معاني القرآن للزجاج ٥/ ٨٧.

(٧) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٨٩ عدا قول ابن جبير فنسبه إليه الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٤١٢، وأخرجه عنهم الطبري ٢٢/ ١٢٣ - ١٢٤.

(٨) زاد المسير ٨/ ٩٣.

هي صدر السفينة التي يضرب بها المَوْج، سُمِّيت بذلك؛ لأنَّها تَدْسُر الماء، أي: تدفعه[١]. والدَّسْرُ: الدَّفع[٢] والمَخْر. ورواه العَوْفيُّ عن ابن عباس قال: الدَّسْر: كَلْكَل السفينة[٣].

وقال الليث: الدِّسار: خيط من ليف تُشدُّ به ألواح السفينة. وفي «الصحاح»[٤]: الدِّسار واحد الدُّسُر: وهي خيوط تشدُّ بها ألواح السفينة. يقال: هي المسامير، وقال تعالى: «عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ». ودُسْر أيضاً مثل عُسُر وعُسْر. والدَّسْر: الدفع، قال ابن عباس في العنبر: إنَّما هو شيء يَدْسُره البحر دَسْراً، أي: يدفعه. ودَسَر بالرمح، ورجل مِدْسَر.

﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ أي: بمرأى منَّا. وقيل: بأمرنا. وقيل: بحفظ منَّا وكِلَاءة، وقد مضى في «هود»[٥]. ومنه قول الناس للمودَّع: عينُ اللهِ عليك، أي: حفظه وكِلاءته.[٦] وقيل: بِوَحينا. وقيل: أي: بالأعين النابعة من الأرض[٧]. وقيل: بأعين أوليائنا من الملائكة الموكَّلين بحفظها[٨]، وكلُّ ما خلَق اللهُ تعالى يمكن أن يُضاف إليه. وقيل: أي: تجري بأوليائنا، كما في الخبر: مرض عين من عيوننا فلم تَعُدْه[٩].

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٨٩ وعزاه للحسن، وأخرجه عنه الطبري ٢٢/ ١٢٤ ، والنكت والعيون ٥/ ٤١٢ وعزاه لعكرمة.

(٢) الصحاح (دسر).

(٣) زاد المسير ٨/ ٩٣ ، وأخرجه عنه الطبري ٢٢/ ١٢٥ .

(٤) (دسر)، وقول ابن عباس علَّقه البخاري قبل حديث (١٤٩٨)، ووصله البيهقي في السنن الكبرى ٤/ ١٤٦ .

(٥) ١١/ ١٠٨ - ١٠٩ .

(٦) تفسير البغوي ٤/ ٢٦٠ . ومذهب السلف إثبات العين لله تعالى بلا تشبه ولا تأويل ولا تمثيل على ما يليق به سبحانه وتعالى.

(٧) المحرر الوجيز ٥/ ٢١٥ .

(٨) النكت والعيون ٥/ ٤١٣ على أن الصواب إثبات العين لله عز وجل على ما يليق بجلاله .

(٩) لم نقف عليه بهذا اللفظ، بل الوارد قوله ﷺ في الحديث القدسي عن ربِّ العزَّة: «مرضتُ فلم تَعُدْني..» وسلف ٢/ ٤٣٨ .

﴿جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ﴾ أي: جعلنا ذلك ثواباً وجزاءً لنوح على صبره على أذى قومه، وهو المكفور به، فاللام في «لِمَنْ» لام المفعول له[١]. وقيل: «كُفِرَ» أي: جحد، فـ«من» كناية عن نوح[٢]. وقيل: كناية عن الله، والجزاء بمعنى العقاب، أي: عقاباً لكفرهم بالله تعالى[٣].

وقرأ يزيد بن رومان وقتادة ومجاهد وحميد: «جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كَفَرَ» بفتح الكاف والفاء[٤]، بمعنى: كان الغَرَق جزاءً وعقاباً لمن كفر بالله[٥].

وما نجا من الغرق غير عوج بن عنق، كان الماء إلى حُجْزته، وسبب نجاته أنَّ نوحاً احتاج إلى خشبة السَّاج لبناء السفينة فلم يمكنه حملها، فحمل عُوجُ تلك الخشبة إليه من الشام، فشكر الله له ذلك، ونَجَّاه من الغرق[٦].

﴿وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً﴾ يريد هذه الفعلة عِبْرة[٧]. وقيل: أراد السفينة[٨]، تركها آيةً لمن بعد قوم نوح، يعتبرون بها فلا يكذِّبون الرسل. قال قتادة: أبقاها الله بَباقِرْدَى من أرض الجزية عبرةً وآيةً، حتى نظرت إليها أوائل هذه الأمَّة، وكم من سفينة كانت بعدها فصارت رماداً[٩].

---

(١) الكشاف ٤/ ٣٨.
(٢) معاني القرآن للفراء ٣/ ١٠٧.
(٣) النكت والعيون ٥/ ٤١٣.
(٤) المحرر الوجيز ٥/ ٢١٥ دون ذكر مجاهد وحميد، والقراءة عن يزيد وقتادة في القراءات الشاذة ص١٤٧، والمحتسب ٢/ ٢٩٨.
(٥) تفسير أبي الليث ٣/ ٢٩٩.
(٦) تفسير البغوي ٢/ ٣٨٦، والسَّاجُ: خشب يجلب من الهند، واحدته: ساجة. اللسان (سوج). والخبر من الإسرائيليات التالفة كما أشرنا إليه ٧/ ٣٩٦ - ٣٩٨.
(٧) معاني القرآن للزجاج ٥/ ٨٨.
(٨) تفسير البغوي ٤/ ٢٦١.
(٩) النكت والعيون ٥/ ٤١٣، وأخرجه عنه الطبري ٢٢/ ١٢٨، وابن أبي حاتم ١٠/ ٣٣٢٠ (١٨٧٠٩)، وباقِرْدَى: موضع بالجزيرة يقع شرقي دجلة، بالقرب من جبل الجودي. معجم ما استعجم ١/ ٢٢٢، ومعجم البلدان ١/ ٤٦٦، ٤٧٦.

﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ مُتَّعظ خائف[١]، وأصله مُذْتَكِر ـ مُفْتَعِل ـ من الذِّكْر، فثقلت على الألسنة، فقلبت التاء دالاً؛ لتوافق الذال في الجهر، وأدغمت الدال فيها[٢].

﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ أي: إنذاري، قال الفرَّاء: الإنذار والنذر مصدران[٣]. وقيل: «نُذُر» جمع نذير، ونذير بمعنى الإنذار، كنكير بمعنى الإنكار[٤].

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ﴾ أي: سهَّلناه للحفظ، وأعنَّا عليه من أراد حفظه، فهل من طالب لحفظه، فيُعان عليه؟ ويجوز أن يكون المعنى: ولقد هيَّأناه للذِّكْر، مِن يَسَّر ناقته للسَّفَر: إذا رَحَلها، ويَسَّر فرسه للغزو، إذا أسرجه وألجمه، قال:

وقُـمْـتُ إلـيـهِ بـالـلِّـجـامِ مُـيَـسِّـراً هُنَالكَ يَجْزِيني الذي كنتُ أَصْنَعُ[٥]

وقال سعيد بن جبير: ليس من كتب الله كتابٌ يقرأ كلُّه ظاهراً إلا القرآن[٦]. وقال غيره: ولم يكن هذا لبني إسرائيل، ولم يكونوا يقرؤون التوراة إلا نظراً، غير موسى وهارون ويوشع بن نون وعُزير صلوات الله عليهم، ومن أجل ذلك افتُتنوا بعُزير لما كَتب لهم التوراة عن ظهر قلب حين أُحرقت، على ما تقدَّم بيانه في سورة «براءة»[٧] فيسَّر الله تعالى على هذه الأمَّة حِفْظَ كتابه ليذَّكَّروا ما فيه، أي: يفتعلوا الذّكر، والافتعال هو أن ينجع فيهم ذلك حتى يصير كالذات وكالتركيب فيهم.

﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ قارئ يقرؤه. وقال أبو بكر الورَّاق وابن شَوْذب: فهل من طالب

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ٢٦١ .

(٢) إعراب القرآن لمكي ٢/ ٦٩٧ .

(٣) ونقله عنه البغوي ٤/ ٢٦١ .

(٤) غريب القرآن لابن قتيبة ص٤٣٢ .

(٥) الكشاف ٤/ ٣٨ ، والبيت للأعرج عدي بن عمرو الطائي المعنى، وهو في شرح ديوان الحماسة للمرزوقي ١/ ٣٥١ .

(٦) تفسير البغوي ٤/ ٢٦١ ، والوسيط ٤/ ٢٠٩ .

(٧) ١٠/ ١٧٣ ، وينظر معاني القرآن للزجاج ٥/ ٨٨ .

خير وعِلْم فيُعانَ عليه(١)، وكرِّر في هذه السورة؛ للتنبيه والإفهام. وقيل: إنَّ الله تعالى اقتصَّ في هذه السورة على هذه الأمَّة أنباء الأمم وقصص المرسلين، وما عاملتهم به الأُمم، وما كان من عقبى أمورهم وأمور المرسلين، فكان في كلِّ قصة ونبأ ذِكْرٌ للمستمع أن لو ادَّكر، وإنَّما كرَّر هذه الآية عند ذِكْر كلِّ قصة بقوله: «فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ» لأنَّ «هَلْ» كلمة استفهام تستدعي أفهامهم التي ركبت في أجوافهم، وجعلها حجَّة عليهم، فاللام من «هَلْ» للاستعراض، والهاء للاستخراج.

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٨﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٢١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٢٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ﴾ هم قوم هود. ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ وقعت «نُذُر» في هذه السورة في ستَّة أماكن محذوفة الياء في جميع المصاحف، وقرأها يعقوب مثبتة في الحالين، وورش في الوصل لا غير، وحذف الباقون. ولا خلاف في حذف الياء من قوله: «فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ» [الآية: ٥] والواو من قوله: «يَدْعُ». فأمَّا الياء من «الدَّاعِ» الأول فأثبتها في الحالين ابنُ مُحيصن ويعقوب وحُميد والبَزِّيُّ، وأثبتها ورش وأبو عمرو في الوصل، وحذف الباقون. وأما «الدَّاعِ» الثانية فأثبتها يعقوب وابنُ مُحَيْصن وابنُ كثير في الحالين، وأَثبتها أبو عمرو ونافع في الوصل، وحذفها الباقون(٢).

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا﴾ أي: شديدة البرد، قاله قتادة والضحَّاك(٣). وقيل: شديدة الصوت(٤). وقد مضى في «حم» السجدة(٥).

---

(١) أخرجه الدارمي (٣٤٧)، والطبري ٢٢/ ١٣٢ ، و وأبو نعيم في الحلية ٣/ ٧٦ من طريق ابن شوذب، عن مطر الوراق، وأورده الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٤١٣ ونسبه لقتادة، وأخرجه عنه الطبري ٢٢/ ١٣١ .

(٢) السبعة ص٦١٧ – ٦١٨ ، والتيسير ص٢٠٦ ، والنشر ٢/ ١٣٨ ، ١٤١ ، ٣٨٠ .

(٣) النكت والعيون ٥/ ٤١٤ ، وأخرجه عنهما الطبري ٢٢/ ١٣٣ .

(٤) غريب القرآن لابن قتيبة ص٤٣٢ .

(٥) عند الآية (١٦).

﴿فِي يَوْمِ نَحْسٍ﴾ أي: في يوم كان مشؤماً عليهم. وقال ابن عباس: أي: في يوم كانوا يتشاءمون به(١). الزجَّاج(٢): قيل: في يوم أربعاء. ابن عباس: كان آخِرَ أربعاء في الشهر، أَفنى صغيرهم وكبيرهم.

وقرأ هارون الأعور: «نَحِس» بكسر الحاء(٣)، وقد مضى القول فيه في «حم» السجدة: ﴿فِيٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ﴾ [الآية:١٦].

و«فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٌّ» أي: دائم الشؤم، استمرَّ عليهم بنحوسه(٤)، واستمرَّ فيه العذاب إلى الهلاك. وقيل: استمرَّ بهم إلى نار جهنَّم(٥). وقال الضحَّاك: كان مُرًّا عليهم(٦). وكذا حكى الكسائي أنَّ قوماً قالوا: هو من المرَارة، يقال: مُرَّ الشيء وأمرَّ(٧)، أي: كان كالشيء المرِّ تكرهه النفوس. وقد قال: «فَذُوقُوا» والذي يُذاق قد يكون مُرّاً. وقد قيل: هو من المِرَّة، بمعنى القوَّة(٨). أي: في يوم نحس مستمرٌّ مستحكم الشؤم، كالشيء المحكم الفتل الذي لا يُطاق نقضه.

فإن قيل: فإذا كان يوم الأربعاء يومَ نحس مستمرٌّ، فكيف يُستجاب فيه الدعاء؟ وقد جاء أنَّ النبيَّ ﷺ استجيب له فيه فيما بين الظهرِ والعصرِ. وقد مضى في «البقرة»(٩) حديث جابر بذلك؟ فالجواب ـ والله أعلم ـ ما جاء في خبر يرويه مسروق عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال: «أتاني جبريل فقال: إنَّ الله يأمرك أن تقضي باليمين مع الشاهد،

---

(١) الوسيط ٤/ ٢١٠.

(٢) في معاني القرآن له ٥/ ٨٩.

(٣) لم نقف عليها.

(٤) زاد المسير ٨/ ٩٥.

(٥) أخرجه الطبري ٢٢/ ١٣٥ عن قتادة.

(٦) المحرر الوجيز ٥/ ٢١٦.

(٧) الصحاح (مرر).

(٨) تهذيب اللغة ١٥/ ١٩٦.

(٩) ٣/ ١٨٤.

وقال: يوم الأربعاء يوم نحس مستمر»[١]. ومعلوم أنَّه لم يرد بذلك أنَّه نحس على الصالحين[٢]، بل أراد أنَّه نحس على الفجَّار والمفسدين، كما كانت الأيام النحسات المذكورة في القرآن، نحسات على الكفار من قوم عادٍ لا على نبيِّهم والمؤمنين به منهم، وإذا كان كذلك لم يبعد أن يمهل الظالم من أوَّل يوم الأربعاء إلى أن تزول الشمس، فإذا أدبر النهار ولم يحدث رجعة[٣]، استُجيب دعاء المظلوم عليه، فكان اليوم نحساً على الظالم، ودعاء النبيِّ ﷺ إنَّما كان على الكفار، وقول جابر في حديثه[٤]: لم ينزل بي أمر غليظ؛ إشارة إلى هذا، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿تَنزِعُ ٱلنَّاسَ﴾ في موضع الصفة للريح، أي: تَقْلَعهم من مواضعهم[٥].

قيل: قلعتهم من تحت أَقدامهم اقتلاعَ النخلة من أصلها[٦]. وقال مجاهد: كانت تقلعهم من الأرض، فترمي بهم على رؤوسهم فتندقُّ أعناقهم وتَبِين رؤوسهم عن

(١) لم نقف عليه من رواية مسروق، وأخرجه ابن عدي في الكامل ١/ ٢٣٨ من طريق إبراهيم بن أبي حية، عن أبيه، عن النبي ﷺ مرسلاً، وابن حبان في المجروحين ١/ ١٠٤ ، والبيهقي في السنن الكبرى ١٠/ ١٧٠ من طريق إبراهيم بن أبي حية، عن جعفر بن محمد، عن أبيه، عن جابر بن عبد الله مرفوعاً. قال ابن حبان: إبراهيم بن أبي حية يروي عن جعفر وهشام مناكير.
وأخرجه أيضاً ابن عدي في الكامل ٥/ ١٨٨٣ من طريق عيسى بن عبد الله، قال: حدثني أبي، عن أبيه، عن جده، عن علي موقوفاً. وعيسى بن عبد الله هو: عيسى بن عبد الله بن محمد بن عمر بن علي بن أبي طالب، الكوفي، قال عنه ابن حبان في المجروحين ٢/ ١٢١: يروي عن أبيه، عن آبائه أشياء موضوعة.

(٢) في (د) و(ف) و(م): المصلحين، والمثبت من (ظ) و(ك)، والمنهاج في شعب الإيمان للحليمي ١/ ٥٣٦ والكلام منه.

(٣) في المنهاج: ولم تحدث رجفة.

(٤) السالف ٣/ ١٨٤ ، والذي أشار إليه القرطبي آنفاً.

(٥) غريب القرآن لابن قتيبة ص٤٣٣ .

(٦) تفسير أبي الليث ٣/ ٣٠٠ .

أجسادهم[١]. وقيل: تنزع الناس من البيوت. وقال محمد بن كعب عن أبيه: قال النبيُّ ﷺ: «انتزعت الريحُ الناسَ من قبورهم»[٢]. وقيل: حفروا حُفَراً ودخلوها، فكانت الريح تَنزِعُهم منها وتكسرهم، وتبقى تلك الحفر كأنَّها أصول نخل قد هلك ما كان فيها، فتبقى مواضعها منقعرة[٣].

ويروى أنَّ سبعةً منهم حفروا حفراً وقاموا فيها ليردُّوا الريح. قال ابن إسحاق: لما هاجت الريح قام نفرٌ سبعة من عادٍ سُمِّي لنا منهم ستَّةٌ من أَيْدِ[٤] عادٍ وأجسمِها، منهم عمرو بن الحليِّ، والحارث بن شداد، والهِلْقام، وابنا تِقْن[٥]، وخَلجَان بن سعد، فأَوْلجوا العيالَ في شِعْب بين جبلين، ثم اصطفُّوا على باب الشِّعب ليردُّوا الريح عمَّن في الشِّعب من العيال، فجعلت الريح تَجْعَفهم[٦] رجلاً رجلاً، فقالت امرأة من عادٍ:

ذهبَ الدهرُ بعمرِو بـ ... ـنِ حليٍّ والهنيَّاتِ
ثم بالحارث والهِلْـ ... ـقامِ طَلَّاعِ الثنيَّاتِ
والذي سدَّ مهبَّ الر ... يحِ أيَّامَ البليَّاتِ

الطبريُّ[٧]: في الكلام حذف، والمعنى: تنزع الناس فتتركهم كأنَّهم أعجاز نخل منقعِر، فالكاف في موضع نصب بالمحذوف. الزَّجاج[٨]: الكاف في موضع نصب

(١) المحرر الوجيز ٥/ ٢١٦.
(٢) تفسير البغوي ٤/ ٢٦١ دون عزو، ولم نقف عليه عند غيره.
(٣) المحرر الوجيز ٥/ ٢١٦.
(٤) في (م): أشد. والمثبت من النسخ والطبري ٢٢/ ١٣٥، والكلام منه، والأبيات الآتية منه أيضاً، والأيِّد: القوي. التاج (أيد).
(٥) في الطبري: تيقن.
(٦) جعفه: صَرَعه، وضرب به الأرض. اللسان (جعف).
(٧) في التفسير ٢٢/ ١٣٨، ومشكل إعراب القرآن لمكي ٢/ ٦٩٩.
(٨) في معاني القرآن له ٥/ ٨٩.

على الحال، والمعنى: تنزع الناس مشبَّهين بأعجاز نخل. والتشبيه قيل: إنَّه للحُفَر التي كانوا فيها[١].

والأعجاز جمع عَجُز: وهو مؤخَّر الشيء[٢]. وكانت عاد موصوفين بطول القامة، فشُبِّهوا بالنخل انكبَّت لوجوهها. وقال: «أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ» للفظ النخل، وهو من الجمع الذي يذكَّر ويؤنَّث[٣]. والمنقعر: المنقلع من أصله، قعرتُ الشجرةَ قعراً: قلعتُها من أصلها فانقعرت. الكسائي: قعرتُ البئرَ، أي: نزلتُ حتى انتهيتُ إلى قعرها، وكذلك الإناء إذا شربت ما فيه حتى انتهيت إلى قعره. وأقعرتُ البئرَ: جعلتُ لها قعراً[٤].

وقال أبو بكر بنُ الأنباري: سئل المبرِّد بحضرة إسماعيل القاضي عن ألف مسألة هذه من جملتها، فقيل له: ما الفرق بين قوله تعالى: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً﴾ [الأنبياء: ٨١] و﴿جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ﴾ [يونس: ٢٢]، وقوله: ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٧] و﴿أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾ [القمر: ٢٠] فقال: كلُّ ما وَرَدَ عليك من هذا الباب فإن شئت رددته إلى اللفظ تذكيراً، أو إلى المعنى تأنيثاً. وقيل: إنَّ النخل والنخيل بمعنًى يذكَّر ويؤنَّث كما ذكرنا. ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ . وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ تقدَّم.

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ ﴿٢٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ﴾ هم قوم صالح كذَّبوا الرسل ونبيَّهم، أو كذَّبوا بالآيات التي هي النذر ﴿فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥ﴾ ونَدَعُ جماعةً[٥].

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٩٢ .

(٢) الصحاح (عجز).

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٩١ .

(٤) الصحاح (قعر).

(٥) تفسير الطبري ٢٢/ ١٣٩ .

وقرأ أبو الأشهب وابن السَّمَيْفَع وأبو السَّمَّال العدويُّ: «أَبَشَرٌ» بالرفع «وَاحِدٌ» كذلك رفع بالابتداء، والخبر: «نَتَّبِعُهُ». الباقون بالنصب على معنى: أنتَّبع بشراً منَّا واحداً نتبعه. وقرأ أبو السَّمَّال: «أَبَشَرٌ» بالرفع «مِنَّا واحِداً» بالنصب، رفع «أَبَشَرٌ» بإضمار فعل يدلُّ عليه «أَؤُلْقِيَ» كأنَّه قال: أَينبَّأ بشرٌ منَّا، وقوله: «وَاحِداً» يجوز أن يكون حالاً من المضمر في «مِنَّا» والناصب له الظرف، والتقدير: أينبَّأ بشرٌ كائن منَّا منفرداً، ويجوز أن يكون حالاً من الضمير في «نَتَّبِعُهُ» منفرداً لا ناصر له[١].

﴿إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ﴾ أي: ذهاب عن الصواب[٢] ﴿وَسُعُرٍ﴾ أي: جنون، من قولهم: ناقة مسعورة[٣]، أي: كأنَّها من شدَّة نشاطها مجنونة[٤]، ذكره ابن عباس[٥]. قال الشاعر يصف ناقته:

تَخالُ بها سُعْراً إذا السَّفْرُ[٦] هَزَّهَا ذَمِيلٌ وإيقاعٌ من السَّيْرِ مُتْعِبُ[٧]

وقال ابن عباس أيضاً: السُّعر: العذاب[٨]، وقاله الفراء[٩]. مجاهد: بعد من

(١) المحتسب ٢/٢٩٨، وإعراب القرآن للنحاس ٤/٢٩٣، والكشاف ٤/٣٩، والمحرر الوجيز ٥/٢١٧، والبحر المحيط ٨/١٧٩.

(٢) تفسير الطبري ٢٢/١٣٩.

(٣) الكشاف ٤/٣٩.

(٤) غريب القرآن لابن قتيبة ص٤٣٣.

(٥) الوسيط ٤/٢١١، وزاد المسير ٨/٩٦.

(٦) في (د)، و(ظ): العيس، وفي (ف): الشعر، والمثبت من (ك) و (م).

(٧) أورده الزمخشري في الكشاف ٤/٣٩ وروايته:

كأن بها سعراً إذا العيس هزَّها ذميل وإرخاء من السير متعب

وجاء بهامش (ك) وبعد البيت في (م): «الذميل: ضرب من سير الإبل. قال أبو عبيد: إذا ارتفع السير عن العَنَق قليلاً فهو التزيُّد، فإذا ارتفع عن ذلك فهو الذميل، ثم الرسيمُ، يقال: ذَمَل يَذْمُل ويَذمِل ذَمِيلاً. قال الأصمعي: ولا يَذمُل بعير يوماً وليلةً إلا مَهْرِيٌّ. قاله الجوهري». اهـ الصحاح (ذمل).

(٨) تفسير البغوي ٤/٢٦١.

(٩) في معاني القرآن له ٣/١٠٨.

الحقِّ[١]. السديُّ: في احتراق[٢]. قال:

أصحوتَ اليومَ أمْ شاقَتْكَ هِرّ ومِنَ الْحُبِّ جُنُونٌ مُسْتَعِرْ[٣]

أي: متَّقد ومحترق. أبو عبيدة[٤]: هو جمع سعير، وهو لهيب النار. والبعير المجنون يذهب كذا وكذا لما يتلهَّب به من الحدَّة. ومعنى الآية: إنَّا إذاً لفي شقاء وعناء مما يلزمنا.

قوله تعالى: ﴿أَءُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا﴾ أي: خُصِّصَ بالرسالة من بين آل ثمود، وفيهم من هو أكثر مالاً وأحسن حالاً؟! وهو استفهام معناه الإنكار[٥]. ﴿بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ﴾ أي: ليس كما يدَّعيه، وإنَّما يريد أن يتعاظم ويلتمس التكبُّر علينا من غير استحقاق. والأَشَر: المَرَح والتَجَبُّر[٦] والنَّشاط[٧]. يقال: فرس أَشِر، إذا كان مرحاً نشيطاً، قال امرؤ القيس يصف كلباً:

فيدركنا فَغِمٌ داجِنٌ سميعٌ بصيرٌ طَلُوبٌ نَكِرْ

أَلَصُّ الضُّرُوسِ حَنِيُّ الضُّلُوعِ تَبُوعٌ أَرِيبٌ نَشيطٌ أَشِرْ[٨]

وقيل: «أَشِرٌ» بَطِر. والأَشَر: البَطَر، قال الشاعر:

---

(١) في تفسير مجاهد ٢/ ٦٣٧: السعر: الضلال أيضاً.

(٢) النكت والعيون ٥/ ٤١٥، وفيه: الافتراق، بدل: الاحتراق.

(٣) القائل طرفة بن العبد، وهو في ديوانه ص٥٠.

(٤) في مجاز القرآن له ٢/ ٢٤١.

(٥) تفسير الطبري ٢٢/ ١٤٠ بنحوه.

(٦) تفسير البغوي ٤/ ٢٦٢.

(٧) مجاز القرآن لأبي عبيدة ٢/ ٢٤١.

(٨) ديوان امرئ القيس ص١٦٠ - ١٦١، وفيه: أريب، بدل: طلوب، قال شارحه: الفَغِم: المولع بالشيء الحريص عليه. وداجن: آلف، قد عاود الصيد غير مرَّة. وألصُّ الضروس: ملتصقة بعضها إلى بعض. وحنيُّ الضلوع: ضلوعه منحنية معطوفة.

أشِرْتُمْ بِلُبْسِ الخَزِّ لمّا لَبِسْتُمُ ... ومِن قبلُ ما تَدْرونَ مَنْ فَتَحَ الْقُرَى[1]

وقد أشِرَ بالكسر يأشَر أشَراً، فهو أشِر وأشْرانُ، وقوم أُشَارى مثل سَكْران وسُكَارى، قال الشاعر:

وخَلَّتْ وُعُولاً أُشَارَى بها ... وقد أزْهَفَ الطَّعْنُ أبطالَها[2]

وقيل: إنَّه المتعدِّي إلى منزلة لا يستحقُّها[3]، والمعنى واحد. وقال ابن زيد وعبد الرحمن بن حمَّاد: الأشِر: الذي لا يبالي ما قال[4].

وقرأ أبو جعفر وأبو قِلابة: «أشَرُّ» بفتح الشين وتشديد الراء[5]، يعني به: أشرّنا وأخبثنا.

﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا﴾ أي: سيرون العذاب يوم القيامة، أو في حال نزول العذاب بهم في الدنيا[6].

وقرأ ابن عامر وحمزة بالتاء، على أنَّه من قول صالح لهم على الخطاب. الباقون بالياء؛ إخبار من الله تعالى لصالح عنهم[7].

وقوله: «غداً» على التقريب على عادة الناس في قولهم للعواقب: إنَّ مع اليوم غداً[8]، قال:

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٤١٥، ولم ينسبه.

(٢) الصحاح (أشر)، قال ابن برِّي في التنبيه والإيضاح ٢/ ٧٨: البيت لميَّة بنت ضرار الضبيَّة ترثي أخاها، وأزهف الطعنُ أبطالها: أي: صَرَعها.

(٣) النكت والعيون ٥/ ٤١٥.

(٤) أخرجه الطبري ٢٢/ ١٤٠ عن عبد الرحمن بن أبي حماد.

(٥) ذكرها العكبري في إملاء ما منَّ به الرحمن ٤/ ٣٦٦ - ٣٦٧، والفخر الرازي ٢٩/ ٥١ ولم ينسباها.

(٦) الوسيط ٤/ ٢١١.

(٧) تفسير أبي الليث ٣/ ٣٠٠، والقراءة في السبعة ص٦١٨، والتيسير ص٢٠٦.

(٨) تفسير البغوي ٤/ ٢٦٢.

لـلـموتِ فيـهـا سِـهـامٌ غـيـر مُـخْـطِـئَـةٍ مَنْ لم يكن مَيتاً في اليومِ ماتَ غَدَا[١]

وقال أبو الطَّمَحان[٢]:

أَلَا عَـلِّـلَانـي قـبـل نَـوْحِ الـنَّـوَائِـح وقَبْل اضْطرَابِ النَّفْسِ بينَ الْجَوَانِح

وقبلَ غَدٍ يا لَهْفَ نفسِي على غَدٍ إذا رَاح أصحـابـي ولسـتُ بـرائـح

إنَّما أرادَ وقتَ الموت، ولم يُرِدْ غداً بعينه.

﴿مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ﴾ وقرأ أبو قلابة: «الْأَشَرُّ» بفتح الشين وتشديد الراء[٣]، جاء به على الأصل. قال أبو حاتم: لا تكاد العرب تتكلم بالأَشَرّ والأَخْيَر إلا في ضرورة الشعر، كقول رؤبة:

بِـلَالُ خَـيْـر الـنـاسِ وابـن الْأَخْـيَـر[٤]

وإنَّما يقولون: هو خير قومه، وهو شرُّ الناس، قال الله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠] وقال: ﴿فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا﴾ [مريم: ٧٥]. وعن أبي حيوة: بفتح الشين وتخفيف الراء[٥]. وعن مجاهد وسعيد بن جُبَير: ضمُّ الشين والراء والتخفيف[٦]، قال النحَّاس: وهو معنى «الأشِر» ومثله: رجل حَذِر وحَذُر.

(١) القائل أبو العتاهية، وهو في ديوانه ص١١١ ، وجاءت رواية عجزه هكذا:

من فاته اليوم سهم لم يفته غدا

(٢) في النسخ الخطية: أبو الطماح، وفي (م): الطرِمَّاح. والمثبت من مصادر التخريج، فالبيتان ذكرهما المرزوقي في شرح ديوان الحماسة ٣/ ١٢٦٦ ، والبصري في الحماسة البصرية ١/ ١٣٢ ، ونسباهما إلى أبي الطَّمَحان القيني، وجاء فيه: صدح، بدل: نوح. وارتقاء، بدل: اضطراب. وذكرهما ابن عبد ربِّه في العقد الفريد ٣/ ٢٤٨ ونسبهما إلى هدبة العذري، وفيه: اطلاع، بدل: اضطراب. ولم نقف على البيتين في ديوان الطرماح.

(٣) القراءات الشاذة ص١٤٧ ، والمحتسب ٢/ ٢٩٩ .

(٤) ذكره ابن جنيّ في المحتسب ٢/ ٢٩٩ ، ولم نقف عليه في ديوان رؤبة ولا العجاج.

(٥) القراءات الشاذة ص١٤٨ .

(٦) القراءات الشاذة ص١٤٨ ، والمحتسب ٢/ ٢٩٩ ، والبحر المحيط ٨/ ١٨٠ .

قوله تعالى: ﴿إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾ فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ ﴿٣١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٣٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ﴾ أي: مخرجوها من الهضبة التي سألوها، فروي أنَّ صالحاً صلَّى ركعتين ودعا، فانصدعت الصخرةُ التي عيَّنوها عن سنامها، فخرجت ناقةٌ عُشَراء جرداء[١]. ﴿فِتْنَةً لَّهُمْ﴾ أي: اختباراً، وهو مفعول له[٢]. ﴿فَارْتَقِبْهُمْ﴾ أي: انتظر ما يصنعون. ﴿وَاصْطَبِرْ﴾ أي: اصبر على أذاهم[٣]، وأصل الطاء في اصطبر تاء، فتحوَّلت طاء؛ لتكون موافقة للصاد في الإطباق[٤].

﴿وَنَبِّئْهُمْ﴾: أي: أخبرهم ﴿أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ﴾ أي: بين آلِ ثمودَ وبين الناقة، لها يوم ولهم يوم[٥]، كما قال تعالى: ﴿لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الشعراء: ١٥٥] قال ابن عباس: كان يوم شِربهم لا تشرب الناقةُ شيئاً من الماء، وتسقيهم لبناً، وكانوا في نعيم، وإذا كان يوم الناقة شربت الماءَ كلَّه، فلم تُبْقِ لهم شيئاً[٦]. وإنَّما قال: «بَيْنَهُمْ» لأنَّ العرب إذا أخبروا عن بني آدم مع البهائم، غلَّبوا بني آدم[٧].

وروى أبو الزبير عن جابر قال: لما نزلنا الحجْرَ في مغزى رسول الله ﷺ تَبُوك، قال: «أيُّها الناس لا تسألوا في هذه الآيات، هؤلاء قوم صالح سألوا نبيَّهم أن يبعثَ الله

(١) عرائس المجالس ص٦٨، وفيه: وبراء، بدل: جرداء، وكذا جاءت في (م).
(٢) معاني القرآن للزجاج ٥/ ٨٩.
(٣) الوسيط ٤/ ٢١١.
(٤) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٩٤.
(٥) غريب القرآن لابن قتيبة ص٤٣٣.
(٦) الوسيط ٤/ ٢١١.
(٧) تفسير البغوي ٤/ ٢٦٢.

لهم ناقةً، فبعث اللهُ عزَّ وجلَّ إليهم الناقة، فكانت تَرِدُ من ذلك الفجِّ فتشرب ماءَهم يوم وِردها، ويحلبون منها مثلَ الذي كانوا يشربون يوم غِبِّها» وهو معنى قوله تعالى: «وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ»[(١)].

﴿كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ﴾ الشِّرْب ـ بالكسر ـ الحَظُّ من الماء، وفي المثل: آخرها أقلُّها شِرْباً. وأصله في سقي الإبل؛ لأنَّ آخرَها يَرِدُ وقد نُزِفَ الحوضُ[(٢)].

ومعنى «مُحْتَضَرٌ» أي: يحضُره مَن هو له، فالناقة تَحضر الماءَ يوم وِردها، وتغيب عنهم يوم وِردهم، قاله مقاتل. وقال مجاهد: إنَّ ثمود يحضرون الماءَ يوم غِبِّها فيشربون، ويحضرون اللبنَ يوم وِردها فيحتلبون[(٣)].

قوله تعالى: ﴿فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ﴾ يعني بالحضِّ على عَقْرها ﴿فَتَعَاطَىٰ﴾ عقرها ﴿فَعَقَرَ﴾ هَا، ومعنى تعاطى: تناول الفعل، من قولهم: عَطَوتُ، أي: تناولتُ[(٤)]، ومنه قول حسان:

كلْتَاهُمَا حَلَبُ العَصِيرِ فعَاطِنِي بزجاجةٍ أرخاهما للمِفْصَلِ[(٥)]

قال محمد بن إسحاق: فَكَمِنَ لها في أصل شجرة على طريقها، فرماها بسهم فانتظم به عَضَلة ساقها، ثم شدَّ عليها بالسيف فكشف عُرْقوبها، فخرَّت ورَغت رُغاةً

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٤١٥، وعرائس المجالس ص٧٣، والحديث أخرجه أحمد (١٤١٦٠)، والبزار (١٨٤٤ كشف الأستار)، والطبري ١٠/ ٢٩٦، والطحاوي في شرح مشكل الآثار (٣٧٥٥) من طريق ابن خُثَيم، والطبراني في الأوسط (٩٠٦٥) من طريق ابن لهيعة، كلاهما عن أبي الزبير، عن جابر بنحوه. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٦/ ١٩٤ و ٧/ ٣٨: رواه أحمد والبزار والطبراني في الأوسط، ورجال أحمد رجال الصحيح.

(٢) الصحاح (شرب)، والمثل في مجمع الأمثال للميداني ١/ ٤١- ٤٢.

(٣) النكت والعيون ٥/ ٤١٦، وخبر مجاهد في تفسيره ٢/ ٦٣٧.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٩٥.

(٥) ديوان حسان ص١٨١، قال البغدادي في خزانة الأدب ٤/ ٣٨٩: كلتاهما... إلخ. أراد كلتا الممزوجة والصرف، حلبُ العنب، فناوِلْني أشدَّهما إرخاء وهي الصرف. والحلب: بمعنى المحلوب. والمفصل: روي بكسر الميم وفتح الصاد، وهو اللسان، لأنه آلة يُفصَل به، ويروى بفتح الميم وكسر الصاد، وهو موضع انفصال العضو.

واحدة تحدّر سَقْبها من بطنها، ثم نَحرها وانطلق سَقْبها، حتى أتى صخرة في رأس جبل فرغا ثم لَاذَ بها، فأتاهم صالح عليه السلام، فلما رأى الناقة قد عُقِرت، بكى وقال: قد انتهكتم حرمةَ الله فأبشروا بعذاب الله[(١)]. وقد مضى في «الأعراف»[(٢)] بيان هذا المعنى. قال ابن عباس: وكان الذي عقرها: أحمر أزرق أشقر أكشف أقفى[(٣)]. ويقال في اسمه: قُدَار بن سالف. وقال الأفوه الأَوْديُّ:

أو قَبْلَه كقُدَارٍ حين تَابَعَهُ ... على الغَوَايةِ أقوامٌ فقد بادُوا

والعرب تسمِّي الجزَّار قُدَاراً؛ تشبيهاً بقُدَار بن سالف مشؤم آلِ ثمودَ، قال مُهلهِل:

إنَّا لَنَضْرِبُ بالسُّيُوفِ رؤُوسَهمْ ... ضَرْبَ القُدَارِ نَقِيعَةَ القُدَّامِ[(٤)]

وذكره زهير فقال:

فَتُنْتَجْ لكمْ غِلمانَ أَشْأَمَ كُلُّهُمْ ... كأحمرِ عادٍ ثُمَّ تُرْضِعْ فتَفْطِمِ[(٥)]

يريد: الحرب، فكنَّى عن ثمود بعاد.

قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ﴾ يريد صيحة جبريلَ عليه السلام، وقد مضى في «هود»[(٦)]. ﴿فَكَانُواْ كَهَشِيمِ ٱلۡمُحۡتَظِرِ﴾ وقرأ الحسن وقتادة وأبو العالية: «المحْتَظَر» بفتح الظاء[(٧)]، أرادوا الحظيرة. الباقون بالكسر، أرادوا صاحبَ الحظيرةِ.

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٤١٦ .

(٢) ٩/ ٢٧٠ .

(٣) النكت والعيون ٥/ ٤١٦ ، وما بعده منه، والبيت في زهر الأكم لليوسي ٢/ ٢٧٥ ، وفيه: أو بعده، بدل: أو قبله.

(٤) المحرر الوجيز ٥/ ٢١٨ ، والبيت في الإمتاع والمؤانسة لأبي حيان التوحيدي ٣/ ٧١ ، وشرح ديوان الحماسة للمرزوقي ٣/ ١٠٢٥ . قال أبو حيان: والقُدَّام: رؤساء الجيوش، والواحد: قادم. وقال المرزوقي: والنقيعة: بعير ينحره رئيس القوم قبل القسمة فيطعمه الناس كذلك.

(٥) شرح ديوان زهير ص٢٠ ، قال شارحه: تُنْتج: يعني الحرب. غلمان أشأم: غلمان شؤم. أي: كلهم في الشؤم كأحمر عاد، وإنما أراد أحمر ثمود. ثم ترضع فتفطم: يريد أنه يَتِمُّ أمر الحرب، كالمرأة إذا أرضعت ثم فطمت فقد تمَّمت.

(٦) ١١/ ١٥٦ .

(٧) القراءات الشاذة ص١٤٨ ، والمحتسب ٢/ ٢٩٩ ، والمحرر الوجيز ٥/ ٢١٨ .

وفي «الصحاح»[(١)] والمحتظِر: الذي يعمل الحظيرة. وقرئ: «كَهَشِيمِ المحتظِر» فمن كسره جعله الفاعلَ، ومن فتحه جعله المفعولَ به. ويقال للرجل القليل الخير: إنَّه لنَكِدُ الحظِيرةِ. قال أبو عبيد: أراه سمَّى أمواله حظيرة؛ لأنَّه حظرها عنده ومنَعَها، وهي فعيلة بمعنى مفعولة[(٢)].

المهدويُّ: من فتح الظاء من «المحتظر» فهو مصدر، والمعنى: كهشيم الاحتظار. ويجوز أن يكون «المحتظَر» هو الشجر المتَّخذ منه الحظيرة. قال ابن عباس: «المحتظِر»: هو الرجل يجعل لغنمه حظيرة بالشجر والشوك، فما سقط من ذلك وداسته الغنم فهو الهشيم[(٣)]. قال:

أَثَـرْنَ عَـجَـاجَـةً كَـدخَـانِ نَـارٍ تَـشُـبُّ بِـغَـرْقَـدٍ بَـالٍ هَـشِـيـمِ[(٤)]

وعنه: كحشيش تأكله الغنم. وعنه أيضاً: كالعظام النخرة المحترقة، وهو قول قتادة[(٥)]. وقال سعيد بن جُبير: هو التراب المتناثر من الحيطان في يوم ريح[(٦)]. وقال سفيان الثوري: هو ما تناثر من الحظيرة إذا ضربتها بالعصا، وهو فعيل بمعنى مفعول[(٧)]. وقال ابن زيد: العرب تسمِّي كلَّ شيء كان رطباً فيبس هشيماً[(٨)]. والحظْر: المنع، والمحتظر المفتعل، ويقال منه: احتظر على إبله وحظر، أي: جمع الشجر ووضع بعضه فوق بعض؛ ليمنع بَرْدَ الريح والسباع عن إبله[(٩)]، قال الشاعر:

(١) مادة: «حظر».
(٢) مجمع الأمثال للميداني ١/ ٤٧ .
(٣) تفسير البغوي ٤/ ٢٦٢ .
(٤) النكت والعيون ٥/ ٤١٧ ، وما بعده منه أيضاً، ولم نقف على قائل البيت.
(٥) أخرجه عنهما الطبري ٢٢/ ١٤٥ - ١٤٦ .
(٦) النكت والعيون ٥/ ٤١٧ .
(٧) أخرجه الطبري ٢٢/ ١٤٨ .
(٨) تفسير البغوي ٤/ ٢٦٢ .
(٩) الوسيط ٤/ ٢١١ .

تَـرَى جِيَـفَ الـمَـطِيِّ بِـجَـانـبـيـه كـأنَّ عـظـامَـهـا خَـشَـبُ الـهَـشِـيـم[١]

وعن ابن عباس: أنَّهم كانوا مثل القمح الذي ديس وهشم. فالمحتظر على هذا: الذي يتَّخذ حظيرة على زرعه، والهشيم: فُتات السنبلة والتبن. ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾.

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾ نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى مَن شَكَرَ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا۟ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾ فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٤٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِٱلنُّذُرِ﴾ أخبر عن قوم لوط أيضاً لما كذَّبوا لوطاً ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا﴾ أي: ريحاً ترميهم بالحصباء وهي الحصى[٢]. قال النّضر: الحاصب: الحصباء في الريح. وقال أبو عبيدة: الحاصب: الحجارة[٣]. وفي «الصحاح»[٤]: والحاصب: الريح الشديدة التي تثير الحصباء، وكذلك الحَصِبة، قال لَبِيد:

جَـرَّتْ عـلـيـهـا أَنْ خَـوَتْ مِـن أهـلـهـا أذيـالَـهـا كُـلُّ عَـصُـوفٍ حَـصِـبَـهْ

عصفت الريح، أي: اشتدَّت، فهي ريح عاصفٌ وعَصوف[٥]. وقال الفَرَزْدق[٦]:

مستقبلين شمالَ الشامِ تَضرِبنُا بحاصبٍ كنَديفِ القُطْنِ منثورِ

---

(١) القائل عمرو بن معدي كرب، وهو في الأصمعيات ص١٧٦ ، إلا أنه ورد فيه البيت هكذا:

تـرى جيـف الـمـطيِّ بـحـافـتـيـه كـأنَّ عـظـامـهـا الـرَّخَـم الـوقـوع

(٢) الكشاف ٤/ ٤٠ .

(٣) الوسيط ٤/ ٢١١ ، وكلام أبي عبيدة في مجاز القرآن له ٢/ ٢٤١ .

(٤) مادة (حصب)، والبيت الآتي للبيد وهو في شرح ديوانه ص٣٥٥ ، وسلف ١٣/ ١٢٤ .

(٥) الصحاح (عصف).

(٦) في ديوانه ١/ ٢١٣ ، وسلف ١٣/ ١٢٤ .

﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ﴾ يعني: من تبعه على دينه، ولم يكن إلا بنتاه[١] ﴿نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ﴾ قال الأخفش: إنَّما أجراه؛ لأنَّه نكرة، ولو أراد سَحَرَ يوم بعينه لما أجراه، ونظيره: ﴿ٱهْبِطُواْ مِصْرًا﴾ [البقرة: ٦١] لما نكَّره، فلما عرَّفه في قوله: ﴿ٱدْخُلُواْ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [يوسف: ٩٩] لم يُجْرِ، وكذا قال الزجَّاج[٢]: «سحر» إذا كان نكرةً يُراد به سحَراً من الأسحار يصرف، تقول: أتيته سحراً، فإذا أردتَ سَحَرَ يومكَ، لم تصرفه، تقول: أتيته سَحَر يا هذا، وأتيته بسحر. والسَّحَرُ: هو ما بين آخرِ الليل وطلوع الفجر، وهو في كلام العرب اختلاطُ سواد الليل ببياض أوَّل النهار؛ لأنَّ في هذا الوقت يكون مخاييل الليل ومخاييل النهار[٣].

﴿نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾ إنعاماً منَّا على لوط وابنتَيْه، فهو نَصْب؛ لأنَّه مفعول له[٤]. ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِى مَن شَكَرَ﴾ أي: من آمنَ بالله وأطاعه[٥].

﴿وَلَقَدْ أَنذَرَهُم﴾ يعني: لوطاً، خوَّفهم ﴿بَطْشَتَنَا﴾ عقوبتنا، وأَخْذنا إيَّاهم بالعذاب ﴿فَتَمَارَوْاْ بِٱلنُّذُرِ﴾ أي: شَكُّوا فيما أنذرهم به الرسولُ ولم يصدِّقوه[٦]، وهو تفاعل من المِرْية[٧].

﴿وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ﴾ أي: أرادوا منه تمكينَهم ممَّن كان أتاه من الملائكة في هيئة الأضياف؛ طلباً للفاحشة على ما تقدّم[٨]. يقال: راوَدْته على كذا مُرَاوَدةً ورِوَاداً، أي: أردتُه. ورَادَ الكلأَ يَرُودُه رَوْداً ورِياداً، وارْتاده ارتياداً بمعنًى، أي: طلبه، وفي الحديث: «إذا بال أحدكم فلْيَرْتَدْ لِبوله» أي: يطلب مكاناً ليِّناً أو منحدراً[٩].

(١) تفسير البغوي ٤/ ٢٦٣ .
(٢) في معاني القرآن له ٥/ ٩٠ .
(٣) النكت والعيون ٥/ ٤١٨ .
(٤) في النسخ: (به)، والمثبت من معاني القرآن للزجاج ٥/ ٩٠ ، والكلام منه.
(٥) الكشاف ٤/ ٤٠ .
(٦) الوسيط ٤/ ٢١٢ .
(٧) تفسير الطبري ٢٢/ ١٤٩ .
(٨) ١١/ ١٧٦ .
(٩) الصحاح (رود)، والحديث أخرجه أحمد (١٩٥٣٧)، وأبو داود (٣) عن أبي موسى الأشعري ﷺ. قال المنذري في مختصر السنن ١/ ١٥ : فيه مجهول.

﴿فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ﴾ يُروى أنَّ جبريل عليه السلام ضربهم بجناحه فَعموا[١]. وقيل: صارت أعينهم كسائر الوجه لا يُرى لها شقٌّ، كما تطمس الريحُ الأعلامَ بما تسفي عليها من التراب[٢]. وقيل: لا، بل أعماهم اللهُ مع صحَّة أبصارهم، فلم يروهم[٣]. قال الضحَّاك: طمس اللهُ على أبصارهم فلم يروا الرسل، فقالوا: لقد رأيناهم حين دخلوا البيتَ، فأين ذهبوا؟ فرجعوا ولم يروهم[٤]. ﴿فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ﴾ أي: فقلنا لهم: ذوقوا، والمراد من هذا الأمر الخبر، أي: فأذقتهم عذابي الذي أنذرهم به لوط[٥].

﴿وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ﴾ أي: دائم عامٌّ استقرَّ فيهم حتى يفضي بهم إلى عذاب الآخرة[٦]. وذلك العذاب قَلْب قريتهم عليهم، وجعل أعلاها أسفلها. و«بُكْرَةً» هنا نكرة، فلذلك صرفت[٧]. ﴿فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ﴾ العذاب الذي نزل بهم من طمس الأعين غير العذاب الذي أُهلكوا[٨] به، فلذلك حسُن التكرير. ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ تقدَّم.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ ﴿٤١﴾ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ﴾ يعني: القبط[٩]، و«النُّذُرُ» موسى

(١) معاني القرآن للزجاج ٥/ ٩١ ، وأخرجه الطبري ٢٢/ ١٥٠ عن قتادة.
(٢) مجاز القرآن لأبي عبيدة ٢/ ٢٤١ ، وتفسير الطبري ٢٢/ ١٤٩ - ١٥٠ .
(٣) النكت والعيون ٥/ ٤١٨ .
(٤) تفسير البغوي ٤/ ٢٦٣ .
(٥) تفسير الطبري ٢٢/ ١٥٢ بنحوه.
(٦) تفسير البغوي ٤/ ٢٦٣ .
(٧) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٩٨ .
(٨) تفسير الرازي ٢٢/ ٦٣ .
(٩) الوسيط ٤/ ٢١٢ .

وهارون[١] وقد يطلق لفظ الجمع على الاثنين. ﴿كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ معجزاتنا الدَّالَّة على توحدينا ونبوَّة أنبيائنا[٢]، وهي العصا، واليد، والسِّنون، والطمسة، والطوفان، والجراد، والقمَّل، والضفادع، والدم. وقيل: «النُّذُر»: الرسل، فقد جاءهم يوسف وبَنُوهُ إلى أن جاءهم موسى، وقيل: «النذر» الإنذار[٣]. ﴿فَأَخَذْنَٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ﴾ أي: غالب في انتقامه ﴿مُّقْتَدِرٍ﴾ أي: قادر على ما أراد.

قوله تعالى: ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٤٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَٰٓئِكُمْ﴾ خاطب العرب. وقيل: أراد كفَّار أمَّة محمَّد ﷺ[٤]. وقيل: استفهام، وهو استفهام إنكار[٥]، ومعناه النفي، أي: ليس كفاركم خيراً من كفَّار مَن تقدَّم من الأُمم الذين أهلكوا بكفرهم[٦]. ﴿أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِى ٱلزُّبُرِ﴾ أي: في الكتب المنزلة على الأنبياء بالسلامة من العقوبة[٧]. وقال ابن عباس: أم لكم في اللوح المحفوظ براءةٌ من العذاب. ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ﴾ أي: جماعة لا تطاق؛ لكثرة عددهم وقوَّتهم[٨]، ولم يقل: منتصرين؛ اتباعاً لرؤوس الآي[٩]، فردَّ اللهُ عليهم فقال: ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ﴾ أي: جَمْعُ كفَّار مكَّة، وقد كان ذلك يوم بدر وغيره[١٠].

---

(١) تفسير أبي الليث ٣/ ٣٠٣.

(٢) الوسيط ٤/ ٢١٢.

(٣) زاد المسير ٨/ ١٠٠.

(٤) أخرجه الطبري ٢٢/ ١٥٦ عن الربيع بن أنس.

(٥) تفسير البغوي ٤/ ٢٦٤.

(٦) النكت والعيون ٥/ ٤١٩.

(٧) غريب القرآن لابن قتيبة ص٤٣٤.

(٨) النكت والعيون ٥/ ٤١٩.

(٩) تفسير البغوي ٤/ ٢٦٤.

(١٠) تفسير أبي الليث ٣/ ٣٠٣، والنكت والعيون ٥/ ٤١٩.

وقراءة العامة: «سَيُهْزَمُ» بالياء، على ما لم يُسَمَّ فاعله، «الْجَمْعُ» بالرفع. وقرأ رُوَيس عن يعقوب: «سَنَهْزِم» بالنون وكسر الزاي «الْجَمْعَ» نصباً[١].

﴿وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ﴾ قراءة العامة بالياء؛ على الخبر عنهم. وقرأ عيسى وابن إسحاق ورُوَيس عن يعقوب: «وَتُوَلُّونَ» بالتاء؛ على الخطاب[٢].

و«الدُّبُرَ» اسم جنس، كالدرهم والدينار، فوحّد، والمراد الجمع[٣]؛ لأجل رؤوس الآي. وقال مقاتل: ضرب أبو جهل فرسَه يوم بدر فتقدَّم من الصَّفِّ وقال: نحن ننتصر اليوم من محمَّد وأصحابه؛ فأنزل اللهُ تعالى: «نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِر. سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ»[٤].

وقال سعيد بن جبير: قال سعد بن أبي وقَّاص: لما نزل قوله تعالى: ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ﴾ كنت لا أدري أيَّ الجَمْع ينهزم، فلما كان يوم بَدْر رأيتُ النبيَّ ﷺ يَثِب في الدرع ويقول: «اللَّهمَّ إنَّ قريشاً جاءتك تُحَادُّك وتُحادُّ رسولَك بفخرها وخيلها[٥] فَأَحِنْهُم[٦] الغداةَ». ثم قال: «سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ» فعرفتُ تأويلها[٧]. وهذا من معجزات النبيِّ ﷺ؛ لأنَّه أخبر عن غيب، فكان كما أخبر[٨].

---

(١) النشر ٢/ ٣٨٠.

(٢) المحرر الوجيز ٥/ ٢٢٠، وزاد المسير ٨/ ١٠٠، والبحر المحيط ٨/ ١٨٣.

(٣) تفسير البغوي ٤/ ٢٦٤.

(٤) الكشاف ٤/ ٤١ ولم ينسبه.

(٥) في (م): وخيلائها.

(٦) في (م): فأخنهم. ولم تنقط في النسخ الخطية، والمثبت من مصادر التخريج، والحَيْنُ: الهلاك، وقد حان، وأحانه الله. القاموس (حين)، وأخنى عليهم بمعناه. القاموس (خني)، وسيذكره المصنف قريباً. ودعاؤه ﷺ على قريش ورد في خبر آخر عند ابن هشام في السيرة ١/ ٦٢، والواقدي في المغازي ١/ ٥٩ عن سعد بن معاذ.

(٧) لم نقف عليه من رواية سعد بن أبي وقاص، وأخرجه عبد الرزاق في التفسير ٢/ ٢٥٩، والطبري ٢٢/ ١٥٧، من طريق عكرمة، أن عمر قال: لما نزلت: ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ﴾.. بنحوه.
وأخرجه الطبراني في الأوسط (٣٨٤١) من طريق معمر، عن قتادة، عن أنس: أن عمر بن الخطاب قال: لما نزلت: ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ﴾.. بنحوه. وبرقم (٩١١٧) عن أبي هريرة مطولاً، وذكرهما الهيثمي في مجمع الزوائد ٦/ ٧٨، وقال عن الأول: وفيه محمد بن إسماعيل بن علي الأنصاري، ولم أعرفه. وقال عن الثاني: وفيه عبد العزيز بن عمران، وهو ضعيف.

(٨) تفسير أبي الليث ٣/ ٣٠٢.

أخنى عليه الدهر. أي: أتى عليه وأهلكه، ومنه قول النابغة:

أَخْنَى عليه الذي أَخْنَى على لُبَدِ

وأخنيت عليه: أفسدت[١]. قال ابن عباس: كان بين نزول هذه الآية وبين بدر سبع سنين، فالآية على هذا مكِّيَّة. وفي «البخاري»[٢] عن عائشة أمِّ المؤمنين رضي الله عنها قالت: لقد أُنزِل على محمَّد ﷺ بمكَّة وإنِّي لجارية ألعب: «بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ». وعن ابن عباس أنَّ النبيَّ ﷺ قال - وهو في قبَّة له يوم بدر -: «أَنْشُدُكَ عهدَك ووعدَك، اللَّهمَّ إن شئتَ لم تُعبدْ بعدَ اليوم أبداً» فأخذ أبو بكر ﷺ بيده وقال: حَسْبُك يا رسولَ الله، فقد ألححتَ على ربِّك؛ وهو في الدِّرْع، فخرج وهو يقول: «سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ. بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ»[٣] يريد القيامة.

«وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ» أي: أدهى وأمرُّ مما لحقهم يوم بدر[٤]. و«أدْهَى» من الداهية، وهي الأمر العظيم، يقال: دهاه أَمْرُ كذا، أي: أصابه دهواً ودهياً. وقال ابن السِّكِّيت: دَهَتْه داهيةٌ دَهْواء ودَهْياء، وهي توكيدٌ لها[٥].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾

قوله تعالى: **﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ﴾ فيه أربع مسائل:**

الأولى: قوله تعالى: «إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ» أي: في حَيْدةٍ عن الحقِّ و«سُعُرٍ» أي: احتراق[٦]. وقيل: جنون[٧]، على ما تقدَّم في هذه السورة.

---

(١) الصحاح (خني)، والبيت في ديوان النابغة الذبياني ص٣١، وروايته هكذا:

أمست خلاءً وأمسى أهلُها احتملوا أخنى عليها الذي أخنى على لبد

(٢) برقم (٤٨٧٦).

(٣) البخاري (٤٨٧٧)، وهو عند أحمد (٣٠٤٢).

(٤) معاني القرآن للفراء ٣/ ١١٠.

(٥) الصحاح (دهي)، وكلام ابن السكيت في إصلاح المنطق ص١٥٧.

(٦) تفسير الطبري ٢٢/ ١٥٩.

(٧) المحرر الوجيز ٥/ ٢٢١.

﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ﴾: في «صحيح مسلم» عن أبي هريرة قال: جاء مشركو قريش يخاصمون رسولَ الله ﷺ في القَدَر، فنزلت: «يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقرَ. إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ». خرَّجه الترمذيُّ أيضاً وقال: حديث حسن صحيح[١].

وروى مسلم عن طاوس قال: أدركتُ ناساً من أصحاب رسولِ الله ﷺ يقولون: كلُّ شيء بقَدَر. قال: وسمعت عبد الله بنَ عمر يقول: قال النبيُّ ﷺ: «كلُّ شيءٍ بقَدر حتى العَجْز والكَيْس، أو: الكَيْس والعَجْز»[٢]. وهذا إبطال لمذهب القدَريَّة.

«ذُوقُوا» أي: يقال لهم: ذوقوا[٣]. ومسُّها: ما يجدون من الألم عند الوقوع فيها[٤]. و«سَقَر» اسم من أسماء جهنَّم لا ينصرف؛ لأنَّه اسم مؤنَّث معرفة[٥]، وكذا: لَظَى، وجهنَّم. وقال عطاء: «سَقَر»: الطبق السادس من جهنَّم. وقال قُطْرب: «سَقَر» من سَقَرته الشمسُ وصَقَرته: لَوَّحَتْه. ويوم مُسَمْقِرٌ ومُصَمْقِرٌ: شديدُ الحرِّ[٦].

الثانية: قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ﴾ قراءة العامَّة: «كُلَّ» بالنصب. وقرأ أبو السَّمَّال: «كُلُّ» بالرفع على الابتداء[٧]. ومن نصب؛ فبإضمار فعل، وهو اختيار الكوفيين؛ لأنَّ «إنَّ» تطلب الفعل، فهي به أولى[٨]، والنصب أدلُّ على العموم في المخلوقات لله تعالى؛ لأنَّك لو حذفت «خَلَقْنَاهُ» المفسِّر، وأظهرتَ الأوَّل، لصار إنَّا

---

(١) مسلم (٢٦٥٦)، والترمذي (٢١٥٧)، وهو عند أحمد (٩٧٣٦)، وابن ماجه (٨٣)، والواحدي في أسباب النزول ص٤٢٥ .

(٢) مسلم (٢٦٥٥)، وهو عند أحمد (٥٨٩٣).

(٣) معاني القرآن للزجاج ٥/ ٩٢ .

(٤) الكشاف ٤/ ٤١ .

(٥) معاني القرآن للزجاج ٥/ ٢٤٧ .

(٦) الصحاح (سقر) و(صقر).

(٧) القراءات الشاذة ص١٤٨ ، والمحتسب ٢/ ٣٠٠ .

(٨) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٣٠٠ .

خلقنا كلَّ شيء بقَدَر. ولا يصحُّ كون خلقناه صفة لشيء؛ لأنَّ الصفة لا تعمل فيما قبل الموصوف، ولا تكون تفسيراً لما يعمل فيما قبله(١).

الثالثة: الذي عليه أهل السنة أنَّ الله سبحانه قدَّر الأشياء، أي: عَلِمَ مقاديرها وأحوالها وأزمانها قبل إيجادها، ثم أوجد منها ما سبق في عِلْمه أنَّه يوجده على نحو ما سبق في عِلْمه، فلا يحدث حدث في العالم العلويِّ والسفليِّ إلا وهو صادر عن عِلْمه تعالى وقدرته وإرادته دون خَلْقه، وأنَّ الخَلْق ليس لهم فيها إلا نوع اكتساب ومحاولة ونسبة وإضافة، وأنَّ ذلك كلَّه إنَّما حصل لهم بتيسير الله تعالى وبقُدرته وتوفيقه وإلهامه، سبحانه لا إله إلا هو، ولا خالقَ غيرُه، كما نصَّ عليه القرآن والسنة، لا كما قالت القدَريَّة وغيرهم من أنَّ الأعمال إلينا، والآجال بيد غيرنا.

قال أبو ذرٍّ ﷺ: قدم وفد نجران على رسولِ الله ﷺ فقالوا: الأعمال إلينا، والآجالُ بيد غيرنا، فنزلت هذه الآيات إلى قوله: «إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ» فقالوا: يا محمَّد يَكتُب علينا الذنبَ ويُعذِّبنا؟! فقال: «أنتم خصماء الله يوم القيامة»(٢).

الرابعة: روى أبو الزبير عن جابر بن عبد الله ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ مجوسَ هذه الأمَّة المكذِّبون بأقدار الله، إن مرِضوا فلا تعودوهم، وإن ماتوا فلا تشهدوهم، وإن لقيتموهم فلا تسلِّموا عليهم». خرَّجه ابن ماجه في «سننه»(٣). وخرَّج أيضاً عن ابن عباس وجابر قالا: قال رسول الله ﷺ: «صنفان من أمتي ليس لهم في الإسلام نصيب: أهلُ الإرجاء والقَدَر»(٤).

---

(١) مشكل إعراب القرآن لمكي ٢/ ٧٠٢.

(٢) أخرجه الواحدي في أسباب النزول ص٤٢٦ عن عطاء مرسلاً بنحوه.

(٣) برقم (٩٢)، وأخرجه أيضاً ابن أبي عاصم في السنة (٣٢٨)، والطبراني في الأوسط (٤٤٥٢) من طريق ابن جريج، عن أبي الزبير، به. قال البوصيري في مصباح الزجاجة ١/ ٥٥ : هذا إسناد ضعيف، فيه بقية ابن الوليد، وهو مدلِّس، وقد عنعنه. اهـ. وفي الباب عن ابن عمر وعن حذيفة، وهما عند أبي داود (٤٦٩١) و(٤٦٩٢)، وينظر كلام المنذري في مختصر السنن ٧/ ٥٨ - ٦١ حول الحديثين.

(٤) سنن ابن ماجه (٧٣)، وأخرجه أيضاً ابن أبي عاصم في السنة (٩٤٨). قال البوصيري في مصباح =

وأسند النحَّاس: وحدَّثنا إبراهيم بن شريك الكوفي قال: حدَّثنا عقبةُ بنُ مكرم الضَّبيُّ قال: حدَّثنا يونس بنُ بكير، عن سعيد بن ميسرة، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «القدَريَّة الذين يقولون: الخير والشرُّ بأيدينا. ليس لهم في شفاعتي نصيب ولا أنا منهم ولا هم منِّي»(١).

وفي «صحيح مسلم»(٢) أنَّ ابن عمر تبرَّأ منهم، ولا يتبرَّأ إلا من كافر، ثم أكَّد هذا بقوله: والذي يَحلِفُ به عبدُ الله بنُ عمر لو أنَّ لأحدهم مثلَ أُحُد ذهباً فأنفقه، ما قَبِلَ اللهُ منه حتى يؤمن بالقَدَر. وهذا مثل قوله تعالى في المنافقين: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ﴾ [التوبة: ٥٤] وهذا واضح. وقال أبو هريرة: قال النبيُّ ﷺ: «الإيمان بالقَدَر يُذهِب الهمَّ والحزن»(٣).

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ۝٥٠ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ۝٥١ وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ ۝٥٢ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ۝٥٣ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ۝٥٤ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ۝٥٥﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ﴾ أي: إلا مرَّةً واحدة(٤). ﴿كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ﴾ أي: قضائي في خلْقي أسرعُ من لَمح البصر(٥). واللَّمْحُ: النظر بالعَجَلة، يقال: لَمَح

= الزجاجة ١/ ٥٢ : هذا إسناد ضعيف، نزار بن حيان الأسدي قال ابن حبان في الضعفاء: يأتي عن عكرمة بما ليس من حديثه حتى يسبق القلب أنه المتعمِّد، لذلك لا يجوز الاحتجاج به بحال، وعبد الله ابن محمد الليثي مجهول. قاله الذهبي. اهـ

وأخرجه أيضاً الترمذي (٢١٤٩) عن ابن عباس وحده. قال الترمذي عقبه: وهذا حديث غريب حسن صحيح.

(١) وأخرجه أيضاً ابن عدي في الكامل ٣/ ١٢٢٤ بإسناده ومتنه، وورد في مطبوعه: عتبة، بدل: عقبة. وهو خطأ. قال ابن الجوزي في العلل المتناهية ١/ ١٦١ - ١٦٢: هذا حديث لا يصح، وقال ابن حبان: سعيد بن ميسرة [من رجال السند] يروي الموضوعات. اهـ

(٢) برقم (٨).

(٣) أخرجه القضاعي في مسند الشهاب (٢٧٧)، وفيه مجاهيل.

(٤) معاني القرآن للفراء ٣/ ١١٠ .

(٥) الوسيط ٤/ ٢١٦ وعزاه إلى ابن عباس رضي الله عنهما.

البرقَ ببصره[١]. وفي «الصحاح»[٢]: لَمَحَه وألمحه: إذا أبصره بنَظَر خفيف، والاسم: اللَّمْحة، ولمَحَ البَرقُ والنجمُ لَمْحاً، أي: لمَع.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ﴾ أي: أشباهكم في الكفر من الأُمم الخالية[٣]. وقيل: أتباعكم وأعوانكم[٤]. ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ أي: مَن يتذكَّر.

قوله تعالى: ﴿وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ﴾ أي: جميع ما فعلته الأُمم قبلهم مِن خير أو شرٍّ كان مكتوباً عليهم، وهذا بيان قوله: «إِنَّا كُلَّ شيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدرٍ».

«في الزُّبُرِ» أي: في اللوح المحفوظ. وقيل: في كتب الحفظة[٥]. وقيل: في أُمِّ الكتاب[٦]. ﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ﴾ أي: كلُّ ذنب كبير وصغير مكتوب على عامله قَبْلَ أن يفعله؛ ليجازى به، ومكتوب إذا فعله[٧]. سَطَرَ يَسْطُرُ سَطْراً: كَتَب، واستطَرَ مثله[٨].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ﴾ لما وصَف الكفَّار وصَف المؤمنين أيضاً. «وَنَهَرٍ» يعني: أنهار الماء والخمر والعسل واللَّبن، قاله ابن جريج[٩]. ووحَّد؛ لأنَّه رأس الآية[١٠]، ثم الواحد قد يُنبِئُ عن الجميع[١١]. وقيل: في «نَهَرٍ»: في ضياء وسَعة، ومنه النهار؛ لضيائه، ومنه: أنهرتُ الجُرْحَ، قال الشاعر:

---

(١) تهذيب اللغة ٥/٩٨ .

(٢) مادة (لمح).

(٣) الوسيط ٤/٢١٦ .

(٤) تفسير أبي الليث ٣/٣٠٣ .

(٥) تفسير البغوي ٤/٢٦٦ .

(٦) تفسير الطبري ٢٢/ ١٦٤ - ١٦٥ وأخرجه عن ابن زيد.

(٧) معاني القرآن للزجاج ٥/ ٩٢ .

(٨) الصحاح (سطر).

(٩) النكت والعيون ٥/ ٤٢٠ .

(١٠) معاني القرآن للفراء ٣/ ١١٠ - ١١١ .

(١١) معاني القرآن للزجاج ٥/ ٩٣ .

مَلَكْتُ بها كَفِّي فأنهرتُ فَتقَها ... يَرَى قائمٌ من دونها ما وراءَها[١]

وقرأ أبو مِجْلز وأبو نَهيك والأعرج وطلحة بنُ مصرِّف وقتادة: «وَنُهُرٍ» بضمَّتين[٢]، كأنَّه جمع نهار، لا ليلَ لهم، كسحاب وسُحُب. قال الفراء[٣]: أنشدني بعض العرب:

إنْ تَكُ لَيْلِيًّا فإنِّي نَهِرُ ... مَتَى أرى الصُّبحَ فلا أنتَظِرُ

أي: صاحب النهار. وقال آخر:

لَوْلا الثَّرِيدَانِ هَلَكْنا بالضُّمُرْ ... ثَرِيدُ لَيْلٍ وثَرِيدٌ بالنُّهُرْ[٤]

﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ﴾ أي: مجلس حقٍّ لا لغو فيه ولا تأثيم، وهو الجنَّة ﴿عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ أي: يقدر على ما يشاء. و«عِنْدَ» هاهنا عنديَّة القُربة والزلفة والمكانة والرتبة والكرامة والمنزلة[٥]. قال الصادق: مدح اللهُ المكانَ الصدقَ فلا يَقعُد فيه إلا أهل الصدق. وقرأ عثمان البَتِّي: «فِي مَقَاعِدِ صِدْقٍ» بالجمع[٦]، والمقاعد: مواضع قعود الناس في الأسواق وغيرها.

قال عبد الله بن بريدة: إنَّ أهل الجنَّة يدخلون كلَّ يوم على الجبَّار تبارك وتعالى، فيقرؤون القرآنَ على ربِّهم تبارك وتعالى، وقد جلس كلُّ إنسان مجلسه الذي هو مجلسه، على منابر من الدُّرِّ والياقوت والزَّبرجد والذَّهب والفضَّة بقَدْر أعمالهم، فلا

---

(١) غريب القرآن لابن قتيبة ص٤٣٥، والقائل: قيس بن الخطيم، وسلف ١/ ٣٦٠.

(٢) القراءات الشاذة ص١٤٨، والمحتسب ٢/ ٣٠٠، والمحرر الوجيز ٥/ ٢٢٢، والبحر المحيط ٨/ ١٨٤.

(٣) في معاني القرآن له ٣/ ١١١، وينظر تفسير الطبري ٢٢/ ١٦٧.

(٤) النكت والعيون ٥/ ٤٢٠، والبيت سلف ٢/ ٤٩٢.

(٥) لفظ العِنْد فيما يضاف إلى الله تعالى يختلف حاله ومعناه حسب وروده في الكلام وما يحفّ به من قرائن، فما كان ظاهره إرادة المكان ولم يرد ما يحمله على معنى آخر فينبغي أن يحمل على ظاهره وهو العلوّ والقرب من الله عز وجل، وينظر مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ٥/ ٢٢٦.

(٦) تفسير البغوي ٤/ ٢٦٦، والمحرر الوجيز ٥/ ٢٢٢.

تَقَرّ أعينهم بشيء قطُّ كما تَقَرّ بذلك، ولم يسمعوا شيئاً أعظم ولا أحسن منه، ثم ينصرفون إلى منازلهم، قريرةً أعينُهم إلى مثلها من الغد[١].

وقال ثور بن يزيد عن خالد بن مَعْدان: بلغنا أنَّ الملائكة يأتون المؤمنين يومَ القيامة فيقولون: يا أولياءَ الله انطلِقوا. فيقولون: إلى أين؟ فيقولون: إلى الجنة. فيقول المؤمنون: إنكم تذهبون بنا إلى غير بغيتنا. فيقولون: فما بغيتكم؟ فيقولون: مقعد صِدْق عند مليك مقتدر[٢]. وقد روي هذا الخبر على الخصوص بهذا المعنى؛ ففي الخبر: أنَّ طائفةً من العقلاء بالله عزَّ وجلَّ تزفُّها الملائكة إلى الجنَّة والناس في الحساب، فيقولون للملائكة: إلى أين تحملوننا؟ فيقولون إلى الجنَّة. فيقولون: إنَّكم لتحملوننا إلى غير بغيتنا. فيقولون: وما بغيتكم؟ فيقولون: المقعد الصِّدْق مع الحبيب كما أخبر: «فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ»، والله أعلم.

تم تفسير سورة «القمر» والحمد لله.

---

(١) أورده الحكيم الترمذي في نوادر الأصول ص١٥٦ عن النبي ﷺ، من غير إسناد، وأورده السيوطي في الدر المنثور ٦/ ١٣٩ وعزاه للحكيم الترمذي بإسناده عن بريدة مرفوعاً.

(٢) أورده الحكيم الترمذي في نوادر الأصول ص١٥٦ دون عزوٍ، والسيوطي في الدر المنثور وعزاه للحكيم الترمذي بإسناده عن ثور بن يزيد.

تفسير سورة القمر[١]

وهى مكية.

قد تقدم فى حديث أبى واقد[٢]: أن رسول الله ﷺ كان يقرأ بقاف، واقتربت الساعة، فى الأضحى والفطر، وكان يقرأ بهما فى المحافل الكبار، لاشتمالهما على ذكر الوعد والوعيد وبدء الخلق وإعادته، والتوحيد وإثبات النبوات، وغير ذلك من المقاصد العظيمة.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ① وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ② وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ③ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّنَ الْأَنبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ④ حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ ⑤﴾ .

يخبر تعالى عن اقتراب الساعة وفراغ الدنيا وانقضائها. كما قال تعالى: ﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ [سُبْحَانَهُ][٣]﴾ [النحل: ١]، وقال: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ١] وقد وردت الأحاديث بذلك، قال الحافظ أبو بكر البزار:

حدثنا محمد بن المثنى وعمرو بن على قالا: حدثنا خلف بن موسى، حدثنى أبى، عن قتادة، عن أنس، أن رسول الله ﷺ خَطَب أصحابه ذات يوم، وقد كادت الشمس أن تغرب فلم يبق منها إلا شِفٌّ[٤] يسير، فقال: «والذى نفسى بيده، ما بقى من الدنيا فيما مضى منها إلا كما بقى من يومكم هذا فيما مضى منه، وما نرى من الشمس إلا يسيرا»[٥].

قلت: هذا حديث مداره على خلف بن موسى بن خلف العَمِّىّ، عن أبيه. وقد ذكره ابن حِبَّان فى الثقات، وقال: ربما أخطأ.

حديث آخر يعضد الذى قبله ويفسره، قال الإمام أحمد: حدثنا الفضل بن دُكَيْن، حدثنا شريك، حدثنا سلمة بن كُهَيْل، عن مجاهد، عن ابن عمر قال: كنا جلوسا عند النبى ﷺ والشمس على قُعَيْقِعان بعد العصر، فقال: «ما أعماركم فى أعمار من مضى إلا كما بقى من النهار فيما مضى»[٦].

---

(١) فى أ: «اقتربت».

(٢) انظر أول تفسير سورة: «ق».

(٣) زيادة من أ

(٤) فى أ: «شىء».

(٥) رواه الطبرى فى تاريخه (١/ ١١) حدثنا ابن بشار ومحمد بن المثنى عن خلف بن موسى به.

قال الهيثمى فى المجمع (١٠/ ٣١١): «رواه البزار من طريق خلف بن موسى عن أبيه وقد وثقا».

(٦) المسند (٢/ ١١٥).

وقال الإمام أحمد: حدثنا حسين، حدثنا محمد بن مُطَرِّف، عن أبي حازم، عن سهل بن سعد قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «بُعِثتُ والساعة[١] هكذا». وأشار بإصبعيه: السبابة والوسطى.

أخرجاه من حديث أبي حازم سلمة بن دينار[٢].

وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن عُبَيد، حدثنا الأعمش، عن أبي خالد، عن وهب السَّوَائي قال: قال رسول الله ﷺ: «بعثت أنا والساعة كهذه من هذه إن كادت لتسبقها[٣]» وجمع الأعمش بين السبابة والوسطى[٤].

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو المغيرة، حدثنا الأوزاعي، حدثنا إسماعيل بن عبيد[٥] الله، قال: قدم أنس بن مالك على الوليد بن عبد الملك فسأله: ماذا سمعت من رسول الله ﷺ يذكر به الساعة؟ فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أنتم والساعة كهاتين».

تفرد به أحمد، رحمه الله[٦]. وشاهد ذلك أيضا في الصحيح في أسماء رسول الله ﷺ: أنه الحاشر الذي يُحْشَرُ الناس على قدميه.

وقال الإمام أحمد: حدثنا بَهْزُ بن أسد، حدثنا سليمان بن المغيرة، حدثنا حميد بن هلال، عن خالد بن عمير قال: خطب عتبة بن غَزْوَان ـ قال بهز: وقال قبل هذه المرة ـ خطبنا رسول الله ﷺ قال: فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «أما بعد، فإن الدنيا قد آذنت بَصرمٍ وولت حذاء، ولم يبق منها إلا صُبَابة كصبابة الإناء يتصابها صاحبها، وإنكم منتقلون منها إلى دار لا زوال لها، فانتقلوا بخير ما بحضرتكم، فإنه قد ذكر لنا أن الحجر يُلقَى من شفير جهنم فيهوى فيها سبعين عاما[٧] ما يدرك لها قعرًا، والله لتملؤنه، أفعجبتم ! والله لقد ذكر لنا أن ما بين مصْرَاعَى الجنة مسيرة أربعين عاما، وليأتين عليه يوم وهو كظيظ الزحام» وذكر تمام الحديث، انفرد به مسلم[٨].

وقال أبو جعفر بن جرير: حدثني يعقوب، حدثني ابن عُلَيَّة، أخبرنا عطاء بن السائب، عن أبي عبد الرحمن السُّلَمي قال: نزلنا المدائن فكنا منها على فَرْسَخ، فجاءت[٩] الجمعة، فحضر أبي وحضرت معه، فخطبنا حذيفة، فقال: ألا إن الله يقول: ﴿**اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ**﴾، ألا وإن الساعة قد اقتربت، ألا وإن القمر قد انشق، ألا وإن الدنيا قد آذنت بفراق، ألا وإن اليوم المضمار، وغدا السباق، فقلت لأبي: أيستبق الناس غدا؟ فقال: يا بني، إنك لجاهل، إنما هو السباق بالأعمال.

---

(١) في م: «بعثت أنا والساعة».

(٢) المسند (٥/ ٣٨٨) وصحيح البخاري برقم (٦٥٠٣) وصحيح مسلم برقم (٢٩٥٠).

(٣) في م، أ: «لتسبقني».

(٤) المسند (٤/ ٣٠٩).

(٥) في أ: «عبد».

(٦) المسند (٣/ ٢٢٣).

(٧) في م: «خريفا».

(٨) المسند (٤/ ١٧٤) وصحيح مسلم برقم (٢٩٦٧).

(٩) في أ: «حانت».

ثم جاءت الجمعة الأخرى فحضرنا فخطب حذيفة، فقال: ألا إن الله، عز وجل، يقول: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ﴾، ألا وإن الدنيا قد آذنت بفراق، ألا وإن اليوم المضمار وغدا السباق، ألا وإن الغاية النار، والسابق من سبق إلى الجنة[١].

وقوله: ﴿وَانشَقَّ الْقَمَرُ﴾: قد كان هذا فى زمان رسول الله ﷺ، كما ثبت ذلك فى الأحاديث المتواترة بالأسانيد الصحيحة. وقد ثبت فى الصحيح عن ابن مسعود أنه قال: «خمس قد مضين: الروم، والدخان، واللزام، والبطشة، والقمر»[٢] . وهذا أمر متفق عليه بين العلماء أن انشقاق القمر قد وقع فى زمان النبى ﷺ وأنه كان إحدى المعجزات الباهرات.

ذكر الأحاديث الواردة فى ذلك:

رواية أنس بن مالك:

قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا مَعْمَر، عن قتادة، عن أنس بن مالك قال: سأل أهل مكة النبى ﷺ آية، فانشق القمر بمكة مرتين، فقال: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ﴾.

ورواه مسلم، عن محمد بن رافع، عن عبد الرزاق[٣].

وقال البخارى: حدثنى عبد الله بن عبد الوهاب، حدثنا بشر بن المفضل، حدثنا سعيد بن أبى عَرُوبة عن قتادة، عن أنس بن مالك؛ أن أهل مكة سألوا رسول الله ﷺ أن يريهم آية، فأراهم القمر شِقَّين، حتى رأوا حِرَاء بينهما[٤].

وأخرجاه أيضا من حديث يونس بن محمد المؤدّب، عن شيبان، عن قتادة[٥]. ورواه مسلم أيضا من حديث أبى داود الطيالسى، ويحيى القطان، وغيرهما، عن شعبة، عن قتادة، به[٦].

رواية جبير بن مطعم، رضى الله عنه:

قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن كثير، حدثنا سليمان بن كثير، عن حصين بن عبد الرحمن، عن محمد بن جبير بن مطعم، عن أبيه، قال: انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ فصار فرقتين: فرقة على هذا الجبل، وفرقة على هذا الجبل، فقالوا: سحرنا محمد. فقالوا: إن كان سحرنا فإنه لا يستطيع أن يسحر الناس كلهم.

تفرد به الإمام أحمد من هذا الوجه، وأسنده البيهقى فى «الدلائل» من طريق محمد بن كثير،

---

(١) تفسير الطبرى (٢٧/ ٥١).
(٢) صحيح البخارى برقم (٤٧٦٧).
(٣) المسند (٣/ ١٦٥) وصحيح مسلم برقم (٢٨٠٢).
(٤) صحيح البخارى برقم (٣٨٦٨).
(٥) صحيح البخارى برقم (٤٨٦٧) وصحيح مسلم برقم (٢٨٠٢).
(٦) صحيح مسلم برقم (٢٨٠٢) ورواه البخارى فى صحيحه برقم (٤٨٦٨) من طريق يحيى عن شعبة به.

عن أخيه سليمان بن كثير، عن حصين بن عبد الرحمن، [به][١] [٢]. وهكذا رواه ابن جرير[٣] من حديث محمد بن فضيل وغيره، عن حصين، به[٤]. ورواه البيهقي أيضا من طريق إبراهيم بن طَهْمَان وَهُشَيْم، كلاهما عن حُصَين، عن جبير بن محمد بن جبير بن مطعم، عن أبيه، عن جده فذكره[٥].

رواية عبد الله بن عباس [رضى الله عنهما][٦]:

قال البخارى: حدثنا يحيى بن بكير، حدثنا بكر، عن جعفر، عن عِرَاك بن مالك، عن عبيد الله ابن عبد الله بن عتبة، عن ابن عباس قال: انشق القمر فى زمان رسول [٧] الله ﷺ[٨].

ورواه البخارى أيضا ومسلم، من حديث بكر بن مضر، عن جعفر بن ربيعة، عن عِرَاك [بن مالك][٩]، به مثله[١٠].

وقال ابن جرير: حدثنا ابن مثنى، حدثنا عبد الأعلى، حدثنا داود بن أبى هند، عن على بن أبى طلحة، عن ابن عباس قوله: ﴿**اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ .وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ**﴾ قال: قد مضى ذلك، كان قبل الهجرة، انشق القمر حتى رأوا شقيه.

وروى العَوْفى، عن ابن عباس نحو هذا.

وقال الطبرانى: حدثنا أحمد بن عمرو البزار، حدثنا محمد بن يحيى القُطَعِى، حدثنا محمد بن بكر، حدثنا ابن جريج، عن عمرو بن دينار، عن عكرمة، عن ابن عباس، قال: كُسِفَ القمر على عهد رسول الله ﷺ فقالوا: سُحِر القمر. فنزلت: ﴿**اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ**﴾ إلى قوله: ﴿**مُّسْتَمِرٌّ**﴾[١١].

رواية عبد الله بن عمر:

قال الحافظ أبو بكر البيهقى: أخبرنا أبو عبد الله الحافظ وأبو بكر أحمد بن الحسن القاضى قالا: حدثنا أبو العباس الأصم، حدثنا العباس بن محمد الدّورى، حدثنا وهب بن جرير، عن شعبة، عن الأعمش، عن مجاهد، عن عبد الله بن عمر فى قوله تعالى: ﴿**اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ**﴾ قال: وقد كان ذلك على عهد رسول الله ﷺ انشق فِلْقَتَين: فِلْقَة من دون الجبل، وفلقة من خلف الجبل، فقال النبى ﷺ: «اللهم اشهد».

---

(١) زيادة من م.
(٢) المسند (٤/ ٨١) ودلائل النبوة للبيهقى (٢/ ٢٦٨).
(٣) فى أ: «جبير».
(٤) تفسير الطبرى (٢٧/ ٥١).
(٥) دلائل النبوة (٢/ ٢٦٨).
(٦) زيادة من م.
(٧) فى م، أ: «النبى».
(٨) صحيح البخارى برقم (٤٨٦٦).
(٩) زيادة من أ.
(١٠) صحيح البخارى برقم (٣٦٣٨) وصحيح مسلم برقم (٢٨٠٣).
(١١) المعجم الكبير (١١/ ٢٥٠).

وهكذا رواه مسلم والترمذي، من طرق عن شعبة، عن الأعمش، عن مجاهد، به[١]. قال مسلم كرواية مجاهد عن أبي معمر عن ابن مسعود. وقال الترمذي: حسن صحيح.

رواية عبد الله بن مسعود:

قال الإمام أحمد: حدثنا سفيان، عن ابن أبي نَجيح ، عن مجاهد، عن أبي مَعْمَر، عن ابن مسعود، قال: انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ شقين حتى نظروا إليه، فقال رسول الله ﷺ: «اشهدوا».

وهكذا رواه البخاري ومسلم، من حديث سفيان بن عيينة، به[٢]. وأخرجاه من حديث الأعمش، عن إبراهيم، عن أبي معمر عبد الله بن سَخْبَرَة، عن ابن مسعود، به[٣].

وقال ابن جرير: حدثني عيسى بن عثمان بن عيسى الرملي، حدثنا عمي يحيى بن عيسى، عن الأعمش، عن إبراهيم، عن رجل، عن عبد الله، قال: كنا مع رسول الله ﷺ بمنى فانشق القمر، فأخذت فرقة خلف الجبل، فقال رسول الله ﷺ: «اشهدوا، اشهدوا»[٤].

قال البخاري: وقال أبو الضحى، عن مسروق عن عبد الله: بمكة[٥].

وقال أبو داود الطيالسي: حدثنا أبو عوانة، عن المغيرة، عن أبي الضُّحَى، عن مسروق، عن عبد الله بن مسعود، قال: انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ، فقالت قريش: هذا سحر ابن أبي كبشة. قال: فقالوا: انظروا ما يأتيكم به السّفّار، فإن محمداً لا يستطيع أن يسحر الناس كلهم. قال: فجاء السّفّار فقالوا: ذلك[٦].

وقال البيهقي: أخبرنا أبو عبد الله الحافظ، أخبرنا أبو العباس محمد بن يعقوب، حدثنا العباس ابن محمد الدَّوْرِي، حدثنا سعيد بن سليمان، حدثنا هُشَيْم، حدثنا مغيرة، عن أبي الضحى، عن مسروق، عن عبد الله، قال: انشق القمر بمكة حتى صار فرقتين، فقال كفار قريش أهل مكة: هذا سحر سحركم به ابن أبي كَبْشَة، انظروا السفار، فإن كانوا رأوا ما رأيتم فقد صدق، وإن كانوا لم يروا مثل ما رأيتم فهو سِحْرٌ سحركم به. قال: فسئل السفار، قال: وقدموا من كل وجهة، فقالوا: رأيناه.

رواه ابن جرير من حديث المغيرة، به[٧]، وزاد: فأنزل الله عز وجل: ﴿**اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ**﴾. ثم قال ابن جرير:

---

(١) دلائل النبوة للبيهقي (٢/ ٢٦٧) وصحيح مسلم برقم (٢٨٠١) وسنن الترمذي برقم (٣٢٨٨).
(٢) المسند (١/ ٣٧٧) وصحيح البخاري برقم (٤٨٦٥) وصحيح مسلم برقم (٢٨٠٠).
(٣) صحيح البخاري برقم (٤٨٦٤) وصحيح مسلم برقم (٢٨٠٠).
(٤) تفسير الطبري (٢٧/ ٥٠).
(٥) صحيح البخاري برقم (٣٨٦٩).
(٦) مسند الطيالسي برقم (٢٩٥).
(٧) دلائل النبوة للبيهقي (٢/ ٢٦٦) وتفسير الطبري (٢٧/ ٥٠).

حدثنى يعقوب بن إبراهيم، حدثنا ابن عُلَيَّة، أخبرنا أيوب، عن محمد ـ هو ابن سيرين ـ قال: نبئت أن ابن مسعود، رضى الله عنه، كان يقول: لقد انشق القمر(١).

وقال ابن جرير أيضا: حدثنى محمد بن عمارة، حدثنا عمرو بن حماد، حدثنا أسباط، عن سِمَاك، عن إبراهيم ،عن الأسود، عن عبد الله، قال: لقد رأيت الجبل من فَرْج القمر حين انشق.

ورواه الإمام أحمد عن مُؤَمَّل، عن إسرائيل، عن سِمَاك، عن إبراهيم، عن الأسود، عن عبد الله، قال: انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ، حتى رأيت الجبل من بين فرجتى القمر(٢).

وقال ليث، عن مجاهد: انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ فصار فرقتين، فقال النبى ﷺ لأبى بكر: «اشهد يا أبا بكر». فقال المشركون: سُحِر القمر حتى انشق(٣).

وقوله: ﴿وَإِن يَرَوْا آيَةً﴾ أى: دليلا وحجة وبرهانا ﴿يُعْرِضُوا﴾ أى: لا ينقادون له، بل يعرضون عنه ويتركونه وراء ظهورهم، ﴿وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ أى: ويقولون: هذا الذى شاهدناه من الحجج، سحر سحرنا به.

ومعنى ﴿مُّسْتَمِرٌّ﴾ أى: ذاهب. قاله مجاهد، وقتادة، وغيرهما، أى: باطل مضمحل، لا دوام له.

﴿وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ أى: كذبوا بالحق إذ جاءهم، واتبعوا ما أمرتهم به آراؤهم وأهواؤهم من جهلهم وسخافة عقلهم.

وقوله: ﴿وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ﴾ قال(٤) قتادة: معناه: أن الخير واقع بأهل الخير، والشر واقع بأهل الشر.

وقال ابن جريج: مستقر بأهله. وقال مجاهد: ﴿وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ﴾ أى: يوم القيامة.

وقال السدى: ﴿مُّسْتَقِرٌّ﴾ أى: واقع.

وقوله: ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّنَ الأَنبَاءِ﴾ أى: من الأخبار عن قصص الأمم المكذبين بالرسل، وما حل بهم من العقاب والنكال والعذاب، مما يتلى عليهم فى هذا القرآن، ﴿مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ﴾ أى: ما فيه واعظ لهم عن الشرك والتمادى على التكذيب.

وقوله: ﴿حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ﴾ أى: فى هدايته تعالى لمن هداه وإضلاله لمن أضله، ﴿فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ﴾ يعنى(٥): أى شىء تغنى النذر عمن كتب الله عليه الشقاوة، وختم على قلبه؟ فمن الذى يهديه من بعد الله؟ وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٩]، وكذا قوله تعالى: ﴿وَمَا تُغْنِي(٦) الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١].

---

(١) تفسير الطبرى (٢٧/ ٥١).

(٢) المسند (١/ ٤١٣).

(٣) تفسير الطبرى (٢٧/ ٥١).

(٤) فى م: «قاله». (٥) فى م، أ: «بمعنى». (٦) فى م، أ: «فما تغنى».

﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ ⑥ خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ⑦ مُّهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ⑧ ﴾.

يقول تعالى: فتول يا محمد عن هؤلاء الذين إذا رأوا آية يعرضون ويقولون: هذا سحر مستمر، أعرض عنهم وانتظرهم، ﴿ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ ﴾ أى: إلى شىء منكر فظيع، وهو موقف الحساب، وما فيه من البلاء، بل والزلازل والأهوال، «خاشعاً أبصارُهُم» أى: ذليلة أبصارهم، ﴿يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ﴾ وهى: القبور، ﴿ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾ أى: كأنهم فى انتشارهم وسرعة سيرهم إلى موقف الحساب إجابة للداعى ﴿جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾ فى الآفاق؛ ولهذا قال: ﴿مُّهْطِعِينَ﴾ أى: مسرعين ﴿إِلَى الدَّاعِ﴾ ، لا يخالفون ولا يتأخرون، ﴿يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾ أى: يوم شديد الهول عَبُوس قَمْطَرير ﴿فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ . عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾ [المدثر: ٩، ١٠].

﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ ⑨ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ ⑩ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ ⑪ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ⑫ وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ⑬ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ⑭ وَلَقَد تَّرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ⑮ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ⑯ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ⑰ ﴾.

يقول تعالى: ﴿كَذَّبَتْ﴾ قبل قومك يا محمد ﴿ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا﴾ أى: صرحوا له بالتكذيب واتهموه بالجنون، ﴿ وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ﴾ قال مجاهد: ﴿ وَازْدُجِرَ﴾ أى: استطير جنونا. وقيل: ﴿ وَازْدُجِرَ﴾ أى: انتهروه وزجروه وأوعدوه: ﴿ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾ [الشعراء: ١١٦]. قاله ابن زيد، وهذا متوجه حسن. ﴿ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ﴾ أى: إنى ضعيف عن هؤلاء وعن مقاومتهم ﴿ فَانتَصِرْ﴾ أنت لدينك. قال الله تعالى: ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ﴾. قال السدى: هو الكثير ﴿وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا﴾ أى: نبعت جميعُ أرجاء الأرض، حتى التنانير التى هى محال النيران نبعت عيونا، ﴿فَالْتَقَى الْمَاءُ﴾ أى: من السماء ومن الأرض ﴿عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ أى: أمر مقدر.

قال ابن جُرَيْج، عن ابن عباس: ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ﴾: كثير، لم تمطر السماء قبل ذلك اليوم ولا بعده، ولا من السحاب؛ فتحت أبواب السماء بالماء من غير سحاب ذلك اليوم، فالتقى الماءان على أمر قد قدر.

وروى ابن أبى حاتم أن ابن الكوَّاء سأل عليا عن المجرة فقال: هى شرج السماء، ومنها فتحت

السماء بماء منهمر.

﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ﴾: قال ابن عباس، وسعيد بن جبير، والقرظى، وقتادة، وابن زيد: هى المسامير، واختاره ابن جرير، قال: وواحدها دسار، ويقال: دَسير، كما يقال: حبيك وحباك، والجمع حُبُك.

وقال مجاهد: الدسر: أضلاع السفينة. وقال عكرمة والحسن: هو صدرها الذى يضرب به الموج.

وقال الضحاك: الدسر: طرفها وأصلها.

وقال العَوْفى، عن ابن عباس: هو كَلْكَلُها.

وقوله: ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ أى: بأمرنا بمرأى منا وتحت حفظنا وكلاءتنا ﴿جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ﴾ أى: جزاء لهم على كفرهم بالله وانتصاراً لنوح، عليه السلام.

وقوله: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَاهَا آيَةً﴾ قال قتادة: أبقى الله سفينة نوح حتى أدركها أول هذه الأمة. والظاهر أن المراد من ذلك جنس السفن، كقوله تعالى: ﴿وَآيَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ . وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ﴾ [يس: ٤١، ٤٢]. وقال: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ . لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١١، ١٢]؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ أى: فهل من يتذكر ويتعظ؟

قال الإمام أحمد: حدثنا حجاج، حدثنا إسرائيل، عن أبى إسحاق، عن الأسود، عن ابن مسعود قال: أقرأنى رسول الله ﷺ: ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ فقال رجل: يا أبا عبد الرحمن، مُدَّكر أو مُذَّكر؟ قال: أقرأنى رسول الله ﷺ: ﴿مُدَّكِرٍ﴾(١).

وهكذا رواه البخارى: حدثنا يحيى، حدثنا وَكيع، عن إسرائيل، عن أبى إسحاق، عن الأسود(٢) بن يزيد، عن عبد الله قال: قرأت على النبى ﷺ: ﴿فَهَلْ مِن مُّذَّكِرٍ﴾. فقال النبى ﷺ: ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾(٣).

وروى البخارى أيضا من حديث شعبة، عن أبى إسحاق، عن الأسود، عن عبد الله قال: كان رسول الله ﷺ يقرأ: ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾(٤).

وقال: حدثنا أبو نُعَيم، حدثنا زُهَيْر، عن أبى إسحاق؛ أنه سمع رجلا يسأل الأسود: ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾، أو: ﴿مُّذَّكِرٍ﴾ ؟ قال: سمعت عبد الله يقرأ: ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾. وقال: سمعت رسول الله ﷺ يقرؤها: ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ دالاً.

---

(١) المسند (١/ ٣٩٥).

(٢) فى م: «عن أبى الأسود».

(٣) صحيح البخارى برقم (٤٨٧٤).

(٤) صحيح البخارى برقم (٤٨٦٩).

وقد أخرج مسلم هذا الحديث وأهل السنن إلا ابن ماجه، من حديث أبى إسحاق[١].

وقوله: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ أى: كيف كان عذابى لمن كفر بى وكذب رسلى ولم يتعظ بما جاءت به نُذُرى، وكيف انتصرت لهم، وأخذت لهم بالثأر.

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ﴾ أى: سهلنا لفظه، ويسرنا معناه لمن أراده، ليتذكر الناس. كما قال: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ[٢] أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾ [ص: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا﴾ [مريم: ٩٧].

قال مجاهد: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ﴾ يعنى: هوّنّا قراءته.

وقال السدى: يسرنا تلاوته على الألسن.

وقال الضحاك، عن ابن عباس: لولا أن الله يسره على لسان الآدميين، ما استطاع أحد من الخلق أن يتكلم بكلام الله، عز وجل.

قلت: ومن تيسيره، تعالى، على الناس تلاوة القرآن ما تَقدّم عن النبى ﷺ أنه قال: «إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف». وأوردنا الحديث بطرقه وألفاظه بما أغنى عن إعادته هاهنا، ولله الحمد والمنة.

وقوله: ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ أى: فهل من متذكر بهذا القرآن الذى قد يَسَّر الله حفظه ومعناه؟

وقال محمد بن كعب القرظى: فهل من منزجر عن المعاصى؟

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا الحسن بن رافع، حدثنا ضَمْرَة[٣]، عن ابن شَوْذَب، عن مَطَر ـ هو الوراق ـ فى قوله تعالى: ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾: هل من طالب علم فَيُعَان عليه؟

وكذا علقه البخارى بصيغة الجزم، عن[٤] مطر الوراق و[كذا][٥] رواه ابن جرير[٦]، وروى عن قتادة مثله.

﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (١٨) إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ (١٩) تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ (٢٠) فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (٢١) وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ (٢٢) ﴾.

يقول تعالى مخبرا عن عاد قوم هود: إنهم كذبوا رسولهم أيضا، كما صنع قوم نوح، وأنه تعالى

---

(١) صحيح البخارى برقم (٤٨٧١) وصحيح مسلم برقم (٨٢٣) وسنن أبى داود برقم (٣٩٩٤) وسنن الترمذى برقم (٢٩٣٧) وسنن النسائى (٢/ ١٥٠).

(٢) فى م: «ليذكر».

(٣) فى أ: «حمزة». (٤) فى أ: «على». (٥) زيادة من م.

(٦) تفسير الطبرى (٢٧/ ٥٧).

أرسل﴿عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا﴾، وهى الباردة الشديدة البرد، ﴿فِي يَوْمِ نَحْسٍ﴾ أى: عليهم. قاله الضحاك، وقتادة، والسّدّى. ﴿مُّسْتَمِرٍّ﴾: عليهم نحسه ودماره؛ لأنه يوم اتصل فيه عذابهم الدنيوى بالأخروى.

وقوله: ﴿ تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾ وذلك أن الريح كانت تأتى أحدهم فترفعه حتى تغيبه عن الأبصار، ثم تنكسه على أم رأسه، فيسقط إلى الأرض، فتثلغ رأسه فيبقى جثة بلا رأس؛ ولهذا قال: ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ . فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ . وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾.

﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ (٢٣) فَقَالُوا أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ (٢٤) أَؤُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ (٢٥) سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ (٢٦) إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ (٢٧) وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ (٢٨) فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ (٢٩) فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (٣٠) إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ (٣١) وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ (٣٢) ﴾.

وهذا إخبار عن ثمود أنهم كذبوا رسولهم صالحا، ﴿ فَقَالُوا أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ﴾، يقولون: لقد خبنا وخسرنا إن سلمنا كُلّنا قيادنا لواحد منا! ثم تعجبوا من إلقاء الوحى عليه خاصة من دونهم، ثم رموه بالكذب فقالوا: ﴿ بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ﴾أى: متجاوز فى حد الكذب. قال الله تعالى: ﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ﴾ وهذا تهديد لهم شديد ووعيد أكيد.

ثم قال تعالى: ﴿ إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ﴾ أى: اختبارا لهم؛ أخرج الله لهم ناقة عظيمة عُشراء من صخرة صمّاء طبق ما سألوا، لتكون حجة الله عليهم فى تصديق صالح، عليه السلام، فيما جاءهم به.

ثم قال آمرا لعبده ورسوله صالح: ﴿فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ﴾ أى: انتظر ما يؤول إليه أمرهم، واصبر عليهم، فإن العاقبة والنصر لك فى الدنيا والآخرة، ﴿وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ﴾ أى: يوم لهم ويوم للناقة؛ كقوله: ﴿قَالَ هَٰذِهِ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾[الشعراء: ١٥٥].

وقوله: ﴿كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴾: قال مجاهد: إذا غابت حضروا الماء، وإذا جاءت حضروا اللبن.

ثم قال تعالى: ﴿ فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴾: قال المفسرون: هو عاقر الناقة، واسمه قُدَار بن سالف، وكان أشقى قومه. كقوله: ﴿ إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا ﴾ [الشمس: ١٢]، ﴿فَتَعَاطَىٰ﴾أى: فَجَسر[١] ﴿فَعَقَرَ . فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ أى: فعاقبتهم، فكيف كان عقابى[٢] [لهم][٣] على كفرهم بى

(١) فى م: «حسر». (٢) فى م: «عذابى». (٣) زيادة من م، أ.

وتكذيبهم رسولى؟ ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ﴾ أى: فبادوا عن آخرهم لم تبق[(١)] منهم باقية، وخَمَدوا وهَمَدوا كما يهمد يبَيس الزرع والنبات. قاله غير واحد من المفسرين. والمحتظر ـ قال السدى ـ: هو المرعى بالصحراء حين يبس وتحرق ونسفته الريح.

وقال ابن زيد: كانت العرب يجعلون حِظَاراً على الإبل والمواشى من يَبِيس الشوك، فهو المراد من قوله: ﴿ كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ﴾.

وقال سعيد بن جُبَير: ﴿هَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ﴾: هو التراب المتناثر من الحائط. وهذا قول غريب، والأول أقوى، والله أعلم.

﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلاَّ آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾ نِعْمَةً مِّنْ عِندِنَا كَذَلِكَ نَجْزِي مَن شَكَرَ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٤٠﴾ ﴾.

يقول تعالى مخبرا عن قوم لوط كيف كذبوا رسولهم وخالفوه، وارتكبوا المكروه من إتيان الذكور، وهى الفاحشة التى لم يسبقهم بها أحد من العالمين؛ ولهذا أهلكهم الله هلاكا لم يُهلكه أمةً من الأمم، فإنه تعالى أمر جبريل، عليه السلام، فحمل مدائنهم حتى وصل بها إلى عَنَان السماء، ثم قلبها عليهم وأرسلها، وأتبعت بحجارة من سجيل منضود؛ ولهذا قال هاهنا. ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا ﴾ وهى: الحجارة، ﴿إِلاَّ آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ ﴾ أى: خرجوا من آخر الليل فنجوا مما أصاب قومهم، ولم يؤمن بلوط من قومه أحد ولا رجل واحد حتى ولا امرأته، أصابها ما أصاب قومها، وخرج نبى الله لوط وبنات له من بين أظهرهم سالما لم يمسَسْه سوء؛ ولهذا قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي مَن شَكَرَ .وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا﴾ أى: ولقد كان قبل حلول العذاب بهم قد أنذرهم بأس الله وعذابه، فما التفتوا إلى ذلك، ولا أصغوا إليه، بل شكوا فيه وتماروا به، ﴿وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ﴾، وذلك ليلة ورَدَ عليه الملائكة: جبريل، وميكائيل، وإسرافيل فى صورة شباب مُرد حسان محنَةً من الله بهم، فأضافهم لوط [عليه السلام] [(٢)]وبعثت امرأته العجوز السوءُ إلى قومها، فأعلمتهم بأضياف لوط، فأقبلوا يُهْرَعُون إليه من كل مكان، فأغلق لوط دونهم الباب، فجعلوا يحاولون كسر الباب، وذلك عشية، ولوط، عليه السلام، يدافعهم ويمانعهم دون أضيافه، ويقول لهم: ﴿هَؤُلاءِ بَنَاتِي ﴾ يعنى: نساءهم، ﴿إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ﴾[الحجر: ٧١] ﴿ قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ ﴾ أى: ليس لنا فيهن أربٌ، ﴿وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾ [هود: ٧٩] فلما اشتد الحال وأبوا إلا الدخول، خرج عليهم جبريل، عليه السلام، فضرب أعينهم بطرف جناحه، فانطمست أعينهم. يقال: إنها غارت من وجوههم.

(١) فى م، أ: «يبق».
(٢) زيادة من أ.

وقيل: إنه لم تبق لهم عيون بالكلية، فرجعوا على أدبارهم يتحسسون بالحيطان، ويتوعدون لوطا، عليه السلام، إلى الصباح.

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ﴾ أى: لا محيد لهم عنه، ولا انفكاك لهم منه، ﴿ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ .وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾

﴿ وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ (٤١) كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ (٤٢) أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلائِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ (٤٣) أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ (٤٤) سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (٤٥) بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ (٤٦) ﴾.

يقول تعالى مخبرا عن فرعون وقومه أنهم جاءهم رسول الله موسى وأخوه هارون بالبشارة إن آمنوا، والنذارة إن كفروا، وأيدهما بمعجزات عظيمة وآيات متعددة، فكذبوا بها كلها، فأخذهم الله أخْذ عزيز مقتدر، أى: فأبادهم الله ولم [(١)] يُبق منهم مخبراً ولا عيناً ولا أثراً.

ثم قال: ﴿ أَكُفَّارُكُمْ ﴾ أى: أيها المشركون من كفار قريش ﴿ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلائِكُمْ﴾ يعنى: من الذين تقدم ذكرهم ممن أهلكوا بسبب تكذيبهم الرسل، وكفرهم بالكتب: أأنتم خير أم أولئك؟ ﴿أَمْ لَكُم بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ﴾ أى: أم معكم [(٢)] من الله براءة ألا ينالكم عذاب ولا نكال؟

ثم قال مخبرا عنهم: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ﴾ أى: يعتقدون أنهم مناصرون [(٣)] بعضهم بعضا، وأن جمعهم يغنى عنهم من أرادهم بسوء، قال الله تعالى: ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ أى: سيتفرق شملهم ويغلبون.

قال البخارى: حدثنا إسحاق؛ حدثنا خالد، عن خالد ـ وقال أيضا: حدثنا محمد، حدثنا [(٤)] عفان بن مسلم، عن وُهيب، عن خالد، عن عكرمة، عن ابن عباس؛ أن النبى ﷺ قال ـ وهو فى قبة له يوم بدر ـ: «أنشدك عهدك ووعدك، اللهم إن شئت لم تعبد بعد اليوم [(٥)] أبدا». فأخذ أبو بكر، رضى الله عنه، بيده وقال: حسبك يارسول الله! ألححت على ربك. فخرج وهو يثب فى الدرع وهو يقول: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ . بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ﴾.

وكذا رواه البخارى والنسائى فى غير موضع، من حديث خالد ـ وهو مِهْران [(٦)] الحذاء ـ به[(٧)].

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا أبو الربيع الزّهرانى، حدثنا حماد، عن أيوب، عن عكرمة قال: لما نزلت ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴾ [قال][(٨)]: قال عمر: أىّ جمَع يهزم؟ أىّ جَمْع

---

(١) فى م: «فلم». (٢) فى م: «معهم». (٣) فى م، أ: «يتناصرون».
(٤) فى م: «بن». (٥) فى م: «بعد اليوم فى الأرض». (٦) فى م، أ: «وهو ابن مهران».
(٧) صحيح البخارى برقم (٢٩١٥، ٣٩٥٣، ٤٨٧٥، ٤٨٧٧) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٥٥٧).
(٨) زيادة من أ.

يغلب؟ قال عمر: فلما كان يوم بدر رأيت رسول الله ﷺ يثب فى الدرع، وهو يقول: ﴿**سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ**﴾ فعرفت تأويلها يومئذ[١].

وقال البخارى: حدثنا إبراهيم بن موسى، حدثنا هشام بن يوسف؛ أن ابن جرَيج أخبرهم: أخبرنى يوسف بن ماهَكَ قال: إنى عند عائشة أم المؤمنين، قالت: نزل على محمد ﷺ بمكة ـ وإنى لجارية ألعب ـ ﴿**بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ**﴾ هكذا رواه هاهنا مختصرا[٢]. ورواه فى فضائل القرآن مطولا[٣]، ولم يخرجه مسلم.

﴿**إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلالٍ وَسُعُرٍ (٤٧) يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ (٤٨) إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ (٤٩) وَمَا أَمْرُنَا إِلاَّ وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ (٥٠) وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ (٥١) وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ (٥٢) وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ (٥٣) إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ (٥٤) فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ (٥٥)**﴾.

يخبرنا [٤] تعالى عن المجرمين أنهم فى ضلال عن الحق، وسُعُر مما هم فيه من الشكوك والاضطراب فى الآراء، وهذا يشمل كل من اتصف بذلك من كافر ومبتدع من سائر الفرق.

ثم قال: ﴿**يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ**﴾ أى: كما كانوا فى سُعُر وشك وتردد أورثهم ذلك النار، وكما كانوا ضلالاً، سُحبوا فيها على وجوههم، لا يدرون أين يذهبون، ويقال لهم تقريعا وتوبيخا: ﴿**ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ**﴾.

وقوله: ﴿**إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ**﴾، كقوله: ﴿**وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا**﴾ [الفرقان: ٢] وكقوله: ﴿**سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى . الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ . وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ**﴾ [الأعلى: ١-٣]، أى: قدر قدرا، وهدى الخلائق إليه؛ ولهذا يستدل بهذه الآية الكريمة أئمةُ السنة على إثبات قَدَر الله السابق لخلقه، وهو علمه الأشياء قبل كونها وكتابته لها قبل برئها، وردّوا بهذه الآية وبما [٥] شاكلها من الآيات، وما ورد فى معناها من الأحاديث الثابتات على الفرْقة القَدرية الذين نبغوا [٦] فى أواخر عصر الصحابة. وقد تكلمنا على هذا المقام مفصلا، وما ورد فيه من الأحاديث فى شرح «كتاب الإيمان» من «صحيح البخارى»، رحمه الله، ولنذكر هاهنا الأحاديث المتعلقة بهذه الآية الكريمة:

قال أحمد: حدثنا وَكيع، حدثنا سفيان الثورى، عن زياد بن إسماعيل السهمى، عن محمد بن عباد بن جعفر، عن أبى هُرَيرة قال: جاء مشركو قريش إلى النبى ﷺ يخاصمونه فى القدر، فنزلت: ﴿**يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ . إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ**﴾.

---

(١) رواه عبد الرزاق فى تفسيره (٢/ ٢٠٩) من طريق معمر عن أيوب به.
(٢) صحيح البخارى برقم (٤٨٧٦).
(٣) صحيح البخارى برقم (٤٩٩٣).
(٤) فى م: «يخبر». (٥) فى م: «وما». (٦) فى أ: «سعوا».

وهكذا رواه مسلم والترمذى وابن ماجه، من حديث وكيع، عن سفيان الثورى، به[(١)].

وقال البزار: حدثنا عمرو بن على، حدثنا الضحاك بن مَخْلَد، حدثنا يونس بن الحارث، عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده قال: ما نزلت هذه الآيات: ﴿**إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلالٍ وَسُعُرٍ. يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ. إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ**﴾، إلا فى أهل القدر[(٢)].

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا سهل[(٣)] بن صالح الأنطاكى، حدثنى قُرَّةُ بن حبيب، عن كنانة، حدثنا جرير بن حازم، عن سعيد بن عمرو بن جَعْدَة، عن ابن زُرَارة، عن أبيه، عن النبى ﷺ؛ أنه تلا هذه الآية: ﴿**ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ. إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ**﴾، قال: «نزلت فى أناس من أمتى يكونون فى آخر الزمان يكذبون بقدر الله»[(٤)].

وحدثنا الحسن بن عرفة، حدثنا مَرْوان بن شجاع الجزَرَى، عن عبد الملك بن جُرَيْج، عن عطاء ابن أبى رَبَاح، قال: أتيت ابن عباس وهو يَنْزع من زمزم، وقد ابتلّت أسافل ثيابه، فقلت له: قد تُكُلّم فى القدر. فقال: أو [قد] [(٥)] فعلوها؟ قلت: نعم. قال: فوالله ما نزلت هذه الآية إلا فيهم: ﴿**ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ. إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ**﴾، أولئك شرار هذه الأمة، فلا تعودوا مرضاهم، ولا تُصَلّوا على موتاهم، إن رأيت أحدا منهم فقأت عينيه بأصبعى هاتين.

وقد رواه الإمام أحمد من وجه آخر، وفيه مرفوع، فقال:

حدثنا أبو المغيرة، حدثنا الأوزاعى، عن بعض إخوته، عن محمد بن عُبَيد المكى، عن عبد الله ابن عباس، قال: قيل له: إن رجلا قدم علينا يُكَذّب بالقدر فقال: دلونى عليه ـ وهو أعمى ـ قالوا: وما تصنع به يا أبا عباس قال: والذى نفسى بيده لئن استمكنت منه لأعضَّنّ أنفه حتى أقطعه، ولئن وقعت رقبته فى يدى لأدقنها؛ فإنى[(٦)] سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كأنى بنساء بنى فِهرْ يَطُفْنَ بالخزرج، تصطفق ألياتهن مشركات، هذا أول شرك هذه الأمة، والذى نفسى بيده، لينتهين بهم سوء رأيهم حتى يخرجوا الله من أن يكون قَدّر خيرا، كما أخرجوه من أن يكون قدر شرا»[(٧)].

ثم رواه أحمد عن أبى المغيرة، عن الأوزاعى، عن العلاء بن الحجاج، عن محمد بن عبيد، فذكر مثله[(٨)]. لم يخرجوه.

---

(١) المسند (٢/ ٤٤٤) وصحيح مسلم برقم (٢٦٥٦) وسنن الترمذى برقم (٣٢٩٠) وسنن ابن ماجة برقم (٨٣).

(٢) مسند البزار برقم (٢٢٦٥) «كشف الأستار»، وقال الهيثمى فى المجمع (٧/ ١١٧): «فيه يونس بن الحارث، وثقه ابن معين وابن حبان وفيه ضعف، وبقية رجاله ثقات».

(٣) فى أ: «سهيل».

(٤) رواه الطبرانى فى المعجم الكبير (٥/ ٢٧٦) من طريق قرة بن حبيب عن جرير بن حازم ـ وأظن أن كنانة ساقط منه ـ عن سعيد بن عمرو به.

وقال الهيثمى فى المجمع (٧/ ١١٧): «فيه من لم أعرفه».

(٥) زيادة من م. (٦) فى أ: «قال».

(٧، ٨) المسند (١/ ٣٣٠).

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الله بن يزيد، حدثنا سعيد بن أبى أيوب، حدثنى أبو صخر، عن نافع قال: كان لابن عمر صديق من أهل الشام يكاتبه[١]، فكتب إليه عبد الله بن عمر: إنه بلغنى أنك تكلمت فى شىء من القدر، فإياك أن تكتب إلىّ، فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: «سيكون فى أمتى أقوام يكذبون بالقدر».

رواه أبو داود، عن أحمد بن حنبل، به[٢].

وقال أحمد: حدثنا أنس بن عياض، حدثنا عمر بن عبد الله مولى غُفْرَة، عن عبد الله بن عمر؛ أن رسول الله ﷺ. قال: «لكل أمة مجوس، ومجوس أمتى الذين يقولون: لا قدر. إن مرضوا فلا تعودوهم، وإن ماتوا فلا تشهدوهم»[٣].

لم يخرجه أحد من أصحاب الكتب الستة من هذا الوجه.

وقال أحمد: حدثنا قتيبة، حدثنا رِشْدِين، عن أبى صخر حُمَيد بن زياد، عن نافع، عن ابن عمر، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «سيكون فى هذه الأمة مسخ، ألا وذاك فى المكذبين بالقدر والزنديقية».

ورواه الترمذى وابن ماجه، من حديث أبى صخر حميد بن زياد، به[٤]. وقال الترمذى: حسن صحيح غريب.

وقال أحمد: حدثنا إسحاق بن الطباع، أخبرنى مالك، عن زياد بن سعد، عن عمرو بن مسلم، عن طاوس اليمانى قال: سمعت ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «كل شىء بقدر، حتى العجز والكيس».

ورواه مسلم منفردا به، من حديث مالك[٥] [٦].

وفى الحديث الصحيح: «استعن بالله ولا تعجز، فإن أصابك أمر فقل: قَدَّر الله وما شاء فعل، ولا تقل: لو أنى فعلت لكان كذا، فإن لو تفتح عمل الشيطان»[٧].

وفى حديث ابن عباس: أن رسول الله ﷺ قال له: «واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشىء، لم يكتبه الله لك، لم ينفعوك. ولو اجتمعوا على أن يضروك بشىء، لم يكتبه الله عليك، لم يضروك. جفت الأقلام وطويت الصحف»[٨].

---

(١) فى م: «فكاتبه».
(٢) المسند (٢/ ٩٠) وسنن أبى داود برقم (٤٦١٣).
(٣) المسند (٢/ ٨٦).
(٤) المسند (٢/ ١٠٨) وسنن الترمذى برقم (٢١٥٢) وسنن ابن ماجه برقم (٤٠٦١).
(٥) فى م: «ورواه مسلم من حديث مالك منفردًا به».
(٦) المسند (٢/ ١١٠) وصحيح مسلم برقم (٢٦٥٥).
(٧) رواه مسلم فى صحيحه برقم (٢٦٦٤) من حديث أبى هريرة، رضى الله عنه.
(٨) رواه الإمام أحمد فى مسنده (١/ ٢٩٣).

وقال الإمام أحمد: حدثنا الحسن بن سوَّار، حدثنا الليث[(١)]، عن معاوية، عن أيوب بن زياد، حدثنى عبادة بن الوليد بن عبادة، حدثنى أبى قال: دخلت على عبادة وهو مريض أتخايل فيه الموت، فقلت: يا أبتاه، أوصنى واجتهد لى. فقال: أجلسونى. فلما أجلسوه قال: يا بنى، إنك لم تطعم طعم الإيمان، ولم تبلغ حق حقيقة العلم بالله، حتى تؤمن بالقدر خيره وشره. قلت: يا أبتاه، وكيف لى أن أعلم ما خير القدر وشره؟ قال: تعلم أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك، وما أصابك لم يكن ليخطئك. يا بنى، إنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن أول ما خلق الله القلم. ثم قال له: اكتب. فجرى فى تلك الساعة بما هو كائن إلى يوم القيامة»يابنى، إن مت ولست على ذلك دخلت النار[(٢)].

ورواه الترمذى عن يحيى بن موسى البَلْخِى، عن أبى داود الطيالسى، عن عبد الواحد بن سليم، عن عطاء بن أبى رباح، عن الوليد بن عبادة، عن أبيه، به. وقال: حسن صحيح غريب[(٣)].

وقال سفيان الثورى، عن منصور، عن رِبْعِى بن خِرَاش، عن رجل، عن على بن أبى طالب، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يؤمن عبد حتى يؤمن بأربع: يشهد أن لا إله إلا الله، وأنى رسول الله، بعثنى بالحق، ويؤمن بالموت، ويؤمن بالبعث بعد الموت، ويؤمن بالقدر خيره وشره».

وكذا رواه الترمذى من حديث النضر بن شُمَيْل، عن شعبة عن منصور، به[(٤)]. ورواه من حديث أبى داود الطيالسى، عن شعبة، عن[(٥)] منصور عن ربعى، عن على فذكره وقال: «هذا عندى أصح». وكذا رواه ابن ماجه من حديث شريك، عن منصور، عن ربعى، عن على، به[(٦)].

وقد ثبت فى صحيح مسلم من رواية عبد الله بن وهب وغيره، عن أبى[(٧)] هانئ الخولانى، عن أبى عبد الرحمن الحُبُلى، عن عبد الله بن عمرو، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله كتب مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة» زاد ابن وهب: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾ [هود:٧]. ورواه الترمذى وقال: حسن صحيح غريب[(٨)].

وقوله: ﴿ وَمَا أَمْرُنَا إِلاَّ وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾. وهذا إخبار عن نفوذ مشيئته فى خلقه كما أخبر

---

(١) فى م: «ليث».

(٢) المسند (٥/ ٣١٧).

(٣) سنن الترمذى برقم (٣٣١٩).

(٤) سنن الترمذى برقم (٢١٤٥) ورواه أحمد فى مسنده (١/ ١٣٣) عن وكيع، والحاكم فى مستدركه (١/ ٣٣) عن أبى حذيفة، كلاهما عن سفيان الثورى به.

وقد رجح هذه الرواية الدارقطنى فى العلل (٣/ ١٩٦) فقال: «حديث شريك وورقاء وجرير وعمرو بن أبى قيس عن منصور عن ربعى عن على. وخالفهم سفيان الثورى وزائدة أبو الأحوص وسليمان التيمى فرووه: عن منصور عن ربعى عن رجل من بنى راشد عن على وهو الصواب».

(٥) فى م: «بن».

(٦) سنن الترمذى برقم (٢١٤٥) وسنن ابن ماجه برقم (٨١).

(٧) فى أ: «أم».

(٨) صحيح مسلم برقم (٢٦٥٣) وسنن الترمذى برقم (٢١٥٦).

بنفوذ قدره فيهم، فقال: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلاَّ وَاحِدَةٌ﴾ أى: إنما نأمر بالشىء مرة واحدة، لا نحتاج إلى تأكيد بثانية، فيكون ذلك الذى نأمر به حاصلا موجودا كلمح البصر(١)، لا يتأخر طرفة عين، وما أحسن ما قال بعض الشعراء:

إِذَا ما أَرَادَ الله أمْراً فَإِنَّما ... يَقُولُ لهُ: كُنْ، قَوْلَةً(٢) فيَكُونُ

وقوله: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُم﴾ يعنى: أمثالكم وسلفكم من الأمم السالفة المكذبين بالرسل، ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ أى: فهل من متعظ بما أخزى الله أولئك، وقدر لهم من العذاب، كما قال: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ﴾ [سبأ: ٥٤].

وقوله: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ﴾ أى: مكتوب عليهم فى الكتب التى بأيدى الملائكة، عليهم السلام ﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ﴾ أى: من أعمالهم ﴿مُّسْتَطَرٌ﴾ أى: مجموع عليهم، ومسطر فى صحائفهم، لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها.

وقد قال الإمام أحمد: حدثنا أبو عامر، حدثنا سعيد بن مسلم بن بانك: سمعت عامر بن عبد الله بن الزبير، حدثنى عوف بن الحارث ـ وهو ابن أخى عائشة لأمها ـ عن عائشة، أن رسول الله ﷺ كان يقول: «يا عائشة، إياك ومحقرات الذنوب، فإن لها من الله طالبا».

ورواه النسائى وابن ماجه، من طريق سعيد بن مسلم بن بانك المدنى(٣). وثقه(٤) أحمد، وابن معين، وأبو حاتم، وغيرهم.

وقد رواه الحافظ ابن عساكر فى ترجمة سعيد بن مسلم هذا من وجه آخر(٥)، ثم قال سعيد: فحدثت بهذا الحديث عامر بن هشام فقال لى: ويحك يا سعيد بن مسلم. لقد حدثنى سليمان بن المغيرة أنه عمل ذنبا فاستصغره، فأتاه آت فى منامه فقال له: يا سليمان:

لا تَحقِرنَّ من الذنوبِ صَغِيرا ... إن الصَّغير غداً يعود(٦) كبيرا
إن الصغير ولو تقادم عهده ... عند الإله مُسَطَّرٌ تسطيرا
فازجر هواك عن البطالة لا تكن ... صعب القياد وشمرن(٧) تشميرا
إن المحُبَّ إذا أحب إلهه ... طار الفؤاد وأُلْهِم التفكيرا
فاسأل هدايتك الإله بِنِيَّة ... فكَفَى بِربِّكَ هاديا ونصيرا(٨)

---

(١) فى م: «كلمح بالبصر». (٢) فى أ: «فى الوجود».
(٣) المسند (٦/ ١٥١) وسنن ابن ماجه برقم (٤٢٤٣).
(٤) فى أ: «الذى وثقه».
(٥) تاريخ دمشق (٧/ ٣٥٣ «المخطوط») من طريق أبى عامر العقدى والقعنبى، كلاهما عن سعيد بن مسلم به.
(٦) فى أ: «يكون». (٧) فى م: «وشمر».
(٨) تاريخ دمشق (٧/ ٣٥٣ «القسم المخطوط»).

وقوله: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ﴾ أى: بعكس ما الأشقياء فيه من الضلال والسعر، والسحب فى النار على وجوههم، مع التوبيخ والتقريع والتهديد.

وقوله: ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ﴾ أى: فى دار كرامة الله ورضوانه وفضله، وامتنانه وجوده وإحسانه، ﴿عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ أى: عند الملك العظيم الخالق للأشياء كلها ومقدرها، وهو مقتدر على ما يشاء مما يطلبون ويريدون؛ وقد قال الإمام أحمد:

حدثنا سفيان، عن عمرو بن دينار، عن عمرو بن أوس، عن عبد الله بن عمرو[(١)] ـ يَبلُغُ به النبى ﷺ ـ قال: «المقسطون عند الله يوم القيامة على منابر من نور، عن يمين الرحمن، وكلتا يديه يمين: الذين يعدلون فى حكمهم وأهليهم وما ولوا».

انفرد بإخراجه مسلم والنسائى، من حديث سفيان بن عيينة، بإسناده مثله[(٢)].

آخر تفسير سورة «اقتربت»، ولله الحمد والمنة وبه التوفيق والعصمة

---

(١) فى م: «عبد الله بن أبى عمرو» وهو خطأ.

(٢) صحيح مسلم برقم (١٨٢٧)، وسنن النسائى (٨/ ٢٢١).

٥٤ – سورة القمر

(مكية وهى خمس وخمسون آية)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴿١﴾ ٥٤ القمر

وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴿٢﴾ ٥٤ القمر

وَكَذَّبُوا۟ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣﴾ ٥٤ القمر

﴿ سورة القمر مكية إلا الآيات ٤٤، ٤٥، ٤٦ فمدنية وآياتها خمس وخمسون ﴾

١ (بسم الله الرحمن الرحيم) (اقتربت الساعة وانشق القمر) روى أن الكفار سألوا رسول الله
صلى الله عليه وسلم آية فانشق القمر قال ابن عباس رضى الله عنهما انفلق فلقتين فلقة ذهبت وفلقة
بقيت وقال ابن مسعود رأيت حراء بين فلقتى القمر وعن عثمان بن عطاء عن أبيه أن معناه سينشق
٢ يوم القيامة ويرده قوله تعالى (وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر) فإنه ناطق بأنه قد وقع
وأنهم قد شاهدوه بعد مشاهدة نظائره وقرىء وقد انشق القمر أى اقتربت الساعة وقد حصل من آيات
اقترابها أن القمر قد انشق ومعنى الاستمرار الاطراد أو الاستحكام أى وإن يروا آية من آيات الله
يعرضوا عن التأمل فيها ليقفوا على حقيتها وعلو طبقتها ويقولوا سحر مطرد دائم يأتى به محمد على
مر الزمان لايكاد يختلف بحال كسائر أنواع السحر أو قوى مستحكم لا يمكن إزالته وقيل مستمر
ذاهب يزول ولا يبقى تمنية لأنفسهم وتعليلا وهو الأنسب بغلوهم فى العناد والمكابرة ويؤيده ماسيأتى
٣ لرده وقرىء وإن يروا على البناء للمفعول من الإراءة (وكذبوا) أى بالنبى صلى الله عليه وسلم وما
عاينوه مما أظهره الله تعالى على يده من المعجزات (واتبعوا أهواءهم) التى زينها الشيطان لهم أو كذبوا
الآية التى هى انشقاق القمر واتبعوا أهواءهم وقالوا سحر القمر أو سحر أعيننا والقمر بحاله وصيغة
الماضى للدلالة على التحقق وقوله تعالى (وكل أمر مستقر) استئناف مسوق لإقناطهم عما علقوا به
أمانيهم الفارغة من عدم استقرار أمره عليه الصلاة والسلام حسبما قالوا سحر مستمر ببيان ثباته ورسوخه
أى وكل أمر من الأمور مستقر أى منته إلى غاية يستقر عليها لامحالة ومن جملتها أمر النبى صلى الله
عليه وسلم فسيصير إلى غاية يتبين عندها حقيته وعلو شأنه وإبهام المستقر عليه للتنبيه على كمال ظهور
الحال وعدم الحاجة إلى التصريح به وقيل المعنى كل أمر من أمرهم وأمره عليه الصلاة والسلام مستقر
أى سيثبت ويستقر على حالة خذلان أو نصرة فى الدنيا وشقاوة أو سعادة فى الآخرة وقرىء بالفتح
على أنه مصدر أو اسم مكان أو اسم زمان أى ذو استقرار أو ذو موضع استقرار أو ذو زمان استقرار

وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّنَ الْأَنبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴿٤﴾ ٥٤ القمر
حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ ﴿٥﴾ ٥٤ القمر
فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ ﴿٦﴾ ٥٤ القمر
خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴿٧﴾ ٥٤ القمر
مُّهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴿٨﴾ ٥٤ القمر
كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ ﴿٩﴾ ٥٤ القمر

٤ وبالكسر والجر على أنه صفة أمر وكل عطف على الساعة أى اقتربت الساعة وكل أمر مستقر (ولقد
جاءهم) أى فى القرآن وقوله تعالى (من الأنباء) أى أنباء القرون الخالية أو أنباء الآخرة متعلق بمحذوف
هو حال مما بعده أى وبالله لقد جاءهم كائناً من الأنباء (مافيه مزدجر) أى ازدجار من تعذيب أو وعيد
أو موضع ازدجار على أن تجريدية والمعنى أنه فى نفسه موضع ازدجار وتاء الافتعال تقلب دالا مع
٥ الدال والذال والزاى للتناسب وقرىء مزجر بقلبها زاء وإدغامها (حكمة بالغة) غايتها لاخلل فيها
وهى بدل ما أو خبر لمحذوف وقرىء بالنصب حالا منها فإنها موصولة أو موصوفة تخصصت بصفتها فساغ
نصب الحال عنها (فما تغنى النذر) نفى للإغناء أو إنكار له والفاء لترتيب عدم الإغناء على مجىء الحكمة
البالغة مع كونه مظنة للإغناء وصيغة المضارع للدلالة على تجدد عدم الإغناء واستمراره حسب تجدد
مجىء الزواجر واستمراره وما على الوجه الثانى منصوبة أى فأى إغناء تغنى النذر وهو جمع نذير بمعنى
٦ المنذر أو مصدر بمعنى الإنذار (فتول عنهم) لعلمك بأن الإنذار لايؤثر فيهم البتة (يوم يدع الداع)
منصوب بيخرجون أو باذكر والداعى إسرافيل عليه السلام ويجوز أن يكون الدعاء فيه كالأمر فى
قوله تعالى كن فيكون وإسقاط الياء للاكتفاء بالكسر تخفيفاً (إلى شىء نكر) أى منكر فظيع تنكره
٧ النفوس لعدم العهد بمثله وهو هول القيامة وقرىء نكر بالتخفيف ونكر بمعنى أنكر (خشعاً أبصارهم)
حال من فاعل (يخرجون) والتقديم لأن العامل متصرف أى يخرجون (من الأجداث) أذلة أبصارهم
من شدة الهول وقرىء خاشعاً والإفراد والتذكير لأن فاعله ظاهر غير حقيقى التأنيث وقرىء خاشعة
على الأصل وقرىء خشع أبصارهم على الابتداء والخبر على أن الجملة حال (كأنهم جراد منتشر) فى
٨ الكثرة والتموج والتفرق فى الأقطار (مهطعين إلى الداع) مسرعين مادى أعناقهم إليه أو ناظرين
إليه (يقول الكافرون) استئناف وقع جواباً عما نشأ من وصف اليوم والأهوال وأهله بسوء الحال
كأنه قيل فماذا يكون حينئذ فقيل يقول الكافرون (هذا يوم عسر) أى صعب شديد وفى إسناد القول
٩ المذكور إلى الكفار تلويح بأن المؤمنين ليسوا فى تلك المرتبة من الشدة (كذبت قبلهم قوم نوح) شروع

فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴿١٠﴾ ٥٤ القمر

فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ ٥٤ القمر

وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ ٥٤ القمر

وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ ٥٤ القمر

تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ ٥٤ القمر

فى تعداد بعض ماذكر من الأنباء الموجبة للإزدجار ونوع تفصيل لها وبيان لعدم تأثرهم بها تقريراً
لفحوى قوله تعالى فما تغنى النذر أى فعل التكذيب قبل تكذيب قومك قوم نوح وقوله تعالى (فكذبوا *
عبدنا) تفسير لذلك التكذيب المبهم كما فى قوله تعالى ونادى نوح ربه فقال رب الخ وفيه مزيد تقرير
وتحقيق للتكذيب وقيل معناه كذبوه تكذيباً إثر تكذيب كلما خلا منهم قرن مكذب جاء عقيبه
قرن آخر مكذب مثله وقيل كذبت قوم نوح الرسل فكذبوا عبدنا لأنه من جملتهم وفى ذكره عليه
الصلاة والسلام بعنوان العبودية مع الإضافة إلى نون العظمة تفخيم له عليه الصلاة والسلام ورفع لمحله
وزيادة تشنيع لمكذبيه (وقالوا مجنون) أى لم يقتصروا على مجرد التكذيب بل نسبوه إلى الجنون *
(وازدجر) عطف على قالوا أى وزجر عن التبليغ بأنواع الأذية وقيل هو من جملة ماقالوه أى هو *
١٠ مجنون وقد ازدجرته الجن وتخبطته (فدعا ربه أنى) أى بأنى وقرىء بالكسر على إرادة القول (مغلوب)
أى من جهة قومى مالى قدرة على الانتقام منهم (فانتصر) أى فانتقم لى منهم وذلك بعد تقرر يأسه منهم *
بعد اللتيا والتى فقد روى أن الواحد منهم كان يلقاه فيخنقه حتى يخر مغشياً عليه ويقول اللهم اغفر
١١ لقومى فإنهم لايعلمون (ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر) منصب وهو تمثيل لكثرة الأمطار وشدة انصبابها
١٢ وقرىء ففتحنا بالتشديد لكثرة الأبواب (وفجرنا الأرض عيوناً) أى جعلنا الأرض كلها كأنها عيون
متفجرة وأصله وفجرنا عيون الأرض فغير قضاء لحق المقام (فالتقى الماء) أى ماء السماء وماء الأرض *
والإفراد لتحقيق أن التقاء الماءين لم يكن بطريق المجاورة والتقارب بل بطريق الاختلاط والاتحاد
وقرىء الماءان لاختلاف النوعين والماوان بقلب الهمزة واو (على أمر قد قدر) أى كائناً على حال *
قد قدرها الله تعالى من غير تفاوت أو على حال قدرت وسويت وهو أن قدر ماأنزل على قدر ماأخرج
١٣ أو على أمر قدره الله تعالى وهو هلاك قوم نوح بالطوفان (وحملناه) أى نوحا عليه السلام (على ذات
ألواح) أى أخشاب عريضة (ودسر) ومسامير جمع دسار من الدسر وهو الدفع وهى صفة للسفينة *
١٤ أقيمت مقامها من حيث أنها كالشرح لها تؤدى مؤداها (تجرى بأعيننا) بمرأى منا أى محفوظة بحفظنا

وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٥﴾ ٥٤ القمر

فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿١٦﴾ ٥٤ القمر

وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾ ٥٤ القمر

كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿١٨﴾ ٥٤ القمر

إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِى يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ ٥٤ القمر

* (جزاء لمن كان كفر) أى فعلنا ذلك جزاء لنوح عليه السلام لأنه كان نعمة كفروها فإن كل نبي
نعمة من الله تعالى على أمته ورحمة وأى نعمة وأى رحمة وقد جوز أن يكون على حذف الجار وإيصال
١٥ الفعل إلى الضمير واستتاره فى الفعل بعد انقلابه مرفوعاً وقرىء لمن كفر أى للكافرين (ولقد تركناها)
* أى السفينة أو الفعلة (آية) يعتبر بها من يقف على خبرها وقال قتادة أبقاها الله تعالى بأرض الجزيرة
* وقيل على الجودى دهراً طويلا حتى نظر إليها أوائل هذه الأمة (فهل من مدكر) أى معتبر بتلك
١٦ الآية الحقيقة بالاعتبار وقرىء مذتكر على الأصل ومذكر بقلب التاء ذالا والإدغام فيها (فكيف
كان عذابى ونذر) استفهام تعظيم وتعجيب أى كانا على كيفية هائلة لايحيط بها الوصف والنذر جمع
١٧ نذير بمعنى الإنذار (ولقد يسرنا القرآن) الخ جملة قسمية وردت فى أواخر القصص الأربع تقريراً
لمضمون ماسبق من قوله تعالى ولقد جاءهم من الأنباء ما فيه مزدجر حكمة بالغة فما تغنى النذر وتنبيهاً
على أن كل قصة منها مستقلة بإيجاب الادكار كافية فى الازدجار ومع ذلك لم تقع واحدة فى حيز الاعتبار
أى وبالله ولقد سهلنا القرآن لقومك بأن أنزلناه على لغتهم وشحناه بأنواع المواعظ والعبر وصرفنا فيه
* من الوعيد والوعد (للذكر) أى للتذكر والاتعاظ (فهل من مدكر) إنكار ونفى للمتعظ على أبلغ
وجه وآكده حيث يدل على أنه لايقدر أحد أن يجيب المستفهم بنعم وحمل تيسيره على تسهيل حفظه
١٨ بجزالة نظمه وعذوبة ألفاظه وعباراته مما لا يساعده المقام (كذبت عاد) أى هوداً عليه السلام ولم
يتعرض لكيفية تكذيبهم له روما للاختصار ومسارعة إلى بيان مافيه الازدجار من العذاب وقوله
* تعالى (فكيف كان عذابى ونذر) لتوجيه قلوب السامعين نحو الإصغاء إلى مايلقى إليهم قبل ذكره
لا لتهويله وتعظيمه وتعجيبهم من حاله بعد بيانه كما قبله وما بعده كأنه قيل كذبت عاد فهل سمعتم أو
١٩ فاسمعوا كيف كان عذابى وإنذاراتى لهم وقوله تعالى (إنا أرسلنا عليهم ريحاً صرصراً) استئناف ببيان
* ما أجمل أولا أى أرسلنا عليهم ريحاً باردة أو شديدة الصوت (فى يوم نحس) شؤم (مستمر) أى
شؤمه أو مستمر عليهم إلى أن أهلكهم أو شامل لجميعهم كبيرهم وصغيرهم أو مشتد مرارته وكان يوم
الأربعاء آخر الشهر.

تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ نَخۡلٖ مُّنقَعِرٖ ﴿٢٠﴾ ٥٤ القمر

فَكَيۡفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٢١﴾ ٥٤ القمر

وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ﴿٢٢﴾ ٥٤ القمر

كَذَّبَتۡ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ ٥٤ القمر

فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٗا مِّنَّا وَٰحِدٗا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ ٥٤ القمر

أَءُلۡقِيَ ٱلذِّكۡرُ عَلَيۡهِ مِنۢ بَيۡنِنَا بَلۡ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٞ ﴿٢٥﴾ ٥٤ القمر

سَيَعۡلَمُونَ غَدٗا مَّنِ ٱلۡكَذَّابُ ٱلۡأَشِرُ ﴿٢٦﴾ ٥٤ القمر

(تنزع الناس) تقلعهم روى أنهم دخلوا الشعاب والحفر وتمسك بعضهم ببعض فنزعتهم الريح وصرعتهم ٢٠
موتى (كأنهم أعجاز نخل منقعر) أى منقلع عن مغارسه قيل شبهوا بأعجاز النخل وهى أصولها بلا فروع *
لأن الريح كانت تقلع رؤسهم فتبقى أجساداً وجثثاً بلا رؤس وتذكير صفة نخل للنظر إلى اللفظ كما
أن تأنيثها فى قوله تعالى أعجاز نخل خاوية للنظر إلى المعنى وقوله تعالى (فكيف كان عذابى ونذر) تهويل ٢١
لهما وتعجيب من أمرهما بعد بيانهما فليس فيه شائبة تكرار وما قيل من أن الأول لما حاق بهم فى الدنيا
والثانى لما يحيق بهم فى الآخرة يرده ترتيب الثانى على العذاب الدنيوى (ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل ٢٢
من مدكر) الكلام فيه كالذى مر فيما سبق (كذبت ثمود بالنذر) أى الإنذارات والمواعظ التى سمعوها ٢٣
من صالح أو بالرسل عليهم السلام فإن تكذيب أحدهم تكذيب للكل لاتفاقهم على أصول الشرائع
(فقالوا أبشراً منا) أى كائناً من جنسنا وانتصابه بفعل يفسره مابعده (واحداً) أى منفرداً لا تبع ٢٤
له أو واحداً من آحادهم لا من أشرافهم وهو صفة أخرى لبشراً وتأخيره عن الصفة المؤولة للتنبيه على
أن كلا من الجنسية والوحدة مما يمنع الاتباع ولو قدم عليها لفاتت هذه النكتة وقرىء أبشر منا واحد
على الابتداء وقوله تعالى (نتبعه) خبره والأول أوجه للاستفهام (إنا إذاً) أى على تقدير اتباعنا *
له وهو منفرد ونحن أمة جمة (لفى ضلال) عن الصواب (وسعر) أى جنون فإن ذلك بمعزل من مقتضى *
العقل وقيل كان يقول لهم إن لم تتبعونى كنتم فى ضلال عن الحق وسعر أى نيران جمع سعير فعكسوا
عليه عليه السلام لغاية عتوهم فقالوا إن اتبعناك كنا إذن كما تقول (أألقى الذكر) أى الكتاب والوحى ٢٥
(عليه من بيننا) وفينا من هو أحق منه بذلك (بل هو كذاب أشر) أى ليس الأمر كذلك بل هو *
كذا وكذا حمله بطره على الترفع علينا بما ادعاه وقوله تعالى (سيعلمون غداً من الكذاب الأشر) حكاية ٢٦
لما قاله تعالى لصالح عليه السلام وعداً له ووعيداً لقومه والسين لتقريب مضمون الجملة وتأكيده والمراد

إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ فِتْنَةً لَهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾ ٥٤ القمر

وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾ ٥٤ القمر

فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ ٥٤ القمر

فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾ ٥٤ القمر

إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ ﴿٣١﴾ ٥٤ القمر

وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴿٣٢﴾ ٥٤ القمر

كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ ٥٤ القمر

إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾ ٥٤ القمر

نِعْمَةً مِنْ عِنْدِنَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ ﴿٣٥﴾ ٥٤ القمر

بالغد وقت نزول العذاب أى سيعلمون البتة عن قريب من الكذاب الأشر الذى حمله أشره وبطره
على الترفع أصالح هو أم من كذبه وقرىء ستعلمون على الالتفات لتشديد التوبيخ أو على حكاية ما أجابهم
به صالح وقرىء الأشر كقولهم حذر فى حذر وقرىء الأشر أى الأبلغ فى الشرارة وهو أصل مرفوض
٢٧ كالأخير وقيل المراد بالغد يوم القيامة ويأباه قوله تعالى (إنا مرسلوا الناقة) الخ فإنه استئناف مسوق
* لبيان مبادى الموعود حتما أى مخرجوها من الهضبة حسبما سألوا (فتنة لهم) أى امتحاناً (فارتقبهم)
٢٨ أى فانتظرهم وتبصر مايصنعون (واصطبر) على أذيتهم (ونبئهم أن الماء قسمة بينهم) مقسوم لها يوم
٢٩ ولهم يوم وبينهم لتغليب العقلاء (كل شرب محتضر) يحضره صاحبه فى نوبته (فنادوا صاحبهم) هو
* قدار بن سلف أحيمر ثمود (فتعاطى فعقر) فاجترأ على تعاطى الأمر العظيم غير مكترث له فأحدث
العقر بالناقة وقيل فتعاطى الناقة فعقرها أو فتعاطى السيف فقتلها والتعاطى تناول الشىء بتكلف
٣٠،٣١ (فكيف كان عذابى ونذر) الكلام فيه كالذى مر فى صدر قصة عاد (إنا أرسلنا عليهم صيحة واحدة)
* هى صيحة جبريل عليه السلام (فكانوا) أى فصاروا (كهشيم المحتظر) أى كالشجر اليابس الذى
يتخذه من يعمل الحظيرة لأجلها أو كالحشيش اليابس الذى يجمعه صاحب الحظيرة لماشيته فى الشتاء
٣٢ وقرىء بفتح الظاء أى كهشيم الحظيرة أو الشجرة المتخذها (ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر)
٣٣، ٣٤ (كذبت قوم لوط بالنذر) (إنا أرسلنا عليهم حاصباً) أى ريحاً تحصبهم أى ترميهم بالحصباء (إلا
٣٥ آل لوط نجيناهم بسحر) فى سحر وهو آخر الليل وقيل هو السدس الأخير منه أى ملتبسين بسحر (نعمة

وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ ﴿٣٦﴾ ٥٤ القمر

وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾ ٥٤ القمر

وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾ ٥٤ القمر

فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٩﴾ ٥٤ القمر

وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٤٠﴾ ٥٤ القمر

وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ ﴿٤١﴾ ٥٤ القمر

كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾ ٥٤ القمر

أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُولَٰئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ ﴿٤٣﴾ ٥٤ القمر

من عندنا) أى إنعاماً منا وهو علة لنجينا (كذلك) أى مثل ذلك الجزاء العجيب (نجزى من شكر) *
٣٦ نعمتنا بالإيمان والطاعة (ولقد أنذرهم) لوط عليه السلام (بطشتنا) أى أخذتنا الشديدة بالعذاب
٣٧ (فتماروا) فكذبوا (بالنذر) متشاكين (ولقد راودوه عن ضيفه) قصدوا الفجور بهم (فطمسنا
أعينهم) فمسحناها وسويناها كسائر الوجه روى أنه لما دخلوا داره عنوة صفقهم جبريل عليه السلام
صفقة فتركهم يترددون لايهتدون إلى الباب حتى أخرجهم لوط عليه السلام (فذوقوا عذابى ونذر) *
أى فقلنا لهم ذوقوا على ألسنة الملائكة أو ظاهر الحال والمراد به الطمس فإنه من جملة ما أنذروه
٣٨ من العذاب (ولقد صبحهم بكرة) وقرىء بكرة غير مصروفة على أن المراد بها أول نهار مخصوصة
(عذاب مستقر) لايفارقهم حتى يسلموا إلى النار وفى وصفه بالاستقرار إيماء إلى أن ماقبله من عذاب *
٣٩ الطمس ينتهى إليه (فذوقوا عذابى ونذر) حكاية لما قيل حينئذ من جهته تعالى تشديداً للعذاب
٤٠،٤١ (ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر) مر ما فيه من الكلام (ولقد جاء آل فرعون النذر)
صدرت قصتهم بالتوكيد القسمى لإبراز كمال الاعتناء بشأنها لغاية عظم مافيها من الآيات وكثرتها وهول
ما لاقوه من العذاب وقوة إيجابها للاتعاظ والاكتفاء بذكر آل فرعون للعلم بأن نفسه أولى بذلك
٤٢ أى وبالله لقد جاءهم الإنذارات وقوله تعالى (كذبوا بآياتنا) استئناف مبنى على سؤال نشأ من حكاية
مجىء النذر كأنه قيل فماذا فعلوا حينئذ فقيل كذبوا بجميع آياتنا وهى الآيات التسع (فأخذناهم أخذ *
٤٣ عزيز) لايغالب (مقتدر) لايعجزه شىء (أكفاركم) يامعشر العرب (خير) قوة وشدة وعدة وعدة أو
مكانة (من أولئكم) الكفار المعدودين والمعنى أنه أصابهم ما أصابهم مع ظهور خيريتهم منكم فيما ذكر *

أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ ٥٤ القمر

سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ ٥٤ القمر

بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾ ٥٤ القمر

إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ ٥٤ القمر

يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ ٥٤ القمر

إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ ٥٤ القمر

من الأمور فهل تطمعون أن لا يصيبكم مثل ذلك وأنتم شر منهم مكاناً وأسوأ حالا وقوله تعالى
* (أم لكم براءة فى الزبر) إضراب وانتقال من التبكيت بوجه آخر أى بل ألكم براءة وأمن من
تبعات ماتعملون من الكفر والمعاصى وغوائلهما فى الكتب السماوية فلذلك تصرون على ماأنتم عليه
٤٤ وقوله تعالى (أم يقولون نحن جميع منتصر) إضراب من التبكيت والالتفات للإيذان باقتضاء حالهم
للإعراض عنهم وإسقاطهم عن رتبة الخطاب وحكاية قبائحهم لغيرهم أى بل أيقولون واثقين بشوكتهم
نحن أولو حزم ورأى أمرنا مجتمع لانرام ولانضام أومنتصر من الأعداء لانغلب أومتناصر ينصر
٤٥ بعضنا بعضاً والإفراد باعتبار لفظ الجميع وقوله تعالى (سيهزم الجمع) رد وإبطال لذلك والسين للتأكيد
* أى يهزم جمعهم البتة (ويولون الدبر) أى الأدبار وقد قرىء كذلك والتوحيد لإرادة الجنس أو إرادة أن
كل واحد منهم يولى دبره وقد كان كذلك يوم بدر قال سعيد بن المسيب سمعت عمر بن الخطاب رضى
الله عنه يقول لما نزلت سيهزم الجمع ويولون الدبر كنت لا أدرى أى جمع يهزم فلما كان يوم بدر
رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يلبس الدرع ويقول سيهزم الجمع ويولون الدبر فعرفت تأويلها
٤٦ وقرىء سيهزم الجمع أى الله عز وعلا (بل الساعة موعدهم) أى ليس هذا تمام عقوبتهم بل الساعة موعد
* أصل عذابهم وهذا من طلائعه (والساعة أدهى وأمر) أى فى أقصى غاية من الفظاعة والمرارة والداهية
٤٧ الأمر الفظيع الذى لايهتدى إلى الخلاص عنه وإظهار الساعة فى موقع إضمارها لتربية تهويلها (إن
* المجرمين) من الأولين والآخرين (فى ضلال وسعر) أى فى هلاك و نيران مسعرة وقيل فى ضلال
٤٨ عن الحق فى الدنيا و نيران فى الآخرة وقوله تعالى (يوم يسحبون) الخ منصوب إما بما يفهم من قوله
* تعالى فى ضلال أى كائنون فى ضلال وسعر يوم يجرون (فى النار على وجوههم) وإما بقول مقدر
* بعده أى يوم يسحبون يقال لهم (ذوقوا مس سقر) أى قاسوا حرها وألمها وسقر علم جهنم ولذلك
لم يصرف من سقرته النار وصقرته إذا لوحته والقول المقدر على الوجه الأول حال من ضمير يسحبون
٤٩ (إنا كل شيء) من الأشياء (خلقناه بقدر) أى ملتبساً بقدر معين اقتضته الحكمة التى عليها يدور

وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِٱلْبَصَرِ ﴿٥٠﴾ ٥٤ القمر

وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٥١﴾ ٥٤ القمر

وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٥٢﴾ ٥٤ القمر

وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴿٥٣﴾ ٥٤ القمر

إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ ٥٤ القمر

فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ﴿٥٥﴾ ٥٤ القمر

أمر التكوين أو مقدراً مكتوباً فى اللوح قبل وقوعه وكل شىء منصوب بفعل يفسره مابعده وقرىء
٥٠ بالرفع على أنه مبتدأ وخلقناه خبره (وما أمرنا إلا واحدة) أى كلمة واحدة سريعة التكوين وهو
* قوله تعالى كن أو إلا فعلة واحدة هو الإيجاد بلامعالجة (كلمح بالبصر) فى اليسر والسرعة وقيل معناه
٥١ قوله تعالى وما أمر الساعة إلا كلمح البصر (ولقد أهلكنا أشياعكم) أى أشباهكم فى الكفر من الأمم
٥٢ وقيل أتباعكم (فهل من مدكر) يتعظ بذلك (وكل شىء فعلوه) من الكفر والمعاصى مكتوب على التفصيل
٥٣ (فى الزبر) أى فى ديوان الحفظة (وكل صغير وكبير) من الأعمال (مستطر) مسطور فى اللوح
المحفوظ بتفاصيله ولما كان بيان سوء حال الكفرة بقوله تعالى إن المجرمين الخ مما يستدعى بيان حسن
٥٤ حال المؤمنين ليتكافأ الترهيب والترغيب بين مالهم من حسن الحال بطريق الإجمال فقيل (إن المتقين)
* أى من الكفر والمعاصى (فى جنات) عظيمة الشأن (ونهر) أى أنهار كذلك والإفراد للاكتفاء
٥٥ باسم الجنس مراعاة للفواصل وقرىء نهر جمع نهر كأسد وأسد (فى مقعد صدق) فى مكان مرضى وقرىء
* فى مقاعد صدق (عند مليك مقتدر) أى مقربين عند مليك لايقادر قدر ملكه وسلطانه فلا شىء إلا
وهو تحت ملكوته سبحانه ما أعظم شأنه . عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة القمر فى
كل غب بعثه الله تعالى يوم القيامة ووجهه مثل القمر ليلة البدر .

سورة القمر

ترتيبها ٥٤ — آياتها ٥٥

وتسمى أيضاً «اقتربت» وعن ابن عباس أنها تدعى في التوراة المبيضة تبيض وجه صاحبها يوم تسود الوجوه، أخرجه عنه البيهقي في شعب الإيمان لكن قال: إنه منكر «وهي مكية» في قول الجمهور، وقيل مما نزل يوم بدر، وقال مقاتل: مكية إلا ثلاث آيات ﴿أم يقولون﴾ إلى ﴿وأمر﴾ [القمر: ٤٤ ـ ٤٦] واقتصر بعضهم على استثناء ﴿سيهزم الجمع﴾ [القمر: ٤٥] الخ، ورد بما أخرجه ابن أبي حاتم والطبراني في الاوسط وابن مردويه عن أبي هريرة قال: أنزل الله تعالى على نبيه صلى الله تعالى عليه وسلم بمكة قبل يوم بدر ﴿سيهزم الجمع ويولون الدبر﴾ وقال عمر بن الخطاب: قلت: يا رسول الله أي جمع يهزم؟ فلما كان يوم بدر وانهزمت قريش نظرت إلى رسول الله ﷺ في آثارهم مصلتاً بالسيف وهو يقول: ﴿سيهزم الجمع ويولون الدبر﴾ فكانت ليوم بدر، وفي الدر المنثور: أخرج البخاري عن عائشة قالت: «نزل على محمد صلى الله تعالى عليه وسلم بمكة وإني لجارية ألعب ﴿بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر﴾ [القمر: ٤٦]» ويرد به وبما قبله ما حكي عن مقاتل أيضاً، وقيل: ﴿إلا أن المتقين﴾ [القمر: ٤٥] الآيتين وآيها خمس وخمسون بالإجماع، ومناسبة أولها لآخر السورة التي قبلها ظاهرة فقد قال سبحانه: ﴿ثم أزفت الآزفة﴾ [النجم: ٥٧] وهنا ﴿اقتربت الساعة﴾ [القمر: ١] وقال الجلال السيوطي: لا يخفى ما في توالي هاتين السورتين من حسن التناسق للتناسب في التسمية لما بين ـ النجم، والقمر ـ من الملابسة، وأيضاً إن هذه بعد تلك ـ كالأعراف بعد الأنعام، وكالشعراء بعد الفرقان، وكالصافات بعد يس ـ في أنها تفصيل لأحوال الأمم المشار إلى إهلاكهم في قوله تعالى: ﴿وأنه أهلك عاداً الأولى وثمود فما أبقى وقوم نوح﴾ [النجم: ٥٠] إلى قوله سبحانه: ﴿والمؤتفكة أهوى﴾ [النجم: ٥٣].

بسم الله الرحمن الرحيم

اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ﴿١﴾ وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴿٢﴾ وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا
أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣﴾ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّنَ الْأَنبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴿٤﴾ حِكْمَةٌ
بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ ﴿٥﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ ﴿٦﴾ خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ
الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴿٧﴾ مُّهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴿٨﴾

﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ﴾ أي قربت جداً ﴿وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾ انفصل بعضه عن بعض وصار فرقتين وذلك على عهد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قبل الهجرة بنحو خمس سنين فقد صح من رواية الشيخين وابن جرير عن أنس أن أهل مكة سألوه عليه الصلاة والسلام أن يريهم آية فأراهم القمر شقتين حتى رأوا حراء بينهما، وخبر أبي نعيم من طريق الضحاك عن ابن عباس ـ أن أحبار اليهود سألوا آية فأراهم الله تعالى القمر قد انشق ـ لا يعوَّل عليه، وفي الصحيحين وغيرهما من حديث ابن مسعود «انشق القمر على عهد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فرقتين فرقة على الجبل وفرقة دونه فقال رسول الله ﷺ: اشهدوا» ومن حديثه أيضاً «انشق القمر على عهد رسول الله عليه الصلاة والسلام فقالت قريش: هذا سحر ابن أبي كُبشة فقال رجل: انتظروا ما يأتيكم به السفار فإن محمداً لا يستطيع أن يسحر الناس كلهم فجاء السفار فأخبروهم بذلك» رواه أبو داود. والطيالسي، وفي رواية البيهقي «فسألوا السفار وقد قدموا من كل وجه فقالوا: رأيناه» فأنزل الله تعالى: ﴿اقتربت الساعة وانشق القمر﴾.

وأخرج أبو نعيم في الدلائل عن ابن عباس من وجه ضعيف قال: «اجتمع المشركون على عهد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم منهم الوليد بن المغيرة وأبو جهل بن هشام والعاص بن وائل والعاص بن هشام والأسود بن عبد يغوث والأسود بن المطلب وربيعة بن الاسود والنضر بن الحارث فقالوا للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم: إن كنت صادقاً فشق لنا القمر فرقتين نصفاً على أبي قبيس ونصفاً على قينقاع فقال لهم النبي ﷺ: «إن فعلت تؤمنوا؟ قالوا: نعم وكانت ليلة بدر فسأل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ربه عز وجل أن يعطيه ما سألوا فأمسى القمر قد مثل نصفاً على أبي قبيس ونصفاً على قينقاع ورسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ينادي يا أبا سلمة بن عبد الأسد والأرقم بن الأرقم اشهدوا».

والأحاديث الصحيحة في الانشقاق كثيرة، واختلف في تواتره فقيل: هو غير متواتر، وفي شرح المواقف الشريفي أنه متواتر وهو الذي اختاره العلامة ابن السبكي قال في شرحه لمختصر ابن الحاجب: الصحيح عندي أن انشقاق القمر متواتر منصوص عليه في القرآن مروي في الصحيحين وغيرهما من طرق شتى بحيث لا يمترى في تواتره انتهى باختصار، وقد جاءت أحاديثه في روايات صحيحة عن جماعة من الصحابة منهم علي كرم الله تعالى وجهه وأنس وابن سعود وابن عباس وحذيفة وجبير بن مطعم وابن عمر وغيرهم، نعم إن منهم من لم يحضر ذلك كابن عباس فإنه لم يكن مولوداً إذ ذاك وكأنس فإنه كان ابن أربع أو خمس بالمدينة، وهذا لا يطعن في صحة الخبر كما لا يخفى، ووقع في رواية البخاري وغيره عن ابن مسعود «كنا مع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بمنى فانشق القمر» ولا يعارض ما صح عن أنس أن ذلك كان بمكة لأنه لم يصرح بأنه عليه الصلاة والسلام كان ليلتئذ بمكة، فالمراد أن الانشاق كان والنبي صلى الله تعالى عليه وسلم إذ ذاك مقيم بمكة قبل أن يهاجر إلى المدينة، ووقع في نظم السيرة للحافظ أبي الفضل العراقي ما هو نص في وقوع الانشقاق عبد بن حميد والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في الدلائل من طريق مجاهد عن أبي معمر عن ابن مسعود قال: رأيت القمر منشقاً شقتين مرتين بمكة قبل مخرج النبي صلى الله تعالى عليه وسلم الحديث، وأما الإجماع فغير مسلم، وفي المواهب قال الحافظ بن حجر: أظن أن قوله: بالإجماع يتعلق ـ بانشق ـ لا بمرتين فإني لا أعلم من جزم من علماء الحديث بتعدد الانشقاق في زمنه صلى الله تعالى عليه وسلم، ولعل قائل مرتين أراد فرقتين، وهذا الذي لا يتجه غيره جمعاً بين الروايات انتهى، ولا يخفى أن هذا التأويل مع بعده لا يتسنى في خبر ابن مسعود المذكور آنفاً لمكان شقتين وهي بمعنى فرقتين ومرتين معاً، والذي عندي في تأويل ذلك أن مرتين في كلام ابن مسعود قيد للرؤية وتعددها لا يقتضي تعدد الانشقاق بأن يكون رآه منشقاً

فصرف نظره عنه ثم أعاده فرآه كذلك لم يتغير ففيه إشارة إلى أنه رؤية لا شبهة فيها وقد فعل نحو ذلك الكفرة، أخرج أبو نعيم من طريق عطاء عن ابن عباس قال: انتهى أهل مكة إلى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فقالوا: هل من آية نعرف بها أنك رسول الله؟ فهبط جبريل عليه السلام فقال: يا محمد قل لأهل مكة أن يجتمعوا هذه الليلة يروا آية فأخبرهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بمقالة جبريل عليه السلام فخرجوا ليلة أربع عشرة فانشق القمر نصفين نصفاً على الصفا ونصفاً على المروة فنظروا ثم قالوا بأبصارهم فمسحوها ثم أعادوا النظر فنظروا ثم مسحوا أعينهم ثم نظروا فقالوا ما هذا إلا سحر فأنزل الله تعالى ﴿**اقتربت الساعة وانشق القمر**﴾ فلو قال أحد هؤلاء رأيت القمر منشقاً ثلاث مرات على معنى تعدد الرؤية صح بلا غبار ولم يقتض تعدد الانشقاق فليخرج كلام ابن مسعود على هذا الطرز ليجمع بين الروايات، ثم هذا الحديث إن صح كان دليلاً لما أشار إليه البوصيري في قوله:

شق عن صدره وشق له البد ... ر ومن شرط كل شرط جزاء

من أن الشق كان ليلة أربع عشرة لأن البدر هو القمر ليلة أربع عشرة ويعلم من ذلك ما في قول العلامة ابن حجر الهيتمي في شرحه: ظاهر التعبير بالبدر دون القمر أن الشق كان ليلة أربع عشرة ولم أر له في ذلك سلفاً، ولعله أراد بالبدر مطلق القمر، ويؤيد كونه ليلة البدر ما أخرجه الطبراني، وابن مردويه من طريق عكرمة عن ابن عباس قال: كسف القمر على عهد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فقالوا: سحر القمر فنزلت ﴿**اقتربت الساعة**﴾ إلى ﴿**مستمر**﴾ فإن الكسوف وإن جاز عادة أن يكون ليلة الثالث عشر وليلة الخامس عشر إلا أن الأغلب كونه ليلة الرابع عشر ولا ضرورة إلى حمل الكسوف في هذا الخبر على الانشقاق إذ لا مانع كما في البداية والنهاية أن يكون قد حصل للقمر مع انشقاقه كسوف، نعم ذكر فيها أن سياق الخبر غريب.

ثم إن القمر بعد انشقاقه لم تفارق قطعتاه السماء بل بقيتا فيها متباعدتين تباعداً مّا لحظة ثم اتصلتا، وما يذكره بعض القصاص من أنه دخل في جيب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وخرج من كمه فباطل لا أصل له كما حكاه الشيخ بدر الدين الزركشي عن شيخه العماد بن كثير ولعنة الله تعالى على من وضعه. وما في خبر أبي نعيم ـ الذي أخرجه من طريق الضحاك عن ابن عباس من أنه انشق فصار قمرين أحدهما على الصفا والآخر على المروة قدر ما بين العصر إلى الليل ينظرون إليه ثم غاب ـ لا يعوّل عليه، كيف وقد تضمن ذلك الخبر أن الانشقاق وقع لطلب أحبار اليهود وأن القائل هذا ﴿**سحر مستمر**﴾ هم، وهو مخالف لما نطقت به الأخبار الصحيحة الكثيرة كما لا يخفى على المتتبع، وقد شاع «أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أشار إلى القمر بسبابته الشريفة فانشق» ولم أره في خبر صحيح والله تعالى أعلم.

وأنكر الفلاسفة أصل الانشقاق بناءً على زعمهم استحالة الخرق والالتئام على الأجرام العلوية ودليلهم على ذلك أوهن من بيت العنكبوت وقد خرق بأدنى نسمة من نسمات أفكار أهل الحق العلويين خرقاً لا يقبل الالتئام كما بين في موضعه، وقال بعض الملاحدة: لو وقع لنقل متواتراً واشترك أهل الارض كلهم في معرفته ولم يختص بها أهل مكة لأنه أمر محسوس مشاهد والناس فيه شركاء والطباع حريصة على رواية الغريب ونقل ما لم يعهد، ولا أغرب من انشقاق هذا الجرم العظيم ولم يعهد أصلاً في الزمن القديم ولو كان له أصل لخلد أيضاً في كتب التسيير والتنجيم ولذكره أهل الإرصاد فقد كانت موجودة قبل البعثة بكثير وإطباقهم على تركه وإغفاله مع جلالة شأنه ووضوح أمره مما لا تجوزه العادة، وأيضاً لا يعقل سبب لخرق هذا الجرم العظيم وأيضاً خرقه يوجب صوتاً هائلاً أشد من أصوات الصواعق المهلكة بأضعاف مضاعفة لا يبعد هلاك أكثر أهل الأرض منه، وأيضاً متى خرق وصار قطعتين ذهبت منه قوة

التجاذب كالجبل إذا انشق فيلزم بقاؤه منشقاً ولا أقل من أن يبقى كذلك سنين كثيرة؛ والجواب عن ذلك أنه وقع في الليل وزمان الغفلة وكان في زمان قليل ورؤية القمر في بلد لا تستلزم ورؤيته في جميع البلاد ضرورة اختلاف المطالع فقد يكون القمر طالعاً على قوم غائباً عن آخرين ومكسوفاً عند قوم غير مكسوف عند آخرين والاعتناء بأمر الأرصاد لم يكن بمثابته اليوم وغفلة أهلها لحظة غير مستبعد والانشقاق لا تختلف به منازله ولا يتغير به سيره غاية ما في الباب أن يحدث في القطعة الشرقية قوة سير لتلحق أختها الغربية، وأي مانع من أن يخلق الله تعالى فيها من السرعة نحو ما خلق الله سبحانه في ضوء الشمس فقد قال أهل الحكمة الجديدة: إن بين الأرض والشمس ثلاثمائة ألف فرسخ وأربعون ألف فرسخ وأن ضوءها ليصل إلى الأرض في مدة ثمان دقائق وثلاث عشرة ثانية فيقطع الضوء في كل ثانية سبعين ألف فرسخ ولا يلزم أن يعلم سبب كل حادث بل كثير من الحوادث المتكررة المشاهدة لم يوقف على أسبابها كرؤية الكواكب قريبة مع بعدها المفرط فقد ذكروا أنهم لم يقفوا على سببه ويكفي في ذلك عدم وقوفهم على سبب الإبصار بالعين على الحقيقة ولو أخبرهم مخبر بفرض إن لم يكن لهم إبصار بخواص البصر مع كونه قطعة شحم صغيرة معروفة أحوالها عند أهل التشريح لأنكروا عليه غاية الإنكار وكذبوه غاية التكذيب ونسبوه إلى الجنون.

ومن سلم تأثير النفوس إلى حدّ أن يصرع الشخص آخر بمجرد النظر إليه وتوجيه نفسه نحوه لم يستبعد أن يكون هناك سبب نحو ذلك، وقد صح في إصابة العين أن بعض الأعراب ممن له عين صائبة يفلق سنام الناقة فلقتين، وربما تصور له من رمل فينظر إليه ويفلقه فينفلق سنامها مع عدم رؤيته لها نفسها وهذا كله من باب المماشاة وإلا فإرادة الله تعالى كافية في الانشقاق وكذا في كل المعجزات وخوارق العادات ولو كان لكل حادث سبب لزم التسلسل وقد قامت الأدلة على بطلانه، وكون الخرق يوجب صوتاً هائلاً ممنوع فيما نحن فيه ومصله ذهاب التجاذب والأجسام مختلفة من حيث الخواص فلا يلزم اتحاد جرم القمر والأرض فيها ويمكن أن يكون إحدى القطعتين كالجبل العظيم بالنسبة إلى الأرض إذا ارتفع عنها بقاسر مثلا جذبته إليه إذا لم يخرج عن حدّ جذبها على ما زعموه ويلتزم في تلك القطعة عدم الخروج عن حدّ الجذب على أنا في غنى عن كل ذلك أيضاً بعد إثبات الإمكان وشمول قدرته عز وجل وأنه سبحانه فعال لما يريد.

والحاصل أنه ليس عند المنكر سوى الاستبعاد ولا يستطيع أن يأتي بدليل على الاستحالة الذاتية ولو انشق، والاستبعاد في مثل هذه المقامات قريب من الجنون عند من له عقل سلم، وروي عن الحسن أنه قال: هذا الانشقاق بعد النفخة الثانية، والتعبير بالماضي لتحقق الوقوع، وروي ذلك عن عطاء أيضاً، ويؤيد ما تقدم الذي عليه الأكثرون قراءة حذيفة وقد انشق القمر فإن الجملة عليها حالية فتقتضي المقارنة لاقتراب الساعة ووقوع الانشاق قبل يوم القيامة، وكذا قوله تعالى: ﴿وَإِن يَرَوا آيَةً يُعرِضُوا﴾ فإنه يقتضي أن الانشقاق آية رأوها وأعرضوا عنها، وزعم بعضهم أن انشقاق القمر عبارة عن انشقاق الظلمة عند طلوعه وهذا كما يسمى الصبح فلقاً عند انفلاق الظلمة عنه وقد يعبر عن الانفلاق بالانشقاق كما في قوله النابغة:

فلما أدبروا ولهم دوي ... دعانا عند شق الصبح داعي

وزعم آخر أن معنى انشق القمر وضح الامر وظهر وكلا الزعمين مما لا يعول عليه ولا يلتفت إليه لا أظن الداعي إليهما عند من يقرّ بالساعة التي هي أعظم من الانشقاق ويعترف بالعقائد الإسلامية التي وقع عليها الاتفاق سوى عدم ثبوت الاخبار في وقوع ذلك على عهده عليه الصلاة والسلام عنده، ومنشأ ذلك القصور التام والتمسك بشبه هي على طرف الثمام، ومع هذا لا يكفر المنكر بناءً على عدم الاتفاق على تواتر ذلك وعدم كون الآية نصاً فيه، والإخراج من

الدين أمر عظيم فيحتاط فيه ما لا يحتاط في غيره والله تعالى الموفق.

والظاهر أن المراد باقتراب الساعة القرب الشديد الزماني، وكل آت قريب، وزمان العالم مديد، والباقي بالنسبة إلى الماضي شيء يسير، ومال الإمام إلى أن المراد به قربها في العقول والأذهان، وحاصله أنها ممكنة إمكانا قريباً لا ينبغي لاحد إنكارها، واستعمال الاقتراب مع أنه أمر مقطوع به كاستعمال ﴿لعل﴾ في قوله تعالى: ﴿لعل الساعة تكون قريباً﴾ [الأحزاب: ٦٣] مع أن الأمر معلوم عند الله تعالى وانشقاق القمر آية ظاهرة على هذا القرب، وعلى الاول قيل: هو آية لأصل الإمكان الذي يقتضيه قرب الوقوع، وقيل: هو آية لقرب الوقوع ومعجزة للنبي ﷺ باعتبار أن الله تعالى مخبر في كتبه السالفة بأنه إذا قربت الساعة انشق القمر معجزة وكلاهما كما ترى، واختار بعضهم أنه آية لصدق النبي عليه الصلاة والسلام في جميع ما يقول ويبلغ ربه سبحان لأنه معجزة له ﷺ ومنه دعوى الرسالة والإخبار باقتراب الساعة وغير ذلك، و ﴿آية﴾ نكرة في سياق الشرط فتعم، فالمعنى «وإن يروا كل آية يعرضوا» عن التأمل فيها ليقفوا على وجه دلالتها وعلو طبقتها ﴿وَيَقُولُوا سِحْرٌ﴾ أي هذا أو هو أي ما نراه سحر ﴿مُّسْتَمِرٌّ﴾ أي مطرد دائم يأتي به محمد صلى الله تعالى عليه وسلم على مر الزمان وهو ظاهر في ترادف الآيات وتتابع المعجزات.

وقال أبو العالية والضحاك: ﴿مستمر﴾ محكم موثق من المرة بالفتح أو الكسر بمعنى القوة وهو في الأصل مصدر مررت الحبل مرة إذا فتلته فتلاً محكماً فأريد به مطلق المحكم مجازاً مرسلاً، وقال أنس ويمان ومجاهد والكسائي والفراء ـ واختاره النحاس ـ مستمر أي مارّ ذاهب زائل عن قريب عللوا بذلك أنفسهم ومنوها بالأماني الفارغة كأنهم قالوا: إن حاله عليه الصلاة والسلام وما ظهر من معجزاته سبحانه

سحابة صيف عن قريب تقشع

﴿ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون﴾ [التوبة: ٣٢] وقيل: ﴿مستمر﴾ مشتدّ المرارة أي مستبشع عندنا منفور عنه لشدة مرارته يقال: مرّ الشيء وأمرّ إذا صار مرّاً وأمرّ غيره ومرّه يكون لازماً ومتعدياً، وقيل: ﴿مستمر﴾ يشبه بعضه بعضاً أي استمرت أفعاله على هذا الوجه من التخييلات، وقيل: ﴿مستمر﴾ مار من الأرض إلى السماء أي بلغ من سحره أنه سحر القمر وهذا ليس بشيء، ولعل الأنسب بغلوهم في العناد والمكابرة ما روي عن أنس ومن معه، وقرىء ـ وأن يروا ـ بالبناء للمفعول من الاراءة ﴿وَكَذَّبُوا﴾ النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وبما أظهره الله تعالى على يده من الآيات ﴿وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ التي زينها الشيطان لهم، وقيل: ﴿كذبوا﴾ الآية التي هي انشقاق القمر ﴿واتبعوا أهواءهم﴾ وقالوا سحر القمر أو سحرت أعيننا والقمر بحاله، والعطف على الجزاء السابق وصيغة الماضي للدلالة على التحقق، وقيل: العطف على ﴿اقتربت﴾ والجملة الشرطية اعتراض لبيان عادتهم إذا شاهدوا الآيات، وقوله تعالى: ﴿وَكُلُّ أَمرٍ مُّسْتَقِرٌّ﴾ استئناف مسوق للرد على الكفار في تكذيبهم ببيان أنه لا فائدة لهم فيه ولا يمنع علو شأنه صلى الله تعالى عليه وسلم، أو لإقناطهم عما علقوا به أمانيهم الفارغة من عدم استقرار أمره عليه الصلاة والسلام حسبما قالوا: ﴿سحر مستمر﴾ ببيان ثبوته ورسوخه أي وكل أمر من الأمور منته إلى غاية يستقر عليها لا محالة ومن جملتها أمر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فسيصير إلى غاية يتبين عندها حقيته وعلو شأنه، وللإشارة إلى ظهور هذه الغاية لأمره عليه الصلاة والسلام لم يصرح بالمستقر عليه، وفي الكشاف أي كل أمر لا بدّ أن يصير إلى غاية يستقر عليها وأن أمره ﷺ سيصير إلى غاية يتبين عندها أنه حق أو باطل وسيظهر له عاقبتهم أو وكل أمر من أمره عليه الصلاة والسلام وأمرهم مستقر أي سيثبت ويستقر على حالة نصرة أو خذلان في الدنيا أو سعادة وشقاوة في الآخرة، قال في الكشف: والكلام على الأول تذييل جار مجرى المثل وعلى الثاني تذييل غير مستقل، وقرأ شيبة

«مُسْتَقَر» بفتح القاف ورويت عن نافع، وزعم أبو حاتم أنها لا وجه لها وخرجت على أن مستقراً مصدر بمعنى استقرار، وحمله على كل أمر بتقدير مضاف أي ذو مستقر ولو لم يقدر وقصد المبالغة صح، وجوز كونه اسم زمان أو مكان بتقدير مضاف أيضاً أي ذو زمان استقرار، أو ذو موضع استقرار، وتعقب بأن كون كل أمر لا بد له من زمان أو مكان أمر معلوم لا فائدة في الأخبار به، وأجيب بأن فيه إثبات الاستقرار له بطريق الكناية وهي أبلغ من التصريح.

وقرأ زيد بن علي «مُسْتَقِرٍ» بكسر القاف والجر، وخرج على أنه صفة أمر وأن كل معطوف على الساعة أي اقتربت الساعة؛ واقترب كل أمر يستقر ويتبين حاله أي بقربها، قال في الكشف: وفيه شمة من التجريد وتهويل عظيم حيث جعل في اقترابها اقتراب كل أمر يكون له قرار وتبين حال مما له وقع، وقوله تعالى: ﴿**وانشق القمر**﴾ على هذا إما على تقدير قد وينصره القراءة بها، وإما منزل منزلة الإعراض لكونه مؤكداً لقرب الساعة، وقوله سبحانه: ﴿**وإن يروا آية**﴾ الخ مستطرد عند ذكر انشقاق القمر.

واعترض ذلك أبو حيان بأنه بعيد لكثرة الفواصل بين المعطوف والمعطوف عليه وجعل الكلام عليه نظير ـ أكلت خبزاً، وضربت خالداً، وإن يجيء زيد أكرمه، ورحل إلى بني فلان، ولحماً بعطف ـ لحماً على خبزاً ـ ثم قال بل لا يوجد مثله في كلام العرب، وتعقب بأنه ليس بشيء لأنه إذا دل على العطف الدليل لا يعد ذلك مانعاً منه على أن بين الآية والمثال فرقاً لا يخفى، وقال صاحب اللوامح إن ﴿**مستقر**﴾ خبر كل، والجر للجوار، واعترضه أبو حيان أيضاً بأنه ليس بجيد لأن الجر على الجوار في غاية الشذوذ في مثله إذ لم يعهد في خبر المبتدأ، وإنما عهد في الصفة على اختلاف النحاة في وجوده، واستظهر كون كل مبتدأ وخبره مقدر كآت، أو معمول به ونحوه مما يشعر به الكلام أو مذكور بعد وهو قوله تعالى: ﴿**حكمة بالغة**﴾ وقد اعترض بينهما بقوله سبحانه: ﴿**وَلَقَد جَاءَهُم**﴾ في القرآن ﴿**مِّنَ ٱلأنباء**﴾ أي أخبار القرون الخالية أو أخبار الآخرة، والجار والمجرور في موضع الحال من ما في قوله عز وجل: ﴿**مَا فيه مُزْدَجَرٌ**﴾ قدم عليه رعاية للفاصلة وتتويقاً إليه و ﴿**من**﴾ للتبعيض، أو للتبيين بناءً على المختار من جواز تقديمه على المبين، قال الرضى: إنما جاز تقديم ﴿**من**﴾ المبينة على المبهم في نحو ـ عندي من المال ما يكفي ـ لأنه في الأصل صفة لمقدر أي شيء من المال، والمذكور عطف بيان للمبين المقدر قبلها ليحصل البيان بعد الإبهام أي بالله لقد جاءهم كائناً من الأنباء ما فيه ازدجار لهم ومنع عما هم فيه من القبائح، أو موضع ازدجار ومنع، وهي أنباء التعذيب، أو أنباء الوعيد، وأصل ﴿**مزدجر**﴾ مزتجر بالتاء موضع الدال وتاء الافتعال تقلب دالا مع الدال والذال والراء للتناسب، وقرىء مزجر بقلبها زاياً وإدغام الزاي فيها، وقرأ زيد بن علي مزجِر اسم فاعل من أزجر أي صار ذا زجر كأعشب صار ذا عشب ﴿**حِكْمَةٌ بالغَةٌ**﴾ أي واصلة غاية الإحكام لا خلل فيها، ورفع ﴿**حكمة**﴾ على أنها بدل كل، أو اشتمال من ﴿**ما**﴾، وقيل: من ﴿**مزدجر**﴾ أو خبر مبتدأ محذوف أي هي، أو هذه على أن الإشارة لما يشعر به الكلام من إرسال الرسل وإيضاح الدليل والإنذار لمن مضى، أو إلى ما في الأنباء، أو إلى الساعة المقتربة، والآية الدالة عليها ـ كما قاله الإمام وتقدم آنفاً ـ احتمال كونها خبراً عن كل في قراءة زيد، وقرأ اليماني ﴿**حكمة بالغة**﴾ بالنصب حالاً من ﴿**ما**﴾ فإنها موصولة أو نكرة موصوفة، ويجوز مجيء الحال منها مع تأخرها أو هو بتقدير أعني.

﴿**فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ**﴾ نفى للإغناء أو استفهام إنكاري والفاء لترتيب عدم الإغناء على مجيء الحكمة البالغة مع كونه مظنة الإغناء وصيغة المضارع للدلالة على التجدد والاستمرار، و ﴿**ما**﴾ على الوجه الثاني في محل نصب على أنها مفعول مطلق أي فأي إغناء تغني النذر، وجوز أن تكون في محل رفع على الابتداء، والجملة بعدها خبر، والعائد مقدر أي فما تغنيه النذر وهو جمع نذير بمعنى المنذر، وجوز أن يكون جمع نذير بمعنى الإنذار، وتعقب بأن حق

المصدر أن لا يثنى ولا يجمع وأن يكون مصدراً كالإنذار، وتعقب بأنه يأباه تأنيث الفعل المسند إليه وكونه باعتبار أنه بمعنى النذارة لا يخفى حاله ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ الفاء للسببية والمسبب التولي أو الامر به والسبب عدم الاعناء أو العلم به، والمراد بالتولي إما عدم القتال، فالآية منسوخة، وإما ترك الجدال للجلاد فهي محكمة والظاهر الأول ﴿يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ﴾ ظرف ـ ليخرجون ـ أو مفعول به لاذكر مقدراً، وقيل: لا نتظر، وجوز أن يكون ظرفاً لتغني، أو لمستقر وما بينهما اعتراض، أو ظرفاً ـ ليقول الكافر ـ أو ـ لتول ـ أي تول عن الشفاعة لهم يوم القيامة، أو هو معمول له بتقدير إلى، وعليه قول الحسن ـ فتول عنهم إلى يوم ..

والمراد استمرار التولي والكل كما ترى، والداعي إسرافيل عليه السلام، وقيل: جبرائيل عليه السلام، وقيل: ملك غيرهما موكل بذلك، وجوز أن يكون الدعاء للإعادة في ذلك اليوم كالأمر في ﴿كن فيكون﴾ [البقرة: ١١٧] وغيرها على القول بأنه تمثيل، فالداعي حينئذ هو الله عز وجل، وحذفت الواو من ﴿يدع﴾ لفظاً لالتقاء الساكنين ورسما اتباعاً للفظ، والياء من ﴿الداع﴾ تخفيفاً، وإجراءاً لال مجرى التنوين لأنها تعاقبه، والشيء يحمل على ضده كما يحمل على نظيره ﴿إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ﴾ أي فظيع تنكره النفوس لعدم العهد بمثله وهو هول القيامة ويكنى بالنكر عن الفظيع لأنه في الغالب منكر غير معهود، وجوز أن يكون من الإنكار ضد الإقرار وأيما كان فهو وصف على فعل بضمتين وهو قليل في الصفات، ومنه ـ روضة أنف لم ترع، ورجل شلل خفيف في الحاجة سريع حسن الصحبة طيب النفس، وسجح لين سهل وقرأ الحسن وابن كثير وشبل «نُكْر» بإسكان الكاف كما قالوا: شغل وشغل، وعسر وعسر وهو إسكان تخفيف، أو السكون هو الأصل والضم للإتباع، وقرأ مجاهد وأبو قلابة والجحدري وزيد بن علي «نكر» فعلاً ماضياً مبنياً للمفعول بمعنى أنكر ﴿خُشَّعاً أَبْصَارُهُمْ﴾ حال من فاعل ﴿يَخْرُجُونَ﴾ أي يخرجون ﴿مِنَ الأَجداث﴾ أي القبور أذلة أبصارهم من شدة الهول أي أذلاء من ذلك، وقدم الحال لتصرف العامل والاهتمام، وفيه دليل على بطلان مذهب الجرمي من عدم تجويز تقدم الحال على الفعل وإن كان متصرفاً، ويرده أيضاً قولهم: شتى تؤب الحلبة، وقوله:

سريعاً يهون الصعب عند أولي النهى ... إذا برجاء صادق قابلوا البأسا

وجعل حالاً من ذلك لقوله تعالى: ﴿يوم يخرجون من الاجداث سراعاً﴾ [المعارج: ٤٣] إلى قوله تعالى: ﴿خاشعة أبصارهم﴾ [المعارج: ٤٣ ـ ٤٤] وقيل: هو حال من الضمير المفعول المحذوف في ﴿يدع الداع﴾ أي يدعوهم الداع؛ وتعقب بأنه لا يطابق المنزل وأيضاً يصير حالا مقدرة لأن الدعاء ليس حال خشوع البصر وليست في الكثرة كغيرها وكذلك جعله مفعول ـ يدعو ـ على معنى يدعو فريقاً خاشعاً أبصارهم أي سيخشع وإن كان هذا أقرب مما قبل: وقيل: هو حال من الضمير المجرور في قوله تعالى: ﴿فتولى عنهم﴾ وفيه ما لا يخفى، وأبصارهم فاعل خشعاً وطابقه الوصف في الجمع لأنه إذا كسر لم يشبه الفعل لفظاً فتحسن فيه المطابقة وهذا بخلاف ما إذا جمع جمع مذكر سالم فإنه لم يتغير زنته وشبهه للفعل فينبغي أن لا يجمع إذا رفع الظاهر المجموع على اللغة الفصيحة دون لغة أكلوني البراغيث، لكن الجمع حينئذ في الاسم أخف منه في الفعل كما قال الرضى، ووجهه ظاهر، وفي التسهيل إذا رفعت الصفة اسماً ظاهراً مجموعاً فان أمكن تكسيرها ـ كمررت برجل قيام غلمانه ـ فهو أولى من إفرادها ـ كمررت برجل قائم غلمانه ـ وهذا قول المبرد ومن تبعه والسماع شاهد له كقوله:

وقوفاً بها صحبي عليَّ مطيهم ... يقولون لا تهلك أسى وتجمَّلِ

وقوله:

بـمـطـرد لـدن صـحـاح كـعـوبـه ... وذي رونـق عـضـب يـقـد الـقـوانـسـا

وقال الجمهور: الإفراد أولى والقياس معهم، وعليه قوله:

ورجـــال حـــســن أوجـــهـــهـــم ... مـــن إيـــاد بـــن نـــزار بـــن مـــعـــد

وقيل: إن تبع مفرداً فالإفراد أولى ـ كرجل قائم غلمانه ـ وإن تبع جمعاً فالجمع أولى ـ كرجال قيام غلمانهم ـ وأما التثنية والجمع السالم فعلى لغة أكلوني البراغيث؛ وجوز أن يكون في ﴿**خشعاً**﴾ ضمير مستتر، و ﴿**أبصارهم**﴾ بدلاً منه، وقرأ ابن عباس وابن جبير ومجاهد والجحدري وأبو عمرو وحمزة والكسائي ـ خاشعاً ـ بالإفراد، وقرأ أبيّ وابن مسعود «خاشعة» وقرىء «خشع» على أنه خبر مقدم، و ﴿**أبصارهم**﴾ مبتدأ، والجملة في موضع الحال، وقوله تعالى: ﴿**كَأَنَّهُمْ جَرادٌ مُنتَشر**﴾ حال أيضاً وتشبيههم بالجراد المنتشر في الكثرة والتموج والانتشار في الأقطار، وجاء تشبيههم بالفراش المبثوث ولهم يوم الخروج سهم من الشبه لكل، وقيل: يكونون أولاً كالفراش حين يموجون فزعين لا يهتدون أين يتوجهون لأن الفراش لا جهة لها تقصدها، ثم كالجراد المنتشر إذا توجهوا إلى المحشر فهما تشبيهان باعتبار وقتين، وحكي ذلك عن مكي بن أبي طالب.

﴿**مُّهطعينَ إلى ٱلدَّاع**﴾ مسرعين إليه قال أبو عبيدة: وزاد بعضهم مادّي أعناقهم، وآخر مع هز ورهق ومدّ بصر، وقال عكرمة: فاتحين آذانهم إلى الصوت، وعن ابن عباس ناظرين إليه لا تقلع أبصارهم عنه وأنشد قول تبع:

تـعـبـدنـي نـمـر بـن سـعـد وقـد أرى ... ونـمـر بـن سـعـد لـي **مـطـيـع ومـهـطـع**

وفي رواية أنه فسره بخاضعين وأنشد البيت، وقيل: خافضين ما بين أعينهم، وقال سفيان: شاخصة أبصارهم إلى السماء، وقيل: أصل الهطع مد العنق، أو مد البصر، ثم يكنى به عن الإسراع، أو عن النظر والتأمل فلا تغفل، ﴿**يَقُولُ الكافِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسرٌ**﴾ صعب شديد لما يشاهدون من مخايل هوله وما يرتقبون من سوء منقلبهم فيه، وفي إسناد القول المذكور إلى الكفار تلويح بأنه على المؤمنين ليس كذلك.

﴿كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ فَكَذَّبُواْ عَبۡدَنَا وَقَالُواْ مَجۡنُونٞ وَٱزۡدُجِرَ ﴿٩﴾ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَغۡلُوبٞ فَٱنتَصِرۡ ﴿١٠﴾ فَفَتَحۡنَآ أَبۡوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٖ مُّنۡهَمِرٖ ﴿١١﴾ وَفَجَّرۡنَا ٱلۡأَرۡضَ عُيُونٗا فَٱلۡتَقَى ٱلۡمَآءُ عَلَىٰٓ أَمۡرٖ قَدۡ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلۡنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلۡوَٰحٖ وَدُسُرٖ ﴿١٣﴾ تَجۡرِي بِأَعۡيُنِنَا جَزَآءٗ لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ وَلَقَد تَّرَكۡنَٰهَآ ءَايَةٗ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ﴿١٥﴾ فَكَيۡفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٦﴾

﴿**كَذَّبَت قَبْلَهُم قَوْمُ نُوح**﴾ شروع في تعداد بعض ما ذكر من الأنبياء الموجبة للازدجار؛ ونوع تفصيل لها وبيان لعدم تأثرهم بها تقريراً لفحوى قوله تعالى: ﴿**فما تغنِ النذر**﴾ والفعل منزل منزلة اللازم أي فعلت التكذيب قبل تكذيب قومك قوم نوح: وقوله تعالى: ﴿**فَكَذَّبوا عَبْدَنَا**﴾ تفسير لذلك التكذيب المبهم كما في قوله تعالى: ﴿ونادى نوح ربه فقال﴾ [هود: ٤٥] الخ، وفيه مزيد تحقيق وتقرير للتكذيب، وجوز أن يكون المعنى كذبوا تكذيباً إثر تكذيب كلما خلا منهم قرن مكذب جاء عقيبه قرن آخر مكذب مثله، أو كذبت قوم نوح الرسل فكذبوا عبدنا أي لما كانوا مكذبين للرسل جاحدين للنبوة رأساً كذبوا نوحاً لأنه من جملة الرسل، والفاء عليه سببية، وقيل: معنى كذبت قصدت التكذيب وابتدأته، ومعنى فكذبوا أتموه وبلغوا نهايته كما قيل في قوله:

وقد جبر الدين الإله فجبر

وفي ذكره عليه السلام بعنوان العبودية مع الإضافة إلى نون العظمة تفخيم له عليه السلام ورفع لمحله وتشنيع لمكذبيه.

﴿وَقَالُوا مَجنُونٌ﴾ أي لم يقتصروا على مجرد التكذيب بل نسبوه إلى الجنون فقالوا هو مجنون ﴿وَٱزْدُجِرَ﴾ عطف على ـ قالوا ـ وهو إخبار منه عز وجل أي وزجر عن التبليغ بأنواع الأذية والتخويف قاله ابن زيد، وقرأ ﴿لئن لم تنته يا نوح لتكونن من المرجومين﴾ [الشعراء: ١١٦] وقال مجاهد: هو من تمام قولهم أي هو مجنون، وقد ازدجرته الجن وذهبت بلبّه وتخبطته، والأول أظهر وأبلغ، وجعل مبنياً للمفعول لغرض الفاصلة، وطهر الألسنة عن ذكرهم دلالة على أن فعلهم أسوأ من قولهم ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي﴾ أي بأني.

وقرأ ابن أبي إسحاق وعيسى والأعمش وزيد بن علي ـ ورويت عن عاصم ـ «إني» بكسر الهمزة على إضمار القول عند البصريين، وعلى إجراء الدعاء مجرى القول عند الكوفيين ﴿مَغْلُوبٌ﴾ من جهة قومي مالي قدرة على الانتقام منهم ﴿فَانتَصِرْ﴾ فانتقم لي منهم، وقيل: فانتصر لنفسك إذ كذبوا رسولك، وقيل: المراد ـ بمغلوب ـ غلبتني نفسي حتى دعوت عليهم بالهلاك وهو خلاف الظاهر وما دعا عليه السلام عليهم إلا بعد اليأس من إيمانهم، والتأكيد لمزيد الاعتناء بأمر الترحم المقصود من الأخبار.

﴿فَفَتَحْنَا أَبوَابَ ٱلسَّمَاء بِماء مُّنْهَمِر﴾ أي منصب، وقيل: كثير قال الشاعر:

أعيناي جودا بالدموع الهوامر   على خير باد من معد وحاضر

والباء للآلة مثلها في فتحت الباب بالمفتاح، وجوز أن تكون للملابسة والأول أبلغ، وفي الكلام استعارة تمثيلية بتشبيه تدفق المطر من السحاب بانصباب أنهار انفتحت بها أبواب السماء وانشق أديم الخضراء، وهو الذي ذهب إليه الجمهور، وذهب قوم إلى أنه على حقيقته وهو ظاهر كلام ابن عباس.

أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عنه أنه قال: لم تمطر السماء قبل ذلك اليوم ولا بعده إلا من السحاب، وفتحت أبواب السماء بالماء من غير سحاب ذلك اليوم فالتقى الماءان، وفي رواية لم تقلع أربعين يوماً، وعن النقاش أنه أريد بالأبواب المجرة وهي شرج السماء كشرج العيبة! والمعروف من الأرصاد أن المجرة كواكب صغار متقاربة جداً، والله تعالى أعلم.

ومن العجيب أنهم كانوا يطلبون المطر سنين فأهلكهم الله تعالى بمطلوبهم، وقرأ ابن عامر وأبو جعفر والأعرج ويعقوب «ففتحنا» بالتشديد لكثرة الأبواب، والظاهر أن جمع القلة هنا للكثرة ﴿وَفَجَّرنَا ٱلأَرضَ عُيُوناً﴾ وجعلنا الأرض كلها كأنها عيون متفجرة وأصله فجرنا عيون الأرض فغير إلى التمييز للمبالغة بجعل الأرض كلها متفجرة مع الإبهام والتفسير، فالتمييز محول عن المفعول، وجعله بعضهم محولا عن الفاعل بناءً على أنه الأكثر، الأصل انفجرت عيون الأرض وتحويله كما يكون عن فاعل الفعل المذكور يكون عن فاعل فعل آخر يلاقيه في الاشتقاق ـ وهذا منه ـ وهو تكلف لا حاجة إليه، ومنع بعضهم مجيء التمييز من المفعول فأعرب ﴿عيوناً﴾ حالاً مقدرة، وجوز عليه أن يكون مفعولاً ثانياً لفجرنا على تضمينه ما يتعدى إليه أي صيرنا بالتفجير الأرض عيوناً وكان ذلك على ما في بعض الروايات أربعين يوماً، وقرأ عبد الله وأصحابه وأبو حيوة والمفضل عن عاصم «فَجَرْنَا» بالتخفيف ﴿فَٱلتَقَى ٱلْمَاءُ﴾ أي ماء السماء وماء الأرض، والإفراد لتحقيق أن التقاء الماءين لم يكن بطريق المجاورة بل بطريق الاختلاط والاتحاد، وقرأ علي كرم الله تعالى وجهه والحسن ومحمد بن كعب والجحدري ـ الماءان ـ والتثنية لقصد بيان اختلاف النوعين وإلا

فالماء شامل لماء السماء وماء الأرض، ونحوه قوله:

لنا إبلان فيهما ما علمتم ... فعن أيها ما شئتم فتنكبوا

وقيل: فيها إشارة إلى أن ماء الأرض فار بقوة وارتفع حتى لاقى ماء السماء وفي ذلك مبالغة لا تفهم من الإفراد، وقرأ الحسن أيضاً ـ ماوان ـ بقلب الهمز واواً كقولهم: علباوان كما قال الزمخشري، ولم يرد أنه نظيره بل أراد كما أن هنالك إبدالاً بعلة أنها غير أصلية لانها زائدة للإلحاق كذلك هاهنا لانها مبدلة والبدل وإن كان من الهاء لكنها أجريت مجرى البدل عن الواو قاسه على النسبة كذا في الكشف، وعنه أيضاً المايان بقلب الهمزة ياءً.

﴿عَلَىٰ أمر قَدْ قُدرَ﴾ أي كائناً على حال قد قدرها الله تعالى في الأزل من غير تفاوت أو على حال قدرت وسويت وهي أن ما نزل على قدر ما خرج.

وقيل: إن ماء الأرض علا سبعة عشر ذراعاً ونزل ماء السماء مكملاً أربعين، وقيل: ما الأرض كان أكثر وله مقدار معين عند الله عز وجل، أو على أمر قدره الله تعالى وكتبه في اللوح المحفوظ وهو هلاك قوم نوح بالطوفان. ورجحه أبو حيان بأن كل قصة ذكرت بعد ذكر الله تعالى فيها هلاك المكذبين فيكون هذا كناية عن هلاك هؤلاء، و ﴿على﴾ عليه للتعليل، ويحتمل تعلقها بالتقى. وفيه ردّ على أهل الأحكام النجومية حيث زعموا أن الطوفان لاجتماع الكواكب السبعة ما عدا الزهرة في برج مائي، وقرأ أبو حيوة وابن مقسم «قدّر» بتشديد الدال ﴿وَحَمَلْنَاهُ﴾ أي نوحاً عليه السلام ﴿عَلَىٰ ذَاتِ ألواح﴾ أخشاب عريضة ﴿وَدُسُر﴾ أي مسامير كما قاله الجمهور وابن عباس في رواية ابن جرير، وابن المنذر جمع دسار ككتاب وكتب، وقيل: ﴿دسر﴾ كسقف وسقف. وأصل الدسر الدفع الشديد بقهر فسمي به المسمار لأنه يدق فيدفع بشدة. وقيل: حبال من ليف تشد بها السفن. وقال الليث: خيوط تشد بها ألواحها، وأخرج عبد بن حميد عن عكرمة والحسن أنها مقاديم السفينة وصدرها الذي تضرب به الموج وتدفعه. وروي عن ابن عباس نحوه. وأخرج عن مجاهد أنها عوارض السفينة أي الخشبات التي تعرض في وسطها. وفي رواية عنه هي أضلاع السفينة. وأياً مّا كان فقوله تعالى: ﴿ذات ألواح ودسر﴾ من الصفات التي تقوم مقام الموصوفات على سبيل الكناية كقولهم: حي مستوي القامة عريض الأظفار في الكناية عن الإنسان وهو من فصيح الكلام وبديعه. ونظير الآية قول الشاعر:

مفرشي صهوة الحصان ولكن ... قميصي مسرودة من حديد

فإنه أراد قميصي درع وقوله يصف هزال الإبل:

تراءى لها في كل عين مقابل ... ولو في عيون النازيات بأكرع

فإنه أراد في عيون الجراد لأن النزو بالأكرع يختص بها. وأما كونه على حذف الموصوف لدلالة الصفة عليه على ما في المفصل وغيره فكلام نحوي ﴿تَجري بأَعْيُننا﴾ بمرأى منا. وكني به عن الحفظ أي تجري في ذلك الماء بحفظنا وكلاءتنا، وقيل: بأوليائنا يعني نوحاً عليه السلام ومن آمن معه يقال: مات عين من عيون الله تعالى أو ولي من أوليائه سبحانه، وقيل: بأعين بالماء التي فجرناها، وقيل: بالحفظة من الملائكة عليه السلام سماهم أعيناً وأضافهم إليه جل شأنه والأول أظهر، وقرأ زيد بن علي. وأبو السمال ـ بأعينا ـ بالإدغام.

﴿جَزَاء لِّمَن كَانَ كُفر﴾ أي فعلنا ذلك جزاءً لنوح عليه السلام فإنه كان نعمة أنعمها الله تعالى على قومه فكفروها وكذا كل نبي نعمة من الله تعالى على أمته، وجوز أن يكون على حذف الجار وإيصال الفعل إلى الضمير

واستتاره في الفعل بعد انقلابه مرفوعاً أي لمن كفر به وهو نوح عليه السلام أيضاً أي جحدت نبوته، فالكفر عليه ضد الإيمان، وعلى الأول كفران النعمة، وعن ابن عباس ومجاهد من يراد به الله تعالى كأنه قيل: غضباً وانتصاراً لله عز وجل وهو كما ترى، وقرأ مسلمة بن محارب ـ كفر ـ بإسكان الفاء خفف فعل كما في قوله:

لو عصر منه البان والمسك **انعصر**

وقرأ يزيد بن رومان وقتادة وعيسى «كَفَرَ» مبنياً للفاعل فمن يراد بها قوم نوح عليه السلام لا غير، وفي هذه القراءة دليل على وقوع الماضي بغير قد خبراً لكان وهو مذهب البصريين وغيرهم يقول لا بد من وقوع قد ظاهرة أو مقدرة، وجوز أن تكون ﴿**كان**﴾ زائدة كأنه قيل: جزاءً لمن ﴿**كفر**﴾ ولم يؤمن ﴿**وَلَقَد تَّركْناها**﴾ أي أبقينا السفينة ﴿**آيَةً**﴾ بناءً على ما روي عن قتادة والنقاش أنه بقي خشبها على الجودي حتى رآه بعض أوائل هذه الأمة، أو أبقينا خبرها، أو أبقينا جنسها وذلك بإبقاء السفن، أو ـ تركنا ـ بمعنى جعلنا، وجوز كون الضمير للفعلة وهي إنجاء نوح عليه السلام ومن معه وإغراق الكافرين ﴿**فَهَلْ من مُّدَّكر**﴾ أي معتبر بتلك الآية الحرّية بالاعتبار، وقرأ قتادة على ما نقل ابن عطية ـ مذكر ـ بالذال المعجمة على قلب تاء الافتعال ذالاً وإدغام الذال في الذال، وقال صاحب اللوامح: قرأ قتادة فهل من ـ مذكر ـ بتشديد الكاف من التذكير أي من يذكر نفسه أو غيره بها، وقرىء مذتكر بذال معجمة بعدها تاء الافتعال كما هو الأصل ﴿**فَكَيفَ كانَ عَذَابي وَنُذُر**﴾ استفهام تعظيم وتعجيب أي كانا على كيفية هائلة لا يحيط بها الوصف، و ـ النذر ـ مصدر كالإنذار، وقيل: جمع نذير بمعنى الإنذار، وجعله بعضهم بمعنى المنذر منه، وليس بشيء، وكذا جعله بمعنى المنذر، وكان يحتمل أن تكون ناقصة فكيف في موضع الخبر؟ وتامة فكيف في موضع الحال؟ ﴿**وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرآنَ**﴾ الخ جملة قسمية وردت في آخر القصص الأربع تقريراً لمضمون ما سبق من قوله تعالى: ﴿**ولقد جاءهم**﴾ الخ وتنبيهاً على أن كل قصة منها مستقلة بإيجاب الإدكار كافية في الازدجار، ومع ذلك لم يحصل فيها اعتبار، أي وبالله لقد سهلنا القرآن لقومك بأن أنزلناه على لغتهم وشحنّاه بأنواع المواعظ والعبر وصرفنا فيه من الوعيد والوعد ﴿**للذِّكْر**﴾ أي للتذكر والاتعاظ ﴿**فَهَلْ من مُّدَّكر**﴾ إنكار ونفي للمتعظ على أبلغ وجه وآكده يدل على أنه لا يقدر أحد أن يجيب المستفهم بنعم، وقيل: المعنى سهلنا القرآن للحفظ لما اشتمل عليه من حسن النظم وسلاسة اللفظ وشرف المعاني وصحتها وعروّه عن الوحشي ونحوه فله تعلق بالقلوب وحلاوة في السمع فهل من طالب لحفظه ليعان عليه؟ ومن هنا قال ابن جبير: لم يستظهر شيء من الكتب الآلهية غير القرآن، وأخرج ابن المنذر، وجماعة عن مجاهد أنه قال: يسرنا القرآن. هونّا قراءته.

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس: لولا أن الله تعالى يسره على لسان الآدميين ما استطاع أحد من الخلق أن يتكلم بكلام الله تعالى.

وأخرج الديلمي عن أنس مرفوعاً مثله. وأخرج ابن المنذر عن ابن سيرين أنه مرّ برجل يقول سورة خفيفة فقال: لا تقل ذلك ولكن قل سورة يسيرة لأن الله تعالى يقول: ﴿ولقد يسرنا القرآن للذكر﴾ والمعنى الذي ذكر أولاً أنسب بالمقام، ولعل خبر أنس إن صح ليس تفسيراً للآية، وجوز تفسير ﴿يسرنا﴾ بهيأنا من قولهم: يسر ناقته للسفر إذا رحلها، ويسر فرسه للغزو إذا أسرجه وألجمه قال الشاعر:

وقمت إليه باللجام **ميسراً** هنالك يجزيني الذي كنت أصنع

﴿**كَذَّبَتْ عَادٌ**﴾ شروع في قصة أخرى ولم تعطف وكذا ما بعدها من القصص إشارة إلى أن كل قصة مستقلة في القصد والاتعاظ ولما لم يكن لقوم نوح اسم علم ذكروا بعنوان الإضافة ولما كان لقوم هود علم وهو ﴿**عاد**﴾

ذكروا به لأنه أبلغ في التعريف، والمراد كذبت عاد هوداً عليه السلام ولم يتعرض لكيفية تكذيبهم له عليه السلام روما للاختصار ومسارعة إلى بيان ما فيه الازدجار من العذاب، وقوله: ﴿**فَكَيفَ كَانَ عَذابِي وَنُذُر**﴾ لتوجيه قلوب السامعين نحو الإصغاء إلى ما يلقى إليهم قبل ذكره لا لتهويله وتعظيمه وتعجيبهم من حاله بعد بيانه كما قبله وما بعده كأنه قيل: ﴿**كذبت عاد**﴾ فهل سمعتم، أو فاسمعوا كيف عذابي وإنذاري لهم، وقيل: هو للتهويل أيضاً لغرابة ما عذبوا به من الريح وانفراده بهذا النوع من العذاب، وفيه بحث، وقوله تعالى: ﴿**إِنَّا أَرسَلْنَا عَلَيهِم رِيحاً صَرْصَراً**﴾ استئناف لبيان ما أجمل أولاً، والصرصر الباردة على ما روي عن ابن عباس وقتادة والضحاك، وقيل: شديد الصوت وتمام الكلام قد مر في «فصلت».

﴿**فِي يَوْمِ نَحْس**﴾ شؤم عليهم ﴿**مُّسْتَمِرّ**﴾ ذلك الشؤم لأنهم بعد أن أهلكوا لم يزالوا معذبين في البرزخ حتى يدخلوا جهنم يوم القيامة، والمراد باليوم مطلق الزمان لقوله تعالى: ﴿فأرسلنا عليهم ريحاً صرصراً في أيام نحسات﴾ [فصلت: ١٦]، وقوله سبحانه: ﴿سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوماً﴾ [الحاقة: ٧] المشهور أنه يوم الأربعاء وكان آخر شوّال على معنى أن ابتداء إرسال الريح كان فيه فلا ينافي آيتي «فصلت» و «الحاقة».

وجوز كون ﴿**مستمر**﴾ صفة يوم أي في يوم استمر عليهم حتى أهلكهم، أو شمل كبيرهم وصغيرهم حتى لم تبق منهم نسمة على أن الاستمرار بحسب الزمان أو بحسب الأشخاص والأفراد لكن على الأول لا بد من تجوز بإرادة استمرار نحسه، أو بجعل اليوم بمعنى مطلق الزمان لأن اليوم الواحد لم يستمر فتدبر، وجوز كون ﴿**مستمر**﴾ بمعنى محكم وكونه بمعنى شديد المرارة وهو مجاز عن بشاعته وشدة هوله إذ لا طعم له، وجوز كونه بدلاً، أو عطف بيان وهو كما ترى، وقرأ الحسن «يَوم نَحِس» بتنوين يوم وكسر حاء نحس، وجعله صفة ليوم فيتعين كون ﴿**مستمر**﴾ صفة ثانية له، وأيد بعضهم بالآية ما أخرجه وكيع في الغرر وابن مردويه والخطيب البغدادي عن ابن عباس مرفوعاً آخر أربعاء في الشهر يوم نحس مستمر وأخذ بذلك كثير من الناس فتطيروا منه وتركوا السعي لمصالحهم فيه ويقولون له: أربعاء لا تدور، وعليه قوله:

لقاؤك للمبكر فأل سوء ووجهك - أربعاء لا تدور -

وذلك مما لا ينبغي، والحديث المذكور في سنده مسلمة بن الصلت قال أبو حاتم: متروك، وجزم ابن الجوزي بوضعه؛ وقال ابن رجب: حديث لا يصح ورفعه غير متفق عليه فقد رواه الطيوري من طريق آخر موقوفاً على ابن عباس، وقال السخاوي: طرقه كلها واهية، وضعفوا أيضاً خبر الطبراني يوم الاربعاء يوم نحس مستمر، والآية قد علمت معناها، وجاء في الأخبار والآثار ما يشعر بمدحه ففي منهاج الحليمي، وشعب البيهقي أن الدعاء يستجاب يوم الأربعاء بعيد الزوال، وذكر برهان الإسلام في تعليم المتعلم عن صاحب الهداية أنا ما بدىء شيء يوم الاربعاء إلا وتم وهو يوم خلق الله تعالى فيه النور فلذلك كان جمع من المشايخ يتحرون ابتداء الجلوس للتدريس فيه، واستحب بعضهم غرس الاشجار فيه لخبر ابن حيان والديلمي عن جابر مرفوعاً «من غرس الأشجار يوم الأربعاء وقال: سبحان الباعث الوارث أتته أكلها» نعم جاءت أخبار وآثار تشعر بخلاف ذلك، ففي الفردوس عن عائشة مرفوعاً «لولا أن تكره أمتي لأمرتها أن لا يسافروا يوم الأربعاء، وأحب الأيام إليّ الشخوص فيها يوم الخميس» وهو غير معلوم الصحة عندي.

وأخرج أبو يعلى عن ابن عباس. وابن عدي وتمام في فوائده عن أبي سعيد مرفوعاً يوم السبت يوم مكر وخديعة ويوم الأحد يوم غرس وبناء ويوم الاثنين يوم سفر وطلب رزق ويوم الثلاثاء يوم حديد وبأس. ويوم الاربعاء لا أخذ ولا

عطاء. ويوم الخميس يوم طلب الحوائج والدخول على السلطان. والجمعة يوم خطبة ونكاح، وتعقبه السخاوي بأن سنده ضعيف، وروى ابن ماجة عن ابن عمر مرفوعاً، وخرجه الحاكم من طريقين آخرين «لا يبدو جذام ولا برص إلا يوم الأربعاء» وفي بعض الآثار النهي عن قص الأظفار يوم الأربعاء وأنه يورث البرص، وكره بعضهم عيادة المرضى فيه، وعليه قيل:

لم يؤت في الأربعاء مريض ... إلا دفناه في الخميس

وحكي عن بعضهم أنه قال لأخيه: اخرج معي في حاجة فقال: هو الأربعاء قال: فيه ولد يونس قال: لا جرم قد بانت له بركته في اتساع موضعه وحسن كسوته حتى خلصه الله تعالى قال: وفيه ولد يوسف عليه السلام قال: فما أحسن ما فعل أخوته حتى طال حبسه وغربته قال: وفيه نصر المصطفى صلى الله تعالى عليه وسلم يوم الأحزاب قال: أجل لكن ـ بعد أن زاغت الأبصار، وبلغت القلوب الحناجر ـ ونقل المناوي عن البحر أن أخباره عليه الصلاة والسلام عن نحوسه آخر أربعاء في الشهر من باب التطير ضرورة أنه ليس من الدين بل فعل الجاهلية ولا مبني على قول المنجمين أنه يوم عطارد وهو نحس مع النحوس سعد مع السعود فإنه قول باطل، ويجوز أن يكون من باب التخويف والتحذير أي احذروا ذلك اليوم لما نزل فيه من العذاب وكان فيه من الهلاك وجددوا فيه لله تعالى توبة خوفاً أن يلحقكم فيه بؤس كما وقع لمن قبلهم، وهذا كما قال حين أتى الحجر: لا تدخلوا على هؤلاء المعذبين إلا أن تكونوا باكين إلى غير ذلك، وحكي أيضاً عن بعضهم أنه قال: التطير مكروه كراهية شرعية إلا أن الشرع أباح لمن أصابه في آخر أربعاء شيء في مصالحه أن يدع التصرف فيه لا على جهة التطير واعتقاد أنه يضر أو ينفع بغير إذن الله تعالى بل على جهة اعتقاد إباحة الإمساك فيه لما كرهته النفس لا اقتفاءاً للتطير ولكن إثباتاً للرخصة في التوقي فيه لمن يشاء مع وجوب اعتقاد أن شيئاً لا يضر شيئاً؛ ونقل عن الحليمي أنه قال: علمنا ببيان الشريعة أن من الأيام نحساً، ويقابل النحس السعد وإذا ثبت الأول ثبت الثاني أيضاً، فالأيام منها نحس ومنها سعد كالأشخاص منهم شقي ومنهم سعيد، ولكن زعم أن الأيام والكواكب تنحس أو تسعد باختيارها أوقاتاً وأشخاصاً باطل، والقول ـ إن الكواكب قد تكون أسباباً للحسن والقبيح والخير والشر والكل فعل الله تعالى وحده ـ مما لا بأس به. ثم قال المناوي: والحاصل أن توقي الأربعاء على جهة الطيرة وظن اعتقاد المنجمين حرام شديد التحريم إذ الأيام كلها لله تعالى لا تنفع ولا تضر بذاتها وبدون ذلك لا ضير ولا محذور فيه؛ ومن تطير حاقت به نحوسته، ومن أيقن بأنه لا يضر ولا ينفع إلا الله عز وجل لم يؤثر فيه شيء من ذلك كما قيل:

تعلم أنه لا طير إلا ... على متطير وهو الثبور

انتهى، وأقول كل الأيام سواء ولا اختصاص لذلك بيوم الأربعاء وما من ساعة من الساعات إلا وهي سعد على شخص نحس على آخر باعتبار ما يحدث الله تعالى فيها من الملائم والمنافر والخير والشر، فكل يوم من الأيام يتصف بالأمرين لاختلاف الاعتبار وإن استنحس يوم الأربعاء لوقوع حادث فيه فليستنحس كل يوم فما أولج الليل في النهار والنهار في الليل إلا لإيلاد الحوادث وقد قيل:

ألا إنما الأيام أبناء واحد ... وهذي الليالي كلها أخوات

وقد حكي أنه صبح ثمود العذاب يوم الأحد، وورد في الأثر ولا أظنه يصح ـ نعوذ بالله تعالى من يوم الأحد فإن له حداً أحد من السيف ـ ولو صح فلعله في أحد مخصوص علم بالوحي ما يحدث فيه، وزعم بعضهم ـ أن من المجرب الذي يخط قط أنه متى كان اليوم الرابع عشر من الشهر القمري الأحد وفعل فيه شيء لم يتم ـ غير مسلم،

وورد في الفردوس من حديث ابن مسعود ـ خلق الله تعالى الأمراض يوم الثلاثاء، وفيه أنزل إبليس إلى الأرض، وفيه خلق جهنم، وفيه سلط الله تعالى ملك الموت على أرواح بني آدم. وفيه قتل قابيل هابيل، وفيه توفي موسى وهارون عليهم السلام، وفيه ابتلي أيوب ـ الحديث، وهو إن صح لا يدل على نحوسته غايته أنه وقع فيه ما وقع وقد وقع فيه غير ذلك مما هو خير، ففي رواية مسلم ـ خلق المنفق أي ما يقوم به المعاش يوم الثلاثاء ـ وإذا تتبعت التواريخ وقعت على حوادث عظيمة في سائر الأيام، ويكفي في هذا الباب أن حادثة عاد استوعبت أيام الأسبوع فقد قال سبحانه: ﴿سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوماً﴾ [الحاقة: ٧] فإن كانت النحوسة لذلك فقل لي أي يوم من الأسبوع خلا منها؟! ومثل أمر النحوسة فيما أرى أمر تخصيص كل يوم بعمل كما يزعمه كثير من الناس، ويذكرون في ذلك أبياتاً نسبها الحافظ الدمياطي لعليّ كرم الله تعالى وجهه وهي:

فنعم اليوم **يوم السبت** حقاً ... لصيد إن أردت بلا امتراء
وفي **الأحد** البناء لأن فيه ... تبدى الله في خلق السماء
وفي **الاثنين** إن سافرت فيه ... سترجع بالنجاح وبالثراء
ومن يرد الحجامة **فالثلاثا** ... ففي ساعاته هرق الدماء
وإن شرب امرؤ يوماً دواءً ... فنعم اليوم يوم **الأربعاء**
وفي **يوم الخميس** قضاء حاج ... فإن الله يأذن بالقضاء
وفي **الجمعات** تزويج وعرس ... ولذات الرجال مع النساء
وهذا العلم لا يدريه إلا ... نبيّ أو وصيّ الأنبياء

ولا أظنها تصح، وقصارى ما أقول: ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن لا دخل في ذلك لوقت ولا لغيره، لبعض الأوقات شرف لا ينكر كيوم الجمعة وشهر رمضان وغير ذلك، ولبعضها عكس ذلك كالأوقات التي تكره فيها الصلاة لكن هذا أمر ومحل النزاع أمر فاحفظ ذلك، والله تعالى يتولى هداك، وقوله تعالى: ﴿**تَنزِعُ النَّاسَ**﴾ يجوز أن يكون صفة الريح وأن يكون حالاً منها لأنها وصفت فقربت من المعرفة، وجوز أن يكون مستأنفاً، وجيء ـ بالناس ـ دون ضمير عاد قيل: ليشمل ذكورهم وإناثهم ـ والنزاع ـ القلع، روي أنهم دخلوا الشعاب والحفر وتمسك بعضهم ببعض فقلعتهم الريح وصرعتهم موتى.

﴿**كَأَنَّهُمْ أعجَازُ نَخْلٍ منقَعِر**﴾ أي منقلع عن مغارسه ساقط على الأرض، وقيل: شبهوا بأعجاز النخل وهي أصولها بلا فروع لأن الريح كانت تقلع رؤوسهم فتبقى أجساداً وجثثاً بلا رؤوس، ويزيد هذا التشبيه حسناً أنهم كانوا ذوي جثث عظام طوال، والنخل اسم جنس يذكر نظراً للفظ كما هنا ويؤنث نظراً للمعنى كما في قوله تعالى: ﴿أعجاز نخل خاوية﴾ [الحاقة: ٧] واعتبار كل في كل من الموضعين للفاصلة، والجملة التشبيهية حال من الناس وهي حال مقدرة، وقال الطبري: في الكلام حذف والتقدير فتركتهم كأنهم الخ، فالكاف على ما في البحر في موضع نصب بالمحذوف وليس بذاك، وقرأ أبو نهيك أعجز على وزن أفعل نحو ضبع وأضبع، وقوله تعالى: ﴿**فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُر**﴾ تهويل لهما وتعجيب من أمرهما بعد بيانهما فليس فيه شائبة تكرار مع ما تقدم، وقيل: إن الأول لما حاق بهم في الدنيا والثاني لما يحيق بهم في الآخرة، و ﴿**كان**﴾ للمشاكلة، أو للدلالة على تحققه على عادته سبحانه في إخباره، وتعقب بأنه يأباه ترتيب الثاني على العذاب الدنيوي.

وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٨﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا

صَرۡصَرٗا فِي يَوۡمِ نَحۡسٖ مُّسۡتَمِرّٖ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ نَخۡلٖ مُّنقَعِرٖ ﴿٢٠﴾ فَكَيۡفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٢١﴾ وَلَقَدۡ
يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ﴿٢٢﴾ كَذَّبَتۡ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٗا مِّنَّا وَٰحِدٗا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ
وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ أَءُلۡقِيَ ٱلذِّكۡرُ عَلَيۡهِ مِنۢ بَيۡنِنَا بَلۡ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٞ ﴿٢٥﴾ سَيَعۡلَمُونَ غَدٗا مَّنِ ٱلۡكَذَّابُ ٱلۡأَشِرُ ﴿٢٦﴾ إِنَّا
مُرۡسِلُواْ ٱلنَّاقَةِ فِتۡنَةٗ لَّهُمۡ فَٱرۡتَقِبۡهُمۡ وَٱصۡطَبِرۡ ﴿٢٧﴾ وَنَبِّئۡهُمۡ أَنَّ ٱلۡمَآءَ قِسۡمَةُۢ بَيۡنَهُمۡۖ كُلُّ شِرۡبٖ مُّحۡتَضَرٞ ﴿٢٨﴾ فَنَادَوۡاْ صَاحِبَهُمۡ
فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ فَكَيۡفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ فَكَانُواْ كَهَشِيمِ ٱلۡمُحۡتَظِرِ ﴿٣١﴾ وَلَقَدۡ
يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ﴿٣٢﴾ كَذَّبَتۡ قَوۡمُ لُوطِۭ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٖۖ نَّجَّيۡنَٰهُم
بِسَحَرٖ ﴿٣٤﴾ نِّعۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَاۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي مَن شَكَرَ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدۡ أَنذَرَهُم بَطۡشَتَنَا فَتَمَارَوۡاْ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدۡ
رَٰوَدُوهُ عَن ضَيۡفِهِۦ فَطَمَسۡنَآ أَعۡيُنَهُمۡ فَذُوقُواْ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدۡ صَبَّحَهُم بُكۡرَةً عَذَابٞ مُّسۡتَقِرّٞ ﴿٣٨﴾ فَذُوقُواْ
عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٩﴾ وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ﴿٤٠﴾ وَلَقَدۡ جَآءَ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ ٱلنُّذُرُ ﴿٤١﴾ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا
فَأَخَذۡنَٰهُمۡ أَخۡذَ عَزِيزٖ مُّقۡتَدِرٍ ﴿٤٢﴾ أَكُفَّارُكُمۡ خَيۡرٞ مِّنۡ أُوْلَٰٓئِكُمۡ أَمۡ لَكُم بَرَآءَةٞ فِي ٱلزُّبُرِ ﴿٤٣﴾ أَمۡ يَقُولُونَ نَحۡنُ جَمِيعٞ
مُّنتَصِرٞ ﴿٤٤﴾ سَيُهۡزَمُ ٱلۡجَمۡعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوۡعِدُهُمۡ وَٱلسَّاعَةُ أَدۡهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾ إِنَّ ٱلۡمُجۡرِمِينَ فِي
ضَلَٰلٖ وَسُعُرٖ ﴿٤٧﴾ يَوۡمَ يُسۡحَبُونَ فِي ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَٰهُ بِقَدَرٖ ﴿٤٩﴾ وَمَآ
أَمۡرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٞ كَلَمۡحِۭ بِٱلۡبَصَرِ ﴿٥٠﴾ وَلَقَدۡ أَهۡلَكۡنَآ أَشۡيَاعَكُمۡ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ﴿٥١﴾ وَكُلُّ شَيۡءٖ
فَعَلُوهُ فِي ٱلزُّبُرِ ﴿٥٢﴾ وَكُلُّ صَغِيرٖ وَكَبِيرٖ مُّسۡتَطَرٌ ﴿٥٣﴾ إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَنَهَرٖ ﴿٥٤﴾ فِي مَقۡعَدِ صِدۡقٍ
عِندَ مَلِيكٖ مُّقۡتَدِرِۭ ﴿٥٥﴾

﴿**وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلقُرآنَ للذِّكْر فَهَلْ من مُّدَّكر**﴾ الكلام فيه كالذي مرّ ﴿**كَذَّبَت ثَمُودُ بالنُّذُر**﴾ بالرسل عليهم الصلاة والسلام فإن تكذيب أحدهم وهو صالح عليه السلام هنا تكذيب للكل لاتفاقهم على أصول الشرائع، وجوز أن يكون مصدراً، أو جمعاً له وأن يكون جمع نذير بمعنى المنذر منه فلا تغفل.

﴿**فقَالُوا أبَشَراً مِّنَّا**﴾ أي كائناً من جنسنا على أن الجار والمجرور في موضع الصفة ـ لبشراً ـ وانتصابه بفعل يفسره ـ نتبع ـ بعد أي أنتبع بشراً ﴿**واحداً**﴾ أي منفرداً لا تبع له، أو واحداً من آحادهم لا من أشرافهم كما يفهم من التنكير الدال على عدم التعيين وهو صفة أخرى لبشر وتأخيره مع إفراده عن الصفة الأولى مع كونها شبه الجملة للتنبيه على أن كلا من الجنسية والوحدة مما يمنع الاتباع ولو قدم عليها لفات هذا التنبيه، وقرأ أبو السمال فيما ذكر الهذلي في كتابه الكامل وأبو عمرو الداني ـ أبشر منا واحد ـ برفعهما على أن ـ بشر ـ مبتدأ، وما بعد صفته، وقوله تعالى: ﴿**نَتَّبِعُهُ**﴾ خبره. ونقل ابن خالويه وصاحب اللوامح وابن عطية عن أبي السمال رفع ـ بشر ـ ونصب ﴿**واحداً**﴾ وخرج ذلك ابن عطية على أن رفع ـ بشر ـ إما على إضمار فعل مبني للمفعول والتقدير أينبأ بشر، وإما على الابتداء والخبر جملة ﴿**نتبعه**﴾، ونصب ﴿**واحداً**﴾ على الحال إما من ضمير النصب في ﴿**نتبعه**﴾ وإما من الضمير المستقر في

﴿**منا**﴾ وخرج صاحب اللوامح نصب ﴿**واحداً**﴾ على هذا أيضاً، وأما رفع بشر فخرجه على الابتداء وإضمار الخبر أي أبشر منا يبعث إلينا أو يرسل أو نحوهما، وتقدم الاستفهام يرجح تقدير فعل يرفع به ﴿**إِنَّا إِذاً**﴾ أي إذا اتبعنا بشراً منا واحداً ﴿**لَّفِي ضَلالٍ**﴾ عظيم عن الحق ﴿**وَسُعُرٍ**﴾ أي نيران جمع سعير.

وروي أن صالحاً عليه السلام كان يقول لهم: إن لم تتبعوني كنتم في ضلال عن الحق وسعر فعكسوا عليه لغاية عتوهم فقالوا: إن اتبعناك كنا إذاً كما تقول، فالكلام من باب التعكيس والقول بالموجب، وجمع السعير باعتبار الدركات، أو للمبالغة، وروي عن ابن عباس ما يحتمل ما قلنا فإنه قال: أي لفي بعد عن الحق وعذاب، وفي رواية أخرى عنه تفسير السعر بالجنون على أنه اسم مفرد بمعنى ذلك يقال: ناقة مسعورة إذا كانت تفرط في سيرها كأنها مجنونة قال الشاعر:

كأن بها **سعراً** إذا العيس هزها ... ذميل وإرخاء من السير متعب

والأول أوجه وأفصح ﴿**أَأُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِن بَيْنِنَا**﴾ أي أأنزل عليه الوحي من بيننا وفينا من هو أحق منه بذلك، والتعبير بألقي دون أنزل قل: لأنه يتضمن العجلة في الفعل ﴿**بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ**﴾ أي شديد البطر وهو على ما قال الراغب: دهش يعتري من سوء احتمال النعمة وقلة القيام بحقها ووضعها إلى غير وجهها، ويقاربه الطرب وهو خفة أكثر ما تعتري من الفرح، ومرادهم ليس الأمر كذلك بل هو كذا وكذا حمله شدّة بطره وطلبه التعظيم عليها على ادعاء ذلك، وقرأ قتادة. وأبو قلابة ـ بل هو الكذب الأشر ـ بلام التعريف فيهما وبفتح الشين وشدّ الراء، وسيأتي إن شاء الله تعالى قريباً ما في ذلك، وقوله تعالى: ﴿**سَيَعْلَمُونَ غَداً مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلأَشِرُ**﴾ حكاية لما قاله سبحانه وتعالى لصالح عليه السلام وعداً له ووعيداً لقومه، والسين لتقريب مضمون الجملة وتأكيده، والمراد بالغد وقت نزول العذاب الدنيوي بهم، وقيل: يوم القيامة فهو لمطلق الزمان المستقبل وعبر به لتقريبه، وعليه قول الطرماح:

ألا علّلاني قبل نوح النوائح ... وقبل اضطراب النفس بين الجوانح

وقبل **غد** يا لهف نفسي على غد ... إذا راح أصحابي ولست برائح

أي ﴿**سيعلمون**﴾ البتة عن قريب ﴿**من الكذاب الأشر**﴾ الذي حمله أشره وبطره على ما حمله أصالح أن من كذبه، والمراد سيعلمون أنهم هم الكذابون الأشرون لكن أورد ذلك مورد الإبهام ايماءً إلى أنه مما لا يكاد يخفى، ونحوه قول الشاعر:

فلئن لقيتك خاليين لتعلمن ... **أيّي وأيّك** فارس الأحزاب

وقرأ ابن عامر وحمزة وطلحة وابن وثاب والأعمش ـ ستعلمون ـ بتاء الخطاب على حكاية ما قال لهم صالح مجيباً لهم، وفي الكشاف أو هو كلام على سبيل الالتفات، قال صاحب الكشف: أي هو كلام الله تعالى لقوم ثمود على سبيل الالتفات إليهم إما في خطابه تعالى لرسولنا صلى الله تعالى عليه وسلم وهو نظير ما حكاه سبحانه عن شعيب ﴿فتولى عنهم وقال يا قوم لقد أبلغتكم﴾ [الأعراف: ٩٣] بعد ما استؤصلوا هلاكاً وهو من بليغ الكلام فيه دلالة على أنهم أحقاء بهذا الوعيد وكأنهم حضور في المجلس حول إليهم الوجه لينعي عليهم جناياتهم. وإما في خطابه عز وجل لصالح عليه السلام والمنزل حكاية ذلك الكلام المشتمل على الالتفات. وعلى التقديرين لا إشكال فيه كما توهم ولفظ الزمخشري على الأول أدل وهو أبلغ انتهى، ومن التفت إلى ما قاله الجمهور في الالتفات لا أظنه تسكن نفسه بما ذكر فتأمل، وقرأ مجاهد فيما ذكره صاحب اللوامح وأبو قيس الأودي «الأُشُرُ» بثلاث ضمات وتخفيف الراء. ويقال: أشر وأشر كحذر وحذر فضمة الشين لغة وضم الهمزة تبع لها.

وحكى الكسائي عن مجاهد ضم الشين دون الهمزة فهو كندس، وقرأ أبو حيوة «الأشر» أفعل تفضيل أي الأبلغ في الشرارة وكذا قرأ قتادة وأبو قلابة أيضاً وهو قليل الاستعمال وإن كان على الأصل كالأخير في قول رؤبة:

بلال خير الناس وابن الأخير

وقال أبو حاتم: لا تكاد العرب تتكلم ـ بالأخير ـ و ﴿**الأشر**﴾ إلا في ضرورة الشعر وأنشد البيت، وقال الجوهري: لا يقال ﴿**الأشر**﴾ إلا في لغة رديئة؛ وقوله تعالى: ﴿**إِنَّا مُرسِلُو النَّاقَةِ**﴾ الخ استئناف مسوق لبيان مبادىء الموعود على ما هو الظاهر، وبه يتعين كون المراد بالغد وقت نزول العذاب الدنيوي بهم دون يوم القيامة، والإرسال حقيقة في البعث وقد جعل هنا كناية عن الإخراج، وأريد المعنى الحقيقي معه كما أومأ إليه بعض الأجلة أي إنا مخرجو الناقة التي سألوها من الهضبة وباعثوها ﴿**فِتْنَةً لَّهُمْ**﴾ امتحاناً، وجوز إبقاؤها على معناها المعروف ﴿**فَارْتَقِبْهُمْ**﴾ فانتظرهم وتبصر ما هم فاعلون ﴿**وَاَصْطَبِرْ**﴾ على أذاهم ولا تعجل حتى يأتي أمر الله تعالى ﴿**وَنَبِّئْهُم أَنَّ الـمَاءَ**﴾ وأخبرهم بأن ماء البئر التي لهم ﴿**قِسمَةٌ بَيْنَهُمْ**﴾ مقسوم لها يوم ولهم يوم، و ﴿**بينهـم**﴾ لتغليب العقلاء، وقرأ معاذ عن أبي عمرو «قَسْمَةٌ» بفتح القاف ﴿**كُلُّ شِرب**﴾ نصيب وحصة منه ﴿**مُّحتَضَرٌ**﴾ يحضره صاحبه في نوبته فتحضر الناقة تارة ويحضرونه أخرى، وقيل: يتحول عنه غير صاحبه من حضر عن كذا تحول عنه وقيل: يمنع عنه غير صاحبه مجاز عن الحظر بالظاء بمعنى المنع بعلاقة السببية فإنه مسبب عن حضور صاحبه في نوبته وهو كما ترى، وقيل: يحضرون الماء في نوبتهم واللبن في نوبتها، والمعنى كل شرب من الماء واللبن تحضرونه أنتم ﴿**فَنَادَوْا**﴾ أي فأرسلنا الناقة وكانوا على هذه الوتيرة من القسمة فملوا ذلك وعزموا على عقر الناقة ﴿**فنادوا**﴾ لعقرها ﴿**صَاحِبَهُمْ**﴾ وهو قدار بن سالف أحيمر ثمود وكان أجرأهم ﴿**فَتَعَاطى**﴾ العقر أي فاجترأ على تعاطيه مع عظمه غير مكترث به.

﴿**فَعَقَرَ**﴾ فأحدث العقر بالناقة، وجوز أن يكون المراد فتعاطى الناقة فعقرها، أو فتعاطى السيف فقتلها، وعلى كل فمفعول تعاطى محذوف والتفريع لا غبار عليه، وقيل: تعاطى منزل منزلة اللازم على أن معناه أحدث ماهية التعاطي، وقوله تعالى: ﴿**فعقر**﴾ تفسير له لا متفرع عليه ولا يخفى ركاكته، والتعاطي التناول مطلقاً على ما يفهم من كلام غير واحد، وزاد بعضهم قيد بتكلف ونسبة العقر إليهم في قوله تعالى: ﴿فعقروا الناقة﴾ [الأعراف: ٧٧] لأنهم كانوا راضين به ﴿**فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ**﴾ الكلام فيه كالذي تقدم ﴿**إِنَّا أَرسَلْنَا عَلَيْهِم صَيحَةً وَاحِدَةً**﴾ هي صيحة جبريل عليه السلام صاح صباح يوم الأحد كما حكى المناوي عن الزمخشري في طرف منازلهم ﴿**فَكَانُوا**﴾ أي فصاروا ﴿**كَهَشِيمِ اَلـمُحْتَظِرِ**﴾ أي كالشجر اليابس الذي يجمعه صاحب الحظيرة لماشيته في الشتاء.

وفي البحر الهشيم ما تفتت وتهشم من الشجر، و ﴿**الـمحتظر**﴾ الذي يعمل الحظيرة فإنه يتفتت منه حالة العمل ويتساقط أجزاء مما يعمل به، أو يكون الهشيم ما يبس من الحظيرة بطول الزمان تطؤه البهائم فيتهشم، وتعقب هذا بأن الأظهر عليه كهشيم الحظيرة، والحظيرة الزريبة التي تصنعها العرب. وأهل البوادي للمواشي والسكنى من الأغصان والشجر المورق والقصب من الحظر وهو المنع.

وقرأ الحسن وأبو حيوة وأبو السمال وأبو رجاء وعمرو بن عبيد «المُحْتَظَر» بفتح الظاء على أنه اسم مكان والمراد به الحظيرة نفسها أو هو اسم مفعول قيل: ويقدر له موصوف أي ﴿**كهشيـم**﴾ الحائط ﴿**الـمحتظر**﴾ أو لا يقدر على أن ﴿**الـمحتظر**﴾ الزريبة نفسها كما سمعت. وجوز أن يكون مصدراً أي كهشيم الاحتظار أي ما تفتت حالة الاحتظار ﴿**وَلَقَدْ يَسَّرنَا القُرآنَ للذِّكر فَهَل من مُّدَّكر**﴾ كما مر ﴿**كَذَّبَت قَومُ لُوط بـالنُّذُرِ**﴾ على قياس النظير السابق ﴿**إِنَّا أَرسَلْنَا عَلَيهم حَاصِباً**﴾ ملكاً على ما قيل ـ يحصبهم أي يرميهم بالحصباء والحجارة أو هو اسم للريح

التي تحصب ولم يرد بها الحدوث كما في ناقة ضامر وهو وجه التذكير، وقال ابن عباس: هو ما حصبوا به من السماء من الحجارة في الريح، وعليه قول الفرزدق:

مستقبلين شمال الشام تضربنا **بحاصب** كنديف القطن منثور

﴿**إلاَّ آل لُوط**﴾ خاصته المؤمنين به، وقيل: آله ابنتاه ﴿**نَجَّيْناهُمْ بسَحَر**﴾ أي في سحر وهو آخر الليل، وقيل: السدس الأخير منه، وقال الراغب: السحر والسحرة اختلاط ظلام آخر الليل بصفاء النهار وجعل اسماً لذلك الوقت، ويجوز كون الباء للملابسة والجار والمجرور في موضع الحال أي ملتبسين ﴿**بسحر**﴾ داخلين فيه ﴿**نعْمَةً مِنْ عنْدنَا**﴾ أي إنعاماً منا وهو علة لنجينا، ويجوز نصبه بفعل مقدر من لفظه، أو بنجينا لأن التنجية إنعام فهو كقعدت جلوساً ﴿**كَذٰلك**﴾ أي مثل ذلك الجزاء العجيب ﴿**نَجْزي مَنْ شَكَرَ**﴾ نعمتنا بالإيمان والطاعة ﴿**وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ**﴾ لوط عليه السلام ﴿**بَطْشَتَنَا**﴾ أخذتنا الشديدة بالعذاب.

وجوز أن يراد بها نفس العذاب ﴿**فَتَمَارَوا**﴾ فكذبوا ﴿**بالنُّذُر**﴾ متشاكين، فالفعل مضمن معنى التكذيب ولولاه تعدى بفي ﴿**وَلَقَد رَاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفه**﴾ صرفوه عن رأيه فيهم وطلبوا الفجور بهم وهذا من إسناد ما للبعض للجميع لرضاهم به ﴿**فَطَمَسْنَا أعيُنَهُمْ**﴾ أي أزلنا أثرها وذلك بمسحها وتسويتها كسائر الوجه، وهو كما قال عبيدة، وروي أن جبريل عليه السلام استأذن ربه سبحانه في عقوبتهم ليلة جاؤوا وعالجوا الباب ليدخلوا عليهم فصفقهم بجناحه فتركهم عمياناً يترددون لا يهتدون إلى طريق خروجهم حتى أخرجهم لوط عليه السلام وقال ابن عباس والضحاك: إنما حجب إدراكهم فدخلوا المنزل ولم يروا شيئاً فجعل ذلك كالطمس فعبر به عنه.

وقرأ ابن مقسم «فَطَمَّسْنَا» بتشديد الميم للتكثير في المفعول ﴿**فَذُوقُوا عَذَابي وَنُذُر**﴾ أي فقلنا لهم ذلك على ألسنة الملائكة عليهم السلام، فالقول في الحقيقة لهم وأسند إليه تعالى مجازاً لأنه سبحانه الآمر أو القائل ظاهر الحال فلا قول وإنما هو تمثيل، والمراد بالعذاب الطمس وهو من جملة ما أنذروه.

﴿**وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً**﴾ أو النهار وهي أخص من الصباح فليس في ذكرها بعده زيادة وكان ذلك أول شروق الشمس، وقرأ زيد بن علي «بُكْرَةَ» غير مصروفة للعلمية والتأنيث على أن المراد بها أول نهار مخصوص.

﴿**عَذَابٌ مُّسْتَقرٌ**﴾ يستقر بهم ويدوم حتى يسلمهم إلى النار، أو لا يدفع عنهم، أو يبلغ غايته.

﴿**فَذُوقُوا عَذَابي وَنُذُر**﴾ حكاية لما قيل لهم بعد التصحيح من جهته تعالى تشديداً للعذاب، أو هو تمثيل.

﴿**وَلَقَدْ يَسَّرْنَا القُرآنَ للذِّكْر فَهَلْ من مُدَّكر**﴾ تقدم ما فيه من الكلام ﴿**وَلَقَدْ جَاء آلَ فرْعَوْنَ النُّذُرُ**﴾ صدرت قصتهم بالتوكيد القسمي الإبراز كمال الاعتناء -بشأنها لغاية عظم ما فيها من الآيات وكثرتها وهول ما لاقوه من العذاب وقوة إيجابها للاتعاظ والاكتفاء بذكر آل فرعون للعلم بأنه نفسه أولى بذلك فإنه رأس الطغيان ومدعي الألوهية، والقول: بأنه إشارة إلى إسلامه مما لا يلتفت إليه، و ﴿**النذر**﴾ إن كان جمع نذير بمعنى الإنذار فالأمر ظاهر وكذا إن كان مصدراً، وأما إن كان جمع نذير بمعنى المنذر فالمراد به موسى وهارون وغيرهما لأنهما عرضا عليهم ما أنذر به المرسلون أي وبالله تعالى لقد جاءهم المنذرون، أو الإنذرات، أو الإنذار، وقوله تعالى: ﴿**كَذَّبُوا بآيَاتنَا كُلِّهَا**﴾ استئناف مبني على سؤال نشأ من حكاية مجيء النذر كأنه قيل: فماذا فعل آل فرعون حينئذ؟ فقيل: كذبوا بجميع آياتنا وهي آيات الأنبياء كلهم عليهم السلام فإن تكذيب البعض تكذيب للكل، أو هي الآيات التسع، وجوز الواحدي أن يراد بالنذر نفس الآيات فقوله سبحانه: ﴿**بآياتنا**﴾ من إقامة الظاهر مقام الضمير والأصل كذبوا بها، وزعم بعض غلاة الشيعة

وهم المسلمون بالكشفية في زماننا أن المراد ـ بالآيات كلها ـ علي كرم الله تعالى وجهه فإنه الإمام المبين المذكور في قوله تعالى: ﴿وكل شيء أحصيناه في إمام مبين﴾ [يس: ١٢] وأنه كرم الله تعالى وجهه ظهر مع موسى عليه السلام لفرعون وقومه فلم يؤمنوا ـ وهذا من الهذيان بمكان ـ نسأل الله تعالى العفو والعافية ﴿**فَأَخَذْنَاهُمْ**﴾ أي آل فرعون، وزعم بعض أن ضمير ﴿**كذبوا**﴾ وضمير أخذناهم عائدان على جميع من تقدم ذكره من الأمم وتم الكلام عند قوله تعالى: ﴿**النذر**﴾ وليس بشيء، والفاء للتفريع أي ﴿**فأخذناهم**﴾ وقهرناهم لأجل تكذيبهم ﴿**أخذَ عَزِيز**﴾ لا يغالب ﴿**مُقْتَدر**﴾ لا يعجزه شيء، ونصب أخذ على المصدرية لا على قصد التشبيه ﴿**اكُفَّارُكُمْ خَيرٌ من أُولئكُم**﴾ أي الكفار المعدودين قوم نوح وهود وصالح ولوط وآل فرعون، والمراد الخيرية باعتبار الدنيا وزينتها ككثرة القوة والشدة ووفور العدد والعدة، أو باعتبار لين الشكيمة في الكفر بأن يكون الكفار المحدث عنهم بالخيرية أقل عناداً وأقرب طاعة وانقياداً، وظاهر كلام كثير أن الخطاب هنا عام للمسلمين وغيرهم حيث قالوا: ﴿**أكفاركم**﴾ يا معشر العرب ﴿**خير**﴾ الخ والاستفهام إنكاري في معنى النفي فكأنه قيل: ما كفاركم خير من أولئكم الكفار المعدودين بأن يكونوا أكثر منهم قوة وشدة وأوفر عدداً وعدة، أو بأن يكونوا ألين شكيمة في الكفر والعصيان والضلال والطغيان بل هم دونهم في القوة وما أشبهها من زينة الدنيا، أو أسوأ حالاً منهم في الكفر، وقد أصاب من هو خير ما أصاب فكيف يطمعون هم في أن لا يصيبهم نحو ذلك، وكذا قيل: في الخطاب في قوله تعالى: ﴿**امْ لَكُمْ بَرَاءةٌ فـي الزُّبُر**﴾ وجعل بتقدير أم لكفاركم وهو إضراب وانتقال إلى تنكيت آخر فكأنه قيل: بل ألكفاركم براءة وأمن من تبعات ما يعملون من الكفر والمعاصي وغوائلها في الكتب السماوية فلذلك يصرون على ما هم عليه ولا يخافون، واختار بعضهم في هذا أنه خاص بالكفار، وقالوا في قوله تعالى: ﴿**أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصرٌ**﴾ إنه إضراب من التبكيت المذكور إلى تبكيت آخر بطريق الالتفات للإيذان بإفضاء حالهم إلى الإعراض عنهم وإسقاطهم عن رتبة الخطاب وحكاية قبائحهم لغيرهم. أي بل أيقولون واثقين بشوكتهم نحن جماعة أمرنا مجتمع لا يرام ولا يضام، أو ﴿**منتصر**﴾ من الأعداء لا يغلب، أو متناصر ينصر بعضنا بعضاً.

والذي يترجح في نظر الفقير أن الخطاب في الموضعين خاص على ما يقتضيه السياق بكفار أهل مكة أو العرب وهو ظهر في الموضع الثاني لا يحتاج إلى شيء، وأما في الموضع الأول فوجهه أن تكون الإضافة مثلها في الدراهم كلها كذا، وطور سيناء، ويوم الأحد ولم يقل أأنتم للتنصيص على كفرهم المقتضي لهلاكهم، ويجوز أن يعتبر في ﴿**أكفاركم**﴾ ضرب من التجريد الذي ذكروه في نحو ﴿لهم فيها دار الخلد﴾ [فصلت: ٢٨] فكأنه جرد منهم كفار وأضيفوا إليهم، وفي ذلك من المبالغة ما فيه، ويجوز أن يكون هذا وجهاً للعدول عن أأنتم، وربما يترجح به كون الخيرية المنفية باعتبار لين الشكيمة في الكفر وكأنه لما خوف سبحانه الكفار الذين كذبوا الآيات وأعرضوا عنها، وقالوا هي سحر مستمر بذكر ما حل بالأمم السالفة مما تبرق وترعد منه أسارير الوعيد قال عز وجل لهم: لم لا تخافون أن يحل بكم مثل ما حل بهم أأنتم أقل كفراً وعناداً منهم ليكون ذلك سبباً للأمن من حلول نحو عذابهم بكم أن أعطاكم الله عز وجل براءة من عذابه أم أنتم أعز منهم منتصرون على جنود الله تعالى وعدل سبحانه عن أم أنتم جميع منتصر إلى ما في النظم الجليل للإشارة إلى أن ذلك مما لا تحقق له أصلاً إلا باللفظ ومحض الدعوى التي لا يوافق عليها فتأمل، فأسرار كلام الله تعالى لا تتناهى، ثم لا تعجل بالاعتراض على ما قلناه وإن لم يكن لنا سلف فيه حسبما تتبعنا، ثم إن ﴿**جميع**﴾ على ما أشير إليه بمعنى الجماعة التي أمرها مجتمع وليس من التأكيد في شيء بل هو خبر ﴿**نحن**﴾، وجوز أن يكون بمعنى مجتمع خبر مبتدأ محذوف وهو ﴿**أمرنا**﴾ والجملة خبر ﴿**نحن**﴾ وأن يكون هو

الخبر والإسناد مجازي، و ﴿منتصر ﴾ على ما سمعت إما بمعنى ممتنع يقال: نصره فانتصر إذا منعه فامتنع.

والمراد بالامتناع عدم المغلوبية أو هو بمعنى منتقم من الأعداء أو هو من النصر بمعنى العون؛ والافتعال بمعنى التفاعل كالاختصام والتخاصم وكان الظاهر منتصرون إلا أنه أفرد باعتبار لفظ الجميع فإنه مفرد لفظاً جمع معنى ورجح هنا جانب اللفظ عكس بل أنتم قوم تجهلون لخفة الإفراد مع رعاية الفاصلة وليس في الآية رعاية جانب المعنى أولاً، ثم رعاية جانب اللفظ ثانياً على عكس المشهور، وإن كان ذلك جائزاً على الصحيح كما لا يخفى على الخبير، وقرأ أبو حيوة وموسى الأسواري وأبو البرهسم ـ أم تقولون ـ بتاء الخطاب، وقوله تعالى: ﴿سَيُهْزَمُ الجَمْعُ ﴾ رد لقولهم ذلك والسين للتأكيد أي يهزم جمعهم البتة ﴿وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴾ أي الإدبار، وقد قرىء كذلك، والإفراد لإرادة الجنس الصادق على الكثير مع رعاية الفواصل ومشاكلة القرائن، أو لأنه في تأويل يولي كل واحد منهم دبره على حدّ: كسانا الأمير حلة مع الرعاية المذكورة أيضاً وقد كان هذا يوم بدر وهو من دلائل النبوة لأن الآية مكية، وقد نزلت حيث لم يفرض جهاد ولا كان قتال ولذا قال عمر رضي الله تعالى عنه: يوم نزلت أي جمع يهزم أي من جموع الكفار؟ ولم يتعرض لقتال أحد منهم، وقد تقدم الخبر.

ومما أشرنا إليه يعلم أن قول الطيبي في هذه الرواية نظر لأن همزة الإنكار في ﴿أم يقولون ﴾ الخ دلت على أن المنهزمين من هم ناشىء عن الغفلة عن مراد عمر رضي الله تعالى عنه، وقرأ أبو حيوة وموسى الأسواري وأبو البرهسم ـ ستهزم الجمع ـ بفتح التاء وكسر الزاي خطاباً لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ونصب الجمع على المفعولية، وقرأ أبو حيوة أيضاً ويعقوب ـ سنهزم ـ بالنون مفتوحة وكسر الزاي على إسناد الفعل إلى ضمير العظمة، وعن أبي حيوة وابن أبي عبلة «سَيَهْزِمُ الجَمْعَ» بفتح الياء مبنياً للفاعل ونصب الجمع أي سيهزم الله تعالى الجمع، وقرأ أبو حيوة وداود ابن أبي سالم عن أبي عمرو ـ وتولون ـ بتاء الخطاب ﴿بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ ﴾أي ليس هذا تمام عقوبتهم بل الساعة موعد عذابهم وهذا من طلائعه ﴿وَالسَّاعَةُ ادْهَىٰ ﴾ أي أعظم داهية وهي الأمر المنكر الفظيع الذي لا يهتدى إلى الخلاص عنه ﴿وَأَمَرُّ ﴾ وأشد مرارة في الذوق وهو استعارة لصعوبتها على النفس: وقيل: أقوى وليس بذاك وإظهار الساعة في موضع إضمارها لتربية تهويلها ﴿إِنَّ ٱلمُجرمِينَ ﴾ من الأولين والآخرين ﴿فِي ضَلال ﴾ في هلاك ﴿وَسُعُر﴾ ونيران مسعرة أو في ضلال عن الحق ونيران في الآخرة، وقال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: في خسران وجنون، وقوله تعالى: ﴿يُوْمَ يُسْحَبُونَ ﴾ أي يجرون ﴿فِي النَّار عَلَى وُجُوههمْ ﴾ متعلق بقول مقدر بعده أي يوم يسحبون يقال لهم ﴿ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ﴾ وجوز أن يكون متعلقاً بمقدار يفهم مما قبل أي يعذبون، أو يهانون، أو نحوه، وجملة القول عليه حال من ضمير ﴿يسحبون ﴾ وجوز كونه متعلقاً ـ بذوقوا ـ على أن الخطاب للمكذبين المخاطبين في قوله تعالى: ﴿أكفاركم ﴾ الخ أي ذوقوا أيها المكذبون محمداً صلى الله تعالى عليه وسلم يوم يسحب المجرمون المتقدمون، والمراد حشرهم معهم والتسوية بينهم في الآخرة كما ساؤوهم في الدنيا وهو كما ترى، والمراد ـ بمس سقر ـ ألمها على أنه مجاز مرسل عنه بعلاقة السببية فإن مسها سبب للتألم بها وتعلق الذوق بمثل ذلك شائع في الاستعمال، وفي الكشاف ﴿مسّ سقر ﴾ كقولك وجد مس الحمى وذاق طعم الضرب لأن النار إذا أصابتهم بحرّها ولحقتهم بإيلامها فكأنها تمسهم مساً بذلك كما يمس الحيوان ويباشر بما يؤذي ويؤلم، وهو مشعر بأن في الكلام استعارة مكنية نحو ﴿ينقضون عهد الله ﴾ [الرعد: ٢٥] ويحتمل غير ذلك، ﴿وسقر ﴾ علم لجهنم ـ أعاذنا الله تعالى منها ببركة كلامه العظيم وحرمة حبيبه عليه أفضل الصلاة وأكمل التسليم ـ من سقرته للنار وصقرته بإبدال السين صاداً لأجل القاف إذا لوحته وغيرت لونه قال ذو الرمة يصف ثور الوحش:

إذا ذابت الشمس اتقى صقراتها ... بأفنان مربوع الصريمة معبل

وعدم الصرف للعلمية والتأنيث، وقرأ عبد الله إلى النار، وقرأ محبوب عن أبي عمرو «مس سّقر» بإدغام السين في السين، وتعقب ذلك ابن مجاهد بأن إدغامه خطأ لأنه مشدد، والظن بأبي عمرو أنه لم يدغم حتى حذف إحدى السينين لاجتماع الأمثال ثم أدغم ﴿**إِنَّا كُلَّ شَيْء**﴾ من الأشياء ﴿**خَلَقْنَاهُ بِقَدَر**﴾ أي مقدراً مكتوباً في اللوح قبل وقوعه، فالقدر بالمعنى المشهور الذي يقابل القضاء، وحمل الآية على ذلك هو المأثور عن كثير من السلف، وروى الإمام أحمد ومسلم والترمذي وابن ماجة عن أبي هريرة قال: «جاء مشركو قريش يخاصمون رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم في القدر فنزلت ﴿**يوم يسحبون في النار على وجوههم ذوقوا مس سقر إنا كل شيء خلقناه بقدر**﴾» وأخرج البخاري في تاريخه والترمذي وحسنه وابن ماجة وابن عدي وابن مردويه عن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم: «صنفان من أمتي ليس لهما في الإسلام نصيب المرجئة والقدرية» أنزلت فيهم آية في كتاب الله ﴿**إن المجرمين في ضلال وسعر**﴾ إلى آخر الآيات، وكان ابن عباس يكره القدرية جداً، أخرج عبد بن حميد عن أبي يحيى الأعرج قال سمعت ابن عباس ـ وقد ذكر القدرية ـ يقول: لو أدركت بعضهم لفعلت به كذا وكذا ثم قال: الزنا بقدر والسرقة بقدر وشرب الخمر بقدر.

وأخرج عن مجاهد أنه قال: قلت لابن عباس: ما تقول فيمن يكذب بالقدر؟ قال: اجمع بيني وبينه قال: ما تصنع به؟ قال: أخنقه حتى أقتله، وقد جاء ذمهم في أحاديث كثيرة، منها ما أخرجه أحمد وأبو داود والطبراني عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال: «لكل أمه مجوس ومجوس أمتي الذين يقولون لا قدر إن مرضوا فلا تعودوهم وإن ماتوا فلا تشهدوهم». وجوز كون المعنى إنا كل شيء خلقناه مقدراً محكماً مستوفي فيه مقتضي الحكمة التي يدور عليها أمر التكوين، فالآية من باب ﴿وخلق كل شيء فقدره تقديراً﴾ [الفرقان: ٢] ونصب ﴿**كل**﴾ بفعل يفسره ما بعده أي إنا خلقنا كل شيء خلقناه، وقرأ أبو السمال قال ابن عطية وقوم من أهل السنة برفع كل وهو على الابتداء، وجملة ﴿**خلقناه**﴾ هو الخبر، و ﴿**بقدر**﴾ متعلق به كما في القراءة المتواترة، فتدل الآية أيضاً على أن كل شيء مخلوق بقدر ولا ينبغي أن تجعل جملة خلقناه صفة، ويجعل الخبر ﴿**بقدر**﴾ لاختلاف القراءتين معنى حينئذ، والأصل توافق القراءات، وقال الرضي: لا يتفاوت المعنى لأن مراده تعالى بكل شيء كل مخلوق سواء نصبت ﴿**كل**﴾ أو رفعته وسواء جعلت ﴿**خلقناه**﴾ صفة مع الرفع، أو خبراً عنه، وذلك إن خلقنا كل شيء بقدر لا يريد سبحانه به خلقنا كل ما يقع عليه اسم شيء لأنه تعالى لم يخلق جميع الممكنات غير المتناهية واسم الشيء يقع على كل منها، وحينئذ نقول: إن معنى ﴿**كل شيء خلقناه بقدر**﴾ على أن خلقناه هو الخبر ﴿**كل**﴾ مخلوق مخلوق ﴿**بقدر**﴾ وعلى أن ﴿**خلقناه**﴾ صفة ﴿**كل شيء**﴾ مخلوق كائن ﴿**بقدر**﴾ والمعنيان واحد إذ لفظ ﴿**كل**﴾ في الآية مختص بالمخلوقات سواء كان ﴿**خلقناه**﴾ صفة له أو خبراً، وتعقبه السيد السند قدس سره بأنه لقائل أن يقول: إذا جعلنا ﴿**خلقناه**﴾ صفة كان المعنى ﴿**كل**﴾ مخلوق متصف بأنه مخلوقنا كائن بقدر، وعلى هذا لا يمتنع نظراً إلى هذا المعنى أن يكون هناك مخلوقات غير متصفة بتلك الصفة فلا تندرج تحت الحكم، وأما إذا جعلناه خبراً أو نصبنا ﴿**كل شيء**﴾ فلا مجال لهذا الاحتمال نظراً إلى نفس المعنى المفهوم من الكلام فقد اختلف المعنيان قطعاً ولا يجديه نفعاً أن كل مخلوق متصف بتلك الصفة في الواقع لأنه إنما يفهم من خارج الكلام ولا شك أن المقصود ذلك المعنى الذي لا احتمال فيه، وذكر نحوه الشهاب الخفاجي ولكون النصب نصاً في المقصود اتفقت القراءات المتواترة عليه مع احتياجه إلى التقدير وبذلك يترجح على الرفع الموهم لخلافه وإن لم يحتج إليه.

﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلاَّ واحِدَةٌ﴾ أي ما شأننا إلا فعلة واحدة على نهج لا يختلف ووتيرة لا تتعدد وهي الإيجاد بلا معالجة ومشقة، أو ما أمرنا إلا كلمة واحدة، وهي قوله تعالى: ﴿كن﴾ [البقرة: ١١٧] وغيرها فالأمر مقابل النهي وواحد الأمور، فإذا أراد عز وجل شيئاً قال له: ﴿كن فيكون﴾ ﴿كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ أي في السير والسرعة، وقيل: هذا في قيام الساعة فهو كقوله تعالى: ﴿وما أمر الساعة إلا كلمح البصر﴾ [النحل: ٧٧] ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ﴾ أي أشباهكم في الكفر من الأمم السالفة، وأصله جمع شيعة وهم من يتقوى بهم المرء من الأتباع ولما كانوا في الغالب من جنس واحد أريد به ما ذكر إما باستعماله في لازمه، أو بطريق الاستعارة، والحال قرينة على ذلك، وقيل: هو باق على حقيقته أي أتباعكم ﴿فَهَلْ مِنْ مُدَّكِر﴾ متعظ بذلك ﴿وَكُلُّ شَيءٍ فَعَلُوهُ﴾ من الكفر والمعاصي، والضمير المرفوع للأشياع كما روي عن ابن عباس والضحاك وقتادة وابن زيد، وجملة ﴿فعلوه﴾ صفة ﴿شيء﴾ والرابط ضمير النصب، وقوله تعالى: ﴿فِي الزُّبُرِ﴾ متعلق بكون خاص خبر المبتدأ أي كل شيء فعلوه في الدنيا مكتوب في كتب الحفظة غير مغفول عنه، وتفسير ﴿الزبر﴾ باللوح المحفوظ كما حكاه الطبرسي ليس بشيء، ولم يختلف القراء في رفع ﴿كل﴾ وليست الآية من باب الاشتغال فلا يجوز النصب لعدم بقاء المعنى الحاصل بالرفع لو عمل المشتغل بالضمير في الاسم السابق كما هو اللازم في ذلك الباب إذ يصير المعنى ها هنا حينئذ فعلوا ﴿في الزبر﴾ كل شيء إن علقنا الجار ـ يفعلوا وهم لم يفعلوا شيئاً من أفعالهم في الكتب بل فعلوها في أماكنهم والملائكة عليهم السلام كتبوها عليهم في الكتب، أو فعلوا كل شيء مكتوب ﴿في الزبر﴾ إن جعلنا الجار نعتاً لكل شيء، وهذا وإن كان معنى مستقيماً إلا أنه خلاف المعنى المقصود حالة الرفع وهو ما تقدم آنفا ﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ﴾ من الأعمال كما روي عن ابن عباس ومجاهد وغيرهما، وقيل: منها ومن كل ما هو كائن إلى يوم القيامة ﴿مُّسْتَطَرٌ﴾ مسطور مكتتب في اللوح بتفاصيله وهو من السطر بمعنى الكتب، ويقال: سطرت واستطرت بمعنى، وقرأ الأعمش وعمران وعصمة عن أبي بكر عن عاصم «مُسْتَطَرٌّ» بتشديد الراء، قال صاحب اللوامع: يجوز أن يكون من ـ طر ـ النبات والشارب إذا ظهر، والمعنى كل ﴿صغير وكبير﴾ ظاهر في اللوح مثبت فيه ويجوز أن يكون من الاستطار لكن شدد الراء للوقف على لغة من يقول. جعفرّ ويفعلّ ـ بالتشديد وقفاً أي ثم أجرى الوصل مجرى الوقف ووزنه على التوجيه الأول مستفعل وعلى الثاني مفتعل، ولما كان بيان حال سوء الكفرة بقوله تعالى: ﴿إن المجرمين﴾ الخ مما يستدعي بيان حسن حال المؤمنين ليتكافأ الترهيب والترغيب بين سبحانه ما لهم من حسن الحال بطريق الإجمال فقال عز قائلا: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ أي من الكفر والمعاصي، وقيل: من الكفر.

﴿فِي جَنَّاتٍ﴾ عظيمة الشأن ﴿وَنَهَرٍ﴾ أي أنهار كذلك، والإفراد للاكتفاء باسم الجنس مراعاة للفواصل، وعن ابن عباس تفسيره بالسعة، وأنشد عليه قول لبيد بن ربيعة ـ كما في الدر المنثور ـ أو قيس بن الخطيب ـ كما في البحر ـ يصف طعنة:

ملكت بها كفي **فأنهرت** فتقها ... يرى قائم من دونها ما وراءها

أي أوسعت فتقها، والمراد بالسعة سعة المنازل على ما هو الظاهر، وقيل: سعة الرزق والمعيشة، وقيل: ما يعمهما وأخرج الحكيم والترمذي في نوادر الأصول عن محمد بن كعب قال: ﴿ونهر﴾ أي في نور وضياء وهو على الاستعارة بتشبيه الضياء المنتشر بالماء المتدفق من منبعه، وجوز أن يكون بمعنى النهار على الحقيقة، والمراد أنهم لا ظلمة ولا ليل عندهم في الجنات، وقرأ الأعرج ومجاهد وحميد وأبو السمال والفياض بن غزوان «وَنَهْرٍ» بسكون الهاء، وهو بمعنى «نَهَرٍ» مفتوحها، وقرأ الأعمش وأبو نهيك وأبو مجلز واليماني «ونُهُرٍ» بضم النون والهاء، وهو جمع نهر

المفتوح أو الساكن ـ كأسد وأسد، ورهن ورهن ـ وقيل: جمع نهار، والمراد أنهم لا ظلمة ولا ليل عندهم كما حكي فيما ، ، وقيل: قرىء بضم النون وسكون الهاء ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ ﴾ في مكان مرضي على أن الصدق مجاز مرسل في لازمه أو استعارة، وقيل: المراد صدق المبشر به وهو الله تعالى ورسوله صلى الله تعالى عليه وسلم، أو المراد أنه ناله من ناله بصدقه وتصديقه للرسل عليهم السلام، فالإضافة لأدنى ملابسة؛ وقال جعفر الصادق رضي الله تعالى عنه: مدح المكان بالصدق فلا يقعد فيه إلا أهل الصدق، وهو المقعد الذي يصدق الله تعالى فيه مواعيد أوليائه بأنه يبيح عز وجل لهم النظر إلى وجهه الكريم، وإفراد المقعد على إرادة الجنس.

وقرأ عثمان البتي ـ في مقاعد ـ على الجمع وهي توضح أن المراد بالمقعد المقاعد ﴿عِندَ مَلِيكٍ ﴾ أي ملك عظيم الملك، وهو صيغة مبالغة وليست الياء من الإشباع ﴿مُقْتَدِرٍ ﴾ قادر عظيم القدرة، والظرف في موضع الحال من الضمير المستقر في الجار والمجرور، أو خبر بعد خبر، أو صفة لمقعد صدق، أو بدل منه، والعندية للقرب الرتبي، وذكر بعضهم أنه سبحانه أبهم العندية والقرب ونكر ـ مليكاً، ومقتدراً ـ للإشارة إلى أن ملكه تعالى وقدرته عز وجل لا تدري الأفهام كنههما وأن قربهم منه سبحانه بمنزلة من السعادة والكرامة بحيث لا عين رأت ولا أذن سمعت مما يجل عن البيان وتكلّ دونه الأذهان.

وأخرج الحكيم الترمذي عن بريدة ـ عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ﴾ الخ قال: إن أهل الجنة يدخلون على الجبار كل يوم مرتين فيقرأ عليهم القرآن وقد جلس كل امرىء منهم مجلسه الذي هو مجلسه على منابر الدر والياقوت والزمرد والذهب والفضة بالأعمال فلا تقرّ أعينهم قط كما تقرّ بذلك ولم يسمعوا شيئاً أعظم منه ولا أحسن منه ثم ينصرفون إلى رحالهم قريرة أعينهم ناعمين إلى مثلها من الغد ـ وإذا صح هذا فهو من المتشابه كالآية فلا تغفل، ولهذين الاسمين الجليلين شأن في استجابة الدعاء على ما في بعض الآثار.

أخرج ابن أبي شيبة عن سعيد بن المسيب قال: دخلت المسجد وأنا أرى أني أصبحت فإذا علي ليل طويل وليس فيه أحد غيري فنمت فسمعت حركة خلفي ففزعت فقال: أيها الممتلىء قلبه فرَقاً لا تفرق أو لا تفزع وقل اللهم إنك مليك مقتدر ما تشاء من أمر يكون ثم سل ما بدا لك قال: فما سألت الله تعالى شيئاً إلا استجاب لي وأنا أقول: اللهم إنك مليك مقتدر ما تشاء من أمر يكون فأسعدني في الدارين وكن لي ولا تكن علي وانصرني على من بغى علي وأعذني من هم الدين وقهر الرجال وشماتة الأعداء، وصل اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، والحمد لله رب العالمين.

(٥٥) سورة الرحمن مدنية وآياتها ثمان وسبعون

بسم الله الرحمن الرحيم

الرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴿٢﴾ خَلَقَ الْإِنسَانَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴿٤﴾

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الرحمن ، علم القرآن ، خلق الإنسان ، علمه البيان ﴾ اعلم أولا أن مناسبة هذه السورة لما قبلها بوجهين (أحدهما) أن الله تعالى افتتح السورة المتقدمة بذكر معجزة تدل على العزة والجبروت والهيبة وهو انشقاق القمر ، فإن من يقدر على شق القمر يقدر على هد الجبال وقد الرجال ، وافتتح هذه السورة بذكر معجزة تدل على الرحمة والرحموت وهو القرآن الكريم ، فإن شفاء القلوب بالصفاء عن الذنوب (ثانيهما) أنه تعالى ذكر فى السورة المتقدمة (فكيف كان عذابى ونذر) غير مرة ، وذكر فى السورة (فبأى آلاء ربكما تكذبان) مرة بعد مرة لما بينا أن تلك السورة سورة إظهار الهيبة ، وهذه السورة سورة إظهار الرحمة ، ثم إن أول هذه السورة مناسب لآخر ما قبلها . حيث قال فى آخر تلك السورة (عند مليك مقتدر) ، والاقتدار إشارة إلى الهيبة والعظمة وقال ههنا (الرحمن) أى عزيز شديد منتقم مقتدر بالنسبة إلى الكفار والفجار ، رحمن منعم غافر للأبرار . ثم فى التفسير مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ فى لفظ الرحمن أبحاث ، ولا يتبين بعضها إلا بعد البحث فى كلمة الله فنقول :

﴿ المبحث الأول ﴾ من الناس من يقول إن الله مع الألف واللام اسم علم لموجد الممكنات وعلى هذا فمنهم من قال (الرحمن) أيضاً اسم علم له وتمسك بقوله تعالى (قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أياما تدعوا فله الأسماء الحسنى) أى أياما منهما ، وجوز بعضهم قول القائل يا الرحمن كما يجوز يا ألله وتمسك بالآية وكل هذا ضعيف وبعضها أضعف من بعض ، أما قوله الله مع الألف واللام اسم علم ففيه بعض الضعف وذلك لأنه لو كان كذلك لكانت الهمزة فيه أصلية ، فلا يجوز أن تجعل وصلية ، وكان يجب أن يقال خلق ألله كما يقال علم أحمد وفهم إسماعيل ، بل الحق فيه أحد القولين إما أن نقول إله أو لاه اسم لموجد الممكنات اسم علم ، ثم استعمل مع الألف واللام كما فى الفضل والعباس والحسن والخليل ، وعلى هذا فمن سمى غيره إلها فهو كمن يستعمل فى مولود له فيقول لابنه محمد وأحمد وإن كان علمين لغيره قبله فى أنه جائز لأن من سمى ابنه أحمد لم يكن له من الأمر المطاع

ما يمنع الغير عن التسمية به ولم يكن له الاحتجار وأخذ الاسم لنفسه أو لولده . بخلاف الملك المطاع إذا استأثر لنفسه اسماً لا يستجرىء أحد ممن تحت ولايته مادام له الملك أن يسمى ولده أو نفسه بذلك الاسم خصوصاً من يكون مملوكاً لا يمكنه أن يسمى نفسه باسم الملك ولا أن يسمى ولده به ، والله تعالى ملك مطاع وكل من عداه تحت أمره فإذا استأثر لنفسه اسماً لا يجوز للعبيد أن يتسموا بذلك الاسم ، فمن يسمى فقد تعدى فالمشركون فى التسمية متعدون ، وفى المعنى ضالون وإما أن نقول إله أولاه اسم لمن يعبد والألف واللام للتعريف ، ولما امتنع المعنى عن غير الله امتنع الاسم ، فإن قيل فلو سمى أحد ابنه به كان ينبغى أن يجوز ؟ قلنا لا يجوز لأنه يوهم أنه اسم موضوع لذلك الابن لمعنى لا لكونه علماً ، فإن قيل تسمية الواحد بالكريم والودود جائزة قلنا كل ما يكون حمله على العلم وعلى اسم لمعنى ملحوظ فى اللفظ الذكرى لا يفضى إلى خلل يجوز ذلك فيه فيجوز تسمية الواحد بالكريم والودود ولا يجوز تسميته بالخالق ، والقديم لأن على تقدير حمله على أنه علم غير ملحوظ فيه المعنى يجوز ، وعلى تقدير حمله على أنه اسم لمعنى هو قائم به كالقدرة التى بها بقاء الخلق أو العدم ، فلا يجوز لكن اسم المعبود من هذا القبيل فلا يجوز التسمية به ، فأحد هذين القولين حق وقولهم مع الألف واللام علم ليس بحق، إذا عرفت البحث فى الله فما يترتب عليه ، وهو أن الرحمن اسم على أضعف منه ، وتجويزيا الرحمن أضعف من الكل .

﴿ البحث الثانى ﴾ الله والرحمن فى حق الله تعالى ، كالاسم الأول والوصف الغالب الذى يصير كالاسم بعد الاسم الأول كما فى قولنا عمر الفاروق ، وعلى المرتضى وموسى الرضا ، وغير ذلك مما نجده فى أسماء الخلفاء وأوصافهم المعرفة لهم التى كانت لهم وصفاً وخرجت بكثرة الاستعمال عن الوصفية ، حتى أن الشخص وإن لم يتصف به أو فارقه الوصف . يقال له ذلك كالعلم فإذن للرحمن اختصاص بالله تعالى ، كما أن لتلك الأوصاف اختصاصاً بأولئك غير أن فى تلك الأسماء والأوصاف جاز الوضع لما بينا حيث استوى الناس فى الاقتدار والعظمة ، ولا يجوز فى حق الله تعالى ، فإن قيل إن من الناس من أطلق لفظ الرحمن على اليمامى ، نقول هو كما أن من الناس من أطلق لفظ الإله على غير الله تعدياً وكفراً ، نظراً إلى جوازه لغة وهو اعتقاد باطل .

﴿ البحث الثالث ﴾ لله تعالى رحمتان سابقة ولاحقة فالسابقة هى التى بها خلق الخلق واللاحقة هى التى أعطى بها الخلق بعد إيجاده إياهم من الرزق والفطنة وغير ذلك ، فهو تعالى بالنظر إلى الرحمة السابقة رحمن ، وبالنظر إلى اللاحقة رحيم ، ولهذا يقال يارحمن الدنيا ورحيم الآخرة ، فهو رحمن ، لأنه خلق الخلق أولا برحمته ، فلما لم يوجد فى غيره هذه الرحمة ولم يخلق أحداً أحداً لم يجز أن يقال لغيره رحمن ، ولما تخلق الصالحون من عباده ببعض أخلاقه على قدر الطاقة البشرية ، وأطعم الجائع وكسا العارى ، وجد شىء من الرحمة اللاحقة التى بها الرزق والإعانة فجاز أن يقال له رحيم ، وقد ذكرنا هذا كله فى تفسير سورة الفاتحة غير أنا أردنا أن يصير ماذكرنا مضموماً إلى ماذكرناه هناك ،

فأعدناه ههنا لأن هذا كله كالتفصيل لما ذكرناه فى الفاتحة .

﴿ المسألة الثانية ﴾ الرحمن مبتدأ خبره الجملة الفعلية التى هى قوله (علم القرآن) وقيل الرحمن [خبر] مبتدأ تقديره هو الرحمن ، ثم أتى بجملة بعد جملة فقال (علم القرآن) والأول أصح ، وعلى القول الضعيف الرحمن آية .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قوله تعالى (علم القرآن) لا بد له من مفعول ثان فما ذلك ؟ نقول الجواب عنه من وجهين (أحدهما) قيل علم بمعنى جعله علامة أى هو علامة النبوة ومعجزة وهذا يناسب قوله تعالى (وانشق القمر) على ما بينا أنه ذكر فى أول تلك السورة معجزة من باب الهيبة وهو أنه شق مالا يشقه أحد غيره ، وذكر فى هذه السورة معجزة من باب الرحمة ، وهو أنه نشر من العلوم مالا ينشره غيره ، وهو مافى القرآن ، وعلى هذا الوجه من الجواب ففيه احتمال آخر ، وهو أنه جعله بحيث يعلم فهو كقوله (ولقد يسرنا القرآن للذكر) والتعليم على هذا الوجه مجاز . يقال إن أنفق على متعلم وأعطى أجرة على تعليمة علمه (وثانيهما) أن المفعول الثانى لابد منه وهو جبريل وغيره من الملائكة علمهم القرآن ثم أنزله على عبده كما قال تعالى (نزل به الروح الأمين على قلبك) ويحتمل أن يقال المفعول الثانى هو محمد صلى الله عليه وسلم ، وفيه إشارة إلى أن القرآن كلام الله تعالى لا كلام محمد ، وفيه (وجه ثالث) وهو أنه تعالى علم القرآن الإنسان ، وهذا أقرب ليكون الإنعام أتم والسورة مفتتحة لبيان الأعم من النعم الشاملة .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ لم ترك المفعول الثانى ؟ نقول إشارة إلى أن النعمة فى تعميم التعليم لا فى تعليم شخص دون شخص ، يقال فلان يطعم الطعام إشارة إلى كرمه ، ولا يبين من يطعمه .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ مامعنى التعلم ؟ نقوله على قولنا له مفعول ثان إفادة العلم به ، فإن قيل كيف يفهم قوله تعالى (علم القرآن) مع قوله (ومايعلم تأويله إلا الله) ؟ نقول ، من لا يقف عند قوله (إلا الله) ويعطف (الراسخون) على الله عطف المفرد على المفرد لا يرد عليه هذا ، ومن يقف ويعطف قوله تعالى (الراسخون فى العلم) على قوله (وما يعلم تأويله) عطف جملة على جملة يقول إنه تعالى علم القرآن ، لأن من علم كتاباً عظيما وقع على مافيه ، وفيه مواضع مشكلة فعلم مافى تلك المواضع بقدر الإمكان ، يقال فلان يعلم الكتاب الفلانى ويتقنه بقدر وسعه ، وإن كان لم يعلم مراد صاحب الكتاب بيقين ، وكذلك القول فى تعليم القرآن ، أو تقول (لا يعلم تأويله إلا الله) وأما غيره فلا يعلم من تلقاء نفسه ما لم يعلم ، فيكون إشارة إلى أن كتاب الله تعالى ليس كغيره من الكتب التى يستخرج ما فيها بقوة الذكاء والعلوم .

قوله تعالى : ﴿ خلق الإنسان ، علمه البيان ﴾ وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ فى وجه الترتيب وهو على وجهين (أحدهما) ماذكرنا أن المراد من علم علم الملائكة وتعليمه الملائكة قبل خلق الإنسان ، فعلم تعالى ملائكته المقربين القرآن حقيقة

يدل عليه قوله تعالى (إنه لقرآن كريم ، فى كتاب مكنون ، لا يمسه إلا المطهرون) ثم قال تعالى (تنزيل من رب العالمين) إشارة إلى تنزيله بعد تعليمه ، وعلى هذا فى النظم حسن زائد . وذلك من حيث إنه تعالى ذكر أموراً علوية وأموراً سفلية ، وكل علوى قابله بسفلى ، وقدم العلويات على السفليات إلى آخر الآيات ، فقال (علم القرآن) إشارة إلى تعليم العلويين ، وقال (علمه البيان) إشارة إلى تعليم السفليين ، وقال (الشمس والقمر) فى العلويات . وقال فى مقابلتهما من السفليات (والنجم والشجر يسجدان) .

ثم قال تعالى (والسماء رفعها) وفى مقابلتها (والأرض وضعها) ، (وثانيهما) أن تقديم تعليم القرآن إشارة إلى كونه أتم نعمة وأعظم إنعاماً ، ثم بين كيفية تعليم القرآن ، فقال (خلق الإنسان ، علمه البيان) وهو كقول القائل علمت فلاناً الأدب حملته عليه ، وأنفقت عليه مالى ، فقوله حملته وأنفقت بيان لما تقدم ، وإنما قدم ذلك لأنه الإنعام العظيم .

﴿ المسألة الثانية ﴾ ما الفرق بين هذه السورة وسورة العلق ، حيث قال هناك (إقرأ باسم ربك الذى خلق) ثم قال (وربك الأكرم الذى علم بالقلم) فقدم الخلق على التعليم ؟ نقول فى تلك السورة لم يصرح بتعليم القرآن فهو كالتعليم الذى ذكره فى هذه السورة بقوله (علمه البيان) بعد قوله (خلق الإنسان) .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ ما المراد من الإنسان ؟ نقول هو الجنس ، وقيل المراد محمد ﷺ ، وقيل المراد آدم والأول أصح نظراً إلى اللفظ فى خلق ويدخل فيه محمد وآدم وغيرهما من الأنبياء .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ ما البيان وكيف تعليمه ؟ نقول من المفسرين من قال البيان المنطق فعلمه ما ينطق به ويفهم غيره ما عنده ، فإن به يمتاز الإنسان عن غيره من الحيوانات ، وقوله (خلق الإنسان) إشارة إلى تقدير خلق جسمه الخاص ، (وعلمه البيان) إشارة إلى تميزه بالعلم عن غيره . وقد خرج ما ذكرنا أولا أن البيان هو القرآن وأعاده ليفصل ما ذكره إجمالا بقوله تعالى (علم القرآن) كما قلنا فى المثال حيث يقول القائل : علمت فلاناً الأدب حملته عليه ، وعلى هذا فالبيان مصدر أريد به مافيه المصدر ، وإطلاق البيان بمعنى القرآن على القرآن فى القرآن كثير ، قال تعالى (هذا بيان للناس) وقد سمى الله تعالى القرآن . فرقاناً وبياناً ، والبيان فرقان بين الحق والباطل ، فصح إطلاق للبيان ، وإرادة القرآن .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ كيف صرح بذكر المفعولين فى علمه البيان ولم يصرح بهما فى علم القرآن نقول أما إن قلنا إن المراد من قوله علم القرآن هو أنه علم الإنسان القرآن ، فنقول حذفه لعظم نعمة التعليم وقدم ذكره على من علمه وعلى بيان خلقه ، ثم فصل بيان كيفية تعليم القرآن ، فقال (خلق الإنسان علمه) وقد بين ذلك ، وأما إن قلنا المراد علم القرآن الملائكة فلأن المقصود تعديد النعم على الإنسان ومطالبته بالشكر ومنعه من التكذيب به ، وتعليمه للملائكة لا يظهر للانسان أنه فائدة

﴿ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۝٥ وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ۝٦ ﴾

راجعة إلى الإنسان ، وأما تعليم الإنسان فهى نعمة ظاهرة ، فقال (علمه البيان) أى علم الإنسان تعديداً للنعم عليه ومثل هذا قال فى (اقرأ) قال مرة (علم بالقلم) من غير بيان المعلم ، ثم قال مرة أخرى (علم الإنسان مالم يعلم) وهو البيان ، ويحتمل أن يتمسك بهذه الآية على أن اللغات توقيفية حصل العلم بها بتعليم الله .

ثم قال تعالى ﴿ الشمس والقمر بحسبان ، والنجم والشجر يسجدان ﴾ وفى الترتيب وجوه (أحدها) هو أن الله تعالى لما ثبت كونه رحمن وأشار إلى ما هو شفاء ورحمة وهو القرآن ذكر نعمة وبدأ بخلق الانسان فإنه نعمة جميع النعم به تتم ، ولولا وجوده لما انتفع بشيء ، ثم بين نعمة الادراك بقوله (علمه البيان) وهو كالوجود إذ لولاه لما حصل النفع والانتفاع ، ثم ذكر من المعلومات نعمتين ظاهرتين هما أظهر أنواع النعم السماوية وهما الشمس والقمر ولولا الشمس لما زالت الظلمة ، ولولا القمر لفات كثير من النعم الظاهرة بخلاف غيرهما من الكواكب فإن نعمها لا تظهر لكل أحد مثل ماتظهر نعمتهما ، ثم بين كمال نفعهما فى حركتهما بحساب لايتغير ولو كانت الشمس ثابتة فى موضع لما انتفع بها أحد ، ولو كان سيرها غير معلوم للخلق لما انتفعوا بالزراعات فى أوقاتها وبناء الأمر على الفصول ، ثم بين فى مقابلتهما نعمتين ظاهرتين من الأرض وهما النبات الذى لا ساق له والذى له ساق ، فإن الرزق أصله منه ، ولولا النبات لما كان للآدمى رزق إلا ما شاء الله ، وأصل النعم على الرزق الدار ، وإنما قلنا النبات هو أصل الرزق لأن الرزق إما نباتى وإما حيونى كاللحم واللبن وغيرهما من أجزاء الحيوان ، ولولا النبات لما عاش الحيوان والنبات وهو الأصل وهو قسمان قائم على ساق كالحنطة والشعير والأشجار الكبار وأصول الثمار وغير قائم كالبقول المنبسطة على الأرض والحشيش والعشب الذى هو غذاء الحيوان (ثانيها) هو أنه تعالى لما ذكر القرآن وكان هو كافياً لا يحتاج معه إلى دليل آخر قال بعده (الشمس والقمر بحسبان ، والنجم والشجر) وغيرها من الآيات إشارة إلى أن بعض الناس إن تكن له النفس الزكية التى يغنيها الله بالدلائل التى فى القرآن ، فله فى الآفاق آيات منها الشمس والقمر ، وإنما اختارهما الذكر لأن حركتهما بحسبان تدل على فاعل مختار سخرهما على وجه مخصوص ، ولو اجتمع من فى العالم من الطبيعيين والفلاسفة وغيرهم وتواطؤا أن يثبتوا حركتهما على الممر المعين على الصواب المعين والمقدار المعلوم فى البطء والسرعة لما بلغ أحد مراده إلى أن يرجع إلى الحق

ويقول حركهما الله تعالى كما أراد ، وذكر الأرض والسماء وغيرهما إشارة إلى ماذكرنا من الدلائل العقلية المؤكدة لما فى القرآن من الدلائل السمعية (ثالثها) هو أنا ذكرنا أن هذه السورة مفتتحة بمعجزة دالة عليها من باب الهيئة فذكر معجزة القرآن بما يكون جواباً لمنكرى النبوة على الوجه الذى نبهنا عليه ، وذلك هو أنه تعالى أنزل على نبيه الكتاب وأرسله إلى الناس بأشرف خطاب ، فقال بعض المنكرين كيف يمكن نزول الجرم من السماء إلى الأرض وكيف يصعدما حصل فى الأرض إلى السماء؟ فقال تعالى ﴿الشمس والقمر بحسبان﴾ إشارة إلى [أن] حركتهما بحرك مختار ليس بطبيعى وهم وافقونا فيه وقالوا إن الحركة الدورية لا يمكن أن تكون طبيعية اختيارية فنقول من حرك الشمس والقمر على الإستدارة أنزل الملائكة على الاستقامة ثم النجم والشجر يتحركان إلى فوق على الاستقامة مع أن الثقيل على مذهبكم لايصعد إلى جهة فوق فذلك بقدرة الله تعالى وإردته ، فكذلك حركة الملك جائزة مثل الفلك ، وأما قوله (بحسبان) ففيه إشارة إلى الجواب عن قولهم (أأنزل عليه الذكر من بيننا) وذلك لأنه تعالى كما اختار لحركتهما ممراً معيناً وصوباً معلوماً ومقداراً مخصوصاً كذلك اختار للملك وقتاً معلوماً وممراً معيناً بفضله وفى التفسير مباحث:

﴿ الأول ﴾ ما الحكمة فى تعريفه عما يرجع إلى الله تعالى حيث قال هما (بحسبان) ولم يقل حركهما الله بحسبان أو سخرهما أو أجراهما كما قال (خلق الإنسان) وقال (علمه البيان) ؟ نقول فيه حكم منها أن يكون إشارة إلى أن خلق الإنسان وتعليمه البيان أتم وأعظم من خلق المنافع له من الرزق وغيره ، حيث صرح هناك أنه فاعله وصانعه ولم يصرح هنا ، ومنها ان قوله (الشمس والقمر) ههنا بمثل هذا فى العظم يقول القائل إنى أعطيتك الألوف والمئات مراراً وحصل لك الآحاد والعشرات كثيراً وما شكرت ، ويكون معناه حصل لك منى ومن عطائى لكنه يخصص التصريح بالعطاء عند الكثير ، ومنها أنه لما بينا أن قوله (الشمس والقمر) إشارة إلى دليل عقلى مؤكد السمعى ولم يقل فعلت صريحاً إشارة إلى أنه معقول إذا نظرت إليه عرفت أنه منى واعترفت به ، وأما السمعى فصرح بما يرجع إليه من الفعل (الثانى) على أى وجه تعلق الباء من بحسبان ، نقول هو بين من تفسيره والتفسير أيضاً مر بيانه وخرج من وجه آخر ، فنقول فى الحسبان وجهان (الأول) المشهور أن المراد الحساب يقال حسب حساباً وحسباناً ، وعلى هذا فالباء للمصاحبة تقول قدمت بخير أى مع خير ومقروناً بخير فكذلك الشمس والقمر يجريان ومعهما حسابهما ومثله (إنا كل شىء خلقناه بقدر ، وكل شىء عنده بمقدار) ويحتمل أن تكون للاستعانة كما فى قولك بعون الله غلبت ، وبتوفيق الله حججت ، فكذلك يجريان بحسبان من الله (والوجه الثانى) أن الحسبان هو الفلك تشبيهاً له بحسبان الرحا وهو مايدور فيدير الحجر ، وعلى هذا فهو للاستعانة كما يقال فى الآلات كتبت بالقلم فهما يدوران بالفلك وهو كقوله تعالى (وكل فى فلك يسبحون) ، (الثالث) على الوجه المشهور هل كل واحد يجرى بحسبان أو كلاهما بحسبان واحد ما المراد ؟ نقول : كلاهما محتمل فإن نظرنا إليهما فلكل واحد منهما حساب على حدة فهو

كقوله تعالى (كل فى فلك) لا بمعنى أن الكل مجموع فى فلك واحد وكقوله (وكل شيء عنده بمقدار) وإن نظرنا إلى الله تعالى فللكل حساب واحد قدر الكل بتقدير حسبانهما بحساب، مثاله من يقسم ميراث نفسه لكل واحد من الورثة نصيباً معلوماً بحساب واحد، ثم يختلف الأمر عندهم فيأخذ البعض السدس والبعض كذا والبعض كذا، فكذلك الحساب الواحد. وأما قوله (والنجم والشجر يسجدان) ففيه أيضاً مباحث:

﴿الأول﴾ ما الحكمة فى ذكر الجمل السابقة من غير واو عاطفة، ومن هنا ذكرها بالواو العاطفة؟ نقول ليتنوع الكلام نوعين، وذلك لأن من يعد النعم على غيره تارة يذكر نسقاً من غير حرف، فيقول فلان أنعم عليك كثيراً، أغناك بعد فقر، أعزك بعد ذل، قواك بعد ضعف، وأخرى يذكرها بحرف عاطف وذلك العاطف قد يكون واوا وقد يكون فاء وقد يكون ثم، فيقول فلان أكرمك وأنعم عليك وأحسن إليك، ويقول رباك فعلمك فأغناك، ويقول أعطاك ثم أغناك ثم أحوج الناس إليك، فكذلك هنا ذكر التعديد بالنوعين جميعاً، فإن قيل زده بياناً وبين الفرق بين النوعين فى المعنى، قلنا: الذى يقول بغير حرف كأنه يقصد به بيان النعم الكثيرة فيترك الحرف ليستوعب الكل من غير تطويل كلام، ولهذا يكون ذلك النوع فى أغلب الأمر عند مجاوزة النعم ثلاثاً أو عند ما تكون أكثر من نعمتين فإن ذكر ذلك عند نعمتين فيقول فلان أعطاك المال وزوجك البنت، فيكون فى كلامه إشارة إلى نعم كثيرة وإنما اقتصر على النعمتين للأنموذج، والذى يقول بحرف فكأنه يريد التنبيه على استقلال كل نعمة بنفسها، وإذهاب توهم البدل والتفسير، فإن قول القائل أنعم عليك أعطاك المال هو تفسير للأول فليس فى كلامه ذكر نعمتين معاً بخلاف ما إذا ذكر بحرف، فإن قيل إن كان الأمر على ماذكرت فلو ذكر النعم الأول بالواو. ثم عند تطويل الكلام فى الآخر سردها سرداً، هل كان أقرب إلى البلاغة؟ وورود كلامه تعالى عليه كفاه دليلا على أن ماذكره الله تعالى أبلغ، وله دليل تفصيلى ظاهر يبين ببحث وهو أن الكلام قد يشرع فيه المتكلم أولا على قصد الاختصار، فيقتضى الحال التطويل، إما لسائل يكثر السؤال، وإما لطالب يطلب الزيادة للطف كلام المتكلم، وإما لغيرهما من الأسباب وقد يشرع على قصد الأطناب والتفصيل، فيعرض ما يقتضى الاقتصار على المقصود من شغل السامع أو المتكلم وغير ذلك مما جاء فى كلام الآدميين، نقول كلام الله تعالى فوائده لعباده لا له ففى هذه السورة ابتدأ الأمر بالإشارة إلى بيان أتم النعم إذ هو المقصود، فأتى بما يختص بالكثرة، ثم إن الإنسان ليس بكامل العلم يعلم مراد المتكلم إذا كان الكلام من أبناء جنسه، فكيف إذا كان الكلام كلام الله تعالى، فبدأ الله به على الفائدة الأخرى وإذهاب توهم البدل والتفسير والنص على أن كل واحد منها نعمة كاملة، فإن قيل إذا كان كذلك فما الحكمة فى تخصيص العطف بهذا الكلام والابتداء به لا بما قبله ولا بما بعده؟ قلنا ليكون النوعان على السواء فذكر الثمانية من النعم كتعليم القرآن وخلق الإنسان وغير ذلك أربعاً منها بغير واو وأربعاً بواو،

وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ﴿٧﴾

وأما قوله تعالى (فيها فاكهة والنخل) وقوله (والحب ذو العصف) فلبيان نعمة الأرض على التفصيل ثم فى اختيار الثمانية لطيفة ، وهى أن السبعة عدد كامل والثمانية هى السبعة مع الزيادة فيكون فيه إشارة إلى أن نعم الله خارجة عن حد التعديد لما أن الزائد على الكمال لايكون معيناً مبيناً . فذكر الثمانية منها إشارة إلى بيان الزيادة على حد العدد لا لبيان الانحصار فيه .

﴿ المسألة الثانية ﴾ النجم ماذا؟ نقول فيه وجهان (أحدهما) النبات الذى لاساق له (والثانى) نجم السماء. والأول أظهر لأنه ذكره مع الشجر فى مقابلة الشمس والقمر ذكر أرضين فى مقابلة سماوين ، ولأن قوله (يسجدان) يدل على أن المراد ليس نجم السماء لأن من فسر به قال يسجد بالغروب ، وعلى هذا فالشمس والقمر أيضاً كذلك يغربان ، فلا يبقى للاختصاص فائدة ، وأما إذا قلنا هما أرضان فنقول (يسجدان) بمعنى ظلالهما تسجد فيختص السجود بهما دون الشمس والقمر ، وفى سجودهما وجوه (أحدها) ما ذكرنا من سجود الظلال (ثانيها) خضوعهما لله تعالى وخروجهما من الأرض ودوامهما وثباتهما عليها بإذن الله تعالى ، فسخر الشمس والقمر بحركة مستديرة والنجم بحركة مستقيمة إلى فوق ، فشبه النبات فى مكانها بالسجود لأن الساجد يثبت . (ثالثها) حقيقة السجود توجد منهما وإن لم تكن مرئية كما يسبح كل منهما وإن لم يفقه كما قال تعالى (ولكن لا تفقهون تسبيحهم) ، (رابعها) السجود وضع الجبهة أو مقاديم الرأس على الأرض والنجم والشجر فى الحقيقة رؤوسهما على الأرض وأرجلهما فى الهواء ، لأن الرأس من الحيوان مابه شربه واغتذاؤه ، وللنجم والشجر اغتذاؤهما وشربهما بأجذالهما ولأن الرأس لاتبقى بدونه الحياة والشجر والنجم لايبقى شىء منهما ثابتاً غضاً عند وقوع الخلل فى أصولهما ، ويبقى عند قطع فروعهما وأعاليهما ، وإنما يقال للفروع رؤوس الأشجار ، لأن الرأس فى الإنسان هو ما يلى جهة فوق فقيل لأعالى الشجر رؤوس ، إذا علمت هذا فالنجم والشجر رؤوسهما على الأرض دائماً ، فهو سجودهما بالشبه لا بطريق الحقيقة .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ فى تقديم النجم على الشجر موازنة لفظية للشمس والقمر وأمر معنوى ، وهو أن النجم فى معنى السجود أدخل لما أنه ينبسط على الأرض كالساجد حقيقة ، كما أن الشمس فى الحسبان أدخل ، لأن حساب سيرها أيسر عند المقومين من حساب سير القمر ، إذليس عند المقومين أصعب من تقويم القمر فى حساب الزيج .

ثم قال تعالى ﴿ والسماء رفعها ووضع الميزان ﴾ ورفع السماء معلوم معنى ، ونصبها معلوم لفظاً فإنها منصوبة بفعل يفسره قوله (رفعها) كأنه تعالى قال رفع السماء ، وقرىء والسماء بالرفع على الابتداء والعطف على الجملة الابتدائية التى هى قوله (الشمس والقمر) وأما (وضع الميزان)

أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ﴿٨﴾ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ

فإشارة إلى العدل (وفيه لطيفة) وهى أنه تعالى بدأ أولا بالعلم ثم ذكر ما فيه أشرف أنواع العلوم وهو القرآن ، ثم ذكر العدل وذكر أخص الأمور له وهو الميزان ، وهو كقوله تعالى (وأنزلنا الكتاب والميزان) ليعمل الناس بالكتاب ويفعلوا بالميزان ما يأمرهم به الكتاب فقوله (علم القرآن ، ووضع الميزان) مثل (وأنزلنا الكتاب والميزان) فان قيل العلم لاشك فى كونه نعمة عظيمة ، وأما الميزان فما الذى فيه من النعم العظيمة التى بسببها يعد فى الآلاء ؟ نقول : النفوس تأبى الغبن ولا يرضى أحد بأن يغلبه الآخر ولو فى الشيء اليسير ، ويرى أن ذلك استهانة به فلا يتركه لخصمه لغلبة ، فلا أحد يذهب إلى أن خصمه يغلبه فلولا التبيين ثم التساوى لأوقع الشيطان بين الناس البغضاء كما وقع عند الجهل وزوال العقل والسكر ، فكما أن العقل والعلم صارا سبباً لبقاء عمارة العالم ، فكذلك العدل فى الحكمة سبب ، وأخص الأسباب الميزان فهو نعمة كاملة ولا ينظر إلى عدم ظهور نعمته لكثرته وسهولة الوصول إليه كالهواء والماء اللذين لا يتبين فضلهما إلا عند فقدهما .

ثم قال تعالى ﴿ ألا تطغوا فى الميزان ﴾ وعلى هذا قيل المراد من الميزان الأول العدل ووضعه شرعه كأنه قال شرع الله العدل لئلا تطغوا فى الميزان الذى هو آلة العدل ، هذا هو المنقول ، والأولى أن يعكس الأمر ، ويقال الميزان الأول هو الآلة ، والثانى هو بمعنى المصدر ومعناه وضع الميزان لئلا تطغوا فى الوزن أو بمعنى العدل وهو إعطاء كل مستحق حقه ، فكأنه قال وضع الآلة لئلا تطغوا فى إعطاء المستحقين حقوقهم . ويجوز إرادة المصدر من الميزان كإرادة الوثوق من الميثاق والوعد من الميعاد ، فإذن المراد من الميزان آلة الوزن . (والوجه الثانى) إن أن مفسرة والتقدير شرع العدل ، أى لا تطغوا ، فيكون وضع الميزان بمعنى شرع العدل ، وإطلاق الوضع للشرع والميزان للعدل جائز ، ويحتمل أن يقال وضع الميزان أى الوزن .

وقوله (ألا تطغوا فى الميزان) على هذا الوجه ، المراد منه الوزن ، فكأنه نهى عن الطغيان فى الوزن ، والاتزان وإعادة الميزان بلفظه يدل على أن المراد منهما واحد ، فكأنه قال ألا تطغوا فيه ، فإن قيل لو كان المراد الوزن ، لقال ألا تطغوا فى الوزن ، نقول لو قال فى الوزن لظن أن النهى مختص بالوزن ، للغير لا بالاتزان للنفس ، فذكر بلفظ الآلة التى تشتمل على الأخذ والإعطاء ، وذلك لأن المعطى لو وزن ورجح رجحاناً ظاهراً ، يكون قد أربى ، ولا سيما فى الصرف وبيع المثل .

وقوله تعالى ﴿ وأقيموا الوزن بالقسط ﴾ يدل على أن المراد من قوله (أن لا تطغوا فى الميزان) هو بمعنى لا تطغوا فى الوزن ، لأن قوله (وأقيموا الوزن) كالبيان لقوله (ألا تطغوا فى الميزان) وهو الخروج عن إقامته بالعدل ، وقوله (وأقيموا الوزن بالقسط) يحتمل وجهين

وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴿٩﴾

(أحدهما) أقيموا بمعنى قوموا به كما فى قوله تعالى (أقيموا الصلاة) أى قوموا بها دواماً ، لأن الفعل تارة يعدى بحرف الجر ، وتارة بزيادة الهمزة ، تقول أذهبه وذهب به (ثانيها) أن يكون أقيموا بمعنى قوموا ، يقال فى العود أقمته وقومته ، والقسط العدل ، فإن قيل كيف جاء قسط بمعنى جار لا بمعنى عدل ؟ نقول القسط اسم ليس بمصدر ، والأسماء التى لا تكون مصادراً إذا أتى بها آت أو وجدها موجد ، يقال فيها أفعل بمعنى أثبت ، كما قال فلان أطرف وأتحف وأعرف بمعنى جاء بطرفة وتحفة وعرف ، وتقول أقبض السيف بمعنى أثبت له قبضة ، وأعلم الثوب بمعنى جعل له علماً ، وأعلم بمعنى أثبت العلامة ، وكذا ألجم الفرس وأسرج ، فإذا أمر بالقسط أو أثبته فقد أقسط ، وهو بمعنى عدل ، وأما قسط فهو فعل من اسم ليس بمصدر ، والاسم إذا لم يكن مصدراً فى الأصل ، ويورد عليه فعل فربما يغيره عما هو عليه فى أصله ، مثاله الكتف إذا قلت كتفته كتافاً فكأنك قلت أخرجته عما كان عليه من الانتفاع وغيرته ، فإن معنى كتفته شددت كتفيه بعضهما إلى بعض فهو مكتوف ، فالكتف كالقسط صارا مصدرين عن اسم وصار الفعل معناه تغير عن الوجه الذى ينبغى أن يكون ، وعلى هذا لا يحتاج إلى أن يقال القاسط والمقسط ليس أصلهما واحداً وكيف كان يمكن أن يقال أقسط بمعنى أزال القسط ، كما يقال أشكى بمعنى أزال الشكوى أو أعجم بمعنى أزال العجمة ، وهذا البحث فيه فائدة فإن قول القائل فلان أقسط من فلان وقال الله تعالى (ذلكم أقسط عند الله) والأصل فى أفعل التفضيل أن يكون من الثلاثى المجرد تقول أظلم وأعدل من ظالم وعادل ، فكذلك أقسط كان ينبغى أن يكون من قاسط ، ولم يكن كذلك ، لأنه على ما بينا الأصل القسط ، وقسط فعل فيه لا على الوجه ، والإقساط إزالة ذلك ، ورد القسط إلى أصله ، فصار أقسط موافقاً للأصل ، وأفعل التفضيل يؤخذ مما هو أصل لا من الذى فرع عليه ، فيقال أظلم من ظالم لا من متظلم وأعلم من عالم لا من معلم ، والحاصل أن الأقسط وإن كان نظراً إلى اللفظ ، كان ينبغى أن يكون من القاسط ، لكنه نظراً إلى المعنى ، يجب أن يكون من المقسط ، لأن المقسط أقرب من الأصل المشتق ، وهو القسط ، ولا كذلك الظالم والمظلم ، فإن الأظلم صار مشتقاً من الظالم ، لأنه أقرب إلى الأصل لفظاً ، ومعنى ، وكذلك العالم والمعلم ، والخبر والمخبر .

ثم قال ﴿ ولا تخسروا الميزان ﴾ أى لا تنقصوا الموزون والميزان ذكره الله تعالى ثلاث مرات كل مرة بمعنى آخر ، فالأول هو الآلة ووضع الميزان ، والثانى بمعنى المصدر لا تطغوا فى الميزان أى الوزن ، والثالث للمفعول (لاتخسروا الميزان) أى الموزون ، وذكر الكل بلفظ الميزان لما بينا أن الميزان أشمل للفائدة وهو كالقرآن ذكره الله تعالى بمعنى المصدر فى قوله تعالى (فاتبع قرآنه) وبمعنى المقروء فى قوله (إن علينا جمعه وقرآنه) وبمعنى الكتاب الذى فيه المقروء فى

وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ﴿١٠﴾ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ ﴿١١﴾

قوله تعالى (ولو أن قرآناً سيرت به الجبال) فكأنه آلة ومحل له ، وفى قوله تعالى (آتيناك سبعاً من المثانى والقرآن العظيم) وفى كثير من المواضع ذكر القرآن لهذا الكتاب الكريم ؛ وبين القرآن والميزان مناسبة، فإن القرآن فيه من العلم مالا يوجد فى غيره من الكتب ، والميزان فيه من العدل مالا يوجد فى غيره من الآلات ، فان قيل ماالفائدة فى تقديم السماء على الفعل حيث قال (والسماء رفعها) وتقديم الفعل على الميزان حيث قال (ووضع الميزان) ؟ نقول قد ذكرنا مراراً أن فى كل كلمة من كلمات الله فوائد لايحيط بها علم البشر إلا ما ظهر . والظاهر ههنا إنه تعالى لما عد النعم الثمانية كما بينا وكان بعضها أشد اختصاصاً بالإنسان من بعض فما كان شديد الاختصاص بالإنسان قدم فيه الفعل ، كما بينا أن الإنسان يقول أعطيتك الألوف وحصلت لك الشرات ، فلا يصرح فى القليل بإسناد الفعل إلى نفسه ، وكذلك يقول فى النعم المختصة ، أعطيتك كذا ، وفى التشريك وصل إليك مما اقتسمتم بينكم كذ ، فيصرح بالاعطاء عند الاختصاص ، ولا يسند الفعل إلى نفسه عند التشريك ، فكذلك ههنا ذكر أموراً أربعة بتقديم الفعل ، قال تعالى (علم القرآن ، خلق الإنسان ، علمه البيان) ووضع الميزان وأموراً أربعة بتقديم الاسم ، قال تعالى (والشمس والقمر ، والنجم والشجر ، والسماء رفعها ، والأرض وضعها) لما أن تعليم القرآن نفعه إلى الإنسان أعود ، وخلق الإنسان مختص به ، وتعليمه البيان كذلك ووضع الميزان ، كذلك لأنهم هم المنتفعون به الملائكة ، ولا غير الإنسان من الحيوانات. ، وأما الشمس والقمر والنجم والشجر والسماء والأرض فينتفع به كل حيوان على وجه الأرض وتحت السماء .

ثم قال تعالى ﴿ والأرض وضعها للأنام ﴾ فيه مباحث :

﴿الأول﴾ هو أنه قد مر أن تقديم الاسم على الفعل كان فى مواضع عدم الاختصاص وقوله تعالى (للأنام) يدل على الاختصاص ، فان اللام لعود النفع . نقول الجواب عنه من وجهين (أحدهما) ما قيل أن الأنام يجمع الإنسان وغيره من الحيوان ، فقوله للأنام لا يوجب الاختصاص بالإنسان (ثانيهما) أن الأرض موضوعة لكل ما عليها ، وإنما خص الإنسان بالذكر لأن انتفاعه بها أكثر فإنه ينتفع بها وبمافيها وبما عليها ، فقال للأنام لكثرة انتفاع الأنام بها ، إذا قلنا إن الأنام هو الإنسان ، وإن قلنا إنه الخلق فالخلق يذكر ويراد به الإنسان فى كثير من المواضع .

وقوله تعالى ﴿ فيها فاكهة والنخل ذات الأكمام ﴾ إشارة إلى الأشجار ، وقوله (والحب ذو العصف) إشارة إلى النبات الذى ليس بشجر والفاكهة ماتطيب به النفس ، وهى فاعلة إما على طريقة (عيشة راضية) أى ذات رضى يرضى بها كل أحد ، وإما على تسمية الآلة بالفاعل يقال راوية للقربة التى يروى بها العطشان ، وفيه معنى المبالغة كالراحلة لما يرحل عليه ، ثم صار اسماً لبعض الثمار

وضعت أولا من غير اشتقاق ، والتنكير للتكثير ، أى كثيرة كما يقال لفلان مال أى عظيم ، وقد ذكرنا وجه دلالة التنكير على التعظيم . وهو أن القائل كأنه يشير إلى أنه عظيم لا يحيط به معرفة كل أحد فتنكيره إشارة إلى أنه خارج عن أن يعرف كنهه .

وقوله تعالى ﴿ والنخل ذات الأكمام ﴾ إشارة إلى النوع الآخر من الأشجار ، لأن الأشجار المثمرة أفضل الأشجار . وهى منقسمة إلى أشجار ثمار هى فواكه لا يقتات بها وإلى أشجار ثمار هى قوت وقد يتفكه بها ، كما أن الفاكهة قد يقتات بها ، فإن الجائع إذا لم يجد غير الفواكه يتقوت بها ويأكل غير متفكه بها ، وفيه مباحث :

﴿ الأول ﴾ ما الحكمة فى تقديم الفاكهة على القوت ؟ نقول هو باب الابتداء بالأدنى والارتقاء إلى الأعلى ، والفاكهة فى النفع دون النخل الذى منه القوت ، والتفكه وهو دون الحب الذى عليه المدار فى سائر المواضع ، وبه يتغذى الأنام فى جميع البلاد ، فبدأ بالفاكهة ثم ذكر النخل ثم ذكر الحب الذى هو أتم نعمة لموافقته مزاج الإنسان ، ولهذا خلقه الله فى سائر البلاد وخصص النخل بالبلاد الحارة .

﴿ البحث الثانى ﴾ ما الحكمة فى تنكير الفاكهة وتعريف النخل ؟ وجوابه من وجوه (أحدها) أن القوت محتاج إليه فى كل زمان متداول فى كل حين وأوان فهو أعرف والفاكهة تكون فى بعض الأزمان وعند بعض الأشخاص (وثانيها) هو أن الفاكهة على ما بينا ما يتفكه به وتطيب به النفس وذلك عند كل أحد بحسب كل وقت شىء ، فمن غلب عليه حرارة وعطش ، يريد التفكه بالحامض وأمثاله ، ومن الناس من يريد التفكه بالحلو وأمثاله ، فالفاكهة غير متعينة فنكرها والنخل والحب معتادان معلومان فعرفهما (وثالثها) النخل وحدها نعمة عظيمة تعلقت بها منافع كثيرة ، وأما الفاكهة فنوع منها كالخوخ ، والإجاص مثلا ليس فيه عظيم النعمة كما فى النخل ، فقال فاكهة بالتنكير ليدل على الكثرة وقد صرح بالكثرة فى مواضع أخر ، فقال (يدعون فيها بفاكهة كثيرة) وقال (وفاكهة كثيرة لا مقطوعة ولا ممنوعة) ، فالفاكهة ذكرها الله تعالى ووصفها بالكثرة صريحاً وذكرها منكرة ، لتحمل على أنها موصوفة بالكثرة اللائقة بالنعمة فى النوع الواحد منها بخلاف النخل .

﴿ البحث الثالث ﴾ ما الحكمة فى ذكر الفاكهة باسمها لا باسم أشجارها ، وذكر النخل باسمها لا باسم ثمرها ؟ نقول قد تقدم بيانه فى سورة (يس) حيث قال تعالى (من نخيل وأعناب) وهو أن شجرة العنب ، وهى الكرم بالنسبة إلى ثمرتها وهى العنب حقيرة ، وشجرة النخل بالنسبة إلى ثمرتها عظيمة ، وفيها من الفوائد الكثيرة على ما عرف من اتخاذ الظروف منها والانتفاع بجمارها وبالطلع والبسر والرطب وغير ذلك ، فثمرتها فى أوقات مختلفة كأنها ثمرات مختلفة ، فهى أتم نعمة بالنسبة إلى الغير من الأشجار ، فذكر النخل باسمه وذكر الفاكهة دون أشجارها ، فإن فوائد أشجارها فى عين ثمارها .

﴿ البحث الرابع ﴾ ما معنى (ذات الأكمام) ؟ نقول : فيه وجهان (أحدهما) الأكمام كل ما يغطى

وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ ﴿١٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾

جمع كم بضم الكاف ، ويدخل فيه لحاؤها وليفها ونواها والكل منتفع به ، كما أن النخل منتفع بها وأغصانها وقلبها الذى هو الجمار (ثانيها) الأكمام جمع كم بكسر الكاف وهو وعاء الطلع فانه يكون أولا فى وعاء فينشق ويخرج منه الطلع ، فان قيل على الوجه الأول (ذات الأكمام) فى ذكرها فائدة لأنها إشارة إلى أنواع النعم ، وأما على الوجه الثانى فما فائدة ذكرها ؟ نقول الإشارة إلى سهولة جمعها والانتفاع بها فإن النخلة شجرة عظيمة لا يمكن هزها لتسقط منها الثمرة فلابد من قطف الشجرة فلو كان مثل الجميز الذى يقال إنه يخرج من الشجرة متفرقاً واحدة واحدة لصعب قطافها . فقال (ذات الأكمام) أى يكون فى كم شىء كثير إذا أخذ عنقود واحد منه كفى رجلا واثنين كعناقيد العنب ، فانظر إليها فلو كان العنب حباتها فى الأشجار متفرقة كالجميز والزعرور لم يمكن جمعه بالهزمتى أريد جمعه ، فخلقه الله تعالى عناقيد مجتمعة ، كذلك الرطب فكونها (ذات الأكمام) من جملة إتمام الإنعام .

ثم قال تعالى ﴿ والحب ذو العصف والريحان ﴾ اقتصر من الأشجار على النخل لأنها أعظمها ودخل فى الحب القمح والشعير وكل حب يقتات به خبزاً أو يؤدم به بينا أنه أخره فى الذكر على سبيل الارتقاء درجة فدرجة فالحبوب أنفع من النخل وأعم وجوداً فى الأماكن . وقوله تعالى (ذو العصف) فيه وجوه (أحدها) التبن الذى تنتفع به دوابنا التى خلقت لنا (ثانيها) أوراق النبات الذى له ساق الخارجة من جوانب الساق كأوراق السنبلة من أعلاها إلى أسفلها (ثالثها) العصف هو ورق ما يؤكل فحسب (والريحان) فيه وجوه ، قيل ما يشم وقيل الورق ، وقيل هو الريحان المعروف عندنا وبزره ينفع فى الأدوية ، والأظهر أن رأسها كالزهر وهو أصل وجود المقصود ، فإن ذلك الزهر يتكون بذلك الحب وينعقد إلى أن يدرك (فالعصف) إشارة إلى ذلك الورق والريحان إلى ذلك الزهر ، وإنما ذكرهما لأنهما يؤولان إلى المقصود من أحدهما علف الدواب ، ومن الآخر دواء الإنسان ، وقرىء الريحان بالجر معطوفا على العصف ، وبالرفع عطفاً على الحب وهذا يحتمل وجهين (أحدهما) أن يكون المراد من الريحان المشموم فيكون أمراً مغايراً للحب فيعطف عليه (والثانى) أن يكون التقدير ذو الريحان بحذف المضاف ، وإقامة المضاف إليه مقامه كما فى (واسأل القرية) وهذا مناسب المعنى الذى ذكرنا ، ليكون الريحان الذى ختم به أنواع النعم الأرضية أعز وأشرف ، ولو كان المراد من الريحان هو المعروف أو المشمومات لما حصل ذلك الترتيب ، وقرىء (والريحان) ولا يقرأ هذا إلا من يقرأ (والحب ذو العصف) ويعود الوجهان فيه .

ثم قال تعالى ﴿ فبأى آلاء ربكما تكذبان ﴾ وفيه مباحث :

﴿ الأول ﴾ الخطاب مع من ؟ نقول فيه وجوه (الأول) الإنس والجن وفيه ثلاثة أوجه

(أحدها) يقال الأنام اسم للجن والإنس وقد سبق ذكره ، فعاد الضمير إلى ما فى الأنام من الجنس (ثانيها) الأنام اسم (الإنسان) و (الجان) لما كان منوياً وظهر من بعد بقوله (وخلق الجان) جاز عود الضمير إليه ، وكيف لا وقد جاز عود الضمير إلى المنوى ، وإن لم يذكر منه شيء ، تقول لا أدرى أيهما خير من زيد وعمرو (ثالثها) أن يكون المخاطب فى النية لا فى اللفظ كأنه قال (فبأى آلاء ربكما تكذبان) أيها الثقلان (الثانى) الذكر والأنثى . فعاد الضمير إليهما والخطاب معهما (الثالث) فبأى آلاء ربك تكذب ، فبأى آلاء ربك تكذب ، بلفظ واحد والمراد التكرار للتأكيد (الرابع) المراد العموم ، لكن العام يدخل فيه قسمان بهما ينحصر الكل ولا يبقى شيء من العام خارجاً عنه . فإنك إذا قلت إنه تعالى خلق من يعقل ومن لا يعقل ، أو قلت الله يعلم ما ظهر وما لم يظهر إلى غير ذلك من التقاسيم الحاصرة يلزم التعميم ، فكأنه قال يا أيها القسمان (فبأى آلاء ربكما تكذبان) واعلم أن التقسيم الحاصر لا يخرج عن أمرين أصلا ولا يحصل الحصر إلا بهما ، فإن زاد فهناك قسمان قد طوى أحدهما فى الآخر ، مثاله إذا قلت اللون إما سواد وإما بياض ، وإما حمرة وإما صفرة وإما غيرها فكأنك قلت اللون إما أسود واما ليس بسواد أو اما بياض واما ليس ببياض ، ثم الذى ليس ببياض اما حمرة واما ليس بحمرة وكذلك إلى جملة التقسيمات ، فأشار إلى القسمين الحاصرين على أن ليس لأحد ولا لشيء أن ينكر نعم الله (الخامس) التكذيب قد يكون بالقلب دون اللسان ، كما فى المنافقين ، وقد يكون باللسان دون القلب كما فى المعاندين وقد يكون بهما جميعاً ، فالكذب لا يخرج عن أن يكون باللسان أو بالقلب فكأنه تعالى قال : يا أيها القلب واللسان فبأى آلاء ربكما تكذبان . فإن النعم بلغت حداً لا يمكن المعاند أن يستمر على تكذيبها ، (السادس) المكذب مكذب بالرسول والدلائل السمعية التى بالقرآن ومكذب بالعقل والبراهين والتى فى الآفاق والأنفس فكأنه تعالى قال : يا أيها المكذبان بأى آلاء ربكما تكذبان ، وقد ظهرت آيات الرسالة فإن (الرحمن علم القرآن) ، وآيات الوحدانية فإنه تعالى خلق الإنسان وعلمه البيان ، ورفع السماء ووضع الأرض (السابع) المكذب قد يكون مكذباً بالفعل وقد يكون التكذيب منه غير واقع بعد لكنه متوقع فالله تعالى قال يا أيها المكذب تكذب وتتلبس بالكذب ، ويختلج فى صدرك أنك تكذب ، (فبأى آلاء ربكما تكذبان) ، وهذه الوجوه قريبة بعضها من بعض . والظاهر منها الثقلان ، لذكرهما فى الآيات من هذه السورة بقوله (سنفرغ لكم أيها الثقلان) ، وبقوله (يا معشر الجن والإنس) وبقوله (خلق الإنسان من صلصال كالفخار وخلق الجان) إلى غير ذلك ، (والزوجان) لوروده فى القرآن كثير والتعميم بإرادة نوعين حاصرين للجميع ، ويمكن أن يقال التعميم أولى لأن المراد لو كان الإنس والجن اللذان خاطبهما بقوله (فبأى آلاء ربكما تكذبان) ماكان يقول بعد خلق الإنسان ، بل كان يخاطب ويقول خلقناك يا أيها الإنسان (من صلصال) وخلقناك يا أيها الجان أو يقول خلقك يا أيها الإنسان

لأن الكلام صار خطاباً معهما ، ولما قال الانسان ، دل على أن المخاطب غيره وهو المصرم فيصير كأنه قال يا أيها الخلق والسامعون : إنا خلقنا الإنسان من صلصال كالفخار ، وخلقنا الجان من مارج من نار . وسيأتى باقى البيان فى مواضع من تفسير هذه السورة إن شاء الله تعالى (الثانى) ما الحكمة فى الخطاب ولم يسبق ذكر مخاطب ، نقول هو من باب الالتفات إذ مبنى افتتاح السورة على الخطاب مع كل من يسمع ، فكأنه لما قال (الرحمن علم القرآن) قال اسمعوا أيها السامعون ، والخطاب للتقريع والزجر كأنه تعالى نبه الغافل المكذب على أنه يفرض نفسه كالواقف بين يدى ربه يقول له ربه أنعمت عليك بكذا وكذا ، ثم يقول فبأى آلائى تكذب ، لاشك أنه عند هذا يستحى استحياء لا يكون عنده فرض الغيبة (الثالث) ما الفائدة فى اختيار لفظة الرب وإذا خاطب أراد خطاب الواحد فلم قال ربكما تكذبان وهو الحاضر المتكلم فكيف يجعل التكذيب المسند إلى المخاطب وارداً على الغائب ولو قال بأى آلائى تكذبان كان أليق فى الخطاب ؟ نقول فى السورة المتقدمة قال (كذبت ثمود بالنذر وكذبت قوم لوط بالنذر) وقال (كذبوا بآياتنا) وقال (فأخذناهم) وقال (كيف كان عذابى ونذر) كلها بالإسناد إلى ضمير المتكلم حيث كان ذلك للتخويف فالله تعالى أعظم من أن يخشى فلو قال أخذهم القادر أو المهلك لما كان فى التعظيم مثل قوله (فأخذناهم) ولهذا قال تعالى (ويحذركم الله نفسه) وهذا كما أن المشهور بالقوة يقول أنا الذى تعرفنى فيكون فى إثبات الوعيد فوق قوله أنا المعذب فلما كان الإسناد إلى النفس مستعملا فى تلك السورة عند الإهلاك والتعذيب ذكر فى هذه السورة عند بيان الرحمة لفظا يزيل الهيبة وهو لفظ الرب فكأنه تعالى قال (فبأى آلاء ربكما تكذبان) وهو ربكما (الرابع) ما الحكمة فى تكرير هذه الاية وكونه إحدى وثلاثين مرة ؟ نقول الجواب عنه من وجوه (الأول) إن فائدة التكرير التقرير وأما هذا العدد الخاص فالأعداد توقيفية لا تطلع على تقدير المقدرات أذهان الناس والأولى أن لا يبالغ الإنسان فى استخراج الأمور البعيدة فى كلام الله تعالى تمسكا بقول عمر رضى الله تعالى عنه حيث قال مع نفسه عند قراءته سورة عبس كل هذا قد عرفناه فما الأب ثم رفض عصا كانت بيده وقال هذا لعمر الله التكليف وما عليك يا عمر أن لا تدرى ما الأب ثم قال اتبعوا ما بين لكم من هذا الكتاب وما لا فدعوه وسيأتى فائدة كلامه تعالى فى تفسير السورة إن شاء الله تعالى (الجواب الثانى) ما قلناه إنه تعالى ذكر فى السورة المتقدمة (فكيف كان عذابى ونذر) أربع مرات لبيان ما فى ذلك من المعنى وثلاث مرات للتقرير والتكرير وللثلاث والسبع من بين الأعداد فوائد ذكرناها فى قوله تعالى (والبحر يمده من بعده سبعة أبحر) فلما ذكر العذاب ثلاث مرات ذكر الآلاء إحدى وثلاثين مرة لبيان ما فيه من المعنى وثلاثين مرة للتقرير الآلاء مذكورة عشر مرات أضعاف مرات ذكر العذاب إشارة إلى معنى قوله تعالى (من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها) ، (الثالث) إن الثلاثين مرة تكرير بعد البيان فى المرة الأولى لأن

خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴿١٤﴾

الخطاب مع الجن والإنس ، والنعم منحصرة فى دفع المكروه وتحصيل المقصود ، لكن أعظم المكروهات عذاب جهنم (ولها سبعة أبواب) وأتم المقاصد نعيم الجنة ولها ثمانية أبواب فإغلاق الأبواب السبعة وفتح الأبواب الثمانية جميعه نعمة وإكرام ، فاذا اعتبرت تلك النعم بالنسبة إلى جنسى الجن والإنس تبلغ ثلاثين مرة وهى مرات التكرير للتقرير ، والمرة الأولى لبيان فائدة الكلام ، وهذا منقول وهو ضعيف . لأن الله تعالى ذكر نعم الدنيا والآخرة ، وما ذكره اقتصار على بيان نعم الآخرة (الرابع) هو أن أبواب النار سبعة والله تعالى ذكر سبع آيات تتعلق بالتخويف من النار . من قوله تعالى (سنفرغ لكم أيها الثقلان) . إلى قوله تعالى (يطوفون بينها وبين حميم آن) ثم إنه تعالى ذكر بعد ذلك جنتين حيث قال (ولمن خاف مقام ربه جنتان) ولكل جنة ثمانية أبواب تفتح كلها للمتقين ، وذكر من أول السورة إلى ما ذكرنا من آيات التخويف ثمانى مرات (فبأى آلاء ربكما تكذبان) سبع مرات للتقرير بالتكرير استيفاء للعدد الكثير الذى هو سبعة ، وقد بينا سبب اختصاصه فى قوله تعالى (سبعة أبحر) وسنعيد منه طرفاً إن شاء الله تعالى ، فصار المجموع ثلاثين مرة المرة الواحدة التى هى عقيب النعم الكثيرة لبيان المعنى وهو الأصل والتكثير تكرار فصار إحدى وثلاثين مرة .

ثم قال تعالى ﴿ خلق الإنسان من صلصال كالفخار ﴾ وفى الصلصال وجهان (أحدهما) هو بمعنى المسنون من صل اللحم إذا أنتن ، ويكون الصلصال حينئذ من الصلول (وثانيهما) من الصليل يقال صل الحديد صليلا إذا حدث منه صوت ، وعلى هذا فهو الطين اليابس الذى يقع بعضه على بعض فيحدث فيما بينهما صوت ، إذ هو الطين اللازب الحر الذى إذا التزق بالشىء ثم انفصل عنه دفعة سمع منه عند الانفصال صوت ، فإن قيل الانسان إذا خلق من صلصال كيف ورد فى القرآن أنه خلق من التراب وورد أنه خلق من الطين ومن حمأ ومن ماء مهين إلى غير ذلك نقول : أما قوله من تراب تارة . ومن ماء مهين أخرى ، فذلك باعتبار شخصين آدم خلق من الصلصال ومن حمأ وأولاده خلقوا من ماء مهين ، ولولا خلق آدم لما خلق أولاده ، ويجوز أن يقال زيد خلق من حمأ بمعنى أن أصله الذى هو جده خلق منه ، وأما قوله من طين لازب ، ومن حمأ وغير ذلك فهو إشارة إلى أن آدم عليه السلام خلق أولا من التراب ، ثم صار طيناً ثم حمأ مسنوناً ثم لازباً ، فكأنه خلق من هذا ومن ذاك ، ومن ذلك ، والفخار الطين المطبوخ بالنار وهو الخزف مستعمل على أصل الاشتقاق ، وهو مبالغة الفاخر كالعلام فى العالم ، وذلك أن التراب الذى من شأنه التفتت إذا صار بحيث يجعل ظرف الماء والمائعات . ولا يتفتت ولا ينقع فكأنه يفخر على أفراد جنسه .

وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٦﴾

ثم قال تعالى ﴿وخلق الجان من مارج من نار ، فبأى آلاء ربكما تكذبان﴾ وفى الجان وجهان (أحدهما) هو أبو الجن كما أن الانسان المذكور هنا هو أبو الإنس وهو آدم (ثانيهما) هو الجن بنفسه فالجان والجن وصفان من باب واحد ، كما يقال ملح ومالح ، أو نقول الجن اسم الجنس كالملح والجان مثل الصفة كالمالح .

﴿وفيه بحث﴾ وهو أن العرب تقول جن الرجل ولا يعلم له فاعل يبنى الفعل معه على المذكور ، وأصل ذلك جنه الجان فهو مجنون ، فلا يذكر الفاعل لعدم العلم به ، ويقتصر على قولهم جن فهو مجنون ، وينبغى أن يعلم أن القائل الأول لا يقول الجان اسم علم لأن الجان للجن كآدم لنا ، وإنما يقول بأن المراد من الجان أبوهم ، كما أن المراد من الإنسان أبونا آدم ، فالأول منا خلق من صلصال ، ومن بعده خلق من صلبه ، كذلك الجن الأول خلق من نار ، ومن بعده من ذريته خلق من مارج ، والمارج المختلط ثم فيه وجهان (أحدهما) أن المارج هو النار المشوبة بدخان (والثانى) النار الصافية والثانى أصح من حيث اللفظ والمعنى (أما اللفظ) فلأنه تعالى قال (من مارج من نار) أى نار مارجة ، وهذا كقول القائل هو مصوغ من مذهب فان قوله من ذهب . فيه بيان تناسب الأخلاط فيكون المعنى الكل من ذهب غير أنه يكون أنواعاً مختلفة مختلطة بخلاف ما إذا قلت هذا قمح مختلط فلك أن تقول مختلط بماذا فيقول من كذا وكذا فلو اقتصر على قوله من قمح وكان منه ومن وغيره أيضاً لكان اقتصاره عليه مختلط بما طلب من البيان (وأما المعنى) فلأنه تعالى كما قال (خلق الانسان من صلصال) أى من طين حر كذلك بين أن خلق الجان من نار خالصة فإن قيل فكيف يصح قوله مارج بمعنى مختلط مع انه خالص ؟ نقول النار إذا قويت التهبت ، ودخل بعضها فى بعض كالشىء الممتزج امتزاجاً جيداً لا تميز فيه بين الأجزاء المختلطة وكأنه من حقيقة واحدة كما فى الطين المختمر ، وذلك يظهر فى التنور المسجور ، إن قرب منه الحطب تحرقه فكذلك مارج بعضها ببعض لا يعقل بين أجزائها دخان وأجزاء أرضية ، وسنبين هذا فى قوله تعالى (مرج البحرين) فان قيل المقصود تعديد النعم على الانسان ، فما وجه بيان خلق الجان ؟ نقول الجواب عنه من وجوه (أحدها) ما بينا أن قوله (ربكما) خطاب مع الانس والجن يعدد عليهما النعم بل على الانسان وحده (ثانيها) أنه بيان فضل الله تعالى على الإنسان ، حيث بين أنه خلق من أصل كثيف كدر ، وخلق الجان من أصل لطيف ، وجعل الإنسان أفضل من الجان فانه إذا نظر إلى أصله ، علم أنه ما نال الشرف إلا بفضل الله تعالى فكيف يكذب بآلاء الله (ثالثها) أن الآية مذكورة لبيان القدرة لا لبيان النعمة ، وكأنه تعالى لما بين النعم الثمانية التى ذكرها فى أول السورة ، فكأنه ذكر الثمانية لبيان خروجها عن العدد الكثير الذى هو سبعة ودخولها فى

رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٨﴾
مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا
تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾

الزيادة التي يدل عليها الثمانية كما بينا وقلنا إن العرب عند الثامن تذكر الواو إشارة إلى أن الثامن من جنس آخر ، فبعد تمام السبعة الأول شرع في بيان قدرته الكاملة ، وقال : هو الذي خلق الإنسان من تراب والجان من نار (فبأي آلاء) الكثيرة المذكورة التي سبقت من السبعة ، والتي دلت عليها الثامنة (تكذبان) وإذا نظرت إلى مادلت عليه ثمانية وإلى قوله (كل يوم هو في شأن فبأي آلاء ربكما تكذبان) يظهر لك صحة ما ذكر أنه بين قدرته وعظمته. ثم يقول فبأي تلك الآلاء التي عددتها أولا تكذبان ، وسنذكر تمامه عند تلك الآيات .

ثم قال تعالى ﴿ رب المشرقين ورب المغربين ، فبأي آلاء ربكما تكذبان ﴾ وفيه وجوه أولها مشرق الشمس والقمر ومغربهما ، والبيان حينئذ في حكم إعادة ماسبق مع زيادة ، لأنه تعالى لما قال (الشمس والقمر بحسبان) دل على أن لهما مشرقين ومغربين ، ولما ذكر (خلق الإنسان علمه البيان) دل على أنه مخلوق من شيء فبين أنه الصلصال (الثاني) مشرق الشتاء ومشرق الصيف فان قيل ما الحكمة في اختصاصهما مع أن كل يوم من ستة أشهر للشمس مشرق ومغرب يخالف بعضها البعض؟ نقول غاية انحطاط الشمس في الشتاء وغاية ارتفاعها في الصيف والإشارة إلى الطرفين تتناول مابينهما فهو كما يقول القائل في وصف ملك عظيم له المشرق والمغرب ويفهم أن له ما بينهما أيضاً (الثالث) التثنية إشارة إلى النوعين الحاصرين كما بينا أن كل شيء فانه ينحصر في قسمين فكأنه قال رب مشرق الشمس ومشرق غيرها فهما مشرقان فتناول الكل ، أو يقال مشرق الشمس والقمر وما يغرض إليهما العاقل من مشرق غيرهما فهو تثنية في معنى الجمع .

قوله تعالى : ﴿ مرج البحرين يلتقيان ، بينهما برزخ لا يبغيان ، فبأي آلاء ربكما تكذبان ﴾ وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ في تعلق الآية بما قبلها فنقول : لما ذكر تعالى المشرق والمغرب وهما حركتان في الفلك ناسب ذلك ذكر البحرين لأن الشمس والقمر يجريان في الفلك كما يجري الإنسان في البحر قال تعالى (وكل في فلك يسبحون) فذكر البحرين عقيب المشرقين والمغربين ولأن المشرقين والمغربين فيهما إشارة إلى البحر لانحصار البر والبحر بين المشرق والمغرب ، لكن البر كان مذكوراً بقوله تعالى (والأرض وضعها) فذكر ههنا مالم يكن مذكوراً .

﴿ المسألة الثانية ﴾ مرج ، إذا كان متعدياً كان بمعنى خلط أو ما يقرب منه فكيف قال تعالى (من مارج من نار) ولم يقل من ممروج ؟ نقول : مرج متعد ومرج بكسر الراء لازم فالمارج والمريج من مرج يمرج كفرح يفرح ، والأصل فى فعل أن يكون غريزياً والأصل فى الغريزى أن يكون لازماً ، ويثبت له حكم الغريزى ، وكذلك فعل فى كثير من المواضع .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ فى البحرين وجوه (أحدها) بحر السماء وبحر الأرض (ثانيها) البحر الحلو والبحر المالح كما قال تعالى (وما يستوى البحران هذا عذاب فرات سائغ شرابه هذا ملح أجاج) وهو أصح وأظهر من الأول (ثالثها) ماذكر فى المشرقين وفى قوله (تكذبان) إنه إشارة إلى النوعين الحاصرين فدخل فيه بحر السماء وبحر الأرض والبحر العذب والبحر المالح ، (رابعها) أنه تعالى خلق فى الأرض بحاراً تحيط بها الأرض وببعض جزائرها يحيط الماء وخلق بحراً محيطاً بالأرض وعليه الأرض وأحاط به الهواء كما قال به أصحاب علم الهيئة وورد به أخبار مشهورة ، وهذه البحار التى فى الأرض لها اتصال بالبحر المحيط ، ثم إنهما لا يبغيان على الأرض ولا يغطيانها بفضل الله تعالى لتكون الأرض بارزة يتخذها الإنسان مكاناً وعند النظر إلى أمر الأرض بحار الطبيعى ويتلجلج فى الكلام ، فان عندهم موضع الأرض بطبعه أن يكون فى المركز ويكون الماء محيطاً بجميع جوانبه ، فإذا قيل لهم فكيف ظهرت الأرض من الماء ولم ترسب يقولون لانجذاب البحار إلى بعض جوانبها ، فإن قيل لماذا انجذب ؟ فالذى يكون عنده قليل من العقل يرجع إلى الحق ويجعله بإرادة الله تعالى ومشيئته ، والذى يكون عديم العقل يجعل سببه من الكواكب وأوضاعها واختلاف مقابلاتها ، وينقطع فى كل مقام مرة بعد أخرى ، وفى آخر الأمر إذا قيل له أوضاع الكواكب لم اختلفت على الوجه الذى أوجب البرد فى بعض الأرض دون بعض آخر صار كما قال تعالى (فبهت الذى كفر) ويرجع إلى الحق إن هداه الله تعالى .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ إذا كان المرج بمعنى الخلط فما الفائدة فى قوله تعالى (يلتقيان) ؟ نقول قوله تعالى (مرج البحرين) أى أرسل بعضهما فى بعض وهما عند الإرسال بحيث يلتقيان أو من شأنهما الاختلاط والالتقاء ولكن الله تعالى منعهما عما فى طبعهما ، وعلى هذا يلتقيان حال من البحرين ، ويحتمل أن يقال من محذوف تقديره تركهما فهما يلتقيان إلى الآن ولا يمتزجان (وعلى الأول) فالفائدة إظهار القدرة فى النفع فانه إذا أرسل الماءين بعضهما على بعض وفى طبعهما بخلق الله وعادته السيلان والالتقاء ويمنعهما البرزخ الذى هو قدرة الله أو بقدرة الله ، يكون أدل على القدرة مما إذا لم يكونا على حال يلتقيان ، وفيه إشارة إلى مسألة حكمية وهى : أن الحكماء اتفقوا على أن الماء له حيز واحد بعضه ينجذب إلى بعض كأجزاء الزئبق غير أن عند الحكماء المحققين ذلك بإجراء الله تعالى ذلك عليه وعند من يدعى الحكمة ولم يوفقه الله من الطبيعيين يقول ذلك له بطبعه ، فقوله (يلتقيان) أى من شأنهما أن يكون مكانهما واحداً ، ثم إنهما بقيا

يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٣﴾

فى مكان متميزين فذلك برهان القدرة والاختيار (وعلى الوجه الثانى) الفائدة فى بيان القدرة أيضاً على المنع من الاختلاط ، فان الماءين إذا تلاقيا لايمتزجان فى الحال بل يبقيان زماناً يسيراً كالماء المسخن إذا غمس إناء مملوء منه فى ماء بارد إن لم يمكث فيه زماناً لايمتزج بالبارد ، لكن إذا دام مجاورتهما فلا بد من الامتزاج فقال تعالى (مرج البحرين) خلاهما ذهاباً إلى أن يلتقيان ولا يمتزجان فذلك بقدرة الله تعالى .

ثم قال تعالى ﴿ بينهما برزخ لايبغيان ﴾ إشارة إلى ما ذكرنا من منعه إياهما من الجريان على عادتهما ، والبرزخ الحاجز وهو قدرة الله تعالى فى البعض وبقدرة الله فى الباقى ، فإن البحرين قد يكون بينهما حاجز أرضى محسوس وقد لا يكون ، وقوله (لا يبغيان) فيه وجهان (أحدهما) من البغى أى لا يظلم أحدهما على الآخر بخلاف قول الطبيعى حيث يقول الماءآن كلاهما جزء واحد ، فقال هما لا يبغيان ذلك (وثانيهما) أن يقال لايبغيان من البغى بمعنى الطلب أى لا يطلبان شيئاً ، وعلى هذا ففيه وجه آخر ، وهو أن يقال إن يبغيان لا مفعول له معين ، بل هو بيان أنهما لايبغيان فى ذاتهما ولا يطلبان شيئاً أصلا ، بخلاف ما يقول الطبيعى أنه يطلب الحركة والسكون فى موضع عن موضع .

قوله تعالى : ﴿ يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان ﴾ وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ فى القراءات التى فيها قرىء يخرج من خرج ويخرج بفتح الراء من أخرج وعلى الوجهين فاللؤلؤ والمرجان مرفوعان ويخرج بكسر الراء بمعنى يخرج الله ونخرج بالنون المضمومة والراء المكسورة ، وعلى القراءتين ينصب اللؤلؤ والمرجان ، اللؤلؤ كبار الدر والمرجان صغاره وقيل المرجان هو الحجر الأحمر .

﴿ المسألة الثانية ﴾ اللؤلؤ لا يخرج إلا من المالح فكيف قال منهما ؟ نقول الجواب عنه من وجهين (أحدهما) أن ظاهر كلام الله تعالى أولى بالاعتبار من كلام بعض الناس الذى لايوثق بقوله ، ومن علم أن اللؤلؤ لايخرج من الماء العذب وهب أن الغواصين ما أخرجوه إلا من المالح وما وجدوه إلا فيه ، لكن لا يلزم من هذا أن لايوجد فى الغير سلمنا لم قلتم أن الصدف يخرج بأمر الله من الماء العذب إلى الماء المالح وكيف يمكن الجزم والأمور الأرضية الظاهرة خفيت عن التجار الذين قطعوا المفاوز وداروا البلاد فكيف لا يخفى أمر ما فى قعر البحر عليهم (ثانيهما) أن نقول إن صح قولهم فى اللؤلؤ إنه لايخرج إلا من البحر المالح فنقول فيه وجوه (أحدها) أن الصدف لايتولد فيه اللؤلؤ إلا من المطر وهو بحر السماء (ثانيها) أنه يتولد فى ملتقاهما ثم يدخل الصدف فى المالح عند انعقاد الدر فيه طالباً للملوحة كالمتوحمة التى تشتهى الملوحة أوائل

وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ ﴿٢٤﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٥﴾

الحمل فيثقل هناك فلا يمكنه الدخول فى العذب (ثالثها) أن ما ذكرتم إنما كان يرد أن لو قال يخرج من كل واحد منهما فأما على قوله (يخرج منهما) لا يرد إذ الخارج من أحدهما مع أن أحدهما مبهم خارج منهما كما قال تعالى (وجعل القمر فيهن نوراً) يقال فلان خرج من بلاد كذا ودخل فى بلاد كذا ولم يخرج إلا من موضع من بيت من محلة فى بلدة (رابعها) أن من ليست لابتداء شىء كما يقال خرجت الكوفة بل لابتداء عقلى كما يقال خلق آدم من تراب ووجدت الروح من أمر الله فكذلك اللؤلؤ يخرج من الماء أى منه يتولد .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ أى نعمة عظيمة فى اللؤلؤ والمرجان حتى يذكرهما الله مع نعمة تعلم القرآن وخلق الإنسان ؟ وفى الجواب قولان (الأول) أن نقول النعم منها خلق الضروريات كالأرض التى هى مكاننا ولولا الأرض لما أمكن وجود التمكين وكذلك الرزق الذى به البقاء ومنها خلق المحتاج إليه وإن لم يكن ضرورياً كأنواع الحبوب وإجراء الشمس والقمر ، ومنها النافع وإن لم يكن محتاجاً إليه كأنواع الفواكه وخلق البحار من ذلك ، كما قال تعالى (والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس) ومنها الزينة وإن لم يكن نافعاً كاللؤلؤ والمرجان كما قال تعالى (وتستخرجون حلية تلبسونها) فالله تعالى ذكر أنواع النعم الأربعة التى تتعلق بالقوى الجسمانية وصدرها بالقوة العظيمة التى هى الروح وهى العلم بقوله (علم القرآن) (والثانى) أن نقول هذه بيان عجائب الله تعالى لا بيان النعم ، والنعم قد تقدم ذكرها هنا ، وذلك لأن خلق الإنسان من صلصال ، وخلق الجان من نار ، من باب العجائب لا من باب النعم ، ولو خلق الله الانسان من أى شىء خلقه لكان إنعاماً ، إذا عرفت هذا فنقول : الأركان أربعة ، التراب والماء والهواء والنار فالله تعالى بين بقوله (خلق الإنسان من صلصال) أن الانسان خلقه من تراب وطين . وبين بقوله (خلق الجان من مارج من نار) أن النار أيضاً أصل لمخلوق عجيب ، وبين بقوله (يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان) أن الماء أصل لمخلوق آخر ، كالحيوان عجيب ، بقى الهواء لكنه غير محسوس ، فلم يذكر أنه أصل مخلوق بل بين كونه منشأ للجوارى فى البحر كالأعلام .

فقال ﴿ وله الجوار المنشآت فى البحر كالأعلام ، فبأى آلاء ربكما تكذبان ﴾ وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ ماالفائدة فى جعل الجوارى خاصة له . وله السموات ومافيها والأرض وما عليها ؟ نقول هذا الكلام مع العوام ، فذكر مالا يغفل عنه من له أدنى عقل فضلا عن الفاضل الذكى ، فقال : لاشك أن الفلك فى البحر لا يملكه فى الحقيقة أحد إذ لا تصرف لأحد فى هذا الفلك . وإنما كلهم منتظرون رحمة الله تعالى معترفون بأن أموالهم وأرواحهم فى قبضة قدرة الله تعالى . وهم فى ذلك يقولون لك الفلك ولك الملك . وينسبون البحر والفلك إليه ، ثم إذا خرجوا ونظروا إلى

بيوتهم المبنية بالحجارة والكلس وخفي عليهم وجوه الهلاك ، يدعون مالك الفلك ، وينسبون ماكانوا ينسبون البحر والفلك إليه ، وإليه الإشارة بقوله (إذا ركبوا فى الفلك) الآية .

﴿ المسألة الثانية ﴾ (الجوارى) جمع جارية ، وهى اسم للسفينة أو صفة ، فإن كانت اسماً لزم الإشتراك والأصل عدمه ، وإن كانت صفة الأصل أن تكون الصفة جارية على الموصوف ، ولم يذكر الموصوف هنا ، فنقول الظاهر أن تكون صفة للتى تجرى ونقل عن الميدانى أن الجارية السفينة التى تجرى لما أنها موضوعة للجرى ، وسميت المملوكة جارية لأن الحرة تراد للسكن والازدواج ، والمملوكة لتجرى فى الحوائج ، لكنها غلبت السفينة ، لأنها فى أكثر أحوالها تجرى ، ودل العقل على ماذكرنا من أن السفينة هى التى تجرى . غير أنها غلبت بسبب الاشتقاق على السفينة الجارية ، ثم صار يطلق عليها ذلك وإن لم تجر ، حتى يقال للسفينة الساكنة أو المشدودة على ساحل البحر جارية ، لما أنها تجرى ، وللمملوكة الجالسة جارية للغلبة ، ترك الموصوف ، وأقيمت الصفة مقامه فقوله تعالى (وله الجوار) أى السفن الجاريات ، على أن السفينة أيضاً فعيلة من السفن وهو النحت ، وهى فعيلة بمعنى فاعلة عند ابن دريد أى تسفن الماء ، أو فعيلة بمعنى مفعولة عند غيره بمعنى منحوتة فالجارية والسفينة جاريتان على الفلك (وفيه لطيفة لفظية) وهى أن الله تعالى لما أمر نوحا عليه السلام باتخاذ السفينة ، قال (واصنع الفلك بأعيننا) فى أول الأمر قال لها الفلك لأنها بعد لم تكن جرت ، ثم سماها بعد ما عملها سفينة كما قال تعالى (فأنجيناه وأصحاب السفينة) وسماها جارية كما قال تعالى (إنا لما طغى الماء حملناكم فى الجارية) وقد عرفنا أمر الفلك وجريها وصارت كالمسماة بها ، فالفلك قبل الكل ، ثم السفينة ثم الجارية .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ ما معنى المنشآت ؟ نقول فيه وجهان (أحدهما) المرفوعات من نشأت السحابة إذا ارتفعت ، وأنشأ الله إذا رفعه وحينئذ إما هى بأنفسها مرتفعة فى البحر ، وإما مرفوعات الشراع (وثانيهما) المحدثات الموجودات من أنشأ الله المخلوق أى خلقه فإن قيل الوجه الثانى بعيد لأن قوله (فى البحر كالأعلام) متعلق بالمنشآت فكأنه قال وله الجوارى التى خلقت فى البحر كالأعلام ، وهذا غير مناسب ، وأما على الأول فيكون كأنه قال : الجوارى التى رفعت فى البحر كالأعلام ، وذلك جيد والدليل على صحة ما ذكرنا أنك تقول الرجل الجرىء فى الحرب كالأسد فيكون حسناً ، ولو قلت الرجل العالم بدل الجرىء فى الحرب كالأسد لا يكون كذلك ، نقول إذا تأملت فيما ذكرنا من كون الجارية صفة أقيمت مقام الموصوف ، كان الإنشاء بمعنى الخلق لا ينافى قوله (فى البحر كالأعلام) لأن التقدير حينئذ له السفن الجارية فى البحر كالأعلام ، فيكون أكثر بياناً للقدرة كأنه قال : له السفن التى تجرى فى البحر كالأعلام ، أى كأنها الجبال والجبال لا تجرى إلا بقدرة الله تعالى ، فالأعلام جمع العلم الذى هو الجبل وأما الشراع المرفوع كالعلم الذى هو معروف ، فلا عجب فيه ، وليس العجب فيه كالعجب فى جرى الجبل فى الماء وتكون المنشآت

كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾

معروفة ، كما أنك تقول : الرجل الحسن الجالس كالقمر فيكون متعلق قولك كالقمر الحسن لا الجالس فيكون منشأ للقدرة ، إذ السفن كالجبال والجبال لا تجرى إلا بقدرة الله تعالى .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قرىء المنشآت بكسر الشين ، ويحتمل حينئذ أن يكون قوله كالأعلام ، يقوم مقام الجملة ، والجوارى معرفة ولا توصف المعارف بالجمل ، فلا تقول الرجل كالأسد جاءنى ولا الرجل هو أسد جاءنى ، وتقول رجل كالأسد جاءنى ، ورجل هو أسد جاءنى . فلا تحمل قراءة الفتح إلا على أن يكون حالا وهو على وجهين (أحدهما)أن تجعل الكاف اسماً فيكون كأنه قال الجوارى المنشآت شبه الأعلام (ثانيهما) يقدر حالا هذا شبهه كأنه يقول كالأعلام ويدل عليه قوله (فى موج كالجبال) .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ فى جمع الجوارى وتوحيد البحر وجمع الأعلام فائدة عظيمة ، وهى أن ذلك إشارة إلى عظمة البحر ، ولو قال فى البحار لكانت كل جارية فى بحر ، فيكون البحر دون بحر يكون فيه الجوارى التى هى كالجبال ، وأما إذا كان البحر واحداً وفيه الجوارى التى هى كالجبال يكون ذلك بحراً عظيما وساحله بعيداً فيكون الإنجاء بقدرة كاملة .

ثم قال تعالى ﴿ كل من عليها فان ﴾ وفيه وجهان(أحدهما)وهو الصحيح أن الضمير عائد إلى الأرض ، وهى معلومة وإن لم تكن مذكورة قال تعالى(ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا)الآية وعلى هذا فله ترتيب فى غاية الحسن ، وذلك لأنه تعالى لما قال(وله الجوار المنشآت)إشارة إلى أن كل أحد يعرف ويجزم بأنه إذا كان فى البحر فروحه وجسمه وماله فى قبضة الله تعالى فإذا خرج إلى البر ونظر إلى الثبات الذى للأرض والتمكن الذى له فيها نسي أمره فذكره وقال لا فرق بين الحالتين بالنسبة إلى قدرة الله تعالى وكل من على وجه الأرض فإنه كمن على وجه الماء ، ولو أمعن العاقل النظر لكان رسوب الأرض الثقيلة فى الماء الذى هى عليه أقرب إلى العقل من رسوب الفلك الخفيفة فيه(الثانى)أن الضمير عائد إلى الجارية إلا أنه بضرورة ما قبلها كأنه تعالى قال الجوارى ولا شك فى أن كل من فيها إلى الفناء أقرب ، فكيف يمكنه إنكار كونه فى ملك الله تعالى وهو لا يملك لنفسه فى تلك الحالة نفعاً ولا ضراً قوله تعالى : ﴿ ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام ﴾ يدل على أن الصحيح الأول وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ من للعقلاء وكل ما على وجه الأرض مع الأرض فان ، فما فائدة الاختصاص بالعقلاء ؟ نقول المنتفع بالتخويف هو العاقل فخصه تعالى بالذكر .

﴿ المسألة الثانية ﴾ الفانى هو الذى فنى وكل من عليها سيفنى فهو باق بعد ليس بفان ، نقول كقوله (إنك ميت) وكما يقال للقريب إنه واصل ، وجواب آخر : وهو أن وجود الإنسان

وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٨﴾

عرض وهو غير باق وما ليس بباق فهو فان ، فأمر الدنيا بين شيئين حدوث وعدم ، أما البقاء فلا بقاء له لأن البقاء استمرار ؛ ولا يقال هذا تثبيت بالمذهب الباطل الذي هو القول بأن الجسم لا يبقى زمانين كما قيل في العرض ، لأنا نقول قوله من بدل قوله ما ينفي ذلك التوهم لأني قلت من عليها فان لا بقاء له ، وما قلت ما عليها فان ، ومن مع كونه على الأرض يتناول جسما قام به أعراض بعضها الحياة والأعراض غير باقية ، فالمجموع لم يبق كما كان وإنما الباقي أحد جزأيه وهو الجسم وليس يطلق عليه بطريق الحقيقة لفظة من ، فالفاني ليس ما عليها ومن عليها ليس بباق .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ ما الفائدة في بيان أنه تعالى قال (فان) ؟ نقول فيه فوائد (منها) الحث على العبادة وصرف الزمان اليسير إلى الطاعة ، (ومنها) المنع من الوثوق بما يكون للمرء فلا يقول إذا كان في نعمة إنها لن تذهب فيترك الرجوع إلى الله معتمداً على ماله وملكه ، (ومنها) الأمر بالصبر إن كان في ضر فلا يكفر بالله معتمداً على أن الأمر ذاهب والضر زائل ، (ومنها) ترك اتخاذ الغير معبوداً والزجر على الاغترار بالقرب من الملوك وترك التقرب إلى الله تعالى فإن أمرهم إلى الزوال قريب فيبقى القريب منهم عن قريب في ندم عظيم ، لأنه إن مات قبلهم يلقى الله كالعبد الآبق ، وإن مات الملك قبله فيبقى بين الخلق وكل أحد ينتقم منه ويتشفى فيه ، ويستحي ممن كان يتكبر عليه وإن ماتا جميعا فلقاء الله عليه بعد التوفي في غاية الصعوبة ، (ومنها) حسن التوحيد وترك الشرك الظاهر والخفي جميعاً لأن الفاني لا يصلح لأن يعبد .

قوله تعالى : ﴿ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام ، فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾ وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ الوجه يطلق على الذات والمجسم يحمل الوجه على العضو وهو خلاف العقل والنقل أعني القرآن لأن قوله تعالى (كل شيء هالك إلا وجهه) يدل على أن لا يبقى إلا وجه الله تعالى ، فعلى القول الحق لا إشكال فيه لأن المعنى لا يبقى غير حقيقة الله أو غير ذات الله شيء وهو كذلك ، وعلى قول المجسم يلزم أن لا تبقى يده التي أثبتها ورجله التي قال بها ، لا يقال : فعلى قولكم أيضاً يلزم أن لا يبقى علم الله ولا قدرة الله ، لأن الوجه جعلتموه ذاتاً ، والذات غير الصفات فإذا قلت كل شيء هالك إلا حقيقة الله خرجت الصفات عنها فيكون قولكم نفياً للصفات ، نقول الجواب عنه بالعقل والنقل ، أما النقل فذلك أمر يذكر في غير هذا الموضع ، وأما العقل فهو أن قول القائل : لم يبق لفلان إلا ثوب يتناول الثوب وما قام به من اللون والطول والعرض ، وإذا قال لم يبق إلا كمه لا يدل على بقاء جيبه وذيله ، فكذلك قولنا يبقى ذات الله تعالى يتناول صفاته وإذا قلتم لا يبقى غير وجهه بمعنى العضو يلزمه أن لا تبقى يده .

﴿ المسألة الثانية ﴾ فما السبب فى حسن إطلاق لفظ الوجه على الذات ؟ نقول إنه مأخوذ من عرف الناس ، فان الوجه يستعمل فى العرف لحقيقة الإنسان ، ألا ترى أن الإنسان إذا رأى وجه غيره يقول رأيته ، وإذا رأى غير الوجه من اليد والرجل مثلا لا يقول رأيته ، وذلك لأن اطلاع الإنسان على حقائق الأشياء فى أكثر الأمر يحصل بالحس ، فإن الإنسان إذا رأى شيئاً علم منه مالم يكن يعلم حال غيبته ، لأن الحس لا يتعلق بجميع المرئى وإنما يتعلق ببعضه ، ثم إن الحس يدرك والحدس يحكم فإذا رأى شيئاً بحسه يحكم عليه بأمر بحدسه ، لكن الإنسان اجتمع فى وجهه أعضاء كثيرة كل واحد يدل على أمر ، فإذا رأى الإنسان وجه الإنسان حكم عليه بأحكام ماكان يحكم بها لولا رؤيته وجهه ، فكان أدل على حقيقة الإنسان وأحكامه من غيره ، فاستعمل الوجه فى الحقيقة فى الانسان ثم نقل إلى غيره من الأجسام ، ثم نقل إلى ماليس بجسم ، يقال فى الكلام هذا وجه حسن وهذا وجه ضعيف ، وقول من قال إن الوجه من المواجهة كما هو المسطور فى البعض من الكتب الفقهية فليس بشىء إذ الأمر على العكس ، لأن الفعل من المصدر والمصدر من الاسم الأصلى وإن كان بالنقل ، فالوجه أول ماوضع للعضو ثم استعمل واشتق منه غيره ، ويعرف ذلك العارف بالتصريف البارع فى الأدب .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ لو قال : ويبقى ربك أو الله أو غيره لحصلت الفائدة من غير وقوع فى توهم ما هو ابتدع ، نقول : ماكان يقوم مقام الوجه لفظ آخر ولا وجه فيه إلا ما قاله الله تعالى ، وذلك لأن سائر الأسماء المعروفة لله تعالى أسماء الفاعل كالرب والخالق والله عند البعض بمعنى المعبود ، فلو قال : ويبقى ربك ربك ، وقولنا ربك معنيان عند الاستعمال أحدهما أن يقال شىء من كل ربك ، ثانيهما أن يقال يبقى ربك مع أنه حالة البقاء ربك فيكون المربوب فى ذلك الوقت ، وكذلك لو قال يبقى الخالق والرازق وغيرهما .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ ما الحكمة فى لفظ الرب وإضافة الوجه إليه ، وقال فى موضع آخر : (فأينما تولوا فثم وجه الله) وقال (يريدون وجه الله) ؟ نقول المراد فى الموضعين المذكورين هو العبادة . أما قوله (فثم وجه الله) فظاهر لأن المذكور هناك الصلاة ، وأما قوله (يريدون وجه الله) فالمذكور هو الزكاة قال تعالى من قبل (فآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل) (ذلك خير للذين يريدون وجه الله) ولفظ الله يدل على العبادة ، لأن الله هو المعبود، والمذكور فى هذا الموضع النعم التى بها تربية الإنسان فقال (وجه ربك) .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ الخطاب بقوله ربك مع من ؟ نقول الظاهر أنه مع كل أحد كأنه يقول ويبقى وجه ربك أيها السامع ، ويحتمل أن يكون الخطاب مع محمد صلى الله عليه وسلم ، فإن قيل فكيف قال (فبأى آلاء ربكما تكذبان) خطاباً مع الاثنين ، وقال (وجه ربك) خطاباً مع الواحد ؟ نقول عند قوله (ويبقى وجه ربك) وقعت الإشارة إلى فناء كل أحد ، وبقاء الله فقال

وجه ربك أى يا أيها السامع فلا تلتفت إلى أحد غير الله تعالى ، فإن كل من عداه فان ، والمخاطب كثيراً ما يخرج عن الإرادة فى الكلام ، فإنك إذا قلت لمن يشكو إليك من أهل موضع سأعاقب لأجلك كل من فى ذلك الموضع . يخرج المخاطب عن الوعيد ، وإن كان من أهل الموضع فقال : (ويبقى وجه ربك) ليعلم كل أحد أن غيره فان ، ولو قال وجه ربكما لكان كل واحد يخرج نفسه ورفيقه المخاطب من الفناء ، فإن قلت : لو قال ويبقى وجه الرب من غير خطاب كان أدل على فناء الكل ؟ نقول كأن الخطاب فى الرب إشارة إلى اللطف والإبقاء إشارة إلى القهر ، والموضع موضع بيان اللطف وتعديد النعم ، فلو قال بلفظ الرب لم يدل عليه الخطاب ، وفى لفظ الرب عادة جارية وهى أنه لا يترك استعماله مع الإضافة . فالعبد يقول : ربنا اغفر لنا ، ورب اغفر لى ، والله تعالى يقول (ربكم ورب آبائكم ، ورب العالمين) وحيث ترك الإضافة ذكره مع صفة أخرى من أوصاف اللطف ، حيث قال تعالى (بلدة طيبة ورب غفور) وقال تعالى (سلام قولا من رب رحيم) ولفظ الرب يحتمل أن يكون مصدراً بمعنى التربية ، يقال ربه يربه ربا مثل رباه يربيه ، ويحتمل أن يكون وصفاً من الرب الذى هو مصدر بمعنى الراب كالطب للطبيب ، والسمع للحاسة ، والبخل للبخيل ، وأمثال ذلك لكن من باب فعل ، وعلى هذا فيكون كأنه فعل من باب فعل يفعل أى فعل الذى للغريزى كما يقال فيما إذا قلنا : فلان أعلم وأحكم ، فكان وصفاً له من باب فعل اللازم ليخرج عن التعدى .

﴿ المسألة السادسة ﴾ (الجلال) إشارة إلى كل صفة من باب النفى ، كقولنا : الله ليس بجسم ولا جوهر ولا عرض ، ولهذا يقال جل أن يكون محتاجاً ، وجل أن يكون عاجزاً ، والتحقيق فيه أن الجلال هو بمعنى العظمة غير أن العظمة أصلها فى القوة ، والجلال فى الفعل ، فهو عظيم لا يسعه عقل ضعيف فجل أن يسعه كل فرض معقول (والإكرام) إشارة إلى كل صفة هى من باب الإثبات ، كقولنا حى قادر عالم ، وأما السميع والبصير فإنهما من باب الإثبات كذلك عند أهل السنة ، وعند المعتزلة من باب النفى ، وصفات باب النفى قبل صفات باب الإثبات عندنا ، لأنا أولا نجد الدليل وهو العالم فنقول ، العالم محتاج إلى شىء وذلك الشىء ليس مثل العالم فليس بمحدث ولا محتاج ، ولا ممكن ، ثم نثبت له القدرة والعلم وغيرهما . ومن هنا قال تعالى لعباده (لا إله إلا الله) وقال صلى الله عليه وسلم « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله » ونفى الإلهية عن غير الله ، نفى صفات غير الله عن الله ، فإنك إذا قلت الجسم ليس بإله لزم منه قولك الله ليس بجسم و(الجلال والإكرام) وصفان مرتبان على أمرين سابقين ، فالجلال مرتب على فناء الغير والإكرام على بقائه تعالى ، فيبقى الفرد وقد عز أن يحد أمره بفناء من عداه وما عداه ، ويبقى وهو مكرم قادر عالم فيوجد بعد فنائهم من يريد ، وقرىء : ذو الجلال ، وذى الجلال . وسنذكر ما يتعلق به فى تفسير آخر السورة إن شاء الله تعالى .

يَسْئَلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴿٢٩﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٠﴾

قوله تعالى : ﴿ يسأله من فى السموات والأرض كل يوم هو فى شأن فبأى آلاء ربكما تكذبان ﴾ وفيه وجهان (أحدهما) أنه حال تقديره (يبقى وجه ربك) مسئولا وهذا منقول معقول ، وفيه إشكال . وهو أنه يفضى إلى التناقض لأنه لما قال (ويبقى وجه ربك) كان إشارة إلى بقائه بعد فناء من على الأرض ، فكيف يكون فى ذلك الوقت مسئولا لمن فى الأرض ؟ فأما إذا قلنا الضمير عائد إلى [الأمور] الجارية [فى يومنا] فلا إشكال فى هذا الوجه ، وأما على الصحيح فنقول عنه أجوبة (أحدها) لما بينا أنه فان نظراً إليه ولا يبقى إلا بإبقاء الله ، فيصح أن يكون الله مسئولا (ثانيها) أن يكون مسئولا معنى لا حقيقة ، لأن الكل إذا فنوا ولم يكن وجود إلا بالله ، فكأن القوم فرضوا سائلين بلسان الحال (ثالثها) أن قوله (ويبقى) للاستمرار فيبقى ويعيد من كان فى الأرض ويكون مسئولا (والثانى) أنه ابتداء كلام وهو أظهر وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ ماذا يسأله السائلون ؟ فنقول يحتمل وجوها (أحدها) أنه سؤال استعطاء . فيسأله كل أحد الرحمة وما يحتاج إليه فى دينه ودنياه (ثانيها) أنه سؤال استعلام أى عنده علم الغيب لا يعلمه إلا هو ، فكل أحد يسأله عن عاقبة أمره وعما فيه صلاحه وفساده . فإن قيل : ليس كل أحد يعترف بجهله وعلم الله . نقول هذا كلام فى حقيقة الأمر من جاهل ، فإن كان من جاهل معاند فهو فى الوجه الأول أيضاً وارد ، فإن من المعاندين من لا يعترف بقدرة الله فلا يسأله شيئاً بلسانه وإن كان يسأله بلسان حاله لإمكانه ، والوجه الأول إشارة إلى كمال القدرة أى كل أحد عاجز عن تحصيل ما يحتاج إليه . والوجه الثانى إشارة إلى كمال العلم أى كل أحد جاهل بما عندالله من المعلومات (ثالثها) أن ذلك سؤال استخراج ، أمر . وقوله (من فى السموات والأرض) أى من الملائكة يسألونه كل يوم ويقولون : إلهنا ماذا نفعل وبماذا تأمرنا ، وهذا يصلح جواباً آخر عن الإشكال على قول من قال يسأله حال لأنه يقول قال تعالى (كل من عليها فان) ومن عليها تكون الأرض مكانه ومعتمده ولولاها لا يعيش . وأما من فيها من الملائكة الأرضية فهم فيها وليسوا عليها ولا تضرهم زلزلتها ، فعند ما يفنى من عليها ويبقى الله تعالى لا يفنى هؤلاء فى تلك الحال فيسألونه ويقولون ماذا نفعل فيأمرهم بما يأمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، ثم يقول لهم عند ما يشاء موتوا فيموتوا . هذا على قول من قال (يسأله) حال وعلى الوجه الآخر لا إشكال .

﴿ المسألة الثانية ﴾ هو عائد إلى من ؟ نقول الظاهر المشهور أنه عائد إلى الله تعالى وعليه اتفاق المفسرين ، ويدل عليه ما روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه سئل عن ذلك الشأن فقال « يغفر

ذنباً ويفرج كرباً ، ويرفع من يشاء ويضع من يشاء » ويحتمل أن يقال هو عائد إلى يوم و (كل يوم) ظرف سؤالهم أى يقع سؤالهم فى كل يوم وهو فى شأن يكون جملة وصف بها يوم وهو نكرة كما يقال يسألنى فلان كل يوم هو يوم راحتى أى يسألنى أيام الراحة ، وقوله (هو فى شأن) يكون صفة مميزة للأيام التى فيها شأن عن اليوم الذى قال تعالى فيه (لمن الملك اليوم لله الواحد القهار) فإنه تعالى فى ذلك اليوم يكون هو السائل وهو المجيب ، ولا يسأل فى ذلك اليوم لأنه ليس يوماً هو فى شأن يتعلق بالسائلين من الناس والملائكة وغيرهم ، وإنما يسألونه فى يوم هو فى شأن يتعلق بهم فيطلبون ما يحتاجون إليه أو يستخرجون أمره بما يفعلون فيه ، فإن قيل فهذا ينافى ما ورد فى الخبر ، نقول لا منافاة لقوله عليه السلام فى جواب من قال : ماهذا الشأن ؟ فقال « يغفر ذنباً [ويفرج كرباً] » أى فالله تعالى جعل بعض الأيام موسومة بوسم يتعلق بالخلق من مغفرة الذنوب والتفريج عن المكروب فقال تعالى (يسأله من السموات والأرض) فى تلك الأيام التى فى ذلك الشأن وجعل بعضها موسومة بأن لا داعى فيها ولا سائل ، وكيف لا نقول بهذا ، ولو تركنا كل يوم على عمومه لكان كل يوم فيه فعل وأمر وشأن فيفضى ذلك إلى القول بالقدم والدوام ، اللهم إلا أن يقال عام دخله التخصيص كقوله تعالى (وأوتيت من كل شىء) و (تدمر كل شىء) .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ فعلى المشهور يكون الله تعالى فى كل يوم ووقت فى شأن ، وقد جف القلم بما هو كائن ، نقول فيه أجوبة منقولة فى غاية الحسن فلا نبخل بها وأجوبة معقولة نذكرها بعدها (أما المنقولة) فقال بعضهم المراد سوق المقادير إلى المواقيت ، ومعناه أن القلم جف بما يكون فى كل [يوم و] وقت ، فإذا جاء ذلك الوقت تعلقت إرادته بالفعل فيه فيوجد ، وهذا وجه حسن لفظاً ومعنى وقال بعضهم : شؤون يبديها لا شؤون يبتديها ، وهو مثل الأول معنى ، أى لا يتغير حكمه بأنه سيكون ولكن يأتى وقت قدر الله فيه فعله فيبدو فيه ما قدره الله ، وهذان القولان ينسبان إلى الحسين بن الفضل أجاب بهما عبد الله بن طاهر وقال بعضهم (يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل ، ويخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى) ويشفى سقيماً ويمرض سليماً ، ويعز ذليلا ويذل عزيزاً ، إلى غير ذلك وهو مأخوذ من قوله عليه السلام « يغفر ذنباً ويفرج كرباً » وهو أحسن وأبلغ حيث بين أمرين أحدهما يتعلق بالآخرة والآخر بالدنيا ، وقدم الأخروى على الدنيوى (وأما المعقولة) فهى أن نقول هذا بالنسبة إلى الخلق ، ومن يسأله من أهل السموات والأرض لأنه تعالى حكم بما أراد وقضى وأبرم فيه حكمه وأمضى ، غير أن ما حكمه يظهر كل يوم ، فنقول أبرم الله اليوم رزق فلان ولم يرزقه أمس ، ولا يمكن أن يحيط علم خلقه بما أحاط به علمه ، فتسأله الملائكة كل يوم إنك يا إلهنا فى هذا اليوم فى أى شأن فى نظرنا وعلمنا (الثانى) هو أن الفعل يتحقق بأمرين من جانب الفاعل بأمر خاص ، ومن جانب المفعول فى بعض الأمور ، ولا يمكن غيره وعلى وجه يختاره الفاعل من وجوه متعددة (مثال الأول) تحريك الساكن لا يمكن إلا بإزالة السكون

سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٢﴾

عنه والإتيان بالحركة عقيبه من غير فصل (ومثال الثانى) تسكين الساكن فإنه يمكن مع إبقاء السكون فيه ومع إزالته عقيبه من غير فصل أو مع فصل، إذ يمكن أن يزيل عنه السكون ولا بحركه مع بقاء الجسم ، إذا عرفت هذا فالله تعالى خلق الأجسام الكثيرة فى زمان واحد وخلق فيها صفات مختلفة فى غير ذلك الزمان ، فإيجادها فيه لا فى زمان آخر بعد ذلك الزمان . فمن خلقه فقيراً فى زمان لم يمكن خلقه غنياً فى عين ذلك الزمان مع خلقه فقيراً فيه وهذا ظاهر ، والذى يظن أن ذلك يلزم منه العجز أو يتوهم فليس كذلك بل العجز فى خلاف ذلك لأنه لو خلقه فقيراً فى زمان يريد كونه غنياً لما وقع الغنى فيه مع أنه أراده ، فيلزم العجز من خلاف ما قلنا لا فيما قلنا ، فإذن كل زمان هو غير الزمان الآخر فهو معنى قوله (كل يوم هو فى شأن) وهو المراد من قول المفسرين أغنى فقيراً وافقر غنياً ، وأعز ذليلا وأزل عزيزاً ، إلى غير ذلك من الأضداد . ثم اعلم أن الضدين ليسا منحصرين فى مختلفين بل المثلان فى حكمهما فإنهما لا يجتمعان ، فمن وجد فيه حركة إلى مكان فى زمان لا يمكن أن توجد فيه فى ذلك الزمان حركة أخرى إيضاً إلى ذلك المكان ، وليس شأن الله مقتصراً على إفقار غنى أو إغناء فقير فى يومنا دون إفقاره أو إغنائه أمس ، ولا يمكن أن يجمع فى زيد إغناء هو أمسى مع إغناء هو يومى ، فالغنى المستمر للغنى فى نظرنا فى الأمر متبدل الحال ، فهو أيضاً من شأن الله تعالى ، واعلم أن الله تعالى يوصف بكونه : لا يشغله شأن عن شأن ، ومعناه أن الشأن الواحد لا يصير مانعاً له تعالى عن شأن آخر كما أنه يكون مانعاً لنا ، مثاله : واحد منا إذا أراد تسويد جسم بصبغة يسخنه بالنار أو تبييض جسم يبرده بالماء . والماء والنار متضادان إذا طلب منه أحدهما وشرع فيه يصير ذلك مانعاً له من فعل الآخر ، وليس ذلك الفعل مانعاً من الفعل لأن تسويد جسم وتبييض آخر لا تنافى بينهما ، وكذلك تسخينه وتسويده بصبغة لا تنافى فيه ، فالفعل صار مانعاً للفاعل من فعله ولم يصر مانعاً من الفعل ، وفى حق الله ما لا يمنع الفعل لا يمنع الفاعل ، فيوجد تعالى من الأفعال المختلفة مالا يحصر ولا يحصى فى آن واحد ، أما ما يمنع من الفعل كالذى يسود جسما فى آن لم يمكنه أن يبيضه فى ذلك الآن ، فهو قد يمنع الفاعل أيضاً وقد لا يمنع ولكن لا بد من منعه للفاعل ، فالتسويد لا يمكن معه التبييض ، والله تعالى لا يشغله شأن عن شأن أصلا لكن أسبابه تمنع أسباباً أخر لا تمنع الفاعل . إذا علمت هذا البحث فقد أفادك .

التحقيق فى قوله تعالى ﴿ سنفرغ لكم أيها الثقلان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان ﴾ ولنذكر أولا ماقيل فيه تبركا بأقوال المشايخ ثم نحققه بالبيان الشافى ، فنقول اختلف المفسرون فيه وأكثرهم على أن المراد سنقصدكم بالفعل، وقال بعضهم خرج ذلك مخرج التهديد على ماهى عادة استعمال الناس ،

فإن السيد يقول لعبده عند الغضب سأفرغ لك ، وقد يكون السيد فارغاً جالساً لايمنعه شغل ، وأما التحقيق فيه ، فنقول عدم الفراغ عبارة عن أن يكون الفاعل فى فعل لا يمكنه معه إيجاد فعل آخر فإن من يخيط يقول ما أنا بفارغ للكتابة ، لكن عدم الفراغ قد يكون لكون أحد الفعلين مانعاً للفاعل من الفعل الآخر ، يقال هو مشغول بكذا عن كذا كما فى قول القائل أنا مشغول بالخياطة عن الكتابة ، وقد يكون عدم الفراغ لكون الفعل مانعاً من الفعل لا لكونه مانعاً من الفاعل كالذى يحرك جسما فى زمان لا يمكن تسكينه فى ذلك الزمان فهو ليس بفارغ للتسكين ، ولكن لايقال فى مثل هذا الوقت أنا مشغول بالتحريك عن التسكين . فان فى مثل هذا الموضع لو كان غير مشغول به بل كان فى نفس المحل حركة لابفعل ذلك الفاعل لا يمكنه التسكين فليس امتناعه منه إلا لاستحالته بالتحريك ، وفى الصورة الأولى لولا اشتغاله بالخياطة لتمكن من الكتابة ، إذا عرفت هذا صار عدم الفراغ قسمين (أحدهما) بشغل والآخر ليس بشغل ، فنقول إذا كان الله تعالى باختياره أوجد الإنسان وأبقاه مدة أرادها بمحض القدرة والإرادة لا يمكن مع هذا إعدامه ، فهو فى فعل لا يمنع الفاعل لكن يمنع الفعل ومثل هذا بينا أنه ليس بفراغ ، وإن كان له شغل ، فإذا أوجد ما أراد أولا ثم بعد ذلك أمكن الإعدام والزيادة فى آنه فيتحقق الفراغ لكن لما كان للانسان مشاهدة مقتصرة على أفعال نفسه وأفعال أبناء جنسه وعدم الفراغ منهم بسبب الشغل يظن أن الله تعالى فارغ فحمل الخلق عليه أنه ليس بفارغ ، فيلزم منه الفعل وهو لا يشغله شأن عن شأن يلزمه حمل اللفظ على غير معناه ، واعلم أن هذا ليس قولا آخر غير قول المشايخ ، بل هو بيان لقولهم سنقصدكم ، غير أن هذا مبين ، والحمد لله على أن هدانا للبيان من غير خروج عن قول أرباب اللسان . واعلم أن أصل الفراغ بمعنى الخلو لكن ذلك إن كان فى المكان فيتسع ليتمكن آخر ، وإن كان فى الزمان فيتسع للفعل ، فالأصل أن زمان الفاعل فارغ عن فعله وغير فارغ لكن المكان مرئى بالخلو فيه ، فيطلق الفراغ على خلو المكان فى الظرف الفلانى والزمان غير مرئى ، فلا يرى خلوه . ويقال فلان فى زمان كذا فارغ لأن فلانا هو المرئى لا الزمان والأصل أن هذا الزمان من أزمنة فلان فارغ فيمكنه وصفه للفعل فيه ، وقوله تعالى (سنفرغ لكم) استعمال على ملاحظة الأصل ، لأن المكان إذا خلا يقال لكذا ولا يقال إلى كذا فكذلك الزمان لكن لما نقل إلى الفاعل وقيل الفاعل على فراغ وهو عند الفراغ يقصد إلى شىء آخر قيل فى الفاعل فرغ من كذا إلى كذا ، وفى الظرف يقال فرغ من كذا لكذا فقال لكم على ملاحظة الأصل ، وهو يقوى ما ذكرنا أن المانع ليس بالنسبة إلى الفعل بل بالنسبة إلى الفعل . وأما أيها فنقول الحكمة فى نداء المبهم والإتيان بالوصف بعده هى أن المنادى يريد صون كلامه عن الضياع ، فيقول أولا يا أى نداء لمبهم ليقبل عليه كل من يسمع ويتنبه لكلامه من يقصده ، ثم عند إقبال السامعين يخصص المقصود فيقول الرجل والتزم فيه أمران (أحدهما) الوصف بالمعرف باللام أو باسم الإشارة ، فتقول يا أيها الرجل

يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ﴿٣٣﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٤﴾

أو ياأيهذا لا الأعرف منه وهو العلم ، لأن بين المبهم الواقع على كل جنس والعلم المميز عن كل شخص تباعداً (وثانيهما) توسط ها التنبيه بينه وبين الوصف . لأن الأصل فى أى الإضافة لما أنه فى غاية الإبهام فيحتاج إلى التمييز ، وأصل التمييز على ما بينا الإضافة ، فوسط بينهما لتعويضه عن الإضافة ، والتزم أيضاً حذف لام التعريف عند زوال أى . فلا تقول يا الرجل لأن فى ذلك تطويلا من غير فائدة ، فانك لا تفيد باللام التنبيه الذى ذكرنا ، فقولك يارجل مفيد فلا حاجة إلى اللام فهو يوجب اسقاط اللام عند الإضافة المعنوية ، فاما لما أفادت التعريف كان إثبات اللام تطويلا من غير فائدة لكونه جمعاً بين المعرفين ، وقوله تعالى (الثقلان) المشهور أن المراد الجن والإنس وفيه وجوه (أحدها) أنهما سميا بذلك لكونهما مثقلين بالذنوب (ثانيها) سميا بذلك لكونهما ثقيلين على وجه الأرض فان التراب وإن لطف فى الخلق ليتم خلق آدم لكنه لم يخرج عن كونه ثقيلا ، وأما النار فلما ولد فيها خلق الجن كثفت يسيراً . فكما أن التراب لطف يسيراً فكذلك النار صارت ثقيلة ، فهما ثقلان فسميا بذلك (ثالثها) الثقيل أحدهما : لا غير وسمى الآخر به للمجاورة والاصطحاب كما يقال العمران والقمران وأحدهما عمر وقمر ، أو يحتمل أن يكون المراد العموم بالنوعين الحاصرين ، تقول : يا أيها الثقل الذى هو كذا ، والثقل الذى ليس كذا ، والثقل الأمر العظيم . قال عليه السلام « إنى تارك فيكم الثقلين » .

قوله تعالى : ﴿ يامعشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا لاتنفذون إلا بسلطان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان ﴾ وفيه مسائل .

﴿ المسألة الأولى ﴾ فى وجه الترتيب وحسنه ، وذلك لأنه تعالى لما قال (سنفرغ لكم أيها الثقلان) وبينا أنه لم يكن له شغل فكأن قائلا قال فلم كان التأخير إذا لم يكن شغل هناك مانع؟ فقال المستعجل يستعجل . إما لخوف فوات الأمر بالتأخير . وإما لحاجة فى الحال ، وإما لمجرد الاختيار والإرادة على وجه التأخير ، وبين عدم الحاجة من قبل بقوله (كل من عليها فان ، ويبقى وجه ربك) لأن ما يبقى بعد فناء الكل لايحتاج إلى شىء ، فبين عدم الخوف من الفوات ، وقال لايفوتون ولا يقدرون على الخروج من السموات والأرض ، ولو أمكن خروجهم عنهما لما خرجوا عن ملك الله تعالى فهو آخذهم أين كانوا وكيف كانوا .

﴿ المسألة الثانية ﴾ المعشر الجماعة العظيمة ، وتحقيقه هو أن المعشر العدد الكامل الكثير الذى لاعدد بعده إلا بابتداء فيه . حيث يعيد الآحاد ويقول أحد عشر واثنا عشر وعشرون وثلاثون ،

يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٦﴾

أى ثلاث عشرات فالمعشر كأنه محل العشر الذى هو الكثرة الكاملة .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ هذا الخطاب فى الدنيا أو فى الآخرة ؟ نقول الظاهر فيه أنه فى الآخرة ، فان الجن والإنس يريدون الفرار من العذاب فيجدون سبعة صفوف من الملائكة محيطين بأقطار السموات والأرض ، والأولى ماذكرنا أنه عام بمعنى لامهرب ولا مخرج لكم عن ملك الله تعالى ، وأينما توليتم فثم ملك الله ، وأينما تكونوا أتاكم حكم الله .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ ما الحكمة فى تقديم الجن على الإنس ههنا وتقديم الإنس على الجن فى قوله تعالى (قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله) ؟ نقول النفوذ من أقطار السموات والأرض بالجن أليق إن أمكن ، والإتيان بمثل القرآن بالإنس أليق إن أمكن ، فقدم فى كل موضع من يظن به القدرة على ذلك .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ مامعنى (لا تنفذون إلا بسلطان) ؟ نقول ذلك يحتمل وجوهاً (أحدها) أن يكون بياناً بخلاف ما تقدم أى ما تنفذون ولا تنفذون إلا بقوة وليس لكم قوة على ذلك . (ثانيها) أن يكون على تقدير وقوع الأمر الأول ، وبيان أن ذلك لا ينفعكم ، وتقديره ما تنفذوا وإن نفذتم ماتنفذون إلا ومعكم سلطان الله ، كما يقول خرج القوم بأهلهم أى معهم (ثالثها) أن المراد من النفوذ ماهو المقصود منه ؟ وذلك لأن نفوذهم إشارة إلى طلب خلاصهم فقال : لا تنفذون من أقطار السموات . لا تتخلصون من العذاب ولا تجدون ما تطلبون من النفوذ وهو الخلاص من العذاب إلا بسلطان من الله يجيركم وإلا فلا مجير لكم ، كما تقول لا ينفعك البكاء إلا إذا صدقت وتريد به أن الصدق وحده ينفعك ، لا أنك إن صدقت فينفعك البكاء (رابعها) أن هذا إشارة إلى تقرير التوحيد ، ووجهه هو كأنه تعالى قال : ياأيها الغافل لا يمكنك أن تخرج بذهنك عن أقطار السموات والأرض فإذا أنت أبداً تشاهد دليلا من دلائل الوحدانية ، ثم هب أنك تنفذمن أقطار السموات والأرض ، فاعلم أنك لا تنفذ إلا بسلطان تجده خارج السموات والأرض قاطع دال على وحدانيته تعالى والسلطان هو القوة الكاملة .

قوله تعالى : ﴿ يرسل عليكما شواظ من نار ونحاس فلاتنتصران ، فبأى آلاء ربكما تكذبان ﴾ وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ ما وجه تعلق الآية بما قبلها ؟ نقول إن قلنا يا معشر الجن والإنس بما ينادى به يوم القيامة ، فكأنه تعالى قال : يوم (يرسل عليكما شواظ من نار) فلا يبقى لكما انتصار

إن استطعتما النفوذ فانفذا ، وإن قلنا إن النداء فى الدنيا ، فنقول قوله (إن استطعتم) إشارة إلى أنه لامهرب لكم من الله فيمكنكم الفرار قبل الوقوع فى العذاب ولا ناصر لكم فيخلصكم من النار بعد وقوعكم فيها وإرسالها عليكم ، فكأنه قال : إن استطعتم الفرار لئلا تقعوا فى العذاب ففروا . ثم إذا تبين لكم أن لافرار لكم ولا بد من الوقوع فيه فإذا وقعتم فيه وأرسل عليكم فاعلموا أنكم لا تنصرون فلا خلاص لكم إذن ، لأن الخلاص إما بالدفع قبل الوقوع وإما بالرفع بعده ، ولا سبيل إليهما .

﴿ المسألة الثانية ﴾ كيف ثنى الضمير فى قوله (عليكما) مع أنه جمع قبله بقوله (إن استطعتم) والخطاب مع الطائفتين . وقال (فلا تنتصران) وقال من قبل (لا تنفذون إلا بسلطان) ؟ نقول فيه لطيفة ، وهى أن قوله (إن استطعتم) لبيان عجزهم وعظمة ملك الله تعالى ، فقال : إن استطعتم أن تنفذوا باجتماعكم وقوتكم فانفذوا ، ولا تستطيعون لعجزكم فقد بان عند اجتماعكم واعتضادكم بعضكم ببعض فهو عند افتراقكم أظهر ، فهو خطاب عام مع كل أحد عند الانضمام إلى جميع من عداه من الأعوان والإخوان ، وأما قوله تعالى (يرسل عليكما) فهو لبيان الإرسال على النوعين لا على كل واحد منهما لأن جميع الإنس والجن لا يرسل عليهم العذاب والنار ، فهو يرسل على النوعين ويتخلص منه بعض منهما بفضل الله ولا يخرج أحد من الأقطار أصلا ، وهذا يتأيد بما ذكرنا أنه قال لافرار لكم قبل الوقوع ، ولا خلاص لكم عند الوقوع لكن عدم الفرار عام وعدم الخلاص ليس بعام (والجواب الثانى) من حيث اللفظ ، هو أن الخطاب مع المعشر فقوله (إن استطعتم) أيها المعشر وقوله (يرسل عليكما) ليس خطاباً مع النداء بل هو خطاب مع الحاضرين وهما نوعان وليس الكلام مذكوراً بحرف واو العطف حتى يكون النوعان مناديين فى الأول وعند عدم التصريح بالنداء فالتثنية أولى كقوله تعالى (فبأى آلاء ربكما) وهذا يتأيد بقول تعالى (سنفرغ لكم أيها الثقلان) وحيث صرح بالنداء جمع الضمير ، وقال بعد ذلك (فبأى آلاء ربكما) حيث لم يصرح بالنداء .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ ما الشواظ وما النحاس ؟ نقول الشواظ لهب النار وهو لسانه ، وقيل ذلك لا يقال إلا للمختلط بالدخان الذى من الحطب ، والظاهر أن هذا مأخوذ من قول الحكماء إن النار إذا صارت خالصة لاترى كالتى تكون فى الكير الذى يكون فى غاية الاتقاد ، وكما فى التنور المسجور فإنه يرى فيه نور وهو نار ، وأما النحاس ففيه وجهان ، أحدهما الدخان ، والثانى القطر وهو النحاس المشهور عندنا ، ثم إن ذكر الأمرين بعد خطاب النوعين يحتمل أن يكون لاختصاص كل واحد بواحد . وحينئذ فالنار الخفيف للانس لأنه يخالف جوهره ، والنحاس الثقيل للجن لأنه يخالف جوهره أيضاً . فإن الإنس ثقيل والنار خفيفة ، والجن خفاف والنحاس ثقيل ، وكذلك إن قلنا المراد من النحاس الدخان ، ويحتمل أن يكون ورودهما على حد واحد منهما وهو الظاهر الأصح .

فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ ﴿٣٧﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ

﴿٣٨﴾

﴿ المسألة الرابعة ﴾ من قرأ نحاس بالجر كيف يعربه . ولو زعم أنه عطف على النار يكون شواظ من نحاس والشواظ لا يكون من نحاس ؟ نقول الجواب عنه من وجهين (أحدهما) تقديره شيء من نحاس كقولهم تقلدت سيفاً ورمحاً (وثانيهما) وهو الأظهر أن يقول الشواظ لم يكن إلا عند ما يكون فى النار أجزاء هوائية وأرضية ، وهو الدخان ، فالشواظ مركب من نار ومن نحاس وهو الدخان ، وعلى هذا فالمرسل شيء واحد لا شيئان غير أنه مركب ، فإن قيل على هذا لافائدة لتخصيص الشواظ بالإرسال إلابيان كون تلك النار بعد غيرقوية قوة تذهب عنه الدخان ، نقول : العذاب بالنار التى لاترى دون العذاب بالنار التى ترى ، لتقدم الخوف على الوقوع فيه وامتداد العذاب والنار الصرفة لا ترى أو ترى كالنور ، فلا يكون لها لهيب وهيبة ، وقوله تعالى فلا تنتصران نفى لجميع أنواع الانتصار ، فلا ينتصر أحدهما بالآخر ، ولا هما بغيرهما ، وإن كان الكفار يقولون فى الدنيا (نحن جميع منتصر) والانتصار التلبس بالنصرة ، يقال لمن أخذ الثأر انتصر منه كأنه انتزع النصرة منه لنفسه وتلبس بها ، ومن هذا الباب الانتقام والادخار والادهان ، والذى يقال فيه إن الانتصار بمعنى الامتناع (فلا تنتصران) بمعنى لا تمتنعان ، وهو فى الحقيقة راجع إلى ما ذكرنا لأنه يكون متلبساً بالنصرة فهو ممتنع لذلك .

قوله تعالى : ﴿ فإذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان ﴾ إشارة إلى ماهوأعظم من إرسال الشواظ على الإنس والجن ، فكأنه تعالى ذكر أولا مايخاف منه الإنسان ، ثم ذكر ما يخاف منه كل واحد ممن له إدراك من الجن والإنس والملك حيث تخلو أماكنهم بالشق ومساكن الجن والإنس بالخراب ، ويحتمل أن يقال إنه تعالى لما قال (كل من عليها فان) إشارة إلى سكان الأرض ، قال بعد ذلك (فإذا انشقت السماء) بياناً لحال سكان السماء ، وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ الفاء فى الأصل للتعقيب على وجوه ثلاثة (منها) التعقيب الزمانى للشيئين اللذين لا يتعلق أحدهما بالآخر عقلا كقوله قعد زيد فقام عمرو ، لمن سألك عن قعود زيد وقيام عمر ، وإنهما كانا معاً أو متعاقبين (ومنها) التعقيب الذهنى للذين يتعلق أحدهما بالآخر كقولك جاء زيد فقام عمرو إكراماً له إذ يكون فى مثل هذا قيام عمرو مع مجيء زيد زمانا (ومنها) التعقيب فى القول كقولك ، لاأخاف الأمير فالملك فالسلطان ، كأنك تقول : أقول لاأخاف الأمير ، وأقول لا أخاف الملك ، وأقول لاأخاف السلطان ، إذا عرفت هذا فالفاء هنا تحتمل الأوجه جميعاً ، (أما الأول) فلأن إرسال الشواظ عليهم يكون قبل انشقاق السموات ، ويكون ذلك الإرسال

إشارة إلى عذاب القبر ، وإلى ما يكون عند سوق المجرمين إلى المحشر ، إذ ورد فى التفسير أن الشواظ يسوقهم إلى المحشر ، فيهربون منها إلى أن يجتمعوا فى موضع واحد ، وعلى هذا معناه يرسل عليكما شواظ ، فإذا انشقت السماء يكون العذاب الأليم ، والحساب الشديد على ماسنبين إن شاء الله (وأما الثانى) فوجهه أن يقال (يرسل عليكما شواظ من نار ونحاس) فيكون ذلك سبباً لكون السماء تكون حمراء ، إشارة إلى أن لهيبها يصل إلى السماء ويجعلها كالحديد المذاب الأحمر ، (وأما الثالث) فوجهه أن يقال : لما قال (فلا تنتصران) أى فى وقت إرسال الشواظ عليكما قال فإذا انشقت السماء وصارت كالمهل ، وهو كالطين الذائب ، كيف تنتصران ؟ إشارة إلى أن الشواظ المرسل لهب واحد ، أو فإذا انشقت السماء وذابت ، وصارت الأرض والجو والسماء كلها ناراً فكيف تنتصران ؟ .

﴿ المسألة الثانية ﴾ كلمة (إذا) قد تستعمل لمجرد الظرف وقد تستعمل للشرط وقد تستعمل للمفاجأة وإن كانت فى أوجهها ظرفاً لكن بينها فرق (فالأول) مثل قوله تعالى (والليل إذا يغشى والنهار إذا تجلى) (والثانى) مثل قوله إذا أكرمتنى أكرمك ومن هذا الباب قوله تعالى (فإذا عزمت فتوكل على الله) وفى الأول لابد وأن يكون الفعل فى الوقت المذكور متصلا به وفى الثانى لا يلزم ذلك ، فإنك إذا قلت إذا علمتنى تثاب يكون الثواب بعده زماناً لكن استحقاقه يثبت فى ذلك الوقت متصلا به (والثالث) مثل مايقول : خرجت فإذا قد أقبل الركب أما لو قال خرجت إذ أقبل الركب فهو فى جواب من يقول متى خرجت . إذا عرفت هذا فنقول على أى وجه استعمل إذا ههنا ؟ نقول يحتمل وجهين (أحدهما) الظرفية المجردة على أن الفاء للتعقيب الزمانى ، فإن قوله (فإذا انشقت السماء) بيان لوقت العذاب ، كأنه قال : إذا انشقت السماء يكون العذاب أى بعد إرسال الشواظ ، وعند انشقاق السماء يكون (وثانيهما) الشرطية وذلك على الوجه الثالث وهو قولنا (فلا تنتصران) عند إرسال الشواظ فكيف تنتصران إذا انشقت السماء ، كأنه قال اذا انشقت السماء فلا تتوقعوا الانتصار أصلا ، وأما الحمل على المفاجأة على أن يقال (يرسل عليكما شواظ) فاذا السماء قد انشقت ، فبعيد ولا يحمل ذلك إلا على الوجه الثانى من أن الفاء للتعقيب الذهنى .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ ماالمختار من الأوجه ؟ نقول الشرطية وحينئذ له وجهان (أحدهما) أن يكون الجزاء محذوفاً رأساً ليفرض السامع بعده كل هائل ، كما يقول القائل إذا غضب السلطان على فلان لا يدرى أحد ماذا يفعله ، ثم ربما يسكت عند قوله إذا غضب السلطان متعجباً آتيا بقرينة دالة على تهويل الأمر ، ليذهب السامع مع كل مذهب ، ويقول كأنه إذا غضب السلطان يقتل ويقول الآخر إذا غضب السلطان ينهب ويقول الآخر غير ذلك (وثانيهما) مابينا من بيان عدم الانتصار ويؤيد هذا قوله تعالى (ويوم تشقق السماء بالغمام) إلى أن قال تعالى (وكان يوماً على الكافرين عسيراً) فكأنه تعالى

فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴿٣٩﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٠﴾

قال : إذا أرسل عليهما شواظ من نار ونحاس فلا ينتصران ، فإذا انشقت السماء كيف ينتصران ؟ فيكون الأمر عسيراً ، فيكون كأنه قال : فإذا انشقت السماء يكون الأمر عسيراً فى غاية العسر ، ويحتمل أن يقال : فإذا انشقت السماء يلقى المرء فعله ويحاسب حسابه كما قال تعالى (إذا السماء انشقت) إلى أن قال (يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحاً فملاقيه) الآية .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ ما المعنى من الانشقاق ؟ نقول حقيقته ذوبانها وخرابها . كما قال تعالى (يوم نطوى السماء) إشارة إلى خرابها ويحتمل أن يقال : انشقت بالغمام كما قال تعالى (ويوم تشقق السماء بالغمام) وفيه وجوه منها أن قوله (بالغمام) أى مع الغمام فيكون مثل ما ذكرنا ههنا من الانفطار والخراب .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ مامعنى قوله تعالى (فكانت وردة كالدهان) ؟ نقول المشهور أنها فى الحال تكون حمراء يقال : فرس ورد إذا أثبت للفرس الحمرة ، وحجرة وردة أى حمراء اللون . وقد ذكرنا أن لهيب النار يرتفع فى السماء فتذوب فتكون كالصفر الذائب حمراء ، ويحتمل وجهاً آخر وهو أن يقال وردة للمرة من الورود كالركعة والسجدة والجلسة والقعدة من الركوع والسجود والجلوس والقعود ، وحينئذ الضمير فى كانت كما فى قوله (إن كانت إلا صيحة واحدة) أى الكائنة أو الداهية وأنث الضمير لتأنيث الظاهر وإن كان شيئاً مذكراً ، فكذا ههنا قال (فكانت وردة) واحدة أى الحركة التى بها الانشقاق كانت وردة واحدة ، وتزلزل الكل وخرب دفعة ، والحركة معلومة بالانشقاق لأن المنشق يتحرك ، ويتزلزل ، وقوله تعالى (كالدهان) فيه وجهان (أحدهما) جمع دهن (وثانيهما) أن الدهان هو الأديم الأحمر ، فإن قيل الأديم الأحمر مناسب للوردة فيكون معناه كانت السماء كالأديم الأحمر ، ولكن ما المناسبة بين الوردة وبين الدهان ؟ نقول الجواب عنه من وجوه (الأول) المراد من الدهان ماهو المراد من قوله تعالى (يوم تكون السماء كالمهل) وهو عكر الزيت وبينهما مناسبة ، فإن الورد يطلق على الأسد فيقال أسد ورد ، فليس الورد هو الأحمر القانى (والثانى) أن التشبيه بالدهن ليس فى اللون بل فى الذوبان و(الثالث) هو أن الدهن المذاب ينصب انصبابة واحدة ويذوب دفعة والحديد والرصاص لا يذوب غاية الذوبان ، فتكون حركة الدهن بعد الذوبان أسرع من حركة غيره فكأنه قال حركتها تكون وردة واحدة كالدهان المصبوبة صباً لا كالرصاص الذى يذوب منه ألطفه وينتفع به ويبقى الباقى ، وكذلك الحديد والنحاس ، وجمع الدهان لعظمة السماء وكثرة ما يحصل من ذوبانها لاختلاف أجزائها ، فإن الكواكب تخالف غيرها .

قوله تعالى : ﴿ فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان ﴾ وفيه

وجهان (أحدهما) لا يسأله أحد عن ذنبه ، فلا يقال له أنت المذنب أو غيرك ، ولا يقال من المذنب منكم بل يعرفونه بسواد وجوههم وغيره ، وعلى هذا فالضمير فى ذنبه عائد إلى مضمر مفسر بما بعده ، وتقديره لا يسأل إنس عن ذنبه ولا جان يسأل ، أى عن ذنبه (وثانيهما) معناه قريب من المعنى قوله تعالى (ولا تزر وازرة وزر أخرى) كأنه يقول : لا يسأل عن ذنبه مذنب إنس ولا جان . وفيه إشكال لفظى ، لأن الضمير فى ذنبه إن عاد إلى أمر قبله يلزم استحالة ما ذكرت من المعنى بل يلزم فساد المعنى رأساً لأنك إذا قلت لا يسأل مسئول واحد أو إنسى مثلا عن ذنبه فقولك بعد إنس ولا جان ، يقتضى تعلق فعل بفاعلين وإنه محال ، والجواب عنه من وجهين (أحدهما) أن لا يفرض عائداً وإنما يجعل بمعنى المظهر لا غير ويجعل عن ذنبه كأنه قال عن ذنب مذنب (ثانيهما) وهو أدق وبالقبول أحق أن يجعل مايعود إليه الضمير قبل الفعل فيقال تقديره فالمذنب يومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان ، وفيه مسائل لفظية ومعنوية :

﴿ المسألة الأولى ﴾ اللفظية الفاء للتعذيب وأنه يحتمل أن يكون زمانياً كأنه يقول : فإذا انشقت السماء يقع العذاب ، فيوم وقوعه لا يسأل ، وبين الأحوال فاصل زمانى غير متراخ ، ويحتمل أن يكون عقلياً كأنه يقول يقع العذاب فلا يتأخر تعلقه بهم مقدار مايسألون عن ذنبهم ، ويحتمل أن يكون أراد الترتيب الكلامى كأنه يقول : تهربون بالخروج من أقطار السموات ، وأقول لا تمتنعون عند انشقاق السماء ، فأقول : لا تمهلون مقدار ما تسألون .

﴿ المسألة الثانية ﴾ ما المراد من السؤال ؟ نقول المشهور ما ذكرنا أنهم لا يقال لهم من المذنب منكم ، وهو على هذا سؤال استعلام ، وعلى الوجه الثانى سؤال توبيخ أى لا يقال له : لم أذنب المذنب ، ويحتمل أن يكون سؤال موهبة وشفاعة كما يقول القائل أسألك ذنب فلان ، أى أطلب منك عفوه ، فإن قيل هذا فاسد من وجوه (أحدها) أن السؤال إذا عدى بعن لا يكون إلا بمعنى الاستعلام أو التوبيخ . وإذا كان بمعنى لاستعطاء يعدى بنفسه إلى مفعولين . فيقال نسألك العفو والعافية (ثانيها) الكلام لا يحتمل تقديراً ولا يمكن تقديره بحيث يطابق الكلام ، لأن المعنى يصير كأنه يقول لا يسأل واحد ذنب أحد بل أحد لا يسأل ذنب نفسه (ثالثها) قوله (يعرف المجرمون بسيماهم) لا يناسب ذلك . نقول (أما الجواب عن الأول) فهو أن السؤال ربما يتعدى إلى مفعولين غير أنه عند الاستعلام يحذف الثانى ويؤتى بما يتعلق به . يقال سألته عن كذا أى سألته الإخبار عن كذا فيحذف الإخبار ويكتفى بما يدل عليه ، وهو الجار والمجرور . فيكون المعنى طلبت منه أن يخبرنى عن كذا (وعن الثانى) أن يكون التقدير لا يسأل إنس ذنبه ولا جان ، والضمير يكون عائداً إلى المضمر لفظاً لا معنى ، كما نقول قتلوا أنفسهم ، فالضمير فى أنفسهم عائد إلى ما فى قولك قتلوا لفظاً لا معنى لأن مافى قتلوا ضمير الفاعل ، وفى أنفسهم ضمير المفعولى ، إذ الواحد لا يقتل نفسه وإنما المراد كل واحد قتل واحداً غيره ، فكذلك [كل] إنس لا يسأل [عن] ذنبه أى ذنب إنس غيره ،

يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٢﴾

ومعنى الكلام لا يقال لأحد اعف عن فلان ، لبيان أن لا مسئول فى ذلك الوقت من الإنس والجن ، وإنما كلهم سائلون الله والله تعالى حينئذ هو المسئول .

وأما المعنوية ﴿ فالأولى ﴾ كيف الجمع بين هذا وبين قوله تعالى (فوربك لنسئلنهم أجمعين) وبينه وبين قوله تعالى (وقفوهم إنهم مسئولون) ؟ نقول على الوجه المشهور جوابان (أحدهما) أن للآخرة مواطن . فلا يسأل فى موطن ، ويسأل فى موطن (وثانيهما) وهو أحسن لا يسأل عن فعله أحد منكم ، ولكن يسأل بقوله لم فعل الفاعل فلا يسأل سؤال استعلام ، بل يسأل سؤال توبيخ ، وأما على الوجه الثانى . فلا يرد السؤال ، فلا حاجة إلى بيان الجمع .

﴿ والثانية ﴾ ما الفائدة فى بيان عدم السؤال ؟ نقول على الوجه المشهور فائدته التوبيخ ، لهم كقوله تعالى (وجوه يومئذ عليها غبرة ترهقها قترة) وقوله تعالى (وأما الذين اسودت وجوههم) وعلى الثانى بيان أن لا يؤخذ منهم فدية ، فيكون ترتيب الآيات أحسن ، لأن فيها حينئذ بيان أن لا مفر لهم بقوله (إن استطعتم أن تنفذوا) ثم بيان أن لا مانع عنهم بقوله (فلا تنتصران) ثم بيان أن لا فداء لهم عنهم بقوله لا يسأل ، وعلى الوجه الأخير ، بيان أن لا شفيع لهم ولا راحم (وفائدة أخرى) وهو أنه تعالى لما بين أن العذاب فى الدنيا مؤخر بقوله (سنفرغ لكم) بين أنه فى الآخرة لا يؤخر بقدر ما يسأل (وفائدة أخرى) وهو أنه تعالى لما بين أن لا مفر لهم بقوله (لا تنفذون) ولا ناصر لهم يخلصهم بقوله (فلا تنتصران) بين أمراً آخر ، وهو أن يقول المذنب : ربما أنجو فى ظل خمول واشتباه حال ، فقال ولا يخفى أحد من المذنبين بخلاف أمر الدنيا ، فإن الشرذمة القليلة ربما تنجو من العذاب العام بسبب خمولهم .

قوله تعالى : ﴿ يعرف المجرمون بسيماهم فيؤخذ بالنواصى والأقدام ، فبأى آلاء ربكما تكذبان ﴾ اتصال الآيات بما قبلها على الوجه المشهور ، ظاهر لا خفاء فيه ، إذ قوله (يعرف المجرمون) كالتفسير وعلى الوجه الثانى من أن المعنى لا يسأل عن ذنبه غيره كيف قال ، يعرف ويؤخذ وعلى قولنا لا يسأل سؤال حط وعفو أيضاً كذلك ، وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ السيما كالضيزى وأصله سومى من السومة وهو يحتمل وجوها (أحدها) كى على جباههم ، قال تعالى (يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بها جباههم) (ثانيها) سواد كما قال تعالى (وأما الذين اسودت وجوههم) وقال تعالى (وجوههم مسودة) (ثالثها) غبرة وقترة .

﴿ المسألة الثانية ﴾ ما وجه إفراد يؤخذ مع أن المجرمين جمع ، وهم المأخوذون ؟ نقول فيه

وجهان (أحدهما) أن يؤخذ متعلق بقوله تعالى (بالنواصى) كما يقول القائل . ذهب بزيد (وثانيهما) أن يتعلق بما يدل عليه يؤخذ ، فكأنه تعالى قال ، فيؤخذون بالنواصى ، فإن قيل كيف عدى الأخذ بالباء وهو يتعدى بنفسه قال تعالى (لا يؤخذ منكم فدية) وقال (خذها ولا تخف) نقول الأخذ يتعدى بنفسه كما بينت ، وبالباء أيضاً كقوله تعالى (لا تأخذ بلحيتى ولا برأسى) لكن فى الاستعمال تدقيق ، وهو أن المأخوذ إن كان مقصوداً بالأخذ توجه الفعل نحوه فيتعدى إليه من غير حرف ، وإن كان المقصود بالأخذ غير الشىء المأخوذ حساً تعدى إليه بحرف ، لأنه لما لم يكن مقصوداً فكأنه ليس هو المأخوذ ، وكأن الفعل لم يتعد إليه بنفسه ، فذكر الحرف ، ويدل على ماذكرنا استعمال القرآن ، فإن الله تعالى قال (خذها ولا تخف) فى العصا وقال تعالى (وليأخذوا أسلحتهم) (وأخذ الألواح) إلى غير ذلك ، فلما كان ماذكر هو المقصود بالأخذ عدى الفعل إليه من غير حرف ، وقال تعالى (لا تأخذ بلحيتى ولا برأسى) وقال تعالى (فيؤخذ بالنواصى والأقدام) ويقال خذ بيدى وأخذ الله بيدك إلى غير ذلك مما يكون المقصود بالأخذ غير ما ذكرنا ، فإن قيل ما الفائدة فى توجيه الفعل إلى غير ماتوجه إليه الفعل الأول ، ولم قال (يعرف المجرمون بسيماهم فيؤخذ بالنواصى) ؟ نقول فيه بيان نكالهم وسوء حالهم ونبين هذا بتقديم مثال وهو أن القائل إذا قال ضرب زيد فقتل عمرو فإن المفعول فى باب مالم يسم فاعله قائم مقام الفاعل ومشبه به ولهذا أعرب إعرابه فلو لم يوجه يؤخذ إلى غير ماوجه إليه يعرف لكان الأخذ فعل من عرف فيكون كأنه قال يعرف المجرمين عارف فيأخذهم ذلك العارف ، لكن المجرم يعرفه بسيماه كل أحد ، ولا يأخذه كل من عرفه بسيماه ، بل يمكن أن يقال قوله (يعرف المجرمون بسيماهم) المراد يعرفهم الناس والملائكة الذين يحتاجون فى معرفتهم إلى علامة ، أما كتبة الأعمال والملائكة الغلاظ الشداد فيعرفونهم كما يعرفون أنفسهم من غير احتياج إلى علامة ، وبالجملة فقوله يعرف معناه يكونون معروفين عند كل أحد فلو قال يؤخذون يكون كأنه قال فيكونون مأخوذين لكل أحد ، كذلك إذا تأملت فى قول القائل شغلت فضرب زيد علمت عند توجه التعليق إلى مفعولين دليل تغاير الشاغل والضارب لأنه يفهم منه أنى شغلنى شاغل فضرب زيداً ضارب ، فالضارب غير ذلك الشاغل ، وإذا قلت شغل زيد فضرب لا يدل على ذلك حيث توجه إلى مفعول واحد ، وإن كان يدل فلا يظهر مثل ما يظهر عند توجهه إلى مفعولين ، أما بيان النكال فلأنه لما قال (فيؤخذ بالنواصى) بين كيفية الأخذ وجعلها مقصود الكلام ، ولو قال : فيؤخذون . لكان الكلام يتم عنده ويكون قوله (بالنواصى) فائدة جاءت بعد تمام الكلام فلا يكون هو المقصود ، وأما إذا قال : فيؤخذ ، فلابدله من أمر يتعلق به فينتظر السامع وجود ذلك ، فإذا قال بالنواصى يكون هذا هو المقصود ، وفى كيفية الأخذ ظهور نكالهم لأن فى نفس الأخذ بالناصيه إذلالا وإهانة ، وكذلك الأخذ بالقدم ، لا يقال قد ذكرت أن التعدية بالباء إنما تكون حيث لا يكون المأخوذ مقصوداً والآن ذكرت أن الأخذ بالنواصى هو المقصود لأنا نقول لاتنافى بينهما فإن الأخذ بالنواصى مقصود الكلام والناصية ماأخذت لنفس كونها

هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴿٤٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٥﴾

ناصية وإنما أخذت ليصير صاحبها مأخوذاً ، وفرق بين مقصود الكلام وبين الأخذ ، وقوله تعالى (فيؤخذ بالنواصى والأقدام) فيه وجهان (أحدهما) يجمع بين ناصيتهم وقدمهم ، وعلى هذا ففيه قولان (أحدهما) أن ذلك قد يكون من جانب ظهورهم فيربط بنواصيهم أقدامهم من جانب الظهر فتخرج صدورهم نتأ (والثانى) أن ذلك من جانب وجوههم فتكون رءوسهم على ركبهم ونواصيهم فى أصابع أرجلهم مربوطة (الوجه الثانى) أنهم يسحبون سحباً فبعضهم يؤخذ بناصيته وبعضهم يجر برجله ، والأول أصح وأوضح .

ثم قال تعالى ﴿ هذه جهنم التى يكذب بها المجرمون ﴾ والمشهور أن ههنا إضماراً تقديره يقال لهم هذه جهنم ، وقد تقدم مثله فى مواضع . ويحتمل أن يقال معناه هذه صفة جهنم وأقيم المضاف إليه مقام المضاف . ويكون ما تقدم هو المشار إليه ، والأقوى أن يقال الكلام عند النواصى والأقدام قد تم ، وقوله (هذه جهنم) لقربها كما يقال هذا زيد قد وصل إذا قرب مكانه ، فكأنه قال جهنم التى يكذب بها المجرمون هذه قريبة غير بعيدة عنهم ، ويلائمه قوله (يكذب) لأن الكلام لو كان بإضمار يقال ، لقال تعالى لهم : هذه جهنم التى كذب بها المجرمون . لأن فى هذا الوقت لا يبقى مكذب ، وعلى هذا التقدير يضمر فيه : كان يكذب .

وقوله تعالى ﴿ يطوفون بينها وبين حميم آن ﴾ هو كقوله تعالى (وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل) وكقوله تعالى (كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها) لأنهم يخرجون فيستغيثون فيظهر لهم من بعد شيء مائع هو صديدهم المغلى فيظنونه ماء ، فيردون عليه كما يرد العطشان فيقعون ويشربون منه شرب الهيم ، فيجدونه أشد حراً فيقطع أمعاءهم ، كما أن العطشان إذا وصل إلى ماء مالح لا يبحث عنه ولا يذوقه ، وإنما يشربه عباً فيحرق فؤاده ولا يسكن عطشه . وقوله (حميم) إشارة إلى ما فعل فيه من الإغلاء ، وقوله تعالى (آن) إشارة إلى ما قبله ، وهو كما يقال قطعته فانقطع فكأنه حمته النار فصار فى غاية السخونة وآن الماء إذا انتهى فى الحر نهاية .

ثم قال تعالى ﴿ فبأى آلاء ربكما تكذبان ﴾ وفيه بحث وهو أن هذه الأمور ليست من الآلاء فكيف قال (فبأى آلاء)؟ نقول الجواب من وجهين (أحدهما) ما ذكرناه (وثانيهما) أن المراد (فبأى آلاء ربكما) مما أشرنا إليه فى أول السورة (تكذبان) فتستحقان هذه الأشياء المذكورة من العذاب ، وكذلك نقول فى قوله (ولمن خاف مقام ربه جنتان) هى الجنان . ثم إن تلك الآلاء لا ترى ، وهذا ظاهر لأن الجنان غير مرئية ، وإنما حصل الإيمان بها بالغيب ، فلا

وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾

يحسن الاستفهام بمعنى الإنكار مثل ما يحسن الاستفهام عن هيئة السماء والأرض والنجم والشجر والشمس والقمر وغيرها مما يدرك ويشاهد ، لكن النار والجنة ذكرتا للترهيب والترغيب كما بينا أن المراد فبأيهما تكذبان فتستحقان العذاب وتحرمان الثواب .

ثم قال تعالى ﴿ ولمن خاف مقام ربه جنتان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان ﴾ وفيه لطائف : (الأولى) التعريف فى عذاب جهنم قال (هذه جهنم) والتنكير فى الثواب بالجنة إشارة إلى أن كثرة المراتب التى لا تحد ونعمه التى لا تعد ، وليعلم أن آخر العذاب جهنم وأول مراتب الثواب الجنة ثم بعدها مراتب وزيادات (الثانية) قد ذكرنا فى تفسير قوله تعالى (فذكر بالقرآن من يخاف وعيد) أن الخوف خشية سببها ذل الخاشى ، والخشية خوف سببه عظمة المخشى ، قال تعالى (إنما يخشى الله من عباده العلماء) لأنهم عرفوا عظمة الله فخافوه لا لذل منهم ، بل لعظمة جانب الله ، وكذلك قوله (من خشية ربهم مشفقون) وقال تعالى (لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله) أى لو كان المنزل عليه العالم بالمنزل كالجبل العظيم فى القوة والارتفاع لتصدع من خشية الله لعظمته ، وكذلك قوله تعالى (وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه) وإنما قلنا إن الخشية تدل على ما ذكرنا . لأن الشيخ للسيد والرجل الكبير يدل على حصول معنى العظمة فى خ ش ى ، وقال تعالى فى الخوف (ولا تخف سنعيدها) لما كان الخوف يضعف فى موسى ، وقال (لا تخف ولا تحزن) وقال (وأخاف أن يقتلون) وقال إنى (خفت الموالى من ورائى) ويدل عليه تقاليب خ و ف فإن قولك خفى قريب منه ، والخافى فيه ضعف والأخيف يدل عليه أيضاً ، وإذا علم هذا فالله تعالى مخوف ومخشى ، والعبد من الله خائف وخاش ، لأنه إذا نظر إلى نفسه رآها فى غاية الضعف فهو خائف ، وإذا نظر إلى حضرة الله رآها فى غاية العظمة فهو خاش ، لكن درجة الخاشى فوق درجة الخائف ، فلهذا قال (إنما يخشى الله من عباده العلماء) جعله منحصراً فيهم لأنهم وإن فرضوا أنفسهم على غير ماهم عليه ، وقدروا أن الله رفع عنهم جميع ما هم فيه من الحوائج لا يتركون خشيته ، بل تزداد خشيتهم ، وأما الذى يخافه من حيث إنه يفقره أو يسلب جاهه ، فربما يقل خوفه إذا أمن ذلك ، فلذلك قال تعالى (ولمن خاف مقام ربه جنتان) وإذا كان هذا للخائف فما ظنك بالخاشى ؟ (الثالثة) لما ذكر الخوف ذكر المقام ، وعند الخشية ذكر اسمه الكريم فقال (إنما يخشى الله) وقال (لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله) وقال عليه السلام «خشية الله رأس كل حكمة» لأنه يعرف ربه بالعظمة فيخشاه . وفى مقام ربه قولان (أحدهما) مقام ربه أى المقام الذى يقوم هو فيه بين يدى ربه ، وهو مقام عبادته كما يقال هذا معبد الله وهذا معبد البارى أى المقام الذى يعبد الله العبد فيه (والثانى) مقام ربه الموضع الذى فيه الله قائم على عباده من قوله تعالى

(أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت) أى حافظ ومطلع أخذاً من القائم على الشيء حقيقة الحافظ له فلا يغيب عنه ، وقيل مقام مقحم يقال فلان يخاف جانب فلان أى يخاف فلاناً وعلى هذا الوجه يظهر الفرق غاية الظهور بين الخائف والخاشي ، لأن الخائف خاف مقام ربه بين يدى الله فالخاشي لو قيل له افعل ماتريد فإنك لاتحاسب ولا تسأل عما تفعل لما كان يمكنه أن يأتى بغير التعظيم والخائف ربما كان يقدم على ملاذ نفسه لو رفع عنه القلم وكف لا ، ويقال خاصة الله من خشية الله فى شغل شاغل عن الأكل والشرب واقفون بين يدى الله سابحون فى مطالعة جماله غائصون فى بحار جلاله ، وعلى الوجه الثانى قرب الخائف من الخاشي وبينهما فرق (الرابعة) فى قوله (جنتان) وهذه اللطيفة نبينها بعد ماذكر ماقيل فى التثنية ، قال بعضهم المراد جنة واحدة كما قيل فى قوله (ألقيا فى جهنم) وتمسك بقول القائل :

ومهمهين سرت مرتين قطعته بالسهم لا السهمين

فقال أراد مهمهاً واحداً بدليل توحيد الضمير فى قطعته وهو باطل ، لأن قوله بالسهم يدل على أن المراد مهمهان ، وذلك لأنه لو كان مهمهاً واحداً لما كانوا فى قطعته يقصدون جدلا ، بل يقصدون التعجب وهو إرادته قطع مهمهين بأهبة واحدة وسهم واحد وهو من العزم القوى ، وأما الضمير فهو عائد إلى مفهوم تقديره قطعت كليهما وهو لفظ مقصور معناه التثنية ولفظه للواحد ، يقال كلاهما معلوم ومجهول ، قال تعالى (كلتا الجنتين آتت أكلها) فوحد اللفظ ولا حاجة ههنا إلى التعسف ، ولا مانع من أن يعطى الله جنتين وجناناً عديدة ، وكيف وقد قال بعد (ذواتا أفنان) وقال فيهما . والثانى وهو الصحيح أنهما جنتان وفيه وجوه (أحدها) أنهما جنة للجن وجنة للانس لأن المراد هذان النوعان (وثانيها) جنة لفعل الطاعات ، وجنة لترك المعاصى لأن التكليف بهذين النوعين (وثالثها) جنة هى جزاء وجنة أخرى زيادة على الجزاء ، ويحتمل أن يقال جنتان جنة جسمية والأخرى روحية فالجسمية فى نعيم والروحية فى روح فكان كما قال تعالى (فروح وريحان وجنة نعيم) وذلك لأن الخائف من المقربين والمقرب فى روح وريحان وجنة نعيم (وأما اللطيفة) فنقول لما قال تعالى فى حق المجرم إنه يطوف بين نار وبين حميم آن ، وهما نوعان ذكر لغيره وهو الخائف جنتين فى مقابلة ماذكر فى حق المجرم ، لكنه ذكر هناك أنهم يطوفون فيفارقون عذاباً ويقعون فى الآخر ، ولم يقل ههنا يطوفون بين الجنتين بل جعلهم الله تعالى ملوكا وهم فيها يطاف عليهم ولا يطاف بهم احتراما لهم وإكراماً فى حقهم ، وقد ذكرنا فى قوله تعالى (مثل الجنة التى وعد المتقون) وقوله (إن المتقين فى جنات) أنه تعالى ذكر الجنة والجنات ، فهى لاتصال أشجارها ومساكنها وعدم وقوع الفاصل بينها كمهامه وقفار صارت كجنة واحدة ، ولسعتها وتنوع أشجارها وكثرة مساكنها كأنها جنات ، ولاشتمالها على ما تلتذ به الروح والجسم كأنها جنتان ، فالكل عائد إلى صفة مدح .

ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٩﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥١﴾ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٣﴾

ثم قال تعالى ﴿ ذواتا أفنان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان ﴾ هى جمع فنن أى ذواتا أغصان أو جمع فن أى فيهما فنون من الأشجار وأنواع من الثمار . فإن قيل أى الوجهين أقوى ؟ نقول الأول لوجهين (أحدهما) أن الأفنان فى جمع فنن هو المشهور والفنون فى جمع الفن كذلك ، ولا يظن أن الأفنان والفنون جمع فن . بل كل واحد منهما جمع معرف بحرف التعريف والأفعال فى فعل كثير والفعول فى فعل أكثر (ثانيهما) قوله تعالى (فيهما من كل فاكهة زوجان) مستقل بما ذكر من الفائدة ، ولأن ذلك فيما يكون ثابتاً لا تفاوت فيه ذهناً ووجوداً أكثر ، فإن قيل كيف تمدح بالأفنان والجنات فى الدنيا ذوات أفنان كذلك ؟ نقول فيه وجهان (أحدهما) أن الجنات فى الأصل ذوات أشجار ، والأشجار ذوات أغصان ، والأغصان ذوات أزهار وأثمار ، وهى لتنزه الناظر إلا أن جنة الدنيا لضرورة الحاجة وجنة الآخرة ليست كالدنيا فلا يكون فيها إلا ما فيه اللذة وأما الحاجة فلا ، وأصول الأشجار وسوقها أمور محتاج إليها مانعة للانسان عن التردد فى البستان كيفما شاء ، فالجنة فيها أفنان عليها أوراق عجيبة ، وثمار طيبة من غير سوق غلاظ ، ويدل عليه أنه تعالى لم يصف الجنة إلا بما فيه اللذة بقوله (ذواتا أفنان) أى الجنة هى ذات فنن غير كائن على أصل وعرق بل هى واقفة فى الجو وأهلها من تحتها (والثانى) من الوجهين هو أن التنكير للأفنان للتكثير أو للتعجب .

قوله تعالى : ﴿ فيهما عينان تجريان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان ، فيهما من كل فاكهة زوجان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان ﴾ أى فى كل واحدة منهما عين جارية ، كما قال تعالى (فيها عين جارية) وفى كل واحدة منهما من الفواكه نوعان ، وفيها مسائل بعضها يذكر عند تفسير قوله تعالى (فيهما عينان نضاختان ، فيهما فاكهة ونخل ورمان) وبعضها يذكر ههنا .

﴿ المسألة الأولى ﴾ هى أن قوله (ذواتا أفنان) و(فيهما عينان تجريان) و (فيهما من كل فاكهة زوجان) كلها أوصاف للجنتين المذكورتين فهو كالكلام الواحد تقديره : جنتان ذواتا أفنان ، ثابت فيهما عينان ، كائن فيهما من كل فاكهة زوجان ، فإن قيل ما الفائدة فى فصل بعضها عن بعض بقوله تعالى (فبأى آلاء ربكما تكذبان) ثلاث مرات مع أنه فى ذكر العذاب ما فصل بين كلامين بها حيث قال (يرسل عليكما شواظ من نار ونحاس فلا تنتصران) مع أن إرسال نحاس غير

مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍۚ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٥﴾

إرسال شواظ ، وقال (يطوفون بينها وبين حميم آن) مع أن الحميم غير الجحيم ، وكذا قال تعالى (هذه جهنم التي يكذب بها المجرمون) وهو كلام تام ، وقوله تعالى (يطوفون بينها وبين حميم آن) كلام آخر ولم يفصل بينهما بالآية المذكورة ؟ نقول فيه تغليب جانب الرحمة ، فإن آيات العذاب سردها سرداً وذكرها جملة ليقصر ذكرها ، والثواب ذكره شيئاً فشيئاً ، لأن ذكره يطيب للسامع فقال بالفصل وتكرار عود الضمير إلى الجنس بقوله (فيهما عينان) ، (فيهما من كل فاكهة) لأن إعادة ذكر المحبوب محبوب ، والتطويل بذكر اللذات مستحسن .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قوله تعالى (فيهما عينان تجريان) أى فى كل واحدة عين واحدة كما مر ، وقوله (فيهما من كل فاكهة زوجان) معناه كل واحدة منهما زوج ، أو معناه فى كل واحدة منهما من الفواكه زوجان ، ويحتمل أن يكون المراد مثل ذلك أى فى كل واحدة من الجنتين زوج من كل فاكهة ففيهما جميعاً زوجان من كل فاكهة ، وهذا إذا جعلنا الكنايتين فيهما للزوجين ، أو نقول من كل فاكهة لبيان حال الزوجين ، ومثاله إذا دخلت من على مالا يمكن أن يكون كائناً فى شيء كقولك فى الدار من الشرق رجل ، أى فيها رجل من الشرق ، ويحتمل أن يكون المراد فى كل واحدة منها زوجان ، وعلى هذا يكون كالصفة بما يدل عليه من كل فاكهة كأنه قال : فيهما من كل فاكهة ، أى كائن فيهما شيء من كل فاكهة ، وذلك الكائن زوجان ، وهذا بين فيما تكون من داخله على مالا يمكن أن يكون هناك كائن فى الشيء غيره ، كقولك فى الدار من كل ساكن ، فإذا قلنا فيهما من كل فاكهة زوجان (الثالث) عند ذكر الأفنان لو قال فيهما من كل فاكهة زوجان كان متناسباً لأن الأغصان عليها الفواكه ، فما الفائدة فى ذكر العينين بين الأمرين المتصل أحدهما بالآخر ؟ نقول جرى ذكر الجنة على عادة المتنعمين ، فإنهم إذا دخلوا البستان لا يبادرون إلى أكل الثمار بل يقدمون التفرج على الأكل ، مع أن الإنسان فى بستان الدنيا لا يأكل حتى يجوع ويشتهى شهوة مؤلمة . فكيف فى الجنة فذكر ما يتم به النزهة وهو خضرة الأشجار ، وجريان الأنهار ، ثم ذكر ما يكون بعد النزهة وهو أكل الثمار ، فسبحان من يأتى بالآى بأحسن المعانى فى أبين المبانى .

قوله تعالى : ﴿ متكئين على فرش بطائنها من استبرق ، وجنى الجنتين دان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان ﴾ وفيه مسائل نحوية ولغوية ومعنوية .

﴿ المسألة الأولى من النحوية ﴾ هو أن المشهور أن متكئين حال وذو الحال من فى قوله (ولمن خاف مقام ربه) والعامل ما يدل عليه اللام الجارة تقديره . لهم فى حال الاتكاء جنتان .

وقال صاحب الكشاف يحتمل أن يكون نصباً على المدح ، وإنما حمله على هذا إشكال فى قول من قال إنه حال وذلك لأن الجنة ليست لهم حال الاتكاء بل هى لهم فى كل حال فهى قبل الدخول لهم ، ويحتمل أن يقال هو حال وذو الحال ماتدل عليه الفاكهة . لأن قوله تعالى (فيهما من كل فاكهة زوجان) يدل على متفكهين بها كأنه قال يتفكه المتفكهون بها ، متكئين ، وهذا فيه معنى لطيف ، وذلك لأن الآكل إن كان ذليلا كالخول والخدم والعبيد والغلمان ، فإنه يأكل قائماً ، وإن كان عزيزاً فإن كان يأكل لدفع الجوع يأكل قاعداً ولا يأكل متكئاً إلا عزيز متفكه ليس عنده جوع يقعده للأكل ، ولا هنالك من يحسمه ، فالتفكه مناسب للاتكاء .

﴿ المسألة الثانية من المسائل النحوية ﴾ على فرش متعلق بأى فعل هو ؟ إن كان متعلقاً بما فى متكئين ، حتى يكون كأنه يقول ، يتكئون على فرش كما كان يقال ، فلان اتكأ على عصاه أو على فخذيه فهو بعيد لأن الفراش لا يتكأ عليه ، وإن كان متعلقاً بغيره فماذا هو ؟ نقول متعلق بغيره تقديره يتفكه الكائنون على فرش متكئين من غير بيان مايتكئون عليه ، ويحتمل أن يكون اتكاؤهم على الفرش غير أن الأظهر ما ذكرنا ليكون ذلك بياناً لما تحتهم وهم بجميع بدنهم عليه وهو أنعم وأكرم لهم .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ الظاهر أن لكل واحد فرشاً كثيرة لا أن لكل واحد فراشاً فلكلهم فرش عليها كائنون .

﴿ المسألة الرابعة لغوية ﴾ الاستبرق هو الديباج الثخين . وكما أن الديباج معرب بسبب أن العرب لم يكن عندهم ذلك إلا من العجم ، استعمل الاسم المعجم فيه غير أنهم تصرفوا فيه تصرفاً وهو أن اسمه بالفارسية ستبرك بمعنى ثخين تصغير « ستبر » فزادوا فيه همزة متقدمة عليه ، وبدلوا الكاف بالقاف ، أما الهمزة ، فلأن حركات أوائل الكلمة فى لسان العجم غير مبينة فى كثير من المواضع فصارت كالسكون ، فأثبتوا فيه همزة كما أثبتوا همزة الوصل عند سكون أول الكلمة ، ثم إن البعض جعلوها همزة وصل وقالوا (من استبرق) والأكثرون جعلوها همزة قطع لأن أول الكلمة فى الأصل متحرك لكن بحركة فاسدة فأتوا بهمزة تسقط عنهم الحركة الفاسدة وتمكنهم من تسكين الأول وعند تساوى الحركة ، فالعود إلى السكون أقرب ، وأواخر الكلمات عند الوقف تسكن ولا تبدل حركة بحركة ، وأما القاف فلأنهم لو تركوا الكاف لاشتبه ستبرك بمجدك ودارك ، فأسقطوا منه الكاف التى هى على لسان العرب فى آخر الكلم للخطاب وأبدلوها قافاً ثم عليه سؤال مشهور ، وهو أن القرآن أنزل بلسان عربى مبين ، وهذا ليس بعربى ، والجواب الحق أن اللفظة فى أصلها لم تكن بين العرب بلغة ، وليس المراد أنه أنزل بلغة هى فى أصل وضعها على لسان العرب ، بل المراد أنه منزل بلسان لا يخفى معناه على أحد من العرب ولم يستعمل فيه لغة لم تتكلم العرب بها ، فيصعب عليهم مثله لعدم مطاوعة لسانهم التكلم بها فعجزهم عن مثله ليس إلا لمعجز .

فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٥٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾

﴿ المسألة الخامسة ﴾ معنوية الاتكاء من الهيئات الدالة على صحة الجسم وفراغ القلب ، فالمتكىء تكون أمور جسمه على ما ينبغي وأحوال قلبه على ما ينبغي ، لأن العليل يضطجع ولا يستلقي أو يستند إلى شيء على حسب ما يقدر عليه للاستراحة ، وأما الاتكاء بحيث يضع كفه تحت رأسه ومرفقه على الأرض ويجافي جنبيه عن الأرض فذاك أمر لا يقدر عليه ، وأما مشغول القلب في طلب شيء فتحركه تحرك مستوفز .

﴿ المسألة السادسة ﴾ قال أهل التفسير قوله (بطائنها من استبرق) يدل على نهاية شرفها فإن ما تكون بطائنها من الاستبرق تكون ظهائرها خيراً منها ، وكأنه شيء لا يدركه البصر من سندس وهو الديباج الرقيق الناعم ، وفيه وجه آخر معنوي وهو أن أهل الدنيا يظهرون الزينة ولا يتمكنون من أن يجعلوا البطائن كالظهائر ، لأن غرضهم إظهار الزينة والبطائن لا تظهر ، وإذا انتفى السبب انتفى المسبب ، فلما لم يحصل في جعل البطائن من الديباج مقصودهم وهو الإظهار تركوه ، وفي الآخرة الأمر مبني على الإكرام والتنعيم فتكون البطائن كالظهائر فذكر البطائن .

﴿ المسألة السابعة ﴾ قوله تعالى (وجنى الجنتين دان) فيه إشارة إلى مخالفتها الجنة دار الدنيا من ثلاثة أوجه (أحدها) أن الثمرة في الدنيا على رءوس الشجرة والإنسان عند الاتكاء يبعد عن رءوسها وفي الآخرة هو متكىء والثمرة تنزل إليه (ثانيها) في الدنيا من قرب من ثمرة شجرة بعد عن الأخرى وفي الآخرة كلها دان في وقت واحد ومكان واحد ، وفي الآخرة المستقر في جنة عنده جنة أخرى (ثالثها) أن العجائب كلها من خواص الجنة فكان أشجارها دائرة عليهم ساترة إليهم وهم ساكنون على خلاف ما كان في الدنيا وجناتها وفي الدنيا الإنسان متحرك ومطلوبه ساكن ، وفيه الحقيقة وهي أن من لم يكسل ولم يتقاعد عن عبادة الله تعالى ، وسعى في الدنيا في الخيرات انتهى أمره إلى سكون لا يحوجه شيء إلى حركة . فأهل الجنة إن تحركوا تحركوا لا لحاجة وطلب ، وإن سكنوا سكنوا لا لاستراحة بعد التعب ، ثم إن الولي قد تصير له الدنيا أنموذجاً من الجنة ، فإنه يكون ساكناً في بيته ويأتيه الرزق متحركا إليه دائراً حواليه ، يدلك عليه قوله تعالى (كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا) .

﴿ المسألة الثامنة ﴾ الجنتان إن كانتا جسميتين فهو أبداً يكون بينهما وهما عن يمينه وشماله هو يتناول ثمارهما وإن كانت إحداهما روحية والأخرى جسمية فلكل واحد منهما فواكه وفرش تليق بها ، ثم قال تعالى ﴿ فيهن قاصرات الطرف لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان ، فبأي آلاء ربكما تكذبان ﴾

وفيه مباحث :

﴿ الأول ﴾ فى الترتيب وإنه فى غاية الحسن لأنه فى أول الأمر بين المسكن وهو الجنة ، ثم بين ما يتنزه به فإن من يدخل بستاناً يتفرج أولا فقال (ذواتا أفنان ، فيهما عينان) ثم ذكر ما يتناول من المأكول فقال (فيهما من كل فاكهة) ثم ذكر موضع الراحة بعد التناول وهو الفراش ، ثم ذكر ما يكون فى الفراش معه .

﴿ الثانى ﴾ فيهن الضمير عائد إلى ماذا ؟ نقول فيه ثلاثة أوجه (أحدها) إلى الآلاء والنعم أى قاصرات الطرف (ثانيها) إلى الفراش أى فى الفرش قاصرات وهما ضعيفان ، أما الأول فلأن اختصاص القاصرات بكونهن فى الآلاء مع أن الجنتين فى الآلاء والعينين فيهما والفواكه كذلك لا يبق له فائدة ، وأما الثانى فلأن الفرش جعلها ظرفهم حيث قال (متكئين على فرش) وأعاد الضمير إليها بقوله (بطائنها) ولم يقل بطائنهن ، فقوله فيهن يكون تفسيراً للضمير فيحتاج إلى بيان فائدة لأنه تعالى قال بعد هذا مرة أخرى (فيهن خيرات) ولم يكن هناك ذكر الفرش فالأصح إذن هو (الوجه الثالث) وهو أن الضمير عائد إلى الجنتين ، وجمع الضمير ههنا وثنى فى قوله (فيهما عينان) و (فيهما من كل فاكهة) وذلك لأنا بينا أن الجنة لها اعتبارات ثلاثة (أحدها) اتصال أشجارها وعدم وقوع الفيافى والمهامة فيها والأراضى الغامرة ، ومن هذا الوجه كأنها جنة واحدة لا يفصلها فاصل (وثانيها) اشتمالها على النوعين الحاصرين للخيرات ، فإن فيهما ما فى الدنيا ، وما ليس فى الدنيا وفيها ما يعرف ، وما لا يعرف ، وفيها ما يقدر على وصفه ، وفيها ما لا يقدر ، وفيها لذات جسمانية ولذات غير جسمانية فلاشتمالها على النوعين كأنها جنتان (وثالثها) لسعتها وكثرة أشجارها وأماكنها وأنهارها ومساكنها كأنها جنات ، فهى من وجه جنة واحدة ومن وجه جنتان ومن وجه جنات . إذا ثبت هذا فنقول اجتماع النسوان للمعاشرة مع الأزواج والمباشرة فى الفراش فى موضع واحد فى الدنيا لا يمكن ، وذلك لضيق المكان ، أو عدم الإمكان أو دليل ذلة النسوان ، فإن الرجل الواحد لا يجمع بين النساء فى بيت إلا إذا كن جوارى غير ملتفت إليهن ، فاما إذا كانت كل واحدة كبيرة النفس كثيرة المال فلا يجمع بينهن ، واعلم أن الشهوة فى الدنيا كما تزداد بالحسن الذى فى الأزواج تزداد بسبب العظمة وأحوال الناس فى أكثر الأمر تدل عليه ، إذا ثبت هذا فنقول الحظايا فى الجنة يجتمع فيهن حسن الصورة والجمال والعز والشرف والكمال ، فتكون الواحدة لها كذا وكذا من الجوارى والغلمان فتزداد اللذة بسبب كمالها ، فإذن ينبغى أن يكون لكل واحدة ما يليق بها من المكان الواسع فتصير الجنة التى هى واحدة من حيث الاتصال كثيرة من حيث تفرق المساكن فيها فقال (فيهن) وأما الدنيا فليس فيها تفرق المساكن دليلا للعظمة واللذة فقال فيهما وهذا من اللطائف (الثالث) قاصرات الطرف صفة لموصوف حذف ، وأقيمت الصفة مكانه ، والموصوف النساء أو الأزواج كأنه قال فيهن نساء قاصرات الطرف (وفيه لطيفة) فإنه تعالى لم يذكر النساء إلا بأوصافهن ولم يذكر اسم الجنس فيهن ، فقال تارة (حور عين)

وتارة (عرباً أترابا) وتارة (قاصرات الطرف) ولم يذكر نساء كذا وكذا لوجهين (أحدهما) الإشارة إلى تخدرهن وتسترهن ، فلم يذكرهن باسم الجنس لأن اسم الجنس يكشف من الحقيقة ما لا يكشفه الوصف فإنك إذا قلت المتحرك المريد الآكل الشارب لا تكون بينته بالأوصاف الكثيرة أكثر مما بينته بقولك حيوان وإنسان (وثانيهما) إعظاماً لهن ليزداد حسنهن فى أعين الموعودين بالجنة فإن بنات الملوك لايذكرن إلا بالأوصاف .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ (قاصرات الطرف) من القصر وهو المنع أى المانعات أعينهن من النظر إلى الغير ، أو من القصور ، وهو كون أعينهن قاصرة لا طماح فيها للغير ، أول والظاهر أنه من القصر إذ القصر مدح والقصور ليس كذلك ، ويحتمل أن يقال هو من القصر بمعنى أنهن قصرن أبصارهن ، فأبصارهن مقصورة وهن قاصرات فيكون من إضافة الفاعل إلى المفعول والدليل عليه هو أن القصر مدح والقصور ليس كذلك ، وعلى هذا ففيه لطيفة وهى أنه تعالى قال من بعد هذه (حور مقصورات) فهن مقصورات وهن قاصرات ، وفيه وجهان (أحدهما) أن يقال هن قاصرات أبصارهن كما يكون شغل العفائف ، وهن قاصرات أنفسهن فى الخيام كما هو عادة المخدرات لأنفسهن فى الخيام ولأبصارهن عن الطماح (وثانيهما) أن يكون ذلك بياناً لعظمتهن وعفافهن وذلك لأن المرأة التى لايكون لها رادع من نفسها ولا يكون لها أولياء يكون فيها نوع هوان ، وإذا كان لها أولياء أعزة امتنعت عن الخروج والبروز ، وذلك يدل على عظمتهن ، وإذا كن فى أنفسهن عند الخروج لا ينظرن يمنة ويسرة فهن فى أنفسهن عفائف ، فجمع بين الإشارة إلى عظمتهن بقوله تعالى (مقصورات) منعهن أولياؤهن وههنا وليهن الله تعالى ، وبين الإشارة إلى عفتهن بقوله تعالى (قاصرات الطرف) ثم تمام اللطف أنه تعالى قدم ذكر ما يدل على العفة على ما يدل على العظمة وذكر فى أعلى الجنتين قاصرات وفى أدناهما مقصورات ، والذى يدل على أن المقصورات يدل على العظمة أنهن يوصفن بالمخدرات لا بالمتخدرات ، إشارة إلى أنهن خدرهن خادر لهن غيرهن كالذى يضرب الخيام ويدلى الستر ، بخلاف من تتخذه لنفسها وتغلق بابها بيدها ، وسنذكر بيانه فى تفسير الآية بعد .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ (قاصرات الطرف) فيها دلالة عفتهن ، وعلى حسن المؤمنين فى أعينهن ، فيحببن أزواجهن حباً يشغلهن عن النظر إلى غيرهم ، ويدل أيضاً على الحياء لأن الطرف حركة الجفن ، والحورية لا تحرك جفنها ولا ترفع رأسها .

﴿ المسألة السادسة ﴾ (لم يطمثهن) فيه وجوه (أحدها) لم يفرعهن (ثانيها) لم يجامعهن (ثالثها) لم يمسسهن ، وهو أقرب إلى حالهن وأليق بوصف كمالهن ، لكن لفظ الطمث غير ظاهر فيه ولو كان المراد منه المس لذكر اللفظ الذى يستحسن ، وكيف وقد قال تعالى (وإن طلقتموهن من قبل أن تمسوهن) وقال (فاعتزلوا) ولم يصرح بلفظ موضوع للوطء ، فإن قيل فما ذكرتم من

كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٩﴾

الإشكال باق وهو أنه تعالى كنى عن الوطء فى الدنيا باللمس كما فى قوله تعالى (أو لامستم النساء) على الصحيح فى تفسير الآية وسنذكره ، وإن كان على خلاف قول إمامنا الشافعى رضى الله عنه وبالمس فى قوله (من قبل أن تمسوهن) ولم يذكر المس فى الآخرة بطريق الكناية ، نقول إنما ذكر الجماع فى الدنيا بالكناية لما أنه فى الدنيا قضاء للشهوة وأنه يضعف البدن ويمنع من العبادة ، وهو فى بعض الأوقات قبحه كقبح شرب الخمر ، وفى بعض الأوقات هو كالأكل الكثير . وفى الآخرة مجرد عن وجوه القبح ، وكيف لا والخمر فى الجنة معدودة من اللذات وأكلها وشربها دائم إلى غير ذلك ، فالله تعالى ذكره فى الدنيا بلفظ مجازى مستور فى غاية الخفاء بالكناية إشارة إلى قبحه وفى الآخرة ذكره بأقرب الألفاظ إلى التصريح أو بلفظ صريح ، لأن الطمث أدل من الجماع والوقاع لأنهما من الجمع والوقوع إشارة إلى خلوه عن وجوه القبح .

﴿ المسألة السابعة ﴾ ما الفائدة فى كلمة قبلهم ؟ قلنا لو قال : لم يطمثهن إنس ولا جان . يكون نفياً لطمث المؤمن إياهن وليس كذلك .

﴿ المسألة الثامنة ﴾ ما الفائدة فى ذكر الجان مع أن الجان لا يجامع ؟ نقول ليس كذلك بل الجن لهم أولاد وذريات وإنما الخلاف فى أنهم هل يواقعون الإنس أم لا ؟ والمشهور أنهم يواقعون وإلا لما كان فى الجنة أحساب ولا أنساب ، فكأن مواقعة الإنس إياهن كمواقعة الجن من حيث الإشارة إلى نفيها .

ثم قال تعالى ﴿ كأنهن الياقوت والمرجان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان ﴾ وهذا التشبيه فيه وجهان (أحدهما) تشبيه بصفائهما (وثانيهما) بحسن بياض اللؤلؤ وحمرة الياقوت ، والمرجان صغار اللؤلؤ وهى أشد بياضاً وضياء من الكبار بكثير ، فإن قلنا إن التشبيه لبيان صفائهن ، فنقول فيه لطيفة هى أن قوله تعالى (قاصرات الطرف) إشارة إلى خلوصهن عن القبائح ، وقوله (كأنهن الياقوت والمرجان) إشارة إلى صفائهن فى الجنة ، فأول ما بدأ بالعقليات وختم بالحسيات ، كما قلنا إن التشبيه لبيان مشابهة جسمهن بالياقوات والمرجان فى الحمرة والبياض ، فكذلك القول فيه حيث قدم بيان العفة على بيان الحسن ولا يبعد أن يقال هو مؤكد لما مضى لأنهن لما كن قاصرات الطرف ممتنعات عن الاجتماع بالإنس والجن لم يطمثن فهن كالياقوت الذى يكون فى معدنه والمرجان المصون فى صدفه لا يكون قد مسه يد لامس ، وقد بينا مرة أخرى فى قوله تعالى (كأنهن بيض مكنون) أن كأن الداخلة على المشبه به لا تفيد من التأكيد ما تفيده الداخلة على المشبه ، فإذا قلت زيد كالأسد ، كان معناه زيد يشبه الأسد ، وإذا قلت كأن زيداً الأسد فمعناه يشبه أن زيداً هو الأسد حقيقة ، لكن قولنا زيد يشبه الأسد ليس فيه مبالغة عظيمة ، فإنه يشبهه فى أنهما حيوانان

هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ (٦٠) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦١)

وجسمان وغير ذلك ، وقولنا زيد يشبه لا يمكن حمله على الحقيقة ، أما من حيث اللفظ فنقول إذا دخلت الكاف على المشبه به ، وقيل إن زيداً كالأسد عملت الكاف فى الأسد عملا لفظياً والعمل اللفظى مع العمل المعنوى ، فكأن الأسد عمل به عمل حتى صار زيداً ، وإذا قلت كأن زيداً الأسد تركت الأسد على إعرابه فإذن هو متروك على حاله وحقيقته وزيد يشبه به فى تلك الحال . ولا شك فى أن زيداً إذا شبه بأسد هو على حاله باق يكون أقوى مما إذا شبه بأسد لم يبق على حاله ، وكأن من قال زيد كالأسد نزل الأسد عن درجته فساواه زيد ، ومن قال كأن زيداً الأسد رفع زيداً عن درجته حتى ساوى الأسد ، وهذا تدقيق لطيف .

ثم قال تعالى ﴿ هل جزاء الإحسان إلا الإحسان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان ﴾ وفيه وجوه كثيرة حتى قيل إن فى القرآن ثلاث آيات فى كل آية منها مائة قول (الأولى) قوله تعالى (فاذكرونى أذكركم) ، (الثانية) قوله تعالى (إن عدتم عدنا) ، (الثالثة) قوله تعالى (هل جزاء الإحسان إلا الإحسان) ولنذكر الأشهر منها والأقرب . أما الأشهر فوجوه (أحدها) هل جزاء التوحيد غير الجنة ، أى جزاء من قال لا إله إلا الله إدخال الجنة (ثانيها) هل جزاء الإحسان فى الدنيا إلا الإحسان فى الآخرة (ثالثها) هل جزاء من أحسن إليكم فى الدنيا بالنعم وفى العقبى بالنعيم إلا أن تحسنوا إليه بالعبادة والتقوى ، وأما الأقرب فإنه عام فجزاء كل من أحسن إلى غيره أن يحسن هو إليه أيضاً ، ولنذكر تحقيق القول فيه وترجع الوجوه كلها إلى ذلك ، فنقول الإحسان يستعمل فى ثلاث معان (أحدها) إثبات الحسن وإيجاده قال تعالى (فأحسن صوركم) وقال تعالى (الذى أحسن كل شىء خلقه) (ثانيها) الإتيان بالحسن كالإظراف والإغراب للاتيان بالظريف والغريب قال تعالى (من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها) (ثالثها) يقال فلان لا يحسن الكتابة ولا يحسن الفاتحة أى لا يعلمهما ، والظاهر أن الأصل فى الإحسان الوجهان الأولان والثالث مأخوذ منهما ، وهذا لا يفهم إلا بقرينة الاستعمال بما يغلب على الظن إرادة العلم ، إذا علمت هذا فنقول يمكن حمل الإحسان فى الموضعين على معنى متحد من المعنيين ويمكن حمله فيهما على معنيين مختلفين (أما الأول) فنقول (هل جزاء الإحسان) أى هل جزاء من أتى بالفعل الحسن إلا أن يؤتى فى مقابلته بفعل حسن ، لكن الفعل الحسن من العبد ليس كل ما يستحسنه هو ، بل الحسن هو ما استحسنه الله منه ، فإن الفاسق ربما يكون الفسق فى نظره حسناً وليس بحسن بل الحسن ما طلبه الله منه ، كذلك الحسن من الله هو كل ما يأتى به مما يطلبه العبد كما أتى العبد بما يطلبه الله تعالى منه ، وإليه الإشارة بقوله تعالى (فيها ما تشتهى الأنفس وتلذ الأعين) وقوله تعالى (وهم فيما اشتهت أنفسهم خالدون) وقال تعالى (للذين أحسنوا الحسنى) أى ما هو حسن عندهم (وأما الثانى) فنقول هل جزاء من أثبت

الحسن فى عمله فى الدنيا إلا أن يثبت الله الحسن فيه وفى أحواله فى الدارين و بالعكس هل جزاء من أثبت الحسن فينا وفى صورنا وأحوالنا إلا أن نثبت الحسن فيه أيضاً ، لكن إثبات الحسن فى الله تعالى محال ، فإثبات الحسن أيضاً فى أنفسنا وأفعالنا فتحسن أنفسنا بعبادة حضرة الله تعالى ، وأفعالنا بالتوجه إليه وأحوال باطننا بمعرفته تعالى ، وإلى هذا رجعت الإشارة ، وورد فى الأخبار من حسن وجوه المؤمنين وقبح وجوه الكافرين (وأما الوجه الثالث) وهو الحمل على المعنيين فهو أن تقول على جزاء من أتى بالفعل الحسن إلا أن يثبت الله فيه الحسن ، وفى جميع أحواله فيجعل وجهه حسناً وحاله حسناً ، ثم فيه لطائف :

﴿ اللطيفة الأولى ﴾ هذه إشارة إلى رفع التكاليف عن العوام فى الآخرة ، وتوجيه التكاليف على الخواص فيها (أما الأول) فلأنه تعالى لما قال (هل جزاء الإحسان إلا الإحسان) والمؤمن لا شك فى أنه يثاب بالجنة فيكون له من الله الإحسان جزاء له ومن جازى عبداً على عمله لا يأمره بشكره ، ولأن التكليف لو بقى فى الآخرة فلو ترك العبد القيام بالتكليف لاستحق العقاب ، والعقاب ترك الإحسان لأن العبد لما عبد الله فى الدنيا مادام و بقى يليق بكرمه تعالى أن يحسن إليه فى الآخرة مادام وبقى ، فلا عقاب على تركه بلا تكليف (وأما الثانى) فنقول خاصة الله تعالى عبدنا الله تعالى فى الدنيا لنعم قد سبقت له علينا ، فهذا الذى أعطانا الله تعالى ابتداء نعمة وإحسان جديد فله علينا شكره ، فيقولون الحمد لله، ويذكرون الله ويثنون عليه فيكون نفس الإحسان من الله تعالى فى حقهم سبباً لقيامهم بشكره ، فيعرضون هم على أنفسهم عبادته تعالى فيكون لهم بأدنى عبادة شغل شاغل عن الحور والقصور والأكل والشرب . فلا يأكلون ولا يشربون ولا يتنابذون ولا يلعبون فيكون حالهم كحال الملائكة فى يومنا هذا لا يتناكحون ولا يلعبون ، فلا يكون ذلك تكليفاً مثل هذه التكاليف الشاقة ، وإنما يكون ذلك لذة زائدة على كل لذة فى غيرها .

﴿ اللطيفة الثانية ﴾ هذه الآية تدل على أن العبد يحكم فى الآخرة كما قال تعالى (لهم فيها فاكهة ولهم ما يدعون) وذلك لأنا بينا أن الإحسان هو الإتيان بما هو حسن عند من أتى بالإحسان ، لكن الله لما طلب منا العبادة طلب كما أراد ، فأتى به المؤمن كما طلب منه ، فصار محسناً فهذا يقتضى أن يحسن الله إلى عبده ويأتى بما هو حسن عنده ، وهو ما يطلبه كما يريد فكأنه قال (هل جزاء الإحسان) أى هل جزاء من أتى بما طلبته منه على حسب إرادتى إلا أن يؤتى بما طلبه منى على حسب إرادته ، لكن الإرادة متعلقة بالرؤية ، فيجب بحكم الوعد أن تكون هذه آية دالة على الرؤية البلكفية .

﴿ اللطيفة الثالثة ﴾ هذه الآية تدل على أن كل ما يفرضه الإنسان من أنواع الإحسان من الله تعالى فهو دون الإحسان الذى وعد الله تعالى به لأن الكريم إذا قال للفقير افعل كذا ولك كذا ديناراً ، وقال لغيره افعل كذا على أن أحسن إليك يكون رجاء من لم يعين له أجراً أكثر من

وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٣﴾ مُدْهَآمَّتَانِ ﴿٦٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٥﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴿٦٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٧﴾

رجاء من عين له ، هذا إذا كان الكريم فى غاية الكرم ونهاية الغنى ، إذا ثبت هذا فالله تعالى قال جزاء من أحسن إلى أن أحسن إليه بما يغبط به ، وأوصل إليه فوق ما يشتهيه فالذى يعطى الله فوق ما يرجوه وذلك على وفق كرمه وإفضاله .

ثم قال تعالى ﴿ ومن دونهما جنتان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان ، مدهامتان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان ، فيهما عينان نضاختان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان ﴾ لما ذكر الجزاء ذكر بعده مثله وهو جنتان أخريان ، وهذا كقوله تعالى (للذين أحسنوا الحسنى وزيادة) وفى قوله تعالى (دونهما) وجهان (أحدهما) دونهما فى الشرف ، وهو ما اختاره صاحب الكشاف وقال قوله (مدهامتان) مع قوله فى الأوليين (ذواتا أفنان) وقوله فى هذه (عينان نضاختان) مع قوله فى الأوليين (عينان تجريان) لأن النضخ دون الجرى ، وقوله فى الأولين (من كل فاكهة زوجان) مع قوله فى هاتين (فاكهة ونخل ورمان) وقوله فى الأوليين (فرش بطائنها من استبرق) حيث ترك ذكر الظهائر لعلوها ورفعتها وعدم إدراك العقول إياها مع قوله فى هاتين (رفرف خضر) دليل عليه ، ولقائل أن يقول هذا ضعيف لأن عطايا الله فى الآخرة متتابعة لايعطى شيئاً بعد شىء إلا ويظن الظان أنه ذلك أو خير منه . ويمكن أن يجاب عنه تقريراً لما اختاره الزمخشرى أن الجنتين اللتين دون الأوليين لذريتهم اللذين ألحقهم الله بهم ولأتباعهم ، ولكنه إنما جعلهما لهم إنعاماً عليهم ، أى هاتان الأخريان لكم أسكنوا فيهما من تريدون (الثانى) أن المراد دونهما فى المكان كأنهم فى جنتين ويطلعوا من فوق على جنتين أخريين دونهما ، ويدل عليه قوله تعالى لهم (غرف من فوقها غرف) الآية . والغرف العالية عندها أفنان ، والغرف التى دونها أرضها مخضرة ، وعلى هذا ففى الآيات لطائف :

﴿ الأولى ﴾ قال فى الأوليين (ذواتا أفنان) وقال فى هاتين (مدهامتان) أى مخضرتان فى غاية الخضرة ، وإدهام الشىء أى اسواد لكن لايستعمل فى بعض الأشياء والأرض إذا اخضرت غاية الخضرة تضرب إلى اسود ، ويحتمل أن يقال الأرض الخالية عن الزرع يقال لها بياض أرض وإذا كانت معمورة يقال لها سواد أرض كما يقال سواد البلد ، وقال النبى صلى الله عليه وسلم « عليكم بالسواد الأعظم ومن كثر سواد قوم فهو منهم » والتحقيق فيه أن ابتداء الألوان هو البياض

فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٩﴾ فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ﴿٧٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧١﴾ حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ ﴿٧٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٧٤﴾

وانتهاها هو السواد ، فان الأبيض يقبل كل لون والأسود لا يقبل شيئاً من الألوان ، ولهذا يطلق الكافر على الاسود . ولا يطلق على لون آخر ، ولما كانت الخالية عن الزرع متصفة بالبياض واللاخالية بالسواد فهذا يدل على أنهما تحت الأوليين مكاناً ، فهم إذا نظروا إلى ما فوقهم ، يرون الأفنان تظلهم ، وإذا نظروا إلى ماتحتهم يرون الأرض مخضرة ، وقوله تعالى (فيهما عينان نضاختان) أى فائرتان ماؤهما متحرك إلى جهة فوق ، وأما العينان المتقدمتان فتجريان إلى صوب المؤمنين فكلاهما حركتهما إلى جهة مكان أهل الإيمان ، وأما قول صاحب الكشاف النضخ دون الجرى فغير لازم لجواز أن يكون الجرى يسيراً والنضخ قوياً كثيراً ، بل المراد أن النضخ فيه الحركة إلى جهة العلو ، والعينان فى مكان المؤمنين ، فحركة الماء تكون إلى جهتهم ، فالعينان الأوليان فى مكانهم فتكون حركة مائهما إلى صوب المؤمنين جرياً .

وأما قوله تعالى ﴿ فيهما فاكهة ونخل ورمان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان ﴾ فهو كقوله تعالى (فيهما من كل فاكهة زوجان) وذلك لأن الفاكهة أرضية نحوه البطيخ وغيره من الأرضيات المزروعات وشجرية نحو النخل وغيره من الشجريات فقال (مدهامتان) بأنواع الخضر التى منها الفواكه الأرضية وفيهما أيضاً الفواكه الشجرية وذكر منها نوعين وهما الرمان والرطب لأنهما متقابلان فأحدهما حلو والآخر غير حلو . وكذلك أحدهما حار والآخر بارد وأحدهما فاكهة وغذاء ، والآخر فاكهة ، وأحدهما من فواكه البلاد الحارة والآخر من فواكه البلاد البارة ، وأحدهما أشجاره فى غاية الطول والآخر أشجاره بالضد وأحدهما ما يؤكل منه بارز وما لا يؤكل كامن ، والآخر بالعكس فهما كالضدين والإشارة إلى الطرفين تتناول الإشارة إلى مابينهما ، كما قال (رب المشرقين ورب المغربين) وقدمنا ذلك .

ثم قال تعالى ﴿ فيهن خيرات حسان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان ﴾ أى فى باطنهن الخير وفى ظاهرهن الحسن والخيرات جمع خيرة . وقد بينا أن فى قوله تعالى (قاصرات الطرف) إلى أن قال (كأنهن) إشارة إلى كونهن حساناً .

قوله تعالى : ﴿ حور مقصورات فى الخيام ، فبأى آلاء ربكما تكذبان ، لم يطمثهن إنس قبلهم

فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٥﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ ﴿٧٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٧﴾

ولا جان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان ﴾ .

إشارة إلى عظمتهن فإنهن ما قصرن حجراً عليهن ، وإنما ذلك إشارة إلى ضرب الخيام لهن وإدلاء الستر عليهن ، والخيمة مبيت الرجل كالبيت من الخشب ، حتى أن العرب تسمى البيت من الشعر خيمة لأنه معد للاقامة ، إذا ثبت هـذا فنقول : قوله (مقصورات فى الخيام) إشارة إلى معنى فى غاية اللطف ، وهو أن المؤمن فى الجنة لا يحتاج إلى التحرك لشيء وإنما الأشياء تتحرك إليه فالمأكول والمشروب يصل إليه من غير حركة منه ، ويطاف عليهم بما يشتهونه فالحور يكن فى بيوت ، وعند الانتقال إلى المؤمنين فى وقت إرادتهم تسير بهن للارتحال إلى المؤمنين خيام وللمؤمنين قصور تنزل الحور من الخيام إلى القصور ، وقوله تعالى (لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان) قد سبق تفسيره .

قوله تعالى : ﴿ متكئين على رفرف خضر وعبقرى حسان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان ﴾ وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ ما الحكمة فى تأخير ذكر اتكائهم عن ذكر نسائهم فى هذا الموضع مع أنه تعالى قدم ذكر اتكائهم على ذكر نسائهم فى الجنتين المتقدمتين حيث قال (متكئين على فرش) ثم قال (قاصرات الطرف) وقال ههنا (فيهن خيرات حسان) ثم قال (متكئين) ؟ والجواب عنه من وجهين (أحدهما) أن أهل الجنة ليس عليهم تعب وحركة فهم منعمون دائماً لكن الناس فى الدنيا على أقسام منهم من يجتمع مع أهله اجتماع مستفيض وعند قضاء وطره يستعمل الاغتسال والانتشار فى الأرض للكسب ، ومنهم من يكون متردداً فى طلب الكسب وعند تحصيله يرجع إلى أهله ويريح قلبه من التعب قبل قضاء الوطر فيكون التعب لازماً قبل قضاء الوطر أو بعده فالله تعالى قال فى بيان أهل الجنة متكئين قبل الاجتماع بأهلهم وبعد الاجتماع كذلك ، ليعلم أنهم دائمون على السكون فلا تعب لهم لا قبل الاجتماع ولا بعد الاجتماع (وثانيهما) هو أنا بينا فى الوجهين المتقدمين أن الجنتين المتقدمتين لأهل الجنة الذين جاهدوا والمتأخرين لذرياتهم الذين ألحقوا بهم ، فهم فيهما وأهلهم فى الخيام منتظرات قدوم أزواجهن ، فإذا دخل المؤمن جنته التى هى سكناه يتكىء على الفرش وتنتقل إليه أزواجه الحسان ، فكونهن فى الجنتين المتقدمتين بعد اتكائهم على الفرش ، وأما كونهم فى الجنتين المتأخرتين فذلك حاصل فى يومنا ، واتكاء المؤمن غير حاصل فى يومنا ، فقدم ذكر كونهن فيهن هنا وأخره هناك . ومتكئين حال والعامل فيه

مادل عليه قوله (لم يطمثهن إنس قبلهم) وذلك فى قوة الاستثناء كأنه قال لم يطمثهن إلا المؤمنون فإنهم يطمثوهن متكئين وما ذكرنا من قبل فى قوله تعالى (متكئين على فرش) يقال هنا .

﴿ المسألة الثانية ﴾ الرفرف إما أن يكون أصله من رف الزرع إذا بلغ من نضارته فيكون مناسباً لقوله تعالى (مدهامتان) ويكون التقدير أنهم متكئون على الرياض والثياب العبقرية ، وإما أن يكون من رفرفة الطائر ، وهى حومة فى الهواء حول مايريد النزول عليه فيكون المعنى أنهم على بسط مرفوعة كما قال تعالى (وفرش مرفوعة) وهذا يدل على أن قوله تعالى (ومن دونهما جنتان) أنهما دونهما فى المكان حيث رفعت فرشهم ، وقوله تعالى (خضر) صيغة جمع فالرفرف يكون جمعاً لكونه اسم جنس ويكون واحده رفرفة كحنظلة وحنظل والجمع فى متكئين يدل عليه فانه لما قال (متكئين) دل على أنهم على رفارف .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ ما الفرق بين الفرش والرفرف حيث لم يقل رفارف اكتفاء بما يدل عليه قوله (متكئين) وقال (فرش) ولم يكتف بما يدل عليه ذلك ؟ نقول جمع الرباعى أثقل من جمع الثلاثى ، ولهذا لم يجىء للجمع فى الرباعى إلا مثال واحد وأمثلة الجمع فى الثلاثى كثيرة وقد قرىء : على رفارف خضر ، ورفارف خضار وعباقر .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ إذا قلنا إن الرفرف هى البسط فما الفائدة فى الخضر حيث وصف تعالى ثياب الجنة بكونها خضراً قال تعالى (ثياب سندس خضر) ؟ نقول ميل الناس إلى اللون الأخضر فى الدنيا أكثر ، وسبب الميل إليه هوأن الألوان التى يظن أنها أصول الألوان سبعة وهى الشفاف وهو الذى لا يمنع نفوذ البصر فيه ولا يحجب ما وراءه كالزجاج والماء الصافى وغيرهما ثم الأبيض بعده ثم الأصفر ثم الأحمر ثم الأخضر ثم الأزرق ثم الأسود والأظهرأن الألوان الأصلية ثلاثه الأبيض والأسود وبينهما غاية الخلاف والأحمر متوسط بين الأبيض والأسود فان الدم خلق على اللون المتوسط ، فان لم تكن الصحة على ماينبغى فان كان لفرط البرودة فيه كان أبيض وإن كان لفرط الحرارة فيه كان أسود لكن هذه الثلاثة يحصل منها الألوان الأخر فالأبيض إذا امتزج بالأحمر حصل الأصفر يدل عليه مزج اللبن الأبيض بالدم وغيره من الأشياء الحمر وإذا امتزج الأبيض بالأسود حصل اللون الأزرق يدل عليه خلط الجص المدقوق بالفحم وإذا امتزج الأحمر بالأسود حصل الأزرق أيضاً لكنه إلى السواد أميل ، وإذا امتزج الأصفر بالأزرق حصل الأخضر من الأصفر والأزرق وقد علم أن الأصفر من الأبيض والأحمر والأزرق من الأبيض والأسود والأحمر والأسود فالأخضر حصل فيه الألوان الثلاثة الأصلية فيكون ميل الإنسان إليه لكونه مشتملا على الألوان الأصلية وهذا بعيد جداً والأقرب أن الأبيض يفرق البصر ولهذا لا يقدر الإنسان على إدامة النظر فى الارض عند كونها مستورة بالثلج وإنه يورث الجهر والنظر إلى الأشياء السود يجمع البصر ولهذا كره الإنسان النظر إليه وإلى الأشياء الحمر كالدم والأخضر لما اجتمع فيه الأمور الثلاثة دفع بعضها أذى بعض وحصل اللون الممتزج من الأشياء التى فى بدن الإنسان وهى الأحمر

تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾

والأبيض والأصفر والأسود ولما كان ميل النفس فى الدنيا إلى الأخضر ذكر الله تعالى فى الآخرة ماهو على مقتضى طبعه فى الدنيا .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ العبقرى منسوب إلى عبقر وهو عند العرب موضع من مواضع الجن فالثياب المعمولة عملا جيداً يسمونها عبقريات مبالغة فى حسنها كأنها ليست من عمل الإنس ، ويستعمل فى غير الثياب أيضاً حتى يقال للرجل الذى يعمل عملا عجيباً هو عبقرى أي من ذلك البلد قال النبى صلى الله عليه وسلم فى المنام الذى رآه « فلم أر عبقرياً من الناس يفرى فريه » واكتفى بذكر اسم الجنس عن الجمع ووصفه بما توصف به الجموع فقال حسان وذلك لما بينا أن جمع الرباعى يستثقل بعض الاستثقال ، وأما من قرأ (عباقرى) فقد جعل اسم ذلك الموضع عباقر فإن زعم أنه جمعه فقد وهم ، وإن جمع العبقرى ثم نسب فقد التزم تكلفاً خلاف ما كلف الأدباء التزامه فإنهم فى الجمع إذا نسبوا ردوه إلى الواحد وهذا القارىء تكلف فى الواحد ورده إلى الجمع ثم نسبه لأن عند العرب ليس فى الوجود بلاد كلها عبقر حتى تجمع ويقال عباقر ، فهذا تكلف الجمع فيما لا جمع له ثم نسب إلى ذلك الجمع والأدباء تكره الجمع فيما ينسب لئلا يجمعوا بين الجمع والنسبة .

قوله تعالى : ﴿ تبارك اسم ربك ذى الجلال والإكرام ﴾ وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ فى الترتيب وفيه وجوه (أحدها) أنه تعالى لما ختم نعم الدنيا بقوله تعالى (ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام) ختم نعم الآخرة بقوله (تبارك اسم ربك ذى الجلال والإكرام) إشارة إلى أن الباقى والدائم لذاته هو الله تعالى لاغير والدنيا فانية ، والآخرة وإن كانت باقية لكن بقاؤها بابقاء الله تعالى (ثانيها) هو أنه تعالى فى أواخر هذه السور كلها ذكر اسم الله فقال فى السورة التى قبل هذه (عند مليك مقتدر) وكون العبد عند الله من أتم النعم كذلك ههنا بعد ذكر الجنات وما فيها من النعم قال (تبارك اسم ربك ذى الجلال والإكرام) إشارة إلى أن أتم النعم عند الله تعالى ، وأكمل اللذات ذكر الله تعالى ، وقال فى السورة التى بعد هذه (فروح وريحان وجنة نعيم) ثم قال تعالى فى آخر السورة (فسبح باسم ربك العظيم) (ثالثها) أنه تعالى ذكر جميع اللذات فى الجنات ، ولم يذكر لذة السماع وهى من أتم أنواعها ، فقال (متكئين على رفرف خضر) يسمعون ذكر الله تعالى .

﴿ المسألة الثانية ﴾ أصل التبارك من البركة . وهى الدوام والثبات ، ومنها بروك البعير وبركة الماء ، فإن الماء يكون فيها دائماً وفيه وجوه (أحدها) دام اسمه وثبت (وثانيها) دام الخير عنده لأن البركة وإن كانت من الثبات لكنها تستعمل فى الخير (وثالثها) تبارك بمعنى علا وارتفع شأناً لا مكاناً .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قال بعد ذكر نعم الدنيا (ويبقى وجه ربك) وقال بعد ذكر نعم الآخرة (تبارك اسم ربك) لأن الإشارة بعد عد نعم الدنيا وقعت إلى عدم كل شيء من الممكنات وفنائها في ذواتها ، واسم الله تعالى ينفع الذاكرين ولا ذاكر هناك يوحد الله غاية التوحيد فقال ويبقى وجه الله تعالى والإشارة هنا ، وقعت إلى أن بقاء أهل الجنة بإبقاء الله ذاكرين إسم الله متلذذين به فقال (تبارك اسم ربك) أي في ذلك اليوم لا يبقى إسم أحد إلا اسم الله تعالى به تدور الألسن ولا يكون لأحد عند أحد حاجة بذكره ولا من أحد خوف ، فإن تذاكروا تذاكروا باسم الله .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ الاسم مقحم أو هو أصل مذكور له التبارك ، نقول فيه وجهان (أحدهما) وهو المشهور أنه مقحم كالوجه في قوله تعالى (ويبقى وجه ربك) يدل عليه قوله (فتبارك الله أحسن الخالقين) و (تبارك الذي بيده الملك) وغيره من صور استعمال لفظ تبارك (وثانيهما) هو أن الاسم تبارك ، وفيه إشارة إلى معنى بليغ ، أما إذا قلنا تبارك بمعنى علا فمن علا اسمه كيف يكون مسماه وذلك لأن الملك إذا عظم شأنه لا يذكر اسمه إلا بنوع تعظيم ثم إذا انتهى الذاكر إليه يكون تعظيمه له أكثر ، فان غاية التعظيم للاسم أن السامع إذا سمعه قام كما جرت عادة الملوك أنهم إذا سمعوا في الرسائل اسم سلطان عظيم يقومون عند سماع اسمه ، ثم إن أتاهم السلطان بنفسه بدلا عن كتابه الذي فيه اسمه يستقبلونه ويضعون الجباه على الأرض بين يديه ، وهذا من الدلائل الظاهرة على أن علو الاسم يدل على علو زائد في المسمى ، أما إن قلنا بمعنى دام الخير عنده فهو إشارة إلى أن ذكر اسم الله تعالى يزيل الشر ويهرب الشيطان ويزيد الخير ويقرب السعادات ، وأما إن قلنا بمعنى دام اسم الله ، فهو إشارة إلى دوام الذاكرين في الجنة على ما قلنا من قبل .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ القراءة المشهورة ههنا (ذي الجلال) وفي قوله تعالى (ويبقى وجه ربك ذو الجلال) لأن الجلال للرب ، والاسم غير المسمى ، وأما وجه الرب فهو الرب فوصف هناك الوجه ووصف ههنا الرب دون الاسم ولو قال ويبقى الرب لتوهم أن الرب إذا بقي رباً فله في ذلك الزمان مربوب ، فإذا قال وجه أنسى المربوب فحصل القطع بالبقاء للحق فوصف الوجه يفيد هذه الفائدة ، والله أعلم والحمد لله رب العالمين وصلاته على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلامه .

سورة الرحمن عزَّ وجلَّ

مكِّيَّة كلُّها في قول الحسن وعُرْوة بن الزبير وعِكرمة وعطاء وجابر. وقال ابن عباس: إلا آيةً منها، هي قوله تعالى: ﴿يَسْئَلُهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ﴾ الآية [٢٩]، وهي ستٌّ وسبعون آيةً. وقال ابن مسعود ومقاتل: هي مدنيَّة كلُّها(١).

والقول الأوَّل أصحُّ(٢)؛ لما روى عُرْوة بن الزبير قال: أوَّل من جهر بالقرآن بمكَّة بعد النبيِّ ﷺ ابنُ مسعود، وذلك أنَّ الصحابة قالوا: ما سمعت قريشٌ هذا القرآنَ يُجهَر به قطُّ، فمَن رجلٌ يُسْمِعْهُمُوه؟ فقال ابن مسعود: أنا. فقالوا: إنَّا نخشى عليك، وإنَّما نريد رجلاً له عشيرة يمنعونه، فأبى، ثم قام عند المقام فقال: «بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. الرَّحْمَنُ. عَلَّمَ القُرْآنَ» ثم تمادى رافعاً بها صوته وقريش في أنديتها، فتأمَّلوا وقالوا: ما يقول ابنُ أُمِّ عَبْد؟ قالوا: هو يقول: الذي يزعم محمَّد أنَّه أُنزل عليه، ثم ضربوه حتى أثَّروا في وجهه(٣).

وصحَّ أنَّ النبيَّ ﷺ قام يُصلِّي الصبح بنخلةَ، فقرأ سورة «الرَّحْمَن» ومرَّ النفر من الجنِّ فآمنوا به(٤). وفي «الترمذي» عن جابر قال: خرج رسول الله ﷺ على أصحابه فقرأ عليهم سورةَ «الرَّحْمَن» من أولها إلى آخرها فسكتوا، فقال: «لقد قرأتها على الجنِّ ليلةَ الجنِّ، فكانوا أحسنَ مردوداً منكم، كنتُ كلَّما أتيتُ على قوله: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ قالوا: لا بشيء من نِعَمِك ربَّنا نُكذِّب، فلكَ الحمدُ» قال: هذا حديث غريب(٥). وفي هذا دليل على أنَّها مكيَّة، والله أعلم.

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٤٢٢.

(٢) المحرر الوجيز ٥/ ٢٢٣.

(٣) أخرجه أحمد في فضائل الصحابة (١٥٣٥) عن عروة بن الزبير مرسلاً.

(٤) أخرجه البخاري (٤٩٢١)، ومسلم (٤٤٩)، وأحمد (٢٢٧١) عن ابن عباس دون ذكر سورة الرحمن، وذُكرت في الخبر الآتي.

(٥) الترمذي (٣٢٩١).

وروي أنَّ قيس بنَ عاصم المِنْقري قال للنبيِّ ﷺ: اتْلُ عليَّ ممَّا أُنزِل عليك، فقرأ عليه سورة «الرَّحْمن» فقال: أَعِدْها. فأعادها ثلاثاً، فقال: واللهِ إنَّ له لطلاوةً، وإنَّ عليه لحلاوةً، وأسفلَه لَمُغْدِقٌ، وأعلاه مثمرٌ، وما يقول هذا بشرٌ، وأنا أشهدُ أنْ لا إلهَ إلا اللهُ وأنَّكَ رسولُ الله[1]. وروي عن عليٍّ ﷺ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «لكلِّ شيء عَروس، وعَروس القرآن سورة الرحمن»[2].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴿٢﴾ خَلَقَ الْإِنسَانَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴿٤﴾ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴿٥﴾ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴿٦﴾ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ﴿٨﴾ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴿٩﴾ وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ﴿١٠﴾ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ ﴿١١﴾ وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ ﴿١٢﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَٰنُ . عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾ قال سعيد بن جبير وعامر الشَّعْبيُّ: «الرَّحْمَنُ» فاتحةُ ثلاث سور إذا جُمِعْنَ كنَّ اسماً من أسماء الله تعالى: «الر» و«حمَ» و«نَ» فيكون مجموع هذه «الرَّحْمَنُ»[3]. «عَلَّمَ الْقُرْآنَ» أي: علَّمه نبيَّه ﷺ حتى أدَّاه إلى جميع الناس[4].

ونزلت حين قالوا: وَمَا الرَّحْمَنُ؟ وقيل: نزلت جواباً لأهل مكَّة حين قالوا: إنَّما

(١) لم نقف عليه هكذا، بل جاء وصف القرآن هكذا في خبر الوليد بن المغيرة، وسلف ١٢/ ٤١١ ، وذكر ابن عبد البر في الاستيعاب (٤/ ١٧٣ بهامش الإصابة) خبراً عن خالد بن عقبة بنحوه، إلا أن فيه أن النبي ﷺ قرأ عليه قوله تعالى: ﴿إن الله يأمر بالعدل والإحسان..﴾ الآية، بدل سورة الرحمن.

(٢) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٢٤٩٤). قال المناوي في فيض القدير ٥/ ٢٨٦ : فيه علي بن الحسن دبيس، عدَّه الذهبي في الضعفاء والمتروكين. وقال الدارقطني: ليس بثقة. اهـ

(٣) النكت والعيون ٥/ ٤٢٤ ونسبه لابن جبير وابن عباس.

(٤) النكت والعيون ٥/ ٤٢٣ .

يعلِّمه بشر[١]، وهو رحمان اليمامة، يعنون مسيلِمَة الكذَّاب، فأنزل الله تعالى: «الرَّحْمَنُ. عَلَّمَ الْقُرْآنَ»[٢]. وقال الزجَّاج[٣]: معنى «عَلَّمَ الْقُرْآنَ» أي: سهَّله لأنْ يُذكَر ويُقرأ، كما قال: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ﴾ [القمر:١٧]. وقيل: جعله علامةً لما تعبّد الناس به.

﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ﴾ قال ابن عباس وقتادة والحسن: يعني آدمَ عليه السلام[٤]. ﴿عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾ أسماءَ كلِّ شيء. وقيل: علَّمه اللغاتِ كلَّها[٥]. وعن ابن عباس أيضاً وابن كيسان: الإنسان هاهنا يُراد به محمَّد ﷺ[٦]، والبيان: بيانُ الحلال من الحرام[٧]، والهدى من الضلال[٨]. وقيل: ما كان وما يكون؛ لأنَّه بَيّن عن الأوَّلين والآخِرين ويوم الدِّين[٩]. وقال الضحَّاك: «البيان»: الخير والشرُّ[١٠]. وقال الربيع بن أنس: هو ما ينفعه وما يضرُّه، وقاله قتادة.

وقيل: «الْإِنْسَان» يُراد به جميع الناس، فهو اسمٌ للجنس، و«الْبَيَان» على هذا: الكلامُ والفهم، وهو مما فُضِّل به الإنسان على سائر الحيوان[١١]. وقال السُّدِّيُّ: علَّم

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ٢٦٦ .

(٢) تفسير أبي الليث ٣/ ٣٠٤ .

(٣) في معاني القرآن له ٥/ ٩٥ .

(٤) النكت والعيون ٥/ ٤٢٣ عن الحسن وقتادة، وتفسير البغوي ٤/ ٢٦٦ عن ابن عباس، وأخرجه الطبري ٢٢/ ١٦٨ - ١٦٩ عن قتادة.

(٥) تفسير البغوي ٤/ ٢٦٦ .

(٦) تفسير البغوي ٤/ ٢٦٨ ، والمحرر الوجيز ٥/ ٢٢٣ عن ابن كيسان.

(٧) النكت والعيون ٥/ ٤٢٣ وعزاه لقتادة، وأخرجه عنه الطبري ٢٢/ ١٦٩ .

(٨) النكت والعيون ٥/ ٤٢٣ وعزاه لابن جريج.

(٩) تفسير البغوي ٤/ ٢٦٧ .

(١٠) النكت والعيون ٥/ ٤٢٣ .

(١١) معاني القرآن للزجاج ٥/ ٩٥ ، وتفسير البغوي ٤/ ٢٦٧ ، وقوله: البيان: الكلام والفهم. أخرجه الطبري ٢٢/ ١٧٠ عن ابن زيد.

كلٍّ قوم لسانهم الذي يتكلَّمون به[١]. وقال يمان: الكتابة والخطُّ بالقلم[٢]. نظيره: ﴿عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ . عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ٤-٥].

﴿ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ أي: يجريان بحساب معلوم، فأضمر الخبر[٣]. قال ابن عباس وقتادة وأبو مالك: أي: يجريان بحساب في منازل لا يعدوانها ولا يَحيدان عنها[٤]. وقال ابن زيد وابن كيسان: يعني أنَّ بهما تحسب الأوقات والآجال والأعمار، ولولا الليل والنهار والشمس والقمر لم يَدْرِ أحدٌ كيف يَحسُب شيئاً لو كان الدهر كلُّه ليلاً أو نهاراً[٥]. وقال السُّدِّيُّ: «بِحُسْبَانٍ» تقدير آجالهما، أي: تجري بآجال كآجال الناس، فإذا جاء أجلهما أهلكا[٦]، نظيره: ﴿كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الرعد: ٢]. وقال الضحَّاك: بقَدَر[٧]. مجاهد: «بِحُسْبَانٍ» كحسبان الرَّحَى[٨]. يعني قطبها يدوران في مثل القطب.

والحُسْبان قد يكون مصدر حَسَبته أحْسُبُه ـ بالضَّمِّ ـ حَسْباً وحُسْباناً، مثل الغُفْران والكُفْران والرُّجْحان، وحِسابة أيضاً، أي: عَدَدْته. وقال الأخفش: ويكون جماعة الحِسَاب مثل شِهاب وشُهبان. والحُسْبان، أيضاً بالضمِّ: العذابُ، والسهامُ القصار، وقد مضى في «الكهف»[٩] الواحدة حُسْبانة، والحُسْبانة أيضاً: الوسادة الصغيرة، تقول منه: حَسَّبتُه، إذا وسَّدْته، قال:

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ٢٦٧ .

(٢) زاد المسير ٨/ ١٠٦ .

(٣) معاني القرآن للأخفش ٢/ ٧٠١ .

(٤) المحرر الوجيز ٥/ ٢٢٤ ، وأخرجه عنهم الطبري ٢٢/ ١٧٠ - ١٧١ .

(٥) النكت والعيون ٥/ ٢٢٣ - ٢٢٤ ، وتفسير البغوي ٤/ ٢٦٧ ، وأخرجه الطبري ٢٢/ ١٧١ عن ابن زيد.

(٦) النكت والعيون ٥/ ٤٢٣ .

(٧) النكت والعيون ٥/ ٤٢٤ ولم يعزه.

(٨) تفسير مجاهد ٢/ ٦٣٩ ، وأخرجه عنه الطبري ٢٢/ ١٧٢ ، وعلَّقه البخاري في كتاب التفسير قبل حديث (٤٨٧٨)، قال ابن حجر في فتح الباري ٦/ ٢٩٨ عن قول مجاهد: ومراده أنهما يجريان على حسب الحركة الرحوية الدورية، وعلى وضعها.

(٩) عند الآية (٤١).

... لَـشُـوِيْـتَ غَـيْـرَ مُـحَـسَّـب

أي: غير موسَّد، يعني: غيرَ مكرَّم ولا مكَفَّن(١).

﴿وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾ قال ابن عباس وغيره: النجم: ما لا ساقَ له، والشجر: ما له ساق(٢)، وأنشد ابنُ عباس قولَ صفوان بن أسد التميمي:

لَقَد أَنْجَمَ الْقَاعُ الكَبيرُ عِضَاهه وتَمَّ به حيّا تَميم ووائلِ(٣)

وقال زهير بن أبي سُلْمى:

مُكَلَّلٌ بأُصولِ النَّجْم تَنْسِجُه ريحُ الجَنوب لِضاحِي مائه حُبُكُ(٤)

واشتقاق النجم من نَجَم الشيءُ ينجُم بالضَّمِّ نجوماً: ظهر وطلَع(٥).

وسجودهما بسجود ظلالهما، قاله الضحَّاك(٦). وقال الفرَّاء(٧): سجودهما أنَّهما يستقبلان الشمس إذا طلعت، ثم يميلان معها حتى ينكسر الفَيْء. وقال الزجَّاج(٨): سجودهما: دوران الظِّلِّ معهما، كما قال تعالى: ﴿يَتَفَيَّؤُا ظِلَٰلُهُ﴾ [النحل: ٤٨]. وقال الحسن ومجاهد: النجم: نجم السماء، وسجوده في قول مجاهد دوران ظلِّه، وهو

---

(١) الصحاح (حسب)، والبيت لنهيكة الفزاري يخاطب عامر بن الطفيل، وتمامه:

للمست بالرصعاء طعنة فاتك حرَّان أو لشويت غير محسب

وأورده ابن منظور في لسان العرب (حسب) وجاءت روايته هكذا:

لَتقيتَ بالوَجْعاء طعنة مرهف مُرَّان أو لشويتَ غيرَ محسَّب

والوجعاء: الاست، أي: لو طَعنتُك لوليتني دبرك.

(٢) إيضاح الوقف والابتداء لابن الأنباري ١/ ٩٦ ، وما بعده منه أيضاً، والمحرر الوجيز ٥/ ٢٢٤ ونسبه لابن عباس والسدي وسفيان، وأخرجه الطبري ٢٢/ ١٧٤ - ١٧٦ عن ابن عباس وسفيان وسعيد، وابن أبي حاتم ١٠/ ٣٣٢٢ (١٨٧١٧) عن ابن عباس.

(٣) أورده الشوكاني في فتح القدير ٥/ ١٣١ ولم ينسبه.

(٤) سلف ١٩/ ٤٧٢ .

(٥) الصحاح (نجم).

(٦) النكت والعيون ٥/ ٤٢٤ .

(٧) في معاني القرآن له ٣/ ١١٢ .

(٨) في معاني القرآن له ٥/ ٩٦ .

اختيار الطبري[١]، حكاه المهدويُّ. وقيل: سجود النجم: أُفوله، وسجود الشجر: إمكان الاجتناء لثمرها، حكاه الماورديُّ[٢]. وقيل: إنَّ جميع ذلك مسخَّر لله[٣]، فلا تعبدوا النجم كما عَبَدَ قوم من الصابئين النجومَ، وعَبَدَ كثير من العجم الشجرَ.

والسجود: الخضوع، والمعنيُّ به آثار الحدوث، حكاه القشيريُّ. النحَّاس: أصل السجود في اللغة: الاستسلام والانقياد لله عزَّ وجلَّ، فهو من الموات كلِّها: استسلامها لأمر الله عزَّ وجلَّ وانقيادها له، ومن الحيوان كذلك، ويكون من سجود الصلاة، وأنشد محمد بن يزيد في النجم بمعنى النجوم قال:

فباتَتْ تَعُدُّ النَّجْمَ في مُسْتَحيرة سَريعٍ بأَيْدي الآكِلينَ جُمُودُهَا[٤]

﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا﴾ وقرأ أبو السَّمَّال: «والسَّمَاءُ» بالرفع على الابتداء[٥]، واختار ذلك؛ لما عطف على الجملة التي هي: «وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ» فجعل المعطوف مركباً من ابتداء وخبر كالمعطوف عليه. الباقون بالنصب؛ على إضمار فعل يدلُّ عليه ما بعده.

﴿وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ﴾ أي: العدل، عن مجاهد وقتادة والسديِّ[٦]. أي: وضع في الأرض العدل الذي أمر به، يقال: وضع اللهُ الشريعةَ، ووضع فلانٌ كذا، أي: ألقاه. وقيل على هذا: الميزان: القرآن؛ لأنَّ فيه بيان ما يحتاج إليه، وهو قول الحسين بن الفضل. وقال الحسن وقتادة ـ أيضاً ـ والضحَّاك: هو الميزان ذو اللسان الذي يوزن به؛ لينتصف به الناس بعضهم من بعض[٧].

---

(١) في التفسير ٢٢/ ١٧٤ - ١٧٧ وأخرجه عنهما، وقول مجاهد في تفسيره ٢/ ٦٣٩ .
(٢) في النكت والعيون ٥/ ٤٢٤ ، وأَفَل: غاب. اللسان (أفل).
(٣) تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة ص٣٢٣ .
(٤) القائل الراعي النميري، وسلف ص٧ من هذا الجزء.
(٥) القراءات الشاذة ص١٤٨ ، والمحتسب ٢/ ٣٠٢ .
(٦) النكت والعيون ٥/ ٤٢٤ ، وأخرجه الطبري ٢٢/ ١٧٨ عن مجاهد، وهو في تفسيره ٢/ ٦٤٠ .
(٧) زاد المسير ٨/ ١٠٧ .

وهو خبر بمعنى الأمر بالعدل، يدل عليه قوله تعالى: «وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ» والقسط: العدل[١].

وقيل: هو الحكم[٢]. وقيل: أراد وضع الميزان في الآخرة لوزن الأعمال. وأصل مِيزان مِوْزان، وقد مضى في «الأعراف»[٣] القول فيه.

﴿أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ﴾ موضع «أنْ» يجوز أن يكون نصباً على تقدير حذف حرف الجرِّ، كأنَّه قال: لئلا تطغوا، كقوله تعالى: ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا﴾ [النساء: ١٧٦]. ويجوز ألا يكون لـ «أن» موضع من الإعراب، فتكون بمعنى «أي» و«تَطْغَوْا» على هذا التقدير مجزوماً[٤]، كقوله تعالى: ﴿وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا﴾ [ص: ٦] أي: امشوا.

والطغيان: مجاوزة الحدِّ. فمن قال: الميزان: العدل، قال: طغيانه: الجَوْر. ومن قال: إنَّه الميزان الذي يُوزَن به، قال: طغيانه: البَخْس. قال ابن عباس: أي: لا تخونوا من وزنتم له. وعنه أنَّه قال: يا معشرَ الموالي! وُلِّيتم أمرَيْن بهما هلك الناسُ: المكيال والميزان. ومن قال: إنَّه الحُكْم قال: طغيانه: التحريف[٥]. وقيل: فيه إضمار، أي: وضَع الميزانَ وأَمرَكم ألا تَطْغَوْا فيه.

﴿وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ﴾ أي: افعلوه مستقيماً بالعدل. وقال أبو الدرداء ﷺ: أقيموا لسانَ الميزان بالقسط والعدل. وقال ابن عيينة: الإقامة باليد، والقِسْط بالقلب[٦]. وقال مجاهد: القسط: العدل[٧]، بالروميَّة. وقيل: هو كقولك: أقام

(١) الوسيط ٤/ ٢١٨.

(٢) النكت والعيون ٥/ ٤٢٤.

(٣) ٩/ ١٥٨.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٣٠٤.

(٥) النكت والعيون ٥/ ٤٢٥، وعزا القول الأول لمجاهد، والثاني لمقاتل، وقول ابن عباس أخرجه الطبري ٢٢/ ١٧٨.

(٦) تفسير البغوي ٤/ ٢٦٧.

(٧) النكت والعيون ٥/ ٤٢٥.

الصلاة، أي: أتى بها في وقتها، وأقام الناس أسواقهم، أي: أَتَوْها لوقتها. أي: لا تدعوا التعامل بالوزن بالعدل.

﴿وَلَا تُخْسِرُواْ ٱلْمِيزَانَ﴾ ولا تنقصوا الميزان[١]، ولا تبخسوا الكيل والوزن، وهذا كقوله: ﴿وَلَا تَنقُصُواْ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ﴾ [هود:٨٤]. وقال قتادة في هذه الآية: اعْدِل يا ابنَ آدمَ كما تحبُّ أن يُعدَل عليك، وأوْفِ كما تحبُّ أن يُوفى لك؛ فإنَّ بالعدل صلاحَ الناس[٢]. وقيل: المعنى: ولا تخسروا ميزانَ حسناتكم يوم القيامة[٣]، فيكون ذلك حسرة عليكم. وكرّر الميزان؛ لحال رؤوس الآي. وقيل: التكرير؛ للأمر بإيفاء الوزن ورعاية العدل فيه[٤].

وقراءة العامة: «تُخْسِرُوا» بضمِّ التاء وكسر السين. وقرأ بلال بن أبي بُرْدة وأبان عن عثمان: «تَخْسَرُوا» بفتح التاء والسين[٥]، وهما لغتان، يقال: أَخْسَرت الميزان وخَسَرْته، كأَجْبَرته وجَبَرْته. وقيل: «تَخْسَرُوا» بفتح التاء والسين؛ محمول على تقدير حذف حرف الجرِّ، والمعنى: ولا تخسروا في الميزان.

﴿وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ﴾ الأنام: الناس، عن ابن عباس. الحسن: الجنُّ والإنس[٦]. الضحَّاك: كلُّ ما دبَّ على وجه الأرض. وهذا عامٌّ.

﴿فِيهَا فَٰكِهَةٌ﴾ أي: كلُّ ما يتفكَّه به الإنسان من ألوان الثمار[٧]. ﴿وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ﴾ الأكمام: جمع كِمٍّ، بالكسر[٨]. قال الجوهريُّ[٩]: والكِمَّة ـ بالكسر ـ

---

(١) زاد المسير ٨/ ١٠٧.

(٢) أخرجه الطبري ٢٢/ ١٧٨.

(٣) النكت والعيون ٥/ ٤٢٥.

(٤) الكشاف ٤/ ٤٤.

(٥) المحتسب ٢/ ٣٠٣، وذكر ابن خالويه في القراءات الشاذة عن بلال أنه قرأ: ولا تَخْسِر الميزان. بالمفرد، وعنه أيضاً: تَخْسِيروا.

(٦) النكت والعيون ٥/ ٤٢٥، وأخرجه عنهما الطبري ٢٢/ ١٨٠.

(٧) الوسيط ٤/ ٢١٨.

(٨) مجاز القرآن لأبي عبيدة ٢/ ١٥٦.

(٩) في الصحاح (كمم).

والكِمَامة: وعاء الطَّلْع وغِطاء النَّوْر، والجمع: كِمَام وأَكِمَّة وأَكْمَام والأكاميم أيضاً. وكُمَّ الفصيلُ: إذا أُشفق عليه فَسُتِر حتى يَقْوَى، قال العجّاج:

بَلْ لَوْ شَهِدْتَ الناسَ إذْ تُكُمُّوا بِغُمَّةٍ لَوْ لَمْ تُفَرَّجْ غُمُّوا[١]

وتُكُمُّوا، أي: أُغمي عليهم وغُطُّوا.

وأَكَمَّت [النَّخلةُ] وكَمَّمَتْ، أي: أخرجت أكمامها. والكِمَام ـ بالكسر ـ والكِمَامة أيضاً: ما يُكَمُّ به فمُ البعير؛ لئلا يعضَّ، تقول منه: بعير مكموم، أي: مَحْجوم. وكَمَمْتُ الشيءَ: غطَّيته. والكَمُّ: ما ستر شيئاً وغطَّاه، ومنه كُمُّ القميص بالضمِّ، والجمع: أَكْمَام وكِمَمَة، مثل حُبٍّ وحِبَبَة. والكُمَّة: القَلَنْسوة المدوَّرة؛ لأنَّها تُغطِّي الرأس[٢]. قال:

فقلتُ لهمْ كِيلو بكُمَّةِ بعضِكُمْ دَرَاهِمَكُمْ إنِّي كذلك أكْيَلُ[٣]

قال الحسن: «ذَاتُ الْأَكْمَامِ» أي: ذات الليف، فإنَّ النخلة قد تُكَمَّم بالليف، وكِمَامها: ليفها الذي في أعناقها. ابن زيد: ذات الطلع قبل أن يتفتَّق[٤]. وقال عكرمة: ذات الأحمال.

﴿وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ﴾ الحبُّ: الحِنطة والشعير ونحوهما[٥]. والعصف: التِّبْن، عن الحسن وغيره[٦]. مجاهد: ورق الشجر والزرع. ابن عباس: تِبْنُ الزرعِ

---

(١) ديوان العجاج ص٣٧٤، والرجز يذكر فيه مقتل مسعود بن عمرو العتكي من الأزد، وروايته هكذا:

بل لو شَهِدْتَ الناس إذ تكمُّوا بِقَدَر حمَّ لهم وحُمُّوا
وغُمَّةٍ لو لم تفرَّج غمُّوا إذ زعمت ربيعةُ القِشْعَمُّ

قال شارحه: قوله: تكمُّوا: أي: اعْتُمِدوا وستروا بهذا القَدَر وغمُّوا به. أي: قُدِّر القَدَر لهم، وقُدِّروا له. والغمَّة: ما غطَّاك من شيء وغمَّك. والقِشْعَمُّ: المُسِنُّ.

(٢) الصحاح (كمم)، وما بين حاصرتين منه.

(٣) لم نقف عليه.

(٤) النكت والعيون ٥/ ٤٢٥، وأخرجه عنهما الطبري ٢٢/ ١٨١ - ١٨٢.

(٥) الوسيط ٤/ ٢١٨.

(٦) تفسير البغوي ٤/ ٢٦٨ عن ابن عباس والضحاك وقتادة، وأخرجه عنهم الطبري ٢٢/ ١٨٣ - ١٨٥.

وورقُه الذي تَعصِفه الرياح[١]. سعيد بن جبير: بَقْل الزرع، أي: أوَّل ما ينبت منه، وقاله الفرَّاء[٢]. والعرب تقول: خرجنا نَعصِف الزرع: إذا قطعوا منه قبل أن يُدرِك. وكذا في «الصحاح»[٣]: وعَصَفتُ الزَّرعَ، أي: جززته قبل أن يُدرِك. وعن ابن عباس أيضاً: العصف: ورق الزرع الأخضر إذا قطع رؤوسه ويبس، نظيره: ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾[٤] [الفيل: ٥]. الجوهريُّ: وقد أعصفَ الزرعُ، ومكان مُعْصِف، أي: كثير الزرع. قال أبو قيس بن الأَسْلت الأنصاريُّ:

إذا جُمَادَى مَنَعَتْ قَطْرَهَا   زَانَ جَنَابِي عَطَنٌ مُعْصِفُ[٥]

والعَصْف أيضاً: الكَسْب، ومنه قول الراجز:

بغيرِ ما عَصْفٍ ولا اصْطِرَافِ[٦]

وكذلك: الاعتصاف. والعَصِيفة: الورق المجتمع الذي يكون فيه السُّنبل. وقال الهرويُّ: والعصف والعَصِيفة: ورق السُّنْبل[٧]. وحكى الثعلبيُّ: وقال ابن السِّكِّيت: تقول العرب لورق الزرع: العصف، والعَصِيفة، والجِلُّ، بكسر الجيم. قال عَلْقَمة بن عَبَدة:

تَسْقِي مَذَانِبَ قد مَالَتْ عَصِيفَتُهَا   حَدُورُهَا من أَتِيِّ الماءِ مَطْمُومُ[٨]

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٤٢٦ ، وزاد المسير ٨/ ١٠٨ .

(٢) في معاني القرآن له ٣/ ١١٣ ، وما بعده منه.

(٣) مادة: (عصف).

(٤) تفسير البغوي ٤/ ٢٦٨ ، وأخرجه عنه الطبري ٢٢/ ١٨٣ .

(٥) الصحاح (عصف) وما بعده منه أيضاً، والبيت ذكره المرزوقي في الأزمنة والأمكنة ١/ ٢٧٥ دون نسبة، وقال ابن بري: هو لأحيحة بن الجلاح لا لأبي قيس. لسان العرب (عصف).

(٦) الصحاح (عصف)، والرجز في ديوان العجاج ص١٤٧ ، قال شارحه: والاصطراف: التقلُّب في الأمور، والتصرُّف في المعيشة.

(٧) تهذيب اللغة ٢/ ٤٢ دون عزو إلى الهروي.

(٨) ديوان علقمة بن عبدة ص٥٥ .

وفي «الصحاح»[١]: والجِلُّ، بالكسر: قصب الزرع إذا حُصِد.

والريحان: الرزق، عن ابن عباس ومجاهد[٢]. الضحَّاك: هي لغة حِمْير[٣]. وعن ابن عباس أيضاً والضحَّاك وقتادة: أنَّه الريحان الذي يشمُّ، وقاله ابن زيد[٤]. وعن ابن عباس أيضاً: أنَّه خضرة الزرع[٥]، وقال سعيد بن جبير: هو ما قام على ساق[٦]. وقال الفرَّاء[٧]: العصف: المأكول من الزرع، والريحان: ما لا يؤكل. وقال الكلبيُّ: إنَّ العصف: الورق الذي لا يؤكل. والريحان: هو الحبُّ المأكول[٨]. وقيل: الريحان: كلُّ بقلة طيِّبة الريح، سميت رَيْحاناً؛ لأنَّ الإنسان يَراحُ لها رائحةً طيبة. أي: يشمُّ، فهو فَعْلان رَوْحان من الرائحة، وأصل الياء في الكلمة واو وقلب ياء؛ للفرق بينه وبين الرُّوحانيِّ: وهو كلُّ شيء له رُوح. قال ابن الأعرابي: يقال: شيء رُوحاني وريحاني، أي: له روح. ويجوز أن يكون على وزن فَيْعَلان، فأصله رَيْوَحان، فأبدل من الواو ياء، وأدغم، كهَيِّن ولَيِّن، ثم ألزم التخفيف؛ لطوله، ولحاق الزائدتين الألفِ والنونِ، والأصل فيما يتركَّب من الراء والواو والحاء: الاهتزاز والحركة[٩]. وفي «الصحاح»: والرَّيْحان: نبت معروف، والريحان: الرزق، تقول: خرجت أبتغي رَيْحَانَ اللهِ، قال النَّمِرُ بن تَوْلَب[١٠]:

---

(١) مادة: (جلل).

(٢) أخرجه عنهما الطبري ٢٢/ ١٨٦ ، وقول مجاهد في تفسيره ٢/ ٦٤٠ .

(٣) تفسير أبي الليث ٣/ ٣٠٥ وفيه: الورق بلسان حمير.

(٤) النكت والعيون ٥/ ٤٢٦ عن الحسن والضحاك وابن زيد، وزاد ابن الجوزي في زاد المسير ٨/ ١٠٩ ابن عباس، وأخرجه عنهم الطبري ٢٢/ ١٨٧ .

(٥) النكت والعيون ٥/ ٤٢٦ ، وأخرجه عنه الطبري ٢٢/ ١٨٧ .

(٦) المحرر الوجيز ٥/ ٢٢٥ ، وأخرجه عنه الطبري ٢٢/ ١٨٨ .

(٧) في معاني القرآن له ٣/ ١١٤ .

(٨) النكت والعيون ٥/ ٤٢٦ .

(٩) البيان لابن الأنباري ٢/ ٤٠٨ ، ومشكل إعراب القرآن لمكي ٢/ ٧٠٥ .

(١٠) الصحاح (روح)، والبيت في ديوان النمر ص٥٥ .

سـلامُ الإلـهِ ورَيْـحـانُـهُ ورَحْـمَـتُـهُ وسَـمَـاءٌ دِرَرْ

وفي الحديث: «الولد من ريحانِ الله»[١]. وقولهم: سبحانَ اللهِ وريحانَه، نصبوهما على المصدر، يريدون تنزيهاً له واسترزاقاً. وأما قوله: «وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ» فالعصف: ساق الزرع، والريحان: ورقه، عن الفرَّاء[٢].

وقراءة العامة: «وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيحَانُ» بالرفع فيها كلِّها؛ على العطف على الفاكهة. ونصبها كلَّها ابن عامر وأبو حيوة والمغيرة[٣]؛ عطفاً على الأرض. وقيل: بإضمار فعل، أي: وخلق الحبَّ ذا العصف والريحان، فمن هذا الوجه يحسن الوقف على «ذَاتُ الْأَكْمَامِ»[٤]. وجرَّ حمزة والكسائي: «الريحان»[٥]؛ عطفاً على العصف، أي: فيها الحبُّ ذو العصفِ والريحانِ، ولا يمتنع ذلك على قول من جعل الريحانَ الرزقَ، فيكون كأنَّه قال: والحبُّ ذو الرزق. والرزق من حيث كان العصف رزقاً؛ لأنَّ العصف رزق للبهائم، والريحان رزق للناس، ولا شبهةَ فيه في قول من قال: إنَّه الريحان المشموم.

قوله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ خطاب للإنس والجنِّ؛ لأنَّ الأنام واقع عليهما[٦]. وهذا قول الجمهور، يدلُّ عليه حديث جابر المذكور أوَّل السورة، وخرَّجه

(١) أخرج أحمد (٢٧٣١٤)، والترمذي (١٩١٠) عن خولة بنت حكيم أن رسول الله ﷺ خرج ذات يوم وهو محتضن أحد ابْنَي ابنته وهو يقول: إنكم لتبخِّلون وتُجَبِّنون وتجهِّلون، وإنكم لمن ريحان الله. قال الترمذي: لا نعرف لعمر بن عبد العزيز سماعاً من خولة.

(٢) الصحاح (روح)، والذي في معاني القرآن للفراء ٣/ ١١٣ : العصف: بقل الزرع، والريحان: رزقه.

(٣) السبعة ص٦١٩ ، والتيسير ص٢٠٦ ، والبحر المحيط ٨/ ١٩٠ ، وحجة القراءات لابن زنجلة ص٦٩٠-٦٩١ .

(٤) إيضاح الوقف والابتداء ٢/ ٩١٥ - ٩١٦ .

(٥) السبعة ص٦١٩ ، والتيسير ص٢٠٦ ، وحجة القراءات لابن زنجلة ص٦٩٠ - ٦٩١ .

(٦) المحرر الوجيز ٥/ ٢٢٦ .

الترمذيُّ وفيه: «لَلْجِنُّ أحسنُ منكم ردًّا»[١]. وقيل: لما قال: «خَلَقَ الإنْسَانَ» و«خَلَقَ الْجَانَّ» دلَّ ذلك على أنَّ ما تقدَّم وما تأخَّر لهما[٢]. وأيضاً قال: «سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلَانِ» وهو خطاب للإنس والجنِّ، وقد قال في هذه السورة: «يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ». وقال الجرجانيُّ: خاطب الجنَّ مع الإنس وإن لم يتقدَّم للجنِّ ذِكْر، كقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ﴾ [ص: ٣٢]، وقد سبق ذكر الجنِّ فيما سبق نزوله من القرآن، والقرآن كالسورة الواحدة، فإذا ثبت أنَّهم مكلَّفون كالإنس خُوطب الجنسان بهذه الآيات. وقيل: الخطاب للإنس على عادة العرب في الخطاب للواحد بلفظ التثنية[٣]، حسب ما تقدَّم من القول في ﴿أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ﴾[٤] [ق: ٢٤]. وكذلك قوله:

قِفَا نَبْكِ[٥]...

و: خَلِيلَيَّ مُرَّا بِي[٦]...

فأما ما بَعْدَ «خَلَقَ الْإِنْسَانَ» و«خَلَقَ الْجَانَّ» فإنَّه خطاب للإنس والجنِّ، والصحيح قول الجمهور؛ لقوله تعالى: «وَالأَرْضَ وَضَعَهَا لِلأَنَامِ» والآلاء: النِّعم، وهو قول جميع المفسرين، واحدها إِلًى وَأَلًى مثل مِعًى وعصاً، وإِلْيٌ وأَلْيٌ أربع لغات حكاها النحَّاس[٧] قال: وفي واحد «آنَاءَ اللَّيْلِ» ثلاث تسقط منها المفتوحة الألف، المسكنة

(١) هذا لفظ الحاكم في مستدركه ٢/ ٤٧٤ وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي. اهـ، وسلف ص١١١ من هذا الجزء عن الترمذي بنحوه.

(٢) المحرر الوجيز ٥/ ٢٢٦.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٣٠٥.

(٤) ١٩/ ٤٤٧.

(٥) البيت مطلع معلقة امرئ القيس، وسلف ١٠/ ٣٦٤.

(٦) القائل امرؤ القيس، وهو في ديوانه ص٤١، وتمامه:

خليليَّ مُرَّا بي على أمِّ جندب ... نُقضِّ لبانات الفؤاد المعذَّب

قال شارحه: اللُّبانات: جمع لُبانة، وهي الحاجة.

(٧) في إعراب القرآن له ٤/ ٢٨٢.

اللام، وقد مضى في «الأعراف» و«النجم»[(١)]. وقال ابن زيد: إنَّها القدرة، وتقدير الكلام: فبأيِّ قدرة ربِّكما تكذِّبان، وقاله الكلبيُّ[(٢)]، واختاره الترمذيُّ محمد بن عليٍّ، وقال: هذه السورة من بين السور عَلَم القرآن، والعَلَم إمام الجند، والجند تتبعه، وإنَّما صارت عَلَماً؛ لأنَّها سورة صفة الملك والقدرة، فقال: «الرَّحْمَنُ. عَلَّمَ الْقُرْآنَ» فافتتح السورةَ باسم الرحمن من بين الأسماء؛ ليعلم العباد أنَّ جميع ما يصفه بعد هذا من أفعاله ومن ملكه وقدرته، خرج إليهم من الرحمة العظمى من رحمانيته فقال: «الرَّحْمَنُ. عَلَّمَ الْقُرْآنَ» ثم ذكر الإنسانَ فقال: «خَلَقَ الْإِنْسَانَ» ثم ذكر ما صنع به وما منَّ عليه به، ثم ذكر حسبان الشمس والقمر وسجود الأشياء مما نَجَم وشَجَر، وذكر رَفْع السماء ووَضْع الميزان وهو العدل، ووضع الأرض للأنام، فخاطب هذين الثقلين الجنَّ والإنس حين رأوا ما خرج من القدرة والملك برحمانيته التي رحمهم بها من غير منفعة ولا حاجة إلى ذلك، فأشركوا به الأوثانَ وكلَّ معبود اتَّخذوه من دونه، وجحدوا الرحمةَ التي خرجت هذه الأشياء بها إليهم، فقال سائلاً لهم: «فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ» أي: بأيِّ قدرة ربِّكما تكذِّبان، فإنَّما كان تكذيبهم أنَّهم جعلوا له في هذه الأشياء التي خرجت من ملكه وقدرته شريكاً يَملك معه ويقدر معه، فذلك تكذيبُهم. ثم ذكر خَلْق الإنسان من صلصال، وذكر خَلْق الجانِّ من مارج من نار، ثم سألهم فقال: «فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ» أي: بأيِّ قدرة ربِّكما تكذِّبان، فإنَّ له في كلِّ خَلْق بعد خَلْق قدرة بعد قدرة، فالتكرير في هذه الآيات للتأكيد والمبالغة في التقرير، واتِّخاذ الحجَّة عليهم بما وقفهم على خلقٍ خلق.

وقال القُتَبيُّ: إنَّ الله تعالى عدَّد في هذه السورة نعماءه، وذكَّر خَلْقه آلاءه، ثم أَتبع كلَّ خَلَّة وصَفها ونعمة وضعها بهذه، وجعلها فاصلةً بين كلِّ نعمتين لينبِّههم على النِّعم ويقرِّرهم بها، كما تقول لمن تتابع فيه إحسانك وهو يكفره وينكره: أَلَم تكن

---

(١) ٩/ ٢٦٤ - ٢٦٥ ، و ص٦٥ من هذا الجزء.

(٢) النكت والعيون ٥/ ٤٢٦ .

فقيراً فأغنيتك، أفتنكر هذا؟! ألَم تكن خاملاً فعززتك، أفتنكر هذا؟! ألَم تكن صَرُورة فحججتُ بك، أفتنكر هذا!؟ ألَم تكن راجلاً فحملتك، أفتنكر هذا؟! والتكرير حَسن في مثل هذا(١). قال:

كَمْ نِعْمَةٍ كانتْ لَكُمْ كَمْ كَمْ وَكَمْ(٢)

وقال:

لا تَقْتُلِي مُسْلِماً إنْ كنتِ مُسْلِمَةً إيَّـاكِ مِـنْ دَمِـهِ إيَّـاكِ إيَّـاكِ(٣)

وقال آخر:

لا تَقطعنَّ الصديقَ ما طَرَفتْ عيناكَ من قول كاشح أشِرِ

ولا تَملَّنَّ من زيارته زُرْهُ وزُرْهُ وزُرْ وزُرْ وزُرِ

وقال الحسين بن الفضل: التكرير؛ طرداً للغفلة، وتأكيداً للحجَّة.

قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٦﴾ رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ﴾ لما ذكر سبحانه خَلْق العالم الكبير من السماء والأرض، وما فيهما من الدلالات على وحدانيته وقدرته، ذَكَر خَلْق العالم الصغير فقال: «خَلَقَ الإنْسَانَ» باتفاق من أهل التأويل يعني: آدم(٤).

---

(١) تفسير البغوي ٤/٢٦٨، وزاد المسير ٨/١١١ - ١١٢، والصرورة: الرجل الذي لم يحجَّ قط. اللسان (صرر).

(٢) تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة ص١٨٣، وزاد المسير ٨/١١١، وأمالي المرتضى ١/١٢١ ولم ينسبوه.

(٣) لم نقف عليه.

(٤) المحرر الوجيز ٥/٢٢٦.

﴿مِن صَلْصَـٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ﴾ الصلصال: الطين اليابس الذي يُسمَع له صلصة، شبَّهه بالفَخَّار الذي طُبِخَ[(١)]. وقيل: هو طين خُلطَ برمل[(٢)]. وقيل: هو الطين المنتن، من صَلَّ اللحمُ وأصلَّ: إذا أنتنَ[(٣)]، وقد مضى في «الحجر»[(٤)]. وقال هنا: «مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ»، وقال هناك: ﴿مِن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ [الحجر:٢٨]. وقال: ﴿إِنَّا خَلَقْنَـٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ﴾ [الصافات:١١]. وقال: ﴿كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ﴾ [آل عمران:٥٩] وذلك متَّفق المعنى، وذلك أنَّه أخذ من تراب الأرض فعجنه فصار طيناً، ثم انتقل فصار كالحمإِ المسنون، ثم انتقل فصار صلصالاً كالفخَّار[(٥)].

﴿وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾ قال الحسن: الجانُّ: إبليس وهو أبو الجنِّ[(٦)]. وقيل: الجانُّ: واحد الجنِّ. والمارج: اللهب، عن ابن عباس[(٧)]، وقال: خلق الله الجانَّ من خالص النار. وعنه أيضاً: من لسانها الذي يكون في طرفها إذا التهبت[(٨)]. وقال الليث: المارج: الشُّعْلة الساطعة ذات اللهب الشديد[(٩)]. وعن ابن عباس أنَّه اللهب الذي يعلو النار فيختلط بعضه ببعض أحمر وأصفر وأخضر، ونحوه عن مجاهد[(١٠)]، وكلُّه متقارب المعنى. وقيل: المارج: كلُّ أمر مرسل غير ممنوع، ونحوه قول المبرِّد، قال المبرِّد: المارج: النار المرسلة التي لا تمنع[(١١)]. وقال أبو عبيدة

---

(١) غريب القرآن لابن قتيبة ص٤٣٧ .

(٢) معاني القرآن للفراء ٣/ ١١٤ ، والنكت والعيون ٥/ ٤٢٨ وعزاه لابن عباس.

(٣) النكت والعيون ٥/ ٤٢٨ وعزاه للضحاك.

(٤) ١٠/ ٢١ .

(٥) معاني القرآن للزجاج ٥/ ٩٨ .

(٦) زاد المسير ٤/ ٣٩٩ .

(٧) النكت والعيون ٥/ ٤٢٨ ، وأخرجه عنه الطبري ٢٢/ ١٩٥ .

(٨) أخرجه عنه الطبري ٢٢/ ١٩٥ .

(٩) تهذيب اللغة ١١/ ٧٢ .

(١٠) المحرر الوجيز ٥/ ٢٢٦ عن ابن عباس، والنكت والعيون ٥/ ٤٢٨ عن مجاهد، وهو في تفسيره ٢/ ٦٤٠ ، وأخرجه عنه الطبري ٢٢/ ١٩٦ .

(١١) النكت والعيون ٥/ ٤٢٨ .

والحسن: المارج: خلط النار. وأصله من مرج: إذا اضطرب واختلط[١]. ويروى أنَّ الله تعالى خلَق نارَيْن فمرج إحداهما بالأخرى، فأكلت إحداهما الأخرى وهي نار السموم، فخلق منها إبليس. قال القُشَيريُّ: والمارج في اللغة: المرسل أو المختلط، وهو فاعل بمعنى مفعول، كقوله: ﴿مَّآءٍ دَافِقٍ﴾ [الطارق:٦]، و﴿عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ [الحاقة:٢١] والمعنى: ذو مرج، قال الجوهريُّ في «الصحاح»[٢]: و«مَارِجٍ مِنْ نَارٍ»: نار لا دخانَ لها، خُلقَ منها الجانُّ. ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

قوله تعالى: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ﴾ أي: هو ربُّ المشرقين. وفي «الصافات»: ﴿وَرَبُّ ٱلْمَشَٰرِقِ﴾ [الآية:٥] وقد مضى الكلام في ذلك هنالك[٣].

قوله تعالى: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ . بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ﴾ «مَرَجَ» أي: خَلَّى وأرسل وأهمل، يقال: مرج السلطانُ الناسَ: إذا أهملهم. وأصل المَرْج: الإهمال، كما تُمْرَج الدابّةُ في المرعى[٤]. ويقال: مَرَجَ: خَلَطَ. وقال الأخفش: ويقول قوم: أَمْرَج البحرين، مثل مَرَج، فَعَل وأَفْعَل بمعنًى[٥].

«الْبَحْرَيْنِ» قال ابن عباس: بحر السماء وبحر الأرض، وقاله مجاهد وسعيد بن جبير[٦]. «يَلْتَقِيَانِ» في كلِّ عام[٧]. وقيل: يلتقي طرفاهما. وقال الحسن وقتادة: بحر

---

(١) مجاز القرآن لأبي عبيدة ٢/ ٢٤٣ .

(٢) مادة: (مرج).

(٣) ١٨/ ٨ .

(٤) غريب القرآن لابن قتيبة ص٤٣٨ .

(٥) تهذيب اللغة ١١/ ٧٢ .

(٦) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٣٠٦ عن ابن عباس وابن جبير، وأخرجه عنهما الطبري ٢٢/ ٢٠٠ .

(٧) أخرجه الطبري ٢٢/ ٢٠٠ عن ابن عباس رضي الله عنهما.

فارس والروم[١]. وقال ابن جريج: إنَّه البحر المالح والأنهار العذبة. وقيل: بحر المشرق والمغرب يلتقي طرفاهما. وقيل: بحر اللؤلؤ والمرجان[٢].

«بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ» أي: حاجز، فعلى القول الأوَّل ما بين السماء والأرض، قاله الضحَّاك. وعلى القول الثاني: الأرض التي بينهما وهي الحجاز، قاله الحسن وقتادة[٣]. وعلى غيرهما من الأقوال: القدرة الإلهية، على ما تقدَّم في «الفرقان»[٤].

وفي الخبر عن أبي هريرة عن النبيِّ ﷺ: «أنَّ الله تعالى كلَّم الناحية الغربيَّة فقال: إنِّي جاعل فيك عباداً لي يُسبِّحوني ويُكَبِّروني ويهلِّلوني ويُمجِّدوني فكيف أنتِ لهم؟ فقالت: أُغرِقُهم يا ربِّ. قال: إنِّي أحملهم على يدي، وأجعل بأسك في نواحيك. ثم كَلَّم الناحية الشرقيَّة فقال: إنِّي جاعل فيك عباداً لي يُسبِّحوني ويكَبِّروني ويهلِّلوني ويمجِّدوني فكيف أنتِ لهم؟ قالت: أسبِّحكَ معهم إذا سَبَّحوكَ، وأكبِّرك معهم إذا كبَّروك، وأُهلِّلك معهم إذا هلَّلُوكَ، وأُمَجِّدُك معهم إذا مجَّدوك، فأثابها الله الْحِلية، وجعل بينهما برزخاً، وتحوَّل أحدهما مِلحاً أُجَاجاً، وبقي الآخر على حالته عذباً فُرَاتاً» ذكر هذا الخبر الترمذيُّ الحكيم أبو عبد الله قال: حدَّثنا صالح بن محمد، حدَّثنا القاسم العمريُّ، عن سهل، عن أبيه، عن أبي هريرة.

«لَا يَبْغِيَانِ» قال قتادة: لا يبغيان على الناس فيغرقانهم، جعل بينهما وبين الناس يَبَساً[٥]. وعنه أيضاً ومجاهد: لا يبغي أحدهما على صاحبه فيغلبه. ابن زيد: المعنى «لَا يَبْغِيَانِ» أن يلتقيا، وتقدير الكلام: مرج البحرين يلتقيان، لولا البرزخ الذي بينهما لا يبغيان أن يلتقيا[٦]. وقيل: البرزخ: ما بين الدنيا والآخرة[٧]، أي: بينهما مدَّة

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ٢٦٩ ، وأخرجه عنهما الطبري ٢٢/ ٢٠٠ .
(٢) النكت والعيون ٥/ ٤٢٩ - ٤٣٠ .
(٣) النكت والعيون ٥/ ٤٣٠ .
(٤) ١٥/ ٤٥١ .
(٥) تفسير البغوي ٤/ ٢٦٩ ، وأخرجه عنه الطبري ٢٢/ ٢٠٣ .
(٦) النكت والعيون ٥/ ٤٣٠ ، وأخرجه الطبري ٢٢/ ٢٠٤ عن ابن زيد.
(٧) مجاز القرآن لأبي عبيدة ٢/ ٢٤٣ .

قدَّرها الله وهي مدَّة الدنيا، فهما لا يبغيان، فإذا أذن الله في انقضاء الدنيا صار البحران شيئاً واحداً، وهو كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ﴾ [الانفطار: ٣]. وقال سهل ابن عبد الله: البحران: طريق الخير والشرِّ، والبرزخ الذي بينهما: التوفيق والعصمة(١).

قوله تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ أي: يخرج لكم من الماء اللؤلؤ والمرجان، كما يخرج من التراب الحَبّ والعصف والريحان.

وقرأ نافع وأبو عمرو: «يُخْرَجُ» بضمِّ الياء وفتح الراء، على الفعل المجهول. الباقون: «يَخْرُجُ» بفتح الياء وضمِّ الراء على أنَّ اللؤلؤ هو الفاعل(٢).

وقال: «مِنْهُمَا» وإنَّما يخرج من الملح لا العذب؛ لأنَّ العرب تجمع الجنسين ثم تخبر عن أحدهما، كقوله تعالى: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ [الأنعام: ١٣٠] وإنَّما الرسل من الإنس دون الجنِّ، قاله الكلبيُّ وغيره(٣). قال الزجَّاج(٤): قد ذكرهما الله، فإذا خرج من أحدهما شيء فقد خرج منهما، وهو كقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا . وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا﴾ [نوح: ١٥] والقمر في سماء الدنيا ولكن أجْمَلَ ذِكْر السبع، فكأنَّ ما في إحداهنَّ فيهنَّ. وقال أبو عليٍّ الفارسيُّ: هذا من باب حذف المضاف(٥). أي: من أحدهما، كقوله: ﴿عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١] أي: من إحدى القريتين(٦). وقال الأخفش سعيد(٧):

(١) النكت والعيون ٥/ ٤٣٠.

(٢) المحرر الوجيز ٥/ ٢٢٨، والقراءة في السبعة ص٦١٩، والتيسير ص٢٠٦، والنشر ٢/ ٣٨٠، إلا أنه جاء في السبعة برفع الياء وكسر الراء. وقد أشار إلى هذه القراءة أبو الليث في التفسير ٣/ ٣٠٧، ونسبها ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٢٢٨ إلى أبي عمرو في رواية حسين الجعفي عنه.

(٣) منهم البغوي ٤/ ٢٦٩.

(٤) نقله عنه ابن الجوزي في زاد المسير ٨/ ١١٣.

(٥) زاد المسير ٨/ ١١٣.

(٦) مشكل إعراب القرآن لمكي ٢/ ٧٠٥.

(٧) في كتابه «الحجة» كما ذكره عنه ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٢٢٨.

زعم قوم أنَّه يخرج اللؤلؤ من العذب. وقيل: هما بحران يخرج من أحدهما اللؤلؤ، ومن الآخر المرجان. ابن عباس: هما بحرا السماء والأرض[(١)]. فإذا وقع ماء السماء في صدف البحر انعقد لؤلؤاً فصار خارجاً منهما، وقاله الطبريُّ[(٢)].

قال الثعلبيُّ: ولقد ذُكر لي أنَّ نواة كانت في جوف صدفة، فأصابت القطرةُ بعض النواة ولم تُصب البعضَ، فكانت حيث أصاب القطرة من النواة لؤلؤة، وسائرها نواة.

وقيل: إنَّ العذب والملح قد يلتقيان، فيكون العذب كاللقاح للملح، فنسب إليهما كما ينسب الولد إلى الذكر والأنثى وإن ولدته الأنثى، ولذلك قيل: إنَّه لا يخرج اللؤلؤ إلا من موضع يلتقي فيه العذب والملح. وقيل: المرجان: عظام اللؤلؤ وكباره، قاله عليٌّ وابن عباس رضي الله عنهما[(٣)]. واللؤلؤ: صغاره. وعنهما أيضاً بالعكس: إنَّ اللؤلؤ: كبار اللؤلؤ، والمرجان: صغاره، وقاله الضحَّاك وقتادة[(٤)]. وقال ابن مسعود وأبو مالك: المرجان: الخرز الأحمر[(٥)].

قوله تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ ﴿٢٤﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْجَوَارِ﴾ يعني: السفن[(٦)]. ﴿ٱلْمُنشَـَٔاتُ﴾ قراءة العامة: «الْمُنْشَآتُ» بفتح الشين، قال قتادة: أي: المخلوقات للجَري، مأخوذ من الإنشاء[(٧)]. وقال مجاهد: هي السفن التي رُفع قِلْعها، قال: وإذا لم يُرفَع قِلْعها فليست بمنشَآت[(٨)].

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٣٠٧ ، والنكت والعيون ٥/ ٤٣١ .

(٢) في التفسير ٢٢/ ٢٠٩ - ٢١٠ ، وأخرجه عن ابن عباس وعكرمة.

(٣) النكت والعيون ٥/ ٤٣١ ، وأخرجه الطبري ٢٢/ ٢٠٦ - ٢٠٧ عن ابن عباس، ومجاهد في التفسير ٢/ ٦٤١ عن علي ﷺ.

(٤) أخرجه عنهم الطبري ٢٢/ ٢٠٥ - ٢٠٦ .

(٥) النكت والعيون ٥/ ٤٣١ عن ابن مسعود، وأخرجه عنه عبد الرزاق في التفسير ٢/ ٢٦٣ .

(٦) غريب القرآن لابن قتيبة ص٤٣٨ .

(٧) النكت والعيون ٥/ ٤٣١ .

(٨) تفسير مجاهد ٢/ ٦٤١ ، وأخرجه عنه الطبري ٢٢/ ٢١٠ - ٢١١ ، وعلَّقه البخاري في كتاب التفسير قبل حديث (٤٨٧٨)، والقِلْع: شراع السفينة. لسان العرب (قلع).

وقال الأخفش: إنَّها المَجريات[(١)]. وفي الحديث: أنَّ عليًّا ﷺ رأى سفناً مُقْلَعة، فقال: وربِّ هذه الجوارِي المنشآتِ ما قَتلتُ عثمان ولا مالَأْتُ في قتله[(٢)]. وقرأ حمزة وأبو بكر عن عاصم باختلاف عنه: «الْمُنْشِآتُ» بكسر الشين[(٣)]، أي: المنشِآت السير[(٤)]، أضيف الفعل إليها؛ على التجوُّز والاتساع. وقيل: الرافعات الشُّرُع، أي: القُلُع. ومن فتح الشين قال: المرفوعات الشُّرع[(٥)].

﴿كَالْأَعْلَامِ﴾ أي: كالجبال، والعَلَم: الجبل الطويل[(٦)]، قال:

إذا قَطَعْنَ عَلَماً بَدَا عَلَم[(٧)]

فالسفن في البحر كالجبال في البرِّ، وقد مضى في «الشورى»[(٨)] بيانه، وقرأ يعقوب: «الْجَوَارِي» بياء في الوقف، وحذف الباقون[(٩)].

قوله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ الضمير في «عَلَيْهَا» للأرض[(١٠)]، وقد جرى ذكرها في أوَّل السورة في قوله تعالى: «وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ» وقد يقال: هو أكرم مَنْ

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٤٣١ .

(٢) أخرجه أحمد في فضائل الصحابة (٧٣٩)، والبخاري في التاريخ الكبير ٧/ ٦٨ عن عميرة بن سعد.

(٣) السبعة ص٦٢٠ ، والتيسير ص٢٠٦ .

(٤) الوسيط ٤/ ٢٢٠ .

(٥) الكشاف ٤/ ٤٦ .

(٦) معاني القرآن للفراء ٣/ ١١٥ .

(٧) القائل جرير يصف الإبل، والرجز في ديوانه ١/ ٥١٢ ، وبعده:

فهنَّ بحثاً كمضلَّات الخدم

قال شارحه: يريد أنهنَّ يبحثن بمناسمهن الأرض كما تبحث النساء المضلَّات خلاخيلهن في التراب.

(٨) ١٨/ ٤٨١ .

(٩) النشر ٢/ ١٣٨ .

(١٠) معاني القرآن للزجاج ٥/ ٩٩ .

عليها، يعنون الأرض وإن لم يَجْرِ لها ذِكْر. وقال ابن عباس: لما نزلت هذه الآيةُ قالت الملائكة: هَلَكَ أهل الأرض فنزلت: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص:٨٨] فأيقنت الملائكة بالهلاك[١]، وقاله مقاتل. ووجه النعمة في فناء الخَلْق التسويةُ بينهم في الموت، ومع الموت تستوي الأقدام. وقيل: وجه النعمة أنَّ الموت سببُ النقل إلى دار الجزاء والثواب.

﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ﴾ أي: ويبقى الله، فالوجه عبارة عن وجوده وذاته سبحانه، قال الشاعر:

قَضَى على خَلْقه المنايا فكلُّ شيء سواه فانِ[٢]

وهذا الذي ارتضاه المحقِّقون من علمائنا: ابن فورك وأبو المعالي وغيرهم. وقال ابن عباس: الوجه عبارة عنه كما قال: «وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ». وقال أبو المعالي: وأما الوجه فالمراد به عند معظم أئمتنا وجودُ الباري تعالى، وهو الذي ارتضاه شيخنا. ومن الدليل على ذلك قوله تعالى: «وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ» والموصف بالبقاء عند تعرُّض الخَلْق للفناء وجود الباري تعالى. وقد مضى في «البقرة»[٣] القول في هذا عند قوله تعالى: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِۚ﴾ [الآية:١١٥] وقد ذكرناه في الكتاب «الأسنى»[٤] مستوفًى.

قال القشيريُّ: قال قوم: هو صفة زائدة على الذات لا تُكَيف، يحصل بها الإقبال على من أراد الربُّ تخصيصَه بالإكرام.

والصحيح أن يقال: وجهه: وجوده وذاته، يقال: هذا وجه الأمر، ووجه الصواب، وعين الصواب[٥]. وقيل: أي: يبقى الظاهر بأدلَّته كظهور الإنسان

---

(١) تفسير أبي الليث ٣/ ٣٠٧ دون عزو.
(٢) القائل أبو العتاهية، وهو في ديوانه ص٣٨٥ .
(٣) ٢/ ٣٣٠ - ٣٣٢ وتقدم هناك قول ابن عباس وابن فورك وأبي المعالي. والصحيح: أن صفة الوجه من الصفات الذاتية لله سبحانه فيجب إثباتها له على وجه يليق به.
(٤) لم نقف عليه في المطبوع منه.
(٥) المحرر الوجيز ٥/ ٢٢٩ .

بوجهه[١]. وقيل: وتبقى الجهة التي يتقرَّب بها إلى الله.

﴿ذُو ٱلْجَلَٰلِ﴾ الجلال: عظمة الله وكبرياؤه واستحقاقه صفات المدح[٢]، يقال: جَلَّ الشيءُ، أي: عَظُم، وأجللته، أي: عظَّمته، والجلال: اسم من جلَّ[٣]. ﴿وَٱلْإِكْرَامِ﴾ أي: هو أهل لأَنْ يُكرَم عمَّا لا يليقُ به من الشرك، كما تقول: أنا أكرِمك عن هذا، ومنه إكرام الأنبياء والأولياء[٤]. وقد أتينا على هذين الاسمين لغةً ومعنًى في الكتاب «الأسنى»[٥] مستوفًى. وروى أنس أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «أَلِظُّوا بيا ذا الجلالِ والإكرام»[٦]. وروي أنَّه من قول ابن مسعود، ومعناه: الزموا ذلك في الدعاء[٧]. قال أبو عبيد: الإلظاظ: لزوم الشيء والمثابرة عليه. ويقال: الإلظاظ: الإلحاح.

وعن سعيد المقبريِّ: أنَّ رجلاً أَلَحَّ فجعل يقول: اللَّهُمَّ يا ذا الجلال والإكرام! اللَّهُمَّ يا ذا الجلال والإكرام! فنودي: إنِّي قد سمعتُ، فما حاجتك[٨]؟.

قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴿٢٩﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ قيل: المعنى يسأله من في السماوات

(١) الوسيط ٤/ ٢٢١.

(٢) الوسيط ٤/ ٢٢١.

(٣) تهذيب اللغة ١٠/ ٤٨٦.

(٤) الوسيط ٤/ ٢٢١.

(٥) ص٣٢٤ - ٣٢٥.

(٦) أخرجه الترمذي (٣٥٢٤) و(٣٥٢٥)، وقال: هذا حديث غريب. وأخرجه أيضاً أحمد (١٧٥٩٦)، والبخاري في التاريخ الكبير ٣/ ٢٨٠ عن ربيعة بن عامر ﷺ، والحاكم ١/ ٤٩٩ عن أبي هريرة ﷺ، وينظر الكافي الشاف ص١٦٢.

(٧) الصحاح (لظظ)، وما بعده منه أيضاً.

(٨) الأسنى ص٣٢٥.

الرحمةَ، ومن في الأرض الرزقَ[١]. وقال ابن عباس وأبو صالح: أهل السماوات يسألونه المغفرة ولا يسألونه الرزق، وأهل الأرض يسألونهما جميعاً[٢]. وقال ابن جريج: وتسأل الملائكةُ الرزقَ لأهل الأرض، فكانت المسألتان جميعاً من أهل السماء وأهل الأرض لأهل الأرض[٣].

وفي الحديث: «إنَّ من الملائكة مَلكاً له أربعة أوجه، وجه كوجه الإنسان وهو يسأل الله الرزقَ لبني آدم، ووجه كوجه الأسد وهو يسأل اللهَ الرزقَ للسباع، ووجه كوجه الثور وهو يسأل اللهَ الرزقَ للبهائم، ووجه كوجه النَّسر وهو يسأل الله الرزقَ للطير»[٤]. وقال ابن عطاء: إنَّهم سألوه القوَّة على العبادة[٥].

﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ هذا كلام مبتدأ. وانتصب: «كُلَّ يَوْمٍ» ظرفاً، لقوله: «فِي شَأْنٍ» أو ظرفاً للسؤال، ثم يبتدئ: «هُوَ فِي شَأْنٍ».

وروى أبو الدرداء ﷺ عن النبيِّ ﷺ قال: «كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْن» قال: «من شأنه أن يغفر ذنباً، ويفرِّج كرباً، ويرفع قوماً، ويضع آخرين»[٦]. وعن ابن عمر عن النبيِّ ﷺ في قول الله عزَّ وجلَّ: «كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ» قال: «يغفر ذنباً، ويكشف كرباً، ويجيب داعياً»[٧]. وقيل: من شأنه أن يحيي ويميت، ويُعزّ ويذلّ، ويرزق ويمنع[٨].

وقيل: أراد شأنه في يومي الدنيا والآخرة. قال ابن بحر: الدهر كلُّه يومان،

---

(١) الوسيط ٤/ ٢٢١ .

(٢) الوسيط ٤/ ٢٢١ عن أبي صالح، وتفسير البغوي ٤/ ٢٧٠ عن ابن عباس.

(٣) النكت والعيون ٥/ ٤٣٢ .

(٤) لم نقف عليه.

(٥) النكت والعيون ٥/ ٤٣٢ .

(٦) أخرجه ابن ماجه (٢٠٢)، قال البوصيري في الزوائد: إسناده حسن. اهـ وعلَّقه البخاري في صحيحه، في التفسير، قبل حديث (٤٨٧٨) عن أبي الدرداء موقوفاً.

(٧) أخرجه البزار (٢٢٦٨ كشف الأستار)، وفي إسناده عبد الرحمن بن البيلماني، وهو ضعيف.

(٨) الوسيط ٤/ ٢٢١ .

أحدهما: مدة أيام الدنيا، والآخر: يوم القيامة، فشأنه سبحانه وتعالى في أيام الدنيا الابتلاء والاختبار بالأمر والنهي، والإحياء والإماتة، والإعطاء والمنع، وشأنه يوم القيامة الجزاء والحساب، والثواب والعقاب. وقيل: المراد بذلك الإخبار عن شأنه في كلِّ يوم من أيام الدنيا[1]. وهو الظاهر. والشأن في اللغة: الخطب العظيم، والجمع الشؤون[2]، والمراد بالشأن هاهنا الجمع، كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ [غافر:٦٧]. وقال الكلبيُّ: شأنه سوق المقادير إلى المواقيت[3]. وقال عمرو بن ميمون في قوله تعالى: «كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ»: من شأنه أن يميت حَيًّا، ويُقِرَّ في الأرحام ما شاء، ويُعِزَّ ذليلاً، ويُذِلَّ عزيزاً.

وسأل بعض الأمراء وزيرَه عن قوله تعالى: «كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ» فلم يَعرِفْ معناها، واستمهله إلى الغد، فانصرف كئيباً إلى منزله، فقال له غلام له أسود: ما شأنك؟ فأخبره. فقال له: عُدْ إلى الأمير فإنِّي أُفسِّرها له، فدعاه فقال: أيُّها الأمير! شأنه أن يُولِجَ الليل في النهار، ويولجَ النهار في الليل، ويخرج الحيَّ من الميِّت، ويخرج الميِّت من الحيِّ، ويَشفي سقيماً، ويُسقم سليماً، ويَبتلي معافًى، ويعافي مبتلًى، ويُعزَّ ذليلاً، ويذلَّ عزيزاً، ويُفقر غنيًّا، ويغني فقيراً. فقال له: فَرَّجت عني، فَرَّج اللهُ عنك، ثم أَمَرَ بخَلْع ثياب الوزير، وكساها الغلام، فقال: يا مولاي! هذا من شأن الله تعالى[4]. وعن عبد الله بن طاهر: أنَّه دعا الحسين بنَ الفضل وقال له: أشكلت عليَّ ثلاث آيات دَعوتُكَ لتكشفها لي: قوله تعالى: ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّـٰدِمِينَ﴾ [المائدة:٣١] وقد صحَّ أنَّ الندم توبة، وقوله: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ وقد صحَّ أنَّ القلم جفَّ بما هو كائن إلى يوم القيامة، وقوله: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَـٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ [النجم:٣٩]

(١) النكت والعيون ٥/ ٤٣٢.

(٢) تهذيب اللغة ١١/ ٤١٥.

(٣) تفسير البغوي ٤/ ٢٧٠، والمحرر الوجيز ٥/ ٢٢٩، ونسباه إلى الحسين بن الفضل.

(٤) الكشاف ٤/ ٤٦، وما بعده منه أيضاً.

فما بال الأضعاف؟ فقال الحسين: يجوز ألا يكون الندمُ توبةً في تلك الأمَّة، ويكون توبةً في هذه الأمَّة؛ لأنَّ الله تعالى خصَّ هذه الأمة بخصائص لم تشاركهم فيها الأمم. وقيل: إنَّ ندم قابيل لم يكن على قتل هابيل، ولكن على حمله. وأما قوله: «كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ» فإنَّها شؤون يبديها لا شؤون يبتديها. وأما قوله: «وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى» فمعناه: ليس له إلا ما سعى عدلاً، ولي أن أجزيَه بواحدة ألفاً فضلاً. فقام عبد الله وقبَّل رأسه وسوَّغ خراجه.

قوله تعالى: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٢﴾ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ ﴿٣٣﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٤﴾ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِنْ نَارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنْتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلَانِ﴾ يقال: فَرَغت من الشغل أفرغُ فُروغاً وفَراغاً، وتفرَّغت لكذا، واستفرغت مجهودي في كذا، أي: بذلتُه[١]. والله تعالى ليس له شغل يفرغ منه، إنَّما المعنى: سنقصد لمجازاتكم أو محاسبتكم، وهذا وعيد وتهديد لهم[٢]، كما يقول القائل لمن يريد تهديده: إذاً أتفرَّغ لك، أي: أَقْصِدُكَ. وفرغ بمعنى قصد[٣]، وأنشد ابن الأنباري في مثل هذا لجرير:

أَلَان وقَدْ فَرَغْتُ إلى نُمَيْرٍ فهذا حين كُنْتُ لها عَذابَا[٤]

يريد: وقد قصدت. وقال أيضاً، وأنشده النحَّاس:

فَرغْتُ إلى العَبْدِ المقَيَّدِ في الحِجْلِ[٥]

(١) الصحاح (فرغ).

(٢) النكت والعيون ٥/ ٤٣٤ .

(٣) معاني القرآن للزجاج ٥/ ٩٩ .

(٤) النكت والعيون ٥/ ٤٣٤ ، والحجة لأبي علي الفارسي ٤/ ٢٥٦ و ٦/ ٢٤٩ ، ولم نقف على البيت في ديوان جرير.

(٥) شرح ديوان جرير ٢/ ٩٥٢ ، إلا أن فيه: القين، بدل: العبد.

وفي الحديث: أنَّ النبيَّ ﷺ لما بايع الأنصار ليلةَ العقبة، صاح الشيطان: يا أهل الجَبَاجِب! هذا مُذَمَّم يبايع بني قَيْلة على حربكم. فقال النبيُّ ﷺ: «هذا أَزَبُّ العَقَبة، أَمَا والله يا عدوَّ الله لأتفرغنَّ لك»[(١)] أي: أقصد إلى إبطال أمرك. وهذا اختيار القتبيِّ[(٢)] والكسائيِّ وغيرهما[(٣)].

وقيل: إنَّ الله تعالى وعَد على التقوى، وأَوعد على الفجور، ثم قال: «سَنَفْرُغُ لَكُمْ» مما وعدناكم، ونوصل كُلًّا إلى ما وعدناه، أي: أَقْسِمُ ذلك وأتفرَّغ منه. قاله الحسن ومقاتل وابن زيد[(٤)]. وقرأ عبد الله وأُبَيٌّ: «سَنفْرُغُ إِلَيْكُمْ»[(٥)]، وقرأ الأعمش وإبراهيم: «سَيُفْرَغُ لَكُمْ» بضمِّ الياء وفتح الراء، على ما لم يسمَّ فاعله. وقرأ ابن شهاب والأعرج: «سَنَفْرَغُ لَكُمْ» بفتح النون والراء[(٦)]، قال الكسائيُّ: هي لغةُ تميم، يقولون: فَرِغ يَفرَغ، وحكى أيضاً: فَرَغ يَفرُغ[(٧)]، ورواهما هُبيرة، عن حفص، عن عاصم[(٨)]. وروى الجُعْفيُّ عن أبي عمرو: «سَيَفْرَغُ» بفتح الياء والراء[(٩)]، ورويت عن

(١) أخرجه أحمد (١٥٧٩٨)، والفاكهي في أخبار مكة (٢٥٤٢)، والطبراني في الكبير ١٩/ (١٧٥) عن كعب بن مالك. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٦/ ٤٥ : رواه أحمد والطبراني بنحوه، ورجال أحمد رجال الصحيح غير ابن إسحاق، وقد صرَّح بالسماع. اهـ. ومعنى: هذا مذمَّم: أنَّ عدوَّ الله صرخ بما يضادُّ اسم محمد وزناً ومعنًى. والجباجب: جمع جُبْجُب ـ بالضمِّ ـ وهو المستوي من الأرض ليس بحَزْن، وهي أسماء منازل منى. وأَزَبُّ العقبة: اسم شيطان كان بالعقبة. النهاية (جبجب) و(أزب).

(٢) في تأويل مشكل القرآن له ص٧٧ .

(٣) منهم الزجَّاج في معاني القرآن له ٥/ ٩٩ ، وابن الأعرابي كما في تهذيب اللغة ٨/ ١١١ .

(٤) تفسير البغوي ٤/ ٢٧١ عن الحسن ومقاتل.

(٥) الحجة للفارسي ٦/ ٢٤٩ ، والكشف لمكي ٢/ ٣٠٢ ، والكشاف للزمخشري ٤/ ٤٧ عن أُبَيٍّ، وذكر محقق الكشف أنَّ في إحدى النسخ الخطية: ابن مسعود، بدل: أُبيٍّ.

(٦) القراءات الشاذة ص١٤٩ ، والمحتسب ٢/ ٣٠٤ ، والبحر المحيط ٨/ ١٩٤ .

(٧) الحجة للفارسي ٦/ ٢٤٩ .

(٨) المحرر الوجيز ٥/ ٢٣٠ .

(٩) المحتسب ٢/ ٣٠٤ ، وذكرها مجاهد في السبعة ص٦٢٠ .

ابن هُرْمز. وروي عن عيسى الثَّقفيِّ: «سَنِفْرَغُ لَكُمْ» بكسر النون وفتح الراء[١]، وقرأ حمزة والكسائيُّ: «سَيَفْرُغُ لَكُمْ» بالياء، الباقون بالنون[٢]، وهي لغة تهامة.

والثَّقلان: الجِنُّ والإنس، سُمِّيا بذلك؛ لعِظَم شأنهما بالإضافة إلى ما في الأرض من غيرهما بسبب التكليف[٣]. وقيل: سُمُّوا بذلك؛ لأنَّهم ثِقَلٌ على الأرض أحياءً وأمواتاً، قال الله تعالى: ﴿وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾ [الزلزلة: ٢] ومنه قولهم: أَعطِه ثِقَلَه، أي: وزنَه. وقال بعض أهل المعاني: كل شيء له قدر ووزن يُنافَسُ فيه، فهو ثقل. ومنه قيل لبيض النعام: ثقل؛ لأنَّ واجده وصائده يفرح به إذا ظفر به. وقال جعفر الصادق: سُمِّيا ثقلين؛ لأنَّهما مثقلان بالذنوب[٤].

وقال: «سَنَفْرُغُ لَكُمْ» فجمع، ثم قال: «أَيُّه الثَّقَلَانِ» لأنَّهما فريقان، وكلٌّ فريق جمع، وكذا قوله تعالى: «يا مَعْشَرَ الجِنِّ والإِنسِ إِنِ استَطَعْتُمْ» ولم يقل: إن استطعتما[٥]؛ لأنَّهما فريقان في حال الجمع، كقوله تعالى: ﴿فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾ [النمل: ٤٥] و﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ﴾ [الحج: ١٩] ولو قال: سنفرغ لكما، وقال: إن استطعتما، لجاز.

وقرأ أهل الشام: «أَيُّهُ الثَّقَلَانِ» بضمِّ الهاء. الباقون بفتحها، وقد تقدَّم[٦].

مسألة: هذه السورة و«الْأَحْقَاف» و﴿قُلْ أُوحِىَ﴾ [الجن: ١] دليلٌ على أنَّ الجِنَّ مخاطبون مكلَّفون[٧]، مأمورون منهيون، مثابون معاقبون، كالإنس سواء، مؤمنُهم كمؤمنهم، وكافرُهم ككافرهم، لا فرق بيننا وبينهم في شيء من ذلك.

---

(١) البحر المحيط ٨/ ١٩٤.

(٢) السبعة ص٦٠٢، والتيسير ص٢٠٦.

(٣) تفسير البغوي ٤/ ٢٧١.

(٤) المحرر الوجيز ٥/ ٢٣٠.

(٥) معاني القرآن للفراء ٣/ ١١٦.

(٦) ١٥/ ٢٢٨.

(٧) التمهيد ١١/ ١١٧.

قوله تعالى: ﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ﴾ الآية، ذكر ابن المبارك: وأخبرنا جويبر عن الضحاك قال: إذا كان يوم القيامة أَمَرَ الله السماء الدنيا فتشقَّقت بأهلها، فتكون الملائكة على حافَّاتها حتى يَأْمرهم الربُّ، فينزلون إلى الأرض، فيحيطون بالأرض ومن فيها، ثم يأمر الله السماء التي تليها كذلك، فينزلون فيكونون صفًّا في جوف[1] ذلك الصف، ثم السماء الثالثة ثم الرابعة ثم الخامسة ثم السادسة ثم السابعة، فينزل الملَك الأعلى في بهائه وملكه ومجنَّبته اليسرى جهنَّم، فيسمعون زفيرها وشهيقها، فلا يأتون قُطْراً من أقطارها إلا وجدوا صفوفاً من الملائكة، فذلك قوله تعالى: «يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ والإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ» والسلطان: العذر.

وقال الضحَّاك أيضاً: بينما الناس في أسواقهم انفتحت السماء، ونزلت الملائكة، فتهرب الجنُّ والإنس، فتحدق بهم الملائكة، فذلك قوله تعالى: «لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ» ذكره النحَّاس. قلت: فعلى هذا، يكون في الدنيا، وعلى ما ذكر ابنُ المبارك، يكون في الآخرة. وعن الضحَّاك أيضاً: إن استطعتم أن تهربوا من الموت فاهربوا[2]. وقال ابن عباس: إن استطعتم أن تعلموا ما في السماوات وما في الأرض فاعلموه، ولن تعلموه إلا بسلطان، أي: ببيِّنة من الله تعالى[3]. وعنه أيضاً أنَّ معنى: «لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ» لا تخرجون من سلطاني وقدرتي عليكم[4]. قتادة: لا تنفذون إلا بمِلْك، وليس لكم مِلْك[5]. وقيل: لا تنفذون إلا إلى سلطان، الباء بمعنى «إلى»، كقوله تعالى: ﴿وَقَدۡ أَحۡسَنَ بِيٓ﴾ [يوسف: ١٠٠] أي: إليَّ[6]. قال الشاعر:

(١) في (م): من خلف. والمثبت من (د) و(ظ)، والزهد لابن المبارك (٣٥٤ زوائد نعيم)، وأخرجه أيضاً الطبري ٢٢/٢١٧ - ٢١٨ من طريق الأجلح، عن الضحاك، به.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٣١٠، وما بعده منه أيضاً.

(٣) تفسير البغوي ٤/ ٢٧١، وأخرجه عنه الطبري ٢٢/ ٢١٩.

(٤) أخرجه الطبري ٢٢/ ٢١٩.

(٥) النكت والعيون ٥/ ٤٣٤، وأخرجه عنه الطبري ٢٢/ ٢٢٠.

(٦) تفسير البغوي ٤/ ٢٧١.

أَسِيئي بِنا أو أحسِنِي لا مَلُولَةٌ لَدَيْنا ولا مَقْلِيَّةٌ إن تَقَلَّتِ[١]

وقوله: «فَانْفُذُوا» أمر تعجيز.

قوله تعالى: ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ﴾ أي: لو خرجتم أرسل عليكم شواظ من نار، وأخذكم العذاب المانع من النفوذ. وقيل: ليس هذا متعلِّقاً بالنفوذ، بل أخبر أنَّه يعاقب العصاة عذاباً بالنار. وقيل: أي: بآلاءِ ربِّكما تكذبان، يرسل عليكما شواظ من نار ونحاس؛ عقوبة على ذلك التكذيب. وقيل: يحاط على الخلائق بالملائكة وبلسان من نار، ثم ينادون: «يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ»، فتلك النار قوله: «يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُواظٌ مِنْ نَارٍ» والشواظ في قول ابن عباس وغيره: اللهب الذي لا دخان له. والنُّحَاس: الدخان الذي لا لهبَ فيه[٢]. ومنه قول أميَّة بن أبي الصَّلْت يهجو حسانَ بنَ ثابت ﷺ، كذا وقع في تفسير الثعلبيِّ والماورديِّ[٣]: ابن أبي الصَّلْت، وفي «الصحاح»[٤] و«الوقف والابتداء»[٥] لابن الأنباري: أميَّة بن خَلَف قال:

أَلَا مَنْ مُبْلِغٌ حَسَّانَ عَنِّي مُغَلْغَلَةً تَدُبُّ إلى عُكَاظِ

أَلَيْس أبوكَ فينا كان قَيْناً لَدَى الْقَيْنَاتِ فَسْلاً في الحِفَاظِ

يَمَانِيًّا يَظَلُّ يَشُدُّ كِيراً وَيَنْفُخُ دَائباً لَهَبَ الشُّوَاظِ[٦]

فأجابه حسان ﷺ فقال:

---

(١) القائل كُثيِّر عزَّة، وهو في ديوانه ص٨٠ . وقَلَته قِلًى وقلاء ومَقْلية: أبغضته وكرهته غاية الكراهة. اللسان (قلا).

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٣١١ ، وأخرجه عنه الطبري ٢٢/ ٢٢٢ ، ٢٢٤ .

(٣) في النكت والعيون ٥/ ٤٣٤ - ٤٣٥ ومقتصراً على البيت الثالث.

(٤) مادة (شوظ) ومقتصراً على البيتين الثاني والثالث.

(٥) ١/ ٩٥ .

(٦) ديوان أمية بن أبي الصلت ص١٦٨ ، والمغلغلة: الرسالة. والقين: العبد. والفسل: النذل. والكير: منفخ الحداد. اللسان (غلل) و(قين) و(فسل) و(كير).

هَـجَـوْتـكَ فَـاخْـتَـضَـعْـتَ لـهـا بِـذُلٍّ   بِـقـافِـيـةٍ تَـأَجَّـجُ كـالـشُّـواظِ[١]

وقال رُؤبة:

إنَّ لـهـم مـن وقْـعِـنَـا أَقْـيَـاظَـا   ونـارَ حـربٍ تُـسْـعِـرُ الـشُّـوَاظَـا[٢]

وقال مجاهد: الشّواظ: اللهب الأخضر المنقطع من النار[٣]. الضحَّاك: هو الدخان الذي يخرج من اللهب ليس بدخان الحطب[٤]. وقاله سعيد بن جبير[٥]. وقدقيل: إنَّ الشواظَ النارُ والدخانُ جميعاً، قاله أبو عمرو، وحكاه الأخفش عن بعض العرب[٦].

وقرأ ابن كَثير: «شِواظ» بكسر الشين. الباقون بالضمِّ[٧]، وهما لغتان، مثل صُوَار وصِوار لقطيع البقر[٨].

﴿وَنُحَاسٌ﴾ قراءة العامَّة: «ونُحَاسٌ» بالرفع عطف على «شُوَاظ». وقرأ ابن كثير وابن محيصن ومجاهد وأبو عمرو: «ونُحَاسٍ» بالخفض[٩] عطفاً على النار. قال المهدويُّ:

---

(١) ديوان حسان ص١٤٢، وروايته فيه هكذا:

مُـجـلَّـلـةً تُـعـمِّـمـه شـنـاراً   مـضـرَّمـة تـأجَّـج كـالـشـواظ

وجاءت روايته في النكت والعيون ٥/ ٤٣٥ هكذا:

هـمـزتـك فـاختـضـغـت بـذل نـفـس   بـقـافـيـة تـأجـج كـالـشـواظ

(٢) مجاز القرآن لأبي عبيدة ٢/ ٢٤٤، وتفسير الطبري ٢٢/ ٢٢١ - ٢٢٢، والصحاح (شوظ)، ولم نقف عليه في ديوان رؤبة، وذكره ابن دريد في جمهرة اللغة ٣/ ١٢٣ ونسبه للعجاج، ولم نقف عليه في ديوانه أيضاً.

(٣) تفسير البغوي ٤/ ٢٧١، وتفسير مجاهد ٢/ ٦٤٢، وأخرجه عنه الطبري ٢٢/ ٢٢٣.

(٤) أخرجه عنه الطبري ٢٢/ ٢٢٣.

(٥) النكت والعيون ٥/ ٤٣٥.

(٦) الوسيط ٤/ ٢٢٣، ومشكل إعراب القرآن لمكي ٢/ ٧٠٦.

(٧) السبعة ص٦٢١، والتيسير ص٢٠٦.

(٨) معاني القرآن للفراء ٣/ ١١٧.

(٩) قراءة ابن كثير وأبي عمرو في السبعة ص٦٢١، والتيسير ص٢٠٦، وقراءة مجاهد في إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٣١١.

من قال: إنَّ الشّواظ النارُ والدخانُ جميعاً، فالجرُّ في «نُحَاس» على هذا بيِّن. فأمَّا الجرُّ على قول من جعل الشواظ اللهبَ الذي لا دخان فيه، فبعيد لا يسوغ إلا على تقدير حذف موصوف كأنَّه قال: «يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِنْ نَارٍ» وشيءٌ من نحاس، فشيء معطوف على شواظ، و«من نحاس» جملة هي صفة لشيء، وحذف شيء، وحذفت «مِن»؛ لتقدُّم ذكرها في «مِنْ نَارٍ»[1] كما حذفت «على» من قولهم: على من تنزل، أنزل عليه. فيكون «نُحَاس» على هذا مجروراً بـ «من» المحذوفة.

وعن مجاهد وحُميد وعكرمة وأبي العالية: «ونِحاسٍ» بكسر النون[2]، لغتان كالشِّواظ والشُّواظ. والنِّحاس ـ بالكسر أيضاً ـ: الطبيعةُ والأصلُ، يقال: فلان كريم النِّحاس. والنُّحاس ـ أيضاً بالضمِّ ـ أي: كريم النُّجار[3]. وعن مسلم بن جُنْدَب: «ونَحْسٌ» بالرفع[4]. وعن حنظلة بن مرَّة بن النعمان الأنصاري: «ونَحْسٍ» بالجرِّ[5] عطف على نار. ويجوز أن يكون «ونِحاسٍ» بالكسر، جمع نَحْسٍ، كصَعْب وصِعاب، «ونَحْسٌ» بالرفع عطف على «شواظ»، وعن الحسن: «ونُحُسٍ» بالضمِّ فيهنَّ[6] جمع نَحْس. ويجوز أن يكون أصله: ونُحُوس، فقصر بحذف واوه؛ حسب ما تقدّم عند قوله: ﴿وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [النحل:١٦]. وعن عبد الرحمن بن أبي بكرة: «وَنَحُسُّ» بفتح النون وضمِّ الحاء وتشديد السين[7]، من حَسَّ يَحُسُّ حَسًّا: إذا استأصل، ومنه قوله تعالى: ﴿إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ﴾ [آل عمران:١٥٢] والمعنى: ونقتل بالعذاب.

---

(١) حجة القراءات للفارسي ٦/ ٢٥٠ - ٢٥١ ، ومشكل إعراب القرآن لمكي ٢/ ٧٠٦ .

(٢) القراءات الشاذة ص١٤٩ عن مجاهد والكلبي مع إمالة الحاء، وإعراب القرآن للنحاس ٤/ ٣١١ ، والمحرر الوجيز ٥/ ٢٣١ عن مجاهد، وينظر البحر المحيط ٨/ ١٩٥ .

(٣) الصحاح (نحس).

(٤) القراءات الشاذة ص١٤٩ ، وإعراب القرآن للنحاس ٤/ ٣١١ .

(٥) القراءات الشاذة ص١٤٩ وسمَّاه حنظلة بن يعمر، ولم نعرفه.

(٦) في (م): فيهما، والمثبت من النسخ الخطية، والقراءة في البحر المحيط ٨/ ١٩٥ .

(٧) القراءات الشاذة ص١٤٩ ، والمحتسب ٢/ ٣٠٤ ، وما بعده منه.

وعلى القراءة الأولى: «ونُحَاسٌ» فهو الصُّفْر المذاب يُصَبُّ على رؤوسهم، قاله مجاهد وقتادة، وروي عن ابن عباس(١). وعن ابن عباس أيضاً وسعيد بن جُبير أنَّ النحاس: الدخان الذي لا لهبَ فيه(٢)، وهو معنى قول الخليل(٣)، وهو معروف في كلام العرب بهذا المعنى، قال نابغة بني جَعْدة:

يُضِيءُ كضَوْءِ سِرَاجِ السَّلِيـ ـطِ لم يَجْعَلِ اللهُ فيه نُحَاسَا(٤)

قال الأصمعيُّ: سمعتُ أعرابياً يقول: السَّليط: دهن السِّمسم بالشام ولا دخانَ فيه.

وقال مقاتل: هي خمسة أنهار من صُفْر مُذَاب، تجري من تحت العرش على رؤوس أهل النار، ثلاثة أنهار على مقدار الليل، ونهران على مقدار النهار.

وقال ابن مسعود: النُّحَاس: المُهْل(٥). وقال الضحَّاك: هو دُرْديُّ الزّيت المغليّ. وقال الكسائيُّ: هو النار التي لها ريح شديدة. ﴿فَلَا تَنتَصِرَانِ﴾ أي: لا ينصر بعضكم بعضاً، يعني الجنّ والإنس(٦).

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ ﴿٣٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٨﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴿٣٩﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ﴾ أي: انصدعت يوم القيامة ﴿فَكَانَتْ وَرْدَةً

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ٢٧٢ ، وأخرجه عنهم الطبري ٢٢/ ٢٢٥ .

(٢) زاد المسير ٨/ ١١٦ ، وأخرجه عنهما الطبري ٢٢/ ٢٢٤ .

(٣) في العين ٦/ ٢٧٨ .

(٤) ديوان النابغة الجعدي ص٨١ ، والسليط: الزيت، عند عامة العرب، وهو دهن السمسم عند أهل اليمن. اللسان (سلط).

(٥) تفسير البغوي ٤/ ٢٧٢ .

(٦) أخرجه عبد الرزاق في التفسير ٢/ ٢٦٤ عن قتادة.

﴿كَالدِّهَانِ﴾ الدِّهَانُ: الدُّهْن، عن مجاهد والضحَّاك وغيرهما[١]. والمعنى أنَّها صارت في صفاء الدهن، والدهان على هذا جمع دُهْن[٢].

وقال سعيد بن جُبير وقتادة: المعنى: فكانت حمراء[٣]. وقيل: المعنى: تصير في حمرة الورد وجريان الدهن، أي: تذوب مع الانشقاق حتى تصير حمراء من حرارة نار جهنَّم، وتصير مثل الدُّهن؛ لرقَّتها وذوبانها. وقيل: الدّهان: الجلد الأحمر الصِّرف، ذكره أبو عبيد والفرَّاء[٤]. أي: تصير السماء حمراء كالأديم؛ لشدة حَرِّ النار.

ابن عباس: المعنى: فكانت كالفرس الوَرْد[٥]. يقال للكُمَيت: وَرْدٌ؛ إذا كان يتلوَّن بألوان مختلفة[٦]. قال ابن عباس: الفرس الوَرْد؛ في الربيع كميت أصفر، وفي أوَّل الشتاء كُمَيت أحمر، فإذا اشتدَّ الشتاء كان كُمَيتاً أغبر. وقال الفرَّاء[٧]: أراد الفرس الوَرْديَّة، تكون في الربيع وَرْدةً إلى الصفرة، فإذا اشتدَّ البرد كانت وَرْدةً حمراء، فإذا كان بعد ذلك كانت وَرْدةً إلى الغُبرة، فشبَّه تلوُّن السماء بتلوُّن الْوَرْد من الخيل. وقال الحسن: «كَالدِّهَانِ» أي: كصبِّ الدُّهن، فإنَّك إذا صببته ترى فيه ألواناً. وقال زيد بن أسلم: المعنى أنَّها تصير كعَكَر الزيت، وقيل: المعنى أنَّها تمرُّ وتجيء. قال الزجَّاج: أصل الواو والراء والدال [للمجيء والإتيان. وهذا قريب مما قدَّمناه من أنَّ الفرس الوَرْدة تتغيَّر ألوانها. وقال قتادة]: إنَّها اليوم خضراء، وسيكون لها لون

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٣١٢ ، وأخرجه عنهما الطبري ٢٢/ ٢٢٨ - ٢٢٩ ، وقول مجاهد في تفسيره ٢/ ٦٤٢ .

(٢) غريب القرآن لابن قتيبة ص٤٣٩ .

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٣١٢ عن قتادة، وأخرجه عنه الطبري ٢٢/ ٢٢٨ .

(٤) في معاني القرآن له ٣/ ١١٧ .

(٥) المحرر الوجيز ٥/ ٢٣١ ، وأخرجه عنه الطبري ٢٢/ ٢٢٧ .

(٦) معاني القرآن للزجاج ٥/ ١٠١ .

(٧) في معاني القرآن له ٣/ ١١٧ .

أحمر، حكاه الثعلبيُّ(١). وقال الماورديُّ(٢): وزعم المتقدمون أنَّ أصل لون السماء الحمرة، وأنَّها لكثرة الحوائل وبُعد المسافة تُرى بهذا اللون الأزرق، وشبَّهوا ذلك بعروق البدن، وهي حمراء كحمرة الدم، وتُرى بالحائل زرقاء، فإن كان هذا صحيحاً فإنَّ السماء لقُربها من النواظر يوم القيامة وارتفاع الحواجز تُرى حمراء؛ لأنَّه أصل لونها. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ﴾ هذا مثل قوله تعالى: ﴿وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [القصص:٧٨] وأنَّ القيامة مواطن؛ لطول ذلك اليوم، فيسأل في بعض، ولا يسأل في بعض، وهذا قول عكرمة(٣).

وقيل: المعنى: لا يسألون إذا استقرُّوا في النار.

وقال الحسن وقتادة: لا يسألون عن ذنوبهم؛ لأنَّ الله حفظها عليهم، وكتبتها عليهم الملائكة. رواه العوفيُّ عن ابن عباس(٤).

وعن الحسن ومجاهد أيضاً: المعنى: لا تسأل الملائكة عنهم؛ لأنَّهم يعرفونهم بسيماهم، دليله ما بعده. وقاله مجاهد عن ابن عباس(٥). وعنه أيضاً في قوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر:٩٢] وقوله: «فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْأَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلَا جَانٌّ» [الرحمن:٣٩] وقال: لا يسألهم ليعرف ذلك منهم؛ لأنَّه أعلم بذلك منهم، ولكنَّه يسألهم لم عملتموها، سؤالَ توبيخ. وقال أبو العالية: لا يسأل غير المجرم عن

(١) والواحدي في الوسيط ٤/ ٢٢٣، وأخرجه الطبري ٢٢/ ٢٢٨ عن قتادة، وما بين حاصرتين ليست في (د).

(٢) في النكت والعيون ٥/ ٤٣٦.

(٣) المحرر الوجيز ٥/ ٢٣٢، وتفسير البغوي ٤/ ٢٧٢.

(٤) تفسير البغوي ٤/ ٢٧٢، وأخرجه عبد الرزاق في التفسير ٢/ ٢٦٥ عن الحسن، والطبري ٢٢/ ٢٣٠ عن قتادة.

(٥) تفسير البغوي ٤/ ٢٧٢، والمحرر الوجيز ٥/ ٢٣٢، وأخرجه الطبري ٢٢/ ٢٣٠ عن مجاهد، وهو في تفسيره ٢/ ٦٤٢ - ٦٤٣ بنحوه.

ذنب المجرم(١).

وقال قتادة: كانت المسألة قَبْلُ، ثم ختم على أفواه القوم وتكلَّمت الجوارح شاهدة عليهم(٢).

وفي حديث أبي هريرة عن النبيِّ ﷺ وفيه قال: «فَيلْقَى العبدَ فيقول: أي فُلْ، ألم أُكرِمْك وأُسوِّدْك وأُزَوِّجْك وَأُسخِّرْ لك الخيلَ والإبلَ، وأَذرْكَ تَرْأَسُ وتَرْبَعُ؟ فيقول: بلى. فيقول: أفظننتَ أنَّك مُلَاقيَّ؟ فيقول: لا. فيقول: إنِّي أنساكَ كما نسيتني. ثم يَلقى الثانيَ فيقول له مثلَ ذلك بعينه، ثم يلقى الثالث فيقول له مثلَ ذلك، فيقول: يا ربِّ آمنتُ بكَ وبكتابِكَ وبرسولِكَ، وصلَّيتُ وصمتُ وتصدَّقت، ويُثْني بخيرٍ ما استطاع، فيقول: هاهنا إذاً. ثُمَّ يقال له: الآن نبعثُ شاهدَنا عليك فيفتكر في نفسه مَن هذا الذي يشهد عليَّ، فيُختَم على فِيْهِ، ويقال لفخذه ولحمه وعظامه: انْطِقي، فتنطقُ فخذُه ولحمُه وعظامُه بعمله، وذلك ليُعْذِرَ من نفسه، وذلك المنافق، وذلك الذي يَسخطُ اللهُ عليه» وقد مضى هذا الحديث في «حم السجدة» وغيرها(٣).

قوله تعالى: ﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٢﴾ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴿٤٤﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ﴾ قال الحسن: سواد الوجه وزرقة الأعين(٤)، قال الله تعالى: ﴿وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾ [طه:١٠٢] وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ [آل عمران:١٠٦].

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ٢٧٢ .

(٢) النكت والعيون ٥/ ٤٣٦ ، وأخرجه عنه الطبري ٢٢/ ٢٣٠ .

(٣) أخرجه مسلم (٢٩٦٨)، وسلف ١٧/ ٤٧٥ و ١٨/ ٤٠٦ ، ومعنى : فُلْ: يا فلان، وليس ترخيماً له... وقال قوم: إنه ترخيم فلان. وترأس: أي صرتَ رئيس القوم ومقدَّمهم. وتربع: تأخذ ربع الغنيمة. النهاية (فلل) و(رأس) و(ربع).

(٤) المحرر الوجيز ٥/ ٢٣٢ ، وأخرجه عنه عبد الرزاق في التفسير ٢/ ٢٦٥ ، والطبري ٢٢/ ٢٣١ .

﴿فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ﴾ أي: تأخذ الملائكة بنواصيهم، أي: بشعور مقدَّم رؤوسهم وأقدامهم فيقذفونهم في النار(١). والنواصي جمع ناصية. وقال الضحَّاك: يجمع بين ناصيته وقدمَيْه في سلسلة من وراء ظهره(٢). وعنه: يؤخذ برِجْلي الرجل فيجمع بينهما وبين ناصيته حتى يندقَّ ظهره، ثم يُلقى في النار(٣). وقيل: يفعل ذلك به ليكون أشدَّ لعذابه وأكثر لتشويهه. وقيل: تسحبهم الملائكة إلى النار، تارةً تأخذ بناصيته وتجرُّه على وجهه، وتارةً تأخذ بقدميه وتسحبه على رأسه(٤).

قوله تعالى: ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ أي: يقال لهم: هذه النار التي أُخبِرتُم بها فكذبتم(٥). ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ﴾ قال قتادة: يطوفون مرَّةً بين الحميم، ومرَّةً بين الجحيم، والجحيم: النار. والحميم: الشراب(٦).

وفي قوله تعالى: «آنٍ»: ثلاثة أوجه:

أحدها: أنه الذي انتهى حَرُّه وحميمه. قاله ابن عباس وسعيد بن جُبير والسُّدِّيُّ(٧)، ومنه قول النابغة الذُّبْياني:

وتُخْضَبُ لِحْيَةٌ غَدَرتْ وخَانتْ بأحمرَ من نجيعِ الجوفِ آنِ(٨)

قال قتادة: «آنٍ»: طبخ منذ خلقَ الله السماوات والأرض(٩). يقول: إذا استغاثوا

(١) تفسير الطبري ٢٢/ ٢٣١، وتفسير أبي الليث ٣/ ٣٠٩.

(٢) الكشاف ٤/ ٤٨، وأخرجه عنه هناد في الزهد (٢٦٨).

(٣) أورده السيوطي في الدر المنثور ٦/ ١٤٥ وعزاه إلى ابن المنذر.

(٤) الكشاف ٤/ ٤٨، والمحرر الوجيز ٥/ ٢٣٢ بنحوه.

(٥) الوسيط ٤/ ٢٢٤.

(٦) النكت والعيون ٥/ ٤٣٧.

(٧) النكت والعيون ٥/ ٤٣٧، وما بعده منه أيضاً، وأخرجه الطبري ٢٢/ ٢٣٣ عن ابن عباس وسعيد ابن جبير.

(٨) ديوان النابغة ص١٢٠، ونجيع الجوف: الدم. اللسان (نجع).

(٩) أخرجه عنه الطبري ٢٢/ ٢٣٤.

من النار، جعل غياثهم ذلك. وقال كعب: «آن»: وادٍ من أودية جهنَّم يجتمع فيه صديد أهل النار، فيغمسون بأغلالهم فيه حتى تنخلعَ أوصالهم، ثم يخرجون منها وقد أحدث الله لهم خَلْقاً جديداً فيلقون في النار، فذلك قوله تعالى: «يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ»[١]. وعن كعب أيضاً: أنَّه الحاضر. وقال مجاهد: إنَّه الذي قد آنَ شربه وبلغ غايته[٢].

والنعمة فيما وصف من هول القيامة وعقاب المجرمين ما في ذلك من الزجر عن المعاصي والترغيب في الطاعات. وروي عن النبيِّ ﷺ أنَّه أتى على شاب في الليل يقرأ: «فَإِذَا انْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ»، فوقف الشاب وخنقته العَبْرة وجعل يقول: وَيْحِي من يوم تنشقُّ فيه السماء وَيْحِي! فقال النبيُّ ﷺ: «وَيْحَك يا فتى مثلها، فوالذي نفسي بيده لقد بكت ملائكة السماء لبكائك»[٣].

قوله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ۝٤٦ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٤٧﴾

قوله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ **فيه مسألتان:**

الأولى: لما ذكر أحوال أهل النار ذكر ما أعدَّ للأبرار. والمعنى: خاف مقامه بين يدي ربِّه للحساب، فترَكَ المعصية. فـ «مَقَامَ» مصدر بمعنى القيام. وقيل: خاف قيام ربِّه عليه، أي: إشرافه واطلاعه عليه، بيانه قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الرعد:٣٣] وقال مجاهد وإبراهيم النخعيُّ: هو الرجل يَهُمُّ بالمعصية فيذكر اللهَ، فيدعها من خوفه[٤].

الثانية: هذه الآية دليل على أنَّ من قال لزوجه: إن لم أكن من أهل الجنَّة، فأنتِ

(١) تفسير البغوي ٤/ ٢٧٣ .

(٢) النكت والعيون ٥/ ٤٣٧ ، وأخرجه الطبري ٢٢/ ٢٣٣ عن مجاهد، وهو في تفسيره ٢/ ٦٤٣ .

(٣) لم نقف عليه.

(٤) تفسير البغوي ٤/ ٢٧٣ ، وأخرجه عنهما الطبري ٢٢/ ٢٣٥ - ٢٣٦ ، وقول مجاهد أخرجه أيضاً ابن أبي شيبة ١٣/ ٥٧٠ ، وهناد في الزهد (٨٩٩).

طالق. أنَّه لا يحنث إن كان هَمَّ بالمعصية وتركها خوفاً من الله وحياءً منه. وقاله سفيان الثوريُّ وأفتى به[١].

وقال محمد بن عليٍّ الترمذيُّ: جنةٌ لخوفه من ربِّه، وجنةٌ لتركه شهوته[٢]. وقال ابن عباس: من خاف مقام ربِّه بعد أداء الفرائض[٣]. وقيل: المقام: الموضع، أي: خاف مقامه بين يدي ربِّه للحساب، كما تقدَّم[٤]. ويجوز أن يكون المقام للعبد ثم يضاف إلى الله[٥]، وهو كالأجل في قوله: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ﴾ [الأعراف: ٣٤] وقوله في موضع آخر: ﴿إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ﴾ [نوح: ٤].

﴿جَنَّتَانِ﴾ أي: لمن خاف جنَّتان على حِدَة، فلكلِّ خائف جنَّتان. وقيل: جنَّتان لجميع الخائفين[٦]. والأوَّل أظهر. وروي عن ابن عباس عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال: «الجنَّتان بستانان في عرض الجنَّة، كلُّ بستان مسيرة مئة عام، في وسط كلِّ بستان دار من نور، وليس منها شيء إلا يهتز نغمة وخضرة، قرارها ثابت وشجرها ثابت» ذكره المهدويُّ والثعلبيُّ أيضاً من حديث أبي هريرة[٧].

وقيل: إنَّ الجنَّتين جنَّته التي خلقت له وجنَّة ورثها. وقيل: إحدى الجنَّتين منزله، والأُخرى منزل أَزواجه، كما يفعله رؤساء الدنيا. وقيل: إنَّ إحدى الجنَّتين مسكنه، والأُخرى بستانه. وقيل: إنَّ إحدى الجنَّتين أسافل القصور، والأخرى أعاليها. وقال مقاتل: هما جنَّة عدن، وجنَّة النعيم[٨].

---

(١) هذه اليمين ذُكرت عن هارون الرشيد، وأنَّ الليث بن سعد هو الذي أفتاه فيها كذلك، وقد أخرج القصة أبو نعيم في حلية الأولياء ٧/ ٣٢٣ - ٣٢٤ ، ولم نقف على فتيا سفيان الثوري في المسألة.

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٢٧٣ .

(٣) النكت والعيون ٥/ ٤٣٧ ، وأخرجه عنه الطبري ٢٢/ ٢٣٥ .

(٤) الوسيط ٤/ ٢٢٥ .

(٥) تفسير الرازي ٢٩/ ١٢٢ .

(٦) المحرر الوجيز ٥/ ٢٣٣ .

(٧) وأورده السيوطي في الدر المنثور ٦/ ١٤٧ وعزاه لابن مردويه عن عياض بن تميم.

(٨) النكت والعيون ٥/ ٤٣٨ ، والوسيط ٤/ ٢٢٥ .

وقال الفرَّاء: إنَّما هي جنَّة واحدة، فثنى؛ لرؤوس الآي. وأنكر القتبيُّ هذا وقال: لا يجوز أن يقال: خزنة النار عشرون، وإنَّما قال: تسعة عشر؛ لمراعاة رؤوس الآي. وأيضاً قال: «ذَوَاتَا أَفْنَانٍ»[1]. وقال أبو جعفر النحَّاس: قال الفرَّاء[2]: وقد تكون جنَّة فَتُثَنَّى في الشعر. وهذا القول من أعظم الغلط على كتاب الله عزَّ وجلَّ، يقول الله عزَّ وجلَّ: «جَنَّتَانِ» ويصفهما بقوله: «فِيهِمَا» فيَدَعُ الظاهر ويقول: يجوز أن تكون جنَّة ويحتجُّ بالشعر! وقيل: إنَّما كانتا اثنتين؛ ليضاعف له السرور بالتنقُّل من جهة إلى جهة.

وقيل: نزلت في أبي بكر الصديق ﷺ خاصَّةً حين ذكر ذاتَ يومٍ الجنَّة حين أُزْلِفَت، والنار حين بُرِّزَت، قاله عطاء وابن شَوْذَب. وقال الضحَّاك: بل شرب ذات يوم لبناً على ظمأ فأعجبه، فسأل عنه، فأُخبِرَ أنَّه من غير حِلٍّ، فاستقاءه ورسولُ الله ﷺ ينظر إليه، فقال: «رحمك الله لقد أنزلت فيك آية» وتلا عليه هذه الآية[3].

قوله تعالى: ﴿ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٩﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ﴾ قال ابن عباس وغيره: أي: ذواتا ألوان من الفاكهة، الواحد: فَنٌّ[4]. وقال مجاهد: الأفنان: الأغصان، واحدها فَنَنٌ[5]. قال النابغة[6]:

بُكاءَ حمامةٍ تَدْعو هَدِيلاً مُفَجَّعَةٍ على فَنَنٍ تُغنِّي

---

(١) تفسير أبي الليث ٣/ ٣١٠ ، وكلام القتبي في غريب القرآن له ص٤٤٠ - ٤٤١ .

(٢) في معاني القرآن له ٣/ ١١٨ .

(٣) النكت والعيون ٥/ ٤٣٧ .

(٤) النكت والعيون ٥/ ٤٣٨ عن ابن عباس والضحاك، والوسيط ٤/ ٢٢٦ عن الضحاك وسعيد بن جبير، وأخرجه عنهم الطبري ٢٢/ ٢٣٩ - ٢٤٠ .

(٥) تفسير البغوي ٤/ ٢٧٤ ، وأخرجه عنه الطبري ٢٢/ ٢٤١ .

(٦) في ديوانه ص١٢٢ .

وقال آخر يصف طائرين:

باتا على غُصْنِ بَانٍ في ذُرَى فَنَنٍ يُرَدِّدانِ لُحوناً ذاتَ أَلْوَانِ[١]

أراد باللحون: اللغات. وقال آخر:

ما هاجَ شَوْقَكَ مِن هَدِيلِ حمامةٍ تَدْعو على فَنَنِ الغُصونِ حَماماً

تدعو أبا فَرْخَيْن صادف ضارِياً ذا مِخْلَبَيْنِ مِن الصُّقورِ قَطَامَا[٢]

والفنن جمعه: أفنان، ثم الأفانين، وقال يصف رَحًى:

لها زِمامٌ مِن أفانِينِ الشَّجَرْ

وشجرة فَنَّاء، أي: ذات أفنان، وفنواء أيضاً على غير قياس[٣].

وفي الحديث: «إنَّ أهل الجنَّة مُرْدٌ مكحَّلون أولو أفانين» يريد: أولو فَنَن، وهو جمع أفنان، وأفنان جمع فننٍ [وهو الخُصْلة] من الشعر شُبِّه بالغصن[٤]. ذكره الهرويُّ.

وقيل: «ذَوَاتَا أَفْنَانٍ» أي: ذواتا سعة وفَضْل على ما سواهما، قاله قتادة[٥]. وعن مجاهد أيضاً وعكرمة: إنَّ الأفنان: ظلُّ الأغصان على الحيطان[٦].

قوله تعالى: ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾ أي: في كلِّ واحدة منهما عين جارية[٧]. قال ابن عباس: تجريان ماءً بالزيادة والكرامة من الله تعالى على أهل الجنَّة[٨]. وعن

---

(١) أمالي القالي ١/ ٦ ، ولم ينسبه.

(٢) سلف ١/ ٤٥ .

(٣) الصحاح (فنن)، والبيت ذكره أيضاً ابن منظور في اللسان، ولم ينسبه.

(٤) تهذيب اللغة ١٥/ ٤٦٦ ، وما بين حاصرتين منه، والحديث أخرجه الترمذي (٢٥٣٩) عن أبي هريرة و(٢٥٤٥) عن معاذ بن جبل بنحوه، وقال بعدهما: هذا حديث حسن غريب.

(٥) تفسير البغوي ٤/ ٢٧٤ ، وأخرجه عنه عبد الرزاق في التفسير ٢/ ٢٦٥ ، والطبري ٢٢/ ٢٤١ .

(٦) تفسير البغوي ٤/ ٢٧٤ .

(٧) تفسير الطبري ٢٢/ ٢٤٢ ، وتفسير الرازي ٢٩/ ١٢٤ .

(٨) تفسير البغوي ٤/ ٢٧٤ .

ابن عباس أيضاً والحسن: تجريان بالماء الزّلال، إحدى العينين التسنيم، والأخرى السلسبيل[١]. وعنه أيضاً: عينان مثل الدنيا أضعافاً مضاعفةً، حصباؤهما الياقوت الأحمر والزَّبَرْجَد الأخضر، وترابهما الكافور، وحَمْأتهما المسك الأذفر، وحافتاهما الزعفران. وقال عطيَّة: إحداهما من ماء غيرِ آسنٍ، والأُخرى من خمر لذَّة للشاربين[٢]. وقيل: تجريان من جبل مِسْكٍ[٣]. وقال أبو بكر الورَّاق: فيهما عينان تجريان لمن كانت عيناه في الدنيا تجريان من مخافة الله عزَّ وجلَّ[٤].

قوله تعالى: ﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٣﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍۚ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾ أي: صنفان، وكلاهما حلوٌ يستلذُّ به. قال ابن عباس: ما في الدنيا شجرة حلوة ولا مُرَّة إلا وهي في الجنَّة حتى الحنظل إلا أنّه حُلْوٌ[٥]. وقيل: ضربان رطب ويابس، لا يقصر هذا عن ذلك في الفضل والطِّيب[٦]. وقيل: أراد تفضيل هاتين الجنَّتين على الجنَّتين اللتَيْن دونهما، فإنَّه ذكر هاهنا عينين جاريتين، وذكر ثَمَّ عينين تَنْضخان بالماء، والنَّضخ دون الجري، فكأنَّه قال: في تَيْنك الجنَّتين من كلِّ فاكهة نوع، وفي هذه الجنَّة من كلِّ فاكهة نوعان[٧].

قوله تعالى: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ﴾ هو نصب على الحال[٨]. والفُرُش: جمع

---

(١) زاد المسير ٨/ ١٢٠ عن ابن عباس، والوسيط ٤/ ٢٢٦ عن الحسن.

(٢) زاد المسير ٨/ ١٢٠ ، والأذفر: الطَّيِّب الريح. اللسان (ذفر).

(٣) الكشاف ٤/ ٤٩ .

(٤) زاد المسير ٨/ ١٢٠ .

(٥) تفسير البغوي ٤/ ٢٧٤ .

(٦) زاد المسير ٨/ ١٢٠ .

(٧) تفسير الرازي ٢٩/ ١٢٥ ، ١٣٣ بنحوه.

(٨) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٣١٤ .

فراش[١]. وقرأ أبو حَيْوة: «فُرْشٍ» بإسكان الراء[٢]. ﴿بَطَآئِنُهَا﴾ جمع بطانة، وهي التي تحت الظِّهارة[٣]. والإستبرق: ما غلظ من الديباج وخشن[٤]، أي: إذا كانت البطانة التي تلي الأرض هكذا، فما ظنُّك بالظهارة، قاله ابن مسعود وأبو هريرة[٥]. وقيل لسعيد بن جُبير: البطائن من إستبرق، فما الظواهر؟ قال: هذا مما قال الله تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾[٦] [السجدة:١٧]. وقال ابن عباس: إنَّما وصف لكم بطائنها لتهتدي إليه قلوبكم، فأمَّا الظواهر فلا يعلمها إلا الله[٧]. وفي الخبر عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال: «ظواهرها نور يتلألأ»[٨]. وعن الحسن: بطائنها من إستبرق، وظواهرها من نور جامد[٩]. وعن الحسن أيضاً: البطائن هي الظواهر[١٠]، وهو قول الفرَّاء، وروي عن قتادة[١١]. والعرب تقول للظهر بطناً فيقولون: هذا بطن السماء وظهر الأرض، وقال الفراء: قد تكون البطانة الظهارة، والظهارة البطانة؛ لأنَّ كل واحد منهما يكون وجهاً، والعرب تقول[١٢]: هذا ظهر السماء، وهذا بطن السماء، لظاهرها الذي نراه. وأنكر ابن قتيبة[١٣] وغيره هذا، وقالوا: لا يكون هذا إلا

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ٢٧٤ .

(٢) المحرر الوجيز ٥/ ٢٣٣ ، والبحر المحيط ٨/ ١٩٧ .

(٣) زاد المسير ٨/ ١٢١ .

(٤) تفسير الطبري ٢٢/ ٢٤٢ .

(٥) الوسيط ٤/ ٢٢٦ ، وتفسير البغوي ٤/ ٢٧٤ ، وأخرجه الطبري ٢٢/ ٢٤٣ عن ابن مسعود ﷺ.

(٦) تفسير أبي الليث ٣/ ٣١٠ ، والوسيط ٤/ ٢٢٦ .

(٧) النكت والعيون ٥/ ٤٣٩ .

(٨) المحرر الوجيز ٥/ ٢٣٣ ، ولم نقف عليه مسنداً.

(٩) تفسير البغوي ٤/ ٢٧٤ عن سعيد بن جبير.

(١٠) تفسير أبي الليث ٣/ ٣١٠ عن مقاتل، وزاد المسير ٨/ ١٢١ عن قتادة.

(١١) معاني القرآن للفراء ٣/ ١١٨ ، وقول قتادة في زاد المسير ٨/ ١٢١ .

(١٢) ليست في (م)، وكلام الفراء في معاني القرآن له ٣/ ١١٨ ، وينظر زاد المسير ٨/ ١٢١ .

(١٣) في غريب القرآن له ص٤٤٢ .

في الوجهين المتساويين إذا وَلِيَ كلٌّ واحدٍ منهما قوماً، كالحائط بينك وبين قوم، وعلى ذلك أمر السماء.

﴿وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ﴾ الجَنَى: ما يُجتنَى من الشجر، يقال: أتانا بجَنَاةٍ طيِّبة لكلِّ ما يجتنى. وثمر جنِيٌّ ـ على فَعِيل ـ حين جُنِي[1]، وقال الشاعر:

هــذا جَـنَــايَ وخِـيَــاره فِـيــهْ إِذْ كــلُّ جــانٍ يَــدُهُ إِلــى فِـيــهْ[2]

وقرئ: «جِنَى» بكسر الجيم[3]. «دانٍ»: قريب. قال ابن عباس: تدنو الشجرة حتى يجتنيها وليُّ اللهِ، إن شاء قائماً، وإن شاء قاعداً[4]، وإن شاء مضطجعاً، لا يَرُدُّ يده بُعْدٌ ولا شوك[5].

قوله تعالى: ﴿فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ۝٥٦ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٥٧﴾

فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾ قيل: في الجنَّتين المذكورتَيْن. قال الزجَّاج[6]: وإنَّما قال: «فيهِنَّ» ولم يقل: فيهما؛ لأنَّه عنى الجنَّتين وما أعدَّ لصاحبهما من النعيم. وقيل: «فِيهِنَّ» يعود على الفُرُش[7] التي بطائنها من إستبرق، أي: في هذه الفرش «قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ» أي: نساء قاصرات الطَّرْف، قَصَرْنَ أعينهنَّ

---

(١) الصحاح (جني).

(٢) هذا مثل يضرب في إيثار الرجل على نفسه، والقائل عمرو بن عدي اللخمي، وقصة المثل في مجمع الأمثال للميداني ٢/ ١٣٨ ، ٣٩٧ ، والمستقصى للزمخشري ٢/ ٣٨٦ .

(٣) القراءات الشاذة ص١٥٠ عن محبوب.

(٤) تفسير البغوي ٤/ ٢٧٤ .

(٥) النكت والعيون ٥/ ٤٣٩ ، وأخرجه عنه عبد الرزاق في التفسير ٢/ ٢٦٥ ، والطبري ٢٢/ ٢٤٤ .

(٦) في معاني القرآن له ٥/ ١٠٣ .

(٧) زاد المسير ٨/ ١٢٢ .

على أزواجهنَّ فلا يَرَيْنَ غيرهم[١]. وقد مضى في ﴿وَالصَّافَّاتِ﴾[٢] ووحّد الطَّرْف مع الإضافة إلى الجمع؛ لأنَّه في معنى المصدر، من طَرَفت عينه تطرِف طَرْفاً[٣]، ثم سمِّيت العين بذلك، فأدَّى عن الواحد والجمع، كقولهم: قوم عَدْل وصَوْم.

الثانية: قوله تعالى: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ﴾ أي: لم يُصِبْهنَّ بالجماع قبل أزواجهنَّ هؤلاء أحدٌ. الفرَّاء: والطمث: الافتضاض، وهو النكاح بالتَّدْمِية[٤]، طَمَثَها يَطمِثُها ويَطمثُها طَمْثاً: إذا افتضَّها. ومنه قيل: امرأة طامِث، أي: حائض[٥]. وغير الفرَّاء يخالفه في هذا ويقول: طمثها بمعنى وَطِئَها على أيِّ الوجوه كان. إلا أنَّ قول الفرَّاء أعرف وأشهر. وقرأ الكسائيُّ: «لَمْ يَطْمُثْهُنَّ» بضمِّ الميم[٦]، يقال: طَمَثت المرأة تطمُث ـ بالضم ـ حاضت. وطَمِثت بالكسر لغة، فهي طامث[٧]، وقال الفرزدق:

وقَعْنَ إليَّ لم يُطْمَثْنَ قَبْلي وهنَّ أَصَحُّ مِنْ بَيْضِ النَّعَامِ[٨]

وقيل: «لَمْ يَطْمِثْهُنَّ» لم يَمْسسهنَّ[٩]، قال أبو عمرو: والطمث: المَسُّ، وذلك في كل شيء يُمَسُّ. ويقال للمَرْتع: ما طَمث ذلك المرتعَ قبلَنا أحدٌ، وما طَمَثَ هذه الناقةَ حَبْل، أي: ما مسَّها عِقال[١٠]. وقال المبرِّد: أي: لم يذلِّلهنَّ إنس قبلهم ولا جانٌّ، والطمث: التذليل[١١]. وقرأ الحسن: «جَأن» بالهمز[١٢].

---

(١) الكشاف ٤/ ٤٩ .
(٢) ١٨/ ٣٣ .
(٣) الصحاح (طرف).
(٤) الوسيط ٤/ ٢٢٧ .
(٥) الصحاح (طمث).
(٦) السبعة ص٦٢١ ، والتيسير ص٢٠٧ .
(٧) الصحاح (طمث).
(٨) ثمار القلوب ص٤٤٢ ، وفيه: خرجن، بدل: وقعن. وأغضُّ، بدل: أصحُّ. ومنتهى الطلب ٥/ ٤٠٨ ، وفيه: مَشَيْنَ، بدل: وقعن.
(٩) مجاز القرآن لأبي عبيدة ٢/ ٢٤٦ ، ومعاني القرآن للزجاج ٥/ ١٠٣ .
(١٠) الصحاح (طمث).
(١١) النكت والعيون ٥/ ٤٣٩ .
(١٢) القراءات الشاذة ص١٤٩-١٥٠ عن عمرو بن عبيد، والمحتسب ٢/ ٣٠٥ عن الحسن وعمرو بن عبيد.

الثالثة: في هذه الآية دليل على أنَّ الجِنَّ تغشى كالإنس[١]، وتدخل الجنَّة، ويكون لهم فيها جنِّيات[٢]. قال ضمرة: للمؤمنين منهم أزواج من الحور العين، فالإنسيات للإنس، والجِنِّيات للجنِّ[٣]. وقيل: أي: لم يطمث ما وهب الله للمؤمنين من الجنِّ في الجنَّة من الحور العين من الجنِّيات جِنٌّ، ولم يطمث ما وهب الله للمؤمنين من الإنس في الجنَّة من الحور العين من الإنسيات إنس، وذلك لأنَّ الجِنَّ لا تَطأُ بناتِ آدم في الدنيا. ذكره القشيريُّ.

قلت: قد مضى في «النمل» القول في هذا، وفي «سبحان» أيضاً[٤]، وأنَّه جائز أن تَطأَ بناتِ[٥] آدم. وقد قال مجاهد: إذا جامع الرجل ولم يُسَمِّ، انطوى الجانُّ على إحليله فجامع معه. فذلك قوله تعالى: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾[٦] وذلك بأنَّ الله تبارك وتعالى وصف الحورَ العين بأنَّه لم يطمثهنَّ إنس قبلهم ولا جانٌّ، يعلمك أن نساءَ الآدمياتِ قد يطمثهنَّ الجانُّ، وأنَّ الحور العين قد بَرِئْنَ من هذا العيب ونُزِّهْنَ، والطمث: الجماع. ذكره بكماله الترمذيُّ الحكيم، وذكره المهدويُّ أيضاً والثعلبيُّ وغيرهما، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ۝٥٨ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٥٩ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ۝٦٠ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٦١﴾

قوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ روى الترمذيُّ عن عبد الله بن مسعود، عن النبيِّ ﷺ قال: «إنَّ المرأة من نساء أهل الجنَّة لَيُرى بياض ساقيها من وراء سبعين حُلَّةً

(١) معاني القرآن للزجَّاج ٥/ ١٠٣ .

(٢) في (د) و(ظ): جنتان.

(٣) نوادر الأصول ص١١٦ ، ٢٤٣ ، وأخرجه عنه الطبري ٢٢/ ٢٤٨ ، وأبو الشيخ في العظمة (١١٦٨).

(٤) ١٦/ ١٧٧ و ١٣/ ١٢٠ .

(٥) في (د) و(ظ): بني.

(٦) تفسير البغوي ٤/ ٢٧٥ ، وأخرجه الطبري ٢٢/ ٢٤٨ .

حتى يرى مخُّها» وذلك بأنَّ الله تعالى يقول: «كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ» فأما الياقوت فإنَّه حجر لو أدخلتَ فيه سِلكاً ثم استصفيته لأُرِيتَه [من ورائه] ويُروى موقوفاً[١]. وقال عمرو بن ميمون: إنَّ المرأة من الحور العين لتلبس سبعين حُلَّة فيرى مخُّ ساقها من وراء ذلك، كما يُرى الشراب الأحمر في الزجاجة البيضاء[٢]. وقال الحسن: هنَّ في صفاء الياقوت، وبياض المرجان[٣].

قوله تعالى: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ «هَلْ» في الكلام على أربعة أوجه: تكون بمعنى «قد» كقوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ﴾ [الإنسان:١]، وبمعنى الاستفهام كقوله تعالى: ﴿فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا﴾ [الأعراف:٤٤]، وبمعنى الأمر كقوله تعالى: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة:٩١]، وبمعنى «ما» في الجحد كقوله تعالى: ﴿فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ [النحل:٣٥] و«هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ»[٤].

قال عكرمة: أي: هل جزاء من قال: لا إله إلا الله، إلا الجنَّة[٥]. ابن عباس: ما جزاء من قال: لا إله إلا الله، وعَمِلَ بما جاء به محمَّد ﷺ إلا الجنَّة[٦]. وقيل: هل جزاء من أحسن في الدنيا إلا أن يُحسَن إليه في الآخرة، قاله ابن زيد[٧].

وروى أنس أنَّ النبيَّ ﷺ قرأ: «هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ» ثم قال: «هل

(١) الترمذي (٢٥٣٣) مرفوعاً، و(٢٥٣٤) موقوفاً، وقال عنه: وهذا أصحُّ. اهـ وما بين حاصرتين منه، وفي الباب عن أبي هريرة ﷺ في صفة الحور العين عند البخاري (٣٢٤٥)، ومسلم (٢٨٣٤) بلفظ: «ولكل واحد منهم زوجتان، يُرى مخُّ سوقهما من وراء اللحم من الحُسن...» الحديث.

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٢٧٦، وأخرجه عنه هناد في الزهد (١٢)، والطبري ٢٢/ ٢٥٠.

(٣) أخرجه الطبري ٢٢/ ٢٥٠.

(٤) الأزهية للهروي ص٢٠٨-٢٠٩، وحروف المعاني للزجاجي ص٢، ومغني اللبيب ص٤٥٦-٤٦٠.

(٥) أورده السيوطي في الدر المنثور ٦/ ١٤٩ وعزاه إلى عبد بن حميد.

(٦) تفسير البغوي ٤/ ٢٧٦، وزاد المسير ٨/ ١٢٣.

(٧) النكت والعيون ٥/ ٤٤٠، وأخرجه عنه الطبري ٢٢/ ٢٥٢ - ٢٥٣.

تدرونَ ماذا قال ربكم» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «يقول: ما جزاء من أنعمتُ عليه بالتوحيد إلا الجنَّة»[١].

وروى ابن عباس أنَّ النبيَّ ﷺ قرأ هذه الآية فقال: «يقول الله: هل جزاء من أنعمتُ عليه بمعرفتي وتوحيدي إلا أن أُسكِنه جنَّتي وحظِيرة قُدْسي برحمتي»[٢]. وقال الصادق: هل جزاء من أَحسنتُ عليه في الأزل إلا حفظ الإحسان عليه في الأبد[٣]. وقال محمَّد بن الحنفيَّة والحسن: هي مُسْجَلة للبَرِّ والفاجر[٤]، أي: مرسلة عليه، الفاجر في الدنيا، والبَرِّ في الآخرة.

قوله تعالى: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٣﴾ مُدْهَآمَّتَانِ ﴿٦٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ أي: وله من دون الجنَّتين الأُوليين جنَّتان أُخريان. قال ابن عباس: ومن دونهما في الدَّرَج. ابن زيد: ومن دونهما في الفَضْل[٥]. ابن عباس: والجنَّات لمن خاف مقام ربِّه، فيكون في الأُوليين النخل والشجر، وفي الأُخريين الزرع والنبات وما انبسط. الماورديُّ[٦]: ويحتمل أن يكون «وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ» لأَتباعه؛ لقصور منزلتهم عن منزلته، إحداهما للحور العين، والأُخرى

(١) أخرجه البغوي في التفسير ٤/ ٢٧٦ .

(٢) لم نقف عليه.

(٣) النكت والعيون ٥/ ٤٤٠ بنحوه.

(٤) الكشاف ٤/ ٤٩ عن محمد بن الحنفية، وأخرجه عنه أبو عبيد في غريب الحديث ٤/ ٣٤٩ ، والبخاري في الأدب المفرد (١٣٠)، والطبري ٢٢/ ٢٥٣ ، والبيهقي في شعب الإيمان (٩١٥٢)، وأورده الطبرسي في مجمع البيان ٢٧/ ١٠٣ عن علي ﷺ، وعزاه إلى العياشي.

وأخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٩١٥٤) عن ابن عباس مرفوعاً، وفي إسناده الهيثم بن عدي، متروك الحديث.

(٥) تفسير البغوي ٤/ ٢٧٦ ، وقول ابن عباس أخرجه الطبري ١٢/ ٣٣٣ و ٢٢/ ٢٥٣ ، وأبو الشيخ في العظمة (٢٢٨)، وقول ابن زيد أخرجه أيضاً الطبري ٢٢/ ٢٥٤ .

(٦) في النكت والعيون ٥/ ٤٤٠ - ٤٤١ ، وما قبله منه أيضاً.

للولدان المخلَّدين؛ ليتميَّز بهما الذكور عن الإناث. وقال ابن جريج: هي أربع: جنَّتان منها للسابقين المقرَّبين «فيهما من كلِّ فاكهة زوجان» و«عينان تجريان»، وجنَّتان لأصحاب اليمين «فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ» و«فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ»[١]. وقال ابن زيد: إنَّ الأُولبين من ذهب للمقرَّبين، والأُخريين من وَرِقٍ لأصحاب اليمين[٢].

قلت: إلى هذا ذهب الحَلِيميُّ أبو عبد الله الحسين بن الحسن[٣] في كتاب «منهاج الدين»[٤] له، واحتجَّ بما رواه سعيد بن جُبير عن ابن عباس: «وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ» إلى قوله: «مُدْهَامَّتَانِ» قال: تانك للمقرَّبين، وهاتانِ لأصحاب اليمين. وعن أبي موسى الأشعري نحوه. ولما وصف الله الجنَّتين أشار إلى الفَرْق بينهما فقال في الأولتين: «فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ»، وفي الأُخريين: «فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ» أي: فوَّارتان، ولكنَّهما ليستا كالجاريتين؛ لأنَّ النضخ دون الجري. وقال في الأولتين: «فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ» فعمَّ ولم يخصَّ. وفي الأُخريين: «فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ» ولم يقل: من كلِّ فاكهة، وقال في الأولتين: «مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ» وهو الديباج، وفي الأُخريين: «مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ» والعبقريُّ: الوَشْي[٥]، ولاشكَّ أنَّ الديباج أعلى[٦] من الوشي، والرفرف: كِسَر الخِباء، ولاشكَّ أنَّ الفرش المعدَّة للاتكاء عليها أفضل من فَضْل الخِباء.

وقال في الأولتين في صفة الحور: «كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ»، وفي الأخرتين: «فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ» وليس كلُّ حسنٍ كحُسن الياقوت والمرجان.

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ٢٧٦ .

(٢) النكت والعيون ٥/ ٤٤١ .

(٣) في النسخ: الحسن بن الحسين. وكذا وقع في التذكرة ص٤٤٠-٤٤١ والكلام منه، وما أثبتناه هو الصواب، وتنظر ترجمته في سير أعلام النبلاء ١٧/ ٢٣١ .

(٤) المنهاج في شعب الإيمان ١/ ٤٧٤ - ٤٧٦ .

(٥) سيأتي التعريف بها قريباً.

(٦) في المنهاج: أغلى.

وقال في الأولتين: «ذَوَاتَا أَفْنَانٍ» وفي الأُخرتين: «مُدْهَامَّتَانِ» أي: خضروان، كأنَّهما من شدَّة خضرتهما سوداوان، ووصف الأولتين بكثرة الأغصان، والآخرتين بالخضرة وحدها، وفي هذا كلِّه تحقيق للمعنى الذي قصدناه بقوله: «وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ» ولعلَّ ما لم يذكر من تفاوت ما بينهما أكثر مما ذكر.

فإن قيل: كيف لم يَذكُر أهل هاتين الجنَّتين كما ذَكَر أهل الجنَّتين الأولتين؟ قيل: الجنان الأربع لمن خاف مقام ربِّه إلا أن الخائفين لهم مراتب، فالجنَّتان الأُوليان لأعلى العباد رتبة في الخوف من الله تعالى، والجنَّتان الأُخريان لمن قصرت حاله في الخوف من الله تعالى[١]. ومذهب الضحَّاك أنَّ الجنَّتين الأُولتين من ذهب وفضَّة، والأُخرتين من ياقوت وزمرد، وهما أفضل من الأولتين، وقوله: «وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ» أي: ومن أمامهما ومن قِبلهما[٢]. وإلى هذا القول ذهب أبو عبد الله الترمذيُّ الحكيم في «نوادر الأصول»[٣] فقال: ومعنى «وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ» أي: دون هذا إلى العرش، أي: أقرب وأدنى إلى العرش. وأخذ يفضِّلهما على الأولتين بما سنذكره عنه. وقال مقاتل: الجنَّتان الأولتان جنَّة عدن وجنَّة النعيم، والآخرتان جنَّة الفردوس وجنَّة المأوى[٤].

قوله تعالى: ﴿مُدْهَآمَّتَانِ﴾ أي: خضراوان من الرِّيِّ، قاله ابن عباس وغيره. وقال مجاهد: مُسْوَدَّتان. والدُّهْمة في اللغة: السواد[٥]، يقال: فرس أدهَم، وبعير أدهَم، وناقة دَهْماء، أي: اشتدَّت ورقته[٦] حتى ذهب البياض الذي فيه، فإن زاد على ذلك

(١) إلى هنا نهاية النقل من المنهاج في شعب الإيمان، وما بعده من التذكرة ص٤٤١ .

(٢) تفسير البغوي ٤/٢٧٦ .

(٣) ص١٢٩ .

(٤) التذكرة ص٤٤١ ، وذكر الماوردي قول مقاتل في النكت والعيون ٥/ ٤٤١ .

(٥) النكت والعيون ٥/ ٤٤١ ، وقول ابن عباس أخرجه الطبري ٢٢/ ٢٥٥ ، والبيهقي في البعث والنشور (٣٠٨)، وقول مجاهد في تفسيره ٢/ ٦٤٣ ، وأخرجه عنه الطبري ٢٢/ ٢٥٧ .

(٦) في (م): زرقته، والتصويب من النسخ والصحاح (دهم)، والكلام منه.

حتى اشتدَّ السواد فهو جَوْن. وادْهَمَّ الفرسُ ادهمَاماً، أي: صار أدهم. وادهامَّ الشيءُ ادهِماماً[١]، أي: اسوادَّ، قال الله تعالى: ﴿مُدْهَامَّتَانِ﴾ أي: سوداوان من شدَّة الخضرة من الرِّيِّ، والعرب تقول لكلِّ أخضر: أسودُ. وقال لَبيد يرثي قتلى هَوازِن:

وجاؤوا بـه فـي هَـوْدَجٍ وَوَرَاءهُ كَتَائِبُ خُضْرٌ في نَسِيجِ السَّنَوَّرِ[٢]

السَّنَوَّر: لَبُوسٌ من قِدٍّ كالدِّرْع. وسمِّيت قُرَى العراق سواداً؛ لكثرة خضرتها[٣]. ويقال للَّيل المظلم: أخضر[٤]. ويقال: أبادَ الله خضراءَهم، أي: سوادهم[٥].

قوله تعالى: ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴿٦٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٧﴾ فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ﴾ أي: فوَّارتان بالماء، عن ابن عباس[٦]. والنضخ بالخاء أكثر من النضح بالحاء[٧]. وعنه أنَّ المعنى نضَّاختان بالخير والبركة، وقاله الحسن ومجاهد[٨]. ابن مسعود وابن عباس أيضاً وأنس: تَنضَخ على أولياء الله بالمسك والعنبر والكافور في دور أهل الجنَّة، كما يَنضَخ رشُّ المطر[٩]. وقال سعيد

(١) في (م): ادهيماماً.

(٢) الصحاح (سنر) وما بعده منه. ولم نقف على البيت في ديوان لبيد.

(٣) الصحاح (دهم).

(٤) تهذيب اللغة ٧/ ١٠٥ .

(٥) الصحاح (خضر).

(٦) التذكرة ص٤٤٢ ، وما بعده منه أيضاً حتى قوله: بأنواع الفواكه والماء. وذكر قول ابن عباس الماورديُّ في النكت والعيون ٥/ ٤٤١ ، وأخرجه عنه الطبري ٢٢/ ٢٥٩ ، وابن أبي حاتم في التفسير ١٠/ ٣٣٢٨ (١٨٧٥٥)، والبيهقي في البعث والنشور (٣٠٨).

(٧) الكشاف ٤/ ٥٠ .

(٨) تفسير أبي الليث ٣/ ٣١١ عن مجاهد، والنكت والعيون ٥/ ٤٤١ عن الحسن والكلبي، وزاد المسير ٨/ ١٢٤ عن الحسن.

(٩) النكت والعيون ٥/ ٤٤١ عن أنس، والوسيط ٤/ ٢٢٨ عن ابن عباس، وتفسير البغوي ٤/ ٢٧٦ عن ابن مسعود وأنس، وأخرجه ـ عن الأخير ـ ابن أبي حاتم في التفسير ١٠/ ٣٣٢٨ (١٨٧٥٧).

ابن جُبير: بأنواع الفواكه والماء[١]. الترمذيُّ: قالوا: بأنواع الفواكه والنعيم والجَوارِي المزيَّنات والدوابِّ المسرَجات والثياب الملوَّنات. قال الترمذيُّ: وهذا يدلُّ على أنَّ النضخ أكثر من الجري. وقيل: تنبعان ثم تجريان[٢].

قوله تعالى: ﴿فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾ **فيه مسألتان:**

الأولى: قال بعض العلماء: ليس الرمان والنخل من الفاكهة؛ لأنَّ الشيء لا يُعطَف على نفسه، إنَّما يُعطَف على غيره. وهذا ظاهر الكلام[٣]. وقال الجمهور: هما من الفاكهة، وإنَّما أعاد ذكر النخل والرمان؛ لفَضْلهما وحُسْن موقعهما على الفاكهة؛ كقوله تعالى: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾ [البقرة:٢٣٨] وقوله: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ﴾ [البقرة:٩٨] وقد تقدَّم[٤].

وقيل: إنَّما كرَّرهما؛ لأنَّ النخل والرمان كانا عندهم في ذلك الوقت بمنزلة البُرِّ عندنا؛ لأنَّ النخل عامَّة قُوْتهم، والرمان كالثمرات[٥]، فكان يكثر غرسهما عندهم؛ لحاجتهم إليهما، وكانت الفواكه عندهم من ألوان الثمار التي يعجبون بها، وإنَّما ذكر الفاكهة ثم ذكر النخل والرمان؛ لعمومهما وكثرتهما عندهم من المدينة إلى مكة إلى ما والاها من أرض اليمن، فأخرجهما في الذكر من الفواكه، وأَفرد الفواكه على حِدَتها.

وقيل: أُفرِدا بالذكر؛ لأنَّ النخل ثمره فاكهة وطعام، والرمان فاكهة ودواء، فلم يخلصا للتفكُّه[٦]؛ ومنه قال أبو حنيفة رحمه الله، وهي المسألة:

الثانية: إذا حلف أن لا يأكلَ فاكهةً، فأكل رمَّاناً أو رُطَباً، لم يحنث. وخالفه

(١) النكت والعيون ٥/ ٤٤١، وأخرجه عنه ابن ابن شيبة ١٣/ ١٣٣، والطبري ٢٢/ ٢٥٩.
(٢) التذكرة ص٤٤١.
(٣) أحكام القرآن للجصاص ٣/ ٤١٥، وللهراسي ٤/ ٣٩٧، والكلام في التذكرة ص٤٤٢، وما بعده منه أيضاً.
(٤) ٤/ ١٧٤ و ٢/ ٢٦٢.
(٥) في النسخ الخطية: كالتمرات، والمثبت من (م) والتذكرة ص٤٤٢ والكلام منه.
(٦) الكشاف ٤/ ٥٠، وما بعده منه أيضاً.

صاحباه والناس. قال ابن عباس: الرمَّانة في الجنَّة مثل البعير المُقتب[١].

وذكر ابن المبارك قال: أخبرنا سفيان، عن حماد، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: نخل الجنَّة جذوعها زمرد أخضر، وكرانيفها ذهب أحمر، وسَعَفها كسوة لأهل الجنَّة، منها مُقطَّعاتهم وحُلَلهم، وثمرها أمثال القِلال والدِّلاء، أشدُّ بياضاً من اللبن، وأَحلى من العسل، وأَلين من الزُّبْد، ليس فيه عَجَم[٢].

قال: وحدَّثنا المسعوديُّ، عن عمرو بن مرَّة، عن أبي عبيدة، قال: نخل الجنَّة نضيد من أصلها إلى فرعها، وثمرها أمثال القلال، كلَّما نزعت ثمرة، عادت مكانها أخرى، وإنَّ ماءها ليجري في غير أخدود، والعنقود اثنا عشر ذراعاً[٣].

قوله تعالى: ﴿فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ﴿٧٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ﴾ **فيه مسألتان:**

الأولى: قوله تعالى: «فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ» يعني النساء، والواحدة: خَيْرة، على معنى: ذوات خير[٤]. وقيل: خَيِّرات، بمعنى خيرات، فخفِّف، كهين ولين[٥].

(١) أورد ابن كثير في التفسير ٧/ ٥٠٨ عن ابن أبي حاتم، عن أبيه، عن موسى بن إسماعيل، عن حماد بن سلمة، عن أبي هارون، عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: نظرت إلى الجنة فإذا الرمانة من رمانها كمثل البعير المقتب.

(٢) الزهد لابن المبارك (١٤٨٨)، وأخرجه أيضاً ابن أبي حاتم في التفسير ١٠/ ٣٣٢٨ (١٨٧٥٨)، والحاكم في المستدرك ٢/ ٤٧٥ - ٤٧٦ من طريق سفيان، به، وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي. اهـ وجاء عند ابن المبارك وابن أبي حاتم: وكربها، بدل: وكرانيفها. والكَرَب والكَرانيف: أصول سَعَف النخل. النهاية (كرب) و(كرنف). والعَجَم: النوى. اللسان (عجم)، والمقطَّعات: شبه الجِباب ونحوها من الخزِّ وغيره. اللسان (قطع).

(٣) التذكرة ص٤٥٢ عن ابن المبارك بهذا الإسناد، ولكن هو في كتابه الزهد (١٤٩٠) ـ وزهد هنَّاد أيضاً (١٠٤) ـ من طريق سفيان، عن عمرو بن مرة، به، وأخرجه ابن المبارك في الزهد أيضاً برقم (١٤٨٩) من طريق سفيان، عن عمرو بن مرة، عن أبي عبيدة بنحوه.

(٤) النكت والعيون ٥/ ٤٤٢ ، والتذكرة ص٤٤٢ .

(٥) غريب القرآن لابن قتيبة ص٤٤٣ .

ابن المبارك: حدثنا الأوزاعيُّ، عن حسان بن عطيَّة، عن سعيد بن عامر قال: لو أنَّ خَيْرة من «خَيْرَات حِسَان» اطَّلعت من السماء لأضاءت لها، ولقهر ضوءُ وجهها الشمسَ والقمرَ، ولَنصِيفٌ تُكساه خيرة خيرٌ من الدنيا وما فيها[١].

«حِسان» أي: حسَان الخَلْق[٢]، وإذا قال الله تعالى: «حِسَانٌ» فمن ذا الذي يقدر أن يصف حُسْنهنَّ[٣]! وقال الزهريُّ وقتادة: «خَيْرَاتٌ» الأخلاق «حِسان» الوجوه[٤]. وروي ذلك عن النبيِّ ﷺ من حديث أمِّ سلمة[٥]. وقال أبو صالح: لأنهنَّ عَذَارى أبكار[٦].

وقرأ قتادة وابن السَّمَيْفَع وأبو رجاء العُطارديُّ وبكر بن حبيب السهميُّ: «خَيِّرَاتٌ» بالتشديد على الأصل[٧]. وقد قيل: إنَّ خَيْرات جمع خَيْر، والمعنى: ذوات خَير. وقيل: مختارات[٨].

قال الترمذيُّ: فالخيرات: ما اختارهنَّ الله فأبدع خَلْقهن باختياره، فاختيار الله

---

(١) الزهد لابن المبارك (٢٦١ زوائد نعيم) موقوفاً، ورفعه البزار (٣٥٢٨ كشف الأستار)، والطبراني في الكبير (٥٥١٢) من طريق مالك بن دينار، عن شهر بن حوشب، عن سعيد بن عامر مرفوعاً.
قال الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/ ٤١٧ : رواه الطبراني مطولاً... ورواه البزار باختصار كثير، وفيهما: الحسن عن عنبسة الوراق، ولم أعرفه، وبقية رجاله ثقات، وفي بعضهم ضعف. اهـ قلنا: ليس في إسناد الطبراني: الحسن بن عنبسة، بل فيه حماد بن الحسن بن عنبسة، وهو ثقة، وفيه الحارث بن نبهان، وهو متروك، ولكن تابعه جعفر بن سليمان. اهـ. والنصيف: الخمار. اللسان (نصف).

(٢) معاني القرآن للزجاج ٥/ ١٠٤ .

(٣) التذكرة ص٤٤٢ .

(٤) النكت والعيون ٥/ ٤٤٢ عن قتادة، وأخرجه عنه عبد الرزاق في التفسير ٢/ ٢٦٦ ، والطبري ٢٢/ ٢٦٢ .

(٥) أخرجه الطبري ٢٢/ ٢٦٣ ، والطبراني في الكبير ٢٣/ ٣٦٧ (٨٧٠) مطولاً. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/ ١١٩ : رواه الطبراني، وفيه سليمان بن أبي كريمة، ضعَّفه أبو حاتم وابن عدي.

(٦) النكت والعيون ٥/ ٤٤٢ .

(٧) القراءات الشاذة ص١٥٠ عن أبي عثمان النهدي، والمحرر الوجيز ٥/ ٢٣٥ ، وزاد المسير ٨/ ١٢٥ ، والبحر المحيط ٨/ ١٩٨ .

(٨) النكت والعيون ٥/ ٤٤٢ .

لا يُشبِه اختيار الآدميين. ثم قال: «حِسَانٌ» فوصفهنَّ بالحُسن، فإذا وصف خالق الحُسْنِ شيئاً بالحُسْنِ، فانظر ما هناك؟! وفي الأولتين ذكر بأنهنَّ «قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ» و«كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ» فانظر كم بين الخيرة وهي مختارة الله، وبين قاصرات الطرف[(١)]؟!

وفي الحديث: «إنَّ الحور العين يأخذ بعضهنَّ بأيدي بعض، ويتغنَّين بأصوات لم تسمع الخلائق بأحسن منها ولا بمثلها: نحن الراضيات فلا نسخط أبداً، ونحن المقيمات فلا نَظعن أبداً، ونحن الخالدات فلا نموت أبداً، ونحن الناعمات فلا نَبْؤُس أبداً، ونحن خَيْرَات حسان، حبيبات لأزواج كرام». خرَّجه الترمذيُّ بمعناه من حديث عليٍّ ﷺ[(٢)]. وقالت عائشة رضي الله عنها: إنَّ الحور العين إذا قُلْنَ هذه المقالة أجابهنَّ المؤمنات من نساء أهل الدنيا: نحن المصلِّيات وما صَلَّيتنَّ، ونحن الصائمات وما صُمتنَّ، ونحن المتوضِّآت وما توضأتنَّ، ونحن المتصدِّقات وما تصدَّقتنَّ. فقالت عائشة رضي الله عنها: فَغَلَبْنَهُنَّ واللهِ[(٣)].

الثانية: واختلف أيُّهما أكثر حسناً وأبهر جمالاً، الحور أو الآدميات؟ فقيل: الحور؛ لما ذكر من وصفهنَّ في القرآن والسنَّة، ولقوله عليه الصلاة والسلام في دعائه على الميت في الجنازة: «وأَبْدِلْه زوجاً خيراً من زوجه». وقيل: الآدميَّات أفضل من الحور العين بسبعين ألف ضعف، ورويَ مرفوعاً. وذكر ابن المبارك: وأخبرنا رِشْدين، عن ابن أَنْعُم، عن حبان بن أبي جبلة، قال: إنَّ نساء الدنيا من دخل منهنَّ الجنَّة فُضِّلنَ على الحور العين بما عَمِلنَ في الدنيا[(٤)].

---

(١) التذكرة ص٤٤٢.

(٢) الترمذي (٢٥٦٤)، وهو عند أحمد (١٣٤٣)، وهناد في الزهد (٩). قال الترمذي: حديث علي حديث غريب.

(٣) لطائف الإشارات ٣/ ٥١٥، والتذكرة ص٤٧٦، ومجمع البيان ٢٧/ ١٠٧.

(٤) التذكرة ص٤٧٦ - ٤٧٧، والحديث المرفوع سلف ١٩/ ١٣٩، وقول ابن أبي جبلة في الزهد لابن المبارك (٢٥٥ زوائد نعيم).

وقد قيل: إنَّ الحور العين المذكورات في القرآن هنَّ المؤمنات من أزواج النبيين والمؤمنين يُخْلَقن في الآخرة على أحسن صورة، قاله الحسن البصريُّ. والمشهور أنَّ الحور العين لَسْنَ من نساء أهل الدنيا، وإنَّما هنَّ مخلوقات في الجنة؛ لأنَّ الله تعالى قال: «لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ» وأكثر نساء أهل الدنيا مطموثات، ولأنَّ النبيَّ ﷺ قال: «إنَّ أقلَّ ساكِني الجنَّةِ النِّساء»[١] فلا يصيب كلُّ واحد منهم امرأة، ووعد الحور العين لجماعتهم، فثبت أنَّهنَّ من غير نساء الدنيا.

قوله تعالى: ﴿حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ ﴿٧٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٧٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ﴾ «حُورٌ» جمع حوراء، وهي: الشديدة بياض العين، الشديدة سوادها، وقد تقدَّم[٢]. «مَقْصُورَاتٌ»: محبوسات مستورات «فِي الْخِيَامِ» في الحجال، لَسْنَ بالطوَّافات في الطرق، قاله ابن عباس[٣]. وقال عمر ﷺ: الخيمة: دُرَّة مجوَّفة[٤]. وقاله ابن عباس. وقال: هي فرسخ في فرسخ، لها أربعة آلاف مصراع من ذهب[٥].

وقال الترمذيُّ الحكيم أبو عبد الله في قوله تعالى: «حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ»: بلغنا في الرواية أنَّ سحابة أمطرت من العرش فخلقت الحور من قَطَرات الرحمة، ثم ضرب على كلِّ واحدة منهنَّ خيمة على شاطئ الأنهار، سعتها أربعون ميلاً، وليس لها باب، حتى إذا دخل وليُّ الله بالخيمة[٦]، انصدعت الخيمة عن باب

---

(١) أخرجه مسلم (٢٧٣٨)، وأحمد (١٩٨٣٧) عن عمران بن حصين ﷺ.

(٢) ١٣٧/١٩ .

(٣) النكت والعيون ٥/ ٤٤٢ ، وأخرجه عنه الطبري ٢٢/ ٢٦٦ ، وسيأتي معنى: الحجال، قريباً.

(٤) أخرجه الطبري ٢٢/٢٦٨ - ٢٦٩ .

(٥) تفسير أبي الليث ٣/ ٣١٢ ، وأخرجه عنه عبد الرزاق في التفسير ٢/ ٢٦٧ ، والطبري ٢٢/ ٢٧١ .

(٦) في (م): بالجنة. وكذا هي في التذكرة ص٥٠٩ ، والمثبت من النسخ الخطية، والتذكرة ص٤٤٢-٤٤٣ .

ليَعلَم وليُّ الله أن أبصار المخلوقين من الملائكة والخدم لم تأخذها، فهي مقصورة قد قُصِرَ بها عن أبصار المخلوقين. والله أعلم. وقال في الأُولتين: «فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ» قصرنَ طَرْفهنَّ على الأزواج، ولم يذكر أنهنَّ مقصورات، فدلَّ على أنَّ المقصورات أعلى وأفضل[1]. وقال مجاهد: «مَقْصُورَاتٌ» قد قُصِرن على أزواجهنَّ، فلا يُرِدن بدلاً منهم[2].

وفي «الصحاح»[3]: وقَصَرْتُ الشيء أَقْصِرُه قَصْراً: حبسته، ومنه: مَقْصورة الجامع، وقَصَرْتُ الشيءَ على كذا، إذا لم تجاوز به إلى غيره، وامرأة قَصِيرة وقَصُورة، أي: مقصورة في البيت لا تُتْرَك أن تخرج، قال كُثَيِّر:

وأنتِ التي حَبَّبْتِ كلَّ قَصِيرَةٍ إليَّ وما تَدْرِي بذاكَ الْقَصَائرُ
عَنَيْتُ قَصِيرَاتِ الحجالِ ولم أُرِدْ قِصارَ الخُطَا شَرُّ النِّساءِ البَحاتِرُ[4]

وأنشده الفرَّاء[5]: قَصُورة، ذكره ابن السِّكِّيت[6].

وروى أنس قال: قال النبيُّ ﷺ: «مررتُ ليلةَ أُسريَ بي في الجنة بنهر حافَّتاه قِبَاب المرجان، فنوديت منه: السلام عليك يا رسول الله. فقلتُ: يا جبريل مَن هؤلاء؟ قال: هؤلاء جوارٍ من الحور العِين استأذنَّ ربَّهنَّ في أن يُسلِّمنَ عليكَ، فأذن لهنَّ، فقلنَ: نحن الخالدات فلا نموت أبداً، ونحن الناعمات فلا نَبْؤُس أبداً، ونحن الراضيات فلا نسخَط أبداً، أزواج رجال كرام» ثم قرأ النبيُّ ﷺ: «حُورٌ مَقْصُوراتٌ فِي

(١) التذكرة ص٤٤٢ .

(٢) سلف ١٨/ ٣٣ .

(٣) مادة: (قصر).

(٤) ديوان كُثيِّر ص١٤٩ ، والحِجال: جمع حَجَلة، وهي ستر يُضرب للعروس في جوف البيت. والبحاتر: القصيرات المجتمعات الخَلْق. الوسيط (حجل) و(بحتر).

(٥) في معاني القرآن له ٣/ ١٢٠ .

(٦) في إصلاح المنطق ص٣٠٥ .

الْخيَامِ»[١]. أي: محبوسات حبسَ صيانةٍ وتكرمة.

وروي عن أسماء بنت يزيد الأشهلية أنَّها أتتِ النبيَّ ﷺ فقالت: يا رسولَ الله! إنَّا معشر النساء محصورات مقصورات، قواعدُ بيوتكم وحواملُ أولادكم، فهل نشارككم في الأجر؟ فقال النبيُّ ﷺ: «نعم، إذا أحسنتنَّ تَبعُّلَ أزواجكنَّ، وطلبتنَّ مرضاتهم»[٢].

قوله تعالى: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ﴾ أي: لم يمسسهنَّ، على ما تقدَّم قبل.

وقراءة العامة: «يَطْمِثْهُنَّ» بكسر الميم. وقرأ أبو حيوة الشاميُّ وطلحة بن مُصرِّف والأعرج والشيرازيُّ عن الكسائيِّ بضمِّ الميم في الحرفين. وكان الكسائيُّ يكسر إحداهما ويضمُّ الأخرى، ويُخيِّر في ذلك، فإذا رفع الأولى كسر الثانية، وإذا كسر الأولى رفع الثانية[٣]. وهي قراءة أبي إسحاق السَّبيعي. قال أبو إسحاق: كنت أصلِّي خَلْفَ أصحاب عليٍّ فيرفعون الميم، وكنت أَصَلِّي خَلْف أصحاب عبد الله فيكسرونها، فاستعمل الكسائيُّ الأثرين[٤].

وهما لغتان طَمُث وطَمِث[٥]، مثل يَعرُشُون ويَعْكِفُون، فمن ضمَّ؛ فللجمع بين اللغتين، ومن كسر؛ فلأنَّها اللغة السائرة. وإنَّما أعاد قوله: «لَمْ يَطْمِثْهُنَّ» ليبيِّن أنَّ صفة الحور المقصورات في الخيام كصفة الحور القاصرات الطرف[٦]. يقول: إذا

(١) أخرجه البيهقي في البعث والنشور (٣٧٦)، وفي إسناده: الكديمي، وهو محمد بن يونس، ضعيف وكان يهتم بالوضع. تهذيب التهذيب ٣/ ٧٤١، والمجروحين ٢/ ٣١٢-٣١٣.

(٢) النكت والعيون ٥/ ٤٤٣، وأخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٨٧٤٣) مطولاً، والقواعد: جمع قاعد، وهي المرأة الكبيرة المُسنَّة. النهاية (قعد). وتبعُّل أزواجكنَّ: أي: مصاحبتهم في الزوجية والعِشرة. والبعل: الزوج، ويجمع على بُعولة. النهاية (بعل).

(٣) السبعة ص٦٢١، والتيسير ص٢٠٧، والنشر ٢/ ٣٨١ - ٣٨٢.

(٤) تفسير البغوي ٤/ ٢٧٥، وأخرجه عن أبي إسحاق الفرَّاءُ في معاني القرآن له ٣/ ١١٨ - ١١٩ بنحوه مختصراً.

(٥) الحجة للفارسي ٦/ ٢٥٣، والكشف لمكي ٢/ ٣٠٣.

(٦) مجمع البيان ٢٧/ ١٠٨.

ضجرن[١] كانت لهنَّ الخيام في تلك الحال.

قوله تعالى: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ ﴿٧٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٧﴾ تَبَـٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَـٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ﴾ الرفرف: المحابس[٢]. وقال ابن عباس: الرفرف: فضول الفَرْش والبسط[٣]. وعنه أيضاً الرفرف: المحابس، يتَّكئون على فضولها، وقاله قتادة[٤]. وقال الحسن والقُرظيُّ: هي البُسُط[٥]. وقال ابن عيينة: هي الزرابيُّ. وقال ابن كيسان: هي المرافق[٦]، وقاله الحسن أيضاً[٧]. وقال أبو عبيدة: هي حاشية الثوب. وقال الليث: ضَرْب من الثياب الخضر تُبسَط. وقيل: الفُرُش المرتفعة. وقيل: كلُّ ثوب عريض عند العرب فهو رفرف[٨]. قال ابن مقبل:

وإنَّا لنَزَّالونَ تَغْشَى نِعَالَنا ... سَوَاقِطُ من أصناف رَيْطٍ ورفرفُ[٩]

وهذه أقوال متقاربة. وفي «الصحاح»[١٠]: والرفرف: ثياب خُضَر تتَّخذ منها المحابس، الواحدة: رَفْرَفة. وقال سعيد بن جبير وابن عباس أيضاً: الرفرف: رياض الجنة[١١].

---

(١) في (ف): ضجرت، وفي (م): قصرن.

(٢) غريب القرآن لابن قتيبة ص٤٤٤، والوسيط ٤/ ٢٣٠.

(٣) النكت والعيون ٥/ ٤٤٣، وأخرجه عنه الطبري ٢٢/ ٢٧٤، والبيهقي في البعث والنشور (٣٣٨).

(٤) النكت والعيون ٥/ ٤٤٣، والمحرر الوجيز ٥/ ٢٣٦، وأخرجه الطبري ٢٢/ ٢٧٤ عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٥) تفسير البغوي ٤/ ٢٧٨، وأخرجه ابن أبي شيبة ١٣/ ١٣٧، والطبري ٢٢/ ٢٧٤ عن الحسن.

(٦) تفسير البغوي ٤/ ٢٧٨.

(٧) المحرر الوجيز ٥/ ٢٣٦، وأخرجه عنه الطبري ٢٢/ ٢٧٦.

(٨) تفسير البغوي ٤/ ٢٧٨، ومجمع البيان للطبرسي ٢٧/ ١٠٥ وما بعده منه أيضاً.

(٩) ديوان تميم بن أبي مقبل ص١٩٨، وفيه: سوابغ، بدل: سواقط. وسبغ الشيء: طال إلى الأرض واتَّسع. والريط: جمع ريطة، وهي كل ثوب ليِّن رقيق.

(١٠) مادة: (رفف).

(١١) زاد المسير ٨/ ١٢٧، وأخرجه ابن المبارك في الزهد (٢٧٠ زوائد نعيم)، والطبري ٢٢/ ٢٧٣ عن سعيد بن جبير.

واشتقاق الرفرف من رَفَّ يَرِفُّ: إذا ارتفع، ومنه: رَفْرَفة الطائر؛ لتحريكه جناحَيْه في الهواء. وربما سمّوا الظَّلِيم رَفْرافاً بذلك؛ لأنَّه يرفرف بجناحيه ثم يَعْدُو. ورَفْرَف الطائر أيضاً إذا حرَّك جناحَيْه حول الشيء يريد أن يقع عليه. والرفرف أيضاً: كِسَر الخباء، وجوانب الدِّرْع وما تدلَّى منها، الواحدة: رَفْرَفة. وفي الخبر في وفاة النبيِّ ﷺ: فرفع الرفرف فرأينا وجهَه كأنَّه وَرَقة [تُخَشْخِش] أي: رفع طرف الفسطاط[١].

وقيل: أصل الرفرف من رَفَّ النبتُ يَرِفُّ: إذا صار غضًّا نضيراً، حكاه الثعلبيُّ. وقاله القتبيُّ. يقال للشيء إذا كثر ماؤه من النَّعمة والغَضَاضة حتى كاد يهتز: رَفَّ يرِفُّ رفيفاً، حكاه الهرويُّ.

وقد قيل: إنَّ الرفرف شيء إذا استوى عليه صاحبه رفرف به وأهوى به كالمِرْجاح يميناً وشمالاً، ورَفْعاً وخفضاً، يتلذَّذ به مع أنيسته، قاله الترمذيُّ الحكيم في «نوادر الأصول» وقد ذكرناه في «التذكرة»[٢]. قال الترمذيُّ[٣]: فالرفرف أعظم خطراً من الفرش، فذكره في الأولتين: «مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ» وقال هنا: «مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضْرٍ» فالرفرف هو شيء إذا استوى عليه الوليُّ رفرف به، أي: طار به هكذا وهكذا حيث ما يريد كالمِرْجاح، وأصله من رفرف بين يدي الله عزَّ وجلَّ، روي لنا في حديث المعراج أنَّ رسول الله ﷺ لما بلغ سِدْرَةَ المنتهى جاءه الرفرف فتناوله من جبريل وطار به إلى مسند العرش، فذكر أنَّه قال: «طار بي يخفضني ويرفعني حتى وقف بي بين يدي ربِّي»[٤] ثم لمَّا حان الانصراف، تناوله فطار به خفضاً ورفعاً يهوي به حتى أدلَّه إلى جبريلَ صلوات الله وسلامه عليه،

(١) الصحاح (رفف)، وتهذيب اللغة ١٥/ ١٧٠ ، وما بين حاصرتين منه. وخبر وفاته ﷺ أورده ابن الجوزي في غريب الحديث ١/ ٤٠٧ ، وابن الأثير في النهاية ٢/ ٢٤٢ ، والخشخشة: صوت السلاح ونحوه. الصحاح (خشش).

(٢) ص٥٠٩ .

(٣) التذكرة ص٤٤٣ ، وكلام الترمذي في نوادر الأصول ص٣٦ - ٣٧ بنحوه.

(٤) لم نقف عليه إلا في نوادر الأصول ص٣٦ ، ونقله عنه القرطبي في التذكرة ص٤٤٣ ، والكلام منه.

وجبريل يبكي ويرفع صوته بالتحميد، فالرفرف: خادم من الخدم بين يدي الله تعالى، له خواصُّ الأمور في محلِّ الدنو والقرب، كما أنَّ البُرَاق دابَّة يركبها الأنبياء مخصوصة بذلك في أرضه، فهذا الرفرف الذي سخَّره الله لأهل الجنَّتين الدانيتين هو متكؤهما وفرشهما، يرفرف بالوليِّ على حافَّات تلك الأنهار وشطوطها حيث شاء إلى خيام أزواجه الخيرات الحسان. ثم قال: ﴿وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ﴾ والعبقريُّ: ثياب منقوشة تبسط، فإذا قال خالق النقوش: إنَّها حسان، فما ظنُّك بتلك العباقر!.

وقرأ عثمان ﷺ والجحدريُّ والحسن وغيرهم: «مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفَارِفَ» بالجمع، غيرَ مصروف، كذلك: «وَعَبَاقِرِيَّ حِسَانٍ»[1] جمع رَفْرَف وعَبْقريٍّ. و«رَفْرَف» اسم للجمع، و«عَبْقَرِيّ» واحد يدلُّ على الجمع، المنسوب إلى عَبْقَر. وقد قيل: إنَّ واحد رَفْرف وعَبْقريٍّ: رَفْرَفة وعَبْقريَّة[2]، والرفارف والعَبَاقِر جمع الجمع. والعبقريُّ: الطَّنَافس الثخان منها، قاله الفرَّاء[3]. وقيل: الزَّرَابي، عن ابن عباس وغيره[4]. الحسن: هي البُسُط. مجاهد: الدِّيباج[5]. القتبيُّ: كلُّ ثوب وشِّي عند العرب عبقريٌّ[6]. قال أبو عبيد[7]: هو منسوب إلى أرض يعمل فيها الوشي، فينسب إليها كلُّ وَشْي حُبِك. قال ذو الرُّمَّة:

حتى كأنَّ رِياضَ القُفِّ ألبسَها مِن وَشْيِ عَبْقَر تَجْلِيلٌ وتَنْجِيدُ[8]

---

(١) القراءات الشاذة ص١٥٠، والمحتسب ٢/ ٣٠٥، والبحر المحيط ٨/ ١٩٩.

(٢) مشكل إعراب القرآن لمكي ٢/ ٧٠٨.

(٣) في معاني القرآن له ٣/ ١٢٠، وقاله ابن قتيبة في غريب القرآن ص٤٤٤.

(٤) زاد المسير ٨/ ١٩٢ عن ابن عباس وعطاء وقتادة والضحاك وابن زيد، وأخرجه الطبري ٢٢/ ٢٧٦ عن ابن عباس وابن جبير وقتادة.

(٥) المحرر الوجيز ٥/ ٢٣٦، وأخرجه ابن أبي شيبة ١٣/ ١٣٧، والطبري ٢٢/ ٢٧٧ عن مجاهد.

(٦) تفسير البغوي ٤/ ٢٧٨، وفيه: موشًّى، بدل: وشّي.

(٧) في غريب الحديث ١/ ٨٨ - ٨٩ و٣/ ٤٠٠ - ٤٠١.

(٨) ديوان ذي الرمة ٢/ ١٣٦٦، قال شارحه: والقُفّ: ما غلظ من الأرض ولم يبلغ أن يكون جبلاً في ارتفاعه. والتنجيد: التزيين. فشبَّه الزهر بوشي عبقر.

ويقال: عَبْقر: قرية بناحية اليمن تُنسَج فيها بُسُط منقوشة[١]. وقال ابن الأنباري: إنَّ الأصل فيه أنَّ عَبْقر قرية يسكنها الجِنُّ، يُنسَب إليها كلُّ فائق جليل. وقال الخليل: كلُّ جليل نافس فاضل وفاخر من الرجال والنساء وغيرهم عند العرب عبقريٌّ[٢]. ومنه قول النبيِّ ﷺ في عمر ﷺ: «فلم أرَ عبقريًّا من الناس يَفْرِي فَرِيَّه»[٣]. وقال أبو عمرو ابن العلاء وقد سئل عن قوله ﷺ: «فلم أرَ عَبْقريًّا يَفْرِي فَرِيَّه» فقال: رئيس قوم وجليلهم[٤]. وقال زُهَير:

بِخَيْلٍ عليها جِنَّةٌ عَبْقَرِيَّةٌ جَديرون يوماً أنْ يَنالُوا فَيَسْتَعْلُوا[٥]

وقال الجوهريُّ[٦]: العبقريُّ: موضع تزعم العرب أنَّه من أرض الجِنِّ.

قال لبِيد:

كُهُولٌ وشُبَّان كجِنَّةِ عَبْقَرِ[٧]

ثم نسبوا إليه كلَّ شيء يعجبون من حِذْقه وجودة صنعته وقوَّته فقالوا: عَبْقريٌّ. وهو واحد وجمع. وفي الحديث: «إنَّه كان يسجد على عبقريٍّ»[٨] وهو هذه البسط

---

(١) معجم البلدان ٤/ ٧٩.

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٢٧٨.

(٣) أخرجه البخاري (٣٦٣٤)، ومسلم (٢٣٩٣)، وأحمد (٤٨١٤) عن ابن عمر رضي الله عنهما، وأخرجه أيضاً البخاري (٣٦٣٤)، وأحمد (٨٢٣٩) عن أبي هريرة ﷺ، وهو عند مسلم (٢٣٩٢) بنحوه.

(٤) تهذيب اللغة ٣/ ٢٩٣، وما بعده منه أيضاً، وغريب الحديث لأبي عبيد ١/ ٨٧.

(٥) شرح ديوان زهير ص١٠٣، قال شارحه: الجِنَّة: جمع جِنٍّ. وجديرون: خليقون. ويستعلوا: يظفروا ويَعْلُوا.

(٦) في الصحاح (عبقر).

(٧) شرح ديوان لبيد ص٥٤، وهذا عجز البيت، وصدره:

ومَن فادَ من إخوانهم وبنيهم

قال شارحه: فاد: مات.

(٨) الصحاح (عبقر)، وما بعده منه أيضاً، وغريب الحديث لأبي عبيد ١/ ٨٩ و ٣/ ٤٠٠، والحديث أخرجه البيهقي في السنن الكبرى ٢/ ٤٣٦ عن عمر ﷺ أنه كان يسجد على عبقري. وأخرج ابن أبي شيبة ١/ ٤٠٠ عن أنس أن النبي ﷺ نضح بساطاً لهم فصلى عليه، وعن ابن عباس بنحوه.

التي فيها الأصباغ والنقوش حتى قالوا: ظُلْم عبقريّ، وهذا عبقريُّ قومٍ، للرجل القويِّ. وفي الحديث: «فلم أرَ عبقريًّا يفْرِي فَرِيَّه»[(١)].

ثم خاطبهم الله بما تعارفوه فقال: «وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ»، وقرأ بعضهم: «عَبَاقِرِيٍّ» وهو خطأ؛ لأنَّ المنسوب لا يُجمَع على نسبته[(٢)]. وقال قُطْرُب: ليس بمنسوب وهو مثل: كُرْسيّ وكَراسِيّ، وبُخْتيّ وبَخَاتيّ. وروى أبو بكرة[(٣)] أنَّ رسول الله ﷺ قرأ: «مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفَارِفَ خُضْرٍ وَعَبَاقِرَ حِسَانٍ»[(٤)] ذكره الثعلبيُّ. وضمُّ الضادَ من «خضر» قليلٌ.

قوله تعالى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ «تَبَارَكَ» تفاعل من البركة، وقد تقدّم[(٥)]. «ذِي الْجَلَالِ» أي: العظمة. وقد تقدَّم «وَالْإِكْرَامِ»[(٦)]. وقرأ ابن[(٧)] عامر: «ذُو الْجَلَالِ» بالواو؛ جعله وصفاً للاسم، وذلك تقويةٌ لكون الاسم هو المسمَّى. الباقون «ذِي الْجَلَالِ»؛ جعلوا «ذِي» صفة لـ «رَبِّكَ». وكأنَّه يريد به الاسم الذي افتتح به

(١) سلف قريباً.

(٢) الصحاح (عبقر)، والقراءة في القراءات الشاذة ص١٥٠ .

(٣) في (د) و(م): أبو بكر، والمثبت من (ق) و(ظ) و(خ)، والقراءة في إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٣١٨ ، والقراءات الشاذة ص١٥٠ ، والمحتسب ٢/ ٣٠٥ ، وأخرجها أبو حفص الدوري في جزء فيه قراءات النبي ﷺ (١١٤)، والبزار (٣٦٧٣)، والحاكم ٢/ ٢٥٠ من طريق عبد الله بن حفص، عن عاصم الجحدري، عن أبي بكرة، به.

قال النحاس: وإسنادها ليس بالصحيح. وقال الطبري في التفسير ٢٢/ ٢٧٧ : وذكر عن النبي ﷺ خبر غير محفوظ، ولا صحيح السند. وقال الحاكم: حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه. وقال الذهبي: منقطع، وعاصم لم يدرك أبا بكرة. اهـ. ووردت القراءة في مصادر التخريج: وعباقري، بالياء، بدل: وعباقر.

(٤) المحتسب ٢/ ٣٠٦ .

(٥) ١٥/ ٣٦٤ - ٣٦٥ .

(٦) ص١٣٣ من هذا الجزء.

(٧) قوله: ابن. ليست في (م) و(خ) و(د). والمثبت من (ق) و(ظ)، والقراءة في السبعة ص٦٢١ ، والتيسير ص٢٠٦ ، والحجة للفارسي ٦/ ٢٥٣ .

السورة، فقال: «الرَّحْمَنُ» فافتتح بهذا الاسم، فوصف خَلْق الإنسان والجنّ[1]، وخَلْق السماوات والأرض وصنعه، وأنَّه «كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ»، ووصف تدبيره فيهم، ثم وصف يوم القيامة وأهوالها، وصفة النار، ثم ختمها بصفة الجِنان. ثم قال في آخر السورة: «تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ» أي: هذا الاسم الذي افتتح به هذه السورة، كأنَّه يُعلِمهم أنَّ هذا كلَّه خرج لكم من رحمتي، فمِن رحمتي خلقتكم، وخلقتُ لكم السماء والأرض والخَلْق والخليقة والجنَّة والنار، فهذا كلُّه لكم من اسم الرحمن فمدح اسمه ثم قال: «ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ» جليل في ذاته، كريم في أفعاله.

ولم يختلف القرَّاء في إجراء النعت على الوجه بالرفع في أوَّل السورة، وهو يدلُّ على أنَّ المراد به وجهُ الله الذي يلقى المؤمنون عندما ينظرون إليه، فيستبشرون بحُسْن الجزاء، وجميل اللقاء، وحسن العطاء، والله أعلم.

---

(١) بعدها في (د) و(خ): والشياطين.

تفسير سورة الرحمن

وهى مكية.

قال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا حماد، عن عاصم، عن زرٍّ، أن رجلا قال لابن مسعود: كيف تعرف هذا الحرف: «ماء غير ياسن أو آسن»؟ فقال: كل القرآن قد قرأت. قال: إنى لأقرأ المفصل؛ أجمع فى ركعة واحدة. فقال: أهذًا كهذِّ الشعر، لا أبالك؟ قد علمت قرائن النبى ﷺ التى كان يقرن قرينتين قرينتين من أول المفصل، وكان أول مفصل ابن مسعود: ﴿الرَّحْمَنُ﴾(١).

وقال أبو عيسى الترمذى: حدثنا عبد الرحمن بن واقد أبو مسلم، حدثنا الوليد بن مسلم، عن زهير بن محمد، عن محمد بن المُنْكَدِر، عن جابر، قال: خرج رسول الله ﷺ على أصحابه فقرأ عليهم، سورة «الرحمن»، من أولها إلى آخرها، فسكتوا فقال: «لقد قرأتها على الجن ليلة الجن، فكانوا أحسن مردودا منكم، كنت كلما أتيت على قوله: ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾، قالوا: لا بشىء من نعمك ـ ربنا ـ نكذب، فلك الحمد»(٢).

ثم قال: هذا حديث غريب، لا نعرفه إلا من حديث الوليد بن مسلم، عن زهير بن محمد. ثم حكى عن الإمام أحمد أنه كان لا يعرفه، ينكر(٣) رواية أهل الشام عن زهير بن محمد هذا.

ورواه الحافظ أبو بكر البزار، عن عمرو بن مالك، عن الوليد بن مسلم. وعن عبد الله بن أحمد ابن شبويه، عن هشام بن عمار، كلاهما عن الوليد بن مسلم، به. ثم قال: لا نعرفه يروى إلا من هذا الوجه(٤).

وقال أبو جعفر بن جرير: حدثنا محمد بن عباد بن موسى، وعمرو بن مالك البصرى، قالا: حدثنا يحيى بن سليم، عن إسماعيل بن أمية، عن نافع، عن ابن عمر؛ أن رسول الله ﷺ قرأ سورة «الرحمن» ـ أو: قُرِئَت عنده ـ فقال: «ما لى أسمع الجن أحسن جوابا لربها منكم؟» قالوا: وما ذاك يا رسول الله؟ قال: «ما أتيت على قول الله: ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ إلا قالت الجن: لا بشىء من نعمة(٥) ربنا نكذب».

ورواه الحافظ البزار، عن عمرو بن مالك، به(٦). ثم قال: لا نعلمه يروى عن النبى ﷺ إلا من هذا الوجه، بهذا الإسناد.

---

(١) المسند (١/ ٤١٢).

(٢) سنن الترمذى برقم (٣٢٩١).

(٣) فى م، أ: «يستنكر».

(٤) ورواه الحاكم فى المستدرك (٢/ ٤٧٣) من طريق هشام بن عمار وعبد الرحمن بن واقد، كلاهما عن الوليد بن مسلم به.

(٥) فى م، أ: «نعم».

(٦) مسند البزار (٢٢٦٩) «كشف الأستار» وشيخه عمرو بن مالك الراسبى ضعفه الجمهور، وبقية رجاله ثقات.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الرَّحْمَنُ ۝١ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۝٢ خَلَقَ الإِنسَانَ ۝٣ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ۝٤ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۝٥ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ۝٦ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ۝٧ أَلاَّ تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ۝٨ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ۝٩ وَالأَرْضَ وَضَعَهَا لِلأَنَامِ ۝١٠ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الأَكْمَامِ ۝١١ وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ ۝١٢ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝١٣﴾.

يخبر تعالى عن فضله ورحمته بخلقه: أنه أنزل على عباده القرآن، ويسر حفظه وفهمه على من رحمه، فقال: ﴿الرَّحْمَنُ . عَلَّمَ الْقُرْآنَ . خَلَقَ الإِنسَانَ . عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ قال الحسن: يعنى: النطق[1]. وقال الضحاك، وقتادة، وغيرهما: يعنى: الخير والشر. وقول الحسن هاهنا أحسن وأقوى؛ لأن السياق فى تعليمه تعالى القرآن، وهو أداء تلاوته، وإنما يكون ذلك بتيسير النطق على الخلق وتسهيل خروج الحروف من مواضعها من الحلق واللسان والشفتين، على اختلاف مخارجها وأنواعها.

وقوله: ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ أى: يجريان متعاقبين بحساب مُقَنَّن لا يختلف ولا يضطرب، ﴿لا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [الأنعام: ٩٦].

وعن عكرمة أنه قال: لو جعل الله نور جميع أبصار الإنس والجن والدواب والطير فى عينى عبد، ثم كشف حجابا واحدا من سبعين حجابا دون الشمس، لما استطاع أن ينظر إليها. ونور الشمس جزء من سبعين جزءًا من نور الكرسى، ونور الكرسى جزء من سبعين جزءا من نور العرش، ونور العرش جزء من سبعين جزءا من نور الستر. فانظر ماذا أعطى الله عبده من النور فى عينيه وقت النظر إلى وجه ربه الكريم عيانا. رواه ابن أبى حاتم.

وقوله: ﴿وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾: قال ابن جرير: اختلف المفسرون فى معنى قوله: ﴿وَالنَّجْمُ﴾ بعد إجماعهم على أن الشجر ما قام على ساق، فروى على بن أبى طلحة عن ابن عباس قال: النجم ما انبسط على وجه الأرض ـ يعنى من النبات. وكذا قال سعيد بن جبير، والسدى، وسفيان الثورى. وقد اختاره ابن جرير، رحمه الله.

وقال مجاهد: النجم الذى فى السماء. وكذا قال الحسن، وقتادة. وهذا القول هو الأظهر، والله أعلم؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ

(١) فى أ: «المنطق».

وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ الآية [الحج: ١٨].

وقوله: ﴿ **وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ** ﴾ يعنى: العدل، كما قال: ﴿**لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ**﴾ [الحديد: ٢٥]، وهكذا قال هاهنا: ﴿**أَلاَّ تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ**﴾ أي: خلق السموات والأرض بالحق والعدل، لتكون[1] الأشياء كلها بالحق والعدل؛ ولهذا قال: ﴿**وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ**﴾ أي: لا تبخسوا الوزن، بل زنوا بالحق والقسط، كما قال [تعالى][2]: ﴿ **وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ** ﴾ [الشعراء: ١٨٢].

وقوله: ﴿**وَالأَرْضَ وَضَعَهَا لِلأَنَامِ**﴾ أي: كما رفع السماء وضع الأرض ومهدها، وأرساها بالجبال الراسيات الشامخات، لتستقر لما على وجهها من الأنام، وهم: الخلائق المختلفة أنواعهم وأشكالهم وألوانهم وألسنتهم، فى سائر أقطارها وأرجائها.

قال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، وابن زيد: الأنام: الخلق. ﴿**فِيهَا فَاكِهَةٌ**﴾ أى: مختلفة الألوان والطعوم والروائح، ﴿**وَالنَّخْلُ ذَاتُ الأَكْمَامِ**﴾ : أفرده بالذكر لشرفه ونفعه، رطبا ويابسا. والأكمام ـ قال ابن جُرَيْج، عن ابن عباس: هى أوعية الطلع. وهكذا قال غير واحد من المفسرين، وهو الذى يطلع فيه القنو ثم ينشق عن العنقود، فيكون بسرا، ثم رطبا، ثم ينضج ويتناهى يَنْعُه واستواؤه.

قال ابن أبى حاتم[3]: ذُكِرَ عن عمرو بن على الصيرفى: حدثنا أبو قتيبة، حدثنا يونس بن الحارث الطائفى، عن الشعبى قال: كتب قيصر إلى عمر بن الخطاب: أخبرك أن رسلى أتتنى من قبلك، فزعمت أن قبلكم شجرة ليست بخليقة لشىء من الخير، تخرج مثل آذان الحمير، ثم تشقق مثل اللؤلؤ، ثم تخضر فتكون مثل الزمرد[4] الأخضر، ثم تحمر فتكون كالياقوت الأحمر، ثم تَيْنَع وتنضج فتكون كأطيب فالوذج أكل، ثم تيبس فتكون عصمة للمقيم وزاداً للمسافر، فإن تكن رسلى صدقتنى فلا أرى هذه الشجرة إلا من شجر الجنة. فكتب إليه عمر بن الخطاب[5]: من عمر أمير المؤمنين إلى قيصر ملك الروم، إن رسلك قد صدقوك[6]، هذه الشجرة عندنا، وهى الشجرة التى أنبتها الله على مريم حين نفست بعيسى ابنها، فاتق الله ولا تتخذ عيسى إلها من دون الله، فإن ﴿ **مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ . الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلا تَكُن**[7] **مِّنَ الْمُمْتَرِينَ**﴾[8] [آل عمران: ٥٩، ٦٠].

وقيل: الأكمام: رفاتها، وهو: الليف الذى على عنق النخلة. وهو قول الحسن وقتادة.

﴿**وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ** ﴾: قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس: ﴿**وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ**﴾ يعنى: التين.

---

(١) فى م: «ليكون». (٢) زيادة من أ.
(٣) فى أ: «ابن جرير». (٤) فى م: «كالرمد». (٥) فى م: «عمر بن عبد الله».
(٦) فى م، أ: «صدقتك». (٧) فى م: «تكونن».
(٨) ورواه ابن عساكر فى تاريخ دمشق (٢٩/١٤ «القسم المخطوط») من طريق محمد بن منصور بن أبى الجهم عن عمرو بن على الصيرفى به.

وقال العَوْفى، عن ابن عباس: ﴿الْعَصْفِ﴾: ورق الزرع الأخضر الذى قطع رؤوسه، فهو يسمى العصف إذا يبس. وكذا قال قتادة، والضحاك، وأبو مالك: عصفه: تبنه.

وقال ابن عباس، ومجاهد، وغير واحد: ﴿وَالرَّيْحَانُ﴾ يعنى: الورق.

وقال الحسن: هو ريحانكم هذا.

وقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: ﴿وَالرَّيْحَانُ﴾: خضر[١] الزرع.

ومعنى هذا ـ والله أعلم ـ أن الحب كالقمح والشعير ونحوهما له فى حال نباته عصف، وهو: ما على السنبلة، وريحان، وهو: الورق الملتف على ساقها.

وقيل: العصف: الورق أول ما ينبت الزرع بقلا. والريحان: الورق، يعنى: إذا أدجن وانعقد فيه الحب. كما قال زيد بن عمرو بن نفيل فى قصيدته المشهورة.

وَقُولاَ له: من يُنْبِتُ الحَبّ فى الثَّرى ... فَيُصْبِحَ منه البقــلُ يَهْتَزّ رابيا؟

ويُخْــرجَ منْه حبَّه فى رُؤُوسه؟ ... فَفى ذاك آياتٌ لِمَنْ كَانَ واعيا[٢]

وقوله: ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ أى: فبأى الآلاء[٣] ـ يا معشر الثقلين، من الإنس والجن ـ تكذبان؟ قاله مجاهد، وغير واحد. ويدل عليه السياق بعده، أى: النِّعَمُ ظاهرة عليكم وأنتم مغمورون بها، لا تستطيعون إنكارها ولا جحودها[٤]، فنحن نقول كما قالت الجن المؤمنون: «اللهم، ولا بشىء من آلائك ربنا نكذب، فلك الحمد». وكان ابن عباس يقول: «لا، بأيها يا رب». أى: لا نكذب بشىء منها.

قال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن إسحاق، حدثنا ابن لهيعة، عن أبى الأسود، عن عُرْوَة، عن أسماء بنت أبى بكر قالت: سمعت رسول الله ﷺ وهو يقرأ، وهو يصلى نحو الركن قبل أن يصدع بما يؤمر، والمشركون يستمعون[٥] ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾[٦].

﴿ خَلَقَ الإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ (١٤) وَخَلَقَ الْجَانَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ (١٥) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (١٦) رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ (١٧) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (١٨) مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ (١٩) بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لاَّ يَبْغِيَانِ (٢٠) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢١) يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ (٢٢) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢٣) وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالأَعْلامِ (٢٤) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢٥) ﴾.

---

(١) فى أ: «خضرة».

(٢) انظر الأبيات فى السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٢٢٨).

(٣) فى م: «آلاء». (٤) فى م: «جحدها». (٥) فى م: «يسمعون».

(٦) المسند (٦/ ٣٤٩).

يذكر تعالى خلقه الإنسان من صلصال كالفخار، وخلقه[١] الجان من مارج من نار، وهو: طرف لهبها. قاله الضحاك، عن ابن عباس. وبه يقول عكرمة، ومجاهد، والحسن، وابن زيد.

وقال العَوْفى، عن ابن عباس: ﴿ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴾ :من لهب النار، من أحسنها.

وقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: ﴿ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴾ : من خالص النار. وكذا قال عكرمة، ومجاهد، والضحاك، وغيرهم.

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا معمر،عن الزهرى، عن عروة، عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «خلقت الملائكة من نور، وخلق الجان من مارج من نار، وخلق آدم مما وصف لكم».

ورواه مسلم، عن محمد بن رافع وعبد بن حميد، كلاهما عن عبد الرزاق، به[٢].

وقوله: ﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ : تقدم تفسيره ﴿ رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ ﴾ يعنى: مشرقى الصيف والشتاء، ومغربى الصيف والشتاء. وقال فى الآية الأخرى: ﴿ فَلا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ ﴾ [المعارج: ٤٠]، وذلك باختلاف مطالع الشمس وتنقلها فى كل يوم، وبروزها منه إلى الناس. وقال فى الآية الأخرى: ﴿ رَّبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً ﴾ [المزمل: ٩]. وهذا المراد منه جنس المشارق والمغارب، ولما كان فى اختلاف هذه المشارق والمغارب مصالح للخلق من الجن والإنس قال: ﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾؟

وقوله: ﴿ مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴾ : قال ابن عباس: أى أرسلهما.

وقوله: ﴿ يَلْتَقِيَانِ ﴾: قال ابن زيد: أى: منعهما أن يلتقيا، بما جعل بينهما من البرزخ الحاجز الفاصل بينهما.

والمراد بقوله: ﴿ الْبَحْرَيْنِ ﴾ : الملح والحلو، فالحلو هذه الأنهار السارحة بين الناس. وقد قدمنا الكلام على ذلك فى سورة «الفرقان» عند قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴾ [الفرقان:٥٣]. وقد اختار ابن جرير هاهنا أن المراد بالبحرين: بحر السماء وبحر الأرض،وهو مروى عن مجاهد، وسعيد بن جبير، وعطية، وابن أَبْزَى.

قال ابن جرير: لأن اللؤلؤ يتولد من ماء السماء، وأصداف[٣] بحر الأرض[٤]. وهذا وإن كان هكذا ليس المراد [بذلك][٥] ما ذهب إليه، فإنه لا يساعده اللفظ؛ فإنه تعالى قد قال: ﴿ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لاَّ يَبْغِيَانِ ﴾ أى: وجعل بينهما برزخا، وهو: الحاجز من الأرض، لئلا يبغى هذا على هذا، وهذا على

(١) فى أ: «خلق».

(٢) المسند (٦/١٦٨) وصحيح مسلم برقم (٢٩٩٦).

(٣) فى م: «واختلاف».

(٤) تفسير الطبرى (٢٧/ ٧٥).

(٥) زيادة من م، أ.

هذا، فيفسد كل واحد منهما الآخر، ويزيله عن صفته التى هى مقصودة منه. وما بين السماء والأرض لا يسمى برزخا وحجرا محجورا.

وقوله: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾: أى: من مجموعهما، فإذا وجد ذلك لأحدهما[١] كفى، كما قال تعالى: ﴿ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ [الأنعام: ١٣٠] والرسل إنما كانوا فى الإنس خاصة دون الجن، وقد صح هذا الإطلاق. واللؤلؤ معروف، وأما المرجان فقيل: هو صغار اللؤلؤ. قاله مجاهد، وقتادة، وأبو رزين، والضحاك. وروى عن على.

وقيل: كباره وجيده. حكاه ابن جرير عن بعض السلف. ورواه ابن أبى حاتم عن الربيع بن[٢] أنس، وحكاه عن السدى عمن حدثه، عن ابن عباس. وروى مثله عن على، ومجاهد أيضا، ومرة الهمدانى.

وقيل: هو نوع من الجواهر أحمر اللون. قال السدى، عن أبى مالك، عن مسروق، عن عبد الله قال: المرجان: الخرز الأحمر .قال السدى وهو البُسَّذ[٣] بالفارسية.

وأما قوله: ﴿وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ [فاطر: ١٢]، فاللحم من كل من الأجاج والعذب، والحلية، إنما هى من الملح دون العذب.

قال ابن عباس: ما سقطت قط قطرة من السماء فى البحر، فوقعت فى صدفة إلا صار منها لؤلؤة. وكذا قال عكرمة، وزاد: فإذا لم تقع فى صدفة نبتت بها عنبرة. وروى من غير وجه عن ابن عباس نحوه.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أحمد بن سنان، حدثنا عبد الرحمن بن مَهْدِىّ، حدثنا سفيان، عن الأعمش، عن عبد الله بن عبد الله، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، قال: إذا أمطرت السماء، فتحت الأصداف فى البحر أفواهها، فما وقع فيها ـ يعنى: من قطر ـ فهو اللؤلؤ.

إسناده[٤] صحيح، ولما كان اتخاذ هذه الحلية نعمة على أهل الأرض، امتن بها عليهم فقال[٥]: ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

وقوله: ﴿وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ﴾ يعنى: السفن التى تجرى فى البحر، قال مجاهد: ما رفع قلعه من السفن فهى منشأة وما لم يرفع قلعه فليس بمنشأة، وقال قتادة: ﴿الْمُنشَآتُ﴾: يعنى المخلوقات. وقال غيره: المنشآت ـ بكسر الشين ـ يعنى: البادئات.

﴿كَالأَعْلامِ﴾ أى: كالجبال فى كبرها، وما فيها من المتاجر والمكاسب المنقولة من قطر إلى قطر، وإقليم إلى إقليم، مما فيه من صلاح للناس فى[٦] جلب ما يحتاجون إليه من سائر أنواع البضائع؛ ولهذا قال [تعالى][٧]: ﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾.

---

(١) فى أ: «أحدهما». (٢) فى أ: «عن». (٣) فى م، أ: «الكسد».
(٤) فى م: «إسناد». (٥) فى م: «وقال». (٦) فى م: «من».
(٧) زيادة من: أ.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبى، حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا حماد بن سلمة، حدثنا العرار بن سويد، عن عميرة بن سعد، قال: كنت مع على بن أبى طالب، رضى الله عنه، على شاطئ الفرات، إذا أقبلت سفينة مرفوع شراعها، فبسط على يديه ثم قال: يقول الله عز وجل: ﴿وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالأَعْلامِ﴾ . والذى أنشأها تجرى فى [بحر من][1] بحوره ما قتلت عثمان، ولا مالأت على قتله.

﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (٢٦) وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ (٢٧) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢٨) يَسْأَلُهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ (٢٩) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٠)﴾.

يخبر تعالى أن جميع أهل الأرض سيذهبون ويموتون أجمعون، وكذلك أهل السموات، إلا من شاء الله، ولا يبقى أحد سوى وجهه الكريم؛ فإن الرب ـ تعالى وتقدس ـ لا يموت، بل هو الحى الذى لا يموت أبدا.

قال قتادة: أنبأ بما خلق، ثم أنبأ أن ذلك كله كان[2].

وفى الدعاء المأثور: يا حى، يا قيوم، يا بديع السموات والأرض، يا ذا الجلال والإكرام، لا إله إلا أنت، برحمتك نستغيث[3]، أصلح لنا شأننا كله، ولا تكلنا إلا أنفسنا طرفة عين، ولا إلى أحد من خلقك.

وقال الشعبى: إذا قرأت: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾، فلا تسكت حتى تقرأ: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ﴾.

وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ﴾ [القصص: ٨٨]. وقد نعت تعالى وجهه الكريم فى هذه الآية الكريمة بأنه ﴿ذُو الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ﴾ أى: هو أهل أن يجل فلا يعصى، وأن يطاع فلا يخالف، كقوله: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ [الكهف: ٢٨]، وكقوله إخبارا عن المتصدقين: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ﴾ [الإنسان: ٩].

قال ابن عباس: ﴿ذُو الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ﴾ : ذو العظمة والكبرياء.

ولما أخبر عن تساوى أهل الأرض كلهم فى الوفاة، وأنهم سيصيرون إلى الدار الآخرة، فيحكم فيهم ذو الجلال والإكرام بحكمه العدل قال: ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

وقوله: ﴿ يَسْأَلُهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾: وهذا إخبار عن غناه عما سواه، وافتقار الخلائق إليه فى جميع الآنات، وأنهم يسألونه بلسان حالهم وقالهم، وأنه كل يوم هو فى شأن.

(١) زيادة من م. (٢) فى م: «فان». (٣) فى م: «أستغيث».

قال الأعمش، عن مجاهد، عن عبيد بن عمير: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾، قال: من شأنه أن يجيب داعيا، أو يعطى سائلا، أو يفك عانيا، أو يشفى سقيما.

وقال ابن أبى نجيح، عن مجاهد قال: كل يوم هو يجيب داعيا، ويكشف كربا، ويجيب مضطرا، ويغفر ذنبا.

وقال قتادة: لا يستغنى عنه أهل السموات والأرض، يحيى حيا، ويميت ميتا، ويربى صغيرا، ويفك أسيرا، وهو منتهى حاجات الصالحين وصريخهم، ومنتهى شكواهم.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا أبو اليمان الحِمْصىّ، حدثنا حريز بن عثمان، عن سُوَيْد ابن جبلة ـ هو الفزارى ـ قال: إن ربكم كل يوم هو فى شأن، فيعتق رقابا، ويعطى رغابا، ويقحم عقابا.

وقال ابن جرير: حدثنى عبد الله بن محمد بن عمرو الغُزِّى، حدثنى إبراهيم بن محمد بن يوسف الفريابى، حدثنى عمرو بن بكر السَّكْسَكى[1]، حدثنا الحارث بن عبدة بن رباح الغسانى، عن أبيه، عن منيب بن عبد الله بن منيب الأزدى، عن أبيه قال: تلا رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾، فقلنا: يا رسول الله، وما ذاك الشأن، قال: «أن يغفر ذنبا، ويفرج كربا، ويرفع قوما، ويضع آخرين[2]»[3].

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا هشام بن عمار، وسليمان بن أحمد الواسطى، قالا: حدثنا الوزير[4] بن صَبِيح الثقفى أبو روح الدمشقى ـ والسياق لهشام ـ قال: سمعت يونس بن ميسرة ابن حَلْبَس، يحدث عن أم الدرداء عن أبى الدرداء، عن النبى ﷺ قال: «قال الله عز وجل: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾» قال: «من شأنه أن يغفر ذنبا، ويفرج كربا، ويرفع قوما، ويضع آخرين[5]»[6].

وقد رواه ابن عساكر من طرق متعددة، عن هشام بن عمار، به. ثم ساقه من حديث أبى همام الوليد بن شجاع، عن الوزير بن صَبِيح قال: ودلنا عليه الوليد بن مسلم، عن مُطَرِّف، عن الشعبى، عن أم الدرداء، عن أبى الدرداء، عن النبى ﷺ، فذكره. قال: والصحيح الأول. يعنى إسناده الأول[7].

قلت: وقد روى موقوفا، كما[8] علقه البخارى بصيغة الجزم، فجعله من كلام أبى الدرداء[9]، فالله أعلم.

---

(١) فى م: «الشكسى». (٢) فى أ: «قومًا».

(٣) تفسير الطبرى (٢٧/ ٧٩) ورواه الطبرانى فى المعجم الأوسط برقم (٣٤٠١) «مجمع البحرين» والبزار فى مسنده برقم (٢٢٦٦) «كشف الأستار»، من طريق عمرو بن بكر السكسكى ـ وهو متروك ـ عن الحارث بن عبدة به.

(٤) فى م: «أبو رزين». (٥) فى أ: «قومًا».

(٦) رواه ابن ماجه برقم (٢٠٢) من طريق هشام بن عمار به.

قال البوصيرى فى الزوائد (١/ ٨٨): «هذا إسناد حسن لتقاصر الوزير عن درجة الحفظ والإتقان».

(٧) تاريخ دمشق (١٧/ ٧٧١ «القسم المخطوط»). (٨) فى م، أ: «وقد».

(٩) صحيح البخارى (٨/ ٦٢٠) «فتح»، ورواه البيهقى فى شعب الإيمان موصولاً برقم (١١٠٢) من طريق إسماعيل بن عبد الله عن أم الدرداء عن أبى الدرداء موقوفًا.

وقال البزار: حدثنا محمد بن المثنى، حدثنا محمد بن الحارث، حدثنا محمد بن عبد الرحمن بن البيلمانى، عن أبيه، عن ابن عمر، عن النبى ﷺ: ﴿ **كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ** ﴾، قال: «يغفر ذنبا، ويكشف كربا»[١].

ثم قال ابن جرير: وحدثنا أبو كُرَيْب، حدثنا عبيد الله بن موسى، عن أبى حمزة الثُّمَالى، عن سعيد بن جُبَيْر، عن ابن عباس، أن الله خلق لوحا محفوظا من درة بيضاء، دفتاه ياقوتة حمراء، قلمه نور، وكتابه نور، عرضه ما بين السماء والأرض، ينظر فيه كل يوم ثلثمائة وستين نظرة، يخلق فى كل نظرة، ويحيى ويميت، ويعز ويذل، ويفعل ما يشاء[٢].

﴿ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلانِ (٣١) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٢) يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ فَانفُذُوا لا تَنفُذُونَ إِلاَّ بِسُلْطَانٍ (٣٣) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٤) يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلا تَنتَصِرَانِ (٣٥) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٦) ﴾.

قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس فى قوله: ﴿ **سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلانِ** ﴾، قال: وعيد من الله للعباد، وليس بالله شغل وهو فارغ. وكذا قال الضحاك: هذا وعيد. وقال قتادة: قد دنا من الله فراغ لخلقه. وقال ابن جريج: ﴿ **سَنَفْرُغُ لَكُمْ** ﴾ أى: سنقضى لكم.

وقال البخارى: سنحاسبكم[٣]، لا يشغله شيء عن شيء، وهو معروف فى كلام العرب، يقال[٤]: «لأتفرغن لك» وما به شغل، يقول: «لآخذنك على غِرَّتك[٥]».

وقوله: ﴿ **أَيُّهَا الثَّقَلانِ** ﴾: الثقلان: الإنس والجن، كما جاء فى الصحيح: «يسمعها كل شيء إلا الثقلين» وفى رواية: «إلا الجن والإنس». وفى حديث الصور: «الثقلان الإنس والجن» ﴿ **فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ** ﴾.

ثم قال: ﴿ **يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ فَانفُذُوا لا تَنفُذُونَ إِلاَّ بِسُلْطَانٍ** ﴾. أى: لا تستطيعون هربا من أمر الله وقدره، بل هو محيط بكم، لا تقدرون على التخلص من حكمه، ولا النفوذ عن حكمه فيكم، أينما ذهبتم أحيط بكم، وهذا فى مقام المحشر، الملائكة محدقة بالخلائق، سبع صفوف من كل جانب، فلا يقدر أحد على الذهاب ﴿ **إِلاَّ بِسُلْطَانٍ** ﴾ أى: إلا بأمر الله، ﴿ **يَقُولُ الإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ . كَلاَّ لا وَزَرَ . إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ** ﴾ [القيامة: ١٠ـ ١٢]. وقال تعالى: ﴿ **وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا**

---

(١) مسند البزار برقم (٢٢٦٨) «كشف الأستار». قال ابن حجر: «البيلمانى ضعيف».
(٢) تفسير الطبرى (٢٧/ ٧٩).
(٣) فى م: «سيحاسبكم». (٤) فى أ: «يقول». (٥) فى م: «غرة».

أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [يونس: ٢٧] ؛ولهذا قال: **﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلا تَنتَصِرَانِ﴾**.

قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: الشواظ: هو لهب النار.

وقال سعيد بن جبير، عن ابن عباس: الشواظ: الدخان.

وقال مجاهد: هو: اللهيب[١] الأخضر المنقطع. وقال أبو صالح: الشواظ: هو اللهيب[٢] الذى فوق النار ودون الدخان. وقال الضحاك: **﴿شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ﴾** : سيل من نار.

وقوله: **﴿وَنُحَاسٌ﴾** : قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: **﴿وَنُحَاسٌ﴾**: دخان النار. وروى مثله عن أبى صالح، وسعيد بن جبير، وأبى سنان.

قال ابن جرير: والعرب تسمى الدخان نحاسا ـ بضم النون وكسرها ـ والقراء[٣] مجمعة على الضم، ومن النحاس بمعنى الدخان قول نابغة جعدة[٤] :

يُضِيءُ كَضَوءِ سراج السَّلِيـ ـط، لَم يَجْعَل اللهُ فيه نُحَاسا

يعنى: دخانا، هكذا قال[٥].

وقد روى الطبرانى من طريق جُوَيْبِر، عن الضحاك؛ أن نافع بن الأزرق سأل ابن عباس عن الشواظ فقال: هو اللهب الذى لا دخان معه. فسأله شاهدا على ذلك من اللغة، فأنشده قول أمية بن أبى الصلت فى حسان:

ألا مـن مُبلـــــغٌ حَسَّان عَنِّى مُـغَـلغَـلـةً تدبّ[٦] إلى عُـكَـاظِ
أَلَيس أبُــــوكَ فِينَا كان قَيناً لَـدَى[٧] القينَات فَسْلاً فِى الحَفَـاظ
يَـمَانِياً يظل يَشُد[٨] كيـــــرًا ويـنـفـخ دائـبــاً لَـهَـبَ الـشُّواظ

قال: صدقت، فما النحاس؟ قال: هو الدخان الذى لا لهب له. قال: فهل تعرفه العرب؟ قال: نعم، أما سمعت نابغة بنى ذبيان يقول[٩]:

يُضِيءُ كَضَوءِ سَرَاج السَّلِيـ ـط، لَمْ يَجْعَل اللهُ فيه نُحَاسا[١٠]

وقال مجاهد: النحاس: الصُّفْر، يذاب[١١] فيصب على رؤوسهم. وكذا قال قتادة. وقال

(١، ٢) فى م، أ: «اللهب». (٣) فى م: «القراءة».

(٤) فى م، أ:«نابغة بنى جعدة»، وفى تفسير الطبرى: «نابغة بنى ذبيان» ولم أجده فى ديوانه، والبيت فى مجاز القرآن لأبى عبيدة منسوبا للنابغة الجعدى ٢/ ٢٤٤، ٢٤٥. والبيت أيضا فى ديوان الجعدى واللسان، مادة «نحس» مستفادا من هامش ط. الشعب.

(٥) تفسير الطبرى (٢٧/ ٨١).

(٦) فى م: «يدب». (٧) فى م: «إلى». (٨) فى م: «يشب».

(٩) كذا، وقد سبق تخريج البيت ونسبته إلى الجعدى.

(١٠) المعجم الكبير (١٠/ ٣٠٥) وفيه جويبر وهو متروك لم يلق ابن عباس.

(١١) فى م: «المذاب».

الضحاك: ﴿وَنُحَاسٌ﴾ : سيل من نحاس.

والمعنى على كل قول: لو ذهبتم هاربين يوم القيامة لردتكم الملائكة والزبانية بإرسال اللهب من النار والنحاس المذاب عليكم لترجعوا[1]؛ ولهذا قال: ﴿فلا تنتصران. فبأيّ آلاء ربّكما تُكذّبان﴾.

﴿ فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ (٣٧) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٨) فَيَوْمَئِذٍ لاَّ يُسْأَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلا جَانٌّ (٣٩) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٠) يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالأَقْدَامِ (٤١) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٢) هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ (٤٣) يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ (٤٤) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٥) ﴾.

يقول [تعالى][2]: ﴿فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ﴾ يوم القيامة، كما دلت عليه هذه الآية مع ما شاكلها من الآيات الواردة فى معناها، كقوله: ﴿ وَانشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴾ [الحاقة: ١٦]، وقوله: ﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلائِكَةُ تَنزِيلاً﴾ [الفرقان: ٢٥]، وقوله: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ. وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾ [الانشقاق: ١، ٢].

وقوله: ﴿ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ﴾ أى: تذوب كما يذوب الدُّرْدى والفضة فى السبك، وتتلون كما تتلون الأصباغ التى يدهن بها، فتارة حمراء وصفراء وزرقاء وخضراء، وذلك من شدة الأمر وهول يوم القيامة العظيم. وقد قال الإمام أحمد:

حدثنا أحمد بن عبد الملك، حدثنا عبد الرحمن بن أبى الصهباء، حدثنا نافع أبو غالب الباهلى، حدثنا أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «يبعث الناس يوم القيامة والسماء تَطِش عليهم»[3].

قال الجوهرى: الطش: المطر الضعيف.

وقال الضحاك، عن ابن عباس فى قوله: ﴿وَرْدَةً كَالدِّهَانِ﴾، قال: هو الأديم الأحمر. وقال أبوكُدَيْنة عن قابوس، عن أبيه، عن ابن عباس: ﴿فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ﴾ : كالفرس الورد. وقال العوفى، عن ابن عباس: تغير لونها. وقال أبو صالح: كالبِرْذَون الورد، ثم كانت بعد كالدهان.

وحكى البَغَوى وغيره: أن الفرس الورد تكون فى الربيع صفراء، وفى الشتاء حمراء، فإذا اشتد البرد اغْبَرَّ لونها.

وقال الحسن البصرى: تكون ألوانا. وقال السدى. تكون كلون البغلة الوردة، وتكون كالمهل كدردى الزيت. وقال مجاهد: ﴿كَالدِّهَانِ﴾ : كألوان الدهان. وقال عطاء الخراسانى: كلون دُهْن الوَرْد فى الصفرة. وقال قتادة: هى اليوم خضراء، ويومئذ لونها إلى الحمرة، يوم ذى ألوان. وقال أبو الجوزاء:

---

(١) فى م: «لترجعوا». (٢) زيادة من م.
(٣) المسند (٣/٢٢٦).

فى صفاء الدهن. وقال [أبو صالح][(١)] بن جريج: تصير السماء كالدهن الذائب، وذلك حين يُصيبها حر جهنم.

وقوله: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لاَّ يُسْأَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلا جَانٌ﴾، وهذه كقوله: ﴿هَذَا يَوْمُ لا يَنطِقُونَ . وَلا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾ [المرسلات: ٣٥، ٣٦]، فهذا فى حال، وثَمّ حال يسأل الخلائق فيها عن جميع أعمالهم، قال الله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ .عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر: ٩٢، ٩٣]؛ ولهذه قال قتادة: ﴿يَوْمَئِذٍ لاَّ يُسْأَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلا جَانٌ﴾، قال: قد كانت مسألة، ثم ختم على أفواه القوم، وتكلمت أيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون.

قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: لا يسألهم: هل عملتم كذا وكذا؟ لأنه أعلم بذلك منهم، ولكن يقول: لم عملتم كذا وكذا؟ فهو قول ثان.

وقال مجاهد فى هذه الآية: لا يسأل الملائكة عن المجرم، يُعْرَفُون بسيماهم.

وهذا قول[(٢)] ثالث. وكأن هذا بعد ما يؤمر بهم إلى النار، فذلك الوقت لا يسألون عن ذنوبهم، بل يقادون إليها[(٣)] ويلقون فيها، كما قال تعالى: ﴿يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ﴾ أى: بعلامات تظهر عليهم.

وقال الحسن وقتادة: يعرفونهم باسوداد الوجوه وزرقة العيون.

قلت: وهذا كما يعرف المؤمنون بالغرة والتحجيل من آثار الوضوء.

وقوله: ﴿فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالأَقْدَامِ﴾ أى: تجمع الزبانية ناصيته مع قدميه، ويلقونه فى النار كذلك.

وقال الأعمش، عن ابن عباس: يؤخذ بناصيته وقدمه[(٤)]، فيكسر كما يكسر الحطب فى التنور.

وقال الضحاك: يجمع بين ناصيته وقدميه[(٥)] فى سلسلة من وراء ظهره.

وقال السدى: يجمع بين ناصية الكافر وقدميه، فتربط ناصيته بقدمه، ويفتل ظهره.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا أبو توبة الربيع بن نافع، حدثنا معاوية بن سلام، عن أخيه زيد بن سلام، أنه سمع أبا سلام ـ يعنى جده ـ أخبرنى عبد الرحمن، حدثنى رجل من كندة قال: أتيت عائشة فدخلت عليها، وبينى وبينها حجاب، فقلت: حدثك رسول الله ﷺ أنه يأتى عليه ساعة لا يملك لأحد فيها شفاعة؟ قالت: نعم، لقد سألته عن هذا وأنا وهو فى شعَار واحد، قال: «نعم، حين يوضع الصراط، ولا أملك لأحد فيها شفاعة، حتى أعلم أين يسلك بى؟ ويوم تبيض وجوه وتسود وجوه، حتى أنظر ماذا يفعل بى ـ أو قال: يوحى ـ وعند الجسر حين يستحد ويستحر» فقالت: وما يستحد وما يستحر؟ قال: «يستحد حتى يكون مثل شفرة السيف، ويستحر حتى يكون

(١) زيادة من أ. (٢) فى م: «جواب». (٣) فى م: «إلى النار».
(٤) فى أ: «قدميه». (٥) فى أ: «قدمه».

مثل الجمرة، فأما المؤمن فيجيزه لا يضره، وأما المنافق فيتعلق حتى إذا بلغ أوسطه خر من قدمه فيهوى بيده إلى قدميه، فتضربه الزبانية بخطاف فى ناصيته وقدمه، فتقذفه فى جهنم، فيهوى[1] فيها مقدار خمسين عاما». قلت: ما ثقل الرجل؟ قالت: ثقل عشر خلفات سمان، فيومئذ يعرف المجرمون بسيماهم فيؤخذ بالنواصى والأقدام.

هذا حديث غريب [جدا][2]، وفيه ألفاظ منكر رفعها، وفى الإسناد من لم يُسَمّ، ومثله لا يحتج به[3]، والله أعلم.

وقوله: ﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ أى: هذه النار التى كنتم تكذبون بوجودها ها هى حاضرة تشاهدونها عياناً، يقال لهم ذلك تقريعا وتوبيخا وتصغيرا وتحقيرا.

وقوله: ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ﴾ أى: تارة يعذبون فى الجحيم، وتارة يسقون من الحميم، وهو الشراب الذى هو كالنحاس المذاب، يقطع الأمعاء والأحشاء، وهذه كقوله تعالى: ﴿إِذِ الأَغْلالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلاسِلُ يُسْحَبُونَ . فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ﴾[غافر: ٧١، ٧٢].

وقوله: ﴿آنٍ﴾ أى: حار، وقد بلغ الغاية فى الحرارة، لايستطاع من شدة ذلك.

قال ابن عباس في قوله: ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ﴾ قد انتهى غليه، واشتد حره. وكذا قال مجاهد، وسعيد بن جبير، والضحاك، والحسن، والثورى، والسدى.

وقال قتادة: قد أنَى طبخه منذ خلق الله السموات والأرض. وقال محمد بن كعب القرظى: يؤخذ العبد فيحرَّكُ بناصيته فى ذلك الحميم، حتى يذوب[4] اللحم ويبقى العظم والعينان فى الرأس. وهى كالتى يقول الله تعالى: ﴿فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ﴾ . والحميم الآن: يعنى الحار. وعن القرظى رواية أخرى: ﴿حَمِيمٍ آنٍ﴾ أى: حاضر. وهو قول ابن زيد أيضا، والحاضر، لا ينافى ما روى عن القرظى أولا أنه الحار، كقوله تعالى: ﴿تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ﴾ [الغاشية: ٥]، أى حارة شديدة الحر لا تستطاع. وكقوله: ﴿غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ﴾ [الأحزاب: ٥٣] يعنى: استواءه ونضجه. فقوله: ﴿حَمِيمٍ آنٍ﴾ أى: حميم حار جدا. ولما كان معاقبة العصاة[5] المجرمين وتنعيم المتقين من فضله ورحمته وعدله ولطفه بخلقه، وكان إنذاره لهم عذابه وبأسه مما يزجرهم عما هم فيه من الشرك والمعاصى وغير ذلك، قال ممتنا بذلك على بريته: ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ (٤٦) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٧) ذَوَاتَا أَفْنَانٍ (٤٨) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٩) فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ (٥٠) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥١) فِيهِمَا مِن كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ (٥٢) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٣) ﴾.

---

(١) فى م: «فهوى». (٢) زيادة من م.
(٣) رواه عبد الرزاق فى المصنف كما فى الدر المنثور (٧/ ٧٠٤) عن رجل من كنده بنحوه.
(٤) فى م: «حتى تذوب». (٥) فى أ: «العاصين».

قال ابن شَوْذب، وعطاء الخراسانى: نزلت هذه الآية: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾ فى أبى بكر الصديق.

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى، حدثنا محمد بن مصفى، حدثنا بَقيَّة، عن أبى بكر بن أبى مريم، عن عطية بن قيس فى قوله: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾ : نزلت فى الذى قال: أحرقونى بالنار، لعلى أضل الله، قال: تاب يوما وليلة بعد أن تكلم بهذا، فقبل الله منه وأدخله الجنة.

والصحيح أن هذه الآية عامة كما قاله ابن عباس وغيره، يقول تعالى: ولمن خاف مقامه بين يدى الله، عز وجل، يوم القيامة، ﴿وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى﴾[النازعات: ٤٠]، ولم يطغ ولا آثر الدنيا، وعلم أن الآخرة خير وأبقى، فأدى فرائض الله، واجتنب محارمه، فله يوم القيامة عند ربه جنتان، كما قال البخارى، رحمه الله.

حدثنا عبد الله بن أبى الأسود، حدثنا عبد العزيز بن عبد الصمد العَمّى، حدثنا أبو عِمْران الجَوْنى، عن أبى بكر بن عبد الله بن قيس، عن أبيه؛ أن رسول الله ﷺ قال: «جنتان من فضة، آنيتهما وما فيهما، وجنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم عز وجل إلا رداءُ الكبرياء على وجهه فى جنة عدن».

وأخرجه بقية الجماعة إلا أبا داود، من حديث عبد العزيز، به[١].

وقال حماد بن سلمة، عن ثابت، عن أبى بكر بن أبى موسى، عن أبيه ـ قال حماد: ولا أعلمه إلا قد رفعه ـ فى قوله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾ ، وفى قوله: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ [قال][٢]: جنتان من ذهب للمقربين، وجنتان من ورق لأصحاب اليمين .

وقال ابن جرير: حدثنا زكريا بن يحيى بن أبان المصرى[٣]، حدثنا ابن أبى مريم، أخبرنا محمد ابن جعفر، عن محمد بن أبى حَرْمَلَة، عن عطاء بن يَسَار، أخبرنى أبو الدرداء؛ أن رسول الله ﷺ قرأ يوما هذه الآية: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾، فقلت: وإن زنى أو سرق؟ فقال: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾ ، فقلت: وإن زنى وإن سرق؟ فقال: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾. فقلت: وإن زنى وإن سرق يا رسول الله؟ فقال: «وإن رغم أنف أبى الدرداء».

ورواه النسائى من حديث محمد بن أبى حَرْمَلَة، به[٤]. ورواه النسائى أيضا عن مؤمَّل[٥] بن هشام، عن إسماعيل، عن الجُرَيرى، عن موسى، عن محمد بن سعد بن أبى وقاص، عن أبى الدرداء، به[٦]. وقد روى موقوفا على أبى الدرداء. وروى عنه أنه قال: إن من خاف مقام ربه لم يزن

(١) صحيح البخارى برقم (٤٨٧٨) وصحيح مسلم برقم (١٨٠) وسنن الترمذى برقم (٢٥٢٨) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (٧٧٦٥) وسنن ابن ماجه برقم (١٨٦).

(٢) زيادة من أ. (٣) فى م: «المقرى».

(٤) تفسير الطبرى (٥/ ٤٩٠) «طـ. المعارف»، والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٥٦٠).

(٥) فى أ: «موسى».

(٦) النسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٥٦١).

ولم يسرق.

وهذه الآية عامة فى الإنس والجن، فهى من أدل دليل على أن الجن يدخلون الجنة إذا آمنوا واتقوا؛ ولهذا امتن الله تعالى على الثقلين بهذا الجزاء فقال: ﴿**وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ. فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ**﴾.

ثم نعت هاتين الجنتين فقال: ﴿**ذَوَاتَا أَفْنَانٍ**﴾ أى: أغصان نَضِرَة حسنة، تحمل من كل ثمرة نضيجة فائقة، ﴿**فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ**﴾. هكذا[(١)] قال عطاء الخراسانى وجماعة: إن الأفنان أغصان الشجَر، يمس بعضُها بعضا.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا عمرو بن على، حدثنا مسلم بن قتيبة، حدثنا عبد الله ابن النعمان، سمعت عكرمة يقول: ﴿**ذَوَاتَا أَفْنَانٍ**﴾، يقول: ظل الأغصان على الحيطان، ألم تسمع قول الشاعر حيث يقول:

ما هاجَ شَوقَكَ من هَديل حَمَامَةٍ ... تَدْعُو على فَنَن الغُصُون حَمَامـا

تَدْعُو أبا فَرْخَين صـادف طاويـا ... ذا مخلبين من الصقـور قَطاما[(٢)]

وحكى البغوى عن مجاهد، وعكرمة، والضحاك، والكلبى: أنه الغصن المستقيم[(٣)] [طوالا][(٤)].

قال: وحدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا عبد السلام بن حرب، حدثنا عطاء بن السائب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس: ﴿**ذَوَاتَا أَفْنَانٍ**﴾ : ذواتا ألوان.

قال: و[قد][(٥)] روى عن سعيد بن جبير، والحسن، والسدى، وخُصَيف، والنضر بن عربى[(٦)]، وأبى سِنَان مثل ذلك. ومعنى هذا القول أن فيهما فنونا من الملاذ، واختاره ابن جرير.

وقال عطاء: كل غصن يجمع فنونا من الفاكهة. وقال الربيع بن أنس: ﴿**ذَوَاتَا أَفْنَانٍ**﴾ :واسعتا الفناء.

وكل هذه الأقوال صحيحة، ولا منافاة بينها، والله أعلم. وقال قتادة: ﴿**ذَوَاتَا أَفْنَانٍ**﴾ ينبئ بسعتها وفضلها[(٧)]ومزيتها على ما سواها.

وقال محمد بن إسحاق، عن يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير، عن أبيه، عن أسماء[(٨)] قالت: سمعت رسول الله ﷺ ـ وذكر سدرة المنتهى ـ فقال: «يسير فى ظل الفَنَن منها الراكب مائة سنة ـ أو قال: يستظل فى ظل الفَنَن منها مائة راكب ـ فيها فراش الذهب، كأن ثمرها القِلال».

(١) فى أ: «وكذا».

(٢) رواه عبد بن حميد وابن المنذر وأبو بكر بن حيان فى الفنون وابن الأنبارى فى الوقف والابتداء كما فى الدر المنثور (٧/ ٧٠٩).

(٣) فى م: «الغصن المنيف طولا». (٤) زيادة من أ. (٥) زيادة من م.

(٦) فى أ: «عدى». (٧) فى م: «بفضلها وسعتها».

(٨) فى م: «أسماء بنت يزيد»، وفى أ: «أسماء بنت أبى بكر».

رواه الترمذي من حديث يونس بن[1] بكير، به[2].

﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾ أي: تسرحان لسقي تلك الأشجار والأغصان فتثمر من جميع الألوان، ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾: قال الحسن البصري: إحداهما يقال لها: «تسنيم»، والأخرى «السلسبيل».

وقال عطية: إحداهما من ماء غير آسن، والأخرى من خمر لذة للشاربين.

ولهذا قال بعد هذا: ﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾ أي: من جميع أنواع الثمار مما يعلمون وخير مما يعلمون، ومما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

قال إبراهيم بن الحكم بن أبان، عن أبيه، عن عكرمة، عن ابن عباس: ما في الدنيا ثمرة حلوة ولا مرة إلا وهي في الجنة حتى الحنظلة[3].

وقال ابن عباس: ليس في الدنيا مما في الآخرة إلا الأسماء، يعني: أن بين ذلك بَونًا عظيما، وفرقًا بينا في التفاضل.

﴿مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ (٥٤) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٥) فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلا جَانٌّ (٥٦) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٧) كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ (٥٨) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٩) هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلاَّ الإِحْسَانُ (٦٠) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦١)﴾.

يقول تعالى: ﴿مُتَّكِئِينَ﴾ يعني: أهل الجنة. والمراد بالاتكاء هاهنا: الاضطجاع. ويقال: الجلوس على صفة التربّع. ﴿عَلَىٰ فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ﴾ وهو: ما غلظ من الديباج. قاله عكرمة، والضحاك، وقتادة.

وقال أبو عِمْران الجَوْني: هو الديباج المغرّى[4] بالذهب. فنبه على شرف الظهارة بشرف البطانة. وهذا من التنبيه بالأدنى على الأعلى.

قال أبو إسحاق، عن هُبَيْرة بن يَرِيم[5]، عن عبد الله بن مسعود قال: هذه البطائن فكيف لو رأيتم الظواهر؟

وقال مالك بن دينار: بطائنها من إستبرق، وظواهرها من نور.

---

(١) في: م، أ: «عن».

(٢) سنن الترمذي برقم (٢٥٤١) وقال الترمذي: «هذا حديث حسن غريب».

(٣) في م: «الحنظل». (٤) في م، أ: «المعمول». (٥) في أ: «سرية».

وقال سفيان الثورى ـ أو شريك ـ: بطائنها من إستبرق، وظواهرها من نور جامد.

وقال القاسم بن محمد[١]: بطائنها من إستبرق، وظواهرها من الرحمة.

وقال ابن شَوْذَب، عن أبى عبد الله الشامى: ذكر الله البطائن ولم يذكر الظواهر، وعلى الظواهر المحابس، ولا يعلم ما تحت المحابس إلا الله. ذكر ذلك كله الإمام ابن أبى حاتم.

﴿وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ﴾ أى: ثمرها قريب إليهم، متى شاؤوا تناولوه، على أى صفة كانوا، كما قال: ﴿قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ﴾ [الحاقة: ٢٣]، وقال: ﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلا﴾ [الإنسان: ١٤] أى: لا تمنع ممن تناولها، بل تنحط إليه من أغصانها، ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

ولما ذكر الفرش وعظمتها قال بعد ذلك: ﴿فِيهِنَّ﴾ أى: فى الفرش ﴿قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ﴾ أى غضيضات عن غير أزواجهن، فلا يرين شيئا أحسن فى الجنة من أزواجهن. قاله ابن عباس، وقتادة، وعطاء الخراسانى، وابن زيد.

وقد ورد أن الواحدة منهن تقول لبعلها: والله ما أرى فى الجنة شيئا أحسن منك، ولا فى الجنة شىء أحب إلى منك، فالحمد لله الذى جعلك لى وجعلنى لك.

﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلا جَانٌ﴾ أى: بل هن أبكار عرب أتراب، لم يطأهن أحد قبل أزواجهن من الإنس والجن. وهذه أيضا من الأدلة على دخول مؤمنى الجن الجنة.

قال أرطاة بن المنذر: سئل ضَمْرَةَ بن حبيب: هل يدخل الجن الجنة؟ قال: نعم، وينكحون، للجن جنيات، وللإنس إنسيات. وذلك قوله: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلا جَانٌّ. فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

ثم قال ينعتهن للخطاب: ﴿كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ﴾، قال مجاهد، والحسن، [والسدى][٢]، وابن زيد، وغيرهم: فى صفاء الياقوت وبياض المرجان، فجعلوا المرجان هاهنا اللؤلؤ.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا محمد بن حاتم، حدثنا عَبيدة بن حُمَيْد، عن عطاء بن السائب، عن عمرو بن ميمون الأودى[٣]، عن عبد الله بن مسعود، عن النبى ﷺ قال: «إن المرأة من نساء أهل الجنة ليرى بياض ساقها من وراء سبعين حلة من الحرير[٤]، حتى يرى مخها، وذلك أن الله تعالى يقول: ﴿كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ﴾، فأما الياقوت فإنه حَجَرٌ لو أدخلت فيه سلكا ثم استصفيته لرأيته من ورائه».

وهكذا رواه الترمذى من حديث عَبِيْدَة بن حميد وأبى الأحوص، عن عطاء بن السائب، به[٥]. ورواه موقوفا، ثم قال: وهو أصح[٦].

(١) فى م: «مخيمر».
(٢) زيادة من: م.
(٣) فى أ: «الأزدى».
(٤) فى م: «حرير».
(٥) سنن الترمذى برقم (٢٥٣٣).
(٦) سنن الترمذى برقم (٢٥٣٤).

وقال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا حماد بن سلمة، أخبرنا يونس، عن محمد بن سيرين، عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ، قال: «للرجل من أهل الجنة زوجتان من الحور العين، على كل واحدة سبعون حلة، يرى مخ ساقها من وراء الثياب».

تفرد به الإمام أحمد من هذا الوجه(١). وقد رواه مسلم من حديث إسماعيل بن عُلَيَّة، عن أيوب، عن محمد بن سيرين، قال: إما تفاخروا وإما تذاكروا، الرجال أكثر فى الجنة أم النساء؟ فقال أبو هريرة: أو لم يقل أبو القاسم ﷺ: «إن أول زمرة تدخل الجنة على صورة القمر ليلة البدر، والتى تليها على أَضْوَء كوكب دُرّى فى السماء ، لكل امرئ منهم زوجتان اثنتان، يُرَى مخ سوقهما من وراء اللحم، وما فى الجنة أعزب»(٢).

وهذا الحديث مُخَرّجُ فى الصحيحين، من حديث هَمّام بن مُنَبّه وأبى زُرْعَة، عن أبى هريرة، رضى الله عنه(٣).

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو النضر، حدثنا محمد بن طلحة، عن حميد، عن أنس؛ أن رسول الله ﷺ قال: «لَغَدْوَةٌ فى سبيل الله أو روحة خير من الدنيا وما فيها، ولَقَابُ قوس أحدكم ـ أو موضع قيده (٤)ـ يعنى: سوطه ـ من الجنة خير من الدنيا وما فيها، ولو اطلعت امرأة من نساء أهل الجنة إلى الأرض لملأت ما بينهما ريحا، ولطاب ما بينهما، ولَنَصِيفها على رأسها خير من الدنيا وما فيها».

ورواه البخارى من حديث أبى إسحاق، عن حميد، عن أنس بنحوه(٥).

وقوله: ﴿**هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلاَّ الإِحْسَانُ**﴾ أى: ما لمن أحسن فى الدنيا العمل(٦) إلا الإحسان إليه فى الدار الآخرة. كما قال تعالى: ﴿**لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ**﴾ [يونس: ٢٦].

وقال البغوى: أخبرنا أبو سعيد الشَّريحى، حدثنا أبو إسحاق الثعلبى، أخبرنى ابن فَنجُويَه، حدثنا ابن شيبة، حدثنا إسحاق بن إبراهيم بن بَهْرَام، حدثنا الحجاج بن يوسف المُكْتِب، حدثنا بِشْر ابن الحسين، عن الزبير بن عَدِىّ، عن أنس بن مالك، قال: قرأ رسول الله، ﷺ: ﴿**هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلاَّ الإِحْسَانُ**﴾، قال: «هل تدرون ما قال ربكم؟»، قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «يقول: هل جزاء ما أنعمت عليه بالتوحيد إلا الجنة»(٧).

ولما كان فى الذى ذُكِرَ نعم عظيمة لا يقاومها عمل، بل مجرد تفضل وامتنان، قال بعد ذلك

(١) المسند (٢/ ٣٤٥).

(٢) صحيح مسلم برقم (٢٨٣٤).

(٣) صحيح البخارى برقم (٣٢٤٥) وصحيح مسلم برقم (٢٨٣٤).

(٤) فى م: «قده»، وفى أ: «قدمه».

(٥) المسند (٣/ ١٤١) وصحيح البخارى برقم (٢٧٩٦).

(٦) فى م: «العمل فى الدنيا».

(٧) معالم التنزيل للبغوى (٧/ ٤٥٦) وفيه بشر الأصبهانى يروى عن الزبير بن عدى عن أنس بنسخة موضوعة.

كله: ﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾.

ومما يتعلق بقوله تعالى: ﴿ولمن خاف مقام ربه جنتان﴾، ما رواه الترمذى والبغوى، من حديث أبى النضر هاشم بن القاسم، عن أبى عقيل الثقفى، عن أبى فروة يزيد بن سنان الرّهاوى، عن بُكَيْر ابن فيروز[١]، عن أبى هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «من خاف أدلج، ومن أدلج بلغ المنزل، ألا إن سلعة الله غالية، ألا إن سلعة الله الجنة».

ثم قال الترمذى: غريب، لا نعرفه إلا من حديث أبى النضر[٢].

وروى البغوى من حديث على بن حُجْر، عن إسماعيل بن جعفر، عن محمد بن أبى حَرْمَلَة ـ مولى حويطب بن عبد العزى ـ عن عطاء بن يَسَار، عن أبى الدرداء؛ أنه سمع رسول الله ﷺ يقص على المنبر وهو يقول: ﴿ولمن خاف مقام ربه جنتان﴾، قلت: وإن زنى وإن سرق يا رسول الله؟ فقال رسول الله ﷺ: ﴿ولمن خاف مقام ربه جنتان﴾. فقلت الثانية: وإن زنى وإن سرق يا رسول الله؟ فقال [رسول الله ﷺ][٣]: ﴿ولمن خاف مقام ربه جنتان﴾. فقلت الثالثة: وإن زنى وإن سرق يا رسول الله؟ فقال: «وإن، رغم أنف أبى الدرداء»[٤].

﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ (٦٢) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦٣) مُدْهَامَّتَانِ (٦٤) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦٥) فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ (٦٦) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦٧) فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ (٦٨) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦٩) فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ (٧٠) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧١) حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ (٧٢) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧٣) لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلا جَانٌّ (٧٤) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧٥) مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ (٧٦) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧٧) تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ (٧٨)﴾.

هاتان الجنتان دون اللتين قبلهما فى المرتبة والفضيلة والمنزلة بنص القرآن، قال الله تعالى: ﴿ومن دونهما جنتان﴾.

وقد تقدم فى الحديث: «جنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما، وجنتان من فضة آنيتهما وما فيهما، فالأوليان[٥] للمقربين، والأخريان[٦] لأصحاب اليمين».

---

(١) فى أ: «فيروز الديلمى».
(٢) سنن الترمذى برقم (٢٤٥٠) وتفسير البغوى (٧/ ٤٥١).
(٣) زيادة من م، أ.
(٤) معالم التنزيل للبغوى (٧/ ٤٥٢).
(٥) فى م: «فالأولتان».
(٦) فى م: «والأخيرتان».

وقال أبو موسى: جنتان من ذهب للمقربين، وجنتان من فضة لأصحاب اليمين.

وقال ابن عباس: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾: من دونهما فى الدرج. وقال ابن زيد: من دونهما فى الفضل.

والدليل على شرف الأولين على الآخرين وجوه: أحدها: أنه نعت الأولين قبل هاتين، والتقديم يدل على الاعتناء ثم قال: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾. وهذا ظاهر فى شرف التقدم[١] وعلوه على الثانى.

وقال هناك: ﴿ذَوَاتَا أَفْنَانٍ﴾: وهى الأغصان أو الفنون فى الملاذ، وقال هاهنا: ﴿مُدْهَامَّتَانِ﴾ أى: سوداوان من شدة الرى.

قال ابن عباس فى قوله: ﴿مُدْهَامَّتَانِ﴾: قد اسودتا من الخضرة، من شدة الرى من الماء.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا ابن فُضَيْل، حدثنا عطاء بن السائب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس: ﴿مُدْهَامَّتَانِ﴾:قال: خضراوان. ورُوى عن أبى أيوب الأنصارى، وعبد الله بن الزبير، وعبد الله بن أبى أَوْفَى، وعكرمة، وسعيد بن جُبَير، ومجاهد ـ فى إحدى الروايات ـ وعطاء، وعطية العَوْفى، والحسن البصرى، ويحيى بن رافع، وسفيان الثورى، نحو ذلك.

وقال محمد بن كعب: ﴿مُدْهَامَّتَانِ﴾ : ممتلئتان من الخضرة. وقال قتادة: خضراوان من الرى ناعمتان. ولا شك فى نضارة الأغصان على الأشجار المشبكة بعضها فى بعض. وقال هناك: ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾، وقال هاهنا: ﴿نَضَّاخَتَانِ﴾، وقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: أى فياضتان. والجرى أقوى من النضخ.

وقال الضحاك: ﴿نَضَّاخَتَانِ﴾ أى: ممتلئتان لا تنقطعان.

وقال هناك: ﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴾ ، وقال هاهنا: ﴿فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾، ولا شك أن الأولى أعم وأكثر فى الأفراد والتنويع على فاكهة، وهى نكرة فى سياق الإثبات لا تعم؛ ولهذا فسر قوله: ﴿وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾ من باب عطف الخاص على العام، كما قرره البخارى وغيره، وإنما أفرد النخل والرمان بالذكر لشرفهما على غيرهما.

قال عبد بن حميد: حدثنا يحيى بن عبد الحميد، حدثنا حصين بن عمر، حدثنا مخارق، عن طارق بن شهاب، عن عمر بن الخطاب قال: جاء أناس من اليهود إلى رسول الله ﷺ فقالوا: يا محمد، أفى[٢] الجنة فاكهة؟ قال: «نعم، فيها فاكهة ونخل ورمان». قالوا: أفيأكلون كما يأكلون فى الدنيا ؟ قال: «نعم وأضعاف». قالوا: فيقضون الحوائج ؟ قال: «لا، ولكنهم يعرقون ويرشحون، فيذهب الله ما فى بطونهم من أذى»[٣].

(١) فى أ: «التقديم». (٢) فى م: «فى».
(٣) المنتخب برقم (٣٥) وفيه حصين بن عمر وهو متروك.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبى، حدثنا الفَضْل بن دُكَيْن، حدثنا سفيان، عن حماد، عن سعيد ابن جُبَير، عن ابن عباس قال: نخل الجنة سعفها كسوة لأهل الجنة، منها مُقَطَّعَاتهم، ومنها حُلَلهم وكَرَبُها ذهب أحمر، وجذوعها زمرد أخضر، وثمرها أحلى من العسل، وألين من الزبد، وليس له عجم.

وحدثنا أبى: حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا حماد ـ هو ابن سلمة ـ عن أبى هارون، عن أبى سعيد الخدرى، أن رسول الله ﷺ قال: «نظرت إلى الجنة فإذا الرّمانة من رمانها كمثل البعير المُقْتَب»(١).

ثم قال: ﴿فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ﴾ قيل: المراد خيرات كثيرة حسنة فى الجنة، قاله قتادة. وقيل: خيرات جمع خيرة، وهى المرأة الصالحة الحسنة الخُلُق الحسنة الوجه، قاله الجمهور. وروى مرفوعا عن أم سلمة(٢). وفى الحديث الآخر الذى سنورده فى سورة «الواقعة»(٣): أن الحور العين يغنين: نحن الخيرات الحسان، خلقنا لأزواج كرام. ولهذا قرأ بعضهم: «فيهن خيّرات»، بالتشديد ﴿حِسَانٌ. فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

ثم قال: ﴿حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ﴾، وهناك قال: ﴿فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ﴾، ولا شك أن التى قد قَصَرَت طرفها بنفسها أفضل ممن قُصرت، وإن كان الجميع مخدرات.

قال ابن أبى حاتم: حدثنا عمرو بن عبد الله الأودى، حدثنا وكيع، عن سفيان، عن جابر، عن القاسم بن أبى بزَّة، عن أبى عبيدة، عن مسروق، عن عبد الله قال: إن لكل مسلم خيَرة، ولكل خَيرة خيمة، ولكل خيمة أربعة أبواب، يدخل عليها(٤) كل يوم تحفة وكرامة وهدية لم تكن قبل ذلك، لا مَرَّاحات ولا طَمَّاحات، ولا بخرات ولا ذفرات، حور عين، كأنهن بيض مكنون.

وقوله: ﴿فِي الْخِيَامِ﴾، قال البخارى:

حدثنا محمد بن المثنى، حدثنا عبد العزيز بن عبد الصمد، حدثنا أبو عمران الجونى، عن أبى بكر بن عبد الله بن قيس، عن أبيه؛ أن رسول الله ﷺ قال: «إن فى الجنة خيمة من لؤلؤة مجوفة، عرضها ستون(٥) ميلا، فى كل زاوية منها أهلٌ ما يَرون الآخرين، يطوف عليهم المؤمنون».

ورواه أيضا من حديث أبى عمران، به(٦). وقال: «ثلاثون ميلا». وأخرجه مسلم من حديث أبى عمران، به، ولفظه: «إن للمؤمن فى الجنة لخيمةً من لؤلؤة واحدة مجوفة، طولها ستون ميلا،

---

(١) رواه الثعلبى فى تفسيره كما فى تخريج الإحياء (٦/ ٢٧٨٧) وابن عساكر فى تاريخ دمشق كما فى تهذيبه (٥/ ٤٦٢) من طريق أبى هارون العبدى به.
وأبو هارون العبدى اسمه عمارة بن جوين كذبه بعض الأئمة.
(٢) رواه الطبرانى فى المعجم الكبير (٢٣/ ٣٦٧) مطولا وفيه سليمان بن أبى كريمة، وهو ضعيف.
(٣) عند تفسير الآيات: ٣٥ ـ ٣٨ من نفس السورة
(٤) فى م: «عليهم».
(٥) فى أ: «سبعون».
(٦) صحيح البخارى برقم (٤٨٧٩)، (٣٢٤٣).

للمؤمن فيها أهل[١] يطوف عليهم المؤمن، فلا يرى بعضهم بعضا»[٢].

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا الحسن بن أبى الربيع، حدثنا عبد الرزَّاق، أخبرنا معمر، عن قتادة، أخبرنى خُلَيْد العَصَرى، عن أبى الدرداء قال: الخيمة لؤلؤة واحدة، فيها سبعون بابا من در.

وحدثنا أبى، حدثنا عيسى بن أبى فاطمة، حدثنا جرير، عن هشام، عن محمد بن المثنى، عن ابن عباس فى قوله: ﴿حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ﴾، قال: [فى][٣] خيام اللؤلؤ، وفى الجنة خيمة واحدة من لؤلؤة، أربعة فراسخ فى أربعة فراسخ، عليها أربعة آلاف مصراع من الذهب.

وقال عبد الله بن وهب: أخبرنا عمرو أن دَرَّاجا أبا السَّمح حدثه، عن أبى الهيثم، عن أبى سعيد، عن النبى ﷺ، قال: «أدنى أهل الجنة منزلة الذى له ثمانون ألف خادم، واثنتان وسبعون زوجة، وتنصب له قبة من لؤلؤ وزبرجد وياقوت، كما بين الجابية وصنعاء».

ورواه الترمذى من حديث عمرو بن الحارث، به[٤].

وقوله: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلا جَانٌ﴾: [قد][٥] تقدم مثله سواء، إلا أنه زاد فى وصف الأوائل بقوله: ﴿كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ. فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

وقوله: ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ﴾: قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: الرفرف: المحابس. وكذا قال مجاهد، وعكرمة، والحسن، وقتادة، والضحاك، وغيرهما: هى المحابس. وقال العلاء بن بدر[٦]: الرفرف على السرير، كهيئة المحابس المتدلى.

وقال عاصم الجحدرى: ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ﴾ يعنى: الوسائد. وهو قول الحسن البصرى فى رواية عنه.

وقال أبو داود الطيالسى، عن شعبة، عن أبى بشر، عن سعيد بن جبير فى قوله: ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ﴾، قال: الرفرف: رياض الجنة.

وقوله: ﴿وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ﴾: قال ابن عباس، وقتادة، والضحاك، والسدى: العبقرى: الزرابى. وقال سعيد بن جبير: هى عتاق الزرابى، يعنى: جيادها.

وقال مجاهد: العبقرى: الديباج.

وسئل الحسن البصرى عن قوله: ﴿وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ﴾ فقال: هى بسط أهل الجنة ـ لا أبالكم ـ

---

(١) فى م: «أهلون».

(٢) صحيح مسلم برقم (٢٨٣٨).

(٣) زيادة من م.

(٤) سنن الترمذى برقم (٢٥٦٢) وقال: «هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث رشدين». ولم يتفرد به رشدين بل تابعه ابن وهب كما هنا، وفى إسناده دراج يروى عن أبى الهيثم مناكير.

(٥) زيادة من: م، أ. (٦) فى م: «زيد».

فاطلبوها. وعن الحسن [البصرى][١] رواية: أنها المرافق. وقال زيد بن أسلم: العبقرى: أحمر وأصفر وأخضر. وسئل العلاء بن زيد عن العبقرى، فقال: البسط أسفل من ذلك. وقال أبو حَزْرَة[٢] يعقوب ابن مجاهد: العبقرى: من ثياب أهل الجنة، لا يعرفه أحد. وقال أبو العالية: العبقرى: الطنافس المخْمَلة، إلى الرقة ما هى. وقال القتيبى: كل ثوب مُوَشّى عند العرب عبقرى. وقال أبو عبيدة: هو منسوب إلى أرض يعمل بها الوشى. وقال الخليل بن أحمد: كل شيء يسر[٣] من الرجال وغير ذلك يسمى عند العرب عبقريا. ومنه قول النبى ﷺ فى عمر: «فلم أر عبقريا يفرى فريه»[٤].

وعلى كل تقدير فصفة مرافق أهل الجنتين الأوليين أرفع وأعلى من هذه الصفة؛ فإنه قد قال هناك: ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ﴾، فنعت بطائن فرشهم وسكت عن ظهائرها[٥]، اكتفاءً بما مدح به البطائن بطريق الأولى والأحرى. وتمام الخاتمة أنه قال بعد الصفات المتقدمة: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ فوصف أهلها بالإحسان وهو أعلى المراتب والنهايات، كما فى حديث جبريل لما سأل عن الإسلام، ثم الإيمان. فهذه وجوه عديدة فى تفضيل الجنتين الأوليين على هاتين الأخريين[٦]، ونسأل الله الكريم الوهاب أن يجعلنا من أهل الأوليين.

ثم قال: ﴿تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ أى: هو أهل أن يجل فلا يعصي، وأن يكرم فيعبد، ويشكر فلا يكفر، وأن يذكر فلا ينسى.

وقال ابن عباس: ﴿ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾: ذى العظمة والكبرياء.

وقال الإمام أحمد: حدثنا موسى بن داود، حدثنا عبد الرحمن بن ثابت بن ثوبان، عن عمير[٧] ابن هانئ، عن أبى العذراء، عن أبى الدرداء، قال: قال رسول الله ﷺ: «أجِدّوا الله يغفر لكم»[٨].

وفى الحديث الآخر: «إن من إجلال الله إكرام ذى الشيبة المسلم، وذى السلطان، وحامل القرآن[٩] غير الغالى فيه ولا الجافى عنه»[١٠].

وقال الحافظ أبو يعلى: حدثنا أبو يوسف الجيزى[١١]، حدثنا مؤمل بن إسماعيل، حدثنا حماد، حدثنا حميد الطويل، عن أنس؛ أن رسول لله ﷺ قال: «ألظّوا بيا ذا الجلال والإكرام».

وكذا رواه الترمذى، عن محمود بن غيلان، عن مؤمل بن إسماعيل، عن حماد بن سلمة، به[١٢]،

---

(١) زيادة من م، أ. (٢) فى أ: «حزيرة». (٣) فى م، أ: «نفيس».
(٤) صحيح البخارى برقم (٣٦٨٢) وصحيح مسلم برقم (٢٣٩٣) من حديث عبد الله بن عمر رضى الله عنهما.
(٥) فى م: «ظهارتها». (٦) فى م: «الأخيرتين». (٧) فى أ: «عمر».

(٨) المسند (٥/ ١٩٩) وقال الهيثمى فى المجمع (١/ ٣١): «وفى إسناده أبو العذراء وهو مجهول».
(٩) فى م: «الذكر».
(١٠) رواه أبو داود فى السنن برقم (٤٨٤٣) والبيهقى فى السنن الكبرى (٨/ ١٦٣) من حديث أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه.
(١١) فى الأصل وبقية النسخ: «الحربى» والتصويب من أبى يعلى.
(١٢) مسند أبى يعلى (٦/ ٤٤٥) وسنن الترمذى برقم (٣٥٢٢).
وقال ابن طاهر: «وقد تابع المؤمل فيه روح بن عبادة وروح حافظ ثقة».
أخرجه ابن مردويه فى تفسيره كما فى تخريج الكشاف للزيلعى (٣/ ٣٩٦) من طريق روح بن عبادة عن حماد بن سلمة عن

ثم قال: غلط المؤمل فيه، وهو غريب وليس بمحفوظ، وإنما يروى هذا عن حماد بن سلمة، عن حميد، عن الحسن، عن النبي ﷺ.

وقال الإمام أحمد: حدثنا إبراهيم بن إسحاق، حدثنا عبد الله بن المبارك، عن يحيى بن حسان المقدسي، عن ربيعة بن عامر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ألظوا بذى الجلال والإكرام».

ورواه النسائي من حديث عبد الله بن المبارك، به[١].

قال الجوهري: ألظ فلان بفلان: إذا لزمه[٢].

وقال ابن مسعود: «ألظوا بيا ذا الجلال والإكرام» أي: الزموا. ويقال: الإلظاظ هو الإلحاح.

قلت: وكلاهما قريب من الآخر ـ والله أعلم ـ وهو المداومة واللزوم والإلحاح. وفي صحيح مسلم والسنن الأربعة، من حديث عبد الله بن الحارث، عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ إذا سلم لا يقعد ـ يعني: بعد الصلاة ـ إلا قدر ما يقول: «اللهم أنت السلام ومنك السلام، تباركت ذا الجلال والإكرام»[٣].

آخر تفسير سورة الرحمن، ولله الحمد [والمنة][٤]

(١) المسند (٤/١٧٧) والنسائي في السنن الكبرى برقم (١١٥٦٣).

(٢) لسان العرب (٧/٤٥٩).

(٣) صحيح مسلم برقم (٥٩٢) وسنن أبي داود برقم (١٥١٢) وسنن الترمذي برقم (٢٩٨) وسنن النسائي (٣/٦٩) وسنن ابن ماجه برقم (٩٢٤).

(٤) زيادة من م، أ

٥٥ ـ سورة الرحمن
(مدنية وهى ثمان وسبعون آية)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الرَّحْمَٰنُ (١) ٥٥ الرحمن

عَلَّمَ الْقُرْآنَ (٢) ٥٥ الرحمن

خَلَقَ الْإِنسَانَ (٣) ٥٥ الرحمن

عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (٤) ٥٥ الرحمن

الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ (٥) ٥٥ الرحمن

﴿سورة الرحمن مكية أو مدنية أو متبعضة وآياتها ثمان وسبعون﴾

(بسم الله الرحمن الرحيم) لما عد فى السورة السابقة ما نزل بالأمم السالفة من ضروب نقم الله عز وجل وبين عقيب كل ضرب منها أن القرآن قد يسر لحمل الناس على التذكر والاتعاظ ونعى عليهم إعراضهم عن ذلك عدد فى هذه السورة الكريمة ما أفاض على كافة الأنام من فنون نعمه الدينية والدنيوية الأنفسية والآفاقية وأنكر عليهم إثر كل فن منها إخلالهم بمواجب شكرها وبدىء بتعليم القرآن
٢،١ فقيل (الرحمن) (علم القرآن) لأنه أعظم النعم شأناً وأرفعها مكاناً كيف لا وهو مدار للسعادة الدينية والدنيوية عيار على سائر الكتب السماوية ما من مرصد يرنو إليه أحداق الأمم إلا وهو منشؤه ومناطه ولا مقصد يمتد إليه أعناق الهمم إلا وهو منهجه وصراطه وإسناد تعليمه إلى اسم الرحمن للإيذان بأنه من آثار الرحمة الواسعة وأحكامها وقد اقتصر على ذكره تنبيهاً على أصالته وجلالة قدره ثم قيل
٤،٣ (خلق الإنسان) (علمه البيان) تعييناً للمعلم وتبييناً لكيفية التعليم والمراد بخلق الإنسان إنشاؤه على ماهو عليه من القوى الظاهرة والباطنة والبيان هو التعبير عما فى الضمير وليس المراد بتعليمه مجرد تمكين الإنسان من بيان نفسه بل منه ومن فهم بيان غيره أيضاً إذ هو الذى يدور عليه تعليم القرآن والجمل
٥ الثلاث أخبار مترادفة للرحمن وإخلاء الأخيرتين عن العاطف لورودها على منهاج التعديد (الشمس والقمر بحسبان) أى يجريان بحساب مقدر فى بروجهما ومنازلهما بحيث ينتظم بذلك أمور الكائنات السفلية وتختلف الفصول والأوقات وتعلم السنون والحساب .

وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴿٦﴾ ٥٥ الرحمن

وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ﴿٧﴾ ٥٥ الرحمن

أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ﴿٨﴾ ٥٥ الرحمن

وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ ﴿٩﴾ ٥٥ الرحمن

---

٦ (والنجم) أى النبات الذى ينجم أى يطلع من الأرض ولا ساق له (والشجر) أى الذى له ساق
* (يسجدان) أى ينقادان له تعالى فيما يريد بهما طبعاً انقياد الساجدين من المكلفين طوعا والجملتان خبران
آخران للرحمن جردتا عن الرابط اللفظى تعويلا على كمال قوة الارتباط المعنوى إذ لا يتوهم ذهاب
الوهم إلى كون حال الشمس والقمر بتسخير غيره تعالى ولا إلى كون سجود النجم والشجر لما سواه
تعالى كأنه قيل الشمس والقمر بحسبان والنجم والشجر يسجدان له وإخلاء الجملة الأولى عن العاطف
لما ذكر من قبل وتوسيط العاطف بينها وبين الثانية لتناسبهما من حيث التقابل لما أن الشمس والقمر
علويان والنجم والشجر سفليان ومن حيث إن كلا من حال العلويين وحال السفليين من باب الانقياد
٧ لأمر الله عز وجل (والسماء رفعها) أى خلقها مرفوعة محلا ورتبة حيث جعلها منشأ أحكامه وقضاياه
ومتنزل أوامره ومحل ملائكته وفيه من التنبيه على كبرياء شأنه وعظم ملكه وسلطانه ما لا يخفى وقرىء
* بالرفع على الابتداء (ووضع الميزان) أى شرع العدل وأمر به بأن وفر كل مستحق ما استحقه
ووفى كل ذى حق حقه حتى انتظم به أمر العالم واستقام كما قال عليه الصلاة والسلام بالعدل قامت
السموات والأرض قيل فعلى هذا الميزان القرآن وهو قول الحسين بن الفضل كما فى قوله تعالى وأنزلنا
معهم الكتاب والميزان وقيل هو ما يعرف به مقادير الأشياء من ميزان ومكيال ونحوهما وهو قول
الحسن وقتادة والضحاك فالمعنى خلقه موضوعا مخفوضاً على الأرض حيث علق به أحكام عباده وقضاياهم
٨ وما تعبدهم به من التسوية والتعديل فى أخذهم وإعطائهم (ألا تطغوا فى الميزان) أى لئلا تطغوا فيه
على أن أن ناصبة ولا نافية ولام العلة مقدرة متعلقة بقوله تعالى ووضع الميزان أو أى لا تطغوا على
أنها مفسرة لما فى الشرع من معنى القول ولا ناهية أى لا تعتدوا ولا تتجاوزوا الإنصاف وقرىء
٩ لا تطغوا على إرادة القول (وأقيموا الوزن بالقسط) قوموا وزنكم بالعدل وقيل أقيموا لسان الميزان
* بالقسط والعدل وقيل الإقامة باليد والقسط بالقلب (ولا تخسروا الميزان) أى لا تنقصوه أمر أولا
بالتسوية ثم نهى عن الطغيان الذى هو اعتداء وزيادة ثم عن الخسران الذى هو تطفيف ونقصان وكرر
لفظ الميزان تشديداً للتوصية به وتأكيداً للأمر باستعماله والحث عليه وقرىء ولا تخسروا بفتح التاء
وضم السين وكسرها يقال خسر الميزان يخسره ويخسره وبفتح السين أيضاً على أن الأصل ولا تخسروا

وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ﴿١٠﴾ ٥٥ الرحمٰن

فِيهَا فَـٰكِهَةٌ وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ ﴿١١﴾ ٥٥ الرحمٰن

وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ ﴿١٢﴾ ٥٥ الرحمٰن

فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾ ٥٥ الرحمٰن

١٠ فى الميزان لحذف الجار وأوصل الفعل (والأرض وضعها) أى خفضها مدحوة على الماء (للأنام) أى الخلق قيل المراد به كل ذى روح وقيل كل ماعلى ظهر الأرض من دابة وقيل الثقلان وقوله تعالى
١١ (فيها فاكهة) الخ استئناف مسوق لتقرير ماأفادته الجملة السابقة من كون الأرض موضوعة لمنافع الأنام وتفصيل المنافع العائدة إلى البشر وقيل حال مقدرة من الأرض فالأحسن حينئذ أن يكون الحال هو
* الجار والمجرور وفاكهة رفع على الفاعلية أى فيها ضروب كثيرة مما يتفكه به (والنخل ذات الأكمام) هى أوعية الثمر جمع كم أو كل مايكم أى يغطى من ليف وسعف وكفرى فإنه مما ينتفع به كالمكموم
١٢ من ثمره وجماره وجذوعه (والحب) هو مايتغذى به كالحنطة والشعير (ذو العصف) هوورق الزرع
* وقيل التبن (والريحان) قيل هو الرزق أريد به اللب أى فيها مايتلذذ به من الفواكه والجامع بين التلذذ والتغذى وهو ثمر النخل وما يتغذى به وهو الحب الذى له عصف هو علف الأنعام وريحان هو مطعم الناس وقرىء والحب ذا العصف والريحان أى خلق الحب والريحان أو أخص ويجوز أن يرادوذا الريحان لحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه والريحان إما فعيلان من روح فقلبت الواو ياء وأدغم ثم خفف أو فعلان قلبت واوه ياء للتخفيف أوللفرق بينه وبين الروحان وهو ماله روح
١٣ قاله القرطبى (فبأى آلاء ربكما تكذبان) الخطاب للثقلين المدلول عليهما بقوله تعالى للأنام وسينطق به قوله تعالى أيها الثقلان والفاء لترتيب الإنكار والتوبيخ على ما فصل من فنون النعماء وصنوف الآلاء الموجبة للإيمان والشكر حتما والتعرض لعنوان الربوبية المنبئة عن المالكية الكلية والتربية مع الإضافة إلى ضميرهم لتأكيد النكير وتشديد التوبيخ ومعنى تكذيبهم بآلائه تعالى كفرهم بها إما بإنكار كونه نعمة فى نفسه كتعليم القرآن وما يستند إليه من النعم الدينية وإما بإنكار كونه من الله تعالى مع الاعتراف بكونه نعمة فى نفسه كالنعم الدنيوية الواصلة إليهم بإسناده إلى غيره تعالى استقلالا أو اشتراكا صريحاً أو دلالة فإن إشراكهم لآلهتهم به تعالى فى العبادة من دواعى إشراكهم لها به تعالى فيما يوجبها والتعبير عن كفرهم المذكور بالتكذيب لما أن دلالة الآلاء المذكورة على وجوب الإيمان والشكر شهادة منها بذلك فكفرهم بها تكذيب بها لا محالة أى فإذا كان الأمر كما فصل فبأى فرد من أفراد آلاء مالككما ومربيكما بتلك الآلاء تكذبان مع أن كلا منها ناطق بالحق شاهد بالصدق

خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ ٥٥الرحمن

وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾ ٥٥الرحمن

فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٦﴾ ٥٥الرحمن

رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾ ٥٥الرحمن

فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٨﴾ ٥٥الرحمن

مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ ٥٥الرحمن

بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ ٥٥الرحمن

فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾ ٥٥الرحمن

يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾ ٥٥الرحمن

(خلق الإنسان من صلصال كالفخار) تمهيد للتوبيخ على إخلالهم بمواجب شكر النعمة المتعلقة بذاتى ١٤
كل واحد من الثقلين والصلصال الطين اليابس الذى له صلصال والفخار الخزف وقد خلق الله تعالى
آدم عليه السلام من تراب جعله طيناً ثم حمأ مسنوناً ثم صلصالا فلا تنافى بين الآية الناطقة بأحدها
وبين مانطق بأحد الآخرين (وخلق الجان) أى الجن أو أبا الجن (من مارج) من لهب صاف (من ١٥
نار) بيان لمارج فإنه فى الأصل للمضطرب من مرج إذا اضطرب (فبأى آلاء ربكما تكذبان) مما ١٦
أفاض عليكما فى تضاعيف خلقكما من سوابغ النعم (رب المشرقين ورب المغربين) بالرفع على خبرية ١٧
مبتدأ محذوف أى الذى فعل ما ذكر من الأفاعيل البديعة رب مشرق الصيف والشتاء ومغربيهما ومن
قضيته أن يكون رب ما بينهما من الموجودات قاطبة وقيل على الابتداء والخبر قوله تعالى مرج الخ
وقرىء بالجر على أنه بدل من ربكما (فبأى آلاء ربكما تكذبان) مما فى ذلك من فوائد لاتحصى من ١٨
اعتدال الهواء واختلاف الفصول وحدوث مايناسب كل فصل فى وقته إلى غير ذلك (مرج البحرين) ١٩
أى أرسلهما من مرجت الدابة إذا أرسلتها والمعنى أرسل البحر الملح والبحر العذب (يلتقيان) أى *
يتجاوران ويتماس سطوحهما لافصل بينهما فى مرأى العين وقيل أرسل بحرى فارس والروم يلتقيان
فى المحيط لأنهما خليجان يتشعبان منه (بينهما برزخ) أى حاجز من قدرة الله عز وجل أو من الأرض ٢٠
(لايبغيان) أى لايبغى أحدهما على الآخر بالممازجة وإبطال الخاصية أو لايتجاوزان حديهما بإغراق *
ما بينهما (فبأى آلاء ربكما تكذبان) وليس منهما شىء يقبل التكذيب (يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان) ٢١،٢٢

فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٣﴾ ٥٥ الرحمن

وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ ﴿٣٤﴾ ٥٥ الرحمن

فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٥﴾ ٥٥ الرحمن

كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٣٦﴾ ٥٥ الرحمن

وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَـٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٣٧﴾ ٥٥ الرحمن

فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٨﴾ ٥٥ الرحمن

يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴿٣٩﴾ ٥٥ الرحمن

اللؤلؤ الدر والمرجان الخرز الأحمر المشهور وقيل اللؤلؤ كبار الدر والمرجان صغاره فنسبة خروجهما حينئذ إلى البحرين مع أنهما إنما يخرجان من الملح على ماقالوا لما قيل أنهما لايخرجان إلا من ملتقى الملح والعذب أو لأنهما لما التقيا وصارا كالشيء الواحد ساغ أن يقال يخرجان من البحر مع أنهما لايخرجان من جمع البحر ولكن من بعضه وهو الأظهر وقرىء يخرج مبنياً للمفعول من الإخراج
٢٣،٢٤ ومبنياً للفاعل بنصب اللؤلؤ والمرجان وبنون العظمة (فبأى آلاء ربكما تكذبان) (وله الجوار) أى السفن جمع جارية وقرىء برفع الراء وبحذف الياء كقول من قال [لها ثنايا أربع حسان * وأربع * فكلها ثمان] (المنشآت) المرفوعات الشرع أو المصنوعات وقرىء بكسر الشين أى الرافعات الشرع * أو اللاتى ينشئن الأمواج بجريهن (فى البحر كالأعلام) كالجبال الشاهقة جمع علم وهو الجبل الطويل
٢٥ (فبأى آلاء ربكما تكذبان) من خلق مواد السفن والإرشاد إلى أخذها وكيفية تركيبها وجرائها فى
٢٦ البحر بأسباب لايقدر على خلقها وجمعها وترتيبها غيره سبحانه (كل من عليها) أى على الأرض من
٢٧ الحيوانات أو المركبات ومن للتغليب أو من الثقلين (فان) هالك لامحالة (ويبقى وجه ربك) أى
* ذاته عز وجل (ذو الجلال والإكرام) أى ذو الاستغناء المطلق والفضل التام وقيل الذى عنده الجلال والإكرام للمخلصين من عباده وهذه من عظائم صفاته تعالى ولقد قال صلى الله عليه وسلم ألظوا بياذا الجلال والإكرام وعنه عليه الصلاة والسلام أنه مر برجل وهو يصلى ويقول ياذا الجلال والإكرام فقال استجيب لك وقرىء ذى الجلال والإكرام على أنه صفة ربك وأياً ما كان فى وصفه تعالى بذلك بعد ذكر فناء الخلق وبقائه تعالى إيذان بأنه تعالى يفيض عليهم بعد فنائهم أيضاً
٢٨ آثار لطفه وكرمه حسبما ينبىء عنه قوله تعالى (فبأى آلاء ربكما تكذبان) فإن إحياءهم بالحياة الأبدية
٢٩ وإثابتهم بالنعيم المقيم أجل النعماء وأعظم الآلاء (يسأله من فى السموات والأرض) قاطبة مايحتاجون

فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٠﴾ ٥٥ الرحمن

سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾ ٥٥ الرحمن

فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٢﴾ ٥٥ الرحمن

يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ﴿٣٣﴾ ٥٥ الرحمن

إليه فى ذواتهم ووجوداتهم حدوثاً وبقاء وسائر أحوالهم سؤ الا مستمراً بلسان المقال أو بلسان الحال
فإنهم كافة من حيث حقائقهم الممكنة بمعزل من استحقاق الوجود وما يتفرع عليه من الكمالات
بالمرة بحيث لو انقطع مابينهم وبين العناية الإلهية من العلاقة لم يشموا رائحة الوجود أصلا فهم فى كل
آن مستمرون على الاستدعاء والسؤال وقد مر فى تفسير قوله تعالى وإن تعدوا نعمة الله لاتحصوها
من سورة إبراهيم عليه السلام (كل يوم) أى كل وقت من الأوقات (هو فى شأن) من الشؤن التى *
من جملتها إعطاء ماسألوا فإنه تعالى لايزال ينشىء أشخاصاً ويفنى آخرين ويأتى بأحوال ويذهب بأحوال
حسبما تقتضيه مشيئته المبنية على الحكم البالغة وفى الحديث من شأنه أن يغفر ذنباً ويفرج كرباً ويرفع
٣٠ قوماً ويضع آخرين قيل وفيه رد على اليهود حيث يقولون إن الله لايقضى يوم السبت شيئاً (فبأى
٣١ آلاء ربكما تكذبان) مع مشاهدتكم لما ذكر من إحسانه (سنفرغ لكم) أى سنتجرد لحسابكم
وجزائكم وذلك يوم القيامة عند انتهاء شؤن الخلق المشار إليها بقوله تعالى كل يوم هو فى شأن فلا
يبقى حينئذ إلا شأن واحد هو الجزاء فعبر عنه بالفراغ لهم بطريق التمثيل وقيل هو مستعار من قول
المتهدد لصاحبه سأفرغ لك أى سأتجرد للإيقاع بك من كل ما يشغلنى عنه والمراد التوفر على النكاية
فيه والانتقام منه وقرىء سيفرغ مبنياً للفاعل وللمفعول وقرىء سنفرغ إليكم أى سنقصد إليكم
(أيها الثقلان) هما الإنس والجن سميا بذلك لثقلهما على الأرض أو لرزانة آرائهما أو لأنهما مثقلان *
٣٢ بالتكليف (فبأى آلاء ربكما) التى من جملتها التنبيه على ماسيلقونه يوم القيامة للتحذير عما يؤدى إلى
٣٣ سوء الحساب (تكذبان) بأقوالكما وأعمالكما (يامعشر الجن والإنس) هما الثقلان خوطبا باسم
جنسهما لزيادة التقرير ولأن الجن مشهورون بالقدرة على الأفاعيل الشاقة فخوطبوا بما ينبىء عن ذلك
لبيان أن قدرتهم لاتفى بما كلفوه (إن استطعتم) إن قدرتم على (أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض) *
أى أن تهربوا من قضائى وتخرجوا من ملكوتى ومن أقطار سمواتى وأرضى (فانفذوا) منها وخلصوا *
أنفسكم من عقابى (لاتنفذون) لاتقدرون على النفوذ (إلا بسلطان) أى بقوة وقهر وأنتم من ذلك *
بمعزل بعيد روى أن الملائكة تنزل فتحيط بالخلائق فإذا رآهم الجن والإنس هربوا فلايأتون وجهاً

فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٤﴾ ٥٥ الرحمن

يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾ ٥٥ الرحمن

فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٦﴾ ٥٥ الرحمن

فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ ﴿٣٧﴾ ٥٥ الرحمن

فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٨﴾ ٥٥ الرحمن

فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴿٣٩﴾ ٥٥ الرحمن

فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٠﴾ ٥٥ الرحمن

---

٣٤ إلا وجدوا الملائكة أحاطت به (فبأى آلاء ربكما تكذبان) أى من التنبيه والتحذير والمساهلة والعفو
٣٥ مع كمال القدرة على العقوبة (يرسل عليكما شواظ) قيل هو اللهب الخالص وقيل المختلط بالدخان وقيل
اللهب الأحمر وقيل اللهب الأخضر المنقطع من النار وقيل هو الدخان الخارج من اللهب وقيل هو
* النار والدخان جميعاً وقرىء شواظ بكسر الشين (من نار) متعلق بيرسل أو بمضمر هو صفة لشواظ
* أى كائن من نار والتنوين للتفخيم (ونحاس) أى دخان وقيل صفر مذاب يصب على رؤسهم وقرىء
بكسر النون وقرىء بالجر عطفاً على نار وقرىء نرسل بنون العظمة ونصب شواظاً ونحاساً وقرىء
* نحس جمع نحاس مثل لحاف ولحف وقرىء ونحس أى نقتل بالعذاب (فلاتنتصران) أى لاتمتنعان
٣٦ (فبأى آلاء ربكما تكذبان) فإن بيان عاقبة ماهم عليه من الكفر والمعاصى لطف وأى لطف ونعمة
٣٧ وأى نعمة (فإذا انشقت السماء) أى انصدعت يوم القيامة (فكانت وردة) كوردة حمراء وقرىء
وردة بالرفع على أن كان تامة أى حصلت سماء وردة فيكون من باب التجريد كقول من قال [ولئن
* بقيت لأرحلن بغزوة * تحوى الغنائم أو يموت كريم] (كالدهان) خبر ثان لكانت أو نعت لوردة
أو حال من اسم كانت أى كدهن الزيت وهو إما جمع دهن أو اسم لما يدهن به كالحزام والإدام وقيل
هو الأديم الأحمر وجواب إذا محذوف أى يكون من الأحوال والأهوال مالا يحيط به دائرة المقال
٣٨،٣٩ (فبأى آلاء ربكما تكذبان) مع عظم شأنها (فيومئذ) أى يوم إذ تنشق السماء حسبما ذكر (لايسأل
عن ذنبه إنس ولا جان) لأنهم يعرفون بسيماهم وذلك أول مايخرجون من القبور ويحشرون إلى الموقف
ذوداً ذوداً على اختلاف مراتبهم وأما قوله تعالى فوربك لنسألنهم أجمعين ونحوه ففى موقف المناقشة
والحساب وضمير ذنبه للإنس لتقدمه رتبة وإفراده لما أن المراد فرد من الإنس كأنه قيل لايسأل
٤٠ ذنبه إنسى ولا جنى (فبأى آلاء ربكما تكذبان) مع كثرة منافعها فإن الإخبار بما ذكر مما يزجركم عن

يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾ ٥٥الرحمن

فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٢﴾ ٥٥الرحمن

هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ ٥٥الرحمن

يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴿٤٤﴾ ٥٥الرحمن

فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٥﴾ ٥٥الرحمن

وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ ٥٥الرحمن

الشر المؤدى إليه وأما ماقيل بما أنعم الله على عباده المؤمنين فى هذا اليوم فلا تعلق له بالمقام وقوله
تعالى (يعرف المجرمون بسيماهم) استئناف يجرى مجرى التعليل لعدم السؤال قيل يعرفون بسواد ٤١
الوجوه وزرقة العيون وقيل بما يعلوهم من الكآبة والحزن (فيؤخذ بالنواصى والأقدام) الجار والمجرور *
هو القائم مقام الفاعل يقال أخذه إذا كان المأخوذ مقصوداً بالأخذ ومنه قوله تعالى خذوا حذركم ونحوه
وأخذ به إذا كان المأخوذ شيئاً من ملابسات المقصود بالأخذ ومنه قوله تعالى لاتأخذ بلحيتى ولا
برأسى وقول المستغيث خذ بيدى أخذ الله بيدك أى يجمع بين نواصيهم وأقدامهم فى سلسلة من وراء
ظهورهم وقيل تسحبهم الملائكة تارة تأخذ بالنواصى وتارة تأخذ بالأقدام (فبأى آلاء ربكما تكذبان) ٤٢
وقوله تعالى (هذه جهنم التى يكذب بها المجرمون) على إرادة القول أى يقال لهم ذلك بطريق التوبيخ ٤٣
على أن الجملة إما استئناف وقع جواباً عن سؤال ناشىء من حكاية الأخذ بالنواصى والأقدام كأنه
قيل فماذا يفعل بهم عند ذلك فقيل يقال الخ أو حال من أصحاب النواصى والأقدام لأن الألف واللام
عوض عن المضاف إليه وما بينهما اعتراض (يطوفون بينها) أى بين النار يحرقون بها (وبين حميم ٤٤
آن) ماء بالغ من الحرارة أقصاها يصب عليهم أو يسقون منه وقيل إذا استغاثوا من النار أغيثوا
بالحميم (فبأى آلاء ربكما تكذبان) وقد أشير إلى سر كون بيان أمثال هذه الأمور من قبيل الآلاء ٤٥
مراراً (ولمن خاف مقام ربه) شروع فى تعداد الآلاء الفائضة عليهم فى الآخرة بعد تعداد ماوصل ٤٦
إليهم فى الدنيا من الآلاء الدينية والدنيوية واعلم أن ماعدد فيها بين هذه الآية وبين خاتمة السورة الكريمة
من فنون الكرامات كما أن أنفسها آلاء جليلة واصلة إليهم فى الآخرة كذلك حكاياتها الواصلة إليهم
فى الدنيا آلاء عظيمة لكونها داعية لهم إلى السعى فى تحصيل مايؤدى إلى نيلها من الإيمان والطاعة وأن
مافصل من فاتحة السورة الكريمة إلى قوله تعالى كل يوم هو فى شأن من النعم الدينية والدنيوية الأنفسية
والآفاقية آلاء جليلة واصلة إليهم فى الدنيا وكذلك حكاياتها من حيث إيجابها للشكر والمثابرة على

فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾ ٥٥ الرحمن

ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾ ٥٥ الرحمن

فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٩﴾ ٥٥ الرحمن

فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾ ٥٥ الرحمن

فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥١﴾ ٥٥ الرحمن

فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾ ٥٥ الرحمن

فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٣﴾ ٥٥ الرحمن

مايؤدى إلى استدامتها وأما ماعددفيها بين قوله تعالى سنفرغ لكم وبين هذه الآية من الأحوال الهائلة
التى ستقع فى الآخرة فليست هى من قبيل الآلاء وإنما الآلاء حكايتها الموجبة للانزجار عما يؤدى إلى
الابتلاء بها من الكفر والمعاصى كما أشير إليه فى تضاعيف تعدادها ومقامه تعالى موقفه الذى يقف فيه العباد
للحساب يوم يقوم الناس لرب العالمين أو قيامه تعالى على أحوالهمن قام عليه إذا راقبه أو مقام الخائف
عند ربه للحساب بأحد المعنيين وإضافته إلى الرب للتفخيم والتهويل أو مقحم للتعظيم (جنتان) جنة
للخائف الأنسى وجنة للخائف الجنى فإن الخطاب للفريقين فالمعنى لكل خائفين منكما أو لكل واحد
جنة لعقيدته وأخرى لعمله أو جنة لفعل الطاعات وأخرى لترك المعاصى أو جنة يثاب بها وأخرى
٤٧ يتفضل بها عليه أو روحانية وجسمانية وكذا ماجاء مثنى بعد (فبأى آلاء ربكما تكذبان) وقوله تعالى
٤٨ (ذواتا أفنان) صفة لجنتان وما بينهما اعتراض وسط بينهما تنبيهاً على أن تكذيب كل من الموصوف
والصفة موجب للإنكار والتوبيخ والأفنان إما جمع فن أى ذواتا أنواع من الأشجار والثمار أو
جمع فنن أى ذواتا أغصان متشعبة من فروع الشجر وتخصيصها بالذكر لأنها التى تورق وتثمر وتمد
٤٩، ٥٠ الظل (فبأى آلاء ربكما تكذبان) وليس فيها شىء يقبل التكذيب (فيهما عينان تجريان) صفة
أخرى لجنتان أى فى كل واحدة منهما عين تجرى كيف يشاء صاحبها فى الأعالى والأسافل وقيل تجريان
من جبل من مسك وعن ابن عباس والحسن تجريان بالماء الزلال إحداهما التسنيم والأخرى السلسبيل
وقيل إحداهما من ماء غير آسن والأخرى من خمر لذة للشاربين قال أبو بكر الوراق فيهما عينان تجريان
٥١ لمن كانت عيناه فى الدنيا تجريان من مخافة الله عز وجل (فبأى آلاء ربكما تكذبان) وقوله تعالى
٥٢ (فيهما من كل فاكهة زوجان) أى صنفان معروف وغريب أو رطب ويابس صفة أخرى لجنتان
٥٣ وتوسيط الاعتراض بين الصفات لما مر آنفاً (فبأى آلاء ربكما تكذبان).

مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍۚ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿٥٤﴾ ٥٥ الرحمن

فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٥﴾ ٥٥ الرحمن

فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٥٦﴾ ٥٥ الرحمن

فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾ ٥٥ الرحمن

كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾ ٥٥ الرحمن

فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٩﴾ ٥٥ الرحمن

هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾ ٥٥ الرحمن

وقوله تعالى (متكئين) حال من الخائفين لأن من خاف فى معنى الجمع أو نصب على المدح (على فرش ٥٤
بطائنها من إستبرق) من ديباج ثخين وحيث كانت بطائنها كذلك فما ظنك بظهائرها وقيل ظهائرها من سندس
وقيل من نور (وجنى الجنتين دان) أى ما يجتنى من أشجارها من الثمار قريب يناله القائم والقاعد والمضطجع *
قال ابن عباس رضى الله عنهما تدنو الشجرة حتى يجتنيها ولى الله إن شاء قائماً وإن شاء قاعداً وإن شاء
مضطجعاً وقرىء بكسر الجيم (فبأى آلاء ربكما تكذبان) وقوله تعالى (فيهن) أى فى الجنان المدلول ٥٥،٥٦
عليها بقوله تعالى جنتان لما عرفت أنهما لكل خائفين من الثقلين أو لكل خائف حسب تعدد عمله
وقد اعتبر الجمعية فى قوله تعالى متكئين وقيل فيما فيهما من الأماكن والقصور وقيل فى هذه الآلاء
المعدودة من الجنتين والفاكهة والفرش (قاصرات الطرف) نساء يقصرن أبصارهن على أزواجهن *
لا ينظرن إلى غيرهم (لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان) أى لم يمس الإنسيات أحد من الإنس ولا الجنيات *
أحد من الجن قبل أزواجهن المدلول عليهم بقاصرات الطرف وقيل بقوله تعالى متكئين وفيه دليل
على أن الجن يطمثون وقرىء يطمثهن بضم الميم والجملة صفة لقاصرات الطرف لأن إضافتها لفظية أو
حال منها لتخصصها بالإضافة (فبأى آلاء ربكما تكذبان) وقوله تعالى (كأنهن الياقوت والمرجان) ٥٧،٥٨
إما صفة لقاصرات الطرف أو حال منها كالتى قبلها أى مشبهات بالياقوت فى حمرة الوجنة والمرجان
أى صغار الدر فى بياض البشر وصفائها فإن صغار الدر أنصع بياضاً من كباره قيل إن الحوراء تلبس
سبعين حلة فيرى مخ ساقها من ورائها كما يرى الشراب الأحمر فى الزجاجة البيضاء (فبأى آلاء ربكما ٥٩
تكذبان) وقوله تعالى (هل جزاء الإحسان إلا الإحسان) استئناف مقرر لمضمون ما فصل قبله ٦٠
أى ما جزاء الإحسان فى العمل إلا الإحسان فى الثواب .

فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦١﴾ ٥٥ الرحمٰن

وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾ ٥٥ الرحمٰن

فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٣﴾ ٥٥ الرحمٰن

مُدْهَآمَّتَانِ ﴿٦٤﴾ ٥٥ الرحمٰن

فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٥﴾ ٥٥ الرحمٰن

فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴿٦٦﴾ ٥٥ الرحمٰن

فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٧﴾ ٥٥ الرحمٰن

فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾ ٥٥ الرحمٰن

فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٩﴾ ٥٥ الرحمٰن

فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ﴿٧٠﴾ ٥٥ الرحمٰن

٦١،٦٢ (فبأى آلاء ربكما تكذبان) وقوله تعالى (ومن دونهما جنتان) مبتدأ وخبر أى ومن دون
٦٣ تينك الجنتين الموعودتين للخائفين المقربين جنتان أخريان لمن دونهن من أصحاب اليمين (فبأى آلاء
٦٤ ربكما تكذبان) وقوله تعالى (مدهامتان) صفة لجنتان وسط بينهما الاعتراض لما ذكر من التنبيه
على أن تكذيب كل من الموصوف والصفة حقيق بالإنكار والتوبيخ أى خضراوان تضربان إلى
السواد من شدة الخضرة وفيه إشعار بأن الغالب على هاتين الجنتين النبات والرياحين المنبسطة على
٦٥،٦٦ وجه الأرض وعلى الأولين الأشجار والفواكه (فبأى آلاء ربكما تكذبان) (فيهما عينان نضاختان)
٦٧ أى فوارتان بالماء والنضخ أكثر من النضح بالحاء المهملة وهو الرش (فبأى آلاء ربكما تكذبان)
٦٨ (فيهما فاكهة ونخل ورمان) عطف الأخيران على الفاكهة عطف جبريل وميكال على الملائكة بياناً
لفضلهما فإن ثمرة النخل فاكهة وغذاء والرمان فاكهة ودواء وعن هذا قال أبو حنيفة رحمه الله من
٦٩ حلف لا يأكل فاكهة فأكل رماناً أو رطباً لم يحنث (فبأى آلاء ربكما تكذبان) وقوله تعالى
٧٠ (فيهن خيرات) صفة أخرى لجنتان كالجملة التى قبلها والكلام فى جميع الضمير كالذى مر فيما مر
* وخيرات مخففة من خيرات لأن خيراً الذى بمعنى أخير لا يجمع وقد قرىء على الأصل (حسان) أى
حسان الخلق والخلق .

فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧١﴾ ٥٥ الرحمن

حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ ﴿٧٢﴾ ٥٥ الرحمن

فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾ ٥٥ الرحمن

لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٧٤﴾ ٥٥ الرحمن

فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٥﴾ ٥٥ الرحمن

مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِىٍّ حِسَانٍ ﴿٧٦﴾ ٥٥ الرحمن

فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٧﴾ ٥٥ الرحمن

تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾ ٥٥ الرحمن

(فبأى آلاء ربكما تكذبان) وقوله تعالى (حور) بدل من خيرات (مقصورات فى الخيام) قصرن ٧١،٧٢
فى خدورهن يقال امرأة قصيرة وقصورة أى مخدرة أو مقصورات الطرف على أزواجهن وقيل إن
الخيمة من خيامهن درة مجوفة (فبأى آلاء ربكما تكذبان) وقوله تعالى (لم يطمثهن إنس قبلهم ولا ٧٢،٧٤
جان) كالذى مر فى نظيره من جميع الوجوه (فبأى آلاء ربكما تكذبان) (متكئين) نصب على ٧٥،٧٦
الاختصاص (على رفرف خضر) الرفرف إما اسم جنس أو اسم جمع واحده رفرفة قيل هوماتدلى *
من الأسرة من أعالى الثياب وقيل هو ضرب من البسط أو البسط وقيل الوسائد وقيل النمارق وقيل
كل ثوب عريض رفرف وقيل لأطراف البسط وفضول الفسطاط رفارف ورفرف السحاب هيدبه
(وعبقرى حسان) العبقرى منسوب إلى عبقر تزعم العرب أنه اسم بلد الجن فينسبون إليه كل شىء *
عجيب والمراد به الجنس ولذلك وصف بالجمع حملا على المعنى كما فى رفرف على أحد الوجهين وقرىء
على رفارف خضر بضمتين وعباقرى كمدائنى نسبة إلى عباقر فى اسم البلد (فبأى آلاء ربكما تكذبان) ٧٧
وقوله تعالى (تبارك اسم ربك) تنزيه وتقديس له تعالى فيه تقرير لما ذكر فى السورة الكريمة من ٧٨
آلائه الفائضة على الأنام أى تعالى اسمه الجليل الذى من جملته ماصدرت به السورة من اسم الرحمن
المنبىء عن إفاضته الآلاء المفصلة وارتفع عما لايليق بشأنه من الأمور التى من جملتها جحود نعمائه
وتكذيبها وإذا كان حال اسمه بملابسة دلالته عليه فما ظنك بذاته الأقدس الأعلى وقيل الاسم بمعنى
الصفة وقيل مقحم كما فى قول من قال [إلى الحول ثم اسم السلام عليكما] (ذى الجلال والإكرام) *
وصف به الرب تكميلا لما ذكر من التنزيه والتقرير وقرىء ذو الجلال على أنه نعت للاسم. عن
النبى صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة الرحمن أدى شكر ما أنعم الله عليه.

سورة الرحمن

ترتيبها ٥٥ — آياتها ٧٨

وسميت في حديث أخرجه البيهقي عن علي كرم الله تعالى وجهه مرفوعاً «عروس القرآن» ورواه موسى بن جعفر رضي الله تعالى عنهما عن آبائه الأطهار كذلك «وهي مكية» في قول الجمهور، وأخرج ذلك ابن مردويه عن عبد الله بن الزبير وعائشة رضي الله تعالى عنهم وابن النحاس عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما، وأخرج ابن الضريس وابن مردويه والبيهقي في الدلائل عنه أنها نزلت بالمدينة، وحكي ذلك عن مقاتل، وحكاه في البحر عن ابن مسعود أيضاً، وحكي أيضاً قولاً آخر عن ابن عباس وهو أنها مدنية سوى قوله تعالى: ﴿يسأله من في السماوات والأرض﴾ [الرحمن: ٢٩] الآية، وحكي الاستثناء المذكور في جمال القراء عن بعضهم ولم يعينه، وعدد آياتها ثمان وسبعون آية في الكوفي والشامي، وسبع وسبعون في الحجازي، وست وسبعون في البصري.

ووجه مناسبتها لما قبلها على ما قال الجلال السيوطي: أنه لما قال سبحانه في آخر ما قيل ﴿بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر﴾ [القمر: ٤٦] ثم وصف عز وجل حال المجرمين ﴿في سقر﴾ [القمر: ٤٨]؛ وحال المتقين ﴿في جنات ونهر﴾ [القمر: ٥٤] فصل هذا الإجمال في هذه السورة أتم تفصيل على الترتيب الوارد في الإجمال فبدأ بوصف مرارة الساعة، والإشارة إلى شدّتها، ثم وصف النار وأهلها، ولذا قال سبحانه: ﴿يعرف المجرمون بسيماهم﴾ [الرحمن: ٤١] ولم يقل الكافرون، أو نحوه لاتصاله معنى بقوله تعالى هناك: ﴿إن المجرمين﴾ [القمر: ٤٧] ثم وصف الجنة وأهلها ولذا قال تعالى فيهم: ﴿ولمن خاف مقام ربه جنتان﴾ وذلك هو عين التقوى ولم يقل ولمن آمن، أو أطاع، أو نحوه لتتوافق الألفاظ في التفصيل والمفصل؛ ويعرف بما ذكر أن هذه السورة كالشرح لآخر السورة قبلها، وقال أبو حيان في ذلك: إنه تعالى لما ذكر هناك مقر المجرمين في سعر، ومقر المتقين ﴿في جنات ونهر عند مليك مقتدر﴾ [القمر: ٥٤] ذكر سبحانه هنا شيئاً من آيات الملك وآثار القدرة، ثم ذكر جل وعلا مقر الفريقين على جهة الإسهاب إذ كان ذكره هناك على جهة الاختصار، ولما أبرز قوله سبحانه: ﴿عند مليك مقتدر﴾ بصورة التنكير فكأن سائلاً يسأل ويقول من المتصف بهاتين الصفتين الجليلتين؟ فقيل: «الرحمن» الخ، والأولى عندي أن يعتبر في وجه المناسبة أيضاً ما في الإرشاد وهو أنه تعالى لما عدد في السورة السابقة ما نزل بالأمم السالفة من ضروب نقم الله عز وجل، وبيَّن عقيب كل ضرب منها أن القرآن قد يسر لتذكر الناس واتعاظهم ونعى عليهم إعراضهم عن ذلك عدد في هذه السورة الكريمة ما أفاض على كافة الأنام من فنون نعمه الدينية والدنيوية والأنفسية والآفاقية وأنكر عليهم أثر كل فن منها إخلالهم بمواجب شكرها، وهذا التكرار أحلى من السكر إذ تكرر، وفي الدرر والغرر لعلم الهدى السيد المرتضى التكرار في سورة «الرحمن» إنما حسن للتقرير بالنعم المختلفة المعددة، فكلما ذكر سبحانه نعمة أنعم بها وبخ على التكذيب بها كما يقول الرجل لغيره ألم أحسن إليك بأن خولتك في الأموال؟ ألم أحسن إليك بأن فعلت بك

كذا وكذا؟ فيحسن فيه التكرير لاختلاف ما يقرر به وهو كثير في كلام العرب وأشعارهم كقول مهلهل يرثي كليباً:

على أن ليس عدلاً من كليب ... إذا ما ضيم جيران المجير
على أن ليس عدلاً من كليب ... إذا رجف العضاه من الدبور
على أن ليس عدلاً من كليب ... إذا خرجت مخبأة الخدور
على أن ليس عدلاً من كليب ... إذا ما أعلنت نجوى الأمور
على أن ليس عدلاً من كليب ... إذ خيف المخوف من الثغور
على أن ليس عدلاً من كليب ... غداة تأثل الأمر الكبير
على أن ليس عدلاً من كليب ... إذا ما خار جأش المستجير

ثم أنشد قصائد أخرى على هذا النمط ولولا خوف الملل لأوردتها، ولا يرد على ما ذكره أن هذه الآية قد ذكرت بعد ما ليس نعمة لما ستعلمه إن شاء الله تعالى في محله، وقسم في الاتقان التكرار إلى أقسام، وذكر أن منه ما هو لتعدد المتعلق بأن يكون المكرر ثانياً متعلقاً بغير ما تعلق به الأول؛ ثم قال: وهذا القسم يسمى بالترديد وجعل منه قوله تعالى: ﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾ من سورة الرحمن فإنها وإن تكررت إحدى وثلاثين مرة فكل واحدة تتعلق بما قبلها ولذلك زادت على ثلاثة ولو كان الجميع عائداً على شيء واحد لما زاد على ثلاثة لأن التأكيد لا يزيد عليها كما قال ابن عبد السلام وغيره، وهو حسن إلا أنه نظر في إطلاق قوله: إن التأكيد الخ بأن ذلك في التأكيد الذي تابع أما ذكر الشيء في مقامات متعددة أكثر من ثلاثة فلا يمتنع وإن لزم منه التأكيد فافهم، وبدأ سبحانه من النعم بتعليم القرآن فقال عز قائلاً:

بسم الله الرحمن الرحيم

ٱلرَّحۡمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ ﴿٤﴾ ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ ﴿٥﴾
وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ ﴿٦﴾ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلَّا تَطۡغَوۡاْ فِي ٱلۡمِيزَانِ ﴿٨﴾ وَأَقِيمُواْ
ٱلۡوَزۡنَ بِٱلۡقِسۡطِ وَلَا تُخۡسِرُواْ ٱلۡمِيزَانَ ﴿٩﴾ وَٱلۡأَرۡضَ وَضَعَهَا لِلۡأَنَامِ ﴿١٠﴾ فِيهَا فَٰكِهَةٞ وَٱلنَّخۡلُ ذَاتُ
ٱلۡأَكۡمَامِ ﴿١١﴾ وَٱلۡحَبُّ ذُو ٱلۡعَصۡفِ وَٱلرَّيۡحَانُ ﴿١٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن
صَلۡصَٰلٖ كَٱلۡفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ ٱلۡجَآنَّ مِن مَّارِجٖ مِّن نَّارٖ ﴿١٥﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٦﴾ رَبُّ
ٱلۡمَشۡرِقَيۡنِ وَرَبُّ ٱلۡمَغۡرِبَيۡنِ ﴿١٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٨﴾ مَرَجَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ يَلۡتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيۡنَهُمَا بَرۡزَخٞ لَّا يَبۡغِيَانِ ﴿٢٠﴾
فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾ يَخۡرُجُ مِنۡهُمَا ٱللُّؤۡلُؤُ وَٱلۡمَرۡجَانُ ﴿٢٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٣﴾ وَلَهُ ٱلۡجَوَارِ
ٱلۡمُنشَـَٔاتُ فِي ٱلۡبَحۡرِ كَٱلۡأَعۡلَٰمِ ﴿٢٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٥﴾ كُلُّ مَنۡ عَلَيۡهَا فَانٖ ﴿٢٦﴾ وَيَبۡقَىٰ وَجۡهُ رَبِّكَ ذُو ٱلۡجَلَٰلِ
وَٱلۡإِكۡرَامِ ﴿٢٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٨﴾

﴿بسم الله الرحمن الرحيم الرحمن * علم القرآن﴾ لأنه أعظم النعم شأناً وأرفعها مكاناً كيف لا وهو مدار للسعادة الدينية والدنيوية وعيار على الكتب السماوية ما من مرصد ترنو إليه أحداق الأمم إلا وهو منشؤه

ومناطه، ولا مقصد تمتد نحوه أعناق الهمم إلا وهو منهجه وصراطه، ونصبه على أنه مفعول ثان ـ لعلم ـ ومفعوله الأول محذوف لدلالة المعنى عليه ـ أي علم الإنسان القرآن ـ وهذا المفعول هو الذي كان فاعلا قبل نقل فعل الثلاثي إلى فعل المضعف، وسها الإمام فحسب أن المحذوف المفعول الثاني حيث قال: علم لا بد له من مفعول ثان وترك للإشارة إلى أن النعمة في التعليم لا في تعليم شخص دون شخص، ويمكن أن يقال: أراد أنه لا بد له من مفعول آخر مع هذا المفعول فلا جزم بسهوه، وقيل: المقدر جبريل عليه السلام أو الملائكة المقربين عليهم السلام، وقيل: محمد صلى الله تعالى عليه وسلم، وعلى القولين يتضمن ذلك الاشارة إلى أن القرآن كلام الله عز وجل، والقول الأول أظهر وأنسب بالمقام، ولي في تعليم غير جبريل عليه السلام من الملائكة الكرام تردد مّا بناءً على ما في الإتقان نقلاً عن ابن الصلاح من أن قراءة القرآن كرامة أكرم الله تعالى بها البشر فقد ورد أن الملائكة لم يعطوا ذلك وأنهم حريصون لذلك على استماعه من الإنس وإنما لم أعتبر عمومه للنصوص الدالة على أن جبريل عليه السلام كان يقرأ القرآن وكأني بك لا تسلم صحة ما ذكر وإن استثني منه جبريل عليه السلام، وقيل: ﴿**علم**﴾ من العلامة ولا تقدير أي جعل القرآن علامة وآية لمن اعتبر، أو علامة للنبوة ومعجزة، وهذا على ما قيل: يناسب ما ذكر في مفتتح السورة السابقة من قوله تعالى: ﴿وانشق القمر﴾ [القمر: ١] وتتناسب السورتان في المفتتح حيث افتتحت الأولى بمعجزة من باب الهيبة وهذه بمعجزة من باب الرحمة.

وقد أبعد القائل ولو أبدى ألف مناسبة، فالذي ينبغي أن يعلم أنه من التعليم، والمراد بتعليم القرآن قيل: إفادة العلم به لا بمعنى إفادة العلم بألفاظه فقط بل بمعنى إفادة ذلك والعلم بمعانيه على وجه يعتدّ به وهو متفاوت وقد يصل إلى العلم بالحوادث الكونية من إشاراته ورموزه إلى غير ذلك فإن الله تعالى لم يغفل شيئاً فيه.

أخرج أبو الشيخ في كتاب العظمة عن أبي هريرة مرفوعاً «إن الله لو أغفل شيئاً لأغفل الذرة والخردلة والبعوضة».

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن مسعود أنزل في هذا القرآن علم كل شيء وبين لنا فيه كل شيء ولكن علمنا يقصّر عما بين لنا في القرآن، وقال ابن عباس: لو ضاع لي عقال بعير لوجدته في كتاب الله تعالى: وقال المرسي: جمع القرآن علوم الأونين والآخرين بحيث لم يحط بها علماً حقيقة إلا المتكلم به، ثم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم خلا ما استأثر به سبحانه، ثم ورث عنه معظم ذلك سادات الصحابة وأعلامهم كالخلفاء الأربعة، ثم ورث عنهم التابعون لهم بإحسان ثم تقاصرت الهمم وفترت العزائم وتضاءل أهل العلم وضعفوا عن حمل ما حمله الصحابة والتابعون من علومه وسائر فنونه، وفسر بعضهم التعليم بتنبيه النفس لتصور المعاني، وجوز الإمام أن يراد به هنا جعل الشخص بحيث يعلم القرآن فالآية كقوله تعالى: ﴿ولقد يسرنا القرآن للذكر﴾ [القمر: ١٧، ٢٢، ٣٢، ٤٠] وهو بهذا المعنى مجاز كما لا يخفى، و ﴿**الرحمن**﴾ مبتدأ والجملة بعده خبره كما هو الظاهر، وإسناد تعليمه إلى اسم ﴿**الرحمن**﴾ للإيذان بأنه من آثار الرحمة الواسعة وأحكامها، وتقديم المسند إليه إما للتأكيد أو للحصر، وفيه من تعظيم شأن القرآن ما فيه، وقيل: ﴿**الرحمن**﴾ خبر مبتدأ محذوف، أو مبتدأ خبره محذوف أي الله الرحمن، أو الرحمن ربنا وما بعد مستأنف لتعديد نعمه عز وجل وهو خلاف الظاهر، ثم أتبع سبحانه نعمة تعليم القرآن بخلق الإنسان فقال تعالى: ﴿**خَلَقَ ٱلانْسانَ**﴾ لأن أصل النعم عليه، وإنما قدم ما قدم منها لأنه أعظمها، وقيل: لأنه مشير إلى الغاية من خلق الإنسان وهو كماله

في قوة العلم والغاية متقدمة على ذي الغاية ذهناً وإن كان الأمر بالعكس خارجاً، والمراد بالإنسان الجنس وبخلقه إنشاؤه على ما هو عليه من القوى الظاهرة والباطنة، ثم أتبع عز وجل ذلك بنعمة تعليم ﴿البيان﴾ فقال سبحانه: ﴿عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾ لأن البيان هو الذي به يتمكن عادة من تعلم القرآن وتعليمه، والمراد به المنطق الفصيح المعرب عما في الضمير.

والمراد بتعليمه نحو ما مر، وفي الإرشاد أن قوله تعالى: ﴿خلق الإنسان﴾ تعيين للمتعلم، وقوله سبحانه: ﴿علمه البيان﴾ تبيين لكيفية التعليم، والمراد بتعليم البيان تمكين الإنسان من بيان نفسه، ومن فهم بيان غيره إذ هو الذي يدور عليه تعليم القرآن. وقيل إنه بناءً على تقدير المفعول المحذوف الملائكة المقربين: إن تقديم تعليم القرآن لتقدمه وقوعاً فهم قد علموه قبل خلق الإنسان وربما يرمز إليه قوله تعالى: ﴿إنه لقرآن كريم في كتاب مكنون لا يمسه إلا المطهرون﴾ [الواقعة: ٧٧ ـ ٧٩] وفي النظم الجليل عليه حسن زائد حيث إنه تعالى ذكر أموراً علوية وأموراً سفلية وكل علوي قابله بسفلي ويأتي هذا على تقدير المفعول جبريل عليه السلام أيضاً؛ وقال الضحاك: ﴿البيان﴾ الخير والشر، وقال ابن جريج: سبيل الهدى وسبيل الضلالة، وقال يمان: الكتابة والكل كما ترى، وجوز أن يراد به القرآن وقد سماه الله تعالى بياناً في قوله سبحانه: ﴿هذا بيان﴾ [آل عمران: ١٣٨] وأعيد ليكون الكلام تفصيلاً لإجمال علم القرآن وهذا في غاية البعد وقال قتادة: ﴿الإنسان﴾ آدم، و ﴿البيان﴾ علم الدنيا والآخرة، وقيل: ﴿البيان﴾ أسماء الأشياء كلها. وقيل: التكلم بلغات كثيرة، وقيل: الاسم الأعظم الذي علم به كل شيء، ونسب هذا إلى جعفر الصادق رضي الله تعالى عنه.

وقال ابن كيسان: ﴿الإنسان﴾ محمد صلى الله تعالى عليه وسلم وعليه قيل: المراد بالبيان بيان المنزل. والكشف عن المراد به كما قال تعالى: ﴿وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم﴾ [النحل: ٤٤] أو الكلام الذي يشرح به المجمل والمبهم في القرآن أو القرآن نفسه على ما سمعت آنفاً، أو نحو ذلك مما يناسبه عليه الصلاة والسلام ويليق به من المعاني السابقة، ولعل ابن كيسان يقدر مفعول علم الإنسان مراداً به النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أيضاً، وهذه أقوال بين يديك، والمتبادر من الآيات الكريمة لا يخفى عليك ولا أظنك في مرية من تبادر ما ذكرناه فيها أولاً. ثم إن كلا من الجملتين الأخيرتين خبر عن المبتدأ كجملة ﴿علم القرآن﴾ وكذا قوله تعالى: ﴿ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ والجار والمجرور فيه خبر بتقدير مضاف أي جرى ﴿الشمس والقمر﴾ كائن أو مستقر ﴿بحسبان﴾ أو الخبر محذوف والجار متعلق به أي يجريان بحسبان وهو مصدر كالغفران بمعنى الحساب ـ كما قال قتادة وغيره ـ أي هما يجريان ﴿بحسبان﴾ مقدر في بروجهما ومنازلهما بحيث ينتظم بذلك أمور الكائنات السفلية وتختلف الفصول والأوقات ويعلم السنون والحساب، وقال الضحاك وأبو عبيدة: هو جمع حساب كشهاب وشهبان أي هما يجريان بحسابات شتى في بروجهما ومنازلهما، وقال مجاهد: الحسبان الفلك المستدير من حسبان الرحا وهو ما أحاط بها من أطرافها المستديرة، وعليه فالباء للظرفية، والجار والمجرور في موضع الخبر من غير احتياج إلى ما تقدم، والمراد كل من ﴿الشمس والقمر﴾ في فلك، والجمهور على الأول وجريان الشمس والقمر مما لا ينبغي أن يشك فيه.

وفلاسفة العصر كانوا يزعمون أن الشمس لا تجري أصلاً، وأن القمر يجري على الأرض، والأرض تجري على الشمس، وقد سمعنا أنهم عدلوا منذ أعوام عن ذلك، فزعموا أن للشمس حركة على كوكب آخر وهذا

يدل على أنهم لم يكن عندهم برهان على دعواهم الأولى كما كان يقوله من كان ينتصر لهم، والظاهر أن حالهم اليوم بل وغداً مثل حالهم بالأمس، ونحن مع الظواهر حتى يقوم الدليل القطعي على خلافها وحينئذ نميل إلى التأويل وبابه واسع، ومثل هذه الجملة قوله تعالى: ﴿**وَٱلنَّجْمُ والشَّجَرُ يَسْجُدان**﴾ فإن المعطوف على الخبر خبر، والمراد ـ بالنجم ـ النبات الذي ينجم أي يظهر ويطلع من الارض ولا ساق له، وبالشجر النبات الذي له ساق، وهو المروي عن ابن عباس وابن جبير وأبي رزين؛ والمراد بسجودهما انقيادهما له تعالى فيما يريد بهما طبعاً، شبه جريهما على مقتضى طبيعتيهما بانقياد الساجد لخالقه وتعظيمه له. ثم استعمل اسم المشبه به في المشبه فهناك استعارة مصرحة تبعية، وقال مجاهد وقتادة والحسن ـ النجم ـ نجم السماء وسجوده بالغروب ونحوه وسجود الشجر بالظل واستدارته عند مجاهد والحسن وفي رواية أخرى عن مجاهد أن سجودهما عبارة عن انقيادهما لمايريد سبحانه بهما طبعاً، والجمهور على تفسير النجم بما سمعت أولاً قبل لأن اقترانه بالشجر يدل عليه، وإن كان تقدم ﴿**الشمس والقمر**﴾ يتوهم منه أنه بمعناه المعروف ففيه تورية ظاهرة، وإخلاء الجمل الثانية والثالثة والرابعة عن العاطف لورودها على نهج التعديد مع الإشارة إلى أن كلا مما تضمنته نعمة مستقلة تقتضي الشكر، وقد قصروا في أدائه ولو عطفت مع شدة اتصالها وتناسبها ربما توهم أن الكل نعمة واحدة.

وتوسيط العاطف بين الرابعة والخامسة رعاية لتناسبهما من حيث التقابل لما أن ﴿**الشمس والقمر**﴾ علويان ﴿**والنجم والشجر**﴾ سفليان، ومن حيث إن كلاً من حال العلويين وحال السفليين من باب الانقياد لأمر الله عز وجل وخلوهما عن الرابط اللفظي مع كونهما خبرين للتعويل على كمال قوة الارتباط المعنوي إذ لا يتوهم ذهاب الوهم إلى كون حال ﴿**الشمس والقمر**﴾ بتسخير غيره تعالى، ولا إلى كون سجود النجم والشجر لسواه سبحانه فكأنه قيل: الشمس والقمر بحسبانه ﴿**والنجم والشجر يسجدان**﴾ له كذا قالوه، وفي الكشف: تبيينا لما ذكره صاحب الكشاف في هذا المقام أخلى الجمل أي التي قبل الشمس والقمر بحسبان عن العاطف لأن الغرض تعديد النعم وتبكيت المنكر كما يقال: زيد أغناك بعد فقر، أعزك بعد ذل، كثّرك بعد قلة، فعل بك ما لم يفعل أحد بأحد فما تنكر من إحسانه كأنه لما عد نعمة حرك منه حتى يتأمل هل شكرها حق شكرها أم لا، ثم يأخذ في أخرى ولو جيء بالعاطف صارت كواحدة ولم يكن من التحريك في شيء، ولما قضي الوطر من التعديد المحرك والتبكيت بذكر ما هو أصل النعم على نمط رد الكلام على منهاجه الأصلي من تعداد النعم واحدة بعد أخرى على التناسب والتقارب بحرف النسق، وفيه تنبيه على أن النعم لا تحصى فليكتف بتعديد أجلها رتبة للغرض المذكور.

وجملة ﴿**الشمس والقمر بحسبان**﴾ ليست من أخبار المبتدأ، والزمخشري إنما سأل عن وجه الربط، وأجاب بأن الربط حاصل بالوصل المعنوي كأنه بعد ما بكت ونبه أخذ يعد عليه أصول النعم ليثبت على ما طلب منه من الشكر، وهذا كما تقول في المثال السابق بعد قولك: فعل بك ما لم يفعل أحد بأحد دانت له أقرانك وأطاعته إخوانك وبسط نواله فيمن تحت ملكته ولم يخرج أحد من حياطة عدله ونصفته، فلا يشك ذو أرب أنها جمل منقطعة عن الأولى إعراباً متصلة بها اتصالاً معنوياً أورثها قطعها لأنها سيقت لغرض وهذه لأخر، وقريب من هذا الاتصال اتصال قوله تعالى: ﴿إن الذين كفروا سواء عليهم﴾ [البقرة: ٦] الآية بقوله تعالى: ﴿الذين يؤمنون بالغيب﴾ [البقرة: ٣] الآية انتهى.

وقد أبعد المغزى فيما أرى إلا أن ظاهر كلام الكشاف يقتضي كونه قوله تعالى: ﴿**الشمس والقمر بحسبان**﴾ من الأخبار فتأمل ﴿**وَٱلسماء رَفَعَهَا**﴾ أي خلقها مرفوعة ابتداءً لا أنها كانت مخفوضة ورفعها، والظاهر أن المراد برفعها الرفع الصوري الحسي، ويجوز أن يكون المراد به ما يشمل الصوري والمعنوي بطريق عموم المجاز أو الجمع بين الحقيقة والمجاز عند من يرى جوازه ورفعها المعنوي الرتبي لأنها منشأ أحكامه تعالى وقضاياه ومنزل أوامره سبحانه ومحل ملائكته عز وجل، وقرأ أبو السمال «والسماءُ» بالرفع على الابتداء، ولا إشكال فيه لأن الجملة عليه اسمية معطوفة على مثلها، وإنما الإشكال في النصب لأنه بفعل مضمر على شريطة التفسير أي ورفع السماء فتكون الجملة فعلية فإن عطفت على جملة ـ والنجم والشجر يسجدان ـ الكبرى لزم تخالف الجملتين لمعطوفة والمعطوف عليها بالاسمية والفعلية وهو خلاف الأولى، وإن عطفت على جملة ﴿**يسجدان**﴾ الصغرى لزم أن تكون خبراً ـ للنجم والشجر ـ مثلها، وذلك لا يصح إذ لا عائد فيها إليهما، وكذا يقال في العطف على كبرى وصغرى ﴿**الشمس والقمر بحسبان**﴾ وأجاب أبو علي باختيار الثاني، وقال: لا يلزم في المعطوف على الشيء أن يعتبر فيه حال ذلك الشيء، وتلا باب قولهم متقلداً سيفاً ورمحاً، وبعضهم باختيار الأول ويحسن التخالف إذا تضمن نكتة، قال الطيبي: الظاهر أن يعطف على جملة ﴿**الشمس والقمر بحسبان**﴾ ليؤذن بأن الأصل أجرى الشمس والقمر، وأسجد النجم والشجر، فعدل إلى معنى دوام التسخير والانقياد في الجملتين الأوليين، ومعنى التوكيد في الأخيرة والكلام فيما يتعلق بالرفع والنصب فيما إذا ولي العاطف جملة ذات وجهين مفصل في كتب النحو ﴿**وَوَضَعَ ٱلميزَانَ**﴾ أي شرع العدل وأمر به بأن وفر على كل مستعد مستحقه، ووفى كل ذي حق حقه حتى انتظم أمر العالم واستقام كما قال عليه الصلاة والسلام: «بالعدل قامت السماوات والأرض» أي بقيتا على أبلغ نظام وأتقن إحكام، وقال بعضهم: المراد بقاء من فيهما من الثقلين إذ لولا العدل أهلك أهل الأرض بعضهم بعضاً، وأما الملأ الأعلى فلا يقع بينهم ما يحتاج للحكم والعدل، فذكرهم للمبالغة، والذي اختاره أن المراد بالسماوات والأرض العالم جميعه ولا شك أنه لولا العدل لم يكن العالم منتظماً. ومنشأ ما ذكره القائل ظن أن المراد بالعدل في الحديث العدل في الحكم لفصل الخصومات ونحوه وليس كما ظن بل المراد به عدل الله عز وجل وإعطاؤه سبحانه كل شيء خلقه. وتفسير الميزان بما ذكر هو المروي عن مجاهد والطبري والاكثرين، وهو مستعار للعدل استعارة تصريحية؛ وعن ابن عباس والحسن وقتادة والضحاك أن المراد به ما يعرف به مقادير الاشياء من الآلة المعروفة والمكيال المعروف ونحوهما، فالمعنى خلقه موضوعاً مخفوضاً على الأرض حيث علق به أحكام عباده وقضاياهم المنزلة من السماء وما تعبدهم به من التسوية والتعديل في أخذهم وإعطائهم، والمشهور أنه بهذا المعنى مجاز أيضاً من استعمال المقيد في المطلق، وقيل: هو حقيقة فالواضع لم يضعه إلا لما يعرف به المقادير على أي هيئة ومن أي جنس كان، والناس لما ألفوا المعروف لا يكاد يتبادر إلى أذهانهم من لفظ ﴿**الميزان**﴾ سواه، وقيل: المراد به المعروف واللفظ فيه حقيقة ولا يسلم الوضع للعام.

ورجح القولان الأخيران بأن ما بعد أشدّ ملاءمة لهما وبين الوضع والرفع عليهما تقابل، وقد قرأ عبد الله ـ وخفض الميزان ـ والأول بأنه أتم فائدة فزن ذلك بميزان ذهنك ﴿**أَلَا تَطْغَوا فِي الميزَان**﴾ أي لئلا تطغوا فيه أي حقه وشأنه بأن تعتدوا وتتجاوزوا ما ينبغي فيه على أن ﴿**أن**﴾ ناصبة و ﴿**لا**﴾ نافية ولام العلة مقدرة متعلقة بقوله تعالى: ﴿**وضع الميزان**﴾ وجوز ابن عطية والزمخشري كون ﴿**أن**﴾ تفسيرية و ﴿**لا**﴾ ناهية.

واعترضه أبو حيان بأنه لم يتقدم جملة فيها معنى القول وهو شرط في صحة جعل ﴿**أن**﴾ مفسرة، وأجيب بأن وضع الميزان فيه ذلك لأنه بالوحي وإعلام الرسل عليهم والسلام، وزعم بعضهم أن التفسير متعين لأنه لا معنى لوضع

الميزان لئلا تطغوا في الميزان إذ المناسب الموزون ونحوه، وفيه ما لا يخفى وفي البحر قرأ إبراهيم «وَوَضْعَ الميزان» بإسكان الضاد، وخفض الميزان على أن ﴿وضع﴾ مصدر مضاف إلى ما بعده ولم يبين هل ﴿وضع﴾ مرفوع أو منصوب، فإن كان مرفوعاً فالظاهر أنه مبتدأ ﴿وأن لا تطغوا﴾ بتقدير الجار في موضع الخبر. وإن كان منصوباً فالظاهر أن عامله مقدر أي وفعل «وضع الميزان» أو ووضع وضع الميزان ﴿أن لا تطغوا﴾ الخ، وقرأ عبد الله ـ لا تطغوا ـ بغير ﴿أن﴾ على إرادة القول أي قائلاً، أو نحوه لا قل ـ كما قيل ـ و ﴿لا﴾ ناهية بدليل الجزم.

﴿وَأَقِيمُوا الوَزْنَ بالقسط﴾ قوموا وزنكم بالعدل، وقال الراغب هذا إشارة إلى مراعاة المعدلة في جميع ما يتحراه الإنسان من الأفعال والأقوال، وعن مجاهد أن المعنى أقيموا لسان الميزان بالعدل إذا أردتم الأخذ والإعطاء، وقال سفيان بن عيينة: الإقامة باليد، والقسط بالقلب، والظاهر أن الجملة عطف على الجملة المنفيه قبلها ولا يضر في ذلك كونها إنشائية، وتلك خبرية لأنها لتأويلها بالمفرد تجردت عن معنى الطلب، وجعل بعضهم ﴿لا﴾ في الاولى مطلقاً ناهية حرصاً على التوافق ﴿وَلا تُخسِرُوا آلميزَانَ﴾ أي لا تنقصوه فإن من حقه أن يسوى لأنه المقصود من وضعه وكرر لفظ ﴿الميزان﴾ بدون إضماره كما هو مقتضى الظاهر تشديداً للتوصية وتأكيداً للأمر باستعماله والحث عليه، بل في الجمل الثلاث تكرار مّا معنى لذلك، وقرىء «ولا تَخْسُرُوا» بفتح التاء وضم السين، وقرأ زيد بن علي وبلال بن أبي بردة بفتح التاء وكسر السين.

وحكى ابن جني وصاحب اللوامح عن بلال أنه قرأ بفتحهما، وخرّج ذلك الزمخشري على أن الاصل ـ ولا تخسروا في الميزان ـ فحذف الجار، وأوصل الفعل بناءً على أنه لم يجىء إلا لازماً، وتعقبه أبو حيان بأن خسر قد جاء متعدياً كقوله تعالى: ﴿خسروا أنفسهم﴾ [الأنعام: ١٢] وغيرها و ﴿خسر الدنيا والآخرة﴾ [الحج: ١١] فلا حاجة إلى دعوى الحذف والإيصال، وأجيب بأنه على تقدير أن يكون متعدياً هنا لا بد من القول بالحذف والإيصال لأن المعنى على حذف المفعول به أي لا تخسروا أنفسكم في الميزان أي لا تكونوا خاسريها يوم القيامة بسبب الميزان بأن لا تراعوا ما ينبغي فيه، والراغب جوز حمل الآية على القراءة المشهورة على نحو هذا فقال: إن قوله تعالى: ﴿وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان﴾ يجوز أن يكون إشارة إلى تحري العدالة في الوزن وترك الحيف فيما يعاطاه فيه، ويجوز أن يكون إشارة إلى تعاطي ما لا يكون به في القيامة خاسراً فيكون ممن قال سبحانه فيه: ﴿من خفت موازينه﴾ [الأعراف: ٩، المؤمنين: ١٠٣، القارعة: ٨] وكلا المعنيين متلازمان، وقيل: المعنى على التعدي بتقدير مضاف أي موزون الميزان، أو جعل الميزان مجازاً عن الموزون فيه فتأمل ولا تغفل ﴿وَٱلأَرضَ وَضَعَهَا﴾ خلقها موضوعة مخفوضة عن السماء حسبما يشاهد، وقال الراغب: الوضع هنا الإيجاد والخلق وكأن مراده ما ذكر، وقيل: أي خفضها مدحوّة على الماء، والظاهر على تقدير اعتبار الدحو أنه لا حاجة إلى اعتبار أنه سبحانه خلقها كذلك بل لا يصح لأنها لم تخلق مدحوّة وإنما دحيت بعد على ما روي عن ابن عباس، ثم إن كونها على الماء مبني على ما اشتهر أنه عز وجل خلق الماء قبلها وخلقها سبحانه من زبده ﴿للأنام﴾ قال ابن عباس وقتادة وابن زيد والشعبي ومجاهد على ما في مجمع البحرين: الحيوان كله، وقال الحسن: الإنس والجن.

وفي رواية أخرى عن ابن عباس هم بنو آدم فقط ولم أر هذا التخصيص لغيره رضي الله تعالى عنه، ففي القاموس الأنام الخلق أو الجن والإنس، أو جميع ما على وجه الارض، ويحتمل أنه أراد أن المراد به هنا ذلك بناءً على أن اللام للانتفاع وأنه محمول على الانتفاع التام وهو للإنس أتم منه لغيرهم، والأولى عندي ما حكي عنه أولاً، وقرأ أبو السمال «والأرضُ» بالرفع ـ وقوله تعالى: ﴿فيهَا فاكِهَةٌ﴾ الخ استئناف مسوق لتقرير ما أفادته الجملة السابقة من كون الارض

موضوعة لنفع الأنام، وقيل: حال مقدرة من الارض، أو من ضميرها، فالأحسن حينئذ أن يكون الحال هو الجار والمجرور، و ﴿فَاكِهَةٌ﴾ رفع على الفاعلية والتنوين بمعونة المقام للتكثير أي فيها ضروب كثيرة مما يتفكه به ﴿وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ﴾ هي أوعية التمر أعني الطلع على ما روي عن ابن عباس جمع ـ كم ـ بكسر الكاف وقد تضم، وهذا في ـ كم ـ الثمر، وأما ـ كم ـ القميص فهو بالضم لا غير، أو كل ما يكم ويغطى من ليف وسعف وطلع فإنه مما ينتفع به كالمكموم من الثمر والجمار مثلا، واختاره من اختاره، ومما ذكر يعلم فائدةالتوصيف ﴿وَالْحَبُّ﴾ هو ما يتغذى به كالحنطة والشعير ﴿ذُو الْعَصْفِ﴾ قيل: هو ورق الزرع، وقيده بعضهم باليابس، وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس أنه التبن، وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن الضحاك أنه القشر الذي يكون على الحب؛ وعن السدي والفراء أنه بقل الزرع وهو أول ما ينبت، وأخرجه غير واحد عن الحبر أيضاً، واختار جمع ما روي عنه أولاً، وفي توصيف الحب بما ذكر تنبيه على أنه سبحانه كما أنعم عليهم بما يقوتهم من الحب أنعم عليهم بما يقوت بهائمهم من العصف ﴿وَالرَّيْحَانُ﴾ هو كل مشموم طيب الريح من النبات على ما أخرجه ابن جرير عن ابن زيد، وأخرج عن الحسن أنه قال: هو ريحانكم هذا أي الريحان المعروف: وأخرج عن مجاهد أنه الرزق بل قال ابن عباس: كما أخرج هو أيضاً عنه كل ريحان في القرآن فهو رزق، وزعم الطبرسي أنه قول الأكثر، وعليه قول بعض الأعراب، وقد قيل له: إلى أين أطلب من ريحان الله فإنه أراد من رزقه عز وجل، ووجه إطلاقه عليه أنه يرتاح له، وظاهر كلام الكشاف أنه أطلق وأريد منه اللب ليطابق العصف ويوافق المراد منه في قراءة حمزة والكسائي والأصمعي عن أبي عمرو «والريحانِ» بالجر عطفاً على ﴿العصف﴾ إذ يبعد عليها حمله على المشموم والقريب حمله على اللب فكأنه قيل: والحب ذو العصف الذي هو رزق دوابكم، وذو اللب الذي هو رزق لكم، وجوز أن يكون الريحان في هذه القراءة عطفاً على فاكهة كما في قراءة الرفع، والجر للمجاورة وهو كما ترى، والزمخشري بعد أن فسر ﴿الأكمام﴾ بما ذكرناه ثانياً فيها ﴿والريحان﴾ باللب قال: أراد سبحانه فيها ما يتلذذ به من الفواكه: والجامع بين التغذي والتلذذ ـ وهو ثمر النخل ـ وما يتغذى به ـ وهو الحب ـ وهو على ما في الكشف بيان لإظهار وجه الامتنان وأنه مستوعب لأقسام ما يتناول في حال الرفاهية لأنه إما للتلذذ الخالص وهو الفاكهة، أو له وللتغذي أيضاً وهو ثمر النخل، أو للتغذي وحده وهو الحب، ولما كان الأخيران أدخل في الامتنان شفع كلا بعلاوة فيها منة أيضاً، وأن تعلم أنه إذا كان المقصود من النخل ثمره المعروف فالعطف على أسلوب ملائكته وجبريل كما قيل في قوله تعالى: ﴿فيها فاكهة ونخل ورمان﴾ [الرحمن: ٦٨] وإذا كان ما يعمه وسائر ما ينتفع به منه كالجمار والكفرى، فالعطف ليس على ذلك، وجعل صاحب الكشف قول الزمخشري بعد تفسير ﴿الأكمام﴾ بالمعنى الأعم وكله منتفع به كالمكموم إشارة إلى هذا، ثم قال: ولا ينافي جعله منه في قوله تعالى: ﴿فيها فاكهة﴾ الخ نظراً إلى أن الجنة دار تخلص للتلذذ فالنظر هنالك إلى المقصود وهو الثمر فقط فتأمل.

وقرأ ابن عامر وأبو حيوة وابن أبي عبلة ـ والحب ذا العصف والريحان ـ بنصب الجميع، وخرج على أنه بتقدير وخلق الحب الخ، وقيل: يجوز تقدير أخص، وفيه دغدغة، وجوزوا أن يكون الريحان بمعنى اللب حالة الرفع وحالة النصب على حذف مضاف والأصل وذو أو وذا الريحان فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه و ﴿الريحان﴾ فيعلان من الروح. فأصله ريوحان قبلت الواو ياءً لاجتماعها مع ياء ساكنة قبلها وأدغمت في الياء فصار ريحان بالتشديد ثم حذفت الياء الثانية التي هي عين الكلمة فقيل: ريحان كما قيل: ميت وهين بسكون الياء.

وعن أبي علي الفارسي أنه فعلان وأصله روحان بفتح الراء وسكون الواو قلبت واوه ياءً للتخفيف وللفرق بينه

وبين الروحان بمعنى ما له روح ﴿فَبِأَيِّ آلاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَان ﴾ الخطاب للثقلين لأنهما داخلان في الأنام على ما اخترناه، أو لأن الأنام عبارة عنهما على ما روي عن الحسن، وسينطق بهما في قوله تعالى: ﴿سنفرغ لكم أيه الثقلان ﴾ [الرحمن: ٣١] وفي الاخبار كما ستعلمه إن شاء الله تعالى قريبا ما يؤيده، وقد أبعد من ذهب إلى أنه خطاب للذكر والأنثى من بني آدم، وأبعد أكثر منه من قال: إنه خطاب على حد ﴿ألقيا في جهنم ﴾ [ق: ٢٤] وياشرطي اضربا عنقه، يعني أنه خطاب للواحد بصورة الاثنين والفاء لترتيب الإنكار، والتوبيخ على ما فصل من فنون النعماء وصنوف الآلاء الموجبة للإيمان والشكر حتماً، والتعرض لعنوان الربوبية المنبئة عن المالكية الكلية والتربية مع الإضافة إلى ضميرهم لتأكيد النكير وتشديد التوبيخ ومعنى تكذيبهم بشيء من آلائه تعالى كفرهم به إما بإنكار كونه منه عز وجل مع عدم الاعتراف بكونه نعمة في نفسه كتعليم القرآن وما يستند إليه من النعم الدينية، وإما بإنكار كونه منه تعالى مع الاعتراف بكونه نعمة في نفسه كالنعم الدنيوية الواصلة إليهم بإسناده إلى غيره سبحانه استقلالاً، أو اشتراكاً صريحاً، أو دلالة فإن إشراكهم لآلهتهم به تعالى في العبادة من دواعي إشراكهم لها به تعالى فيما يوجبها، والتعبير عن كفرهم المذكور بالتكذيب لما أن دلالة الآلاء المذكورة على وجوب الإيمان والشكر وشهادة منها بذلك فكفرهم بها تكذيب لا محالة أي فإذا كان الأمر كما فصل ﴿فبأي ﴾ فرد من أفراد نعم مالككما ومربيكما بتلك النعم ﴿تكذبان﴾ مع أن كلا منها ناطق بالحق شاهد بالصدق ويندب أن يقول سامع هذه الآية: لا بشيء من نعمك ربنا نكذب فلك الحمد، فقد أخرج البزار وابن جرير وابن المنذر والدارقطني في الافراد وابن مردويه والخطيب في تاريخه بسند صحيح عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما «أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قرأ سورة «الرحمن» على أصحابه فسكتوا فقال: ما لي أسمع الجن أحسن جواباً لربها منكم ما أتيت على قول الله تعالى: ﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان ﴾ إلا قالوا: لا بشيء من نعمك ربنا نكذب فلك الحمد».

وأخرج الترمذي وجماعة وصححه الحاكم عن جابر بن عبد الله نحوه، وقرىء «فبأي» بالتنوين في جميع السورة كأنه حذف منه المضاف إليه وأبدل منه ﴿آلاء ربكما ﴾ بدل معرفة من نكرة.

﴿خَلَقَ الإنسانَ من صَلْصال كَالفَخَّار ﴾ تمهيد للتوبيخ على إخلالهم بمواجب شكر النعمة المتعلقة بذاتي كل واحد من الثقلين، والمراد بالإنسان آدم عند الجمهور. وقيل: الجنس وساغ ذلك لأن أباهم مخلوق مما ذكر، والصلصال الطين اليابس الذي له صلصلة، وأصله ـ كما قال الراغب ـ تردد الصوت من الشيء اليابس ومنه قيل: صل المسمار، وقيل: هو المنتن من الطين من قولهم: صل اللحم، وكأن أصله صلال فقلبت إحدى اللامين صاداً ويبعد ذلك قوله سبحانه: ﴿كالفخار ﴾ وهو الخزف أعني ما أحرق من الطين حتى تحجر وسمي بذلك لصوته إذا نقر كأنه تصور بصورة من يكثر التفاخر، وقد خلق الله تعالى آدم عليه السلام من تراب جعله طيناً ثم حمأ مسنوناً ثم صلصالا فلا تنافي بين الآية الناطقة بأحدها وبين ما نطق بأحد الآخرين ﴿وَخَلَقَ الجَانَّ ﴾ هو أبو الجن وهو إبليس قاله الحسن، وقال مجاهد: هو أبو الجن وليس بإبليس، وقيل: هو اسم جنس شامل للجن كلهم ﴿من مَّارِج ﴾ من لهب خالص لا دخان فيه ـ كما هو رواية عن ابن عباس ـ وقيل: هو اللهب المختلط بسواد النار، أو بخضرة وصفرة وحمرة ـ كما روي عن مجاهد ـ من مرج الشيء إذا اضطرب واختلط، و ﴿من﴾ لابتداء الغاية، وقوله تعالى: ﴿مِّن نَّار ﴾ بيان لمارج والتنكير للمطابقة ولأن التعريف لكنه عليه فكأنه قيل: خلق من نار خالصة، أو مختلطة على التفسيرين، وجوز جعل ﴿من ﴾ فيه ابتدائية فالتنكير لأنه أريد نار مخصوصة متميزة من بين النيران لا هذه المعروفة، وأياً ما كان فالمارج بالنسبة إلى الجان كالتراب بالنسبة إلى الإنسان، وفي الآية رد على من يزعم أن الجن نفوس مجردة ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَان﴾مما أفاض عليكما في تضاعيف

خلقكما من سوابغ النعم ﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ﴾ خبر مبتدأ محذوف أي هو رب الخ، أو الذي فعل ما ذكر من الأفاعيل البديعة ـ رب مشرقي الشمس صيفاً وشتاءً ومغربيها ـ كذلك على ما أخرجه جماعة عن ابن عباس وروي عن مجاهد وقتادة وعكرمة أن ﴿المشرقين﴾ مشرقا الشتاء ومشرق الصيف، و ﴿المغربين﴾ مغرب الشتاء ومغرب الصيف بدون ذكر الشمس، وقيل: المشرقان مشرقا الشمس والقمر، والمغربان مغرباهما.

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس أن ﴿المشرقين﴾ مشرق الفجر ومشرق الشفق، و ﴿المغربين﴾ مغرب الشمس ومغرب الشفق، وحكى أبو حيان في المغربين نحو هذا، وفي المشرقين أنهما مطلع الفجر ومطلع الشمس والمعول ما عليه الأكثرون من مشرقي الصيف والشتاء ومغربيهما، ومن قضية ذلك أن يكون سبحانه رب ما بينهما من الموجودات، وقيل: ﴿رب﴾ مبتدأ والخبر قوله تعالى: ﴿مرج﴾ الخ، وليس بذاك.

وقرأ أبو حيوة وابن أبي عبلة «ربِّ» بالجر على أنه بدل من ربكما ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ مما في ذلك من فوائد لا تحصى كاعتدال الهواء واختلاف الفصول وحدوث ما يناسب كل فصل في وقته.

﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ﴾ أي أرسلهما وأجراهما من ـ مرجت ـ الدابة ـ في المرعى ـ أرسلتها فيه، والمعنى أرسل البحر الملح والبحر العذب ﴿يَلْتَقِيَانِ﴾ أي يتجاوران وتتماس سطوحهما لا فصل بينهما في مرأى العين، وقيل: أرسل بحري فارس والروم يلتقيان في المحيط لأنهما خليجان ينشعبان منه، وروي هذا عن قتادة لكنه اورد عليه أنه لا يوافق قوله تعالى: ﴿مرج البحرين هذا عذب فرات وهذا ملح أجاج﴾ [الفرقان: ٥٣] والقرآن يفسر بعضه بعضاً، وعليه قيل: جملة ﴿يلتقيان﴾ حال مقدرة إن كان المراد ـ إرسالهما إلى المحيط، أو المعنى اتحاد أصليهما إن كان المراد إرسالهما إليه ﴿بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ﴾ أي حاجز من قدرة الله تعالى، أو من أجرام الارض كما قال قتادة ﴿لا يَبْغِيَانِ﴾ أي لا يبغي أحدهما على الآخر بالممازجة وإبطال الخاصية بالكلية بناءً على الوجه الأول فيما سبق، أو لا يتجاوزان حديهما بإغراق ما بينهما بناءً على الوجه الثاني، وروي هذا عن قتادة أيضاً، وفي معناه ما أخرجه عبد الرزاق وابن المنذر عن الحسن ﴿لا يبغيان﴾ عليكم فيغرقانكم، وقيل: المعنى لا يطلبان حالاً غير الحال التي خلقا عليها وسخرا لها ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ مما لكما في ذلك من المنافع ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ﴾ صغار الدر ﴿وَالْمَرْجَانُ﴾ كباره كما أخرج ذلك عبد بن حميد وابن جرير عن علي كرم الله تعالى وجهه ومجاهد، وأخرجه عبد عن الربيع وجماعة منهم المذكوران وابن المنذر وابن أبي حاتم من طرق عن ابن عباس، وأخرج ابن جرير عنه أنه قال: ﴿اللؤلؤ﴾ ما عظم منه ﴿والمرجان﴾ اللؤلؤ الصغار.

وأخرج هو وعبد الرزاق وعبد بن حميد عن قتادة نحوه، وكذا أخرج ابن الأنباري في الوقف والابتداء عن مجاهد، وأظن أنه إن اعتبر في اللؤلؤ معنى التلألؤ واللمعان وفي المرجان معنى المرج والاختلاط فالأوفق لذلك ما قيل ثانياً فيهما. وأخرج عبد الرزاق الفريابي وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر والطبري عن ابن مسعود أنه قال: ـ المرجان ـ الخرز الأحمر أعني البسذ وهو المشهور المتعارف، و ﴿اللؤلؤ﴾ عليه شامل للكبار والصغار. ثم إن اللؤلؤ بناء غريب قيل: لا يحفظ منه في كلام العرب أكثر من خمسة هو، والجؤجؤ الصدر وقرية بالبحرين، والدؤدؤ آخر الشهر أو ليلة خمس وست وسبع وعشرين أو ثمان وتسع وعشرين أو ثلاث ليال من آخره، والبؤبؤ بالباء الموحدة الأصل والسيد الظريف ورأس المكحلة وإنسان العين ووسط الشيء، واليؤيؤ بالياء آخر الحروف طائر كالباشق، ورأيت في كتب اللغة على هذا البناء غيرها وهو الضؤضؤ الأصل للطائر. والنؤنؤ بالنون المكثر تقليب الحدقة والعاجز الجبان، ومن ذلك شؤشؤ دعاء الحمار إلى الماء وزجر الغنم والحمار للمضي. أو هو دعاء للغنم لتأكل، أو تشرب وأما

المرجان فقد ذكره صاحب القاموس في مادة ـ مرج ـ ولم يذكر ما يفهم منه أنه معرب، وقال أبو حيان في البحر: هو اسم أعجمي معرب. وقال ابن دريد: لم أسمع فيه بفعل متصرف.

وقرأ طلحة ـ اللؤلىء ـ بكسر اللام الأخيرة. وقرىء اللؤلي بقلب الهمزة المتطرفة ياءً ساكنة بعد كسر ما قبلها وكل من ذلك لغة. وقرأ نافع وأبو عمرو «يُخْرَجُ» مبنياً للمفعول من الاخراج، وقرىء «يَخْرُجُ» مبنياً للفاعل منه ونصب «اللُّؤْلُؤَ والمُرْجَانَ» أي يخرج الله تعالى. واستشكلت الآية على تفسير البحرين بالعذب والملح دون بحري فارس والروم بأن المشاهد خروج ﴿اللؤلؤ والمرجان﴾ من أحدهما وهو الملح فكيف قال سبحانه: ﴿منهما﴾؟ وأجيب بأنهما لما التقيا وصارا كالشيء الواحد جاز أن يقال: يخرجان منهما كما يقال يخرجان من البحر ولا يخرجان من جميعه ولكن من بعضه، وكما تقول خرجت من البلد وإنما خرجت من محلة من محاله بل من دار واحدة من دوره، وقد ينسب إلى الاثنين ما هو لأحدهما كما يسند إلى الجماعة ما صدر من واحد منهم. ومثله ما في الانتصاف ﴿على رجل من القريتين عظيم﴾ [الزخرف: ٣١] وعلى ما نقل عن الزجاج ﴿سبع سماوات طباقاً وجعل القمر فيهن نوراً﴾ [نوح: ١٥، ١٦]، وقيل: إنهما لا يخرجان إلا من ملتقى العذب والملح ويرده المشاهدة وكأن من ذكره مع ما تقدم لم يذكره لكونه قولاً آخر بل ذكره لتقوية الاتحاد فحينئذٍ تكون علاقة التجوز أقوى.

وقال أبو علي الفارسي: هذا من باب حذف المضاف والتقدير يخرج من أحدهما وجعل ﴿من القريتين﴾ من ذلك. وهو عندي تقدير معنى لا تقدير إعراب. وقال الرماني: العذب منهما كاللقاح للملح فهو كما يقال الولد يخرج من الذكر والأنثى أي بواسطتهما، وقال ابن عباس، وعكرمة: تكون هذه الأشياء في البحر بنزول المطر لأن الأصداف في شهر نيسان تتلقى ماء المطر بأفواهها فتتكون منه، ولذا تقل في الجدب، وجعل عليه ضمير ﴿منهما﴾ للبحرين باعتبار الجنس ولا يحتاج إليه بناءً على ما أخرجه ابن جرير عنه أن المراد بالبحرين بحر السماء وبحر الأرض.

وأخرج هو وابن المنذر عن ابن جبير نحوه إلا أن في تكون المرجان بناءً على تفسير بالبسذ من ماء المطر كاللؤلؤ تردداً وإن قالوا: إنه يتكون في نيسان، وقال بعض الأئمة: ظاهر كلام الله تعالى أولى بالاعتبار من كلام الناس، ومن علم أن اللؤلؤ لا يخرج من الماء العذب وهب أن الغواصين ما أخرجوه إلا من الملح، ولكن لم قلتم إن الصدف لا يخرج بأمر الله تعالى من الماء العذب إلى الماء الملح فإن خروجه محتمل تلذذاً بالملوحة كما تلتذ المتوحمة بها في أوائل حملها حتى إذا خرج لم يمكنه العود، وكيف يمكن الجزم بما قلتم وكثير من الأمور الأرضية الظاهرة خفيت عن التجار الذين قطعوا المفاوز وداروا البلاد فكيف لا يخفى أمر ما في قعر البحر عليهم، والله تعالى أعلم ومن غريب التفسير ما أخرجه ابن مردويه عن ابن عباس قال: ﴿مرج البحرين يلتقيان﴾ علي وفاطمة رضي الله تعالى عنهما ﴿بينهما برزخ لا يبغيان﴾ النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ﴿يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان﴾ الحسن والحسين رضي الله تعالى عنهما.

وأخرج عن إياس بن مالك[1] نحوه لكن لم يذكر فيه البرزخ، وذكر الطبرسي من الإمامية في تفسيره مجمع البيان الأول بعينه عن سلمان الفارسي وسعيد بن جبير وسفيان الثوري، والذي أراه أن هذا إن صح ليس من التفسير في شيء بل هو تأويل كتأويل المتصوفة لكثير من الآيات، وكل من عليّ وفاطمة رضي الله تعالى عنهما عندي أعظم من البحر المحيط علماً وفضلاً، وكذا كل من الحسنين رضي الله تعالى عنهما أبهى وأبهج من اللؤلؤ والمرجان بمراتب

---

(١) هكذا بالأصل ولعله انس بن مالك فدخله التصحيف.

جاوزت حدّ الحسبان ﴿فَبِأَيِّ آلاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَان﴾ مما في ذلك من الزينة والمنافع الجليلة فقد ذكر الاطباء أن ﴿اللؤلؤ﴾ يمنع الخفقان والبحر وضعف الكبد والكلى والحصى وحرقة البول والسدد واليرقان وأمراض القلب والسموم والوسواس والجنون والتوحش والربو شرباً والجذام والبرص والبهق والآثار مطلقاً بالطلى إلى غير ذلك، وأن المرجان أعني بالبسذ يفرح ويزيل فساد الشهوة ولو تعليقاً ونفث الدم والطحال شرباً والدمعة والبياض والسلاق والجرب كحلا إلى غير ذلك مما هو مذكور في كتبهم ﴿وَلَهُ ٱلْجَوَارِ﴾ السفن جمع جارية وخصها سبحانه بأنها له وهو تعالى له ملك السماوات والارض وما فيهن للإشارة إلى أن كونهم هم منشئيها لا يخرجها من ملكه عز وجل حيث كان تمام منفعتها إنما هو منه عز وجل، وقرأ عبد الله والحسن وعبد الوارث عن أبي عمرو «الجوارُ» بإظهار الرفع على الراء لأن المحذوف لما تناسوه أعطوا ما قبل الآخر حكمه كما في قوله:

لـهـا ثـنـايـا أربـع حـسـان ... وأربـع فـكـلـهـا ثـمـان

﴿ٱلْمُنشَآتُ﴾ أي المرفوعات الشرع ـ كما قال مجاهد ـ من أنشأه بمعنى رفعه، وقيل: المرفوعات على الماء وليس بذاك، وكذا ما قيل المصنوعات، وقرأ الاعمش وحمزة وزيد بن علي وطلحة وأبو بكر بخلاف عنه «المُنْشِآت» بكسر الشين أي الرافعات الشرع، أو اللاتي ينشئن الامواج بجريهن، أو اللاتي ينشئن السير إقبالاً وإدبار، وفي الكل مجاز، وشدد الشين ابن أبي عبلة، وقرأ الحسن «المنشآت» وحد الصفة ودل على الجمع الموصوف كقوله تعالى: ﴿أزواج مطهرة﴾ [البقرة: ٢٥، آل عمران: ١٥، النساء: ٥٧] وقلب الهمزة ألفاً على حد قوله:

إن السباع **لتهدأ** في مرابضها

يريد لتهدأ والتاء لتأنيث الصفة كتبت تاءً على لفظها في الأصل ﴿فِي ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَامِ﴾ كالجبال الشاهقة جمع علم وهو الجبل الطويل ﴿فَبِأَيِّ آلاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَان﴾ من خلق مواد السفن والإرشاد إلى أخذها وكيفية تركيبها وإجرائها في البحر بأسباب لا يقدر على خلقها وجمعها وترتيبها غيره سبحانه وتعالى ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا﴾ أي على الأرض التي وضعت للأنام من الحيوانات والمركبات و ﴿مَن﴾ للتغليب؛ أو للثقلين ﴿فَانٍ﴾ هالك ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ﴾ أي ذاته عز وجل، والمراد هو سبحانه وتعالى، فالإضافة بيانية وحقيقة الوجه في الشاهد الجارحة واستعماله في الذات مجاز مرسل كاستعمال الأيدي في الأنفس، وهو مجاز شائع، وقيل: أصله الجهة واستعماله في الذات من باب الكناية وتفسيره بالذات هنا مبني على مذهب الخلف القائلين بالتأويل، وتعيين المراد في مثل ذلك دون مذهب السلف، وقد قررناه لك غير مرة فتذكره وعض عليه بالنواجذ.

والظاهر أن الخطاب في ـ ربك ـ للرسول صلى الله تعالى عليه وسلم وفيه تشريف عظيم له عليه الصلاة والسلام، وقيل: هو للصالح له لعظم الأمر وفخامته، وفي الآية عند المؤولين كلام كثير منه ما سمعت، ومنه ما قيل: الوجه بمعنى القصد ويراد به المقصود، أي ويبقى ما يقصد به ربك عز وجل من الأعمال، وحمل كلام من فسره بالعمل الصالح على ذلك وفيه ما فيه، وأقرب منه ما قيل: وجهه تعالى الجهة التي أمرنا عز وجل بالتوجه إليها والتقرب بها إليه سبحانه، ومرجع ذلك العمل الصالح أيضاً والله جل شأنه يبقيه للعبد إلى أن يجازيه عليه ولذا وصف بالبقاء؛ أو لأنه بالقبول صار غير قابل للفناء لما أن الجزاء عليه قام مقامه وهو باق، ولا يخفى أن كلا القولين غير مناسب للتعليم في ﴿كل من عليها﴾ وقيل: وجهه سبحانه الجهة التي يليها الحق أي يتولاها بفضله ويفيضها على الشيء من عنده أي إن ذلك باق دون الشيء في حدّ ذاته فإنه فان في كل وقت، وقيل: المراد بوجهه سبحانه وجهه الممكن وهي جهة حيثية ارتباطه وانتسابه إليه تعالى، والاضافة لأدنى ملابسة فالممكن في حدّ ذاته أي إذا اعتبر مستقلا غير مرتبط

بعلته أعني الوجود الحق كان معدوماً لأن ظهوره إنما نشأ من العلة ولولاها لم يك شيئاً مذكوراً، وقول العلامة البيضاوي: لو استقريت جهات الموجودات وتفحصت وجوهها وجدتها بأسرها فانية في حد ذاتها إلا وجه الله تعالى أي الوجه الذي يلي جهته سبحانه محمول على ذلك عند بعض المحققين وإن كان قد فسر الوجه قبل بالذات، وللعلماء في تقرير كلامه اختلاف، فمنهم من يجعل قوله: لو استقريت الخ تتمة لتفسيره الأول، ومنهم من يجعله وجهاً آخر، وهو على الأول أخذ بالحاصل، وعلى الثاني قيل: يحتمل التطبيق على كل من مذاهب في الممكنات الموجودة، وذلك أنها إما موجودة حقيقة بمعنى أنها متصفة بالوجود اتصافاً حقيقياً بأن يكون الوجود زائداً عليها قائماً بها، وهو مذهب جمهور الحكماء والمتكلمين، وإما موجودة مجازاً وليس لها اتصاف حقيقي بالوجود بأن يكون الوجود قائماً بها بل إطلاق الموجود عليها كإطلاق الشمس على الماء، وإليه ذهب المتألهون من الحكماء والمحققون من الصوفية إلا أن ذوق المتألهين أن علاقة المجاز أن لها نسبة مخصوصة إلى حضرة الوجود الواجبي على وجوه مختلفة وأنحاء شتى، والطرق إلى الله تعالى بعدد أنفاس الخلائق، فالوجود عندهم جزئي حقيقي قائم بذاته لا يتصور عروضه لشيء ولا قيامه به ومعنى كون الممكن موجوداً أنه مظهر له ومجلى ينجلي فيه نوره ـ فالله نور السماوات والأرض ـ والممكنات بمنزلة المرايا المختلفة التي تنعكس إليها أشعة الشمس وينصبغ كل منها بصبغ يناسبه، ومذاق المحققين من الصوفية أن علاقة المجاز أنها بمنزلة صفات قائمة بذات الواجب سبحانه إذ ليس في الوجود على مذاقهم ذوات متعددة بعضها واجب وبعضها ممكن بل ذات واحدة لها صفات متكثرة وشؤونات متعددة وتجليات متجددة ﴿قل الله ثم ذرهم﴾ [الأنعام: ٩١] والمشهور أنه لا فرق بين المذاقين.

ووجه التطبيق على الأول أن يقال: المراد من الوجه الذي يلي جهته تعالى هو الوجوب بالغير إذ الممكن ـ وإن كان موجوداً حقيقة عند الجمهور ـ لكن وجوده مستفاد من الواجب بالذات، وجهة الاستفادة ليست هي الذات ولا شيئاً آخر من الجهات والوجوه كالإمكان والمعلولية والجوهرية والعرضية والبساطة والتركيب وسائر الأمور العامة لأن كلاً منها جهته الخسة، ومقتضى الفطرة الإمكانية البعيدة بمراحل عن الوجوب الذاتي المنافيه له، وإنما جهة الشرف القريبة المناسبة للوجوب الذاتي جهة الوجوب بالغير فهو وجه يلي جهة الواجب ويناسبه في كونه وجوباً وإن كان بالغير، ولذا يعقبه فيضان الوجود، ولذا تسمعهم يقولون: الممكن ما لم يجب لو يوجد.

ووجه التطبيق على الثاني أن يقال: الوجه الذي يلي جهته تعالى هو تلك النسبة المخصوصة المصححة لإطلاق لفظ الموجود عليها ولو مجازاً، فالمعنى ﴿**كل من عليها فان**﴾ معدوم لا يصح أن يطلق لفظ الموجود عليه ولو مجازاً إلا باعتبار الوجه الذي يلي جهته تعالى أي النسبة المخصوصة إلى حضرته تعالى وهي كونه مظهراً له سبحانه، ووجه التطبيق على الثالث أن يقال: المراد بالوجه الذي يلي جهته تعالى كونها شؤونات واعتبارات له تعالى. فالمعنى ﴿**كل من عليها**﴾ معدوم من جميع الوجوه والاعتبارات إلا من الوجه الذي يلي جهته سبحانه والاعتبار الذي يحصل مقيساً إليه عز وجل، وهو كونه شأناً من شؤونه واعتباراً من اعتباراته جل شأنه فتأمل مستعيناً بالله عز وجل.

﴿**ذُو ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ**﴾ أي يجله الموحدون عن التشبيه بخلقه ويثبتون له ما يليق بشأنه تعالى شأنه فهذا راجع إلى ما له سبحانه من التعظيم في قلوب من عرفه عز وجل أو الذي يقال في شأنه: ما أجلك وما أكرمك أي هو سبحانه من يستحق أن يقال في شأنه ذلك قيل أو لم يُقَل فهو راجع إلى ما له تعالى من الكمال في نفسه باعتبار قصور الإدراك عن شأوه، أو من عنده الجلال والإكرام للموحدين فهو راجع إلى الفعل أي يجل الموحدين ويكرمهم، وفسر

بعض المحققين ﴿الجلال﴾ بالاستغناء المطلق ﴿والإكرام﴾ بالفضل التام وهذا ظاهر، ووجه الأول بأن الجلال العظمة وهي تقتضي ترفعه تعالى عن الموجودات ويستلزم أنه سبحانه غني عنها، ثم ألحق بالحقيقة، ولذا قال الجوهري: عظمة الشيء الاستغناء عن غيره وكل محتاج حقير، وقال الكرماني: إنه تعالى له صفات عدمية مثل ﴿لا شريك له﴾ [الأنعام: ١٦٣] وتسمى صفات الجلال لما أنها تؤدي بجَلّ عن كذا جل عن كذا وصفات وجوديه ـ كالحياة والعلم ـ وتسمى صفات الإكرام، وفيه تأمل.

والظاهر أن ﴿ذو﴾ صفة للوجه، ويتضمن الوصف بما ذكر على ما ذكره البعض الإشارة إلى أن فناء ﴿من عليها﴾ لا يخل بشأنه عز وجل لأنه الغني المطلق، والاشارة إلى أنه تعالى بعد فنائهم يفيض على الثقلين من آثار كرمه ما يفيض وذلك يوم القيامة، ووصف الوجه بما وصف يبعد كونه عبارة عن العمل الصالح أو الجهة على ما سمعت آنفاً وكأن من يقول بذلك يقول: ﴿ذو﴾ خبر مبتدأ محذوف هو ضمير راجع إلى الرب وهو في الأصل صفة له، ثم قطعت عن التبعية، ويؤيده قراءة أبيّ وعبد الله ـ ذي الجلال ـ بالياء على أنه صفة تابعة للرب، وذكر الراغب أن هذا الوصف قد خص به عز وجل ولم يستعمل في غيره، فهو من أجلّ أوصافه سبحانه، ويشهد له ما رواه الترمذي عن أنس والإمام أحمد عن ربيعة بن عامر مرفوعاً «ألظوا بياذا الجلال والإكرام» أي الزموه واثبتوا عليه وأكثروا من قوله والتلفظ به في دعائكم، وروى الترمذي وأبو داود والنسائي عن أنس «أنه كان مع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ورجل يصلي ثم دعا فقال: اللهم إني أسألك بأن لك الحمد لا إله إلا أنت المنان بديع السماوات والأرض ذو الجلال والإكرام يا حي يا قيوم، فقال صلى الله تعالى عليه وسلم لأصحابه: أتدرون بما دعا؟ قالوا: الله ورسوله أعلم قال: والذي نفسي بيده لقد دعا الله باسمه الاعظم الذي إذا دعي به أجاب وإذا سئل به أعطى».

﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ مما يتضمنه ما ذكر فإن الفناء باب للبقاء، والحياة الأبدية، والإثابه بالنعمة السرمدية، وقال الطيبي: المراد من الآية السابقة ملزوم معناها لأنها كناية عن مجيء وقت الجزاء وهو من أجلّ النعم، ولذلك خص ﴿الجلال والإكرام﴾ بالذكر لأنهما يدلان على الإثابة والعقاب المراد منها تخويف العباد وتحذيرهم من ارتكاب ما يترتب عليه العقاب، والتحذير من مثل ذلك نعمة، فلذا رتب عليها بالفاء قوله تعالى: ﴿فبأي آلاء﴾ الخ، وليس بذاك.

يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴿٢٩﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٠﴾ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ
﴿٣١﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٢﴾ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ
فَٱنفُذُوا۟ ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ﴿٣٣﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٤﴾ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا
تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٦﴾ فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ ﴿٣٧﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ
رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٨﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴿٣٩﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٠﴾ يُعْرَفُ
ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٢﴾ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا
ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴿٤٤﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٥﴾ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ فَبِأَىِّ
ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾ ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٩﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا

تُكَذِّبَانِ ﴿٥١﴾ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٣﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ
إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٥﴾ فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ
وَلَا جَآنٌّ ﴿٥٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾ كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾

﴿**يَسْأَلُهُ مَن فِي ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ**﴾ قاطبة ما يحتاجون إليه في ذواتهم حدوثاً وبقاءً وفي سائر أحوالهم سؤالاً مستمراً بلسان المقال أو بلسان الحال فإنهم كافة من حيث حقائقهم الممكنة بمعزل من استحقاق الوجود وما يتفرع عليه من الكمالات بالمرة بحيث لو انقطع ما بينهم وبين العناية الإلهية من العلاقة لم يشموا رائحة الوجود أصلاً فهم في كل آن سائلون.

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن أبي صالح ﴿**يسأله من في السماوات**﴾ الرحمة، ومن في ـ الأرض ـ المغفرة والرزق، وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج ﴿**يسأله**﴾ الملائكة عليهم السلام الرزق لأهل الأرض والمغفرة. وأهل الأرض يسألونهما جميعاً وما تقدم أولى. ولا دليل على التخصيص.

والظاهر أن الجملة استئناف. وقيل: هي حال من ـ الوجه ـ والعامل فيها ﴿**يبقى**﴾ أي هو سبحانه دائم في هذه الحال، ولا يخفى حاله على ذي تمييز ﴿**كُلَّ يَوْمٍ**﴾ كل وقت من الأوقات ولحظة من اللحظات.

﴿**هُوَ فِي شَأْنٍ**﴾ من الشؤون التي من جملتها إعطاء ما سألوا فإنه تعالى لا يزال ينشىء أشخاصاً، ويفني آخرين ويأتي بأحوال ويذهب بأحوال حسبما تقتضيه مشيئته عز وجل المبنية على الحكم البالغة، وأخرج البخاري في تاريخه وابن ماجه ابن حيان وجماعة عن أبي الدرداء عن النبي ﷺ أنه قال في هذه الآية: «من شأنه أن يغفر ذنباً ويفرج كرباً ويرفع قوماً ويضع آخرين» زاد البزار «ويجيب داعياً»، وقيل: إن الله تعالى في كل يوم ثلاث عساكر: عسكر من الاصلاب إلى الأرحام، وعسكر من الارحام إلى الدنيا، وعسكر من الدنيا إلى القبور. والظاهر أن المراد بيان كثرة شؤونه تعالى في الدنيا فكل يوم على معنى كل وقت من أوقات الدنيا.

وقال ابن عيينة: الدهر عند الله تعالى يومان: أحدهما اليوم الذي هو مدة الدنيا فشأنه فيه الأمر والنهي والإماته والاحياء. وثانيهما اليوم الذي هو يوم القيامة فشأنه سبحانه فيه الجزاء والحساب، وعن مقاتل إن الآية نزلت في اليهود قالوا: إن الله تعالى لا يقضي يوم السبت شيئاً فرد عز وجل عليهم بذلك، وسأل عبد الله بن طاهر الحسين بن الفضل عن الجمع بين هذه الآية وما صح من أن القلم جف بما هو كائن إلى يوم القيامة فقال: شؤون يبديها لا شؤون يبتديها، وانتصب ﴿**كل يوم**﴾ على الظرف، والعامل فيه هو العامل في قوله تعالى ﴿**في شأن**﴾، و ﴿**هو**﴾ ثابت المحذوف: فكأنه قيل هو ثابت في شأن كل يوم ﴿**فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ**﴾ مما يسعف به سؤالكما وما يخرج لكما بيديه من مكمن العدم حيناً فحيناً ﴿**سَنَفْرُغُ لَكُمْ**﴾ الفراغ في اللغة يقتضي سابقة شغل.

والفراغ للشيء يقتضي لاحقيته أيضاً، والله سبحانه لا يشغله شأن عن شأن فجعل انتهاء الشؤون المشار إليها بقوله تعالى: ﴿**كل يوم هو في شأن**﴾ يوم القيامة إلى واحد هو جزاء المكلفين فراغاً لهم على سبيل التمثيل لأن من ترك أشغاله إلى شغل واحد يقال: فرغ له وإليه فشبه حال هؤلاء ـ وأخذه تعالى في جزائهم فحسب ـ بحال من فرغ له، وجازت الاستعارة التصريحية التبعية في ﴿**سنفرغ**﴾ بأن يكون المراد سنأخذ في جزائكم فقط الاشتراك الأخذ في الجزاء فقط، والفراغ عن جميع المهام إلى واحد في أن المعنى به ذلك الواحد، وقيل: المراد التوفر في الانتقام والنكاية، وذلك أن الفراغ للشيء يستعمل في التهديد كثيراً كأنه فرغ عن كل شيء لأجله فلم يبق له شغل غيره فيدل

على التوفر المذكور، وهو كناية فيمن يصح عليه، ومجاز في غيره كالذي نحن فيه، ولعل مراد ابن عباس والضحاك بقولهما ـ كما أخرج ابن جرير عنهما ـ هذا وعيد من الله تعالى لعباده ما ذكر، والخطاب عليه قيل: للمجرمين، وتعقب بأن النداء الآتي يأباه، نعم المقصود بالتهديد هم، وقيل: لا مانع من تهديد الجميع، ثم إن هذا التهديد إنما هو بما يكون يوم القيامة، وقول ابن عطية: يحتمل أن يكون ذلك توعداً بعذاب الدنيا مما لا يكاد يلتفت إليه، وقيل: إن فرغ يكون بمعنى قصد، واستدل عليه بما أنشده ابن الأنباري لجرير:

ألان وقد **فرغت** إلى نمير ... فهذا حين كنت لهم عذابا

أي قصدت، وأنشد النحاس:

فرغت إلى العبد المقيد في الحجل

وفي الحديث «لأتفرغن لك يا خبيث» قاله صلى الله تعالى عليه وسلم مخاطباً به أزب العقبة يوم بيعتها أي لأقصدن إبطال أمرك، ونقل هذا عن الخليل والكسائي والفراء، والظاهر أنهم حملوا ما في الآية على ذلك، فالمراد حينئذ تعلق الإرادة تعلقاً تنجيزياً بجزائهم، وقرأ حمزة والكسائي وأبو حيوة وزيد بن علي ـ سيفرغ ـ بياء الغيبة، وقرأ قتادة والأعرج «سَنُفْرِغَ» بنون العظمة وفتح الراء مضارع فرغ بكسرها ـ وهو لغة تميم ـ كما أن **﴿سنفرغ﴾** في قراءة الجمهور مضارع فرغ بفتحها لغة الحجاز، وقرأ أبو السمال وعيسى «سَنِفْرَغَ» بكسر النون وفتح الراء وهي ـ على ما قال أبو حاتم ـ لغة سفلى مضر، وقرأ الأعمش وأبو حيوة بخلاف عنهما وابن أبي عبلة والزعفراني «سَيُفْرَغُ» بضم الياء وفتح الراء مبنياً للمفعول؛ وقرأ عيسى أيضاً «سَنَفْرِغُ» بفتح النون وكسر الراء، والأعرج أيضاً ـ سيفرغ ـ بفتح الياء والراء وهي لغة، وقرىء سأفرغ بهمزة المتكلم وحده، وقرأ أبيّ «سنفرغ» إليكم عداه بإلى فقيل: للحمل على القصد، أو لتضمينه معناه أي **﴿سنفرغ﴾** قاصدين إليكم **﴿أَيُّهَ الثّقلان﴾** هما الإنس والجن من ثقل الدابة وهو ما يحمل عليها جعلت الارض كالحمولة والإنس والجن ثقلاها، وما سواهما على هذا كالعلاوة، وقال غير واحد: سميا بذلك لثقلهما على الارض، أو لرزانة رأيهما وقدرهما وعظم شأنهما. ويقال لكل عظيم القدر مما يتنافس فيه: ثقل، ومنه قوله صلى الله تعالى عليه وسلم: «إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي» وقيل: سميا بذلك لأنهما مثقلان بالتكليف، وعن الحسن لثقلهما بالذنوب **﴿فَبِأَيِّ آلاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبان﴾** التي من جملتها التنبيه على ما ستلقونه يوم القيامة للتحذير عما يؤدي إلى سوء الحساب **﴿يا مَعْشَرَ ٱلجِّن وَالإنس﴾** هما الثقلان خوطبا باسم جنسهما لزيادة التقرير ولأن الجن مشهورون بالقدرة على الأفاعيل الشاقة فخوطبوا بما ينبىء عن ذلك لبيان أن قدرتهم لا تفي بما كلفوه وكأنه لما ذكر سبحانه أنه مجاز للعباد لا محالة عقب عز وجل ذلك ببيان أنهم لا يقدرون على الخلاص من جزائه وعقابه إذا أراده فقال سبحانه: **﴿يا معشر الجن والإنس﴾** **﴿إن استَطَعْتُمْ﴾** إن قدرتم، وأصل الاستطاعة طلب طواعية الفعل وتأتّيه.

﴿أن تَنفُذُوا منْ أَقْطار ٱلسَّماوات وٱلأرض﴾ أن تخرجوا من جوانب السماوات والأرض هاربين من الله تعالى فارّين من قضائه سبحانه **﴿فَانفُذُوا﴾** فاخرجوا منها وخلصوا أنفسكم من عقابه عز وجل، والأمر للتعجيز **﴿لا تَنفُذُونَ﴾** لا تقدرون على النفوذ **﴿إلاَّ بسُلْطان﴾** أي بقوة وقهر وأنتم عن ذلك بمعزل وألف ألف منزل، روي أن الملائكة عليهم السلام ينزلون يوم القيامة فيحيطون بجميع الخلائق فإذا رآهم الجن والإنس هربوا فلا يأتون وجهاً إلا وجدوا الملائكة أحاطت به، وقيل: هذا أمر يكون في الدنيا، قال الضحاك: بينما الناس في أسواقهم انفتحت السماء ونزلت الملائكة فتهرب الجن والإنس فتحدق بهم الملائكة وذلك قبيل قيام الساعة، وقيل: المراد إن استطعتم الفرار من الموت ففروا، وقيل: المعنى إن قدرتم أن تنفذوا لتعلموا بما في السماوات والأرض فنفذوا لتعلموا لكن **﴿لا**

تنفذون﴾ ولا تعلمون إلا ببينة وحجة نصبها الله تعالى فتعرجون عليها بأفكاركم، وروي ما يقاربه عن ابن عباس والأنسب بالمقام لا يخفى.

وقرأ زيد بن علي إن استطعتما رعاية للنوعين وإن كان تحت كل أفراد كثيرة والجمع لرعاية تلك الكثرة وقد جاء كل في الفصيح نحو قوله تعالى: ﴿وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما ﴾ [الحجرات: ٩] **﴿فَبِأَيِّ آلاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَان ﴾** أي من التنبيه والتحذير والمساهلة والعفو مع كمال القدرة على العقوبة، وقيل: على الوجه الأخير فيما تقدم أي مما نصب سبحانه من المصاعد العقلية والمعارج النقلية فتنفذون بها إلى ما فوق السماوات العلا **﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا ﴾** استئناف في جواب سؤال مقدر عن الداعي للفرار أو عما يصيبهم أي يصب عليكما **﴿شُواظٌ ﴾** هو اللهب الخالص كما روي عن ابن عباس، وأنشد عليه أبو حيان قول حسان:

هجوتك فاختضعت لنا بذل ... بقافية تأجج **كالشواظ**

وقيل: اللهب المختلط بالدخان، وقال مجاهد: اللهب الأحمر المنقطع، وقيل: اللهب الأخضر، وقال الضحاك: الدخان الذي يخرج من اللهب، وقيل: هو النار والدخان جميعاً، وقرأ عيسى وابن كثير وشبل «شِوَاظٌ» بكسر الشين **﴿مِّن نَّار ﴾** متعلق ـ بيرسل ـ أو بمضمر هو صفة ـ لشواظ ـ و «من» ابتدائية أي كائن من نار والتنوين للتفخيم **﴿وَنُحَاسٌ ﴾** هو الدخان الذي لا لهب فيه كما قاله ابن عباس لنافع بن الأزرق وأنشد له قول الأعشى، أو النابغة الجعدي:

تضيء كضوء السراج السليـ ... ـط لم يجعل الله فيه **نحاسا**

وروي عنه أيضاً، وعن مجاهد أنه الصفر المعروف أي يصب على رؤوسكما صفر مذاب، والراغب فسره باللهب بلا دخان ثم قال: وذلك لشبهه في اللون بالنحاس، وقرأ ابن أبي إسحاق والنخعي وابن كثير وأبو عمرو «ونُحَاسٍ» بالجر على أنه عطف على نار، وقيل: على **﴿شواظ ﴾** وجر للجوار فلا تغفل.

وقرأ الكلبي وطلحة ومجاهد بالجر أيضاً لكنهم كسروا النون وهو لغة فيه، وقرأ ابن جبير ـ ونحس ـ كما تقول يوم نحس، وقرأ عبد الرحمن بن أبي بكرة وابن أبي إسحاق أيضاً «ونحس» مضارعاً، وماضيه حسه أي قتله أي ونقتل بالعذاب، وعن ابن أبي إسحاق أيضاً ـ ونحس ـ بالحركات الثلاث في الحاء على التخيير وحنظلة بن عثمان ـ ونحس ـ بفتح النون وكسر السين، والحسن وإسماعيل ـ ونحس ـ بضمتين والكسر، وهو جمع ـ نحاس ـ كلحاف ولحف، وقرأ زيد بن علي ـ نرسل ـ بالنون ـ شواظاً ـ بالنصب ـ ونحاساً ـ كذلك عطفاً على شواظا **﴿فَلا تَنتَصِران ﴾** فلا تمتنعان وهذا عند الضحاك في الدنيا أيضاً.

أخرج ابن أبي شيبة عنه أنه قال في الآية: تخرج نار من قبل المغرب تحشر الناس حتى إنها لتحشر القردة والخنازير تبيت معهم حيث باتوا وتقيل حيث قالوا، وقال في البحر: المراد تعجيز الجن والإنس أي أنتما بحال من يرسل عليه هذا فلا يقدر على الامتناع مما يرسل عليه **﴿فَبِأَيِّ آلاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَان ﴾** فإن التهديد لطف والتمييز بين المطيع والعاصي بالجزاء والانتقام من الكفار من عداد الآلاء **﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَاءُ ﴾** أي انصدعت يوم القيامة، وحديث امتناع الخرق حديث خرافة، ومثله ما يقوله أهل الهيئة اليوم في السماء على أن الانشقاق فيها على زعمهم أيضاً متصور **﴿فَكَانَتْ وَرْدَةً ﴾** أي كالوردة في الحمرة، والمراد بها النور المعروف قاله الزجاج وقتادة، وقال ابن عباس وأبو صالح: كانت مثل لون الفرس الورد، والظاهر أن مرادهما كانت حمراء.

وقال الفراء: أريد لون الفرس الورد يكون في الربيع إلى الصفرة، وفي الشتاء إلى الحمرة، وفي اشتداد البرد إلى الغبرة فشبه تلون السماء بتلون الورد من الخيل، وروي هذا عن الكلبي أيضاً، وقال أبو الجوزاء: ﴿وردة﴾ صفراء والمعول عليه إرادة الحمرة، ونصب ﴿وردة﴾ على أنه خبر ـ كان ـ وفي الكلام تشبيه بليغ، وقرأ عبيد بن عمير «وردةٌ» بالرفع على أن ـ كان ـ تامة أي فحصلت سماء وردة فيكون من باب التجريد لأنه بمعنى كانت منها، أو فيها سماء وردة مع أن المقصود أنها نفسها كذلك فهو كقول قتادة بن مسلمة:

فلئن بقيت لأرحلن بغزوة ... نحو المغانم أو يموت كريم

حيث عنى بالكريم نفسه، وقوله تعالى: ﴿كَالدِّهَانِ﴾ خبر ثان لكانت ـ أو نعت ـ لوردة ـ أو حال من اسم ـ كانت ـ على رأي من أجازه أي كدهن الزيت كما قال تعالى: ﴿كالمهل﴾ [الكهف: ٢٩، الدخان: ٤٥، المعارج: ٨] وهو دردي الزيت، وهو ما جمع دهن كقرط وقراط، أو اسم لما يدهن به كالحزام والأدام، وعليه قوله في وصف عينين كثيرتي التذارف:

كأنهما مزادتا متعجل ... فريان لما تدهنا **بدهان**

وهو الدهن أيضاً إلا أنه أخص لأنه الدهن باعتبار إشرابه الشيء، ووجه الشبه الذوبان وهو في السماء على وقيل من حرارة جهنم وكذا الحمرة، وقيل: اللمعان، وقال الحسن: أي كالدهان المختلفة لأنها تتلون ألواناً؛ وقال ابن عباس: الدهان الأديم الأحمر؛ ومنه قول الأعشى:

وأجرد من كرام الخيل طرف ... كأن على شواكله **دهانا**

وهو مفرد، أو جمع، واستدل للثاني بقوله:

تبعن **الدهان** الحمر كل عشية ... بموسم بدر أو بسوق عكاظ

وإذا شرطية جوابها مقدر أي كان ما كان مما لا تطيقه قوة البيان، أو وجدت أمراً هائلاً، أو رأيت ما يذهل الناظرين وهو الناصب لإذا، ولهذا كان مفرعاً ومسبباً عما قبله لأن في إرسال الشواظ ما هو سبب لحدوث أمر هائل، أو رؤيته في ذلك الوقت ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ فإن الإخبار بنحو ما ذكر مما يزجر عن الشر فهو لطف أيّ لطف ونعمة أيّ نعمة ﴿فَيَوْمَئِذٍ﴾ أي يوم إذ تنشق السماء حسبما ذكر.

﴿لا يُسْأَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلا جَانٌّ﴾ لأنهم يعرفون بسيماهم وهذا في موقف، وما دل على السؤال من نحو قوله تعالى: ﴿فوربك لنسألنهم أجمعين﴾ [الحجر: ٩٢] في موقف آخر قاله عكرمة وقتادة، وموقف السؤال على ما قيل: عند الحساب، وترك السؤال عند الخروج من القبور، وقال ابن عباس: حيث ذكر السؤال فهو سؤال توبيخ وتقرير، وحيث نفي فهو استخبار فحص عن الذنب، وقيل: المنفي هو السؤال عن الذنب نفسه والمثبت هو السؤال عن الباعث عليه، وأنت تعلم أن في الآيات ما يدل على السؤال عن نفس الذنب.

وحكى الطبرسي عن الرضا رضي الله تعالى عنه أن من اعتقد الحق ثم أذنب ولم يتب عذب في البرزخ ويخرج يوم القيامة وليس له ذنب يسأل عنه، ولعمري إن الرضا لم يقل ذلك، وحمل الآية عليه مما لا يلتفت إليه بعين الرضا كما لا يخفى، وضمير ذنبه للإنس وهو متقدم رتبة لأنه نائب عن الفاعل، وإفراده باعتبار اللفظ، وقيل: لما أن المراد فرد من الإنس كأنه قيل: لا يسأل عن ذنبه إنسي ولا جني، وقرأ الحسن وعمرو بن عبيد ـ ولا جأن ـ بالهمزة فراراً من التقاء الساكنين وإن كان على حدّه ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ يقال فيه نحو ما سمعت في سباقه ﴿يُعْرَفُ

﴿ٱلْمُجْرِمُونَ بسيماهُمْ﴾ استئناف يجري مجرى التعليل لانتفاءالسؤال، و **﴿المجرمون﴾** قيل: من وضع الظاهر موضع الضمير للإشارة إلى أن المراد بعض من الإنس وبعض من الجن وهم المجرمون فيكون ذلك كقوله تعالى: ﴿ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون﴾ [القصص: ٧٨]، و ـ سيماهم ـ على ما روي عن الحسن سواد الوجوه وزرقة العيون، وقيل: ما يعلوهم من الكآبة والحزن، وجوز أن تكون أموراً أخر ـ كالعمى. والبكم. والصمم ..

وقرأ حماد بن سليمان بسيمائهم **﴿فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّواصي﴾** جمع ناصية وهي مقدم الرأس **﴿وَٱلأَقْدَام﴾** جمع قدم وهي قدم الرجل المعروفة والباء للآلة مثلها في أخذت بخطام الدابة، والجار والمجرور نائب الفاعل وقال أبو حيان: إن الباء للتعدية والفعل مضمن معنى ما يعدى بها أي فيسحب بالنواصي الخ، وفيه بحث وظاهر كلام غير واحد أن ـ أل ـ عوض عن المضاف إليه الضمير أي بنواصيهم وأقدامهم، ونص عليه أبو حيان فقال: ـ أل ـ فيهما عوض عن الضمير على مذهب الكوفيين، والضمير محذوف على مذهب البصريين أي بالنواصي والأقدام منهم، وأنت تعلم أن الخلاف بين أهل البلدين فيما إذا احتيج إلى الضمير للربط ولا احتياج إليه هنا، نعم المعنى على الضمير وكيفية هذا الأخذ على ما روي عن الضحاك أن يجمع الملك بين ناصية أحدهم وقدميه في سلسلة من وراء ظهره ثم يكسر ظهره ويلقيه في النار، وقيل: تأخذ الملائكة عليهم السلام بعضهم سحباً بالناصية وبعضهم سحباً بالقدم، وقيل: تسحبهم الملائكة عليهم السلام تارة بأخذ النواصي وتارة بأخذ الأقدام، فالواو بمعنى أو التي للتقسيم وهو خلاف الظاهر، وإبهام الفاعل لأنه كالمتعين، وقيل: للرمز إلى عظمته فقد أخرج ابن مردويه والضياء المقدسي في صفة النار عن أنس قال: سمعت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يقول: «والذي نفسي بيده لقد خلقت ملائكة جهنم قبل أن تخلق جهنم بألف عام فهم كل يوم يزدادون قوة إلى قوتهم حتى يقبضوا على من قبضوا بالنواصي والأقدام» **﴿فَبِأَيِّ آلاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَان﴾** يقال فيه نحو ما تقدم، وقوله تعالى: **﴿هٰذه جَهَنَّمُ ٱلَّتي يُكَذِّبُ بهَا ٱلْمُجْرِمُونَ﴾**مقول قول مقدر معطوف على قوله تعالى: **﴿يؤخذ﴾** الخ أي ويقال هذه الخ أو مستأنف في جواب ماذا يقال لهم لأنه مظنة للتوبيخ والتقريع، أو حال من أصحاب النواصي بناءً على أن التقدير نواصيهم أو النواصي منهم، وما في البين اعتراض على الأول والأخير وكان أصل **﴿التي يكذب بها المجرمون﴾** التي كذبتم بها فعدل عنه لما ذكر للدلالة على استمرار ذلك وبيان لوجه توبيخهم وعلته.

﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا﴾ أي يترددون بين نارها **﴿وَبَيْنَ حَميم﴾** ماء حار **﴿آن﴾** متناه إناه وطبخه بالغ في الحرارة أقصاها، قال قتادة: الحميم يغلي منذ خلق الله تعالى جهنم والمجرم ويعاقب بين تصلية النار وشرب الحميم، وقيل: يحرقون في النار ويصب على رؤوسهم الحميم، وقيل: إذا استغاثوا من النار جعل غياثهم الحميم، وقيل: يغمسون في واد في جهنم يجتمع فيه صديد أهل النار فتنخلع أوصالهم ثم يخرجون منه وقد أحدث الله تعالى لهم خلقاً جديداً، وعن الحسن أنه قال: **﴿حميم آن﴾** النحاس انتهى حره، وقيل: **﴿آن﴾** حاضر.

وقرأ السلمي يطافون، والاعمش وطلحة وابن مقسم **﴿يطوفون﴾** بضم الياء وفتح الطاء وكسر الواو مشددة، وقرىء «يَطَّوَفُونَ» أي يتطوفون **﴿فَبِأَيِّ آلاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَان﴾** هو أيضاً كما تقدم **﴿وَلمن خَافَ مَقَامَ رَبِّه﴾** الخ شروع في تعديد الآلاء التي تفاض في الآخرة، و **﴿مقام﴾** مصدر ميمي بمعنى القيام مضاف إلى الفاعل أي **﴿ولمن خاف﴾** قيام ربه وكونه مهيمناً عليه مراقباً له حافظاً لأحواله، فالقيام هنا مثله في قوله تعالى: ﴿أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت﴾ [الرعد: ٣٣] وهذا مروي عن مجاهد وقتادة، أو هو اسم مكان، والمراد به مكان وقوف الخلق في يوم القيامة للحساب، والإضافة إليه تعالى لامية اختصاصية لأن الملك له عز

وجل وحده فيه بحسب نفس الأمر، والظاهر والخلق قائمون له كما قال سبحانه: ﴿يقوم الناس لرب العالمين﴾ [المطففين: ٦] منتظرون ما يحل عليهم من قبله جل شأنه، وزعم بعضهم أن الإضافة على هذا الوجه لأدنى ملابسة وليس بشيء، وقيل: المعنى ﴿ولمن خاف﴾ مقامه عند ربه على أن المقام مصدر أو اسم مكان وهو للخائف نفسه، وإضافته للرب لأنه عنده تعالى فهي مثلها في قولهم: شاة رقود الحلب، وهي بمعنى ـ عند ـ عند الكوفيين أي رقود عند الحلب، وبمعنى اللام عند الجمهور كما صرح به شراح التسهيل وليست لأدنى ملابسة كما زعم أيضاً، ثم إن المراد بالعندية هنا مما لا يخفى، وجوز أن يكون مقحماً على سبيل الكناية، فالمراد ولمن خاف ربه لكن بطريق برهاني بليغ، ومثله قول الشماخ:

ذعرت به القطا ونفيت عنه مقام **الذئب** كالرجل اللعين[1]

وهو الأظهر على ما ذكره صاحب الكشف، والظاهر أن المراد ولكل فرد فرد من الخائفين: ﴿جَنَّتَان﴾ فقيل: إحداهما منزله ومحل زيارة أحبابه له، والأخرى منزل أزواجه وخدمه، وإليه ذهب الجبائي، وقيل: بستانان بستان داخل قصره وبستان خارجه، وقيل: منزلان ينتقل من أحدهما إلى الآخر لتتوفر دواعي لذته وتظهر ثمار كرامته، وأي هذا ممن يطوف بين النار، وبين حميم آن؟؟.

وجوز أن يقال: جنة لعقيدته وجنة لعمله، أو جنة لفعل الطاعات وجنة لترك المعاصي، أو جنة يثاب بها وأخرى يتفضل بها عليه، أو إحداهما روحانية والأخرى جسمانية، ولا يخفى أن الصفات الآتية ظاهرة في الجسمانية.

وقال مقاتل: جنة عدن وجنة نعيم، وقيل: المراد لكل خائفين منكما جنتان جنة للخائف الإنسي وجنة للخائف الجني، فإن الخطاب للفريقين، وهذا عندي خلاف الظاهر، وفي الآثار ما يبعده، فقد أخرج البيهقي في شعب الإيمان عن الحسن أنه كان شاب على عهد عمر رضي الله تعالى عنه ملازم للمسجد والعبادة فعشقته جارية فأتته في خلوة فكلمته فحدثته نفسه بذلك فشهق شهقة فغشي عليه فجاء عم له فحمله إلى بيته فلما أفاق قال: يا عم انطلق إلى عمر فأقرئه مني السلام وقل له ما جزاء من خاف مقام ربه؟ فانطلق فأخبر عمر وقد شهق الفتى شهقة أخرى فمات فوقف عليه عمر رضي الله تعالى عنه فقال: لك جنتان لك جنتان.

والخوف في الأصل توقع مكروه عند أمارة مظنونة أو معلومة ويضاده الأمن قال الراغب: والخوف من الله تعالى لا يراد به ما يخطر بالبال من الرعب كاستشعار الخوف من الأسد بل إنما يراد به الكف عن المعاصي وتحري الطاعات، ولذلك قيل: لا يعد خائفاً من لم يكن للذنوب تاركاً، ويؤيد هذا تفسير ابن عباس رضي الله تعالى عنهما الخائف هنا كما أخرج ابن جرير عنه بمن ركب طاعة الله تعالى وترك معصيته.

وقول مجاهد: هو الرجل يريد الذنب فيذكر الله تعالى فيدع الذنب، والذي يظهر أن ذلك تفسير باللازم، وقد يقال: إن ارتكاب الذنب قد يجامع الخوف من الله تعالى وذلك كما إذا غلبته نفسه ففعله خائفاً من عقابه تعالى عليه، وأيد ذلك بما أخرجه أحمد والنسائي والطبراني والحكيم الترمذي في نوادر الأصول وابن أبي شيبة وجماعة عن أبي الدرداء «أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قرأ هذه الآية ﴿ولمن خاف مقام ربه جنتان﴾ فقلت: وإن زنى وإن سرق

---

(١) ضمير «به» و «عنه» راجع الى الماء في البيت قبله

وماء قد وردت لوصل أروى عليه الطير كالورق اللجين

وهو من قصيدة للشماخ مدح بها عرابة بن أوس الخزرجي والشاهد في قوله: «مقام الذئب».

يا رسول الله؟ فقال النبي عليه الصلاة والسلام: الثانية ﴿**ولمن خاف مقام ربه جنتان**﴾ فقلت: وإن زنى وإن سرق؟ فقال الثالثة: ﴿**ولمن خاف مقام ربه جنتان**﴾ فقلت وإن زنى وإن سرق؟ قال: نعم وَإنْ رغم أنف أبي الدرداء» وأخرج الطبراني وابن مردويه من طريق الجريري عن أخيه قال: سمعت محمد بن سعد يقرأ ـ ولمن خاف مقام ربه جنتان وإن زنى وإن سرق ـ فقلت: ليس فيه وإن زنى وإن سرق فقال: سمعت أبا الدرداء رضي الله تعالى عنه يقرؤها كذلك فأنا أقرؤها كذلك حتى أموت، وصرح بعضهم أن المراد بالخوف في الآية أشده فتأمل. وجاء في شأن هاتين الجنتين من حديث عياض بن غنم مرفوعاً «إن عرض كل واحدة منهما مسيرة مائة عام» والآية على ما روي عن ابن الزبير وابن شوذب نزلت في أبي بكر.

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ في العظمة عن عطاء أن أبا بكر الصديق رضي الله تعالى عنه ذكر ذات يوم وفكر في القيامة والموازين والجنة والنار وصفوف الملائكة وطي السماوات ونسف الجبال وتكوير الشمس وانتثار الكواكب فقال: وددت أني كنت خضراً من هذه الخضر تأتي عليَّ بهيمة فتأكلني وأني لم أخلق فنزلت ﴿**ولمن خاف مقام ربه جنتان**﴾ ﴿**فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَان * ذَوَاتَا أَفْنَان**﴾ صفة لجنتان وما بينهما اعتراض وسط بينهما تنبيهاً على أن تكذيب كل من الموصوف والصفة موجب للإنكار والتوبيخ، وجوز أن يكون خبر مبتدأ مقدر أي هما ذواتا، وأياً مّا كان فهو تثنية ـ ذات ـ بمعنى صاحبة فإنه إذا ثنى فيه لغتان ذاتا على لفظه وهو الأقيس كما يثنى مذكره ذوا، والأخرى ﴿**ذواتا**﴾ برده إلى أصله فإن التثنية ترد الأشياء إلى أصولها، وقد قالوا: أصل ذات ذوات لكن حذفت الواو تخفيفاً؛ وفرقا بين الواحد والجمع ودلت التثنية ورجوع الواو فيها على أصل الواحد وليس هو تثنية الجمع كما يتوهم وتفصيله في باب التثنية من شرح التسهيل، والأفنان إما جمع فن بمعنى النوع ولذا استعمل في العرف بمعنى العلم أي ذواتا أنواع من الأشجار والثمار، وروي ذلك عن ابن عباس وابن جبير والضحاك وعليه قول الشاعر:

ومن كل **أفنان** اللذاذة والصبا ... لهوت به والعيش أخضر ناضر

وإما جمع فنن وهو ما دق ولان من الأغصان كما قال ابن الجوزي، وقد يفسر بالغصن، وحمل على التسامح وتخصيصها بالذكر مع أنها ذواتا قصب وأوراق وثمار أيضاً لأنها هي التي تورق وتثمر. فمنها تمتد الظلال ومنها تجنى الثمار ففي الوصف تذكير لهما فكأنه قيل: ﴿**ذواتا**﴾ ثمار وظلال لكن على سبيل الكناية هو أخصر وأبلغ، وتفسيره بالأغصان على أنه جمع فنن مروي عن ابن عباس أيضاً، وأخرجه ابن جرير عن مجاهد قال أبو حيان: وهو أولى لأن أفعالاً في فعل أكثر منه في فعل بسكون العين كفن، ويجمع هو على فنون.

﴿**فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَان * فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَان**﴾ صفة أخرى لجنتان أو خبر ثان للمبتدأ المقدر أي في كل منهما عين تجري بالماء الزلال تسمى إحدى العينين بالتسنيم، والأخرى بالسلسبيل، وروي هذا عن الحسن، وقال عطية العوفي: ﴿**عينان**﴾ إحداهما من ماء غير آسن، والأخرى من خمر لذة للشاربين، وقيل: ﴿**عينان**﴾ من الماء ﴿**تجريان**﴾ حيث شاء صاحبهما من الأعالي والأسافل من جبل من مسك، وعن ابن عباس ﴿**عينان**﴾ مثل الدنيا أضعافاً مضاعفة ﴿**تجريان**﴾ بالزيادة والكرامة على أهل الجنة.

﴿**فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَان * فِيهِمَا مِن كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَان**﴾ صنفان معروف وغريب لم يعرفوه في الدنيا، أو رطب ويابس ولا يقصر يابسه عن رطبه في الفضل والطيب، وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن عكرمة قال: قال ابن عباس في هذه الآية: ما في الدنيا ثمرة حلوة ولا مرة إلا وهي في الجنة حتى الحنظل، ونقل هذا

في البحر عن ابن عباس أيضاً إلا أنه حلو، والجملة كالجملة التي قبلها.

﴿فَبِأَيِّ آلاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَان * مُتَّكِئِينَ﴾ حال من قوله تعالى: ـ ولمن خاف ـ وجمع رعاية للمعنى بعد الإفراد رعاية اللفظ، وقيل: العامل محذوف أي يتنعمون متكئين، وقيل: مفعول به بتقدير أعني، والاتكاء من صفات المتنعم الدالة على صحة الجسم وفراغ القلب، والمعنى متكئين في منازلهم ﴿علىٰ فُرُش بَطَائِنُهَا من اسْتَبْرَق﴾ من ديباج ثخين قال ابن مسعود ـ كما رواه عنه جمع وصححه الحاكم ـ أخبرتم بالبطائن فكيف بالظهائر، وقيل: ظهائرها من سندس، عن ابن جبير من نور جامد، وفي حديث من نور يتلألأ وهو إن صح وقف عنده.

وأخرج ابن جرير وغيره عن ابن عباس أنه قيل له: ﴿بطائنها من استبرق﴾ فماذا الظواهر؟ قال: ذلك مما قال الله تعالى: ﴿فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين﴾ [السجدة: ١٧] وقال الحسن: البطائن هي الظهائر وروي عن قتادة، وقال الفراء: قد تكون البطانة الظهارة والظهارة البطانة لأن كلا منهما يكون وجهاً والعرب تقول: هذا ظهر السماء وهذا بطن السماء، والحق أن البطائن هنا مقابل الظهائر على الوجه المعروف، وقرأ أبو حيوة «فُرْشٍ» بسكون الراء، وأخرج عبد بن حميد عن الضحاك قال: قرأ عبد الله على «سرر. وفرش بطائنها من استبرق» ﴿وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ﴾ أي ما يجنى ويؤخذ من أشجارهما من الثمار، فجنى اسم أو صفة مشبهة بمعنى المجني ﴿دَان﴾ قريب يناله القائم والقاعد والمضطجع، قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: تدنو الشجرة حتى يجتنيها ولي الله تعالى إن شاء قائماً وإن شاء قاعداً وإن شاء مضطجعاً، وعن مجاهد ثمار الجنتين دانية إلى أفواه أربابها فيتناولونها متكئين فإذا أضطجعوا نزلت بإزاء أفواههم فيتناولونها مضطجعين لا يرد أيديهم عنها بعد ولا شوك، وقرأ عيسى «وَجَنِي» بفتح الجيم وكسر النون كأنه أمال النون وإن كانت الألف قد حذفت في اللفظ كما أمال أبو عمرو ﴿حتى نرى الله جهرة﴾ [البقرة: ٥٥] وقرىء «وجِني» بكسر الجيم وهو لغة فيه.

﴿فَبِأَيِّ آلاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبان * فيهنَّ﴾ أي الجنان المدلول عليها بقوله تعالى: ﴿ولمن خاف مقام ربه جنتان﴾ فإنه يلزم من أنه لكل خائف جنتان تعدد الجنان، وكذا على تقدير أن يكون المراد لكل خائفين من الثقلين جنتان لا سيما وقد تقدر اعتبار الجمعية في قوله تعالى: ﴿متكئين﴾ وقال الفراء: الضمير لجنتان، والعرب توقع ضمير الجمع على المثنى ولا حاجة إليه بعد ما سمعت، وقيل: الضمير للبيوت والقصور المفهومة من الجنتين أو للجنتين باعتبار ما فيهما مما ذكر، وقيل: يعود على الفرش، قال أبو حيان: وهذا قول حسن قريب المأخذ، وتعقب بأن المناسب للفرش ـ على ـ وأجيب بأنه شبه تمكنهن على الفرش بتمكن المظروف في الظرف وإيثار للإشعار بأن أكثر حالهن الاستقرار عليها، ويجوز أن يقال: الظرفية للإشارة إلى أن الفرش إذا جلس عليها ينزل مكان الجالس منها ويرتفع ما أحاط به حتى يكاد يغيب فيها كما يشاهد في فرش الملوك المترفهين التي حشوها ريش النعام ونحوه، وقيل: الضمير للآلاء المعدودة من ـ الجنتين. والعينين. والفاكهة والفرش. والجني والمراد معهن ﴿قاصرات ٱلطَّرف﴾ أي نساء يقصرن أبصارهم على أزواجهن لا ينظرن إلى غيرهم، أو يقصرن طرف الناظر إليهن عن التجاوز إلى غيرهن، قال ابن رشيق في قول امرىء القيس:

من القاصرات الطرف لو دب محول ... من الذر فوق الأنف منها لأثرا

أراد بالقاصرات الطرف أنها منكسرة الجفن خافضة النظر غير متطلعة لما بعد ولا ناظرة لغير زوجها، ويجوز أن يكون معناه أن طرف الناظر لا يتجاوزها كقول المتنبي:

وخصر تثبت الأبصار فيه ... كأن عليه من حدق نطاقا

انتهى فلا تغفل، والأكثرون على أول المعنيين اللذين ذكرناهما بل في بعض الأخبار ما يدل على أنه تفسير نبوي.

أخرج ابن مردويه عن جعفر بن محمد عن أبيه عن جده عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال في ذلك «لا ينظرن إلا إلى أزواجهن» ومتى صح هذا ينبغي قصر الطرف عليه، وفي بعض الآثار تقول الواحدة منهن لزوجها: وعزة ربي ما أرى في الجنة أحسن منك فالحمد لله الذي جعلني زوجك وجعلك زوجي، و ﴿**الطرف**﴾ في الأصل مصدر فلذلك وحد ﴿**لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلا جَانٌّ**﴾ قال ابن عباس: لم يفتضهن قبل أزواجهن إنس ولا جان، وفيه إشارة إلى أن ضمير قبلهن للأزواج، ويدل عليه ﴿**قاصرات الطرف**﴾ وفي البحر هو عائد على من عاد عليه الضمير في ﴿**متكئين**﴾، وأصل الطمث خروج الدم ولذلك يقال للحيض طمث، ثم أطلق على جماع الأبكار لما فيه من خروج الدم، وقيل: ثم عمم لكل جماع، وهو المروي هنا عن عكرمة، وإلى الأول ذهب الكثير، وقيل: إن التعبير به للإشارة إلى أنهن يوجدن أبكاراً كلما جومعن، ونفي طمثهن عن الإنس ظاهر، وأما عن الجن فقال مجاهد والحسن: قد تجامع الجن نساء البشر مع أزواجهم إذا لم يذكر الزوج اسم الله تعال فنفى هنا جميع المجامعين وقيل: لا حاجة إلى ذلك إذ يكفي في نفي الطمث عن الجن إمكانه منهم، ولا شك في إمكان جماع الجني إنسية بدون أن يكون مع زوجها الغير الذاكر اسم الله تعالى، ويدل على ذلك ما رواه أبو عثمان سعيد بن داود الزبيدي قال: كتب قوم من أهل اليمن إلى مالك يسألونه عن نكاح الجن وقالوا: إن ها هنا رجلاً من الجن يزعم أنه يريد الحلال فقال ما أرى بذلك بأساً في الدين ولكن أكره إذا وجدت امرأة حامل قيل: من زوجك؟ قالت: من الجن فيكثر الفساد في الإسلام، ثم إن دعوى أن الجن تجامع نساء البشر جماعاً حقيقياً مع أزواجهم إذا لم يذكروا اسم الله تعالى غير مسلمة عند جميع العلماء، وقوله تعالى: ﴿وشاركهم في الأموال والأولاد﴾ [الإسراء: ٦٤] غير نص في المراد كما لا يخفى، وقال ضمرة بن حبيب: الجن في الجنة لهم قاصرات الطرف من الجن نوعهم، فالمعنى لم يطمث الإنسيات أحد من الإنس، ولا الجنيات أحد من الجن قبل أزواجهن، وقد أخرج نحو هذا عنه ابن أبي حاتم، وظاهره أن ما للجن لسن من الحور.

ونقل الطبرسي عنه أنهن من الحور وكذا الإنسيات، ولا مانع من أن يخلق الله تعالى في الجنة حوراً للإنس يشاكلنهم يقال لهن لذلك إنسيات، وحوراً للجن يشاكلنهم يقال لهن لذلك جنيات، ويجوز أن تكون الحور كلهن نوعاً واحداً ويعطى الجني منهن لكنه في تلك النشأة غيره في هذه النشأة، ويقال: ما يعطاه الإنسي منهن لم يطمثها إنسي قبله، وما يعطاه الجني لم يطمثها جني قبله وبهذا فسر البلخي الآية، وقال الشعبي والكلبي: تلك القاصرات الطرف من نساء الدنيا لم يمسسهن منذ أنشئن النشأة الآخرة خلقٌ قبل والذي يعطاه الإنسي زوجته المؤمنة التي كانت له في الدنيا ويعطى غيرها من نسائها المؤمنات أيضاً، ويبعد أن يعطى الجني من نساء الدنيا الإنسانيات في الآخرة.

والذي يغلب على الظن أن الإنسي يعطى من الإنسيات والحور والجني يعطى من الجنيات والحور ولا يعطى إنسي جنية، ولا جني إنسية وما يعطاه المؤمن إنسياً كان أو جنياً من الحور شيء يليق به وتشتهيه نفسه، وحقيقة تلك النشأة وراء ما يخطر بالبال، واستدل بالآية على أن الجن يدخلون الجن ويجامعون فيها كالإنس فهم باقون فيها منعمين كبقاء المعذبين منهم في النار، وهو مقتضى ظاهر ما ذهب إليه أبو يوسف ومحمد وابن أبي ليلى والأوزاعي. وعليه الأكثر ـ كما ذكره العيني في شرح البخاري ـ من أنهم يثابون على الطاعة ويعاقبون

على المعصية، ويدخلون الجنه فإن ظاهره أنهم كالإنس يوم القيامة، وعن الإمام أبي حنيفة ثلاث روايات الاولى أنهم لا ثواب لهم إلا النجاة من النار ثم يقال لهم كونوا تراباً كسائر الحيوانات، الثانية أنهم من أهل الجنة ولا ثواب لهم أي زائد على دخولها، الثالثة التوقف قال الكردري: وهو في أكثر الروايات، وفي فتاوى أبي إسحاق ابن الصفار أن الإمام يقول: لا يكونون في الجنة ولا في النار ولكن في معلوم الله تعالى.

ونقل عن مالك وطائفة أنهم يكونون في ربض الجنة، وقيل: هم أصحاب الاعراف، وعن الضحاك أنهم يلهمون التسبيح والذكر فيصيبون من لذته ما يصيبه بنو آدم من نعيم الجنة وعلى القول بدخولهم الجنة قيل: نراهم ولا يرونا عكس ما كانوا عليه في الدنيا، وإليه ذهب الحارث المحاسبي، وفي اليواقيت الخواص منهم يرونا كما أن الخواص منا يرونهم في الدنيا، وعلى القول بأنهم يتنعمون في الجنة قيل: إن تنعمهم بغير رؤيته عز وجل فإنهم لا يرونه، وكذا الملائكة عليهم السلام ما عدا جبريل عليه السلام فإنه يراه سبحانه مرة ولا يرى بعدها على ما حكاه أبو إسحاق إبراهيم بن الصفار في فتاويه عن أبيه، والأصح ما عليه الأكثر مما قدمناه وأنهم لا فرق بينهم وبين البشر في الرؤية وتمامه في محله، وقرأ طلحة وعيسى وأصحاب عبد الله «يَطْمُثهن» بضم الميم هنا وفيما بعد، وقرأ أناس بضمه في الاول وكسره في الثاني. وناس بالعكس وناس بالتخيير، والجحدري بفتح الميم فيهما، والجملة صفة ـ لقاصرات الطرف ـ لأن إضافتها لفظية أو حال منها لتخصيصها بالإضافة ﴿فبأيِّ آلاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَان﴾ وقوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُنَّ ٱليَاقُوتُ وَٱلمَرْجَانُ﴾ إما صفة لقاصرات الطرف، أو حال منها كالتي قيل أي مشبهات بالياقوت والمرجان، وقول النحاس: إن الكاف في موضع رفع على الابتداء ليس بشيء كما لا يخفى، أخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير عن قتادة أنه قال في الآية في صفاء الياقوت وبياض اللؤلؤ، وعن الحسن نحوه، وفي البحر عن قتادة في صفاء الياقوت. وحمرة المرجان فحمل المرجان على ما هو المعروف وقيل: مشبهات بالياقوت في حمرة الوجه وبالمرجان أي صغار الدر في بياض البشرة وصفائها وتخصيص الصغار على ما في الكشاف لأنه أنصع بياضاً من الكبار، وقيل، يحسن هنا إرادة الكبار كما قيل في معناه لأنه أوفق بقوله تعالى: ﴿كأنهن بيض مكنون﴾ [الصافات: ٤٩] فلا تغفل.

وأخرج أحمد وابن حيان والحاكم وصححه والبيهقي في البعث والنشور عن أبي سعيد عن النبي ﷺ في قوله تعالى: ﴿كأنهن﴾ الخ قال: ينظر إلى وجهها في خدرها أصفى من المرآة وإن أدنى لؤلؤة عليها تضيء ما بين المشرق والمغرب وأنه يكون عليها سبعون ثوباً ينفذها بصره حتى يوضح سوقها من وراء ذلك.

وأخرج عبد بن حميد والطبراني والبيهقي في البعث عن ابن مسعود قال: إن المرأة من الحور العين يرى مخ ساقها من وراء اللحم والعظم من تحت سبعين حلة كما يرى الشراب الأحمر في الزجاجة البيضاء.

فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٩﴾ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦١﴾ وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٣﴾ مُدْهَآمَّتَانِ ﴿٦٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٥﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴿٦٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٧﴾ فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٩﴾ فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ﴿٧٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧١﴾ حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ ﴿٧٢﴾

﴿فبأيِّ آلاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَان﴾ وقوله تعالى: ﴿هَلْ جَزَاءُ الإحسان إلاَّ الإحسان﴾ استئناف مقرر لمضمون ما قبله أي ما جزاء الإحسان في العمل إلا الإحسان في الثواب، وقيل: المراد ما جزاء التوحيد إلا

الجنة وأيد بظواهر كثير من الآثار، أخرج الحكيم الترمذي في نوادر الأصول والبغوي في تفسيره والديلمي في مسند الفروس وابن النجار في تاريخه عن أنس قال: «قرأ رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم **﴿هل جزاء الإحسان إلا الإحسان﴾** فقال: وهل تدرون ما قال ربكم؟ قالوا:الله ورسوله أعلم قال: يقول: هل جزاء من أنعمت عليه بالتوحيد إلا الجنة» وأخرج ابن النجار في تاريخه عن علي كرم الله تعالى وجهه مرفوعا بلفظ «قال الله عز وجل هل جزاء من أنعمت عليه» الخ ووراء ذلك أقوال تقرب من مائة قول، واختير العموم ويدخل التوحيد دخولاً أولياً، والصوفيه أوردوا الآية في باب الإحسان وفسروه بما في الحديث «أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك» قالوا: فهو اسم يجمع أبواب الحقائق، وقرأ ابن أبي إسحاق إلا الحسان يعني بالحسان قاصرات الطرف اللاتي تقدم ذكرهن **﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾** وقوله تعالى: **﴿وَمِن دُونِهِما جَنَّتَانِ﴾** مبتدأ وخبر أي ومن دون تينك الجنتين في المنزلة والقدر جنتان أخريان، قال ابن زيد والاكثرون الأوليان للسابقين وهاتان لأصحاب اليمين، وقد أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه عن أبي موسى عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم في قوله تعالى: **﴿ولمن خاف مقام ربه جنتان﴾** [الرحمن: ٤٦] وقوله سبحانه: **﴿ومن دونهما جنتان﴾** قال: «جنتان من ذهب للمقربين وجنتان من ورق لأصحاب اليمين» وقال الحسن: الأوليان للسابقين والأخريان للتابعين، وروي موقوفاً وصححه الحاكم عن أبي موسى، وزعم بعضهم أن الأوليين للخائفين والأخريين لذرياتهم الذين ألحقوا بهم ولم أجد له مستنداً من الآثار، وحكي في البحر عن ابن عباس أنه قال: **﴿ومن دونهما﴾** في القرب للمنعمين والمؤخرتا الذكر أفضل من الأوليين، وادعى أن الصفات الآتية أمدح من الصفات السابقة ووافقه من وافقه، وسيأتي تمام الكلام في ذلك إن شاء الله تعالى.

﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ وقوله تعالى: **﴿مُدْهَامَّتَانِ﴾** صفة لجنتان وسط بينها الاعتراض لما تقدم من التنبيه على أن تكذيب كل من الموصوف والصفة حقيق بالإنكار والتوبيخ أو خبر مبتدأ محذوف أي هما مدهامتان من الدهمة وهي في الأصل على ما قال الراغب سواد الليل ويعبر بها عن سواد الفرس وقد يعبر بها عن الخضرة الكاملة اللون كما يعبر عنها بالخضرة إذا لم تكن كاملة وذلك لتقاربهما في اللون، ويقال: ادهام ادهيماما فهو مدهام على وزن مفعال إذا اسود أو اشتدت خضرته، وفسرها هنا ابن عباس ومجاهد وابن جبير وعكرمة وعطاء ابن أبي رباح وجماعة بخضراوان، بل أخرج الطبراني وابن مردويه عن أبي أيوب رضي الله تعالى عنه قال: «سألت النبي صلى الله تعالى عليه وسلم عن قوله تعالى: **﴿مدهامتان﴾** فقال عليه الصلاة والسلام: خضراوان» والمراد أنهما شديدتا الخضرة والخضرة إذا اشتدت ضربت إلى السواد وذلك من الري من الماء كما روي عن ابن عباس وابن الزبير وأبي صالح قيل: إن في وصف هاتين الجنتين بما ذكر إشعاراً بأن الغالب عليهما النبات والرياحين المنبسطة على وجه الأرض كما أن في وصف السابقتين بذواتا أفنان إشعاراً بأن الغالب عليهما الاشجار فإن الاشجار توصف بأنها ذوات أفنان والنبات يوصف بالخضرة الشديدة فالاقتصار في كل منهما على أحد الأمرين مشعر بما ذكر وبني على هذا كون هاتين الجنتين دون الاولين في المنزلة والقدر كيف لا والجنة الكثيرة الظلال والثمار أعلى وأغلى من الجنة القليلة الظلال والثمار، ومن ذهب إلى تفضيل هاتين الجنتين مع اختصاص الوصف بالخضرة بالنبات وكذا كونه أغلب من وصف الأشجار به فكثيراً ما تسمع الناس يقولون إذا مدحوا بستاناً أشجاره خضر يانعة وهو أظهر في مدحه بأنه ذو ثمار من ذي أفنان، وهو يشعر أيضاً بكثر مائه والاعتناء بشأنه وبعده عن التصوح والهلاك.

﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ﴾ فوارتان بالماء على ما هو الظاهر، وفي البحر

النضخ فوران الماء، وفي الكشاف وغيره النضج أكثر من النضخ بالحاء المهملة لأنه مثل الرش وهو عند من فضل الجنتين الأوليين دون الجري، فالمدح به دون المدح به، وعليه قول البراء بن عازب فيما أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم العينان اللتان تجريان خير من النضاختين، ومن ذهب إلى تفضيل هاتين يقول في الفوران جري مع زيادة حسن فإن الماء إذا فار وارتفع وقع متناثر القطرات كحبات اللؤلؤ المتناثرة كما يشاهد في الفوارات المعروفة، أو يقول بما أخرجه ابن أبي شيبة وابن أبي حاتم عن أنس ﴿**نضاختان**﴾ بالمسك والعنبر تنضخان على دور الجنة كما ينضخ المطر على دور أهل الدنيا، أو بما أخرجه ابن أبي شيبة وعبد بن حميد عن مجاهد ﴿**نضاختان**﴾ بالخير، ولفظ ابن أبي شيبة بكل خير.

﴿**فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ**﴾ عطف الأخيرين على الفاكهة عطف جبريل وميكال عليهما السلام على الملائكة بياناً لفضلهما، وقيل: إنهما في الدنيا لما لم يخلصا للتفكه فإن النخل ثمره فاكهة وطعام، والرمان فاكهة ودواء عدا جنساً آخر فعطفا على الفاكهة وإن كان كل ما في الجنة للتفكه لأنه تلذذ خالص، ومنه قال الإمام أبو حنيفة رضي الله تعالى عنه: إذا حلف لا يأكل فاكهة فأكل رماناً أو رطباً لم يحنث، وخالفه صاحباه ثم إن نخل الجنة ورمانها وراء ما نعرفه.

أخرج ابن المبارك وابن أبي شيبة وهناد وابن أبي الدنيا وابن المنذر والحاكم وصححه وآخرون عن ابن عباس نخل الجنة جذوعها زمرد أخضر وكرانيفها ذهب أحمر وسعفها كسوة أهل الجنة منها مقطعاتهم وحللهم وثمرها أمثال القلال أشد بياضاً من اللبن وأحلى من العسل وألين من الزبد وليس له عجم وحكمه حكم المرفوع. وفي حديث أبي سعيد الخدري مرفوعاً أصوله فضة وجذوعه فضة وسعفه حلل وحمله الرطب الخ.

وأخرج ابن أبي حاتم وابن عساكر عن أبي سعيد مرفوعاً قال عليه الصلاة والسلام: «نظرت إلى الجنة فإذا الرمانة من رمانها كمثل البعير المقتب» وهذا المدح بحسب الظاهر دون المدح في قوله تعالى في الجنتين السابقتين: ﴿فيهما من كل فاكهة زوجان﴾ [الرحمن: ٥٢] ومن ذهب إلى تفضيلهما يقول إن التنوين في فاكهة للتعميم بقرينة المقام نظير ما قيل في قوله تعالى: ﴿علمت نفسي ما أحضرت﴾ [التكوير: ١٤] فيكون في قوة فيها كل ﴿**فاكهة**﴾ ويزيد ما في النظم الجليل على ما ذكر بتضمنه الإشارة إلى مدح بعض أنواعها، وقال الإمام الرازي: إن ﴿**ما**﴾ هنا كقوله تعالى: ﴿فيهما من كل فاكهة زوجان﴾ وذلك لأن الفاكهة أنواع أرضية وشجرية كالبطيخ وغيره من الأرضيات المزروعات والنخل وغيرها من الشجريات فقال تعالى: ﴿**مدهامتان**﴾ لأنواع الخضر التي فيها الفواكه الأرضية، وفيها أيضاً الفواكه الشجرية وذكر سبحانه منها نوعين: الرطب والرمان لأنهما متقابلان أحدهما حلو والآخر فيه حامض، وأحدهما حار والآخر بارد، وأحدهما فاكهة وغذاء والآخر فاكهة، وأحدهما من فواكه البلاد الحارة والآخر من فواكه البلاد الباردة، وأحدهما أشجاره تكون في غاية الطول والآخر ليس كذلك، وأحدهما ما يؤكل منه بارز وما لا يؤكل كامن والآخر بالعكس فهما كالضدين، والإشارة إلى الطرفين تتناول الاشارة إلى ما بينهما كما في قوله تعالى: ﴿رب المشرقين ورب المغربين﴾ [الرحمن: ١٧] انتهى، ولعل الأول أولى ﴿**فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ**﴾ وقوله تعالى: ﴿**فِيهِنَّ خَيرَاتٌ**﴾ صفة أخرى لجنتان، أو خبر بعد خبر للمبتدأ المحذوف كالجملة التي قبلها، ويجوز أن تكون مستأنفة والكلام في ضمير الجمع هنا كالكلام فيه في قوله تعالى: ﴿فيهن قاصرات الطرف﴾ [الرحمن: ٥٦] و ﴿**خيرات**﴾ قال أبو حيان: جمع خيرة وصف بني على فعلة من الخير كما بنوا من الشر فقالوا شرة، وقال الزمخشري: أصله «خَيِّرَات» بالتشديد فخفف كقوله عليه الصلاة والسلام: «هينون لينون» وليس جمع خير بمعنى أخير

فإنه لا يقال فيه خيرون ولا خيرات، ولعله لأن أصل اسم التفضيل أن لا يجمع خصوصاً إذا نكر، وقرأ بكر بن حبيب وأبو عثمان النهدي وابن مقسم «خيّرات» بتشديد الياء وهو يؤيد أن أصله كذلك، وروي عن أبي عمرو «خيَرات» بفتح الياء كأنه جمع خائرة جمع على فعلة ﴿حِسَانٌ﴾ قيل: أي حسان الخَلق والخلق.

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير عن قتادة أنه قال في الآية: ﴿**خيرات**﴾ الأخلاق ﴿**حسان**﴾ الوجوه، وأخرج ذلك ابن جرير والطبراني وابن مردويه عن أم سلمة مرفوعاً.

﴿**فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ**﴾ وقوله تعالى: ﴿**حُورٌ**﴾ بدل من ﴿**خيرات**﴾ وهو جمع حوراء وكذا جمع أحور، والمراد بيض كما أخرجه ابن المنذر وغيره عن ابن عباس وروته أم سلمة أيضاً عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم: وقال ابن الأثير: الحوراء هي الشديدة بياض العين الشديدة سوادها، وفي القاموس الحور بالتحريك أن يشتد بياض بياض العين وسواد سوادها وتستدير حدقتها وترق جفونها ويبيض ما حواليها أو شدة بياضها وسوادها في بياض الجسد، أو اسوداد العين كلها مثل الظباء ولا يكون في بني آدم بل يستعار لها. وإذا صح حديث أم سلمة لم يعدل في القرآن عن تفسير رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم.

﴿**مَّقْصُوراتٌ فِي ٱلْخِيَامِ**﴾ أي مخدرات يقال: امرأة قصيرة ومقصورة أي مخدرة ملازمة لبيتها لا تطوف في الطرق، قال كثير عزة:

وأنت التي حبّبت كل قصيرة ... إليّ ولم تشعر بذاك القصائر
عنيت **قصيرات الحجال** ولم أرد ... قصار الخطا شر النساء البحاتر

والنساء يمدحن بملازمتهن البيوت لدلالتها على صيانتهن كما قال قيس بن الأسلت:

وتكسل عن جاراتها فيزرنها ... وتغفل عن أبياتهن **فتعذر**

وهذا التفسير مأثور عن ابن عباس والحسن والضحاك وهو رواية عن مجاهد، وأخرج ابن أبي شيبة وهناد بن السري وابن جرير عنه أنه قال: ﴿**مقصورات**﴾ قلوبهن وأبصارهن ونفوسهن على أزواجهن، والأول أظهر، و ﴿**في الخيام**﴾ عليه متعلق بمقصورات، وعلى الثاني يحتمل ذلك، ويحتمل كونه صفة ثانية لحور فلا تغفل، والخيام جمع خيمة ـ وهي على ما في البحر ـ بيت من خشب وثمام وسائر الحشيش، وإذا كان من شعر فهو بيت ولا يقال له خيمة وقال غير واحد: هي كل بيت مستدير أو ثلاثة أعواد أو أربعة يلقى عليها الثمام ويستظل بها في الحر أو كل بيت يبنى من عيدان الشجر وتجمع أيضاً على خيمات وخيم بفتح فسكون وخيم بالفتح وكعنب ـ والخيام هنا بيوت من لؤلؤ ـ أخرج ابن أبي شيبة وجماعة عن ابن عباس أنه قال: الخيمة من لؤلؤة واحدة مجوفة أربعة فراسخ لها أربعة آلاف مصراع من ذهب، وأخرج جماعة عن أبي الدرداء أنه قال: الخيمة لؤلؤة واحدة لها سبعون بابا من در، وأخرج البخاري ومسلم والترمذي وغيرهم عن أبي موسى الأشعري عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال: الخيمة درة مجوفة طولها في السماء ستون ميلاً في كل زاوية منها للمؤمن أهل لا يراهم الآخرون يطوف عليهم المؤمن، إلى ذلك من الاخبار، وقوله سبحانه: ﴿**فيهن**﴾ الخ دون ما تقدم في الجنتين السابقتين أعني قوله عز وجل: ﴿فيهن قاصرات الطرف﴾ إلى قوله تعالى: ﴿كأنهن الياقوت والمرجان﴾ [الرحمن: ٥٨] في المدح عند من فضلهما على الأخيرتين قيل لما في ﴿**مقصورات**﴾ على التفسير الثاني من الإشعار بالقسر في القصر، وأما على تفسيره الأول فكونه دونه ظاهر وإن لم يلاحظ كونها مخدرة فيما تقدم، أو يجعل قوله تعالى: ﴿كأنهن الياقوت والمرجان﴾ كناية عنه لأنهما مما يصان كما قيل:

جوهرة أحقاقها الخدور

ومن ذهب إلى تفضيل الأخيرتين يقول: هذا أمدح لعموم ﴿خيرات حسان﴾ الصفات الحسنة خَلقاً وخُلُقاً ويدخل في ذلك قصر الطرف وغيره مما يدل عليه التشبيه بالياقوت والمرجان، والمراد بالقاصر على التفسير الثاني لمقصورات القاصر الطبيعي بقرينة المقام فيكون فيه إشارة إلى تعذر ترك القصر منهن، و ﴿قاصرات الطرف﴾ ربما يوهم أن القصر باختيارهن فمتى شئن قصرن ومتى لم يشأن لم يقصرن.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٧٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٥﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ ﴿٧٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٧﴾ تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾﴾

﴿فَبِأَيِّ آلاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَان﴾ وقوله تعالى: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إنسٌ قَبْلَهُمْ وَلا جَانٌّ﴾ الكلام فيه كالكلام في نظيره ﴿فَبِأَيِّ آلاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَان﴾ وقوله سبحانه: ﴿مُتَّكِئِين﴾ قيل: بتقدير يتنعمون متكئين أو أعني متكئين، والضمير لأهل الجنتين المدلول عليهم بذكرهما ﴿عَلَىٰ رَفْرَف﴾ اسم جنس أو اسم جمع واحده رفرفة، وعلى الوجهين يصح وصفه بقوله تعالى: ﴿خُضْر﴾ وجعله بعضهم جمعاً لهذا الوصف ولا يخفى أن أمر الوصفية لا يتوقف على ذلك الجعل، وفسره في الآية علي كرم الله تعالى وجهه وابن عباس والضحاك بفضول المحابس وهي ما يطرح على ظهر الفراش للنوم عليه، وقال الجوهري: الرفرف ثياب خضر تتخذ منها المحابس واشتقاقه من رف إذا ارتفع، وقال الحسن ـ فيما أخرجه ابن المنذر وغيره عنه ـ هي البسط.

وأخرج عن عاصم الجحدري أنها الوسائد، وروي ذلك عن الحسن أيضاً وابن كيسان وقال الجبائي: الفرش المرتفعة، وقيل: ما تدلى من الأسرّة من غالي الثياب، وقال الراغب: ضرب من الثياب مشبهة بالرياض، وأخرج ابن جرير وجماعة عن سعيد بن جبير أنه قال: الرفرف رياض الجنة، وأخرج عن عبد بن حميد نحوه عن ابن عباس وهو عليه ـ كما في البحر ـ من رف النبت نعمُ وحسن، ويقال الرفرف لكل ثوب عريض وللرقيق من ثياب الديباج ولأطراف الفسطاط والخباء الواقعة على الأرض دون الأطناب والأوتاد، وظاهر كلام بعضهم أنه قيل بهذا المعنى هنا وفيه شيء ﴿وَعَبْقَرِيّ﴾ هو منسوب إلى عبقر تزعم العرب أنه اسم بلد الجن فينسبون إليه كل عجيب غريب من الفرش وغيرها فمعناه الشيء العجيب النادر، ومنه ما جاء في عمر الفاروق رضي الله تعالى عنه فلم أر عبقرياً يفري فْريه، ولتناسي تلك النسبة قيل: إنه ليس بمنسوب بل هو مثل كرسي وبختي كما نقل عن قطرب، والمراد الجنس ولذلك وصف بالجمع وهو قوله تعالى: ﴿حِسَان﴾ حملا على المعنى، وقيل: هو اسم جمع أو جمع واحده عبقرية، وفسره الأكثرون بعتاق الزرابي وعن أبي عبيدة هو ماكله وشي من البسط.

وروى غير واحد عن مجاهد أنه الديباج الغليظ، وعن الحسن أنها بسط فيها صور وقد سمعت ما نقل عنه في الرفرف فلا تغفل عما يقتضيه العطف.

وقرأ عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه ونصر بن عاصم الحجدري ومالك بن دينار وابن محيصن وزهير الفرقبي وغيرهم رفارف جمع لا ينصرف «خُضْر» بسكون الضاد، «وعِبَاقِرِيَ» بكسر القاف وفتح الياء مشددة، وعنهم أيضاً ضم الضاد، وعنهم أيضاً فتح القاف قاله صاحب اللوامح ثم قال أما منع الصرف من عباقري فلمجاورته لرفارف يعني للمشاكلة وإلا فلا وجه لمنع الصرف مع ياءي النسب إلا في ضرورة الشعر انتهى.

وقال ابن خالويه قرأ ـ على رفارف خضر وعباقري ـ النبي صلى الله تعالى عيه وسلم، الجحدري وابن

محيصن، وقد روي عمن ذكرنا ـ على رفارف خضر وعباقري ـ بالصرف، وكذلك روي عن مالك بن دينار، وقرأ أبو محمد المروزي وكان نحوياً ـ على رفارف خضار ـ بوزن فعال، وقال صاحب الكامل: قرأ رفارف بالجمع ابن مصرف وابن مقسم وابن محيصن، واختاره شبل وأبو حيوة والجحدري والزعفراني وهو الاختيار لقوله تعالى: ﴿خضر﴾، و «عِباقِرِيّ» بالجمع وبكسر القاف من غير تنوين ابن مقسم وابن محيصن، وروي عنهما التنوين.

وقال ابن عطية: قرأ زهير القرقبي[1] رفارف بالجمع وترك الصرف، وأبو طعمة المدني وعاصم فيما روي عنه رفارف بالصرف وعثمان رضي الله تعالى عنه كذلك، وعباقري بالجمع والصرف، وعنه وعباقري بفتح القاف والياء على أن اسم الموضع عباقر بفتح القاف، والصحيح فيه عبقر، وقال الزمخشري: قرىء عباقري كمدائني.

وروى أبو حاتم عباقري بفتح القاف ومنع الصرف وهذا لا وجه لصحته، وقال الزجاج: هذه القراءة لا مخرج لها لأن ما جاوز الثلاثة لا يجمع بياء النسب فلو جمعت عبقري قلت: عباقرة نحو مهلبي ومهالبة ولا تقول مهالبي.

وقال ابن جني: أما ترك صرف عباقري فشاذ في القياس ولا يستنكر شذوذه مع استعماله، وقال ابن هشام: كونه من النسبة إلى الجمع كمدائني باطل فإن من قرأ بذلك قرأ رفارف خضر بقصد المجانسة ولو كان كما ذكر كان مفرداً ولا يصح منع صرفه كمدايني وقد صحت الرواية بمنعه الصرف عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فهو من باب كرسي وكراسي وهو من صيغة منتهى الجموع لكنها خالفت القياس في زيادة ما بعد الألف على المعروف كما ذكره السهيلي، وقال صاحب الكشف فتح القاف لا وجه له بوجه والمذكور في المنتقى عن النبي ﷺ الكسر.

وأما منع الصرف فليس بمتعين ليرد بل وجهه أنه نصب على محل رفرف على حد: يذهبن في نجد وغوراً. وإضافته إلى ﴿حسان﴾ مثل إضافة حور إلى عين في قراءة عكرمة كأنه قيل: عباقري مفارش، أو نمارق حسان فهو من باب أخلاق ثياب لأن أحد الوصفين قائم مقام الموصوف، ولعل عبقر وعباقر مثل عرفة وعرفات انتهى، فأحط بجوانب الكلام ولا تغفل، وقرأ ابن هرمز ﴿خضر﴾ بضم الضاد وهي لغة قليلة ومن ذلك قول طرفة:

أيها القينات في مجلسنا ... جرّدوا منها وراداً وشقر

وقول الآخر:

وما انتميت إلى خود ولا كشف ... ولا لئام غداة الروع أوزاع

فشقر جمع أشقر، وكشف جمع أكشف وهو من ينهزم في الحرب، هذا والوصف بقوله تعالى: ﴿متكئين على رفرف﴾ الخ دون الوصف بقوله سبحانه: ﴿متكئين على فرش بطائنها من استبرق﴾ [الرحمن: ٥٤] عند القائل بتفضيل الجنتين السابقتين لما في هذا الوصف من الإشارة إلى أن الظهائر مما يعجز عنها الوصف. ومن ذهب إلى تفضيل الأخيرتين يقول: الرفرف ما يطرح على ظهر الفراش وليست الفرش التي يطرح عليها الرفرف مذكورة فيجوز أن يكون ترك ذكرها للإشارة إلى عدم إحاطة الوصف بها ظهارة وبطانة وهو أبلغ من الأول، ولا يسلم أن تلك الفرش هي العبقري، أو يقول الرفرف الفرش المرتفعة وترك التعرض لسوى لونها وهو الخضرة التي ميل الطباع إليها أشد وهي جامعة لأصول الألوان الثلاثة على ما بينه الإمام يشير إلى أنها مما لا تكاد تحيط بحقيقتها العبارات، وقد يقال غير ذلك فتأمل، وينبغي على القول بتفضيل الأخيرتين وكونهما لطائفة غير الطائفة المشار إليهم بمن خاف أن لا يفسر من

---

(١) هكذا بقافين وقد مر بالفاء بعد الراء قاف، وفي البحر العرقبي بالعين المهملة.

خاف بمن له شدة الخوف بحيث يختص بأفضل المؤمنين وأجلهم. أو يقال: إنهما مع الأوليين لمن خاف مقام ربه ويكون المعنى ﴿**ولمن خاف مقام ربه**﴾ أيضاً ﴿**جنتان**﴾ صفتهما كيت وكيت من دون تينك الجنتين، وعليه قيل: ﴿**جنتان**﴾ عطف على ﴿**جنتان**﴾ قبله ﴿**ومن دونهما**﴾ في موضع الحال، وذهب بعضهم إلى أن هاتين الجنتين سواء كانتا أفضل من الأوليين أم لا لمن خاف مقام ربه عز وجل فله يوم القيامة أربع جنان.

قال الطبرسي: والأخيرتان دون الأوليين أي أقرب إلى قصره ومجالسه ليتضاعف له السرور بالتنقل من جنة إلى جنة على ما هو معروف من طبع البشر من شهوة مثل ذلك وهو أبعد عن الملل الذي طبع عليه البشر، وأنت تعلم أن الآية تحتمل ذلك احتمالاً ظاهراً لكن ما تقدم من حديث أبي موسى رضي الله تعالى عنه يأباه فإذا صح ولو موقوفاً ـ إذ حكم مثله حكم المرفوع ـ لم يكن لنا العدول عما يقتضيه، وقد روي عنه أيضاً حديث مرفوع ذكره الجلال السيوطي في الدر المنثور يشعر بأن الجنان الأربع هي جنان الفردوس.

وأخرج عنه أحمد والبخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن ماجة وغيرهم أنه قال: إن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال: «جنان الفردوس أربع جنتان من ذهب حليتهما وآنيتهما وما فيهما وجنتان من فضة حليتهما وآنيتهما وما فيهما وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنه عدن» والظاهر على هذا أنه يشترك الألوف في الجنة الواحدة من هذه الجنان، ومعنى قوله تعالى: ﴿**ولمن خاف**﴾ الخ عليه مما لا يخفى، ثم إن قاصرات الطرف إن كنّ من الإنس فهنّ أجل قدراً وأحسن منظراً من الحور المقصورات في الخيام بناءً على أنهن النساء المخلوقات في الجنة.

فقد جاء من حديث أم سلمة «قلت يا رسول الله: أنساء الدنيا أفضل أم الحور العين؟ قال: نساء الدنيا أفضل من الحور العين كفضل الظهارة على البطانة، قلت: يا رسول الله وبم ذاك؟ قال: بصلاتهن وصيامهن وعبادتهن ألبس الله وجوههن النور وأجسادهن الحرير بيض الوجوه خضر الثياب صفر الحلي مجامرهن الدر وأمشاطهن الذهب يقلن ألا نحن الخالدات فلا نموت أبداً ألا ونحن الناعمات فلا نيأس أبداً طوبى لمن كنا له وكان لنا» إلى غيره من الأخبار ويكون هذا مؤيداً للقول بتفضيل الجنتين الأوليين على الأخيرتين ولعله إنما قدم سبحانه ذكر الاتكاء أولاً على ذكر النساء لأنه عز وجل ذكر في صدر الآية الخوف حيث قال سبحانه: ﴿**ولمن خاف مقام ربه جنتان**﴾ فناسب التعجيل بذكر ما يشعر بزواله إشعاراً ظاهراً وهو الاتكاء فإنه من شأن الآمنين، وأخر سبحانه ذكره ثانياً عن ذكرهن لعدم ما يستدعي التقديم وكونه مما يكون للرجل عادة بعد فراغ ذهنه عما يحتاجه المنزل من طعام وشراب وقينة تكون فيه، وإذا قلنا: إن الحور كالجواري في المنزل كان أمر التقديم والتأخير أوقع، وقال الإمام في ذلك: إن أهل الجنة ليس عليهم تعب وحركة فهم متنعمون دائما لكن الناس في الدنيا على أقسام منهم من يجتمع مع أهله اجتماع مستوفز وعند قضاء وطره يغتسل وينتشر في الأرض للكسب، ومنهم من يكون متردداً في طلب الكسب وعند تحصيله يرجع إلى أهله ويستريح عما لحقه من تعب قبل قضاء الوطر أو بعده فالله عز وجل قال في أهل الجنة: ﴿**متكئون**﴾ قيل اجتماعهم بأهاليهم متكئون بعد الاجتماع ليعلم أنهم دائمون على السكون، ولا يخفى أن هذا على ما فيه لا يحسم السؤال إذ لقائل أن يقول لم لم يعكس أمر التقديم والتأخير في الموضعين مع أنه يتضمن الإشارة إلى ذلك أيضاً، ثم ذكر في ذلك وجهاً ثانياً وهو على ما فيه مبني على ما لا مستند له فيه من الآثار فتدبر ﴿**فَبِأَيِّ آلاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَان**﴾ وقوله عز وجل: ﴿**تَبَارَكَ ٱسمُ رَبِّكَ**﴾ تنزيه وتقديس له تعالى فيه تقرير لما ذكر في هذه السورة الكريمة من آلائه جل شأنه الفائضة على الأيام، ـ فتبارك ـ بمعنى تعالى لأنه يكون بمعناه وهو أنسب بالوصف الآتي، وقد ورد في

الأحاديث «تعالى اسمه» أي تعالى اسمه الجليل الذي من جملته ما صدرت به السورة من اسم ﴿**الرحمن**﴾ المنبىء عن إفاضة الآلاء المفصلة، وارتفع مما لا يليق بشأنه من الأمور التي من جملتها جحود نعمائه وتكذيبها، وإذا كان حال اسمه تعالى بملابسة دلالته عليه سبحانه كذلك فما ظنك بذاته الأقدس الأعلى؟؟.

وقيل: الاسم بمعنى الصفة لأنها علامة على موصوفها، وقيل: هو مقحم كما في قول من قال: ثم اسم السلام عليكما، وقيل: هو بمعنى المسمى، وزعم بعضهم أن الأنسب بما قصد من هذه السورة الكريمة هو تعدد الآلاء والنعم تفسير ﴿**تبارك**﴾ بكثرت خيراته ثم إنه لا بعد في إسناده بهذا المعنى لاسمه تعالى إذ به يستمطر فيغاث ويستنصر فيعان، وقوله سبحانه: ﴿**ذي ٱلجَلالِ وَٱلإِكْرَامِ**﴾ صفة للرب ووصف جل وعلا بذلك تكميلاً لما ذكر من التنزيه والتقرير، وقرأ ابن عامر وأهل الشام - ذو - بالرفع على أنه وصف للاسم ووصفه بالجلال والإكرام بمعنى التكريم واضح.

هذا «ومن باب الإشارة» في بعض الآيات ﴿**الرحمن علم القرآن**﴾ إشارة إلى ما أودعه سبحانه في الأرواح الطيبة القدسية من العلوم الحقانية الإجمالية عند استوائه عز وجل على عرش الرحمانية ﴿**خلق الإنسان**﴾ الكامل الجامع ﴿**علمه البيان**﴾ وهو تفصيل تلك العلوم الإجمالية ﴿فإذا قرأناه فاتبع قرآنه ثم إن علينا بيانه﴾ [القيامة: ١٨، ١٩] ﴿**الشمس والقمر بحسبان**﴾ يشير إلى شمس النبوة وقمر الولاية الدائرتين في فلك وجود الإنسان بحساب التجليات ومراتب الاستعدادات، و ﴿**النجم**﴾ القوى السفلية ﴿**والشجر**﴾ الاستعدادات العلوية ﴿**يسجدان**﴾ يتذللان بين يديه تعالى عند الرجوع إليه سبحانه ﴿**والسماء**﴾ سماء القوى الإلهية القدسية ﴿**رفعها**﴾ فوق أرض البشرية ﴿**ووضع الميزان**﴾ القوة المميزة ﴿**أن لا تطغوا في الميزان**﴾ لا تتجاوزوا عند أخذ الحظوظ السفلية وإعطاء الحقوق العلوية.

وجوز أن يكون ﴿**الميزان**﴾ الشريعة المطهرة فإنها ميزان يعرف به الكامل من الناقص ﴿**والأرض**﴾ أرض البشرية ﴿**وضعها**﴾ بسطها وفرشها ﴿**للأنام**﴾ للقوى الإنسانية ﴿**فيها فاكهة**﴾ من فواكه معرفة الصفات الفعلية ﴿**والنخل ذات الأكمام**﴾ وهي الشجرة الإنسانية التي هي المظهر الأعظم وذات أطوار كل طور مستور بطور آخر ﴿**والحب**﴾ هو حب الحب المبذور في مزارع القلوب السليمة من الدغل ﴿**ذو العصف**﴾ أوراق المكاشفات ﴿**والريحان**﴾ ريحان المشاهدة ﴿**رب المشرقين ورب المغربين**﴾ رب مشرق شمس النبوة ومشرق قمر الولاية في العالم الجسماني ورب مغربهما في العالم الروحاني ﴿**مرج البحرين**﴾ بحر سماء القوى العلوية وبحر أرض القوى السفلية ﴿**يلتقيان بينهما برزخ**﴾ حاجز القلب ﴿**يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان**﴾ أنواع أنوار الأسرار ونيران الأشواق ﴿**وله الجوار المنشئات**﴾ سفن الخواطر المسخرة في بحر الإنسان ﴿**كل من عليها فان**﴾ ما شم رائحة الوجود ﴿**ويبقى وجه ربك**﴾ الجهة التي تليه سبحانه وهي شؤوناته عز وجل ﴿**ذو الجلال**﴾ أي الاستغناء التام عن جميع المظاهر ﴿**والإكرام**﴾ الفيض العام يفيض على القوابل حسبما استعدت له وسألته بلسان حالها، وإليه الاشارة بقوله تعالى: ﴿**يسأله من في السماوات والأرض**﴾ الخ، واستدل الشيخ الأكبر محيي الدين قدس سره بقوله سبحانه: ﴿**كل يوم هو في شان**﴾ على شرف التلون، وكذا استدل به على عدم بقاء الجوهر آنين، وعلى هذا الطراز ما قيل في الآيات بعد، وذكر بعض أهل العلم أن قوله تعالى: ﴿**فبأي آلاء ربكما تكذبان**﴾ قد ذكر إحدى وثلاثين مرة، ثمانية منها عقيب تعداد عجائب خلقه تعالى وذكر المبدأ والمعاد، وسبعة عقيب ذكر ما يشعر بالنار وأهوالها على عدد أبواب جهنم، وثمانية في وصف الجنتين الأوليين ومثلها في وصف الجنتين اللتين دونهما على عدد أبواب الجنة

فكأنه أشير بذلك إلى أن من اعتقد الثمانية الأولى وعمل بموجبها استحق كلتا الجنتين من الله تعالى ووقاه جهنم ذات الأبواب السبعة؛ والله تعالى أعلم بإشارات كتابه وحقائق خطابه ودقائق كلامه التي لا تحيط بها الأفهام وتبارك اسم ربك ذو الجلال والإكرام.